الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (نسخة محققة)
المؤلف : أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس
القرن : الثالث عشر
الناشر : الدكتور : حسن عباس زكي
مكان الطبع : القاهرة
سنة الطبع : ١٤١٩ ه
تحقيق : أحمد عبد الله قرشي رسلان
عدد الأجزاء / ٦
[ترقيم الشاملة من أول الكتاب وحتى نهاية الجزء الخامس موافق للمطبوع ومذيل بالحواشي وأما من أول سورة الرحمن وحتى آخر سورة الناس فالترقيم أسفل الصفحات }
****

تنبيه :
نظرا لعدم اكتمال هذه النسخة فقد تم الاعتماد من أول سورة الرحمن وحتى آخر سورة الناس على طبعة دار الكتب العلمية . بيروتذ
الطبعة الثانية / ٢٠٠٢ م . ١٤٢٣ ه
عدد الأجزاء / ٨

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥
[المجلد الأول]

مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ، وعلى آله وصحبه وأوليائه. وبعد ، ، ، فهذا كتاب «البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد» للإمام البارع ، والعالم المتقن ، شيخ الطريقين وعمدة الفريقين «أبى العباس أحمد بن عجيبة الحسنى المغربي» المتوفى فى عام ١٢٢٤ هـ.

وهو كتاب فريد فى بابه ، ولم ينسج أحد على منواله ، تشوف له أرباب القلوب والأحوال طويلا ، سلك فيه صاحبه مسلك العلماء الراسخين فى تفاسيرهم ، وزاد عليهم بما يذكره من معان إشارية دقيقة ، استشفها من آيات القرآن ، الذي لا تنقضى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد.

حفل هذا التفسير بالأحاديث والآثار ، وتناول القراءات القرآنية وتوجيهها ، واشتمل على مسائل الفقه والأصول ، وجمع الكثير من القضايا اللغوية واللطائف الأدبية. وتميز بحسن الترتيب ، وحلاوة العبارة ، ودقة التصوير ، وسهولة الأسلوب.

ومن أهم ما يميز هذا التفسير هو هذه المعاني الإشارية ، التي بسط المفسر الحديث فيها عن آداب السلوك ، والمقامات كالإخلاص ، والصدق ، والصبر ، والورع ، والزهد ، والرضا ، والتوكل ، والشكر ، والحب ، والكشف ، والإلهام ، والكرامات ... وغير ذلك مما يطول ذكره ، وقدّم لنا ابن عجيبة من خلال هذه الإشارات منهجا تربويا صوفيا إسلاميا متكاملا ، يسلكه من أراد أن تصفو روحه وتزكو نفسه ويحيا قلبه ، ويحظى بنور معرفة الحق تعالى.

وعلى الجملة فنحن أمام موسوعة قرآنية تفسيرية صوفية كبيرة وقيّمة ، تعد دليلا واضحا للحائرين ، ومنهجا كريما للسالكين.

ولا غرابة فى ذلك ، فابن عجيبة عالم تضلع من علوم الشريعة واللغة ، ورسخت قدمه فيها ، وخاض فى علوم التصوف ذوقا وحالا ومقاما ، وصحب أهل الأذواق والقلوب ، وسلك مسلكهم ، حتى انجلت عين بصيرته ، وتفجرت ينابيع الحكمة فى قلبه ، وكان له فى هذا المقام مدد واسع وفيض لا ينقطع.

ولأهمية هذا الكتاب ، وتفرده فى بابه ، فقد توفرت على استخراجه من أصوله ، وتحقيقه تحقيقا علميا ، وإظهاره فى صورة تكشف روائعه وتبرز كنوزه ، ومكثت فى هذا العمل خمس سنوات ، مواصلا الليل والنهار ، كنت سعيدا خلالها بما حبانى اللّه من شغل فى هذا العمل الشريف ، رغم أن التحقيق عمل شاق جدا ، ولا يعرف ذلك إلا من مارسه وقام به. والواقع أن كل جهد يبذل فى خدمة هذا التفسير يهون بالنسبة لقيمته العظيمة.

فالحمد لله الذي يسر وأعان على إتمام هذا العمل وإخراجه فى هذه الصورة الطيبة ، وأرجو اللّه جلت

قدرته أن يجعل جزائى عنده على ما بذلت من جهد فيه ، جزاء من بذل الوسع وأفرغ الطاقة ، ولم يدخر شيئا كان فى مكنته أن يبذله ، إنه سبحانه ولى الجزاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ومن أوجب الواجبات علىّ أن أشكر هنا هذه المأثرة ، التي تفضل بإسدائها فرع الدوحة النبوية ، الأستاذ الدكتور/ حسن عباس زكى ، وزير الاقتصاد الأسبق ، والداعية الإسلامى الكبير ، والعلم الصوفي الشهير. فقد تفضل – حفظه الله – بتحمل نفقات طبع هذا الكتاب ، كدأبه فى سائر المشروعات العلمية ، حرصا من سعادته على العلم ، ورغبة فى نشر الآثار الدينية القيمة ، وغيرة على ذخائر العلماء من أن تأتى عليها يد الضياع أو الإهمال. شكر اللّه له ، وكتب له هذه اليد الكريمة فى سجل الباقيات الصالحات – آمين.

وأثنّى بشكر عظيم وتقدير صادق لكل من قدّم لى عونا ومساعدة ، وأخص بالذكر أستاذى الكبير والعالم القرآنى ، الأستاذ الدكتور/ جودة محمد المهدى ، عميد كلية القرآن الكريم» فقد لازم العمل من بدايته حتى نهايته ، بكل ما عرف عنه من النشاط والدأب وتحرى الدقة ، وكذلك أستاذى الكريم ، الأستاذ الدكتور/ على جمعه ، أستاذ أصول الفقه بجامعة الأزهر ، فقد كانت له نظرات واعية فى التقويم والتوجيه ، كما ذلل اللّه على يديه كثيرا من الصعاب ، متّع اللّه الأمة بهذين الرجلين العلّامتين العارفين البركتين ، وجزاهما اللّه عن العلم وأهله خير الجزاء.

كما أرفع أسمى آيات الشكر والتقدير لوالدى ، السيد الشريف ، والعالم العارف ، الأستاذ الشيخ/ عبد اللّه القرشي ، لقاء ما أسدى من نصح وبذل من توجيهات ، وما عملى فى هذا الكتاب إلا أثر من آثار فضله وعلمه منحه اللّه العافية ورضى عنه. كما أشكر الأخ الكريم الدكتور/ عثمان رسلان ، على ما بذله من جهد ، وما أبداه من ملاحظات وإشارات ، فبارك اللّه فيه وأثابه.

وبعد فإننى أقدم هذا الكنز الثمين ، داعيا اللّه العلى القدير أن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به.

ربّ إنى أبرأ إليك من الحول إلا بك ، وأسألك المزيد من فضلك ومعونتك ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، ، ، أحمد عبد الله القرشي رسلان

(٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور/ حسن عباس زكى نحمدك اللهم ، فاتح كنوز الغيب للصفوة من عبادك ، مانح

فيض علمك للخلاصة من خلقك ، فاستودعت قلوبهم خفيّ سرك ، وأشهدت أرواحهم حقيقة أمرك ، فكانوا أعرف عبادك بمضمرات إشاراتك ، وأفهمهم لمعانى كلامك ، فإن نطقوا فهم تراجمة لوحيك ، وإن عبّروا فهم ألسنتك تخبر بمرادك ، وإن فاهوا فإنما يفصحون عن بديع حكمك. أعززتهم بما توجتهم من العلم والعرفان ، فعزّوا على الناس بما خصوا به من أسرار معجم القرآن ، وحلّهم لطلاسم ورموز الفرقان.

ولمّا لم يسعف العقل بعض الناس بفهم تلك الإشارات ، ولم يحيطوا بإدراك تلك المذاقات ، أنكروا مقالهم ، وجحدوا حالهم ، وغاب عنهم اختصاصهم ، وفاتهم أن الحق هو المتكلم فيهم ، وأنهم مشيرون به ، أو هو المشير بهم ، «فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنّه» «١» ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ «٢».

ونصلى ونسلم عليك يا عين الحقائق ، ويا قرآن جمع العلم والمعلوم ، ويا فرقان الشرائع والعلوم ، أنزل عليك ربك كتابا فى عالم الظهور ، أنت سره وحقيقته ، فكنت تعاجل جبريل به قبل النزول ، كتابا منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب ، يفهمها الخصوص والعموم ، وأخر متشابهات ، يختص بفهمها أولو العلم الراسخون. صلى الله عليك وعلى آلك وأحبابك مشارق شموس العرفان ، ومطالع كواكب الحقائق. المتبرءون من الأوهام والظنون ، ما كرّت الأيام ومرت الدهور والسنون.

(أما بعد) : فإن القرآن كلام الله ، وكلام الله صفته النفسية ، والصفة تدل دلالة واضحة على الموصوف ، وكما أن الموصوف - وهو الحق سبحانه - لا تدرك حقيقته فكذلك صفته .. لهذا وقفنا أمام كلام الله حائرين ، لا نجزم بتحديد مراميه ، ولا نقطع بأن ذلك التفسير عين مراد الحق منه لأن كلام الله القديم ، إنما يفسره المفسرون بلغتنا

---

(١) الحديث أخرجه بطوله البخاري فى (الرقاق ، باب التواضع) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٢) من الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.

العربية المحدثة ، بناء على مدركات عقولهم البشرية. واللغة العربية من صنع المخلوق ، وكلام المخلوق محدود لأنه يعبّر عن محدود ، ومحال أن يحيط بالتعبير صنع المخلوق المحدود عن كلام اللّه وصفته

، التي لا تحدها الحدود.

وإذا كان أساطين اللغة والأدب يرون أن اللغة العربية على كثرة مترادفاتها ، وضخامة معاجمها ، وغزارة ما تحتويه من ألفاظ ، واحتشاد تراثها بالمجازات والكنايات ، عاجزة عن التعبير عن مشاعر الإنسان وأحاسيس البشر ، فإنها – والقياس غير جائز – لعن تحديد المراد من كلام اللّه وقرآنه أعيى وأعجز.

ومن هنا كان القرآن حمالا لوجوه عدة من المعاني ، وكان أمرا طبيعيا ما يتجدد فيه كل يوم من فهوم ، وستظل تلك المعاني تتجدد إلى ما شاء اللّه ، وسيبقى القرآن معها كما هو ، لا تبلى جدته ، ولا يكشف عن حقيقة مراده.

وليس غريبا بعد ذلك أن يذهب المسلمون مذاهب شتى فى تأويله ، فالمفسرون من علماء الشريعة يقفون عند ظاهر اللفظ ، وما دل عليه الكلام من الأمر والنهي ، والقصص والأخبار ، والتوحيد وغير ذلك. وأهل التحقيق ، أو الصوفية ، يقرون تفسيرهم هذا ، ويرونه الأصل الذي نزل فيه القرآن. ولكن لهم فى كلام اللّه – مع الأخذ بهذا التفسير الظاهري – مذاقات لا يمكنهم إغفالها لأنها بمثابة واردات ، أو هواتف من الحق لهم.

فلا ينبغى أن نقف القرآن على تفسير معين على أنه المراد ، فلا نقول كما يقول البعض : إن التفسير الظاهري وحده هو المقصود ، كما لا يرى أهل التحقيق أن تفسيرهم وحده هو المراد ، لأن القول بالتفسير الظاهري وحسب ، تحديد (لكلام اللّه) غير المحدود ، وإخضاع القرآن للغة التي مقياسها العقل المحدود ، والوقوف فى تفسير كلام اللّه عند العقل المحدود عقال عن الانطلاق فيما وراء الغيوب ، وإغلاق الباب لمذاقات ليس العقل مجالها ، لأنها لا تخضع لمقاييسه وإنما تخضع لشيء آخر فوقه ، وتدرك بلطيفة أخرى سواه.

إذن فهناك ما فوق العقل ، ألا وهو القلب.

وليس المقصود بالقلب قطعة اللحم الصنوبرية ، وإنما المراد به تلك اللطيفة النورانية الربانية.

إنه القلب الذي لا تحده الحدود ، لأنه عرش استواء تجليات الرب على مملكة الجسم. قال رب العزة فى حديثه القدسي : «ما وسعني سمائى ولا أرضى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن» «١» وهو القلب الذي اختصه الله

---

(١) أخرجه الديلمي (الفردوس ٣/ ١٧٤ ح ٤٤٦٦) من حديث أنس بن مالك ، بلفظ : «لا يسعنى شيء ، ووسعني قلب عبدى المؤمن اللين ...» الحديث ، وانظر : إتحاف السادة المتقين ، للزبيدى (٧/ ٢٣٤) وكشف الخفاء للعجلونى : (٢/ ١٩٥ ح ٢٢٥٧).

بالأسرار ، والذي يجب أن يستفتيه الإنسان إذا حار. سأل وابصة بن معبد رسول الله صلى اللّه عليه وسلّم عن البر والإثم ، فقال :
«يا وابصة استفت قلبلك ، البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك» «١».
ذلك هو القلب المراد ، وله لغته ، كما أن للعقل لغته. وإذا كانت لغة العقل تدرك بالألفاظ ، ويعبّر عنها بالكلمات ، فلغة القلب تدرك بالذوق لأنه لا يحيط بالتعبير عنها اللفظ. ولنقرب إلى الفهم فلغة القلب مثل التفاحة .. فلن يستطيع من أكلها وأحس حلاوتها أن يترجم باللفظ أو يعبّر بالوصف لمن لم يأكلها قبل عن طعمها ومذاقها. وهكذا لا تدرك لغة القلب بوصف أو بلفظ ، وإنما يدركها ذو قلب متذوق.
ولذلك لا تحيط بالتعبير عن لغة القلب العبارة ، وإنما يعبّر عنها بالإشارة. فالإشارة ترجمان لما يقع فى القلوب من تجليات ومشاهدات ، وتلويح لما يفيض به الله على صفوته وأحبابه ، من أسرار فى كلام الله وكلام رسوله.
ومن هنا كانت مذاقات الصوفية وأهل التحقيق فى قرآن الله الكريم وكلامه القديم .. وهم لا يرون أن تلك المذاقات وحدها هى المرادة ، وإنما يأخذونها إشارات من الله لهم ، بعد إقرار ما قاله أهل الظاهر من تفسير باعتباره أصل التشريع.
وجلى بعد ذلك أنه لا مجال لمعترض ممن ينكر عليهم مذاقاتهم ، ويراها ميلا بكلام الله عن مجراه ، ماداموا لا يأخذون بمذاقاتهم وحدها ، وإنما يأخذون بها مع إقرارهم لتفسير أهل الشرع. فلا يعنينا من ذى جدل أن يقول عن هذه الإشارات : إنها إحالة لكلام الله عز وجل ، وتغيير لسياقه ومجراه لأن ذلك يصدق لو قالوا : إنه لا معنى للآية إلا هذا ، وهم لا يقولون ذلك ، بل يقرون الظواهر على ظواهرها ، ويفهمون عن اللّه ما أفهمهم.
وذلك مصداق الحديث الشريف : «لكل آية ظاهر وباطن وحدّ ومطلّع» «٢» فالباطن لا يعارض الظاهر ، والظاهر لا يعارض الباطن ... وذلك النهج بعيد كل البعد عما نادى به (الباطنية) من الأخذ بباطن القرآن لا ظاهره ، وقصرهم معانى القرآن على ما ادعوه من تفسيراتهم دون غيره ، لأنهم بذلك لا يقرون الشريعة ويبطلون العمل بها. وهم لا يخضعون دعواهم للنص القرآنى ، بل يخضعون النص القرآنى لدعواهم.
وهنا يزول ما التبس على البعض من أن مذاقات الصوفية فى القرآن الكريم نزعة باطنية ، فبينهم وبينها آماد وأبعاد ، بل إنهم لبريئون منها ، وينكرونها كل الإنكار ، وواضح ذلك من أنهم يأخذون بالباطن بعد الأخذ بالظاهر ،

---

(١) أخرج حديث وابصة ، الإمام أحمد فى المسند (٤/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه الطبري فى تفسيره (١/ ٢٢) وابن حبان (الإحسان ١/ ١٤٦ ح ٧٥) والبزار (كشف الأستار ، باب كم أنزل القرآن فى حرف ٣/ ٩٠ ح ١٣١٢) من حديث عبد اللّه بن مسعود. وعزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٢٧٢٧) للطبراني فى الكبير.
وأخرجه البغوي فى شرح السنة (ح ١٢٢) عن الحسن البصري مرسلا.

ويقرون الحقيقة بعد الأخذ بالشريعة. ويرون أن الحقيقة نفسها أساسها الشريعة ، فالفرق ثمة كبير ، والبون شاسع وعظيم.
ولا مجال بعد هذا الإيضاح لإنكار من ينكر على الصوفية مذهبهم فى الإشارات ، وما يختصهم الله به فى كلامه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسرار والفيوضات.
على أن تلك الإشارات أمر مشروع ، أقره الحديث المذكور آنفا : «لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع» ، فأربابها متبعون لا مبتدعون ، اختصهم الله بأسراره فى آياته ، ليكونوا مصابيح الهدى فى غسق الدجى ، كما أقره عمد الدين ، وذوو العلم من المؤلفين.
قال سعد الدين فى شرح العقائد النسفية : «وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك فهى إشارات خفية إلى حقائق تنكشف لأرباب السلوك ، يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان». وقال الشيخ زروق رضى الله تعالى عنه : «نظر الصوفي أخص من نظر المفسر وصاحب فقه الحديث ، لأن كلا منهما يعتبر الحكم والمعنى ، ليس إلا ، وهو يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتاه».
فإذا دار المفسرون فى حدود اللفظ القرآنى ، واستنبط منه الفقهاء ما استنبطوا من أحكام ، فلأولى الألباب وذوى البصائر فيه بعد ذلك من الأسرار والحقائق ، ما لا ينكشف لسواهم ، ولا يدركه غيرهم.
وذلك لتجدد واردات الحق عليهم ، ودوام تنزل الفيوضات على قلوبهم ، لأنهم أهله ومحبوه.
ثم إن فيض الله المتجدد فى كلامه لهم لمما يزيد فى كمال إعجاز القرآن ، ويؤكد أن إعجازه أسمى من أن يكون فى فصاحة لفظه ، وقوة أسره ، وبلاغة أسلوبه ، وإنما إعجازه فوق ذلك فى أسراره ومعانيه ، ومراده ومراميه. وأهل الله أولى الناس بتفهم مراده ومعرفة مرامى كلامه ، ومن ثمّ كان ما ينكشف لهم فى كلام الله من أسرار بمثابة إشارات لهم - وحدهم لأن الإشارة لغة المحب مع المحبوب ، والإشارة بعد ذلك تلويح للمراد ، لا إفصاح عنه ، لعدم قدرة الألفاظ على تحمل المراد؟ لأن العبارة تحدد ما يشيرون إليه ، وما يشيرون إليه إنما يكون عن مشاهدة. وما يشاهدونه ليس بمحدود إذ هو من عالم

الغيوب ، فلا اللفظ قادر على تحديد المراد ، ولا قابليات العقول تطيق ذلك. ومن ثمّ سميت مذاقاتهم فى القرآن إشارات ، ولم تسم تفسيرا.

وقد تحلى القرآن الكريم بمثل تلك الإشارات من رموز الحواميم و«الم» و«طسم» ... إلخ ، وهى إشارات بين الحق ورسوله ، أو «شفرات» - بالتعبير الحديث - بين المحبوب وحبيبه ، ولا يعرف حلها إلا من لديه مفتاحها.

ومفتاح تلك «الشفرات» وفهم تلك الإشارات فى حوزة من لديه الفهم لمراد المشير ، وهم - بعد الرسول صلى اللّه عليه وسلّم - ورثته

من العلماء باللّه وأوليائه. نقل عن الصالحين أن اللّه تعالى لمّا أنزل على سيد العالمين صلى اللّه عليه وسلّم قوله تعالى : (كهيعص) قال جبريل عليه السّلام : (ك) قال النبي - اللهم صلى عليه - : عرفت قال جبريل عليه السّلام : (ه) ، قال : - اللهم صلى عليه وآله - عرفت ، قال جبريل : (ى) ، قال : عرفت ، قال : جبريل : (ع) قال : عرفت ، قال جبريل : (ص) ، قال النبي :

عرفت ، قال جبريل : عرفت وأنا لم أعرف ، سبحان من أعطاك. ومن هنا فهم أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه وحده مقالة الرسول - عليه الصلاة والسلام - حين نظر إليه ، وقال : (أتذكر يوم لا يوم)؟ فقال نعم ، ولم يفهمها غيره من الصحابة الحاضرين. ولما سئل الصديق رضى اللّه عنه عن ذلك ، قال : «إنه يوم الميثاق».

ولا عجب فيما ينكشف لأرباب الإشارات من فيوض فى قرآن الله ، أو حديث رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، فمازال المفسرون يتجدد لهم فى كلام الله كل يوم معان لم تسبق ، لا ينكرها الناس ، بل إليها يستريحون ، ففيم الإنكار على أرباب الإشارات ، وهم عن الله مشاهدون ، ولهم منازلات ومقامات ، فيتكلمون بما يشاهدون فى منازلاتهم ، وينطقون عما يرون فى مقاماتهم؟

أجل : معذور من ينكر عليهم ، لأنه لم يذق ما ذاقوا ، فلو ذاق لعرف ، وينبغى ألا يغيب عنه أن تلك الإشارات بمثابة اصطلاح يفهمه أهل التحقيق ، ولا يجدر أن يعارضهم فى اصطلاحهم اصطلاح جماعة أخرى مادام لكلّ اصطلاحه.

فالحق أن كلام الله نور يرسل إلى القلوب ، وهى أوعية يتلون ذلك النور بلونها .. وكلّ يرسل بتفسيره شعاعا حسب استعداده وقابليته وما استودع فيه.

على أن أهل التحقيق لا يدعون أنه محال على غيرهم ما يفاض به عليهم ، ولكنهم يعتقدون أن كل

إنسان لديه الاستعداد لما عندهم ، غير أنهم فتحوا عيون قلوبهم ، فاطلعوا على ما اطلعوا من أسرار ، وغيرهم فتحوا نوافذ تفكيرهم فوقعوا فى الحيرة والوهم ، وقاسوا بعقولهم مذاقات تلك القلوب فأنكروها ، ولو أن عيون قلوبهم كأهل الله ، لكان ما استغربوه أمرا عاديا ، بل لاعتقدوا اعتقادا جازما ما أنكروه.

فليع كلّ ذى لب قدر هؤلاء الصفوة من أهل التحقيق ، وليدرك أنهم ملهمون إن نطقوا فلا ينطقون بأنفسهم ، وإن أشاروا فمحرّك الإشارة فيهم مولاهم. وارجع إلى الصدر الأول من عصر المسلمين الزاهر ، تجد أن من أئمة هؤلاء الملهمين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والذي قال فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «إن من أمتى مكلمين ومحدثين ، وإن عمر منهم».

ومنهم الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، الذي أشار إلى صدره بعد أن تأوه مرتين ، ثم قال : «إن هاهنا علوما جمة .. لو وجدت لها حملة!!». ويروى عنه أنه قال : (لو شئت لأوقرت من تفسير الفاتحة سبعين بعيرا) ، أولئك هم

علماء الله بحق ، الذين عناهم رسول الله صلى اللّه عليه وسلّم بقوله : «إن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى ، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله عز وجل».

ذلك نذر يسير مما عليه أهل الإشارات من مكانة ، وقدر ضئيل مما شرفهم الله به من منزلة. ونستطيع بعد ذلك أن نعرض من مميزات وخصائص علم الإشارات ما يأتى :

١ - علم الإشارات لا ينظر إلى قصص الأنبياء فى القرآن الكريم على أنها قصص انتهت بانتهاء أممهم ، وأن تلاوتها الآن للعظة والاعتبار ، فحسب ، وإنما يرون مع ذلك أن الخطاب بها مازال قائما ، يوجه إلى الإنسان فى كل عصر وأوان ، باعتباره مملكة الله الصغرى ، التي انطوى فيها العالم كله ، فمثلا يرمزون لموسى بالقلب أو الروح ، وإلى فرعون بالنفس.

وبذلك يكون القرآن فى حالة تجدد نزول ، لم ينته الخطاب بانتهاء زمانه ، باعتباره كلام الله وصفته القائمة بذاته ، وتظل بذلك صفة الكلام قائمة غير معطلة ، لم تنته بنزول الكتب السماوية ، فمازال الحق سبحانه متكلما أبدا.

٢ - علم الإشارات يكشف عن صدق أهله مع ربهم ، وأمانتهم عند الحديث عن كلامه ، فكل ما قاله القرآن وما تناولته ألفاظه من أداء ، هو فى مذهبهم حقيقة ، لا يعرفون مجازا ، ولا يلجئون إلى كناية ، لأنهم بما شاهدوا وذاقوا يدركون هذه الحقائق. ولمّا كانت تلك مواجيد وأذواق لا يمكن نقلها إلى الغير

بعبارة رمزوا لها وأشاروا ، ومن هنا أنكر عليهم من أنكر ، أمّا من شاهد مثلهم فقد عرف ما عرفوا ، بل ربما تجدد له من ذلك مشهد أو حقيقة أو مذاق.

وهكذا نرى أن أهل الله أمناء على كلامه دفعتهم غيرتهم على محبوبهم ، وعظيم احترامهم لجنابه ، وإكبارهم لكلامه ، ألا يميلوا عن منطوق ألفاظه إلى مجاز أو كناية ، خشية البعد عن مراده. ولم اللجوء إلى المجاز مادام للحقيقة عندهم مخلص؟ فهم لا يرون فى قوله سبحانه : وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ «١» أن السؤال لأهلها فحسب ، بتقدير مضاف ، كما قيل ، أي : واسأل أهل القرية ، وإنما السؤال للقرية بكل ما فيها ، ومن فيها ، ماداموا يشاهدون تسبيح الجماد ونطق الحيوان. واقرأ إن شئت قوله تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ «٢» وقوله : يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ «٣» وقوله فى حق السماء والأرض : قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ «٤» فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ «٥» إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث. وعلى ذلك فلا يكون سؤال القرية قاصرا على أهلها ، لأنه سؤال لما فيها ومن فيها. والمخاطب بذلك لو كانت لديه الخصوصية لخاطب القرية بكل ما تحتويه من كائنات.

---

(١) من الآية ٨٢ من سورة يوسف.

(٢) من الآية ٤٢ من سورة الإسراء.

(٣) من الآية ١٠ من سورة سبأ.

(٤) من الآية ١١ من سورة فصلت.

(٥) من الآية ٢٩ من سورة الدخان.

وثمة مثال ثان : فهم لا يعترفون بأن كلمة فى القرآن وضعت مكان كلمة أخرى أو بمعناها ففى قوله جل شأنه :

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ «١» لا يرون أن «عن» بمعنى «من» تمشيا مع إنابة حروف الجر بعضها عن بعض ، وإنما ينظرون إلى منطوق اللفظ نفسه ، وهو «عن ، » ففى اللغة تفيد معنى المجاوزة ، ويكون المراد – والله أعلم – : أن الحق يقبل التوبة متجاوزا عن عباده فى توبتهم لعدم خلوصها ، رحمة منه بهم ، وذلك المعنى لا شك أبلغ وأفصح.

على أن فى مذهب أهل الإشارات حلا لكل العقد ، وحسما للخلافات ، وزوالا للشبه والريب من مسائل الكسب والاكتساب ، والجبر والاختيار ، والنعيم والعذاب للجسم أو للروح .. إلخ.

كل هذا وغيره من خلافات أهل علم الكلام والعقائد لا ظل له عندهم ، لأنهم اطلعوا على سر الله فى أقضيته ومقدراته ، وتحققوا بذلك ، فاستراحوا ، وملأت قلوبهم السكينة ، وأفئدتهم الطمأنينة ، فاستشعروا فى حياتهم من السعادة ما لم يذقه غيرهم. ذلك لأنهم فتحوا عيون قلوبهم ، ولم يقيسوا بعقولهم ، لأن العقل مجاله محدود ، لا يكشف مهما كانت قدرته عما وراء الغيوب ، وإلا فبم يعلل العقل رؤية نبينا لموسى – عليهما الصلاة والسلام – مرتين فى قصة الإسراء والمعراج مرة ببيت المقدس ، وهو يصلى وراءه ، وأخرى فى السماء ، وهو يراجعه فى أمر الصلاة ، مع أن موسى لم يترك قبره ، ولم يفارق مثواه. والعقل يحار أيضا أمام حديث سجود الشمس تحت العرش كل يوم ، وأنها لا تطلع حتى يؤذن لها بالطلوع ، مع أنها لا تغيب عن الكون لحظة. وشبه ذلك كثير من الأمثلة.

هذا وفى سوق الواقعة الآتية ما يجعلك تلمس أن أهل التحقيق هم الذين يفهمون عن الله ورسوله ما لا يفهمه غيرهم ، وأنّ من رحمة الله بعباده أن يكونوا بينهم ، وإليك الواقعة :

اشتكى رجل مرضا حار فيه «نطس» الأطباء ، فرأى رسول الله صلى اللّه عليه وسلّم يرشده إلى أن يأخذ من ثمرة شجرة (لا ولا) ويستعملها ففيها شفاؤه. وحار الرجل فى تفسير رؤياه ، وحار معه فى حل رمزها علماء العصر ، حتى شاء الله له الخير ، فالتقى برجل من أهل التحقيق ، فأجابه على الفور : أمرك يسير ، علاجك فى شجرة الزيتون فهى التي يقول الله فيها : لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ «٢».

تلك – أيها القارئ – ومضة خاطفة من قبس أنوار أهل التحقيق ، ومكانتهم عند ربهم ، وجولة سريعة فى علم الإشارات ، ومذهب أهله ، عرضناها عليك. ألمعنا بها إليك كتمهيد للسفر الجليل والكنز الثمين الذي نحن بصدد الحديث عنه ، والذي ظل طىّ الكتمان ودفين النسيان ، حتى قيّض الله له باحثا أمينا ، له فى هذا العمل ، من الشباب القوة ، ومن الشيوخ الخبرة ، فأخرجه إلى النور ، وهيأه للنشر والظهور.

والآن يسعدنى أن أقدم للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها عامة ، ولذوى الألباب والبصائر خاصة ، ولكل باحث متصوف : تفسير القرآن ، للعالم والداعية الكبير «ابن عجيبة» وهو نموذج من نماذج فيوضات أهل التحقيق ،

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة الشورى.

(٢) من الآية ٣٥ من سورة النور.

ومذاق من مذاقات أولى الإشارات ، وأرباب السلوك ، وأصحاب الطريق. ففيه تذكير بأن ما عزب عن الأفهام دركه من أسرار التفاسير الصوفية الأخرى الدسمة ، لا يمسها بالعيب والطعن لقصور العقل عن النهوض باستشراق ما أطلع عليه أهلها من أسرار ، فكم من مذاقات تناولها بالعقل متناولوها فمسخوها ، ووصلوا بأهلها إلى الحلول والإلحاد ، وهم بعقائدهم النقية أبعد الناس عن ذلك ، ومن الجور الفادح أن نلبسهم بذلك ثياب الملحدين ، ونرميهم بالكفر أو الانحراف عن سواء السبيل.

ومن مميزات ذلك التفسير أنه يكشف عن مشارب القوم ، ونهج الصوفية فى استمدادهم من الحق تعالى ، فى كل ما يأتون من مواجيد ، فهو يدلّل خلال قراءته - فى وعى - على أن كل صغيرة وكبيرة من مفاهيم الصوفية لها أصل من القرآن أو سند من السنّة لأن قلوبهم مرايا صافية ، يسطع عليها نور الحق ، ومحال أن تعكس ما لا يرضى الحق. فليس الصوفية فى الواقع إلا روافد تستقى من ينبوع الشريعة ومعينها الطيب ، غاية الأمر أنهم ملهمون بتجلى اللّه عليهم فى كلامه ، بالجديد من أسرار ، وتجليات الله لا تتناهى. ووقف غيرهم عند المسطور المتوارث ، فداروا فى نطاقه ، ولم يتجاوزوا حدوده.

هذه نبذة عاجلة عن الكتاب وبعض مميزاته. أما عن المؤلف فقد تناول محقق التفسير ما فيه الكفاية والغنى عن البيان. وأبرز استعداده الفطري وحافظته الواعية ، وذكاءه النادر ، ما كان سبيلا إلى أن يحصل من دراسته الأدب والعلوم العقلية والنقلية ، دينية وغير دينية ، ما جعله كنزا للعلوم والآداب ، عدا موهبة سخية فى نظم الشعر ، وتذوق الأسلوب العربي ، وعقيدة نقية فى تمسكه بمذهب أهل السنة ، لم يشبها ما خاض فيه من علم الكلام وخلافات أهله.

فالمؤلف - رحمه اللّه كان مؤهلا أن يدرس الأسلوب القرآنى ، ويستخرج منه ما يستخرج من إشاراته.

والحق أن تلك الإشارات ليست وليدة دراسة العقول ، وإنما هى وليدة الإلهامات بعد فتح عيون القلوب. وفيما سبق من توضيح ذلك ما يغنى عن تكرار التبيان.

فإن كان لإمامنا ابن عجيبة ما سبق من شهرة علمية ودينية وأدبية ولغوية وعقيدية ، فذلك سمة من السمات الدالة على أن رجال الله يعدّهم قبل أن يختارهم لحضرته ، ليعزهم بعزته ، ويكونوا خلفاءه - بحق - فى أرضه ، يخاطبون كلّا حسب استعداده ، فتملأ هيبتهم كلّ فراغ ، ويكونون فرسان الحلبة فى كل ميدان ومجال.

على أن تلك الكنوز العلمية المكتسبة التي اشتهر بها إمامنا «ابن عجيبة» ليست شرطا فيمن يختارهم الله من رجاله ، فمن شاءه وليا ، وأراده له حبيبا علّمه من علمه اللدني ، حتى ولو كان أميا. وسيدى «عبد العزيز التباغ» صاحب الإبريز المشهور ، وسيدى «على الخواص» شيخ الإمام الشعراني وغيرهما من فحول الصوفية ، خير مثال لذلك ، وبذلك تصدق المقولة المشهورة : (ما اتخذ الله من ولى جاهل ، ولو اتخذه لعلمه).

والآن أعدك أيها القارئ الكريم لذلك الكتاب العظيم لتدرك بنفسك نفائسه ... وأختم حديثى تيمنا - بترديد الكلمة المباركة التي كانت أول خطاب من الله لرسوله - عليه الصلاة السلام - أول بعثته فأقول لك : اقْرَأْ.

د. حسن عباس زكى

(١٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٥

كلمة أ. د./ جودة محمد أبو اليزيد المهدى

عميد كلية القرآن الكريم بطنطا الحمد للّه الذي أنزل من حضرة ربوبيته على قلب أعظم رسله هذا القرآن العظيم ، هدى ونورا ، وجعله معجزة المعجزات ، وجامع حقائق حضرات الذات والصفات والأسماء والأفعال ، فسطرت فيه أسرار الوجود تسطيرا.

والصلاة والسلام على أكمل خلق اللّه ، سيدنا محمد ، الذي تجلى عليه مولاه باسم (الرحمن) ، فعلّمه القرآن ، وأرسله بالحق بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى اللّه بإذنه وسراجا منيرا. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وورثته القرآنيّين ، الذين أشربوا حب القرآن ، وتدبروا آياته ، وغاصوا فى بحار معانيه ، واستخرجوا جواهر حقائقه ، ودرر أسراره ، فنالوا فضلا كبيرا. رضى اللّه عنهم ، وسلك بنا مسلكهم ، وحشرنا فى زمرتهم ، ولقّانا بهم نضرة وسرورا.

أما بعد :

فقد أدرك الفقهون عن اللّه تعالى أن ذروة الفضل ، وذؤابة الشرف ، وجوهر السعادة فى التعلق بكتاب اللّه تعالى ، الذي هو حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وهو مأدبة اللّه تعالى ، ودستوره الخالد ، والمحيط الجامع لأنواع العلوم والمعارف ، والمنهاج الأعظم للتربية والتحقق ، ومن ثمّ تبتلت قلوبهم فى محراب التنزيل ، وعكفوا على تدبر آياته واستكناه أسراره لاستخلاص حقائق الوجود من مشكاة عرفانه.

لقد أذعنوا لقول الحق تعالى : ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ «١». ولقوله عز من قائل : وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ «٢». وأيقنوا بمقولة حبر الأمة ، سيدنا عبد اللّه بن عباس - رضى اللّه تعالى عنهما - :

«جمع اللّه فى هذا الكتاب علوم الأولين وعلوم الآخرين ، وعلم ما كان وعلم ما يكون ، والعلم بالخالق - جل جلاله - فى أمره وخلقه» «٣».

وقد تعددت وتنوعت منازع ومناهج المشتغلين بتفسير كتاب اللّه تعالى.

(١) سورة الأنعام/ ٣٨.

(٢) سورة النحل/ ٨٩. [.....]

(٣) انظر : جامع الأصول لابن الأثير : ٨/ ٤٦٤ : حديث رقم/ ٦٢٣٣.

فمنهم من توفرت هممهم على جمع المأثور فى تفسيره من السنة النبوية ، وأقوال السلف الصالح ، من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، دون إعمال للرأى ، أو مع إعماله بضوابطه. ومنهم من صرف وكده فى تفسيره إلى الجانب اللغوي ، فبرزت إلى الصعيد التفسيري مدارس التفسير اللغوي ، والنحوي ، والبلاغى ، والبياني بألوانها الشائعة المعطاءة. ومنهم من آثر المتجه الكلامى العقدى ، فحفل تفسيره بخوض عباب المباحث العقدية ، ونصرة مذهبه على المذاهب الأخرى ، فى شتى القضايا الكلامية ، فكانت موسوعات تفسيرية فى هذا الجانب. ومنهم من جنح فى تفسيره إلى الجانب الفقهي المذهبى ، فكان اللون المعروف بتفاسير الأحكام ، وكل منها فى مذهب بعينه ، وقد استخدمت فيه القواعد الأصولية. ومنهم من غلب عليه الطابع القصصى ، فتوسع فى الروايات والآثار فى معالجة قصص القرآن الكريم ، ما بين صحيح ودخيل.

وهكذا اتخذ المشتغلون بالتفسير طرائق قددا ، ومنازع شتى ، ومناهج متنوعة ، ما بين تحليلي ، وموضوعى ، ومقارن ، وتاريخى ، واستقرائى. وكلها حقق للمكتبة التفسيرية ثراء حافلا فى تناول كتاب اللّه الخاتم ، لم ينله ولم يدن منه فى تاريخ الوجود توفر على كتاب سواه ، وذاك من لوازم حقيّته ومصداقيته وإعجازه.

بيد أنه - مع كل ذلك - لا يبلغ البناء التفسيري كماله وتمام مصداقيته فى تحقيق وفاء معانى التنزيل بتفسير حقائق الوجود بأسرها إلا بإعمال المنهج الصوفي الإشارى فى التفسير ، وإحراز نتاج (علم الموهبة) الذي اعتده أساطين علوم القرآن الكريم وتفسيره علما أساسيا ومصدرا رئيسا للمفسر ، ضمن العلوم الخمسة عشر التي يحتاج إليها المفسر ، حيث ذكره الإمام السيوطي - رضى اللّه تعالى عنه - فى ختامها - بالإتقان - قائلا : (الخامس عشر :

علم الموهبة : وهو علم يورثه اللّه تعالى لمن عمل بما علم ، وإليه الإشارة بحديث «١» : «من عمل بما علم ورثه اللّه علم ما لم يعلم» - ثم قال : قال ابن أبى الدنيا : وعلوم القرآن وما يستنبط منه : بحر لا ساحل له.

قال : فهذه العلوم – التي كالآلة للمفسر – لا يكون مفسرا إلا بتحصيلها ، فمن فسر بدونها : كان مفسرا بالرأى المنهي عنه ، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسرا بالرأى المنهي عنه) «٢».

أجل : إن التفسير القرآنى بدون الوقوف على الجانب الإشارى ، الذي يسبر باطن العبارة القرآنية بالكشف الذوقى العرفانى ، ليفتقد تلك الثمرة اليانعة ، والروعة الرائعة ، التي يمتن بها الحق تعالى على أوليائه العارفين ، الذين طهرت قلوبهم وأرواحهم ، بعد إماتة نفوسهم بسيف الجهاد الأكبر ، فعلمهم الحق من لدنه علما ، وأتاح لطلاب

---

(١) أخرجه الحافظ أبو نعيم ، عن سيدنا أنس رضى اللّه عنه ، وخرّجه عنه العجلونى فى كشف الخفاء ص ٣٦٥.

(٢) الإمام الحافظ : سيدى جلال الدين السيوطي – رضى اللّه تعالى عنه : الإتقان فى علوم القرآن. بتحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم : (٤/ ١٨٨) ط/ المشهد الحسيني.

المعرفة وعشاق الحقيقة أن ينهلوا من رحيقه ، بالمثول فى رحابهم ، واقتطاف الأزاهير من بساتينهم ، فيكتمل المفاد التفسيري بإحراز التعرف إلى الباطن القرآنى – بالمفهوم السنّى لا الشيعي للباطن – إلى جانب معرفة الظاهر والحد والمطلع ، فتلك روافد العطاء المعرفى للقرآن الكريم ، كما بيّنها الرسول الأعظم صلى اللّه عليه وسلّم بقوله : «إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا» «١».

فالمراد بالظهر : ما يظهر من معانى التنزيل لأهل العلم بالظاهر. والمراد بالباطن : ما يتضمنه من الأسرار التي اطلع اللّه تعالى عليها أرباب الحقائق. فالبطن روح الألفاظ ، أي : الكلام المعتلى على المدارك الآلية بجواهر الروح القدسية. والحد : مراد به : أن لكل حرف من القرآن منتهى فيما أراده اللّه تعالى من معناه. والحد : إما بين الظهر والبطن ، وإما بين البطن والمطلع ، فيرتقى به من البطن إليه عند إدراك الرابطة بين الصفة والاسم ، واستهلاك صفة العبد تحت تجليات صفة المتكلم جل شأنه.

والمطّلع – بضم الميم وفتح الطاء المشددة واللام – : هو مكان الاطلاع من الكلام النفسي إلى الاسم المتكلم ، المشار إليه بقول الصادق : «لقد تجلى اللّه تعالى فى كتابه لعباده ولكن لا يبصرون» ومن ثمّ فالمطلع : ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام «٢». جعلنا اللّه تعالى من أهل ذاك المقام ، بجاه سيد الأنام ، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وهكذا نجد أن السنة النبوية الشريفة – بحديث : «إن للقرآن ظهرا وبطنا» ونظائره «٣» – تعاضد

القرآن العظيم فى تأصيل التفسير الفيضي ، أو الإشارى فى نحو قوله تعالى : أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها «٤» وقوله سبحانه : فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً «٥» ، ففيهما الإشارة الثاقبة إلى التفسير الإشارى. ومن ثمّ روى عن باب مدينة العلم. سيدنا على كرم اللّه وجهه أنه قال : «لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من فاتحة الكتاب» وقال : «من فهم القرآن فسر به جمل العلم» «٦».

ولتجسّد أصالة التفسير الصوفي الإشارى وحتمية وجوده لتجلية حقائق القرآن المستنبطة منه بفهم أهل اللّه تعالى : فقد اعتد أساطين علماء التنزيل به ، وضمنوه تفاسيرهم ، ووضعوا له التعريف العلمي بضوابطه التي تخرج عنه ما يلتبس به عند غير ذوى العلم ، مما يعرف بالتفسير الباطني الذي يقصر دلالة النص القرآنى على تأويلات الباطنية من الشيعة المنحرفة ، فهذا لا علاقة له بالتفسير الصوفي على الحقيقة.

من ثمّ عرف التفسير الصوفي الفيضي الإشارى بأنه : تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية ، تظهر لأهل السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة «٧».

---

(١) أخرجه ابن حبان ، فى صحيحه ، عن سيدنا عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه ، وأخرجه عنه الحافظ العراقي فى (المغني عن حمل الأسفار. بتحقيق ما فى الإحياء من الأخبار) بحاشية الإحياء (١/ ٨٨).

(٢) انظر روح المعاني لشيخنا الإمام الآلوسى النقشبندي ، عليه رضوان اللّه تعالى (١/ ٧).

(٣) من نظائر هذا الحديث الشريف : ما أخرجه الديلمي عن سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضى اللّه عنه مرفوعا إلى النبي صلى اللّه عليه وسلّم أنه قال :

(القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد).

(٤) سورة (محمد) صلى اللّه عليه وسلّم : الآية/ ٢٤.

(٥) سورة النساء/ ٧٨.

(٦) انظر إحياء علوم الدين ، للإمام الغزالي رضى اللّه عنه ، (١/ ٢٦٠) ط/ العثمانية.

(٧) انظر - مع الإتقان للإمام السيوطي ٤/ ١٩٨ - : التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي ٣/ ١٨.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٨

وعلى ذلك : فقد اعتمد علماء القرآن الكريم التفسير الصوفي الإشارى بشروط أربعة لقبوله :

أولها : عدم منافاته لمقتضى اللغة ولظاهر النظم القرآنى الكريم.

وثانيها : أن يكون له شاهد شرعى يؤيده من الكتاب أو السنّة أو سائر الأصول المعتمدة.

وثالثها : ألّا يكون له معارض شرعى قطعى.

ورابعها : ألّا يدعى أن هذا التفسير الإشارى هو وحده المراد دون الظاهر ، بل لا بد من إقرار التفسير العبارى الظاهر أولا ثم الأخذ بالمعنى الإشارى «١».

هذا : ومن المفسرين الأعلام من جرد همته للتفسير الظاهر -كالزمخشرى مثلا - ولم يعن بالتفسير الإشارى ، وليس كذلك البيضاوي ، خلافا لما ذكره الدكتور الذهبي ، حيث قرنه بالزمخشرى فى الاقتصار على الظاهر. وقد حققنا الاتجاه الصوفي عند القاضي البيضاوي فى بحث مستقل «٢».

ومن أعلام المفسرين من صرف جل وكده للتفسير الظاهر ، مع تعرضه للجانب الإشارى بقدر ، كما نراه فى تفاسير الإمام الفخر الرازي والإمامين النيسابورى والآلوسى - رضى اللّه تعالى عنهم أجمعين.

ومنهم من غلب عليه الطابع الإشارى ، ولم يحفل بالتفسير إلا قليلا ، كالإمام سهل بن عبد اللّه التستري (ت سنة ٢٠٠ ه) رضى اللّه تعالى عنه ، وتفسيره وجيز جليل القدر.

ومنهم من اقتصر على الجانب الإشارى تماما كالإمام أبى عبد الرحمن السلمى (ت ٤١٢ ه) - رضوان اللّه عليه - فى كتابه : (حقائق التفسير).

ومنهم من جمع بين التفسير الظاهر وبين التفسير الإشارى ، فى توازن بينهما ، وإشباع علمى فى كلا الجانبين ، فجاء تفسيره متكاملا بالجواهر والدرر ، كالعلامة إسماعيل حقى الإسلامبولى الحنفي (ت ١١٣٧ ه) رضى اللّه عنه فى تفسيره (روح البيان) ، وكالإمام العلامة العارف باللّه تعالى الشيخ أحمد بن عجيبة الحسنى (١١٦٠ - ١٢٢٤ ه) رضى اللّه عنه صاحب هذا التفسير الفريد المسمى (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) ، وهو الذي نقدم له بهذه السطور ، فقد جاء هذا التفسير آية رائعة فى التفسير القرآنى ، الجامع بين تفسير أهل الظاهر بمعطياته وملكاته وأدواته ، وإشارة أهل الباطن - بالمدلول السنّى للباطن - مستوفيا ضوابطه وشروطه ، حافلا بأزهاره وثماره ، حتى إنه ليعد موسوعة قرآنية فى الحقائق وعلم السلوك.

وأسأل اللّه - عز وجل - أن يتقبل هذا العمل ، وأن يحشرنا به فى زمرة أهل القرآن الذين هم أهل اللّه وخاصته.

وصلى اللّه تعالى على أعظم رسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أ. د. جودة محمد أبو اليزيد المهدى عميد كلية القرآن الكريم بطنطا وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

---

(١) انظر : المرجع الأخير مع زيادة تحرير فى العبارة : ٣/ ٤٣.
(٢) حوليه كلية أصول الدين والدعوة الاسلامية بطنطا : العدد الثالث سنة ١٤١٢ ه سنة ١٩٩١ م ص ٧ - ٥٧.

ترجمة الإمام ابن عجيبة «١»

اسمه :

هو الإمام العلامة المفسر «أحمد بن محمد بن المهدى بن الحسين بن محمد» المعروف بابن عجيبة ، والمكنى بأبى عباس ، الحسنى نسبا ، التطوانى دارا ، الفاسى تعلما ، المالكي مذهبا ، الشاذلى طريقة ، أعجوبة زمانه ، وعديم النظير فى أمثاله ، مؤلف التآليف العديدة ، ومفيد العلوم المفيدة. العالم العلامة ، والصوفي الفهامة ، والعارف المحقق ، الشيخ الكامل الجليل ، الشريف البركة.

مولده

ولد الإمام ابن عجيبة فى قرية (أعجبيش) ، من قبيلة (أنجرة) ، التي تسكن الجبال المحيطة بمدينة تطوان «٢» ، الواقعة فى أقصى شمال المغرب ، على مسافة عشرة كيلومترات ، من ساحل البحر الأبيض المتوسط. وكان مولده رحمه الله ، حسبما أورد فى فهرسته - سنة ستين أو إحدى وستين ومائة وألف هجرية «٣» ولا خلاف بين المصادر الأخرى التي أوردت تاريخ ولادته ، وإن كانت قد اقتصرت على ذكر إحدى السنتين. ويرجع عدم جزم شيخنا بإحدى السنتين إلى أن مولده لم يؤرخ بالسنين ، بل أرخ بحادث حصار (المستضيء بن إسماعيل) لتطوان ، وكان ذلك بين سنتى ستين وإحدى وستين «٤».

أسرته : ولد الشيخ من أبوين صالحين ، كلاهما من آل بيت النبوة ، يرجع نسبهما إلى الإمام الحسن بن على رضى الله عنه والسيدة فاطمة - رضى الله عنها - بنت سيد الكونين ، وصخرة العالمين ، حبيب الرحمن ، من قدمه فوق رؤوسنا شرف لنا ، ومن إذا انتسب إليه أحد نسبا فاز بالمنى.
والمستطلع لتاريخ آبائه يدرك صلاحهم وتقواهم ، ومدى ما كانوا عليه من خشية للّه وشرف هاشمى.
فجد جده «عبد الله بن عجيبة» ولى مشهور ، وقبره مزار بقبيلة أنجرة ، كما أن جد والده «الحسين الحجوجى» صاحب كرامات عديدة ومآثر حميدة ، أما جده «المهدى» فكان كما يقول شيخنا : ((رجلا صالحا صموتا خلويا - أي :
يحب الخلوة - مغفلا عن أمور الدنيا ، ولا نجده إلا وحده ، تاليا ، أو مصليا ، أو مشتغلا بما يعنيه)

«٥» وأبوه

---

(١) أخذت ترجمة الشيخ ابن عجيبة عن (العسكري ، مخطوط طبقات أصحاب الدرقاوى) ورقة ١٤٢ وما بعدها ، عبد القادر الكوهن مخطوط : (إمداد ذوى الاستعداد) ورقة ٢٠ ، مخلوف : شجرة النور الزكية ص ٤٠٠ ، الأزهرى اليواقيت الثمنية ج ١/ ص ٧٠ ، الكتاني : فهرس الفهارس ج ٢/ ص ٨٥٤ ، الحسن الكوهن : طبقات الشاذلية ص ١٦٤ وما بعدها ، سركيس : معجم المطبوعات ١/ ١٦٩ الزركلى : الأعلام ج ١/ ص ٢٤٥ ، رضا كحالة : معجم المؤلفين ١/ ٦٣ ، تيمور : فهرس التيمورية ٣/ ١٩٧ ، د/ درنيقة :

الطريقة الشاذلية وأعلامها/ ٩٢ - ٩٤ وذلك فضلا عن الفهرسة للشيخ المفسر.

(٢) عبد المجيد الصغير ، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي ١/ ١٢٦. [.....]

(٣) ابن عجيبة : الفهرسة ص ١٦.

(٤) انظر المصدرين السابقين.

(٥) الفهرسة ص ٢٧.

«محمد بن المهدى» كان رجلا صالحا ، لا يجلس فى الغالب إلا وحده ، فقيرا من الدنيا ، يبت يقرأ القرآن. توفى رحمه الله سنة «١١٩٦ هـ» - «١».

نشأته العلمية :

نشأ الشيخ ابن عجيبة فى بيت صلاح وتقوى ، وأقبل على حفظ القرآن وهو فى سن مبكرة ، وقد تميز الشيخ بالقدرة على التركيز العلمي ، وتوقد القريحة ، ورحل إلى مدينة القصر الكبير ، وأقام فيها نحوا من عامين ، اجتهد خلالهما فى تحصيل العلم ، حتى قال عن نفسه : (أهملت نفسى ، ونسيت أمرها ، وكنت أقرأ سبعة مجالس ، بين الليل والنهار) «٢».

ولم يقنع الطالب بما حصّل فى مدينة القصر الكبير ، بل زاده شغفا فى القدوم إلى تطوان ، وهى موئلا للعلم والحكمة ، ومهبط كثير من العلماء ، فقدمها ابن عجيبة وهو ابن العشرين ، وأقام فيها ، وأقبل على تحصيل العلم فى شتى الأبواب بكل جد ، وتنوعت مجالسه بين أئمة الفقه ، والتفسير ، والحديث ، واللغة ، والنحو ، والصرف ، والمنطق ، أقبل على هؤلاء وهؤلاء ، يستمع منهم ، ويقرأ عليهم ، ويأخذ عنهم ، وأقبلوا عليه يعطونه كل ما عندهم لما وجدوا فيه من حسن الإعداد والاستعداد ، فواصل

الليل بالنهار.

وسرعان ما ظهرت ثمار هذا الجد والاجتهاد ، فلم يبلغ شيخنا تسعا وعشرين سنة ، حتى بزغ نجمه وعلا شأنه ، وجلس للتدريس فى مساجد تطوان ومدارسها ، ولكن ذلك لم يمنعه من مواصلة العلم فى مظانه ، فالظمآن إلى المعارف لا يرتوى مهما نهل ، ولعله كلما نهل استطاب العلم فازداد إليه ظمأ ، والعلم ليس له نهاية له وليس له حدود. يقول شيخنا بعد جلوسه للتدريس : (فكنت فى العلم الظاهر نتعلم ونعلّم فما تركت العلم قط بعد التصدر للتعليم ، نعلم من تحتنا ونأخذ عمن فوقنا) «٣».

ولهذا شدّ الرحال إلى فاس ، وهو فى سن الأربعين ، فسمع من علمائها ، وأخذ عنهم ، وقد توفر له فيها أساطين العلم فى مختلف الفروع ، فأخذ علم الحديث عن محدث عصره (التاودى بن سودة) ، ودرس التفسير والفرائض واللغة ، ومكث كذلك سنتين ، عاد بعدهما إلى تطوان ليتابع تدريسه وتأليفه.

يتحدث رضى اللّه عنه عما حصّله من علوم ، فيقول : و(الذي حصّلناه من علوم الأذهان (العقلية) : علم المنطق ، والكلام على مذهب أهل السنة ، والمهم من علم الهيأة (الفلك) ، ومن علم الأديان : علوم القرآن ، خصوصا التفسير ..

وحصّلنا الفقه بأنواعه ، وأصول الفقه ، وأصول الدين ، وحصّلت أيضا علم الحديث ، وعلم السير ، وعلم المغازي ، والتاريخ ، والشمائل ، ومن علم اللسان : علم اللغة والتصريف ، والنحو ، والبيان ، بأنواعه ، أما التصوف فهو علمي ومحط رحلى ، فلى فيه القدم الفالج ، واليد الطولى) «٤» وهكذا كان حظه من ثقافة عصره حظا وافرا ، فقد أحاط بسائر علوم وقته ، وانعكس ذلك على تفسيره ، فجاء بحره مرآة لثقافته الواسعة.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣.

(٢) الفهرسة/ ٢٩.

(٣) الفهرسة ٧٦.

(٤) الفهرسة/ ١٠١

شيوخه :

تتلمذ شيخنا أبو العباس على كثير من علماء عصره ، وأثبت هنا تعريفا بأهم شيوخه ، الذين اتصل بهم أكثر من غيرهم ، واشتهر بالأخذ عنهم.

١ – الفقيه القاضي عبد الكريم بن قريش [ت – ١١٩٧ هـ] «١» أول من تتلمذ عليه ابن عجيبة بتطوان ، ترجم له داود في تاريخه قائلا : (الإمام العالم ، الفقيه المدرس ، الخطيب ، كان رحمه اللّه مشاركا في كثير من الفنون ، وكان يستظهر مختصر خليل حفظا ، ودارت عليه الفتوى في زمانه بتطوان. تولى قضاء طنجة قهرا ، فأظهر العدل وحمدت سيرته ، وكان كما يقول تلميذه ابن عجيبة : (ملجأ الناس في الفتوى والشفاعة عند الولاة) مات في الحجاز سنة (١١٩٧ هـ) ويعتبر ابن قريش أحد الأساتذة الذين أكثر مفسرنا الأخذ عنهم «٢».

٢ – الفقيه الشيخ (أبو الحسن علي بن أحمد بن شطير الحسني) [ت – ١١٩١ هـ] «٣» نعته داود نقلا عن أزهار البستان ، فقال : (الفقيه الإمام المحدث العالم النحرير ، كان رحمه اللّه فقيها نحويا محدثا ذا ورع تام) درّس البخاري والألفية ، ومختصر خليل ، وشمائل الترمذي ، بتطوان ، وكان كما يقول ابن عجيبة : (صابرا لإلقاء الدرس ، ذا عناية بالعلم ، متواضعا متقشفا ، يلبس الخشن من الثياب ، على طريقة السلف الصالح). أخذ عنه مفسرنا بتطوان ألفية ابن مالك ومختصر خليل ، وغير ذلك.

٣ – الفقيه العلامة (أبو عبد الله محمد بن الحسن الجنوي الحسني) [١١٣٥ – ١٢٠٠ هـ]»

أحد أعلام تطوان وزهادها ، وأشهر أساتذة ابن عجيبة ، (الشيخ الإمام ، المحقق ، المتفنن ، الفهامة ، العارف باللّه الأمين المعروف بالصلاح والدين المتين) ، هكذا حلّاه مخلوف في (شجرة النور) ، ووصفه تلميذه ابن عجيبة (بالإمام الحبر الهمام مفتى الأنام ، وأحد أئمة الإسلام ، وخاتمة المحققين ، وشمس المدققين). كان مشاركا في الأصول والفروع يحرر المسائل ويدققها ، ولا يرضى بالتقليد في شيء من علومه ، وكان ملجأ الناس في حل المشكلات ، تأتي الفتاوى إليه من أقطار المغرب ، كما كان متبحرا في علوم التصوف ، مطلعا على غالب فروعه ومسائله ، وكان يفر من الشهرة وملاقاة السلطان – لازمه شيخنا ابن عجيبة ملازمة تامة ، حتى توفي الجنوى سنة ١٢٠٠ هـ ، بعد أن أخذ عنه تفسير القرآن ، والبخاري مرتين ، سماعا ، وبعضه شرحا ، وكذلك مسلم ومختصر خليل السبكى ، وورقات الخطاب في أصول الفقه للإمام الجويني ، وفي علوم التصوف أخذ عنه الرسالة القشيرية ، وحكم ابن عطاء ، وأصول الطريقة ، والنصيحة الكافية ، للشيخ زروق.

---

(١) انظر في ترجمته : تاريخ تطوان ٣/ ٩٦ ومخطوط أزهار البستان في طبقات الأعيان ، لابن عجيبة/ ٢١٣ ، والفهرسة ، لابن عجيبة/ ١١.

(٢) راجع الفهرسة ، لابن عجيبة/ ١١.

(٣) انظر في ترجمته : تاريخ تطوان (٣/ ٩٥ – ٩٦) والفهرسة/ ٣١.

(٤) انظر : شجرة النور الزكية/ ٧٧٥ ، تاريخ تطوان (٣/ ٩٦) مخطوط أزهار البستان/ ٢١٧.

٤ - العلامة المحدث (أبو عبد الله محمد التاود بن الطالب بن سودة المري) [١١١ - ١٢٠٩ هـ]
«١» الإمام الهمام ، شيخ الإسلام ، وعمدة الأنام ، وخاتمة المحققين الأعلام ، وهلال المغرب وقدوته وبركته. هكذا حلّاه صاحب شجرة النور ، وقال عنه الحافظ الزبيدي :

ومنهم محمد بن الطالب التاودى العدل ذو المواهب

رئيس فاس ، كاشف الغيوم وعالم المنطوق والمفهوم

إليه في بلاده يشار عليه في المعارف المدار

انفرد بالإمامة فى الحديث ، كما كان مقدّما فى التفسير ، والفقه ، والتصوف ، ، والكلام ، والمنطق ، ، والأصول ، قال عنه الكتاني في فهرسته : (لا أعلم أحدا ممن ينتمى إلى العلم بالمغرب ، إلا وله عليه منة التعليم ، إما بواسطة أو بغير واسطة أو بهما معا) ، وحلّاه تلميذه ابن عجيبة فى أزهاره (بشيخ الجماعة ، وملحق الحفداء والأجداد) أخذ عن أحمد مبارك اللمطى ، وابن عبد السلام بنانى ، ومحمد جسوس ، وغيرهم ، ومن شيوخه بمصر ، الشيخ العيدروس ، وحسن الجبرتى ، وأبو الحسن العدوى.
وكانت له رحلات لتدريس العلم بمصر والحجاز ، فأقرا بالأزهر الموطأ ، فتسارع - كما يقول كنون - الناس للأخذ عنه لما رأوا من حفظه وإتقانه ، وحضره أعيان المذاهب الأربعة ، وكبار مصر وصلحاؤها ، كالشيخ الدردير والحافظ الزبيدي.
ومن تآليفه المفيدة : (زاد المجد الساري إلى قراءة صحيح البخاري) فى نحو أربعة مجلدات ، وحاشية على تفسير ابن جزى ، وشرح الأربعين النووية و(المنحة الثابتة فى الصلاة الفائتة) و(طالع الأمانى على مختصر الشيخ الزرقانى) وغير ذلك كثير. أخذ عنه شيخنا ابن عجيبة صحيح البخاري وصحيح مسلم ، وحصل منه على إجازة مطلقة عامة «٢».
٥ - الحافظ أبو عبد الله الطيب بن عبد المجيد بن كيران (١١٧٢ - ١٢٢٧ هـ) «٣» أحد أساتذة ابن عجيبة بفأس ، قال عنه مخلوف فى شجرة النور : (الإمام ، الحامل لواء المعارف والعرفان ، العلامة المتفنن فى العلوم ، الحامل راية المنثور والمفهوم) ، وقال عنه صاحب إمداد ذوى الاستعداد :
(أعجوبة الزمان في الحفظ والتحصيل والإتقان) ، أخذ عن محدث عصره التاودى بن سودة ، وبنانى ، وجسوس ، وعنه أخذ عبد القادر الكوهن وغيره كثير ، وكان يحضر مجلسه السلطان فمن دونه ، درّس التفسير فى القرويين ، فكان يستحضر أقوال المفسرين جميعا ، ويقابل بينها ويناقشها ، ويرد الزائف منها بالدلائل القوية والحجج البينة ، كما كان له فى العربية باع طويل ، ونظم سديد ، له

---

(١) انظر : شجرة النور/ ٣٧٥ ، فهرس الفهارس ١/ ٢٥٨ مخطوط أزهار البستان/ ٢١٨.
(٢) نص الإجازة فى الفهرسة ص ٣٥ - ٣٦.

(٣) انظر (فهرس الفهارس للكتاني (٢/ ٨٤٨) ، النبوغ المغربي لكنون ١/ ٢٢٥ ، شجرة النور الزكية/ ٣٧٦ ، مخطوط إمداد ذوى الاستعداد للكوهن/ ٥. [.....]

(٢٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٣

تآليف مختلفة منها : تفسير القرآن ، غير أنه لم يتمه ، قال عن تفسيره عبد القادر الكوهن : لو تم لكان تمام الأمنية ، لكن أخرمت مؤلفه المنية. له أيضا حاشية على كل من صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن النسائي ، وله شرح ألفية العراقي فى علم الحديث ، وشرح حكم ابن عطاء اللّه ، له كتب أخرى تنيف على العشرين.

٦ - العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بنيس الفاسي (دارا ومنشأ) [١١٦٠ - ١٢١٣ هـ] «١» (الحافظ العمدة المحقق ، الجامع لشتات العلوم والمعارف والمنطوق والمفهوم) هكذا حلّاه صاحب شجرة النور ، وقال عنه تلميذه ابن عجيبة فى أزهاره : (له مشاركة فى الفنون ، واختص بعلم الفرائض ، وكان الملجأ بفأس فى حل مشكلاته) أخذ عن الشيخ محمد جسوس ، وعبد الرحمن المنجرة ومحمد عبد السلام الفاسي ، وحج ولقي أعلاما واستفاد وأفاد ، وأخذ عنه السلطان «سليمان» وحمدون بن الحاج ، وعبد القادر الكوهن ، وغيرهم كثير. له مؤلفات طيبة منها : (بهجة البصير فى شرحفرائض مختصر خليل) و(لوامع أنوار الكوكب الدري فى شرح همزية البوصيرى). و(تحصيل ما للأئمة الأعلام فى مسائل الحيازة الدائرة بين الحكام). أخذ عنه شيخنا ابن عجيبة علم الفرائض وكتاب التسهيل لابن مالك ، وحصل منه على إجازة عامة «٢».

٧ - العامة الصالح أبو عبد الله محمد بن علي الورزازي «٣» من شيوخ ابن عجيبة بتطوان ترجم له صاحب فهرس الفهارس قائلا : (الفقيه العلامة الحجة البركة العارف باللّه). أخذ عنه شيخنا تلخيص المفتاح فى البيان ، وجامع الجوامع فى الأصول ، وقد حصل منه ابن عجيبة على إجازة مطلقة «٤» ولم تذكر المصادر تاريخ وفاته إلا أن إجازته لابن عجيبة مؤرخة فى سنة ١٢١٤ هـ.

عقيدة ابن عجيبة :

قيّض اللّه - عز وجل - لشيخنا له بيئة طيبة ، نشأ فيها على عقائد أهل السنة والجماعة ، فشيخنا سنى العقيدة ، يؤمن بكل ما كان عليه السلف الصالح ، ويبرأ من كل ما يخالف ما كانوا عليه. وفى أكثر من موضع من مؤلفاته يقرر رضى الله عنه : (أن أحسن المذاهب فى الاعتقاد هو مذهب السلف ، من اعتقاد التنزيه ، ونفى التشبيه ، وتفويض المتشابه ، والوقوف مع ما ورد كما ورد ، ما لم يحتج إلى تقييد ، بما ينفى شبهته من غير زائد) «٥».

(١) انظر : اليواقيت الثمنية للأزهرى/ ٢٥٤ سلوة الأنفاس ١/ ٢٠٤. شجرة النور/ ٣٧٤ أعلام الزركلى ٦/ ١٥. مخطوط أزهار البستان/ ٢١٩.

(٢) نص الإجازة فى الفهرسة ص/ ٣٦.

(٣) انظر فهرس الفهارس ٢/ ١١١٢.

(٤) نص الإجازة فى الفهرسة/ ٣٧.

(٥) الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية - ٨٣.

وفى تفسيره مواقف تبرز عقيدته السنية ، ومن ذلك رده القوى على الفرق المخالفة ، ودحض آرائهم ، كلما عرضت مسألة من المسائل الخلافية ، وإبراز رأى أهل السنة فيها.

وقد خص رضى اللّه عنه إحدى رسائله ببيان ما يدين به ، وهى (رسالة العقائد) ، ومن أقواله فى هذه الرسالة لأحد مريديه : (عليك أن تعتقد أن اللّه موجود قبل الأكوان ، قديم لا أول له ، أزلى لا بداية له ، مستمر الوجود لا آخر له ، أبدى لا نهاية له .. وأنه ليس بجسم مصور ، ولا جوهر محدود مقدر ، وأنه لا يماثل الأجسام ، لا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام ، وأنه ليس بجوهر ، ولا تحله الجواهر ، ولا بعرض ، ولا تحله الأعراض ، بل لا يماثل موجودا ، ولا يماثله موجود ، وليس كمثله شيء ، ولا هو مثل شيء ، وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأنظار ، ولا تحيط به الجهات. هو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، وهو على كل شيء شهيد ، لا يماثل قربه قرب الأجسام ، كما لا تماثل ذاته ذوات الأجسام ، وأنه لا يحل فيه شيء ، ولا يحل فيه شيء ، تعالى عن أن يحويه مكان ، كما تقدس عن أن يحده زمان ..) «١» وفى قضية الاستواء على العرش يقول : (عليك أن تعتقد أن اللّه مستو على العرش ، على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، استواء منزها عن المماسة والاستقرار ، والتمكن والحلول والاشتغال ، لا يحمله العرش بل العرش ، وحملته محمولون بلطائف قدرته ، ومقهورون فى قبضته ، وهو فوق العرش وفوق كل شى ء) «٢».

تصوفه

بعد أن نال الشيخ ابن عجيبة الحظ الأوفر ، والنصيب الأكبر من علوم عصره العقلية والنقلية ، وحصّل منها ما جعله حائزا لرئاسة العلم فى بلاده ، حبب إليه سلوك طريق التصوف ، وواكب فى هذا الوقت ظهور حركة الشيخ العربي الدرقاوى ، مجدد الطريق الشاذلى فى الألف الثاني ، ووجد الشيخ ابن

عجيبة فى الدرقاوى شيخا استجمع آداب الرائد المربى ، فاتصل بالشيخ محمد البوزيدى الغمارى ، التلميذ للشيخ الدرقاوى ، وأخذ عنه الطريقة الدرقاوية الشاذلية. وقد عقد شيخنا رضى الله عنه فصلا كاملا فى فهرسته «٣» ، سجل فيه تجربته الفريدة فى تصوفه ومجاهداته ، وهى مجاهدات لا يطيقها إلا الصادقون المخلصون ، وسرعان ما أثمرت مجاهداته المخلصة. وفاضت بحار علومه ، وأشرقت فى صدره أنوار العرفان ، ووقع له الفتح الكبير ، والمدد الصافي الغزير.
وأعطى شيخنا مرتبة الإمامة والاقتداء ، والتربية ، والتكميل ، وكان له فى ذلك باع طويل. يقول عنه الشيخ الكوهن : (كان نظره إكسيرا ، إذا أتاه أو التقى معه من يعرفه ، يرقيه فى ميدان حسنات الأبرار سيئات المقربين ، حتى كثرت على يديه الأتباع والمريدون ، وحصل لهم تنوير الباطن ، ونالوا مقامات العارفين) «٤». ويقول عنه العسكري : (كان حجة الطائفة الدرقاوية مبينا لأحكامها ، وناشرا لأعلامها ، سبر على علومها حتى صار ينبوعا لشموسها ، وأقمارها ونجومها) «٥».

(١ ، ٢) مخطوط رسالة العقائد ص ٨١ - ٨٢.
(٣) انظر الفهرسة ص ٥٣ وما بعدها.
(٤) جامع الكرامات العلية - ١٦٣.
(٥) م. طبقات أصحاب الدرقاوى - ١٤٢.

ويقول الكوهن أيضا : (لقد نال ما نال وتكلم على أسرار أهل الكمال ، فأبدى علوما غريبة ، وأسرارا عجيبة ، وأجمعت على ولايته أهل المغرب بأسرها ،) «١» وفي موضع آخر يقول : (.. أعطى ناطقة أسرار أهل اللّه ، وأدرك مقامات العارفين بربهم حتى عد قطب الزمان ، وأوحد الأوان ، وتكلم بما أبهر عقول الأعيان ..) «٢».
شيوخ ابن عجيبة في التصوف :
سلك ابن عجيبة الطريق الصوفي على يد رجلين :
الأول : الشيخ الدرقاوى «٣» : وهو (أبو المعالي العرب بن أحمد الحسنى) الشهير (بالدرقاوى) نسبة إلى جده محمد بن يوسف الملقب بأبى درقة (لدرقة كبيرة كانت له يتوقى بها فى الحروب). وصفه الكوهن (بقدوة أهل الكمال ومرشد السالكين إلى أعلى المقامات والأحوال ، الإمام الهمام) ، وحلّاه العسكري (بالعارف الأكبر ، والقطب الأشهر) وقال عنه صاحب السلوة : (كان من العارفين باللّه ،

الدالين بأقوالهم وأفعالهم وجميع أحوالهم على الله ، جامعا لمحاسن الشيم والأخلاق). وقال عنه الأزهرى : (و كان آية فى المعرفة باللّه) ولد رضى اللّه عنه عام «١٥٥٠ هـ» بقبيلة بنى زروال بشمال المغرب ، واشتغل بقراءة العلم بفأس ، ثم لقى الشيخ على الجمل وسلك على يديه.

أسس الطريقة الدرقاوية الشاذلية ، وتخرج على يديه عدد لا يحصى من الشيوخ ، أرباب التمكين والرسوخ ، قال الشيخ (ابن سودة المري) : ما توفى مولانا العربي ، حتى خلف نحوا من الأربعين ألف تلميذ ، كلهم متأهلون للدلالة على الله سبحانه). توفى رحمه الله فى صفر الخير من عام ١٢٣٩ هـ وله من المؤلفات :

- الرسالة ، وتسمى (بشور الهدية فى مذهب الصوفية) قال عنها ابن إدريس الكتاني : (رسائله نفعنا الله به من أنفع الرسائل للمريد ، وأدلها على كيفية السلوك والتجريد ، لا يستغنى عن مطالعتها سالك).

- جواهر القرطاس. - مناقب الشيخ على الجمل.

الثاني : الشيخ البوزيدى «٤» : هو «محمد بن الحبيب أحمد البوزيدي الحسنى» من قبيلة غمارة ، بشمال المغرب ، والتي ينتسب إليها أيضا. أبو الحسن الشاذلى ، التقى بالدرقاوى ، ولازمه مدة ست عشرة سنة ، ويعد البوزيدى أقرب أتباع الدرقاوى إليه. كان رضى اللّه عنه أميا لا يكتب ولا يقرأ ، ومع ذلك أعطاه اللّه ما لا يخطر بالبال من العلوم والأسرار ، وله كتاب «الآداب المرضية فى طريق الصوفية» ، يقول الكوهن عن كتابه هذا «من يطلع عليه

(١ ، ٢) الحسن الكوهن ، طبقات الشاذلية/ ٢٤٠.

(٣) انظر : فى ترجمته (مخطوط سلوة الأنفاس ١/ ١٧٢ اليواقيت الثمينة/ ٢٥٤ مخطوط ، أصحاب الدرقاوى ص ٦١ ، طبقات الشاذلية/ ٢٠٣ ، الطريقة الشاذلية وأعلامها/ ١٢٩).

(٤) انظر فى ترجمته : طبقات الشاذلية للكوهن/ ٢٤٠ ، مخطوط أصحاب الدرقاوى/ ١٢٥ ، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي ١/ ٤٨.

يحكم بأن البوزيدى واحد الزمان ، وشيخ أهل العرفان» وله أيضا القصيدة التائية فى السلوك ، والتي شرحها تلميذه ابن عجيبة ، توفى رحمه الله فى (١٢٢٩ هـ) ومقامه فى (مستغانم) من بلاد وهران بالجزائر.

تخرج على يديه عدد كثير من فضلاء أهل الله ، يقول الكوهن : «ولو لم يكن من تلاميذه إلا سيدى

ابن عجيبة الحسن لكفى. مع أنه تخرج من تلاميذه جملة فضلاء من أهل الله ، لا يحصرهم عدد ، كلهم على قدم المعرفة وفى غاية التمكى» ومن أقواله رضى الله عنه لاكرامة أعظم من الاستقامة ظاهرا وباطنا لأن الكرامات الحسية تكون عند استقامة الظاهر دون استقامة الباطن ، أما بعد استقامة الباطن والظاهر ، فلا يكون إلا الكرامات المعنوية ، وكل من ظن أن الولاية شيء زائد على الاستقامة فهو جاهل بالولاية) «١».

على مثل هذه التعاليم نشأ شيخنا أو العباس ، وبين الدرقاوى والبوزيدى عاش حياته الصوفية العملية ، حتى فتح له على أيديها ، ونال ما نالت الرجال ، وفى ذلك يقول : (و الله ما عرفنا قلوبنا ولا ذقنا حلاوة المعاني حتى صحبنا الرجال أهل المعاني) «٢».

ثناء العلماء عليه :

يحظى شيخنا فيما كتب عنه من تراجم بألقاب وأوصاف ، تنم عن تقدير له ، عرفان بفضله ، وتشير إلى ما بلغه من مقام رفيع فى العلم ، ومرتبة عالية فى المعرفة باللّه ، وتشهد بما رزقه اللّه من معارف إلهامية ، أدهشت العقول وأثارت الإعجاب ، فيصفه الكوهن فى جامع المرامات ب (الشريف الحسيب ، قطب دائرة الولاية الكبرى ، ومنبع أسرار أهل الحقيقة ، شيخ الطريقين ، وعمدة الفريقين ، ولى اللّه الأكبر ، وغوثه الأشهر ، كان رضى اللّه عنه من أهل التمكين) «٣».

أما العسكري فيصفه ب (العلم المفرد ، يتيمة هذا العقد ، عديم النظير فى أمثاله. جبل النية والصحبة والصدق ، وخرق العادات والسير الحميدة ، الذي لا يوجد فى وقته من نسيج - واللّه - على منواله ، مؤلف التآليف العديدة ، ومقيد العلوم الغربية المفيدة ، العالم العلامة ، الصوفي المشارك ، الفهامة العارف المحقق الجليل ، الشيخ الكامل الجليل ، الشريف البركة ، ولى اللّه تعالى ..) «٤».

وذكره الأزهرى فى (اليواقيت الثمينة فى أعيان مذهب عالم المدينة) وحلاه بقوله : (العالم الحجة الفهامة البارع الصوفي ، الجامع بين الشريعة والحقيقة) «٥» كذلك ذكره مخلوف فى (شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية) ، وأعلى شأنه ، ووصفه بقوله : (العلامة ، المؤلف ، المحقق ، الفهامة ، البارع ، المدقق) «٦».

---

(١) إشكالية إصلاح الفكر ١/ ٤٩.

(٢) إيقاظ الهمم/ ٤١٣. [.....]

(٣) جامع الكرامات العلية ١٦٣.

(٤) مخطوط طبقات أصحاب الدرقاوى ورقة ١٤٢.

(٥) اليواقيت الثمينة ١/ ٧٠.

(٦) شجرة النور/ ٤٠٠.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧

مؤلفاته

يقول الكوهن عن مؤلفات ابن عجيبة : (تآليفه - عليها لوائح نفثات أهل المعرفة الكمّل ، فإنه أعطى ناطقة أسرار أهل اللّه ، وكلامه عال ، أحل مشكلات القوم ، وفك طلاسم أسرارهم ، وتكلم بما أبهر عقول الأعيان) «١».

وقد ألف رضى اللّه عنه فى التفسير والحديث والفقه واللغة ، أما أكثر مؤلفاته ففى التصوف. وتبلغ حصيلة ما كتبه ما يزيد على خمسة وأربعين تأليفا ، بعضها كبير فى مجلدات ، وبعضها متوسط ، وبعضها صغير الحجم غزير العلم ، وجل ذلك لا زال مخطوطا ، لم يعرف نور الطباعة بعد.

وأورد فيما يلى ثبتا بأسماء مؤلفاته ، مرتبة حسب الموضوع الرئيس للكتاب ، مع تعريف موجز به ، وأماكن وجوده ، وتاريخ تأليفه ، ما أمكن ذلك «٢».

أولا - التفسير والقراءات :

١ - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد. وسأفرد له الكلام فيما بعد.

٢ - التفسير الكبير للفاتحة : يقع فى (٢٦٨) صفحة ، وقد صنف هذا التفسير قبل تصنيفه للبحر المديد ، كما هو واضح من كلامه ، فى آخر تفسير الفاتحة الكبير ، حيث قال : (و يتلو إن شاء الله تفسير سورة البقرة) ، ولكن ناسخ المخطوطة قال فى تعقيبه : قد جعل صاحب هذا التفسير رضى الله عنه تفسيره هذا - أي : التفسير الكبير للفاتحة - تفسيرا مستقلا ، ثم أنشأ تفسيرا آخر مختصرا ، بنى عليه تفسيره (البحر المديد). وقد انتهى نسخه فى عام ١٢٣٣ ه ، على يد عبد الغفور بن التهامي.

٣ - التفسير الوسيط للفاتحة : ذكر صاحب الإصلاح «٣» أنه يقع فى ١٧ صفحة ، وتوجد منه نسخة تحت رقم (١٤٨ ك) خزانة الرباط ، تم تحريرها سنة ١٢١٣ ه.

٤ - التفسير المختصر للفاتحة : توجد منه مخطوطة بدار الكتب المصرية ، ويقع فى ورقتين ، وانتهى ابن عجيبة منه فى يوم الثلاثاء ، خامس ربيع الثاني سنة ١٢١٩ ه.

٥ - الدرر المتناثرة في توجيه القراءات المتواترة : وهو تأليف - كما قال ابن عجيبة - «٤» يشتمل على آداب القراءة ، والتعريف بالشيوخ العشرة ورواتهم ، وتوجيه قراءة كل واحد منهم ، وفيه عشرون كراسة.

---

(١) الحسن الكوهن : جامع الكرامات العلية/ ١٦٤.

(٢) اعتمدت فى حصر مؤلفات الشيخ ابن عجيبة على المصادر الآتية : الفهرسة/ ٣٨ - ٣٩ ،

التصور والتصديق للشيخ أحمد الصديق/ ٢١ ، فهرس المخطوطات العربية المحفوظة فى الخزانة العامة بالمغرب (القسم الثالث ، الجزء الأول) ، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية ، لعبد العزيز بن عبد اللّه (٢/ ٤٥ ، وما بعدها) ، إصلاح الفكر الصوفي للأستاذ/ محمد الصغير (١/ ١٧٤ – ١٨٤) فهرس المخطوطات بدار الكتب المصرية ، فهرس معهد المخطوطات (٢/ ٤٥) (١/ ١٧٧).

(٣) إصلاح الفكر الصوفي ١/ ١٧٧.

(٤) الفهرسة/ ٣٨.

---

٦ – الكشف والبيان في متشابه القرآن : قال العلامة داود – الذي وقف على أوراق من هذا الكتاب – إنه آخر كتاب ألفه ابن عجيبة ، بناء على ما ذكره ناسخ المخطوط ، ولذلك لم يتم تأليفه.

ثانيا – الحديث والأذكار النبوية :

٧ – حاشية على الجامع الصغير للسيوطي : فرغ من تأليفها : أواسط شعبان عام ١٢٢٤ هـ ، وتوجد منه نسخة خطية بالخزانة العامة بالمغرب ، تحت رقم (١٨٣١ د) تم كتابتها في عام ١٢٥١ هـ.

٨ – أربعون حديثا في الأصول والفروع والرقائق : ذكره فى الفهرسة.

٩ – الأنوار السنية في الأذكار النبوية : فرغ من تحريرها سنة ١٢٠٥ هـ ومنها مخطوطة بمكتبة تطوان تحت رقم ٨٥٣ م ، ونسخة أخرى بالخزانة العامة بالمغرب تحت رقم (٢١٣٤ د).

١٠ – الأدعية والأذكار الممحقة للذنوب والأوزار : فرغ من تحريرها سنة (١٢٢٢ هـ) ومنها مخطوطة بتطوان تحت رقم (٢٧٤ ق. م).

ثالثا – الفقه والعقائد :

١١ – حاشية على مختصر خليل : ذكر ابن عجيبة أنه لم يتمه.

١٢ – رسالة في العقائد والصلاة : منها مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت (مجاميع شنقيطى ٧/ ٤) ، فرغ منها سنة (١١٩٩ هـ) ، وهى رسالة صغيرة الحجم ، لا تتعدى عشر صفحات ، ولكنها غزيرة العلم.

١٣ – تسهيل المدخل لتنمية الأعمال بالنية الصالحة عند الإقبال : وهو تأليف فى النية وأحكامها. فرغ منه سنة (١١٩٦ هـ) منه نسخة بتطوان تحت (٨٧٢ ق. م).

١٤ – سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر : ألفه الشيخ زمن الوباء الذي اجتاح تطوان فى عام (١٢١٤ هـ) ويقع فى ٢٨ صفحة ، وانتهى الشيخ من تأليفه : زوال يوم الجمعة ، ثالث شوال (١٢١٤

هـ.) ومنه مخطوطة بالخزانة العامة بالمغرب تحت (١١٤٨ ك).

رابعا – اللغة :

١٥ – الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الأجرومية : وهو مؤلف شرح فيه شيخنا مقدمة ابن آجروم النحوية ، شرحا جمع فيه بين النحو والتصوف ، فيذكر عبارة المؤلف ، ويشرحها بمقتضى علم النحو ويتبعها بالمعنى

الإشارى ، فيندهش القارئ –كما يقول العلّامة (عبد الله الصديق) «١» – لحسن تنزيل عبارة المتن على المعاني الصوفية ، ويخيل إليه أن ابن آجروم ، ألف مقدمته فى علم التصوف. توجد منه نسخة تحت رقم (٢٠٠٤ د/ ١ : ق. م الخزانة العامة بالرباط ، عدد صفحاتها (٢١٩) ووافق الفراغ من تأليفه بعد ظهر الإثنين (١٨ ربيع النبوي عام ١٢٢٣ هـ).

وقد قام الشيخ عبد القادر بن أحمد الكوهن ، المتوفى بالمدينة عام (١٢٥٤ هـ) بتجريده مما يتعلق بالنحو ، واقتصر على الإشارات الصوفية ، وسماه : (منية الفقير المتجرد وسمير المريد المتفرد) وقد طبع هذا التجريد بإستانبول عام ١٣١٥ هـ.

خامسا – التراجم :

١٦ – أزهار البستان في طبقات الأعيان : ذكره مخلوف فى شجرة النور تحت عنوان : (أزهار رياض الزمان فى طبقات الأعيان) ، وذكره صاحب الإصلاح تحت عنوان : (أزهار البستان فى طبقات العلماء والصلحاء والأعيان) ، وقد ترجم فيه الشيخ لأرباب المذاهب الفقهية ، والتعريف بمشاهير أصحاب مذهب الإمام مالك ، من زمانه إلى زمان ابن عجيبة ، على ترتيب وجودهم ، كل قرن على حدة ، ثم أتبعهم بذكر النحويين والمحدثين وبعض الصوفية. وقد ذكر ابن عجيبة أنه لم يتمه رغم حجمه الكبير ، وهو مؤلف جدير بالنشر ، توجد منه نسخة مخطوطة فى خزانة الرباط تحت رقم (٢٨٦ ك) ومنه صورة فى معهد إحياء المخطوطات بالقاهرة ، تحت رقم (١٣٥٢ تاريخ).

وقد استفدت كثيرا من هذه الصورة فى ترجمة بعض أساتذة المفسر ، إلا أن كثيرا من صفحاتها فاسدة التصوير لا تقرا.

١٧ – الفهرسة : وهى سيرة الشيخ الذاتية ، انتهى من تنقيحها سنة (١٢٢٤ هـ) وإن كان قد بدأ تأليفها قبل ذلك بمدة. رأت نور الطباعة أول مرة باللغة الفرنسية ، حيث ترجمها المستشرق الفرنسى المسلم «جان لوى ميشون» ، ثم صدرت بمصر باللغة العربية سنة ١٩٩٠ م ، بتحقيق د/ عبد الحميد

صالح.

سادسا – التصوف :

١٨ – الأنوار السنية في شرح القصيدة الهمزية : منها نسخة مخطوطة بتطوان تحت رقم (١٣١) وتتكون من (٢٣٠) صفحة ، وفرغ من تأليفها عام (١١٩٩ هـ).

١٩ – الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية : وهو شرح كبير لمنظومة ابن البنا السرقسطي ، فى آداب وقواعد الصوفية ، فرغ من تبييضه أواسط رمضان سنة (١٢١١ هـ). وقد طبع الكتاب أكثر من مرة ، آخرها طبعة عالم الفكر ١٩٨٣ م. بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن حسن محمود.

---

(١) فى كتابه بدع التفاسير ، ص ٢٢٢.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٠

٢٠ – اللوائح القدسية في شرح الوظيفة الزروقية : فرغ من تأليفها سنة (١١٩٦ هـ) ومنها نسخة مخطوطة تحت (٣٠١ م تطوان) ، وفى الهيئة العامة للكتاب بمصر نسخة مخطوطة كتبت سنة (١٢٠٠ هـ) تحت رقم (٨١٦/ ١ م مجاميع) باسم اللوافح القدسية.

٢١ – إيقاظ الهمم فى شرح الحكم : أشهر كتب الشيخ ، وأشهر شروح حكم ابن عطاء الله ، انتهى من تبييضه :

ثامن جمادى الأولى سنة (١٢١١ هـ) وقد طبع أكثر من مرة فى مصر وسوريا ، ومنها طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥ م بمراجعة وتقديم محمد أحمد حسب الله.

٢٢ – ديوان قصائد في التصوف : فيه ما يقرب من خمسمائة بيت ، ما بين قصائد طويلة ومقطوعات ، والديوان ملحق بكتاب الفهرسة المطبوع بتحقيق د/ عبد الحميد صالح.

٢٣ – رسالة في ذم الغيبة ومدح العزلة والصمت : توجد منها نسخة مخطوطة بالهيئة العامة للكتاب بمصر تحت رقم (٣٢٩٩ ج) فرغ من تأليفها سنة (١١٩٨ هـ).

٢٤ – شرح أسماء الله الحسنى : ذكرها ابن عجيبة فى فهرسته وقال : (أفردت لكل اسم بابا كما فعل القشيري فى التحبير ، توجد منه نسخة خطية بخزانة القرويين تحت رقم (١٥١١).

٢٥ – شرح بردة الأبوصيري : فرغ منه سنة (١٢٠٣ هـ) ، وذكر العلامة داود ، أنه يقع فى ٢٣٨ صفحة.

٢٦ – شرح الحزب الكبير للشاذلي : منه نسخة مخطوطة بتطوان ، ضمن مجموعة رقم (٣٠١) ،

ويقع في ١٤٥ صفحة ، وفرغ منه في عام ١٢٠٠. هـ.

٢٧ - شرح كتاب الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين : لابن الجزري ، المتوفى سنة ٧٣٩ هـ ، ذكر ابن عجيبة أنه لم يكمله.

٢٨ - شرح القصيدة الخمرية لابن الفارض : أولها : (شربنا على ذكر الحبيب مدامة) ، منه نسخة مخطوطة ، بالخط المعتاد ، بالهيئة العامة للكتاب بمصر ضمن مجموعة رقم (٣٢٩٩ ج) ، وكان الفراغ من تبييضه : يوم الإثنين ، أواسط رمضان سنة (١٢١٣ هـ).

٢٩ - شرح القصيدة المنفرجة لابن النحوي : تاريخ التحرير (١٢٠١ هـ) مخطوطة تحت (٤٥٧/ ٦ م تطوان) ويقع في ٤٠ صفحة) ٣٠ - شرح القصيدة الهائية في التصوف للرفاعي :

وأولها :

(يا من تعاظم حتّى رقّ معناه ولا تردّى رداء الكبر إلّا هو)

منه نسخة مخطوطة تحت رقم (١٩٧٤ د/ ٩ ق) الرباط ، فرغ منه عام (١٢١٣ هـ.) ، ويقع في ٣١ صفحة.

٣١ - شرح الكواكب الدرية في مدح خير البرية : منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت (١١١٧/ شعر تيمور).

٣٢ - شرح تائية البوزيدي : منه نسخة تحت (١٧٣٦ د/ ١١ ق/ الرباط) ، وأيضا تطوان (٨٤٥) ويقع في ٩٥ صفحة ، وفرع منه في يوم الجمعة سادس عشر رمضان (١٢٢١ هـ) وأول القصيدة.

أيا من في بهاء جماله وسرّ كماله وعزّ ورفعة.

٣٣ - شرح آخر (مطول) علي تائية البوزيدي : كان الفراغ من تمامه صحوة : يوم الأربعاء ١٤ من ذى القعدة الحرام سنة (١٢٢٢ هـ) نسخه في جمادى الأولى سنة (١٢٣٥ هـ.) على يد عبد الغفور التهامي. ويقع في ١٢٥ صفحة.

٣٤ - شرح على تائية الشيخ علي بن مسعود الجعيدي التطواني :

وأول القصيدة :

(بدأت باسم الله من بعد حمده على نعم لا تحصى جلت ودقت)

ألفه سنة (١١٩٦ هـ) ، ويقع في ٣٥ صفحة ، كما ذكر صاحب الإصلاح ، نقلا عن داود في تاريخ تطوان.

٣٥ – شرح رائية البوزيدي في السلوك :

فرغ منه سنة (١٢١٤ هـ) كما ذكر صاحب الإصلاح ، نقلا عن داود ويقع في حوالى ٣٠ صفحة.

٣٦ – شرح صلاة ابن العربي الحاتمي : منه نسخة خطية بمكتبة د/ حسن عباس زكى ، ويقع في عشر صفحات ، وكان الفراغ من تبييضه : يوم الخميس خاتمة جمادى الأولى سنة (١٢١٩ هـ) وقد طبع هذا الشرح بالمغرب سنة ١٤٠٢ هـ.

٣٧ – شرح صلاة عبد السلام بن مشيش : توجد نسخ منه تحت أرقام (١٧٣٦ د/ الرباط).

٣٨ – شرح على أبيات (توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر) : المنسوبة للإمام الجنيد ، وتنسب أيضا إلى الشيخ ابن عربى الحاتمي. منه نسخة خطية تحت رقم (١٧٣٦/ د الرباط) وهذا الشرح مثبت في كتاب (إيقاظ الهمم فى شرح الحكم). ص ٤٥ : ٤٨ ٣٩ – شرح على مقطعة في محبة الله ، للششتري : مطلع المقطعة : (صحّ عندى الخبر وسرى فى سرى) منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة رقم (٣٢٩٩ ج) فرغ منها فى صفر ١٢١٤ هـ.

---

٤٠ – شرح نظم ما يدل عليه لفظ الجلالة للششتري :

أوله :

ألف قبل لامين وهاء قرة العين

منه نسخة خطية بالهيئة العامة للكتاب ، ضمن مجموعة رقم (٣٢٩٩ ج). انتهى منه يوم الخميس أواسط صفر (١٢١٤ هـ).

٤١ – شرح نونية الششتري :

مطلع القصيدة :

(أرى طالبا منّا الزيادة لا الحسنى بفكر رمى سهما فعدّى به عدنا)

منه نسخة خطية بالرباط تحت رقم (١٧٣٦ د/ ٧) ويقع فى ٦٣ صفحة. فرغ منه الشيخ سنة (١٢٢٠ هـ).

٤٢ – كشف النقاب عن سر لب الألباب :

فرغ من تبييضه فى (١٨ من ذى القعدة سنة ١٢١٩ هـ) يقع فى ٩ صفحات. منه نسخة خطية فى دار الكتب ، ضمن مجموعة (٣٢٩٩/ ح) ، كتبت سنة ١٣٣٥ هـ.

٤٣ – معراج التشوف إلى حقائق التصوف : وهو فى مصطلحات الصوفية جمع فيه الشيخ نحوا من

مائة مصطلح ، وفصّل موضوعاتها ، فرغ منه ١٢٢١ هـ ، وقد طبع الكتاب فى دمشق عام ١٣٥٥ هـ ١٩٣٧ م بمطبعة الاعتدال ، بتعليق محمد بن أحمد الحسنى ، كما ترجمه المسيو (ج. ل. ميشون) إلى الفرنسية.

وفاته :

بعد عمر قضاه فى العلم والعمل ، توفى الشيخ – رحمه الله – فى السابع من شوال سنة ١٢٢٤ هـ. وكانت وفاته فى قبيلة (بنى سلمان) بغمارة ، حيث كان ابن عجيبة فى زيارة لشيخه البوزيدى ، فأصابه وباء الطاعون ، فتوفى فى دار شيخه ، متأثرا بهذا الوباء فغسله شيخه وصلى عليه ودفن بغمارة ، ثم نقل إلى تطوان. ولئن وارى القبر جسده الطاهر الكريم ، فما وارى علمه وفضله ومعارفه ، فلمثل هذا فليعمل العاملون.

منهج ابن عجيبة فى التفسير

سار ابن عجيبة فى تفسيره على منهج واضح المعالم ، فهو يبدأ فى تفسير السورة ببيان مكان نزولها ، وعدد آياتها ، ويذكر الاختلاف فى عدد الآيات – إن وجد – مع ذكر مناسبة السورة لما قبلها ، وسبب نزولها ، – إن وجد – وفضائلها ، ومضمونها الإجمالى ، ثم يشرع فى تفسير الآيات فيبدأ بالشرح اللغوي للكلمات الغريبة ، ذاكرا الإعراب ، ثم يبين المعنى المراد معتمدا فى ذلك على القرآن والأحاديث والآثار ، وأقوال المفسرين المتقدمين.

وهذه أهم معالم منهج الإمام ابن عجيبة فى تفسيره بإيجاز :

١ – تفسير القرآن بالقرآن :

ومن ذلك ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى : فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ .. «١» فينقل الشيخ – أن الكلمات التي تلقاها آدم هى قوله تعالى : رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ «٢» ٢ – القراءات :

اهتم الشيخ ابن عجيبة بذكر القراءات المختلفة فى الآية ، مسجلا المعنى المترتب على ذلك ، وهو فى أغلب ذلك ينسب القراءة لصاحبها ، وأحيانا يغفل ذلك ، فيبهم ، ويقول : «وقرئ بكذا». كما أنه يذكر أحيانا بعض القراءات الشاذة.

٣ – أسباب النزول :

من الواضح فى تفسير ابن عجيبة استناده إلى أسباب النزول ، ليستعين بها على فهم الآيات. انظر ما

ذكره عند تفسير قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ «٣» ، وكذلك قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا .. «٤» والأمثلة كثيرة جدا مما يجعل هذا التفسير من أمهات المراجع فى علم أسباب النزول.

٤ - السنة والآثار :

اعتماد ابن عجيبة على السنة الشريفة فى تفسيره للقرآن الكريم سمة واضحة ، ومن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ .. «٥» يستشهد الشيخ على أن إسماعيل عدّ من آباء يعقوب مع أنه عمه ، بقوله صلى اللّه عليه وسلّم : «عم الرجل صنو أبيه» ، وقال فى العباس : «هذا بقية آبائي».

كذلك جاء تفسير ابن عجيبة حافلا بنقل الأجلاء من الصحابة والتابعين - رضى الله عنهم - ، وحين تتعدد الروايات عن الصحابة فى تفسير كلمة أو آية ، فإنه يذكرها ، ولا يرجح بعضها على بعض ، أو يقدح فى شيء منها ، وذلك إشارة منه إلى أن معنى الآية يحتمل جميع المعاني.

---

(١) الآية ٣٧ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٣ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ١٩٨ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٢٠٤ من سورة البقرة.

(٥) الآية ١٣٣ من سورة البقرة. [.....]

والمتتبع لما أورده المفسر فى تفسيره من أحاديث وآثار يتبين :

- أن المفسر لا يلتزم غالبا بتخريج الأحاديث ونسبتها إلى مصادرها.

- من الأحاديث ما أدرجه فى سياق الكلام دون أن ينبه إلى أنه من السنّة.

- يكتفى أحيانا بالقول : وقد ثبت فى الصحيح. ويأتى بمعنى الحديث.

- يذكر أحيانا بعض الإسرائيليات ، مثل ما ذكره عند تفسير قصة هاروت وماروت. وقد نقل الشيخ هذه الأخبار تأسيا بمن نقلها من المفسرين السابقين ، وهو مقل منها بالنسبة لغيره ، وما يذكره من ذلك يصدره غالبا بلفظ «روى» أو «قيل» مما يشعر بضعف الرواية ، وبعدها عن الصحة ، وحبذا خلوّ

تفسيره من هذه الأخبار.

٥ – اللغة والنحو : يلاحظ في البحر المديد – عناية المفسر بالإعراب. وإذا كانت الآية تحتمل أوجها من الإعراب ، فإنه يذكرها ، ويذكر المعنى على اختلاف الأعاريب.

– كثيرا ما يتوسع المفسر في الكلام على مسألة نحوية يوضح ويبين ، ومن ذلك كلامه الذي عقده لبيان الفرق بين (بلى) و(نعم) عند تفسير قوله تعالى : بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً ...»

.

– عنايته ببيان معنى المفردات القرآنية.

– الاستشهاد بالشعر : اعتمد ابن عجيبة كثيرا على الشعر في بيان المعاني اللغوية ، مثل ما جاء عند تفسير قوله تعالى : وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ «٢». يقول الشيخ : والأسباب العهود والوصل التي كانت بينهم في الدنيا ، يتوادون عليها ، وأصل السبب : كل شيء يتوصل به إلى شيء ، ومنه قيل للحبل الذي يصعد به : سبب ، وللطريق : سبب ، قال الشاعر :

ومن هاب أسباب المنية يلقها ولو رام أسباب السماء بسلم

ويلاحظ في البحر المديد أن الشيخ يذكر النص الشعرى مجردا من اسم قائله ، باستثناء بعض الأبيات.

٦ – الفقه :

نلحظ أن الشيخ يتعرض للأحكام الفقهية ، إذا مر في تفسيره بآيات الأحكام ، وهو في ذلك.

– لا يكتفي غالبا بذكر رأى مذهبه المالكي ، بل يقدم رأيا يخالف مذهبه ، بناء على قوة الأدلة والحجج.

– أحيانا يكتفي برأى الإمام مالك ، ولا يذكر رأى المذاهب الأخرى.

---

(١) الآية ٨١ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٦٦ من سورة البقرة.

مصادره في التفسير :

تعد المصادر التي يعتمد عليها المفسر اللبنة الأولى لوضع تفسيره ، وأهم مصادر الشيخ ابن عجيبة في تفسيره هي :

– تفسير : أنوار التنزيل للإمام البيضاوي. – تفسير الكشف والبيان لأبى إسحاق الثعلبي.

– تفسير مدارك التنزيل لأبى البركات النسفي. – تفسير المحرر الوجيز للإمام ابن عطية.
– تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى الأندلسى. – تفسير إرشاد العقل السليم للعلامة أبى السعود.
– حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي ، المسماة «نواهد الأبكار وشوارد الأفكار».
– حاشية أبى زيد الفاسى على تفسير الجلالين.

مصادره فى الحديث :

– صحيحا البخاري ومسلم. سنن أبى داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وغير ذلك من كتب السنن.
– شروح كتب السنة كفتح الباري ، وشرح مختصر ابن جمرة وغيرهما

مصادره فى اللغة :

– الألفية ، والكافية الشافية لابن مالك ، والتسهيل لابن هشام.
– كتب معانى القرآن ، ككتاب معانى للفراء والزجاج.
– كتب المعاجم كالصحاح للجوهرى والأساس للزمخشرى.

التفسير الإشارى

يعرف الشيخ الزرقانى التفسير الإشارى بأنه : (تأويل آيات القرآن بغير ظاهره ، بإشارات خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظاهر) «١».

مفاهيم القرآن لا تتناهى :

يرتكز السادة الصوفية فى ذكرهم لهذا الإشارات والأذواق على أن القرآن الكريم فيه أسرار لا تتناهى ، ومعان لا تحد ، وإشارات وراء الظاهر ، يفتح الله بها على من يشاء من عباده ، ببركة العمل بكتابه ، فإنّ من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم. ومن المنقول عن الشيخ سهل بن عبد الله – رضى الله عنه – قوله : لو أعطى العبد لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية ما جعل الله فى آية من كتاب الله تعالى من الفهم لأنه كلام الله ، وكلام الله صفته «٢». وكما أن صفات الله لا تتناهى ، فكذلك مفاهيم كلماته لا تتناهى ولا يمكن أن يحيط بها مخلوق. قال تعالى : وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ .. الآية «٣» كما

---

(١) مناهد العرفان ٢/ ٧٨.
(٢) انظر اللمع للطوسى/ ١٠٧.
(٣) الآية ٢٧ من سورة لقمان.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٦

يستند الصوفية فى ذكرهم لهذا الإشارات إلى الحديث النبوي الشريف : «لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع».

وتعددت أقوال العلماء فى معنى الظاهر والباطن «١» وكلها لا تشير إلى أن للقرآن حقيقتين ، إحداهما ظاهرة ، والأخرى باطنة ، بل تعنى أن القرآن له حقيقة واحدة ، ولكن هذه الحقيقة تتنوع وتختلف بالنسبة للناس. فالناس طبقات منهم الكافر الذي لا يزيده القرآن إلا خسارا ، ومنهم المنافق الذي لا يزداد إلا مرضا ، ومنهم المسلم الذي يواجه القرآن الفهم بسيط ، ومنهم المؤمن الذي يقرأه بفكر دقيق ووعى عميق ، ومنهم المحسن الذي يعبد الله كأنه يراه ، فيقرأ القرآن كأنه يسمعه من ربه. وهناك من يقف عند ظاهر اللفظ ، وهناك من يطلعه الله على ما تضمنه هذا الظاهر من أسرار وإشارات.

ولقد كان باطن اللفظ القرآنى المخزون فى ظاهر اللفظ شيئا معروفا لدى الصحابة ، فى زمن الرسول ، صلى اللّه عليه وسلّم ، ومن ذلك : قصة سيدنا عمر بن الخطاب ، مع سيدنا عبد الله بن عباس وجلة الصحابة - رضى الله عنهم أجمعين - فى سؤاله لهم تفسير سورة النصر ، وفهم ابن عباس أن ذلك فيه إشارة إلى نعى الرسول - صلى الله عليه وسلم «٢».

الفرق بين مذهب الباطنية ومذهب الصوفية :

فرق كبير جدا بين مذهب السادة الصوفية الراشدين ، فى فهم إشارات القرآن ، وبين ما يقول الباطنية ، فالباطنية ومن والاهم يجعلون المراد من النص ليس لفظه الظاهر بمعناه القريب ، ولكنهم يعتقدون أن المراد بالذات من النص إنما هو الإشارة التي ينطوى عليها النص ، وبذلك تأولوا القرآن ، واستخرجوا لأنفسهم أحكاما وعقائد ليست من الإسلام فى شىء على الإطلاق.

أما (السادة الصوفية فهم يعتقدون أن النص على ظاهره مرادا به حقيقته الظاهرة ، ولا يحيلون كلام الله تعالى عن وجهه المجمع عليه من الأمة ، ولكنهم يرون أن الله يفتح على بعض خواصه بأسرار ودقائق ، تزيد على المفهوم العام من النص ، ولا تتعارض معه ، بل هى تؤيده ، وتعتبر إضافة من شرائف المعاني التي تزيد من شرف الظاهر ، فهى فتوحات ، لا تبطل شيئا من الأمر والنهى ، ولكنها تضفى عليه زينة وجمالا) «٣».

ولنستمع إلى صوت حجة الإسلام الغزالي فى هذا الشأن إذ يقول : (فالنقل والسماع لا بد منه فى ظاهر التفسير أولا ، ليتقى به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط ... ولا يجوز التهاون بحفظ الظاهر أولا ، ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب ..) «٤».

---

(١) انظر فى بيان معانى الظاهر والباطن (تفسير الآلوسى ١/ ٧ ، التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي

٢/ ٢٤٠)

(٢) أخرج القصة البخاري فى (التفسير ، سورة وإذا جاء نصر اللّه والفتح).

(٣) مجلة المسلم عدد ربيع الأول عام ١٣٩٥ هـ. مقال «معالم التفسير الصوفي» للإمام الرائد محمد زكى إبراهيم.

(٤) إحياء علوم الدين ١/ ٣٤٣.

(٣٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٧

ويقول العلامة الآلوسى عند تفسير قوله تعالى : يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ .. «١» ليس ما نحن فيه - أي :

التفسير الإشارى - من هذا القبيل - أي : من قبيل التفاسير الباطنية -كما يزعمه المحجوبون لأن ذلك إنما يكون بإنكار أن يكون الظاهر مرادا للّه تعالى ، وقصر مراده سبحانه على هذه التأويلات ، ونحن نبرأ إلى اللّه عز وجل من ذلك ، فإنه كفر صريح ، وإنما نقول : المراد هو الظاهر ، وبه تعبد اللّه تعالى خلقه ، لكن فيه إشارة إلى أشياء أخر لا يكاد يحيط بها نطاق الحصر ، يوشك أن يكون ما ذكر بعضا منها) «٢». وسنقرأ فى مقدمة تفسير البحر المديد قول الشيخ ابن عجيبة (و لا يصح ذكره - أي التفسير الإشارى - إلا بعد تقرير الظاهر ..).

هل الإشارات تفسير؟

التفسير بالمصطلح العلمي التقليدى لا يمكن تطبيقه على إشارات السادة الصوفية لأن الإشارات غير مرتبطة بالخط المنهجى للتفسير ، والصوفي نفسه لا يقول بأن ما وقع له من مواجيد ومعان هو تفسير للقرآن ، ولكنه قبس من إشراق ، وفيض من فتح ، لا يتعلق به حكم ولا يرتبط به واجب ، ومن ثمّ فقد أطلق الصوفية على هذه المعاني (إشارات) كما فعل العلامة (ابن عجيبة) والعلامة الآلوسى. وإطلاق تسمية (التفسير) عليها يعتبر من قبيل العرف والمجاز. يقول الزركشي فى البرهان : (كلام الصوفية فى تفسير القرآن ، قيل : إنه ليس بتفسير ، وإنما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة) «٣».

الإشارات في البحر المديد :

أفصح الشيخ عن مراده من تفسيره حين قال : (مرادنا تربية اليقين بكلام رب العالمين). وقد بسط المفسر الحديث فى إشاراته عن آداب السلوك ، والأخلاق ، والمقامات ، والثمرات ، وقدّم لنا من خلال ذلك منهجا تربويا صوفيا إسلاميا متكاملا ، يسلكه من أراد أن تصفو روحه ، وتزكو نفسه ، ويحيا قلبه بنور معرفة الحق تعالى.

– ويلاحظ أن الشيخ ابن عجيبة لا ينظر إلى الخطابات الواردة فى القرآن على أنها موجهة إلى أقوام مخصوصين فحسب ، وإنما يرى مع ذلك أن الخطاب بهذه الآيات مازال قائما ، يوجه إلى الإنسان فى كل عصر وأوان ، يقول الشيخ رضى اللّه عنه : (إذا توجه الخطاب إلى طائفة مخصوصة ، حمله أهل الفهم عن اللّه على عمومه ، فإن الملك إذا عاتب قوما بمحضر آخرين كان المراد بذلك تحذير لكل سامع).

– والشيخ ابن عجيبة باعتباره صوفى يدعو إلى مقام الإحسان ، فإن له قاعدة فى إشارته ، يقول الشيخ عنها :

(اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هى أن كل عتاب توجه لمن ترك طريق الإيمان ، وأنكر على أهله ، يتوجه مثله لمن ترك طريق مقام الإحسان ، وأنكر على أهله).

---

(١) الآية ٤١ من سورة المائدة.

(٢) روح المعاني ٦/ ١٤٧.

(٣) راجع مناهل العرفان للزرقانى ٢/ ٧٨.

(٣٧/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٨

وهاكم بعض الأمثلة من إشارات الشيخ :

عند قوله تعالى وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ «١». يقول الشيخ فى إشارة الآية : اعلم أن كثيرا من الناس يعتمدون على صحبة الأولياء ، ويطلقون عنان أنفسهم فى المعاصي والشهوات ، ويقولون : سمعنا من سيدى فلان يقول : من رآنا لا تمسه النار ، وهذا غلط وغرور ، وقد قال عليه الصلاة والسلام لابنته : «يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئا اشتر نفسك من الله» وقال للذى قال : ادع الله أن أكون رفيقك فى الجنة ، فقال له «أعنى على نفسك بكثرة السجود».

وعند قوله تعالى : قُلْ أَتُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ وَلَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ «٢».

يقول الشيخ فى إشارة الآية : كل من أقامه الحق فى وجهة ، ووجهه إليها ، فهو عامل لله فيها ، قائم بمراد الله منها ، وما اختلفت الأعمال إلا من جهة المقاصد ، وما تفاوت الناس إلا من جهة الإخلاص ، فالخلق كلهم عبيد للملك المجيد ، وما وقع الاختصاص إلا من جهة الإخلاص ، فمن كان أكثر

إخلاصا لله كان أولى من غيره بالله ، وبقدر ما يقع للعبد من الصفاء يكون له من الاصطفاء ، فالصوفية والعلماء والعبّاد والزهاد وأهل الأسباب على اختلاف أنواعهم ، كلهم عاملون لله ، ليس أحد منهم بأولى من غيره بالله ، إلا من جهة الإخلاص وإفراد القلب لله. فمن ادعى الاختصاص بالله من غير هذه الوجهة فهو كاذب ، ومن اعتمد على عمل غيره فهو مغرور ، يقال له : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ.

وقد جاءت إشارات الإمام ابن عجيبة جامعة لدرر من المنظوم والمنثور ، فقد ضمنها الشيخ أقوال مجموعة كبيرة من كبار الصوفية ، كأبى يزيد البسطامي ، والجنيد ، والقشيري ، والشاذلى ، وأبى العباس المرسى ، وابن عطاء السكندرى ، وزروق ، والدرقاوى ، والبوزيدى ، وغيرهم. كما أنه ذكر كثيرا من أشعارهم ، كشعر ابن الفارض والجيلي والششترى ، ونقل حكما كثيرة من حكم ابن عطاء السكندرى وغيره ، كما نقل فى مواضع عديدة عن لطائف الإشارات للقشيرى ، وعرائس البيان للشيرازى ، وإحياء علوم الدين للغزالى ، وغيث المواهب العلية لابن عباد ، وبالتالى فقد حفل هذا التفسير بتراث جم من الفكر الصوفي.

---

(١) الآية ٨ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٣٩ من سورة البقرة. [.....]

وصف النسخ

اعتمدت فى التحقيق على ثلاث نسخ :

النسخة الأولى : محفوظة فى مكتبة السيد الفريق/ حسن التهامي. ومنها صورة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٦٢٤٦) مصورات خارج الدار ، وهى نسخة قيمة ، وتقع فى (٢٠٠٩) صفحة. وتتكون من أربعة أجزاء كبيرة :

الأول : من أول مقدمة المفسر حتى آخر تفسير سورة الأنفال - ويقع فى (٥٢٠) صفحة ، وسقطت من هذا الجزء ملزمة من تفسير سورة الأعراف من (ص ١٥٦) إلى (ص ١٨٧). ورقم ميكروفيلم هذا الجزء بدار الكتب :

(٤٣١٨٨).

الثاني : من أول تفسير سورة التوبة حتى آخر تفسير سورة المؤمنون. ويقع فى (٥٣٧) صفحة ، ورقم

ميكروفيلم هذا الجزء (٤٣١٨٥).
الثالث : من أول تفسير سورة النور حتى آخر تفسير سورة فصلت. ويقع فى (٤٥٤) صفحة ورقم الميكروفيلم (٤٣١٨٧).
الرابع : من أول تفسير سورة الشورى حتى تفسير سورة الناس. وعدد صفحاته (٤٩٨) ورقم الميكروفيلم (٤٣١٨٧).
وتعتبر هذه النسخة الأم لكل النسخ الأخرى ، فقد كتبت فى عهد المفسر ، وكان الفراغ من تبييضها كاملة فى :
السادس من ربيع الأول عام (١٢٢١ هـ). ووردت استدراكات على هامش هذه النسخة ، مما يفيد أن الشيخ المفسر قد راجعها ، وقد أدرجت هذه الاستدراكات فى صلب النسخ الأخرى.
وناسخ هذه المخطوطة هو الشيخ «عبد الغفور التهامي» ناسخ جل كتب الشيخ المفسر. والمخطوطة بخط مغربى حسن وواضح ، ومقاس صفحتها ٢٠ ٣٠ سم. والصفحة تشتمل على ٣١ سطرا.
النسخة الثانية : محفوظة فى مكتبة الأستاذ الدكتور/ حسن عباس زكى. وتتكون من أربعة أجزاء كاملة.
الأول : من أول مقدمة المفسر حتى آخر تفسير سورة الأنعام ، ويقع فى ٤٢٩ صفحة.
الثاني : من أول تفسير سورة الأعراف حتى آخر تفسير سورة الكهف. ويقع فى ٤١٨ صفحة.
الثالث : من أول تفسير سورة مريم حتى آخر تفسير سورة الصافات. ويقع فى ٤١١ صفحة.
الرابع : من أول تفسير سورة «ص» حتى آخر سورة الناس. ويقع فى ٤٩٠ صفحة.

وهذه النسخة أقل وضوحا من النسخة الأولى. وقد تعددت فيها مواطن التحريف وسقوط الكلمات ، وغير ذلك من تصحيف وتحريف.
النسخة الثالثة : محفوظة فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٤١) تفسير تيمور ، وتتكون من أربعة أجزاء ، إلا أن الجزء الرابع غير كامل.
الجزء الأول : من أول مقدمة المفسر حتى تفسير قوله تعالى : ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ..
الآية ١٤٧ من سورة النساء. ويقع هذا الجزء فى (٢٤١) لوحة ، وكل لوحة تشتمل على صفحتين.
ورقم ميكرو فيلم هذا الجزء بدار الكتب (٢٧٢٨٦).
الجزء الثاني : أوله : تفسير قوله تعالى : لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ .. الآية ١٤٨ من سورة النساء ،

وآخره :

تفسير قوله تعالى : لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى .. الآيتان ٩١ - ٩٢ من سورة التوبة ، ويقع هذا الجزء فى (٢٠٠) لوحة. ورقم الميكروفيلم (٣٨٠٦٦).

الجزء الثالث : أوله تفسير قوله تعالى : إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ .. الآية ٩٣ من سورة التوبة. وآخره : آخر تفسير سورة الكهف ويقع فى (٢٤٧) لوحة. ورقم الميكروفيلم (٣٧٢٨٦).

الجزء الرابع : أوله : تفسير قوله تعالى : وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. الآية ٤٦ من سورة العنكبوت إلى آخر سورة الصافات. ثم من أول سورة الشورى ، حتى تفسير قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الآية ٩ من سورة الزخرف. وبين هذا الجزء وبين سابقه سقط كبير وملازم مفقودة.

ويقع الموجود من هذا الجزء فى (١٦١) لوحة. ورقم الميكروفيلم (٢٩١٧٢) ونسخت هذه المخطوطة عام (١٢٩٩ ه) ، ومقاس صفحتها ١٢ ١٨ سم ، والصفحة تشتمل على ٢٨ سطرا. وكتبت بخط مغربى. كما كتبت الآيات وأسماء الأعلام بلون مخالف. لم يظهر فى التصوير. وهذه النسخة مثل سابقتها فى تعدد مواطن التحريف والنقص والتصحيف.

منهج التحقيق

(١) اعتمدت فى التحقيق على ثلاث نسخ. وبعد دراستها ، والتزام المقابلة بينها جميعا بكل دقة ، اعتمدت النسخة المحفوظة بمكتبة السيد الفريق/ حسن التهامي أصلا ، وذلك للاعتبارين الآتيين :

- أنها نسخة المؤلف. - أنها أكثر النسخ ضبطا ودقة ووضوحا وتماما.

ومن ثم حررت النص ، بحيث يظهر على صورة مطابقة للنسخة المذكورة.

(٢) تغاضيت عن الإشارة إلى الفروق الموجودة فى النسخ الأخرى ، كالسقط والتصحيف ، وذلك لئلا أثقل الكتاب بكثرة الهوامش التي لا ضرورة لها ، ولئلا يتضخم حجم الكتاب. أما الفروق الجوهرية فأشرت إليها ، وهى قليلة جدا.

(٣) حرصت أشد الحرص على تدبر النص ، مستعينا بأصول المؤلف ومصادره فى تفسيره. ونبهت فى الهامش على ما إذا كان النقل بالمعنى ، أو كان هناك اختلاف فى بعض العبارات.

(٤) راعيت إثبات قراءة حفص فى الهامش ، فى كل موضع جاءت القراءة فيه على غير هذه القراءة ، مع تخريج القراءات من مصادرها.

(٥) بداية من المجلد الثاني خرّجت الآيات القرآنية ، بإرجاعها إلى سورها ، وذكر أرقامها فى تلك السور كما عملت على تخريج ما أومأ إليه المفسر من آيات ، وحرصت على ذكر نص الآيات بالهامش.
(٦) بداية من المجلد الثاني خرّجت الأحاديث النبوية والآثار ، بإرجاعها إلى مصادرها. فإن كان الحديث فى الصحيحين أو أحدهما اقتصرت عليه ، وإن كان فى غيرها توسعت فى التخريج قدر الإمكان ، ونبهت إلى النص الأصلى للحديث ، كلما كان إيراده بالمعنى. كما عزوت أسباب النزول إلى مظانها ، من كتب الحديث وكتب التفسير الأخرى ، كالطبرى والبغوي والدر المنثور للسيوطى.
(٧) ضبطت بالشكل ما يشتبه من الألفاظ والأسماء وغيرها.
(٨) شرحت بعض الألفاظ بالرجوع إلى معاجم اللغة المشهورة.
(٩) علّقت باختصار على بعض المسائل التي تحتاج إلى تعليق.
(١٠) وزعت النص توزيعا فنيا ، ييسر الاطلاع عليه والانتفاع منه.
(١١) أثبت فى أعلى كل صفحة اسم السورة ، ورقم الآية ، ورقم الجزء ، تيسيرا للاستفادة ، وتوفيرا للوقت على القارئ ، عند البحث عن تفسير آية معينة.

(٤١/١)

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أذكر : أنه ولا بد وأن يوجد فى هذا العمل بعض النقص والهفوات ، التي يسبق إليها القلم ، أو يذهل عنها الفكر ، والكمال لله وحده.
وأسأل الله أن يتقبل هذا العمل ، ويجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن يثيبنى عليه بما يثيب به عباده الصالحين ... والحمد لله رب العالمين.
أحمد عبد الله القرشي رسلان المدرس المساعد بقسم التفسير بكلية أصول الدين - بطنطا جامعة الأزهر بنها فى ٢٧ - رمضان - ١٤١٩ هـ

(٤٢/١)

الصفة الأولى من المجلد الأول ، من النسخة المحفوظة بمكتبة السيد/ حسن التهامي «مصورات خارج الدار بالهيئة العامة للكتاب تحت رقم ٢٢٦٢٤٦»

(٤٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤

الصفحة الأخيرة من المجلد الرابع ، من النسخة المحفوظة بمكتبة السيد/ حسن التهامي

(٤٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٥

الصفحة الأولى من المجلد الأول ، من النسخة المحفوظة بمكتبة الدكتور/ حسن عباس زكى

(٤٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٦

اللوحة الأولى من المجلد الأول ، من النسخة التيمورية

(٤٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٧

الصفحة الأخيرة من المجلد الرابع ، من النسخة المحفوظة بمكتبة الدكتور/ حسن عباس زكى

(٤٧/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٨

(٤٨/١)

مقدمة المؤلف

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

(وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم)

قال الشيخ الإمام الحبر الهمام ، العارف الرباني والقطب الصمداني ، قدوة السالكين ومنار الواصلين ، بحر العرفان ، ومشرق شمس العيان ، مهيع الطريقة ، الجامع بين الشريعة وبحر الحقيقة ، أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى - رضى اللّه عنه وأرضاه - آمين :

نحمدك يا من تجلّى لعباده فى كلامه ، بكمال بهائه وجماله ، وفتق ألسنة العلماء النحارير لاستخراج درره ولآلئه ، وفجّر قلوبهم بينابيع الحكم المؤيدة بأصوله ومبانيه ، واستفادوا عند غوصهم فى تياره من فرائده ومثانيه ، فدحضوا بآياته الباهرة ، وحججه الظاهرة القاهرة شبه من يناويه ويعانيه ، والكلّ معترف بالتقصير ، مغترف على حسب الفهم والتيسير ، من بحر أسراره ومعانيه ، فهو البحر الطام الذي لا يدرك له قعر ، والروض المونق الذي لا يعدم منه زهر ولا نور ، وكيف لا ، وهو كلام مولانا العالم بالخفيات ، وبما كان وما هو الآن وما هو آت؟!.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ، مظهر الرحمات ، المبعوث بخوارق العادات ولوامع البينات ، وعلى آله وأصحابه أولى النّدى والسماحة ، وجبال اليقين فى اشتداد الأزمات وتفاقم المعضلات.

وبعد ... فإن علم تفسير القرآن من أجلّ العلوم ، وأفضل ما ينفق فيه نتائج الأفكار وقرائح الفهوم ، ولكن لا يتقدم لهذا الخطر الكبير إلا العالم النّحرير ، الذي رسخت أقدامه فى العلوم الظاهرة ، وجالت أفكاره فى معانى القرآن الباهرة ، بعد أن تضلّع من العلم الظاهر ، عربية وتصريفا ولغة وبيانا ، وفقها وحديثا وتاريخا ، يكون أخذ ذلك من أفواه الرجال ، ثم غاص فى علوم التصوف ذوقا وحالا ومقاما ، بصحبة أهل الأذواق من أهل الكمال ، وإلا فسكوته عن هذا الأمر العظيم أسلم ، واشتغاله بما يقدر عليه من علم الشريعة الظاهرة أتم.

واعلم أن القرآن العظيم له ظاهر لأهل الظاهر ، وباطن لأهل الباطن ، وتفسير أهل الباطن لا يذوقه إلا أهل الباطن ، لا يفهمه غيرهم ولا يذوقه سواهم ، ولا يصح ذكره إلا بعد تقرير الظاهر ، ثم يشير إلى علم الباطن بعبارة رقيقة وإشارة دقيقة ، فمن لم يبلغ فهمه لذوق تلك الأسرار فليسلّم ، ولا يبادر بالإنكار فإنّ علم الأذواق من وراء طور العقول ، ولا يدرك بتواتر النقول.

قال فى لطائف المنن : اعلم أن تفسير هذه الطائفة - يعنى الصوفية - لكلام اللّه وكلام رسوله صلى اللّه عليه وسلّم بالمعاني الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له ودلت عليه فى حرف اللسان ،

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٠
وثمّ أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح اللّه قلبه ، وقد جاء أنه - عليه الصلاة والسلام - قال : «لكل آية ظاهر وباطن وحدّ ومطّلع». فلا يصدّنك عن تلقى المعاني الغريبة منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة : هذا إحالة لكلام اللّه - عز وجل - وكلام رسوله صلى اللّه عليه وسلّم فليس بإحالة ، وإنما يكون إحالة لكلام اللّه لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا ، وهم لا يقولون ذلك. بل يقرّون الظواهر على ظواهرها ومراداتها وموضوعاتها ، ويفهمون عن اللّه ما أفهمهم. هـ.
وقال سعد الدين فى شرح عقائد النسفي - بعد إبطال الإلحاد - : (و أمّا ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى حقائق تنكشف لأرباب السلوك ، يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان) وقوله : يمكن التطبيق ... إلخ ، أي : يمكن أن يشار إليها فى باطن الخطاب بحيث لا ينبو عنها سرّ الخطاب ، ولا يبعد اللفظ عنها كل البعد حتى يكون تحريفا.
وقال الشيخ زرّوق رضى الله عنه : نظر الصوفي أخص من نظر المفسر وصاحب فقه الحديث ، لأن كلا منهما يعتبر الحكم والمعنى ليس إلا وهو يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتاه. وإلّا فهو باطني خارج عن الشريعة فضلا عن المتصوفة. واللّه أعلم. هـ.
وقوله عليه الصلاة والسلام : «لكل آية ظاهر وباطن وحدّ ومطّلع» فالظاهر لمن اعتنى بظاهر اللفظ ، كالنحاة وأهل اللغة والتصريف ، والباطن لمن اعتنى بمعنى اللفظ ، وما دلّ عليه الكلام من الأمر والنهى والقصص والأخبار والتوحيد ، وغير ذلك من علوم القرآن ، وهو نظر المفسرين. والحدّ لمن اعتنى باستنباط الأحكام منه ، وهم الفقهاء ، فهم ينتهون إلى ما يدل عليه اللفظ وسيق لأجله ، دون زيادة عليه. والمطّلع لأهل الحقائق من أكابر الصوفية ، لأنهم يطلعون من ظاهر الآية إلى باطنها ، فيكشف لهم عن أسرار وعلوم وغوامض ، تتجلى لهم عند استعمال الفكرة فيها.
قال فى الصّحاح : فى الحديث : «من هول المطّلع» ، شبّه ما أشرف عليه من أمر الآخرة بالمطّلع وهو المأتى.
يقال : أين مطلع هذا الأمر؟ أي : مأتاه ، وهو موضع الاطلاع من إشراف إلى انحدار. هـ لأن أهل الحقائق يشرفون من ظاهر الآية إلى أسرار باطنها ، ويغوصون فى لجج بحرها. واللّه تعالى أعلم.
هذا ... وقد ندبنى شيخى العارف الرباني سيدى محمد البوزيدى الحسنى ، وكذلك شيخه القطب الجامع شيخ المشايخ مولاى العربي الدرقاوى الحسنى ، أن أضع تفسيرا يكون جامعا بين تفسير أهل الظاهر وإشارة أهل الباطن ، فأجبت سؤالهم وأسعفت طلبتهم ، رجاء أن يعمّ به الانتفاع ، ويكون ممتعا

للقلوب والأسماع. مقدّما فى كل آية ما يتعلق بمهمّ العربية واللغة ، ثم بمعاني الألفاظ الظاهرة ، ثم بالإشارات الباطنة. متوسطا فى ذلك بين الإطناب

والاختصار. منتظرا فى ذلك كله ما يفتح عليّ من خزائن الكريم الغفار .. وسميته (البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد) نسأل اللّه أن يكسوه جلباب القبول ، وأن يبلغ فيه القصد المأمول ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم. وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وقد ذكرت فى تفسير الفاتحة الكبير عشر مقدمات تتعلق بأصول العلوم وتفاريعها ، وعلوم القرآن وأصل منابعها ، فلينظرها من أرادها. وباللّه التوفيق.

سورة الفاتحة

مكية. ولها عشرة أسماء : الفاتحة والوافية والكافية والشافية ، والسبع المثاني لأنها سبع آيات عند الشافعي منها البسملة ، وأسقطها مالك وجعل السابعة : غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ الآية ، أو تثنى فى كل صلاة ، أو لاشتمالها على الثناء على اللّه. وأمّ القرآن لأنها مفتتحه ومبدؤه ، أو لأنها اشتملت على ما فيه إجمالا على ما يأتي ، وسورة الحمد والشكر ، وسورة تعليم المسألة ، وسورة الصلاة لتكريرها فيها ، وأساس القرآن لأنها أصله ومبدؤه ويبنى سائره عليها.

[سورة الفاتحة (١) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (١)

واتفقت المصاحف على افتتاحها ب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ واختلف الأئمة فيها ، فقال مالك : ليست آية لا من الفاتحة ولا من غيرها إلا من النمل خاصة ، وقال الشافعي : هى آية من الفاتحة فقط ، وقال ابن عباس : هى آية من كل سورة.

فحجة مالك : ما فى الصحيح عنه صلى اللّه عليه وسلّم قال : «أنزلت عليّ سورة ليس فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الفرقان مثلها ، ثم قال : الحمد للّه رب العالمين) ولم يذكر البسملة. وكذلك ما

ورد فى الصحيح أيضا أن اللّه يقول : «قسمت الصّلاة بينى وبين عبدى نصفين. يقول العبد : الحمد للّه ربّ العالمين» فبدأ بها دون البسملة.

وحجة الشافعي : ما ورد فى الصحيح «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم كان يقرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم. الحمد للّه رب العالمين». وحجة ابن عباس : ثبوت البسملة مع كل سورة فى المصحف ، مع تحرّى الصحابة ألا يدخلوا فى المصحف غير كلام اللّه ، وقالوا : ما بين الدفّتين كلام اللّه.

وإذا ابتدأت أوّل سورة بسملت إلا براءة ، وسيأتى الكلام عليها. وإذا ابتدأت جزء سورة فأنت مخير عند الجمهور.

وإذا أتممت سورة وابتدأت أخرى فاختلف القرّاء فى البسملة وتركها.

وأما حكمها فى الصلاة ، فقال مالك : مكروهة فى الفرض دون النفل ، وقال الشافعي : فرض تبطل الصلاة بتركها ، فيبسمل - عنده - جهرا فى الجهر وسرا فى السر ، وعند أبى حنيفة كذلك إلا أنه يسرّها مطلقا ، وحجة مالك أنها ليست بآية : ما فى الحديث الصحيح عن أنس أنه قال : (صلّيت خلف النبي صلى اللّه عليه وسلّم وأبى بكر وعمر وعثمان ، فكانوا يستفتحون بالحمد للّه رب العالمين) لا يذكرون البسملة أصلا. وحجة الشافعي أنها عنده آية : ما ورد فى الحديث من قراءتها كما تقدم.

(٥٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٣

ولم تكن البسملة قبل الإسلام ، فكانوا يكتبون : باسمك اللهم ، حتى نزلت بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها فكتبوا بِسْمِ اللَّهِ حتى نزل : ... أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ فكتبوا : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ حتى نزل : ... وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، فكتبوها.

وحذفت الألف لكثرة الاستعمال ، والباء متعلقة بمحذوف ، اسم عند البصريين ، أي : ابتدائى كائن بسم اللّه ، فموضعها رفع. وفعل عند الكوفيين ، أي : أبدأ أو أتلو. فيقدّر كل واحد ما جعلت البسملة مبدأ له ، فموضعها نصب ، ويقدر مؤخرا لإفادة الحصر والاختصاص. وهو مشتق من السّموّ عند البصريين ، فلامه محذوفة ، وعند الكوفيين من السّمة ، أي : العلامة ، ففاؤه محذوفة ، ودليل البصريين : التصغير والتكسير ، فقالوا : أسماء ، ولم يقولوا أوسام ، وقالوا :

سمى ، ولم يقولوا : وسيم.

و(اللّه) علم على الذات الواجبة الوجود ، المستحق لجميع المحامد ، وهل هو مشتق أو مرتجل؟ قولان يأتى الكلام عليهما فى (الحمد للّه) ، وكذلك (الرحمن الرحيم).

قال الحق جل جلاله :

[سورة الفاتحة (١) : الآيات ٢ الى ٤]
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٢) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)
قلت : (الحمد) مبتدأ ، و(للّه) خبر ، وأصله النصب ، وقرئ به ، والأصل : أحمد اللّه حمدا ، وإنما عدل عنه إلى الرفع ليدل على عموم الحمد وثباته ، دون تجدده وحدوثه ، وفيه تعليم اللفظ مع تعريض الاستغناء. أي : الحمد للّه وإن لم تحمدوه. ولو قال (أحمد اللّه) لما أفاد هذا المعنى ، وهو من المصادر التي تنصب بأفعال مضمرة لا تكاد تذكر معها. والتعريف للجنس أي : للحقيقة من حيث هى ، من غير قيد شيوعها ، ومعناه : الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد أن الحمد ما هو. أو للاستغراق إذ الحمد فى الحقيقة كلّه للّه إذ ما من خير إلا وهو موليه بواسطة وبغير واسطة. كما قال : وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وقيل : للعهد ، والمعهود حمده تعالى نفسه فى أزله.
وقرئ (الحمد للّه) بإتباع الدال للام «١» ، وبالعكس «٢» ، تنزيلا لهما من حيث إنهما يستعملان معا منزلة كلمة واحدة.
ومعناه فى اللغة : الثناء بالجميل على قصد التعظيم والتبجيل ، وفى العرف : فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعما. والشكر فى اللغة : فعل يشعر بتعظيم المنعم ، فهو مرادف للحمد العرفي ، وفى العرف : صرف

---

(١) فى الكسر - وهى قراءة شاذة.
(٢) أي : اتباع اللام الدال فى الضم ، وهى قراءة شاذة أيضا.

العبد جميع ما أنعم اللّه عليه من السمع والبصر إلى ما خلق لأجله وأعطاه إياه. وانظر شرحنا الكبير للفاتحة فى النّسب التي بيناها نظما ونثرا.
و(اللّه) اسم مرتجل جامد ، والألف واللام فيه لازمة لا للتعريف ، قال الواحدي : اسم تفرّد به الباري - سبحانه - يجرى فى وصفه مجرى الأسماء الأعلام ، لا يعرف له اشتقاق ، وقال الأقليشى : إن هذا الاسم مهما لم يكن مشتقا كان دليلا على عين الذات ، دون أن ينظر فيها إلى صفة من الصفات ، وليس باسم مشتق من صفة ، كالعالم والحق والخالق والرازق ، فالألف واللام على هذا فى (اللّه) من نفس الكلمة ، كالزاى من زيد ، وذهب إلى هذا جماعة ، واختاره الغزالي وقال : كل ما قيل فى اشتقاقه فهو تعسّف.

وقيل : مشتق من التّألّه وهو التعبد ، وقيل : من الولهان ، وهو الحيرة لتحيّر العقول فى شأنه. وقيل : أصله :
الإله ، ثم حذفت الهمزة ونقلت حركتها إلى اللام ، ثم وقع الإدغام وفخمت للتعظيم ، إلا إذا كان قبلها كسر.
و(رب) نعت (للّه) ، وهو فى الأصل : مصدر بمعنى التربية ، وهو تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا ، ثم وصف به للمبالغة كالصوم والعدل.
وقيل : هو وصف من ربّه يربّه ، وأصله : ربب ثم أدغم ، سمى به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه ، ولا يطلق على غيره تعالى إلا بقيد كقوله تعالى : ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ. قال ابن جزىّ : ومعانيه أربعة : الإله والسيد والمالك والمصلح ، وكلها تصلح فى رب العالمين ، إلا أن الأرجح فى معناه : الإله لاختصاصه باللّه تعالى.
و(العالمين) جمع عالم ، والعالم : اسم لما يعلم به ، كالخاتم لما يختم به ، والطابع لما يطبع به. غلب فيما يعلم به الصانع. وهو كل ما سواه من الجواهر والأعراض ، فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثّر واجب لذاته ، تدل على وجوده ، وإنما جمع ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة ، وغلّب العقلاء منهم فجمع بالياء والنون كسائر أوصافهم ، فهو جمع ، لا اسم جمع ، خلافا لابن مالك.
وقيل : اسم وضع لذوى العلم من الملائكة والثقلين ، وتناوله لغيرهم على سبيل الاستتباع ، وقيل : عنى به هذا الناس ، فإن كل واحد منهم عالم ، حيث إنه يشتمل على نظائر ما فى العالم الكبير ، ولذا سوّى بين النظر فيهما فقال :
وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ.

قلت : وإليه يشير قول الشاعر :
يا تائها فى مهمه عن سرّه انظر تجد فيك الوجود بأسره
أنت الكمال طريقة وحقيقة يا جامعا سرّ الإله بأسره
والرَّحْمنِ الرَّحِيمِ اسمان بنيا للمبالغة ، من رحم ، كالغضبان من غضب ، والعليم من علم ، والرحمة فى اللغة : رقّة القلب ، وانعطاف يقتضى التفضل والإحسان ، ومنه الرّحم لانعطافها على ما فيها. وأسماء اللّه تعالى إنما تؤخذ باعتبار الغايات ، التي هى أفعال ، دون المبادئ التي هى انفعالات. و(الرحمن) أبلغ من (الرحيم) لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، كقطّع وقطع ، وذلك إنما يؤخذ تارة باعتبار

الكمية ، وأخرى باعتباره الكيفية.

فعلى الأول : قيل : يا رحمن الدنيا لأنه يعمّ المؤمن والكافر ، ورحيم الآخرة لأنه يختص بالمؤمن ، وعلى الثاني قيل : يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا لأن النعم الأخروية كلها جسام ، وأما النعم الدنيوية فجليلة وحقيرة.

وإنما قدّم (الرحمن) – والقياس الترقي من الأدنى إلى الأعلى – لتقدّم رحمة الدنيا ، ولأنه صار كالعلم من حيث إنه لا يوصف به غيره لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ فى الرحمة غايتها ، وذلك لا يصدق على غيره تعالى.

انظر البيضاوي. وسيأتى الكلام عليهما فى المعنى.

و(ملك) نعت لما قبله ، قراءة الجماعة بغير ألف من (الملك) بالضم ، وقرأ عاصم والكسائي بالألف ، من (الملك) بالكسر ، والتقدير على هذا : مالك مجئ يوم الدين ، أو مالك الأمر يوم الدين. وقراءة الجماعة أرجح ، لثلاثة أوجه :

الأول : أن الملك أعظم من مالك ، إذ قد يوصف كل أحد بالمالك لماله ، وأما الملك فهو سيد الناس ، والثاني : قوله :

وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، والثالث : أنها لا تقتضى حذفا ، والحذف خلاف الأصل «١».

و(يوم الدين) ظرف مضاف إلى ما قبله على طريق الاتساع ، وأجرى الظرف مجرى المفعول به ، والمعنى على الظرفية ، أي : الملك فى يوم الدين ، أو ملك الأمر يوم الدين ، فيكون فيه حذف. وقد رويت القراءتان – أي :

القصر والمد – عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم.

---

(١) ينبغى ألا يكون ترجيح فى هذا المجال ، مع ورود القراءتين عن الرسول صلى اللّه عليه وسلّم والقراءتان – كما يقول الآلوسى – : فرسا رهان ، ومتى أردت الترجيح تعارضت الأدلة.

وقد قرئ (ملك) بوجوه كثيرة تركنا ذكرها لشذوذها. فإن قيل : ملك ومالك نكرة لأن إضافة اسم الفاعل لا تخصص ، وكيف ينعت به (الرحمن الرحيم) وهما معرفتان؟ قلت : إنما تكون إضافة اسم الفاعل لا تخصص إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال لأنها حينئذ غير محضة ، وأما هذا فهو مستمر دائما ، فإضافته محضة. قاله ابن جزىّ.

يقول الحق جل جلاله معلّما لعباده كيف يثنون عليه ويعظمونه ثم يسألونه : يا عبادى قولوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ أي : الثناء الجميل إنما يستحقه العظيم الجليل ، فلا يستحق الحمد سواه ، إذ لا منعم على الحقيقة إلا اللّه ، وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ. أو جميع المحامد كلّها للّه ، أو الحمد المعهود فى الأذهان هو حمد اللّه تعالى نفسه فى أزله ، قبل أن يوجد خلقه ، فلما أوجد خلقه قال لهم : الحمد للّه ، أي : احمدونى بذلك الحمد المعهود فى الأزل.

وإنما استحق الحمد وحده لأنه رَبِّ الْعالَمِينَ ، وكأن سائلا سأله : لم اختصصت بالحمد؟ فقال : لأنى ربّ العالمين ، أنا أوجدتهم برحمتي ، وأمددتهم بنعمتي ، فلا منعم غيرى ، فاستحققت الحمد وحدي ، منّى كان الإيجاد وعليّ توالى الإمداد ، فأنا ربّ العباد ، فالعوالم كلها - على تعدد أجناسها واختلاف أنواعها - فى قبضتى وتحت تربيتى ورعايتى.

قال بعضهم : خلق اللّه ثمانية عشر ألف عالم ، نصفها فى البر ونصفها فى البحر. وقال الفخر الرازي : روى أن بنى آدم عشر الجن ، وبنو آدم والجن عشر حيوانات البر ، وهؤلاء كلّهم عشر الطيور ، وهؤلاء كلهم عشر حيوانات البحار ، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الأرض الموكلين ببني آدم ، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة سماء الدنيا ، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الثانية ، ثم على هذا الترتيب إلى ملائكة السماء السابعة ، ثم الكلّ فى مقابلة الكرسي نزر قليل ، ثم هؤلاء عشر ملائكة السّرادق الواحد من سرادقات العرش ، التي عددها : مائة ألف ، طول كل سرادق وعرضه - إذا قوبلت به السموات والأرض وما فيهما وما بينهما - يكون شيئا يسيرا ونزرا قليلا. وما من موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم ، وله زجل بالتسبيح والتهليل. ثم هؤلاء كلهم فى مقابلة الذين يجولون حول العرش كالقطرة فى البحر ، ولا يعلم عددهم إلا اللّه تعالى : وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ. هـ.

وقال وهب بن منبّه : (قوائم العرش ثلاثمائة وست وستون قائمة ، وبين كل قائمة وقائمة ستون ألف صحراء ، وفى كل صحراء ستون ألف عالم ، وكل عالم قدر الثقلين).

فهذه العوالم كلها فى قبضة الحق وتحت تربيته وحفظه ، يوصل المدد إلى كل واحد وهو فى مستقرّه ومستودعه ، إما إلى روحانيته من قوة العلوم والمعارف ، وإما إلى بشريته من قوة الأشباح ، من العرش إلى الفرش ،

كلها مقدّرة أرزاقها محصورة آجالها ، محفوظة أشباحها ، معلومة أماكنها ، لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم.

ثم هذه التربية التي ربى سبحانه بها خلقه إنما هى رحمة منه وإحسان ، لا لزوم عليه وإيجاب ، ولذلك وصله بقوله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، أي : الرحمن بنعمة الإيجاد ، الرحيم بنعمة الإمداد. «نعمتان ما خلا موجود عنهما ، ولا بد لكل مكوّن منهما : نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ، أنعم أولا بالإيجاد ، وثنى بتوالي الإمداد». كما فى (الحكم) «١». فاسمه (الرحمن) يقتضى إيجاد الأشياء وإبرازها ، واسمه (الرحيم) يقتضى تربيتها وإمدادها. ولذلك لا يجوز إطلاق اسم (الرحمن) على أحد ، ولم يتسمّ أحد به إذ الإيجاد لا يصح من غيره تعالى ، بخلاف اسمه (الرحيم) فيجوز إطلاقه على غيره تعالى لمشاركة صدور الإمداد فى الظاهر من بعض المخلوقات مجازا وعارية.

أو : الرحمن فى الدنيا والآخرة ، والرحيم فى الآخرة لأن رحمة الآخرة خاصة بالمؤمنين. أو الرحمن بجلائل النعم والرحيم بدقائقها ، فجلائل النعم مثل : نعمة الإسلام والإيمان والإحسان ، والمعرفة والهداية ، وكشف الحجاب وفتح الباب والدخول مع الأحباب ، ودقائق النعم مثل : الصحة والعافية والمال الحلال ، وغير ذلك مما يأتى ذكره فى المنعم عليهم.

ثم من تحقق منه الإيجاد والإمداد استحق أن يكون ملكا لجميع العباد ، ولذلك ذكره بأثره فقال : مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ أي : المتصرف فى عباده كيف شاء ، لا رادّ لما قضى ولا مانع لما أعطى ، فهو ملك الملوك رب الأرباب فى هذه الدار وفى تلك الدار. وإنما خصّ يوم الدين - وهو يوم الجزاء - بالملكية لأن ذلك اليوم يظهر فيه الملك للّه عيانا لجميع الخلق ، فإن اللّه تعالى يتجلّى لفصل عباده ، حتى يراه المؤمنون عيانا ، بخلاف الدنيا فإن تصرفه تعالى لا يفهمه إلا الكملة من المؤمنين ، ولذلك ادّعى كثير من الجهلة الملك ونسبوه لأنفسهم. ويوم القيامة ينفرد الملك للّه عند الخاص والعام ، قال تعالى : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ.

الإشارة : لما تجلّى الحق سبحانه من عالم الجبروت إلى عالم الملكوت ، أو تقول : من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، حمد نفسه بنفسه ، ومجّد نفسه بنفسه ، ووحّد نفسه بنفسه ، وللّه درّ الهروىّ ، حيث قال :

ما وحّد الواحد من واحد إذ كلّ من وحّده جاحد

---

(١) لابن عطاء الله السكندرى.

توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلها الواحد

توحيده إياه توحيده ونعت من ينعته لاحد «١»

فقال فى توحيد نفسه بنفسه مترجما عن نفسه بنفسه : (الحمد للّه رب العالمين) ، فكأنه يقول فى عنوان كتابه وسر خطابه : أنا الحامد والمحمود ، وأنا القائم بكل موجود ، أنا رب الأرباب ، وأنا مسبب الأسباب لمن فهم الخطاب ، أنا رب العالمين ، أنا قيوم السموات والأرضين ، بل أنا المتوحد فى وجودى ، والمتجلّى لعبادى بكرمى وجودى ، فالعوالم كلها ثابتة بإثباتى ، ممحوّة بأحدية ذاتي.

قال رجل بين يدى الجنيد : (الحمد للّه) ولم يقل : (رب العالمين) ، فقال له الجنيد : كمّلها يا أخى ، فقال الرجل : وأىّ قدر للعالمين حتى تذكر معه؟! فقال الجنيد : قلها يا أخى فإن الحادث إذا قرن بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم.

يقول سبحانه : يا من هو منى قريب ، تدبر سرّى فإنه غريب ، أنا المحب ، وأنا الحبيب ، وأنا القريب ، وأنا المجيب ، أنا الرحيم الرحمن ، وأنا الملك الديان ، أنا الرحمن بنعمة الإيجاد ، والرحيم بتوالي الإمداد. منّى كان الإيجاد ، وعلىّ دوام الإمداد ، وأنا رب العباد ، أنا الملك الدّيان ، وأنا المجازى بالإحسان على الإحسان ، أنا الملك على الإطلاق ، لو لا جهالة أهل العناد والشقاق ، الأمر لنا على الدوام ، لمن فهم عنا من الأنام.

قال فى الرسائل الكبرى «٢» : لا عبرة بظواهر الأشياء ، وإنما العبرة بالسر المكنون ، وليس ذلك إلا بظهور أمر الحق وارتفاع غطائه وزوال أستاره وخفائه ، فإذا تحقق ذلك التجلي والظهور ، واستولى على الأشياء الفناء والدّثور ، وانقشعت الظلمات بإشراق النور ، فهناك يبدو عين اليقين ويحق الحق المبين ، وعند ذلك تبطل دعوى المدعين ، كما يفهم العامة بطلان ذلك فى يوم الدين ، حين يكون الملك للّه رب العالمين ، وليت شعرى أىّ وقت كان الملك لسواه حتى يقع التقييد بقوله : الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ وقوله : وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ؟! لو لا الدعاوى العريضة من القلوب المريضة. هـ.

---

(١) مضمون الأبيات كما يقول الشيخ ابن عجيبة فى إيقاظ الهمم : أن الحق تولى توحيد نفسه بنفسه. فكل من ادعى أنه وحده بنفسه فهو جاحد لوحدانيته ، حيث أشرك معه نفسه ، وكل من ينعته بنفسه فهو لاحد - أي : مائل عن الصواب. وهذا المعنى من المعاني التي ينبغى أن تفهم فى ضوئها هذه الأبيات ، وللأبيات محامل أخرى ذكرها العلامة ابن القيم. فلتنظر فى كتابه مدارج السالكين. وانظر أيضا : مدارج السلوك لأبى بكر بنانى.

(٢) لابن عباد النفزي ، شارح الحكم.

ثم تنزل لبيان العبودية ، فقال :

[سورة الفاتحة (١) : آية ٥]

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

قلت : (إياك) مفعول (نعبد) ، وقدّم للتعظيم والاهتمام به ، والدلالة على الحصر ، ولذلك قال ابن عباس :

(نعبدك ولا نعبد معك غيرك) ، ولتقديم ما هو مقدّم فى الوجود وهو الملك المعبود ، وللتنبيه على أن العابد ينبغى أن يكون نظره إلى المعبود أولا وبالذات ، ومنه إلى العبادة ، لا من حيث إنها عبادة صدرت عنه ، بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه ، ووصلة بينه وبين الحق ، فإن العارف إنما يحقّ وصوله إذا استغرق فى ملاحظة جناب القدس ، وغاب عما عداه ، حتى إنه لا يلاحظ نفسه ولا حالا من أحوالها إلا من حيث إنها تجلّ من تجلياته ومظهر لربوبيته ، ولذلك فضل ما حكى اللّه عن حبيبه حين قال : لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا ، على ما حكاه عن كليمه حيث قال : إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ أي : حيث صرّح بمطلوبه ، و(إياك) مفعول (نستعين) وقدّم أيضا للاختصاص والاهتمام ، كما تقدم فى إِيَّاكَ نَعْبُدُ. وكرّر الضمير ولم يقل : إياك نعبد ونستعين لأن إظهاره أبلغ فى إظهار الاعتماد على اللّه ، وأقطع فى إحضار التعلق باللّه والإقبال على اللّه وأمدح ، ألا ترى أن قولك : بك أنتصر وبك أحتمى وبك أنال مطالبى - أبلغ وأمدح من قولك : بك أنتصر وأحتمى ... إلخ؟.

وقدم العبادة على الاستعانة ليتوافق رءوس الآي ، وليعلم منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة ، فإن من تلبّس بخدمة الملك وشرع فيها بحسب وسعه ، ثم طلب منه الإعانة عليها أجيب إلى مطلبه ، بخلاف من كلّفه الملك بخدمته ، فقال : أعطنى ما يعيننى عليها ، فهو سوء أدب ، وأيضا : من استحضر الأوصاف العظام ما أمكنه إلا المسارعة إلى الخضوع والعبادة ، وأيضا : لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أوهم ذلك تبجحا واعتدادا منه بما يصدر عنه فعقبه بقوله : وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، دفعا لذلك التوهم.

والعبادة : أقصى غاية الخضوع والتذلل ، ومنه طريق معبّد ، أي : مذلل ، والاستعانة : طلب المعونة ، والمراد طلب المعونة فى المهمات كلّها ، أو فى أداء العبادات.

والضمير المستتر فى الفعلين للقارئ ومن معه من الحفظة وحاضرى صلاة الجماعة ، أو له ولسائر الموجودين.

أدرج عبادته فى تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تقبل ببركتها ويجاب إليها ، ولهذا شرعت الجماعة. قاله البيضاوي.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٦٠

يقول الحق جل جلاله ، تتميما لتعليم عباده : فإذا أثنيتم على ومجدتمونى وعظمتمونى فأقروا لى بالربوبية ، وأظهروا من أنفسكم العبودية ، واطلبوا منى العون فى كل وقت وقولوا : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، وكأنه - جل جلاله - لمّا ذكر أنه مستحق للمحامد كلها قديمها وحديثها لأنه رب العوالم وقيومها ، أصل الأصول وفروعها ، أنعم عليها أولا بالإيجاد ، وثانيا بتوالي الإمداد ، فهو مالكها على الإطلاق ، ذكر أنه لا يستحق أن يعبد سواه إذ لا منعم على الحقيقة إلا اللّه ، فهو أحقّ أن يعبد ، وأولى أن يفرد بالوجهة والقصد ، لأنه مستبد وغير مستمدّ ، والمادة من عين الجود ، فإذا انقطعت المادة انعدم الوجود.

قال البيضاوي : ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد ، ووصف بصفات عظام تميّز بها عن سائر الذوات ، تعلّق العلم بمعلوم معين ، خوطب بذلك ، أي : يا من هذا شأنه نخصّك بالعبادة والاستعانة ، ليكون أدل على الاختصاص ، وللترقى من الغيبة إلى الشهود ، وكأن المعلوم صار عيانا ، والمعقول مشاهدا ، والغيبة حضورا. بنى أول الكلام على ما هو مبادئ حال العارف من الذكر والفكر والتأمل فى أسمائه ، والنظر فى آلائه ، والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه ، ثم قفى بما هو منتهى أمره ، وهو أن يخوض لجة الوصول ، ويصير من أهل المشاهدة ، فيراه عيانا ويناجيه شفاها. اللهم اجعلنا من الواصلين إلى العين دون التابعين للأثر. ومن عادة العرب التفنن فى الكلام والعدول عن أسلوب إلى آخر ، تطرية وتنشيطا للسامع ، فتعدل من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم ، كقوله : حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ ... ولم يقل (بكم) وقوله أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ ... أي : ولم يقل : فساقه .. انظر تمام كلامه.

والالتفات هنا فى قوله : إِيَّاكَ نَعْبُدُ ولم يقل : إياه نعبد لأن الظاهر من قبل الغيبة ، وحسنه أن الموصوف تعيّن وصار حاضرا.

قال الأقليشى : فهذه الآية هى التي قال فيها النبي صلى اللّه عليه وسلّم : «فإذا قال العبد : إياك نعبد وإياك نستعين ، يقول اللّه تعالى : هذه بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل». معناه : أي عبد توجّه إلى بالعبادة وسألنى العون عليها فعبادته متقبلة ، والعون منى له عليها حاصل حتى يوقعها على وجهها ، فالعبادة وصف العبد ، والعون من اللّه تعالى للعبد ، فلهذا قال : «فهذه بينى وبين عبدى».

قال ابن جزي : أي نطلب العون منك على العبادة وعلى جميع أمورنا ، وفى هذا دليل على بطلان قول القدرية والجبرية ، وأنّ الحق بين ذلك.

الإشارة : لمّا تجلى الحق جل جلاله من عالم الجبروت إلى عالم الملكوت ، وحمد نفسه بنفسه ، تجلى أيضا وتنزّل من عالم الملكوت إلى عالم الملك بقدرته وحكمته لإظهار آثار أسمائه وصفاته ، فأظهر العبودية وأخفى الربوبية ، أظهر الحكمة وأبطن القدرة ، فجعل عالم الحكمة يخاطب عالم القدرة ، ويخضع له ، ويتعبد ويستمد ، منه الإعانة والهداية ، ويتحرز من طريق الضلالة والغواية.
فعالم الحكمة محل التكليف ، وعالم القدرة محل التصريف ، عالم الحكمة عالم الأشباح ، وعالم القدرة عالم الأرواح ، فإياك نعبد لأهل عالم الحكمة ، وإياك نستعين لأهل عالم القدرة. ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : إِيَّاكَ نَعْبُدُ شريعة ، وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ حقيقة ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ إسلاما ، وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ إحسانا ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ عبادة ، وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ عبودية ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ فرق إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ جمع. هـ.
وإن شئت قلت : إِيَّاكَ نَعْبُدُ لأهل العمل للّه وهم المخلصون ، وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ لأهل العمل باللّه وهم الموحّدون ، العمل للّه يوجب المثوبة ، والعمل باللّه يوجب القربة ، العمل للّه يوجب تحقيق العبادة ، والعمل باللّه يوجب تصحيح الإرادة ، العمل للّه نعت كلّ عابد ، والعمل باللّه نعت كل قاصد ، العمل للّه قيام بأحكام الظواهر ، والعمل باللّه قيام بإصلاح الضمائر. قاله القشيري.
ثم إنّ الناس فى شهود القدرة والحكمة على ثلاثة أقسام : قسم حجبوا بالحكمة عن شهود القدرة ، وهم أهل الحجاب من أهل الغفلة ، وقفوا مع قوله : إِيَّاكَ نَعْبُدُ ، وقسم حجبوا بشهود القدرة عن الحكمة ، وهم أهل الفناء ، وقفوا مع قوله : إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، وقسم لم يحجبوا بالحكمة عن القدرة ولا بالقدرة عن الحكمة ، أعطوا كلّ ذى حق حقّه ووفّوا كل ذى قسط قسطه ، وهم أهل الكمال من أهل البقاء ، جمعوا بين قوله : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، وباللّه التوفيق.
ثم بيّن المقصود الأعظم وما هو المطلوب الأهم ، وهو طلب الهداية والتوفيق إلى عين التحقيق ، فقال :

[سورة الفاتحة (١) : آية ٦]
اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)
قلت : الهداية فى الأصل : الدلالة بلطف ، ولذلك تستعمل فى الخير ، وقوله : فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ على التهكم ، والفعل منه (هدى) بالفتح ، وأصله أن يعدى باللام ، أو «إلى» ، فعومل هنا معاملة :
وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ. والصراط لغة : الطريق ، مشتق من سرط الطعام إذا ابتلعه ، فكأنها تبتلع السابلة أي

المارّة به ، وقلبت السين صادا لتطابق الطاء فى الإطباق ، وقد تشمّ زايا لقرب المخرج ، و(المستقيم) : الذي لا عوج فيه ، والمراد به طريق الحق الموصلة إلى اللّه.

يقول الحق جل جلاله : معلما لعباده كيف يطلبونه ، وما ينبغى لهم أن يطلبوا ، أي : قولوا (اهدنا) أي : أرشدنا إلى الطريق المستقيم ، الموصلة إلى حضرة النعيم ، والطريق المستقيم هو السير على الشريعة المحمدية فى الظاهر ، والتبرّى من الحول والقوة فى الباطن ، أو تقول : هو أن يكون ظاهرك شريعة وباطنك حقيقة ، ظاهرك عبودية وباطنك حرية ، الفرق على ظاهرك موجود والجمع فى باطنك مشهود ، وفى الحكم : «متى جعلك فى الظاهر ممتثلا لأمره وفى الباطن مستسلما لقهره ، فقد أعظم المنّة عليك».

فالصراط المستقيم الذي أمرنا الحقّ بطلبه هو : الجمع بين الشريعة والحقيقة ، والمفهوم من قوله : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، ولذلك وصله به ، فكأن الحق – سبحانه – يقول : يا عبادى احمدونى ومجدونى وأفردونى بالقصد وخصّونى بالعبادة ، وكونوا فى ظاهركم مشتغلين بعبادتي ، وفى باطنكم مستعينين بحولي وقوتى ، أو كونوا فى ظاهركم متأدبين بخدمتي ، وفى باطنكم مشاهدين لقدرتى وعظمة ربوبيتى.

وقال سيدنا على – كرّم اللّه وجهه – : (الصراط المستقيم هنا القرآن). وقال جابر رضي اللّه عنه : (هو الإسلام) يعنى الحنيفية السمحاء ، وقال سهل بن عبد اللّه : (هو طريق محمد صلى اللّه عليه وسلّم). يعنى اتباع ما جاء به. وحاصله ما تقدم من إصلاح الظاهر بالشريعة والباطن بالحقيقة ، فهذا هو الطريق المستقيم الذي من سلكه كان من الواصلين المقربين مع النبيين والصدّيقين.

فإن قلت : إذا كان العبد ذاهبا على هذا المنهاج المستقيم ، فكيف يطلب ما هو حاصل؟ فالجواب : أنه طلب التثبيت على ما هو حاصل ، والإرشاد إلى ما هو ليس بحاصل ، فأهل مقام الإسلام يطلبون الثبات على الإسلام ، الذي هو حاصل ، والترقي إلى مقام الإيمان الذي ليس بحاصل ، على طريق الصوفية ، الذين يخصون العمل الظاهر بمقام الإسلام ، والعمل الباطن بمقام الإيمان ، وأهل الإيمان يطلبون الثبات على الإيمان الذي هو حاصل ، والترقي إلى مقام الإحسان الذي ليس بحاصل ، وأهل مقام الإحسان يطلبون الثبات على الإحسان ، والترقي إلى مالا نهاية له من كشوفات العرفان وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ.

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ بالتثبيت فيما هو حاصل ، والإرشاد فيما ليس بحاصل ، ثم قال : عموم المؤمنين يقولون : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ أي : بالتثبيت فيما هو

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٦٣
حاصل ، والإرشاد لما ليس بحاصل ، فإنه حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين ، والصالحون يقولون :
اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ معناه : نسألك التثبيت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء ، والشهداء يقولون : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ أي بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل ، فإنهم حصلت لهم الشهادة وفاتهم درجات الصديقين ، والصديقون يقولون : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ أي : بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم درجات الصديقين وفاتهم درجات القطب. والقطب يقول : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ بالتثبت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل ، فإنه حصل له رتبة القطبانية ، وفاته علم ما إذا شاء اللّه أن يطلعه عليه أطلعه. هـ.
وقال بعضهم : الهداية إمّا للعين وإما للأثر الدالّ على العين ، ولا نهاية للأولى. قلت : فالأولى لأهل الشهود والعيان ، والثانية لأهل الدليل والبرهان ، فالهداية للعين هى الدلالة على اللّه. والهداية للأثر هى الدلالة على العمل ، «من دلّك على اللّه فقد نصحك ، ومن دلك على العمل فقد أتعبك». وإنما كانت الأولى لا نهاية لها لأن الترقي بعد المعرفة لا نهاية له. بخلاف الدلالة على الأثر فنهايتها الوصول إلى العين ، إن كان الدالّ عارفا بالطريق.
قال البيضاوي : وهداية اللّه تتنوع أنواعا لا يحصيها عد وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها لكنها تنحصر فى أجناس مترتبة :
الأول : إفاضة القوى التي بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه ، كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة.
الثاني : نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد ، وإليه الإشارة بقوله : وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ ، وقال : فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى .
الثالث الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإياها عنى بقوله : وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا ، وقوله : إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ.
الرابع : أن يكشف عن قلوبهم السرائر ويريهم الأشياء كما هى بالوحى والإلهام والمنامات الصادقة.
وهذا يختص بنيله الأنبياء والأولياء ، وإياه عنى بقوله : أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ ، وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٦٤
فالمطلوب : إما زيادة ما منحوه من الهدى والثبات عليه ، أو حصول المراتب المترتبة عليه ، فإذا قال العارف الواصل عنى بقوله : أرشدنا طريق السير فيك ، لتمحو عنا ظلمات أحوالنا ، وتميط غواشى أبداننا ، لنستضىء بنور قدسك فنراك بنورك. هـ.
قلت : قوله الرابع ... إلخ ، فى عبارته قلق واختصار ، والصواب أن يقول : الرابع - أن يكشف عن قلوبهم الظلم والأغيار ، ويشرق عليها الأنوار والأسرار ، ويريهم الأشياء كما هى بالوحى والإلهام ، وباستعمال الفكرة فى عظمة الملك العلّام ، حتى تستولى أنوار المعاني على حسّ الأواني ، ثم يقول : وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء.
وقوله : فإذا قال العارف .. إلخ ، الصواب أن يقول : فإذا قاله المريد السائر لأن الواصل انمحت عنه الظلمات كلها والغواشي وسائر الأكدار لأن اللّه تعالى غطّى وصفه بوصفه ونعته بنعته ، فلم يبق له وصف ظلماني. وأيضا قوله : [أرشدنا إلى طريق السير] إنما يناسب السائر دون الواصل لأن الواصل ما بقي له إلا الترقي ، ولا يسمى فى اصطلاح الصوفية [السير] إلا قبل الوصول. واللّه تعالى أعلم.
ثم فسرّ الطريق المستقيم ، فقال :
[سورة الفاتحة (١) : آية ٧]
صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧)
قلت : (صراط) بدل من الأول - بدل الكل من الكل - وهو فى حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة ، وفائدته : التوكيد والتنصيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة ، على آكد وجه وأبلغه لأنه جعله كالتفسير والبيان له ، فكأنه من البيّن الذي لا خفاء فيه ، وأن الصراط المستقيم ما يكون طريق المؤمنين ، وغَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ بدل من (الذين) على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال.
أو صفة له مبيّنة أو مقيدة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة ، وهى نعمة الإيمان ، وبين السلامة من الغضب والضلال ، وذلك إنما يصح بأحد تأويلين : إجراء الموصول مجرى النكرة ، إذ لم يقصد به معهود كالمعرّف فى قوله :
ولقد أمرّ على اللئيم يسبنّى «١» ...
أو يجعل (غير) معرفة لأنه أضيف إلى ماله ضدّ واحد ، وهو المنعم عليه ، فيتعين تعين الحركة غير السكون ، وإلا لزم عليه نعت المعرفة بالنكرة. فتأمله.

(١) هذا شطر بيت ، وتمامه : (فمضيت ثمة قلت لا يعنينى).

والغضب : ثوران النفس إرادة الانتقام ، فإذا أسند إلى اللّه تعالى أريد غايته وهو العقوبة ، و(عليهم) نائب فاعل ، و(لا) مزيدة لتأكيد ما فى (غير) من معنى النفي ، فكأنه قال : ولا المغضوب عليهم ولا الضالين ، وقرأ عمر رضي اللّه عنه (و غير الضالين) والضلال : العدول عن الطريق السوي عمدا أو خطأ ، وله عرض عريض والتفاوت بين أدناه وأقصاه كبير. قاله البيضاوي.

وإنما أسند النعمة إلى اللّه والغضب إلى المجهول تعليما للأدب ، ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ... الآية.

يقول الحق جل جلاله فى تفسير الطريق المستقيم : هو طريق الذين أنعمت عليهم بالهداية والاستقامة ، والمعرفة العامة والخاصة ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، والمنعم عليهم فى الآية مطلق ، يصدق بكل منعم عليه بالمعرفة والاستقامة فى دينه ، كالصحابة وأضرابهم. وقيل : المراد بهم أصحاب سيدنا موسى عليه السّلام قبل التحريف. وقيل : أصحاب سيدنا عيسى قبل التغيير. والتحقيق أنه عام.

قال البيضاوي : ونعم اللّه وإن كانت لا تحصى كما قال اللّه : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها تنحصر في جنسين : دنيوى وأخروى.

فالأول : وهو الدنيوي - قسمان : موهبى وكسبى ، والموهبي قسمان : روحانى ، كنفخ الروح فيه وإشراقه بالعقل وما يتبعه من القوى ، كالفهم والفكر والنطق ، وجسمانى : كتخليق البدن بالقوة الحالة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء. والكسبي : كتزكية النفس عن الرذائل ، وتحليتها بالأخلاق الحسنة والملكات الفاضلة ، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلي المستحسنة ، وحصول الجاه والمال.

والثاني : وهو الأخروى - : أن يغفر له ما فرط منه ويرضى عنه ويبوئه فى أعلى علّيين ، مع الملائكة المقربين أبد الآبدين ، والمراد القسم الأخير ، وما يكون وصلة إلى نيله من القسم الأول ، وأما ما عدا ذلك فيشترك فيه المؤمن والكافر. هـ.

قال ابن جزى : النعم التي يقع عليها الشكر ثلاثة أقسام ، دنيوية : كالصحة والعافية والمال الحلال. ودينية :

كالعلم والتقوى والمعرفة. وأخروية : كالثواب على العمل القليل بالعطاء الجزيل. وقال أيضا : والناس فى الشكر على مقامين : منهم من يشكر على النعم الواصلة إليه ، الخاصة به ، ومنهم من يشكر اللّه عن جميع خلقه على النعم الواصلة إلى جميعهم. والشكر على ثلاث درجات : فدرجة العوام : الشكر على النعم ، ودرجة الخواص : الشكر على النعم والنقم وعلى كل حال ، ودرجة خواص الخواص : أن يغيب عن رؤية النعمة بمشاهدة المنعم. قال رجل

لإبراهيم بن أدهم رضى اللّه عنه : الفقراء إذا أعطوا شكروا وإذا منعوا صبروا ، فقال إبراهيم : هذه أخلاق الكلاب ، ولكن القوم إذا منعوا شكروا وإذا أعطوا آثروا. هـ.

ثم احترس من الطريق غير المستقيمة ، فقال : غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ أي : غير طريق الذين غضبت عليهم ، فلا تهدنا إليها ولا تسلك بنا سبيلها ، بل سلّمنا من مواردها. والمراد بهم : اليهود ، كذا فسرها النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، ويصدق بحسب العموم على كل من غضب اللّه عليهم ، وَلَا الضَّالِّينَ أي : ولا طريق الضالين ، أي : التالفين عن الحق ، وهم النصارى كما قال صلى اللّه عليه وسلّم. والتفسيران مأخوذان من كتاب اللّه تعالى. قال تعالى فى شأن اليهود :

فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ ، وقال فى حق النصارى : قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ.

واعلم أن الحق - سبحانه - قسم خلقه على ثلاثة أقسام : قسم أعدّهم للكرم والإحسان ، ليظهر فيهم اسمه الكريم أو الرحيم ، وهم المنعم عليهم بالإيمان والاستقامة. وقسم أعدّهم للانتقام والغضب ، ليظهر فيهم اسمه المنتقم أو القهار ، وهم المغضوب عليهم والضالون عن طريق الحق عقلا أو عملا ، وهم الكفار ، وقسم أعدّهم اللّه للحلم والعفو ، ليظهر فيهم اسمه تعالى الحليم والعفو ، وهم أهل العصيان من المؤمنين.

فمن رام أن يكون الوجود خاليا من هذه الأقسام الثلاثة ، وأن يكون الناس كلهم سواء فى الهداية أو ضدها ، فهو جاهل باللّه وبأسمائه إذ لا بد من ظهور آثار أسمائه فى هذا الآدمي ، من كرم وقهرية وحلم وغير ذلك. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الطريق المستقيم التي أمرنا الحق بطلبها هى : طريق الوصول إلى الحضرة ، التي هى العلم باللّه على نعت الشهود والعيان ، وهو مقام التوحيد الخاص ، الذي هو أعلى درجات أهل التوحيد ، وليس فوقه إلا مقام توحيد الأنبياء والرسل ، ولا بدّ فيه من تربية على يد شيخ كامل عارف بطريق السير

، قد سلك المقامات ذوقا وكشفا ، وحاز مقام الفناء والبقاء ، وجمع بين الجذب والسلوك لأن الطريق عويص ، قليل خطّاره ، كثير قطّاعه ، وشيطان هذه الطريق فقيه بمقاماته ونوازله ، فلا بد فيه من دليل ، وإلا ضل سالكها عن سواء السبيل ، وإلى هذا المعنى أشار ابن البنا ، حيث قال :

وإنّما القوم مسافرون لحضرة الحقّ وظاعنون

فافتقروا فيه إلى دليل ذى بصر بالسّير والمقيل

قد سلك الطّريق ثمّ عاد ليخبر القوم بما استفاد

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٦٧

وقال فى لطائف المنن : (من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع ، ويكشف له عن قلبه القناع ، فهو فى هذا الشأن لقيط لا أب له ، دعيّ لا نسب له ، فإن يكن له نور فالغالب غلبة الحال عليه ، والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من اللّه إليه ، لم ترضه سياسة التأديب والتهذيب ، ولم يقده زمام التربية والتدريب) ، فهذا الطريق الذي ذكرنا هو الذي يستشعره القارئ للفاتحة عند قوله : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ مع الترقي الذي ذكره الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه المتقدم ، وإذا قرأ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ استشعر ، أي : أنعمت عليهم بالوصول والتمكين فى معرفتك.

وقال الورتجبي : اهدنا مرادك منّا لأن الصراط المستقيم ما أراد الحق من الخلق ، من الصدق والإخلاص فى عبوديته وخدمته. ثم ، قال : وقيل : اهدنا هدى العيان بعد البيان ، لنستقيم لك حسب إرادتك. وقيل : اهدنا هدى من يكون منك مبدؤه ليكون إليك منتهاه. ثم قال : وقال بعضهم : اهدنا ، أي : ثبّتنا على الطريق الذي لا اعوجاج فيه ، وهو الإسلام ، وهو الطريق المستقيم والمنهاج القويم صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ أي : منازل الذين أنعمت عليهم بالمعرفة والمحبة وحسن الأدب فى الخدمة. ثم قال : غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ يعنى : المطرودين عن باب العبودية ، وَلَا الضَّالِّينَ يعنى المفلسين عن نفائس المعرفة هـ.

قلت : والأحسن أن يقال : غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ هم الذين أوقفهم عن السير اتباع الحظوظ والشهوات ، فأوقعهم فى مهاوى العصيان والمخالفات ، وَلَا الضَّالِّينَ هم الذين حبسهم الجهل والتقليد ، فلم تنفذ بصائرهم إلى خالص التوحيد ، فنكصوا عن توحيد العيان إلى توحيد الدليل والبرهان ، وهو ضلال عند أهل الشهود والعيان ، ولو بلغ فى الصلاح غاية الإمكان.

وقال فى الإحياء : إذا قلت بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ فافهم أن الأمور كلها باللّه ، وأن المراد هاهنا المسمّى ، وإذا كانت الأمور كلها باللّه فلا جرم أن الحمد كله للّه ، ثم قال : وإذا قلت : الرَّحْمنِ

الرَّحِيمِ فأحضر فى قلبك أنواع لطفه لتنفتح لك رحمته فينبعث به رجاؤك ، ثم استشعر من قلبك التعظيم والخوف من قولك : يَوْمِ الدِّينِ. ثم قال : ثم جدّد الإخلاص بقولك : إِيَّاكَ نَعْبُدُ. وجدّد العجز والاحتياج والتبرّى من الحول والقوة بقولك : وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، ثم اطلب اسم حاجتك ، وقل : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضى بنا إلى مرضاتك ، وزده شرحا وتفصيلا وتأكيدا ، واستشهد بالذين أفاض عليهم نعم الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين واليهود والنصارى والصابئين.
هـ. ملخصا.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٦٨
وقال القشيري : قوله تعالى : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ الأمر فى هذه الآية مضمر ، أي : قولوا : اهدنا. والصراط المستقيم : طريق الحق ، وهو ما عليه أهل التوحيد ، أي : أرشدنا إلى الحق لئلا نتكل على وسائط المعاملات ، فيقع على وجه التوحيد غبار الظنون والحسابات لتكون دليلنا عليك. ثم قال : صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ أي : الواصلين بك إليك ، ثم قال : غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ بنسيان التوفيق والتّعامى عن رؤية التأييد ، وَلَا الضَّالِّينَ عن شهود سابق الاختيار ، وجريان تصاريف الأقدار. هـ.
تتمات :
الأولى : هذه السورة جمعت معانى القرآن كلّها ، فكأنها نسخة مختصرة منه ، ولذلك سميت أمّ القرآن ، فالإلهيات حاصلة من قوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ. الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، والدار الآخرة من قوله : مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، والعبادات كلّها من الاعتقادات والأحكام الظاهرة التي تقتضيها الأوامر والنواهي ، من قوله : إِيَّاكَ نَعْبُدُ والمقامات وأسرار المعاملات الباطنة - تخلية وتحلية - من قوله : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ والأنبياء وغيرهم من قوله : الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ وذكر طوائف الكفار من قوله : غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.
وقال الشيخ ابن أبى جمرة رضى اللّه عنه فى بيان تضمنها لكتاب اللّه : إن لفظ (الحمد) يتضمن كل ما فى كتاب اللّه من الحمد والشكر لأن الحمد أعمّ من الشكر ، وأتى بالعام ليدل على الصفتين. ولفظة (اللّه) تدل على ما فى الكتاب العزيز من أسماء الترفيع والتعظيم لأنه قيل : إنه اسم اللّه الأعظم ، ولفظ : رَبِّ الْعالَمِينَ يدل على ما فيه من أسماء اللّه ، سبحانه ، وعلى العوالم وعلى اختلافها وخالقها والمتصرف فيها. ولفظ : الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ يتضمن كل ما فى الكتاب من المغفرة والرحمة والإنعام والعفو والإفضال ، ولفظ مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ يدل على ما فيه من ذكر الآخرة وما فيه من الأهوال ، ولفظ إِيَّاكَ

نَعْبُدُ يتضمن ما فيه من التعبّدات وإفراده بالألوهية ، ولفظ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ يدل على ما فيه من طلب الاستعانة وذكر الاضطرار ، ولفظ اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ يتضمن ما فيه من طلب الهداية إلى سبيل الخير ، ولفظ : صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ يتضمن ما فيه من ذكر الخصوص والمرضىّ عنهم والمعفوّ عنهم وأهل السعادة ، ولفظ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ يتضمن ما فيه من أنواع الكفر والمخالفات ومساوئهم ومآلهم فاستحقّت أن تسمى أمّا. هـ.

(٦٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٦٩

وعن على - كرم اللّه وجهه - قال : (شرح موسى عليه السّلام التوراة فى سبعين سفرا ، ولو أذن لى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم لأوقرت على الفاتحة سبعين بعيرا). قلت : قوله (سبعين) تقريبا ، وإلا فهى قابلة لأكثر من ذلك ، وتفصيل ذلك يطول ، وقد ذكرنا أصول علومها فى شرحنا الكبير عليها. واللّه تعالى أعلم.

الثانية : قال ابن جزىّ : قولنا : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ أفضل عند المحققين من (لا إله إلا اللّه) لوجهين :

أحدهما : ما أخرج النّسائيّ : عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم «أنه من قال : لا إله إلا اللّه ، كتبت له عشرون حسنة ، ومن قال :

الحمد للّه ربّ العالمين ، كتبت له ثلاثون حسنة». والثاني : أن التوحيد الذي تقتضيه (لا إله إلا اللّه) ، حاصل فى قولك : (رب العالمين) وزادت بقولك : الحمد للّه ، وفيه من المعاني ما قدّمنا. وأما قوله صلى اللّه عليه وسلّم : «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا اللّه» فإنما ذلك للتوحيد الذي تقتضيه ، وقد شاركتها (الحمد للّه رب العالمين) فى ذلك وزادت عليها. وهذا لمؤمن حقّق إيمانه وطلب الثواب ، وأما لمن دخل فى الإسلام فيتعيّن «لا إله إلا اللّه». هـ.

قلت : والتحقيق أن كل ما يدل على التوحيد من الألفاظ يكفى فى الدخول فى الإسلام ، كما قال البنانىّ فى حاشيته.

الثالثة : قراءة الفاتحة فى الصلاة واجبة عند مالك والشافعي خلافا لأبى حنيفة ، وقد ذكرنا فى الشرح الكبير منشأ الخلاف.

الرابعة : التأمين عند ختم الفاتحة مطلوب للدعاء الذي فيها ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : «ما حسدتكم اليهود على شىء ما حسدتكم على السّلام والتّأمين». رواه ابن ماجة. وقال أيضا صلى اللّه عليه وسلّم : «إن اللّه أعطانى خصالا ثلاثة :

أعطانى صلاة الصّفوف وأعطانى التحية ، وإنها لتحية أهل الجنة ، وأعطانى التأمين ، ولم يعطه أحدا من النبيين قبلى ، إلا أن يكون اللّه أعطاه هارون ، يدعو موسى ويؤمن هارون» رواه ابن خزيمة. وسمع عليه الصلاة والسلام رجلا يدعو ويلح فقال : «أوجب إن ختم» فقال بعض القوم : بأيّ شيء يختم؟ فقال : «يؤمن فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب». قال أبو زهير - راوى الحديث - فإن آمين مثل الطّابع على الصحيفة. ولعلّه مرفوع إلى النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، رواه أبو داود.

ولفظ آمِّينَ بالمدّ والقصر مخففا. وتشديد الميم لغة. قيل : هو اسم من أسماء اللّه تعالى .. وقيل معناه : اللهم استجب ، أو كذلك فافعل ، أو كذلك فليكن. قاله المنذرى فى الترغيب. قال البيضاوي : بنى على الفتح كأين لالتقاء الساكنين ، وجاء مدّ ألفه وقصرها. قال :

ويرحم اللّه عبدا قال آمينا «١»

---

(١) هذا شطر بيت ، أوله : (يا رب لا تسلبنى حبها أبدا ...) ونسبه ابن منظور فى اللسان إلى عمر بن أبى ربيعة. قلت : وقد أغفل الشيخ المفسر ذكر مثال القصر. وهو كما فى أنوار التنزيل ولسان العرب : تباعد منى فطحل ، إذ سألته أمين فزاد الله ما بيننا بعدا

وليس من القرآن اتفاقا ، ولكن يسنّ ختم السورة به لقوله عليه الصلاة والسلام : «علّمنى جبريل عليه السّلام آمين عند فراغى من قراءة الفاتحة». وقال : إنّه كالختم على الكتاب.

ويقوله الإمام ويجهر به فى الجهرية ، لما روى عن وائل بن حجر «أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا قرأ : وَلَا الضَّالِّينَ قال : آمين ، رفع بها صوته» وعن أبى حنيفة - رحمه اللّه - أنه لا يقوله. والمشهور عنه أنه يخفيه كما رواه عبد اللّه بن مغفل وأنس. قلت : ومشهور مذهب مالك أن الإمام لا يقوله فى الجهرية.

ثم قال : والمأموم يؤمن معه لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «إذا قال الإمام ولا الضالين ، فقولوا : آمين ، فإن الملائكة تقول : آمين ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدّم من ذنبه». وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلى اللّه على سيدنا ومولانا محمد عين الحق والتحقيق ، وعلى آله وصحبه المطهرين بعده ، أعلام الطريق ، وسلّم تسليما.

سورة البقرة

قال سيدنا على - كرم اللّه وجهه - : (أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة) «١». وفيها ستة آلاف ومائة وإحدى وعشرون كلمة ، ومائتان وست وثمانون آية ، وقيل : سبع وثمانون. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : «لكلّ شيء سنام ، وإنّ سنام القرآن سورة البقرة. من قرأها فى بيته نهارا لم يدخله شيطان ثلاثة أيام ، ومن قرأها فى بيته ليلا لم يدخله شيطان ثلاث ليال ، وفيها سيّدة آي القرآن ، وهى آية الكرسي». وإنما كانت سنام القرآن ، أي ذروته لأنها اشتملت على جملة ما فيه من أحوال الإيمان وفروع الإسلام.

وقال صلى اللّه عليه وسلّم : «أعطيت سورة البقرة من الذكر الأول ، وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى ، وأعطيت فاتحة الكتاب ، وخواتيم البقرة من تحت العرش».

ثم افتتح السورة برموز رمز بها بينه وبين حبيبه ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١)

وقد حارت العقول فى رموز الحكماء ، فكيف بالأنبياء؟ فكيف بالمرسلين؟ فكيف بسيد المرسلين؟ ، فكيف يطمع أحد فى إدراك حقائق رموز رب العالمين؟! قال الصديق رضى اللّه عنه : (فى كل كتاب سر وسر ، القرآن فواتح السور). هـ.

فمعرفة أسرار هذه الحروف لا يقف عليها إلا الصفوة من أكابر الأولياء. وكل واحد يلمع له على قدر صفاء شربه.

وأقرب ما فيها أنها أشياء أقسم اللّه بها لشرفها. فقيل : إنها مختصرة من أسمائه تعالى ، فالألف من اللّه ، واللام من اللطيف ، والميم من مهيمن أو مجيد. وقيل : من أسماء نبيه صلى اللّه عليه وسلّم فالميم مختصرة إما من المصطفى ، ويدل عليه زيادة الصاد فى المص ، أو من المرسل ، ويدل عليه زيادة الراء فى المر. والر مختصرة من الرسول. فكأن الحق تعالى يقول : يا أيها المصطفى ، أو يا أيها الرسول ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ أوهذا كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ أو غير ذلك ، ويدل على هذا توجيه الخطاب إليه صلى اللّه عليه وسلّم بعد هذه الرموز. وكهيعص مختصرة من الكافي والهادي والولي والعالم والصادق ، وطه من طاهر ، وطس من يا طاهر يا سيد ، ويا محمد فى طسم ، إلى غير ذلك.

---

(١) ذكره السيوطي فى الدر المنثور ١/ ٤٦ عن عكرمة. وعزاه لأبى داود فى الناسخ والمنسوخ. ولم أقف عليه منسوبا إلى سيدنا على - كرم اللّه وجهه - .

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٧٢
وعند أهل الإشارة يقول الحق جل جلاله : ألف : أفرد سرّك إليّ ، انفراد الألف عن سائر الحروف ، واللام : ليّن جوارحك لعبادتي ، والميم : أقم معي بمحو رسومك وصفاتك ، أزينك بصفاء الأنس والقرب مني. قاله الثعلبي.
قلت : والأظهر أنها حروف تشير للعوالم الثلاثة ، فالألف لوحدة الذات في عالم الجبروت ، واللام لظهور أسرارها في عالم الملكوت ، والميم لسريان أمدادها في عالم الرحموت ، والصاد لظهور تصرفها في عالم الملك.
وكل حرف من هذه الرموز يدل على ظهور أثر الذات في عالم الشهادة ، فالألف يشير إلى سريان الوحدة في مظاهر الأكوان ، واللام : يشير إلى فيضان أنوار الملكوت من بحر الجبروت ، والميم يشير إلى تصرف الملك في عالم الملك ، وكأن الحق تعالى يقول : هذا الكتاب الذي تتلو يا محمد - هو فائض من بحر الجبروت إلى عالم الملكوت ، ومن عالم الملكوت إلى الرحموت ، ثم نزل به الروح الأمين إلى عالم الملك والشهادة ، فلا ينبغي أن يرتاب فيه ، ولذلك رتب عليه قوله تعالى :
ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ ...
قلت : الريب : تحرّك القلب واضطرابه بالشكوك والأوهام ، وتقابله الطمأنينة بالسكون إلى الحق على الدوام.
يقول الحق جل جلاله : يا أيها الرسول المصطفى والنبي المجتبى ذلِكَ الْكِتابُ الذي أنزلناه عليك من جبروت قدسنا وملكوت عزّنا لا رَيْبَ فِيهِ أنه من عندنا. فمن ارتاب فيه ، أو نسبه إلى غيرنا ، فقد استحق البعد من ساحة رحمتنا ، وحلت عليه شدائد نقمتنا ، ومن تحقق به أنه من لدنا ، وآمن بمن جاء به من عندنا ، فقد استحق دخول حضرة قدسنا حتى يسمع منا ويتكلم بنا ، فإذا أحببته كنت له ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يتكلم ... الحديث.
فيكون من الصديقين المقربين مع النبيين والمرسلين ، وكان في ذروة درجات المتقين ، الذين يهتدون بهدى القرآن المبين ، كما أشار إلى ذلك بقوله :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢]
ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (٢)
قلت : (هدى) خبر عن مبتدأ مضمر ، أو مبتدأ بتقديم الخبر. أي : هو هاد للمتقين ، أو فيه الهدى لهم. والهدى :
هو الإرشاد والبيان ، ومعناه : الدلالة الموصلة إلى الحق. والمتقى : من جعل بينه وبين مقت اللّه وقاية

، وله ثلاث درجات :
حفظ الجوارح من المخالفات ، وحفظ القلوب من المساوئ والهفوات ، وحفظ السرائر من الوقوف مع المحسوسات ،

(٧٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٧٣
فالأولى لمقام الإسلام ، وإليه توجه الخطاب بقوله : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، والثانية لمقام الإيمان ، وإليه توجه الخطاب بقوله : فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ ، والثالثة لمقام الإحسان ، وإليه توجه الخطاب بقوله : اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ.
يقول الحق جل جلاله : ذلِكَ الْكِتابُ الذي لا يقرب ساحته شكّ ولا ارتياب ، هو عين الهداية لأهل التقى من ذوى الألباب ، فلا يزالون يترقّون به فى المقامات والأحوال حتى يسمعوه من الكبير المتعال ، بلا واسطة تبليغ ولا إرسال ، قد انمحت فى حقهم الرسوم والأشكال ، وهذه غاية الهداية ، وتحقيق سابق العناية.
قال جعفر الصادق : (و اللّه لقد تجلى اللّه تعالى لخلقه فى كلامه ولكن لا يشعرون) وقال أيضا - وقد سألوه عن حالة لحقته فى الصلاة حتى خر مغشيا عليه ، فلما سرّى عنه ، قيل له فى ذلك فقال - : (ما زلت أردد الآية على قلبى حتى سمعتها من المتكلم بها ، فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته).
فدرجات القراءة ثلاث :
أدناها : أن يقرأ العبد كأنه يقرأ على اللّه تعالى واقفا بين يديه ، وهو ناظر له ومستمع منه ، فيكون حاله السؤال والتملق والتضرع والابتهال.
والثانية : أن يشهد بقلبه كأن اللّه تعالى يخاطبه بألفاظه ، ويناجيه بإنعامه وإحسانه ، فمقامه الحياء والتعظيم ، والإصغاء والفهم.
والثالثة : أن يرى فى الكلام المتكلم ، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ، بل يكون فانيا عن نفسه ، غائبا فى شهود ربه ، لم يبق له عن نفسه إخبار ولا مع غير اللّه قرار.
فالأولى لأهل الفناء فى الأفعال ، والثانية لأهل الفناء فى الصفات ، والثالثة لأهل الفناء فى شهود الذات ، رضى اللّه عنهم ، وحشرنا على منهاجهم .. آمين.
ثم وصف المتقين ، الذين خصوا بهداية كتابه المبين ، بثلاثة أوصاف ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٣]
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)

قلت : هذه الأوصاف تتضمن ثلاثة أعمال : الأول : عمل قلبى وهو الإيمان ، والثاني : عمل بدني ، وهو الصلاة ، والثالث : عمل مالى ، وهو الإنفاق فى سبيل اللّه ، وهذه الأعمال هى أساس التقوى التي تدور عليها.

(١/٧٣)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٧٤

أما العمل القلبي : فهو الإيمان أولا ، والمعرفة ثانيا ، فما دام العبد محجوبا بشهود نفسه ، محصورا فى الأكوان وفى هيكل ذاته فهو مؤمن بالغيب ، يؤمن بوجود الحق تعالى ، وبما أخبر به من أمور الغيب ، يستدل بوجود أثره عليه ، فإذا فنى عن نفسه وتلطفت دائرة حسه ، وخرجت فكرته عن دائرة الأكوان ، أفضى إلى الشهود والعيان ، فصار الغيب عنده شهادة ، والملك ملكوتا ، والمستقبل حالا ، والآتي واقعا ، وقد قلت فى ذلك :

فلا ترضى بغير اللّه حبّا وكن أبدا بعشق واشتياق

ترى الأمر المغيّب ذا عيان وتحظى بالوصول وبالتّلاقى

وفى الحكم : «لو أشرق نور اليقين فى قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها ، ولرأيت بهجة الدنيا وكسوة الفناء ظاهرة عليها». وقال فى التنوير : ولو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان ، ولأشرق نور الإيقان فغطى وجود الأكوان. هـ.

وإنما اقتصر الحق تعالى على الإيمان بالغيب لأنه هو المكلف به إذ هو الذي يطيقه جل العباد ، بخلاف المعرفة الخاصة فلا يطيقها إلا الخصوص ، واللّه تعالى أعلم.

وأما العمل البدني : فهو إقامة الصلاة ، والمراد بإقامتها إتقان شروطها وأركانها وخشوعها ، وحفظ السر فيها ، قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : (كل موضع ذكر فيه المصلون فى معرض المدح فإنما جاء لمن أقام الصلاة ، إما بلفظ الإقامة ، وإما بمعنى يرجع إليها ، قال تعالى : الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ ، وقال تعالى : أَقِمِ الصَّلاةَ ، وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ ، ولما ذكر المصلين بالغفلة قال : فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ ولم يقل : فويل للمقيمين الصلاة).

وأما العمل المالى فهو الإنفاق فى سبيل اللّه واجبا أو مندوبا ، وهو من أفضل القربات ، يقول اللّه - تبارك وتعالى - : «يا ابن آدم أنفق ، أنفق عليك» ، وفى حديث آخر : «أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا» ، وقال صلى اللّه عليه وسلّم :

«إنّ فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها. قيل لمن هى يا رسول اللّه؟ قال : لمن أطعم الطعام ، وأفشى السلام ، وصلى باللّيل والناس نيام». وقال أيضا صلى اللّه عليه وسلّم : «إن اللّه

– عز وجل – ليدخل باللقمة من الخبز والقبضة من التمر ومثله ممّا ينتفع به المسكين ثلاثة ، الجنة : رب البيت الآمر به ، والزوجة تصلحه ، والخادم

الذي يناوله المسكين». وقال أيضا : صلى اللّه عليه وسلّم «إنّ الصدقة لتسدّ سبعين بابا من السّوء». وقال أيضا صلى اللّه عليه وسلّم : «صنائع المعروف تقى مصارع السّوء ، وصدقة السرّ تطفئ غضب الربّ ، وصلة الرّحم تزيد فى العمر».

الإشارة : يا من غرق فى بحر الذات وتيار الصفات (ذلك الكتاب) الذي تسمعه من أنوار ملكوتنا ، وأسرار جبروتنا (لا ريب فيه) أنه من عندنا ، فلا تسمعه من غيرنا ، (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) ، فهو هاد لشهود ذاتنا ، ومرشد للوصول إلى حضرتنا ، لمن اتقى شهود غيرنا ، وغرق فى بحر وحدتنا ، الذي يؤمن بغيب غيبنا ، وأسرار جبروتنا ، التي لا تحيط بها العلوم ، ولا تسمو إلى نهايتها الأفكار والمفهوم ، الذي جمع بين مشاهدة الربوبية ، والقيام بوظائف العبودية ، إظهارا لسر الحكمة بعد التحقق بشهود القدرة ، فهو على صلاته دائم ، وقلبه فى غيب الملكوت هائم ، ينفق مما رزقه اللّه من أسرار العلوم ومخازن الفهوم ، فهو دائما ينفق من سعة علمه وأنوار فيضه ، فلا جرم أنه على بينة من ربه.

ولمّا ذكر الحق تعالى من آمن من العرب ، ذكر من آمن من أهل الكتاب ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٤ الى ٥]

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

قلت : الموصول مبتدأ ، و(أولئك) خبره ، أو عطف على (المتقين) ، وحذف المنزل عليه فى جانب الكتب المتقدمة ، فلم يقل : وما أنزل على من قبلك إشارة إلى أن الإيمان بالكتب المتقدمة دون معرفة أعيان المنزل عليهم كاف ، إلا من ورد تعيينه فى الكتاب والسنة فلابد من الإيمان به ، أما القرآن العظيم فلابد من الإيمان أنه منزل على نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلّم ، فمن اعتقد أنه منزل على غيره كالروافض فإنه كافر بإجماع ، ولذلك ذكر المتعلق بقوله :

بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ يصدقون بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ يا محمد من الأخبار الغيبية والأحكام الشرعية ، والأسرار الربانية والعلوم اللدنية وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ من الكتب السماوية ، والأخبار القدسية ، وهم يُوقِنُونَ بالبعث والحساب والرجوع إلينا والمآب ، على نعت ما أخبرت به فى كتابى وأخبار أنبيائى ،

أُولئِكَ راكبون على متن الهداية ، مستعلون على محمل العناية ، محفوفون بجيش النصر والرعاية ، وَأُولئِكَ هُمُ الظافرون بكل مطلوب ، الناجون من كل مخوف ومرهوب ، دون من عداهم ممن

سبق له الخذلان ، فلم يكن له إيمان ولا إيقان ، فلا هداية له ولا نجاح ، ولا نجاة له ولا فلاح ، نسأل اللّه العصمة بمنّه وكرمه.

الإشارة : قلت : كأن الآية الأولى فى الواصلين ، والثانية فى السائرين ، لأن الأولين وصفهم بالإنفاق من سعة علومهم ، وهؤلاء وصفهم بالتصديق فى قلوبهم ، فإن داموا على السير كانوا مفلحين فائزين بما فاز به الأولون.

فأهل الآية الأولى من أهل الشهود والعيان ، وأهل الثانية من أهل التصديق والإيمان. أهل الأولى ذاقوا طعم الخصوصية ، فقاموا بشهود الربوبية وآداب العبودية ، وأهل الثانية صدقوا بنزول الخصوصية ودوامها ، واستنشقوا شيئا من روائح أسرارها وعلومها ، فهم يوقنون بوجود الحقيقة ، عالمون برسوم الطريقة ، فلا جرم أنهم على الجادة وطريق الهداية ، وهم مفلحون بالوصول إلى عين العناية. دون الفرقة الثالثة التي هى بالإنكار موسومة ، ومن نيل العناية محرومة ، التي أشار إليها الحق تعالى بقوله :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٦ الى ٧]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٧)

قلت : (سواء) خبر مقدم ، و(أنذرتهم) مبتدأ لسبك همزة التسوية ، أي : الإنذار وعدمه سواء فى حق هؤلاء الكفرة ، والجملة خبر إن ، و(غشاوة) مبتدأ ، والجار قبله خبره ، والغشاوة : ما يغشى الشيء ويغطيه ، كنى به عن مانع قهرهم عن الإيمان.

يقول الحق جل جلاله : يا محمد إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بما أنزل إليك جهرا ، وسبقت لهم منى الشقاوة سرا ، لا ينفع فيهم الوعظ والإنذار ، ولا البشارة والتذكار ، فإنذارك وعدمه فى حقهم سواء ، لما سبق لهم منى الطرد والشقاء ، فالتذكير فى حقهم عناء ، والغيبة عن أحوالهم راحة وهناء ، لأنى ختمت على قلوبهم بطابع الكفران ، فلا يهتدون إلى إسلام ولا إيمان ، ومنعت أسماعهم أن تصغى إلى الوعظ والتذكير ، فلا ينجع فيهم تخويف ولا تحذير ، وغشيت أبصارهم بظلمة الحجاب فلا يبصرون الحق والصواب ، قد أعددتهم لعذابى ونقمتى ، وطردتهم عن ساحة رحمتى ونعمتى.

وإنما أمرتك بإنذارهم لإقامة الحجة عليهم ، وإنى وإن حكمت عليهم أنهم من أهل مخالفتى وعنادى

فإني لا أظلم أحدا من خلقى وعبادى ، قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ. فما ظلمتهم لأنى بعثت الرسل مبشرين ومنذرين ، ولكن ظلموا أنفسهم فكانوا هم الظالمين ، فحكمتى اقتضت الإنذار ، وقدرتى اقتضت

القهر والإجبار ، فالواجب عليك أيها العبد أن تكون لك عينان : عين تنظر لحكمتى وشريعتى فتتأدب ، وعين تنظر لقدرتى وحقيقتى فتسلم ، وتكون بين الأمن والرّهب ، فلا تأمن مكرى وإن أمّنتك ، ولا تيأس من حلمى وإن أبعدتك ، فعلمى لا يحيط به محيط ، إلا من هو بكل شيء محيط.

الإشارة : إن الذين أنكروا وجود الخصوصية ، وجحدوا أهل مشاهدة الربوبية من أهل التربية النبوية ، لا ينفع فيهم الوعظ والتذكير ، بما سبق لهم فى علم الملك القدير ، فسواء عليهم أأنذرتهم وبال القطيعة والحجاب ، أم لم تنذرهم لعدم فتح الباب ، قد ختم اللّه على قلوبهم بالعوائد والشهوات ، أو حلاوة الزهد والطاعات ، أو تحرير المسائل والمشكلات ، وعلى سمع قلوبهم بالخواطر والغفلات ، وجعل على أبصارهم غشاوة الحجاب ، فلا يبصرون إلا المحسوسات ، غائبون عن أسرار المعاني وأنوار التجليات ، بخلاف قلوب العارفين ، فإنها ترى من أسرار المعاني مالا يرى للناظرين ، وفى ذلك يقول الشاعر :

قلوب العارفين لها عيون ترى مالا يرى للناظرينا

وألسنة بأسرار تناجى تغيب عن الكرام الكاتبينا

وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت ربّ العالمينا «١»

فسبحان من حجب العالمين بصلاحهم عن مصلحهم ، وحجب العلماء يعلمهم عن معلومهم ، واختص قوما بنفوذ عزائمهم إلى مشاهدة ذات محبوبهم ، فهم فى رياض ملكوته يتنزهون ، وفى بحار جبروته يسبحون ، لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ.

ولما ذكر الحق - جل جلاله - من أعلن بالإنكار ، ذكر من أسرّ بالجحود وأظهر الإقرار ، فقال جل وعلا :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٨ الى ١٠]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَما يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)

قلت : (من) موصوفة مبتدأ ، والخبر مقدم ، أي : ومن الناس ناس يقولون كذا ، والمخادعة : إظهار خلاف ما يخفى من المكروه ، وأصل الخدع : الإخفاء ، ومنه المخدع للبيت الذي يخبأ فيه المتاع.
وقيل : الفساد لأن المنافقين

---

(١) تنسب هذه الأبيات للحلاج ، كما تنسب لميمونة السوداء فى قصة مع إبراهيم بن أدهم .. راجع كتاب عقلاء المجانين.

يفسدون إيمانهم بما يخفون ، وجملة (و ما يشعرون) حالية ، أي : غير شاعرين ، والشعور : التفطن ، وفعله من باب كرم ونصر. وليت شعرى : أي : ليت فطنتى تدرك هذا ، وجملة (فى قلوبهم مرض) تعليلية للمخادعة ، والمرض :
الضعف والفتور ، وهو هنا مرض القلوب بالشك والنفاق. والعياذ باللّه.
يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ النَّاسِ منهم مغموص عليهم بالنفاق كبعض اليهود والمنافقين ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، يقولون : آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وما هم فى عداد المؤمنين ، يُخادِعُونَ بزعمهم اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بما يظهرون من الإيمان ، وَما يَخْدَعُونَ فى الحقيقة إِلَّا أَنْفُسَهُمْ لأن وبال خداعهم راجع إليهم ، وَما يَشْعُرُونَ أن خداعهم وبال عليهم ، وإنما حصلت لهم هذه المخادعة لأن فِي قُلُوبِهِمْ مرضا من الشك والحسد ، فقلوبهم مذبذبة ، وأنفسهم مغمومة ، فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً على مرضهم بما ينزل عليهم من الآيات التي تفضحهم ، وَلَهُمْ فى الآخرة - إذا قدموا على اللّه - عَذابٌ موجع بسبب تكذيبهم رسول اللّه أو كذبهم على اللّه. هذا مضمّن الآية.
افتتح الحق - جل جلاله - بذكر الذين أخلصوا دينهم للّه وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ، ثم ثنى بالكافرين الذين محضوا الكفر ظاهرا وباطنا ، ثم ثلث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وهم أخبث الكفرة لأنهم خلطوا بالكفر استهزاء وخداعا ، ولذلك كانوا فى الدرك الأسفل من النار.
الإشارة : ومن الناس من يترامى بالدعوى على الخصوصية ، ويدعى تحقيق مشاهدة الربوبية ، وهو فى الدرك الأسفل من العمومية ، يظهر خلوص الإيمان وتحقيق العرفان ، وهو فى أودية الشكوك والخواطر حيران ، وفى فيافى القطيعة والفرق ظمآن ، لسانه منطلق بالدعوى ، وقلبه خارب من الهدى ، يخادع اللّه بالرضا عن عيوبه ومساوئه ، ويخادع المسلمين بتزيين ظاهره ، وباطنه معمور بحظوظه ومهاويه ، يتزيه بزىّ العارفين ويتعامل معاملة الجاهلين ، ويصدق عليه قول القائل :

أمّا الخيام فإنّها كخيامهم وأرى نساء الحيّ غير نسائها «١»

وما يخادع فى الحقيقة إلا نفسه ، حيث حرمها الوصول ، وتركها فى أودية الأكوان تجول ، قلبه بمرض الفرق والقطيعة سقيم ، وهو يظن أنه فى عداد من يأتى اللّه بقلب سليم ، فزاده اللّه مرضا على مرضه حيث رضى بسقمه وعيبه ، وله عذاب الحرص والتعب فى ضيق الحجاب والنصب بسبب كذبه على اللّه ، وإنكاره على أولياء اللّه ، فجزاؤه البعد والخذلان ، وسوء العاقبة والحرمان ، عائذا باللّه من المكر والطغيان.

---

(١) البيت نسبه القرطبي فى تفسيره لأبى بكر الشبلي ، فى قصة. وجاء فى ديوان الشبلي : قسم أشعار تمثل بها الشبلي.

ثم ذكر أقوالهم الشنيعة ، وأحوالهم الفظيعة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١١ الى ١٢]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلكِنْ لا يَشْعُرُونَ (١٢)

قلت : «إذا» ظرف خافض لشرطه منصوب بجوابه ، أي : قالوا نحن مصلحون ، وقت قول القائل لهم : لا تفسدوا ، والجملة بيان وتقرير لخداعهم ، أو معطوفة على (من يقول آمنا) ، أي : ومن الناس فرقة إذا قيل لهم :

لا تفسدوا ، قالوا : إنما نحن مصلحون.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا قِيلَ لهؤلاء المنافقين : لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بالمعاصي والتعويق عن الإيمان ، وإغراء أهل الكفر والطغيان على أهل الإسلام والإيمان ، وتهييج الحروب والفتن ، وإظهار الهرج والمرج والمحن ، وإفشاء أسرار المسلمين إلى أعدائهم الكافرين ، فإن ذلك يؤدى إلى فساد النظام ، وقطع مواد الإنعام ، قالُوا فى جوابهم الفاسد : إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ فى ذلك ، فلا تصح مخاطبتنا بذلك ، فإن من شأننا الإصلاح والإرشاد ، وحالنا خالص من شوائب الفساد ، قال تعالى : أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ هنالك ، ولكن لا شعور لهم بذلك.

قلت : فردّ اللّه ما ادعوه من الانتظام فى سلك المصلحين بأقبح رد وأبلغه ، من وجوه الاستئناف الذي فى الجملة ، والاستفتاح بالتنبيه ، والتأكيد بإن وضمير الفعل ، وتعريف الخبر ، والتعبير بنفي الشعور ،

إذ لو شعروا أدنى شعور لتحققوا أنهم مفسدون.
وهذه الآية عامة لكل من اشتغل بما لا يعنيه ، وعوق عن طريق الخصوص ، ففيه شعبة من النفاق ، وفى صحيح البخاري : «ثلاث من كنّ فيه كان منافقا خالصا : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان».
الإشارة : وإذا قيل لمن يشتغل بالتعويق عن طريق اللّه والإنكار على أولياء اللّه : أقصر من هذا الإفساد ، وارجع عن هذا الغى والعناد ، فقد ظهرت معالم الإرشاد لأهل المحبة والوداد. قال : إنما أنا مصلح ناصح ، وفى أحوالى كلها صالح ، يقول له الحق جل جلاله : بل أفسدت قلوب عبادى ، ورددتهم عن طريق محبتى ووِدادي ، وعوقتهم عن دخول حضرتي ، وحرمتهم شهود ذاتى وصفاتى ، سددت بابى فى وجه أحبابى ، آيستهم من وجود التربية ، وتحكمت على القدرة الأزلية ، ولكنك لا تشعر بما أنت فيه من البلية.

ولقد صدق من سبقت له العناية ، وأتحف بالرعاية والهداية ، حيث يقول «١» :
فهذه طريقة الإشراق كانت وتبقى ما الوجود باق
وقال أيضا :
وأنكروه ملا عوام لم يفهموا مقصوده فهاموا
فتب أيها المنكر قبل الفوات ، واطلب من يأخذ بيدك قبل الممات ، لئلا تلقى اللّه بقلب سقيم ، فتكون فى الحضيض الأسفل من عذابه الأليم ، فسبب العذاب وجود الحجاب ، وإتمام النعيم النظر لوجهه الكريم ، منحنا اللّه منه الحظ الأوفى فى الدنيا والآخرة. آمين.
ثم ذكر الحق تعالى استهزاءهم بالإسلام وامتناعهم منه ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ١٣]
وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَنُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَلكِنْ لا يَعْلَمُونَ (١٣)
قلت : الكاف من كَما آمَنَ صفة لمصدر محذوف ، و(ما) مصدرية. أي : إذا قيل لهم آمنوا إيمانا خالصا من النفاق مثل إيمان المسلمين ، أو من أسلم من جلدتهم ، والسفه : خفة وطيش فى العقل ، يقال : ثوب سفيه ، أي : خفيف.
يقول الحق جل جلاله : وَإِذا قِيلَ لهؤلاء المنافقين من المشركين واليهود : اتركوا ما أنتم عليه من الكفر

والجحود ، وراقبوا الملك المعبود ، وطهروا قلوبكم من الكفر والنفاق ، وأقصروا مما أنتم فيه من البعاد والشقاق وآمِنُوا إيمانا خالصا مثل إيمان المسلمين ، لتكونوا معهم فى أعلى عليين ، «من أحبّ قوما حشر معهم». «المرء مع من أحبّ» ، قالُوا مترجمين عما فى قلوبهم من الكفر والنفاق : أَنُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ الذين لا عقل لهم ، إذ جلهم فقراء وموالى.

قال الحق تعالى فى الرد عليهم وتقبيح رأيهم : أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ لا غيرهم ، حيث تركوا ما هو السبب فى الفوز العظيم بالنعيم المقيم ، وارتكبوا ما استوجبوا به الخلود فى الدرك الأسفل من الجحيم وَلكِنْ لا يَعْلَمُونَ

---

(١) القائل : ابن البنا السرقسطى فى المنظومة.

،

وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ، عبّر الحق فى هذه الآية ب لا يَعْلَمُونَ وفى الأولى ب لا يَشْعُرُونَ لأن الفساد فى الأرض يدرك بأدنى شعور ، بخلاف الإيمان والتمييز بين الحق والباطل فيحتاج إلى زيادة تفكر واكتساب علم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وإذا قيل لأهل الإنكار على أهل الخصوصية ، القاصدين مشاهدة عظمة الربوبية ، قد تجردوا عن لباس العز والاشتهار ، ولبسوا أطمار الذل والافتقار ، آمنوا بطريق هؤلاء المخصوصين ، وادخلوا معهم كى تكونوا من المقربين. قالوا : (أ نؤمن كما آمن السفهاء) ونترك ما نحن عليه من العز والكبرياء ، قال اللّه تعالى فى تسفيه رأيهم وتقبيح شأنهم : (ألا إنهم هم السفهاء) حيث تعززوا بعز يفنى ، وتركوا العز الذي لا يفنى ، قال الشاعر :

تذلّل لمن تهوى لتكسب عزّة فكم عزّة قد نالها المرء بالذّلّ

إذا كان من تهوى عزيزا ، ولم تكن ذليلا له ، فاقر السّلام على الوصل

فلو علموا ما فى طيّ الذل من العز ، وما فى طى الفقر من الغنى ، لجالدوا عليه بالسيوف ، ولكن لا يعلمون.

ثم بيّن الحق تعالى ما أضمروه من النفاق وأظهروه من الوفاق ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٤ الى ١٦]

وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (١٤) اللَّهُ

يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

قلت : اللقاء : المصادفة بلا قصد ، والخلو بالشيء أو معه : الانفراد به ، ضمنه هنا معنى رجع ، ولذلك تعدّى بإلى ، و(الشيطان) فيعال ، من شطن ، إذا بعد ، أو فعلان من شاط ، إذا بطل ، والاستهزاء بالشيء : الاستخفاف بحقه ، والعمه فى البصيرة كالعمى فى البصر.

يقول الحق جل جلاله فى وصف المنافقين تقريرا لنفاقهم : إنهم كانوا إذا لَقُوا الصحابة أظهروا الإيمان ، وإذا رجعوا إِلى شَياطِينِهِمْ أي : كبرائهم المتمردين فى الكفر والطغيان ، قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ لم

(٨١/١)

نخرج عن ديننا إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ بهم ، ومستسخرون بشأنهم. نزلت فى عبد اللّه بن أبيّ - رأس المنافقين - كان إذا لقى سعدا قال : نعم الدين دين محمد ، وإذا خلا برؤساء قومه من أهل الكفر ، قال : شدوا أيديكم على دين آبائكم.

وخرج ذات يوم مع أصحابه فاستقبلهم نفر من الصحابة - رضوان اللّه عليهم - فقال عبد اللّه لأصحابه : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم ، فأخذ بيد أبى بكر رضى اللّه عنه فقال : مرحبا بالصدّيق سيد بنى تيم ، وشيخ الإسلام ، وثانى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، ثم أخذ بيد عمر ، فقال : مرحبا بسيد بنى عدى بن كعب ، الفاروق ، القوى فى دين اللّه ، الباذل نفسه وماله لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، ثم أخذ بيد علىّ فقال : مرحبا بابن عم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم وختنه «١» ، سيد بنى هاشم ، ما عدا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، فقال على رضى اللّه عنه : يا عبد اللّه ، اتق اللّه ولا تنافق ، فإن المنافقين شرّ خليقة اللّه ، فقال عبد اللّه : مهلا يا أبا الحسن ، أنى تقول هذا؟ واللّه إن إيماننا كإيمانكم ، وتصديقنا كتصديقكم ، فنزلت الآية «٢».

ثم رد اللّه تعالى عليهم فقال : اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ أي : يفعل بهم فعل المستهزئ بأن يفتح لهم بابا إلى الجنة وهم فى النار ، ويطلع المؤمنين عليهم ، فيقول لهم : ادخلوا الجنة ، فإذا جاءوا يستبقون إليها وطمعوا فى الدخول ، سدّت عليهم ورجعوا إلى النار ، فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ الآية.

وَيَمُدُّهُمْ أي : يمهلهم فِي كفرهم ، وطُغْيانِهِمْ يتحيرون إلى يوم يبعثون لأنهم اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى أي : استبدلوا بها رأس مالهم ، فضلا عن الربح ، إذ الإيمان رأس المال ، وأعمال الطاعات ربح ، فإذا ذهب الرأس فلا ربح ولذلك قال تعالى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ ، بل خسرت صفقتهم ، وَما كانُوا مُهْتَدِينَ

إلى أسباب الربح أبدا ، لاستبدالهم الهدى - التي هى رأس المال - بالضلالة - التي هى سبب الخسران. وباللّه التوفيق.

وهاهنا استعارات وبلاغات يطول سردها ، إذ مرادنا تربية اليقين بكلام رب العالمين.

الإشارة : الناس فى طريق الخصوص على أربعة أقسام :

قسم : سبقت لهم من اللّه العناية ، وهبت عليهم ريح الهداية ، فصدقوا ودخلوا فيها ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل اللّه ، فتجروا فيه وربحوا ، فعوضهم اللّه تعالى جنة المعارف ، يتبوءون منها حيث شاءوا ، فإذا قدموا عليه أدخلهم جنة الزخارف ، يسرحون فيها حيث شاءوا ، وأتحفهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم.

---

(١) ختن الرجل : المتزوج بابنته أو بأخته.

(٢) سند هذا الأثر واه جدا ، انظر : الفتح السماوي فى تخريج أحاديث البيضاوي ، وتنزيه الشريعة المرفوعة. [.....]

وقسم : سبقت لهم من اللّه الهداية ، وحفتهم الرعاية ، فصدقوا وأقروا ، ولكنهم ضعفوا عن الدخول ، ولم تتعلق همتهم بالوصول ، فبقوا فى ضعفاء المسلمين لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ....

وقسم : أنكروا وأظهروا وجحدوا وكفروا ، فتجروا وخسروا ، «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب».

وقسم رابع : هم مذبذبون بين ذلك إذا لقوا أهل الخصوصية قالوا : آمنا وصدقنا فأنتم على الجادة ، وإذا رجعوا إلى أهل التمرد من المنكرين - طعنوا وجحدوا ، وقالوا : إنما كنا بهم مستهزئين ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ بما يظهر لهم من صور الكرامات والاستدراجات ، ويمدهم فى تعاطى العوائد والشهوات ، وطلب العلو والرئاسات ، متحيرين فى مهامه الخواطر والغفلات ، أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ عن طريق الخصوص من أهل الوصول ، بِالْهُدى الذي كان بيدهم ، لو حصل لهم التصديق والدخول ، فما ربحوا فى تجارتهم ، وما كانوا مهتدين إلى بلوغ المأمول. قال بعض العارفين : (التصديق بطريقتنا ولاية ، والدخول فيها عناية ، والانتقاد عليها جناية). وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ضرب مثل المنافقين ، زيادة فى توبيخهم وتقبيح شأنهم ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٧ الى ١٨]

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨)

قلت : (استوقد) يحتمل أن تكون للطلب ، أو زائدة بمعنى أوقد ، و(لما) شرطية ، وذَهَبَ جواب ، وإذا كان لفظ الموصول مفردا واقعا على جماعة ، يصح فى الضمير مراعاة لفظه فيفرد ، ومعناه فيجمع ، فأفرد فى الآية أولا ، وجمع ثانيا. ويقال : أضاء يضيئ إضاءة ، وضاء يضوء ضوءا.

يقول الحق جل جلاله : مثل هؤلاء المنافقين من اليهود كَمَثَلِ رجل فى ظلمة ، تائه فى الطريق ، فاستوقد نارا ليبصر طريق القصد فَلَمَّا اشتعلت وأَضاءَتْ ما حَوْلَهُ فأبصر الطريق ، وظهرت له معالم التحقيق ، أطفأ اللّه تلك النار وأذهب نورها ، ولم يبق إلا جمرها وحرها. كذلك اليهود كانوا فى ظلمة الكفر والمعاصي ينتظرون ظهور نور النبي صلى اللّه عليه وسلّم ويطلبونه ، فلما قدم عليهم ، وأشرقت أنواره بين أيديهم كفروا به ، فأذهب اللّه عنهم نوره ، وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ الكفر والشك والنفاق ، لا يُبْصِرُونَ ولا يهتدون ، صُمٌّ عن سماع الحق ،

بُكْمٌ عن النطق به عُمْيٌ عن رؤية نوره ، فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ عن غيهم ، ولا يقصرون عن ضلالتهم.

الإشارة : مثل من كان فى ظلمات الحجاب قد أحاطت به الشكوك والارتياب ، وهو يطلب من يأخذ بيده ويهديه إلى طريق رشده ، فلما ظهرت أنوار العارفين ، وأحدقت به أسرار المقربين ، حتى أشرقت من نورهم أقطار البلاد ، وحيي بهم جل العباد ، أنكرهم وبعد منهم ، فتصامم عن سماع وعظهم ، وتباكم عن تصديقهم ، وعمى عن شهود خصوصيتهم ، فلا رجوع له عن حظوظه وهواه ، ولا انزجار له عن العكوف على متابعة دنياه ، مثله كمن كان فى ظلمات الليل ضالا عن الطريق ، فاستوقد نارا لتظهر له الطريق ، فلما اشتعلت وأضاءت ما حوله أذهب اللّه نورها ، وبقي جمرها وحرها ، وهذه سنة ماضية : لا ينتفع بالولى إلا من كان بعيدا منه. وفى الحديث : «أزهد النّاس فى العالم جيرانه» ، وقد مثّلوا الولي بالنهر الجاري كلما بعد جريه عمّ الانتفاع به ، ومثّلوه أيضا بالنخلة لا تظلّ إلا عن بعد. واللّه تعالى أعلم.

ثم ضرب لهم مثلا آخر ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (١٩) يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ

قامُوا وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

قلت : (أو) للتنويع ، أو بمعنى الواو ، و(الصيب) : المطر ، فيعل ، من صاب المطر إذا نزل ، وهو على حذف مضاف ، أي : أو كذى صيب ، وأصله : صيوب ، كسيد ، قلبت الواو ياء وأدغمت ، ولا يوجد هذا إلا فى المعتل كميت وهين وضيق وطيب. و(الرعد) : الصوت الذي يخرج من السحاب ، و(البرق) : النور الذي يخرج منه. قال ابن عزيز : روى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «إنّ اللّه عزّ وجلّ ينشئ السّحاب فتنطق أحسن النطق ، وتضحك أحسن الضحك ، فنطقها الرعد ، وضحكها البرق». وقال ابن عباس : (الرعد ملك يسوق السّحاب ، والبرق سوط من نور يزجر به السّحاب). هـ. والصواعق : قطعة من نار تسقط من المخراق الذي بيد سائق السحاب ، وقيل : تسقط من نار بين السماء والأرض ، واللّه تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله : ومثل المنافقين أيضا كأصحاب مطر غزير فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وهدير أصابهم فى ليلة مظلمة وقفراء مدلهمة. فيه بَرْقٌ يلمع ، وصاعقة تقمع ، إذا ضرب الرعد وعظم صوته جعلوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ من الهول والخوف حذرا من موت أنفسهم ، وقد ماتت أرواحهم وقلوبهم ، وإذا ضرب البرق كاد أن يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ ، فإذا لمع أبصروا الطريق ، ومَشَوْا فِيهِ ، وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا متحيرين حائدين عن عين التحقيق ، وَاللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ. وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ بصوت ذلك الرعد ، وَأَبْصارِهِمْ بلمعان ذلك البرق ، إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شىء.

هذا مثلهم فى تحيرهم واضطرابهم ، فيحتمل أن يكون من التشبيه المركب ، وهو تشبيه الجملة بالجملة ، أو من المفصّل ، فيكون المطر مثالا للقرآن ، وفيه ذكر الكفر والنفاق المشبّهين بالظلمات ، والوعد عليه والزجر المشبه بالرعد ، والحجج الباهرة التي تكاد أحيانا تبهرهم المشبهة بالبرق ، وتخوفهم ، وروعهم هو جعل أصابعهم فى آذانهم ، لئلا يسمعوا فيميلوا إلى الإيمان ، وفضح نفاقهم وتكاليف الشرع التي يكرهونها هى الصواعق. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أهل الخصوصية إذا ظهروا بين العموم بأحوال غريبة وعلوم وهبية ، وأسرار ربانية وأذكار نورانية ، دهشوا منهم وتحيروا فى أمرهم ، وخافوا على أنفسهم ، فإذا سمعوا منهم علوما لدنية وأسرارا ربانية فروا منها ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، خوفا على نفوسهم أن تفارق عوائدها وهواها ، وإذا خاصمهم أحد من العموم ألجموه بالحجة ، فتكاد تلك الحجة تخطفه إلى الحضرة ، كلما لمع له شىء من الحق مشى إلى حضرته ، وإذا كرت عليه الخصوم والخواطر ، وأظلم عليه الحال ، وقف فى الباب حيران ،

ولو شاء اللّه لذهب بعقله وسمعه وبصره ، فيبصر به إلى حضرته. من استغرب أن ينقذه اللّه من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته ، فقد استعجز القدرة الإلهية وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً.

فالصّيّب الذي نزل من السماء كناية عن الواردات والأحوال التي ترد على قلوب العارفين ، ويظهر أثرها على جوارحهم ، والظلمات التي فيها كناية عن اختفاء بعضها عن أهل الشريعة فينكرونها ، والرعد كناية عن اللهج بذكر اللّه جهرا فى المحافل والحلق ، والبرق كناية عن العلوم الغريبة التي ينطقون بها والحجج التي يحتجون بها على الخصوم ، فإذا سمعها العوام اشمأزت قلوبهم عن قبولها ، فإذا وقع منهم إنصاف تحققوا صحتها فمالوا إلى جهتها ، ومشوا إلى ناحيتها ، فإذا كرّت عليهم الخصوم قاموا منكرين ، ولو شاء ربك لهدى الناس جميعا وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ.

ولما ذكر الحق من تخلق بالإيمان ظاهرا وباطنا ، ومن تحلى به كذلك ، ومن أخفى الكفر وأظهر الإيمان ، دعا الكل إلى توحيده وعبادته ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بِناءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)

قلت : جملة الترجي حال من الواو فى (اعبدوا) ، أي : اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا فى سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح ، المستوجبين جوار اللّه تعالى ، نبه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهو التبري من كل شيء سوى اللّه تعالى - إلى اللّه تعالى.

و(الّذي جعل) صفة للرب ، و(فلا تجعلوا) معطوف على (اعبدوا) على أنه نهى ، أو منصوب بأن ، جواب له ، و(الأنداد) جمع ندّ ، بكسر النون. وهو الشبه والمثل ، و(أنتم تعلمون) حال من ضمير (فلا تجعلوا) أي : فلا تجعلوا للّه أندادا والحال أنكم من أهل العلم.

يقول الحق جل جلاله : يا عبادى اعبدوني بقلوبكم بالتوحيد والإيمان ، وبجوارحكم بالطاعة والإذعان ، وبأرواحكم بالشهود والعيان ، فأنا الذي أظهرتكم من العدم - أنتم ومن كان قبلكم - وأسبلت عليكم سوابغ النعم ، الأرض تقلكم والسماء تظلكم ، والجهات تكتنفكم ، وأنزلت من السماء ماء فأخرجت به أصنافا مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ ، فأنتم جوهرة الصدق ، تنطوى عليكم أصداف مكنوناتى ، وأنتم الذين أطلعتكم على أسرار مكنوناتى ، فكيف يمكنكم أن تتوجهوا إلى غيرى؟ وقد أغنيتكم بلطائف إحسانى

وبرى ، أنعمت عليكم أولا بالإيجاد ، وثانيا بتوالي الإمداد ، خصصتكم بنور العقل والفهم ، وأشرقت عليكم نبذة من أنوار القدم ، فبى عرفتمونى ، وبقدرتي عبدتمونى ، فلا شريك معى ولا ظهير ، ولا احتياج إلى معين ولا وزير.

الإشارة : توجه الخطاب إلى العارفين الكاملين فى الإنسانية الذين يعبدون اللّه تعظيما لحق الربوبية ، وقياما بوظائف العبودية ، وفيهم قال صاحب العينية «١» :

هم الناس فالزم إن عرفت جنابهم ففيهم لضرّ العالمين منافع

---

(١) وهو : الشيخ عبد الكريم الجيلي.

وقال قبل ذلك :

هم القصد للملهوف والكنز والرجا ومنهم ينال الصّبّ ما هو طامع

بهم يهتدى للعين من ضلّ فى العمى بهم يجذب العشّاق ، والرّبع شاسع

هم القصد والمطلوب والسؤل والمنى واسمهم للصّبّ فى الحبّ شافع

فعبادة العارفين : باللّه ومن اللّه وإلى اللّه ، وعبادة الجاهلين : بأنفسهم ومن أنفسهم ولأنفسهم ، عبادة العارفين حمد وشكر ، وعبادة الغافلين اقتضاء حظ وأجر ، عبادة العارفين قلبية باطنية ، وعبادة الغافلين حسية ظاهرية ، يا أيها الناس المخصوصون بالأنس والقرب دوموا على عبادة القريب ، ومشاهدة الحبيب ، فقد رفعت بينى وبينكم الحجب والأستار ، وأشهدتكم عجائب الألطاف والأسرار ، أبرزتكم إلى الوجود ، وأدخلتكم من باب الكرم والجود ، ومنحتكم بفضلي غاية الشهود ، لعلكم تتقون الإنكار والجحود ، وتعرفوننى فى كل شاهد ومشهود.

فقد جعلت أرض نفوسكم مهادا لعلوم الشريعة ، وسماء قلوبكم سقفا لأسرار الحقيقة ، وأنزلت من سماء الملكوت ماء غيبيا تحيا به أرض النفوس ، وتهتز بواردات حضرة القدوس ، فتخرج من ثمرات العلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، والأحوال المرضية ، ما تتقوت به عائلة المستمعين ، وتنتعش به أسرار السائرين ، فلا تشهدوا معى غيرى ، ولا تميلوا لغير إحسانى وبرى ، فقد علمتم أنى منفرد بالوجود ، ومختص بالكرم والجود ، فكيف يرجى غيرى وأنا ما قطعت الإحسان؟! وكيف يلتفت إلى ما سواى وأنا بذلت عادة الامتنان؟! متى كان الإيجاد ، وعليّ دوام الإمداد ، فثقوا بي كفيلا ، واتخذوني وكيلا ، أعطكم عطاء جزيلا ، وأمنحكم فخرا جليلا.

ولمّا أمر عباده بعبادته وتوحيده ، أمرهم بتصديق كلامه والإيمان برسوله ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٣ الى ٢٥]

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٥)

فإن قلت : الريب فى القرآن قد وقع من الكفار قطعا ، فكيف عبّر بإن الدالة على الشك والتردد؟

قلت : (إن) جازمة للفظ الشرط أو محله ، موضوعة للشك فى الشرط. و«إذا» لا تجزم فى اللفظ ، وتدل على الجزم فى المعنى ، وفى ذلك يقول القائل :

أنا إن شككت وجدتمونى جازما وإذا جزمت فإننى لم أجزم

فإن قلت : الريب فى القرآن قد وقع من الكفار قطعا ، فكيف عبّر بإن الدالة على الشك والتردد؟

قلت : لما كان ريبهم واقعا فى غير محله - إذ لو تأملوا أدنى تأمل لزال ريبهم لوضوح الأمر وسطوع البرهان - كان ريبهم كأنه مشكوك فيه ومتردد فى وقوعه ، و(الشهداء) جمع شهيد بمعنى الحاضر ، أو القائم بالشهادة ، أو الناصر ، أطلق على الأصنام لأنهم يزعمون أنها تشهد لهم ، ومعنى (دون) : أدنى مكان من الشيء ، ثم استعير للرّتب فقيل : زيد دون عمرو أي : فى الشرف ، ثم اتسع فيه فاستعير لكل تجاوز حدّ إلى حد ، وتخطى أمر إلى آخر.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ كُنْتُمْ يا معشر الكفار فِي شك مِمَّا نَزَّلْنا عَلى محمد عَبْدِنا ورسولنا المختار لسرّ وحينا ، فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ جنسه فى البلاغة والفصاحة ، مشتملة على علوم وأسرار ومغيبات كما اشتمل عليه كتابى ، وَادْعُوا من استطعتم ممن تنتصرون به على ذلك الإتيان ، من آلهتكم التي تزعمون أنها تشهد لكم يوم القيامة ، أو من حضركم من البلغاء والفصحاء ممن تنتصرون به مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى أنها تنفعكم. فَإِنْ لَمْ تقدروا أن تَفْعَلُوا ذلك وَلَنْ تقدروا أبدا فأسلموا وأقرّوا بالحق ، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أي : حجارة الكبريت ، فهما حطبها ووقودها أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ.

وَبَشِّرِ يا محمد ويا من يصلح منه التبشير الَّذِينَ آمَنُوا باللّه ورسوله ، وَعَمِلُوا ما كلفوا به من الأعمال الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أي : من تحت قصورها ، وهى أنهار من ماء ، وأنهار من عسل ، وأنهار من لبن ، وأنهار من خمر لذة للشاربين. كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً أي : صنفا ،

قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ فى دار الدنيا ، فإن الطباع تميل إلى المألوف ، فالصفة متفقة والطعم مختلف. أو فى الجنة ، قيل : هذا لما روى عنه صلى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «والذي نفس محمد بيده إنّ الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هى واصلة إلى جوفه حتى يبدل اللّه تعالى مكانها مثلها» ، فلعلهم إذا رأوها على الهيئة الأولى قالوا

ذلك ، لفرط استغرابهم ، وتبجهم بما وجدوا من التفاوت العظيم فى اللذة والتشابه البليغ فى الصورة ، وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ أي : حور مُطَهَّرَةٌ من الحيض ، وسائر الأدناس ، ومن الأخلاق المذمومة ، والشيم الذميمة ، وَهُمْ فِيها خالِدُونَ فإن النعيم إذا كان يعقبه الفناء تنغص على صاحبه ، كما قال الشاعر :

لا خير فى العيش مادامت منغّصة لذاته بادّكار الموت والهرم

الإشارة : وإن كنتم يا معشر العوام فى شك مما خصصنا به ولينا من الأنوار ، وما أنزلنا على قلبه من المعارف والأسرار ، وما ظهر عليه من البهجة والأنوار ، وما اهتدى على يديه من الصالحين والأبرار ، فأتوا أنتم بشئ من ذلك ، وانتصروا بما قدرتم من دون اللّه إن كنتم صادقين فى المعارضة. قال القشيري : وكما أن كيد الكافرين يضمحلّ فى مقابلة معجزات الرسول ، فكذلك دعاوى الملبسين تتلاشى عند ظهور أنوار الصديقين. هـ.

فإن لم تفعلوا ما ذكرنا من المعارضة ، ولن تقدروا على ذلك أبدا ، فأذعنوا ، واخضعوا ، واتقوا نار القطيعة والحظوظ ، والطمع والهلع ، التي مادتها النفوس والفلوس إذ بهما هلك من هلك وفاز من فاز ، أعدت تلك النار للمنكرين الخصوصية ، الجاحدين لوجود التربية النبوية.

وبشّر الصديقين بوجود الخصوصية ، المنقادين لأهلها ، أن لهم جنات المعارف فى الدنيا ، وجنات الزخارف فى الآخرة ، تجرى من تحت قلوب أهلها أنوار العلوم والمعارف ، فإذا كشف لهم يوم القيامة عن أسرار ذاته ، قالوا :

هذا الذي عرفناه من قبل فى دار الدنيا ، إذ الوجود واحد والمعرفة متفاوتة ، وأتوا بأرزاق المعارف متشابهة لأن من عرفه فى الدنيا عرفه فى الآخرة ، ومن أنكره هنا أنكره يوم القيامة ، إلا فى وقت مخصوص على وجه مخصوص ، ولهم فى جنات المعارف عرائس المعارف والكشوفات ، مطهرات من أدناس الحس وعبث الهوى والشهوات ، وهم بعد تمكنهم من شهود الذات ، خالدون فى عشّ الحضرة ، فيها يسكنون وإليها يأوون.

وقال القشيري : كما أن أهل الجنة يجدد لهم النعيم فى وقت ، فالثانى عندهم على ما يظنون كالأول ،

فإذا ذاقوه وجدوه غير ما تقدم ، كذلك أهل الحقائق : أحوالهم فى الزيادة أبدا ، فإذا رقى أحدهم عن محله ، توهم أن الذي سيلقاه فى هذا النّفس مثل ما تقدم ، فإذا ذاقه وجده فوق ذلك بأضعاف ، كما قال قائلهم :

مازلت أنزل من ودادك منزلا تتحير الألباب عند نزوله «١»

---

(١) البيت ذكره البغدادي فى تاريخ بغداد ٥/ ١٣٥ فى قصة مع أبى الحسن النوري.

ولما ضرب اللّه الأمثال فى القرآن للمنافقين وغيرهم تكلم فى ذلك بعض الكفار والملحدين ، بينّ الحق تعالى وجه ذلك فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٦ الى ٢٧]

إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٢٧)

قلت : الحياء : خلق كريم يمنع صاحبه من ارتكاب ما يعاب به ، وفى الحديث : «إنّ اللّه حيى كريم» ، و(مثلا) مفعول ، و(ما) نكرة ، صفته ، و(بعوضة) بدل ، والبعوضة : الذباب. وفى الحديث : «لو كانت الدّنيا تساوى عند اللّه جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء» ، وقيل : صغار البقّ ، أي : إن اللّه لا يترك أن يضرب مثلا - أىّ مثل كان - بعوضة فما فوقها. أو (بعوضة) مفعول أول ، و(مثلا) مفعول ثان ، من باب جعل ، و(ماذا) إما مبتدأ وخبر ، على أن (ذا) موصولة ، أو مفعولة بأراد على أنها مركبة ، و(مثلا) حال أو تمييز. والفسق : الخروج ، يقال :

فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ لا يترك ترك المستحيى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا بالخسيس والكبير كالذباب والعنكبوت وغير ذلك. فأما المؤمنون فيتيقّنون أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وحكمته : إبراز المعاني اللطيفة فى قوالب المحسوسات ليسهل الفهم ، وأما الكفار فيعترضون ويقولون : ما ذا أَرادَ اللَّهُ بهذه الأمثال؟ فإن اللّه منزه عن ضرب الأمثال بهذه الأشياء الخسيسة ، قال اللّه تعالى فى الرد عليهم : أراد بهذا إضلال قوم بسبب إنكارها ، وهداية آخرين بسبب الإيمان بها ، وَما يُضِلُّ بذلك المثل إلا الخارجين عن طاعته

، الَّذِينَ نقضوا العهد الذي أخذ عليهم فى عالم الذّرّ ، أو مطلق العهد ، وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ من الأنبياء والرسل والأرحام وغيرها ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بالمعاصي والتعويق عن الإيمان ، أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ الكاملون فى الخسران ، نعوذ باللّه من الخذلان.

الإشارة : إن اللّه لا يترك أن يظهر مثلا من أنوار قدسه بارزا بقدرته ، مرتديا برداء حكمته ، ملتبسا بأسرار ذاته ، مكسوّا بأنوار صفاته من الذرة إلى مالا نهاية له ، فالمتجلّى فى النملة هو المتجلى فى الفيلة ، فأما الذين صدّقوا بتجلى الذات فى أنوار الصفات ، فيقولون : إنه الحق فائض من نور الربوبية ، محتجبا برداء الكبرياء وسبحات الألوهية. وأما الجاحدون لظهور نور ذات الربوبية فينكرونه فى حال ظهوره ، ويقولون : ماذا أراد اللّه بهذه العوالم الظاهرة؟ فيقول الحق تعالى : أردت ظهور قدرتى وعجائب حكمتى ، ليظهر سر ربوبيتى فى مظاهر عبوديتى.

قال الشيخ أبو الحسن رضى اللّه عنه : «العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية» وقيل لأبى الحسن النّورى : ما هذه الأماكن والمخلوقات الظاهرة؟ فقال : عز ظاهر وملك قاهر ، ومخلوقات ظاهرة به ، وصادرة عنه ، لا هى متصلة به ولا منفصلة عنه ، فرغ من الأشياء ولم تفرغ منه ، لأنها تحتاج إليه وهو لا يحتاج إليها. هـ.

فأراد اللّه بظهور هذا الكون أن يضل به قوما فيقفون مع ظاهر غرّته ، ويهدى به قوما فينفذون إلى باطن عبرته. وما يضل به إلا الفاسقين الخارجين عن دائرة الشهود ، المنكرين لتجليات الملك المعبود ، الذين ينقضون عهد اللّه ، وهو معرفة الروح التي حصلت لها وهى فى عالم الذر ، ويقطعون ما أمر اللّه به أن يوصل من الشيوخ العارفين ، الذين أهّلهم اللّه للتربية والترقية ، وهم لا ينقطعون ما دامت الملّة المحمدية ، ويفسدون فى الأرض بالإنكار والتعويق عن طريق الخصوص ، بتضييعهم الأصول ، وهى صحبة العارفين ، والتأدب لهم ، والتعظيم لحرمتهم. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم عجّب الحقّ تعالى خلقه من خفائه بعد شدة ظهوره ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٨]

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)

قلت : (كيف) حال لأنها وقعت قبل كلام تام.

يقول الحق جل جلاله : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وتجحدون نعمه المتوالية ، وَالحالة أنكم كُنْتُمْ أَمْواتاً نطفا فى الأرحام ، فَأَحْياكُمْ بنفخ الروح فى أجسادكم ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عند انقضاء آجالكم ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ عند البعث

لحسابكم ، ثم يسكنكم دار القرار ، إما إلى الجنة وإما إلى النار. فهذه الآثار دالة على باهر قدرته وتمام حكمته ، فقد وضح الحق وظهر ، فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ.

الإشارة : كيف تنكرون ظهور نور الحق فى الأكوان ، وتبعدون عن حضرة الشهود والعيان ، وقد كنتم أمواتا بالغفلة وغم الحجاب ، فأحياكم باليقظة والإياب ، ثم يميتكم بالفناء عن شهود ما سواه ، ثم يحييكم بالرجوع إلى شهود أثره باللّه ، ثم إليه ترجعون فى كل شيء لشهود نوره فى كل شيء ، وقبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، وعند كل شيء «كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان».

ولمّا ذكر نعمة الإيجاد أتبعها بنعمة الإمداد ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٩]

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

قلت : جَمِيعاً حال مؤكدة من ما ، وثُمَّ للترتيب الذكرى لا الخارجي «١» لأن دحو الأرض مؤخر عن خلق السماء ، إلا أن يكون العطف على معنى الجملة ، والتقدير : هو الذي خلق لكم الأرض مشتملة على جميع منافعكم ، ثم استوى إلى السماء فخلقهن سبعا ، ثم دحا الأرض وبسطها.

والتسوية : خلق الأشياء سالمة من العوج والخلل ، و(سبع) : بدل من الضمير ، أو بيان له ، وجملة وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ تعليل لما قبله. أي : ولكونه عالما بكنه الأشياء كلها خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع.

يقول الحق جل جلاله على لسان الواسطة : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لأجلكم ما استقر فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً تنتفعون به فى الظاهر قوتا لأشباحكم ، ودواء لأبدانكم ، ومتعة لنفوسكم ، وتنتفعون به فى الباطن بالتفكر والاعتبار ، وزيادة فى إيمانكم وقوة لإيقانكم ، ثم قصد إِلَى السَّماءِ قصد إرادة ، فخلقهن سَبْعَ سَماواتٍ مستوية تامة ، ليس فيها تفاوت ولا خلل ، تظلكم بجرمها ، وتضيء عليكم بشمسها وقمرها وكواكبها ، وقد أحاط علمه بالأشياء كلها ، فلذلك خلقها على هذا النمط الغريب والإتقان العجيب.

الإشارة : يا عبادى خلقت الأشياء كلّها من أجلكم ، الأرض تقلكم ، والسماء تظلكم ، والجهات تكتنفكم والحيوانات تخدمكم ، والنباتات تنفعكم ، وخلقتكم من أجلى ، فكيف تميلون إلى غيرى ، وتنسون إحسانى وبرّى؟!! الأشياء كلها عبيدكم وأنتم عبيد الحضرة ، «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوّن ، فإذا شهدت المكوّن كانت الأكوان معك».

(١) أي : ترتيب الإخبار ، لا ترتيب الأمر فى نفسه.

(٩٢/١)

وفى بعض الكتب المنزلة يقول اللّه تعالى : (يا عبدى إنما منحتك صفاتى لتعرفنى بها ، فإن ادعيتها لنفسك سلبتك الولاية ، ولم أسلبك صفاتى ، يا عبدى : أنت صفتى وأنا صفتك ، فارجع إلىّ أرجع إليك ، يا عبدى : فيك للعلوم باب مفتاحه أنا ، وفيك للجهل باب مفتاحه أنت ، فاقصد أىّ البابين شئت ، يا عبدى : قربى منك بقدر بعدك عن نفسك وبعدي عنك بقدر قربك من نفسك ، فقد عرفتك الطريق ، فاترك نفسك تصل إلىّ فى خطرة واحدة ، يا عبدى : كل ما جمعك على فهو منى ، وكل ما فرقك عنى فهو منك ، فجاهد نفسك تصل إلىّ ، وإنى لغنى عن العالمين ، يا عبدى : إن منحتنى نفسك رددتها إليك راضية مرضية ، وإن تركتها عندك فهى أعظم بلية ، فهى أعدى الأعادى إليك فجاهدها تعد بالفوائد إليك).

وفى بعض الآثار المروية عن اللّه تعالى : «يا عبدى : أنا بدّك اللازم فالزم بدّك». «١» ويمكن أن يشار بالأرض إلى أرض العبودية ، وبالسماء إلى سماء الحقيقة ، وبالسبع سموات إلى سبع مقامات وهى الصبر والشكر والتوكل والرضى والتسليم والمحبة والمعرفة. واللّه تعالى أعلم.

ولما ذكر خلق العالم العلوي والسفلى ، ذكر كيفية ابتداء من عمّر العالم السفلىّ من جنس الآدمي ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٣٠ الى ٣٣]

وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣١) قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاَّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

لمّا أراد اللّه تعالى عمارة الأرض ، بعد أن عمر السموات بالملائكة ، أخبر الملائكة بما هو صانع من ذلك تنويها بآدم وتشريفا لذريته ، وتعليما لعباده أمر المشاورة ، فقال لهم : إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً يخلفنى فى أرضى وتنفيذ أحكامى ، قالُوا على وجه الاستفهام ، أو من الإدلال ، إن كان من المقربين ، بعد أن رأوا الجن قد أفسدوا وسفكوا الدماء : أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها ، وشأن الخليفة

الإصلاح ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ، أي : نسبح ملتبسين بحمدك ، وَنُقَدِّسُ لَكَ ، أي : نطهر أنفسنا لأجلك ، أو ننزهك عما لا يليق بجلال قدسك ، فنحن أحق بالخلافة منهم.

---

(١) أخرجه الديلمي فى الفردوس (٥/ ٢٣٠ ح ٨٠٤٠) عن أنس مرفوعا. ورواه الخطيب فى تاريخ بغد ٩ اد ٢٤٢/ ٢ وقال : هذا الحديث موضوع المتن.

قال الحق جل وعلا : إِنِّي أَعْلَمُ ..... ما لا تعلمون فإني أعلم أنه يكون منهم رسل وأنبياء وأولياء ، ومن يكون مثلكم أو أعظم منكم ، ولما ألقى الخليل فى النار ضجت الملائكة وقالت : «يا رب هذا خليلك يحرق بالنار».

فقال لهم : «إن استغاث بكم فأغيثوه». فلما رفع همّته عنهم قال الحق تعالى : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تعلمون.

ثم وجّه الحق تعالى استحقاقه للخلافة وهو تشريفه بالعلم ، فقال : وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ، أي : مسميات الأسماء بأن ألقى فى روعه ما تحتاج إليه ذريته من اللغات والحروف ، وخواص الأشياء ومنافعها ، ثم عرض تلك المسميات على الملائكة ، إظهارا لعجزهم ، وتشريفا لآدم بالعلم ، فَقالَ : أخبرونى بِأَسْماءِ هؤُلاءِ المسميات إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى ادعائكم استحقاق الخلافة ، فلما عجزوا عن معرفة تلك الأسماء قالُوا سُبْحانَكَ أي : تنزيها لك عن العبث ، لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ بكل شيء ، الْحَكِيمُ لإتقانك كل شيء ، وهذا اعتراف منهم بالقصور والعجز ، وإشعار بأن سؤالهم كان استفهاما وطلبا لتفسير ما أشكل عليهم ، ولم يكن اعتراضا.

قال الحق جل جلاله : يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ ، وعيّن لهم اسم كل مسمى ، فلما أخبرهم بذلك بحيث قال مثلا : هذا فرس وهذا جمل ، وعين ذلك لهم ، وظهرت ميزته عليهم بالعلم حتى استحق الخلافة ، قال الحق تعالى : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : ما غاب ، وأعلم ما تظهرونه من قولكم :

أَتَجْعَلُ فِيها .. إلخ ، وما تكتمونه من استحقاقكم الخلافة ، وقولكم : لن يخلق اللّه تعالى أحدا أعلم منا لتقدمنا ، والفضل لمن صدق لا لمن سبق.

قال البيضاوي : اعلم أن هذه الآيات تدل على شرف الإنسان ، ومزية العلم وفضله على العبادة ، وأنه شرط فى الخلافة ، بل العمدة فيها ، وأن التعليم يصح إطلاقه عليه تعالى ، وإن لم يصح إطلاق المعلم

عليه لاختصاصه بمن يحترف به ، وأن اللغات توقيفية – علمها اللّه بالوحى – ، وأن آدم عليه السّلام أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم ، والأعلم أفضل لقوله تعالى : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ، وأن اللّه يعلم الأشياء قبل حدوثها. هـ. باختصار.
وقال فى تفسير الملائكة : إنهم أجسام لطيفة قادرة على التشكل ، وهى منقسمة على قسمين : قسم شأنهم الاستغراق فى معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره ، – وهم العليّون ، والملائكة المقربون – وقسم يدبرون الأمر من

السماء إلى الأرض على ما ثبت به القضاء وجرى به القلم الإلهى ، وهم المدبرات أمرا ، فمنهم سماوية ، ومنهم أرضية. هـ. مختصرا.
الإشارة : اعلم أن الروح القائمة بهذا الآدمي هى قطعة من الروح الأعظم التي هى المعاني القائمة بالأوانى ، وهى آدم الأكبر والأب الأقدم ، وفى ذلك يقول ابن الفارض :
وإنّي وإن كنت ابن آدم صورة فلى فيه معنى شاهد بأبوّتى
فلمّا أراد الحق تعالى أن يستخلف هذا الروح فى هذه البشرية لتدبرها وتصرفها فيما أريد منها ، قالت الملائكة بلسان حالها : كيف تجعل فيها من يفسد فيها بالميل إلى الحظوظ والشهوات ، ويسفك الدماء بالغضب والحميات ، ونحن نسبحك وننزهك عما لا يليق بك؟ رأت الملائكة ما يصدر من بعض الأرواح من الميل إلى الحضيض الأسفل ، ولم تر ما يصدر من بعضها من التصفية والترقية ، فقال لهم الحق تعالى : إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ فإن منها من تعرج إلى عرش الحضرة ، وتعبدنى بالفكرة والنظرة ، وتستولى على الوجود بأسره ، وتنكشف لها عند ذلك أسرار الذات وأنوار الصفات وأسماء المسميات.
فيقول الحق تعالى للملائكة : هل فيكم من كشف له عن هذا السر المكنون ، والاسم المصون ، فقالوا : سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا من علم الصفات دون أسرار الذات إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ يقول الحق تعالى لروح العارف التي نفذت إلى بحر وحدة الذات وتيار الصفات : أنبئهم بما غاب عنهم من أسرار الجبروت ، وأسماء الملكوت ، فلما أعلمهم بما كوشف له من الأسرار ، وانفلق له من الأنوار ، أقروا بشرف الآدمي ، وسجدوا لطلعة آدم عليه السّلام فقال الحق لهم : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ؟ أي : ما غاب فى سماء الأرواح من الأسرار وفى أرض النفوس من الأنوار ، وأعلم ما تظهرونه من الانقياد ، وما تكتمونه من الاعتقاد ، واللّه تعالى أعلم.

ولما تبين شرف آدم عليه السّلام وبان فضله أمرهم بالسجود له ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٣٤]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (٣٤)

قلت : (إذ) ظرف للماضى ، ضد إذا ، وهى معمولة لفعل مقدر ، يفسره قوله تعالى : وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ ، فحيثما وردت فى القرآن فيقدر له «اذكر» ، والاستثناء متصل إذا قلنا إبليس من الملائكة ، ومنقطع إذا قلنا من الجن. واللّه تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، لما تبينت فضيلة ، آدم أمرهم بالسجود ، فقال لهم : اسْجُدُوا لِآدَمَ سجود انحناء ، فَسَجَدُوا كلهم ، لأنهم شهدوا الجمع ولم يشهدوا الفرق ، فرأوا آدم قبلة ، أو نورا من أنوار عظمته ، إِلَّا إِبْلِيسَ أي : امتنع حيث نظر الفرق بحكمة الواحد القهار ، فاستكبر وَكانَ من جملة الْكافِرِينَ. وكفره باعتراضه على اللّه وتسفيه حكمه ، لا بامتناعه إذ مجرد المعصية لا تكفر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا كمل تصفية الروح ، وظهر شرفها ، خضع لها كل شىء ، وتواضع لها كل شيء ، وانقاد لأمرها من سبقت له العناية ، وهبت عليه ريح الهداية ، لأنها صارت آدم الأكبر ، إلا من أبلسته المشيئة ، وطردته القدرة ، فاستكبر عن تحكيم جنسه على نفسه ، وكان من الكافرين لوجود الخصوصية ، فجزاؤه حرمان شهود طلعة الربوبية ، وهبوطه إلى حضيض العمومية.

ثم ذكر الحق تعالى دخول آدم الجنة ، ونزوله إلى الخلافة التي أخبر الحق تعالى بها قبل ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٣٥ الى ٣٧]

وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)

قلت : (رغدا) : صفة لمصدر محذوف ، أي : أكلا رغدا واسعا ، و(تكونا) : منصوب ، جواب الأمر ، أو معطوف على (تقربا) ، و(أزلهما) : أوقعهما فى الزلل بسبب الأكل ، أو أذهبهما عن الجنة ، ويدل عليه قراءة حمزة :

«فأزالهما» ، وجملة (بعضكم لبعض عدو) : حالية ، أي : متعادين.

يقول الحق جل جلاله : وَقُلْنا يا آدَمُ حين سجدت له الملائكة ودخل الجنة : اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ حواء الْجَنَّةَ ، وكانت خلقت من ضلعه الأيسر ، وَكُلا من ثمار الجنة حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ : العنب أو التين أو الحنطة فَتَكُونا إن أكلتما منها مِنَ الظَّالِمِينَ لنفسيكما. فدخل إبليس خفية أو فى فم الحية «١» ، فتكلم مع آدم عليه السّلام فقال له آدم عليه السّلام : ما أحسن هذه الحالة لو كان الخلود. فحفظها إبليس ، ووجد فيها مدخلا من جهة الطمع ، فقال له : هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى فدله على أكل الشجرة ، وقال : ما نَهاكُما رَبُّكُما عنها إِلَّا كراهية

---

(١) ليس لنا البحث عن كيفية وسوسة إبليس لآدم ، ولانقطع القول بلا دليل. وهذا من الإنصاف.

(٩٦/١)

أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ. وأكلت حواء أولا ، ثم قالت له : قد أكلت ولم يضرنى ، ثم أكل آدم عليه السّلام من جنس الشجرة ، لا من عينها ، متأولا ، فطار التاج واللباس ، وأخرجهما مِمَّا كانا فِيهِ من رغد العيش والهناء ، وأهبطهما إلى الأرض ، للتعب والعناء ، ليكون خليفة على ما سبق به القضاء.

فقال لهم الحق تعالى : اهْبِطُوا آدم وحواء وإبليس والحية ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ استقرار وتمتع إِلى حِينٍ وفاتكم ، فتقدمون على فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، فَتَلَقَّى أي أخذ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ وهى : رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ ، فَتابَ الحق تعالى عليه واجتباه لحضرته ، فإنه تواب كثير التوبة على عباده ، رحيم بهم ، أرحم من أبيهم وأمهم ، اللهم ارحمنا رحمة تعصمنا بها عن رؤية السّوى ، إنك على كل شىء قدير.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله للروح ، إذا كمل تهذيبها ، وتمت تربيتها : اسكن أنت وبشريتك التي تزوجتها - قال تعالى : وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ - جنة المعارف ، وكلا من ثمار أذواقها وأنهار علومها ، وتبوّءا من قصور ترقّياتها ، أكلا واسعا ما دمتما متحليين بالأدب ، ولا تقربا شجرة المعصية وسوء الأدب (فتكونا من الظالمين) ، فلما سكنت جنة الخلود ، وشرهت إلى الخلود ، أهبطها اللّه إلى أرض العبودية ، وردها إلى البقاء لتستحق الخلافة ، وتقوم بحقوق الربوبية ، بسبب ما ارتكبه من المعصية ، وهى الشّره إلى دوام الحرية ، «أكرم بها معصية أورثت الخلافة!» ، فكل ما ينزل بالروح إلى قهرية العبودية ، فهو سبب إلى الترقي لشهود نور الربوبية ، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول ، فلما أراد الحق تعالى أن ينزلها إلى أرض العبودية بالسلوك بعد الجذب ، قال لها ولمن يحاربها من

الشيطان والهوى والدنيا وسائر الحظوظ : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم - أيها العارفون بعد جهاد أعدائكم - فى أرض العبودية ، استقرار وتمتع بتجليات أنوار الربوبية ، إلى حين الملاقاة الحقيقية.

فتلقت الروح من ربها كلمات الإنابة ، وهبّ عليها ، نسيم الهداية ، بما سبق لها من عين العناية ، فتاب عليها ، وقرّبها إلى حضرة الشهود ، ومعاينة طلعة الملك الودود ، إنه تواب رحيم جواد كريم.

ثم كرر الحق تعالى أمرهم بالهبوط ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٣٨ الى ٣٩]

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٣٩)

(٩٧/١)

قلت : (إن) : شرط ، و(ما) زيدت لتقوية الشرط ، ولذلك دخلت نون التوكيد ، وعبر بإن دون (إذا) ، مع تحقق مجيئ الهدى لأنه غير واجب عقلا ، وجملة الشرط الثاني وجوابه ، الشرط الأول ، و(جميعا) حال مؤكدة أي :

اهبطوا أنتم أجمعون ، ولذلك لا يقتضى اجتماعهم على الهبوط فى زمان واحد.

ولما أمر الحق جلا جلاله آدم أولا بالهبوط من الجنة ، جعل يبكى ويتضرع ويقول : ألم تخلقنى بيدك؟ ألم تسجد لى ملائكتك؟ ألم تدخلنى جنتك؟ ثم ألهم الكلمات التي تلقاها من ربه ، فتاب عليه ورحمه ، فطمع آدم حين سمع من ربه قبول توبته فى البقاء فى الجنة ، فقال له الحق جل جلاله : يا آدم لا يجاورنى من عصانى ، وقد سبقت كلمتى بهبوطك إلى الأرض لتكون خليفتى بذريتك ، فكرر عليه الأمر بالهبوط ثانيا. فقال : اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً أنتما بما اشتملتما عليه من ذريتكما. فمهما يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً أي : بيان وإرشاد إلى توحيدى ومعرفتي ، على يد رسول أو نائب عنه ، فَمَنْ تَبِعَ ذلك الإرشاد ، واهتدى إلى معرفتي وتوحيدى ، وعمل بطاعتي وتكاليفى ، فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من لحوق مكروه وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ من فوات محبوب ، لأنى أصرف عنهم جميع المكاره ، وأجلب لهم المنافع ، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا الدالة على قدرتنا المنزلة على رسلنا ، واستكبروا عن النظر فيها ، أو عن الخضوع لمن جاء بها ، أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ.

الإشارة : إذا سكنت الأرواح فى عشّ الحضرة ، وتمكنت من الشهود والنظرة ، أمرها الحق تعالى بالنزول إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ ، فتنزل بالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين ، لا لطلب جزاء أو لقضاء شهوة ، بل تنزل باللّه ومن اللّه وإلى اللّه ، فمن نزل منها على هذا الهدى الحسن فَلا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، ومن ركب بحر التوحيد مع غير رئيس عارف ، ولم يأو إلى سفينة الشريعة ، واستكبر عن الخضوع إلى تكاليفها لعبت به الأمواج ، فكان من المغرقين. أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ لأن من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق ، ومن تشرع ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق ، جعلنا اللّه ممن تحقق بهما. وسلك على منهاجهما إلى الممات ، آمين.

ولما ذكر الحق تعالى شرف كتابه ، ونفى وجود الريب عن ساحته ، ثم دعا إلى توحيده ، وبرهن على وجوده ، بابتداء خلق العالم من عرشه إلى فرشه ، وذكر كيفية ابتداء عمارته ، خاطب بنى إسرائيل لأنهم أهل العلم بالأخبار المتقدمة ، وقد سمعوا هذه الأخبار من نبى أمّى لم يعهد بقراءة ولا تعلم ، فقامت الحجة عليهم ، وتحققوا أنه من عند اللّه. وما منعهم من الإسلام إلا الحسد وحب الرئاسة ، فلذلك أطال الحقّ الكلام معهم ، تارة يقرّعهم على عدم

(٩٨/١)

الإيمان وما فعلوا مع أنبيائهم ، وتارة يذكرهم النعم التي أنعم اللّه على أسلافهم ، فقال تعالى :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٤٠ الى ٤٣]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

قلت : (إسرائيل) : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل - عليهم الصلاة والسلام - وهو اسم عجمى ، وبنو تميم تقول : «إسرائين» بالنون ، (و إسرا) بالعبرانية : عبد ، و(إيل) : اسم اللّه تعالى ، فمعناه : عبد اللّه ، وبنو إسرائيل :

هم أولاد يعقوب عليه السّلام ، و(بعهدي) من إضافة المصدر إلى فاعله ، وبِعَهْدِكُمْ إلى مفعوله ، و(إياى) منصوب بفعل مضمر ، يقدر مؤخرا. أي : إياى ارهبوا فارهبون. وحذف مفعول (ارهبون) لرءوس الآي ، وكذا قوله : (و إياى فاتقون) ، والرهبة : خوف مع تحرّز ، و(تكتموا) : معطوف على (تلبسوا) ، أو منصوب بأن مضمرة بعد النهى ، و(أنتم تعلمون) : جملة حالية.

يقول الحق جل جلاله : يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ التي خصصتكم بها ، بأن فضلتكم على أهل زمانكم ، وجعلت فيكم أنبياء ورسلا ، كلما انقرض نبى بعثت نبيّا آخر ، وجعلتكم ملوكا وحكاما على الناس ، قبل أن تفسدوا فى الأرض بقتل الأنبياء ، فتكفروا بهذه النعم ، فإن الإنسان حسود غيور

بالطبع ، فإذا نظر إلى ما أنعم اللّه على غيره حمله الحسد والغيرة على السخط والكفران ، وإذا نظر إلى ما أنعم اللّه به عليه حمله حب النعمة على الرضا والشكر. فاذكروا ما أنعمت به عليكم ، وقيدوه بالشكر ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي الذي عهدت إليكم ، وهو أنكم إن أدركتم محمدا صلى اللّه عليه وسلّم لتؤمنن به ولتنصرنه ، ولتبينن صفته التي فى كتابكم ، ولا تكتمونها ، أُوفِ بِعَهْدِكُمْ بأن أدخلكم جنتى ، وأبيح لكم النظر إلى وجهى ، وأحل عليكم رضوانى فى جملة عبادى ، ولا ترهبوا أحدا غيرى ، فإنه لا فاعل غيرى.

وبادروا إلى الإيمان بما أَنْزَلْتُ على محمد رسولى ، من كتابى ، الذي هو مصدق لِما مَعَكُمْ من التوراة ، ومهيمن عليه ، وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ فريق كافِرٍ بِهِ ، فتبوءوا بإثمكم وإثم من تبعكم ، ولا تستبدلوا الإيمان الذي هو سبب الفوز فى الدارين ، بالعرض الفاني الذي تأخذونه من سفلتكم ، فإنه ثمن قليل يعقبه عذاب جليل وخزى كبير. ولا تخشوا أحدا سواى فإن النفع والضرر بيدي ، ولا تخلطوا الْحَقَّ الذي هو ذكر

محمد صلى اللّه عليه وسلّم وصفته التي فى كتابكم ، بِالْباطِلِ الذي تريدونه تحريفا وتأويلا ، وَلا تَكْتُمُوا الْحَقَّ الذي عندكم من ذكر محمد وصحة رسالته ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنكم محرفون ، ولابسون عنادا وحسدا ، فيحل عليكم غضبى وعقابى ، وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى . فإذا حصلتم أصول الدين ، وهو الإيمان ، فاشتغلوا بفروعه ، وهى الصلاة والزكاة وغيرهما ، فأدوهما على منهاج المسلمين.

واجعلوا صلاتكم فى جماعة المؤمنين فإنّ صلاة الجماعة تفضل غيرها بسبع وعشرين درجة ، مع سريان الأسرار واقتباس الأنوار من الصالحين والأبرار ، وباللّه التوفيق.

الإشارة : إذا توجّه الخطاب إلى طائفة مخصوصة ، حمله أهل الفهم عن اللّه على عمومه لكل سامع ، فإن الملك إذا عاتب قوما بمحضر آخرين ، كان المراد بذلك تحذير كل من يسمع ، فكأن الحق جل جلاله يقول : يا بنى آدم اذكروا نعمتى التي أنعمت عليكم ، وتفكروا فى أصولها وفروعها ، واشكرونى عليها بنسبتها إلىّ وحدى ، فإنه لا منعم غيرى ، فمن شكرنى شكرته ، ومن فيض إحسانى وبرى مددته ، ومن كفر نعمتى سلبته ، وعن بابى طردته ، وأوفوا بعهدي بالقيام بوظائف العبودية ، أوف بعهدكم بأن أطلعكم على أسرار الربوبية.

أو : أوفوا بعهدي بالقيام برسوم الشريعة ، أوف بعهدكم بالهداية إلى منار الطريقة ، أو : أوفوا بعهدي بسلوك منهاج الطريقة ، أوف بعهدكم بالإيصال إلى عين الحقيقة ، أو : أوفوا بعهدي بالاستغراق فى

بحر الشهود ، أوف بعهدكم بالترقي أبدا إلى الملك الودود ، وخصونى بالرهب والرغب ، وتوجهوا إلىّ فى كل سؤال وطلب ، أعطف عليكم بعنايتى وودى ، وأمنحكم من عظيم إحسانى ورفدى ، وآمنوا بما أنزلت على قلوب أوليائى ، من مواهب أسرارى وآلائي ، تصديقا لما أتحفت به رسلى وأنبيائى ، فكل ما ظهر على الأولياء فهو معجزة للأنبياء وتصديق لهم ، ولا تبادروا بالإنكار على أوليائى ، فتكونوا سببا فى طرد عبادى عن بابى ، ولا يمنعكم حب الرئاسة والجاه عن الخضوع إلى أوليائى ، ولا ترقبوا أحدا غيرى ، فإنى أمنعكم من شهود سرى.

ولا تلبسوا الحق بالباطل ، فتظهروا شعار الصالحين وتبطنوا أخلاق الفاسقين ، تتزيوا بزى الأولياء ، وتفعلوا فعل الأغوياء ، وإذا تحققتم بخصوصية أحد من عبادى ، فلا تكتموها عن أهل محبتى ووِدادي ، وأقيموا صلاة القلوب بالخضوع تحت مجارى الأقدار ، وأدوا زكاة النفوس بالذل والانكسار ، وكونوا مع الخاشعين ، واركعوا مع الراكعين ، أمنحكم معونتى ونصرى ، وأفيض عليكم من بحر إحسانى وبرى ، أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى.

ثم وبّخ الحق تعالى من عرف الحق وحرم نفسه منه من أهل الكتاب وغيرهم ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٤٤]

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤)

قلت : البر ، بالكسر : يجمع وجوه الخير وأنواع الطاعات ، والنسيان : الترك.

يقول الحق جل جلاله فى توبيخ أحبار اليهود ، كانوا إذا استرشدهم أحد من العرب دلوه على الإسلام ، وقالوا له : دين محمد حق ، وهم يمتنعون منه ، وقيل : كانوا يأمرون الناس بالصدقة وهم يبخلون ، فقال لهم : كيف تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ والإحسان ، وتتركون أَنْفُسَكُمْ فى الكفر والعصيان ، وأنتم تدرسون التوراة الصحيح ، وتعلمون أن ذلك من أقبح القبيح؟ ، أفلا عقل لكم يزجركم عن هذه الخصلة الذميمة؟ فإن من شأن العقل التمييز بين القبيح والحسن والنافع والضار ، فكل من تقدم لما فيه ضرره فلا عقل له.

الإشارة : كل من أشار إلى مقام لم يبلغ قدمه إليه ، فهذا التوبيخ متوجّه إليه ، وكل من ذكر غيره بعيب لم يتخلص منه ، قيل له : أتأمر الناس بالبر وتنسى نفسك خالية منه ، فلا يسلم من توبيخ هذه الآية من أهل التذكير إلا الفرد النادر من أهل الصفاء والوفاء.

وقال البيضاوي : (المراد بها حث الواعظ على تزكية النفس ، والإقبال عليها بالتكميل لتقوم فيقيم ، لا

منع الفاسق عن الوعظ ، فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر). فانظره.

وتأمل قول القائل :

يا أيها الرجل المعلّم غيره هلّا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا ومن الضنا وجواه أنت سقيم

وأراك تلقح بالرشاد عقولنا نصحا ، وأنت من الرشاد عديم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل إن وعظت ، ويقتدى بالقول منك ، وينفع التعليم

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

لكن من حصل له بعض الصفاء ، ذكر غيره ونفسه معهم ، وكان بعض أشياخنا يقول حين يذكر الفقراء : نحن إنما ننبح على نفوسنا.

ثم أشار الحق تعالى إلى الدواء ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٤٥ الى ٤٦]

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ (٤٦)

قلت : الصبر : هو حبس القلب على حكم الرب ، فيحتمل أن يراد به ظاهره ، أو يراد به هنا الصوم ، لأن فيه الصبر عن الشهوات. والخشوع فى الجوارح : سكونها وذلها ، والخضوع فى القلب : انقياده لحكم الرب.

يقول الحق جل جلاله : يا من ابتلى بالرئاسة والجاه ، واستكبر عن الانقياد لأحكام اللّه التي جاءت بها الرسل من عند اللّه ، استعن على نفسك بِالصَّبْرِ على قطع المألوفات ، وترك الحظوظ والشهوات ، وأصل فروعها حب الرئاسة والجاه ، فمن صبر على تركهما فاز برضوان اللّه. وفى الحديث : «وفى الصبر على ما تكره خير كثير». وقال الشاعر :

والصّبر كالصبر مرّ فى مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

أو : وَاسْتَعِينُوا بالصوم وَالصَّلاةِ ، فإن فى الصوم كسر الشّهوة وتصفية النفس ، فإذا صفت النفس من الرذائل تحلت بأنواع الفضائل ، كالتواضع والإنصاف ، والخشوع وسائر سنى الأوصاف ، وفى الصلاة أنواع من العبادات النفسية والبدنية ، كالطهارة ، وستر العورة ، وصرف المال فيهما ، والتوجه إلى

الكعبة ، والعكوف للعبادة ، وإظهار الخشوع بالجوارح ، وإخلاص النية بالقلب ، ومجاهدة الشيطان ، ومناجاة الرحمن وقراءة القرآن ، وكف النفس عن الأطيبين «١» ، وفى الصلاة قضاء المآرب وجبر المصائب ، ولذلك كان - عليه الصلاة والسلام - إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ أي : شاقة على النفس لتكريرها فى كل يوم ، ومجيئها وقت حلاوة النوم ، إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ الذين سكنت حلاوتها فى قلوبهم ، وتناجوا فيها مع ربهم ، حتى صارت فيها قرّة عينهم.

الذين يتيقنون أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ فيتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ، ويتيقنون أيضا أنهم راجعون إلى ربهم بالبعث والحشر للثواب والعقاب ، وإنما عبّر الحق تعالى هنا بالظن فى موضع اليقين إبقاء على المذنبين ، وتوفرا على العاصين ، الذين ليس لهم صفاء اليقين إذ لو ذكر اليقين صرفا لخرجوا من الجملة ، فسبحانه من رب حليم ، وجواد كريم. اللهم امنن علينا بصفاء المعرفة واليقين ، حتى لا يختلج قلوبنا وهم ولا ريب ، يا رب العالمين.

الإشارة : يا من رام الدخول إلى حضرة اللّه ، تذلل وتواضع لأولياء اللّه ، وتجرع الصبر فى ذلك كى يدخلوك حضرة اللّه ، كما قال القائل :

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل «٢» إذا رضى المحبوب صحّ لك الوصل

---

(١) أي : الأكل والجماع. قاله الشهاب الخفاجي فى حاشيته على البيضاوي ٤٥١/ ٢.

(٢) أرى أن يكون : (تذلل لمن تهوى فما فى الهوى سهل).

فإن منعك من ذلك حب الرئاسة والجاه ، فاستعن على ذلك بالصبر والصلاة ، فإن الصبر عنوان الظفر ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. فأدمن قرع الباب حتى تدخل مع الأحباب ، فالإدمان على عبادة الصلاة أمره كبير ، إلا من خلص إلى مناجاة العلى الكبير ، وتحقق بملاقاة الشهود والعيان ، ورجع إلى مولاه فى كل أوان ، فإن الصلاة حينئذ تكون له من قرة العين. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما أمرهم بالأصول والفروع ، ذكّرهم بالنعم ، وخوفهم بالوعيد على عدم شكرها ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٤٧ الى ٤٨]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)

قلت : العدل بالفتح : الفداء ، وبالكسر : الحمل ، وجملة لا تَجْزِي : صفة ليوم ، والعائد محذوف ، أي : لا تجزى فيه.

يقول الحق جل جلاله : يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ على آبائكم بالهداية وبعث الرسل ، وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ : أهل زمانكم ، فاذكروا هذه النعم واشكروني عليها بأن تتبعوا هذا النبي الجليل ، الذي تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل.

وخافوا يَوْماً لا تقضى فيه نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً بحيث لا تجلب لها نفعا ، ولا تدفع عنها ضررا ، ولا تقبل مِنْها شَفاعَةٌ إن وقعت الشفاعة فيها ، ولا يؤخذ منها فداء ، إن أرادت الفداء عنها ، ولا تنتصر فى دفع العذاب ، إن أرادت الانتصار بعشيرتها. فانتفى عنها وجوه الامتناع من العذاب بأى وجه أمكن فإن الإنسان إذا أخذ للنكال احتال على نفسه إما بالشفاعة ، أو بالفداء إن لم تقبل الشفاعة فيه ، أو بالانتصار بأقاربه ، والآية فى الكفار ، فلا حجة لمن ينفى الشفاعة فى عصاة المؤمنين ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد يتوجّه العتاب إلى أهل الرئاسة والجاه ، من العلماء والصالحين ، وكل من خصّ بشرف أو خصوصية ، فيقول لهم الحق تعالى : اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ بالعلم أو السيادة أو الصلاح ، وبأن فضلتكم على أهل زمانكم ، وخصصتكم من أبناء جنسكم فقد روى : «أنّ العبد يحاسب على جاهه كما يحاسب على ماله». فمن صرفه فى طاعة اللّه ، وتواضع لعباد اللّه ، وسعى فى حوائجهم ، وأبلغ الجهد فى قضاء مآربهم ، كان ذلك شكرا لنعمة الجاه فقد روى فى الحديث : «من سعى فى حاجة أخيه المسلم ، قضيت أو لم تقض ، غفر له ما تقدم من ذنبه ، وكتب له براءتان : براءة من النار وبراءة من النفاق».

ولا يأخذ على ذلك أجرا ولا جعلا فإن ذلك سحت وربا ، ومن تكبر به وطغى ، أو أخذ على ذلك أجرا ، قيل له يوم القيامة : قد استوفيت أجرك فلا حظ لك عندنا ، فلا تنفعه شفاعة ، ولا يقبل منه فداء ، ولا يقدر أن ينتصر من موارد الهوان والردى ، ففى بعض الأخبار : يقول اللّه تعالى للفقراء الذين يعظمون فى الدنيا لأجل فقرهم : ألم أرخص لكم الأسعار؟ ألم أوسع لكم المجالس؟ ألم أعطّف عليكم عبادى؟ فقد أخذتم أجركم فى الدنيا. أو كما قال.

واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكّر الحق تعالى بنى إسرائيل بنعمة أخرى ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٤٩]
وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)
قلت : (إذ) : معمول لا ذكروا ، و(فرعون) : اسم لكل من ملك القبط ، كما أن قيصر اسم لمن ملك الروم ، وكسرى اسم لمن ملك الفرس ، واسم (فرعون) الذي كان فى زمن موسى عليه السّلام : «مصعب بن ريان» ، وقيل : ابنه الوليد.
وسام يسوم : طلب وبغى ، يقال : سامه خسفا إذا أولاه ظلما ، وجملة (يسومونكم) : حال من (آل فرعون) ، وجملة (يذبحون) : بيان لها. وسوء العذاب : أفظعه وأقبحه.
يقول الحق جل جلاله : يا بنى إسرائيل اذكروا نعمة أخرى أنعمت بها على أسلافكم ، وأنتم عالمون بها ، وذلك حين أنجيناكم من عذاب فرعون ورهطه ، يولونكم أقبح العذاب وأشنعه ، كانوا يستعبدون رجالكم ونساءكم فى مشاق الخدمة والمهنة ، ولمّا أخبره الكهان أنه سيخرج منكم ولد يخرّب ملكه ، جعل يذبح ذكوركم ويترك نساءكم ، وفى ذلكم محنة مِنْ رَبِّكُمْ وابتلاء عَظِيمٌ ، أو فى ذلك الإنجاء اختبار من ربكم عظيم ، فاذكروا هذه النعمة ، وتحصنوا بالإيمان بمحمد صلى اللّه عليه وسلّم من محنة أخرى ، ولا ينفع حذر من قدر ، وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً.
وباللّه التوفيق.
الإشارة : لكل زمان فراعين وجبابرة يقطعون الناس عن الانقطاع إلى اللّه والدخول إلى حضرة اللّه ، (ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) ، يقول الحق جل جلاله للذين تخلصوا منهم : اذكروا نعمتى التي أنعمت عليكم بها حيث أنجيتكم من فراعين زمنكم ، يسومونكم سوء العذاب وهو البقاء فى غم الحجاب ، والانقطاع عن الأحباب ، يقتلون ما ربيتم من اليقين فى قلوبكم والمعرفة فى أسراركم ، ويستحيون

شهواتكم وحظوظكم ، (و فى ذلكم بلاء من ربكم عظيم). قال تعالى : وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ .... وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.
[سورة البقرة (٢) : آية ٥٠]
وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)
ثم ذكّرهم الحق تعالى نعمة أخرى وهى فلق البحر وإغراق العدو ، فقال :

يقول الحق جل جلاله : واذكروا أيضا حين فَرَقْنا بسببكم الْبَحْرَ ، حين فررتم من عدوكم ، فسلكتم فيه اثنى عشر مسلكا يابسا ، حتى خلصتم إلى الشام ، فلما أدرككم عدوّكم ، واستتمّ دخوله فيه ، أطبقنا عليهم البحر فَأَنْجَيْناكُمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وأنتم تعاينون غرقهم وهلاكهم ، فاشكروا هذه النعم التي أنعمت بها على أسلافكم ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم على نبى أمي ، لم يكن له علم بهذا ، حتى علمه بالوحى من ربكم.

الإشارة : قال بعض الحكماء : (الهوى بحر لا ساحل له إلا الموت). فلا يقطع بحر الحظوظ والعوائد ، إلا الخواص ، الذين منّ اللّه عليهم بسلوك الطريقة ، والغرق فى بحر الحقيقة ، على يد رجال جمعوا بين الشريعة والحقيقة ، فيقول الحق - جل جلاله - لمن تخلّص من بحر هواه ، وأفضى إلى مشاهدة مولاه : اذكروا نعمتى التي أنعمت عليكم حيث خلصتكم من بحر الشهوات والعوائد ، وأطلعتكم على أسرار العلوم وذخائر الفوائد ، وأغرقنا فيه من تكبر وطغى ، وأنت تنظرون ما فيه الناس من غم الحجاب وسوء الحساب ، فى بحر لجى يغشاه موج الذنوب ، من فوقه موج الحظوظ ، من فوقه سحاب الأثر ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل اللّه له نورا فما له من نور. وباللّه التوفيق.

ثم ذكّرهم نعمة التوراة التي أنزلها على موسى ، وفى ضمنه التوبيخ على عبادة العجل ، فقال جل جلاله :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٥١ الى ٥٣]

وَإِذْ واعَدْنا مُوسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)

قلت : (أربعين) : مفعول لواعدنا ، لا ظرف ، و(العجل) : مفعول أول ، والثاني محذوف ، أي : اتخذتموه إلها ، و(الفرقان) : معطوف على (الكتاب).

يقول الحق جل جلاله : واذكروا أيضا حين واعَدْنا مُوسى أن يصوم أَرْبَعِينَ لَيْلَةً بأيامها متواصلة ، وذلك حين طلبتم منه أن ينزل عليه الكتاب فيه بيان الأحكام ، ثم لما صامها ، وهى : ذو القعدة وعشر ذى الحجة ، وأتى إلى المناجاة ، كفرتم ، واتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ الذي صاغه السامري من الحلىّ ، الذي أخذته نساء بنى إسرائيل من القبط عارية ، ففروا به ظنا منهم أنه حلال ، فقال لهم هارون عليه السّلام : لا يحل لكم ، فطرحوه فى حفرة ، فصاغ منه السامري صورة العجل ، وألقى فى جوفه قبضة أخذها من تحت حافر فرس جبريل عليه السّلام حين عبر معهم البحر ، فجعل يخور ، فقال السامري : هذا إِلهُكُمْ

وَإِلهُ مُوسى ، وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ فى عبادته ، ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ بالتوبة وقتل النفس على ما يأتى ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، فلا تعصون بنعمة ، وَاذكروا أيضا إِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ الذي طلبتم ، وهو التوراة ، وهو الْفُرْقانَ الذي فرقنا فيه بين الحق والباطل ، كى تهتدوا إلى الصواب فتنجوا من العذاب.

الإشارة : ما زالت الأشياخ والأولياء الأقدمون ينتحلون طريق سيدنا موسى عليه السّلام فى استعمال هذه الأربعين ، ينفردون فيها إلى مولاهم ، مؤانسة ومناجاة ، وفى ذلك يقول ابن الفارض رضى اللّه عنه :

وصرت موسى زمانى مذ صار بعضى كلّى

وقال :

صارت جبالى دكّا من هيبة المتجلّي

فيفارقون عشائرهم وأصحابهم فى مناجاة الحبيب ، والمؤانسة بالقريب ، فمن أصحابهم من يبقى على عهده فى حال غيبة شيخه ، من المجاهدة والمشاهدة ، ومنهم من تسرقه العاجلة فيرجع إلى عبادة عجل حظه وهواه فيظلم نفسه بمتابعة دنياه ، فإن بادر بالتوبة والإقلاع ، ورجع إلى حضرة شيخه بالاستماع والاتباع ، وقع عنه العفو والغفران ، ورجا ما كان يؤمله من المشاهدة والعيان ، وإلا باء بالعقوبة والخسران ، وكل من اعتزل عن الأحباب والعشائر والأصحاب ، طالبا جمع قلبه ، ورضى ربه ، فلا بد أن ترد عليه أسرار ربانية ومواهب لدنية ، من لدن حكيم عليم ، يظهر بها الحق ، ويدفع بها الباطل ، فيفرق بين الحق والباطل. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى كيفية توبة من عبد العجل منهم ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٥٤]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)

قلت : البارئ هو : المقدر للأشياء والمظهر لها.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا يا بنى إسرائيل حين قالَ موسى لِقَوْمِهِ لما رجع من الطور ، ووجدهم قد عبدوا العجل : يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وبخستموها بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ إلاهكم ، فَتُوبُوا إِلى خالقكم الذي صوركم فى أحسن تقويم ، فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ بهدم هذه البنية التي ركبتها فى أحسن صورة ، فبخستموها ، ولم تعرفوا قدرها ، فعبدتم أبلد الحيوان ، الذي هو البقرة. من لم يعرف حق النعمة

فحقيق أن تسترد منه.

فذلكم القتل والمبادرة إلى التوبة خَيْرٌ لَكُمْ عند خالقكم ، لأنه يفضى إلى الحياة الدائمة والبهجة السرمدية ، فلما صعب عليكم القتل للشفقة على الأخ أو القريب ، ألقينا عليكم ضبابة حتى أظلم المكان ، فاقتتلتم من الغداة إلى العشي ، فدعا موسى وهارون - عليهما السلام - بالكشف عنهم ، فرفعت السحابة ، وقد قتل سبعون ألفا ، ففعلتم ذلك القتل ، فتاب الحق تعالى عليكم ، فقبل توبة من بقي منكم ، وعفا عمن مات إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ أي : كثير التوفيق للتوبة ، أو كثير قبولها ، الرحيم بعباده المؤمنين.

الإشارة : ما قاله سيدنا موسى عليه السّلام لقومه ، يقال مثله لمن عبد هواه ، وعكف على متابعة دنياه : يا من بخس نفسه بإرخاء العنان فى متابعة هواها ، حتى حرمها من مشاهدة جمال مولاها ، تب إلى ربك ، وانتبه من غفلتك ، واقتل نفسك بمخالفة هواها ، فلعلها تحيا بمشاهدة مولاها ، فما دامت النفس موجودة ، وحظوظها لديها مشهودة ، وآمالها ممدودة ، كيف تطمع أن تدخل حضرة اللّه ، وتتمتع بشهود جماله وسناه؟!

إن ترد وصلنا فموتك شرط لا ينال الوصال من فيه فضله «١»

وقال الحلاج فى هذا المعنى :

لم أسلم النفس للأسقام تتلفها إلّا لعلمى بأنّ الوصل يحييها

وقال أيضا :

اقتلوني يا ثقاتى إنّ فى قتلى حياتى

وحياتى فى مماتى ومماتى فى حياتى

أنا عندى : محو ذاتى من أجلّ المكرمات

وبقائى فى صفاتى من قبيح السيّئات

---

(١) البيت للششترى.

وقال أيضا :

إن كان سفك دمى أقصى مرادكم فما غلت نظرة منكم بسفك دمى

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : (لا يدخل على الله إلا من بابين ، أحدهما : الموت

الحسى ، وهو الموت الطبيعي ، والآخر : الموت الذي تعنيه هذه الطائفة). هـ. وهو موت النفوس ، فمن لم تمت نفسه لم تحيي روحه.

وقال بعض العارفين : (لا يحصل الدخول على الله حتى يموت أربع موتات : موت أحمر ، وموت أسود ، وموت أبيض ، وموت أخضر. أما الموت الأحمر فهو مخالفة الهوى ، وأما الموت الأسود فهو تحمل الأذى ، وأما الموت الأبيض فهو الجوع - أي : المتوسط - وأما الموت الأخضر فهو لبس المرقعات ، وطرح الرقاع بعضها على بعض).

قلت : ورأس الهوى وعنصره هو حب الجاه وطلب الرئاسة. فمن نزل إلى أرض الخمول ، وخرق عوائد نفسه فيه ، انخرقت له الحجب ، ولاحت له الأنوار ، وأشرقت عليه الأسرار فى مدة قريبة ، وباللّه التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم وبخهم الحق تعالى على طلب الرؤية قبل إبانها ، وقبل تحصيل شروطها ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٥٥ الى ٥٦]

وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)

قلت : (جهرة) : مصدر نرى لأنه نوع منه ، أي : نرى اللّه رؤية عيان ، أو حال من الفاعل أي : نراه معاينين له ، أو من المفعول أي : نراه معاينة.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا أيضا ، يا بنى إسرائيل ، حين قلتم لموسى عليه السّلام لما رجع من الطور ، ووجدكم قد عبدتم العجل ، فأخذ منكم سبعين رجلا ممن لم يعبد العجل ، وذهب يعتذر ، فلما سمعتم كلامى أنكرتموه وحرفتموه ، وقلتم : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ أن هذا كلام اللّه حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ بسبب طلبكم ما لا طاقة لكم به ، فغبتم عن إحساسكم ، وذهبت أرواحكم ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ما فعل بكم ، فاستشفع فيكم موسى عليه السّلام وقال : يا رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا ، كيف أرجع إلى قومى بغير هؤلاء؟ ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ، وعشتم زمانا بعد ذلك لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ هذه النعمة ، وتقومون بحسن الخدمة ، فتقروا بربوبيتي ، وتصدقوا برسلى ، فلم تفعلوا.

الإشارة : من شأن الأرواح الطيبة التشوق الى الحضرة ، والتشوف إلى العيان والنظرة ، فلا يحصل لها كمال التصديق والإيقان إلا بعد الشهود والعيان ، فلما علم الحق سبحانه من بعض الأرواح صدق

الطلب ، رفع عنها الحجاب ، وفتح لها الباب ، فأخذتها صاعقة الدهشة والحيرة ، ولم تطق صدمة المشاهدة والنظرة ، فغابت عن الأشكال والرسوم فى مشاهدة أنوار الحي القيوم ، ثم منّ عليها بالبعث من موت الفناء إلى حياة البقاء ، فأمنت من الشقاء ، فحصلت لها الحياة الدائمة والسعادة السرمدية.

فالصاعقة عند أهل الفن هى عبارة عن الغيبة عن النفس ، وفناء دائرة الحس ، وهى شهود عدمك لوجود الحق ، والبعث منها هو مقام البقاء ، وهو شهود الأثر باللّه. وهو مقام حق اليقين. وحاصله : شهود وجود الحق وحده ، لا عدمك ولا وجودك ، «كان الله ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان». وبالله التوفيق.

ثم ذكّرهم الحق لطفه بهم فى حال التيه ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٥٧]

وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

قلت : (الغمام) : السحاب الرقيق ، و(المنّ) هنا : العسل ، و(و السّلوى) قيل : اللحم ، والأصح : أنه اسم طائر كالسمانى.

يقول الحق جل جلاله فى تذكير بنى إسرائيل ما أنعم به عليهم فى حال التيه : وَقد ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ يقيكم من الحر فى أيام التيه ، وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وهو عسل كان ينزل على الشجر من الفجر إلى الطلوع ، فيغرفون منه ما شاءوا ، وَأنزلنا عليكم السَّلْوى ، وهو طير كانت تحشره الجنوب ، فينزل عليهم ، فيأخذون منه ما شاءوا ، ولا يمتنع منهم ، فيذبحون ويأكلون لحما طريا ، فقلنا لهم : كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا بمخالفتهم أمر نبيهم وسوء أدبهم معه ، حيث قالوا : فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ، فعاقبهم بالتيه أربعين سنة ، يتيهون فى مقدار خمسة فراسخ أو ستة. وَلكِنْ ظلموا أنفسهم حيث أوقعوها فى البلاء والمحنة.

روى أنهم لما أمروا بجهاد الجبارين ، جبنوا وقالوا تلك المقالة ، فدعا عليهم سيدنا موسى عليه السّلام فوقعوا فى التيه بين مصر والشام ، فكانوا يمشون النهار فيبيتون حيث أصبحوا ، ويمشون الليل فيصبحون حيث أمسوا ، فقالوا

لموسى عليه السّلام : من لنا بالطعام؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى ، قالوا : كيف بحر الشمس؟ فظلل عليهم الغمام ، قالوا :

بم نستصبح بالليل؟ فضرب لهم عمود نور فى وسط محلتهم ، قالوا : من لنا بالماء؟ فأمر موسى عليه السّلام بضرب الحجر ، فقالوا : من لنا باللباس؟ فأعطوا ألا يبلى لهم ثوب ، ولا يخلق ، ولا يدرن ، وأن ينمو بنمو صاحبه ، وقيل :

كساهم مثل الظفر ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

الإشارة : لما انفصلت الأرواح من عالم الجبروت ، كانت على الطهارة الأصلية ، والنزاهة الأزلية ، عالمة بأسرار الربوبية وعظمة الألوهية ، لكن لم يكن لها إلا جنة الحرية ، دون جنة العبودية ، فلما أراد الحق تعالى أن يمتعها بجنتين عن يمين وشمال ، أمرها بالنزول إلى أرض العبودية ، فى ظلل من غمام البشرية ، فمن عليها بحلاوة المشاهدات وسلوان المناجاة ، وقال لها : كلوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ من طرائف العلوم ، وفواكه الفهوم ، هذا لمن اعتنى بروحه فاستكمل فضيلتها ، وخالف هواها ، فنفذت من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، فلم تنحجب بسحب الآثار إلى نفوذ شهود الأنوار ، بل غابت عن شهود الآثار بشهود الأنوار. أما من حجبت عن شهود الأنوار بالوقوف مع الآثار ، ووقعت فى شبكة الحظوظ والشهوات ، وربطت بعقال الأسباب والعادات ، فقد ظلمت نفسها ، وبخست حقها من مشاهدة مولاها ، حتى اتسعت عليها دائرة الحس ، ولم تنفذ إلى المشاهدة والأنس. وأنشدوا :

كمّل حقيقتك التي لم تكمل والجسم ضعه فى الحضيض الأسفل

أتكمّل الفاني وتترك باقيا هملا ، وأنت بأمره لم تحفل

فالجسم للنفس النفيسة آلة ما لم تحصّله بها لم يحصل

يفنى ، وتبقى دائما فى غبطة أو شقوة وندامة لا تنجلى

أعطيت جسمك خادما فخدمته أتملّك المفضول رقّ الأفضل؟

شرك كثيف أنت فى أحباله مادام يمكنك الخلاص فعجّل

من يستطيع بلوغ أعلى منزل ما باله يرضى بأدنى منزل!

ثم وبخهم على ما وقع منهم من المخالفة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١١١

قلت : (حطة) : خبر مبتدأ مضمر ، أي : أمرنا حطة ، أي : تواضع وانحطاط ، وقال هنا : (فكلوا) ، وفى الأعراف بالواو لأن الأكل مرتب على الدخول ، بخلاف السكنى ، فإنها تفارق الأكل ، فكأنه مأمور به.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا يا بنى إسرائيل حين قلنا لأسلافكم بعد أن خرجوا من التيه : ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ أعنى بيت المقدس ، أو أريحا ، بعد أن تجاهدوا أهلها ، فَكُلُوا من نعم ما فيها أكلا واسعا لأنها مخصبة ، وَادْخُلُوا باب القرية راكعين ، تواضعا وشكرا ، وَقُولُوا فى دخولكم : شأننا حِطَّةٌ ، أي : شأننا الانحطاط والتواضع لله ، فإن فعلتم ذلك نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ ، وَسَنَزِيدُ من امتثل أمرنا ، وأحسن الأدب معنا ، خيرا كثيرا ، فى الدنيا والآخرة ، فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا منهم قولا غير الّذي أمروا به ، وقالوا مكان حطة : حنطة ، حبة فى شعرة ، فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً عذابا مِنَ السَّماءِ قيل : هو الطاعون ، فمات منهم سبعون ألفا فى يوم واحد ، بسبب فسقهم وتعديهم الحدود.

الإشارة : يقول الحق سبحانه للأرواح ، لما كمل تطهيرها من البقايا ، وتكاملت فيها المزايا : ادخلوا هذه الحضرة المقدسة ، وتنعموا فيها حيث شئتم بالمشاهدة ، والمكالمة ، والمواجهة ، والمساورة ، والمفاتحة ، والمناجاة ، وادخلوا بابها أذلاء صاغرين ، فلا دخول للحضرة المقدسة إلا من باب الذل والافتقار ، وأنشدوا :

وما رمت الدخول عليه حتّى حللت محلة العبد الذليل

وأغمضت الجفون على قذاها وصنت النفس عن قال وقيل «١»

وقيل لأبى يزيد : يا أبا يزيد ، خزائننا معمورة بالخدمة ، ائتني من كوة الذل والافتقار. وفى رواية قيل له : يا أبا يزيد : تقرب إلينا بما ليس عندنا ، فقال : يا رب وما الذي ليس عندك؟ فقال : الذل والافتقار. هـ. وقال شيخ المشايخ القطب الجيلاني رضى اللّه عنه (أتيت الأبواب كلها ، فوجدت عليها الزحام ، فأتيت من باب الذل والافتقار ، فوجدته خاليا ، فدخلت منه ، وقلت : هلموا). أو كما قال. وقال الشاعر :

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل «٢» إذا رضى المحبوب صح لك الوصل

وقولوا عند دخولكم الحضرة : شأننا حطة أي : شأننا السفليات دون العلويات ، فالسلوك من باب السفليات واجب ، وإلا فلا وصول ، فكل من سلك من باب السفليات طهر من البقايا ، وتكاملت فيه المزايا ، فيصلح لدخول الحضرة ،

---

(١) الأبيات للسرى السقطي ، كما فى زاد المسير لابن الجوزي.

(٢) راجع التعليق على هذا الشطر ص ١٠٢.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١١٢
وينخرط فى سلك أهل الشهود والنظرة ، فيكون من المحسنين المقربين ، فلا جرم أن الله يزيده ترقيا فى العلوم والأسرار ، فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، بخلاف من خالف ما أمر به من سلوك طريق السفليات ، وتعاطى الأمور العلويات ، قبل كمال التربية فإنه يرجع إلى غم الحجاب ، وسوء الحساب بسبب خروجه عن طريق الأحباب ، وسلوكه طريق أهل الغفلة والارتياب. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكّرهم بنعمة الماء الذي سقاهم فى التيه ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٦٠]

وَإِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)

قلت : اسْتَسْقى : طلب السقي ، و«ال» فى الْحَجَرَ للعهد ، وهو الحجر الذي فرّ بثوبه ، أو حجر خفيف مربع مثل رأس الرجل ، أمر أن يحمله معه ، فكان يضعه فى مخلاته ، فإذا احتاج الماء ضربه ، قيل : كان من رخام ، وقيل : كان كذّان «١» ، كان فيه اثنتا عشرة حفرة ، تنبع من كل حفرة عين ماء عذب ، على عدد الأسباط ، فإذا أراد حمله ضربه فجف الماء منه ، وقيل : للجنس ، فكان يضرب أىّ حجر وجد ، فتنفجر منه عيونا ، ثم تسير كل عين فى جدول إلى سبط ، فقالوا : إن أفضينا إلى أرض لا حجارة فيها عطشنا ، فأوحى إليه : أن كلّمه يطعك لعلهم يعتبرون.

وفَانْفَجَرَتْ : معطوف على محذوف أي : فضرب فانفجرت ، والعثو : أشد الفساد ، عثا يعثو عثوا ، وعثى يعثى عثيا ، وعاث يعيث عيثا ، ومُفْسِدِينَ : حال مؤكدة لعاملها ، أو مقيدة ، إن قلنا : إن العثو أعم من الفساد ، لصدقه على القصاص ، فإنه عثو غير فساد. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا يا بنى إسرائيل حين عطشتم فى التيه ، فطلبتم من موسى السقي ، فاستسقى لكم ، فَقُلْنَا له : اضْرِبْ بِعَصاكَ التي أخذتها من شعيب عليه السّلام ، وكانت من آس الجنة ، وورثت عن آدم عليه السّلام ، فيها عشرة أذرع ، فضرب فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً على عدد أسباطكم ، فكل عين تجرى إلى سبط قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ معينا ، لا يعدو أحد على أحد ، فقلنا لهم : كُلُوا من المن والسلوى ، وَاشْرَبُوا من الماء الذي رزقناكم ، ولا تطغوا بالنعم فتفسدوا فى الأرض بالمعاصي والذنوب ، فيكون ذلك كفرا مستوجبا للسلب بعد العطاء ، روى أنهم كانوا ستمائة ألف ، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلا. والله تعالى أعلم.

---

(١) الكذّان : جمع كذانة ، وهى حجارة فيها رخاوة ، وربما كانت نخرة. قلت : لا يبنى على تعيين هذا الحجر أمر دينى. والأسلم تفويض علمه إلى اللّه تعالى.

الإشارة : اعلم أن الأرواح إذا تطهرت من الأكدار ، وتحررت من الأغيار ، وأشرقت عليها الأنوار والأسرار ، وكمل تطهيرها ، وتمت تصفيتها ، كان صاحبها آية من آيات الله ، وحجة من حجج الله ، إذا ضرب بعصا همته القلوب القاسية أو الأنفس الأبية ، لانت وانفجرت بالعلوم القدسية ، كل واحد بما يليق به ، فمنها من تنبع بالعلوم الوهبية ، ومنها من تنبع بالعلوم الرسمية ، ومنها من تنبع بالكرامات وخوارق العادات ، ومنها من تنبع منها المكاشفات والاطلاعات ، قد علم كل أناس مشربهم ، على حسب ما سبق لهم ، فيقول الحق تعالى لهم : كلوا من ثمرات ما اجتنيتم من العلوم والمعارف التي أوليناكم ، واشربوا من مناهل المنازل التي فيها أقمناكم ، أو كلوا من ثمرات المعرفة ما تتقوى به معانيكم ، واشربوا من خمر الحبيب ما تغيبوا به عن وجودكم ، ولا تتعدوا أطواركم من القيام بوظائف العبودية ، ومعرفة عظمة الربوبية ، فتكونوا لسلب ما أولاكم متعرضين ، ولعقوبته مستحقين ، عائذا بالله من السلب بعد العطاء. آمين.

ولما سئموا من المن والسلوى ، استبدلوا غيرهما ، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٦١]

وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها قالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

قلت : المراد بالطعام الواحد : هو المن والسلوى. ووحّده لأنه لا يختلف ولا يتبدل ، كقولهم : طعام مائدة الأمير واحد ، والبقل : جميع الخضر ، كالنجم والكرنب والكراث وغير ذلك. والقثاء : جمع قثاءة ، وهى الخيار والفقوس والبطيخ وغير ذلك من الفواكه التي تستنبت ، والفوم قيل : الحنطة ، والأصح أنه الثوم. قال الشاعر :

وأنتم أناس لئام الأصول طعامكم الفوم والحوقل

أراد : الثوم والبصل. والعرب تعاقب بين الفاء والثاء فتقول : معافير ومعاثير ، وتقول للقبر : جدث وجدف.

والعدس : معلوم ، روى على – كرم الله وجهه – عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «عليكم بالعدس ، فإنه مبارك مقدس ، وإنه يرقق القلب ، ويكثر الدمعة ، وإنه بارك فيه سبعون نبيا ، آخرهم عيسى بن مريم» «١».

---

(١) الحديث ذكره ابن الجوزي فى الموضوعات.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا أيضا حين قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ حين مللتم من العسل واللحم ، وملتم إلى عكركم السوء ، أي : مألوفكم وشهواتكم السيئة ، لأنهم كانوا فلاحين ، فقلتم : فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ، أي : من جنس ما ينبت اللّه فيها من البقل والقثاء والعدس والفوم والبصل ، قال موسى عليه السّلام : أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى وأخس من الثوم والبصل وغيرهما ، بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ من اللحم والعسل ، اهْبِطُوا إلى مصر من الأمصار ، تجدوا ما تشتهون ، إذ لا يوجد ذلك إلا فى القرى والأمصار ، أو اهْبِطُوا مِصْراً التي كنتم فيها أذلاء مستعبدين ، تجدوا حظوظكم وشهواتكم لأن الحظوظ والشهوات منوطة بالذل والهوان ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ، أي : ألزموها لزوم الدرهم المضروب لضربه ونقشه ، فالذلة : ضرب الجزية ، والمسكنة : فقر النفس وإن كان موسرا.

وإنما ضربت عليهم الذلة والمسكنة لأنهم لم يرضوا بتدبير الحق ، ولم يقنعوا برزقه ، فكل من لم يقنع بقسمته وسلم من اتحاد رزقه ، خيف عليه من ضرب الذل والمسكنة ، وانقلبوا أيضا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ حيث نقضوا العهود ، وتعدوا الحدود ، فكفروا وطغوا وقتلوا الأنبياء بغير حق ، وسبب ذلك : تمردهم فى العصيان ، فإن المعاصي تجر بعضها إلى البعض حتى تنتهى إلى الكفر ، والعياذ باللّه من سخطه وغضبه.

الإشارة : كل من لم يقنع بالقسمة الأزلية ، ولم يقم حيث أقامته القدرة الإلهية ، بل جنح إلى حظوظه وهواه ، وحرص على تحصيل أغراضه ومناه ، قيل له : أتستبدل تدبيرك – الذي هو أدنى – بتدبير الحق – الذي هو خير – ؟

أتترك تدبير الحكيم العليم ، الرؤوف الرحيم ، إلى تدبير عقلك الضعيف الجاهل الخسيس اللئيم؟!

فعسى أن تدبر شيئا يكون لك فإذا هو عليك. وعسى أن تأتيك المسار من حيث تعتقد المضار ، وتأتيك المضار من حيث ترتجى المسار.

ولله در القائل :

وكم رمت أمرا خرت لى فى انصرافه ، فلا زلت لى منى أبرّ وأرحما

عزمت على ألّا أحسّ بخاطر على القلب إلّا كنت أنت المقدّما

وألا ترانى عند ما قد نهيتنى لكونك «١» فى قلبى كبيرا معظّما

---

(١) فى المخطوطات الثلاث (لأنك).

يا من لم يقنع بتدبير مولاه ، ومال إلى نيل حظه وهواه ، أهبط إلى أرض الحظوظ والشهوات تجد فيها ما ألفته نفسك من عوائدك السيئات. يا من أخلدت نفسه إلى الهوى ومتابعة الشيطان ، كيف تستبدل العز الدائم بالذل والهوان؟! وأنشدوا :

لا تتبع النفس فى هواها إنّ اتّباع الهوى هوان «١»

قال فى التنوير : (فائدة) اعلم أن بنى إسرائيل لما دخلوا التيه ، ورزقوا المن والسلوى ، واختار اللّه لهم ذلك رزقا ، رزقهم إياه ، يبرز من عين المنة ، من غير تعب منهم ولا نصب ، فرجعت نفوسهم الكثيفة لوجود ، العادة ، والغيبة عن شهود تدبير اللّه ، إلى طلب ما كانوا يعتادونه ، فقالوا : فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ الآية. قالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ. اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ. وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وذلك لأنهم تركوا ما اختار اللّه لهم ، مائلين لما اختاروا لأنفسهم. فقيل لهم عن طريق التوبيخ : أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟ فظاهر التفسير : أتستبدلون الفوم والعدس والبصل بالمن والسلوى؟ وليس النوعان سواء فى اللذة ولا فى سقوط المشقة وسر الاعتبار ، أتستبدلون مرادكم لأنفسكم بمراد اللّه تعالى لكم؟ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى وهو ما أردتموه ، بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وهو ما أراده اللّه لكم؟ اهْبِطُوا مِصْراً فإن ما اشتهيتموه لا يليق إلا أن يكون فى الأمصار ، وفى سر الخطاب : اهبطوا عن سماء التفويض وحسن التدبير منا لكم ، إلى أرض التدبير والاختيار منكم لأنفسكم ، موصوفين بالذل والمسكنة لاختياركم مع اختيار اللّه ، وتدبيركم لأنفسكم مع تدبير اللّه. ه المراد منه.

ولما ذكّرهم الحق تعالى بالنعمة ، ووبّخهم على ارتكاب الآثام ، رغّبهم فى الإسلام ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٦٢]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ

عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)
قلت : (إن) : ناصبة مؤكدة ، وخبرها : جملة (من آمن) أو (فلهم أجرهم). و(من آمن) : بدل من اسمها ، أو محذوف ، والموصول : مبتدأ أي : إن الذين آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين هادوا كذلك.
و(هادوا) : تهودوا ، أي : دخلوا فى اليهودية. وسموا يهودا إما نسبة لأبيهم الأكبر (يهوذا بن يعقوب) ، أو من هاد ، إذا تاب لأنهم تابوا من عبادة العجل.

---

(١) البيت للإمام البرعى. [.....]

(١/١١٥)

والنصارى : جمع نصران ، وسموا بذلك إما لنصرهم المسيح عليه السّلام ، أو لسكناهم معه فى قرية يقال لها :
(نصران) ، والصابئون : طائفة من أهل الكتاب ، خرجوا عن دين اليهودية وعبدوا الكواكب ، يقال : صبا يصبو ، إذا مال وخرج من دين إلى دين.
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم والذين آمنوا بموسى ، والذين آمنوا بعيسى - عليهما السلام - ، والذين خرجوا عن دينهم وصبوا ، مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وتبع محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم وعمل بشريعته ، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إذا قدموا عليه بالنعيم المقيم ، والنظر إلى وجهه الكريم ، وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ حين يخاف الكفار ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ حين يحزن المفرطون والأشرار إذ لا يلحقهم وبال ولا يفوتهم نوال. وباللّه التوفيق.
الإشارة : إن الذين آمنوا إيمانا لا يختلجه وهم ، ولا يطرق ساحته شك ولا ريب ، إما عن برهان قاطع ، أو عن شهود ساطع ، والذين تابوا عن هواجس الخواطر وغفلات الضمائر ، والذين نصروا الدين ، وشيدوا منار شريعة المسلمين ، والذين صبوا إلى الحبيب ، ومالوا عن كل بعيد وقريب ، فهؤلاء الذين سبقت لهم من اللّه العناية ، وهبت عليهم ريح الهداية ، جمعوا بين تزيين البواطن بأنوار الإيقان ، وتزيين الظواهر بأنواع الطاعة والإذعان ، فلا جرم أنهم ، إذا قدموا على ربهم ، أجلّ منصبهم ، وأجزل ثوابهم ، وأعلى مقامهم ، فأولئك أولياء اللّه الذين لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.
فالمخصوصون بالعناية أربعة : قوم أقامهم الحق تعالى لتنمية الإيمان وتربية الإيقان ، إما عن دليل وبرهان - وهم أهل النظر والاعتبار ، - وإما عن شهود وعيان - وهم أهل الشهود والاستبصار - ،

وقوم أقامهم الحق تعالى لتصفية نفوسهم وتزكية أحوالهم بالتوبة ، والإقلاع عن كل وصف مذموم ، وهم السائرون والطالبون ، وقوم أقامهم لنصرة الدين وإظهار شريعة المسلمين ، إما بتقرير قواعده أو جهاد معانده ، وهم العلماء والمجاهدون ، وقوم أقامهم لخدمته ، وملأ قلوبهم بهيبته ، وهم العباد والزهاد ، مالوا عن الشهوات وتأنسوا به فى الخلوات ، هجروا الأوطان وفارقوا الأحباب والإخوان ، صبوا إلى محبة الحبيب وتلذذوا بمناجاة القريب ، فهؤلاء المخصوصون بعين العناية ، المحفوظون بغاية الرعاية ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس. حققنا اللّه بمقام الجميع بمنّه وكرمه. آمين.

ثم وبّخهم على نقض العهود ، وعدم الوقوف مع الحدود ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٦٣ الى ٦٦]

وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْناها نَكالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَما خَلْفَها وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)

(١١٦/١)

قلت : (لو لا) : حرف امتناع لوجود «١» ، تلزم الدخول على المبتدأ ، وخبرها واجب الحذف عند سيبويه ، أي :

لو لا فضل اللّه عليكم ورحمته موجودان ، وقال الكوفيون : فاعل بمحذوف : أي : لو لا أن ثبت فضل اللّه عليكم ورحمته ، و(لكنتم) : جوابها.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا يا بنى إسرائيل حين أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ أن تقبلوا تكاليف التوراة ، وكانت شاقة عليهم ، فلما أبيتم قبولها ، قلعنا الطور ، ورفعناه فوقكم على مقدار عسكركم ، كالظلة ، وقلنا لكم :

خُذُوا ما آتَيْناكُمْ من التوراة بجد واجتهاد ، وَاذْكُرُوا ما فِيهِ من الوعظ والتذكير لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ اللّه ، فتفوزون بالخير الكثير ، فقبلتم ذلك كرها ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ وأعرضتم بعد ذلك ، فسفكتم الدماء ، وقتلتم الأنبياء ، فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بتوفيقكم للتوبة ، وَرَحْمَتُهُ بقبولها منكم ، لخسرتم الدنيا والآخرة.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ما جرى للذين اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فى زمن داود عليه السّلام ، وذلك فى قرية يقال لها : «أيلة» ، كانت على شاطىء البحر ، وقد نهوا عن الاصطياد يوم السبت ، فكانت الحيتان تخرج يوم السبت شرّعا ، فتخرج خراطيمها للبر ، فإذا كان يوم الأحد دخلت فى البحر ، فحفروا حياضا ،

وشرعوا إليها جداول ، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد ، فلمّا لم يعاقبوا على ذلك أحلّوا يوم السبت ، فانقسمت القرية على ثلاث فرق : قوم نهوا ، وقوم سكتوا ، وقوم اصطادوا ، فمسخ من اصطاد قردة وخنازير الشّبان قردة ، والشيوخ خنازير ، فبقوا ثلاثة أيام وماتوا.
فجعلنا تلك الفعلة التي فعلنا بهم - نَكالًا وزجرا لِما بَيْنَ يَدَيْها فى زمانها ، وما خلفها من يأتى بعدها ، وَمَوْعِظَةً : وتذكيرا لِلْمُتَّقِينَ من أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم.
الإشارة : اعلم أن المريدين إذا دخلوا فى يد شيخ ، وأخذوا عنه العهد ، حملهم من أعباء التكليف وخرق العوائد ما تموت به نفوسهم ، وتحيا به قلوبهم ، كذبح النفوس وحط الرؤوس ودفع الفلوس ، فإذا هموا بالتقصير ، ظلل عليهم جبل همته ، وأدار عليهم يد حفظه ورعايته ، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن : (و اللّه لا يكون الشيخ شيخا حتى تكون يده مع الفقير أينما ذهب). والمراد باليد : الهمة والحفظ ، ولا يزال الشيخ يراسلهم بهذه التكاليف ، ويحضهم على الأخذ بها ، والاجتهاد فى العمل بها ، حتى تموت نفوسهم وتحيا قلوبهم ، وترسخ معرفتهم ، وتكمل تربيتهم ، فحينئذ ينتقلون إلى روح وريحان فى جنات الشهود والعيان.

---

(١) أي : امتناع شيء لوجود غيره.

قلت : وقد كان شيخنا يرسل لنا البطاقات فى حال البدايات ، فما كنت أفتحها حتى ترتعد نفسى مما فيها ، لأنها تعلم أنه ما يرسل لها إلا ما فيه موتها ، فلو لا فضل اللّه علينا ورحمته - حتى قوانا على العمل بما فيها - لكنا من الخاسرين ، ولقد أخطأت العناية قوما ، فتعدوا حدود الشيوخ ، أو خرجوا عن دائرتهم قبل كمال تربيتهم ، فمسخت قلوبهم ، وانمحت من ديوان الولاية رسومهم ، جعل اللّه ذلك عبرة لغيرهم ، وزاجرا لمن حذا حذوهم ، نعوذ باللّه من السلب بعد العطاء ، وكفران النعم وحرمان الرضى ، وباللّه التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.
ثم وبّخهم بما فعل أسلافهم من قتل النفس والتشغيب على نبيهم ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ٦٧ الى ٧١]
وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (٦٧) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ (٦٨) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ

لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَإِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)

قلت : الفارض : المسنة التي لا تلد ، يقال : فرضت البقرة تفرض فروضا ، إذا أسنت. والبكر : الصغيرة التي لم تلد ، العوان : المتوسطة بين المسنة والصغيرة ، والفاقع : الناصع الصفرة ، يقال : أصفر فاقع ، وأسود حالك : أي :

شديد السواد. وأصل شية : وشية ، كعدة ، حذفت فاؤها وعوض عنها التاء ، والوشي : الرقم.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا يا بنى إسرائيل حين قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ لما تخاصموا إليه فى قتيل وجد فى قرية ولم يدر قاتله ، وذلك أن رجلا فقيرا من بنى إسرائيل قتل قريبا له كان موسرا ليرثه ، ثم رماه فى قرية أخرى ، ثم ذهب يطلب دمه ، فترافعوا إلى موسى عليه السّلام فقال لهم بوحي : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، وأبهم الأمر عليهم ، قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً أي : مهزوءا بنا ، حيث نسألك عن بيان القاتل وأنت تأمرنا أن نذبح «١» بقرة ، وهذا من تعنتهم وسوء أدبهم. قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ إذ لا يستهزئ بأمر الدين إلا الجاهل.

---

(١) فى الأصول : (نذبحوا).

فلما رأوا جدّه قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ ، هل هى كبيرة أو صغيرة أو متوسطة؟ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ أي : كبيرة ، وَلا بِكْرٌ أي : ولا صغيرة ، عَوانٌ متوسطة بين ما ذكر من الصغر والكبر ، فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ ، فإن اللّه يبين لكم القاتل ، قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها ، أهي حمراء أو سوداء أو صفراء؟ قالَ إِنَّهُ تعالى يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها ناصع صفرتها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ لسمنها وبهجة لونها ، قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ ، فإن البقر الصفر كثير ، وقد تشابه علينا أمرها؟ قالَ إِنَّهُ تعالى يقول : إنها مسلمة من العمل ليست ذلولا ، أي : مذللة بالعمل لا تُثِيرُ أي : تقلب الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ بالسانية «١». مُسَلَّمَةٌ من العيوب كلها ، لا شِيَةَ فِيها أي : لا رقم فيها يخالف الصفرة. فلما تبين لهم الأمر قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ الواضح ، فوجدوها عند شاب كان بيد أمه ، قد استودعها له أبوه فى غيضة «٢» ، فاشتروها منه بملء جلدها ذهبا ، أو بوزنها ، فَذَبَحُوها ، وضربوا القتيل بجزء منها ، فجلس وعروقه تسيل دما ، وقال : قتلنى ابن عم لى ، ثم رجع ، وَما كادُوا يَفْعَلُونَ لكثرة ترددهم

، أو لفحش غلوها. قال عليه الصلاة والسلام : «لو ذبحوا أدنى بقرة لكفتهم لكن شددوا فشدد اللّه عليهم».

ثم ذكر أول القصة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٧٢ الى ٧٣]

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)

قلت : حق هذه الآية أن تتقدم قبل قوله : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ... وإنما أخّرها الحق تعالى ليتوجه العتاب إليهم مرتين على ترك المسارعة لامتثال أمر نبيهم ، وعلى قتل النفس ، ولو قدمها لكانت قصة واحدة بتوبيخ واحد.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكروا إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً حرصا على الدنيا فَادَّارَأْتُمْ أي : تدافعتم فى شأنها ، كل قرية تدفع عنها ، وَاللَّهُ تعالى مُخْرِجٌ ومبين ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ من القتل ، ومن قتله ، فَقُلْنا

: اضربوا القتيل أو قبره بِبَعْضِها

قيل : اللسان ، وقيل : القلب ، وقيل : الفخد أو الذنب ، فضربوه فحيي ، وأخبر بقاتله كما تقدم ، كَذلِكَ

أي : كما أحيا هذا القتيل ، يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى

من قبورها وَيُرِيكُمْ آياتِهِ

الدالة على قدرته ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

فتعلمون أن من قدر على إحياء نفس واحدة يقدر على إحياء الأنفس كلها.

---

(١) السانية : الساقية.

(٢) الموضع الذي يكثر فيه الشجر.

واستدلت المالكية بالقصة على التدمية الحمراء «١» ، وهى قبول قول القتيل قبل موته بأن فلانا قتله ، وفيه نظر لأن هذا حيى بعد موته فلا يتطرقه الكذب ، واستدلت أيضا على حرمان القاتل من الإرث ، وفيه نظر لأن هذه شريعة من قبلنا يتطرقها النسخ ، لكن ثبت فى الحديث أنه لا يرث. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا أمر الشيخ المريدين بذبح نفوسهم بخرق عوائدها ، فمن تردد منهم فى فعل ما تموت به نفسه ، كان ذلك دليلا على قلة صدقه وضعف نهايته ، ومن بادر منهم إلى قتلها دلّ ذلك على صدقه وفلاحه ونجح نهايته ، فإذا ماتت النفس بالكلية حييت روحه بالمعرفة والمشاهدة الدائمة ، فلا موت بعدها أبدا ، قال تعالى :
لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى ، وأما الموت الطبيعي فإنما هو انتقال من مقام إلى مقام ، ومن وطن ضيق إلى وطن واسع ، وأنشدوا :

لا تظنّوا الموت موتا إنه لحياة ، وهو غاية المنى

لا ترعكم هجمة الموت فما هو إلا انتقال من هنا

فاخلعوا الأجساد من أنفسكم تبصروا الحقّ عيانا بيّنا

قلت : والسيف الذي يجهز على النفس ويسرع قتلها هو الذل والفقر ، فمن ذل نفسه بين أبناء جنسه ، وخرق عوائد نفسه ، وزهد فى الدنيا ، ماتت نفسه فى طرفة عين ، وحييت روحه ، وظفر بقرّة العين ، وهى معرفة مولاه ، والغيبة عما سواه.
وكمال الوقت فى ذبح النفس أن تكون متوسطة بين الصغر والكبر ، فإن الصغيرة جدا لا يؤمن عليها الرجوع ، والكبيرة جدا قد يصعب عليها النزوع ، كاملة الأوصاف بحسن الزهد والعفاف ، تسر الناظرين لبهجة منظرها وحسن طلعتها ، وكذلك من كان من أهل الشهود والنظرة ، تسحر مشاهدته القلوب ، ويسوقها بسرعة إلى حضرة علام الغيوب ، لما أقيم به من مشاهدته الملكوت ، حتى إن من لا حظه تناسى أحوال البشرية ، واستولت عليه أنوار الروحانية ، وغاب فى ذكر الحبيب عن البعيد والقريب ، كما فى الحديث : «أولياء اللّه من إذا رؤوا ذكر اللّه» وتكون أيضا هذه النفس غير مذللة بطلب الدنيا والحرص عليها ، مسلمة لا عيب فيها ، ولا رقّ لشيء من الأثر عليها ، فحينئذ تصلح للحضرة ، وتتمتع بنعيم الشهود والنظرة ، لم يبق لخصم الفرق معها تدارؤ ولا نزاع ، بل أقر الخصم وارتفع النزاع.

---

(١) التدمية الحمراء فى القتيل الذي به جرح أو أثر ضرب أو سم ، فإن لم يكن به فهى التدمية البيضاء.

ثم وبّخهم على عدم تأثير هذه المعجزة فى قلوبهم ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٧٤]

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

قلت : القسوة والقساوة : هى الصلابة واليبوسة ، كالشقوة والشقاوة ، يقال حجر قاس ، أي : يابس. قال الشاعر :

ولا أرى أثرا للذّكر فى جسدى والحبل فى الجبل القاسي له أثر

و(أو) للإضراب ، أو بمعنى الواو ، أو للتنويع ، فبعضها كالحجارة وبعضها أشد.

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ يا معشر اليهود ، ويبست فلم تلن ولم تخشع ، مع ما رأت من الآيات كانفجار الحجر بالماء فى التيه ، وإنزال المن والسلوى ، وتظليل الغمام ، وإحياء الميت وغير ذلك.

قال الكلبي : (أنكروا بعد ما رأوا ذلك ، وقالوا : ما قتلنا ، فما كانوا قط أعمى قلبا ، ولا أشد تكذيبا منهم لنبيهم عند ذلك) فقلوبهم كالحجارة ، بل أشد ، أو إن شبهتم قلوبهم بالحجارة أصبتم ، وبما هو أشد أصبتم ، بل فى الحجارة فضل عليها فى اللين ، فإن منها ما تتفجر مِنْهُ الْأَنْهارُ الكبار ، ومنها ما تشقق فَيَخْرُجُ مِنْهُ العيون الجارية ، ومنها ما تهبط من رأس الجبل مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ. وفى بعض الأخبار : «كل حجر تردّى من رأس جبل فهو من خشية اللّه» ، وقلوبكم يا معشر اليهود لا تلين ولا تخشع ولا تأتى بخير. نسأل اللّه السلامة بمنّه وكرمه.

الإشارة : كل من أساء الأدب مع أستاذه ، أو خرج عن دائرته إلى غيره ، قسا قلبه ، وذهب حاله ولبه ، فإن رجع قريبا واستدرك ما فات ، لان قلبه ونهض حاله ، وإلا وقع فى مهاوى القطيعة ، ولم يأت منه شيء. وللقلب القاسي علامات : منها جمود العين ، وطول الأمل ، وعدم الحزن على ما فاته من الطاعات وما صدر منه من السيئات ، وعدم الفرح بما يصدر منه من الطاعات ، فإن المؤمن تسره حسناته وتسيئه سيئاته ، ودواؤه : صحبة الفقراء الذاكرين الخاشعين ، والجلوس بين يدى العارفين الكاملين ، وتعاهد الصيام ، والصلاة بالليل والناس نيام ، والتضرع إلى الحي القيوم الذي لا ينام ، وللشافعى رضي اللّه عنه :

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت الرّجا منّى لعفوك سلّما

تعاظمنى ذنبى فلمّا قرنته بعفوك ربّى كان عفوك أعظما

قوله تعالى : وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ كذلك القلوب القاسية إذا لانت بالإنابة إلى ربها ، والرجوع عن مألوفاتها ، تتفجر منها أنهار العلوم ، وتشقق منها أسرار الحكم ، ومنها من تذوب من هيبة المتجلى لها ، فتندك جبالها ، وتزلزل أرض نفوسها ، كما قال القائل :

لو عاينت عيناك يوم تزلزلت أرض النفوس ودكّت الأجبال

لرأيت شمس الحقّ يسطع نورها حين التزلزل ، والرجال رجال

واللّه تعالى أعلم.

ثم آيس المؤمنين من الطمع فى إيمان من كان هذا وصفه فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٧٥ الى ٧٧]

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (٧٧)

قلت : ضمن الإيمان معنى الإذعان والإقرار ولذلك عداه باللام ، وجملة (قد كان) حال من فاعل الإيمان ، و(إذا لقوا) عطف على (كان) ، والتقدير : أفتطمعون فى إيمانهم والحالة أن من سلف منهم كانوا يحرفون كلام اللّه ، ومن حضر منهم الآن ينافقونكم فى دين اللّه ، فلا مطمع فى إيمان من هذا وصفه.

يقول الحق جلا جلاله : أَفَتَطْمَعُونَ يا معشر المسلمين أن يذعن لكم أهل الكتاب ويصدقوكم وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ، وهم السبعون الذين ذهبوا مع موسى للاعتذار ، يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ حين كلمهم وكلفهم بمشاق التوراة ، فحرفوا وقالوا : قال افعلوا ما استطعتم ، فإذا لم يحصل لهم الإيمان مع سماع الكلام بلا واسطة ، فكيف يؤمن لكم هؤلاء ، وهم إنما يسمعونه بواسطة الرسالة؟ أو يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ فى التوراة ثم يحرفونه ، محوا أو تأويلا ، كصفة سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وآية الرجم وغير ذلك ، مِنْ بَعْدِ ما فهموه وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنه كلام اللّه ، أو وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنهم محرفون ومغيرون لكلام اللّه.

وكيف تطمعون أيضا فى إيمانهم وهم منافقون؟ إذا لَقُوا المؤمنين قالُوا آمَنَّا ، وصفة نبيكم مذكورة فى كتابنا ، وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ لامهم من لم ينافق ، وقالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ من

علم التوراة فتطلعونهم عليه لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ أي : يغلبوكم بالحجة عِنْدَ رَبِّكُمْ فى الدنيا والآخرة ، فيقولون : كنتم عالمين بنبوة نبينا فجحدتم وعاندتم ، أَفَلا تَعْقِلُونَ حتى تطلعوهم على ما فتح اللّه به عليكم. أو يقول الحق تعالى : أَفَلا تَعْقِلُونَ يا معشر المسلمين فتطمعون فى إيمانهم بعد هذه الخصال التي فيهم ، قال الحق جل جلاله :

أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لا يخفى عليه شيء ، بل يَعْلَمُ ما يسرونه وما يعلنونه ، فيجازيهم على ما أخفوا وما أعلنوا.

الإشارة : من سبقت له المشيئة بالخذلان ، وحكم عليه القدر والقضاء بالحرمان ، يرجع إلى الدليل والبرهان ، بعد الاستشراف على الشهود والعيان ، فيرجع إلى مشاهدة الآثار والرسوم ، وينسى ما كان يعهده من دقائق العلوم ، سبب ذلك كلّه : الإخلال بالأدب مع المشايخ والأصحاب ، أو مفارقة الإخوان ، وعدم مواصلة أهل العرفان ، وضم إلى ذلك الإنكار على أولياء اللّه ، وتحريف ما سمعه منهم من مواهب اللّه ، فلا مطمع فى رجوعه وإيابه ، وقد بعد من الفتح وأسبابه ، لا سيما إذا اتصف بالنفاق ، إذا لقى أهل النسبة أظهر الوفاق ، وإذا خلا إلى العامة أظهر الشقاق ، فمثل هذا لا يرجى له فلاح ، ولا يسعد بصلاح ونجاح. نعوذ باللّه من ذلك.

ولمّا ذكر الحق تعالى رؤساء اليهود أتبعهم بذكر أتباعهم ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٧٨]

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨)

قلت : أماني : جمع أمنية ، وهي فى الأصل : ما يقدرّه الإنسان فى نفسه من منى إذا قدّر ، ولذلك تطلق على الكذب ، وعلى ما يتمنى وما يقرأ «١» ، قاله البيضاوي. والاستثناء منقطع ، أي : لكن أكاذيب ، ويقال : تمنى الرجل ، إذا كذب واختلق الحديث ، ومنه قول عثمان رضى اللّه عنه : (و اللّه ما تمنّيت ولا تغنّيت منذ أسلمت).

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْهُمْ أي : من اليهود عوام أُمِّيُّونَ لا يقرءون الكتاب ولا يفهمونه ، لكن يسمعون من أحبارهم أَمانِيَّ كاذبة ، وأشياء يظنونها من الكتاب ، ولا علم لهم بصحتها ، كتغيير صفته صلّى اللّه عليه وسلّم

---

(١) لأن القارئ يتصور ويقدر أن كلمة كذا بعد كذا.

وغير ذلك ، أو مواعيد فارغة ، ومطامع خاوية ، سمعوها منهم ، من أن الجنة لا يدخلها إلا هم ، وأن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة ، وغير ذلك من أمنيتهم الفارغة وأمانيهم الباطلة. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : اعلم أن المنكرين على أهل الخصوصية ثلاث فرق : أهل الرئاسة المتكبرون ، والفقهاء المتجمدون ، والعوام المقلدون ، يصدق عليهم قوله تعالى : وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ إذ لا علم عندهم يميزون به المحق من المبطل ، وإنما هم مقلدون ، فوزرهم على من حرمهم بركة الاعتقاد ، وأدخلهم فى شؤم الانتقاد ، ولقد أحسن «ابن البنا» حيث قال فى شأن أهل الإنكار :
واعلم رعاك الله من صديق أنّ الورى حادوا عن التحقيق
إذ جهلوا النفوس والقلوب وطلبوا ما لم يكن مطلوبا
واشتغلوا بعالم الأبدان فالكلّ ناء منهم ودان
وأنكروا ما جهلوا وزعموا أن ليس بعد الجسم شيء يعلم
وكفّروا وزندقوا وبدّعوا إذا دعاهم اللّبيب الأورع
كلّ يرى أن ليس فوق فهمه فهم ولا علم وراء علمه
محتجبا عن رؤية المراتب علّ يسمى عالما وطالب
هيهات هذا كلّه تقصير يأنفه الحاذق والنّحرير
ثم توعّد أهل التحريف من الأحبار ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٧٩]
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)
قلت : (ويل) : كلمة يستعملها كل واقع فى هلكة ، وأصلها العذاب والهلكة ، وهو فى الأصل مصدر لا فعل له ، وسوغ الابتداء به الدعاء ، وقال أبو سعيد الخدري عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «الويل واد فى جهنّم» [لو سيرت فيه جبال الدنيا لانماعت] «١».

---

(١) انماعت : أي ذابت. قلت : والعبارة التي بين المعكوفتين ليست من الحديث المذكور ، بل هى من كلام عطاء بن يسار ، كما فى تفسير الطبري والواحدي ، أو من كلام أبى سعيد الخدري ، كما فى تفسير البغوي.

يقول الحق جلا جلاله : فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ تحريفا لكتاب اللّه ، ويَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خوفا من أن تزول رئاستهم ، وينقطع عنهم ما كانوا يأخذونه من سفلتهم ، نزلت فى أحبار اليهود لما قدم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم المدينة ، خافوا أن تزول رئاستهم ، فاحتالوا فى تعويق اليهود عن الإسلام ، وكانت صفة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فى التوراة : «حسن الوجه ، حسن الشعر ، أكحل العينين ، ربعة» ، فغيروها ، وكتبوا : طوالا ، أزرق ، سبط الشعر ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ، ويأخذون من سفلتهم ، فهو وإن كان كثيرا فى الحس فهو ، بالنسبة إلى ما استوجبوه من العذاب الأليم ، قليل.

الإشارة : ينزجر بهذه الآية صنفان : أحدهما : علماء الأحكام ، إذا أفتوا بغير المشهور ، رغبة فيما يقبضون على الفتوى من الحطام الفاني ، وكذلك القضاة إذا حكموا بالهوى ، رغبة فيما يقبضون من الرشا ، أو يحصلونه من الجاه ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ الثاني : أهل الرئاسة والجاه من أولاد الصالحين وغيرهم ، فإنهم إذا رأوا أحدا قام بولاية أو نسبة خافوا على زوال رئاستهم ، فيحتالون على الناس بالتعويق عن الدخول فى طريقته ، فيكتبون فى ذلك سفسطات وترهات ، ينفّرون الناس عن اتباع الحق ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ.

ثم ذكر الحق تعالى بعض أمانيهم الفارغة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٨٠ الى ٨٢]

وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٨٢)

قلت : (بلى) : حرف جواب كنعم ، والفرق بينهما أن (بلى) لا يقع إلا فى جواب النفي ويصير إثباتا ، تقول : ألم يأت زيد؟ فتقول بلى. أي : أتى ، ومثله : قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ فقال تعالى : (بلى) أي تمسكم ، بخلاف نعم فإنها لتقرير ما قبلها نفيا أو إثباتا ، فإذا قيل : ألم يأت زيد؟ فقلت : نعم ، أي لم يأت ، وإذا قيل : هل أتى زيد فقلت :
نعم ، أي أتى. وقد نظم ذلك بعضهم فقال :

«نعم» لتقرير الذي قبلها إثباتا أو نفيا ، كذا قرّروا

«بلى» جواب النفي لكنه يصير إثباتا ، كذا حرّروا

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : بنو إسرائيل فى أمانيهم الباطلة : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً أربعين يوما مقدار عبادة العجل ، ثم يخلفنا فيها المسلمون. قال الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : أَتَّخَذْتُمْ بذلك عهدا عند اللّه فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ - بَلى تمسكم النار وتخلدون فيها لأن مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً أي : كفرا ومات عليه ، وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ أي : أحدقت به ، واستولت عليه ، فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ - وَالَّذِينَ آمَنُوا بما نزل على محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وَعَمِلُوا بشريعته المطهرة الأعمال الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ هذه عادته تعالى إذا ذكر فريقا شفع بضده ترغيبا وترهيبا وباللّه التوفيق.

الإشارة : اعلم أن كثيرا من الناس يعتمدون على صحبة الأولياء ، ويطلقون عنان أنفسهم فى المعاصي والشهوات ، ويقولون : سمعنا من سيدى فلان يقول : من رآنا لا تمسه النار. وهذا غلط وغرور ، وقد قال - عليه الصلاة والسّلام - لابنته : «يا فاطمة بنت محمّد ، لا أغنى عنك من اللّه شيئا ، اشترى نفسك من اللّه». وقال للذى قال : ادع اللّه أن أكون رفيقك فى الجنة فقال له : «أعنّى على نفسك بكثرة السّجود». نعم ، هذه المقالة : إن صدرت من ولى متمكن مع اللّه فهى حق ، لكن بشرط العمل ممن رآه بالمأمورات وترك المحرمات ، فإن المأمول من فضل اللّه ، ببركة أوليائه ، أن يتقبل اللّه منه أحسن ما عمل ، ويتجاوز عن سيئاته ، فإن الأولياء المتمكنين اتخذوا عند اللّه عهدا فلن يخلف اللّه عهده وهو أن من تعلق بهم وتمسك بالشريعة شفعوا فيه.

والغالب على من صحب أولياء اللّه المتمكنين - الحفظ وعدم الإصرار ، فمن كان كذلك لا تمسه النار ، وفى الحديث : «إذا أحبّ اللّه عبدا لم يضرّه ذنب» ، يعنى : يلهم التوبة سريعا ، كما قيل لأهل بدر : «افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ولا يتخذ عند اللّه العهد إلا أهل الفناء والبقاء ، لأنهم باللّه فيما يقولون ، فليس لهم عن أنفسهم إخبار ، ولا مع غير اللّه قرار ، وأما من لم يبلغ هذا المقام فلا عهد له لأنه بنفسه ، فمن تعلق بمثل هذا فهو على خطر ، وباللّه التوفيق.

قوله تعالى : بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً ، من اقتنى حب الدنيا أحاطت به أشغالها وعلائقها ، فهو فى نار القطيعة مقيم ، أحاط به سرادق الهموم والأكدار ، تلدغه عقارب الشكوك والأغيار ، بخلاف من أشرقت عليه أنوار الإيمان ، وصحب أهل الشهود والعيان ، فإنه فى روح وريحان وجنة ورضوان ، متعنا اللّه بذلك فى الدارين. آمين.

ثم قرّعهم على نقض العهد الذي أخذ عليهم ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٨٣]

وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣)

قلت : (لا تعبدون) : خبر فى معنى النهى ، كقوله تعالى : وَلا يُضَارَّ كاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ ، وهو أبلغ من صريح النهى ، لما فيه من إيهام أن المنهي سارع إلى الانتهاء ، وقيل : حذفت «أن» ، وارتفع المضارع ، وهو على حذف القول ، أي : وقلنا لهم : لا تعبدون ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالغيب.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا إذ أخذنا الميثاق على بنى إسرائيل وقلنا لهم : لا يتصور منكم شرك معى ولا ميل إلى غيرى ، فلا تعبدوا إلا إياى ، وأحسنوا بِالْوالِدَيْنِ إحسانا كاملا ، وأحسنوا بِذِي الْقُرْبى نسبا ودينا ، وأحسنوا باليتامى وَالْمَساكِينِ ، بالمواساة والملاطفة ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ قولا حُسْناً أو ذا حسن ، وهو ما لا لغو فيه ، ولا تأثيم بل ما فيه نصح وإرشاد ، وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ بإتقان شروطها وكمال آدابها ، وأدوا الزَّكاةَ لمستحقها ، ثُمَّ بعد ذلك تَوَلَّيْتُمْ ، وأعرضتم إِلَّا قَلِيلًا ممن أسلم مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ عن الحق بعد ظهوره.

ذكر الحق تعالى فى هذا العهد أربعة أعمال : عمل خاص بالقلب ، وهو التوحيد ، وعمل خاص بالبدن ، وهو الصلاة ، وعمل خاص بالمال ، وهو الزكاة ، وعمل عام وهو الإحسان ، ورتّبها باعتبار الأهم فالأهم ، فقدّم الوالدين لتأكيد حقهما الأعظم ، ثم القرابة لأن فيهم أجر الإحسان وصلة الرحم ، ثم اليتامى لقلة حيلتهم ، ثم المساكين لضعفهم ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل عهد أخذ على بنى إسرائيل يؤخذ مثله على الأمة المحمدية ، وهذا حكمة ذكر قصصهم لنا ، وسرد مساوئهم علينا لنتحرز من الوقوع فيما وقعوا فيه ، فنهلك «١» كما هلكوا ، وكل عهد أخذ على العموم باعتبار

---

(١) فى الأصول : فنهلكوا.

الظاهر يؤخذ مثله على الخصوص باعتبار الباطن ، فقد أخذ الحق سبحانه العهد على المتوجهين إليه ألا تتوجه همتهم إلا إليه ، ولا يعتمدون بقلوبهم إلا عليه ، وأن يتخلقوا بالإحسان ، مع الأقارب والأجانب وكافة الإخوان ، وخصوصا الوالدين من قبل البشرية أو الروحانية ، وهم أهل التربية النبوية ، فحقوق أب

الروحانية تقدم على أب البشرية ، لأن أب البشرية كان سببا فى خروجه إلى دار الفناء والهوان ، وأب الروحانية كان سببا فى دخوله إلى روح وريحان.
وأخذ العهد على المتوجهين أن يكلموا الناس بالملاطفة والإحسان ، ويرشدوهم إلى الكريم المنان ، ويقيموا الصلاة بالجوارح والقلوب ، ويؤدوا زكاة نفوسهم بتطهيرها من العيوب ، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ، وعن دائرة الولاية خارجون.
ثم وبّخهم على نقض عهد آخر ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ٨٤ الى ٨٥]
وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ الْقِيامَةِيُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)
قلت : (ثمّ أنتم هؤلاء) «أنتم» : مبتدأ ، و«هؤلاء» : خبر ، و«تقتلون» : حال ، كقولك : أنت ذلك الرجل الذي فعلت كذا وكذا ، أو «هؤلاء» : بدل ، و«تقتلون» : خبر أو منادى ، أي : يا هؤلاء ، أو منصوب على الاختصاص ، والعدوان : الإفراط فى الظلم ، و«أسارى» حال ، جمع أسير ، ويجمع على أسرى ، وقرئ به أي :
مأسورين ، و«هو» ضمير الشأن ، و«محرّم» خبر ، و«إخراجهم» مبتدأ مؤخر ، أو ضمير الإخراج فيكون مبتدأ ، و«محرّم» خبره ، و«إخراجهم» بدل من الضمير ، وهذه الجملة متصلة بقوله :
وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ ، وما قبلها اعتراض.
يقول الحق جل جلاله : وَاذكروا أيضا إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وقلنا لكم لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ أي : لا يسفك بعضكم دم بعض ، وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أي : لا يخرج أحدكم أخاه من داره

ويجليه عنها ، وجعلهم الحق نفسا واحدة ، وكذلك هو فى الحقيقة ، وفى ذلك يقول الشاعر :
عنصر الأنفاس منّا واحد وكذا الأجسام جسم عمّنا
ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ بهذا العهد والتزمتموه لأنفسكم وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ على أنفسكم بذلك ، ثُمَّ أَنْتُمْ يا هؤُلاءِ اليهود تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ أي : يقتل بعضكم بعضا ، وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ إجلاء عنها ، تتغالبون

عَلَيْهِمْ بالظلم والطغيان ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ مأسورين تفدوهم بمالكم ، وذلك الإخراج محرم عليكم.
وحاصل الآية : أن اللّه تعالى أخذ على بنى إسرائيل العهد فى التوراة ألا يقتل بعضهم بعضا ، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم ، وأيّما عبد أو أمة وجدتموه من بنى إسرائيل أسيرا فاشتروه بما كان من ثمنه وأعتقوه ، فكانت قريظة حلفاء الأوس ، والنضير حلفاء الخزرج ، وكانوا يقتتلون فى الحرب فيعين بنو قريظة حلفاءهم الأوس ، فيقاتلون بنى النضير فى قتالهم مع الخزرج ، فإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم منها ، فإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه ، فعيرتهم العرب ، فقالوا : تقاتلونهم وتفدونهم؟! فيقولون : قد أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ، قالوا : فلم تقاتلونهم؟ فقالوا : إنا نستحى أن يذل حلفاؤنا ، فوبخهم اللّه على ذلك ، فقال :
أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وهو الفداء وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ وهو القتل والإخراج؟ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ أي : ذل وهوان فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وهو السبي والقتل لبنى قريظة ، والجلاء والإخراج من الوطن لبنى النضير ، أو الذل والجزية للفريقين إلى يوم القيامة ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ. وليس ما أصابهم تكفيرا لذنوبهم ، بل نقمة وغضبا عليهم ، وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.
الإشارة : الناس على قسمين : قوم ضعفاء تمسكوا بظاهر الشريعة ولم ينفذوا إلى باطنها ، ولم يقدروا على قتل نفوسهم ، ولا على الخروج من وطن عوائدهم ، فيقول لهم الحق جل جلاله : لا تسفكون دماءكم فى محبتى لأنكم لا تقدرون على ذلك ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم فى سياحة قلوبكم ، فقد أقررتم بعجزكم وضعفكم ، ويقول للأقوياء : ثم أنتم يا هؤلاء تقتلون أنفسكم فى طلب معرفتى ، وتخرجون فريقا منكم من ديار عوائدهم فى طلب مرضاتى ، تتعاونون على نفوسكم بالقهر والغلبة ، وكذلك ورد فى بعض الأخبار : (أول ما يقول اللّه للعبد : اطلب العافية والجنة والأعمال وغير ذلك ، فإن قال : لا ، ما أريد إلا أنت ، قال له : من دخل فى هذا معى فإنما يدخل بإسقاط الحظوظ ، ورفع الحدث ، وإثبات القدم ، وذلك يوجب العدم) وأنشدوا :

من لم يكن فانيا عن حظّه وعن الفنا والأنس بالأحباب
فلأنّه بين المنازل واقف لمنال حظّ أو لحسن مآب «١»
ويقول أيضا للأقوياء الذين قتلوا أنفسهم وخرجوا عن عوائدهم : وإن يأتوكم أسارى فى أيدى نفوسهم وعوائدهم ، أو فى طلب الدنيا وشهواتها ، تفدوهم من أسرهم ، وتفكوهم من قيودهم ، وتدخلوهم فى حضرة مولاهم ، وفى بعض الآثار : (طالب الدنيا أسير ، وطالب الآخرة أجير ، وطالب الحق أمير) هـ.

والأمير هو الذي يفك الأسارى من أيدى العدو ، لأجل ما ملكه اللّه من القوة والاستعداد ، فإذا انفك العبد من هواه ، دخل فى حضرة مولاه ، فمن رام إخراجه منها بعد دخوله يقال له : وهو محرم عليكم إخراجهم ، فكيف تؤمنون بظاهر الشريعة وتنكرون علم الطريقة ، وأنوار الحقيقة؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا وهو الحرص والطمع ، والخوف والجزع وطول الأمل ، وعدم النهوض إلى العمل ، (و يوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) ، وهو غم الحجاب وسوء الحساب ، (و ما اللّه بغافل عما يعملون).

ثم بيّن الحق تعالى وصفهم وذكر ما أعد لهم ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٨٦]

أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)

يقول الحق جل جلاله : أُولئِكَ الناقضون للعهود المتعدون الحدود اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا وزخارفها الغرارة بِالْآخِرَةِ الباقية الدائمة ، فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ ساعة فى الدنيا بالذل والهوان ، وفى الآخرة بدخول النيران ، وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ بالامتناع منه فى كل أوان.

الإشارة : أولئك الذين نظروا إلى غرة ظاهر الأكوان ، ولم ينفذوا إلى عبرة باطنها ، فلا ينقطع عنهم عذاب الوهم والحجاب ، ولا هم ينصرون من أليم العذاب.

ثم وبّخهم الحق تعالى على تكذيب الرسل وقتلهم إياهم ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٨٧]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (٨٧)

---

(١) نسبهما الطوسي فى اللمع لأبى على الروذبارى.

قلت : (قفينا) : أتبعنا ، و(عيسى) عجمى معدول عن أيشوع فى لغة السريانية ، وهو غير منصرف للعلمية والعجمة ، و(مريم) : بمعنى الخادم ، ووزنه : مفعل لا فعيل ، و(أيدناه) أي : قويناه ونصرناه ، و(روح القدس) هنا جبريل عليه السّلام أي : الروح المقدسة - من إضافة الموصوف إلى الصفة - ، سمى به لطهارته من كدر الحس.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى التوراة ، فما قمتم بحقها ولا عملتم بما فيها ، واتبعنا بعده

الرسل كلما مات رسول بعثنا بعده آخر اعتناء بكم ، وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ المعجزات الواضحات كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، والإخبار بالمغيبات ، والإنجيل ، وَأَيَّدْناهُ بجبريل عليه السّلام كان يسير معه حيث سار ، ورفعه إلى السماء حين أردتم يا معشر اليهود قتله ، أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ من مشاق الطاعات وترك الحظوظ والشهوات ، اسْتَكْبَرْتُمْ وامتنعتم من الإيمان به فَفَرِيقاً منهم كذبتموه كعيسى وسليمان ومحمد - عليهم السلام - ، وَفَرِيقاً تقتلونه كزكريا ويحيى - عليهما السلام - ؟ قال القشيري :

أصغوا إلى الداعين بسمع الهوى ، فصار معبودهم صفاتهم وهواهم. هـ - .

الإشارة : كل ما قاله الحق جل جلاله لبنى إسرائيل فى فحوى الخطاب يقوله لهذه الأمة فى سرّ الخطاب ، فلقد آتانا الكتاب ، وبيّن فيه الرشد والصواب ، وقفّى بعد إنزاله بعلماء أتقياء ، وأولياء أصفياء ، يحكمون بحكمه ، ويهدون بهديه ، فإذا أمروا بالزهد فى الدنيا وترك الحظوظ والهوى رفضوهم وكذبوهم ، وربما كفّروهم وقتلوهم ، واستكبروا عن الإذعان لهم والانقياد لقولهم ، ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون.

وفى الحديث قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «لتتبعنّ سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه ، فقالوا : من يا رسول اللّه اليهود والنصارى؟ قال : نعم .. ومن إذن؟» أي : ومن تتبعون إلا هم؟. فالدعاة إلى اللّه لا ينقطعون ما دام الدين قائما ، فقوم يدعون إلى أحكام اللّه ، وقوم يدعون إلى معرفة اللّه ، فالأول : العلماء ، والثاني :

الأولياء ، فإذا أمروا بالخروج عن العوائد والشهوات ، رموهم بسهام العتاب والمخالفات ، إذ لم يأت أحد بمثل ما جاءوا به إلا عودى ، إلا من خصته سابق العناية ، وهبت عليه ريح الهداية ، فيتبع آثارهم ، وقليل ما هم.

ثم ذكر الحق تعالى مقالتهم الشنيعة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٨٨]

وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ (٨٨)

قلت : (غلف) : جمع أغلف ، كأحمر وحمر ، وأصفر وصفر ، وهو الذي عليه غشاوة ، أي : هى فى غلاف فلا تفقه ما تقول ، بمنزلة الأغلف ، وهو غير المختون ، وقيل : أصله (غلف) بضم اللام ، وبه قرأ ابن محيصن.

فيكون جمع غلاف ، كحجاب وحجب ، وكتاب وكتب ، ومعناه : قلوبنا أوعية لكل علم فلا نحتاج إلى علمك وكتابك.

و(قليلا) صفة لمحذوف أي : فإيمانا قليلا ، أو عددا قليلا يؤمنون ، أو ظرف لأنه من صفة الأحيان ، والعامل فيه ما يليه ، و(ما) لتأكيد القلة ، أي : فى قليل من الأحيان يؤمنون ، أو حال من الواو فى (يؤمنون) أي : فيؤمنون فى حال قلتهم.

يقول الحق جل جلاله : قالت اليهود استهزاء بما تدعوهم إليه : قُلُوبُنا مغلفة ومغشاة فلا نفقه ما تقول ، أو أوعية للعلوم فلا تحتاج إلى علمك ، قال اللّه تعالى : بَلْ لا غطاء على قلوبهم حسا ، بل هى على الفطرة لكن لَعَنَهُمُ اللَّهُ وطردهم وخذلهم بسبب بِكُفْرِهِمْ فأبطل استعدادها للعلم ، فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ أي : فإيمانا قليلا يؤمنون كإيمانهم ببعض الكتاب ، أو فلا يؤمن إلا قليل منهم كعبد اللّه بن سلام وأصحابه ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا أمر الدعاة إلى اللّه أهل الدنيا بذبح النفوس وحط الرءوس ودفع النفوس ، ليتأهلوا به لدخول حضرة القدوس ، أو أمروهم بخرق العوائد ، لتخرق لهم العوائد «١» ، أنفوا وعنفوا وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، فيقال لهم : بل سبق لكم من اللّه البعد والحرمان ، فأنكرتم أسباب الشهود والعيان ، لكن من سبقت له من اللّه العناية ، وهبّ عليه نسيم الهداية ، فلا تضره الجناية ، فقد يلتحق بالخصوص ، وإن كان من أعظم اللصوص ، وهو قليل بالنسبة إلى من جاهد نفسه فى طلب السبيل ، وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً.

ثم وبخهم ولعنهم على عدم الإيمان بالقرآن مع إقرارهم به قبل الإتيان ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٨٩]

وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ (٨٩)

قلت : (لمّا) حرف وجود لوجود إذا وليها الماضي ، ولها شرط وجواب ، وهو هنا محذوف دل عليه جواب (لما) الثانية ، أي : ولما جاءهم كتاب من عند اللّه كفروا به ، أو (لما) الثانية تأكيد للأولى. والجواب : (كفروا به) ، أو فلما وجوابها جواب الأولى ، كقوله فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ ... الآية ، و(يستفتحون) ينتصرون ، وفى الحديث : «أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يستفتح بصعاليك المهاجرين» ، الذين لا مال لهم.

---

(١) خرق العوائد الأولى هى خرق الحجب ، من غفلة وظلمة قلب ، وغير ذلك ، وقد يعنى بها الكرامات ، وخرق العوائد الثانية هى خرق ما تعودته النفس وألفته حتى صعب خروجها عنه ، ككثرة الأكل والشرب ، وحب الجاه والرئاسة والمدح.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٣٣
يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا جاءَهُمْ أي : اليهود ، القرآن مصدقا لِما مَعَهُمْ من التوراة ، أي : موافقا له وشاهدا له بالصحة ، وقد كانوا قبل ظهوره يستنصرون على أعدائهم بالنبي الذي جاء به ، فيقولون : اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث فى آخر الزمان ، الذي نجد نعته فى التوراة ، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين :
(قد أظلّ زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم) ، فلما ظهر وعرفوه كفّروا به فَلَعْنَةُ اللَّهِ عليهم ، فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم ، فاللام فى الْكافِرِينَ للعهد ، وهم كفار اليهود ، أو للجنس ، فتكون اللعنة عامة لكل كافر ، ويدخلون فيها دخولا أولياء ، واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : ترى كثيرا من الناس إذا ذكر لهم الأولياء المتقدمون أقروهم وصدقوهم ، وإذا ذكر لهم أولياء أهل زمانهم أنكروهم وجحدوهم ، مع كونهم يستنصرون بأهل زمانهم فى الجملة. فهذه نزعة يهودية ، آمنوا ببعض وكفروا ببعض.
والناس فى إثبات الخصوصية ونفيها على ثلاثة أقسام : قسم أثبتوها للمتقدمين ، ونفوها عن المتأخرين ، وهم أقبح العوام ، وقسم أقروها قديما وحديثا ، وقالوا : إنهم أخفياء فى زمانهم ، فحرمهم اللّه بركتهم ، وقوم أقروا الخصوصية فى أهل زمانهم ، وعرفوهم وظفروا بهم وعظموهم ، وهم السعداء الذين أراد اللّه أن يوصلهم إليه ويقربهم إلى حضرته.
وفى الحكم : «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه». وباللّه التوفيق.
ثم أشار الحق تعالى إلى تسفيه رأى اليهود حيث استبدلوا الإيمان بالكفر ، والربح بالخسران ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ٩٠ الى ٩١]
بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (٩٠) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)
قلت : بئس ونعم : فعلان جامدان مختصان بالدخول على ما يدل على العموم ، إما نكرة ، فتنصب على التمييز المفسر للضمير الفاعل ، أو معرف بأل الجنسية ، فيرتفع على الفاعلية ، تقول : بئس رجلا زيد ، وبئس الرجل زيد ، ويذكر بعد ذلك المخصوص : إما خبر عن مبتدأ مضمر ، أو مبتدأ والخبر

مقدم. وإنما اختصّتا بالدخول على ما يدل على العموم لأن (نعم) مستوفية لجميع المدح ، و(بئس) مستوفية لجميع الذم. فإذا قلت : نعم الرجل زيد ، فكأنك قلت : استحق زيد المدح الذي يكون فى سائر جنسه ، وكذلك تقول فى بئس.

(١٣٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٣٤

و(ما) المتصلة ببئس ونعم : نكرة منصوبة على التمييز ، أي : بئس شيئا اشتروا به أنفسهم ، وهو كفرهم ، أو معرفة تامة مرفوعة على الفاعل ، أي : بئس الشيء شيء اشتروا به أنفسهم. و(اشتروا) هنا بمعنى باعوا ، كشروا على خلاف الأصل ، وقد يمكن أن يبقى على أصله ، على ما يأتى فى بيان المعنى.

و(بغيا) مفعول من أجله ليكفروا ، و(يكفرون) حال من الفاعل فى (قالوا) ، و(وراء) فى الأصل : مصدر جعل ظرفا ، ويضاف إلى الفاعل ويراد به ما يتوارى به وهو خلفه ، وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو قدامه ، ولذلك عد من الأضداد ، قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله فى شأن اليهود : بئس شيئا باعوا به حظ أنفسهم ، وهو كفرهم بما أنزل اللّه ، أو بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ بحسب ظنهم ، فإنهم ظنوا أنهم خلّصوا أنفسهم من العذاب بما فعلوا ، وهو كفرهم بما أنزل اللّه على محمد نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم بغيا وحسدا أن يكون النبي من غيرهم ، فانقلبوا بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ للكفر والحسد لمن هو أفضل الخلق ، أو لكفرهم بمحمد - عليه الصلاة والسلام - بعد عيسى عليه السّلام ، أو لتضييعهم التوراة ، وكفرهم بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ أي : يذلهم ويخزيهم فى الدنيا والآخرة ، بخلاف عذاب العاصي فإنه كفارة لذنوبه.

وَإِذا قِيلَ لهؤلاء اليهود : آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ على محمد صلّى اللّه عليه وسلّم قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا من التوراة ، وهم يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ أي : بما سواه ، وهو القرآن ، حال كونه مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ من التوراة ومهيمنا عليه. قُلْ لهم يا محمد : فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ هذا الزمان ، وهو محرم عليكم فى التوراة ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ به؟ فهذا يبطل دعواكم الإيمان بالتوراة إذ الإيمان بالكتاب يقتضى العمل به ، وإلّا كان دعوى ، وإن فعله أسلافكم فأنتم راضون به وعازمون عليه.

الإشارة : اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هى أن كل عتاب توجه لمن ترك طريق الإيمان ، وأنكر على أهله يتوجه مثله لمن ترك طريق مقام الإحسان ، وأنكر على أهله. وكل وعيد توعد به أهل الكفران يتوعد به من ترك السلوك لمقام الإحسان ، غير أن عذاب أهل الكفر حسى بدني ، وعذاب أهل الحجاب معنوى قلبى.

فنقول فيمن رضى بعيبه وأقام على مرض قلبه وأنكر الأطباء ووجود أهل التربية : بئسما اشتروا به أنفسهم ، وهو كفرهم بما أنزل اللّه من الخصوصية على قلوب أوليائه بغيا وحسدا ، أو جهلا وسوء ظن ، أن ينزل اللّه من فضله على

من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب الحجاب على غضب البعد والارتياب ، أو بغضب سقم القلوب على غضب الإصرار على المساوئ والعيوب. (من لم يتغلغل فى علمنا هذا مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر) كما قال الشاذلى رضي اللّه عنه ، ولا يصح التغلغل فيه إلا بصحبة أهله. وللكافرين بالخصوصية عذاب الطمع وسجن الأكوان ، وهما شجرة الذل والهوان.

وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل اللّه من أسرار الحقيقة وأنوار الطريقة ، قالوا : نؤمن بما أنزل علينا من ظواهر الشريعة ، ويكفرون بما وراءه من أسرار الحقيقة ، ككشف أسرار الذات وأنوار الصفات ، وهو - أي : علم الحقيقة - الحق لأنه خالص لب الشريعة ، وللّه در صاحب المباحث الأصلية حيث قال :

هل ظاهر الشرع وعلم الباطن إلا كجسم فيه روح ساكن؟

وقال أيضا :

ما مثل المعقول والمنقول إلا كدرّ زاخر مجهول

حتى إذا أخر جه الغوّاص لم يك للدرّ إذن خلاص

وإنما خلاصه فى الكشف عن الغطاء حيث لا يستخفى

فالصّدف الظاهر ثم الدرّ معقوله والجهل ذاك البحر

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول : (هل ثمّ شيء غير ما فهمناه من الكتاب والسنة؟) ، كان يقول ذلك إذا قيل له : إن الشيخ الشاذلى فاض اليوم بعلوم وأسرار ، فلما التقى بالشيخ وأخذ بيده ، قال : (أي واللّه .. ما قعد على قواعد الشريعة التي لا تنهدم إلا الصوفية). ويقال لمن ادعى التمسك بالشريعة وأنكر ما وراءها : فلم تشتغل بجمع الدنيا واحتكارها وتخاف من الفقر ، وتهتم بأمر الرزق وتجزع من المصائب ، والشريعة تنادى عليك بذم ذلك كله إن كنت مؤمنا؟!! وباللّه التوفيق.

ثم نعى عليهم عبادة العجل بعد ما رأوا من الآيات البينات ، إبطالا لدعواهم الإيمان بالتوراة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٩٢]

وَلَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ (٩٢)

قلت : جملة : وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ حال من (اتخذتم).

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٣٦
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بالمعجزات الواضحات : كالعصا واليد وفلق البحر ، ثم لم ينجح ذلك فيكم ، فاتخذتم العجل إلها تعبدونه من بعد ذهابه إلى الطور وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ فى ذلك ، فأين دعواكم الإيمان بالتوراة؟
الإشارة : ويقال لمن أقام على عيبه ، ورضى بمرض قلبه ، حتى لقى اللّه بقلب سقيم : لقد جاءتكم أوليائى بالآيات الواضحات ، ولو لم يكن إلا شفاء المرضى على أيديهم - أعنى مرضى القلوب - لكان كافيّا ، ثم اتخذتم الهوى إلهكم ، وعبدتم العاجلة بقلوبكم ، وعزّت عليكم نفوسكم وفلوسكم ، وأنتم ظالمون فى الإقامة على مساوئكم وعيوبكم ، مع وجود الطبيب لمن طلب الشفاء ، وحسّن الظن وشهد الصفاء. (كن طالبا تجد مرشدا) وباللّه التوفيق.
ثم عدّد الحق تعالى عليهم مساوئ تقدمت لأسلافهم تبطل دعوى إيمانهم ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٩٣]
وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)
قلت : (إن كنتم) : شرط حذف جوابه ، أي : إن كنتم مؤمنين فبئس ما يأمركم به إيمانكم.
يقول الحق جل جلاله : وَاذكروا أيضا إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ أن تعملوا بالتوراة فأبيتم وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ جبل الطُّورَ وقلنا : خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ واجتهاد وَاسْمَعُوا ما أقول لكم فيه قالُوا بلسان حالهم : سَمِعْنا قولك وعَصَيْنا أمرك ، حيث لم يمتثلوا ، أو بلسان المقال لسوء أدبهم ، وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ حب الْعِجْلَ حتى صبغ فيها ورسخ رسوخ الصبغ فى الثوب ، لأنهم كانوا مجسّمة ، ولم يروا منظرا أعجب من العجل الذي صنعه السامري ، (قل) لهم يا محمد : بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ بالتوراة الذي ادعيتموه ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، لكن الإيمان لا يأمر بهذا فلستم مؤمنين.
الإشارة : يقول الحق جل جلاله لمن ادعى كمال الإيمان ، وهو منكر على أهل الإحسان ، مع إقامته على عوائد نفسه ، وكونه محجوبا بشهود حسه : وإذ أخذنا ميثاقكم ، بأن تجاهدوا نفوسكم ، وتخرقوا عوائدكم لتدخلوا حضرة

ربكم ، ورفعنا فوق رؤوسكم سيوف التخويف ، أو جبال التشويق ، وأوضحنا لكم سواء الطريق ، وقلنا لكم : خذوا ما آتيناكم من خرق العوائد ، واكتساب الفوائد ، بجد واجتهاد ، فأبيتم وعزّت عليكم نفوسكم ، وقلتم بلسان حالكم :
سمعنا وعصينا ، وأشربت قلوبكم حب العاجلة ، وآثرتم الدنيا على الآخرة ، بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين.
ومن جملة ما ادعاه اليهود اختصاصهم بالجنة ، فردّ اللّه عليهم بقوله :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ٩٤ الى ٩٥]
قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)
قلت : (خالصة) خبر كان ، و(عند) متعلق بكان على الأصح.
يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لبنى إسرائيل الذين ادعوا أن الجنة خاصة بهم : إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ أي : فى غيبه ، خالِصَةً لكم مِنْ دُونِ سائر النَّاسِ ، أو من دون المسلمين ، فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى اختصاصكم بها ، فإن العبد إذا تحقق أنه صائر إليها اشتاق إلى الموت الذي يوصل إليها ، كما قال عمار رضي اللّه عنه عند موته :
الآن ألاقى الأحبّه محمّدا وحزبه
وقال حذيفة رضي اللّه عنه حين احتضر : (جاء حبيب على فاقة ، لا أفلح من ندم). أي : على التمني ، أو على الدنيا.
قال تعالى : وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بسبب بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ من الكفر والعصيان ، فما تمناه أحد منهم قط ، قال ابن عباس : (لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم فى النار). وقال فى الإحياء :
(دعا - عليه الصلاة والسلام - اليهود إلى تمنى الموت ، وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه ، فحيل بينهم وبين النطق بذلك). وذكر غيره : أن بعضهم تمناه ، فما جاءت العشاء حتى أخذته الدّبحة فى حلقه فمات «١».
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ، فيه تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون فى دعوى ما ليس لهم ، ونفيه عمن هو لهم.

---

(١) لم أقف على ما يفيد ذلك : ولو وقع لنقل واشتهر لتوافر الدواعي إلى نقله لأنه أمر عظيم. بل على العكس فالأخبار الواردة فى أنهم ما تمنوا بلغت مبلغ التواتر ، كما يقول الفخر الرازي.

الإشارة : فى هذه الآية ميزان صحيح توزن به الأعمال والأحوال ويتميز به المدعون من الأبطال ، فكل عمل يهدمه الموت فهو مدخول ، وكل حال يهزمه الموت فهو معلول ، وكل من فرّ من الموت فهو فى دعواه المحبة كذاب ، فمن ادعى الخصوصية على الناس يختبر بهذه الآية.
والناس فى حب البقاء فى الدنيا على أربعة أقسام :
رجل أحب البقاء فى الدنيا لاغتنام لذّاته ونيل شهواته ، قد طرح أخراه ، وأكبّ على دنياه ، واتخذ إلهه هواه ، فأصمه ذلك وأعماه ، إن ذكر له الموت فرّ عنه وشرد ، وإن وعظ أنف وعند ، عمره ينقص ، وحرصه يزيد ، وجسمه يبلى ، وأمله جديد ، وحتفه قريب ، ومطلبه بعيد ، فهذا إن لم تكن له عناية أزلية ، وسابقة أولية فيمسك عليه الإيمان ، ويختم له بالإسلام ، وإلا فقد هلك.
ورجل قد أزيل عن عينه قذاها ، وأبصر نفسه وهواها ، وزجرها ونهاها ، قد شمر ليتلافى ما فات ، ونظر فيما هو آت ، وتأهب لحلول الممات ، والانتقال إلى محلة الأموات ، ومع هذا فإنه يكره الموت أن يشاهد وقائعه ، أو يرى طلائعه ، وليس يكره الموت لذاته ، ولا لأنه هادم لذّاته ، لكنه يخاف أن يقطعه عن الاستعداد ليوم المعاد ، ويكره أن تطوى صحيفة عمله قبل بلوغ أمله ، وأن يبادر بأجله قبل صلاح خلله ، فهو يريد البقاء فى هذه الدار لقضاء هذه الأوطار ، فهذا ما أفضل حياته : وأطيب مماته! لا يدخل تحت قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «من كره لقاء اللّه كره اللّه لقاءه».
ورجل آخر قد عرف اللّه تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وشهد ما شهد من كمال الربوبية ، وجمال حضرة الألوهية ، فملأت عينه وقلبه ، وأطاشت عقله ولبه ، فهو يحن إلى ذلك المشهد ، ويستعجل إنجاز ذلك الموعد ، قد علم أن الحياة الدنيوية حجاب بينه وبين محبوبه ، وستر مسدل بينه وبين مطلوبه ، فهذا من المحبين العشاق ، قد حن إلى الوصال والتلاق ، أحب لقاء اللّه فأحب اللّه لقاءه ، فما أحسن حياته ولقاءه! ورجل آخر قد شهد ما شاهد ذلك ، وربما زاد على ما هنالك ، لكنه فوض الأمر إلى خالقه ، وسلم الأمر لبارئه ، فلم يرض إلا ما رضى له ، ولم يرد إلا ما أريد به ، وما اختار إلا ما حكم به فيه ، إن أبقاه فى هذه الدار أبقاه ، وإن أخذه فهو بغيته ومناه ، فهذا من العارفين المقربين. جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه. آمين.
[سورة البقرة (٢) : آية ٩٦]
وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (٩٦)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٣٩

قلت : (و من الذين أشركوا) : على حذف مضاف ، أي : وأحرص من الذين أشركوا ، فيوقف عليه ، و(لو يعمر) مصدرية ، أي : يود أحدهم تعمير ألف سنة. و(أن يعمر) فاعل لمزحزحه ، أي : وما هو بمزحزحه من العذاب تعميره.

يقول الحق جل جلاله : ولتجدن يا محمد اليهود أَحْرَصَ النَّاسِ على البقاء فى هذه الدار الدنية ، فكيف يزعمون أنهم أولى الناس بالجنة ، ولتجدنهم أيضا أحرص من المشركين على البقاء ، مع كونهم لا يقرون بالجزاء ، فدلّ ذلك على أنهم صائرون إلى النار ، فلذلك كرهوا اللفاء وحرصوا على البقاء ، يتمنى أحدهم لو يعيش أَلْفَ سَنَةٍ وليس ذلك بِمُزَحْزِحِهِ أي : مبعده من العذاب «١» ، بل زيادة له فى العقاب وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ : تهديد وتخويف.

الإشارة : يفهم من سر الخطاب أن كل من قصر أمله ، وحسن عمله ، وطيب نفسه للقاء الحبيب ، واشتغل فى هذه اللحظة القصيرة بما يقربه من القريب ، كان قربه من اللّه بقدر محبته للقائه ، وكل من طوّل أمله ، وحرص على البقاء فى هذه الدار الفانية ، كان بعده من اللّه بقدر محبته للبقاء ، إلا من أحب البقاء لزيادة الأعمال ، أو الترقي فى المقامات والأحوال ، فلا بأس به ، ويفهم منه أيضا أن من اشتد حرصه على الحياة الفانية كانت فيه نزعة يهودية.

واعلم أن الناس ، فى طول الأمل وقصره ، على قسمين : منهم من طوّل فى أمله فازداد فى كسله ، ودخله الوهن فى عمله ، وآخر قد قصر أمله وجعل التقوى بضاعته ، والعبادة صناعته ، ولم يتجاوز بأمله ساعته ، ومثل هذا قد رفع التوفيق عليه لواءه ، وألبسه رداءه ، وأعطاه جماله وبهاءه ، فانظر رحمك اللّه أىّ الرجلين تريد أن تكون ، وأي العملين تريد أن تعمل ، وبأى الرداءين تريد أن تشتمل؟ فلست تلبس هناك إلا ما تلبس هنا. وباللّه التوفيق.

ومن أشنع كفر بنى إسرائيل وأقبح مساوئهم ، بغضهم لجبريل عليه السّلام وإلى ذلك أشار الحق تعالى بقوله :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٩٧ الى ٩٨]

قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ (٩٨)

---

(١) لأن الإمهال بحسب الزمان وإن حصل ، لكنهم لاقترافهم المعاصي بالتعمير زاد عليهم من حيث شدة العذاب.

قلت : (من) شرطية وجوابها محذوف ، أي : فليمت غيظا ، أو (فإنه نزله) على معنى : من عادى منهم جبريل فقد خلع ربقة الإنصاف ، أو كفر بما معه من الكتاب لأنه نزل بكتاب مصدقا لما قبله من الكتب ، وجبريل فيه ثماني لغات ، أربع قرئ بهن. وهي : جبرئيل كسلسبيل. وجبرئل كجحمرش ، وجبريل - بفتح الجيم - بلا همز ، وجبريل بكسرها ، وأربع شواذ : جبرال ، وجبرائيل ، وجبرائل ، وجبرين بالنون ، ومعناه : عبد اللّه. وفي ميكائيل أربع لغات : ميكائيل ممدود ، وميكائل مقصور ، وميكئل مهموز مقصور ، وميكال على وزن ميعاد.

يقول الحق جل جلاله في الرد على اليهود ، كابن صوريا وغيره ، حيث قالوا للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم : من الذي يأتيك بالوحي؟ فقال : جبريل ، فقالوا : ذلك عدونا من الملائكة لأنه ينزل بالشدة والعذاب ، ولو كان ميكائيل لاتبعناك لأنه ينزل بالخصب والسلم ، فقال تعالى : مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فليمت غيظا ، فإنه هو الذي نزّل القرآن عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب ، وهداية وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ ، فإن كان ينزل بالشدة والعذاب على الكافرين ، فإنه ينزل بالهداية والبشارة على المؤمنين.

ومن كان عدوا لجبريل فإنه عدو للّه ، إذ هو رسوله للأنبياء ، وصفيه من الملائكة ، وعدو أيضا لميكائيل فإنه وزيره ، وللرسل أيضا فإنه سفيرهم ، ومَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ فإن اللّه عدو له.

وعطف جبريل وميكائيل من عطف الخاص على العام لزيادة شرفهما. ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله :

عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ ولم يقل : لهم ، تسجيلا عليهم بالكفر ، وبيان أن اللّه إنما عاداهم لكفرهم ، وأن عداوة الملائكة والرسل كفر ، عصمنا اللّه من موارد الردى. آمين.

الإشارة : إذا كانت معاداة الملائكة والرسل هي معاداة اللّه ، فكذلك معاداة أوليائه هي معاداة اللّه أيضا ، ولذلك قال تعالى : «من عادى لي وليّا فقد آذنني بالحرب». فالبعض هو الكل ، ويؤخذ بالمفهوم أن محبة الملائكة والرسل هي محبة اللّه. وكذلك محبة أولياء اللّه هي محبة اللّه ، وكذلك أيضا محبة عباد اللّه هي محبة اللّه ، ومعاداتهم معاداة اللّه. «الخلق عيال اللّه ، وأحبّ الخلق إلى اللّه أنفعهم لعياله».

وكل من ادعى أنه يحب اللّه وفي قلبه عداوة لمسلم فهو كاذب ، وكل من ادعى أنه يعرف اللّه وفي قلبه إنكار على مخلوق فهو في دعواه أيضا كاذب ، فالواجب على العبد أن يحب جميع العباد ، من كان طائعا فظاهر. ومن كان عاصيا أحب له التوبة والإنابة ، ومن كان كافرا أحب له الإسلام والهداية ، ولا يكره من العبد إلا فعله ، وللّه در القائل :

ارحم بنىّ جميع الخلق كلّهم وانظر إليهم بعين الحلم والشّفقه
وقّر كبيرهم وارحم صغيرهم وراع فى كلّ خلق حقّ من خلقه «١»
وباللّه التوفيق.
ولما قال ابن صوريا للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم : يا محمد ما جئت بشئ نعرفه ، وما أنزل اللّه عليك من آية بينة فنتبعك لها فنزل قوله تعالى :
[سورة البقرة (٢) : آية ٩٩]
وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها إِلاَّ الْفاسِقُونَ (٩٩)
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ يا محمد آياتٍ واضحات ، مشتملة على علوم غيبية ، وأخبار نبوية ، وشرائع محكمة ، وأنوار قدسية ، وأسرار جبروتية ، وما يجحدها ويكفر بها إلا المتمرد فى الكفر والطغيان ، الخارج عن الطاعة والإيمان ، فالفسق ، إذا استعمل فى نوع من المعاصي ، دل على أعظمه وأقبحه ، وهو هنا الكفر ، والعياذ باللّه.
الإشارة : اعلم أن العبد إذا سبقت له من اللّه العناية ، ألقى اللّه فى قلبه التصديق والهداية ، من غير أن يحتاج إلى علامة ولا آية ، بل يكشف له الحق تعالى عن سر الخصوصية وأنوارها ، فيشهد سره لصاحبها بالتقويم ، وتخضع له روحه بالتعظيم ، فتبدو له أنوار الإيمان وتشرق عليه شموس العرفان ، من غير توقف على دليل ولا برهان ، بخلاف من سبق له الحرمان ، فلا ينجح فيه دليل ولا برهان ، والعياذ باللّه من الخذلان.
ولما ذكّر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم اليهود فى شأن العهد الذي أخذه اللّه عليهم فيه ، قال مالك بن الصيف : واللّه ما عهد إلينا فى محمد عهد ولا ميثاق ، نزل :
[سورة البقرة (٢) : آية ١٠٠]
أَوَكُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)
قلت : الهمزة للإنكار ، والواو للعطف على محذوف تقديره : أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا عهدا ، وكُلَّما منصوب على الظرفية ، وهى متضمنة معنى الشرط فتفتقر للجواب ، وهو العامل فيها. والنبذ : الطرح ، لكنه يغلب فيما ينسى ، قاله البيضاوي.

---

(١) نسبهما الشيخ المفسر فى إيقاظ الهمم إلى الحسن الحراني.

يقول الحق جل جلاله فى شأن اليهود والإنكار عليهم : أَوَكُلَّما أعطوا عهدا وعقدوه على أنفسهم طرحه فَرِيقٌ مِنْهُمْ؟ فقد أعطوا العهد أنهم إن أدركوا محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم ليؤمنن به ولينصرنه ، فلما أدركوه نبذوا ذلك العهد ونسوه. وكذلك أعطوا العهد للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم ألا يعاونوا المشركين عليه ، فنبذه بنو قريظة والنضير ، ولم ينقضه جميعهم بل فريق منهم ، وهم الأكثر ، ولذلك قال : بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ، فالأكثر هم الناقضون للعهود ، المجاوزون للحدود. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : نقض العهد مع اللّه أو مع عباده من علامة النفاق ، ومن شيم أهل البعاد والشقاق ، والوفاء بالعهد من علامة الإيمان ، ومن شيم أهل المحبة والعرفان. قال تعالى فى صفة المفلحين : وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ ، ولا سيما عهود الشيوخ أهل التمكين والرسوخ. فمن أخذ عقد الصحبة مع الشيخ الذي هو أهل للتربية فليحذر من حلّ العقدة بينه وبينه ، فإنّ ذلك يقطع الإمداد ، ويوجب الطرد والبعاد ، والالتفات إلى غيره تسويس لبذرة الإرادة ، وموجب لقطع الزيادة والإفادة ، ثم إن الانجماع على الشيخ ، وقطع النظر والالتفات إلى غيره هو سبب للكون - كذلك - مع اللّه ، فبقدر الانقطاع إلى الشيخ يحصل الانقطاع إلى اللّه ، وبقدر ترك الاختيار وسلب الإرادة مع الشيخ يحصل كذلك مع اللّه ، وبقدر الوفاء بعهود شيوخ التربية يحصل الوفاء بعهود حقوق الربوبية. فمن كانت غيبته فى الشيخ أقوى ، وانحياشه إليه أكثر ، وجمعه عليه أدوم ، كان كذلك مع ربه ، وكذلك التعظيم والأدب ، واللّه يعامل العبد على حسب ذلك.
قال الشيخ زرّوق رضي اللّه عنه : (و لا تنتقل عنه ، ولو رأيت من هو أعلى منه ، فتحرم بركة الأول والثاني) ، ولذلك كان المشايخ يمنعون أصحابهم من صحبة غيرهم ، بل من زيارتهم ، وأنشدوا :
خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به فى طلعة البدر ما يغنيك عن زحل
وحاصل أمر الزيارة لغير شيخه أن فيه تفصيلا : فمن كمل صدقه ، وتوفر عقله ، بحيث إذا زار لا يستنقص شيخه ، ولا الذي زاره ، جازله أن يزور من شاء ، ومن لم يكمل صدقه وعقله ، بحيث إذا زار : إما يستنقص شيخه ، أو الشيخ الذي زاره ، فليكف عن زيارة غير شيخه. وقال محيى الدين بن العربي : ويجب على المريد أن يعتقد فى شيخه أنه عالم باللّه ، ناصح لخلق اللّه ، ولا ينبغى له أن يعتقد فى شيخه العصمة. وقد قيل للجنيد : أيزني العارف؟
فقال : وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً. وصحب تلميذ شيخا ، فرآه يوما قد زنا بامرأة ، فلم يتغير من خدمته ، ولا أخل فى شيء من مرسومات شيخه ، ولا ظهر منه نقص فى احترامه. وقد عرف الشيخ أنه رآه ، فقال له يوما :

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٤٣

يا بنى قد عرفت أنك رأيتنى حين فسقت بتلك المرأة ، وكنت أنتظر فراقك عنى من أجل ذلك ، فقال له التلميذ :

يا سيدى الإنسان معرض لمجارى أقدار اللّه عليه ، وإنى من الوقت الذي دخلت فيه إلى خدمتك ما خدمتك على أنك معصوم ، وإنما خدمتك على أنك عارف بطريق اللّه تعالى ، عارف بكيفية السلوك عليه الذي هو طلبى ، وكونك تعصى أو لا تعصى شيء بينك وبين اللّه عز وجل ، لا يرجع من ذلك شيء علىّ ، فما وقع منك يا سيدى شيء لا يوجب نفارى وزوالى عنك ، وهذا هو عقدى ، فقال له الشيخ : وفقت وسعدت هكذا وإلا فلا ... فربح ذلك التلميذ ، وجاء منه ما تقرّ به العين من حسن الحال وعلوّ المقام «١». هـ.

ولما وسمهم الحق تعالى بنقض العهود ، ذكر جزئية من ذلك ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٠١]

وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١)

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا جاءَهُمْ يعنى اليهود رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ محمد صلّى اللّه عليه وسلّم مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ من التوراة بموافقته له فى بعض الأخبار نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ ، وهم من كفر من أحبار يهود ، كِتابَ اللَّهِ : التوراة ، وَراءَ ظُهُورِهِمْ ، حيث لم يعملوا بما فيه من الأمر بالإيمان بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وغيروا صفته التي فيه ، وكتموها ، فكأنهم طرحوه وراء ظهورهم ، وكأنهم لا علم لهم بشئ من ذلك.

قال البيضاوي : اعلم أن الحق تعالى دل بالآيتين على أن حال اليهود أربع فرق : فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمنى أهل الكتاب ، وهم الأقلون المدلول عليهم بقوله : بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ، وفرقة جاهروا بنبذ عهودها ، وتخطى حدودها ، تمردا وفسوقا ، وهم المعنيون بقوله تعالى : نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ، وفرقة لم يجاهروا بنبذها ، ولكن نبذوا لجهلهم بها ، وهم الأكثرون ، وفرقة تمسكوا بها ظاهرا ، ونبذوها خفية ، عالمين بالحال بغيا وعنادا ، وهم المتجاهلون. هـ. قلت : ولعلهم المنافقون منهم.

ولما نبذوا كتاب اللّه اشتغلوا بكتب السحر مكانه ، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله :

---

(١) مغزى القصة : التنبيه على أن المريد ينبغى له ألا يعتقد العصمة فى الشيخ فإن الشيخ وإن كان على أكمل الحالات فليس بمعصوم. [.....]

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]
وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)
قلت : عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ على حذف مضاف ، أي : على عهد ملك سليمان ، أو «على» بمعنى «فى» ، وقوله : «وما أنزل» عطف على السحر ، عطف تفسير ، والفتنة فى الأصل : الاختبار ، تقول : فتنت الذهب والفضة إذا أدخلتهما النار لتعلم جودتهما من رداءتهما ، وقوله «لمثوبة» جواب «لّو» ، والأصل : لأثيبوا ، ثم عدل إلى الجملة الاسمية لتدل على الثبوت.
يقول الحق جل جلاله فى شأن اليهود : ولما جاءهم كتاب من عند اللّه نبذوه وَاتَّبَعُوا ما تقرأ الشَّياطِينُ على الناس من السحر عَلى عهد مُلْكِ سُلَيْمانَ ، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب ، ويلقونها إلى الكهنة ، وهم يدونونها ويعلمونها الناس ، وفشا ذلك فى عهد سليمان حتى قيل : إن الجن يعلم الغيب ، وإن ملك سليمان إنما قام بهذا ، وأنه به سخر الجن والإنس والريح ، فجمع سليمان ما دوّن منه ودفنه ، فاستخرجته الشياطين بعد موته ، فردّ اللّه تعالى قولهم بقوله : وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ باستعمال السحر لأنه تعظيم غير اللّه بالتقرب للشيطان ، والنبي معصوم ، وَلكِنَّ الشَّياطِينَ هم الذين كَفَرُوا باستعماله يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ إغواء وإضلالا ، ويعلمون ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ فى بلد بابل من سواد الكوفة ، وهما هارُوتَ وَمارُوتَ.
كانا ملكين من أعبد الملائكة ، ولما رأت الملائكة ما يصعد إلى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة فى زمن إدريس عليه السّلام عيروهم بذلك ، وقالوا : يا ربنا هؤلاء الذين جعلتهم خليفة فى الأرض
يعصونك؟ فقال اللّه تعالى : لو أنزلتكم إلى الأرض ، وركّبت فيكم ما ركبت فيهم لارتكبتم ما ارتكبوا ، قالوا : سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نعصيك.
فقال اللّه تعالى : فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض. فاختاروا هاروت وماروت ، وكانا من أعبد

الملائكة ، فركّب اللّه تعالى فيهما الشهوة ، وأمرهما أن يحكما فى الأرض بين الناس بالحق ، ونهاهما عن الشرك والقتل بغير الحق ، والزنا وشرب الخمر ، فكانا يقضيان بين الناس يومهما ، فإذا أمسيا ذكرا اسم اللّه الأعظم وصعدا إلى السماء ، فاختصمت إليهما ذات يوم امرأة يقال لها الزهرة : وكانت من أجمل النساء من أهل فارس ، فأخذت بقلبيهما ، فراوداها عن نفسها ، فأبت ، ثم عاودت فى اليوم الثاني ، ففعلا مثل ذلك فأبت ، وقالت : إلا أن تعبدا ما أعبد ، وتصليا لهذا الصنم ، وتقتلا النفس وتشربا الخمر ، فأبيا هذه الأشياء ، وقالا : إن اللّه نهانا عنها ، فانصرفت ، ثم عادت فى اليوم الثالث ، فراوداها ، فعرضت عليهما ما قالت بالأمس ، فقالا : الصلاة لغير اللّه ذنب عظيم ، وأهون الثلاثة شرب الخمر ، فشربا ، وانتشيا ، ووقعا بالمرأة ، فلما فرغا رآهما إنسان فخافا أن يظهر عليهما فقتلاه. وفى رواية عن سيدنا على - كرم اللّه وجهه - أنه قال : (قالت لهما : لن تدركانى حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء ، فقالا : باسم اللّه الأعظم ، فعلماها ذلك ، فتكلمت به ، وصعدت إلى السماء فمسخها اللّه كوكبا). ولذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا رأى سهيلا قال : «لعن اللّه سهيلا كان عشّارا باليمن ، ولعن اللّه الزهرة ، وقال : إنها فتنت ملكين».

قلت : قصة هاروت وماروت ذكرها المنذرى فى شرب الخمر ، وقال فى حديثها : رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه من طريق زهير بن محمد ، وقد قيل : إن الصحيح وقفه على كعب. هـ. وقال ابن حجر : قصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن ، خلافا لمن زعم بطلانها كعياض ومن تبعه.

وتمام قصتهما : أنهما لما قارفا الذنب وجاء المساء همّا بالصعود ، فلم تطاوعهما أجنحتهما ، فعلما ما حل بهما ، فقصدا إدريس عليه السّلام ، فأخبراه ، وسألاه الشفاعة إلى اللّه تعالى فشفع فيهما ، فخيرهما اللّه تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا لانقطاعه ، فهما يعذبان فى بئر ببابل ، منكسان معلقان بالسلاسل من أرجلهما ، مزرقة أعينهما ، ليس بينهما وبين الماء إلا قدر أربعة أصابع ، وهما يعذبان بالعطش «١». هـ.

فإن قلت : الملائكة معصومون فكيف يصح هذا من هاروت وماروت؟ قلنا : لما ركب اللّه فيهما الشهوة انسلخا من حكم الملكيّة إلى حكم البشرية ابتلاء من اللّه تعالى لهما ، فلم يبق لهما حكم الملائكة من العصمة.

---

(١) أعلّ أهل العلم بالحديث هذه الروايات ، وحكم بوضعها ابن الجوزي فى الموضوعات ، وقال القاضي عياض : لم يرد فى ذلك شىء أصلا لا سقيم ولا صحيح. وردّ القصة جل المفسرين ، وقال الحافظ ابن كثير : ظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها. فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى. انظر فى الموضوع : الشفا للقاضى عياض ، وتعليق الشيخ أحمد

شاكر على مسند الإمام أحمد ، وتعليقه على تفسير الطبري ، وكتاب الاسرائيليات والموضوعات لأبى شهبة رحمه الله – .

(١٤٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٤٦

وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ السحر حتى ينصحاه ويقولا : إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ لكم ، واختبار من اللّه تعالى لعباده ، ليظهر من يصبر عنه ومن لا يصبر ، وكان تعلمه فى ذلك الوقت كفرا. فيقولان له فَلا تَكْفُرْ بتعلّمه ، فكانوا يتعلمون مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وقدرته ، فلا تأثير لشئ إلا بإذن اللّه ، ويتعلمون منهما ما يَضُرُّهُمْ يوم القيامة وَلا يَنْفَعُهُمْ ، ولقد علم بنو إسرائيل أن من اشتراه واستبدله بكتاب اللّه والعمل بما فيه ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نصيب ، وَلَبِئْسَ ما باعوا به حظ أنفسهم من النعيم لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ ، لكن لما لم يعملوا بعلمهم كانوا كمن لا علم عنده.

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا باللّه ورسوله وَاتَّقَوْا الكفر والسحر ، لأثيبوا ثوابا كبيرا ، وكان ذلك خيرا لهم مما استوجبوه من العقاب لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ.

الإشارة : كل من أكبّ على دنياه وتتبع حظوظه وهواه ، وترك العمل بما جاء من عند اللّه ، يصدق عليه أنه نبذ كتاب اللّه ، واشتغل بما سواه من حب الدنيا والرئاسة والجاه ، فالدنيا سحارة غرارة ، تسحر القلوب وتغيبها عن حضرة علام الغيوب وفى الحديث : «اتقوا الدّنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت» ، ولا شك أنها تفرق بين الأحباب وبين العشائر والأصحاب. ولقد علم من أخذ الدنيا ونعيمها ، وأكب عليها ما له فى الآخرة من نصيب ، فبقدر ما يأخذ من نعيم الدنيا وشهواتها ينقص له من نعيم الآخرة. ولبئس ما شروا به أنفسهم – حيث آثروا الحياة الدنيا على الآخرة – لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا باللّه ، واتقوا كل ما يشغل عن اللّه لكانوا من أولياء اللّه ، وتلك المثوبة – التي صاروا إليها – خير لو كانوا يعلمون.

قال عبد الواحد بن زيد : سمعت أن جارية مجنونة فى خراب الأبلّة تنطق بالحكم ، فطلبتها حتى وجدتها ، وهى محلوقة الرأس ، وعليها جبة صوف ، فلما رأتنى قالت : مرحبا بك يا عبد الواحد ، ثم قالت : يا عبد الواحد ما جاء بك؟

فقلت : تعظيننى ، فقالت : ووا عجبا لواعظ ، يوعظ ، يا عبد الواحد .. اعلم أن العبد إذا كان فى كفاية ، ومال إلى شيء من الدنيا ، سلبه اللّه حلاوة الزهد ، وظل حيرانا ولها ، فإن كان له عند اللّه نصيب عاتبه وحيا فى سره ، فيقول له :

عبدى أردت رفع قدرك عند ملائكتى ، وأجعلك دليلا لأوليائى ، ومرشدا لأهل طاعتى ، فملت إلى

عرض الدنيا وتركتنى ، فأورثك ذلك الوحشة بعد الأنس ، والذل بعد العز ، والفقر بعد الغنى ، ارجع إلى ما كنت عليه ارجع إليك ما كنت تعرفه من نفسك. ثم انصرفت عنى وتركتنى وبقيت حسرتها فى قلبى. هـ.

ولما كان المسلمون يقولون للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم : راعنا يا رسول اللّه وأرعنا سمعك ، يعنون من المراعاة والانتظار ، وهى عند اليهود سب من الرعونة ، ففرحت اليهود ، وقالوا : كنا نسب محمدا سرا ، فأعلنوا له بالشتم ، فكانوا يقولون : يا محمد راعنا ويضحكون ، نهى اللّه تعالى المسلمين عن هذه اللفظة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٠٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا وَاسْمَعُوا وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)

قلت : يقال راعى الشيء يراعيه مراعاة : انتظره أو التفت إليه. ويقال : رعى إلى الشيء ، وراعاه وأرعاه : إذا أصغى إليه واستمعه.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم : راعِنا أي : انتظرنا أو أمهل علينا لأن فى ذلك ذريعة لسب اليهود ، أو قلة أدب ، وقولوا : انْظُرْنا أي : انتظرنا وَلِلْكافِرِينَ المؤذين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عَذابٌ أَلِيمٌ أي : موجع.

الإشارة : حسن الخطاب من تمام الآداب ، وتمام الآداب هو السبب الموصل إلى عين الصواب ، فمن لا أدب له لا تربية له ، ومن لا تربية له لا سير له ، ومن لا سير له لا وصول له ، فمن لا يتربى على أيدى الرجال لا يربى الرجال ، وقد قالوا : من أساء الأدب مع الأحباب طرد إلى الباب ، ومن أساء الأدب فى الباب طرد إلى سياسة الدواب. وقالوا أيضا : اجعل عملك ملحا ، وأدبك دقيقا. وقال آخر : إن الإنسان ليبلغ بالخلق وحسن الأدب إلى عظيم الدرجات وهو قليل العمل ، ومن حرم الأدب حرم الخير كله ، ومن أعطى الأدب فقد مكن من مفاتيح القلوب.

قال أبو عثمان رضي اللّه عنه : الأدب عند الأكابر وفى مجالس السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلا والخير فى الدنيا والعقبى. وقال أبو حفص الحداد رضي اللّه عنه : التصوف كله آداب ، لكل وقت أدب ، ولكل حال أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لازم الأدب بلغ مبلغ الرجال ، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، مردود من حيث يرجو الوصول. وقال ذو النون المصري رضي اللّه عنه : (إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء).

وقيل : من لم يتأدب لوقت فوقته مقت. وقيل : من حبسه النسب أطلقه الأدب ، ومن قل أدبه كثر شغبه. وقيل :

الأدب سند الفقراء ، وزينة الأغنياء. هـ. وباللّه التوفيق.

ومن مساوئ اليهود أيضا الحسد والغل ، وإليه أشار الحق تعالى بقوله :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٠٥]

ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

قلت : الود : محبة الشيء مع تمنيه ، و«من أهل الكتاب» بيانية كقوله : «لم يكن الّذين كفروا من أهل الكتاب» ، و«أن ينزّل» معمول يود ، و«من خير» صلة ، و«من ربّكم» ابتدائية.

يقول الحق جل جلاله : ما يتمنى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إنزال خير عليكم مِنْ رَبِّكُمْ ولا المشركون حسدا منهم ، بل يتمنون أن تبقوا على ضلالتكم وذلّكم ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ كالنبوة والولاية مَنْ يَشاءُ من عباده. فلا يجب عليه شيء ولا يمتنع عليه ممكن ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ، فيمنّ بالنبوة أو الولاية على من يشاء فضلا وإحسانا.

الإشارة : فى الآية تنبيهان : أحدهما : أن من كان يحسد أهل الخصوصية وينكر عليهم ، فيه نزعة يهودية ، وخصلة من خصال المشركين ، والثاني : أن حسد أهل الخصوصية والإنكار عليهم أمر شائع وسنة ماضية ، فليوطن المريد نفسه على ذلك ، وليعلم أنه ما يقال له إلا ما قيل لمن قبله ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وما من نعمة إلا وعليها حسود.

وقال حاتم الطائي :

ومن حسد يجور علىّ قومى وأىّ الدهر ذو لم يحسدونى

وباللّه التوفيق.

ومن مساوئهم أيضا إنكار النسخ للأحكام ، فرد اللّه عليهم بقوله :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]

ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٠٧)

قلت : النسخ فى اللغة يطلق على معنيين أحدهما : التغيير والتحويل ، يقال : مسخه اللّه قردا ونسخه.

قال الفراء : ومنه نسخ الكتاب ، والثاني : بمعنى رفع الشيء وإبطاله. يقال : نسخت الشمس الظلّ ، أي : ذهبت به وأبطلته ، وهو المراد هنا.

والإنساء هو الترك والإذهاب ، والنساء هو التأخر. و«ما» شرطية منصوبة بشرطها مفعولاً به. و«نأت» جوابها.

يقول الحق جل جلاله : في الرد على اليهود حيث قالوا : انظروا إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ، فأجاب اللّه عنهم بقوله : ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أي : نزيل لفظها أو حكمها أو هما معا ، نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها في

الخفة أو في الثواب ، أَوْ نُنْسِها من قلب النبي – عليه الصلاة والسلام – بإذن اللّه ، أو نتركها غير منسوخة ، أو نؤخر إنزالها أو نسخها. باعتبار القراءات ، نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ يا محمد أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه نسخ ولا غيره أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يتصرف فيهما كيف يشاء ، لا راد لما قضى ولا معقّب لما حكم به وأمضى ، ينسخ من شرائع أحكامه ما شاء ، ويثبت فيها ما شاء ، بحسب مصالح العباد ، وما تقتضيه الرأفة والوداد.

وهو جائز عقلا وشرعا ، فكما نسخت شريعتهم ما قبلها نسخها ما بعدها ، فمن تحكم على اللّه ، أو رد على أصفياء اللّه ممن اصطفاهم لرسالته ، فليس له مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ يمنع من عذاب اللّه ، وَلا نَصِيرٍ ينصره من غضب اللّه.

والنسخ إنما يكون في الأوامر والنواهي دون الأخبار ، لأنه يكون كذبا ، ومعنى النسخ : انتهاء العمل بذلك الحكم ، ونقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة ، فلا يلزم عليه البداء كما قالت اليهود ، والنسخ عندنا على ثلاثة أقسام : نسخ اللفظ والمعنى : كما كان يقرأ : «لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر» ، ثم نسخ ، ونسخ اللفظ دون المعنى : «كالشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» ، ثم نسخ لفظه ، وبقي حكمه وهو الرجم ، ونسخ المعنى دون اللفظ : كآية السيف بعد الأمر بالمهادنة مع الكفار. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه في تفسيرها : ما نذهب من بدل إلا ونأت بخير منه أو مثله. هـ.

ومعناه : ما نذهب بولي إلا ونأت بخير منه أو مثله إلى يوم القيامة ، وبهذا يردّ على من زعم أن شيخ التربية انقطع فإن قدرة اللّه عامة ، وملك اللّه قائم ، والأرض لا تخلو ممن يقوم بالحجة حتى يأتي أمر

اللّه.
قال فى لطائف المنن : وقد سئل بعض العارفين عن أولياء المدد : أينقصون فى زمن؟ فقال : لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها ، ولا أبرزت الأرض نباتها ، وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم ، ولا بنقص إمدادهم ، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد اللّه وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم ، ثم قال : وقد قال علىّ - كرم اللّه وجهه - فى مخاطبته لكميل :
اللهم لا تخلو الأرض من قائم لك بحجتك ، أولئك الأقلون عددا ، الأعظمون عند اللّه قدرا ، قلوبهم معلقة بالمحل الأعلى.
أولئك خلفاء اللّه فى بلاده وعباده ، وا شوقاه إلى رؤيتهم.
وروى الترمذي الحكيم عن ابن عمر رضي اللّه عنه يرفعه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره». وباللّه التوفيق.

(١٤٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٥٠
ولما سأل رافع بن حريملة اليهودي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يريه آية ، كتفجير ماء أو غيره ، نزل قوله تعالى :
[سورة البقرة (٢) : آية ١٠٨]
أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (١٠٨)
قلت : (أم) للإضراب بمعنى بل وهو على قسمين : إما إضراب عن المعنى السابق ، أو لفظه فقط كما هنا ، انظر تفسير ابن عطية ، وإضافة الرسول إليهم باعتبار ما فى نفس الأمر. وهو نص فى إرساله إليهم كما أرسل إلى غيرهم. والضلال : التلف. وسَواءَ السَّبِيلِ : وسط الطريق.
يقول الحق جل جلاله : أتريدون يا معشر اليهود أن تقترحوا على نبيكم الذي أرسلت إليكم ، وإلى كافة الخلق من غيركم الآيات ، وتسألوه أن يريكم المعجزات ، كما سألتم موسى من قبل فقلتم : أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً تشغيبا وتعنتا ، وأبيتم عن الإيمان ، واستبدلتموه بالكفر والعصيان ، وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فقد تلف عن طريق الحق والسداد ، ومأواه جهنم وبئس المهاد.
الإشارة : لا يشترط فى الولي ظهور الكرامة ، وإنما يشترط فيه كمال الاستقامة ، ولا يشترط فيه أيضا هداية الخلق على يديه إذ لم يكن ذلك للنبى فكيف يكون للولى؟ قال تعالى : أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وقد سرى فى طبع العوام ما سرى فى طبع الكفار ، قالوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا

مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً الآية.
فكثير من العوام لا يقرون الولي حتى يروا له آية أو كرامة ، مع أن الولي كلما رسخت قدمه فى المعرفة قلّ ظهور الكرامة على يديه لأن الكرامة إنما هى معونة وتأييد وزيادة إيقان. والجبل الراسى لا يحتاج إلى عماد.
والحق هو ما قاله الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه : (و إنهما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان بمزيد الإيقان على نعت الشهود والعيان ، وكرامة العمل على السنة والمتابعة ، ومجانبة الدعاوى والمخادعة ، فمن أعطيهما ثم اشتاق إلى غيرهما فهو مفتر كذاب ، أو ذو خطأ فى العلم والفهم ، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضى والكرامة ، ثم جعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا) أو كما قال رضي اللّه عنه.
وقال شيخنا رضي اللّه عنه : (الكرامة الحقيقية هى الأخلاق النبوية والعلوم اللدنية). فمن أنكر أولياء أهل زمانه وطلب منهم الدليل غير ما تقدم فقد ضل سواء السبيل ، وبقي مربوطا فى سجن البرهان والدليل. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما ظهر حسد اليهود واجتهادهم فى الرد على الإسلام ، أمر الحق تعالى المسلمين بالعفو والصفح حتى يأذن فى قتالهم ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٠٩ الى ١١٠]
وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)
قلت : لَوْ مصدرية مفعول «ودّ» ، وكُفَّاراً : مفعول ثان ، وحَسَداً : مفعول له ، علة لود ، أو حال من الواو ، ومِنْ عِنْدِ متعلق بود ، أي : يتمنوا ذلك من عند أنفسهم وتشهّيهم ، أو بقوله : «حسدا» ، فالوقف على قوله كُفَّاراً ، أي : حسدا حاصلا من تلقاء أنفسهم ، لم يستندوا فيه إلى شبهة ولا دليل ، والعفو : ترك العقوبة بالذنب. والصفح : الإعراض عن المذنب ، كأنه يولى عنه صفحة عنقه ، فهو أبلغ من العفو.
يقول الحق جل جلاله فى التحذير من اليهود وغيرهم من الكفار : تمنى الذين كفروا من أهل الكتاب وغيرهم لو يصرفونكم عن دينكم ويَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ بنبيكم كُفَّاراً ضالين ، كما كنتم قبل

الدخول فيه ، وذلك حَسَداً مِنْ تلقاء أَنْفُسِهِمْ غيرة أن تكون النبوة فى غيرهم ، وذلك مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ وعرفوه كما يعرفون أبناءهم ، فَاعْفُوا عن عتابهم ، وأعرضوا عن تشغيبهم حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ فيهم بالقتل والجلاء. إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، واشتغلوا بما كلفكم به من أداء حقوق العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، كإتقان الصلاة وأداء الزكاة ، واعلموا أن الله لا يضيع من أعمالكم شيئا ، فما تقدموا لأنفسكم ليوم فقركم تجدوه عند الله خيرا وأعظم أجرا ، إن الله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم.

نزلت الآية فى عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان ، أتيا بيت المدراس «١» ، فألانوا لهم الكلام ، فطمعوا فى صرفهما عن دينهما ، ففضحهم الله ورد كيدهم فى نحرهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : من جملة ما دبّ إلى بعض الطوائف المتجمدين على تقليد أشياخهم : التعصب والحمية على طريق أشياخهم ، ولو ظهر الحق عند غيرهم ، وخصوصا أولاد الصالحين منهم ، فإذا رأوا أحدا ظهرت عليه أنوار الولاية ،

---

(١) المدراس - بتقديم الراء على الألف : البيت الذي يدرسون فيه. وقال فى النهاية : مفعال غريب فى المكان.

وأسرار الخصوصية ، تمنّوا أن يردوهم عن طريق الحق ، وبصرفوهم إلى مخالطة الخلق ، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فيقال لمن توجه إلى الحق : فاعفوا واصفحوا حتى يظهر الحق ، ولا تلتفتوا إلى تشغيبهم ، ولا تشتغلوا قط بعيبهم فتكونوا أقبح منهم.

قال بعض العارفين : (لا تشتغل قط بمن يؤذيك واشتغل بالله يرده عنك ، وقد غلط فى هذا الأمر خلق كثير ، اشتغلوا بمن يؤذيهم فطال الأذى مع الإثم. ولو أنهم رجعوا إلى مولاهم لكفاهم أمرهم.). بل ينبغي لمن يحسد أو يؤذى أن يغيب عن الحاسد وكيده ، ويشتغل بما هو مكلف به من حقوق العبودية وشهود عظمة الربوبية ، فإن الله لا يضيع من التجأ اليه ، ولا يخيب مقصود من اعتمد عليه. وبالله التوفيق.

ومن جملة أمانى اليهود الفارغة : ادعاء اختصاصهم بالجنة ، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١١١ الى ١١٢]

وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

(١١١) بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)

قلت : وَقالُوا عطف على وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ ، والضمير يعود على أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، أي : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، وهُوداً : جمع هائد ، كبازل وبزل وحائل وحول ، والأماني : جمع أمنية ، وهى ما يتمنى المرء ويشتهيه ، وأصله أمنوية كأضحوكة وأعجوبة ، فقلبت الواو ياء وأدغمت ، وهاتُوا : اسم فعل بمعنى الأمر ، ومعناه آت ، وأهمل ماضيه ومضارعه ، وأَسْلَمَ معناه : استسلم وخضع ، والخوف مما يتوقع ، والحزن على ما وقع.

يقول الحق جل جلاله : وقالت اليهود : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلا من كان يهوديا ، أي : على دينهم ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ، وهذه دعاوى باطلة ، وأمانى فارغة ليس عليها بينة ، بل مجرد أمانيهم الكاذبة ، قُلْ لهم يا محمد : هاتُوا بُرْهانَكُمْ أنكم مختصون بالجنة إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى هذه الأمنية ، بل يدخلها غيركم من أهل الإسلام والإحسان ، فإن مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ أي : انقاد بكليته إليه وَهُوَ مُحْسِنٌ فى أفعاله واعتقاده ، فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وهو دخول النعيم والنظر إلى وجهه الكريم ، وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من مكروه يتوقع وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ على فوات شىء يحتاجون إليه لأنهم فى ضيافة الكريم تساق إليهم المسار وتدفع عنهم المضار ، وبالله التوفيق.

(١٥٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٥٣

الإشارة : من جملة ما دخل على بعض الفقراء أنهم يخصون الخصوصية بهم وبمن تبع شيخهم ، وينفونها عن غيرهم ، وهذه نزعة يهودية ، وتحكم على القدرة الإلهية ، فيقال لهم : تلك أمانيكم الفارغة ، بل ينالها غيركم ، فمن قصد الله صادقا وجده ، وأنجز بالوفاء موعده ، فمن خضع لله وانقاد لأولياء الله ، فله أجره عند ربه ، وهو المعرفة به ، ولا خوف عليه من القطيعة ، ولا يحزن على فوات نصيبه من المعرفة. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولمّا قدم نصارى نجران على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم سمعت بهم اليهود ، فجاءوا إليهم ، وتناظروا حتى تسابوا ، وكفر اليهود بعيسى وبملّته والإنجيل ، وكفر النصارى بموسى وبالتوراة ، فأنزل الله فى شأنهم :

[سورة البقرة (٢) : آية ١١٣]

وَقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ

كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)
يقول الحق جل جلاله إخبارا عن مقالات اليهود والنصارى وتقبيحا لصنيعهم : وَقالَتِ الْيَهُودُ فى الرد على النصارى : لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ يعتد به ، وَقالَتِ النَّصارى فى سبّ اليهود : لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ يعتمد عليه ، والحالة أنهم يَتْلُونَ الْكِتابَ ، فاليهود يتلون التوراة وفيها البشارة بعيسى عليه السّلام ، والنصارى يتلون الإنجيل ، وفيه تقرير شريعة التوراة وصحة نبوة موسى عليه السّلام ، فقد كفرت كلّ فرقة بكتابها غضبا وتعصبا ، ومثل مقالتهم هذه قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ، وهم المشركون ، فقالوا : ليس المسلمون على شىء ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فيدخل أهل الحقّ الجنة وأهل الباطل النار. وباللّه التوفيق.
الإشارة : كل ما قصه الحق تعالى علينا من مساوئ غيرنا فالمقصود به التنفير والتحذير من مثل ما ارتكبوه ، والتخلق بضد ما فعلوه ، فكل من تراه ينقص الناس ويصغّرهم فهو أصغرهم ، وكل من تراه يقول : أصحاب سيدى فلان ليسوا على شىء ، وأصحاب سيدى فلان ليس عندهم شىء ، فليس هو على شىء ، وقد ابتلى بعض المتصوفة بهذا الوصف الذميم ، ينصب الميزان على الناس ، فيسقط قوما ويرفع آخرين ، وهو يتلو كتاب اللّه ، ويسمع قوله تعالى : وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ... الآية.

(١٥٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٥٤
وأكثر ما تجد هذا الوصف فى بعض الفقهاء المتجمدين على ظاهر الشريعة ، يعتقد ألا علم فوق علمه ، ولا فهم فوق فهمه ، كيف؟ واللّه تعالى يقول : وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ، وقد قال إمام الحرمين : (لأن أدخل ألف كافر فى الإسلام بشبهة خير من إخراج واحد منه بشبهة).
فالواجب على من أراد السلامة أن يحسن الظن بجميع المسلمين ، ويعتقد فيهم أنهم كلهم صالحون ، ففى الحديث : «خصلتان ليس فوقهما شىء من الخير : حسن الظن باللّه ، وحسن الظن بعباد اللّه ، وخصلتان ليس فوقهما شىء من الشرّ : سوء الظنّ باللّه ، وسوء الظنّ بعباد اللّه». وباللّه التوفيق.
ثم وبخ الحق - تعالى - النصارى على منع الناس من بيت المقدس وإيذاء من يصلى فيه ، وطرح الأقذار فيه ، مع زعمهم أنهم على الحق دون غيرهم ، قاله ابن عباس ، أو كفار قريش حيث منعوا المسلمين من الصلاة فيه ، وصدوا رسول اللّه عن الوصول إليه ، قاله ابن زيد ، والتحقيق : أن الحق تعالى وبخ الجميع ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١١٤]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعى فِي خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلاَّ خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (١١٤)

قلت : مَنْ مبتدأ ، وأَظْلَمُ خبر ، وأَنْ يُذْكَرَ إما منصوب على إسقاط الخافض وتسلط الفعل عليه ، أي : من أن يذكر ، أو بدل اشتمال من مَساجِدَ ، أو مجرور بالحرف المحذوف ، قاله سيبويه. وخائِفِينَ حال من الواو.

يقول الحق جل جلاله : لا أحد أكثر جرما ولا أعظم ظلما مِمَّنْ يمنع مَساجِدَ اللَّهِ من أَنْ يُذْكَرَ اسم الله فيها ، جماعة أو فرادى ، فى صلاة أو غيرها ، وَسَعى فِي خَرابِها حيث عطل عمارتها ، أُولئِكَ ما كانَ ينبغى لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إلا بخشية وخشوع ، فكيف يجترءون على تخريبها؟ أو ما كان الواجب أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا عن أن يمنعوهم منها ، أو ما كانَ لَهُمْ فى علم الله وقضائه أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ ، فيكون وعدا أنجزه الله لهم ، وقد فتح الله لهم مكة والشام ، فكان لا يدخل بيت الله الحرام كافر إلا خفية ، خائفا من القتل ، ولا يدخل نصرانى بيت المقدس إلا خائفا من المسلمين ، فنالهم فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وهو قتل الحربي ، وضرب الجزية على الذمي ، وخزى المشركين قتلهم يوم الفتح ، وإذلالهم بدخولها عليهم عنوة ، ولمن مات على الكفر فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ.

وهذه الآية - وإن نزلت فى الكفار - فهى عامة لكل من يمنع الناس من الذكر فى المساجد ، كيفما كان قياما أو قعودا ، جماعة أو فرادى. والله تعالى أعلم.

(١٥٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٥٥

الإشارة : مساجد الله هى حضرة القلوب وحضرة الأرواح وحضرة الأسرار ، فحضرة القلوب لأهل المراقبة من أهل الإيمان ، وحضرة الأرواح والأسرار لأهل المشاهدة والمكالمة من أهل الإحسان ، فمن منع نفسه من الدخول فى هذه الحضرات الثلاث ، وسعى فى خراب باطنه باتباع الحظوظ والشهوات ، ومال إلى الدنيا وزخارفها الغرارات ، فلا أحد أظلم منه نفسا ، ولا أبخس منه صفقة. فلا ينجع فى هؤلاء إلا خوف مزعج أو شوق مقلق. فإن لم يكن أحد من هذين بقي على غيه حتى مخايل الموت ، فيحن إلى الدخول فيها خائفا ، ولا ينفع حينئذ الندم ، وقد زلت به القدم ، له فى الدنيا ذلك الفقر والجزع ، وله فى الآخرة غم الحجاب وسوء الحساب وحسرة العتاب ، نسأل الله العافية فى الدارين. آمين ، بمنه وكرمه.

وقال القشيري : نفس العابد وطن العبادة ، وقلب العارف وطن المعرفة ، وروح الواجد وطن المحبة ، وسر الموحّد وطن المشاهدة ، ولا أظلم ممن سعى في خراب وطن العابد بالشهوات ، وفي وطن المعرفة بالمنى والعلاقات ، وفي وطن المحبة بالحظوظ والمساكنات ، وفي وطن الموحد بالالتفات إلى القربات. هـ. وبالله التوفيق.

ولما ذكر الحق تعالى تعطيل بعض المساجد والمنع من الصلاة فيها ، وسع على عباده في الصلاة حيث شاءوا ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١١٥]

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)

قلت : (أينما) شرطية ، و(تولوا) شرطها ، وجملة (فثم) جوابها ، و«ولى» يستعمل بمعنى أدبر وبمعنى أقبل ، تقول : وليت عن كذا أو كذا ، والوجه هنا بمعنى الجهة ، تقول : سافرت في وجه كذا ، أي في جهة كذا. قاله ابن عطية.

يقول الحق جل جلاله : وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، والجهات كلها له ، لا يختص ملكه بمكان دون آخر ، فإذا منعتم من الصلاة في المساجد ففي أي مكان كنتم ووليتم وجهكم إلى القبلة التي أمرتم بالتوجه إليها فثم جهته التي أمر بها ، أو فثم ذاته المقدسة ، أي : عالم مطلع على ما يفعل فيه ، إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ بإحاطته بالأشياء ، أو برحمته يريد التوسعة على عباده ، عَلِيمٌ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها.

وعن ابن عمر : أنها نزلت في صلاة المسافر على الراحلة حيثما توجهت به ، وقيل : في قوم عميت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة ، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم ، وعلى هذا : لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ ، لم يلزمه التدارك. قاله البيضاوي.

الإشارة : اعلم ان الأماكن والجهات ، وكل ما ظهر من الكائنات ، قائمة بأنوار الصفات ، ممحوة بأحدية الذات ، «كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان» إذ لا وجود لشئ مع الله ، فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ

وَجْهُ اللَّهِ

، محق الآثار بأفلاك الأنوار ، وانمحت الأنوار بأحدية الأسرار ، وانفرد بالوجود الواحد القهار ، ولله در القائل :

مذ عرفت الإله لم أر غيرا وكذا الغير عندنا ممنوع

مذ تجمعت ما خشيت افتراقا فأنا اليوم واصل مجموع

وقال آخر : «١»

فالكلّ دون الله إن حققته عدم على التفصيل والإجمال

من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عين محال

وقال صاحب العينية :

تجلّى حبيبى فى مرائى جماله ففى كلّ مرئى للحبيب طلائع

فلما تبدّى حسنه متنوعا تسمّى بأسماء فهنّ مطالع

وقال الشَشترى :

محبوبى قد عمّ الوجود وقد ظهر فى بيض وسود

قال بعض السلف : (دخلت ديرا فجاء وقت الصلاة ، فقلت لبعض النصارى : دلنى على بقعة طاهرة أصلى فيها ، فقال لى : طهر قلبك عما سواه ، وقف حيث شئت ، قال : فخجلت منه). ويحكى عن أبى يزيد رضي اللّه عنه أنه كان يصلى إلى أي جهة شاء ، ويتلو هذه الآية ، «٢» فالوجه عند أهل التحقيق هو عين الذات ، يعنى أسرار الذات وأنوار الصفات. قال تعالى : كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ أي : كل شيء فان ومستهلك فى الحال والاستقبال إلا ذاته المقدسة ، وأنشدوا :

فالعارفون فنوا بأن لم يشهدوا شيئا سوى المتكبر المتعالي

ورأوا سواه على الحقيقة هالكا فى الحال والماضي والاستقبال

---

(١) وهو الشيخ أبو مدين.

(٢) التوجه نحو البيت الحرام شرط من شروط صحة الصلاة لقوله تعالى : «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام».

وأما آية : «فأينما تولوا فثم وجه الله» ، فسبق أنها نزلت فى مناسبة مخصوصة ، وقيل : إنها منسوخة. وقيل : المعنى : أينما كنتم فى شرق وغرب فثم وجه الله الذي أمرنا باستقباله وهو الكعبة الشريفة. وما حكى عن أبى يزيد – إن صح – فهو من قبيل الشطحات فلا نأخذ بها.

وقلت فى تائيتى الخمرية فى وصف الخمرة الأزلية :

تنزّهت عن حكم الحلول فى وصفها فليس لها فى سوى شكله حلّت

تجلّت عروسا فى مرائى جمالها وأرخت ستور الكبرياء بعزّة

فما ظهر فى الكون غير بهائها وما احتجبت إلا لحجب سريرة

ولما قالت اليهود : عزيز ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقالت المشركون : الملائكة بنات الله ، ردّ الله تعالى عليهم بقوله :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١١٦ الى ١١٧]

وَقالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)

قلت : هذه الجملة معطوفة على قوله : وَقالَتِ الْيَهُودُ ... إلخ ، ومن قرأ بغير واو جعلها مستأنفة ، و(بديع) :

بمعنى مبدع ، والإبداع : اختراع الشيء من غير تقدم شيء. وقوله : (كن فيكون) ، قدّره سيبويه : فهو يكون ، وقرأ ابن عامر بنصب المضارع ، ولحنه بعضهم لأن المنصوب فى جواب الأمر لا بد أن يصلح جوابا لشرطه ، تقول :

اضرب زيدا فيستقيم ، أي : إن تضربه يستقيم ، ولا يصلح أن تقول هنا : إن يكن يكن ، وقد يجاب بحمله على المعنى ، والتقدير : إن قلت كن يكن.

يقول الحق جل جلاله : وقالت اليهود والنصارى والمشركون : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً تعالى الله عن قولهم ، وتنزه عن ذلك لأنه يقتضى الجنسية والمشابهة والاحتياج ، والحق منزّه عن ذلك. بل كل ما استقر فى السموات السبع والأرضين السبع ملكه وعبيده ، فكيف يكون العبد ولدا لمالكه؟. وأيضا كل ما ظهر فى الوجود كله قانت ، أي : خاضع ومطيع لله ، وعابد له ، ومقهور تحت حكمه ومشيئته ، وذلك مناف لحال البنوة.

وأيضا : كل ما دخل عالم التكوين فهو مبدع ومخترع لله ، ومصنوع من مصنوعات الله ، فلا يصح أن يكون ولدا ، وأيضا : الولد يحتاج إلى صاحبة ومعالجة ومهلة ، والحق تعالى أمره بين الكاف والنون ، بل أسرع من لحظ العيون ، فإذا قَضى أَمْراً أي : أراده ، فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، ولا يتوقف على لفظة كُنْ ، وإنما هو كناية عن سرعة الاقتدار.

قال البيضاوي : واعلم أن السبب فى هذه الضلالة أن أرباب الشرائع المتقدمة كانوا يطلقون الأب على الله تعالى ، باعتبار أنه السبب الأول ، حتى قالوا : إن الأب هو الرب الأصغر ، والله تعالى هو الرب

الأكبر ، ثم ظن الجهلة منهم أن المراد به معنى الولادة ، فاعتقدوا ذلك تقليدا ، ولذلك كفر قائله ومنع منه مطلقا حسما لمادة الفساد. هـ.

الإشارة : اعلم أنك إذا نظرت بعين البصيرة ، أو بحق البصيرة ، إلي الوجود بأسره ، وجدته ذاتا واحدة ، ونسبته من الحق نسبة واحدة ، أنوار ظاهرة ، وأسرار باطنة ، حكمته ظاهرة ، وقدرته باطنة حسن ظاهر ، ومعنى باطن ، عبودية ظاهرة ، وأسرار معانى الربوبية باطنة إذ لا قيام للعبودية إلا بأسرار معانى الربوبية ، قال تعالى :

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا ، وقال تعالى : اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وقال فى الحكم : «الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة ، فالنفس تنظر إلى ظاهر بهجتها ، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها». فأهل الفرق يثبتون الأشياء مستقلة مع الله ، وربما تغالى بعضهم فأشركها معه فى الألوهية ، فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

قال محيى الدين الحاتمي : من رأى الخلق لا فعل لهم فقد فاز ، ومن رآهم لا حياة لهم فقد جاز ، ومن رآهم بعين العدم فقد وصل. هـ. قلت : ومن أثبتهم بالله فقد تمكن وصاله ، وأنشدوا :

من أبصر الخلق كالسراب فقد ترقّى عن الحجاب

إلى وجود تراه رتقا بلا ابتعاد ولا اقتراب

ولم تشاهد به سواه هناك تهدى إلى الصواب

فلا خطاب به إليه ولا مشير إلى الخطاب. هـ.

ولما قال رافع بن حريملة - من أحبار يهود - للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم : أسمعنا كلام الله إن كنت رسوله ، أو أرنا آية تصدقك ، ردّ الله تعالى عليه ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١١٨ الى ١١٩]

وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ (١١٩)

قلت : هذه المقالة صدرت من بعض اليهود والمشركين ، قالوا ذلك تعنتا وعنادا ، لا طلبا لليقين ، فلذلك نفى الله عنهم العلم رأسا ، والمقصود فى هذه الآيات كلها توبيخ اليهود.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ لا علم عندهم : هلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ حتى نسمع منه أنك رسوله ، أَوْ

تَأْتِينا آيَةٌ ظاهرة ، نراها جهرة تدل على رسالتك ، كما كانت لموسى – عليه السّلام – .
وهذه المقالة التي صدرت من اليهود ، تعنتا وعنادا ، قد صدرت ممن قبلهم من أسلافهم ، فقالوا : أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ، ومن النصارى فقالوا : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ ، ومن المشركين فقالوا :
لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً الآية. فقد تماثلت قلوبهم فى الكفر والعناد ، وتشابهت فى العتو والفساد ، قد أوضحنا لك الآيات البينات ، تحقق رسالتك وتقرر اصطفائيتك ، لمن طلب مزيد الإيقان ، وكشف البيان على نعت العيان ، فأعظمها القرآن ، ثم ما أوضحته من شرائع الأحكام ، وما بينته من الحلال والحرام ، ثم ما أخبرت به من الغيوب ، وما كشفته عن القلوب من الكروب ، ثم نطق الجمادات والأحجار ، كحنين الجذع وانقياد الأشجار ، وتسبيح الحصى ، وتسليم الحجر ، وقد نبع الماء من بين أصابعه وانهمر ، إلى ما لا يعد ولا يحصى.
فقد أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ ، أي : متلبسا بالحق ومبينا له ، بَشِيراً لمن صدقك واتبعك بالنعيم المقيم ، ونَذِيراً لمن خالفك بعذاب الجحيم. فلا تسأل عن حالهم إذا أفضوا إليه ، فإنه أعظم من أن يذكر ، وأفظع من أن يسمع ، إذ لا يمكن تفسير حالهم ، ولا يستطيع أحد سماع أهوالهم ، فالله يعصمنا من موارد الردى ، ويوفقنا لاتباع الحق والهدى ، أو لا يسألك ربك عنهم فهو أعلم بحالهم ، وبالله التوفيق.
الإشارة : طلب الكرامات وظهور الآيات من طبع أهل الجهل والعناد ، وليس هو من شيم أهل الهداية والاسترشاد. فالطريق واضح لمن طلب السبيل ، والحق لائح لمن أبصر الدليل ، فمن كحل عين بصيرته بإثمد التوحيد الخاص ، لم يقع بصره إلا على الحق ، ولا يعرف إلا إياه ، ورأى الأشياء كلها قائمة بالله ، بل لا وجود لها مع الله ، ومن فتح الله سمع قلبه لم يسمع إلا من الحق ، ولا يسمع إلا به ، كما قال القائل : أنا بالله أنطق ومن الله أسمع.
وقال الجنيد رضي اللّه عنه : (لى أربعون سنة أناجى الحق ، والناس يرون أنى أناجى الخلق). فالخلق محذوفون عند أهل العلم بالتحقيق ، مثبتون عند أهل الجهل والتفريق. يقولون : لو لا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، مع أنه يكلمهم فى كل

وقت وساعة ، كذلك قال من شاركهم فى الجهل بالله ، مع وضوح الآيات لمن عرف الله. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

ولمّا قالت اليهود والنصارى لرسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم : اجعل بيننا وبينك هدنة نتبعك بعدها ، وأضمروا فى نفوسهم أنهم لا يتبعونه حتى يتبع ملتهم ، فضحهم الله تعالى ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٢٠]

وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٢٠)

قلت : الملة هى الشريعة ، وهى ما شرع الله على لسان أنبيائه ورسله ، من أمللت الكتاب وأمليته ، إذا قرأته.

والهوى : رأى يتبع الشهوة.

يقول الحق جل جلاله لرسوله صلّى اللّه عليه وسلّم : وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وتتبع دينك أبدا ، وَلَا النَّصارى كذلك حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ على فرض المحال ، والمقصود قطع رجائه من إسلامهم باختيارهم لأن اتباعه ملتهم محال ، وكذلك إسلامهم. ولعله فى قوم مخصوصين. ثم زاد فى التنفير من اتباعهم فقال : وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ الباطلة فرضا وتقديرا بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ بالله وبأحكامه على المنهاج القويم ، ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ يمنعك منا ، وَلا نَصِيرٍ ينصرك من غيرنا ، أي : لا ولى ولا نصير لك إلا نحن حيث واليتنا ، وأحببتنا ، وأظهرت ملتنا ، فنحن لك على ما تحب وترضى.

الإشارة : التماس رضى الناس من علامة الإفلاس ، ولن يرضى عنك الناس حتى تتبع أهواءهم ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما تحققت ما هم فيه ، إنك إذا لمن الظالمين ، فمن التمس رضى الناس وقع فى سخط الله ، ومن التمس رضى الله قطع يأسه من الناس. ولذلك قال بعضهم :كل ما سقط من عين الخلق عظم فى عين الحق ، وكل ما عظم فى عين الخلق سقط من عين الحق ، وقال آخر : إن الذي تكرهون منى هو الذي يشتهيه قلبى. هـ.

وقال بعض الصالحين : (لقيت بعض الأبدال ، فقلت له : دلّنى على الطريق؟ فقال : لا تخالط الناس فإن مخالطتهم ظلمة ، فقلت : لا بد من مخالطتهم وأنا بين أظهرهم؟ فقال لا تعاملهم ، فإن معاملتهم خسران. قلت : لا بد من معاملتهم؟ فقال : لا تركن إليهم ، فإن فى الركون إليهم هلكة ، فقلت : هذا لعله يكون؟ فقال : يا هذا ، أتخالط البطالين ، وتعامل الجاهلين ، وتركن إلى الهلكى ، وتحب أن يكون قلبك مع الله؟ هيهات .. هذا لا يكون أبدا ، ثم غاب عنى ولم أره).

ولما عاتب الله بنى إسرائيل ووبخهم استثنى من آمن منهم ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٢١]
الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٢١)
قلت : جملة (يتلونه) حال ، و(أولئك) خبر الموصول.
يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ، حالتهم يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ غير محرّفين له ، ولا كاتمين ما فيه ، أُولئِكَ هم الذين يُؤْمِنُونَ بِهِ حقيقة ، وأما غيرهم ممن حرف وكتم صفة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم فقد كفر به ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ أي : الكاملون فى الخسران ، حيث بخسوا أنفسهم من عزّ الدارين.
الإشارة : ما قيل فى التوراة وأصحابه يقال مثله فى القرآن وأهله فمن آتاه الله القرآن ، وتلاه حق تلاوته ، بحيث جوّد حروفه وتدبّر معانيه ، وعمل بما فيه ، فأولئك هم المؤمنون به حقا ، والفائزون بثمار معانيه حلاوة وذوقا ، ومن ترك التدبر فى معانيه فقد حرم نفسه ثمار حلاوته ، وذلك عين الخسران عند أهل الإيقان. وبالله التوفيق.
ثم رجع الحق تعالى إلى تذكيرهم بالنعم ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٢٢ الى ١٢٣]
يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)
قلت : جملة (لا تجزى) : نعت ليوم ، وحذف العائد ، أي : لا تجزى فيه نفس ، قال المرادي : (إذا نعت بالجملة اسم زمان جاز حذف عائده) ثم استدل بالآية. وهل حذف برمته أو بالتدريج؟ قولان.
يقول الحق جل جلاله : يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ بأن جعلت الأنبياء تسوسكم ، والملوك منكم يدبرون أموركم ، وفَضَّلْتُكُمْ على عالم زمانكم ، فاشكروا هذه النعم بالإيمان بالرسول الذي أرسلته إليكم ، وخافوا أهوال يوم القيامة ، الذي لا تغنى فيه نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها فداء إن أرادت الفداء ، وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ شافع ، ولا يدفع عنها أهوال ذلك اليوم ولى ولا ناصر ، إلا من اتخذ يدا عند الملك القادر ، وبالله التوفيق. وتقدمت إشارة هذه الآية فى الآية الأولى.

ولما أراد الحق تعالى أن ينسخ القبلة ويردها إلى بيت الله الحرام بعد أن كانت إلى بيت المقدس ، ذكر خصوصية من بناه ، وكيفية بنائه ، وفى ضمن ذلك ذكر شرفه ليكون ذلك داعيا إلى الامتثال ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ١٢٤]

وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)

قلت : (ابتلى) اختبر ، و(ابراهيم) مفعول ، وفيه أربع لغات : إبراهام وإبراهوم وإبراهيم وبالقصر ، و(ربه) فاعل ، وقدم المفعول للاهتمام ، ولئلا يعود الضمير على ما بعده لفظا ورتبة ، و(عهدى) فاعل ، و(الظالمين) مفعول.

يقول الحق جل جلاله : واذكر يا محمد ، أو اذكروا يا بنى إسرائيل ، حين اختبر إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ أن يعمل بها ، وهى : تسليم بدنه للنيران ، وولده للقربان ، وطعامه للضيّفان ، أو عشر خصال : خمس فى الرأس :

المضمضة ، والاستنشاق ، وقص الشارب ، والسواك ، وفرق الرأس. وقيل : وإعفاء اللحية ، وخمس فى الجسد : تقليم الظفر ، وحلق العانة ، ونتف الإبط ، والاستنجاء بالماء ، والاختتان. أو مناسك الحج أو الخصال التي امتحن بها وهى :

الكوكب ، والقمر ، والشمس ، والنار. والهجرة ، والذبح ، والأحسن أنها ثلاث : الهجرة من وطنه ، ورمى ولده بمكة ، وذبح الآخر حين بلغ أن يسعى معه «١». فَأَتَمَّهُنَّ أي : وفىّ بهن ، فلما وفى بهن (قال) اللّه تعالى له : إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً ، أي : قدوة بك فى التوحيد ، أو فى الأصول والفروع ، إذ لم يبعث بعده نبى إلا كان من ذريته ، ومأمور باتباعه.

ولمّا جعله اللّه إماما طلب ذلك لأولاده فقال : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي فاجعل أئمة ، قالَ الحق تعالى : لا يَنالُ عَهْدِي أي : لا يلحق عهدى بالإمامة الظَّالِمِينَ منهم ، إذ لا يصلح للإمامة إلا البررة الأتقياء ، لأنها أمانة من اللّه وعهد ، والظالم لا يصلح لها ، وفيه تنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلمة لا يستحقون الإمامة ، وفيه دليل على عصمة الأنبياء قبل البعثة ، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة. قاله البيضاوي.

الإشارة : إذا أراد اللّه تعالى أن يجعل وليا من أوليائه إماما يقتدى به ، وداعيا يدعو إليه ، ابتلاه ، فإن صبر ورضى اصطفاه ، ولحضرته اجتباه ، فيكون إماما يقتدى به ، وداعيا يهتدى به ، وهذه سنة اللّه تعالى فى أصفيائه

---

(١) قوله : (و رمى ولده بمكة وذبح الآخر) ، يفيد أن الذبيح غير الذي ترك بمكة. وإذا كان الذي ترك بمكة هو إسماعيل - كما هو معروف - فإن الذبيح يكون إسحاق. وهذا ما ذهب إليه قلة من العلماء. والراجح أن الذبيح هو إسماعيل عليه السّلام ، وهذا هو المروي عن جمهرة الصحابة والتابعين - وعليه غالب المحدثين والمفسرين ، واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة. انظر : تفسير : الرازي وابن كثير ، والقول الفصيح فى تعيين الذبيح ، للسيوطى ، والإسرائيليات والموضوعات ، للدكتور أبى شهبة.

يبتليهم اللّه تعالى بتسليط الخلق عليهم وأنواع من البلايا ، فإذا نقوا من البقايا ، وتكلمت فيهم المزايا ، أظهرهم للخلق داعين إلى اللّه ومرشدين إلى طريق اللّه ، وقد تبقى الإمامة فى ذريتهم إن ساروا على هديهم ، ومن لم يسلك به هذا المسلك فلا يصلح للإمامة ، وإن توجه إليها كان ناقصا فى الدعوة ، ولذلك قال بعضهم : (من ادعى شهود الجمال قبل تأدبه بالجلال ، فارفضه فإنه دجال). هـ. وكل من اتصف بشئ من ظلم العباد لا ينال عهد الإمامة فى طريق الإرشاد ، وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكر شرف البيت الذي هو المقصود ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٢٥]

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)

قلت : (المثابة) : المرجع الذي يثوب الناس إليه كل سنة ، و(اتخذوا) : على قراءة الأمر ، محكى بقول محذوف ، أي : وقلنا اتخذوا ، وعلى قراءة الماضي : معطوف على (جعلنا) ، أي : جعلناه مثابة ، واتخذه الناس مصلّى.

يقول الحق جل جلاله : (و) اذكر يا محمد إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ الحرام ، أي : الكعبة ، مرجعا للناس يرجعون لزيارته والطواف به كل سنة ، وجعلناه محل أمن ، كل من دخله كان آمنا من عقوبة الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فإنّ الناس يتخطفون من حوله ، وأهله آمنون ، وأما فى الآخرة فلأن الحج يجبّ ما قبله ، وهذا يدل على شرف البيت وحرمته.

وقلنا لهم : اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ ، وهو الحجر الذي فيه أثر قدميه ، مُصَلًّى تصلون إليه ، وهو الذي يصلون خلفه ركعتى الطواف ، وَعَهِدْنا أي : أوحينا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ ولده ، بأن قلنا لهما : طَهِّرا بَيْتِيَ من الأدناس والأرجاس والأصنام والأوثان ، لِلطَّائِفِينَ به وَالْعاكِفِينَ أي : المقيمين فيه ، والمصلين فيه الراكعين الساجدين. فكان البيت مطهرا فى زمانهما وبعدهما زمانا ، ثم أدخلت فيه [الأصنام] «١» فطهره نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وتبقى طهارته حتى يأتى أمر اللّه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : القلب هو بيت الرب ، يقول اللّه تبارك وتعالى لبعض أنبيائه : «طهر لى بيتا أسكنه ، فقال : يا رب أي بيت يسعك؟ فقال له : لن تسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعني قلب عبدى المؤمن». فإذا تطهر القلب من الأغيار

---

(١) ما بين المعكوفتين زيادة ليست فى الأصول.

وملئ بالأنوار ، وتمكنت فيه المعارف والأسرار ، كان مرجعا وملجأ للعباد ، كل من وصل إليه ، وطاف به ، كان آمنا من الزيغ والعناد ، ومن خواطر السوء وسوء الاعتقاد ، ومن دخله بالمحبة والوداد ، أمن من الطرد والبعاد ، وكان عند اللّه من أفضل العباد. ومقام إبراهيم - عليه السّلام - هو الاستغراق فى عين بحر الشهود ، ورفع الهمة عن ما سوى الملك المعبود.

وهذا المقام هو الذي اتخذه العارفون كعبة لصلاة قلوبهم ، وغاية لمنتهى قصودهم.

عباراتهم شتّى ، وحسنك واحد ، وكلّ إلى ذاك الجمال يشير

وقد عهد اللّه تعالى إلى أنبيائه وأصفيائه أن يطهروا قلوبهم من الأغيار ، ويرفضوا كل ما سواه من الأكدار ، لتتهيأ بذلك لطواف الواردات والأنوار ، ولعكوف المعارف والأسرار ، وتخضع لهيبتها ظواهر الأشباح ، وتنقاد لجمال بهجتها القلوب والأرواح ، وما ذلك على اللّه بعزيز.

ثم ذكر الحق تعالى دعاء إبراهيم الخليل لمكان البيت ، زيادة فى تشريفه ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٢٦]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)

قلت : الإشارة تعود إلى المكان ، أو البلد ، أي : اجعل هذا المكان بلدا ذا أمن ، قال بعضهم : نكّر البلد هنا ، وعرّفه فى سورة إبراهيم ، لأن هذا الدعاء وقع قبل أن يكون بلدا ، وفى سورة إبراهيم وقع بعد أن كان بلدا فلذلك عرّفه ، وفيه نظر من جهة التاريخ ، وسيأتى تمامه هناك إن شاء اللّه.

وقوله : (من آمن) : بدل من (أهله) ، بدل البعض للتخصيص ، و(من كفر) : معطوف على (من آمن) ، على حذف المضارع ، أي : وارزق من كفر.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ فى دعائه لمكة لما أنزل ابنه بها بواد غير ذى زرع ، وتركه فى يد اللّه تعالى : رَبِّ اجْعَلْ هذا المكان بَلَداً آمِناً يأمن فيه كل من يأوى إليه ، وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ أنواع الثَّمَراتِ ، كالحبوب وسائر الفواكه ، مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قالَ الحق جل جلاله : بل وأرزق أيضا مَنْ كَفَرَ فى الدنيا ، فَأُمَتِّعُهُ زمنا قَلِيلًا ، أو تمتيعا قليلا. ثُمَّ ألجئه إِلى عَذابِ النَّارِ وبئس المرجع مصيره.

قاس إبراهيم الخليل الرزق على الإمامة ، فنّبه سبحانه وتعالى أن الرزق رحمة دنيوية ، تعم المؤمن والكافر ، بخلاف الإمامة ، والتقدم فى الدين ، فإنها سبب النعيم الأخروى ، ولا ينالها إلا أهل الإيمان والصلاح.

الإشارة : دعاء الأنبياء عليهم السلام ، كما يصدق بالحس يصدق بالمعنى ، فيشمل دعاء الخليل القلوب التي هى بلد الإيمان ، والأرواح التي هى معدن الأسرار والإحسان ، فتكون آمنة من طوارق الشيطان ، ومحفوظة من الوقوف مع رؤية الأكوان ، آمنة من الأكدار ، محفوظة من رؤية الأغيار ، فيرزقها اللّه من ثمرة العلوم ، ويفتح لها من مخازن الفهوم ، من آمن منهم بالشريعة الظاهرة ، وجاهد نفسه فى عمل الطريقة الباطنة ، حتى أشرقت عليه أنوار الحقيقة العيانية ، وأما من كفر بطريق الخصوص ، ووقف مع ظواهر النصوص ، فإنما يمتّع بعلم الرسوم الذي حدّ حلاوته اللسان ، ثم يلجأ إلى عذاب الحجاب ، وسوء الحساب ، ولم يفض إلى حلاوة الشهود والعيان ، التي يمتع بها الجنان حتى يفضى إلى نعيم الجنان ، فيتم النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم ، منحنا اللّه من ذلك حظا وافرا بمنّه وكرمه.

ثم ذكر الحق تعالى كيفية بناء البيت ، وما كان شعارهما فى حالة بنائه ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٢٧]

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)

قلت : (القواعد) جمع قاعدة ، وهى الأساس ، وكأنه مأخوذ من القعود بمعنى الثبات ، وأما القواعد من النساء ، فجمع قاعد ، بلا تاء ، لأنه وصف خاص بالنساء ، فلا يحتاج إلى تمييز التاء ، و(ربنا) منصوب على النداء محكى بحال محذوفة ، أي : حال كونهم قائلين ربنا ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : واذكر وقت رفع إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ ، وبنائهما له ، بعد أن درس بالطوفان ، وكان بناء آدم عليه السّلام لما أهبط إلى الأرض بإعلام الملائكة. كان إبراهيم عليه السّلام يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، فنسب البناء لهما لتعاونهما ، وقيل : كانا يبنيان كلّ فى ناحية ، حال كونهما قائلين :

رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا عملنا هذا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ لدعائنا ، الْعَلِيمُ بنياتنا وسرائرنا.

الإشارة : ينبغى للعبد أن يرفع قواعد إسلامه ، ويشيد دعائمه بتحقيق أركانه ، كإتقان الشهادتين بتحقيق معانيها ، وإتقان الصلاة بإتقان أركانها الظاهرة والباطنة ، وإتقان الزكاة بإخلاص أدائها ، وإتقان الصيام بتحصيل آدابه ، وإتقان الحج بتحصيل مناسكه بعد وجوبه ، ويرفع أيضا قواعد إيمانه بتحقيق أركانه ، وهى : الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، اعتقادا وذوقا ، ويرفع أيضا قواعد إحسانه ،

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٦٦
بتحصيل مراتبه ، كتحقيق المشاهدة ، وهو أن يعبد اللّه كأنه يراه ، فإن لم يستطع فليعبده كأن اللّه يراه ، وإن شئت قلت : رفع قواعد الإسلام يكون بتحقيق التوبة والتقوى والاستقامة ، ورفع قواعد الإيمان يكون بتحقيق الإخلاص والصدق والطمأنينة ، ورفع قواعد الإحسان يكون بالمراقبة والمشاهدة والمعرفة ، كما قال الساحلى - رحمه اللّه - .

ثم ذكر الحق تعالى دعاءهم بعد البناء ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٢٨ الى ١٢٩]

رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

قلت : قال ابن عباس رضي اللّه عنه : لما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت ، دعوا بهذا الدعاء ، فقالا : (ربنا واجعلنا مسلمين لك) أي : منقادين لأوامرك الظاهرة ولأحكامك القهرية.

واجعل مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً أي : جماعة مُسْلِمَةً لَكَ. علما - بوحي أو إلهام - أنه يكون من ذريتهما من يكفر باللّه ، وَأَرِنا أي : عرفنا وعلمنا مَناسِكَنا فى الحج. والنّسك فى الأصل : غاية العبادة ، وشاع فى الحج لما فيه من المشاق والكلفة ، والبعد عن العادة. وَتُبْ عَلَيْنا مما لا يليق بحالنا ، فحسنات الأبرار سيئات المقربين ، فلكل مقام ما ينقصه وإن كان كاملا. ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يستغفر فى المجلس سبعين مرة. إذ ما من مقام إلا وقبله ما فيه نقص ، فإذا ترقى عنه استغفر منه ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ أي : كثير القبول والإقبال على التائبين.

رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ أي : فى الذرية رَسُولًا مِنْهُمْ وهو مولانا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم قال - عليه الصلاة والسلام - :

«أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى» ، حال كونه يَتْلُوا عَلَيْهِمْ أي : يبلغهم آياتِكَ الدالة على توحيدك وصدق رسالتك ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ أي : القرآن وَالْحِكْمَةَ أي : الشريعة أو السنة. وقال مالك : هى الفقه فى الدين والفهم فيه ، أو نور يضعه فى قلب من شاء من عباده ، وَيُزَكِّيهِمْ أي : يطهرهم من لوث المعاصي وكدر الحس ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الغالب فى حكمه وسلطانه ، الْحَكِيمُ فى صنعه وإتقانه ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : تضمن دعاؤهما عليهما السلام ثلاثة أمور يطلب التماسها والتحقق بها من كل أحد أولها : الانقياد للّه فى الظاهر والباطن ، بامتثال أمره والاستسلام لقهره ، حتى يسرى ذلك فى الأصل إلى فرعه

، وهي غاية المنة ، قال فى الحكم : «متى جعلك فى الظاهر ممتثلا لأمره ، وفى الباطن مستسلما لقهره ، فقد أعظم منته

(١٦٦/١)

عليك». والثاني : معرفته الطريق ، والسلوك على جادتها ، كارتكاب مشاق الطاعات ، ومعانقة مخالفة الهوى والشهوات ، ورؤية التقصير فى ذلك ، وطلب التوبة مما هنالك ، وهذه هى مناسك حج القلوب ، والطريق الموصل إلى عرفة حضرة الغيوب ، والثالث : الظفر بالداعي إلى اللّه والدال عليه ، وهو المعلم الأكبر ، صحبته تطهر من العيوب ، ورؤيته تغنى القلوب ، وتدخلها إلى حضرة الغيوب ، ظاهره قائم بوظائف الحكمة ، وباطنه مشاهد لتصاريف القدرة ، وهذا هو القائم بالتربية النبوية. وباللّه التوفيق.
ولما قرر شرف إبراهيم عليه السّلام وجعله إماما يقتدى به ، حذر من ترك دينه والرغبة عن ملته ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٣٠ الى ١٣٢]
وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)
قلت : (من) : استفهامية إنكارية ، فيها معنى النفي ، مبتدأ ، و(يرغب) وما بعده خبر ، و(إلا) إبطال لنفيها الذي تضمنته ، و(من سفه) بدل من ضمير (يرغب) على المختار ، و(نفسه) مفعول «سفه» لتضمنه معنى جهل أو أهلك ، قاله الزجاج ، أو على التمييز قاله الفراء لأن الضمير فيه معنى الشيوع الذي فى (من) فلم يكسب التعريف ، أو على إسقاط الجارّ وإيصال الفعل إليه ، كقولهم : ضرب فلان الظهر والبطن. و(إذ) معمول لاصطفيناه ، وأوصى ووصى : لغتان ، إلا أن وصى فيه معنى التكثير.
وضمير (بها) يعود على كلمة (أسلمت) ، أو الملة ، و(يعقوب) معطوف على «إبراهيم» ، و(بنى) محكى بحال محذوفة ، أي : قائلين يا بنى ، أو مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : قال يا بنى ... إلخ ، فيوقف على (بنيه).
يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ هذا الذي يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ الواضحة إِلَّا من جهل قدر نَفْسَهُ وبخسها حقها؟ أو إلا من خف رأيه وسفهت نفسه؟ وكيف يرغب عاقل عنها وقد اخترناه إماما فِي الدُّنْيا يقتدى به أهل الظاهر والباطن؟ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ لحضرتنا ، والساكنين فى جوارنا.
وإنما اخترناه لذلك لأنه حين قالَ لَهُ رَبُّهُ : استسلم لحكمنا ، وانقد لأمرنا ، قال سريعا : أَسْلَمْتُ وجهى

لِرَبِّ الْعالَمِينَ ، وانقدت بكلّيتى إليه. وَوَصَّى بهذه الكلمة أو الملة إِبْراهِيمُ ، عند موته ، بَنِيهِ ، وكانوا أربعة : إسماعيل وإسحاق ومدين ومدان. وكذلك حفيده يَعْقُوبُ أوصى بهذه الكلمة بنيه. وكانوا اثنى عشر ، على ما يأتى فى الأسباط ، قائلين فى تلك الوصية : يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اختار لكم الدِّينَ الحنيف الواضح المنيف ، فتمسكوا به ما عشتم ، ولا تموتن إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ متمسكون به.

(١٦٧/١)

الإشارة : ملة أبينا إبراهيم عليه السّلام هى رفع الهمة عن الخلق ، وإفراد الوجهة للملك الحق ، ورفض الوسائط والأسباب ، والتعلق برب الأرباب ، وفى ذلك يقول الشاعر ، وهو الششترى :

فرفض السّوى فرض علينا لأنّنا بملة محو الشّرك والشّك قد دنّا

ومن ملته أيضا : ترك التدبير والاختيار ، والاستسلام لأحكام الواحد القهار ، فمن تمسك بهذه الخصال على التمام ، ووصى بها من لقيه من الأنام ، جعله اللّه فى الدنيا إماما يقتدى بأقواله ويهتدى بأنواره ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين المقربين مع النبيين والمرسلين ، وأما من رغب عن هذه الملة الحنيفية فقد خسر الدنيا والآخرة. نسأل اللّه الحفظ بمنّه وكرمه.

ولما ادّعت اليهود أن اليهودية هى ملة إبراهيم عليه السّلام كذّبهم اللّه تعالى ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٣٣ الى ١٣٤]

أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)

قلت : (أم) منقطعة ، والاستفهام فيها للإنكار ، أي : ما كنتم حاضرين حين حضر يعقوب الموت ، وقال لبنيه ما قال ، فكيف تدعون اليهودية عليه ، و(إلها واحدا) بدل من (إله آبائك) ، وفائدته التصريح بالتوحيد ، ونفى التوهم الناشئ عن تكرير المضاف ، لتعذر العطف على المجرور ، والتأكيد ، أو نصب على الاختصاص أو الحال ، وعد إسماعيل من الآباء تغليبا ، أو لأنه كالأب لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «عمّ الرجل صنو أبيه» وقال فى العباس : «هذا بقية آبائي». قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله فى توبيخ اليهود على زعمهم أن اليهودية كانت ملة إبراهيم ، وأن يعقوب عليه السّلام أوصى بها عند موته ، فقال : هل كنتم حاضرين عند يعقوب حين حضرته الوفاة حتى أوصى بما زعمتم؟ وإنما كانت وصيته أن قال لبنيه : ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي أي : أىّ شىء تعبدونه؟ أراد به تقريرهم على التوحيد وأخذ ميثاقهم على الثبات عليه ، (قالوا) فى جوابه : نَعْبُدُ إِلهَكَ المتفق على وجوب

وجوده وثبوت ألوهيته الذي هو إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ من قبلك إِبْراهِيمَ وولده إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ الذي هو إله واحد. ونحن منقادون لأحكامه ، مستسلمون لأمره إلى مماتنا ، فلم يوص يعقوب إلا بما سمعتم ، فانتسابكم يا معشر اليهود إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم ، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم.

(١٦٨/١)

فتلك أُمَّةٌ أي : جماعة قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ من الخير ، وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ أنتم ، وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ فلا تؤاخذون بسيئاتهم ، كما لا تثابون بحسناتهم. وهذا كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم لقريش : «لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم».

الإشارة : يقال لمن حصر الخصوصية فى أسلافه ، ونفاها عن غيرهم : هل حضرتم معهم حين أوصوا بذلك؟ بل ما كانوا يوصون إلا بإخلاص العبودية ، وتوحيد الألوهية ، ومشاهدة عظمة الربوبية ، فمن حصّل هذه الخصال كانت الخصوصية معه أينما كان ، ومن حاد عنها ومال إلى متابعة الهوى انتقلت إلى غيره ، ويقال له : إن أسلافه قد جدّوا ووجدوا ، وأنت لا تنتفع بأعمالهم فى طريق الخصوصية ، (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ...) الآية. وباللّه التوفيق.

ولما أمر اليهود والنصارى المسلمين باتباع دينهم ، لأنه أقدم ، ردّ اللّه عليهم ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٣٥]

وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)

قلت : الضمير فى (قالوا) لأهل الكتاب ، و(أو) للتفصيل ، أي : قالت اليهود : كونوا هودا ، وقالت النصارى :

كونوا نصارى. و(تهتدوا) جواب الأمر ، و(ملة) منصوب بفعل محذوف ، على حذف مضاف ، أي : بل نكون أهل ملة إبراهيم ، أو نتبع أو نلزم ملة إبراهيم ، و(حنيفا) حال من المضاف إليه ، لأنه كجزئه ، أي : مائلا عن الباطل إلى الحق.

يقول الحق جل جلاله : وقالت اليهود للمسلمين : كُونُوا معنا هودا تَهْتَدُوا فإن ديننا أقدم ، وقالت النصارى لهم أيضا : كونوا نَصارى معنا تَهْتَدُوا فإن ديننا أصوب ، قُلْ لهم يا محمد : بَلْ نلزم مِلَّةَ إِبْراهِيمَ الذي كان مائلا عن الباطل متبعا للحق ، ومشاهدا له وحده. ولم يكن من المشركين كما أشركتم بعزير وعيسى وغيرهما ، تعالى اللّه عن قولكم علوا كبيرا.

الإشارة : قد سرى هذا الطبع فى بعض المنتسبين ، يرغّبون الناس فى طريقهم ، ويحرصون على اتباعهم والدخول معهم ، وينقصون طريق غيرهم ، وهو وصف مذموم ، بل الواجب أن ينظر الإنسان بعين

البصيرة ، فمن وجده يدل على اللّه ويغيب عما سواه ، ينهض حاله ويدل على اللّه مقاله ، اتبعه وحطّ رأسه له ، ولزم ملته وطريقه أينما كان ، وكيفما كان. ومن وجده على غير هذا الوصف ، أعرض عنه ، والتمس غيره ، وليس من شأن الدعاة إلى

(١٦٩/١)

اللّه الحرص على الناس ، أو الترغيب فى اتباعهم ، بل هم أزهد الناس فى الناس ، من أتاهم دلوه على اللّه ، ومن لقيهم نصحوه فى اللّه ، هم على قدّم الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وقد قال له الحق تعالى : أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ. ، لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، فكان صلّى اللّه عليه وسلّم بعد ذلك يدل على اللّه وينظر ما يفعل اللّه. وباللّه التوفيق.
ثم بيّن الحق تعالى كيفية الإيمان الذي يجب اتباعه ، وأبطل ما سواه ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٣٦ الى ١٣٨]
قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ (١٣٨)
قلت : الأسباط : الأحفاد ، والسّبط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى ولد إسماعيل ، والباء فى (بمثل) : يحتمل أن تكون زائدة كقوله تعالى : وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها ، أو (مثل) مقحم ، أي : فإن آمنوا بما آمنتم به ، كقوله تعالى :
وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ. والشقاق : المخالفة ، كأن كل واحد من المتخالفين فى شق غير شق الآخر ، و(صبغة اللّه) : مصدر مؤكد لآمنا لأن الإيمان ينصبغ فى القلوب ، ويظهر أثره على الجوارح ظهور الصبغ على المصبوغ ، ويتداخل فى قلوبهم تداخل الصبغ للثوب. أي : آمنا وصبغنا اللّه به صبغة.
وهى فطرة اللّه التي فطر الناس عليها ، وعبّر عنها بالصبغ للمشاكلة فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المعمودية ، ويقولون : هو تطهير لهم ، وبه تحق نصرانيتهم ، فردّ اللّه تعالى عليهم بأن صبغة ، اللّه أحسن من صبغتهم وقيل : نصب على البدل من (ملة إبراهيم) ، أو على الإغراء ، أي : الزموا صبغة اللّه.
يقول الحق جل جلاله : قُولُوا يا معشر المسلمين فى تحقيق إيمانكم : آمَنَّا بِاللَّهِ أي : صدقنا بوجوده

متصفا بصفة الكمال ، منزها عن النقائص ، وَبما أُنْزِلَ إِلَيْنا وهو القرآن ، وَبما أُنْزِلَ من الصحف إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ولد إسحاق ، وَالْأَسْباطِ أولاد يعقوب عليه السّلام وهم : روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وربالون ويشحر ، ودنية بنته ، وأمهم ليا ، ثم خلف على أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين ، وولد له من سرّيّتين : دان ونفتالى وجاد وآشر.

(١٧٠/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٧١

قال ابن حجر : اختلف فى نبوتهم ، فقيل : كانوا أنبياء ، وقيل : لم يكن فيهم نبى ، وإنما المراد بالأسباط قبائل من بنى إسرائيل ، فقد كان فيهم من الأنبياء عدد كثير. هـ. وممن صرح بنفي نبوتهم عياض وجمهور المفسرين.

انظر : المحشى الفاسى.

وقولوا : آمنا بما أنزل إلى مُوسى وهو التوراة ، وَعِيسى وهو الإنجيل ، وبما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ كلهم مِنْ رَبِّهِمْ من عرفنا منهم ومن لم نعرف ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ وأحد مِنْهُمْ كما فرقت اليهود والنصارى ، فقد آمنا باللّه وبجميع أنبيائه وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ أي : منقادون لأحكامه الظاهرة والباطنة.

قال الحق جل جلاله : فَإِنْ آمَنُوا أي : أهل الكتاب إيمانا مثل إيمانكم ، فَقَدِ اهْتَدَوْا إلى الحق والصواب ، وإن أعرضوا عن ذلك فاتركهم حتى نأمرك فيهم ، فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ وخلاف لك ، فلا تهتم بشأنهم ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ أي سيكفيك شرهم وينصرك عليهم ، وَهُوَ السَّمِيعُ لدعائكم ، الْعَلِيمُ بإخلاصكم ، فالزموا صِبْغَةَ اللَّهِ التي صبغتم بها ، وهى الإيمان بما ذكرت لكم فإنه لا أحسن صبغة من صبغة اللّه ، وَقولوا : نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ.

الإشارة : كما أوجب اللّه تعالى الإيمان بجميع الرسل فى طريق العموم ، كذلك أوجب اللّه التصديق بكل من ثبتت ولايته فى طريق الخصوص ، فمن فرق بينهم فقد كفر بطريقهم ، ومن كفر بطريقهم طرد عن بابهم ، ومن طرد عن بابهم طرد عن باب اللّه ، لأن إسقاطه من الولاية إيذاء له «١» ، ومن آذى وليا فقد آذن اللّه بالحرب ، فالواجب ، على من أراد أن يرد مناهلهم ، أن يصدق بجميعهم ، ويعظم من انتسب إليهم ، حتى تنصبغ فى قلبه حلاوة الإيمان ، وتشرق عليه شموس العرفان ، فمن فعل هذا فقد اهتدى إلى الحق والصواب ، واستحق الدخول مع الأحباب ، ومن أعرض عن هذا فإنما هو فى شقاق ، وربما يخاف عليه من شؤم الكفر والنفاق ، فسيكفى اللّه أولياءه سوء شره ، واللّه غالب على أمره.

قال القشيري : فللقلوب صبغة ، وللأرواح صبغة ، وللسرائر صبغة ، وللظواهر صبغة ، فصبغة الأشباح

والظواهر بآثار التوفيق ، وصبغة الأرواح والسرائر بأنوار التحقيق. هـ. وقال الورتجبي : صبغة اللّه : صفته الخاصة

---

(١) الولي لا ينظر إلى الخلق بل غايته رضا الله عنه – فانكار الناس ولاية ولى لا يؤذى الولي ، وإنما أذى الإنكار يعود على المنكر نفسه ، طبقا للحديث الوارد.

(١٧١/١)

التي خلق آدم عليها ، وأورثت ذلك فى أرواح ذريته من الأنبياء والأولياء. ثم قال : وسقاها من شراب الزلفة ، وألهمها خصائص علوم الربوبية ، فاستنارت بنور المعرفة ، وخاضت فى بحر الربوبية ، وخرجت منها تجليات أسرار الوحدانية ، وتكونت بصبغ الصفات. هـ. وباللّه التوفيق.

ولما ادعت اليهود والنصارى أنهم أولى الناس باللّه من غيرهم لتقدم دينهم ، رد اللّه عليهم ووبخهم فقال : (قل أتحاجوننا ...) الآية. وقيل : إن اليهود قالوا للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم : الأنبياء كلهم منا ، فلو كنت نبيا لكنت منا ، فرد اللّه عليهم بقوله :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٣٩ الى ١٤١]

قُلْ أَتُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ وَلَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

قلت : الذي يظهر أن (أم) منقطعة ، بمعنى بل ، على قراءة الخطاب والغيبة لأن المقصود إنكار وقوع الأمرين معا ، لا أحدهما.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لأهل الكتاب : أتخاصموننا فِي اللَّهِ وتقولون : أنتم أولى به منا وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ ، لا يختص به واحد دون آخر ، وَلَنا أَعْمالُنا نتقرب بها إليه ، وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ تتقربون بها أيضا ، فكيف تختصون به دوننا وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ فى أعمالنا وقلوبنا دونكم فإنكم أشركتم به غيره ، فإن قلتم : إن الأنبياء كلهم منكم وعلى ملتكم فقد كذبتم ، أتقولون إِنَّ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وأولاده الْأَسْباطَ كانُوا هُوداً على دينكم يا معشر اليهود ، أَوْ نَصارى على ملتكم يا معشر النصارى.

قُلْ لهم يا محمد : أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وقد نفى الأمرين معا عن إبراهيم فقال : ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا

نَصْرانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وقال : وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، وهؤلاء المعطوفون عليه : أتباعه فى الدين ، فليسوا يهودا ولا نصارى ، فكيف تدعون أنهم كلهم منكم ، وعلى دينكم ، وأنتم تشهدون أنهم لم يكونوا على دينكم؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ، وهى شهادة الحق

(١٧٢/١)

لإبراهيم بالحنيفية ، والبراءة من اليهودية والنصرانية ، أي : لا أحد أظلم منه ، وليس اللّه تعالى بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، بل يجازيكم على النقير والقطمير ، فإن اعتمدتم على نسبكم إليهم فقد اغتررتم.

تِلْكَ أُمَّةٌ قد مضت ، لَها ما كَسَبَتْ لا ينتفع به غيرها ، وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ لا ينفعكم غيره ، ولا تسألون عن عملهم كما لا يسألون عن أعمالكم. قال البيضاوي : كرره للمبالغة فى التحذير ، والزجر عما استحكم فى الطباع من الافتخار بالآباء ، والاتكال عليهم ، وقيل : الخطاب فيما سبق لهم ، وفى هذه الآية لنا ، تحذيرا عن الاقتداء بهم ، وقيل : المراد بالأمة فى الأولى الأنبياء ، وفى الثانية أسلاف اليهود والنصارى. هـ.

الإشارة : كل من أقامه الحق فى وجهة ، ووجهه إليها ، فهو عامل للّه فيها ، قائم بمراد اللّه منها ، وما اختلفت الأعمال إلا من جهة المقاصد ، وما تفاوت الناس إلا من جهة الإخلاص. فالخلق كلهم عبيد للملك المجيد ، وما وقع الاختصاص إلا من جهة الإخلاص. فمن كان أكثر إخلاصا للّه كان أولى من غيره باللّه ، وبقدر ما يقع للعبد من الصفاء يكون له من الاصطفاء ، فالصوفية والعلماء والعباد والزهاد وأهل الأسباب على اختلاف أنواعهم كلهم عاملون للّه ، ليس أحد منهم بأولى من غيره باللّه إلا من جهة الإخلاص وإفراد القلب للّه ، فمن ادعى الاختصاص باللّه من غير هذه الوجهة فهو كاذب ، ومن اعتمد على عمل غيره فهو مغرور ، يقال له : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ.

ولمّا أراد اللّه تعالى أن ينسخ القبلة من جهة الشام ويردها إلى الكعبة ، أخبر أنه سينكرها قوم خفّت أحلامهم ، وفسدت بالتقليد الردى عقولهم ، وهم أحبار اليهود والمنافقون والمشركون ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٤٢]

سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢)

يقول الحق جل جلاله : سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ الذين لا عقل لهم ولا دين ، حين تحول القبلة من

بيت المقدس إلى الكعبة : ما صرفهم عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها ، فلو دام عليها لاتبعناه. قُلْ لهم يا محمد :
لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ لا يختص ملكه بمكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع من إقامة غيره مقامه ، بل الأماكن عند اللّه سواء : والخلق فى حقه سواء ، يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ، ويضل من يشاء عن المنهاج القويم لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ، والصراط المستقيم : ما ترتضيه الحكمة وتفتضيه المصلحة من التوجه إلى بيت المقدس تارة ، والكعبة أخرى ، وفائدة تقديم الإخبار به : توطين النفس وإعداد الجواب. قاله البيضاوي.

(١٧٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٧٤
قال بعض العارفين : (لى أربعون سنة ما أقامنى الحق فى شيء فكرهته ، ولا نقلنى إلى غيره فسخطته).
بخلاف السفهاء من الجهال ، فشأنهم الإنكار عند اختلاف الأحوال ، فمن رأوه تجرد عن الأسباب وانقطع إلى الكريم الوهاب ، قالوا : ما ولّاه عن حاله الذي كان عليه؟ وأكثروا من الاعتراض والانتقاد عليه ، وكذلك من رأوه رجع إلى الأسباب بعد الكمال ، قالوا : قد انحط عن مراتب الرجال. وهو إنما زاد فى مراتب الكمال. فالملك كله للّه ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، ويضل من يشاء بعدله الحكيم.
ثم شهد الحق تعالى لهذه الأمة بالعدالة والفضل ، فقال :
وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ...
قلت : (الوسط) هو العدل الخيّر الفاضل ، وهو فى الأصل اسم للمكان الذي تستوى إليه المساحة من الجوانب ، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفى إفراط وتفريط ، كالجود بين الإسراف والبخل ، والشجاعة بين التهور والجبن ، ثم أطلق على المتصف بها مستويا فيه الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث. قاله البيضاوي.
يقول الحق جل جلاله : وكما جعلناكم مهتدين إلى الصراط المستقيم ، وجعلنا قبلتكم أفضل الجهات ، جعلناكم أمة أفضل الأمم ، خيارا عدولا مزكّين بالعلم والعمل ، لتصلحوا للشهادة على غيركم ، فتكونوا يوم القيامة شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ، ويزكيكم نبيكم فيشهد بعدالتكم.
قال البيضاوي : روى (أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء ، فيطالبهم اللّه ببينة التبليغ وهو أعلم بهم ، إقامة للحجة على المنكرين ، فيؤتى بأمة محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم فيشهدون ، فتقول الأمم : من أين عرفتم؟ فيقولون : علمنا ذلك بإخبار اللّه فى كتابه النّاطق على لسان نبيه الصّادق.

فيؤتى بمحمّد صلّى اللّه عليه وسلّم فيسأل عن حال أمته فيشهد بعدالتهم).
وهذه الشهادة ، وإن كانت لهم ، لكن لمّا كان الرسول كالرقيب المهيمن على أمته عدّى بعلى ، وقدّمت الصلة للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم. هـ.
الإشارة : التفاضل بين الرجال إنما يكون بالعلم والحال ، فمن قوى علمه باللّه كان أعظم قدرا عند اللّه ، والعلم الذي به الشرف عند اللّه هو العلم بذات اللّه وبصفاته وأسمائه ، وكذا العلم بأحكام اللّه إذا حصل معه العلم باللّه ، فكلما انكشف الحجاب عن القلب كان أقرب إلى الرب ، وانكشاف الحجاب يكون على قدر التخلية والتحلية ، فبقدر ما يتخلى القلب عن الرذائل ، ويبعد عن القواطع والشواغل ، ويتحلى بأنواع الفضائل ، ينكشف عنه الحجاب ويدخل مع

(١٧٤/١)

الأحباب ، وبقدر ما يتراكم على القلب من الخواطر والشواغل ، ويدخل عليه من المساوئ والرذائل ، يقع البعد عن اللّه ، ويطرد العبد عن باب اللّه ، فلا يدل على كمال العبد كثرة الأعمال ، وإنما يدل على كماله علو الهمة والحال ، وعلو الهمة على قدر اليقين ، وقدر اليقين على قدر المعرفة ، والمعرفة على قدر التوجه والتصفية ، والتوجه تابع للقسمة الأزلية. وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء.
ثم إن العلماء بأحكام اللّه إذا لم يحصل لهم الكشف عن ذات اللّه يكونون حجة على عباد اللّه.
والعلماء باللّه الذين حصل لهم الكشف عن ذات اللّه حتى حصل لهم الشهود والعيان يكونون حجة على العلماء بأحكام اللّه. فكما أن الأمة المحمدية تشهد على الناس ، والرسول يشهد عليهم ويزكيهم ، فكذلك العلماء يشهدون على الناس ، والأولياء يشهدون على العلماء ، فيزكون من يستحق التزكية ، ويردون من لا يستحقها لأن العارفين باللّه عالمون بمقامات العلماء أهل الظاهر ، لا يخفى عليهم شيء من أحوالهم ومقاماتهم ، بخلاف العلماء ، لا يعرفون مقامات الأولياء ، ولا يشمون لها رائحة ، كما قال القائل :
تركنا البحور الزاخرات وراءنا فمن أين يدرى الناس أين توجّهنا
قال القشيري : (جعل هذه الأمة خيار الأمم ، وجعل هذه الطائفة خيار هذه الأمة ، فهم خيار الخيار.
وكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم فى القيامة فهذه الطائفة هم المدار وهم القطب ، وبهم يحفظ اللّه جميع الأمة. وكل من قبلته قلوبهم فهو المقبول ، ومن ردّته قلوبهم فهو المردود. فالحكم الصادق لفراستهم ، والصحيح حكمهم ، والصائب نظرهم ، عصم جميع الأمة من الاجتماع على الخطأ ، وعصم هذه الطائفة من الخطأ فى النظر والحكم والقبول والرد ، ثم إن بناء أمرهم مستند إلى سنة

الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، فكل من لا يكون له اقتداء بالرسول فهو عندهم مردود ، وصاحبه كلا شى ء). وباللّه التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى حكمة نسخ القبلة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٤٣ الى ١٤٤]

وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)

(١٧٥/١)

قلت : (جعل) تصييرية ، و(القبلة) مفعول أول ، و(التي) صفة للمفعول الثاني المحذوف ، أي : وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها وهى بيت المقدس ، ثم وجهناك إلى الكعبة إلا لنعلم الثابت على الإيمان من غيره ، أو : وما صيرنا القبلة الجهة التي كنت عليها بمكة وهى الكعبة ، فإنه كان - عليه الصلاة والسلام - يصلى إليها بمكة.

وقيل : كان يستقبل بيت المقدس ويجعل الكعبة بينه وبينها ، كما قال ابن عباس ، و(إن) مخففة ، واللام فارقة.

أي : وإنه ، أي : الأمر والشأن : كانت التحويلة لشاقة على الناس ، والرأفة : شدة العطف ، فهى أبلغ من الرحمة. واللّه تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله : وما نسخنا حكم القبلة وجعلناها الجهة التي كنت عليها بمكة دون التي كانت بالمدينة ، وهى بيت المقدس ، إِلَّا لِنَعْلَمَ علم ظهور وشهادة مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ فى التحول إليها مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ لضعف إيمانه وقلة إيقانه ، فإن التحويلة عن القبلة الأولى والرجوع عنها إلى الثانية شاق على النفوس ، إلا من سبقت له الهداية وحفت به الرعاية ، فإنه يدور مع مراد اللّه أينما دار ، ويتبع رسوله أينما سار. ومن مات قبل التحويل إلى الكعبة فإن اللّه لا يضيع أجر عمله وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ أي :

صلاتكم إلى بيت المقدس إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ.

الإشارة : الخروج عن العادات وترك الأمور المألوفات كلاهما شاق على النفوس ، إلا على الذين هدى

اللّه ، ولذلك كان خرق العوائد هو الفصل بين الخصوص والعموم ، ومفتاح لمخازن العلوم والفهوم.
فمن لم يخرق عوائد نفسه فلا يطمع أن يدخل حضرة قدسه. (كيف يخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد). وهو الميدان الذي تحقق به سير السائرين. (لو لا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين). وهو عند شيوخ التربية ميزان يتميز به من يتبع الرسول ويلزم طريقه إلى الوصول ، ممن ينقلب على عقبيه ، فمن رأوه خرق عوائد نفسه ، وزهد فى ملبسه وجنسه ، تحققوا بدخوله حضرة قدسه ، إلا من سبق له الحرمان والعياذ باللّه من الخذلان ، ومن رأوه وقف مع العادات ، وركن إلى المألوفات ، ومال إلى الرّخص والتأويلات ، علموا أن مقامه مقام أهل الحجاب ، يأخذ أجره من وراء الباب ، ولا نصيب له فى الدخول مع الأحباب.
وأيضا عند تخالف الآثار وتنقلات الأطوار ، يظهر الإقرار من الإنكار. أهل الإقرار عارفون فى كل حال ، يدورون مع رياح الأقدار حيث سارت ، ويسيرون معها حيث سارت ، وأهل الإنكار جاهلون باللّه فى كل حال ، معترضون عليه عند اختلاف الأحوال ، نعوذ باللّه من الضلال.

(١٧٦/١)

ثم ذكر الحق تعالى كيفية ابتداء نسخ القبلة ، فقال :
قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ...
قلت : التقلب : التردد ، وولّيت كذا : جعلته واليا له ، والشّطر هنا : الجهة.
يقول الحق جل جلاله لنبيه - عليه الصلاة والسلام - حين تمنى أن يحول إلى الكعبة ، لأنها قبلة أبيه إبراهيم وأدعى إلى إسلام العرب ، وهى أقدم القبلتين ، فكان ينظر إلى السماء ، ويقلب وجهه فيها انتظارا لنزول الوحى ، وهذا من كمال أدبه - عليه الصلاة والسلام - حيث انتظر ولم يطلب ، فقال له الحق تعالى : قَدْ نَرى أي :
ربما نرى تردد وَجْهِكَ فِي السَّماءِ انتظارا للوحى ، فلنعطينك ما تمنيت ، ونوجهك إلى قبلة تَرْضاها وتحبها لمقاصد دينية وافقت المشيئة ، واقتضتها الحكمة ، فَوَلِّ وَجْهَكَ أي : اجعله مواليا شَطْرَ أي : جهة الْمَسْجِدِ الْحَرامِ. وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ أيها المؤمنون أي فى أي مكان كنتم فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ جهته.
وإنما ذكر الحق تعالى شطر المسجد ، أي : جهته ، دون عين الكعبة لأنه - عليه الصلاة والسلام - كان فى المدينة ، والبعيد يكفيه مراعاة الجهة ، فإن استقبال عينها حرج عليه ، بخلاف القريب ، فإنه يسهل عليه مسامتة العين «١» ، وقيل : إن جبريل - عليه السّلام - عيّنها له بالوحى فسميت قبلة

وحي.
روى أنه صلّى اللّه عليه وسلّم قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ، ثم وجّه إلى الكعبة فى رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين ، وقد صلى بأصحابه فى مسجد بنى سلمة ركعتين من الظهر ، فتحول فى الصلاة ، واستقبل الميزاب ، وتبادل الرجال والنساء صفوفهم ، فسمى مسجد القبلتين. قاله البيضاوي.
الإشارة : فى الآية إشارة إلى أن ترك التصريح من كمال الأدب ، وفى الحكم : «ربما دلهم الأدب على ترك الطلب ، كيف يكون دعاؤك اللاحق سببا فى قضائه السابق؟! جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل». فإذا تمنيت شيئا وتوقفت على أمر فاصبر وتأدب واقتد بنبيك - عليه الصلاة والسلام - حتى يعطيك ما ترضى ، أو يعوضك منها مقام الرضا. وفى المسألة كلام ، والتحقيق أن ينظر إلى ما ينشرح به صدره فى الوقت ، فإن انشرح للدعاء دعا ، وإن انقبض عن الدعاء سكت. واللّه يرزق من يشاء بغير حساب ولا علة ولا أسباب.

---

(١) سامته : قابله ووازاه وواجهه.

وإن شئت قلت : قد نرى فكرتك أيها العارف فى سماء المعاني ، غائبا فى شهود الأوانى ، فلنولينك قبلة ترضاها ، وتتلذذ بشهود جمالها وسناها ، وهى الحضرة المطهرة التي هى صلاة القلوب ، فول وجهك ووجهتك إلى تلك الحضرة ، وحيثما كنت فول وجهك شطره ، ودم على صلاة الفكرة والنظرة ، فهى صلاة العارفين ، ومنتهى أمل القاصدين ، وباللّه التوفيق.
ولمّا تحولت القبلة إلى الكعبة غضبت اليهود ، حيث ترك قبلتهم ، مكابرة وعنادا ، وقالوا : لو بقي على قبلتنا لرجونا أن يكون هو النبي المبعوث فى آخر الزمان فنتبعه ، فردّ اللّه عليهم وكذبهم فقال :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٤٥ الى ١٤٧]
وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)
قلت : (و لئن) اللام موطّئة للقسم ، و(إن) شرطية ، و(أتيت) فعل الشرط ، و(ما تبعوا) جواب القسم

المحذوف سد مسد جواب الشرط. قال فى الألفية :
واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخّرت فهو ملتزم
يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ من أحبار اليهود لَيَعْلَمُونَ أن التحول إلى الكعبة حق مِنْ رَبِّهِمْ لما يجدون فى كتابهم أنه يصلى إلى القبلتين ، وأن عادته تعالى تخصيص كل أمة بشريعة ، وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ من التعنت والعناد ، وإنما يمهلهم ليوم المعاد ، واللّه لئن أتيتهم بكل حجة وبرهان على صحة التوجه إلى الكعبة ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ لأنهم ما تركوا قبلتك لشبهة تزيلها الحجة ، وإنما خالفوك مكابرة وعنادا. وقد طمعوا أن ترجع إلى قبلتهم ، ولست بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ أبدا ، بل لهم قبلتهم صخرة بيت المقدس ، وللنصارى قبلتهم مطلع الشمس ، وليس بعضهم بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ لتصلب كل حزب بما هو فيه ، وإن كان على خطأ وفساد لأن مفارقة العوائد هنا صعب على النفوس إلا من سبقت له العناية.

(١٧٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٧٩
وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ الباطلة وآراءهم الزائفة فرضا وتقديرا مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ الواضح والوحى الصحيح إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ، لكنك معصوم ، فلا يتصور اتباعك لهم أبدا.
الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ أي : اليهود يَعْرِفُونَهُ أي : الرسول - عليه الصلاة والسلام - وإن لم يتقدم ذكره لدلالة الكلام عليه أو القرآن أو التحويل ، كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ لا يشكّون فى صحة رسالته كما لا يشكون فى معرفة أبنائهم. وعن عمر رضي اللّه عنه أنه سأل عبد اللّه بن سلام عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : (أنا أعلم به منّى بابني ، قال له : ولم؟ قال : لأنّى لست أشكّ فى محمد أنه نبىّ اللّه. وأما ولدي فلعلّ والدته قد خانت).
وبعد حصول هذه المعرفة لهم جحدوه وكتموا صفته ، إلا من عصمه اللّه بالإيمان كعبد اللّه بن سلام وأصحابه - فقد كتم فريق منهم الحق وهم أحبارهم ، وهم يعلمون أنه حق حسدا وعنادا.
هذا الذي أنت عليه يا محمد هو الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ أي : من الشاكين فى أنه الحق ، أو فى كتمانهم الحق عالمين به. والخطاب مصروف للسامعين لا للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم لأنه غير متوقع منه ، وإنما المراد تحقيق الأمر ، وإنه بحيث لا يشك فيه ناظر ، أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ. قاله البيضاوي.
الإشارة : مما جرت به سنة اللّه تعالى فى خلقه أن أهل الحقيقة منكورون عند أهل الشريعة ، أو تقول : علماء الباطن منكورون عند علماء الظاهر ، يقابلونهم بالإذاية والإنكار ، مع أنهم يعلمون أن الحقيقة

حق من ربهم ، وأن علم الباطن حق لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «إن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه إلا العلماء باللّه ، فإذا سمعه أهل الغرة باللّه أنكروه عليهم». أو كما قال - عليه الصلاة والسلام - ، وقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «لكلّ آية ظاهر وباطن وحدّ ومطلع».
وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ فجزاؤهم الحرمان عن لذة الشهود والعيان ، فيقال لأهل الباطن : ولئن أتيتهم بكل آية وبرهان ما تبعوا وجهتك التي توجهت إليها لأنها منوطة بموت النفوس وحط الرؤوس ودفع الفلوس ، وخرق العوائد لاكتساب الفوائد ، ومفارقة الأوطان والغيبة عن الأهل والولدان ، وما أنت أيها المريد بتابع وجهتهم التي توجهوا إليها ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما ظهر لك من علم التحقيق : إنك إذا لمن الظالمين لنفوسهم.
الذين آتيناهم الكتاب من علماء الشريعة يعرفون علم الحقيقة ، كما يعرفون أبناءهم ، أي : يقرون به في الجملة وينكرون وجود أهله مخصوصين ، وقد يتحققون به ويكتمون الحق حسدا ، وهم يعلمون وجود خصوصيته ، فيقال

للعارف : هذا الذي أنت عليه من سلوك جادة الطريق ، وعلم التحقيق ، هو الحق من ربك فلا تكونن من الممترين أنك على الحق المبين.
ثم بيّن الحق تعالى قبلة من بعد عن مكة ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٤٨ الى ١٤٩]
وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)
قلت : التنوين فى (لكل) تنوين العوض ، أي ولكل أمة قبلة ، أو لكل قوم من المسلمين جهة وجانب من الكعبة ، و(وجهة) مبتدأ ، والخبر : المجرور قبله. و(هو) مبتدأ ، و(موليها) خبر مقصور ، و(ولى) يتعدى إلى مفعولين ، وهو هنا محذوف ، أي : موليها وجهه إن كان الضمير يعود على المضاف المحذوف ، ويحتمل أن يعود على اللّه تعالى ، أي : اللّه تعالى موليها إياه ، أي : يجعلها موالية له إن استقبل جهتها.
وقرأ ابن عامر : (هو مولّاها) بالبناء للمفعول ، فالنائب ضمير يعود على (هو) ، وهو المفعول الأول ، والثاني :

المضاف إليه تخفيفا ، وأصله : مولى إياها ، أي مصروفا إليها.
يقول الحق جل جلاله : ولكل فريق من المسلمين جهة من الكعبة يستقبلها ويوليها وجهه ، أينما كان وحيثما حل ، فأكثروا من الصلوات ، واستقبلوا الخيرات قبل هجوم هادم اللذات ، أَيْنَما تَكُونُوا فى مشارق الأرض ومغاربها ، يأتكم الممات ، ويأت بكم إلى المحشر حفاة عراة ، ولا ينفعكم حينئذ إلا صالح عمل قدمتوه ، أو فعل خير أسلفتموه ، نَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
، فلا يعجزه بعث العباد ، ولا جمعهم من أعماق الأرض وأقطار البلاد. وإذا علمت أن لكل قوم جهة يستقبلونها ، فمن حَيْثُ خَرَجْتَ وفى أي مكان حللت فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ ، واللّه إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فبادر إلى امتثاله ، وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ من خير أو شر ، فيجازى كل واحد على ما أسلف.

ثم كرر الحق تعالى الأمر بالتوجه إلى الكعبة لعلة أخرى سيذكرها ، فقال : وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وحيثما حللتم فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ. قال البيضاوي : كرر هذا الحكم لتعدد علله ، فإنه تعالى ذكر للتحول ثلاث علل : تعظيم الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بابتغاء مرضاته ، وجرت العادة الإلهية على أن يولّى أهل كل ملة وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ويتميز بها ، ودفع حجج المخالفين على ما بينه ، وقرن كل علة بمعلولها ، مع أن القبلة لها شأن ، والنسخ من مظان الفتنة والشبهة ، فبالحرى أن يؤكد أمرها ويعاد ذكرها مرة بعد أخرى. هـ.
ثم ذكر العلة الثالثة وهى دفع حجج المخالفين ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ١٥٠]
وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)
قلت : الاستثناء من (الناس) أي : لئلا يكون لأحد من الناس حجة عليكم إلا المعاندين منهم ، و(لأتم) متعلق بمحذوف ، أي : ولإتمام نعمتى عليكم وإرادة اهتدائكم أمرتكم بالتحول ، أو معطوف على محذوف أي : واخشوني لأحفظكم ولأتم نعمتى عليكم.
يقول الحق جل جلاله : وإنما أمرتكم بالتوجه إلى الكعبة دون الصخرة لتدفع حجج الناس ، فإن اليهود ربما قالوا : المنعوت فى التوراة قبلته الكعبة ، وهذا يستقبل الصخرة ، أو إن محمدا يخالف ديننا

ويستقبل قبلتنا. والمشركون ربما قالوا : يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته ، فأمرتكم باستقبال القبلة دفعا لحجج الناس ، إلا المعاندين منهم فلا ينقطع شغبهم ، فإنهم يقولون : ما تحول إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه ، وحبا لبلده ، أو بدا له فرجع إلى قبلة آبائه ، ويوشك أن يرجع إلى دينهم.
فلا تخافوهم ولا تلتفتوا إلى مطاعنهم ، فإنها لا تضركم ، وَاخْشَوْنِي أكفكم شرهم ، فإن من خافنى خاف منه كل شيء ، ومن لم يخشنى خاف من كل شيء ، وأمرتكم أيضا بالتوجه إلى قبلة جدكم لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ بإقرار عين نبيكم ، وإرادة اهتدائكم ، فاشكروا ما أوليتكم ، واذكروا ما به أنعمت عليكم أزدكم من فضلى وإحسانى ، وأسبغ عليكم إنعامى وامتنانى.
الإشارة : من حكمة المدبر الحكيم أن دبر ملكه العظيم ، ووجه كل فرقة بوجهة من مصالح عباده ، أفناه فيها وولاه إياها. فقوم اختصهم لمحبته واصطفاهم لحضرته وهم العارفون ، وقوم أقامهم لخدمته وأفناهم فى عبادته

وهم العباد والزهاد ، وقوم أقامهم لحمل شريعته وتمهيد دينه وهم العلماء العاملون ، وقوم أقامهم لحفظ كتابه رسما وتلاوة وتفهما وهم القراء والمفسرون ، قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ، وقوم أقامهم لتسكين الفتن ودفع المظالم والمحن وهم الحكام ومن يستعان بهم فى تلك الوجهة ، وقوم أقامهم لحفظ نظام الحكمة وهم القائمون بالأسباب الشرعية على اختلاف أنواعها وتعدد فروعها ، وقوم أعدهم لظهور حلمه وعفوه فيهم وهم أهل المعاصي والذنوب ، وقوم أعدهم للانتقام وظهور اسمه القهار وهم أنواع الكفار.
فكل وجهة من هؤلاء توجهت لحق شرعى أقامتها القدرة فيه ، وحكم بها القضاء والقدر ، إلا أن القسمين الأخيرين لا تقررهما الشريعة. فلو حسنت المقاصد لكان الكل عمالا للّه ، فيقال لهم : اسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ
بتحسين المقاصد والنيات ، وبادروا إلى الطاعات قبل هجوم هادم اللذات ، أينما تكونوا يجمعكم للحساب ، وتعاينوا جزاء ما أسلفتم من عذاب أو ثواب ، ومن حيث خرجت أيها العارف فولّ وجهتك وكليتك لمسجد الحضرة باستعمال الفكرة والنظرة ، فإنها حق وما سواها باطل ، كما قال الشاعر :
ألا كلّ شيء ما خلا اللّه باطل وكلّ نعيم لا محالة زائل «١»
وحيثما كنتم أيها العارفون فولوا وجوهكم إلى قبلة تلك الحضرة ، واعبدوا ربكم بعبادة الفكرة ، فإنها صلاة القلوب ، ومفتاح ميادين الغيوب ، وفى ذلك يقول القائل «٢» :

يا قبلتى فى صلاتى إذا وقفت أصلّى

جمالكم نصب عينى إليه وجّهت كلّى

فإذا تحققتم بهذه الحضرة ، وتحصنتم بحصن الشهود والنظرة ، انقطع عنكم حجج خصيم النفس والجنس ، وتنزهتم فى رياض القرب والأنس ، إلا الخواطر التي تحوم على القلوب ، فلا تقدح فى مشاهدة الغيوب ، فلا تخافوا غيرى ، ولا تتوجه همتكم إلا لإحسانى وبرّى فإنى أتم عليكم نعمتى ، وأرشدكم إلى كمال معرفتى ، وأتحفكم بنصري ومعونتى.

---

(١) نقل الحافظ ابن حجر فى الفتح ٧/ ١٨٨ : (أن لبيدا أنشد من شعره (ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل) ، فقال عثمان بن مظعون :

صدقت. فقال لبيد : (و كل نعيم لا محالة زائل). فقال عثمان : كذبت نعيم الجنة لا يزول ..).

(٢) ابن الفارض.

ثم ذكر الحق تعالى نعمة الواسطة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٥١ الى ١٥٢]

كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢)

قلت : (كما) متعلق بأتم ، أي : ولأتم نعمتى عليكم فى شأن القبلة كما أتممتها عليكم بإرسال الرسول. أو باذكرونى ، أي : كما ذكرناكم بالإرسال ، فاذكرونى بالمقال والحال. وقدم هنا التزكية على التعليم ، باعتبار القصد لأن القصد من الإرسال والتعليم هو التطهير ، وأخره فى دعوة إبراهيم باعتبار الفعل ، لأن الإرسال والتعليم مقدم على التطهير ، وأعاد العامل فى قوله : وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ إيذانا بأنه جنس آخر شرفا له.

يقول الحق جل جلاله : يا عبادى اذكروا برى وإحسانى فقد أتممت عليكم نعمى وآلائي بإسعافكم فى تحويل القبلة ، كما أتممتها عليكم بأعظم النعم وأجلها ، وهو إرسال من يعلمكم رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا الموصلة إلى حضرتنا ، ويطهركم من المساوئ والعيوب ، وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ المشتمل على علم الغيوب ودواء القلوب ، ويعلمكم الْحِكْمَةَ وهى الشريعة المطهرة والسنة النبوية ، وَيُعَلِّمُكُمُ علوما غيبية لم يكن لكم بها علم ولا معرفة ، فَاذْكُرُونِي بالطاعة والإحسان أَذْكُرْكُمْ بالثواب ونعيم الجنان. قال

صلّى اللّه عليه وسلّم : «من أطاع اللّه فقد ذكر اللّه ، وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن. ومن عصى اللّه فقد نسى اللّه ، وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته».
أو فاذكرونى بالجنان أذكركم بنعمة الشهود والعيان ، أو فاذكرونى بالقلوب أذكركم بكشف الحجب ، أو فاذكرونى بالتوحيد والإيمان أذكركم بالدرجات فى الجنان. قال الصّديق رضي اللّه عنه : (كفى بالتوحيد عبادة ، وكفى بالجنة ثوابا). أو فاذكرونى بالشكر أذكركم بالزيادة ، أو فاذكرونى على ظهر الأرض أذكركم فى بطنها. قال الأصمعى :
(رأيت أعرابيا واقفا يوم عرفة بعرفات ، وهو يقول : إلهى عجّت لك الأصوات بضروب اللغات يسألونك الحاجات ، وحاجتى إليك أن تذكرنى عند البلاء إذا نسينى أهل الدنيا).
أو : فاذكرونى فى الدنيا أذكركم فى العقبى ، أو : فأذكرونى بالطاعات أذكركم بالمعافاة ، يعنى يحييه حياة طيبة. أو : فاذكرونى فى الخلاء والملأ أذكركم فى أفضل الملأ ، دليله الحديث : «أنا عند ظنّ عبدى بي فليظنّ بي

(١٨٣/١)

ما شاء ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فمن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى. ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه ..» الحديث.
أو : فاذكرونى فى النعمة والرخاء أذكركم فى الشدة والبلاء ، أو : فاذكرونى بالتسليم والرضا أذكركم بحسن التدبير ولطف القضاء ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ أو : فاذكرونى بالشوق والمحبة أذكركم بالوصال والقربة. أو : فاذكرونى بالتوبة أذكركم بغفران الحوبة ، أو : فاذكرونى بالدعاء أذكركم بالعطاء ، أو : فاذكرونى بالسؤال أذكركم بالنوال ، إلى غير ذلك مما لا ينحصر.
واعلم أن الذكر ثلاثة أنواع : ذكر اللسان فقط وهو ذكر الغافلين «١» ، وذكر اللسان والقلب وهو ذكر السائرين ، وذكر القلب فقط ، وهو ذكر الواصلين ، والذكر هو أفضل الأعمال كما تقتضيه الأحاديث النبوية والآيات القرآنية ، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى اللّه تعالى ، إذا كان بشيخ كامل ، واعلم أن الذكر على أنواع كثيرة من تهليل وتكبير وتسبيح وحمدلة وحسبلة وحوقلة وصلاة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولكلّ خاصية وثمرة ، وتجتمع فى ذكر المفرد ، وهو :
اللّه ، اللّه. فإن ثمرته الفناء فى الذات ، وهى الغاية والمنتهى. انظر ابن جزى.
قال الحق تعالى : واشكروا لى ما أوليتكم من إحسانى وبرى بأن تنسبوها لى لا لغيرى ، ولا تجحدوا إحسانى فأسلبكم ما خولتكم من إنعامى.

الإشارة : كما أنعم اللّه على الأمة المحمدية بأن بعث فيهم رسولا منهم يعلمهم الشريعة النبوية ، ويطهرهم من شهود الغيرية ، ويعلمهم العلوم اللدنية ، كذلك منّ اللّه تعالى على عباده من هذه الأمة فى كل زمان ، ببعث شيوخ التربية يطهرون الناس من العيوب ، ويدخلونهم حضرة الغيوب ، ويطلعونهم على شهود القدرة الأزلية والحكمة الإلهية ، ويعلمهم من غرائب العلوم ، ويفتح لهم مخازن الفهوم ، فيطّلعون على السر المصون ، ويعلمون ما لم يكونوا يعلمون ، فيقول لهم الحق جل جلاله : اذكروني بأرواحكم وأسراركم ، أذكركم بالغيبة عن رؤية أشباحكم ، اذكروني بالفكرة والنظرة أمتعكم بدوام شهود الحضرة ، واشكروا لى آلائي وبرى ، ولا تكفروا بالركون إلى غيرى فإني أسلبكم من مزيد معونتى ونصرى.

---

(١) الغفلة هنا باعتبار عدم موافقة القلب للسان فى الذكر.

ولمّا أمر عباده بالشكر أمرهم بمقام الصبر لأنه أخوه فى ضده إذ الشكر فى النعمة والصبر فى البلية ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٥٣ الى ١٥٧]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَلكِنْ لا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ (١٥٦) أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)

قلت : (أحياء) و(أموات) خبران عن مبتدأ مضمر ، والابتلاء هو الاختبار ، حيثما ورد فى القرآن ، ومعناه فى حقه تعالى : أنه يظهر فى الوجود ما فى علمه لتقوم الحجة على العبد ، وليس كاختبار الناس بعضهم بعضا لأن اللّه علم ما كان وما يكون ، والصلاة هنا المغفرة والتطهير ، والرحمة : اللطف والإحسان.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا على نيل رضوانى وبرّى وإحسانى بِالصَّبْرِ على مشاق الطاعات وترك المعاصي والهفوات ، وبالصلاة التي هى أم العبادات ، ومحل المناجاة ومعدن المصافاة ، فيها تشرق شوارق الأنوار ، وتتسع ميادين الأسرار ، وهى معراج أرواح المؤمنين ومناجاة رب العالمين ، فإن تجرعتم مرارة الصبر فإن اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ، وأعظم مواطن الصبر عند مفارقة الأحباب ،

وذهاب العشائر والأصحاب ، فإن كان موتهم فى الجهاد فلا ينبغى لأجلهم أسف ولا نكاد لأنهم أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، وكذلك من ألحق بهم من ذى هدم وغرق وحرق ونفاس وطاعون ، فلا تقولوا لمن يقتل فِي سَبِيلِ اللَّهِ من هؤلاء : هم أَمْواتٌ ، بَلْ هم أَحْياءٌ حياة روحانية لا بشرية ، وَلكِنْ لا تَشْعُرُونَ بحياتهم لأنهم مجرد أرواح ، وأنتم قد لبستم طلسم الأشباح ، فاختفى عنكم مقام الأرواح ، وكذلك أرواح المؤمنين كلهم أحياء.

وإنما خص الشهداء لمزيد بهجة وكرامة. وإجراء رزقهم عليهم دون غيرهم ، ففى الحديث : «أرواح الشّهداء فى حواصل طير خضر تعلق من ورق الجنة». أي : تأكل ، وفى حديث آخر : «يخلق اللّه الشهداء جسوما على صورة طير خضر ، فتكون فى حواصلها ، فتسرح بها فى الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتنال من خيراتها ونعيمها ، حتى تحشر منها يوم القيامة».

(١٨٥/١)

ولا يدخل الجنة أحد غيرهم إلى ميقاتها إلا الصدّيقون ، وهم العارفون ، فهم أعظم من الجميع لمزيد تصرف وإدراك وسعة روح وريحان ، وتحقق شهود وعيان ، فهم فى نعيم الجنان كالشهداء ، لكن الصديقين غير محصورين فى حواصل الطيور ، بل لهم هياكل وصور سرحوا بها حيث شاءوا. وكذلك من فوقهم من الأنبياء والرسل ، واللّه تعالى أعلم.

ثم قال الحق جل جلاله : ولنختبركم يا معشر المسلمين بِشَيْءٍ قليل مِنَ الْخَوْفِ لهيجان العدو وصولة الكفار ، وَالْجُوعِ لغلاء الأسعار وقلة الثمار ، وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ بموت الحيوان وتعذر التجارة أو الخسران ، وَالْأَنْفُسِ بالموت فى الجهاد ، وَالثَّمَراتِ بذهابها بالجوائح.

وعن الشافعي رضي اللّه عنه (الخوف خوف اللّه ، والجوع صوم رمضان ، والنقص من الأموال بالزكوات والصدقات ، ومن الأنفس بالأمراض ، ومن الثمرات موت الأولاد). وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «إذا مات ولد العبد قال اللّه للملائكة :

أقبضتم ولد عبدى؟ فيقولون : نعم. فيقول اللّه تعالى : أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون : نعم. فيقول اللّه تعالى : ماذا قال؟

فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول اللّه تعالى : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنّة وسمّوه بيت الحمد».

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ يا من تتأتى منه البشارة الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ فى بدن أو أهل أو مال أو صاحب قالُوا إِنَّا لِلَّهِ ملكا وعبيدا يحكم فينا بما يريد ، وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ فيجازينا بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فتغيب مصائب الدنيا فى جانبه.

وفى الحديث : «من أصابته مصيبة فقال : إنّا للّه وإنا إليه راجعون. اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منها ، إلا أخلف اللّه له خيرا مما أصابه» قالت أم سلمة : فلما مات زوجى أبو سلمة قلت ذلك ، فأبدلنى اللّه برسوله صلّى اللّه عليه وسلّم.

أُولئِكَ الصابرون الراجعون إلى اللّه عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ أي : مغفرة وتطهير مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ أي : عطف ولطف وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ لكل خير فى الدنيا والآخرة.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا بطريق الخصوص استعينوا على سلوك طريق حضرتنا ومشاهدة أنوار قدسنا بالصبر على ما تكره النفوس من ترك الحظوظ والشهوات ، والميل إلى العادات والمألوفات ، وبالصلاة الدائمة وهى صلاة القلوب بالعكوف فى حضرة الغيوب. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ بالمعونة والتأييد ، وإشراق أنوار التوحيد ، ولا تقولوا لمن ترونه قتل نفسه بالذل والافتقار ، وخرق العوائد وخلع العذار : إنه قد مات ، بل هو حى لا يموت ، قال

(١٨٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٨٧

اللّه تعالى : لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى فإذا ماتت نفس المريد. واستوى عنده الذل والعز والمدح والذم ، والغنى والفقر ، والموت والحياة ، فقد حييت روحه واتسع عليها فضاء الشهود ، وتمتعت بالنظرة إلى الملك المعبود. فلا يزيدها الموت الحسى إلا اتصالا وتمتعا وشهودا ، فهى فى الترقي أبدا سرمدا ، ولكن لا تشعرون بما هم فيه فى هذه الدار وفى تلك الدار.

ويقال لهم عند إرادة سلوكهم الطريق إلى عين التحقيق : واللّه لنبلونكم يا معشر المريدين بشئ من إذاية الخلق وتضييق الرزق ، وذهاب الأموال ، وضعف الأبدان بالمجاهدة ، وتأخير الفتح بظهور ثمرة المشاهدة ليظهر الصادق فى الطلب بالثبوت فى أحكام العبودية ، حتى تشرق عليه أنوار الربوبية ، من الكاذب بالرجوع إلى العوائد والشهوات ، والركون إلى الرخص والتأويلات ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الثابتين فى الطلب ، بالظفر بكل ما أمّلوا ، وبالوصول إلى ما إليه رحلوا ، الذين إذا أصابتهم نكبة أو وقفة تحققوا بضعف العبودية ، وتعلقوا بقوة الربوبية ، فرجعوا إلى اللّه فى كل شىء ، فآواهم إليه من كل شىء ، أولئك عليهم تحنّن من ربهم وتقريب ، وهم المهتدون إلى جوار الحبيب.

قال ابن جزى : (فائدة) ورد ذكر الصبر فى القرآن فى أكثر من سبعين موضعا وذلك لعظم موقعه فى الدين ، قال بعض العلماء : كل الحسنات لها أجر معلوم إلا الصبر ، فإنه لا يحصر أجره لقوله تعالى : إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ. وذكر اللّه للصابرين ثمانيا من الكرامات :

أولها : المحبة ، قال : وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ، والثاني : النصر : قال : إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ، والثالث :

غرفات الجنة ، قال : يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا ، والرابع : الأجر الجزيل ، قال : إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ والأربعة الأخرى المذكورة فى هذه الآية ، فمنها البشارة قال : وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، والصلاة والرحمة والهداية قال : أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ.

والصبر على أربعة أوجه : صبر على البلاء ، وهو منع النفس عن التسخط والهلع والجزع ، وصبر على النعم ، وهو تقييدها بالشكر وعدم الطغيان والتكبر بها ، وصبر على الطاعة بالمحافظة والدوام عليها ، وصبر على المعاصي بكف النفس عنها. وفوق الصبر التسليم ، وهو ترك الاعتراض والتسخط ظاهرا ، وترك الكراهية باطنا ، وفوق التسليم الرضا بالقضاء ، وهو سرور النفس بفعل اللّه ، وهو صادر عن المحبة ، وكل ما يفعل المحبوب محبوب. هـ.

ولمّا ذكر الحق تعالى الكعبة ، وأمر بالتوجه إليها ، ناسب أن يذكر الصفا والمروة لقربهما منها ومشاركتهما لها فى أمر الدين. وذلك أن الصحابة تحرجوا أن يطوفوا بهما لأن الصفا كان عليه صنم يقال له إساف ، وعلى المروة صنم يقال له نائلة ، فخافوا أن يكون الطواف بينهما تعظيما لهما ، فرفع اللّه ذلك فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٥٨]

إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)

قلت : (الصفا) فى أصل الوضع : جمع صفاة ، وهى الصخرة الصلبة الملساء ، يقال : صفاة وصفا ، كحصاة وحصى ، وقطاة وقطا ، ونواة ونوى. وقيل : مفرد ، وتثنيته : صفوان ، وجمعه : أصفاء ، و(المروة) ما لان من الحجارة وجمعه مرو ومروات ، كتمرة وتمر وتمرات. والمراد هنا جبلان بمكة ، و(شعائر اللّه) : أعلام دينه ، جمع شعيرة أو شعارة ، والشعيرة : كل ما كان معلما لقربان يتقرب به إلى اللّه تعالى ، من دعاء أو صلاة أو أداء فرض أو ذبيحة.

والحج فى اللغة : القصد ، والعمرة : الزيارة ، ثم غلبا شرعا فى العبادتين المخصوصتين.

وقرأ الأخوان وخلف : (يطّوع) بلفظ المضارع ، مجزوم اللفظ ، وهو مناسب لقوله (أن يطوف) ، أصله : يتطوع ، أدغمت التاء فى الطاء لقرب المخرج ، والباقون بلفظ الماضي ، مجزوم المحل ، وهو مناسب لقوله : (فمن حج البيت). و(الجناح) : الإثم ، من جنح إذا مال ، كأن صاحب الإثم مال عن الحق إلى الباطل ، و(خيرا) : صفة لمصدر محذوف ، أو على إسقاط الخافض.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الطواف بين الصَّفا وَالْمَرْوَةَ من معالم دينه ومناسك حجه ، فَمَنْ قصد الْبَيْتَ للحج أو العمرة فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بينهما ، ولا يضره الصنمان اللذان كانا عليهما فى الجاهلية فإن اللّه محا ذلك بالإسلام ، وَمَنْ تَطَوَّعَ للّه بخير من حج أو عمرة أو صلاة أو غير ذلك ، فَإِنَّ اللَّهَ يشكر فعله ويجزل ثوابه. واختلف فى حكمه ، فقال مالك والشافعي : ركن لا يجبر بالدم ، وقال أبو حنيفة : فرض يجبر بالدم ، وقال أحمد : سنة ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الصفا والمروة إشارة إلى الروح الصافية والنفس اللينة الطيبة ، فالاعتناء بتطهيرهما وتصفيتهما من معالم الطريق ، وبهما يسلك إلى عين التحقيق ، فمن قصد بيت الحضرة لحج الروح بالفناء فى الذات ، أو عمرة النفس بالفناء فى الصفات ، فلا جناح عليه أن يطوف بهما ويشرب من كأسهما ، حتى يغيب عن حسهما ، ومن تطوع خيرا ببذل روحه للّه ، والغيبة عنها فى شهود مولاه ، فإن اللّه يشكر فعله ، وينشر فضله ويظهر خيره ، ويتولى أمره ، واللّه ذو الفضل العظيم.

ولما ذكر الحق تعالى نسخ القبلة ردا على اليهود ، والمنكرين للنسخ ، رجع إلى معاتبتهم على كتمان الحق ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٥٩ الى ١٦٢]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالْهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)

قلت : الضمير فى (فيها) : يعود على اللعنة أو النار ، وإضمارها قبل الذكر تفخيما لشأنها ، وتهويلا لأمرها.

يقول الحق جل جلاله فى شأن أحبار اليهود حيث كتموا صفة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلناه عليهم فى كتابهم من صفة محمد - عليه الصلاة السلام - من الآيات الواضحات فى شأنه ، وبيان صفته وبلده وشريعته ، وما يهدى إلى وجوب اتباعه ، والإيمان به ، مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فى التوراة ، أُولئِكَ الكاتمون يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ويطردهم عن ساحة رحمته ، وَيَلْعَنُهُمُ الجن والإنس ، وكل من يتأتى من اللعن ، كالملائكة وغيرهم. إِلَّا الَّذِينَ تابُوا من الكتمان ، وكل ما يجب أن يتاب منه ، وَأَصْلَحُوا ما أفسدوا من الدين بالتدارك ، وَبَيَّنُوا ما كتموا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وأرحمهم وَأَنَا التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ أي : المبالغ فى قبول التوبة وإفاضة الرحمة ، وأما من مات على الكفر ولم يتب فأولئك عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ ، ومن يعتدّ بلعنته من الْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خالدين فى اللعنة أو فى النار لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ ساعة ، ولا هم يمهلون عنه ، أو لا ينتظرون للأعتذار أو الفداء.

الإشارة : ما قيل فى أحبار اليهود يقال مثله فى علماء السوء من هذه الأمة ، الذين ملكتهم جيفة الدنيا ، وأسرهم الهوى ، الذين يقبضون الرّشا على الأحكام ، فيكتمون المشهور الواضح ، ويحكمون بشهوة أنفسهم ، فأولئك يلعنهم اللاعنون ، وفى ذلك يقول ابن المبارك - رحمه اللّه - :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

وباعوا النفوس ولم يربحوا ولم تغل فى البيع أثمانها

لقد رتع القوم فى جيفة يبين لذى العقل إنتانها

وكان يحيي بن معاذ الرازي رضي اللّه عنه يقول لعلماء وقته : (يا معشر العلماء ، دياركم هامانيّة ، وملابسكم قارونية ، ومراكبكم فرعونية وولائمكم جالوتية ، فأين السنة المحمدية؟). إلا من تاب وأصلح ما أفسد ، وبيّن ما كتم ، فأولئك يتوب اللّه عليهم.

(١٨٩/١)

تنبيه : العلم باعتبار وجوب إظهاره وكتمه على ثلاثة أقسام :

قسم يجب إظهاره ، ومن كتمه دخل فى وعيد الآية ، وهو علم الشريعة الظاهرة ، إذا تعيّن على المسئول بحيث لم يوجد من يفتى فى تلك النازلة.

وقسم يجب كتمه ، وهو علم سرّ الربوبية ، أعنى التوحيد الخاص ، فهذا لا يجوز إفشاؤه إلا لأهله ، وهو من بذل نفسه وفلسه وخرق عوائد نفسه ، فهذا لا يحل كتمه عنه إذا طلبه.

وقسم يستحب كتمه ، وهو أسرار القدر المغيّبات ، فهذا من باب الكرامات يستحب كتمها ولا يجب ، واللّه تعالى أعلم.

هنا انتهى العتاب لبنى إسرائيل والكلام معهم ، وابتداؤه من قوله تعالى : يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ .. ، . وإنما تخلّل الكلام ذكر إبراهيم وبنيه توطئة لنسخ القبلة الذي أنكروه ، فذكر بناء الكعبة وبيان شرفها ، وانجر الكلام إلى ذكر الصفا والمروة لقرب المناسبة والجوار.

فلما فرغ من عتابهم دلهم على التوحيد ، وشاركهم فى ذلك غيرهم ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٦٣ الى ١٦٤]

وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)

قلت : إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ مبتدأ وخبر ، وجملة لا إِلهَ إِلَّا هُوَ : تقرير لها وتأكيد ، والرَّحْمنُ الرَّحِيمُ : خبران آخران ، أو عن مبتدأ مضمر ، وأنث الْفُلْكِ لأنه بمعنى السفينة ، ومِنَ السَّماءِ ابتدائية ، ومِنْ ماءٍ بيانية ، وبَثَّ : عطف على أَنْزَلَ أو فَأَحْيا لأن الحيوانات تنمو بنزول المطر والخصب ، والبث : النشر والتفريق وتَصْرِيفِ الرِّياحِ : هبوبها من الجهات المختلفة.

يقول الحق جل جلاله : وَإِلهُكُمْ يا معشر العباد الذي يستحق أن يعبد إِلهٌ واحِدٌ لا شريك له ، ولا نظير ، ولا ضد له ولا ند ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، إذ لا يستحق العبادة غيره ، إذ هو الرَّحْمنُ بنعمة الإيجاد الرَّحِيمُ بنعمة الإمداد ، فكل ما سواه مكون مخلوق ، إما منعم عليه أو نعمة ، فلم يستحق العبادة غيره.

ثم برهن على وجوده ، وثبوت وحدانيته بثمانية أمور ، فقال : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ طباقا متفاصلة مرفوعة بغير عمد ، وما اشتملت عليه من الكواكب والبروج والمنازل ، وفى الْأَرْضِ وما اشتملت عليه من الجبال والبحار والأنهار والأشجار وأنواع الثمار ، وفى اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ بالطول والقصر ، أو تعاقبهما بالذهاب والمجيء ، (و) فى الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بقدرته مع إمكان رسوبها إلى الأسفل ، متلبسة بِما يَنْفَعُ النَّاسَ من التجارة وغيرها. وقال البيضاوي : القصد الاستدلال بالبحر وأحواله ، وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه ولذلك قدّمه على ذكر المطر والسحاب ، لأن منشأهما منه فى الغالب. هـ.

(و) فى ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ من غير ظهور مادة سابقة ، بل تبرزه القدرة من عالم الغيب قريب عهد باللّه ، ولذلك (كان عليه الصلاة والسلام يتمطّر) أي : ينصب وجهه للمطر إذا نزل تبركا به ، فَأَحْيا الحق تعالى بذلك المطر الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ويبسها ، بالنبات والأزهار وأصناف النّوار والثمار ، وفيما نشر فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ من النملة إلى الفيلة ، (و) فى تَصْرِيفِ الرِّياحِ وهبوبها من جهات مختلفة ، وهى الجهات الأربع وما بينها بصفات مختلفة ، ملقّحة للشجر وعقيم وصر «١» ، وللنصر والهلاك ، (و) فى السَّحابِ الْمُسَخَّرِ أي : المذلّل بَيْنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا يسقط ولا يرتفع ، مع أن الطبع يقتضى أحدهما ، أو مسخر للرياح تقلّبه فى جو السماء بمشيئة اللّه لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. أي : تلك

المخلوقات آيات دالة على وحدانيته تعالى وباهر قدرته ، ولَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا.
وفى الآية حضّ على التفكر ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «ويل لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها» «٢» ، . أي :
لم يتفكر فيها ، وفيها دلالة على شرف علم التوحيد العام والخاص. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : قال الجنيد : (التوحيد معنى تضمحل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم ، ويكون اللّه كما لم يزل). قلت :
وهذا هو التوحيد الخاص ، أعنى توحيد أهل الشهود والعيان. ثم قال : (و أصوله خمسة أشياء : رفع الحدث ، وإثبات

---

(١) ريح صر وصرصر : شديدة البرد.
(٢) لم يرد هذا الحديث فى شأن هذه الآية ، وإنما ورد فى شأن قوله تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران. وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (الإحسان : كتاب الرقاق : باب التوبة ٢/ ١٠) مطولا عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

القدم ، وهجران الإخوان ، ومفارقة الأوطان ، ونسيان ما علم وجهل). هـ. قلت : قوله : (و هجران الإخوان) ، يعنى :
غير من يستعين بهم على السير ، وأما من يستعين بهم فلا يستغنى عنهم.
واعلم أن توحيد الخلق للّه تعالى على ثلاث درجات :
الأولى : توحيد العامة : وهو الذي يعصم النفس والمال ، وينجو به من الخلود فى النار ، وهو نفى الشركاء والأنداد ، والصاحبة والأولاد ، والأشباه والأضداد.
الثانية : توحيد الخاصة : وهو أن يرى الأفعال كلها صادرة من اللّه وحده ، ويشاهد ذلك بطريق الكشف لا بطريق الاستدلال ، فإنّ ذلك حاصل لكل مؤمن ، وإنما مقام الخاصة يقين فى القلب بعلم ضرورى لا يحتاج إلى دليل ، وثمرة هذا العلم الانقطاع إلى اللّه ، والتوكل عليه وحده ، فلا يرجو إلا اللّه ، ولا يخاف أحدا سواه ، إذ ليس يرى فاعلا إلا اللّه ، فيطرح الأسباب ، وينبذ الأرباب.
الدرجة الثالثة : ألا يرى فى الوجود إلا اللّه ، ولا يشهد معه سواه ، فيغيب عن النظر إلى الأكوان فى

شهود المكوّن ، وهذا مقام الفناء ، فإن ردّ إلى شهود الأثر باللّه سمى مقام البقاء. هـ. قال بعضه ابن جزىّ باختصار.

قلت : وفى التحقيق أنهما مقامان مقام أهل الدليل والبرهان ، وهو المذكور فى الآية ، لأنه هو الذي يطيقه جميع العباد ، ومقام أهل الشهود والعيان ، وهو خاص بالأفراد الذين بذلوا مهجهم فى طلب اللّه ، باعوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل اللّه ، فعوضهم اللّه فى الدنيا جنة المعارف ، وزادهم فى الآخرة جنة الزخارف.

(أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان) لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق تعالى عن أن يحتاج إلى دليل ، فكيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟ كيف يستدل عليه بما هو فى وجوده مفتقر إليه؟ أيكون لغيره من الظهور ما ليس له؟ - متى غاب حتى يحتاج إلى دليل عليه؟ ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التي توصل إليه؟ - وللّه در القائل :

لقد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكمه لا يبصر القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا وكيف يبصر من بالعزة استترا؟

وقال آخر «١» :

ما للحجاب مكان فى وجودكم إلا بسرّ حروف (انظر إلى الجبل)

أنتم دللتم عليكم منكم ولكم ديمومة عبّرت عن غامض الأزل

عرفتم بكم هذا الخبير بكم أنتم هم يا حياة القلب يا أملي

ولما كانت المحبة تزيد وتنقص باعتبار شهود الوحدانية ، فكلما قوى التوحيد فى القلب قويت المحبة لانحصارها فى واحد ، ذكرها بأثر التوحيد ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٦٥ الى ١٦٧]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ (١٦٦) وَقالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)

قلت : ويحتمل فى وجه المناسبة ، أن يكون الحق تعالى لمّا ذكر دلائل التوحيد ذكر من أعرض بعد وضوحها فأشرك معه ، ليرتب بعد ذلك ما أعدّ له من العذاب ، والأنداد : جمع ندّ وهو المثل ، والمراد

هنا الأصنام أو الرؤساء ، والإضافة فى كَحُبِّ اللَّهِ من إضافة المصدر إلى مفعوله ، والحبّ : ميل القلب إلى المحبوب ، وسيأتى فى الإشارة ، إن شاء اللّه.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أشباها وأمثالا من الأصنام والرؤساء يُحِبُّونَهُمْ ، وينقادون إليهم ، كما يحبون اللّه تعالى ، فيسوّون فى المحبة بين اللّه تعالى العلى الكبير ، وبين المصنوع الذليل الحقير ، وَالَّذِينَ آمَنُوا باللّه ووحّدوه أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ لأن المؤمنين لا يلتفتون عن محبوبهم فى الشدة ولا فى الرخاء ، بخلاف الكفار فإنهم يعبدونهم فى وقت الرخاء ، فإذا نزل البلاء التجئوا إلى اللّه. قال تعالى : ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ الآية ، وأيضا : المؤمنون يعبدون اللّه بلا واسطة ، والكفار يعبدونه بواسطة أصنامهم ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى وأيضا المؤمنون يعبدون ربا واحدا فاتحدت محبتهم.

قال سعيد بن جبير : (إن اللّه تعالى يأمر يوم القيامة من عبد الأصنام أن يدخلوا النار مع أصنامهم ، فيمتنعون لعلمهم بالخلود فيها ، ثم يقول للمؤمنين بين يدى الكفار : إن كنتم أحبائى فادخلوا ، فيقتحم المؤمنون النار ، وينادى مناد من تحت العرش : وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ. وفى ذلك يقول ابن الفارض :

---

(١) وهو الشسترى. [.....]

أحبّاى أنتم ، أحسن الدهر أم أسا فكونوا كما شئتم ، أنا ذلك الخلّ

وقال أيضا :

لو قال تيها : قف على جمر الغضا «١» ، لوقفت ممتثلا ولم أتوقّف

وقال آخر :

ولو عذّبتنى فى النار حتما دخلت مطاوعا وسط الجحيم

إذا كان الجحيم رضاك عنّى فما ذاك الجحيم سوى نعيم

الإشارة : المحبة : ميل دائم بقلب هائم ، أو مراقبة الحبيب فى المشهد والمغيب ، أو مواطأة القلب لمراد الرب ، أو خوف ترك الخدمة مع إقامة الحرمة ، أو استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك ، أو معانقة الطاعة ومباينة المخالفة ، وقال الشّبلى : (أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك) والمحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه ، ولا مشيئة له غير مشيئته ، وقال

الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه : (المحبة أخذة من اللّه لقلب عبده المؤمن عن كل شيء سواه ، فترى النفس مائلة لطاعته ، والعقل متحصنا بمعروفه ، والروح مأخوذة فى حضرته ، والسر مغمورا فى مشاهدته ، والعبد يستزيد من محبته فيزداد ، ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته ، فيكسى حلل التقريب على بساط القربة ، ويمسّ أبكار الحقائق وثيبات العلوم ، فمن أجل ذلك قالوا : أولياء اللّه عرائس ، ولا يرى العرائس المجرمون ...) إلخ كلامه.

واعلم أن محبة العبد لمولاه سببها شيئان :

أحدهما : نظر العبد لإحسان اللّه إليه وضروب امتنانه عليه ، وجبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وهذا هو المسمى بحب الهوى ، وهو مكتسب ، لأن الإنسان مغمور بإحسانات اللّه إليه ، ومتمكن من النظر فيها ، فكلما طالع منة من منن اللّه التي لا تقبل الحصر ولا العدّ ، كان ذلك كحبة زرعت فى أرض قلبه الطيب الزكي ، فلا يزال يطالع منة بعد منة ، وكلّ منة أعظم من التي قبلها ، لأنه كلما طالع المنن تنور قلبه وازداد إيمانا ، وكشف من دقائق المنن ما لم يكن يكشف له قبل ، وظهر له خفايا المنن ، وعظمت محبته.

---

(١) الغضى : شجر خشبه من أصلب الخشب ، وجمره يبغى زمانا طويلا لا ينطفئ.

الثاني : كشف الحجب ، وإزالة الموانع عن ناظر القلب ، حتى يرى جمال الحق وكماله ، والجمال محبوب بالطبع ، وهذان هما اللذان قصدت رابعة العدوية - رضى اللّه عنها - :

أحبّك حبّين : حبّ الهوى وحبّا لأنك أهل لذاك

فأمّا الذي هو حبّ الهوى فشغلى بذكرك عمّن سواك

وأمّا الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاك

وإنما خصّصت الحبّ الناشئ عن شهود الجمال بالأهلية دون الأول ، وإن كان أهلا للجميع لأن هذا منه إليه ، لا كسب للعبد فيه ، والآخر فيه كسب ، وعمل العبد معلول ، وقولها : (فشغلى بذكرك عمن سواك) من باب التعبير بالمسبب عن السبب ، والأصل : فثمرته شغلى بذكرك عمن سواك ، فهو مسبب عن المحبة لأنفسنا ، وقولها أيضا (كشفك للحجب حتى أراك) ، من باب التعبير بالسبب عن المسبب ، والأصل ، فبسببه كشفك للحجب حتى رأيتك بعيني قلبى. وقولها : (فلا الحمد ...) إلخ ، إخبار

منها بأن الحبّين معا منه وإليه وبه في الحقيقة ، لا كسب لها في واحد منهما باعتبار الحقيقة ، بل هو الحامد والمحمود ، وإدراك التفاوت بين المقامين ، - أعنى بين المحبة الناشئة عن شهود الإحسان ، والناشئة عن شهود الجمال - ضرورى عند كل ذائق ، وأن الثانية أقوى. قاله فى شرح الشريشية «١».

قال ابن جزيّ : اعلم أن محبة العبد لربه على درجتين أحدهما : المحبة العامة ، التي لا يخلو منها كل مؤمن ، وهى واجبة ، والأخرى : المحبة الخاصة التي ينفرد بها العلماء الربّانيون والأولياء والأصفياء ، وهى أعلى المقامات ، وغاية المطلوبات ، فإنّ سائر مقامات الصالحين : كالخوف والرجاء والتوكل ، وغير ذلك ، مبنية على حظوظ النفس ، ألا ترى أن الخائف إنما يخاف على نفسه ، والراجي إنما يرجو منفعة نفسه ، بخلاف المحبة ، فإنها من أجل المحبوب فليست من المعاوضة.

واعلم أن سبب محبة اللّه : معرفته ، فتقوى المحبة على قدر المعرفة ، وتضعف على قدر ضعف المعرفة ، فإن الموجب للمحبة أحد أمرين أو كلاهما إذا اجتمعا ، ولا شك أنهما اجتمعا فى حق اللّه تعالى على غاية الكمال

---

(١) الشريشية للشيخ أحمد بن محمد البكري الشريشى ، وشارحها أحمد بن يوسف الفاسى.

فالموجب الأول : الحسن والجمال ، والآخر الإحسان والإجمال ، فأما الجمال فهو محبوب بالطبع ، فإن الإنسان بالضرورة يحب كل ما يستحسن ، ولا جمال مثل جمال اللّه تعالى ، فى حكمته البالغة وصنائعه البديعة ، وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار ، التي تروق العقول وتبهج القلوب ، وإنما يدرك جماله تعالى بالبصائر لا بالأبصار.

وأما الإحسان فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وإحسان اللّه إلى عباده متواتر ، وإنعامه عليهم باطن وظاهر ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها ، ويكفيك أنه يحسن إلى المطيع والعاصي ، وإلى المؤمن والكافر ، وكل إحسان ينسب إلى غيره فهو فى الحقيقة منه وحده ، فهو المستحق للمحبة وحده.

واعلم أن محبة اللّه إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح ، من الجد فى طاعته ، والنّشط لخدمته ، والحرص على مرضاته والتلذذ بمناجاته ، والرضا بقضائه ، والشوق إلى لقائه ، والأنس بذكره ، والاستيحاش من غيره ، والفرار من الناس ، والانفراد فى الخلوات ، وخروج الدنيا من القلب ، ومحبة كل ما يحب اللّه ، وكل من يحب اللّه ، وإيثار اللّه على كل ما سواه.

قال الحارث المحاسبى : (المحبة ميلك إلى المحبوب بكلّيتك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ، ثم موافقته سرّا وجهرا ، ثم علمك بتقصيرك فى حبه).

قلت : ظاهره أن المحبة أعلى من المعرفة ، والتحقيق أن المعرفة أعلى من جميع المقامات لأنها لا تبقى معها بقية من الحجاب أصلا ، بخلاف المحبة ، فإنها تكون مع بقية الحجاب ، ألا ترى أن المحب يستوحش من الخلق ، والعارف لا يستوحش من شيء لمعرفته فى كل شيء.

قال فى الحكم : (إنما استوحش العبّاد والزهاد من كل شيء لغيبتهم عن اللّه فى كل شيء ، ولو عرفوا اللّه فى كل شيء ما استوحشوا من شى ء). وأيضا : العارف أكمل أدبا من المحب لأن المعرفة إنما تحصل بعد كمال التهذيب والتدريب ، وقد تحصل المحبة قبل كمال التهذيب ، مع أن المعرفة هى غاية المحبة ونهايتها ، واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق وعيد من أشرك مع اللّه فى عبادته أو محبته ، بعد وضوح برهان وحدانيته ، فقال : وَلَوْ يَرَى ...

(١٩٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ١٩٧

قلت : لَوْ شرطية ، ويَرَى شرطها ، قرأ نافع وابن عامر ويعقوب بالخطاب للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم أو لكل سامع ، والباقون بالغيب وإسناده إلى الظالم ، لأنه المقصود بالوعيد والتهديد ، وإِذْ ظرف للرؤية ، وموضع يَرَوْنَ خفض بالإضافة ، قرأ ابن عامر بضم الياء ، على البناء للمفعول ، والفاعل الحقيقي هو اللّه تعالى ، بدليل يُرِيهِمُ اللَّهُ ، والباقون بالفتح على البناء للفاعل ، على حد : وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ. وأَنَّ الْقُوَّةَ معمول للجواب المحذوف ، تعظيما لشأنه ، والتقدير : لو ترى يا محمد ، أو يا من يسمع ، الذين ظلموا حين يرون العذاب ، أو يريهم اللّه العذاب ، لرأيت أمرا فظيعا وخطبا جسيما ، ولعلمت أن القوة للّه جميعا.

وجَمِيعاً حال ، أي : أن القوة ثابتة فى حال اجتماعها ، وقرأ أبو جعفر ويعقوب (إنّ) بالكسر فى الموضعين على الاستئناف ، و(إذ تبرأ) بدل من (إذ يرون) ، والأسباب : العهود والوصل التي كانت بينهم فى الدنيا يتوادّون عليها ، وأصل السبب : كل شيء يتوصل به إلى شيء ، ومنه قيل للحبل الذي يصعد به : سبب ، وللطريق :

سبب ، قال الشاعر «١» :

ومن هاب أسباب المنيّة يلقها ولو رام أسباب السماء بسلّم

و(حسرات) : حال ، إن كانت بصرية ، على مذهب أهل السنة ، أو مفعول ثالث إن كانت علمية على

مذهب المعتزلة القائلين بعدم تشخص الأعمال.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ يَرَى يا محمد ، أو كل من يتأتى منه الرؤية ، حال الَّذِينَ ظَلَمُوا باتخاذهم الأنداد والأوثان ، بعد وضوح الأدلة وسطوع البرهان ، حيث يَرَوْنَ الْعَذابَ محيطا بهم ، والزبانية تغلبهم ، والنار تلتقطهم ، لرأيت أمرا فظيعا ، وخطبا جسيما ، ولعلمت أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ، أو لو يرى الذين ظلموا العذاب الذي أعد لهم بسبب شركهم ، لرأوا أمرا عظيما ، ولتيقنوا أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ.

وذلك حين يتبرأ المتبوعون - وهم الرؤساء - ، من الأتباع - وهم القلة الضعفاء - والحالة أنهم رَأَوُا الْعَذابَ الفظيع ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ أي : أسباب المودة والوصلات التي كانت بينهم فى الدنيا ، وصارت مودتهم عداوة ، وَقالَ حينئذ الضعفاء الَّذِينَ اتَّبَعُوا شياطينهم فى الكفر والضلال : لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً أي : رجعة للدنيا فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ أي : من كبرائهم كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا اليوم. كَذلِكَ أي : مثل ذلك الإبراء الفظيع يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ وندامات عَلَيْهِمْ فيدخلون النار على سبيل الخلود ، وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ.

---

(١) وهو زهير بن أبى سلمى.

الإشارة : يا من أقبل على مولاه ، وجعل محبة سيده بغيته ومناه ، فلم يشرك فى محبة حبيبه سواه ، لو رأيت من ظلم نفسه باتباع هواه ، وأشرك مع اللّه فى محبته سواه ، باتباع حظوظ دنياه ، وذلك حين يرون ما هم فيه من الانحطاط والبعاد ، وما أعد اللّه لأهل المحبة والوداد من الفوز بالقرب من الحبيب ، ومشاهدة جمال القريب ، لرأيت أمرا عظيما وخطبا جسيما ، ولعلمت أن القوة كلها للّه ، قرّب من شاء بفضله ورحمته ، وأبعد من شاء بعدله وحكمته ، وذلك حين يتبرأ الأكابر فى الجرم من الأصاغر ، ويقع التفريق بين الأصحاب والعشائر ، إلا من اجتمعوا على محبة الحبيب ، وتعاونوا على طاعة القريب المجيب ، الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ. لا تصحب من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على اللّه مقاله - فكل من صحب أهل الغفلة أو ركن إلى أهل الدنيا فلابد أن يرى ذلك حسرات يوم القيامة ، يوم لا ينفع الندم وقد زلّ القدم. وللّه درّ صاحب العينية رضي اللّه عنه حيث يقول :

وقاطع لمن واصلت أيام غفلة فما واصل العذّال إلا مقاطع

وجانب جناب الأجنبى لو انّه لقرب انتساب فى المنام مضاجع

فللنفس من جلّاسها كل نسبة ومن خلّة للقلب تلك الطّبائع

ولما حذّر الحق تعالى من الشرك الجلى والخفي ، حذّر من متابعة المشركين فى التحريم والتحليل بلا حكم شرعى فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٦٨ الى ١٦٩]

يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (١٦٩)

قلت : حَلالًا حال ، أو مفعول به ، وطَيِّباً نعت له ، والخطوات جمع خطوة ، وهى بالفتح – مصدر خطا يخطو ، وبالضم – اسم لمسافة ما بين القدمين ، ويكسّر على خطا ، ويصحّح على خطوات ، مثلث الطاء ، أعنى :

الضم على الإتباع ، كغرفات وقربات ، قال ابن مالك :

والسّالم العين الثّلاثى اسما أنل إتباع عين فاءه بما شكل

والسكون على الأصل فى المفرد ، والفتح تخفيفا ، قال فى الألفية :

وسكّن التالي غير الفتح أو خفّفه بالفتح فكلّا قد رووا

وقرئ فى المتواتر بالضم والإسكان ، وفى الشاذّ بالفتح.

قال الخليل : (خطوات الشيطان : آثاره وطرقه ، يقول : لا تقتدوا به). هـ. وأصل السوء : كل ما يسوء صاحبه ويحزنه. والفحشاء : ما قبح من القول والفعل ، مصدر فحش كالبأساء والضراء واللأواء.

قال ابن عباس : (الفحشاء : ما فيه حد ، والسوء : ما لا حدّ فيه) ، وقال مقاتل : (كل ما فى القرآن من ذكر الفحشاء فإنه الزنا ، إلا قوله : الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ فإنه البخل). قال البيضاوي : السوء والفحشاء : ما أنكره العقل واستقبحه الشرع ، والعطف لاختلاف الوصفين ، فإنه سوء لاغتمام العاقل به ، وفحشاء باستقباحه إياه ، وقيل : السوء يعم القبائح ، والفحشاء ما تجاوز الحدّ فى القبح. هـ.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا من جميع ما خلقنا لكم فى الأرض من نباتها مما يستطاب أكله ، وحيواناتها إلا ما حرمناه عليكم ، حالة كون ذلك حَلالًا قد انحلّت عنه التبعات ، وزالت عنه الشبهات ، طَيِّباً مستلذا يستلذه الطبع ، ويستحسنه الشرع ، وَلا تَتَّبِعُوا طرق الشَّيْطانِ فتحرّموا برأيكم ما أحلّ اللّه لكم ، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وبعض الحرث الذي جعلتموه للأصنام ، فإن

ذلك من تزيين الشيطان ، وهو لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. ومن شأن العدو الخداع والغرور ، فإنما يأمركم بما يسوء وجوهكم من الذنوب ، وما يرديكم من قبائح المعاصي والعيوب ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا علم لكم به من تحليل الحرام ، أو تحريم الحلال ، أو ادعاء الولد أو الصاحبة فى جانب الكبير المتعال.
الإشارة : اعلم أن الحق تعالى جعل للبشرية قوتا ونعيما تتنعم به ، وجعل للروح قوتا ونعيما تتلذذ به ، فقوت البشرية الطعام والشراب ، ونعيمها : الملابس والمناكح والمراكب. وقوت الروح : اليقين والعلوم والأنوار ، ونعيمها :
الشهود والاستبصار ، والترقي فى المعارف والأسرار ، فكما أن النفس تأكل مما فى الأرض حلالا طيبا ، كذلك الروح تأكل مما فى الأرض حلالا طيبا ، إلا أن أكل النفس حسى ، وأكل الروح معنوى ، وهو التفكر والاعتبار ، أو الشهود والاستبصار ، وفى ذلك يقول المجذوب رضي اللّه عنه :
الخلق نوّار وأنا رعيت فيهم
هم الحجاب الأكبر والمدخل فيهم
وقال الششترى رضي اللّه عنه :
عين الزّحام هو المسير لحيّنا

وكان شيخ شيوخنا سيدى على رضي اللّه عنه يقول : (من أراد أن يذوق فليذهب إلى السوق). وذلك لأنه مظنة الزحام ، وفيه عند الأقوياء الربح التام ، فيقال لهم : يا أيها الناس الكاملون فى الإنسانية كلوا مما فى الأرض بأرواحكم وأسراركم ، شهودا واعتبارا ، حلالا طيبا ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، فتقفوا مع ظواهر الأكوان ، فتحجبوا عن الشهود والعيان ، فإنه لكم فى صورة العدو المبين ، لكنه فى الحقيقة يحوشكم إلى الرسوخ والتمكين ، لأنه كلما حرككم بنزغه فزعتم إلى ربكم فى دفعه ، حتى يمكنكم من حضرته ، فإنما يأمركم بما يسوء وجوهكم ويغم قلوبكم ، من مفارقة شهود الأحباب ، والوقوف من وراء الباب ، وأن تقولوا على اللّه ما ليس بحق ولا صواب ، كثبوت السّوى ، أو الالتفات إلى الهوى. واللّه تعالى أعلم.
ثم أعلمنا الحق تعالى أن بعض من سبق عليه الشقاء لا يخرج عن هواه ، ولا يجيب من دعاه ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ١٧٠]
وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠)

قلت : الضمير في (لهم) يعود على (من يتخذ من دون اللّه أندادا) ، أو على (الناس) ، من قوله : (يا أيها الناس) ، أو على (اليهود) المتقدمين قبل ، وألفى : بمعنى وجد ، يتعدى إلى مفعولين ، وهما هنا : (آباءنا) والجار والمجرور ، أي : نتبع في الدين ما وجدنا آباءنا كائنين عليه.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا قِيلَ لهؤلاء المشركين من كفار العرب : اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ على رسوله من التوحيد ، وترك الأنداد له والأمثال ، وتحريم الحرام وتحليل الحلال ، قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وجدنا عَلَيْهِ آباءَنا من عبادة الأصنام ، وارتكاب المعاصي والآثام ، قال الحق جل جلاله : أيتبعونهم تقليدا وعمى ، ولو كان آباؤهم جهلة لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً من الدين ، ولا يتفكرون في سبيل المهتدين؟! وقال ابن عباس - رضى اللّه عنهما - : دعا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم اليهود إلى الإسلام ، ورغبهم فيه ، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف :

بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، فهم كانوا خيرا وأعلم منا ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية. هـ.

الإشارة : وإذا قيل لمن أكبّ على دنياه ، واتخذ إلهه هواه ، فأشرك في محبة اللّه سواه : أقلع عن حظوظك وهواك ، وأفرد الوجهة إلى مولاك ، واتبع ما أنزل اللّه من وجوب مخالفة الهوى ومحبة المولى ، قال : بل أتبع ما وجدت عليه الآباء والأجداد ، وأكبّ عليه جلّ العباد ، فيقال له : أتتبعهم في متابعة الهوى ، ولو كانوا لا يعقلون شيئا

من طرق الهدى؟ وقد قال - عليه الصلاة والسلام - : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به». هـ.

ثم ضرب الحق مثلا لمن تبع هواه ، فأصمّه وأعماه ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٧١]

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعاءً وَنِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)

قلت : (و مثل) إلخ ، يحتمل أن يكون على حذف مضاف ، أي : مثل واعظ الذين كفروا ، أو لا يحتاج إلى تقدير. وسيأتي بيانه ، ونعق ، كضرب ، ينعق نعقا ونعيقا ، إذا صاح وزجر.

يقول الحق جل جلاله : وَمَثَلُ واعظ الَّذِينَ كَفَرُوا وداعيهم إلى اللّه كَمَثَلِ الراعي الذي يرعى البهائم ، وينعق عليها ليزجرها ، أو يدعوها فإذا سمعت النداء رفعت رءوسها ولم تعقله ، ثم عادت إلى مراعيها ، فلا تسمع من الراعي يزجرها إِلَّا دُعاءً وَنِداءً ، ولا تفقه ما يقول لها ، كذلك الكفار المنهمكون في الكفر ، إذا دعاهم أحد إلى التوحيد لا يلتفتون إليه ، ولا يفقهون ما يقول لهم ، كالبهائم أو أضل.

أو مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فى انهماكهم فى التقليد والجهل ، مع من يدعوهم إلى اللّه كَمَثَلِ بهائم الذي ينعق ويصيح عليها صاحبها فلا تسمع إِلَّا دُعاءً وَنِداءً ولا تفقه ما يقول لها ، أو مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فى دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تعقل ، كمثل الناعق بغنمه ، فلا ينتفع من نعيقه بشيء ، غير أنه فى عناء وتعب من دعائه وندائه ، ثم وصفهم بالصمم والبكم والعمى مجازا ، أي : هم صُمٌّ عن سماع الحق فلا يعقلونه ، بُكْمٌ عن النطق به ، عُمْيٌ عن النظر إلى أسبابه ، أو عن الهدى فلا يبصرونه ، فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ شيئا ولا يتدبرون.

الإشارة : إذا تمكن الهوى من القلوب عزّ دواؤه وشق علاجه ، وعظم على الأطباء عناؤه ، فالمنهمكون فى الغفلة لا ينفع فيهم التذكير ، ولا ينجح فيهم التخويف والتحذير ، فالواعظ لهم كالناعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء ونداء ، قد أعماهم الهوى ، وأصمهم عن سماع أسباب الهدى.

(إنّ الهوى ما تولّى يصم أو يصم) «١»

---

(١) قوله : (يصم) ، أي : يقتل ، من أصميت الصيد ، إذا رميته فقتلته وأنت تراه ، وقوله : (أو يصم) أي : يعيب ، من الوصم ، وهو العيب ، يقال : ما فى فلان وصمة ، أي : عيب. قلت : وهذا شطر بيت ، أوله : (فاصرف هواها وحاذر أن توليه) والبيت من القصيدة المعروفة بالبردة للبوصيرى

فلا يقلع الهوى من قلوبهم إلا بسابق العناية ، أو هبوب ريح الهداية ، فتثير فى قلوبهم خوفا مزعجا ، أو شوقا مقلقا ، أو نورا خارقا وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ.

ولما فرغ من تذكير الكفار وتخويفهم ذكّر المؤمنين ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٧٢ الى ١٧٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)

قلت : أصل اضطرّ : أضترر ، على وزن افتعل ، من الضرر ، أبدلت التاء طاء لقرب مخرج التاء من الطاء ، قال فى الألفية :

طاتا افتعال ردّ إثر مطبق ثم أدغمت الراء فى الراء بعد ذهاب حركتها ، وقرأ أبو جعفر : بكسر الطاء حيث وقع. ووجهه : نقل حركة الراء إلى الطاء ، وأصل البغي : قصد الفساد ، يقال : بغى الجرح بغيا ،

إذا ترامى إلى الفساد ، ومنه قيل للزنا : بغاء ، وللزانية :
بغى ، وأصل العدوان : الظلم ومجاوزة الحد ، يقال : عدا يعدو عدوانا وعدوا.
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا من لذيذ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وقفوا عند ما حلّ لكم ولا تحرموا برأيكم ما أحللنا لكم ، كما فعل من سلف قبلكم ، وَاشْكُرُوا نعمة اللّه عليكم الظاهرة والباطنة إِنْ كُنْتُمْ تخصّونه بعبادتكم ، فقد أحللنا لكم جميع ما خلقنا لكم على وجه الأرض التي تقلكم.
إِنَّما حرمنا عَلَيْكُمُ ما فيه ضرركم كالميتة لخبثها ، وَالدَّمَ لأنه يقسى قلوبكم ، وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ لأنه يورث عدم الغيرة ، وما ذكر عليه غير اسم اللّه ، وهو الذي أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ أي : رفع الصوت عند ذبحه لغير اللّه ، وهو الصنم فَمَنِ اضْطُرَّ وألجئ إلى شيء من هذه المحرمات ، غَيْرَ باغٍ أي : ظالم بأكلها اختيارا ، وَلا عادٍ متعدّ يتعدى الحلال إلى الحرام ، فيأكلها وهو غنى عنها فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ، أو غَيْرَ باغٍ غير قاطع للطريق ، وَلا عادٍ : مفارق للأمة خارج عن الجماعة ، فمن خرج يقطع الرحم ، أو يخيف ابن السبيل ، أو يفسد فى الأرض ، أو أبق من سيده ، أو فرّ من غريمه أو عاصيا بسفره ، واضطر إلى شيء من هذه ، فلا تحلّ له حتى يتوب ويأكل ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وقال سهل بن عبد اللّه : غَيْرَ باغٍ : غير مفارق للجماعة وَلا عادٍ :
مبتدع مخالف للسنة ، فلم يرخص للمبتدع تناول المحرمات عند الضرورات.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إيمان أهل العرفان ، كلوا من طيبات ما رزقناكم من حلاوة الشهود والعيان ، واشكروا اللّه الكريم المنّان ، إن كنتم تخصونه بالعبادة والإحسان ، أو : يا أيها الذين آمنوا إيمان أهل الصفاء ، ووقفوا مع الحدود وقوف أهل الوفاء ، كلوا من طيبات ما رزقناكم من ثمرات بساتين العلوم ، واشكروا للّه يزدكم من المواهب والمفهوم ، إن كنتم تعبدون الحي القيوم ، إنما حرم عليكم ما يعوقكم عن هذه المواهب ، أو ينزلكم عن منابر تلك المراتب ، كالميل إلى جيفة الدنيا ، أو الركون إلى متابعة الهوى ، أو تأخذون منها ما قصد به غير اللّه ، أو تقبضونها من يد غير اللّه. فمن اضطر إلى أخذ شيء من نجاستها ، فأخذ القدر الذي احتاج إليه منها ، دون التشوّف إلى ما زاد عليه ، غير قاصد بذلك شهوة ولا متعة ، فلا إثم عليه ، إن اللّه غفور رحيم.
قال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضي اللّه عنه لما تكلم على الغنيّ باللّه ، قال : (علامته هو الذي ترك الدنيا للخلق ، حتى لا يكون له فيها حق معهم ، إلا ما فضل عنهم من بعد اضطراره واحتياجه ، ويترك الآخرة لمولاه ، حتى لا يكون له فيها حق إلا النظر فى وجه اللّه ، ويترك أيضا نفسه للّه حتى لا

يكون فيها حق إلا حق مولاه ، ولا إرادة له إلا ما أراد مولاه ، ويكون كالغصن الرطب أينما مالت به الريح يلين ويميل معها ، ولا ينكر على الخلق حالا من أحوالهم). هـ.

ومن جملة ما ألحق بهذه المحرمات الرّشا وأكل أموال الناس بالباطل ، ولذلك ذكره اللّه تعالى بإثر ما أحلّه للمؤمنين ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٧٤ الى ١٧٦]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى وَالْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)

قلت : (ما) تعجبية ، مبتدأ ، وهى نكرة ، وسوّغ الابتداء معنى التعجب ، وجملة (أصبرهم) خبر ، أي : أىّ شىء عظيم صيرّهم صابرين ، أو استفهامية ، أي : أىّ شىء حملهم على الصبر على النار؟.

يقول الحق جل جلاله فى رؤساء اليهود وعلمائهم ، كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والخراج ، ويدّعون أن النبي المبعوث منهم ، فلما بعث نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم خافوا ذهاب مأكلتهم ورئاستهم ، فأنزل اللّه : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ فى التوراة من صفة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، ويحرفونها فى المعنى وينزعونها مِنَ الْكِتابِ أي : التوراة ، وَيَشْتَرُونَ بذلك التحريف ثَمَناً قَلِيلًا أي : عوضا حقيرا يذهب ويفنى فى زمان قليل ، أُولئِكَ الذين يكتمون ويأكلون ذلك العوض الحقير - ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إلا نار جهنم لأنها مآلهم وعقوبة أكلهم ، وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ إهانة وغضبا عليهم حين يكلم أولياءه ويسلم عليهم ، وَلا يُزَكِّيهِمْ أي : لا يطهرهم من دنس ذنوبهم حتى يتأهلوا للحضرة ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ موجع. أُولئِكَ الَّذِينَ استبدلوا الضَّلالَةَ بِالْهُدى أي :

باعوا الهدى واشتروا به الضلالة ، واستبدلوا الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ التي كانت لهم لو آمنوا وبيّنوا ، فما أجرأهم على اقتحام النار باقتحام أسبابها ، أو فما أبقاهم فى النار ، أو ما الذي أصبرهم على النار حتى تركوا الحق ومالوا إلى الباطل؟! استفهام توبيخى.

ذلِكَ العذاب الذي استحقوه وتجرءوا عليه بسبب أن اللَّهَ تعالى نَزَّلَ الْكِتابَ القرآن ملتبسا بِالْحَقِّ ، فاختلفوا فيه فآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ أي : لفى خلاف وضلال بعيد.

الإشارة : كل من كتم علمه ، ولم ينشره إلا فى مقابلة حظ دنيوى ، صدق عليه قوله تعالى : وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ. روى أن بعض الصحابة كان يقرئ أهل الصّفّة ، فأهدى له أحدهم قوسا ، فأتى به النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : يا رسول اللّه : كنت أعلم أهل الصفة فأهدى لى فلان قوسا ، وقال : هو للّه ، فقال له - عليه الصلاة والسلام - : «لقد تقلدت قوسا من نار جهنم». أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأمره بردّه. ولعل هذا من باب الورع ، فأراد عليه السّلام أن يرفع همة ذلك الصحابي ، وإلا فقد ورد فى الحديث : «أحقّ ما أخذتم عليه الأجر كتاب اللّه».

فمن ملكته نفسه ، وأسره الهوى ، فقد اشترى الضلالة بالهدى ، اشترى الضلالة عن طريق أولياء اللّه ، بالهدى الذي كان له لو ملك نفسه وهواه ، وعذاب القطيعة والحجاب ، بالمغفرة والدخول مع الأحباب ، فما أصبرهم على غم الحجاب وسوء الحساب ، سبب ذلك اختلاف قلبه ، وتفريق همه ولبّه ، وقد قال - عليه الصلاة والسلام - : «اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا». أو كما قال.

وسبب تفرق القلب وعدم حضوره ، حبّ الدنيا فقد قال عليه الصلاة والسلام : «من كانت الدّنيا همّة فرّق اللّه عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدّنيا إلا ما قسم له ، ومن كانت الآخرة نيته ، جمع اللّه عليه أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة».

والقلب الذي اختلف فى فهم الكتاب وتشتّت عنه فى شقاق بعيد عن الحضرة لأن عنوان صحة القلب : جمعه على كلام اللّه وتدبر خطابه والتلذذ بسماعه ، وقد تقدم فى أول السورة درجات القراءة. فانظره إن شئت. وباللّه التوفيق.

ولما ادّعت اليهود والنصارى أن البرّ خاص بقبلتهم ، لأنها قبلة الأنبياء ، ردّ اللّه تعالى عليهم ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٧٧]

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقابِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

قلت : لمّا ذكر الحق تعالى التوحيد وبراهينه الذي هو رأس الدين ، وحذّر من الشرك وفروعه ، ذكر هنا

بقية أركان الدين ، وهى الإيمان والإسلام ، فذكر فى هذه الآية قواعد الإيمان وبعض قواعد الإسلام وهى الصلاة والزكاة ، ثم ذكر بعد ذلك الصيام وأحكامه ، ثم ذكر الحج وأركانه ، ثم ذكر الجهاد والنكاح والطلاق والعدّة ، ثم ذكر البيوع وما يتعلق بها من الربا ، ثم الشهادات والرهان ، وبها ختم السورة.

لكن الحديث ذو شجون ، والكلام يجرّ بعضه بعضا ، فقوله : لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا : اسم ليس وخبرها ، وكلاهما معرّفتان ، الأول بأل والثاني بالإضافة ، إذا التقدير : تولية وجوهكم ، فمن رجّح تعريف الألف واللام ، جعل (البر) اسمها ، و(أن تولوا) خبرها ، وبه قرأ الأكثر ، ومن رجح الإضافة جعل (البر) خبرها مقدما ، والمصدر اسمها مؤخرا ، وبه قرأ حمزة وحفص.

وقوله : وَلكِنَّ الْبِرَّ من خفّف جعلها عاطفة الجملة ، والْبِرَّ مبتدأ ، و(من آمن) خبر على حذف مضاف ، أي : برّ من آمن إذ لا يخبر بالذات عن المعنى ، أو قصد المبالغة ، ومن شدّد نصب بها ، لوقوعها بين

جملتين ، وهى استدراكية ، وعَلى حُبِّهِ حال من المال ، والصَّابِرِينَ نصب على المدح ، ولم يعطفه بالرفع لفضل الصبر وشرفه.

يقول الحق جل جلاله فى الرد على أهل الكتاب : لَيْسَ الْبِرَّ محصورا فى شأن القبلة ، وَلكِنَّ الْبِرَّ الذي ينبغى أن يعتنى بشأنه هو الإيمان باللّه ، وما يجب له من الكمالات ، وباليوم الآخر وما بعده ، وبالملائكة وما يجب أن يعتقد فى شأنهم ، والكتاب المنزل من السماء كالقرآن وغيره ، والنَّبِيِّينَ وما يجب لهم وما يستحيل فى حقهم.

فالبر هو بر من اعتقد فى قلبه هذه الأشياء ، وأظهر على جوارحه ما يصدق صحة اعتقادها ، وذلك كالاتصاف بالسخاء والكرم ، فأعطى المال على محبته له ، أي : مع حبه ، فقد سئل - عليه الصلاة والسلام - : «أىّ الصّدقة أفضل؟ فقال : أن تتصدّق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغنى وتخشى الفقر». وَآتَى الْمالَ على حب اللّه ، لا جزاء ولا شكورا ، فأعطى ذلك المال ذوى قرابته المحاويج ، وقدّمهم لقوله - عليه الصلاة والسلام - :

«صدقتك على المساكين صدقة ، وعلى ذوى القربى اثنتان صدقة وصلة». وأعطى الْيَتامى لإهمالهم ، وأعطى الْمَساكِينَ الذين أسكنهم الفقر فى بيوتهم ، وَابْنَ السَّبِيلِ وهو المسافر الغريب ، كأن الطريق ولدته ، أو الضيف وَالسَّائِلِينَ ألجأتهم الحاجة إلى السؤال. وفى الحديث : «أعط السائل ولو على فرسه». وقال أيضا صلّى اللّه عليه وسلّم : «هدية اللّه إلى المؤمن السائل على بابه». وأعطى فى فكّ

الرِّقابِ من الرق أو الأسر.
وَأَقامَ الصَّلاةَ المفروضة ، وَآتَى الزَّكاةَ المعلومة. ومن أهل البر أيضا : الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ فيما بينهم وبين اللّه ، وفيما بينهم وبين الناس إذا عاهَدُوا اللّه أو عباده ، فإذا وعدوا أنجزوا ، وإذا حلفوا أو نذروا أوفوا ، وإذا قالوا صدقوا ، وإذا ائتمنوا أدّوا ، وأخصّ من أهل البر الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ كالفقر والذل وإذاية الخلق ، والضَّرَّاءِ كالمرض والزّمانة «١» ، أو (البأساء) : الأهوال ، و(الضراء) فى الأنفس ، والصابرين حِينَ الْبَأْسِ أي : الحرب والجهاد ، أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا فى طلب الحق ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لكل ما يقطع عن الحق ، أو يشغل عنه. فقد اشتملت هذه الآية على كمالات الإنسان بأسرها لاشتمالها على ما يزين البواطن من الاعتقادات وما يزين الظواهر من المعاملات ، وما يزكّى النفوس من الرذائل ويحليها بالمحاسن والكمالات. ولذلك

---

(١) الزمانة : مرض يدوم.

وصف المتصف بها بالصدق والتقى ، اللذين هما أساس الطريقة ومبنى أسرار التحقيق ، وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

الإشارة : ليس المطلوب من العبد أن يتوجّه إلى الحق بجهة مخصوصة ، كما إذا توجه إليه بالظاهر وأهمل الباطن ، أو توجه بالباطن وأهمل الظاهر ، ولكن المطلوب منه أن يزين باطنه بأنوار الإيمان واليقين ، ويزين ظاهره بسائر وظائف الدين ، ويزكى نفسه من الرذائل كالشح والبخل والغش والخيانة والكذب والخوف والجزع ، ويحليها بأنواع الفضائل كالسخاء والكرم والوفاء بالعهد والأمانة ، والصبر والشجاعة ، والعفة والقناعة ، وسائر أنواع الفضائل ، فإذا تخلى عن الرذائل وتحلى بأضدادها من الفضائل استحق الدخول مع الأبرار ، وكان من العارفين الكبار ، أولئك الذين ظفروا بصدق الطلب فنالوا الغاية من كل مطلب ، وأولئك هم المتقون حق التقاة ، فنالوا أعلى الدرجات ، منحنا اللّه من ذلك الحظ الوافر بمنّه وكرمه.

ولمّا مدح اللّه تعالى الصبر والجرأة فى الحرب ، أمر بالقصاص لئلا يتسع الناس فى إطلاق الجرأة ، حتى يتجرءوا على قتل المسلم ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٧٨ الى ١٧٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ

لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)

قلت : (عفا) لازم يتعدى بالحرف : بعن إلى الجناية ، وباللام إلى الجاني ، فيقال : عفوت لفلان عن جنايته و(اتباع) خبر عن مضمر ، أي : فالأمر اتباع ، و(حياة) مبتدأ ، و(فى القصاص) خبره ، و(لكم) خبر ثان ، أو صلة له ، أو حال من الضمير المستكن فيه. وفيه من البلاغة والفصاحة ما لا يخفى ، جعل الشيء مجيىء ضده ، وعرّف القصاص ونكّر الحياة ليدل على التعظيم والتعميم ، أي : ولكم نوع من الحياة عظيم ، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل ، فيكون سبب حياة نفسين ، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل ، والجماعة بالواحد ، فتثور الفتنة بينهم ، فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون ، ويصير ذلك سببا لحياتهم. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : يا أيها المؤمنون كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي شأن الْقَتْلى فى العمد ، فاستسلموا للقصاص ، فالحر يقتل بِالْحُرِّ ، ولا يقتل بالعبد. بل يغرم قيمته لسيده ، ودليله قوله - عليه الصلاة

(٢٠٧/١)

والسلام - : «لا يقتل مسلم بكافر ولا حرّ بعبد» ، والعبد يقتل بالعبد ، إن أراد سيد المقتول قتله ، فإن استحياه خيّر سيده بين إسلامه وفدائه بقيمة العبد. وكذلك إن قتل الحر خيّر أولياؤه بين قتله أو استرقاقه ، فإن استحيوه خيّر سيده بين إسلامه وفدائه بدية الحر العمد ، والأنثى تقتل بالأنثى والذكر ، والذكر يقتل بالأنثى.

وتخصيص الآية بالمساوي ، قال مالك : (أحسن ما سمعت فى هذه الآية : أنه يراد بها الجنس - أي : جنس الحر - والذكر والأنثى فيه سواء. وأعيد ذكر الأنثى تأكيدا وتهمّما بإذهاب أمر الجاهلية). هـ. يعنى أن (أل) فى الحر :

للجنس ، تشمل الذكر والأنثى. وأعاد ذكر الأنثى اهتماما برد ما كان يفعله الجاهلية من عدم القود فيها.

ثم قال الحق جل جلاله : فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ دم أخيه شَيْءٌ ولو قلّ ، فقد سقط القتل ، فالواجب اتباع للقاتل بالدية بِالْمَعْرُوفِ من غير تعنيف ولا تعنيت ، وَأَداءٌ من القاتل بِإِحْسانٍ من غير مطل ولا بخس. ذلِكَ - الذي شرعت لكم من أمر العفو والدية - تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ بكم ، وقد كتب على اليهود القصاص وحده ، وعلى النصارى العفو مطلقا. وخيّركم أيها الأمة المحمدية بين أخذ الدية والقصاص. فَمَنِ اعْتَدى بعد أخذ الدية وقتل فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا : بأن يقتل لا محالة

لقوله – عليه الصلاة والسلام – : «لا أعافى أحدا قتل بعد أخذ الدّية».

وَلَكُمْ يا معشر المسلمين فِي تشريع الْقِصاصِ حَياةٌ عظيمة فى الدنيا ، لانزجار القاتل إذا علم أنه يقتص منه ، وقد كانوا يقتلون الجماعة فى الواحد ، فسلموا من القتل بشروع القصاص ، أو فى الآخرة ، فإن القاتل إذا اقتصّ منه فى الدنيا لم يؤخذ به فى الآخرة ، فاعتبروا يا أُولِي الْأَلْبابِ أي : العقول الكاملة ، ما فى حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ اللّه فى المحافظة على القصاص ، والحكم به والإذعان له ، أو تكفّون عن القتل خوفا من اللّه.

الإشارة : كما جعل اللّه القصاص فى الجناية الحسية ، جعل القصاص فى الجناية المعنوية ، وهى الجناية على النفس بسوء الأدب مع اللّه ، فكل من صدر منه هفوة أو زلة ، اقتص الحق تعالى منه فى دار الدنيا ، إن كانت له من اللّه عناية ، الكبيرة بالكبيرة والصغيرة بالصغيرة. وتأمّل قضية الرجل الذي كان يطوف بالكعبة ، فنظر إلى امرأة ، فلطمته كفّ من الهوى ، وذهبت عينه ، فقال : آه ، فقيل له : لطمة بنظرة ، وإن زدت زدنا. هـ. وقضية أبى تراب النخشبى : قال رضي اللّه عنه : ما تمنت نفسى شهوة من الشهوات إلا مرة واحدة ، تمنيت خبزا وبيضا وأنا فى سفر ، فعدلت إلى قرية ، فقام واحد ، وتعلق بي ، وقال : هذا رأيته مع اللصوص ، فضربونى سبعين درة ، ثم عرفنى رجل منهم ، وحملنى إلى منزله ، وقدّم لى خبزا وبيضا. فقلت فى نفسى : كلّ بعد سبعين درة.

(٢٠٨/١)

وقضية أبى الخير العسقلاني : اشتهى السمك فلما مدّ يده ليأكل أخذت شوكة من عظامها أصبعه ، فذهبت فى ذلك يده. وقضية إبراهيم بن شيبان : قال : (اشتهيت شبعة من الخبز والعدس ، فاتفق ذلك ، فأكلت حتى شبعت ، ثم رأيت منكرا ، فغيرته ، فأخذونى وضربونى مائة خشبة ، وطرحونى فى السجن أربعة أشهر ، حتى شفع فيّ شيخى ، فخرجت ، وقال : أخذتها مجانا) ، أي : حيث عوقبت فى ظاهرك دون باطنك.

وقضية خير النسّاج : قال : (عاهدت اللّه وعقدت ألّا آكل الرّطب فغلبتنى نفسى ، فأخذت نصف رطل ، فلما أكلت واحدة إذا برجل نظر إليّ وقال : يا خير ، أين هربت منى؟ وكان له عبد اسمه خير ، فوقع عليّ شبهه – قال :

فبقيت معه عدة أشهر أنسج له الكرباس – وهو القطن الأبيض – ، ثم تبت فزال عنى الشّبه).

فمن عفى له عن شيء من هذه الجناية ، بعد الأدب أو قبله ، فليشكر اللّه ، ويتبع ما أمره به ، ويؤدى ما فرضه عليه بالمعروف ، من غير إسراف ، ولا تقصير ، ذلك تخفيف من اللّه عنه ، ورحمة به ، فمن

اعتدى بعد ذلك ، ورجع إلى ما تاب عنه فله عذاب أليم ، وهو الطرد عن حضرة الأحباب ، إلى الوقوف بالباب أو سياسة الدواب ، إلا من تاب وعمل صالحا فإن اللّه يتوب على من تاب. ولكم فى القصاص فى دار الدنيا - حياة عظيمة لأرواحكم وأسراركم لأن ذلك اعتناء بكم يا أولى الألباب ، لعلكم تتقون كل ما يشغلكم عن مولاكم.

ولمّا ذكر القصاص وهو مظنّة الموت ، والموت من أسباب الوصية ذكرها بإثره ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٨٠ الى ١٨٢]

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)

قلت : إِذا حَضَرَ ظرف ، العامل فيه : كُتِبَ ، أي : توجّه إيجاب الوصية عليكم إذا حضر الموت. أو مصدر محذوف يفهم من الوصية ، أي : كتب عليكم الإيصاء إذا حضر الموت ، والْوَصِيَّةُ نائب فاعل كُتِبَ ، ولا يصح أن تعمل فى (إذا) لتقدمه عليها لأن المصدر لا يعمل فى ما قبله ، إلا على مذهب الأخفش. اللهم إلا أن يتوسع فى الظروف ، وجواب الشرطين محذوف ، أي : إذا حضر أحدكم الموت ، إن ترك خيرا ، فقد كتبت عليه الوصية.

والجنف : الميل عن الصواب ، فإن كان خطأ فهو جنف بلا إثم ، وإن كان عمدا فهو جنف إثم.

(٢٠٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢١٠

يقول الحق جل جلاله : كتب اللّه عَلَيْكُمْ أن توصوا للوالدين والأقربين إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، إِنْ تَرَكَ المستحضر خَيْراً أي : مالا ، قال سيدنا علىّ - كرم اللّه وجهه - : (ألف درهم فصاعدا ، فلا وصية فى أقل).

وقال النخعي : (خمسمائة درهم لا أقل). وقال الزّهرى : (تجب فيما قل وكثر) ، وعن عائشة - رضى اللّه عنها - :

(أن رجلا أراد أن يوصى ، فسألته : كم مالك؟ فقال : ثلاثة آلاف. فقالت : كم عيالك؟ فقال : أربعة ، فقالت : لا ، إنما قال اللّه تعالى إِنْ تَرَكَ خَيْراً وإن هذا لشئ يسير ، فاتركه لعيالك).

وتكون تلك الوصية بِالْمَعْرُوفِ ، أي : بالعدل ، فلا يفضل الذكور ، ولا يتجاوز الثلث. قد حقّ اللّه ذلك حَقًّا واجبا عَلَى الْمُتَّقِينَ ، فمن غيّره من الأوصياء أو الشهود بَعْدَ ما سَمِعَهُ وعلمه ، فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ من الأوصياء أو الشهود ، لأنه هو الذي خالف الشرع وغيّر دون الميت ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ فلا يخفى عليه من بدّل أو غيّر ، فهو حسيبه ومعاقبه ، فَمَنْ خافَ أي : علم مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أي : ميلا بالخطأ فى الوصية ، أَوْ إِثْماً تعمدا للجنف ، فَأَصْلَحَ بين الموصى لهم وبين الورثة ، بأن أجراهم على منهاج الشرع ، أو نقص للموصى لهم ، أو زاد لمصلحة رآها فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لأنه تبديل لمصلحة. والتبديل الذي فيه الإثم إنما هو تبديل الهوى ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فيغفر للمبدّل لمصلحة ويرحمه.
وهذه الآية منسوخة فى وصية الوالدين ، محكمة فى الأقربين غير الوارثين ، بقوله - عليه الصلاة والسلام - فى الحديث المشهور : «إنّ اللّه أعطى كلّ ذى حقّ حقّه. فلا وصيّة لوارث» ، فإذا كان الوالدان غير وارثين كالكافرين أو العبدين فهى محكمة ، واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : اعلم أن المريد إذا منع نفسه من الشهوات ، وحفظ قلبه من الخطرات ، وصان سره من الغفلات - وأعظم الشهوات حبّ الرئاسة والجاه ، فإذا قتل نفسه ونزل بها إلى السّفليات حتى حضرها الموت ، وانقطع عنها الخواطر والخيالات - فإنها تفيض بالعلوم والواردات ، فالواجب من طريق الجزم أن يقيد تلك العلوم ، أو يوصى من يقيدها لينتفع بها الوالدان وهما الأشياخ ، والأقربون وهم الإخوان. فإن الحكمة ترد فى حال التجلي كالجبل ، فإن لم يقيدها وأهملها رجعت كالجمل ، فإن أهملها رجعت كالكبش ، فإن أهملها رجعت كالطير ، ثم ترجع كالبيضة ثم تذهب. هكذا كان يقول شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضي اللّه عنه ، وكان شيخه سيدى العربي بن عبد اللّه يقول له :
(إن ورد عليك وارد فقيّده وأعطنى منه نسخة). وهكذا كان أشياخنا يأمروننا بتقييد الواردات ، فمن قيّد واردا

أو سمعه من غيره ، فلا يغيره بمجرد رأيه وهواه. فإن تحقق منه نقصا أو ميلا عن منهاج الطريقة والحقيقة ، فأصلحه ، فلا إثم عليه ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.
ولما ذكر فى الآية المتقدمة قاعدتين من قواعد الإسلام فى قوله : وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ ، بعد أن ذكر قواعد الإيمان ، ذكر هنا القاعدة الثالثة ، وهى الصيام ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٨٣ الى ١٨٥]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ

عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

قلت : (أياما) منصوب على الظرفية ، واختلف فى العامل فيه ، والأحسن أنه الصيام ، ولا يضره الفصل لأن الظرف يتوسع فيه ما لا يتوسع فى غيره ، و(معدودات) نعت له ، و(عدة) مبتدأ أي : فعليه عدّة. و(أخر) ممنوع من الصرف للعدل عن الألف واللام والوصف. و(شهر رمضان) إما خبر عن مضمر ، أو مبتدأ ، والخبر : (فمن شهد) ، أو بدل من (الصيام) ، على حذف مضاف ، أي : صيام شهر رمضان. و(رمضان) مصدر رمض إذا احترق ، وأضيف إليه الشهر ، وجعل علما ، ومنع من الصرف للعلمية والألف والنون. وسمّوه بذلك إما لارتماض القلب فيه من حرّ الجوع والعطش ، أو لارتماض الذنوب فيه ، أو وافق الحرّ حين نقلوا الشهور عن اللغة القديمة. و(الشهر) ظرف ، لقوله : (شهد) أي : حضر ، وقوله (و لتكملوا ...) الآية ، هذه ثلاث علل لثلاثة أحكام على سبيل اللفّ والنّشر المعكوس ، أي : ولتكملوا العدة أمرتكم بقضاء عدة أيام أخر ، ولتكبروا اللّه عند تمام الشهر أمرتكم بصيام الشهر كله ، ولعلكم تشكرون أردت بكم اليسر دون العسر.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فرض عليكم الصِّيامُ كما فرض عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ من الأنبياء وأممهم من لدن آدم ، فلكم فيهم أسوة ، فلا يشق عليكم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ المعاصي ، فإن الصوم يكسر الشهوة. ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام - : «من استطاع منكم الباءة فليتزوّج ، ومن لم يستطع فعليه بالصّوم ، فإنّه له وجاء».

وذلك الصيام إنما هو فى أيام قلائل مَعْدُوداتٍ ، فلا يهولكم أمره ، فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً يشق عليه الصيام ، أَوْ عَلى سَفَرٍ فأفطر فعليه صيام عدة ما أفطر مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ بعد تمام الشهر ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ بلا مشقة ، إن أرادوا أن يفطروا فِدْيَةٌ وهى : طَعامُ مِسْكِينٍ : مدّ لكل يوم. وفى قراءة فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ أي : وهى طعام مسكين لكل يوم. وقيل : نصف صاع. فَمَنْ تَطَوَّعَ بزيادة المد ، أو أطعم مسكينين عن يوم ، فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وأعظم أجرا ، وَأَنْ تَصُومُوا أيها المطيقون للصيام ، خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ما فى الصيام من الأسرار ، والخير المدرار ، ثم نسخ بقوله : فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ.

وذلك الصيام الذي أمرتم به هو شَهْرُ رَمَضانَ المبارك الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ أي : ابتداء نزوله فيه.

أو إلى سماء الدنيا ، حالة كونه هُدىً لِلنَّاسِ أي : هاديا لهم إلى طريق الوصول ، وآيات واضحات مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ الذي يفرق بين الحق والباطل. وإن شئت قلت : فيه هدى للناس إلى مقام الإسلام ،

وَبَيِّناتٍ ، أي :
حججا واضحة تهدى إلى تحقق الإيمان ، وإلى تحقق الفرق بين الحق والباطل ، وهو ما سوى اللّه ، فيتحقق مقام الإحسان.
فَمَنْ حضر منكم فى الشَّهْرَ ولم يكن مسافرا فَلْيَصُمْهُ وجوبا ، وكان فى أول الإسلام على سبيل التخيير لأنه شق عليهم حيث لم يألفوه ، فلما ألفوه واستمروا معه ، حتّمه عليهم فى الحضور والصحة. وَمَنْ كانَ مَرِيضاً يشق عليه الصيام ، أَوْ عَلى جناح سَفَرٍ ، بحيث شرع فيه قبل الفجر فأفطر فيه ، فعليه فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ والتخفيف ، حيث خفّف عنكم ، . وأباح الفطر فى المرض والسفر ، وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ إذ لم يجعل عليكم فى الدّين من حرج ، وإنما أمركم بالقضاء لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ التي أمركم بها ، وهى تمام الشهر ، وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ ، أمركم بصيامه فتكبروا عند تمامه.
ووقت التكبير عند مالك : من حين يخرج إلى المصلّى ، بعد الطلوع ، إلى مجيئ الإمام إلى الصلاة.
ولفظه المختار : (اللّه أكبر ، اللّه أكبر ، لا إله إلا اللّه ، اللّه أكبر وللّه الحمد على ما هدانا ، اللهم اجعلنا من الشاكرين) لجمعه

بين التهليل والتكبير والشكر ، امتثالا لقوله : وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ على ما أوليناكم من سابغ الإنعام ، وسهّلنا عليكم فى شأن الصيام.
الإشارة : كتب عليكم الصيام عن الحظوظ والشهوات ، كما كتب على من سلك الطريق قبلكم من العارفين الثقات ، فى أيام المجاهدة والرياضات ، حتى تنزلوا بساحة حضرة المشاهدات ، لعلكم تتقون شهود الكائنات ، ويكشف لكم عن أسرار الذات ، فمن كان فيما سلف من أيام عمره مريضا بحب الهوى ، أو على سفر فى طلب الدنيا ، فليبادر إلى تلافى ما ضاع فى أيام أخر ، وعلى الأقوياء الذين يطيقون هذا الصيام ، إطعام الضعفاء من قوت اليقين ومعرفة رب العالمين. فمن تطوع خيرا بإرشاد العباد إلى ما يقوّى يقينهم ، ويرفع هممهم فهو خير له.
وأن تدوموا أيها الأقوياء على صومكم عن شهود السّوى ، وعن مخالطة الحس بعد التمكين ، فهو خير لكم وأسلم ، إن كنتم تعلمون ما فى مخالطة الحس من تفريق القلب وتوهين الهمم ، إذ فى وقت هذا الصيام يتحقق وحي الفهم والإلهام ، وتترادف الأنوار وسواطع العرفان. فمن شهد هذا فليدم على صيامه ، ومن لم يقدر عليه فليبك على نفسه فى تضييع أيامه.
واعلم أن الصيام على ثلاث درجات : صوم العوام ، وصوم الخواص ، وصوم خواص الخواص.

أما صوم العوام : فهو الإمساك عن شهوتى البطن والفرج ، وما يقوم مقامهما من الفجر إلى الغروب ، مع إرسال الجوارح فى الزّلّات ، وإهمال القلب فى الغفلات. وصاحب هذا الصوم ليس له من صومه إلا الجوع ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس للّه حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه». وأما صوم الخواص : فهو إمساك الجوارح كلّها عن الفضول ، وهو كل ما يشغل العبد عن الوصول ، وحاصله : حفظ الجوارح الظاهرة والباطنة عن الاشتغال بما لا يعنى. وأما صوم خواص الخواص : فهو حفظ القلب عن الالتفات لغير الرب ، وحفظ السر عن الوقوف مع الغير ، وحاصله : الإمساك عن شهود السّوى ، وعكوف القلب فى حضرة المولى. وصاحب هذا صائم أبدا سرمدا. فأهل الحضرة على الدوام صائمون ، وفى صلاتهم دائمون ، نفعنا اللّه بهم وحشرنا معهم. آمين.

ولمّا كان الصيام يرقّق القلب فيحصل به القرب من الحق ، ذكره بإثر الصيام ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٨٦]

وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

(٢١٣/١)

يقول الحق جل جلاله : فى جواب رجل سأل : هل قريب ربنا فنناجيه ، أو بعيد فنناديه؟ فنزل : وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي. فقل لهم : فَإِنِّي قَرِيبٌ إليهم من أرواحهم لأشباحهم ، ومن وسواس قلوبهم لقلوبهم ، علما وقدرة وإحاطة ، أجيب دعوة الداعي إذا دعان ، سرا أو جهرا ، ليلا أو نهارا ، على ما يليق بحاله فى الوقت الذي نريد ، لا فى الوقت الذي يريد ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي إذا دعوتهم للإيمان والطاعة ، أسلك بهم طريق المعرفة ، وَلْيُؤْمِنُوا بِي أني قريب منهم فيستحيوا منى ، حياء من يرى أني معه حيث كان ، لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ إلى سلوك طريقتى ودوام محبتى.

قال البيضاوي : اعلم أنه ، تعالى ، لما أمرهم بصوم الشهر ، ومراعاة العدة على القيام بوظائف التكبير والشكر ، عقّبه بهذه الآية الدالة على أنه خبير بأحوالهم ، سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم ، مجازيهم على أعمالهم ، تأكيدا وحثا عليه. هـ.

الإشارة : قرب الحق تعالى من عباده هو قرب المعاني من المحسوسات ، أو قرب الصفات من الذات ، أو الذات من الصفات. فإذا تحقق المحو والاضمحلال ، وزال البين ، وثبت الوصال ، لم يبق قرب ولا بعد ولا بين ولا انفصال. قال الشيخ القطب العارف الكبير سيدى عبد السلام بن مشيش رضي اللّه عنه لأبى الحسن رضي اللّه عنه : حدّد بصر الإيمان تجد اللّه فى كل شىء وعند كل شىء ، ومع كل

شيء ، وقبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، وقريبا من كل شيء ، ومحيطا بكل شيء ، بقرب هو وصفه ، وبحيطة هى نعته ، وعدّ عن الظرفية والحدود ، وعن الأماكن والجهات ، وعن الصحبة والقرب فى المسافات ، وعن الدّور بالمخلوقات ، وامحق الكلّ بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن ، «كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان».

وقال بعض العارفين : الحق تعالى منزّه عن الأين والجهة والكيف والمادة والصورة. ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان ، ولا كم ولا كيف ، ولا جسم ، ولا جوهر ولا عرض ، لأنه للطفه سار فى كل شيء ، ولنوريته ظاهر فى كل شيء ، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف ، غير متقيّد بذلك ، فمن لم يعرف هذا ولم يذقه ولم يشهده فهو أعمى البصيرة ، محروم من مشاهدة الحق تعالى. هـ.

وهذه الإشارات لا يفهمها إلا أهل الذّوق من أهل المعاني ، فاصحب الرجال أهل المعاني تذق أسرارهم ، وتفهم إشاراتهم. وإلا فحسبك أن تعتقد كمال التنزيه ، وبطلان التشبيه ، وتمسّك بقوله تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ، وسلم للرجال فى كل حال.

إن لم تر الهلال فسلّم لأناس رأوه بالأبصار

وإذا تحققت أن الحق قريب منك كفاك لسان الحال عن طلب المقال ، وباللّه التوفيق.

ثم تمّم الحق تعالى بقية أحكام الصوم ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٨٧]

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

قلت : الرفث : محرّك الجماع ، والفحش كالرفوث ، وكلام النساء فى الجماع. قاله فى القاموس ، وقال الأزهرى اللغوي : الرفث : كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته ، وضمنّه هنا الإفضاء ، فعدّاه بإلى.

يقول الحق جل جلاله فى نسخ ما كان فى أول الإسلام من تحريم الجماع فى رمضان بعد العشاء أو النوم ، ثم إن عمر رضي اللّه عنه باشر امرأته بعد العشاء ، فندم وأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يعتذر إليه ، فقام رجال فاعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزل قوله : أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ قبل الفجر ،

الإفضاء إِلى نِسائِكُمْ بالجماع. وعبّر بالرفث تقبيحا لما ارتكبوه.
ثم علّل التحليل بقوله : هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ ، أي : وإنما أبحت لكم الجماع لقلة صبركم عليهن ، حتى تعانقوهن ويعانقنكم ، فيشتمل بعضكم على بعض ، كاشتمال اللباس على صاحبه ، كما قال الشاعر : «١»

إذا ما الضّجيع ثنى عطفها تثنّت فكانت عليه لباسا

وهذه الحالة يقلّ فيها الصبر عن الوقاع ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ أي تخونونها فتعرّضونها للعقاب ، وتحرمونها من الثواب ، فَتابَ عَلَيْكُمْ لمّا تبتم واعترفتم بما اقترفتم ، وعفا عنكم فمحا ذنوبكم ، فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ. والمباشرة : إلصاق البشرة بالبشرة ، كناية عن الجماع ، وَابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ

---

(١) وهو النابغة الجعدى.

من النسل ، فلا تباشروهن لمجرد قضاء الشهوة ، بل اطلبوا ما قدّر اللّه لكم ، وأثبته فى اللوح المحفوظ من الولد ، لأنه هو المقصود من تشريع النكاح ، وخلق الشهوة ، لا مجرد قضاء الوطر. وفى الحديث : «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم بثّه فى صدور الرجال ، وولد صالح يدعو له».

وفى حديث طويل عن عائشة - رضي اللّه عنها - فى قصة الحولاء - امرأة من الأنصار - ، قال لها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : ما من امرأة حملت من زوجها حين تحمل ، إلا لها من الأجر مثل القائم ليله الصائم نهاره ، والغازي فى سبيل اللّه ، وما من امرأة يأتيها الطلق ، إلا كان لها بكل طلقة عتق نسمة ، وبكل رضعة عتق رقبة ، فإذا فطمت ولدها ناداها مناد من السماء : قد كفيت العمل فيما مضى ، فاستأنفى العمل فيما بقي. قالت عائشة - رضي اللّه عنها - : قد أعطى النساء خيرا كثيرا ، فما لكم يا معشر الرجال؟. فضحك النبي صلّى اللّه عليه وسلم ثم قال : ما من رجل مؤمن أخذ بيد امرأته يراودها ، إلا كتب اللّه له حسنة ، وإن عانقها فعشر حسنات ، وإن ضاجعها فعشرون حسنة ، وإن أتاها كان خيرا من الدنيا وما فيها ، فإذا قام ليغتسل لم يمر الماء على شعرة من جسده إلا محى عنه سيئة ، ويعطى له درجة ، وما يعطى بغسله خير من الدنيا وما فيها ، وإن اللّه تعالى يباهى الملائكة فيقول : انظروا إلى عبدى قام فى ليلة قرّة يغتسل من الجنابة ، يتيقن بأنى ربه ، اشهدوا أنى قد غفرت

له» «١». هـ. من الثعلبي.

ثم أباح الحق تعالى الأكل والشرب ، ليلة الصيام إلى الفجر ، فقال : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ شبّه أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق ، بالخيط الأبيض ، وما يمتد معه من غبش الليل ، بالخيط الأسود.

ولم ينزل قوله تعالى : مِنَ الْفَجْرِ إلا بعد مدة ، فحمله بعض الصحابة على ظاهره ، فعمد إلى خيط أبيض وخيط أسود فجعلهما تحت وسادته ، فجعل يأكل وينظر إليهما ، فلم يتبيّنا ، ومنهم عدىّ بن حاتم ، قال : فغدوت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فأخبرته فضحك ، وقال : «إنك لعريض القفا ، إنّما ذلك بياض النّهار وسواد الليل» ، والحديث ثابت فى البخاري وغيره. واعترضه الزمخشري بأن فيه تأخير البيان عن وقت الحاجة ، وذلك لا يجوز ، لما فيه من التكليف بما لا يطاق.

---

(١) الحديث موضوع ، ذكره ابن الجوزي فى الموضوعات وابن عراق فى تنزيه الشريعة. وقال الحافظ ابن حجر فى الإصابة : سند هذا الحديث واه جدا. وقال الدار قطنى : هذا حديث باطل ، وقال : ذهب عبد الرحمن بن مهدى وأبو داود إلى زياد بن ميمون - أحد رجال سند هذا الحديث - فأنكرا عليه هذا الحديث ، فقال : اشهدوا أنى قد رجعت عنه.

وأجيب بأنه ليس فيه تأخير البيان عن وقت الحاجة ، وإنما فيه تأخير البيان لوقت الحاجة ، وهو جائز. وبيان ذلك أنه لمّا نزل قوله تعالى : حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ فهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم والمؤمنون مراد اللّه منهما ، واستمر عملهم على ذلك ، فكانت الآية مبينة فى حقهم لا مجملة. وأما عدىّ بن حاتم فكان بدويّا مشتغلا بالصيد ، ولم يكن فيه حنكة أهل الحاضرة ، فحمل الآية على ظاهرها ولذلك قال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «إنك لعريض القفا». فنزلت الآية تبين لعدى مراد اللّه عند الحاجة إلى البيان. مع أن السيوطي ذكر فى التوشيح خلاف هذا ونصه : قال بعضهم : كأنّ عديّا لم يسمع هذه اللفظة من الآية لأنها نزلت قبل إسلامه بمدة ، وذلك أن إسلامه كان فى السنة التاسعة أو العاشرة ، بعد نزول الآية بمدة ، قال : علّمنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الصلاة والصيام ، فقال : «صل كذا ، وصم كذا ، فإن غابت الشمس فكل حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، فأخذ الخيطين ...».

الحديث. فقال له - عليه الصلاة والسلام : «ألم أقل لك من الفجر؟» فتبين أن قوله فى الحديث :

«فأنزل اللّه من الفجر» من تصرّف الرواة. هـ. مختصرا ، فهذا صريح فى أن الآية نزلت بتمامها مبينة فلم يكن فيها تأخير ، واللّه تعالى أعلم.

ثم بيّن الحق تعالى غاية الصوم ، فقال : ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ فمن أفطر مع الشك فى الغروب ، فعليه الكفارة ، بخلاف الشك فى الفجر للاستصحاب. ولما كان الاعتكاف من لوازم الصوم ذكر بعض أحكامه بإثره فقال : وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ أي : النساء وَأَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ ، فالمباشرة للمعتكف حرام ، وتفسد الاعتكاف. كانت المباشرة فى المسجد أو خارجه. وكان الرجل يكون معتكفا فيخرج فيصيب زوجه ثم يرجع ، فنزلت الآية - تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ قد حدها لكم ، فَلا تَقْرَبُوها فضلا عن أن تعتدوها ، كَذلِكَ أي : مثل هذا البيان التام ، يُبَيِّنُ اللَّهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ محارمه.

الإشارة : قد تقدم أن صوم الخواص ، وخواص الخواص ، هو الإمساك عن الفضول ، وعن كل ما يقطع عن الوصول. أو الإمساك عن شهود الأغيار ، وعن كل ما يوجب الأكدار. فإن عزمت النفس على هذا الصوم وعقدت النية عليه ، حلّ لها أن تباشر أبكار العلوم اللدنية الوهبية ، والحقائق العرفانية ، وتفضى إلى ثيبات العلوم الرّسمية الكسبية. العلوم اللدنية الوهبية شعارها ، والعلوم الرسمية دثارها «١». العلوم اللدنية لباس باطنها ، والعلوم الرسمية لباس ظاهرها.

---

(١) الشعار : ما ولى جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب ، والدثار : الثوب الذي يكون فوق الشعار.

قال أبو سليمان الداراني : إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام جالت فى الملكوت ، ثم عادت إلى صاحبها بطرائف العلوم ، من غير أن يؤدّى إليها عالم علما. هـ.

قال الحق تعالى : عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ بدنس الهفوات ، فمنعكم من مباشرة تلك العلوم الوهبيات ، فلما عقدتم التوبة ، وعزمتم على تركها ، تاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروها ، وابتغوا ما كتب اللّه لكم ، من الوصول إلى معرفته ، والعكوف فى حضرة قدسه ، وكلوا من ثمرات تلك العلوم ، واشربوا من خمرة الحيّ القيوم ، حتى يطلع عليكم فجر الكشف والبيان ، وتشرق على قلوبكم شمس نهار العرفان ، فحينئذ تضمحلّ تلك العلوم ، وتمحى تلك المعالم والرسوم. ولم يبق إلا الاستغراق فى مشاهدة الحي القيوم ، فلا تباشروها وأنتم عاكفون فى تلك المساجد. فمشاهدة وجه الحبيب تغنى عن مطالعة المعالم والمشاهد. تلك حدود اللّه فلا تقربوها ، أي : لا تقفوا مع تلك العلوم

وحلاوة تلك الرسوم فإنها تمنعكم من مشاهدة الحيّ القيوم. كذلك يبين اللّه آياته الموضّحة لطريق وصوله للناس ، لعلهم يتقون مشاهدة ما سواه. واللّه تعالى أعلم.
ولما أراد الحق أن يتكلم على الحج قدّم الكلام على الأموال لأنها سبب فى وجوبه ، والوصول إليه فى الغالب ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ١٨٨]
وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ وَتُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)
قلت : أصل الإدلاء : إرسال الدّلو فى الماء ليتوصل به إلى أخذ الماء من البئر ، ثم أطلق فى كل ما يتوسل به إلى شىء ، يقال : أدلى بماله إلى الحكام ، أي : دفعه رشوة ، ليتوصل بذلك إلى أخذ أكثر منه ، وهو المراد هنا ، وفى القاموس : أدلى برحمه : توسّل ، وبحجّته : أحضرها ، وإليه بماله : دفعه. ومنه : (و تدلوا بها إلى الحكام). هـ. و(تدلوا) معطوف على (تأكلوا) ، منهى عنهما معا.
يقول الحق جل جلاله : وَلا تَأْكُلُوا يا معشر المسلمين أَمْوالَكُمْ أي : أموال بعضكم بعضا ، بِالْباطِلِ أي : بغير حق شرعى إما بغير حق أصلا كالغصب والسرقة والخيانة والخدع والتطفيف والغش وغير ذلك. أو بحق باطل كما يؤخذ فى السحر والكهانة والفأل والقمار والجاه ، وهدية المديان «١» ، وهدية القرض ، والضمان ،

---
(١) رجل مديان : إذا كان عادته أن يأخذ بالدين.

والرشوة ، والربا ، وغير ذلك مما نهى الشارع عنه. ولا يدخل فى ذلك التمائم والعزائم إذا كان بالقرآن أو السنة وغلب الشفاء ، وكذلك لا يدخل أيضا الغبن ، إذا كان البائع عالما بالمبيع.
أو وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ بأن تنفقوها فى الملاهي والزنا والشرب واللواط ، وغير ذلك من المحرمات ، ولا تُدْلُوا أي : تتوسلوا بها ، أي : بدفعها إِلَى الْحُكَّامِ رشوة لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بأن يحكم لكم بها القاضي ، تأخذونها متلبسين بِالْإِثْمِ أي : بالمعصية وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنها لغيركم فإنّ حكم الحاكم لا يحلّ حراما.
وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم قال : «إنّما أنا بشر مثلكم ، ولعلّ بعضكم أن يكون الحن بحجّته من بعض فأقضى له ، فمن قضيت له بشىء من مال أخيه فإنّما أقطع له قطعة من النار».

الإشارة : الباطل كلّ ما سوى الحق ، فكل من كان يأخذ من يد الخلق ولا يشاهد فيهم الحق فإنما يأخذ أموال الناس بالباطل. قال فى الحكم : «لا تمدّن يديك إلى الأخذ من الخلائق إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك ، فإذا كنت كذلك فخذ ما وافقك العلم». ويحتاج العامل بهذا إلى عسة «١» كبيرة ، وشهود قوى ، حتى يفنى عن نظره مشاهدة الخلق فى شهود الملك الحق. وكان بعضهم يطلب من هذا وصفه فيعطى للفقير العطاء ، ويقول : خذ ، لا لك ، فلا يسمع من أحد شيئا ، حتى أعطى لبعض الفقراء ، وقال : خذ ، لا لك ، فقال : أقبض لا منك. هـ. قلت : الوصول إلى الحكام على شأن الدنيا أو للانتصار للنفس حرام فى طريق الخصوص ، بل يصبر حتى يحكم اللّه بينه وبين خصمه ، وهو خير الحاكمين ، فإن اضطرّ إلى شيء ولم يجد بدا منه فليوكّل ، وباللّه التوفيق.

ولما أراد الحق تعالى أن يتكلم على أحكام الحج ، قدّم الكلام على الهلال لأنه معتبر فى الحج ، أداء وقضاء ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٨٩]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)

قلت : الذي سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنمة «٢» ، فقالا : يا رسول اللّه : ما بال الهلال يبدو رقيقا كالخيط ، ثم لا يزال يزيد حتى يستوى ، ثم لا يزال ينقص حتى يرجع كالخيط؟ فقال الحق جل جلاله : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ

---

(١) أي : اجتهاد وجد ، من عسّ يعس : إذا طلب.

(٢) فى الأصول (غنم) ، والصواب : غنمة ، كما فى أسد الغابة ، والإصابة.

أي : عن حكمة اختلاف الأهلة بالزيادة والنقص ، قُلْ لهم يا محمد : هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ يوقّتون بها ديونهم ، ويعرفون بها أوقات زرعهم ، وعدد نسائهم وصيامهم. وهى أيضا مواقيت للحج ، يعرفون بذلك وقت دخوله وخروجه ، فيعرفون الأداء من القضاء ، فلو كانت على حالة واحدة لم يعرفوا ذلك. أجابهم الحق تعالى بغير ما ينتظرون إشارة إلى أن السؤال عن سر الاختلاف ، ليس فيه منفعة شرعية ، وإنما ينبغى الاهتمام بما فيه منفعة دينية.

قال أهل الهيئة : إن نوره من نور الشمس ، وجرمه أطلس ، فكلما بعد من مسامتة الشمس قابله نورها ،

فإذا قرب منها لم يقابله من نورها إلا بعض جرمه ، فإذا دخل تحتها فى الفلك كان ظهره كله إليها ، فلم يقابله شىء من نورها ، فإذا خرج من تحتها قابله بقدر ذلك ، واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : إذا ظهر هلال السعادة فى أفق الإرادة ، وهبّت ريح الهداية من ناحية سابق العناية ، دخل وقت حج القلوب إلى حضرة علام الغيوب ، فهلال الهداية للسائرين ، وهم أرباب الأحوال أهل التلوين ، يزداد نوره بزيادة اليقين ، وينقص بنقصانه ، على حسب ضعف حاله وقوته ، حتى يتحقق الوصال ، ويرزق صفة الكمال. وأنشدوا :
كلّ يوم تتلوّن غير هذا بك أجمل
فصاحب التلوين بين الزيادة والنقصان ، إلى أن تطلع عليه شمس العرفان ، فإذا طلعت شمس العرفان فليس بعدها زيادة ولا نقصان ، وأنشدوا :
طلعت شمس من أحبّ بليل واستضاءت فما تلاها غروب
إنّ شمس النّهار تغرب باللي ل وشمس القلوب ليست تغيب
بخلاف صاحب التمكين فإنه أبدا فى ضياء معرفته ، متمكن فى برج سعادته ، لا يلحق شمسه كسوف ولا حجاب ، ولا يستر نورها ظلمة ولا سحاب ، فلو طلب الحجاب لم يجب. قال بعض العارفين : (لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع ، فإنه لا غير معه حتى أشهده).
ثم حذّر الحق تعالى مما ابتدعه المشركون فى الحج ، فقال :
وَلَيْسَ الْبِرُّ ...

قلت : كانت الأنصار إذا حجّوا أو اعتمروا ، يقولون : لا يحول بيننا وبين السماء سقف ، حتى يدخلوا بيوتهم ، فإذا رجعوا تسوّروا الجدران ، أو نقبوا فى ظهور بيوتهم ، فجاء رجل منهم فدخل من الباب ، فعيّر بذلك ، فأنزل الحق جل جلاله : وَلَيْسَ الْبِرُّ أي : الطاعة ، بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها فتتسوروها ، أو تنقبوا من أعلاها ، وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى المحارم وخالف الشهوات.
أو : ليس البر بأن تعكسوا مسائلكم بأن تسألوا عما لا نفع لكم فيه ، وتتركوا مسائل العلم التي تنفعكم فى العاجل والآجل. وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى ذلك ، وَأْتُوا بيوت العلم من أبوابها ، فتحسنون السؤال وتتأدبون فى المقال ، وتقدمون الأهم فالأهم ، والأنفع فالأنفع. وَاتَّقُوا اللَّهَ فلا تغيروا أحكامه ، ولا تعترضوا على أفعاله ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ بتوفيقه وهدايته.
الإشارة : اعلم أن البيوت التي يدخلها المريد ثلاثة : بيت الشريعة وبيت الطريقة وبيت الحقيقة ، ولكل

واحد أبواب فمن أتى البيت من بابه دخل. ومن أتاه من غيره طرد.
فبيت الشريعة له ثلاثة أبواب : الباب الأول : التوبة ، فإذا دخل هذا الباب ، وحقّق التوبة بأركانها وشروطها ، استقبله باب الاستقامة ، وهى : متابعة الرسول فى أقواله وأفعاله وأحواله ، فإذا دخله ، وحقق الاستقامة ، استقبله باب التقوى بأقسامها. فإذا حقق التقوى ظاهرا وباطنا ، دخل بيت الشريعة المطهرة ، وتنزه فى محاسنه ومعانيه ، ثم يروم دخول بيت الطريقة ، وله ثلاثة أبواب :
الباب الأول : الإخلاص وهو : إفراد العمل للّه من غير حرف ولا حظ ، فإذا حقق الإخلاص استقبله باب التخلية وهى التطهير من العيوب الباطنة ، وهى لا تنحصر ، لكن من ظفر بالشيخ أطلعه عليها ، وعلّمه أوديتها ، فإذا حقق التخلية استقبله باب التحلية ، وهى : الاتصاف بأنواع الفضائل كالصبر والحلم والصدق والطمأنينة والسخاء والإيثار ، وغير ذلك من أنواع الكمالات. فإذا حقق الإخلاص والتخلية والتحلية فقد حقق بيت الطريقة ، ثم يستقبله بيت الحقيقة.
فأول ما يقرع باب المراقبة ، وهى : حفظ القلب والسر من الخواطر الردية ، فإذا تطهر القلب من الخواطر الساكنة ، استشرف على باب المشاهدة ، وهى : محو الرسوم فى مشاهدة أنوار الحي القيوم ، أو تلطيف الأوانى عند ظهور المعاني ، فإذا دخل باب المشاهدة ، وسكن فيها ، استقبله باب المعرفة ، وهى محلّ الرسوخ والتمكين ، وهى الغاية والمنتهى ، فبيت الحقيقة هو مسجد الحضرة الربانية. وما بقي بعدها إلا الترقي فى المقامات ، وزيادة المعارف والكشوفات أبدا سرمدا ، منحنا اللّه من ذلك حظا وافرا بمنّه وكرمه.

(٢٢١/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٢٢

ولمّا كان البيت الحرام عند فرض الحج معمورا بالكفار ، أمرهم بجهادهم ليتمكن المسلمون من الحج ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٩٠ الى ١٩٥]

وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)

قلت : (التهلكة) : مصدر هلك – بتشديد اللام – قاله ابن عطية. وضمن (تلقوا) معنى تفضوا ، أو تنتهوا ، فعدّاه بإلى ، أي : ولا تفضوا بأنفسكم إلى التهلكة. ولا يحتاج إلى زيادة الباء.

وسبب نزول الآية : أن المشركين صدّوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عام الحديبية ، وصالحوه على أن يرجع فى قابل ، فيخلوا له البيت ثلاثة أيام ، فرجع لعمرة القضاء ، وخاف المسلمون ألا يفوا لهم ، فيقاتلوا فى الحرم والشهر الحرام ، وكرهوا ذلك ، فنزلت الآية.

يقول الحق جل جلاله : وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وإعلاء كلمته الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ أي : يبدءونكم بالقتال ، وَلا تَعْتَدُوا فتقاتلوهم قبل أن يبدءوكم إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ لا ينصرهم ولا يؤيدهم. ثم نسخ هذا بقوله : وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ... الآية. وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ أي : وجدتموهم ، ولا تتحرجوا من قتالهم فى الحرم ، فإنهم هم الذين صدوكم وبدأوكم بالإذاية ، وَأَخْرِجُوهُمْ من مكة حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ منها ، وَالْفِتْنَةُ أي : الكفر الذي هم فيه ، أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ لهم فى الحرم ، وَلا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ ابتداء حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فيه فَاقْتُلُوهُمْ فيه ، وفى غيره ، كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ يفعل بهم ما فعلوا بغيرهم ، فَإِنِ انْتَهَوْا عن الشرك وأسلموا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لهم رَحِيمٌ بهم.

(٢٢٢/١)

وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ أي : شرك وَيَكُونَ الدِّينُ خالصا لِلَّهِ بحيث لا يبقى فى جزيرة العرب إلا دين واحد ، فَإِنِ انْتَهَوْا عن قتالكم ، فلا تعتدوا فإنه فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ إذ لا يحسن أن يظلم إلا من ظلم.

القتال الصادر منكم لهم فى الشَّهْرُ الْحَرامُ فى مقابلة الصد الذي صدر منهم لكم فى الشهر الحرام ، وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ يقتص بعضها من بعض ، فكما انتهكوا حرمة الشهر الحرام ، بمنعكم من البيت ، فانتهكوا حرمتهم بالقتل فيه. فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ بالقتال فى الأشهر الحرم ، أو فى الحرم فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فلا تنتصروا لنفوسكم ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ بالحفظ والتأييد.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فى جهاد عدوكم ، ولا تمسكوا عن الإنفاق فيه فتلقوا بِأَيْدِيكُمْ أي : بأنفسكم إِلَى التَّهْلُكَةِ أي : الهلكة فيستولى عليكم عدوكم.

روى عن أبى أيوب الأنصاري (أنه كان على القسطنطينية ، فحمل رجل على عسكر العدو ، فقال قوم : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : لا ، إن هذه الآية نزلت فى الأنصار ، قالوا – لما أعز اللّه

الإسلام وكثر أهله - : لو رجعنا إلى أهلينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها ، فأنزل اللّه فينا وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وأما هذا فهو الذي قال فيه اللّه تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ ....)

أو : ولا تنفقوا كل أموالكم فتتعرضوا للهلكة ، أو الطمع فى الخلق ، ولكن القصد ، وهو الوسط.

وَأَحْسِنُوا بالتفضل على المحاويج والمجاهدين إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ فيحفظهم ، ويحفظ عقبهم إلى يوم القيامة.

الإشارة : اعلم أن أعداء الإنسان التي تقطعه عن حضرة ربه أربعة : النفس والشيطان والدنيا والناس. فمجاهدة النفس : بمخالفة هواها ، وتحميلها ما يثقل عليها حتى ترتاض ، ومجاهدة الشيطان : بعصيانه ، والاشتغال باللّه عنه ، فإنه يذوب بذكر الله ، ومجاهدة الدنيا : بالزهد فيها ، والقناعة بما تيسر منها ، ومجاهدة الناس : بالغيبة عنهم والإعراض عنهم فى الإقبال والإدبار. فيقول الحق جل جلاله للمتوجهين إليه : وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ ويصدونكم عن حضرته ، ولا تعتدوا فتشتغلوا بهم عن ذكرى ، والإقبال علىّ ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. بل اقتلوهم حيث تعرضوا لكم فقط ، فإذا ظهرت صورة النفس أدبها ، ثم غاب فى اللّه عنها ، وكذلك بقية القواطع.

(٢٢٣/١)

وكان شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضي اللّه عنه يقول : (عداوة العدو حقا هى اشتغالك بمحبة الحبيب حقا ، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو فاتتك محبة الحبيب ، ، ونال العدو مراده منك). هـ.

وأخرجوهم من قلوبكم من حيث أخرجوكم من حضرة ربكم ، يعنى : كما أخرجوكم من الحضرة فى أيام الغفلة ، أخرجوهم من قلوبكم فى أيام اليقظة. والفتنة بالاشتغال بهم أشد من القتل لهم ، ولا تقاتلوهم عند مسجد الحضرة وحال الغيبة فى اللّه ، فإن ذلك التفات إلى غير اللّه ، كمن كان مقبلا عليه حبيبه فجعل يلتفت إلى من يكلمه ويشغله عنه. وذلك فى غاية الجفاء ، حتى يقاتلوكم فيه ، ويريدون أن يخرجوكم منه بوسوستهم ، فإن قاتلوكم ، وخطر على بالكم شىء من وسوستهم ، فاقتلوهم بذكر اللّه ، والتعوذ منهم ، فإن اللّه يكفيكم أمرهم ، وينهزمون عنكم ، كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا عنكم ، وانقطع عنكم خواطرهم ، فغيبوا عنهم فإن اللّه يستركم عنهم ، وقاتلوهم على الدوام حتى لا تكون فى قلوبكم فتنة منهم ، ويكون التوجه كله للّه ، لا ينازعه شيىء مما سواه ، فإن انتهوا عنكم فلا تتعرضوا لهم فإن ذلك عدوان وظلم ، فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ.

فإن جنحت نفسك إلى حرمة الطاعة الظاهرة كتدريس علم أو جهاد أو صلاة أو غيرها ، وأرادت أن

تخرجك من حرمة الحضرة القدسية وهى الفكرة والشهود والمعاينة ، فقاتلها وأخرجها من حرمة تلك الطاعة ، فالحرمات قصاص. فكما أخرجتك من حضرة ربك القدسية أخرجها من حضرة الطاعة الحسية إلى الطاعة القلبية. فإن الذّرّة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح.

فمن اعتدى عليكم ، فى زمن البطالة ، فاعتدوا عليه فى زمن اليقظة بمثل ما اعتدى عليكم. وكان شيخنا البوزيدى رضي اللّه عنه يقول : جوروا على نفوسكم بقدر ما جارت عليكم. هـ. أي : اقتلوها بقدر ما قتلتكم بالبعد عن ربكم.

وكان أيضا يقول : (جوروا على الوهم قبل أن يجور عليكم). هـ. واتقوا اللّه فإن اللّه يعينكم عليها ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ. وأنفقوا أنفسكم ومهجكم فى سبيل اللّه ، بأن تطرحوها فى يد اللّه يفعل بها ما يشاء. وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ فتدبروا لها ، وتختاروا لها ، وتعتنوا بشئونها ، فإن ذلك غفلة عن ربكم. وَأَحْسِنُوا أي : ادخلوا فى مقام الإحسان بإن تعبدوا اللّه كأنكم ترونه إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ أي : يقربهم إلى حضرته ، ويصطفيهم إلى محبته ومعرفته ، خرطنا اللّه فى سلكهم بمنّه وكرمه.

ثم أمر الحق تعالى بإتمام النسك الذي دخل فيه ، وحض على الإخلاص فيه ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٩٦]

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (١٩٦)

قلت : المشهور فى اللغة أن أحصر الرباعي : بالمرض ، وحصر الثلاثي : بالعدو ، وقيل : بالعكس ، وقيل : هما سواء. و(ما استيسر) : خبر أو مبتدأ ، أي : فالواجب ما استيسر ، أو : فعليه ما استيسر.

يقول الحق جل جلاله : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ الذي دخلتم فيه ، وَالْعُمْرَةَ وجوبا كالصلاة والصوم ، ويكون ذلك لِلَّهِ لا رياء ولا سمعة ، وإنما خص الحج والعمرة بالحض على الإخلاص ، لما يسرع إليهما من الخلل أكثر من غيرهما ، فمن أفسدهما وجب عليه قضاؤهما ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ ومنعتم من إتمامهما فتحللوا منهما ، وعليكم فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وذلك شاة وَلا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ أي : لا تتحللوا حَتَّى يَبْلُغَ

الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، أي : حيث يحل ذبحه ، وهو محل الإحصار عند الشافعي ، فيذبح فيه بنية التحلل ويفرق ، ومنى أو مكة عند مالك ، فيرسله فإذا تحقق أنه وصل وذبح حل وحلق.
ويحرم على المحرم إزالة الشعث ، ولبس المخيط بالعضو ، فمن كان مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً صداع أو نحوه ، فحلق رأسه ، أو لبسثيابه ، فعليه فدية مِنْ صِيامٍ ثلاثة أيام ، أَوْ صَدَقَةٍ على ستة مساكين ، مدّان لكل مسكين ، أَوْ نُسُكٍ بشاة فأعلى ، فهو مخير بين الثلاثة. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : إذا عقد المريد مع ربه عقدة ، فالواجب عليه إتمامها حتى يجنى ثمرتها ، فإذا عقد عقدة المجاهدة فليجاهد نفسه حتى يجنى ثمرتها ، وهى المشاهدة ، وإذا عقد مع الشيخ عقدة الصحبة ، فليلزم خدمته حتى يدخله إلى بيت الحضرة ، ويشهد له بالترشيد. وهكذا كل من عقد مع اللّه عقدة يجب عليه إتمامها ، فإن أحصر ومنع من إتمامها فليفعل ما استيسر من ذبح نفسه وحط رأسه ، ولا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها ، ولا ينبغى أن يستعجل الفتح قبل إبّانه ، فلعلّه يعاقب بحرمانه ، فكم من مريد طلب من شيخه أن يطلعه على سر الربوبية قبل بلوغ محله ، فكان ذلك سبب عطبه ، فيقال له : ولا تحلق رأسك من شهود السوي حتى يبلغ هدى نفسك محله فيذبح ، فإذا ذبحت النفس وأجهز عليها حلق رأسه حينئذ من شهود السّوى ، وفى ذلك يقول الششترى رضي اللّه عنه :
إن ترد وصلنا فموتك شرط لا ينال الوصال من فيه فضله
فمن كان مريضا بضعف عزمه ، أو به أذى بعدم نهوض حاله ، بحيث لم تسعفه المقادير فى مجاهدة نفسه ، فليشتغل بالنسك الظاهر من صيام أو صدقة أو قراءة أو غير ذلك ، حتى يمنّ عليه العليم الحكيم. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولمّا ذكر الحق تعالى هدى الإحصار وفدية الأذى ، ذكر هدى التمتع ، فقال :
فَإِذا أَمِنْتُمْ ...
يقول الحق جل جلاله : فإذا حصل لكم الأمن من المرض أو العدو ، وأردتم الحج فَمَنْ تَمَتَّعَ منكم بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ بأن قدّم العمرة فى أشهر الحج ، ثم حج من عامة ، فالواجب عليه فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ شاة فأعلى لكونه تمتّع بإسقاط أحد السّفرين ولم يفرد لكل عبادة سفرا مخصوصا. فَمَنْ لَمْ يَجِدْ الهدى ، ولم يقدر على شرائه ، فعليه فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فى زمن الْحَجِّ ، وهو زمن إحرامه إلى وقوفه بعرفة ، فإن لم يصم فى ذلك الزمان صام أيام التشريق. ثم يصوم سبعة أيام إذا رجع إلى مكة أو إلى بلده. فتلك عَشَرَةٌ أيام كامِلَةٌ ، ولا تتوهموا أن السبعة بدل من الثلاثة ، فلذلك صرح الحق تعالى

بفذلكة الحساب «١».

وهذا الهدى أو الصيام إنما يجب على المتمتع إذا لم يكن ساكنا بأهله فى مكة أو ذى طوى ، وأما من كان (أهله حاضرى المسجد الحرام) فلا هدى عليه لأنه يحرم بالحج من مكة فلم يسقط أحد السفرين ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فى امتثال أوامره ، وخصوصا مناسك الحج لكثرتها وتشعب فروعها ، ولذلك أفردت بالتأليف ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ لمن ترك أوامره وارتكب نواهيه. وباللّه التوفيق.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله على طريق الإشارة للمتوجهين إليه : فإذا أمنتم من أعدائكم الذين يقطعونكم عن الوصول إلى حضرتنا ، أو أمنتم من الرجوع بعد الوصال ، أو من السلب بعد العطاء ، وذلك بعد التمكين من شهود أسرار الذات ، وأنوار الصفات ، إذ الكريم إذا أعطى لا يرجع ، فإذا حصل لكم الأمن ، فمن تمتع بأنوار الشريعة إلى أسرار الحقيقة فعليه ما استطاع من الهدى والسمت الحسن والخلق الحسن لأنه إذ ذاك قد اتصف بصفة الكمال وتصدّر لتربية الرجال ، فمن لم يجد ذلك فليرجع إلى ما تيسر من المجاهدة حتى يتمكن من ذلك الهدى الحسن والخلق الحسن ، هذا لمن لم يتمكن فى الحضرة الأزلية ، وأما من كان مقيما بها ، عاكفا فى شهود أنوارها ، فلا كلام عليه ، لأنه قد تولاه مولاه ، وغيّبه عن شهود نفسه وهواه ، فأمره كله باللّه وإلى اللّه. جعلنا اللّه فيهم بمنّه وكرمه ،

---

(١) الفذلكة : مجمل ما فصل وخلاصته.

لكن لا يغفل عن التقوى لقوله - عليه الصلاة والسلام : «أنا أعرفكم باللّه ، وأنا أتقاكم له». وقالوا : «من علامة النهايات الرجوع إلى البدايات». واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى ميقات الحج الزمانى ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ١٩٧]

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ (١٩٧)

قلت : (الحج) : مبتدأ ، على حذف مضاف ، أي : إحرام الحج أو فعل الحج ، و(أشهر) : خبر ، وإذا وقع الزمان خبرا عن اسم معنى فإن كان ذلك المعنى واقعا فى كل ذلك الزمان أو جلّه تعيّن رفعه عند الكوفيين ، وترجح عند البصريين إذا كان الزمان نكرة ، نحو : السفر يوم. إن كان السفر واقعا فى جميع ذلك اليوم أو فى جلّه لأنه باستغراقه إياه صار كأنه هو ، ويصح : السفر يوما ، أو فى يوم. وإن

كان ذلك المعنى واقعا فى بعض ذلك الزمان تعيّن نصبه أو جرّه ب (فى) ، نحو : السفر يوم الجمعة ، أو فى يوم الجمعة وقد يرفع نادرا.

قال فى التسهيل : ويغنى - أي : ظرف الزمان - عن خبر اسم معنى مطلقا ، فإن وقع فى جميعه ، أو فى أكثره ، وكان نكرة ، رفع غالبا ، ولا يمتنع نصبه ولا جره بفي خلافا للكوفيين. وربما رفع خبر الزمان الموقع فى بعضه. هـ. ومن ذلك : الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فإن جلّها تصلح للإحرام.

يقول الحق جل جلاله : وقت إحرام الحج أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ : شوال وذو القعدة وذو الحجة ، فمن أحرم قبلها كره عند مالك ، وبطل عند الشافعي ، فَمَنْ فَرَضَ على نفسه فِيهِنَّ الْحَجَّ فيلزم الأدب والوقار ، ويجانب شهوة النساء ، (فَلا) يقع منه رَفَثَ أي : جماع أو كلام فحش ، وَلا فُسُوقَ أي : ذنوب ، وَلا جِدالَ فِي زمان الْحَجُّ ولو مع المكاري «١» أو الخدّام ، ولا غيره من أنواع الخصام فإنه فى حضرة الملك العلام.

وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ كحلم وصبر وحسن خلق يَعْلَمْهُ اللَّهُ فاستبقوا الخيرات ، وتزودوا قبل هجوم الممات ، واتقوا اللّه حق تقاته فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى . أو تزودوا لسفر الحج ، ولا تسافروا كلّا على الناس

---

(١) المكارى : هو مكرى الدواب. ويغلب على الحمّار والبغّال ، وجمعه : مكارون.

فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى عن الطمع فى الخلق ، وَاتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ ، وأفردونى فى سركم حتى أفتح لكم الباب ، وأدخلكم مع الأحباب.

الإشارة : معاملة الأبدان مؤقتة بالأماكن والأزمان ، ومعاملة القلوب أو الأرواح غير مؤقتة بزمان مخصوص ، ولا مكان مخصوص ، فحج القلوب ، الأزمنة كلها له ميقات ، والأماكن كلها عرفات ، حج القلوب هو العكوف فى حضرة علام الغيوب ، وهى مسرمدة على الدوام على مرّ الليالى والأيام ، فكل وقت عندهم ليلة القدر ، وكل مكان عندهم عرفة المشرّفة القدر ، وأنشدوا :

لو لا شهود جمالكم فى ذاتى ما كنت أرضى ساعة بحياتي

ما ليلة القدر المعظّم شأنها إلا إذا عمرت بكم أوقاتي

إن المحبّ إذا تمكّن فى الهوى والحبّ لم يحتج إلى ميقات

وقال آخر «١» :

كلّ وقت من حبيبى قدره كألف حجّه

فاز من خلّى الشّواغل ولمولاه توجّه

فمن فرض على قلبه حجّ الحضرة فليلتزم الأدب والنظرة ، والسكوت والفكرة ، قال تعالى وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً فلا رفث ولا فسوق ولا جدال ولا مراء ، إذ مبنى طريقهم على التسليم والرضى ، وما تفعلوا من خير فليس على اللّه بخفي. وتزودوا بتقوى شهود السّوى ، فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى ، وجماع التقوى هى مخالفة الهوى ، ومحبة المولى ، فهذه تقوى أولى الألباب الذين صفت مرآة قلوبهم ، فأبصروا الرشد والصواب. وباللّه التوفيق.

ثم أباح الحق تعالى التجارة فى مواسم الحج ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٩٨ الى ١٩٩]

لَيسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَاذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩)

قلت : (أن تبتغوا) : على إسقاط حرف الجر ، أي : فى أن تبتغوا ، وسبب نزول الآية : أن عكاظ ومجنّة وذا المجاز - أسماء مواضع - كانت أسواقا فى الجاهلية يعمرونها فى مواسم الحج ، وكانت معايشهم منها ، فلما جاء الإسلام تأثّموا وتحرجوا أن يتجروا فيها ، فقال لهم الحق جل جلاله : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أي : إثم أو ميل

---

(١) وهو الششترى. [.....]

عن الصواب ، فى أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ أي : عطاء ورزقا تستفيدونه من التجارة فى مواسم حجكم ، إذا خلصت نيتكم ، وغلب قصد الحج على التجارة.

وهاهنا قاعدة ذكرها الغزالي فى الإحياء ، وحاصلها : أن العمل إذا تمحّض لغير اللّه فهو سبب المقت والعقاب ، وإذا تمحض للّه خالصا فهو سبب القرب والثواب ، وإذا امتزج بشوب من الرياء أو حظوظ النفس فينظر إلى الغالب وقوة الباعث فإن كان باعث الحظ أغلب ، سقط ، وكان إلى العقوبة أقرب ، لكن عقوبته أخف ممن تجرد لغير اللّه ، وإن كان باعث التقرب أغلب ، حط منه بقدر ما فيه من باعث الحظ ، وإن تساويا تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه.

ثم قال : ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صحّ حجه وأثيب عليه. ثم قال

:

والصواب أن يقال : مهما كان الحج هو المحرّك الأصلى ، وكان غرض التجارة كالتابع ، فلا ينفك نفس السفر عن ثواب ، ثم طرّد هذا الاعتبار فى الجهاد باعتبار الغنيمة ، يعني : ينظر لغالب الباعث وخلوص القصد ، وكذلك الصوم للحمية والثواب ، ينظر لغالب الباعث.

قلت : وتطرّد هذه القاعدة فى المعاملات كلها ، وجميع الحركات والسكنات والحرف وسائر الأسباب ، فالخالص من الحظوظ مقبول ، والمتمحض للحظوظ مردود ، والمشوب ينظر للغالب كما تقدم.

وقد ذكر شيخ المشايخ سيدى أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه قاعدة أخرى أدقّ من هذه فقال : إذا أكرم اللّه عبدا فى حركاته وسكناته ، نصب له العبودية للّه وستر عنه حظوظ نفسه ، وجعله يتقلب فى عبوديته ، والحظوظ عنه مستورة ، مع جرى ما قدّر له ، ولا يلتفت إليها لأنها فى معزل عنه ، وإذا أهان اللّه عبدا فى حركاته وسكناته ، نصب له حظوظ نفسه ، وستر عنه عبوديته ، فهو يتقلب فى شهواته ، وعبودية اللّه عنه بمعزل ، وإن كان يجرى عليه شيء منها فى الظاهر ، قال : وهذا باب من الولاية والإهانة. وأما الصّدّيقية العظمى ، والولاية الكبرى ، فالحظوظ والحقوق كلها سواء عند ذوى البصيرة لأنه باللّه فيما يأخذ ويترك. هـ.

الإشارة : العبد لا يستغنى عن طلب الزيادة ، ولو بلغ من الكمال غاية النهاية ، فالقناعة من اللّه حرمان ، واعتقاد بلوغ النهاية نقصان ، فليس عليكم جناح أيها العارفون أن تبتغوا فضلا من ربكم زيادة فى إيقانكم ، وترقّيا فى معانيكم ، إذ كمالات الحق لا نهاية لها ، وأسرار الذات لا إحاطة بها ، قال تعالى : وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً. واللّه ولى التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى الوقوف بعرفة ، والرجوع إلى المزدلفة والمشعر الحرام ، فقال :

فَإِذا أَفَضْتُمْ ... قلت : (أفضتم) : دفعتم ، وأصل الإفاضة : الدفع بقوة ، من فاض الماء إذا نبع بقوة ، ثم استعمل فى مطلق الاندفاع على سبيل المبالغة. و(عرفات) فيها الصرف وعدمه ، كأذرعات. وسمى عرفات لقول إبراهيم الخليل عليه السّلام لجبريل حين علّمه المناسك : قد عرفت. أو لمعرفة آدم حواء فيها. والكاف فى (كما هداكم) تعليلية ، و(ما) مصدرية ، أي : واذكروه لأجل هدايته لكم. و(إن كنتم) مخففة ، واللام فارقة ، وقوله : (أو أشد) نعت لمصدر محذوف ، أي : أو ذكرا أشد ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : فإذا وقفتم بعرفة ، وأفضتم منها ، فانزلوا المزدلفة وبيتوا بها ، فإذا صليتم الصبح بغلس فقفوا عند الْمَشْعَرِ الْحَرامِ ، وهو جبل فى آخر المزدلفة ، واذكروا اللّه عنده بالتهليل

والتكبير والتلبية إلى الإسفار ، هكذا فعل الرسول – عليه الصلاة والسلام – ، وَاذْكُرُوهُ لأجل ما هداكم إليه من معالم دينه ومناسك حجه ، وغير ذلك من شعائر الدين ، أو فاذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة ، وقد كنتم من قبل هذه الهداية لَمِنَ الضَّالِّينَ.

وكانت قريش لا تقف مع الناس ترفعا عليهم ، بل تقف بالمزدلفة ، فأمرهم الحق جل جلاله بالوقوف مع الناس ، فقال لهم : ثُمَّ أَفِيضُوا يا معشر قريش مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ بأن تقضوا معهم ، وتفيضوا من حيث أفاضوا ، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ فى تغييركم مناسك إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لكم ، رَحِيمٌ بكم إن تبتم ورجعتم واتبعتم رسولكم.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٠٠ الى ٢٠٢]

فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ (٢٠١) أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (٢٠٢)

فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ وفرغتم من حجكم فَاذْكُرُوا اللَّهَ ذكرا كثيرا كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أو ذكرا أَشَدَّ ذِكْراً منهم ، حيث كنتم تذكرونهم عند فراغ حجكم بالمفاخرة ، وكانوا إذا فرغوا من حجهم وقفوا بمنى ، بين المسجد والجبل ، فيذكرون مفاخر آبائهم ، ومحاسن أيامهم ، فأمروا أن

يبدلوا ذلك بذكر اللّه ، وذكر إحسانه إليهم ، وشكر ما أسداه إليهم من مفاخر الدنيا والآخرة ، إن آمنوا واتبعوا رسوله صلّى اللّه عليه وسلم.

الإشارة : إذا وقفت القلوب على جبل عرفة المعارف ، وتمكنت من شهود جمال معانى تلك الزخارف ، حتى صارت تلك المعاني هى روحها وسرّها ، وإليها مآلها ومسيرها ، أمرت بالنزول إلى أرض العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، شكرا لما هداها إليه من معالم التحقيق ، وما أبان لها من منار الطريق ، وإن كانت من قبله لمن الضالين عن الوصول إلى رب العالمين. ثم يؤمرون بمخالطة الناس بأشباحهم ، وانفرادهم عنهم بأرواحهم. أشباحهم مع الخلق تسعى ، وأرواحهم فى الملكوت ترعى ، فإذا وقع منهم ميل أو سكون إلى حسّ فليستغفروا اللّه إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. ثم يقال لهم : فإذا قضيتم مناسككم ، بأن جمعتم بين مشاهدة الربوبية فى باطنكم ، والقيام بوظائف العبودية فى ظاهركم ، فاذكروا اللّه على كل شىء ، وعند كل شىء ، وقبل كل شىء ، وبعد كل شىء ، حتى لا يبقى من الأثر شىء ، كما كنتم تذكرون آباءكم وأبناءكم ، فى حال غفلتكم ، بل أشد ذكرا وأعظم وأتم ، واللّه ذو الفضل العظيم.

ثم بيّن الحق تعالى مقاصد الناس ، وهممهم فى طلبهم وسعيهم ، فقال :
فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ...
يقول الحق جل جلاله فى بيان مقاصد الناس وهممهم فى طلبهم فى الحج وغيره : فَمِنَ النَّاسِ من قصرت نيته وانحطت همته ، يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا ما تشتهيه نفوسنا من حظوظها وشهواتها ، وليس له فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ أي : نصيب ، لأنه عجّل نصيبه فى الدنيا. «إن اللّه يرزق العبد على قدر نيته» وَمِنْهُمْ من أراد كرامة الدنيا وشرف الآخرة يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حالة حَسَنَةً كالمعرفة ، والعافية ، والمال الحلال ، والزوجة الحسنة ، وجميع أنواع الجمال ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً كالنظرة ، والحور العين ، والقصور ، وجميع أنواع النعيم ، وَقِنا عَذابَ النَّارِ بالعفو والمغفرة ، وقال سيدنا علىّ - كرّم اللّه وجهه - : (الحسنة فى الدنيا : المرأة الصالحة ، وفى الآخرة : الحوراء. وعذاب النار فى الدنيا : المرأة السوء) وقال الحسن : (الحسنة فى الدنيا : العلم والعبادة ، وفى الآخرة : الجنة). وَقِنا عَذابَ النَّارِ : احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار ، وهذه كلها أمثلة للحالة الحسنة.

(٢٣١/١)

أُولئِكَ الذين طلبوا خير الدارين لَهُمْ نَصِيبٌ وحظّ من الجزاء الوافر من أجل ما كسبوا من الأعمال الصالحات ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ يحاسب عباده على كثرتهم ، وكثرة أعمالهم ، فى مقدار لمحة. قيل لعلىّ رضي اللّه عنه : كيف يحاسب الله عباده فى ساعة واحدة؟ فقال : كما يرزقهم فى ساعة واحدة. هـ. أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب عباده) فبادروا إلى اغتنام الطاعات ، واكتساب الحسنات ، قبل هجوم الممات.
الإشارة : الناس ثلاثة : صاحب همة دنيّة ، وذو همة متوسطة ، وصاحب همة عالية ، أما صاحب الهمة الدنية فهو الذي أنزل همته على الدنيا الدنية ، وأكبّ على جمع حطامها الفانية ، فقلب هذا خال من حب الحبيب ، فما له فى الآخرة من نصيب. وأما صاحب الهمة المتوسطة فهو الذي طلب سلامة الدارين ، وصلاح الحالين ، قد اشتغل فى هذه الدار بما ينفعه فى دار القرار ، ولم ينس نصيبه من الدنيا ليقضى ما له فيها من الأوطار ، فهذا له فى الدنيا حسنة ، وهى الكفاية والغنى ، وفى الآخرة حسنة ، وهى النعمة والسرور والهنا.
وأما صاحب الهمة العالية فهو الذي رفع همته عن الكونين ، وأغمض طرفه عن الالتفات إلى الدارين ، بل علّق همته بمولاه ، ولم يقنع بشىء سواه ، قد ولى عن هذه الدار مغضيا ، وأعرض عنها موليا ، ولم يشغله عن اللّه شىء ، يقول بلسان المقال إظهارا لعبوديته للكبير المتعال : رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً

وهى النظرة والشهود ، ورضا الملك الودود ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وهى اللحوق بأهل الرفيق الأعلى ، من المقربين والأنبياء ، فى حضرة الشهود المؤبد فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ. أتحفنا اللّه من ذلك بحظّ وافر ، بمنّه وكرمه ، نحن وأحباءنا أجمعين ، آمين.

ثم تمّم الحق تعالى ما بقي من مناسك الحج وهى رمى الجمار أيام منى ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٠٣]

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ وهى ثانى النّحر وثالثه ورابعه ، وهى أيام التشريق وأيام منى ، وأما الأيام المعلومات فهى يوم النحر وثانيه وثالثه. والمراد بالذكر : التكبير عند الرمي ، وذبح القرابين ، وخلف الصلوات الخمس ، وغير ذلك ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ بحيث رمى ثانى النحر وثالثه ، ورجع ، فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ لرمى رابع النحر ، وهو ثالث أيام منى ، فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ، والقصد بنفي الإثم :

(٢٣٢/١)

التخيير والرد على الجاهلية ، فإنّ منهم من أثّم المتعجل ، ومنهم من أثّم المتأخر. هذا كله لِمَنِ اتَّقى اللّه فى حجه ، فلم يرفث ، ولم يفسق ، فإنه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، كما قال الصادق المصدوق ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فى جميع أموركم ، فإنه ذكر وشرف لكم ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فتجازون على ما أسلفتم من خير أو شر.

الإشارة : الأيام المعدودات هى أيام الدنيا فإنها قلائل معدودة ، وهى كلها كيوم واحد ، وأيام البرزخ يوم ثان ، وأيام البعث وما بعده يوم ثالث ، فمن تعجل فى يومين ، بحيث طوى فى نظره أيام الدنيا وأيام البرزخ ، وسكن بقلبه فى يوم القيامة فلا إثم عليه ، وهذا هو صاحب الهمة المتوسطة ، ومن تأخر حتى زهد فى الأيام الثلاثة ، وعلق همته بمولاه ، ولم يلتفت إلى ما سواه ، فلا إثم عليه فى ذلك التأخر ، إن اتقى شهود السوي ، وعلق همته بمحبة المولى ، ثم حض سبحانه على هذه التقوى فقال : (و اتقوا اللّه) فلا تشهدوا معه سواه ، (و اعلموا أنكم إليه تحشرون) فتروا ما فاز به المتقون.

ولمّا أمر الحق سبحانه عباده بالتقوى ذكر من لم يرفع بذلك رأسا واتبع هواه ، ومن امتثل أمره وباع نفسه للّه فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٠٤ الى ٢٠٧]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ (٢٠٤) وَإِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ (٢٠٥) وَإِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (٢٠٧)

قلت : نزلت الآية فى الأخنس بن شريق الثقفي وصهيب بن سنان الرومي ، أما الأخنس فكان رجلا حسن المنظر ، حلو المنطق ، كان يوالى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ويدّعى الإسلام ، ثم ارتد ، ومرّ على زرع وحمر للمسلمين فقتلها وأفسد الزرع ، قال ابن عطية : ولم يثبت أنه أسلم. قلت : بل ذكره فى القاموس من الصحابة ، فانظره ، ولعله تاب بعد نزول الآية. وأما صهيب الرومي فأخذه المشركون وعذبوه ليرتد ، فقال لهم : إنى شيخ كبير لا أنفعكم إن كنت معكم ، ولا أضركم إن كنت عليكم ، فخلونى وما أنا عليه ، وخذوا مالى ، فقبلوه منه ، وأتى المدينة فلما رآه صلّى اللّه عليه وسلم قال له : «ربحت يا أبا يحيى».

(٢٣٣/١)

وقيل : نزلت فى المنافقين ومن نحا نحوهم ، وفيمن باع نفسه للّه فى الجهاد وتغيير المنكر من المسلمين. و(فى الحياة الدنيا) يتعلق بالقول ، و(ألد الخصام) شديده ، وفى الحديث : «أبغض الرّجال إلى اللّه الألدّ الخصم».

والخصام : مصدر ، أو جمع خصيم.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ النَّاسِ قوم حلو اللسان خراب الجنان ، إذا تكلم فى شأن الدنيا يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فيها لرونقه وفصاحته ، وَيُشْهِدُ اللَّهَ أي : يحلف على أنه موافق لقلبه ، وأن ظاهره موافق لباطنه ، وهو شديد الخصومة والعداوة للمسلمين ، أو أشد الخصوم ، وَإِذا تَوَلَّى أي : أدبر وانصرف عنك ، سَعى فِي الْأَرْضِ أي : مشى فيها بنية الإفساد لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ كما فعل الأخنس ، أو كما فعله أهل الظلم ، فيحبس اللّه القطر ، فيهلك الحرث والنسل بشؤم معاصيهم ، وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ أي : لا يرتضيه ، فاحذروا غضبه. وَإِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ وارجع عما أنت عليه من الفساد أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ أي : حملته الحمية والأنفة بسبب الإثم الذي ارتكبه ، فلا ينزجر عن غيّه. أو حملته الحمية على الإثم الذي يؤمر باتقائه. فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ أي : كفته عذابا وعقابا ، وهى علم لدار العقاب ، كالنار ، وَلَبِئْسَ الْمِهادُ هى ، أي : بئس الفراش الذي مهّده لنفسه.

ونزل فى مقابله ، وهو صهيب ، أو كل من بذل نفسه للّه : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أي : يبيعها

ويبذلها للّه فى الجهاد وغيره ، ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ والوصول إلى حضرته وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ الذين يفعلون مثل هذا ، فيدرأ عنهم المضارّ ، ويجلب لهم المسارّ أينما حلوا من الدارين.

الإشارة : الناس على قسمين : قسم زيّنوا ظواهرهم وخرّبوا بواطنهم ، ظاهرهم جميل وباطنهم قبيح ، إذا تكلموا فى الدنيا أو فى الحس ، أعجبك قولهم ، وراقك منظرهم ، وإذا تكلموا فى الآخرة ، أو فى المعنى ، أخذتهم الحبسة والدهشة. وفى بعض الكتب المنزلة : «إنّ من عباد اللّه قوما ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصّبر ، يلبسون للنّاس جلود الضّأن من اللّين ، يجترّون الدّنيا بالدّين ، يقول اللّه تعالى : أبى يغترّون ، وعلىّ يجترئون؟ حلفت لأسلطنّ عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران».

وقوله (يلبسون ...) إلخ. كناية عن إظهار اللين والسهول ليخدع ويغر الناس ليتوصل إلى حظ نفسه من الدنيا ، ومع ذلك يدعى موافقة ظاهره لباطنه ، وهو شديد الخصومة لأهل اللّه ، وإذا تولى عنك اشتغل بالمعاصي والذنوب ، ليفسد فى الأرض ، ويهلك الحرث والنسل بشؤم معاصيه ، وإذا ذكّر : أنف واستكبر ، وأخذته حمية الجاهلية ، فحسبه البعد فى نار القطيعة.

(٢٣٤/١)

والقسم الثاني : قوم زيّنوا بواطنهم وخربوا ظواهرهم ، عمّروا قلوبهم بمحبة اللّه ، وبذلوا أنفسهم فى مرضات اللّه ، قلوبهم فى أعلى عليين ، وأشباحهم فى أسفل سافلين ، فأولئك المقربون مع النبيين والمرسلين. قال بعض العارفين :

كلما وضعت نفسك أرضا أرضا ، سما قلبك سماء سماء ، وكل ما نقص من حسك زاد فى معناك.

وفى الحديث :

«من تواضع دون قدره رفعه اللّه فوق قدره». وباللّه التوفيق.

ثم دعا الحق ، تعالى عباده ، إلى التوغل فى الإسلام ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٠٨ الى ٢٠٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)

قلت : (السلم) ، بالفتح والكسر : هو الاستسلام والانقياد ، ويبعد هنا تفسيره بالصّلح. و(كافة) : حال من الواو والسلم معا ، كقوله تعالى : فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم من أهل الكتاب ادْخُلُوا فِي شرائع الإسلام كَافَّةً بحيث لا تهملوا شيئا منها ، ولا تلتفتوا إلى غيرها. نزلت فى عبد اللّه بن سلام

وأصحابه ، حيث دخلوا في الإسلام ، وأرادوا أن يعظّموا السبت ، وتحرجوا من لحوم الإبل. أو في المنافقين حيث أسلموا في الظاهر ، ونافقوا في الباطن ، فقال لهم الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا في الظاهر ، ادخلوا في الإسلام كَافَّةً ظاهرا وباطنا. أو في المسلمين يأمرهم بالتمسك بشرائع الإسلام كلها ، والبحث عن أحكامها وأسرارها ، وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ أي : طرقه الدالة على التفريق والتفرق إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ أي : بيّن العداوة.

فَإِنْ زَلَلْتُمْ عن طريق الجادّة ففرقتم بين أجزاء الشريعة ، أو التفتّم إلى غير شريعتكم ، مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ الآيات الْبَيِّناتُ الدالة على صحة الدين ونبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ أي : غالب لا يعجزه عقابكم ، حَكِيمٌ في إمهاله إلى وقت معلوم.

الإشارة : أمر الحق جل جلاله جميع عباده بالصلح معه والاستسلام لأحكامه ، بحيث لا يصدر منهم نزاع لأحكامه ، ولا اعتراض على أفعاله ، بل ينظرون ما يبرز من عنصر القدرة ، فيتلقونه بالرضى والتسليم ، أو الصبر والتصبر ، سواء ظهرت هذه الأفعال على أيدى الوسائط أو بلا وسائط ، إذ لا فاعل سواه ، وكلّ من عند اللّه ، فإن

زللتم واعترضتم ، أو سخطتم ، من بعد ما جاءتكم الآيات البينات الدالة على وحدانية الحق في ذاته وصفاته وأفعاله ، فاعلموا أن اللّه عزيز حكيم ، لا يعجزه عقوبتكم وإبعادكم ، لكنه من حكمته يمهل ولا يهمل ، واللّه غالب على أمره ، ومن تاب تاب اللّه عليه.

ثم ذكر وعيد من خالف أمره ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢١٠]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)

قلت : (الظّلل) : جمع ظلّة ، وهي ما أظلّك من فوق ، و(الغمام) : السحاب الرقيق الأبيض.

يقول الحق جل جلاله : ما ينتظر هؤلاء الممتنعون من الدخول في شرائع الإسلام - إلا أن تقوم الساعة ، ويأتيهم اللّه للفصل بين عباده فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ ، بأن يتجلى لعباده على ما يليق بجلاله إذ تجليات الحق لا تنحصر. وتأتيهم الْمَلائِكَةُ تحيط بهم وَقُضِيَ الْأَمْرُ بعذابهم ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كلها ، فهو المتصرف وحده. وقد ذكر المنذرى حديث هذا التجلي بطوله ، وذكر فيه النزول والفصل بين عباده ، والمرور على الصراط ، والناس في أنوار إيمانهم. وذكره الفاسى في الحاشية بتمامه. ومن كحل عين

بصيرته بإثمد «١» التوحيد الخاص ، لم يستصعب عليه فهم هذا الحديث وأمثاله لسعة دائرة معرفته. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى الآية تهديد لأهل الحجاب الذين لم يتحققوا بالصلح مع اللّه ، بل هم يخاصمون اللّه فى مظاهر خلقه ، ويعترضون على اللّه فى قضائه وحكمه ، فقال لهم الحق جل جلاله : هل ينتظر هؤلاء المنكرون علىّ فى أفعالى ، المعترضون علىّ فى حكمى وإبرامى - إلا أن أتعرف لهم فى ظلل من الغمام ، وهو سحب الآثار ، فإذا أنكرونى أخذتهم الملائكة ، وقضى الأمر بهلاكهم ، وإلى اللّه ترجع الأمور كلها ، فليلتزم العبد الأدب مع مولاه ، وليسلم الأمور كلها إلى اللّه ، إذ لا موجود سواه «٢» ، فما برز من العباد : كله من اللّه ، فمن اشتغل بعتابهم فاته الأدب مع اللّه ، إلا ما أمرت به الشريعة ، فليكن فى ذلك كالعبد يؤدب ابن سيده يده تؤدب وقلبه يعظم ، واللّه تعالى أعلم وأرحم.

---

(١) الإثمد : حجر يتخذ منه الكحل. وقيل : هو نفس الكحل.

(٢) أي : لا موجود بحق.

ثم هدّد بنى إسرائيل على عدم دخولهم فى الإسلام ، أو على عدم تمسكهم بشرائعه كلها ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢١١]

سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢١١)

قلت : (كم) خبرية ، أو استفهامية ، محلها نصب بفعل محذوف يقدر مؤخرا للصدرية ، أي : كم آياتنا آتيناهم ، أو رفع بالابتداء ، والعائد محذوف ، أي : آتيناهموه.

يقول الحق جل جلاله لرسوله - عليه الصلاة والسلام - أو لكل سامع : سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ سؤال تقريع ، وقل لهم : كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ أي : كثيرا ما آتيناهم من آية واضحة فى شأنك ، تدل على صدق رسالتك وعلو شأنك وفخامة أمرك ، اعتناء بأمرهم ، ونعمة على من أدرك زمانك منهم. ثم إنهم بدلوا نعمة اللّه كفرا ، وحجدوا فكتموا تلك النعمة وكفروها ، وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ من بعد مجيئها إياه ، فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ لمن كفر نعمه وجحد رسله ، نعوذ باللّه من السلب بعد العطاء ، ومن كفران النعم ، وحرمان الرضا.

الإشارة : ما قيل لبنى إسرائيل ، يقال لمن تحقق بولاية ولى من أولياء الله ، ثم حجدها وكتمها ، وحرم

نفسه بركة ذلك الولي ، فمات على مرضه ، فيقال له : وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ. وعقوبته : أن يلقى اللّه بقلب سقيم ، فيبعث مع عوام أهل اليمين ، ويحرم درجة المقربين ، التي تلى درجة النبيين والمرسلين. عائذا باللّه من الحرمان ، وشؤم عاقبة الخذلان.

ثم ذكر الحق جل جلاله سبب هذا الحرمان ، وهو حب الدنيا ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢١٢]

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٢١٢)

قلت : (زين) مبنى للمفعول ، والفاعل هو اللّه ، إذ لا فاعل سواه.

يقول الحق جل جلاله : زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا من أهل الكتاب وغيرهم ، الْحَياةُ الدُّنْيا أي : حسّنت فى أعينهم ، وأشربت محبتها فى قلوبهم ، حتى تهالكوا عليها ، وأعرضوا عن غيرها ، فلم تتفرغ قلوبهم للتفكر والاعتبار ، ولم تستمع آذانهم للوعظ والتذّكار ، بل أعمتهم ، وأصمتهم ، وقصروا عليها همتهم ، حتى جعلوا يسخرون ممن أعرض عنها ، كفقراء المسلمين وأهل الصفة ، فكانوا يستهزئون بهم ، حيث رفضوا الدنيا وأقبلوا على اللّه ، فرفعهم اللّه

فى أعلى عليين ، وخفض الكفار فى أسفل سافلين. فهم يسخرون منهم فى دار الدنيا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ لأنهم فى عليين ، والآخرون فى أسفل سافلين. أو لأنهم فى كرامة ، والآخرون فى مذلة. أو لأنهم يسخرون منهم يوم القيامة كما سخروا منهم فى الدنيا.

وعبّر بالتقوى لأنها سبب رفعهم واستعلائهم. وأما استهزاؤهم بهم لأجل فقرهم ، فإن الفقر شرف للعبد ، والبسط فى الدنيا لا يدل على شرفه فقد يكون استدراجا ، وقد يكون عونا ، فاللّه يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ ، أي :

بغير تقدير ، فيوسع فى الدنيا استدراجا وابتلاء ، ويقتر على من يشاء اختبارا وتمحيصا ، لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ.

الإشارة : اعلم أن عمل أهل الباطن كله باطني قلبى ، بين تفكر واعتبار ، وشهود واستبصار ، أو نقول : بين فكرة ونظرة وعكوف فى الحضرة ، فلا يظهرون من أعمالهم إلا المهم من الواجبات ، ولذلك قال بعضهم : إذا وصل العمل إلى القلوب استراحت الجوارح ، (و معلوم أن الذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح) «١» لأن أعمال القلوب خفية ، لا يطلع عليها ملك فيكتبها ،

ولا شيطان فيفسدها ، الإخلاص فيها محقق.

وأيضا : «تفكر ساعة أفضل من عبادة ستين سنة». وسئل - عليه الصلاة والسلام - : «أىّ الأعمال أفضل؟ قال :

العلم باللّه. قيل : يا رسول اللّه سألناك عن العمل؟ فقال : العلم باللّه ، ثم قال صلّى اللّه عليه وسلم : إذا حصل العلم باللّه كفى قليل العمل». أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، فلما خفيت أعمال أهل الباطن سخر منهم أهل الظاهر ، واستصغروا شأنهم حيث لم يروا عليهم من الأعمال ما رأوا على العبّاد والزهاد. والذين اتقوا شهود ما سوى اللّه ، أو كل ما يشغل عن اللّه ، فوقهم يوم القيامة لأنهم من المقربين وغيرهم من عوام المسلمين ، واللّه يرزق من يشاء فى الدارين بغير حساب ، أي : بغير تقدير ولا حصر ، فيرزق العلوم ، ويفتح مخازن الفهوم على من توجه إلى مولاه ، وفرغ قلبه مما سواه. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى حكمة بعثه الرسل ، فقال :

---

(١) عزاه السراج الطوسي فى اللمع إلى أبى سليمان الداراني. وقال السراج موضحا معناه : هذا الذي قال أبو سليمان يحتمل معنيين ، أحدهما : أنه أراد بذلك :

استراحت الجوارح من المجاهدات والمكابدات من الأعمال ، إذا اشتغل بحفظ قلبه ومراعاة سره من الخواطر المشغلة والعوارض المذمومة التي تشغل قلبه عن ذكر اللّه تعالى. ويحتمل أيضا أنه أراد بذلك : أن يتمكن من المجاهدة ، والأعمال والعبادات وتصير وطنه حتى يستلذها بقلبه ويجد حلاوتها ، ويسقط عنه التعب ووجود الألم الذي كان يجد قبل ذلك.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢١٣]

كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)

قلت : (فبعث) معطوف على محذوف ، أي : فاختلفوا فبعث ، و(بغيا) : مفعول له ، و(من الحق) بيان (لما).

يقول الحق جل جلاله : كانَ النَّاسُ فى زمن آدم عليه السّلام وما قرب منه أُمَّةً واحِدَةً أي : جماعة

واحدة ، متفقة على التوحيد ، والطاعة ، فاختلفوا بعد ذلك فى أمر التوحيد ، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ لأهل التوحيد والطاعة بالنعيم المقيم ، وَمُنْذِرِينَ أي : مخوفين لأهل الكفر والعصيان بالعذاب الأليم.
وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ أي : جنس الكتب ، فيشمل الكتب السماوية كلها ، متلبسا ذلك الكتاب بِالْحَقِّ ، ودالا عليه لِيَحْكُمَ الحق تعالى على لسان الرسل بَيْنَ النَّاسِ فى الأمر الذي اخْتَلَفُوا فِيهِ من أمر التوحيد وغيره. ثم اختلفوا أيضا فى الكتب المنزلة فبعضهم آمن ، وبعضهم كفر بها أو ببعضها ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ أي :
فى الكتاب المنزل ، إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ حسدا أو كبرا فاليهود آمنوا بالتوراة وكفروا بالإنجيل ، والنصارى آمنوا بالإنجيل وكفروا بالتوراة ، مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ : الآيات الواضحات فى صحة ذلك الكتاب الذي كفروا به ، والأمر بالإيمان به.
وإنما وقع ذلك الكفر منهم بَغْياً وحسدا بَيْنَهُمْ ، فأنزل اللّه العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته ، فأمرهم أن يتألفوا بالعلم ، فتحاسدوا ، واختلفوا طلبا للرئاسة والجاه ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بمحمد - عليه الصلاة والسلام - للأمر الذي اختلف فيه أهل الكتاب ، وهو الحق الذي جاءت به الرسل ، فآمنوا بالجميع ، وتآلفوا على طاعة اللّه بِإِذْنِهِ وإرادته ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ، ويضل من يشاء عن طريقه القويم ، لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ.
الإشارة : الأصل فى الأرواح كلها : الاتفاق والإقرار ، وإنما حصل لها الخلاف والإنكار بعد دخولها فى عالم الأشباح ، وهبوطها من عالم الأرواح ، فبعث اللّه النبيين يذكّرون الناس العهد القديم ، فمن سبقت له السعادة حصل له الإقرار ، ومن سبق له الشقاء حصل له الإنكار ، ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام - : «كلّ مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه». ثم بعث اللّه الحكماء ، وهم العارفون باللّه ، يعالجون ما حصل

للروح من الجهل والإنكار ، فمن سبقت له العناية آمن بهم ، وصدقهم ، واستسلم بكليته إليهم ، فحصل له الوصول ، وبلغ كل المأمول ، ومن سبق له الحرمان لم يحصل له بهم إيمان ، وبقي دائما فى قلبه حيران.
وما وقع هذا الإنكار فى الغالب إلا من أهل الرئاسة والجاه ، أو من كان عبدا لدنياه وهواه ، بغيا وحسدا منهم ، فهدى اللّه الذين آمنوا - وهم أهل الفطرة والنية - لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فحصل لهم التصديق ، ووصلوا إلى عين التحقيق ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ وهو طريق

الوصول إلى الحضرة القدسية التي كانت مقرا للأرواح الزكية ، منها جاءت وإليها عادت. وفى ذلك يقول ابن البنا رضي اللّه عنه :

وهذه الحقيقة النّفسيّة موصولة بالحضرة القدسيّة

وإنّما يعوقها الموضوع ومن هنا يبتدأ الطّلوع

ولمّا كانت المحبة والهداية إلى أسبابها مقرونتين بالبلاء ذكره الحق تعالى بإثر الهداية ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢١٤]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)

قلت : «أم» منقطعة بمعنى بل ، وتتضمن استفهاما إنكاريا ، و«حسب» تتعدى إلى مفعولين ، أي : أظننتم دخول الجنة حاصلا من غير أن يأتيكم؟. (لما) أصلها (لم) زيدت عليها «ما» : وهى تدل على توقع منفيها بخلاف لم.

و(حتى يقول) يصح فى النصب بتقدير (أن) لأن الزلزلة متقدمة على قول الرسول ، والرفع على حكاية الحال ، أي : وزلزلوا حتى حالتهم حينئذ أن الرسول ومن معه يقولون كذا وكذا. وفائدة الحكاية : فرض ما كان واقعا فى الزمان الماضي واقعا فى هذا الزمان ، تصورا لتلك الحال العجيبة ، واستحضارا لصورتها فى مشاهدة السامع ، وإنما وجب رفعه عند إرادة الحال لأن نصبه يؤدى إلى تقدير (أن) ، وهى للاستقبال ، والحال ينافيه ، ويصح فى موضع «حتى» الداخلة على الحال الفاء السببية.

يقول الحق جل جلاله للرسول - عليه الصلاة والسلام - والمؤمنين ، تسلية لهم وتشجيعا لقلوبهم : أظننتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يصبكم مثل ما أصاب من قبلكم من الأنبياء وأممهم ، فقد مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ فى أموالهم بالغصب والنهب والموت وَالضَّرَّاءُ فى أبدانهم بالقتل فى الحرب والمرض وأنواع البلاء ، وَزُلْزِلُوا أي :

ضربوا بالمحن والشدائد ، وطال عليهم البلاء ، وتأخر عنهم النصر ، حتى أفضى بهم الحال إلى أن قالوا : مَتى يأتينا نَصْرُ اللَّهِ؟ استبطاء لمجيئه مع شدة البلاء.

قال الحق جل جلاله بشارة لهم : أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ فلا تستعجلوا ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.

الإشارة : الجنة حفت بالمكاره ، ولا فرق بين جنة الزخارف وجنة المعارف ، فمن رام دخول جنة

المعارف قبل أن يمسه شيء من المكاره ، فقد رام المحال. قال أبو المواهب : من ادعى شهود الجمال ، قبل تأدبه بالجلال ، فارفضه فإنه دجال. وقال بعض العارفين : [صيحة العدو سوط اللّه يزجر به قلوب أوليائه لئلا تسكن إلى غيره]. وفي الحكم : «إنما أجرى الأذى عليهم كي لا تكون ساكنا إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا تكون ساكنا إلى شي ء». وقال الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه : [اللهمّ إنّ القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزّوا ، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا].
فتسليط الخلق على أولياء اللّه في بدايتهم سنة ماضية ، وحكمة إلهية ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا. حتى إذا تخلصوا من البقايا ، وكملت فيهم المزايا ، نشر فضيلتهم لعباده ، فأقروهم ليعرفوهم الطريق إلى اللّه ، ويدلوا العباد على اللّه ، بعد أن كساهم حينئذ كسوة الجمال وكسوة الجلال ، فبكسوة الجمال يقع الائتلاف عليهم والعطف لهم ، وبكسوة الجلال يقع الامتثال لأمرهم والاستماع لقولهم.
واللّه تعالى أعلم.
ولمّا أمر الحق تعالى بالنفقة في الجهاد وغيره ، سألوا ما الذي ينفقون؟ ، فبيّن اللّه تعالى لهم المنفق والمحل الذي تدفع فيه ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢١٥]
يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)
قلت : (ماذا) إما مفعول (ينفقون) ، أو مبتدأ وخبر بحذف العائد ، أي : ما الذي ينفقونه ، والسائل هو عمرو بن الجموح ، كان ذا مال فقال : يا رسول اللّه ، ماذا ننفق من أموالنا ، وأين نضعها؟ فنزلت الآية.
يقول الحق جل جلاله : يَسْئَلُونَكَ يا محمد ما ذا يُنْفِقُونَ من أموالهم؟ قُلْ لهم : ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ أيّ خير كان ، ذهبا أو فضة أو طعاما أو ثيابا أو حيوانا أو غير ذلك ، فادفعوه للأهمّ فالأهم كالوالدين والأقربين لأن فيهم الصلة والصدقة ، وَالْيَتامى الذين مات آباؤهم لهضم حالهم ، وَالْمَساكِينِ لضعفهم ، وَابْنِ السَّبِيلِ لغربته واحتياجه إلى ما يبلّغه إلى وطنه ، وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يجازيكم به اللّه ، فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم ، وهذه النفقة غير الزكاة ، فلا نسخ في الآية. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الإنفاق على قسمين : حسيّ ومعنوى ، الإنفاق الحسى هو بذل الأموال والفلوس ، والإنفاق المعنوي هو بذل الأرواح والنفوس ، فمن بذل أمواله للّه عوضه اللّه جنة الزخارف ، ومن بذل نفسه للّه عوضه اللّه جنة المعارف ، ومن دخل جنة المعارف لا يشتاق إلى جنة الزخارف ، وكما أن لنفقة الأموال

محلا تصرف فيه ، كما ذكره الحق تعالى هنا ، كذلك لنفقة النفوس محل تصرف فيه وهو خدمة الشيوخ العارفين باللّه ، والإخوان الذين يستعين بهم على الوصول إلى اللّه ، وكذلك من احتاج إليه من اليتامى الذين لا شيخ لهم ، فيرشدهم وينصحهم ، والمساكين الضعفاء الذين لا قدرة لهم على مجاهدة نفوسهم ، فيقويهم بحاله أو مقاله ، والغريب الذي انفرد عن الإخوان ، ولم يجد ما يستعين به على سيره فيرشده إلى الصحبة والاجتماع بأهل المحبة ، وإلى هذا المنزع أشار الشيخ أبو مدين رضي اللّه عنه :

وبالتغنّى على الإخوان جد أبدا حسّا ومعنّى ، وغضّ الطّرف إن عثرا

ولمّا ذكر الحق جل جلاله قواعد الإسلام ، وهى الصلاة والزكاة والصوم والحج ، بعد أن أشار إلى كلمة التوحيد بقوله : وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ ، ذكر الجهاد - الذي هو حفظ نظامه - فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢١٦]

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١٦)

قلت : الكره - بالضم - : اسم لما يشقّ على النفس ، وبالفتح المصدر.

يقول الحق جل جلاله : فرض عليكم الجهاد ، وهو شاق عليكم ، تكرهه نفوسكم ، وفيه خير كبير لكم ، وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، ففى الجهاد نصر دينكم ، وإعلاء كلمة إسلامكم ، والغنيمة والظّفر بعدوكم ، والأجر الكبير عند ربكم ، من مات كان شهيدا ، ومن عاش عاش سعيدا ، وكذلك بقية التكاليف ، فإن النفس تكره الإقدام عليها ، وهى مناط صلاحها ، وسبب فلاحها ، وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ فقد تحبون الراحة وترك الجهاد وفى ذلك ذلّكم ، وظهور العدو عليكم ، وفوات الأجر من ربكم ، وحرمان درجة الشهادة عند ربكم. وكذلك جميع المنهيات فإن النفس تحبها بالطبع ، وتشره إليها ، وهى تفضى بها إلى ذلها وهوانها ، وعبّر الحق سبحانه بعسى لأن النفس إذا ارتاضت انعكس الأمر عليها ، فيخف عليها أمر الطاعة ، ويصعب عليها أمر المخالفة ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فيه مصلحتكم ، وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ لجهلكم بعواقب أموركم.

(٢٤٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٤٣

الإشارة : الجهاد على قسمين : جهاد أصغر وهو جهاد السيف ، وجهاد أكبر وهو جهاد النفس ، فيجاهدها أولا فى القيام بجميع المأمورات ، وترك جميع المنهيات ، ثم يجاهدها ثانيا فى ترك العوائد والشهوات ، ومجانبة الرخص والتأويلات ، ثم يجاهدها ثالثا فى ترك التدبير والاختيار ، والسكون تحت

مجارى الأقدار ، حتى لا تختار إلا ما اختار الحق تعالى لها ، ولا تشتهى إلا ما يقضى اللّه عليها ، فإن النفس جاهلة بالعواقب ، فعسى أن تكره شيئا وهو خير لها ، وعسى أن تحب شيئا وهو شر لها.
فعسى أن تأتيها المسار من حيث تعتقد المضارّ ، وعسى أن تأتيها المضار من حيث ترجو المسار ، وعسى أن تنتفع على أيدى الأعداء ، وعسى أن تضر على أيدى الأحباء ، وعسى أن تكره الموت وهو خير لها ، وعسى أن تحب الحياة وهى شر لها ، فالواجب تسليم الأمور إلى خالقها ، الذي هو عالم بمصالحها ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ، وهذا كله قبل تصفيتها وكمالها ، وأما إذا تهذبت وكملت رياضتها ، فالواجب اتباع ما يتجلى فيها ، إذ لا يتجلى فيها إلا الحق ، وهذا هو ثمرة الجهاد الأكبر ، وأما الجهاد الأصغر فلا يحصل شيء من هذا ، فلذلك كان مفضولا عند أهل الجهاد الأكبر «١».
وباللّه التوفيق.
ولمّا كان القتال محرما فى الأشهر الحرم فى أول الإسلام ، ووقع من بعض الصحابة ، فندموا وتحرجوا ، أزال اللّه ذلك الحرج عنهم ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢١٧ الى ٢١٨]
يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَإِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)
قلت : (قتال) : بدل اشتمال من (الشهر الحرام) ، وقد وقع خبط فى عطف (المسجد الحرام ،) والصواب : ما قاله الزمخشري وابن عطية أنه عطف على (السبيل) إذ هو المتبادر من جهة المعنى ، أي : وصد عن سبيل اللّه وعن المسجد الحرام أكبر جرما من قتل السريّة فى الشهر الحرام ، والقواعد النحوية إنما هى أغلبية.

---

(١) لا يعنى هذا الغض من جهاد أعداء الدين ، وقد كان للصوفية فيه دور كبير مهم ...

يقول الحق جل جلاله : يَسْئَلُونَكَ يا محمد عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ أي : عن القتال فى الأشهر الحرم ، قُلْ لهم : القتال فى الشهر الحرام أمره كَبِيرٌ ، لكن ما وقع من الكفار من صد الناس عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي :

منعهم من الإسلام والطاعة ، وكذلك كفرهم باللّه وصدهم المسلمين عن الْمَسْجِدِ الْحَرامِ عام الحديبية ، وإخراج المسلمين من مكة التي هى بلدهم - وَالْفِتْنَةُ التي هم فيها من الكفر ، وافتتان الناس عن دينهم - أَكْبَرُ جرما من القتال الذي وقع فى الشهر الحرام تأويلا وظنا أنه لم يدخل الشهر الحرام.

وذلك أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم بعث سرية وأمّر عليها عبد اللّه بن جحش فى آخر جمادى الآخرة ، فلقوا عمرو بن الحضرمي ، مع أناس من قريش ، بعد غروب الشمس من جمادى الآخرة ، فرموا عمرا فقتلوه ، وأخذوا الغنيمة ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : «لم آمركم أن تقتلوا فى الشهر الحرام» فندموا ، وبعثت قريش بالعتاب للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : كيف تستحل القتال فى الشهر الحرام؟ فنزلت هذه الآية. ثم نسخ تحريم القتال فى الأشهر الحرم بقوله تعالى : وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً.

ثم قال الحق جل جلاله فى التحذير من الكفار : وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا ، لكن لا يطيقون ذلك ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ويستمر عليه حتى يموت وَهُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا فلا حرمة له ، ولا نصيب له فى الفيء والغنيمة ، وفى الْآخِرَةِ فلا يرى لها ثوابا ، وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ.

ومفهوم الآية : أنه إن رجع قبل الموت لا يحبط عمله ، وهو قول الشافعي. وقال مالك : يحبط أجر كل ما عمل ، ويعيد الحج ، إن تقدم على الردة ، ويقبل منه الإسلام إن رجع ، فإن لم يرجع أمهل ثلاثة أيام ، ثم يقتل.

ولمّا نزلت الآية فى إسقاط الحرج ، ظنوا أنه لا أجر لهم فى ذلك الجهاد ، فأنزل الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ أي ثوابه ، وَاللَّهُ غَفُورٌ لهم رَحِيمٌ بهم ، فلا يضيع جهادهم فى هذه السريّة ، وأعاد الموصول لتعظيم شأن الهجرة والجهاد ، وعبّر بالرجاء إشعارا بأن العمل غير موجب للثواب ، وإنما هو عبودية ، والأمر بيد اللّه إن شاء أثاب وإن شاء عاقب ، لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ.

الإشارة : تعظيم الزمان والمكان يكون بقدر ما يقع فيه من طاعة الملك الديان ، فالزمان الذي تهب فيه نفحات القبول والإقبال ، لا ينبغى أن يقع فيه ملاججة ولا قتال ، وهو وقت حضرة الذكر ، أو التذكير ، أو الجلوس مع

العارفين أهل الإكسير ، فسوء الأدب فيه أمره كبير ، ومنع القاصدين من وصوله جرمه كبير ، وصد

القلوب عن نفحات تلك الحضرة أكبر من كل كبير ، ولا يزال قطّاع هذه الطريق يردون من أراد سلوكها على التحقيق ، لكن من سبق له التأييد لا يرده عن الحق جبار ولا عنيد ، ومن سبق له الحرمان ، وحكم عليه القضاء بالخذلان ، رجع ولو بعد العيان ، وأنشدوا :

واللّه ما نشكر خليع وإن ثمل. وان صحا

وإن ثبت ، سير سريع وإن شرب حتّى امتحا

حتى يقطّع فى القطيع ويدور دور الرحا «١»

إن الذين آمنوا وصدّقوا بطريق اللّه ، وهاجروا أهواءهم فى مرضاة اللّه ، وجاهدوا نفوسهم فى محبة اللّه ، أولئك يرجون رحمة اللّه ، فلا يخيبهم الكريم لأنه غفور رحيم.

ولمّا كان الخمر حلالا فى أول الإسلام ، وكانوا يشربونه ، ويتّجرون فيه ، فيتصدقون بثمنه وبثمن القمار ، بيّن الحق تعالى ذلك ، بعد الأمر بالإنفاق لئلا يقع التساهل فى المعاملة بعلّة الصدقة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢١٩]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما وَيَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)

قلت : الخمر فى اللغة : ما يستر الشيء ويغطيه ، ومنه : خمار المرأة ، وسمّى الخمر خمرا لستره العقل. وفى الاصطلاح : ما غيّب العقل دون الحواس مع النّشوة والطرب. وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «كلّ مسكر خمر وكلّ خمر ، حرام».

والميسر : قال ابن عباس والحسن : كل قمار ميسر ، من شطرنج ونرد ونحوه ، حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب ، إذا كان بالفلوس ، وسمى ميسرا ليسر صاحبه بالمال الذي يأخذه ، وأما إذا كان بغير عوض ، إنما هو لعب فقط ، فلا بأس.

قاله ابن عرفة.

يقول الحق جل جلاله : يَسْئَلُونَكَ عَنِ حكم الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ لهم : فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ أي : عظيم لما فى الميسر من أكل أموال الناس بالباطل ، وما ينشأ عنه من العداوة والشحناء ، وما فى الخمر من إذهاب العقل والسباب والافتراء والإذاية ، والتعدّى الذي يكون من شاربه. وقرأ حمزة والكسائي : كثير بالمثلثة ، أي : آثام كثيرة لقوله عليه الصلاة والسلام : «لعن اللّه الخمر ، وبائعها ، ومبتاعها ، والمشتراة له ، وعاصرها ، والمعصورة له ،

---

(١) زجل للششترى.

وساقيها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة له ، وآكل ثمنها». فهذه آثام ، وفيها مَنافِعُ لِلنَّاسِ أي : منافع دنيوية ككسب المال بلا تعب ، وإطعام الفقراء من كسبه ، كما كانت تصنع العرب فى الميسر ، وفى الخمرة اللذة والنشوة ، كما قال حسان رضي اللّه عنه :

ونشربها فتتركنا ملوكا وأسدا لا ينهنهنا اللقاء «١»

وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما لأن منفعتهما دنيوية ، وعقوبة إثمهما أخروية ، وهذه الآية نزلت قبل التحريم.
روى أنه لما نزل بمكة قوله تعالى : وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ، أخذ المسلمون يشربونها ، ثم إن عمر ومعاذا فى نفر من الصحابة ، قالوا : أفتنا يا رسول اللّه فى الخمر فإنها مذهبة للعقل ، فنزلت هذه الآية ، فشربها قوم وتركها آخرون ، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا إلى داره ، فشربوا وسكروا ، ثم قام يصلى بهم فقرأ : (قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون) من غير نفى ، فنزلت : ... لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى ... فاجتنبوها فى أوقات الصلاة. ثم دعا عتبان بن مالك سعد بن أبى وقاص فى جماعة ، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا ، فأنشد سعد شعرا فيه هجاء الأنصار ، فضربه أنصارى بلحى بعير فشجّه ، فشكى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال عمر : اللهم بيّن لنا فى الخمر بيانا شافيا. فنزلت إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ... إلى قوله ... فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ فقال عمر : قد انتهينا يا رب. هـ.

ولما شربها بعض الناس بعد التحريم ، كان - عليه الصلاة والسلام - يضرب فيها بالنعال والجريد ، ضربا غير محدود ، وضرب أبو بكر وعمر أربعين ، وأول من حد فيها ثمانين سيدنا عثمان «٢» ، لما تهافت الناس فيها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن الحق تعالى جعل للعقل نورا يميز بين الحق والباطل ، بين الضار والنافع ، وبين الصانع والمصنوع ، ثم إن هذا النور قد يتغطى بالظلمة الطينية وهى نشوة الخمر الحسية. وقد يتغطى أيضا بالأنوار الباهرة من الحضرة الأزلية إذا فاجأته ، فيغيب عن الإحساس فى مشاهدة الأنوار المعنوية ، وهى أسرار الذات الأزلية ، فلا يرى إلا أسرار المعاني القديمة ، وينكر الحوادث الحسية ، فسمى الصوفية هذه الغيبة خمرة لمشاركتها للخمر فى غيبوبة العقل ، وتغنوا بها فى أشعارهم ومواجيدهم ، قال ابن الفارض رضي اللّه عنه :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم «٣»

---

(١) قوله : (لا ينهنهنا) ، النهنهة : الكف والمنع ، والمراد : لا نخاف لقاء العدو.

(٢) الوارد أن سيدنا عمر رضي اللّه عنه هو أول من حد فى شرب الخمر ثمانين. أنظر فتح الباري ١٢/ ٧٠ - ٧٥.

(٣) هذا الشعر مبنى على اصطلاح الصوفية. فإنهم يذكرون فى عباراتهم الخمرة بأسمائها وأوصافها.

ويريدون بها ما أدار الله على ألبابهم من المعرفة ، أو من الشوق والمحبة. وقوله : (سكرنا) كناية عن إغفال أمور الدنيا والحياة ، مع معرفة الله عز وجل – وهو كما يقول الآلوسي : سكر أرواح لا أشباح.

ثم قال :

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

وقلت في عينيتي :

ولي لوعة بالرّاح إذ فيه راحتى وروحى وريحانى ، وخير واسع

سكرنا فهمنا في بهاء جماله فغبنا عن الإحساس ، والنور ساطع

والميسر في طريق الإشارة : هو الغنى الذي يحصل بهذه الخمرة ، وهو الغنى باللّه عن كل ما سواه ، (قل فيهما إثم كبير) أي : في تعاطيهما حرج كبير ، ومنافع للناس بعد تعاطيهما ، فيهما إثم كبير عند طالب الأجور ، ومنافع للناس لمن طلب الحضور ورفع الستور. وأنشدوا :

لو كان لي مسعد بالراح يسعدنى لما انتظرت لشرب الراح إفطارا

فالراح شيء شريف أنت شاربه ، فاشرب ، ولو حمّلتك الراح أوزارا

يا من يلوم على صهباء «١» صافية خذ الجنان ، ودعنى أسكن النارا

وقال ابن الفارض :

وقالوا : شربت الإثم! كلا ، وإنّما شربت التي في تركها عندى الإثم

وقال آخر «٢» :

طاب شرب المدام في الخلوات اسقني يا نديم بالآنيات

خمرة تركها علينا حرام ، ليس فيها إثم ولا شبهات

عتّقت في الدّنان من قبل آدم أصلها طيّب من الطّيّبات

أفت لي أيّها الفقيه وقل لي : هل يجوز شربها على عرفات؟

فيهما إثم كبير عند أهل الحجاب ، ونفع كبير عند ذوى الألباب ، يعنى : في الخمرة الأزلية والغنى باللّه. وقوله تعالى : (و إثمهما أكبر من نفعهما) : خطاب على قدر ما يفهم الناس لأن إثمهما ظاهر للعوام ، وهو ما يظهر على

---

(١) الصهباء : الخمر.

(٢) وهو الششترى.

(٢٤٧/١)

النشوان من خراب الظاهر ، وصدور الأحوال الغريبة ، ونفعهما خاص عند خواص الخواص ، لا يفهمه إلا الخواص ، بل يجب كتمه عن غير أهله. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم وقع سؤال ثالث عن قدر المنفق ، فأشار إليه الحق جل جلاله بقوله :

وَيَسْئَلُونَكَ ما ذا ...

قلت : (العفو) : ضد الجهد ، وهو السهل ، ويقال للأرض السهلة : عفو ، والمراد : أن ينفق ما تيسر بذله ، ولا يبلغ به الجهد ، وهو خبر ، أو مفعول ، أي : هو العفو ، أو ينفقون العفو.

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْئَلُونَكَ ما القدر الذي ينفقونه؟ قُلْ لهم : هو الْعَفْوَ أي : السهل الذي لا مشقة فى إعطائه ، ولا ضرر على المعطى فى فقده ، روى أن رجلا أتى النبي صلّى اللّه عليه وسلم بقدر بيضة من الذهب ، فقال :

خذها عنى صدقة ، فأعرض عنه ، حتى كرّر مرارا ، فقال : هاتها ، مغضبا ، فحذفها حذفا لو أصابه لشجّه ، فقال :

«يأتى أحدكم بماله كلّه يتصدّق به ، ويجلس يتكفّف الناس ، إنما الصدقة عن ظهر غنى». قاله البيضاوي مختصرا.

قلت : وهذا يختلف باختلاف اليقين فقد تصدّق الصدّيق رضي اللّه عنه بماله كله ، وعمر رضي اللّه عنه بنصف ماله ، فأقرهما ، وردّ فعل غيرهما ، فدلّ ذلك على أن العفو يختلف باختلاف الأشخاص ، على حسب اليقين.

كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ أي : مثل هذا التبيين الذي ذكرنا ، (يبين) لكم الآيات ، حتى لا يترك لكم إشكالا ولا وهما ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ بعقولكم ، وتأخذون بما يعود نفعه عليكم ، فتتفكرون

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٢٠]

فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

فِي الدُّنْيا وسرعة ذهابها وتقلبها بأهلها ، إذا أقبلت كانت فتنة ، وإذا أدبرت كانت حسرة ، لا يفى طالبها بمقصوده منها ولو ملكها بحذافيرها ، ضيقة الزمان والمكان ، عمارتها إلى الخراب ، وشأنها إلى

انقلاب ، سريعة الزوال ، وشيكة الانتقال ، فتزهدون فيها وترفعون همتكم عنها.
وفي الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «مالي وللدنيا ، إنما مثلي ومثل الدنيا كرجل سافر في يوم صائف ، فاستظلّ تحت شجرة ، ثم راح وتركها». وفي صحف إبراهيم عليه السّلام : «عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب - أي : يتعب - عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها». وأنشدوا :

ألا إنّما الدنيا كأحلام نائم وكلّ نعيم ليس فيها بدائم
تذكّر إذا ما نلت بالأمس لذّة فأفنيتها هل أنت إلا كحالم

وتتفكرون في (الآخرة) ودوام نعيمها ، وسعة فضائها ، وبهجة منظرها فترغبون في الوصول إليها ، وتتأهبون للقائها ، فتؤثرونها على هذه الدار الفانية. قال بعض الحكماء : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من طين يبقى ، لكان ينبغي للعاقل أن يختار ما يبقى على ما يفنى ، لا سيما والأمر بالعكس ، الدنيا من طين يفنى ، والآخرة من ذهب يبقى ، فلا يختار هذه الدار إلّا أحمق خسيس الهمة ، وباللّه التوفيق.

الإشارة : كما نهى الحق جل جلاله عن السرف في الأموال ، ونهى عن السرف في الأحوال ، فالسرف ، من حيث هو ، يؤدى إلى الملل والانقطاع ، «أحب العمل إلى اللّه ما دام عليه صاحبه ، وإن قل» كما في الحديث ، واللّه ما رأينا أحدا أسرف في الأحوال إلا ملّ ، وضعف حاله ، وفي الحديث : «لا يكن أحدكم كالمنبت - أي : المنقطع - لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى». وقال في المباحث :

فاحتل على النفس فربّ حيله أنفع في النّصرة من قبيله

فلا يزال يسايس نفسه شيئا فشيئا حتى يملكها ، ويظفر بها ، فإذا ظفر بها كانت له شبكة يصطاد بها العلوم والمعارف ، فتتفكر في الدنيا فتراها فانية فترحل عنها ، ثم تتفكر في الآخرة فتراها باقية ، فإذا رامت السّكنى فيها رأتها كونا مخلوقا فرحلت إلى خالقها ، فكشف الحق عنها الحجاب ، وأدخلها مع الأحباب ، فغابت عن الكونين في شهود المكون ، فلم يبق لها دنيا ولا آخرة ، بل هي الآن في بهجة ونضرة (إلى ربها ناظرة) ، حققنا اللّه بهذا المقام العلى. آمين.

ثم سألوا أيضا عن مخالطة اليتامى ، فأجابهم الحق تعالى بقوله :

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى ...

قلت : العنت : التعب والمشقة ، أعنتكم : أتعبكم.

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ مخالطة الْيَتامى أي : خلط مال اليتامى بمال الوصيّ ، أو القائم به ، فيأكلون جميعا ، قُلْ لهم : يفعلون ما هو إِصْلاحٌ لليتيم وأحفظ لماله ، فإن كان خلط مال اليتيم مع

(٢٤٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥٠
مال الوصي أحفظ لماله ، وأوفر ، فهو خير ، فإنما هم إخوانكم فى الدين ، وإن كان عزل مالهم عن مالكم ، وأكله وحده ، أوفر لماله ، فاعتزالهم خير ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ من قصده الإفساد ، ممن قصده الإصلاح ، فيعامل كل واحد بقصده ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لأمركم بعزلهم وحفظ مالهم مطلقا ، فيحرجكم ، ويشق عليكم ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غالب ، لا يعجزه شيء ، حَكِيمٌ لا يفعل شيئا إلا لحكمة ومصلحة.
ولما نزل قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً ... الآية ، تحرّج الصحابة من مخالطة اليتامى ، فسألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فنزلت الآية.
الإشارة : كل من لا شيخ له فى طريق القوم فهو يتيم ، لا أب له ، فإن ادعى شيئا من الخصوصية سمى عندهم لقيطا أو دعيا ، أي : منسوبا إلى غير أبيه ، وما زالت الأشياخ تحذّر من مخالطة العوام ، ومن مخالطة المتفقرة الجاهلة ، أعنى : الذين لا شيخ لهم يصلح للتربية ، حتى قالوا : مخالطتهم سم قاتل.
وقال بعضهم : يجتنب المريد مخالطة ثلاثة أصناف من الناس : المتفقرة الجاهلين ، والقراء المداهنين ، والجبابرة المتكبرين.
قلت : وكذلك الفروعية المتجمدين على ظاهر الشريعة ، فصحبتهم أقبح من الجميع ، ومن ابتلى بمخالطة العوام فلينصحهم ، ويرشدهم إلى مصالح دينهم ، إنما هم إخوان فى الدين ، واللّه يعلم المفسد من المصلح ، فمن خالطهم طمعا فى مالهم أو جاههم ، أفسده اللّه ، ومن خالطهم نصحا وإرشادا أصلحه اللّه ، ولو شاء اللّه لأمر الفقراء باعتزالهم بالكلية ، وفى ذلك حرج ومشقة ، ومن حكمته تعالى أن جعلهم حجابا لأهل الحجاب ، ومدخلا لذوى الألباب ، حجابا للضعفاء ، ومدخلا ومشهدا للأقوياء ، واللّه تعالى أعلم.
ولمّا فرغ الحق جل جلاله من ذكر بعض أمر الجهاد وما يتعلق به ، شرع يتكلم على النكاح ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٢١]
وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

قلت : بدأ الحق جل جلاله بذكر محل النكاح ، وسيأتى فى سورة النساء تمامه فى قوله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ ... الآية.

يقول الحق جل جلاله : ولا تتزوجوا النساء الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ ، ونكاحهن حرام ، بخلاف الكتابيات ، كما فى سورة المائدة. ونكاح أمة سوداء مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ نكاح مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ حسنا وحسبا ومالا ، أو : ولا مرأة مؤمنة أمة كانت أو حرة خير من مشركة إذ النساء كلهن إماء اللّه.

روى أنه - عليه الصلاة والسلام - بعث مرثدا الغنوي إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين فأتته امرأة يقال لها : عناق ، وكان يهواها فى الجاهلية - فقالت : ألا تخلو؟ فقال : إن الإسلام حال بيننا ، فقالت : هل لك أن تتزوج بي؟ فقال : نعم ، ولكن أستشير رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فاستشاره ، فنزلت الآية. قاله البيضاوي.

ولا تزوجوا المشركين وليّتكم ، وهو حرام مطلقا إذ الرجال قوامون على النساء ، ولا تسلّط للكافر على المسلمة ، فلا تنكحوهم حَتَّى يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ أسود مملوك مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ حسبا ومالا إذ لا حسب مع الكفر. وإنما حرّم نكاح أهل الكفر لأنهم يَدْعُونَ إِلَى الكفر ، وهو سبب النَّارِ ، والصحبة توجب عقد المحبة ، والطباع تسرق ، فلا يؤمن جانب الكفر أن يغلب على الإيمان ، وَاللَّهُ تعالى إنما يَدْعُوا إِلَى سبب الْمَغْفِرَةِ ، والتطهير من لوث الكفر والمعاصي بِإِذْنِهِ وقدرته ، فلا يأمر إلا بما يقوى عقد الإيمان واليقين ، وينهض إلى الطاعات ، وهو صحبة أهل الإيمان واليقين ، وَيُبَيِّنُ آياتِهِ الدالة على جمع عباده إليه لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فيها ، ويتعظون بتذكيرها ووعظها.

الإشارة : لا ينبغى للفقير أن يعقد مع نفسه عقد الصحبة والمودة ، أو ينظر إليها بعين الشفقة والرحمة ، ما دامت مشركة بشهود السّوى ، أو مائلة بطبعها إلى الهوى ، ولأن تكون عندك نفس مؤمنة بعلم التوحيد ، خير من نفس مشركة برؤية الغير ، ولو أعجبتك فى الطاعة ، وظهور الاستقامة ، فقد تظهر الطاعة والخدمة ، وتبطن مالها فيها من الحظوظ والمتعة ، فليتهمها ما دامت مشركة ، فإذا آمنت ووحدت اللّه تعالى ، فلم تر معه سواه ، فلا بأس بعقد النكاح معها ، فإنها لا تأمره إلا بما يقوى شهودها وتوحيدها. وكذلك لا ينبغى أن يعقد نكاح نفسه ، ويدفعها لمن يشهد السّوى شيخا أو أخا ، ولو أعجبك طاعته واجتهاده ، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه ، خير من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه ، أولئك أهل النفوس - يدعون إلى نار الشهوات والحظوظ العاجلة أو الآجلة ، واللّه يدعو إلى التطهير من شهود الأغيار ، والدخول فى حضرة الأسرار ، وهذا لا يكون إلا للعارفين الأبرار

الذين تطهروا من الأكدار ، وتخلصوا من شهود الأغيار ، كذلك يبين اللّه آياته للناس - الدالة على وحدانيته - لعلهم يتعظون فينزجرون عن متابعة الهوى ، أو رؤية وجود السوي. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

(٢٥١/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥٢

ولما بيّن الحق تعالى ما يحرم في النكاح أصالة ، بيّن ما يحرم فيه عروضا ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٢٢ الى ٢٢٣]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

قلت : المحيض : مصدر ، كالمقيل والمعيش والمجيء ، وهو الحيض.

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْئَلُونَكَ يا محمد عَنِ قرب النساء بالجماع في زمن الْمَحِيضِ ، قُلْ لهم : هُوَ أَذىً ، أي : مضرّ ، أو منتن مستقذر ، لا يرضى ذو همة أن يقربه ، فَاعْتَزِلُوا مجامعة النِّساءَ فِي زمن الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ بالجماع في المحل حَتَّى يَطْهُرْنَ من الدم ، بانقطاعه ، ويغتسلن بالماء ، فَإِذا تَطَهَّرْنَ بالماء فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ وهو الفرج ، الذي أمركم باجتنابه في الحيض إذ هو محل زراعة النطفة. فمن غلبته نفسه حتى وطئ في الحيض ، أو النفاس ، فليبادر إلى التوبة ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ كلما أذنبوا تابوا.

ولا تجب كفارة على الواطئ ، على المشهور. وقال ابن عباس والأوزاعى : (من وطئ قبل الغسل تصدق بنصف دينار ، ومن وطئ في حال سيلان الدم تصدق بدينار). رواه أبو داود حديثا. ومن صبر وتنزّه عن ذلك فإن اللّه يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ من الذنوب والعيوب كلها ، وإنما أعاد العامل لأن محبته للمتنزهين أكثر.

قال البيضاوي : روى أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحائض ولا يؤاكلونها ، كفعل اليهود والمجوس ، واستمر ذلك إلى أن سأل أبو الدحداح ، في نفر من الصحابة ، عن ذلك ، فنزلت. ولعله سبحانه - إنما ذكر «يسألونك» من غير واو ، ثلاثا ، ثم بها ثلاثا لأن السؤالات الأول كانت في أوقات متفرقة ، والثلاثة الأخيرة كانت في وقت واحد فلذلك ذكرها بحرف الجمع. ه.

ثم بيّن الحق تعالى كيفية إتيان النساء بعد الطهر ، فقال : نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ، أي : مواضع حرثكم ،

شبه ما يلقى فى أرحامهن من النطف ، بالبذر ، والأرحام أرض لها ، فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أي : محل حرثكم ، وهو الفرج ، أَنَّى شِئْتُمْ أي : من أي جهة شئتم.

(٢٥٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥٣

روى أن اليهود كانوا يقولون : من جامع امرأته من خلفها فى قبلها جاء الولد أحول ، فذكر ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فنزلت. وقيل : إنّ قريشا كانوا يأتون النساء من قدّام ، مستلقية ، والأنصار كانوا يأتوهن من خلف ، باركة ، فتزوج رجل من المهاجرين امرأة من الأنصار ، فأراد أن يفعل عادته ، فامتنعت ، وأرادت عادتها ، فاختصما إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فنزلت الآية بالتخيير للرجل ، مع الإتيان فى المحل. وأما الإتيان فى الدّبر فحرام ، ملعون فاعله ، وقال فى القوت : فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ أي : فى أي وقت شئتم ، ومن أي مكان شئتم ، مع اتحاد المحل. هـ.

ثم حذّر الحق تعالى من متابعة شهوة النساء ، والغفلة عن اللّه ، فقال : وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ما تجدون ثوابه مدخرا عنده ، وهو ذكر اللّه فى مظان الغفلة ، قيل : التسمية قبل الوطء وقيل : طلب الولد ، والتحقيق : أنه الحضور مع الحق عند هيجان الشهوة ، قال بعض العارفين : إنى لا أغيب عن اللّه ولو فى حالة الجماع. هـ. وهذا شأن أهل الجمع ، لا يفترقون عن الحضرة ساعة. وهذه التقوى التي أمر اللّه بها بقوله : وَاتَّقُوا اللَّهَ أي : لا تغيبكم عنه شهوة النساء ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ فترون وبال الغفلة وجزاء اليقظة ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بالقرب من رب العالمين.

الإشارة : إذا سئلت - أيها العارف - عن النفس فى حال جنابتها بالغفلة ، وحال تلبسها بنجاسة حب الدنيا ، فقل :

هى أذى ، أي : قذر ونجس ، من قرب منها لطّخته بنجاستها ، فلا يحل القرب منه ، أو الصحبة معها ، حتى تطهر من جنابة الغفلة باليقظة ، ومن نجاسة حب الدنيا بالزهد ، ورفع الهمة عنها ، فإذا تطهرت فأتها ، وردها إلى حضرة مولاها ، كما أمرك اللّه ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ، وقد تابت ورجعت إلى مولاها ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ، وقد تطهرت من جنابة الغفلة ، وتنزهت عن نجاسة الدنيا برفع الهمة ، فصارت لك أرضا لزراعة حقوق العبودية ، ومنبتا لبذر شهود عظمة الربوبية ، فأتوا حرثكم - أيها العارفون - أنى شئتم ، أي : ازرعوا فى أرض نفوسكم من أوصاف العبودية ما شئتم ، وفى أي وقت شئتم.

فبقدر ما تزرعون من العبودية تحصدون من الحرية. وبقدر ما تزرع فيها من الذل تحصده من العز ، وبقدر ما تزرع فيها من الفقر تحصده من الغنى ، وبقدر ما تزرع فيها من التواضع تحصده من الشرف والرفعة.

والحاصل : بقدر ما تزرع فيها من السفليات تحصد ضده من العلويات. قال تعالى : وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ. فإذا تركتها هملا ، أنبتت لك الشوك والحنظل. وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ من أوصاف العبودية ما تجدونه أمامكم من مشاهدة الربوبية ، واتقوا اللّه فلا تشهدوا معه سواه ، واعلموا أنكم ملاقوه حين تغيبون عن وجودكم وتفقدونه ، وبشر المؤمنين الموقنين بشهود رب العالمين.

(٢٥٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥٤

ولما تكلم الحق جل جلاله على بعض أحكام النكاح ، أراد أن يتكلم على الإيلاء ، وهو الحلف على عدم مس المرأة وجماعها ، وقدّم على ذلك النهى عن كثرة الحلف لأنه هو السبب فى الوقوع فى الإيلاء ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٢٤ الى ٢٢٥]

وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)

قل : العرضة : فعلة ، بمعنى مفعولة : أي : معرضا منصوبا ، لأيمانكم تحلفون به كثيرا ، فيصير اسم الجلالة مبتذلا بينكم. و(أن تبروا) : مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ أي : اسم الجلالة ، معرضا لِأَيْمانِكُمْ ، فتتبذلونه بكثرة الحلف ، فتمتنعون من فعل الخير بسبب الحلف ، كراهة أَنْ تَبَرُّوا أي : تفعلوا فعل البر ، وهو الإحسان ، وكراهة أن تَتَّقُوا أن تجعلوا بينكم وبين اللّه وقاية بفعل المعروف ، وذلك أن يحلف الرجل ألا يصل رحمه ، أو لا يسلم على فلان ، أو لا يضمن أحدا ، أو لا يبيع بدين ، أو لا يسلف أحدا ، أو لا يتصدق ، فهذه الأمور كلها بر وتقوى ، نهى اللّه تعالى عن الحلف على عدم فعلها ، أو يحلف ألا يصلح بين الناس ، فيجب على الحالف على ذلك أن يحنث ، ويكفر عن يمينه. ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام - : «إنّى لأحلف على يمين فأرى خيرا منها ، فأكفر عن يمينى ، وآتى الّذى هو خير». وقال لابن سمرة : «إذا حلفت على يمين ، فرأيت غيرها خيرا منها ، فأت الّذى هو خير ، وكفّر عن يمينك».

أو يقول الحق جل جلاله : وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ معرضا لأيمانكم ، تحلفون به كثيرا ، نهيتكم عن ذلك ، إرادة أن تكونوا أبرارا متقين ، مصلحين بَيْنَ النَّاسِ فإن الحالف مجترئ على اللّه ، والمجترئ لا يكون برا متقيا ، ولا موثوقا به فى إصلاح ذات البين ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ لأيمانكم ، عَلِيمٌ بنياتكم.

ثم رفع الحق تعالى الحرج عن يمين اللغو الذي لا قصد فيه - فقال : لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ ، وهو ما يجرى على اللسان من غير قصد ، كقول الرجل فى مجرى كلامه : لا واللّه وبلى واللّه ، قاله ابن عباس وعائشة - رضي اللّه عنهما - ، وبه قال الشافعي.
وقال أبو هريرة والحسن وابن عباس - فى أحد قوليه - : هو أن يحلف على ما يعتقد فيظهر خلافه. وبه قال مالك رضي اللّه عنه ، والأول أليق بقوله تعالى : وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ أي : بما عقدت عليه قلوبكم ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حيث لم يؤاخذكم باللغو ، حَلِيمٌ حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجدّ ، تربصا للتوبة.

(٢٥٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥٥
الإشارة : يقول الحق جل جلاله : لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ ، ولكن اجعلوه عرضة لتعظيم قلوبكم ومشاهدة لأسراركم ، فإني ما أظهرت اسمى لتبتذلوه فى الأيمان والجدال ، وإنما أظهرت اسمى لتتلقّوه بالتعظيم والإجلال ، فمن عظّم اسمى فقد عظم ذاتى ، ومن عظم ذاتى جعلته عظيما فى أرضى وعند أهل سمواتى ، وجعلته برا تقيا ، من أهل محبتى ووداديِ ، وداعيا يدعو إلى معرفتى ، ويصلح بينى وبين عبادى ، فمن حلمى ورأفتى : أنى لا أؤاخذ بما يجرى على اللسان ، وإنما أؤاخذ بما يقصده الجنان.
تنبيه : كثرة الحلف مذموم يدل على الخفة والطيش ، وعدم الحلف بالكلية تعسف ، وخير الأمور أوسطها ، كان عليه الصلاة والسلام يحلف فى بعض أحيانه ، يقول : «لا ومقلّب القلوب» ، : «والّذى نفس محمّد بيده».
واللّه تعالى أعلم.
ثم أشار الحق تعالى إلى حكم الإيلاء ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٢٦ الى ٢٢٧]
لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)
قلت : (الإيلاء) : يمين زوج مكلّف على عدم وطء زوجته ، أكثر من أربعة أشهر. وآلى : بمعنى حلف ، يتعدى بعلى ، ولكن لما ضمّن هنا معنى البعد من المرأة ، عدّى بمن ، و(تربص) : مبتدأ ، و«للذين يؤلون» : خبر.
يقول الحق جل جلاله : لِلَّذِينَ يبعدون مِنْ نِسائِهِمْ ويحلفون ألّا يجامعوهن أكثر من أربعة أشهر ، غضبا وقصدا للإضرار ، تَرَبُّصُ أي : تمهل أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، لا يطالب فيهن بفيئة ولا حنث ، فَإِنْ فاؤُ أي : رجعوا

عما حلفوا عليه ، وحنثوا وكفّروا أيمانهم ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لما قصدوا من الإضرار ، بالفيئة التي هى كالتوبة ، رَحِيمٌ بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ أي : صمموا عليه ، ولم يرجعوا عما حلفوا عليه ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لطلاقهم ، عَلِيمٌ بقصدهم ونيتهم. ومذهب مالك والشافعي : أن القاضي يوقفه :

إما أن يرجع بالوطء إن قدر ، أو بالوعد إن عجز ، أو يطلّق عليه طلقة رجعية ، عند مالك. ومذهب أبى حنيفة : أنها تبين بمجرد مضى أربعة أشهر. وأحكام الإيلاء مقررة فى كتب الفقه.

الإشارة : لا ينبغى للعبد أن يصرف عمره كله فى معاداة نفسه ومجانبتها ، إذ المقصود هو الاشتغال بمحبة الحبيب ، لا الاشتغال بعداوة العدو ، فلمجاهدة نفسه ومجانبتها حد معلوم ووقت مخصوص ، وهو ما دامت جموحة

(٢٥٥/١)

جاهلة باللّه. فإن فاءت ورجعت إلى اللّه ، وارتاضت لحضرة اللّه ، وجبت محبتها والاصطلاح معها لأن النفس بها ربح من ربح ، ومنها خسر من خسر ، من عرف قدرها ، واحتال عليها حتى ردها إلى ربها - ربح ، ومن أهملها وجهل قدرها - خسر ، وكان شيخ شيوخنا يقول : جزاها اللّه عنا خيرا واللّه ما ربحنا إلا منها ، يعنى نفسه. وفى بعض الآثار : (من عرف نفسه عرف ربه). وإن عزموا الطلاق ، يعنى : العباد والزهاد عزموا ألا يرجعوا إلى أنفسهم أبدا ، فإن اللّه سميع عليم بقصدهم هل قصدهم طلب الحظوظ أو محبة الحبيب ، وأما العارفون فلا تبقى لهم معاداة مع أحد قط ، قد اصطلحوا مع الوجود بأسره ، فمكنهم اللّه من التصرف فى الوجود بأسره. واللّه ذو الفضل العظيم.

ثم ذكر الحق تعالى عدة الطلاق ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٢٨]

وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلِكَ إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)

قلت : القرء هو الطهر الذي يكون بعد الحيض ، عند مالك ، وجمع القلة : أقراء ، والكثرة : قروء ، واستعمله هنا باعتبار كثرة المطلقات ، و(ثلاثة) : مفعول مطلق ، أو ظرف ، و(بعولتهن) : جمع بعل ، والتاء لتأنيث الجماعة.

يقول الحق جل جلاله : وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ أي : يمكثن عن التزوج ، بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ أي :

أطهار ، وتعتدّ بالطهر الذي طلقها فيه ، فتحيض ، ثم تطهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ، فإذا رأت الحيضة الثالثة خرجت من العدة ، هذا فى غير الحامل ، وأما الحامل فعدتها وضع حملها. وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَّ من الولد استعجالا لإتمام العدة ، أو من الحيض استبقاءا لتمادى العدة ، وتصدّق فى ذلك كله ، فإن كانت يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا يحل لها أن تكتم ما استؤمنت عليه ، وَبُعُولَتُهُنَّ أي : أزواجهن ، أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلِكَ التربص ، إن كان الطلاق رجعيا ، وإلا بانت منه ، وينبغى للزوج أن يراجعها فى العدة ، إن أراد بذلك الإصلاح والمودة ، لا الإضرار بها ، وإلا حرم عليه ارتجاعها ، إذ «لا ضرر ولا ضرار» ، كما قال - عليه الصلاة والسلام - .

الإشارة : إذا طلّقت النّفس ، ووقع البعد منها حتى طهرت ثلاثة : الطهر الأول : من الإصرار على الذنوب والمخالفات ، الطهر الثاني : من العيوب والغفلات ، الطهر الثالث : من الركون إلى العادات والوقوف مع المحسوسات ، دون المعاني وأنوار التجليات - حلّت رجعتها والاصطلاح معها ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق اللّه فى أرحامهن : من العلوم والمعارف والأنوار ، وذلك إذا استشرفت على حضرة الأسرار ، فإنها تفيض بالعلوم والحكم ،

(٢٥٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥٧

أو ما لا يحصى ، فينبغى أن تطلع عليها من يقتدى بشأنها. وبعولتهن أحق بردهن ، والصلح معهن ، بعد تمام تطهيرهن ، إن أرادوا بذلك إصلاحا ، وهو إدخالها فى الحضرة ، ونعيمها بالشهود والنظرة. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر الحق جل جلاله حقوق الزوجية ، فقال :

الطَّلاقُ مَرَّتانِ ...

يقول الحق جل جلاله : وللنساء حقوق على الرجال ، كما أن للرجال حقوقا على النساء ، فحقوق النساء على الرجال : الإنفاق ، والكسوة ، والإعفاف ، وحسن المعاشرة ، وكان ابن عمر - رضي اللّه عنهما - يقول : إنى لأحبّ أن أتزيّن للمرأة كما تتزين لى ، ويقرأ هذه الآية.

وحقوق الرجل على المرأة : إصلاح الطعام والفراش ، وطاعة زوجها فى كل ما يأمرها به من المباح ، وحفظ فرجها ، وصيانة ماله الذي ائتمنت عليه - إلى غير ذلك من الحقوق ، فللنساء حقوق على الرجال مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ من غير ضرر ولا ضرار. ولا تفريط ولا إفراط ، وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ أي : فضيلة لأن الرجال قوامون على النساء ، ولهم فضل فى الميراث ، والقسمة ، وكثير من الحقوق ، فضلهم اللّه على النساء.

وَاللَّهُ عَزِيزٌ لا يعجزه عقاب من خالف أمره ، لكنه يمهل ولا يهمل ، حَكِيمٌ لا يفعل إلا لمصلحة ظاهرة أو خفية. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : للنفس حقوق على صاحبها ، كما له حقوق عليها ، قال - عليه الصلاة والسلام - : «إنّ لنفسك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا ، ولربك عليك حقا ، فأعط كلّ ذى حق حقّه». فالنفس مغرفة للسر ، فإذا تعبت سقط منها السر ، كذلك نفس الإنسان ، إذا تحامل عليها حتى تعللت ، ودخلها الوجع ، تعذر عليها كثير من العبادات ، لا سيما الفكرة ، فلا بد من حفظ البشرية ، وإنما ينبغى قتلها بالأمور التي لا تخلّ بصحتها ، فعليها طاعتك فيما تأمرها به ، كما عليك حفظها مما تتضرر به. وللرجال الأقوياء عليها تسلط وتصرف ، فهى مملوكة فى أيديهم ، وهم غالبون عليها ، واللّه غالب على أمره ، وهو العزيز الحكيم.

ثم ذكر الحق تعالى عدد الطلاق ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٢٩ الى ٢٣٠]

الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَنْ يَخافا أَلاَّ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوها وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَها فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)

قلت : (فإمساك بمعروف) : مبتدأ ، والخبر : محذوف ، أي : أحسن أو أمثل. أو خبر ، أي : فالواجب إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

يقول الحق جل جلاله : الطَّلاقُ الذي تقع الرجعة بعده - إنما هو مَرَّتانِ ، فإن طلق ثالثة فلا رجعة بعدها ، فإن طلق واحدة أو اثنتين فهو مخير ، فإما أن يمسكها ويرتجعها بحسن المعاشرة ، والقيام بحقوق الزوجية بالمعروف. وإما أن يسرّحها حتى تنقضى عدتها بِإِحْسانٍ ، من غير إضرار ، ولا تطويل عدة. وَلا يَحِلُّ لَكُمْ ، أيها الأزواج ، أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ من الصداق شَيْئاً - خلعا - إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ بأن ظن الزوج أو الزوجة فساد العشرة بينهما ، وعدم القيام بحقوق الزوجية ، فَإِنْ خِفْتُمْ أيها الحكام ، أو من ينوب عنهم ، أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ من العصمة ، فيحل للزوج أن يأخذ منها الفداء ، ولو بجميع ما تملك ، إذا كان الضرر منها أو منهما. فإن

انفرد بضررها ، حرّم عليه أخذ الفداء ، وطلّقت عليه.
تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوها وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ أي : هذه الأحكام التي ذكرنا من عدد الطلاق وأخذ الخلع على وجهه - هى حدود اللّه التي حدها لعباده ، فمن تعداها فهو ظالم.
(فإن) طلق الزوج مرة ثالثة فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ، ويدخل بها ، من غير شرط التحليل ، فَإِنْ طَلَّقَها الثاني ، فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا بنكاح جديد إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حقوق الزوجية ، وحسن العشرة ، وَتِلْكَ الأحكام المذكورة هى حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُها الحق تعالى لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أي : يفهمون ويتدبرون الأمور.
الإشارة : إذا طلّق المريد الدنيا ، ثم رجع إليها ، ثم تاب وتوجه إلى اللّه ، ثم رجع إليها ، ثم تاب وتوجه مرة ثانية ، قبلت توبته ، فإن رجع إليها بعد الطلقة الثانية ، فلا يرجى فلاحه فى الغالب لأنه متلاعب ، قال تعالى : (الطلاق

مرّتان) فإمساك لها بمعروف بأن يواسى بها من يحتاج إليها ، أو تسريح لها من يده بإحسان من اللّه إليه ، حتى يدخله فى مقام الإحسان ، فإن طلقها مرة ثالثة فلا تحل له أبدا حتى يأخذها من يد اللّه باللّه ، بعد أن كان يأخذها بنفسه ، فكأنه أخذها بعصمة جديدة ، فإن تمكن من الفناء والبقاء ، فلا جناح عليه أن يرجع إليها غنيا باللّه عنها.
واللّه تعالى أعلم.
ثم نهى الحق تعالى عن إمساك الزوجة ، إضرارا ، كما كانت تفعل الجاهلية ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٣١]
وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)
قلت : (ضرارا) : مفعول له ، أو حال ، أي : مضارّين.
يقول الحق جل جلاله : وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فقرب بلوغ أجل عدّتهنّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بالرجعة متلبسين بالمعروف والإحسان إليها ، أَوْ سَرِّحُوهُنَّ يتزوجن غيركم بِمَعْرُوفٍ لا إضرار فيه ، وَلا تُمْسِكُوهُنَّ بنية طلاقهن ضِراراً أي : لأجل الضرر بتطويل عدتهن لِتَعْتَدُوا عليهن وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ.
نزلت فى رجل قال لامرأته : لا آويك ، ولا أدعك تحلّين لغيرى. فقالت : كيف؟ فقال : أطلقك ، فإذا

دنا مضيّ عدّتك راجعتك ، فشكت ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فنزلت الآية. وكان بعضهم يطلق ، ويعتق ، ثم يرجع ، ويقول : كنت أهزأ بذلك وألعب ، فنزل قوله تعالى : وَلا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً أي : مهزوءا بها ، وفى الحديث : «ثلاث هزلهنّ جد : النّكاح ، والطّلاق ، والرّجعة». وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بالهداية وبعثة الرسول ، وَما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ فيه ما تحتاجون إليه ظاهرا وباطنا ، وَالْحِكْمَةِ أي : السنة المطهرة ، يَعِظُكُمْ بذلك ويزكيكم ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فيما يأمركم به ، وينهاكم عنه ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ.

(٢٥٩/١)

الإشارة : يقال للمريدين المتجردين إذا طلقتم الدنيا ، وآيستم أنفسكم من الرجوع إليها حتى تمكّن اليقين من القلب بحيث انقطع الاهتمام بالرزق من القلب ، وزالت عنه الشكوك والأوهام ، فإذا رجعت إليه الدنيا ، فإما أن يمسكها بمعروف بأن تكون فى يده لا فى قلبه ، أو يسرحها من يده ، بسبب مقام الإحسان الذي عوضه اللّه عنها ، ولا تمسكوا الدنيا ، أيها الفقراء ، قبل كمال اليقين ، فإنها ضرر لكم ، فقد أخذت الرجال لا سيما الأطفال. وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ حيث حرمها الوصول ، وتركها فى حيرة الأوهام تجول ، فاحذروا لذيذ عاجلها ، لكريه آجلها ، وَلا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً بالرخص والتأويلات ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بالهداية إلى الطريق ، وَما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ : فيه بيان التحقيق وَالْحِكْمَةِ التي هى إصابة عين التوفيق ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، فلا تركنوا إلى شىء سواه ، فإن مالت قلوبكم إلى شىء من السوي ، أو نزعت إلى محبة الهوى ، فاعلموا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فيبعدكم بعد الوصول. ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم.

ثم نهى الحق تعالى عن منع النساء من التزوج إضرارا ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٣٢]

وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)

قلت : العضل : المنع والتضييق والتعسير ، يقال : أعضلت الدجاجة ، إذا عسر بيضها.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فانقضت عدتهن فَلا تمنعوهن ، أيها الأولياء ، من أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ الذين كانوا يملكوهن ثم طلقوا ، أو الخطّاب الأجانب ، إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ أي :

بأن كانوا أكفاء لهن ، وبذلوا من المهر ما يناسبهن ، أو كانت رشيدة. ذلِكَ الذي ذكرنا لكم - يتعظ به ، ويقف معه ، من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لأنه هو الذي ينجع فيه الوعظ وينتفع بالتذكير ، ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ أي : أرفع لقدركم ، إن تمسكتم به ، وَأَطْهَرُ لكم من الذنوب والعيوب ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فيه صلاحكم ، وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ. نزلت الآية فى معقل بن يسار ، زوّج أخته ثم طلقها زوجها ، وأمهلها حتى انقضت عدّتها ، ثم جاء يخطبها ، فقال معقل : تركها حتى ملكت نفسها ، ثم جاء يخطبها ، واللّه لا أزوجها منه أبدا. والمرأة أرادت أن ترجع إليه ، فنزلت الآية ، فرجع معقل عن قسمه وزوّجها.

وفيه دليل أن المرأة لا تزوج نفسها ، خلافا لأبى حنيفة. واللّه تعالى أعلم.

(٢٦٠/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٦١

الإشارة : ينبغى للشيوخ إذا تحققوا من المريدين كمال اليقين ، وظهر عليهم أمارات الرشد ، ألا يمنعوهم من تعاطى الأسباب ، وأخذ ما جاءهم من الدنيا ، بلا استشراف ولا طمع ، فقد يكون ذلك عونا لهم على الدين ، وعمارة لزاوية الذاكرين ، فذلك أزكى لهم وأطهر لقلوبهم ، (و اللّه يعلم وأنتم لا تعلمون).

ثم ذكر تعالى حكم الرضاع ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٣٣]

وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَها لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ فَإِنْ أَرادا فِصالاً عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَتَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)

يقول الحق جل جلاله : ويجب على الوالدات أن يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ إذا كنّ فى العصمة ، ولا شرف لهن لجرى العرف بذلك ، أو مطلقات ، ولم يقبل الولد غيرهنّ ، هذا لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ ، فإن اتفقا على فطامه قبلهما ، جاز ، كما يأتى. ويجب عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ وهو الأب ، رزق أمهات أولاده ، وَكِسْوَتُهُنَّ إذ هو الذي ينسب المولود له ، وذلك بِالْمَعْرُوفِ ، لا يكلف اللّه نفسا إلا ما فى وسعها وتطيقه ، فلا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها ، بحيث ترضعه وهى مريضة ، أو انقطع لبنها. بل يجب على الأب أن يستأجر من يرضعه ، ولا يضار مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ، بحيث يكلف من الإنفاق والكسوة فوق جهده. فإن مات الأب وترك مالا - فعلى الْوارِثِ الكبير مِثْلُ ذلِكَ من الكسوة والإنفاق ، يجريها من مال الأب ، ويحسبها من حق الصبى ، فإن لم يكن للأب مال - فعلى جماعة المسلمين.

فَإِنْ أَرادا أي : الأب والمرضعة ، فِصالًا أي : فطاما للصبى قبل تمام الحولين ، عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَتَشاوُرٍ بينهما ، فَلا جُناحَ عَلَيْهِما ، إن لم يخف على الولد ضعف. وَإِنْ أَرَدْتُمْ ، أيها الأزواج ، أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ عند غير الأم ، برضاها ، فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فى ذلك إِذا سَلَّمْتُمْ أي : أعطيتم للمراضع ، ما آتَيْتُمْ أي : ما أردتم إيتاءه من الأجرة بِالْمَعْرُوفِ من غير مطل ولا تقتير. والشرط إنما هو

(٢٦١/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٦٢

على وجه الكمال والإحسان ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فيما كلفتم به من الحقوق ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لا يخفى عليه شىء من أموركم فإنه بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

الإشارة : اعلم أن تربية الولاية فى قلب المريد ، على نمط تربية الطفل الصغير ، تنبت فى قلب المريد وقت عقد الصحبة بينهما ، ثم لا تزال تنمو ، أو الشيخ يرضعه بلبن الإمداد حتى يتم أوان رضاعه ، ولذلك قالوا : الثدي الميتة لا ترضع. هـ. يشيرون إلى أن الشيخ الميت لا يربى ، فلا يزال الشيخ يربى الروح ، ويمدها حتى تدخل بلد الإحسان ، وتشتعل فكرتها. وهذا تمام الحولين فى حقها ، وهو أوان كمال الحقيقة والشريعة لمن أراد إتمامها ، فتأكل الروح حينئذ من كل شىء ، وتشرب من كل شىء ، وتستمد من الأشياء كلها ، ثم لا يزال يحاذيها بهمته حتى ترشد ، فيطلق لها التصرف ، فتصلح لتربية غيرها.

وعلى الشيخ رزق المريدين من قوت القلوب وكسوتهم ، تقيهم من إصابة الذنوب والعيوب ، إلا ما سبق به القضاء فى علم الغيوب ، فليس فى طوق أحد دفعه ، لا تكلف نفس إلا وسعها ، فإذا مات الشيخ ، ووصّى بمن يرث مقامه ، فعلى الوارث مثل ذلك ، فإن أراد المريد انفصالا عن الشيخ ، وتعمير بلد ، أو تذكير عباد اللّه ، عن تراض منهما وتشاور من الشيخ ، فلا جناح عليهما ، وإن أردتم ، أيها الشيوخ ، أن تسترضعوا أولادكم بإرسال من يذكّرهم ، ويمدهم ، نائبا عنكم ، فلا جناح عليكم إذا سلمتم لهم من الإمداد ما يمدهم به ، واتقوا اللّه فى شأن المريدين ، فى جبر كسرهم ، وقبول عذرهم ، واعلموا أن اللّه بما تعملون بصير.

ثم ذكر الحق تعالى عدّة الوفاة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٣٤ الى ٢٣٥]

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَنْ

تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)

(٢٦٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٦٣

قلت : والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ : مبتدأ ، ويَتَرَبَّصْنَ : خبر ، ولا بد من الحذف ليصح الإخبار ، إما من الصدر أو من العجز ، أي : وأزواج الذين يتوفون ، أو الذين يتوفون أزواجهن يتربصن.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ يموتون منكم ، أيها المؤمنون ، ويتركون أَزْواجاً ، فلا يتزوجن حتى يَتَرَبَّصْنَ أي : يمكثن بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وعشرة أيام لأن الجنين يتحرك لثلاثة أشهر إن كان ذكرا ، ولأربعة إن كان أنثى فى الغالب «١» ، وزيد عشرة ، استظهارا ، هذا فى غير الحامل ، أما الحامل ، فعدتها وضع حملها. فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ أي : انقضت عدتهن ، فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أيها الأولياء فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ من التزين والتعرض للنكاح أو التزوج ، بِالْمَعْرُوفِ ، بحيث لا ينكره الشرع من تزين ونكاح ، وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فيجازيكم على ما فعلتم.

وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أيها الخطّاب فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ للمعتدات مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ كقول الرجل :

إنى لراغب فى صحبتكم ، وإنى أريد أن أتزوج فى هذه الساعة. وإنك لنافقة»

، أو لا يصلح لك أن تبقى بلا زوج ، ونحو هذا ، أَوْ أَكْنَنْتُمْ أي : أضمرتم فِي أَنْفُسِكُمْ فى زمن العدة من أمر التزوج دون تصريح ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ ستذكرون النساء المعتدات ، وتتكلمون فى نكاحهن ، حرصا وتمنيا ، فعرّضوا بذلك ، وَلكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا أي : فى الخلوة ، أو لا تواعدوهن نكاحا أو جماعا ، إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً وهو التعريض بالألفاظ المتقدمة.

ولا تقطعوا عُقْدَةَ النِّكاحِ ، وتعزموا على فعله ، حَتَّى يَبْلُغَ كتاب المعتدة أَجَلَهُ ، وتنقضى العدة ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ من الرغبة والحرص ، فَاحْذَرُوهُ فإنّ الحرص على الشيء ، والرغبة فيه ، قبل أوانه ، ربما يعاقب صاحبه بحرمانه ، وما قدّر لك لا يكون لغيرك ، وما كان لغيرك لا يكون لك ، ولو فعلت ما فعلت ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لما استعجلتم فإن الإنسان خلق عجولا ، حَلِيمٌ فلا يعاجلكم ولا يفضح سرائركم.

---

(١) ذكر ذلك البيضاوي ، فى أنوار التنزيل. وفيه منافاة للحديث المتفق عليه : (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه ...) الحديث إلى قوله صلّى اللّه عليه وسلم : (ثم يرسل الملك ، فينفخ فيه الروح ...) وظاهر الحديث يفيد : أن نفخ الروح بعد هذه المدة مطلقا ، لا فرق بين ذكر وأنثى. راجع تفسير

الآلوسى.
(٢) نافقه أي : مرغوب فيها.

(٢٦٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٦٤
الإشارة : إذا ماتت النفس عن الهوى ، وتركت حظوظا وشهوات ، فلا ينبغى أن يردها إلى ذلك حتى تتربص مدة ، ليظهر عليها آثار الزهد من السكون إلى اللّه ، والتأنس بمشاهدة اللّه حتى تغيب عما سواه. فإذا بلغت هذا الوصف فلا جناح على المريد أن يسعفها فيما تفعل بالمعروف ، من غير سرف ولا ميل إلى هوى ، لأن فعلها حينئذ باللّه ، ومن اللّه ، وإلى اللّه ، وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لا يخفى عليه شيء من أمرها ، ولا جناح عليكم ، أيها المريدون ، إن تركت نفوسكم ، وطهرت من الأغيار قلوبكم ، فيما عرضتم به من خطبة أبكار الحقائق وثيبات العلوم ، أو أكننتم فى أنفسكم من المعارف والمفهوم ، علم اللّه أنكم ستذكرون ذلك باللسان قبل أن يصل الذوق إلى الجنان ، فلا تصرحوا بعلوم الحقائق مع كل الخلائق فإن ذلك من فعل الزنادق ، إلا أن تقولوا قولا معروفا ، إشارة أو تلويحا ، فعلمنا كله إشارة ، فإذا صار عبارة خفى.
ولا تطلبوا علم الحقائق قبل بلوغ أجله ، وهو موت النفوس ، والزهد فى الفلوس ، وكمال التربية ، وتمام التصفية ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ من الشره إليها قبل أوانها ، فَاحْذَرُوهُ أن يعاقبكم بحرمانها ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ لا يعاجلكم بحرمان قصدكم ، إن صح مقصدكم ، واللّه تعالى أعلم ، وباللّه التوفيق.
ثم ذكر الحق جل جلاله حكم الطلاق قبل المسيس ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٣٦ الى ٢٣٧]
لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)
قلت : (ما) مصدرية ظرفية ، وأَوْ تَفْرِضُوا معطوف على تَمَسُّوهُنَّ أي : لا تبعة عليكم ولا إثم إن طلقتم النساء قبل البناء ، مدة كونكم لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن مهرا ، وإِلَّا أَنْ يَعْفُونَ مبنى لاتصاله بنون النسوة ، ووزنه : يفعلن كقوله تعالى : السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وقوله وَالْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً ، وحَقًّا مفعول مطلق.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٦٥
يقول الحق جل جلاله : لا حرج عليكم من إثم أو صداق ، إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ مدة كونكم لَمْ تَمَسُّوهُنَّ بالجماع ، أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً من الصداق ، فطلقوهن حينئذ ، وَمَتِّعُوهُنَّ أي : أعطوهن ما يتمتعن به ويجبر كسرهن ، على قدر حال الزوج عَلَى الْمُوسِعِ أي : الغنى ، قَدَرُهُ من المتعة كأمة أو كسوة أو مال يليق بحاله ، وَعَلَى الْمُقْتِرِ أي : الذي تقتر رزقه ، أي ضيق عليه ، وهو الفقير ، قَدَرُهُ ما يقدر عليه ، فمتعوهن مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ من غير سرف ولا تقتير ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ أي : حق ذلك عليهم حقا. حمل مالك الأمر على الندب ، وحمله غيره على الوجوب ، وهو الظاهر.
وإن طلقتموهن بعد المسيس فالصداق كامل ، وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ صداقا فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ يجب عليكم ، إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أي : النساء ، عن نصف الصداق ، أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ ، وهو الأب فى ابنته البكر قاله مالك ، أو الزوج بأن يدفعه كاملا ، قاله الشافعي ، وَأَنْ تَعْفُوا أيها الأولياء عن الزوج ، فلا تقبضوا منه شيئا ، أَقْرَبُ لِلتَّقْوى لأن المرأة لم يذهب لها شىء فسلعتها قائمة ، وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ والإحسان بَيْنَكُمْ ، فتسامحوا يسمح لكم ، إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا يخفى عليه شىء من أعمالكم ، فيجازى المحسن بإحسانه ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.
الإشارة : من المريدين من تحصل له الغيبة عن نفسه ، والجذب عنها ، بعد أن يمسها بالمجاهدة والمكابدة ، فحينئذ يمتعها بالشهود والعيان ، وهذه طريق الجادة. ومنهم من تحصل له الغيبة عن نفسه والجذب عنها قبل أن يمسها ، ويجاهدها ، وهو نادر بالنسبة إلى الأول ، فيقال لهؤلاء الفريق : لا جناح عليكم إن طلقتم أنفسكم ، وغبتم عنها ، من قبل أن تمسوها ، وقبل أن تعرضوا عليها وظائف العبودية. ومتعوهن بالشهود والعيان على قدر وسعكم وقوة شهودكم ، على الموسع قدره من لذة الشهود ، وعلى المقتر - أي : المضيق عليه فى المعرفة - قدره من لذة الشهود ، حق ذلك حقا على المحسنين الذين حازوا مقام الإحسان ، وفازوا بالشهود والعيان.
وإن حصل لكم جذب العناية ، وطلقتم أنفسكم قبل أن تمسوها ، وقد كنتم وظفتم عليها أورادا من وظائف العبودية فنصف ما فرضتم ، وهو المهم منها لأن عبادتها صارت قلبية ، فيكفيها من العبادة القالبية المهم ، إلا أن تقوى على ذلك مع الشهود. أو يأمرها الذي بيده عقدة نكاحها ، وهو الشيخ ، فلا يضرها الاشتغال بها حيث كان بإذن ، وأن تعفوا ، أيها الشيوخ ، عن المريدين فى العبادة الحسية ، وتأمروهم بالعبادة القلبية ، أقرب للتقوى الكاملة ، وهى تقوى السّوى. واللّه تعالى أعلم.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٦٦

ولما ذكر الحق تعالى شأن النساء ، حذر من الاشتغال بهن عن العبادة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٣٨ الى ٢٣٩]

حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى وَقُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)

يقول الحق جل جلاله : حافِظُوا أيضا على أداء الصَّلَواتِ الخمس فى أوقاتها بإتقان شروطها وأركانها وخشوعها وآدابها ، ولا تشتغلوا عنها بشهوات النساء وتشغيب أحكامهن ، ولا بغير ذلك ، وحافظوا أيضا على الصَّلاةِ الْوُسْطى وهى العصر عند الشافعي ، وهو ظاهر الحديث ، أو الصبح عند مالك لفضلها ، أو لتوسطها بين صلاتى الليل والنهار. وما من صلاة إلا وقيل فيها الوسطى. وقيل : أخفيت كساعة الجمعة وليلة القدر.

وَقُومُوا لِلَّهِ فى الصلاة قانِتِينَ أي : ساكتين ، وكان ، قبل نزول الآية ، الكلام فى الصلاة جائزا ، أو قيل : مطيعين. إذ القنوت فى القرآن كله بمعنى الطاعة. فَإِنْ خِفْتُمْ من عدو ، أو سبع ، أو سيل ، فصلّوا قياما على أرجلكم بالإيماء للسجود ، أَوْ رُكْباناً على خيولكم بالإيماء للركوع والسجود ، فَإِذا أَمِنْتُمْ فى الصلاة ، أو بعدها ، فصلوا صلاة أمن ، فَاذْكُرُوا اللَّهَ فى الصلاة ، وصلوا كَما عَلَّمَكُمْ من الكيفية ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ قبل ذلك.

الإشارة : حافظوا على الصلوات الحسية قياما بوظائف العبودية ، وعلى الصلاة القلبية قياما بشهود عظمة الربوبية وهى الصلاة الوسطى لدوامها فى كل ساعة ، قيل لبعضهم : هل للقلوب صلاة؟ قال : نعم ، إذا سجد لا يرفع رأسه أبدا. هـ. أي : إذا خضع لهيبة العظمة لم يرفع أبدا ، وفى ذلك يقول الشاعر :

فاسجد لهيبة الجلال عند التّدانى

ولتقرأ آية الكمال سبع المثاني

وأشار بقوله «آية الكمال» لقوله تعالى : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ليجمع بين الشريعة والحقيقة ، فسجود القلب حقيقة ، وسجود الجوارح شريعة ، وقوموا للّه بآداب العبودية قانتين خاشعين ، فإن خفتم ألا تصلوا إلى ربكم ، قبل انقضاء أجلكم ، فسيروا إليه رجالا أو ركبانا ، خفافا أو ثقالا ، فإذا أمنتم من القطيعة - وذلك بعد التمكين - فاذكروا اللّه شكرا لأجل ما أطلعكم عليه ، وعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون من عظمة الربوبية ، وكمال آداب العبودية.

ثم رجع الحق تعالى إلى الكلام على النساء ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٠]

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّمِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)

قلت : (وصية) : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : عليهم وصية ، ومن نصب ، فمفعول مطلق ، أي : فليوصوا وصية ، و(غير) : حال من الأزواج ، أي : حال كونهنّ غير مخرجات.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ ويتركون أَزْواجاً بعدهم ، فيجب عليهم أن يوصوا لأزواجهم وصية يتمتعن بها من كسوة ونفقة وسكنى ، إلى تمام الْحَوْلِ ما دام الأزواج لم يخرجن من مسكن الزوج ، فَإِنْ خَرَجْنَ بأنفسهن ، فلا نفقة ولا كسوة ولا سكنى عليكم أيها الأولياء ، ولا حرج عليكم فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ من التزين والتعرض للنكاح بعد تمام عدتهن ، على ما هو معروف فى الشرع ، والوصية منسوخة بآية الميراث ، وتربص الحول بآية أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً المتقدمة «١» المتأخرة فى النزول ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ينسخ ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، باعتبار الحكمة والمصلحة.

الإشارة : والذين يتوفون عن الحظوظ والشهوات ، ويتركون علوما وأسرارا ، ينبغى لهم أن يوصوا بحفظها وتدوينها ، كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه إذا استغرق فى الكلام وفاضت عليه المواهب ، يقول : (هلّا رجل يقيد عنا هذه العلوم). هـ. ليقع التمتع بها للسائرين والطالبين ، (غير إخراج) لغير أهلها ، فإن قضى الوقت بخروجها ، من غير قصد ، فلا حرج ، إما لغلبة وجد أو هداية مريد ، (و اللّه عزيز حكيم) ، فعزته اقتضت الغيرة على سره : أن يأخذه غير أهله ، وحكمته اقتضت ظهوره فى وقته لأهله. واللّه تعالى أعلم.

ثم كرر أمر المتعة تأكيدا ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٤١ الى ٢٤٢]

وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)

---

(١) أي : متقدمة فى التلاوة.

قلت : إنما كرره لأن الأولى فى غير المدخول بها ، إذا طلقت قبل الفرض ، وهذه فى المدخول بها ، وعبّر أولا بالمحسن : لأن المتعة قبل الدخول لا يعطيها إلا أهل الإحسان لأن المطلق لم يحصل له تمتع بالزوجة ، بخلاف الثاني ، فمطلق المدخول بها ، التقوى تحمله على الإمتاع.
وقيل : لمّا نزلت الآية الأولى ، قال رجل من المسلمين : إن أحسنت متّعت وإلّا تركت ، فنزلت الثانية تأكيدا.
وقال : حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ الشرك ، أي : على كل مؤمن ، وحكمها : الندب ، عند مالك ، على تفصيل ذكره فى المختصر ، فقال عاطفا على المندوب : والمتعة على قدر حاله ، بعد العدة للرجعة ، أو ورثتها ، ككل مطلّقة فى نكاح لازم ، لا فى فسخ كلعان وملك أحد الزوجين ، إلا من اختلعت ، أو فرض لها وطلقت قبل البناء ، ومختارة لعتقها أو لعيبه أو مخيّرة أو مملكة.
الإشارة : كل من طلق نفسه وخالف هواها تمتع بحلاوة المعاملة مع ربه ، فمن اتصل بشيخ التربية تمتع بحلاوة العبادة القلبية كالشهود والعيان ، ومن لم يتصل بالشيخ تمتع بحلاوة العبادة الحسية. فالآية الأولى فى المريدين والواصلين ، وهذه الآية فى العبّاد والزهاد ، ولذلك عبر فى الأولى بالمحسنين ، وفى الثانية بالمتقين ، واللّه تعالى أعلم.
ثم حذّر من الفرار من الموت ، توطئة للترغيب فى الجهاد ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٣]
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)
قلت : الاستفهام للتعجب والتشويق ، والرؤية قلبية ، والواو للحال ، و(حذر) مفعول من أجله.
يقول الحق جل جلاله : ألم تنظر يا محمد ، بعين الفكر والاعتبار ، إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ عشرة ، أو ثلاثون ، أو أربعون ، أو سبعون ، حذرا من الْمَوْتِ فى زمن الطاعون.
وكانوا فى قرية يقال لها : (داوردان) فلما وقع بها الطاعون ، خرجت طائفة هاربين ، وبقيت أخرى ، فهلك أكثر من بقي ، وسلم الخارجون ، ثم رجعوا ، فقال الباقون : لو صنعنا مثلهم لبقينا ، لئن أصابنا الطاعون مرة ثانية لخرجنا ، فأصابهم من قابل ، فهربوا كلهم ، ونزلوا واديا أفيح «١» ، فناداهم ملك من أسفل الوادي ، وآخر من أعلاه ، أن :

---

(١) الأفيح والفياح : كل موضع واسع ، ومنه : روضة فيحاء. [.....]

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٦٩
موتوا ، فماتوا كلهم أجمعون ، ومرت عليهم مدة ثمانية أيام أو أكثر حتى انتفخوا ، وقيل : صاروا عظاما ، فمرّ عليهم نبى اللّه (حزقيل) ، فدعا اللّه تعالى ، واستشفع فيهم ، فأحياهم اللّه ، وعاشوا دهرا ، عليهم سيما الموت لا يلبسون ثوبا إلا عاد كالكفن ، واستمر فى أسباطهم. هـ.
قال الأصمعى : لما وقع الطاعون بالبصرة ، خرج رجل منها على حمار معه أهله ، وله عبد يسوق حماره ، فأنشأ العبد يقول :
لن يسبق الله على حمار ولا على ذى مشعة طيّار
قد يصبح اللّه أمام الساري «١» فرجع الرجل بعياله.
والآية تدل على أن الفرار من الطاعون حرام فى تلك الشريعة ، كما حرم فى شرعنا ، وروى عبد الرحمن ابن عوف أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : «إذا سمعتم هذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع ببلد وأنتم فيه فلا تخرجوا منه».
قلت : وقد اختلف الأئمة فى حكم الفرار والقدوم : فمنهم من شهر المنع فيهما تمسكا بظاهر الحديث ، ومنهم من شهر الكراهة. والمختار فى الفرار : التحريم ، وفى القدوم : التفصيل ، فمن قوى يقينه ، وصفا توحيده ، حلّ له القدوم ، ومن ضعف يقينه ، بحيث إذا أصابه شىء نسب التأثير لغير اللّه حرم عليه القدوم.
وفى حديث عائشة - رضي اللّه عنها - قلت : يا رسول اللّه ، ما الطاعون؟ قال : «غدة كغدة البعير ، المقيم فيه كالشهيد ، والفارّ منه كالفار من الزحف». قال ابن حجر : كون المقيم فيه له أجر شهيد إنما بشرط أن يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب اللّه له ، وأن يسلم إليه أمره ويرضى بقضائه ، وأن يبقى فى مكانه ولا يخرج منه بقصد الفرار ، فإذا اتصف الجالس بهذه القيود حصل له أجر الشهادة. ودخل تحته ثلاث صور ، الأولى : من اتصف بذلك فوقع له الطاعون ومات فهو شهيد. والثانية : من وقع به ولم يمت به فهو شهيد وإن مات بعد ذلك. والثالثة : من لم يقع به أصلا ومات بغيره عاجلا أو آجلا فهو شهيد ، إذا حصلت فيه القيود الثلاثة ، ومن لم يتصف بالقيود الثلاثة فليس بشهيد ، ولو مات بالطاعون. واللّه أعلم هـ.
وأما القدوم من بلد الطاعون إلى البلد السالمة منه فجائز. ولا يمنع من الدخول ، قاله الباجى وابن حجر والحطاب وغيرهم لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «لا عدوى ولا طيرة» وأما قوله عليه الصلاة والسلام :

---

(١) ذكر القرطبي البيت الثاني كاملا ، وهو :
أو يأتى الحتف على مقدار قد يصبح الله أمام الساري

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٠
«فرّ من المجذوم فرارك من الأسد» ، وقوله : «لا يورد ممرض على مصحّ» ، فهو محمول على حسم المادة ، وسد الذريعة لئلا يحدث للمخالط شيء من ذلك ، فيظنه بسبب المخالطة ، فيثبت العدوى التي نفاها الشارع ، هذا المختار فى الجمع بين الحديثين. واللّه تعالى أعلم. وإنما أطلت فى المسألة لمسّ الحاجة لأن التأليف وقع فى زمن الوباء ، حفظنا اللّه من وبالها.
وقيل : إن الذين خرجوا من ديارهم قوم من بنى إسرائيل ، أمروا بالجهاد ، فخافوا الموت بالقتل فى الجهاد ، فخرجوا من ديارهم فرارا من ذلك ، فأماتهم اللّه ليعرفهم أنهم لا ينجيهم من الموت شيء ، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد ، بقوله : وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الآية. وقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ حيث أنزل بهم رحمته ، ففروا منها ، ولم يعاقبهم ، حيث أحياهم بعد موتهم ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ إذ لا يفهم النعم فى طى النقم إلا القليل ، فيشكروا اللّه فى السراء والضراء.
الإشارة : ألم تر أيها السامع إلى الذين خرجوا من ديار عوائدهم وأوطان شهواتهم ، وهم جماعة أهل التجريد ، القاصدين إلى صفاء التوحيد ، والغرق فى بحر التفريد ، حذرا من موت أرواحهم بالجهل والفرق ، فاصطفاهم اللّه لحضرته ، وجذبهم إلى مشاهدة ذاته ، فقال لهم الله : موتوا عن حظوظكم ، وغيبوا عن وجودكم ، فلما ماتوا عن حظوظهم ، وغابوا عن وجودهم ، أحياهم اللّه بالعلم والمعرفة ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ حيث فتح لهم باب السلوك ، وهيأهم لمعرفة ملك الملوك ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ حيث تجلى لهم ، وعرّفهم به ، وهم لا يشعرون ، إلا من فتح اللّه بصيرتهم ، وقليل ما هم.
ثم حرّض الحق تعالى المؤمنين على الجهاد ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٤]
وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)
يقول الحق جل جلاله : وَقاتِلُوا الكفار فِي سَبِيلِ اللَّهِ وإعلاء كلمة اللّه حتى يكون الدين كله للّه ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لأقوالكم ودعائكم ، عَلِيمٌ بنياتكم وإخلاصكم ، فيجازى المخلصين ، ويحرم المخلطين.
الإشارة : وجاهدوا نفوسكم فى طريق الوصول إلى اللّه ، وأديموا السير إلى حضرة الله ، فحضرة القدوس محرمة على أهل النفوس. قال الششترى :
إن ترد وصلنا فموتك شرط لا ينال الوصال من فيه فضله

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧١
ومجاهدة النفس هو تحميلها ما يثقل عليها ، وبعدها مما يخف عليها ، حتى لا يثقل عليها شىء ، ولا تشره إلى شىء ، بل يكون هواها ما يقضيه عليها مولاها. قيل لبعضهم : [ما تشتهى؟ قال : ما يقضى اللّه]. واعلموا أيها السائرون أن اللّه سميع لأذكاركم ، عليم بإخلاصكم ومقاصدكم.
ولما كان الجهاد يحتاج إلى مؤنة التجهيز ، وليس كل الناس يقدر على ذلك ، رغّب الحق تعالى الأقوياء بالإنفاق على الفقراء ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٥]
مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)
قلت : القرض هو القطع ، أطلق على السلف لأن المقرض يقطع قطعة من ماله ويدفعها للمستلف ، والمراد بها الصدقة لأن المتصدق يدفع الصدقة فيردها الحق تعالى له بضعف أمثالها فأشبهت القرض فى مطلق الرد.
يقول الحق جل جلاله : من هذا الذي يعامل اللّه تعالى ويقرضه قَرْضاً حَسَناً بأن يتصدق على عباده صدقة حسنة بنية خالصة ، فيكثرها اللّه تعالى له أَضْعافاً كَثِيرَةً بسبعمائة إلى ما لا نهاية له ، ولا يحمله خوف الفقر على ترك الصدقة فإن اللّه تعالى يقبض الرزق عمن يشاء ولو قل إعطاؤه ، ويبسط الرزق على من يشاء ولو كثر إعطاؤه ، بل يقبض على من قبض يده شحا وبخلا ، ويبسط على من بسط يده عطاء وبذلا ، يقول : «يا ابن آدم أنفق أنفق عليك» ، «أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا».
ونسبة القرض إليه تعالى ترغيب وتقريب للأفهام ، كما قال فى الحديث القدسي : «يقول اللّه تعالى يوم القيامة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ، قال : يا ربّ! كيف أعودك وأنت ربّ العالمين؟ قال : أما علمت أنّ عبدى فلانا مرض فلم تعده. أما إنك لو عدته لوجدتنى عنده. يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى. قال :
يا ربّ! كيف أطعمك وأنت ربّ العالمين؟ قال : أما علمت أنّه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنّك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى. يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى. قال : يا ربّ كيف أسقيك وأنت ربّ العالمين؟
قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه. أما علمت أنّك لو سقيته لوجدت ذلك عندى».
الإشارة : من هذا الذي يقطع قلبه عن حب الدارين ، ويرفع همته عن الكونين ، فإن اللّه (يضاعفه له

أضعافا كثيرة) بأن يملّكه الوجود بما فيه ، «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان

معك» ، (و اللّه يقبض ويبسط) فيقبض الوجود تحت حكمك وهمتك ، إن رفعت همتك عنه ، ويبسط يدك بالتصرف فيه ، إن علقت همتك بخالقه. أو يقبض القلوب بالفقد والوحشة ، ويبسطها بالإيناس والبهجة. أو يقبض الأرواح بالوفاة ، ويبسطها بالحياة. والقبض والبسط عند أهل التصوف : حالتان تتعاقبان على القلوب تعاقب الليل والنهار ، فإذا غلب حال الخوف كان مقبوضا ، وإذا غلب حال الرجاء كان مبسوطا ، وهذا حال السائرين. أما الواصلون فقد اعتدل خوفهم ورجاؤهم ، فلا يؤثر فيهم قبض ولا بسط ، لأنهم مالكوا الأحوال.

قال القشيري : فإذا كاشف العبد بنعت جماله بسطه ، وإذا كاشفه بنعت جلاله قبضه. فالقبض يوجب إيحاشه ، والبسط يوجب إيناسه ، واعلم أنه يردّ العبد إلى حال بشريته ، فيقبضه حتى لا يطيق ذرّة ، ويأخذه مرّة عن نعوته ، فيجد لحمل ما يرد عليه قدرة وطاقة ، قال الشّبلى رضي اللّه عنه : (من عرف اللّه حمل السموات والأرض على شعرة من جفن عينه ، ومن لم يعرف اللّه - جل وعلا - لو تعلق به جناح بعوضة لضجّ).

وقال أهل المعرفة : [إذا قبض قبض حتى لا طاقة ، وإذا بسط بسط حتى لا فاقة ، والكل منه وإليه]. ومن عرف أن اللّه هو القابض الباسط ، لم يعتب أحدا من الخلق ، ولا يسكن إليه فى إقبال ولا إدبار ، ولم ييأس منه فى البلاء ، ولا يسكن إليه فى عطاء ، فلا يكون له تدبير أبدا. هـ.

ولكلّ من القبض والبسط آداب ، فآداب القبض : السكون تحت مجارى الأقدار ، وانتظار الفرج من الكريم الغفار.

وآداب البسط : كف اللسان ، وقبض العنان ، والحياء من الكريم المنان. والبسط مزلّة أقدام الرجال.

قال بعضهم : (فتح علىّ باب من البسط فزللت زلّة ، فحجبت عن مقامى ثلاثين سنة). ولذلك قيل :

قف على البساط وإياك والانبساط واعلم أن القبض والبسط فوق الخوف والرجاء ، وفوق القبض والبسط : الهيبة والأنس فالخوف والرجاء للمؤمنين ، والقبض والبسط للسائرين ، والهيبة والأنس للعارفين ، ثم المحو فى وجود العين للمتمكنين ، فلا هيبة لهم ، ولا أنس ، ولا علم ، ولا حس.

وأنشدوا :

فلو كنت من أهل الوجود حقيقة لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي

وكنت بلا حال مع اللّه واقفا تصان عن التّذكار للجن والإنس «١»

---

(١) ورد هذان البيتان فى قصة مع أبى سعيد الخراز ، ذكرها القشيري فى الرسالة.

(٢٧٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٣

ثم ذكر الحق تعالى قصة من أمر بالجهاد فجبن عنه ، ترهيبا من التشبه به ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٦]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إِذْ قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلاَّ تُقاتِلُوا قالُوا وَما لَنا أَلاَّ نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد - فتعتبر - إِلَى قصة جماعة مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ موت مُوسى حين طلبوا الجهاد ، وقالوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ يقال له : شمويل ، وقيل : شمعون : ابْعَثْ لَنا مَلِكاً يسوس أمرنا ونرجع إليه فى رأينا إذ الحرب لا تستقيم بغير إمام نُقاتِلْ معه فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قالَ لهم ذلك النبي : هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا أي : هل أنتم قريب من التولي والفرار إن كتب عليكم القتال؟ والمعنى : أتوقع جبنكم عن القتال إن فرض عليكم. والأصل : عساكم أن تجبنوا إن فرض عليكم ، فأدخل (هل) على فعل التوقع ، مستفهما عما هو المتوقع عنده ، تقريرا وتثبيتا.

قالُوا فى جوابه : وَما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي : أىّ مانع يمنعنا من القتال وقد وجد داعيه؟ وهو تسلط العدو علينا فأخرجنا من ديارنا وأسر أبناءنا ، وكان اللّه تعالى سلط عليهم جالوت ومن معه من العمالقة ، كانوا يسكنون ساحل بحر الروم «١» بين مصر وفلسطين ، وذلك لمّا عصوا وسفكوا الدماء ، فخرّب بيت المقدس ، وحرق التوراة ، وأخذ التابوت الذي كانوا ينتصرون به ، وسبى نساءهم وذراريهم «٢». روى أنه سبى من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين ، فسألوا نبيهم أن يبعث لهم ملكا يجاهدون معه ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ ويسر لهم ملكا يسوسهم وهو طالوت ، جبنوا وتولوا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وهم من عبر النهر مع طالوت ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ فيخزيهم ويفسد رأيهم. نعوذ باللّه من ذلك.

---

(١) ويسمى الآن «البحر المتوسط».

(٢) الذراري : جمع ذرية ، وهى النسل.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٤

الإشارة : ترى كثيرا من الناس يتمنون أن لو ظفروا بشيخ التربية ، ويقولون : لو وجدناه لجاهدنا أنفسنا أكثر من غيرنا ، فلما ظهر ، وعرف بالتربية ، تولى ونكص على عقبيه ، وتعلل بالإنكار وعدم الأهلية ، إلا قليلا ممن خصه اللّه بعنايته (و اللّه يختص برحمته من يشاء). (و اللّه ذو الفضل العظيم). سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

ثم عيّن لهم الملك الذي طلبوا ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٧]

وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً قالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ قالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ شمويل : إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ ملكا ، أي : عيّنه لكم لتقاتلوا معه ، وهو طالُوتَ وهو علم عبرانى كداود ، قالُوا تعنتا وتشغيبا : أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا أي من أين يستأهل التملك علينا وليس من دار الملك؟ لأن المملكة كانت فى أولاد يهوذا ، وطالوت من أولاد بنيامين ، والنبوة كانت فى أولاد لاوى. وقالوا : نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وراثة ومكنة ، لأن دار المملكة فينا. وأيضا هو فقير لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ يتقوى به على حرب عدوه ، وكان طالوت فقيرا راعيا أو سقّاء أو دباغا. قالَ لهم نبيهم - عليه السلام - : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ رغم أنفكم. قال وهب بن منبه : أوحى اللّه إلى نبيهم : إذا دخل عليك رجل فنش «١» الدهن الذي فى القرن «٢» فهو ملكهم ، فلما دخل طالوت نشّ الدهن.

وقال السدى : أرسل اللّه إليه عصا ، وقال له : إذا دخل عليك رجل على طول هذه العصا فهو ملكهم ، فكان ذلك طالوت فتبيّن أن اللّه تعالى اصطفاه للملك ، وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ فكان أعلم بنى إسرائيل بالتوراة وقيل :

بالحروف وعلم السياسة. وزاده أيضا بسطة فى الْجِسْمِ ، فكان أطول بنى إسرائيل يبلغ إلى منكبه.

وذلك ليكون أعظم خطرا فى القلوب ، وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب ، (و اللّه يؤتى ملكه من يشاء) لأنه ملك الملوك

---

(١) نشّ الماء ينش نشا ونشيشا ونشش : إذا صوت عند الغليان.

(٢) القرن : هو قرن الثور وغيره. وأراد به هنا : القنينة التي يكون فيها الدهن ، وكانوا يتخذونها من قرون البقر وغيرها.

(٢٧٤/١)

يضع ملكه حيث شاء ، (و اللّه واسع) فيوسع على الفقير ويغنيه بلا سبب ، (عليم) بمن يليق بالملك بسبب وبلا سبب.

ثم ذكر آية أخرى تدل على ملكه ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٨]

وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَآلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨)

قلت : قال الجوهري : أصل التابوت : تأبوة ، مثل ترقوة وهى فعلوة ، فلما سكّنت الواو ، انقلبت هاء التأنيث تاء ، فلغة قريش بالتاء ، ولغة الأنصار بالهاء.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ لمّا طلبوا منه الحجة على اصطفاه طالوت للملك : إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ وهو صندوق من خشب الشمشار مموّه بالذهب ، طوله ثلاثة أذرع فى سعة ذراعين فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ أي : فيه ما تسكن إليه قلوبكم وتثبت عند الحرب. وكانوا يقدمونه أمامهم فى الحروب فلا يفرون ، وينصرون على عدوهم ، وقيل : كان فيه صور الأنبياء من آدم عليه السّلام إلى محمد صلّى اللّه عليه وسلم. وقيل : كان فيه طست من ذهب غسلت به قلوب الأنبياء - عليهم السلام - وهى السكينة - وفيه بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وهى رضاض «١» الألواح ، وعصا موسى ، وثيابه ، وعمامة هارون والآل : مقحم فيهما.

تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ قال وهب : لما صار التابوت عند القوم الذين غلبوا بنى إسرائيل - فوضعوه فى كنيسة لهم فيها أصنام ، فكانت الأصنام تصبح منكسرة ، فحملوه إلى قرية قوم ، فأصاب أولئك القوم أوجاع ، فقالوا : ما هذا إلا لهذا التابوت ، فلنتركه إلى بنى إسرائيل ، فأخذوا عجلة فجعلوا التابوت عليها وربطوها ببقرتين ، وأرسلوهما نحو بلاد بنى إسرائيل ، فبعث اللّه ملائكة تسوق البقرتين حتى دخلتا على بنى إسرائيل ، وهم فى أمر طالوت فأيقنوا بالنصر.

وقيل غير ذلك.

---

(١) رضاض الشيء : كساره وفتاته.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٦
وقوله تعالى : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ يحتمل أن يكون من كلام نبيهم ، أو من كلام الحق تعالى لنبينا - عليه الصلاة والسلام - .
الإشارة : من شأن غالب النفوس ألا تقبل الخصوصية عند أحد حتى تظهر علامتها ، ولذلك طالب الكفار الرسل بالمعجزات ، وطالب العوام الأولياء بالكرامات ، ويكفى فى الولي استقامة ظاهره ، وتحقيق اليقين فى باطنه.
قال الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه : «إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان بمزيد الإيقان ونعت العيان ، وكرامة العمل على السنة والمتابعة ، وترك الدعاوى والمخادعة ، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو مفتر كذاب ، أو ذو خطأ فى العلم والعمل ...» إلخ كلامه رضي اللّه عنه.
وقال فى العوارف : وقد يكون من لا يكاشف بشيء من معانى القدر أفضل ممن يكاشف بها ، إذا كاشفه اللّه تعالى بصرف المعرفة ، فالقدرة أثر من القادر ، ومن أهلّ لقرب القادر لا يستغرب ولا يستكثر شيئا من القدرة ، ويرى القدرة تتجلى من سحب أجزاء عالم الحكمة. فالكرامة إنما تظهر للقلوب المضطربة والنفوس المتزلزلة ، وأما من سكن قلبه باليقين واطمأنت نفسه بالعيان لم يحتج إلى دليل ولا برهان إذ الجبال الراسية لا تحتاج إلى دعامة ، واللّه تعالى أعلم.
وكل من طالب أهل الخصوصية بالكرامة الحسية ففيه نزعة اسرائيلية ، حيث قالوا لنبيهم بعد أن عيّن لهم من أكرمه اللّه بخصوصية الملك : (أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه). ورد الحق تعالى عليهم بقوله :
وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ. وما أظهر لهم كرامة التابوت إلا بعد امتناعهم من الجهاد المتعيّن عليهم رحمة بهم. واللّه تعالى أعلم.
ثم كمّل قصة خروجهم إلى العدو ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٩]
فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِهِ قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٧

قلت : قال فى القاموس : غرف الماء يغرفه : أخذه بيده ، كاغترفه ، والغرفة للمرّة ، وبالكسر : هيئة الغرف وبالضم : اسم للمفعول ، كالغرافة ، لأنك ما لم تغرفه لا تسميه غرفة ، ثم قال : والغرفة ، بالضم : العلّيّة «١».

يقول الحق جل جلاله : ولما اتفقوا على ملك طالوت تجهز للخروج ، وقال : لا يخرج معه إلا الشباب النشيط الفارغ ليس وراءه علقة «٢» ، فاجتمع ممن اختار ثمانون ألفا ، وقيل : ثلاثون ، فلما انفصل عن بلده بالجنود وساروا فى البيداء ، - وكان وقت الحرّ والقيظ - عطشوا ، وسألوا طالوت أن يجرى لهم نهرا ، فقال لهم بوحي ، أو بإلهام ، أو بأمر نبيهم : إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ أي : مختبركم بِنَهَرٍ بسبب اقتراحكم ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ كرعا بلا واسطة فَلَيْسَ مِنِّي أي : من جيشى ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ أي : يذقه ، فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فإنها تكفيه لنفسه ولفرسه ، فالاستثناء من الجملة الأولى.

فَشَرِبُوا مِنْهُ أي : كرعوا ، وسقطوا على وجوههم ، إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ثلاثمائة وأربعة عشر ، على عدد أهل بدر ، وقيل : ألفا. روى أن من اقتصر على الغرفة كفته لشربه ودوابه ، ومن لم يقتصر غلب عطشه ، واسودّت شفته ولم يقدر أن يمضي. وعن ابن عباس : أن القوم شربوا على قدر يقينهم : فالكفار شربوا شرب الهيم ، وشرب العاصي دون ذلك ، وانصرف من القوم ستة وسبعون ألفا ، وبقي بعض المؤمنين لم يشرب شيئا ، وأخذ بعضهم الغرفة ، فأما من شرب فاشتد به العطش وسقط ، وأما من ترك الماء فحسن حاله ، وكان أجلد ممن أخذ الغرفة. هـ.

وحكمة هذا الامتحان : ليتخلص للجهاد المطيعون المخلصون ، إذ لا يقع النصر إلّا بهم ، فلما جاوز النهر طالوت ومن بقي معه ممن لم يشرب قال بعضهم لبعض : لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِهِ لكثرتهم وقلة عددنا ، قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أي : يتيقّنون أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ ويتوقعون ثواب الشهادة وهم الخلّص من أهل البصيرة : لا تفزعوا من كثرة عددهم كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وإرادته ومعونته ، و«كم» للتكثير ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ بالنصر والمعونة.

الإشارة : قال بعض الحكماء : الدنيا كنهر طالوت ، لا ينجو منها إلا من لم يشرب أو اغترف غرفة بيده ، فمن أخذ منها قدر الضرورة كفته ، ونشط لعبادة مولاه ، ومن أخذ فوق الحاجة حبس فى سجنها ، وكان أسيرا فى يدها.

---

(١) العلية بضم العين وكسرها - هى الغرفة في الطبقة الثانية من الدار وما فوقها ، وجمعها (علالى)

(٢) أي : ما يتعلق به وجمعها علق. وذلك كتجارة ، وزوجة لم يدخل بها ، وغير ذلك.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٨

وقال بعضهم : طالب الدنيا كشارب ماء البحر ، كلما زاد شربه ازداد عطشه. هـ. وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «من أشرب قلبه حب الدنيا التاط «١» منها بثلاث : بشغل لا ينفد عناه ، وأمل لا يبلغ منتهاه ، وحرص لا يدرك مداه» وقال عيسى عليه السلام : الدنيا مزرعة لإبليس ، وأهلها حراث له. هـ. وقال علي رضي اللّه عنه : الدنيا كالحية : ليّن مسها ، قاتل سمها ، فكن أحذر ما تكون منها ، أسرّ ما تكون بها فإن من سكن منها إلى إيناس أزاله عنها إيحاش.

وقال عليه الصلاة والسلام : «من هوان الدنيا على اللّه أنه لا يعصى إلا فيها ، ولا ينال ما عنده إلا بتركها».

وقال سيدنا على - كرم اللّه وجهه - : أول الدنيا عناء ، وآخرها فناء ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، ومتشابهها عتاب ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن. هـ. وقيل : الدنيا تقبل إقبال الطالب ، وتدبر إدبار الهارب ، وتصل وصال الملول ، وتفارق فراق العجول ، خيرها يسير ، وعمرها قصير ، ولذاتها فانية ، وتبعاتها باقية.

وقال عيسى عليه السّلام : تعملون للدنيا ، وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل. هـ. وقيل : أوحى اللّه إلى الدنيا : من خدمنى فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه.

وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الأبيات «٢» :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم ، والأسى لك لازم

تسرّ بما يفنى ، وتفرح بالمنى كما سرّ باللذّات فى النوم حالم

وشغلك فيها سوف تكره غبّه كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

وقال آخر «٣» :

هى الدار دار الأذى والقذى ودار الفناء ودار الغير

فلو نلتها بحذافيرها لمتّ ولم تقض منها الوطر

أيا من يؤمل طول الخلود وطول الخلود عليه ضرر

إذا ما كبرت وفات الشباب فلا خير فى العيش بعد الكبر

---

(١) التاط : أي التصق.

(٢) الأبيات لمسعر بن كدام ، كما فى حلية الأولياء ٧/ ٢٢٠

(٣) وهو أبو العتاهية.

ثم ذكر الحق تعالى قصة جالوت وملك داود عليه السّلام ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٥٠ الى ٢٥٢]

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَجُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَآتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

يقول الحق جل جلاله : ولما برز طالوت بمن معه لِجالُوتَ ، أي : ظهر فى البراز ، ودنا بعضهم من بعض ، تضرعوا إلى اللّه واستنصروه ، وقالوا : رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً أي : اصببه علينا صبّا ، وَثَبِّتْ أَقْدامَنا عند اللقاء لئلا نفرّ ، وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ. وفى دعائهم ترتيب بليغ سألوا أولا إفراغ الصبر فى قلوبهم الذي هو ملاك الأمر ، ثم ثبات القدم فى مداحض الحرب المسبب عنه ، ثم النصر على العدو المرتب عليها غالبا.

فهزم اللّه عدوّهم وأجاب دعاءهم بإذنه وقدرته ، وَقَتَلَ داوُدُ جالُوتَ. وقصة قتله : أن أصحاب طالوت كان فيهم بنو إيش ، وهو أبو داود عليه السّلام ستة أو سبعة ، وكان داود صغيرا يرعى غنما ، فلما حضرت الحرب قال فى نفسه : لأذهبن لرؤية هذه الحرب ، فمرّ فى طريقه ، بحجر فناداه : يا داود خذنى ، فبى تقتل جالوت ، ثم ناداه حجر آخر ثم آخر فأخذها ، وجعلها فى مخلاته وسار ، فلما حضر البأس خرج جالوت يطلب البراز ، وكاع «١» الناس عنه ، أي : تأخروا خوفا ، حتى قال طالوت : من يبرز له ويقتله فأنا أزوجه ابنتي ، وأحكّمه فى مالي ، فجاء داود ، فقال له طالوت : اركب فرسى وخذ سلاحى ، ففعل ، وخرج فى أحسن شكله ، فلما مشى قليلا رجع ، فقال الناس : جبن الفتى ، فقال داود : إن اللّه سبحانه لم يقتله ولم يعنى عليه ، لم ينفعنى هذا الفرس ولا هذا السلاح ، ولكنى أحب أن أقاتله

---

(١) كاع فلان : جبن وضعف.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٨٠

على عادتى. وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع ، فنزل ، وأخذ مخلاته فتقلدها ، وأخذ مقلاعه فخرج إلى جالوت ، وهو شاك «١» فى السلاح ، فقال جالوت : أنت يا فتى تخرج إليّ! قال ، نعم ، قال : هكذا كما تخرج إلى الكلب! قال :

نعم ، وأنت أهون ، قال : لأطعمن لحمك اليوم الطير والسباع ، ثم تدانيا فأدار داود فأخذ مقلاعه وأدخل يده إلى الحجارة ، فروى أنها التأمت ، وصارت حجرا واحدا ، فأخذه ووضعه فى المقلاع ، وسمّى اللّه ، وأداره ، ورماه ، فأصاب رأس جالوت فقتله ، وجز رأسه ، وجعله فى مخلاته ، واختلط الناس ، وحمل أصحاب طالوت فكانت الهزيمة.

ثم إن داود جاء يطلب شرطه من طالوت ، فقال : حتى تقتل مائتين من هؤلاء الجراجمة «٢» الذين يؤذون الناس وتجيئنى بسلبهم ، فقتل داود منهم مائتين ، وجاء بذلك ، فدفع إليه امرأته وتخلى له عن الملك «٣». ولما تمكن داود - عليه السّلام - من الملك ، أجلى من بقي من قوم جالوت إلى المغرب ، فمن بقيتهم البرابرة من الشلوح وسائر الأرياف.

فآتى اللّه داود الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وهى النبوة ، وقيل : صنعة الدروع ومنطق الطير وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ من أنواع العلوم والمعارف والأسرار ، وقد دفع اللّه بأس الكافرين وردكيدهم فى نحرهم ، وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ أي : لو لا أن اللّه يدفع بعض الناس ببعض ، فينصر المسلمين على الكافرين ، ويكف فسادهم ، لغلبوا وأفسدوا فى الأرض. أو : لو لا أن اللّه نصب السلطان ، وأقام الحكام لينصفوا المظلوم من الظالم ، ويردوا القوى عن الضعيف ، لتواثب الخلق بعضهم على بعض ، وأكل القوى الضعيف فيفسد النظام. أو : لو لا أن اللّه يدفع بالشهود عن الناس فى حفظ الأموال والنفوس والدماء والأعراض ، لوقع الفساد فى الأرض.

أو : لو لا أن اللّه يدفع بأهل الطاعة والإحسان عن أهل الغفلة والعصيان ، لفسدت الأرض بشؤم أهل العصيان.

وفى الخبر عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «إنّ اللّه يدفع بالمصلّي من أمّتى عمّن لا يصلى ، وبمن يزكّى عمّن لا يزكّى ، وبمن يصوم ،

---

(١) يقال : رجل شاكى السلاح : تام التسلح. [.....]

(٢) الجراجمة : قوم من العجم بالجزيرة. ويقال : الجراجمة نبط الشام.

(٣) هذا القصصكله لين الأسانيد - كما قال ابن عطية. وقال الدكتور أبو شهبة : نحن فى غنية عن هذا القصص بما فى أيدينا من القرآن والسنة ، ولسنا فى حاجة إلى شىء من هذا فى فهم القرآن وتدبره. انظر الإسرائيليات والموضوعات للدكتور أبى شهبة - رحمه الله.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٨١

عمّن لا يصوم ، وبمن يحجّ ، عمّن لا يحجّ ، وبمن يجاهد عمّن لا يجاهد. ولو اجتمعوا على ترك هذه الأشياء ما أنظرهم اللّه طرفة عين».

وفي حديث آخر : «لو لا عباد للّه ركّع ، وصبية رضّع ، لصبّ عليكم العذاب صبا». وروى جابر رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «إن اللّه ليصلح بصلاح الرجل - ولده وولد ولده ، وأهل دويرته ، ودويرات حوله ، ولا يزالون في حفظ اللّه مادام فيهم». هـ. فهذا من فضل اللّه على عباده يصلح طالحهم بصالحهم ، ويشفع خيارهم في شرارهم ، ولولا ذلك لعوجلوا بالهلاك ، وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ.

تِلْكَ يا محمد ، آياتُ اللَّهِ والإشارة إلى ما قصّ من حديث الألوف ، وتمليك طالوت ، وإتيان التابوت ، وانهزام الجبابرة أصحاب جالوت ، نَتْلُوها أي : نقصها عليكم بِالْحَقِّ أي : بالوجه المطابق الذي لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ ، وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ حيث أخبرت بها من غير تعرف ولا استماع ولم يعهد منك تعلم ولا اطلاع ، فلا يشك أنه من عند الخبير العليم ، إلا من طبع اللّه على قلبه. نعوذ باللّه من ذلك.

الإشارة : «من علامة النجح في النهايات الرجوع إلى اللّه في البدايات» ، فإذا برز المريد لجهاد أعدائه من النفس والهوى والشيطان وسائر القطاع ، واستنصر باللّه وتبرأ من حوله وقوته ، كان ذلك علامة على نصره وظفره بنفسه ، وكان سببا في نجح نهايته ، فيملكه باللّه الوجود بأسره ، ويفتح عليه من خزائن حكمته. قال أبو سليمان الداراني : (إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام ، جالت في الملكوت ثم عادت إلى صاحبها بطرائف الحكم من غير أن يؤدّى إليها عالم علما). وفي الخبر : «من عمل بما علم أورثه اللّه علم ما لم يعلم». وكان حينئذ رحمة للعباد ، يدفع اللّه بوجوده العذاب عمن يستحقه من عباده.

وفي الحديث القدسي : «يقول اللّه عز وجل : إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بي جعلت همته ولذّته في ذكرى ، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه ، لا يسهو إذا سها الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أولئك الأبطال حقا ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابا ذكرتهم فصرفته بهم عنهم». حقّقنا اللّه بمحبتهم وجعلنا منهم .. آمين.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٨٢

ولمّا ذكر فى هذه السورة جملة من الأنبياء والرسل ، وشهد لرسوله صلّى اللّه عليه وسلم أنه من المرسلين ذكر تفضيل بعضهم على بعض فى الجملة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٣]

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَلكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (٢٥٣)

قلت : (تلك) : مبتدأ ، و(الرسل) : نعت ، أو بدل منه ، أو بيان ، و(فضلنا) ، خبر ، أو (الرسل) خبر ، و(فضلنا) : خبر ثان ، والإشارة إلى الجماعة المذكور قصصها فى السورة.

يقول الحق جل جلاله : تِلْكَ الرُّسُلُ الذين قصصناهم عليك ، وذكرت لك أنك منهم ، فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ بخصائص ومناقب لم توجد فى غيره. لكن هذا التفضيل إنما يكون فى الجملة من غير تعيين المفضول ، لأنه تنقيص فى حقه وهو ممنوع. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «لا تخيّروا بين الأنبياء» ، «ولا تفضلونى على يونس بن متى» فإن معناه النهى عن تعيين المفضول ، لأنه غيبة وتنقيص ، وقد صرح صلّى اللّه عليه وسلم بفضله على جميع الأنبياء بقوله : «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر». لكن لا يعيّن أحدا من الأنبياء بالمفضولية لئلا يؤدى إلى نقصه ، فلا تعارض بين الحديثين.

مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وهو موسى عليه السّلام فى جبل الطور ، وسيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم حين كان قاب قوسين أو أدنى ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وهو نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم فإنه خصّ بالدعوة العامة ، والحجج المتكاثرة ، والمعجزات المستمرة ، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر ، والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر. والإبهام لتفخيم شأنه ، كأنه العلم المشهور المتعين لهذا الوصف المستغنى عن التعيين. وقيل : إبراهيم ، خصه بالخلة التي هى أعلى المراتب.

قلت : بل المحبة أعلى منها «١» ، وقيل : إدريس لقوله : وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا ، وقيل : أولو العزم من الرسل ، قاله البيضاوي.

وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ أي : الآيات الواضحات ، كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، (و أيدناه بروح القدس) ، أي : جبريل عليه السّلام كان معه أينما سار ، وخصّه بالتعيين لإفراط اليهود والنصارى فى تحقيره وتعظيمه ، فردّهم إلى الصواب باعتقاد نبوته دون ربوبيته.

---

(١) سواء كانت المحبة أعلى أم الخلة - فكلتاهما حاصلة لنبينا وسيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم. وانظر في مسألة : أيهما أعلى : المحبة أم الخلة؟ الشّفا للقاضى عياض ١/ ٢١٣.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٨٣

الإشارة : كما فضّل اللّه الرسل بعضهم على بعض ، كذلك فضل الأولياء بعضهم على بعض ، وإنما يقع التفضيل بكمال اليقين ، والتغلغل فى علم التوحيد الخاص ، ذوقا وكشفا ، والترقي فى المعارف والأسرار. وذلك بخدمة الرجال وصحبة أهل الكمال ، والتفرغ التام ، والزهد الكامل فى النفس والفلس والجنس ، فمنهم من تحصل له المشاهدة وتصحبها المكالمة ، ومنهم من تحصل له المشاهدة دون المكالمة ، ومنهم من تحصل له الكرامات الواضحة ، ومنهم من لا يرى شيئا من ذلك استغناء عنها بكرامة المعرفة. وما قيل فى الرسل من عدم تعيين المفضول ، مثله يقال فى حق الأولياء ، وإلا وقع فى الغيبة الشنيعة فإن لحوم الأولياء سموم ، فليعتقد الكمال فى الجميع ، ولا يصرح بتعيين المفضول كما تقدم. واللّه تعالى أعلم.

ولما ذكر الحق تعالى أحوال الرسل ، وتفاوتهم فى العناية ، ذكر أحوال أممهم وتفاوتهم فى الهداية ، فقال :

وَلَوْ شاءَ ... قلت : إذا وقع فعل المشيئة بعد (لو) فالغالب حذف مفعوله ، كقوله : وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها ، أي : لو شئنا رفعه لرفعناه بها ، وكقوله : وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ ... ، أي : لو شاء هدايتهم ما اقتتلوا ، وغير ذلك.

يقول الحق جل جلاله : ولما بعثت الرسل ، وفضّلت بعضهم على بعض ، اختلفت أممهم من بعدهم فاقتتلوا ، وكل ذلك بإرادتى ومشيئتى ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ هداية أممهم مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ المعجزات الواضحات فى تحقيق رسالتهم وصحة نبوتهم ، وَلكِنِ اخْتَلَفُوا بغيا وحسدا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بتوفيقه لاتباع دين الأنبياء ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ بمخالفتهم ، فكان من الأشقياء ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ جمعهم على الهدى مَا اقْتَتَلُوا ، لكن حكمته اقتضت وجود الاختلاف ليظهر سر اسمه المنتقم والقهار واسمه الكريم والحليم ، وَلكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ.

وفى الآية دليل على أن الحوادث كلها بيد اللّه خيرها وشرها ، وأن أفعال العباد كلها بقدرته تعالى ، لا تأثير لشيء من الكائنات فيها. وهذا يردّ قول المعتزلة القائلين بخلق العبد أفعاله ، فما أبعدهم عن اللّه. نسأل اللّه العصمة بمنّه وكرمه.

الإشارة : اختلاف الناس على الأولياء سنة ماضية وحكمة أزلية ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، فمن رأيته من الأولياء اتفق الناس على تعظيمه فى حياته فهو ناقص أو جاهل باللّه إذ

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٨٤
الداخل على اللّه منكور ، والراجع إلى الناس مبرور ، وهذا هو الغالب ، والنادر لا حكم له ، فلو كان الاتفاق محمودا لكان على الأنبياء أولى ، فلما لم يقع للأنبياء والرسل ، لم يقع للأولياء إذ هم على قدمهم ، وقائمون بالوراثة الكاملة عنهم. واللّه تعالى أعلم.
ثم حضّ على الصدقة فى سبيل اللّه لأنها برهان الإيمان وعنوان الهداية ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٤]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ واجبا أو تطوعا فى وجوه الخير ، وخصوصا فى الجهاد الذي نحن بصدد الحض عليه ، وقدموا لأنفسكم ما تجدونه بعد موتكم مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ الحساب ، واقتضاء الثواب ، يوم ليس فيه بَيْعٌ ولا شراء ، فيكتسب ما يقع به الفداء ، وليس فيه خُلَّةٌ تنفع إلا خلة الأتقياء ، وَلا شَفاعَةٌ ترجى إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا فأنفقوا مما خولناكم فى سبيل اللّه ، وجاهدوا الكافرين أعداء اللّه ، فإن الكافرين هُمُ الظَّالِمُونَ حيث وضعوا عبادتهم فى غير محلها ، ونسبوا الربوبية لغير مستحقيها ، إذ لا يستحقها إلا الحي القيوم ، الذي أشار إليه الحق جل جلاله :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٥]
اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)
قلت : (اللّه) : مبتدا ، وجملة (لا إله إلا هو) : خبره ، والضمير المنفصل بدل من المستتر فى الخبر ، و(الحي) : إما خبر ثان ، أو لمبتدأ مضمر ، أو بدل من (اللّه) ، و(قيوم) فيعول ، مبالغة من القيام ، ومعناه : القائم بنفسه المستغنى عن غيره.

(٢٨٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٨٥
يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الواجب الوجود لا يستحق العبادة غيره ، فمن عبد غيره فقد أتى بظلم عظيم الْحَيُّ أي : الدائم بلا أول ، الباقي بلا زوال الذي لا سبيل عليه للموت والفناء ، الْقَيُّومُ أي :

دائم القيام بتدبير خلقه فى إيصال المنافع ودفع المضار ، وجلب الأرزاق وأنواع الارتقاء ، لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ السنة :

ما يتقدم النوم من الفتور ، والنوم : حالة تعرض للإنسان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة ، فتقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأسا.

وتقديم السنّة عليه ، على ترتيب الوجود ، كقوله تعالى : وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً ، وجمع بينهما لأنه لو اقتصر على نفى السنّة عنه لتوهم أن النوم يغلبه لأنه أشد ، ولو اقتصر على نفى النوم لتوهم أن السنة تلحقه لخفتها. والمراد تنزيهه تعالى عن آفات البشرية ، وتأكيد كونه حيا قيوما ، فإن من أخذه نعاس أو نوم يكون مؤوف «١» الحياة ، قاصرا فى الحفظ والتدبير. ولذلك ترك العطف فيه وفى الجمل التي بعده لأنها كلها مقررة له ، أي : للحى للقيوم.

وقد ورد أنه اسم اللّه الأعظم ، وقال عليه الصلاة والسلام لفاطمة - رضي اللّه عنها : «ما منعك أن تسمعى ما أوصيك به تقولين إذا أصبحت وإذا أمسيت يا حى يا قيّوم ، برحمتك أستغيث أصلح لى شأنى كلّه ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين». رواه النسائي. وأخرج مسلم عن أبى موسى رضي اللّه عنه قال : «قام فينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بخمس كلمات قال : إنّ اللّه عزّ وجلّ لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه. يرفع إليه عمل اللّيل قبل عمل النّهار وعمل النّهار قبل عمل اللّيل ، حجابه النّور - وفى رواية. النّار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه».

لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ هذا تقرير لقيوميته تعالى ، واحتجاج على تفرده فى الألوهية.

والمراد بما فيهما : ما هو أعمّ من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما ، المتمكنة فيهما ، من العقلاء وغيرهم ، فهو أبلغ من (له السموات والأرض وما فيهن) ، يعنى : أن اللّه يملك جميع ذلك من غير شريك ولا منازع ، وعبر ب - (ما) تغليبا للغالب.

---

(١) أف الطعام أوفا وآفة : فسد ، والبلاد : أصابتها آفة من قحط أو مرض أو غيرهما.

مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ هذا بيان لكبرياء شأنه ، وأنه لا يدانيه أحد ليقدر على تغيير ما يريده بشفاعة واستكانة ، فضلا عن أن يعاوقه عنادا أو مناصبة. والاستفهام إنكارى ، أي : لا أحد يشفع عنده لمن أراد تعالى عقوبته ، إلا بإذنه ، وذلك أن المشركين زعموا أن الأصنام تشفع لهم ، فأخبر تعالى أنه لا شفاعة عنده إلا بإذنه ، يريد بذلك شفاعة النبي صلّى اللّه عليه وسلم وبعض الأنبياء

والأولياء والملائكة.

يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ أي : ما قبلهم وما بعدهم ، أو بالعكس ، لأنك تستقبل المستقبل وتستدبر الماضي وقيل : يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ من الدنيا وَما خَلْفَهُمْ من الآخرة ، وقيل : عكسه ، لأنهم يقدمون ويخلّفون الدنيا وراءهم ، وقيل : يعلم ما قدموه بين أيديهم من خير أو شر ، وما خلفهم وما هم فاعلوه ، أو عكسه.

والمراد أنه سبحانه أحاط بالأشياء كلها ، فلا يخفى عليه شيء وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ أي : لا يحيطون بشيء من معلوماته تعالى إلا بما شاء أن يطلعهم عليه ، وعطفه على ما قبله لأن مجموعه يدل على تفرده تعالى بالعلم الذاتي التام ، الدال على وحدانيته تعالى فى ذاته وصفاته.

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ يقال : فلان يسع الشيء سعة إذا احتمله وأطاقه وأمكنه القيام به. ويقال :

وسع الشيء الشيء إذا أحاط به وغمره حتى اضمحل فى جانبه ، وهذا المعنى هو اللائق هنا. وأصل الكرسي فى اللغة : من تركّب الشيء بعضه على بعض ، ومنه الكراسة ، لتركب أوراقها بعضها على بعض ، وفى العرف : اسم لما يقعد عليه ، سمّى به لتركب خشباته. واختلف فيه فقيل : العرش ، وقيل : غيره.

والصحيح أنه مخلوق عظيم أمام العرش ، فوق السموات السبع دون العرش. يقال : إن السموات والأرض فى جنب الكرسي كحلقة فى فلاة. والكرسي فى جانب العرش كحلقة فى فلاة. وعن ابن عباس : (أن السموات فى الكرسي كدراهم سبعة فى ترس) وقيل : كرسيه : علمه.

قال البيضاوي : هو تصوير لعظمته تعالى وتمثيل مجرد ، كقوله وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ولا كرسى فى الحقيقة ولا قاعد «١». وقيل : كرسيه مجاز عن

---

(١) هذا الذي اختاره جم من الخلف ، فرارا من توهم التجسيم ، والحق : أن الكرسي ثابت كما نطقت به الأخبار الصحيحة. ومذهب سادتنا من السلف الصالح هو : جعل ذلك من الأمور التي لا يحيط المرء بها علما ، مع تفويض العلم فيها إلى الله تعالى ، مع اعتقاد التنزيه والتقديس له تعالى شأنه. وهذا هو الأسلم

.

علمه أو ملكه ، مأخوذ من كرسى العلم والملك ، وقيل : جسم بين يدى العرش محيط بالسماوات السبع لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «ما السموات السبع والأرضون السبع فى الكرسي إلا كحلقة فى فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة» ولعله الفلك المشهور بفلك البروج. هـ. قلت : وقد اعترض السيوطي فى حاشيته عليه «١». فاللّه تعالى أعلم.
وَلا يَؤُدُهُ أي : لا يثقله ولا يشقّ عليه حِفْظُهُما أي : حفظ السموات والأرض. وإنما لم يتعرض لذكر ما فيهما لأن حفظهما مستتبع لحفظه ، وَهُوَ الْعَلِيُّ أي : المتعالي عن الأشباه والأنداد ، الْعَظِيمُ أي : عظيم الشأن ، جليل القدر ، الذي يستحقر كلّ شيء دون عظمته.
وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية ، فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد فى الألوهية ، متصف بالحياة الذاتية ، واجب الوجود لذاته ، موجد لغيره إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره ، منزه عن التحيز والحلول ، مبرّأ عن التغير والفتور ، لا يناسب الأشباح ، ولا يعتريه ما يعترى الأرواح ، مالك الملك والملكوت ، مبدع الأصول والفروع ، ذو البطش الشديد ، الذي لا يشفع عنده إلا من أذن له. عالم بالأشياء كلها : جليّها وخفيّها ، كلّيّها وجزئيّها.
واسع الملك والقدرة لكل ما يصح أن يملك ويقدر عليه ، لا يشقّ عليه شاق ، ولا يشغله شأن عن شأن ، متعال عن تناول الأوهام ، عظيم لا تحيط به الأفهام ، ولذلك تفردت عن أخواتها بفضائل رائعة وخواص فائقة ، قال صلّى اللّه عليه وسلم :
«أعظم آية فى القرآن آية الكرسيّ». وقال عليه الصلاة والسلام : «من قرأ آية الكرسيّ دبر كلّ صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنّة إلا الموت - وفى رواية - كان الذي يتولىّ قبض روحه ذو الجلال والإكرام - ولا يواظب عليها إلا صدّيق أو عابد ، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمن على نفسه وجاره وجار جاره ، والأبيات حوله».
وقال عليه الصلاة والسلام : «ما قرئت هذه الآية فى بيت إلا هجرته الشياطين ثلاثين يوما ، ولا يدخله ساحر ولا ساحرة أربعين يوما ، يا علىّ علّمها ولدك وأهلك وجيرانك ، فما نزلت آية أعظم منها». قاله البيضاوي وأبو السعود ، وتكلم السيوطي فى بعض هذه الأحاديث. والفضائل يعمل فيها بالضعيف. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إيمان أهل الخصوصية - (أنفقوا مما رزقناكم) من سعة العلوم ومخازن الفهوم ، من قبل أن يأتى يوم اللقاء ، يوم تسقط فيه المعاملات وتغيب تلك الإشارات ، لا ينفع فيه إلا الدخول من باب الكرم ،

---

(١) في حاشيته على البيضاوي ، والمسماة نواهد الأبكار وشوارد الأفكار.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٨٨
فيلقى اللّه باللّه دون شيء سواه ، والجاحدون لهذا هم الظالمون لأنفسهم ، حيث اعتمدوا على أعمالهم فلقوا اللّه بالصنم الأعظم. والحيّ القيوم الكبير المتعال غنى عن الانتفاع بالأعمال. وباللّه التوفيق.
ومن عرف أنه الحي الذي لا يموت توكل عليه. قال تعالى : وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ. والتعلق به : استمداد حياة الروح بالعلم والمحبة الكاملة. ومن عرف أنه الحي القيوم وثق به ، ونسى ذكر كل شيء بذكره ، ولم يشاهد غيره بمشاهدة قيوميته. والتعلق به استمداد معرفة قيوميته حتى يستريح من نكد التدبير ، والتخلق به بأن تكون قائما على ما كلّفت به من أهل وولد ونفس ومال ، وكلّ من تعلق بك من النساء والرجال.
ولمّا وصف الحيّ تعالى نفسه بأوصاف الكمال من الكبرياء والعظمة والجلال ، وكانت شواهد ذلك ظاهرة فى خلقه حتى تبيّن الحق من الباطل ، بيّن ذلك بقوله :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٦]
لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لا انْفِصامَ لَها وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)
قلت : (الرشد) : مصدر رشد ، بالكسر والضم ، رشدا ورشادا ، و(الغى) : مصدر غوى ، إذا ضلّ فى معتقده ، و(الطاغوت) : فعلوت من الطغيان ، وأصله : طغيوت ، فقلبت لام الكلمة لعينها فصار طيغوت ، ثم قلبت الياء ألفا.
وهو كل ما عبد من دون اللّه راضيا بذلك ، و(العروة) : ما تستمسك به اليد عند خوف الزل كالحبل ونحوه ، ووثوقها : متانتها ، وانفصامها أن تنفك عن موضعها ، وأصل الفصم فى اللغة : أن ينفك الخلخال ونحوه ولا يبين ، فإذا بان فهو القصم - بالقاف - وهو هنا استعارة للدّين الصحيح.
يقول الحق جلّ جلاله فى شأن رجل من الأنصار ، تنصّر ولداه قبل البعثة فلما جاء الإسلام قدما إلى المدينة فدعاهما أبوهما إلى الإسلام فامتنعا ، فلزمهما أبو هما وقال : واللّه لا أدعكما حتى تسلما ، فاختصموا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فأنزل اللّه : لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ ، فهو خبر بمعنى النهى ، أي : لا تكرهوا أحدا على الدخول فى الدين.
وهو خاص بأهل الكتاب.
قال البيضاوي : إذ الإكراه فى الحقيقة هو : إلزام الغير فعلا لا يرى فيه خيرا ، ولكن قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ أي تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة ، ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى

السعادة الأبدية ، والكفر غيّ يوصل إلى الشقاوة السرمدية. والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلبا للفوز بالسعادة والنجاة ، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء. هـ.

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ أي : يبعد عنها ويجحد ربوبيتها وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ أي : يصدق بوحدانيته ، ويقر برسله ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى أي : فقد تمسك بالدين المتين ، لا انقطاع له أبدا ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ بالأقوال ، عَلِيمٌ بالنيات ، فإنّ الدين مشتمل على قول باللسان وعقد بالجنان ، فحسن التعبير بصفة السمع والعلم.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال فى الحكم : «لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق ، إنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك». وقال أحمد بن حضرويه : الطريق واضح ، والحق لائح ، والداعي قد أسمع ، ما التحير بعد هذا إلا من العمى. هـ. فطريق أسير واضحة لمن سبقت له العناية ، باقية إلى يوم القيامة ، وكل ما سوى اللّه طاغوت ، فمن اعرض عن السّوى ، وعلق قلبه بمحبة المولى ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، التي لا انفصام لها على طول المدى. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم بيّن الحق تعالى حال أهل العناية من أهل الشقاوة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٧]

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٥٧)

قلت : الولي : هو المحب الذي يتولى أمور محبوبه ، أو الناصر الذي ينصر محبوبه ، ولا يخذله بأن يكله إلى نفسه. وجملة (يخرجهم) : حال من الضمير المستتر فى الخبر ، أو من الموصول أو منهما ، أو خبر ثان.

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا أي : محبهم ومتولى أمورهم ، يُخْرِجُهُمْ مِنَ ظلمات الكفر والجهل ، ومتابعة الهوى وقبول الوسواس ، والشبه المشكلة فى التوحيد - إلى نور الإيمان واليقين ، وصحة التوحيد ، ومتابعة الداعي إلى اللّه ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ أي : أحباؤهم الطَّاغُوتُ أي : الشياطين ، أو المضلّات من الهوى والشيطان وغيرهما ، يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ الذي منحوه بالفطرة الأصلية ، أو يصدونهم من الدخول فى الإيمان إلى ظلمات الكفر والجهل ، والتقليد الرديء واتباع الهوى ، أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ بسبب نيّاتهم البقاء على الكفر إلى الممات ، ولم يذكر

فى جانب المؤمنين دخول الجنة لتكون عبادتهم عبودية ، لا خوفا ولا طمعا. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : (اللّه ولى الذين آمنوا) حيث تولاهم بسابق العناية ، وكلأهم بعين الرعاية ، يخرجهم أولا من طلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ثم من ظلمات الحس ورؤية الأكوان إلى نور المعاني بحصول الشهود والعيان ، فافن

(٢٨٩/١)

عن الإحساس تر عبرا. «الكون كله ظلمة ، وإنما أناره ظهور الحق فيه». أو تقول : الكون كله ظلمة لأهل الحجاب ، وأما عند أهل المعرفة فالكون عندهم كله نور ، وإنما حجبه ظهور الحكمة فيه ، «فمن رأى الكون ولم يشهد النور فيه ، أو قبله ، أو بعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار». والذين كفروا - وهم الذين سبق لهم الشقاء ، وحكم عليهم بالبعد القدر والقضاء - أولياؤهم الطاغوت ، وهم القواطع : من الهوى والشيطان والدنيا والناس ، (يخرجونهم من النور الى الظلمات) أي : يمنعونهم من شهود تلك الأنوار السابقة ، إلى الوقوف مع تلك الظلمات المتقدمة ، فهم متعاكسون مع من سبقت لهم العناية ، فما خرج منه أهل العناية وقع فيه أهل الغواية. نسأل اللّه الحفظ والعافية فى الدنيا والآخرة.
ثم بيّن الحق تعالى حال من سبق له الشقاء ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٨]
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)
قلت : (أن آتاه) : على حذف لام العلة ، و(إذ قال) : ظرف أ- (حاجّ) ، أو بدل من (آتاه اللّه).
يقول الحق جل جلاله متعجبا من جهالة النمرود ، والمراد تعجيب السامع : أَلَمْ تَرَ يا محمد ، إِلَى جهالة الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ أي : خاصمه فِي رَبِّهِ لأجل أَنْ أعطاه اللَّهُ الْمُلْكَ ، أي : حمله على ذلك بطر الملك. وذلك أنه لما كسّر إبراهيم الأصنام ، سجنه أياما ، وأخرجه من السجن ، وقال له : من ربك الذي تعبد؟ قالَ له إِبْراهِيمَ عليه السّلام : رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، أي : يخلق الأرواح فى الأجسام ، ويخرجها عند انقضاء آجالها ، (قال) نمرود : أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، فدعا برجلين فقتل أحدهما ، وعفا عن الآخر ، فلما رأى ابراهيم عليه السّلام غلطه وتشغيبه عدل له إلى حجة أخرى ، لا مقدور للبشر على الإتيان بمثلها ، فقال له : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها أنت مِنَ الْمَغْرِبِ لأنك تدّعى

الربوبية ، ومن شأن الربوبية أن تقدر على كل شيء ، ولا يعجزها شيء ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ أي : غلب وصار مبهوتا ، وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ إلى قبول الهداية ، أو إلى طريق النجاة ، أو إلى محجة الاحتجاج.

(٢٩٠/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٩١

الإشارة : قال بعض الحكماء : للنفس سر ، ظهر على فرعون والنمرود ، حتى صرحا بدعوى الربوبية.

قلت :

وهذا السر هو ثابت للروح فى أصل نشأتها لأنها جاءت من عالم العز والكبرياء. انظر قوله تعالى : وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ، وقال أيضا : قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي أي : سر من أسراره ، فلما ركبت فى هذا القالب الذي هو قالب العبودية - طلبت الرجوع إلى أصلها. فجعل لها الحق جل جلاله بابا تدخل منه فترجع إلى أصلها وهو الذل والخضوع والانكسار والافتقار ، فمن دخل من هذا الباب ، واتصل بمن يعرّفه ربه ، رجعت روحه إلى ذلك الأصل ، وأدركت ذلك السر ، فمنها من تتسع لذلك السر وتطيقه ، ومنها من تضيق عن حمله وتبوح به ، فتقتلها الشريعة ، كالحلاج وأمثاله ، ومن طلب الرجوع إلى ذلك الأصل من غير بابه ، ورام إدراكه بالعز والتكبر ، طرد وأبعد ، وهو الذي صدر من النمرود وفرعون وغيرهما ممن ادعى الربوبية جهلا. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى من أدركته العناية ، وفى قصته برهان على إحياء الموتى الذي احتج به إبراهيم - عليه السّلام - فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٩]

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلى حِمارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

قلت : (أو) : عاطفة ، و(كالذى) : معطوف على الموصول المجرور بإلى ، أي : ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم فى ربه ، وإلى مثل الذي مر على قرية. وإنما أدخل حرف التشبيه لأن المنكر للإحياء كثير ، والجاهل بكيفيته أكثر ، بخلاف مدعى الربوبية فإنه قليل. وقيل : الكاف مزيدة ، والتقدير : ألم تر إلى الذي حاج وإلى الذي مرّ ، (أنّى) :

ظرف ليحيى ، بمعنى : متى ، أو حال بمعنى كيف ، و(يتسنه) بمعنى يتغير ، وأصله : يتسنن ، فأبدلت

النون الثالثة حرف علة. قال فى الكافية :

وثالث الأمثال أبدلنه يا نحو (تظنّى خالد تظنّيا)

(٢٩١/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٩٢

فصار تسنّى ثم حذفت للجازم ، وأتى بهاء السّكت ، وقفا ووصلا ، كالعوض من المحذوف ، وقيل : من السنّه ، وهو التغير ، فالهاء أصلية ، و(لنجعلك) : معطوف على محذوف ، أي : لتعتبر ولنجعلك آية للناس.

يقول الحق جل جلاله : ألم تر يا محمد أيضا إلى مثل الذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ ، وهو عزيز ، حبر بنى إسرائيل. - وقيل : غيره - مرّ على بيت المقدس حين خربها بختنصر وَهِيَ خاوِيَةٌ ساقطة حيطانها عَلى عُرُوشِها أي : سقفها ، وذلك بعد مائة سنة حتى سقطت العروش ، ثم سقطت الحيطان عليها ، فلما رآها خالية ، وعظام الموتى فيها بالية ، قالَ فى نفسه : أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها أي : متى يقع هذا. اعترافا بالقصور عن معرفة طريق الإحياء ، واستعظاما لقدرة المحيي ، إن كان القائل عزيرا ، أو استبعادا إن كان كافرا ، فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ أي : ألبثه ميتا مائة عام ، ثُمَّ بَعَثَهُ بالإحياء ، فقال له على لسان الملك ، أو بلا واسطة : كَمْ لَبِثْتَ ميتا؟ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، وذلك أنه مات ضحى وبعث بعد مائة عام قبل غروب الشمس ، فقال قبل النظر إلى الشمس (يوما) ، ثم التفت فرأى بقية منها ، فقال : أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ على الإضراب ، قال له الحق جل جلاله : بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ.

وذلك أن عزيرا ذهب ليخترف «١» لأهله فجعل على حماره سلة عنب وجرّة عصير. فلما مرّ بتلك القرية ربط حماره ، وجعل يتعجب من خرابها وخلائها بعد عمارتها ، فقال فى نفسه ما قال ، فلطف اللّه به ، وأراه كيفية الأحياء عيانا ، فأماته مائة عام ، حتى بليت عظام حماره وبقي العصير والعنب كأنه حين جنى وعصر فقال له جل جلاله : فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وهو العنب ، وَشَرابِكَ وهو العصير ، لَمْ يَتَسَنَّهْ ، أي : لم يتغير بمرور الزمان وطول المدة ، وَانْظُرْ إِلى حِمارِكَ كيف تفرقت أوصاله ، وبليت عظامه ، فعلنا ذلك بك لتشاهد قدرتنا ، وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ بعدك ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ أي : عظام حمارك ، كَيْفَ نُنْشِزُها ، أي : نحييها ، من نشر اللّه الموتى : أحياها. أو : كَيْفَ نُنْشِزُها بالزاي - أي : نرفع بعضها ، ونركبه عليه ، ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً.

فنظر إلى العظام ، فقام كلّ عظم إلى موضعه ، ثم كسى لحما وجلدا ، وجعل ينهق ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ما كان استغربه وأشكل عليه قالَ أَعْلَمُ علم اليقين أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، أو فلما تبين له الحق ، وهو قدرته تعالى على كل شىء ، قال لنفسه : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

(١) خرف الرجل يخرف : أخذ من طرف الفواكه ، والمعنى : ذهب ليجتنى الثمر والفواكه.

(٢٩٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٩٣

روى أنه أتى قومه على حماره ، وقال أنا عزير ، فكذبوه ، فقرأ التوراة من حفظه ، ولم يحفظها أحد قبله ، فعرفوه بذلك ، وقالوا : هو ابن اللّه - تعالى عن قولهم - وقيل : لما رجع إلى منزله - وكان شابا - وجد أولاده شيوخا ، فإذا حدّثهم بحديث قالوا : حديث مائة سنة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى هذه الآية والتي بعدها ، الإشارة إلى الأمر بتربية اليقين والترقي فيه من علم اليقين إلى عين اليقين ، فإن الروح ما دامت محجوبة بالوقوف مع الأسباب والعوائد ، وبرؤية الحس والوقوف مع الوسائط ، لم تخل من طوارق الشكوك والخواطر ، فإذا انقطعت إلى ربها ، وخرقت عوائد نفسها ، كشف لها الحق تعالى عن أستار غيبه ، وأطلعها على مكنونات سره ، وكشف لها عن أسرار الملكوت ، وأراها سنا الجبروت ، فنظرت إلى قدرة الحي الذي لا يموت ، وتمتعت بشهود الذات وأنوار الصفات ، فى هذه الحياة وبعد الممات ، فحينئذ ينقطع عنها الشكوك والأوهام ، وتتطهر من طوارق الخواطر ، وتزول عنها الأمراض والأسقام.

قال فى الحكم : «كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد». فانظر إلى عزيز ... ما أراه الحق قدرته عيانا حتى خرق له عوائده فأماته ثم أحياه ، فكذلك أنت أيها المريد لا تطمع أن تخرق لك العوائد ، تشاهد قدرة الحق أو ذاته عيانا ، حتى تموت عن حظوظك وهواك ، ثم تحيا روحك وسرك ، فحينئذ تشاهد أسرار ربك ، ويكشف الأستار عن عين قلبك. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكر الحق تعالى قصة خليله عليه السّلام فى طلبه رؤية عين القدرة فى إحياء الموتى ، ليترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٠]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

قلت : رأى : البصرية ، إنما تتعدى إلى مفعول واحد ، فإذا أدخلت عليها الهمزة تعدت إلى مفعولين. وعلقها هنا عن الثاني الاستفهام ، (و صرهن) أي : أملهنّ واضممهن إليك. وفيه لغتان : صار يصير

ويصور ، ولذلك قرئ بكسر الصاد وضمها ، و(سعيا) : حال ، أي : ساعيات.
يقول الحق جل جلاله : واذكر يا محمد ، أو أيها السامع ، حين قالَ إِبْراهِيمُ عليه السّلام : يا رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى أي : أبصرنى كيفية إحياء الموتى ، حتى أرى ذلك عيانا ، أراد عليه السّلام أن ينتقل من علم

(٢٩٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٩٤
اليقين إلى عين اليقين ، وقيل : لما قال للنمرود : رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قال له : هل عاينت ذلك؟ فلم يقدر أن يقول : نعم. وانتقل إلى حجة أخرى ، ثم سأل ربه أن يريه ذلك ليطمئن قلبه على الجواب ، إن سئل مرة أخرى ، فقال له الحق جل جلاله : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ بأنى قادر على الإحياء بإعادة التركيب والحياة؟ وإنما قال له ذلك ، مع علمه بتحقيق إيمانه ليجيبه بما أجاب فيعلم السامعون غرضه ، قالَ إبراهيم عليه السّلام : بَلى آمنت أنك على كل شيء قدير ، وَلكِنْ سألتك لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي إذ ليس الخبر كالعيان ، وليس علم اليقين كعين اليقين ، أراد أن يضم الشهود والعيان إلى الوحى والبرهان.
قال له الحق جل جلاله : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ طاووسا وديكا وغرابا وحمامة ، ومنهم من ذكر النسر بدل الحمام ، فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ أي : اضممهن إليك لتتأملها وتعرف أشكالها ، لئلا يلتبس عليك بعد الإحياء أشكالها ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً أي : ثم جزّئهن ، وفرق أجزاءهن على الجبال التي تحضرك. قيل : كانت أربعة وقيل : سبعة ، ثُمَّ ادْعُهُنَّ وقل لهن : تعالين بإذن اللّه ، يَأْتِينَكَ سَعْياً أي : ساعيات مسرعات ، روى أنه أمر أن يذبحها وينتف ريشها ، ويقطعها ويخلط بعضها ببعض ، ويوزعها على الجبال ، ويمسك رءوسها عنده ، ثم يناديها ، ففعل ذلك ، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر ويلتئم بصاحبه حتى صارت جثثا ، ثم أقبل إليه فأعطى كل طير رأسه فطار فى الهواء. فسبحان من لا يعجزه شيء ، ولا يغيب عن علمه شيء ، ثم نبه إلى التفكر فى عجائب قدرته وحكمته فقال : وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يعجزه شيء ، حَكِيمٌ ذو حكمة بالغة فيما يفعل ويذر.
الإشارة : من أراد أن تحيا روحه الحياة الأبدية ، وينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين ، فلا بد أن تموت نفسه أربع موتات :
الأولى : تموت عن حب الشهوات والزخارف الدنيوية ، التي هى صفة الطاووس.
الثانية : عن الصولة والقوى النفسانية ، التي هى صفة الديك.
الثالثة : عن خسة النفس والدناءة وبعد الأمل ، التي هى صفة الغراب.
الرابعة : عن الترفع والمسارعة إلى الهوى المتصف بها الحمام.

فإذا ذبح نفسه عن هذه الخصال حييت روحه ، وتهذبت نفسه ، فصارت طوع يده ، كلما دعاها إلى طاعة أتت إليها مسرعة ساعية.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ أبو الحسن الشاذلي بقوله فى حزبه الكبير : (و اجعل لنا ظهيرا من عقولنا ومهيمنا من أرواحنا ، ومسخرا من أنفسنا ، كى نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا ، إنك كنت بنا بصيرا).

(٢٩٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٩٥

ولما كانت حياة الروح متوقفة على أمرين : بذل النفوس ، ودفع الفلوس وقدم الإشارة إلى الأول بقوله : وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أشار إلى الثاني بقوله :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٦١ الى ٢٦٢]

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)

قلت : (مثل الذين) : مبتدأ ، و(كمثل) : خبر ، ولا بد من حذف مضاف ، إما من المبتدأ أو الخبر ، أي : مثل نفقة الذين ينفقون كمثل حبة ، أو مثل الذين ينفقون كمثل باذر حبة ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله فى التحريض على النفقة فى سبيل اللّه : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي : يتصدقون بها فى سبيل اللّه ، كالجهاد ونحوه ، كَمَثَلِ زارع حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ له سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، فالمجموع سبعمائة. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة». وإسناد الإنبات إلى الحبة مجاز ، والمنبت هو اللّه ، وهذا مثال لا يقتضى الوقوع ، وقد يقع فى الذرة والدخن «١» فى الأرض الطيبة ، بحيث تخرج الحبة ساقا يتشعب إلى سبع شعب ، فى كل شعبة سنبلة ، وَاللَّهُ يُضاعِفُ تلك المضاعفة لِمَنْ يَشاءُ بفضله ، على حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه ، وبحسبه تتفاوت الأعمال فى مقادير الثواب ، وَاللَّهُ واسِعٌ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الثواب ، عَلِيمٌ بنية المنفق وقدر إنفاقه.

ثم ذكر شرطين آخرين فى قبول النفقة ، فقال : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً. المن : أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه بحيث يقول : أنا فعلت معه كذا ، وكذا إظهارا لميزته عليه. والأذى : أن يتطاول عليه بذلك. ويقول : لو لا أنا لم يكن منك شىء ، مثلا. فمن فعل هذا فقد ذهبت صدقته هباءا منثورا ، ومن سلم من ذلك ، وأنفق ماله ابتغاء وجه الله ف - لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.

وقال زيد بن أسلم رضي اللّه عنه : إذا أعطيت أحدا شيئا وظننت أن سلامك يثقل عليه فكف سلامك عنه. هـ.

---

(١) الدخن : نبات عشبي من النجيليات ، حبه صغير أملس ، كحب السمسم ، ينبت بريا ومزروعا.

قيل : إن الآية نزلت فى عثمان وعبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنهما أما عثمان فإنه جهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها. وقال عبد الرحمن بن سمرة : جاء عثمان بألف دينار فى جيش العسرة ، فصبها فى حجر النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فرأيت النبيّ صلّى اللّه عليه وسلم يدخل يده فيها ، ويقلّبها ويقول : «ما ضرّ ابن عفّان ما عمل بعد اليوم».

زاد فى رواية أبى سعيد : فرأيت النبي صلّى اللّه عليه وسلم رافعا يدعو لعثمان ، ويقول : «يا رب عثمان بن عفان ، رضيت عنه فارض عنه». وأما عبد الرحمن : فإنه أتى النّبى صلّى اللّه عليه وسلم بأربعة آلاف درهم ، صدقة ، وأمسك أربعة آلاف لعياله ، فقال له النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت».

وإنما لم يدخل الفاء فى قوله : لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، مع أن الموصول قد تضمن معنى الشرط ، إيهاما بأنهم أهل لذلك ، وإن لم يفعلوا ، فكيف بهم إذا فعلوا. قاله البيضاوي.

الإشارة : التقرب إلى الله تعالى يكون بالعمل البدني وبالعملي المالى ، وبالعمل القلبي ، أما العمل البدني ، ويدخل فيه العمل اللساني ، فقد ورد فيه التضعيف بعشر وبعشرين وبثلاثين وبخمسين وبمائة ، وبأكثر من ذلك أو أقل ، وكذلك العمل المالى : قد ورد تضعيفه إلى سبع مائة ، ويتفاوت ذلك بحسب النيات والمقاصد ، وأما العمل القلبي : فليس له أجر محصور ، قال تعالى : إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ ، فالصبر ، والخوف ، والرجاء ، والورع ، والزهد ، والتوكل ، والمحبة ، والرضا ، والتسليم ، والمعرفة ، وحسن الخلق ، والفكرة ، وسائر الأخلاق الحميدة ، إنما جزاؤها : الرضا ، والإقبال والتقريب ، وحسن الوصال. قال تعالى : وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ أي :
أكبر من الجزاء الحسى الذي هو القصور والحور.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة». فإنما هو كناية عن الكثرة والمبالغة ، كقوله تعالى : إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ. ومثله قول الشاعر «١» :
كلّ وقت من حبيبى قدره كألف حجّه

أي : سنة. والله تعالى أعلم.
ثم بيّن الحق تعالى أن حسن الخلق ولين الجانب أفضل من الصدقة المشوبة ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٣]
قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)
قلت : (قول) : مبتدأ ، و(خير) : خبر ، والمسوّغ الصفة.

---

(١) وهو الششترى.

يقول الحق جل جلاله : قَوْلٌ جميل يقوله الإنسان للسائل فى حال رده ، حيث لم يجد ما يعطيه ، خَيْرٌ وأفضل عند اللّه من الصدقة التي يتبعها المن والأذى ، ومثال القول المعروف : اللّه يرزقنا وإياك رزقا حسنا. واللّه يغنينا وإياك من فضله العظيم ، وشبه ذلك من غير تعبيس ولا كراهية. وَمَغْفِرَةٌ للسائل والعفو عن جفوته وإلحاحه ، خَيْرٌ أيضا مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها منّ ، أو أَذىً للسائل ، علم الحق جل جلاله أن الفقير إذا ردّ بغير نوال شقّ عليه ، فربما أطلق لسانه وأظهر الشكوى فأمر المسئول بالعفو والتواضع. ولو شاء الحق تعالى لأغنى الجميع ، لكنه أعطى الأغنياء ليظهر شكرهم ، وابتلى الفقراء لينظر كيف صبرهم ، وَاللَّهُ تعالى غَنِيٌّ عن إنفاق يصحبه من أو أذى ، حَلِيمٌ عن معاجلة من يمنّ أو يؤذى بالعقوبة. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : يفهم من الآية أن حسن الخلق ، ولين الجانب ، وخفض الجناح ، وكف الأذى ، وحمل الجفاء ، وشهود الصفاء ، من أفضل الأعمال وأزكى الأحوال وأحسن الخلال ، وفى الحديث : «إنّ حسن الخلق يعدل الصيام والقيام».
وفى قوله : وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ : تربية للسائل والمسئول ، فتربية السائل : أن يستغنى بالغنيّ الكبير عن سؤال العبد الفقير ، ويكتفى بعلم الحال عن المقال ، وتربية المسئول : أن يحلم عن جفوة السائل فيتلطف فى الخطاب ، ويحسن الرد والجواب. قال فى شرح الأسماء : والتخلق بهذا الاسم - يعنى الحليم - بالصفح عن الجنايات ، والسمح فيما يقابلونه به من الإساءات ، بل يجازيهم بالإحسان ، تحقيقا للحلم والغفران. هـ.
ثم حذر الحق تعالى من المن والأذى فى الصدقة ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (٢٦٤)

قلت : (كالذى) : الكاف فى محل نصب على المصدر ، أي : إبطالا كإبطال الذي ينفق ماله رئاء الناس. أو حال ، أي : مشبّهين بالذي ينفق رئاء. و(رئاء) مفعول له ، والصفوان : الحجر الأملس ، والصلد : البارز الذي لا تراب عليه ، وجمع الضمير فى قوله : (لا يقدرون) باعتبار معنى (الذي) لأن المراد به الجنس.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا أجر صدقتكم بِالْمَنِّ بها على المتصدّق عليه ، وَالْأَذى الذي يصدر منكم له ، بأن تذكروا ذلك للناس ، فتكون صدقتكم باطلة ، كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فإن أجره يوم القيامة يكون هباء منثورا ، فَمَثَلُهُ فى انتفاعه بصدقته ، وتستره بها فى دار الدنيا ، وافتضاحه يوم القيامة ، كحجر أملس عَلَيْهِ تُرابٌ يستره ، فيظن الرائي أنه أرض طيبة تصلح للزراعة ، فَأَصابَهُ وابِلٌ أي : مطر غرير فَتَرَكَهُ صَلْداً حجرا يابسا خاليا من التراب ، كذلك المراءون بأعمالهم ، ينتفعون بها فى الدنيا بثناء الناس عليهم وستر حالهم ، فإذا قدموا يوم القيامة وجدوها باطلة ، لا يَقْدِرُونَ عَلى الانتفاع ب شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ إلى مراشدهم ومصالح دينهم. وفيه تعريض بأن الرياء والمن والأذى من صفة الكافر ، ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها.

وباللّه التوفيق.

الإشارة : تصفية الأعمال على قدر تصفية القلوب ، وتصفية القلوب على قدر مراقبة علام الغيوب ، والمراقبة على قدر المعرفة. والمعرفة على قدر المشاهدة. والمشاهدة تحصل على قدر المجاهدة ، وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا. وفى الحكم : «حسن الأعمال من نتائج حسن الأحوال. وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال» والحاصل أن من لم يتحقق بمقام الفناء لا تخلو أعماله من شوب الخلل ، ومن تحقق بالزوال لم ير لنفسه نسبة فى عطاء ولا منع ، ولا حركة ولا سكون ، ولم ير لغيره وجودا حتى يرجو منه نفعا ولا خيرا. وفى بعض الإشارات : يا من يرائى أمر من من ترائى بيد من تعصيه. هـ. وفى تمثيله بالحجر إشارة إلى قساوة قلبه ويبوسة طبعه ، فلا يرجى منه خير قط. والعياذ باللّه.

ثم ذكر الحق تعالى ضد هؤلاء ، وهم المخلصون ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٥]

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)

قلت : الربوة - مثلثة الراء - : المكان المرتفع ، والوابل : المطر الغزير ، والطل : المطر الخفيف ، وفى ذلك يقول الراجز :

والطلّ ما خفّ من الأمطار والوابل الغزير ذو انهمار

و(ابتغاء مرضات اللّه) و(تثبيتا) : حالان من الواو فى : (ينفقون) ، أو مفعولان له. والتثبيت بمعنى التثبت ، أي :

التحقق ، كقوله تعالى : وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا أي : تبتلا.

يقول الحق جل جلاله : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ فى سبيل اللّه ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وتحققا مِنْ أَنْفُسِهِمْ بثواب اللّه ، أو تحقيقا من أنفسهم بالوصول إلى رضوان اللّه إن بذلوا أموالهم فى طلب رضى اللّه ، مثل نفقتهم فى النمو والارتفاع كَمَثَلِ جَنَّةٍ أي : بستان بِرَبْوَةٍ بمكان مرتفع ، فإن شجره يكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا ، أَصابَها وابِلٌ أي : مطر غزير فَآتَتْ أُكُلَها أي : ثمارها ضِعْفَيْنِ أي : مثلى ما كانت تثمر فى عادتها ، أي : حملت فى سنة ما يحمل غيرها فى سنتين ، بسبب هذا المطر الذي نزل بها ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ أي : فيصيبها طل ، أي : مطر قليل يكفيها لطيب تربتها وارتفاع مكانها ، فأقلّ شيء يكفيها.

والمراد : أن نفقات هؤلاء ، لإخلاصهم وكمال يقينهم ، كثيرة زاكية عند اللّه ، وإن كانت قليلة فى الحس فهى كثيرة فى المعنى. وفى الحديث : «من تصدّق ولو بلقمة وقعت فى كفّ الرحمن فيربّيها كما يربى أحدكم فلوّه أو فصيله «١» ، حتى تكون مثل الجبل». وفى قوله : وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ : تحذير من الرياء ، وترغيب فى الإخلاص. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : تنمية الأعمال على قدر تصفية الأحوال ، وتصفية الأحوال على قدر التحقق بمقامات الإنزال ، أي :

على قدر التحقق بالإنزال فى مقامات اليقين ، فكل من تحقق بالنزول فى مقامات اليقين ، ورسخت قدمه فيها ، كانت أعماله كلها عظيمة ، مضاعفة أضعافا كثيرة ، فتسبيحة واحدة من العارف ، أو تهليلة

واحدة ، تعدل الوجود بأسره ، ولا يزنها ميزان ، وكذلك سائر أعمال العارف : كلها عظيمة مضاعفة لأنها باللّه ومن اللّه وإلى اللّه ، وما كان باللّه ومن اللّه لا يطرقه نقص ولا يشوبه خلل ، ولأجل هذا صارت أوقاتهم كلها ليلة القدر ، وأماكنهم كلها عرفات ، وأنفاسهم كلها زكيات ، وصحبتهم كلها نفحات ، ومخالطتهم كلها بركات. نفعنا اللّه بذكرهم وخرطنا فى سلكهم. آمين.

ثم حذّر الحق تعالى من طوارق الخلل بعد تمام العمل ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٦]

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَأَصابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

---

(١) الفلو : هو المهر الصغير ، والفصيل : ولد الناقة بعد أن يفصل عن أمه.

قلت : الإعصار : عمود من ريح فيه عجاجة ، يدور ويرتفع.

يقول الحق جل جلاله : أيتمنى أحدكم أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ أي : بستان مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ ، هما الغالبان فيه لكثرة منافعهما ، تَجْرِي مِنْ تحت تلك الأشجار الْأَنْهارُ إذ من كمال البستان أن يشتمل على الماء البارد والظل الممدود ، ولَهُ فِيها أي : فى تلك الجنة مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ زائدة على النخيل والأعناب ، ثم أَصابَهُ الْكِبَرُ فضعف عن القيام بتلك الجنة ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ لا يستطيعون القيام بأنفسهم لصغرهم ، فأصاب تلك الجنة إِعْصارٌ أي : ريح شديد فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ تلك الجنة ، فلا تسأل عن حسرة صاحب هذا البستان ، لخوفه من ضياع نفسه وعياله. وهذا مثال لمن يكثر من أعمال البر ، كالصلاة والصيام والصدقة والحج والجهاد وغير ذلك ، ثم يعجب به ، ويفتخر ويمنّ بصدقته أو يؤذى ، فتحبط تلك الأعمال وتذهب ، فيتحسر عليها يوم القيامة ، وهو أحوج ما يكون إليها. أو يعمل بالطاعة فى أيام عمره ، فإذا قرب الموت عمل بالمعاصي حتى ختم له بها فحبطت تلك الأعمال ، والعياذ باللّه كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فيها فتعتبرون ، وتخلصون فى أعمالكم ، وتخافون من سوء عاقبتكم. أعاذنا اللّه من ذلك.

الإشارة : فى الآية تخويف للمريد أن يرجع إلى عوائده ، ويلتفت إلى عوالم حسه ، فيشتغل بالدنيا بعد أن استشرف على جنة المعارف ، تجرى على قلبه أنهار العلوم ، فينقض العهد مع شيخه ، أو يسيىء

الأدب معه ، ولم يتب حتى تيبس أشجار معارفه ، وتلعب به ريح الهوى ، فيحترق قلبه بنار الشهوات.
قال البيضاوي : وأشبههم به من جال سره في عالم الملكوت ، وترقى بفكره إلى جناب الجبروت ، ثم نكص على عقبيه إلى عالم الزور ، والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباء منثورا. هـ.
ثم رغّب الحق تعالى في الصدقة من الكسب الطيب ، فرضا ونفلا ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٧]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)
قلت : (تيمموا) : أصله : تتيمموا ، أي تقصدوا ، وجملة (تنفقون) : حال مقدرة - من فاعل (تيمموا) ، و(منه) :
يصح أن يتعلق ب - (تنفقون) أو ب - (الخبيث) ، أي : ولا تقصدوا الخبيث حال كونكم تنفقونه ، أو لا تقصدوا الخبيث تنفقون منه ، و(لستم بآخذيه) : حال أيضا من فاعل (تنفقون).

(٣٠٠/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٠١
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ من الأموال في التجارة وغيرها ، وفي الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «يا معشر التجار ، أنتم فجار إلا من اتقى وبرّ وصدق وقال بالمال «١» هكذا وهكذا».
وقوله مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ أي : من حلاله ، أو من خياره ، أما في الزكاة فعلى الوجوب ، إذ لا يصح دفع الرديء فيها ، وأما في التطوع فعلى سبيل الكمال ، وأنفقوا أيضا من طيبات مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ من أنواع الحبوب والثمار والفواكه ، وفي الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه إنسان ولا دابّة ولا طائر ، إلّا كانت له صدقة إلى يوم القيامة».
ولا تقصدوا الْخَبِيثَ أي : الرديء من أموالكم ، فتنفقون منه وأنتم لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ في ديونكم إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا بصركم فيه ، وتقبضونه حياء أو كرها أو مسامحة.
نزلت في قوم كانوا يتصدقون بخبيث التمر وشراره ، فنهوا عنه ، وأدبهم بقوله : وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عن إنفاقكم ، وإنما أمركم به منفعة لكم ، حَمِيدٌ بقبوله وإثابته ، فهو فعيل بمعنى فاعل ، مبالغة ، أي : يحمد فعلكم ويشكره لكم ، إن أحسنتم فيه ، وفي الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إن اللّه قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم ، وإن اللّه طيّب لا يقبل إلا طيبا ، لا يكسب عبد مالا من حرام فيتصدّق منه فيقبل منه ، ولا ينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان

زاده إلى النار ، وإن اللّه لا يمحو السيّء بالسيىء ولكن يمحو السيء بالحسن ، وإن الخبيث لا يمحوه الخبيث».

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص ، أنفقوا العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، من طيبات ما كسبتم من تصفية أسراركم وتزكية أرواحكم ، وأنفقوا أيضا علوم الشريعة وأنوار الطريقة ، مما أخرجنا لكم من أرض نفوسكم التي تزكت بالأعمال الصافية والأحوال المرضية.

ولا تيمموا العمل الخبيث أو الحال الخبيث ، تريدون أن تنفقوا منه شيئا من تلك العلوم ، فإن ذلك لا يزيد النفس إلا جهلا وبعدا ، فكما أن الحبة لا تنبت إلا فى الأرض الطيبة ، كذلك النفس لا تدفن إلا فى الحالة المرضية ، فلا تؤخذ العلوم اللدنية من النفس حتى تدفن فى أرض الخمول ، وأرض الخمول هى الأحوال المرضية ، الموافقة للقواعد الشرعية ، وإليه الإشارة بقوله : وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ أي : لستم بآخذى العلم اللدني من الحال الخبيث ، إلا أن تغيبوا فيه عن حسّكم ، ومن غلبه الحال لم يبق عليه مقال. وعليها تتخرج قصة لص الحمّام «٢» ، فلا يقتدى به لغلبة الحال عليه ، واعلموا أن اللّه غنى حميد ، لا يتقرب إليه إلا بما هو حميد. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أي : صرف المال فى وجوه الخير ، قال ابن الأثير : العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال ، وتطلقه على غير الكلام واللسان. فتقول : قال بيده ، أي : أخذه. وقال برجله ، أي : مشى. وكل ذلك على المجاز.

(٢) وهو رجل عرف بالزهد وأقبل الناس عليه ، فدخل حماما ولبس ثياب غيره ، وخرج ، فوقف فى الطريق حتى عرفه الناس ، فأخذوه وضربوه ، واستردوا الثياب وهجروه. قلت : ما فعل هذا الرجل مبالغة وشطط لا يقره الشرع. وكما قال المفسر : لا يقتدى به لغلبة الحال عليه. والقصة ذكرها الغزالي فى الإحياء ٣/ ٣٠٥ ، وابن عباد فى شرح الحكم ١/ ٨٠.

ثم حذّر من الشّحّ ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٨]

الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)

قلت : يقال : وعدته خيرا ووعدته شرا ، هذا إن ذكر الخير أو الشر ، وأما إذا لم يذكر فيقال فى الخير : وعدته ، وفى الشر : أو عدته ، قال الشاعر :

وإنّي وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادى ومنجز موعدى «١»

و(الفحشاء) هنا : البخل والشح.

يقول الحق جل جلاله : الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ أي : يخوفكم الْفَقْرَ بسبب الإنفاق ، ويقول فى وسوسته : إن أعطيت مالك بقيت فقيرا تتكفف الناس ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ أي : ويأمركم بالبخل والشح ، والعرب تسمى البخيل فاحشا ، وفى الحديث : «البخيل بعيد من اللّه ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة قريب من النار. والسخي قريب من اللّه. قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار. ولجاهل سخيّ أحبّ إلى اللّه من عابد بخيل».

وفى حديث آخر : «إنّ اللّه يأخذ بيد السخيّ كلما عثر». وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ فى الإنفاق مَغْفِرَةً مِنْهُ لذنوبكم ، وسترا لعيوبكم ، وَفَضْلًا أي : خلفا أفضل مما أنفقتم فى الدنيا والآخرة ، وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَاللَّهُ واسِعٌ الفضل والعطاء ، عَلِيمٌ بما أنفقتم ، ولما ذا أنفقتم ، وفيما أخلصتم ، لا يخفى عليه شىء من أموركم.

الإشارة : إذا توجه المريد إلى اللّه تعالى ، وأراد سلوك طريق التجريد والزهد والانقطاع إلى اللّه تعالى ، تعرض له الشيطان ، اختبارا منه تعالى وابتلاء ، إذ الحضرة محروسة بالقواطع ليظهر الصادق فى الطلب من الكاذب ، فيخوفه من الفقر ، ويأمره بالوقوف مع الأسباب والعوائد ، وهى أفحش المعاصي عند الخواص ، إذ الهمة العالية تأنف عن الاشتغال بغير الحضرة الإلهية. واللّه يعدكم - أيها المتوجهون إليه - مغفرة لذنوبكم ، وسترا لعيوبكم ، فيغطى وصفكم بوصفه ، ونعتكم بنعته ، فيوصلكم بما منه إليكم من الفضل والجود ، لا بما منكم إليه من المجاهدة والمكابدة ، وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً ، (و اللّه واسع) الجود والإحسان ، (عليم) بمن يستحق الفضل والامتنان.

---

(١) البيت لعامر بن طفيل.

ومن نتائج الزهد والانقطاع : ورود الحكمة على لسان العبد وقلبه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٩]

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (٢٦٩)

قال البيضاوي : الحكمة : تحقيق العلم وإتقان العمل. هـ. وقيل : هى سرعة الجواب وإصابة الصواب ، وقيل :

كل فضل جزل من قول أو فعل.

يقول الحق جل جلاله ، يُؤْتِي الحق تعالى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ من عباده ، وهى التفقه فى الدين والتبصر فى الأمور. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من يرد اللّه به خيرا يفقّهه فى الدين ، ويلهمه رشده» ، وقيل : الحكمة : الإصابة فى الرأى. وقيل : الفهم فى كتاب اللّه. وقيل : الفهم عن اللّه. وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ أي : أعطيها ، فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً لأنه حاز خير الدارين ، ولا شك أن من حقّق العلم باللّه وبأحكامه ، وأتقن العمل بما أمره اللّه به ، فقد صفا قلبه ، وتطهر سره ، فصار من أولى الألباب ولذلك قال عقبه : وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ.

الإشارة : الحكمة هى : شهود الذات مرتدية بأنوار الصفات ، وهى حقيقة المعرفة ، ومن عرف اللّه هابه ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «رأس الحكمة مخافة اللّه». وقيل : هى تجريد السر لورود الإلهام ، وقيل : هى النور المفرق بين الوسواس والإلهام ، وقيل : شهود الحق تعالى فى جميع الأحوال. والتحقيق : أن الحكمة هى إبداع الشيء وإتقانه حتى يأتى على غاية الكمال ، ويجرى ذلك فى العلم والعمل والحال والمعرفة.

وقال القشيري : الحكمة : أن يحكم عليك خاطر الحق لا داعى الباطل ، وأن تحكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان.

ويقال : الحكمة : صواب الأمر ، ويقال : هى ألا تغلب عليك رعونات البشرية ، ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره. ويقال : الحكمة : موافقة أمر اللّه ، والسفه : مخالفة أمره ، ويقال : الحكمة شهود الحق ، والسفه : شهود الغير.

قاله المحشى.

واعلم أن الصوفية ، فى اصطلاحهم ، يعبّرون عن أسرار الذات بالقدرة ، وعن أنوار الصفات - وهى ظهور آثارها - بالحكمة. فالوجود كله قائم بين الحكمة والقدرة ، فالقدرة تبرز الأشياء ، والحكمة تسترها. فربط الأشياء واقترانها بأسبابها تسمى عندهم الحكمة ، وإنفاذ الأمر وإظهاره يسمى القدرة ، فمن مع الحكمة حجب عن

شهود القدرة ، وكان محجوبا عن اللّه. ومن نفذ إلى شهود القدرة ولم يرتبط مع الأسباب والعوائد كان عارفا محبوبا. فالعارف الكامل هو الذي جمع بين شهود القدرة وإقرار الحكمة ، فأعطى كل ذى حق حقه ، ووفّى كلّ ذى قسط قسطه ، لكن يكون ذلك ذوقا وكشفا ، لا علما وتقليدا. وباللّه تعالى التوفيق

:

ثم رغّب في الإخلاص ، وحذّر من شوب الحظوظ في النفقة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٧٠ الى ٢٧١]

وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (٢٧٠) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

قلت : النذر : هو إلزام المكلف نفسه ما لم يجب ، كقوله : للّه عليّ أن أتصدق بكذا ، أو أصلى كذا ، أو أن أصوم كذا ، أو إن شفى اللّه مريضى فعليّ كذا ، فمن نطق بشيء من ذلك لزمه ، ومن علق بشيء وحصل ذلك لزمه ما نطق به. و(نعما) أصلها : نعم ما هى ، فأدغمت الميم فى الميم ، وفى (نعم) : ثلاث لغات : «نعم» بفتح النون وكسر العين وهى الأصل ، وبسكونها ، وبكسر النون وسكون العين ، فمن قرأ بكسر النون والعين ، فعلى لغة كسر العين ، وأتبع النون للعين ، ومن اختلس ، أشار إلى لغة السكون ، ومن قرأ بفتح النون وكسر العين ، فعلى الأصل وأدغم المثلين ، ومن قرأ بفتح النون وسكون العين فعلى لغة (نعم) بالفتح والسكون ، ثم أدغم ، ولم يعتبر التقاء الساكنين لعروضه ، أو لكون الثاني مشدّدا سهل ذلك. واللّه أعلم.

ومن قرأ : (و نكفّر) ، بالجزم ، فعطف على محل الجزاء ، ومن قرأ بالرفع ، فعلى الاستئناف ، أي : ونحن نكفر ، أو : فهو يكفر ، على القراءتين.

يقول الحق جل جلاله : وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ قليلة أو كثيرة ، سرا أو علانية ، فى حق أو باطل ، أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ بشرط أو بغير شرط ، فى طاعة أو معصية ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ، فيجازيكم عليه ، فمن أنفق فى طاعة أو نذر قربة كان من المحسنين ، ومن أنفق فى معصية أو نذر معصية كان من الظالمين. وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ ينصرونهم من عذاب اللّه.

إِنْ تظهروا الصَّدَقاتِ ، مخلصين فيها ، فَنِعِمَّا هِيَ أي : فنعم شيئا إبداؤها ، ولا سيما للمقتدى به ، فهو أفضل فى حقه ، وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ خفية فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لأنه أقرب للإخلاص ، وهذا

(٣٠٤/١)

فى التطوع ، تفضل علانيتها بسبعين ضعفا. وأما الفريضة ففيها تفصيل ، فمن خاف على نفسه شوب الرياء أخفى أو نوّب ، ومن أمن أظهر. فقد ورد أن علانية الفريضة تفضل سرّها بخمسة وعشرين ضعفا ، فإن فعلتم ما أمرتم به فى الوجهين ، فقد أحسنتم ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ أي : نستر عنكم بعض

ذنوبكم ، وقد ورد فى صدقة السر أن صاحبها يظله اللّه يوم لا ظل إلا ظله وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لا يخفى عليه من أسرّ أو جهر ، ومن أخلص أو خلط ، ففيه ترغيب وترهيب. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : معاملة العبد مع مولاه : إما أن تكون لطلب الأجور ، وإما لرفع الستور ، فالأول يعطى أجره من وراء الباب ، والثاني يدخل مع الأحباب. وأما العامل للدنيا فهو ظالم لنفسه (و ما للظالمين من أنصار) ، وفى بعض الآثار : طالب الدنيا أسير ، وطالب الآخرة أجير ، وطالب الحق أمير.

ثم الناس فى معاملة الحق على أقسام ثلاثة : قسم يليق بهم الإخفاء والإسرار ، وهم طالبو الإخلاص من المريدين السائرين. وقسم يليق بهم الإظهار وهم أهل الاقتداء من العلماء المخلصين. وقسم لا يقفون مع ظهور ولا خفاء ، بل مع ما يبرز فى الوقت ، وهم العارفون الكاملون. ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضي اللّه عنه : (من أحبّ الظهور فهو عبد الظهور ، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ، ومن كان عبد اللّه فسواء عليه أظهره أم أخفاه).

والهداية كلها بيد اللّه ، ليس لغيره منها شيء ، كما أبان ذلك الحق جل جلاله بقوله :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٧٢]

لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَما تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)

يقول الحق جل جلاله لنبيه عليه الصلاة والسلام : لَيْسَ عَلَيْكَ يا محمد هُداهُمْ أي : لا يجب عليك أن تخلق الهداية فى قلوبهم ، وليس من شأنك ذلك ، إنما أنت نذير تدلّ على الخير ، كالنفقة وغيرها ، وتنهى عن الشر كالمنّ والأذى ، وإنفاق الخبيث ، وغير ذلك من المساوئ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ بفضله وإحسانه ، فالأمور كلها بيد اللّه خيرها وشرها ، ولكن من جهة الأدب ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ. وباللّه التوفيق.

الإشارة : ما قيل فى الرسول - عليه الصلاة والسلام - يقال فى ورثته من أهل التذكير ، فليس بيدهم الهداية والتوفيق ، وإنما شأنهم الإرشاد وبيان الطريق ، فليس من شأن الدعاة إلى اللّه الحرص على هداية الخلق. وإنما من

شأنهم بيان الحق. إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ. واللّه تعالى أعلم.

ثم رجع الحق تعالى إلى الترغيب فى الصدقة والإخلاص فيها ، فقال :

وَما تُنْفِقُوا ...

قلت : هذه ثلاث جمل كلها تدل على الترغيب فى إنفاق الطيب وإخلاص النية.
يقول الحق جل جلاله : وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ قليل أو كثير ، فهو فَلِأَنْفُسِكُمْ لا ينتفع به غيركم ، فإن كان طيبا فلأنفسكم ، وإن كان خبيثا فأجره لكم ، وإن مننتم به أو آذيتم فقد ظلمتم أنفسكم ، وإن أخلصتم فيه فلأنفسكم.
وأيضا إنكم تدّعون أنكم ما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، فكيف تقصدون الخبيث ، وتجعلونه لوجه اللّه؟ وكيف تمنّون أو تؤذون بها وهى لوجه اللّه؟ هذا تكذيب للدعوى ، وكل ما تنفقون من خير قليل أو كثير يُوَفَّ إِلَيْكُمْ جزاؤه يوم القيامة بسبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ويخلفه لكم فى الدنيا ، وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ شيئا من أعمالكم إن أخلصتم أو أحسنتم. وستأتى إشارتها مع ما بعدها.
ثم بيّن المصرف ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٧٣]
لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)
قلت : (للفقراء) : متعلق بمحذوف ، أي : يعطى ذلك للفقراء ، أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء ، والإلحاف : هو الإلحاح فى السؤال ، وهو أن يلازم المسئول حتى يعطيه ، وهو منصوب على المصدر أو الحال.
يقول الحق جل جلاله : تجعلون ما تنفقونه لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا أي : حبسوا أنفسهم فى سَبِيلِ اللَّهِ وهو الجهاد ، لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ أي : ذهابا فى الأرض للتجارة أو للأسباب ، بل شغلهم الجهاد والتبتل للعبادة عن الأسباب ، وهم أهل الصّفّة ، كانوا نحوا من أربعمائة من فقراء المهاجرين ، يسكنون صفة المسجد ، يستغرقون أوقاتهم فى العلم والذكر والعبادة ، وكانوا يخرجون فى كل سرية بعثها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم.

قال ابن عباس رضي اللّه عنه : «وقف النبي صلى اللّه عليه وسلم يوما على أصحاب الصفة ، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم ، فقال : «أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقي من أمتى على النعت الذي أنتم عليه ، راضيا بما فيه فإنه ، من رفقائى».
وقيل : المراد الفقراء مطلقا ، حصرهم الفقر عن الضرب فى الأرض للتجارة ، يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ بهم أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، أي : من أجل تعففهم عن السؤال ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ من الضعف ورثاثة الحال.

الخطاب للرسول ، أو لكل أحد لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً ، أي : لا يسألون ، وإن سألوا عن ضرورة لم يلحوا ، وقيل : نفى للأمرين معا ، أي : ليس لهم سؤال ، فيقع فيه إلحاف ، كقول الشاعر :
على لا حب لا يهتدى بمناره «١» وليس ثمّ لا حب ولا منار ، وإنما المراد نفيهما ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «من سأل ، وله أربعون درهما ، فقد سأل إلحافا».
وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ فيجازى على القليل والكثير ، وهذا ترغيب فى الإنفاق ، وخصوصا على هؤلاء.
الإشارة : ما أفلح من أفلح ، وخسر من خسر ، إلا من نفسه وفلسه ، فمن جاد بهما ، أو بأحدهما ، فقد فاز وأفلح وظفر بما قصد ، والجود بالنفس أعظم ، وهو يستلزم الجود بالفلس ، والجود بالفلس ، إن دام ، يوصل إلى الجود بالنفس ، والمراد بالجود بالنفس : إسلامها للشيخ يفعل بها ما يشاء ، وتكون الإشارة فيها كافية عن التصريح ، ومن بخل بهما أو بأحدهما ، فقد خسر وخاب فى طريق الخصوص ، ومصرف ذلك هو الشيخ ، أو الفقراء المنقطعون إلى اللّه الذين حصروا أنفسهم فى سبيل اللّه ، وهو الجهاد الأكبر.
قال فى القوت : وكان بعض الفضلاء يؤثر بالعطاء فقراء الصوفية دون غيرهم ، فقيل له فى ذلك ، فقال : لأن هؤلاء همهم اللّه عز وجل ، فإذا ظهر منهم فاقة تشتّت قلب أحدهم ، فلأن أرد همة واحد إلى اللّه أحب إلىّ من أن أعطى ألفا من غيرهم ممن همه الدنيا. فذكر هذا الكلام لأبى القاسم الجنيد ، فقال : هذا كلام ولى من أولياء اللّه. ثم قال : ما سمعت كلاما أحسن من هذا. وبلغني أن هذا الرجل اقتر حاله فى أمر الدنيا

---

(١) هذا صدر بيت عجزه : (إذا سافه العود النباطىّ جرجرا) وهو من قصيدة لامرئ القيس. واللاحب : الطريق الواسع. [.....]

حتى هم بترك الحانوت فبعث إليه الجنيد بمال كان صرف إليه ، وقال له : اجعل هذا فى بضاعتك ، ولا تترك الحانوتفإنّ التجارة لا تضرّ مثلك. ويقال : إن هذا لم يكن يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه. هـ.
وكان عبد اللّه بن المبارك يصرف مصروفه لأهل العلم ، ويقول : إنى لا أعرف بعد النبوة أفضل من العلماء ، فإذا اشتغل قلب أحدهم بالحاجة والعيلة لم يتفرغ للعلم ، ولا يقبل على تعليم الناس ، فرأيت

أن أكفيهم أمر الدنيا لأفرغهم للعلم ، فهو أفضل. هـ. واللّه تعالى أعلم.
ثم رغّب فى النفقة مطلقا ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٧٤]
الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)
قلت : الموصول مبتدأ ، و(فلهم أجرهم) : خبر ، والفاء للسببية ، ولأن فى الموصول معنى الشرط ، وقيل : الخبر محذوف ، أي : ومنهم الذين ينفقون إلخ ، و(فلهم) : استئناف بيانى.
يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً ، ويعمرون أوقاتهم بفعل الخيرات ، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إذا قدموا عليه ، وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من لحوق مكروه ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ على فوات محبوب ، بل وجدوا اللّه فأغناهم عن كل شيء.
قيل : نزلت فى أبى بكر رضي اللّه عنه تصدّق بأربعين ألف دينار ، عشرة بالليل ، وعشرة بالنهار ، وعشرة بالسر ، وعشرة بالعلانية ، أو فى علي - كرم اللّه وجهه - لم يملك إلا أربعة دراهم ، فتصدق بدرهم ليلا ، ودرهم نهارا ، ودرهم سرا ، ودرهم علانية. وهى عامة لمن فعل فعلهما.
الإشارة : أجر بذل الأموال هو إعطاء الثواب من وراء الباب ، والأمن من العذاب وسوء المآب ، وأجر بذل النفوس هو دخول حضرة القدوس ، والأنس بالأحباب داخل الحجاب ، فمن بذل نفسه للّه على الدوام ، أمنه من الحجبة فى دار السلام ، فلا خوف يلحقهم فى الدارين ، ولا يعتريهم حزن فى الكونين. وباللّه التوفيق.
ولما رغّب فى الصدقة ، وكانت فى الغالب لا يتوصل إليها إلا بتعاطى أسباب المال ، وهو البيع والشراء حذر من الربا لئلا يتساهل الناس فى المعاملة به ، حرصا على الصدقة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٧٥ الى ٢٧٩]
الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)

قلت : (الربا) فى الأصل : هو الزيادة ، ربا المال يربو : زاد. وكتبت بالواو مراعاة للأصل ، وهو المصدر ، قال الفراء : إنما كتبوه بالواو لأن أهل الحجاز تعلموا الكتابة من أهل الحيرة ، ولغتهم الربو ، فعلموهم صورة الحروف ، وكذلك قرأها أبو السمال العدوى ، وقرأ الأخوان بالإمالة لمكان الكسرة ، والباقون بالتفخيم.

والربا فى اصطلاح الشرع على قسمين : ربا الفضل وربا النّساء ، فأما ربا الفضل فهو التفاضل بين الطعامين أو النقدين فى المبادلة من الجنس الواحد ، فإن اختلفت الأجناس فلا حرج ، وأما ربا النساء فهو بيع الطعامين أو النقدين بعضهما ببعض بالتأخير ، وهذا حرام ولو اختلفت الأجناس.

يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا أي : يأخذونه ، وإنما خص الأكل لأنه أعظم منافع المال ، لا يَقُومُونَ من قبورهم يوم البعث إِلَّا كَما يَقُومُ المجنون الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ أجل الْمَسِّ الذي يمسه يقوم ويسقط ، روى أن بطونهم تكون أمامهم كالبيت الضخم ، يقوم أحدهم فتميل به بطنه فيصرع ، وعن أبى هريرة رضي اللّه عنه أنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «لما أسرى بي إلى السماء رأيت رجالا بطونهم كالبيوت ، فيها حيّات ترى من خارج بطونهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل؟ فقال : أكلة الرّبا».

ذلِكَ العذاب بسبب أنهم استحلّوا الربا ، وقالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا فنظموا الربا والبيع فى سلك واحد ، وفيه عكس التشبيه. والأصل : إنما الربا مثل البيع ، قصدوا المبالغة ، كأنهم جعلوا الربا أصلا وقاسوا عليه البيع.

وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه يقول الغريم : زدنى فى الأجل أزدك فى المال ، فيفعلان ، ويقولان : سواء علينا الزيادة فى أول البيع بالربح أو عند محل الدين ، هو مراضاة. فكذبهم الحق تعالى بقوله : وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا لأن القياس مع وجود النص فاسد ، والفرق ظاهر فإن من باع درهما

بدرهمين ضيع درهما من غير فائدة ، بخلاف من اشترى سلعة بدرهم ، وباعها بدر همين ، فلعل مساس الحاجة ، والرغبة فيها ، توقع رواجها فيجبر الغبن.

فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ كالنهى عن الربا ، فَانْتَهى وترك الربا فَلَهُ ما سَلَفَ قبل التحريم ولا يردّه ، وَأَمْرُهُ

إِلَى اللَّهِ لا إلى أحد منكم ، فلا يتعرض له ، وَمَنْ عادَ إلى تحليل الربا بعد بلوغه النهى فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ لأنهم كفروا وسفهوا أمر اللّه. يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا أي : يذهب بركته ، ويهلك المال الذي يدخل فيه وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ أي : يضاعف ثوابها ويبارك فى المال الذي أخرجت منه ، فقد روى عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : «ما نقص مال من صدقة» ، «وأنه يربى الصدقة حتى تكون مثل الجبل». قال يحيى بن معاذ : (ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبّة من الصدقة).

وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أي : مصرّ على تحليل المحرمات ، أَثِيمٍ أي : منهمك فى ارتكاب المنهيات ، أي : لا يرتضى حاله ، ولا يحبه كما يحب التوابين.

ثم ذكر مقابله فقال : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا باللّه ، وصدّقوا بما جاء من عنده ، وَعَمِلُوا الأعمال الصَّالِحاتِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ أي : أتقنوها وَآتَوُا الزَّكاةَ أي : أدوها على التمام ، فلهم أجرهم عند ربهم إذا قدموا عليه ، وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من آت ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ على ما فات ، إذ لم يفتهم شيء حيث وجدوا اللّه.

ثم أكد فى أمر الربا ، فقال :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا أي : اتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا ، فلا تقبضوها منهم ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨). فإن دليل الإيمان : امتثال ما أمرتم به ، روى أنه كان لثقيف مال على بعض قريش ، فطالبوهم عند الحلّ بالمال والربا ، فنزلت الآية.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وتتركوا ما نهيتم عنه ، فَأْذَنُوا أي : فاعلموا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ومن قرأ : فآذنوا بالمد ، فمعناه : أعلموا بها غيركم ، روى أنها لما نزلت ، قالت ثقيف : لا يدان «١» لنا بحرب اللّه ورسوله.

وَإِنْ تُبْتُمْ من تعاطى الربا واعتقاد حله فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ الغريم بأخذ الزيادة ، وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) بنقص رأس مالكم. مفهومه إن لم يتب فليس له شيء ، لأنه مرتد. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) يقال : مالى بهذا الأمر يد ويدان أي : لا طاقة لى به ، لأن المدافعة تكون باليد ، فكأن يده معدومه لعجزه عن دفعه.

الإشارة : مدار صفاء المعاملة على تصفية اللقمة ، فمن صفّا طعمته صفت معاملته ، ومن صفت معاملته أفضى الصفاء إلى قلبه ، ومن خلط فى لقمته تكدرت معاملته ، ومن تكدرت معاملته تكدر قلبه ، ولذلك قال بعضهم : (من أكل الحلال أطاع اللّه ، أحبّ أم كره ، ومن أكل الحرام : عصى اللّه ،

أحبّ أم كره) وكذلك الواردات الإلهية ، لا ترد إلا على من صفا مطعمه ومشربه ، ولذلك قال بعضهم : (من لا يعرف ما يدخل بطنه لا يفرق بين الخواطر الربانية والشيطانية).
وقال سيدى على الخواص رضي اللّه عنه : (اعلم أن المدد الذي لم يزل فياضا على قلب كل إنسان ويتلون بحسب القلب ، والقلب يتلون بحسبه هو بحسب صلاح الطعمة وفسادها). هـ. فالذين يأكلون الحرام كالربا وشبهه ، لا يقومون إلى معاملتهم للحق إلا كما يقوم المجنون الذي يلعب به الشيطان ، ولا يدرى ما يقول ولا ما يقال له ، فقد حرم لذيذ المناجاة وحلاوة خلوص المعاملات ، فإن احتج لنفسه واستعمل القياس لم يرج فلاحه فى طريق الخواص ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى ، وطلب العفاف فقد عفا اللّه عما سلف. ومن عاد إلى ما خرج عنه من متابعة هواه ، فنار القطيعة مثواه ومأواه.
ومن شأن الحق جل جلاله مع عباده : أن من طلب الزيادة فى حس ظاهره محق اللّه نور باطنه ، ومن حسم مادة زيادة الحس فى ظاهره قوى اللّه مدد الأنوار فى باطنه ، (يمحق اللّه الربا ويربى الصدقات) ، أي : يقوّى مدد ثواب الصدقات. (و اللّه لا يحب كلّ كفّار أثيم) ، وإنما يحب كل مطيع منيب ، وهو من آمن إيمان أهل التحقيق ، وسلك مسلك أهل التوفيق. فلا جرم أنه ينخرط فى سلك أهل العناية ، ويسلك به مسلك أهل الولاية ، (الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).
(يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه) حق تقاته ، واتركوا ما بقي فى باطنكم من بقايا الحس وأسبابه ، إن كنتم طالبين إيمان أهل الشهود ، والوصول إلى الملك المعبود. فإن لم تفعلوا ذلك فاعلموا أنكم فى مقام البعد من حيث لا تظنون ، معاندون وأنتم لا تشعرون. وإن رجعتم إلى ربكم فلكم رؤوس أموالكم ، وهو نور التوحيد ، لا تنقصون منه ولا تزيدون عليه ، إلا إن أفردتم الوجهة إليه ، وطلبتم الوصول منه إليه ، فإن اللّه لا يخيّب من أمّل جوده ، ولا يردّ من وقف ببابه ، بمنّه وكرمه.
ثم ذكر حال المعسر ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٨٠ الى ٢٨١]
وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

قلت : (كان) : تامة بمعنى حضر ، وقرأ أبيّ وابن مسعود : (ذا عسرة) فتكون ناقصة ، و(نظرة) : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : فعليكم نظرة ، أو فالواجب نظرة. وهو مصدر بمعنى الإنظار ، وهو الإمهال ، و(ميسرة) : فيه لغتان :

الفتح والضم ، وهى مفعلة من اليسر ، فالضم لغة أهل الحجاز ، والفتح لغة تميم وقيس ونجد.

يقول الحق جل جلاله : وإن حضر الغريم وهو معسر ، فعليكم إنظاره ، أي : إمهاله إلى زمان يسره ولا يحل لكم أن تضيّقوا عليه ، وتطالبوه بما ليس عنده إن أقام البيّنة على عسره وَأَنْ تَصَدَّقُوا عليه برؤوس أموالكم ولا تطالبوه بها خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ما فى ذلك من الخير الجزيل والذكر الجميل.

روى أبو هريرة رضي اللّه عنه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : «من أنظر معسرا ، أو وضع عنه ، أظلّه اللّه فى ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلا ظلّه» وقال - عليه الصلاة والسلام - : «من أحبّ أن تستجاب دعوته ، وتكشف كربته ، فلييسّر على المعسر».

وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «من أنظر معسرا كان له بكل يوم صدقة بمثل ما أنظره به». وقد ورد فى فضل الدّين قوله - عليه الصلاة والسلام : «إن اللّه مع المدين حتى يقضى دينه ، ما لم يكن فيما يكره اللّه». فكان عبد اللّه «١» يقول : «إنى أكره أن أبيت ليلة إلا واللّه تعالى معى ، فيأمر غلامه أن يأخذ بدين».

وقد ورد الترغيب أيضا فى الإسراع بقضاء الدين دون مطل ، قال صلّى اللّه عليه وسلم «من مشى إلى غريمه بحقه ، صلّت عليه دوابّ الأرض ونون الماء ، وكتبت له بكل خطوة شجرة فى الجنة ، وذنب يغفر له فإن لم يفعل ومطل فهو معتد». وقال أيضا : «مطل الغنىّ ظلم ، وإذا أتبع أحدكم على مليىء فليتبع».

ثم قال تعالى : وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ، وهو يوم القيامة ، فتأهبوا للمصير إليه بالصدقة وسائر الأعمال الصالحة ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ جزاء ما أسلفت ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ بنقص ثواب أو تضعيف عقاب. قال ابن عباس : (هذه آخر آية نزل بها جبريل ، فقال : ضعها فى رأس المائتين والثمانين من البقرة ، وعاش بعدها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أحدا وعشرين يوما). وقيل : أحدا وثمانين ، وقيل غير ذلك. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وإن كان ذو عسرة من نور اليقين والمعرفة ، فلينظر إلى أهل الغنى باللّه ، وليصحبهم ويتعلّق بهم ، وهم العارفون ، فإنهم يغنونه بالنظر. وفى بعض الأخبار : إن اللّه رجالا من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا. هـ. وللّه رجال إذا نظروا أغنوا ، وفى هذا المعنى يقول صاحب العينية :

فشمّر ، ولذ بالأولياء فإنّهم لهم من كتاب اللّه تلك الوقائع

هم الذّخر للملهوف ، والكنز للرّجا ومنهم ينال الصبّ ما هو طامع

---

(١) هو راوى الحديث سيدنا عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضي اللّه عنه.

وقال الشيخ أبو العباس رضي اللّه عنه : واللّه ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه وقد أغنيته. وقال فيه شيخه : نعم الرجل أبو العباس ، يأتيه البدويّ يبول على ساقه ، فلا يمسى إلا وقد أوصله إلى ربه. وقال شيخ شيوخنا سيدى العربي بن عبد اللّه : لو أتاني يهودى أو نصراني ، لم يمس إلا وقد أوصلته إلى اللّه. هـ. وفى كل زمان رجال يغنون بالنظر ، وقد أدركتهم ، وصحبتهم والحمد للّه. والإشارة بقوله : وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إلى أهل الغنى باللّه ، يتصدقون على الفقراء بالنظرة والهمة ، حتى يحصل لهم الغنى باللّه. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر الحق تعالى بتحصين الأموال بتقييد الديون والإشهاد عليها ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٨٢]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى وَلا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا وَلا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلى أَجَلِهِ ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَأَدْنى أَلاَّ تَرْتابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوها وَأَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ أي : داين بعضكم بعضا فى بيع أو سلف ، إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى أي : معلوم بالأيام أو الأشهر ، لا بالحصاد أو قدوم الحاج ، إلا فى السّلم ، فَاكْتُبُوهُ لأنه أوثق وأدفع للنزاع. والجمهور : أن الأمر للاستحباب ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ لا يزيد ولا ينقص ، ولا بد أن يكون عدلا حتى يجيىء مكتوبه موثوقا به ، وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ أي : ولا يمتنع كاتب من الكتابة كَما عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ أي : فليكتب كما علمه اللّه من كتابة الوثائق ، أو : لا يأب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه اللّه بتعليمها. وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ أي : وليكن المملى من عليه الحق لأنه المقر للشهود ، يقال : أملل وأملى ، إذا ذكر ما عنده أو ما عليه ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ أي : المملى أو الكاتب ، وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً أي : ولا ينقص من الحق الذي عليه شيئا فى الإملاء أو فى الكتابة.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣١٤
فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً : ناقص العقل مبذرا ، أَوْ ضَعِيفاً شيخا مخبلا ، أو صبيا صغيرا ، أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ ، لخرس أو جهل باللغة ، فَلْيُمْلِلْ عنه وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، من وصىّ أو وكيل ، وَاسْتَشْهِدُوا على معاملتكم شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ المسلمين ، فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ ، بأن تعذر إحضارهما ، فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ فأكثر ، تقوم مقام رجلين مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ لعلمكم بعدالتهم ، وإنما شرط تعدد النساء لأجل أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى أي : إن ضلت إحداهما الشهادة ، ونسيتها ، ذكرتها الأخرى لأنها ناقصة عقل ودين.

ثم حذّر الشهود من الامتناع عن تحمل الشهادة أو أدائها ، فقال :

وَلا يَأْبَ ...

قلت : السّأم هو : الملل ، و(لا يضارّ) يحتمل أن يكون مبنيا للفاعل ، وأصله : يضارر بالكسر ، أو للمفعول ، فيكون الأصح بالفتح.

يقول الحق جل جلاله : ولا يمتنع الشُّهَداءِ من تحمل الشهادة إذا دعوا إليها ، حيث تعيّنت عليهم ، وسموا شهداء باعتبار المآل ، وإنما تتعين إذا لم يوجد غيرهم. أو : من أدائها حيث لا ضرر ، وَلا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ أي : ولا تملوا من كتابة الحق إذا تكرر صَغِيراً كان أَوْ كَبِيراً ، فقيدوا ذلك إِلى أَجَلِهِ ، ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ أي : ذلك الكتاب والتقييد للحقوق ، أكثر قسطا عند اللّه لأنه أدفع للنزاع وأحفظ للحقوق ، وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ أي : أثبت لها وأعون على أدائها ، وَأَدْنى أَلَّا تَرْتابُوا أي : وأقرب لعدم الريب والشك فى جنس الدين وقدره وأجله ، لأنه إذا كتب جنسه وقدره وأجله لم يبق لأحد شك فى ذلك ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً لا أجل فيها ، تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ أي : تتعاملون فيها نقدا ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلَّا تَكْتُبُوها لقلة النزاع فيها ، وَأَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ مطلقا بدين أو نقد لأنه أحوط ، خوفا من الإنكار ، والأوامر فى هذه الآية للاستحباب عند الأكثر.

(٣١٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣١٥
وَلا يُضَارَّ كاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ بالتحريف والتغيير فى الكتابة والشهادة ، على البناء للفاعل ، أو : ولا يضارا بأن يعجلا عن مهم ، أو يكلفا الأداء من شقة بعيدة ، أو يمنع من أجرته ، وَإِنْ تَفْعَلُوا ذلك الضرار وما نهيتهم عنه فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ أي : خروج بكم عن حد الاستقامة ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فى مخالفة أمره ونهيه ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ العلوم اللدنية وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فلا يخفى عليه من اتقى اللّه ممن عصاه. وكرر لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث ، لاستقلالها ، فإن الأولى حثّ على التقوى والثانية وعد بتعليم العلم ،

والثالثة تعظيم لشأنه ، ولأنه أدخل فى التعظيم من الكناية. قاله البيضاوي.
وأدخل الواو فى جواب الأمر ليقتضى أن تعليمه سبحانه لأهل التقوى ليس هو مسببا عن التقوى ، بل هو بمحض الفضل والكرم ، والتقوى إنما هى طريق موصل لذلك الكرم ، لا سبب فيه «جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى العلل». واللّه تعالى أعلم .
ثم ذكر الحق تعالى حكم الرهان ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٨٣]
وَإِنْ كُنْتُمْ عَلى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كاتِباً فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)
قلت : (فرهان) : خبر ، أو مبتدأ ، أي : فالمستوثق به رهان ، أو فعليه رهان.
يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ كُنْتُمْ عَلى جناح سَفَرٍ أي : مسافرين ، وَلَمْ تَجِدُوا كاتِباً يكتب شهادة البيع أو الدين ، فالمستوثق به عوضا من الإشهاد : فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ. وليس السفر شرطا فى صحة الارتهان ، لأنه عليه الصلاة والسلام «رهن درعه عند يهودى بالمدينة فى شعير» لكن لمّا كان السفر مظنّة إعواز الكتاب ، ذكره الحق تعالى حكما للغالب. والجمهور على اعتبار القبض فيه ، فإن لم يقبض حتى حصل المانع ، فلا يختص به فى دينه ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً واستغنى بأمانته عن الارتهان ، لوثوقه بأمانته فداينه بلا رهن ، فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ أي : دينه ، وسماه أمانة لائتمانه عليه بلا ارتهان ولا إشهاد ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ فى أداء دينه وعدم إنكاره.
وَلا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ أيها الشهود ، أو أهل الدين ، أي : شهادتهم على أنفسهم ، وَمَنْ يَكْتُمْها منكم بأن يمتنع من أداء ما تحمل من الشهادة ، أو من أداء ما عليه من الدين ، فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ حيث كتم ما علمه به ، لأن الكتمان من عمل القلوب فتعلق الإثم به ، ونظيره : «العين زانية وزناها النظر» ، أو أسنده إلى القلب ، مبالغة لأنه رئيس الأعضاء ، فإذا أثم قلبه فقد أثم كله ، وكأنه قد تمكن الإثم منه فأخذ أشرف أجزائه ، وفاق سائر ذنوبه ، ثم هدد

الكاتمين فقال : وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لا يخفى عليه ما تبدون وما تكتمون ، روى عنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «من كتم شهادة إذا دعى - كان كمن شهد بالزّور».
الإشارة : كما أمر اللّه تعالى بتقييد الديون الدنيوية ، والاعتناء بشأنها ، أمر بتقييد العلوم اللدنية والواردات القدسية والاغتباط بأمرها ، بل هى أولى لدوام ثمراتها وخلود نتائجها ، فإن الحكمة ترد على

القلب من عالم القدس عظيمة كالجبل ، فإن أهملتها ولم تبادر إلى تقييدها ، رجعت كالجمل ، فإن أخرتها رجعت كالطير ، ثم كالبيضة ، ثم تمتحى من القلب ، وفى هذا المعنى قيل :

العلم صيد والكتابة قيده قيّد صيودك بالحبال الموثقه

ومن الجهالة أن تصيد حمامة وتتركها بين الأوانس مطلقه

فإن لم يحسن الكتابة ، فليملله على من يحسنها ، ولا يبخس منه شيئا ، بل يمليه على ما ورد فى قلبه ، فإن كان ضعيف العبارة ، فليملل عنه من يحسنها بالعدل ، من غير زيادة ولا نقصان فى المعنى ، وليشهد عليها رجال أهل الفن وهم العارفون ، فإن لم يكونوا ، فمن حضر من الفقراء المتمكنين لئلا يكون فى تلك الحكمة شيء من الخلل لنقصان صاحبها ، أو : وليشهد على ذلك الوارد عدلين ، وهما الكتاب والسنة ، فإن كان موافقا لهما ، قبل ، وإلا ردّ.

قال الجنيد رضي اللّه عنه : إن النكتة لتقع فى قلبى فلا أقبلها إلا بشهادة عدلين : الكتاب والسنة. هـ.

وإن كنتم مستعجلين ، ولم تجدوا كاتبا ، فارتهنوها فى قلوب بعضكم بعضا ، حتى تقيد. ومن كتم الواردات عن شيخه أو إخوانه ، فقد أثم قلبه لأنه نوع من الخيانة فى طريق التربية. واللّه تعالى أعلم.

ثم هدّد الحق تعالى عباده ، على مخالفة ما أمرهم به ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٨٤]

لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

قلت : من قرأ (فيغفر) بالجزم ، فعلى العطف على الجواب ، ومن قرأ بالرفع فعلى الاستئناف ، أي : فهو يغفر.

يقول الحق جل جلاله : لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ خلقا وملكا وعبيدا ، يتصرف فيهم كيف شاء يرحم من يشاء بفضله ، ويعذب من يشاء بعدله ، وَإِنْ تُبْدُوا أي : تظهروا ما فِي أَنْفُسِكُمْ من السوء والعزم عليه ، أَوْ تُخْفُوهُ فى قلوبكم ، يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ يوم القيامة فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ مغفرته ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ تعذيبه ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه عذاب أحد ولا مغفرته. وعبّر الحق تعالى بالمحاسبة دون المؤاخذة ، فلم يقل : يؤاخذكم به اللّه لأن المحاسبة أعم ، فتصدق بتقرير الذنوب دون المؤاخذة بها ، لقوله - عليه الصلاة والسلام : «يدنو المؤمن من ربه حتى يضع كنفه عليه ، فيقرره بذنوبه ، فيقول : هل تعرف

كذا؟ فيقول : يا رب ، أعرف ، فيوقفه على ذنبه ذنبا ، ذنبا فيقول اللّه تعالى : أنا الذي سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم». فللّه الفضل والمنة ، وله الحمد والشكر.
الإشارة : (و إن تبدوا ما فى أنفسكم) من الخواطر الردية والطوارق الشيطانية ، أو تخفوه فى قلوبكم ، حتى يحول بينكم وبين شهود محبوبكم ، (يحاسبكم به اللّه فيغفر لمن يشاء) فيمحو ظلمته من قلبه بإلهام التوبة والمبادرة إلى اليقظة ، (و يعذب من يشاء) بتركه مع ظلمة تلك الأغيار ، وخوضه فى بحار تلك الأكدار ، فما منع القلوب من مشاهدة الأنوار إلا اشتغالها بظلمة الأغيار ، فرّغ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار ، فإن أردت أن تكون عين العين ، فامح من قلبك نقطة الغين ، وهى نقطة السّوى ، وللّه در القائل :
إن تلاشى الكون عن عين كشفى شاهد السرّ غيبه فى بيانى
فاطرح الكون عن عيانك وامح نقطة الغين إن أردت ترانى
واعلم أن الخواطر أربعة : ملكى وربانى ونفسانى وشيطانى ، فالملكى والرباني لا يأمران إلا بالخير ، والنفساني والشيطاني لا يأمران إلا بالشر ، وقد يأمران بالخير إذا كان فيه دسيسة إلى الشر ، والفرق بين النفساني والشيطاني :
أن الخاطر النفساني ثابت لا يزول بتعوذ ولا غيره ، إلا بسابق العناية ، بخلاف الشيطاني : فإنه يزول بذكر اللّه ، ويرجع مع الغفلة عن اللّه. واللّه تعالى أعلم.
ولمّا نزل قوله تعالى : وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ ... الآية. شق ذلك على الصحابة - رضى اللّه عنهم - فجاء الصدّيق والفاروق وعبد الرحمن ومعاذ ، وناس من الأنصار ، فجثوا على الرّكب ، وقالوا : يا رسول اللّه ، ما نزلت علينا آية أشدّ من هذه الآية وإنا إن أخذنا بما نحدّث به أنفسنا هلكنا! فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «هكذا نزلت». فقالوا : كلفّنا من العمل ما لا نطيق ، فقال - عليه الصلاة والسلام : «فلعلكم تقولون كما قالت بنو إسرائيل : سَمِعْنا وَعَصَيْنا ، قولوا : سمعنا وأطعنا» ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ، وذلّت بها ألسنتهم ، فأنزل اللّه التخفيف ، وحكى ما وقع لهم من الإيمان والإذعان ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٨٥ الى ٢٨٦]
آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٢٨٦)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣١٨
قلت : من قرأ : (لا نفرق) بالنون ، فعلى حذف القول ، أي : قالوا : لا نفرق ، ومن قرأ بالياء فيرجع إلى الكل ، أي : لا يفرق كل واحد منهم بين أحد من رسله ، و(بين) : من الظروف النسبية ، لا تقع إلا بين شيئين أو أشياء ، تقول : جلست بين زيد وعمرو ، وبين رجلين ، أو رجال ، ولا تقول بين زيد فقط ، وإنما أضيف هنا إلى أحد لأنه فى معنى الجماعة ، أي : لا نفرق بين آحاد منهم كقوله عليه الصلاة والسلام : «ما أحلّت الغنائم لأحد ، سود الرؤوس ، غيركم». و(غفرانك) : مفعول مطلق ، أي : اغفر لنا غفرانك. أو : نطلب غفرانك ، فيكون مفعولا به.
يقول الحق جل جلاله : آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ إيمان تحقيق وشهود ، وَالْمُؤْمِنُونَ كل على قدر إيقان ، كُلٌّ واحد منهم آمَنَ بِاللَّهِ على ما يليق به من شهود وعيان ، أو دليل وبرهان ، وآمن بملائكته وأنهم عباد مكرمون لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ ، وَكُتُبِهِ وأنها كلام اللّه ، مشتملة على أمر ونهى ووعد ووعيد وقصص وأخبار ، ما عرف منها كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، وجب الإيمان به بعينه ، ومالم يعرف وجب الإيمان به فى الجملة ، وَرُسُلِهِ وأنهم بشر متصفون بالكمالات ، منزهون عن النقائص ، كما يليق بحالهم ، حال كون الرسول والمؤمنون قائلين لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ أو : (لا يفرق) كل منهم بين أحد من رسله بأن يصدقوا بالبعض ، دون البعض كما فرقت اليهود والنصارى ، وَقالُوا أي المؤمنين سَمِعْنا وَأَطَعْنا أي :
سمعنا قولك وأطعنا أمرك ، نطلب غُفْرانَكَ يا ربنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ بالبعث والنشور ، وهذا إقرار منهم بالبعث الذي هو من تمام أركان الإيمان.
فلمّا تحقق إيمانهم ، وتيقن إذعانهم ، خفّف اللّه عنهم بقوله : لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أي : إلا ما فى طاقتها وتسعه قدرتها. وهذا يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال ولا يدل على امتناعه. أما المحال العادي «١» فجائز التكليف به ، وأما المحال العقلي «٢» فيمتنع ، إذ لا يتصور وقوعه ، وإذا كلف اللّه عباده بما يطيقونه ، فكل نفس لَها ما كَسَبَتْ من الخير فتوفى أجره على التمام ، وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ من الشر ، فترى جزاءه ، إلا أن يعفو ذو الجلال والإكرام.
وعبر فى جانب الخير بالكسب ، وفى جانب الشر بالاكتساب ، تعليما للأدب فى نسبة الخير إلى اللّه ، والشر إلى العبد. فتأمله.
ثم قالوا فى تمام دعائهم : رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا ، أي : لا تؤاخذنا بما أدى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفريط أو قلة مبالاة ، وفى الحديث : «إنّ اللّه رفع عن أمتى الخطأ والنّسيان وما حدثت به نفسها».

(١) المحال العادي : كرفع إنسان جبلا.

(٢) المحال العقلي : كالجمع بين الضدين.

(٣١٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣١٩

ويجوز أن يراد نفس الخطأ والنسيان إذ لا تمتنع المؤاخذة بهما عقلا ، فإن الذنوب كالسموم ، فكما أن تناول السم يؤدى إلى الهلاك ، وإن كان خطأ - فتعاطى الذنوب لا يبعد أن يفضى إلى العقاب ، وإن لم يكن عزيمة ، لكنه تعالى وعد التجاوز عنه رحمة وفضلا. ويجوز أن يدعو به الإنسان ، استدامة واعتدادا بالنعمة فيه. ويؤيد ذلك مفهوم قوله - عليه الصلاة والسلام - : «رفع عن أمّتى الخطأ والنّسيان» ، أي : فإن غير هذه الأمة كانوا يؤاخذون به ، فدل على عدم امتناعه. قاله البيضاوي.

ثم قالوا : رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً أي : عهدا ثقيلا يأصر ظهورنا ، أي : يثقله ، فتعذبنا بتركه وعدم حمله ، كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا مثل اليهود فى تكليفهم بقتل الأنفس فى التوبة ، وقطع موضع النجاسة ، وغير ذلك من التكاليف الشاقة ، رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ من التكاليف التي لا تسعها طاقتنا ، وهذا يدل على جواز التكليف بما لا يطاق عادة ، وإلا لما سئل التخلص منه ، وَاعْفُ عَنَّا أي : امح ذنوبنا ، وَاغْفِرْ لَنا أي : استر عيوبنا ، وَارْحَمْنا أي : تعطف علينا. اعْفُ عَنَّا الصغائر ، وَاغْفِرْ لَنا الكبائر ، وَارْحَمْنا عند الشدائد والحسرات ، أَنْتَ مَوْلانا أي : سيدنا وناصرنا ، فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ فإن من شأن المولى أن ينصر مواليه على الأعداء.

قال البيضاوي : (روى أنه عليه الصلاة والسلام - لمّا دعا بهذه الدعوات قيل له : فعلت). وعنه عليه الصلاة والسلام : «أنزل آيتان من كنوز الجنة ، كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفى سنة ، من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأتاه عن قيام الليل». وعنه عليه الصلاة والسلام : «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه». وهو يردّ قول من استكره أن يقال سورة البقرة ، وقال : ينبغى أن يقال السورة التي يذكر فيها البقرة ، كما قال - عليه الصلاة والسلام - : «السورة التي يذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها فإنّ تعلّمها بركة ، وتركها حسرة ، ولن يستطيعها البطلة. قيل : وما البطلة؟ قال : السحرة» «١».

الإشارة : يفهم من سر الآية أن من شق عليه أمر من الأمور ، أو عسرت عليه حاجة ، أو نزلت به شدة أو بلية ، فليرجع إلى اللّه ، ولينطرح بين يدى مولاه ، وليعتقد أن الأمور كلها بيده فإن اللّه تعالى لا يخليه من معونته ورفده ، فيخفف عنه ما نزل به ، أو يقويه على حمله ، فإن الصحابة - رضي اللّه

عنهم – لما شق عليهم المحاسبة على الخواطر سلّموا وأذعنوا لأمر مولاهم ، فأنزل عليهم التخفيف ، وأسقط عنهم فى ذلك التكليف ، وكل من رجع فى أموره كلها إلى اللّه قضيت حوائجه كلها باللّه. «من علامات النّجح فى النهايات الرجوع إلى اللّه فى البدايات».

---

(١) قال الشهاب الخفاجي فى حاشيته على البيضاوي ، موفقا بن القائلين بكراهة أن يقال : سورة البقرة ، وقول الجمهور بجوازه : إنما المنع من ذلك كان فى صدر الإسلام ، لما استهزأ سفهاء المشركين بسورة العنكبوت ونحوها ، فمنع ذلك دفعا للملحدين. ثم لما استقر الدين ، وقطع اللّه دابر القوم الظالمين ، شاع ذلك وساغ.

وقوله تعالى : رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ ، قيل : هو الحب للّه ، فلا يسأل العبد من مولاه من حبه إلّا ما يطيقه ، وتأمل قضية الرجل الذي سأل سيدنا موسى عليه السّلام أن يرزقه اللّه حبه ، فلما سأل ربه موسى عليه السّلام هام ذلك الرجل ، وشق ثيابه ، وتمزقت أوصاله حتى مات. فناجى موسى رضى اللّه عنه ربه فى شأنه ، فقال :

يا موسى ، ألف رجل كلهم سألونى ما سأل ذلك الرجل ، فقسمت جزءا من محبتى بينهم ، فنابه ذلك الجزء. أو كما قال سبحانه.

وقال بعض الصالحين : حضرت مجلس ذى النون ، فى فسطاط مصر ، فحزرت «١» فى مجلسه سبعين ألفا ، فتلكم ذلك اليوم فى محبته تعالى فمات أحد عشر رجلا فى المجلس ، فصاح رجل من المريدين فقال : يا أبا الفيض ، ذكرت محبة اللّه تعالى فاذكر محبة المخلوقين ، فتأوه ذو النون تأوها شديدا ، ومد يده إلى قميصه ، وشقه اثنتين ، وقال : آه! غلقت رهونهم ، واستعبرت عيونهم ، وحالفوا السّهاد ، وفارقوا الرّقاد ، فليلهم طويل ، ونومهم قليل ، أحزانهم لا تنفذ. وهمومهم لا تفقد ، أمورهم عسيرة ، ودموعهم غزيرة ، باكية عيونهم ، قريحة جفونهم ، عاداهم الزمان والأهل والجيران.

قلت : هذه حالة العباد والزهاد ، أولى الجد والاجتهاد ، غلب عليهم الخوف المزعج ، أو الشوق المقلق ، وأما العارفون الواصلون فقد زال عنهم هذا التعب ، وأفضوا إلى الراحة بعد النصب ، قد وصلوا إلى مشاهدة الحبيب ، ومناجاة القريب ، فعبادتهم قلبية ، وأعمالهم باطنية ، بين فكرة ونظرة ، مع العكوف فى الحضرة ، قد سكن شوقهم وزال قلقهم ، قد شربوا ورووا ، وسكروا وصحوا ، فلا تحركهم الأحوال ، ولا تهيجهم الأقوال ، بل هم كالجبال الرواسي ، نفعنا اللّه بذكرهم ، وجعلنا من

حزبهم. آمين.

قوله تعالى : (و اعف عنا) ، قال الورتجبي : أي : (و اعف عنا) قلة المعرفة بك ، (و اغفر لنا) التقصير فى عبادتك ، (و ارحمنا) بمواصلتك ومشاهدتك. هـ. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وسلام على المرسلين ، والحمد للّه رب العالمين.

---

(١) حزر الشيء حزرا : قدره بالتخمين فهو حازر.

سورة آل عمران

مدنية. وآياتها : مائتان ، وقيل : مائة وسبع وثمانون. وكلماتها : ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون كلمة ، ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى فى أولها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ ... إلخ ، فكأنه تتميم لقوله ، فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ ، وتفسير له.

ومضمنها : توجيه العتاب لثلاث طوائف : للنصارى لغلوهم فى عيسى عليه السّلام ، ولامتناعهم من الدخول فى الإسلام ، وبسببهم نزلت السورة ، أعنى نصارى نجران ، ولليهود لتفريطهم فى اتباع النبي - عليه الصلاة والسلام - وللمسلمين لما وقع لهم من الفشل يوم أحد ، ولذلك افتتح السورة بذكر الكتب الثلاثة ، إذ لو قاموا بحقوقها ما توجه لهم عتاب ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣)

قلت : فواتح السور كلها موقوفة خالية عن الإعراب لفقدان موجبه ومقتضيه ، فيوقف عليها بالسكون ، كقولهم :

واحد ، اثنان. وإنما فتح الميم هنا فى القراءة المشهورة لإلقاء حركة الهمزة عليها. انظر البيضاوي. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : (الألف آلاؤه ، واللام لطفه ، والميم ملكه).

قلت : ولعلّ كل حرف يشير إلى فرقة ممن توجّه العتاب إليهم ، فالآلاء لمن أسلم من النصارى ، واللطف لمن أسلم من اليهود ، والملك لمن أسلم من الصحابة - رضوان اللّه عليهم - ، فقد ملكهم اللّه مشارق الأرض ومغاربها. واللّه تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله : أيها الملك المعظّم ، والرسول المفخم ، بلّغ قومك أن اللّه واحد فى ملكه ، ليس معه إله ، ولا يحب أن يعبد معه سواه إذ لا يستحق أن يعبد إلا الحي القيوم ، الذي تعجز عن إدراكه العقول ومدارك الفهوم ، قائم بأمر عباده ، متصرف فيهم ، على وفق مراده ، فأعذر إليهم على ألسنة المرسلين ، وأنزل عليهم الكتب بيانا للمسترشدين ، فنزّل عَلَيْكَ الْكِتابَ منجّما فى عشرين سنة ، متلبسا بِالْحَقِّ ، حتى لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، أو متلبسا بالحجج التي تدفع كل باطل ، أو بالعدل حتى ينتفى به جور كل مائل ، مُصَدِّقاً لما تقدم قبله من الكتب الإلهية إذ هو موافق لما فيها من القصص والأخبار ، فكان شاهدا عليها بالصحة والإبرار.

(٣٢١/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٢٢ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ

[سورة آل عمران (٣) : آية ٤]

مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (٤)

من قبله هاديا لمن كلف باتباعها من الأنام ، أو للجميع ، إذا كان شرع من قبلنا شرعا لنا - معشر أهل الإسلام - ، ثم ختم الوحى بإنزال الْفُرْقانَ ، وكلف بالإيمان به الإنس والجان ، فرّق به بين الحق والباطل ، واندفع به ظلمة كل كافر وجاهل وقدّم ذكره على الكتب لعظم شرفه ، وختم به آخرا لتأخر نزوله.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لمّا أراد الحق جل جلاله أن يشير إلى وحدة الذات وظهور أنوار الصفات ، قدّم قبل ذلك رموزا وإشارات ، لا يفهمها إلا من غاص فى قاموس بحر الذات ، وغرق فى تيار الصفات ، فيستخرج بفكرته من يواقيت العلوم وغوامض الفهوم ، ما تحار فيه الأذهان ، وتكلّ عنه عبارة اللسان ، فحينئذ يفهم دقائق الرموز وأسرار الإشارات ، ويطلع على أسرار الذات وأنوار الصفات ، ويفهم أسرار الكتب السماوية ، وما احتوت عليه من العلوم اللدنية ، والمواهب الربانية ، ويشرق فى قلبه أنوار الفرقان ، حتى يرتقى إلى تحقيق أهل الشهود والعيان. جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه.

ثم هدد من كفر بالفرقان ، بعد وضوح سواطع البرهان ، فقال :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ...

قلت : الانتقام والنقمة : عقوبة المجرم. وفعله : نقم بكسر القاف وفتحها.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ المنزلة على نبيه أو على سائر أنبيائه ، أو الآيات

الدالة على وحدانيته ، لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ يوم يظهر نفوذ الوعد والوعيد ، فينتقم اللّه فيه من المجرمين ، ويتعطف على عباده المؤمنين ، فإن اللَّهُ عَزِيزٌ لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب ، ذُو انْتِقامٍ كبير ولطف كثير. لطف اللّه بنا وبجميع المسلمين. آمين.

الإشارة : ظهور أولياء اللّه لطف من آيات اللّه ، فمن كفر بهم حرم بركتهم ، وبقي فى عذاب الحجاب وسوء الحساب ، تظهر عليه النقمة والمحنة ، حين يرفع اللّه المقربين فى أعلى عليين ، ويكون الغافلون مع عوام المسلمين ، (ذلك يوم التغابن). واللّه تعالى أعلم.

ولمّا وصف الحق جلّ جلاله نفسه بالوحدانية والحياة والقيومية المقتضية للغنى المطلق ، وصف نفسه أيضا بالعلم المحيط والقدرة النافذة ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٥ الى ٦]

إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ من أمر خلقه ، إيمانا أو كفرانا ، طاعة أو عصيانا ، أحاط علمه بما فى السموات العلى وما فى الأرضين السفلى ، كليا كان أو جزئيا ، حسيا أو معنويا ، يعلم عدد الحصى والرمال ، ومكاييل المياه ومثاقيل الجبال ، ويعلم حوادث الضمائر ، وهواجس الخواطر ، بعلم قديم أزلى ، وله قدرة نافذة ، وحكمة بالغة ، فبقدرته صوّر النّطف فى الأرحام كيف شاء سبحانه من نقص أو تمام ، وأتقنها بحكمته ، وأبرزها إلى ما يسّر لها من رزقه ، سبحانه من مدبر عليم ، عزيز حكيم ، لا يعجزه شيء ، ولا يخرج عن دائرة علمه شيء ، لا موجود سواه ، ولا نعبد إلا إياه ، وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

الإشارة : من تحقق أن اللّه واحد فى ملكه ، لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا أفعاله ، وأنه أحاط به علما وسمعا وبصرا ، وأن أمره بين الكاف والنون ، (إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) - كيف يشكو ما نزل به منه إلى أحد سواه؟ أم كيف يرفع حوائجه إلى غير مولاه؟ أم كيف يعول هما ، وسيده من خيره لا ينساه؟ من دبرك فى ظلمة الأحشاء ، وصوّرك فى الأرحام كيف يشاء ، وآتاك كل ما تسأل وتشاء ، كيف ينساك من بره وإحسانه؟ أم كيف يخرجك عن دائرة لطفه وامتنانه؟ وفى ذلك يقول لسان الحقيقة :

تذكّر جميلى فيك إذ كنت نطفة ولا تنس تصويرى لشخصك فى الحشا

وكن واثقا بي في أمورك كلّها سأكفيك منها ما يخاف ويختشى

وسلّم لى الأمر واعلم بأننى أصرّف أحكامى وأفعل ما أشا

ثم وصف كتابه الفرقان بأنه مشتمل على ما هو محكم واضح البيان ، وعلى ما هو متشابه لا يعلمه إلا اللّه ، والراسخون من أهل العرفان ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٧ الى ٩]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (٧) رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (٩)

قلت : (منه) : خبر مقدم ، و(آيات) : مبتدأ ، فيوقف على (الكتاب) ، وقيل : (منه) : نعت لكتاب ، وهو بعيد.

قال ابن السبكى : المحكم : المتضح المعنى ، والمتشابه : ما استأثر اللّه بعلمه ، وقد يطلع عليه بعض أصفيائه.

و(هن أم الكتاب) : جملة ، وحق الخبر المطابقة فيقول : أمهات ، وإنما أفرده على تأويل كل واحدة ، أو على أن الكل بمنزلة آية واحدة. والزيغ : الميل عن الحق. و(الراسخون فى العلم) : معطوف على (اللّه) ، أو مبتدأ إن فسر المتشابه بما استأثر اللّه بعلمه ، كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة ، أو بما دل القاطع على أن ظاهره غير مراد. قاله البيضاوي. و(إذ هديتنا) : ظرف مجرور بالإضافة مسبوك بالمصدر ، أي : بعد هدايتك إيانا.

يقول الحق جل جلاله : إن الذي انفرد بالوحدانية والقيومية ، ولا يخفى عليه شيء فى العالم العلوي والسفلى هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ المبين ، فمنه ما هو آياتٌ مُحْكَماتٌ واضحات المعنى ، لا اشتباه فيها ولا إجمال ، هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ أي : أصله ، يرد إليها غيرها ، وَمنه آيات أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ أي : محتملات ، لا يتضح مقصودها لإجمال أو مخالفة ظاهر إلا بالفحص وجودة الفكر ، ليظهر فضل العلماء النقاد ، ويزداد حرصهم على الاجتهاد فى تدبرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها ، فينال بها ، وبإتعاب القرائح فى استخراج معانيها ، والتوفيق بينها وبين المحكمات ، أعلى

الدرجات وأرفع المقامات.

قال في نوادر الأصول : لمّا تكلم على المتشابه قسّمه على قسمين منه ما طوى علمه إلّا على الخواص كعلم فواتح السور ، ومنه ما لم يصل إليه أحد من الرسل فمن دونهم ، وهو سر القدر لا يستقيم لهم مع العبودية ، ولو كشف لفسدت العبودية ، فطواه عن الرسل والملائكة لأنهم في العبودية ، فإذا زالت العبودية احتملوها أي : أسرار القدر. هـ. ولمثل هذا يشير قول سهل : للألوهية سر - لو انكشف لبطلت النبوة ، وللنبوة سر - لو انكشف لبطل العلم ، وللعلم سر لو انكشف لبطلت الأحكام. هـ.

قلت : فتحصّل أن الكتاب العزيز مشتمل على المحكم والمتشابه. وأما قوله تعالى : كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ فمعناه : أنها حفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ ، وقوله تعالى : كِتاباً مُتَشابِهاً معناه : أنه يشبه بعضه بعضا في صحة المعنى وجزالة اللفظ.

ثم إن الناس في شأن المتشابه على قسمين : فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ : أي : شك ، أو ميل عن الحق ، كالمبتدعة وأشباههم ، فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ، فيتعلقون بظاهره ، أو بتأويل باطل ، ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ أي : طلبا لفتنة الناس عن دينهم : بالتشكيك والتلبيس ، ومناقضة المحكم بالمتشابه ، وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ على ما يشتهون ليوافق بدعتهم.

روى عن عائشة - رضي اللّه عنها - : أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم - قرأ هذه الآية فقال : «إذا رأيتم الذين يسألون عن المتشابه منه ، ويجادلون فيه ، فهم الذين عنا اللّه تعالى ، فاحذروهم ، ولا تجالسوهم».

(و ما يعلم تأويله) على الحقيقة (إلا اللّه) تعالى ، وقد يطلع عليه بعض خواص أوليائه ، وهم (الراسخون) أي : الثابتون في العلم ، وهم العارفون باللّه أهل الفناء والبقاء ، وهم أهل التوحيد الخاص ... فقد أطلعهم تعالى على أسرار غيبه ، فلم يبق عندهم متشابه في الكتاب ولا في السنة ، حال كونهم (يقولون آمنا به) ، وصدقنا أنه من كلامه ، (كلّ من عند ربنا) المحكم والمتشابه ، وقد فهمنا مراده في القسمين ، وهم أولو الألباب ، ولذلك مدحهم فقال :

(و ما يذكّر إلا أولوا الألباب) أي : القلوب الصافية من ظلمة الهوى وغبش الحس.

سئل عليه الصلاة والسلام : من الراسخون في العلم؟ فقال : «من برّ يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، وعفّ بطنه وفرجه ، فذلك الراسخ في العلم». وقال نافع بن يزيد : الراسخون في العلم : المتواضعون لله ، المتذللون في طلب مرضات اللّه ، لا يتعظمون على من فوقهم ، ولا يحقرون من

دونهم. هـ. وقيل : الراسخ فى العلم : من وجد فيه أربعة أشياء : التقوى بينه وبين اللّه ، والتواضع بينه وبين الخلق ، والزهد بينه وبين الدنيا ، والمجاهدة بينه وبين نفسه. هـ. قلت : ويجمع هذه الأوصاف العارف باللّه ، فهو الراسخ فى العلم كما تقدم.

ويقولون أيضا فى تضرعهم إلى اللّه : رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا عن نهج الحق بالميل إلى اتباع الهوى ، بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا إلى طريق الوصول إلى حضرتك ، وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً تجمع قلوبنا بك ، وتضم أرواحنا إلى مشاهدة وحدانيتك ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ تهب للمؤمل فوق ما يؤمل. رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ الجزاء الذي لا رَيْبَ فِيهِ ، فاجمعنا مع المقربين إنك لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ ، فأنجز لنا ما وعدتنا فى ذلك اليوم. وخلف الوعد فى حقه تعالى محال. أما الوعد بالخير فلا إشكال ، وأما الوعيد بالشر ، فإن كان فى معيّن فلا يخلفه ، وإن كان فى الجملة فيخلفه بالعفو. واللّه تعالى أعلم.

وقال فى النوادر أيضا : لمّا ردّ الراسخون فى العلم علم المتشابه إلى عالمه ، حيث قالوا : آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا ، خافوا شره النفوس لطلبها فإنّ العلم لذيذ ، وفتنة تلك اللذة لها عتاب ، ففزعوا إلى ربهم فقالوا : رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، علموا أن الرحمة تطفئ تلك الفتنة. ولما كان يوم القيامة ينكشف فيه سر القدر حنوا إليه فقالوا : رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ ... الآية. سكنوا نفوسهم لمجىء ذلك اليوم الذي تبطن فيه الحكمة ، وتظهر فيه القدرة. هـ. بالمعنى.

الإشارة : إذا صفت القلوب ، وسكنت فى حضرة علام الغيوب ، تنزلت عليها الواردات الإلهية والعلوم اللدنية ، والمواهب القدسية ، فمنها ما تكون محكمات المبنى ، واضحات المعنى ، ومنها ما تكون مجملة فى حال ورودها ،

وبعد الوعى يكون البيان ، فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ

.

وقد تكون خارجة عن مدارك العقول. فأما أهل الزيغ والانتقاد فيتبعون المتشابه من تلك الواردات ، ابتغاء فتنة العامة ، وصرفهم عن طريق الخاصة ، وابتغاء تأويله ، ليقيم عليه حجة الشريعة ، (و ما يعلم تأويله إلا اللّه) ، أو من تحقق فناؤه فى اللّه ، وهم الراسخون فى معرفة اللّه ، يقولون : (آمنا به كل من عند ربنا) إذ القلوب المطهرة من الهوى لا تنطق عن الهوى ، وهم أرباب القلوب يقولون : (ربنا لا تزغ قلوبنا) عن حضرة قدسك (بعد إذ هديتنا) إلى الوصول إليها ، (و هب لنا من لدنك رحمة) تعصمنا من النظر إلى سواك ، (إنك أنت الوهاب) ربنا إنك جامع الناس. وهم السائرون إليك ليوم لا ريب فى

الوصول إليه ، وهو يوم اللقاء ، (إنك لا تخلف الميعاد) فاجمع بيننا وبينك ، وحل بيننا وبين من يقطعنا عنك (إنك على كل شيء قدير).

ثم هدد أهل الزيغ والفساد ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٠ الى ١١]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (١١)

قلت : (الوقود) بالفتح : الحطب ، وبالضم : المصدر ، (كذأب آل فرعون) خبر ، أي : دأبهم كدأب آل فرعون.

والدأب : مصدر دأب ، إذا دام ، ثم نقل إلى الشأن والعادة ، و(كذبوا) : حال بإضمار «قد» ، أو مستأنف ، تفسير حالهم ، أو خبر إن ابتدأت بالذين من قبلهم.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بما أنزلته ، على نبينا محمد - عليه الصلاة السلام - ، إذا عاينوا العذاب لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ ، أي : بدلا من رحمته أو طاعته ، أو بدلا من عذابه ، شَيْئاً ، وأولئك هم حطب جهنم ، فشأنهم كشأن آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، قد كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ أي : أهلكهم ، وشدد العقوبة عليهم ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ لمن أعرض عنه وركن إلى غيره.

الإشارة : كل من جحد أهل الخصوصية ، وفاته حظه من مشاهدة عظمة الربوبية ، حتى حصل له الطرد والبعاد ، وفاته مرافقة أهل المحبة والوداد ، لن تغنى عنه - بدلا مما فاته - أموال ولا أولاد ، واتصلت به الأحزان والأنكاد كما قال الشاعر :

من فاته منك وصل حظّه الندم ومن تكن همّه تسمو به الهمم

وقال آخر :

من فاته طلب الوصول ونيله منه ، فقل : ما الذي هو يطلب!

حسب المحبّ فناؤه عما سوى محبوبه إن حاضر ومغيّب

وقال آخر :

لكلّ شيء إذا فارقته عوض وليس لله إن فارقت من عوض

وفي الحكم : «ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضى دونك بدلا ، ولقد

خسر من بغى عنك متحولا». فكل من وقف مع شيء من السّوى ، وفاته التوجه إلى معرفة المولى ، فهو فى نار القطيعة والهوى ، مع النفوس الفرعونية ، وأهل الهمم الدنية. نسأل اللّه تعالى العافية.

ثم بدأ بعتاب اليهود ، بعد أن قرر شأن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من المحكم والمتشابه ، توطئة للكلام معهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٢ الى ١٣]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ (١٢) قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (١٣)

قلت : لمّا رجع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من غزوة بدر غالبا منصورا بالغنائم والأسارى ، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع ، وقال لهم : يا معشر اليهود ، اتقوا اللّه وأسلموا ، فإنكم تعلمون أنى رسول اللّه حقا ، واحذروا أن ينزل اللّه بكم من نقمته ما أنزل على قريش يوم بدر ، فقالوا : يا محمد ، لا يغرّنّك لا أنك لقيت أغمارا لا علم لهم بالحرب ، لئن قاتلتنا لتعلمنّ أنّا نحن الناس. فأنزل اللّه فيهم هذه الآية.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لِلَّذِينَ كَفَرُوا من بنى إسرائيل ، أو مطلقا : سَتُغْلَبُونَ إن قاتلتم المسلمين ، وَتُحْشَرُونَ بعد الموت والهزيمة إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ ما مهدتم لأنفسكم من العذاب ، وقد صدق وعده بقتل قريظة ، وإجلاء بنى النضير ، وفتح خيبر ، وضرب الجزية على من عداهم. فقد غلبوا أينما ثقفوا ، وحشروا إلى جهنم ، إلا من أسلم منهم.

ثم ندبهم للاعتبار بما وقع من النصر للمسلمين يوم بدر فقال لهم : قَدْ كانَ لَكُمْ يا معشر اليهود ، آيَةٌ أي :

عبرة ظاهرة ، ودلالة على صدق ما أقول لكم : إنكم ستغلبون ، فِي فِئَتَيْنِ أي : جماعتين الْتَقَتا يوم بدر ، وهم

المسلمون ، وكانوا ثلاثمائة وأربعة عشر ، والمشركون كانوا زهاء ألف ، فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وهم المؤمنون ، وَأُخْرى كافِرَةٌ ، وهم المشركون ، يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ أي : ترون ، يا معشر اليهود ، الكفار مثلى عدد المسلمين رأى تحقيق ، ومع ذلك أيدهم اللّه بالنصر والمدد حتى نصرهم على عدوهم ، وكذلك يفعل بهم معكم.

والرؤية ، على هذا ، علمية. ومن قرأ (بالياء) يكون الضمير راجعا للكفار ، أي : يرى الكفار المسلمين مثليهم ، وذلك بعد أن قللهم اللّه فى أعينهم حتى اجترءوا عليهم ، وتوجهوا إليهم ، فلما لاقوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا ، مددا من اللّه للمؤمنين.

أو : يرى المؤمنون المشركين مثلى المؤمنين ، وكانوا ثلاثة أمثالهم ، ليثبتوا لهم ، ويتيقنوا بالنصر الذي وعدهم اللّه بقوله : إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ... الآية. وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ أي : يقوى بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ نصره ، كما أيد أهل بدر ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ المفتوحة. وذلك حين نصر اللّه قوما لا عدد لهم ولا عدة ، على قوم لهم عدد وعدة ، فلم تغن عنهم من اللّه شيئا.

الإشارة : إذا توجه القلب إلى مولاه تعرض له جندان ، أحدهما : جند الأنوار ، وهو جند القلب ، والثاني : جند الأغيار ، وهو جند النفس ، فيلتحم بينهما القتال ، فجند الأنوار يريد أن يرتقى بالروح إلى وطنها وهو حضرة الأسرار ، وجند الأغيار يريد أن يهبط بالنفس إلى أرض الحظوظ والشهوات ، فيحبسها فى سجن الأكوان ، فإذا أراد اللّه تعالى سعادة عبد ، قوى له جند الأنوار ، وضعّف عنه جند الأغيار ، فينهزم عنه جند الأغيار ، ويستولى على قلبه جند الأنوار ، فلا تزال الأنوار تتوارد عليه حتى تشرق عليه أنوار المواجهة ، فيدخل حضرة الأسرار ، وهى حضرة الشهود ، ويتحصن فى جوار الملك الودود ، وتناديه ألسنة الهواتف : أيها العارف ، قل للذين كفروا ، وهم جند الأغيار : ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد. وإذا أراد اللّه خذلان عبده ، بعدله ، قطع عنه مدد الأنوار ، وقوى لديه جند الأغيار ، فتستولى ظلمة النفس على نور القلب ، فتحبسه فى سجن الأكوان ، وتسجنه فى ظلمة هيكل الإنسان ، (و اللّه يويد بنصره من يشاء). ففى التقاء جندى الأنوار والأغيار عبرة لأولى الأبصار.

ثم بيّن الحق تعالى مدد جند الأغيار ، والذي منع الأبصار من الاعتبار ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٤]

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعامِ وَالْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)

قلت : (زين) : بحذف الفاعل ، وهو اللّه ، حقيقة إذ لا فاعل سواه ، أو الشيطان ، شريعة إذ هو منديل لمسح أوساخ الأقذار. والقنطار : المال الكثير ، وقيل : مائة ألف دينار ، وقيل : ملء مسك الثور. وروى عنه – عليه الصلاة والسلام – أنه قال : «القنطار : ألف دينار» ، وفى رواية : «ألفا دينار» ،

وفي عرفنا اليوم : ألف مثقال.
والمقنطرة : المنضدة بعضها فوق بعض ، وسمى الذهب ذهبا لذهابه وفنائه ، أو لذهابه بالقلوب عن حضرة الغيوب ، وسميت الفضة فضة لأنها تنفض أي : تنفرق ، أو تفرق القلوب لمن اشتغل بها.
والمسوّمة : المعلمة أو الراعية أو المطهمة الحسان.
يقول الحق جل جلاله : زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ والركون إلى المألوفات ، حتى صرفهم ذلك عن النظر والاعتبار ، أو الشهود والاستبصار ، وذلك لمن وقف مع متعتها ، وغرته شهوة لذتها ، وأما من ذكرته نعيم الجنان ، وأعانته على طاعة الملك الديان ، فلم يقف مع متعتها ، ولا التفت إلى عاجل شهوتها ، بل نزل إليها بالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين ، فلا يشمله تحذير الآية لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «حبّب إليّ من دنياكم ثلاث ...» الحديث.
وقال بعض الأولياء : [كل شهوة تحجب القلب عن اللّه ، إلا شهوة الجماع] يعنى الحلال ، وقال الورتجبي :
ابتلاهم حتى يظهر الصادق بترك هذه الشهوات ، من الكاذب بالشروع فى طلبها ، قيل : من اشتغل بهذه الأشياء قطعته عن طريق الحق ، ومن استصغرها وأعرض عنها ، عوض عليها السلامة منها ، وفتح له الطريق إلى الحقائق. هـ.
ثم بدأ برأس الشهوات فقال : مِنَ النِّساءِ وذلك لمن شغف بهن فصرف عن ذكر اللّه ، أو تناولهن على وجه الحرام. وفى الخبر عنه - عليه الصلاة والسلام - : «ما تركت فى الناس بعدي فتنة أضرّ على الرّجال من النّساء».
وفى خبر آخر : «النظر إلى محاسن المرأة من سهام إبليس». ومن ثمّ جعلن فى القرآن عين الشهوات ، قال تعالى :
زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ.
وقال بعض العارفين : ما أي الشيطان من إنسان قط إلا أتاه من قبل النساء. وقال على رضى اللّه عنه : أيها الناس ، لا تطيعوا للنساء أمرا ، ولا تدعوهنّ يدبرن أمر عيش ، فإنهن إن تركن وما يردن أفسدن الملك ، وعصين المالك ، وجدناهن لا دين لهن فى خلواتهن ، ولا ورع لهن عند شهواتهن ، اللذة بهن يسيرة ، والحيرة بهن كثيرة ، فأما صوالحهن ففاجرات ، وأما طوالحهن فعاهرات - أي : زانيات - ، وأما المعصومات فهن المعدومات ، يتظلمن وهن

الظالمات ، ويتمنعن وهن الراغبات ، ويحلفن وهن الكاذبات ، فاستعيذوا باللّه من شرارهن ، وكونوا على وجل من خيارهن ، والسلام. هـ. «١»

وَالْبَنِينَ : قال - عليه الصلاة والسلام - : «إنهم لثمرة القلوب ، وقرّة الأعين ، وإنهم مع ذلك لمجبنة مبخلة محزنة». وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ : أي : المجموعة المنضدة ، مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ أي : المعلمة : وهى البلق ، أو غيرها ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والمغنم». وعن أنس قال : (لم يكن شىء أحب إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم بعد النساء ، من الخيل). وعن أبى وهب الجشمي قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «ارتبطوا الخيل ، وامسحوا بنواصيها ، وقلّدوها ، ولا تقلدوها الأوتار ، وعليكم بكل كميت «٢» أغر محجّل ، أو أشقر أغر محجل ، أو أدهم أغر محجّل». وعن خباب رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم :

«الخيل ثلاثة : فرس للرحمن ، وفرس للإنسان ، وفرس للشيطان ، فأما فرس الرحمن فما اتخذ لله فى سبيل اللّه ، وقوتل عليه أعداء اللّه ، وأما فرس الإنسان فما استطرق عليه - أي : ركب عليه فى طريق حوائجه ، وأما فرس الشيطان فما روهن عليه ، وقومر عليه». وفى البخاري ما يشهد لهذا.

ومما زين للناس أيضا : حب الْأَنْعامِ ، وهى الإبل والبقر والغنم ، إن شغلته عن ذكر اللّه ، ومنع منها حق اللّه ، وَالْحَرْثِ أي : الزراعة والغراسة ، ذلِكَ الذي ذكرت مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا الفانية الزائلة ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ، أي : المرجع فى دار البقاء التي لا يفنى نعيمها ، ولا تنقطع حياتها إلى أبد الأبد.

الإشارة : كل ما يقطع القلب عن الشهود ، أو يفتّره عن السير إلى الملك المعبود ، فهو شهوة ، كائنا ما كان ، أغيارا أو أنوارا ، أو علوما أو أحوالا ، أو غير ذلك ، فالنساء الأغيار ، والبنون الأنوار ، والقناطير المقنطرة من الذهب علوم الطريقة ، والفضة علوم الشريعة ، والخيل المسومة هى الأحوال ، والأنعام الأذكار ، والحرث استعمال الفكرة.

فكل من وقف مع حلاوة شىء من هذا ، ولم يفض إلى راحة الشهود والعيان ، فهى فى حقه شهوة. وبعد أن ذكر الحق تعالى أنواعا من الشهوات ، زهّد فيها فقال : ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قال أبو هاشم الزاهد رضي اللّه عنه : وسم اللّه الدنيا بالوحشة ليكون أنس المريد بربه دونها ، وليقبل المطيعون بالإعراض عنها ، وأهل المعرفة باللّه من الدنيا مستوحشون ، وإلى اللّه مشتاقون. هـ.

---

(١) هذا الكلام مشكوك فى نسبته لسيدنا «على» كرم الله وجهه. ومن يستطلع تاريخ السلف الصالح يقف على أمثلة كثيرة وعديدة لنساء صالحات تفوقن على كثير من الرجال فى الصلاح.

(٢) الكميت : مالونه بين السواد والحمرة.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٣١
وقد تعوذ النبي صلّى اللّه عليه وسلم من شر فتنتها ، غناها وفقرها. وأكثر القرآن مشتمل على ذمها ، وتحذير الخلق منها ، بل ما من داع يدعو إلى اللّه تعالى إلا وقد حذر منها ، ورغّب فى الآخرة ، بل هو المقصود بالذات من بيان الشرائع ، وكيف لا - وهى عدوة اللّه لقطعها طريق الوصلة إليه ، ولذلك لم ينظر إليها منذ خلقها. وعدوة لأوليائه لأنها تزينت بزينتها حتى تجرعوا مرارة الصبر فى مقاطعتها ، وعدوة لأعدائه لأنها استدرجتهم بمكرها ، واقتنصتهم بشبكتها ، فوثقوا بها ، فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها. كفانا اللّه شرها بمنّه وكرمه.
ثم نبه الحق تعالى على ما هو المقصود الأهم لمن له عقل وافر ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٥ الى ١٧]
قُلْ أَأُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَقِنا عَذابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ (١٧)
قلت : (للذين) : خبر ، و(جنات) : مبتدأ ، وهو استئناف لبيان الخيرية ، والرضوان فيه لغتان : الضم والكسر ، كالعدوان والطغيان ، و(الذين يقولون) : بدل من (الذين اتقوا) ، أو خبر عن مضمر ، أو منصوب على المدح ، أو بدل من العباد ، و(الصابرين) وما بعده : نعت الموصول.
يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : أأخبركم بِخَيْرٍ من الذي ذكرت لكم من الشهوات الفانية واللذات الزائلة ، وهو ما أعد اللّه للمتقين عند لقاء ربهم ، وهو جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تحت قصورها الأنهار من الماء واللبن والعسل والخمر ، خالِدِينَ فِيها ، لا كنعيم الدنيا الفاني ، ولهم فيها أَزْواجٌ من الحور العين ، مطهرات من الحيض والنفاس وسائر المستقذرات ، وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ الذي هو (أكبر) النعم.
فانظر : كيف ذكر الحق - جل جلاله - أدنى النعيم وأوسطه وأعلاه؟ فأدناه : متاع الدنيا الذي زين للناس ، وأوسطه : نعيم الجنان ، وأعلاه : رضى الرحمن. وفى الحديث الصحيح عنه صلى اللّه عليه وسلم : «يقول اللّه تعالى لأهل الجنّة :
يا أهل الجنّة ، فيقول أهل الجنّة : لبّيك ربّنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : ما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون : يا ربنا ، وأىّ شىء أفضل من ذلك؟ قال : أحلّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا».

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٣٢
وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ، فيثيب المحسن ، ويعاقب المسيء ، أو : (بصير) بأحوال المتقين.
الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَقِنا عَذابَ النَّارِ. وفى ترتيب السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنه كاف فى استحقاق المغفرة والاستعداد لها.
ثم وصف المتقين بقوله : الصَّابِرِينَ على أداء الأمر واجتناب النهى ، وفى البأساء والضراء وحين البأس ، وَالصَّادِقِينَ فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، فاستوى سرهم وعلانيتهم ، وَالْقانِتِينَ أي : المطيعين ، وَالْمُنْفِقِينَ أموالهم فى سبيل اللّه ، وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة لأن العبادة حينئذ أشق ، والنفس أصفى ، والروح أجمع ، ولا سيما للمتهجدين.
قيل : إنهم كانوا يصلون إلى السحر ، ثم يستغفرون ويدعون ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : (إن اللّه تعالى يقول : إنى لأهمّ بأهل الأرض عذابا ، فإذا نظرت إلى عمّار بيوتى ، وإلى المتهجدين ، وإلى المتحابين فىّ ، وإلى المستغفرين بالأسحار ، صرفت عنهم العذاب).
وقال سفيان : إن لله ريحا يقال لها الصيحة ، تهبّ وقت السحر ، تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار.
قال : وبلغنا أنه إذا كان أول الليل ، نادى مناد : ألا ليقم القانتون ، فيقومون يصلون إلى السحر ، فإذا كان وقت السحر ، ينادى مناد : أين المستغفرون بالأسحار؟ فيستغفر أولئك ، ويقوم آخرون ، ويصلون ، فيلحقون بهم ، فإذا طلع الفجر ، نادى مناد : ألا ليقم الغافلون ، فيقومون من فرشهم كالموتى إذا نشروا من قبورهم.
الإشارة : للذين اتقوا شهود السّوى عند ربهم جنات المعارف ، تجرى من تحتها أنهار العلوم ، وأصناف الحكم ، مطهرة من العلل ، منزهة من الخلل ، تهب عليهم نسيم الرضوان ، تحمل الرّوح والريحان ، مخلدون فى نعيم الشهود والعيان ، واللّه بصير بعباده المخلصين ، المنزّهين من العيوب ، المبرّئين من درن الذنوب ، الصابرين على دوام المجاهدة ، والصادقين فى طلب المشاهدة ، والقانتين لأحكام العبودية ، والمنفقين أنفسهم ومهجهم فى طلب مشاهدة أنوار الربوبية ، والمستغفرين من شهود الأغيار ، وخصوصا إذا هب نسيم الأسحار ، فإن كثيرا من العباد والزهاد شغلتهم حلاوة نسيم الأسحار عن مطالعة أسرار الجبار ، وهى أسرار التوحيد التي أشار إليها بقوله :
[سورة آل عمران (٣) : آية ١٨]
شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

قلت : (قائما) : حال من (اللّه) ، وإنما جاز من بعض المعطوفات لعدم اللبس ، كقوله : وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً ... ، ولا يجوز : جاء زيد وعمرو راكبا لعدم القرينة ، أو من (هو) ، والعامل الجملة لأنه حال مؤكدة ، أي : تفرد قائما ، أو حقه قائما ، (بالقسط) أي : العدل ، و(إن الدين) : جملة مستأنفة مؤكدة للأولى ، أي : لا دين مرضى عند اللّه سوى الإقرار بالشهادة والدخول فيما جاء به محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، ومن قرأ بالفتح فهو بدل من (أنه) ، بدل الكل ، إن فسر الإسلام بالإيمان ، وبدل الاشتمال إن فسر بالشريعة.
يقول الحق جل جلاله : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أي : بيّن وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها ، وإنزال الآيات الناطقة بها ، أو بتدبيره العجيب وصنعته المتقنة وأموره المحكمة ، وفى ذلك يقول القائل :

يا عجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد؟!
وللّه فى كل تحريكة وتسكينة أبدا شاهد
وفى كلّ شىء له آية تدلّ على أنّه واحد «١»

وقيل لبعض العرب : ما الدليل على أن للعالم صانعا؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، وآثار القدم تدل على المسير ، فهيكل علوى بهذه اللطافة ، ومركز سفلى بهذه الكثافة ، أما يدلان على الصانع الخبير؟! وَشهدت الْمَلائِكَةُ أيضا بالإقرار بالوحدانية والإخبار بها ، وَأُولُوا الْعِلْمِ وهم : الأنبياء والعلماء باللّه ، بالإيمان بها والاحتجاج عليها ، شبه ذلك فى البيان والكشف بشهادة الشاهد. وفيه دليل شرف أهل العلم وفضلهم ، حيث قرن شهادتهم بشهادته لأن العلم صفة اللّه العليا ونعمته العظمى ، والعلماء أعلام الإسلام ، والسابقون إلى دار السلام ، وسرج الأمكنة وحجج الأزمنة.
وعن جابر قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «ساعة من عالم يتّكىء على فراشه ، ينظر فى علمه ، خير من عبادة العابد سبعين عاما». وعن معاذ قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، ومدارسته تسبيح ، والبحث فيه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وتذكّره فى أهله قربة». ثم قال فى آخر الحديث فى فضل أهل العلم : «وترغب الملائكة فى خلّتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، وفى صلاتها تستغفر لهم ، وكلّ رطب ويابس يستغفر لهم. حتى حيتان البحر وهوامّه ، وسباع الأرضين وأنعامها ، والسماء ونجومها ، ألا وإن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ بالعبد منزل الأحرار ومجالسة الملوك ، والفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وبه توصل الأرحام ، العلم إمام والعمل تابعه ،

يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء».

---

(١) الأبيات لأبى العتاهية ، انظر ديوانه ١٢٢. وذكرها الأصبهانى فى محاضرات الأدباء ٣/ ٣٩٨ منسوبة للبيد.

حال كون الحق تعالى قائِماً بِالْقِسْطِ أي : مدبّرا لأمر خلقه بالعدل ، فيما حكم وأبرم ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، كرر الشهادة للتأكيد ، ومزيد الاعتبار بأمر التوحيد ، والحكم به ، بعد إقامته الدليل. عليه وقال جعفر الصادق :

(الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم). أي : قولوا : لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، أو ليرتب عليه قوله : الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، فيعلم أنه الموصوف بهما ، وقدّم «العزيز» ليتقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٩]

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٩)

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ أي : إن الدين المرضى عند اللّه هو الانقياد لأمر التوحيد والإذعان لمن جاء به. وروى عن أنس رضي اللّه عنه قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «من قرأ هذه الآية عند منامه خلق اللّه تعالى سبعين ألف خلق يستغفرون اللّه له إلى يوم القيامة» «١». وهى أعظم شهادة فى كتاب اللّه ، «من قرأها إلى (الحكيم) وقال : وأنا أشهد بما شهد اللّه به ، وأستودع اللّه هذه الشهادة ، وهى لى عند اللّه وديعة ، يقول الحق تعالى : إن لعبدى هذا عندى عهدا وأنا أحقّ من وفّى بالعهد ، أدخلوا عبدى الجنة» «٢».

الإشارة : صدر الآية يشير إلى الفرق ، وعجزها يشير إلى الجمع ، كما هى عادته تعالى فى كتابه العزيز ، يشرع أولا ، ويحقّق ثانيا ، فأثبت الحق - جل جلاله - شهادة الملائكة وأولى العلم مع شهادته لإثبات سر الشريعة ، ثم محاها بقوله : (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) بحكم الحقيقة. فإثبات الرسوم شريعة ، ومحوها حقيقة ، فتوحيد أهل الرسوم والأشكال دلالة من وراء الحجاب ، وتوحيد أهل المحو والاضمحلال شهادة من داخل الحجاب ، وتوحيد أهل الرسوم دلالة وبرهان ، وتوحيد أهل المحو شهادة وعيان ، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان.

إثبات الرسوم إسلام وإيمان ، ومحوها شهود وإحسان ، وكل توحيد لم تظهر ثمرته على الجوارح من

الإذعان والانقياد لأحكام العبودية فهو مخدج «٣» ، لقوله تعالى : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ أي ، الانقياد والإذعان ، ظاهرا وباطنا ، لأحكام القهرية والتكليفية ، فمن لا انقياد له لا دين له كاملا.
ثم ذكر من سبق له الخذلان بعد سطوع الدليل والبرهان ، فقال :
وَمَا اخْتَلَفَ ...

---

(١) ذكره ابن عراق فى تنزيه الشريعة ١/ ٢٩٨ وعزاه لأبى نعيم ، من حديث أنس. وفيه مجاشع بن عمرو ، قال ابن معين : أحد الكذابين.
(٢) أخرجه الطبراني فى الكبير والبيهقي فى الشعب ، قال فى العلل المتناهية ١/ ١١٠ : هذا حديث لا يصح ، تفرد به عمر بن المختار ، وعمر يحدث بالأباطيل.
(٣) الخداج : هو النقصان. وأصله : من خدجت الناقة إذا ألقت ولدها قبل أوانه ، لغير تمام الأيام ، وإن كان تام الخلق ، أو ألقته ناقص الخلق ، وإن كانت أيامه تامة ، فهى مخدح والولد مخدج.

قلت : (بغيا) : مفعول له ، علة للاختلاف.
يقول الحق جل جلاله : وَمَا اخْتَلَفَ اليهود والنصارى فى حقيقة الإسلام والتدين به ، إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ أي : من بعد ما تمكنوا من العلم بصحته ، وأن الدين عند اللّه هو الإسلام ، فجحدوه ظلما وحسدا.
أو ما اختلف أرباب الكتب المتقدمة فى دين الإسلام فأثبته قوم ، وقال قوم : إنه مخصوص بالعرب ، ونفاه آخرون مطلقا ، إلا من بعد ما ثبت لهم العلم بصحته وعموم الدعوة له. أو فى التوحيد فثلث النصارى ، وقالت اليهود :
عزيز ابن اللّه ، بعد ما صح لهم العلم بالتوحيد فغيروا. وقال الربيع : إن موسى عليه السّلام لما حضره الموت ، دعا سبعين حبرا من قومه ، فاستودعهم التوراة ، فلما مضى القرن الأول والثاني والثالث وقعت بينهم الفرقة ، وهم :
الذين أوتوا الكتاب من أبناء السبعين ، فأراقوا الدماء ووقع بينهم الشر والاختلاف.
وذلك من بعد ما جاءهم العلم ، يعنى بيان ما فى التوراة ، (بغيّا بينهم) أي : طلبا للملك والرئاسة والتحاسد ، فسلط عليهم الجبابرة ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ المنزلة على رسوله ، أو الدالة على وحدانيته ، فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ لا يشغله شأن عن شأن ، وفيه تهديد لأهل الاختلاف.

الإشارة : الاختلاف على الصوفية ، والإنكار عليهم ، إن كان بغيا وحسدا وخوفا على زوال رئاسة المنكر ، فهذا معرض لمقت اللّه ، فقد آذن بحرب اللّه ، ووباله سوء الخاتمة ، والعياذ باللّه ، وفى ذلك يقول القائل :

هممهم تقضى بحكم الوقت منكرهم معرّض للمقت

وإن كان غيرة على الشريعة ، وسدّا لباب الذريعة ، فهذا معذور أو مأجور إن صح قصده ، وهو منخرط فى سلك الضعفاء ، قال تعالى : لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، ولا ينكر على الفقير إلا المحرّم المجمع على تحريمه ، وليس فيه تأويل ، كالزنى بالمعينة ، واللواط ، وشبهه ، والمؤمن يلتمس المعاذر ، والمنافق يلتمس العيوب ، وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم بيّن الحق تعالى الدواء فى أذى المنكر ، وهو الإعراض عنه ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٢٠]

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (٢٠)

قلت : (و من اتبعن) ، عطف على فاعل (أسلمت) الضمير «١».

---

(١) أي : التاء في أسلمت.

يقول الحق جل جلاله : فَإِنْ حَاجُّوكَ فى الدين ، وخاصموك فيه ، بعد ما أقيمت الحجج على صحته ، فَقُلْ لهم : أما أنا فقد أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ، وانقدت بكليتى إليه ، وتمسكت بدينه القويم ، الذي قامت الحجج على حقيته ، وكذلك من تبعني من المؤمنين. وخص الوجه بالانقياد لأنه أشرف الأعضاء ومحل ظهور المحاسن ، فإذا انقاد الوجه فقد انقاد الكل.

وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ من اليهود والنصارى ، وَالْأُمِّيِّينَ الذين لا كتاب لهم من المشركين : أَأَسْلَمْتُمْ كما أسلمت ، لما وضحت لكم من الحجة؟ أم أنتم على كفركم بغيا وحسدا؟ والاستفهام معناه الأمر ، كقوله : فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أي : أسلموا ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وأنقذوا أنفسهم من الهلاك ، وَإِنْ تَوَلَّوْا وأعرضوا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ ، ولا يضرك عنادهم ، فقد بلغت ما أمرت به. وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ لا يخفى عليه من أسلم ممن تولى.

روى أنه – عليه الصلاة والسلام – قرأ عليهم هذه الآية ، فقال لليهود : «أتشهدون أن عزيرا عبد اللّه ورسوله وكلمته؟» فقالوا : معاذ اللّه ، وقال للنصاوى : «أتشهدون أن عيسى عبد اللّه ورسوله؟» فقالوا : معاذ اللّه أن يكون عيسى عبدا. فنزل قوله تعالى : وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الآية.

الإشارة : لا يليق بالفقير ، إذا توجه إليه الإنكار أو المجادلة والاستظهار ، إلا السكوت والإقرار ، والاستسلام بكليته لأحكام الواحد القهار ، إذ لا يرى فاعلا إلا اللّه ، فلا يركن إلى شىء سواه. وفى الحكم : «إنما أجرى الأذى عليهم لئلا تكون ساكنا إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شيء ، حتى لا تكون ساكنا إلى شى ء». وقال بعض العارفين : لا تشتغل قط بمن يؤذيك ، واشتغل باللّه يرده عنك ، وقد غلط فى هذا خلق كثير ، اشتغلوا بمن يؤذيهم ، فطال عليهم الأذى مع الإثم ، ولو أنهم رجعوا إلى مولاهم لكفاهم أمرهم. هـ. بالمعنى. وبهذا يأمر الشيخ أتباعه ، فإن انقادوا لأحكام الحق ، فقد اهتدوا إلى طريق الوصول ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والهداية بيد السميع البصير.

ثم وبّخ اليهود بما وقع لأسلافهم من البغي والفساد ، وهم راضون بذلك ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٢)

قلت : إنما دخلت الفاء فى خبر إنّ لتضمن اسمها معنى الشرط لعموم الموصول وإبهامه ، وهو خاص بإنّ ، دون ليت ولعل لأن «إن» لا تغير معنى الابتداء ، وإنما تؤكده. وقيل : الخبر : (أولئك ..) إلخ.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ أي : بحججه الدالة على توحيده ، وصحة نبوة رسله ، أو بكلامه ، وهم اليهود ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ بل بغيا وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بالعدل وترك الظلم من الأحبار ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ موجع ، أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ أي : بطلت ، فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فلا ينتفعون بها فى الدارين ، وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ يمنعونهم من العذاب.

وعن أبى عبيدة بن الجراح رضي اللّه عنه قال : سألت النبي صلّى اللّه عليه وسلم أىّ النّاس أشدّ عذابا يوم القيامة؟ قال : «رجل قتل نبيا ، أو رجل أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ، ثم قرأ النبي صلّى اللّه عليه وسلم وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ الآية ، ثم قال : يا أبا عبيدة ، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا أوّل النّهار فى ساعة ، فقام مائة وعشرون من عبّاد بنى إسرائيل فأمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر ، فقتلوهم جميعا من آخر النّهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكرهم فى كتابه ، وأنزل الآية فيهم». هـ.

من الثعلبي.
الإشارة : ذكر فى الآية الأولى تشجيع المريدين ، وأمرهم بالصبر والتسليم لإذاية المؤذين ، وذكر هنا وبال المؤذين الجاحدين لخصوصية المقربين ، فالأولياء والعلماء ورثة الأنبياء ، فمن آذاهم فله عذاب أليم ، فى الدنيا بغم الحجاب وسوء المنقلب ، وفى الآخرة بالبعد عن ساحة المقربين ، وبالسقوط إلى درك الأسفلين ، واللّه تعالى أعلم.
ومن مساوئ اليهود أيضا إعراضهم عن الحق إذا توجه إليهم ، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٢٣ الى ٢٥]
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٥)
قلت : التنكير فى (نصيب) يحتمل التحقير والتعظيم ، والأول أقرب. وجملة : (و هم معرضون) حال من (فريق) لتخصيصه بالصفة.
يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد ، أو من تصح منه الرؤية ، إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ وهم : اليهود ، تمسكوا بشيء من التوراة ، ولم يعملوا به كلّه ، كيف يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ القرآن لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فيما اختلفوا فيه من أمر التوحيد وصحة نبوته - عليه الصلاة والسلام ، فأعرضوا عنه ، أو المراد بكتاب اللّه : التوراة. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : (دخل النبي صلّى اللّه عليه وسلم على جماعة من اليهود ، فدعاهم إلى اللّه تعالى ، فقال نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أىّ دين أنت يا محمّد؟ قال : «على ملّة إبراهيم» قالا : إنّ إبراهيم كان

يهوديا ، فقال لهما النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «فهلمّوا إلى التّوراة فهى بيننا وبينكم» فأبيا عليه ، فنزلت الآية). وقيل : نزلت فى الرجم ، على ما يأتى فى العقود.
ذلِكَ الإعراض بسبب اغترارهم وتسهيلهم أمر العقاب ، فقالوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ أربعين يوما ، قدر عبادتهم العجل ، ثم يخلفهم المسلمون ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ بزعمهم الفاسد وطمعهم الفارغ.
يقول الحق جل جلاله : فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ ، وهذا تهويل لشأنهم ، واستعظام لما يحيق بهم ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ من خير أو شر ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ أي : لا يبخسون من أعمالهم

شيئا ، فلا ينقص من الحسنات ، ولا يزاد على السيئات. وفيه دليل على أن المؤمن لا يخلد فى النار.
قال ابن عباس : (أول راية ترفع لأهل الموقف ، ذلك اليوم ، راية اليهود ، فيفضحهم اللّه تعالى على رءوس الأشهاد ، ثم يؤمر بهم إلى النار).
الإشارة : ترى كثيرا ممن ينتسب إلى العلم والدين ينطلق لسانه بدعوى الخصوصية ، وأنه منخرط فى سلك المقربين ، فإذا دعى إلى حق ، أو وقف على عيب من عيوب نفسه ، أعرض وتولى ، وغرته نفسه ، وغلبه الهوى ، فجعل يحتج لنفسه بما عنده من العلم أو الدين ، أو بمن ينتسب إليهم من الصالحين ، فكيف يكون حاله إذا أقبل على اللّه بقلب سقيم ، ورأى منازل أهل الصفا ، الذين لقوا اللّه بقلب سليم ، حين ترفع درجاتهم مع المقربين ، ويبقى هو مع عوام أهل اليمين؟ قال تعالى : وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ الآية.
ثم ذكر الحق تعالى نزع ملك أهل الكتاب ، وسلب عزهم ، وانتقاله إلى المسلمين ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٢٦ الى ٢٧]
قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٢٧)
قلت : (اللهم) منادى مبنى على الضم ، حذفت منه الياء المتضمنة للفرق ، وعوضت منها الميم المؤذنة بالجمع ، لئلا يبقى بين الداعي والمدعو فرق «١» ، و(مالك) : نعت لمحل المنادى لأنه مفعول ، ومنادى ثان عند سيبويه ، لأن الميم عنده تمنع الوصفية.
يقول الحق جل جلاله : قُلِ يا محمد فى استنصارك على عدوك : اللَّهُمَّ يا مالِكَ الْمُلْكِ ملك الدنيا وملك الآخرة ، تُؤْتِي الْمُلْكَ والنصر مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ ، فهب لنا ملك الدارين ،

---

(١) هذا توجيه إشارى. [.....]

والنصر على الأعداء فى كل أين ، وأنزع الملك من يد عدونا ، وانقله إلينا وإلى من تبعنا إلى يوم الدين.
قال قتادة :
(ذكر لنا أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم فى أمته ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية).

وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ بالإيمان والطاعة وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بالكفر والمعصية ، أو تعز من تشاء بالمعرفة ، وتذل من تشاء بالفكرة ، أو تعز من تشاء بالقناعة والورع ، وتذل من تشاء بالحرص والطمع ، أو تعز من تشاء بالتوفيق والإذعان ، وتذل من تشاء بالكسل والخذلان ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ كله ، فأعطنا من خيرك الجزيل ، وأجرنا من الشر الوبيل ، فالأمور كلها بيدك.

قال البيضاوي : ذكر الخير وحده لأنه المقضى بالذات ، والشر مقتضى بالعرض إذ لا يوجد شر جزئى ما لم يتضمن خيرا كليا. أو لمراعاة الأدب فى الخطاب ، أو لأن الكلام وقع فيه ، إذ روى أنه عليه الصلاة والسلام - لمّا خطّ الخندق ، وقطع لكل عشرة أربعين ذراعا ، وأخذوا يحفرون ، فظهر فيه صخرة عظيمة لم تعمل فيها المعاول ، فوجّهوا سلمان إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يخبره ، فجاء عليه الصلاة والسلام ، فأخذ المعول منه ، فضرب به ضربة صدعها ، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها «١» ، لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم ، فكبر ، وكبّر معه المسلمون ، وقال : أضاءت لى منها قصور الحيرة ، كأنها أنياب الكلاب ، ثم ضرب الثانية ، فقال : أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ، ثم ضرب الثالثة ، فقال : أضاءت لى منها قصور صنعاء ، وأخبرنى جبريل أنّ أمّتى ظاهرة على كلّها ، فأبشروا ، فقال المنافقون : ألا تعجبون! يمنيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ، وأنّها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق «٢» فنزلت ، أي : الآية. ونبه على أن الشر أيضا بيده بقوله : إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. هـ.

ثم استدل على نفوذ قدرته بقوله : تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ أي : تدخل أحدهما فى الآخر بالتعقيب ، أو بالزيادة أو النقص ، فيولج الليل فى النهار ، إذا طال النهار حتى يكون خمس عشرة ساعة ، وفى الليل تسع ، ويولج النهار فى الليل ، إذا طال الليل كذلك ، وفيه دلالة على أن من قدر على ذلك قدر على معاقبة العز بالذل ، والملك بنزعه. وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ كالحيوانات من النّطف ، وبالعكس ، والنباتات من الحبوب ، وبالعكس ، أو المؤمن من الكافر والعالم من الجاهل ، وبالعكس ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ من الأقوات والعلوم والأسرار ، بِغَيْرِ حِسابٍ ، ولا تقدير ولا حصر. اللهم ارزقنا من ذلك الحظ الأوفر ، (إنك على كل شيء قدير).

---

(١) اللابة : الحرة ، وهى الحجارة السوداء ، ولابتيها : حرتان تكتنفان المدينة.

(٢) الفرق - بفتحتين - : الخوف.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٤٠

روى معاذ رضي اللّه عنه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال له : «يا معاذ ، أتحبّ أن يقضى اللّه عنك دينك؟» قال : نعم يا رسول اللّه ، قال : «قل» (اللهم مالك الملك) إلى قوله : (بغير حساب) ، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطى منهما ما تشاء ، وتمنع منهما ما تشاء ، اقض عنى دينى ، فلو كان عليك ملء الأرض ذهبا وفضة لأدّاه اللّه عنك».

وروى عن على رضي اللّه عنه أنه قال : الفاتحة ، وآية الكرسي ، و(شهد اللّه) ، و(قل اللهم مالك الملك ...) إلى (... بغير حساب) ، لمّا أراد اللّه أن ينزلهن ، تعلقن بالعرش وقلن : تهبطنا إلى دار الذنوب فقال اللّه عز وجل : وعزتى وجلالى لا يقرؤكن عبد ، دبر كل صلاة مكتوبة ، إلا أسكنته حظيرة القدس ، على ما كان فيه ، وإلا نظرت إليه بعيني المكنونة فى كل يوم سبعين نظرة ، وقضييت له فى كل يوم سبعين حاجة ، وأعززته من كل عدو ، نصرته عليه ...»

الحديث «١». انظر الثعلبي.

الإشارة : من ملك نفسه وهواه فقد ملكه اللّه ملك الدارين ، ومن ملكته نفسه وهواه فقد أذله اللّه فى الدارين ، ومن ملك نفسه للّه فقد مكنه اللّه من التصرف فى الكون بأسره ، وكان حرا حقيقة ، وفى ذلك يقول الشاعر :

دعونى لملكهم ، فلمّا أجبتهم قالوا : دعوناك للملك لا للملك

ومن أذلّ نفسه للّه فقد أعزه اللّه ، قال الشاعر :

تذلّلّ لمن تهوى لتكسب عزّة فكم عزّة قد نالها المرء بالذّلّ

إذا كان من تهوى عزيزا ولم تكن ذليلا له ، فأقر السّلام على الوصل

قال ابن المبارك : (قلت لسفيان الثوري : من الناس؟ قال : الفقهاء ، قلت : فمن الملوك؟ قال : الزهاد ، قلت : فمن الأشراف؟ قال : الأتقياء ، قلت فمن الغوغاء؟ قال : الذين يكتبون الحديث ليستأكلوا به أموال الناس ، قلت : أخبرنى ما السفلة؟ قال : الظلمة.) وقال الشبلي : (الملك هو الاستغناء بالمكون عن الكونين). وقال الوراق : (تعز من تشاء بقهر النفس ومخالفة الهوى ، وتذل من تشاء باتباع الهوى).

قلت : وفى ذلك يقول البرعى رضي اللّه عنه :

لا تتبع النّفس فى هواها إنّ اتّباع الهوى هوان

وقال وهب : «خرج الغنى والعز يجولان ، فلقيا القناعة فاستقرا». وقال عيسى عليه السّلام لأصحابه : أنتم أغنى من الملوك ، قالوا : يا روح اللّه كيف ، ولسنا نملك شيئا؟ قال : أنتم ليس عندكم شىء ولا تريدونها ، وهم عندهم أشياء ولا تكفيهم هـ.

---

(١) الحديث : أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة. عن سيدنا على مرفوعا وفى سنده الحارث بن

عمير البصري. قال ابن حبان :

يروى عن الأثبات الموضوعات ، وأورد له الذهبي هذا الحديث على سبيل الإنكار.

قال الشافعي رضي اللّه عنه :

ألا يا نفس إن ترضى بقوت فأنت عزيزة أبدا غنية

دعى عنك المطامع والأمانى فكم أمنيّة جلبت منية

وقال آخر «١» :

أفادتنى القناعة كلّ عزّ وهل عزّ أعزّ من القناعة

فصيّرها لنفسك رأس مال وصيّر بعدها التّقوى بضاعة

تنل عزّا وتغنى عن لئيم وترحل للجنان بصبر ساعة

وقال عليه الصلاة والسلام : «من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنّما حيزت له الدّنيا بحذافيرها».

تولج ليل القبض فى نهار البسط ، وتولج نهار البسط فى ليل القبض ، وترزق من تشاء فيهما من العلوم والأسرار ، بغير حساب ولا مقدار ، أو تولج ليل العبودية فى نهار الحرية ، وتولج نهار الحرية فى ليل العبودية ، فمن كان فى نهار الحرية تاه على الوجود ، ومن كان فى ليل العبودية عطل ذله ذل اليهود ، والعبد لا يخلو من هذين الحالين ، يتعاقبان عليه تعاقب الليل والنهار. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا كان العز ينال بصحبة أهل العز ، والذل ينال كذلك ، حذّر الحق تعالى من صحبة أهل الذل ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٢٨ الى ٣٠]

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (٣٠)

قلت : (تقاة) : مصدر تقى ، على وزن فعل ، وله مصدران آخران : تقىّ وتقيّة - بتشديد الياء - ، وبه قرأ يعقوب ، وأصله : تقية ، فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها. و(يوم) : ظرف ، والعامل فيه :

اذكر ، أو اتقوا ، أو المصير ، أو تود ، و(ما عملت) : مبتدأ ، و(تود) : خبر ، أو معطوف على (ما عملت) الأولى ، و(تود) : حال.

---

(١) وهو بشر بن الحارث ، المعروف بالحافى. وجاءت الأبيات فى تاريخ بغداد ٧/ ٧٦ ، وتهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٢٤٣.

(٣٤١/١)

يقول الحق جل جلاله ، لقوم من الأنصار ، كانوا يوالون اليهود لقرابة أو صداقة تقدمت فى الجاهلية : لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ ، أي : أصدقاء ، إذ الحب إنما يكون فى اللّه والبغض فى اللّه ، أو لا تستعينوا بهم فى غزو ولا غيره ، فلا تودوهم مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ إذ هم أحق بالمودة ، ففيهم مندوحة عن موالاة الكفرة ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ الاتخاذ فَلَيْسَ مِنَ ولاية اللَّهِ فِي شَيْءٍ إذ لا تجتمع ولاية اللّه مع ولاية عدوه. قال الشاعر :

تودّ عدوّى ثمّ تزعم أنّنى صديقك ، ليس النّوك عنك بعازب

والنّوك - بضم النون - : الحمق.

فلا توالوا الكفار إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً أي : إلا أن تخافوا من جهتهم ما يجب اتقاؤه ، فلا بأس بمداراتهم ظاهرا ، والبعد منهم باطنا ، كما قال عيسى عليه السّلام : (كن وسطا وامش جانبا). وقال ابن مسعود رضي اللّه عنه : خالطوا الناس وزايلوهم ، وصافحوهم بما يشتهون ، ودينكم لا تثلموه.

وقال جعفر الصادق : إنى لأسمع الرجل يشتمنى فى المسجد ، فأستتر منه بالسارية لئلا يرانى. هـ.

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ أي : يخوفكم عذابه على موالاة الكفار ومخالفة أمره وارتكاب نهيه ، تقول العرب : احذر فلانا : أي : ضرره لا ذاته ، وفى ذكر النفس زيادة تهديد يؤذن بعقاب يصدر منه بلا واسطة ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ فيحشر كل قوم مع من أحب.

قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ من موالاة أعدائه ، أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ فلا يخفى عليه ما تكن الصدور من خير أو شر. وقدّم فى سورة البقرة الإبداء ، وأخره هنا لأن المحاسبة لا ترتيب فيها بخلاف العلم ، فإن الأشياء التي تبرز من الإنسان يتقدم إضمارها فى قلبه ثم تبرز ، فقد تعلق علم اللّه تعالى بها قبل أن تبرز ، فلذلك قدّم هنا الإخفاء لتقدم وجوده فى الصدر ، وأخره فى البقرة ، لأن المحاسبة لا ترتيب فيها ، وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ فلا يخفى عليه شىء ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا ، والآية بيان لقوله : وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ لأن الذات العالية متصفة بعلم

محيط بجميع المعلومات ، وبقدرة تحيط بجميع المقدورات ، فلا تجسروا على عصيانه ، فإنه ما من معصية إلا وهو مطلع عليها ، قادر على العقاب عليها يوم القيامة.
يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً بين يديها تنتفع به ، وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ، كما بين المشرق والمغرب ، ولا ينفع الندم وقد زلّت القدم. وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، كرره للتأكيد وزيادة التحذير ، وسيأتي في الإشارة حكمة تكريره ، وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ حيث حذرهم مما يضرهم ، وأمرهم بما يقربهم ، فكل ما يصدر منه - سبحانه - في غاية الكمال.

(٣٤٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٤٣
الإشارة : لا ينبغي للمريد الصادق أن يخالط أهل الغفلة ، ولا يتودد معهم فإن ذلك يقطعه عن ربه ، ويصده عن دواء قلبه ، وفي ذلك يقول صاحب العينية :
وقاطع لمن واصلت أيّام غفلة فما واصل العذال إلّا مقاطع
وجانب جناب الأجنبي لو أنّه لقرب انتساب في المنام مضاجع
فللنّفس من جلّاسها كلّ نسبة ومن خلّة للقلب تلك الطّبائع
إلا أن يتقى منهم تقية ، بحيث تلجئه الضرورة إلى مخالطتهم ، فيخالطهم بجسمه ويفارقهم بقلبه ، وقد حذّر الصوفية من صحبة أربع طوائف : الجبابرة المتكبرون ، والقراء المداهنون ، والمتفقرة الجاهلون ، والعلماء المتجمدون لأنهم مولعون بالطعن على أولياء اللّه ، يرون ذلك قربة تقربهم إلى اللّه.
ثم قال : (و يحذركم اللّه نفسه) أن تقصدوا معه غيره ، وهذا خطاب للسائرين بدليل تعقيبه بقوله : (و إلى اللّه المصير) أي : إليه ينتهي السير وإليه يكون الوصول ، ثم شدد عليهم في المراقبة فقال : (إن تخفوا ما في صدوركم) من الميل أو الركون إلى الغير أو الوقوف عن السير ، (أو تبدوه يعلمه اللّه) فينقص عنكم المدد بقدر ذلك الميل ، يظهر ذلك يوم الدخول إلى بلاد المشاهدة ، (يوم تجد كل نفس) ما قدمت من المجاهدة ، فبقدر المجاهدة تكون المشاهدة. ثم خاطب الواصلين فقال : (و يحذركم اللّه نفسه) من أن تشهدوا معه سواه ، فلو كلف الواصل أن يشهد غيره لم يستطع ، إذ لا غير معه حتى يشهده. ويدل على أن الخطاب هنا للواصلين تعقيبه بالمودة والرأفة ، اللائقة بالواصلين المحبوبين العارفين الكاملين. خرطنا اللّه في سلكهم بمنّه وكرمه.
ثم لا طريق للوصول إلى هذا كله إلا باتباع الرسول الأعظم ، كما أشار إلى ذلك بقوله تعالى :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٣١ الى ٣٢]
قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ

وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (٣٢)

قلت : قد تقدم الكلام على حقيقة المحبة عند قوله يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ. وقال البيضاوي هنا : المحبة ميل النفس إلى الشيء لإدراك كمال فيه ، بحيث يحملها - أي الميل - إلى ما يقربها إليه ، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله ، وأن ما يراه كمالا من نفسه أو غيره فهو من اللّه وباللّه وإلى اللّه ، لم يكن حبه إلا لله وفى اللّه ، وذلك يقتضى إرادة طاعته ، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة ، وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول فى عبادته ، والحرص على مطاوعته. هـ.

(٣٤٣/١)

وقوله : (فإن تولوا) : فعل ماض مجزوم المحل ، ولم يدغمه البزّى هنا ، على عادته فى الماضي ، لعدم موجبه.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لمن يدعى أنه يحب اللّه ولا يتبع رسوله : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ كما زعمتم ، فَاتَّبِعُونِي فى أقوالى وأفعالى وأحوالى ، يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ أي : يرضى عنكم ويقربكم إليه ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ أي : يكشف الحجاب عن قلوبكم بغفران الذنوب ومحو العيوب ، فيقربكم من جناب عزه ، ويبوئكم فى جوار قدسه ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لمن تحبب إليه بطاعته واتباع رسوله.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ فيما يأمركم به وينهاكم عنه ، وَالرَّسُولَ فيما يسنه لكم ويرغبكم فيه ، فَإِنْ تَوَلَّوْا وأعرضوا عنه ، فقد تعرضوا لمقت اللّه وغضبه بكفرهم به فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ أي : لا يرضى عنهم ولا يقبل عليهم ، وإنما لم يقل : لا يحبهم لقصد العموم ، والدلالة على أن التولي عن الرسول كفر ، وأنه برئ من محبة اللّه ، وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين.

روى أن نصارى نجران قالوا : إنما نعظم المسيح ونعبده ، حبا لله وتعظيما لله. فقال تعالى : (قل) يا محمد : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ تعالى فَاتَّبِعُونِي ... الآية. ولما نزلت الآية قال عبد اللّه بن أبيّ لأصحابه : إن محمدا يجعل طاعته كطاعة اللّه ، ويأمرنا أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى ، فنزل قوله تعالى : قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ الآية. وقال - عليه الصلاة والسلام - : «من أطاعنى فقد أطاع اللّه ، ومن أطاع الإمام فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى اللّه ومن عصى الإمام فقد عصانى».

الإشارة : اتباع الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ركن من أركان الطريقة ، وشرط فى إشراق أنوار الحقيقة ، فمن لا اتباع له لا طريق له ، ومن لا طريق له لا وصول له ، قال الشيخ زروق رضي اللّه عنه : (أصول الطريقة خمسة أشياء : تقوى اللّه فى السر والعلانية ، واتباع النبي صلّى اللّه عليه وسلم فى الأقوال والأفعال ، والإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار ، والرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء ، والرضى

عن اللّه فى القليل والكثير).

فالرسول - عليه الصلاة والسلام - حجاب الحضرة وبوّابها ، فمن أتى من بابه بمحبته واتباعه ، دخل الحضرة ، وسكن فيها ، ومن تنكب عنها طرد وأبعد ، وفى ذلك يقول القائل :

وأنت باب اللّه ، أىّ امرئ وافاه من غيرك لا يدخل

وقال فى المباحث :

تبعه العالم فى الأقوال والعابد الزاهد فى الأفعال

وفيهما الصّوفىّ فى السّباق لكنّه قد زاد فى الأخلاق

فمن ادعى محبة اللّه أو محبة رسوله ، ولم يطعهما ، ولم يتخلق بأخلاقهما ، فدعواه كاذبة ، وفى ذلك يقول ابن المبارك «١» :

تعصى الإله وأنت تظهر حبّه هذا محال فى القياس بديع

لو كان حبّك صادقا لأطعته إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

ثم ذكر الحق تعالى بيان نشأة عيسى عليه السّلام ، وبيان أصله ونشأة أمه ، توطئة للكلام مع النصارى والرد عليهم فى اعتقادهم فيه. وقال البيضاوي : لما أوجب اللّه طاعة الرسل ، وبيّن أنها الجالبة لمحبة اللّه ، عقّب ذلك ببيان مناقبهم تحريضا عليها فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٣٣ الى ٣٧]

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٧)

قلت : (ذرية) : حال ، أو بدل من الآلين ، أو من نوح ، أي : أنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض.

و(إذ قالت) : ظرف لعليم ، أو بإضمار اذكر. و(محررا) : حال ، والتحرير : التخلص ، يقال : حررت العبد ، إذا خلصته من الرق ، وحررت الكتاب ، إذا أصلحته وأخلصته ، ولم يبق فيه ما يحتاج إلى

إصلاح ، ورجل حر ، أي : خالص ، ليس لأحد عليه متعلق ، والطين الحر ، أي : الخالص من الحمأة. وقوله : (و إني سميتها مريم) : عطف على (إني وضعتها) ، وما بينهما اعتراض ، من كلامها على قراءة التكلم ، أو من كلام اللّه على قراءة التأنيث.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى ، آدَمَ بالخلافة والرسالة ، وَنُوحاً بالرسالة والنّذارة ، وَآلَ إِبْراهِيمَ بالنبوة والرسالة ، وهم : إسحاق ، ويعقوب والأسباط ، وإسماعيل ، وولده سيد ولد آدم نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم بالنبوة والرسالة والمحبة الجامعة. وَآلَ عِمْرانَ ، وهم موسى وهارون - عليهما السلام - وهو عمران بن يصهر

---

(١) الشعر ينسب لأكثر من واحد.

ابن فاهث بن لاوى بن يعقوب ، أو المراد بعمران : عمران بن أشهم بن أموى ، من ولد سليمان عليه السّلام ، وهو والد مريم أم عيسى عليه السّلام ، وقيل : المراد عمران بن ماثان ، أحد أجداد عمران والد مريم. وإنما خص هؤلاء ، لأن الأنبياء كلهم من نسلهم. وقيل : أراد إبراهيم وعمران أنفسهما. «وآل» مقحمة ، كقوله : وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَآلُ هارُونَ أي : موسى وهارون ، فقد فضل الحق - جل جلاله - هؤلاء الأنبياء بالخصائص الجسمانية والروحانية عَلَى الْعالَمِينَ أي : كلا على عالمى زمانه ، وبه استدل على فضلهم على الملائكة. حال كونهم ذُرِّيَّةً متشعبة بَعْضُها مِنْ ولد بَعْضٍ فى النسب والدين ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ لأقوال العباد وأعمالهم ، عَلِيمٌ بسرائرهم وعلانيتهم ، فيصطفى من صفا قوله وعمله ، وخلص سره ، للرسالة والنبوة.

ثم تخلّص لذكر نشأة مريم ، توطئة لذكر ولدها ، فقال : واذكر إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ وهى حنة بنت فاقوذا ، جدة عيسى عليه السّلام : رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً لخدمة بيت المقدس ، لا أشغله بشىء ، أو مخلصا للعبادة ، فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وكان المحرر عندهم ، إذا حرر ، جعل فى الكنيسة يقوم عليها وينكسها ، ولا يبرح منها حتى يبلغ الحلم ، ثم يخير ، فإن أحبّ أقام أو ذهب حيث شاء ، ولم يكن يحرر إلا الغلمان لأن الجارية لا تصلح للخدمة لما يصيبها من الحيض ، فحررت أمّ مريم حملها ولم تدر ما هو.

وقصة ذلك : أن زكريا وعمران تزوجا أختين ، فتزوج زكريا أشياع بنت فاقوذا ، وتزوج عمران حنة بنت فاقوذا ، فكان عيسى ويحيى ابني الخالة «١» ، وكانت حنة عاقرا لا تلد ، فبينما هى فى ظل شجرة ،

بصرت بطائر يطعم فرخا ، فتحركت لذلك نفسها للولد فدعت اللّه تعالى ، وقالت : اللهم لك علي ، إن رزقتني ولدا ، أن أتصدق به على بيت المقدس ، يكون من سدنته وخدمه ، فحملت بمريم ، فهلك عمران ، وحنة حامل بمريم ، فَلَمَّا وَضَعَتْها أي : النذيرة ، أو ما في بطنها ، قالت : رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى ، قالت ذلك تحسّرا وتحزنا إلى ربها ، لأنها كانت ترجو أن تلد ذكرا يصلح للخدمة ، ولذلك نذرته.

قال تعالى : وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ ، تعظيما لموضوعها وتنويها بشأنها ، أو من كلامها - على قراءة التكلم - تسلية لنفسها ، أي : ولعل لله فيه سرا ، قال تعالى : وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى أي : وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت ، أو من كلامها ، أي : وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرت. ثم قالت : وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ راجية أن يطابق اسمها فعلها ، فإن مريم في نعتهم هي العابدة الخادمة ، وكانت مريم أجمل النساء في وقتها وأفضلهن ، وفي الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «حسبك من نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد صلّى اللّه عليه وسلم».

---

(١) أي : بينهما هذه الجهة من القرابة ، وهي جهة الخئولة.

(٣٤٦/١)

ثم قالت حنة أم مريم : وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ أي : أحصنها بك وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ أي : المرجوم بالشهب ، أو المطرود ، وفي الحديث : «ما من مولود يولد إلّا والشّيطان يمسّه حين يولد فيستهلّ من مسّه ، إلّا مريم وابنها». ومعناه : أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود ، بحيث يتأثر به ، إلا مريم وابنها لمكان الاستعاذة ، قلت : وكذا الأنبياء كلهم ، لا يمسهم لمكان العصمة. واللّه أعلم.

فَتَقَبَّلَها رَبُّها أي : رضيها في النذر مكان الذكر ، بِقَبُولٍ حَسَنٍ أي : بوجه حسن ، وهو إقامتها مقام الذكر ، وتسلمها للخدمة عقب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح للسّدانة «١» ، روى : أن حنة لما ولدتها لفّتها في خرقة ، وحملتها إلى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار ، وقالت : دونكم هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها ، لأنها كانت ابنة إمامهم ، وصاحب قربانهم ، فإن (بني ماثان) كانت رؤوس بني إسرائيل وملوكهم ، فقال زكريا : أنا أحق بها ، عندي خالتها ، فأبوا إلا القرعة ، وكانوا سبعة وعشرين ، فانطلقوا إلى نهر ، فألقوا فيه أقلامهم ، فطفا قلم زكريا - أي : علا - على وجه الماء ، ورسبت أقلامهم ، فأخذها زكريا.

وَأَنْبَتَها اللّه نَباتاً حَسَناً أي : رباها تربية حسنة ، فكانت تشب في اليوم ما يشب المولود في العام ، وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا أي : ضمها إليه وقام بأمرها. وقرأ عاصم - في رواية ابن عياش - بشدّ الفاء ، أي : وكفّلها اللّه زكريا ، أي : جعله كافلا لها وحاضنا. روى : أنه لما ضمها إليه بنى لها بيتا ، واسترضع لها ، فلما بلغت ، بنى لها محرابا في المسجد ، وجعل بابه في وسطه لا يرقى إليها إلا بسلم ، ولا يصعد إليها غيره ، وكان يأتيها بطعامها وشرابها كل يوم ، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب.

كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ ليأتيها بطعامها ، وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً أي : فاكهة في غير حينها ، يجد فاكهة الشتاء في الصيف ، وبالعكس ، قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا أي : من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه ، والأبواب مغلقة عليك؟ قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فلا يستبعد ، قيل : تكلمت صغيرة ، وقيل : لم ترضع ثديا قط ، خلاف ما تقدم ، وكان رزقها ينزل عليها من الجنة.

ثم قالت : إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ أي : بغير تقدير ، أو بغير استحقاق تفضلا منه ، وقوله :

(كلما) : يقتضى التكرار ، وفيه إشارة إلى أن زكريا لم يذر تعهّدها ، ولم يعتمد على ما كان يجد عندها ، بل كان يتفقد حالها كل وقت ، لأن الكرامات للأولياء ليس مما يجب أن تدوم قطعا ، بل يجوز أن يظهر ذلك عليهم دائما وألا يظهر ، فما كان زكريا معتمدا على ذلك ، فيترك تفقد حالها ، ثم كان يجدد السؤال بقوله : يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا ، لجواز أن يكون الذي هو اليوم لا على الوجه الذي كان بالأمس ، فإنه لا واجب على اللّه - سبحانه - . قاله القشيري.

---

(١) السدانة : مصدر بمعنى الخدمة ، والسادن : الخادم.

روى جابر بن عبد اللّه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أقام أياما لم يطعم الطعام ، فقام في منازل أزواجه ، فلم يصب عندهن شيئا ، فأتى فاطمة فقال : «يا بنية ، هل عندك شي ء؟» فقالت : لا واللّه ، بأبى أنت وأمي ، فلما خرج النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، بعثت إليها جارتها برغيفين وبضعة لحم ، فبعثت حسنا وحسينا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فجاء ، فكشفت له الجفنة ، فإذا الجفنة مملوءة خبزا ولحما ، فبهتت ، وعرفت أنّها بركة من اللّه تعالى ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «من أين لك هذا يا بنيّة؟» قالت : وِمنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ ، فحمد اللّه تعالى ، وقال : «الحمد للّه الّذى جعلك شبيهة بسيّدة بنى إسرائيل ، فإنها كانت إذا رزقها اللّه شيئا قالت : هُوَ مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ ثم بعث النبي صلّى اللّه عليه وسلم إلى علىّ رضي اللّه عنه. ثم أكل أهل البيت كلهم ، وجميع أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وبقيت الجفنة كما هى ، فأوسعت على الجيران ، وجعل اللّه فيها بركة وخيرا. انتهى «١».

الإشارة : (إن اللّه اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) ، إنما اصطفى الحق تعالى هؤلاء الرسل لكونهم قد أظهروا الدين بعد انطماس أنواره ، وجددوه بعد خمود أسراره ، هم أئمة الهدى ومقتبس أنوار الاقتداء ، فكل من كان على قدمهم من هذه الأمة المحمدية ، بحيث يجدد للناس دينهم ، ويبين للناس معالم الطريق وطريق السلوك إلى عين التحقيق ، فهو ممن اصطفاه اللّه على عالمى زمانه. وفى الحديث : «إنّ اللّه يبعث على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لهذه الأمة دينها». قال الحريري : (مات الحسن البصري عشية جمعة - أي : بعد زوالها - فلما صلى الناس الجمعة حملوه ، فلم يترك الناس صلاة العصر فى مسجد الجماعة بالبصرة منذ كان الإسلام ، إلا يوم مات الحسن ، واتبع الناس جنازته ، فلم يحضر أحد فى المسجد صلاة العصر ، قال : وسمعت مناديا ينادى : (إن اللّه اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) ، واصطفى الحسن على أهل زمانه). قلت : والحسن البصري هو الذي أظهر علم التصوف ، وتكلم فيه وهذبه. قال فى القوت : وهو إمامنا فى هذا العلم - يعنى علم التصوف.

وقوله تعالى : إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ ... الآية. كلّ من نذر نفسه وحررها لخدمة مولاه ، تقبلها اللّه منه بقبول حسن ، وأنبت فيها المعرفة نباتا حسنا ، وكفلها بحفظه ورعايته ، وضمها إليه بسابق عناية ، ورزقها من طرف الحكم وفواكه العلوم ، مما لا تحيط به العقول وغاية الفهوم ، فإذا قال لنفسه : من أين لك هذا؟ (قالت هو من عند اللّه إن اللّه يرزق من يشاءبغير حساب). وأنشدوا :

فلا عمل منّى إليه اكتسبته سوى محض فضل ، لا بشىء يعلّل

وقال القشيري : قوله تعالى : (فتقبلها ربها بقبول حسن) ، يقال : من القبول الحسن أنه لم يطرح كلّها وشغلها على زكريا ، فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعاهدها بطعام وجد عندها رزقا ، ليعلم لعالمون أن اللّه - تعالى - لا يلقى شغل

---

(١) إلى هنا ينتهى السقط المشار إليه سابقا فى النسخة التيمورية.

أوليائه على غيره ، ومن خدم وليا من أوليائه كان هو فى رفق الولي ، وهذه إشارة لمن يخدم الفقراء ،

يعلم أنه فى رفقهم ، لا أن الفقراء تحت رفقه. هـ.
قال أهل التفسير : فلما رأى زكريا ما يأتى لمريم من الفواكه فى غير أوانها ، قال : إن الذي قدر على أن يأتى مريم بالفاكهة فى غير وقتها ، قادر على أن يصلح زوجتى ، ويهب لى ولدا على الكبر. فطلب الولد ، كما أشار الحق تعالى إلى ذلك بقوله :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٣٨ الى ٤١]
هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ (٣٨) فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (٤٠) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (٤١)
قلت : (هنالك) : اسم إشارة للبعيد ، والكاف : حرف خطاب ، يطابق المخاطب فى التذكير والتأنيث والإفراد والجمع فى الغالب. والمحراب : مفعال ، من الحرب ، وهو الموضع المعد للعبادة ، كالمسجد ونحوه ، سمى به ، لأنه محل محاربة الشيطان.
(والملائكة) : جمع تكسير ، يجوز فى فعله التذكير والتأنيث ، وهو أحسن ، تقول : قام الرجال وقامت الرجال ، فمن قرأ : (فنادته الملائكة) ، فعلى تأويل الجماعة ، ومن قرأ : (فناداه) ، أراد تنزيه الملائكة عن التأنيث ، ردا على الكفار.
والمراد هنا : جبريل عليه السّلام كقوله : يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ ، وَإِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ ، و(بشر) : فيها لغتان : التخفيف ، وهى لغة تهامة ، تقول : بشر يبشر - بضم الشين فى المضارع ، والتشديد ، وهو أفصح ، تقول بشّر يبشّر تبشيرا.
يقول الحق جل جلاله ، مخبرا عن زكريا عليه السّلام : هُنالِكَ أي : فى ذلك الوقت الذي رأى ما رأى من الخوارق عند مريم ، دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، فدخل المحراب ، وغلق الأبواب ، وقال فى مناجاته : رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، كما وهبتها لحنّة العجوز العاقر ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ أي : مجيبه فاسمع دعائى يا

مجيب ، فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ ، وهو جبريل ، لأنه رئيس الملائكة ، والعرب تنادى الرئيس بلفظ الجمع إذ لا يخلو من أصحاب ، وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ روى : أنه كان قائما يصلى فى محرابه ، فدخل عليه

شاب ، عليه ثياب بيض ، ففزع منه ، فناداه ، وقال له : أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى ، سمى به لأن اللّه تعالى أحيا به عقم أمه ، أو لأن اللّه تعالى أحيا قلبه بمعرفته ، فلم يهم بمعصية قط ، أو لأنه استشهد ، والشهداء أحياء.

مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وهو عيسى ، لأنه كان بكلمة : كن ، من غير سبب عادى ، وَسَيِّداً أي : يسود قومه ويفوقهم ، وَحَصُوراً ، أي : مبالغا فى حبس النفس عن الشهوات والملاهي. روى أنه مرّ فى صباه على صبيان ، فدعوه إلى اللعب ، فقال : ما للعب خلقت. أو عنينا ، روى : «أنه كان له ذكر كالقذاة» رواه ابن عباس. وقال فى الأساس : (رجل حصور : لا يرغب فى النساء). قيل : كان ذلك فضيلة فى تلك الشريعة ، بخلاف شريعة نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم وفى الورتجبي : الحصور : الذي يملك ولا يملك. وقال القشيري : حَصُوراً : أي : معتقا من الشهوات ، مكفيا أحكام البشرية ، مع كونه من جملة البشر ، وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ الذين صلحوا للنبوة وتأهلوا للحضرة.

ولما سمع البشارة هزّه الفرح فقال : يا رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ أي : من أين يكون لى غلام؟! قاله استعظاما أو تعجبا أو استفهاما عن كيفية حدوثه. هل مع كبر السن والعقم ، أو مع زوالهما. وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ، وكان له تسع وتسعون سنة ، وقيل : مائة وعشرون ، وَامْرَأَتِي عاقِرٌ لا تلد ، ولم يقل : عاقرة ، لأنه وصف خاص بالنساء. قال له جبريل : كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ من العجائب والخوارق ، فيخلق الولد من العاقر والشيخ الفاني ، أو الأمر كذلك ، أي : كما أخبرتك ، ثم استأنف : اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ.

ولما تحقق بالبشارة طلب العلامة ، فقال : رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً أعرف بها حمل المرأة ، لأستقبله بالبشاشة والشكر ، قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ أي : لا تقدر على كلام الناس ثلاثا ، فحبس لسانه عن الكلام دون الذكر والشكر ، ليخلص المدة للذكر والشكر ، إِلَّا رَمْزاً بيد أو رأس أو حاجب أو عين. وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً فى هذه المدة التي حبست فيها عن الكلام ، وهو يبين الغرض من الحبس عن الكلام. وتقييد الأمر بالكثرة يدل على أنه لا يفيد التكرار. وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ أي : من الزوال إلى الغروب ، أو من العصر إلى جزء الليل ، وَالْإِبْكارِ من الفجر إلى الضحى ، وقيل : كانت صلاتهم ركعتين فى الفجر وركعتين فى المغرب ، ويؤيد هذا قوله تعالى فى الآية الأخرى : فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الأصلاب الروحانية كالأصلاب الجسمانية ، منها ما تكون عقيمة مع كمالها ، ومنها ما تكون لها ولد أو ولدان ، ومنها ما تكون لها أولاد كثيرة ، ويؤخذ من قضية السيد زكريا عليه السّلام : طلب الولد إذا خاف الولي اندراس

علمه أو حاله بانقطاع نسله الروحاني ، ولا شك فى فضل بقاء النسل الحسى أو المعنوي ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به».
وشمل الولد البشرى والروحاني ، وقال عليه الصلاة والسلام لسيدنا على - كرم اللّه وجهه - : «لأن يهدى اللّه بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم».
وقال بعض الشعراء «١» :
والمرء فى ميزانه أتباعه فاقدر إذن قدر النبي محمّد
وقد سلك هذا المسلك القطب ابن مشيش فى طلب الولد الروحاني ، حيث قال فى تصليته المشهورة : (اسمع ندائى بما سمعت به نداء عبدك زكريا) ، فأجابه الحق تعالى بشيخ المشايخ القطب الشاذلى. وغير واحد من الأولياء دخل محراب الحضرة ، ونادى نداء خفيا فى صلاة الفكرة ، فأجابته الهواتف فى الحال ، بلسان الحال أو المقال : إن اللّه يبشرك بمن يحيى علمك ويرث حالك ، مصدقا بكلمة من اللّه ، وهم أولياء اللّه ، وسيدا وحصورا عن شواغل الحس ، مستغرقا فى مشاهدة القرب والأنس ، ينبئ بعلم الغيوب ، ويصلح خلل القلوب ، فإذا استعظم ذلك واستغربه ، قيل له : الأمر كذلك ، (اللّه يفعل ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) ، فحسبك الاشتغال بذكر اللّه ، والغيبة عما سواه. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.
ثم ذكر اصطفائية مريم بالخصوص بعد العموم فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٤٢ الى ٤٣]
وَإِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ (٤٢) يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)
يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ أي : جبريل ، أو جماعة ، كلمتها شفاها كرامة لها. وفيه إثبات كرامة الأولياء ، وليست نبية للإجماع على أنه تعالى لم يستنبئ امرأة لقوله : وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فقالوا لها : يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ لخدمة بيته ، ولم يقبل قبلك أنثى قط ، وفرغك لعبادته ، وأغناك برزقه عن رزق غيره ، وَطَهَّرَكِ من الأخلاق الذميمة ، ومما يستقذر من النساء ، وَاصْطَفاكِ ثانيا بهدايته لك ، وتخصيصك بتكليم الملائكة ، وبالبشارة بالولد من غير أب ، فقد اصطفاك عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ. «٢»

---
(١) وهو الشيخ البوصيرى.
(٢) انظر فى مسألة نبوة مريم : فتح الباري ٦/ ٥٤٢.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٥٢
وفي الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «كمل من الرّجال كثير ولم يكمل من النّساء إلا مريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد» ... الحديث. قال ابن عزيز : أي : عالمى دهرها ، كما فضّلت خديجة وفاطمة بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم على نساء أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، بل قال أبو عمر : فاطمة فضلت على جميع النساء ، وهو واضح ، لحديث :
سيدة نساء أهل الجنة ، لكن جاء فى حديث آخر استثناء مريم. فاللّه أعلم.
وفي الاستيعاب : عن عمران بن حصين : أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم عاد فاطمة ، وهى مريضة ، فقال : «كيف تجدك يا بنيّة؟» فقالت له : إنى لوجعة ، وإنه ليزيدنى أنى مالى طعام آكله ، فقال : «يا بنيّة ، أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين» ، فقالت : يا أبت ، فأين مريم بنت عمران؟ قال : «تلك سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، واللّه لقد زوجتك سيدا فى الدنيا والآخرة» هـ. من المحشى.
يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ أي : أطيلى الصلاة شكرا لما اختصك به ، وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ أي : صلّى مع المصلين ، وقدّم السجود على الركوع ، إما لكونه كذلك فى شرعهم ، أو للتنبيه على أن الواو لا ترتب ، أو ليقترن ارْكَعِي بالراكعين ، للإيذان بأنّ من ليس فى صلاتهم ركوع ليسوا بمصلين. وقيل : المراد بالقنوت : إدامة الطاعة ، كقوله : أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً ، وبالسجود : الصلاة ، لقوله : وَأَدْبارَ السُّجُودِ ، وبالركوع : الخشوع والإخبات. قاله البيضاوي. وقال الأوزاعى : لما قالت لها الملائكة ذلك ، قامت فى الصلاة حتى تورمت قدمها وسالت دما وقيحا.
الإشارة : لا يصطفى اللّه العبد لحضرته إلا بعد تطهيره من الرذائل ، وتحليته بأنواع الفضائل ، وقطعه عن قلبه الشواغل ، والقيام بوظائف العبودية ، وبالآداب مع عظمة الربوبية ، والخضوع تحت مجارى الأقدار ، والتسليم لأحكام الواحد القهار ، فأنفاس المريد ثلاثة : عبادة ، ثم عبودية ، ثم عبودة ، ثم يترقى إلى مطالعة علم الغيوب ، الذي أشار إليه الحق تعالى بقوله :
[سورة آل عمران (٣) : آية ٤٤]
ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)
يقول الحق جل جلاله ، لحبيبه صلّى اللّه عليه وسلم : ذلِكَ القصص الذي أطلعتك عليه ، هو مِنْ أخبار الْغَيْبِ الذي لم يكن لك به شعور ، وما عرفته إلا بوحينا وإعلامنا ، فلا يشك فى نبوتك إلا مطموس أعمى ، (و) أيضا : ما

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٥٣
كُنْتَ لَدَيْهِمْ
أي : عندهم ، حين كانوا يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ لما اقترعوا ، أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ، وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ فى كفالتها ، فتخبرهم عما شهدت ، بل لم يكن شىء من ذلك ، فتعين أن يكون وحيا حقيقا ، لأنه عليه الصلاة والسلام - كان أمّيّا لم يطالع شيئا من كتب الأخبار ، ولا جلس إلى من طالعهم من الأحبار ، بإجماع الخاص والعام. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : اعلم أن الوحى على أربعة أقسام : وحي منام ، ووحي إلهام ، ووحي أحكام ، ووحي إعلام ، وشاركت الأولياء الأنبياء فى ثلاثة : الإلهام والمنام والإعلام ، إن كان بغير الملك ، ومعنى وحي إعلام : هو إطلاع اللّه النبيّ على أمور مغيبة ، فإن كان بواسطة الملك ، فهو مختص بالأنبياء ، كما اختصت بوحي الأحكام ، وأما إن كان بالإلهام أو بالمنام أو بالفهم عن اللّه ، فيكون أيضا للأولياء ، إذ الروح إذا تصفت وتطهرت من دنس الحس أطلعها اللّه على غيبه فى الجملة ، وأما التفصيل فلا يعلمه إلا علام الغيوب. واللّه أعلم.
ثم ذكر الحق تعالى البشارة بعيسى عليه السّلام ، وهو المقصود الأعظم من هذه القصص ليتخلص للرد على النصارى فى زعمهم الفاسد فيه ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٤٥ الى ٥١]
إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)
وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

قلت : (إذ قالت) : بدل من (و إذ قالت) الأولى ، ويبعد إبدالها من (إذ يختصمون) ، و(المسيح) وما بعده : إخبار عن اسمه ، أو (عيسى) : خبر عن مضمر ، و(ابن مريم) : صفته ، و(المسيح) : فعيل بمعنى مفعول ، لأنه مسح من الأقذار ، أي : طهر منها ، أو مسح بالبركة ، أو كان مسيح القدم ، لا أخمص له ، أو مسحه جبريل بجناحه من الشيطان. أو بمعنى فاعل لأنه كان يمسح المرضى فيبرءون ، أو يمسح عين الأعمى فيبصر ، أو لأنه كان يسيح فى الأرض ولا يقيم فى مكان فتكون الميم زائدة. وأما المسيح الدجال فإنه ممسوح إحدى العينين ، أو لأنه يطوف الأرض ويمسحها ، إلا مكة والمدينة ، والحاصل :

أن عيسى مسيح الخير ، والدجال مسيح الشر ، ولذلك قيل : إن المسيح يقتل المسيح. و(وجيها) : حال من (كلمة) لتخصيصة بالصفة ، و(فى المهد وكهلا) : حالان ، أي : طفلا وكهلا ، والمهد : ما يمهد للصبى. و(رسولا) : مفعول لمحذوف ، أي : ونجعله رسولا ، و(مصدقا) : عطف على (رسولا) ، و(لأحلّ) : متعلق بمحذوف ، أي : وجئتكم لأحل.

أو معطوف على معنى مصدقا ، كقولهم : جئتك معتذرا ، أو لأطيب قلبك.

يقول الحق جل جلاله : (و) اذكر أيضا إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ فى بشارتهم لمريم : يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ، أي : بولد يتكوّن بكلمة من اللّه كن فيكون ، وقيل : إنما سمى كلمة لكونه مظهرا لكلمة التكوين ، متحققّا ومتصرفا بها. ولذلك كان يظهر عليه خوارق الأقدار أكثر من غيره من الأنبياء ، اسْمُهُ الْمَسِيحُ ، واسمه عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وإنما قال : ابْنُ مَرْيَمَ والخطاب لها ، تنبيها على أنه يولد من غير أب إذ الأولاد إنما تنسب لأبائها إلا إذا فقد الأب. ثم وصف الولد بقوله : وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ أي : شريفا فى الدنيا بالنبوة والرسالة ، وفى الآخرة بالشفاعة لمن تبعه. ويكون مِنَ الْمُقَرَّبِينَ إلى اللّه تعالى فى الدارين.

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ طفلا فِي الْمَهْدِ على وجه خرق العادة فى تبرئة أمه ، وَكَهْلًا إذا كمل عقله قبل أن يرفع ، أو بعد الرفع والنزول ، لأن الكهولة بعد الأربعين ، والتحقيق : أنه بشرها بنبوة عيسى وكلامه فى المهد ، معجزة ، وفى الكهولة دعوة قبل الرفع وبعده ، وما قارب الشيء يعطى حكمه ، وحال كونه مِنَ الصَّالِحِينَ لحضرة رب العالمين.

ولما سمعت البشارة دهشت وقالَتْ : يا رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، والخطاب لله ، فانية عن الواسطة جبريل ، والاستفهام تعجبا ، أو عن الكيفية : هل يكون بتزوج أم لا؟ قالَ لها الملك : كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ. أو الأمر كذلك كما تقولين ، لكن اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ لا يحتاج إلى وسائط ولا أسباب ، بل إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ أي : الكتابة والخط ، وَالْحِكْمَةَ أي :

النبوة ، أو الإصابة فى الرأى ، وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٥٥
(و) يجعله رَسُولًا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ. وكان أول رسل بنى إسرائيل يوسف ، وآخرهم عيسى - عليهما السلام - ، وقال : عليه الصلاة والسلام : «بعثت على إثر ثمانية آلاف نبى ، أربعة آلاف من بنى إسرائيل». فإذا بعث إليهم قال : أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أي : بأنى قد جئتكم بآية من ربكم ، قالوا : وما هى؟ قال :
أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ كصورته ، فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وكان يخلق لهم صورة الخفاش ، لأنها أكمل الطير لأن لها ثديا وأسنانا وتحيض وتطير ، فيكون أبلغ فى المعجزة ، وكان يطير مادام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عنهم سقط ميتا ليتميز فعل الحق من فعل الخلق.
ثم قال لهم : ولى معجزة أخرى أنى أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ الذي ولد أعمى ، فأحرى غيره ، وَالْأَبْرَصَ الذي فيه وضح «١». وخصهما لأنهما عاهتان معضلتان. وكان الغالب فى زمن عيسى الطب ، فأراهم المعجزة من جنس ذلك. روى : أنه ربما اجتمع عليه من المرضى فى اليوم الواحد ألوف ، من أطاق منهم البلوغ «٢» أتاه ، ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السّلام ، وإنما كان يداويهم بالدعاء على شرط الإسلام.
وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ لا بقدرتي دفعا لتوهم الألوهية ، فإن الإحياء ليس من طوق البشر. روى أنه أحيا أربعة أنفس : (العازر) ، وكان صديقا له ، فأرسلت أخته إلى عيسى أن أخاك العازر يموت ، فأتاه من مسيرة ثلاثة أيام فوجده مات ، فقال لأخته : انطلقي بنا إلى قبره ، وهو فى صخرة مطبقة ، فدعا اللّه تعالى ، فقام العازر يقطر ودكه «٣» ، فعاش وولد له. و(ابن العجوز) ، مر بجنازته على عيسى عليه السّلام فدعا اللّه تعالى ، فجلس على سريره ، ونزل عن أعناق الرجال ، ولبس ثيابه ، وحمل سريره على عنقه ، ورجع إلى أهله ، وبقي حتى ولد له. و(ابنة العاشر) ، كان يأخذ العشور ، قيل له : أتحييها ، وقد ماتت أمس؟ فدعا اللّه تعالى ، فعاشت وولد لها. و(سام بن نوح) ، دعا باسم اللّه الأعظم ، فخرج من قبره ، وقد شاب نصف رأسه ، فقال : أقامت الساعة؟ قال : لا ، لكنى دعوت اللّه فأحياك ، مالى أرى الشيب فى رأسك ، ولم يكن فى زمانك؟ قال : سمعت الصيحة ، فظننت أن الساعة قامت فشبت من هولها. قيل : كان يحيى الموتى ب يا حى يا قيوم.
وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، لما أبرأ الأكمه والأبرص قالوا : هذا سحر ، أخبرنا بما نأكل وما ندخر؟ فكان يخبر الرجل بما يأكل فى غدائه وعشائه. وروى أنه لما كان فى المكتب ، كان يحدث الغلمان بما يصنع لهم آباؤهم من الطعام ، فيقول للغلام : انطلق ... غداء أهلك كذا وكذا ، فيقول أهله : من أخبرك بهذا؟ قال : عيسى ، فحبسوا صبيانهم عنه ، وقالوا : لا تلعبوا مع هذا الساحر ، فجمعوهم فى بيت ، فجاء عيسى

(١) هو بياض يعترى الجلد.

(٢) أي : بلوغ المريض المكان الذي فيه عيسى – عليه السلام –

(٣) الودك : دسم اللحم ودهنه.

يطلبهم ، فقالوا : ليسوا هاهنا ، قال : ماذا فى البيت؟ قالوا : خنازير ، قال عيسى : كذلك يكونون ، ففتحوا الباب ، فإذاهم خنازير ، فهموا بقتله ، فهربت به أمه إلى مصر. قاله السّدى.

ثم قال لهم : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فإن غير المؤمنين لا ينتفع بالمعجزات لعناده ، وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ أي : وجئتكم مصدقا للتوراة ، وشاهدا على صحتها ، وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ فى شريعة موسى عليه السّلام كالشحوم والثروب «١» ولحم الإبل والعمل فى السبت. وهذا يدل على أنه ناسخ للتوراة ، ولا يخل بكونه مصدقا له ، كما لا يخل نسخ القرآن بعضه لبعض بصحته. فإن النسخ فى الحقيقة : بيان لانتهاء العمل بذلك الحكم. ثم قال لهم : (و) قد جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ واضحة مِنْ رَبِّكُمْ ، قد شاهدتموها بأعينكم ، فما بقي إلا عنادكم ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ.

ثم دعاهم إلى التوحيد بعد بيان الحجة فقال : إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ولا تعبدوا معه سواه ، هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ لا عوج فيه. قال البيضاوي : أي : لما جئتكم بالمعجزات القاهرة والآيات الباهرة ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فى المخالفة ، وَأَطِيعُونِ فيما أدعوكم إليه ، ثم شرع فى الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل ، فقال : إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ أشار إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد ، وقال : فَاعْبُدُوهُ إشارة إلى استكمال القوة العملية بملازمة الطاعة ، التي هى الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي ، ثم قرر ذلك بأن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة ، ونظيره : قوله عليه الصلاة والسلام : «قل آمنت باللّه ثم استقم».

الإشارة : كل من انقطع بكليته إلى مولاه ، وصدف عن حظوظه وهواه ، وأفنى شبابه فى طاعة ربه ، وجعل يلتمس فى حياته دواء قلبه ، تحققت له البشارة فى العاجل والآجل ، وحصل له التطهير من درن العيوب والرذائل ، ورزقه من فواكه العلوم ، ما تتضاءل دون إدراكه غاية الفهوم ، هذه مريم البتول أفنت شبابها فى طاعة مولاها ، فقربها إليه وتولاها ، وبشرها بالاصطفائية والتطهير ، وأمرها شكرا بالجد والتشمير ، ثم بشرها ثانيا بالولد النزيه والسيد النبيه ، روح اللّه وكلمة اللّه ، من غير أب ولا سبب ، ولا معالجة ولا تعب ، أمره بأمر اللّه ، يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن اللّه ، هذا كله ببركة

الانقطاع وسر الاتباع.
قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من انقطع إلى اللّه كفاه اللّه كلّ مؤنة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله اللّه تعالى إليها».

---

(١) الثروب : جمع ثرب ، وهو شحم دقيق يغطى الكرش والأمعاء. [.....]

وقال بعضهم : صدق المجاهدة : الانقطاع إليه من كل شيء سواه. فالانقطاع إلى اللّه فى الصغر يخدم على الإنسان فى حال الكبر ، ومعاصى الصغر تجر الوبال إلى الكبر ، فكما أن عيسى عليه السّلام كان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن اللّه ، كذلك من انقطع بكلّيته إلى اللّه أبرأ القلوب السقيمة بإذن اللّه ، وأحيا موتى القلوب بذكر اللّه ، وأخبر بالغيوب وما تدخره ضمائر القلوب ، يدل على طاعة اللّه ، ويدعو بحاله ومقاله إلى اللّه ، يهدى الناس إلى الصراط المستقيم ، ويوصل من اتبعه إلى حضرة النعيم. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.
ولما تمت البشارة بعيسى عليه السّلام وظهر إلى الدنيا ، وبلغ وقت الدعوة ، بعثه اللّه إلى بنى إسرائيل ، فكفروا به ، فلما تحقق كفرهم طلب من ينصره إلى اللّه ، كما أشار الحق تعالى إلى ذلك بقوله :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٥٢ الى ٥٤]
فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (٥٤)
قلت : (من أنصارى إلى اللّه) : الجار يتعلق بحال محذوفة ، أي : ذاهبا إلى اللّه إلى نصر دينه ، أو مضيفا نفسه إلى اللّه ، أو ملتجئا إلى اللّه ، أو يتعلق ب - (أنصارى) مضمّنا معنى الإضافة ، أي : من يضيف نفسه إلى اللّه فى نصره. وحوارى الرجل : خاصته ، الذين يستعين بهم فى نوائبه ، وفى الحديث عنه - عليه الصلاة السلام - : «لكلّ نبى حوارى ، وحواريى : الزّبير». وحواريو عيسى : أصحابه الذين نصروه ، وسموا بذلك لخلوص نبيتهم ونقاء سريرتهم. والحور : البياض الخالص ، وكل شيء بيّضته فقد حوّرته ، ويقال للبيضاء من النساء : حوارية. وقيل : كان الحواريون قصّارين «١» ، يحوّرون الثياب ، أي : يبيضونها ، وقيل : كانوا ملوكا يلبسون البياض.
يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى من بنى إسرائيل الْكُفْرَ ، وتحققه تحقّق ما يدرك بالحواس ،

بعد ما بعث إليهم ، وأرادوا قتله ، فرّ منهم واستنصر عليهم ، وقالَ مَنْ أَنْصارِي ملجئا إِلَى اللَّهِ ، أو ذاهبا إلى نصر دينه ، قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ أي : أنصار دينه ، آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ علينا بأننا مُسْلِمُونَ لتشهد لنا يوم القيامة ، حين يشهد الرسل لقومهم ، رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ على نبيك من الأحكام ، وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ عيسى عليه السّلام ، فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ بوحدانيتك ، أو مع الذين يشهدون لأنبيائك

---

(١) القصار : المبيض للثياب ، وهو الذي يهيىء النسيج بعد نسجه ، ببلّه ودقه بالقصرة - التي هى القطعة من الخشب.

(٣٥٧/١)

بالصدق ، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم ، أو مع أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - فإنهم شهداء على الناس.

قال عطاء : سلمت مريم عيسى إلى أعمال شتى ، وآخر ما دفعته إلى الحواريين ، وكانوا قصّارين وصباغين ، فأراد معلّم عيسى السفر ، فقال لعيسى : عندى ثياب كثيرة مختلفة الألوان ، وقد علمتك الحرفة فاصبغها ، فطبخ جبّا واحدا ، وأدخل فيه جميع الثياب ، وقال لها : كونى على ما أريد ، فقدم الحوارى ، والثياب كلها فى الجب ، فلما رآها قال : قد أفسدتها ، فأخرج عيسى ثوبا أصفر ، وأحمر ، وأخضر ، إلى غير ذلك ، فعجب الحوارى ، وعلم أنّ ذلك من اللّه تعالى ، ودعا الناس إليه ، وآمنوا به ، ونصروه ، فهم الحواريون.

ولما أخرجه بنو إسرائيل عاد إليهم مع الحواريين ، وصاح فيهم بالدعوة ، فهمّوا بقتله ، وتواطئوا عليه ، وَمَكَرُوا أي : دبروا الحيل فى قتله ، وَمَكَرَ اللَّهُ بهم ، أي : استدرجهم حتى قتلوا صاحبهم ، ورفع عيسى عليه السّلام ، فالمكر فى الأصل : هو حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة. ولا تسند إلى اللّه إلا على حسب المقابلة والازدواج ، كقوله :

يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ

، وقوله : اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ. أي : أشدهم مكرا ، وأقواهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب ، أو أفضل المجازين بالعقوبة لأنه لا أحد أقدر على ذلك منه.

تنبيه : قيل للجنيد رضى اللّه عنه : كيف رضى المكر لنفسه ، وقد عابه على غيره؟ قال : لا أدرى ، ولكن أنشدنى فلان للطبرانية :

فديتك قد جبلت على هواك ونفسى ما تحنّ إلى سواك
أحبّك ، لا ببعضي بل بكلّي وإن لم يبق حبّك لى حراكا
ويقبح من سواك الفعل عندى وتفعله فيحسن منك ذاك «١»
فقال له السائل : أسألك عن القرآن ، وتجيبنى بشعر الطبرانية؟ قال : ويحك ، قد أجبتك إن كنت تعقل. إنّ تخليته إياهم مع المكرية ، مكر منه بهم. هـ.
قلت : وجه الشاهد فى قوله : (و تفعله فيحسن منك ذاك) ، ومضمن جوابه : أن فعل اللّه كله حسن فى غاية الإتقان ، لا عيب فيه ولا نقصان ، كما قال صاحب العينية :
وكلّ قبيح إن نسبت لحسنه أتتك معانى الحسن فيه تسارع
يكمّل نقصان القبيح جماله فما ثمّ نقصان ولا ثمّ باشع

---

(١) القصة ذكرها مختصرة أبو حيان فى التفسير ٢/ ٤٩٦ مقتصرا على البيت الثالث.

وتخليته تعالى إياهم مع المكر ، تسبب عنه الرفع إلى السماء ، وإبقاء عيسى حيّا إلى آخر الزمان ، حتى ينزل خليفة عن نبينا - عليه الصلاة والسلام - ، فكان ذلك فى غاية الكمال والإتقان ، لكن لا يفطن لهذا إلا أهل العرفان.
الإشارة : يجب على المريد الصادق الذي يطلب دواء قلبه ، أن يفر من الوطن الذي يظهر فيه الإنكار ، إلى الوطن الذي يكثر فيه الإقرار ، يفر إلى من يعينه على نصر الدين من الأبرار المقربين ، الذين جعلهم اللّه حوارى الدين ، ففى الحديث الصحيح : «خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف «١» الجبال يفرّ من الفتن». فالمؤمن يفر بدينه من شاهق جبل إلى شاهق جبل حتى يدركه الموت ، وما زالت الأكابر تفر بنفسها إلى شواهق الجبال ، يهربون من حس الدنيا وشغبها ، ولا يرافقون إلا من يستعين بهم على ذكر اللّه ، وهم أهل التجريد ، الذين اصطفاهم اللّه لخالص التوحيد ، فروا إلى اللّه فآواهم اللّه ، قالوا : (آمنا باللّه واشهد بأنا مسلمون) منقادون لما تريد منا ، (ربنا آمنا بما أنزلت) من الأحكام الجلالية والجمالية قد عرفناك فى جميع الحالات ، (فاكتبنا مع الشاهدين) لحضرتك ، المنعمين بشهود ذاتك ، ومن مكر بنا من القواطع الخفية فغيّبنا عنه بشهود أنوارك القدسية ، وانصرنا فإنك خير الناصرين ، ولا تدعنا مع مكر الماكرين يا رب العالمين.
ثم ذكر الحق تعالى رفع عيسى إلى السماء فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٥٥ الى ٥٨]
إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)

قلت : (إذ قال) : ظرف لمقدر ، أي : اذكر ، أو وقع ذلك إذ قال ، أو لمكروا ، (متوفيك) أي : رافعك إليّ وافيا تاما ، من قولهم : توفيت كذا واستوفيته : قبضته وافيا تاما ، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت ، أو منيمك بدليل قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ، روى أنه رفع نائما ، والإجماع على أنه لم يمت ،

---

(١) (شعف) ، بفتح الشين والعين : جمع شعفة ، وهى من كل شىء : أعلاه. والمراد بها هنا : رءوس الجبال.

قال تعالى : وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وقوله : (ذلك) مبتدأ ، و(نتلوه) : خبر ، و(من الآيات) :
حال ، أو (من الآيات) : خبر ، و(نتلوه) : حال ، أو خبر بعد خبر.
يقول الحق جل جلاله : اذكر إِذْ قالَ اللَّهُ لعيسى عليه السّلام لما أراد رفعه : يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ، أي :
قابضك إلى ببدنك تاما ، وَرافِعُكَ إِلَيَّ أي : إلى محل كرامتي ومقر ملائكتى ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : من مخالطة دنس كفرهم ، وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ ممن صدق بنبوتك من النصارى والمسلمين ، وقال قتادة والشعبي والربيع : هم أهل الإسلام. هـ. فو اللّه ما اتبعه من ادعاه ربا ، فمن تبع دينه حقا جعل فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا به من اليهود إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ يغلبونهم بالحجة والسيف. وقد حقق اللّه فيهم هذا الأمر ، فإن اليهود لم ترفع لهم راية قط ، ولم يتفق لهم ملك ولا دولة إلى زمننا هذا «١».
ثم قال تعالى : ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ بالبعث ، فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ من أمر الدين وأمر عيسى. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ أي : فأجمع لهم عذابا الآخرة لعذاب

الدنيا الذي أصابهم فيها من القتل والسبي. وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ فى الدارين بالنصر والعز فى الدنيا ، وبالرضا والرضوان فى الآخرة ، وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ لا يرضى فعلهم ولا يقربهم إليه.

ذلِكَ الذي ذكرت لك من نبأ عيسى ومريم ومن ذكر قبلهما ، نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ أي : العلامات الدالة على صدقك ، لأنها أخبار عن أمور لم تشاهدها ولم تقرأها فى كتاب ، بل هى من الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، وهو القرآن المبين.

الإشارة : كل من طهر سره من الأكدار ، وقدس روحه من دنس الأغيار ، ورفع همته عن هذه الدار ، عرج اللّه بروحه إلى سماء الملكوت ، ورفع سره إلى مشاهدة سنا الجبروت ، وبقي ذكره حيا لا يموت ، وجعل من انتسب إليه فى عين الرعاية والتعظيم ، وفى محل الرفعة والتكريم ، قال - عليه الصلاة والسلام - : «هاجروا تكسبوا العز لأولادكم» ، فمن هاجر وطن الحظوظ والشهوات ، والركون إلى العوائد والمألوفات ، عرجت روحه إلى سماء القدس ومحل الأنس ، وتمكن من العز الذي لا يفنى ، ينسحب عليه وعلى أولاده ومن انتسب إليه إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها ، (و هو خير الوارثين). هذه سنة اللّه فى خلقه ، لأنهم نصروا دين اللّه ورفعوا كلمة اللّه ، فنصرهم اللّه ، ورفعهم اللّه ، قال تعالى : إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ، وقال تعالى : وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا. وفى الحكم : «إن أردت إن يكون لك عز لا يفنى ، فلا تستعزن بعز يفنى». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أي : إلى زمن المؤلف ، أما فى زمننا ، فقد أنشئوا لهم دولة ، فى قلب عالمنا الإسلامى ، فى فلسطين العربية ، بمعاونة الدول الظالمة. اللهم أزل دولتهم وفرق شملهم ... آمين.

وقال القشيري : الإشارة فيه : إني متوفيك عنك وقابضك منك ، ورافعك عن نعوت البشرية ، ومطهرك عن إرادتك بالكلية ، حتى تكون مصدقا لنا بنا ، ولا يكون لك من اختيارك شيء ، وتكون إسبال التولي عليك قائما ، وبهذا الوصف كان يظهر على يده إحياء الموتى ، وما كانت تلك الأحداث حاصلة إلا بالقدرة عليه. هـ. وقال الورتجبي :

متوفيك عن رسم الحدوثية ، ورافعك إليّ بنعت الربوبية ، ومطهرك عن شوائب البشرية. هـ.

ثم ذكر نشأة عيسى وخلقه ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٥٩ الى ٦٠]

إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ أي : إن شأنه الغريب فى كونه وجد من غير أب (كمثل آدم). ثم فسر شأن آدم فقال : خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ أي : خلق قالبه من تراب ، ثُمَّ نفخ فيه الروح ، وقالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ أي : فكان ، فشأنه أغرب من شأن عيسى ، لأنه وجد من غير أب ولا أم ، بخلاف عيسى عليه السّلام ، فلا يستغرب حاله ويتغالى فيه إلا من طبع اللّه على قلبه ، فاستعجز القدرة الإلهية ، وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً. هذا هو الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ أي : الشاكين فى مخلوقيته ، وهذا خطاب للنبى صلّى اللّه عليه وسلم ، على طريق التهييج لغيره ، أو لكل سامع.

وسبب نزول الآية : أنّ وفد نجران قالوا للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : مالك تشتم صاحبنا ، فتقول : إنه عبد؟ قال : أجل ، هو عبد اللّه ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فغضبوا ، وقالوا : هل رأيت إنسانا قط من غير أب؟ فإن كنت صادقا فأرنا مثله. فنزلت : إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ. أي : فهو أعجب من عيسى ، لكونه بلا واسطة أصلا. روى أن مريم حملت بعيسى وهى بنت ثلاث عشرة سنة ، وأوحى اللّه إليه على رأس ثلاثين سنة ، ورفعه إليه من بيت المقدس ليلة القدر ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين.

قال عليه الصلاة والسلام : «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بينى وبينه نبى ، فإنه نازل بأمتى وخليفتى فيهم ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، سبط الشعر ، كأن شعره يقطر ، وإن لم يصبه بلل ، يدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويفيض المال ، وليسلكن الروحاء «١» ، حاجا أو معتمرا ، أو ليثنينّهما جميعا ، ويقاتل الناس على الإسلام ، حتى يهلك اللّه فى زمانه الملل كلها ، ويهلك اللّه فى زمانه مسيح الضلالة ، الكذاب

---

(١) فج الروحاء : طريق بين مكة والمدينة ، كان طريق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إلى بدر ، وإلى مكة ، عام الفتح وعام الحج.

الدجال ، وتقع فى الأرض الأمنة ، حتى ترتع الأسد مع الإبل ، والنمر مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الغلمان بالحيات ، ويلبث فى الأرض أربعين سنة ، ثم يتزوج ويولد له ثم يتوفى ، ويصلى المسلمون عليه». ويدفنونه فى حجرة النبي صلّى اللّه عليه وسلم.

الإشارة : اعلم أن الحق – جل جلاله – أظهر هذا الآدمي فى شكل غريب ، وسر عجيب ، جمع فيه بين الضدين ، وأودع فيه سر الكونين ، نورانى ظلمانى ، روحانى جسمانى ، سماوى أرضى ، ملكوتى ملكى ، معنوى حسى ، أودع فيه الروح نورانية لاهوتية فى نطفة ناسوتية ، فوقع التنازع بين الضدين ، فالروح تحن إلى وطنها اللاهوتى ، والنطفة الطينية تحن إلى وطنها الناسوتي ، فمن غلبت روحانية على طينته التحق بالروحانيين ، وكان من المقربين فى أعلى عليين ، فصارت همته منصرفة إلى طاعة مولاه ، والارتقاء إلى مشاهدة نوره وسناه ، فانيا عن حظوظه وهواه ، ومن غلبت طينته على روحانيته التحق بالبهائم أو الشياطين ، وانحط إلى أسفل سافلين ، وكانت همته منصرفة إلى حظوظه وهواه ، غائبا عن ذكر مولاه ، قد اتخذ إلهه هواه.

وتأمل قضية السيد عيسى عليه السّلام لمّا لم ينشأ من نطفة أمشاجية ، كيف غلبت روحانيته ، حيث لم تجد ما يجذبها إلى الحضيض الطيني ، فلم يلتفت إلى هذا العالم الظلماني أصلا ، وكذلك الأنبياء حيث طهروا من بقاياها فى الأصالة ، والأولياء حيث طهروها بالمجاهدة ، كيف صارت أرواحهم لاتشتاق إلا إلى الأذكار والعلوم والأسرار ، فانية فى محبة الواحد القهار ، حتى لحقت بوطنها ، ورجعت إلى أصلها ، محل المشاهدة والمكالمة والمناجاة والمساررة ، هذا هو الحق من ربك فلا تكن من الممترين فى إدراك الروح هذا المقام ، إن لم يغلب عليها عالم الصلصال. واللّه – تعالى – أعلم.

ولما قامت الحجة على النصارى ، وتبيّن عنادهم ، دعاهم إلى المباهلة ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٦١ الى ٦٣]

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)

قلت : أصل (تعالوا) : تعاليوا ، على وزن تفاعلوا ، من العلو ، فقلبت الياء ألفا لتحركها ، ثم حذفت ، ومن قرأ بالضم نقل ، وأصل معناها : ارتفع ، ثم أطلق على الأمر بالمجيء. والابتهال : التضرع والمبالغة فى الدعاء.

يقول الحق جل جلاله : فَمَنْ خاصمك يا محمد فى شأن عيسى عليه السّلام ، وكان الذي خاصم فى ذلك السيد والعاقب ، لما قدموا مع انصارى نجران على النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، قال لهما النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «أسلما» ، قالا : قد أسلمنا قبلك ، قال : «كذبتما ، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما عيسى للّه ولدا ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير» ، قالا : إن

لم يكن عيسى ولدا للّه فمن أبوه؟ فقال لهما النبي صلّى اللّه عليه وسلم : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت ، وأن عيسى يأتى عليه الفناء؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيّم كل شيء ، ويحفظه ، ويرزقه؟ قالوا : بلى ، قال : فهل ملك عيسى شيئا من ذلك؟ فقالوا : لا. قال : ألستم تعلمون أن اللّه لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء؟ قالوا : بلى ، قال : فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علّم؟ قالوا : لا.
قال : فإن ربنا صوّر عيسى فى الرحم كيف شاء ، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ، قالوا : بلى.
قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذّى كما يغذى الصبى ، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟ قالوا : بلى. قال : كيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا ... فأنزل فيهم السورة إلى هنا.
فقال الحق لنبيه - عليه الصلاة السلام - : فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ أي : فى عيسى من النصارى ، مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ بعبوديته ، فَقُلْ لهم : تَعالَوْا نتلاعن ، أي : نلعن الكاذب منا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ أي : يدعو كل واحد منا نفسه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ، وإنما قدّمهم على النفس لأن الرجل يخاطر بنفسه دونهم ، فكان تقديمهم أبلغ فى الابتهال ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ ، أي نجهد فى الدعاء على الكاذب ، فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ.
فلما قرأ النبي صلّى اللّه عليه وسلم هذه الآية على وفد نجران ، ودعاهم إلى المباهلة ، قالوا : حتى نرجع وننظر فى أمرنا ، فقالوا للعاقب - وكان ذا رأيهم - : ما ترى؟ فقال : واللّه لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم ، واللّه ما لا عن قوم قط نبيا فعاش كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم ذلك لتهلكن ، فوادعوا الرّجل. وانصرفوا ، فأتوه وهو محتضن الحسن آخذ بيد الحسين ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعليّ خلفها ، وهو يقول لهم : «إذا دعوت فأمنوا» ، فقال الأسقف : يا معشر النصارى ، إنى لأرى وجوها لو سألوا اللّه أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله ، فلا تتباهلوا فتهلكوا جميعا إلى يوم القيامة. فقالوا : يا أبا القاسم ، نرى ألا نلا عنك ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : أسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم ، فأبوا ، فقال : إنى أنابذكم ، فقالوا : مالنا بحرب العرب طاقة ، ولكنا نصالحك على ألا تغزونا ولا تردّنا عن ديننا ، على أن نؤدى إليك فى كل عام ألفى حلة ألفا فى صفر ، ألفا فى رجب ، وثلاثين درعا من حديد.
فصالحهم النبي صلّى اللّه عليه وسلم على ذلك ، فقال النبي : «والذي نفسى بيده لو تلاعنوا لمسخوا قردة ، وخنازير ، ولأضرم عليهم الوادي نارا ، ولا ستأصل اللّه نجران وأهله ، ولما حال الحول على النّصارى كلّهم حتى هلكوا».
قال اللّه تعالى : إِنَّ هذا الذي أوحينا إليك لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ ، خلافا لما يزعم النصارى من التثليث ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ فى ملكه الْحَكِيمُ فى صنعه ، فلا أحد يساويه فى قدرته

التامة ، ولا فى حكمته البالغة ، فَإِنْ تَوَلَّوْا وأعرضوا عن الإيمان ، فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ، الذين يعبدون غير اللّه.

(٣٦٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٦٤
ووضع المظهر موضع الضمير ، ليدل على أن التولي عن الحجج والإعراض عن التوحيد إفساد للدين ، بل يؤدى إلى فساد العالم. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : ينبغى للمريد ، الذي تحقق بخصوصية شيخه ، أن يلاعن من يخاصمه فيه ، ويبعد عنه كل البعد ، ولا يهين له لئلا يركبه ، ويدفع عن شيخه ما استطاع ، فإنّ هذا من التعظيم الذي هو سبب فى سعادة المريد ، ولا يصغى إلى المفسدين الطاعنين فى أنصار الدين. قلت : وقد جاءنى بعض من ينتسب إلى العلم من أهل فاس ، فقال لى : قد اتفقت علماء فاس على بدعة شيخكم ، فقلت له : لو اتفق أهل السموات السبع والأرضين السبع ، على أنه من أهل البدعة ، لقلت أنا : إنه من أهل السنة ، لأنى تحققت بخصوصيته ، كالشمس فى أفق السماء ، ليس دونها سحاب. فاللّه يرزقنا حسن الأدب معهم والتعظيم إلى يوم الدين. آمين. فمن أعرض عن أولياء اللّه من المنكرين (فإن اللّه عليم بالمفسدين).
ثم دعاهم إلى التوحيد الذي اتفقت عليه سائر الأديان ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : آية ٦٤]
قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)
قلت : (سواء) : مصدر ، نعت للكلمة ، والمصادر لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث ، فإذا فتحت السين مددت ، وإذا ضمت أو كسرت قصرت ، كقوله : مَكاناً سُوىً أي : مستو. وسواء كل شىء : وسطه ، قال تعالى : فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ ، أي : وسطه.
يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : يا أَهْلَ الْكِتابِ اليهود والنصارى ، تَعالَوْا : هلموا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ أي : عدل مستوية ، بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ لا يختلف فيها الرسل والكتب والأمم ، هى أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ أي : نوحده بالعبادة ، ونقر له بالوحدانية ، وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً أي : لا نجعل غيره شريكا له فى استحقاق العبادة ، وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : لا نقول عزير ابن اللّه ، ولا المسيح ابن اللّه ، ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل ، لأنهم بشر مثلنا.
ولمّا نزل قوله تعالى : اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ... قال عدى بن حاتم : ما كنّا

نعبدهم يا رسول اللّه ، قال : «أليس كانوا يحلّون لكم ويحرّمون ، فتأخذون بقولهم؟ قال : بلى ، قال : هو ذاك»

(٣٦٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٦٥

فَإِنْ تَوَلَّوْا وأعرضوا عن التوحيد فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ، فقد لزمتكم الحجة ، فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم ، وأنتم كافرون بما نطقت به الكتب وتواطأت عليه الرسل.

تنبيه : أنظر ما فى هذه الآية من المبالغة وحسن التدرج فى الاحتجاج ، بيّن أولا أحوال عيسى وما تطاور عليه من الأطوار المنافية للألوهية ، ثم ذكر ما يحل عقدتهم ويزيح شبهتهم ، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز ، ثم لمّا أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد ، عاد عليهم بالإرشاد ، وسلك طريقا أسهل وألزم ، بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى وسائر الأنبياء والكتب ، ثم لمّا لم يجد ذلك فيهم شيئا ، وعلم أن الآيات والنذر لا تغنى عنهم شيئا أعرض عنهم ، وقال : فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. قاله البيضاوي.

الإشارة : الطرق كثيرة والمقصد واحد ، وهو التوحيد الخاص ، أعنى مقام الفناء والبقاء. فالداعون إلي اللّه كلهم متفقون على الدعوة إلى هذا المقصد ، فكل طريق لا توصل إلى هذا المقصد لا عبرة بها ، وكل داع لا يبلغ إلى هذا الجمال فهو دجال ، فإن رضى بتعظيم الناس ، ولم يبن طريقه على الأساس ، فليس لصاحبه إلا الإفلاس ، وكل من أطاع المخلوق فى معصية اللّه فقد اتخذه ربّا من دون اللّه ، وكل من تولى عن طريق الإرشاد فقد استوجب لنفسه الطرد والبعاد ، فيقول له الواصلون أو السائرون : (فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون). وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما قدم وفد نجران المدينة ، التقوا مع اليهود ، فاختصموا فى إبراهيم عليه السّلام فأتاهم النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد إنا اختلفنا فى إبراهيم ودينه ، فقالت النصارى : كان نصرانيا ، وقالت اليهود : كان يهوديا ، وهم أولى الناس به ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «كلا الفريقين برئ من إبراهيم ، بل كان إبراهيم حنيفا مسلما ، وأنا على دينه ، فاتبعوا دينه الإسلام». فأنزل اللّه :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٦٥ الى ٦٨]

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٦٦

قلت : (ها أنتم) : أصله : أنتم ، دخلت عليه هاء التنبيه ، وقال الأخفش : أصله : أأنتم ، فقلبت الهمزة الأولى هاء ، كقوله : هرقت. وتوجيه القراءات معلوم فى محله ، و(أنتم) : مبتدأ ، و(هؤلاء) : خبره ، و(حاججتم) : جملة مبينة للأولى ، أو (حاججتم) : خبر ، و(هؤلاء) : منادى بحذف النداء ، و(حنيفا) : حال ، أي : مائلا عن الأديان إلا دين الإسلام.

يقول الحق جل جلاله : يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ ، ويدعى كل فريق أنه كان على دينه ، وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، فكيف يكون يهوديا ، ودينكم إنما حدث بعد إبراهيم بألف سنة؟! وكيف يكون نصرانيا ، ودين النصرانية إنما ظهر بعد إبراهيم بألفى سنة؟! أَفَلا تَعْقِلُونَ فتدعون المحال ، ها أَنْتُمْ يا هؤُلاءِ الحمقى حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ من أمر محمد - عليه الصلاة والسلام - ونبوته ، مما وجدتموه فى التوراة والإنجيل ، فأنكرتموه عنادا وحسدا ، فلم تجادلون فيما لا علم لكم به ، ولا ذكر فى كتابكم من شأن إبراهيم؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما خاصمتم فيه ، وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ، بل أنتم جاهلون.

ثم صرح بتكذيب الفريقين فقال : ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مائلا عن العقائد الزائفة ، (مسلما) منقادا لأحكام ربه. وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام ، وإلا لكان مشترك الإلزام ، لأن دين الإسلام مؤخر أيضا ، فكان إبراهيم إمام الموحدين ، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كما عليه اليهود والنصارى والمشركون. ففيه تعريض بهم ، ورد لادعائهم أنهم على ملته.

ثم ذكر من أولى الناس به ، فقال : إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ أي : أخصهم به وأقربهم منه ، لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ من أمته فى زمانه ، وَهذَا النَّبِيُّ محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وَالَّذِينَ آمَنُوا لموافقتهم له فى أكثر الأحكام ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : «لكلّ نبىّ ولاة من النّبيّين ، وإنّ وليّى منهم أبى وخليل ربّى». يعنى : إبراهيم عليه السّلام ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ أي : ناصرهم على سائر الأديان ، ومجازيهم بغاية الإحسان.

الإشارة : ترى كثيرا من المتفقرة يخصون الكمال بطريقهم ، ويخاصمون فى طريق غيرهم ، وهى نزعة أهل الكتاب ، حائدة عن الرشد والصواب ، فأولى بالحق من اتبع السنة المحمدية ، وتخلق بالأخلاق المرضية ، وزهد فى الدارين ، ورفع همته عن الكونين ، ورفع حجاب الغفلة عن قلبه ، حتى أشرقت عليه أنوار ربه ، واتصل بأهل التربية النبوية ، فزجوا به فى بحار الأحدية ، ثم ردوه إلى مقام الصحو والتكميل ، فياله من مقام جليل ، فهذه ملة إبراهيم الخليل ، وبها جاء الرسول الجليل حبيب الرحمن ،

وقطب دائرة الزمان ، سيد المرسلين ، وإمام العارفين ، ورسول رب العالمين ، صلى الله عليه وسلم دائما إلى يوم الدين.

(٣٦٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٦٧

ثم شرع فى معاتبة اليهود وذكر مساوئهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٦٩ الى ٧١]

وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (٦٩) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)

قلت : (لو) : مصدرية ، أي : تمنوا إضلالكم.

يقول الحق جل جلاله لبعض المسلمين - وهم حذيفة وعمار ومعاذ - دعاهم اليهود إلى دينهم وطمعوا فيهم :

وَدَّتْ طائِفَةٌ أي : تمنت طائفة مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ أي : يفتنونكم عن دينكم ، ويتلفونكم عن طريق الحق ، وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ لأن المسلمين لا يقبلون ذلك منهم ، فرجع الضلال عليهم ، وعاد وباله إليهم ، وتضاعف عذابه عليهم ، وَما يَشْعُرُونَ أن وباله راجع إليهم.

ثم صرح الحق تعالى بعتابهم ، فقال : يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ المنزلة على نبيه محمد صلّى اللّه عليه وسلم وتجحدون رسالته؟ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ أنها من عند اللّه ، وأنه نبى اللّه ، وهو منعوت عندكم فى التوراة والإنجيل ، والمراد أحبارهم ، أو تشهدون أنه نبى اللّه بالمعجزات الواضحات. يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ بالتحريف وإبراز الباطل فى صورة الحق ، حتى كتمتم نعت محمد وحرفتموه ، وأظهرتم موضعه الباطل الذي سولت لكم أنفسكم؟ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنه رسول اللّه حقا وأن دينه حق ، أو :

وأنتم عالمون بكتمانكم.

الإشارة : ترى كثيرا من أهل الرئاسة والجاه من أولاد الصالحين ، وممن ينتسب لهم ، إذا رأوا من ظهر بالخصوصية فى زمانهم يتمنون إضلالهم وإطفاء أنوارهم ، خوفا على زوال رئاستهم ، وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون ، (و اللّه متم نوره ولو كره الكافرون) ، وهذه نزعة يهودية سببها الحسد ، والحسود لا يسود ، وبعضهم يتحقق بخصوصية غيرهم ، فيكتمها وهو يشهد بصحتها ، فيقال لهم : لم تكفرون بآيات اللّه وأنتم تشهدون؟ ولم تلبسون الحق بالباطل ، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون؟.

ثم ذكر الحق – تعالى – خدع أهل الكتاب وحيلهم الفارغة ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٧٢]

وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)

(٣٦٧/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٦٨

قال الحسن والسدى : تواطأ اثنا عشر رجلا من يهود خيبر – يعنى من أحبارهم – وقال بعضهم لبعض : ادخلوا فى دين محمد أول النهار باللسان لا بالاعتقاد ، واكفروا به آخره ، وقولوا : نظرنا فى كتبنا ، وشاورنا علماءنا ، فوجدنا محمدا ليس بذلك ، وظهر لنا كذبه ، وإنما نفعل ذلك حتى نشكك أصحابه. هـ. فحذّر اللّه تعالى المسلمين من قولهم ، فقال جل جلاله : وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ يعنى : أحبارهم : (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا) وأظهروا الدخول فى دينهم ، وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ وقولوا : نظرنا فى كتبنا ، وشاورنا علماءنا ، فلم نجد محمدا بالنعت الذي فى التوراة ، لعل أصحابه يشكون فيه – لعنهم اللّه وأضل سعيهم.

وقيل : نزلت فى شأن الكعبة ، فإنّ كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف – من اليهود – قالا لأصحابهما : صلوا معهم إلى الكعبة أول النهار ، ثم صلوا إلى الصخرة آخره ، لعلهم يقولون : هم أعلم منا ، وقد رجعوا ، فيرجعون ، ففضحهم اللّه وأبطلحيلتهم الواهية.

الإشارة : ترى كثيرا من الناس يدخلون فى طريق القوم ، ثم تثقل عليهم أعباؤها ، فيخرجون منها إما لضعفهم عن حملها ، أو لكونهم دخلوا مختبرين لها ، أو على حرف أو حيلة لغيرهم ، فإذا رجع أحد منهم قال الناس : لو كانت صحيحة ما رجع فلان عنها ، ويصدون الناس عن الدخول فيها والدوام عليها ، وهذه نزعة إسرائيلية ، قالوا : آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون وقد قال عليه الصلاة والسلام : «لتسلكن سنن من قبلكم شبرا بشير ، وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه ، قالوا : اليهود والنّصارى؟ قال : نعم ، فمن إذن». وباللّه التوفيق.

ثم ذكر الحق – تعالى – مقالة أخرى من مقالاتهم الشنيعة ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٧٣ الى ٧٤]

وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)

قلت : يحتمل أن يكون قوله : (أن يؤتى) : مفعولا ب - (تؤمنوا) ، و(قل إن الهدى هدى اللّه) : اعتراض ، واللام فى «لمن» صلة ، (أو يحاجوكم) : عطف على (يؤتى) ، والتقدير : ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، إلا من كان على دينكم ، ولا تصدقوا أن يحاجوكم عند ربكم ، بل أنتم تحاجون غيركم. فردّ اللّه عليهم (قل إن الهدى هدى اللّه) ، و(إن الفضل بيد اللّه). ويحتمل أن يكون قوله : (أن يؤتى) مفعولا لأجله ، والعامل فيه محذوف ، والتقدير : أدبّرتم ما دبرتم كراهية أن يوتى أحد ما أوتيتم ، ومخافة أن يحاجوكم عند ربكم؟.

(٣٦٨/١)

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن اليهود : (و) قالوا لا تُؤْمِنُوا أي : لا تقروا ، أو تصدقوا أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ من العلم والحكمة وفلق البحر وسائر الفضائل ، إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دين اليهودية ، وكان على دِينَكُمْ ، ولا تؤمنوا أن يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ لأنكم أصح دينا منهم. قال الحق جل جلاله : قُلْ لهم : إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ يهدى به من يشاء ، وإِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ.

أو يقول الحق جل جلاله : وقالوا : لا تصدقوا ولا تذعنوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ وكان من جلدتكم ، فإن النبوة خاصة بكم. فكذبهم الحق بقوله : قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ ، يخص بها من يشاء من عباده ، فكيف تحصرونها فيكم؟ لأجل أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ قلتم ما قلتم ، ودبرتم ما دبرتم ، حسدا وبغيا ، (أو) خوفا أن يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، يغلبوكم بالحجة لظهور دينهم ، قُلْ يا محمد : إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ فلا ينفع فى رده حيلة ولا خدع.

أو يقول الحق جل جلاله ، للمؤمنين ، تثبيتا لهم وتشجيعا لقلوبهم : ولا تصدقوا يا معشر المؤمنين أن يعطى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل والدين القويم إلا من تبع دينكم الحق ، وجاء به من عند الحق ، ولا تصدقوا أَوْ يُحاجُّوكُمْ فى دينكم عِنْدَ رَبِّكُمْ ، أو يقدر أحد على ذلك ، فإن الهدى هدى اللّه والفضل بيد اللّه ، يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ الفضل والكرم ، عَلِيمٌ بمن يستحق الخصوصية والفضل ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ كالنبوة وغيرها ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ لا حصر لفضله ، كما لا حصر لذاته.

الإشارة : يقول الحق - جلت ذاته ، وعظمت قدرته - لأهل الخصوصية : ولا تقروا بالخصوصية إلا لمن كان على دينكم وطريقكم ، وتزيّا بزيكم ، وبذل نفسه وفلسه فى صحبتكم ، مخافة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الخصوصية ، وهو ليس أهلا لها ، فيأخذها علما ، فإما أن يتزندق أو يتفسق ، أو يحاجوكم بالشريعة فيريق دماءكم كما وقع للحلاج رضي اللّه عنه وفى ذلك يقول الشاعر :

ومن شهد الحقيقة فليصنها وإلّا سوف يقتل بالسّنان

كحلّاج المحبّة إذ تبدّت له شمس الحقيقة بالتّدانى «١»

وقال آخر :

بالسّرّ إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تباح

---

(١) البيتان : من قصيدة للشيخ محيى الدين بن عربى ، فى كتابه : الإسراء إلى المقام الأسرى ، وفيه : ومن فهم الإشارة فليصنها.

(٣٦٩/١)

وقل أيها العارف ، لمن طلب الخصوصية قبل شروطها أو أنكر وجودها عند أهل شرطها : إن الهدى هدى اللّه يهدى به من يشاء ، والفضل بيد اللّه يؤتيه من يشاء ، والرحمة - التي هى الخصوصية - فى قبضة اللّه ، يخص بها من يشاء ، (و اللّه ذو الفضل العظيم) فمن أراد الخصوصية فليطلبها من معدنها ، وهم العارفون بها ، فيبذل نفسه وفلسه لهم حتى يعرفوه بها. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر الحق - تعالى - وصف اليهود بالخيانة ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٧٥ الى ٧٦]

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)

قلت : الباء فى (بقنطار) ، بمعنى على ، و(يؤده) : جواب الشرط مجزوم بحذف الياء ، ومن قرأ بإسكان الضمير فلأنه أقامه مقام المحذوف ، فجزمه عوضا عنه ، وقال الفراء : مذهب بعض العرب : يسكنون الهاء إذا تحرك ما قبلها ، يقولون : ضربته ضربا شديدا.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ من أسلم وآمن فصار من أهل الإيمان ، إِنْ تَأْمَنْهُ على بِقِنْطارٍ من المال أو أكثر أداه إليك ، ولم يخن منه شيئا. وفى الحديث : «من ائتمن على أمانة فأداها ، ولو شاء لم يؤدها ، زوجه اللّه من الحور العين ما شاء». وَمِنْهُمْ من بقي على دينه من أهل الخيانة والخسران ، إِنْ تَأْمَنْهُ على بِدِينارٍ فأقل لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً على رأسه ، مبالغا فى مطالبته. نزلت فى عبد اللّه بن سلام ، استودعه قرشى ألفا ومائتى أوقية ذهبا ، فأداها إليه ، وفى فنحاص بن عازوراء اليهودي ، استودعه قرشى آخر دينارا ، فجحده. وقيل : فى النصارى واليهود ، فإن النصارى : الغالب عليهم الأمانة ، واليهود الغالب عليهم الخيانة.

وذلك الاستحلال بسبب أنهم قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ أي : ليس علينا فى شأن من ليسوا أهل كتاب ، ولم يكونوا على ديننا ، حرج فى أخذ مالهم وجحدها ، ولا إثم ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنهم كاذبون لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم ، وقالوا : لم يجعل لهم فى التوراة حرمة.

وقيل : عامل اليهود رجالا من قريش ، فلما أسلموا تقاضوهم ، فقالوا : سقط حقكم حيث تركتم دينكم. وقال صلّى اللّه عليه وسلم :

«كذب أعداء اللّه ، ما من شيء فى الجاهلية إلّا وهو تحت قدمى ، إلّا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر».

ثم كذّبهم الحق - تعالى - فقال : بَلى عليهم فى ذلك سبيل ، فإن مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقى الشرك والمعاصي فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ومن أحبه اللّه كيف يباح ماله وتسقط حرمته؟! بل من أسقط حرمته فقد حارب اللّه ورسوله ، أو مَنْ أَوْفى ، بعهد اللّه من أهل الكتاب ، فآمن بمحمد - عليه الصلاة والسلام - وَاتَّقى الخيانة ، وأدى الأمانة ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ. وأوقع المظهر موقع الضمير العائد إلى «من» لعمومه ، فإن لفظ المتقين عام يصدق برد الودائع وغيره ، إشعارا بأن التقوى ملاك الأمر وسبب الحفظ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد رأينا بعض الفقراء دخل بلد الحقيقة فسقطت من قلبه هيبة الشريعة ، فتساهل فى أموال الناس وسقطت لديه حرمة العباد ، حتى لا تثق به فى حفظ مال ولا أهل ، فإذا أودعته شيئا أو قارضته لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما. وهذه زندقة ونزعة إسرائيلية ، لا يرضاها أدنى الناس ، فما بالك بمن يدعى أنه أعلى الناس ، وفى بعض الحكم : [كمال الديانة ترك الخيانة] ، وأعظم الإفلاس خيانة الناس ، وفى الحديث : «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق ، وإن صلّى وإن صام وزعم أنه مؤمن ، إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان». فإذا احتج لنفسه الأمارة ، وقال : لا سبيل علينا فى متاع العوام ، فقد خلع من عنقه ربقة الإسلام ، واستحق أن يعلو مفرقه الحسام. واللّه تعالى أعلم.

ومن جملة الخيانة : أكل أموال الناس بالأيمان الفاجرة ، كما أشار إلى ذلك الحق - تعالى - فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٧٧]

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ أي : يستبدلون بالوفاء بعهد اللّه كالإيمان بالرسول – عليه الصلاة والسلام – الذي أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة وبيان صفته ، وأداء الأمانة ، فكتموا ذلك واستبدلوا به ثَمَناً قَلِيلًا حطاما فانيا من الدنيا ، كانوا يأخذونه من سفلتهم ، فخافوا إن بيّنوا ذلك زال ذلك عنهم ، وكذلك الأيمان التي أخذها اللّه عليهم لئن أدركوا محمدا صلّى اللّه عليه وسلم ليؤمنن به ولينصرنه ، فنقضوها ، خوفا من زوال رئاستهم ، فاستبدلوا بالوفاء بها ثمنا قليلا فانيا ، أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ أي : لا نصيب لهم ، فِي الْآخِرَةِ ، وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ بما يسرهم ، أو بشيء أصلا ، وإنما الملائكة تسألهم ، وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ نظرة رحمة ، بل يعرض عنهم ، غضبا عليهم وهوانا بهم ، وَلا يُزَكِّيهِمْ لا يطهرهم من ذنوبهم ، أو لا يثنى عليهم ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أي : موجع.
قال عكرمة : نزلت فى أبى رافع وكنانة بن أبى الحقيق وحيي بن أخطب ، وغيرهم من رؤساء اليهود ، كتموا ما عهد اللّه إليهم فى التوراة فى شأن النبي صلّى اللّه عليه وسلم من بيان صفته ، فكتموا ذلك وكتبوا غيره ، وحلفوا أنه من عند اللّه ، لئلا يفوتهم الرشا من أتباعهم.

وقال الكلبي : إن ناسا من علماء اليهود كانوا ذا حظ من علم التوراة ، فأصابتهم سنة ، فأتوا كعب بن الأشرف يستميرونه ، أي : يطلبون منه الميرة – وهو الطعام – ، فقال لهم كعب : هل تعلمون أن هذا الرجل رسول فى كتابكم؟
قالوا : نعم ، أو ما تعلمه أنت؟ قال : لا ، قالوا : فإنا نشهد أنه عبد اللّه ورسوله ، قال كعب : لقد قدمتم علىّ ، وأنا أريد أن أميركم وأكسوكم ، فحرمكم اللّه خيرا كثيرا ، قالوا : فإنه شبه لنا ، فرويدا حتى نلقاه ، فانطلقوا ، فكتبوا صفة غير صفته ، ثم أتوا نبى اللّه – عليه الصلاة والسلام – فكلموه ، ثم رجعوا إلى كعب ، فقالوا : قد كنا نرى أنه رسول اللّه ، فأتيناه فإذا هو ليس بالنعت الذي نعت لنا ، وأخرجوا الذي كتبوه ، ففرح كعب ، ومارهم. فنزلت الآية. قلت : انظر الطمع ، وما يصنع بصاحبه! والعياذ باللّه.
وقيل : نزلت فى رجل أقام سلعته فى السوق ، وحلف لقد أعطى فيها كذا وكذا ، وقيل : نزلت فى الأشعث بن قيس ، كانت بينه وبين رجل خصومة ، فتوجهت اليمين على الرجل ، فأراد أن يحلف. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : قد أخذ اللّه العهد على الأرواح ألا يعبدوا معه غيره ، ولا يميلوا إلى شيء سواه ، فكل من مال إلى شيء أو ركن بالمحبة إلى غير اللّه ، فقد نقض العهد مع اللّه ، فلا نصيب له فى مقام المعرفة

، ولا تحصل له مشاهدة ولا مكالمة حتى يثوب ويتوجه بكليته إلى مولاه. واللّه – تعالى – أعلم.

ومن مساوئهم أيضا : تحريفهم لكتاب اللّه ، كما أشار إلى ذلك الحق – تعالى – بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٧٨]

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ من أهل الكتاب لَفَرِيقاً ، وهو كعب بن الأشرف ، وحيى بن أخطب ، ومالك بن الصيف ، وأبو ياسر ، وشعبة بن عامر ، يَلْوُونَ أي : يفتلون أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ أي : التوراة عند قراءته ، فيميلون عن المنزل إلى المحرف ، لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ أي : لتظنوا أن ذلك المحرف من التوراة ، وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ فيما نسبوا إليه ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنه ليس من عند اللّه.

قال ابن عباس : نزلت فى اليهود والنصارى جميعا ، حرفوا التوراة والإنجيل ، وألحقوا به ما ليس منه ، وأسقطوا منه الدين الحنيف ، فبيّن اللّه كذبهم. وقيل : فى الرجم ، حيث كتموا الرجم ، وألقى قارئ التوراة يده على آية الرجم ، وقرأ ما حولها ، فقال له ابن سلام : ارفع يديك ، فإذا آية الرجم تلوح. واللّه أعلم.

(٣٧٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٧٣

الإشارة : هذه الآية تنسحب على علماء السوء ، الذين يفتون بغير المشهور ، لحظ يأخذونه من الدنيا ، وعلى قضاة الجور الذين يحكمون بالهوى ، ويعتمدون على الأقوال الواهية ، ويقولون هو من عند اللّه ، وما هو من عند اللّه.

وكذلك بعض المنتسبين من الفقراء ، يتصنعون إلى العامة ، يطمعون فيما فى أيديهم من الحطام ، فيظهرون لهم علوما ومعارف وحكما ، يلوون ألسنتهم بها وقلوبهم خاوية من معناها ، فظاهر حالهم يوهم أن ذلك موافق لقلوبهم ، وأنهم عاملون بذلك ، وباطنهم يكذبهم فى ذلك ، (و اللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم).

ثم أبطل اللّه تعالى شبهة اليهود والنصارى فى عبادة عيسى وعزير وغيرهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٧٩ الى ٨٠]

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ

أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

قلت : البشر : اسم جمع لا مفرد له ، يطلق على الجماعة والواحد. والرباني : هو الذي يربى الناس ويؤدبهم ويهذبهم بالعلم والعمل. وقال ابن عباس : (هو الذي يربى الناس بصغار العلم قبل كباره) ، والنون فيه للمبالغة ، كلحيانى ورقبانى. و(لا يأمركم) بالرفع ، استئناف ، وبالنصب : عطف على «يقول» ، و«لا» مزيدة ، : أي ما كان لبشر أن يستنبئه اللّه ، ثم يأمر بعبادة نفسه ، ويأمر باتخاذ الملائكة أربابا. أو غير مزيدة ، والتقدير : ليس له أن يأمر بعبادته ولا باتخاذ الملائكة أربابا.

يقول الحق جل جلاله : ما كانَ ينبغى لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ أي : الفصل بين العباد ، وَالنُّبُوَّةَ أي : الوحى بالأحكام ، ثُمَّ يَقُولَ بعد ذلك لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ أو مع اللّه ، أو يرضى أن يعبد من دون اللّه ، وَلكِنْ يقول لهم : كُونُوا رَبَّانِيِّينَ أي : علماء باللّه ، فقهاء فى دينه ، حلماء على الناس ، تربون الناس بالعلم والعمل والهمة والحال ، بسبب بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ من كتاب اللّه وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ منه ، أو بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الناس من الخير بكتاب اللّه ، وما كنتم تدرسونه عليهم.

ولما مات ابن عباس - رضى اللّه عنهما - قال محمد بن الحنفية : (مات ربّانى هذه الأمة).

وَلا يَأْمُرَكُمْ ذلك البشر الذي خصه الله بالنبوة ، أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً من دون الله ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أي : منقادون لأحكام الله. قيل : سبب نزول الآية : أن نصارى نجران قالوا : يا محمد تريد أن نعبدك ونتخذك ربا؟ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو نأمر بعبادة غيره». وقيل : إن رجلا قال : يا رسول الله : نسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض ، أفلا نسجد لك؟ فقال :

«لا ينبغى أن يسجد أحد لأحد من دون اللّه ، ولكن أكرموا نبيّكم ، واعرفوا الحقّ لأهله».

الإشارة : ما زال الفقراء يعظمون أشياخهم ، ويبالغون فى ذلك حتى يقبّلون أرجلهم والتراب بين أيديهم ، ويجتهدون فى خدمتهم «١» ، فإذا رءاهم الأشياخ فعلوا ذلك سكتوا عنهم ، لأن ذلك هو ربحهم وسبب فتحهم ، وفى ذلك قال القائل :

بذبح النفوس وحط الرءوس تصفى الكئوس لكنهم يرشدونهم إلى الحضرة ، حتى يفنوهم عن شهود الواسطة ، فيكون تعظيمهم وحط رأسهم إنما هو لله لا لغيره ، وحينئذ يكونون ربانيين ، علماء بالله مقربين ، وكان شيخنا يقول : لا تزورونى على أنى شيخكم ، ولكن اعرفوا فينا ، وأفنوا عن رؤية حسنا ، حتى يكون التعظيم إنما هو لله ربنا. هـ. فدلالة الأشياخ للفقراء على التعظيم والأدب ليس ذلك مقصودا

لأنفسهم ، وحاشاهم من ذلك. ما كان لبشر أن يؤتيه الله الخصوصية ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون اللّه ، ولكن يقول لهم : كونوا ربانيين عارفين بالله ، حتى يكون تعظيمكم إنما هو لله ، ولا يأمر أيضا بالفرق حتى يتخذوا الأشياء أربابا من دون اللّه ، ولكن يأمر بالجمع حتى يغيبوا عما سوى الله ، وكيف يأمرهم بالفرق ، وهو إنما يدلهم على الجمع؟ أيأمرهم بالكفر بعد أن كانوا مسلمين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أخذ الميثاق على الأنبياء وأممهم فى الإيمان بالنبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٨١ الى ٨٢]

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٨٢)

قلت : اللام فى (لما) ، موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستخلاف ، و(ما) : يحتمل الشرطية ، و(لتؤمنن) : جواب القسم ، سد مسد الجواب ، أي : مهما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول الله لتؤمنن به.

ويحتمل الموصولية ، و(لتؤمنن) : خبر عنه ، وحذف شرط يدل عليه السياق أي : للذى آتيناكم من كتاب وحكمة ، ثم إذا جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به. ومن قرأ بكسر اللام كان تعليلا للأمر بالإيمان بالرسول ، أي :

لأجل الذي خصصتكم به إذا جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ، وإذا كان أخذ الله الميثاق على الأنبياء كان على الأتباع أولى ، أو استغنى بذكر الأنبياء عن ذكر أتباعهم لأنهم فى حكمهم.

---

(١) هذا مشروط كما بين الشيخ مرارا - بأن يكون فى حدود الشرع الشريف.

يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ أخذنا الميثاق على النبيين من لدن آدم عليه السّلام إلى عيسى عليه السّلام. وقلنا لهم : والله للذى خصصتكم به مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثم إن ظهر رسول مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ أنتم وأممكم ، أو : لأجل الذي خصصتكم به مما تقدم لئن أدركتم محمدا لتؤمنن به ولتنصرنه. قال سيدنا على - كرم الله وجهه - : (لم يبعث اللّه نبيا ، آدم ومن بعده ، إلا أخذ عليه العهد فى محمد ، وأمره بأخذ العهد على قومه ليؤمننّ به ، ولئن بعث وهم أحياء لينصرنّه).

قالَ الحق جل جلاله لمن أخذ عليهم العهد : أَأَقْرَرْتُمْ بذلك وقبلتموه ، وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي أي : عهدى وميثاقى؟ قالُوا أَقْرَرْنا وقبلنا ، قالَ فَاشْهَدُوا على أنفسكم ، أو ليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ، أو فاشهدوا يا ملائكتى عليهم ، وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، وفيه توكيد وتحذير عظيم ، فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ الإقرار والشهادة ، وأعرض عن الإيمان به ، ونصره بعد ظهوره ، فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ الخارجون عن الإيمان المتمردون فى الكفران.

الإشارة : كما أخذ الله العهد على الأنبياء وأممهم فى الإيمان به عليه الصلاة السلام ، أخذ الميثاق على العلماء وأتباعهم من العامة ، لئن أدركوا وليا من أولياء الله ، حاملا لواء الحقيقة ، مصدقا لما معهم من الشريعة ، ليؤمنن به ولينصرنه ، فمن تولى وأعرض عن الإذعان إليهم فأولئك هم الفاسقون الخارجون عن دائرة الولاية ، محرومون من سابق العناية ، فإن الحقيقة إنما هى لب الشريعة وخلاصتها ، فإنما مثل الحقيقة والشريعة كالروح للجسد ، فالشريعة كالجسد ، والحقيقة كالروح ، فالشريعة بلا حقيقة جسد بلا روح ، والحقيقة بلا شريعة روح بلا جسد ، فلا قيام لهذا إلا بهذا ، فمن تشرّع ولم يتحقّق فقد تفسق ، ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق ، ومن خرج عنهما فقد خرج عن دين الله وطلب غيره. وإليه توجه الإنكار بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٨٣]

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)

قلت : (أ فغير) : مفعول مقدم ، و(يبغون) : معطوف على محذوف ، أي : أتتولون فتبغون غير دين الله ، وقدم المعمول لأنه المقصود بالإنكار ، و(طوعا وكرها) : حالان ، أي : طائعين أو كارهين.

يقول الحق جل جلاله للنصارى واليهود ، لمّا اختصموا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وادعوا أن كل واحد على دين إبراهيم ، فقال لهم - عليه الصلاة والسلام : «كلاكما برىء من دينه ، وأنا على دينه ، فخذوا به» ، فغضبوا ، وقالوا :

والله لا نرضى بحكمك ولا نأخذ بدينك ، فقال لهم الحق جل جلاله - منكرا عليهم - : أفتبغون غير دين الله الذي ارتضاه لخليله وحبيبه ، وقد انقاد له تعالى مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طائعين ومكرهين ، فأهل السموات

انقادوا طائعين ، وأهل الأرض منهم من انقاد طوعا بالنظر واتباع الحجة أو بغيرها ، ومنهم من انقاد كرها أو بمعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت ، أو : «طوعا»

كالملائكة والمؤمنين ، فإنهم انقادوا لما يراد منهم طوعا ، (و كرها) كالكفار فانقادوا لما يراد منهم كرها ، وكلّ إليه راجعون ، لا يخرج عن دائرة حكمه ، أو راجعون إليه بالبعث والنشور. والله تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن الدين الحقيقي هو الانقياد إلى الله فى الظاهر والباطن ، أما الانقياد إلى الله فى الظاهر فيكون بامتثال أمره واجتناب نهيه ، وأما الانقياد إلى الله فى الباطن فيكون بالرضى بحكمه والاستسلام لقهره.

فكل من قصّر فى الانقياد فى الظاهر ، أو تسخط من الأحكام الجلالية فى الباطن ، فقد خرج عن كمال الدين ، فيقال له : أفغير دين الله تبغون وقد انقاد له (من فى السموات والأرض طوعا وكرها) ، فإما أن تنقاد طوعا أو ترجع إليه كرها. وفى بعض الآثار يقول الله تبارك وتعالى : «من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي ، فليخرج من تحت سمائى ، وليتخذ ربّا سواى».

وسبب تبرّم القلب عن نزول الأحكام القهرية مرضه وضعف نور يقينه ، فكل من استنكف عن صحبة الطبيب ، فله من هذا العتاب حظ ونصيب ، فالأولياء حجة الله على العلماء ، والعلماء حجة الله على العوام ، فمن لم يستقم ظاهره عوتب على تفريطه فى صحبة العلماء ، ومن لم يستقم باطنه عاتبه الله تعالى على ترك صحبة الأولياء ، أعنى العارفين. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم بيّن الحق - تعالى - حقيقة الإيمان والإسلام الذي يجب اتباعه على جميع الأنام ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٨٤]

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)

قلت : (أنزل) : يتعدى بإلى لأنه ينتهى إلى الرسل ، ويتعدى بعلى ، لأنه يأتى من ناحية العلو والاستعلاء ، وفرّق بعضهم بين التعبير هنا بعلى وفى البقرة بإلى ، فقال : لأن الخطاب هنا للرسول بالخصوص ، وقد أنزل عليه الوحى مباشرة ، وهناك الخطاب للمسلمين ، وإنما أنزل الوحى متوجها إليهم بالواسطة ، ولم يكن عليهم بالمباشرة.

والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لأهل الكتاب الذين فرقوا فى إيمانهم بين الرسل : أما نحن فقد آمنا بالذي أُنْزِلَ عَلَيْنا وَما أُنْزِلَ على جميع الأنبياء والرسل لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ كما فرّقتم أنتم ، فضللتم ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ أي : منقادون لأحكامه الظاهرة والباطنة ، أو مخلصون فى أعمالنا كلها ،

وقدّم المنزل علينا على المنزل على غيرنا ، لأنه عيار عليه ومعرّف به. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للفقير أن يبالغ فى تعظيم شيخه ، ويسوغ له التغالى فى شأنه ما لم يخرجه عن طور البشر ، وما لم يؤد ذلك إلى إسقاط حرمة غيره من الأولياء بالتنقيص أو غيره ، فحرمة الأولياء كحرمة الأنبياء ، فمن فرّق بينهم حرم بركة جميعهم. وبالله التوفيق.

ثم إن ملة الإسلام التي جاء بها نبينا – عليه الصلاة والسلام – هى التي أحرزت هذا الاعتقاد الصحيح ، فكل من خرج عنها فقد ضل عن الحق الصريح ، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٨٥ الى ٨٦]

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (٨٥) كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)

قلت : (و شهدوا) : عطف على ما فى (إيمانهم) من معنى الفعل ، والتقدير : بعد أن آمنوا وشهدوا.

يقول الحق جل جلاله لرجال من الأنصار ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة ، منهم الحارث بن سويد الأنصاري : وَمَنْ يطلب غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً يتدين به فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ أبدا ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ لأنه أبطل الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها ، واستبدلها بالتقليد الرديء ، بعد أن عاين سواطع البرهان ، وشهدت نفسه بالحق والبيان ، ولذلك وقع التعجب والاستبعاد من هدايته فقال : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بعد أن آمنوا ، وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ الْبَيِّناتُ أي : المعجزات الواضحات ، فإن الحائد عن الحق بعد ما وضح ، منهمك فى الضلال ، بعيد عن الرشاد ، فقد ظلم نفسه وبخسها ، وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ، ووضعوا الكفر موضع الإيمان ، ولعل هذا فى قوم مخصوصين سبق لهم الشقاء.

(٣٧٧/١)

ثم ذكر جزاءهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٨٧ الى ٨٨]

أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨)

يقول الحق جل جلاله : أُولئِكَ المرتدون عن الإسلام – جَزاؤُهُمْ : أن تلعنهم الملائكة والناس أجمعون ، مؤمنهم وكافرهم ، لأن الكافر يلعن من ترك دين الحق ، وإن كان لا يشعر بمن هو على الحقّ.

خالِدِينَ فى اللعنة ، أو فى النار ، لدلالة السياق عليها ، أو فى العقوبة. لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ ساعة ،

ولا هم يمهلون عنها لحظة.

ثم إنّ الحارث ندم ، وأرسل إلى قومه أن اسألوا الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، هل لى من توبة؟ فنزل قوله تعالى :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٨٩]

إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)

يقول الحق جل جلاله : إلا من تاب من بعد الردة ، فأسلم وأصلح ما أفسد ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ له فيما فعل ، رَحِيمٌ به حيث تاب.

ولمّا نزلت الآية حملها إليه رجل من قومه وقرأها عليه ، فقال الحارث : إنك والله فيما علمت لصدوق ، وإن النبي صلّى اللّه عليه وسلم لأصدق منك ، وإن الله – تعالى – لأصدق الثلاثة ، فرجع الحارث إلى المدينة ، فأسلم وحسن إسلامه.

الإشارة : كل من ابتغى الخصوصية من غير أهلها ، أو ادعاها ولم يأخذها من معدنها ، فلن تقبل منه ، وهو عند القوم من الخاسرين فى طريق الخصوص ، فكل من لا شيخ له فى هذا الشأن فهو لقيط ، لا أب له ، دعىّ ، لا نسب له.

والمراد بأهلها : العارفون بالله ، أهل الفناء والبقاء ، أهل الجذب والسلوك ، أهل السكر والصحو ، الذين شربوا الخمر فسكروا ثم صحوا وتكملوا ، فمعدن الخصوصية عند هؤلاء ، فكل من لم يصحبهم ولم يشرب من خمرتهم ، لا يقتدى به ، ولو بلغ من الكرامة ما بلغ ، وأخسر من هذا من صحب أهل هذه الخمرة ، وشهد بأن طريقهم حق ، ثم رجع عنها ، فهذا مغبون ملعون عند كافة الخلق ، أي : مطرود عن شهود الحق ، إلا من تاب ورجع إلى صحبتهم والأدب معهم ، فإن الله غفور رحيم.

ثم ذكر الحق تعالى من ارتدّ وبقي على كفره ، حتى مات ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٩٠]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)

(٣٧٨/١)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ ارتدوا عن الإيمان ، ثُمَّ ازْدادُوا فى الكفر ، وقالوا : نتربص بمحمد ريب المنون ، لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ أي : لا توبة لهم فتقبل ، لأنه سبق لهم الشقاء ، أو لأنهم لا يتوبون إلا عند الغرغرة ، أو لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ما داموا على كفرهم. وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ المنهمكون فى الضلالة.

قيل : نزلت فى أصحاب الحارث بن سويد المتقدم ، وكانوا أحد عشر رجلا ، لما رجع الحارث قالوا :

نقيم بمكة على الكفر ما بدا لنا ، فمتى أردنا الرجعة رجعنا ، فلما افتتح النبي صلّى اللّه عليه وسلم مكة ، دخل في الإسلام بعضهم ، فقبلت توبته ، وبقي من بقي على كفره ، فنزلت الآية فيهم. وقيل : نزلت في اليهود ، كفروا بعيسى بعد إيمانهم بأنبيائهم ، ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وقيل : نزلت في النصارى كفروا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم بعد إيمانهم بعيسى ، ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً بإصرارهم عليه. وقيل : نزلت في الفريقين معا ، كفروا بنبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم بعد إيمانهم به قبل ظهوره ، ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً بتمردهم فيه ، وتماديهم على المعاصي. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن من دخل طريق التربية ، وأخذ في تهذيب نفسه وتطهيرها من المساوئ وأوساخ الحس ، ثم غلبته القهرية ورجع عنها ، فإن تاب قريبا ورجع إليها سهل عليه الرجوع ، ورجى نجحه وقبلت توبته ، وإن استمر على رجوعه عنها حتى ألفت نفسه البطالة لن ترجى توبته وصار من الضالين ، فمثله كآنية ، فرّغت منها لبنا أو عسلا ، وعمرتها بالقطران ، فإن بادرت بإهراقه منها قريبا سهل غسلها ، وإن أهملتها حتى صبغ فيها عسر غسلها ، وتعذر زوال رائحته منها. [فإن مات على رجعته فلا يحشر في الآخرة مع أهل هذه الرفقة ، ولو شفع فيه ألف عارف ، بل من كمال المكر به أن يلقى شبهه في الآخرة على غيره ، حتى يتوهم عارفوه من أهل المعرفة أنه هو ، فلا يخطر بباله أنه يشفع فيه]. قاله القشيري.

قال المحشى : وما ذكره ربما ينظر إلى قضية الخليل مع أبيه ، حين يلقاه وعليه القترة ، فيريد الشفاعة له ، فيمسخ ذيخا «١» متلطخا - أي : خنزيرا - فينكره ، كما في الحديث الصحيح ، فتذكر واعتبر. هـ. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكر من مات على كفره ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٩١]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٩١)

---

(١) الذيخ - بكسر الذال بعدها ياء ساكنة - : ذكر الضباع. والجمع : أذياخ وذيوخ وذيخة. وأراد بالتلطخ : التلطخ برجيعه أو بالطين.

قلت : (ذهبا) : تمييز ، و(لو افتدى به) : محمول على المعنى ، كأنه قيل : فلن يقبل من أحدهم فدية

، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ، أو عطف على محذوف ، أي : فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا لو تقرب به فى الدنيا ، ولو افتدى به من العذاب فى الآخرة. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، واستمروا على كفرهم حتى ماتوا ، لن يُقْبَلَ منهم فدية ، ولو افتدوا بملء الأرض ذهبا ، بل يحصل لهم الإياس من رحمة الله ، أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فلا ينفعهم فداء منه ولا شفاعة ولا حميم ، وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ ينصروهم من عذاب رب العالمين.

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «يجاء بالكافر يوم القيامة ، فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا - أكنت مفتديا به؟

فيقول : نعم ، نعم ، فيقال له : قد سئلت ما هو أيسر من ذلك». يعنى : لا إله إلا الله. ثبتنا الله عليها إلى الممات عالمين بها. آمين.

الإشارة : كل من كفر بطريق أهل الخصوصية ، وحرم نفسه من دخول الحضرة القدوسية ، واستمر على كفرانه إلى الممات ، فلا شك أنه يحصل له الندم وقد زلت به القدم ، لأنه مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر ، فإذا حشر مع عوام المسلمين ، وسكن فى ربض الجنة مع أهل اليمين ، ثم رأى منازل المقربين فى أعلى عليين ، ندم وتحسر «١» ، وقد غلبه القدر ، فلو اشترى المقام معهم بملء الأرض ذهبا ما نفعه ذلك ، فيمكث فى غمّ الحجاب وعذاب القطيعة هنالك ، مقطوع عن شهود الأحباب على نعت الكشف والبيان ، ممنوع عن الشهود والعيان. وبالله التوفيق.

ولمّا حكم الحق تعالى بأن الفداء لا ينفع يوم القيامة ذكر أفضل ما يفتدى به العبد فى دار الدنيا لأنه ينفع فيها ذلك ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٩٢]

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

قلت : البرّ : كمال الطاعة.

يقول الحق جل جلاله : لَنْ تَنالُوا كمال الطاعة والتقرب حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، أو : لن تنالوا برّ الله ، الذي هو الرضى والرضوان ، حَتَّى تُنْفِقُوا بعض ما تُحِبُّونَ من المال وغيره ، كبذل الجاه فى معاونة الناس ، إن صحبه الإخلاص ، وكبذل البدن فى طاعة الله ، وكبذل المهج فى سبيل الله. ولمّا نزلت الآية

---

(١) هذا باعتبار عدم إدراكهم لمنازل المقربين ، وإن كان مجرد دخول الجنة فوز ونجاح قال تعالى : فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ .. الآية.

جاء أبو طلحة فقال : يا رسول الله ، إن أحب أموالى إلىّ بيرحاء - وهو بستان كان خلف المسجد النبوي - وهو صدقة لله ، أرجو برها وذخرها ، فقال له - عليه الصلاة والسلام - «بخ بخ ذلك مال رابح - أو رائح - وإنّى أرى أن تجعلها فى الأقربين». فقسمها أبو طلحة فى أقاربه.
وجاء زيد بن حارثة بفرس كان يحبها ، فقال : هذه فى سبيل الله ، فحمل عليها رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم أسامة ولده ، فقال زيد : إنما أردت أن أتصدق بها ، فقال - عليه الصلاة السلام - : «إنّ اللّه تعالى قد قبلها». فدل ذلك على أن الصدقة على الأقارب أفضل. وأعتقت امرأة جارية لا تملك غيرها ، كانت تحبها ، واشترطت عليها أن تقيم معها ، فلما عتقت ، ذهبت ، فقال لها عليه الصلاة والسلام : «دعيها فقد حجبتك عن النار».
وأمر عمر بن الخطاب بشراء جارية من سبى العراق ، فلما جىء بها ، ورآها عمر أعجبته غاية ، فقال : إن الله تعالى يقول : لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، فأعتقها. وذكر ابن عمر هذه الآية ، فلم يجد عنده أحبّ من جارية كانت عنده ، يطؤها فأعتقها ، وقال : لو لا أنى لا أعود فى شىء جعلته لله لنكحتها. وكان الربيع يعطى للسائل إذا وقف فى بابه السكر ، فإذا قيل له فى ذلك ، قال : إن الربيع يحب السكر.
ثم إن الله - تعالى - يقبل الصدقة من المحبوب أو غيره ، ولذلك قال : وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ فيجازيكم بحسبه.
الإشارة : ليس للفقير شىء أحبّ إليه من نفسه التي بين جنبيه ، بل عند جميع الناس ، فمن بذل روحه فى مرضاة الله نال رضوان الله ومعرفته ، وهو غاية البر ، فمن أذل نفسه لله أعزه الله ، ومن أفقر نفسه لله أغناه الله ، ومن تواضع لله رفعه ، فبذل النفس لله هو تقديمها لشيخ التربية يفعل بها ما يشاء ، فكل ما يشير به إليه بادر إليه بلا تردد ، فمن فعل ذلك فقد نال غاية البر ، وأنفق غاية ما يحب ، وكل من بذل نفسه بذل غيرها بالأحرى ، إذ ليس أعز منها ، وفى ذلك يقول ابن الفارض رضي اللّه عنه :
مالي سوى روحى ، وباذل نفسه «١» فى حبّ من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى يا خيبة المسعى إذا لم تسعف
وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي : حقيقة المحبة أن تهب كلّك لمن أحببته ، حتى لا يبقى لك منك شىء. هـ.
وقال الجنيد رضي اللّه عنه : لن تنالوا محبة الله حتى تسخوا بأنفسكم لله. هـ.

(١) فى الأصل : روحه.

ولما قال عليه الصلاة والسلام لليهود : «أنا على ملة إبراهيم». - كما تقدم - قالوا : كيف تكون على ملة إبراهيم ، وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ ، وكان ذلك حراما على إبراهيم ، فأنزل الله تعالى :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٩٣ الى ٩٥]

كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

قلت : (إسرائيل) : هو يعقوب عليه السّلام.

يقول الحق جل جلاله : كُلُّ الطَّعامِ كانَ حلالا على بنى إسرائيل ، كما كان حلالا على الأنبياء كلهم ، إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ أي : يعقوب ، عَلى نَفْسِهِ ، كلحوم الإبل وألبانها ، قيل : كان به عرق النسا «١» ، فنذر :

إن شفاه الله لم يأكل أحب الطعام إليه ، وكان ذلك أحب الطعام إليه. وقيل : فعل ذلك للتداوى بإشارة الأطباء ، فترك ذلك بنوه ولم يحرم عليهم فى التوراة ، وإنما هو شىء حرموه على أنفسهم.

فالطعام كله كان حلالا على بنى إسرائيل وعلى الأنبياء كلهم قبل نزول التوراة ، فلما نزلت التوراة حرم الله عليهم أشياء من الطيبات لظلمهم وبغيهم ، فإن ادعوا أن لحوم الإبل كانت حراما على إبراهيم ، وأن كل ما حرم عليهم كان حراما على إبراهيم وعلى الأنبياء قبله ، فقل لهم : كذبتم فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها هل تجدون ذلك فيها؟ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى قولكم : إنّ كل شىء حرم عليكم كان حراما على إبراهيم.

روى : أنه - عليه الصلاة والسلام - لما قال لهم ذلك بهتوا ، ولم يجسروا أن يأتوا بالتوراة ، فتبين افتراؤهم على الله فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

بزعمه أن الله حرّم لحوم الإبل وألبانها قبل نزول التوراة ، مِنْ بَعْدِ ذلِكَ

البيان وإلزامهم الحجة ، فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

المكابرون بالباطل بعد ما وضح الحق.

قُلْ لهم يا محمد : صَدَقَ اللَّهُ فيما أنزل ، وكذبتم فيما قلتم ، فتبين أن ملة إبراهيم هى الإسلام الذي جاء به محمد صلّى اللّه عليه وسلم فأسلموا ، واتبعوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً ، فإن ملة الإسلام موافقة لملة إبراهيم ، أو عينها ، فادخلوا فيه وتخلصوا من اليهودية التي اضطرتكم إلى التحريف والمكابرة ، وألزمتكم تحريم طيبات أحلها الله لإبراهيم ومن تبعه ، وقد خالفتم التوراة التي زعمتم أنكم متمسكون بها ، وأشركتم مع الله عزيرا وغيره ، وقد كان إبراهيم حنيفا مسلما وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

---

(١) النساء : العصب الوركى ، وهو عصب يمتد من الورك إلى الكعب ، وهو الذي يأخذه المرض.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٨٣
قال البيضاوي : فيه إشارة إلى أن اتّباعه - أي : إبراهيم - واجب فى التوحيد الصرف والاستقامة فى الدين ، والتجنب عن الإفراط والتفريط ، وتعريض بشرك اليهود. هـ.
الإشارة : إذا تحقق للفقير الإخلاص ، وحصل على التوحيد الخاص ، كان الطعام كله حلالا له ، لأنه يأخذه بالله ، ويتناوله من يد الله ويدفعه لله ، مع موافقة الشريعة ، ولم يغض من أنوار الطريقة بحيث لا يصحبه شره ولا طمع. وكان عبد الله بن عمر يقول : كل ما شئت ، والبس ما شئت ، ما أخطأتك خصلتان : سرف أو مخيلة. هـ.
وإنما امتنعت العباد والزهّاد من تناول الشهوات المباحات خوفا على أنفسهم أن تجمح بهم إلى تناول أسبابهما ، فتعطلهم عن العبادة ، وكذلك المريدون السائرون ، ينبغى لهم التقلل من تناولها لئلا يتعلق قلبهم بشىء منها ، فتعطلهم عن السير ، وأما الواصلون العارفون ، فقد تحقق فناؤهم وبقاؤهم ، فهم يأخذون بالله من يد الله ، كما تقدم.
والحاصل : أن النفس ما دامت لم تسلم ولم تنقد إلى مشاهدة ربها ، وجب جهادها ومخالفتها ، فإذا أسلمت وانقادت إلى ربها ، وجب الصلح معها وموافقتها فيما يتجلى فيها. والله تعالى أعلم.
ولمّا كانت اليهود لا تحجّ بيت الله الحرام ، الذي بناه خليل الله إبراهيم عليه السّلام ، مع زعمهم أنهم على ملته ، ردّ الله تعالى عليهم بقوله : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ ... إلخ ، وقيل : تفاخر المسلمون واليهود ، فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل لأنه مهاجر الأنبياء ، وقال المسلمون : الكعبة أفضل لأنه أول بيت وضع فى الأرض ، أنزل الله تعالى :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٩٦ الى ٩٧]
إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (٩٧)
قلت : (بكة) : لغة فى مكة ، والعرب تعاقب بين الباء والميم ، تقول : ضربة لازم ولازب ، وأغبطت عليه الحمّى وأغمطت ، وقيل : (مكة) بالميم : اسم للبلد كله ، وبكة : اسم لموضع البيت ، سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة - أي : تدقها - فما قصدها جبّار قط بسوء إلا قصمه الله. و(مباركا) : حال من الضمير فى المجرور ، والعامل فيه الاستقرار ، أي : الذي استقر ببكة مباركا ، و(مقام إبراهيم) : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : منها مقام إبراهيم ، أو بدل من (آيات) ، بدل البعض من الكل ، أو عطف بيان ، على أن المراد بالآيات : أثر القدم فى الصخرة الصّماء ، وغوصها فيها إلى الكعبين ،

وتخصيصها بهذه المزيّة من بين الصخور ، وإبقاؤه دون سائر آثار الأنبياء ، وحفظه مع كثرة أعدائه ألوف سنة ، فكان مقام إبراهيم ، وإن كان مفردا ، فى قوة الجمع ، ويدل عليه أنه قرئ (آية) : بالتوحيد.

(٣٨٣/١)

وقيل : (الآيات) : مقام إبراهيم ، وأمن من دخله ، فعلى هذا يكون : (و من دخله) ، عطفا على (مقام) ، وعلى الأول : استئنافا. و(حج البيت) مبتدأ ، و(للّه) : خبر ، والفتح لغة الحجاز ، والكسر لغة نجد ، و(من استطاع) : بدل من (الناس) ، وقيل : فاعل.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ فى الأرض لِلنَّاسِ للذى استقر بمكة ، وبعده بيت المقدس ، وبينهما أربعون سنة. بنت الأول الملائكة حيال البيت المعمور ، وأمر الله من فى الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور ، ثم بنى الثاني. وقيل : بناهما آدم عليه السّلام ثم جدّد الأول إبراهيم. حال كونه مُبارَكاً لأنه يتضاعف فيه الحسنات ، بكل واحدة مائة ألف ، وتكفر فيه السيئات ، وتنزل فيه الرحمات ، وتتوارد فيه النفحات.

فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ واضحات ، منها : الحجر الذي هو مَقامُ إِبْراهِيمَ ، وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت ، فكان كلما طال البناء ارتفع به الحجر فى الهواء ، حتى أكمل البناء ، وغرقت فيه قدمه كأنه طين ، ومنها : أن الطير لا تعلوه ، ومنها : إهلاك أهل الفيل وردّ الجبابرة عنه ، ونبع زمزم لهاجر بهمز جبريل عليه السّلام ، وحفر عبد المطلب لها بعد دثورها ، وأن ماءها ينفع لما شرب له ، وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً من العقاب فى الدارين لدعاء الخليل : رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً ، فكان فى الجاهلية كل من فعل جريمة ، ثم لجأ إليه لا يهاج «١» ولا يعاقب مادام به ، وأما فى الإسلام فإن الحرم لا يمنع من الحدود ولا من القصاص. وقال أبو حنيفة :

الحكم باق ، وإن من وجب عليه حد أو قصاص فدخل الحرم لا يهاج ، ، لكن يضيّق عليه ، فلا يطعم ولا يباع له حتى يخرج.

قال - عليه الصلاة والسلام - : «من مات فى أحد الحرمين بعثه اللّه من الآمنين». وقال أيضا : «من حجّ هذا البيت - فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه».

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ فرض عين على مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا بالقدرة على الوصول بصحة البدن ، راجلا أو راكبا مع الزاد المبلّغ ، والأمن على النفس والمال والدين. وقيل : الاستطاعة : الزاد والراحلة.

وَمَنْ تركه ، وَكَفَرَ به ، كاليهود والنصارى ، وكل من جحده ، فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عنه ، وعَن حجه ، وعن

جميع الْعالَمِينَ ، أو عبر بالكفر عن الترك ، تغليظا كقوله : «من ترك الصّلاة فقد كفر» روى أنه - عليه الصلاة والسلام - لما نزل صدر الآية - جمع أرباب الملل ، فخطبهم ، وقال : «إن الله كتب عليكم الحج فحجوا» ، فآمنت به ملة واحدة ، وكفرت به خمس ملل ، فنزل وَمَنْ كَفَرَ ... إلخ.

---

(١) أي : لا يقاتل.

(٣٨٤/١)

الإشارة : قد وضع الله للناس بيتين : أحدهما حسى ، وهو الكعبة ، والآخر معنوى ، وهو القلب ، الذي هو بيت الرب ، فما دام بيت القلب خاليا من نور الرب اشتاق إلى حج البيت الحسى ، فإذا تعمر البيت بنور ساكنه ، صار قبلة لغيره ، واستغنى عن الالتفات إلى غير نور ربه ، بل صار كعبة تطوف به الواردات والأنوار ، وتحفه المعارف والعلوم والأسرار ، ثم يصير قطب دائرة الأكوان ، وتدور عليه من كل جانب ومكان ، فكيف يشتاق هذا إلى الكعبة الحسية «١» ، وقد طافت به دائرة الوفود الكونية؟ ولله در الحلاج رضي اللّه عنه حيث قال :

يا لائمي لا تلمنى فى هواه فلو عاينت منه الذي عاينت لم تلم

للنّاس حجّ ولى حجّ إلى سكنى تهدى الأضاحى ، وأهدى مهجتى ودمى

يطوف بالبيت قوم لا بجارحة ، بالله طافوا فأغناهم عن الحرم «٢».

فى هذا البيت آيات واضحات ، وهى إشراق شموس المعارف والأنوار ، فى فضاء سماء الأرواح والأسرار ، وسطوع أنوار قمر التوحيد فى أرض التجريد والتفريد ، وظهور أنوار نجوم العلم والحكم ، فى أفق سماء ارتفاع الهمم ، فهذا كان مقام إبراهيم ، إمام الموحدين ، فمن دخله كان آمنا من الطرد والبعاد إلى يوم الدين ، ومن كفر وجوده فإن الله غنى عن العالمين.

قال فى الحاشية فى قوله : (و من دخله كان آمنا) ، قيل : وهكذا من دخل فى قلب ولىّ من أوليائه ، فإن قلب العارف حرم المراقبات والمشاهدات. هـ. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم رجع الحق تعالى إلى معاتبة أهل الكتاب ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٩٨ الى ٩٩]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَداءُ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)

قلت : (تبغونها) : جملة حالية من الواو ، أي : لم تصدون عن السبيل باغين لها عوجا. والعوج -

بالكسر - فى الدين والقول والعمل - ، وبالفتح - فى الجدار والحائط وكل شخص قائم.
يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد فى عتابك لليهود : يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ السمعية والعقلية الدالة على صدق نبيه صلّى اللّه عليه وسلم فيما يدعوكم إليه من الإسلام؟ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ مطلع على سرها وجهرها ، فيجازيكم عليها ، فلا ينفعكم التحريف ولا الإسرار.

---

(١) الصالحون فى كل وقت يشتاقون إلى الكعبة المشرفة ، فهى قبلتهم فى الصلاة. وإليها يكون حج من استطاع منهم. وهى فى بلد ولد فيها سيدنا رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم ، فكيف لا يشتاقون إليها!!.

(٢) لو أن الله أغنى أحدا عن الحرم لأغنى سيدنا محمدا صلّى اللّه عليه وسلم. [.....]

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عن طريق الله مَنْ آمَنَ بها ، وتبع من جاء بها ، تَبْغُونَها عِوَجاً أي : طالبين لها اعوجاجا ، بأن تلبسوا على الناس ، وتوهموا أن فيها عوجا عن الحق ، بزعمكم أن التوراة لا تنسخ ، وبتغيير صفة الرسول - عليه الصلاة والسلام ، أو بأن تحرشوا بين المسلمين لتختلف كلمتهم ، ويختل أمر دينهم ، وأنتم شهداء على أنها حق ، وأن الصد عنها ضلال ، أو : وأنتم عدول عند أهل ملتكم ، يثقون بأقوالكم ، ويستشهدونكم فى القضايا ، وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ فلا بد أن يجازيكم على أعمالكم ، فإنه يمهل ولا يهمل.

كرّر الخطاب والاستفهام مرتين مبالغة فى التقريع ونفى العذر ، وإشعارا بأن كل واحد من الأمرين مستقبح فى نفسه ، مستقل باستجلاب العذاب. ولمّا كان المنكر عليهم فى الآية الأولى : كفرهم ، وهم يجهرون به ، ختم بقوله :
وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ ، ولمّا كان فى هذه الآية : صدهم المؤمنين عن الإسلام ، وكانوا يخفونه ويحتالون فيه ، قال : وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. قاله البيضاوي.

الإشارة : كل من جحد وجود الخصوصية عند أهلها ، وصد القاصدين للدخول فيها ، استحق هذا العتاب بلا شك ولا ارتياب. والله تعالى أعلم.

ثم حذّر المؤمنين من الاستماع لهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٠٠ الى ١٠٢]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ

تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، الخطاب عام ، والمراد : نفر من الأوس والخزرج ، إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ ، وهو شاس بن قيس اليهودي ، كان شيخا كبيرا ، وكان عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، مرّ بنفر من الأوس والخزرج ، جلوسا يتحدثون ، وكان بينهما عداوة فى الجاهلية ، فغاظه تآلفهم واجتماعهم ، وقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، فما لنا معهم قرار ، فأمر شابا من اليهود أن يجلس بينهم ويذكّرهم يوم بعاث - وهو يوم حرب كان بينهم فى الجاهلية - وينشدهم بعض ما قيل فيه ، وكان الظفر فى ذلك اليوم للأوس ، ففعل ، وتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا ، وقالوا : السلاح السلاح ، واجتمع من القبيلتين خلق عظيم ، فتوجه إليهم رسول صلّى اللّه عليه وسلم وأصحابه ، فقال : «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد إذ أكرمكم اللّه بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألّف بينكم؟» فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فألقوا السّلاح ، واستغفروا ، وعانق بعضهم بعضا ، وانصرفوا مع الرسول - صلوات الله عليه وسلامه - فنزلت الآية.

(٣٨٦/١)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً من اليهود يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ يبيح بعضكم دماء بعض ، كما كنتم فى الجاهلية. وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ الدالة على تحريم الدماء والشحناء ، وَفِيكُمْ رَسُولُهُ الهادي إلى الصراط المستقيم ، وهو إنكار وتعجّب من كفرهم ، بعد اجتماع الأسباب الداعية إلى الإيمان ، الصارفة عن الكفران ، وإنما خاطبهم اللّه بنفسه بعد ما أمر الرسول بأن يخاطب أهل الكتاب إظهارا لجلالة قدرهم ، وإشعارا بأنهم الأحقاء بأن يخاطبهم اللّه ويكلمهم ، دون أهل الكتاب لبعدهم عن استحقاق مواجهة الخطاب من الكريم الوهاب. وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ ويتمسك بدينه فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ لا عوج فيه وأصل الاعتصام : التمنع.

ثم حض على التقوى الكاملة والدوام على الإسلام ، تنفيرا من الاستماع لمن يخرج عنها ، فقال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ ، قال عليه الصلاة والسلام : «حق تقاته هو أن يطاع فلا يعصى طرفة عين ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر». ولما نزلت قالوا : يا رسول اللّه من يقوى على هذا؟ وشق عليهم ، فنزلت : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، فنسختها. وقال مقاتل : معناه : (اتقوا اللّه حقّ تقاته ، فإن لم تستطيعوا فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون). وعن أنس ابن مالك ، قال : (لا يتقى اللّه عبد

حق تقاته حتى يخزن من لسانه) ، وقيل :
ليست بمنسوخة لأنّ من جانب ما نهى اللّه عنه ، وفعل من الطاعة ما استطاع ، فقد اتقى اللّه حق تقاته ، فمعناها واحد. وسيأتي تحديد ذلك في الإشارة ، إن شاء اللّه.
قال البيضاوي : وقيل : معنى (حق تقاته) : أن ينزه الطاعة عن الالتفات إليها ، وعن توقع المجازاة عليها ، وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهل الكتاب ، وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أي : لا تكونوا على حالة سوى الإسلام ، إلى أن يدرككم الموت. هـ. أماتنا اللّه على حسن الختام ، مع السلامة والعافية على الدوام.
الإشارة : كما نهى اللّه عن طاعة من يرد عن الإيمان ، نهى عن طاعة من يصد عن مقام الإحسان ، كائنا ما كان ، وكيف يرجع عن مقام التحقيق ، وقد ظهرت معالم الطريق لمن سبقت له العناية والتوفيق!. قال بعضهم :
واللّه ما رجع من رجع إلا من الطريق ، وأما من وصل فلا يرجع أبدا. إذ لا يمكن أن يرجع من عين اليقين إلى علم اليقين ، أو من اليقين إلى الظن. ومن أراد الثبات على اليقين فليعتصم بحبل اللّه المتين ، وهو صحبة العارفين ، فمن اعتصم بهم فقد اعتصم باللّه وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.
ثم خاطب أهل الإحسان فقال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ بأن تغيبوا عما سواه ، ولا تموتن إلا وأنتم منقادون لأحكام الربوبية ، قائمون بوظائف العبودية. فهذه الآية خطاب لأهل الإحسان ، وفَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ : خطاب لأهل الإسلام والإيمان. أو هذه لأهل التجريد ، والثانية لأهل الأسباب ، أو هذه لأهل الباطن ،

والثانية لأهل الظاهر ، فلكل آية أهل ومحل ، فلا نسخ ولا تعارض. وقال الشيخ أبو العباس رضي اللّه عنه : من أراد الجمع بين الآيتين فليتق اللّه حق تقاته بباطنه ، وليتق اللّه ما استطاع بظاهره. هـ. وباللّه التوفيق.
ثم حضّ الحق جل جلاله على الاجتماع ، ونهى عن الفرقة التي رام العدو منهم ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : آية ١٠٣]
وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ (١٠٣)

قلت : أصل الحبل فى اللغة : السبب الموصّل الى البغية ، سمى به الإيمان أو القرآن لأنه يوصل الى السعادة السرمدية ، و(شفا حفرة) أي : طرفها ، وأصله : (شفو) ، فقلبت ألفا فى المذكر ، وحذفت فى المؤنث ، فقالوا : شفة.

يقول الحق جل جلاله : وَاعْتَصِمُوا أي : تمسكوا يا معشر المسلمين بِحَبْلِ اللَّهِ أي : الإيمان ، أو كتاب اللّه ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «إنّ هذا القرآن هو حبل اللّه المتين ، وهو النور المبين ، والشّفاء النافع ، عصمة لمن تمسّك به ...». الحديث. حال كونكم جَمِيعاً أي : مجتمعين عليه ، وَلا تَفَرَّقُوا تفرقكم الجاهلى ، أو لا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب. قال عليه الصلاة والسلام : «إنّ بنى إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإنّ أمّتى ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة ، كلّها فى النّار إلا واحدة ، فقيل : يا رسول اللّه ، ما هذه الواحدة؟ فقبض يده وقال : الجماعة ، ثمّ قرأ : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا.

وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، التي من جملتها الهداية للإسلام المؤدّى الى التآلف وزوال الغلّ ، إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فى الجاهلية ، يقتل بعضكم بعضا ، فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ بالإسلام ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً متحابين مجتمعين على الأخوة فى اللّه. قال عليه الصلاة والسلام : «لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد اللّه إخوانا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله». الحديث. روى أن الأوس والخزرج كانوا أخوين لأبوين ، فوقع بين أولادهما العداوة ، وتطاولت الحرب بينهما مائة وعشرين سنة ، حتى أطفأها اللّه بالإسلام ، وألف بينهم برسوله عليه الصلاة والسلام - فنزلت فيهم هذه الآية.

(٣٨٨/١)

ثم قال لهم : وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ أي : مشرفين على نار جهنم ، إذ لو أدرككم الموت لوقعتم فى النار ، فَأَنْقَذَكُمْ اللّه مِنْها برسوله - عليه الصلاة والسلام - . روى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ هذه الآية ، فقال الأعرابى : واللّه ما أنقذهم منها وهو يريد أن يوقعهم فيها ، فقال ابن عباس رضي اللّه عنه خذوها من غير فقيه. هـ. كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ أي : مثل هذا التبيين يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إلى الخير ، وتزيدون ثباتا فيه.

الإشارة : المذاهب كلها وقع فيها الاختلاف والتفرق فى الأصول والفروع ، إلا مذاهب الصوفية فكلها متفقة بداية ونهاية ، إذ بدايتهم مجاهدة ، ونهايتهم مشاهدة ، وإلى ذلك أشار فى المباحث ، حيث قال :

مذاهب الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف
وإن وقع الاختلاف فى بعض الطرق الموصلة إلى المقصود ، فقد اتفقت فى النهاية ، بخلاف أهل الظاهر ، لا تجدهم يتفقون إلا فى مسائل قليلة ، لأن مذهبهم مبنى على غلبة الظن ، ومذهب القوم مبنى على التحقيق ذوقا وكشفا ، وكذلك ائتلفت أيضا قلوبهم وأرواحهم ، إذ كلهم متخلقون بالشفقة والرأفة والمودة والألفة والصفا لأنهم دخلوا الجنة - أعنى جنة المعارف - فتخلقوا بأخلاق أهل الجنة ، قال تعالى : وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ ، فيقال لهم بعد الفتح : واذكروا نعمة اللّه عليكم ، إذ كنتم أعداء قبل اتصالكم بالطبيب ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا متحابين ، وكنتم على شفا حفرة من نار القطيعة والحجاب فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها. مثل هذا البيان يوضح اللّه آياته ، أي : تجلياته ، لعلكم تهتدون إلى مشاهدة ذاته فى أنوار صفاته. واللّه تعالى أعلم.
ثم أمرهم الحق تعالى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ووجه اتصاله بما قبله : أنهم سكتوا حين حرّش بينهم اليهود حتى هموا بالقتال ، ولم يأمرهم أحد بالإمساك عنه ، فحذّرهم اللّه من نزغته ، وحضّهم على الاجتماع ، وأمرهم بالأمر بالمعروف والنهى عن النكر إذا رأوا شيئا من ذلك ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : آية ١٠٤]
وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)
قلت : (من) : للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية إذ لا يصلح له كلّ أحد ، أو للبيان ، أي : كونوا أمة تأمرون بالمعروف ، كقوله : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ إلخ ، و(يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) عطف على الخبر ، من عطف الخاص على العام للإيذان بفضله.

يقول الحق جل جلاله : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ يا أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم أُمَّةٌ أي : طائفة يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وهو كل ما فيه صلاح دينى ، أو دنيوى إذا كان يؤول الى الديني ، أو صلاح قلبى أو روحانى ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وهو ما يستحسنه الطبع ويرتضيه الشرع ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وهو كل ما ينكره الطبع السليم والشرع المستقيم ، فمن فعل ذلك فأولئك هُمُ الْمُفْلِحُونَ المخصوصون بكمال الفلاح.
روى عنه عليه الصلاة والسلام : أنه سئل من خير الناس؟ فقال : «آمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأتقاهم للّه ، وأوصلهم للرحم». وقال أيضا : «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر كان

خليفة اللّه فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه. وقال على رضي اللّه عنه : (أفضل الجهاد : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وشنئان الفاسقين - أي بغضهم - فمن أمر بالمعروف شدّ ظهر المؤمن ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ، ومن شنأ الفاسقين وغضب للّه غضب اللّه له). وقال أبو الدرداء : (لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن اللّه عليكم سلطانا ظالما ، لا يجلّ كبيركم ، ولا يرحم صغيركم ، ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم ، ويستنصرون فلا ينصرون ، ويستغفرون فلا يغفر لهم). وقال حذيفة : (يأتى على الناس زمان لأن تكون فيه جيفة حمار ، أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر).

وللمتصدّى له شروط : العلم بالأحكام ، ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها ، والتمكن من القيام بها. ولذلك خاطب الحق تعالى الجميع ، وطلب فعل بعضهم ، إذ لا يصلح للقيام به إلا البعض ، كما هو شأن فرض الكفاية ، إذ هو واجب على الكل ، بحيث لو تركوه لعوقبوا جميعا ، لكنه يسقط بفعل البعض.

والأمر بالمعروف يكون واجبا ومندوبا ، على حسب ما يأمر به ، والنهى عن المنكر واجب كله لأن جميع ما أنكره الشرع حرام. وأما المكروه فليس بمنكر ، فيستحب الإرشاد الى تركه. والأظهر أن العاصي يجب أن ينهى عما يرتكبه هو لأنه يجب عليه تركه ، فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر. وقد قال عليه الصلاة والسلام :

«مروا بالمعروف وإن لم تعملوا بكلّه ، وانهوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه كله».

الإشارة : (و لتكن منكم أمة) أي : طائفة ينهض حالهم ويدلّ على اللّه مقالهم ، يدعون إلى الخير العظيم ، وهو شهود ذات السميع العليم ، ويأمرون بالمعروف بالهمة العلية ، وينهون عن المنكر بالحال القوية ، فكلّ من رآهم بالصفا ائتمر وانتهى ، وكل من صحبهم بالوفاء أخذ حظه من الغنى بالمكيال الأوفى ، إن للّه رجالا من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، فهؤلاء يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بالحال دون المقال.

يحكى أن بعض الشيوخ مرّ مع أصحابه بقوم يشربون الخمر تحت شجرة ، فأراد أصحابه أن يغيروا عليهم ، فقال لهم : إن كنتم رجالا فغيروا عليهم بحالكم دون مقالكم ، فتوجهوا إلى اللّه بهممهم ، فإذا القوم قد كسروا الأوانى ، وجاءوا إلى

الشيخ تائبين. وكذلك قضية معروف الكرخي مع أصحاب السفينة ، الذين كانوا مشتغلين باللهو واللعب

، فقال له أصحابه : ادع عليهم ، فقال : اللهم كما فرّحتهم فى الدنيا ففرّحهم فى الآخرة ، فتابوا على يده جميعا. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي الى سواء الطريق.

ثم أعاد النهى عن الفرقة ، تأكيدا لذمها ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٠٥ الى ١٠٩]

وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

قلت : (يوم) : متعلق بالاستقرار فى خبر (أولئك) ، أو بالذكر محذوفة ، وقوله : (أكفرتم) : محكى بقول محذوف جواب (أما) ، أي : فيقال لهم : أكفرتم.

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَكُونُوا كاليهود والنصارى الذين (تفرقوا) فى التوحيد والتنزيه ، وَاخْتَلَفُوا فى أحوال الآخرة. قال عليه الصلاة والسلام : «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النّصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلّها فى النّار إلا واحدة. قيل : ومن تلك الواحدة؟ قال : ما أنا وأصحابى عليه». وهذا الحديث أصح مما تقدم ، والصحابة يروون الحديث بالمعنى ، فلعلّ الأول نسى بعض الحديث. واللّه أعلم.

ثم إن النهى مخصوص بالتفرق فى الأصول دون الفروع ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «اختلاف أمّتى رحمة» ، ولقوله : «من اجتهد وأصاب فله أجران ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد».

ثم إن أهل الكتاب تفرقوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ أي : الآيات والحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه ، وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ ، يستقر لهم هذا العذاب يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ المؤمنين المتقين على التوحيد ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ الكافرين المتفرقين فيه ، أو تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين ، أو تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة. وبياض الوجوه وسوادها كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف

(٣٩١/١)

فيه ، وقيل : يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعى النور بين يديه وبيمينه ، وأهل الباطل بأضداد ذلك. فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ فيقال لهم يومئذ : أَكَفَرْتُمْ بمحمد - عليه

الصلاة والسلام – بعد ظهوره ، بَعْدَ إِيمانِكُمْ به قبل ظهوره ، وهم اليهود أو أهل الردة ، آمنوا فى حياته صلّى اللّه عليه وسلم وكفروا بعد موته.

أو جميع الكفار ، آمنوا فى عالم الذر وأقروا على أنفسهم ، ثم كفروا فى عالم الشهادة. ويقال لهم أيضا : فَذُوقُوا الْعَذابَ بسبب ما كنتم (تكفرون).

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ أي : جنته ، هُمْ فِيها خالِدُونَ. وعبّر بالرحمة عن الجنة تنبيها على أن المؤمن ، وإن استغرق عمره فى طاعة اللّه – تعالى – ، لا يدخل الجنة إلا برحمة اللّه وفضله ، وكان حق الترتيب أن يقدم حلية المؤمنين لتقدّم ذكرهم ، لكن قصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حلية المؤمنين وثوابهم.

تِلْكَ آياتُ اللَّهِ الواردة فى وعده ووعيده ، نَتْلُوها عَلَيْكَ متلبسة بِالْحَقِّ لا شبهة فيها ، فقد أعذر وأنذر ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ إذ لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه ، ولا يمنع من شيء فيظلم بفعله ، كما بيّنه بقوله : وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وخلقا وعبيدا ، فيجازى كلا بما وعده وأوعده ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كلها فيتصرف على وفق مراده وسابق مشيئته ، لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ.

الإشارة : قد نهى اللّه – تعالى – أهل الجمع عن التشبه بأهل الفرق ، فى اختلاف قلوبهم ووجوههم وآرائهم وأنظارهم ، من بعد ما جاءتهم الدلائل الواضحات على طلب جمع القلب على اللّه ، والتودد فى اللّه ، وصرف النظرة فى شهود اللّه ، وأولئك المفترقون لهم عذاب عظيم ، وأىّ عذاب أعظم من الحجاب؟ يوم تبيض وجوه العارفين ، فتكون كالشمس الضاحية ، يسرحون فى الجنان حيث شاءوا ، وتسود وجوه الجاهلين لما يعتريها من الندم ، وسوادها باعتبار وجوه العارفين فى النقص عنها ، وان كانت مبيضّة بنور الإيمان ، لكن فاتهم نور الإحسان ، فيقال : أكفرتم بالخصوصية فى زمانكم ، بعد إيمانكم بها فيمن سلف قبلكم؟ فذوقوا عذاب القطيعة عن شهود الحبيب فى كل حين ، وأما الذين ابيضت وجوههم وأشرقت بنور البقاء ، ففى رحمة اللّه ، أي : جنة المعارف فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ، فقد اتضحت الطريق ، وظهرت أعلام التحقيق ، لكن الهداية بيد اللّه ، كما أنّ الأمور كلها بيده ، يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ. وباللّه التوفيق.

ثم مدح الأمة المحمدية بامتثال ما أمرها به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقال :

(٣٩٢/١)

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَإِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)

قلت : (كان) : على بابها من الدلالة على المضىّ ، أي : كنتم فى اللوح المحفوظ ، أو فى علم اللّه ، أو فيما بين الأمم المتقدمة ، أو : صلة ، أي : أنتم خير أمة ، و(للناس) : يتعلق بأخرجت ، أو بكنتم ، أي : كنتم خير الناس للناس.

يقول الحق جل جلاله لأمة نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم : كُنْتُمْ فى سابق علمى خَيْرَ أُمَّةٍ ظهرت لِلنَّاسِ تجيئون بهم إلى الجنة بالسلاسل. ثم بيّن وجه فضلهم فقال : تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وبجميع ما يجب الإيمان به.

وقد ورد فى مدح هذه الأمة المحمدية أحاديث ، منها : قوله صلّى اللّه عليه وسلم : «حرّمت الجنة على الأنبياء حتى أدخلها أنا ، وحرّمت الجنة على الأمم حتّى تدخلها أمتى». ومنها قوله صلّى اللّه عليه وسلم : «أمتى أمة مرحومة ، إذا كان يوم القيامة أعطى اللّه كلّ رجل من هذه الأمة رجلا فيقال : هذا فداؤك من النّار».

وعن أنس قال : «خرجت مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فإذا صوت يجيىء من شعب ، فقال : يا أنس : قم فانظر ما هذا الصوت ، فانطلقت فإذا برجل يصلى إلى شجرة ، ويقول : اللهم اجعلنى من أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، الأمة المرحومة ، المغفور لها ، المستجاب لها ، المتاب عليها ، فأتيت النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فأخبرته ، فقال : انطلق ، فقل له : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقرئك السلام ، ويقول لك : من أنت؟ فأتيته ، فأعلمته ما قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال : أقرأ منى السلام على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وقل له : أخوك الخضر يقول لك : ادع اللّه أن يجعلنى من أمتك المرحومة المغفور لها» «١». وقيل لعيسى بن مريم : هل بعد هذه الأمة أمة؟ قال : نعم ، أمة أحمد. قيل : وما أمة أحمد؟ قال : علماء ، حكماء ، أبرار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون باليسير من الرزق ، ويرضى اللّه عنهم باليسير من العمل ، يدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا اللّه. هـ.

وليس أولها أولى بالمدح من آخرها ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «أمتى كالمطر ، لا يدرى أوله خير أو آخره»؟ وفى خبر آخر عنه صلّى اللّه عليه وسلم قال : «اشتقت إلى إخوانى ، فقال أصحابه : نحن إخوانك يا رسول اللّه ، فقال : أنتم أصحابى ، إخوانى : ناس يأتون بعدي ، يؤمنون بي ولم يرونى ، يودّ أحدهم لو يرانى بجميع ما يملك. يعدل عمل أحدهم سبعين منكم. قالوا :

منهم يا رسول اللّه؟ قال : منكم. قالوا : ولم ذلك يا رسول اللّه؟ قال : لأنكم وجدتم على الخير أعوانا

، وهم لم يجدوا عليه أعوانا». أو كما قال – عليه الصلاة والسلام – .
قلت : التفضيل باعتبار أجور الأعمال ، وأما باعتبار اليقين والمعرفة ، فالصحابة أفضل الخلق بعد الأنبياء – عليهم السلام – ويدل على هذا قوله – عليه الصلاة والسلام – : «يعدل عمل أحدهم» ، ولم يقل إيمان أحدهم «٢».
واللّه تعالى أعلم.

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر بألفاظ مقاربة فى الإصابة ٢/ ١٢٢ ، وعزاه لابن عساكر وابن شاهين وابن عدى فى الكامل.
(٢) قال الحافظ ابن حجر : الجمهور على أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم. ثم قال : وزيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة. انظر بقية كلامه فى الفتح ٧/ ٩. وانظر أيضا تفسير القرطبي.

الإشارة : كنتم يا معشر الصوفية خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالجمع على اللّه والغيبة عما سواه ، وتنهون عن كلّ ما يبعد عن اللّه ويفرق العبد عن مولاه ، وتؤمنون باللّه وبما وعد به اللّه ، إيمان الشهود والعيان ، الذي هو مقام الإحسان. قال القشيري فى رسالته : (قد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه).
وقال الجنيد رضي اللّه عنه : لو نعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا ، لسعيت إليه ولو حبوا. هـ. وكان كثيرا ما ينشد :
علم التصوف علم ليس يعرفه إلّا أخو فطنة بالحقّ معروف
وليس يبصره من ليس يشهده وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف
وقال الشيخ الصقلى : (كلّ من صدّق بهذا العلم فهو من الخاصة ، وكل من فهمه فهو من خاصة الخاصة ، وكل من عبّر به وتكلم فيه فهو من النجم الذي لا يدرك والبحر الذي لا ينزف). وقال فى الإحياء – لمّا تكلم على معرفة اللّه والعلم باللّه ، قال : (و الرتبة العليا فى ذلك للأنبياء ، ثم للأولياء العارفين ، ثم للعلماء الراسخين ، ثم للصالحين). فقد قدّم الأولياء على العلماء. قال ابن رشد : وما قاله القشيري والغزالي متفق عليه. قال : ولا يشكّ عاقل أنّ العارفين باللّه وما يجب له من الكمال ، أفضل من العارفين بأحكام اللّه. انظر تمامه فى المعيار. وقال فى المباحث :

حجّة من يرجّح الصوفية على سواهم حجّة قويّه

هم أتبع النّاس لخير النّاس من سائر الأنام والأناس

ثم قال :

ثمّ بشيئين تقوم الحجّة أنّهم قطعا على المحجّه «١»

وما أتوا فيه بخرق العاده إذ لم تكن لمن سواهم عاده

قد رفضوا الآثام والعيوب وطهّروا الأبدان والقلوب

وبلغوا حقيقة الإيمان وانتهجوا مناهج الإحسان

---

(١) المحجة : الطريق المستقيم.

ثم دعا أهل الكتاب إلى الإيمان ، وهوّن أمرهم ، فقال :

وَلَوْ آمَنَ ...

قلت : الاستثناء فى قوله (إلا بحبل) : من أعم الأحوال ، أي : ضربت عليهم الذلة فى جميع الأحوال ، إلا متلبسين بذمة من اللّه وذمة من الناس.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ إيمانا كائنا كإيمانكم ، لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مما هم عليه. وليس أهل الكتاب سواء ، بل مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ كعبد اللّه بن سلام وأصحابه ، وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ المتمردون فى الكفر والفسوق ، فلا يهولكم أمرهم ، فإنهم لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلا ضررا يسيرا كأذى باللسان من عيب وسب وتحريش بينكم ، ولا قدرة لهم على القتال ، وَإِنْ يُقاتِلُوكُمْ ينهزموا ، ويُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ أبدا عليكم.

وهذه الآية من المغيبات التي وافقها الواقع ، إذ كان كذلك فى بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع وخيبر ، فلم ترفع لهم راية أبدا ، بل ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والخزي والهوان ، أي : أحاطت بهم إحاطة البيت المضروب على أهله ، أو لزمتهم لزوم الدرهم المضروب لضربه ، فلا تنفك عنهم أَيْنَ ما ثُقِفُوا ووجدوا ، فلا يأمنون إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ أي : بسبب عهد من اللّه ، وهو عقد الذمة التي أمر اللّه بها ، إذا أدوا الجزية للمسلمين ، فلهم حرمة بسبب هذا العقد ، فلا يجوز التعرض لهم فى مال ولا دم ولا أهل ، وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ، وهو عقد الذمة التي يعقدها مع الكفار إذا كانوا تحت ذمتهم. والحاصل أن الذلة لازمة لهم «١» فلا يأمنون إلا تحت الذمة ، إما من المسلمين وإما من الكفار. وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ أي

: انقلبوا به مستحقين له ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ أي : أحاطت بهم ، فاليهود فى الغالب فقراء مساكين ، لأن قلوبهم خاوية من اليقين ، فالفقر والجزع لازم لهم ، ولو ملكوا الدنيا بأجمعها.

---

(١) أقام اليهود لهم دولة بمعونة الظلمة ، وحمايتهم لهم ، كما فعل البريطانيون والأمريكان. لكن المسكنة لازمة لليهود ويبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، حتى مع وجودهم محصنين داخل دولتهم.

ذلِكَ الذل والمسكنة والبواء بالغضب بسبب أنهم كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ المنزلة على رسوله ، أو الدالة على توحيده ، وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ بل ظلما وعدوانا ، ذلك الكفر بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود اللّه ، فإن الإصرار على الصغائر يفضى إلى الكبائر ، والإصرار على الكبائر يؤدى الى الكفر لأن المعاصي بريد الكفر ، والعياذ باللّه.

الإشارة : ولو آمن أهل العلم الظاهر بطريق الخصوص ، وحطوا رؤوسهم لأهل الخصوصية لكان خيرا لهم ، لتتسع عليهم دائرة العلوم ، وتفتح لهم مخازن الفهوم ، منهم من يقر بوجود الخصوصية ، ويعجز عن حمل شروطها ، وأكثرهم ينكرونها ويحتجون لأنفسهم بقول من قال : انقطعت التربية فى القرن الثامن ، فيموتون مصرين على الإنكار والعصيان ، فلن يضركم إنكارهم أيها الفقراء ، فإنهم لا قدرة لهم عليكم ، للرعاية التي أحاطت بكم ، إلا أذى بلسانهم ، وعلى تقدير لحوق ضررهم فى الظاهر ، فإن اللّه يغيّب ألم ذلك عنكم فى الباطن ، كما شاهدناه من بعض الفقراء ، وإن يهددوكم بالقتل والجلاء ، فإن اللّه لا ينصرهم فى الغالب.

قلت : وقد هددونا بالضرب والرفع إلى السلطان والجلاء إلى برّ النصارى ، فلم يقدروا على شيء من ذلك ، وقد وقع ذلك لبعض الصوفية زيادة فى شرفهم وعزهم ، فالمنكر على الصوفية «١» لا يزال فى همّ وغمّ وذلّ ومسكنة ، لخراب باطنه من نور اليقين. فإنّ الانتقاد على الأولياء جناية واعتقادهم عناية ، فإن استمر على أذاهم كان عاقبته سوء الخاتمة ، فيبوء بغضب من اللّه بسبب اعتدائه على أولياء اللّه ، «ومن آذى لى وليا فقد أذن بالحرب» ، رزقنا اللّه الأدب معهم ، وأماتنا على محبتهم ، آمين.

ولمّا كان من اليهود من أسلم وحسن إسلامه استثناه اللّه تعالى ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١١٣ الى ١١٥]

لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

قلت : (قائمة) أي : مستقيمة ، من أقمت العود فقام ، أو قائمة بأمر اللّه. و(آناء الليل) : ظرف ، واحده : (إنّي) ، بكسر الهمزة وسكون النون ، كنحى وأنحاء ، أو (إنى) ، كمعى وأمعاء ، و(لن تكفروه) أي : لن تحرموه ، وعدى (كفر) إلى مفعولين لتضمنه معنى حرم أو منع.

---

(١) أي : الصوفية الملتزمة ، لا صوفية المزمار.

يقول الحق جل جلاله : ليس أهل الكتاب سَواءً فى الكفر والعدوان ، بل منهم أُمَّةٌ أي : طائفة قائِمَةٌ بالعدل مستقيمة فى الدين ، أو قائمة بأمر اللّه ، أو قائمة فى الصلاة يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ فى تهجدهم آناءَ اللَّيْلِ أي : فى ساعاته ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ فى صلاتهم ، أو فى صلاة العشاء ، لأن أهل الكتاب لا يصلونها ، لما روى أنه صلّى اللّه عليه وسلم أخّرها ، ثم خرج ، فإذا الناس ينتظرونها ، فقال : «أبشروا فإنّه ليس من أهل الأرض أحد يصلّى فى هذه السّاعة غيركم».

ثم وصفهم بالإيمان فقال : يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ ، وهو عبد اللّه بن سلام وأصحابه ممن أسلم من اليهود ، فقد وصفهم اللّه تعالى بخصائص لم توجد فى اليهود ، فإنهم منحرفون عن الحق غير متعبدين ، مشركون باللّه ملحدون فى صفاته ، يصفون اليوم الآخر بغير صفاته ، مداهنون فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، متباطئون عن الخيرات ، بخلاف ما وصف به من أسلم منهم ، وَأُولئِكَ الموصوفون بتلك الصفات مِنَ الصَّالِحِينَ أي : ممن صلحت أحوالهم عند اللّه ، واستوجبوا رضاءه وثناءه ، وهذه عادة اللّه مع خلقه ، من تقرب إليه شبرا تقرب إليه ذراعا. ولذلك قال : وَما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ أي : فلن تحرموا ثوابه. ولن تجحدوا جزاءه ، بل يشكره لكم ويجزيكم عليه ، سمى الحرمان كفرانا كما سمى العطاء شكرا. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ فلا يخفى عليه مقاماتهم فى التقوى. وفيه إشعار بأن التقوى مبدأ الخير وأحسن الأعمال ، وأن الفائزين عند اللّه هم أهل التقوى. رزقنا اللّه منها الحظ الأوفر بمنّه. آمين.

الإشارة : ليس أهل العلم سواء ، بل منهم من جعله شبكة يصطاد به الدنيا ، يبيع دينه بعرض قليل ، وهم علماء السوء وقضاة الجور ، ومنهم من قرأه للّه وعلّمه للّه ، فأفنى عمره فى تعليمه وتقييده ، ومنهم من صرف همته إلى جمعه وتأليفه ، ومنهم من صرف همته إلى العمل به فالتحق بالعباد والزّهاد ،

يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ومنهم من حرره وحققه ، ثم توجه إلى علم الباطن وصحب العارفين ، فكان من المقربين ، فهؤلاء كلهم يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فيقال لهم : وما تفعلوا من خير فلن تكفروه واللّه عليم بالمتقين.

ثم ذكر الحق تعالى أضدادهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١١٦]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١١٦)

(٣٩٧/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٩٨

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وجحدوا ما جاء به الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من) عذاب اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ أي : ملازموها ، كملازمة الرجل لصاحبه ، هُمْ فِيها خالِدُونَ.

الإشارة : إن الذين كفروا بالخصوصية عند أهل زمانهم ، وفاتهم اقتباس أنوارهم ، لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا علومهم مما فاتهم من معرفة اللّه شيئا ، ماذا وجد من فقد اللّه؟ وماذا فقد من وجد اللّه؟! قال الشاعر :

لكلّ شيء إذا فارقته عوض وليس للّه إن فارقت من عوض

ولا طريق لمعرفة الحق المعرفة الخاصة - أعنى معرفة العيان - إلا صحبة أهل الشهود والعيان ، فكلّ من أنكرهم كان غايته الحرمان ، ولزمته البطالة والخذلان ، وجرّب ، ففى التجريب علم الحقائق ، ومن حرم صحبتهم لا ينفك عن نار القطيعة وعذاب الحجاب ، وعنت الحرص والتعب ، عائذا باللّه من ذلك.

ثم ضرب مثلا لأعمال الكفار ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١١٧]

مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

قلت : فى الكلام حذف ، أي : مثل تلف ما ينفقون كمثل إتلاف ريح ... إلخ ، و(الصر) : البرد الشديد ، أو ريح فيها صوت وبرد ، أو السموم الحارة.

يقول الحق جل جلاله : مثل ما ينفق الكفار ، قربة أو مفاخرة وسمعة ، أو ما ينفق سفلة اليهود على

أحبارهم ، أو المنافقون رياء وخوفا ، مَثَلِ رِيحٍ
فيها برد شديدصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ
أي : زرعهم ، فأتلفته وأهلكته ، والمراد : تشبيه نفقتهم وأعمالهم فى تلفه وضياعه وعدم الانتفاع به ، بحرث كفار ، ضربته ريح فيها برد فاجتاحته ، فأصبح صعيدا زلقا ، ولم تبق فيه منفعة فى الدنيا والآخرة ، ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ
بأن ضيع أعمالهم من غير سبب ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب الكفر الذي أحبط أعمالهم.
الإشارة : كل من لم يحقق مقام الإخلاص ، ولم يصحب أهل التخليص والاختصاص ، لا تنفك أعماله من علل ، ولا أحواله من دخل ، فأعماله فارغة خفيفة ، أقل ريح تقلعها وتسقطها عن درجة الاعتبار ، وما زالت العامة تقول : الصحيح يصح ، والخاوي يدريه الريح. وباللّه التوفيق.

ثم حذّر الحق تعالى من مخالطة أهل التخليط ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١١٨ الى ١٢٠]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)
قلت : بطانة الرجل : خواصه الذين يطلعهم على باطنه وسره ، وسميت بطانة تشبيها لها بالثوب الذي يلى بطنه كالشعار. قال عليه الصلاة والسلام : «الأنصار شعار والنّاس دثار». وهى اسم تطلق على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث. والألو : التقصير ، وأصله : أن يتعدى بالحرف ، تقول : لا آلو فى نصحك أي : لا أقصر فيه. ثم عدى إلى مفعولين ، كقولهم : لا آلوك نصحا ، على تضمن معنى المنع أو النقص. والخبال : الفساد.
و(ما عنتم) : مصدرية ، والعنت : التعب والمشقة ، والأنامل : جمع أنملة - بضم الميم وفتحها - ، والضير والضر واحد. ومضارع الأول : يضير ، والثاني : يضر ، وهو هنا مجزوم ، وأصله : يضرركم ، نقلت حركة الراء إلى الضاد ، وضمت الراء ، اتباعا لحركة الضاد طلبا للمشاكلة.
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً أي : أصدقاء وأصفياء ، تطلعونهم على

سركم ، وهم مِنْ دُونِكُمْ ليسوا على دينكم ، فإنهم لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا أي : لا يقصرون جهدهم فى إدخال الفساد بينكم بالتخليط والنميمة وإطلاع الكفار على عورتكم. نزلت فى رجال من المسلمين ، كانوا يصلون رجالا من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة ، أو فى المنافقين كان يصلهم بعض المسلمين.

ثم وصفهم بأوصاف توجب التنفير منهم فقال : وَدُّوا ما عَنِتُّمْ أي : تمنوا عنتكم وهلاككم وضلالكم ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ أي : ظهرت أمارة العداوة من أفواههم بالوقيعة فى المسلمين ، أو بإطلاع المشركين على عوراتهم ، أو فى كلامهم مع المسلمين بالغيظ ، لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم ، وَما تُخْفِي

(٣٩٩/١)

صُدُورُهُمْ

من العداوة والبغضاء ، أَكْبَرُ مما أظهروه ، لأن ظهوره منهم ليس عن روية واختيار ، بل عن غلبة غيظ واضطرار. قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ أيها المؤمنون الْآياتِ الدالة على مجانبة الكافرين وموالاة المؤمنين ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ما يبين لكم.

ها أَنْتُمْ يا هؤلاء المخاطبين تُحِبُّونَهُمْ لما بينكم من المصاهرة والصداقة ، وَلا يُحِبُّونَكُمْ لما بينكم من مخالفة الدين ، أو تريدون لهم الإسلام وهم يريدون لكم الكفر ، وأنتم تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ أي : بجنس الكتب ، (كله) أي : بالكتب كلها ، وهم لا يؤمنون بكتابكم ، فكيف تحبونهم وهم يكذبون كتابكم ورسولكم؟ وهم أيضا ينافقونكم إذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا مع أنفسهم عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ لما يرون من ائتلاف المؤمنين ، ولم يجدوا سبيلا إلى التشفي فيكم ، وهذه كناية عن شدة حقدهم ، وإن لم يكن ثمّ عض فى الخارج.

قال لهم الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ فإنما ضرر غيظكم عليكم ، أو دوموا على غيظكم حتى تموتوا عليه ، فإن مادة الإسلام لا تزال تنمو حتى تهلكوا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي :

بحقيقة ما فى قلوبكم من البغضاء والحنق «١» ، أو بما فى القلوب من خير أو شر. هو من مقول الرسول لهم ، أو من كلام اللّه تعالى ، استئناف ، أي : لا تعجب من اطلاعى إياك على أسرارهم ، فإنى عليم بالأخفى من ضمائرهم.

ومن فرط عداوتهم أنهم إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ كنصر وغنيمة تَسُؤْهُمْ أي : تحزنهم ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ

كهزيمة أو قتل أو إصابة عدو منكم أو اختلاف بينكم ، يَفْرَحُوا بِها ، وَإِنْ تَصْبِرُوا على عداوتهم وأذاهم ، وتخافوا ربكم ، وَتَتَّقُوا ما نهاكم عنه ، لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ، بفضل اللّه وحفظه ، الموعود للصابرين والمتقين ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا. ومن كان الحق معه لا يضره شيء ، إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ لا يخفى عليه ما يعمل أهل الكفر من العداوة والحقد ، فيجازيهم عليه.

الإشارة : لا ينبغى لأهل الخصوصية أن يتخذوا بطانة من دونهم من العامة حتى يطلعوهم على سرهم ، فإن الإطلاع على السر ، ولو كان غير الخصوصية ، كله ضعف فى العقل ووهن فى الرأى ، وفى ذلك يقول القائل :

(من أطلع الناس على سره استحقّ الكيّ على جبهته)

وأما سر الربوبية فإفشاؤه لغير أهله حرام ، والعامة مضادون لأهل الخصوصية ، لا يألونهم خبالا فى قلوبهم وتشتيتا لفكرتهم ، إذا صحبوهم يودون أن لو كانوا مثلهم فى العنت وتعب الأسباب ، فإذا ظهر بالفقراء نقص أو خلل

---

(١) الحذق : شدة الاغتياظ.

ظهرت البغضاء من أفواههم ، وما تحفى صدورهم أكبر ، فإن كنتم أيها الفقراء تحبون لهم الخير فإنهم بعكس ذلك ، وإن كنتم تقرون شريعتهم فإنهم لا يؤمنون بحقيقتكم ، بل ينكرونها عليكم ، ومنهم من يتصف بالنفاق ، إذا لقى أهل الخصوصية أظهر التصديق والمحبة ، وإذا خلا مع العامة أظهر العداوة والحنق ، وإن تمسسكم أيها الفقراء حسنة ، كعز وفتح وشهود ومعرفة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة كمحنة أو بلية ، يفرحوا بها ، وإن تصبروا على أذاهم وجفوتهم ، وتتقوا شهود السوي فيهم ، لا يضركم كيدهم شيئا (إن اللّه بما يعملون محيط).

ولما فرغ الحق تعالى من معاتبة أهل الكتابين ، شرع فى معاتبة بعض المسلمين لما وقع لهم فى غزوة أحد من الفشل ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٢١ الى ١٢٢]

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُما وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)

يقول الحق جل جلاله : واذكر يا محمد حين غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ من منزل عائشة ، الذي نزلت فيه بأحد

، حين خرجت بها ، حال كونك تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ أي : تهيئ لهم ، مَقاعِدَ لِلْقِتالِ أي : مواقف وأماكن يقفون فيها للحرب وَاللَّهُ سَمِيعٌ لأقوالكم ، عَلِيمٌ بإخلاصكم.

قال الواقدي : خرج النبي صلّى اللّه عليه وسلم من منزل عائشة - رضي اللّه عنها - ماشيا على رجليه إلى أحد ، فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم القدح «١». إن رأى صدرا خارجا ، قال : تأخر. وذلك أن المشركين نزلوا بأحد ، يوم الأربعاء ، فلما سمع النبي صلّى اللّه عليه وسلم بنزولهم استشار أصحابه ، ودعا عبد اللّه بن أبي بن سلول - ولم يدعه قط قبلها - فاستشاره ، فقال عبد اللّه بن أبي وأكثر الأنصار : يا رسول اللّه أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فو اللّه ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ، ولا دخل علينا إلا أصبنا منه ، فكيف وأنت فينا! فدعهم يا رسول اللّه ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة ، وإن رجعوا رجعوا خاسئين. فأعجب النبي صلّى اللّه عليه وسلم هذا الرأى ، وقال بعض أصحابه : يا رسول اللّه اخرج بنا إلى هذه الأكلب «٢» لا يرون أنا جبنّا عنهم وضعفنا. فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «إنّى رأيت فى منامى بقرا تذبح ، فأولتها ناسا من أصحابى يقتلون ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلما «٣» ، فأولتها هزيمة ، ورأيت أنى أدخل يدى فى درع حصينة ، فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم فافعلوا». فقال رجال ممن فاتهم بدر ، وأكرمهم اللّه بالشهادة يوم أحد : اخرج بنا

---

(١) القدح - بالكسر : السهم قبل أن ينصل ويراش.

(٢) فى نسخة : (الكلاب) ، وكلاهما صحيح فالكلب يجمع على كلاب وأكلب.

(٣) الثلم : الكسر.

إلى أعدائنا ، وبالغوا ، حتى دخل النبي صلّى اللّه عليه وسلم ولبس لأمته «١». فلما رأوه قد لبس سلاحه ندموا ، وقالوا : بئس ما صنعنا ، نشير على النبي صلّى اللّه عليه وسلم والوحى يأتيه ، فقاموا واعتذروا إليه. وقالوا : اصنع ما رأيت ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «لا ينبغى لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل».

فخرج بعد صلاة الجمعة ، وأصبح بشعب من أحد ، يوم السبت للنصف من شوال ، سنة ثلاث من الهجرة ، ونزل فى عدوة من الوادي ، وجعله ظهره وعسكره إلى أحد ، وسوى صفهم كما تقدم ، وأمّر عبد اللّه بن جبير على الرماة ، وقال : انضحوا عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، فكان من أمر اللّه ما

كان ، على ما يأتي «٢».

وخرج مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم فى غزوة أحد زهاء ألف ، ووعدهم النصر إن صبروا ، فلما بلغوا الشواط - موضع - انخزل ابن أبيّ فى ثلاثمائة ، وقال : علام نقتل أنفسنا! فتبعهم أبو جابر السلمى ، فقال : أنشدكم اللّه فى نبيكم وأنفسكم. فقال ابن أبيّ : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، وهمت بنو حارثة وبنو سلمة بالانصراف معه ، فثبتوا مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فذكرهم نعمته بقوله : إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُما وناصرهما ، حيث عصمهما من اتباع المنافقين ، قال جابر : (ما يسرنا أنها لم تنزل ، لقوله : وَاللَّهُ وَلِيُّهُما) فبنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ لا على غيره ، إذ لا ناصر غيره.

الإشارة : من شأن شيوخ التربية أن يدلّوا المريدين على محاربة النفوس ومقاتلتها ، ويطلعوهم على دسائسها ومخادعتها ، ليهيئوا لهم بذلك مقاعد لقتالها ، واللّه مطلع على إخلاصهم ونياتهم ، فمنهم من يمل ويكل ، فيرجع إلى وطن عوائده ، ومنهم من يصبر حتى يفوز بالغنيمة العظمى والسعادة القصوى ، وفى ذلك يقول القائل :

وبالغوا فى الجدّ حتى ملّ أكثرهم وعانق المجد من وافى ومن صبرا

قال بعضهم : انتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم ، فإن ظفروا بها وصلوا. هـ. ومنهم من يلحقه الملل والفشل فيهم بالانصراف والرجوع ، ثم يثبته اللّه تعالى وينصره ، فيلحق بالصابرين السابقين ، وعمدة المريد فى مجاهدة نفسه : التوكل على اللّه والاعتماد عليه دون شيء سواه «من علامة النجح فى النهايات : الرجوع إلى اللّه فى البدايات». وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.

ثم ذكّر أهل أحد بما وقع لهم يوم بدر من النصر والظفر مع قلتهم ليثبتوا ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٢٣]

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)

---

(١) اللأمة - مهموزة - : الدرع.

(٢) عند تفسير قوله تعالى : «وما محمد إلا رسول».

قلت : (بدر) : بئر بين مكة والمدينة ، كانت لرجل اسمه بدر ، فسميت باسم صاحبها ، وقعت فيها الغزوة التي نصر اللّه فيها رسوله صلّى اللّه عليه وسلم ، فسميت الغزوة باسم المكان ، وجملة : (و

أنتم أذلة) : حال من الكاف ، و(أذلة) : جمع ذليل ، كأعزة ، جمع عزيز.
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فى وقعة بدر وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ليس معكم مراكب ولا كثرة سلاح ، مع قوة عدوكم بالعدة والعدد ، فَاتَّقُوا اللَّهَ واثبتوا مع رسوله ، وانتظروا النصر من اللّه كما عودكم ، لَعَلَّكُمْ تكونون شاكرين ، لما أنعم به عليكم من العز والنصر ، فيزيدكم منه كما وعدكم.
الإشارة : جعل اللّه سبحانه وتعالى الأشياء كامنة فى أضدادها ، فمن أراد العز والنصر فليتحقق بالذل والمسكنة ، ومن أراد الغنى فليتحقق بالفقر ، ومن أراد الرفعة فليتحقق بالضعة وإسقاط المنزلة ، ومن أراد القوة فليتحقق بالضعف ، وهكذا : [تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه]. فاتقوا اللّه يا معشر المريدين ، واطلبوا الأشياء فى أضدادها لتظفروا بها ، واشكروا اللّه على ما أولاكم يزدكم من فضله ونواله.
ثم ذكر كيفية نصره لهم ببدر فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٢٤ الى ١٢٥]
إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)
قلت : (إذ) : ظرف لنصركم ، إذا قلنا : إن الإمداد يوم بدر فقط ، أو بدل من (إذ غدوت) ، إذا قلنا : كان الإمداد يوم أحد بشرط الصبر ، فلما لم يصبروا لم يقع. والتسويم : التعليم.
يقول الحق جل جلاله : ولقد نصركم اللّه ببدر حين كنت تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ حين رأوا كثرة عدوهم وقلة عدتهم وعددهم : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ فى القوة والكثرة ، أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ فى السحاب؟ بَلى يكفيكم كما وعدكم ، إِنْ تَصْبِرُوا وتثبتوا وَتَتَّقُوا اللّه وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ أي : من سرعتهم هذا الوقت ، يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ بلا تراخ ولا تأخير ، مُسَوِّمِينَ أي : معلّمين بعمائم بيض إلا جبريل ، فإنه كانت عمامته صفراء. أو معلمين أنفسهم أو خيلهم. قيل : كانت مجزوزة الأذناب ، وقيل : كانت بلقا.

فإن قلت : ما ذكر فى الأنفال إلا ألفا ، وهنا خمسة آلاف. فالجواب : أن اللّه تعالى أمدهم أولا بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف. قال ابن عباس : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر ، وفيما سوى ذلك يشهدون القتال معنا ، ولا يقاتلون. هـ.
الإشارة : كل من توجّه لجهاد نفسه فى اللّه ، واشتغل بذكر مولاه ، أمده اللّه فى الباطن بالأنوار

والأسرار ، وفى الظاهر بالملائكة الأبرار ، وقد شوهد ذلك فى الفقراء أصحابنا ، إذا كانوا ثلاثة رآهم العامة ثلاثين ، وإذا كانوا ثلاثين رأوهم ثلاثمائة ، وقد كنا فى سفرة سبعين ، فرأونا سبعمائة على ما أخبرونا به ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ.

ثم ذكر الحق تعالى حكمة إمداده لهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٢٦ الى ١٢٩]

وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)

قلت : (ليس لك من الأمر شى ء) : جملة معترضة بين قوله : (أو يكبتهم) وقوله : (أو يتوب عليهم) ، أو تكون (أو) بمعنى (إلا) ، أي : ليس لك من الأمر شيء ، إلا أن يتوب عليهم فتبشرهم ، أو يعذبهم فتتشفى فيهم. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : وما جعل اللّه ذلك الإمداد إلا بشارة لكم بالنصر ، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ فتثبتوا للقتال ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فهو قادر على أن ينصركم بلا واسطة ، لكن أراد أن يثيبكم وينسب المزية إليكم ، حيث قتلهم على أيديكم ، فإن اللّه عزيز لا يغلب ، حكيم فيما دبر وأبرم ، وإنما نصركم يوم بدر لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بقتل بعض وأسر آخرين ، فإنه قتل يومئذ سبعون ، وأسر سبعون ، أَوْ يَكْبِتَهُمْ أي : يحزنهم ويغيظهم ، والكبت : شدة الغيظ ، فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ مما أملوا.

ولما جرح - عليه الصلاة والسلام - فى وجهه ، وشجّ على قرن حاجبه ، وكسرت رباعيته ، همّ بالدعاء على الكفار ، بل دعا عليهم ، فأنزل اللّه : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إنما أنت رسول إليهم ، مأمور بإنذارهم وجهادهم ، وأمرهم بيد مالكهم ، إن شاء هداهم وإن شاء عذبهم. وإنما نهاه عن الدعاء عليهم لعلمه بأن منهم من يسلم ويجاهد فى سبيل اللّه ، وقد كان كذلك فجلّهم أسلموا وجاهدوا ، منهم خالد بن الوليد - سيف اللّه فى أرضه.

ثم عطف على قوله : لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ قوله : أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إن أسلموا أَوْ يُعَذِّبَهُمْ إن لم يسلموا ، فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ قد استحقوا العذاب بظلمهم ، والأمور كلها بيد اللّه ، وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ خلقا وملكا وعبيدا ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ غفرانه ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ تعذيبه ،

ولا يجب عليه شيء ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لعباده ، فلا تبادر بالدعاء عليهم.

الإشارة : وما جعل اللّه التأييد الذي ينزله على أهل التجريد ، حين يقابلهم بالابتلاء والتشديد ، إذا أراد أن يوصلهم لصفاء التوحيد ، إلا بشارة لفتحهم ، ولتطمئن بمعرفته قلوبهم ، فإن الامتكان على قدر الامتحان ، وكل محنة تزيد مكنة ، وهذه سنة اللّه فى أوليائه يسلط عليهم الخلق فى بدايتهم ، ويشدد عليهم البلاء ، حتى إذا طهروا من البقايا ، وكملت فيهم المزايا ، كف عنهم الأذى ، وانقلب الجلال جمالا ، وذلك اعتناء بهم ، ونصرا لهم على أنفسهم ، فإن النصر كله مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

وذلك ليقطع عنهم طرفا من الشواغل والعلائق ، التي تقبضهم عن العروج إلى سماء الحقائق ، فإن الروح إذا رقدت فى ظل العز والجاه صعب خروجها من هذا العالم ، فإذا ضيق عليها ، وعكس مرادها ، رحلت إلى عالم الملكوت ، والأمر كله بيد اللّه. ليس لك أيها الفقير من الأمر شيء ، إنما أنت مأمور بتحريك الأسباب «١» واللّه يفتح الباب. وليس لك أيها الشيخ من الأمر شيء ، إنما أنت مذكر ، وعلى اللّه البلاغ ، فلا تأس على ما فاتك ، ولا تفرح بما آتاك ، فملكوت السموات والأرض بيد اللّه ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

قال القشيري : جرّده – أي : نبيه صلّى اللّه عليه وسلم لما به عرفه عن كلّ غير وسبب ، حيث أخبره أنه ليس له من الأمر شيء ، ثم قال : ويقال : أقامه فى وقت مقاما رمى بقبضة من التراب ، فأصابت جميع الوجوه ، وقال : وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى وقال فى وقت آخر : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ. ه.

يشير إلى أنهما مقامان : نيابة عن اللّه باللّه ، ونيابة اللّه عن عبده ، والأول بقاء ، والثاني فناء ، قاله المحشى.

قلت : الأول فى مقام البسط ، والثاني فى مقام القبض ، فقد قالوا : إذا بسط فلا فاقة ، وإذا قبض فلا طاقة. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا كان النصر فى الجهاد لا يكون إلا بأكل الحلال وطاعة الكبير المتعال ، قدّم ذكر ذلك قبل الأمر بالقتال فى قضية أحد ، فقال :

---

(١) فى «أ» السبب.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)

قلت : الكظم هو : الكف والحبس ، تقول : كظمت القربة : إذا ملأتها وسددت رأسها.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا وتزيدوا فيها إذا حلّ الأجل أَضْعافاً مُضاعَفَةً ، ولعل التخصيص بحسب الواقع ، إذ كان الرجل يحلّ أجل دينه ، فيقول للمدين : إما أن تقضى وإما أن تزيد ، فلا يزال يؤخره ويزيد فى دينه حتى يستغرق مال المدين ، فنهوا عن ذلك. ورغبهم فى التقوى التي هى غنى الدارين. فقال : وَاتَّقُوا اللَّهَ فيما نهيتكم عنه ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ فى الدارين. ثم خوفهم بالنار إن لم ينتهوا ، فقال : وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ ، وفيه إشعار بأن النار موجودة إذ لا يعدّ المعدوم ، وأنها بالذات معدة للكافرين ، وبالعرض للعاصين.

قال الورتجبي : فى الآية إشارة إلى أن النار لم تعد للمؤمنين ، ولم تخلق لهم ، ولكن خوفهم بها زجرا وعظة ، كالأب البار المشفق على ولده يخوفه بالأسد والسيف ، وهو لا يضربه بالسيف ، ولا يلقيه إلى الأسد ، فهذه الآية تلطف وشفقة على عباده. هـ.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ فيما أمر ونهى ، وَالرَّسُولَ فيما شرع وسنّ ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. والتعبير بلعل وعسى فى أمثال هذه : دليل على عون التوصل إلى ما جعل طريقا له.

وَسارِعُوا أي : بادروا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ كالإسلام والتوبة والإخلاص ، وسائر الطاعات التي توجب المغفرة ، وقرأ نافع وابن عامر بغير واو على الاستئناف. وسارعوا أيضا إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ لو وصل بعضها ببعض ، وذكر العرض للمبالغة فى وصفها بالسعة لأنه دون الطول. قال بعضهم : لم يرد العرض الذي هو ضد الطول ، وإنما أراد عظمها ، ومعناه : كعرض السموات السبع والأرضين السبع فى ظنكم ، أي : لا تدرك ببيان. أُعِدَّتْ أي : هيّئت لِلْمُتَّقِينَ. وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة ، وأنها خارجة عن هذا العالم.

(٤٠٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٠٧

ثم وصف أهلها من المتقين بأوصاف الكمال ، فقال : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ أي : فى حالتى الرخاء والشدة ، وفى الأحوال كلها ، كما هى حالة الأسخياء ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : «الجنّة دار الأسخياء». وقال أيضا :

«السّخى قريب من اللّه ، قريب من الجنّة ، قريب من النّاس ، بعيد من النّار ، والبخيل بعيد من اللّه ، بعيد من الجنّة ، بعيد منّ النّاس ، قريب من النّار. ولجاهل سخى أحبّ إلى اللّه من العالم البخيل».
وقال أيضا صلّى اللّه عليه وسلم : «السّخاء شجرة فى الجنة ، أغصانها فى الدّنيا ، من تعلق بغصن من أغصانها قادته إلى الجنّة ، والبخل شجرة فى النّار ، أغصانها فى الدّنيا ، من تعلق ببعض من أغصانها قادته إلى النّار».
وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ أي : الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه ، قال عليه الصلاة والسلام : «من كظم غيظا وهو يقدر على إمضائه ملأ اللّه قلبه أمنا وإيمانا».
وقال بعض الشعراء :
وإذا غضبت فكن وقورا كاظما للغيظ ، تبصر ما تقول وتسمع
فكفى به شرفا ، تصبّر ساعة يرضى بها عنك الإله ويرفع «١»
وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ أي : عمن ظلمهم ، وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال عند ذلك : «إنّ هؤلاء فى أمتى قليل ، إلا من عصم اللّه ، وقد كانوا كثيرا فى الأمم التي مضت». وعن أبى هريرة : أن أبا بكر كان مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم فى مجلس ، فجاء رجل فوقع فى أبى بكر ، وهو ساكت ، والنبي صلّى اللّه عليه وسلم يبتسم ، ثم ردّ عليه أبو بكر بعض الرد ، فغضب عليه الصلاة والسلام - وقام ، فلحقه أبو بكر ، وقال : يا رسول اللّه ، شتمنى وأنت تبتسم ، ثم رددت عليه بعض ما قال ، فغضبت وقمت. قال : «حين كنت ساكتا كان معك ملك يردّ عليه ، فلما تكلمت وقع الشيطان ، فلم أكن لأقعد فى مقعد فيه الشيطان ، يا أبا بكر ، ثلاث حق : تعلم أنه ليس عبد يظلم مظلمة فيعفو عنها إلا أعز اللّه بها نصره ، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده اللّه قلة ، وليس عبد يفتح عطية أو صلة إلا زاده اللّه بها كثرة».
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ الذي أحسنوا فيما بينهم وبين اللّه ، وفيما بينهم وبين عباد اللّه ، و«أل» : يحتمل أن تكون للجنس ، فيعم كل محسن ، أو للعهد ، فتكون الإشارة إلى من تقدم ذكرهم.
الإشارة : كل ما يقوى مادة الحس فهو ربا لأنه يربى الحس ويقوى مادة الغفلة ، فلا ينبغى لمريد أن يضاعفه ويتعاطى أسباب تكثيره ، بل ينبغى أن يفر من موارده ، وهى ثلاثة : مباشرة الحس ، أو الفكر فيه ، أو الكلام مع أهله

---

(١) البيتان لأبى القاسم بن حبيب ، كما فى تفسير البحر المحيط : ٣/ ٦٣.

فيه. والذي يقوى مادة المعنى ثلاثة : صحبة أهل المعنى ، والفكرة فى المعاني ، وذكر اللّه بالقلب.
واتقوا اللّه فى مباشرة الحس (لعلكم تفلحون) بالوصول إلى صفاء المعاني ، واتقوا نار القطيعة التي أعدت لمنكر الخصوصية ، (و أطيعوا اللّه والرسول) فيما ندبكم إليه ، (لعلكم ترحمون) بإحياء قلوبكم وأرواحكم بأسرار المعاني ، وسارعوا إلى ما يوجب تغطية مساوئكم ، حتى يغطى وصفكم بوصفه ، ونعتكم بنعته ، فيوصلكم بما منه إليكم ، لا بما منكم إليه ، فتدخلوا جنة المعارف ، التي لا نهاية لفضاء شهودها ، التي أعدت للمتقين السّوى ، الذين يبذلون مهجهم وأموالهم فى حال الجلال والجمال ، (و الكاظمين الغيظ) حيث ملكوا أنفسهم وأحوالهم ، (و العافين عن الناس) لأن الصوفي ماله مباح ودمه هدر. وكان بعض الصوفية يقول : إذا أردت أن تعرف حال الفقير فأغضبه ، وانظر إلى ما يخرج منه. وقال شيخ شيوخنا رضي اللّه عنه : قطب التصوف : لا تغضب ولا تغضب. هـ.
ولعروة بن الزبير - رضي اللّه عنه :
لن يبلغ المجد أقوام وإن كرموا حتى يذلّوا وإن عزّوا لأقوام
ويشتموا فترى الألوان مشرقة ، لا عفو ذلّ ، ولكن عفو أحلام
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ الذين حازوا مقام الإحسان ، فعبدوا اللّه بالشهود والعيان ، فعم إحسانهم ذا الإساءة والإحسان والإنس والجان. قال الحسن البصري : (الإحسان : أن يعم إحسانه ، ولا يكون كالشمس والريح والمطر).
أي : يخص بلدا دون بلد. وقال سفيان الثوري : (ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ، وإنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك. فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة كنقد السوق ، خذ منى وهات). وقال السرى السقطي :
(الإحسان : أن تحسن وقت الإمكان ، فليس فى كل وقت يمكنك الإحسان) ، وأنشدوا :
ليس فى كلّ ساعة وأوان تتهيّأ صنائع الإحسان
فإذا أمكنت فبادر إليها حذرا من تعذّر الإمكان «١»
وقال الورتجبي : قوله : وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ... إلخ ، علم الحق - سبحانه - علل الخلق وميلهم إلى منى النفوس ، فدعاهم بطاعته إلى العلتين : المغفرة والجنة ، ودعا الخاصة إلى نفسه ، فقال : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ، ثم أعلم أن الكل فى درك امتحان الجرم ، وأثبت بالآية ذنب الكل ، لأنهم وإن كانوا معصومين من الزلل ،

---

(١) الأبيات لأبى العباس الجمانى ، كما ذكر القرطبي فى تفسيره. [.....]

فذنبهم قلة معرفتهم لأقدار الحق ، كما قال عليه الصلاة والسلام : «لو أن اللّه عذب الملائكة لحق منه ، فقيل : إنهم معصومون ، فقال عليه الصلاة والسلام : من قلة معرفتهم بربهم» «١». ولذلك دعاهم إلى المغفرة. هـ. قال فى الحاشية : وقوله : (أثبت بالآية ذنب الكل) ، يعنى : شمول قوله : (يغفر لمن يشاء) من فى السموات الصادق بالملائكة ، وإنما تكون المغفرة بعد ذنب ، ولكنه فى كل أحد على حسبه ، وأما قوله : دعاهم إلى المغفرة ، فكأنه من قوله : سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وأن الخطاب يعم من فى السموات أيضا ، وقد يتصور فى حق الملائكة الاستناد لظواهر الأمور والاختلاف بينهم والاختصام ، مما هو معرض للخطأ ، وذلك من دواعى المغفرة ، وكذلك القصور عن معرفة كنه جلال اللّه : نقص لا يخلو منه مخلوق ، لاستحالة الإحاطة به علما ، ولذلك كان الترقي فى المعرفة لا حد له أبدا سرمدا. هـ.

ثم ذكر حال أهل اليمين ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٣٥ الى ١٣٦]

وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (١٣٦)

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أي : فعلة بالغة فى الفحش والقبح ، كالزنى ، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بأى ذنب كان ، أو فعلوا كبيرة أو صغيرة ، أو الفاحشة : ما يتعدى للغير ، وظلم النفس ما يخص ، أو الفاحشة بالفعل ، وظلم النفس بالقول ، ذَكَرُوا اللَّهَ أي : عقابه وغضبه وعرضه الأكبر ، أو ذَكَرُوا اللَّهَ فى أنفسهم أن اللّه سائلهم عنه ، أو كونه رقيبا عليهم ، أو ذَكَرُوا اللَّهَ باللسان فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ بالندم والتوبة ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ أي : لا أحد يغفره إلا اللّه ، والمراد : وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة ، والحث على الاستغفار.

وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا أي : لم يدوموا عليها غير مستغفرين ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «ما أصرّ من استغفر ، ولو عاد فى اليوم سبعين مرّة» ، وذلك إذا صحبة الندم ، وقال أيضا : «لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع

---

(١) لم أقف عليه. وذكر المتقى الهندي فى الكنز حديث : (لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا لهم من أعمالهم ..» وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن حبان. انظر : (الكنز ١/ ١٣٠ ح ٦١٣).

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤١٠

الإصرار». قال قتادة : إياكم والإصرار ، فإنما هلك المصرون الماضون قدما فى معاصى اللّه تعالى ، لم يتوبوا حتى أتاهم الموت. هـ. وَهُمْ يَعْلَمُونَ أن الإصرار يضر بهم ، أو : وهم يعلمون أن لهم ربا يغفر الذنب لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «من أذنب ذنبا ، وعلم أنّ له ربا يغفر الذنوب ، غفر له وإن لم يستغفر». وفى الحديث القدسي يقول اللّه تعالى : «من علم أنى ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالي». وفى بعض الكتب المنزلة :

«يا ابن آدم ، إنّك ما دعوتنى ورجوتنى لأغفرن لك على ما كان منك ولا أبالى». أو : (و هم يعلمون) أن التوبة تمحق الذنوب.

أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ تغطية لذنوبهم ، وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ، ولا يلزم من إعدادها للتائبين اختصاصهم بها ، كما لا يلزم من إعداد النار للكفار اختصاصهم بها ، ثم مدح أجر التائبين فقال : وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ ، وانظر هذا الفرق العظيم الذي بين المحسنين وأهل اليمين ، قال فى الآية الأولى : وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وقال فى هذه الآية : وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ ، أهل الآية الأولى من خواص الأحباب ، وأهل هذه يأخذون أجرهم من وراء الباب. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى عين التحقيق.

الإشارة : أهل مقام الإحسان عملهم قلبى ، كالسخاء والعفو وكظم الغيظ ، وأهل اليمين عملهم بدني ، بين طاعة ومعصية وغفلة ويقظة ، إذا فعلوا فاحشة تابوا واستغفروا ، وإذا فعلوا طاعة فرحوا واستبشروا ، أهل مقام الإحسان غائبون عن رؤية أعمالهم ووجودهم ، وأهل اليمين معتمدون على أعمالهم ، إذا فعلوا طاعة قوى رجاؤهم ، وإذا زلّوا نقص رجاؤهم ، أهل مقام الإحسان فانون عن أنفسهم باقون بربهم ، وأهل اليمين أنفسهم موجودة وأعمالهم لديهم مشهودة ، أهل مقام الإحسان محبوبون ، وأهل اليمين محبّون ، أهل مقام الإحسان فنيت عندهم الرسوم والأشكال ، وبقي فى نظرهم وجود الكبير المتعال ، وأهل اليمين : الأكوان عندهم موجودة ، وشموس المعارف عن قلوبهم مفقودة ، أهل مقام الإحسان يعبدون اللّه على نعت الشهود والعيان ، وأهل اليمين يعبدون اللّه من وراء حجاب الدليل والبرهان ، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان.

واعلم أن لمعرفة الشهود والعيان ثمرات ونتائج ، حصرها بعضهم فى إحدى عشرة خصلة :

الأولى : الحرية ، ومعناها أن يكون العارف فردا لفرد ، من غير أن يكون تحت رق شيء من الموجودات ، لا من أغراض الدنيا ولا من أغراض الآخرة ، فالحرية عبارة عن غاية التصفية والطهارة.

قال بعضهم : ليس بحرّ من بقي عليه من تصفية نفسه مقدار فص نواة ، المكاتب عبد ما بقي عليه

درهم.
الثانية : الوجود ، وهو الفوز بحقيقة الأشياء فى الأصل ، وهو عبارة عن إدراك مقام تضمحل فيه الرسوم ، بالاستغراق فى الحقيقة الأزلية.

الثالثة : الجمع الأتم ، وهو الحال الذي يقضى بقطع الإشارات ، والشخوص عن الأمارات والعلامات ، بعد صحة التمكين والبراءة من التلوين.
الرابعة : الصحو ، وهو عبارة عن تمكين حال المشاهدة ، واتصالها ، مع برء الروح من لدغات الدّهش ، ولا يكمل الصحو إلا بحياة الروح بوارد الجمع الدائم.
الخامسة : التحقيق ، وهو الوصول إلى المعرفة باللّه ، التي لا تدرك بالحواس ، لتخليص المشرب من الحق بالحق فى الحق ، حتى تسقط المشاهدات ، وتبطل العبارات ، وتفنى الإشارات.
السادسة : البسط ، ونعنى به : بسط الروح باسترسال شهود المعاني عند سقوط الأوانى ، وفى ذلك يقول ابن الفارض :
فما سكنت والهمّ يوما بموضع كذلك لم يسكن مع النغم الغمّ
السابعة : التلبيس ، وهو تغطية الأسرار بأستار الأسباب ، إبقاء للحكمة وسترا عن العامة.
الثامنة : البقاء ، والمراد به الخروج عن فناء المشاهدة إلى بقاء المعرفة ، من غير أفول يخل بشمس المشاهدة ، ولا رجوع إلى شواهد الحس ، إنما هو استصحاب الجمع مع استئناس الروح بحلاوة المعاني ، فهو كبائن دان. انظر بقيتها فى [بغية السالك]. وباللّه التوفيق.
ثم قوّى قلوب أهل أحد لمّا انكسرت بالهزيمة ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٣٧ الى ١٣٩]
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)
قلت : السّنن : الطرق المسلوكة ، وقيل : الأمم.
يقول الحق جل جلاله : قد مضت مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ جرت على الأمم المكذبة لأنبيائها قبلكم ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وهو إمهالى واستدراجى إياهم ، حتى يبلغ الكتاب الذي أجل لهم ، فإذا بلغهم أهلكتهم ، وأدلت الأنبياء وأتباعهم عليهم ، فإذا هلكوا بقيت آثارهم دارسة ، اعتبارا لمن يأتى بعدهم ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ وتعرفوا أخبارهم ، وانظروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ لأنبيائهم قبلكم ، فكذلك يكون

شأنكم مع من كذّبكم.
هذا الذي أمرتكم به من الاعتبار ، بَيانٌ لِلنَّاسِ لمن أراد أن يعتبر من الكفار ، وزيادة هداية واستبصار لِلْمُتَّقِينَ.

ثم سلّاهم وبشرهم فقال : وَلا تَهِنُوا أي : لا تضعفوا عن قتال عدوكم بما أصابكم ، وَلا تَحْزَنُوا على من قتل منكم ، وهم سبعون من الأنصار وخمسة من المهاجرين ، منهم : حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير - صاحب راية النبي صلّى اللّه عليه وسلم وعبد اللّه بن جحش ، وعثمان بن شماس ، وسعد مولى عتبة - رضى اللّه عنهم - .
أو : (لا تحزنوا) لفوات الغنيمة وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ بأن تكون لكم العاقبة والنصر ، أو : وحالكم أنكم أعلى منهم شأنا ، فإنكم على الحق وقتالكم للّه ، وقتلاكم فى الجنة ، وهم على الباطل ، وقتالهم للشيطان ، وقتلاهم فى النار ، فلا تفشلوا عن الجهاد إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان يقتضى قوة القلب بالوثوق باللّه والاعتماد عليه ، أو : (إن كنتم مؤمنين) بما وعدتكم من العلو والنصر. واللّه أعلم.
الإشارة : قد خلت من قبلكم ، أيها المريدون ، سنن اللّه فى أوليائه مع المنكرين عليهم من عوام عباده ، فإنه أبعدهم عن ساحة حضرته ، وحرمهم من سابق عنايته ، حتى ماتوا على البعد ، فاندرست آثارهم وخربت ديارهم ، فسيروا فى الأرض وانظروا كيف كان عاقبة المكذبين لأوليائه ، هذا بيان للمعتبرين ، وزيادة هدى وموعظة للمتقين ، فلا تهنوا أيها الفقراء وتضعفوا عن طلب الحق بالرجوع عن طريق الجد والاجتهاد ، لما يصيبكم من أذى أهل العناد ، وأنتم الأعلون بالنصر والتأييد ، ورفع درجاتكم مع خواص أهل التوحيد ، إن كنتم مؤمنين بوعد الملك المجيد ، فمن طلب اللّه وجده ، وأنجز بالوفاء موعده ، لكن بعد تجرع كؤوس مرارة الصبر ، ودوام الحمد والشكر ، وأنشدوا :
لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتّى تلعق الصّبر «١»
ثم سلاهم بمشاركة المكذبين فيما أصابهم ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٤٠ الى ١٤٣]
إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)

قلت : القرح – بالفتح والضم – : الجرح ، وقيل : بالفتح : الجرح ، وبالضم : ألمه ووجعه. والمداولة : المفاعلة من الدولة ، وهى الغلبة ، و(الأيام) : نعت أو خبر ، و(نداولها) : خبر أو حال ، و(ليعلم) : متعلق بمحذوف ، أي : وفعل

---

(١) البيت للمتنبى.

ما فعل من الإدالة ليعلم ، أو عطف على علة محذوفة ، أي : نداولها ليكون كيت وكيت ، وليعلم ... إلخ ، إيذانا بأن العلة فيه غير واحدة ، وأن ما يصيب المؤمن : فيه من المصالح ما لا يعلم ، و(يعلم الصابرين) : منصوب بأن ، على أنّ الواو للجمع.

يقول الحق جل جلاله : إِنْ يَمْسَسْكُمْ فى غزوة أحد قَرْحٌ كقتل أو جرح ، فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ من أعدائكم يوم بدر قَرْحٌ مِثْلُهُ ، فإن كان قتل منكم خمسة وسبعون يوم أحد ، فقد قتل منهم يوم بدر سبعون وأسر سبعون. أو : فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ يوم أحد قَرْحٌ مثل ما أصابكم ، فإنكم نلتم منهم وهزمتموهم ، قبل أن تخالفوا أمر الرسول – عليه الصلاة والسلام – ، كما نالوا منكم يومئذ. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ أي : نصرف دولتها بينهم ، فنديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى ، كما قال الشاعر :

فيوم علينا ، ويوم لنا ، ويوم نساء ، ويوم نسر «١»

فقد أديل المسلمون على المشركين يوم بدر ، فكانت الدولة لهم ، وأديل المشركون يوم أحد. والمراد بالأيام : أيام الدنيا ، أو أيام النصر والغلبة. وإنما أديل للمشركين يوم أحد ليتميز المؤمنون من المنافقين ، ويظهر علمهم للناس ، وليتخذ اللّه مِنْكُمْ شُهَداءَ حين ماتوا فى الجهاد ، أكرمهم اللّه بالشهادة ، ولا تدل إدالة المشركين على أن اللّه يحبهم ، فإن اللّه لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وإنما أدالهم لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا أي : ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب ، وإنما أدال المسلمين على المشركين ليمحق الكافرين ويقطع دابرهم. والمحق : نقص الشيء قليلا قليلا.

ثم عاتب المسلمين فقال : أَمْ حَسِبْتُمْ أي : ظننتم أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ علم ظهوره ، وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ أي : لا تظنوا أن تدخلوا الجنة كما دخلها من قتل منكم ، ولم يقع منكم مثل ما وقع لهم من الجهاد والصبر على القتل والجرح حتى يقع العلم ظاهرا بجهادكم وصبركم.

وَلَقَدْ كُنْتُمْ قبل خروجكم إلى الجهاد تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ أي : الحرب لأنه سبب الموت ، وتقولون : ليت لنا يوما مثل يوم بدر ، فلقد لقيتموه وعاينتموه يوم أحد وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ من مات من إخوانكم ، فما لكم

حين رأيتموه جبنتم وانهزمتم؟ وهو عتاب لمن طلب الخروج يوم أحد ، ثم انهزم عن الحرب ، ثم تداركهم بالتوبة والعفو ، على ما يأتى إن شاء اللّه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إن يمسسكم يا معشر الفقراء قرح كحبس أو ضرب أو سجن أو حرج أو جلاء ، فقد مس العموم مثل ذلك ، غير أنكم تسيرون به إلى اللّه تعالى لمعرفتكم فيه ، وهم لا سير لهم لعدم معرفتهم ، أو إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم المتقدمين من أهل الخصوصية مثل ما أصابكم ، ففيهم أسوة لكم ، وهذه عادة اللّه فى أوليائه ، يديل عليهم حتى يتطهروا ويتخلصوا ، ثم يديل لهم ، وإنما أديل عليهم أولا ليتطهروا من البقايا وتكمل فيهم المزايا ، وليعلم

---

(١) البيت للنمر بن كولب ، كما ورد فى الكتاب لسيبويه ١/ ٨٦.

الصادق فى الطلب من الكاذب ، فإنّ محبة اللّه مقرونة بالبلاء ، وليتخذ منهم شهداء إن ماتوا على ذلك ، كالحلاج وغيره ، أو يتخذ منهم شهداء الملكوت إن صبروا حتى ظفروا بالشهود. (و اللّه لا يحب الظالمين) أي : المؤذين لأوليائه ، بل يمقتهم ويبعدهم.

(و ليمحص اللّه الذين آمنوا) بطريق الخصوص ، أي : يخلصهم من بقايا الحس ، سلط عليهم الناس ، وليمحق المنكرين عليهم بما يصيبهم من إيذايتهم ، فإن المنكر على أهل النسبة كمن يدخل يده فى الغيران «١» ، فإذا سلم من الأول والثاني ، قال : لا يلحقنى منهم شيء ، فإذا أدخل يده فى غار آخر لدغته حية فأهلكته.

أم حسبتم يا معشر المريدين أن تدخلوا جنة المعارف ، ولما يعلم اللّه الذين جاهدوا نفوسهم ، ويعلم الصابرين على إيذاية من آذاهم ، ولقد كنتم تمنون موت نفوسكم وتطلبون ما يعينكم على موتها من قبل أن تلقوا الجلال ، فقد رأيتموه وعاينتموه وأنتم تنظرون ما أصاب الأولياء غيركم ، فما لكم تجزعون منه وتفرون من مواطنه؟. وكان شيخ شيوخنا رضي اللّه عنه يقول : العجب كل العجب ، ممن يطلب معرفة اللّه ، فإذا تعرف إليه أنكره.

وفى الحكم : «إذا فتح اللّه لك وجهة من التعرف فلا تبال معها ، وإن قلّ عملك ، فإنه ما فتحها إلا وهو يريد أن يتعرف إليك فيها ، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك ، والأعمال أنت مهديها إليه ، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك؟». وباللّه التوفيق.

ثم وبّخهم على ما وقع لهم من الفشل ، حين سمعوا بموت النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٤٤ الى ١٤٥]
وَما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)
قلت : (كتابا) : مصدر ، أي : كتب الموت كتابا مؤجلا.
يقول الحق جل جلاله : وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ يصيبه ما أصابهم ، قَدْ مضت مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، فسيمضى كما مضوا بالموت أو القتل ، أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ بعد تقرر شريعته

(١) الغيران : جمع غار ، ويجمع أيضا على أغوار.

وظهور براهينه ، عاتبهم على تقدير أن لو صار منهم انقلاب لو مات صلّى اللّه عليه وسلم أو قتل ، أو على ما صدر من بعض المنافقين وهم ساكتون.
قال أصحاب المغازي : خرج النبي صلّى اللّه عليه وسلم حتى نزل بالشعب من أحد ، فى سبعمائة رجل ، وأمّر عبد اللّه بن جبير على الرماة ، وهم خمسون رجلا ، وقال : انضحوا عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، لا تبرحوا مكانكم كانت لنا أو علينا ، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتّم مكانكم ، فجاءت قريش ، وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتهم عكرمة ، ومعهم النساء. ثم انتشب القتال فقال عليه الصلاة والسلام : «من يأخذ هذا السيف بحقه»؟ فجاء رجال فمنعهم ، حتى جاء أبو دجانة ، فقال : وما حقه يا رسول اللّه؟ قال : «تضرب به العدو حتى ينحنى» ، وكان رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، فأخذه واعتم بعمامة حمراء ، وجعل يتبختر بين الصفين ، فقال عليه الصلاة والسلام : «إنها لمشية يبغضها اللّه إلّا فى هذا الموضع».
ثم حمل النبي صلّى اللّه عليه وسلم وأصحابه على المشركين فهزموهم ، قال الزبير : (فرأيت هندا وصواحبها هاربات مصعدات فى الجبل) ، فلما نظر الرماة إلى القوم قد انكشفوا ، قالوا : الغنيمة الغنيمة فقال لهم بعضهم : لا تتركوا أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلم فلم يلتفتوا ، وانطلق عامتهم ، فلما رأى خالد قلة الرماة ، صاح فى خيله من المشركين ، ثم حمل على أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلم من خلفهم ، وقتل عبد اللّه بن جبير ، واختلط الناس ، فقتل بعضهم بعضا ، ورمى عبد اللّه بن قمئة الحارثي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بحجر ، فكسر أنفه ورباعيته ، وشجّه فى وجهه ، وكسر

البيضة «١» على رأسه ، فذبّ عنه مصعب بن عمير ، وكان صاحب الراية ، فقتله ابن قمئة وهو يرى أنه قتل النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فرجع إلى قومه ، وقال : قد قتلت محمدا ، وصرخ صارخ : ألا إنّ محمدا قد مات. وقيل : إنه الشيطان ، فانكفأ الناس ، وجعل الرسول - عليه الصلاة والسلام - يدعو : «إليّ عباد اللّه» ، فانحاز إليه ثلاثون من الصحابة ، وضموه حتى كشفوا عنه المشركين ، وأصيبت يد طلحة بن عبيد اللّه فيبست ، حين وقى بها النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان ، حتى وقعت على وجنتيه ، فردها النبي صلّى اللّه عليه وسلم مكانها ، فعادت أحسن مما كانت.

وفشا فى الناس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم مات - فقال بعض المسلمين : ليت ابن أبى يأخذ لنا أمانا من أبى سفيان.

وقال بعض المنافقين : لو كان نبيا ما قتل ، ارجعوا إلى دينكم الأول. فقال أنس بن النضر - عمّ أنس بن مالك : (إن كان قد قتل محمد فإنّ رب محمد لا يموت ، وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه ، حتى تموتوا على ما مات عليه). ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المسلمين - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى الكفار - ، ثم شدّ سيفه وقاتل حتى قتل ، رحمة اللّه عليه.

---

(١) البيضة : الخوذة.

فأنزل فيما قال المنافقون : وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ بارتداده فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وإنما يضر نفسه ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ على نعمة الإسلام بالثبات عليه ، كأنس وأضرابه ، وَما كانَ ينبغى لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أي : بإرادته ومشيئته ، أو بإذنه لملك فى قبض روحه ، والمعنى : أنّ لكل نفس أجلا مسمى فى علمه تعالى وقضائه ، لا تستأخر عنه ساعة ولا تستقدم ، بالتأخر عن القتال ولا بالإقدام عليه ، وفيه تشجيعهم على القتال ووعد للرسول بحفظه وتأخر أجله فإن اللّه تعالى كتب أجل الموت كِتاباً مُؤَجَّلًا مؤقتا لا يتقدم ولا يتأخر.

ونزل فى الرماة الذين خالفوا المركز للغنيمة : وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها الجزاء الجليل ، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ الذين شكروا نعم اللّه ، فلم يشغلهم شيء عن الجهاد فى سبيل اللّه ، بل كان همهم رضى اللّه ورسوله دون شيء سواه.

الإشارة : ينبغي للمريد أن يستغني باللّه ، فلا يركن إلى شيء سواه ، وتكون بصيرته نافذة حتى يغيب عن الواسطة بشهود الموسوط ، فإن مات شيخه لم ينقلب على عقبيه ، فإن تمكن من الشهود فقد استغنى عن كل موجود ، وإن لم يتمكن نظر من يكمله ، فالوقوف مع الوسائط وقوف مع النعم دون شهود المنعم ، فلا يكون شاكرا للمنعم حتى لا يحجبه عنه شيء ، ولما مات - عليه الصلاة والسلام - دهشت الناس ، وتحيرت لوقوفهم مع شهود النعمة ، إلّا الصدّيق كان نفذ من شهود النعمة إلى شهود المنعم ، فخطب حينئذ على الناس ، وقال : (من كان يعبد محمّدا فإن محمّدا قد مات ، ومن كان يعبد اللّه فإنّ اللّه حي لا يموت). ثم قرأ : وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ... إلى قوله : وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ، وهم الذين نفذوا إلى شهود المنعم ، ولم يقفوا مع النعمة.

ودخل بعض العارفين على بعض الفقراء فوجده يبكى ، فقال له : ما يبكيك؟ قال : مات أستاذى ، فقال له العارف : ولم جعلت أستاذك يموت؟ وهلا جعلته حيا لا يموت. فنبهه على نفاذ بصيرته إلى شهود المنعم دون الوقوف مع النعمة ، فالشيخ الحقيقي هو الذي يغنى صاحبه عنه وعن غيره ، بالدلالة على ربه.

ثم صبّرهم بما وقع لغيرهم قبلهم فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٤٦ الى ١٤٨]

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَما كانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (١٤٧) فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

قلت : (كأيّن) : أصله : أي ، دخلت الكاف عليها وصارت بمعنى (كم) ، وأثبت التنوين نونا على غير قياس ، وقرأ ابن كثير : (و كائن) ، على وزن فاعل ، ووجهه : أنه قلب الياء قبل الهمزة فصار : كياء ، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فصار كائن ، وهما لغتان ، وقد جمع الشاعر بينهما في بيت ، فقال :

كأيّن أبدنا من عدوّ بعزّنا وكائن أجرنا من ضعيف وخائف

و(الربّيون) : جمع ربّة ، أي : الفرقة. أي : معه جموع كثيرة ، وقيل : العلماء الأتقياء ، وقيل : الولاة ، وهو : إما مبتدأ فيوقف على (قتل) ، أو نائب فاعل (قتل) ، أو فاعل على من قرأ بالبناء له ، و(كثير) : نعت له ، كقوله :

وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ لأن فعيلا يخبر به عن المفرد والجمع.
يقول الحق جل جلاله : وَكَأَيِّنْ وكم مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ فى المعركة ومعه جموع كثيرة ، أو ربانيون علماء أتقياء ، فلم يفشلوا ولم يضعفوا ، بل ثبتوا على دينهم وجهاد عدوهم ، أو يقول : كثير من الأنبياء قتل معهم ربانيون كثير ، أي : ماتوا فى الحرب فثبت الباقون ، ولم يفتروا ولم يضعفوا عن عدوهم ، ويترجح الأول بما صرخ به الصارخ يوم أحد : إن محمدا قد مات ، فضرب لهم المثل بقوله : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ ، ويترجح الثاني بأنه لم يقتل نبى قط فى المحاربة.
أو : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ أي : جاهد معه رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ، وبعد ما قتل نبيهم أو جموعهم فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي : فما فتروا ، ولم ينكسر جندهم لأجل ما أصابهم من قتل نبيهم أو بعضهم ، وَما ضَعُفُوا عن جهاد عدوهم ولا عن دينهم ، وَمَا اسْتَكانُوا أي : خضعوا لعدوهم ، من السكون لأن الخاضع يسكن لعدوه يفعل به ما يريد ، فالألف إشباع زائد ، أي : فما سكنوا لعدوهم بل صبروا له ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ فينصرهم ويعزهم ويعظم قدرهم.
وَما كانَ قَوْلَهُمْ عند قتل نبيهم مع ثباتهم على دينه ، إِلَّا أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا الصغائر ، وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا أي : ما تجاوزنا به الحد فى أمر ذنوبنا ، كالكبائر ، وَثَبِّتْ أَقْدامَنا فى مداحض الحرب لئلا ننهزم ، وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ من أعدائنا ، فهّلا فعلتم مثلهم ، وقلتم ذلك يا أصحاب محمد صلّى اللّه عليه وسلم.
فَآتاهُمُ اللَّهُ فى ثواب الاستغفار واللجوء إلى اللّه ثَوابَ الدُّنْيا وهو النصر والغنيمة والعز وحسن الذكر ، وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وهو النعيم الذي لا يفنى ولا يبيد ، وخص ثواب الآخرة بالحسن إشعارا بفضله ، وأنه المعتد به عنده ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ الثابتين على دينهم ، لأنهم أحسنوا فيما بينهم وبين ربهم بحفظ دينه ، فأحبهم اللّه وقربهم إلى حضرته.

الإشارة : وكم من المريدين والأتباع مات شيخهم أو قتل ، فثبتوا على طريقهم ، فما فشلوا ولا ضعفوا ، ولا خضعوا لمن يقطعهم عن ربهم ، بل صبروا على السير إلى ربهم ، أو الترقي فى المقامات ، ومن لم يرشد منهم طلب من يكمل له ، (و اللّه يحب الصابرين) ، فإذا أحبهم كان سمعهم وبصرهم ، كما فى الحديث. وما كان حالهم عند موت شيخهم إلا الالتجاء إلى ربهم ، والاستغفار مما بقي من مساوئهم ، وطلب الثبات فى مواطن حرب أنفسهم ، فأعطاهم اللّه عز الدنيا والآخرة ، عز الدنيا بالإيمان والمعرفة ، وعز الآخرة بدوام المشاهدة ، فكانوا أحباب اللّه (و اللّه يحب المحسنين).

ثم حذّرهم اللّه تعالى من الركون إلى عدوهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٤٩ الى ١٥٠]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا وهم المنافقون ، لما قالوا للمسلمين عند الهزيمة : ارجعوا إلى دينكم الأول ، ولو كان نبيا ما قتل ، يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ راجعين عن إيمانكم ، فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ مفتونين عن دينكم ، فتحبط أعمالكم فتخسروا الدنيا والآخرة ، بل اثبتوا على إيمانكم ، فإن اللّه مَوْلاكُمْ سينصركم ويعزكم ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ، وقيل : إن تسكنوا إلى أبى سفيان وأشياعه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم. وقيل : عام فى مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم فإنه يجر إلى موافقتهم على دينهم ، لا سيما إن طالت مدة الاستئمان.

قلت : وهذا هو السبب فى ارتداد من بقي من المسلمين بالأندلس حتى رجعوا نصارى ، هم وأولادهم ، والعياذ باللّه من سوء القضاء.

الإشارة : يا أيها المريدون - وخصوصا المتجردين - إن تطيعوا العامة ، وتركنوا إليهم ، يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين بطلب الدنيا وتعاطى أسبابها ، فتزلّ قدم بعد ثبوتها ، وتنحط من الهمة العالية إلى الهمة السفلى ، فإن الطباع تسرق ، والمرء على دين خليله ، بل اثبتوا على التجريد وتحقيق التوحيد ، فإن اللّه مولاكم (و هو خير الناصرين) فينصركم ويعزكم ويغنيكم بلا سبب ، كما وعدكم وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ.

ولّما انصرف أبو سفيان من أحد ، قال : بئس ما صنعنا! قتلنا القوم ولم يبق إلا اليسير ، ارجعوا حتى نستأصلهم ، فألقى اللّه فى قلبه الرعب ، كما قال :

(٤١٨/١)

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥١]

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)

قلت : (الرعب) : الخوف ، وفيه الضم والسكون ، وهكذا كل ثلاثى ساكن الوسط ، كالقدس والعسر واليسر ، وشبه ذلك ، و(بما أشركوا) : مصدرية.

يقول الحق جل جلاله : سنقذف فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا كأبى سفيان وأصحابه ، الرُّعْبَ والخوف ، حتى

يرجعوا عنكم بلا سبب ، بسبب شركهم باللّه ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً ولا حجة على استحقاق العبادة ، وَمَأْواهُمُ النَّارُ أي : هى مقامهم ، وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ أي : قبح مقامهم. ووضع الظاهر موضع المضمر للتغليظ فى العلة.

الإشارة : فيها تسلية للفقراء ، فإنّ كل من هم بإذايتهم ألقى اللّه فى قلبه الرعب ، حتى لا يقدر أن يتوصل إليهم بشيء مما أمّل فيهم ، وقد رأيتهم هموا بقتلهم وضربهم وحبسهم ، وسعوا فى ذلك جهدهم ، وعملوا فى ذلك بينات على زعمهم ، توجب قتلهم ، فكفاهم اللّه أمرهم ، وألقى الرعب فى قلوبهم ، فانقلبوا خائبين وماتوا ظالمين ، واللّه ولى المتقين.

ثم ذكّرهم اللّه تعالى ما وعدهم من النصر ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥٢]

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)

قلت : حسّه : إذا قتله وأبطل حسه ، وجواب (إذا) : محذوف ، أي : حتى إذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم امتحناكم بالهزيمة ، والواو لا ترتب ، والتقدير : حتى إذا تنازعتم وعصيتم وفشلتم سلبنا النصر عنكم.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ ما وعدكم من النصر لو صبرتم واتقيتم ، وذلك حين كنتم تَحُسُّونَهُمْ بالسيف ، وتقتلونهم حتى انهزموا هاربين ، بإذنه تعالى وإرادته ، حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ أي : جبنتم

(٤١٩/١)

وضعف رأيكم وملتم إلى الغنيمة ، وَتَنازَعْتُمْ فى الثبات مع الرماة حين انهزم المشركون ، فقلتم : الغنيمة الغنيمة ، فما وقوفكم هنا! وقال آخرون : لا تخالفوا أمر الرسول ، ثم تركتم المركز ، وَعَصَيْتُمْ الرسول مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ من النصر والغنيمة ، امتحناكم حينئذ بالهزيمة.

فمنكم مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا ليصرفها فى الآخرة ، وهم الذين خالفوا المركز وذهبوا للغنيمة ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ صرفا ، وهم الثابتون مع عبد اللّه بن جبير ، محافظة على أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ حين خالفتم أمر الرسول ، لِيَبْتَلِيَكُمْ أي : ليختبركم ، فيتبين الصابر من الجازع ، والمخلص من المنافق ، وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة ، لاستحقاقكم ذلك ، أو تجاوز عن ذنبكم وتفضل بالتوبة والمغفرة ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عظيم عَلَى الْمُؤْمِنِينَ يتفضل عليهم

بالمغفرة فى الأحوال كلها ، سواء أديل عليهم أو لهم ، فإن الابتلاء أيضا رحمة وتطهير. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : يقول للفقراء الذين استشرفوا على بلاد الخصوصية ، ثم فشلوا ورجعوا إلى بلاد العمومية : ولقد صدقكم اللّه وعده فى إدراك الخصوصية لو صبرتم ، فإنكم حين كنتم تجاهدون نفوسكم وتحسونها بسيوف المخالفة ، لمعت لكم أنوار المشاهدة ، حتى إذا فشلتم وتفرقت قلوبكم ، وعصيتم شيوخكم قلّت أمدادكم ، وأظلمت قلوبكم ، من بعد ما رأيتم ما تحبون من مبادئ المشاهدة ، فملتم إلى الدنيا الفانية ، فمنكم يا معشر المنتسبين من يريد الدنيا ، فصحب العارفين على حرف ، وهو الذي رجع وفشل ، ومنكم من يريد الآخرة وقطع يأسه من الرجوع إلى الدنيا ، وهو الذي ثبت حتى ظفر ، ثم صرفكم عن صحبة العارفين ، يا من أراد الدنيا من المنتسبين ، ليبتليكم ، هل صحبتموهم للّه أو لغيره ، ولقد عفا عنكم وجعلكم من عوام المسلمين ، ولم يسلب عنكم الإيمان عقوبة لترك صحبة العارفين. أو لقد عفا عنكم إن رجعتم إلى صحبتهم والأدب معهم ، فإن اللّه (ذو فضل على المؤمنين) حيث لم يعاجلهم بالعقوبة. وباللّه التوفيق.
وقال الورتجبي : قوله : مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا ، أي : منكم من وقع فى بحر غنى القدم ، واتصف به بنعت التمكين ورؤية النعم فى شكر المنعم ، كسليمان عليه السّلام. ومنكم من وقع فى بحر التنزيه وتقديس الأزلية ، فغلب عليه القدس والطهارة ، فخرج بنعت الفقر تجريدا لتوحيده وإفراد قدمه من الحدث ، كمحمد صلّى اللّه عليه وسلم حيث قال : «الفقر فخرى» «١».

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : لا أصل له. انظر : الأسرار المرفوعة.

ثم بيّن وقت الذلة التي افتقرت إلى العفو ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥٣]
إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا ما أَصابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٥٣)
قلت : (إذ) : ظرف لعفا ، أو اذكر. وأصعد : أبعد فى الأرض ، وصعد : فى الجبل ، فالإصعاد : الذهاب فى الأرض المستوية ، والصعود : الارتقاء فى العلو. وقرئ بهما معا لأنهما وقعا معا ، فمنهم من فر ذاهبا فى الأرض ، ومنهم من صعد إلى الجبل. و(لكيلا) : متعلق بأثابكم.

يقول الحق جل جلاله : ولقد عفا عنكم حين كنتم تُصْعِدُونَ عن نبيه – عليه الصلاة والسلام – ، منهزمين عنه ، تبعدون عنه ، وَلا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ أي : لا يلتفت بعضكم إلى بعض ، ولا ينتظر بعضكم بعضا ، وَالرَّسُولُ محمد صلّى اللّه عليه وسلم يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ أي : فى ساقتكم ، يقول : «إلىّ عباد اللّه ، أنا رسول اللّه ، من يكرّ فله الجنة» ، وفيه مدح للرسول صلّى اللّه عليه وسلم بالشجاعة والثبات ، حيث وقف فى آخر المنهزمين ، فإن الآخر هو موقف الأبطال ، والفرار فى حقه صلّى اللّه عليه وسلم محال.

فَأَثابَكُمْ أي : فجازاكم على ذلك الفرار ، غَمًّا وهو ظهور المشركين عليكم وقتل إخوانكم ، بسبب غم أوصلتموه للنبى صلّى اللّه عليه وسلم بعصيانه والفرار عنه ، وقدّر ذلك لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ من الغنيمة ، وَلا على ما أَصابَكُمْ من الجرح والهزيمة ، لأن من استحق العقوبة والأدب لا يحزن على ما فاته ولا على ما أصابه إذ جريمته تستحق أكثر من ذلك ، يرى ما نزل به بعض ما يستحقه ، فيهون عليه أمر ما نزل به أو ما فاته من الخير.

أو يقول : فَأَثابَكُمْ غَمًّا متصلا بِغَمٍّ فالغم الأول : ما فاتهم من الظفر والغنيمة ، والثاني : ما نالهم من القتل والهزيمة ، أو الأول : ما أصابهم من القتل والجراح ، والثاني : ما سمعوا من الإرجاف بقتل النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وذلك ليتمرنوا على المحن والشدائد حتى لا يجزعوا من شيء. وبذلك وصفهم كعب بن زهير فى لاميته ، حيث قال :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

فإن المتمرن على المصائب المتعود عليها يهون عليه أمرها ، فلا يحزن على ما أصابه ولا ما فاته ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ وبما قصدتم ، فيجازيكم على ذلك.

الإشارة : ما زال الدعاة إلى اللّه من أهل التربية النبوية يدعون الناس إلى اللّه ، ويعرفونهم بالطريق إلى اللّه ، يبينون لهم الطريق إلى عين التحقيق ، والناس يبعدون عنهم ويفرون منهم ، وهم فى أخراهم يقولون بلسان الحال أو المقال : يا عباد اللّه ، هلم إلينا نعرفكم باللّه ، وندلكم على اللّه ، فلا يلوى إليهم أحد ولا يلتفت إليهم بشر ، إلا من سبقت له العناية ، وأراد الحق تعالى أن يوصله إلى درجة الولاية ، «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه» ، فأثابهم على الفرار غم الحجاب ، متصلا بغم الأسباب ، فلا يحزنوا على ما فاتهم من المعرفة إذ لم يعرفوا قدرها ، ولا على ما أصابهم من الغفلة والبطالة ، إذ لم يتفطنوا لها ، (و

اللّه خبير بما تعملون) يا معشر العباد ، من التودد أو العناد. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم أنزل على أهل أحد الأمن والطمأنينة بعد الشدة والمحنة ، كما أشار إلى ذلك الحق ، بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥٤]

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)

قلت : (نعاسا) : بدل من (أمنة) ، أو هو المفعول ، و(أمنة) : حال منه ، مقدمة ، أو مفعول له ، أي : أنزل عليكم نعاسا لأجل الأمنة ، أو حال من كاف (عليكم) ، أي : أنزل عليكم حال كونكم آمنين.

والأمنة : مصدر أمن ، كالعظمة والغلبة.

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ أيها المؤمنون مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ الذي أصابكم بموت إخوانكم ، والإرجاف بقتل نبيكم ، الأمن والطمأنينة ، حتى أخذكم النعاس وأنتم فى الحرب. قال أبو طلحة : (غشينا النعاس ونحن فى المصافّ ، حتى كان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ، ثم يسقط فيأخذه). وقال الزبير رضي اللّه عنه : لقد رأيتنى حين اشتدّ الخوف ، ونحن مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، أرسل اللّه - تعالى - علينا النوم ، واللّه إني لأسمع قول معتب ، والنعاس يغشانى ، ما أسمعه إلا كالحلم : (لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا).

ثم إن هذا النعاس إنما يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ وهم المؤمنون ، أو : هذه الأمنة إنما تغشى طائفة منكم ، وأما المنافقون فقد أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، أي : أوقعتهم فى الهموم والغموم ، أو ما يهمهم إلا أنفسهم ، يدبرون خلاصها

(٤٢٢/١)

ونجاتها ، فقد طارت قلوبهم من الخوف ، فلا يتصور فى حقهم النوم ، يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ أي : غير الظن الحق ، لأنهم ظنوا أنه لا ينصر - عليه الصلاة والسلام ، وأن أمره مضمحل ، أو ظنوا أنه قتل ، ظنا كظن الجاهلية ، أهل الشرك ، يَقُولُونَ أي : بعضهم لبعض : هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ أي : عزلنا عن تدبر أنفسنا ، فلم يبق لنا من الأمر من شىء. قاله ابن أبى ، لما بلغه قتل الخزرج.

قُلْ لهم يا محمد : إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ليس بيد غيره شيء من التدبير والاختيار ، حال كون المنافقين يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ من الكفر والنفاق ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا أي : لو كان تدبيرا أو اختيارا ما خرجنا مع محمد حتى نقتل هاهنا ويقتل رؤساؤنا. قُلْ لهم يا محمد : أخرجتكم القدرة فى سلسلة المقادير ، رغما على أنفكم ، فلو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ آمنين لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ ، ووصل أجلهم إِلى مَضاجِعِهِمْ ومصارعهم ، رغما على أنفهم ، فإن اللّه قدّر الأمور ودبرها فى سابق أزله ، لا معقب لحكمه ، وإنما فعل ذلك ، وأخرجكم إلى المعركة لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ أي : يختبر ما فيها من الخير أو الشر ، وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ أي : يكشف ما فيها من النفاق أو الإخلاص ، فقد ظهر خبث سريرتكم ومرض قلوبكم بالنفاق الذي تمكن فيه ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي : بخفاياها قبل إظهارها. وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه غنى عن الابتلاء ، وإنما فعل ذلك ليميّز المؤمنين ويظهر حال المنافقين. قاله البيضاوي.

الإشارة : ثم أنزل عليكم أيها الواصلون المتمكنون ، أو من تعلق بكم من السائرين ، من بعد غم المجاهدة وتعب المراقبة أمنة فى قلوبكم بالطمأنينة بشهود اللّه ، وراحة فى جوارحكم من تعب الخدمة فى السير إلى اللّه ، حتى وصلتم فنمتم فى ظل الأمن والأمان ، وسكنتم فى جوار الكريم المنان.

قال بعض العارفين : (إذا انتقلت المعاملة إلى القلوب استراحت الجوارح) «١» ، وهذه الراحة إنما تحصل للعارفين ، أو من تعلق بهم من المريدين ، وطائفة من غيرهم وهم المتفقرة الجاهلون ، الذين لا شيخ لهم ، قد أهمتهم أنفسهم ، تارة تصرعهم وتارة يصرعونها ، تارة تشرق عليهم أنوار التوجه ، فيقوى رجاؤهم فى الفتح ، وتارة تنقبض عنهم فيظنون باللّه غير الحق ، ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الفتح من شى ء؟.

قل لهم : (إن الأمر كله للّه) يوصل من يشاء ويبعد من يشاء ، يخفون فى أنفسهم من العيوب والخواطر الرديئة ما لا يبدون لك ، فإذا طال عليهم الفتح ، وغلب عليهم الفقر ، ندموا على ما فاتهم من التمتع بالدنيا ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا بالذل والفقر والجوع ، قل لهم : ذلك الذي سبق فى علم اللّه ، لا محيد لأحد عنه ، ليظهر الصادق فى الطلب من الكاذب ، [كن صادقا تجد مرشدا] ، فلو صدقتم فى الطلب لأرشدكم إلى من يوصلكم ويريحكم من التعب. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) سبق بيان معنى العبارة عند إشارة الآية/ ٢١٢ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٢٤
ثم ذكر الحق تعالى علة انهزام من انهزم ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥٥]
إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ وانهزموا يوم أحد يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ جمع المسلمين وجمع الكفار إنما كان السبب فى انهزامهم أن الشيطان اسْتَزَلَّهُمُ ، أي : طلب زللهم فأطاعوه ، أي : زين لهم الفرار فأطاعوه ، بسبب بعض ما كَسَبُوا من الإثم ، كمخالفة أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، والحرص على الغنيمة ، وذنوب اقترفوها قبل الجهاد ، فإن المعاصي تجر بعضها بعضا ، كالطاعة ، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ فيما فعلوا من الفرار لتوبتهم واعتذارهم إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ للذنوب ، حَلِيمٌ لا يعاجل بعقوبة المذنب كى يتوب.
الإشارة : إن الذين تولوا منكم يا معشر الفقراء ، ورجعوا عن صحبة الشيوخ ، حين التقى فى قلبهم الخصمان :
خصم يرغبهم فى الثبوت ، وخصم يدلهم على الرجوع ، ثم غلب خصم الرجوع فرجعوا ، إنما استزلهم الشيطان بسوء أدبهم ، فإن تابوا ورجعوا ، أقبلوا عليهم ، وقبل اللّه توبتهم ، وعفا عنهم ، فإنه سبحانه غفور حليم.
ثم حذّر من التشبه بالمنافقين فى ضعف اليقين ، وما ينشأ عنه من مقالة الجاهلين ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥٦]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَما قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)
قلت : (غزّى) : جمع غاز ، كعاف وعفى ، وإنما وضع (إذا) موضع (إذ) لحكاية الحال.
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ونافقوا ، كعبد اللّه بن أبى ، وأصحابه ، وَقالُوا لِإِخْوانِهِمْ فى النسب ، أو فى المذهب ، أي : قالوا لأجلهم أو فى شأنهم ، إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أي : سافروا للتجارة أو غيرها فماتوا ، أَوْ كانُوا غُزًّى أي : غازين فقتلوا فى الغزو : لَوْ كانُوا عِنْدَنا مقيمين ما ماتُوا وَما قُتِلُوا ، وإنما نطقوا بذلك لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ القول الناشئ عن الاعتقاد الفاسد حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ بالاغتمام على ما فات ، والتحسر على ما لم يأت ، وَاللَّهُ هو يُحْيِي وَيُمِيتُ بلا سبب فى الإقامة والسفر ، فليس يمنع حذر من قدر ، وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ ، أيها المؤمنون بَصِيرٌ ، ففيه تهديد لهم على أن يماثلوا المنافقين فى هذا الاعتقاد الفاسد ، ومن قرأ بالياء فهو تهديد لهم.
واللّه تعالى أعلم.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٢٥

الإشارة : لا ينبغى للأقوياء من أهل اليقين أن يتشبهوا بضعفاء اليقين ، كانوا علماء أو صالحين أو طالحين ، حيث يقولون لإخوانهم إذا سافروا لأرض مخوفة أو بلد الوباء : لو جلسوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، وما دروا أن اللّه قدّر الآجال كما قدّر الأرزاق وجميع الشئون والأحوال ، وعيّن لها أوقاتا محدودة فى أزله ، فكل مقدور يبرز فى وقته ، «ما من نفس تبديه ، إلا وله قدر فيك يمضيه» ، فما قدّره فى سابق علمه لا بد أن يكون ، وما لم يقدره لا يكون ، ولا تجلبه حركة ولا سكون. وللّه در القائل :

ما لا يقدّر لا يكون بحيلة أبدا وما هو كائن سيكون

سيكون ما هو كائن فى وقته وأخو الجهالة متعب محزون

يجرى الحريص ولا ينال بحرصه شيئا ويحظى عاجز ومهين

فدع الهموم ، تعرّ من أثوابها ، إن كان عندك بالقضاء يقين

هوّن عليك وكن بربّك واثقا فأخو الحقيقة شأنه التّهوين

وكان سيدنا عمر رضي اللّه عنه يتمثل بهذه الأبيات :

فهوّن عليك فإنّ الأمور بكفّ الإله مقاديرها

فليس يأتيك مصروفها ولا عازب عنك مقدورها

وكل من لم يحقق الإيمان بالقدر لا ينفك عن الحسرة والكدر ، ومن أراد النعيم المقيم فليثلج صدره ببرد الرضا والتسليم ، ومن أراد الروح والريحان فعليه بجنات العرفان ، وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم رغّب الحق تعالى فى الموت فى الجهاد ، ورجّح الموت مطلقا على الحياة ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٥٧ الى ١٥٨]

وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)

قلت : إذا اجتمع القسم والشرط ذكر جواب الأول وأغنى عن الثاني ، فقوله : (لمغفرة) : جواب القسم ، أغنى عن جواب (إن) ، والتقدير : إن قتلتم فى سبيل اللّه غفر اللّه لكم ، ثم سد عنه (لمغفرة ..) إلخ ، ومن قرأ : (متم) بكسر الميم ، فهو من : مات يمات ، كهاب يهاب هبت ، وخاف يخاف خفت ، ومن قرأ بالضم : فمن مات يموت ، كقال يقول قلت.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٢٦
يقول الحق جل جلاله : إن السفر والغزو ليس هما مما يجلب الموت أو يقدم الأجل ، وعلى تقدير : لو وقع ذلك وحضر أجلكم فيه وقتلتم فِي سَبِيلِ اللَّهِ بالسيف ، أَوْ مُتُّمْ حتف أنفكم ، لما تنالون من المغفرة والرحمة والروح والريحان خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ من حطام الدنيا الفانية لو لم تموتوا ، وعلى أي وجه متم أو قتلتم فلا تحشرون إلا إلى اللّه ، لا إلى أحد غيره ، فيوفى جزاءكم ويعظم ثوابكم ، وأما البقاء فى الدنيا فلا مطمع لأحد فيه ، سافر أو قعد فى بيته ، وقدّم أولا القتل على الموت وأخره ثانيا لأن الأول رتب عليه المغفرة والرحمة ، وهما فى حق من قتل فى الجهاد أعظم ممن مات بغيره ، فقدمه اعتناء به ، وفى الثاني رتب عليه الحشر ، وهو مستو فى القتل والموت ، فلا مزية فيه للقتل على الموت. واللّه أعلم.

الإشارة : ولئن قتلتم نفوسكم وبذلتم مهجكم فى طلب محبوبكم ، فظفرتم بالوصول إليه قبل موتكم ، أو متم فى السير قبل الوصول إلى محبوبكم ، لما تنالون من كمال اليقين وشهود رب العالمين ، أو من المغفرة والرحمة التي تضمكم إلى جواره ، خير مما كنتم تجمعون من الدنيا قبل توجهكم إليه ، فإن الموت والحشر مكتوب على كل مخلوق ، فيظهر فوز المجاهدين والمتوجهين ، وغبن القاعدين المتسوفين. وباللّه التوفيق.

ولمّا وقع ما وقع يوم أحد من مخالفة الرسول والفرار عنه - عليه الصلاة والسلام - لم يعاتب صلّى اللّه عليه وسلم أحدا ، ولكن ألان لهم الكلام وعفا عنهم ، كما أخبر عن ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥٩]

فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)

قلت : (فبما) : صلة. والفظ : الجافي ، يقال : فظ فظاظة وفظوظا ، ورجل فظ ، وامرأة فظة ، والفض - بغير المشالة : التفرق ، ويطلق على الكسر ، ومنه : لا يفضض اللّه فاك.

يقول الحق جل جلاله : فبرحمة من اللّه ونعمة كنت سهلا لينا رفيقا ، فحين عصوا أمرك ، وفروا عنك ، ألنت لهم جانبك ، ورفقت بهم ، بل اغتممت من أجلهم مما أصابهم ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا جافيا سيئ الخلق غَلِيظَ الْقَلْبِ قاسيه فأغلظت لهم القول ، لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ أي : لتفرقوا عنك ، ولم يسكنوا إليك ، فَاعْفُ عَنْهُمْ فيما يختص بك ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ فى حق ربك حتى يشفعك فيهم ، وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ الذي يصح أن يشاور فيه تطييبا لخاطرهم ، ورفعا لأقدارهم ، واستخراجا وتمهيدا لسنة المشاورة لغيرهم ، وخصوصا الأمراء.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٢٧
قال عليه الصلاة والسلام : «ما شقى عبد بمشورة ، وما سعد باستغناء برأى». وقال أيضا : «ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار». وقال أيضا - عليه الصلاة والسلام - «إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم أسخياءكم ، وأمركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم ، ولم تكن أموركم شورى بينكم ، فبطن الأرض خير من ظهرها».
فَإِذا عَزَمْتَ على شيء بعد الشورى ، (فتوكل على اللّه) أي : ثق به وكيلا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ فينصرهم ويهديهم إلى ما فيه صلاحهم.
الإشارة : ما اتصف به نبينا - عليه الصلاة والسلام - من السهولة والليونة والرفق بالأمة ، اتصفت به ورثته من الأولياء العارفين ، والعلماء الراسخين ، ليتهيأ لهم الدعوة إلى اللّه ، أو إلى أحكام اللّه ، ولو كانوا فظاظا غلاظا لانفض الناس من حولهم ، ولم يتهيأ لهم تعريف ولا تعليم ، فينبغى لهم أن يعفوا ويصفحوا ويغفروا ويصبروا على جفوة الناس ، ويستغفروا لهم ، ويشاوروهم فى أمورهم ، اقتداء برسولهم ، فإذا عزموا على إمضاء شيء فليتوكلوا على اللّه إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ.
قال الجنيد - رضي اللّه عنه - : (التوكل أن تقبل بالكلية على ربك وتعرض عمن دونه). وقال الثوري : أن تفنى تدبيرك فى تدبيره ، وترضى باللّه وكيلا ومدبرا ، قال اللّه تعالى : وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا. وقال ذو النون : (خلع الأرباب ، وقطع الأسباب.) وقال الخواص : قطع الخوف والرجاء مما سوى اللّه تعالى.
وقال العرجى : رد العيش إلى يوم واحد ، وإسقاط هم غد. هـ. وقال سهل : معرفة معطى أرزاق المخلوقين ، ولا يصح لأحد التوكل حتى تكون عنده السماء كالصفر «١» والأرض كالحديد ، لا ينزل من السماء قطر ، ولا يخرج من الأرض نبات ، ويعلم أن اللّه لا ينسى له ما ضمن من رزقه بين هذين. هـ. وقيل : هو اكتفاء العبد الذليل بالرب الجليل ، كاكتفاء الخليل بالخليل ، حين لم ينظر إلى عناية جبريل. وقيل لبهلول المجنون : متى يكون العبد متوكلا؟ قال : إذا كان بالنفس غريبا بين الخلق ، وبالقلب قريبا إلى الحق.
وقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «من سرّه أن يكون أكرم النّاس فليتق اللّه ، ومن سرّه أن يكون أغنى النّاس فليكن بما فى يد اللّه أوثق منه بما فى يده».
قال ابن جزى : التوكل هو الاعتماد على اللّه فى تحصيل المنافع وحفظها بعد حصولها ، وفى دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها ، وهو من أعلى المقامات ، لوجهين : أحدهما : قوله : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ، والآخر :

(١) الصفر : النحاس.

(٤٢٧/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٢٨

الضمان الذي فى قوله : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، وقد يكون واجبا لقوله : وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فجعله شرطا فى الإيمان ، ولظاهر قوله : وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ فإن الأمر محمول على الوجوب.

واعلم أن الناس فى التوكل على ثلاث مراتب :

الأولى : أن يعتمد العبد على ربه ، كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده ، الذي لا يشك فى نصيحته له وقيامه بمصالحه. الثانية : أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه لا يعرف سواها ولا يلجأ إلّا إليها. الثالثة : أن يكون العبد مع ربه كالميت بين يدى الغاسل ، قد أسلم إليه نفسه بالكلية.

فصاحب الدرجة الأولى عنده حظ من النظر لنفسه ، بخلاف صاحب الثانية. وصاحب الثانية له حظ من الاختيار ، بخلاف صاحب الثالثة. وهذه الدرجات مبنية على التوحيد الخاص ، الذي تكلمت عليه فى قوله :

وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ ، فهى تقوى بقوته وتضعف بضعفه.

فإن قيل : هل يشترط فى التوكل ترك الأسباب أم لا؟ فالجواب : أن الأسباب على ثلاثة أقسام :

أحدها : سبب معلوم قطعا قد أجراه اللّه ، فهذا لا يجوز تركه كالأكل لرفع الجوع واللباس لرفع البرد.

الثاني : سبب مظنون : كالتجارة وطلب المعاش ، وشبه ذلك ، فهذا لا يقدح فعله فى التوكل ، فإن التوكل من أعمال القلوب لا من أعمال البدن ، ويجوز تركه لمن قوى عليه.

والثالث : سبب موهوم بعيد ، فهذا يقدح فعله فى التوكل ، قلت : ولعل هذا مثل طلب الكيمياء والكنوز وعلم النار والسحر ، وشبه ذلك.

ثم فوق التوكل التفويض ، وهو : الاستسلام لأمر اللّه تعالى بالكلية ، فإن المتوكل له مراد واختيار ، وهو يطلب مراده فى الاعتماد على ربه ، وأما المفوض فليس له مراد ولا اختيار ، بل أسند الاختيار إلى اللّه تعالى ، فهو أكمل أدبا مع اللّه. هـ وأصله للغزالى ، وسيأتى بقية الكلام عند قوله : وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ. وباللّه التوفيق.

ولما أمر نبيّه - عليه الصلاة والسلام - بالتوكل ، رغب فيه جميع عباده ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٦٠]

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)

(٤٢٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٢٩

يقول الحق جل جلاله : (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ) كما نصركم يوم بدر ، (فلا غالب لكم) من أحد من الناس ، (و إن يخذلكم) كما خذلكم يوم أحد ، (فمن) هذا (الذي ينصركم من بعده) تعالى ، أي : فلا ناصر سواه. وهذا تنبيه على الحث على التوكل ، وتحريض على ما يستوجب به النصر ، وهو الاعتماد على اللّه ، وتحذير مما يستوجب الخذلان ، وهو مخالفة أمره وعصيان رسوله ، أو الاعتماد على غيره ، ولذلك قال : (و على اللّه فليتوكل المؤمنون) لما علموا ألا ناصر سواه.

الإشارة : إن ينصركم اللّه على مجاهدة النفوس ، ودوام السير إلى حضرة القدوس ، فلا غالب لكم من النفس ، ولا من الناس ولا من الهوى ولا من الشيطان ، وإن يخذلكم - والعياذ باللّه - فمن ذا الذي ينصركم من بعد خذلانه لكم؟ فليعتمد المريد فى سيره على مولاه ، وليستنصر به فى قطع حظوظه وهواه ، فإنه لا ناصر له سواه. وأنشدوا :

إذا كان عون اللّه للمرء ناصرا تهيّأ له من كلّ صعب مراده

وإن لم يكن عون من اللّه للفتى فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولمّا تبادرت الرماة إلى الغنيمة كما تقدم ، وقع فى وهمهم أنه - عليه الصلاة والسلام - يحرمهم من الغنيمة ، وذلك غلول لا يليق بحاله - عليه الصلاة والسلام - ، فنزه اللّه نبيّه عن ذلك ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٦١]

وَما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦١)

قلت : الغلول : السرقة من الغنائم ، فمن قرأ بفتح الياء وضم الغين ، فمعناه : لا ينبغى له أن يأخذ شيئا من الغنيمة خفية ، والمراد : تبرئة رسوله - عليه الصلاة والسلام - من ذلك. ومن قرأ بضم الياء ففيه وجهان : أحدهما :

أن يكون المعنى ، ما كان لنبى أن يخان ، أي : أن تخونه أمّته فى المغانم ، وكذلك الأمراء ، وإنما خص النبيّ صلّى اللّه عليه وسلم بذلك لبشاعة ذلك مع النبي لأن المعاصي تعظم بحضرته ، والثاني : أن يكون المعنى : ما كان لنبى أن ينسب إلى الخيانة كقوله : فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ أي : لا ينسبونك إلى

الكذب.

يقول الحق جل جلاله : ما كانَ ينبغى لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ويأخذ شيئا من الغنيمة خفية لأن ذلك خيانة والنبوة تنافى ذلك ، والمراد : نزاهة الرسول - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك ، كقوله : ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ

(٤٢٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٣٠

مِنْ وَلَدٍ

،

ودفع ما توهمه الرماة ، فقد روى أنه - عليه الصلاة والسلام - قال لهم لما تركوا المركز : «ألم أعهد إليكم ألا تتركوا المركز حتّى يأتيكم أمرى؟» قالوا : تركنا بقية إخواننا وقوفا ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «بل ظننتم أنّا نغلّ ولا نقسم لكم». فنزلت الآية. وقيل إنه - عليه الصلاة والسلام - : بعث طلائع ، فغنم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وقسم على من معه فقط ، فنزلت ، فاسترجع ذلك منهم. وقيل : فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر ، فقال المنافقون : لعلّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أخذها ، فنزلت.

ثم ذكر وعيد الغلول ، فقال : وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ أي : يأتى بالذي غله يحمله على رقبته ، قال عليه الصلاة والسلام : «لا ألقى أحدكم يوم القيامة يجئ على رقبته بعير له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر «١».» ثم قال : «اللهمّ هل بلّغت؟ ثلاثا». كما فى البخاري.

ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ جزاء ما كَسَبَتْ تاما ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ بنقص ثواب مطيعهم ، ولا يزاد على عقاب عاصيهم وكان اللائق بما قبله أن يقول : ثم يوفى ما كسب. لكنه عمم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه ، وأنه إذا كان كل كاسب مجزيا بعمله ، فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى. قاله البيضاوي.

الإشارة : ما قيل فى النبي - عليه الصلاة والسلام - يقال فى ورثته الكرام ، كالأولياء والعلماء الأتقياء ، فإنهم ورثة الأنبياء ، فيظن بهم أحسن المذاهب ، ويلتمس لهم أحسن المخارج ، لأن الأولياء دلوا على معرفة اللّه ، والعلماء دلوا على أحكام اللّه ، وبذلك جاءت الرسل من عند اللّه ، فلا يظن بهم نقص ولا خلل ، ولا غلول ولا دخل ، فلهم قسط ونصيب من حرمة الأنبياء ، ولا سيما خواص الأولياء ، ومن يظن بهم نقصا أو خللا ، ويغل قلبه على شيء من ذلك ، فسيرى وباله يوم تفضح السرائر ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ، فلحوم الأولياء والعلماء سموم قاتلة ، وظن السوء بهم خيانة حاصلة. واللّه تعالى أعلم.

فاعتقاد الكمال فى الأنبياء والأولياء مستوجب لرضى اللّه ، والانتقاد عليهم موجب لمقت اللّه ، كما أشار إلى ذلك الحق - جلت قدرته - فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦٢ الى ١٦٣]

أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (١٦٣)

---

(١) تيعر : تصيح ، واليعار : صوت الشاة.

(٤٣٠/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٣١

يقول الحق جل جلاله : (أ فمن اتبع رضوان اللّه) بأن اعتقد فى نبيه الكمال ، وأطاعه فى وصف الجلال والجمال ، وهم المؤمنون ، حيث نزهوا نبيهم من النقائص ، ومن هجس فى قلبه شيء بادر إلى التوبة ، ثم اتصف بكمال الخصائص ، هل يكون كَمَنْ باءَ بغضب مِنَ اللَّهِ؟ وهم المنافقون ، حيث نافقوا الرسول واتهموه - عليه الصلاة والسلام - بالغلول.

أو يقول : أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ بالطاعة والانقياد كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ بالمعاصي وسوء الاعتقاد وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ أي المنقلب ، والفرق بين المصير والمرجع : أن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى ، ولا كذلك المرجع. قاله البيضاوي.

هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ أي : أهل الرضوان درجات متفاوتة عند اللّه ، على قدر سعيهم فى موجب الرضا ، وأهل السخط درجات أيضا ، على قدر تفاوتهم فى العصيان ، وهو على حذف مضاف ، أي : ذوو درجات ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ فيجازى كلا على قدر سعيه.

الإشارة : (أ فمن اتبع رضوان اللّه) بتعظيم الأولياء والعلماء وأهل النسبة ، كمن باء بسخط من اللّه بإهانة من أمر اللّه أن يعظم ويرفع ، ومأواه حجاب الحس وعذاب البعد ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، فأهل القرب درجات على قدر تقربهم إلى ربهم ، وأهل البعد درجات فى البعد على قدر بعدهم من ربهم ، بشؤم ذنبهم وسوء أدبهم ، واللّه بصير بأعمالهم وما احتوت عليه قلوبهم.

ثم ذكر موجب التعظيم للرسول - عليه الصلاة والسلام - وهو كونه نعمة مهداة ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٦٤]

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (١٦٤)

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حيث بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ أي : من جنسهم ، أو من نسبهم ، عربيا مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة ، ويفتخروا به على غيرهم. وتخصيص المؤمنين بالمنة ، وإن كانت نعمته عامة لزيادة انتفاعهم على غيرهم لشرفهم وذكرهم به ، حال كونه يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ القرآن ، بعد أن كانوا جاهلية لا يعرفون الوحي ولا سمعوا به ، وَيُزَكِّيهِمْ أي : يطهرهم من دنس الذنوب ودرن العيوب ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ أي : القرآن ، وَالْحِكْمَةَ أي : السنة ، وَإِنْ كانُوا أي : وإنه ، أي : الأمر والشأن كانوا مِنْ قَبْلُ بعثته لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : ظاهر بيّن.

(٤٣١/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٣٢

الإشارة : لقد منّ اللّه على المتوجهين إليه الطالبين لمعرفته ، حيث بعث لهم من يأخذ بأيديهم ، ويطوى مسافة البعد عنهم ، وهم شيوخ التربية ، يتلون عليهم آياته الدالة على كشف الحجاب وفتح الباب ، ويزكيهم من دنس العيوب المانعة لعلم الغيوب ، ثم يزكيهم من درن الحس إلى مشاهدة القرب والأنس ، ويعلمهم الكتاب المشتمل على عين التحقيق ، والحكمة المشتملة على التشريع وبيان الطريق ، فيجمعون لهم ما بين الحقيقة والشريعة ، وقد كانوا قبل ذلك فى ضلال مبين عن الجمع بينهما. وهذه المنّة عامة فى كل زمان ، إذ لا تخلو الأرض من داع يدعو إلى اللّه ، ومن اعتقد قطعه فقد قطع منة اللّه ، واستعجز قدرة اللّه ، وسد باب الرحمة فى وجه عباد اللّه ، والعياذ باللّه.

ولما استغرب الصحابة - رضى اللّه عنهم - ما وقع بهم يوم أحد ، مع كونهم وعدوا النصر ، نبههم الحق تعالى أن ذلك منهم بشؤم مخالفتهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٦٥]

أَوَلَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)

قلت : الهمزة - للتفريع ، و(لمّا) : ظرف ، خافضة لشرطها ، منصوبة بجوابها ، وهى معطوفة على محذوف ، أي : أكان ما كان يوم أحد ، ولمّا أصابتكم مصيبة ، قلتم ما قلتم ، و(قد أصبتم) : جملة حالية.

يقول الحق جل جلاله : أحين أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ يوم أحد بقتل سبعين منكم ، وقَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها يوم بدر فقتلتم سبعين وأسرتم سبعين ، قُلْتُمْ أَنَّى هذا أي : من أين أصابنا هذا البلاء وقد وعدنا النصر؟ قُلْ لهم : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ أي : مما اقترفته أنفسكم من مخالفة المركز ، والنصر الموعود كان مشروطا بالثبات والطاعة ، فلما اختل الشرط اختل المشروط ، إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على النصر

بشرط وبغيره ، لكن حكمته اقتضت وجود الأسباب والشروط لأن هذا العالم قائم بين قدرة وحكمة.

أو : (قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) باختياركم الفداء يوم بدر. روى عن على رضي اللّه عنه قال : (جاء جبريل إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم يوم بدر فقال : خيّر أصحابك فى الأسارى ، إن شاءوا القتل ، وإن شاءوا الفداء ، على أن يقتل منهم عاما مقبلا مثلهم ، قالوا : الفداء ويقتل منّا.). واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا أصاب المريد شيء من المصائب والبلايا ، فلا يستغرب وقوع ذلك به ، ولا يتبرم منه ، فإنه فى دار المصائب والفجائع ، «لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت فى هذه الدار ، فإنما أبرزت ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها». وإذا كان أصابته مصيبة فى وقت ، فقد أصابته نعم جمة فى أوقات عديدة ، فليشكر اللّه على ما أولاه ، وليصبر على ما ابتلاه ، ليكون صبارا شكورا.

(٤٣٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٣٣

قال الشيخ أبو الحسن - رضي اللّه عنه - : (العارف هو الذي عرف إساءاته فى إحسان اللّه إليه ، وعرف شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من اللّه عليه ، فاذكروا آلاء للّه لعلكم تفلحون). وأيضا : كل ما يصيب المؤمن فمن كسب يده ، ويعفو عن كثير.

وإن كان المريد وعد بالحفظ والنصر ، فقد يكون ذلك بشروط خفيت عليه ، فلم تتحقق فيه ، فيخلف حفظه لينفذ قدر اللّه فيه ، وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً.

وليتميز الصادق من الكاذب والمخلص من المنافق ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦٦ الى ١٦٨]

وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٦٨)

قلت : (و قيل لهم تعالوا) : استئناف ، أو معطوف على (نافقوا) ، و(الذين قالوا لإخوانهم) : بدل من الضمير المجرور فى (لهم) ، أي : وقيل للمنافقين : قاتلوا أو ادفعوا ، ثم فسرهم بقوله : وهم (الذين قالوا لإخوانهم ...) إلخ. أو من الواو فى (يكتمون) ، أو منصوب على الذم ، أو مبتدأ ، والخبر : (قل ..) على من يجيز إنشاء الخبر ، و(قعدوا) :

جملة حالية ، على إضمار قد.

يقول الحق جل جلاله : وَما أَصابَكُمْ يا معشر المسلمين يوم أحد يَوْمَ الْتَقَى جمع المسلمين وجمع

الكفار ، من القتل والجرح والهزيمة ، فَبِإِذْنِ اللَّهِ وقضائه ، لا راد لإمضائه ، وَلِيَعْلَمَ علم ظهور فى عالم الشهادة الْمُؤْمِنِينَ والمنافقين فيظهر إيمان هؤلاء وكفر هؤلاء ، وقد ظهر نفاقهم حيث رجعوا مع عبد اللّه بن أبى ، وكانوا ثلاثمائة.
وذلك أنّ ابن أبي كان رأيه ألا يخرج المسلمون إلى المشركين ، فلما طلب الخروج قوم من المسلمين ، فخرج - عليه الصلاة والسلام - كما تقدم ، غضب ابن أبي ، وقال : أطاعهم وعصانى. فرجع ، ورجع معه أصحابه ، فتبعهم

(٤٣٣/١)

أبو جابر عبد اللّه بن عمرو بن حرام ، وقال لهم : ارجعوا (قاتلوا فى سبيل اللّه أو ادفعوا) ، أي : كثروا سواد المسلمين ، فقال ابن أبيّ - رأس المنافقين - : ما أرى أن يكون قتالا ، ولو علمنا أن يكون قتال (لاتبعناكم) ، وكنا معكم.
قال تعالى : هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ لظهور الكفر عليهم من كلامهم ، فأمارات الكفر عليهم أكثر من أمارات الإيمان ، أو : هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان ، لأن رجوعهم ومقالتهم تقوية للكفار عليهم وتخذيل للمسلمين ، يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فهم يظهرون خلاف ما يبطنون ، لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالإيمان ، وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتغليظ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ منكم بِما يَكْتُمُونَ من النفاق لأنه يعلمه مفصلا بعلم واجب ، وأنتم تعلمونه مجملا بأمارات.
وهؤلاء المنافقون هم (الذين قالوا) فى شأن إخوانهم الذين قتلوا يوم أحد : لَوْ أَطاعُونا وجلسوا فى ديارهم ما قُتِلُوا ، قالوا هذه المقالة وقد قعدوا عن الخروج ، قُلْ لهم يا محمد : فَادْرَؤُا أي : فادفعوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أنكم تقدرون أن تدفعوا القتل عمن كتب عليه ، فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه حين يبلغ أجلكم ، فإنه أحرى بكم ، فالقعود لا ينجى من الموت إذا وصل الأجل ، فإن أسباب الموت كثيرة ، فقد يكون القعود سببا للموت إن بلغ الأجل ، وقد يكون الخروج سببا للنجاة إن لم يبلغ. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : وما أصابكم يا معشر الفقراء عند توجهكم إلى الحق فارين من الخلق ، حين استشرفتم على الجمع وجمع الجمع فبإذن اللّه فإن الداخل على اللّه منكور ، والراجع إلى الناس مبرور ، وليظهر الصادق من الكاذب ، فإن محبة اللّه مقرونة بالبلاء ، والطريق الموصلة إليها محفوفة بالمكاره ، مشروطة بقتل النفوس وحط الرؤوس ، ودفع العلائق ، والفرار من العوائق.
فإذا قيل للعوام : قاتلوا أنفسكم فى سبيل اللّه لتدخلوا حضرة اللّه ، أو ادفعوا عن أنفسكم العلائق

لتشرق عليكم أنوار الحقائق ، قالوا : قد انقطع هذا الطريق واندرست أرباب علم التحقيق ، ولو نعلم قتالا بقي يوصلنا إلى ربنا ، كما زعمتم لاتبعناكم ودخلنا فى طريقكم. هم للكفر يومئذ أقرب للإيمان ، حيث تحكموا على القدرة الأزلية ، وسدوا باب الرحمة الإلهية ، وإنما يقولون ذلك احتجاجا لنفوسهم ، وإبقاء على حظوظهم ، وليس ذلك من خالص قلوبهم ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم.
وإذا نزل بأهل النسبة نكبة أو بلية ، قالوا لإخوانهم ، الذين دخلوا فى طريق القوم ، وقد قعدوا هم مع العوام : لو أطاعونا ولم يدخلوا فى هذا الشأن ، ما قتلوا أو عذبوا ، فقل لهم أيها الفقير : القضاء والقدر يجرى على الجميع ، فادفعوا عن أنفسكم ما تكرهون ، إن كنتم صادقين أن المكاره لا تصيب إلا من توجه لقتال نفسه. واللّه تعالى أعلم بأسرار كتابه.

(٤٣٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٣٥
ولمّا قتل الشهداء يوم أحد أكرم اللّه أرواحهم بما يكل عنه اللسان ، فقالوا : يا ليت قومنا يعلمون بما نحن فيه ، كى يرغبوا فى الجهاد ، فقال لهم اللّه تعالى : أنا أخبرهم عنكم ، فأنزل اللّه تعالى :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦٩ الى ١٧١]
وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)
قلت : (ألّاخوف عليهم) : بدل من (الذين لم يلحقوا) ، أو مفعول لأجله ، وكرر : (يستبشرون) ليذكر ما تعلق به من الفضل والنعمة ، أو : الأول بحال إخوانهم ، وهذا بحال أنفسهم.
يقول الحق جل جلاله : وَلا تَحْسَبَنَّ أيها الرسول ، أو أيها السامع ، الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ هم أَحْياءٌ لأن اللّه تعالى جعل أرواحهم فى حواصل طير خضر ، يسرحون فى الجنة حيث شاءوا عند ربهم ، بالكرامة والزلفى ، يرزقون من ثمار الجنة ونعيمها ، فحالهم حال الأحياء فى التمتع بأرزاق الجنة ، بخلاف سائر الأموات من المؤمنين فإنهم لا يتمتعون بالأرزاق حتى يدخلوا الجنة. قاله ابن جزى.
قلت : شهداء الملكوت - وهم العارفون - أعظم قدرا من شهداء السيوف ، وراجع ما تقدم فى سورة البقرة «١».
فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ من الكرامة والزلفى والنعيم الذي لا يفنى ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أي : بإخوانهم الذي لم يقتلوا فيلحقوا بهم من بعدهم. وتلك البشارة هى : أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، أو من أجل أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.

والحاصل : أنهم يستبشرون بما تبين لهم من الكرامة فى الآخرة ، وبحال من تركوا من خلفهم من المؤمنين ، وهو أنهم إذا ماتوا أو قتلوا ، كانوا أحياء ، حياة لا يدركها خوف وقوع محذور ، ولا حزن فوات محبوب. فالآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس ، بل هو جوهر مدرك بذاته ، لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف على وجود البدن إدراكه وتألمه والتذاذه. ويؤيد ذلك قوله تعالى فى آل فرعون : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وما روى ابن عباس من أنه صلّى اللّه عليه وسلم قال : «أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنّة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل معلّقة فى ظلّ العرش» - قال معناه البيضاوي.

---

(١) عند إشارة الآية : ١٥٤ وما بعدها.

ولمّا ذكر استبشارهم بإخوانهم ذكر استبشارهم بما يخصهم فقال : يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وهو ثواب أعمالهم الجسماني ، وَفَضْلٍ وهو نعيم أرواحهم الروحاني ، وهو النظر إلى وجهه الكريم ، ويستبشرون أيضا بكونه تعالى لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ، ماتوا فى الجهاد أو على فرشهم ، حيث حسنت سريرتهم وكرمت علانيتهم ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : «إن للّه عبادا يصرفهم عن القتل والزلازل والأسقام ، يطيل أعمارهم فى حسن العمل ، ويحسن أرزاقهم ، ويحييهم فى عافية ، ويميتهم فى عافية على الفرش ، ويعطيهم منازل الشهداء» «١». قلت : ولعلهم العارفون باللّه ، جعلنا اللّه من خواصهم ، وسلك بنا مسالكهم. آمين.

الإشارة : لا تحسبن الذين بذلوا مهجهم ، وقتلوا أنفسهم بخرق عوائدها ، وعكس مراداتها ، فى طلب معرفة اللّه ، حتى ماتت نفوسهم ، وحييت أرواحهم بشهود محبوبهم ، حياة لا موت بعدها ، فلا تظن أيها السامع أنهم أموات ، ولو ماتوا حسا ، بل هم أحياء على الدوام ، وفى ذلك يقول الشاعر :

موت التّقىّ حياة لا فناء لها قد مات قوم وهم فى النّاس أحياء

فهم عند ربهم يشاهدونه مدة بقائهم ، يرزقون من ثمار المعارف وفواكه العلوم ، فرحين بما أتحفهم اللّه به من القرب والسر المكتوم ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم فى المرتبة ممن تعلق بهم ، وأنهم سيصلون إلى ما وصلوا إليه من معرفة الحي القيوم ، فلا يلحقهم حينئذ خوف ولا حزن ولا هم ولا غم ، لما سكن فى قلبهم من خمرة محبة الحبيب ، والقرب من القريب المجيب ، وفى ذلك يقول ابن الفارض :

وإن خطرت يوما على خاطر امرئ أقامت به الأفراح ، وارتحل الهمّ

يستبشرون بنعمة أدب العبودية ، وفضل شهود أسرار عظمة الربوبية ، وأن اللّه لا يضيع أجر المؤمنين المحبين لطريق المخصوصين ، فإن طريق محبة طريق القوم عناية ، والتصديق بها ولاية ، وباللّه التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما رجع أبو سفيان من غزوة أحد ، هو وأصحابه ، حتى بلغوا الروحاء ، ندم وهم بالرجوع ، فبلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فندب أصحابه للخروج فى طلبه ، وقال : «لا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس» ، فخرج صلّى اللّه عليه وسلم فى سبعين رجلا حتى بلغوا حمراء الأسد - وهى على ثمانية أميال من المدينة - وكان بأصحابه القرح ، فتحاملوا على أنفسهم كى لا يفوتهم الأجر ، وألقى اللّه الرعب فى قلوب المشركين ، فذهبوا ، فأنزل اللّه - تعالى - فى شأن من خرج مع الرسول صلّى اللّه عليه وسلم :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٧٢]

الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)

---

(١) عزاه الهيثمي فى مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٣ للطبراني عن ابن مسعود مرفوعا. وفيه : جعفر بن محمود الواسطي الوراق ، قال الهيثمي : لم أعرفه وبقية رجاله ثقات.

قلت : (الذين) : مبتدأ ، وجملة (للذين أحسنوا) : خبر ، أو صفة للمؤمنين قبله ، أو نصب على المدح.

يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فأطاعوه فيما ندبهم إليه من اللحوق بالمشركين ، إرهابا لهم ، مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ أي : الجرح ، فتحاملوا على أنفسهم حتى ذهبوا مع نبيهم ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ بأن فعلوا ما أمروا به ، وَاتَّقَوْا اللّه فى مخالفة أمر رسوله ، أَجْرٌ عَظِيمٌ يوم يقدمون عليه.

الإشارة : الذين استجابوا للّه فيما ندبهم من الوصول إلى حضرته ، وللرسول فيما طلبهم به من اتباع سنته ، فجعلوا قلوبهم محلا لحضرته ، وجوارحهم متبعة لشريعته ، من بعد ما أصابهم فى طلب الوصول إلى ذلك قرح وضرب وسجن وإهانة ، فصبروا حتى ظفروا بالجمع بين الحقيقة والشريعة ، للذين أحسنوا منهم بالثبات على السير إلى الوصول إلى الحق ، واتقوا كل ما يردهم إلى شهود الفرق ، أجر

عظيم وخير جسيم ، بالعكوف في الحضرة ، والتنعم بالشهود والنظرة.
ثم قال الحق تعالى :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٧٣ الى ١٧٥]
الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)
قلت : الموصول بدل من الموصول قبله ، و(يخوف) : يتعدى إلى مفعولين للتضعيف ، حذف الأول ، أي :
يخوفكم أولياءه من الكفار ، أو حذف الثاني ، أي : يخوف أولياءه القاعدين عن الخروج إلى ملاقاة العدو.
وهنا تفسيران : أحدهما : أن يكون من تتمة غزوة أحد ، وهو الظاهر ، ليتصل الكلام بما بعده ، وذلك أن أبا سفيان لما همّ بالرجعة ليستأصل المسلمين ، لقيه معبد الخزاعي ، فقال له : إن محمدا خرج يطلبك في جمع لم أر مثله ، فدخله الرعب ، فلقيه ركب من عبد القيس يريد المدينة بالميرة ، فقال لهم : ثبطوا محمدا عن لحوقنا ، ولكم حمل بعير من الزبيب ، فلما لقوا المسلمين خوفوهم ، فقالوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، ومضوا حتى بلغوا حمراء الأسد ثم رجعوا ، فعلى هذا :
يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ وهم ركب عبد قيس حيث قالوا للمسلمين : إِنَّ النَّاسَ يعنى أبا سفيان ومن معه ، قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ليرجعوا ليستأصلوكم فَاخْشَوْهُمْ وارجعوا إلى دياركم

(٤٣٧/١)

فَزادَهُمْ ذلك إِيماناً ويقينا وتثبيتا في الدين ، وهذا يدل على أن الإيمان يزيد وينقص ، فيزيد بحسب التوجه إلى اللّه والتفرغ مما سواه ، وينقص بحسب التوجه إلى الدنيا وشغبها ، ويزيد أيضا بالطاعة والنظر والاعتبار ، وينقص بالمعصية والغفلة والاغترار.
ولما قال لهم الركب ذلك ليخوفهم ، قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ أي : كافينا اللّه وحده ، فلا نخاف غيره ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ أي : نعم من يتوكل عليه العبد ، وهى كلمة يدفع بها ما يخاف ويكره ، وهى الكلمة التي قالها إبراهيم حين ألقى في النار ، فَانْقَلَبُوا راجعين من حمراء الأسد ، متلبسين بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وهى العافية والسلامة ، وَفَضْلٍ وهى زيادة الإيمان وشدة الإيقان ، لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ من جراحة وكيد عدو ، وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ ، الذي هو مناط الفوز بخير الدارين ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ فقد تفضل عليهم بالتثبيت

وزيادة الإيمان ، والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد مع الرسول صلّى اللّه عليه وسلم الذي هو موجب الرضوان.

ثم حذّرهم الحق تعالى ممن ثبّطهم عن اللحوق بالكفار ، وهو ركب عبد القيس ، تشبيها لهم بالشيطان ، فقال :

إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يخوفكم أولياءه من المشركين ، أو يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ القاعدين من المنافقين ، فَلا تَخافُوهُمْ فإن أمرهم بيدي ، وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان يقتضى إيثار خوف اللّه على خوف الناس.

التفسير الثاني : أن يكون الكلام على غزوة بدر الصغرى : وذلك أن أبا سفيان لما انصرف من أحد نادى :

يا محمد ، موعدنا بدر لقابل ، إن شئت ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «إن شاء اللّه تعالى» ، فلما كان العام القابل ، خرج أبو سفيان فى أهل مكة ، حتى نزل مرّ الظهران ، فأنزل اللّه الرعب فى قلبه ، وبدا له أن يرجع ، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعى معتمرا ، فقال له : ائت المدينة وأعلمهم أنّا فى جمع كثير ، وثبطهم عن الخروج ، ولك عندى عشر من الإبل ، فأتى المدينة فأخبرهم ، فكره أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلم الخروج ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «والذي نفسى بيده لأخرجنّ ، ولو وحدي».

فرجع الجبان وتأهب الشجعان ، فخرجوا حتى أتوا بدرا الصغرى ، ورجع أبو سفيان إلى مكة ، فسموا جيش السويق ، ووافق المسلمون السوق ببدر ، وكانت معهم تجارات ، فباعوا وربحوا ، وانصرف النبي صلّى اللّه عليه وسلم إلى المدينة «١».

فعلى هذا ، يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، يعنى : فى غزوة بدر الصغرى ، لميعاد أبى سفيان ، مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ يعنى : فى غزوة أحد فى العام الأول ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ بالخروج مع الرسول ، وَاتَّقَوْا اللّه فى مخالفته ، أَجْرٌ عَظِيمٌ. الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ يعنى نعيم بن مسعود ، وأطلق عليه الناس لأنه من جنسهم ، كما يقال : فلان يركب الخيل ، وما يركب إلا فرسا. أو : لأنه انضم إليه

---

(١) نزول الآية فى قصة حمراء الأسد هو ما عليه جمهور المفسرين ، انظر : الطبري والمحرر الوجيز.

ناس من المدينة وأذاعوا كلامه. إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ يعنى : أبا سفيان وأهل مكة لما خرج إلى مرّ الظهران. وقوله : فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ أي : عافية وسلامة ، وَفَضْلٍ ما أصابوا من التجارة ، وقوله : إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يعنى : نعيما يخوفكم أَوْلِياءَهُ والباقي ظاهر.

الإشارة : أهل القوة من المريدين إذا قيل لهم : إن الناس قد جمعوا لكم ليردوكم أو يؤذوكم فاخشوهم ، زادهم ذلك إيمانا وإيقانا ، وتحققوا أنهم على الجادة ، لسلوكهم على منهاج من قبلهم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا الآية ، واكتفوا بعلم اللّه ونظره وبرعايته ونصره ، فانقلبوا بنعمة الشهود ، وفضل الترقي فى عظمة الملك الودود ، لم يمسسهم فى باطنهم سوء ولا نقصان ، واستوجبوا من اللّه الرضى والرضوان ، وإنما ذلكم شيطان يردهم عن مقام الشهود والعيان ، فلا ينبغى لهم أن يخافوا ومطلبهم مقام الإحسان ، الذي تبذل فى طلبه الأرواح والأبدان. وباللّه التوفيق.

ثم هوّن شأن الكفار ، وأمّن المسلمين من ضررهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٧٦ الى ١٧٧]

وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)

قلت : حزن يحزن كبلغ يبلغ ، وأحزن يحزن ، كأكرم يكرم ، لغتان ، والأولى أفصح.

يقول الحق جل جلاله : ولا يهولك شأن الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ أي : يبادرون إلى الوقوع فيه ، كالمنافقين أو الكفار جميعا ، فلا تخف ضررهم إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً أي : لن يضروا أولياء الله ، وإنما يرجع ضررهم إلى أنفسهم. يُرِيدُ اللَّهُ - بسبب ما أظهر فيهم من المسارعة إلى الكفر - أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ثواب الْآخِرَةِ لمّا سبق لهم من الشقاء ، حتى يموتوا على الكفر. وفى ذكر الإرادة إشعار بأن كفرهم بلغ الغاية ، حتى أراد أرحم الراحمين ألّا يكون لهم حظ من رحمته. وَلَهُمْ مع ذلك عَذابٌ عَظِيمٌ.

ثم كرر شأنهم تأكيدا فقال : إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ أي : استبدلوا الإيمان الذي ينجيهم من العذاب ، لو دخلوا فيه ، بالكفر الذي يوجب العذاب ، لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ موجع ، أو يكون فى الكفار أصالة ، وهذا فى المرتدين ، واللّه تعالى أعلم.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٠
الإشارة : إنكار العوام على الخصوص لا يضرهم ، ولا يغض من مرتبتهم ، بل يزيدهم رفعة وعلوا وعزا وقربا ، قال تعالى : لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وسمعت شيخنا البوزيدى رضي اللّه عنه يقول :
«كلام الناس فى الولي كناموسة نفخت على جبل». أي : لا يلحقهم من ذلك إلا ما يلحق الجبل من نفخ الناموسة ، يريد اللّه ألا يجعل لهم من نصيب القرب شيئا ، ولهم عذاب البعد والنصب ، فى غم الحجاب وسوء الحساب ، لا سيما من تمكن من معرفتهم ، ثم استبدل صحبتهم بصحبة العوام ، فلا تسأل عن حرمانه التام ، والعياذ باللّه.
ثم لا يدل إمهال الكافرين وتمتعهم بطول الحياة على إرادة الخير لهم ، بل إنما ذلك استدراج وزيادة فى الإثم ، كما أشار إلى ذلك بقوله :
[سورة آل عمران (٣) : آية ١٧٨]
وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (١٧٨)
قلت : من قرأ بالتحتية ، فالذين كفروا : فاعل ، و(أن) وما بعدها : سد مسد المفعولين ، ومن قرأ بالفوقية فالذين : مفعول أول ، و(إنما) : سد مسد الثاني ، و(ما) : مصدرية ، والإملال : الإمهال والتأخير. ومنه : وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا أي : حينا طويلا.
يقول الحق جل جلاله : ولا يظنن الذين كفروا أن إمهالى لهم وإمدادهم بطول الحياة ، هو خير لهم ، إنما نمهلهم استدراجا لِيَزْدادُوا إثما وعقوبة ، وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ يهينهم ، ويخزيهم يوم يعز المؤمنين.
الإشارة : إمهال العبد وإطالة عمره ، إن كانت أيامه مصروفة فى الطاعة واليقظة ، وزيادة المعرفة ، فإطالتها خير ، والبركة فى العمر إنما هى بالتوفيق وزيادة المعرفة ، وفى الحكم : «من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمان مالا تدركه العبارة ولا تلحقه الإشارة». وإن كانت أيام العمر مصروفة فى الغفلة والبطالة وزيادة المعصية ، فالموت خير منها. وقد سئل - عليه الصلاة والسلام - أىّ الناس خير؟ قال : «من طال عمره وحسن عمله ، قيل فأىّ النّاس شر؟ قال : من طال عمره وساء عمله». واللّه تعالى أعلم.

(٤٤٠/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤١
ولمّا قال عليه الصلاة والسلام : «إنّ اللّه أطلعنى على من يؤمن بي ممن يكفر». قال المنافقون : نحن

معه ولا يعرفنا ، فأنزل اللّه تعالى :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٧٩]

ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)

قلت : ماز يميز ، وميّز يميّز ، بمعنى واحد ، لكن فى ميّز معنى التكثير.

يقول الحق جل جلاله لعامة المؤمنين والمنافقين : ما كانَ اللَّهُ ليترك الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ من الاختلاط ، ولا يعرف مخلصكم من منافقكم ، بل لا بد أن يختبركم حتى يتميز المنافق من المخلص ، بالوحى أو بالتكاليف الشاقة ، التي لا يصبر عليها إلا المخلصون ، كبذل الأموال والأنفس فى سبيل اللّه ، ليختبر به بواطنكم ، ويستدل به على عقائدكم ، أو بما ظهر فى غزوة أحد من الأقوال والأفعال التي تدل على الإيمان أو النفاق ، وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ حتى تعرفوا ما فى القلوب من كفر أو إيمان ، أو تعرفوا : هل تغلبون أو تغلبون. وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي لرسالته مَنْ يَشاءُ ، فيوحى إليه ويخبره ببعض المغيبات ، أو ينصب له ما يدل عليها ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ الذي اختص بعلم الغيب الحقيقي ، وآمنوا برسله الذين اختارهم لأسرار الغيوب ، لا يعلمون إلا ما علّمهم.

روى أن الكفرة قالوا : إن كان محمد صادقا فليخبرنا : من يؤمن منا ومن يكفر؟ فنزلت الآية. وقيل : سببها ما تقدم من قول المنافقين ، ووجه المناسبة : هو ما صدر منهم يوم أحد من المقالات التي ميزتهم من المؤمنين.

وَإِنْ تُؤْمِنُوا إيمانا حقيقيا وَتَتَّقُوا النفاق والشرك فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ عند اللّه.

الإشارة : من سنة اللّه فى المتوجهين إليه إذا كثروا ، وظهرت فيهم دعوى القوة ، أرسل اللّه عليهم ريح التصفية ، فيثبت الصحيح ، والخاوي تذروه الريح ، وما كان اللّه ليذرهم على ما هم عليه من غير اختبار ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، أي : من همّته اللّه ومن همّته سواه ، وما كان اللّه ليطلعكم على الغيب حتى يعلموا من يثبت ممن يرجع ، أو يعلموا ما يلحقهم من الجلال والجمال ، وإنما ذلك خاص بالرسل عليهم السلام ، وقد يطلع على شيء من ذلك بعض خواص ورثتهم الكرام ، فالواجب على المريد أن يؤمن بالقدر المغيب ، ولا يستشرف على الاطلاع عليه «استشرافك على ما بطن فيك من العيوب ، خير من استشرافك على ما حجب عنك من الغيوب». (و إن تؤمنوا) بمواقع القضاء والقدر ، (و تتقوا) القنوط والكدر ، (فلكم أجر عظيم).

ولمّا كان البخل هو معيار المخلصين من المخلطين ، ذكره بإثر تمييز المؤمنين من المنافقين ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : آية ١٨٠]
وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)
قلت : من قرأ بالخطاب فالموصول مفعول أول ، و(خيرا) : مفعول ثان ، والضمير للفصل ، والخطاب للرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، ولا بد من حذف مضاف ، أي : لا تحسبن بخل الذين يبخلون خيرا لهم ، ومن قرأ بالغيب ف - (الذين) :
فاعل ، والمفعول الأول محذوف ، لدلالة (يبخلون) عليه ، لا يحسبن البخلاء بخلهم خيرا لهم ، والطوق : ما يدار بالعنق.
يقول الحق جل جلاله : ولا يظنن الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ من الأموال ، فلم يؤدوا زكاتها ، أن بخلهم خير لهم ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ لاستجلابه العذاب إليهم ، ثم بيّنه بقوله : سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ أي : يلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق للعنق ، وقيل : يطوق به حقيقة ، لقوله عليه الصلاة والسلام :
«ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا إذا كان يوم القيامة - مثّل له شجاعا أقرع ، له زبيبتان ، يطّوقه ، ثم يأخذ بلهزمتيه - أي : شدقيه - يقول : أنا كنزك ، أنا مالك ، ثم تلا هذه الآية : وَلا يَحْسَبَنَّ ...».
وقيل : يجعل يوم القيامة فى أعناقهم طوقا من نار.
والمال الذي بخل به هو للّه ، وسيرجع للّه ، وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فهو الذي يرث الأرض ومن عليها ، فكيف يبخل العبد بمال اللّه ، وهو يعلم أنه يرجع للّه ، فيموت ويتركه لمن يسعد به! وللّه در القائل ، حيث قال :
يا جامع المال كم تضرّ به تطمع باللّه فى الخلود معه
هل حمل المال ميّت معه؟ أما تراه لغيره جمعه؟!
وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لا يخفى عليه منعكم ولا إعطاؤكم ، فيجازى كلّا بعمله.
الإشارة : لا يحسبن الذين يبخلون بما أتاهم اللّه من فضل الرئاسة والجاه ، أن يبذلوها فى طلب معرفة اللّه ، وبذلها : إسقاطها وإبدالها بالخمول ، والذل للّه ، وإسقاط المنزلة بين عباد اللّه ، فلا يظنون أن بخلهم بذلك خير لهم ، بل هو شر لهم ، سيلزمون وبال ما بخلوا به يوم القيامة ، حين يرون منازل المقربين كالشمس الضاحية فى أعلى عليين ، وهم مع عوام أهل اليمين ، محجوبون عن شهود رب العالمين ، إلا فى وقت مخصوص وحين.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٣

فمن بخل بماله حشر مع الفجار ، ومن بخل بنفسه وجاهه ، وبذل ماله ، حشر مع الأبرار ، ومن بذلهما معا حشر مع المصطفين الأخيار ، ومنتهى الملك للّه الواحد القهار ، وهو الغنى بالإطلاق. فمن وصفه بضد ذلك كان من أهل البعاد والشقاق. وإلى ذلك أشار بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٨١ الى ١٨٣]

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ ما قالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٨٣)

قلت : (و قتلهم) : معطوف على (ما) المفعولة أو النائبة عن الفاعل ، على القرائتين رفعا ونصبا ، و(أن اللّه) :

عطف على (ما) أي : ذلك العذاب بسبب ما قدمتم وبأن اللّه منتف عنه الظلم ، فلا بد أن يعاقب المسيئ ويثيب المحسن ، (الذين قالوا إن اللّه عهد إلينا) : صفة للذين (قالوا إن اللّه فقير) ، أو بدل منه مجرور مثله.

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ اليهود الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ وقائله : فنحاص بن عازوراء ، فى جماعة منهم ، وذلك أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كتب مع أبى بكر إلى يهود بنى قينقاع ، يدعوهم إلى الإسلام ، وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يقرضوا اللّه قرضا حسنا ، فدخل أبو بكر رضي اللّه عنه مدراسهم «١» ، فوجد خلقا كثيرا اجتمعوا إلى فنحاس ، وهو من علمائهم - ومعه حبر آخر اسمه : (أيشع) ، فقال أبو بكر لفنحاص : اتق اللّه وأسلم ، فو اللّه إنك لتعلم أن محمدا رسول اللّه ، قد جاءكم بالحق من عند اللّه ، فأسلم وصدّق ، وأقرض اللّه قرضا حسنا يدخلك الجنة ، فقال فنحاص لعنه اللّه : يا أبا بكر تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا ، وما يستقرض إلا الفقير من الغنى ، ولو كان غنيا ما استقرض ، فلطمه أبو بكر رضي اللّه عنه وقال : لو لا ما بيننا من العهد لضربت عنقك ، فشكاه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال له : عليه الصلاة والسلام : - «ما حملك على ما فعلت؟» فقال :

يا رسول اللّه ، إن عدو اللّه قال قولا عظيما ، زعم أن اللّه فقير ، وهم أغنياء ، فجحد ما قال ، فنزلت الآية تكذيبا له.

---

(١) راجع معنى المدراس فى التعليق على تفسير الآية/ ١٠٩ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٤
والمعنى : أن اللّه سمع مقالتهم الشنيعة ، وأنه سيعاقبهم عليها ، ولذلك قال : سَنَكْتُبُ ما قالُوا أي : سنسطرها عليهم فى صحائف أعمالهم ، أو سنحفظها فى علمنا ولا نهملها ، لأنها كلمة عظيمة ، فيها الكفر باللّه والاستهزاء بكتاب اللّه وتكذيب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ولذلك نظمت مع قتلهم الأنبياء ، حيث عطفه عليه ، وفيه تنبيه على أن قولهم الشنيع ليس هو أول جريمة ارتكبوها ، وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد أمثال هذا القول منه.
ثم ذكر عقابهم ، فقال : وَنَقُولُ لهم يوم القيامة : ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ أي : المحرق ، والذوق : يطلق على إدراك المحسوسات كالمطعومات ، والمعنويات كما هنا ، وذكره هنا لأن عذابهم مرتب على قولهم الناشئ عن البخل ، والتهالك على المال ، وغالب حاجة الإنسان إليه ، لتحصيل المطاعم ، ومعظم بخله للخوف من فقده.
ذلِكَ العذاب بسبب ما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ من قتل الأنبياء ، وقولكم هذا ، وسائر معاصيكم ، وعبّر بالأيدى لأن غالب الأعمال بهن ، وبأن اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ بل يجازى كلّ عبد بما كسب من خير أو شر ، فأنتم ظلمتم أنفسكم.
ثم إن قوما منهم ، وهو كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب وفنحاص ووهب بن يهوذا ، أتوا النبيّ صلّى اللّه عليه وسلم فقالوا : يا محمد تزعم أن اللّه بعثك إلينا رسولا ، وإن اللّه قد عهد إلينا فى التوراة ، ألّا نؤمن لرسول يزعم أنه نبى حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، فإن جئتنا به صدقناك ، فأنزل اللّه فيهم تكذيبا لهم : الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا فى التوراة وأوصانا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ كصدقة أو نسيكة ، تَأْكُلُهُ النَّارُ كما كانت لأنبياء بنى إسرائيل.
وذلك أن القرابين والغنائم كانت حراما على بنى إسرائيل ، وكانوا إذا قرّبوا قربانا ، أو غنموا غنيمة ، فتقبل منهم ، ولم يغل من الغنيمة ، نزلت نار بيضاء من السماء ، فتأكل ذلك القربان أو الغنيمة ، فيكون ذلك علامة على القبول ، وإذا لم يتقبل بقي على حاله ، وهذا من تعنتهم وأباطيلهم ، لأن أكل القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة ، وسائر المعجزات فى ذلك سواء ، فلذلك ردّ عليهم بقوله : قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ أي :
المعجزات الواضحات ، وَبِالَّذِي قُلْتُمْ من أكل النار القربان ، فكذبتموهم وقتلتموهم كزكريا ويحيى وغيرهما ، فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى دعواكم أنه ما منعكم من الإيمان إلا عدم ظهور هذه المعجزة ، فما لكم لم تؤمنوا بمن جاء بها حتى قتلتموه؟ واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : ما زالت خواص العامة مولعة بالإنكار على خواص الخاصة ، يسترقون السمع منهم ، إذا

سمعوا كلمة لم يبلغها علمهم ، وفيها ما يوجب النقص من مرتبتهم ، حفظوها ، وحرفوها ، وأذاعوها ، يريدون بذلك إطفاء نورهم ،

(٤٤٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٥

وإظهار عوراهم ، واللّه حفيظ عليهم ، سيكتب ما قالوا وما قصدوا من الإنكار على أوليائه ، ويقول لهم : ذوقوا عذاب البعد والحجاب. ومما يتشبثون به فى الإنكار عليهم : اقتراحهم الكرامات التي كانت للأولياء قبلهم ، ويقولون :

لانصدق بهم حتى يأتوا بما أتى به فلان وفلان ، فقد كان من قبلهم يطعنون فيهم مع ظهور ذلك عليهم ، كما هو سنة اللّه فيهم. (و اللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم).

ثم سلّى الحقّ نبيه - عليه الصلاة والسلام - بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٨٤]

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُ بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

قلت : (الزبر) : جمع زبور ، بمعنى مزبور ، أي : مكتوب ، من زبرت ، أي : كتبت ، وكل كتاب فهو زبور ، وقال امرؤ القيس :

لمن طلل أبصرته فشجانى كخطّ زبور فى عسيب يمان

يقول الحق جل جلاله ، فى تسلية رسوله - عليه الصلاة والسلام - من تكذيب اليهود وغيرهم له : فَإِنْ كَذَّبُوكَ فليس ذلك ببدع فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مثلك مِنْ قَبْلِكَ جاءوا قومهم بالمعجزات البينات ، وبالكتب المنزلات ، فيها مواعظ زاجرات ، وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ المشتمل على الأحكام الشرعيات.

الإشارة : كما كذبت الأنبياء كذبت الأولياء ، بعد أن ظهر عليهم من العلوم الباهرة والحكم الظاهرة والكرامات الواضحة ، وأعظمها المعرفة ، وهذه سنة ماضية ، ولن تجد لسنة اللّه تبديلا.

وعند اللّه تجتمع الخصوم فيظهر المحق من المبطل ، وتوفى كل نفس ما أسلفت ، وتعلم علم يقين ما أظهرت وأضمرت ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٨٥]

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)

قلت : (زحزح) : بوعد ، والزحزحة : الجذب والإخراج بعجلة.

يقول الحق جل جلاله : كل نفس منفوسة لا بد أن تذوق حرارة الموت ، وتسقى كأس المنون ، وإنما توفون جزاء أعمالكم يوم القيامة ، يوم قيامكم من القبور ، خيرا كان أو شرا.

(٤٤٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٦
قال البيضاوي : ولفظ التوفية يشعر بأنه قد يكون قبلها بعض الأجور ، أي : توفية بعض الأجور ، ويؤيده قوله صلّى اللّه عليه وسلم : «القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار» ، فَمَنْ زُحْزِحَ أي : بوعد عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ بالنجاة ونيل المراد ، وعنه صلّى اللّه عليه وسلم : «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيّته وهو يؤمن باللّه واليوم الآخر ، ويأتى إلى الناس ما يحبّ أن يؤتى إليه».
وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا وزخارفها ولذاتها إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ فإن الغار - وهو المدلّس - يظهر ما هو حسن من متاعه ، ويخفى ما هو معيب ، كذلك الدنيا تبتهج لطالبها ، وتظهر له حلاوتها وشهواتها ، حتى تشغله عن ذكر اللّه وعن طاعته ، فيؤثرها على آخرته ، ثم يتركها أحوج ما يكون إليها ، فينقلب نادما متحسرا ، وفى ذلك يقول الشاعر :
ومن يحمد الدنيا لشيء يسره فسوف للعسر عن قريب يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيرا همومها
الإشارة : النفس ، من حيث هى ، كلها تقبل الموت لمن قتلها وجاهدها ، وإنما وقع التفريط من أربابها ، فمن زحزها عن نار الشهوات ، وقتلها بسيوف المخالفات ، حتى أدخلها جنات الحضرات ، فقد فاز فوزا عظيما ، وربح ربحا كريما. وباللّه التوفيق.
ثم أمر بالصبر على فقد الأموال والإخوان ، وعلى أذى اليهود والمشركين ، فقال تعالى :
[سورة آل عمران (٣) : آية ١٨٦]
لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)
قلت : أصل (تبلونّ) : تبلوون كتنصرون ، ثم قلبت الواو ألفا ، ثم حذفت لالتقاء الساكنين ، فصار تبلونن ، ثم أكد بالنون ، فاجتمع ثلاث نونات ، حذفت نون الرفع فالتقى ساكنان الواو ونون التوكيد ، فحركت الواو بالضمة المجانسة ، وهى النائبة عن الفاعل.
يقول الحق جل جلاله : واللّه لَتُبْلَوُنَّ أي : لتختبرن فِي أَمْوالِكُمْ بما يصيبها من الآفات ، وما كلفتم به

من النفقات ، وَأَنْفُسِكُمْ بالقتل والجراحات ، والأسر والأمراض وسائر العاهات. وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

(٤٤٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٧
الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
اليهود وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا كفار مكة ، أَذىً كَثِيراً كقولهم : إن اللّه فقير ، وهجاء الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، والطعن فى الدين ، وإغراء الكفرة على المسلمين ، أو غير ذلك من الأذى. أعلمهم بذلك قبل وقوعه ، ليتأهبوا للصبر والاحتمال ، حتى لا يروعهم نزولها حين الإنزال. وَإِنْ تَصْبِرُوا على ذلك ، وَتَتَّقُوا اللّه فيما أمركم به ، فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أي : من معزومات الأمور التي يجب العزم عليها ، أو مما عزم اللّه على فعلها ، وأوجبه على عباده. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : كل من دخل فى طريق الخصوص بالصدق والعزم على الوصول ، لا بد أن يبتلى ويختبر فى ماله ونفسه ، ليظهر صدقه فى طلبه ، ولا بد أن يسمع من الناس أذى كثيرا ، فإن صبر ظفر ، وإن رجع خسر ، وهذه سنة اللّه فى عباده : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ ، قال الورتجبي : (لتبلون فى أموالكم) بجمعها ومنعها والتقصير فى حقوق اللّه فيها ، (و أنفسكم) باتباع شهواتها ، وترك رياضتها ، وملازمتها أسباب الدنيا ، وخلوها من النظر فى أمر الميعاد ، وقيل : (لتبلون فى أموالكم) بالاشتغال بها أخذا وإعطاء. هـ.
ثم عاتب الحقّ تعالى اليهود ، ووبّخهم على كتمان الحق وإظهار الباطل ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : آية ١٨٧]
وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ (١٨٧)
قلت : الضمير فى (نبذوه) : يعود على الكتاب ، أو الميثاق.
يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وهم اليهود ، أخذ عليهم العهد ليبينن للناس ما فى كتابهم من صفة النبي صلّى اللّه عليه وسلم ولا يكتمونه ، فنبذوا ذلك العهد أو الكتاب وَراءَ ظُهُورِهِمْ فكتموا صفته - عليه الصلاة والسلام - خوفا من زوال رئاستهم ، وَاشْتَرَوْا بذلك العهد ، أي : استبدلوا به ثَمَناً قَلِيلًا من حطام الدنيا ، وما كانوا يأخذونه من سفلتهم ، فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ ، وهى تجر ذيلها على من كتم علما سئل عنه ، قال عليه الصلاة والسلام : «من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار». وعن على رضي اللّه عنه :

(ما أخذ اللّه على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلّموا). وقال محمد بن كعب : (لا يحل للعالم أن يسكت على علمه ، ولا الجاهل أن يسكت على جهله).

(٤٤٧/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٨

الإشارة : أهل العلم إذا تحققوا بوجود الخصوصية عند ولى ، وكتموا ذلك حسدا وخوفا على زوال رئاستهم ، دخلوا فى وعيد الآية لأنّ العوام تابعون لهم ، فإذا كتموا أو أنكروا تبعوهم على ذلك ، فيحملون أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، واللّه تعالى أعلم.

ولما سأل - عليه الصلاة والسلام - اليهود عن شىء فى التوراة ، وكتموه وأخبروه بغيره ، فخرجوا وقد أروه أنهم أخبروه عما سألهم ، واستحمدوا إليه ففرحوا ، أنزل اللّه فيهم :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٨٨ الى ١٨٩]

لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

قلت : من قرأ بالخطاب ، فالذين : مفعول أول ، والثاني : محذوف ، أي : بمفازة من العذاب ، أو هو المذكور ، و(تحسبنهم) : تأكيد للفعل الأول ، ومن قرأ بالغيب فالذين : فاعل ، والمفعولان : محذوفان ، دلّ عليهما ذكرهما مع الثاني ، أي : لا يحسبوا أنفسهم فائزة. (فلا تحسبنهم) : من قرأ بفتح التاء فالخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - ، والفعل مبنى ، ومن قرأ بالياء فالخطاب للذين يفرحون ، والفعل معرب ، أي : لا يحسبوا أنفسهم بمفازة من العذاب.

يقول الحق جل جلاله : لا تَحْسَبَنَّ يا محمد الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا أي : بما فعلوا من التدليس وكتمان الحق ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا من الوفاء بالعهد ، وإظهار الحق ، والإخبار بالصدق ، أنهم فائزون من العذاب ، فلا تظنهم بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ ، بل لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ موجع ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إن شاء عذب وإن شاء رحم ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فلا يعجزه من ذلك شىء ، أو : لا يظن الذين يفرحون بما أتوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا يحسبون أنفسهم بمفازة من العذاب.

وعن أبى سعيد الخدري رضي اللّه عنه : (أنها نزلت فى المنافقين ، كانوا إذا خرج النبي صلّى اللّه عليه وسلم «١» تخلّفوا ، وإذا قدم اعتذروا ، فإذا قبل عذرهم فرحوا ، وأحبّوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا).

وما تقدم فى التوطئة هو عن ابن عباس. وقال

(١) أي : إلى الغزو. [.....]

(٤٤٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٩

ابن حجر : ولا مانع من أن تتناول الآية كلّ من أتى بحسنة وفرح بها فرح إعجاب ، وأحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بما ليس فيه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا يظن أهل الفرق الذين يسندون الأفعال إلى أنفسهم ، غائبين عن فعل ربهم ، ويحبون أن يحمدهم الناس ويمدحهم بفعل غيرهم ، أنهم فائزون عن عذاب الفرق ، وحجاب العجب ، إذ لا فاعل سوى الحق ، فمن تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك ، فإن فرح العبد بالطاعة من حيث ظهورها عليه ، وهى عنوان العناية - ورأى نفسه فيها كالآلة ، معزولا عن فعلها ، محمولا بالقدرة الأزلية فيها ، فلا بأس عليه ، ويزيد بذلك تواضعا وشكرا ، وإن فرح بها من حيث صدورها منه ، ويتبجح بها على عباد اللّه ، فهو عين العجب ، وفى الحكم : «لا تفرحك الطاعة من حيث إنها صدرت منك ، وافرح بها من حيث إنها هدية من اللّه عليك قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا».

ثم استدل على قدرته المفهومة من (القدير) ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٩٠]

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ (١٩٠)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وإظهارهما للعيان ، لدلائل واضحة على وجود الصانع ، وكمال قدرته ، وعلمه ، لذوى العقول الكاملة الصافية ، الخالصة من شوائب الحس والوهم.

قال البيضاوي : ولعل الاقتصار على هذه الثلاثة فى هذه الآية لأن مناط الاستدلال هو التغير ، وهذه متعرضة لجملة أنواعه ، فإنه - أي التغير - إما أن يكون فى ذات الشيء ، كتغير الليل والنهار ، أو جزئه ، كتغير الناميات بتبدل صورها ، أو لخارج عنها ، كتغير الأفلاك بتبدل أوضاعها ، وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

الإشارة : الخلق هو الاختراع والإظهار ، فإظهار هذه التجليات الأربعة يدل على أن الحقّ - تعالى - تجلى لعباده بين الضدين ، بين النور والظلمة ، بين القدرة والحكمة ، بين الحس والمعنى ، وهكذا خلق من كل زوجين اثنين ، ليقع الفرار من اثنينية حسهما إلى فردية معناهما ، ففروا إلى اللّه ،

فالسموات والنهار نورانيان ، والأرض والليل ظلمانيان ، ففى ذلك دلالة على وحدة المعاني ، فلا تقف

مع الأواني ، وخض بحر المعاني ، لعلك تراني. وباللّه التوفيق.

ثم وصف أولى الألباب الذين يدركون صفاء هذه المعاني ، فقال :

(٤٤٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٥٠

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٩١ الى ١٩٤]

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (١٩٢) رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ (١٩٣) رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ (١٩٤)

يقول الحق جل جلاله ، فى وصف أولى الألباب : هم الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ ، أي : يذكرونه على الدوام ، قائمين وقاعدين ومضطجعين ، وعنه - صلّى اللّه عليه وسلم - : «من أراد أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر اللّه». وقيل : يصلون على الهيئات الثلاث ، حسب الطاقة لقوله عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين ، وكان مريضا : «صلّ قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنبك وتومىء إيماء».

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ استدلالا واعتبارا ، وهو أفضل العبادات قال صلّى اللّه عليه وسلم : «لا عبادة كالتفكر» لأنه المخصوص بالقلب ، والمقصود من الخلق ، وعنه صلّى اللّه عليه وسلم : «بينما رجل مستلق على فراشه فنظر إلى السماء والنجوم ، فقال : أشهد أن لك خالقا ، اللهمّ اغفر لى ، فنظر اللّه إليه فغفر له». وهذا دليل واضح على شرف علم الأصول وفضل أهله. قاله البيضاوي. وسيأتى مزيد من كلام على التفكر فى الإشارة إن شاء اللّه.

فلما تفكروا فى عجائب المصنوعات ، قالوا : رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا أي : عبثا من غير حكمة ، بل خلقته لحكمة بديعة ، من جملتها : أن يكون مبدأ لوجود الإنسان ، وسببا لمعاشه ، ودليلا يدله على معرفتك ويحثه على طاعتك ، لينال الحياة الأبدية ، والسعادة السرمدية فى جوارك ، سُبْحانَكَ تنزيها لك من العبث وخلق الباطل ، فَقِنا عَذابَ النَّارِ التي استحقها من أعرض عن النظر والاعتبار ، وأخل بما يقتضيه من أحكام الواحد القهار ، وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ يمنعونهم من دخول النار. ووضع المظهر موضع المضمر للدلالة على أن ظلمهم سبب لإدخالهم النار ، وانقطاع النصرة عنهم فى دار البوار.

رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ ، وهو الرسول العظيم الشأن ، أو القرآن قائلا : أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ

ووحدوه ، فأجبنا نداءه وآمنا ، رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا الكبائر ، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا الصغائر ، وَتَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ المصطفين الأخيار ، مخصوصين بصحبتهم ، معدودين فى زمرتهم ، وفيه تنبيه على أنهم يحبون لقاء اللّه فأحب اللّه لقاءهم. رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى تصديق رُسُلِكَ من الثواب ، أو على ألسنة

(٤٥٠/١)

رسلك من الفضل والرحمة وحسن المآب ، سألوا ما وعدوا على الامتثال ، لا خوفا من إخلاف الوعد ، بل مخافة ألّا يكونوا موعودين لسوء عاقبة ، أو قصور فى الامتثال ، أو تعبدا ، أو استكانة. قاله البيضاوي.

وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ أي : لا تهنّا بسبب تقصيرنا ، إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي ، أو ميعاد البعث والحساب ، وتكرير رَبَّنا للمبالغة فى الابتهال ، والدلالة على استقلال المطالب وعلو شأنها ، ففى بعض الآثار : (من حزبه أمر فقال خمس مرات : «ربنا» ، أنجاه اللّه مما يخاف). «١» قاله البيضاوي.

الإشارة : قدّم الحق الذكر على الفكر على ترتيب السير ، فإن المريد يؤمر أول أمره بذكر اللسان ، حتى يفضى إلى الجنان ، فينتقل الذكر إلى القلب ، ثم إلى الروح ، وهو الفكر ، ثم إلى السر ، وهو الشهود والعيان ، وهنا يخرس اللسان ، ويغيب الإنسان فى أنوار العيان ، وفى ذلك يقول القائل :

ما إن ذكرتك إلّا همّ يلعننى سرّى وروحى وقلبى عند ذكراك

حتّى كأنّ رقيبا منك يهتف بي : إيّاك : ويحك والتّذكار! إيّاك!

أما ترى الحقّ قد لاحت شواهده وواصل الكلّ من معناه معناك

فإذا بلغ العبد هذا المقام - الذي هو مقام الإفراد - اتحدت عنده الأوراد ، وصار وردا واحدا ، وهو عكوف القلب فى الحضرة بين فكرة ونظرة ، أو إفراد القلب باللّه ، وتغيبه عما سواه.

قال فى الإحياء فى كتاب الأوراد : الموحد المستغرق الهم بالواحد الصمد ، الذي أصبح وهمومه هم واحد ، فلا يحب إلا اللّه ، ولا يخاف إلا منه ، ولا يتوقع الرزق من غيره ، ولا ينظر فى شىء إلا يرى اللّه فيه ، فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة ، لم يفتقر إلى ترتيب الأوراد واختلافها ، بل ورده بعد المكتوبات ورد واحد ، وهو حضور القلب مع اللّه فى كل حال ، فلا يخطر بقلبه أمر ، ولا يقرع سمعه قارع ، ولا يلوح لنظره لائح ، إلّا كان له فيه عبرة وفكرة ومزيد ، فلا محرك ولا مسكن إلا اللّه. فهؤلاء جميع أحوالهم تصلح أن تكون سببا لازديادهم ، فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة ، وهم الذين فروا إلى اللّه كما قال تعالى : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ، وتحقق فيهم قوله :

إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي ، وهذه الدرجة منتهى درجة الصديقين ، ولا ينبغى أن يغتر المريد بما يسمعه من ذلك ، فيدعيه لنفسه ، ويفتر عن وظائف عباداته ، فذلك علامته ألا يحس فى قلبه وسواسا ، ولا يخطر بقلبه معصية ، لا يزعجه هواجم الأحوال ، ولا يستفزه عظائم الأشغال ، وأنى تكون هذه المرتبة!. هـ.

---

(١) حكى القرآن عن أولى الألباب فى هذه الآيات - أنهم قالوا : (ربنا) خمس مرات. وعن الأثر الذي ذكره المصنف - قال المناوى فى الفتح السماوي : لم أقف عليه.

قلت : قوله : [لا يخطر بقلبه معصية] غير لازم لأن قلب العارف مرسى للتجليات النورانية والظلمانية ، لكنها تقل ولا تسكن.

وقال فى موضع آخر : وأما عبادة ذوى الألباب فلا تجاوز ذكر اللّه تعالى والفكر فيه حبا لجلاله وجماله ، وسائر الأعمال تكون مؤكدات. قال : والعامل لأجر الجنة درجته درجة البله ، وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله. هـ. وقال فى كتاب كيمياء السعادة : وقد غلط من ظن أن وظائف الضعفاء كوظائف الأقوياء ، حتى قال بعض مشايخ الصوفية : من رآنى فى الابتداء ، قال : صار صديقا ، ومن رآنى فى الانتهاء ، قال : صار زنديقا ، يعنى أن الابتداء يقتضى المجاهدة الظاهرة للأعين بكثرة العبادات ، وفى الانتهاء يرجع العمل إلى الباطن ، فيبقى القلب على الدوام فى عين الشهود والحضور ، وتفتر ظواهر الأعضاء ، فيظن أن ذلك تهاون بالعبادة «١» ، وهيهات هيهات!! ، فذلك استغراق لمخ العبادات ولبابها وغايتها ، ولكن أعين الخفافيش تكل عن درك نور الشمس. هـ.

قال شيخ شيوخنا - سيدى عبد الرحمن العارف - بعد نقل كلام القشيري فى هذا المعنى : وما أشار إليه ظاهر فى أن أهل القلوب لا يتعاطون كل طاعة. وإنما يتعاطون من الطاعات ما يجمعهم ولا يفرقهم. ولذلك قال الجنيد :

أحب للصوفى ألا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهمه ، قال : وأحب للمريد ألا يشتغل بالتكسب وطلب الحديث لئلا يتغير حاله. هـ. قلت : ومن رزقه اللّه شيخ التربية فما عيّنه له فهو عين ذكره ، يسير به كيفما كان.

هذا ما يتعلق بحال الذكر الذي قدّمه اللّه تعالى ، وأما التفكر فهو أعظم العبادات وأفضل القربات ، هو عبادة العارفين ومنتهى المقربين. وفى الخبر : «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة».

وقال الجنيد رضي اللّه عنه : أشرف المجالس وأعلاها : الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد ،

والتنسم بنسيم المعرفة ، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد ، والنظر لحسن الظن باللّه تعالى. ثم قال : يا لها من مجالس ، ما أجلها ، ومن شراب ما ألذه ، طوبى لمن رزقه. وقال القشيري رضي اللّه عنه : التفكر نعت كل طالب ، وثمرته : الوصول بشرط العلم ، فإذا سلم الفكر عن الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق. هـ.

وسئلت زوجة أبى ذر عن عبادة زوجها ، فقالت : كان نهاره أجمع فى ناحية يتفكر. وكذلك زوجة أبى بكر قالت : كان ليله أجمع فى ناحية يتفكر. وكذا زوجة أبى الدرداء ، وكان سيدنا عيسى عليه السّلام يقول : طوبى لمن كان قيله ذكرا وصمته تفكرا ، ونظره عبرة. وقال الحسن رضي اللّه عنه : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو. هـ.

وقال فى الحكم : (ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة). وقال أيضا : (الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له). وقال أيضا : (الفكرة فكرتان فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان ، فالأولى لأرباب الاعتبار ، والثانية لأرباب الشهود والاستبصار).

---

(١) راجع التعليق على إشارة الآية ٢١٢ من سورة البقرة.

(٤٥٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٥٣

وفكرة الشهود والعيان هى عبادة العارفين ، ولا يحصر ثوابها فى ستين ولا فى سبعين ، بل وقت منها يعدل ألف سنة ، كما قال الشاعر :

كلّ وقت من حبيبى قدره كألف حجّه

فأوقات هؤلاء كلها ليلة القدر ، ومن لم يبلغ هذا المقام فليبك على نفسه على الدوام ، ومن ظفر بها ونالها حق له الهناء ، وفى أمثاله قال القائل :

هم الرّجال وغبن أن يقال لمن لم يتّصف بمعاني وصفهم رجل

حققنا اللّه بمقامهم ، وسقانا من منالهم ، آمين.

وقوله : رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا بل هو ثابت بإثباتك ، ممحوّ بأحدية ذاتك ، فالباطل محال ، وكل ما سواه باطل ، كما قرره الرسول - عليه الصلاة والسلام «١». وقوله : رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا أي : كنا فى الرعيل الأول من أهل الإيمان ، فجعل لنا سبيلا إلى مقام الإحسان ، رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا وهو الوصول إلى العيان. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ما أجابهم به ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٩٥]
فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ (١٩٥)

قلت : (استجاب) : أخص من أجاب ، لأن استجاب مستلزم لفعل ما طلب منه ، وأجاب يصدق بالوعد ، ويتعدى بنفسه وباللام ، و(بعضكم من بعض) : جملة معترضة. قاله البيضاوي فانظره.

يقول الحق جل جلاله : فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فيما طلبوه لأنه لا يرد السؤال ، ولا تخيب لديه الآمال ، ولذلك قال : أَنِّي أي : بسبب أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى لأنكم بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ لأن الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر ، ولأنهما من أصل واحد ، ولفرط الاتصال والاتحاد والاتفاق فى الدين.

---

(١) حين قال صلّى اللّه عليه وسلم : (أصدق كلمة قالها شاعر : ألا كل شىء ما خلا اللّه باطل).
الحديث أخرجه البخاري فى (مناقب الأنصار : باب أيام الجاهلية) ومسلم فى (الشعر) من حديث أبى هريرة.

روى «أنّ أمّ سلمة قالت : يا رسول اللّه ، إنى أسمع اللّه يذكر الرجال فى الهجرة ولم يذكر النساء ، فنزلت. مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى » إلخ.

ثم فصل أعمال العمال ، وما أعد لهم من الثواب فقال : فَالَّذِينَ هاجَرُوا دار الشرك ، وفارقوا الأوطان والأصحاب والعشائر ، وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي بسبب إيمانهم باللّه ، وَقاتَلُوا الكفار ، وَقُتِلُوا أي : ماتوا فى الجهاد. وقرىء بالعكس لأن الواو لا ترتب ، أو قتل بعضهم ، وقاتل الباقون ولم يضعفوا ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أي : لأمحونها ، وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أي : أثيبهم ثوابا من عند اللّه تفضلا وإحسانا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ لا يعجزه شىء.

الإشارة : لما توجهوا إليه بهممهم العلية ، وعزائمهم القوية ، فقرعوا بابه بدوام ذكره ، والتفكر فى عظمة ذاته ، وجميل إحسانه وبره ، وتضرعوا إليه بلسان الذل والانكسار ، وحال الخضوع والاضطرار ، أجابهم ففتح فى وجوههم الباب ، وأدخلهم فى حضرته مع الأحباب ، لأنه يجيب السؤال ، ولا يخيب الآمال ، بعد أن هاجروا الأوطان ، وفارقوا العشائر والإخوان ، إلا من يزيد بهم إلى الرحمن ، فقاتلوا

نفوسهم حتى ماتت فحييت بالوصال ، إلى جوار الكبير المتعال ، قال الشاعر :
إن ترد وصلنا فموتك شرط لا ينال الوصال من فيه فضله
فمحا عن عين بصائرهم سيئات الأغيار ، وطهّر قلوبهم من درن الأكدار ، حتى دخلوا جنة المعارف ، التي لا يحيط بوصفها وصف واصف ، تجرى من تحتها أنهار العلوم ، وتنفتح منها مخازن الفهوم ، ثوابا من عند الحي القيوم واللّه تعالى أعلم.
ولما بسط اللّه الدنيا على اليهود والمشركين ، استدراجا ، قال بعض المؤمنين : إن أعداء اللّه فيما نرى من الخير ، وقد هلكنا من الجوع والجهد ، فأنزل اللّه تعالى :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٩٦ الى ١٩٨]
لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (١٩٧) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ (١٩٨)
قلت : النزل - ويسكن - : ما يقدم للنازل من طعام وشراب وصلة ، وانتصابه : على الحال من (جنات) ، والعامل فيه : الظرف ، أو على المصدر المؤكد ، أي : أنزلوها نزلا.

يقول الحق جل جلاله : لا يَغُرَّنَّكَ أيها السامع أو أيها الرسول ، والمراد : تثبيته على ما كان عليه ، كقوله :
فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ، أي : دم على ما أنت عليه من عدم اغترارك بظاهر ما ترى عليه الكفار من البسط فى الدنيا ، والتقلب فيها بالتجارات والزراعات ، وما هم عليه من الخصب ولين عيش ، فإن ذلك مَتاعٌ قَلِيلٌ بلغة فانية ، ومتعة زائلة ، وظلال آفلة ، وسحابة حائلة. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «ما الدّنيا فى الآخرة إلّا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليمّ ، فلينظر بم يرجع». فلا بد أن يرحلوا عنها قهرا ، ثُمَّ مَأْواهُمْ أي : مصيرهم جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ ما مهدوا لأنفسهم.
والمعتبر عند الأكياس هو ما أعد اللّه للمتقين من الناس ، قال تعالى : لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ وخافوا عقابه ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ، هيأ ذلك لهم وأعده نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هذا النزول الذي يقدم للضيف ، وأما ما أعد لهم بعد النزول فلا يعبر عنه لسان ، ولذلك قال : وَما عِنْدَ اللَّهِ من النعيم الذي لا يفنى ، جسمانى وروحانى ، خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ مما ينقلب إليه الفجار. قيل : حقيقة البر : هو الذي لا يؤذى الذر.

الإشارة : لا يغرنك أيها الفقير ما ترى عليه أهل الدنيا من اتخاذ المنازل المشيدة ، والفرش الممهدة ، فإن الدنيا متاعها قليل ، وعزيزها قليل ، وغنيها فقير ، وكبيرها حقير ، واعتبر بحال نبيك - عليه الصلاة والسلام - .
قال أنس رضي اللّه عنه : دخلت على النبي صلّى اللّه عليه وسلم وهو على سرير مرفل بالشريط - أي : مضفور به - وتحت رأسه وسادة من أدم ، حشوها ليف ، فدخل عليه عمر ، وانحرف النبي صلّى اللّه عليه وسلم انحرافة ، فرأى عمر أثر الشريط فى جنبه ، فبكى ، فقال له النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «ما يبكيك يا عمر»؟ فقال : مالى لا أبكى وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا ، وأنت على الحال الذي أرى ، فقال له النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدّنيا ولنا الآخرة».
رواه البخاري.
وانظر ما أعد اللّه للمتقين الأبرار ، الذين صبروا قدر ساعة من نهار ، فأفضوا الى جوار الكريم الغفار فى دار القرار ، وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ ، ولا سيما العارفين الكبار. قال الورتجبي : بيّن الحق - تعالى - رفعة منزل المتقين فى الجنان ، ثم أبهم لطائف العناية بقوله : وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ أي : ما عنده من نعيم المشاهدة ، ولطائف القربة ، وحلاوة الوصلة ، خير مما هم فيه من نعيم الجنة ، وأيضا : صرح فى هذه الآية ببيان مراتب الولاية ، لأنه ذكر المتقين ، والتقوى : تقديس الباطن عن لوث الطبيعة ، وتنزيه الأخلاق عن دنس

المخالفة ، وذلك درجة الأول من الولاية ، والأبرار أهل الاستقامة فى المعرفة ، وبين أن أهل التقوى فى الجنة ، والأبرار فى الحضرة. هـ.
ولمّا عاتب الحق تعالى ، فيما تقدم ، أهل الكتاب ، وكان فيهم من لا يستحق العتاب لاتباعه الحق والصواب ، أخرجه الحق تعالى بقوله :
[سورة آل عمران (٣) : آية ١٩٩]
وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٩٩)
يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ كعبد اللّه بن سلام وأصحابه ممن أسلم من اليهود ، لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ إيمانا حقيقيا ، وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ من القرآن ، وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ من التوراة ، حال كونهم خاشِعِينَ

لِلَّهِ خاضعين مخبتين وافين بالعهد ، لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا ، كما فعل المحرفون من أحبار اليهود ، أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ أي : ما وعدوا به من تضعيف أجرهم مرتين ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ فيسرع الى توفية أجورهم وإكرام منقلبهم لأن اللّه عالم بالأعمال وما تستوجبه من النوال ، فلا يحتاج إلى تأمل ولا احتياط لأنه غني عن التأمل والاحتياط.

وقيل : نزلت في النصارى : أربعين من نجران ، واثنين وثلاثين من الحبشة ، قدموا على النبي صلّى اللّه عليه وسلم وأسلموا.

وقيل : نزلت في النجاشي ، لما نعاه جبريل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فخرج - عليه الصلاة والسلام - ، وصلى عليه ، فقال المنافقون : انظروا الى هذا ، يصلى على علج «١» نصرانى ، فنزلت الآية. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد رأينا بعض الفقهاء حصل لهم الإيمان بخصوص أهل زمانهم ، فتحققوا بولايتهم ، ونالوا شيئا من محبتهم ، لكن لم تساعفهم الأقدار في صحبتهم ، فظهرت عليهم آثار أنوارهم ، واقتبسوا شيئا من أسرارهم ، فتنورت سريرتهم ، وكملت شريعتهم ، وأظهر عليهم آثار الخشوع ، وأخذوا حظا من التواضع والخضوع ، متخلقين بالقناعة والورع ، قد ذهب عن قلبهم ما ابتلى به غيرهم من الجزع والهلع ، فلا جرم أن هؤلاء لهم أجرهم مرتين : أجر ما تحملوا من الشريعة لنفع العوام ، وأجر ما اكتسبوا من محبة القوم «المرء مع من أحب». وباللّه التوفيق ، وهو الهادي الى سواء الطريق.

---

(١) العلج : الرجل القوى الضخم.

(٤٥٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٥٧

ولمّا كان الصبر من الدّين كالرأس من الجسد ، فلو حصل للناس دائما لم يتوجه العتاب لأحد ، ختم به السورة ، التي عاتب فيها جل العباد ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٢٠٠]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

قلت : المرابطة : أن يربط هؤلاء خيولهم ، وهؤلاء خيولهم ، إرصادا لمن حاربهم ، ثم أطلق على كل مقيم في ثغر يدفع عمن وراءه ، وإن لم يكن له مركب ، إذا كان بنية الدفع عن المسلمين كان بأهله أو وحده. المدار على خلوص النية ، خلاف ما قاله ابن عطية «١» ، وسيأتى صوابه «٢» فى تفسير المعنى ، إن شاء اللّه.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا على مشاق الطاعات ، وما يصيبكم من الشدائد والأزمات ، وعلى مجانبة المعاصي والمخالفات ، وعلى شكر ما أوليتكم من مواهب العطيات وَصابِرُوا أي :

غالبوا الأعداء فى مواطن الصبر ، والثبوت فى مداحض الحرب ، وَرابِطُوا أبدانكم وخيولكم فى الثغور لتحفظوا المسلمين من العدو الكفور ، كى تفوزوا بعظائم الأجور قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من رابط يوما وليلة فى سبيل اللّه كان كعدل صيام شهر وقيامه ، لا يفطر ولا ينفتل «٣» عن صلاته إلا لحاجة ، ومن توفى فى سبيل اللّه - أي : مرابطا فى سبيل اللّه - أجرى اللّه عليه أجره حتى يقضى بين أهل الجنة وأهل النّار». ومما يلحق بالرباط : «انتظار الصّلاة بعد الصّلاة» ، كما فى الحديث.

وَاتَّقُوا اللَّهَ فيما يأمركم به وينهاكم عنه ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ فلاحا لا خسران بعده أبدا.

الإشارة : (يا أيها الذين آمنوا) إيمان أهل الخصوص ، (اصبروا) على حفظ مراسم الشريعة ، (و صابروا) على تحصيل أنوار الطريقة ، (و رابطوا) قلوبكم على شهود أسرار الحقيقة ، أو : اصبروا على أداء العبادة ، وصابروا على تحقيق العبودية ، ورابطوا فى تحصيل العبودة - أي : الحرية - أو : اصبروا على تحقيق مقام الإسلام ، وصابروا على دوام الإيمان ، ورابطوا على العكوف فى مقام الإحسان ، أو : اصبروا على تخليص الطاعات ، وصابروا على رفض الحظوظ والشهوات ، ورابطوا أسراركم على أنوار المشاهدات ، (و اتقوا اللّه) فلا تشهدوا معه سواه ، (لعلكم تفلحون) ، بتحقيق معرفة اللّه. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) قال ابن عطية - بعد كلام - : فأما سكان الثغور دائما بأهليهم الذين يعتمرون ويكتسبون هناك ، فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرابطين.

(٢) فى الأصول : ثوابه.

(٣) انفتل : انصرف.

سورة النّساء

مدنية ، وهى ستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفا. وثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وأربعون كلمة. ومائة وستون آية. قاله الثعلبي. وقال البيضاوي : مائة وخمس وسبعون آية.

ومضمنها : الأمر بحفظ ستة أمور : حفظ الأموال ، وحفظ الأنساب ، وحفظ الأبدان ، وحفظ الأديان ، وحفظ اللسان ، وحفظ الإيمان. بعد أن قدّم الأمر بالتقوى ، التي هى ملاك ذلك كله ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١)

قلت : من قرأ : (و الأرحام) بالنصب ، فعطف على لفظ الجلالة ، أي : اتقوا الأرحام أن تقطعوها ، وقرأ حمزة بالخفض على الضمير من (به) كقول الشاعر :

فاليوم قد بتّ تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والأيّام من عجب «١»

وجمهور البصريين يمنعون العطف على الضمير إلا بإعادة الجار ، فيقولون : مررت به وبزيد. وقال ابن مالك :

وليس عندى لازما إذ قد أتى فى النّظم والنّثر الصّحيح مثبتا.

والنثر الصحيح هو ما قرأ به حمزة ، وهذا هو التوجيه الصحيح ، وأما من جعل الواو للقسم فبعيد.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ أي : جميع الخلق ، اتقوا ربكم فيما كلفكم به ، ثم بيّن موجب التقوى فقال : الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ يعنى آدم ، وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها يعنى حواء ، من ضلع من أضلاعه ، وَبَثَّ أي : نشر مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً أي : نشر من تلك النفس الواحدة بنين وبنات. قال البيضاوي : واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء ، إذ الحكمة تقتضى أن يكنّ أكثر ، وذكر : كَثِيراً

---

(١) البيت أنشده سيبويه ، انظر : شرح ابن عقيل على الألفية ، باب عطف النسق.

حملا على الجمع ، وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التي

من حقها أن تخشى والنعمة الباهرة التي توجب طاعة مولاها. هـ.
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ أي : يسأل بعضكم بعضا فيقول : أسألك بالله العظيم ، وَالْأَرْحامَ أي : واتقوا الأرحام فلا تقطعوها ، فمن قطعها قطعه الله ، ومن وصلها وصله اللّه ، كما فى الحديث. أو تساءلون به وبالأرحام ، فيقول بعضكم لبعض : أسألك بالرحم التي بينى وبينك ، أو بالقرابة التي بينى وبينك. ثم هددهم على ترك ما أمروا به فقال : إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً حافظا مطلعا شهيدا عليكم فى كل حال.

الإشارة : درجهم فى آخر السورة فى مدارج السلوك حتى زجّهم فى حضرة ملك الملوك ، وأمرهم أن يتقوا ما يخرجهم عن مشاهدة ظلمة أنوار الربوبية ، ثم دلاهم فى أول السورة إلى التنزل لآداب العبودية بشهود آثار القدرة الإلهية ، فى النشأة الأولية ، ليعلّمهم الجمع بين آداب المراقبة ودوام المشاهدة ، أو بين الفناء والبقاء.

وقد تكلم ابن جزى هنا على أحكام المراقبة ، فقال : إذا تحقق العبد بهذه الآية وأمثالها ، استفاد مقام المراقبة ، وهو مقام شريف أصله علم وحال ، ثم يثمر حالين. أما العلم : فهو معرفة العبد بأن الله مطلع عليه ، ناظر إليه فى جميع أعماله ، ويسمع جميع أقواله ، ويعلم كل ما يخطر على باله. وأما الحال : فهو ملازمة هذا العلم بالقلب ، بحيث يغلب عليه ولا يغفل عنه. ولا يكفى العلم دون هذه الحال ، فإذا حصل العلم والحال كانت ثمرتهما عند أصحاب اليمين :

الحياء من الله ، وهو يوجب بالضرورة ترك المعاصي والجد فى الطاعات ، وكانت ثمرتهما عند المقربين :

المشاهدة ، التي توجب التعظيم والإجلال لذى الجلال.

وإلى هاتين الثمرتين أشار الرسول صلّى اللّه عليه وسلم بقوله : «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك» ، فقوله :

«أن تعبد الله كأنك تراه» إشارة إلى الثمرة الثانية ، وهى الموجبة للتعظيم ، كمن يشاهد ملكا عظيما فإنه يعظمه إذ ذاك بالضرورة ، وقوله : «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» إشارة إلى الثمرة الأولى ، ومعناه : إن لم تكن من أهل المشاهدة - التي هى مقام المقربين - فاعلم أنه يراك ، فكن من أهل الحياء الذي هو مقام أصحاب اليمين ، فلما فسر الإحسان أول مرة بالمقام الأعلى ، ورأى أن كثيرا من الناس قد يعجزون عنه ، تنزل منه إلى المقام الآخر.

واعلم أن المراقبة لا تستقيم حتى تتقدم قبلها المشارطة والمرابطة ، ويتأخر عنها المحاسبة والمعاتبة ، فأما المشارطة فهى اشتراط العبد على نفسه التزام الطاعة ، وترك المعاصي ، وأما المرابطة فهى معاهدة العبد لربه على ذلك ، ثم بعد المشارطة والمرابطة فى أول الأمر تكون المراقبة ... إلخ.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٦١

وبعد ذلك يحاسب العبد نفسه على ما اشترطه وعاهد عليه ، فإن وجد نفسه قد وفّى بما عاهد عليه الله يحمد الله ، وإن وجد نفسه قد حل عقد المشارطة ونقض عهد المراقبة ، عاقب النفس عقابا شديدا بزجرها عن العودة إلى مثل ذلك ، ثم عاد إلى المشارطة والمرابطة ، وحافظ على المراقبة ، ثم اختبر بالمحاسبة ، وهكذا يكون إلى أن يلقى الله تعالى. انتهى كلامه ، وهو مقتبس من الإحياء. والله تعالى أعلم.

ثم شرع تعالى فى الكلام على حفظ الأموال ، وبدأ بأموال اليتامى ، اعتناء بهم لضعفهم ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٢]

وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً (٢)

قلت : اليتيم : من فقد أباه ، ولا يقال فيه اليتيم عرفا إلا قبل البلوغ ، وهو هنا مجاز ، أي : من كان يتيما ، والحوب :

الإثم ، ويقال فيه : حوبا ، بالضم والفتح ، مع الواو والألف ، مصدر حاب حوبا وحوبا وحابا.

يقول الحق جل جلاله : وَآتُوا أي : أعطوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ إذا بلغوا ، وأنس منهم الرشد ، وسمّاهم يتامى بعد البلوغ اتساعا لقرب عهدهم بالصغر ، حثا على أن يدفع إليهم أموالهم أول بلوغهم ، قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إذا أنس فيهم الرشد ، ويدل على هذا ما قيل فى سبب نزول الآية ، وهو أن رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له ، فلما بلغ طلب مال أبيه ، فمنعه ، فنزلت الآية ، فلما سمعها العم قال : أطعنا الله ورسوله ، ونعوذ بالله من الحوب الكبير. وقيل : إن العرب كانت لا تورّث الصغار مع الكبار ، فأمروا أن يورثوهم ، وعلى هذا يكون اليتيم على حقيقته ، فعلى الأول : الخطاب للأوصياء ، وعلى الثاني : للعرب التي كانت لا تورث الصغار.

ثم قال : وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ أي : لا تتبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم ، أو : لا تأخذوا الرفيع من أموالهم وتعطوا الخبيث مكانها من أموالكم. كان بعضهم يبدل الشاة السمينة من مال اليتيم بالمهزولة من ماله ، والدرهم الطيب بالزائف. وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ مضموما إِلى أَمْوالِكُمْ فتنفقونها معا ، مع أن اليتيم لا يأكل كالكبير ، إلا إذا كان المنفق قدّر أكله ، أو لمصلحة. إِنَّهُ أي : الأكل ، كانَ حُوباً كَبِيراً أي : إثما عظيما.

الإشارة : أمر الحق جل جلاله أغنياء القلوب ، وهم أكابر الأولياء الراسخون فى علم الغيوب ، أن يمنحوا من تعلق بهم من الفقراء والضعفاء ، من الغنى بالله الذي منحهم الله ، حتى لا يلتفتوا إلى سواه ، وأن يقبلوا كل من أتى إليهم من العباد ، سواء كان من أهل المحبة والوداد ، أو من أهل المخالفة والعناد ، ولا يتبدلوا الخبيث بالطيب ، بحيث

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٦٢
يقبلون من وجدوه طيب الأخلاق ، ويردون من وجدوه خبيث الأخلاق ، فإن هذا ليس من شأن أهل التربية النبوية ، بل من شأنهم أن يقبلوا الناس على السوية ، ويقلبوا فيهم الأعيان ، فيقلبون العاصي طائعا ، والكافر مؤمنا ، والغافل ذاكرا ، والشحيح سخيا ، والخبيث طيبا ، والمسيء محسنا ، والجاهل عارفا ، وهكذا لما عندهم من الإكسير ، وهى الخمرة الأزلية ، أي : التي من شأنها أن تقلب الأعيان ، كما قال ابن الفارض رضي اللّه عنه فى وصفها :
تهذب أخلاق النّدامى فيهتدى بها لطريق العزم من لا له عزم
ويكرم من لم يعرف الجود كفّه ويحلم عند الغيظ من لا له حلم
وقوله : وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ يعنى : حتى تتحققوا بوصول الغنى إلى قلوبهم ، فإن تحققتم فخذوا ما بذلوا لكم من أموالهم. والله تعالى أعلم.
ولمّا كان الأولياء ، إذا كانت تحتهم يتيمة لها مال ، وخافوا أن يدخل معهم أجنبى ، تزوجها أو زوجوها من أبنائهم ، حرصا على أكل مالها ، ولا يقسطون لها فى صداقها ، وربما أساءوا عشرتها انتظارا لموتها ، فنهاهم الله عن ذلك بقوله :
[سورة النساء (٤) : آية ٣]
وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ذلِكَ أَدْنى أَلاَّ تَعُولُوا (٣)
قلت : «ما» من شأنها أن تقع على ما لا يعقل ، وهنا وقعت على النساء لقلة عقلهن حتى التحقن بمن لا يعقل «١» و(مثنى وثلاث ورباع) أحوال من (ما) ممنوعة من الصرف للوصف والعدل ، أي : اثنتين اثنتين ، وثلاثا ثلاثا ، وأربعا أربعا.
يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ خِفْتُمْ يا معشر الأولياء ألّا تعدلوا فِي الْيَتامى التي تحت حجركم إذا تزوجتم بهن طلبا لمالهن ، مع قلة جمالهن ، فتهجروهن أو تسيئوا عشرتهن ، فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ من غيرهن ، أو : وإن خفتم ألا تقسطوا فى صداقهن إذا أعجبنكم لمالهنّ - الذي بيدكم - وجمالهن ، فانكحوا غيرهن ، ولا تنكحوهن إلا إذا أعطيتموهن صداق أمثالهن.

---

(١) قوله : (من شأنها أن تقع على ما لا يعقل) ، فيه نظر ، فإن (ما) تقع على العاقل وغير العاقل ، قال تعالى عن الصالحين : «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم» (سورة ص آية ٢٤) وغير ذلك من آيات كثيرة ، بل إن قول الله تعالى : «فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، نص فى أن «ما»

تقع على العاقل.

أما قوله : [حتى التحقن بمن لا يعقل] فينقضه الكثير من الآيات والأحاديث ، قال تعالى : «لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض» (آل عمران ١٩٥) وقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «النساء شقائق الرجال» وللمفسرين فى الآية توجيهات أخر ، أولى من توجيه شيخنا ابن عجيبة ، منها : أن «ما» فى الآية موصولة أو موصوفة. راجع (تفسير : القرطبي – ابن عطيه – الآلولسى).

(٤٦٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٦٣

قالت عائشة – رضى الله عنها – : (هى اليتيمة تكون فى حجر وليها ، فيرغب فى مالها وجمالها ، ويريد أن ينكحها بأدنى صداقها ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما سواهن من النساء.). رواه البخاري.

وقال ابن عباس رضي اللّه عنه : – (إن الرجل منهم كان يتزوج العشرة وأكثر – يعنى قبل التحريم – فإذا ضاق ماله أخذ من مال يتيمه) ، فقال لهم : إن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى – أي : فى أموالهن – فانكحوا ما طاب لكم من غيرهن (مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ أي : اثنتين اثنتين لكل واحد ، أو ثلاثا ثلاثا ، أو أربعا أربعا ، ولا تزيدوا ، فمنع ما كان فى الجاهلية من الزيادة على الأربع ، وهو مجمع عليه بنص الآية ، ولا عبرة بمن جوّز تسعا لظاهر الآية لأن المراد التخيير بين تلك الأعداد ، لا الجمع ، ولو أراد الجمع لقال تسعا ، ولم يعدل عن ذلك إلى ما هو أطول منه وأقل بيانا.

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا بين الاثنتين أو الثلاث أو الأربع ، فاقتصروا على واحدة ، أو على ما ملكت أيمانكم من قليل أو كثير إذ لا يجب العدل بينهن ، ذلِكَ الاقتصار على الواحدة أَدْنى أي : أقرب أَلَّا تَعُولُوا أي :

تجوروا أو تميلوا ، أو ألا تجاوزوا ما فرض عليكم من العدل ، أو أدنى ألا يكثر عيالكم فتفتقروا ، وهى لغة حمير. والله تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن الحق تعالى جعل أولياءه أصنافا عديدة فمنهم من غلب عليه فيض العلوم ، ومنهم من غلب عليه هجوم الأحوال ، ومنهم من غلب عليه تحقيق المقامات. قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه : كان الجنيد رضي اللّه عنه قطبا فى العلوم ، وكان أبو يزيد رضي اللّه عنه قطبا فى الأحوال ، وكان سهل بن عبد الله قطبا فى المقامات. هـ. أي : كل واحد غلب عليه واحد من ذلك ، مع مشاركته للآخر فى الباقي ، فينبغى لكل واحد أن يخوض فى فنّه الذي خصّه الله به ولا يتصدى لغيره. فقال لهم الحق – جل جلاله – من طريق الإشارة : فإن خفتم يا من غلبت عليهم الأحوال أو

المقامات ، ألّا تقسطوا فى يتامى العلوم التي اختص بها غيركم ، فانكحوا ما طاب لكم من ثيبات الأحوال وأبكار الحقائق ، كثيرة أو قليلة ، فإن خفتم أن تغلبكم الأحوال ، أو التنزل فى المقامات ، ولا تعدلوا فيها ، فالزموا حالة واحدة ومقاما واحدا ، وهو المقام الذي ملكه وتحقق به ، فإنه أقرب ألا ينحرف عن الاعتدال لأن كثرة الأحوال تضر بالمريد كما هو مقرر فى فنه. والله تعالى أعلم.

ولمّا أمر بالنكاح أمر ببذل الصداق ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٤]

وَآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (٤)

قلت : نِحْلَةً : مصدر من آتوهن ، لأنها فى معنى الإيتاء ، يقال : نحله كذا نحلة ونحلا إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض ولا حكم حاكم ، والضمير فى «منه» يعود على الصداق أو على «الإيتاء» ، و(نفسا) تمييز ، و(هنيئا مريئا) : صفتان لمصدر محذوف ، أي : أكلا هنيئا ، وهو من هنؤ الطعام ومرؤ ، إذا كان سائغا لا تنغيص فيه ، وقيل الهنيء : ما يلذه الإنسان ، والمريء : ما تحمد عاقبته.

يقول الحق جل جلاله للأزواج : وَآتُوا النِّساءَ التي تزوجتموهن صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً أي : عطية مبتلة «١» ، لا مطل فيها ولا ظلم ، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ من الصداق ، وأعطينه لكم عن طيب أنفسهن فَكُلُوهُ هَنِيئاً لاتبعة عليكم فيه ، مَرِيئاً : سائغا حلالا لا شبهة فيه ، روى أن ناسا كانوا يتحرّجون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئا ، فنزلت. وقيل : الخطاب للأولياء ، لأن بعضهم كان يأكل صداق محجورته ، فأمروا أن يعطوهن صداقهن ، إلا إن أعطينهم شيئا عن طيب أنفسهن ، والله تعالى أعلم.

الإشارة : وآتوا النفوس حقوقها من الراحة وقوت البشرية ، نحلة ، ولا تكلفوها فوق طاقتها ، فإن طبن لكم عن شيء من الأعمال أو الأحوال ، بانشراح صدر ونشاط ، فكلوه هنيئا مريئا ، فإنّ العبادة مع النشاط والفرح بالله أعظم وأقرب للدوام ، وهذا فى حق النفوس المطمئنة ، وأما النفوس الأمارة فلا يناسبها إلا قهرية المجاهدة مع السياسة لئلا تمل ، أو تقول : من أقامه الحق تعالى فى حال من الأحوال أو مقام من المقامات فليلزمه ، وليقم حيث أقامه الحق ، ويعطيه حقه ، فإن طاب وقته لحال من الأحوال فليأكله هنيئا مريئا. فالفقير ابن وقته ، ينظر ما يبرز له فيه من رزقه ، فكل ما وجد فيه قلبه فهو رزقه ، فليبادر إلى أكله لئلا يفوته رزقه منه. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم نهى الأوصياء عن تمكين اليتامى من أموالهم قبل الرشد ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٥]

وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٥)

قلت : «قيما» : «٢» مصدر قام قياما وقيما ، وأصله : قواما ، قلبت الواو ياء.

---

(١) البتل : القطع

(٢) قرأ نافع وابن عامر «قيما» وقرأ الجمهور «قياما».

(٤٦٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٦٥

يقول الحق جل جلاله للأوصياء : وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ التي تحت حضانتكم أَمْوالَكُمُ أي : أموالهم التي فى أيديكم ، وإنما أضاف أموال اليتامى لهم حثا على حفظها وتنميتها كأنها مال من أموالهم ، أي : ولا تمكنوا السفهاء من أموالهم التي جعلها الله فى أيديكم قِياماً لمعاشهم ، تقومون بها عليهم ، ولكن احفظوها ، واتجروا فيها ، واجعلوا رزقهم وكسوتهم فيها باعتبار العادة ، فإن طلبوها منكم فعدوهم وعدا جميلا ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً أي : كلاما لينا بأن يقول له : حتى تكبر وترشد لتصلح للتصرف فيها. وشبه ذلك. وإنما قال : (و ارزقوهم فيها) دون «منها» لأن «فيها» يقتضى بقاءها بالتنمية والتجارة حتى تكون محلا للرزق والكسوة دون «منها» ، وقيل :

الخطاب للأزواج ، نهاهم أن يعمدوا إلى ما خولهم اللّه من المال فيعطوه إلى نسائهم وأولادهم ، ثم ينظرون إلى أيديهم. وإنما سمّاهن سفهاء استخفافا بعقلهن ، كما عبر عنهن ب - «ما» التي لغير العاقل «١».

وروى أبو أمامة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إنما خلقت النار للسفهاء - قالها ثلاثا - ألا وإن السفهاء النساء إلا امرأة أطاعت قيّمها «٢»». وقالت امرأة : يا رسول الله : سميتنا السفهاء! فقال : «الله تعالى سماكن فى كتابه» «٣» ، يشير إلى هذه الآية. وقال أبو موسى الأشعري رضي اللّه عنه : (ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم : رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها «٤» ، ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه ، ورجل أعطى سفيها ماله ، وقد قال الله تعالى : وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ.) قلت : إنما منعوا من إجابة الدعاء لتفريطهم فى مراسم الشريعة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : لا ينبغى للشيخ أن يطلع المريد على أسرار التوحيد ، وهى أسرار المعاني التي جعلها الله تعالى قائمة بالأشياء ، حتى يكمل عقله ، ويتحقق أدبه ، ويظهر صدقه ، فإذا استعجلها قبل وقتها

فليعده وعدا قريبا ، وليقل له قولا معروفا ، فكم من مريد استعجل الفتح قبل إبانه فعوقب بحرمانه ، وكم من مريد اطلع على أسرار الحقيقة قبل كمال خدمته فطرد أو قتل ، ووقتها هو حين تبرز معه فتأخذه الحيرة ، اللهم إلا أن يراه الشيخ أهلا لحملها لرجحان عقله وكمال صدقه ، فيمكنه منها قبل أن تبرز معه ، ثم يربيه فيها ، وهذا الذي شهدناه من أشياخنا لشدة كرمهم - رضى الله عنهم وأرضاهم - ورزقنا حسن الأدب معهم ، فأطلق الحق تعالى الأموال بطريق الإشارة على أسرار المعاني ، وأمر الشيوخ أن يرزقوهم منها شيئا فشيئا بالتدريب والتدريج ، وأن يكسوهم بالشرائع ، ويحتمل أن تبقى الأموال

---

(١) راجع التعليق على تفسير الآية الثالثة من سورة النساء.

(٢) ذكره بنحوه ابن كثير فى تفسيره ، وعزاه لابن أبى حاتم.

(٣) ذكره الآلوسى فى تفسيره من رواية مجاهد وابن عمر عن أنس. وقال الطبرسي : (لى فى صحته شك). [.....]

(٤) يحمل سوء الخلق هنا على ما يطعن فى العفة والحياء. وإلّا فظاهر هذا الكلام مخالف لقول النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها آخر»

على ظاهرها ، ويكون أمر الشيوخ أن يمنعوا المريدين من أخذ الأموال قبل التمكين. أشار إلى هذا الورتجبي ، فانظره.

ثم ذكر الحق تعالى وقت دفع أموال اليتامى لهم ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٦]

وَابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (٦)

قلت : الابتلاء : الاختبار ، و«آنس : » أبصر. والرشد هو كمال العقل بحيث يعرف مصالح نفسه وتدبير ماله من غير تبذير ولا إفساد. وإِسْرافاً وَبِداراً : حالان من «الواو» ، أو مفعولان لأجله ، و(أن يكبروا) مفعول ببدارا.

يقول الحق جل جلاله للأوصياء : واختبروا الْيَتامى قبل البلوغ بتتبع أحوالهم فى تصرفاتهم ، بأن يدفع

لهم الدرهم والدرهمان ، فإن ظهر عليهم حسن التصرف زادهم قليلا قليلا ، وإن ظهر عليهم التبذير كفّ عنهم المال ، حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ ، وهو البلوغ بعلامته ، فَإِنْ آنَسْتُمْ أي : أبصرتم مِنْهُمْ رُشْداً ، وهو المعرفة بمصالحه وتدبير ماله ، وإن لم يكن من أهل الدين - واشترطه قوم ، فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ حينئذ أَمْوالَهُمْ من غير تأخير. وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا أي : لا تأكلوها مسرفين ومبادرين كبرهم فتزول من يدكم ، أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم ، وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ عن أكلها فى أجرة قيامه بها ، وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ بقدر حاجته وأجر سعيه ، وعنه صلّى اللّه عليه وسلم : أنّ رجلا قال له : إنّ فى حجرى يتيما أفآكل من ماله؟

قال : «بالمعروف ، غير متأثّل «١» مالا ولا واق مالك بماله».

فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا فى قبضها منكم عَلَيْهِمْ ، فإنه أنفى للتهمة وأبعد من الخصومة ، وهو ندب ، وقيل : فرض ، فلا يصدق فى الدفع إلا ببينة ، وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً أي : محاسبا ، فلا تخالفوا ما أمرتم به ، ولا تجاوزوا ما حدّ لكم.

وإنما قال : «حسيبا» ولم يقل : «شهيدا» ، مع مناسبته ، تهديدا للأوصياء لئلا يكتموا شيئا من مال اليتامى ، فإذا علموا أن الله يحاسبهم على النقير والقطمير ، ويعاقبهم عليه ، انزجروا عن الكتمان. والله تعالى أعلم.

---

(١) أي : غير جامع.

الإشارة : ينبغى للشيخ أن يختبر المريد فى معرفته وتحقيق بغيته ، فإذا بلغ مبلغ الرجال وتحققت فيه أوصاف الكمال ، بحيث تحقق فناؤه ، وكمل بقاؤه ، وتمت معرفته ، فيكون تصرفه كله بالله ومن الله وإلى الله ، يفهم عن الله فى كل شىء ، ويأخذ النصيب من كل شىء ، ولا يأخذ من نصيبه شيئا ، قد تحلّى بحلية الورع ، وزال عنه الجزع والطمع ، وزال عن قلبه خوف الخلق وهمّ الرزق ، واكتفى بنظر الملك الحق ، يأخذ الحقيقة من معدنها ، والشريعة من موضعها ، فإذا تحققت فيه هذه الأمور ، وأنس رشده ، فليطلق له التصرف فى نفسه ، وليأمره بتربية غيره ، إن رآه أهلا لذلك ، ولا ينبغى أن يحجر عليه بعد ظهور رشده ، ولا يسرف عليه فى الخدمة قبل رشده ، مخافة أن يزول من يده.

فإن كان غنيا عن خدمته فليستعفف عنه ، وليجعل تربيته لله اقتداء بأنبياء الله. قال تعالى : قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، وإن كان محتاجا إليها فليستخدمه بالمعروف ، ولا يكلفه

ما يشق عليه ، فإذا دفع إليه السر ، وتمكن منه ، وأمره بالتربية أو التذكير فليشهد له بذلك ، ويوصى بخلافته عنه ، كى تطمئن القلوب بالأخذ عنه ، (و كفى بالله وليا وكفى به نصيرا).

ولما أمر الحق تعالى بحفظ أموال اليتامى أمر بحفظ أموال النساء ، وذكرهن بعدهم لمشاركتّهن لهم فى الضعف ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٧]

لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (٧)

قلت : جملة مِمَّا قَلَّ .. إلخ ، بدل (مما ترك) ، و«نصيبا» : مصدر مؤكد كقوله : فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ أي : نصب لهم نصيبا مقطوعا ، أو حال ، أو على الاختصاص ، أعنى : نصيبا مقطوعا.

يقول الحق جل جلاله : وإذا مات ميت وترك مالا فللرجال نصيب مما ترك آباؤهم وأقاربهم ، وللنساء نصيب مما ترك والدهن وأقاربهن كالإخوة والأخوات ، مما ترك ذلك الميت قل أو كثر ، (نصيبا مفروضا) واجبا محتما.

روى أنّ أوس بن ثابت الأنصارىّ توفّى ، وترك امرأة يقال لها : (أم كحّة) وثلاث بنات ، فأخذ ابنا عمّ الميت المال ، ولم يعطيا المرأة ولا بناته شيئا ، وكان أهل الجاهليّة لا يورّثون النّساء ولا الصغير ولو كان ذكرا ، ويقولون :

إنما يرث من يحارب ويذب عن الموروث ، فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم وهو فى مسجد الفضيخ ، فقالت :

يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات ، وترك بنات ثلاثا ، وأنا امرأته ، وليس عندى ما أنفقه عليهنّ ، وقد ترك أبوهن مالا حسنا ، وهو عند سويد وعرفجة ، فدعاهما النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقالا : يا رسول اللّه ولدها لا يركب فرسا ، ولا يحمل سلاحا ، لا ينكأ عدوّا ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «انصرفوا حتى أرى ما يحدث اللّه تعالى» ، فانصرفوا. فنزلت الآية. فأثبت الله لهن فى الآية حقا ، ولم يبيّن كم هو - فأرسل النبي صلّى اللّه عليه وسلم إلى سويد وعرفجة : «لا تفرقا من مال أوس شيئا ، فإنّ اللّه تعالى جعل لبناته نصيبا ، ولم يبيّن كم هو حتى أنظر ما ينزل اللّه تعالى» ، فأنزل الله تعالى بعد : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ .. إلى قوله ... الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. فأرسل إليهما : «أن ادفعا إلى أم كحة الثّمن ، وإلى بناته الثّلثين ، ولكما باقى المال».

الإشارة : كما جعل الله للنساء نصيبا من الميراث الحسى جعل لهن نصيبا من الميراث المعنوي ، وهو السر ، إن صحبت أهل السر ، وكان لها أبو الروحانية ، وهو الشيخ ، فللرجال نصيب مما ترك لهم أشياخهم من سر الولاية ، وللنساء كذلك على قدر ما سبق فى القسمة الأزلية ، قليلة كانت أو كثيرة ، نصيبا مفروضا معينا فى علم الله وقدره ، وقد سواهن الله تعالى مع الرجال فى آية السير ، فقال : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ إلى آخر الآية ، فمن صار منهن مع الرجال أدرك ما أدركوا. وبالله التوفيق.

ثم أمر الورثة بالإحسان إلى من حضر معهم القسمة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٨]

وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٨)

قلت : الضمير فى (منه) : يعود على المقسوم المفهوم من القسمة.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا حَضَرَ معكم فى قسمة التركة ذوو القرابة ممّن لا يرث ، كالأخوال والخالات والعمات ، وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ ، فَارْزُقُوهُمْ أي : فأعطوهم شيئا من المال المقسوم تطييبا لقلوبهم.

فإن كان المال لغيركم ، أو كان الورثة غير بالغين ، فقولوا لهم قَوْلًا مَعْرُوفاً ، بأن تعلموهم أن المال لغيرنا ، ولو كان لنا لأعطيناكم ، والله يرزقنا وإياكم.

واختلف فى هذا الأمر ، هل للندب - وهو المشهور - أو للوجوب ونسخ بآية المواريث؟ وقيل : لم ينسخ ، وهى مما تهاون الناس بها. والله تعالى أعلم.

(٤٦٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٦٩

الإشارة : يقول الحق جل جلاله لخواص أحبابه : إذا دارت الكؤوس بخمرة الملك القدوس ، وتعاطيتم قسمتها بين أرواحكم حتى امتلأت جميع أشباحكم ، وروت منها عروقكم ، وحضر معكم من ليس من أبناء جنسكم ، ممن لا يحل شرب خمرتكم ، فإن كان من أهل المحبة والوداد ، أو من له بكم قرابة واستناد ، فلا تحرموه من شراب خمرتكم ، ولا من نفحات نسمتكم ، فإنكم قوم لا يشقى جليسكم ، فارزقوه من ثمار علومكم ، واسقوه من شراب خمرتكم ، وذكّروه بالله ، وقولوا له ما يدله على الله ، ويوصله إلى حضرة الله ، وهذا هو القول المعروف ، الذي هو بالنصح موصوف.

روى أن أبا هريرة رضي اللّه عنه نادى فى سوق المدينة : يا معشر التجار ، اذهبوا إلى المسجد ، فإنّ تركة محمد تقسم فيه ، لتأخذوا حقكم منها مع الناس قبل أن تنفد ، فذهب التجّار إلى المسجد النبوي

، فوجدوه معمورا بالناس ، بعضهم يصلى ، وبعضهم يتلو ، وبعضهم يذكر ، وبعضهم يعلم العلم ، فقالوا : يا أبا هريرة ، ليس هنا ما ذكرت من قسم التركة! فقال لهم : (هذه تركة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، لا ما أنتم عليه من جمع الأموال) أو كما قال رضي اللّه عنه.

ثم حثّ الأوصياء على الرفق بأولاد الناس ، الذي هم فى حجرهم ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٩]

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٩)

قلت : «لَوْ» - هنا - شرطية ، تخلص للاستقبال ، وجوابها : (خافُوا) ، وحذف مفعول لْيَخْشَ للعموم ، فيصدق بخشية العذاب وخشية العتاب وخشية البعد عن الأحباب ، على حسب حال المخاطبين بهذه الخشية.

يقول الحق جل جلاله للأوصياء الذين فى ولايتهم أولاد الناس : وَلْيَخْشَ الذين يتولون يتامى الناس ، فليحفظوا ما لهم ، وليحسنوا تنميته لهم ولا يضيعوه ، وليخافوا عليهم الضيعة ، كما يخافون على أولادهم ، فإنهم لو ماتوا وتركوا ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ ، فكما يخافون على أولادهم بعدهم كذلك يخافون على أولاد الناس ، فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ فى شأنهم ، وليحفظوا عليهم أموالهم ، وليرفقوا بهم ويلاطفوهم فى الكلام ، كما يحبون أن يلاطف بأولادهم ، وَلْيَقُولُوا لهم قَوْلًا سَدِيداً أي : عدلا صوابا بالشفقة وحسن الأدب.

وقيل : الخطاب لمن حضر المريض عند الإيصاء فيقولون له : قدم لنفسك ، أعتق ، تصدق ، أعط كذا ، حتى يستغرق ماله ، فنهاهم الحق - تعالى - عن ذلك ، وقال لهم : كما تخافون الضيعة على أولادكم بعدكم خافوا على أولاد الناس ، فليتقوا الله فى أمر المريض بإعطاء ماله كله ، وَلْيَقُولُوا له قَوْلًا سَدِيداً : عدلا ، وهو الثلث ، وقيل :

للمؤمنين كلهم عند موتهم ، بأن ينظروا للورثة ، فلا يسرفوا فى الوصية بمجاوزة الثلث. والله تعالى أعلم.

الإشارة : أمر الحق - جل جلاله - أهل التربية النبوية إذا خافوا على أولادهم الروحانيين أن ينقطعوا بعد موتهم ، أن يمدوهم بالمدد الأبهر ، ويدلوهم على الغنى الأكبر ، حتى يتركوهم أغنياء بالله ، قد اكتفوا عن كل أحد سواه ، مخافة أن يسقطوا بعد موتهم فى يد من يلعب بهم ، فليتقوا الله فى شأنهم ، وليدلوهم على ربهم ، وهو القول السديد.

وينسحب حكمها على أولاد البشرية ، فمن خاف على أولاده بعد موته ، فليتق الله وليكثر من طاعة الله ، وليحسن إلى عباد الله ، فى أشباحهم وأرواحهم أما أشباحهم فيطعمهم مما خوله الله ، ففى بعض الأثر عنه عليه الصلاة والسلام : «ما أحسن عبد الصّدقة فى ماله إلا أحسن اللّه الخلافة على تركته». وأما الإحسان إلى أرواحهم ، فيدلهم على الله ، ويرشدهم إلى طاعة الله ، ويعلمهم أحكام دين الله. فمن فعل هذا تولى الله حفظ ذريته من بعده ، فيعيشون فى حفظ ورعاية وعز ونصر ، كما هو مشاهد فى أولاد الصالحين ، قال تعالى : وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وتذكر قوله تعالى : وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً.

وقال القشيري فى هذه الآية : إن الذي ينبغى للمسلم أن يدخر لعياله التقوى والصلاح ، لا المال ، لأنه لم يقل فليجمعوا لهم المال ، وليكثروا لهم العقار والأسباب ، وليخلفوا العبيد والأثاث ، بل قال : فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ فإنه يتولى الصالحين. هـ المراد منه.

ثم ذكر الحق تعالى وعيد من يأكل مال اليتيم ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٠]

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (١٠)

قلت : (ظلما) : تمييز ، أو مفعول لأجله.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً من غير موجب شرعى ، إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً ، أي : ما يجر إلى النار ويؤول إليها.

وعن أبى برزة أنه صلّى اللّه عليه وسلم قال : «يبعث الله أقواما من قبورهم تتأجج أفواههم نارا» ، فقيل : من هم يا رسول الله؟

قال : «ألم تر أن الله يقول : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً».

أي : يحترقون فى نار ، وأي نار!! والصّلى : هو الشيّ ، تقول : صليت الشيء : شويته ، وأصليته وصليته ، وذكر البطون مبالغة وتهجين لحالهم.

(٤٧٠/١)

الإشارة : حذّر الحق - جل جلاله - أهل الدعوى ، الذين نصبوا أنفسهم للشيخوخة ، وادعوا مقام التربية ، مع كونهم جهالا بالله ، محجوبين عن شهود أسرار التوحيد ، أن يأخذوا أموال الضعفاء الذين تعلقوا بهم لأنهم إنما يدفعون لهم ذلك طمعا فى الوصول إلى الله. وهم ليسوا أهلا لذلك ، فإذا أكلوا ذلك فإنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ، وهو تكثيف الحجاب ، وزيادة العنت والتعب ،

إن أقبل عليهم الناس فرحوا واستبشروا ، وإن أدبروا عنهم حزنوا وغضبوا ، فأىّ عذاب أعظم من هذا!!
فتحصّل من أول الآية إلى آخرها ، أن الحق - تعالى - أمر أهل الغنى الأكبر ، وهم الذين أهّلهم للتربية النبوية ، بأن سلكوا الطريق وأشرقت عليهم شموس التحقيق على يد شيخ كامل ، بالاستعفاف ، ولا يأخذوا إلّا قدر الحاجة ، من أموال من انتسب إليهم ، وسد الباب لأهل الدعوى ، لأنه من أكل أموال الناس بالباطل ، لأنه يعطى على وجه لم يوجد فى المعطى إليه ، إلا إذا كان على وجه الصدقة المحضة ، مع أنه قد يكون غير مستحق لها. والله تعالى أعلم.
ثم بيّن الحق تعالى قسمة التركة ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ١١]
يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ وَإِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (١١)
يقول الحق جل جلاله : (يوصيكم الله) أي : يأمركم ويعهد إليكم ، فِي أَوْلادِكُمْ ، أي : فى بيان ميراثهم ، ثم فصّله فقال : لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، أي يعد كل ذكر بأنثيين ، فإذا ترك ابنا وبنتا ، كانت من ثلاثة ، للذكر سهمان وللبنت سهم ، وإذا ترك ابنا وبنتين فله قسمتان ، ولكل واحدة قسمة ، وهكذا ، قال ابن جزى : هذه الآية نزلت بسبب سعد بن الربيع ، وقيل : بسبب جابر بن عبد الله ، إذ عاده رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فى مرضه ورفعت ما كان فى الجاهلية من ترك توريث النساء والأطفال.
وقيل : نسخت الوصية للوالدين والأقربين.
وإنما قال : «يوصيكم» بلفظ الفعل الدائم ، ولم يقل : أوصاكم ، تنبيها على نسخ ما مضى ، والشروع فى حكم آخر ، وإنما قال : (يوصيكم) بالاسم الظاهر ، أي : (الله) ولم يقل : نوصيكم ، لأنه أراد تعظيم الوصية ، فجاء بالاسم الذي هو أعظم الأسماء ، وإنما قال : (فى أولادكم) ولم يقل : فى أبنائكم لأن الابن يقع على الابن من الرضاعة ، وعلى ابن البنت ، وعلى الابن المتبنى ، وليسوا من الورثة ، فإن قيل : هلّا قال : للأنثيين مثل حظ الذّكر ، أو للأنثى

نصف حظ الذّكر؟ ، فالجواب ، أنه بدأ بالذّكر لفضله ، ولأن القصد ذكر حظه ، ولو قال للأنثيين مثل حظ الذكر لكان فيه تفضيل للإناث. هـ «١»

.

الإشارة : كما أوصى الله – تعالى – في أولاد البشرية ، أوصى على أولاد الروحانية ، ويقع التفضيل في قسمة الإمداد على حسب التعظيم والمحبة والعطف من الشيخ ، فبقدر ما يقع في قلب الشيخ ، يسرى إليه المدد ، فقد يأخذ مثل حظ رجلين أو أكثر ، على حسب ما سبق في القسمة الأزلية. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكم البنات إذا انفردن ، فقال :

قلت : أنّث الضمير في (كن) باعتبار الخبر ، أو يعود على المتروكات ، وما قاله الزمخشري بعيد. ومن قرأ (واحدة) بالرفع ، ففاعل كان التامة ، ومن قرأ بالنصب ، فخبر كان.

يقول الحق جل جلاله : فإن كان المتروك من الأولاد نِساءً ليس معهن ذكور فَوْقَ اثْنَتَيْنِ أي : اثنتين فما فوق ، فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ ، والباقي للعاصب ، وأخذ ابن عباس بظاهر الآية ، فأعطاهما النصف كالواحدة ، والجمهور على خلافه ، وأن لفظ فَوْقَ زائدة كقوله : فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وقيل : أخذ الثلثين بالسنة ، وإن كانَتْ بنتا واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، والباقي للعاصب ، وفيه دليل على أن الابن يأخذ جميع المال إذا انفرد لأن له مثل حظ الأنثيين.

الإشارة : انظر البنت ، إذا انفردت أخذت النصف ، وإذا اجتمعت مع غيرها نقص لها ، كذلك أمداد الأشياخ ، من انفرد عندهم وحده ، أخذ أكثر مما إذا اجتمع مع غيره ، لانجماع نظر الشيخ إليه ، وكان شيخنا رضي اللّه عنه يقول له شيخه : ما زال يأتيك الرجال – أي : إخوانك من الفقراء – وكان وحده ، فيقول له : الله لا يجعل أحدا يأتي حتى نشبع.

وكذلك أيضا ، انفراد العبد بالعبادة ، في وقت الغفلة ، مددها أعظم من كونه مع غيره ، كالمجاهد خلف الفارين.

وكذلك قال عليه الصلاة والسلام : «طوبى للغرباء» ، والله تعالى أعلم.

---

(١) راجع تفسير ابن جزى.

(٤٧٢/١)

ثم ذكر ميراث الأبوين ، فقال :

قلت : (السدس) مبتدأ ، و(لأبويه) خبر ، و(لكل واحد) ، بدل من (أبويه) ، ونكتة البدل إفادة أنهما لا يشتركان في السدس ، ولو قال : لأبويه السدس لأوهم الاشتراك.

يقول الحق جل جلاله : إذا مات الولد ، وترك أبويه ، ف لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ ذكرا أو أنثى ، واحدا أو متعددا ، للصلب أو ولد ابن ، فكلهم يردّون الأبوين للسدس ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَواهُ فقط ، فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ، والباقي للأب ، فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ أي : أخوان فأكثر ، سواء كانوا أشقاء أو لأب أو لأم ، أو مختلفين ، فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ، والباقي للأب ، ولا شيء للأخوة معه. وأخذ ابن عباس بظاهر الآية ، فلم يحجبها للسدس باثنين ، وجعلهما كالواحد ، واحتج بأن لفظ الإخوة جمع ، وأقله ثلاثة ، وأجيب بأن لفظ الجمع ، يقع على الاثنين كقوله : وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ ، إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ ، ولقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «الاثنان فما فوقهما جماعة». وهذا كله ، بعد إخراج الوصية وقضاء الدين ، وإنما قدّم الحق - تعالى - الوصية على الدّين ، مع كون الدّين مقدما فى القضاء من رأس المال لأن أرباب الدّين أقوياء ، بخلاف الموصى لهم ، فقدمهم اعتناء بهم.

الإشارة : الروح كالأب ، والبشرية كالأم ، وعقد الصحبة مع الشيخ كالولد ، فإن كان الإنسان له صحبة مع شيخ التربية ، يعنى له ورد منه ، فالبشرية والروحانية سواء ، إذ كلاهما يتهذبان ويتنوران بالأدب والمعرفة الأدب للبشرية ، والمعرفة للروحانية ، إذا استمد بالطاعة الظاهر استمد الباطن ، وبالعكس ، وإن لم يكن عقد الصحبة موجودا كان ميراث البشرية من الحس أقوى كميراث الأم مع فقد الولد ، أو تقول : الإنسان مركب من حس ومعنى ، فالحس كالأم ، والمعنى كالأب ، لأن المعاني قائمة بالحس ، والروح تستمد منهما معا ، فهى كالولد بينهما ، فإن كانت الروح حية بوجود المعرفة ، استمدت منهما معا ، وإن كانت ميتة ، كان استمدادها من الحس أكثر ، كموت الولد فى ميراث الأم.

أو تقول : الإنسان بين قدرة وحكمة ، القدرة كالأب ، والحكمة كالأم ، والقلب بينهما كالولد ، فإن وجد القلب استمدت الروح من القدرة والحكمة ، واستوى نظرها فيهما. وإن فقد القلب غلب على الروح ميراث الحكمة ، كفقد

الولد في ميراث الأم ، وإن كان للقلب إخوة من الأنوار والأسرار يتقوى بهما فللروح من ميراث الحكمة السدس ، والباقي كله للقدرة ، ولا يعرف هذا إلا من حقق معرفة القدرة والحكمة ، ذوقا وكشفا ، وإلّا .. فليسلم لأهل المعرفة.

والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى حكمة تقسيم تركة الأب والابن على ما فرض ، وأن ذلك لا يعلمه إلا هو ، فقال : آباؤُكُمْ ...

يقول الحق جل جلاله : قد بينت لكم ما يرث الأب من ابنه ، وما يرث الولد من أبيه ، ولو وكلت ذلك إليكم لأفسدتم القسمة لأنكم لا تدرون أيهم أقرب نفعا للآخر ، هل الأب أقرب نفعا لابنه ، فتعطوه الميراث كله دون ولد الميت ، أو الولد أقرب نفعا لأبيه ، من الأب لابنه ، فتخصونه بالإرث ، ففرضت ميراث الأب وميراث الولد ، ولم نكل ذلك إليكم. فَرِيضَةً حاصلة مِنَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً بمصالح العباد حَكِيماً بما فرض وقدّر.

وقال ابن عباس : لا تدرون أيهم أطوع لله عز وجل من الآباء والأبناء ، وأرفعكم درجة يوم القيامة ، لأن الله تعالى يشفع المؤمنين في بعضهم بعضا ، فيشفع الولد في والديه ، إن كان أرفع درجة منهما ، فيرفعهما الله إليه ، ويشفع الوالدين في ولدهما ، إن كانا أرفع درجة منه ، فيرتفع إليهما لتقر بذلك أعينهما. هـ. بالمعنى.

الإشارة : الإنسان لا تقوم روحانيته إلا ببشريته ، وبشريته إلا بروحانيته ، فلا يدرى أيهما أقرب له نفعا ، لأن البشرية محل للعبودية ، والروحانية محل لشهود عظمة الربوبية ، ولا بد للجمع بينهما ، وكذلك الحس ، لا يقوم إلا بالمعنى ، والمعنى لا يقوم إلا بالحس ، فلا تدرى أيهما أقرب نفعا لك أيها المريد ، فتؤثره ، وإن كانت المعاني هى المقصودة بالسير ، لكن لا تقوم إلا بوجود الحس ، فلا بد من ملاحظته.

وقال الورتجبي هنا ما نصه : أشكل الأمر من تلك الطائفتين ، أيهم يبلغ درجة الولاية والمعرفة الموجبة مشاهدة الله وقربته ، التي لو وقعت ذرة منها لأحد من هذه الأمة لينجو بشفاعته سبعون ألفا بغير حساب ، أي : اخدموا آباءكم وارحموا أولادكم ، فربما يخرج منهم صاحب الولاية ، ليشفع لكم عند

الله تعالى ، وحكمة الإبهام هاهنا ليشمل الرحمة والشفقة على الجمهور ، لتوقع ذلك الولي الصادق.
هـ. قلت : فسر الآباء والأبناء بالحسيين ، وتشمل الآية أيضا الآباء والأبناء المعنويين والروحانيين. والله تعالى أعلم.

(٤٧٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٧٥
ثم ذكر ميراث الزوج والزوجة ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ١٢]
وَلَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِها أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِها أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بِها أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)
يقول الحق جل جلاله : وَلَكُمْ أيها الأزواج ، من ميراث أزواجكم نِصْفُ ما تركن إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ. فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ وارث ، ذكرا أو أنثى ، مفردا أو متعددا ، من بطنها أو من صلب بنيها أو بنى بنيها وإن سفل ، منكم أو من غيركم ، فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ، بعد قضاء الدين وإخراج الوصية.
وَلَهُنَّ أي : الزوجات من ميراث الزوج الرُّبُعُ مما ترك إِنْ لَمْ يَكُنْ له ولد لاحق ، ذكرا أو أنثى ، على وزان ما تقدم فى الزوجة ، فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ تنفرد به إن كانت واحدة ، ويقسم بينهن إن تعددن ، ولا ينقص لأهل السهام مما فرض الله لهم إلا ما نقصه العول على مذهب الجمهور ، خلافا لابن عباس ، فإنه لا يقول بالعول.
فإن قيل : لم كرر قوله : مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ مع ميراث الزوج وميراث الزوجة ، ولم يذكره قبل ذلك إلا مرة واحدة فى ميراث الأولاد والأبوين؟ فالجواب : أن الموروث فى ميراث الزوج هو الزوجة ، والموروث فى ميراث الزوجة هو الزوج ، فكل واحدة قضية مستقلة ، فلذلك ذكر ذلك مع كل واحدة ، بخلاف الأول فإن الموروث فيه واحد ، ذكر حكم ما يرث منه أولاده وأبواه ، وهى قضية واحدة ، فلذلك قال فيه : مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ مرة واحدة.
قاله ابن جزى. قال البيضاوي : فرض للرجل بحق الزواج ضعف ما للمرأة كما فى النسب ، وهكذا قياس كل رجل وامرأة ، إذا اشتركا فى الجهة والقرب ، ولا يستثنى منه إلا أولاد الأم والمعتق والمعتقة.
هـ.

الإشارة : إذا ماتت النفس ، ولم تبق لها بقية ، وورثت الروح ما كان لها من العلوم الكسبية : النقلية والعقلية ، وأضافته إلى مالها من العلوم الوهبية ، فانقلب الجميع وهبيا ، قال بعض شيوخ أشياخا : (كنت أعرف أربعة عشر علما ، فلما دخلت علم الحقيقة سرطت ذلك كله ، فلم يبق إلا الكتاب والسنة) ، أو كما قال. وقال أبو سليمان الداراني :

إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام ، جالت فى الملكوت ، ثم عادت إلى صاحبها بطرائف العلوم ، من غير أن يؤدى إليها عالم علما.

فإن بقي للنفس بقية ، نقص ميراث الروح منها ، بقدر البقية ، كما أن الزوج ينقص ميراثه مع الفرع ، وكذلك إذا ماتت الروح بالرجوع عن طريق الجد ، ورثت النفس ما كان لها من العلوم الوهبية ، والمعاني والأسرار القدسية ، فتأكلها ، وتردها نقلية حسية ، بعد أن كانت وهبية ذوقية ، فتتحسس المعاني ، وتتكثف الأواني. والعياذ بالله من السلب بعد العطاء ، إلا أن ميراث النفس من الروح أقوى ، فإن بقي للروح شيء من الحياة ، نقص ميراث النفس منها ، كنقص الزوجة مع الفرع من ميراث الزوج ، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ميراث الأخ للأخ ، فقال :

وَإِنْ كانَ رَجُلٌ ...

قلت : الكلالة : انقطاع النسل ، بحيث لم يبق للميت فرع ولا أصل ، لا ذكر ولا أنثى ، وهو مصدر من تكلّله النسب ، إذا أحاط به كالإكليل ، لأن ورثته أحاطوا به وليسوا منه. ونظم بعضهم معنى الكلالة ، فقال :

إن امرؤ يسأل عن كلالة هو انقطاع النّسل لا محالة

لا والد يبقى ولا مولود قد هلك الأبناء والجدود

فتحتمل أن تطلق هنا على الميت ، أو على الورثة ، أو على الوراثة ، أو على القرابة أو على المال. فإن كانت على الميت ، فإعرابه خبر كان ، و(يورث) صفة ، أو (يورث) خبر كان ، و(كلالة) حال من الضمير فى (يورث) ، أو «كان» تامة ، و(يورث) صفة و(كلالة) حال من الضمير. وإن كانت على الورثة ، فهو خبر كان ، على حذف مضاف أي : ذا كلالة ، وإن كانت الوراثة فهو مصدر فى موضع الحال ، وإن كانت القرابة ، فهو مفعول من أجله ، أي : يورث من أجل القرابة. وإن كانت للمال ، فهو مفعول ثان ليورث ، وكل من هذه يحتمل أن تكون «كان» تامة أو ناقصة. قاله ابن جزى. و(غير مضار)

، منصوب على الحال ، أو العامل فيه (يوصى) ، و(مضار) اسم فاعل ، ووصية : مصدر ليوصى ، أو مفعول (مضار).

يقول الحق جل جلاله : وإن كان الميت رجلا أو امرأة ، يورثان كلالة ، بحيث لا فرع لهما ولا أصل ، قد انقطع عمود نسبهما ، ولهما أخ أو أخت لأم فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ. فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ

(٤٧٦/١)

، الذكر والأنثى سواء ، لأن الإدلاء للميت بمحض الأنوثة ، ومفهوم الآية : أنهما لا يرثان مع الأم والجدة ، كما لا يرثان مع البنت وبنت الابن ، إذ ليس حينئذ بكلالة ، وإنما قيدنا الأخ والأخت بكونهما للأم لأن الأخ الشقيق أو للأب سيأتى فى آخر السورة. والأخت تقدم أنّ لها النصف ، وأيضا : قد قرأ سعد بن أبى وقاص ، وابن مسعود : «وله أخ أو أخت لأم».

وهذا كله مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بِها أَوْ دَيْنٍ حال كونه غَيْرَ مُضَارٍّ فى الوصية أو الدين ، كالوصية بأكثر من الثلث ، أو للوارث ، أو فرارا منه ، فإن علم أنه قصد الإضرار ، رد ما زاد على الثلث ، واختلف فى رد الثلث على قولين. قاله ابن جزى. وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ، أي : نوصيكم وصية ، أو غير مضار وصية من اللّه. قال ابن عباس : (الإضرار فى الوصية من الكبائر). وَاللَّهُ عَلِيمٌ بمصالح عباده ، يقسم المال على حسب المصلحة ، حَلِيمٌ لا يعاجل بالعقوبة من خالف حدوده.

الإشارة : اعلم أن الأخوة فى الشيخ كالأخوة فى النسب ، لأنهم يرضعون من ثدى واحدة ولبن واحد ، فإن مات أحدهم ، ورث أخوه المدد الذي كان يأخذه من شيخه ، وكذا إذا رجع - فإنه موت - فينقلب المدد إلى أخيه ، ومثاله كماء فرّق على قواديس ، فإذا انسدت إحدى القواديس رجع الماء إلى الأخرى ، فإن كانوا أكثر من واحد فهم شركاء فى ذلك المدد ، واللّه تعالى أعلم.

ثم حذّر الحق - تعالى - من مخالفة ما حدّ فى الوصايا والمواريث ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣ الى ١٤]

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ (١٤)

قلت : توحيد الضمير فى (ندخله) «١» مراعاة للفظ (من). وجمع الحال فى (خالدين) مراعاة للمعنى. و(خالدين) و(خالدا) : حال مقدرة من ضمير (ندخله) ، كقولك : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا ، وليسا صفتين لجنات ونارا ، وإلا لوجب إبراز الضمير لأنهما جرتا على غير من هما له.

(١) قرأ نافع وابن عامر «ندخله» بالنون ، وقرأ الآخرون بالياء.

(٤٧٧/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٧٨

يقول الحق جل جلاله : تِلْكَ الأحكام التي شرعناها لكم فى أمر الوصايا والمواريث ، هى حُدُودُ اللَّهِ حدّها لكم لتقفوا معها ولا تتعدوها وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ فيما أمر به وحدّه ، وَرَسُولَهُ فيما شرّعه وسنّه يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها. وَذلِكَ هو الْفَوْزُ أي : الفلاح الْعَظِيمُ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ فيما أمر ونهى ، وَرَسُولَهُ فيما شرعه ، وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ التي حدها ، فتجاوز إلى متابعة هواه ، يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ. وهذا إذا أنكر مشروعيتها فيكون كافرا ، وإلّا كان عاصيا فى حكم المشيئة ، ومذهب أهل السنة أنه لا يخلد ، وحملوا الآية على الكافر ، أو عبارة عن طول المدة ، كما فى قاتل النفس. والله تعالى أعلم.

الإشارة : قد حدّ الحق - جل جلاله - لأهل الشريعة الظاهرة حدودا قام ببيانها العلماء ، وحدّ لأهل الحقيقة - وهى سر الولاية - حدودا ، قام بها الأولياء ، فمن قام بحدود الشريعة الظاهرة كان من المؤمنين الصالحين ، ومن تعداها كان من العاصين الظالمين ، ومن قام بحدود الحقيقة الباطنية ، وصحب أهلها كان من المحسنين العارفين المقربين ، ودخل جنة المعارف ، ومن تعدّ حدود الحقيقة ، أو لم يصحب أهلها كان من عوام أهل اليمين ، وله عذاب الحجاب فى غم الحساب ، وقال فى الحاشية : فى حد حدوده إشارة للعبودية ، فى إخراج كل عن نظره واختياره ، ثم انقياده وذلته لحكم ربه ، والوقوف عند حدوده.

وقال الورتجبي : قيل : (تلك حدود الله) أي : الإظهار من الأحوال للمريدين على حسب طاقتهم لها ، فإن التعدي فيها يهلكهم ، وقال أبو عثمان : ما هلك امرؤ لزم حده ولم يتعد طوره. هـ. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولمّا فرغ الحق تعالى من الأمر بحفظ الأموال ، شرع فى الكلام على حفظ الأنساب ، وقدّم الكلام أولا على الزنى إذ به تختلط الأنساب ، ويختل نظام حفظها ، ثم تكلم بعد على النكاح وما يحرم من النساء وما يحل ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٥ الى ١٦]

وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) وَالَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما فَإِنْ تابا وَأَصْلَحا

فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً (١٦)
يقول الحق جلا جلاله : وَالنساء اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ أي : الزنى ، سمّى فاحشة لفحش قبحه وبشاعة فعله شرعا ، مِنْ نِسائِكُمْ المسلمات ، فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أي : اطلبوا من رماهنّ بذلك أن يشهدوا

عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، أي : من عدول المؤمنين يرونهما كالمرود فى المكحلة ، وإنما جعلوا أربعة مبالغة فى الستر على المؤمن ، أو ليكون على كل واحد اثنان ، فَإِنْ شَهِدُوا عليهن بذلك فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ، واجعلوه سجنا لهن حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أي : يستوفى أجلهن الموت ، أو يتوفاهن ملك الموت ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا كتعيين الحد المخلّص من السجن ، وكان هذا فى أول الإسلام ثم نسخ بما فى سورة النور من الحدود ، ويحتمل أن يراد التوصية بإمساكهن بعد أن يجلدن كى لا يعدن إلى الزنى بسبب الخروج والتعرض للرجال.
واكتفى بذكر حدّهن ، بما فى سورة النور ، وهذا الإمساك كان خاصا بالنساء بدليل قوله وَالَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ أي : الزاني والزانية منكم ، (فآذوهما) بالتوبيخ والتقريع - (فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما) أي :
اقطعوا عنهما الأذى ، أو أعرضوا عنهما بالإغماض عن ذكر مساوئهما.
قيل : إن هذه الآية سابقة على الأولى نزولا ، وكان عقوبة الزنى الأذى ثم الحبس ثم الجلد ، وقيل ، الحبس فى المساحقات ، والإيذاء فى اللواطين ، وما فى سورة النور فى الزناة. والذي يظهر. أن الحكم كان فى أول الإسلام فى الزنا : الإمساك للنساء فى البيوت بعد الإيذاء بالتوبيخ ، فتمسك فى بيتها حتى تموت ، أو يجعل الله لها سبيلا بالتزوج بمن يعفها عنه. والإيذاء للرجال بالتعيير والتقريع والتحجيم حتى تتحقق توبته ، ثم نسخ ذلك كله بالحدود ، وهو جلد البكر مائة وتغريبه عاما ورجم المحصن. والله تعالى أعلم.
الإشارة : ينبغى للعبد ، إذا طغت عليه نفسه ، وأرادت ارتكاب الفواحش ، أن يستشهد عليها الحفظة ، الذين يحفظون عليه تلك المعاصي ، فإن لم تستح ، فليعاقبها بالحبس فى سجن الجوع والخلوة والصمت ، حتى تموت عن تلك الشهوات ، أو يجعل الله لها طريقا بالوصول إلى شيخ يغيّبه عنها ، أو بوارد قوى من خوف مزعج أو شوق مقلق ، فإن تابت وأصلحت ، أعرض عنهاو اشتغل بذكر الله ، ثم يغيب عما سواه. وبالله التوفيق.
ثم ذكر الحق تعالى وقت التوبة التي تقبل ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٧ الى ١٨]
إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٨)

(٤٧٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٨٠
يقول الحق جل جلاله : إِنَّمَا التَّوْبَةُ التي يستحق عَلَى اللَّهِ قبولها فضلا وإحسانا هى لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ أي : المعاصي متلبسين بِجَهالَةٍ أي : سفاهة وجهل وسوء أدب ، فكل من اشتغل بالمعصية فهو جاهل بالله ، قد انتزع منه الإيمان حتى يفرغ ، وإن كان عالما بكونها معصية ، ثُمَّ يَتُوبُونَ بعد تلك المعصية مِنْ قَرِيبٍ أي : من زمن قريب ، وهو قبل حضور الموت لقوله بعد : حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ، وقوله - عليه الصلاة والسلام - : «إنّ اللّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» وإنما جعله قريبا لأن الدنيا سريعة الزوال ، متاعها قليل وزمانها قريب ، فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ تصديقا لوعده المتقدم ، وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً بإخلاصهم التوبة ، حَكِيماً فى ترك معاقبة التائب ، إذ الحكمة هى وضع الشيء فى محله.
وعن الحسن : قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «لما أهبط إبليس قال : وعزتك وعظمتك لا أفارق ابن آدم حتى تفارق روحه جسده ، قال الله تعالى : وعزتى وعظمتى لا أحجب التوبة عن عبدى حتى يغرغر بها». وعن أبى سعيد الخدري أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : «إنّ الشيطان قال : وعزتك لا أبرح أغوى عبادك ، ما دامت أرواحهم فى أجسادهم. قال الله تعالى : وعزتى وجلالى وارتفاع مكانى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى».
قال ابن جزى : وإذا تاب العبد توبة صحيحة بشروطها ، فيقطع بقبول توبته عند جمهور العلماء. وقال أبو المعالي : يغلب ذلك على الظن ولا يقطع. هـ.
وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ مقبولة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ أي : بلغت الحلقوم قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ فلا توبة لهم ، أُولئِكَ أَعْتَدْنا أي : أعددنا وهيأنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً ، قال البيضاوي : سوّى الحق تعالى بين من سوّف التوبة إلى حضور الموت من الفسقة ، وبين من مات على الكفر فى نفى التوبة للمبالغة فى عدم الاعتداد بها فى تلك الحالة ، وكأنه يقول : توبة هؤلاء وعدم توبة هؤلاء سواء. وقيل : المراد بالذين يعملون السوء : عصاة المؤمنين ، وبالذين يعملون السيئات : المنافقون لتضاعف كفرهم ، وبالذين يموتون : الكفار. هـ.

الإشارة : توبة العوام ليست كتوبة الخواص ، إنّ الله يمهل العوام ترغيبا لهم فى الرجوع ، ويعاقب الخواص على التأخير على قدر مقامهم فى القرب من الحضرة ، فكلما عظم القرب عظمت المحاسبة على ترك المراقبة ، منهم من يسامح له فى لحظة ، ومنهم فى ساعة ، ومنهم فى ساعتين ، على قدر المقام ، ثم يعاتبهم ويردهم إلى الحضرة.

وقال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى فى حاشيته : إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ أي : إنما الهداية بعد الذلة ، على الله لأنه الذي يخلص من قهره بكرمه الفياض وبرحمته التي غلبت غضبه ، كما قال تعالى :

كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، ونبه على وقوع الذنب بهم قهرا ، ثم تداركهم بالهداية والإنابة ، فضلا على علمه بتربيتهم وتدريجهم لمعرفته بالعلم والحكمة بقوله : وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً. هـ.

ثم شرع فى أحكام النكاح ، وبدأ بالعضل لأنه يتعذر معه العقد ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (١٩)

قلت : أصل العضل : التضييق ، يقال : عضلت الدجاجة ببيضها إذا ضاقت ، ثم أطلق عرفا على منع المرأة من التزوج.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يحل لكم أن تمنعوا النساء من النكاح لترثوا ما لهن كَرْهاً. قال ابن عباس : كانوا فى الجاهلية إذا مات الرجل ، وله امرأة ، كان قريبه من عصبته أحق بها من نفسها ومن غيره ، فإن شاء تزوجها من غير صداق ، إلا الصداق الأول الذي أصدقها الميت ، وإن شاء زوّجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا ، وإن شاء عضلها وضيّق عليها لتفتدى منه بما ورثت من الميت ، أو تموت فيرثها ، وإن ذهبت إلى أهلها قبل أن يلقى ولىّ زوجها ثوبه عليها فهى أحق بنفسها. فكانوا على ذلك فى أول الإسلام ، حتى توفى أبو قيس بن الأسلت الأنصاري ، وترك امرأته «كبشة بنت معن الأنصارية» ، فقام ابن له من غيرها فطرح ثوبه عليها ، ثم تركها ولم يقربها ، ولم ينفق عليها ، يضارّها لتفتدى منه ، فأتت إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن أبا قيس توفى وورث نكاحى ابنه ، وقد أضرّ بي وطوّل علىّ ، فلا هو ينفق علىّ ولا يدخل بي ، ولا يخلى سبيلى ، فقال لها النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «اقعدى فى بيتك حتى يأتى فيك أمر الله». قالت : فانصرفت

وسمعت بذلك النساء فى المدينة فأتين النبي صلّى اللّه عليه وسلم وهو فى مسجد الفضيخ ، فقلن : يا رسول الله : ما نحن إلا كهيئة كبشة ، غير أنه لا ينكحنا الأبناء ، ونكحنا أبناء العم ، فنزلت الآية.
فمعنى الآية على هذا : لا يحل لكم أن تجعلوا النساء يورثن عن الرجال كما يورث المال.
وقيل : الخطاب للأزواج الذين يمسكون المرأة فى العصمة ليرثوا مالها ، من غير غبطة بها ، وإنما يمسكها انتظارا لموتها ، وقيل : الخطاب للأولياء الذين يمنعون ولياتهم من التزوج ليرثوهن دون الزوج.
وَلا يحل لكم أيضا أيها الأزواج أن تَعْضُلُوهُنَّ ، أي : تحبسوهن من غير حاجة لكم فيهن لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ من الصداق افتداء فيه بإضراره. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : (هى أيضا فى الأزواج الذين

(٤٨١/١)

يمسكون المرأة ويسيئون عشرتها حتى تفتدى بصداقها) ، إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، كالنشوز وسوء العشرة وعدم العفة ، فيحل له حينئذ حبسها حتى تفتدى منه بصداقها ، فيأخذه خلعا على مذهب مالك. والله تعالى أعلم.
الإشارة : لا يحل للمريد أن يضيق على نفسه تضييقا يفضى إلى العطب ، فالنفس كالبهيمة : علفها واستخدامها ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «لا يكن أحدكم كالمنبت ، لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى».
فبعض الناس يسمعون أن من ضيّق على نفسه أورثته العلوم ، فيضيق عليها تضييقا فاحشا ليرث ذلك منها كرها ، وإنما يمنعها من شهواتها الزائدة على قيام البنية ، إلا أن تأتى بفاحشة مبينة ، بحيث تطغى عليها ، فيضيق عليها بما لا يفضى إلى الهلاك ، وهذا كله إنما ينفعه إذا صح ملكه لها بالعقد الصحيح من الشيخ الكامل ، وإلّا كان تعبه باطلا ، كمن يريد أن يرى امرأة غيره أو دابة غيره. والله تعالى أعلم.
ثم أمر الحق تعالى بحسن العشرة مع النساء ، فقال :
وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ...
يقول الحق جل جلاله : وعاشروا النساء بِالْمَعْرُوفِ بأن تلاطفوهن فى المقال وتجملوا معهن فى الفعال ، أو يتزيّن لها كما تتزين له. قال الورتجبي : كونوا فى معاشرتهن فى مقام الأنس وروح المحبة ، وفرح العشق حين أنتم مخصوصون بالتمكين والاستقامة والولاية ، فإن معاشرة النساء لا تليق إلا فى المستأنس بالله ، كالنبى صلّى اللّه عليه وسلم وجميع المستأنسين من الأولياء والأبدال ، حيث أخبر صلّى اللّه عليه وسلم عن كمال مقام أنسه بالله ورؤيته لجمال مشاهدته حيث قال : «حبّب إلىّ من

دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة.» «١»
ثم قال : عن ذى النون : المستأنس بالله يستأنس بكل شىء مليح ووجه صبيح ، وبكل صوت طيب وبكل رائحة طيبة. ثم قال : عن ابن المبارك : العشرة الصحيحة : ما لا يورثك الندم عاجلا ولا آجلا ، وقال أبو حفص : المعاشرة بالمعروف : حسن الخلق مع العيال فيما ساءك. هـ.
فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فاصبروا فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً إما ولدا صالحا أو عاقبة حسنة فى الدين. قال ابن عمر : إن الرجل يستخير الله فيخار له فيسخط على ربه ، فلا يلبث أن ينظر فى العاقبة فإذا هو قد خير له. هـ. حكى أن أبا الإمام مالك رضي اللّه عنه تزوج امرأة فدخل عليها فوجدها سوداء ، فبقى متفكرا

(١) الحديث أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وغيرهم : بدون لفظ : «ثلاث». وقال الحافظ ابن حجر. وليس فى شىء من طرقه لفظ «ثلاث». انظر : الفتح السماوي.

ولم يقربها ، فقالت له : هل استخرت ربك؟ فقال : نعم ، فقالت : أتتّهم ربك ، فدخل بها ، فحملت بالإمام مالك صاحب المذهب. وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «لا يفرك مؤمن مؤمنة - أي لا يبغضها - إن سخط منها خلقا رضى منها آخر». قال الورتجبي : قيل : غيب عنك العواقب لئلا تسكن إلى مألوف ، ولا تفر من مكروه.
الإشارة : إذا طهرت النفس من البقايا ، وكملت فيها المزايا ، وانقادت بكليتها إلى مولاها ، وجب الإحسان إليها والصلح معها ومعاشرتها بالمعروف ، فإنما تجب مجاهدتها ما دامت كافرة فإذا أسلمت وانقادت وجب محبتها والإحسان إليها. فإن كرهتها فى حال اعوجاجها فجاهدتها ورضتها حتى استقامت كان فى عاقبة ذلك خير كثير ، وعادت تأتى إليك بالعلوم اللدنية تشاهد فيها أسرارا ربانية.
قال الورتجبي : كل أمر من الله - سبحانه - جاء على مخالفة النفس امتحانا واختبارا ، والنفس كارهة فى العبودية فإذا ألزمت عليها حقوق الله بنعت الرياضة والمجاهدة واستقامت فى عبودية الله ، أول ما يطلع على قلبك أنوار جنان القرب والمشاهدة ، قال الله تعالى : وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى ، وفى أجواف ظلام المجاهدة للعارفين شموس المجاهدات وأقمار المكاشفات. هـ. المراد منه.
فإذا لم يصبر العبد على أذى زوجته ، وأراد فراقها ، فلا بد أن يؤدى إليها صداقها ، كما أشار إلى ذلك

الحق جل جلاله ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٢٠ الى ٢١]

وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (٢١)

قلت : «بهتانا» : حال ، أو على إسقاط الخافض.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ أَرَدْتُمُ أن تبدلوا زوجا مَكانَ زَوْجٍ أخرى بأن تطلقوا الأولى وتتزوجوا غيرها ، وقد كنتم أعطيتم إِحْداهُنَّ قِنْطاراً أو أقل أو أكثر ، فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً بل أدوه لها كاملا. ثم وبّخهم على ما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، فقال : أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً ، أي : مباهتين وآثمين ، أو بالبهتان والإثم الظاهر ، والبهتان : الكذب الذي يبهت المكذوب عليه ، روى أن الرجل كان إذا أراد أن يتزوج امرأة

جديدة ، بهت التي عنده بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه فى تزوج الجديدة ، فنهوا عن ذلك.

ثم استعظم ذلك فقال : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ بالمماسة والجماع حتى تقرر الصداق واستحقته بذلك ، وقد أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً وهو حسن الصحبة ، أو الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان ، أو تمكينها نفسها منه ، فإنها ما مكنته إلا لوفاء العهد فى الصداق ودوام العشرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : إذا كان العبد مشتغلا بجمع دنياه ، عاكفا على حظوظه وهواه ، ثم استبدل مكان ذلك الانقطاع إلى مولاه والاشتغال بذكر الله ، حتى أفضى إلى شهود أنوار قدسه وسناه ، فلا ينبغى أن يرجع إلى شيء خرج عنه لله.

ولا يلتفت إلى ما ترك من أمر دنياه ، فإن الرجوع فى الشيء من شيم اللئام وليس من شأن الكرام ، وتأمل ما قاله الشاعر :

إذا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكن إليه بوجه آخر الدهر تقبل

وكيف تأخذ ما خرجت عنه لله ، وقد أفضيت إلى شهود أنوار جماله وسكنى حماه ، فاتحد عندك كل الوجود ، وكل شيء عن عين بصيرتك مفقود ، بعد أن أخذ عليك مواثيق العهود ، ألا ترجع إلى ما كان يقطعك عن حضرة الشهود ، وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم شرع يتكلم على ما يحرم من النساء ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٢٢]

وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلاَّ ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَمَقْتاً وَساءَ سَبِيلاً (٢٢)

قلت : أوقع «ما» على ما يعقل لقلة عقل النساء ، كما تقدم «١» ، أو مصدرية ، والاستثناء منقطع أو متصل على وجه المبالغة فى التحريم ، أي لا تنكحوا ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف لآبائكم إن قدرتم عليه ، فهو كقول الشاعر :

لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب «٢»

يقول الحق جل جلاله : ولا تتزوجوا ما تزوج به آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ بالعقد فى الحرائر والوطء فى الإماء ، إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ فإن الله قد عفا عنكم بعد فسخه وردّه ، إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً عظيمة عند الله ،

---

(١) راجع : تفسير قوله تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى .. الآية (٣) من هذه السورة.

(٢) البيت للنابغة الزبيانى.

ما أحله لأحد من الأمم قبلكم ، وَمَقْتاً أي : ممقوتا فاعله عند الله وعند ذوى المروءات من عباد الله ، وكان يسمى ولد الرجل من امرأة أبيه مقيتا ومقتيّا. وَساءَ سَبِيلًا ، وبئس طريقا لمن يريد أن يسلكه بعد التحريم.

فالمراد بالنكاح فى الآية : العقد ، فعلى هذا لا تحرم المرأة على الولد إذا زنا بها أبوه على المشهور ، قال فى الرسالة :

ولا يحرم بالزنا حلال. هـ.

الإشارة : ما جرى فى آباء البشرية يجرى فى آباء الروحانية من طريق الأدب لا من طريق الشرع ، فلا ينبغى للمريد أن يتزوج بامرأة شيخه ، مات عنها أو طلقها ، فإن ذلك قبيح ومقت عند أرباب الأدب ، وأما بنت الشيخ فإن قدر على القيام بتعظيمها فلا بأس ، وقد تزوج سيدنا على - كرم الله وجهه - بنت سيدنا رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم ، لكن السلامة فى الترك أكثر.

وهنا إشارة أخرى أرق ، وهى أن يشير بالنساء إلى الأحوال ، فلا ينبغى للفقير أن يتعاطى أحوال الشيخ ، ويفعل مثله. فإن الشيخ فى مقام وهو فى مقام ، فإذا رجع الشيخ إلى الأسباب وتعاطى العلويات ، فلا يقتدى به. إلا أن يدرك مقامه ، وكان شيخ شيخنا يقول : (لا تقتدوا بالأشياخ فى أفعالهم ، وإنما

اقتدوا بهم فى أقوالهم ، فإن أقوالهم لكم ولهم ، وأفعالهم خاصة بهم). إلا ما قد سلف لهم من الأحوال فى حال سيرهم ، فخذوها وسيروا من حيث ساروا ، حتى تدركوا ما أدركوا ، وافعلوا ما شئتم. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية المحرمات ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٢٣]

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَبَناتُكُمْ وَأَخَواتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخالاتُكُمْ وَبَناتُ الْأَخِ وَبَناتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَةِ وَأُمَّهاتُ نِسائِكُمْ وَرَبائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلاَّ ما قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٣)

قلت : «كتاب الله عليكم» : مصدر مؤكد. أي : كتب الله ذلك كتابا ، أو على الإغراء.

(٤٨٥/١)

يقول الحق جل جلاله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ من النساء أصناف : منها بالنسب ومنها بالرضاع ومنها بالمصاهرة : فأما التي تحرم بالنسب فهى أُمَّهاتُكُمْ ، وهى الأم ، والجدة من الأم ومن الأب ما علون ، وَبَناتُكُمْ وهى البنت وبنت الابن ، وبنت البنت ما سفلن ، وَأَخَواتُكُمْ وهى الأخت الشقيقة والتي للأب والأخت للأم ، (و عماتكم) وهى أخت الوالد وأخت الجد ما علت ، شقيقة أو لأب أو لأم ، وَخالاتُكُمْ وهى أخت الأم وأخت الجدة ما علت ، شقيقة أو لأب أو لأم ، وَبَناتُ الْأَخِ الشقيق ، أو للأب ، وما تناسل منهم. وَبَناتُ الْأُخْتِ ، فيدخل كل ما تناسل من الأخت الشقيقة أو للأب أو للأم. والضابط فى ذلك : أنه يحرم على الرجل أصوله وإن علت ، وفصوله وإن سفلت ، وفصول أبويه ما سفلت ، وأول فصل من كل أصل متقدم على أبويه.

ثم ذكر ما يحرم بالرضاع ، فقال : وَأُمَّهاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَةِ ذكر تعالى صنفين ، وحرمت السّنّة كل ما يحرم من النسب. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «يحرم من الرّضاع ما يحرم من النّسب» فيدخل الأصناف السبعة ، وهى الأم من الرضاع والبنت والأخت والعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت.

ثم ذكر ما يحرم بالمصاهرة ، فقال : وَأُمَّهاتُ نِسائِكُمْ ، وتقدمت زوجة الأب ، وسيأتى حليلة الابن ، وَرَبائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ لا مفهوم لهذا القيد ، لكنه جرى مجرى الغالب ، فهى محرمة ، كانت فى حجره أم لا ، على قول الجمهور ، وروى عن على رضي اللّه عنه أنه أجاز نكاحها إن لم

تكن في حجره. وأما قوله :

اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فهو معتبر إجماعا ، فلو عقد على المرأة ولم يدخل بها ، فله طلاقها ويأخذ ابنتها ، ولذلك قال : فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أن تنكحوهن.

وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ وهى التي عقد عليها الابن فحلت له ، فتحرم على الأب بمجرد العقد. والحاصل : أن زوجة الأب وزوجة الابن وأم الزوجة يحرمن بالعقد ، وأما بنت المرأة فلا تحرم إلا بالدخول بأمها ، فالعقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات. وقوله تعالى : الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ احترز به من زوجة المتبنّى فلا تحرم حليلته ، كقضية زيد مع رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم.

وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ، شقيقتين أو للأب أو للأم ، وهذا فى النكاح ، وأما فى الملك دون الوطء فلا بأس ، أما فى الوطء فمنعه مالك والشافعي وأبو حنيفة ، وأجازه الظاهرية ، إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ أي : فى الجاهلية ، فقد عفا عنكم ، إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً ، قال ابن عباس : (كانت العرب تحرم كل ما حرمت الشريعة إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين ، فلذلك ذكر الحق تعالى : إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ فيهما.

(٤٨٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٨٧

[سورة النساء (٤) : آية ٢٤]

وَالْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إِلاَّ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (٢٤)

وَحرم الله تعالى - الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ وهنّ اللاتي فى عصمة أزواجهن ، فلا يحل نكاحهن ما دمن فى عصمة الزوج ، إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ من الغنيمة ، فإذا سبيت الكافرة ، ولها زوج ، جاز لمن ملكها أن يطأها بالملك بعد الاستبراء ، قال فى المختصر : وهدم السبي النكاح ، إلا أن تسبى وتسلم فى عدتها فهو أحق بها ، وقد بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم جيشا إلى أوطاس ، فأصابوا سبيا من العدو ، ولهن أزواج من المشركين فتأثموا من غشيانهن ، فنزلت الآية مبيحة لذلك ، كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أي : كتب الله ذلك عليكم كتابا ، وهو ما حرّم فى الآية من النساء.

الإشارة : اعلم أن الإنسان لا يصير كاملا عارفا حتى يولد ثلاث مرات بعد الأم الحسية ، أولها : خروجه من بطن حب الدنيا الدنية ، ثم من الغفلة والشهوات الجسمانية ، ثم من ضيق الأكوان الظلمانية ، إلى فضاء المشاهدة والمعاينة ، وقال بعض الأولياء : (ليس منا من لم يولد مرتين) : فاعتبر الأولى والثالثة ، فإذا خرج الإنسان من هذه البطون حرّم الله عليه نكاحها والرجوع إليها.

وكذا يحرم عليه الرجوع إلى ما تولد منه من الزلات ، والأحوال الظلمانية ، وما كان ألفه وتواخى معه من البطالات والمألوفات ، وما وجد عليه أسلافه من التعصبات والحميات والرئاسات ، ولا فرق بين ما واجهه من ذلك من قبل الآباء والأمهات ، وكذلك ما ارتضع من ثدى الشهوات من لبان الغفلة ، وتراكم الأكنّات «١» ، فليبادر إلى نحريمها ، وفطام نفسه عنها ، قبل تحكمها ، كما قال البوصيرى رضي اللّه عنه :

والنّفس كالطّفل إن تهمله شبّ على حبّ الرّضاع وإن تفطمه ينفطم

وكذا يحرم عليه ، صحبة من ارتضع معه فى هذا الثدي قبل الفطام من الأخوة والأخوات ، وكذا أمهات الخطايا ، وهى حب الدنيا والرياسة والجاه ، وكذلك حرمت عليكم ربائب العلائق والعوائق ، لتدخلوا بلاد الحقائق ، فإن لم تكونوا من أهل الحقائق فلا جناح عليكم إذ كنتم من عوام الخلائق ، وكذلك يحرم عليكم ما حل لأبناء جنسكم من تعاطى الأسباب والاشتغال بها عن خدمة رب الأرباب ، وأن تجمعوا بين حب الدنيا ومحبة المولى. قال الشافعي رضي اللّه عنه : (من ادّعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها ، فقد كذب).

إلا ما قد سلف فى أيام البطالة ، وكذا يحرم على المريد المتجرد المستشرف على المعاني تعاطى العلوم الظاهرة ، التي دخل بها أهل الظاهر وافتضوا بكارتها - إلا ما ملكه قبل التجريد ، فلا يضره إن غاب عنها فى أسرار التوحيد ، والله تعالى أعلم بأسرار غيبه.

---

(١) الأكنات : الأغطية.

(٤٨٧/١)

ثم ذكر الحق تعالى ما يحل من النساء ، فقال :

وَأُحِلَّ لَكُمْ ...

قلت : «وأحلّ» عطف على الفعل العامل فى «كتاب الله عليكم» أي : كتب الله عليكم تحريم ما ذكر ، وأحل ما سوى ذلك. ومن قرأ بالبناء للمفعول فعطف على «حرمت». و(أن تبتغوا) مفعول لأجله ، أي : إرادة أن تبتغوا. أو بدل من (وراء ذلكم). و(محصنين) حال من الواو. والسفاح : الزنا ، من السفح وهو الصب ، لأنه يصب المنى فى غير محله.

يقول الحق جل جلاله : وَأُحِلَّ لَكُمْ أن تتزوجوا من النساء ما سوى ذلكم المحرمات ، وما سوى ما حرمته السنة بالرضاع ، كما تقدم ، والجمع بين المرأة وعمتها ، وبين المرأة وخالتها ، فقد حرمته السنة

، وإنما أحل لكم نكاح النساء إرادة أن تطلبوا بأموالكم الحلال ، فتصرفوها فى مهور النساء .. حال كونكم مُحْصِنِينَ. أي : أعفة متحصنين بها من الحرام ، غَيْرَ مُسافِحِينَ أي : غير زناة ، تصبون الماء فى غير موضعه ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ أي : من تمتعتم به من المنكوحات فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ أي : مهورهن ، لأن المهر فى مقابلة الاستمتاع فَرِيضَةً ، أي : مفروضة مقدرة ، لا جهل فيها ولا إبهام ، وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ من زيادة على المهر المشروط ، أو نقص منه ، مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، التي وقع العقد عليها ، إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً بمصالح خلقه ، حَكِيماً فيما شرع من الأحكام.

وقيل قوله : فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ ... إلى آخره. نزل فى نكاح المتعة ، التي كانت ثلاثة أيام فى فتح مكة ، ثم نسخ بما روى عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه أباحه ، ثم أصبح يقول : «أيّها النّاس ، إنّي كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النّساء ، ألا إنّ الله حرّم ذلك إلى يوم القيامة». وهو النكاح المؤقت بوقت معلوم ، سمى به لأن الغرض منه مجرد الاستمتاع. وتمتعها بما يعطى لها. وجوّزه ابن عباس رضي اللّه عنه ثم رجع عنه. والله تعالى أعلم.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله من طريق الإشارة : إذا خرجتم من بطن الشهوات ، ورفضتم ما كنتم عليه من العوائد والمألوفات ، وزهدتم فيما يشغل فكرتكم من العلوم الرسميات ، حل لكم ما وراء ذلكم من العلوم اللدنية

(٤٨٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٨٩

والأسرار الربانية ، التي هى وراء طور العقول ولا تدرك بالطروس «١» ولا بالنقول ، وإليها أشار ابن الفارض رضي اللّه عنه حيث قال :

ولا تك ممّن طيّشته طروسه بحيث استخفت عقله واستفزّت

فثمّ وراء النّقل علم يدقّ عن مدارك غايات العقول السليمة

تلقّيته منّي وعني أخذته ونفسى كانت من عطاء ممدّة

أردنا منكم أن تبتغوا ببذل أمواكم ومهجكم تلك العلوم المقدسة ، والأسرار المطهرة ، متحصنين من دنس الحس والهوى ، غير مباشرين لنجاسة الدنيا ، ولا مصطحبين مع أهلها ، لتتمتعوا بشهود أسرارنا ، وأنوار قدسنا ، فما استمتعتم به من ذلك ، فصونوه عن غير أهله ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من إعطائه لأهله ، من بعد حفظه عمن لا يستحقه ، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكم من عجز عن صداق الحرة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٢٥ الى ٢٨]

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِناتِ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَناتٍ غَيْرَ مُسافِحاتٍ وَلا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً (٢٨)

قلت : الطول : الغنى والسعة ، ويطلق على العلو ، مصدر طال طولا ، وهو مفعول «يستطع» أو مصدر له - لتقارب معناهما ، و(أن ينكح) بدل منه على الأول ، أو مفعول به على الثاني ، أي : لأن ينكح ، و(محصنات غير مسافحات) ، حالان ، والعامل فيه : (انكحوهن) ، والخدن : الخليل.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أي : لم يجد غنى يقدر به على نكاح الْمُحْصَناتُ ، أي : الحرائر الْمُؤْمِناتِ ، فليتزوج من ما ملكت أيمانكم ، من الإماء المؤمنات دون الكافرات ، فإن أظهرت الإيمان فاكتفوا بذلك ، وعلم الباطن لا يعلمه إلا الله ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ فلا يمنعكم من نكاحهن خوف المعرة ، فإنما أنتم جنس واحد ، ودينكم واحد ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فلا تستنكفوا من نكاحهن ،

---

(١) الطروس : الصحف.

(٤٨٩/١)

فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ، أي أربابهن ، حتى يعقدوا لكم نكاحهن ، وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ : أي : مهورهن ، وهن أحق به دون ساداتهن ، على مذهب مالك ، بِالْمَعْرُوفِ من غير مطل ، ولا نقص ، على ما تقتضيه السنة. حال كونهن مُحْصَناتٍ أي : عفيفات غَيْرَ مُسافِحاتٍ أي : غير زانيات وَلا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ. أي : أصحاب يزنون بهن. وكان فى الجاهلية من النساء من تتخذ صاحبا واحدا تزنى معه خاصة ، ومنها من لا ترد يد لامس.

قال ابن جزى : مذهب مالك وأكثر أصحابه أنه لا يجوز للحر نكاح الأمة إلا بشرطين : أحدهما : عدم الطول وهو ألّا يجد ما يتزوج به حرة ، والآخر : خوف العنت وهو الزنا. لقوله بعد هذا : ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وأجاز ابن القاسم نكاحهن دون الشرطين ، على القول بأن دليل الخطاب لا يعتبر

، واتفقوا على اشتراط الإسلام فى الأمة ، لقوله : مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ إلا أهل العراق فلم يشترطوه. هـ.

الإشارة : فمن لم يستطع أن ينكح أبكار الحقائق ، لكونه لم يقدر أن يدفع عن قلبه الشواغل والعلائق ، فليتنزل لنكاح العلوم الرسمية والأعمال الحسية ، بأخذها من أربابها ، ويحصنها بالإخلاص فى أخذها ، ويقوم بحقها بقدر الإمكان ، وهو بذلها لأهلها ، والصبر على نشرها ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، فإن صح قصده ، وخلص عمله ، قيض الله له وليا من أوليائه يغنيه بالله ، حتى يصير من الأغنياء به ، فيتأهل لنكاح الحرائر ، ويلتحق بأولياء الله الأكابر ، (و ما ذلك على الله بعزيز).

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه لما تكلم على ثمرات المحبة - قال : فترى النفس مائلة لطاعته ، والعقل متحصنا بمعرفته «١» ، والروح مأخوذة فى حضرته ، والسر مغمورا فى مشاهدته ، والعبد يستزيد [من حبه «٢»] فيزاد ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته ، فيكسى حلل التقريب على بساط القربة ، ويمس أبكار الحقائق وثيبات العلوم. هـ. فعلم الحقائق أبكار ، وما يوصل إليه من علوم الطريقة ثيبات حرائر ، وما سواها من علوم الرسوم إماء بالنسبة إلى غيرها ، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حدّ الأمة إذا زنت ، فقال :

قلت : أحصن الرجل - بفتح الهمزة وضمها - : صار محصنا بالفتح والكسر ، وهذا مما اتحد فيه البناء للفاعل والمفعول. وقيل بالفتح ، معناه : أسلم ، وبالضم : تزوج.

---

(١) فى الأصول : بمعروفه ، والمثبت هو ما فى لطائف المنن للسكندرى.

(٢) ما بين المعكوفتين من تدخل الشيخ المفسر فى النقل.

يقول الحق جل جلاله : إن الإماء إذا تزوجن فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ ، وهو الزنا ، فعليهن نصف ما على الحرة من الحد ، وهو خمسون ، لأن حد البكر مائة. ويفهم منه أنها لا ترجم لأن الرجم لا يتبعض. وكذلك الذكور من العبيد عليهم نصف الحدود كلها ، ولا رجم عليهم ، وسمى الحد عذابا ، كقوله : وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

الإشارة : بقدر ما يعلو المقام يشدد العقاب ، وبقدر ما يحصل من القرب يطلب الآداب ، فليست المعصية فى البعد كالمعصية فى القرب ، وليس يطلب من البعيد ما يطلب من القريب ، وانظر إلى أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلم حيث قال تعالى لهن : يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ

يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ. وما ذلك إلا لحظوتهن وشدة قربهن من الله. ولذلك كان لا يدخل الحضرة إلا أهل الآداب والتهذيب ، بعد التدريج والتدريب ، وتأمل قضية الجنيد ، حيث قيل له فى المنام : مثلك لا يرضى منه هذا ، حيث خطر على قلبه الاعتراض على السائل ، غير أن المقربين يعاتبون ، ويردون إلى الحضرة ، وأهل البعد يزيدون بعدا ، ولكن لا يشعرون ، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر شرط تزوج الأمة لعادم الطول ، فقال :

ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ...

قلت : العنت : المشقة والضرر ، ولا ضرر أعظم من مواقعة الإثم ، ولا سيما بأفحش الفواحش وهو الزنا ، (يريد الله ليبين لكم) ، أي : لأن يبين ، واللام زائدة فى المفعول ، لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة.

يقول الحق جل جلاله : ذلِكَ أي : نكاح الإماء إنما أبحته لمن خشى الوقوع فى الزنا ، الذي هو أقبح الفواحش ، فنكاح الأمة ، وإرقاق الولد يباع فى الأسواق أخف من الزنا. وَأَنْ تَصْبِرُوا عن نكاحهن ، مع التعفف عن الزنا ، خَيْرٌ لَكُمْ لئلا يرق أولادكم. وعن أنس قال : سمعت النبي صلّى اللّه عليه وسلم يقول : «من أراد أن يلقى الله طاهرا مطهّرا فليتزوّج الحرائر» وقال أبو هريرة : سمعته صلّى اللّه عليه وسلم يقول : «الحرائر صلاح البيت ، والإماء هلاك البيت «١»».

---

(١) الحديث ضعفه السيوطي فى الجامع الصغير.

وَاللَّهُ غَفُورٌ لكم فيما سلف من المخالفة ، رَحِيمٌ بكم ، حيث رخّص لكم عند خوف الإثم نكاح الأمة ، يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ شرائع دينكم ، ومصالح أموركم ، وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أي : مناهج من تقدمكم من أهل الرشد ، كالأنبياء والصالحين ، لتسلكوا مناهجهم ، كحفظ الأموال والأنساب ، وتحريم الأمهات والبنات والأخوات ، فإنهن محرمات على من قبلكم ، وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ أي : يغفر ذنوبكم الماضية ، أو يرشدكم إلى التوبة ، أو يمنعكم من المعاصي بالعصمة. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بما أسلفتم وما تستقبلونه من أفعالكم ، حَكِيمٌ بما دبر وأبرم.

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ كرره توطئة لقوله : وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا عن الحق مَيْلًا عَظِيماً بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات ، وكأنه تعالى يقول : إنا نريد توبتكم ورشدكم ، والذين يتبعون الشهوات يريدون ميلكم وإضلالكم ، والمراد بهم الزناة لأنهم يودون أن يكون

الناس كلهم زناة ، وأمّا من تعاطى شهوة النكاح فى الحلال ، فإنه متبع للحق لا لهم ، وقد قال - عليه الصلاة والسلام - :

«تناكحوا تناسلوا ، فإنّى مباه بكم الأمم يوم القيامة». وقد كان سيدنا على - كرم الله وجهه - أزهد الصحابة ، وكان له أربع حرائر وسبع جوارى سرّيّات ، وقيل : سبع عشرة ، وقيل : المراد بهم اليهود والنصارى ، لأن اليهود يحلون الأقارب من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت. وقيل : المجوس.

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ فلذلك شرع لكم الشريعة الحنيفية السمحة السهلة ، ورخص لكم عند المضايق فى نكاح الأمة. وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً فى كل شىء ، لأنه خلق من ضعف ، ويؤول إلى ضعف ، أسير جوعة ، صريع شبعة ، وخصوصا عن شهوة النساء ، فإنه لا يصبر عن الجماع ، ولا يكون فى شىء أضعف منه فى أمر النساء ، وعن عبادة ابن الصامت رضي اللّه عنه أنه قال : (ألا ترونى أنى لا أقوم إلا رفدا «١» ، ولا آكل إلا ما ليّن لى ، وقد مات صاحبى - يعنى ذكره - منذ زمان ، وما يسرنى أنى خلوت بامرأة لا تحل لى ، وأن لى ما تطلع عليه الشمس ، مخافة أن يأتينى الشيطان فيحركه ، على أنه لا سمع له ولا بصر.).

قال ابن عباس : ثمانى آيات فى سورة النساء ، هى خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ، يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ ...

الآية ، إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ .... الآية ، إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ ... ، وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ...

الآية ، ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ ... الآية. هـ.

الإشارة : إنما ينزل المريد إلى العلوم الرسمية ، أو الأعمال الحسية ، إذا خشى الانمحاق أو الاصطلام فى بحر الحقائق ، وإن صبر وتماسك ، حتى يتقوى على حمل أعبائها ، فهو خير له ، لأن الرجوع إلى الحس ، لا يؤمن من

---

(١) أي : إلّا بمعاونة غيرى.

الحبس ، والله غفور لمن تنزل لعلة ما تقدم ، رحيم حين جعل له الرخصة ، يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ سلوك الطريق إلى عين التحقيق ، ويهديكم طرق الوصول ، كما هدى من قبلكم ، ويتوب فيما خطر ببالكم ،

من الفترة أو الوقفة ، والله يريد أن يتعطف عليكم ، لترجعوا إليه بكليتكم. وأهل الغفلة المنهمكون فى الشهوات ، يريدون ميلكم عن طريق الوصول إلى حضرة ربكم ، يريد الله أن يخفف عنكم ، فلا يحملكم من الواردات إلا ما تطيقه طاقتكم ، لأنكم ضعفاء إلا إن قوّاكم. اللهم قونا على ما نريد ، وأيدنا فيما تريد ، إنك على كل شيء قدير.

ولمّا ذكر ما يتعلق بحفظ أموال اليتامى وأموال النساء ، وانجر الكلام إلى ما يتعلق بهن من حدودهن ، وما يحل وما يحرم منهن ، ذكر ما بقي من حفظ أموال الرجال ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٢٩ الى ٣٠]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (٣٠)

قلت : الاستثناء منقطع ، وكان تامة لمن رفع ، وناقصة لمن نصب ، واسمها : ضمير الأموال ، على حذف مضاف ، إلّا أن تكون الأموال أموال تجارة.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ الذي لا تجوزه الشريعة ، كالربا والقمار ، والغصب والسرقة ، والخيانة والكهانة والسحر وغير ذلك. إِلَّا أَنْ تَكُونَ ، أي : لكن إن وجدت تِجارَةً صحيحة عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ أي : اتفاق منكم على البيع ، وبه استدلت المالكية على انعقاد البيع بالعقد ولو لم يحصل تفرق بالأبدان.

وقال الشافعي : إنما يتم بالتفرق بالأبدان ، لقوله – عليه الصلاة والسلام : «البيّعان بالخيار ما لم يتفرّقا». وحمله مالك على التفرق بالكلام ، وقال أكثر المفسرين : التخيير ، هو أن يخير كل واحد منهما صاحبه بعد عقد البيع. وقد ابتاع عمرو ابن جرير فرسا ، ثم خيّر صاحبه بعد البيع ، ثم قال : سمعت أبا هريرة يقول : البيع عن تراض. قال البيضاوي :

وتخصيص التجارة من الوجوه التي يحل بها انتقال مال الغير ، لأنها أغلب وأوفق لذوى المروءات ، ويجوز أن يراد بها الانتقال مطلقا. وقيل : المقصود بالنهى : صرف المال فيما لا يرضاه الله تعالى ، وبالتجارة : صرفه فيما يرضى. هـ.

الإشارة : لا تصرفوا أموالكم ولا أحوالكم فى غير ما يقربكم إلى الحق فإن ما سوى الحق كله باطل ، كما قال الشاعر :

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل وكلّ نعيم لا محالة زائل «١»

---

(١) راجع التعليق على هذا البيت عند إشارة الآية [١٥٠] من سورة البقرة. [.....]

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٩٤

إلا أن يكون صرفه فى تجارة رابحة ، تقربكم من الحبيب ، وتجلبكم إلى حضرة القريب ، فتلك تجارة رابحة وصفقة نافعة. والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على بعض ما يتعلق بحفظ الأبدان ، وسيأتى تمامه فى قوله : (و ما كان لمؤمن ...) إلى آخر الآيات ، فقال :

وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ...

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، بالخنق أو بالنخع «١» أو بالجرح ، الذي يؤدى إلى الموت ، أو بالإلقاء إلى التهلكة. وعن عمرو بن العاص رضي اللّه عنه قال : (بعثني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى غزوة ذات السّلاسل ، فأجنبت فى ليلة باردة ، فأشفقت على نفسى وصليت بأصحابى صلاة الصبح بالتيمم. فلمّا قدمت ذكرت ذلك لرسول الله صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال : «يا عمرو صلّيت بأصحابك وأنت جنب؟» قلت : نعم يا رسول الله ، أشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فذكرت قوله تعالى : لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً ، فضحك النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، ولم يقل شيئا).

أو : ولا تقتلوا إخوانكم فى الإسلام ، فإن المؤمنين كنفس واحدة. قال البيضاوي : جمع فى التوصية بين حفظ النفس والمال - الذي هو شقيقها من حيث إنه سبب قوامها - استبقاء لهم. هـ.

وإنما نهاكم عن قتل أنفسكم رأفة ، ورحمة بكم ، إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً ، فقد أمر بنى إسرائيل بقتل أنفسهم ، وأنتم نهاكم عنه. وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ القتل. أو جميع ما سبق من المحرمات عُدْواناً وَظُلْماً ، أي :

إفراطا فى التجاوز عن الحد ، وإتيانا بما لا يستحق ، أو تعديا على الغير وظلما على النفس ، بتعريضها للعقاب ، فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً أي : نحرقه ونشويه فيها. وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً.

وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «من قتل نفسه بشيء عذب به فى نار جهنّم خالدا مخلّدا فيها» وهو تغليظ ، أو لمن استحل ذلك. وهذا الوعيد الذي ذكره الحق هنا فى قتل الإنسان بيده ، أهون مما ذكره فى قتل الغير ، الذي يأتى ، لأنه زاد هناك الغضب واللعنة والعذاب العظيم ، أما قول ابن عطية : إنه أجمع المفسرون أن هذه الآية فى قتل بعضهم بعضا ، فليس بصحيح ، والله تعالى أعلم.

---

(١) النخع : هو القتل الشديد ، مشتق من قطع النخاع.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٩٥

الإشارة : ولا تقتلوا أنفسكم باتباع الشهوات وتراكم الغفلات ، فإنه يفوتها الحياة الحقيقية. وقال الفضيل بن عياض رضي اللّه عنه : (لا تغفلوا عن حظ أنفسكم ، فمن غفل عن حظ نفسه ، فكأنما قتلها). وحظ النفس هو تزكيتها وتحليتها بالكمالات ، أو قوتها من العلم اليقين ، والمعرفة وصحة التمكين ، والمراد بالنفس هنا الروح ، وأما ما اصطلحت عليه الصوفية من أن النفس يجب قتلها ، فإن مرادهم بذلك النفس الأمارة ، فإن الروح ما دامت مظلمة بالمعاصي والهوى سميت نفسا ، فإذا تطهرت وتزكت سميت روحا. وهو المراد هنا. سماها نفسا باعتبار ما كانت عليه. والله تعالى أعلم.

ثم إن قتل النفس من الكبائر ، فمن اجتنبه مع غيره من الكبائر غفرت له الصغائر ، كما أشار إلى ذلك ترغيبا فى اجتناب ما ذكر ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٣١]

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (٣١)

قلت : المدخل - بالضم : مصدر ، بمعنى الإدخال ، وبالفتح : المكان ، ويحتمل المصدر.

يقول الحق جل جلاله : إن تجتنبوا كبائر الذنوب التي تنهون عنها نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ الصغائر وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً وهو الجنة ، أو إدخالا مصحوبا بالكرامة والتعظيم ، واختلف فى الكبائر ، هل تعرف بالعد أو بالحد؟ فقيل : سبع ، وقيل : سبعون ، وقيل : سبعمائة ، وقيل : كل معصية فهى كبيرة.

وعنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «اجتنبوا السّبع الموبقات : الإشراك بالله ، والسّحر ، وقتل النّفس بغير حقها ، وأكل الرّبا ، وأكل مال اليتيم ، والفرار من الزّحف ، ورمى المحصنات الغافلات المؤمنات».

قال ابن جزى : لا شك أن هذه من الكبائر لنص الشارع عليها ، وزاد بعضهم عليها أشياء ورد النص عليها فى الحديث أنها من الكبائر ، منها عقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، واليمين الغموس ، والزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، والنهبة ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ، ومنع ابن السبيل الماء ، والإلحاد فى البيت الحرام ، والنميمة ، وترك التحرّز من البول ، والغلول ، واستطالة الرجل فى عرض أخيه ، والجور فى الحكم.

وقيل فى حدها : كل جريمة تؤذن بقلة الدين ورقة الديانة ، وقيل : ذنوب الظاهر صغائر ، وذنوب الباطن كبائر.

وقيل : كل ما فيه حق الغير فهو كبائر ، وما كان بينك وبين اللّه تعالى صغائر ، واحتج هذا بقوله - عليه الصلاة والسلام - : «ينادى يوم القيامة مناد من بطنان العرش «١» : يا أمّة أحمد ، إنّ اللّه تعالى يقول : أمّا ما كان لى قبلكم فقد وهبته لكم ، وبقيت التباعات ، فتواهبوها ، وادخلوا الجنة».

(١) بطنان العرش : أي من وسطه ، وقيل من أصله ، وقيل : البطنان جمع بطن. يريد من دواخل العرش. انظر النهاية.

(٤٩٥/١)

الإشارة : كل ما يبعد العبد عن حضرة ربه فهو من أكبر الكبائر ، فمن اجتنب ذلك واتقى كل ما يشغله عن الله أدخله الله مدخلا كريما ، وهو حضرة الشهود والتلذذ برؤية المعبود ، والترقي فى أسرار الحبيب الودود. قال الورتجبي : قال أبو تراب : أمر الله باجتناب الكبائر ، وهى الدعاوى الفاسدة ، والإشارات الباطلة ، وإطلاق اللفظ بغير الحقيقة. هـ.

ولما قسّم الله المواريث على ما تقدم ، قال بعض النساء : ليتنا استوينا مع الرجال ، أو يكون لنا سهمان لأننا أحوج منهم ، فأنزل الله :

[سورة النساء (٤) : آية ٣٢]

وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ من الميراث «١» بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ ، كتضعيف الذكر على الأنثى ، فللرجال نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا أي : مما أصابوا وأحرزوا فى القسمة ، وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ منه ، قلّ أو كثر ، فلتقنع بما قسم الله لها ، ولا تعترض على أحكام الشريعة ، ولكن سْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ يعطكم من غير الميراث ، هكذا فسرها ابن عباس.

وقال مجاهد : قالت أم سلمة : يغزو الرجال ولا نغزو ، فليتنا رجال نغزو ، ونبلغ ما يبلغ الرجال. فنزلت. فيكون المعنى : ولا تتمنوا ما فضل الله به الرجال على النساء كالغزو وغيره ، فللرجال نصيب مما اكتسبوا من ثواب الجهاد وسائر أعمالهم ، (و للنساء نصيب مما اكتسبن) من طاعة أزواجهن وحفظ فروجهن وسائر بقية أعمالهن.

والتحقيق أنها عامة فى جميع المراتب الدينية والدنيوية لأن ذلك ذريعة إلى التحاسد والتعادي ، ومعربة عن عدم الرضا بما قسم الله له. ، وإلى التشهي لحصول الشيء له من غير طلب ، وهو مذموم لأن تمنى ما لم يقدر له ، معارضة لحكمة القدر ، وتمنى ما قدر له بكسب ، بطالة وتضييع حظ ، وتمنى ما قدر له بغير كسب ، ضياع ومحال ، قاله البيضاوي. فللرجال نصيب من أجل ما اكتسبوا من الأعمال ، وتحملوا من المشاق ، فيعطيهم الله على قدر ما اكتسبوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ كذلك ، فلا فائدة فى تمنى ما للناس ، ولكن (اسألوا الله من فضله) يعطكم مثله ، أو أكثر من خزائنه التي لا تنفد. إِنَّ اللَّهَ

كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً وهو يعلم ما يستحقه

---

(١) سيذكر الشيخ بعد أن الآية عامة.

(٤٩٦/١)

كل إنسان ، فيفضّل من شاء بما شاء عن علم وبيان ، ومناسبة الآية حينئذ لما قبلها : أن تجنب الكبائر فضل من الله ونعمة ، وهو أفضل ممن يقع فيها ، لكن لا ينبغى تمنى ذلك من غير عمل ، ولكن يسأل الله من فضله حتى يلحقه بأهل العصمة. وبالله التوفيق.

الإشارة : قد وقع التفضيل فى مقامات الأولياء كالأنبياء ، لكن لا ينبغى تعيين الفاضل من المفضول ، لما يؤدى إليه من التنقيص فيؤدى إلى الغيبة ، والتفضيل يقع بزيادة اليقين وصحة التمكين ، والترقي فى أنوار التوحيد وأسرار التفريد. ويكون أيضا بهداية الخلق على يده ، وظهور إحسانه ورفده ، فإذا رأى العبد أنه لم يبلغ إلى مقام غيره فلا يتمنى ذلك المقام بعينه ، فقد يكون مقامه عند الله فى علمه أعظم ، وقد يكون أدون ، فيسىء الأدب ، فالخير كله فى العبودية والرضى بأحكام الربوبية ، فللأقوياء نصيب مما اكتسبوا بالقوة والمجاهدة التي خلق الله فيهم ، حكمة وفضلا ، وللضعفاء نصيب مما اكتسبوا قسمة وعدلا ، ولكن يسأل الله من فضله العظيم ، فإن الله بكل شىء عليم ، فقد يعطى بلا سبب ويبلّغ بلا تعب.

وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «سلوا الله من فضله فإنّ الله يحبّ أن يسأل». وفى حديث آخر : «من لم يسأل الله يغضب عليه». وقال الورتجبي : أمر بالسؤال ونهى عن التمني لأن السؤال افتقار ، والتمني ، اختيار. هـ. والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على ميراث الحليف على ما كان فى أول الإسلام ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٣٣]

وَلِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٣٣)

قلت : التنوين فى «كل» : للعوض ، و«مما ترك» بيان للمعوض منه ، أي : ولكل مال مما ترك الوالدان والأقربون جعلنا موالى ، أي : ورثة ، وهم الذرية والعصبة يرثون من ذلك المال ، والوالدان على هذا فاعل ، ويحتمل أن يكون مبتدأ والتنوين عوض عن الميت الموروث ، أي : ولكل ميت جعلنا ورثة يرثون مما ترك ذلك الميت ، وهم الوالدان والأقربون فيوقف على (ترك) ، و(مما) يتعلق بمحذوف

، و(الذين) مبتدأ ، و(فآتوهم) خبر ، دخلت الفاء لما في المبتدأ من العموم.
يقول الحق جل جلاله : ولكل ميت جعلنا ورثه يرثون مِمَّا تَرَكَ ذلك الميت ، وهم الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، أو لكل تركة جعلنا لها مَوالِيَ أي : ورثة يرثون مما ترك الوالدان والأقربون ، وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ وهم موالى الحلف ، كانوا يتحالفون فى الجاهلية على النصرة والمؤازرة ، يقول الرجل لآخر : دمى دمك ،

وهدمى هدمك ، وثأرى ثأرك. فيضرب بعضهم على يد الآخر فى عقد ذلك الحلف. فلذلك قال : عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فكان فى أول الإسلام يرث من حليفه السدس ، وإليه أشار بقوله : فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ، ثم نسخ.
وقيل : نزلت فى المؤاخاة التي آخى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، فكان يرث السدس ، ثم نسخ بقوله : وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ. وعن أبى حنيفة : لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح وورث. وقال ابن عباس : آتوهم نصيبهم من النصرة التي تعاقدوا عليها ، فيوفى لهم بها ، فلا نسخ.
إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ، هو تهديد لمن تعدى الحدود ، ونقض العهود. والله تعالى أعلم.
الإشارة : ولكل زمان جعلنا أولياء كبراء ، يرثون مما ترك أشياخهم من خصوصية الولاية وسر العناية ، إلى يوم القيامة فالأرض لا تخلو ممن يقوم بالحجة ويظهر المحجة ، فيقال لهم : والذين عقدت أيمانكم فى الصحبة معكم ، فظهر صدقهم ، وبانت خدمتهم ، فآتوهم نصيبهم مما خصكم الله به من سر الولاية ولطف العناية ، (إن الله كان على كل شيء شهيدا) ، لا يخفى عليه من يستحق الخلافة ويرث سر الولاية. والله تعالى أعلم.
ثم بيّن حكمة تفضيل الرجال على النساء فى المواريث وغيرها ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ٣٤]
الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ فَالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً (٣٤)
قلت : (فالصالحات) مبتدأ ، وما بعده إخبار عنه ، وأتى بالفاء المؤذنة بالسببية والتفريع ، وكأنه تعالى يقول :
الرجال قوامون على النساء ، فمن كانت صالحة قام عليها بما تستحقه من حسن المعاشرة ، ومن كانت

ناشزة عاملها بما تستحقه من الوعظ وغيره. وكل ما هنا من لفظ (ما) فهى مصدرية. إلا ما قرأ به أبو جعفر : [بما حفظ الله] ، بالنصب ، فهى عنده موصولة اسمية ، أي : بالأمر الذي حفظ الله وهو طاعتها للّه فحفظها بذلك ، وقيل إنها مصدرية. انظر الثعلبي.

يقول الحق جل جلاله : الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ أي : قائمون عليهن قيام الولاة على الرعية ، فى التأديب والإنفاق والتعليم ، ذلك لأمرين : أحدهما وهبى ، والآخر كسبى فالوهبى : هو تفضيل الله لهم على

(٤٩٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٩٩

النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة فى الأعمال والطاعات ، ولذلك خصوا بالنبوة ، والإمامة ، والولاية ، وإقامة الشعائر ، والشهادة ، فى مجامع القضايا ، ووجوب الجهاد والجمعة ونحوهما ، والتعصيب ، وزيادة السهم فى الميراث ، والاستبداد بالطلاق. والكسبي هو : (بما أنفقوا من أموالهم) فى مهورهن ، ونفقتهن ، وكسوتهن.

فيجب على الزوج أن يقوم بالعدل فى أمر نسائه ، فالمرأة الصالحة القانتة ، أي : المطيعة لزوجها ولله تعالى ، الحافظة للغيب ، أي : لما غاب عن زوجها من مال بيته وفرجها وسر زوجها ، حفظت ذلك بحفظ الله ، أي : بما جعل الله فيها من الأمانة والحفظ ، وبما ربط على قلبها من الديانة ، أو بحفظها حق الله ، فلما حفظت حقوق الله حفظها الله بعصمته ، لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «احفظ الله يحفظك». فمن كانت على هذا الوصف من النساء فيجب على الزوج حسن القيام بها ، ومقابلتها فى القيام بما قابلته من الإحسان ، وعنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرّتك ، وإن أمرتها أطاعتك ، وإن غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها». وتلا هذه الآية.

وأما النساء التي تَخافُونَ أي : تتيقنون نُشُوزَهُنَّ أي : ترفعهن عن طاعة أزواجهن وعصيانهن ، فَعِظُوهُنَّ بالقول ، فإن لم ينفع فاهجروهن فى المضاجع ، أي : لا تدخلوا معهن فى لحاف ، أو لا تجامعوهن ، فإن لم ينفع فاضربوهن ضربا غير مؤلم ولا شائن. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «علّق السّوط حيث يراه أهل البيت». وعن أسماء بنت أبى بكر - رضى اللّه عنهما - قالت : (كنت رابع نسوة عند الزبير بن العوام ، فإذا غضب على إحدانا ، ضربها بعود المشجب ، حتى ينكسر). والمشجب : أعواد مركبة يجعل عليها الثياب.

فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ يا معشر الأزواج ، أو عقدن التوبة مما مضى ، فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا أي : لا تطلبوا عليهن طريقا تجعلونه سبيلا لإيذائهن ، بل اجعلوا ما كان منها من النشوز كأن لم يكن ، (فإنّ التّائب من

الذّنب كمن لا ذنب له). وقال ابن عيينة : أي لا تكلفوهن بحبكم. هـ. وقال الورتجبي : إذا حصل منهن صورة طاعة الرجال فلا يطلب منهن موافقة الطباع ، فإن ذلك منازعة للقدر. قال تعالى : لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، وذكر حديث : «الأرواح جنود مجنّدة».

ثم هدد الأزواج فقال : إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً فاحذروه ، فإنه أقدر عليكم منكم على من تحت ولايتكم ، أو : إنه على علو شأنه ، يتجاوز عن سيئاتكم ، فأنتم أولى بالعفو عن نسائكم ، أو : أنه يتعالى ويكبر أن يظلم أحدا أو ينقص حقه.

(٤٩٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٠٠

وسبب نزول الآية : أن سعد بن الرّبيع ، وكان من النقباء ، لطم امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير ، وكانت نشزت عليه ، فانطلق أبوها معها إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فقال : أفرشته كريمتى فلطمها ، فقال - عليه الصلاة والسلام - :

لتقتصّ منه ، فانصرفت لتقتصّ منه ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : ارجعوا ، هذا جبريل أتانى وأنزل الله هذه الآية : الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ إلى آخرها ، فقال عليه الصلاة والسلام : «أردنا أمرا ، وأراد الله أمرا ، والّذى أراد الله خير» فرفع القصاص. وقيل : نزلت فى غيره ممن وقع له مثل هذا من النشوز. والله تعالى أعلم.

الإشارة : الرجال الأقوياء قوامون على نفوسهم قهارون لها ، بفضل القوة التي مكنهم الله منها ، وبما أنفقوا عليها من المجاهدات والرياضات ، فهم ينظرون إليها ويتهمونها فى كل حين ، فإن صلحت وأطاعت وانقادت لما يراد منها من أحكام العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، عاملوها بالإكرام والإجمال ، ورفعوا عنها الآداب والنكال ، وإن نشزت وترفعت أدبوها وهجروها عن مواطن شهواتها ومضاجع نومها ، وضربوها على قدر لجاجها وغفلتها.

وكان الشيخ أبو يزيد يأخذ قبضة من القضبان ويذهب إلى خلوته ، فكلما غفلت ضربها ، حتى يكسرها كلها ، وكان بعض أصحابنا يأخذ خشبة ويذهب إلى خلوته ، فكلما غفل ضرب رأسه بها ، حتى يأتى رأسه كلّه مفلول.

ويلغنى أن بعض أصحابنا كان يدخل فى لحمة رجله سكينا كلما غفل قلبه ، وهذا إغراق ، وخير الأمور أوسطها.

وبالله التوفيق.

ولمّا تكلم على حكم المرأة الطائعة والناشزة ، تكلم على ما إذا أشكل الأمر ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٣٥]
وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً (٣٥)
قلت : الشقاق : المخالفة والمساورة ، وأضيف إلى الظرف توسعا كقوله : بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ ، والأصل : شقاقا بينهما ، والضمير فى (يريدا) للحكمين ، وفى (بينهما) للزوجين ، وقيل : للحكمين معا ، وقيل : للزوجين معا.
يقول الحق جل جلاله : إِنْ خِفْتُمْ يا معشر الحكام ، أي علمتم خلافا بين الزوجين ومشاورة ، ولم تدروا الظالم من المظلوم ، فَابْعَثُوا رجلين أمينين يحكمان بينهما ، يكون أحدهما من أهله والآخر من أهلها ، لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال ، وأطلب للإصلاح ، فإن بعثهما الحاكم أجنبيين صح ، وكذا إن أقامهما الزوجان.
وما اتفق عليه الحكمان لزم الزوجين من خلع أو طلاق أو وفاق. وقال أبو حنيفة : ليس لهما التطليق إلّا أن يجعل لهما ، وإذا اختلفا لم يلزم شيء ، ويستأنفان الحكم ، قال ابن جزى : ومشهور مذهب مالك : أن الحاكم هو الذي يبعث

(٥٠٠/١)

الحكمين ، وقيل : الزوجان ، وجرت عادة القضاء أن يبعثوا امرأة أمينة ولا يبعثوا الحكمين ، قال بعض العلماء : هو تغيير للقرآن والسنة الجارية. هـ.
فإن بعث الحكمان ، فإن أرادا إصلاحا بين الزوجين ، واتفقا عليه ، وفق الله بينهما ببركة قصدهما ، وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله مبتغاه. إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً بما فى الظواهر والبواطن ، فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق.
الإشارة : وإن خفتم ، أيها الشيوخ ، على صاحبكم منازعة النفس والروح فكانت النفس تجمح به إلى أسفل سافلين ، بمتابعة هواها وعصيان مولاها ، والروح تجنح به إلى أعلى عليين ، بجهاد هواها ومشاهدة مولاها ، فابعثوا له واردين قويين ، إما شوق مقلق يرحل الروح إلى مولاها ، أو خوف مزعج يزجر النفس عن هواها. فإن أراد الله بذلك العبد إصلاحا لحاله أرسلهما معا متفقين على تخليصه وارتفاعه ، فيتقدم الخوف المزعج ويستدركه الشوق المقلق ، فيلتحق بأهل التحقيق من أهل التوفيق ، وما ذلك على الله بعزيز ، وفى الحكم : «لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج ، أو شوق مقلق». والله تعالى أعلم.

ولما فرغ الحق جل جلاله من الكلام على حفظ الأموال ، وحفظ الأنساب ، وبعض حفظ الأبدان ، شرع يتكلم على حفظ الأديان ، وما يتعلق بذلك ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٣٦]

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَبِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَالْجارِ ذِي الْقُرْبى وَالْجارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُوراً (٣٦)

قلت : الجنب - بالضم - : البعيد ، يقال فيه : جنب وأجنب وأجنبى ، وسمى الجنب جنبا لأنه يبعد من المسجد وعن الصلاة وعن التلاوة ، و(مختال) اسم فاعل ، وأصله : مختيل ، بالكسر ، من الخيلاء وهو التكبر.

يقول الحق جل جلاله : وَاعْبُدُوا اللَّهَ أي : وحّدوه وأطيعوه وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً جليا أو خفيا فى اعتقادكم أو فى عبادتكم ، فمن قصد الحج والتجارة ، فقد أشرك مع الله فى عبادته ، وأحسنوا بالوالدين إحسانا حسنا ، وهو برهما والقيام بحقهما ، وَبِذِي الْقُرْبى ، أي : القرابة فى النسب ، أو الدين وَالْيَتامى لضعف حالهم ، وَالْمَساكِينِ لقلة ما بيدهم ، وقد شكى بعض الناس قساوة قلبه ، فقال له عليه الصلاة والسلام : «إن أردت أن يلين قلبك ، فأطعم والمسكين وامسح رأس اليتيم ، وأطعمه».

(٥٠١/١)

وَالْجارِ ذِي الْقُرْبى الذي قرب جواره أو نسبه ، وَالْجارِ الْجُنُبِ الذي بعد مكانه أو نسبه ، وحدّد بعضهم الجوار بأربعين دارا من كل ناحية. وقال ابن عباس : الجار ذى القربى : الجار الذي بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب : الجار من قوم آخرين. هـ.

قيل يا رسول الله : ما حق الجار على الجار قال : «إن دعاك أجبته ، وإن أصابته فاقة عدت عليه ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن مرض عدته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإن توفى شهدت جنازته ، ولا تستعل عليه بالبنيان لتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه بقتار قدرك - أي : بخارها - إلا أن تغرف له منها ، وإن ابتعت فاكهة فأهد له منها ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا يخرج ولدك منها بشىء فيغيظ ولده» ثم قال : «الجيران ثلاثة : فجار له ثلاثة حقوق : حق الجوار ، وحق القرابة ، وحق الإسلام ، وجار له حقان : حق الجوار ، وحق الإسلام ، وجار له حق واحد : وهو المشرك من أهل الكتاب».

وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ، وهو الرفيق فى أمر حسن ، كتعلم وتصرف وصناعة وسفر ، فإنه صحبك بجنبك ،

وعن علي – كرم الله وجهه – (أنها الزوجة) ، فيتأكد في حقها الإحسان زيادة على المعاشرة بالمعروف ، قال بعضهم : أول قدم في الولاية كف الأذى وحمل الجفا ، ومعيار ذلك حسن معاشرة الأهل والولد ، وقال – عليه الصلاة السلام – : «خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائى». وَابْنِ السَّبِيلِ ، وهو الضيف أو المسافر لغرابته ، وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ، من الإماء والعبيد ، وكان آخر كلام النبي – عليه الصلاة والسلام – : «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم».

إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالًا أي : متكبرا ، يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم ، فَخُوراً يتفاخر عليهم بماله وجاهه ، وما خوله الله من نعمه ، فهو جدير أن تسلب منه.

الإشارة : واعبدوا الله ، أي : بالقيام بوظائف العبودية ، ومشاهدة عظمة الربوبية ، وقال بعض الحكماء :

العبودية : ترك الاختيار ، وملازمة الذل والافتقار. وقيل : العبودية أربعة أشياء : الوفاء بالعهود ، والحفظ للحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر على المفقود ، وعنوان ذلك صفاء التوحيد ، ولذلك قال : وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً أي :

لا تروا معه غيره ، كما قال القائل :

مذ عرفت الإله لم أر غيرا وكذا الغير عندنا ممنوع

وقال آخر : (لو كلفت أن أرى غيره ، لم أستطع ، فإنه لا غير معه حتى أشهده). فإذا حصلت العبودية فى الظاهر ، وتحقق التوحيد فى الباطن ، ظهرت عليه مكارم الأخلاق فيحسن إلى الأقارب والأجانب ، ويجود عليهم

(٥٠٢/١)

بالحس والمعنى ، لأن الفتوة من شأن أهل التوحيد ، ومن شيم أهل التجريد ، كما هو معلوم من حالهم ، نفعنا الله بذكرهم ، وخرطنا فى سلكهم. آمين.

قال الورتجبي : «الوالدين» : مشايخ المعرفة. ثم نقل عن الجنيد ، أنه قال : أمرنى أبى أمرا ، وأمرنى السرى أمرا.

فقدمت أمر السرى على أمر أبي ، وكل ما وجدت فهو من بركاته. هـ. وذوو القربى هم الأخوة فى الشيخ ، واليتامى : من قصدهم من المتفقرة الجاهلة ، والمساكين : ضعفاء اليقين من العامة ، أمر الله تعالى أهل الخصوصية بالإحسان إليهم والبرور بهم ، وهو أن يقرهم فى طريقهم ، ويحوشهم إلى ربهم. والجار ذى القربى وهو جارك فى السكنى وأخوك فى النسبة ، فيستحق عليك زيادة الإحسان. والجار

الجنب : من جاورك من العوام فتنصحه وترشده ، والصاحب بالجنب : من رافقك فى أمر من العوام ، كسفر وغيره ، وابن السبيل :
من نزل بأهل الخصوصية من الأضياف ، فلهم حق الضيافة عليهم حسا ومعنى ، وما ملكت أيمانكم : مالكم تصرف عليهم من الأهل والبنين والإماء والعبيد ، فتقربونهم إلى حضرة الملك المجيد. ثم أمرهم بالتواضع والإقبال على الخاص والعام. فقال : إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالًا فَخُوراً. والله تعالى أعلم.
ثم بيّن حال أضداد هؤلاء ، فقال :
[سورة النساء (٤) : الآيات ٣٧ الى ٣٩]
الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً (٣٨) وَما ذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً (٣٩)
قلت : (الذين) بدل من : «من كان» ، أو منصوب على الذم ، أو مرفوع عليه ، أي : هم. أو مبتدأ حذف خبره ، أي : نعذبهم عذابا مهينا ، أو أحقاء بكل ملامة ، و(الذين ينفقون) : عطف على الأولى ، أو مبتدأ حذف خبره ، أي :
الشيطان قرينهم. والبخل فيه لغتان : البخل والبخل بحركتين.
يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بأموالهم على أقاربهم وجيرانهم ، وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ من الغنى ، فيظهرون القلة والعيلة ، أو يكتمون العلم بصفة النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، هم أحقاء بكل لوم وعتاب. وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ منهم عَذاباً مُهِيناً يهينهم ويخزيهم ، نزلت فى اليهود ، كانوا يقولون

للأنصار : لا تنفقوا أموالكم ، فإنا نخشى عليكم الفقر ، وكتموا صفته - عليه الصلاة والسلام - .
ووضع الظاهر موضع المضمر وكأنه يقول : وأعتدنا لهم ، إشعارا بأن من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى ، ومن كفر بنعمة الله وأهانها استحق عذابا مهينا.
وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ طلبا لمدحهم وخوفا من ذمهم ، وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، يتحرون بإنفاقهم مراضيه ، فالشيطان قرينهم لا يفارقهم ، وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً ، فلمّا كان الشيطان قرينهم زين لهم التهالك على الأموال والرياء فى الأعمال ، وإنما أشرك أهل الرياء مع

البخلاء فى الوعيد من حيث إنهما طرفا تفريط وإفراط ، وهما سواء فى القبح واستجلاب الذم.
وَما ذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أي : لا ملامة عليهم ولا تبعة تحيق بهم لو أخلصوا الإيمان وأنفقوا مما رزقهم الكريم المنان. قال البيضاوي : وفيه تنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغى أن يجيب إليه احتياطا ، فكيف إذا تضمن المنافع. وإنما قدم الإيمان هاهنا وأخره فى الآية الأخرى : لأن القصد بذكره هنا التخصيص ، وثم التقليل. هـ. وَكانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً لا يخفى عليه شىء من أمورهم وقصدهم.
الإشارة : قال بعض الصوفية : (من أقبح كل قبيح صوفى شحيح) ، فالصوفية العارفون - رضى اللّه عنهم - الذين هم صفوة العباد متخلقون بأضداد ما وسم به الحق - تعالى - أهل العناد ، فهم يجودون بأنفسهم وما خصهم الله بهم من العلوم اللدنية والأسرار القدسية ، على من يستحقه من أهل التخلية والتحلية ، ويأمرون الناس بالسخاء ومكارم الأخلاق ، ويتحدثون بما منحهم الملك الخلاق ، ويظهرون الغنى بالله والاكتفاء به عن كل ما سواه ، وإذا بذلوا أموالهم أعطوها لله وبالله ومن الله وإلى الله وابتغاء مرضاة الله ، هجم عليهم اليقين ، وتمكنوا من شهود رب العالمين ، فلا يقرب ساحتهم الشيطان ، ولا يرون فى الدارين إلا الملك الديان ، تحبهم ملائكة الرحمن ، ويحن إليهم الإنس والجان. نفعنا الله بمحبتهم ، وخرطنا فى مسلكهم ، آمين.
ثم رغّب الحق - تعالى - فى الإنفاق مع الإخلاص ، الذي هو عنوان الدين الخاص ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ٤٠]
إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (٤٠)
قلت : الذرة : النملة الصغيرة الحمراء. وتطلق على جزء من أجزاء الهباء. ومن نصب (حسنة) فخبر كان.
وأنث الضمير باعتبار الخبر. أو لإضافة مثقال إلى ذرة ، فاكتسب التأنيث ، ومن رفع فهى تامة ، وحذف نونها على غير قياس ، تشبيها لها بحروف العلة. وضاعف وضعّف بمعنى واحد.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ أحدا بحيث ينقص من ثواب عمله ، أو يزيد فى عقاب ما يستحقه ، ولو مثقال ذرة. بل يجازى كلا على قدر عمله. فإن كان صالحا ، ولو صغر قدره ، عظم أجره. وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، بحسب الإخلاص. قال أبو هريرة رضي اللّه عنه : سمعت النبي صلّى اللّه عليه وسلم يقول : «إنّ اللّه يعطى المؤمن على

الحسنة ألفى ألف حسنة» ، ثم تلا إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ الآية.
وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ، وخيرا جسيما ، فضلا منه وإحسانا. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «إنّ اللّه لا يظلم المؤمن حسنة ، بل يثاب عليها الرزق فى الدّنيا ويجزيه بها فى الآخرة. والكافر يعطيه بها فى الدّنيا ، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة».
الإشارة : كما أن الحق تعالى لا يظلم طالبى الأجور ، بل يضاعف لهم فى زيادة الحور والقصور ، كذلك لا يبخس طالبى القرب والحضور ، ورفع الحجب والستور. بل كلما فعلوا من أنواع المجاهدات ضاعف لهم أنوار المشاهدات. وكلما نقص لهم من الحس - ولو مثقال ذرة - زادهم فى المعنى قدره وأكثر شهودا ونظرة. وكلما يقهر النفس ولو مقدار الفتيل ، شربوا مقداره وأكثر من خمرة الجليل ، وهذا كله مع صحبة المشايخ أهل التربية ، وإلّا فلا تزيده مجاهدته إلا حجبا وبعدا عن الخصوصية. والله تعالى أعلم.
ثم ذكر الحق تعالى الموطن الذي تظهر فيه مقادير الأعمال ، فقال :
[سورة النساء (٤) : الآيات ٤١ الى ٤٢]
فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً (٤٢)
قلت : (كيف) إذا كان الكلام بعدها تامّا أعربت حالا ، كقولك : كيف جاء زيد؟ وإذا كان ناقصا ، كانت خبرا ، كقولك : كيف زيد؟ وهى هنا خبر ، أي : كيف الأمر إذا ... إلخ. وهى مبنية لتضمنها معنى الاستفهام ، والعامل فى (إذا) مضمون المبتدأ ، أو الخبر ، أي : كيف يستقر الأمر أو يكون إذا جئنا؟ ومن قرأ (تسوّى) بالشد ، فأصله تتسوى ، أدغمت الأولى فى الثانية ، ومن قرأ (لو تسوّى) بالبناء للمفعول فحذف الثانية.
يقول الحق جل جلاله : فَكَيْفَ يكون حال هؤلاء الكفرة واليهود إذا قامت القيامة وجِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ يشهد عليها بخيرها وشرها ، وهو نبيهم الذي أرسل إليهم ، وَجِئْنا بِكَ أنت يا محمد عَلى هؤُلاءِ الأمة التي بعثت إليهم شَهِيداً عليهم ، أو على صدق هؤلاء الشهداء شهيدا ، تشهد على صدق رسالتهم وتبليغهم؟ لعلمك بعقائدهم واستجماع شرعك مجامع قواعدهم ، وقيل : عَلى هؤُلاءِ الكفرة المستفهم عن حالهم ،

(٥٠٥/١)

وقيل : على المؤمنين لقوله : لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً. يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ

كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ أي : الذين جمعوا بين الكفر والعصيان يتمنون أن تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ فيكونون ترابا لما يرون من هول المطلع ، فإذا شهدت عليهم الرسل بالكفر قالوا : وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ ، فينطق ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بشركهم فيفتضحون وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً واحدا ، لأنهم كلما هموا بالكتمان شهدت عليهم جوارحهم بالكفر والعصيان.

وقيل : إن القيامة مواطن ، فى موطن لا يتكلمون ولا تسمع إلا همسا ، وفى موطن يتكلمون ويقولون : والله ربنا ما كنا مشركين ، إلى غير ذلك من اختلاف أحوالهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : لا بد أن يحصل الندم لمن فاته صحبة أهل الخصوصية ، حتى مات محجوبا عن مشاهدة أسرار الربوبية ، لا سيما إذا انضم إليهم كفرهم بخصوصيتهم والإنكار عليهم ، وذلك حين يكشف له عن مقامهم البهي وحالهم السنى ، مصاحبين للمقربين فى جوار الأنبياء والمرسلين ، وهو فى مقام أهل اليمين ، ثم يعاتب على ما أسر عليه من الكبائر ، وهى معاصى القلوب والضمائر ، وهذا إذا مات على الإسلام ، وإلا فالإنكار على الأولياء شؤمه سوء الخاتمة. والعياذ بالله من ذلك. وقد تقدم أن العارفين بالله يشهدون على العلماء ، والعلماء يشهدون على العموم ، ونبينا - عليه الصلاة والسلام - يزكى من يحتاج إلى التزكية. والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على عماد الدين وهى الصلاة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٤٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ وَلا جُنُباً إِلاَّ عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً (٤٣)

قلت : جملة (و أنتم سكارى) : حال ، وسكارى : جمع سكران ، ويجمع على سكارى بالفتح ، وسكرى بالسكون ، و(لا جنبا) عطف على جملة الحال ، و(جنب) يستوى فيه الواحد والاثنان والجماعة والمذكر والمؤنث ، لأنه يجرى مجرى المصدر ، فلا يثنى ولا يجمع. و(إلا عابرى) مستثنى من عام الأحوال ، وأصل الغائط : الموضع المنخفض من الأرض ، ثم أطلق على الواقع فيه مما يخرج من الإنسان.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى : لا تقوموا إليها وأنتم سكارى من خمر ، أو غلبة نوم ، أو شدة غفلة ، حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ فى صلاتكم ، وتتدبروا ما

تقرءون فيها ، فالصلاة من غير حضور خاوية ، وعند الخصوص باطلة ، روى أن عبد الرحمن بن عوف صنع مأدبة ، ودعا إليها نفرا من الصحابة ، حين كانت الخمر مباحة ، فأكلوا وشربوا حتى ثملوا ، وجاء وقت صلاة المغرب ، فتقدم أحدهم ليصلى بهم ، فقرأ : أعبد ما تعبدون - من غير نفى - فنزلت الآية قبل تحريم الخمر ، ثم حرمت بآية المائدة.

ولا تقربوها حالة جنابتكم فى أي حال كان ، إِلَّا عابِرِي سَبِيلٍ أي : فى وقت سفركم ، حيث لم تجدوا ماء ، بدليل ما يأتى ، فيتيمم ويقرب الصلاة وهو جنب ، وفيه دليل أن التيمم لا يرفع الحدث ، قيل المراد بالصلاة مواضعها ، وهى المساجد فلا يدخلها الجنب إلا مارا ، وبه قال الشافعي - رضى اللّه عنه - وقال أبو حنيفة : لا يجوز المرور ، إلّا إذا كان فيه الماء والطريق. وقال مالك : لا يدخل إلا بالتيمم ولا يمر به أصلا.

فلا تقربوا الصلاة وأنتم جنب حَتَّى تَغْتَسِلُوا.

وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى تخافون ضرر الماء ، أو زيادته ، أو تأخر برء ، أو منع الوصول إلى الماء ، أَوْ عَلى سَفَرٍ لم تجدوه فيه ، أَوْ كنتم فى الحضر محدثين حيث جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ ، أو البول ، أو بغيره من الأحداث ، أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ أي : مست بشرتكم بشرتهن ، بقصد اللذة أو عند وجدانها ، وبه قال مالك.

وقال الشافعي : ينقض مطلقا ، قصد أم لا ، وجد أم لا ، ولو بميتة ، وقال أبو حنيفة : إن كانت ملامسة فاحشة بحيث يحصل الانتشار نقضت ، وإلا فلا.

وقال ابن عباس والحسن البصري ومحمد بن الحسن : لا تنقض الملامسة مطلقا ، ويقاس على اللمس سائر نواقض الأسباب ، فتحصّل أن «أو» تبقى على أصلها من التقسيم ، فتكون الآية نصا فى تيمم الحاضر الصحيح ، وبه قال مالك ، ولا يعيد. وقال الشافعي : يصلى بالتيمم ويعيد ، وقال أبو حنيفة : لا يصلى حتى يجد الماء ، ومن قال : «أو» بمعنى الواو فخروج عن الأصل بلا داع.

ثم قيّد التيمم فى هذه الأحوال بفقد الماء ، فقال : فَلَمْ تَجِدُوا ماءً كافيا ، أو لم تقدروا على استعماله ، فَتَيَمَّمُوا أي : اقصدوا صَعِيداً طَيِّباً أي : طاهرا ، وهو ما صعد على وجه الأرض من جنسها كتراب ، وهو الأفضل ، وثلج وخضخاض «١» وحجر ومدر ، لا شجر وحشيش ومعدن ذهب وفضة ، وما التحق بالعقاقير ، كشب ، وملح ، وكبريت ، وغاسول «٢» وشبهه ، فلا يجوز. وقال أبو حنيفة : بكل شىء من الأرض وما اتصل بها كشجر

---

(١) الخضخاض درب من القطران أسود رقيق تطلى به الإبل الجربى.

(٢) الغاسول : عشب ينبت فى الصحراء.

وكحل ، وزرنيخ ، وشب ونورة ، وجص ، وجوهر ، إلا منخالة الذهب والفضة والرصاص. وقال الشافعي : لا يجوز إلا بالتراب المنبت خاصة ، وبه فسر الطيب ، واشترط علوق التراب بيده ، ولم يشترطه غيره.

ثم علّم الكيفية فقال : فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ. قال مالك : اليد اسم للكف بدليل قطع السارق منه ، فجعل المسح إلى المرفق سنة. وقال الشافعي : فرض ، قياسا على الوضوء ، إِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً فلذلك يسّر عليكم ورخص لكم فى التيمم.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا صلاة الحضرة القدسية ، وأنتم سكارى بحب الدنيا الدنية ، حتى يذهب عنكم سكر حبها ، وتعلموا ما تقولون فى مناجاة خالقها ، ولا جنبا من جنابة الغفلة ، إلا ما يمر بالخواطر على سبيل الندرة والقلة ، حتى تغتسلوا بماء الغيب ، الذي يحصل به طهارة الجنان ، ويغيب المتطهر به عن رؤية الأكوان.

وإليه أشار ابن العربي الحاتمي : كما فى طبقات الشعراني ، ونسبها غيره للجنيد - رضى الله عنهم أجمعين - وهو الأصح ، بقوله :

توضّأ بماء الغيب إن كنت ذا سرّ وإلّا تيمّم بالصّعيد أو الصّخر

وقدّم إماما كنت أنت إمامه وصلّ صلاة الظّهر فى أول العصر

فهذى صلاة العارفين بربّهم فإن كنت منهم فانضح البرّ بالبحر.

أي : إن لم تقدر على الطهارة الأصلية وهى الغيبة عن الأحداث الكونية ، فاقصد العبادة الحسية ، وقدّم الشريعة أو من قام بها من أهل التربية النبوية أمامك ، بعد أن كان يطلبك قبل أن تعرفه ، واجمع ظهر الشريعة لعصر الحقيقة ، فهذه صلاة العارفين ، فإن كنت منهم فانضح برّ ظاهرك بحقيقة باطنك ، فما كمن فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر. لهذا أشار تعالى بقوله : (و إن كنتم مرضى) بحب الهوى ، (أو على سفر) فى عجلة شغل الدنيا ، أو جاء أحد منكم من غائط الحس ، أو لامستم العلوم الرسمية ، وانطبع صور خيالها فى قلوبكم ، ولم تجدوا من يسقيكم ماء الغيب ، وهى الخمرة الأزلية ، فاقصدوا الأعمال الحسية ، فلعلها توصلكم إلى الأعمال الباطنية ، (إن الله كان عفوا غفورا) ، وفى الحكم : «كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟».

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٠٩

ثم نبه الحق تعالى على عداوة اليهود ، وأنّ من شأنهم إذا سمعوا عليكم مثل ما وقع من تحريف الآية الذي صدر من المصلى فى حال السكر فرحوا بذلك ، فحذّر المؤمنين من العود لمثل ذلك ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٤٤ الى ٤٥]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ وَكَفى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفى بِاللَّهِ نَصِيراً (٤٥)

قلت : دخلت الباء على الفاعل فى (كفى بالله) ، لتضمنه معنى اكتف بالله وكيلا.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد ، أو يا من يسمع ، ببصرك أو بقلبك ، إِلَى حال الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً يسيرا مِنَ علم الْكِتابِ أي : التوراة ، وهم أحبار اليهود ، يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ بالهدى ، أي : يستبدلونها بها بعد تمكنهم منها عادة ، وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ أي : الطريق الموصلة إلى الحق ، أي :

يتمنون انحرافكم عنها ، فإذا سمعوا عنكم ما يحرفكم عنها فرحوا واستبشروا ، لأنهم انحرفوا عنها فحرفوا كتابهم وبدلوا ، فتمنوا أن تكونوا مثلهم ، فاحذروا ما يتوقع منكم أعداؤكم ، فإن الله أعلم بهم منكم ، فسيكفيكم الله أمرهم ، فثقوا به وتوكلوا عليه ، فكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ، فسيتولى أمركم وينصركم على من عاداكم. وبالله التوفيق.

الإشارة : من شأن أهل الإنكار ، ولا سيما من سلف له فى أسلافه رياسة أو إظهار ، إذا سمعوا بأهل النسبة وقع لهم شيء من الأكدار ، فرحوا واستبشروا ، وودوا لو حادوا كلهم عن سبيل الحق ، والله مطلع على أسرارهم ، وكاف بأسهم وشرهم ، (و كفى بالله وليا) لأوليائه ونصيرا لأحبابه. والله تعالى أعلم.

ثم بيّنهم ، أو ذكر حال فريق منهم ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٤٦]

مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَراعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (٤٦)

قلت : (من الذين هادوا) : خبر عن محذوف ، أي : منهم قوم يحرفون ، أو بيان للذين قبله ، أو متعلق بأعدائكم.

يقول الحق جل جلاله : من اليهود قوم تمردوا فى الكفر وهم أحبارهم ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ وهو التوراة عَنْ مَواضِعِهِ أي : يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها ، بإزالة لفظه أو تأويله. وقال ابن عباس :

(لا يقدر أحد أن يحرّف كلام الله ولكن يفسرونه على غير وجهه) ، وَيَقُولُونَ لمن دعاهم إليه ، وهو

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١٠
الرسول صلّى اللّه عليه وسلم : سَمِعْنا قولك ، وَعَصَيْنا أمرك ، وَاسْمَعْ منا غَيْرَ مُسْمَعٍ قولك ، أي : لا نلتفت إليه ، أو دعاء بالصمم : أي : لا سمعت ، أو غير مسمع منا مكروها ، نفاقا ، ويقولون له مكان انظرنا : راعِنا قاصدين بذلك الشتم والسخرية ، من الرعونة ، وقد كان الصحابة يخاطبون به الرسول - عليه الصلاة والسلام - ومعناه :
انظرنا. أو راعنا بقلبك ، فوجد اليهود بها سبيلا إلى الشتم ، فنهاهم الله عن ذلك ، وبقيت اليهود تقولها شتما واستهزاء لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ ، أي : فتلا لها عن معناها ، من الانتظار إلى ما قصدوا من رميه بالرّعونة ، وَطَعْناً فِي الدِّينِ أي : استهزاء به ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا مكان سمعنا وعصينا ، وَاسْمَعْ منا فقط ، مكان : واسمع غير مسمع ، وَانْظُرْنا مكان راعنا ، لَكانَ قولهم ذلك خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وأعدل ، وَلكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ أي : طردهم وأبعدهم بسبب كفرهم ، فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا إيمانا قَلِيلًا لا يعبأ به وهو الإيمان بالبعض والكفر بالبعض من الآيات والرسل. والله تعالى أعلم.
الإشارة : والله ما ربح من ربح ، إلا بالأدب والتعظيم ، وما خسر من خسر إلا من فقدهما. قال بعضهم :
«اجعل عملك ملحا ، وأدبك دقيقا». وآداب الظاهر عنوان آداب الباطن ، ويظهر الأدب فى حسن الخطاب ، ورد الجواب ، وفى حسن الأفعال ، وظهور محاسن الخلال. والله تعالى أعلم.
ثم دعاهم إلى الإيمان بعد أن وسمهم بالعصيان ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ٤٧]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٤٧)
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ من اليهود آمِنُوا بِما نَزَّلْنا من القرآن مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ من التوراة مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً أي : نغير صورها ونمحو تخطيط أشكالها ، فلا تبقى عين ولا أنف ولا حاجب ، فَنَرُدَّها عَلى هيئة أَدْبارِها من الأقفاء ، أو ننكسها إلى ورائها فى الدنيا ، أَوْ نَلْعَنَهُمْ أي : نخزيهم بالمسخ ، كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ ، فمسخناهم قردة وخنازير ، وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ، لا مرد له ، ولعله كان مشروطا بعدم إيمان بعضهم ، أو يراد بطمس الوجوه ما يكسوها من الذلة والصغار. ويراد باللعن حقيقته ، أي : نلعنهم على لسانك كما لعنوا على لسان داوود وعيسى بن مريم.

وهذه الآية كانت سبب إسلام كعب الأحبار ، سمعها من بعض الصحابة فأسلم فى زمن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه. والمسخ جائز على هذه الأمة ، كما وقع فى الأمم السابقة ، بدليل ما فى كتاب الأشربة من البخاري أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : «ليكوننّ من أمّتى أقوام يستحلّون الحر والحرير ، والخمر والمعازف ، ولينزلنّ أقوام إلى جنب علم ، يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة ، فيقولون : ارجع إلينا غدا ، فيبيّتهم الله ، ويضع عليهم العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة».

الإشارة : حملة الشريعة يخاطبون بالإيمان بأهل الحقيقة ، لأنها لبها وصفاؤها ، فإن امتنعوا من الإيمان بها ومن الإذعان لأهلها ، طمس الله وجوه قلوبهم ، وملأها خوفا وجزعا وحبّا للدنيا ، وردها على أدبارها ، فلا تفهم أسرار الكتاب ولا تفقه إشارة الخطاب ، فإن قصّروا عن حقوق الشريعة ، وغيّروا أحكامها مسخوا قردة وخنازير. وفى نوادر الأصول بسنده إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم قال : «تكون فى أمّتى قزعة «١» ، فيصير النّاس إلى علمائهم ، فإذا هم قردة وخنازير».

قال الترمذي الحكيم : فالمسخ : تغيير الخلقة عن جهتها ، فإنما حل بهم المسخ لأنهم غيّروا الحق عن جهته ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، فمسخوا عن أعين الخلق ، وقلوبهم عن رؤية الحق. فمسخ الله صورهم وبدّل خلقتهم ، كما بدلوا الحق باطلا. هـ. وبالله التوفيق.

ولما دعاهم إلى الإيمان ، أخبرهم أنهم إن داموا على الكفر لا مطمع لهم فى الغفران ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٤٨]

إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً (٤٨)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ لأنه بتّ الحكم على خلود عذابه ، لأن الله تعالى غيور لا أحد أغير منه. كما فى الحديث ، ومن عادة الملوك إذا خرج أحد من رعيته ونصر غيره لا يقبل منه إلا الرجوع أو الموت. ولا شفاعة تنفع فيه غير الرجوع عنه ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ الشرك لِمَنْ يَشاءُ من الكبائر والصغائر. تاب أم لا. فالعصاة إذا لم يتوبوا فى مشيئة الله ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً ارتكب ما تستحقر دونه الآثام. وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب ، والله تعالى أعلم.

---

(١) فى الأصول «فزعة» بالفاء ، والمثبت هو الذي الجامع الكبير للسيوطى وكنز العمال. والقزعة :

قطعة من الغيم وجمعها : قزع.
انظر النهاية فى غريب الحديث (قزع).

(٥١١/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١٢
الإشارة : ولما رأت الصوفية أن الشرك لا يغفر ، ولا يسمح فى شيء منه ، جليّا أو خفيا ، حققوا إخلاصهم ، ودققوا معاملتهم مع ربهم ، وفتشوا على قلوبهم ، هل بقي فيها شيء من محبة غير مولاهم ، أو خوف من شيء دونه ، وطهروا توحيدهم من نسبة التأثير لشيء من الكائنات ، فتوجهوا إلى الله فى إزالة ذلك عنهم.
قال بعضهم : شربت لبنا فأصابنى انتفاخ ، فقلت ضرنى ذلك اللبن ، فلما كنت ذات يوم أتلو ، وبلغت هذه الآية قلت : يا رب أنا لا أشرك بك شيئا ، فقال لى هاتف : ولا يوم اللبن ، فبادرت إلى التوبة. أ. هـ. بالمعنى. والله تعالى أعلم.
ثم عاتبهم على تزكية أنفسهم بالدعوى ، فقال :
[سورة النساء (٤) : الآيات ٤٩ الى ٥٠]
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفى بِهِ إِثْماً مُبِيناً (٥٠)
يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ، وهم اليهود ، قالوا : نحن أبناء الله وأحبّاؤه ، وقيل : طائفة منهم ، أتوا بأطفالهم إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فقالوا : هل على هؤلاء ذنب؟ قال : «لا».
قالوا : والله ما نحن إلا كهيئتهم ، ما عملنا بالنّهار يكفّر عنّا باللّيل ، وما عملنا باللّيل يكفّر عنّا بالنّهار ، فنزلت فيهم الآية. وفى معناهم : من زكى نفسه وأثنى عليها قبل معرفتها.
بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ لأنه العالم بخفيات النفوس وكمائنها ، وما انطوت عليه من قبيح أو حسن ، فيزكى من يستحق التزكية ، ويفضح المدّعين ، وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ، وهو الخيط الذي فى شق النواة ، يضرب مثلا لحقارة الشيء ، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة ، انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ فى زعمهم أنهم أبناء الله ، أو أنهم معغفور لهم ، وَكَفى بِهِ أي : بالافتراء ، إِثْماً مُبِيناً أي : ظاهرا لا يخفى على أحد.
الإشارة : قال بعض الصوفية : للنفس من النقائص ما لله من الكمالات ، فلا ينبغى للعبد أن يزكى نفسه ، ولو بلغ فيها من التطهير ما بلغ ، ولا يرضى عنها ولو عملت من الأعمال ما عملت. قال أبو سليمان

الداراني : لى أربعون سنة وأنا متّهم لنفسى. وفى الحكم : «أصل كل معصية وغفلة وشهوة : الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة : عدم الرضا منك عنها ، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه فأىّ علم لعالم يرضى عن نفسه؟! وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟!».

(٥١٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١٣

ثم وبخهم على سجودهم للأصنام. وشهادتهم لأهل الكفر بأنهم أهدى من أهل الإسلام ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٥١ الى ٥٢]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً (٥٢)

قلت : الجبت فى الأصل : اسم صنم ، فاستعمل فى كل ما عبد من دون الله ، والطاغوت : كل باطل من معبود أو غيره ، أو الجبت : السحر ، والطاغوت : الساحر ، وبالجملة : هو كل ما عبد أو أطيع من دون الله ، وقال الجوهري :

الجبت : اسم لكل صنم ولكل عاص ولكل ساحر وكل مضلّ ، والطاغوت : الشيطان ، وأصله : طغيوت ، فعلوت ، من الطغيان ، ثم قلب فصار طيغوت ، ثم قلبت الياء ألفا.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ علم الْكِتابِ ، وهم أحبار اليهود يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ يقرون بصحة عبادتهما ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ الكفرة أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا طريقا ، نزلت فى اليهود - لعنهم الله - : كانوا يقولون : إن عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعو إليه محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وقيل : فى حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ، خرجا فى سبعين راكبا إلى مكة يحالفون قريشا على محاربة رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم بعد وقعة أحد ، وينقضون العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم ، فنزل كعب على أبى سفيان ، فأحسن مثواه ، ونزلت اليهود فى دور قريش. فقال أهل مكة : أنتم أهل كتاب ، ومحمد صاحب كتاب ، ولا نأمن أن يكون هذا مكيدة منكم ، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين ، وآمنوا بهما ، ففعلوا ، فذلك قوله تعالى : يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ.

ثم قال أبو سفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميون لا نعلم ، فأيّنا أهدى سبيلا وأقرب إلى الحق ، نحن أو محمد؟ قال كعب : اعرضوا علىّ دينكم ، فقال أبو سفيان : نحن ننحر للحجيج الكوماء - أي : العظيمة - من النوق - ونسقى الماء ، ونقرى الضيف ، ونفك العاني ،

ونصل الرحم ، ونعمر بيت ربنا ، ونطوف به ، ونحن أهل الحرم ، ومحمد فارق دين آبائه ، وقطع الرحم وفارق الحرم ، فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلا. هـ.

أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وأبعدهم وأسحقهم ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ينصره من عذاب الله. فقد قتل هؤلاء كلهم شر قتلة ، وذهبوا إلى الهاوية. عائذا بالله.

الإشارة : قال الورتجبي : وبّخ الله تعالى أهل ظاهر العلم الذين اختاروا الرياسة ، وأنكروا على أهل الولاية ، وآثروا صحبة المخالفين ، يقبلون هواجس نفوسهم التي هى الجبت ، ويخطون على آثار الطاغوت ، التي هى إبليس. هـ.

قلت : وينسحب التوبيخ على من فضّل أهل الظاهر على أهل الباطن ، وفضّل العلماء على الأولياء ، ويقولون :

هم أهدى منهم سبيلا. هيهات! بينهم من البون ما بين السماء والأرض.

والكلام إنما هو فى التفضيل بين العارفين بالله ، الذين جمعوا بين الفناء والبقاء ، وبين العلماء والأتقياء. وأما العبّاد والزهاد والصالحون فلا شك أن العلماء الأتقياء أفضل منهم ، وإليهم أشار صلّى اللّه عليه وسلم بقوله : «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم». وكذلك الأحاديث التي وردت فى تفضيل العلماء. وأما العارفون بالله فهم أعظم العلماء ، لأن علمهم متعلق بذات الله كشفا وذوقا ، وعلماء الظاهر علمهم متعلق بأحكام الله. مفرقون عن الله ، بل هم أشد حجابا من غيرهم عن الله. قال بعض الأولياء : أشد الناس حجابا عن الله : العلماء ثم العباد ثم الزهاد. هـ. لأن حلاوة ما هم فيه تمنعهم عن الانتقال عنه ، وقد تقدم الكلام عند قوله : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ «١» بأبلغ من هذا. والله تعالى أعلم.

ثم ردّ الحق تعالى على اليهود ، حيث ادعوا أن الملك سيصير إليهم ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٥٣]

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (٥٣)

قلت : «أم» : منقطعة ، بمعنى بل ، والهمزة للإنكار ، وهو إنكار وجحد لما زعمت اليهود من أنّ الملك سيصير لهم ، و(إذا) إن فصل بينها وبين المضارع ب - «لا» ففيها الإهمال والإعمال ، وقد قرئ : (و إذا لا يلبثوا) ، والنقير :

النقرة التي فى ظهر النواة ، وهو هنا كناية عن نهاية بخلهم.

يقول الحق جل جلاله منكرا على اليهود : أيحصل لهم نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ والرياسة؟ هيهات ، لا يكون هذا أبدا ، فكيف يكون لهم الملك وهم أبخل الناس؟. فإذا أوتوا شيئا من الملك لا يعطون الناس نقيرا ، فما بالك بأكثر ، والملك والنصر لا يكونان إلا لأجل الكرم والجود والشجاعة ، وإصابة الرأى وحسن التدبير ، وهم بعداء من هذه المكارم.

الإشارة : لا يمكن الله من العز والنصر والتصرف الظاهر أو الباطن إلا أهل السخاء والجود ، فمن جاد بماله حتى لا يبالى كم أعطى ولا لمن أعطى ، مكّنه الله من العز والتصرف الحسى ، ومن جاد بنفسه وجاهه ، وبذلهما فى مرضاة ربه ، مكّنه الله من العز والنصر والتصرف المعنوي يتصرف بهمته فى الوجود بأسره ، من عرشه إلى فرشه ، ويدوم عزه ونصره إلى أبد الأبد. والله تعالى أعلم.

---

(١) راجع إشارة الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

(٥١٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١٥

ولمّا كان الحسد والبخل رذيلتين متناهيتين فى الذم وصفهم الحق - تعالى - أيضا به «١» ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٥٤ الى ٥٧]

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَزِيزاً حَكِيماً (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧)

قلت : (أم) بمعنى بل ، و(سعيرا) تمييز.

يقول الحق جل جلاله توبيخا لليهود على الحسد : أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ، أي : العرب حيث انتقلت النبوة إليهم ، وقد كانت فى أسلافهم ، عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وهو ظهور النبوة فيهم ، أو رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم لأنه اجتمع فيه ما افترق فى سائر الناس ، حسدوه على ما آتاه الله من فضله ، من النبوة وغيرها ، وقالوا - لعنهم الله - : ماله همّ إلا النساء ، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن النساء.

فكذّبهم الله - تعالى - وردّ عليهم بقوله : فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ وهم : يوسف وداود وسليمان ، الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ أي : النبوة ، وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً ، فقد اجتمع لداود عليه السّلام مائة امرأة.

ولسليمان – عليه السّلام – ألف امرأة : ثلاثمائة مهيرة ، – أي بالمهر – وسبعمائة سرية ، فقال لهم – عليه الصلاة والسلام – حين نزلت الآية : ألف امرأة عند رجل ، ومائة امرأة عند آخر ، أكثر من تسع نسوة ، فسكتوا «٢».

فَمِنْهُمْ أي : اليهود ، مَنْ آمَنَ بِهِ أي : بمحمد – عليه الصلاة والسلام – كعبد الله بن سلام وأصحابه ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ أي : أعرض عنه ، أو : من آل إبراهيم من آمن بإبراهيم ، ومنهم من صد عنه ، ولم يكن فى ذلك توهين لقدر إبراهيم ، فكذلك لا يوهن كفر هؤلاء أمرك ، أو : من أسلافهم من آمن بما أوتى آل إبراهيم من الكتاب والحكمة والملك ، ومنهم من صد عنه ، كما فعلوا مع سليمان وغيره.

وَكَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً لمن كفر بما جاء به أحد من الرسل ، أي : فإن لم يعاجلوا بالعقوبة فقد كفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم.

---

(١) أي بالحسد ، فقد ذكر البخل فى الآية السابقة.

(٢) راجع تفسير البغوي.

(٥١٥/١)

ثم بيّن مآل من كفر ، فقال : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا المنزلة على رسلنا ، أو الدالة على وحدانيتنا ، سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً أي : نحرقهم بها ونشويهم ، كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ أي : لانت واحترقت بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : «تبدّل فى ساعة مائة مرّة». وقال الحسن : (تأكلهم النار فى كل يوم سبعين ألف مرة ، كلما أكلتهم وأنضجتهم قيل لهم : عودوا فيعودوان كما كانوا). وقال مجاهد : (ما بين جلده ولحمه دود ، لها جلبة – أي حركة – وهرير كجلبة حمر الوحش). روى أبو هريرة رضي اللّه عنه عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : «غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعا ، وضرسه مثل أحد».

وإنما بدلت جلودهم لِيَذُوقُوا ألم الْعَذابَ ، أي : يدوم لهم ذلك بخلق جلد آخر مكانه ، والعذاب فى الحقيقة للنفس العاصية لا لآلة إدراكها ، فلا محذور ، إِنَّ اللَّهَ كانَ عَزِيزاً لا يمتنع عليه ما يريد ، حَكِيماً يعاقب على قدر حكمته.

ثم ذكر مقابل هؤلاء فقال : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ مما يستقذر وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا أي : دائما لا تنسخه شمس ، ولا يصحبه برد. قدّم وعيد الكفار على وعد المؤمنين ، لأن الكلام فيهم ، وذكر المؤمنين بالعرض. والله

تعالى أعلم.

الإشارة : الحسد خلق مذموم ، لا يتطهر منه إلا الصديقون ، وكل من بقي فيه بقية من الحسد لا يشم رائحة المعرفة ، إذ لو عرف الله لم يجد من يحسد ، وقد قيل : الحسود لا يسود. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب». وقال سفيان : (بلغني أن الله تبارك وتعالى يقول : الحاسد عدو نعمتى ، غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادى).

وأنشدوا :

ألا قل لمن كان لى حاسدا أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله فى فعله إذا أنت لم ترض لى ما وهب

جزاؤك منه الزيادة لى وألّا تنال الذي تطلب

وقال آخر :

إن تحسدونى فإنى غير لائمكم قبلى من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لى ولهم ما كان بي وبهم ومات أكثرنا غيظا بما يجد

(٥١٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١٧

ثم إن الحسود لا تزول عداواته ، ولا تنفع مداواته ، وهو ظالم يشتكى كأنه مظلوم. ولقد صدق القائل :

كل العداوة قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال حكيم الشعراء :

وأظلم خلق الله من بات حاسدا لمن بات فى نعمائه يتقلّب

وقال آخر :

إنى لأرحم حاسدىّ لفرط ما ضمّت صدورهم من الأوغار

نظروا صنيع الله فى فعيونهم فى جنّة وقلوبهم فى نار

قال بعض الحكماء : (الحاسد يضرّ نفسه ثلاث مضرات : إحداها : اكتساب الذنوب لأن الحسد حرام. الثانية :

سوء الأدب مع الله - تعالى - فإنّ حقيقة الحسد : كراهية إنعام الله على غيره ، واعتراض على الله فى فعله. الثالثة :

تألم قلبه وكثرة همه وغمه). عافانا الله من ذلك كله ، فالحاسد لا ينفك عن نار الحجاب وغم الحساب ، والمتطهر منه يدخل جنة الرضى والتسليم فى جوار الحبيب ، وهو محل الراحة والأمن فى الدارين ،

وهو الظل الظليل. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان حفظ نظام الدين لا يقوم إلا بالجهاد ، ولا ينتظم الجهاد إلا بنصب الإمام ، تكلم الحق – جل جلاله – على ما يتعلق بالأمراء ، ثم بعد ذلك يتكلم على الجهاد ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٥٨]

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً (٥٨)

قلت : «ما» فى (نعمّا) تمييز أو فاعل ، والمخصوص محذوف ، أي نعم شيئا شيء يعظكم به ، أو نعم الذي يعظكم به ذلك الأمر ، وهو رد الأمانات والعدل فى الحكومات.

قال زيد بن أسلم وشهر بن حوشب : نزلت الآية فى شأن الأمراء. هـ قلت : وإن نزلت فى شأن عثمان بن طلحة – سادن الكعبة فهى عامة. والمخاطب بذلك أولا الرسول صلّى اللّه عليه وسلم وهو سيد الأمراء ، أمره الحق – تعالى – أن يرد المفاتح إلى عثمان ، وذلك أن عثمان أغلق باب الكعبة يوم فتح مكة ، وأبى أن يدفعها إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم ليدخل

الكعبة ، وقال : لو علمت أنه رسول الله «١» ما منعته ، فلوى علىّ يده ، وأخذها منه ، فدخل رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم وصلّى ركعتين ، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ، ويجمع له السّدانة والسّقاية ، فأمره الله – تعالى – أن يرده إليه ، فأمر عليّا بأن يردّه ويعتذر إليه ، وكان ذلك سببا لإسلام عثمان ، ونزل الأمر بأن السّدانة فى أولاده أبدا.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ، يا معشر الأمراء ، أن تردوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها من أنفسكم ، أو من رعيتكم فتنصفوا المظلوم من الظالم ، حتى يؤدى ما ائتمن عليه من دين ، أو وديعة ، أو غصب ، أو سرقة ، أو غير ذلك من حقوق العباد ، بعضهم من بعض ، وأن تؤدوا الزكاة إلى من يستحقها ، وتصرفوا بيت المال فيمن يستحقه ، لا تظلموا أهلها ، ولا تضيعوا منها شيئا فى غير مستحقها.

وَيأمركم إِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ فى من ينفذ عليه حكمكم ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ أي : إن الله يعظكم بأمر نعم ما هو ، إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً لا يخفى عليه أحكامكم ، ولا ما أخفيتم من أمانات غيركم.

الإشارة : أمر الحق – جل جلاله – شيوخ التربية أن يؤدوا السر إلى من يستحقه من الفقراء ، إذا تحققوا أهليتهم له ، بحيث تخلوا عن الرذائل ، كالحسد والكبر وغيرهما ، وتحلوا بالفضائل ، كسلامة

الصدر وسخاوة النفوس وحسن الخلق ، وغير ذلك من أوصاف الكمال ، فإن تحققوا بالتخلية والتحلية ، استحقوا الاطلاع على أسرار الربوبية ، التي هى أمانات عند أهل الخصوصية ، وأمرهم أن يحكموا بين الفقراء بالعدل ، فيمدوا كلا على قدر صدقه وخدمته ، والله تعالى أعلم.

ثم أمر الحق تعالى بطاعة الأمراء الذين أمرهم بالعدل وأداء الأمانة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٥٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩)

أعاد العامل فى قوله : (و أطيعوا الرسول) ، إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة ، ولم يعده فى أُولِي الْأَمْرِ إشارة إلى أنه يوجد منهم من لا تجب طاعته ، ثم بيّنه بقوله : فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ كأنه قيل : فإن لم يعملوا بالحق فلا تطيعوهم ، وردوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله. قاله الطيبي ، وسيأتى تحرير ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) أي : أنه مرسل من عند اللّه.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ فيما أمركم به ونهاكم عنه ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ كذلك. وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ أي : من ولى أمركم. من ولاة العدل كالخلفاء والأمراء بعدهم ، تجب طاعتهم فيما أمروا به من الطاعة دون المعصية إلا لخوف هرج. قال عليه الصلاة والسلام : «إنّما الطّاعة فى المعروف» ، فإن لم يعدل : وجبت طاعته خوفا من الفتنة. وهذا هو الأصح. لقوله - عليه الصلاة والسلام - :

«سيليكم ولاة ، فيليكم البرّ ببره ، والفاجر بفجوره ، فاستمعوا لهم ، وأطيعوا فى كل ما وافق الحق ، فصلوا وراءهم ، فإن أحسنوا فلهم ، وإن أساءوا فلكم وعليهم». رواه أبو هريرة.

وفى حديث آخر : «لا أن تروا كفرا بواحا ، لكم عليه من اللّه برهان». أي : فيجب عزلهم. وقال أيضا صلّى اللّه عليه وسلم لما سأله أبو وائل فقال : يا رسول الله أرأيت إن كان علينا أمراء يمنعوننا حقنا ويسألون حقهم؟. فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «اسمعوا وأطيعوا ، فإنّ عليهم ما حمّلوا وعليكم ما حملتم».

وقال جابر بن عبد الله والحسن والضحاك ومجاهد : أولو الأمر هم الفقهاء والعلماء ، أهل الدين

والفضل ، يعلّمون الناس معالم دينهم ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، دليله. قوله تعالى : وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ... الآية. قال أبو الأسود : ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكّام على الناس ، والعلماء حكّام على الملوك. هـ.
فَإِنْ تَنازَعْتُمْ أنتم وأولو الأمر ، أو بعضكم مع بعض - أي : اختلفتم في حكم شيء من أمر الدين فلم تعلموا حكمه ، فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ أي : إلى كتاب الله ، وَإِلى الرَّسُولَ في زمانه ، أو سنته بعد موته ، فإن لم يوجد بالنص فبالقياس. فالأحكام ثلاثة : مثبت بالكتاب ، ومثبت بالسنة ، ومثبت بالرد إليهما على وجه القياس. وعن إبراهيم بن يسار قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «اعملوا بالقرآن : أحلّوا حلاله ، وحرّموا حرامه ، وآمنوا به ولا تكفروا بشيء منه ، وما اشتبه عليكم فردّوه إلى اللّه تعالى وإلى أولى العلم من بعدي ، كيما يخبرونكم به» ، ثم قال : «وليسعكم القرآن وما فيه من البيان فإنّه شافع مشفّع ، وما حلّ مصدّق «١» وإن له بكل حرف نورا يوم القيامة».
فردوا الأحكام إليه وإلى الرسول ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فإن الإيمان يوجب ذلك. ذلِكَ الرد خَيْرٌ لكم وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا من تأويلكم بالرأى من غير رد ، وأحسن عاقبة ومآلا ، والله تعالى أعلم.

---

(١) ما حل مصدق : أي خصم مصدّق. والمعنى : أنه شافع لمن عمل بما فيه ، ومصدّق عليه فيما يرفع من مساويه إذا ترك العمل به. انظر النهاية.

(٥١٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٢٠
الإشارة : أولو الأمر عند الصوفية ، هم شيوخ التربية العارفون بالله ، فيجب على المريدين طاعتهم فى المنشط والمكره ، وفى كل ما أمروا به ، فمن خالف أو قال : «لم» لم يفلح أبدا ، ويكفى الإشارة عن التصريح عند الحذاق أهل الاعتناء ، فإن تعارض أمر الأمراء وأمر الشيوخ ، قدّم أمر الشيخ إلا لفتنة فادحة ، فإن الشيخ يأمر بطاعتهم أيضا لما يؤدى من الهرج بالفقراء ، فإن تنازعتم يا معشر الفقراء ، فى شيء من علم الشريعة أو الطريقة ، فردوه إلى الكتاب والسّنة. قال الجنيد رضي اللّه عنه : طريقتنا هذه مؤيدة بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويتعلم الحديث لا يقتدى به فى هذا الشأن. هـ.
ويكفى المهم من ذلك ، وهو ما يتوقف عليه أمر عبادته. والله تعالى أعلم.
ثم ذكر الحق تعالى من أعرض عن حكم الله ورسوله ، ورضى بحكم غيرهما ، فقال :
[سورة النساء (٤) : الآيات ٦٠ الى ٦٣]
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى

الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (٦٠) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً (٦١) فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ إِحْساناً وَتَوْفِيقاً (٦٢) أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً (٦٣)

قلت : (رأيت المنافقين) ، وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالنفاق وذمّا لهم به. وكان القياس : رأيتهم ، و(صدودا) : مصدر ، أو اسم مصدر الذي هو الصد ، والفرق بينه وبين المصدر : أن المصدر اسم للمعنى الذي هو الحدث ، واسم المصدر اسم للفظ المحسوس ، و(يحلفون) حال. و(فى أنفسهم) يتعلق بقل ، وقيل ببليغا. وهو ضعيف لأن الصفات لا يتقدم عليها معمولها ، اللهم إلا أن يتوسع فى الظروف.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وهم المنافقون ، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ، كعب بن الأشرف لفرط طغيانه.

وفى معناه كل من يحكم بالباطل ، وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، ويؤمنوا بالله ويرضوا بحكمه. وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً ، بأن يصرفهم عن حكم الله ورسوله.

(٥٢٠/١)

قال ابن عباس : إنّ منافقا خاصم يهوديا فدعاه اليهوديّ إلى النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ، ثم اختصما إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فحكم لليهودى بالحق فلم يرض المنافق ، وقال : نتحاكم إلى عمر ، فقال اليهودي :

نعم فذهبا إلى عمر رضي اللّه عنه فقال اليهودي : قضى لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فلم يرض بقضائه وخاصم إليك. فقال عمر للمنافق : أكذلك؟. قال : نعم ، فقال : على رسلكما حتى أخرج إليكما ، فدخل وأخذ سيفه فخرج ، فضرب به عنق المنافق حتى برد «١» ، وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء اللّه وسوله ، فنزلت الآية .. وقال جبريل عليه السّلام : إن عمر فرّق بين الحق والباطل. فسمى الفاروق.

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ أي : بعضهم ، يَصُدُّونَ عَنْكَ غير راضين بحكمك صُدُوداً عظيما. فَكَيْفَ يكون حالهم إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ كقتل عمر المنافق ، بسبب ما قدمت أَيْدِيهِمْ من عدم الرضى بحكم اللّه ، ثُمَّ جاؤُكَ يطلبون ديّة صاحبهم ، يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا بالانصراف إلى عمر إِلَّا إِحْساناً منه بالخصمين ، وَتَوْفِيقاً بينهما ، قطعا للنزاع بينهما ، قال تعالى :

أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ من النفاق ، فلا يغنى عنهم الكتمان والحلف الكاذب من الله شيئا ، أو يعلم الله ما فى قلوبهم من الطمع فى الدية ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ، أي : عن قبول معذرتهم ولا تمكنهم من طمعهم ، وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ، أي : خاليا بهم قَوْلًا بَلِيغاً يبلغ إلى قلوبهم ، ويؤثر فيهم ، لينزجروا عن طلب دم صاحبهم ، وإنما أمر أن يعظهم خاليا بهم لأن النصح فى ذلك أنجح ، وأقرب للقبول ، ولذلك قيل : من نصحك وحدك فقد نصحك ، ومن نصحك مع الناس فقد فضحك. والله تعالى أعلم.

الإشارة : كل من دخل تحت ولاية شيخ التربية ، وجب أن يرد حكوماته كلها إليه ، ويرضى بما قضى عليه ، وترى بعض الفقراء يزعمون أنهم فى تربية الشيخ وتحت أحكامه ، ثم يتحاكمون إلى حكام الجور وقضاة الزمان فى أمر الدنيا وما يرجع إليها ، فهؤلاء قد ضلوا ضلالا بعيدا. إلا أن يتوبوا ويصلحوا ما أفسدوا ، بإصلاح قلب الشيخ حتى يجبر كسرهم ، فالمريد الصادق لا يصل إلى الحاكم ، ولو ذهب ماله كله. فإن كان ولا بد. فليوكل عنه فى ذلك.

فكيف إذا أصابت هؤلاء مصيبة وهى ظلمة القلب ، وفتنة الدنيا بسبب ما قدمت أيديهم من تخطى حكم شيخهم إلى حكم غيره ، ثم جاؤوك يحلفون بالله ما أردنا إلا إحسانا وهو حفظ مالنا ، وتوفيقا بيننا وبين خصمنا ، فيجب على الشيخ أن يعرض عن عتابهم ويذكرهم حتى يتوبوا ، . فإن تابوا فإن الله غفور رحيم.

---

(١) أي : مات.

ثم أعاد الأمر بطاعة الرسول وتحكيمه فى جميع الأمور ترهيبا وترغيبا ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٦٤ الى ٦٨]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً (٦٦) وَإِذاً لَآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (٦٧) وَلَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٦٨)

قلت : (توابا رحيما) مفعولا (وجد) إن كانت علمية ، أو (توابا) حال ، و(رحيما) بدل منه ، أو حال من ضميره إن فسرت بصادف.

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ من لدن آدم إلى زمانك ، إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وأمره بطاعته ، فمن لم يطعه ولم يرض بأحكامه فهو كافر به. وَلَوْ أَنَّهُمْ أي : المنافقون حين ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بالترافع إلى غيرك ، والتحاكم إلى الطاغوت جاؤُكَ تائبين فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ بالتوبة ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ حين اعتذروا إليه حتى انتصب لهم شفيعا ، لَوَجَدُوا اللَّهَ أي : تحققوا كونه تَوَّاباً رَحِيماً ، قابلا لتوبتهم متفضلا عليهم بالرحمة والغفران. وإنما عدل عن الخطاب فى قوله : وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ولم يقل : واستغفرت لهم ، تفخيما لشأنه ، وتنبيها على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائبين ، وإن عظم جرمهم ، ويشفع لهم ، ومن جلالة منصبه أن يشفع فى عظائم الذنوب وكبائرها.

ثم أقسم بربوبيته على نفى إيمان من لم يرض بحكم رسوله ، فقال : فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ إيمانا حقيقيا حَتَّى يُحَكِّمُوكَ أي : يترافعوا إليك ، راضين بحكمك ، فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ أي : اختلط بينهم واختلفوا فيه ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً أي : ضيقا وشكا مِمَّا قَضَيْتَ ، بل تنشرح صدورهم لحكمك لأنه حق من عند الله. وَيُسَلِّمُوا لأمرك تَسْلِيماً. أي : ينقادوا لأمرك ظاهرا وباطنا.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، توبة من ذنوبكم ، كما كتبناه على بنى إسرائيل ، أو فى الجهاد فى سبيل الله ، أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ كما خرج بنو إسرائيل حين أمرناهم بالهجرة من مصر ، ما فَعَلُوهُ

(٥٢٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٢٣

إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ

وهم المخلصون. قال أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه : (لو كتب ذلك علينا لكنت أنا أول خارج). قال ثابت بن قيس بن شماس : (لو أمرنى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم أن أقتل نفسى لفعلت). وكذلك قال عمر وعمار بن ياسر وابن مسعود وناس من أصحاب رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم : لو أمرنا لفعلنا. فبلغ ذلك النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال : «إنّ من أمّتى رجالا :

الإيمان فى قلوبهم أثبت من الجبال الرّواسى». فهؤلاء من القليل.

وسبب نزول قوله : فَلا وَرَبِّكَ .. إلخ : قضية الزّبير مع حاطب فى شراج الحرّة «١» ، كانا يسقيان به النّخل ، فتخاصما إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فقال عليه السّلام : «اسق يا زبير وأرسل إلى جارك» ، فقال حاطب : لأن كان ابن عمتك.

فقال - عليه الصلاة والسلام - : «اسق يا زبير ، واحبس الماء حتّى يبلغ الجدر «٢» واستوف حقك». وقيل : نزلت فى اليهودي مع المنافق المتقدم ، وهو أليق بالسياق.

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ من طاعة الرسول ، والرضى بحكمه ، لَكانَ خَيْراً لَهُمْ فى آجلهم وعاجلهم

، وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً فى دينهم وقوة فى إيمانهم ، أو تثبيتا لثواب أعمالهم ، وَإِذاً لو فعلوا ذلك لَآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً وَلَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً يصلون بسلوكه إلى حضرة القدس ، ودوام الأنس ، ويفتح لهم أسرار العلوم ، ومخازن الفهوم ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم». والله تعالى أعلم.

الإشارة : كما أمر الله بطاعة رسوله صلّى اللّه عليه وسلم فى حياته ، أمر بطاعة ورثته بعد مماته ، وهم العلماء الأتقياء الذين يعدلون فى الأحكام ، والأولياء العارفون الذين يحكمون بوحي الإلهام ، فالعلماء حكّام على العموم ، والأولياء حكام على الخصوص ، أعنى من تعلق بهم من أهل الإرادة ، فمن لم يرض بحكم العلماء ، ووجد فى نفسه حرجا مما قضوا به عليه ، ففيه شعبة من النفاق ، وخصلة من المنافقين. ومن لم يرض بحكم الأولياء فقد خرج من دائرتهم ، ومن عش تربيتهم ، لأن حكم الرسول - عليه الصلاة والسلام - وحكم ورثته هو حكم الله ، ومن لم يرض بحكم الله خرج عن دائرة الإيمان. فلا يكمل إيمان العبد حتى لا يجد فى نفسه حرجا من أحكام الله ، القهرية والتكليفية ، ويسلم لما يبرز من عنصر القدرة الأزلية ، كيفما كان ، فقرا أو غنى ، ذلّا أو عزا ، منعا أو عطاء ، قبضا أو بسطا ، مرضا أو صحة ، إلى غير ذلك من اختلاف المقادير. ويرضى بذلك ظاهرا وباطنا ، وينسلخ من تدبيره واختياره إلى اختيار مولاه فهو أعلم بمصالحه ، وأرحم به من أمه وأبيه : وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) الشراج : جمع شرجة ، وهى مسيل الماء من الحرّة إلى السهل ، والحرة : هى الأرض ذات الحجارة السوداء.

(٢) الجدر : أي : الجدار الذي يحيط بالمزرعة ، وهو أصغر من الجدار. [.....]

ثم وعد المطيعين وعدا جميلا ، وخيرا جزيلا ، ترغيبا فى امتثال ما أمر به من طاعة الرسول ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٦٩ الى ٧٠]

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً (٦٩) ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ عَلِيماً (٧٠)

قلت : «رفيقا» : تمييز لما فى (حسن) من معنى التعجب أو المدح ، ولم يجمع لأن فعيلا يحمل على الواحد والجمع ، أو لأنه أريد حسن كل واحد منهم.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ويرضى بأحكامهما ويمتثل أمرهما ويجتنب نهيهما ، فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وهم أكرم الخلق عند الله وأعظمهم قدرا مِنَ النَّبِيِّينَ والمرسلين وَالصِّدِّيقِينَ وهم من كثر صدقهم وتصديقهم وعظم يقينهم وهم الأولياء العارفون بالله ، وَالشُّهَداءِ الذين ماتوا جهادا فى سبيل الله ، وَالصَّالِحِينَ وهم العلماء الأتقياء ، ومن صلح حاله من عامة المسلمين.

قال البيضاوي : قسمهم أربعة أقسام ، بحسب منازلهم فى العلم والعمل ، وحث كافة الناس على ألّا يتأخروا عنهم.

وهم : الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل ، المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل. ثم الصديقون الذين صعدت نفوسهم تارة بمراقى النظر فى الحجج والآيات ، وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان ، حتى اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هى عليها. ثم الشهداء الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد فى إظهار الحق ، حتى بذلوا مهجهم فى إعلاء كلمة الله ، ثم الصالحون الذين صرفوا أعمارهم فى طاعته ، وأحوالهم فى مرضاته. ولك أن تقول : المنعم عليهم هم العارفون بالله ، وهؤلاء إما أن يكونوا بالغين درجة العيان ، أو واقفين فى مقام الاستدلال والبرهان ، والأولون إما أن ينالوا مع العيان القرب ، بحيث يكونون كمن يرى الشيء قريبا ، وهم الأنبياء ، أو لا ، فيكونون كمن يرى الشيء بعيدا ، وهم الصديقون ، والآخرون إما أن يكون عرفانهم بالبراهين القاطعة ، وهم العلماء الراسخون الذين هم شهداء الله فى أرضه. وإما أن يكون بأمارات وإقناعات تطمئن إليها نفوسهم ، وهم الصالحون. انتهى كلامه.

وفيه نظر من وجهين : أحدهما : أنه أطلق على أهل الاستدلال أنهم عارفون ، ولا يقال عند الصوفية فيه عارف ، حتى يترقى عن مقام الاستدلال ، وإلا فهو عالم فقط ، والثاني : أنه جعل الصديقين بمنزلة من يرى الشيء بعيدا ،

(٥٢٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٢٥

وأهل الفناء لم يبق لهم بعد ، بل غابوا فى القرب حتى امتحى اسمهم ورسمهم. فأىّ بينونة وأىّ بعد يبقى للعارف؟

لو لا فقدان الذوق ، ولكن لكلّ فن أربابه ، وسيأتى فى الإشارة تحقيق ذلك إن شاء الله.

ثم قال جل جلاله : وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً أي : ما أحسنهم رفقا فى الفراديس العلى ، فهم يتمتعون فيها برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم ، وإن كانوا أعلى منهم ، فلا يلزم من كونه معهم أن تستوى درجته معهم ، قال فى الحاشية : وتعقل مرافقة من دون النبي فى المدانات من حاله وكشفه ، بحيث لا

يحجب عنه ، وإن كان لا مطمع له فى منزلته ، واعتبر برؤية البصائر له وعدم غيبته عنهم وأنسهم به والاستفادة منه ، وروى عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : «يزور الأعلون من أهل الجنة الأسفلين ، ولا يزور الأسفلون الأعلين ، إلا من كان يزور فى الله فى الدنيا ، فذلك يزور فى الجنة حيث شاء».
روى أن ثوبان مولى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم أتاه يوما وقد تغيّر وجهه ونحل جسمه ، فسأله عليه الصلاة والسلام عن حاله ، فقال : ما بي وجع ، غير أنّى إذا لم أرك اشتقت إليك ، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، ثمّ ذكرت الآخرة فخفت ألا أراك هناك لأنى عرفت أنك ترفع مع النّبيّين. وإن دخلت الجنّة ، كنت فى منزل أدون من منزلك ، وإن لم أدخل الجنّة فذلك حرىّ ألا أراك أبدا. فنزلت الآية وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ... إلخ.
ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ إشارة إلى ما للمطيعين من الأجور ، ومزيد القرب والحضور ، وأنه فضل تفضل على عباده ، وَكَفى بِاللَّهِ عَلِيماً بمقادير الأعمال والمقامات ، فيجازى كلّا على حسب مقامه. والله تعالى أعلم.
الإشارة : اعلم أن الطاعة التي توجب المعية الحسية فى النعيم الحسى الجسماني هى الطاعة الظاهرة الحسية.
والطاعة التي توجب المعية المعنوية فى النعيم الروحاني هى الطاعة الباطنية القلبية. فالمعية الحسية صاحبها مفروق ، والمعية المعنوية صاحبها مجموع ، لا يغيب عن حبيبه لحظة. هؤلاء هم الصديقون المقربون. وفوقهم الأنبياء ، وتحتهم الشهداء والصالحون.
وبيان ذلك أن العلم بالله تعالى : إما أن يكون عن كشف الحجاب وانقشاع السحاب ، أعنى سحاب الأثر ، وهم أهل الشهود والعيان. وإما أن يكون من وراء الحجاب ، يأخذون أجرهم من وراء الباب ، يستدلون بالآثار على المؤثر. وهم أهل الدليل والبرهان. والأولون إما أن يرتقوا إلى مكافحة الوحى ورؤية الملائكة الكرام. وهم الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - ، وإما أن يقصروا عن درجة الوحى ويكون لهم وحي إلهام ، وهم الصديقون أهل الحال والمقام ، فقد اشتركوا فى مقام العيان. لكن مقام الحضرة فضاؤه واسع ، والترقي فى معارج أسرار التوحيد غير

متناه ، فحيث انتهى قدم الولي ابتدأ ترقى النبي ، وأما أهل الحجاب فإما أن يكون علمهم بالله بالبراهين القطعية والدلائل السمعية ، وهم العلماء الراسخون ، وهو مقام الشهداء ، وإما أن يكون علمهم بالرياضات والمجاهدات وتواتر الكرامات ، وهم العباد والزهاد. وهو مقام الصالحين ، ويلتحق بهم

عوام المسلمين ، لأن كل مقام من هذه المقامات فيه درجات ومقامات لا يحصرها إلا العالم بها. والله تعالى أعلم.

ثم رغّب فى الجهاد الذي هو المقصود ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٧١ الى ٧٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُباتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (٧٢) وَلَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (٧٣) فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (٧٤)

قلت : الحذر والحذر واحد ، كالشّبه والشّبه ، وبطأ يستعمل لازما بمعنى ثقل ، ومتعديا - بالتضعيف - أي : بطّأ غيره ، و(لمن ليبطئن) اللام الأولى للابتداء ، والثانية للقسم ، أي : وإنّ منكم - أقسم بالله - لمن ليبطئن. وجملة :

(كأن لم يكن) : اعتراضية بين القول والمقول ، تنبيها على ضعف عقيدتهم ، وأن قولهم هذا قول من لا مواصلة بينكم وبينه.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تأهبوا واستعدوا لجهاد الأعداء ، وخُذُوا حِذْرَكُمْ منهم بالعدّة والعدد ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، ولا حجة فيه للقدرية لأن هذا من الأسباب التي ستر الله بها أسرار القدرة. وقد قال لنبيّه - عليه الصلاة والسلام - : قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا وقال - عليه الصلاة السلام - :

«اعقلها وتوكل». وفى ذلك طمأنينة للقلوب التي لم تطمئن وتشريعا للضعفاء ، فإذا تأهبتم واستعددتم فَانْفِرُوا أي : اخرجوا إلى الجهاد ثُباتٍ أي : جماعات متفرقة ، سرية بعد سرية ، أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً أي : مجتمعين مع نبيكم ، أو مع أميركم.

وَإِنَّ مِنْكُمْ يا معشر المسلمين لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ الناس عن الجهاد ، أو ليتثاقلن ويتخلفن عنه ، وهو عبد الله بن أبيّ المنافق ، وأشباهه من المنافقين ، فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ كقتل أو هزيمة قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ

(٥٢٦/١)

حين تخلفت إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً فيصيبنى ما أصابهم. وَلَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ، كنصر وغنيمة ، لَيَقُولَنَّ لفرط عداوته : يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ، بالمال والعز. كأن ذلك المنافق ، لم

يكن بينكم وبينه مودة ولا مواصلة أصلا ، حيث يتربص الدوائر ، يفرح بمصيبتكم ويتحسر بعزكم ونصركم.

فإن تثاقل هذا عن القتال أو بطّأ غيره ، فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أهل الإخلاص والإيمان الَّذِينَ يَشْرُونَ ، أي : يبيعون الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ ، فيؤثرون الآخرة الباقية على الدنيا الفانية ، وَمَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعلاء كلمة الله فَيُقْتَلْ شهيدا أَوْ يَغْلِبْ عدوه وينصره الله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ، وإنما قال تعالى : فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ تنبيها على أن المجاهد ينبغى أن يثبت فى المعركة ، حتى يعز نفسه بالشهادة ، أو الدين بالظفر والنصر. وألا يكون قصده بالذات القتل ، بل إعلاء الحق وإعزاز الدين. قاله البيضاوي.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص خذوا حذركم من خدع النفوس ، لئلا تعوقكم عن حضرة القدوس ، فانفروا إلى جهادها ثبات أو جماعة «فإن يد الله مع الجماعة» ، فالصحبة عند الصوفية شرط مؤكد وأمر محتم. والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح ، فالنفس الحية لا تموت مع الأحياء ، وإنما تموت مع الأموات ، فهى كالحوت ما دامت فى البحر مع الحيتان لا تموت أبدا ، فإذا أخرجتها وعزلتها عن أبناء جنسها ماتت سريعا.

كما قال شيخنا رضي اللّه عنه.

وإن من نفوسكم لمن ليبطئنكم عن السير إلى حضرة قدسكم ، تفر من مواطن الشدة والمحن ، وفى ذلك حياتها لو تعقل وتفطن ، فإن أصابتكم – أهل النسبة – نكبة ، أو تعرف من التعرفات ، ولم يصادفها فى ذلك الوقت شيء من تلك النكبات ، قال : قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا ، ولئن أصابكم بعد ذلك فضل من الله كنفحات ربانية وخمرات أزلية ، قالت : يا ليتنى كنت معهم فأفوز كما فازوا ، فليجاهد نفسه فى سبيل الله من أراد الظفر بحضرة الله ، يقدمها إلى المكاره ، وهو كلّ ما يثقل عليها ، ويجنبها الشهوات ، وهو كل ما يخف عليها ، هكذا يسير معها ويقاتلها ، حتى يموت أو يغلبها ويظفر بها.

قال بعض المشايخ : انتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم. فإن ظفروا بها وصلوا. هـ. وحينئذ تذهب عنه المتاعب والأنكاد ، وتصير الأزمنة كلها عنده مواسم وأعياد ، ويقال له حينئذ :

لك الدهر طوع والأنام عبيد فعش كلّ يوم من أيّامك عيد

(٥٢٧/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٢٨

ويقال له أيضا :

بدا لك سرّ طال عنك اكتتامه ولاح صباح كنت أنت ظلامه

فأنت حجاب القلب عن سرّ غيبه ولولاك لم يطبع عليه ختامه

إذا غبت عنه حلّ فيه وطنّبت «١» على موكب الكشف المصون خيامه

وجاء حديث لا يملّ سماعه شهيّ إلينا نثره ونظامه

إذا سمعته النفس طاب نعيمها وزال عن القلب المعنّى غرامه «٢»

ثم عاتب العباد على عدم النهوض إلى الجهاد ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٧٥]

وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً (٧٥)

قلت : (ما) مبتدأ. و(لكم) خبر. و(لا تقاتلون) حال ، و(المستضعفين) عطف على اسم الجلالة ، أي : أيّ شيء حصل لكم حال كونكم غير مجاهدين فى سبيل الله وفى تخليص المستضعفين؟ و(الظالم) نعت للقرية ، وإنما ذكّر ولم يؤنث ، لأنه أسند إلى المذكر ، واسم الفاعل إذا جرى على غير من هو له أجرى مجرى الفعل ، فيذكر ويؤنث باعتبار الفاعل.

يقول الحق جل جلاله : وَما لَكُمْ يا معشر المسلمين لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وفى تخليص إخوانكم الْمُسْتَضْعَفِينَ بمكة ، الذين حبسهم العدو أو أسرهم ومنعهم من الهجرة مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ ، فهم فى أيديهم مغللون ممتحنون. قال البيضاوي : وإنما ذكر الولدان مبالغة فى الحث وتنبيها على تناهى ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان ، وأن دعوتهم أجيبت بسبب مشاركتهم فى الدعاء ، حتى تشاركوا فى استنزال الرحمة واستدفاع البلية. هـ.

ثم ذكر دعاءهم فقال : الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ أي : مكة الظَّالِمِ أَهْلُها بالشرك والطغيان حتى تعدى إلى النساء والصبيان. وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يصوننا عن أذاهم ، وَنَصِيراً يمنعنا

---

(١) الطنب - بضمتين - : الحبل الذي تشد به الخيمة ونحوها.

(٢) الأبيات لأبى العباس العريف ، أنظر : إيقاظ الهمم.

من التخلف عن الهجرة إلى رسولك صلّى اللّه عليه وسلم ، فاستجاب الله دعاءهم بأن يسّر لبعضهم الخروج إلى المدينة ، وجعل لمن بقي منهم أعظم ولى وناصر ، بفتح مكة على نبيه صلّى اللّه عليه وسلم ، فتولاهم ونصرهم ، واستعمل عليهم عتّاب بن أسيد ، فحماهم وأعزهم حتى صاروا أعزاء أهلها

، كما هي عادته سبحانه في إجابة دعاء المضطرين.

الإشارة : ما لكم يا معشر العباد ، وخصوصا المريدين من أهل الجد والاجتهاد ، لا تجاهدون نفوسكم في طريق الوصول إلى الله ، كي تنالوا بذلك مشاهدة جماله وسناه ، وتخلصوا ما كمن في نفوسكم من الأسرار ، وما احتوت عليه من العلوم والأنوار. فإن قرية البشرية قد احتوت عليها وأسرتها بظلمات شهواتها ، واستضعفتها بتراكم غفلتها وتكثيف حجاب حسها. فمن جاهدها استخلص جواهر تلك العلوم والأسرار من صدفها. وفي ذلك يقول ابن البنا في مباحثه :

ولم تزل كلّ النّفوس الأحيا علّامة درّاكة للأشيا

وإنما تعوقها الأبدان والأنفس النزع والشّيطان

فكلّ من أذاقهم جهاده أظهر للقاعد خرق العاده

وقال أيضا :

وهي من النفوس في كمون كما يكون الحبّ في الغصون.

فالرجال : الأسرار والأنوار ، والنساء : العلوم والأذكار ، والولدان : الحكم بنات الأفكار. فكل هؤلاء مستضعفون تحت قهر البشرية الظالم أهلها. من الأنفس النزع والشياطين المغوية ، فكل من جاهد هؤلاء القواطع أظهر تلك العلوم والأنوار السواطع ، واستخلص روحه من أسر حجاب الأكوان ، وأفضى إلى فضاء الشهود والعيان. وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم حثّ أولياءه من أهل الإيمان أن يقاتلوا أولياء الشيطان ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٧٦]

الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً (٧٦)

يقول الحق جل جلاله في مدح المخلصين : الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وابتغاء مرضات الله ، وإعلاء لكلمة الله ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا ، من أهل مكة وغيرهم ، يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ وهو

الشيطان ، فَقاتِلُوا يا أولياء الله أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ ولا يهولكم كيده إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً ، وكيد الله للكافرين كان قويا متينا ، فلا تخافوا أولياءه ، فإنهم اعتمدوا على أضعف شيء وأوهنه ، وأنتم اعتمدتم على أقوى شيء وأمتنه.

الإشارة : كل ما سوى الله طاغوت ، فمن قصد بجهاده أو عمله رضى الله والوصول إلى حضرته دون

شيء سواه ، كان من أولياء الله ، ومن قصد بجهاده أو أعماله حظا دنيويا أو أخرويا خرج من دائرة الولاية ، فإما أن يكون مع عامة أهل الإيمان ، أو من أولياء الشيطان. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «إنّما الأعمال بالنيات ، وإنما لكلّ امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه». وقال في الحكم : «لا ترحل من كون إلى كون ، فتكون كحمار الرحى ، يسير والذي ارتحل منه هو الذي ارتحل إليه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكوّن ، وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى ».

ثم عاتب الحقّ جل جلاله قوما طلبوا فرض الجهاد ، فلما فرض عليهم خطر ببالهم شيء من طبع البشر ، الذي هو الخوف من الموت ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٧٧]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧)

قلت : (أو أشد) عطف على الكاف النائبة عن المصدر ، أي : خشية مثل خشية الله أو أشد ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول ، أي : مثل خشيتهم الله.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد إِلَى الَّذِينَ طلبوا منك فرض الجهاد حرصا على أن يجاهدوا ، فقيل لهم على لسان الرسول : كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عنه إلى أوان فرضه ، واشتغلوا بما أمرتم به من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ دخلهم الخوف إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ أي :

الكفار ، أن يقتلوهم مثل خشية عقاب اللَّهِ أو أشد خشية منه. وَقالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ في هذا الوقت لَوْ لا : هلا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نتمتع فيه بحياتنا أو إلى أن نموت بآجالنا. قلت : والظاهر أنهم قالوا ذلك في نفوسهم ، خواطر خطرت لهم ، ولم يفوهوا به ، إن نزلت في الصحابة - رضي اللّه عنهم - ، وإن كانت في المنافقين فيمكن أن ينطقوا بها.

قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وعيشها ذليل ، وأجلها قريب ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى ، وحياتها خير وأبقى ، وستقدمون على مولاكم ، فيكرم مثواكم ، ويوفيكم جزاء أعمالكم ، وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا من ثواب أعمالكم ، ولا تنقصون من أيام أعماركم ، جاهدتم أو قعدتم.

[سورة النساء (٤) : آية ٧٨]

أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً (٧٨)

أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ عند انقضاء آجالكم ، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ عالية محصنة.

فإن كان الموت لا بد منه ففى الجهاد أفضل ، لأنه حياة لا موت بعده. قال الكلبي : نزلت فى قوم من الصحابة ، منهم : عبد الرحمن بن عوف ، والمقداد وقدامة بن مظعون وغيرهم ، كانوا يؤذون بمكة ، ويستأذنون النبي صلّى اللّه عليه وسلم فى القتال ، فيقول لهم : كفوا أيديكم حتى يؤذن فيه لكم ، فلما هاجروا إلى المدينة وأمروا به ، كرهه بعضهم كراهية الطبع البشرى ، فخطر ببالهم شىء مما حكى اللّه عنهم. فلما كانوا فى عين العناية ومحل القرب والهداية عوقبوا على تلك الخواطر ، ولو كان غيرهم من أهل البعد لسومح له فى ذلك ، وقيل : نزلت فى قوم من المؤمنين أمروا بالجهاد فنافقوا من الجبن ، وتخلفوا عن الجهاد ، وهذا أليق بما بعده من قوله : إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ. والله تعالى أعلم.

الإشارة : نرى بعض الفقراء يبطشون إلى مقام التجريد ومجاهدة نفوسهم قبل كمال يقينهم ، فإذا أمروا بذلك ، ورأوا ميادين الحروب واشتعال نيران قتل النفوس ، وأمروا بالصبر على المكاره ، من مواجهة الإنكار ولحوق الذل والافتقار ، جبنوا وكلّوا ورجعوا القهقرى ، فيقال لهم : متاع الدنيا قليل وعزيزها ذليل ، وغنيها فقير ، وكبيرها حقير ، وما تنالون من الله فى جزاء مجاهدتكم خير وأبقى ، ولا تظلمون فتيلا من مجاهدتكم لنفوسكم ، فلو صبرتم لفزتم بالوصول إلى حضرة ربكم ، فلما جبنتم ورجعتم ، كان جزاؤكم الحرمان ، عما ظفر به أهل العرفان.

وفى مثل هؤلاء يقول ابن الفارض رضي اللّه عنه :

تعرّض قوم للغرام وأعرضوا بجانبهم عن صحّتى فيه واعتلوّا

رضوا بالأمانى ، وابتلوا بحظوظهم وخاضوا بحار الحبّ ، دعوى ، فما ابتلّوا

فهم فى السّرى لم يبرحوا من مكانهم وما ظعنوا فى السير عنه ، وقد كلّوا

(٥٣١/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٣٢

ثم حكى مقالتهم الدالة على نفاقهم ، فقال :

وَإِنْ تُصِبْهُمْ ...

يقول الحق جل جلاله فى وصف أهل النفاق : وإنهم إن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ كخصب ورخاء ونعمة ظاهرة ، قالوا : هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، ونسبوها إلى الله بلا واسطة ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ كقحط وجوع وموت وقتل ،

قالوا للرسول – عليه الصلاة والسلام – : هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ بشؤم قدومك أنت وأصحابك ، كما قالت اليهود – لعنهم الله – : منذ دخل محمد المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها.

قلت : بل زكت ثمارها ، ورخصت أسعارها ، وأشرقت أنوارها ، ولاحت أسرارها ، وقد دعا صلّى اللّه عليه وسلم للمدنية بمثل ما دعا إبراهيم لمكة ، وأضعاف ذلك ، فما زالت الخيرات تترادف إليها حسّا ومعنى إلى يوم القيامة ، وهذه المقالة قد صدرت ممن كان قبلهم فقد قالوا لسيدنا صالح عليه السّلام : قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ، وقال تعالى : وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ ، ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ. قال تعالى مكذبا لهم : قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الحسنة بفضله ، والسيئة بعدله. ثم عيرهم بالجهل فقال : فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً فهم كالبهائم أو أضل سبيلا ، أو لا يفقهون القرآن ويتدبرون حديثه ، ولو تدبروا لعلموا أن الكل من عند الله ، وأنه خالق كل شيء ، المقدّر لكل شيء.

ثم علّمنا الأدب بنسبة الكمالات إليه سبحانه بلا واسطة ، ونسبة النقائص إلى شؤم ذنوبنا ، فقال : ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ أي : نعمة فَمِنَ اللَّهِ فضلا وإحسانا ، وأما طاعة العبد فلا تفى بشكر نعمة واحدة ، ولذلك قال – عليه الصلاة والسلام – : «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» ، قيل : ولا أنت يا رسول اللّه؟ قال : «ولا أنا ، إلّا أن يتغمدنى اللّه برحمته».

[سورة النساء (٤) : الآيات ٧٩ الى ٨٠]

ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْناكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (٧٩) مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (٨٠)

وَما أَصابَكَ أيها الإنسان مِنْ سَيِّئَةٍ أي : بلية فَمِنْ نَفْسِكَ أي : شؤم ذنبك ، وعنه – عليه الصلاة والسلام – أنه قال : «ما من خدش بعود ولا اختلاج عرق ولا غيره إلا بذنب ، وما يعفو اللّه عنه أكثر». فلا ينافى قوله : قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فإن الكل منه إيجادا واختراعا ، غير أن الحسنة إحسان ، والسيئة مجازاة وانتقام. كما قالت عائشة – رضى الله عنها – : «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب ، حتى الشوكة يشاكها ، وحتى انقطاع شسع نعله ، إلا بذنب ، وما يعفو اللّه عنه أكثر».

وفى مصحف ابن مسعود : (قالوا ما أصابك من حسنة فمن الله) الآية ، فتكون حينئذ من مقالة المنافقين ، والآيتان كما ترى لا حجة فيها للمعتزلة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ثلاث خصال لا ينجو منها إلا القليل كما فى الحديث : الطيرة ، والحسد ، والظن. فقال –

عليه الصلاة السلام : «إذا تطيّرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقّق». فيتأكد على المريد أن يتطهر من هذه الخصال ، ويصفى مشربه من التوحيد ، فلا يرى فى الوجود إلا مولاه ، ولا ينسب التأثير إلى شيء سواه ، إذا رأى نعمة به أو بغيره ، قال : من الله ، وإذا رأى مصيبة كذلك تأدب مع الله ، فيعتقد فى قلبه أنها من قدر الله ، يقول :

قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وينسب النقص إلى نفسه وهواه ، فالنفس والشيطان مناديل الحضرة ، تمسح فيهما أوساخ الأقدار ، وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ. والله تعالى أعلم.

ثم شهد جل جلاله لرسوله بالرسالة ، تحريضا على تعظيمه وحثا على طاعته ، وترهيبا من سوء الأدب معه ، كما صدر من المنافقين ، فقال :

وَأَرْسَلْناكَ لِلنَّاسِ ...

قلت : إن تعلق الجار بالفعل كان (رسولا) حال مؤكدة ، وإن تعلق بالاسم كان حالا مؤسسة تفيد العموم أي أرسلناك رسولا للناس جميعا ، و(حفيظا) حال من الكاف.

يقول الحق جل جلاله : وَأَرْسَلْناكَ يا محمد لِلنَّاسِ رَسُولًا تعلمهم التوحيد وتدلهم على الأدب ، فالتوحيد محله البواطن ، فلا يرى الفعل إلا من الله ، والأدب محله الظواهر فينسب بلسانه النقص إلى نفسه وهواه. وإذا شهد الحق - جل جلاله - لرسوله بالرسالة أغنى عن غيره ، وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً. وشهادة الحق له بالمعجزات الواضحات ، والبراهين القطعيات ، والدلائل السمعيات ، فإذا ثبتت رسالته وجب على الناس طاعته ، ولذلك قال : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ لأنه مبلغ عن الله لا ينطق عن الهوى. روى أنه صلّى اللّه عليه وسلم قال :

«من أطاعنى فقد أطاع اللّه ، ومن أحبنى فقد أحب اللّه» فقال بعض المنافقين : ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربّا ، كما اتخذت النصارى عيسى. فنزل : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى وأعرض فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً تحفظ عليهم أعمالهم ، وتحاسبهم عليها ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

الإشارة : كما شهد الحق - جل جلاله - لرسله بالرسالة ، بما أظهر لهم من المعجزات ، شهد لأوليائه بالولاية بما منحهم من الكرامات. والمراد بالكرامة : هى تحقيق العرفان ، ومعرفة الذوق والوجدان ، واستقامة الظواهر والبواطن ، وتهذيب الأخلاق وهداية الناس على يديه إلى العليم الخلاق ، فهذه الكرامة المعتبرة عند المحققين ، فمن أطاعهم فقد أطاع الله ، ومن أعرض عنهم فقد أعرض عن معرفة

الله ، ومن أحبهم فقد أحب الله ، ومن أبغضهم فقد أبغض الله لأنهم نور من أنوار الله ، وعين من عيون الله ، إذ لم يبق فيهم بقية مما سوى الله ، أقدامهم على قدم رسول الله ، «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله». فافهم ، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أحوال أهل النفاق ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٨١]

وَيَقُولُونَ طاعَةٌ فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٨١)

قلت : (طاعة) : خبر ، أي : أمرنا طاعة ، وأصله النصب على المصدر ، ورفع للدلالة على الثبوت ، وبيّت الشيء : دبّره ليلا وأضمره فى نفسه.

يقول الحق جل جلاله فى شأن المنافقين : وَيَقُولُونَ لك إذا حضروا معك : أمرنا وشأننا طاعَةٌ لك فيما تأمرنا به ، فَإِذا بَرَزُوا أي : خرجوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أي : دبّرت ليلا وأخفت من النفاق غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ لك من قبول الإيمان وإظهار الطاعة ، أو زوّرت خلاف ما قلت لها من الأمر بالطاعة ، وَاللَّهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ أي : يثبته فى صحائفهم فيجازيهم عليه ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ولا تبال بهم ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ يكفك شرهم ، وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا عليهم ، فسينتقم لك منهم.

الإشارة : هذه الخصلة موجودة فى بعض العوام إذا حضروا مع أهل الخصوصية أظهروا الطاعة والإقرار ، وإذا خرجوا عنهم بيّتوا الانتقاد والإنكار ، فلا يليق إلا الإعراض عنهم ، والغيبة فى الله عنهم ، فإن الله يكفى شرهم بكفالته وحفظه. والله تعالى أعلم.

ثم دلّهم على ما فيه دواء مرض قلوبهم ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٨٢]

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (٨٢)

يقول الحق جل جلاله : أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون الْقُرْآنَ ، وينظرون ما فيه من البلاغة والبيان ، ويتبصّرون فى معانى علومه وأسراره ، ويطلعون على عجائب قصصه وأخباره ، وتوافق آياته وأحكامه ، حتى يتحققوا أنه ليس من طوق البشر ، وإنما هو من عند الله الواحد القهار ، وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً بين أحكامه وآياته ، من تفاوت اللفظ وتناقض المعنى ، وكون بعضه فصيحا ، وبعضه ركيكا ، وبعضه تصعب معارضته وبعضه تسهل ، وبعضه توافق أخباره المستقبلة للواقع ، وبعضه

لا يوافق ، وبعضه يوافق العقل ، وبعضه لا يوافقه ، على ما دل عليه الاستقراء من أن كلام البشر ، إذا طال ، قطعا يوجد فيه شيء من الخلل والتناقض.

قال البيضاوي : ولعل ذكره للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس للتناقض فى الحكم ، بل لاختلاف الأحوال من الحكم والمصالح. هـ. قال ابن جزى : وإن عرضت لأحد شبهة وظن اختلافا فى شيء من القرآن ، فالواجب أن يتّهم نظره ، ويسأل أهل العلم ويطالع تآليفهم ، حتى يعلم أن ذلك ليس باختلاف. هـ.

الإشارة : تدبر القرآن على حسب صفاء الجنان ، فبقدر ما يتطهر القلب من حب الدنيا والهوى تتجلى فيه أسرار كلام المولى ، وبقدر ما يتراكم فى مرآة قلبه من صور الأكوان ، ينحجب عن أسرار معانى القرآن ولو كان من أكابر علماء اللسان. فلما كان القرآن هو دواء لمرض القلوب ، أمر الله المنافقين بالتدبر فى معانيه لعل ذلك المرض ينقلع عن قلوبهم ، لكن الأقفال التي على القلوب منعت القلوب من فهم كلام علام الغيوب ، فحلاوة كلام الله لا يذوقها إلا أهل التجريد ، الخائضون فى تيار بحار التوحيد ، الذين صفت قلوبهم من الأغيار ، وتطهرت من الأكدار ، يتمتعون أولا بحلاوة الكلام ، ثم يتمتعون ثانيا بحلاوة شهود المتكلم. والله تعالى أعلم.

ومن مساوئ المنافقين إفشاء أسرار المؤمنين ، كما قال تعالى :

[سورة النساء (٤) : آية ٨٣]

وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٣)

قلت : استنبط الشيء : استخرجه من غيره ، وأصل الاستنباط : إخراج النبط ، وهو الماء ، يخرج من البئر أول ما يحفر ، والجار فى (منهم) : إما بيان للموصول ، أي : لعلم المستنبطون الذين هم أولوا الأمر ، أو يتعلق ب (علم) ، أي :

لعلمه الذين يستخرجونه إلى الناس من أولى الأمر.

يقول الحق جل جلاله : فى ذم المنافقين أو ضعفة المسلمين : وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ أي : خبر عن السرايا الذين توجهوا للغزو ، من نصر وغنيمة وأمن أو خوف ، وقتل وهزيمة ، أَذاعُوا بِهِ أي : تحدثوا به ، وأشهروه ، وأرجفوا به قبل أن يصل إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأكابر الصحابة ، الذين هم أولو الأمر وأهل البصائر ، فيعرفون كيف يتحدثون به.

ولو ردوا ذلك إِلَى الرَّسُولِ وأخبروه به سرا ، أو سكتوا حتى يصل إليه ، أو يردوه إلى أُولِي الْأَمْرِ من أكابر الصحابة ، لعلمه الذين يسخرجونه إلى الناس مِنْهُمْ ، فينقلونه على وجهه ، ويعرفون كيف يتحدثون به من غير إرجاف ولا تخويف ، أو لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ وهم أولو الأمر أولا ، ثم يعلم الناس ، فلا يكون فيه إرجاف ولا سوء أدب. أو : وإذا جاءهم أمر من وحي السماء : من تخويف أو تأمين ، أذاعوا به قبل أن يظهره الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، ولو سكتوا وردوا ذلك إلى الرسول حتى يتحدث به للناس ، ويظهره أولو الأمر من أكابر أصحابه ، لعلمه الذين يستخرجون ذلك الوحى من أصله ، وهو الرسول - عليه الصلاة السلام - وأكابر أصحابه ، كما فعل عمر رضي اللّه عنه : إذ سمع أن رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم طلق نساءه ، فدخل عليه فقال : أطلقت نساءك؟ قال :
«لا» ، فقام على باب المسجد ، فقال : إن رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم لم يطلق نساءه ، فأنزل الله هذه القصة ، قال : وأنا الذي استنبطته. والله تعالى أعلم.

الإشارة : قالت الحكماء : قلوب الأحرار قبور الأسرار ، وهذه الخصلة التي ذمّها الله تعالى توجد فى كثير من العوام مهما سمعوا خبرا : خيرا أو شرا ، بادروا إلى إفشائه ، ولا سيما إذا سمعوه على أهل النسبة أو أهل الخصوصية ، وقد توجد فى بعض الفقراء ، وهى غفلة ونوع من الفضول ، فالفقير الصادق غائب عن أخبار الزمان وأهله ، وقد ترك الناس وما هم فيه ، وقد تغلب عليه الغيبة فى الله حتى تغيب عنه الأيام ، وأما الفقير الذي يتسمع الأخبار ويبحث عنها فلا نسبة له فى الفقر ، إلا اسم بلا مسمى ، وقد ترى بعض الفقراء ، يبلّغ مساوئ إخوانه إلى المشايخ ، وهو سبب الطرد ، والعياذ بالله.
وقد كان صلّى اللّه عليه وسلم يقول : «لا تبلغونى مساوئ أصحابى» «١» لأن ذلك يسؤوهم ، والخير كله فى إدخال السرور على قلوب المشايخ.
وتنسحب الآية على من يفشى أسرار الربوبية ، ويطلع الفقراء على الحقيقة ، ولو ردوا ذلك إلى شيخهم حتى يكون هو الذي يطلعهم لكان أحسن ، لأن الحقيقة إذا أخذت من الشيخ كان فيها سر كبير ، بخلاف ما إذا أخذت من غيره ، إلّا إذا كان مأذونا له فى ذلك فكأنه هو. والله تعالى أعلم.

---

(١) الحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ ، وورد عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم سليم الصدر».
أخرجه أبو داود فى (الأدب ، باب رفع الحديث من المجلس) والترمذي فى (المناقب ، باب فضل أزواج النبي) من حديث ابن مسعود.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٣٧

وقال الورتجبي : قال أبو سعيد الخراز : إن له عبادا يدخل عليهم الخلل ، ولو لا ذلك لفسدوا وتعطلوا ، وذلك أنهم بلغوا من العلم غاية ، صاروا إلى علم المجهول ، الذي لم ينصّه كتاب ، ولا جاء به خبر ، لكن العقلاء العارفون ، يحتجون له من الكتاب والسنة ، بحسن استنباطهم ومعرفتهم ، قال اللّه تعالى : لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ. هـ.

قلت : ومعنى كلامه : أن اللّه - تعالى - أشغل علماء الظاهر بتقرير علم الفرق ، ولو لا اشتغالهم بذلك لتعطلوا وتبطلوا ، إذ لا قدرة لهم على عمل القلوب من الفكرة والنظرة ، لكن العارفون يقرون لهم ذلك ، ويحتجون لهم بما فى نشر العلم من الأجور ، من الكتاب والسنة ، لأنهم قاموا بنظام علم الحكمة ورفعوا علم الشريعة ، ولولا قيامهم بذلك لتعين على أهل الباطن ، فتتشوش عليهم قلوبهم ، وكان شيخ شيوخنا سيدى على الجمل العمراني رضي اللّه عنه يقول :

جزاهم اللّه عنا خيرا رفعوا لنا علم الشريعة ، نحن نغرق فى البحر ، ثم نرفع رأسنا فنرى العلم قائما ، ثم نرجع إلى البحر. هـ. بالمعنى ، واللّه تعالى أعلم.

ثم إن الهداية بيد اللّه ، قوم أقامهم فى الفرق ، وقوم هداهم إلى الجمع ، كما قال تعالى :

وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ ...

يقول الحق جل جلاله : لو لا أن اللّه تفضل عليكم ورحمكم بنبي الرحمة ، وأنقذكم من متابعة الشيطان وعبادة الأوثان ، لبقيتم على كفركم وضلالكم ، ولا تبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الكفر والعصيان ، إلا قليلا ممن اهتدى قبل بعثته ، كقس بن ساعدة ، وزيد بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، رزقهم اللّه كمال العقل فنظروا وتكفروا بعقولهم فوجدوا اللّه واعتزلوا ما كان يعبد آباؤهم وإخوانهم. أما قس فاعتزل قومه ، وعبد اللّه وحده ، وكان يخطب على الناس ويأمرهم بالتوحيد ، ويعيب عليهم عبادة الأصنام. وعاش سبعمائة عام. وأما زيد فتعلق بالحنيفية ، دين إبراهيم ، حتى مات قبل البعثة. وأما ورقة - فأخذ بدين النصرانية التي لم تغيّر ، وأدرك أول البعثة ، وآمن بالرسول قبل أن يؤمر بالإنذار. قال - عليه الصلاة والسلام - : «رأيته فى الجنة عليه ثياب خضر».

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لو لا فضل اللّه عليكم بأن بعث لكم من يدلكم على اللّه ويعرفكم باللّه ، ورحمته بأن أخرجكم من ضيق الفرق ، إلى فضاء الجمع ، لا تبعتم الفرق علما وعملا ، لكن اللّه تعالى بفضله ورحمته غيبكم عن شهود الفرق بشهود الملك الحق. إلا فرقا قليلا تقيمون به رسم العبودية ، وتظهرون به الآداب مع الربوبية.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٣٨

قال الورتجبي : الفضل والرحمة منه للعموم ، ومحبته للخصوص ، الذين هم مستثنون بقوله : «إلا قليلا». هـ. قال القشيري : وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ مع أوليائه لهاموا فى كل واد من التفرقة كأشكالهم فى الوقت. هـ. فخصّ الإشارة بالأولياء ، وعليه فقوله : إِلَّا قَلِيلًا أي : إلا تفرقة قليلة تعرض لهم ، تربية لهم ، وإبقاء لرسمهم ومناط تكليفهم.

والله تعالى أعلم. قاله فى الحاشية.

ولا يظهر هذا كله إلا بالجهاد الأكبر والأصغر ، كما قال تعالى :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٨٤ الى ٨٦]

فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً (٨٤) مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَمَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (٨٥) وَإِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (٨٦)

قلت : (نفسك) : مفعول ثان ، والأول نائب ، أي : لا يكلفك الله إلا نفسك.

يقول الحق جل جلاله : فَقاتِلْ يا محمد فِي سَبِيلِ اللَّهِ ولو وحدك إن تثبطوا عن الجهاد ، لا نكلفك إلا أمر نفسك ، وَلكن حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ على الجهاد ، إذ ما عليك إلا التحريض. فجاهدوا حتى تكون كلمة الله هى العليا. عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بجهادكم بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ويبطل دينهم الفاسد. وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً منهم وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا أي : تعذيبا لهم. وقد حقّق الله ذلك ففتح الله على نبيه قبائل العرب ، فلم يبق فيهم مشرك ، ثم فتح على الصحابة سائر البلاد ، وهدى الله بهم جميع العباد ، إلا من فرّ من الكفار إلى شواهق الجبال.

وإنما أمرتك بالتحريض على الجهاد لأن الدال على الخير كفاعله ، وذلك كالشفاعة بين الناس ودلالتهم على إصلاح ذات البين ، فمن يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً بأن ينفع المشفوع له ، بدفع ضرر أو جلب نفع ، ابتغاء وجه الله ، يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها ، أي : حظ كبير من الثواب لأنه دل المشفوع عنده على الخير ، وأوصل النفع إلى المشفوع له ، فله من الأجر مثل ما لهما ، ومنها : الدعاء بظهر الغيب ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : «من دعا لمسلم بظهر الغيب استجيب له ، وقال له الملك : لك مثل ذلك».

وَمَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً ، يريد بها فسادا بين الناس كنميمة وزور وإحداث بدعة ، يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ أي : نصيب مِنْها أي : من وزرها ، وفى الحديث : «من سنّ سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم

القيامة ، ومن سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً أي : مقتدرا من أقات على الشيء : إذا قدر عليه ، أو شهيدا حافظا فيجازى على قدر الأعمال.
ومن هذا أيضا : السلام ، فإنه سبب فى ثواب الرد ، لذلك ذكره الحق فى سلك الدلالة على الخير فقال : وَإِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها بأن تقولوا : وعليكم السلام والرحمة والبركة ، أَوْ رُدُّوها بأن تقولوا :
وعليكم السلام.
وفى الخبر : «من قال لأخيه المسلم : السّلام عليكم ، كتب الله له عشر حسنات ، فإن قال : السّلام عليكم ورحمة الله ، كتب الله له عشرين حسنة ، فإن قال : وبركاته ، كتب الله ثلاثين» ، وكذلك لمن ردّ ، فإن اقتصر على السلام ، فعشر ، وهكذا .. فإن ذكر المسلم الرحمة والبركة ، قال الرادّ : وعليكم ، فقط ، إذ لم يبق ما يزاد ، ورد السلام واجب على الكفاية ، حيث يكون مشروعا ، فلا يرد فى الخطبة ، وقراءة القرآن ، والذكر والتفكر ، والاعتبار ، ونظرة الشهود والاستبصار ، لأنه يفتر ويشوش ، وفى الحمام إذا كانوا عراة ، وفى حال الجماع والأكل والشرب وغيرها من المسائل المستثناة. وقد نظمه بعضهم ، فقال :
ردّ السّلام واجب إلا على من فى الصّلاة أو بأكل شغلا
أو شرب أو قراءة أو أدعيه أو ذكر أو خطبة أو تلبيه
والسلام من تحية أهل الإسلام ، خاصّ بهم. لذلك استغرب الخضر - عليه السلام - سلام سيدنا موسى عليه السّلام فقال له : «وأنّى بأرضك السّلام» ، وكذلك خليل الله إبراهيم عليه السّلام ، إنما أنكر الملائكة حيث سلموا عليه بتحية أهل الإسلام لأنه كان بين أظهر قوم كفار ، أما سلام أبى ذر على النبي صلّى اللّه عليه وسلم بتحية أهل الإسلام ، قبل أن يسلم ، فلعله سمعه من بعض الصحابة قبل أن يسلم ، أو إلهام من الله. والله تعالى أعلم.
إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً يحاسبكم على التحية وغيرها. وبالله التوفيق.
الإشارة : فجاهد أيها الإنسان نفسك فى سبيل الله ، لا تكلف إلا إصلاحها وتزكيتها ، وحرض من يسمع قولك من المؤمنين على جهاد أنفسهم ، عسى الله أن يكف عنهم القواطع والعلائق ، فيتأهلون لإشراق قلوبهم بأنوار الحقائق ، فإن الله لا يغلبه شيء ، فمن ذكّر عباد الله ، ودسهم إلى حضرة الله كان حظه كبيرا عند الله. ومن دلهم على غير الله فقد غشهم وكان مهانا عند الله ، وإذا وقع السلام على الفقراء فإن كانوا سالكين غير مشتغلين بالذكر

وجب عليهم الرد بأحسن ، وإذا كانوا ذاكرين أو متفكرين أو سكارى فى شهود الحبيب سقط عنهم السلام ، وكذلك إذا سلم عليهم اختبارا وتعنيتا لم يجب الرد. والله تعالى أعلم.
ولما ذكر أمر الحساب ذكر وقته ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ٨٧]
اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً (٨٧)
قلت : (الله) : مبتدأ ، و(لا إله) : خبر ، أو اعتراض ، و(ليجمعنكم) : خبر ، وهو أوفق بالسياق ، و(لا ريب فيه) حال ، أو صفة لمصدر ، أي : جمعا لا ريب فيه.
يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أي : لا مستحق للعبادة إلا هو ، والله لَيَجْمَعَنَّكُمْ أي : ليحشرنكم من قبوركم إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ للحساب الذي وعدكم به ، لا شك فيه ، فهو وعد صادق ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ، أي : لا أحد أصدق من الله حديثا ، لأن الكذب نقص ، وهو على الله محال.
الإشارة : الحق تعالى واحد فى ملكه ، فلا يذوق وحدانيته إلا من كان واحدا فى قصده وهمه ، فكل من وحّد قلبه وقصده وهمته فى طلبه ، وانجمع بكليته إليه ، جمعه الله لحضرته ، ونعّمه بشهود ذاته ، وعدا حقا وقولا صدقا ، لا ريب فيه ولا اشتباه ، إذ لا أحد أصدق من الله.
ثم رجع إلى الكلام مع المنافقين ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ٨٨]
فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨)
قلت : (فئتين) : حال ، والعامل فيه : الاستقرار فى الجر ، وأركس الشيء : نكّسه.
يقول الحق جل جلاله معاتبا الصحابة حين اختلفوا فى إسلام بعض المنافقين ، فقال : فَما لَكُمْ افترقتم فِي شأن الْمُنافِقِينَ فرقتين ، ولم تتفقوا على كفرهم ، والحالة أن الله - تعالى - أَرْكَسَهُمْ ، أي : نكّسهم وردهم إلى الكفر بعد أن أظهروا الإسلام بسبب ما كسبوا من الآثام. أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ، وسبق لهم الشقاء فى علم الله؟ ومن يضلل الله فلن تجد له طريقا إلى الهدى. قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : (نزلت فى قوم كانوا بمكة من المشركين ، فزعموا أنهم آمنوا ولم يهاجروا ، ثم سافر قوم منهم بتجارات إلى الشام ، فاختلف

المسلمون ، هل يقتلونهم ليغنموا تجارتهم ، لأنهم لم يهاجروا ، أو يتركونهم لأنهم مؤمنون؟). وقيل : فى قوم أسلموا ثم اجتووا المدينة «١» ، وأستأذنوا رسول صلّى اللّه عليه وسلم فى الخروج إلى البدو ، فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة حتى لحقوا بالمشركين ، فاختلف المسلمون فى إسلامهم.

[سورة النساء (٤) : الآيات ٨٩ الى ٩٠]

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (٩٠)

ثم حكم بكفرهم فقال وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ أي : يتمنون كفركم كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ معهم سَواءً فى الضلال والكفر.

الإشارة : من دخل فى طريق المخصوصين الأبرار ، ثم لم تساعده رياح الأقدار ، فلا ينبغى الكلام فيه ، ولا الخوض فى شأنه ، لأن أمره بيد ربه ، (من يهده الله فلا مضل له) ، ومن يضلل فلا ناصر له. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم نهى عن موالاتهم ، فقال :

فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ ...

قلت : (حصرت) : أي : ضاقت ، والجملة حال من الواو ، بدليل قراءة يعقوب (حصرة).

يقول الحق جل جلاله : فَلا تَتَّخِذُوا من هؤلاء الكفرة أَوْلِياءَ وأصدقاء حتى يتحقق إيمانهم ، بأن يهاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام فِي سَبِيلِ اللَّهِ وابتغاء مرضات الله ، لا لحرف دنيوى ، فَإِنْ تَوَلَّوْا عن إظهار الإيمان بالهجرة فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَخُذُوهُمْ أسارى وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ كسائر الكفرة ، وجانبوهم وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً أي : لا تستعينوا بهم فى جهادكم ، إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عهد ، ومِيثاقٌ أي : مهاندة ، فلهم حكم المعاهدين الذين وصلوا إليهم ، ودخلوا معهم فى الصلح ، فلا تقتلوهم ولا تأسروهم.

---

(١) أي أصابهم الجوى : وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول. وذلك إذ لم يوافقهم هواؤها ، واستوخموها ، ويقال : اجتويت البلد : إذا كرهت المقام فيه ، وإن كنت فى نعمة. انظر النهاية فى غريب الحديث (جوا).

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٤٢
وكانت خزاعة وادعت النبي صلّى اللّه عليه وسلم وعقدت معه الصلح ، فجاء بنو مدلج فدخلوا معهم فى الصلح ، فنهى الله عن قتالهم ماداموا معهم ، فالقوم الذين بين المسلمين وبينهم ميثاق هم خزاعة ، والذين وصلوا إليهم هم بنو مدلج.
فالاستثناء على هذا منقطع ، لأن بنى مدلج حينئذ كانت مظهرة للكفر لا منافقة ، ويحتمل أن يكون متصلا ، أي : إلا الذين يصلون منهم ... إلخ ، فتأمل. وكان هذا فى أول الإسلام ، ثم نسخ بقوله : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ الآية.
ثم ذكر قوما آخرين نهى عن قتالهم ، فقال : أَوْ جاؤُكُمْ أي : إلّا قوما جاءوكم ، قد حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أي : ضاقت عن أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ يعنى أنهم كرهوا قتالهم ، وكرهوا قتال قومهم الكفار ، فلا تقتلوهم أيضا ، لأن الله كفّ شرهم عنكم ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ بأن قوّى قلوبهم وأزال رعبهم فَلَقاتَلُوكُمْ ولم يكفوا عنكم ، فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ ولم يتعرضوا لكم وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ أي : الاستسلام والانقياد فَما جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا أي : طريقا إلى قتالهم.
الإشارة : نهى الله تعالى عن مساكنة النفوس وموالاتها ، حتى تهاجر عن مواطن شهواتها إلى حضرة ربها ، فإن تولت عن الهجرة وألفت البطالة والغفلة فليأخذها ليقتلها حيثما ظهرت صورتها ، ولا يسكن إليها أبدا أو يواليها ، إلّا إن وصلت إلى حضرة الشيخ ، وأمره بالرفق بها ، أو كفت عن طغيانها ، أو كفى الله أمرها بجذب أخرجها عن عوائدها ، أو وارد قوّى دفع شهواتها ، فإنه يأتى من حضرة قهار ، لا يصادم شيئا إلا دمغه ، وهذه عناية من الرحمن ، ولو شاء الله تعالى لسلطها على الإنسان يرخى لها العنان ، فتجمح به فى ضحضاح النيران ، فإن كفت النفس عن شهواتها ، وانقادت إلى حضرة ربها ، فما لأحد عليها من سبيل ، وقد دخلت فى حمى الملك الجليل.
والله تعالى أعلم.
ثم ذكر صنفا آخر من المنافقين ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ٩١]
سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً (٩١)

يقول الحق جل جلاله : سَتَجِدُونَ قوما آخَرِينَ منافقين ، وهم أسد وغطفان ، قدموا المدينة ، وأظهروا الإسلام نفاقا ورياء إذا لقوا النبي صلّى اللّه عليه وسلم قالوا : إنا على دينك ، يريدون الأمن ، إذا لقوا قومهم ، وقالوا لأحدهم : لما ذا أسلمت ، ومن تعبد؟ فيقول : لهذا القرد ولهذا العقرب والخنفساء ، يُرِيدُونَ بإظهار الإسلام أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ، كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها ، أي : كلما دعوا إلى الكفر رجعوا إليه أقبح رد ، فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ أي : ولم يلقوا إليكم المسالمة والصلح ، ولم يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ بأن تعرضوا لكم وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ أي : وجدتموهم ، وَأُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً ، أي : تسلطا مُبِيناً ظاهرا ، لظهور كفرهم وثبوت عداوتهم.

الإشارة : النفوس على ثلاثة أقسام : قسم مطلقة العنان فى الجرائم والعصيان ، وهى النفوس الأمارة ، وإليها الإشارة بالآية قبلها ، والله أعلم. وقسم مذبذبة تارة تظهر الطاعة والإذعان ، تريد أن يأمنها صاحبها ، وتارة ترجع إلى الغي والعصيان ، مهما دعيت إلى فتنة وقعت فيها ، فإن لم تنته عن ذلك ، وتكف عن غيها ، فالواجب جهادها وقتلها حتى تنقاد بالكلية إلى ربها ، وأما النفس المطمئنة فلا كلام معها لتحقق إسلامها ، فالواجب الكف عنها وحبها. والله تعالى أعلم.

ولمّا فرغ من حفظ الأديان تكلم على بقية حفظ الأبدان ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٩٢]

وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٩٢)

قلت : (و ما كان لمؤمن) النفي هنا بمعنى النهى ، كقوله : وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ، و(إلا خطأ) : استثناء منقطع ، و(خطأ) : حال ، أو مفعول من أجله ، أو صفة لمصدر محذوف ، أي : لا يحل له أن يقتل مؤمنا فى حال من الأحوال ، لكن إن وقع خطأ فحكمه ما يأتى. وقيل : متصل. انظر ابن جزى. أو : إلا قتلا خطأ ، و(إلا أن يصدقوا) : حال ، أي : إلا حال تصدقهم ، و(توبة) : مفعول من أجله ، أي : شرع ذلك لأجل التوبة. أو ، مصدر ، أي : تاب عليكم توبة.

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ ينبغى لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً مثله ، أي : هو حرام عليه ، إِلَّا أن يقتله

خَطَأً بأن ظنه كافرا ، أو رمى غيره فصادفه. والآية نزلت بسبب قتل عياش بن ربيعة للحارث بن زيد ، وكان الحارث يعذبه على الإسلام ، ثم أسلم الحارث ، وهاجر ، ولم يعلم عياش بإسلامه ، فقتله.
ثم ذكر حكمه فقال : وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ أي : فعليه تحرير رقبة مُؤْمِنَةٍ سالمة من العيوب ، ليس فيها شوب حرية ، تكون من مال القاتل ، وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ أي : مدفوعة إِلى أَهْلِهِ وهى على العاقلة كما بيّن الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وهى عند مالك : مائة من الإبل على أهل الإبل ، وألف دينار شرعية على أهل الذهب ، واثنا عشر ألف درهم ، على أهل الورق ، مقسطة على ثلاث سنين ، فإن لم تكن العاقلة فعلى بيت المال ، وتقسم على أهله ، على حسب المواريث ، إلا أن يتصدقوا بالدية على القاتل فتسقط ، أي : تسمح فيها الورثة أو القتيل قبل موته.
فَإِنْ كانَ المقتول مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ أي : محاربين لكم ، وَهُوَ أي : المقتول مُؤْمِنٌ فعلى القاتل تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ولا دية لأنهم محاربون فيتقووا بها على المسلمين ، ورأى مالك أن الدية فى هذا واجبة لبيت المال ، وَإِنْ كانَ المقتول مؤمنا وهو مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أي : عقد الصلح أو الذمة ، فعلى القاتل دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ ، وعليه أيضا تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ كفارة لخطئه. فإن كان غير مؤمن فلا كفارة فيه. وفيه نصف دية المسلم ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ الرقبة ، أو لم يقدر عليها فعليه فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ عوضا من العتق ، جعل الله ذلك تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ على القاتل لتفريطه. وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً بما فرض ، حَكِيماً فيما قدّر ودبّر. والله تعالى أعلم.
الإشارة : اعلم أن الحق - جل جلاله - قد رغّب فى إحياء النفوس ، حسا ومعنى ، ونهى عن قتلها حسا ومعنى ، وما ذلك إلا لخصوص محبة له فيها ، ومزيد اعتناء له بشأنها فليس فى الوجود أعز عند الله من مظهر هذا الآدمي إن استقام فى العبودية لربه ، فهو قلب الوجود ، ومن أجله ظهر كل موجود ، وهو المنظور إليه من هذا العالم السفلى ، والمقصود بالخطاب التكليفي : جزئى وكلى ، فهو المقصود من بيت القصيد ، وهو المحبوب إليه ، دون سائر العبيد ، قال تعالى : وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي.

(٥٤٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٤٥
ومعنى إحيائها حسا : انقاذها من الهلاك الحسى ، ومعنى إحيائها معنى : إنقاذها من الهلاك المعنوي كالجهل والغفلة ، حتى تحيا بالعلم والإيمان واليقظة ، ومعنى قتلها حسا : إهلاكها ، ومعنى قتلها معنى : إيقاعها فى المعاصي والكفر وحملها على ذلك ، وكذلك إهانتها وذلها ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام - : «لعن المؤمن كقتله». فأمر من قتله خطأ أن يحيى نفسا أخرى فى مقابلتها بإخراجها من موت إهانة الرق ، فإن لم يقدر ، فليحى نفسه بقتل صولتها بالجوع حتى تنكسر ، فتحيا بالتوبة واليقظة

، ويجبر كسر أهل المقتول بالدية المسلّمة.
هذا كله فى تفريطه وقلة حزمه حتى قتل خطأ ، وأما إن قتله عمدا ، فأشار إليه الحق جل جلاله بقوله :
[سورة النساء (٤) : آية ٩٣]
وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً (٩٣)
يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً مستحلا لقتله فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ أي : طرده وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً ، وقولنا : مستحلا لقتله ، هو أحد الأجوبة عن شبهة المعتزلة القائلين بتخليد عصاة المؤمنين فى النار. ومن جملتهم : قاتل النفس.
ومذهب أهل السنة : أنه لا يخلد إلا الكافر ، ويؤيد هذا الجواب سبب نزول الآية ، لأنها نزلت فى كافر ، وهو (مقيس بن ضبابة الكناني) وجد أخاه هشاما قتيلا فى بنى النجار - وكان مسلما - فذكر ذلك للنبى صلّى اللّه عليه وسلم فأرسل معه رجلا من بنى فهر ، وقال له : «ائت بنى النّجار ، وقل لهم : إن علمتم قاتل هشام فادفعوه لمقيس يقتصّ منه ، وإن لم تعلموا فادفعوا إليه الدّية». فقالوا : سمعا وطاعة ، لم نعلم قاتله ، فجمعوا مائة من الإبل ، فأخذها ، ثم انصرفا راجعين إلى المدينة ، فوسوس إليه الشيطان ، وقال : أىّ شيء صنعت؟ تقبل دية أخيك فتكون عليك سبّة ، اقتل الرجل الذي معك فتكون نفس مكان نفس وفضل الدّية ، فقتله وأخذ الدّية ، فنزلت فيه الآية.
أو يكون الخلود عبارة عن طول المكث ، والجمهور على قبول توبته ، خلافا لابن عباس ، ونقل عنه أيضا قبولها ، ولعله تعالى استغنى عن ذكر التوبة هنا اكتفاء بذكرها فى الفرقان ، حيث قال : وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً ثم قال : إِلَّا مَنْ تابَ. وأما من قال : إن تلك منسوخة بهذه فليس بصحيح لأن النسخ لا يكون فى الأخبار. أو فجزاؤه إن جوزى ، ولا بدع فى خلف الوعيد لقوله : وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ لأن الوعيد

مشروط بعدم العفو ، لدلائل منفصلة اقتضت ذلك كما هو مشروط بعدم التوبة أيضا ، والحاصل : أن الوعد لا يخلف لأنه من باب الامتنان ، والوعيد يصح إخلافه بالعفو والغفران ، كما فى بعض الأخبار عن رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم قال :
«من وعده الله - عز وجل - على عمل ثوابا فهو منجزه له لا محالة ، ومن أوعده على عمل عقابا فهو بالخيار ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه». هـ. ذكره فى القوت.
فتحصّل أن القاتل لا يخلّد على المشهور إلّا إذا كان مستحلا ، وهذا أيضا ما لم يقتص منه ، وأما إذا

اقتص منه فالصحيح أنه يسقط عنه العقاب لقول النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «من أصاب ذنبا فعوقب به في الدنيا فهو له كفّارة». وبه قال الجمهور ، وكذلك إذا سامحه ورثة الدم لأنه حق ورثوه. والله تعالى أعلم.

الإشارة : الإيمان محله القلوب ، فالقلب هو المتصف بالإيمان حقيقة. فالمؤمن الحقيقي هو القلب ، فمن قتله بتتبع الشهوات ، وتراكم الغفلات ، فجزاؤه نار القطيعة في سجن الأكوان ، والبعد عن عرفان الشهود والعيان ، وفي الحكم : «سبب العذاب وجود الحجاب ، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم». والله تعالى أعلم.

ثم إن اللسان ترجمان القلب ، فمن أظهر الإيمان حرم التعرض له ، كما أشار إلى ذلك الحق جل جلاله بقوله :

[سورة النساء (٤) : آية ٩٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٩٤)

قلت : (السّلم) بالقصر : الانقياد والاستسلام ، وبالمد : التحية. وجملة (تبتغون) : حال من الواو ، مشعرة بما هو الحامل على العجلة.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ أي : سافرتم وسرتم تجاهدون فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَتَبَيَّنُوا الأمور وتثبتوا فيها ولا تعجلوا ، فإن العجلة من الشيطان ، وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ أي : الانقياد والاستسلام ، أو سلّم عليكم تحية الإسلام ، لَسْتَ مُؤْمِناً إنما فعلت ذلك متعوذّا خائفا ، فتقتلونه طمعا في ماله ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا وحطامها الفاني ، فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ وعدكم بها ، لم تقدروا الآن عليها ، فاصبروا وازهدوا فيما تشكّون فيه حتى يأتيكم ما لا شبهة فيه ، كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ

(٥٤٦/١)

هذه الحال ، كنتم تخفون إسلامكم خوفا من قومكم ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بالعز والنصر والاشتهار ، فَتَبَيَّنُوا وتثبتوا ولا تعجلوا ، وافعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل الله بكم ، حيث حفظكم وعصمكم ، ولا تبادروا إلى قتلهم ظنا بأنهم إنما دخلوا فيه اتقاء وخوفا ، فإن إبقاء ألف كافر أهون عند الله من قتل مؤمن ، وتكريره تأكيد لتعظيم الأمر. ثم هدّدهم بقوله إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً مطلعا على

قصدكم ، فلا تتهافتوا فى القتل ، واحتاطوا فيه.

روى أن سرية لرسول الله صلّى اللّه عليه وسلم غزت أهل فدك فهربوا ، وبقي مرداس ثقة بإسلامه ، لأنه كان مسلما وحده ، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل «١» ، وصعد عليه ، فلما تلاحقوا وكبّروا ، كبّر ونزل يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم ، فقتله أسامة ، واستاق غنمه ، فنزلت الآية. فلما أخبر - عليه الصلاة والسلام - وجد وجدا شديدا ، وقال لأسامة : «كيف بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!» قالها ثلاثا ، حتى قال أسامة : ليتنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ ، ثم استغفر له بعد ، وقال له : «أعتق رقبة» ، وقيل : نزلت فى المقداد ، مرّ برجل فى غنمه فأراد قتله ، فقال : لا إله إلا الله ، فقتله وظفر بأهله وماله ، وقيل : القاتل : محلّم بن جثامة ، والمقتول : عامر بن الأضبط. والله تعالى أعلم.

الإشارة : يستفاد من الآية : الترغيب فى خصلتين ممدوحتين وخصوصا عند الصوفية :

الأولى : التأنى فى الأمور والرزانة والطمأنينة ، وعدم العجلة والخفة والطيش. وفى الحديث : «من تأنّى أصاب أو كاد ، ومن استعجل أخطأ أو كاد». ولا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ، ويفهم عن الله أنه مراد الله فى ذلك الوقت.

والثانية : حسن الظن بعباد اللّه كافة ، واعتقاد الخير فيهم ، وعدم البحث عما اشتمل عليه بواطنهم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : «أمرت أن أحكم بالظواهر واللّه يتولى السرائر» «٢» وقال لأسامة : «هلا شققت عن قلبه» ، حين قتل من قال : لا إله إلا الله ، أو لغيره. وفى الحديث : «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير : حسن الظن بالله ، وحسن الظنّ بعباد الله ، وخصلتان ليس فوقهما من الشر شيء : سوء الظن بالله ، وسوء الظن بعباد الله». والله تعالى أعلم.

---

(١) أي : منعطف من الجبل.

(٢) لم يرد بهذا اللفظ. راجع كشف الخفا ١/ ٢٢١ والمقاصد الحسنة/ ٩١.

ولما نهى عن العجلة نهّضهم إلى الجهاد لئلا يتوهم أنها مذمومة حتى فى الجهاد ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٩٥ الى ٩٦]

لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ

عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (٩٥) دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٩٦)

قلت : (من المؤمنين) : حال من (القاعدين) ، و(غير) بالرفع : صفة للقاعدين ، وبالنصب : حال ، وبالجر : بدل من المؤمنين ، و(درجة) : نصب على إسقاط الخافض ، أو على المصدر ، لأنه متضمن معنى التفضيل ، أو على الحال ، أي : ذوى درجة. و(أجرا عظيما) : مصدر لفضّل ، لأنه بمعنى أجرا ، أو مفعول ثان لفضّل ، لأنه بمعنى أعطى ، أي : أعطاهم زيادة على القاعدين أجرا عظيما ، و(درجات) وما بعده ، كل واحد بدل من (أجرا) ، و(درجات) : نصب على المصدر ، كقولك : ضربته أسواطا ، و(أجرا) : حال ، تقدمت عليها لأنها نكرة ، و(مغفرة ورحمة) : على المصدر بإضمار فعلهما.

يقول الحق جل جلاله ترغيبا فى الجهاد : لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ عن الجهاد مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مع المجاهدين فى سبيل الله فى الدرجة والأجر العظيم. ولما نزلت أتى ابن أم مكتوم وعبد الله بن جحش ، وهما أعميان فقالا : يا رسول الله ذكر اللّه فضيلة المجاهدين على القاعدين ، وحالنا على ما ترى ، ونحن نشتهى الجهاد ، فهل من رخصة؟ فأنزل الله : غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ، فجعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين لزمانتهم وحسن نياتهم.

ثم ذكر فضل من خرج على من قعد لعذر فقال : فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ ، مواساة للمجاهدين ، وَأَنْفُسِهِمْ ببذلها فى سبيل رب العالمين ، عَلَى الْقاعِدِينَ لعذر ، دَرَجَةً واحدة ، لمزيد مشقة السفر والغزو والخطر بالنفس للموت ، وَكُلًّا من القاعدين لعلة والمجاهدين فى سبيل الله ، وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى أي :

المثوبة الحسنى ، وهى الجنة. وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ من غير عذر أَجْراً عَظِيماً وخيرا جسيما. وفى البخاري : «إنّ للّه مائة درجة أعدّها اللّه للمجاهدين فى سبيل اللّه ، ما بين الدرجتين كما بين السّماء والأرض». الحديث. ثم بيّنها بقوله دَرَجاتٍ مِنْهُ أي : من فضله وإحسانه ، وَمَغْفِرَةً لذنوبه ، وَرَحْمَةً تقرّبه إلى ربه ، وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً لما عسى أن يفرط منه ، رَحِيماً بما وعد له.

(٥٤٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٤٩

الإشارة : لا يستوى القاعد مع حظوظه وهواه ، مشتغلا بتربية جاهه وماله وتحصيل مناه ، غافلا عن السير إلى حضرة مولاه ، مع الذي سلّ سيف العزم فى جهاد نفسه وهواه ، وبذل مهجته وجاهد نفسه فى طلب رضاه ، حتى وصل إلى شهود أنوار جماله وسناه ، هيهات هيهات ، لا يستوى الأحياء مع الأموات ، فإن قعد مع نفسه لعذر يظهره ، مع محبته لطريق القوم وإقراره لأهل الخصوصية ، فقد فضّل الله عليه المجاهدين لنفوسهم بدرجة الشهود ومعرفة العيان للملك الودود ، وإن قعد لغير عذر مع

الإنكار لأهل الخصوصية ، فقد فضّل الله عليه المجاهدين أجرا عظيما ، درجات منه بالترقي أبدا ، ومغفرة ورحمة ، وفى البيضاوي : التفضيل بدرجة فى جهاد الكفار ، وبدرجات فى جهاد النفس لأنه الأكبر للحديث. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكم من تخلف عن الهجرة والجهاد حتى مات ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٩٧ الى ٩٩]

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَساءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً (٩٩)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ تتوفاهم الْمَلائِكَةُ أي : ملك الموت وأعوانه ، يعنى : تقبض أرواحهم ، ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ بترك الهجرة ومرافقة الكفرة ، قالُوا أي : الملائكة فى توبيخهم : فِيمَ كُنْتُمْ أي : فى أي شيء كنتم من أمر دينكم : أعلى الشك أو اليقين؟ أو : فى أي بلد كنتم : فى دار الكفر أو الإسلام؟ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ فعجزنا عن الهجرة وإظهار الدين خوفا من المشركين ، قالُوا أي : الملائكة تكذيبا لهم وتبكيتا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها إلى قطر آخر ، كما فعل المهاجرون إلى الحبشة والمدينة ، لكن حبستكم أموالكم ، وعزّت عليكم أنفسكم ، فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ لتركهم الهجرة الواجبة فى ذلك الوقت ، ومساعدتهم الكفار على غزو المسلمين ، وَساءَتْ مَصِيراً أي : قبحت مصيرا جهنم التي يصيرون إليها.

نزلت فى ناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا ، فخرجوا يوم بدر مع المشركين فرأوا قلة المسلمين ، فقالوا : غرّ هؤلاء دينهم ، فقتلوا ، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم ، كما يأتى ، فلا تجوز الإقامة تحت حكم الكفر مع الاستطاعة ، بل تجب الهجرة ، ولا عذر فى المقام ، وإن منعه مانع فلا يكون راضيا بحاله مطمئن النفس بذلك ، وإلا عمّه البلاء ، كما وقع لأهل الأندلس ، حتى صار أولادهم كفارا والعياذ بالله ، وكذلك لا تجوز الإقامة فى موضع تغلب فيه المعاصي وترك الدين.

(٥٤٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٥٠

قال البيضاوي : فى الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن فيه الرجل من إقامة دينه ، وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «من فرّ بدينه من أرض ، ولو كان شبرا من الأرض ، استوجب الجنة ، وكان رفيق إبراهيم ومحمد - عليهما الصلاة والسلام». «١» قلت : ويدخل فيه - على طريق

الخصوص - من فرّ من موضع تكثر فيه الشهوات والعوائد ، أو تكثر فيه العلائق والشواغل ، إلى موضع يقلّ فيه ذلك ، طلبا لصفاء قلبه ومعرفة ربه ، بل هو أولى ، ويكون رفيقا لهما فى حضرة القدس عند مليك مقتدر. والله تعالى أعلم.

ثم استثنى من تحقّق إسلامه وحبسه العذر ، فقال : إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ أي : المماليك والصبيان ، وفيه إشعار بأنهم على صدد وجوب الهجرة ، فإنهم إذا بلغوا وقدروا على الهجرة ، فلا محيص عنها ، وأن قومهم يجب أن يهاجروا بهم متى أمكنت الهجرة. قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : «كنت أنا وأبى وأمي ممن استثنى الله بهذه الآية».

ثم وصفهم بقوله : لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً أي : قوة على ما يتوقف عليه السفر ، من ركوب أو غيره ، وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا أي : لا يعرفون طريقا ، ولا يجدون دليلا ، فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ. وعبّر بحرف الرجاء إيذانا بأنّ ترك الهجرة أمر خطير ، حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن ، ويترصد الفرصة ، ويعلّق بها قلبه ، وَكانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً رَحِيماً فيعفو ويغفر لمن غلبه العذر. وبالله التوفيق.

الإشارة : كل من لم يتغلغل فى علم الباطن ، مات ظالما لنفسه ، أي : باخسا لها لما فوّتها من لذيذ الشهود ، ومعرفة الملك المعبود ، ولا يخلو باطنه من الإصرار على أمراض القلوب ، التي هى من أكبر الذنوب ، فإذا توفته الملائكة على هذه الحالة ، قالت له : فيم كنت حتّى لم تهاجر إلى من يطهرك من العيوب ، ويوصلك إلى حضرة علام الغيوب؟ فيقول : كنت من المستضعفين فى علم اليقين ، ولم أقدر على صحبة أهل عين اليقين وحق اليقين حبسنى عنهم حبّ الأوطان ، ومرافقة النساء والولدان. فيقال له : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجر فيها إلى من يخلصك من الحجاب ، وينفى عنك الشك والارتياب؟ فلا جرم أن مأواه سجن الأكوان ، وحرمان الشهود والعيان ، إلّا من أقر بوجود ضعفه ، واضطر إلى مولاه فى تخليصه من نفسه ، فعسى ربه أن يعطف عليه ، فيوصله إلى عارف من أوليائه ، حتى يلتحق بأحبابه وأصفيائه. وما ذلك على الله بعزيز.

ثم رغّب فى الهجرة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٠٠]

وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٠)

---

(١) أخرجه الثعلبي فى التفسير من حديث الحسن مرسلا. انظر الفتح السماوي ٢/ ٥١٥.

قلت : المراغم : المهرب والمذهب. قاله فى القاموس. وقال البيضاوي : يجد متحولا ، من الرغام وهو التراب.
وقيل : طريقا يراغم قومه بسلوكه فيها ، أي : يفارقهم على رغم أنوفهم ، وهو أيضا من الرغام.
يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعلاء كلمة الله وإقامة دينه ، يَجِدْ فِي الْأَرْضِ فضاء كثيرا ، ومتحولا كبيرا يتحول إليه ، وسعة بدلا من ضيق ما كان فيه ، من قهر العدو ومنعه من إظهار دينه ، أو سعة فى الرزق ، وبسطا فى المعيشة ، فلا عذر له فى المقام فى مكان مضيّق عليه فيه فى أمر دينه ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وجهاد فى سبيله ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ قبل وصوله فقد ثبت أجره ، ووجب على الله – وجوب امتنان – أن يبلغه قصده بعد موته ، وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً لما سلف له من عدم المبادرة ، رَحِيماً به ، حيث بلّغه مأموله.
نزلت فى جندع بن ضمرة ، وكان شيخا كبيرا مريضا ، فلما سمع ما نزل فى شأن الهجرة قال : والله ما أنا ممن استثنى الله ، ولى مال يبلغنى المدينة ، والله لا أبيت الليلة بمكة ، اخرجوا بي ، فخرجوا به على سريره حتى أتوا به التنعيم ، فأدركه الموت بها ، فصفّق بيمينه على شماله ، وقال : اللهم هذه لك وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايعك عليه رسولك ، فمات حميدا. فقال الصحابة : لو وافى المدينة ، كان أتم أجرا ، وضحك المشركون ، وقالوا : ما أدرك ما طلب. فنزلت : وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ .. إلخ.
وقيل : نزلت فى خالد بن حزام ، فإنه هاجر إلى أرض الحبشة ، فنهشته حيّة فى الطريق ، فمات قبل أن يصل. والله تعالى أعلم.
الإشارة : ومن يهاجر من وطن حظوظه وهواه ، طلبا للوصول إلى حضرة مولاه ، يجد فى أرض نفسه متسعا للعلوم ، ومفتاحا لمخازن الفهوم ، وسعة الفضاء والشهود ، حتى ينطوى فى عين بصيرته كلّ موجود ، ويتحقق بشهود واجب الوجود. ومن يخرج من بيت نفسه وسجن هيكله إلى طلب الوصول إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت قبل التمكين ، فقد وقع أجره على الله ، وبلّغه الله ما كان قصده وتمنّاه ، فيحشر مع الصديقين أهل الرسوخ والتمكين ، التي تلى درجتهم درجة النبيين ، وكذلك من مات فى طلب العلم الظاهر ولم يدركه فى حياته ، حشر مع العلماء ، قال عليه الصلاة والسلام : «من جاءه أجله وهو يطلب العلم لم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة واحدة». قلت :
وهذه الدرجة التي بينه وبين النبوة هى درجة الصديقين المتقدمة قبله.
وكل من مات فى طلب شىء من الخير ، أدركه بعد موته بحسن نيته ، كما فى الأحاديث النبوية ، قال القشيري : المهاجر فى الحقيقة ، من هاجر نفسه وهواه ، ولا يصح ذلك إلا بانسلاخه عن جميع مراداته وقصوده ،

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٥٢

فمن قصده - أي قصد الحق تعالى - ثم أدركه الأجل قبل وصوله ، فلا ينزل إلا بساحات وصله ، ولا يكون محط رفقته إلا مكان قربه. هـ. وفي بعض الآثار : الهجرة هجرتان : هجرة صغرى ، وهجرة كبرى ، فالصغرى : انتقال الأجسام من وطن غير مرضى إلى وطن مرضى ، والكبرى : انتقال النفوس من مألوفاتها وحظوظها إلى معرفة ربها وحقوقها. هـ.

ثم ذكر ما يتعلق بالسفر من قصر وغيره ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٠١]

وَإِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكافِرِينَ كانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً (١٠١)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ، أي : سافرتم للجهاد أو غيره من السفر المباح ، أو المطلوب ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ الرباعية إلى ركعتين ، ونفى الجناح يقتضى أنها رخصة ، وبه قال الشافعي ، ويؤيده أنه - عليه الصلاة والسلام - أتم فى السفر ، وأن عائشة - رضى اللّه عنها - قالت :

يا رسول الله قصرت وأتممت ، وصمت وأفطرت؟ فقال : «أحسنت «١» يا عائشة». وأوجبه أبو حنيفة لقول عمر رضي اللّه عنه : (السفر ركعتان تمام غير قصر ، على لسان نبيكم). ولقول عائشة : (أول ما فرضت الصلاة ركعتان ، فأقرت صلاة السفر ، وزيدت فى الحضر).

وقال مالك رضي اللّه عنه : القصر سنة لكونه - عليه الصلاة والسلام - دام عليه فى كل سفر ، ولم يتم إلا مرّة لبيان الجواز.

وقوله تعالى : إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ظاهره أن الخوف شرط فى القصر ، وبه قالت عائشة وعثمان - رضى اللّه عنهما - ، والجمهور على عدم شرطه ، وإنما ذكره الحق - تعالى - لكونه غالبا فى ذلك الوقت ، فلا يعتبر مفهومه ، أو يؤخذ القصر فى الأمن من السّنة. ويؤيد هذا حديث يعلى بن أمية ، قلت لعمر بن الخطاب : إن الله يقول : إِنْ خِفْتُمْ ، وقد أمن الناس؟. فقال : عجبت مما تعجبت منه. فسألت رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فقال : «صدقة تصدّق بها الله عليكم ، فاقبلوا صدقته».

وقد ثبت أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قصر الصلاة وهو آمن.

وليس فى الآية ما يدل على تحديد المسافة التي تقصر فيها الصلاة ، بل ذكر مطلق السفر ، ولذلك أجاز الظاهرية القصر فى كل سفر ، طال أو قصر. ومذهب مالك والشافعي : أن المسافة أربعة برد ، واحتجوا بآثار عن ابن عمر وابن عباس. وقال أبو حنيفة : ستة برد ، وكذلك لم يقيد الحقّ السفر بمباح ولا غيره ، ولذلك أجاز أبو حنيفة القصر

(١) فى الأصول : سننت.

(٥٥٢/١)

فى كل سفر. ومنعه مالك فى سفر المعصية. ومنعه ابن حنبل فى المعصية والمباح. والمراد بالفتنة فى قوله : إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ : الجهاد والتعرض لما يكره ، وعداوة الكفار معلومة.

الإشارة : وإذا ضربتم فى ميادين النفوس ، وتحقق سيركم إلى حضرة القدوس ، فلا جناح عليكم أن تقتصروا على المهم من الصلاة الحسية ، وتدوموا على الصلاة القلبية ، التي هى العكوف فى الحضرة القدسية ، إن خفتم أن تشغلكم عن الشهود حلاوة المعاملة الحسية. قال بعض العارفين : اتقوا حلاوة المعاملة ، فإنها سموم قاتلة. وكذلك قال القطب ابن مشيش فى المقامات كالرضا ، والتسليم : أخاف أن تشغلنى حلاوتها عن الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر صلاة الخوف ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٠٢]

وَإِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرائِكُمْ وَلْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخرى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (١٠٢)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا كُنْتَ فِيهِمْ أيها الرسول فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ ، أي : صلاة الخوف ، وكذلك الأمراء النائبون عنه ، فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ، وطائفة تقف وجاه العدو للحراسة ، وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ أي : المصلون معك ، فَإِذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا أي : الطائفة الحارسة مِنْ وَرائِكُمْ ، فإذا صلّت نصف الصلاة مع الإمام ، قضت فى صلبه ما بقي لها وذهبت تحرس.

وَلْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ النصف الباقي ، فإذا سلمت ، قضوا ما بقي لهم ، فإذا كانت ثنائية : صلّى بالأولى ركعة ، وثبت قائما ساكتا أو قارئا ، ثم تصلى من صلت معه ركعة وتسلم ، وتأتى الثانية فتكبر ، فيصلى بها ركعة ويسلم وتقضى ركعة. وإذا كانت رباعية ، أو ثلاثية صلى بالأولى ركعتين ، ثم تقوم الأولى فتصلى ما بقي لها وتسلم وتأتى الثانية فتكبر وتصلى معه ما بقي له ، ثم تقضى ما بقي لها. هكذا قاله مالك والشافعي.

وقال أبو حنيفة : يصلى بالأولى ركعة ، ثم تتأخر وهى فى الصلاة ، وتأتى الثانية فيصلى بها ركعة ، فإذا

سلّم ذهبت مكان الأولى قبل سلامها ، فتأتي الأولى فتصلي ركعة ثم تسلّم ، وتأتي الثانية فتصلي ركعة ثم تسلّم. وفي

(٥٥٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٥٤

صلاة الخوف عشرة أقوال على حسب الأحاديث النبوية ، لأنها تعدّدت منه صلّى اللّه عليه وسلم ، فكل واحد أخذ بحديث ، وما قاله مالك والشافعي هو الذي فعله - عليه الصلاة والسلام - في غزوة ذات الرقاع.

ثم أمر الطائفة الحارسة بأخذ السلاح ، والحذر من العدو فقال : وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، ثم ذكر علّة الحذر فقال : وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً أي : تمنوا أن ينالوا منكم غرة ، فيشدون عليكم شدة واحدة فيستأصلونكم.

روى أن المشركين لما رأوا المسلمين صلوا صلاة الظهر ندموا أن لو كانوا أغاروا عليهم في الصلاة ، ثم قالوا :

دعوهم فإن لهم صلاة هي إليهم أحب من آبائهم وأبنائهم - يعنون صلاة العصر - ، فلما قام النبي - عليه الصلاة والسلام - لصلاة العصر نزل جبريل بصلاة الخوف.

ثم رخّص لهم في وضع السلاح ، لعذر فقال : وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أي : لا إثم إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ منهم بالحراسة. روى أنها نزلت في عبد الرحمن بن عوف ، مرض فوضع سلاحه ، فعنّفه أصحابه ، فنزلت الآية.

ثم هوّن شأن الكفار بعد أن أمر بالحذر منهم فقال : إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً في الدنيا والآخرة.

قال البيضاوي : وعد المؤمنين بالنصرة على الكفار ، بعد الأمر بالحذر ، ليقوى قلوبهم ، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لضعفهم وغلبة عدوهم ، بل إن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبير. هـ.

الإشارة : إذا كنت في جند الأنوار ، وأحدقت بك حضرة الأسرار ، ثم نزلت إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فلتقم طائفة من تلك الأنوار معك ، لتحرسك من جيش الأغيار وجند الأكدار ، حتى يكون رجوعك إلى الآثار مصحوبا بكسوة الأنوار وحلية الاستبصار ، فيكون رجوعك إليها باللّه لا بنفسك ، فإذا سجد القلب في الحضرة كانت تلك الأنوار من ورائه والأسرار من أمامه ، وَاللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ ، ولتأت طائفة أخرى لم تصل هذه الصلاة لأنها لم تبلغ هذا المقام ، فلتصل معك

اقتباسا لأنوارك ، لكن تأخذ حذرها وتستعد من خواطر الأشغال ، كى لا تميل عليهم فتفتنهم عن الحضور مع الكبير المتعال ، فإن كان مريض القلب بالهوى وسائر العلل ، فلا يكلف من الحضور إلا ما يطيقه ، لأن القط لا يكلف بحمل الجمل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ما يعين على الحضور ، ويتحصن به من العدو الكفور وهو ذكر الله ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٠٣]

فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً (١٠٣)

(٥٥٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٥٥

يقول الحق جل جلاله : فإذا فرغتم من الصلاة فَاذْكُرُوا اللَّهَ فى جميع أحوالكم قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِكُمْ إن أردتم حراسة قلوبكم ، والنصر على عدوكم ، أو إذا أردتم قضاء الصلوات وأداء فرضها ، وأنتم فى المعركة ، فصلوا كما أمكنكم ، قِياماً راجلين أو على خيولكم إيماء ، وحلّ للضرورة حينئذ مشى وركض وطعن وعدم توجه ، وإمساك ملطخ ، وتنبيه وتحذير ، هذا للصحيح ، وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِكُمْ ، للمريض أو الجريح ، هكذا قال جمهور الفقهاء فى صلاة المسايفة «١». وقال أبو حنيفة : لا يصلى المحارب حتى يطمئن.

فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ وذهب الخوف عنكم فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ على هيأتها المعلومة ، واحفظوا أركانها وشروطها ، وأتوا بها تامة ، إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً أي : فرضا محدود الأوقات ، لا يجوز إخراجها عن وقتها فى شيء من الأحوال. قال البيضاوي : وهذا دليل على أن المراد بالذكر الصلاة ، وأنها واجبة الأداء ، حال المسايفة ، والاضطراب فى المعركة ، وتعليل للأمر بالإتيان بها ، كيف أمكن.

الإشارة : إذا فرغتم من الصلاة الحسية ، فاستغرقوا أحواكم فى الصلاة القلبية ، حتى تطمئن قلوبكم فى الحضرة القدسية ، فإذا اطمأننتم فى الحضرة ، فأقيموا صلاة الشهود والنظرة ، وهى الصلاة الدائمة ، قال تعالى : الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ. وقال الورتجبي : إذا كنتم فى حالة التمكين وامتلأتم من أنوار ذكره ، فينبغى أن تخرجوا من أبواب الرخص ، والاستراحة فى سعة الروح ، وترجعوا إلى مقام الصلاة ، فإن آخر سيركم فى ربوبيتى : أول بدايتكم فى عبوديتى. هـ.

ثم حذرهم من الوهن فى أمر الجهاد ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٠٤]

وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ وَكانَ

اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٠٤)

قلت : الوهن : الفشل والضعف.

يقول الحق جل جلاله : ولا تضعفوا فى طلب الْقَوْمِ ، أي : الكفار ، فتجاهدوهم فى سبيل الله ، فإن الحرب دائرة بينهم وبينكم ، قد أصابهم مثل ما أصابكم ، فإن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ ، أي : تتوجعون من الجراح ، فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ ، وأنتم ترجون من الله النصر والعز فى الدنيا ، والدرجات العلا فى الآخرة ، وهم لا يرجون

---

(١) المسايفة : المبارزة بالسيوف.

ذلك ، فحقكم أن تكونوا أصبر وأرغب فى الجهاد منهم ، وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً بأعمالكم وضمائركم ، حَكِيماً فيما يأمركم به وينهاكم.

الإشارة : لا تهنوا عن طلب الظفر بنفوسكم ، ولا تفشلوا عن السير إلى حضرة ربكم ، فإن كنتم تألمون حال محاربتها ومخالفة شهواتها ، فإنها تألم مثلكم ، ما دامت لم ترتض فى حضرة ربكم ، فإذا ارتاضت وتحلت صار المر عندها حلوا ، وذلك إنما يكون بعد موتها وحياتها ، فدوموا على سياستها ورياضتها ، فإنكم ترجون من الله الوصول ، وبلوغ المأمول ، وهى ترجو الرجوع إلى المألوفات وركوب العادات ، فاعكسوا مراداتها ، حتى تطمئن فى حضرة ربها ، فتأمن غوائلها ، فليس بعد الوصول رجوع ، ولا إلى العوائد نزوع ، والله غالب على أمره.

ثم ذكر ما يتعلق بحفظ اللسان ، وهو الأمر الخامس من مضمون السورة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٠٥ الى ١٠٩]

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٦) وَلا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيماً (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ وَكانَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (١٠٨) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩)

قلت : أرى ، هنا عرفانية ، لا علمية ، فلذلك لم تتعد إلى ثلاثة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه - عليه الصلاة والسلام - حين همّ أن يخاصم عن طعمة بن أبيرق ، وذلك

أنه سرق درعا من جاره قتادة بن النعمان ، فى جراب دقيق ، فجعل الدقيق يسقط من خرق فيه ، وخبّأها عند يهودى ، فالتمس الدرع عند طعمة ، فلم توجد ، وحلف ما أخذها ، وما له بها علم ، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها ، فقال اليهودي : دفعها إليّ طعمة ، وشهد له ناس من اليهود ، فقال رهط طعمة من بنى ظفر : انطلقوا بنا إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فنسأله أن يجادل عن صاحبنا ، وقالوا : إن لم يفعل هلك وافتضح ، وبرئ اليهودي ، فهمّ رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم اعتمادا على ظاهر الأمر ، ولم يكن له علم بالواقعة ، فنزلت الآية :

(٥٥٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٥٧

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ أي : ملتبسا بالحق لِتَحْكُمَ بما فيه من الحق بَيْنَ النَّاسِ بسبب ما أَراكَ أي : عرّفك اللَّهُ بالوحى ، أو بالاجتهاد ، ففيه دليل على إثبات القياس ، وبه قال الجمهور. وفى اجتهاد الأنبياء خلاف. وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً أي : عنهم للبرآء ، أو لأجلهم والذّبّ عنهم.

وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ مما هممت به ، إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً ، وفيه دليل على منع الوكالة عن الذمي ، وبه قال ابن شعبان. وقال ابن عات : لعله أراد الندب. وقال مالك بن دينار : كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينا للخونة.

والوكالة من الأمانة ، والمصطفى - عليه الصلاة والسلام - لم يقصد شيئا من ذلك ، ولا علم له بالواقعة ، لو لا أطلعه تعالى ، فلا نقص فى اهتمامه ، ولا درك «١» يلحقه. وبالجملة ، فالآية خرجت مخرج التعريف بحقيقة الأمر فى النازلة.

ثم نهاه عن الذب عنهم ، فقال : وَلا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ

وهم رهط ابن أبيرق السارق ، قال السهيلي : هم بشر وبشير ومبشر وأسير ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً

أي : كثير الخيانة ، أَثِيماً

أي :

مصرا عليها ، روى أن طعمة هرب إلى مكة ، وارتدّ ، ونقب حائطا بها ليسرق أهله ، فسقط الحائط عليه فقتله.

ويستفاد من الآية امتناع الجدال عمن علمت خيانته بالأحرى ، أو كان مظنة الخيانة ، كالكافر ونحوه. وكذا قال ابن العربي فى أحكام القرآن فى هذه الآية : إن النيابة عن المبطل المتهم فى الخصومة لا تجوز ، بدليل الآية. هـ.

ثم فضح سرهم ، فقال : يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ
أي : يستترون منهم ، وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ
وهو أحق أن يستحيا منه ويخاف وَهُوَ مَعَهُمْ
لا يخفى عليه شيء ، فلا طريق للنجاة إلا ترك ما يستقبح ، ويؤاخذ عليه سرا وجهرا. إِذْ يُبَيِّتُونَ
أي : يدبرون ويزوّرون ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ
من رمى البريء ، والحلف الكاذب ، وشهادة الزور ، وَكانَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً
لا يفوته شيء ، ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا
ودفعتم عنهم المعرة ، فَمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ
أي : من يدافع عنهم عذابه يَوْمَ الْقِيامَةِ ، أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا
يحميهم من عقاب الله ، حين تفضح السرائر ، ولا تنفع الأصحاب ولا العشائر.
الإشارة : فى الآية عتاب للقضاة والولاة إذا ظهرت صورة الحق بأمارات وقرائن ، ثم تجمدوا على ظاهر الشريعة ، حمية أو رشوة ، فإن القضاء جلّه فراسة ، وفيها عتاب لشيوخ التربية ، إذا ظهر لهم عيب فى المريد ستروه عليه حياء أو شفقة ، ولذلك قالوا : شيخ التربية لا تليق به الشفقة ، غير أنه لا يعيّن ، بل يذكر فى الجملة ، وصاحب العيب يفهم نفسه ، وفيها عتاب للفقراء إذا راقبوا الناس ، وأظهروا لهم ما يحبون ، وأخفوا عنهم ما لا يرضون ، لقوله -

---

(١) الدرك : التبعة.

سبحانه - : يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ...
الآية ، بل ينبغى أن يكونوا بالعكس من هذا ، قال بعضهم : إن الذين تكرهون منى ، هو الذي يشتهيه قلبى. والله تعالى أعلم.
ثم حضّهم على التوبة ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ١١٠]
وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً (١١٠)
يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً
أي : ذنبا قبيحا يسوء به غيره ، أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ

بذنب يختص به ، أو من يعمل سوءا بذنب غير الشرك ، أو يظلم نفسه بالشرك ، أو من يعمل سوءا بالكبيرة ، أو يظلم نفسه بالصغيرة ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ

بالتوبة يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً

لذنوبه رَحِيماً

بقبول توبته ، وفيه حث لطعمة وقومه على التوبة والاستغفار.

الإشارة : ومن يعمل سوءا بالميل إلى الهوى ، أو يظلم نفسه بالالتفات إلى السوي ، أو من يعمل سوءا بالهفوات والخطرات ، أو يظلم نفسه بالغفلات والفترات ، أو من يعمل سوءا بالوقوف مع الكرامات وحلاوة الطاعات ، أو يظلم نفسه بالقناعة من الترقي في الدرجات والمقامات ، ثم يستغفر الله من حينه يجد الله غفورا رحيما ، حيث لم يخرجه من حضرته ، ولم يتركه مع غفلته.

ثم عاتب رهط السارق على رميهم الغير بالسرقة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١١١ الى ١١٢]

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (١١٢)

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً

كسرقة أو يمين فاجرة ، أو رمى غيره بجريمة ، فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ

لا يتعدى ضررها إلى غيره ، وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً

بسرائر عباده حَكِيماً

فى إمهالهم وسترهم ، وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً

أي : جريمة تتعدى إلى ضرر غيره ، أَوْ إِثْماً

يختص بنفسه ، ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً

منه ، كما رمى طعمة زيدا اليهودىّ ، فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً

وهو أن يبهت الرجل بما لم يفعل ، وَإِثْماً مُبِيناً

أي : ذنبا ظاهرا ، لا يخفى قبحه وبشاعته.

الإشارة : الإثم : ما حاك فى الصدر وتلجلج فيه ، ولم ينشرح إليه الصدر ، وضده البر وهو ما ينشرح إليه الصدر ويطمئن إليه القلب ، فكل من فعل شيئا قد تلجلج قلبه منه ولم يقبله نقص من نوره ، وأظلم قلبه منه ، وإليه

الإشارة بقوله : (و من يكسب إثما ..) الآية ، أي : فإنما يسوّد به نور نفسه وروحه ، ومن تلبّس بذنب أو عيب ، ثم يرم به غيره من باب سوء الظن (فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا) لأن الواجب على المريد السائر أن يشهد الصفاء من غيره ، ويقصر النقص على نفسه ، والواصل يرى الكمال فى كل شىء لمعرفته فى كل شىء. والله تعالى أعلم.
ثم شهد لرسوله بالهداية والعناية ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ١١٣]
وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (١١٣)
قلت : الجارّ فى قوله : (من شى ء) ، فى موضع نصب على المصدر ، أي : لا يضرونك شيئا من الضرر.
يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ
بالعصمة ورحمته بالعناية ، لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ
وهم رهط السارق أَنْ يُضِلُّوكَ
عن القضاء بالحق ، مع علمهم بالقصة ، لكن سبقت العناية ، وحفت الرعاية ، فلم تخرج من عين الهداية. وليس المراد نفى همهم لأنه وقع ، إنما المراد نفى تأثيره فيه ، وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
لعوده عليهم ، وَما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْ ءٍ
لأن الله عصمك ، وما خطر ببالك من المجادلة عنهم ، كان اعتمادا منك على ظاهر الأمر ، وإنما أمرت أن تحكم بالظواهر ، والله يتولى السرائر.
وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ
أي : القرآن ، وَالْحِكْمَةَ
ما نطقت به من الحكم ، وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ
من خفيات الأمور ، التي لم تطلع عليها ، أو من أمور الدين والأحكام ، وَكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً
ولا فضل أعظم من النبوة ، لا سيما وقد فضّله على كافة الخلق وأرسله إلى كافة الناس ، وهدى اللّه على يديه ما لم يهد على يد أحد من الأنبياء قبله ، إلى غير ذلك من الفضائل التي تفوت الحصر.
الإشارة : لو لا أن الله تفضّل على أوليائه بسابق العناية ، وحفّت بهم منه الكلاءة والرعاية ، لأضلتهم العموم عن عين التحقيق ، ولأتلفتهم القواطع عن سلوك الطريق ، لكن من سبقت له العناية لا يصيبه سهم الجناية ، فثبّت أقدامهم على سير الطريق ، حتى أظهر لهم معالم التحقيق ، فكشف عن قلوبهم

رين الحجاب ، حتى فهموا أسرار الكتاب ، ونبع من قلوبهم ينابيع الحكم والأسرار ، واطلعوا على علوم لم يحط بها كتاب ولا دفتر ، فحازوا فى الدارين خيرا جسيما ، وكان فضل الله عليهم عظيما.

(٥٥٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦٠

ولما ظهرت السرقة على طعمة ، كثر فى شأنه التناجي والخوض فيما لا يعنى ، فنهاهم الحقّ عن ذلك فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١١٤]

لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١١٤)

قلت : إن كان المراد بالنجوى الكلام الخفي فالاستثناء منقطع ، وقد يكون متصلا على حذف مضاف أي : إلا نجوى من أمر ... إلخ. وإن كان المراد بالنجوى الجماعة المتناجين ، فالاستثناء متصل. قاله ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله محرضا على الصمت : لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مما يتناجون به فى شأن السارق أو غيره ، بل لا خير فى الكلام بأسره إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ واجبة أو تطوعية ، فله مثل أجره ، أَوْ مَعْرُوفٍ وهو : ما يستحسنه الشرع ، ويوافقه العقل ، كالقرض ، وإغاثة الملهوف ، وتعليم الجاهل ، وإرشاد الضال ، وغير ذلك من أنواع المعروف. أو أمر بإصلاح بَيْنَ النَّاسِ ، أي : إصلاح ذات البين ، كإصلاح بين طعمة واليهودي وغيرهما.

قال مجاهد : (هى عامة للناس) ، يريد أنه لا خير فيما يتناجى فيه الناس ، ويخوضون فيه من الحديث ، إلا ما كان من أعمال الخير.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ أي : الصدقة ، والمعروف والإصلاح ، ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ أي : مخلصا لله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً وخيرا جسيما. قال البيضاوي : بنى الكلام على الأمر ، ورتّب الجزاء على الفعل ، ليدل على أنه لما دخل الآمر فى زمرة الخيرين كان الفاعل أدخل فيهم ، وأن العمدة والغرض هو الفعل ، واعتبار الأمر من حيث إنه وصلة إليه. وقيد الفعل بأن يكون لطلب مرضاة الله لأن الأعمال بالنيات ، وأن من فعل خيرا رياء وسمعة ، لم يستحق بها من الله أجرا ، ووصف الأجر بالعظم تنبيها على حقارة مافات فى جنبه من أغراض الدنيا. هـ.

الإشارة : فى الآية حث على الصمت ، وهو ركن قوى فى طريق التصوف ، وهو أحد الأركان الأربعة التي هى : العزلة والجوع والسهر ، فهذه طريق أهل البداية ، ومن لا بداية له لا نهاية له ، وقالوا : بقدر

ما يصمت اللسان يعمر الجنان ، وبقدر ما كان يتكلم اللسان يخرب الجنان. وقالوا أيضا : إذا كثر العلم قلّ الكلام ، وإذا قل العلم كثر الكلام. وقالوا أيضا : من عرف اللّه كلّ لسانه. وقيل لبعض العلماء : هل العلم فيما سلف أكثر ، أو اليوم أكثر؟ قال :
العلم فيما سلف أكثر ، والكلام اليوم أكثر.
وفى قوله : وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ .. إشارة إلى أن العمل أشرف من العلم بلا عمل. واللّه تعالى أعلم.

(٥٦٠/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦١
ثم نزل فى شأن طعمة ، لما هرب وارتد مشركا :
[سورة النساء (٤) : الآيات ١١٥ الى ١١٦]
وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١١٦)
قلت : المشاقة : المخالفة والمباعدة ، كأن كل واحد من المتخالفين فى شقّ غير شقّ الآخر.
يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يخالف الرَّسُولَ ويتباعد عنه مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى أي :
بعد ما تحقق أنه على الهدى بالوقوف على المعجزات ، فيترك طريق الحق وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ أي : يسلك غير ما هم عليه ، من اعتقاد أو عمل. نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى أي : نتركه مع ما تولى ، ونجعله وليا له ، ونخلّى بينه وبين ما اختاره من الضلالة ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ أي : ندخله فيها ، ونشويه بها ، وَساءَتْ مَصِيراً أي : قبحت مصيرا جهنم التي يصير إليها. والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع ، لأن الله رتّب الوعيد الشديد على مشاقة الرسول ، واتباع غير سبيل المؤمنين ، وكل منهما محرم ، وإذا كان اتباع غير سبيلهم محرما كان اتباع سبيلهم واجبا ، انظر البيضاوي.
ثم نزل فى طعمة لما ارتد مشركا : إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وقيل : كرر للتأكيد تقبيحا لشأن الشرك ، وقيل : أتى شيخ إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فقال : إنى شيخ منهمك فى الذنوب إلا أنى لم أشرك باللّه شيئا منذ عرفته وآمنت به ، ولم أتخذ من دونه وليا ، ولم أوقع المعاصي جرأة ، وما توهمت طرفة عين أنى أعجز الله هربا ، وإنى لنادم تائب ، فما ترى حالى عند الله؟ فنزلت. وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ، فَقَدْ ضَلَّ عن الحق ضَلالًا بَعِيداً لأن الشرك أقبح أنواع الضلالة ، وأبعدها عن الثواب والاستقامة ، وإنما ذكر فى الآية الأولى. فَقَدِ افْتَرى لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب ، ومنشأ شركهم نوع افتراء ، وهو دعوى الشيء على اللّه.

قاله البيضاوي.

الإشارة : كل من خالف شيخه ، وسلك طريقا غير طريقه ولاه الله ما تولى ، واستدرجه من حيث لا يشعر ، وقد تؤخر العقوبة عنه فيقول : لو كان هذا فيه سوء أدب مع الله ، لقطع الإمداد وأوجب البعاد ، وقد يقطع عنه من حيث لا يشعر ، ولو لم يكن إلا وتخليته وما يريد. وبالجملة : فالخروج عن مشايخ التربية والانتقال عنهم ، ولو إلى من هو أكمل فى زعمه ، بعد ما ظهر له الفتح والهداية على يديه طرد وبعد ، وإفساد لبذرة الإرادة ، فلا نتيجة له أصلا. والله تعالى أعلم. وبالله التوفيق.

(٥٦١/١)

ثم قبّح شأن الشرك ، وشنّع قبحه ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١١٧ الى ١٢١]

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِناثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطاناً مَرِيداً (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢٠) أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً (١٢١)

قلت : المريد والمارد هو الذي لا يعلق بخير ، وأصل التركيب للملابسة ، ومنه : صرح ممرّد ، وغلام أمرد ، وشجرة مردى ، أي : سقط ورقها. قاله البيضاوي. هـ. وقيل : المريد : الشديد العاتي ، الخارج عن الطاعة.

يقول الحق جل جلاله : إِنْ يَدْعُونَ : ما يعبدون مِنْ دُونِهِ تعالى إِلَّا إِناثاً ، كاللات والعزى ومناة ، فإن ألفاظها مؤنثة عندهم ، أو لأنها جوامد لا تعقل ، فهى منفعلة لا فاعلة ، ومن حق المعبود إن يكون فاعلا غير منفعل ، أو يريد الملائكة لأنهم كانوا يعبدونها ، ويزعمون أنها بنات الله ، وما يعبدون فى الحقيقة إِلَّا شَيْطاناً مَرِيداً عاصيا ، لأنه هو الذي أمرهم بها ، وأغراهم عليها ، وكان يكلمهم من أجوافها.

ثم وصفه بأوصاف توجب التنفير عنه فقال : لَعَنَهُ اللَّهُ أي : أبعده من رحمته ، وَقالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً أي : مقطوعا فرضته لنفسى ، من قولهم : فرض له فى العطاء ، أي : قطع ، وَلَأُضِلَّنَّهُمْ عن الحق وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ الأماني الباطلة ، كطول الحياة ، وألّا بعث ولا عقاب ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ أي : يشقونها لتحريم ما أحل الله ، وهى عبارة عما كانت العرب تفعل بالبحائر والسوائب ، وإشارة إلى تحريم كل ما أحل الله ، ونقص كل ما خلق الله كاملا بالفعل أو بالقوة ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ

خَلْقَ اللَّهِ ، صورة ، أو صفة ، فيندرج فيه خصاء العبيد والوشم ، والتنمص - وهو نتف الحاجب - . زاد البيضاوي : واللواط ، والمساحقه ، وعبادة الشمس والقمر ، وتغيير فطرة الله التي هى الإسلام ، واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالا ولا يوجب لها من الله زلفى. وعموم اللفظ يقتضى منع الخصاء مطلقا ، لكن الفقهاء رخصوا فى خصاء البهائم للحاجة ، والجمل الأربع حكاية عما ذكره الشيطان نطقا ، أو أتاه فعلا. هـ.

(٥٦٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦٣

ثم حذّر منه فقال : وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ باتباعه فيما أمره به دون ما أمر الله به ، فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً واضحا حيث ضيع رأس ماله ، وأبدل بمكانه من الجنة مكانه من النار. يَعِدُهُمْ أي : الشيطان ، أمورا لا تنجز لهم ، وَيُمَنِّيهِمْ أمانى لا تعطى لهم ، وَما يَعِدُهُمُ أي : الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً ، وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر ، فكان يوسوس لهم أنهم على الحق وأنهم أولى بالجنة ، إلى غير ذلك من أنواع الغرور ، أُولئِكَ المغرورون مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ أي : هى منزلهم ومقامهم ، وَلا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً أي : مهربا ولا معدلا. من حاص يحيص : إذا عدل.

الإشارة : ما أحببت شيئا إلا كنت له عبدا ، فاحذر أن تكون ممن يعبد من دون الله إناثا ، إن كنت تحب نفسك ، وتؤثر هواها على حق مولاها ، أو تكون عبد المرأة أو الخميصة «١» أو البهيمة ، أو غير ذلك من الشهوات التي أنت تحبها ، واحذر أيضا أن تكون من نصيب الشيطان بإيحاشك إلى الكريم المنان ، وفى الحكم :

«إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك ، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده». فاشتغل بمحبة الحبيب ، يكفيك عداوة العدو ، فاتخذ الله وليا وصاحبا ، ودع الشيطان جانبا ، غب عن الشيطان باستغراقك فى حضرة العيان.

وبالله التوفيق.

ثم ذكر ضد أهل الشرك ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٢٢]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢)

قلت : (وعد الله) مصدر ، مؤكد لنفسه ، أي : وعدهم وعدا ، و(حقا) مؤكد لغيره ، أي : لمضمون الجملة قبله.

انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ آمَنُوا بالله ووحدوه ، وَعَمِلُوا الأعمال الصَّالِحاتِ التي كلفوا بها سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وعدهم بذلك وعدا حقا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا أي : لا أحد أصدق من الله فى قوله. والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه ، بوعد الله الصادق لأوليائه ، ترغيبا فى تحصيل أسبابه. والله تعالى أعلم.

---

(١) الخميصة : ثوب خز ، أو صوف.

(٥٦٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦٤

الإشارة : والذين جمعوا بين توحيد عظمة الربوبية والقيام بوظائف العبودية سندخلهم جنة المعارف ، تجرى من تحتها أنهار العلوم ، خالدين فيها أبدا ، وعدا حقا وقولا صدقا. ومن أصدق من الله قيلا؟ وهذا الوعد لا ينال بالأمانى مع البطالة والتواني وإنما ينال بالأعمال الصالحة والمقاصد الخالصة ، كما قال تعالى :

[سورة النساء (٤) : آية ١٢٣]

لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (١٢٣)

قلت : اسم ليس ضمير الأمر ، أي : ليس الأمر بأمانيكم.

يقول الحق جل جلاله : لَيْسَ هذا الوعد الذي ذكرت لأهل الإيمان ينال بِأَمانِيِّكُمْ أي : تمنيكم أيها المسلمون ، ولا بأمانى أَهْلِ الْكِتابِ ، أي : لا يكون ما تتمنون ولا ما يتمنى أهل الكتاب ، بل يحكم الله بين عباده ويجازيهم بأعمالهم. روى أن المسلمين وأهل الكتاب تفاخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : نحن أولى منكم ، نبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضى على الكتب المتقدمة ، فنزلت. وقيل : الخطاب مع المشركين ، وهو قولهم : لا جنة ولا نار ، أو قولهم : إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيرا منهم وأحسن حالا. وأمانى أهل الكتاب : قولهم لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ ولَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى ثم قرر ذلك فقال : مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ عاجلا أو آجلا لما روى أنه لما نزلت قال أبو بكر : من ينجو مع هذا يا رسول الله ، إن كنا مجزيين بكل سوء عملناه؟ فقال له - عليه الصلاة والسلام - : «أما تحزن؟

أما تمرض؟ أما يصيبك اللأواء؟ «١» قال : بلى يا رسول الله ، قال : هو ذلك». فكل من عمل سوءا جوزى به ، وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا يليه ويدفع عنه ، وَلا نَصِيراً ينصره ويمنعه من عذاب الله.
الإشارة : لا تنال المراتب بالأماني الكاذبة والدعاوى الفارغة ، وإنما تنال بالهمم العالية ، والمجاهدات القوية ، إنما تنال المقامات العالية بالأعمال الصالحة ، والأحوال الصافية ، وأنشدوا :

---

(١) اللأواء : الشدة وضيق العيش.

بقدر الكدّ تكتسب المعالي من أراد العز سهر الليالي
تريد العزّ ثم تنام ليلا يغوص البحر من طلب اللآلي

ولما نزل قوله تعالى : لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ ... الآية. قال أهل الكتاب : نحن وأنتم سواء ، فأنزل الله تعالى :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٢٤ الى ١٢٦]

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً (١٢٦)

قلت : (من ذكر أو أنثى) : حال من الضمير فى (يعمل) ، وكذا قوله : وَهُوَ مُؤْمِنٌ و(حنيفا) ، حال من (إبراهيم) لأنه جزء ما أضيف إليه.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يَعْمَلْ شيئا مَنْ الأعمال الصَّالِحاتِ وهو المهم من المكلف به ، إذ لا طاقة للبشر على الإتيان بكلها. حال كون العامل مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى إذ النساء شقائق الرجال فى طلب الأعمال ، والحالة أن العامل مُؤْمِنٌ لأن الإيمان شرط فى قبول الأعمال ، فلا ثواب على عمل ليس معه إيمان.

ثم ذكر الجواب فقال : فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ أي : يتصفون بالدخول ، أو يدخلهم الله الجنة ، وَلا يُظْلَمُونَ أي : لا ينقصون من ثواب أعمالهم نَقِيراً أي : مقداره ، وهو النقرة فى ظهر النواة. قال البيضاوي : وإذا لم ينقص ثواب المطيع فبالأحرى ألا يزيد فى عقاب العاصي ، لأن المجازى أرحم الراحمين. هـ.

وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ أي : لا أحد أحسن دينا ممن انقاد بكليته إلى مولاه وَهُوَ مُحْسِنٌ

أي : موحّد أحسن فيما بينه وبين الله ، وفيما بينه وبين عباد الله ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً بأن دخل فى الدين المحمدي الذي هو موافق لملة إبراهيم بل هو عينه ، فمن ادعى أنه على ملة إبراهيم ولم يدخل فيه فقد كذب.

ثم ذكر ما يحث على اتباع ملته ، فقال : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا أي : اصطفاه وخصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله ، وإنما أعاد ذكره ولم يضمر تفخيما له وتنصيصا على أنه الممدوح ، وسمى خليلا لأنه قد تخللت محبة الله فى جميع أجزائه.

(٥٦٥/١)

روى أن إبراهيم عليه السّلام كان يضيف الناس ، حتى كان يسمى أبا الضيفان ، وكان منزله على ظهر الطريق ، فأصاب الناس سنة ، جهدوا فيها ، فحشد الناس إلى باب إبراهيم ، يطلبون الطعام ، وكانت الميرة كل سنة تصله من صديق له بمصر ، فبعث غلمانه بالإبل إلى الخليل الذي له بمصر يسأله الميرة ، فقال لغلمانه : لو كان إبراهيم يريد لنفسه احتملت له ذلك ، ولكنه يريد للأضياف ، وقد أصابنا ما أصاب الناس ، فرجع الرسل إليه ، ومرّوا ببطحاء لينة ، فملأوا منها الغرائر حياء من الناس ، وأتوا إبراهيم فأخبروه ، فاهتم إبراهيم لمكان الناس ببابه ، فنام ، وكانت سارة نائمة فاستيقظت ، وقالت : سبحان الله! أما جاء الغلمان؟ فقالوا : بلى ، فقامت إلى الغرائر فإذا فيها أجود الحوّارى - أي : الخالص من الدقيق - فخبزوا وأطعموا؟ فاستيقظ إبراهيم ، وشم رائحة الخبز ، فقال : يا سارة ، من أين هذا؟

فقالت : من عند خليلك المصري ، فقال : هذا من عند خليلى الله - عز وجل - ، فحينئذ سماه الله خليلا «١».

قال الزجاج : ومعنى الخليل : الذي ليس فى محبته خلل ، أو لأنه ردّ خلته ، أي : فقره إلى الله مخلصا. هـ.

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وخلقا وعبيدا ، فالملك له ، والعبيد عبيده ، يختار ما يشاء كما يشاء من خلة ومحبة وخدمة ، وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً علما وقدرة ، فيجازى كلّا على قدر سعيه وقصده. والله تعالى أعلم.

الإشارة : على قدر المجاهدة والمكابدة تكون المعاينة والمشاهدة ، على قدر البدايات تكون النهايات ، من أشرقت بدايته أشرقت نهايته ، والجزاء على العمل يكون على قدر الهمم ، فمن عمل لجنة الزخارف متع بها ، ومن عمل لجنة المعارف تنعم بها ، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ، فمن انقاد بكليته إلى

مولاه فلا أحد أحسن منه عند الله ، ومن تمسك بالملة الحنيفية ، وهى الانقطاع إلى الله بالكلية - فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وكان فى أعلى ذروة أهل التقى ، من تخلق بخلق الحبيب كان أقرب إلى الله من كل قريب. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ومما يتعلق بحفظ اللسان الفتوى بما يطابق الحق ، ولذلك ذكره بعد الأمر بالحكم بالعدل ، وما بينهما اعتراض انجرّ الكلام إليه ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٢٧]

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فِي يَتامَى النِّساءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِهِ عَلِيماً (١٢٧)

---

(١) قال ابن كثير : فى صحة هذا ووقوعه نظر. وغايته أن يكون خبرا اسرائيلى ، لا يصدق ولا يكذب ، وإنما سمى خليل الله لشدة محبته لربه - عز وجل - مما قام له به من الطاعة ، التي يحبها ويرضاها.

(٥٦٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦٧

قلت : و(ما يتلى) : عطف على (الله) ، أي : يفتيكم الله ، والمتلو عليكم فى الكتاب ، أي : فى القرآن. وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ حذف الجار ، وهو فى أو عن ، ليصدق النهى بالراغب فيها إذا كانت جميلة ، والراغب عنها إذا كانت دميمة ، والْمُسْتَضْعَفِينَ عطف على (يتامى النساء) أي : والذي يتلى فى المستضعفين من الولدان ، وهو قوله تعالى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ ... إلخ ، أو على الضمير فى (فيهن) أي : يفتيكم فيهن وفى المستضعفين ، و(أن تقوموا) عطف على (المستضعفين) ، أو منصوب بمحذوف ، أي : ويأمركم أن تقوموا ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْتَفْتُونَكَ يا محمد فِي شأن النِّساءِ من الميراث وغيره ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ، فيأمركم أن تعطوهن حقهن من الميراث ، وَيفتيكم أيضا فيهن ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فى أول السورة إذ قال : لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ثم بيّنه فى تقسيم الميراث فى يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ ، وقال فى اليتامى : وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى ... الآية ، فقد أفتاكم فى اليتامى اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ من الصداق وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ بدون صداق مثلهن ، فأمركم أن تنكحوا غيرهن ، ولا تنكحوهن إلا أن تقسطوا لهن فى الصداق ، إذا كانت جميلة ، أو لها مال ، أو ترغبون عن نكاحهن إذا كانت دميمة ، فتعضلوهن

لترثوهن ، فلا تفعلوا ذلك ، بل تزوجوها أو زوجوها ، وكانوا فى الجاهلية ، إذا كانت اليتيمة ذات مال وجمال ، رغبوا فيها وتزوجوها بدون صداقها ، وإن كانت دميمة ولا مال لها رغبوا عنها وعضلوها ، أو زوجوها غيرهم. فنهى الله تعالى الفريقين معا.

وَيفتيكم أيضا فى الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ وهم الصغار ، أن تعطوهم حقهم من الميراث مع الكبار ، وكانوا لا يورثونهم ، روى أن عيينة بن حصن أتى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال : أخبرنا أنك تورث النساء والصبيان ، وإنما كنا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة؟ فقال له صلّى اللّه عليه وسلم : «كذا أمرت» ، فنزلت الآية.

وَيفتيكم أيضا ويأمركم أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ أي : العدل. وهو خطاب للأئمة أن ينظروا لهم بالمصلحة ويستوثقوا حقوقهم ، ويحتاطوا لهم فى أمورهم كلها. ثم وعدهم بالثواب على ذلك فقال : وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِهِ عَلِيماً ، فيجازيكم على قدر إحسانكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : يستفتونك عن نساء العلوم الرسمية ، وعن يتامى العلوم القلبية ، وهن نتائج الأفكار ، وهى العلوم اللدنية ، والأسرار الربانية التي هى من علوم الحقيقة ، ولا تليق إلا بالمستضعفين عند الخليقة ، وفى الخبر : «ألا أخبركم بأهل الجنّة؟ هو كل ضعيف متضعّف ، لو أقسم على اللّه لأبرّه فى قسمه». أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلم. قل الله يفتيكم فيهن فيأمركم أن تأخذوا من العلوم الرسمية ما تتقنون به عبادة ربكم ، وترغبوا فى علم الطريقة ، التي هى علم

القلوب ، ما تحققون به عبوديتكم ، ومن نتائج الأفكار ما تشاهدون به عظمة ربكم ، ويأمركم أن تقوموا بالعدل فى جميع شئونكم ، فتعطوا الشريعة حقها والطريقة حقها ، وتحفظوا أسرار الحقيقة عن غير مستحقها ، والله لا يضيع أجر المحسنين.

ثم أمر بالصلح بين الزوجين عند خوف النشوز ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٢٨]

وَإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١٢٨)

قلت : امرأة : فاعل بفعل يفسره ما بعده ، وأصل (يصّالحا) : يتصالحا ، فأدغمت ، و(صلحا) مصدر. وقرأ الكوفيون : يصلحا من الرباعي ، فتنصب صلحا على المفعول به ، أو المصدر ، و(بينهما) ظرف ، أو حال منه ، وجملة (الصلح خير) : معترضة ، وكذا : وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ، ولذلك اغتفر عدم

تجانسهما.
يقول الحق جل جلاله : وَإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ وتوقعت من زوجها نُشُوزاً أي : ترفعا عن صحبتها ، وتجافيا عنها ، كراهية لها ، ومنعا لحقوقها ، أَوْ إِعْراضاً عنها ، بأن يترك مجالستها ، ومحادثتها ، فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أن يتصالحا بَيْنَهُما صُلْحاً بأن تحط له من مهرها ، أو من قسمها مع ضرتها ، أو تهب له شيئا تستميله به.
نزلت فى سعد بن الربيع ، تزوج على امرأته شابة ، وآثرها عليها. وقيل : فى رجل كبرت امرأته ، وله معها أولاد ، فأراد طلاقها ليتزوج ، فقالت له : دعنى على أولادى ، واقسم لى فى كل شهرين أو أكثر ، أو لا تقسم. فذكر ذلك للنبى صلّى اللّه عليه وسلم فقال له : «قد سمع الله ما تقول ، فإن شاء أجابك» ، فنزلت. وقيل : نزلت فى سودة زوج النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، لما كبرت ، أراد - عليه الصلاة والسلام - أن يفارقها ، فقالت : أمسكنى فى نسائك ولا تقسم لى ، فقد وهبت نوبتى لعائشة ، فإنى أريد أن أبعث فى نسائك.
ثم رغّب فى الصلح فقال : وَالصُّلْحُ خَيْرٌ من المفارقة ، أو من سوء العشرة والخصومة ، أو خير فى نفسه ، ولا يكون إلا مع ترك بعض حق النفس من أحد الخصمين ، فلذلك ثقل على النفس فشحت به ، وإليه أشار بقوله :
وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ أي : جعلته حاضرا لديها لا يفارقها ، لأنها مطبوعة عليه ، فالمرأة لا تكاد تسمح للزوج من حقها ، ولا تسخو بشيء تعطيه لزوجها ، والزوج لا يكاد يصبر على إمساكها وإحسان عشرتها إذا كرهها ،

وَإِنْ تُحْسِنُوا العشرة وَتَتَّقُوا النشوز والإعراض ونقص حق المرأة مع كراهة الطبع لها ، فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً لا يخفى عليه إحسانكم ولا نشوزكم ، فيجازى كلّا بعمله ، وفى بعض الأثر : «من صبر على أذى زوجته أعطاه الله ثواب أيوب عليه السلام». وكذلك المرأة. والله تعالى أعلم.
الإشارة : اعلم أن النفس كالمرأة حين يتزوجها الرجل ، فإنها إذا رأت من زوجها الجد فى أموره والانقباض عنها ، هابته وانقادت لأمره ، وإذا رأت منه الليونة والسيولة استخفت بأمره وركبته ، وسقطت هيبته من قلبها ، فإذا أمرها ونهاها لم تحتفل بأمره ، وكذلك النفس إذا رأت من المريد الجد فى بدايته والصولة عليها ، هابته وانقادت لأمره وكانت له سميعة مطيعة ، وإذا رأت منه الرخو والسهولة معها ، ركبته وصعب عليه انقيادها وجهادها ، فإذا صال عليها وقهرها فأرادت الصلح معه على أن يسامحها فى

بعض الأمور ، وتساعفه فيما يريد منها ، فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا ، والصلح خير ، فإن دوام التشديد قد يفضى إلى الملل ، وإن تحسنوا معها بعد معرفتها ، وتتقوا الله فى سياستها ورياضتها حتى ترد بكم إلى حضرة ربها ، فإن الله كان بما تعملون خبيرا.

ثم أمر بالعدل بين النساء ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٢٩]

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٢٩)

يقول الحق جل جلاله : وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا ، يا معشر الأزواج ، أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ العدل الكامل التام فى الأقوال والأفعال والنفقة والكسوة والمحبة ، وَلَوْ حَرَصْتُمْ على ذلك لضعف حالكم ، وقد خففت عنكم ، وأسقطت الحرج عنكم ، فلا يجب العدل فى البيت فقط ، وكان صلّى اللّه عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ويقول : «اللهمّ هذه قسمتى فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما لا أملك» ، يعنى : ميل القلب ، وكان عمر رضي اللّه عنه يقول : (اللهم قلبى فلا أملكه ، وأما سوى ذلك فإنى أرجو أن أعدل) ، وأما الوطء فلا يجب العدل فيه ، إلا أن تتحرك شهوته ، فيكف لتتوفر لذته للأخرى.

فَلا تَمِيلُوا إلى المرغوب فيها لجمالها أو شبابها ، كُلَّ الْمَيْلِ بالنفقة والكسوة والإقبال عليها ، وتدعوا الأخرى كَالْمُعَلَّقَةِ التي ليست ذات بعل ولا مطلقة ، كأنها محبوسة مسجونة ، وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما ، جاء يوم القيامة ، وأحد شقّيه مائل» ، وَإِنْ تُصْلِحُوا ما كنتم تفسدون فى أمورهن بالعدل بينهن ، وَتَتَّقُوا الجور فيما يستقبل ، فَإِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً ، يغفر لكم ما مضى من ميلكم.

(٥٦٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٧٠

الإشارة : من شأن العبودية : الضعف والعجز ، فلا يستطيع العبد أن يقوم بالأمور التي كلف بها على العدل والتمام ، ولو حرص كل الحرص ، وجدّ كل الجد ، فلا يليق به إلا التحقق بوصفه والرجوع إلى ربه ، فيأتى بما يستطيع ولا يحرص على مالا يستطيع ، فلا يميل إلى الدعة والكسل كل الميل ، ولا يحرص على مالا طاقة له به كل الحرص ، فإن التعقيد ليس من شأن أهل التوحيد ، بل من شأنهم مساعفة الأقدار ، والسكون تحت أحكام الواحد القهار ، فلا تميلوا إلى التعمق والتشديد كل الميل ، فتتركوا أنفسكم كالمعلّقة ، أي : المسجونة ، وهذا من شأن أهل الحجاب ، يحبسون فى المقامات والأحوال ، تشغلهم حلاوة ذلك عن الله تعالى. فإذا فقدوا ذلك الحال أو المقام سلبوا وأفلسوا. وأهل

الغنى باللّه لا يقفون مع حال ولا مقام ، هم مع مولاهم ، وكل ما يبرز من عنصر القدرة قبلوه ، وتلونوا بلونه ، وهذا مقام التلوين بعد التمكين.
وفي إشارة أخرى : اعلم أن القدرة والحكمة كالزوجين للقلب ، يقيم عند هذه مدة ، وعند هذه أخرى ، فإذا أقام عند الحكمة كان فى مقام العبودية من جهل وغفلة وضعف وذلة ، وإذا أقام عند القدرة كان فى مقام شهود الربوبية فيكون فى علم ويقظة وقوة وعزة. ولا قدرة له على العدل بينهما ، فلا يميل إلى إحداهما كل الميل بل يسير بينهما ، ويعطى كل ذى حق حقه ، بأن يعرف فضلهما ، ويسير بكل واحد منهما. وإن تصلحوا قلوبكم وتتقوا ما يشغلكم عن ربكم ، فإن الله كان غفورا رحيما يغفر لكم ميلكم إلى إحدى الجهتين والله تعالى أعلم.
فإذا تعذر الإصلاح بين الزوجين ، وأراد الفراق ففى الله الغنى عن كل شىء ، كما أشار إلى ذلك بقوله :
[سورة النساء (٤) : آية ١٣٠]
وَإِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكانَ اللَّهُ واسِعاً حَكِيماً (١٣٠)
يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ يَتَفَرَّقا أي : يفارق كل واحد منهما صاحبه ، يُغْنِ اللَّهُ كل واحد منهما عن صاحبه ، ببدل أو سلو يقوم بأمره من رزق أو غيره ، من سعة غناه وكمال قدرته ، وَكانَ اللَّهُ واسِعاً بقدرته حَكِيماً أي : متقنا فى أحكامه وأفعاله. ثم بيّن معنى سعته فقال : وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أي : كل ما استقر فيهما فهو تحت حكمه ومشيئته ، قائما بحفظه وتدبيره ، يعطى كل واحد ما يقوم بأمره ويغنيه عن غيره. والله تعالى أعلم.
الإشارة : اعلم أن الروح ما دامت مسجونه تحت قهر البشرية ، محجوبة عن شهود معانى الربوبية ، كانت فقيرة جائعة متعطشه ، تتعشق إلى الأكوان وتفتقر إليها ، وتقف معها ، فإذا فارقت البشرية وانطلقت من سجن هيكلها ،

وخرجت فكرتها من سجن الأكوان ، أغناها الله بشهود ذاته ، وأفضت إلى سعة فضاء الشهود والعيان ، وملكت جميع الأكوان ، «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك» ، وكذلك البشرية يغنيها الله عن تعب الخدمة وتستريح فى ظل المعرفة ، فلما تفرقا أغنى الله كلا من سعة فضله وجوده ، لأنه واسع العطاء والجود ، حكيم فى تدبير إمداد كل موجود.
[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣١ الى ١٣٣]
وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ

وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً (١٣١) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكانَ اللَّهُ عَلى ذلِكَ قَدِيراً (١٣٣)

وفى قوله : وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ إشارة إلى أن من كان بالله ، ووصل إلى شهود ذاته ، ملّكه الله ما فى السموات وما فى الأرض ، فيكون خليفة الله فى ملكه ، (و ما ذلك على الله بعزيز).

ولمّا جرى الكلام على شأن النساء ، وهن حبائل الشيطان ، تشغل فتنتهن عن ذكر الرحمن ، حذّر الحق تعالى من فتنتهن ، كما هو عادته تعالى فى كتابه عند ذكرهن ، وأمر بالتقوى التي هى حصن من كل فتنة ، فقال :

وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ...

قلت : (من قبلكم) : يتعلق بأوتوا أو بوصينا ، و(إياكم) : عطف على الذين ، و(أن اتقوا) : على حذف الجار ، أي :

بأن اتقوا ، أو مفسرة لأن التوصية فى معنى القول ، و(إن تكفروا) على حذف القول ، أي : وقلنا لهم ولكم : وإن تكفروا ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الأمم المتقدمة الذين أنزلنا عليهم الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ كأهل التوراة والإنجيل والزبور ، وغيرهم من الأمم ، ووصيناكم أنتم أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ بأن تمتثلوا أوامره ، وتجتنبوا نواهيه ، ظاهرا وباطنا ، وقلنا لهم ولكم : وَإِنْ تَكْفُرُوا فإن الله غنى عن كفركم وشكركم فقد استقر له ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وعبيدا ، فله فيهما من الملائكة من هو أطوع منكم ، فلا يتضرر بكفركم ، كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم ، وإنما أوصاكم رحمة بكم ، لا لحاجة إليكم ، ثم قرر ذلك بقوله : وَكانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً أي : غنيا عن الخلق وعبادتهم ، محمودا فى ذاته ، حمد أو لم يحمد.

(٥٧١/١)

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ كرره ثالثا للدلالة على كونه غنيا حميدا ، فإن جميع المخلوقات تدل بحاجتها على غناه ، وبما أفاض عليها من الوجود ، وأنواع الخصائص والكمالات على كونه حميدا.

قاله البيضاوي. وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا أي : حافظا ومجيرا لمن تعلق به من أهل السموات والأرض. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إن لم تتقوه ، ويأت بقوم آخرين ، هم أطوع منكم وأتقى ، وَكانَ اللَّهُ عَلى ذلِكَ قَدِيراً أي : بليغ القدرة لا يعجزه مراد.

قال البيضاوي : وهذا – أي قوله : {إن يشأ يذهبكم ..} – أيضا تقرير لغناه وقدرته ، وتهديد لمن كفر وخالف أمره ، وقيل : هو خطاب لمن خالف الرسول صلّى اللّه عليه وسلم من العرب ، وهو معنى قوله : وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ لما روى : أنّها لما نزلت ضرب رسول صلّى اللّه عليه وسلم يده على ظهر سلمان وقال : «إنّهم قوم هذا».

الإشارة : التقوى أساس الطريق ومنهاج أهل التحقيق ، عليها سلك السائرون ، وبها وصل الواصلون ، قد وصّى بها الحق تعالى المتقدمين والمتأخرين ، وبها قرّب المقربين وشرّف المكرمين. ولها خمس درجات : أن يتقى العبد الكفر وذلك بمقام الإسلام ، وأن يتقى المعاصي والمحرمات وهو : مقام التوبة ، وأن يتقى الشبهات وهو مقام الورع ، وأن يتق المباحات ، وهو مقام الزهد ، وأن يتقى شهود السّوى والحس وهو مقام المشاهدة.

ولها فضائل مستنبطة من القرآن ، وهى خمس عشرة : الهداية لقوله تعالى : هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ، والنصرة لقوله : إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ، والولاية لقوله : وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ والمحبة لقوله : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ، وتنوير القلب لقوله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً ، والمخرج من الغم والرزق من حيث لا يحتسب ، لقوله : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ، وتيسير الأمور لقوله : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً وغفران الذنوب وإعظام الأجر لقوله : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ، وتقبل الأعمال لقوله : إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ والفلاح لقوله : وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ والبشرى لقوله : هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ ، ودخول الجنة لقوله : إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، والنجاة من النار لقوله : ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا. هـ. من ابن جزى.

(٥٧٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٧٣

ومما ينسب للقطب ابن مشيش رضي اللّه عنه :

عليك بتقوى الله فى السرّ والجهر ذا شئت توفيقا إلى سبل الخير

لأن التّقى أصل إلى البرّ كلّه فخذه تفز بكلّ نوع من البرّ

وخير جميع الزاد ما قال ربّنا فكن يا أخى لله ممتثل الأمر

ولمّا قرر أن الملك كله بيده ، رغّب الناس فى رفع حوائجهم إليه ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٣٤]

مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَكانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً (١٣٤)

قلت : (من) : شرطية ، وجوابها محذوف دل عليه الكلام ، أي : من كان يريد ثواب الدنيا فليطلبه منه ، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ، أو من كان يريد ثواب الدنيا فلا يقتصر عليه خاصة ، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة.

يقول الحق جل جلاله : مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا والتوسع فيها ، فليطلبه منا فعند الله ثواب الدارين ، أو من كان يريد ثواب الدنيا ، فليطلب مع ذلك ثواب الآخرة أيضا ، وليقل : رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، فيعطيهما معا لمن طلبهما ، والثاني أنهض من الأول ، وأكمل منهما من أعرض عنهما وطلب مولاه ، وَكانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً ، لا يخفى عليه مقاصد خلقه ، فيعطى كلّا على حسب قصده.

الإشارة : الهمم ثلاثة : همة دنية تعلقت بالدنيا الدنية ، وهمة متوسطة تعلقت بنعيم الآخرة ، وهمة عالية تعلقت بالكبير المتعال. والله تعالى يرزق العبد على قدر همته ، وبالهمم ترفع المقادير أو تسقط ، فمن كانت همته دنية كان دنيا خسيسا ، ومن كانت همته متوسطة كان قدره متوسطا ، رحل من كون إلى كون ، كحمار الرحا ، يسير ، والذي ارتحل منه هو الذي عاد إليه ، ومن كانت همته عالية كان عالى المقدار ، كبير الشأن ، حاز الكونين بما فيهما ، وزاد مشاهدة خالقهما. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ولما أمر بالعدل بين النساء أمر بالعدل فى الأحكام كلها ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٣٥]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١٣٥)

(٥٧٣/١)

قلت : (شهداء) : خبر ثان لكان ، أو حال ، (فالله أولى) : علة للجواب أي : إن يكن المشهود عليه غنيا عليه فلا تمتنعوا من الشهادة عليه تعظيما له ، وإن يكن فقيرا فلا تمتنعوا من الشهادة عليه إشفاقا عليه ، فإن الله أولى بالغنى والفقير منكم ، والضمير فى (بهما) راجع إلى مادل عليه المذكور ، وهو جنسا الغنى والفقير ، لا إليه وإلا لوحّد لأن «أو» لأحد الشيئين. و(أن تعدلوا) : مفعول من أجله ، ومن قرأ : تلوا - بضم اللام - فقد نقل ضم الواو إلى اللام وحذف أحد الواوين ، وقيل : من الولاية.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ أي : مجتهدين فى إقامة العدل مواظبين على الحكم به ، وكونوا شُهَداءَ لِلَّهِ بالحق تقيمون شهادتكم لوجه الله ، وابتغاء مرضاته ، بلا

طمع أجر ولا عوض ، وهذا إن تعينت عليه ، ولم يكن فى تحملها مشقة ، وإلا أبيح له أجر تعبه ، فأدوا شهاداتكم وَلَوْ كانت عَلى أَنْفُسِكُمْ بأن تقروا بالحق الذي عليها ، لأن الشهادة بيان الحق ، سواء كان عليها أو على غيرها ، أَوِ كانت الشهادة على الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، فلا تمنعكم الشفقة والتعظيم من إقامة الشهادة عليهما ، وأحرى غيرهما من الأجانب ، إِنْ يَكُنْ المشهود عليه غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فلا تميلوا عن الشهادة بالحق عليهما ، تعظيما للغنى أو شفقة للفقير ، فإن فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما وبالنظر لهما ، فلو لم تكن الشهادة عليهما صلاحا لهما ما شرعها ، فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى فتميلوا مع الغنى أو الفقير ، فقد نهيتكم إرادة أَنْ تَعْدِلُوا فى أحكامكم ، فتكونوا عدولا ، أو كراهية أن تعدلوا عن الحق أي : تميلوا ، وَإِنْ تَلْوُوا ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل أَوْ تُعْرِضُوا عن أدائها فتكتموها فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً ، فيجازى الكاتم والمؤدى.

قال صلّى اللّه عليه وسلم عند نزولها : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقم شهادته على من كانت ، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر ، فلا يجحد حقا هو عليه ، وليؤده عفوا ، ولا يلجئه إلى السلطان وخصومته ، ليقتطع بها حقه ، وأيما رجل خاصم إليّ فقضيت له على أخيه بحق ليس له عليه ، فلا يأخذه ، فإنّما أقطع له قطعة من النار».

الإشارة : قد أمر الحق تعالى عباده بإقامة العدل فى الأمور كلها ، ونهى عن مراقبة الخلق فى الأشياء كلها ، فيتأكد على المريد ألّا يراقب أحدا من الخلق وإنما يراقب الملك الحق ، فيكون قويا فى الحق ، يقيمه على نفسه وغيره ، فلا تجتمع مراقبة الحق مع مراقبة الخلق ، من راقب الحق غاب عن الناس ، ومن راقب الناس غاب عن الحق ، وعاش مغموما من الخلق ، ولله در القائل حيث قال :

من راقب الناس مات غمّا وفاز باللذات الجسور

(٥٧٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٧٥

وكان شيخ شيخنا رضي اللّه عنه يقول : (مراقبة الخلق عند أهل الظاهر شيء كبير ، وعدم المراقبة عند الباطن أمر كبير). فإقامة العدل على النفس ألّا يتركها تميل إلى الرخص والتأويلات ، وإقامته على الوالدين تذكيرهما بالله ودلالتهما على الله بلطف ولين ، وإقامته على الأقربين بنصحهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم ، كانوا أغنياء أو فقراء ، وإقامته على الأجانب كذلك. وبالله التوفيق.

ولما فرغ مما يتعلق بحفظ اللسان ، تكلم على حفظ الإيمان ، وهو الأمر السادس مما تضمنته السورة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٣٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١٣٦)

يقول الحق جل جلاله : مخاطبا من أسلم من اليهود – وهو عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابنا كعب ، وثعلبة بن قيس ، وسلّام بن أخت عبد الله بن سلام ، وسلمة ابن أخيه ويامين – قالوا يا رسول الله ، نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزّير ، ونكفر بما سواه من الكتب؟ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «آمنوا بالله ورسوله محمد صلّى اللّه عليه وسلم وبكتابه القرآن ، وبكل كتاب قبله» ، فنزلت الآية.

فقال لهم جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بمحمد ، بعد أن آمنوا بموسى آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ القرآن وَالْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ أي : جنس الكتاب ، فتدخل الكتب المتقدمة كلها ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أي : ومن يكفر بشيء من ذلك فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً أي : أخطأ خطأ بعيدا لا يكاد يعود إلى الطريق ، فلما نزلت قالوا : يا رسول الله إنا نؤمن بالجميع ، ولا نفرق بين أحد منهم ، كما فرقت اليهود والنصارى.

وقيل : الخطاب للمنافقين ، أي : يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم آمنوا بقلوبكم ، كما آمنتم بألسنتكم ، وقيل : للمؤمنين ، أي : دوموا على إيمانكم ، واثبتوا عليه.

الإشارة : أمر الحق جل جلاله ، أهل الإيمان أن يجددوا إيمانهم ، فيثبتوا على ما هو حاصل ، ويسترشدوا إلى ما ليس بحاصل ، فإن أنوار الإيمان تتزايد وتترادف على القلوب بحسب التصفية والنظر ، وبقدر الطاعة والتقرب ، فلا يزال العبد يتقرب إلى الله ، وأنوار التوجه تتوارد عليه ، حتى تشرق عليه أنوار المواجهة وهى أنوار الشهود ، فشروق الأنوار على قدر صفاء الأسرار ، وورود الإمداد على حسب الاستعداد ، فبقدر التفرغ من الأغيار ترد على

القلوب المواهب والأسرار ، وهذا كله لمن صحب العارفين وأخذ عنهم ، وملّك زمام نفسه لهم ، وإلا فحسبه الإيمان بالغيب ، ولو عمل ما عمل ، وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من ارتد عن الإيمان ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٧ الى ١٣٩]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (١٣٩)
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثم تكرر منهم الإيمان والكفر ، ثم أصروا على الكفر وهم المنافقون ، لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ لما سبق لهم من الشقاء ، أو إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بموسى ثُمَّ كَفَرُوا بعبادة العجل ثُمَّ آمَنُوا حين تابوا ثُمَّ كَفَرُوا بعيسى ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ، وهم اليهود ، والأول أظهر لأن الكلام بعده فى المنافقين ، فقال تعالى فى شأنهم : لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا أي : طريقا توصلهم إلى الحق ، إذ يستبعد منهم أن يتوبوا ، فإن قلوبهم أشربت الكفر ، وبصائرهم عميت ، لا ينفع علاجها ، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم ينفعهم ، وقد يكون إضلالهم عقابا لسوء أفعالهم.
ثم ذكر وعيدهم فقال : بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً. وهم الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ أي : أحبابا وأصدقاء مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وقد كان الكفار قبل ظهور الإسلام لهم الصولة والجاه ، فطلب المنافقون أن ينالوا بولايتهم ومصادقتهم العزّ منهم ، فردّ الله عليهم بقوله : أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ بولايتهم؟ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ولرسوله ولأوليائه ، ولا عزة لغيره إذ لا يعبأ بعزة لا تدوم ويعقبها الذل.
الإشارة : من كان ضعيف الاعتقاد فى أهل الخصوصية ، ضعيف التصديق ، تراه تارة يدخل وتارة يخرج ، وتارة يصدق وتارة ينكر ، لا يرجى فلاحه فى طريق الخصوص ، فإن ضم إلى ذلك صحبة أهل الإنكار وولايتهم ، فبشره بالخيبة والخسران ، فإن تعزز بعزهم أعقبه الذل والهوان ، والعياذ بالله من الخذلان ، فالعز إنما يكون بعز التوحيد والإيمان ، وعزة المعرفة والإحسان ، وبصحبة أهل العرفان ، الذين تعززوا بعز الرحمن ، فمن تعزز بعز يفنى مات عزه ، ومن تعزز بعز يبقى دام عزه ، والشبكة التي يصطاد بها العزّ هو الذل لله ، يظهره بين عباد الله. قال بعضهم : والله ما رأيت العز إلا فى الذل. وقال الشاعر :
تذلّل لمن تهوى لتكسب عزّة فكم عزّة قد نالها المرء بالذّلّ
وبالله التوفيق.

ثم نهى عن صحبة أهل الخوض ، فقال :
[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤٠ الى ١٤١]
وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَالْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (١٤٠)
الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَلَمْ

نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١)

قلت : (أن) مخفف : نافية ، فاعل نزّل ، و(يكفر) و(يستهزأ) ، حالان من الآيات ، وضمير (معهم) : يعود على الكفار المفهوم من (يكفر) ، وضمير (غيره) يعود على الكفر والاستهزاء ، وهما شيء واحد.

يقول الحق جل جلاله فى التحذير من مجالسة أهل الكفر والمعاصي : وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ يا معشر المسلمين فى القرآن فى سورة الأنعام ، أنه إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ حال كونها يُكْفَرُ بِها ، وَيُسْتَهْزَأُ بِها ، فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ بل قوموا عنهم ، إن لم تقدروا أن تنكروا عليهم ، والآية التي فى سورة الأنعام قوله تعالى :

وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ الآية. فما داموا في الخوض فاعرضوا عنهم حتى يخوضوا فى حديث غير الخوض ، فإن جلستم معهم فى حال الخوض فإنكم إِذاً مِثْلُهُمْ فى الإثم ، إن لم ترضوا ، أو فى الكفر ، إن رضيتم بخوضهم.

نزلت فى قوم من المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود ، فيسخرون من القرآن ، ويكذبون به ويحرفونه ، فنهى المسلمين عن مجالستهم ، قال ابن عباس : ودخل فى هذه الآية كلّ محدث فى الدين ومبتدع إلى يوم القيامه. هـ.

الإشارة : أولياء الله آيات من آيات الله : فمن استهزأ بهم فقد استوجب المقت من الله ، وكل موطن يقع فيه الإنكار عليهم أو الغض من مرتبتهم ، يجب الفرار منه ، لأنه موطن الغضب ومحل الهلاك والعطب ، فإن لحوم الأولياء سموم قاتلة ، واللعنة على من يقع فيهم حاصلة ، فمن جلس مع أهل الخوض من غير عذر ، كان من الخائضين ، ومن فرّ منهم كان من الناجين ، ومن أنكر على من يقع فيهم كان من المجاهدين. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد الخائضين ومن رضى بخوضهم ، فقال :

إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ

قلت : (الذين) : صفة المنافقين ، أو نصب على الذم ، و(نستحوذ) : نغلب ، استحوذ : غلب ، جاء على أصله ، ولم يعلّ كاستعاذ والقياس : استحاذ ، يستحيذ ، كاستعاذ يستعيذ ، لكنه صحح تنبيها على الأصل.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ سيجمع الْمُنافِقِينَ وَالْكافِرِينَ ، أي : الخائضين والقاعدين معهم ، فِي

جَهَنَّمَ جَمِيعاً خالدين فيها. الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ أي : ينتظرون بكم الدوائر ، أي : ما يدور به الزمان والدهر عليكم ، وهم المنافقون ، فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ كالنصر والغنيمة قالُوا للمؤمنين : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ على دينكم ، فأعطونا مما غنمتم ، وَإِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ دولة أو ظهور على المسلمين ، قالُوا لهم : أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ أي : نغلبكم ونتمكن من قتلكم ، وأبقينا عليكم فمنعناكم من قتل المسلمين لكم ، بأن خذلناهم بتخييل ما ضعفت به عزيمتهم عليكم ، وتوانينا فى مظاهرتهم عليكم ، فأشركونا مما أصبتم. وإنما سمى ظفر المسلمين فتحا ، وظفر الكافرين نصيبا لخسة حظه ، فإنه حظ دنياوى ، استدراجا ومكرا ، بخلاف ظفر المسلمين ، فإنه إظهار الدين ، وإعانة بالغنيمة للمسلمين.

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فيدخل أهل الحق الجنة ، ويدخل أهل الخوض النار ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا أي : حجة ، أو غلبة فى الدنيا والآخرة ، وفيه دليل على عدم صحة ملك الكافر للمسلم ، فيباع عليه إن اشتراه ، ويفسخ نكاحه إن تزوج مسلمة. والله تعالى أعلم الإشارة : (المرء مع من أحب) من أحبّ قوما حشر معهم ، فمن أحب أهل الخوض حشر مع الخائضين ، ومن أحب أهل الصفا حشر مع المخلصين ، وإن كان مذبذبا يميل مع كل ريح حشر مع المخلطين ، وهو من خف عقله وضعف يقينه ، إن رأى بأهل النسبة من الفقراء عزا ونصرا وفتحا انحاز إليهم ، وقال : ألم نكن معكم ، وإن رأى لأهل الإنكار من العوام صولة وغلبة رجع إليهم ، وقال : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من دعاء الصالحين عليكم ، فما لهذا عند الله من خلاق. وفى الحديث : «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها». فالله يحكم بينهم يوم القيامة ، فيرفع أهل الصفا مع المقربين ، ويسقط أهل الخوض مع الخائضين ، وليس لأهل الخوض من أهل الإنكار سبيل ولا حجة على أهل الصفا من الأبرار ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.

ثم ذكر أحوالهم الشنيعة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤٢ الى ١٤٣]

إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ وَإِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣)

قلت : جملة : (و لا يذكرون الله) حال من واو (يراءون) ، وكذلك (مذبذبين) أي : يراءون حال كونهم غير ذاكرين مذبذبين ، أو منصوب على الذم ، والمذبذب : المضطرب المتردد.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ
بإظهار الإيمان وإخفاء الكفر ، وَهُوَ خادِعُهُمْ
، أي : مجازيهم على خداعهم بأن يظهر لهم يوم القيامة نورا يمشون به على الصراط ، كما يعطى المؤمنين ، فإذا مضوا به طفئ نورهم وبقي نور المؤمنين ، فينادونهم : انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ، فيتهافتون فى النار. فسمى هذه العقوبة خداعا تسمية للعقوبة باسم الذنب.
وكانوا إذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى
أي : متثاقلين ، لا يريدون بها وجه الله ، فإن رءاهم أحد ، صلوا ، وإلّا انصرفوا ، فلم يصلوا ، يُراؤُنَ بأعمالهم النَّاسَ
أي : المؤمنين ، وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا
لأن المرائى لا يذكر إلا بحضرة الناس ، وهو أقل أحواله ، أو لا يذكرونه فى صلاتهم إلا قليلا ، لأنهم لا يذكرون إلا التكبير والتسليم ، وقال ابن عباس : إنما ذلك لأنهم يفعلونها رياء وسمعة ، ولو أرادوا بذلك وجه الله تعالى لكان كثيرا.
وقال قتاده : إنما قل ذكرهم ، لأنه لم يقبل ، فكل ما ردّ من العمل فهو قليل ، وكل ما قبل فهو كثير.
وكانوا أيضا مُذَبْذَبِينَ أي : مترددين ومتحيرين بين الكفر والإيمان ، لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ أي : لا صائرين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين. قال قتادة : ما هم بمؤمنين مخلصين ، ولا مشركين مصرّحين بالشرك ، هكذا سبق فى علم الله ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا أي : طريقا إلى الهدى ، ومثله قوله تعالى : وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ.
الإشارة : كل من أحب أن يرى الناس محاسن أعماله وأحواله ، ففيه شعبة من النفاق وشعبة من الرياء ، وعلامة المرائى : تزيين ظاهرة وتخريب باطنه ، يتزين للناس بحسن أعماله وأحواله ، يراقب الناس ولا يراقب الله ، وكان بعض الحكماء يقول : يقول الله – تعالى – : «يا مرائى : أمر من ترائى بيد من تعصيه». فمثل هذا أعماله كلها قليلة ، ولو كثرت فى الحس كالجبال الرواسي ، وأعمال المخلصين كلها كثيرة ولو قلّت فى الحس ، وأعمال المرائين كلها قليلة ولو كثرت فى الحس. قال فى القوت : وصف اللّه تعالى ذكر المنافقين بالقلة ، لكونه غير خالص ، كما قيل فى تفسير قوله تعالى : ذِكْراً كَثِيراً أي : خالصا ، فسمى الخالص كثيرا. هـ.
قوله تعالى : مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ : هذه صفة أهل الدعوى ، المستشرفين على الحقيقة بالعلم ، ليسوا من الخصوص ولا من العموم ، مترددين بين الفريقين ، ومن يضلل الله عن طريق التحقيق ، فلن تجد له سبيلا.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٠

ثم نهى المؤمنين عن موالاة الكفار لئلا يتشبهوا بالمنافقين ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٤٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً (١٤٤)

قلت : اتخذ ، يتعدى إلى مفعولين ، و(من دون) : حال.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تتشبهوا بالمنافقين فتتخذوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ وأصدقاء مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ لأن الله أعزكم بالإيمان والنصر ، فلا تطلبوا العز من أحد سواه ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً أي : حجة واضحة على تعذيبكم وسببا فى عقابكم.

الإشارة : قد تقدم فى كثير من الإشارات النهى عن موالاة أهل الإنكار على الأولياء ، وعن مخالطة أهل الدنيا وصحبتهم ، فإن ذلك حجة واضحة على الرجوع إليهم ومصانعتهم ، وهو عين النفاق عند المخلصين.

والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد المنافقين ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤٥ الى ١٤٧]

إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (١٤٦) ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكانَ اللَّهُ شاكِراً عَلِيماً (١٤٧)

قلت : الدرك : والدرك لغتان ، كالظعن والظعن ، والنهر والنهر ، والنشر والنشر ، وهى الطبقة السفلى ، وسميت طبقاتهم دركات لأنها متداركة متتابعة ، وهى ضد الدرجات ، فالدرجات للعلو ، والدركات للسفل.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ أي : فى الطبقة السفلى فى قعر جهنم لأنهم أخبث الكفرة ، حيث ضموا إلى الكفر الاستهزاء بالإسلام وخداع المسلمين. قال ابن مسعود رضي اللّه عنه :

(هم فى توابيت من النار مقفلة عليهم فى النار ، مطبقة عليهم). وعن ابن عمر رضي اللّه عنه : (إن أشد الناس عذابا يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون لقوله : إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ

مِنَ النَّارِ
وقال فى أصحاب المائدة : فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ. وقال : أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً يمنعهم من ذلك العذاب. إِلَّا الَّذِينَ تابُوا عن النفاق وَأَصْلَحُوا ما أفسدوا فى سرائرهم وأعمالهم فى حال النفاق ، وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ أي : وثقوا به وتمسكوا به ، دون أحد سواه ، وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ لا يريدون بطاعته إلا وجه الله ، لا رياء ولا سمعة فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فى الدين. قال الفرّاء : من المؤمنين ، وقال العتبى : حاد عن كلامهم غيظا عليهم ، ولم يقل هم المؤمنون.
هـ. قلت :
إنما قال : مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ولم يقل : منهم ، لأن التخلص من النفاق صعب ، ولا يكون من المؤمنين ، حتى يتخلص من جميع شعبه ، وهو عزيز ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق ، وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم ، من إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان».
وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ المخلصين أَجْراً عَظِيماً فيساهمونهم فيه إن تابوا وأصلحوا ، فإن الله غنى عن عذابهم ، ولذلك قال : ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ أي : لا حاجة له فى عذابكم ، فلا يشفى به غيظا ولا يدفع به ضررا ، أو يستجلب به نفعا لأنه غنيّ عن المنافع ، وإنما يعاقب المصر بكفره ، لأن إصراره عليه كسوء المزاج يؤدى إلى مرض ، فإن زال بالإيمان والشكر ، ونقّى منه قلبه ، تخلص من تبعته. وإنما قدم الشكر لأن الناظر يدرك النعم أولا فيشكر شكرا مبهما ، ثم يمعن النظر حتى يعرف المنعم فيؤمن به. قاله البيضاوي. وقال الثعلبي : فيه تقديم وتأخير ، أي إن آمنتم وشكرتم ، لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان. وَكانَ اللَّهُ شاكِراً لأعمال عباده ، يقبل اليسير ويعطى الكثير ، عَلِيماً بحقيقة شكرهم وإيمانهم ، ومقدار أعمالهم ، فيضاعفها على قدر تخليصها. والله تعالى أعلم.
الإشارة : لا شيء أصعب على النفس من الإخلاص كلما اجتهد العبد فى قطع الرياء نبت على لون آخر ، فلا يتطهر العبد منها إلا بتحقيق الفناء والغيبة عن السوي بالكلية. كما قال الششترى رضي اللّه عنه :
طهّر العين بالمدامع سكبا من شهود السّوى تزل كلّ علّه
قال بعضهم : [لا ينبت الإخلاص فى القلب حتى يسقط من عين الناس ، ويسقط الناس من عينه].
والإخلاص من أعمال القلوب ، فلا يطّلع عليه إلا علّام الغيوب. فلا يجوز أن يحكم على أحد بالرياء بمجرد ما يرى عليه من الإظهار ، وقد تدخل الرياء مع الإسرار ، وتتخلص من القلب مع الإظهار ، وفى الحكم : «ربما دخل الرياء عليك حيث لا ينظر الخلق إليك». فإذا تخلص العبد من دقائق الرياء ، وأصلح ما بينه وبين الله ، واعتصم به دون شيء سواه ، كان مع المخلصين المقربين فيكون عمله موفورا ، وسعيه مشكورا. وبالله التوفيق.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٢
وقد تكلم فى الإحياء على هذه الآية فقال : إنما كان المنافقون فى الدرك الأسفل لأنهم جحدوا بعد العلم ، وإنما تضاعف عذاب العالم فى معصيته لأنه عصى عن علم. قلت : وافهم منه قوله صلّى اللّه عليه وسلم فى أبى طالب : «ولو لا أنا لكان فى الدّرك الأسفل من النّار». وذلك لإعراضه مع العلم.
وقال فى الإحياء أيضا : شدّد أمر المنافقين لأن الكافر كفر وأظهر ، والمنافق كفر وستر ، فكان ستره لكفره كفرا آخر ، لأنه استخف بنظر الله إلى قلبه ، وعظّم أمر المخلوقين. هـ. والحاصل : أن التشديد فى الرياء والنفاق لما فى ذلك من تعظيم نظر الخلق على نظر الخالق ، فكان أعظم من الكفر الصريح.
هـ. من الحاشية.
ومن علامة تصفيته الباطن من الرياء والنفاق تلبس الظاهر بأحسن الأخلاق ، ولذلك ذكره بإثره ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤٨ الى ١٤٩]
لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَكانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً (١٤٨) إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً (١٤٩)
قلت : (إلا من ظلم) : استثناء منقطع ، أي : لكن من ظلم فلا بأس أن يشكو بظالمه ويدعو عليه ، وليس المراد أن الله يحب ذلك منه ، إذ العفو أحسن كما يقوله بعد ، وقرئ : (إلا من ظلم) بالبناء للفاعل ، أي : ولكن الظالم يفعل مالا يحبه الله.
يقول الحق جل جلاله : لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ أي : الإجهار بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ لأنه من فعل أهل الجفاء والجهل إِلَّا مَنْ ظُلِمَ فلا بأس أن يجهر بالدعاء على ظالمه ، أو بالشكوى به. نظيرها : وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ. قال مجاهد : هذا فى الضيف النازل إذا لم يضف ومنع حقه ، أو أسيء قراه ، فقد رخص له أن يذكر ما صنع به. وزعم أن ضيفا تضيّف قوما فأساءوا قراه ، فاشتكاهم ، فنزلت الآية رخصة فى شكواه. وَكانَ اللَّهُ سَمِيعاً لدعاء المظلوم ، ورده على الظالم ، فلا يحتاج إلى جهره ، عَلِيماً بالظالم فيعاقبه على قدر جرمه.
ثم رغّب فى العفو فقال : إِنْ تُبْدُوا خَيْراً : طاعة وبرا كحسن الخلق ولين الجانب ، أَوْ تُخْفُوهُ أي : تفعلوه سرا ، أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ بأن لا تؤاخذوا به من أساء إليكم ، وهذا هو المقصود بالذكر ، وإنما ذكر إبداء الخير وإخفاؤه سببا ووسيلة لذكره ، ولذلك رتب عليه فَإِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً أي : كثير العفو عن العصاة ، مع كمال قدرته على الانتقام ، فأنتم أولى بذلك ، وهو حث للمظلوم على العفو ، بعد ما رخّص له فى الانتصار ، حملا على مكارم الأخلاق.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٣
الإشارة : اعلم أن الباطن إذا كمل تطهيره وتحقق تنويره ظهر أثر ذلك على الظاهر من مكارم الأخلاق ، ولين الجانب ، وحسن الخطاب ، وترك العتاب ، فما كمن فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر وما كمن فيك ظهر على فيك ، وهذه أخلاق الصوفية - رضى الله عنهم وأرضاهم - وبذلك وصفهم القائل فيهم ، فقال :

هيّنون ليّنون أيسار بنو يسر سوّاس مكرمة أبناء أيسار

لا ينطقون بغير الحقّ إن نطقوا ولا يمارون إن ماروا بإكثار

من تلق منهم تقل هذاك سيّدهم مثل النّجوم التي يهدى بها السّار

ومن شأن الحضرة التهذيب والتأديب ، فلا يبقى معها لغو ولا تأثيم ، لأنها جنة معجلة ، قال تعالى : لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً.
وأيضا أهل الحضرة حصل لهم القرب من الحبيب ، فهم فى حضرة القريب على بساط القرب على الدوام ، ولا يتصور منهم الجهر بالكلام ، وهم فى حضرة الملك العلّام. قال تعالى : وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً ، فرفع الصوت عند الصوفية مذموم شنيع ، يدل على بعد صاحبه كيف ما كان ، وتأمل قضية الصّدّيق حيث قال له - عليه الصلاة والسلام - : «مالك تقرأ سرا؟» فقال : (إن الذي نناجيه ليس ببعيد). أو كما قال ، وإنما قال له صلّى اللّه عليه وسلم : «إرفع قليلا» إخراجا له عن مراده ، تربية له. والله تعالى أعلم.
ولما قدّم أقبح الكفر ، وهو كفر المنافقين ، ذكر ما يليه ، وهو كفر اليهود ، فقال :
[سورة النساء (٤) : الآيات ١٥٠ الى ١٥١]
إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (١٥١)
قلت : (حقا) : مصدر مؤكد للجملة ، أو صفة لمصدر الكافرين ، أي : كفروا كفرا محققا يقينا. وأصل (أعتدنا) :
أعددنا ، أبدلت الدال تاء لقرب المخرج.
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ الأنبياء وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، كاليهود ، آمنوا بموسى

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٤
وعزير والتوراة ، وكفروا بعيسى ومحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا ، أي : طريقا وسطا بين الإيمان والكفر ، ولا واسطة ، إذ الحق لا يختلف ، فإن الإيمان بالله إنما يتم برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه ، تفصيلا وإجمالا ، فالكافر بالبعض كالكافر بالكل فى الضلال. ولذلك حكم عليهم بصريح الكفر فقال : أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا أي : هم الكاملون فى الكفر حقيقة ، وإنما أكد كفرهم لأنهم تحكموا على الله ، واتخذوا إلههم هواهم ، حيث جعلوا الاختيار لهم دون الله ، وفى ذلك منازعة للقدر ، وتعطيل له ، وهو كفر وشرك ، ثم ذكر وعيدهم فقال : وَأَعْتَدْنا أي : هيأنا لِلْكافِرِينَ منهم عَذاباً مُهِيناً أي : يخزيهم ويهينهم ، حين يكرّم أولياءه ويرفع أقدارهم. جعلنا الله منهم. آمين.
الإشارة : الأولياء على قدم الأنبياء ، فمن فرّق بينهم حرم بركة جميعهم ، ومن صدّق بجميعهم وعظّمهم اقتبس من أنوارهم كلهم ، والله - تعالى - غيور على أوليائه ، كما كان غيورا على أنبيائه ، فطرد من فرّق بينهم ، فكذلك يطرد من يقع فى بعض أوليائه ويعظم البعض ، لأن البعض هو الكل. والله تعالى أعلم.
ثم ذكر من لم يفرق ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ١٥٢]
وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٥٢)
قلت : (بين) : من الأمور النسبية ، فلا بد أن تدخل على متعدد ، تقول : جلست بين فلان وفلان ، وإنما دخلت هنا على (أحد) لأنه يقتضى متعددا لعمومه ، لأنه وقع فى سياق النفي. قاله البيضاوي.
يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وما يجب له من الكمالات ، (و رسله) وما يجب لهم كذلك ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ بأن آمنوا بجميعهم ، وصدقوا بكل ما جاءوا به من عند ربهم ، أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ «١» أُجُورَهُمْ الموعودة لهم ، بأن نجلّ مقدارهم ، ونرفع مقامهم ، ونبوئهم فى جنات النعيم.
وتصديره بسوف لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تأخر وقته ، ولمّا كان العبد لا يخلو من نقص ، رفع الخوف عنهم بقوله : وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً لما فرط منهم رَحِيماً بهم بتضعيف حسناتهم.
الإشارة : والذين صدقوا بأولياء الله ، وعظموا جميعهم ، واقتبسوا من أنوارهم كلهم ، أولئك سوف نؤتيهم أجورهم ، بأن أنعمهم فى جنات المعارف فى دار الدنيا ، فإن ماتوا أسكنّاهم فى الفراديس العلى (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر). والله تعالى أعلم.

(١) قرأ حفص عن عاصم (يوتيهم) بالياء ، وقرأ الباقون بالنون. [.....]

(٥٨٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٥

ثم ذكر مساوئ اليهود فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٥٣ الى ١٥٤]

يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ فَعَفَوْنا عَنْ ذلِكَ وَآتَيْنا مُوسى سُلْطاناً مُبِيناً (١٥٣) وَرَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ وَقُلْنا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَقُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (١٥٤)

قلت : من قرأ : (لا تعدوا) بالسكون ، فماضيه : عدا ، ومن قرأ بتشديد الدال ، فماضيه اعتدى ، وأصله : لا تعتدوا ، فنقلت حركة التاء إلى العين وأدغمت التاء فى الدال ، ومن قرأ بالاختلاس أشار إلى الأصل.

يقول الحق جل جلاله : يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ ، وهم أحبار اليهود ، أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ جملة واحدة ، كما نزل التوراة ، أو كتابا بخطّ سماوى على ألواح كما كانت التوراة ، والمسائل هو كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء وغيرهم ، قالوا للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : (إن كنت نبيا فأتنا بكتاب من السماء جملة ، كما أتى به موسى) ، قال تعالى فى الرد عليهم : فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ وهو رؤية ذات الحق - تعالى - جهرا حسا. والمعنى : إن استعظمت ما سألوا منك فقد وقع منهم ما هو أعظم من ذلك.

وهذا السؤال ، وإن كان من آبائهم ، أسند إليهم لأنهم كانوا آخذين بمذهبهم تابعين لهديهم ، فما اقترحوا عليك ليس بأول جهالاتهم وتشغيبهم بل عرفهم راسخ فى ذلك ، فلا تستغرب ما وقع منهم.

ثم فسر سؤالهم بقوله : فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً أي : عيانا فى الحس ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ، بأن جاءت نار من السماء فأهلكتهم ، فماتوا ثم بعثوا بدعوة موسى عليه السّلام وذلك بسبب ظلمهم. وهو تعنتهم وسؤالهم لما استحيل فى تلك الحال التي كانوا عليها. وذلك لا يقتضى امتناع الرؤية مطلقا. وسيأتى فى الإشارة تحرير ذلك.

ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ على وحدانيته تعالى. وهذه جناية أخرى اقترفها أيضا أوائلهم ، فَعَفَوْنا عَنْ ذلِكَ حين تابوا ، ولم نعاجلهم بالعقوبة ، وَآتَيْنا مُوسى سُلْطاناً مُبِيناً أي : تسلطا

ظاهرا عليهم ، حين أمرهم أن يقتلوا أنفسهم ، توبة من اتخاذهم العجل إلها ، وحجة واضحة على نبوته كالآيات التسع.

(٥٨٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٦

وَرَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ حين امتنعوا من قبول أحكام التوراة ، بسبب ميثاقهم الذي أخذناه عليهم ، وهو التزام أحكام التوراة ، وقلنا لهم على لسان موسى : ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً أي : باب بيت المقدس ، فدخلوا يزحفون على أستاههم عنادا واستهزاء ، وقلنا لهم : لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ على لسان داود عليه السّلام ، فاعتدوا فيه بالاصطياد ، فمسخناهم قردة وخنازير ، وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً على ذلك كله ، فنقضوا جميع ذلك ، أو ميثاقا غليظا فى التوراة لئن أدركوك ليؤمنن بك ، وليبينن صفتك للناس ، فنقضوا وكتموا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : اقتراح الآيات وطلب الكرامات من الأولياء ، سنة ماضية ، لأنهم على قدم الأنبياء - عليهم السلام - ما يقال لهم إلا ما قيل للأنبياء قبلهم ، فلا تكاد تجد أحدا يصدق بولي حتى تظهر عليه الكرامة ، وهو جهل كبير لأن الكرامة قد تظهر على من لم تكمل له استقامة ، وقد تكون استدراجا ومكرا. وأىّ كرامة أعظم من العلوم اللدنية والأخلاق النبوية؟ كما قال شيخنا رضي اللّه عنه. وقد ظهرت الكرامات على المتقدمين ولم ينقطع الإنكار عليهم.

واعلم أن طلب الرؤية فى الدنيا ليس بممتنع ، وإنما عاقب اللّه بنى إسرائيل على طلبها لأنهم طلبوها قبل إبانها ، طلبوها من غير اتصاف بشروط حصولها ، وهو كمال التهذيب والتطهير من دنس الحس ، فمن كمل تهذيبه وتحقق تطهيره حصل له شهود الحق ، حتى لو كلف أن يشهد غيره لم يستطع ، وذلك حين تستولى البصيرة على البصر ، فيشهد البصر ما كانت تشهده البصيرة ، وذلك بعد كمال فتحها. ولذلك قال فى الحكم : «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق» ... إلخ كلامه. وهذه المشاهدة لا تحصل إلا لمن اتصل بشيخ التربية ، وإلا فلا مطمع فيها. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر عقوبة اليهود حيث نقضوا العهود ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٥٥ الى ١٥٨]

فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآياتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ

لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّباعَ الظَّنِّ وَما قَتَلُوهُ يَقِيناً (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٥٨)

(٥٨٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٧

قلت : (فبما) : صلة زيدت للتأكيد ، و(نقضهم) : مصدر مجرور بالباء ، وهى متعلقة بالفعل المحذوف ، أي :

بسبب نقضهم فعلنا بهم ما فعلنا ، أو بقوله : (حرمنا عليهم) ، ويكون (فبظلم) على هذا بدلا من قوله : (فبما نقضهم) ، فيكون التحريم بسبب النقض ، وما عطف عليه. والاستثناء فى قوله : (إلا اتباع الظن) منقطع إذ العلم يناقض الظن.

يقول الحق جل جلاله : فلما أخذنا على بنى إسرائيل العهد والميثاق خالفوا ونقضوا ، ففعلنا بهم ما فعلنا ، بسبب نقضهم ميثاقهم ، أو بسبب نقضهم وكفرهم حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وبسبب كفرهم أيضا بِآياتِ اللَّهِ القرآن ، أو بما فى كتبهم ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ أي : مغلفة لا تفقه ما تقول.

قال تعالى فى الرد عليهم : بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ ، فجعلها محجوبة عن العلم ، بأن خذلها ومنعها التوفيق للتدبر فى الآيات والتذكر بالمواعظ ، فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه ، أو إيمانا قليلا لا عبرة به لنقصانه ، وَبِكُفْرِهِمْ أيضا بعيسى عاقبناهم وطبعنا على قلوبهم ، وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً أي : نسبتها للزنى وبقولهم : إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ أي بزعمه ، ويحتمل أنهم قالوه استهزاء ، ونظيره : إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ، أو يكون استئنافا من الله بمدحه ، أو وضعا للذكر الحسن موضع قولهم القبيح. قاله البيضاوي.

ثم رد الله تعالى عليهم فقال : وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، روى أن رهطا من اليهود سبوه هو وأمه ، فدعا عليهم ، فمسخوا قردة وخنازير ، فاجتمعت اليهود على قتله ، فقال لهم : يا معشر اليهود ، إن الله يبغضكم ، فغضبوا وثاروا ليقتلوه ، فبعث الله تعالى جبريل فأدخله خوخة فيها كوة فى سقفها ، ورفعه الله إلى السماء من تلك الكوة ، فأمر اليهود رجلا منهم يقال له : طيطانوس ، أن يدخل الخوخة ويقتله ، فلما دخل الخوخة ، لم ير عيسى ، فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه ، فلما أبطأ عليهم دخلوا عليه ، فظنوه عيسى ، فقتلوه وصلبوه.

وقال قتادة : ذكر لنا أن عيسى عليه السّلام قال لأصحابه : أيكم يقذف عليه شبهى فيقتل؟ فقال رجل : أنا يا رسول الله ، فقتل ذلك الرجل ، ورفع عيسى عليه السّلام ، وكساه الريش وألبسه النور ، وقطع

عنه لذة المطعم والمشرب وصار مع الملائكة ، فهو معهم فى السماء إنسيا ملكيا ، أرضيا سماويا.
وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ فقال بعض اليهود : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟ ويقال : إن الله تعالى ألقى شبه وجه عيسى على صاحبهم ، ولم يلق عليه شبه جسده ، فلما

(٥٨٧/١)

قتلوه ونظروا إليه ، فقالوا : الوجه وجه عيسى والجسد جسد صاحبنا. ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ أي :
لا علم لهم بقتله ، لكن يتبعون الظن فقط. وَما قَتَلُوهُ قتلا يَقِيناً كما زعموا بقولهم : إنا قتلنا المسيح ، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ فهو فى السماء الثانية مع يحيى عليها السلام ، وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً أي : قويا بالنقمة على اليهود ، حكيما فيما حكم عليهم من اللعنة والغضب. والله تعالى أعلم.
الإشارة : نقض عهود الشيوخ من أسباب المقت والبعد عن الله ، وكذلك الإنكار عليهم والطعن فيهم ، وكذلك البعد عن وعظهم وتذكيرهم ، وضد هذا من موجبات القرب والحب من الله ، كحفظ حرمتهم ، والوقوف مع أوامرهم ، والذب عنهم حين تهتك حرمتهم ، والدنو منهم ، والسعى فى خدمتهم. وبالله التوفيق.
ثم ذكر نزول عيسى فى آخر الزمان ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ١٥٩]
وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (١٥٩)
يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أي : ما من يهودى ولا نصرانى ، أي : الموجودين حين نزوله إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بعيسى قَبْلَ مَوْتِهِ أي : عيسى ، وذلك حين نزوله من السماء ، روى أنه ينزل من السماء حين يخرج الدجال فيهلكه ، ولا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن به ، حتى تكون الملة واحدة ، وهى ملة الإسلام ، وتقع الأمنة حتى يرتع الأسود مع الإبل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات ، ويلبث فى الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه.
وقيل الضمير فى (به) إلى عيسى ، وفى (موته) إلى الكتابي ، أي : وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى بأنه عبد الله ورسوله ، قَبْلَ مَوْتِهِ أي : قبل خروج نفس ذلك الكتابي إذا عاين الملك ، فلا ينفعه حينئذ إيمانه ، لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل. ويؤيد هذا قراءة من قرأ : ليؤمنّ به قبل موتهم بضم النون ، لأن (أحدا) فى معنى الجمع ، وهذا كالوعيد لهم

والتحريض على معاجلة الإيمان به من قبل أن يضطر إليه ولم ينفعه إيمانه ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً يشهد على اليهود بالتكذيب ، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله. والله تعالى أعلم الإشارة : عند الموت تتحقق الحقائق ، ويتميز الحق من الباطل ، ويحصل الندم ، ولا ينفع حين تزل القدم ، فالمطلوب المبادرة بتحقيق الإيمان ، وتحصيل مقام العرفان ، قبل أن يسقط إلى جنبه ، فينفرد رهينا فى قبره بذنبه.

والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال ظلمهم وعدوانهم فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٦٠ الى ١٦١]

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٦١)

يقول الحق جل جلاله : فبسبب ظلم مِنَ الَّذِينَ هادُوا وهو نقضهم الميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء ، حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ كانت أُحِلَّتْ لَهُمْ كالشحوم ، وكل ذى ظفر ، وغير ذلك من لذيذ الطيبات ، وكانوا كلما ارتكبوا كبيرة حرّم عليهم شيئا من الطيبات ، وحرمنا ذلك أيضا عليهم بِصَدِّهِمْ عن طريق اللَّهِ صدا كَثِيراً ، أي : بإعراضهم عنه إعراضا كثيرا ، أو بصدهم عنه ناسا كثيرا كانوا يخذّلونهم عن الدخول فى دين الله ، وبأخذهم الربا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ، فهو محرم عليهم وعلى الأمة المحمدية ، وبأكلهم أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ كالرشوة وما كانوا يأخذونه من عوامهم ، وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم عَذاباً أَلِيماً ، دون من تاب وآمن به.

الإشارة : اعلم أن كل غفلة ومعصية وسوء أدب يحرم مرتكبه بسببه من لذيذ الطاعات وحلاوة المشاهدات على قدره ، شعر أو لم يشعر ، وقد يبعده من الحضرة وهو لا يشعر ، مكرا واستدراجا ، فإذا أصر عليه سلب من مقام الولاية بالكلية ، ولا يزال ينقص إيمانه شيئا فشيئا ، حتى يتفلت منه ، والعياذ بالله ، وإذا بادر بالتوبة رجى قبوله ، وكل يقظة وطاعة وحسن أدب يوجب لصاحبه الزلفى والقرب من الحضرة ، ويزيده فى حلاوة المعاملة والمشاهدة على قدره ، فلا يزال يتقرب إليه بنوافل الخيرات ، حتى يحبه فيتولاه ، فيكون سمعه وبصره ، كما فى الحديث.

وبالله التوفيق.

ثم استثنى من تاب من اليهود ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٦٢]

لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (١٦٢)

(٥٨٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٠

قلت : والمؤمنون عطف على الراسخين ، و(يؤمنون) : حال منهم. و(المقيمين) : نصب على المدح ، لأن العرب إذا تطاولت فى مدح شيء أو ذمه خالفوا بين إعراب أوله وأوسطه ، نظيره : وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ. وقالت عائشة رضي اللّه عنهما : هو لحن من الكتّاب «١» ، وفى مصحف ابن مسعود : (و المقيمون) بالرفع على الأصل.

يقول الحق جل جلاله : ليس أهل الكتاب كلهم كما ذكرنا ، لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ كعبد الله ابن سلام ، ومخيريق ، وغيرهما ممن له علم بالكتب المتقدمة ، وَالْمُؤْمِنُونَ منهم بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، من عوامهم حال كونهم يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ أي : يؤمنون إيمانا كاملا بلا تفريق ، وأخص الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ ، المتقنين لها ، الْمُؤْتُونَ الزَّكاةَ المفروضة ، وَالْمُؤْمِنُونَ منهم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، على صفة ما جاء به القرآن من البعث بالأجسام والحساب وغير ذلك مما هو مقرر فى السنة ، أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً ، فتكون الآية كلها فى أهل الكتاب.

أو يقول الحق جل جلاله : لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ من أهل الكتاب ، وَالْمُؤْمِنُونَ بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، من العرب ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ منهم ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً.

الإشارة : كل من تحققت توبته بعد عصيانه ، وظهرت يقظته بعد غفلاته ، ورسخ فى العلم بالله وبصفاته وأسمائه التحق بالسابقين ، وحشر مع المقربين ، وكان ممن أوتى أجرا عظيما وخيرا جسيما ، والحمد لله رب العالمين.

ثم أجاب أهل الكتاب عن سؤالهم أن ينزل عليهم كتابا من السماء فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٦٣ الى ١٦٥]

إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً (١٦٤) رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٦٥)

(١) رد العلماء والمفسرون على هذا الخبر ، ومنهم الإمام ابن جرير الطبري الذي قال : لو كان ذلك خطأ من الكاتب لكان الواجب أن يكون فى كل المصاحف غير مصحفنا الذي كتبه لنا الكاتب ، الذي أخطأ فى كتابه. وفى اتفاق مصحفنا ومصحف أبى فى ذلك ما يدل على أن الذي فى مصحفنا من ذلك صواب غير خطأ. مع أن ذلك لو كان خطأ من جهة الخط لم يكن الذين أخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم يعلّمون من علموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن ، ولأصلحوه ولقنوه الأمة تعليما على وجه الصواب. وفى نقل المسلمين جميعا ذلك قراءة على ما هو به فى الخط مرسوما ، أدل الدليل على صحة ذلك وصوابه ، وأن لا صنع فى ذلك للكاتب. انظر : تفسير الطبري بتعليق الشيخ شاكر - والإتقان للسيوطى ، وتفسير الرازي.

(٥٩٠/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩١

قلت : من قرأ (زبورا) بالفتح ، فالمراد به كتاب الزبور ، ومن قرأ بالضم ، فجمع «زبر» بكسر الزاى وسكون الباء ، بمعنى مزبورا ، أي : مكتوبا ، أي : آتينا داود كتبا متعددة ، و(رسلا) : منصوب بمحذوف دل عليه «أوحينا» ، أي : أرسلنا رسلا ، أو يفسره ما بعده ، أي : قصصنا عليك رسلا ، و(رسلا مبشرين) : منصوب على البدل ، أو على المدح ، أو بإضمار أرسلنا ، أو على الحال الموطئة لما بعده ، كقولك : مررت بزيد رجلا صالحا.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ يا محمد كما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ولم يكن ينزل عليهم الكتاب جملة واحدة ، كما سألك أهل الكتاب تعنيتا ، بل كان ينزل عليهم الوحى شيئا فشيئا ، فأمرك كأمرهم. وقدّم نوحا عليه السّلام لأنه أبو البشر بعد آدم ، وأول نبى من أنبياء الشريعة ، وأول نذير على الشرك ، وأول رسول عذبت أمته بدعوته ، وأطول الأنبياء عمرا ، وجعلت معجزته فى نفسه ، فإنه عمّر ألف سنة ، ولم تنقص له سن ، ولم تنقص له قوة ، ولم تشب له شعرة ، ولم يبالغ أحد فى تأخير الدعوة ما بالغ هو عليه السّلام ، ولم يصبر أحد على أذى قومه ما صبر هو ، كان يشتم ويضرب حتى يغمى عليه.

ثم قال تعالى : وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ أي : الأحفاد ، وهم أنبياء بنى إسرائيل ، وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ ، وإنما خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيما لهم ، فإن إبراهيم أول أولى العزم منهم ، وآخرهم عيسى عليه السّلام ، والباقون أشراف الأنبياء ومشاهيرهم ، وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً أي : كتاب الزبور ، أو زبورا أي : صحفا متعددة ، وأرسلنا رُسُلًا قَدْ

قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ أي : من قبل هذه السورة ، أو قبل هذا اليوم ، وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وفى الحديث :

«عددهم ثلاثمائة وأربعة عشر» ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً حقيقيا ، خصّ به من بين الأنبياء ، وزاد نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم بالرؤية مع الكلام.

قال الورتجبي : بادر موسى عليه السّلام من بين الأنبياء لسؤال الرؤية ، فأوقفه الحق فى مقام سماع كلامه ، ومنعه من مشاهدة رؤيته صرفا ، وتحمل نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم أثقال السر بمطايا أسراره ، ولم يسأل مشاهدة الحق جهرا بالانبساط ، فأوصله الله إلى مقام مشاهدته ، ثم أسمعه كلامه بلا واسطة ولا حجاب. قال تعالى : فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى

. هـ. وقال ابن عطية : كلامه تعالى لموسى دون تكييف ولا تحديد ، وكما أن الله تعالى موجود لا كالموجودات معلوم لا كالمعلومات ، فكذلك كلامه لا كالكلام. هـ.

ثم ذكر حكمة إرسال الرسل فقال : أرسلنا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ بعث الرُّسُلِ فيقولون : لو لا أرسلت إلينا رسولا ينبهنا ويعلمنا ما جهلنا من أمر توحيدك والقيام بعبوديتك ،

فقطع عذر العباد ببعث الرسل ، وقامت الحجة عليهم ، وفى الحديث عنه - عليه الصلاة والسلام - :

«ما أحد أغير من اللّه ، ولذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وما أحد أحبّ إليه المدح من اللّه ، ولذلك مدح نفسه ، وما أحد أحبّ إليه العذر من اللّه تعالى ، ولذلك أرسل الرّسل وأنزل الكتب».

وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً لا يغلب ، فلا يجب عليه شىء ، حَكِيماً فيما دبر من النبوة ، وخص كل نبى بنوع من الوحى والإعجاز على ما يليق به فى زمانه. والله تعالى أعلم.

الإشارة : علماء هذه الأمة كأنبياء بنى إسرائيل ، العارفون منهم كالرسل منهم ، قال ابن الفارض رضي اللّه عنه :

فعالمنا منهم نبى ، ومن دعا إلى الحقّ منّا قام بالرسليّة «١»

وعارفنا فى وقتنا الأحمدىّ من أولى العزم منهم آخذ بالعزيمة

فإنهم يشاركونهم فى وحي الإلهام ، ويحصل لهم المكالمة مع المشاهدة ، فيسمعون من الحق كما ينطقون به. كما قال الششترى :

أنا بالله أنطق ومن الله أسمع

فتارة يسمعون كلامه بالوسائط ، وتارة من غير الوسائط ، يعرف هذا أهل الفن من أهل الذوق ، وشأن من لم يبلغ مقامهم : التسليم.

إن لم تر الهلال فسلّم لأناس رأوه بالأبصار

وفى الورتجبي : وإن الله تعالى إذا أراد أن يسمع كلامه أحدا من الأنبياء والأولياء يعطيه سمعا من أسماعه ، فيسمع به كلامه ، كما حكى – عليه الصلاة والسلام – عنه – تعالى – ، قال : (فإذا أحببته كنت سمعه ....) ، الحديث.

أسمعه كلامه ، وليس هناك الحروف والأصوات ، بل أسمعه بحرف القدرة وصوت الأزلية ، الذي هو منزه عن همهمة الأنفاس وخطرات الوسواس ، وليس فى ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيء ، حتى هناك السامع والمسمع واحد من حيث المحبة ، لا من حيث الجمع والتفرقة. انتهى كلامه.

واعلم أن أهل الجمع لا يشهدون إلا متكلما واحدا ، قد انتفى من نظرهم التعدد والاثنينية ، غير أنهم يفرقون بين كلام القدرة وكلام الحكمة ، كلام القدرة يبرز من غير اختيار ، بل يكون المتكلم به مأخوذا عنه ، غائبا عن اختياره ،

---

(١) فى الأصول : بالرسالة. قلت : والرسلية : تأدية الرسالة.

وكلام الحكمة معه ضرب من الاختيار ، وقد يسمعون كلام القدرة من الهواتف الغيبية ، ومن الجمادات على وجه الكرامة ، وكله بحرف وصوت. نعم ما يقع من الهواتف القلبية والتجليات الباطنية ، قد يكون بلا حرف ولا صوت ، وقد تحصل لهم المكالمة بالإشارة بلا صوت ولا حرف ، فقوله : (بل أسمعه بحرف القدرة وصوت الأزلية ...) إلخ.

إن أراد به التجليات الباطنية فمسلّم ، لكن ظاهره أن كلام الحق الذي يسمعه لأنبيائه وأوليائه محصور فى ذلك ، وأنه لا يكون إلا بلا حرف ولا صوت. وليس كذلك.

وقوله : (و ليس فى ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شى ء) إلخ ، معناه : لم يبق فى ولاية أهل مشاهدة الأزل من رسوم الحوادث شيء. قلت : لكنهم يثبتونها حكمة ، ويمحونها قدرة ومشاهدة ، ولا يلزم من محوها عدم صدور الكلام منها بالحرف والصوت فإن البشرية لا تطيق سماع كلام الحق بلا واسطة الحكمة ، كما هو معلوم.

والله تعالى أعلم.
ثم شهد لرسوله بالوحى والرسالة ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ١٦٦]
لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (١٦٦)
قلت : (لكن) : حرف استدراك ، وهو عن مفهوم ما تقدم ، وكأنه قال : إنهم لا يشهدون بوحينا إليك.
لكن الله يشهد بذلك.
يقول الحق جل جلاله فى الرد على اليهود لما قالوا للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : لا نشهد لك بما أوحى إليك.
فقال تعالى : لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ إن لم يشهدوا به ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ أي : متلبسا بعلمه الخاص به ، وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كل بليغ. أو متلبسا بعلمه الذي يحتاج الناس إليه فى معاشهم ومعادهم. أو بعلمه المتعلق بمن يستأهل نزول الكتب إليه ، وَالْمَلائِكَةُ أيضا يشهدون بذلك. وفيه تنبيه على أن الملائكة يودّون أن يعلم الناس صحة دعوى النبوة ، على وجه يستغنى عن النظر والتأمل ، وهذا النوع من خواص الملك ، ولا سبيل للإنسان إلى العلم بأمثال ذلك ، سوى التفكر والنظر ، فلو أتى هؤلاء بالنظر الصحيح لعرفوا نبوتك ، وشهدوا بها كما عرفت الملائكة وشهدوا. قاله البيضاوي ، وقد يخلق الله العلم فى قلب الإنسان من غير تفكر ولا نظر ، بل هداية من المالك القدير. وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً لرسوله عن شهادة غيره.

(٥٩٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٤
الإشارة : كما شهد الحق تعالى لرسوله بالنبوة والرسالة ، شهد لمن كان على قدمه من ورثته الخاصة بالولاية والخصوصية ، وهم الأولياء العارفون بالله ، وشهادته لهم بما أظهر عليهم من العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، وبما أتحفهم به من الأخلاق النبوية والمحاسن البهية ، وبما أظهر على أيديهم من الكرامات الظاهرة مع الاستقامة الشرعية ، لكن لا يدرك هذه الشهادة إلا من سبقت له العناية ، وكان له حظ فى الولاية. «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه! ولم يوصل إليه إلا من أراد أن يوصله إليه» وبالله التوفيق.
ثم ذكر وعيد من أعرض عن هذه الشهادة ، فقال :
[سورة النساء (٤) : الآيات ١٦٧ الى ١٦٩]
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ

لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٦٩)

قلت : (خالدين) : حال مقدرة.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بما أنزلت على رسولنا من اليهود أو غيرهم ، وَصَدُّوا الناس عن طريق الله الموصلة إليه ، قَدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيداً لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ، ولأن المضل يكون أغرق فى الضلال وأبعد عن الانقلاع. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا الناس بصدهم عما فيه صلاحهم وخلاصهم ، أو ظلموا رسول الله بإنكار نبوته وكتمان صفته ، أو ظلموا أنفسهم بالانهماك فى الكفر ، لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً ، إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ، فجرى حكمه السابق ووعده الصادق على أن من مات على الكفر مخلد فى النار ، وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً لا يصعب عليه ولا يتعاظمه.

الإشارة : إن الذين كفروا بالخصوصية وأنكروا على أهلها ، وصدوا الناس عن القصد إليها والدخول فى حزبها قد ضلوا عن طريق الوصول ضلالا بعيدا ، إذ لا وصول إلى الله إلا على يد أولياء الله لأنهم باب الحضرة ، فلا بد من الأدب معهم والخضوع لهم. إن الذين كفروا بأولياء الله ، وظلموا أنفسهم حيث حرموها الوصول ، وتركوها فى أودية الخواطر تجول ، لم يكن الله ليستر مساوئهم ويقدس سرائرهم ، ولا ليهديهم طريق المشاهدة ولا كيفية المجاهدة ، وإنما يمكنهم من طريق التعب والنصب حتى يلقوا الله بقلب سقيم ، والعياذ بالله.

(٥٩٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٥

ولما قرر أمر النبوة ، وبيّن الطريق الموصل إلى العلم بها ، وأوعد من أنكرها ، خاطب الناس بالدعوة إليها فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٧٠]

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧٠)

قلت : (فآمنوا خيرا لكم) ، و(انتهوا خيرا لكم) : قال سيبويه : هو منصوب بفعل مضمر ، تقديره : وائتوا خيرا لكم ، وقال الخليل : منصوب بآمنوا وبانتهوا على المعنى. أي : اقصدوا. وقال الفراء : صفة لمصدر ، أي : آمنوا إيمانا خيرا لكم. وقال بعض الكوفيين : هو خبر كان المحذوفة ، وتقديره : ليكن الإيمان خيرا لكم.

قلت : وهو أظهر من جهة المعنى ، وإن منعه البصريون ، قالوا : لأنّ (كان) لا تحذف مع اسمها إلا فى مواضع مخصوصة ، قال ابن مالك :

ويحذوفونها ويبقون الخبر وبعد إن ، ولو ، كثيرا ذا اشتهر

ولعل هذا الموضع أتى على غير المشهور تنبيها على الجواز.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ وهو محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، فَآمِنُوا به يكن خَيْراً لَكُمْ مما أنتم فيه من الضلال ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وما تركبتا منه ، ملكا وخلقا وعبيدا ، فهو غنى عنكم ، لا يتضرر بكفركم ، كما لا ينتفع بإيمانكم ، وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً بأحوالكم ، حَكِيماً فيما دبر لكم.

الإشارة : الذي جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو إتقان مقام الإسلام ، وتصحيح مقام الإيمان ، الذي من أركانه : الإيمان بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، وتحقيق مقام الإحسان الذي هو مقام الشهود والعيان ، ولا يكمل هذا إلا بصحبة أهل العرفان ، الذين صححوا مقام الفناء ، وخرجوا إلى البقاء ، خاضوا بحار التوحيد ، وانفردوا بأسرار التفريد ، ورسخ فيهم مقام الرضى والتسليم ، فتلقوا المقادير كلها بقلب سليم ، فمن لم يصحبهم ويتأدب بآدابهم بقي إيمانه ناقصا ، وحقه العتاب ، فكأن الحق - تعالى - يقول على لسان الإشارة : قد جاءكم وليي ، وهو خليفة رسولى ، فآمنوا بخصوصيته ، وأذعنوا لأمره وتربيته ، يكن خيرا لكم مما أنتم فيه من المساوئ والأمراض ، لئلا تلقونى بقلب سقيم ، وبالله التوفيق.

(٥٩٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٦

ثم خص أهل الكتاب بالخطاب والعتاب ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٧١]

يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١)

قلت : أصل الغلو : مجاوزة الحد فى كل شيء ، يقال : غلا بالجارية لحمها وعظمها ، إذا أسرعت إلى الشباب فجاوزت لداتها أي : أقرانها ، تغلو غلوا.

يقول الحق جل جلاله فى عتاب النصارى - بدليل ما بعده : يا أَهْلَ الْكِتابِ الإنجيل لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ فتجاوزوا الحد فيه باعتقادكم فى عيسى أنه الله ، أو ابن الله ، قصدوا تعظيمه فغلوا وأفرطوا ، وَلا

تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، وهو تنزيه عن الصاحبة والولد.
ثم بيّن الحق فيه فقال : إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ ، لا كما قالت اليهود : ليس برسول ، ولا كما قالت النصارى : إنه الله ، أو ابن الله ، وإنما هو عبد الله ورسوله ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ أي : أوصلها إليها وحصلها فيها ، وهى كلمة : كن. فتكوّن بها فى رحم أمه فسمى بها ، وَرُوحٌ مِنْهُ وهو نفخ جبريل فى جيبها فحملت بذلك النفخ ، وسمى النفخ روحا لأنه ريح يخرج عن الروح ، فكانت روحه صادرة من روح القدس ، كما قال فى آدم : نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ، وقد قال : إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، فنفخ جبريل فى الحقيقة لما كان بأمر الله صار هو نفخ الحق لأن الواسطة محذوفة عند المحققين ، فلذلك أضاف روحه إليه كروح آدم عليه السّلام.
فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أي : وحدوا الله فى ألوهيته ، وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ أي : الآلهة ثلاثة : الله ، والمسيح ، ومريم ، انْتَهُوا عن التثليث يكن خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ فى ذاته وصفاته وأفعاله ، سُبْحانَهُ أي : تنزيها له أن يكون له ولد ، لأنه لا يجانس ولا يتطرقه الفناء ، لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، ملكا وخلقا وعبيدا ، والعبودية تنافى البنوة ، وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا فلا يحتاج إلى ولد لأن الولد يكون وكيلا عن أبيه وخليفته ، والله تعالى قائم بحفظ الأشياء كاف لها ، مستغن عمن يعينه أو يخلفه لوجوب بقائه وغناه.

(٥٩٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٧
واعلم أن النصارى انقسموا على أربع فرق : نسطورية ، ويعقوبية ، وملكانية ، ومرقوسية ، ومنهم نصارى نجران ، فالنسطورية ، قالوا فى عيسى هو ابن الله ، واليعقوبية ، والملكانية ، قالوا هو الله ، والمرقوسية قالوا : هو ثالث ثلاثة ، وكلهم ضالون.
الإشارة : الغلو كله مذموم ، وخير الأمور أوساطها ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «لا تطرونى كما أطرت النّصارى عيسى بن مريم ، ولكن قولوا : عبد اللّه ورسوله» ، ويرخص للفقير أن يتغالى فى مدح شيخه ، ما لم يخرجه عن طوره ، أو ينتقص غيره بمدحه ، وفى الإشارة حث على حفظ مقام التوحيد ، وتنزيهه تعالى عن الأضداد والأنداد. وفى ذلك يقول الشاعر :
أربّ وعبد ونفى ضد قلت له : ليس ذاك عندى
فقال ما عندكم؟ فقلنا : وجود فقد وفقد وجد
فإثبات العبودية مستقلة تضاد الربوبية ، ولذلك أنكرها الشاعر ، أي : أثبت ربا وعبدا ، وأنت تقول بنفي الضد عنه وفى الحكم : «الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته».

ولما قالت نصارى نجران للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : إنك تعيب صاحبنا؟ فقال - عليه الصلاة والسلام - ومن صاحبكم؟ قالوا :

عيسى. قال : وأي شيء أقول؟ قالو : تقول إنه عبد الله. قال لهم - عليه الصلاة والسلام - «ليس بعار أن يكون عيسى عبدا للّه» ، أنزل الله تعالى :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٧٢ الى ١٧٣]

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (١٧٣)

قلت : أصل الاستنكاف : التنحية ، من قولهم : نكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك كى لا يرى أثره عليك ، ثم أطلق على الأنفة ، والاستكبار دون الاستنكاف ، ولذا عطف عليه لأن الاستنكاف لا يستعمل إلا حيث لا استحقاق ، بخلاف الاستكبار فإنه يكون باستحقاق. قاله البيضاوي.

(٥٩٧/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٨

يقول الحق جل جلاله فى الرد على النصارى : نْ يَسْتَنْكِفَ

أي : لن يأنفْ مَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ

فإن عبوديته لله شرف يتباهى بها ، وإنما المذلة والاستنكاف فى عبوديته لغيره ، لَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ لا يستنكفون أيضا أن يكونوا عبيدا لله ، بل ما كانوا مكرمين إلا بعبوديتهم لله ، واحتج بالآية من فضّل الملائكة على الأنبياء ، لأن المعطوف يقتضى أن يكون أرفع درجة من المعطوف عليه ، حتى يكون عدم استنكاف الملائكة كالدليل على عدم استنكاف المسيح.

والجواب : أن عطف الملائكة إنما أريد به التكثير والمبالغة ، كقولهم : أصبح الأمير اليوم لا يخالفه رئيس ولا مرؤوس ، والرئيس أفضل من المرءوس ، والتحقيق فى المسألة أن الأنبياء والرسل أفضل من خواص الملائكة كالمقربين ، وخواص الملائكة - وهم المقربون - أفضل من خواص البشر كالأولياء ، وخواص البشر أفضل من عوام الملائكة ، وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر ، ولذلك قيل : من غلب عقله على هواه ، كان كالملائكة أو أفضل ، ومن غلب هواه على عقله ، كان كالبهائم أو أضل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد من استنكف عن عبوديته - تعالى - فقال : مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً
فيجازيهم فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ولم يستنكفوا عن عبادته فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا عن عبوديته وَاسْتَكْبَرُوا عن عبادته فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً أي : موجعا ، وهو النار ، وقال القشيري : العذاب الأليم : هو ألا يصلوا إليه أبدا بعد ما عرفوا جلاله ، إذ صارت معرفتهم ضرورية - أي قهرية - فحسراتهم حينئذ على ما فاتهم أشدّ عقوبة لهم. هـ. وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً.
فإن قلت : هذا التفصيل أعم من المفصل ، لأن الحشر إنما ذكر للمتكبرين والتفصيل أعم ، فالجواب : أن عموم المفصل يفهم من قوة الكلام ، فكأنه قال : فسيحشرهم للمجازاة يوم يجازى عباده جميعا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ...
إلخ ، نظيره : قولك : جمع الأمير كافة مملكته ، فأما العلماء فأكرمهم ، وأما الطغاة فقطعهم. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : العبودية أشرف الحالات وأرفع المقامات ، بها شرف من شرف ، وارتفع من ارتفع ، عند الله ، وما خاطب الله أحباءه إلا بالعبودية ، فقال تعالى : سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ، وقال : وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ، وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ... إلى غير ذلك.

(٥٩٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٩
وأوصاف العبودية أربعة : الذل ، والفقر ، والضعف والجهل. ومقابلها من أوصاف الربوبية أربعة : العز ، والغنى والقوة والعلم ، فبقدر ما يظهر العبد من أوصاف العبودية يمده الحق من أوصاف الربوبية ، فبقدر ما يظهر العبد من الذل يمده من العز ، وبقدر ما يظهر من الفقر يمده بالغنى ، وبقدر ما يظهر من الضعف يمده من القوة ، وبقدر ما يظهر من الجهل يمده من العلم ، تحقق بوصفك يمدك بوصفه ، ولا يتحقق ظهور هذه الأوصاف إلا بين عباده لتمتحق بذلك أوصاف النفس.
ثم دعا الكل إلى كتابه والإيمان برسوله ، فقال :
[سورة النساء (٤) : الآيات ١٧٤ الى ١٧٥]
يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً (١٧٥)
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وهو الرسول عليه الصلاة والسلام وما

اقترن به من المعجزات الواضحات ، وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ على لسانه نُوراً مُبِيناً وهو القرآن. أو جاءكم برهان من ربكم : المعجزات الظاهرة ، وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً : القرآن العظيم ، أي : جاءكم دليل العقل وشواهد النقل ، فلم يبق لكم عذر ولا علة.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ أي : وحدوه فى ربوبيته ، وَاعْتَصَمُوا أي : تمسكوا بدينه أو بكتابه ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وهى الجنة ، وَفَضْلٍ : النظر لوجهه الكريم ، قال البيضاوي : فِي رَحْمَةٍ أي : ثواب قدّره بإزاء إيمانه وعمله ، رحمة منه ، لا قضاء لحق واجب ، وفضل إحسان زائد عليهما. هـ. وقال القشيري : سيحفظ عليهم إيمانهم فى المآل عند التوفى ، كما أكرمهم به وبالعرفان فى الحال. هـ. وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ أي : إلى الوصول إليه ، صِراطاً مُسْتَقِيماً أي : يبيّن لهم الوصول إليه ، وهو طريق السير الذي لا عوج فيه العلم والعمل والحال ، وقال البيضاوي : هو الإسلام والطاعة فى الدنيا ، وطريق الجنة فى الآخرة. هـ.

الإشارة : قد جاءكم من يعرفكم بالله ، ويدلكم على الله ، وهم أولياء الله ، ببرهان واضح لا يخفى إلا على من كان خفاشيا ، وأنزلنا إليكم من سر قدسنا ، وبحر جبروتنا ، نورا مبينا ، تشاهدون فيه أسرار الذات وأنوار الصفات ، وهو ما ظهر من التجليات من القبضة الأولية المحمدية ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فى حال سيرهم إليه فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وهى حضرة القدس ، (و فضل) وهو الترقي فى أسرار المعارف إلى مالا نهاية له ،

(٥٩٩/١)

ويهديهم إلى الوصول إليه ، وهو شهوده فى ذلك النور ، طريقا مستقيما توصل إليه فى أقرب زمان.
ولعل الآية فيها تقديم وتأخير ، أي : فسيهديهم إليه طريقا مستقيما يسيرون فيه ، حتى يصلوا إليه ، ثم يدخلهم فى رحمة حضرته ، وفضل زيادة معرفته. والله تعالى أعلم.

ثم ختم السورة بميراث الكلالة ، لأن آخر أحوال الإنسان الموت فيورث ماله ، وكان المناسب ذكر يوصيكم هنا ، لكنه أدرجه فى حفظ الأموال لكونه أنسب ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٧٦]

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُها إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالاً وَنِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)

قلت : (فى الكلالة) ، يتعلق بيفتيكم ، ويستفتونك ، فيكون من باب التنازع ، وأعمل الثاني على اختيار

البصريين ، وعمل الأول فى الضمير المجرور حذف ، أي : يستفتونك فيها ، أو عمل الأول وحذف ضمير الثاني ، أو يكون يستفتونك مقطوعا فيوقف عليه ، أو حذف متعلقه لدلالة الجواب عليه ، أي : يستفتونك فى الكلالة ، وهو أظهر ، وتقدم تفسير الكلالة «١» ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ : ارتفع بفعل مضمر عند البصريين ، من باب الاشتغال فى المرفوع.

يقول الحق جل جلاله : يَسْتَفْتُونَكَ فى الكلالة ، والمستفتى هو جابر بن عبد الله ، كان مريضا فعاده رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فقال : يا رسول الله. إنى كلالة ، فكيف أصنع فى مالى؟ فنزلت ، وهى آخر ما نزل من الأحكام.

قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ ، ثم بيّن الفتوى فيها فقال : إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ولا والد ، بل انقطع نسبه من الجهتين ، وَلَهُ أُخْتٌ شقيقة أو لأب فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ والباقي للعصبة ، ولا ميراث لها مع الأب أو الابن ، وَهُوَ يَرِثُها إن ماتت ولم يكن لها ولد ولا والد.

فإن استقل فله المال ، وإن كان معه ذو سهم أخذ الباقي ، فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فأكثر شقائق فَلَهُمَا الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَكَ ، وإن كانت شقيقة مع الأب أخذت الشقيقة النصف ، والتي لأب السدس تكملة الثلثين ، وإن كانت لأب

---

(١) راجع تفسير الآية ١٢ من نفس السورة.

مع الشقيقتين فلا شيء لها ، وَإِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالًا وَنِساءً شقائق ، مات أخوهم ، فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، ولا شيء للأخوة لأب من الشقائق. يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الحق ، كراهية أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فهو عالم بمصالح العباد فى المحيا والممات. اللهم أحينا حياة طيبة وأمتنا موتة حسنة ، فى عافية وستر جميل ، يا أرحم الراحمين ، يا رب العالمين.

الإشارة : الكلالة من الأولياء ، هو الذي مات ولم يخلف ولدا يرث حاله ، فإن لم تكن له تلاميذ ، فإن كان له أخ يقارب حاله ، ورثه ، وقد يرث سره أخته فى النسبة ، لكن لا تستوجب ذلك كله لحكمة الله تعالى. يشير إليه قوله تعالى : فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ ، وإن ترك إخوة فى الشيخ اقتسموا سره كله ، كل على قدر صدقه ، والنساء الصادقات شقائق الرجال فى نيل أسرار الولاية. وقد تقدم أول السورة أن مدد الشيخ كنهر أو كبحر يصب فى القواديس ، فإذا انسدت قادوس انتقل ماؤها إلى الأخرى. والله تعالى أعلم.

(٦٠١/١)

(٦٠٢/١)

فهرس المجلد الأول

(٦٠٣/١)

[المجلد الثاني]

سورة المائدة

مدنية. وهى مائة وعشرون آية ، وألفان وثمان مائة وأربع كلمات ، وقرأها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فى حجة الوداع ، وقال :

«يا أيها الناس ، إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا ، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها» «١». وقال ابن عمر : (أنزلت سورة المائدة والنبي صلّى اللّه عليه وسلّم على راحلته ، فلم تستطع أن تحمله حتى نزل). وهى مكملة لما تضمنته سورة النساء من عقود الأحكام الستة ، ولذلك افتتحها بالتوصية على الوفاء بها ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ (١)

أي : بالعهود التي عهدت إليكم أن تحفظوها ، وهى حفظ الأموال ، وحفظ الأنساب ، وحفظ الأديان ، وحفظ الأبدان ، وحفظ اللسان ، وحفظ الأيمان ، ثم مرّ معها على الترتيب ، فما ذكره هناك مستوفى ، لم يعد منه هنا إلا أصله ، وما بقي هناك فى أصل من الأصول الستة كمله هنا ، ولمّا ذكر فيما تقدم فى أول السورة حكم الأموال باعتبار الملك ، ولم يتكلم على ما يحل منها وما يحرم ، تكلم هنا على ذلك ، فقال : أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ...

قلت : إضافة (بهيمة الأنعام) : للبيان ، كثوب خزّ ، أي : البهيمة من الأنعام ، و(غير محلى الصيد) : حال ، قال الأخفش : من فاعل «أوفوا» ، وفيه معنى النهى ، وقال الكسائي : من ضمير (لكم) كما تقول : أحل لكم الطعام غير مفسدين فيه ، فإن قلت : الحال قيد لعاملها ، والحلّية غير خاصة بوقت حرمة الصيد؟ قلت : لمّا كانت الحاجة إليها فى ذلك الوقت أكثر ، خص الحلية به ليكون أدعى للشكر ، ويؤخذ عموم الحلّية من سورة الحج «٢».

يقول الحق جل جلاله : أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ أي : الأنعام كلها ، وهى الإبل والبقر والغنم ، إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ بعد فى قوله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ... الآية «٣» ، حال كونكم غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (التفسير ٢/ ٣١١) موقوفا على (أم المؤمنين عائشة) رضى اللّه عنها. وصححه ووافقه الذهبي.

وفى الفتح السماوي (٢/ ٥٥٢) نقلا عن الحافظ ابن حجر : لم نقف عليه مرفوعا.

(٢) فى قول اللّه تعالى : أُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ .. الآية/ ٣٠.

(٣) الآية الثالثة من السورة نفسها.

فى حال الإحرام ، ومعنى الآية فى الجملة : أحلت الأنعام كلها إلا ما يتلى عليكم من الميتة وأخواتها ، لكن الصيد فى حال الإحرام حرام عليكم ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ من تحليل أو تحريم.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التي عقدتموها على نفوسكم فى حال سيركم إلى حضرة ربكم ، من مجاهدة ومكابدة ، فمن عقد عقدة مع ربه فلا يحلها ، فإن النفس إذا استأنست بحل العقود لم ترتبط بحال ، ولعبت بصاحبها كيف شاءت ، وأوفوا بالعقود التي عقدتموها مع أشياخكم بالاستماع والاتباع إلى مماتكم ، وأوفوا بالعقود التي عقدها عليكم الحق تعالى ، من القيام بوظائف العبودية ، ودوام مشاهدة عظمة الربوبية ، فإن أوفيتم بذلك ، فقد أحلت لكم الأشياء كلها تتصرفون

فيها بهمتكم لأنكم إذا كنتم مع المكون كانت الأكوان معكم. إلا ما يتلى عليكم مما ليس من مقدوركم مما أحاطت به أسوار الأقدار ، «فإن سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار» ، غير متعرضين لشهود السّوى وأنتم فى حرم حضرة المولى. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا نهى عن التعرض للصيد فى الحرم ، نهى عن تغيير المناسك والتعرض للحجّاج لأنه من تعظيم حرمة الحرم ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٢]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً وَإِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢)

قلت : الشعائر : جمع شعيرة ، وهى اسم ما أشعر ، أي : جعل علامة على مناسك الحج ومواقفه ، و(لا يجرمنكم) أي : يحملنكم ، أو يكسبنكم ، يقال : جرم فلان فلانا هذا الأمر ، إذا أكسبه إياه وحمله عليه. والشنآن : هو البغض والحقد ، يقال : بفتح النون وإسكانها ، و(أن صدوكم) مفعول من أجله ، و(أن تعتدوا) مفعول ثان ليجرمنكم. ومن قرأ : (إن صدوكم) ، بالكسر فشرط ، أغنى عن جوابه : (لا يجرمنكم).

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ أي : لا تستحلوا شيئا من ترك المناسك ، وذلك أن الأنصار كانوا لا يسعون بين الصفا والعروة ، وكان أهل مكة لا يخرجون إلى عرفات ، وكان أهل اليمن يرجعون من عرفات ، فأمرهم اللّه ألّا يتركوا شيئا من المناسك ، أي : لا تحلوا ترك شعائر اللّه وَلَا تحلوا

الشَّهْرَ الْحَرامَ بالقتال أو السّبى ، وهذا قبل النسخ ، وَلَا تحلوا الْهَدْيَ ، أي : ما أهدى إلى الكعبة ، فلا تتعرضوا له ولو من كافر ، وَلَا تحلوا الْقَلائِدَ أي : ذوات القلائد ، وهى الهدى المقلدة ، وعطفها على الهدى للاختصاص فإنها أشرف الهدى ، أي : لا تتعرضوا للهدى مطلقا. والقلائد جمع قلادة ، وهى : ما قلد به الهدى من نعل أو لحاء الشجر ، أو غيرهما ، ليعلم به أنه هدى فلا يتعرض له ، وَلَا تحلوا آمِّينَ أي : قاصدين البيت الحرام ، أي : قاصدين لزيارته ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً أي : يطلبون رزقا بالتجارة التي قصدوها ، ورضوانا بزعمهم لأنهم كانوا كفارا.

وذلك ، أن الآية نزلت فى الحطم بن ضبيعة ، وذلك أنه أتى المدينة ، فخلّف خيله خارج المدينة ، ودخل وحده إلى النّبى صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : إلام تدعو النّاس إليه؟ فقال له : «إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وإقام الصّلاة وإيتاء الزكاة».

فقال : حسن ، إلا أن لى أمراء لا أقطع أمرا دونهم ، ولعلى أسلم ، فخرج وغار على سرح المدينة فاستاقه ، فلما كان فى العام المقبل خرج حاجّا مع أهل اليمامة ، ومعه تجارة عظيمة ، وقد قلّد الهدى ، فقال المسلمون للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم : هذا الحطم قد خرج حاجّا فخلّ بيننا وبينه؟ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنه قلد الهدى» ، فقالوا يا رسول اللّه : هذا شيء كنا نفعله فى الجاهلية - أي : تقية - ، فأبى عليهم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فنزلت الآية «١».

وقال ابن عباس : كان المشركون يحجون ويهدون ، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم ، فنهاهم اللّه تعالى بالآية.

وَإِذا حَلَلْتُمْ من الحج والعمرة فَاصْطادُوا ، أمر إباحة لأنه وقع بعد الحظر ، وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ أي : لا يحملنكم ، أو لا يكسبنكم شَنَآنُ قَوْمٍ أي : شدة بغضكم لهم لأجل أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ عام الحديبية أَنْ تَعْتَدُوا بالانتقام منهم بأن تحلوا هداياهم وتتعرضوا لهم فى الحرم. قال ابن جزى : نزلت عام الفتح حين ظفر المسلمون بأهل مكة ، فأرادوا أن يستأصلوهم بالقتل لأنهم كانوا قد صدوهم عن المسجد الحرام عام الحديبية ، فنهاهم اللّه عن قتلهم لأن اللّه علم أنهم يؤمنون. هـ. ثم نسخ ذلك بقوله : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ. «٢»

ثم قال تعالى : وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى كالعفو ، والإغضاء ، ومتابعة الأمر ، ومجانبة الهوى. وقال ابن جزى : وصية عامة ، والفرق بين البر والتقوى أن البر عام فى الواجبات والمندوبات ، فالبر أعم من التقوى هـ.

وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ كالتشفى والانتقام. قال ابن جزى : الإثم : كل ذنب بين اللّه وعبده ، والعدوان : على الناس. هـ. وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ فانتقامه أشد.

الإشارة : قد أمر الحق - جل جلاله - بتعظيم عباده ، وحفظ حرمتهم كيفما كانوا ، «فالخلق كلهم عيال اللّه ، وأحب الخلق إلى اللّه أنفعهم لعياله» ، فيجب على العبد كف أذاه عنهم وحمل الجفا منهم ، وألّا ينتقم لنفسه ممن آذاه

---

(١) أخرجه ابن جرير عن عكرمة. وذكره الواحدي فى الأسباب ، عن ابن عباس.

(٢) من الآية ٥ من سورة التوبة.

منهم ، ولا يحمله ما أصابه منهم على أن يعتدى عليهم ولو بالدعاء ، بل إن وسّع اللّه صدره بالمعرفة قابلهم بالإحسان ، ودعا لعدوه بصلاح حاله حتى يأخذ اللّه بيده ، وهذا مقام الصديقية العظمى والولاية الكبرى ، وهذا غاية البر والتقوى الذي أمر اللّه - تعالى - بالتعاون عليه ، والاجتماع إليه ، دون الاجتماع على الإثم والعدوان ، وهو الانتصار للنفس والانتقام من الأعداء ، فإن هذا من شأن العوام ، الذين هم فى طرف مقام الإسلام. واللّه تعالى أعلم.
ثم بيّن ما وعد به فى قوله : إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ ، فقال :
[سورة المائدة (٥) : آية ٣]
حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَما أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ ما ذَكَّيْتُمْ وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)
يقول الحق جل جلاله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ أي : ما ماتت حتف أنفها بلا ذكاة ، وَالدَّمُ المسفوح ، أي : المهروق ، وكانت الجاهلية يصبونه فى الأمعاء ، ويشوونها ، ورخص فى الباقي فى العروق بعد التذكية ، وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ، وكذا شحمه وسائر أجزائه المتصلة ، بخلاف الشعر المجزو ، وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ أي : رفع الصوت عليه عند ذبحه بغير اللّه ، كقولهم : باسم اللات والعزى ، وكذا ما ترك عليه اسم اللّه عمدا ، عند مالك وَالْمُنْخَنِقَةُ بحبل وشبهه حتى ماتت ، وَالْمَوْقُوذَةُ أي : المضروبة بعصا أو بحجر أو شبهه ، من : وقذته وقذا :
ضربته ، وَالْمُتَرَدِّيَةُ أي : الساقطة من جبل أو فى بئر وشبهه فماتت ، وَالنَّطِيحَةُ التي نطحتها أخرى فماتت ، فإن لم تمت فإن كان فى العصران الأعلى فكذلك ، لا فى الأسفل أو الكرش.
وَما أَكَلَ السَّبُعُ أي : أكل بعضه وأنفذ مقتله ، والسبع : كل حيوان مفترس كالذئب والأسد والنمر والثعلب والنمس والعقاب والنسر إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ أي : إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك.
قاله البيضاوي.
وقال ابن جزى : قيل : إنه استثناء منقطع ، وذلك إذا أريد بالمنخنقة وأخواتها : مامات من ذلك بالخنق وما بعده ، أي : حرمت عليكم هذه الأشياء ، لكن ما ذكيتم من غيرها فهو حلال ، وهذا ضعيف ، وقيل : إنه استثناء متصل ، وذلك إن أريد بالمنخنقة وأخواتها ما أصابته تلك الأسباب وأدركت حياته. والمعنى : إلا ما أدركتم حياته من هذه الأشياء ، فهو حلال ، واختلف أهل هذا القول هل يشترط أن يكون لم تنفذ مقاتله ، أم لا؟ فالأئمة كلهم على عدم الاشتراط إلا مالكا - رحمه اللّه - ، وأما من لم تشرف على الموت من هذه الأسباب ، فذكاتها جائزة باتفاق. هـ.
وَحرم عليكم أيضا : ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ، وهى أحجار كانت منصوبة حول البيت ، يذبحون عليها

ويعدون ذلك قربة ، وليست بالأصنام لأن الأصنام مصورة ، والنصب غير مصورة ، وقيل : (على) بمعنى اللام ، أي : وما ذبح للنصب ، والمراد : كل ما ذبح لغير اللّه.

وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ أي : تطلبوا ما قسم لكم فى الأزل من المقادير بالأزلام ، جمع زلم - بضم الزاى وفتحها - وهى الأقداح على قدر السهام. وكانت فى الجاهلية ثلاثة ، قد كتب على أحدها : افعل ، وعلى الآخر :

لا تفعل ، وعلى الثالث : مهمل ، فإذا أراد الإنسان أن يعمل أمرا جعلها فى خريطة ، وأدخل يده وأخرج أحدها ، فإن خرج له الذي فيه «افعل» فعل ما أراد ، وإن خرج الذي فيه «لا تفعل» ، تركه ، وإن خرج المهمل أعاد الضرب ، ويقاس عليه كل ما يدخل فى علم الغيب ، كالقريعة والحظ والنصبة والكهانة ، وشبهها.

ذلِكُمْ فِسْقٌ ، الإشارة إلى المحرمات المذكورة ، أو إلى الاستقسام بالأزلام ، وإنما كان فسقا لأنه دخول فى علم الغيب الذي انفرد اللّه به ، وفيه تجسس على سر الملك ، وهو حرام ، ولا يعارض ما ثبت جوازه من القرعة ، فى أمور مخصوصة كتمييز الأنصبة فى القسمة ، «وقد كان - عليه الصلاة والسلام - يقترع بين نسائه» ، وغير ذلك مما تفيد تطييب القلوب ، دون الاطلاع على علم الغيوب. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : حرمت عليكم يا معشر المريدين طلب الحظوظ والشهوات ، وما تموت به قلوبكم من الانهماك فى الغفلات ، وتناول ما أعطيكم لغير وجه اللّه ، وقبضتموه من غير يد اللّه ، بأن نظرتم حين قبضه إلى الواسطة ، وغفلتم عن المعطى حقيقة ، فمقتضى شريعة الخواص : إخراجه عن الملك ، وحرمان النفس من الانتفاع به ، كما وقع لبعض الأولياء ، ولا تتناولوا من الطعام إلا ما ذكيتموه بأن شهدتم فيه المنعم دون الوقوف مع النعمة ، ونزلتم إليه بالإذن ، دون قصد الشهوة والمتعة ، وهذا يحتاج إلى تيقظ كبير ومراقبة قوية. واللّه يتجاوز عن أمثالنا بحلمه وكرمه. آمين.

ولمّا حرّم اللّه تعالى هذه الأشياء حصل للمشركين الإياس من موافقة المسلمين لهم فى دينهم ، فلذلك ذكره الحق تعالى بإثر تحريمها ، فقال :

... الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ...

يقول الحق جل جلاله : الْيَوْمَ الذي أنتم فيه ، وهو يوم الجمعة ، ويوم عرفة فى حجة الوداع ، يَئِسَ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ أن يبطلوه ، أو يظهروا عليه بحصول المباينة لهم فى أمورهم كلها ، ولظهور الإسلام فيه وكثرة المسلمين ، قيل : إنه وقف معه صلّى اللّه عليه وسلّم فى هذه الحجة : مائة ألف وأربعة عشر ألفا ، ويحتمل أن يريد باليوم الزمان الحاضر ، وما يتصل به من الأزمنة الآتية ، فَلا تَخْشَوْهُمْ أن يظهروا عليكم ، وَاخْشَوْنِ وحدي فأمرهم بيدي.

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ بالنصر والإظهار على الأديان كلها ، أو بالتنصيص على قواعد العقائد ، والتوقيف على أحوال الشرائع وقوانين الاجتهاد ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي بالهداية والتوفيق ، أو بإكمال الدين ، وبالفتح والتمكين ، بهدم منار الكفر ، ومحو علل الملحدين ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً أي : اخترته لكم من بين الأديان ، الذي لا نرتضى غيره ولا نقبل سواه.

(٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٨

الإشارة : إذا حصل المريد على أسرار التوحيد ، وخاض بحار التفريد ، وذاق حلاوة أسرار المعاني ، وغاب عن شهود حس الأوانى ، وحصل له الرسوخ والتمكين فى ذلك ، أيس منه الشيطان وسائر القواطع ، فلا يخشى أحدا إلا اللّه ، ولا يركن إلى شيء سواه ، وأمن من الرجوع فى الغالب ، إلا لأمر غالب ، وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ. ولذلك قال بعضهم : (و اللّه ما رجع من رجع إلا من الطريق ، وأما من وصل فلا يرجع).

والوصول هو التمكين فيما ذكرنا ، فإذا حصل على كمال المعرفة ، ووقف على عرفة المعارف ، فقد كمل دينه واستقام أمره ، وظهرت أنواره ، وتحققت أسراره ، وما بقي إلا الترقي فى الأسرار أبدا سرمدا ، والسير فى المقامات كسير الشمس فى المنازل ، ينتقل فيها من مقام إلى مقام ، بحسب ما يبرز من عنصر القدرة ، فتارة يبرز معه ما يوجب الخوف ، وتارة ما يوجب الرجاء ، وتارة ما يوجب الرضا والتسليم ، وتارة ما يوجب التوكل ، وهكذا يتلون مع كل مقام ويقوم بحقه ، ولا يقف مع مقام ولا مع حال ، لأنه خليفة اللّه فى أرضه ، وقد قال تعالى : كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ «١» ، وهذا هو التلوين بعد التمكين. واللّه تعالى أعلم.

ثم استثنى من تلك المحرمات حالة المضطر ، فقال :

...

فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ قال البيضاوي : هو متصل بذكر المحرمات ، وما بينهما اعتراض مما يوجب التجنب عنها ، وهو أن تناولها فسوق ، وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضى. هـ.

يقول الحق جل جلاله : فَمَنِ اضْطُرَّ إلى تناول شيء من هذه المحرمات فِي مَخْمَصَةٍ أي : مجاعة ، حال كونه غَيْرَ مُتَجانِفٍ أي : مائل للإثم وقاصد له ، بأن يأكلها تلذذا أو متجاوزا حد الرخصة ، قيل : هو سد الرمق ، وقال ابن أبى زيد : يأكل منها ويتزود ، فإن استغنى عنها طرحها. هـ. فإن تناولها للضرورة فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ له رَحِيمٌ به حيث أباحها له فى تلك الحالة.

الإشارة : قال بعض الحكماء : الدنيا كلها كالميتة ، لا يحل منها للذاكر إلا قدر الضرورة أكلا وشربا ، وملبسا ومركبا ، حتى يتحقق له الوصول ، فما بقي لأحد حينئذ ما يقول ، وعلامة الوصول : هو الاكتفاء بالله دون الاحتياج لشيء سواه ، إن افتقر اغتنى فى فقره ، وإن ذل عز فى ذله ، وإن فقد وجد فى فقده ، وهكذا فى تقلبات الأحوال لا يتضعضع ولا يتزلزل ، ولو سقطت السماء على الأرض. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا ذكر ما حرّم عليهم ذكر ما أحل لهم ، فقال :

---

(١) من الآية/ ٢٩ من سورة الرحمن.

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٤ الى ٥]

يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَطَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (٥)

قلت : لم يقل ماذا أحل لنا لأن «يسألونك» بلفظ الغيبة ، وكلا الوجهين شائع فى أمثاله. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : يَسْئَلُونَكَ يا محمد عن الذي أُحِلَّ لَهُمْ من المآكل ، بعد الذي حرم عليهم من الخبائث ، فقل لهم. أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وهو عند مالك : ما لم يدل دليل على تحريمه من كتاب ولا سنة ، وعند الشافعي : ما يستلذه الطبع السليم ولم يفرّ عنه ، فحرم الخنافس وشبهها ، وَأحل لكم صيد ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ أي : الكواسب ، وهى الكلاب ونحوها ، مما يصطاد به ويكسب الصيد على أهله ، من سباع وذوات أربع ، وطير ، ونحوها ، حال كونكم مُكَلِّبِينَ أي : معلمين لها الاصطياد ،

أي : مؤدبين لها ، تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ من الحيل وصدق التأديب ، فإن العلم بها إلهام من اللّه ، أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة من اللّه لابن آدم.

وحد التعليم عند ابن القاسم : أن يفهم الجارح الإشلاء والزجر ، وقيل : الإشلاء أي : التسلط - فقط ، وقيل : الزجر فقط ، وقيل : أن يجيب إذا دعى.

فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ولم يأكل منه ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «وإن أكل ، فلا تأكل فإنّما أمسك على نفسه» «١».

وهو مذهب الشافعي ، وقال مالك : يؤكل مطلقا لما في بعض الأحاديث : «وإن أكل فكل» «٢» ، وقال بعضهم : لا يشترط ذلك في سباع الطير لأن تأديبها إلى هذا الحد متعذر.

وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ أي : على ما علمتم عند إرساله ، ولو لم ير المرسل عليه ، وكذا عند الرمي بالمحدد ونحوه ، فإن سمى على شيء معين ووجد غيره لم يؤكل ، أو التبس مع غيره ، وإن سمى على ما وجد أكل الجميع ، ولا بد من نية الذكاة عند الإرسال أو الرمي ، واختلف في حكم التسمية ، فقال الظاهرية : إنها واجبة مطلقا ، فإن تركت عمدا أو سهوا لم تؤكل عندهم ، وقال الشافعي : مستحبة ، حملا للأمر على الندب ، فإن تركت عمدا أو سهوا أكلت عنده.

---

(١) بعض حديث أخرجه البخاري في (الذبائح والصيد ، باب إذا أكل الكلب) ومسلم في (الصيد والذبائح ، باب الصيد بالكلاب المعلمة) من حديث عدى بن حاتم.

(٢) أخرجه ابو داود في (الصيد ، باب في الصيد) عن أبي ثعلبه الخشني.

وفي التوفيق بين الحديثين قال الخطابي في معالم السنن : يجعل حديث أبى ثعلبه أصلا في الإباحة ، وأن يكون النهى في حديث عدى على معنى التنزيه دون التحريم. ويحتمل أن يكون الأصل في ذلك : حديث عدى بن حاتم ، ويكون النهى على التحريم البات ، ويكون المراد بقوله : وإن أكل ، فيما مضى من الزمان وتقدم منه ، لا في هذه الحال ، فكأنه قال : كل منه وإن كان قد أكل فيما تقدم ، إذا لم يكن قد أكل في هذه الحالة. انظر معالم السنن على هامش سنن أبى داود ٣/ ٢٧٢ ، وانظر أيضا : فتح الباري ٩/ ٤٩٤.

وجعل بعضهم الضمير في عَلَيْهِ ، عائدا على الأكل ، فليس فيها على هذا أمر بالتسمية على الصيد ، ومذهب مالك : أنه إن تركت التسمية عمدا لم تؤكل ، وإن تركت سهوا أكلت ، فهي عنده واجبة

بالذكر ساقطة بالنسيان ، وهذا الخلاف جار فى الذكاة كلها.
وَاتَّقُوا اللَّهَ فى اجتناب محرماته ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ ، فيؤاخذكم على ما جلّ ودق.
الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَطَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ فيتناول الذبائح وغيرها ، ويعم أهل الكتاب اليهود والنصارى ، واستثنى علىّ -كرم اللّه وجهه- نصارى بنى تغلب ، وقال : (ليسوا على النصرانية ، ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر). ولا يلحق بهم المجوس فى ذلك ، وإن ألحقوا بهم فى الجزية ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «سنوا بهم سنة أهل الكتاب ، غير ألا تنكحوا نساءهم ، ولا تأكلوا ذبائحهم» «١» وكذلك المرتد مطلقا لا تؤكل ذكاته.
قال ابن جزى : وأما الطعام ، فهو على ثلاثة أقسام : أحدها : الذبائح ، وقد اتفق العلماء على أنها مرادة فى الآية ، فأجازوا أكل ذبائح اليهود والنصارى ، واختلفوا فيما هو محرم عليهم فى دينهم ، على ثلاثة أقوال : الجواز ، والمنع ، والكراهة ، وهو مبنى على : هل هو من طعامهم أم لا؟ فإن أريد بطعامهم ما ذبحوه ، جازت ، وإن أريد ما يحل لهم ، منع ، والكراهة توسط بين القولين. الثاني : ما لا محاولة لهم فيه ، كالقمح والفاكهة ، فهو جائز لنا اتفاقا. والثالث : ما فيه محاولة كالخبز وتعصير الزيت وعقد الجبن ، وشبه ذلك مما يمكن استعمال النجاسة فيه ، فمنعه ابن عباس لأنه رأى أن طعامهم هو الذبائح خاصة ، وأجازه الجمهور ، لأنه رأوه داخلا فى طعامهم ، وهذا إذا كان استعمال النجاسة فيه محتملا ، أما إذا تحققنا استعمال النجاسة فيه كالخمر والخنزير والميتة ، فلا يجوز أصلا ، وقد صنف الطرطوشى فى تحريم جبن النصارى ، وقال : إنه ينجس البائع والمشترى والآلة لأنهم يعقدونه على إنفحة الميتة. هـ.
وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، فلا بأس أن تطعموهم من طعامكم ، وتبيعوه لهم ، وأما ما حرم عليهم ، فلا يجوز بيعه منهم. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : يسألونك أيها العارف الرباني ماذا أحل للفقراء من الأعمال والأحوال ، قل لهم : أحل لكم الطيبات ، أي : الخالص من الأعمال ، والصافي من الأحوال ، والتلذذ بحلاوة المشاهدة والمكالمة ، وما اصطادت لكم أنفسكم من العلوم اللدنية والأسرار القدسية ، بقدر تزكيتها وتربيتها ، فكلوا مما أمسكن عليكم ، أي : تمتعوا بما أتت به لكم من

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ (الزكاة ، باب جزية أهل الكتاب والمجوس) من حديث عبد الرحمن بن عوف ، بدون ذكر : (غير ألا تنكحوا نساءهم ولا تأكلوا ذبائحهم) وجاءت هذه العبارة بنحوها فى حديث أخرجه عبد الرزاق فى المصنف (٦/ ٦٩ ح ١٠٠٢٨) والبيهقي فى الكبرى (٩/ ١٩٢) عن الحسن بن محمد بن على قال : (كتب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام ، فمن أسلم قبل ، ومن أصر ضربت عليهم الجزية ، على أن لا تؤكل لهم ذبيحة ، ولا ينكح لهم امرأة).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١١

أبكار الحكم وعرائس الحقائق ، فإن أتت بشيء من علوم الحس ، فاذكروا اسم اللّه عليه ينقلب معانى ، واتقوا اللّه أن تقفوا مع شيء سواه ، (إن اللّه سريع الحساب) فيحاسبكم على الخواطر والطوارق إن لم تعرفوا فيها. اليوم أحل لكم الطيبات ، أي : حين دخلتم بلاد المعاني ورسختم فيها ، أحل لكم التمتع بالمشاهدات والمناجاة ، وطعام العلوم الظاهرة حلّ لكم تتوسعون بها ، وطعامكم حل لهم ، أي : وتذكيركم بما يقدرون عليه حلّ لهم لأن العارف الكامل يسير كل واحد على سيره ، ويتلون معه بلونه ، يقره في بلده ويحوشه إلى ربه. نفعنا اللّه بذكره. آمين.

ثم تكلم على ما بقي من حفظ الأنساب ، وهو جواز نكاح الكتابية إذ لم يتكلم عليه في سورة النساء ، فقال :

وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ يقول الحق جل جلاله : وأحل لكم الْمُحْصَناتُ أي : الحرائر مِنَ الْمُؤْمِناتِ دون الإماء ، إلا لخوف العنت ، أو العفيفات دون البغايا ، فإن نكاحها مكروه ، وَأحل لكم الْمُحْصَناتُ أي : الحرائر مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، فأحل اللّه نكاح اليهودية والنصرانية الحرتين دون إمائهم ، إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ أي :

أعطيتموهن مهورهن. فلا يجوز نكاح الكتابية إلا بصداق شرعى. حال كونكم مُحْصِنِينَ ، أي : متعففين عن الزنى بنكاحها ، غَيْرَ مُسافِحِينَ أي : مجاهرين بالزنى ، وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ أي : أصحاب تسرون معهن بالزنى ، والخدن : الصاحب ، يقع على الذكر والأنثى. والمعنى : أحللنا لكم نكاح الكتابيات ، توسعة عليكم لتتعففوا عن الزنى سرا وجهرا.

ولما نزل إباحة الكتابيات قال بعض الناس : كيف أتزوج من ليس على دينى؟ فأنزل اللّه : وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ أي : بشرائع الإيمان فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ ، ومن الكفر به إنكاره والامتناع منه.

الإشارة : قد تقدم أن علوم الحقائق أبكار ، لأنها عرائس مخدّرة ، مهرها النفوس ، وما سواها من العلوم ثيبات وإماء لرخص مهرها ، فإذا اتصل العارف بعلوم الحقائق ورسخ فيها أحل له أن ينكح المحصنات من علوم الطريقة - وهى مبادئ التصوف ، أي : التفنن فيها مع أهلها على وجه التركيز أو التعليم ، والمحصنات من علوم الشريعة إذا أعطاها مهرها من الإخلاص وقصد التوسع بها وتعليمها لأهلها ،

وهذه العلوم كلها مشروعة ، والمشتغل بها متوجه إلى اللّه تعالى ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ ، فمن كفر بها فقد حبط عمله ، وهو عند اللّه من الخاسرين.

(٢/١١)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٢

ثم تكلم على ما بقي من حفظ الأديان ، وهو الوضوء إذ لم يتكلم عليه فى النساء ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)

قلت : إِذا قُمْتُمْ : أردتم القيام ، كقوله : فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ «١» ، حذف الإرادة للإيجاز ، وللتنبيه على أن من أراد العبادة ينبغى أن يبادر إليها ، بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة ، وقوله : بِرُؤُسِكُمْ الباء للإلصاق ، تقول : أمسكت بثوب زيد ، أي : ألصقت يدى به ، أي : ألصقوا المسح برؤوسكم ، أو للتبعيض ، وهذا سبب الخلاف فى مسحه كله أو بعضه ، فقال مالك : واجب كله ، وقال الشافعي : أقل ما يقع عليه اسم الرأس ، ولو قلّ. وقال أبو حنيفة : الربع.

وَأَرْجُلَكُمْ ، من نصب عطف على الوجه ، ومن خفض فعلى الجوار ، وفائدته : التنبيه على قلة صبّ الماء ، حتى يكون غسلا يقرب من المسح. قاله البيضاوي. وردّه فى المغني فقال : الجوار يكون فى النعت قليلا ، وفى التوكيد نادرا ، ولا يكون فى النسق لأن العاطف يمنع من التجاور ، وقال الزمخشري : لمّا كانت الأرجل بين الأعضاء الثلاثة مغسولات ، تغسل بصب الماء عليها ، كان مظنة الإسراف المذموم شرعا ، فعطف على الممسوح لا لتمسح ، ولكن لينبه على وجوب الاقتصار فى صب الماء عليها ، وجىء فيهما بالغاية إماطة لظن من يظن أنها ممسوحة لأن المسح لم يضرب له غاية فى الشريعة. هـ.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا أردتم القيام إِلَى الصَّلاةِ ، وأنتم محدثون فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ من منابت شعر الرأس المعتاد إلى الذقن ، ومن الأذن إلى الأذن ، وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ أي : معها ، وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ أي : جميعها أو بعضها على الخلاف ، وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ العظمين الناتئين فى مفصلى الساقين ، فهذه أربعة فرائض ، وبقيت النية لقوله : وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ «٢» ، ولقوله

(١) من الآية : ٩٨ من سورة النحل.

(٢) من الآية : ٥ من سورة البينة. [.....]

(١٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٣

عليه الصلاة السّلام - : «إنما الأعمال بالنيات». والدلك إذا لا يسمى غسلا إلا به ، وإلا كان غمسا ، والفور لأن العبادة إذا لم تتصل كانت عبثا. ولمّا عطفت بالواو ، وهى لا ترتب ، علمنا أن الترتيب سنة. وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى لم تقدروا على الماء أَوْ عَلى سَفَرٍ ولم تجدوه ، أو فى الحضر وجاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ بالجماع أو غيره فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ أي : جميعه وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، وقيد الحضر بفقد الماء دون السفر لأن السفر مظنة إعوازه ، فالآية نص فى تيمم الحاضر الصحيح للصلوات كلها. قال البيضاوي : وإنما كرره ، - يعنى مع ما فى النساء - ليتصل الكلام فى بيان أنواع الطهارة. هـ.

ثم قال تعالى : ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ حتى يكلفكم بالطهارة فى المرض أو الفقد من غير انتقال للتيمم ، وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ أي : ينظفكم بالماء أو بدله ، أو يطهركم من الذنوب ، فإن الذنوب تذهب مع صب الماء فى كل عضو ، كما فى الحديث ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ بشرعه ، ما هو مطهرة لأبدانكم ، ومكفرة لذنوبكم ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نعمه فيزيدكم من فضله.

الإشارة : كما أمر الحق جل جلاله بتطهير الظاهر لدخول حضرة الصلاة ، التي هل محل المناجاة ومعدن المصافاة ، أمر أيضا بتطهير الباطن من لوث السهو والغفلات ، فمن طهر ظاهره من الأوساخ والنجاسات ، ولوّث باطنه بالوساوس والغفلات ، كان بعيدا من حضرة الصلاة إذ لا عبرة بحركة الأبدان ، وإنما المطلوب حضور الجنان.

قال القشيري : وكما أن للظاهر طهارة فللسرائر طهارة ، فطهارة الظاهر بماء السماء ، أي : المطر ، وطهارة القلوب بماء الندم والخجل ، ثم بماء الحياء والوجل ، ويجب غسل الوجه عند القيام إلى الصلاة ، ويجب - فى بيان الإشارة - صيانة الوجه عن التبذل للأشكال عند طلب خسائس الأغراض ، وكما يجب مسح الرأس ، يجب صونه عن التواضع لكل أحد - أي : فى طلب الحظوظ والأغراض - وكما يجب غسل الرجلين فى الطهارة الظاهرة ، يجب صونها - فى الطهارة الباطنة - عن التنقل فيما لا يجوز هـ.

وقال عند قوله : وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا : وكما يجب طهارة الأعلى ، أي : الظاهر ، فيقتضى غسل

جميع البدن ، فقد يقع للمريد فترة – توجب عليه الاستقصاء فى الطهارة الباطنية – فذلك تجديد عقد وتأكيد عهد ، وكما أنه إذا لم يجد المتطهر الماء ففرضه التيمم ، فكذلك إذا لم يجد المريد من يفيض عليه صوب همته ، ويغسله ببركات إشارته ، اشتغل بما ينشر له من اقتفاء آثارهم ، والاسترواح إلى ما يجد من سالف سيرتهم ، ومأثور حكايتهم. هـ.

قلت : محصل كلامه أن من سقط على شيخ التربية ، كان كمن وجد الماء فاستعمل الطهارة الأصلية الحقيقية ، ومن لم يسقط على شيخ التربية ، كان كالمستعمل للطهارة الفرعية المجازية وهى التيمم ، وإلى ذلك أشار الغزالي ، لما سقط على الشيخ ، ولامه ابن العربي الفقيه على التجريد ، فقال :

قد تيممت بالصّعيد زمانا والآن قد ظفرت بالماء

من سرى مطبق الجفون وأضحى فاتحا لا يردّها للعماء

(۱۳/۲)

البحر المديد ، ج ۲ ، ص : ١٤

ثم قال ، لمّا طلع قمر السّعادة فى ملك الإرادة وأشرقت شمس الوصول على أفق الأصول :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل وملت إلى علياء أول منزل

فنادتنى الأوطان أهلا ومرحبا ألا أيها السّارى رويدك فانزل

غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد لغزلى نسّاجا فكسّرت مغزلى

ثم ذكّرهم الحق جل جلاله العهد الذي أخذه عليهم فى الجهاد والطاعة ، حين بايعوا نبيه – عليه الصلاة السّلام – فى العقبة وغيرها ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٧]

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٧)

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بالهداية والعز والنصر ، وَاذكروا مِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ حين بايعتم نبيه فى بيعة العقبة وبيعة الرضوان على الجهاد وإظهار الدين ، وعلى السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، حين قُلْتُمْ له : سَمِعْنا وَأَطَعْنا فيما تأمرنا به فى عسرنا ويسرنا ، فى منشطنا ومكر هنا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فى نقض العهود ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي : خفياتها ، فيجازيكم عليها ، فضلا عن جليات أعمالكم ، والمقصود : الترغيب فى الجهاد الذي هو من كمال الدين.

الإشارة : يقال للفقراء الذين منّ اللّه عليهم بصحبة شيوخ التربية ، وأخذوا عنهم العهد ألا يخالفوهم : اذكروا نعمة اللّه عليكم ، حيث يسّر لكم من يسيركم إلى حضرة ربكم ، ويعرفكم به ، وغيركم يقول :

إنه معدوم ، أو خفى لا يعرفه أحد ، وهذا الكنز الذي سقطتم عليه ، قلّ من وجده ، واذكروا أيضا ميثاقه الذي واثقه عليكم ألا تخالفوهم ، ولو أدى الأمر إلى حتف أنفكم.

كان شيخ شيوخنا - سيدى العربي بن عبد اللّه ، يقول : الفقير الصادق ، هو الذي إذا قال له شيخه : ادخل فى عين الإبرة ، يقوم مبادرا يحاول ذلك ، ولا يتردد. وقال أيضا : (صاحبى هو الذي نقتله بشعرة) ، وقد تقرر أن من قال لشيخه : لم ، لا يفلح ، وهذا أمر مقرر فى علم التربية كما فى قضية الخضر مع سيدنا موسى - عليه السّلام - .

واتقوا اللّه فى اعتقاد مخالفتهم سرا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ فإن الاعتراض سرا أقبح لأنه خيانة ، فليبادر المريد بالتوبة منه ويغسله من قلبه. واللّه تعالى أعلم.

(١٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٥

ولما كان الجهاد لا يقوم إلا بنصب الإمام ، ذكر ما يتعلق به من العدل فى الأحكام ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٨ الى ١٠]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (١٠)

قلت : (وعد) : يتعدى إلى مفعولين ، وحذف هنا الثاني ، أي : وعدهم أجرا عظيما ، دل عليه الجملة بعده.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عامّ أريد به خاص ، وهم أولوا الأمر منهم ، الذين يلون الحكم بين الناس ، وما تقدم فى سورة النساء «١» باق على عمومه ، أي : كُونُوا قَوَّامِينَ على من تحت حكمكم ، راعين لهم فإنكم مسئولون عن رعيتكم ، وكونوا مخلصين لِلَّهِ فى قيامكم وولايتكم ، شُهَداءَ على أنفسكم بالعدل ، تشهدون عليها بالحق إن توجه عليها ، ولا تمنعكم الرئاسة من الإنصاف فى الحق ، إن توجه عليكم ، أو على أقاربكم وأصدقائكم ، ولا على عدوكم وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ أي : ولا يحملنكم شَنَآنُ قَوْمٍ أي : شدة بغضهم لكم ، عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا فيهم ، فتمنعوهم من حقهم ، أو تزيدوا فى نكالهم ، تشفيا وغيظا.

اعْدِلُوا هُوَ أي : العدل أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ، قال البيضاوي : صرح لهم بالأمر بالعدل ، وبيّن أنه بمكان من التقوى بعد ما نهاهم عن الجور ، وبين أنه مقتضى الهوى. فإذا كان هذا العدل مع الكفار ، فما بالك مع المؤمنين؟.

هـ وَاتَّقُوا اللَّهَ ولا تراقبوا سواه ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ فيجازى كلّا على عمله ، من عدل أو جور.
ثم ذكر ثواب من امتثل ، فقال : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ، وأفضل الأعمال : العدل فى الأحكام. قال عليه الصلاة السّلام : «المقسطون على منابر من نور يوم القيامة» «٢» ... الحديث ، وهو من السبعة الذين يظلهم اللّه فى ظله.
ثم ذكر وعيد ضدهم ، فقال : وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ كما هو عادته تعالى ، يشفع بضد الفريق الذي يذكر أولا ، وفاء لحق الدعوة ، وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطييب لقلوبهم.
وهذه الآية فى مقابلة قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ «٣» وتكميل لها. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) فى قوله تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ... الآية ١٣٥.
(٢) أخرجه مسلم فى (الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل ..) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص.
(٣) من الآية ٥٨ من سورة النساء.

الإشارة : أمر الحق جل جلاله شيوخ التربية أن يعدلوا بين الفقراء فى النظرة والإمداد ، ولا يحملهم سوء أدب أحدهم ، أو قلة محبته وصدقه ، أن يبعده أو يمقته لأن قلوبهم صافية ، لا تحمل الكدر ، فهم يحسنون إلى من أساء إليهم من العوام ، فضلا عن أصحابهم فهم مأمورون بالتسوية بينهم فى التذكير والإمداد. واللّه تعالى يقسم بينهم على قدر صدقهم ومحبتهم ، كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنما أنا قاسم واللّه معطى» أي : إنما أنا أبين كيفية التوصل إلى الحق ، واللّه - تعالى - يتولى إعطاء ذلك لمن يشاء من خلقه ، فالأنبياء والأولياء مثلهم فى بيان الطريق بالوعظ والتذكير ، كمن يبين قسمة التركة بالقلم ، والحاكم هو الذي يوصل إلى كل واحد من الورثة ما كان ينوبه فى التركة ، كذلك المذكّر والمربى ، يبين المقامات ، واللّه يعطى ذلك بحكمته وفضله. واللّه تعالى أعلم.
ثم أمر نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم بشكر نعمة حفظه ورعايته ، وتنسحب على الأمراء من بعده ، إذ لا يخلو أحد منهم من عدو أو حاسد ، فقال :
[سورة المائدة (٥) : آية ١١]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بحفظه إياكم من عدوكم إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أي : حين همّ الكفار أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ بالقتل ، فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، ولما كانت مصيبة قتل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم - لو قتل - تعمّ المؤمنين كلهم ، خاطبهم جميعا ، وهي إشارة إلى ما همت به بنو قريظة ، من قتله صلّى اللّه عليه وسلّم ، وذلك أنه صلّى اللّه عليه وسلّم أتى بنى قريظة ، ومعه الخلفاء الأربعة يستعينهم فى دية رجلين مسلمين ، قتلهما عمرو بن أمية الضمري ، خطأ ، يظنهما مشركين ، فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، قد آن لنا أن نعينك فاجلس حتى تطعم ، فأجلسوه ، وهموا بقتله ، فعمد عمرو بن جحاش إلى رحى عظيمة ليطرحها عليه ، فأمسك اللّه يده ، ونزل جبريل فأخبره ، فخرج النّبى صلّى اللّه عليه وسلّم إلى المدينة ولحقه أصحابه ، وهذا كان سبب قتلهم فى غزوة بنى قريظة.

وقيل : نزلت فى قضية غورث ، وذلك أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان ببطن نخلة حاصرا لغطفان ، فقال رجل منهم : هل لكم فى أن أقتل محمدا فأفتك به؟ قالوا : وددنا ذلك. فأتى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم متقلدا سيفه ، فوجد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم نازلا تحت شجرة قد تفرق أصحابه عنه ، وقد علق سيفه فى الشجرة ، فسله الأعرابى وقال : من يمنعك منى؟ وفى رواية : وجد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم نائما فاستل السيف ، فما استيقظ النبي إلا والسيف فى يد الأعرابى ، فقال : من يمنعك منى يا محمد؟ فقال : «اللّه» ، فأسقطه جبريل من يده ، وأخذه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : «وأنت ، من يمنعك منى؟» فقال : كن خير آخذ ، فعفى عنه - عليه الصلاة السّلام «١» - . زاد البيضاوي : أنه أسلم.

---

(١) أخرجه القصة : البخاري فى (الجهاد ، باب من علق سيفه بالشجر) وفى مواضع أخرى ، ومسلم فى (الفضائل ، باب توكله صلّى اللّه عليه وسلّم على اللّه) عن جابر رضي اللّه عنه.

وقيل نزلت فى صلاة الخوف حين همّ المشركون أن يغيروا على المسلمين فى الصلاة. فالله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى : وَاتَّقُوا اللَّهَ فلا تشهدوا معه سواه ، وتوكلوا عليه يكفكم أمر عدوكم ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ فإنه يكفيكم أمرهم جلبا ودفعا ، من توكل على اللّه كفاه.

الإشارة : ما جرى على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من قصد القتل والإذاية يجرى على خواص ورثته ، وهم الأولياء - رضى اللّه عنهم - والعلماء الأتقياء ، فقد همّ قوم بقتلهم وسجنهم وضربهم ، وإجلائهم من أوطانهم ، فكف اللّه أيديهم عنهم ، وكفاهم شرهم ، لمّا صححوا التوكل عليه ، وأخلصوا الوجهة إليه ، ومنهم من لحقه شيء من ذلك ، كما لحق بعض الأنبياء - عليهم السّلام - زيادة فى شرفهم وكرامتهم ، جمع اللّه لهم بين مقام الشهادة والصديقية ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

ثم ذكر وبال من نقض العهد ترهيبا وترغيبا ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ١٢ الى ١٣]

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَبَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)

قلت : النقيب : هو كبير القوم والمقدّم عليهم ، ينقب عن أحوالهم ويفتش عليها. والخائنة : إما مصدر كالعاقبة واللاغية ، أو اسم فاعل ، والتاء للمبالغة ، مثل : راوية ونسّابة وعلّامة.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ على أن يجاهدوا مع موسى - عليه السّلام - وينصروه ، ويلتزموا أحكام التوراة ، وَبَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً اخترناهم وقدمناهم ، على كل سبط نقيبا ينقب عن أحوال قومه ، ويقوم بأمرهم ، ويتكفل بهم فيما أمروا به.

روى أن بنى إسرائيل لمّا خرجوا عن فرعون ، واستقروا بأوائل الشام ، أمرهم اللّه تعالى بالمسير إلى بيت المقدس ، وهى فى الأرض المقدسة ، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون ، وقال : إنى كتبتها لكم دارا وقرارا ، فاخرجوا إليها ، وجاهدوا من فيها من العدو ، فإنى ناصركم. وقال لموسى عليه السّلام : خذ من قومك اثنى عشر نقيبا ، من كل

سبط نقيبا ، يكون أمينا وكفيلا على قومه بالوفاء على ما أمروا به. فاختار موسى النقباء ، فسار بهم حتى إذا دنوا من أرض كنعان ، وهى أريحا ، بعث هؤلاء النقباء يتجسسون الأخبار ، ونهاهم أن يحدثوا قومهم بما يرون ، فلما قربوا من الأرض المقدسة رأوا أجراما عظاما وبأسا شديدا ، فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم ، إلا كالب بن يوقنا - من سبط يهوذا - ويوشع بن نون - من سبط إفرائيم بن يوسف - ثم

قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ إلى آخر ما يأتى من قصتهم. وأما ما ذكره الثعلبي هنا ، وغيره ، من قصة عوج بن عناق ، فقال القسطلاني : هى باطلة من وضع الزنادقة ، فلا يجوز ذكرها فى تفسير كتاب اللّه الصادق المصدوق.

وَقالَ اللَّهُ لبنى إسرائيل : إِنِّي مَعَكُمْ بالنصر والمعونة لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي التي أرسلت بعد موسى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ أي : نصرتموهم وقويتموهم ، وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً بالإنفاق فى سبل الخير ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ أي : أستر عنكم ذنوبكم فلا نفضحكم بها ، وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ العهد المؤكد ، المعلق عليه هذا الوعد العظيم ، فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ أي : تلف عن وسط الطريق ، تلفا لا شبهة فيه ولا عذر معه ، بخلاف من كفر قبل أخذ العهد فيمكن أن تكون له شبهة ، ويتوهم له معذرة.

ثم إن بنى إسرائيل نقضوا المواثيق التي أخذت عليهم ، فكفروا وقتلوا الأنبياء ، قال تعالى : فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أي : طردناهم وأبعدناهم ، أو مسخناهم ، وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً أي : يابسة صلبة لا ينفع فيها الوعظ والتذكير ، أو رديّة مغشوشة بمرض الذنوب والكفر.

ثم بيّن نتيجة قسوة قلوبهم فقال : يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ لفظا أو تأويلا. ولا قسوة أعظم من الجرأة على تغيير كتاب اللّه وتحريفه ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ أي : تركوا نصيبا واجبا مما ذكروا به من التوراة.

فلو عملوا بما ذكّرهم اللّه فى التوراة ما نقضوا العهود وحرّفوا كلام اللّه من بعد ما علموه ، لكن رين الذنوب والانهماك فى المعاصي ، غطت قلوبهم فقست ويبست ، وَلا تَزالُ يا محمد تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ أي : خيانة مِنْهُمْ أو على طائفة خائنة منهم ، لأن الخيانة والغدر من عادتهم وعادة أسلافهم ، فلا تزال ترى ذلك منهم إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ لم يخونوا ، وهم الذين أسلموا منهم ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ حتى يأتيك أمر اللّه فيهم ، أو إن تابوا وآمنوا ، أو إن عاهدوا والتزموا الجزية ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ إلى عباده كيفما كانوا. ومن الإحسان إليهم :

جبرهم على الإيمان بالسيف وسوقهم إلى الجنة بسلاسل الامتحان.

الإشارة : قد أخذ اللّه على هذه الأمة أن يلتزموا أحكام القرآن ، ويحافظوا على مراسم الإسلام والإيمان ، ويجاهدوا نفوسهم فى تحصيل مقام الإحسان ، وبعث من يقوم ببيان شرائع الإسلام والإيمان ، ومن يعرف الطريق إلى مقام الإحسان ، وقال اللّه لهم : (إنى معكم) بالنصر والتأييد ، لئن أقمتم شرائع الإسلام ، وحققتم قواعد الإيمان ، وعظمتم من يعرفكم بطريق الإحسان ، لأغطين مساوئكم ، ولأمحقن دعاويكم ، فأوصلكم بما منى إليكم من الكرم

والجود ، ولأدخلنكم جنة المعارف تجرى من تحتها أنهار العلوم وأنواع الحكم ، فمن لم يقم بهذا ، أو جحده فقد ضل عن طريق الرشاد ، ومن نقض عهد الشيوخ المعرفين بمقام الإحسان ، فقد طرد وأبعد غاية الإبعاد ، وقسا قلبه بعد اللين. وقد ذكرنا فى تفسير الفاتحة الكبير معنى النقباء والنجباء وسائر مراتب الأولياء ، وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما ذكر نقض اليهود ذكر نقض النصارى ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ١٤]

وَمِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : وأخذنا أيضا عهدا وميثاقا من النصارى ، الذين سموا أنفسهم نصارى ادعاء لنصرة عيسى عليه السّلام ولم يقوموا بواجب ذلك عملا واعتقادا ، أخذناه عليهم بالتزام أحكام الإنجيل ، وأن يؤمنوا بالله وحده لا شريك له ، ولا صاحبة ولا ولد ، وأن يؤمنوا بمحمد - عليه الصلاة والسّلام - إن أدركوه ويتبعوه ، فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ أي : نسوا ما ذكرناهم به ، وتركوا حظا واجبا مما كلفوا به ، فَأَغْرَيْنا أي : سلطنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، فهم يقتتلون فى البر والبحر ، ويتحاربون إلى يوم القيامة ، فكل فرقة تلعن أختها وتكفرها ، أو بينهم وبين اليهود ، فالعداوة بينهم دائمة ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ بالجزاء والعقاب.

الإشارة : يؤخذ من الآية أن من نقض العهد مع اللّه بمخالفة ما أمره به أو نهاه عنه ، أو مع أولياء اللّه ، بالانتقاد عليهم وعدم موالاتهم ، ألقى اللّه فى قلب عباده العداوة والبغضاء له ، فيبغضه اللّه ، ويبغضه عباد اللّه ، ومن أوفى بما أخذه اللّه عليه من العهد بوفاء ما كلفه به ، واجتناب ما نهاه عنه ، وتودد إلى أوليائه ، ألقى اللّه فى قلب عباده المحبة والوداد ، فيحبه اللّه ، ويحبه عباد اللّه ، ويتعطف عليه أولياء اللّه ، كما فى الحديث : «إذا أحبّ اللّه عبدا نادى جبريل ، إنّ اللّه يحبّ فلانا فأحبّه ، فيحبّه جبريل.

ثم ينادى فى الملائكة : إن اللّه يحبّ فلانا فأحبّوه.

فيحبّه أهل السّماء ، ثم يلقى له القبول فى الأرض» «١» ... الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب المقة «المحبه» من اللّه) ومسلم فى (البر والصلة ، باب إذا أحب اللّه عبدا حببه إلى عباده) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠

ثم دعا أهل الكتابين إلى الإيمان برسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ١٥ الى ١٦]

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)

قلت : الضمير فى : (به) ، يعود إلى النور والكتاب ، ووحّده لأن المراد به شىء واحد ، لأن النور هو الكتاب المبين ، أو لأنهما جنس واحد.

يقول الحق جل جلاله : يا أَهْلَ الْكِتابِ اليهود والنصارى قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ كصفة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وآية الرجم التي فى التوراة ، وكبشارة عيسى بأحمد التي فى الإنجيل ، وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ مما تخفونه وتحرفونه ، فلم يخبر به ، ولم يفضحكم ، حيث لم يؤمر به ، أو عن كثير منكم ، فلا يؤاخذه بجرمه وسوء أدبه معه.

قَدْ جاءَكُمْ يا أهل الكتاب مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ ، عطف تفسير ، فالنور هو الكتاب المبين ، أو النور : محمد - عليه الصلاة السّلام - والكتاب المبين : القرآن لأنه الكاشف لظلمات الشك والضلال ، والواضح الإعجاز والبيان ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ أي : من اتبع رضى اللّه بالإيمان به ، والعمل بما فيه ، سُبُلَ السَّلامِ أي : طرق السلامة من العذاب ، أو طرق اللّه الموصلة إليه ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ من ظلمات الكفر ، إلى نور الإسلام بِإِذْنِهِ أي : بإرادته وتوفيقه ، وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أي :

طريق توصلهم إليه لاعوج فيها.

الإشارة : قد أطلع اللّه علماء الباطن على مقامات علماء الظاهر وأحوالهم وجل مساوئهم ، ولا سيما من كان عالما بالظاهر ثم انتقل إلى علم الباطن ، كالغزالي وابن عباد وغيرهما. فقد تكلم الغزالي فى صدر الإحياء مع علماء الظاهر ، ففضح كثيرا من مساوئهم. وكذلك ابن عباد فى شرح الحكم ، وعفوا عن كثير - فهم على قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وخواص ورثته ، لأنهم حازوا الوراثة كلها ، كما فى المباحث :

تبعة العالم فى الأقوال والعابد الزّاهد فى الأفعال

وفيهما الصّوفيّ فى السباق لكنّه قد زاد بالأخلاق

فالولى نور من نور اللّه ، وسر من أسراره ، يخرج به من سبقت له العناية من ظلمات الحجاب إلى نور الشهود ، ويهدى به من اصطفاه لحضرته تعالى طريق الوصول إليه. وبالله التوفيق.
ثم ذكر مساوئ أهل الكتاب وضلالتهم ، تحريضا على قتالهم إن لم يسلموا أو يعطوا الجزية ، فقال :
[سورة المائدة (٥) : آية ١٧]
لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)
يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، والقائل بهذه المقالة هى الطائفة اليعقوبية من النصارى ، كما تقدم. وقيل : لم يصرح بهذه المقالة أحد منهم. ولكن لزمهم حيث قالوا بأن اللاهوت حل فى ناسوت عيسى - مع أنهم يقولون الإله واحد ، فلزمهم أن يكون هو المسيح ، ولزمهم الاتحاد والحلول فنسب إليهم لازم قولهم ، توضيحا لجهلهم ، وتقبيحا لمعتقدهم.
ثم رد عليهم بقوله : قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أي : من يمنع من قدرته وإرادته شيئا ، إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ، وبيان الرد عليهم : أن المسيح مقدور ومقهور ، قابل للفناء كسائر الممكنات ، ومن كان كذلك فهو معزول عن الألوهية. ثم أزال شبهتهم بحجة أخرى فقال : وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما يتصرف فيهما كيف شاء ، يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فقدرته عامة فيخلق من غير أصل كالسموات والأرض ، ومن أصل كخلق ما بينهما ، وينشىء من أصل ليس هو جنسه كآدم وكثير من الحيوانات ، ومن أصل يجانسه ، إما من ذكر وحده كحواء ، أو من أنثى وحدها :
كعيسى ، أو منهما كسائر الناس. قاله البيضاوي.
الإشارة : قد رمى كثير من الأولياء المحققين بالاتحاد والحلول كابن العربي الحاتمي ، وابن الفارض ، وابن سبعين ، والششترى والحلاج ، وغيرهم - رضى اللّه عنهم - وهم برءاء منه. وسبب ذلك أنهم لما خاضوا بحار التوحيد ، وكوشفوا بأسرار التفريد ، أو أسرار المعاني قائمة بالأواني ، سارية فى كل شىء ، ماحية لكل شىء ، كما قال فى الحكم : «الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته» فأرادوا أن يعبروا عن تلك المعاني فضاقت عبارتهم عنها لأنها خارجة عن مدارك العقول ، لا تدرك بالسطور ولا بالنقول. وإنما هى أذواق ووجدان فمن عبّر عنها

بعبارة اللسان كفّر وزندق ، وهذه المعاني هى الخمرة الأزلية التي كانت خفية لطيفة ، ثم ظهرت محاسنها ، وأبدت أنوارها وأسرارها ، وهى أسرار الذات وأنوار الصفات ، فمن عرفها وكوشف بها. اتحد عنده الوجود ، وأفضى إلى مقام الشهود. وهى منزهة عن الحلول والاتحاد ، إذ لا ثانى لها حتى تحل فيه أو تتحد معه ، وقد أشرت إلى هذا المعنى فى تائيتى الخمرية ، حيث قلت :

تنزّهت عن حكم الحلول فى وصفها فليس لها سوى فى شكله حلّت

تجلّت عروسا فى مرائى جمالها وأرخت ستور الكبرياء لعزّتى

فما ظاهر فى الكون غير بهائها وما احتجبت إلا لحجب سريرتى

فمن كوشف بأسرار هذه الخمرة ، لم ير مع الحق سواه. كما قال بعض العارفين : (لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع فإنه لا غير معه حتى أشهده). ولو أظهرها اللّه تعالى للكفار لوجدوا أنفسهم عابدة لله دون شيء سواه ، وفى هذا المعنى يقول ابن الفارض على لسان الحقيقة :

فما قصدوا غيره وإن كان قصدهم سواى وإن لم يظهروا عقد نيّة

والنصارى - دمرهم اللّه فى مقام الفرق والضلال - حملهم الجهل والتقليد الردئ على مقالالتهم التي قالوا فى عيسى عليه السّلام.

ثم ذكر مقالة أخرى لليهود والنصارى ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ١٨]

وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ أي : أولاد بنيه فاليهود يقولون : نحن أولاد عزير ، والنصارى يقولون : نحن أشياع عيسى. أو : فينا أبناء اللّه ونحن أحباؤه ، أو : نحن مقربون عند اللّه كقرب الولد من والده. وهذه دعوى ردّها عليهم بقوله : قُلْ لهم : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، وهل رأيتم والدا يعذب ابنه ، وقد عذبكم فى الدنيا بالمسخ والقتل والذل ، وقد اعترفتم أنه يعذبكم بالنار أياما معدودة ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ أي : ممن خلقه اللّه ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ بفضله وهو من آمن منهم بالله ورسله ، وَيُعَذِّبُ مَنْ

يَشاءُ

بعدله وهو من مات منهم على كفره ، فأنتم كسائر البشر يعاملكم معاملتهم ، لا مزية لكم عليهم ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما كلها سواء فى كونها ملكا وعبيدا اللّه - سبحانه - وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقى.

الإشارة : قوله تعالى : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ

أي : فلو كنتم أحباءه لما عذبكم لأن الحبيب لا يعذب حبيبه ، حكى عن الشبلي رضى اللّه عنه أنه كان إذا لبس ثوبا جديدا مزقه ، فأراد ابن مجاهد أن يعجزه بمحضر الوزير ، فقال له :

أين تجد فى العلم فساد ما ينتفع به؟ فقال له الشبلي : أين فى العلم : فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ «١»؟

فسكت ، فقال له الشبلي : أنت مقرىء عند الناس ، فأين فى القرآن : إن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فسكت ابن مجاهد ، ثم قال : قل يا أبا بكر ، فقرأ له الشبلي قوله تعالى وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، فقال ابن مجاهد : كأنى واللّه ما سمعتها قط. هـ.

وفى الحديث : «إذا أحب اللّه عبدا لا يضرّه ذنب» ، ذكره فى القوت. وفى المثل الشائع : (من سبقت له العناية لا تضره الجناية). وفى الصحيح : «لعلّ اللّه اطّلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم» «٢» ، وسببه معلوم ، وفى القوت عن زيد بن أسلم : (إن اللّه - عز وجل - ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له : اصنع ما شئت فقد غفرت لك). وفى القصد للشيخ أبى الحسن الشاذلى - رضي اللّه عنه - قال : يبلغ الولي مبلغا يقال له :

أصحبناك السلامة ، وأسقطنا عنك الملامة ، فاصنع ما شئت. هـ.

وليس معناه إباحة الذنوب ، ولكنه لمّا أحبه عصمه أو حفظه ، وإذا قضى عليه بشيء ألهمه التوبة ، وهى ماحية للذنوب ، وصاحبها محبوب ، قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ. واللّه تعالى أعلم.

ثم دعاهم إلى اتباع رسوله - عليه الصلاة والسّلام ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ١٩]

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)

قلت : جملة (يبين) : حال ، أي : جاءكم رسولنا مبينا لكم ، و(على فترة) : متعلق بجاء ، أي : جاءكم على حين فترة وانقطاع من الوحى ، و(أن تقولوا) : مفعول من أجله ، أي : كراهية أن تقولوا.

يقول الحق جل جلاله : يا أَهْلَ الْكِتابِ اليهود والنصارى قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم يُبَيِّنُ لَكُمْ ما اختلفتم فيه ، أو ما كتمتم من أوامر الدين ، أو مطلق البيان. جاءكم عَلى حين فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ

---

(١) من الآية ٣٣ من سورة (ص).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري فى (المغازي - باب فضل من شهد بدرا) ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر) عن سيدنا على رضي اللّه عنه.

(٢٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٤

وانقطاع من الوحى ، أرسلناه كراهية أَنْ تَقُولُوا يوم القيامة : ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ ، فتعتذروا بذلك ، فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ فلا عذر لكم ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على الإرسال من غير فترة ، كما فى أنبياء بنى إسرائيل فقد كان بين موسى وعيسى ألف نبى ، وبينهما ألف وسبعمائة سنة ، وعلى الإرسال على الفترة كما بين عيسى ومحمد صلّى اللّه عليه وسلّم. كان بينهما ستمائة سنة ، أو خمسمائة سنة وتسع وستون سنة. قاله البيضاوي.

والذي فى الصحيح : أن الفترة ستمائة سنة «١» ، وفى الصحيح أيضا عنه - عليه الصلاة السّلام - : «أنا أولى النّاس بعيسى فى الأولى والآخرة وليس بيننا نبى» «٢». وهو يرد ما حكاه الزمخشري وغيره : أن بينهما أربعة أنبياء : ثلاثة من بنى إسرائيل وواحد من العرب ، وهو خالد بن سنان العبسي لأن النكرة فى سياق النفي تعم. قاله المحشى.

الإشارة : ظهور أهل التربية بعد زمان الفترة ، وخمود أنوار الطريقة وأسرار الحقيقة ، حجة على العباد ، ونعمة كبيرة على أهل العشق والوداد ، من انتكب عنهم لقى اللّه بقلب سقيم ، وقامت بهم الحجة عليهم عند الملك الكريم ، ومن اتبعهم وحط رأسه لهم فاز بالخير الجسيم ، والنعيم المقيم حيث لقى اللّه بقلب سليم ، وقد ظهروا فى زماننا هذا بعد اندراس أنوار الطريقة ، وخمود أسرار الحقيقة ، فجدد اللّه بهم الطريقة ، وأحيا بهم أسرار الحقيقة ، منهم شيخنا أبو المواهب صاحب العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، البحر الفياض ، سيدى محمد بن أحمد البوزيدى الحسنى ، وشيخه القطب الواضح ، والجبل الراسخ ، شيخ المشايخ ، مولاى العربي الدرقاوى الحسنى ، أطال اللّه بركاتهما للأنام ، فقد تخرج على أيديهما الجم الغفير من الأولياء. وليس الخبر كالعيان. وبالله التوفيق.

ثم ذكّرهم بالنعم على لسان نبيه موسى - عليه السّلام - فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٢٠]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (٢٠)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ : يا بنى إسرائيل اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ يسوسونكم ، كلما مات نبى خلفه نبى ، فقد شرفكم بهم دون غيركم ، إذ لم يبعث فى أمة

ما بعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء ، وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً أي : جعل منكم ملوكا ، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء ، فكان كل نبى معه ملك ينفذ أحكامه ، فكانت دار النبوة ودار المملكة معلومة ، يخلف بعضهم بعضا فى النبوة والملك ، استمر ذلك لهم ، حتى قتلوا يحيى ، وهموا بقتل عيسى ، فنزع اللّه منهم الملك ، وأنزل عليهم الذل والهوان.

وقيل : لمّا كانوا مملوكين فى أيدى القبط ، فأنقذهم اللّه وجعلهم مالكين لأنفسهم ، سماهم ملوكا.

---

(١) جاء ذلك فيما أخرجه البخاري فى (مناقب الأنصار - باب إسلام سلمان الفارسي رضي اللّه عنه) عن سلمان قال : (فتره بين عيسى ومحمد صلّى اللّه عليهما - ستمائة سنة).

(٢) أخرجه البخاري فى (كتاب الأنبياء ، باب : واذكر فى الكتاب مريم) ومسلم فى (الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السّلام) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢/٢٤)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٥

وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ من فلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، ونحوها ، أو المراد عالمى زمانهم ، وعن أبى سعيد الخدري قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة يكتب ملكا» «١». وقال ابن عباس : (من كان له بيت وخادم وامرأة فهو ملك) ، وعن أبى الدرداء قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «من أصبح معافى فى بدنه ، آمنا فى سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ، يكفيك منها ، يا ابن آدم ، ما سدّ جوعتك ، ووار عورتك ، فإن كان بيت يواريك فذاك ، وإن كانت دابة فبخ بخ ، فلق الخبز ، وماء الجر «٢» وما فوق الإزار حساب عليك» «٣».

وقال الضحاك : (كانت منازلهم واسعة ، فيها مياة جارية ، فمن كان مسكنه واسعا وفيه ماء جار ، فهو ملك).

وقال قتادة : كانوا أول من ملك الخدم ، وأول من سخر لهم الخدم من بنى آدم. هـ.

الإشارة : كل من رزقه اللّه من يأخذ بيده ومن يستعين به على ذكر ربه ، فليذكر نعمة اللّه عليه ، فقد أسبغ اللّه عليه نعمه ظاهرة وباطنة. وكل من ملك نفسه وهواه ، وأغناه اللّه عما سواه ، فهو ملك من الملوك. وكل من خرجت فكرته عن دائرة الأكوان ، واتصل بفضاء الشهود والعيان ، فقد آتاه اللّه ما لم يؤت أحدا من العالمين. وقد كنت ذات يوم جالسا فى الجامع الأعظم من مدينة تطوان ، فانتبهت فإذا مصحف إلي جنبى ، فقال لى الهاتف :

انظر تجد مقامك ، فأعرضت عنه ، فأعاد عليّ الهاتف ثلاث مرات ، فرفعته ، ونظرت ، فإذا فى أول الورقة :

وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ ، فحمدت اللّه تعالى وأثنيت عليه.

ثم أمرهم بجهاد عدوهم ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٢١ الى ٢٦]

يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (٢١) قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ (٢٢) قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ (٢٤) قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (٢٥)

قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (٢٦)

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور لابن أبى حاتم ، عن أبى سعيد الخدري.

(٢) الجرّ والجرار : جمع جرة : وهو الإناء المعروف من الفخار.

(٣) أخرجه إلى قوله : (حيزت له الدنيا) البخاري فى الأدب المفرد (باب من أصبح أمنا فى سربه) والترمذي فى (الزهد باب ٣٤) وابن ماجه فى (الزهد ، باب القناعة)

قلت : (فتنقلبوا) : منصوب بأن فى جواب النهى ، أو عطف على المجزوم ، و(ما داموا) : بدل من (أبدا) بدل بعض ، و(أخى) يحتمل النصب عطف على (نفسى) ، أو رفع عطف على (أن) مع اسمها ، أو مبتدأ حذف خبره ، أو جر عطف على ياء المضاف ، على مذهب الكوفيين.

يقول الحق جل جلاله حاكيا عن موسى - عليه السّلام - : يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ أرض بيت المقدس ، قدسها اللّه ، حيث جعلها قرار أنبيائه ومسكن المؤمنين. وفى مدحها أحاديث كثيرة. وقيل : الطور وما حوله ، أو دمشق وفلسطين ، أو الشام ، الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ أي : التي كتب اللّه فى اللوح المحفوظ ، أنها لكم مسكنا إن جاهدتم وأطعتم نبيكم ، وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ أي : لا ترجعوا مدبرين هاربين خوفا من الجبابرة ، أو : لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان ، وعدم الوثوق بالله ، فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ

الدنيا والآخرة. روى أنهم لما سمعوا حالهم من النقباء بكوا ، وقالوا : ليتنا متنا بمصر ، تعالوا نجعل علينا رأسا ينصرف بنا إلى مصر ، ثم قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ أقوياء متغالبين ، لا طاقة لنا بمقاومتهم ، وهم قوم من العمالقة ، من بقية قوم عاد ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها بأمر سماوى ، أو يسلط عليهم من يخرجهم من غيرنا ، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ فيها.

قالَ رَجُلانِ كالب بن يوقنّا ، ويوشع بن نون - ابن اخت موسى وخادمه - مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ اللّه ، أو رجلان من الجبابرة أسلما وصارا إلى موسى ، وعليه قراءة يخافان بضم الياء ، أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا بالإسلام والتثبت ، قالا : ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ أي : باب المدينة ، أي : باغتوهم بالقتال ، فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ أي : ظاهرون عليهم ، فإنهم أجسام لا قلوب فيها. يحتمل أن يكون علمهما بذلك من قبل موسى ، أو من قوله تعالى : الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، أو من عادته سبحانه فى نصر رسله وأوليائه ، وما عهدا من صنيعه تعالى مع موسى من قهر أعدائه. ثم قال : وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ به ، ومصدقين لوعده.

قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها ، وهذا من تعنتهم وعصيانهم ، وأشنع منه قولهم : فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ، قالوه استهزاء بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما ، وانظر فضيلة الأمة

المحمدية ، وكمال أدبها مع نبيها - عليه الصلاة والسّلام - فإن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال يوم الحديبية لأصحابه حين صد عن البيت : إنى ذاهب بالهدى فناحره عند البيت ، فقال المقداد بن الأسود : أما واللّه ما تقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ، ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك ، ومن بين يديك ومن خلفك ، ولو خضت البحر لخضناه معك ، ولو تسنمت جبلا لعلوناه معك ، ولو ذهبت بنا إلى برك الغماد لتبعناك ، فلما سمعها أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم تابعوه على ذلك ، فسر صلّى اللّه عليه وسلّم بذلك وأشرق وجهه «١». هـ.

ولما سمع موسى عليه السّلام مقالة قومه له غضب ، ودعا ربه فقال : رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي أي :

لا أثق إلا بنفسي وأخى ، ولا قدرة لى على غيرهما ، والرجلان المذكوران ، وإن كانا موافقين له ، لكنه لم يوثق عليهما ، لما كبد من تلوّن قومه ، ثم دعا عليهم فقال : فَافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ أي : احكم بيننا وبينهم بما يستحق كل واحد منا ومنهم ، أو بالتبعيد بيننا وبينهم ، وتخليصنا من صحبتهم.

روى أنه لما دعا عليهم ظهر فوقهم الغمام ، وأوحى اللّه إليه : يا موسى إلى متى يعصى هذا الشعب؟ لأهلكنهم جميعا ، فشفع فيهم موسى عليه السّلام فقال اللّه تعالى له : قد غفرت لهم بشفاعتك ، ولكن بعد ما سميتهم فاسقين ، ودعوت عليهم ، بي حلفت لأحرمنّ عليهم دخول الأرض المقدسة ، وذلك قوله تعالى : قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ يحتمل أن يكون «أربعين» متعلقا بمحرمة ، فيكون التحريم عليهم مؤقتا غير مؤبد فيوافق ظاهر قوله : الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ.

ويؤيد هذا ما روى أن موسى - عليه السّلام - لما خرج من التيه ، سار بمن بقي معه من بنى إسرائيل ، ويوشع على مقدمته ، ففتح بيت المقدس ، فبقى فيها ما شاء اللّه ، ثم قبض. ويحتمل أن يكون «أربعين» متعلقا ب (يتيهون) ، فيكون التحريم مؤبدا ، وعلى هذا لم يبق أحد ممن دخل التيه إلا يوشع وكالب ، ولم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال له : (اذهب أنت وربك ...) ، بل كلهم هلكوا فى التيه ، وإنما دخلها أشياعهم.

روى أن موسى عليه السّلام لما حضره الموت فى التيه أخبرهم بأن يوشع بعده نبى ، وأن اللّه أمره بقتال الجبابرة ، فسار بهم يوشع ، وقاتل الجبابرة ، وكان القتال يوم الجمعة ، فبقيت منهم بقية ، وكادت الشمس أن تغرب ليلة السبت ، فخشى أن يعجزوه ، فقال : اللهم اردد الشمس علىّ ، وقال للشمس : إنك فى طاعة اللّه وأنا فى طاعته ، فوقفت مثل يوم حتى قتلهم ، ثم قتل ملوك الأرمانيين ، وقتل من ملوك الشام أحدا وثلاثين ملكا ، فصارت الشام كلها لبنى إسرائيل ، وفرّق عماله فى نواحيها ، وبقيت بنو إسرائيل فى التيه أربعين سنة يتيهون فى الأرض فى ستة فراسخ ، بين فلسطين وأيلة ، متحيرين ، يسيرون من الصباح إلى المساء جادين فى السير ، فإذا هم بحيث ارتحلوا عنه ، ثم

---

(١) المشهور أن قول المقداد كان يوم بدر. وقال العلامة ابن كثير : وهذا - إن كان محفوظا يوم الحديبية - فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ ، كما قاله يوم بدر. انظر : تفسير ابن كثير.

يسيرون بالليل كذلك فيصبحون حيث ارتحلوا ، وكان الغمام يظلهم من الشمس وعمود من نور يطلع بالليل فيضىء لهم ، وكان طعامهم المن والسلوى ، وماؤهم من الحجر الذي يحمله موسى ، واختلف فى الكسوة ، فقيل : أبقى اللّه كسوتهم معجزة لموسى ، وقيل : كساهم مثل الظفر. والأكثر أن موسى وهارون كانا معهم زيادة فى درجاتهما ، وكان عقوبة لقومهما وأنهما ماتا فيه ، مات هارون أولا ودفنه أخوه فى كهف ، وقيل : رفع على سرير فى قبة ، ثم مات موسى - عليه السّلام - ودفن بقرب من

الأرض المقدسة ، رمية بحجر ، كما فى الحديث ، ثم دخل يوشع الأرض المقدسة بعد ثلاثة أشهر.
واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى لموسى عليه السّلام : فَلا تَأْسَ أي : لا تحزن ، عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ ، خاطبه الحق تعالى بذلك لمّا ندم على الدعاء عليهم ، فقال له : إنهم أحق بذلك لفسقهم وعصيانهم.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله للمتوجهين إليه من المريدين : ادخلوا الحضرة المقدسة التي كتب اللّه لكم ، إن دمتم على جهاد أنفسكم ، وصدقتم فى طلب ربكم ، وبقيتم فى تربية شيوخكم ، ولا ترتدوا على أدباركم بالرجوع عن صحبة شيوخكم من الملل مع طول الأمل ، فتنقلبوا خاسرين ، فإن حضرتى محفوفة بالمكاره ، والطريقة الموصلة إليها مرصودة للقواطع والعوائق ، فإن كان ممن لم يكتب له فيها نصيب ، قال : لن ندخلها أبدا مادام القواطع فيها ، ورجع على عقبيه ، يتيه فى مهامه شكوكه وأوهامه ، وإن كان ممن سبقت له العناية وحقت به الرعاية قال :

ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فيبادر إلى قتل نفسه ، من غير تأن ولا خوف ولا فزع ، فحضرة التحقيق لا ينالها إلا الشجعان ، ولا يسكنها إلا الأكابر من أهل العرفان ، وإلى ذلك أشار صاحب العينية بقوله :

وإيّاك جزعا لا يهولك أمرها فما نالها إلا الشّجاع المقارع

وقال الورتجبي فى قوله تعالى : لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي : من بلغ عين التمكين ملك نفسه وملك نفوس المريدين لأنه عرفها بمعرفة اللّه ، وقمعها من اللّه بسلطان سائس قاهر ، من نظر إليه يفزع من اللّه ، لا يطيق عصيانه ظاهرا وباطنا ، فأخبر عليه السّلام عن محلّ تمكينه وقدرته على نفسه ونفس أخيه ، وأعلمنا أن بينهما اتحادا ، بحيث إنه إذا حكم على نفسه صار «١» نفس أخيه مطمئنة طائعة لله بالانفعال. قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «المؤمنون كنفس واحدة» «٢». هـ.

ثم تكلم الحق جل جلاله على بقية حفظ الأبدان ، فبيّن أول من سنّ القتل ووبال من تبعه ، فقال :

---

(١) هكذا فى الأصول وكذا فى تفسير الورتجبي ، وأرى أنها (صارت). [.....]

(٢) أخرجه مسلم فى (البر والصلة ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم) عن النعمان بن بشير ، بلفظ : (المؤمنون كرجل واحد ..).

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ (٣٠)

قلت : الضمير فى (عليهم) : لبنى إسرائيل لتقدم شأنهم ، ولاختصاصهم بعلم قصة ابني آدم ، ولإقامة الحجة عليهم بهمهم ببسط اليد إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

يقول الحق جل جلاله : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ أي : على بنى إسرائيل إذ الكلام كان معهم ، أو على جميع الأمة ، أو على جميع الناس ، إذ هو أول الكلام على بقية حفظ الأبدان - نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ وهو قابيل وهابيل بِالْحَقِّ أي :

تلاوة ملتبسة بالحق ، أو نبأ ملتبسا بالحق موافقا لما فى كتب الأوائل.

إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وهو هابيل ، وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ وهو قابيل ، وسبب تقريبهما القربان أن آدم - عليه السّلام - كان يولد له من حواء توأمان فى كل بطن : غلام وجارية ، إلا شيثا ، فإنه ولد منفردا ، وكان جميع ما ولدته حواء أربعين ، بين ذكر وأنثى ، فى عشرين بطنا ، أولهم قابيل ، وتوأمته أقليما ، وآخرهم عبد المغيث ، ثم بارك اللّه فى نسل آدم. قال ابن عباس : لم يمت آدم حتى بلغ ولده ، وولد ولده ، أربعين ألفا ، ورأى فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد ، وكان غشيان آدم لحواء بعد مهبطهما إلى الأرض ، وقال ابن إسحاق عن بعض العلماء بالكتاب الأول : إن آدم كان يغشى حواء فى الجنة ، قبل أن يصيب الخطيئة ، فحملت فى الجنة بقابيل وتوأمته ، ولم تجد عليهما وحما ولا غيره ، وحملت فى الأرض بهابيل وتوأمته ، فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم.

وكان آدم إذا كبر ولده يزوج غلام هذا البطن بجارية بطن آخر ، فكان الرجل يتزوج أىّ أخواته شاء إلا توأمته ، لأنه لم يكن نساء يومئذ ، فأمر اللّه تعالى آدم أن يزوج قابيل لوداء توأمة هابيل ، وينكح هابيل أقليما أخت قابيل ، وكانت أحسن الناس ، فرضى هابيل وسخط قابيل ، وقال : أختى أحسن ، وهى من ولادة الجنة ، وأنا أحق بها ، فقال له أبوه : لا تحل لك ، فأبى ، فقال لهما آدم : قربا قربانا ، فأيكما قبل قربانه فهو أحق بها.

وكان قابيل صاحب زرع ، فقرّب حملا من زرع ردىء ، وأضمر فى نفسه : لا أبالى قبل أو لا ، لا يتزوج أختى أبدا ، وكان هابيل صاحب غنم ، فقرّب أحسن كبش عنده ، وأضمر فى نفسه الرضا لله تعالى ، وكانت العادة حينئذ

أن تنزل نار من السماء فتأكل القربان المقبول ، وإن لم يقبل لم تنزل ، فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل ، وتركت قربان قابيل ، فحسده ، وقال له : لَأَقْتُلَنَّكَ ، حسدا على تقبل قربانه دونه ، فقال له أخوه : إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ الكفر ، أي : إنما أوتيت من قبل نفسك بترك التقوى ، لا من قبلى ، فلم تقتلنى؟

قال البيضاوي : وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغى أن يرى حرمانه من تقصيره ، ويجتهد فى تحصيل ما به صار المحسود محظوظا ، لا فى إزالة حظه ، فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه ، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقى. هـ.

وفيه نظر : فإن تقوى المعاصي ليست شرطا فى قبول الأعمال بإجماع أهل السنة ، إلا أن يحمل على تقوى الرياء والعجب. انظر الحاشية.

ثم قال له أخوه هابيل : لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ أي : لئن بدأتنى بالقتل لم أبدأك به ، أو لم أدفعك عنى ، وهل تركه للدفع تورع ، وهو الظاهر ، أو كان واجبا عندهم ، وهو قول مجاهد؟ وأما فى شرعنا : فيجوز الدفع ، بل يجب ، قاله ابن جزى. وقال البيضاوي :

قيل : كان هابيل أقوى منه ، فتحرج عن قتله ، واستسلم له خوفا من اللّه ، لأن الدفع لم يبح بعد ، أو تحريا لما هو الأفضل. قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «كن عبد اللّه المقتول ، ولا تكن عبد اللّه القاتل» «١». وإنما قال : (ما أنا بباسط) فى جواب (لئن بسطت) للتبرى من هذا الفعل الشنيع ، والتحرز من أن يوصف به ، ولذلك أكد النفي بالباء. هـ.

ثم قال له هابيل : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ أي : إنى أريد بالاستسلام وعدم الدفع أن تنقلب إلى اللّه ملتبسا بإثمى ، أي : حاملا لإثمى لو بسطت إليك يدى ، وإثمك ببسطك يديك إلىّ ، ونحوه قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «المستبّان ما قالا فعلى البادئ منهما ما لم يعتد المظلوم» «٢». أو بإثم قتلى وبإثمك الذي لم يتقبل من أجله قربانك ، أو بسائر ذنوبى فتحملها عنى بسبب قتلك لى فإن الظالم يجعل عليه يوم القيامة ذنوب المظلوم ثم يطرح فى النار ، ولذلك قال : وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ ، يحتمل أن يكون من كلام هابيل ، أو استئناف من كلام اللّه تعالى ، أي : جزاؤهم يوم القيامة أن يحملوا أوزار المظلومين ، ثم يطرحون فى النار ، كما فى حديث المفلس.

ولم يرد هابيل بقوله : إِنِّي أُرِيدُ ، أنه يحب معصية أخيه وشقاوته ، بل قصد بذلك الكلام أنه إن كان القتل لا محالة واقعا فأريد أن يكون لك لا لى ، والمقصود بالذات : ألا يكون له ، لا أن يكون لأخيه. ويجوز أن يكون المراد بالإثم عقوبته. وإرادة عقاب العاصي جائزة. قاله البيضاوي.

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ أي : سهلت له ووسعته ولم تضق منه ، أو طاوعته عليه وزينته له ، فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ دينا ودنيا ، فبقى مدة عمره مطرودا محزونا. قال السدى : لما قصد قابيل قتل

هابيل ،

(١) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند (٥/ ١١٠) من حديث خباب بن الأرت.
(٢) أخرجه مسلم فى (البر والصلة ، باب النهى عن السباب) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه ، ومعنى الحديث : أن إثم السباب الواقع من اثنين مختص بالبادىء منهما كله ، إلا أن يتجاوز الثاني قدر الانتصار فيقول للبادئ أكثر مما قاله له.

راغ هابيل فى رؤوس الجبال ، ثم أتاه يوما من الأيام ، فوجده نائما فشدخ رأسه بصخرة فمات ، وقال ابن جريج : لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل؟ فتمثل له إبليس ، وأخذ طيرا فوضع رأسه على حجر ، ثم شدخه بحجر آخر ، وقابيل ينظر ، فعلمه القتل ، فوضع رأس أخيه على حجر وشدخه بحجر آخر.
وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة ، وقبره قيل : عند عقبة حراء ، وقال ابن عباس : عند ثور ، وقال جعفر الصادق : بالبصرة ، فى موضع المسجد الأعظم.
الإشارة : قد تضمنت هذه الآية من طريق الإشارة ثلاث خصال ، يجب التحقق بها على كل مؤمن متوجه إلى اللّه تعالى : أولها : التطهير من رذيلة الحسد ، الذي هو أول معصية ظهرت فى السماء والأرض ، وقد تقدم الكلام عليه فى النساء «١» ، الثانية : التطهير من الشرك الجلى والخفي ، والتغلغل فى التبري من الذنوب التي توجب عدم قبول الأعمال ، ويتحصل ذلك بتحقيق الإخلاص ، والثالثة : عدم الانتصار للنفس والدفع عنها إلا فيما وجب شرعا ، فقد قالوا : (الصوفي دمه هدر ، وماله مباح) فلا ينتصر لنفسه ولو بالدعاء ، فإما أن يسكت ، أو يدعو لظالمه بالرحمة والهداية ، حتى يأخذ اللّه بيده اقتداء برسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، حيث قال : «اللهم اغفر لقومى فإنّهم لا يعلمون».
ولمّا قتل قابيل أخاه ، لم يدر ما يفعل به لأنه أول من مات من بنى آدم ، فعلّمه اللّه كيفية دفنه ، فقال :
[سورة المائدة (٥) : آية ٣١]
فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قالَ يا وَيْلَتى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)
قلت : (ليريه) أي : يعلمه ، وضمير الفاعل يعود على «اللّه» أو الغراب ، و(كيف) : حال من الضمير

فى (يوارى) والجملة مفعول ثان ليرى ، أي : ليعلمه اللّه ، أو الغراب ، كيفية مواراة أخيه ، و(يا ويلتا) : كلمة جزع وتحسر ، والألف فيها بدل من ياء المتكلم ، كيا حسرتا ويا أسفا ، و«أصبح» هنا بمعنى صار.

يقول الحق جل جلاله : فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ أي : يحفر فيها ، لِيُرِيَهُ أي : اللّه ، أو الغراب ، كَيْفَ يُوارِي أي : يستر سَوْأَةَ أَخِيهِ أي : جسده لأنه مما يستقبح أن يرى ، وخصت بالذكر لأنها أحق بالستر من سائر الجسد ، فعلّم اللّه قابيل كيف يصنع بأخيه لأنه لم يدر ما يصنع به ، إذ هو أول ميت مات من بنى آدم ، فتحير فى أمره ، فبعث اللّه غرابين فاقتتلا ، فقتل أحدهما الآخر ، فحفر له بمنقاره ورجليه ، ثم ألقاه فى الحفرة وغطاه بالتراب.

قال قابيل لما رأى ذلك : يا وَيْلَتى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فأهتدى إلى ما اهتدى إليه ، فحفر لأخيه ودفنه فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ على قتله لما كابد فيه من التحير فى أمره ، وحمله على رقبته سنة أو أكثر ، وتلمذة الغراب له ، واسوداد لونه ، وتبرى أبويه منه ، إذ روى أنه لما قتله اسود وجهه ،

---

(١) عند إشارة الآية ٥٤.

فسأله آدم عن أخيه ، فقال : ما كنت عليه وكيلا. فقال : بل قتلته فلذلك اسود جسدك ، وتبرأ منه ، ومكث بعد ذلك مائة سنة لم يضحك ، وعدم الظفر بما فعله من أجله. قاله البيضاوي ، فانظره مع ما سيأتى عن الثعلبي.

واختلف فى كفره فقال ابن عطية : الظاهر أنه لم يكن قابيل كافرا ، وإنما كان مؤمنا عاصيا ، ولو كان كافرا ما تحرج أخوه من قتله ، إذ لا يتحرج من قتل كافر لأن المؤمن يأبى أن يقتل موحدا ، ويرضى بأن يظلم ليجازى فى الآخرة. ونحو هذا فعل عثمان رضي اللّه عنه لما قصد أهل مصر قتله مع عبد الرحمن بن أبى بكر ، لشبهة ، وكانوا أربعة آلاف ، فأراد أهل المدينة أن يدفعوا عنه ، فأبى واستسلم لأمر اللّه. قال عياض : منعه من الدفع إعلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بأن ذلك سبق به القدر. حيث بشره بالجنة على بلوى تصيبه ، كما فى البخاري «١» ، ونقل عن بعض أهل التاريخ : أن شيتا سار إلى أخيه قابيل ، فقاتله بوصية أبيه له بذلك ، متقلدا بسيف أبيه. وهو أول من تقلد بالسيف ، فأخذ أخاه أسيرا وسلسله ، ولم يزل كذلك حتى قبض كافرا. هـ.

قلت : ولعل تحرّج أخيه من قتله لأنه حين قصد قتله لم يظهر كفره ، وظهر بعد ذلك ، فلذلك قاتله أخوه شيت بعد ذلك وأسره ، وذكر الثعلبي : أن قابيل لما طرده أبوه ، أخذ بيد أخته أقليما ، فهرب بها إلى أرض اليمن ، فأتاه إبليس فقال له : إنما أكلت النار قربان هابيل ، لأنه كان يخدم النار ويعبدها ، فانصب أنت أيضا نارا تكون لك ولعقبك ، فبنى بيت نار ، وهو أول من عبد النار. هـ. فهذا صريح فى كفره. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا كان الحق جل جلاله يدل العصاة من عباده إذا تحيروا على ما يزيل حيرتهم ، فكيف لا يدل الطائعين إذا تحيروا على ما يزيل شبهتهم ، إذا فزعوا إليه والتجئوا إلى حماه؟! فكل من وقع فى حيرة دينية أو دنيوية وفزع إلى اللّه تعالى ، مضطرا إليه ، فلا شك أن اللّه تعالى يجعل له فرجا ومخرجا من أمره ، إما بواسطة أو بلا واسطة. كن صادقا تجد مرشدا ، فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من قتل نفسا بغير حق ، كما فعل قابيل ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٣٢]

مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)

قلت : (من أجل ذلك) : يتعلق بكتبنا ، فيوقف على ما قبله ، وقيل : بالنادمين ، فيوقف على (ذلك) ، وهو ضعيف ، قاله ابن جزى ، وأصل (أجل) : مصدر أجل يأجل ، كأخذ يأخذ ، أجلا ، أي : جنا جناية ، استعمل فى تعليل الجنايات ، ثم اتسع فيه ، فاستعمل فى كل تعليل.

---

(١) انظر صحيح البخاري (كتاب أصحاب النبي ، باب مناقب عثمان بن عفان - رضى اللّه عنه -).

يقول الحق جل جلاله : مِنْ أَجْلِ ذلِكَ القتل الذي صدر من قابيل لأخيه هابيل ، وما نشأ عنه من التجرؤ على الدماء والمفاسد ، حيث سنه أولا ولم يكن يعرفه أحد ، فاقتدى به من بعده ، كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ فى التوراة الذي حكمه متصل بشريعتكم ، أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أي : فى غير قصاص ، وبغير فساد فى الأرض ، كقطع الطريق والكفر ، فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً من حيث إنه هتك حرمة الدماء ، وسن القتل ، وجرأ الناس عليه.

وفى البخاري عن ابن مسعود قال : قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا تقتل نفس مسلمة بغير حق إلّا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنّه أوّل من سن القتل» «١». أو من حيث إن قتل الواحد والجميع سواء فى استجلاب غضب اللّه والعذاب العظيم ، أو يكون الناس خصماءه يوم القيامة لأن هتك حرمة البعض كالكل.

وَمَنْ أَحْياها أي : تسبب فى حياتها بعفو أو منع من القتل ، أو استبقاء من بعض أسباب الهلكة كإنقاذ الغريق والحريق وشبه ذلك ، فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً أعطى من الأجر مثل ما لو أحيا الناس جميعا ، وفى البخاري : «من أحياها - أي من حرّم قتلها إلا بحق حيى الناس منه جميعا». قال ابن جزى : والقصد بالآية تعظيم قتل النفس والتشديد فيه ، ليزدجر الناس عنه وكذلك الثواب فى إحيائها كثواب إحياء الجميع لتعظيم الأمر والترغيب فيه. هـ. فما كتبه اللّه على بنى إسرائيل هو أيضا شرع لنا. قال أبو سعيد : (و الذي لا إله إلا هو ما جعل دم بنى إسرائيل أكرم على اللّه من دمائنا).

وإنما خصهم بالذكر لأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم فى قتل النفس فى كتاب ، وغلظ عليهم بسبب طغيانهم ، ولتلوح مذمتهم. انظر ابن عطية. وعنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «من سقى مؤمنا شربة ماء والماء موجود ، فكأنما أعتق سبعين رقبة ، ومن سقى فى غير موطنه فكأنّما أحيا الناس جميعا».

الإشارة : كل من صدّ نفسا عن إحياء قلبها وعوقها عن من يعرفها بربها فكأنما قتلها ، ومن قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا لأن المؤمنين كلهم كالجسد الواحد ، كما فى الحديث ، ومن أحياها بأن أنقذها من الغفلة إلى اليقظة ، ومن الجهل إلى المعرفة ، فكأنما أحيا الناس جميعا لأن الأرواح جنس واحد ، فإحياء البعض كإحياء الكل.

وبهذا يظهر شرف مقدار العارفين ، الدالين على اللّه ، الدعاة إلى معرفة اللّه ، الذين أحيا اللّه بهم البلاد والعباد ، وفى بعض الأثر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمنّ لكم : إنّ أحبّ عباد اللّه إلى اللّه الذين يحبّبون اللّه إلى عباده ، ويحببون عباد اللّه إلى اللّه ، ويمشون فى الأرض بالنصيحة».

---

(١) أخرجه البخاري فى (كتاب الأنبياء ، باب خلق آدم) ومسلم فى (القسامة ، باب بيان إثم من سنّ القتل).

وهذه حالة شيوخ التربية : يحببون اللّه إلى عباده لأنهم يطهرون القلوب من دنس الغفلة حتى ينكشف

لها جمال الحق فتحبه وتعشقه ، ويذكرون لهم إحسانه تعالى وآلاءه فيحبونه ، فإذا أحبوه أطاعوه فيحبهم اللّه ويقربهم ، واللّه تعالى أعلم. وقال الورتجبي : فيه إشارة لطيفة من الحق سبحانه أن النية إذا وقعت من قبل النفس الأمارة فى شيء ، وباشرته ، فكأنها باشرت جميع عصيان اللّه تعالى لأنها لو قدرت على جميعها لفعلت ، لأنها أمارة بالسوء ، ومن السوء خلقت ، فالجزاء يتعلق بالنية. وكذلك إذا وقعت النية من قبل القلب الروحاني فى خير ، وباشره ، فكأنه باشر جميع الخيرات لأنه لو قدر لفعل. قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «نية المؤمن أبلغ من عمله».

وفيه إشارة أخرى أن اللّه سبحانه خلق النفوس من قبضة واحدة مجتمعة ، بعضها من بعض وصرّفها مختلفة ، وتعلقت بعضها من بعض من جهة الاستعداد والخلقة. فمن قتل واحدا منها أثّر قتلها فى جميع النفوس عالمة بذلك أو جاهلة ، ومن أحيا نفس مؤمن بذكر اللّه وتوحيده ، ووصف جلاله وجماله ، حتى تحب خالقها ، وتحيا بمعرفته ، وجمال مشاهدته ، فأثر حياتها وتزكيتها فى جميع النفوس ، فكأنما أحيا جميع النفوس. وفيه تهديد لأئمة الضلالة ، وعز وشرف وثناء حسن لأئمة الهدى. انتهى كلامه.

وقوله فى النفس الأمارة : (من السوء خلقت) ، فيه نظر فإن النفس هى الروح عند المحققين ، فما دامت الطينية غالبة عليها ، وهى مائلة إلى الحظوظ والهوى ، سميت نفسا ، فإن كانت منهمكة سميت أمارة ، وإن خف عثارها ، وغلب عليها الخوف ، سميت لوامة ، فإذا انكشف عنها الحجاب ، وعرفت ربها ، واستراحت من تعب المجاهدة ، سميت روحا ، وإن تطهرت من غبش الحس بالكلية سميت سرا ، وأصلها من حيث هى نور ربانى وسر لاهوتى.

ولذلك قال تعالى فيها : قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، «١» فالسوء عارض لها ، لا ذاتى ، فما خلقت إلا من نور القدس. واللّه تعالى أعلم.

ثم عاتب بنى إسرائيل على سفك الدماء والإفساد فى الأرض ، بعد ما حرم ذلك عليهم فى التوراة ، فقال :

وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ أي : بنى إسرائيل ، رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ أي : بالمعجزات الواضحات ، ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ بسفك الدماء وكثرة المعاصي.

قال البيضاوي : أي : بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل إتيان تلك الجناية ، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيدا للأمر وتجديدا للعهد ، كى يتحاموا عنها ، كثير منهم يسرفون فى الأرض بالقتل ولا يبالون ، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها ، والإسراف : التباعد عن حد الاعتدال فى الأمر. هـ.

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٥

الإشارة : قد قيض اللّه لهذه الأمة المحمدية من يقوم بأمر دينها ، ظاهرا وباطنا ، وهم ورثته فى الظاهر والباطن ، وفى الخبر : «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» ، فلكل زمان رجال يقومون بالشريعة الظاهرة وهم العلماء ، ورجال يقومون بالحقيقة الباطنة ، وهم الأولياء ، فمن قصر فى الجهتين قامت عليه الحجة ، ولله الحجة البالغة ، فمن أسرف أو طغى أدبته الشريعة وأبعدته الحقيقة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وبال المسرفين من بنى إسرائيل وغيرهم ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)

قلت : سبب نزول الآية عند ابن عباس : قوم من اليهود كان بينهم وبين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عهد ، فنقضوا العهد وقطعوا السبيل. وهو مناسب لما قبله ، وقال جماعة : نزلت فى نفر من عكل وعرينة ، أظهروا الإسلام بالمدينة ، ثم خرجوا وقتلوا راعى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأخذوا إبله ، فبعث فى إثرهم ، فأخذوا ، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم «١» ، فماتوا ، ثم حكمها جار فى كل محارب ، والمحاربة عند مالك : هى حمل السلاح على الناس فى بلد أو فى خارج عنه ، وقال أبو حنيفة : لا يكون المحارب إلا خارج البلد ، و(فسادا) : منصوب على العلة ، أو المصدر ، أو على حذف الجار.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ حيث حاربوا عباده. فهو تغليظ ومبالغة ، وَيحاربون رَسُولَهُ كما فعل العرينيون أو غيرهم ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً بالفساد كإخافة الناس ، ونهب أموالهم. قال ابن جزى : هو بيان للحرابة ، وهى درجات فأدناها : إخافة الطريق ، ثم أخذ الأموال ، ثم قتل النفس.

فجزاؤهم أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ، فالصلب مضاف للقتل ، فقيل : يقتل ثم يصلب ، إرهابا لغيره ، وهو قول أشهب ، وقيل : يصلب حيا ويقتل فى الخشبة ، وهو قول ابن القاسم ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ ،

---

(١) سمل أعينهم ، أي : فقأها بحديدة محماة ، أو غيرها.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٦

فيقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ، وإن عاد قطعت يده اليسرى ورجله اليمنى ، وقطع اليد من الرسغ ، والرجل من المفصل كالسرقة ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ أي : ينفوا من بلد إلى بلد ، ويسجنوا فيه حتى تظهر توبتهم. وقال أبو حنيفة : يسجن فى البلد بعينه. ومذهب مالك : أن الإمام مخير فى المحارب بين ما تقدم ، إلا أنه قال : إن كان قتل فلا بد من قتله ، وإن لم يقتل فالأحسن أن يؤخذ فيه بأيسر العقاب.

أولئك المحاربون لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا : ذل وفضيحة ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ لعظم ذنوبهم. ظاهره أن العقوبة فى الدنيا لا تكون كفارة للمحاربين بخلاف سائر الحدود. ويحتمل أن يكون الخزي فى الدنيا لمن عوقب ، وفى الآخرة لمن لم يعاقب ، إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ بأن جاءوا تائبين فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، فيسقط عنهم حكم الحرابة ، واختلف : هل يطالب بما عليه من حقوق الناس كالدماء أم لا؟

فقال الشافعي : يسقط عنه بالتوبة حد الحرابة ، ولا يسقط حقوق بنى آدم ، وقال مالك : يسقط عنه جميع ذلك ، إلا أن يوجد معه مال رجل بعينه ، فيردّ إلى صاحبه ، أو يطلبه ولى دم بدم تقوم البينة فيه ، فيقاد به ، وأما الدماء والأموال التي لم يطالب بها ، فلا يتبعه الإمام بشىء منها.

وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة ، يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد ، وإن أسقطت العذاب ، والآية فى قطّاع المسلمين لأن توبة المشرك تدرا عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها. هـ. قاله البيضاوي. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فرق كبير بين من يرجع إلى اللّه بملاطفة الإحسان ، وبين من يقاد إليه بسلاسل الامتحان ، هؤلاء المحاربون لم يرجعوا إلى اللّه حتى أخذوا وقتلوا وصلبوا أو قطعت أيديهم وأرجلهم. وإن رجعوا إليه اختيارا قبلهم ، وتاب عليهم ورحمهم وتعطف عليهم ، وكذلك العباد : من رجع إلى اللّه قبل هجوم منيته قبله وتاب عليه ، وإن جد فى الطاعة قرّبه وأدناه ، وإن تقدمت له جنايات ، وقد خرج من اللصوص كثير من الخصوص ، كالفضيل ، وابن أدهم ، وغيرهما ، ممن لا يحصى ، سبقت لهم العناية فلم تضرهم الجناية. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم حضّ على التقوى التي هى مجمع الخير والفوز من كل شر ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٣٥]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، ولا تسلكوا سبيل بنى إسرائيل الذين جاءتهم

الرسل ، فعصوا وأفسدوا وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ أي : اطلبوا ما تتوسلون به إلى رضوانه ، والقرب من جناب قدسه

(٣٦/٢)

من الطاعات ، وترك المخالفات ، وَجاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ بالوصول إلى اللّه والفوز بكرامته.

الإشارة : لا وسيلة أقرب من صحبة العارفين ، والجلوس بين أيديهم وخدمتهم ، والتزام طاعتهم ، فمن رام وسيلة توصله إلى الحضرة غير هذه فهو جاهل بعلم الطريق. قال أبو عمرو الزجّاجى رضي اللّه عنه : لو أن رجلا كشف له عن الغيب ، ولا يكون له أستاذ لا يجيء منه شيء.

وقال إبراهيم بن شيبان رضي اللّه عنه : لو أن رجلا جمع العلوم كلها ، وصحب طوائف الناس ، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح ، ومن لا يأخذ أدبه من آمر له وناه يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه ، لا يجوز الاقتداء به فى تصحيح المعاملات. هـ.

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه : كل من لا يكون له فى هذا الطريق شيخ لا يفرح به. هـ. ولو كان وافر العقل منقاد النفس ، واقتصر على ما يلقى إليه شيخ التعليم فقط ، فلا يكمل كمال من تقيد بالشيخ المربى لأن النفس أبدا كثيفة الحجاب عظيمة الإشراك ، فلابد من بقاء شيء من الرعونات فيها ، ولا يزول عنها ذلك ، بالكلية ، إلا بالانقياد للغير والدخول تحت الحكم والقهر ، وكذلك لو كان سبقت إليه من اللّه عناية وأخذه الحق إليه ، وجذبه إلى حضرته ، لا يؤهل للمشيخة ، ولو بلغ ما بلغ ، والحاصل : أن الوسيلة العظمى ، والفتح الكبير ، إنما هو فى التحكيم للشيخ لأن الخضوع لمن هو من جنسك تأنفه النفس ، ولا تخضع له إلا النفس المطمئنة ، التي سبقت لها من اللّه العناية. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر ضد أهل التقوى ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (٣٧)

قلت : (لو أن لهم) : الجار متعلق بالاستقرار ، لأنه خبر «إن» مقدما ، والضمير فى (به) : يعود على ما ومثله ، ووحده باعتبار ما ذكر كقوله : عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ «١».

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا حين يشاهدون العذاب يتمنون الفداء ، فلو أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً من الأموال والعقار وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ

---

(١) من الآية ٦٨ من سورة البقرة.

(٣٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٨

ولا ينفعهم وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ لا خلاص لهم منه ، وهذا كما ترى فى الكفار ، وأما عصاة المؤمنين فيخرجون منها بشفاعة نبيهم - عليه الصلاة والسلام - ولا حجة للمعتزلة فى الآية ، خلافا لجهالة الزمخشري.

الإشارة : كل من مات تحت قهر الحجاب ، ونكّبته المشيئة عن دخول الحضرة مع الأحباب ، حصل له الندم يوم القيامة ، فلو رام أن يفتدى منه بملء الأرض ذهبا ما تقبل منه ، بل يبقى مقيما فى غم الحجاب ، معزولا عن رؤية الأحباب ، يتسلى عنهم بالحور والولدان ، وتفوته نظرة الشهود والعيان فى كل حين وأوان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ثم ذكر حكم السارق الذي تقدم ذكره فى قضية طعمة بن أبيرق لما تقدم أن هذه السورة مكملة لما قبلها ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٣٨ الى ٤٠]

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)

قلت : (السارق) : مبتدأ والخبر محذوف عند سيبويه ، وهو الجار والمجرور ، أي : مما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة ، وقال المبرد : الخبر هو جملة : (فاقطعوا) ، ودخلت الفاء لمعنى الشرط لأن الموصول - وهو «ال» - فيه معنى الشرط ، ومثله : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا «١» ، قلت : وهو أظهر ، فإن قلت : ما الحكمة فى تقديم المذكر فى هذه الآية ، وفى آية الزنا قدم المؤنث ، فقال : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي؟ فالجواب : أن السرقة فى الرجال أكثر ، والزنى فى النساء أكثر ، فقدّم الأكثر وقوعا. وقدّم العذاب هنا على المغفرة لأنه قابل بذلك تقدم السرقة على التوبة ، أو لأن المراد به القطع ، وهو مقدم فى الدنيا ، و(جزاء) و(نكالا) : علة أو مصدر.

يقول الحق جل جلاله : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما أي : أيمانهما من الرسغ ، بشروط ، منها :

ألّا يكون مضطرا بالجوع ، على قول مالك ، فيقدم السرقة على الميتة ، إن علم تصديقه. ومنها : ألّا يكون السارق أبا أو عبدا سرق مال ولده أو سيده. ومنها : أن يكون سرق من حرز ، وأن يكون نصابا ، وهو ربع دينار ، أو ثلاثة دراهم ، أو ما يساويهما عند مالك والشافعي ، وقال أبو حنيفة : لا قطع فى أقل من عشرة دراهم ، وقال عثمان البتى : يقطع فى درهم فما فوق. وفى السرقة أحكام مبسوطة فى كتب الفقه.

---

(١) من الآية ٢ من سورة النور.

(٣٨/٢)

وعلة القطع : الزجر ، ولذلك قال : جَزاءً بِما كَسَبا نَكالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. فإن قلت : ما الحكمة فى قطعها فى ربع دينار ، مع أن ديتها إن قطعت ، خمسمائة دينار؟ قلت : ذل الخيانة أسقطت حرمتها بعد عز الصيانة. فافهم حكمة البارى.

فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ أي : بعد سرقته ، كقوله فى سورة يوسف : كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ «١» أي : السارقين ، وَأَصْلَحَ بأن ردّ ما سرق ، وتخلص من التبعات ما استطاع ، وعزم ألا يعود ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، فيتقبل توبته ، فلا يعذبه فى الآخرة ، وأما القطع : فهل يسقط ، وهو مذهب الشافعي لظاهر الآية ، أو لا يسقط ، وهو مذهب مالك ، لأن الحدود لا تسقط عنده بالتوبة إلا عن المحارب؟ .. قاله ابن جزى ، تبعا لابن عطية ، وفيه نظر ، فإن مشهور مذهب الشافعي موافق لمالك ، ولعله تصحف عنده الشافعي بالشعبي ، كما نقل الثعلبي عنه. واللّه أعلم.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يتصرف فيهما كيف شاء ، فالخطاب للرسول - عليه الصلاة السّلام - أو لكل أحد ، يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ قال السدى : يعذب من مات على كفره ، ويغفر لمن تاب من كفره. وقال الكلبي : يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ على الصغيرة إذا أقام عليها وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ على الكبيرة إذا نزع منها ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شىء.

الإشارة : كما أمر الحق - جل جلاله - بقطع سارق الأموال ، أمر بقطع سارق القلوب ، وهو الشيطان ، وجنوده الخواطر الردية فإن القلب بيت كنز السر - أي : سر الربوبية - لأن القلب بيت الرب ، والبصيرة حارسة له ، فإذا طرقه الشيطان بجنوده ، فإن وجد البصيرة متيقظة دفعته وأحرقته بأنوار ذكرها ، وإن وجدها نائمة فإن كان نومها خفيفا اختلس منها وفطنت له ، وإن كان نومها ثقيلا بتراكم الغفلات ، خرب البيت ولم تفطن له ، فيسكن فيه بجنوده الخواطر وهى نائمة. فالواجب على الإنسان حفظ

قلبه ، قبل أن يسكنه الشيطان ، فيصعب دفعه ، وحفظه بدوام ذكر اللّه القلبي ، فإن لم يستطع فبدوام اللسان ، فإن لم يستطع فبالنية الصالحة. وربنا المستعان.

ثم تكلم على ما يتعلق باللسان ، وهو الأمر الخامس مما تضمنته السورة ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٤١]

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (٤١)

قلت : الباء فى : (بأفواههم) - متعلقة بقالوا.

---

(١) من الآية ٧٥.

(٣٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٠

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ صنع المنافقين ، الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ أي : يقعون فيه سريعا ، فيظهرونه إن وجدوا فرصة ، ثم بينهم بقوله : مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا ، قالوه بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ، فلا يهولنّك شأنهم ولا تحتفل بكيدهم ، فإن اللّه سيكفيك أمرهم.

الإشارة : من شأن العارفين بالله تذكير عباد اللّه ، ثم ينظرون إلى ما يفعل اللّه ، فلا يحزنون على من لم تنفعه الموعظة ، ولا يفرحون بسبب نجاح موعظتهم ، إلا من حيث موافقة رضا ربهم ، فهم فى ذلك على قدم نبيهم ، آخذين بوصية ربهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم رجع إلى عتاب اليهود ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٤٢ الى ٤٣]

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣)

قلت : (و من الذين هادوا) : يحتمل أن يكون عطفا على (الذين قالوا) أي : لا يحزنك شأن المنافقين واليهود ، و(سماعون) : خبر ، أي : هم سماعون ، ويحتمل أن يكون استئنافا ، فيكون (سماعون) : مبتدأ على حذف الموصوف ، و(من) : خبر ، أي : ومن الذين هادوا قوم سماعون ، واللام فى :

(للكذب) : إما مزيدة للتأكيد ، أو لتضمين السماع معنى القبول ، وجملة (لم يأتوك) : صفة لقوم ، وجملة (يحرفون) : صفة أخرى له.
يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا صنف سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أي : كثيروا السماع للكذب والقبول له ، وهم يهود بنى قريظة ، سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ وهم يهود خيبر ، لَمْ يَأْتُوكَ أي : لم يحضروا مجلسك ، تكبرا وبغضا ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ أي : يميلونه عن مواضعه الذي وضعه اللّه فيها ، إما

لفظا أو تأويلا : يَقُولُونَ : أي : الذين لم يأتوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهم يهود خيبر : إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ أي : إن أوتيتم هذا المحرّف وأفتاكم محمد بما يوافقه فخذوه ، وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ بأن أفتاكم بغيره فَاحْذَرُوا أن تقبلوا منه.
وسبب نزولها : أن شريفا من يهود خيبر زنى بشريفة منهم ، وكانا محصنين ، وكرهوا رجمهما ، فأرسلوا مع رهط منهم إلى بنى قريظة ليسألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقالوا لهم : إن أمركم بالجلّد والتّحميم «١» فاقبلوا ، وإن أمركم بالرّجم فاحذروا أن تقبلوه منه ، فأتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بالزّانيين ، ومعهما ابن صوريا ، فاستفتوه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال لابن صوريا :
أنشدك اللّه الذي لا إله إلا هو ، الذي فلق البحر لموسى ، ورفع فوقكم الطور ، وأنجاكم وأغرق آل فرعون ، والذي أنزل عليكم كتابه ، وأحلّ حلاله وحرّم حرامه ، هل تجد فيه الرّجم على من أحصن؟
فقال : نعم ، فوثبوا عليه ، فقال :
خفت إن كذبته أن ينزل علينا العذاب ، فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بالزّانيين فرجما عند باب المسجد ، وفى رواية : دعاهم إلى التوراة فأتوا بها ، فوضع ابن صوريا يده على آية الرجم ، وقرأ ما حولها ، فقال له عبد اللّه بن سلام : ارفع يدك ، فإذا آية الرجم تلوح ، فرجما. وفى القصة اضطراب كثير. ولعل القضية تعددت.
قال تعالى : وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ أي : ضلالته أو فضيحته ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أي : تقدر على دفعها عنه ، أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ من الكفر والشرك ، لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ أي : هوان وذل بضرب الجزية والخوف من المؤمنين ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ وهو الخلود فى النيران.
هم سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ، كرر للتأكيد ، وليرتب عليه قوله : أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ أي : الحرام ، كالرشا وغيرها ، وسمى سحتا لأنه يسحت البركة ويستأصل المال ، كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «من جمع المال

من نهاوش أذهبه اللّه فى نهابر» «٢».
ثم خيّر نبيه - عليه الصلاة والسّلام - فى الحكم بينهم ، فقال : فَإِنْ جاؤُكَ متحاكمين إليك فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وقيل : نسخ بقوله : وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ «٣». والجمهور : أن ما كان من باب التظالم والتعدي فإن الحاكم يتعرض بهم ويبحث عنه ، وأما النوازل التي لا ظلم فيها ، وإنما هى دعاوى ، فإن رضوا بحكمنا فالإمام مخير ، وإن لم يرضوا فلا نتعرض لهم ، انظر ابن عطية ، وقال البيضاوي : ولو تحاكم كتابيان إلى القاضي لم يجب عليه الحكم ، وهو قول الشافعي ، والأصح : وجوبه إذا كان المترافعان أو أحدهما ذميا ، لأنا التزمنا الذب عنهم ، ومذهب أبى حنيفة : يجب مطلقا. هـ.
وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً لأن اللّه عصمك من الناس ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ أي : العدل الذي أمر اللّه به إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، فيحفظهم ويعظم شأنهم.
وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وهم لا يؤمنون بك ، وَعِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ أي : والحال أن الحكم منصوص عليه فى الكتاب الذي هو عندهم ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ ، أو ثم يتولون عن حكمك

---

(١) التحميم : تسويد الوجه بالفحم.
(٢) النهاوش : المظالم. والنهابر : المهالك والأمور المتبددة.
(٣) من الآية ٤٩ من السورة [.....]

الموافق لكتابهم من بعد التحكيم ، وفيه تنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع ، وإنما قصدوا به ما يكون عونا لهم على هواهم ، وإن لم يكن حكم اللّه فى زعمهم ، وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ بكتابهم ولا بكتابك لإعراضهم عنه أولا ، وعنك ثانيا ، بل أولئك هم الفاسقون التابعون لأهوائهم. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : كل من تعرض للشيخوخة وادعى مقام التربية ، وهو يأمر أصحابه باتباع رخص الشريعة ، والبقاء مع العوائد ، ويقول لهم : (إن أوتيتم هذا فخذوه) ويزعم أنه سنة ، وإن لم تؤتوه ، ولقيتم من يأمركم بقتل النفوس ، وحط الرؤوس ودفع الفلوس ، وخرق العوائد فاحذروه. فمن كان حاله هذا ، فالآية تجر ذيلها عليه ، لأنه تعرض لفتنة نفسه بحب الجاه وغرور أولاد الناس ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ من الهوى ، ولا بصيرتهم من شهود

السّوى لأن تطهير القلوب مشروط بقتل النفوس ، وقتل النفوس إنما يكون باتباع ما يثقل عليها من خرق عوائدها ، كالذل والفقر وغير ذلك من الأعمال الشاقة عليها ، ومن لم يطهر قلبه من الهوى يعش فى الدنيا فى ذل الحجاب مسجونا بمحيط انه ، محصورا فى هيكل ذاته ، وله فى الآخرة أشد العتاب ، حيث تعرض لمقام الرجال وهو عنه بمعزل ، ويقال لمن تبعه فى اتباع الرخص :

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : من كان من فقراء الزمان يسمع الغناء ، ويأكل أموال الظلمة ، ففيه نزعة يهودية ، قال تعالى : سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ. ه فإن جاءوك أيها العارف ، يستخبرونك ، ويخاصمونك فى الأمر بخرق العوائد ، ويزعمون أنهم موافقون للسنة ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، وهو الأخذ بكل ما يقتل النفوس ، ويجهز عليها ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ وكيف يحكمونك أو يخاصمونك ، وعندهم القرآن فيه حكم اللّه بذلك ، قال تعالى : وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا «١» ، ولا يكون جهاد النفس إلا بمخالفتها ، وقتلها بترك حظوظها وهواها. واللّه تعالى أعلم.

ثم قرر صحة كتابه التوراة ، ووبال من أعرض عنه من اليهود ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٤٤]

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ (٤٤)

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

قلت : (للذين هادوا) : متعلق بيحكم ، أو بأنزلنا ، أو بهدى ونور ، و(الربانيون) : عطف على (النبيون) ، وهم العباد والزهاد منهم ، والأحبار : علماؤهم ، جمع حبر - بكسر الحاء وفتحها ، وهو أشهر استعمالا للفرق بينه وبين المداد ، و(بما استحفظوا) : سببية متعلق بيحكم ، أو بدل من (بها) والعائد إلى «ما» محذوف ، أي : استحفظوه.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً أي : ما يهدى إلى إصلاح الظواهر من النواهي والأوامر ، ونُورٌ تستنير به السرائر ، وتشرق به القلوب والضمائر ، من الاعتقادات الصحيحة والعقائد

الراجحة ، والعلوم الدينية والأسرار الربانية. يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الذين أتوا بعد موسى - عليه السّلام - إلى محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهم الَّذِينَ أَسْلَمُوا أي : انقادوا بكليتهم إلى ربهم ، ولم تبق بقية لغير محبوبهم ، وفيه تنويه بشأن الإسلام وأهله ، وتعريض باليهود فإنهم بمعزل عن دين الأنبياء واقتفاء هديهم ، حيث لم يتصفوا به ، يحكم بها لِلَّذِينَ هادُوا وعليهم ، وهم اليهود ، وَيحكم بها أيضا الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ أي : زهادهم وعلماؤهم السالكون طريقة أنبيائهم ، بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ أي : بسبب أمر اللّه تعالى لهم أن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف. وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ أي : رقباء ، فلا يتركون من يغيرها أو يحرفها ، ولما طال العهد عليهم حرفوا وغيروا ، بخلاف كتابنا ، حيث تولى حفظه الحق ربنا ، فلا يزال محفوظا لفظا ومعنى إلى قيام الساعة ، قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «١». فلله الحمد.

ثم خاطب الحكام ، فقال : فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ أي : فلا تداهنوا فى حكوماتكم خشية ظالم أو مراقبة كبير ، فكل كبير فى جانب الحق صغير ، وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا أي : لا تستبدلوا بالحكم بالحق ثمنا قليلا كالرشوة والجاه ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مستهينا به ومنكرا له فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ لاستهانتهم به.

قال ابن عباس : نزلت الثلاثة فى اليهود ، الكافرون والظالمون والفاسقون ، وقد روى فى هذا أحاديث عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقالت جماعة : هى عامة ، فكل من لم يحكم بما أنزل اللّه من اليهود والمسلمين وغيرهم ، إلا أن الكفر فى حق المسلمين كفر معصية ، وقال الشافعي : الكافرون فى المسلمين ، والظالمون فى اليهود ، والفاسقون فى النصارى ، وهو أنسب لسياق الكلام ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد وصف اللّه تعالى القرآن بأعظم مما وصف به التوراة. قال تعالى : قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً «٢» فجعل التوراة ظرفا للهداية والنور ، وجعل القرآن نفس النور والهداية. وربانيو هذه الأمة : أولياؤها العارفون باللّه ، الذين يربون الناس ويرشدونهم إلى معرفة الشهود والعيان ، وأحبارها : علماؤها.

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر.

(٢) الآية ١٧٤ من سورة النساء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤

وقال الورتجبي : الرباني الذي نسب إلى الرب بالمعرفة والمحبة والتوحيد ، فإذا وصل إلى الحق بهذه المراتب ، واستقام فى شهود جلاله وجماله ، صار متصفا بصفات اللّه - جل جلاله - ، حاملا أنوار ذاته ، فإذا فنى عن نفسه وبقي بربه ، صار ربانيّا ، مثل الحديد فى النار ، إذا لم يكن فى النار كان مستعدا لقبول النار ، فإذا وصل إلى النار واحمر ، صار ناريا ، هكذا شأن العارف ، فإذا كان منورا بتجلى الرب ، صار ربانيا نورانيا ملكوتيا جبروتيا ، كلامه من الرب إلى الرب مع الرب ، ثم قال : العارف مخاطب من اللّه فى جميع أنفاسه ، وحركاته ، ينزل على قلبه من اللّه وحي الإلهام ، وربما يخاطبه بنفسه ، ويكلمه بكلامه ، ويحدثه بحديثه ، لقوله - عليه الصلاة السّلام - : «إنّ فى أمتى محدّثين أو مكلّمين وإنّ عمر منهم» «١». هـ.

ثم بين الحق تعالى ما كتب على بنى إسرائيل فى التوراة ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٤٥]

وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)

قلت : من نصب الجميع : فعطف على النفس ، وقصاص : خبر إن ، ومن رفع العين : فيحتمل أن يكون مستأنفا مرفوعا بالابتداء ، و«قصاص» : خبر ، من عطف الجمل ، أو يكون عطفا على موضع النفس لأن المعنى : قلنا لهم :

النفس بالنفس ، أو على الضمير المستكن فى الخبر ، ومن رفع الجروح فقط ، فعلى ما تقدم فى العين.

يقول الحق جل جلاله : وَكَتَبْنا على بنى إسرائيل ، أي : فرضنا وألزمنا عليهم فى التوراة أَنَّ النَّفْسَ تقتل بالنفس فى القتل العمد إن كان المقتول مسلما حرا ، فلا يقتل مسلم بكافر إلا إن قتله غيلة ، ولا حر بعبد ، للحديث ، وَالْعَيْنَ تفقأ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفَ تجدع بِالْأَنْفِ ، وَالْأُذُنَ تصلم بِالْأُذُنِ ، وَالسِّنَّ تقلع بِالسِّنِّ ، وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ يقتص من الجارح بمثل ما فعل ، إلا ما يخاف منه كالمأمومة «٢» ، والجائفة ، وكسر الفخذ ، فيعطى الدية ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ أي : بالدم ، بأن عفى عن الجارح أو القاتل فلم يقتص ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ أي للمقتول ، يغفر اللّه ذنوبه ويعظم أجره ، أو كفارة للقاتل أو الجارح ، يعفو اللّه بذلك عن القاتل لأن صاحب الحق قد عفا عنه ، أو كفارة للعافى لأنه مسامح فى حقه ، أو من تصدق بنفسه ومكنها من القصاص فهو كفارة له ، اقتص منه أو عفى عنه.

---

(١) أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب ٥٤) ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب فضائل عمر رضى اللّه عنه) عن أبى هريرة ، بلفظ :

«إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه إن كان فى أمتى هذه ، فإنه عمر بن الخطاب»
(٢) المأمومة : هى الشجة التي تبلغ أم الرأس ، وهى الجلدة التي تجمع الدماغ.

(٤٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٥
وفيه دليل على أن الحدود مكفرة لا زواجر ، وزعم ابن العربي : أن المقتول يطالب يوم القيامة ، ولو قتل فى الدنيا قصاصا لأنه لم يتحصل للمقتول من قتل قاتله شىء ، وأن القصاص إنما هو ردع ، وأجيب بمنع أنه لم يتحصل له شىء ، بل حصلت له الشهادة وتكفير لذنوبه ، كما فى الحديث : «السيف محاء للخطايا» «١». ولو كان القصاص للردع خاصة لم يشرع العفو ، قاله ابن حجر ، وفى حديث البخاري : «من أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا ، فهو كفارة له ، وإن ستره اللّه فهو فى المشيئة».
وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ من القصاص وغيره فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ المتجاوزون حدود اللّه ، وما كتب اللّه على بنى إسرائيل هو أيضا مكتوب علينا ، لأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ ، ولا ناسخ هنا ، بل قررته السنة والإجماع. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : القصاص مشروع وهو من حقوق النفس لأنها تطلبه تشفيا وغيظا ، والعفو مطلوب ومرغب فيه ، وهو من حقوق اللّه ، هو طالبه منك ، وأين ما تطلبه لنفسك مما هو طالبه منك؟ ومن شأن الصوفية الأخذ بالعزائم ، واتباع أحسن المذاهب ، قال تعالى : الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ «٢» ، ومن شأنهم أيضا : الغيبة عن حظوظ النفس ، ولذلك قالوا : (الصوفي دمه هدر ، وماله مباح) ، وقالوا أيضا : (الصوفي كالأرض ، يطرح عليها كل قبيح ، وهى تنبت كلّ مليح) ، - ومن أوكد الأمور عندهم عدم الانتصار لأنفسهم. وبالله التوفيق.
ولما فرغ من الكلام مع اليهود شرع يتكلم مع النصارى ، فقال :
[سورة المائدة (٥) : الآيات ٤٦ الى ٤٧]
وَقَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٤٧)
قلت : (قفينا) : اتبعنا ، مشتق من القفا كأن مجىء عيسى كان فى قفا مجىء النبيين وخلفهم ، وحذف المفعول الأول ، أي : أتبعناهم ، وبِعِيسَى مفعول ثان ، وجملة : (فيه هدى ونور) : حال من «الإنجيل» ، و(مصدقا) : عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله : وأتبعنا النبيين المتقدمين وجئنا على إثرهم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ أي : ما تقدم أمامه مِنَ التَّوْراةِ وتصديقه للتوراة إما لكونه مذكورا فيها ثم ظهر ، أو بموافقة ما جاء به من التوحيد والأحكام لما فيها ، أو لكونه صدّق بها وعمل بما فيها.

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد فى المسند ٤/ ١٨٥. من حديث عتبة بن عبد السلمى.

(٢) من الآية : ١٨ من سورة الزمر.

(٤٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٦

وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ فالهدى لإصلاح الظواهر بالشرائع ، والنور لإصلاح الضمائر بالعقائد الصحيحة والحقائق الربانية ، وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ بتقرير أحكامها ، والشهادة على صحتها ، وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ أي : وإرشادا وتذكيرا للمتقين لأنهم هم الذين ينفع فيهم الموعظة والتذكير ، دون المنهمكين فى الغفلة ، قد طبع اللّه على قلوبهم فهم لا يسمعون.

ثم أمر اللّه أهل الإنجيل بالحكم بما فيه ، فقال : وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ من الأحكام ، وقرأ حمزة : (و ليحكم) بلام الجر أي : وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل الإنجيل بما فيه ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ الخارجون عن طاعة الحق. قال البيضاوي : والآية تدل على أن الإنجيل مشتملة على الأحكام ، وأن اليهودية منسوخة ببعث عيسى عليه السّلام ، وأنه كان مستقلا بالشرع. وحملها على : وليحكموا بما أنزل اللّه ، فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهر. هـ.

الإشارة : قد جمع اللّه فى هذه الأمة المحمدية ما افترق فى غيرها فى الأزمنة المتقدمة ، فعلماؤها وأولياؤها كالأنبياء والرسل ، كلما مات عالم أو ولى قفاه اللّه بآخر ، أما العلماء فأمرهم متفق وحالهم متقارب ، فمدار أمرهم على تحصيل العلوم الرسمية والأعمال الظاهرية ، وأما الأولياء - رضى اللّه عنهم - ، فأحوالهم مختلفة ، فمنهم من يكون على قدم نوح عليه السّلام فى القوة والشدة ، ومنهم من يكون على قدم إبراهيم عليه السّلام فى الحنانة والشفقة. ومنهم من يكون على قدم موسى عليه السّلام فى القوة أيضا ، ومنهم من يكون على قدم عيسى عليه السّلام فى الزهد والانقطاع إلى اللّه تعالى ، ومنهم من يكون على قدم نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو أعظمهم لجمعه ما افترق فى غيره ، وكل واحد يؤتيه اللّه نورا فى الباطن يجذب به القلوب إلى الحضرة ، وهدى فى الظاهر يصلح به الظواهر فى الشريعة. واللّه تعالى أعلم.

ثم شرع يتكلم مع الأمة الإسلامية المحمدية ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٤٨]

وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)

قلت : (مهيمنا) أي : شاهدا ، والشرعة والمنهاج : قال ابن عطية : معناهما واحد ، وقال ابن عباس : أي : سبيلا وسنة. قلت : والظاهر : أن الشرعة يراد بها الأحكام الظاهرة ، وهى التي تصلح الظواهر ، والمنهاج يراد به علوم الطريقة الباطنية ، وهى التي تصلح الضمائر ، وهو مضمن علم التصوف.

(٢/٤٦)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧

يقول الحق جل جلاله : وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ يا محمد الْكِتابَ أي : القرآن ملتبسا بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ من جنس الكتاب ، أي : مصدقا لما تقدمه من الكتب ، بموافقته لهم فى الأخبار والتوحيد ، وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ أي : شاهدا عليه بالصحة ، أو راقبا عليه من التغيير فى المعنى ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ إليك وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ منحرفا عما جاءك من الحق إلى ما يشتهونه ، لكل نبى جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً ظاهرة يصلح بها الظواهر ، وَمِنْهاجاً أي : طريقا واضحا يسلك منها إلى معرفة الحق ، وهو ما يتعلق بإصلاح السرائر ، واستدل به على أنا غير متعبدين بالشرائع المتقدمة.

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً أي : جماعة واحدة متفقة على دين واحد ، وَلكِنْ عدد الشرائع وخالف بينها لِيَبْلُوَكُمْ أي : يختبركم فيما آتاكم من الشرائع المختلفة ، أيكم ينقاد ويخضع للحق أينما ظهر ، فإن اختلاف الأحوال وتنقلات الأطوار فيه يظهر الإقرار والإنكار ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ أي : بادروا إلى الانقياد إلى الطاعات واتباع الحق والخضوع لمن جاء به أينما ظهر ، انتهازا للفرصة ، وحيازة لفضل السبق والتقدم ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فيظهر السابقون من المقصرين ، فَيُنَبِّئُكُمْ أي : يخبركم بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ من أمر الدين بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل ، والمبادر والمقصر ، واختلاف الشرائع إنما هى باعتبار الفروع ، وأما الأصول كالتوحيد والإيمان بالرسل ، والبعث ، وغير ذلك من القواعد الأصولية ، فهى متفقة قال - عليه الصلاة السّلام - : «نحن أبناء علات ، أمهاتنا شتى وأبونا واحد» «١». يعنى التوحيد. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن نبينا - عليه الصلاة والسّلام - جمع اللّه له ما افترق فى غيره ، فذاته الشريفة

جمعت المحاسن كلها ظاهرة وباطنة ، وكتابه جمع ما فى الكتب كلها فهو شاهد عليها ، وشريعته جمعت الشرائع كلها ، ولذلك كان الولي المحمدي هو أعظم الأولياء.

واعلم أن الحق - جل جلاله - جعل لكل عصر تربية مخصوصة بحسب ما يناسب ذلك العصر ، كما جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا بحسب الحكمة ، فمن سلك بالمريدين تربية واحدة ، وأراد أن يسيرهم على تربية المتقدمين ، فهو جاهل بسلوك الطريق ، فلو كان السلوك على نمط واحد ما جدد اللّه الرسل بتجديد الأزمنة والأعصار ، فكل نبى وولى يبعثه اللّه تعالى بخرق عوائد زمانه ، وهى مختلفة جدا ، فتارة يغلب على الناس التحاسد والتباغض ، فيبعث بإصلاح ذات البين والتآلف والتودد وتارة يغلب حب الرياسة والجاه فيربى بالخمول وإسقاط المنزلة ، وتارة يغلب حب الدنيا وجمعها فيربى بالزهد فيها والتجريد والانقطاع إلى اللّه.

وهكذا فليقس مالم يقل. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب «واذكر فى الكتاب مريم ..») ومسلم فى (الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السّلام) عن أبى هريرة.

(٤٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٨

ولما قصدت اليهود أن يفتنوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بأن يحكم لهم بما يشتهون ، أنزل اللّه تعالى :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٤٩ الى ٥٠]

وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)

قلت : (و أن احكم) : عطف على الكتاب ، أي : وأنزلنا إليك الكتاب والحكم بينهم بما أنزل اللّه ، أو على الحق ، أي : أنزلناه بالحق وبالحكم بما أنزل اللّه ، و(أن يفتنوك) : بدل اشتمال من الضمير ، أي : احذر فتنتهم ، واللام فى قوله : (لقوم) : للبيان ، أي : هذا الاستفهام لقوم يوقنون ، فإنهم هم الذين يعلمون ألّا أحسن حكما من اللّه.

يقول الحق جل جلاله لرسوله - عليه الصلاة والسّلام - : وَأمرناك أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ أي : بين اليهود بِما أَنْزَلَ اللَّهُ ، قيل هو ناسخ للتخيير المتقدم ، وقيل : لا ، والمعنى أنت مخير ، فإن أردت أن تحكم بينهم فاحكم بما أنزل اللّه وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ الباطلة ، التي أرادوا أن يفتنوك بها ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ

عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فيصرفوك عن الحكم به.

روى أن أحبار اليهود قالوا : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه ، فقالوا : يا محمد ، قد عرفت أنّا أحبار اليهود ، وأنّا إن اتبعناك اتبعتك اليهود كلهم ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة ، فنتحاكم إليك ، فتقضى لنا عليهم ، ونحن نؤمن بك ونصدقك ، فأبى ذلك عليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وردّهم ، فنزلت الآية «١».

قال تعالى لنبيه - عليه الصلاة السّلام - : فَإِنْ تَوَلَّوْا عن الإيمان ، بل وأعرضوا عن اتباعك ، فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ فى الدنيا ، ويدخر جلّها للآخرة ، وقد أنجز اللّه وعده ، فأجلى بنى النضير ، وقتل بنى قريظة ، وسبا نساءهم وذراريهم ، وباعهم فى الأسواق ، وفتح خيبر ، وضرب عليه الجزية ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ خارجون عن طاعة اللّه ورسوله ، أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ أي : يطلبون منك حكم الملة الجاهلية التي هى متابعة الهوى ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أي : لا أحد أحسن حكما من اللّه تعالى عند أهل الإيقان لأنهم هم الذين يتدبرون الأمر ، ويتحققون الأشياء بأنظارهم ، فيعلمون ألّا أحسن حكما من اللّه عز وجل.

الإشارة : إذا كثرت عليك الخصوم الوهمية أو الواردات القلبية ، والتبس عليك أمرهم ، ولم تدر أيهما تتبع؟

فاحكم بينهم بالكتاب والسنة ، فمن وافق كتاب اللّه وسنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فاتبعه ، فإن من أمّر الكتاب والسّنة على نفسه نطق بالحكمة ، وإن وافق أكثر من واحد الكتاب أو السنة ، فانظر أثقلهم على النفس ، فإنه لا يثقل عليها إلا ما هو

---

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسير الآية ، والبيهقي فى دلائل النبوة (باب ما جاء فى دخول عبد اللّه بن سلام على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم) عن ابن عباس.

حق ، ولا تتبع أهواء النفوس والخواطر ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل على قلبك من العلوم والأسرار ، فإن متابعة الهوى يعمى القلب عن مطالعة الأسرار ، إلا إن وافق السّنة.

قيل لعمر بن عبد العزيز : ما الذّ الأشياء عندك؟ قال : حق وافق هواى. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم «لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تابعا لما جئت به» ، وفى الحكم : «يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك ، إنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك».

فمن تولى عن هذا المنهاج الواضح ، وجعل يتبع الهوى ويسلك طريق الرخص ، فليعلم أن اللّه أراد أن يعاقبه ببعض سوء أدبه ، حتى يخرج عن منهاج السالكين ، والعياذ بالله ، أو يؤدبه فى الدنيا إن كان متوجها إليه.

ثم حذّر من صحبة أهل الأهواء ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٥١ الى ٥٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ (٥٣)

قلت : (يقول الذين آمنوا) قرىء بغير واو استئنافا ، وكأنه جواب عن سؤال ، أي : ماذا يقول المؤمنون حينئذ؟

فقال : يقول ... إلخ ، وقرىء بالواو والرفع عطف جملة على جملة ، وقرىء بالواو والنصب عطف على (فيصبحوا) أو (يأتى).

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ تنتصرون بهم ، أو تعاشرونهم معاشرة الأحباب ، أو تتوددون إليهم ، وأما معاملتهم من غير مودة فلا بأس ، ثم علل النهى عن موالاتهم فقال : هم بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ أي : لأنهم متفقون على خلافكم ، يوالى بعضهم بعضا لاتحادهم فى الدين ، وإجماعهم على مضادتكم ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ أي : من والاهم منكم فإنه من جملتهم.

قال البيضاوي : وهذا تشديد فى وجوب مجانبتهم ، كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم «المؤمن والمشرك لا تتراءى نارهما» «١» أو لأن الموالين لهم كانوا منافقين. هـ.

---

(١) أخرجه أبو داود فى (الجهاد ، باب النهى عن قتل من اعتصم بالسجود) والترمذي فى (السير ، باب كراهة المقام بين أظهر المشركين) من حديث جرير : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بعث سرية إلى خثعم ، فاعتصم ناس بالسجود .. الحديث ، وفيه : وقال : أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قالوا : ولم؟ «لا تترأى نارهما».

ومعناه : لا ينبغى لمسلم أن يساكن الكفار حتى إذا أوقدوا نارا كان منهم بحيث يراها. أنظر معالم السنن للخطابى على هامش سنن أبى داود ٣/ ١٠٥.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠

وقال ابن عطية : من تولهم بمعتقده ودينه فهو منهم فى الكفر واستحقاق النقمة والخلود فى النار ، ومن تولاهم بأفعاله من العضد ونحوه ، دون معتقد ولا إخلال بإيمان ، فهو منهم فى المقت والمذمة الواقعة عليهم وعليه. هـ.

وسئل ابن سيرين عن رجل أراد بيع داره للنصارى يتخذونها كنيسة ، فتلا هذه الآية : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ. هـ. وفى أبى الحسن الصغير : أن بيع غير السلاح للعدو الكافر فسق ، وبيع السّلاح له كفر.

قلت : ولعله إذا قصد تقويتهم على حرب المسلمين ، وأما الفداء بالسلاح إذا لم يقبلوا غيره ، فيجوز فى القليل دون الكثير. وأجازه سحنون مطلقا ، إذا لم يرج فداؤه بالمال. انظر الحاشية.

إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أي : ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار.

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وهم المنافقون ، يُسارِعُونَ فِيهِمْ أي : فى موالاتهم ومناصرتهم ، يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ أي : يعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من الدوائر ، بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار. روى أن عبادة بن الصامت قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : إن لى موالى من اليهود ، كثير عددهم ، وإنى أبرأ إلى اللّه ورسوله من ولايتهم ، فقال ابن أبى : إنى امرؤ أخاف الدوائر ، لا أبرأ من ولاية موالى ، فنزلت الآية ، قال تعالى ردا عليه : فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على أعدائه وإظهار المسلمين ونصرهم ، أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ، يقطع شأفة اليهود ، من القتل والإجلاء ، فَيُصْبِحُوا أي : هؤلاء المنافقون ، عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ من الكفر والنفاق ، ومن مظاهرة اليهود نادِمِينَ.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا حينئذ - أي : حين فتح اللّه على رسوله وفضح سريرة المنافقين - : أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ، يقوله المؤمنون بعضهم لبعض ، تعجبا من حال المنافقين وتبجحا بما منّ اللّه عليهم من الإخلاص ، أو يقولونه لليهود لأن المنافقين حلفوا لهم بالمناصرة ، كما حكى تعالى عنهم وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ «١» قاله البيضاوي. وقوله : حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ. يحتمل أن يكون من كلام المؤمنين ، أو من قول اللّه تعالى ، شهادة عليهم بحبوط أعمالهم ، وفيه معنى التعجب ، كأنه قال : ما أحبط أعمالهم وما أخسرهم! واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد تقدم مرارا النهى عن موالاة الغافلين ، وخصوصا الفجار منهم ، ويلتحق بهم القراء المداهنون وهم فسقة الطلبة الذين هم على سبيل الشيطان ، والفقراء الجاهلون وهم من لا شيخ لهم يصلح للتربية ، والعلماء المتجمدون ، فصحبة هؤلاء تقدح فى صفاء البصيرة ، وتخمد نور السريرة ، وكل من تراه من الفقراء يميل إلى هؤلاء خشية الدوائر ، ففيه نزعة من المنافقين. واللّه تعالى أعلم.

(١) من الآية ١١ من سورة الحشر.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥١

ثم تكلم على بقية حفظ الإيمان ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٥٤ الى ٥٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ (٥٦)

قلت : (من) : شرطية ، و(يرتدد) «١» : فعل الشرط ، فمن قرأه بالتفكيك فعلى الأصل ، ومن قرأه بالإدغام ففتحه تخفيفا. وجملة (فسوف يأتى) : جواب ، والعائد من الجملة محذوف ، أي : فسوف يأتى اللّه بقوم مكانهم .. إلخ.

و(أذلة) : نعت ثان لقوم ، جمع ذليل ، وأتى به مع على لتضمنه معنى العطف والحنو ، و(لا يخافون) : عطف على يجاهدون ، وجملة : (و هم راكعون) : حال ، إن نزلت فى علىّ رضى اللّه عنه ، أو عطف إن كانت عامة.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ويرجع عنه بعد الدخول فيه ، فسيأتى اللّه بقوم مكانهم يُحِبُّهُمْ فيثبتهم على دينهم ، وَيُحِبُّونَهُ فيجاهدون من رجع عن دينه ، وهم أهل اليمن ، والأظهر أنهم أبو بكر الصدّيق وأصحابه ، الذين قاتلوا أهل الردة ، ويدل على ذلك الأوصاف التي وصفهم اللّه بها من الجد فى قتالهم ، والعزم عليه ، التي كانت من أوصاف الصدّيق ، وكذلك قوله : أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ فقد كان أبو بكر ضعيفا فى نفسه ، قويا فى ذات اللّه ، لم يخف فى اللّه لومة لائم ، حين لامه بعض الصحابة فى قتالهم.

وفى الآية إخبار بالغيب قبل وقوعه ، فقد ارتد من العرب فى أواخر عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ثلاث فرق : بنو مدلج ، وكان رئيسهم الأسود العنسي ، تنبأ باليمن ، واستولى على بلادهم ، ثم قتله فيروز الديلمي ، ليلة قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من غدها ، وأخبر بموته الرسول - عليه الصلاة والسّلام - فسر المسلمون. وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب ، تنبأ باليمامة ، وكتب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : من مسيلمة رسول اللّه إلى محمد رسول اللّه ، أما بعد : فإن

الأرض نصفها لي ونصفها لك ، فأجابه صلّى اللّه عليه وسلّم : «من محمد رسول اللّه إلى مسيلمة الكذاب ، أمّا بعد : فإنّ الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين» ، فحاربه أبو بكر بجند المسلمين ، وقتله وحشي قاتل حمزة ، وبنو أسد قوم طليحة ، تنبأ فبعث إليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم خالد بن الوليد فقاتله ، فهرب إلى الشام ، ثم أسلم وحسن إسلامه.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر (يرتدد) بدالين ، وقرأ الباقون (يرتد) بدال واحدة.

وفي عهد أبي بكر ، بنو فزارة قوم عيينة بن حصن ، وغطفان قوم قرة بن مسلمة ، وبنو سليم ، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة ، وبعض تميم ، قوم سجاح المتنبئة زوجة مسيلمة ، وكندة قوم الأشعث بن قيس ، وبنو بكر بن وائل بالبحرين ، فكفى اللّه أمرهم على يديه. وفي مدة عمر رضى اللّه عنه غسان ، قوم جبلة بن الأيهم ، الذي ارتد من اللطمة.

فهؤلاء جملة من ارتد من العرب. فأتى اللّه بقوم أحبهم وأحبوه ، فجاهدوهم حتى ردوهم إلى دينهم.

ومحبة اللّه للعبد : توفيقه وعصمته وتقريبه من حضرته. ومحبة العبد للّه : طاعته والتحرز من معصيته ، وسيأتى فى الإشارة الكلام عليها.

ثم وصفهم بقوله : أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أي : عاطفين عليهم خافضين جناحهم لهم ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ شداد متغالبين عليهم ، وهذا كقوله فيهم : أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ ، «١» يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ من ارتد عن دين اللّه ، وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ لصلابتهم فى دين اللّه ، وفيه إشارة إلى خطأ من لام الصّدّيق فى قتال أهل الردة ، وقالوا له : كيف تقاتل قوما يقولون : لا إله إلا اللّه؟ فقال : (و اللّه لنقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة) - فلم يلتفت إلى لومهم. ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ ، الإشارة إلى ما خصهم اللّه به ، من المحبة والأخلاق الكريمة ، وَاللَّهُ واسِعٌ الفضل والعطاء عَلِيمٌ بمن هو أهله.

ولمّا نهى عن موالاة الكفار ذكر من هو أهل للموالاة فقال : إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا لم يقل : أولياؤكم بالجمع ، تنبيها على أن الولاية للّه على الأصالة ، ولرسوله وللمؤمنين على التبع ، ثم وصفهم بقوله :

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ أي : خاضعون للّه ، ولعباده متواضعون ، منقادون لأحكامه ، أو يتصدقون فى حال ركوعهم فى الصلاة ، حرصا على الخير ومسارعة إليه ، قيل : نزلت فى على - كرم اللّه وجهه - سأله سائل وهو راكع فى صلاة ، فطرح له خاتمه ، وقيل : عامة ، وذكر

الركوع بعد الصلاة لأنه من أشرف أعمالها.

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، أي يتخذهم أولياء ، فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ أي : فإنهم الغالبون ، ووضع الظاهر موضع المضمر ليكون كالبرهان عليه ، فكأنه قال : ومن يتول هؤلاء فهم حزب اللّه ، وحزب اللّه هم الغالبون ، وتنويها بذكرهم وتعظيما لشأنهم ، وتعريضا بمن يوالى غير هؤلاء ، فإنه حزب الشيطان ، وأصل الحزب : القوم يجتمعون لأمر حزبهم. قاله البيضاوي.

الإشارة : محبة الحق تعالى لعبده سابقة على محبته له ، كما أن توبته عليه سابقة لتوبته ، قال تعالى : يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا «٢» ، قال أبو يزيد رضى اللّه عنه : غلطت فى ابتداء أمرى فى أربعة أشياء : توهمت أنى أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه ، فلما انتهيت ، رأيت ذكره سبق ذكرى ، ومعرفته تقدمت معرفتى ، ومحبته أقدم من محبتى ، وطلبه لى من قبل طلبى له. هـ.

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٢) من الآية ١١٨ من سورة التوبة. [.....]

وفى الحكم : «أنت الذاكر من قبل الذاكرين ، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين ، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين ، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين».

ومحبة اللّه لعبده : حفظه ورعايته ، وتقريبه واصطفاؤه لحضرته ، وقال القطب ابن مشيش - رضى اللّه عنه - :

المحبة أخذة من اللّه قلب من أحب ، بما يكشف له من نور جماله ، وقدس كمال جلاله ، وشراب المحبة : مزج الأوصاف بالأوصاف ، والأخلاق بالأخلاق ، والأنوار بالأنوار ، والأسماء بالأسماء ، والنعوت بالنعوت ، والأفعال بالأفعال.

قلت : ومعنى ذلك : غيبة العبد فى شهود الحق ، وهو مقام الفناء ، ثم قال رضى اللّه عنه : والشراب - أي : الشرب - سقى القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب ، حتى يسكر ، ويكون الشرب بالتدريب بعد التدريب والتهذيب ، أي يكون شرب الخمرة شيئا فشيئا ، ووقتا فوقتا ، حتى يتمكن من شهود المعاني بلا فترة ، فذلك الرّى ، وذلك بعد كمال التهذيب ، فيسقى كل على قدره ، فمنهم من يسقى بغير واسطة ، واللّه سبحانه يتولى ذلك منه ، (قلت : وهو نادر ، والغالب عليه الانحراف) ، ومنهم من يسقى من جهة الوسائط ، كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين ، (قلت :

قوله : كالملائكة ... تمثيل للوسائط ، فالملائكة للأنبياء ، والعلماء باللّه وأكابر المقربين لغيرهم) ، ثم قال : فمنهم من يسكر بشهود الكأس ، ولو لم يذق بعد شيئا ، فما ظنك بعد بالذوق ، وبعد بالشرب ، وبعد بالري ، وبعد بالسكر بالمشروب ، ؟! ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى ، كما أن السكر أيضا كذلك. انظر بقية كلامه مع شرحه فى شرحنا لخمرية ابن الفارض.

وقال شيخنا البوزيدى رضى اللّه عنه : المحبة لها ثلاث مراتب : بداية ووسط ونهاية فبدايتها لأهل الخدمة ، كالعباد والزهاد والصالحين والعلماء المجتهدين. ووسطها لأهل الأحوال ، الذين غلب عليهم الشوق حتى صدرت منهم شطحات ورقصات وأحوال غريبة ربما ينكرها أهل ظاهر الشريعة ، فمنهم من يغلب عليه الجذب حتى يصطلم ، ومنهم من يبقى معه شيء من الصحو ، وهؤلاء تظهر عليهم كرامات وخوارق العادات ، ونهايتها لأهل العرفان ، أهل مقام الشهود والعيان ، الذين شربوها من يد الوسائط وسكروا بها ، وصحوا. هـ. بالمعنى.

وفى الورتجبي ما حاصله : أن محبتهم بعد المشاهدة ، وإلا لم تكن محبة حقيقة لأن محبة الآلاء والنعماء معلولة ، ولا كذلك هذه ، لأن من رآه عشقه ، وكيف يرجع عنه من كان مسلوب القلب بعشقه لجماله؟ ولذلك لم يرتدوا عن دينهم الذي هو المحبة. هـ.

وللمحبة علامات وثمرات ، ذكر بعضها الحق تعالى بقوله : أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أي : متواضعين عاطفين عليهم ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ ، أي : القواطع ، غالبين عليهم ، يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي :

أنفسهم وأهواءهم ، وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ إذ لا يراقبون سوى المحبوب ، وليس للمحبة طريق إلا محض الفضل والكرم. ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ لكن صحبة المحبوبين عند اللّه من أسبابها العادية ، وهم أولياء اللّه الذين هم حزب اللّه ، فولايتهم والقرب منهم من أسباب القرب والمحبة ، ومن موجبات النظر والغلبة وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ ثم نهى عن صحبة ضدهم ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٥٧ الى ٥٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَلَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (٥٨)

قلت : (و الكفار) : من نصب عطف على الموصول الأول ، ومن جرّ فعلى الموصول الثاني.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً من شدة كفرهم ، وغلبة سفههم مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ كاليهود والنصارى ، وَلا تتخذوا أيضا الْكُفَّارَ من المشركين أَوْلِياءَ وأصدقاء ، أو : لا تتخذوا من اتخذ دينكم هزوا ولعبا من أهل الكتاب ومن المشركين أولياء ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فى موالاتهم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان يقتضى الوقوف عند الأمر والنهى.

وكيف توالون من يستهزىء بدينكم ، وَإِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَلَعِباً ، روى أن نصرانيا بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول : أشهد أن محمدا رسول اللّه ، قال : أحرق اللّه الكاذب. فدخل خادمه ذات ليلة بنار ، وأهله نيام ، فطارت شرارة فى البيت ، فأحرقته وأهله). وفى الآية دلالة على مشروعية الأذان من القرآن. ثم قال تعالى : ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ فإن السفه يؤدى إلى الجهل بالحق والهزء به ، والعقل يقتضى المنع من الجهل والإقرار بالحق وتعظيمه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد حذّر الحق جل جلاله من صحبة الأشرار ، ويفهم منه الترغيب فى موالاة الأخيار ، وهم الصوفية الأبرار ، ففى صحبتهم سر كبير وخير كثير ، ولابن عباد رضى اللّه عنه فى نظم الحكم :

إنّ التّواخى فضله لا ينكر وإن خلا من شرطه لا يشكر

والشرط فيه أن تواخى العارفا عن الحظوظ واللحوظ صارفا

مقاله وحاله سيّان ما دعونا إلّا إلى الرحمان

أنواره دائمة السّراية فيك وقد حفّت به الرّعاية

وفى الحكم : «لا تصحب من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على اللّه مقاله». وباللّه التوفيق.

(٥٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥

ثم وبخ أهل الكتاب ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٥٩]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ (٥٩)

قلت : نقم - بفتح القاف - ينقم - بالكسر - ، بمعنى : عاب وأنكر ، وانتقم إذا كافأه على إنكاره ، ويقال : نقم - بالكسر - ينقم - بالفتح - وقرىء به فى الشاذ ، و(أن أكثركم) : عطف على (آمنا) أي : ما تعيبون منا إلا أنا مؤمنون وأنتم فاسقون.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا أي : ما تنكرون علينا وتعيبونه منا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ من الكتب كلها ، وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ خارجون عن هذا الإيمان ،

وهذا أمر لا ينكر ولا يعاب ، ونظير هذا فى الاستثناء العجيب قول النابغة :

لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب.

الإشارة : أهل الخصوصية يقرون أحوال أهل الشريعة كلها ، ولا ينكرون على أهلها شيئا من أمورهم ، وأهل الشريعة ينكرون كثيرا من أحوال أهل الخصوصية ويعيبونها عليهم ، وهى من أفضل القربات إلى اللّه عندهم ، فيقولون لهم : هل تنقمون منا إلا أن آمنا بشريعتكم ، وأنتم خارجون عن حقيقتنا ورؤية خصوصيتنا ، لكن أهل الشريعة معذورون فى إنكارهم ، إذ ذاك مبلغهم من العلم ، فإن كان إنكارهم غيرة على ما فهموا من الدين فعذرهم صحيح ، وإن كان حسدا أو حمية فهم ممقوتون عند اللّه. واللّه تعالى أعلم.

ولما جاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم جماعة من اليهود ، فقالوا يا محمد : أخبرنا بمن تؤمن من الرسل ، فتلا عليهم :

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ إلى قوله : وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى «١» فلما سمعوا ذكر عيسى قالوا : ما رأينا شرا من دينك ، فأنزل اللّه تعالى فى الرد عليهم :

[سورة المائدة (٥) : آية ٦٠]

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (٦٠)

قلت : مشاركة اسم التفضيل هنا باعتبار زعمهم واعتقادهم ، وإلا فلا مشاركة بين المسلمين وبينهم فى الشر والضلال ، و(مثوبة) : تمييز عن شر ، وضع موضع الجزاء ، وأصل المثوبة : فى الخير ، والعقوبة : فى الشر ، فوضع هذا المثوبة موضع العقوبة تهكما بهم ، كقوله :

تحيّة بينهم ، ضرب وجيع.

---

(١) الآية ٨٤ من سورة آل عمران.

و(من لعنة اللّه) : إما خبر ، أي : هو من لعنه اللّه ، أو بدل من شر ، ولا بد من حذف مضاف ، إما من الأول أو الثاني ، أي : بشر من أهل ذلك الدين من لعنه اللّه ، أو دين من لعنه اللّه.

ومن قرأ : (عبد) بفتح الباء ، ففعل ماض ، صلة لموصول محذوف ، أي : ومن عبد ، و(الطاغوت) : مفعول به ، ومن قرأ بضم الباء ، فاسم للمبالغة ، كيقظ ، أي : كثير اليقظة ، وهو عطف على القردة ،

والطاغوت مضاف.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : هَلْ أخبركم بأقبح من ذلك الدين الذي قلتم ما رأيتم شرا منه ، هو دين مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ ، أو نفس من لعنه اللّه ، أي : أبعده من رحمته وَغَضِبَ عَلَيْهِ بكفره وعصيانه ، وهم اليهود ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنازِيرَ أي : مسخ بعضهم قردة وخنازير ، وهم أصحاب السبت ، مسخ شبابهم قردة ، وشيوخهم خنازير ، وَجعل منهم أيضا من عَبَدَ الطَّاغُوتَ ، وهم عباد العجل ، أو الكهنة ، أو كل من أطاعوه فى معصية اللّه ، أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً أي : أقبح مكانا ، أي : أقبح مرتبة وأخس حالا ، جعل مكانهم شرا ، ليكون أبلغ فى الدلالة على شريتهم ، وَهم أيضا أَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ أي : عن وسط الطريق ، بل حادوا عنه إلى طرق تفريط أو إفراط ، حيث تركوا طريق الإسلام ، الذي هو الصراط المستقيم.

الإشارة : من كان متلطخا بالمعاصي والذنوب ، وباطنه محشو بالمساوئ والعيوب كالحسد والجاه وحب الدنيا وسائر أمراض القلوب ، ثم جعل يطعن فى طريق الخصوص ، يقال له : هل أنبئك بشر من ذلك ، هو من أبعده اللّه بسبب المعاصي والذنوب ، وغضب عليه بسبب أمراض القلوب ، ومسخ قلبه عن مطالعة أنوار الغيوب ، فهذا أقبح مكانا وأضل سبيلا ، فكل من أولع بالطعن على الذاكرين ، يمسخ قلبه بالغفلة والقسوة ، حتى يفضى إلى سوء الخاتمة. والعياذ باللّه.

ثم وسمهم الحق تعالى بالنفاق ، أي : اليهود ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٦١]

وَإِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ (٦١)

قلت : جملة : (و قد دخلوا) ، وجملة : (و هم قد خرجوا) ، حالان من فاعل (قالوا) ، ودخلت (قد) على دخلوا وخرجوا تقريبا للماضى من الحال ، ليصح وقوعه حالا أي : ذلك حالهم فى دخولهم وخروجهم على الدوام ، وأفادت أيضا - لما فيها من التوقع - أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم.

يقول الحق جل جلاله فى ذكر مساوئ اليهود : وَإِذا جاؤُكُمْ ودخلوا عليكم ، أظهروا الوفاق لكم ، وقالُوا آمَنَّا بدينكم وَهم قَدْ دَخَلُوا عليكم ملتبسين بِالْكُفْرِ فى قلوبهم ، وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا أيضا بِهِ ، فلم ينفع فيهم وعظ ولا تذكير ، بل كتموا النفاق وأظهروا الوفاق ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ فيفضحهم على رؤوس الأشهاد.

الإشارة : من سبق له الطرد والإبعاد لا تنفعه خلطة أهل المحبة والوداد ، بل يخرج من عندهم كما

دخل عليهم ، لا ينفع فيه وعظ ولا تذكير ، ولا ينجح فيه زاجر ولا نذير ، وأما من سبقت له العناية فلا يخرج من عندهم إلا مصحوبا بالهداية والرعاية ، إذا كان فى أسفل سافلين أصبح فى أعلى عليين لأنهم قوم لا يشقى جليسهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية مساوئ اليهود ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٦٢ الى ٦٤]

وَتَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)

قلت : (لو لا) : إذا دخلت على الماضي أفادت التوبيخ ، وإذا دخلت على المستقبل أفادت التحضيض.

يقول الحق جل جلاله : وَتَرى يا محمد ، أو يا من تصح منه الرؤية كَثِيراً من اليهود يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ أي : فى الذنوب والمعاصي المتعلقة بهم فى أنفسهم ، وَالْعُدْوانِ المتعلقة بغيرهم ، كالتعدى على أموال الغير وأعراضهم وأبدانهم ، وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ : الحرام كالرشا والربا وغير ذلك ، لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أي :

قبح عملهم بذلك ، وتناهى فى القبح.

لَوْ لا يَنْهاهُمُ أي : هلا ينهاهم الرَّبَّانِيُّونَ أي : عبّادهم ورهبانهم ، (و الأحبار) أي : علماؤهم وأساقفتهم ، عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ أي : الكذب ، وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ : الحرام ، لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ من السكوت عنهم ، وعدم الإنكار عليهم ، عبّر أولا بيعلمون وثانيا بيصنعون لأن الصنع أبلغ ، ولأن الصنع عمل بعد تدريب وتدقيق وتحرى إجادته وجودته ، بخلاف العمل ، ولا شك أن ترك التغيير والسكوت على المعاصي من العلماء وأولى الأمر أقبح وأشنع من مواقعة المعاصي ، فكان جديرا بأبلغ الذم ، وأيضا : ترك التغيير لا يخلو من تصنع ، فناسب التعبير بيصنعون ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «ما من رجل يجاور قوما فيعمل بالمعاصي بين أظهرهم إلّا أوشك اللّه تعالى أن يعمّهم منه بعقاب». وقد قال تعالى : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً «١» ، فالوبال الذي يترتب على ترك الحسبة أعظم من الوبال الذي يترتب على المعصية ، فكان التوبيخ على ترك الحسبة أعظم.

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٨

ثم نعى عليهم مقالاتهم الشنيعة ، التي هى من جملة قولهم الإثم ، فقال : وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ أي :

مقبوضة عن بسط الرزق. روى أن اليهود أصابتهم سنة جدبة بشؤم تكذيبهم للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم فقالوا هذه المقالة الشنيعة ، والذي قالها فنحاص ، ونسبت إلى جملتهم لأنهم رضوا بقوله ، فغل اليد كناية عن البخل ، وبسطها كناية عن الجود ، ومنه : وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ «١».

ثم رد عليهم فقال : غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ، يحتمل أن يكون دعاء أو خبرا ، ويحتمل أن يكون فى الدنيا بالأسر والقبض ، أو فى الآخرة بجعل الأغلال فيها إلى عنقهم فى جهنم ، قال تعالى : بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ أي : نعمه مبسوطة على عباده ، سحاء عليهم ، الليل والنهار ، وإنما ثنيت اليدان هنا ، وأفردت فى قول اليهود ليكون أبلغ فى الرد عليهم ، ومبالغة فى وصفه تعالى بالجود والكرم ، كما تقول : فلان يعطى بكلتا يديه إذا كان عظيم السخاء ، أو كناية عن نعم الدنيا والآخرة ، أو عن ما يعطيه استدارجا وما يعطيه للإكرام. ثم أكده بقوله : يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ أي : هو مختار فى إنفاقه ، يوسع تارة ويضيق تارة أخرى ، على حسب مشيئته ومقتضى حكمته.

ولمّا عميت بصيرتهم بالكفر ، وقست قلوبهم بالذنوب ، كانوا كلما ازدادوا تذكيرا بالقرآن ، زادوا فى العتو والطغيان ، كما قال تعالى : وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً إذ هم متعصبون بالكفر والطغيان ، ويزدادون طغيانا وكفرا بما يسمعون من القرآن ، كما يزداد المريض مرضا من تناول الغذاء الصالح للأصحاء.

ومن مساوئهم أيضا : تفريق قلوبهم بالعداوة والشحناء ، كما قال تعالى : وَأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ فلا تتوافق قلوبهم ولا تجتمع آراؤهم كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ أي : كلما أرادوا حرب الرسول - عليه الصلاة السّلام - وإثارة شر عليه ، ردهم اللّه ، وأبطل كيدهم ، بأن أوقع بينهم منازعة كف بها شرهم ، أو : كلما أرادوا حرب عدو لهم هزمهم اللّه ، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط عليهم بختنصر ، ثم أفسدوا فسلط عليهم فطرس الرومي ، ثم أفسدوا فسلط عليهم المجوس ، ثم أفسدوا فسلط عليهم المسلمون. فكان شأنهم الفساد ، ولذلك قال تعالى فيهم : وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أي : الفساد بإثارة الحروب والفتن ، وهتك المحارم ، واجتهادهم فى الحيل والخدع للمسلمين ، وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ أي : لا يرضى فعلهم فلا يجازيهم إلا شرا وعقوبة.

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٩
الإشارة : قال الورتجبي : فى الآية تحذير الربانيين العارفين باللّه وبحقوق اللّه ، والأحبار العلماء باللّه وبعذاب اللّه لمن عصاه ، وبثواب اللّه لمن أطاعه لئلا يسكنوا عن الزجر للمبطلين والمغالطين ، المائلين عن طريق الحق إلى طريق النفس ، وبيّن تعالى أن من داهن فى دينه عذب وإن كان ربانيا. هـ.
وفى بعض الأثر : «إذا رأى العالم المنكر وسكت ، فعليه لعنة اللّه». والذي يظهر أن نهى الربانيين يكون بالهمة والحال ، كقضية معروف الكرخي وغيره ، ونهى الأحبار يكون بالمقال ، وقد تقدم هذا.
واللّه تعالى أعلم.
ثم ندبهم إلى الإسلام فقال :
[سورة المائدة (٥) : الآيات ٦٥ الى ٦٦]
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ (٦٦)
يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ اليهود والنصارى ، آمَنُوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم وبما جاء به ، وَاتَّقَوْا ما ذكرنا من معاصيهم ومساويهم ، لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ المتقدمة ، ولم نؤاخذهم بها ، وَلَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ مع المؤمنين ، وفيه تنبيه على أن الإسلام يجب ما قبله ولو عظم ، وأن الكتابي لا يدخل الجنة إلا أن يسلم.
وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ بالإيمان بما فيهما ، وإذاعة علمهما ، والقيام بأحكامهما ، من غير تفريق بينهما ، وآمنوا بما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ، يعنى : بسائر الكتب المنزلة ، ومن جملتها القرآن العظيم ، فإنهم لما كلفوا بالإيمان بها صارت كأنها منزلة عليهم ، فلو فعلوا ذلك لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ أي :
لوسعنا عليهم أرزاقهم ، وبسطنا عليهم النعم بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض ، أو : لأكلوا من فوقهم بكثرة ثمرة الأشجار ، ومن تحت أرجلهم بكثرة الزروع ، أو من فوقهم ما يجنون من ثمار أشجارهم ، ومن تحت أرجلهم ما يتساقط منها ، والمراد : بيان علة قبض الرزق عنهم ، وأن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم ، لا لقصور القدرة عن ذلك.
ولو أنهم أقاموا ما ذكرنا لو سعنا عليهم ، ولحصل لهم خير الدارين ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ أي : جماعة عادلة غير غالية ولا مقصرة ، وهم الذين آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما

يَعْمَلُونَ أي : قبح عملهم ، وفيه معنى التعجب ، أي : ما أسوأ عملهم! ، وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض عنه ، والإفراط فى العداوة. قاله

البيضاوي. قال فى الحاشية : وفى الآية شاهد لما ورد من افتراق أهل الكتابين على فرق ، كما أن شاهد افتراق هذه الأمة آية : وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ «١» ، وهذه هى الناجية من هذه الأمة هـ. يعنى التي تهدى بالحق إلى الحق ، وتعدل به فى جميع الأمور.

الإشارة : كل من حقق الإيمان الكامل والتقوى الكاملة ، وسع اللّه عليه فى أرزاق العلوم ، وفتحت له مخازن الفهوم ، ودخل جنة المعارف ، فلم يشتق إلى جنة الزخارف ، وقال الورتجبي : لو كانوا على محل التحقيق فى المعرفة لأكلوا أرزاق اللّه باللّه من خزائن غيبه ، كأصحاب المن والسلوى والمائدة من السماء ، ويفتح لهم كنوز الأرض وهم على ذلك ، بإسقاط رؤية الوسائط. هـ.

وقال القشيري : لو سلكوا سبيل الطاعات لوسعنا عليهم أسباب المعيشة ، وسهلنا لهم الحال ، إن ضربوا يمنة ، لا يلقون غير اليمن ، وإن ضربوا يسرة ، لا يجدون إلا اليسر. هـ.

ثم أمر رسوله بالتبليغ من غير مبالاة بأهل التشغيب ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٦٧]

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (٦٧)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ جميع ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ غير مراقب أحدا ولا خائف مكروها ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ بأن لم تبلغ جميع ما أمرتك وكتمت شيئا منه ، فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ أي : كأنك ما بلغت شيئا من رسالة ربك لأن كتمان بعضها يخل بجميعها ، كترك بعض أركان الصلاة. وأيضا كتمان البعض يخل بالأمانة الواجبة فى حق الرسل ، فتنتقض الدعوة للإخلال بالأمانة ، وذلك محال. ولا يمنعك أيها الرسول عن التبليغ خوف الإذاية فإن اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ بضمان اللّه وحفظه ، إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ أي : لا يمكنهم مما يريدونه منك. وقد قصده قوم بالقتل مرارا ، فمنعهم اللّه من ذلك كما فى السير عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «بعثني اللّه برسالته ، فضقت بها ذرعا ، فأوحى اللّه لى : إن لم تبلّغ رسالتى عذّبتك ، وضمن لى العصمة فقويت» «٢».

---

(١) من الآية ١٨١ من سورة الأعراف.

(٢) عزاه المناوى فى الفتح السماوي ٢/ ٥٧٤ لاسحاق بن راهويه فى مسنده من حديث أبى هريرة.

وعن أنس : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يحرس ، حتى نزلت ، فأخرج رأسه من قبة أدم ، فقال : «انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمنى اللّه من الناس» «١». وظاهر الآية يوجب تبليغ جميع ما أنزل اللّه. ولعل المراد تبليغ ما يتعلق به مصالح العباد ، وقصد بإنزاله اطلاعهم عليه ، فإن من الأسرار الإلهية ما يحرم إفشاؤه. قاله البيضاوي.

الإشارة : قال الورتجبي : أمره بإبلاغ ما أنزل إليه من الذي يتعلق بأحكام العبودية ، ولم يأمرهم بأنه يعرفهم أسرار ما بينه وبين اللّه ، وما بين اللّه وبين أنبيائه وأوليائه. ثم قال : (و اللّه يعصمك) أي : يعصمك أن يوقعك أحد فى التمويه والغلط والحيل فى طريقك إلىّ ، وهذا لكونه مختارا بالرسالة ، وحقائق الرسالة فى الرسول : ظهور أنوار الربوبية فى قلبه ، وبيان أحكام العبودية فى سرّه. وقال الأستاذ ، يعنى القشيري : يقال فى قوله : (و اللّه يعصمك من الناس) أي : حتى لا تغرق فى بحر التوهم ، بل تشاهدهم كما هم وجودا بين طرفى العدم. انتهى نقل الورتجبي.

وقال القشيري أيضا : لا تكتم شيئا مما أوحينا إليك ملاحظة غير ، إذ لا غير فى التحقيق إلا رسوما موضوعة ، أحكام القدرة عليها جارية. ثم قال : (و اللّه يعصمك) أي : يعصم ظاهرك من أن يمسّك من أذاهم شيء ، فلم يتسلط عليه بعد هذا عدو ، أي : وما وقع له من الشج وغيره كان قبل ذلك ، وقيل : المراد عصمته من القتل ، ثم قال :

ونصون سرّك عنهم ، حتى لا يقع على إحساسهم. وقال شيخنا السلمى : قيل : يعصمك منهم أن يكون منك إليهم التفات ، أو يكون لك بهم اشتغال. انتهى.

قلت : صدق الباطن ، لا ينفك عنه من أول الأمر لأنه من ضروريات كونه رسول اللّه باللّه ، وهذا قد يتحقق للمأذون من أتباعه ، فضلا عنه ، والظاهر ما صدر به من عصمة ظاهره ، أو أن يقع خلل فى طريقه بتمويه أو غلط أو حيلة ، كما أشار إليه الورتجبي. فلله دره. قاله المحشى الفاسى. واللّه تعالى أعلم.

ثم أبطل دين من حاد عن رسالة نبيه ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٦٨]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً

مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٦٨)
يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : يا أَهْلَ الْكِتابِ اليهود والنصارى ، لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ أي : لستم على دين يعتد به ، حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ على لسان محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومن إقامتها الإيمان بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم والإذعان لحكمه ، فإن الكتب الإلهية بأسرها ، أمرت بالإيمان والإذعان ، لمن صدقته المعجزة ، وهى ناطقة بوجوب الطاعة له ، والمراد بإقامة الكتابين : إقامة أصولهما وما لم ينسخ من فروعهما ، لا جميعهما. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (التفسير ، سورة المائدة) والحاكم فى (التفسير ٢/ ٣١٣) ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، كما أخرجه البيهقي فى الدلائل (باب قول اللّه عز وجل : يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ) من حديث السيدة عائشة رضى اللّه عنها.

الإشارة : ما قيل لأهل الكتاب يقال لهذه الأمة المحمدية على طريق الإشارة ، فيقال لهم : لستم على شىء ، يعبا به من أعمالكم وأحوالكم ، حتى تقيموا كتابكم القرآن ، فتحلوا حلاله ، وتحرموا حرامه ، وتقفوا عند حدوده ، وتمتثلوا أوامره ، وتجتنبوا نواهيه ، وتقيموا - أيضا - سنة نبيكم فتقتدوا بأفعاله ، وتتأدبوا بآدابه ، وتتخلقوا بأخلاقه ، على جهد الاستطاعة ، ولذلك قال بعض السلف : ليس علىّ فى القرآن أشد من هذه الآية : قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ الآية. كما فى البخاري «١».
ثم ذكر عتو اليهود وطغيانهم ، فقال :

...

وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ يقول الحق جل جلاله : وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً من اليهود ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ من القرآن والوحى طُغْياناً وَكُفْراً على ما عندهم ، فلا تحزن عليهم بزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلغه إليهم ، فإن ضرر ذلك لا حق بهم ، لا يتخطاهم ، قال ابن عباس : جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم رافع بن حارثة وسلام بن مشكم وملك بن الصيف ورافع بن حريملة فى جماعة من اليهود ، فقالوا : يا محمد ، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ، وأنك مؤمن بالتوراة وبنبوة موسى ، وأن جميع ذلك حق؟ قال : بلى ، ولكنكم أحدثتم وكتمتم وغيرتم». فقالوا : إنا نأخذ بما فى أيدينا فإنه الحق ، ولا نصدقك ولا نتبعك ، فنزلت فيهم هذه الآية.
الإشارة : من شأن أهل المحبة والاعتقاد ، الذين سبقت لهم من اللّه العناية والوداد ، إذا ازداد على

أشياخهم فيض علوم وأنوار وأسرار زادهم ذلك يقينا وإيمانا وعرفانا ، يجدون حلاوة ذلك فى قلوبهم وأسرارهم فيزدادون قربا وشهودا ، وأهل العناد الذين سبق لهم من اللّه الطرد والبعاد إذا سمعوا بزيادة علوم وأنوار على أولياء اللّه ، زادهم ذلك طغيانا وبعدا ، فلا ينبغى الالتفات إليهم ، ولا الاحتفال بشأنهم ، فإن اللّه كاف شرهم ، وباللّه التوفيق.

ثم رغب أهل الملل فى الإسلام ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٦٩]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)

قلت : (و الصابئون) : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن باللّه واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والصابئون كذلك. انظر البيضاوي وابن هشام.

---

(١) القائل هو سيدنا سفيان بن عيينة ، وذكره البخاري فى (الرقاق - باب الرجاء والخوف).

(٦٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٣

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئُونَ : قوم بين النصارى والمجوس ، أو عباد الكواكب ، أو قوم بقوا على دين نوح - عليه السّلام - وَالنَّصارى : قوم عيسى ، مَنْ آمَنَ منهم بِاللَّهِ إيمانا حقيقيا بلا شرك ولا تفريق ، وآمن باليوم الآخر ، وَعَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، قال ابن عباس : نسخها : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ «١» ، وقيل : إن هؤلاء الطوائف من آمن منهم إيمانا صحيحا فله أجره ، فيكون فى حق المؤمنين : الثبات عليه إلى الموت ، وفى حق غيرهم : الدخول فى الإسلام ، فلا نسخ. وقيل : إنها فيمن كان قبل بعث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فلا نسخ أيضا. قاله ابن جزى.

الإشارة : الذي طلب اللّه من العباد ورغبهم فى تحصيله ، وجعله سببا للنجاة من كل هول فى الدنيا والآخرة ثلاثة أمور : أحدها : تحقيق الإيمان باللّه ، والترقي فيه إلى محل شهود المعبود ، الثاني : تحقيق الإيمان بالبعث وما بعده ، حتى يكون نصب عينيه ، ويقربه كأنه واقع يشاهده إذ كل آت قريب. والثالث : إتقان العمل إظهارا للعبودية ، وتعظيما لكمال الربوبية ، على قدر الاستطاعة من غير تفريط ولا إفراط ، وباللّه التوفيق.

ثم خص اليهود بالعتاب لعظم جرأتهم ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٧٠ الى ٧١]
لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَأَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (٧١)

قلت : المضارع إذا وقع بعد العلم وجب إهمال (أن) معه ، فتكون مخففة ، وإن وقعت بعد الظن يصح فيها الوجهان ، فمن قرأ : (و حسبوا ألا تكون) بالرفع ، فأن مخففة ، ومن قرأ بالنصب فأن مصدرية. والفرق بين العلم والظن ، أن علم العبد إنما يتعلق بالحال ، و(أن) تخلص للاستقبال ، فلا يصح وقوعها بعد العلم ، فأهملت وكانت مخففة من الثقيلة ، بخلاف الظن فيتعلق بالحال والاستقبال ، فصح وقوع (أن) بعده. و(كلما) : ظرف لكذبوا أو يقتلون ، و(كثير) : بدل من فاعل عموا وصموا.

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ أن يعملوا بأحكام التوراة ، وَأَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلًا يجددون العهد ويحثون على الوفاء به ، ثم إنهم طغوا وعتوا كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ من عند اللّه بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ من الشرائع التي تخالف أهواءهم ومشاق الطاعة ، فَرِيقاً منهم كذبوهم وَفَرِيقاً يقتلونهم ، أي : كذبوا فريقا كداود وسليمان ، وفريقا قتلوهم بعد تكذيبهم كزكريا ويحيى ، وقصدوا قتل عيسى عليه السّلام فليس ما فعلوا معك ببدع منهم ، فلهم سلف فى ذلك.

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة آل عمران.

وَحَسِبُوا أي : ظنوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ أي : لا يقع بهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء - عليهم السّلام - ، وتكذيبهم ، فَعَمُوا عن أدلة الهدى ، أو عن الدين ، وَصَمُّوا عن استماع الوعظ والتذكير ، كما فعلوا حين عبدوا العجل ، ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لما تابوا ، ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا لما قتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء ، واستمر على ذلك كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وقليل منهم بقوا على العهد وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ فيجازيهم وفق أعمالهم.

الإشارة : لقد أخذ اللّه العهد على جميع بنى آدم فى شأن حمل الأمانة ، التي حملها أبوهم آدم ، وبعث الأنبياء والأولياء يجددون العهد فى حملها ، ويعرفون الناس بشأنها ، وهى المعرفة الخاصة ، التي هى شهود عظمة الربوبية فى مظاهر العبودية ، وحملها لا يكون إلا بمخالفة الهوى وخرق عوائد النفوس ، ولا يطيقها إلا الخصوص ، فلذلك كثر الإنكار على الأنبياء والأولياء إذ لم يأت أحد بخرق العوائد إلا

عودى وأنكر ، فكلما جاءهم رسول أو ولى بما لا تهوى أنفسهم فريقا منهم كذبوا وفريقا يقتلون ، وظنوا أن اللّه لا يعاقبهم على ذلك ، ولا تصيبهم فتنة فى قلوبهم على ما هنالك ، فعموا عن مشاهدة أنوار الحق ، وصموا عمن يذكرهم بالحق ، وقد تلمع لهم تارة قبس من أنوارهم ، فيتوبون ، ثم يصرّون على الإنكار. واللّه بصير بما يعملون.

ثم ذكر مساوئ النصارى ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٧٢ الى ٧٦]

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْواهُ النَّارُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦)

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ لما رأوا على يديه من الخوارق ، وَقالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ المعنى : لقد كفر من اتخذ عيسى إلها مع أنه كان يتبرأ من هذا الاعتقاد ، ويقول لبنى إسرائيل : اعبدوا اللّه خالقى وخالقكم.

والمشهور فى الأخبار ، أن النصارى هم الذين اعتقدوا هذا الاعتقاد دون بنى إسرائيل ، نعم ، أصل دخول هذه الشبهة على النصارى من يهودى يقال له : بولس ، حسدا منه ، وذلك أنه دخل فى دينهم ، وفرق أموالهم ، وتأهب للتعبد معهم ، ثم سار إلى بيت المقدس وقطع نفسه تقربا عند قبرى مريم وعيسى - عليهما السلام - فى زعمهم ، وكان معه رجلان اسمهما : يعقوب وناسور ، فأخذ يعلمهما ذلك الفساد ويقول لهما : عيسى هو اللّه أو ابن اللّه ، فلما قطع نفسه صار الرجلان يفشيان ذلك عنه ، فشاع مذهب الرجلين ، وكان منهما الطائفة اليعقوبية والناسورية.

ثم هددهم على الشرك فقال ، أي : عيسى : إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فى عبادته ، أو فيما يختص به من الصفات والأفعال ، فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ أي : يمنع من دخولها لأنها دار الموحدين ، وَمَأْواهُ النَّارُ أي : محله النار ، لأنها معدة للمشركين ، وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ أي : وما لهم أحد ينصرهم من النار. ووضع المظهر موضع المضمر ، تسجيلا على أنهم ظلموا بالإشراك ، وعدلوا عن طريق الحق ، وهو

يحتمل أن يكون من تمام كلام عيسى عليه السّلام ، أو من كلام اللّه تعالى.
ثم ذكر تعالى صنفا آخر منهم ، فقال : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ أي : أحد ثلاثة ، عيسى وأمه وهو ثالثهم ، أو أحد الأقانيم الثلاثة ، الأب والابن وروح القدس ، يريدون بالأب الذات ، وبالابن العلم ، وبروح القدس الحياة ، لكن فى إطلاق هذا اللفظ إيهام وإيقاع للغير فى الكفر ، وهذه المقالة - أعنى التثليث ، هى قوله النسطورية والملكانية ، وما سبق فى قوله : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ قول اليعقوبية ، القائلة بالاتحاد ، وكلهم ضالون مضلون ، وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ فى ذاته وصفاته وأفعاله ، لا شريك له فى ألوهيته ، متصلا ولا منفصلا ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ ، ولم يوحدوا لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أي : ليمس الذين بقوا منهم على الكفر ولم يتوبوا ، عذاب موجع.
أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ أي : أفلا يرجعون عن تلك العقائد الزائفة والأقوال الفاسدة ، ويستغفرونه بالتوحيد والتوبة عن الاتحاد والحلول ، فإن تابوا غفر اللّه لهم ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وهذا الاستفهام :
تعجب من إصرارهم ، مع كون التوبة مقبولة منهم.
ثم رد عليهم بقوله : مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ بشر قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وخصه اللّه بآيات ، كما خصهم بها ، فإن كان قد أحيا اللّه الموتى على يديه ، فقد أحيا العصى ، وجعلها حية تسعى على يد موسى ، بل هو أعجب ، وإن كان قد خلقه اللّه من غير أب ، فقد خلق آدم من غير أب وأم ، وهو أغرب ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ فقط ، كسائر النساء اللاتي يلازمن الصدق أو التصديق ، كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ ويفتقران إليه افتقار

الحيوانات ، قال البيضاوي : بيّن أولا أقصى مالهما من الكمال ، ودل أنه لا يوجب لهما ألوهية لأن كثيرا من الناس يشاركهما فى مثله ، ثم نبه على نقصهما ، وذكر ما ينافى الربوبية ويقتضى أن يكون من عداد المركبات الكائنة الفاسدة ، أي : القابلة للفساد ، ثم عجب ممن يدعى الربوبية لهما مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة ، فقال : انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ أي : كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله ، و(ثم) للتفاوت بين العجبين ، أي : أن بياننا للآيات عجب ، وإعراضهم عنها أعجب. ه ثم أبطل عبادتهم لعيسى عليه السّلام فقال : قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً بل هو عاجز عن صرفه عن نفسه وجلب الخير لها ، فكيف يقدر أن يدفعه عن غيره؟ وعبّر عنه بما ، دون (من) - إشارة إلى أنه من جنس ما لا يعقل ، وما كان مشاركا فى الحقيقة لجنس ما لا يعقل

، يكون معزولا عن الألوهية ، وإنما قدّم الضر لأن التحرز منه أهم من تحرى النفع ، ثم هددهم بقوله : وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ بالأقوال والعقائد ، فيجازى عليهما ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للعبد أن يصفى مشرب توحيده ، ويعتنى بتربية يقينه ، بصحبة أهل اليقين ، وهم أهل التوحيد الخاص ، فيترقى من توحيد الأفعال إلى توحيد الصفات ، ومن توحيد الصفات إلى توحيد الذات ، فنهاية توحيد الصالحين والعلماء المجتهدين تحقيق توحيد الأفعال ، وهو ألّا يرى فاعلا إلا اللّه ، لا فاعل سواه ، وثمرة هذا التوحيد :

الاعتماد على اللّه ، والثقة باللّه ، وسقوط خوف الخلق من قلبه ، لأنه يراهم كالآلات ، والقدرة تحركهم ، ليس بيدهم نفع ولا ضرر ، عاجزون عن أنفسهم فكيف عن غيرهم؟ ونهاية توحيد العباد والزهاد والناسكين المنقطعين إلى اللّه تعالى توحيد الصفات ، فلا يرون قادرا ولا مريدا ولا عالما ولا حيا ولا سميعا ولا بصيرا ولا متكلّما إلا اللّه ، قد انتفت عنه صفات الحدث وبقيت صفات القدم. وثمرة هذا التوحيد : الانحياش من الخلق والتأنس بالملك الحق ، وحلاوة الطاعات ولذيذ المناجاة. ونهاية توحيد الواصلين من العارفين والمريدين السائرين : توحيد الذات فلا يشهدون إلا اللّه ، ولا يرون معه سواه.

قال بعضهم : لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع ، فإنه لا غير معه حتى أشهده.

وقال شاعرهم :

مذ عرفت الإله لم أر غيرا وكذا الغير عندنا ممنوع

مذ تجمعت ما خشيت افتراقا فأنا اليوم واصل مجموع

وقال فى التنوير : أبى المحققون أن يشهدوا مع اللّه سواه لما حققهم به من شهود الأحدية وإحاطة القيومية. هـ.

وفى الحكم : «الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته». وهؤلاء هم الصديقون المقربون. نفعنا اللّه بذكرهم ، وخرطنا فى سلكهم. آمين.

(٢/٦٦)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٧

ثم نهى أهل الكتاب عن الغلو فى عيسى ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٧٧]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (٧٧)

يقول الحق جل جلاله : يا أَهْلَ الْكِتابِ أي : النصارى ، لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وتقولوا قولا غَيْرَ الْحَقِّ وهو اعتقادكم فى عيسى أنه إله ، أو أنه لغير رشدة ، ولا تفرطوا ، وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ سلفوا قبلكم ، وهم أئمتكم فى الكفر ، قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ أي : من قبل مبعث محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَأَضَلُّوا أناسا كَثِيراً حملوهم على الاعتقاد الفاسد فى عيسى وأمه ، فقلدوهم وضلوا معهم ، وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ أي : عن قصد السبيل المستقيم ، وهو الإسلام بعد مبعثه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقيل : الضلال الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل ، والثاني إشارة إلى ضلالهم عما جاء به الشرع. قاله البيضاوي.

الإشارة : الغلو كله مذموم كما تقدم ، وخير الأمور أوسطها ، كما تقدم. وقد رخص فى الغلو فى ثلاثة أمور :

أحدها : فى مدح النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فلا بأس أن يبالغ فيه ما لم يخرجه عن طور البشرية ، وهذا غلو ممدوح ، مقرب إلى اللّه تعالى ، قال فى بردة المديح :

دع ما ادّعته النّصارى فى نبيّهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

الثاني : فى مدح الأشياخ والأولياء ، ما لم يخرجهم أيضا عن طورهم ، أو يغض من مرتبة بعضهم ، فقد رخصوا للمريد أن يبالغ فى مدح شيخه ، ويتغالى فيه ، بالقيدين المتقدمين لأن ذلك يقربه من حضرة الحق تعالى.

والثالث : فى تعظيم الحق جل جلاله. وهذا لا قيد فيه ولا حصر. حدث عن البحر ولا حرج ، إذا كان ممن يحسن العبارة ويتقن الإشارة ، بحيث لا يوهم نقصا ولا حلولا. وباللّه التوفيق.

ولما ذكر مساوئ النصارى ذكر مساوئ اليهود ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٧٨ الى ٨١]

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَلكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ (٨١)

يقول الحق جل جلاله : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ

أي : لعنهم اللّه فى الزبور على لسان نبيه داود عليه السّلام ، وَلعنهم اللّه أيضا فى الإنجيل على لسان

عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، فالأول :

أهل أيلة لما اعتدوا فى السبت لعنهم داود عليه السّلام ، فمسخوا قردة وخنازير ، والثاني أصحاب المائدة ، لمّا كفروا دعا عليهم عيسى ، ولعنهم ، فمسخوا خنازير ، وكانوا خمسة آلاف رجل ، ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ ذلك اللعن الشنيع المقتضى للمسخ بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حرم عليهم.

كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ أي : لا ينهى بعضهم بعضا عن معاودة منكر فعلوه ، أو عن منكر أرادوا فعله وتهيأوا له ، أو : لا ينتهون عنه ولا يمتنعون منه ، لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ ، وهو تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم.

تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ أي : من اليهود ، يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : يوالون المشركين بغضا للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وللمؤمنين ، لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أي : لبئس شيئا قدموه ، ليردوا عليه يوم القيامة ، وهو أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَفِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ أي : بئس ما قدموا أمامهم ، وهو سخط اللّه والخلود فى النار ، والعياذ باللّه ، وَلَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ أي : نبيهم كما يزعمون ، وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِ من التوراة وغيره ، مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ لأن النبي لا يأمر بموالاة الكفار ، ولو آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم وما أنزل إليه - كما هو الواجب عليهم - ما اتخذوا الكفار أولياء ، وَلكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ أي : خارجون عن دينهم ، أو خارجون عن الدين الحق الذي لا يقبل غيره ، وهو الإسلام.

الإشارة : ذكر الحق جل جلاله فى هذه الآية ثلاثة أمور ، وجعلها سببا للعن والطرد ، وموجبة للسخط والمقت ، أولها : الانهماك فى المعاصي والعدوان ، والإصرار على الذنوب والطغيان. والثاني : عدم الإنكار على أهل المعاصي والسكوت عنهم والرضا بفعلهم ، والثالث : موالاة الفجار والمودة مع الكفار ، ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أزواجهم أو عشيرتهم ، وفى بعض الأخبار : (لو أن رجلا قام الليل وصام النهار ، ثم تودد مع الفجار لبعث معهم ، ولو أن رجلا عمل بالمعاصي ما عمل ، ثم أحب الأبرار لحشر معهم) ، أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم ، ويعضده حديث : «المرء مع من أحبّ». واللّه تعالى أعلم.

ثم بيّن تفاوت عداوة الكفار للمسلمين ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٨٢ الى ٨٦]

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (٨٦)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٩

قلت : القسيس : العالم ، والراهب : العابد ، و(مما عرفوا) : سببية ، و(من الحق) : بيان أو تبعيض ، وجملة :

(لا نؤمن) : حال ، والعامل فيها متعلق الجار ، أي : أي شيء حصل لنا حال كوننا غير مؤمنين ، و(نطمع) : عطف على (نؤمن) ، أو خبر عن مضمر ، أي : ونحن نطمع.

يقول الحق جل جلاله : لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً للمؤمنين اليهود والمشركين ، لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم ، وانهماكهم فى اتباع الهوى ، وركونهم إلى التقليد ، وبعدهم عن التحقيق ، وتمرنهم على تكذيب الأنبياء ، ومعاداتهم وعدوانهم لا ينقطع إلى الأبد.

وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ، للين جانبهم ، ورقة قلوبهم ، وقلة حرصهم على الدنيا بالنسبة لليهود ، وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل ، وإليه أشار بقوله : ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ أي : علماء ، ومن جملة علمهم : علمهم بوصاية عيسى بالإيمان بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَرُهْباناً أي : عبادا ، وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ عن قبول الحق إذا عرفوه ، بخلاف اليهود لكثرة جحودهم ، وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل محمود ، وإن كان من كافر. قاله البيضاوي وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ محمد صلّى اللّه عليه وسلّم تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ من البكاء ، جعل أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها ، وإنما يفيض دمعها ، وذلك مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ حين سمعوه ، أو من بعض الحق ، فما بالك لو عرفوا كله؟ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا بذلك ، أو بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ بأنه حق ، أو بنبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو من أمته الذين هم شهداء على الأمم.

نزلت فى النجاشي وأصحابه ، حين دعوا جعفرا وأصحابه ، وأحضروا القسيسين والرهبان ، وأمره أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ سورة مريم ، فبكوا وآمنوا بالقرآن. وقيل : نزلت فى ثلاثين أو سبعين رجلا من قومه ، وفدوا من عنده من الحبشة بأمره على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقرأ عليهم سورة يس ، فبكوا وآمنوا ، فصدر الآية عام ، فالنصارى كلهم أقرب مودة للمسلمين ، من آمن ، ومن لم يؤمن ، وإنما جاء التخصيص فى قوله : وَإِذا سَمِعُوا ، فالضمير إنما يرجع إلى من آمن منهم ، كالنجاشى وأصحابه. وإنما جاء الضمير عاما لأن الجماعة تحمد بفعل الواحد. انظر ابن عطية.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٧٠

ولما دخل الإيمان فى قلوبهم حين سمعوا القرآن ، عاتبوا أنفسهم على التأخر عن الإيمان فقالوا : وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَنحن نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ، وهى أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم التي هى أفضل الأمم ، وهذا منهم استفهام إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي ، وهو الطمع فى الانخراط مع الصالحين ، والدخول فى مداخلهم ، فَأَثابَهُمُ اللَّهُ أي : جازاهم بِما قالُوا واعتقدوا ، جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ الذي اعتادوا الإحسان فى جميع الأمور ، أو الذين أحسنوا النظر وأتقنوا العمل.

ثم ذكر ضدهم فقال : وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ ، شفع بهم حال المؤمنين المصدقين ، جمعا بين الترغيب والترهيب ، ليكون العبد بين خوف ورجاء. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أشد الناس إنكارا على الفقراء ، وأشدهم عداوة لهم ، من تقدم فى أسلافه رئاسة علم أو جاه أو صلاح أو نسبة شرف ، وأقرب الناس مودة لهم من لم يتقدم له شيء من ذلك ، فالعوام أقرب وأسهل للدخول فى طريق الخصوص من غيرهم. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا تضمن الكلام مدح النصارى على ترهبهم ، والحث على حبس النفس ، ورفض الشهوات ، أعقبه بالنهى عن الإفراط فى ذلك والاعتداء عما حدّه اللّه بجعل الحلال حراما ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٨٧ الى ٨٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ أي : لا تحرموا ما طاب ولذ مما أحله اللّه لكم ، وَلا تَعْتَدُوا فتحرموا ما أحللت لكم ، ويجوز أن يراد : ولا تعتدوا حدود ما أحل لكم إلى ما حرم عليكم ، فتكون الآية ناهية عن تحريم ما أحل وتحليل ما حرم ، داعية إلى القصد بينهما ، والوقوف على ما حد دون التجاوز إلى غيره. روى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وصف القيامة يوما ، وبالغ فى إنذارهم ، فرقوا ، واجتمعوا فى بيت عثمان بن مظعون ، واتفقوا على ألا يزالوا صائمين قائمين ، وألا يناموا على الفرش ، ولا يأكلوا اللحم والودك «١» ، ولا يقربوا النساء والطّيب ، ويرفضوا الدّنيا ، ويلبسوا المسوح ، ويسيحوا فى الأرض ، ويجبّوا مذاكرهم ، فبلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال لهم : «إنى لم أومر بذلك ، إنّ لأنفسكم عليكم حقا ، فصوموا وأفطروا ، وقوموا وناموا ، فإنّى أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وآكل اللحم والدّسم ، وآتى النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى» «٢». ونزلت الآية.

---

(١) الودك : دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه.

(٢) ذكره الواحدي فى أسباب النزول عن المفسرين ، بغير إسناد ، وبنحوه أورده الطبري فى التفسير

عن السدى. وهو منتزع من أحاديث ، وأصله فى الصحيحين. راجع الفتح السماوي : (٥٧٩ - ٥٨١).

(٧٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٧١

ثم قال تعالى : وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً أي : كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم اللّه ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ فأحلوا حلاله واستعملوه ، وحرموا حرامه واجتنبوه.

الإشارة : طريقة العباد والزهاد : رفض الشهوات والملذوذات بالكلية ، زهدا وورعا وخوفا من اشتغال النفس بطلبها ، فيتعطل وقتهم عن العبادة ، وطريقة المريدين السائرين : رفض ما تتعلق به النفس قبل الحصول ، وتشره إليه رياضة وتعففا ، لئلا تتعلق هممهم بغير اللّه ، فما جاءهم من غير طلب ولا شره أكلوه وشكروا اللّه عليه ، ولا يقفون مع جوع ولا شبع. وطريقة الواصلين العارفين : تجنب ما يقبض من غير يد اللّه ، فإذا أخذتهم سنة حتى غفلوا عن التوحيد فقبضوا شيئا ، مع رؤية الواسطة ، أخرجوه عن ملكهم ، كما وقع لأبى مدين رضى اللّه عنه ويأخذون ما سوى ذلك قلّ أو كثر ، ولا يقفون مع أخذ ولا ترك ، وفى الحكم : «لا تمدن يديك إلى الأخذ من الخلائق ، إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك ، فإن كنت كذلك فخذ - ما وافقك العلم».

ولما صدر من بعض الصحابة يمين على ترك ما تقدم ، ذكر لهم الكفارة ، وفيما تجب ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٨٩]

لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)

قلت : (فى أيمانكم) : يتعلق باللغو ، أو بيؤاخذكم.

يقول الحق جل جلاله : لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وهو ما يصدر من الإنسان بلا قصد ، كقوله : لا واللّه ، وبلى واللّه. وإليه ذهب الشافعي ، وقيل : هو الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن ، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة ، وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ عليه ، أي : بما جزمتم عليه بالنية والقصد ، فَكَفَّارَتُهُ أي : ما عقدتم عليه إذا حلفتم ، ويجوز التكفير قبل الحنث لظاهر الآية.

ثم بيّن الكفارة ، فقال : إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ ، فمن أطعم غنيا لم تجزه ، واشترط مالك أن يكونوا أحرارا ، وليس فى الآية ما يدل على ذلك ، ثم بيّن نوعه فقال : مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أي : من

وسط طعام أهليكم فى القدر أو فى الصفة ، أما القدر فقال مالك : يطعم مدا لكل مسكين بمد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إذا كان فى المدينة

(٧١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٧٢
المشرفة ، وفى غيرها وسط من الشبع ، وقال الشافعي وابن القاسم : يجزىء المد فى كل مكان ، وقال أبو حنيفة : إن غداهم وعشاهم أجزأه. قلت : وهو قول فى المدونة لمالك أيضا. وأما الصنف ، فاختلف : هل يطعم من عيش نفسه ، أو من عيش بلده وهو المشهور؟
فمعنى الآية على هذا : مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أيها الناس أَهْلِيكُمْ على الجملة أَوْ كِسْوَتُهُمْ فيكسو كل مسكين ما تصح به الصلاة ، فالرجل ثوب ، والمرأة قميص وخمار ، أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مؤمنة على مذهب مالك لتقييدها بذلك فى كفارة القتل. وأجاز أبو حنيفة عتق الكافر ، لإطلاق اللفظ هنا ، واشترط مالك أيضا أن تكون مسلّمة من العيوب ، وليس فى الآية ما يدل عليه ، فهذه الثلاثة بالتخيير.
فَمَنْ لَمْ يَجِدْ واحدا من هذه الثلاثة ، ولم يقدر على شيء منها ، بحيث لم يفضل له عن قوته وقوت عياله فى يومه ما يطعم به ، فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ يستحب تتابعها ، واشترطه أبو حنيفة لأنه قرىء : (أيام متتابعات) ، والشاذ ليس بحجة ، ذلِكَ المذكور هو كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وحنثتم ، وَاحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ أي : صونوا ألسنتكم عن كثرة الحلف ، فيكون اللّه عرضة لأيمانكم ، أو احفظوها بأن تبروا فيها ولا تحنثوا ، إلا إن كان فى الامتناع من الخير ، فالحنث فيها أحسن ، كما فى الحديث. أو احفظوها بأن تكفروها إذا حنثتم ، ولا تتهاونوا بها ، كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ أي : مثل ذلك البيان يبين لكم أعلام شرائعه لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نعمة التعليم ، أو نعمه الواجب شكرها ، فإن مثل هذا التبيين يسهل لكم المخرج من ضيق اليمين ، فهو نعمة يجب شكرها. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : ليس التشديد والتعقيد من شأن أهل التوحيد ، إنما شأنهم الاسترسال مع ما يبرز من عنصر القدرة ، ليس لهم وقت دون الوقت الذي هم فيه ، قد حلّ التوحيد عقدهم ودكّ عزائمهم ، فهم فى عموم أوقاتهم لا يدبرون ولا يختارون ، وإن وقع منهم تدبير أو اختيار رجعوا إلى ما يفعل الواحد القهار ، لا يبشطون إلى شيء ولا يهربون من شيء ، إلا إن كان فيه مخالفة للشرع.
ولا يعقدون على ترك شيء من المباحات ولا على فعله ، لأنهم لا يرون لأنفسهم فعلا ولا تركا ، إن صدرت منهم طاعة شهدوا المنة للّه ، وإن وقعت منهم زلة أو غفلة تأدبوا مع اللّه ، وبادروا بالتوبة إلى اللّه ، وما صدر من الصحابة - رضوان اللّه عليهم - فلعل ذلك كان حالا غالبة عليهم ، قد أزعجهم وعظ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأنهضهم حاله ، فلما رءاهم غلب عليهم الحال ردهم إلى حال

الاعتدال ، ولعل الحق - جل جلاله - ، إنما جعل كفارة اليمين جبرا لخلل ذلك التعقيد ، الذي صدر من الحالف مع تفريطه بالحنث ، فكأنه حلف على فعل غيره ، ففيه نوع من التألي على اللّه. واللّه تعالى أعلم.

(٧٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٧٣

ولما أمر الحق جل جلاله بأكل الحلال الطيب أخرج ضده ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٩٠ الى ٩٢]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٩٢)

قلت : (رجس) : خبر ، وأفرده لأنه على حذف مضاف ، أي : تعاطى الخمر ، أو خبر عن الخمر ، وخبر المعطوفات محذوف ، أي : كذلك.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا تناول الْخَمْرُ وهو كل ما غيب العقل ، دون الحواس ، مع النشوة والطرب ، وَالْمَيْسِرُ وهو القمار وَالْأَنْصابُ وهو ما نصب ليعبد من حجارة أو خشب ، وَالْأَزْلامُ أي : الاستقسام بها ، وقد تقدم تفسيرها «١» ، رِجْسٌ قذر خبيث تعافه العقول السليمة ، مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ أي : من تسويله وتزيينه ، فَاجْتَنِبُوهُ أي : ما ذكر من تعاطى الخمر ، وما بعده ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أي :

تفوزون بالرضوان والنعيم المقيم.

قال البيضاوي : اعلم أن الحق تعالى أكد تحريم الخمر والميسر فى هذه الآية ، بأن صدّر الجملة بإنما ، وقرنها بالأنصاب والأزلام وسماهما رجسا ، وجعلهما من عمل الشيطان ، تنبيها على أن الاشتغال بهما شر محض ، وأمر بالاجتناب عن عينهما ، وجعله سببا يرجى منه الفلاح ، ثم قرّر ذلك بأن بيّن ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال : إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وقد وقع ذلك فى زمن الصحابة ، وهى كانت سبب تحريمه ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ إنما خص الخمر والميسر بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الوبال تنبيها على أنهما المقصودان بالبيان. وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنّهما مثلهما فى الحرمة والشرارة لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «شارب الخمر كعابد الوثن» «٢».

وخص الصلاة من الذكر بالإفراد للتعظيم والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان من حيث إنها عماده ، والفارق بينه وبين الكفر ، ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبا على ما تقدم من أنواع

---

(١) راجع تفسير الآية ٣ من السورة نفسها.

(٢) أخرجه بلفظه البزار ، كشف الأستار (الأشربة ، باب فى شارب الخمر) من حديث عبد اللّه بن عمرو ، وأخرجه ابن ماجه فى (الأشربة باب مدمن الخمر) بلفظ : (مدمن الخمر).

الصوارف فقال : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟ إيذانا بأن الأمر فى المنع والتحذير بلغ الغاية ، وأن الأعذار قد انقطعت. هـ ولذلك لما سمعها الفاروق رضى اللّه عنه حين نزلت ، قال : (قد انتهينا يا ربنا).

وبهذا الآية وقع تحريم الخمر ، وقد كان حلالا قبلها ، بدليل سكوته صلّى اللّه عليه وسلّم على شربها قبل نزول الآية ، فإن قلت :

حفظ العقول من الكليات الخمس التي اتفقت الشرائع على تحريمها؟ قلنا : لا حكم قبل الشرع ، بل الأمر موقوف إلى وروده ، ولما طالت الفترة ، وانقطعت الشرائع عند العرب ، رجعت الأشياء إلى أصلها من الإباحة بمقتضى قوله تعالى : خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً «١» ، حتى جاءت الشريعة المحمدية فحرمتها كالشرائع قبلها ، فكانت حينئذ حراما ، ودخلت فى الكليات الخمس التي هى : حفظ العقول والأبدان والأموال والأنساب والأديان.

ثم أكد ذلك أيضا بقوله : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فيما أمر ونهى ، وَاحْذَرُوا غضبهما إن خالفتم ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أو أعرضتم عن طاعتهما فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ لا تضره مخالفتكم ، إنما عليه البلاغ وقد بلغ.

الإشارة : المقصود هو النهى عن كل ما يصد عن اللّه أو يشغل العبد عن شهود مولاه ، وخص هذه الأربعة ، لأنها أمهات الخطايا ومنبع الغفلة والبلايا ، فالخمر فيه فساد العقل الذي هو محل الإيمان ، والميسر فيه فساد المال وفساد القلب بالعداوة والشحناء ، وفساد الفكر لاستعماله فى الهوى ، والأنصاب فيه فساد الدين الذي هو رأس المال ، والأزلام فيه الفضول والاطلاع على علم الغيب ، الذي هو سر الربوبية ، وهو موجب للمقت والعطب ، والعياذ باللّه.

ثم عفا عما سلف من الخمر والميسر قبل التحريم ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٩٣]

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

يقول الحق جل جلاله : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ أي : إثم فِيما طَعِمُوا من الخمر والميسر قبل التحريم ، إِذا مَا اتَّقَوْا أي : إذا اتقوا الشرك ، وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا المحرمات وَآمَنُوا أي : حققوا مقام الإيمان ، ثُمَّ اتَّقَوْا الشبهات والمكروهات وَأَحْسَنُوا أي : حصلوا مقام الإحسان ، وهو إتقان العبادة ، وتحقيق العبودية ، ومشاهدة عظمة الربوبية ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ أي : يقربهم

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

ويصطفيهم لحضرته ، روى أنه لما نزل تحريم الخمر ، قالت الصحابة - رضى اللّه عنهم - : يا رسول اللّه فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر؟ فنزلت.

ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة ، أي : الماضي والحال والاستقبال ، أو باعتبارات الحالات الثلاثة. فيستعمل التقوى فيما بينه وبين نفسه بالتزكية والتحلية ، وفيما بينه وبين الناس بالكف عن التعرض لهم ، وفيما بينه وبين اللّه بامتثال أمره واجتناب نهيه والغيبة عن غيره ، ولذلك بدل الإيمان بالإحسان فى الكرة الثالثة ، أو باعتبار المراتب الثلاثة المبدأ والوسط والنهاية ، أو باعتبار ما يتقى فإنه ينبغى أن يتقى المحرمات توقيا من العقاب ، ثم يتقى الشبهات تحفظا من الحرام ، ثم يتقى بعض المباحات تحفظا للنفس عن خسة الشره ، وتهذيبا لها عن دنس الطبيعة ، قال معناه البيضاوي.

الإشارة : المقامات التي يقطعها المريد ثلاث : مقام الإسلام ، ومقام الإيمان ، ومقام الإحسان ، فما دام المريد مشتغلا بالعمل الظاهر من صلاة وصيام وذكر اللسان ، سمى مقام الإسلام ، فإذا انتقل لعمل الباطن من تخلية وتحلية وتهذيب وتصفية ، سمى مقام الإيمان ، فإذا انتقل لعمل باطن الباطن من فكرة ونظرة وشهود وعيان سمى مقام الإحسان ، وهذا اصطلاح الصوفية سموا ما يتعلق بإصلاح الظواهر : إسلاما ، وما يتعلق بإصلاح القلوب والضمائر : إيمانا ، وما يتعلق بإصلاح الأرواح والسرائر : إحسانا. وجعل الساحلى فى البغية كل مقام مركبا من ثلاثة مقامات ، فالإسلام مركب من التوبة والتقوى

والاستقامة ، والإيمان مركب من الإخلاص والصدق والطمأنينة ، والإحسان مركب من مراقبة ومشاهدة ومعرفة. وأطال الكلام فى كل مقام ، لكن من سقط على شيخ التربية لم يحتج إلى شيء من هذا التفصيل. وباللّه التوفيق.
ثم تكلم على حرمة الصيد فى الإحرام تبيينا لقوله : غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، فقال :
[سورة المائدة (٥) : الآيات ٩٤ الى ٩٦]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)

قلت : (فجزاء) : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : فعليه جزاء ، أو خبر عن مبتدأ محذوف ، أي : فواجبه جزاء ، و(مثل) : صفته ، و(من النعم) : صفة ثانية لجزاء ، أي : فعلية جزاء مماثل حاصل من النعم ، ومن قرأ (مثل) بالجر ، فعلى الإضافة ، من إضافة المصدر إلى المفعول ، أي : فعليه أن يجزى مثل ما قتل ، أو يكون (مثل) مقحمة كما فى قولهم : مثلى لا يقول كذا. وقرىء بالنصب ، أي : فليجزأ جزاء مماثلا. وجملة (يحكم) صفة لجزاء أيضا ، أو حال من ضمير الخبر.
و(هديا) : حال من ضمير (به) ، أو من جزاء لتخصيصه بالإضافة أو الصفة فيمن نون ، و(بالغ) : صفة للحال ، أو بدل من مثل باعتبار محله ، أو لفظه فيمن نصبه ، أو (كفارة) عطف على (جزاء) إن رفعته ، وإن نصبت جزاء فهو خبر ، أي : وعليه كفارة ، و(طعام مساكين) : عطف بيان ، أو بدل منه ، أو خبر عن محذوف ، أي : هى طعام ، ومن جرا طعاما فبالإضافة للبيان ، كقوله : خاتم فضة ، أو (عدل) عطف على (طعام) فيمن رفعه ، أو خبر فيمن جره ، أي : عليه كفارة طعام ، أو عليه عدل ذلك ، و(ليذوق) : متعلق بمحذوف ، أي : فيجب عليه الجزاء أو الطعام أو الصوم ليذوق سوء عاقبة فعله ، و(متاعا لكم) : مفعول من أجله ، و(حرما) : حال ، أي : ما دمتم محرمين ، أو خبر دام على النقص ، ويقال : دام يدوم دمت ، كقال يقول قلت ، ودام يدام دمت ، كخاف يخاف خفت. وبه قرىء فى الشاذ.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ أي : واللّه ليختبرنكم اللَّهُ بِشَيْءٍ قليل مِنَ الصَّيْدِ يسلطه عليكم ويذلله لكم حتى تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ بالأخذ وَرِماحُكُمْ بالطعن لِيَعْلَمَ اللَّهُ علم ظهور وشهادة تقوم به الحجة ، مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فيكف عن أخذه حذرا من عقاب ربه ، نزل عام الحديبية ، ابتلاهم اللّه بالصيد ، كانت الوحوش تغشاهم في رحالهم ، بحيث يتمكنون من صيده ، أخذا بأيديهم وطعنا برماحهم ، وهم محرمون ، وكان الصيد هو معاش العرب ومستعملا عندهم ، فاختبروا بتركه مع التمكن منه ، كما اختبر بنو إسرائيل بالحوت في السبت.

وإنما قلله بقوله : بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ إشعارا بأنه ليس من الفتن العظام كبذل الأنفس والأموال ، وإنما هو من الأمور التي يمكن الصبر عنها ، فمن لم يصبر عنده فكيف يصبر بما هو أشد منه؟ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ الابتلاء بأن قتل بعد التحريم ، فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ في الآخرة ، لأن من لا يملك نفسه في مثل هذه فكيف يملكها فيما تكون النفس فيه أميل وعليه أحرص؟!.

ثم صرح بالحرمة ، فقال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ أي : محرمون جمع حرم ، والمراد من دخل في الإحرام أو في الحرم ، وذكر القتل ليفيد العموم ، فيصدق بالذبح وغيره ، وما صاده المحرم

أو صيد له ميتة لا يؤكل ، والمراد بالصيد المنهي عن قتله : ما صيد وما لم يصد مما شأنه أن يصاد ، وورد هذا النهى عن قتله قبل أن يصاد ، وبعده ، وأما النهى عن الاصطياد فيؤخذ من قوله : وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً ، وخصص الحديث : الغراب والحدأة ، والفأرة والعقرب والكلب العقور «١» ، فلا بأس بقتلهم ، في الحل والحرم ، وأدخل مالك في الكلب العقور كل ما يؤذى الناس من السباع وغيرها ، وقاس الشافعي على هذه الخمسة كل ما لا يؤكل لحمه.

ثم ذكر جزاء قتله فقال : وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ أي : فعليه جزاء مثل ما يماثله من النعم ، وهى الإبل والبقر والغنم ، ففى النعامة بدنة ، وفى الفيل ذات سنامين ، وفى حمار الوحش وبقره بقرة ، وفى الغزالة شاة ، فالمثلية عند مالك والشافعي في الخلقة والمقدار ، فإن لم يكن له مثل أطعم أو صام ، يقوّم بالطعام فيتصدق به ، أو يصوم لكل مد يوما ، ومذهب أبى حنيفة أن المثلية : القيمة ، يقوم الصيد المقتول ، ويخير القاتل بين أن يتصدق بالقيمة أو يشترى بها من النعم ما يهديه. وذكر العمد ليس بتقييد عند جمهور الفقهاء ، خلافا للظاهرية بل المتعمد ، والناسي في وجوب الجزاء سواء ، وإنما ذكره ليرتب عليه قوله : وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، ولأن الآية نزلت فيمن تعمد ،

إذ روى أنهم عرض لهم حمار وحشي ، فطعنه أبو اليسر برمحه فقتله ، فنزلت الآية.

ولا بد من حكم الحكمين على القاتل لقوله : يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ ، فكما أن التقويم يحتاج إلى نظر واجتهاد ، فكذلك تحتاج المماثلة فى الخلقة والهيأة إليهما ، فإن أخرج الجزاء قبل الحكم عليه فعليه إعادته ، إلا حمام مكة فإنه لا يحتاج إلى حكمين ، ويجب عند مالك التحكيم فيما حكمت به الصحابة وفيما لم تحكم ، لعموم الآية.

وقال الشافعي : يكتفى فى ذلك بما حكمت به الصحابة ، حال كون المحكوم به هَدْياً بشرط أن يكون مما يصح به الهدى ، وهو الجذع من الضأن ، والثني مما سواه ، وقال الشافعي : يخرج المثل فى اللحم ، ولا يشترط السن ، بالِغَ الْكَعْبَةِ لم يرد الكعبة بعينها ، وإنما أراد الحرم ، وظاهره يقتضى أن يصنع به ما يصنع بالهدى من سوق من الحل إلى الحرم ، وقال الشافعي وأبو حنيفة : إن اشتراه فى الحرم أجزأه.

أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ مد لكل مسكين ، أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً يوم لكل مد ، عدد الحق – تعالى – ما يجب فى قتل الصيد ، فذكر أولا الجزاء من النعم ، ثم الطعام ، ثم الصيام ، ومذهب مالك والجمهور : أنها على

---

(١) أخرج ذلك البخاري فى (جزاء الصيد ، باب ما يقتل من الدواب) ومسلم فى (الحجر ، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب فى الحل والحرام) من حديث السيدة عائشة رضى اللّه عنها.

[.....]

(٧٧/٢)

التخيير ، وهو الذي يقتضيه العطف بأو ، ومذهب ابن عباس أنها مرتبة. وقد نظم ابن غازى الكفارات التي فيها التخيير أو الترتيب فقال :

خيّر بصوم ثمّ صيد وأذى وقل لكلّ خصلة : يا حبّذا

ورتّب الظّهار والتّمتعا والقتل ثمّ فى اليمين اجتمعا

وكيفية التخيير هنا : أن يخير الحكمان القاتل فإن أراد الجزاء عينوا له ما يهدى ، وإن أراد الإطعام قوموا الصيد بالطعام فى ذلك المحل ، فيطعم مدّا لكل مسكين ، وإن أراد الصيام صام يوما لكل مدّ ، وكمل لكسره ، فإذا قوم بعشرة مثلا ونصف مدّ ، صام أحد عشر يوما.

ثم ذكر حكمة الجزاء ، فقال : لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ أي : فعليه الجزاء أو الإطعام أو الصيام ليذوق عقوبة

سوء فعله ، وسوء هتكه لحرمة الإحرام ، عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ فى الجاهلية أو قبل التحريم ، وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ فى الآخرة ، وليس فيه ما يمنع الكفارة على العائد كما حكى عن ابن عباس وشريح. وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ ممن أصر على عصيانه.

ثم استثنى صيد البحر فقال : أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وهو ما لا يعيش إلا فى الماء ، وهو حلال كله لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم فى البحر : «هو الطّهور ماؤه ، الحلّ ميتته» «١». وقال أبو حنيفة : لا يحل منه إلا السمك ، وَطَعامُهُ أي : ما قذفه ، أو طفا على وجهه لأنه ليس بصيد إنما هو طعام. وقال ابن عباس : طعامه : ما ملّح وبقي مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ، الخطاب بلكم للحاضرين فى البحر ، والسيارة : المسافرون فى البر ، أي : هو متاع تأتدمون به فى البر والبحر ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ يحتمل أن يريد به المصدر ، أي الاصطياد ، أو الشيء المصيد ، أو كلاهما ، وتقدم أن ما صاده محرم أو صيد له : ميتة ، وحد الحرمة : ما دُمْتُمْ حُرُماً فإذا حللتم فاصطادوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فى ترك ما حرم عليكم ، الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فيجازيكم على ما فعلتم.

الإشارة : إذا عقد المريد مع اللّه عقدة السير والمجاهدة ، قد يختبره اللّه - تعالى - فى سيره بتيسير الشهوات ، وتسليط العلائق والعوائق ليعلم الكاذب من الصادق ، فإن كف عنها وأعرض ، هيأه لدخول الحضرة ، وإن انهمك فيها ، واقتنص فى شبكتها ، بقي مرهونا فى يدها ، أسيرا فى قبضة قهرها ، فإذا نهض حتى دخل حرم الحضرة قاصدا لعرفة المعارف ، حرم عليه صيد البر ، وهو كل ما يخرج من بحر الحقيقة إلى شهود بر السّوى ، فرقا بلا جمع ، كائنا ما كان ، رسوما أو علوما أو أحوالا أو أقوالا ، وحلّ له صيد البحر وطعامه ، من أسرار أو أنوار أو حقائق ،

---

(١) أخرجه مالك فى (الطهارة ، باب الطهور للوضوء) والبيهقي فى الكبرى (١/ ٣) وأبو داود فى (الطهارة ، باب الوضوء بماء البحر) والترمذي فى (الطهارة ، باب ما جاء فى ماء البحر) والنسائي فى (الطهارة ، باب ماء البحر) وابن ماجه فى (الطهارة ، باب الوضوء بماء البحر) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

متاعا لروحه وسره ، وللسيارة من أبناء جنسه ، يطعمهم من تلك الأسرار ، بالهمة أو الحال أو التذكار ، واتقوا اللّه فى الاشتغال بما سواه ، الذي إليه تحشرون ، فيدخلكم جنة المعارف قبل جنة الزخارف. واللّه تعالى أعلم.

ولما عظّم شأن الحرم عظّم شأن الكعبة ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٩٧ الى ٩٩]

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ (٩٩)

قلت : (البيت الحرام) : عطف بيان على جهة المدح ، و(قياما) : مفعول ثان.

يقول الحق جل جلاله : جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ التي هى الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ أي : سبب انتعاشهم ، يقوم بها أمر معاشهم ومعادهم ، يلوذ به الخائف ، ويأمن فيه الضعيف ، ويربح فيه التجار ، ويتوجه إليه الحجاج والعمار ، أو يقوم به أمر دينهم بالحج إليه ، وأمر دنياهم بأمن داخله ، وتجبى ثمرات كل شيء إليه.

قال القشيري : حكم اللّه - سبحانه - بأن يكون بيته اليوم ملجأ يلوذ به كل مؤمّل ، ويستقيم ببركة زيارته كلّ حائد عن نهج الاستقامة ، ويظفر بالانتقال هناك كل ذى أرب. هـ.

وَالشَّهْرَ الْحَرامَ جعله اللّه أيضا قياما للناس والمراد به ذو الحجة ، فهو قيام لمناسك الحج ، وجمع الوجود إليه بالأموال من كل جانب ، أو الجنس ، وهى أربعة : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، لأنهم كانوا يكفون عن القتال ، ويأمن الناس فيها فى كل مكان ، وَالْهَدْيَ لأنه أمان لمن يسوقه لأنه لم يأت لحرب ، وَالْقَلائِدَ ، كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلد شيئا من السمر «١» ، وإذا رجع تقلد شيئا من شجر الحرم ليعلم أنه كان فى عبادة ، فلا يتعرض له أحد بشر ، فالقلائد هنا : ما تقلده المحرم من الشجر ، وقيل : قلائد الهدى.

ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أي : جعل ذلك الأمور ، قياما للناس لتعلموا أن اللّه يعلم تفاصيل الأمور ، فشرع ذلك دفعا للمضار وجلبا للمنافع ، وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا يخفى عليه محل مصالح عباده ومضارهم ، وهو تعميم بعد تخصيص ، ومبالغة بعد إطلاق.

---

(١) السمر - بضم الميم والراء : ضرب من الشجر ، صغار الورق قصار الشوك.

ثم قال تعالى : اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ لمن عصاه ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لمن أطاعه وأقبل عليه ، وهو وعيد ووعد لمن انتهك محارمه ولمن حافظ عليها ، أو لمن أصرّ ورجع ، ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا

الْبَلاغُ وقد بلّغ ، فلم يبق عذر لأحد ، وهو تشديد فى إيجاب القيام بما أمر ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة.

الإشارة : كما جعل اللّه الكعبة قياما للناس ، يقوم به أمر دينهم ودنياهم ، جعل القلوب ، التي هى كعبة الأنوار والأسرار ، قياما للسائرين ، يقوم بها أمر توحيدهم ويقينهم ، أو أمر سيرهم ووصولهم. وفى الحديث : «إنّ فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسددت فسد الجسد كلّه ألا وهى القلب». وكما جعل الشهر الحرام والهدى والقلائد حرمة لأهلها ، جعل النسبة والتزيي بها حفظا لصاحبها ، من تزيا بزى قوم فهو منهم ، يجب احترامه وتعظيمه لأجل النسبة ، فإن كان كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، وقد أخذ اللصوص بعض الفقراء ، وانتهكوا حرمته ، وأخذوا ثيابه ، فاشتكى لشيخه فقال له : هل كانت عليك مرقعتك؟ قال : لا ، فقال له : أنت فرطت والمفرط أولى بالخسارة. هـ. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا كان مدار الأمر كله على صلاح القلوب وفسادها ذكره بإثره ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ١٠٠]

قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ عند اللّه ، فى القلوب والأحوال والأعمال والأموال والأشخاص ، فالطيب من ذلك كله مقبول محبوب ، والرديء مردود ممقوت ، فالطيب مقبول وإن قلّ ، والرديء مردود ولو جلّ ، وهو معنى قوله : وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ، فالعبرة بالجودة والرداءة ، دون القلة والكثرة ، وقد جرت عادته – تعالى – بكثرة الخبيث من كل شىء ، وقلة الطيب من كل شىء ، قال تعالى :

وَقَلِيلٌ ما هُمْ «١» ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ «٢» ، وفى الحديث الصحيح : «النّاس كابل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة» «٣» ، وقال الشاعر :

إنّى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

فأهل الصفا قليل فى كل زمان ، ولذلك خاطبهم بقوله : فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ أي : القلوب الصافية فى تجنب الخبيث وإن كثر ، وأخذ الطيب وإن قلّ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ بصلاح الدارين.

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة ص.

(٢) من الآية ١٣ من سورة سبأ.

(٣) أخرجه البخاري فى (الرقاق باب رفع الأمانة) ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : الناس كإبل مائة ..) من حديث ابن عمر رضى اللّه عنه ومعنى الحديث : أن الزاهد فى الدنيا ، الكامل فى الزهد فيها قليل جدا ، كقلة الراحلة فى الإبل.

(٨٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٨١

الإشارة : لا عبرة بالأحوال الظلمانية وإن كثرت ، وإنما العبرة بالأحوال الصافية ولو قلّت ، صاحب الأحوال الصافية موصول ، وصاحب الأحوال الظلمانية مقطوع ، ما لم يتب عنها ، قال بعض الحكماء : (كما لا يصح دفن الزرع فى أرض ردية ، لا يجوز الخمول بحال غير مرضية).

والمراد بالأحوال الصافية : هى التي توافق مراسم الشريعة بحيث لا يكون عليها من الشارع اعتراض ، بأن تكون مباحة فى أصل الشريعة ، ولو أخلت بالمروءة عند العوام ، إذ المروءة إنما هى التقوى عند الخواص ، والمراد بالأحوال ، كل ما يثقل عل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، مما نأمركم به : أن تقع شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، وأراد الوصية فيحضر عدلان منكم ، فإن كنتم فى سفر وتعذر العدلان منكم ، فليشهد آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ممن ليس على دينكم ، ثم إن وقع ارتياب فى شهادتهما ، تَحْبِسُونَهُما بعد صلاة العصر فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ ما كتمنا ، ولا خنّا ، ولا نشترى بالقسم أو باللّه عرضا قليلا من الدنيا ، ولو كان المحلوف له قريبا منا ، وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً ، إن كتمنا ، لَمِنَ الْآثِمِينَ.

---

(١) أخرجه الترمذي فى : (التفسير ، سورة المائدة) عن ابن عباس عن تميم الداري ، وقال الترمذي : ليس إسناده بصحيحه. وأخرجه مختصرا البخاري فى (الوصايا ، باب قول اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ) عن ابن عباس قال : خرج رجل من بنى سهم مع تميم الداري وعدى بن بداء. وذكره مختصرا.

(٨١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٨٧

فإذا حلفا خلى سبيلهما ، فَإِنْ عُثِرَ بعد ذلك عَلى كذبهما وأَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً بسبب كذبهما ، فَآخَرانِ من رهط الميت يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ المال المسروق ، اللذان هم الْأَوْلَيانِ أي : الأحقان بالشهادة ، فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ فيقولان : واللّه لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما ، وأصدق ، وأولى بأن تقبل ، وَمَا اعْتَدَيْنا : وما تجاوزنا فيها الحق ، إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ، فإن حلفا غرم الشاهدان ما ظهر عليهما ، وتحليف الشهود منسوخ ، وهذا الحكم خاص بهذه القضية.

قال البيضاوي : الحكم منسوخ إن كان الاثنان شاهدين ، فإنه لا يحلف الشاهد ، ولا تعارض يمينه يمين الوارث ، وثابت إن كانا وصيين. هـ. وكذا شهادة غير أهل الملة منسوخة أيضا ، واعتبار صلاة

العصر للتغليظ ، وتخصيص الحلف فى الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة. قاله السيوطي.
قال تعالى : ذلِكَ أي : تحليف الشهود ، أَدْنى أي : أقرب أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها كما تحملوها من غير تحريف ولا خيانة فيها ، أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ أي : أو أقرب لأن يخافوا أن ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم ، فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة ، وإنما جمع الضمير ، لأنه حكم يعم الشهود كلهم ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ما توصون به ، فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم قوما فاسقين ، وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ أي : لا يهديهم إلى حجة أو إلى طريق الجنة.
الإشارة : أمر الحق - جل جلاله - فى الآية المتقدمة ، بالاعتناء بشأن الأنفس ، بتزكيتها وتحليتها وأمر فى هذه الآية بالاعتناء بشأن الأموال بحفظها ، والأمر بالإيصاء عليها ودفعها لمستحقها إذ كلاهما يقربان إلى رضوان اللّه ، ويوصلان إلى حضرته ، وقد كان فى الصحابة من قربه ماله ، وفيهم من قربه فقره ، وكذلك الأولياء ، منهم من نال الولاية من جهة المال أنفقه على شيخه فوصله من حينه ، ومنهم من نال من جهة فقره أنفق نفسه فى خدمة شيخه ، وقد روى أن سيدى يوسف الفاسى أنفق على شيخه قناطير من المال ، قيل : أربعين ، وقيل : أقل. واللّه تعالى أعلم.
ولما أمرهم بالتقوى ، ذكر اليوم الذي تجنى فيه ثمراتها ، فقال :
[سورة المائدة (٥) : آية ١٠٩]
يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩)
قلت : (يوم) : بدل من (اللّه) ، بدل اشتمال ، أي : اتقوا يوم الجمع ، أو ظرف لاذكر ، و(ماذا) : منصوب على المصدر ، أي : أىّ إجابة أجبتم.
يقول الحق جل جلاله : واذكر يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ والأمم يوم القيامة فَيَقُولُ للرسل : ما ذا أُجِبْتُمْ؟ أي : ما الذي أجابكم به قومكم ، هل هو كفر أو إيمان ، طاعة أو عصيان؟ والمراد بهذا السؤال توبيخ من

كفر من الأمم ، وإقامة الحجة عليهم ، فيقولون له فى الجواب : لا عِلْمَ لَنا مع علمك ، تأدبوا فوكلوا العلم إليه ، أو علمنا ساقط فى جنب علمك إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ لأن من علم الخفيات لا تخفى عليه الظواهر والبواطن ، وقرىء بنصب علام ، على أن الكلام قد تم بقوله : إِنَّكَ أَنْتَ أي : إنك الموصوف بصفاتك المعروفة ، وعلام نصب على الاختصاص أو النداء. قاله البيضاوي.
الإشارة : من حجة اللّه على عباده ، أن بعث فى كل أمه نذيرا يدعو إلى اللّه ، إما عارفا يعرف باللّه ،

أو عالما يعلم أحكام اللّه ، ثم يجمعهم يوم القيامة فيسألهم : ماذا أجيبوا ، وهل قوبلوا بالتصديق والإقرار ، أو قوبلوا بالتكذيب والإنكار؟ فتقوم الحجة على العوام بالعلماء ، وعلى الخواص بالعارفين الكبراء ، أهل التربية النبوية ، فلا ينجو من العتاب إلا من ارتفع عنه الحجاب ، بصحبة العارفين وتعظيمهم وخدمتهم ، إذ لا يتخلص من العيوب إلا من صحبهم وأحبهم وملك نفسه إليهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم خص عيسى عليه السّلام بتذكير النعم يوم الجمع توطئة لتوبيخ من عبده من دون اللّه ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ١١٠ الى ١١١]

إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (١١١)

قلت : (إذ) : بدل من (يوم يجمع) ، أو باذكر ، وجملة (تكلم) : حال من مفعول (أيدتك).

يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ يقول اللّه - جل وعز - يوم القيامة : يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ بالنبوة والرسالة ، وعلى أمك بالاصطفائية والصديقية ، وذلك حين أَيَّدْتُكَ أي : قويتك بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وهو جبريل عليه السّلام كان لا يفارقك فى سفر ولا حضر ، أو بالكلام الذي تحيا به الأنفس والأرواح ، الحياة الأبدية. كنت تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ أي : كائنا فى المهد وَكَهْلًا أي : تكلم فى الطفولة والكهولة بكلام يكون سببا فى حياة القلوب ، وبه استدل أنه ينزل ، لأنه رفع قبل أن يكتهل ، وَاذكر إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ أي : الكتابة ،

(٨٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٨٩

وَالْحِكْمَةَ : النبوة وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي وتقدم تفسيرها فى آل عمران. «١» وكرر بِإِذْنِي مع كل معجزة إبطالا لدعوى الربوبية فيه ، إذ قد عزله عن قدرته ومشيئته مع كل معجزة. قال ابن جزى : الضمير المؤنث - يعنى فى «فيها» - يعود على الكاف ، لأنها صفة الهيئة ، وكذلك المذكور فى آل عمران.

فَأَنْفُخُ فِيهِ يعود على الكاف لأنها بمعنى مثل ، وإن شئت قلت : هو فى الموضعين يعود على

الموصوف المحذوف الذي وصف به كهيئة ، فتقديره فى التأنيث : صورة ، وفى التذكير : شخصا ، أو خلقا وشبه ذلك. هـ.

وَاذكر أيضا إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ حين هموا بقتلك ، إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أي : ما هذا الذي جئتنا به إلا سحرا ، أو : قالوا فى شأنك حين جئتهم : ما هذا إلا ساحر مبين ، وَاذكر أيضا إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أي : ألهمتهم ، أو أمرتهم بأن آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي عيسى ، فامتثلوا ، وقالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ أي : منقادون ومخلصون.

الإشارة : قال الورتجبي : من تمام نعمة اللّه - تعالى - عليه صيرورة جسمه بنعت روحه فى المهد على شبابه بالقوة الإلهية ، بأن نطق بوصف تنزيه اللّه وقدسه وجلاله ، وربوبيته وفناء العبودية فيه ، وبقيت تلك القدرة فيه إلى كهولته ، حتى عرّف عباد اللّه تنزيه اللّه وقدس صفات اللّه وحسن جلال اللّه ، وهذا معنى قوله تعالى : تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، وزاد فى وصفه بقوله : وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ ، تجلى بقدرته بيده حتى يخط بغير تعلم.

هـ. فانظره ، مع ما ورد فى التاريخ أنه كان يذهب مع الصبيان للمكتب.

ثم ذكر معجزة المائدة ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ١١٢ الى ١١٥]

إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (١١٥)

---

(١) راجع تفسير الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

قلت : (يا عيسى ابن مريم) : ابن هنا بدل ، ولذلك كتب بالألف ، و(أن ينزل) : مفعول (يستطيع) ، ومن قرأ بالخطاب ، فمفعول بالمصدر المقدر ، أي : سؤال ربك إنزال مائدة ، و(لأولنا وآخرنا) : بدل كل ، من ضمير (لنا) ، لإفادته الإحاطة والشمول كالتوكيد ، و(ذلك) : شرط إبدال الظاهر من ضمير الحاضر ، وأعيدت اللام مع البدل للفصل ، وضمير (لا أعذبه) : ، نائب عن المصدر ، أي : لا أعذب

ذلك التعذيب أحدا.

يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ أي : هل يطيعك ربك فى هذا الأمر ، أم لا؟ فالاستفهام عن الإسعاف فى القدرة ، فهو كقول بعض الصحابة لعبد اللّه بن زيد : هل تستطيع أن ترينا كيف كان يتوضا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم؟ مع جزمهم بأن عبد اللّه كان قادرا على تعليمهم الوضوء. فالحواريون جازمون بأن اللّه - تعالى - قادر على إنزال المائدة ، لكنهم شكوا فى إسعافه على ذلك.

قال ابن عباس : كان الحواريون أعلم باللّه من أن يشكوا أن اللّه تعالى يقدر على ذلك ، وإنما معناه ، هل يستطيع لك أي : هل يطيعك ، ومثله عن عائشة ، وقد أثنى اللّه - تعالى - على الحواريين ، فى مواضع من كتابه ، فدل أنهم مؤمنون كاملون فى الإيمان.

قال لهم عيسى عليه السّلام : اتَّقُوا اللَّهَ من أمثال هذا السؤال واقتراح الآيات ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بكمال قدرته وصحة نبوتى ، فإنّ كمال الإيمان يوجب الحياء من طلب المعجزة ، قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها أكلا نتشرف به بين الناس ، وليس مرادهم شهوة البطن ، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال ، أي : نعاين الآية ضرورة ومشاهدة ، فلا تعرض لنا الشكوك التي فى الاستدلال ، وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا علما ضروريا لا يختلجه وهم ولا شك ، وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ أي : نشهد بها عند من لم يحضرها من الناس ، أو من الشاهدين للعين ، دون السامعين للخبر ، وليس الخبر كالعيان ، والحاصل : أنهم أرادوا الترقي إلى عين اليقين ، دون الاكتفاء بعلم اليقين.

قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مسعفا لهم لما رأى لهم غرضا صحيحا فى ذلك ، روى أنه لبس جبّة شعر ، ورداء شعر ، وقام يصلى ويدعو ويبكى ، وقال : اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا أي : لمتقدمنا ومتأخرنا ، يعود علينا وقت نزولها كل عام بالفرح والسرور ، فنتخذه عيدا نحن ومن يأتى بعدنا ، وَيكون نزولها آيَةً مِنْكَ على كمال قدرتك وصحة نبوتى ، وَارْزُقْنا المائدة والشكر عليها ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ أي : خير من يرزق لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض ، ونسبة الرزق إلى غيره مجاز. قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ كما طلبتم ، فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ أي : من عالمى زمانهم ، أو مطلقا.

(٩٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٩١

قال ابن عمر : (أشد الناس عذابا يوم القيامة : من كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون ، والمنافقون.) روى أنها نزلت سفرة حمراء بين غمامتين ، وهم ينظرون إليها ، حتى سقطت بين أيديهم ،

فبكى عيسى وقال : اللهم اجعلنى من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة ، ولا تجعلها مثلة وعقوبة ، ثم قام وتوضأ وصلّى وبكى ، ثم كشف المنديل ، وقال :

بسم اللّه خير الرازقين ، فإذا سمكة مشوية ، تسيل دسما وعند ذنبها خل ، وحولها من أنواع البقول ما خلا الكراث ، وخمسة أرغفة ، على واحد منها زيتون ، وعلى الثاني عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد. قال شمعون : يا روح اللّه أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال : ليس منهما ، ولكنه اخترعه اللّه بقدرته ، كلوا ما سألتم ، واشكروا اللّه يمددكم ويزدكم من فضله ، فقالوا : يا روح اللّه ، لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى ، فقال :

يا سمكة : احيى بإذن اللّه ، فاضطربت ، ثم قال لها : عودى ، فعادت كما كانت ، فعادت مشوية ، ثم طارت المائدة ، ثم عصوا بعدها فمسخوا.

وقيل : كانت تأتيهم أربعين يوما ، غبّا «١» ، يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار ، يأكلون ، فإذا فرغوا ، طارت وهم ينظرون فى ظلها ، ولم يأكل منها فقير إلا غنى مدة عمره ، ولا مريض إلا برىء ولم يمرض أبدا ، ثم أوحى اللّه إلى عيسى : أن اجعل مائدتى فى الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء ، فاضطرب الناس ، فمسخ منهم ثلاثة وثمانون. وقيل : لما وعد اللّه إنزالها بهذه الشريطة ، استغفروا وقالوا : لا نريد ، فلم تنزل. قلت : المشهور أنها نزلت ، ويحكى أن أرجلها باقية بجزيرة الأندلس. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى سؤال الحواريين لسيدنا عيسى عليه السّلام قلة أدب من وجهين : أحدهما : خطابه بقوله : (يا عيسى ابن مريم) وقد كانت هذه الأمة المحمدية تخاطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يا رسول اللّه ، يا نبى اللّه ، لكمال أدبها ، وبذلك شرفت وعظم قدرها ، فالأدب عند الصوفية ركن عظيم ، بل هو روح التصوف وقطب دائرته ، قال بعضهم : (اجعل عملك ملحا ، وأدبك دقيقا) ، والكلام فيه عندهم طويل شهير.

والوجه الثاني : ما فى قولهم : (هل يستطيع ربك) من بشاعة التعبير ، وسوء اللفظ ، حتى اتهموا بالكفر من أجله.

وقد تقدم تأويله ، وأما سؤالهم المائدة ، فقال بعض الصوفية : هى عبارة عن المعارف والأسرار الربانية التي هى قوت الأرواح السماوية ، فقوت الأشباح الأرضية ما يخرج من الأرض من الأقوات الحسية ، وقوت الأرواح السماوية ما ينزل من السماء من العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، ينزل على قلوب العارفين ، ثم يبرز منها إلى قلوب عائلة المستمعين ، ولما طلبوها قبل إبانها وقبل الاستعداد لها ، قال لهم : اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فلما ألحوا فى

---

(١) أي : يوما بعد يوم ، ليكون أشهى وأحب - انظر حاشية الشهاب ٣/ ٣٠٢.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٩٢
السؤال ، بيّن الحق لهم أن إنزالها سهل على قدرته ، لكن فيه خطر وسوء عاقبة ، لأن الحقائق قد تضر بالمريد إذا لم يكمل أدبه واستعداده ، فلما بينوا مرادهم من كمال الطمأنية واليقين دعا اللّه - تعالى - فوعدهم بالإنزال مع دوام الإيمان وكمال الإيقان ، فمن كفر بها ، ولم يعرف قدرها ، عذب بعذاب لم يعذبه أحد من العالمين ، وهو الطرد والبعد من ساحة حضرة رب العالمين. واللّه تعالى أعلم.
ثم وبخ من عبد عيسى من الكفرة ، فقال :
[سورة المائدة (٥) : الآيات ١١٦ الى ١٢٠]
وَإِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)
قلت : (من دون اللّه) : صفة لإلاهين ، أو صلة (اتخذوني) ، و(أن اعبدوا) : تفسيرية للمأمور به ، أو بدل من ضمير به ، وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقا لئلا يلزم منه بقاء الموصول بلا راجع ، أو عطف بيان له ، أو خبر عن مضمر ، أي : هو ، أو مفعول به ، أي : أعنى ، ولا يجوز إبداله من (ما) لأن المصدر لا يكون مفعولا للقول لأنه مفرد ، والقول لا يعمل إلا فى الجمل أو ما فى معناه.
(يوم ينفع) من نصب جعله ظرفا لقال ، أو ظرف ، مستقر خبر (هذا) والمعنى : هذا الذي مرّ من كلام عيسى ، واقع يوم ينفع ، إلخ ، وأجاز ابن مالك أن يكون مبنيا ، قال فى ألفيته :
وقبل فعل معرب أو مبتدا أعرب ، ومن بنا فلن يفندا «١»
ومن رفع ، فخبر ، وهو ظرف متصرف.

---

(١) أنظر الألفية ، باب الإضافة.

يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى بعد رفعه إلى السماء ، أو يقوله له يوم القيامة ، وهو الصحيح ، بدليل قوله : قالَ اللَّهُ هذا إلخ ، فإن اليوم الذي يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ هو يوم القيامة ، فيقول له حينئذ : أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ يريد به توبيخ الكفار الذين عبدوه وتبكيتهم ، وفيه تنبيه على أن من عبد مع اللّه غيره فكأنه لم يعبد اللّه قط ، إذ لا عبرة بعبادة من أشرك معه غيره.

قالَ عيسى عليه السّلام مبرءا نفسه من ذلك وقد أرعد من الهيبة : سُبْحانَكَ أي : تنزيها لك من أن يكون لك شريك ، ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ أي : ما ينبغى لى أن أقول ما لا يجوز لى أن أقوله ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، وكل العلم إلى اللّه لتظهر براءته لأن اللّه علم أنه لم يقل ذلك ، تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ أي : تعلم ما أخفيته فى نفسى ، كما تعلم ما أعلنته ، ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك ، سلك فى اللفظ مسلك المشاكلة ، فعبّر بالنفس عن الذات. إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ لا يخفى عليك شىء من الأقوال والأفعال.

ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ

وهو عبادة اللّه وحده ، فقلت لهم : اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً أي : رقيبا عليهم ، أمنعهم أن يقولوا ذلك أو يعتقدوه. ما دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي بالرفع إلى السماء ، أي : توفيت أجلى من الأرض. والتوفى أخذ الشيء وافيا ، فلما رفعتنى إلى السماء كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ أي : المراقب لأحوالهم وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ : مطلع عليه مراقب له.

إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وأنت مالك لهم ، ولا اعتراض على المالك فى ملكه ، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا العذاب ، أي : لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، فلا عجز ولا استقباح ، فإنك القادر والقوى على الثواب والعقاب بلا سبب ، ولا تعاقب إلا عن حكمة وصواب ، فإن عذبت فعدل ، وإن غفرت ففضل ، وعدم غفران الشرك مقتضى الوعيد ، فلا امتناع فيه لذاته ليمتنع الترديد والتعليق بإن.

قاله البيضاوي.

وقال ابن جزى : فيه سؤالان : الأول : كيف قال : إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ وهم كفار ، والكفار لا يغفر لهم؟ فالجواب : أن المعنى تسليم الأمر إلى اللّه ، وإنه إن عذب أو غفر فلا اعتراض عليه لأن الخلق عباده ، والمالك يفعل ما يشاء ، ولا يلزم من هذا وقوع المغفرة للكفار ، وإنما يقتضى جوازها فى حكمة اللّه وعزته ، وفرق بين الجواز والوقوع ، وأما على قول من قال : إن هذا الخطاب وقع لعيسى عليه السّلام حين رفعه اللّه إلى السماء فلا إشكال ، لأن المعنى : إن تغفر لهم بالتوبة ، وكانوا حينئذ أحياء ، وكل حيى معرض للتوبة.

السؤال الثاني : ما مناسبة قوله : الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لقوله : إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ ، والأليق إن قال : فإنك أنت

الغفور الرحيم؟ فالجواب : أنه لما قصد التسليم له والتعظيم ، كان قوله : (فإنك أنت العزيز الحكيم) أليق ، فإن الحكمة

(٩٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٩٤

تقتضى التسليم ، والعزة تقتضى التعظيم ، فإن العزيز هو الذي يفعل ما يريد ، ولا يغلبه غيره ، ولا يمتنع عليه شىء أراده ، فاقتضى الكلام تفويض الأمر إلى اللّه فى المغفرة لهم أو عدمها لأنه قادر على كلا الأمرين لعزته ، وأيهما فعل فهو جميل لحكمته. وقال أبو جعفر بن الزبير : إنما لم يقل الغفور الرحيم لئلا يكون شفيعا لهم بطلب المغفرة ، فاقتصر على التسليم والتفويض ، دون الطلب ، إذ لا نصيب فى المغفرة للكفار. أنظر بقية كلامه.

قال التفتازانيّ : ذكر المغفرة ، يوهم أن الفاصلة : (الغفور الرحيم) ، لكن يعرف بعد التأمل أن الواجب هو العزيز الحكيم لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ، وهو العزيز ، أي : الغالب ، ثم وجب أن يوصف بالحكمة على سبيل الاحتراس لئلا يتوهم أنه خارج عن الحكمة. هـ.

قال اللّه تعالى : هذا أي : يوم القيامة يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ أي : هنا ينتفع الصادقون فى الدنيا بصدقهم ، ويفتضح الكاذبون على اللّه بكذبهم. والمراد بالصادقين أهل التوحيد ، الذين نزهوا اللّه تعالى عما لا يليق بجلاله وجماله ، فصدقوا فيما وصفوا به ربهم.

ثم ذكر ما وعدهم به ، فقال : لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ حيث رضوا بأحكامه القهرية والتكليفية ، ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وهذا تنبيه على تكذيب النصارى ، وفساد دعواهم فى المسيح وأمه ، وإنما لم يقل : ومن فيهن ، تغليبا لغير العقلاء ، وإنما غلب غير أولى العقل للإعلام بأنهم فى غاية القصور عن معنى الربوبية ، وإهانة لهم وتنبيها على أنهم جنس واحد ، فمن يعقل منهم لقصور عقله ونظره كمن لا يعقل ، فيبعد استحقاقهم للألوهية التي تنبىء عن تمام الحكمة وإحاطة العلم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من صدّر نفسه للشيخوخة من غير إذن ، وأشار إلى تعظيمه بلسان الحال أو المقال يلحقه العتاب يوم القيامة فيقال له : أأنت قلت للناس عظمونى من دون اللّه؟ فإن كان مقصوده بالأمر بالتعظيم الوصول إلى تعظيم الحق تعالى ، والأدب معه فى الحضرة دون الوقوف مع الواسطة ، وبذل جهده فى توصيل المريدين إلى هذا المقام ، يقول : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ،

إلى تمام ما قال السيد عيسى عليه السّلام ، فيقال له :
(هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم). وإن كان مقصوده بالتصدر للتعظيم والأمر به ، حظ نفسه ، وفرح بتربية جاهه والإقبال عليه ، افتضح وأهين بما افتضح به الكاذبون المدعون. نسأل اللّه تعالى الحفظ والرعاية بمنّه وكرمه ، وسيدنا محمد رسوله ونبيه - صلى اللّه عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه وسلم - .

(٢/٩٤)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٩٥

سورة الأنعام

مكية غير ست آيات أو ثلاث ، وقال الكلبي : الأنعام كلها مكية إلّا آيتين نزلتا بالمدينة فى فنحاص اليهودي ، وهى : قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى «١» مع ما يرتبط بهذه الآية.
وهى مائة وخمس وستون آية ، قاله البيضاوي. قال ابن عباس : (نزلت سورة الأنعام وحولها سبعون ألف ملك ، لهم زجل «٢» يجأرون بالتسبيح). وقال كعب : (فاتحة الأنعام هى فاتحة التوراة الْحَمْدُ لِلَّهِ ... إلى ... يَعْدِلُونَ ، وخاتمة التوراة خاتمة هود وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ «٣»). وقيل : خاتمتها : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ... «٤» إلى ... تَكْبِيراً. وقال سيدنا على - كرم اللّه وجهه - : (من قرأ سورة الأنعام فقد انتهى فى رضا ربه). قاله ابن عطية.
ومناسبتها لما قبلها : الاستدلال على قدرته تعالى التي ختم بها ما قبلها ، ومضمنها : التعريف بالذات المقدسة ، دلالة وعيانا ، والاستدلال على وحدانيتها وما يجب لها من صفات الكمال ، والرد على طوائف المشركين ، وذم أحوالهم وأفعالهم ، ومدح أهل التوحيد من العارفين أو المؤمنين ، قال الشيخ زرّوق رضى اللّه عنه فى شرح الرسالة : ما ذكره الشيخ ابن أبى زيد ، فى عقائد رسالته ، هو ما تضمنته سورة الأنعام. هـ. بالمعنى.
قال جل جلاله :
[سورة الأنعام (٦) : آية ١]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)
قلت : (ثم الذين كفروا) : عطف على جملة الحمد على معنى : أن اللّه حقيق بالحمد على ما خلقه ، نعمة على العباد ، ثم الذين كفروا بربهم الذي ربّاهم بهذه النعم ، يعدلون به سواه من الأصنام ، يقال : عدلت فلانا بفلان جعلته نظيره. أو عطف على «خلق ، وجعل» : على معنى أنه خلق وقدّر ما لا يقدر عليه غيره ، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شىء. ومعنى (ثم) : استبعاد عدولهم بعد هذا البيان.

والباء في «بربهم» متعلقة بكفروا ، على الأول ، وبيعدلون على الثاني. قاله البيضاوي.
يقول الحق جل جلاله : الْحَمْدُ لِلَّهِ أي : جميع المحامد إنما يستحقها اللّه ، إذ ما بكم من نعمة فمن اللّه.
الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ التي تظلّكم ، مشتملة على الأنوار التي تضيء عليكم ، ومحلا لنزول الرحمات والأمطار

---

(١) الآية ٩١ من سورة الأنعام. [.....]
(٢) زجل ، أي : صوت رفيع عال.
(٣) الآية ١٢٣ من سورة هود.
(٤) الآية ١١١ من سورة الإسراء.

عليكم ، وَخلق الْأَرْضَ التي تقلّكم ، وفيها نبات معاشكم في العادة ، وفيها قراركم في حياتكم وبعد مماتكم ، مشتملة على بحار وأنهار ، وفواكه وثمار ، وبهجة أزهار ونوار ، وَجَعَلَ الظُّلُماتِ التي تستركم ، راحة لأبدانكم وقلوبكم ، كظلمات الليل الذي هو محل السكون. وَجعل النُّورَ الذي فيه معاشكم وقوام أبدانكم وأنعامكم.
ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بعد هذا كله ، يَعْدِلُونَ عنه إلي غيره ، أو يعدلون به سواه ، فيسوونه في العبادة معه.
قال البيضاوي : وجمع السموات دون الأرض وهى مثلهن لأن طبقاتها مختلفة بالذات ، متفاوتة الآثار والحركات ، وقدّمها لشرفها وعلو مكانها. ثم قال أيضا : وجمع الظلمات لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها ، أو لأن المراد بالظلمة : الضلال ، وبالنور : الهدى. والهدى واحد والضلال متعدد. وتقديمها لتقدم الإعدام على الملكة. ومن زعم أن الظلمة عرض يضاد النور احتج بهذه الآية ، ولم يعلم أن عدم الملكة كالعمى ليس صرف العدم حتى لا يتعلق به الجعل. هـ.
الإشارة : أثنى الحق - جل جلاله - على نفسه بإنشاء هذه العوالم ، التي هى محل ظهور عظمته وجلاله وجماله وبهائه. فأنشأ سموات الأرواح ، التي هى مظهر لشروق أنوار ذاته وصفاته ، ومحل لظهور عظمة ربوبيته ، وأنشأ أرض النفوس ، التي هى مظهر لتصرف أقداره ، ومحل لظهور آداب عبوديته ، وتجلى بين الضدين بين الظلمات والنور ، ليقع الخفاء في الظهور ، كما قال بعض الشعراء :
... لقد تكاملت الأضداد في كامل البها ثم بعد هذا الظهور التام ، عدل عن معرفته جل الأنام ، إلا من

سبقت له العناية من الملك العلام. وبالله التوفيق.

ثم برهن على كمال قدرته ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٢]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢)

قلت : (أجل) : مبتدأ. و(مسمى) : صفته. و(عنده) : خبر ، وتخصيصه بالصفة أغنى عن تقديم الخبر.

يقول الحق جل جلاله : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ أي : ابتدأ خلقكم منه ، وهو آدم ، لأنه المادة الأولى ، وهو أصل البشر. ثُمَّ قَضى أَجَلًا تنتهون فى حياتكم إليه ، وهو الموت. وَأَجَلٌ مُسَمًّى معيّن للبعث ، لا يقبل التغيير ، ولا يتقدم ولا يتأخر ، عِنْدَهُ استأثر بعلمه ، لا مدخل لغيره فيه بعلم ولا قدرة ، وهو المقصود بالبيان ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ أي : تشكّون فى هذا الأجل المسمى الذي هو البعث.

وثُمَّ : لاستبعاد امترائهم بعد ما ثبت عنه أنه خالقهم ، وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم ، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها ، وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما شاء ، كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانيا. قاله البيضاوي.

(٩٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٩٧

الإشارة : القوالب من الطين ، والأرواح من نور رب العالمين ، فالطينية ظرف لنور الربوبية ، الذي هو الروح لأن الروح نور من أنوار القدس ، وسر من أسرار اللّه ، فمن نظّف طينته ولطّفها ظهرت عليها أسرار الربوبية والعلوم اللدنية ، وكشف للروح عن أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، وانخنست الطينية ، واستولت عليها الروح النورانية ، ومن لطّخ طينته بالمعاصي وكثّفها باتباع الشهوات ، انحجبت الأنوار واستترت ، واستولت الطينية الظّلمانية على الروح النّورانية ، وحجبتها عن العلوم اللدنية والأسرار القدسية ، بحكمته تعالى وعدله وظهور قهره. وبالله التوفيق.

ثم برهن على وحدانيته الخاصة ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٣]

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (٣)

قلت : (هو) : مبتدأ ، و(اللّه) : خبره. و(فى السموات) : خبر ثان ، أي : وهو اللّه كائن أو موجود فى السموات وفى الأرض بنوره وعلمه. قال تعالى : اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ «١». و(يعلم سركم وجهركم) : تقرير له.

يقول الحق جل جلاله : هذا الذي اختص بالحمد وأبدع الكائنات كلها – هُوَ اللَّهُ ظاهر فِي السَّماواتِ

وَفِي الْأَرْضِ بنوره وقدرته وعلمه وإحاطته ، فلا شريك معه يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ من خير أو شر ، فيثيب عليه ويعاقب ، ولعله أراد بالسر والجهر ما يظهر من أحوال النفس ، وبالمكتسب أعمال الجوارح. فالآية الأولى دليل القدرة التي ختم بها السورة ، والآية الثانية دليل البعث ، والآية الثالثة دليل الوحدة.

الإشارة : قال بعض العارفين : الحق تعالى منزّه عن الأين والجهة ، والكيف ، والمادة ، والصورة ، ومع ذلك لا يخلو منه أين ، ولا مكان ، ولا كم ، ولا كيف ، ولا جسم ، ولا جوهر ، ولا عرض. لأنه للطفه سار فى كل شىء ، ولنوريته ظاهر فى كل شىء ، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف ، غير متقيد بذلك ، فمن لم يعرف هذا ولم يذقه ولم يشهده ، فهو أعمى البصيرة ، محروم من مشاهدة الحق تعالى. ولابن وفا :

هو الحقّ المحيط بكلّ شىء هو الرحمن ذو العرش المجيد

هو المشهود فى الأشهاد يبدو فيخفيه الشهود عن الشّهيد

هو العين العيان لكلّ غيب هو المقصود من بيت القصيد

جميع العالمين له ظلال سجود فى القريب وفى البعيد

وهذا القدر فى التّحقيق كاف فكفّ النّفس عن طلب المزيد

---

(١) من الآية : ٣٥ من سورة النور.

ثم ذم من أعرض عن دلائل توحيده ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٤ الى ٥]

وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٥)

قلت : (من) الأولى : مزيدة للاستغراق ، والثانية للتبعيض.

يقول الحق جل جلاله : وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ دالّة على توحيد اللّه وكمال صفاته ، إلا أعرضوا عنها ، أي : الكفار ، أو : ما تأتيهم معجزة من المعجزات الدالة على قدرة اللّه وصدق رسوله ، أو : ما تأتيهم آية من آيات القرآن تدل على وحدانيته وكمال ذاته ، إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ تاركين للنظر فيها ، غير ملتفتين إليها.

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ وهو القرآن لَمَّا جاءَهُمْ ، وهو كالدليل لما قبله ، لأنهم لمّا كذبوا بالقرآن - وهو أعظم الآيات - فكيف لا يعرضون عن غيره من الآيات؟ ثم هدّدهم بقوله : فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ أي : أخبار ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أي : سيظهر لهم ، عند نزول العذاب بهم فى الدنيا والآخرة ، ما كانوا يستهزئون به من البعث والحساب ، أو عند ظهور الإسلام وارتفاعه.

الإشارة : من سبق له الخذلان لا تنفعه الأدلة وتواتر البرهان ، ولا تزيده ظهور المعجزات أو الكرامات إلا التحاسد وظهور العداوات ، ولا يزيده الدعاء إلى اللّه والتناد ، إلّا الإعراض عنه والبعاد ، نعوذ باللّه من الشقاء وسوء القضاء.

ثم أمر أهل الإنكار بالنظر والاعتبار ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٦]

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٦)

قلت : (كم) : خبرية ، مفعول «أهلكنا» ، أي : كثيرا أهلكنا من القرون ، والقرن مدة من الزمان تهلك أشياخها وتقوم أطفالها ، واختلف فى حدّها ، قيل : مائة ، وقيل : سبعون ، وقيل : ثمانون ، وقيل : القرن : أهل زمان فيه نبى أو فائق فى العلم ، قلّت المدة أو كثرت ، مشتق من قرين الرجل. والمطر المدرار هو الغزير ، وهى من أمثلة المبالغة ، كمذكار وميناث.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ يَرَوْا ببصائرهم رؤية اعتبار ، كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ من أهل عصر مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أي : جعلناهم متمكنين فيها بالقرار والسكنى والطمأنينة فيها ، أو أعطيناهم من القوة والآلات

ما تمكّنوا بها من أنواع التصرف فيها فقد مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ يا أهل مكة ، فقد جعلنا لهم من السعة وطول المقام ما لم نجعله لكم ، أو أعطيناهم من القوة والسّعة فى المال والاستظهار على الناس بالعدّة والعدد وتهيّؤ الأسباب ما لم نجعله لكم ، .

وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ أي : المطر أو السحاب عَلَيْهِمْ مِدْراراً أي : مغزارا على قدر المنفعة بحسب الحاجة ، وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ أي : أجرينا الأودية من تحت ديارهم وأراضيهم ، فعاشوا فى الخصب والريف ، بين الأنهار والثمار ، فعصوا وطغوا وبطروا النعمة ، فلم يغن ذلك عنهم شيئا. فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا أي :

أحدثنا ، مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ بدلا منهم. والمعنى : أنه تعالى كما قدّر أن يهلك من تقدم من القرون ،

بعد أن مكّنهم فى البلاد واستظهروا على العباد ، كعاد وثمود ، وأنشأ بعدهم آخرين عمّر بهم بلاده ، يقدر أن يفعل ذلك بكم يا معشر الكفار المعاصرين لمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم.

الإشارة : النظر والاعتبار يوجب للقلب الرقّة والانكسار. وهى عبادة كبرى عند العباد والزهاد ، أولى العزم والاجتهاد. وفوقها : فكرة الشهود والعيان ، وهى الفكرة التي تطوى وجود الأكوان ، وتغيب الأوانى بظهور المعاني ، أو تريها حاملة لها قائمة بها ، فالأولى فكرة تصديق وإيمان ، والثانية فكرة شهود وعيان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر عنادهم ، وأنهم لا تنفع فيهم المعجزة ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٧ الى ٩]

وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (٩)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ يا محمد كِتاباً مكتوبا فِي قِرْطاسٍ أي : رقّ ، فرأوه بأعينهم ، ولمسوه بأيديهم ، حتى لا يبقى فيه تزوير ، لعاندوا ، ولَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا منهم بعد ذلك : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ تعنتا وعنادا ، وتخصيص اللمس لأن التزوير لا يقع فيه ، فلا يمكنهم أن يقولوا : إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا ، وتقييده بالأيدى لدفع التجوز ، فإنه قد يتجوز فيه فيطلق على الفحص كقوله : وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ «١».

ثم اقترحوا معجزة أخرى ، وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ يكلمنا أنه نبى ، فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أو شهيدا له بالرسالة ، روى أن العاص بن وائل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود هم الذين سألوا ذلك. قال تعالى :

---

(١) من الآية ٨ من سورة الجن.

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً ، كما طلبوا لَقُضِيَ الْأَمْرُ بهلاكهم ، فإنّ سنة اللّه جرت بذلك فيمن قبلهم مهما اقترحوا آية ، فظهرت ثم كفروا ، عجّل اللّه هلاكهم ، ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ أي : لا يمهلون بعد نزولها ساعة.
وعلى تقدير لو أنزلنا عليهم الملك - كما اقترحوا - فلا يمكن أن يظهر إلا على صورة البشر ليطيقوا رؤيته ، وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا ليتمكنوا من رؤيته ، كما مثّل جبريل فى صورة دحية ، فإن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملائكة. وإنما رأوهم كذلك الأفراد من الأنبياء ، لامتلاء أسرارهم بالأنوار القدسية ، فإذا ظهر على صورة البشر التبس الأمر عليهم فقالوا : إنما هو بشر لا ملك. فهذا معنى قوله : وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ أي : لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم ، أو لفعلنا لهم فى ذلك فعلا ملبسا يطرق لهم إلى أن يلبسوا به على أنفسهم وضعفائهم فإن عادة اللّه فى إظهار قدرته أن تكون مرتدية برداء حكمته ليبقى سر الربوبية مصونا ، فمن سبقت له العناية خلق اللّه فى قلبه التصديق بها ، حتى علمها ضرورة ، وغيره يلبس الأمر عليه فيها. وبالله التوفيق.
الإشارة : كرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء ، لا تظهر إلّا لأهل الصدق والتصديق ، ولا يتحقق بولايتهم إلّا من سبق له الوصول إلى عين التحقيق. «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه» ، فأهل الإنكار عليهم لا يرون إلا ما يقتضى البعد عنهم. وأهل الإقرار لا يرون إلا ما يقتضى القرب منهم والمحبة فيهم. واللّه تعالى أعلم.
ثم سلّى رسوله - عليه الصلاة السلام - فقال :
[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠]
وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (١٠)
قلت : حاق يحيق حيقا ، أي : نزل وأحاط ، و(منهم) : يتعلق بسخروا ، و(ما كانوا) : الموصول اسمى أو حرفي.
يقول الحق جل جلاله فى تسلية رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم : وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ كثير مِنْ قَبْلِكَ فصبروا على أذى قومهم حتى أهلكهم اللّه ، فَحاقَ أي : أحاط بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أي :
نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزءون به ويستبعدونه ، أو : نزل بهم وبال استهزائهم وهو الهلاك.

الإشارة : كل ما سليّت به الرسل تسلّى به الأولياء ، فما من ولى صدّيق إلا ابتلاه اللّه بتسليط الخلق عليه حتى ترحل روحه عن هذا العالم لضيقه عليها ، وتتمكن من شهود عالم الملكوت ، فإذا طهرت منه البقايا ، وكملت فيه المزايا ، ردّه إليهم غنيّا عنهم ، وغائبا عنهم ، جسمه مع الخلق وقلبه مع الحق. هذه سنة اللّه فى أوليائه ، فكل ولىّ يتسلى بمن قبله فى إيذاء الخلق له. غير أن أولياء هذه الأمة إذا كمل مقامهم صاروا على قدم نبيهم ، يكونون رحمة

(١٠٠/٢)

للعباد ، من آذاهم لا يعاجل بالعقوبة غالبا ، كما كان نبيهم رحمة للعالمين ، فقال : «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون». واللّه تعالى أعلم.

ثم جددّ الأمر بالاعتبار ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١١]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)

قلت : قال الزمخشري : فإن قلت : أىّ فرق بين قوله : (فانظروا) ، وبين قوله : (ثم انظروا)؟ فالجواب : أنه جعل النظر مسبّبا على السير فى قوله : انْظُرُوا ، كأنه قال : سيروا لأجل النظر ، وأما قوله : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا ، فمعناه : إباحة السير للتجارة وغيرها من المنافع ، وإيجاب النظر فى الهالكين. هـ. ولم يقل : كانت لأن العاقبة مجاز تأنيثها.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ وجولوا فى أقطارها ، ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ قبلكم ، كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ، كيف أهلكهم اللّه بعذاب الاستئصال ، كى تعتبروا وتنزجروا عن تكذيب محمد - عليه الصلاة السلام - .

الإشارة : يقال لأهل التنكير على أهل الذكر والتذكير : سيروا فى الأرض ، وانظروا كيف كان عاقبة المنكرين على المتوجهين ، كانت عاقبتهم الخذلان ، وسوء الذكر بعد الموت والخسران كابن البراء وغيره من أهل التنكير.

نعوذ بالله من التعرض لمقت اللّه.

لكن الأمر كله بيد اللّه ، كما قال تعالى :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٢ الى ١٣]

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣)

قلت : جملة (ليجمعنكم) : مقطوعة ، جواب لقسم محذوف ، وقيل : بدل من الرحمة ، وهو ضعيف لدخول النون الثقيلة فى غير موضعها. و«إلى» : هنا ، للغاية ، كما تقول : جمعت القوم إلى دارى. وقيل : بمعنى «فى» ، و(الذين خسروا) : مبتدأ ، وجملة : (فهم لا يؤمنون) : خبر ، و(له ماسكن) : عطف على (للّه) ، وهو إما من السكنى فلا حذف ، أو من السكون ، فيكون حذف المعطوف. أي : ما سكن وتحرّك.

(۱۰۱/۲)

البحر المديد ، ج ۲ ، ص : ۱۰۲

يقول الحق جل جلاله : قُلْ للمشركين يا محمد : لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ خلقا وملكا وعبيدا؟. قُلْ لهم هو : لِلَّهِ لا لغيره ، والقصد بالآية : إقامة البرهان على التوحيد وإبطال الشرك. وجاء ذلك بصيغة الاستفهام لإقامة الحجة على الكفار ، فسأل أولا ، ثم أجاب عن سؤاله بنفسه لأنّ الكفار يوافقون على ذلك ضرورة ، فثبت أن الإله الحق هو الذي له ما فى السموات والأرض ، وإنما يحسن أن يكون السائل مجيبا إذا علم أن خصمه لا يخالفه فى الجواب الذي يقيم به الحجة عليه.

ثم دعاهم إلى الإيمان والتوبة بتلطّف وإحسان فقال : كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «۱» كما فى الآية الأخرى ، والكتابة هنا عبارة عن القضاء السابق ، وقد فسرها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بقوله : «إنّ اللّه كتب كتابا قبل أن يخلق السّموات والأرض فهو عنده» وفيه : «أنّ رحمتى سبقت غضبى» «۲» وفى رواية : «تغلب غضبى» «۳».

قال البيضاوي : كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أي : التزمها تفضلا وإحسانا ، والمراد بالرحمة : ما يعمّ الدارين ، ومن ذلك : الهداية إلى معرفته ، والعلم بتوحيده ، بنصب الأدلة ، وإنزال الكتب والإمهال على الكفر. هـ.

ثم ذكر محل ظهور هذه الرحمة ، فقال : واللّه لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ أي : ليجمعنكم من القبور مبعوثين إلى يوم القيامة فيجازى أهل التوبة والإيمان ، ويعاقب أهل الشرك والكفران ، لا رَيْبَ فى ذلك اليوم ، أو فى ذلك الجمع ، فيظهر أهل الخسران من أهل الإحسان ، ولذلك قال : الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بتضييع رأس مالهم ، وهو النظر الصحيح الموجب للإيمان والتوحيد فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ حتى أدركهم الموت فلا خسران أعظم من ذلك. ودخلت الفاء فى الخبر للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبّب عن خسرانهم فإن إبطال النظر ، والانهماك فى التقليد واتباع الوهم ، أدّى بهم إلى الإصرار على الكفر ، والامتناع من الإيمان إلى الممات. فخسروا أولا بتضييع النظر ، فتسبب عنه عدم الإيمان.

ثم تمم جوابه فقال : وَلَهُ ما سَكَنَ أي : قل لهم : ما فى السموات والأرض للّه ، وله أيضا ما سكن فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أي : ما استقر فيهما وما اشتملتا عليه ، أو ما سكن فيهما وتحرك ، وَهُوَ السَّمِيعُ لكل مسموع ، الْعَلِيمُ بكل معلوم فلا يخفى عليه شيء فى الليل والنهار ، فى جميع الأقطار.

---

(١) الآية ٥٤ من السورة نفسها.

(٢) أخرجه البخاري فى (التوحيد ، باب قول اللّه تعالى : «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ») من حديث أبى هريرة.

(٣) أخرجها البخاري فى (التوحيد ، باب قوله تعالى «وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ») ومسلم فى (التوبة ، باب : فى سعة رحمة اللّه) من حديث أبى هريرة.

الإشارة : إذا علم العبد أن الخلق كلهم فى قبضة اللّه ، وأمورهم كلها بيد اللّه ، أحاط بهم علما وسمعا وبصرا ، لم يبق له على أحد عتاب ، ولا ترتيب خطأ ولا صواب ، إلّا ما أمرت به الشريعة على ظاهر اللسان. بل شأنه أن ينظر إلى ما يفعل المالك فى ملكه ، فيتلقاه بالقبول والرضى ، وفى الحكم : «ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر فى الوقت غير ما أظهره اللّه فيه» ، هذا شأن أهل التوحيد يدورون مع رياح الأقدار حيثما دارت ، غير أنهم يتحنّنون بقلوبهم إلى رحمة الكريم المنان ، وينهضون بهمتهم إلى مظانّ السعادة والغفران ، ويرجون منه الجمع عليه فى روح وريحان ، وجنة ورضوان ، بمحض فضل منه وإحسان. جعلنا اللّه منهم بفضله وكرمه. آمين.

ثم أقام الحجة على أهل الشرك ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤ الى ١٨]

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)

قلت : (فاطر) : نعت للّه ، ومعناه : خالق ومبدع. قال ابن عباس رضى اللّه عنه : (ما كنت أعرف معنى فاطر ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها بيدي). وجملة : (و هو يطعم) : حال ، وقرىء بعكس الأول ببناء الأول للمفعول ، والثاني للفاعل ، على أن ضمير (هو) راجع

لغير اللّه ، وببنائهما للفاعل على معنى يطعم تارة ، ويمنع أخرى ، كقوله : يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ «١» ، وجملة (إن عصيت) : معترضة بين الفعل والمفعول ، والجواب : محذوف دل عليه ما قبله ، أي : إن عصيت فإني أخاف عذاب يوم عظيم.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا أي : معبودا أواليه بالعبادة والمحبة ، وأشركه مع اللّه الذي أبدع السموات والأرض ، وَهُوَ الغنى عما سواه ، الصّمدانى ، يُطْعِمُ عباده ولا يُطْعِمُ ولا يحتاج إلى من يطعمه ، فهو يرزق ولا يرزق ، وتخصيص الطعام لشدة الحاجة إليه. قُلْ لهم : إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وأنقاد بكلّيتى إلى هذا الإله الحقيقي ، الغنى بالإطلاق ، وأرفض كل ما سواه ، ممن عمّه الفقر ابتداء ودواما. فكان عليه الصلاة والسلام هو أول سابق إلى الدين. ثم قيل له : وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ تنفيرا لغيره من الشرك ، وإلّا فهو مبرّأ منه - عليه الصلاة والسلام - .

---

(١) من الآية : ٢٤٥ من سورة البقرة.

قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بالشرك وغيره عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، وهذه مبالغة أخرى فى قطع أطماعهم ، وتعريض لهم بأنهم عصاة ، مستوجبون للعذاب ، مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ ذلك العذاب ، يَوْمَئِذٍ أي : يوم القيامة ، فَقَدْ رَحِمَهُ أي : نجاه ، وأنعم عليه ، وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ أي : وذلك الصرف أو الرحمة هو الفلاح المبين.

ثم ذكر حجة أخرى على استحقاقه للعبادة والولاية ، فقال : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ كمرض أو فقر ، فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ إذ لا يقدر على صرفه غيره ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ بنعمة ، كصحة وغنى ومعرفة وعلم ، فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، فهو قادر على حفظه وإدامته ، ولا يقدر أحد على دفعه ، كقوله تعالى : فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ «١» ، وَهُوَ الْقاهِرُ لجميع خلقه كلهم فى قبضته ، فَوْقَ عِبادِهِ بهذه القهرية والغلبة والقدرة ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فى صنعه وتدبيره ، الْخَبِيرُ بخفايا أمور عباده ، لا يخفى عليه شىء من أحوالهم الباطنة والظاهرة.

الإشارة : فى الآية حضّ على محبة الحق ، وولايته على الدوام ، ورفض كل ما سواه ممن عمّه الفقر من الأنام ، وفيها أيضا : حث على المسابقة إلى الخيرات ، والمبادرة إلى الطاعات ، اقتداء بسيد أهل الأرض والسموات ، فكان - عليه الصلاة السلام - أول من عبد اللّه ، وأول من توجه إلى مولاه ، قال تعالى : قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ «٢» ، فلو جاز أن يتخذ ولدا ، لكنت أنا أولى به ،

لأنى أنا أول من عبده.

قال الورتجبي : قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ أي : أمرنى حين كنت جوهر فطرة الكون – حيث لم يكن غيرى فى الحضرة – أن أكون أول الخلق فى المحبة والعشق والشوق ، وأول الخلق له منقادا بنعت محبتى له ، راضيا بربوبيته ، غير منازع لأمر مشيئته. وقال بعضهم : أكون أول من انقاد للحق إذا ظهر. هـ.

ولما قالت قريش للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم : يا محمد : لقد سألنا عنك اليهود والنصارى ، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة ، فأرنا من شهد لك؟ أنزل اللّه تعالى :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٩]

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)

قلت : (قل اللّه شهيد) : يحتمل المبتدأ والخبر ، أو يكون (اللّه) خبرا عن مضمر ، أو مبتدأ حذف خبره ، و«شهيد» :

خبر عن مضمر ، أي : قل هو اللّه ، أو اللّه أكبر شهادة ، وهو شهيد بينى وبينكم ، و(من بلغ) : عطف على مفعول ، «أنذر» ، أي : لأنذركم يا أهل مكة ، وأنذر من بلغه القرآن ، وحذف مفعول (بلغ).

---

(١) من الآية : ١٠٧ من سورة يونس.

(٢) من الآية : ٨١ من سورة الزخرف.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد للذين سألوك من يشهد لك بالنبوة : أَيُّ شَيْءٍ عندكم هو أَكْبَرُ شَهادَةً؟ فإن لم يجيبوا فقل لهم : هو اللَّهُ فإنه أكبر الشاهدين ، وهو الذي يشهد لى بالنبوة والرسالة بإقامة البراهين وإظهار المعجزات ، وهو شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وكفى به شهيدا.

وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ أي : لأخوّفكم به ، إن أعرضتم عنه ، وأبشّركم به إن آمنتم به ، واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة لأنه مصرح به فى موضع آخر ، ولأن الأهم هنا هو الإنذار لغلبة الكفر حينئذ ، وأنذر به أيضا كل من بلغه القرآن من الأحمر والأسود ، والجن والإنس إلى يوم القيامة. وفيه دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت النزول ومن بعدهم ، وأنه لا يؤاخذ بها من لم

تبلغه ، وهو نادر ، قال سعيد بن جبير : (من بلغه القرآن فكأنما رأى محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم).
الإشارة : فى الآية حث على الاكتفاء بعلم اللّه ، والاستغناء به عما سواه ، وعلامة الاكتفاء بعلم اللّه ثلاث :
استواء المدح والذم ، والرضى بالقليل والكثير ، والرجوع إلى اللّه وحده فى السراء والضراء.
واعلم أن الحق تعالى إذا شهد لك بالخصوصية ، ثم اكتفيت بشهادته فأنت من أهل الخصوصية ، وإن لم تكتف بشهادته ، وتطلعت إلى أن يعلم الناس بخصوصيتك ، فأنت كاذب فى دعوى الخصوصية.
واطلاع الحق تعالى على ثبوت خصوصيتك هو شهادته لك ، فاقنع بعلم اللّه ، ولا تلتفت إلى أحد سواه ، لئلا ينزعها من قلبك ، حيث لم تقنع بعلم اللّه فيك. وباللّه التوفيق.
ولمّا أتى قوم من الكفار إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقالوا : يا محمد أما تعلم أن مع اللّه إلها آخر؟ أنزل اللّه تعالى :
أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ قلت : الاستفهام للإنكار والتوبيخ.
يقول الحق جل جلاله ، فى الإنكار على المشركين : أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى تستحق أن تعبد قُلْ لهم يا محمد : أنا لا أَشْهَدُ بما تشهدون به ، قُلْ لهم : إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ بل أشهد ألا إله إلا هو ، وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ به من الأصنام.

(١٠٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٠٦
الإشارة : لم يبرأ من الشرك الخفي والجلى إلا أهل الفناء الذين وحدوا اللّه فى وجوده ، فلم يروا معه سواه. قال بعض من بلغ هذا التوحيد : (لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع فإنه لا غير معه حتى أشهده)
وقال آخر : محال أن تشهده وتشهد معه سواه. وقال شاعرهم :
مذ عرفت الإله لم أر غيرا وكذا الغير عندنا ممنوع
إلى غير ذلك من مقالاتهم الدالة على تحقيق وجدانهم. نفعنا اللّه بذكرهم ومحبتهم. آمين.
ولمّا قالت قريش : قد سألنا اليهود والنصارى عنك ، فلم يجدوا لك عندهم ذكرا ، ردّ اللّه عليهم ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٢٠ الى ٢١]
الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١)

يقول الحق جل جلاله الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ من اليهود والنصارى ، يَعْرِفُونَهُ أي : محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم بحليته المذكورة فى التوراة والإنجيل ، كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ أو أشد ، وإنما كتموه جحدا وخوفا على رياستهم .. الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ من أهل الكتاب حيث كذّبوا وكتموا ، ومن المشركين حيث كفروا وجحدوا ، فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ لتضييعهم ما به يكتسب الإيمان من النظر والتفكير والإنصاف للحق ، فقد ظلموا أنفسهم وبخسوها.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بأن كتم شهادة الحق ، وهى صفة الرسول - عليه الصلاة والسلام - أو ادّعاء الملائكة بذات اللّه ، وهؤلاء شفعاؤنا عند اللّه ، أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ كالقرآن والمعجزات وسمّوها سحرا ، أي : لا أحد أظلم ممن فعل هذا ، وإنما عبّر ب «أو» ، وهم قد جمعوا بين الأمرين تنبيها على أن كل واحد منهما وحده بالغ غاية الإفراط فى الظلم على النفس ، إِنَّهُ أي : الأمر والشأن لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ، فضلا عمّن لا أحد أظلم منه.

الإشارة : أقبح الناس منزلة عند اللّه ، من تحقق بخصوصية ولى من أولياء اللّه ، ثم كتمها وجحدها حسدا وعنادا ، وجعل ينكر عليه ، فقد آذن بحرب من اللّه ، فالتسليم عناية ، والانتقاد جناية ، والاستنصاف من شأن الكرام ، والتعصب من شأن اللئام. وباللّه التوفيق.

(١٠٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٠٧

ثم ذكر وعيد أهل الشرك ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٢٢ الى ٢٤]

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)

قلت : لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ، من قرأ بالرفع والتأنيث : ففتنة اسمها ، و(إلّا أن قالوا) : خبرها ، ومن قرأ بالنصب : فخبر مقدم ، والتأنيث لأجل الخبر ، ومن قرأ بالتذكير والنصب ، فخبر مقدم ، و(إلّا أن قالوا) : اسمها.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يا محمد يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ أي : المشركين ، جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ أي : آلهتكم التي جعلتموها شركاء للّه ، الَّذِينَ كُنْتُمْ تزعمونهم شركاء ، وتودونها وتنتصرون لها ، فيحال بينهم وبينها ، ويتبرأون منها ، كما قال تعالى : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ أي : لم تكن عاقبة كفرهم الذي افتتنوا به ، إلا التبرؤ منه ، بعد الانتصار له والتعصب عليه

، أو : لم يكن جواب اختبارهم إلا التبرؤ من الشرك ، فيكذبون ويحلفون عليه ، مع علمهم بأنه لا ينفع من فرط الحيرة والدهشة.

فإن قلت : كيف يجحدون مع قوله : وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً «١» فالجواب : أن ذلك يختلف باختلاف الطوائف والمواطن ، فيكتم قوم ويقر آخرون ، ويكتمون فى موطن ويقرون فى موطن آخر لأن يوم القيامة طويل ، وقال ابن عباس لمّا سئل عن هذا : (إنهم جحدوا ، طمعا فى النجاة ، فختم اللّه على أفواههم وتكلمت جوارحهم ، فلا يكتمون حديثا).

قال تعالى : انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ بنفي الشرك عنها بعد تحققها به ونظيره قوله : يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ «٢» وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ «٣» أي : غاب عنهم ما كانوا يعبدونه من الشركاء افتراء على اللّه.

الإشارة : من أحب شيئا فهو عبد له ، ويوم القيامة يتبرأ منه ، ويرى وبال فتنته والاشتغال به ، فينبغى لمن أراد السلامة من الفتنة ، أن يفرد محبته لله ، ويتبرأ من كل ما سواه ، ويفرد وجهته لله ، ولا يشتغل ظاهرا ولا باطنا إلا

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة النساء.

(٢) من الآية : ١٨ من سورة المجادلة.

(٣) من الآية : ٤٢ من سورة يونس. [.....]

بما يقربه من اللّه ويبعده عما سواه وفى الحديث : «تعس عبد الدّينار والدّرهم والخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش» «١».

ثم ذكر أحوالهم فى الدنيا باعتبار الكفر والعناد ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (٢٦)

قلت : «من» : لفظها مفرد ومعناها جمع ، فيجوز فى الضمير مراعاة اللفظ فيفرد ، كقوله هنا : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، ويجوز مراعاة المعنى فيجمع ، كقوله فى يونس : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ «٢»

والأكنّة : الأغطية ، جمع كنان ، و(أن يفقهوه) : مفعول له أي : كراهية أن يفقهوه ، و(حتى) : غاية ، أي : انتهى التكذيب حتى وصلوا إليك يجادلونك ، والجملة بعدها : إمّا فى محل جر بها ويجادلونك جواب لها ، و(يقول) : تبيين لها ، وإما لا محل لها فتكون ابتدائية. والأساطير : جمع أسطورة ، أو أسطار جمع سطر ، فيكون جمع الجمع.

يقول الحق جل جلاله : ومن الكفار مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حين تقرأ القرآن ، والمراد : أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم ، اجتمعوا فسمعوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقرأ ، فقالوا للنضر : ما تقول؟ فقال :

والذي جعلها بيننا وبينه ما أدرى ما يقول ، إلا أنه يحرك لسانه ، ويقول أساطير الأولين ، مثل ما جئتكم به. قال السّهيلى : حيث ما ورد فى القرآن : «أساطير الأولين» فإنّ قائلها هو النضر بن الحارث ، وكان قد دخل بلاد فارس وتعلّم أخبار ملوكهم ، فكان يقول : حديثى أحسن من حديث محمد ، فنزلت فيه وفى أصحابه.

وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أي : أغطية كراهة أَنْ يَفْقَهُوهُ لما سبق لهم من الشقاء ، وَجعلنا فِي آذانِهِمْ وَقْراً أي : ثقلا وصمما فلا يسمعون معانيه ، ولا يتدبرونها. وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ ومعجزة لا يُؤْمِنُوا بِها لفرط عنادهم ، واستحكام التقليد فيهم ، وسبق الشقاء لهم ، فلا يزال التكذيب والشك يعظم فيهم حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ أي : حتى ينتهى بهم التكذيب إلى أن يجيؤوك يجادلونك يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أي : ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ أي : أكاذيب الْأَوَّلِينَ ، فإنّ جعل أصدق الحديث خرافات الأولين غاية التكذيب.

---

(١) إذا شيك فلا انتقش : أي : إذا شاكته شوكة فلا يقدر على انتقاشها ، وهو إخراجها بالمنقاش ... والحديث أخرجه البخاري مطولا فى (الجهاد والسير ، باب الحراسة). من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٢) من الآية : ٤٢ من سورة يونس.

وَهُمْ أيضا يَنْهَوْنَ عَنْهُ أي : ينهون الناس عن القرآن ، أو عن الرسول والإيمان به ، وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ أي : يبعدون عنه ، فقد ضلوا وأضلوا ، أو ينهون عن التعرض لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وينأون عنه فلا يؤمنون ، كأبى طالب ومن كان معه ، يحمى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وهو فى مكة. وفى (ينهون) ضرب من ضروب التجنيس من علم البلاغة.

قال تعالى : وَإِنْ أي : ما يُهْلِكُونَ بذلك إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ أن ضررهم لا يتعداهم إلى غيرهم.

الإشارة : اعلم أن القلب تحجبه عن تدبر كلام اللّه والتمتع بحلاوته أربعة حجب :

الأول : حجاب الكفر والشرك ويندفع بالإيمان والإسلام ..

والثاني : حجاب المعاصي والذنوب ، وينخرق بالتوبة والانقلاع.

والثالث : حجاب الانهماك في الحظوظ والشهوات واتباع الهوى ، وينخرق بالزهد والورع والتعفف ونوع من الرياضة.

والرابع : حجاب الغفلة والخوض فيما لا يعنى ، والاشتغال بالبطالة ، وينخرق باليقظة والتوجه إلى الحق ، والانقطاع إلى اللّه بكليته ، فإذا انخرقت هذه الحجب عن القلب ، تمتع بحلاوة القرآن ، ومناجاة الحق على نعت القرب والمراقبة.

وبقي حجابان آخران ، إذا خرقهما العبد أفضى إلى مشاهدة المتكلم دون واسطة ، أولهما : حجاب حلاوة الطاعة والمعاملة الظاهرة ، والوقوف مع المقامات أو الكرامات ، فإنها عند العارفين سموم قاتلة.

وثانيهما : حجاب الوهم والوقوف مع ظاهر الحس ، دون الوصول إلى باطنه ، فيقف مع الأواني دون شهود المعاني ، وقد قال الششترى :

لا تنظر إلى الأواني وخض بحر المعاني

لعلّك تراني.

وقال الغزالي : الموانع التي تحجب القلب عن الفهم أربعة : الأول : جعل الفهم مقصورا على تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها ، فهذا يتولى حفظه شيطان وكلّ بالقراء ، يصرفهم عن معانى كلام اللّه تعالى. الثاني : أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه ، من غير وصول إليه ببصيرة. الثالث : أن يكون مصرا على ذنب ، أو متصفا بكبر ، أو مبتلى بهوى في الدنيا مطاع ، فإن ذلك سبب ظلمة القلب ، وهو كالخبء على المرآة ، فيمنع جلية الحق فيه ، وهو أعظم حجب القلب ، وبه حجب الأكثرون ، الرابع : أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا ، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلّا ما يتأوّل عن ابن عباس ، ومجاهد وغيرهما ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى منهى عنه ، فهذا أيضا من الحجب العظيمة ، فإن القرآن بحر لا ساحل له ، وهو مبذول لمن يغرف منه إلى يوم القيامة ، كل على قدر سعته وصفاء قلبه .. هـ. بالمعنى.

(١٠٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١١٠

ثم هددهم بما أعد لهم يوم القيامة ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٢٧ الى ٢٨]
وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (٢٨)

قلت : (لو) : شرطية ، وجوابها محذوف : أي : لرأيت أمرا فظيعا هائلا ، وإنما حذف فى مثل هذا ليكون أبلغ ما يقدره السامع. و(لا نكذب) و(نكون) : قرىء بالرفع ، على الاستئناف والقطع عن التمني ، ومثّله سيبويه بقولك :

(دعنى ولا أعود) أي : وأنا لا أعود ، ويحتمل أن يكون حالا ، أي : غير مكذّبين ، أو عطفا على : (نرد) ، وقرىء بالنصب على إضمار «أن» - بعد واو المعية فى جواب التمني.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ تَرى يا محمد ، أو : يا من تصح منه الرؤية ، حال الكفار إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ حين يعاينونها أو يطلعون عليها ، أو يدخلونها ، فيعرفون مقدار عذابها ، لرأيت أمرا شنيعا وهو لا فظيعا فَقالُوا حينئذ : يا لَيْتَنا نُرَدُّ إلى الدنيا ، وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، ندموا حين لم ينفع الندم ، وقد زلّت بهم القدم ، قال تعالى : بَلْ بَدا لَهُمْ أي : ظهر لهم يوم القيامة فى صحائفهم ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ فى دار الدنيا من عيوبهم وقبائح أعمالهم ، أو : بدا لهم حقيّة الإيمان وبطلان ضده ، عيانا ، لمّا وقفوا على التوحيد وعرفوه ضرورة ، وقد كانوا فى الدنيا يخفونه ويظهرون الشرك ، عياذا بالله. قال تعالى : وَلَوْ رُدُّوا إلى الدنيا بعد الوقوف والظهور ، لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ من الكفر والمعاصي لأنهم من قبضة الشقاء ، والعياذ بالله ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما وعدوا من أنفسهم من الإيمان وعدم التكذيب. وفى هذا : الإخبار بما لا يكون ، ولو كان كيف يكون ، وهو مما انفرد اللّه بعلمه.

الإشارة : يوم القيامة هو محل ظهور حقائق الأشياء على ما هى عليه ، فإن كانت حقا ظهرت حقيقتها وصحتها ، وإن كانت باطلة ، ظهر بطلانها عيانا ، لكن لا تنفع المعرفة حينئذ ، لرفع حجاب الحكمة وظهور القدرة ، فلم يبق غيب ، وإنما المزيّة فى الإيمان بالغيب ، والمعرفة فى النكران ، والشهود خلف رداء الكبرياء ، بشهود المعاني خلف الأواني ، فإن ظهرت المعاني فلا إيمان ، وإنما يبقى العيان ، لأهل العيان ، والخيبة لأهل الخذلان.

قال الورتجبي : القوم لم يعرفوا حقائق الكفر فى الدنيا ، ولو عرفوه لكانوا موحدين ، فيظهر لهم يوم القيامة حقيقة الكفر ، ولا ينفعهم ذلك لفوتهم السير فى النكرات ، التي معرفتها توجب المعارف ، وذلك المقام فى أماكن صدورهم ، وهم كانوا يخفونه بمتابعة صورة الكفر وشهوة العصيان بغير اختيارهم لقلة عرفانهم به ، ولا يكون قلب من العرش إلى الثرى إلا ويطرقه هواتف الغيب ، بإلهام اللّه الذي يعرف به طرق رضى الحق ، وصاحبه يعلم ذلك ويسمع ويخفيه فى قلبه ، لأنه أدق من الشعرة ، وحركته أخفى من دبيب النمل ، ومع ذلك يعرفه من نفسه ، ولكن من غلبت شهوات نفسه عليه ، لا يتبع خطاب اللّه بالسر ، فأبدى اللّه لهم ما كانوا يخفونه ، تعييرا لهم وحجة عليهم. انتهى.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١١١

قلت : قوله : ولا يكون قلب ... إلخ ، حاصل كلامه : أن القلب من حيث هو لا بد أن يطرقه الخصم إن حاد عن الحق ، وهو المراد بهواتف الغيب ، لكنه أخفى من دبيب النمل فى حق الغافلين. فإن كان القلب حيا متيقظا تتبع ذلك الخصم حتى يزيله بظهور الحق ، وإن كان ميتا بغلبة الشهوات أخفاه حتى يموت ، فيبدو له ما كان يخفيه من قبل. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر اعتقادهم الفاسد ، وما أداهم إليه ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٢٩ الى ٣٢]

وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : الكفار فى إنكار البعث : إِنْ هِيَ أي : الحياة إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا لا حياة بعدها ، وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ، قال جل جلاله : وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ ، كناية عن حبسهم للسؤال والتوبيخ ، أو : وقفوا على قضاء ربهم بين عباده ، وعرفوه حق التعريف ، قال لهم الحق جل جلاله : أَلَيْسَ هذا الذي كنتم تنكرونه ، بِالْحَقِّ. قالُوا بَلى وَرَبِّنا إنه لحق ، ولكنا كنا قوما ضالين ، وهو إقرار مؤكد باليمين ، لانجلاء الأمر غاية الجلاء ، قال تعالى لهم : فَذُوقُوا أي : باشروا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أي : بسبب كفركم.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ ، حيث فاتهم النعيم ، واستوجبوا العذاب المقيم ، والمراد بلقاء اللّه : البعث وما يتبعه. فاستمروا على التكذيب حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أي : فجأة قالُوا يا حَسْرَتَنا أي : يا هلكتنا عَلى ما فَرَّطْنا أي : قصّرنا فِيها أي : فى الحياة الدنيا ، أو فى الساعة ، أي : فى شأنها والاستعداد لها ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ ، كناية عن تحمل الذنوب ، لأن العادة حمل الأثقال على الظهور ، وقيل : إنهم يحملونها حقيقة ، وقد روى : أن الكافر يركبه عمله ، بعد أن يتمثل له فى أقبح صورة ، وأن المؤمن يركب عمله ، بعد أن يتصور له فى أحسن صورة. قال تعالى فى شأن الكفار : أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ أي : بئس شيئا يزرونه ويرتكبونه فى الدنيا وزرهم هذا ، الذي يتحملونه على ظهورهم يوم القيامة.

وسبب هذا : الركون إلى دار الغرور ، ونسيان دار الخلود ، ولذلك قال تعالى بإثره : وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ أي : وما أعمالها إلا لعب ولهو ، تلهى الناس وتشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية ، وما مدة بقائها مع ما يعقبها من الفناء إلّا كمدة اللعب واللهو ، إذ لا طائل تحته لمن لم يعمر أوقاتها بطاعة ربه ، وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ لدوامها وخلوص نعيمها وصفاء لذاتها ، أَفَلا تَعْقِلُونَ أىّ الأمرين خير ، هل دار الخراب والفناء ، أو دار النعيم والبقاء ، وفى قوله : لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ : تنبيه على أن ما ليس من أعمال المتقين كله لعب ولهو.

الإشارة : إذا كمل نور العقل حصل لصاحبه التمييز بين الحق والباطل ، وبين الضار والنافع ، فنظر بعين اعتباره إلى الدنيا ، فوجدها ذاهبة فانية ، ونظر إلى الآخرة ، فرآها مقبلة باقية دائمة ، فصدف عن الدنيا موليا ، وأعرض عن زهرتها مدبرا ، وأقبل بكليته إلى مولاه ، غائبا عن كل ما سواه ، فجعل الموت وما بعده نصب عينيه ، وخلف الدنيا وراء ظهره أو تحت قدميه. وفى الحكم : «لو أشرق نور اليقين فى قلبك ، لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها ، ولرأيت الدنيا ، وكسفة الفناء ظاهرة عليها» وقال بعض الحكماء : (لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من طين يبقى ، لاختار العاقل ما يبقى على ما يفنى. ولا سيما والأمر بالعكس ، الدنيا من طين يفنى والآخرة من ذهب يبقى). فلا يختار هذه الدار إلا من لا عقل له أصلا. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «الدّنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، لها يجمع من لا عقل له ، وعليها يعادى من لا علم عنده» «١». أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم سلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على ما لقى من قومه ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٣٣ الى ٣٥]

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (٣٥)

قلت : «قد» للتحقيق ، وإنه ضمير الشأن ، وقرأ نافع : «يحزن» ، بضم الياء حيث وقع ، إلا قوله : لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ «٢» والباقون : بفتح الياء ، وفيه لغتان : حزن يحزن ، كنصر ينصر ، وأحزن يحزن. والأول أشهر.

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند ٦١/ ٧١ من حديث السيدة عائشة - رضى اللّه عنها.

(٢) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ۲ ، ص : ۱۱۳
ومن قرأ : «يكذّبونك» بالتشديد فمعناه : لا يعتقدون كذبك ، وإنما هم يجحدون الحق مع علمهم به ، ومن قرأ بالتخفيف فمعناه : لا يجدونك كاذبا ، يقال : أكذبت الرجل إذا وجدته كاذبا ، وقيل : معناهما واحد ، يقال : كذّب فلان فلانا ، وأكذبه ، بمعنى واحد ، وفاعل (جاءك) : مضمر ، أي : نبأ أو بيان ، وقيل : الجار والمجرور. وجواب (فإن استطعت) : محذوف ، أي : فافعل.
يقول الحق جل جلاله : قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ أي : الكفار فى جانبك من أنك شاعر أو كاهن أو مجنون أو كاذب ، فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ فى الحقيقة ، لجزمهم بصحة نبوتك ، ولكنهم يجحدون بآيات اللّه ، حسدا وخوفا على زوال الشرف من يدهم. نزلت فى أبى جهل ، قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : إنّا لا نكذّبك ، ولكن نكذّب بما جئت به «۱». وقال الأخنس بن شريق : واللّه إن محمدا لصادق ، ولكنى أحسده على الشرف. ووضع (الظالمين) موضع المضمر للدلالة على أنهم ظلموا لجحودهم ، أو جحدوا لتمرنهم على الظلم.
ثم سلّاه عن ذلك ، فقال : وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا أي : صبروا على تكذيبهم وأذاهم ، حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا ، فاصبر كما صبروا حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم ، وفيه إيماء بوعد النصر للصابرين ، ولذلك قيل : الصبر عنوان الظفر. وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ السابقة بنصر الصابرين ، كقوله تعالى :
وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ «۲» : الآية. وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ أي : من قصصهم ، وما كابدوا من قومهم حتى نصرهم اللّه ، فتأنس بهم وانتظر نصرنا.
وَإِنْ كانَ كَبُرَ أي : عظم وشق عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ عنك وعن الإيمان بما جئت به ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً أي : سربا فِي الْأَرْضِ فتدخل فيه لتطلع لهم آية ، أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ لترتقى فيه فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ حتى يعاينوها فافعل ، ولكن الأمر بيدي ، فإنما أنت نذير.
قال البيضاوي : المقصود : بيان حرصه البالغ على إسلام قومه ، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إسلامهم ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى أي : لو شاء اللّه جمعهم على الهدى لوفقهم للإيمان حتى يؤمنوا ، ولكن لم تتعلق به مشيئته. وفيه حجة على القدرية. أو : لو شاء اللّه لأظهر لهم أية تلجئهم إلى الإيمان ، لكن لم يفعل لخروجه عن الحكمة ، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ أي : من الذين يحرصون على ما لم تجر به المقادير ، أي : دم على عدم كونك منهم ، ولا تقارب حالهم بشدة التحسر هـ.
وقال فى نوادر الأصول : إن الخطاب به تربية له ، وترقية من حال إلى حال ، كما يربّى أهل التقريب

وينقلون من ترك الاختيار ، فيما ظاهره بر وقربة. هـ. قلت : تشديد الخطاب على قدر علو المقام ، كما هو معلوم

---

(١) أخرجه الترمذي في : (تفسير سورة الأنعام) عن سيدنا على - كرم اللّه وجهه -
(٢) الآيتان : ١٧١ - ١٧٢ من سورة الصافات.

من الأب الشفيق أو الشيخ الناصح ، وقد قال لنوح عليه السّلام : إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ «١». وهذا الخطاب أشد لعلو مقامه صلّى اللّه عليه وسلّم.

الإشارة : كل ما سلّيت به الرسل تسلّى به الأولياء لأنهم ورثتهم الخاصة ، وكل ما أمرت به الرسل تؤمر به الأولياء ، من الصبر وعدم الحرص ، فليس من شأن الدعاة إلى اللّه الحرص على الناس ، ولا الحزن على من أدبر عنهم أو أنكر ، بل هم يزرعون حكمة التذكير فى أرض القلوب ، وينظرون ما ينبت اللّه فيها ، اقتداء بما أمر به الرسول - عليه الصلاة السلام ، وما تخلق به ، فمن أصول الطريقة : الإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار ، والرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر علّة إعراضهم ، وهو موت أرواحهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٣٦]

إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّما يَسْتَجِيبُ لك ، ويجيب دعوتك إلى الإيمان ، الَّذِينَ يَسْمَعُونَ سماع تفهم وتدبر ، وهو من كان قلبه حيا ، وأما الكفار فهم موتى لا يسمعون ولا يفقهون ، وَالْمَوْتى ، وهم الكفار الذين ماتت أرواحهم بالجهل حتى ماتوا حسا ، يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ، فيظهر لهم حينئذ الحق ، ويسمعون حين لا ينفع الإيمان ، أو يبعثهم اللّه فى الدنيا بالهداية ، أو الموتى حقيقة حسا ، يبعثهم اللّه للحساب ، ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ للجزاء.

الإشارة : إنما يستجيب لدعوة الخصوصية ، ويجيبون الدعاة إلى السير لشهود عظمة الربوبية ، الذين سبقت لهم العناية ، وأحيا اللّه قلوبهم بالهداية ، فيسمعون بسمع القلوب والأرواح ، ويترقّون من حضرة عالم الأشباح إلى حضرة عالم الأسرار والأرواح والموتى بالغفلة والجهل يبعثهم اللّه ببركة صحبة أهل اللّه ، فتهبّ عليهم نفحات الهداية لما سبق لهم من سر العناية ، ثم إليه يرجعون فيتنعمون فى حضرة الشهود ، فى مقعد صدق عند الملك الودود.

ثم عاتبهم على اقتراح الآيات ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٣٧ الى ٣٨]

وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)

---

(١) من الآية ٤٦ من سورة هود.

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا - حين سمعوا ذكر البعث والرجوع إلى اللّه - : لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ تدل على ما ادعاه من البعث والرجوع إلى اللّه ، وعلى أنه رسول من عند اللّه ، قُلْ لهم : إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً خارقة للعوائد ، يرونها عيانا ، وتضطرهم إلى الإيمان ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن إنزالها وبال عليهم لأنهم إن عاينوها ولم يؤمنوا عوجلوا بالعقاب ، أو : لا يعلمون أن اللّه قادر على أكثر مما طلبوا؟.

وهذا الطلب قد تكرر منهم فى مواضع من القرآن ، وأجابهم الحق تعالى بأجوبة مختلفة ، منها : ما يقتضى الرد عليهم فى طلبهم الآيات لأنهم قد أتاهم بآيات ، وتحصيل الحاصل لا ينبغى ، كقوله : قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ «١» ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ «٢» ومنها : ما يقتضى الإعراض عنهم لأن الخصم إذا تبين عناده سقطت مكالمته. ويحتمل أن يكون منه قوله هنا : قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ ... الآية.

فإن قيل : كيف طلبوا آية وهم قد رأوا آيات كثيرة ، كانشقاق القمر ، وإخبارهم بالغيب ، وغير ذلك؟ فالجواب :

أنهم لم يعتدوا بما رأوا لأن سر الربوبية لا يظهر إلّا ومعه شيء من أردية القهرية ، وهم قد طلبوا آية يدركونها من غير نظر ولا تفكر ، وهو خلاف الحكمة.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث وغيره ، فقال : وَما مِنْ دَابَّةٍ تدبّ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ فى الهواء ، إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ مقدرة أرزاقها ، محدودة آجالها ، معدودة أجناسها وأصنافها ، محفوظة ذواتها ، معلومة أماكنها ، كلها فى قبضة الحق ، وتحت قدرته ومشيئته ، فدل ذلك على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ، فيدل على قدرته على أن ينزل آية ، وعلى بعثهم وحشرهم لأنه عالم بما

تنقص الأرض منهم ، كما قال تعالى : ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ أي : اللوح المحفوظ ، مِنْ شَيْءٍ فإنه مشتمل على ما يجرى فى العالم من جليل ودقيق ، لم يهمل فيه أمر حيوان ولا جماد ، ظاهرا ولا باطنا ، أو القرآن فإنه قد اشتمل على كل ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلا ومجملا ، حتى قال بعض السلف : (لو ضاع لى عقال لوجدته فى كتاب اللّه) أي : باعتبار العموم وأصول المسائل.

قال تعالى : ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ أي : الأمم كلها ، فينصف بعضها من بعض. كما روى أنه يؤخذ للجمّاء من القرناء «٣» وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أنه قال فى هذه الآية : (يحشر الخلق كلهم يوم القيامة : البهائم والدواب والطير وكل شىء ، فيبلغ من عدل اللّه تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كونى ترابا ، فذلك حين يقول الكافر : ا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً

«٤». وفى المسألة اضطراب بين العلماء ، والصحيح هو حشرها ، كما قال تعالى :

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ «٥» وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : (حشرها موتها). واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١١٨ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٥١ من سورة العنكبوت.

(٣) كما فى حديث : «لتؤدّون الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ، أخرجه مسلم فى (البر والصلة ، باب تحريم الظلم) من حديث أبى هريرة. والجماء : التي لا قرن لها.

(٤) من الآية ٤٠ من سورة النبأ.

(٥) الآية ٥ من سورة التكوير.

الإشارة : قد تقدم مرارا أن طلب الكرامات من الأولياء : لقلة الاعتقاد فيهم وقلة الصدق. وأكمل الكرامات :

الاستقامة على التوحيد فى الباطن ، وتحقيق العبودية فى الظاهر. وباللّه التوفيق.

ثم قبّح شأن أهل التكذيب ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٣٩]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا الدالة على كمال قدرتنا وتحقيق وحدانيتنا ، أو بآياتنا المنزلة على رسولنا ، هم صُمٌّ لا يسمعون مثل هذه الآيات – الدالة على ربوبيته وكمال علمه وعظيم قدرته – سماعا تتأثر به نفوسهم ، وَهم أيضا بُكْمٌ لا ينطقون بالحق ، وهم فِي الظُّلُماتِ أي : خائضون فى بحر ظلمات الكفر والجهل ، وظلمة العناد ، وظلمة التقليد ، فوصفهم بالصمم والبكم والعمى ، ويؤخذ العمى من قوله :

فِي الظُّلُماتِ ، وهذا كله داخل تحت مشيئته وعلمه السابق مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ عدلا ، وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ بأن يرشده إلى الهدى ويحمله عليه ، فيتبع الطريق الذي لا عوج فيه.

الإشارة : أولياء اللّه فى أرضه آية من آيات اللّه ، فمن كذب بهم بقي فى ظلمة الجهل بالله وظلمة حجاب النفس وحجاب الأكوان ، محجوبا بمحيطاته ، محصورا فى هيكل ذاته ، قلبه أصم عن تذكّر الحقائق ، ولسانه أبكم عن النطق بحكم العلم والأسرار ، لم تسبق له فى مشيئة الحق عناية ، ولا هبّ عليه شيء من رياح الهداية ، عائذا بالله من سوء القضاء ودرك الشقاء.

ثم أقام لهم البرهان على توحيده ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٤٠ الى ٤١]

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ (٤١)

قال فى المشارق : أرأيتك : معناه : الاستخبار والاستفهام ، أي : أخبرنى عن كذا ، وهو بفتح التاء فى المذكر والمؤنث والواحد والجمع ، تقول : أرأيتك وأ رأيتكما وأ رأيتكم ، ولم تثن ما قبل علامة المخاطب ولم تجمعه ، فإذا أردت معنى الرؤية – أي البصرية – تثنيت وجمعت وأنثت ، فقلت : أرأيتك قائما ، وأ رأيتك قائمة ، وأ رأيتكما وأ رأيتموكم وأ رأيتيكن. هـ. وقال فى الإتقان : إذا دخلت الهمزة على «رأيت» امتنع أن يكون من رؤية العين والقلب ، وصار المعنى : أخبرنى ، وهو خلاف ما قال فى المشارق ، فانظره وانظر الحاشية الفاسية.

قال البيضاوي : (أ رأيتكم) : استفهام تعجب ، والكاف : حرف خطاب ، أكد به الضمير للتأكيد ، لكن لا محل له من الإعراب ، لأنك تقول : أرأيتك زيدا ما شأنه ، فلو جعلت الكاف مفعولا – كما قاله الكوفيون – لعدّيت الفعل إلى ثلاثة

مفاعيل ، ولزم فى الآية أن يقول : أرأيتكموكم ، بل الفعل معلق ، أو المفعول محذوف ، وتقديره :

أرأيتكم آلهتكم تنفعكم إذ تدعونها إن أتاكم عذاب اللّه ، ويدل عليه : (أ غير اللّه تدعون). هـ. وجواب (إن) : محذوف أي : إن أتاكم عذاب اللّه أو أتتكم الساعة فمن تدعون؟ وجواب (إن كنتم) : محذوف أيضا أي : إنّ كنتم صادقين فى أنّ غير اللّه ينفعكم فادعوه ، ثم وصفهم بأنهم لا يدعون حينئذ إلا اللّه.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : أَرَأَيْتَكُمْ أي : أخبرونى إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ فى الدنيا كما أتى من قبلكم ، أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ وأهوالها ، أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ وتلتجئون إليه فى كشف ما نزل بكم إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أن الأصنام آلهة ، لا ، بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ وحده ، فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ أي : ما تدعونه إلى كشفه ، إِنْ شاءَ أن يتفضل عليكم بالكشف فى الدنيا ، وقد لا يشاء ، وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ أي : وتتركون آلهتكم فى ذلك الوقت لما ركز فى العقول من أنه قادر على كشف الضر دون غيره ، أو تنسون من شدة الأمر وهوله.

الإشارة : إنما يظهر توحيد الرجال عند هجوم الأحوال ، فإن رجع إلى اللّه وحده ولم يلتفت إلى شىء سواه ، علمنا أنه من الأبطال ، وإن فزع إلى شىء من السّوى ، علمنا أنه من جملة الضعفاء. وعندهم من جملة أصول الطريق : الرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء ، فإن رجع إليه أجابه فيما يريد ، وفى الوقت الذي يريد ، وقد لا يريد على حسب إرادة المريد. واللّه تعالى أعلم.

ثم حضّ على الرجوع إليه فى حالة الضراء ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٤٢ الى ٤٥]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٥)

يقول الحق جل جلاله ، تخويفا لهذه الأمة : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مضت مِنْ قَبْلِكَ رسلا فأنذروهم ، فكذبوا وكفروا فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ أي : الشدة ، كالقحط والجوع ، وَالضَّرَّاءِ كالأمراض والموت والفتن ، تخويفا لهم لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ أي : يتذللون ويتوبون من ذنوبهم ، فلم يفعلوا ، فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا أي : هلا تذللوا حين جاءهم البأس فنرحمهم ، وفيه دليل على نفع التضرع حين الشدائد ، وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ

أي : صلبت ولم تلن ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ فصرفهم عن التضرع ، أي : لا مانع لهم من

التضرع إلا قساوة قلوبهم ، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.
فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أي : تركوا الاتعاظ بما ذكروا به من البأساء والضراء ، ولم ينزجروا ، فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ من أنواع الرزق وضروب النعم ، مراوحة عليهم بين نوبتى الضراء والسراء ، وامتحانا لهم بالشدة والرخاء ، إلزاما للحجة وإزاحة للعلة ، أو مكرا بهم ، لما روى أنه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «مكر بالقوم ورب الكعبة» «١». حَتَّى إِذا فَرِحُوا أي : أعجبوا بِما أُوتُوا من النعم ، ولم يزيدوا على البطر والاشتغال بالنعم عن المنعم والقيام بحقه ، أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً أي : فجأة ، فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ متحيرون آيسون من كل خير ، فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أي : قطع آخرهم ، ولم يبق منهم أحد ، وهى عبارة عن الاستئصال بالكلية ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ على إهلاكهم ، فإن إهلاك الكفار والعصاة نعم جليلة ، يحق أن يحمد عليها من حيث إنه خلاص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم. وبالله التوفيق.
الإشارة : المقصود من إظهار النقم الظاهرة ما يؤول الأمر إليه من النعم الباطنة ، فإن الأشياء كامنة فى أضدادها ، النعمة فى النقمة ، والرخاء فى الشدة ، والعز فى الذل ، والجمال فى الجلال ، إن وقع الرجوع إلى اللّه والانكسار والتذلل. «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى». فانكسار القلوب إلى علام الغيوب عبادة كبيرة ، توجب نعما غزيرة ، فإذا قست القلوب ولم يقع لها عند الشدة انكسار ولا رجوع ، كان النازل بلاء ونقمة وطردا وبعدا. فإنّ ما ينزل بالإنسان من التعرفات منها : ما يكون أدبا وكفارة ، ومنها : زيادة وترقية ، ومنها : ما يكون عقوبة وطردا ، فإن صحبها التيقظ والتوبة ، كان أدبا مما تقدم من سوء الأدب ، وإن صحبه الرضى والتسليم ، ولم يقع ما يوجب الأدب ، كان ترقية وزيادة ، وإن غضب وسخط كان طردا وبعدا. أعاذنا اللّه من موارد النقم.
ثم احتج عليهم بوجه آخر ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٤٦ الى ٤٧]
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧)

---

(١) لم أقف عليه مرفوعا. وذكره السيوطي فى الدر موقوفا على الحسن ، وعزاه لابن أبى حاتم. لكن روى أحمد فى المسند ٤/ ١٤٥ والطبراني فى الكبير ١٧/ ٣٣١ وابن جرير فى التفسير ، من حديث عقبة بن عامر مرفوعا : (إن رأيت اللّه يعطى العبد فى الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج. ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : (فلما نسوا ما ذكروا به ...) الآية والتي بعدها).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١١٩
يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم أيضا : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ أي : أصمّكم وأعماكم ، وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ بأن غطى عليها بما يزول به عقلكم وفهمكم ، مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أي : بذلك المأخوذ. انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ أي : نكررها على جهات مختلفة ، كتصريف الرياح ، تارة من جهة المقدمات العقلية ، وتارة من جهة الترغيب والترهيب ، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين ، ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ أي : يعرضون عنها ولم يلتفتوا إليها ، و(ثم) : لاستبعاد الإعراض بعد تصريف الآيات وظهورها.
وقُلْ لهم أيضا : أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً من غير مقدمة أَوْ جَهْرَةً بتقديمها ، فالبغتة : ما لم يتقدم لهم به شعور ، والجهرة : ما قدمت لهم مخايله ، وقيل : بغتة بالليل ، وجهرة بالنهار ، هَلْ يُهْلَكُ أي :
ما يهلك به هلاك سخط وتعذيب ، إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ بالكفر والمعاصي.
الإشارة : إنما خلق الأسماع والأبصار ، لسماع الوعظ والتذكار ، ولنظرة التفكر والاعتبار ، فمن صرفهما فى ذلك فقد شكر نعمتها ، ومن صرفهما فى غير ذلك فقد كفر نعمتهما ، ومن كفر نعمتهما يوشك أن تؤخذ منه تلك النعمة ، وكذلك نور العقل ، ما جعله اللّه فى العبد إلا ليعرفه به ، ويعرف دلائل توحيده ، ويتبصّر به فى أمره.
فإذا صرفه فى تدبير هواه وشهواته فقد كفر نعمته ، فيوشك أيضا أن يؤخذ منه ، .
وإذا أنعم اللّه عليه باستعمال هذه الحواس فيما خلقت لأجله فليكن على حذر من أخذ ذلك منه أيضا ، فلا يأمن مكر اللّه ، فإن الأسماع والأبصار والقلوب بيد اللّه ، يقلبها كيف شاء ، فإن أخذها لن يقدر على ردها ، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير اللّه قراره ، والعذاب الذي يأتى بغتة ، هو السلب بغتة ، أي : فقد القلب فى مرة واحدة ، والذي يأتى جهرة هو فقده شيئا فشيئا ، وسبب هذا الهلاك : هو ظلم العبد لنفسه ، إما بسوء أدب مع اللّه ، أو نقض عهد الشيوخ العارفين باللّه. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.
ثم رغّب فى الإيمان بالرسل ، وحذّر من الكفر بهم ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]
وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨)
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩)
يقول الحق جل جلاله : وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ للمؤمنين بالنعيم المقيم ، وَمُنْذِرِينَ للكفار بالعذاب الأليم ، ولم نرسلهم ليقترح عليهم ويتلهى بهم ، فَمَنْ آمَنَ بهم ، وَأَصْلَحَ ما يجب إصلاحه

على ما شرع لهم ، فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من العذاب ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ لفوات الثواب ، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ

(١١٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٢٠

أي : يلحقهم ، جعل العذاب ماسّا لهم كأنه الطالب للوصول إليهم ، واستغنى بتعريفه عن توصيفه. وذلك المس بِما كانُوا يَفْسُقُونَ أي : بسبب خروجهم عن التصديق والطاعة.

الإشارة : ما من زمان إلا ويبعث اللّه أولياء عارفين ، مبشرين لمن أطاعهم واتبعهم بطلعة أنوار الحضرة على أسرارهم ، ومنذرين لمن خالفهم بظهور ظلمة الكون على قلوبهم ، وانطباع الأكوان فى أسرارهم ، فمن آمن بهم وصحبهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، بدليل قوله : أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ «١» ، ومن كذب بهم وبما يظهر على أيديهم من أسرار المعارف يمسهم عذاب القطيعة ، بما كانوا يفسقون ، أي : بخروجهم عن طاعتهم والإذعان إليهم.

وليس من شرط الداعين إلى اللّه ظهور المعجزات أو الكرامات ، كما قال تعالى :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٥٠]

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : أنا لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ فآتيكم منها بكل ما تقترحون علىّ من المعجزات ، بل خزائن مقدوراته تعالى فى علم غيبه ، ليس لى منها إلا ما يظهره منها بقدرته ، وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ حتى أخبركم بالمغيبات ، بل مفاتيح الغيب عنده ، لا يعلمها إلا هو ، إلا ما يوحى إلىّ منها ، وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ فأستغنى عن الطعام والشراب ، أو أقدر على ما يقدر عليه الملك ، إن أنا إلا بشر أوحى إلىّ أن أنذركم ، فأتبع ما يوحى إلىّ وأتبرأ من دعوى الألوهية والملكية ، وأدعى النبوة التي هى من كمالات البشر.

قُلْ لهم : هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى الذي هو ضال جاهل ، وَالْبَصِيرُ الذي هو مهتد عالم ، أو : هل يستوى مدعى المستحيل كالألوهية والملكية ومدّعى الحق ، كالنبوة والرسالة ، أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ فتميزوا بين ادعاء الحق والباطل ، فتهتدوا إلى اتباع الحق وتجنب الباطل.

الإشارة : ما قالته الرسل للكفار حين اقترحوا عليهم المعجزات ، تقوله الأولياء لأهل الإنكار ، حين يطلبون منهم الكرامات ، وتقول لهم : إن نتبع إلا ما أمرنا به ربنا وسنه لنا رسولنا ، فمن اهتدى وتبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها.

وقال الورتجبي – بعد قوله – : وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ : تواضع صلّى اللّه عليه وسلّم حين أقام نفسه مقام الإنسانية ، بعد أن كان أشرف خلق اللّه من العرش إلى الثرى ، وأظهر من الكروبيين والروحانيين على باب اللّه سبحانه ، خضوعا_______________

(١) الآية ٦٢ من سورة يونس. [.....]

(١٢٠/٢)

لجبروته ، وخنوعا فى أنوار ملكوته ، بقوله : وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، وليس لى اختيار فى نبوتى ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ. هل يكون من هذا وصفه ، بعد كونه بصيرا بنور اللّه ، ورأفته به ، كالذى عمى عن رؤية إحاطته بكل ذرة من العرش إلى الثرى؟ أفلا تتفكرون أن من ولد من العدم بصيرا بنور القدم ، ليس كمن ولد من العدم أعمى عن رؤية عظمته وجلاله. انتهى كلامه.

ثم أمره بالإنذار لمن ينتفع به ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٥١]

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١)

قلت : الضمير فى (به) : يعود على (ما يوحى) ، وجملة (ليس) : حال من ضمير (يحشروا).

يقول الحق جل جلاله : وَأَنْذِرْ أي : خوّف بما أوحى إليك ، المؤمنين المقصرين فى العمل الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ بالبعث للحساب ، حال كونهم فى ذلك الوقت لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ ينصرهم من عذابه ، وَلا شَفِيعٌ يرده عنهم بشفاعته ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أي : كى يصيروا بإنذارك متقين ، وإنّما خص الإنذار هنا بالذين يخافون لأنّه تقدم فى الكلام ما يقتضى اليأس من إيمان غيرهم ، فكأنه يقول : أنذر الخائفين لأنه ينفعهم الإنذار ، وأعرض عمن تقدم ذكرهم من الذين لا يسمعون ولا يعقلون ، أو : أنذر من يتوقع البعث والحساب ، أو يتردد فيه مؤمنا أو كافرا. قاله البيضاوي.

الإشارة : لا ينفع الوعظ والتذكير إلا من سبق له الخوف من الملك القدير إذ هو الذي ينهضه الخوف المزعج أو الشوق المقلق ، وأما من سوّدت قلبه الخطايا ، وانطبعت فى مرآته صور الأشياء ، فلا ينفع فيه زاجر ولا واعظ ، بل ران على قلبه ما اقترفه من المآثم ، والعياذ باللّه.

ثم أمره بالدنو ممن ينفعه التذكير ، ونهاه عن ضده ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٥٢ الى ٥٣]

وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ

حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)

(١٢١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٢٢

قلت : (فتطردهم) : جواب النفي ، و(فتكون) : جواب النهى ، أي : ولا تطرد فتكون من الظالمين ، فليس عليك من حسابهم شيء فتطردهم.

يقول الحق جل جلاله لنبيه - عليه الصلاة والسلام - ، حين طلب منه صناديد قريش أن يطرد عنه ضعفاء المسلمين ليجالسوه ، فهمّ بذلك طمعا فى إسلامهم ، فنزلت : وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أي : يعبدونه بالذكر وغيره ، أو يدعونه بالتضرع والابتهال ، بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ أي : على الدوام. وخص الوقتين بالذكر لشرفهما.

وفى الخبر : «يا ابن آدم ، اذكرني أول النهار وآخره ، أكفك ما بينهما» «١». وقيل : صلاة الصبح والعصر ، وقيل :

الصلاة بمكة قبل فرض الخمس.

قال البيضاوي : بعد ما أمره بإنذار غير المتقين ليتقوا - أي : على التفسير الثاني فى الآية المتقدمة - أمره بإكرام المتقين وتقريبهم ، وألّا يطردهم ، ترضية لقريش ، روى أنهم قالوا : لو طردت هؤلاء الأعبد - يعنون فقراء المسلمين ، كعمّار وصهيب وخبّاب وبلال وسلمان - جلسنا إليك ، فقال : «ما أنا بطارد المؤمنين». قالوا : فأقمهم عنا ، قال : «نعم». [وروى أن عمر قال له : لو فعلت حتّى تنظر إلى ما يصيرون؟] قالوا : فاكتب بذلك كتابا ، فدعا بالصّحيفة وبعليّ ليكتب ، فنزلت «٢». هـ. وفى ذكر سلمان معهم نظر لتأخر إسلامه بالمدينة.

ثم وصفهم بالإخلاص فقال : يُرِيدُونَ وَجْهَهُ أي : يدعونه مخلصين طالبين النظر لوجهه ، وفيه تنبيه على أن الإخلاص شرط فى الأعمال ، ورتب النهى عليه إشعارا بأنه يقتضى إكرامهم ، وينافى إبعادهم ، ثم علل عدم طردهم فقال : ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ أي : أنت لا تحاسب عنهم ، وهم لا يحاسبون عنك ، فلأى شيء تطردهم؟ وقيل : الضمير : للكفار ، أي : أنت لا تحاسب عنهم ، وهم لا يحاسبون عنك ، فلا تهتم بأمرهم ، حتى تطرد هؤلاء من أجلهم ، فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ بطردهم ، لكنه - عليه الصلاة السلام - لم يفعل ، فلا ظلم يلحقه فى ذلك لسابق العناية والعصمة.

وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ أي : ومثل ذلك الاختبار ، وهو اختلاف أحوال الناس فى أمر الدنيا ، فَتَنَّا

بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ أي : ابتلينا بعضهم ببعض فى أمر الدين ، فقدّمنا هؤلاء الضعفاء على أشراف قريش بالسبق إلى الإيمان لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أي : أهؤلاء من أنعم اللّه عليهم بالهداية والتوفيق دوننا ، ونحن الأكابر والرؤساء ، وهم المساكين والضعفاء ، فنحن أحق منهم به إن كان حقا ، وهذا إنكار منهم لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق والسبق إلى الخير ، كقولهم لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا «٣». واللام فى «ليقولوا» : للعاقبة. قال تعالى

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء ، عن أبى هريرة .. انظر كنز العمال/ ١٧٩٥.
(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجه فى : (الزهد ، باب مجالسة الفقراء) والطبراني فى الكبير (٤/ ٨٧ ح ٩٦٩٣) والواحدي فى أسباب النزول ، وابن جرير فى التفسير عن خباب ، بدون ذكر سلمان ، وكذلك بدون ذكر مشورة سيدنا عمر ، وقد جاء ذكر مشورة سيدنا عمر عند ابن جرير والواحدي عن عكرمة.
(٣) من الآية ١١ من سورة الأحقاف.

فى الرد عليهم : أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ أي : بمن يقع منهم الإيمان والشكر فيوفقهم ، وبمن لا يقع منه فيخذله. وباللّه التوفيق.

الإشارة : فى صحبة الفقراء خير كثير وسر كبير ، وخصوصا أهل الصفاء والوفاء منهم ، وفى ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضى اللّه عنه :

مالذّة العيش إلّا صحبة الفقرا هم السّلاطين والسّادات والأمرا
فاصحبهمو وتأدّب فى مجالسهم وخلّ حظّك مهما خلّفوك ورا

إلى آخر كلامه.

فلا يحصل كمال التربية والتهذيب إلا بصحبتهم ، ولا تصفو المعاني إلا بمجالستهم والمذاكرة معهم ، والمراد من دخل منهم بلاد المعاني ، وحصّل مقام الفناء فى الذات ، فالجلوس مع هؤلاء ساعة تعدل عبادة الثقلين سنين ، ومن شأن شيوخ التربية : العطف على الفقراء والمساكين وتقريبهم ، ولا يطردون أحدا منهم ولو عمل ما عمل ، اقتداء بما أمر به نبيهم صلّى اللّه عليه وسلّم. بل شأنهم الإقبال على من أقبل إليهم ، عصاة كانوا أو طائعين ، وإقبالهم على العصاة المذنبين أكثر ، جبرا لكسرهم ، وتألفا لهم ، وسوقا لهم إلى اللّه بملاطفة الإحسان. وباللّه التوفيق.

ولما أمره بتقريب الضعفاء من المؤمنين ، أمره بإكرامهم بالسلام والبشارة بغفران الآثام ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٥٤]

وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)

قلت : من فتح (أنه) جعله بدلا من الرحمة ، ومن كسره فعلى الاستئناف ، و(بجهالة) : حال ، ومن قرأ (فإنه) بالكسر فالجملة : جواب الشرط ، ومن فتح فخبر عن مضمر ، أي : فجزاؤه الغفران ، أو مبتدأ فالغفران جزاؤه.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا وهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، خصهم بالإيمان بالقرآن ، بعد ما وصفهم بالمواظبة على الطاعة والإحسان ، فإذا أقبلوا إليك فَقُلْ لهم : سَلامٌ عَلَيْكُمْ تحية منى عليكم ، أو من اللّه أبلغه إليكم ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أي : حتمها عليه فضلا منه ، وهى أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً أي : ذنبا بِجَهالَةٍ أي : بسفاهة وقلة أدب ، أو جاهلا بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد ، ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ أي : من بعد عمل السوء وَأَصْلَحَ بالتدارك والندم على ألا يعود إليه ، فَأَنَّهُ غَفُورٌ لذنبه ، رَحِيمٌ به بقبول توبته.

(١٢٣/٢)

قال البيضاوي : أمره أن يبدأ بالتسليم ، أو يبلغ سلام اللّه ويبشرهم بسعة رحمته وفضله ، بعد النهى عن طردهم إيذانا بأنهم الجامعون لفضيلتى العلم والعمل ، ومن كان كذلك ينبغى أن يقرّب ولا يطرد ، ويعز ولا يذل ، ويبشّر من اللّه بالسلامة فى الدنيا وبالرحمة فى الآخرة ، وقيل : إن قوما جاءوا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقالوا : إنا أصبنا ذنوبا عظاما ، فلم يردّ عليهم ، فانصرفوا ، فنزلت. هـ.

قال القشيري : أحلّه محل الأكابر والسّادات ، فإنّ السلام من شأن الجائى إلّا فى صفة الأكابر ، فإنّ الجائى والآتي يسكت لهيبة المأتى ، حتى يبتدىء ذلك المقصود بالسؤال ، فعند ذلك يجيب الآتي. هـ.

الإشارة : من شأن الأكابر من الأولياء ، الداعين إلى اللّه ، إكرام من أتى إليهم بحسن اللقاء وإظهار المسرّة والبرور ، وخصوصا أهل الانكسار فيؤنسونهم ، ويوسعون رجاءهم ، ويفرحونهم بما يسمعون منهم من سعة فضل اللّه وكرمه.

كان الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه إذا دخل عليه أحد من أهل العصيان - كأرباب الدولة والمخزن - ، قام إليهم ، وفرح بهم ، وأقبل عليهم ، وإذا أتى إليه أحد من العلماء أو الناسكين لم

يعتن بشأنهم ، فقيل له في ذلك ، فقال :
أهل العصيان يأتوننا فقراء منكسرين من أجل ذنوبهم ، لا يرون لأنفسهم مرتبة ، فأردت أن أجبر كسرهم ، وهؤلاء أهل الطاعة يأتوننا أغنياء معتمدين على طاعتهم ، فلا يحتاجون إلى ما عندنا. أو كلاما هذا معناه ، ذكره في لطائف المنن. واللّه تعالى أعلم.
ثم بيّن علّة ما تقدّم من النهى عن الطرد وغيره ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : آية ٥٥]
وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)
قلت : قرىء بتاء الخطاب ، ونصب السبيل على أنه مفعول به ، وقرىء بتاء التأنيث ورفع السبيل على أنه فاعل مؤنث ، وبالياء والرفع على تذكير السبيل لأنه يجوز فيه التذكير والتأنيث.
يقول الحق جل جلاله : وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ أي : ومثل ذلك التفصيل الواضح نفصل الآيات ، أي : نشرح آيات القرآن ونوضحها في صفة المطيعين والمجرمين ، والمصرين والأوابين ، ليظهر الحق ، ولتستوضح يا محمد سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ فتعاملهم بما يحق لهم من الإبعاد إن بعدوا ، أو الإقبال إن أقبلوا. أو لتتبين طريقهم ويظهر فسادها ببيان طريق الحق.
الإشارة : سبيل المؤمنين من أهل اليمين ، هو التمسك بظاهر الشريعة المحمدية بامتثال الأمر واجتناب النهى ، والمبادرة إلى التوبة ، إن أخل بأحد الأمرين من غير تحرّ لما وراء ذلك ، وسبيل المتوجهين من السائرين والواصلين :
تصفية القلوب وتهيؤها لإشراق أسرار علم الغيوب بتخليتها من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل لتتهيأ بذلك

لطلوع شموس العرفان ، والدخول في مقام الكشف والعيان ، الذي هو مقام الإحسان ، وما خرج عن هذين السبيلين فهو سبيل المجرمين : إما بالكفر ، وإما بالإصرار على العصيان ، والعياذ بالله.
ثم نهى عن سلوك هذا السبيل - أعنى سبيل المجرمين - فقال :
[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٥٦ الى ٥٨]
قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

بِالظَّالِمِينَ (٥٨)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : إِنِّي نُهِيتُ أي : نهانى ربى أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ أي : تعبدون مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أو ما تدعونها آلهة أي : تسمونها بذلك ، وتخضعون لها من دون اللّه ، قُلْ لهم :

لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ الفاسدة وعقائدكم الزائغة ، قَدْ ضَلَلْتُ عن الحق إِذاً أي : إذا اتبعت أهواءكم ، وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ أي : ما أنا فى شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم إن اتبعت أهواءكم ، وفيه تعريض بهم ، وأنهم ضالون حائدون عن طريق الهدى ، ليسوا على شيء منها.

قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ أي : طريق واضحة مِنْ رَبِّي توصلنى إلى تحقيق معرفته ، واستجلاب رضوانه ، أنا ومن اتبعنى ، وَأنتم كَذَّبْتُمْ بِهِ أي : بربي حيث أشركتم به وعبدتم غيره ، أو كذبتم بطريقه حيث أعرضتم عنها ، واستعجلتم عقابه فى الدنيا ، ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ من العذاب أو المعجزات ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ فى تعجيل العذاب وتأخيره ، أو فى إظهار الآيات وعدم إظهارها ، يَقُصُّ القصص الْحَقَّ وهو القرآن ، أي : ينزله علىّ لأنذركم به ، أو يقضى القضاء الحق من تعجيل ما يعجل وتأخير ما يؤخر ، فيحكم بينى وبينكم إن شاء ، وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ أي : القاضين.

قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي أي : فى قدرتى وطوقى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ من العذاب لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أي : لأهلكتكم عاجلا غضبا لربى ، وانقطع ما بينى وبينكم ، ولكن الأمر بيد خالقكم الذي هو عالم بأحوالكم ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ أي : عالم بما ينبغى أن يؤخذ عاجلا ، وبمن ينبغى أن يمهل ، فمفاتح الغيب كلها عنده ، كما سيذكره.

الإشارة : قل ، أيها العارف ، المتوجه إلى اللّه ، المنقطع بكليته إلى مولاه ، الغائب عن كل ما سواه : إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون اللّه من حب الدنيا ، ومن الرياسة والجاه. قل : لا أتبع أهواءكم لأنى قد اجتمعت

أهوائى فى محبوب واحد ، حين وصلت إلى حضرته ، وتنعمت بشهود طلعته ، فانحصرت محبتى فى محبوب واحد ، وفى ذلك يقول القائل :

كانت لقلبى أهواء مفرّقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى

فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

تركت للنّاس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

وقال آخر :

تركت للنّاس ، ما تهوى نفوسهم من حبّ دنيا ومن عزّ ومن جاه

كذاك ترك المقامات هنا وهنا والقصد غيبتنا عمّا سوى اللّه

قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي أي : بصيرة نافذة فى مشاهدة أسرار ربى ، فقد كذّبتم بخصوصيتى ، وطلبتم دلائل ولايتي ، ما عندى ما تستعجلون به من الكرامات ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، يقضى القضاء الحق ، فيظهر ما يشاء ، ويخفى من يشاء ، وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ أي : الحاكمين بين عباده ، قل لو أن عندى ما تستعجلون به من نفوذ دعوتى فى إظهار كرامتى ، لقضى الأمر بينى وبينكم ، واللّه أعلم بالمكذبين بأوليائه.

ثم قال تعالى :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٥٩]

وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٥٩)

قلت : (مفاتح) : جمع مفتح - بكسر الميم - مقصور ، من مفتاح ، وهو آلة الفتح ، وهو مستعار لما يتوصل به إلى الغيوب ، أو يفتحها ، وهو المخزن.

يقول الحق جل جلاله : وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ أي : علم المغيبات ، لا يعلمها غيره ، إلا من ارتضى من خلقه ، أو : عنده خزائن علم الغيوب لا يعلمها غيره ، والمراد بها الخمسة التي ذكرها الحق تعالى فى سورة لقمان :

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ «١» الآية لأنها تعم جميع الأشياء ، وسيأتى الكلام عليها إن شاء اللّه ، فقد اختص

---

(١) الآية ٣٤ من سورة لقمان.

سبحانه بعلم المغيبات لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ فيعلم أوقاتها وما فى تعجيلها وتأخيرها من الحكم ، فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته ، وفيه دليل على أن اللّه تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها ، وهو أمر ضرورى.

وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ من عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات على اختلاف أجناسها وأنواعها

، حيها وجامدها ، فيعلم عددها وصفتها وأماكنها ، وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها كيف تسقط ، على ظهرها أو بطنها ، وما يصل منها إلى الأرض وما يتعلق فى الهواء ، وهو مبالغة فى إحاطة علمه بالجزئيات ، كما تعلق بالكليات ، وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ من حبوب الثمار وبذور سائر النبات ، والرمل ، وغير ذلك من دقائق الأشياء وجلائلها ، وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ من الأشجار والنبات والحيوانات التي فيها الحياة والتي فارقتها ، فهى من جنس اليابس ، إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ أي : علم اللّه القديم ، أو اللوح المحفوظ ، فعلى الأول ، يكون بدلا من الاستثناء الأول ، بدل الكل من الكل ، وعلى الثاني : بدل اشتمال. وقرئت بالرفع ، على العطف على محل : مِنْ وَرَقَةٍ ، أو على الابتداء ، والخبر : فِي كِتابٍ مُبِينٍ.

الإشارة : مفاتح الغيب هى أسرار الذات وأنوار الصفات ، أو أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، لا يعلمها إلا هو ، فما دام العبد محجوبا بوجود نفسه ، محصورا فى هيكل ذاته ، لا يذوق شيئا من هذه الغيوب ، فإذا أراد الحق جل جلاله أن يفتح على عبده شيئا من هذه الغيوب ، غطى وصف عبده بوصفه ، ونعته بنعته ، فغيّبه عن وجود نفسه ، فصار هو سمعه وبصره وقلبه وروحه ، فيعلم تلك الأسرار به ، لا بنفسه ، فما علم تلك الأسرار غيره ، ويحيط بأسرار الأشياء كلها ، برها وبحرها لأنه يصير خليفة اللّه فى أرضه. وقال الورتجبي : غيبه ذاته القدسية ، وهى خزانة أسرار الأزل والآباد ، ومفاتحها : صفاتها الأزلية ، لا يعلم صفاته وذاته بالحقيقة إلا هو تعالى بنفسه ، فنفى الغير عن البين ، حيث لا حيث ولا بين. انظر تمامه فيه.

ومن جملة الغيوب التي اختص اللّه بها : انقضاء الأجل ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٦٠ الى ٦٢]

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ (٦٢)

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ أي : يقبض أرواحكم بِاللَّيْلِ إذا نمتم ، وفى ذلك اعتبار واستدلال على البعث الأخروى ، وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ أي : ما كسبتم من الأعمال بِالنَّهارِ. وخص الليل بالنوم والنهار بالكسب جريا على المعتاد ، ثُمَّ إذا توفاكم بالليل يَبْعَثُكُمْ فِيهِ أي : فى النهار ، لِيُقْضى

أَجَلٌ مُسَمًّى أي : ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له في الدنيا ، وهو أجل الموت ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ بالموت ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فيعاتب المسيء ويكرم المحسن.

روى : أن العبد إذا قبض عرجت الملائكة بروحه إلى سدرة المنتهى ، فيوقف به هناك ، فيعاتبه الحق تعالى على ما فرط منه حتى يرفض عرقا ، ثم يقول له : قد غفرت لك ، اذهبوا به ليرى مقعده في الجنة ، ثم يردّ إلى السؤال.

وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ بالقهر والغلبة ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ملائكة تحفظ أعمالكم ، وهم الكرام الكاتبون ، والحكمة فيه : أن العبد إذا علم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد ، كان أزجر له عن المعاصي ، ثم لا تزال الملائكة تكتب عليه أعماله حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا أي : ملك الموت وأعوانه ، وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ بالتواني والتأخير ، ولا يجاوزون ما حد لهم بالتقديم والتأخير. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ أي : إلى حكمه وجزائه ، أو مشاهدته وقربه ، مَوْلاهُمُ الذي يتولى أمرهم ، الْحَقِّ أي : المتحقق وجوده ، وما سواه باطل ، أَلا لَهُ الْحُكْمُ يومئذ ، لا حكم لغيره فيه ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ يحاسب الخلائق في مقدار حلب شاة ، لا يشغله حساب عن حساب ، ولا شأن عن شأن ، سبحانه لا إله إلا هو.

الإشارة : وهو الذي يتوفاكم ، أي : يخلصكم بليل القبض ، ويعلم ما كسبتم في نهار البسط ، ثم يبعثكم من ليل القبض إلى نهار البسط ، وهكذا ليقضى أجل مسمى للإقامة فيهما ، ثم إليه مرجعكم بالخروج عنهما لتكونوا لله لا شيء دونه ، وفي الحكم : «بسطك كي لا يبقيك مع القبض ، وقبضك كي لا يتركك مع البسط ، وأخرجك عنهما ، كي لا تكون لشيء دونه».

وقال فارس رضى اللّه عنه : القبض أولا ثم البسط ، ثم لا قبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقعان في الوجود أي :

في وجود النفس ، وأما مع الفناء والبقاء فلا. هـ. أي : فلا قبض ولا بسط لأن العارف الواصل مقبوض في بسطه ، مبسوط في قبضه ، لا تؤثر فيه هواجم الأحوال لأنه مالك غير مملوك. واللّه تعالى أعلم.

ومن علم أن اللّه قاهر فوق عباده ، انسلخ من حوله وقوته ، وانعزل عن تدبيره واختياره لإحاطة القهرية به ، ومن تحقق عموم قهاريته تعالى ، علم أنه لا حجاب حسى بينه وبينه ، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه ، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر ، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ، (و هو القاهر فوق عباده) ، وإنما المحجوب : العبد عن ربه بوجود وهمه وجهله ، ومن تحقق أن الملائكة تحفظ أعماله استحيا من ارتكاب القبائح ، لئلا تعرض على رؤوس الأشهاد.

البحر المديد، ج ٢، ص: ١٢٩

ثم أمر بالرجوع إليه عند الشدائد، فقال:

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٦٣ الى ٦٤]

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤)

يقول الحق جل جلاله: قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ أي: يخلصكم مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ أي: من شدائدهما، استعير الظلمة للشدة لمشاركتهما فى الهول، فقيل لليوم الشديد: يوم مظلم، أو: من الخسف فى البر والغرق فى البحر، حال كونكم تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً أي: جهرا وسرا، قائلين: لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ «١» الظلمة، أي:

الشدة، لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ بإقرارنا بوحدانيتك، قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ أي: غم سواها، ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ أي: تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد، وهذا شأن النفس اللئيمة فى وقت الشدة ترجع إلى الحق وتوحده، وفى وقت السعة تنساه وتشرك معه، كما قال تعالى: وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ «٢».

الإشارة: ظلمات البر هو ما يخوض القلب ويظلمه من أجل ما يدخل عليه من حس الظاهر، الذي هو بر الشريعة، وظلمات البحر هو ما يدهش الروح ويحيرها من أجل ما يدهمها من علم الحقائق، عند الاستشراف عليها، أو ما يشكل عليها فى علم التوحيد، فإذا رجع إلى الله فيهما، وتمسك بشيخ كامل فى علم الحقائق - أنجاه الله منهما، فإذا شكر الله وأفرد النعمة إليه دامت نجاته، وإن التفت إلى غيره خيف عليه العود إلى ما كان عليه. وبالله التوفيق.

ثم هدد أهل الشرك، أو: هم مع غيرهم، فقال:

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٦٥ الى ٦٧]

قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)

يقول الحق جل جلاله: قُلْ يا محمد: هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ، كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل، أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ، كما أغرق فرعون وخسف بقارون، وقيل: من فوقكم:

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (أنجيتنا) بالياء والتاء بعد الجيم من غير ألف .. وقرأ الباقون (أنجانا) بألف بعد الجيم من غير ياء ولا تاء. انظر الإتحاف (٢/ ١٦).

(٢) الآية ٣٣ من سورة الروم.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٣٠
بتسليط أكابركم وحكامكم عليكم ، ومن تحت أرجلكم : سفلتكم وعبيدكم ، أَوْ يَلْبِسَكُمْ أي :
يخلطكم شِيَعاً أي :
فرقا متحزبين على أهواء شتى ، فينشب القتال بينكم ، وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، بقتال بعضكم بعضا.
وفي الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : أنه لما نزلت : أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ قال :
«أعوذ بوجهك» ، ولما نزلت :
أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ قال أيضا : «أعوذ بوجهك» ، ولما نزلت : أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً قال : «هذا أهون» «١» ، فقضى اللّه على هذه الأمة بالقتل والقتال إلى يوم القيامة ، نعوذ بالله من الفتن.
قال تعالى : انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ أي : نقلبها بورود الوعد والوعيد لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ما نزل إليهم.
وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ أي : بالعذاب ، أو بالقرآن ، وَهُوَ الْحَقُّ أي : الواقع لا محالة ، أو الصدق فى أخباره وأحكامه ، قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أي : وكل إلىّ أمركم فأمنعكم من التكذيب ، أو أجازيكم ، إنما أنا منذر ، واللّه هو الحفيظ. لِكُلِّ نَبَإٍ أي : خبر بعذاب أو إيعاد به ، مُسْتَقَرٌّ أي : وقت استقراره ووقوعه ، يعرف - عند انقضائه - صدقه من كذبه ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ما يحل بكم عند وقوعه فى الدنيا والآخرة.
الإشارة : الخطاب للمريدين السائرين ، أو الواصلين. خوفهم بأن يحول بينهم وبين شهود عظمته الفوقية والتحتية ، فينزل عليهم عذاب الفرق من جهة العلو أو السّفل ، فلا يشهدون إلا الأكوان محيطة بهم ، أو يخالف بين وجوههم ويلبسهم شيعا ، فإذا تفرقت الوجوه تفرقت القلوب غالبا ، والعياذ بالله ، لأن الفتح والنصر مرتب على الجمع ، قال تعالى : قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ «٢». قال القشيري : فيه إشارة إلى أن الجمع مؤذن بالفتح. هـ. فينبغى للمريد أن يشهد الصفاء فى الجميع ، ويتودد إلى الجميع ، حتى لا يبقى معه فرق. واللّه تعالى أعلم.
ثم حذّر من صحبة أهل الخوض ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٦٨ الى ٦٩]
وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)

---

(١) أخرجه البخاري فى : (تفسير سورة الأنعام ، باب : قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا) من

حديث جابر رضى اللّه عنه.

(٢) الآية ٢٦ من سورة سبأ.

(١٣٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٣١

قلت : وَلكِنْ ذِكْرى : مفعول بمحذوف ، أي : يذكرونهم ذكرى ، أو مبتدأ ، أي : عليهم ذكرى.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا أي : القرآن بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ولا تجالسهم ، بل قم عنهم حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ أي : غير القرآن ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ النهى عن مجالستهم ، وجلست نسيانا ، فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى أي : بعد أن تذكر النهى ، مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، ونسبة النسيان إلى الشيطان أدبا مع الحضرة ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ «١» ، ووضع المظهر موضع المضمر ، أي : معهم ، للدلالة على أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم.

وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ أي : ما على المتقين الذين يجالسونهم شيء من حسابهم ، بل عقابهم على الخوض خاصّ بهم ، وَلكِنْ عليهم ذِكْرى أي : تذكيرهم ووعظهم ومنعهم من الخوض إن قدروا ، وكراهية ذلك إن لم يقدروا ، فيعظونهم لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ، فيجتنبون ذلك الخوض حياء أو كراهية مساءتهم ، وإنما أبيح للمؤمنين القعود مع الكفار الخائضين ومخالطتهم لأن ذلك يشق عليهم ، إذ لا بد لهم من مخالطتهم فى طلب المعاش وفى الطواف ، وغير ذلك ، بخلافه - عليه الصلاة والسلام - لأن اللّه أغناه عنهم به ، فنهاه عن مخالطة أهل الخوض مطلقا.

[سورة الأنعام (٦) : آية ٧٠]

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

ثم قال له : وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً أي : بنوا أمر دينهم على التشهّى ، وتديّنوا بما لا يعود عليهم بنفع ، عاجلا وآجلا ، كعبادة الأصنام واتخاذ البحائر والسوائب ، أو اتخذوا دينهم الذي كلفوا بالدخول فيه لعبا ولهوا ، حيث سخروا به ، أي : أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم. ومن جعله منسوخا بآية السيف حمله على الأمر بالكف عنهم ، وترك التعرض لهم ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وزخرفها ، حتى نسوا البعث وأنكروه ، والعياذ باللّه.

الإشارة : قد تقدم مرارا التحذير من مخالطة أهل الخوض وصحبة العوام ، وكل من ليس من جنس أهل

النسبة ، فإن ألجأه الحال إلى صحبتهم – فليذكرهم ، ويعظهم ، وينهضهم إلى اللّه بمقاله أو حاله ما استطاع. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه – عليه الصلاة والسلام – بالتذكير ، فقال :

---

(١) من الآية : ٧٨ من سورة النساء.

(١٣١/٢)

وَذَكِّرْ بِهِ ...

قلت : (تبسل) : تحبس وتسلم للهلكة ، وفى البخاري : «تبسل : تفضح ، أبسلوا : فضحوا وأسلموا» «١».

يقول الحق جل جلاله لنبيه – عليه الصلاة السلام – : وَذَكِّرْ بالقرآن الناس مخافة أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ أي : لئلا تحبس كل نفس وترتهن بما كسبت أو تسلم للهلكة ، أو لئلا تفضح على رؤوس الأشهاد بما كسبت ، لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ يدفع عنها العذاب ، وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ أي : وإن تفد كل فداء لا يُؤْخَذْ مِنْها أي : لا يقبل منها.

أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا أي : أسلموا للعذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة ، أو افتضحوا بما كسبوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وهو الماء الحار ، وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ ، والمعنى : هم بين ماء مغلى يتجرجر فى بطونهم ، ونار تشعل بأبدانهم بسبب كفرهم ، والعياذ بالله.

الإشارة : لا ينبغى للشيخ أو الواعظ أن يمل من التذكير ، ولو رأى من أصحابه غاية الصفاء ، ولا ينبغى للمريد أن يمل من التصفية والتشمير ، ولو بلغ من تصفية نفسه ما بلغ ، أو أظهرت له من الاستقامة ما أظهرت ، قال تعالى : وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها.

قال أبو حفص النيسابورى رضى اللّه عنه : من لم يتّهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم يجرها إلى مكروهها فى سائر أيامه ، كان مغرورا ، ومن نظر إليها باستحسان شىء منها فقد أهلكها ، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم ، يقول : وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ «٢». وقال أيضا : منذ أربعين سنة اعتقادي فى نفسى – أن اللّه ينظر إلىّ نظر السخط ، وأعمالى تدل على ذلك. وقال الجنيد رضى اللّه عنه : لا تسكن إلى نفسك ، وإن دامت طاعتها لك فى طاعة ربك. وقال أبو سليمان الداراني رضى اللّه عنه : (ما رضيت عن نفسى طرفة عين). إلى غير ذلك من مقالاتهم التي تدل على عدم الرضى عن النفس وعدم القناعة

منها بالتصفية التي أظهرت.

ويحكى عن القطب ابن مشيش أنه لما بلغ فى تلاوته هذه الآية ، تواجد وأخذه حال عظيم اقتطعه عن حسه ، حتى كان يتمايل ، فيميل الجبل معه يمينا وشمالا. نفعنا اللّه بذكرهم آمين.

---

(١) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الأنعام) من قول ابن عباس. رضى اللّه عنه.

(٢) من الآية ٥٣ من سورة يوسف.

(١٣٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٣٣

فإن قلت : العارف لم تبق له نفس يتهما لفنائه فى شهوده وانطوائه فى وجوده؟ قلت : العارف الكامل هو الذي لا يحجبه جمعه عن فرقه ، ولا فرقه عن جمعه ، فإذا رجع إلى شهود فرقه ، رأى نفسه عبدا متصفا بنقائص العبودية التي لا نهاية لها ، ولذلك قالوا : للنفس من النقائص ما لله من الكمالات. فلو تطهرت كل التطهير لم يقبل منها ، وإذا نظر إلى نعت جمعه رأى نفسه مجموعا فى الحضرة ، متصفا بالكمالات التي لا نهاية لها ، فيغيب عن شهود عبوديته فى عظمة ربوبيته ، لكنه لا يحجب بجمعه عن فرقه لكماله ، وإلى هذا المعنى أشار فى الحكم بقوله :

«لا نهاية لمذامك إن أرجعك إليك ، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك». وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه - عليه الصلاة والسلام بالتبرؤ من الشرك مطلقا ، تشريعا ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٧١ الى ٧٣]

قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)

قلت : (و نردّ) : عطف على (ندعو) والهمزة للإنكار ، والرد على العقب : الرجوع إلى وراء ، لعلّة فى المشي ، واستعير للمعانى ، و(كالذى استهوته) : الكاف فى موضع نصب على الحال من الضمير فى (نردّ) أي : كيف نرجع مشبهين بمن استهوته الشياطين ، أو نعت لمصدر محذوف ، أي : ردا كرد الذي ... إلخ. واستهوى : استفعل ، من هوى فى الأرض إذا ذهب ، وقال الفارسي : استهوى بمعنى أهوى ، مثل استزل بمعنى أزل ، و(حيران) : حال من مفعول استهوى.

و«أن أقيموا» : عطف على «لنسلم» ، أو «أمرنا». «قوله الحق» : مبتدأ ، و«يوم يقول» : خبر مقدم ، أي : قوله الحق حاصل يوم يقول : كن فيكون ، وفاعل «يكون» : ضمير فاعل كن ، أي : حين يقول للشيء : كن فيكون ذلك الشيء ، و«يوم ينفخ» : ظرف لقوله : «الملك» ، كقوله : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ «١».

---

(١) من الآية ١٦ من سورة غافر.

(١٣٣/٢)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : نعبد ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا من الأصنام الجامدة ، وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا أي : نرجع إلى الشرك بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ وأنقذنا ، ورزقنا الإسلام ، وهذا على الصحابة. وأما النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فلم يتقدم له شرك لعصمته ، أي : كيف نرد على أعقابنا ردا كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ ، أي : أضلته مردة الجن عن الطريق المستقيم ، فذهب فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ متحيرا ضالا عن الطريق ، لَهُ أَصْحابٌ أي : رفقة يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أي : إلى الطريق المستقيم ، يقولون له : ائْتِنا وكن معنا لئلا تتلف. وهو مثال لمن ترك الإسلام وضل عنه.

قُلْ لهم : إِنَّ هُدَى اللَّهِ ، وهو الإسلام ، هُوَ الْهُدى وحده ، وما عداه ضلال. وَقد أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ نكون على الجادة من الهدى ، وَأمرنا أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ أي : أمرنا بإقامة الصلاة والتقوى ، روى أن عبد الرحمن بن أبى بكر دعا أباه إلى عبادة الأوثان ، فنزلت ، وعلى هذا أمر الرسول بهذا القول إجابة عن الصديق تعظيما لشأنه ، وإظهارا للاتحاد الذي كان بينهما. قاله البيضاوي. وقال ابن جزى : ويبطل هذا قول عائشة : ما نزل فى آل أبى بكر شيء من القرآن إلا برائتى. هـ. قلت : ليس بحجة لصغر سنّها وقت نزول الآية بمكة ، والإسلام يمحو ما قبله. ثم قال جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ يوم القيامة فيظهر من تبع الحق من الباطل.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، أي : قائما بالحق والحكمة ، فهو أحق بالعبادة وحده ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ أي : قوله العدل حاصل يوم يقول للبعث والحشر : كن فيكون ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ أي : انفرد الملك له يوم ينفخ فى الصور فيقول : لمن الملك اليوم؟ فلا يجاب ، فيقول : للّه الواحد القهار ، عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أي : هو عالم بما غاب وما ظهر ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فى صنعه ، الْخَبِيرُ بأمر عباده.

الإشارة : إذا توجه العبد إلى مولاه ، وانقطع بكليته إلى اللّه ، طالبا منه معرفته ورضاه ، قد يمتحن

بشيء من شدائد الزمان كالفاقة وإيذاء الخلق والأحزان ، فيقال اختبارا له : تعلق فى دفع ما نزل بك بشيء من السّوى ، فيجب عليه أن يقول : أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بالالتفات إلى غير ربنا ، بعد إذ هدانا اللّه إلى توحيده ومعرفته ، ونكون كالذى استهوته الشياطين فى الأرض ، حيران بالتفاته إلى غير الكريم المنان ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ أي : هدايته الخاصة ، وهى الانقطاع إليه وحده فى الشدائد ، هُوَ الْهُدى ، وقد أمرنا بالانقياد بكليتنا إلى ربنا ، وأمرنا إذا حزبنا شيء بإقامة الصلاة لأنها مفتاح الفرج ، وبالتقوى لأنها سبب النصر إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وآخر أمرنا الموت والحشر إلى ربنا ، والاستراحة إلى الروح والريحان. وبالله التوفيق.

(١٣٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٣٥

ثم ذكر قصة إبراهيم إبطالا لدعوى الشرك ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٧٤]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٧٤)

قلت : آزر : عطف بيان ، أو بدل من أبيه ، ومنع من الصرف للعلمية والعجمة. وقرأ يعقوب بالضم - على النداء ، وقيل : إن آزر اسم صنم لأنه ثبت أن اسم أبى إبراهيم تارخ. فعلى هذا يحتمل أن يكون لقب به لملازمته له ، وقيل : هما علمان له كإسرائيل ويعقوب.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ، حين دعاه إلى التوحيد : أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً تعبدها من دون اللّه ، وهى لا تنفع ولا تضر ، إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ : بيّن الضلالة ، ظاهر الخطأ.

الإشارة : كل من سكن إلى شيء دون اللّه ، أو مال إليه بالعشق والمحبة ، فهو صنم فى حقه ، فإن لم ينزع عن محبته ، ولم يقلع عن السكون إليه ، كان حجابا بينه وبين شهود أسرار التوحيد. وفى الحكم : «ما أحببت شيئا إلا وكنت عبدا له ، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدا». وفى الحديث : «تعس عبد الدينار والدرهم» ... أي : خاب وخسر ، فإذا اطلع الحق تعالى على قلب عبده فرآه مائلا لغيره ، حجب عنه أنوار قدسه ، وفى ذلك يقول الششترى رضى اللّه عنه :

لى حبيب إنما هو غيور ، يطلّ فى القلب كطير حذور ،

إذا رأى شيئا امتنع أن يزور.

وبالله التوفيق.

ثم ذكر احتجاج إبراهيم على قومه ، وتبصره بأمر ربه ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٧٥ الى ٧٩]

وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)

(١٣٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٣٦

قلت : الملك : ما ظهر فى عالم الشهادة من المحسوسات ، والملكوت : ما غاب فيها من معانى أسرار الربوبية ، والجبروت : ما لم يدخل عالم التكوين من أسرار المعاني الأزلية.

يقول الحق جل جلاله : وَكَذلِكَ أي : مثل ذلك التبصر الذي بصّرنا به إبراهيم حتى اهتدى للرد على أبيه ، نريه مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : نكشف له عن أسرار التوحيد فيهما ، حتى يشاهد فيهما صانعهما ، ولا يقف مع ظاهر حسهما ، وإنما فعلنا له ذلك لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ بمعرفتنا ، عارفا بأسرار قدسنا.

ولما كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والقمر والشمس ، أراد أن يرشدهم إلى التوحيد من طريق النظر والاستدلال فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ أي : ستره بظلامه ، رَأى كَوْكَباً وهو الزهرة أو المشترى ، قالَ هذا رَبِّي على سبيل التنزل إلى قول الخصم ، وإن كان فاسدا فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصم ، ثم يكرّ عليه بالفساد لأن ذلك أدعى إلى الحق ، وأقرب إلى رجوع الخصم ، فَلَمَّا أَفَلَ أي : غاب ، قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فضلا عن عبادتهم فإن التغير بالاستتار والانتقال يقتضى الإمكان والحدوث وينافى الألوهية.

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً : مبتدئا فى الطلوع ، قالَ هذا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. استعجز نفسه واستعان ربه فى درك الحق ، وأنه لا يهتدى إليه إلا بتوفيقه إرشادا لقومه ، وتنبيها لهم على أن القمر أيضا لتغيّر حاله ، لا يصلح للألوهية ، وأن من اتخذه إلها ، فهو ضالّ.

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي ، إنما ذكّر الإشارة لتذكير الخبر ، وصيانة للرب عن شبهة التأنيث هذا أَكْبَرُ لكبر النور وسطوعه أكثر ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ من الأجرام المحدثة المحسوسة ، المحتاجة إلى محدث يحدثها ، ومخصص يخصصها.

ولما تبرأ من عبادتها توجه إلى موجدها ومبدعها ، فقال : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ أي : أبدع

السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حال كونى حَنِيفاً أي : مائلا عن دنيكم وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مثلكم. وإنما احتج بالأفول دون البزوغ ، مع أنه تغير لأن الأفول أظهر فى الدلالة لأنه انتقال مع اختفاء واحتجاب. ولأنه رأى الكوكب الذي يعبدونه فى وسط السماء حين حاول الاستدلال. وقيل : إن هذا الاستدلال والاحتجاج كان فى حال طفولته قبل التكليف. فقد روى أنه لما ولدته أمه فى غار ، خوفا من نمرود إذ كان يقتل الأطفال لأن المنجمين أخبروه أن هلاكه على يد صبى يولد فى هذا العصر ، فكان يستدل بما رأى على توحيد ربه ، وهو فى الغار ، وهذا ضعيف لأن قوله : إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ يقتضى المحاجة والمخاصمة لقومه.

وقوله عليه السّلام : هذا رَبِّي مع قوله إِنِّي سَقِيمٌ «١» وفَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا «٢» ، ليس بكذب للعصمة ، وإنما هو تورية. وفى الحديث : «ليس بكاذب من كاذب ظالما ، أو دفع ضررا ، أو رعى حقا ، أو حفظ قلبا». وفى

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة الصافات.

(٢) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء. [.....]

رواية أخرى : «ليس بكاذب ، من قال خيرا أو نواه». وأما اعتذاره فى حديث الشفاعة فلهول المطلع ، فيقع الحذر من أدنى شيء. والله تعالى أعلم.

الإشارة : لمّا كوشف إبراهيم بعالم الملكوت ، رأى اللّه فى الأشياء كلها ، كما ورد فى بعض الأثر : (ما رأيت شيئا إلا رأيت اللّه فيه). وإنما قال : لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ حذرا من الوقوف مع الحس دون شهود المعنى ، إذ بحر المعاني متصل دائم ليس فيه تغيير ولا انتقال. وإنما تتغير الأوانى دون المعاني ، فشمس المعاني مشرقة على الدوام ، ليس لها مغيب ولا تغير ولا انتقال ، ولذلك قيل :

طلعت شمس من أحب بليل واستنارت فما تلاها غروب

إنّ شمس النّهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليس لها مغيب

أي : طلعت شمس نهار عرفانهم على ليل وجودهم ، فامتحت ظلمة وجودهم فى شهود محبوبهم ، وفى الحكم :

«أنار الظواهر بأنوار آثاره ، وأنار السرائر بأنوار أوصافه ، لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر ، ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر».

قال الجوزي : لما بدا لإبراهيم نجم العلم ، وطلع قمر التوحيد ، وأشرقت شمس المعرفة - قال : إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ... الآية. هـ. قيل : لما نظر إبراهيم عليه السّلام بعيون رأسه إلى نور النجم والشمس والقمر الحسى ، نودى فى سره : يا إبراهيم ، لا تنظر ببصرك إلى الجهة الحسية ، وانظر ببصيرتك إلى الحقيقة المعنوية لأن الوجود كله عين الأحدية ، فافهم معانى الأسماء ، ولا تقف مع جرم الأرض والسماء ، فإن الوقوف مع الحس حجاب عن المعنى. فقال إبراهيم : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. هـ. وفى ذلك يقول الششترى أيضا :
لا تنظر إلى الأوانى وخض بحر المعاني
لعلّك ترانى.
ولما احتج إبراهيم عليه السّلام على قومه خاصموه فى ذلك ، كما قال تعالى :
[سورة الأنعام (٦) : آية ٨٠]
وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)
يقول الحق جل جلاله : وَحاجَّهُ قَوْمُهُ أي : خاصموه فى التوحيد ، فقال لهم : أَتُحاجُونِّي فِي اللَّهِ أي : فى وحدانيته ، أو فى الإيمان به ، وقد هدانى إلى توحيده وأرشدنى إلى معرفته ، فلا ألتفت إلى غيره ، ولا أعبأ بمن خاصمنى فيه ، والأصل : تحاجونني ، فحذف نافع وابن عامر نون الرفع ، وأبقى نون الوقاية ، وقيل : العكس ، وأدغم الباقون إحدى النونين فى الأخرى.
الإشارة : مخاصمة العموم لأهل الخصوصية سنّة ماضية (و لن تجد لسنة اللّه تبديلا) لأنّ من أنكر شيئا عاداه ، فأهل الخصوصية يعذرون من أنكر عليهم لأن ذلك مبلغهم من العلم ، والعامة لا يعذرون أهل الخصوصية لخروجهم عن بلادهم فلا يعرفون ما هم فيه. واللّه تعالى أعلم.

ولما خاصموا إبراهيم عليه السّلام فلم يلتفت إليهم ، خوفوه بأصنامهم ، فقال لهم :
[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٨١ الى ٨٢]
وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)
قلت : الاستثناء فى قوله : (إلا أن يشاء) : منقطع. قاله ابن جزى. وظاهر كلام البيضاوي : أنه متصل ،

وهو المتبادر ، أي : ولا أخاف ما تشركون فى حال من الأحوال إلا أن يشاء ربى أن يصيبنى بمكروه من جهتها استدراجا لكم ، وفتنة. وقال الواحدي : لا أخاف إلا مشيئة ربى أن يعذبنى.

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن خليله إبراهيم : وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ أي : لا أخاف معبوداتكم أن تصيبنى بشيء لأنها جوامد لا تضر ولا تنفع ، إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً يصيبنى بقدره وقضائه ، فإنه يصيبنى لا محالة ، لا بسببها ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ، كأنه علّة الاستثناء ، أي : لا أخاف إلا ما سبق فى مشيئة اللّه ، لأنه أحاط بكل شيء علما ، فلا يبعد أن يكون فى علمه وقدره أن يحيق بي مكروه من جهتها ، أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز؟.

وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وهو جامد عاجز لا يتعلق به ضرر ولا نفع؟ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ وهو أحق أن يخاف منه كل الخوف ، لأنه القادر على الانتقام ممن أشرك معه غيره ، وسوّى بينه وبين مصنوع عاجز ، لا يضر ولا ينفع ، فأنتم أحق بالخوف لأنكم أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً أي : لم ينزل بإشراكه كتابا ، ولم ينصب عليه دليلا ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ : أهل التوحيد والإيمان ، أو أهل الشرك والعصيان؟ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ما يحق أن يخاف منه.

ثم أجاب عن الاستفهام : الحق تعالى أو خليله ، فقال : الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا أي : يخلطوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أي : بشرك ، بل آمنوا بالله ولم يعبدوا معه غيره ، أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ فى الآخرة ، وَهُمْ مُهْتَدُونَ فى الدنيا. أما الطائع فأمنه ظاهر ، وأما العاصي فيؤمن من الخلود وتحريم الجنة عليه.

ولمّا نزلت الآية أشفق منها أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقالوا : أينا لم يظلم نفسه؟ لأنهم فهموا عموم الظلم فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «ليس ما تظنون ، إنما هو ما قال لقمان لابنه : يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ» «١» ،

---

(١) الآية ١٣ من سورة لقمان ... والحديث أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء باب قول اللّه تعالى «ولقد آتينا لقمان الحكمة ...)

ومسلم فى (الإيمان ، باب صدق الإيمان وإخلاصه) من حديث ابن مسعود رضى اللّه عنه.

وقد كان المشركون يقرّون بالصانع ويخلطون معه التصديق بربوبية الأصنام ، فقد آمنوا بوجود الصانع ، ولكنهم لبسوا إيمانهم بالشرك ، فلا أمن لهم ولا هداية. وبهذا يرد جهالة الزمخشري فى إنكاره الحديث الصحيح ، ولو بقي الظلم على عمومه - أي : ولم يخلطوا إيمانهم بمعصية - لصحّ ، ويكون

المراد بالأمن أمنا خاصا وهداية خاصة ، لكن ما قاله – عليه الصلاة والسلام – يوقف عنده.

الإشارة : العارف بالله ، المتحقق بوحدانية اللّه ، لا يسكن خوف الخلق فى قلبه ، ولا ينظر إلا إلى ما يبرز من عند ربه ، فإن وعده بالعصمة أو الحفظ لم يترك بذلك التضرع والالتجاء إلى ربه لسعة علمه تعالى ، وقد يكون ذلك متوقفا على أسباب وشروط ، أخفاها الحق تعالى إظهارا لقهريته ، ولذلك قال الخليل عليه السّلام : وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً. وقال سيدنا شعيب عليه السّلام : وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً «١». فالعارف لا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير اللّه قراره ، وأما الأمن من التحويل والانقلاب ، فاختلف فيه فقال بعضهم : يحصل للولىّ الأمن ، إذا تحقق بمقام القرب ، وحصل له الفناء والبقاء ، متمسكا بقوله تعالى : الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ. وقال بعضهم : لا يحصل الأمن إلا للأنبياء – عليهم السلام – للعصمة.

قال الورتجبي : مقام الأمن لا يحصل لأحد ، مادام هو بوصف الحدثية ، وكيف يكون آمنا منه وهو فى رقّ العبودية ويعرف نفسه بها ، ويعرف الحق بوصف القدم والبقاء وقهر الجبروت؟ وقال تعالى : فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ «٢». فإذا رأى اللّه تعالى بوصف المحبة والعشق والشوق ، وذاق طعم الدنو ، واتّصف بصفات الحق ، بدا له أوائل الأمن ، لأن فى صفة القدم لا يكون علة الخوف والرجاء ، لأن هناك جنة القرب والوصال ، وهم فيها آمنون من طوارق القهر ، وهم مهتدون ماداموا متصفين بصفاته ، وإن كانوا فى تسامح من مناقشة اللّه بدقائق خفايا مكره. هـ.

فظاهر كلامه ، أن المتحقق بمقام الفناء والبقاء ، يحصل له الأمن من الشقاء ، وكذلك قال أبو المواهب : من رجع إلى البقاء أمن من الشقاء. وقال فى نوادر الأصول : من حظّه من أهل التقريب : الجلال والجمال ، وقد أقيم فى الهيبة والأنس ، قد غاب عن خوف العقوبة ، ولكنه يخاف التحويل والهوى والسقوط ، لما ركب فى نفوس بنى آدم من الشهوات ، فهن أبدا يهوين بصاحبهن عن اللّه إلى الإخلاد والبطء ، وإنما يسكن خوف التحويل إذا خلص إلى الفردانية وتعلّق بالوحدانية لتلاشى الهوى منه والشهوة بكشف الغطاء ، ولا يذهب خوف ذلك بالكلّية عنه ، وإن

---

(١) الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٩٩ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٠
سكن لبقاء خيال ذلك فى حق غير الأنبياء. وأما هم فلم يبق لهم ظلّ الهوى ، فبشّروا بالنجاة فلم تغرهم البشرى لأنهم لم يبق لهم نفوس ، فتستبدّ وتجور إذا أمنت السقوط ، ومن بعدهم بقي لهم فى نفوسهم شيء فمنعوا البشرى ، وأبهم عليهم الأمر صنعا بهم ونظرا لهم ، لتكون نفوسهم منقمعة بخوف الزوال. هذا هو الأصل فافهمه. هـ.
وحاصل كلامه : أن غير الأنبياء لا ينقطع عنه خوف التحويل ، بل يسكن خوفه فقط ، ولا يبشّر بالأمن إلا الأنبياء ، وهو الصواب ، لبقاء قهر الربوبية فوق ضعف العبودية ، قال تعالى : وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ «١».
واللّه تعالى أعلم.
ثم مدح خليله بما أظهر على يديه من الحجة والعلم ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : آية ٨٣]
وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)
قلت : (على قومه) : متعلق بحجتنا ، إن جعل خبرا عن (تلك) ، وبمحذوف ، إن جعل بدله ، أي : وتلك الحجة آتيناها إبراهيم حجة على قومه. ومن قرأ : «درجات : بالتنوين فمن نشاء : مفعول ، ودرجات : تمييز.
يقول الحق جل جلاله : وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ ، إشارة إلى ما تقدم من استدلاله على وحدانيته تعالى بأفول الكوكب والقمر والشمس ، واحتجاجه بذلك على قومه ، وإتيانه إياها : وإرشاده لها وتعليمه إياها ، قال تعالى : نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ فى العلم والحكمة ، أو فى اليقين والمعرفة ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ فى رفعه وخفضه ، عَلِيمٌ بحال من يرفعه ويخفضه ، وبحال الاستعداد لذلك.
الإشارة : رفع الدرجات فى جنات الزخارف يكون بالعلم والعمل وزيادة الطاعات ، ورفع الدرجات فى جنة المعارف يكون بكبر اليقين ، والترقي فى شهود رب العالمين. وذلك بحسب التبتل والانقطاع ، والتفرغ من شواغل الحس ودوام الأنس. واللّه تعالى أعلم.
ومما خصّ به إبراهيم عليه السّلام وكان زيادة فى درجته ، أن الأنبياء جلّهم من ذريته ، كما قال تعالى :
[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٨٤ الى ٩٠]
وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)
أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ

(٨٩) أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْعالَمِينَ (٩٠)

---

(١) من الآية ١٨ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤١

قلت : الضمير فى (ذريته) لإبراهيم عليه السّلام لأن الحديث عليه ، أو لنوح عليه السّلام لذكر لوط ، وليس من ذرية إبراهيم ، لكنه ابن أخيه فكأنه ابنه ، و(داود) : عطف على (نوح) أي : وهدينا من ذريته داود ، و(من آبائهم : فى موضع نصب ، عطف على (نوح) أي : وهدينا بعض آبائهم ، والهاء فى (اقتده) : للسكت ، فتحذف فى الوصل ، ومن أثبتها راعى فيها خط المصحف ، وكأنه وصل بنية الوقف.

يقول الحق جل جلاله : وَوَهَبْنا لإبراهيم إِسْحاقَ ابنه ، وَيَعْقُوبَ حفيده ، كُلًّا منهما هَدَيْنا وَنُوحاً قد هديناه مِنْ قَبْلُ إبراهيم ، وعدّه نعمة على إبراهيم من حيث إنه أبوه ، وشرف الوالد يتعدّى إلى الولد ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ أي : إبراهيم ، داوُدَ بن أيشا ، وَسُلَيْمانَ ، وَأَيُّوبَ بن قوص بن رازح بن عيصو بن إسحاق وَيُوسُفَ بن يعقوب بن إسحاق ، وَمُوسى وَهارُونَ ابنا عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوى بن يعقوب. وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي : نجزى المحسنين جزاء مثل ما جازينا إبراهيم برفع درجاته وكثرة أولاده ، وجعل النبوة فيهم.

وَزَكَرِيَّا بن آذن بن بركيا ، من ذرية سليمان ، وَيَحْيى بن زكريا ، وَعِيسى بن مريم بنت عمران ، وفيه دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت ، وَإِلْياسَ بن نسى بن فنحاص بن إلعازر بن هارون.

وقيل : هو إدريس جد نوح ، وفيه بعد. كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ الكاملين فى الصلاح ، وهو الإتيان بما ينبغى والتحرز مما لا ينبغى.

وَإِسْماعِيلَ بن إبراهيم ، قد هدينا أيضا ، وهو أكبر ولد إبراهيم ، وهو ابن هاجر ، وَالْيَسَعَ بن أخطوب بن العجوز ، وقرىء : «والليسع» بالتعريف ، كأن أصله : ليسع ، و«أل» فيه : زائدة ، لا تفيد التعريف لأنه علم ، وَيُونُسَ بن متى ، اسم أبيه ، وهو من ذرية إبراهيم ، خلافا للبيضاوى. قال القرطبي : لم يبعث اللّه نبيا من بعد إبراهيم إلا من صلبه. هـ. ويونس مثلث النون كيوسف ، يعنى بتثليث السين.

وَلُوطاً هو ابن هاران أخى إبراهيم ، فهو ابن أخيه ، وقيل : ابن أخته ، فقد يطلق على العم أب مجازا ، وَكلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ أي : عالمى زمانهم بالنبوة والرسالة. فكل واحد فضّل على أهل زمانه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٢

وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ أي : فضّلنا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم ، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، وَاجْتَبَيْناهُمْ أي : اخترناهم للرسالة واصطفيناهم للحضرة ، وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ الذي يوصل إلى حضرة قدسنا. ذلِكَ هُدَى اللَّهِ أي : ذلك الدين الذي دانوا به هو هدى اللّه يَهْدِي بِهِ أي : بسببه ، مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ، تحذيرا من الشرك ، وإن كانوا معصومين منه.

أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ أي : جنس الكتب ، وَالْحُكْمَ أي : الحكمة ، أو الفصل بين العباد ، على ما يقتضيه الحق ، وَالنُّبُوَّةَ الرسالة ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ : أهل مكة ، فَقَدْ وَكَّلْنا بِها أي : بالإيمان بها والقيام بحقوقها ، قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ وهم الأنبياء المذكورون ، وتابعوهم ، وقيل : الصحابة المهاجرون والأنصار ، وهو الأظهر. وقيل : كل مؤمن ، وقيل : الفرس. والأول أرجح لدلالة ما بعده عليه ، وهو قوله : أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، الإشارة إلى الأنبياء المذكورين ، فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ أي : اتبع آثارهم ، والمراد بهديهم : ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين ، دون الفروع المختلف فيها ، فإنها ليست هدى مضافا إلى الكل ، ولا يمكن التأسّي بهم جميعا فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة السلام متعبّد بشرع من قبله. قاله البيضاوي.

قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أي : التبليغ أو القرآن ، أَجْراً أي : جعلا من جهتكم ، كحال الأنبياء قبلى اقتداء بهم فيه ، فهو من جملة ما أمر بالاقتداء بهم فيه ، إِنْ هُوَ أي : ما هو ، أي : التبليغ أو القرآن ، إِلَّا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ إلا تذكرة وموعظة لهم.

الإشارة : فضّل هؤلاء السادات على أهل زمانهم بما هداهم إليه من أنوار التوحيد وأسرار التفريد ، وبما خصهم به من كمال العبودية والآداب مع عظمة الربوبية. وفى قوله لحبيبه : فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ فتح لباب اكتساب التفضيل ، فكلّ من اقتدى بهم فيما ذكر شرّف على أهل زمانه ، وقد جمع فى حبيبه صلّى اللّه عليه وسلّم ما افترق فيهم ، وزاد عليهم بالمحبة ورفع الدرجات ، فكان هو سيد الأولين والآخرين ، فكل من اقتدى به فى أفعاله وأقواله وأخلاقه نال من السيادة بقدر اقتدائه ، وأمره سبحانه له بالاقتداء بهم ، إنما هو فى الآداب ، وكان ذلك قبل أن يترقّى عنهم إلى مقامه الذي خصّه اللّه به. فإن للأنبياء سيرا وترقّيا يليق بهم. كما للأولياء سير وترقّ يليق بهم.

قال الورتجبي : أمر حبيبه - عليه الصلاة والسلام - بالاقتداء بالأنبياء والرسل قبله فى آداب الشريعة ، لأن هناك منازل الوسائط ، فإذا أوصله بالكلّية إليه ، وكحّل عيون أسراره بكحل الربوبية ، جعله مستقلا بذاته مستقيما بحاله ، وخرج عن حدّ الإرادة إلى حد المعرفة والاستقامة ، وأمره بإسقاط الوسائط ، حتى قال : «لو كان موسى حيّا ما وسعه إلّا اتّباعى» ، وغير ذلك. هـ. وقال الشاذلى رضى اللّه عنه : أمره بالاقتداء بهم فيما شاركوه فيه ، وإن انفرد عنهم بما خصّ به. هـ.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٣
ولمّا ذكر مشاهير الرسل ، وما أتحفهم به من الهداية وإنزال الوحى ، ردّ على من أنكر ذلك ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : آية ٩١]
وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)
يقول الحق جل جلاله فى الرد على اليهود : وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أي : ما عرفوه حق معرفته فى الرحمة والإنعام على العباد بالوحى وغيره ، إذ لو عرفوه لهابوا أن ينكروا بعثة الرسل ، أو ما جسروا على هذه المقالة ، أو ما عظموه حق تعظيمه. حيث كذّبوا رسله وأنكروا أن يكون أنزل عليهم كتابا ، إذ لو عظّموه حق تعظيمه لصدّقوا الرسول الوارد عنه ، وهو معنى قوله : إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، والقائلون هم اليهود ، كفنحاص ومالك بن الصيف وغيرهما ، قالوا ذلك مبالغة فى إنكار إنزال القرآن ونبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، فردّ اللّه عليهم بما لا بدّ لهم من الإقرار به وهو إنزال التوراة على موسى فقال : قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ ، فالنور للبواطن ، والهداية للظواهر ، تَجْعَلُونَهُ أي : التوراة ، قَراطِيسَ أي :
تجزّؤونه أجزاء متفرقة ، ما وافق أهواءكم أظهرتموه وكتبتموه فى ورقات متفرقة ، وما خالف أهواءكم كتمتموه وأخفيتموه.
روى أنّ مالك بن الصّيف قاله ، لمّا أغضبه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بقوله : «أنشدك اللّه الذي أنزل التّوراة على موسى ، هل تجد فيها أنّ اللّه يبغض الحبر السّمين ، فأنت الحبر السّمين» ، فغضب ، وقال : ما أنزل اللّه على بشر من شىء ، فردّ اللّه عليه بما تقدّم «١». وقيل : القائلون ذلك :
المشركون ، وإلزامهم بإنزال التوراة لأنه كان مشهورا عندهم يقرّون به ، ولذلك قالوا : أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ «٢».
وَعُلِّمْتُمْ على لسان محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ ، زيادة على ما فى التوراة ، وبيانا لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم. ونظيره : إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ «٣» أو : وعلّمتم من التوراة ما لم تكونوا تعلّمتم أنتم ولا آباؤكم قبل إنزاله ، وإن كان الخطاب لقريش فالذى علّموه : ما سمعوا من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من القصص والأخبار.

---

(١) أخرجه الطبري فى التفسير. وذكره الواحدي فى أسباب النزول ، عن سعيد بن جبير مرسلا.
(٢) الآية ١٥٧ من السورة نفسها.
(٣) الآية ٧٦ من سورة النمل.

(١٤٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٤
ثم أجاب عن استفهامه بقوله : قُلِ اللَّهُ أي : أنزله اللّه ، أو اللّه أنزله. قال البيضاوي : أمره بأن يجيب عنهم إشعارا بأن الجواب بهذا متعيّن لا يمكن غيره ، وتنبيها على أنهم بهتوا بأنهم لا يقدرون على الجواب هـ.
ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ فى أباطيلهم. فلا عليك بعد التبليغ وإلزام الحجة ، وأصل الخوض فى الماء ، ثم استعير للمعانى المشكلة ، وللقلوب المتفرقة فى أودية الخواطر.
الإشارة : يفهم من الآية أنّ من أقرّ بإنزال الكتب وآمن بجميع الرسل ، فقد قدر اللّه حق قدره وعظّمه حق تعظيمه. وهذا باعتبار ضعف العبد وعجزه وجهله وإلّا فتعظيم الحق حق تعظيمه ، ومعرفته حق معرفته ، لا يمكن انتهاؤها ، ولا الوصول إلى عشر العشر منها. قال تعالى وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً «١» ، وقال : كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ «٢» فلو بقي العبد يترقى فى المعرفة أبدا سرمدا ، ما عرف اللّه حق معرفته ، حتى ينتهى إلى غايتها ، ولو بقي يعبد أبد الأبد ما قام بواجب حقه.
وقوله تعالى : قُلِ اللَّهُ استشهد به الصوفية ، فى طريق الإشارة ، على الانفراد والانقطاع إلى اللّه ، وعدم الالتفات إلى ما عليه الناس من الخوض والاشتغال بالأغيار والأكدار ، والخروج عنهم إلى مقام الصفا ، وهو شهود الفردانية ، والعكوف فى أسرار الوحدانية. قال ابن عطاء اللّه - لما تكلم على أهل الشهود - قال : (لأنهم لله لا لشىء دونه ، قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ). وقد ينكر عليهم من لم يفهم إشارتهم تجمدا ووقوفا مع الظاهر ، وللقرآن ظاهر وباطن لا يعرفه إلا الربانيون. نفعنا اللّه بهم ، آمين.
ثم قرر صحة إنزال كتابه ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : آية ٩٢]
وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (٩٢)
يقول الحق جل جلاله : وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ أي : كثير البركة ، حسا ومعنى لكثرة فوائده وموم نفعه ، أو : كثير خيره ، دائم منفعته ، قال القشيري : مبارك : دائم باق ، لا ينسخه كتاب ، من قولهم :

برك الطير على الماء. هـ. مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب المتقدمة ، وَلِتُنْذِرَ أنت أُمَّ الْقُرى أي : مكة ،

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة طه.

(٢) الآية ٢٣ من سورة عبس.

(١٤٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٥

وَمَنْ حَوْلَها من المشرق والمغرب أو لينذر القرآن أمّ القرى ومن حولها أي : أنزلناه للبركة والإنذار ، وإنما سميت مكة أمّ القرى لأنها قبلة أهل القرى وحجهم ومجمعهم ، وأعظم القرى شأنا. وقيل : لأن الأرض دحيت من تحتها أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس.

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ هم الذين يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ لأنّ من صدّق بالآخرة ، وخاف عاقبتها ، تحرى لنفسه الصواب ، وتفكر فى صدق النجاة ، فآمن بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم وصدّق بما جاء به ، وحافظ على مراسم الشريعة ، وأهمها : الصلاة لأنها عماد الدين وعلم الإيمان ، من حافظ عليها حفظ ما سواها ، ومن ضيّعها ضيّع ما سواها.

الإشارة : مفتاح القلوب هو كتاب اللّه ، وهو عنوان السير ، فمن فتح له فى فهم كتاب اللّه ، عند سماعه والتدبر فى معانيه ، فهو علامة فتح قلبه ، فلا يزال يزداد فى حلاوة الكلام ، حتى يشرف على حلاوة شهود المتكلم من غير واسطة وذلك غاية السير ، وابتداء الترقي فى أنوار التوحيد وأسرار التفريد ، التي لا نهاية لها. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد من كذّب به أو عارضه ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٩٣ الى ٩٤]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)

قلت : (كما خلقناكم) : بدل من (فرادى) ، أو حال ثانية ، و(لقد تقطع بينكم) من قرأ بالرفع ، فهو فاعل ، أي :

تقطع وصلكم ، ومن قرأ بالنصب ، فظرف ، على إضمار الفاعل ، أي : تقطع الاتصال بينكم ، أو على حذف الموصول لقد تقطع ما بينكم.
يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فزعم أنه يوحى إليه ، كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي ، أو : غيّر الدين ، كعمرو بن لحيي وأمثاله ، أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ كابن أبى سرح

(١٤٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٦
ومن تقدم ، إلا من تاب ، كابن أبى سرح. وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ كالذين قالوا : لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا «١» كالنضر بن الحارث وأشباهه.
وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ من اليهود والكذابين والمستهزئين ، حين يكونون فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ : شدائده وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ لقبض أرواحهم ، أو بالضرب لوجوههم وأدبارهم ، قائلين لهم : أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ من أجسادكم تغليظا عليهم ، الْيَوْمَ وما بعده تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ أي : الهوان ، يريد العذاب المتضمن للشدة والهوان ، وإضافته للهوان لتمكنه فيه. وذلك العذاب بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، كادعاء النبوة كذبا ، وادعاء الولد والشريك لله ، وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ فلا تستمعون لها ، ولا تؤمنون بها ، فلو أبصرت حالهم ذلك الوقت لرأيت أمرا فظيعا وهولا شنيعا.
يقول الحق سبحانه لهم : وَلَقَدْ جِئْتُمُونا للحساب والجزاء ، فُرادى . متفرّدين عن الأعوان والأوثان ، أو عن الأموال والأولاد ، وهذا أولى بقوله : كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أي : على الهيئة التي ولدتم عليها من الانفراد والتجريد حفاة عزاة غرلا «٢» وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ أي : تفضّلنا به عليكم من الدنيا فشغلتم به عن الآخرة ، وَراءَ ظُهُورِكُمْ ، فلم تقدموا منه شيئا ، ولم تحملوا معكم منه نقيرا ، وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ أي : أصنامكم الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ أي : أنهم شركاء مع اللّه فى ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ أي : تفرّق وصلكم وتشتت شملكم ، وَضَلَّ أي : غاب عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أنهم شفعاؤكم ، أو لا بعث ولا حساب لظهور كذبكم.
الإشارة : كل من ادعى حالا أو مقاما ، يعلم من نفسه أنه لم يدركه ولم يتحقق به ، فالآية تجرّ ذيلها عليه. وفى قوله : وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى .. إلخ ، إشارة إلى أن الدخول على اللّه والوصول إلى حضرته ، لا يكون إلا بعد قطع العلائق والعوائق والشواغل كلها ، وتحقيق التجريد ظاهرا وباطنا إذا لا تتحقق الفردانية إلا بهذا.
وقال الورتجبي : ولى هنا لطيفة أخرى ، أي : ولقد جئتمونا موحّدين بوحدانيتى ، شاهدين بشهادتى ،

بوصف الكشف والخطاب ، كما جئتمونا من العدم في بدء الأمر ، حين عرّفتكم نفسى بقولي : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى «٣» ، بلا إشارة التشبيه وغلط التعطيل ، كما وصفهم نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم : «كلّ مولود يولد على الفطرة» ، يعنى : على

---

(١) من الآية ٣١ من سورة الأنفال.

(٢) أي غير مختونين.

(٣) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف

(١٤٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٧

فطرة الأزل بلزوم سمة العبودية بلا علة الاكتساب ، عند سبق الإرادة. انتهى. قلت : وحاصل كلامه : أن مجيئهم فرادى ، كناية عن دخولهم الحضرة القدسية بعد تقديس الأرواح وتطهيرها ، حتى رجعت لأهلها ، كما خلقها أول مرة ، أعنى : مقدسة من شواهد الحس ، مطهرة من لوث الأغيار ، على فطرة الأزل ، فشبه مجيئها الثاني بعد التطهير ببروزها الأول ، حين كانت على أصل التطهير ، كأنه قال : ولقد جئتمونا فرادى من الحس وشهود الغير كما خلقناكم كذلك في أول الأمر. واللّه تعالى أعلم.

وقوله تعالى : وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ أي : من العلوم الرسمية ، والطاعات البدنية والكرامات الحسية ، قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى العارف : كنت أعرف أربعة عشر علما ، فلما علمت علم الحقيقة سرطت ذلك كله ، فلم يبق لى إلا التفسير والحديث والمنطق. هـ. وقوله تعالى : وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ إشارة إلى أنهم دخلوا من باب الكرم لا من باب العمل. واللّه تعالى أعلم.

ثم شرع يذكر دلائل توحيده وتعريف ذاته ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٩٥ الى ٩٦]

إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)

قلت : (و مخرج) : معطوف على (فالق) ، على المختار لأنّ (يخرج الحي) – واقع موقع البيان له ، و(سكنا) :

مفعول بفعل محذوف ، أي : جعله سكنا ، إلا أن يريد بجاعل : الاستمرار ، فحينئذ ينصب المفعول.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى أي : يفلق الحب تحت الأرض لخروج النبات منها ، ويفلق النوى لخروج الشجر منها ، يُخْرِجُ الْحَيَّ أي : كل ما ينمو من الحيوان والنبات ليطابق ما قبله

، مِنَ الْمَيِّتِ مما لا ينمو كالنطف والحب. وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ أي : ومخرج الحب والنّطف من الحي ، ذلِكُمُ اللَّهُ أي : ذلكم المخرج والمحيي المميت هو اللّه المستحق للعبادة دون غيره ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ تصرفون عنه إلى غيره.

فالِقُ الْإِصْباحِ أي : شاقّ عمود النهار عن ظلمة الليل ، وَجَعَلَ «١» اللَّيْلَ سَكَناً أي : يسكن فيه من تعب النهار للاستراحة ، وَجعل الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً أي : على أدوار مختلفة ، يعلم بها حساب

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي - وكذا خلف - : (جعل) فعلا ماضيا. وقرأ باقى السبعة (جاعل) باسم الفاعل مضافا إلى الليل.

الأزمنة والليل والنهار ، أو حسبانا كحسبان الرّحا يدور بهما الفلك دورة بين الليل والنهار ، ذلِكَ التسيير بالحساب المعلوم ، هو تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الذي قهرهما بعزته ، وسيرهما على ذلك السير البديع بعلمه وحكمته.

الإشارة : إذا أحب اللّه عبدا فلق حبة قلبه بعشقه ومحبته ، وفلق نواة عقله بالتبصر فى عجائب قدرته ، فلا يزال قلبه يميل إلى حضرته ، وعقله يتشعشع أنواره بازدياد تفكره فى عجائب عظمته ، حتى تشرق عليها شمس العرفان ، فيفلق عمود فجرها عن ظلمة ليل وجود الإنسان ، فيصير حيا بمعرفته ، بعد أن كان ميتا بجهله وغفلته ، فيميته عن شهود نفسه ، ثم يحييه بشهود ذاته ، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ، جاعل ليل العبودية سكنا ، وشمس العرفان وقمر الإيمان حسبانا ، تدور الفكرة بأنوارهما ، كما يدور الفلك بالشمس والقمر الحسّيين ، ذلك تقدير العزيز العليم.

ثم ذكر برهانا آخر ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٩٧]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها أي : ببعضها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ أي : فى ظلمات الليل فى البر والبحر ، وأضاف الظلمات إليهما لملابستها بهما ، أو فى مشتبهات الطرق فى البر والبحر ، وسماها ظلمات على الاستعارة ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ بيناها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ فإنهم المنتفعون بها.

الإشارة : جعل الحق - جل جلاله - نجوم العلم يهتدى السائرون بها فى مشكلات أمور الشريعة

وأمور الحقيقة ، فلبر الشريعة علم يسير به أهله إلى جنته ورضوانه ، ولبحر الحقيقة علم يسير به أهلها الطالبون لها إلى معرفة ذاته وصفاته ، وشهودها فى حال جلاله وجماله ، ولله در المجذوب رضى اللّه عنه ، حيث قال :

العلم مرايا من هند ، والجهل صندوق راشى من لا قرايش يعرف اللّه ما هو مبنى على شى «١»

ثم ذكر دليلا آخر ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٩٨]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨)

---

(١) زجل بلهجة مغربية. [.....]

قلت : من قرأ (مستقر) بفتح القاف ، فمصدر ، أو اسم مكان ومن قرأه بالكسر فاسم فاعل ، وعلى كل - هو مبتدأ ، حذف خبره الجار والمجرور ، أي : لكم مستقر.

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ آدم عليه السّلام فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ أي : فلكم استقرار فى الأصلاب أو فوق الأرض ، واستيداع فى الأرحام أو تحت الأرض ، أو موضع استقرار واستيداع فيهما ، أو : فمنكم مستقّر فى الأصلاب أو فى الأرض ، أي : قارّ فيهما ، ومنكم مستودع فى الأرحام أو تحت الأرض.

وقيل : الاستقرار : فى الأرحام ، والاستيداع : فى الصلب ، بدليل قوله : وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ «١».

قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ أي : يفهمون دقائق أسرار القدرة ، ذكر مع النجوم : يَعْلَمُونَ لأن أمرها ظاهر ، وذكر مع تخليق بنى آدم : يَفْقَهُونَ لأن إنشاءهم من نفس واحدة ، وتصريفهم على أحوال مختلفة ، دقيق يحتاج إلى زيادة تفهم وتدقيق نظر.

الإشارة : بعض الأرواح مستقرها الفناء فى الذات ، ومستودعها الفناء فى الصفات ، وهم العارفون من أهل الإحسان ، وبعضها مستقرها الفناء فى الصفات ، ومستودعها الاستشراف على الفناء فى الذات ، وهم أهل الإيمان بالغيب. وقال الورتجبي : بعض الأرواح مستقرها الصفات ، ومستودعها الذات ، بنعت البقاء فى الصفات ، والفناء فى الذات لأن القدم منزه أن يحل فيه الحدث. هـ.

ثم ذكر برهانا آخر ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٩٩]

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

قلت : الضمير فى (منه) : يعود على النبات ، و(خضرا) : نعت لمحذوف ، أي : شيئا خضرا ، و(قنوان) : مبتدأ ، و(من النخل) : خبر ، و(من طلعها) : بدل ، والطّلع : أول ما يخرج من التمر فى أكمامه ، والقنوان : جمع قنو ، وهو العنقود من التمر ، و(مشتبها) : حال من الزيتون والرمان ، أو من كل ما تقدم من النبات ، و(جنات) : عطف على (نبات كل شى ء). و(ينعه) أي : نضجه وطيبه ، يقال : ينعت الثمرة ، إذا أدركت وطابت.

---

(١) من الآية ٥ من سورة الحج.

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ أي : السحاب أو جانب السماء ، ماءً فَأَخْرَجْنا ، فيه الالتفات من الغيبة إلى التكلم ، بِهِ أي : بذلك الماء ، نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ أي : نبات كل صنف من النبات على اختلاف أنواعه ، فالماء واحد والزهر ألوان ، فَأَخْرَجْنا مِنْهُ أي : من النبات ، شيئا خَضِراً وهو ما يتولد من أصل النبات من الفراخ ، نُخْرِجُ مِنْهُ أي : من الخضر ، حَبًّا مُتَراكِباً وهو السنبل لأن حبه بعضه فوق بعض ، وكذلك الرمان والذرة وشبهها ، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ أي : ويخرج من طلع النخل عناقيد متدانية قريبة من المتناول ، أو ملتفة ، قريب بعضها من بعض ، وإنما اقتصر على المتدانى دون العالي لزيادة النعمة والتمكن من النظر فيه ، دون ضده.

وَأخرجنا أيضا بذلك الماء ، جَنَّاتٍ أي : بساتين ، مِنْ أَعْنابٍ مختلفة الألوان والأصناف وَأخرجنا به الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ على اختلاف أصنافها ، مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ أي : من النبات والثمار ما يشبه بعضه بعضا ، فى اللون والطعم والصورة ، ومنه ما لا يشبه بعضه بعضا ، وفى ذلك دليل قاطع على الصانع المختار القدير العليم المريد ، ولذلك أمر بالنظر والاعتبار فقال : انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ أي : انظروا إلى ثمرة كل واحد من ذلك إِذا أَثْمَرَ ، وَانظروا إلى يَنْعِهِ إذا ينع ، أي : طاب ونضج ، والمعنى :

انظروا إلى ثمره أول ما يخرج ضعيفا لا منفعة فيه ، ثم ينتقل من طور إلى طور ، حتى يينع ويطيب.

إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ دالة على وجود الحكيم ووحدانيته ، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع

المتفننة ، ونقلها من حال إلى حال ، لا يكون إلا بإحداث قادر ، يعلم تفاصيلها ، ويرجّح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ، ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه ، أو ضد يعانده ، ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك فقال : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ ... إلخ. قاله البيضاوي.

الإشارة : من كحّل عينه بإثمد التوحيد ، غرق الكائنات كلها فى بحر التوحيد والتفريد ، فكل ما يبرز لنا من المظاهر والمطالع ، ففيه نور من جمال الحضرة ساطع ، ولذلك قال ابن الفارض رضى اللّه عنه :

عينى لغير جمالكم لا تنظر وسواكم فى خاطرى لا يخطر

وقال الششترى رضى اللّه عنه :

انظر جمالى شاهدا فى كلّ إنسان

كالماء يجرى نافذا فى أس الأغصان

يسقى بماء واحد والزّهر ألوان

وقال صاحب العينية :

تجلّى حبيبى فى مرائى جماله ففى كلّ مرئى للحبيب طلائع

فلمّا تبدى حسنه متنوّعا تسمّى بأسماء فهن مطالع

فما برز فى عالم الشهادة هو من عالم الغيب على التحقيق ، فرياض الملكوت فائضة من بحر الجبروت ، (كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان) ، ولا يعرف هذا ذوقا إلا أهل العيان ، الذين وحدوا اللّه فى وجوده ، وتخلصوا من الشرك جليه وخفيه ، الذي أشار إليه بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٠٠ الى ١٠٢]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)

قلت : (الجن) : مفعول أول لجعلوا ، و(شركاء) : مفعول ثان ، وقدّم لاستعظام الإشراك ، أو (شركاء) : مفعول أول ، و(للّه) : فى موضع المفعول الثاني ، و(الجن) : بدل من شركاء ، وجملة (خلقهم) : حال ، و(بديع) : خبر عن مضمر ، أو مبتدأ وجملة (أنّى) : خبره ، وهو من إضافة الصفة إلى مفعولها أي : مبدع السموات ، أو إلى فاعلها : أي : بديع سمواته ، من بدع إذا كان على نمط عجيب ، وشكل فائق ، وحسن لائق.

يقول الحق جل جلاله ، توبيخا للمشركين : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ في عبادته ، وهم الْجِنَّ أي : الملائكة لاجتنانهم أي : استتارهم ، فعبدوهم واعتقدوا أنهم بنات اللّه ، أو الجن حقيقة ، وهم الشياطين لأنهم أطاعوهم كما يطاع اللّه تعالى ، أو : عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم ، فقد أشركوا مع اللّه ، وَالحال أن اللّه قد خَلَقَهُمْ أي : الجن أي : عبدوهم وهم مخلوقون ، أو الضمير للمشركين ، أي : عبدوا الجن ، وقد علموا أن اللّه قد خلقهم دون الجن لعجزه ، وليس من يخلق كمن لا يخلق. وَخَرَقُوا لَهُ أي : اختلفوا وافتروا ، أو زوروا برأيهم الفاسد له بَنِينَ كالنصارى في المسيح ، واليهود في عزير ، وَبَناتٍ كقول العرب في الملائكة : إنهم بنات اللّه - تعالى اللّه عن قولهم - قالوا ذلك بِغَيْرِ عِلْمٍ أي : بلا دليل ولا حجة ، بل مجرد افتراء وكذب ، سُبْحانَهُ وَتَعالى أي : تنزيها له ، وتعاظم قدره عَمَّا يَصِفُونَ من أن له ولدا أو شريكا.

(١٥١/٢)

وكيف يكون له الولد أو الشريك ، وهو بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ؟. أي : مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه ، ولا قانون ينتحيه ، والمعنى : أنه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوي والسفلى بلا مادة لأنه تعالى منزه عن الأفعال بالمادة. والوالد عنصر الولد ، ومنفصل بانتقال مادته عنه ، فكيف يمكن أن يكون له ولد؟. ولذلك قال :

أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ أي : من أين ، أو كيف يكون له ولد ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ يكون منها الولد ، فإن انتفاء الصاحبة مستلزم لانتفاء الولد ، ضرورة استحالة وجود الولد بلا والدة في العادة ، وانتفاء الصاحبة مما لا ريب فيه ، وكيف أيضا يكون له ولد وَقد خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولدا لخالقه؟ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أي : أحاط بما من شأنه أن يعلم كائنا ما كان ، فلا تخفى عليه خافية مما كان ، ومما سيكون من الذوات والصفات ، ومن جملتها : ما يجوز عليه تعالى وما يستحيل كالولد والشريك.

ذلِكُمُ المنعوت بما ذكر من جلائل الصفات ، هو اللَّهُ المستحق للعبادة خاصة ، رَبُّكُمْ أي : مالك أمركم لا شريك له أصلا ، خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، مما كان وسيكون ، ولا تكرار مع ما قبله لأن المعتبر فيما تقدم خالقيته لما كان فقط ، كما تقتضيه صيغة الماضي ، بخلاف الوصف يصلح للجميع ، وإذا تقرر أنه خالق كل شيء فَاعْبُدُوهُ فإن من كان خالقا لكل شيء ، جامعا لهذه الصفات ، هو المستحق للعبادة وحده ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أي : هو متولى أمور جميع عباده ومخلوقاته ، التي أنتم من جملتها ، فكلوا أمركم إليه ، وتوسلوا بعبادته إلى جميع مآربكم الدنيوية والأخروية ، فإنه يكفيكم أمرها بقدرته

وحفظه.

الإشارة : كل من خضع لمخلوق فى نيل حظ دنيوى ، إنسيا أو جنيا ، أو أطاعه فى معصية الخالق ، فهو مشرك به مع ربه ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً «١» ، فلذلك عمل الصوفية على مجاهدة نفوسهم فى مخالفة الهوى لئلا تميل بهم إلى شيء من السّوى ، وتحرروا من رق الطمع ، وتوجهوا بهمتهم إلى الحق وحده ، ليتبرأوا من أنواع الشرك كلها ، جليها وخفيها. حفظنا اللّه بما حفظهم به. آمين.

ثم عرّف بذاته المقدسة ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠٣]

لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)

يقول الحق جل جلاله : لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ أي : لا تحيط به ، ولا تناله بحقيقته ، وعن ابن عباس : (لا تدركه فى الدنيا ، وهو يرى فى الآخرة) ، ومذهب الأشعرية : أن رؤية اللّه فى الدنيا جائزة عقلا ، لأن موسى عليه السّلام سألها ، ولا يسأل موسى ما هو محال ، وأحالته المعتزلة مطلقا ، وتمسكوا بالآية ، ولا دليل فيها لأنه ليس الإدراك مطلق الرؤية ، ولا النفي فى الآية عامّا فى الأوقات ، فلعله مخصوص ببعض الحالات ، ولا فى الأشخاص فإنه فى قوة قولنا : لا كل بصر يدركه ، مع أن النفي لا يوجب الامتناع. قاله البيضاوي.

---

(١) الآية ١١٦ من سورة النساء

ثم قال تعالى : وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ أي : يحيط علمه بها إذ لا تخفى عليه خافية ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ فيدرك ما لا تدركه الأبصار ، ويجوز أن يكون تعليلا للحكمين السابقين على طريق اللفّ ، أي : لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف ، وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير ، فيكون اللطيف مقابلا للكثيف ، لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها. قاله البيضاوي وأبو السعود.

الإشارة : اعلم أن الحق جل جلاله قد تجلى لعباده فى مظاهر الأكوان ، لكنه لحكمته وقدرته ، قد تجلى بين الضدين ، بين الأنوار والأسرار ، بين الحس والمعنى ، بين مظهر الربوبية وقالب العبودية. فالأنوار ما ظهر من الأواني ، والأسرار ما خفى من المعاني ، فالحس ما يدرك بحاسة البصر ، والمعنى ما يدرك بالبصيرة. فالحس رداء للمعنى ، فمن فتح اللّه بصيرته استولى نور بصيرته على نور بصره ،

فأدرك المعاني خلف رقة الأوانى ، فلم تحجبه الأوانى عن المعاني ، بل تمتحق فى حقه الأوانى ، ولا يرى حينئذ إلا المعاني. لذلك قال الحلاج ، لما سئل عن المعرفة ، قال : (استهلاك الحس فى المعنى) ، فإذا فنى العبد عن شهود حسّه بشهود معناه ، غاب وجوده فى وجود معبوده ، فشاهد الحقّ بالحق. فالعارفون لمّا فنوا عن أنفسهم ، لا يقع بصرهم إلا على المعاني ، فهم يشاهدون الحق عيانا. ولذلك قال شاعرهم :

مذ عرفت الإله لم أر غيرا وكذا الغير عندنا ممنوع

وقال فى الحكم : «ما حجبك عن الحقّ وجود موجود معه إذ لا شىء معه ، وإنّما حجبك توهّم موجود معه».

وقوله تعالى : لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ أي : الأبصار الحادثة ، وإنما تدركه الأبصار القديمة فى مقام الفناء.

وقال الورتجبي : لا تدركه الأبصار ، إلا بأبصار مستفادة ، من أبصار جلاله ، وكيف يدركه الحدثان؟ ووجود الكون عند ظهور سطوات عظمته عدم. هـ. أو لا تحيط به ، إذ الإحاطة بكنه الربوبية متعذرة.

وعلى هذا حمل الآية فى نوادر الأصول ، قال : إدراك الهوية ممتنع ، وإنما يقع التجلي بصفة من صفاته.

وقال ابن عبد الملك فى شرح مشارق الصغاني ، ناقلا عن المشايخ : إنما يتجلى اللّه لأهل الجنة ، ويريهم ذاته تعالى ، فى حجاب صفاته ، لأنهم لا يطيقون أن يروا ذاته بلا حجاب مرتبة من مراتب الصفات. وقال الورتجبي :

التجلي لا يكون بكلية الذات ، ولا بكلية الصفات ، وإنما يكون على قدر الطاقات ، فيستحيل أن يقال : تجلى كل الهوى لذرة واحدة ، وإنما يتجلى لها على قدرها. هـ.

وتتفاوت الناس فى لذّة النظر يوم القيامة على قدر معرفتهم فى الدنيا ، وتدوم لهم النظرة على قدر استغراقهم هنا ، فمن كان هنا محجوبا لا يرى إلا الحس ، كان يوم القيامة كذلك ، إلا فى وقت مخصوص ، يغيبه الحق تعالى

(١٥٣/٢)

عن حسه ، فيشاهد معانى أسرار الربوبية فى مظاهر أنوار صفاته. ومن كان هنا مفتوحا عليه فى شهود المعاني ، كان يوم القيامة كذلك ، لا تغيب عنه مشاهدة الحق ساعة.

قال الغزالي فى كتاب الأربعين : إذا ارتفع الحجاب بعد الموت انقلبت المعرفة بعينها مشاهدة. قلت : ومعنى كلامه : أن ما عرفه به هنا من التجليات ، صار بعينه هناك مشاهدة لأن المعنى هناك غالب على

الحس ، بخلاف دار الدنيا ، الحس فيها غالب ، إلّا لمن غاب عنه واستهلكه. ثم قال : ويكون لكل واحد على قدر معرفته ، ولذلك تزيد لذة أولياء اللّه تعالى فى النظر على لذة غيرهم ، ولذلك يتجلى اللّه تعالى لأبى بكر خاصة ، ويتجلى للناس عامة.

وقال في الإحياء : ولمّا كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي على درجات متفاوتة ، ثم ذكر حديث التجلي لأبى بكر المتقدم. ثم قال : فلا ينبغى أن يظن أن غير أبى بكر ، ممن هو دونه ، يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر ، بل لا يجده ، إلا عشر عشره ، إن كانت معرفته فى الدنيا عشر عشره ، ولما فضل الناس بسر وقر فى صدره ، فضل لا محالة بتجلّ انفرد به.

وقال أيضا : يتجلى الحق للعبد ، تجليا يكون الكشاف تجلّيه ، بالإضافة إلى ما علمه ، كانكشاف تجلى المرئيات بالإضافة إلى ما تخيله – أي : إلى ما وصفه له الواصف. ثم قال : وهذه المشاهدة والتجلي هى التي تسمى رؤية ، ثم قال : المعرفة الحاصلة فى الدنيا هى التي تستكمل ، فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة فى الآخرة والمعلوم فى الدنيا اختلاف ، إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح. وقال أيضا : وبحر المعرفة لا ساحل له ، والإحاطة بكنه جلاله محال ، وكلما كثرت المعرفة وقويت كثر النعيم فى الآخرة ، وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن ، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا فى الدنيا ، ولا يزرع إلا فى صعيد القلب ، ولا حصاد إلا فى الآخرة. هـ.

قال شيخنا مولاى العربي رضى اللّه عنه : بل الرجال زرعوا اليوم وحصدوا اليوم. وفى تفسير الأقليشى لقوله : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ «١» : ليس لهذه الهداية – مادام العبد فى الدنيا – نهاية ، حتى إذا حصل فى جوار الجبار ، ونظر إلى وجهه العظيم ، كان حظه من النعيم بقدر ما هداه فى الدنيا لصراطه المستقيم. هـ. وقال فى نوادر الأصول : فى الحديث : «إنّ من أهل الجنّة من ينظر إلى اللّه عزّ وجلّ غدوة وعشيّا». وروى عن معاذ أنه قال : «صنف من أهل الجنّة من ينظر إلى اللّه عزّ وجلّ ، لا يستر الربّ عنهم ولا يحتجب» ثم قال : وذكر أن الرضوان آخر ما ينال أهل الجنة ، ولا شيء أكبر منه ، وكل عبد من أهل الجنة حظه من الرضوان هناك فيها على قدر جوده بنفسه على اللّه فى الدنيا. هـ.

---

(١) الآية ٦ من سورة الفاتحة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٥٥

وقوله تعالى : وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ، قال الورتجبي : هو بلطف ذاته ممتنع عن مطالعة خلقه ، مع علو

شأن علمه وإحاطته بجميعهم ، وجودا وعدما ، أي : وإنما يرى بنوره ، لا بالحواس الخفاشية ، فإنها تضعف عن مقاومة شعاعه ، وتنخنس عند انكشاف سبحانه. هـ. على نقل الحاشية الفاسية. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان الاطلاع على هذه الأسرار ، به تنفتح البصائر ، أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠٤]

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤)

قلت : البصائر : جمع بصيرة ، وهى عين القلب ، كما أن البصر عين البدن ، فالبصيرة ترى المعاني القديمة ، والبصر يرى الحسيات الحادثة.

يقول الحق جل جلاله : قَدْ جاءَكُمْ أيها الناس بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ أي : براهين توحيده ، ودلائل معرفته ، حاصلة من ربكم ، تنفتح بها البصائر ، وتبصر بها أنوار قدسه ، فَمَنْ أَبْصَرَ الحق ، وآمن به ، واستعمل الفكر فيه حتى عرفه ، فَلِنَفْسِهِ أبصر ، ولها نفع ، وَمَنْ عَمِيَ عنها ، ولم يرفع بها رأسا ، وضل عن الحق ، فَعَلَيْها وباله وضرره ، ولا يتضرر بها غيره ، وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ أرقب أعمالكم وأجازيكم ، وإنما أنا منذر ، واللّه هو الحفيظ عليكم ، يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها.

الإشارة : البصيرة كالبصر ، أدنى شىء يقع فيها يضرّ بناظرها ، وهى على أقسام : منها ما تكون عمياء ، والعياذ بالله ، وهى التي فسد ناظرها بفساد الاعتقاد ، كبصيرة الكفار ومن قاربهم ، ومنها ما تكون مريضة فقط ، لا تقاوم شعاع شمس التوحيد الخاص ، وهى بصيرة أهل الغفلة ، ومنها ما يخف مرضها فيكون لها شعاع ، تدرك قرب نور الحق منها وهى بصيرة المتوجهين من العباد والزهاد ونهاية الصالحين.

ومنها ما تكون قريبة البرء والصحة ، قد انفتحت ، لكنها حيرى لما فاجأها من النور ، وهى بصيرة المريدين السائرين من أهل الفناء ، ومنها ما تكون صحيحة قوية ، قد تمكنت من شهود الأنوار ، ورسخت فى بحر الأسرار ، وهى بصيرة العارفين المتمكنين فى مقام البقاء ، وقد أشار فى الحكم إلى الثلاثة فقال : «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق لاعدمك ولا وجودك ، كان اللّه ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان».

وذكر هذه الآيات ، سبب لضلال أهل الشقاء وهداية أهل العناية ، كما بيّن ذلك بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠٥]

وَكَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٥٦
قلت : تصريف الشيء : إجراؤه على أحوال متعاقبة وجهات مختلفة ، ومنه : تصريف الرياح لهبوبها من جهات مختلفة ، ولما كانت آيات القرآن تنزل على أنواع مختلفة فى أوقات متعاقبة ، شبهت ، بتصريف الرياح على أنحاء مختلفة ، (و ليقولوا) : متعلق بمحذوف ، أي : وليقولوا : درست ، صرفنا الآيات ، واللام للعاقبة ، وكذلك : (و لنبينه) :
المتعلق واحد.
يقول الحق جل جلاله : ومثل ذلك التصريف الذي صرفنا من الآيات ، من قوله : إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى «١» إلى قوله : قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ «٢» - نُصَرِّفُ الْآياتِ فى المستقبل لتكون عاقبة قوم الشقاء بها بتكذيبهم إياها ، وَلِيَقُولُوا لك : دارست «٣» أهل الكتاب ، وتعلمت ذلك منهم ، وليس بوحي ، أو دَرَسْتَ هذه الأخبار وعفت ، وأخبرت بها من إملاء غيرك عليك ، كقولهم : أساطير الأولين ، وليكون عاقبة قوم آخرين الاهتداء ، وإليهم الإشارة بقوله : وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أي : وليتضح معناه عند قوم آخرين ، فيهتدوا به إلى معرفتي وتوحيدى ومحل رضوانى وكرامتى ، فالخطاب متحد ، والأثر مختلف على حسب السابقة.
الإشارة : ظهور الآيات على يد أهل الخصوصية - كالعلوم اللدنية والمواهب الربانية - لا يوجب لهم التصديق لجميع الخلق ، فلو أمكن ذلك لكان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أولى به ، بل لا بد من الاختلاف ، فقوم قالوا : هذه العلوم ... دارس فيها وتعلمها ، وقوم قالوا : بل هى من عند اللّه لا كسب فيها ، قال تعالى : وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ «٤».
ثم أمر نبيه بالإعراض عن أهل الإنكار ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]
اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧)
يقول الحق جل جلاله : اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ بالدوام على التمسك به ، والاهتداء بهديه ، ودم على توحيده ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فلا تصغ إلى من يعبد معه غيره ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، فلا تحتفل بأقوالهم ، ولا تلتفت إلى رأيهم ، وهذا محكم ، أو : أعرض عن عقابهم وقتالهم ، وهو منسوخ بآية السيف ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا : لكن سبقت مشيئته بإشراكهم ، ولو أراد إيمانهم لآمنوا ، وهو حجة على المعتزلة ، وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً : رقيبا ، وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ تقوم بأمرهم ، وتلجئهم إلى الإيمان إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ «٥».

---

(١) الآية ٩٥ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ١٠٤ من السورة نفسها.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (دارست) بألف ، وقرأ ابن عامر ويعقوب (درست) أي : قدمت وبليت ، وقرأ الباقون (درست) أي : حفظت وقرأت .. انظر : إتحاف فضلاء البشر.

(٤) الآية ١١٨ من سورة هود.

(٥) الآية ٢٣ من سورة فاطر.

الإشارة : الإعراض عن الخلق والاكتفاء بالملك الحق ركن من أركان الطريق ، قال الشيخ زروق رضى اللّه عنه : أصول الطريقة خمسة أشياء : تقوى اللّه فى السر والعلانية ، واتباع الرسول فى الأقوال والأفعال ، والإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار ، والرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء ، والرضا عن اللّه فى القليل والكثير. هـ.

ثم نهى عن التعرض لأصنامهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠٨]

وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَسُبُّوا أصنامهم الَّذِينَ يدعونها آلهة ، ويخضعون لها مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : ولا تذكروا آلهتهم بسوء ، فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً أي : ظلما وتجاوزا عن الحق إلى الباطل ، بِغَيْرِ عِلْمٍ أي : على جهالة بالله تعالى ، وبما يجب أن يذكر به من التعظيم ، روى أنه صلّى اللّه عليه وسلّم كان يطعن فى آلهتهم ، فقالوا : لتنتهين عن آلهتنا أو لنهجون إلهك ، فنزلت. وقيل : كان المسلمون يسبون آلهتهم ، فنهوا لئلا يكون سبهم سببا لسب اللّه تعالى ، واستدل المالكية بهذا على سد الذرائع. قال البيضاوي : وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت لمعصية راجحة وجب تركها ، فإنّ ما يؤدى إلى الشر شر. هـ. وقال ابن العربي : وقاية العرض بترك سنة واجب فى الدنيا. هـ.

قال تعالى : كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ من الخير والشر ، نحملهم على ما سبق لهم توفيقا أو تخذيلا ، أو يكون مخصوصا بالشر ، أي : زيّنا لكل أمة من الكفرة عملهم السوء كسب اللّه تعالى وغيره من الكفر ، ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ من الخير فيجازيهم عليه ، أو من الشر فيعاقبهم عليه.

الإشارة : العارف الكامل لا ينقص شيئا من مصنوعات اللّه ، ولا يصغر شيئا من مقدورات اللّه ، بل يتأدب مع كل شىء لرؤية صنعة اللّه فى كل شىء ، وكذلك المريد اللبيب ، يتأدب مع كل من ظهر

بالخصوصية فى زمنه ، كان صادقا أو كاذبا لئلا يؤدى إلى تنقيص شيخه ، حين يذكر غيره بنقص أو غض. وفى الحديث : «لعن اللّه من يسبّ والديه ، فقالوا :
وكيف يسبّ والديه يا رسول اللّه؟ قال : يسبّ أبا الرجل فيسب الرجل أباه وأمه» «١» أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم.
ثم ردّ عليهم فى اقتراح الآيات ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٠٩ الى ١١٠]
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)

---

(١) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب : لا يسب الرجل والديه) ومسلم فى (الإيمان ، باب : بيان الكبائر) عن عبد اللّه بن عمرو.
ولفظ البخاري : «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قيل : يا رسول اللّه وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه».

قلت : (جهد) : مصدر لعامل محذوف ، أي : واجتهدوا جهد أيمانهم ، وهو حال ، أي : وأقسموا جاهدين أيمانهم ، ومن قرأ : (أنها) بالفتح ، فهو مفعول بيشعركم ، أي : وما يدريكم أن الآيات إذا جاءت لا يؤمنون ، وقيل : (لا) :
مزيدة ، أي : وما يدريكم أنهم لا يؤمنون إذا رأوها ، وقيل : أن ، هنا ، بمعنى لعل. ومن قرأ بالكسر فهو استئناف ، وتم الكلام فى قوله : (و ما يشعركم) أي : وما يشعركم ما يكون منهم ، فعلى القراءة بالكسر ، يوقف على : (ما يشعركم) ، وأما على القراءة بالفتح ، فإن كانت أنّ - مصدرية لم يوقف عليه لأنه عامل فيها ، وإن كانت بمعنى : لعل ، فأجاز بعض الناس الوقف ، ومنعه بعضهم.
يقول الحق جل جلاله : وَأَقْسَمُوا أي : المشركون ، بِاللَّهِ واجتهدوا فى أيمانهم ، لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ ظاهرة يشاهدونها ، لَيُؤْمِنُنَّ بِها وبمن جاء بها ، قُلْ لهم : إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وفى قدرته وإرادته ، يظهرها حيث شاء ، وليس فى قدرتى منها شيء ، وَما يُشْعِرُكُمْ أي : وما يدريكم أيها المؤمنون ، أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ بها ، لما سبق لهم من الشقاء ، وقد كان المؤمنون يتمنّون إنزالها طمعا فى إيمانهم ، وفيه

تنبيه على أنه تعالى إنما لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ بها. وقيل : الخطاب للمشركين ، ويتأتى هذا على كسر «إن» ، أو على قراءة ابن عامر وحمزة : لا تؤمنون بتاء الخطاب ، وقرىء : وما يشعرهم بالغيبة ، فيكون إنكارا لهم على حلفهم.
ثم ذكر سبب عدم إيمانهم فقال : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ عند نزول الآية ، أي : نصرف قلوبهم ونحولها عن الحق ، فلا يفقهون بها ، ونقلب أبصارهم عن النظر والتفكر ، فلا يبصرون بها الحق ، فيصرفون عن الإيمان بما أنزل إليك كما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أي : بما أنزل من الآيات ، أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ أي :
في كفرهم وجحدهم يَعْمَهُونَ أي : يتحيرون ، فلا نهديهم هداية المؤمنين.
الإشارة : سألني بعض العوام ، فقال لي : ليس لكم ولا لأصحابكم كرامات تظهر فيمن آذاكم ، فقد كان أصحاب سيدى فلان وفلان يظهرون الكرامات ، وينفذون في من آذاهم؟! فقلت له : نحن على قدم نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم ، أرسله اللّه رحمة للعالمين ، فقد أوذى وضرب ، فلما خيّره ملك الجبال في أن يطبق عليهم الأخشبين - أي الجبلين - قال : «لا ، لعل اللّه تعالى يخرج منهم من يعبد اللّه» ، وقال حين أكثروا إيذاءه : «اللهمّ اغفر لقومى فإنّهم لا يعلمون» ، فالأولياء المحققون : رحمة للعباد ، يتحملون أذاهم ، ويتوجهون لمن آذاهم في الدعاء له بالهداية والتوفيق ، فهم قوم لا يشقى جليسهم ، جالسهم بالإنكار أو بالإقرار ، وقد ظهرت الكرامات على بعض الأولياء ولم ينقطع عنهم الإنكار ، فإنّ الإيمان أو التصديق بالنبي أو الولي إنما هو محض هداية من الكبير العلى ، كما بيّن ذلك بقوله :
[سورة الأنعام (٦) : آية ١١١]
وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)

قلت : (قبلا) : بكسر القاف معاينة ، وبضمتين : جمع [قبيل] «١» ، أي : ضمناء ، وهو حال.
يقول الحق جل جلاله ، في الرد على المشركين ، حين أقسموا : لئن رأوا آية ليؤمنن بها ، فقال تعالى : وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ تشهد لك بالنبوة كما اقترحوا ، وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى كما طلبوا بقولهم : فَأْتُوا بِآبائِنا «٢» ، وقالوا : إنّ قصيّا كان شيخ صدق ، فابعثه لنا يكلمنا ويشهد لك بما تدعى.
وَلو حَشَرْنا عَلَيْهِمْ أي : جمعنا عليهم ، كُلَّ شَيْءٍ من الحيوانات والجمادات ، معاينة ، أو ضمناء ،

تشهد لك بالرسالة والنبوة ، ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بك فى حال من الأحوال ، إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إيمانهم فيمن لم يسبق له الشقاء ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا ، فكيف يقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يعلمون؟! ، فالجهل بهذا المعنى حاصل لأكثرهم ، ومطلق الجهل حاصل لجميعهم ، أو : ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون ، فيتمنون نزول الآية طمعا فى إيمانهم. قاله البيضاوي.

الإشارة : فى الآية تسكين لقلوب الأولياء الداعين إلى اللّه ، حين يرون الخلق قد حادوا عن باب اللّه ، وتعلقت هممهم بالدنيا الدنية ، وتشتتت قلوبهم ، وضاعت عليهم أعمارهم ، فيتأسفون عليها ، فإذا تفكروا فى هذه الآية وأمثالها سكنوا وردوا أمر عباد اللّه إلى مشيئته وإرادته ، فلو شاء اللّه لهدى الناس جميعا ، ولا يزالون مختلفين :

(ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء اللّه). وبالله التوفيق.

ومما تعلقت به المشيئة ، وجرت به الحكمة ، أنه لا بد أن يبقى للنبى من يحرّكه إلى ربه ، كما أبان ذلك بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١١٢ الى ١١٣]

وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)

قلت : (شياطين) : بدل من (عدو) إذ هو بمعنى الجمع ، أو مفعول أول لجعلنا ، و(عدوا) : مفعول ثان ، والضمير فى (فعلوه) : للوحى ، أو للعداوة ، و(غرورا) : مفعول له ، أو مصدر فى موضع الحال (لتصغى) : عطف على غرورا ، أو متعلق بمحذوف ، أي : فعلنا ذلك لتصغى ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله ، فى تسلية نبيه - عليه الصلاة والسلام - : وكما جعلنا لك أعداء من الكفار ، جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا من شياطين الْإِنْسِ وَالْجِنِّ أي : من مردة الفريقين ، وشياطين الإنس أقبح لأنه يأتى فى

---

(١) فى الأصول : قبل.

(٢) كما جاء فى الآية ٣٦ من سورة الدخان

صورة ناصح ، لا يدفع بتعوذ ولا غيره. يُوحِي أي : يوسوس ، بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ ، فيوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس ، ثم يوسوس شياطين الإنس إلى من يريد الحق اختباره وابتلاءه ، يلقى إليه ذلك الشيطان زُخْرُفَ الْقَوْلِ أي : أباطيله ، أي : قولا مزخرفا مزوّقا غُرُوراً أي : لأجل الغرور ، فإن أراد اللّه خذلان ذلك العبد غره ذلك الشيطان بزخرف ذلك القول فيتبعه ، وإن أراد توفيقه وزيادته أيده وعصمه ، وكل شيء بقدره وقضائه ، وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ هدايتهم ما فعلوا ذلك الوحى ، أو ما ذكر من المعاداة للأنبياء ، فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ على اللّه من الكفر وغيره ، فلا تهتم بشأنهم.

وإنما فعلنا ذلك الإيحاء لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فيغتروا به ، وَلِيَرْضَوْهُ لأنفسهم ، وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ أي : وليكتسبوا من الإثم والكفر ما هم مكتسبون بسبب ذلك الوحى من الجن أو الإنس ، وفى الآية دليل لأهل السنة فى أن اللّه خالق الكفر والإيمان ، والطاعة والمعصية ، فالمعصية خلقها وقدرها ، ولم يرضها ، لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ «١».

الإشارة : كما جعل اللّه لكل نبى عدوّا من شياطين الإنس والجن جعل للأولياء كذلك تحويشا لهم إليه ، وتطهيرا لهم من البقايا ليصلحوا لحضرته ، قال فى الحكم : «إنما أجرى الأذى عليهم كى لا تكون ساكنا إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شى ء». وقال فى لطائف المدن : اعلم أن أولياء اللّه حكمهم فى بدايتهم أن يسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا ، وتكمل فيهم المزايا ، كى لا يساكنوا هذا الخلق باعتماد ، أو يميلوا إليهم باستناد ، ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه ، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه ، ولذلك قال صلّى اللّه عليه وسلّم :
«من أسدى إليكم نعما فكافئوه ، فإن لم تقدروا فادعوا له». كل ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخلق ، ويتعلق بالملك الحق. هـ.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى اللّه عنه : آذاني إنسان فضقت به ذرعا ، فرأيت يقال لى : من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لا يبالى بهم. وقال بعضهم : الصيحة من العدو ، سوط من اللّه يزجر بها القلوب إذا ساكنت غيره ، وإلا رقد القلب فى ظل العز والجاه ، وهو حجاب عن اللّه تعالى عظيم. هـ.
وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضى اللّه عنه : (عداوة العدو حقا : اشتغالك بمحبة الحبيب حقّا ، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو نال مراده منك ، وفاتتك محبة الحبيب). وقال بعض أشياخ الشعراني فى بعض وصاياه له : لا تشتغل قط بمن يؤذيك ، واشتغل باللّه يرده عنك فإنه هو الذي حركه عليك ليختبر دعواك فى الصدق ، وقد غلط فى هذا الأمر خلق كثير ، فاشتغلوا بأذى من آذاهم ، فدام الأذى مع الإثم ، ولو أنهم رجعوا إلى اللّه لردهم عنهم وكفاهم أمرهم. هـ.

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٦١
وهذا كله إنما يكون فى البدايات ، كما قال الشاذلي رضى اللّه عنه : (اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا) .. فإذا تمت أنوارهم وتطهرت من البقايا أسرارهم ، حكّمهم فى العباد ، وأذلهم لهم ، فيكون العبد المجتبى سيفا من سيوف اللّه ، ينتصر اللّه به لنفسه كما نبه على ذلك فى لطائف المنن. وذلك من أسرار عدم مشروعية الجهاد من أول الإسلام تشريعا لما ذكرنا ، وتحذيرا من الانتصار للنفس ، وعدم تمحض النصرة للحق. وعند الرسوخ فى اليقين ، والأمن من مزاحمة الصدق غيره ، وقع الإذن فى الجهاد ، هذا بالنسبة إلى الصحابة الكرام ، وأما النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فكامل من أول نشأته ، وإنما ذلك تشريع لغيره ، وترفيع لرتبته. واللّه تعالى أعلم.
ولما طلبوا من يحكم بينهم وبينه صلّى اللّه عليه وسلّم ، أنزل اللّه :
[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١١٤ الى ١١٥]
أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)
قلت : (غير) : مفعول ، و(حكما) : حال ، وهو أبلغ من حاكم ، ولذلك لا يوصف به غير العادل ، و(صدقا وعدلا) : تمييز ، أو حال ، أو مفعول له.
يقول الحق جل جلاله : قل يا محمد : أَفَغَيْرَ اللَّهِ أطلب حَكَماً يحكم بينى وبينكم ، ويفصل المحق منّا من المبطل ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ أي : القرآن المعجز ، مُفَصَّلًا مبينا ، قد بيّن فيه الحق من الباطل ، بحيث انتفى به الالتباس ، فهو الحاكم بينى وبينكم ، فلا أطلب حاكما غيره ، وفيه تنبيه على أن القرآن بإعجازه مغن عن سائر الآيات. وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ كأحبار اليهود ، يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لتصديقه ما عندهم ، وموافقته له فى كثير من الأخبار ، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فى أنهم يعلمون ذلك ، أو فى أنه منزل من ربك ، والمراد غيره - عليه الصلاة والسلام - ممن يطرقه ارتياب ، والمعنى : أن الأدلة تعاضدت على صحته ، فلا ينبغى لأحد أن يمترى فيه.
وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ آيات القرآن ، بلغت الغاية فى التمام والكمال ، صِدْقاً وَعَدْلًا أي : من جهة الصدق والعدل ، صدقا فى الأخبار والمواعيد ، وعدلا فى الأقضية والأحكام ، فلا أصدق منها فيما أخبرت ، ولا أعدل منها فيما حكمت ، لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ أي : لا أحد يقدر أن يبدل منها شيئا بما هو أصدق وأعدل ، ولا أن يحرف شيئا منها ، كما فعل بالتوراة ، فهو ضمان من الحق لحفظ القرآن ، كما قال : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «١»

(١) الآية ٩ من سورة الحجر.

(١٦١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٦٢

أو : لا نبى ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها ، وَهُوَ السَّمِيعُ لكل ما يقال ، الْعَلِيمُ بكل ما يضمر ، فمن ألحد أو بدل فالله عليم به.

الإشارة : من قواعد أهل التصوف : الرجوع إلى اللّه فى كل شىء ، والاعتماد عليه فى كل نازل ، والتحاكم إلى اللّه فى كل أمر ، إن توقفوا فى حكم رجعوا إلى كتاب اللّه ، فإن لم يجدوه نصا ، رجعوا إلى سنة رسول اللّه ، فإن لم يجدوه ، استفتوا قلوبهم ، وفى الحديث عنه : «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك». وفى بعض الآثار قالوا :

يا رسول اللّه أرأيت إن اختلفنا بعدك ، ولم نجد نصّا فى كتاب اللّه ولا فى سنة رسول اللّه؟ قال : «ردوه إلى صلحائكم ، واجعلوه شورى بينهم ولا تتعدّوا رأيهم». أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم نهى عن الركون إلى الجهال ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١١٦ الى ١١٧]

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦)
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)

قلت : (من يضل) : موصولة ، أو موصوفة فى محل نصب بفعل دل عليه «أعلم» ، أي : يعلم من يضل ، فإن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به إجماعا. أو مبتدأ ، والخبر : «يضل» على أن (من) استفهامية ، والجملة : معلق عنها الفعل المقدر ، كقوله تعالى : لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى «١».

يقول الحق جل جلاله لرسوله - عليه الصلاة والسلام - ولمن كان على قدمه : وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ من الكفار أو الجهال أو من اتبع هواه يُضِلُّوكَ عَنْ طريق اللَّهِ ، الموصلة إلى معرفته ، وحلول رضوانه ، فإن الضال لا يأمر إلا بما هو فيه ، مقالا أو حالا. والمراد بهم : من لا يقين عندهم ، بل إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وهو ما استحسنته عقولهم ، إما تقليدا ، كظنهم أن آباءهم كانوا على الحق ، أو ما ابتدعوه برأيهم الفاسد من العقائد الزائفة والآراء الفاسدة ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أي : يكذبون على اللّه فيما ينسبون إليه كاتخاذ الولد ، وجعل عبادة الأوثان وصلة إلى اللّه ، وتحليل الميتة وتحريم البحائر ، أو يقدّرون فى عقولهم أنهم على شىء ، وكل ذلك عن تخمين وظن لا يقين فيه ، ثم قال لنبيه : إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ أي : هو عالم بالفريقين ، لا يخفى عليه أهل

الحق من أهل الباطل.
الإشارة : مخالطة العموم والركون إليهم والمعاملة معهم سموم قاتلة ، قال بعض الصوفية : قلت لبعض الأبدال :
كيف الطريق إلى التحقيق والوصول إلى الحق؟ قال : لا تنظر إلى الخلق ، فإن النظر إليهم ظلمة ، قلت : لا بد لي ،

---

(١) من الآية ١٢ من سورة الكهف. [.....]

قال : لا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة ، قلت : لا بد لي ، قال : فلا تعاملهم ، فإنّ معاملتهم خسران وحسرة ووحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم ، لا بد لي من معاملتهم ، قال : لا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة ، قلت : هذا لعله يكون ، قال : يا هذا ، تنظر إلى اللاعبين ، وتسمع إلى كلام الجاهلين ، وتعامل البطّالين ، وتسكن إلى الهلكى ، وتريد أن تجد حلاوة المعاملة فى قلبك مع اللّه عز وجل!! هيهات ، هذا لا يكون أبدا. هـ.
وفى الخبر المروي عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «أخوف ما أخاف على أمتى ضعف اليقين» «١». وإنما يكون برؤية أهل الغفلة ومخالطة أرباب البطالة والقسوة ، وتربية اليقين وصحته إنما تكتسب بصحبة أهل اليقين واستماع كلامهم ، والتودد إليهم وخدمتهم. وفى بعض الأخبار : (تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين) ، وفى رواية : «فإنّى أتعلّمه» ، والحاصل : أن الخير كله فى صحبة العارفين الراسخين فى عين اليقين. أو حق اليقين ، وما عداهم يجب اعتزالهم ، كيفما كانوا ، إلا بقصد الوعظ والتذكير ، ثم يغيب عنهم ، وإلى هذا أشار ابن الفارض رضى اللّه عنه بقوله :
تمسّك بأذيال الهوى واخلع الحيا وخلّ سبيل النّاسكين وإن جلّوا
وبالله التوفيق.
وأصل تنوير القلب باليقين والمعرفة : هو أكل الحلال وتجنب الحرام ، كما بيّنة الحق تعالى بقوله :
[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١١٨ الى ١٢١]
فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَما لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ

(١٢٠) وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)

يقول الحق جل جلاله : فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ عند ذبحه ، ولا تتورعوا منه ، إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ ، فإن الإيمان يقتضى استباحة ما أحل اللّه تعالى ، واجتناب ما حرمه ، وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ أي : ما يمنعكم منه ، وأىّ غرض لكم فى التحرّج عن أكله؟. وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ فى الكتاب ،

---

(١) ذكره بنحوه السيوطي فى الجامع الصغير ، وعزاه للطبرانى فى الصغير والبيهقي فى الشعب ، من حديث أبى هريرة ، وحسنّه.

أو فصّل اللّه لكم ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ مما لم يحرم بقوله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ... الآية «١» إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ مما حرم عليكم فإنه حلال حال الضرورة.

وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بتحليل الحرام وتحريم الحلال بِأَهْوائِهِمْ أي : بمجرد أهوائهم بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا دليل ، بل بتشهى أنفسهم ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ المجاوزين الحق إلى الباطل ، والحلال إلى الحرام ، وَذَرُوا أي : اتركوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ أي : سره وعلانيته ، أو ما يتعلق بالجوارح والقلب ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سرا أو علانية ، سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ يكتسبون.

ولما أمرهم بأكل الحلال نهاهم عن الحرام ، فقال : وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، بأن ترك التسمية عليه عمدا لا سهوا كما هو مذهب مالك وأبى حنيفة «٢». وقال الشافعي : تؤكل مطلقا ، لقوله - عليه الصلاة والسلام - :

«ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم اللّه عليه» «٣» ، وقال أحمد وداود : لا تؤكل إن تركت مطلقا ، عمدا أو سهوا.

وقال ابن جزى : إنما جاء الكلام فى سياق تحريم الميتة وغيرها مما ذبح للنصب ، فإن حملناه على ذلك لم يكن فيه دليل على وجوب التسمية فى ذبائح المسلمين ، وإن حملناه على عمومه كان فيه دليل على ذلك. وقال عطاء : هذه الآية أمر بذكر اللّه على الذبح والأكل والشرب. هـ.

وَإِنَّهُ أي : الأكل مما لم يذكر اسم اللّه عليه لَفِسْقٌ أو : وإنه - أي : عدم ذكر اسم اللّه على الذبيحة ، لفسق ومن تزيين الشياطين ، إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ ليوسوسون إِلى أَوْلِيائِهِمْ من الكفار لِيُجادِلُوكُمْ بقولهم

: إنكم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله اللّه. وهذا يؤيد أن المراد بما لم يذكر اسم اللّه عليه هو الميتة ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ فى استحلال ما حرمت عليكم ، إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ مثلهم ، لأن من أحل ما حرم اللّه فقد كفر ، والجواب عن شبهتهم : أن الذكاة تطهير لخبث الميتة ، مع ضرب من التعبد.

الإشارة : ليس المراد من التسمية على الطعام أو غيره مجرد اللفظ ، وإنما المراد حضور المسمى ، وهو شهود المنعم فى تلك النعمة لأن الوقت الذي يغلب فيه حظ النفس ، ينبغى للذاكر المتيقظ أن يغلب فيه جانب الحق ،

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة.

(٢) فرّق أبو حنيفة بين العامد والناسي.

(٣) أخرجه أبو داود فى مراسيله (باب فى الضحايا والذبائح) من حديث الصلت السدوسي. وهذا المرسل يعضده ما رواه الدارقطني فى السنن : (الصيد والذبائح) عن ابن عباس قال : (إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم اللّه فليأكل ، فإن المسلم فيه اسم من أسماء اللّه).

ويؤيد ما ذهب إليه أيضا ما أخرجه البخاري فى : (الصيد والذبائح ، باب ذبيحة الأعراب) عن عائشة : أن ناسا قالوا : يا رسول اللّه ، إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم اللّه عليه أم لا؟ قال : وسموا أنتم وكلوا». قالت : وكانوا حديثى عهد بالكفر. راجع تفسير :

القرطبي وابن كثير ..

فيكون تناوله لتلك النعمة بالله من اللّه إلى اللّه ، وهذا هو المقصود من الأمر بذكر اسم اللّه ، لأن الاسم عين المسمى فى التحقيق ، فإن كان الأكل أو غيره مما شرعت التسمية فى أوله ، على هذا التيقظ ، فهو طائع لله وعابد له فى أكله وشربه ، وسائر أحواله ، وإن كان غافلا عن هذا ، فأكله فسق ، قال تعالى : وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ، سبب ذلك : غلبة الغفلة. والغفلة من وحي الشيطان ، وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ.

أو : ولا تنظروا إلى الأشياء بعين الفرق والغفلة ، بل اذكروا اسم اللّه عليها وكلوها بفكرتكم وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عليه من الأشياء فإنه غفلة وفسق فى الشهود ، وقوله تعالى : وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ هو ما ظهر على الجوارح من الذنوب ، وقوله : وَباطِنَهُ هو ما كمن فى السرائر من العيوب. واللّه تعالى أعلم.

ثم حذر من الشرك والكفر ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٢٢]

أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)

قلت : (كمن) : موصولة ، و(مثله) : مبتدأ ، و(فى الظلمات) : خبره ، وقيل : مثل - هنا - زائدة ، أي : كمن هو فى الظلمات ، و(ليس بخارج) : حال من الضمير فى الخبر.

يقول الحق جل جلاله : أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً «١» بالكفر والجهل فَأَحْيَيْناهُ بالإيمان والعلم ، وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً فى قلبه أي : نور الإيمان والعلم ، يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، فيذكرهم بالله ، ويدلهم على اللّه ، كَمَنْ مَثَلُهُ غريق فِي الظُّلُماتِ فى ظلمة الكفر والجهل والتقليد والذنوب ، لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها أي : لا يفارق ضلالته بحال. كَذلِكَ أي : كما زين الإيمان لهؤلاء زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.

قال البيضاوي : مثل به من هداه اللّه تعالى وأنقذه من الضلال ، وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها فى الأشياء ، فيميز بين الحق والباطل ، والمحق والمبطل ، ثم قال : والآية نزلت فى حمزة وأبى جهل ، وقيل : فى عمّار وعمر وأبى جهل. هـ. ولفظها أعم ، وفى الآية من أنواع البيان : الطباق فى قوله : مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ.

الإشارة : الروح تكون أولا على الفطرة التي فطرها اللّه عليها ، من العلم والإقرار بالربوبية ، فإذا بلغت قد تطرأ عليها موتات ، ثم تحيا من كل واحدة على حسب المشيئة ، فقد تموت بالكفر ، ثم تحيا بالإيمان ، وقد تموت بالذنوب والجرائم ، ثم تحيا بالتوبة ، وقد تموت بالحظوظ والشهوات ، ثم تحيا بالزهد والورع والرياضة ، وقد تموت بالغفلة والبطالة ثم تحيا باليقظة والإنابة ، وقد تموت برؤية الحس وسجن الأكوان والهيكل ، ثم تحيا برؤية المعاني وخروج الفكرة إلى فضاء الشهود والعيان ، ثم لا موت بعد هذا إلى أبد الأبد. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) قرأ نافع : «ميتا» بالتشديد ، وقرأ الآخرون : «ميتا» بالتخفيف.

وسبب هذه الموتات : صحبة الغافلين الموتى ، وطاعتهم حتى يمكروا بصاحبهم ، كما قال تعالى :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٢٣]

وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَما يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ (١٢٣)

قلت : (جعلنا) بمعنى صيّرنا ، يتعدى إلى مفعولين ، و(مجرميها) : مفعول أول ، مؤخر ، و(أكابر) : مفعول ثان ، وفيه ضعف من جهة الصناعة لأن أكابر جمع أكبر ، وهو من أفعل التفضيل ، فلا يستعمل إلا بالإضافة ، أو مقرونا بمن. قاله ابن جزى. قلت : ويجاب بأنه لم يقصد به المفاضلة ، وإنما المراد مطلق الوصف ، أي : جعلناهم كبراء ، فلا يلزم إفراده ولا اقترانه بمن. فتأمله.

يقول الحق جل جلاله : وَكَذلِكَ أي : كما جعلنا فى مكة أكابر مجرميها ، ليمكروا فيها بأهلها ، جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها أي : مجرميها أكابر ، لِيَمْكُرُوا فِيها بمن فيها ، فيمكروا بالناس فيتبعوهم على ذلك المكر ، لأنهم أكابر تصعب مخالفتهم ، فيحملونهم على الكفر والعصيان ، ويخذلونهم عن الإسلام والإيمان ، وَما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ لأن وبال مكرهم راجع إليهم ، وَما يَشْعُرُونَ بذلك.

الإشارة : إذا أراد اللّه بقوم خيرا جعل الخير فى أكابرهم ، فيجعل أمراءهم عدولا حلماء ، وعلماءهم زهّادا أعفّاء ، وأغنياءهم رحماء أسخياء ، وصلحاءهم قانعين أغنياء ، وإذا أراد بهم شرا جعل الشر فى كبرائهم ، فيجعل أمراءهم فجارا يحكمون بالهوى ، وعلماءهم حراصا جامعين للدنيا ، وأغنياءهم أشحاء قاسية قلوبهم ، وصلحاءهم طماعين فى الناس ، منتظرين لما فى أيديهم ، فبهؤلاء يصلح الدين إذا صلحوا ، ويفسد إذا فسدوا ، وفى ذلك يقول ابن المبارك رحمه اللّه :

وهل أفسد الدّين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

وقد تقدم تمامه فى تفسير سورة البقرة «١». وبالله التوفيق.

ثم بيّن حال تلك الأكابر المجرمين ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٢٤]

وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)

قلت (حيث) : مفعول بفعل مقدر ، لا بأعلم لأن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به ، أي : يعلم حيث يجعل رسالته ، أي : يعلم المكان الذي يصلح للرسالة ، إلا إن أوّل أفعل بما لا تفضيل فيه ، فينتصب المفعول به ، ويحتمل أن

---

(١) راجع إشارة الآية (١٥٩) وما بعدها من سورة البقرة.

يكون هذا منه ، قال أبو حيان : ويحتمل أن تكون حيث على بابها من الظرفية المجازية ، ويضمّن أعلم

معنى يتعدى إلى الظرف ، والتقدير : اللّه أنفذ علما حيث يجعل رسالته. انظر المحشى.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا جاءَتْهُمْ أي : هؤلاء المجرمين الأكابر ، آيَةٌ نزلت على نبى ، قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بها حَتَّى نُؤْتى من النبوة مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ، فنكون أنبياء مثلهم ، والقائل لهذه المقالة أبو جهل ، قال : تزاحمنا : بنو عبد مناف الشرف مع بنى هاشم ، حتى إذا صرنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يوحى إليه ، واللّه لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه ، فنزلت الآية. وقيل : فى الوليد بن المغيرة ، قال : أنا أولى بالنبوة من محمد «١». فرد اللّه على من قال ذلك بقوله : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ. فعلم أن محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم أهل للرسالة ، فخصه بها ، وعلم أنهم ليسوا بأهل لها ، فحرمهم إياها ، فإن النبوة ليست بمجرد النسب والمال ، وإنما هى بفضائل نفسانية يخصّ اللّه بها من يشاء من عباده ، بل بمحض الفضل والكرم ، فيجتبى لرسالته من علم أنه يصلح لها ، وهو أعلم بالمكان الذي فيه يضعها.

ثم ذكر وعيد المنكرين ، فقال : سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ أي : ذل وحقارة يوم القيامة ، بعد تكبرهم وارتفاعهم فى الدنيا. روى «أنهم يبعثون فى صورة الذّرّ ، يطؤهم الناس فى المحشر».

وَيصيبهم عَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ أي : بسبب مكرهم ، أو جزاء مكرهم. كما تدين تدان.

الإشارة : ما حرم الناس من الخير إلا خصلتان : التكبر والحسد ، فمن طهر قلبه من الحسد ، وتواضع لكل أحد ، نال الرفعة والشرف عند اللّه فى الدنيا والآخرة ، ولا يضع اللّه سر الخصوصية إلا فى قلب طاهر متواضع ، يحط صاحبه رأسه لأقدام الرجال ، ويذل نفسه لأهل الصفاء والكمال ، وفى ذلك يقول الشاعر :

يا من يلوم خمرة المحبّة قولوا له عنّى هى حلال

ومن يرد يسقى منها غبّا خدّ يضع لأقدام الرجال

رأسى حططت بكلّ شيبه هم الموالي سقونى زلال

فكما أن الحق تعالى علم حيث يجعل رسالته ، علم حيث يجعل سر ولايته ، وهى النفوس المتواضعة المتطهرة من رذائل النفوس كالحسد والكبر وسائر الأوصاف المذمومة.

---

(١) ذكره البغوي فى التفسير عن مقاتل.

ثم ذكر علامة الهداية والشقاء ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٢٥ الى ١٢٦]

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)

قلت : من قرأ حَرَجاً بالفتح ، فهو مصدر وصف به للمبالغة ، ومن قرأ بالكسر ، فوصف ، أي : شديد الضيق ، ومن قرأ يَصَّعَّدُ بالشد والقصر ، فأصله : يتصعد ، أدغم التاء فى الصاد ، ومن قرأ : يصاعد فأصله : يتصاعد ، فأدغم أيضا.

يقول الحق جل جلاله : فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ أي : يعرّفه طريق الحق ويوفقه للإيمان يَشْرَحْ صَدْرَهُ أي : يوسعه لِلْإِسْلامِ ، فيتسع له ، ويقبله ، ويغتبط به ، ويبتهج ، فرحا وسرورا. والشرح :
كناية عن جعل النفس قابلة للحق ، مهيأة لحلوله فيها ، مصفاة عما يمنعها منه ، وإليه أشار النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، حين سئل عنه ، فقال : «نور يقذفه اللّه فى قلب المؤمن ، فينشرح له وينفسح ، قالوا : هل لذلك أمارة يعرف بها؟ قال : نعم ، الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول» «١».

ثم ذكر ضدّه ، فقال : وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً شديد الضيق ، بحيث ينبو عن قبول الحق ، فلا يدخله الإيمان ، ولا ينشرح صدره له ، بل يفر منه ، ويثقل عليه كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ أي :
يتكلف الصعود فيه. شبهه - على وجه المبالغة - بمن يحاول ما لا يقدر عليه ، فإن صعود السماء غاية فيما يبعد عن الاستطاعة ، تنبيها على أن الإيمان تمنّع عليه كما يمتنع عليه الصعود إلى السماء ، كَذلِكَ أي :
كما يضيق صدر الكافر ويبعد قلبه عن الحق ، يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ أي : العذاب والخذلان ، عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ، ووضع الظاهر موضع المضمر للتعليل.

وَهذا البيان الذي جاء به القرآن ، أو ما سبق من التوفيق والخذلان ، صِراطُ رَبِّكَ أي : الطريق الذي ارتضاه ، إن قلنا : الإشارة للبيان ، أو عادته وطريقه الذي اقتضته حكمته ، إن قلنا ما سبق من التوفيق والخذلان ، حال كونه مُسْتَقِيماً لا عوج فيه ، أو عادلا مطردا لا جور فيه ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ أي : بينّاها لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ فيعلمون أن الفاعل هو اللّه وحده ، وأن كل ما يحدث من خير وشر ، أو إيمان وكفر ، بقضائه وخلقه ، فإنه عالم بأفعال العباد ، حكيم عادل فيما يفعل بهم من تقريب أو إبعاد.

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (٢/ ٣/ ٣٧٧) وابن جرير فى تفسير الآية ، والحاكم فى المستدرك (٤/ ١١) ، وسكت عنه وتعقبه الذهبي. من حديث ابن مسعود موصولا. وأخرجه مرسلا من

حديث أبي جعفر : ابن جرير فى التفسير ، وابن المبارك فى الزهد/ ١٠٦ والبيهقي فى الأسماء/ ١٥٦.

(٢/١٦٨)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٦٩

الإشارة : فمن يرد اللّه أن يهديه لسر الخصوصية ونور الولاية يشرح صدره للدخول فى طريقها ، ويوفقه لبذل نفسه وروحه فى تحصيلها ، ويصبّره على حمل لأوائها «١» ، وينهضه إلى السير فى ميدانها ، بعد أن يسقطه على شيخ كامل عارف بطريقها ، فيحققه بخصوصيته ، ويطلعه على سر ولايته ، حتى يلقى القياد إليه بكليته ، فلا يزال يسايره حتى يقوله له : ها أنت وربك. ومن يرد أن يضله عنها يجعل صدره ضيقا عن قبولها ، حرجا عن الدخول فيها ، حتى يثقل عليه حمل أعبائها ، أو ينكر وجود أهلها ، كذلك يجعل اللّه رجس حجابه على الذين لا يؤمنون بطريق الخصوص ، فإنه طريق مستقيم يوصل إلى حضرة النعيم فى الدنيا والآخرة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما أعدّ لأهل التوفيق ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٢٧]

لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧)

يقول الحق جل جلاله : لَهُمْ دارُ السَّلامِ التي هى الجنة. والسلام اسم الحق تعالى ، وأضافها إلى نفسه تعظيما لها ، أو دار السلامة من المكاره ، أو دار التحية تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ «٢» ، عِنْدَ رَبِّهِمْ ذخيرة لهم عنده حين يقدمون عليه ، لا يعلم كنهها غيره ، أو فى ضمانه وكفالته ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ أي : مولاهم وناصرهم فى الدارين ، بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أي : بسبب أعمالهم ، أي : تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة ، فيحفظهم فى الدنيا ، هم وذريتهم ، ويحفظهم فى الآخرة كذلك.

الإشارة : من هداه اللّه لطريق الخصوصية ، واستعمله فى الوصول إليها ، ووصله إلى من يسيره إليها ، فقد دخل دار السلام قبل موته ، فلله جنتان جنة المعارف وجنة الزخارف ، [من دخل جنة المعارف لم يشتق إلى جنة الزخارف] «٣» ، لأن اللّه تولاه وأغناه عما سواه.

ثم ذكر ما أعد لأهل الخذلان ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٢٨ الى ١٢٩]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)

(١) أي : شدتها.

(٢) من الآية ١٠ من سورة يونس.

(٣) وددت لو أن الشيخ المفسر - رحمه اللّه - ترك هذه العبارة المشعرة بدونية ما أطلق عليه جنة الزخارف. وهى الدار التي سماها اللّه عز وجل «دار السلام» وفيها يتحقق للمؤمن رؤية النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وفوق هذا : رؤية اللّه تعالى. فكيف لا يشتاق المؤمن إلى هذه الجنة؟!.

قلت : (خالدين) : حال مقدّرة من الكاف ، والعامل فيه : مَثْواكُمْ ، إن جعل مصدرا ، أو معنى الإضافة ، إن جعل مكانا.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ «١» أي : الثقلين ، جَمِيعاً ونقول : يا مَعْشَرَ الْجِنِّ أي : الشياطين قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ أي : من إغوائهم وإضلالهم ، أو استكثرتم منهم بأن جعلتموهم فى أتباعكم ، فحشروا معكم ، وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ الذين أطاعوهم فى الكفر : رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ أي : انتفع الإنس بالجن ، بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها ، وانتفع الجن بالإنس بأن أطاعوهم وحصّلوا مرادهم ، وقيل : استمتاع الإنس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم فى المفاوز وعند المخاوف ، كان الرجل إذا نزل واديا يقول : أعوذ بصاحب هذا الوادي ، يعنى كبير الجن ، واستمتاعهم بالإنس : اعترافهم بأنهم يقدرون على إجارتهم ، وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا وهو الموت أو البعث والحشر ، وهو اعتراف بما فعلوا من طاعة الشياطين واتباع الهوى ، وتكذيب البعث ، وتحسر على حالهم ، وإظهار للاستكانة والضعف. أقروا بذنبهم لعله ينفعهم.

قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ : منزلكم ، خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إلا أوقات ، ينتقلون فيها من النار إلى الزمهرير ، وقيل : ليس المراد بالاستثناء هنا الإخراج ، وإنما هو على وجه الأدب مع اللّه وإسناد الأمور إليه. وسيأتى فى الإشارة تكميله إن شاء اللّه ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ فى أفعاله ، عَلِيمٌ بأعمال الثقلين.

وَكَذلِكَ أي : كما ولينا الشياطين على الكفرة ، نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً أي : نكّل بعضهم إلى بعض ، أو نجعل بعضا يتولى بعض فيقويهم ، أو : أولياءهم وقرناءهم فى العذاب ، كما كانوا قرناء فى الدنيا ، وذلك التولي والتسليط بِما كانُوا يَكْسِبُونَ من الكفر والمعاصي.

الإشارة : ليست الآية خاصة بالكفار ، بل كل من عوّق الناس عن طريق الخصوص ، واستكثر من العموم بأن أبقاهم فى حزبه ، يقال له : يا معشر أهل الرياسة قد استكثرتم من العموم ، فيقول أهل

اليمين من العموم : ربنا استمتع بعضنا ببعض فتبعناهم فى الوقوف مع الحظوظ والعوائد ، وتمتعوا بتكثير سوادهم بنا وتنعيش رياستهم ، مع ما يلحقهم من الارتفاق من قبلنا ، فيقول الحق تعالى : نار القطيعة والحجاب مثواكم خالدين فيها ، إلا وقت الرؤية مع عوام الخلق ، وهذه عادته تعالى : يولى بعض الغافلين بعضا بسبب غفلتهم.

وفى قوله تعالى : إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ - إرشاد إلى استعمال الأدب ، ورد الأمور كلها إلى رب الأرباب ، وعدم التحكيم على غيب مشيئته وعلمه ، وقوفا مع ظاهر الوعد أو الوعيد ، فالأكابر لا يقفون مع وعد ولا وعيد ،

---

(١) قرأ حفص (يحشرهم) بالياء ، وقرأ الباقون (نحشرهم) بالنون.

(١٧٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٧١

كقول عيسى عليه السّلام : وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «١» ، وكقول إبراهيم عليه السّلام : وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً

«٢» الآية ، وكقوله : وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٣» ، وكقول شعيب عليه السّلام : وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا «٤» وكاستغفار نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم للمنافقين قبل نزول النهى ، وبعد نزوله ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ... «٥» الآية. وكقوله ، يوم بدر : «إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» ، مع تقدم الوعد بالنصر ، وكخوف موسى بعد قوله : لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما ... «٦» الآية.

ومنه : خوف الأكابر بعد تأمينهم لأن ظاهر الوعد والوعيد لا يقضى على باطن المشيئة والعلم ، ومثله يجرى فى سورة هود فى قوله : إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ «٧» ، وفى سورة يوسف : وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا «٨» بالتخفيف ، وغير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة ، وانظر الورتجبي. فقد انفرد بمقالة ، بعد حكاية اتفاق مذاهب المسلمين جميعا على عدم غفران الشرك ، ولكن قول عيسى عليه السّلام : وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ ... الآية ، يشير إلى ما أشار إليه ابن عباس وابن مسعود فى قوله تعالى : خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال «٩» :

تؤمر النار أن تأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدد خلقهم ، ويرجى من كرم اللّه ولطفه إدخالهم بعد ذلك الجنة ، قال : وهذا مرجو ، ليس بمعتقد أهل السنة. هـ.

قال فى الحاشية : وهو يرجع عند التحقيق إلى طرح الأسباب وعدم الوقوف معها ، نظرا إلى أن الحق تعالى لا يتقيد فى وعيد ولا وعد ، فمن غلبه النظر إليه ، سرى إليه الرجاء فى عين التخويف ، كما أنه

يسرى الخوف فى عين الرجاء ، لكونه اقتطع من الوقوف مع خصوص وصف ، ولما كانت تلك الحالة هى عين الأدب اللائق بالعبودية مع اللّه تعالى أرشد تعالى إليها بقوله : إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ ، إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ ، وهو حال أهل الحقيقة ، والوقوف مع خصوص الوعد أو الوعيد حال أهل الشريعة. انتهى ببعض اختصار. وقد رد الثعالبي هذه المقالة التي حكاها الورتجبي.

ثم وبخهم على عدم الإيمان بالرسل ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٣٠ الى ١٣٤]

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (١٣٠) ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)

---

(١) الآية ١١٨ من سورة المائدة.

(٢) الآية ٨٠ من سورة الأنعام. [.....]

(٣) الآية ٣٦ من سورة ابراهيم.

(٤) الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٥) الآية ٨٠ من سورة التوبة.

(٦) الآية ٤٦ من سورة طه.

(٧) من الآية ١٠٧.

(٨) من الآية ١١٠

(٩) أي : الورتجبي.

قلت : (ذلك أن لم يكن ربك) : خبر عن مضمر ، وأن على حذف لام العلة ، أي : الأمر ذلك لأجل أن لم يكن ربك متصفا بالظلم.

يقول الحق جل جلاله ، يوم القيامة فى توبيخ الكفار : ا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ أي : من مجموعكم ، أو رسل الجن : نذرهم الذين يبلغون لهم شريعة الإنس إذ ليس فى الجن رسل

على المشهور.
وروى الطبري من طريق الضحاك بن مزاحم إثبات ذلك ، واحتج بأن اللّه تعالى أخبر أن من الجن والإنس رسلا أرسلوا إليهم ، يعنى ظاهر هذه الآية. وأجاب الجمهور بأن معنى الآية : أن رسل الإنس رسل من قبل اللّه إليهم ، ورسل الجن يبلغون كلام رسل الإنس إليهم ، ولهذا قال قائلهم : إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى الآية «١» ، فالرسالة إلى الجن خاصة بنبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، أي : مع الإنس.
حال كون الرسل الذين أتوكم قُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا
يعنى يوم القيامة ، قالوا فى الجواب : هِدْنا عَلى أَنْفُسِنا
بالكفر والعصيان ، وهو اعتراف منهم بما فعلوا.
قال تعالى : غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا
ألهتهم بزخرفها عن النظر والتفكر ، شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ
، وهذا ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم ، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات الفانية ، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية ، حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيرا للسامعين وإرشادا لهم. قاله البيضاوي.
ثم ذكر حكمة إرسال الرسل فقال : ذلِكَ الإرسال حكمته ل أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ أي : إنما أرسل الرسل لئلا يكون ظالما لهم بإهلاكهم بسبب ظلم فعلوه ، وهم غافلون عن الإنذار ، بحيث لم ينذرهم أحد ، أو : لم يكن مهلك القرى ملتبسا بظلم حيث أهلكهم من غير إنذار ، ففاعل الظلم ، على الأول : القرى ، وعلى الثاني : اللّه تعالى ، على تقدير إهلاكهم من غير إنذار.
والأول يتمشى على مذهب المعتزلة ، والثاني على مذهب أهل السنة. انظر ابن جزى.

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الأحقاف.

وَلِكُلٍّ من الإنس والجن دَرَجاتٌ مراتب ، مِمَّا عَمِلُوا من أجل أعمالهم بالخير والشر ، فهم متفاوتون فى النعيم والعذاب ، وظاهر الآية : أن الجن يثابون ويعاقبون لأنهم مكلفون ، وهو المشهور ، واختلف : هل يدخلون الجنة أم لا؟ فروى الطبري وابن أبى حاتم عن أبى الدرداء موقوفا : أنهم يكونون ترابا كسائر الحيوانات ، وروى عن أبى حنيفة مثله ، وذهب الجمهور - وهو قول الأئمة الثلاثة والأوزاعى

وأبي يوسف ، وغيرهم أنهم يثابون على الطاعة ويدخلون الجنة. ثم اختلفوا ، هل يدخلون مدخل الإنس ، وهو الأكثر ، أو يكونون فى ربض الجنة ، وهو عن مالك وطائفته ، أو أنهم أصحاب الأعراف ، أو التوقف عن الجواب؟ فى هذا أربعة أقوال ، والله تعالى أعلم بغيبه. وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ فيخفى عليه عمل أو قدر ما يستحق عليه من ثواب أو عقاب.

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ عن العباد وعبادتهم ، ذُو الرَّحْمَةِ يترحم عليهم بالتكليف ، تكميلا ، ويمهلهم على المعاصي حلما ، وليس له حاجة فى طاعة ولا معصية ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيها العصاة ، وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ من الخلق ، كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ فأنشأكم قرنا بعد قرن ، لكنه أبقاكم رحمة بكم ، إِنَّ ما تُوعَدُونَ من البعث وما بعده ، لَآتٍ لا محالة ، وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ تعجزون قدرة الله الطالب لكم بالبعث والحساب.

الإشارة : كما أن الحق تعالى لم يعذب الكفار إلا بعد إرسال الرسل ، كذلك لا يعاقب أهل الإصرار إلا بعد بعث الأطباء وهم أهل التربية النبوية ، فكل من لم يصحبهم وينقد إليهم مات مصرا على الكبائر - أي : كبائر القلوب - وهو لا يشعر ، فيلقى الله بقلب سقيم ، فيعاقبه الحق تعالى على عدم صحبتهم ، ومعاتبته له : بعده عن مشاهدته وعن مقام المقربين ، فإذا رأى مقام المقربين وقربهم من الحضرة ، قال : غرتنا الحياة الدنيا وزخارفها ، وجاهها ورياستها ، وشهد على نفسه أنه كان غافلا.

فحكمة وجود الأولياء فى كل قرن لتقوم الحجة على أهل الغفلة ، فإذا وقع البعد لقوم لم يكن الحقّ ظالما لهم ، فالدرجات على حسب المقامات ، والمقامات على حسب الأعمال ، وأعمال القلوب هى التي تقرب إلى حضرة علام الغيوب ، بها يقع القرب ، وبالخلو عنها يقع البعد. وعليها دلت الأولياء بعد الأنبياء ، لأن الأنبياء جاءوا بالشريعة الظاهرة والحقيقة الباطنة ، فمن رأوه أهلا لسر الحقيقة دلّوه عليها ، فكان من المقربين ، ومن رأوه ضعيفا عنها دلوه على الشريعة ، فكان من أصحاب اليمين. وبالله التوفيق.

ثم أمره بتهديد قريش وتخويفهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٥]

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)

قلت : مَنْ تَكُونُ : إما مفعول (تعلمون) ، أو مبتدأ ، وهى إما موصولة أو استفهامية ، والمكانة :

التمكن أو الجهة ، يقال : مكان ومكانة كمقام ومقامة.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ أي : تمكنكم من هواكم وشهواتكم التي أنتم عليها ، أو على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها من الكفر والهوى ، والمعنى : اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة ، إِنِّي عامِلٌ على ما أنا عليه من المصابرة والثبات على الدين الحق. والتهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد ، كأن الذي يهدده يريد تعذيبه لا محالة ، فيحمله بالأمر على ما يفضى به إليه ، وتسجيل بأن المهدد لا يأتى منه إلا الشر ، كالمأمور به الذي لا يقدر أن ينقضى عنه. قاله البيضاوي.

ثم صرح بالتهديد فقال : فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ أي : أيّنا تكون له العاقبة الحسنى التي خلق اللّه لها هذه الدار ، أي : وهى الدار الآخرة ، أو : فسوف تعرفون الذي تكون له عاقبة سكنى الدار الآخرة والنعيم المقيم ، أو : من تكون له عاقبة هذه الدار بالنصر والظهور على الأديان - أنا أو أنتم ، وفيه إنصاف في المقال حال الإنذار ، وحسن الأدب ، وتنبيه على وثوق المنذر لأنه محق. قال تعالى إِنَّهُ ، أي : الأمر والشأن ، لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ، والظلم أعم من الكفر ، ولذلك وضع موضعه لعمومه.

الإشارة : إذا انكب الناس على الدنيا ، وأخذتهم الغفلة ، وغلب عليهم الهوى ، ثم وقع الوعظ والتذكير من أهل الإنذار ، فقابلوهم بالإبعاد والإنكار ، يقول لهم المذكر والواعظ : يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ ... الآية.

ثم ذكر جهالة الجاهلية وحمقهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٦]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (١٣٦)

يقول الحق جل جلاله : وَجَعَلُوا أي : مشركو العرب ، لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ أي : خلق ، مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً ، وهم حى من خولان ، يقال لهم : الأديم ، كانوا يجعلون من زروعهم وثمارهم وأنعامهم نصيبا ، فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ أي : بدعواهم من غير دليل ، وأكثر ما يستعمل الزعم في الكذب ، وَهذا لِشُرَكائِنا ، فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ.

روى أنهم كانوا يعينون شيئا من حرث أو نتاج إلى اللّه ، فيصرفونه إلى الضيفان والمساكين ، وشيئا منها

إلى آلهتهم ، فينفقونه على سدنتهم - أي : خدّامهم ، والقيام بأصنامهم ، ويذبحون عندها ، ثم إذا رأوا ما عينوا لله أزكى وأكثر ، بدلوه لآلهتهم وقالوا : اللّه غنى عنه ، وإذا رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها حبا لآلهتهم ، وإذا هبت ريح فحملت شيئا من الذي لله إلى الذي للأصنام أقروه ، وإن حملت شيئا من الذي للأصنام إلى الذي لله ردوه ، وإذا أصابتهم سنة ، أكلوا نصيب اللّه وتحاموا نصيب شركائهم ، تعظيما لها.

وفى قوله : مِمَّا ذَرَأَ : تنبيه على فرط جهالتهم ، فإنهم أشركوا الخالق فى خلقه ، جمادا لا يقدر على شيء ، ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له ، وفى قوله : بِزَعْمِهِمْ : تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه ، ولم يأمرهم اللّه تعالى به. ساءَ أي : قبح ، ما يَحْكُمُونَ حكمهم هذا الذي اخترعوه من عند أنفسهم.

الإشارة : مما ينخرط فى سلك الآية ، وتجر ذيلها عليه ، ما يفعله بعض الناس من التساهل فى حقوق اللّه الواجبة ، والمسارعة إلى حقوق الناس التي ليست بواجبة عليه ، فترى بعض العوام يقدمون مد أبى العباس السبتي ، ويتساهل فى الزكاة ، وترى بعض الناس يسارع إلى إطعام الطعام وقرى الأضياف ، وهو لا يفى زكاته. وبعضهم يجعلون للصالحين شيئا من أموالهم لتصلح وتنمو ويعتنى بشأنها ، وقد لا يعتنى بزكاته ولا يخرجها ، وهذا كله شعبة من فعل أهل الشرك ، وعلامة اتباع الهوى. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نوعا آخر من كفرهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٧]

وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (١٣٧)

قلت : قرأ الجمهور : زَيَّنَ بالبناء للفاعل ونصب قتل ، على أنه مفعول به ، وخفض (أولادهم) بالإضافة ، ورفع (شركاؤهم) فاعل (زين) ، فالشركاء على هذه القراءة هم الذين زينوا القتل ، وقرأ ابن عامر : بضم الزاى على البناء للمفعول ، ورفع «قتل» على النيابة عن الفاعل ، ونصب «أولادهم» على أنه مفعول بقتل ، وخفض «شركائهم» بالإضافة إلى قتل ، إضافة المصدر إلى فاعله ، أي : زين لهم أن يقتل شركاؤهم أولادهم ، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بأولادهم ، وهو معمول للمصدر ، وهو جائز فى العربية ، قال ابن مالك فى الألفية :

فصل مضاف شبه فعل ما نصب مفعولا أو ظرفا أجز ، ولم يعب

وهذا من فصل المفعول ، فهو جائز فى السعة خلافا للزمخشرى ومن تبعه ، وقد شنّع عليه الشاطبي فى حرز الأمانى.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٧٦
يقول الحق جل جلاله : ومثل ذلك التزيين الذي وقع لهم فى الحرث والأنعام ، زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ زين لهم ذلك شركاؤهم من الجن ، أو من السدنة ، وحملوهم عليه ، خوفا من الجوع أو من العار ، وكانوا يقتلون البنات دون البنين ، زينوا لهم ذلك لِيُرْدُوهُمْ أي : ليهلكوهم بالإغواء ، وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ أي : ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل ، أو ما وجب عليهم أن يتدينوا ب ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ أي : ما فعل المشركون ما زين لهم ، أو ما فعل الشركاء التزيين ، أو الفريقان جميع ذلك ، فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ أي : اتركهم مع افترائهم ، أو : والذي يفترونه من الإفك ، وهذا قبل الأمر بالسيف ، ثم نسخ به.
الإشارة : مما ينخرط فى سلك الآية : إهانة البنات وتعظيم البنين ، وقد نهى الشارع - عليه الصلاة السلام - عن تخصيص الذكور بالوصية ، وقال للذى أراد أن يفعله : «لا تشهدنى على جور» ، وهنا إشارة أرق من هذا ، وهو أن يراد بالأولاد ما تنتجه الفكرة الصافية من العلوم والمواهب ، وقتلها : إهمال الفكرة عن استخراجها حتى ضاعت عليه ، والذي زين له ذلك هو شرك القلب ، واشتغاله برسوم الفرق ، حتى تعطلت الفكرة ، وماتت تلك العلوم من قلبه ، وقع ذلك التزيين بأهل الفرق ليسقطوهم عن درجة المقربين أهل العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، وليلبسوا عليهم دينهم بالخواطر والشكوك ، والأوهام ، ولو شاء اللّه لهدى الناس جميعا.
ثم ذكر أيضا نوعا آخر من جهالتهم ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٨]
وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاَّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨)
قلت : (حجر) : فعل ، بمعنى مفعول ، يستوى فيه الواحد والكثير ، والمذكر والمؤنث ، ومعناه : حرام ، و(افتراء) :
حال ، أو مفعول من أجله ، أو مصدر.
يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أيضا : هذِهِ الأشياء التي جعلوها لأصنامهم ، وهى أَنْعامٌ وَحَرْثٌ ، هى حِجْرٌ أي : حرام محجر ، لا يَطْعَمُها لا يأكلها إِلَّا مَنْ نَشاءُ ، وهم خدام الأوثان وسدنتها ، والرجال دون النساء. قالوا ذلك بِزَعْمِهِمْ وافترائهم من غير حجة ، وَأَنْعامٌ
أخرى حُرِّمَتْ ظُهُورُها وهى البحائر والسوائب والحوامي ، وَأَنْعامٌ أخرى لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا فى الذبح ، وإنما يذكرون عليها اسم آلهتهم افْتِراءً على اللّه ، لأنهم قسموا أموالهم على هذه القسمة ، ونسبوا ذلك إلى اللّه افتراء وكذبا ، سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ أي : بسببه فيعذبهم عليه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٧٧
الإشارة : ما عاب اللّه على المشركين إلا الشرك والتحكم على اللّه ، فالواجب على من أراد السلامة أن يوحد ربه ، وينفرد بكلّيته إليه ، ويخلص أعماله لله ، ويصرف أمواله فى مرضاة اللّه ، ويقف فى أموره كلها عند ما حدد له اللّه ، وبيّنه رسول اللّه يكون من أولياء اللّه. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر جهالة أخرى لهم ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٩]
وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)
قلت : خالِصَةٌ : خبر ل (ما) ، وأنثه حملا على المعنى ، لأن (ما) واقعة على الأجنة ، وذكّر (محرم) حملا على لفظ «ما» ، ويحتمل أن تكون التاء للمبالغة ، ومن قرأ : (تكن) بالتأنيث ، فالمراد : الأجنة ، ومن قرأ بالتذكير فراعى لفظ «ما».
يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا ما استقر فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ ، يعنى : البحائر والسوائب ، من الأجنة ، خالِصَةٌ لِذُكُورِنا لا يشاركون فيه ، وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا أي : نسائنا ، يعنى : أن ما يولد للبحائر والسوائب ، قالوا هو حلال لذكورهم دون نسائهم ، هذا إن ولد حيا ، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً بأن ولد ميتا فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ فالذكور والإناث سواء ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ أي : سيجزيهم على ما وصفوا وافتروا على اللّه من الكذب فى التحليل والتحريم ، فهو كقوله : وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ «١» ، إِنَّهُ حَكِيمٌ فى صنعه ، عَلِيمٌ بخلقه فيجزى كلا على قدر جرمه.
الإشارة : اعلم أن جيفة الدنيا اشترك النساء مع الرجال فيها ، لقوله تعالى : وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ ، والزهد فى النساء قليل بالنسبة إلى الرجال ، واعلم أيضا أن الحق تعالى يجازى عبده جزاء موافقا لوصفه ، فإن كان وصفه التعظيم لكل شيء عظمه اللّه ، ومن كان وصفه التصغير صغره اللّه ، ومن كان وصفه الإحسان أحسن اللّه إليه ، ومن كان وصفه الإساءة أساء اللّه إليه ، ومن كان وصفه الفرق فرقه اللّه ، ومن كان وصفه الجمع جمعه اللّه ، وهكذا : كما تدين تدان ، كما تقابل الأشياء تقابلك ، قال تعالى : سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.
ثم شنّع عليهم قتل الأولاد ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : آية ١٤٠]
قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)
قلت : (سفها) : حال أو مصدر ، وكذلك : (افتراء).

(١) من الآية ٦٢ من سورة النحل.

(١٧٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٧٨

يقول الحق جل جلاله : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ يعنى : العرب الذين كانوا يقتلون بناتهم مخافة السبي أو الفقر ، بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا دليل لخفة عقلهم وجهلهم بأن اللّه رازق أولادهم كما يرزقهم ، وليسوا هم الرازقين لهم ، وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ من البحائر والسوائب ونحوهما افْتِراءً عَلَى اللَّهِ من عند أنفسهم ، قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ إلى الحق والصواب.

الإشارة : قد خسر الذين ضيعوا قلوبهم فلم تنتج لهم شيئا من أبكار الحقائق وأسرار العلوم ، بل اشتغلوا بالسفه من القول والفعل ، بغير علم ولا بصيرة نافذة ، وحرموا ما رزقهم اللّه من العلوم والأسرار ، لو طهروا قلوبهم ، وخربوا ظواهرهم وخرقوا عوائدهم ، لكنهم حكموا على فعل ذلك بالتحريم ، تجمدوا على علم الرسوم وحفظ المروءة ، والمروءة إنما هى التقوى والدين ، كما قال الإمام مالك رضى اللّه عنه ، قد ضلوا عن طريق الوصول ، وما كانوا مهتدين إلى طريق الخصوص ، ما داموا على ما هم عليه من زى اللصوص.

ثم بيّن أن الأشياء كلها للّه ، ليس لأحد فيها شيء حتى يحلل منها أو يحرم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٤١]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)

قلت : (مختلفا) : حال مقدّرة لأنه لم يكن كذلك عند الإنشاء ، . والضمير فى أُكُلُهُ : يعود على النخل ، والزرع مقيس عليه ، أو للجميع على تقدير : كل واحد منهما.

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ أي : خلق جَنَّاتٍ بساتين مشتملة على كروم - أي : دوالى - مَعْرُوشاتٍ أي : مرفوعة بالعرشان والدعائم ، وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ أي : مبسوطة على وجه الأرض ، قيل : المعروشات : ما غرسه الناس فى العمران ، وغير المعروشات : ما أنبته فى الجبال والبراري.

وَأنشأ النَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ أي : ثمره الذي يؤكل منه ، واختلافه فى اللون والطعم والرائحة والحجم والهيئة والكيفية ، وذلك دليل على عظمة القادر المريد ، وَأنشأ الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ أي : تتشابه بعض أفرادهما فى اللون والطعم ، ولا يتشابه بعضها. كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ أي : من ثمر كل واحد منهما ، إذا أَثْمَرَ وإن لم يطب ، قيل : فائدة الأمر بالأكل : رخصة المالك فى الأكل منه

قبل أداء حق اللّه منه قبل الطيب ، أي : قبل أن تجب زكاته ، وأما إذا طاب فلا بد من التخريص «١».

---

(١) خرص النخلة والكرمة يخرصها خرصا : إذا حزر ما عليها من الرّطب تمرا ، ومن العنب زبيبا ، فهو من الخرص أي : الظن لأن الحزر إنما هو تقدير بظن. انظر النهاية (مادة : خرص).

(١٧٨/٢)

وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ يريد : ما كان يتصدق به يوم الحصاد ، لا الزكاة المقدرة لأنها فرضت بالمدينة ، وكان ذلك واجبا ثم نسخ بالعشر. وقيل : الزكاة حقيقة ، والآية مدنية ، وقيل : مكية ، ولم يعيّن قدرها إلا بالمدينة ، والأمر بإتيانها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ ، حتى لا يؤخر عن وقت الأداء ، خلاف ما يفعله العامة من خزنها مع ماله ، حتى يدفعها في نوائب المخزن «١» ، وليعلم أن الوجوب بالإفراك والطيب ، لا بالتصفية ، ولذلك شرع التخريص ، وَلا تُسْرِفُوا بصرفها في غير محلها ، ولا تتعدوا ما أمرتم به فتجعلوا ما أنشأ اللّه للأصنام ، أو : لا تسرفوا في التصدق بالكل ، كقوله : وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ «٢» ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ أي : لا يرضى فعلهم.

الإشارة : وهو الذي أنشأ جنات المعارف لمن خرق عوائده ، معروشات بشهود أسرار الجبروت ، وغير معروشات بشهود أنوار الملكوت ، أو معروشات بشهود المعاني مع الأواني ، وغير معروشات بشهود الأواني فقط ، أو معروشات بشهود المؤثر والأثر ، وغير معروشات بشهود المؤثر فقط ، وكلها ترجع لمعنى واحد ، والمعروش أرفع من غيره وأكمل ، والأول : مقام البقاء والصحو ، والثاني : مقام الفناء والسكر ، والنخل والزرع : الحقيقة والشريعة على اختلاف علومهما ، والزيتون والرمان : الأعمال والأحوال ، متفقة وغير متفقة ، وثمره : حلاوة الشهود ، فليأكل منها المريد إذا طاب وقته ، ولا تسرفوا في الأحوال ، إنه لا يحب المسرفين.

ثم ذكر إنشاء الأنعام ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤٢ الى ١٤٤]

وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى

عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)
قلت : (حمولة وفرشا) : عطف على جنات ، وثَمانِيَةَ أَزْواجٍ : بدل من حمولة ، و(من الضأن اثنين) : بدل من ثمانية.

---

(١) أي : جامع الضرائب.
(٢) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

يقول الحق جل جلاله : وَأنشأ أيضا مِنَ الْأَنْعامِ أنعاما حَمُولَةً ما يحمل الأثقال ، كالكبار منها ، وَفَرْشاً ما لا يحمل ، كالصغار لدنوها من الأرض. أو حمولة للإبل ، وفرشا للغنم ، لأنها تفرش للذبح ، ويفرش ما ينسج من صوفها ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ أي : كلوا ما أحل اللّه لكم منها ، وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ فى التحليل والتحريم من عند أنفسكم ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ظاهر العداوة.
ثم فصلها فقال : ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ ذكر وأنثى من كل صنف ، والصنف : ما معه آخر من جنسه يزاوجه ، ثم بيّنها فقال : مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ذكر وأنثى كبش ونعجة ، وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ التيس وهو الذكر ، والعنز وهى الأنثى ، قُلْ لهم آلذَّكَرَيْنِ أي : ذكر الضأن والمعز ، حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ منهما؟ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ من الأجنة ، ذكرا كان أو أنثى؟ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ يدل على أن اللّه تعالى حرم شيئا من ذلك ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى دعوى التحريم عليه.
وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ ذكر وأنثى ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ كذلك. قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أم حرم ما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ من الجنين مطلقا؟ وهذا تقسيم على الكفار حتى يتبين كذبهم على اللّه ، وتوبيخ لهم ، حيث حرموا بعض الذكور مرة وبعض الإناث مرة ، فألزمهم تحريم جميع الذكور ، إن كان علة التحريم وصف الذكورة ، أو تحريم جميع الإناث ، إن كانت العلة الأنوثة ، أو تحريم الجميع إن كان المحرم ما اشتملت عليه الأرحام ، ولا وجه للتخصيص ، فالاستفهام للإنكار ، وأكده بقوله : أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ حاضرين حين وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا التحريم ، ولا طريق لكم إلى معرفة هذا إلا المشاهدة والسماع ، وليس لكم شيء من ذلك ، وإنما أنتم مفترون على اللّه.
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فنسب إليه تحريم ما لم يحرم ، والمراد : كبراؤهم الأوائل كعمرو ابن لحى وأمثاله ، أي : لا أحد أظلم ممن كذب على اللّه ، لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ إلى مراشدهم ، أو إلى ما ينفعهم.

الإشارة : ومن الأحوال ما تحمل صاحبها إلى مقام الحرية ، بشهود الربوبية ، فيغلب عليه العز والاستظهار ، ومنها ما تحمله إلى مقام العبودية ، فيغلب عليه الذل والانكسار ، وإليه الإشارة بقوله : حَمُولَةً وَفَرْشاً ، فليتمتع المريد بما يظهر عليه منهما ، ولا يتبع خطوات الشيطان فيتعدى طوره ، ولا يعرف قدره.

وهذه الأحوال ثمانية أنواع : أربعة سفلية تناسب العبودية ، وأربعة علوية تناسب الربوبية. فالأربعة السفلية : الذل ، والفقر ، والعجز ، والضعف. والأربعة العلوية : العز ، والغنى ، والقدرة ، والقوة. فمن أراد التعلق بهذه الأوصاف فليناد من كوة الذل : يا عزيز من للذليل سواك؟ ، ومن كوة الفقر : يا غنى من للفقير سواك؟ ، ومن كوة العجز : يا قدير من للعاجز سواك؟ ومن كوة الضعف : يا قوى من للضعيف سواك؟ ، ير الإجابة طوع يديه ، ومن أراد التحقق بها ، فليتحقق بذله يمده بعزه ، وليتحقق بفقره يمده بغناه ، وليتحقق بعجزه يمده بقدرته ، وليتحقق بضعفه يمده بقوته ، «تحقق بوصفك يمدك بوصفه». وبالله التوفيق.

(١٨٠/٢)

ثم بيّن ما حرم عليهم ليقفوا عنده ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٤٥]

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ فى القرآن أو مطلق الوحى ، مُحَرَّماً أي : طعاما محرما ، عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ ، أو يطعم منه غيره ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الطعام مَيْتَةً ، وفى قراءة بالتاء لتأنيث الخبر ، أَوْ يكون دَماً مَسْفُوحاً أي : مصبوبا كدم المنحر ، أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أي : خبيث ، قيل : إنه يورث عدم الغيرة بالخاصية أَوْ يكون فِسْقاً ، من صفته : أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ أي : ذبح لغير اللّه ، وذكر عليه اسم الصنم ، وإنما سمى فسقا لتوغله فى الفسق.

والآية تقتضى حصر المحرمات ، فيما ذكر ، وقد جاء فى السنة تحريم أشياء لم تذكر هنا ، كلحوم الحمر الإنسية والكلاب ، وغيرها ، فذهب قوم إلى أن السنة نسخت هذا الحصر. وذهب آخرون إلى أن الآية وردت على سبب ، فلا تقتضى الحصر ، وذهب آخرون إلى أن ما عدا ما ذكر : مكروه.

وقال البيضاوي : والآية محكمة لأنها تدل على أنه لم يجد فيما أوحى إليه إلى تلك الغاية محرما غير هذه ، ولا ينافى ورود التحريم فى شيء آخر ، فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد

، ولا على حل الأشياء غيرها ، إلا مع الاستصحاب «١». هـ.
ثم استثنى المضطر ، فقال : فَمَنِ اضْطُرَّ إلى تناول شيء من ذلك ، غَيْرَ باغٍ على مضطر مثله ، وَلا عادٍ أي : متجاوز قدر الضرورة ، فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لا يؤاخذه.
الإشارة : الأحوال كلها تتقوت منها الروح ، إلا ما كان غير مباح فى الشرع ، فلا سير فيه ، والمراد بالأحوال :
خرق عوائدها ، بكل ما يثقل عليها ، وأما ما كان محرما فى الشرع فلا بركة فى تناوله لأنه رجس ، وأجازه بعض الصوفية محتجا بقضية لص الحمام ، وفيه مقال ، فمن اضطر إلى تناوله ، لغلبة حال عليه ، غير قاصد لمخالفة الشرع ، فإن اللّه غفور رحيم ، وعليه حمل بعضهم قصة لص الحمّام «٢». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الاستصحاب - اصطلاحا : هو الحكم بثبوت أمر فى الزمن الثاني ، بناء على ثبوته فى الزمان الأول. (التعريفات/ ٤٤).
(٢) راجع قصة لص الحمّام فى التعليق على إشارة الآية ٢٦٧ من سورة البقرة. [.....]

(١٨١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٨٢
ثم ذكر ما حرّم على بنى إسرائيل ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : آية ١٤٦]
وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (١٤٦)
قلت : الحوايا هى الأمعاء ، أي : المصارين التي فيها البعر ، وتسمى المباعر ، جمع حوية ، فعيلة ، فوزنها على هذا : فعائل ، فصنع بها ما صنع بهراوا ، وقيل : جمع حاوية ، فوزنها : فواعل ، كقوارب ، وهو عطف على ما فى قوله : إِلَّا ما حَمَلَتْ.
يقول الحق جل جلاله : وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ما له أصبع ، كالإبل والأوز والنعام ، وغيرها من الحيوان ، الذي هو غير منفرج الأصابع وله ظفر ، وقيل : كل ذى مخلب وحافر ، وسمى الحافر ظفرا مجازا وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما كالثروب وشحوم الكلى ، إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أي : إلا ما علق من الشحم بظهور البقر والغنم ، فهو حلال عليهم ، لكنهم اليوم لا يأكلونه ، حدثنى شيخى الفقيه الجنوى أنه سأل بعض أحبارهم : هل هو حرام فى كتابكم؟ فقال له : لا ، لكنهم

قاسوه سدا للذريعة. هـ. فلما شددوا شدد اللّه عليهم ، أَوِ الْحَوايا أي : ما احتوت عليه الأمعاء والحشوة مما يتحوى فى البطن من الشحوم ، فهو حلال عليهم أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ فى جميع الجسد ، فإنه حلال عليهم ، لكنهم شددوا فحرموا الجميع عقوبة من اللّه ذلِكَ التحريم جزاء جَزَيْناهُمْ به بسبب بغيهم ، أي : ظلمهم ، وَإِنَّا لَصادِقُونَ فيما أخبرنا به من التحريم ، وفى ذلك تعريض بكذب من حرّم غير ما حرم اللّه.

الإشارة : يؤخذ من الآية أن الذنوب والمعاصي تضيق على العبد لذائذ متعته ، وتقتر عليه طيب رزق بشريته ، وتضيق عليه أيضا حلاوة المعاملة فى قلبه ، ولذة الشهود فى روحه وسره ، لقوله تعالى : ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وقال تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ «١» ، وقال فى شأن القلب : إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً «٢» ، أي : نورا يفرق بين الحق والباطل ، وقال تعالى : وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ «٣» أي : علما لدنيا ، فالمعصية كلها تبعد العبد من الحضرة ، إن لم يتب ، والطاعة كلها تقرب من الحضرة. والتنعم إنما هو على قدر القرب ، ونقصانه على قدر البعد. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٩٦ من سورة الأعراف

(٢) الآية ٢٩ من سورة الأنفال.

(٣) من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

ولمّا كانت المعصية توجب تعجيل العقوبة أخبر تعالى عن سعة حلمه ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٤٧]

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)

يقول الحق جل جلاله : فَإِنْ كَذَّبُوكَ يا محمد ، فَقُلْ لهم : رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ يمهلكم على التكذيب ، فلا تغتروا بإمهاله فإنه يمهل ولا يهمل. ولذلك أعقبه بقوله : وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ حين ينزل بهم ، أو ذو رحمة واسعة على المطيعين ، وذو بأس شديد على المجرمين ، فأقام مقامه :

وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ، لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم ، مع الدلالة على أنه لازب لا يمكن رده. قاله البيضاوي. وفى ابن عطية : ولكن لا تغتروا بسعة رحمته ، فإن له بأسا لا يرد عن القوم

المجرمين. هـ.

الإشارة : يؤخذ من تقديم الرحمة الواسعة على البأس الشديد أن جانب الرجاء أقوى من جانب الخوف لأن حسن الظن بالله مطلوب من العبد على كل حال ، لأن الرجاء وحسن الظن يستوجبان محبة العبد وإيحاشه إلى سيده بخلاف الخوف ، وهذا مذهب الصوفية : أن تغليب الرجاء هو الأفضل فى كل وقت ، ومذهب الفقهاء أن حال الصحة ينبغى تغليب الخوف لينزجر عن العصيان ، وحال المرض يغلب الرجاء إذ لا ينفع حينئذ ، فالصوفية يرون أن العبد معزول عن الفعل ، فليس له قدرة على فعل ولا ترك. وإنما ينظر ما تفعل به القدرة ، فهو كحال المستشرف على الموت. والفقهاء يرون أن العبد له كسب واختيار. واللّه تعالى أعلم.

ولا ينفع الاحتجاج بالقدر على كلا المذهبين ، كما قال تعالى :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤٨ الى ١٥٠]

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

قلت : (هلم) : اسم فعل ، وهو عند البصريين بسيط ، وعند الكوفيين مركب. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا فى الاحتجاج لأنفسهم : لَوْ شاءَ اللَّهُ عدم شركنا ما أَشْرَكْنا وَلا أشرك آباؤُنا ، وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ من البحائر وغيرها ، فلو لم نكن على حق مرضى عند اللّه ما أمهلنا ولا تركنا عليه فإمهاله لنا وتركه لنا على ما نحن فيه دليل على أنه أراده منا.

والجواب عن شبهتهم : أنه خلاف ما أنزل اللّه على جميع رسله ، والحق تعالى لم يتركهم على ذلك ، بل بعث لهم الرسل يكلفهم بالخروج عنه ، والإرادة خلاف التكليف ، وأيضا : قولهم هذا لم يصدر منهم على وجه الاعتذار وإنما صدر منهم على وجه المخاصمة والاحتجاج. ولا يصح الاحتجاج بالقدر. والحاصل أنهم تمسكوا بالحقيقة ورفضوا الشريعة ، وهو كفر وزندقة ، إذ لا بد من الجمع بين الحقيقة فى الباطن ، والتمسك بما جاءت به الرسل من الشريعة فى الظاهر ، وإلّا فهو على باطل.

ولذلك ردّ اللّه تعالى عليهم بقوله : كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الرسل ، فتمسكوا بالحقيقة الظلمانية

، حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا أي : عذابنا الذي أنزلناه عليهم بتكذيبهم قُلْ لهم : هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ يدل على أن اللّه أمركم بالشرك ، وتحريم ما أحل ، وأنه رضى ذلك لكم ، فَتُخْرِجُوهُ أي : فتظهروه لَنا ، بل إِنْ تَتَّبِعُونَ فى ذلك إِلَّا الظَّنَّ ولا تحقيق عندكم ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ تكذبون على اللّه تعالى ، وفيه دليل على أن الظن لا يكفى فى العقائد.

قُلْ لهم : فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ على عباده ، الْبالِغَةُ ، حيث بعث الرسل مبشرين ومنذرين ، وأمروا بتوحيد اللّه وطاعته ، فكل من خالفهم قامت الحجة عليه ، هذا باعتبار التشريع الظاهر ، وأما باعتبار باطن الحقيقة ، فالأمور كلها بيد اللّه يضل من يشاء بعدله ، ويهدى من يشاء بفضله ، فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين ، لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ «١» فقول المشركين : فَلَوْ شاءَ اللّه ... إلخ ، حق فى نفسه ، لكنهم لم يعذروا لإهمالهم الشريعة.

قُلْ هَلُمَّ أي : أحضروا ، شُهَداءَكُمُ أي : كبراءكم وأئمتكم ، الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا ، استحضرهم ليلزمهم الحجة ، ويظهر بانقطاعهم ضلالهم ، وألّا متمسك لهم فى ذلك. ثم قال لنبيه - عليه الصلاة والسلام - : فَإِنْ شَهِدُوا بشيء من ذلك ، فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ أي : لا تصدقهم وبيّن لهم فساده وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا ، والأصل أن يقول : ولا تتبع أهواءهم ، فوضع الظاهر موضع المضمر ، للدلالة على أن مكذب الآية متبع للهوى لا غير ، وأن متبع الحق لا يكون إلا مصدقا لها.

وَتتبع أيضا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ كعبدة الأوثان ، وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ يجعلون له عديلا ومثيلا.

الإشارة : اعلم أن الحق جل جلاله كلف عباده فى هذه الدار ، بالقيام بوظيفتين : الشريعة والحقيقة ، الشريعة محلها الظواهر ، والحقيقة محلها البواطن ، الشريعة تقتضى التكليف ، والحقيقة تقتضى التعريف ، الشريعة شهود الحكمة ، والحقيقة شهود القدرة. وجعل الشريعة رداء الحقيقة ولباسا لها ، ثم جعل سبحانه فى القلب عينين ، وتسمى

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء.

البصيرة ، إحداهما تنظر للحكمة فتقوم بالشرائع ، والأخرى تنظر للقدرة فتقوم بالحقائق. فقوم فتحوا عين الحقيقة وأعملوا عين الشريعة ، وهم أهل الكفر والزندقة ، ولذلك قالوا : لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا ، وقوم فتحوا عين الشريعة وأهملوا عين الحقيقة ، وهم عوام المسلمين من أهل اليمين ، فلذلك طال خصمهم للمقادير الأزلية مع إقرارهم بها ، فإن أنكروها فقد عميت بصيرتهم.

وقوم أحبهم اللّه ، ففتح لهم عين الحقيقة ، فأسندوا الأفعال كلها إلى اللّه ولم يروا معه سواه ، فتأدبوا فى الباطن مع الأشياء كلها ، وفتح لهم عين الشريعة فقاموا بوظائف العبودية على المنهاج الشرعي ، وهم الأولياء العارفون بالله ، فمن تمسك بالحقائق العلمية دون الشرائع كان زنديقا ، ومن تمسك بالشرائع دون الحقائق كان فاسقا ، ومن تمسك بهما كان صدّيقا ، فمن رام التمسك بالشرائع ، ولم تسعفه الأقدار ، فإن كان عن سكر وجذب فهو معذور ، وإن كان عن كسل فهو مخذول ، وإن كان عن إنكار لها فهو مطرود معدود من حزب الشيطان ، والعياذ بالله.

ثم بيّن لهم ما حرم عليهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٥١ الى ١٥٣]

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

قلت : (تعالوا) : أمر من التعالي ، وأصله : أن يقوله من كان فى علو لمن كان فى سفل ، فاتسع فيه بالتعميم فى كل أمر بالقدوم ، و(ألّا تشركوا) : فيه تأويلات أحدها : أن تكون مفسرة لا موضع لها ، و(لا) : ناهية جزمت الفعل ، أو تكون مصدرية فى موضع رفع ، أي : الأمر ألّا تشركوا ، و(لا) : نافية حينئذ ، أو بدل من «ما» و(لا) : زائدة ، أو على حذف الإغراء ، أي : عليكم ألا تشركوا.

قال ابن جزى : والأحسن أن يكون ضمّن حَرَّمَ معنى وصّى ، وتكون «أن» مصدرية ، و«لا» نافية ، ولا تفسد المعنى لأن الوصية فى المعنى تكون بتحريم وتحليل وبوجوب وندب ، ويدل على هذا قوله بعد ذلك :

ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ولا ينكر أن يريد بالتحريم - الوصية لأن العرب قد تذكر اللفظ الخاص ، وتريد به العموم ، كما تذكر اللفظ العام وتريد به الخصوص ، فتقدير الكلام على هذا : قل تعالوا أتل ما وصاكم به ربكم ، ثم أبدل منه ، على وجه التفسير والبيان ، فقال : ألّا تشركوا ، ووصاكم بالإحسان بالوالدين ، وهكذا .. فجمعت الوصية ترك الإشراك وفعل الإحسان بالوالدين ، وما بعد ذلك. انظر بقية كلامه.

وإنما قال الحق سبحانه : (من إملاق) ، وقدّم الكاف فى قوله (نرزقكم) ، وفى الإسراء قال : خَشْيَةَ إِمْلاقٍ «١» ، وأخر الكاف لأن ما هنا نزل فى فقراء العرب ، فكان الإملاق نازلا بهم وحاصلا لديهم ، فلذلك قال : مِنْ إِمْلاقٍ ، وقدم الخطاب لأنه أهم. وفى الإسراء نزلت فى أغنيائهم ، فكانوا يقتلون خوفا من لحوق الفقر ، لذلك قال : خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ، وقدم الغيبة فقال : نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ حين نخلقهم وإياكم.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : تَعالَوْا أي : هلموا ، أَتْلُ أي : أقرأ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، واجتمعت عليه الشرائع قبلكم ، ولم ينسخ قط فى ملة من الملل ، بل وصى به جميع الملل ، هو أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً بل توحدوه وتعبدوه وحده ، وَأن تحسنوا بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ، ولا تسيئوا إليهما لأن من أساء إليهما لم يحسن إليهما. وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ أي : من أجل الفقر الحاصل بكم ، وكانت العرب تقتل أولادها خوفا من الفقر فنزلت فيهم ، فلا يفهم منه إباحة قتلهم لغيره ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، فلا تهتموا بأمرهم حتى تقتلوهم.

وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ كبار الذنوب ما ظَهَرَ مِنْها للناس وَما بَطَنَ فى خلوة ، أو : ما ظهر منها على الجوارح ، وما بطن فى القلوب من العيوب ، وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ كالقود ، وقتل المرتد ، ورجم المحصن. قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : زنى بعد إحصان ، وكفر بعد إيمان ، وقتل نفس بغير نفس» «٢». ذلِكُمْ المتقدم ، وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، فتتدبرون فيما ينفعكم وما يضركم وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي

بالخصلة التي هِيَ أَحْسَنُ

كحفظه وتثميره. والنهى عن القرب : يعم وجوه التصرف ، وفيه سد الذريعة لأنه إذا نهى عن القرب كان الأكل أولى ، حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ

وهو البلوغ مع الرشد ، بحيث يعرف مصالح نفسه ويأمن عليه التبذير ، فيدفع له ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ

بالعدل والتوفية ، لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها

إلا ما يسعها ولا يعسر عليها ، ولمّا أمر بالقسط فى الكيل والوزن ، وقد علم أن القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجرى فيه الحرج - أمر بالوسع فى ذلك وعفا عما سواه.

---

(١) الآية ٣١ من سورة الأسراء.

(٢) أخرجه البخاري فى (الديات ، باب قول اللّه تعالى : «أن النفس بالنفس») ومسلم فى (القسامة ، باب ما يباح به دم المسلم). عن ابن مسعود. رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٨٧

وَإِذا قُلْتُمْ

فى حكومة ونحوها ، فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ

المقول له فى شهادة أو حكومة ذا قُرْبى

فيجب العدل فى ذلك ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا

أي : ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع ، أو ماعاهدتم مع عباده ، ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

تتعظون به.

وَأَنَّ هذا أي : ما تقدم فى السورة كلها ، صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ لأن السورة بأسرها إنما هى فى إثبات التوحيد ، والنبوة ، وبيان الشريعة ، وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ الأديان المختلفة والطرق التابعة للهوى ، فإن مقتضى الحجة واحد ، ومقتضى الهوى متعدد لاختلاف الطبائع والعادات ، ولذلك تفرقت. والمراد بالطرق :

اليهودية والنصرانية وغيرهما من الأديان الباطلة ، ويدخل فيه البدع والأهواء ، وفى الحديث أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم خط خطا ، ثم قال : «هذا سبيل اللّه» ، ثم خط خطوطا عن يمينه وشماله ، ثم قال : «هذه سبل ، وعلى كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليها» «١». ذلِكُمْ الاتباع وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الضلال والتفرق عن الحق. وبالله التوفيق.

الإشارة : قد وصى الحق - جل جلاله - على التخلص من الشرك ، جليه وخفيه ، ولا يكون إلا بتحقيق الإخلاص والتوحيد الخاص. وهو مطلب الصوفية ، وبالإحسان بالوالدين الروحانيين والبشريين ، أي : والد الأرواح - وهو الشيخ المربى - ووالد الأشباح ، ولا بد للمريد من طاعتهما ، إلّا أنه يقدم طاعة الشيخ ، كما تقدم عن الجنيد فى (سورة النساء).

ووصى بعدم قتل الأولاد ، وهم المواهب والعلوم بإهمال القلب فى الغفلة ، وعدم قرب الفواحش : الظاهرة الحسية ، والباطنية القلبية كالحسد ، والكبر ، وحب الجاه والدنيا ، وسائر العيوب. وعدم قتل النفس بالانهماك فى الهوى والغفلة حتى تموت بالجهل عن المعرفة. وعدم قرب مال اليتيم ، وهو الذي ليس له شيخ ، فإن الغالب عليه عدم المسامحة ، وسيأتى عند قوله تعالى : قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ «٢» ، إشارة لها أرق من هذه ، وعلى التوفية فى الأمور كلها لأن الصوفي من أهل الصفاء والوفاء ، وعلى الصدق فى الأقوال والأفعال والأحوال. وعلى الوفاء بالعهد ، وأعظمها عهد الشيوخ المربين ، وعلى اتباع طريق السلوك الموصلة للحضرة وهى ما عينه الشيوخ للمريدين ، فلا يتعدى نظرهم ولو لحظة. وبالله التوفيق.

ولما ذكر ما وصى به هذه الأمة ، ذكر ما وصى به بنى إسرائيل ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٥٤]
ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤)

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند ١/ ٤٣٥.
(٢) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

قلت : (ثم) : هنا للترتيب الإخبارى ، وقال ابن جزى : هذه الوصية قديمة لكل أمة على لسان نبيها ، فصح الترتيب. وقال البيضاوي : (أو) : للتفاوت فى الرتبة ، كأنه قيل : ذلكم وصاكم به قديما وحديثا ، ثم أعظم من ذلك :
أنا آتينا موسى الكتاب ... إلخ. وهو عطف على (وصاكم) ، و(تماما ، وتفصيلا) : حالان ، أو علتان ، أو مصدران.
يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ نخبرك أنا آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ التوراة ، تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ القيام به من بنى إسرائيل ، ويدل عليه قراءة : (أحسنوا) ، أي : تماما للنعمة على العاملين به ، أو تماما على موسى الذي أحسن القيام به ، أي : آتيناه الكتاب تفضلا وإتماما للنعمة جزاء على ما أحسن من طاعة ربه وتبليغ رسالته ، ففاعل أحسن : ضمير موسى. أو : تَماماً أي : إكمالا على ما أحسن اللّه به إلى عباده ، فالفاعل على هذا : ضمير اللّه تعالى ، وَتَفْصِيلًا أي : تبيينا لِكُلِّ شَيْءٍ يحتاجون إليه فى الدين. وَهُدىً أي : هداية للظواهر ، وَرَحْمَةً للقلوب ، لَعَلَّهُمْ أي : بنى إسرائيل ، بِلِقاءِ رَبِّهِمْ للجزاء ، يُؤْمِنُونَ إيمانا صحيحا ، وهو اللقاء بالأجسام والأرواح ، والنعيم أو العذاب للأشباح. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : كل من أحسن عبادة ربه فى الظاهر ، وحقق عبوديته فى الباطن ، أتم اللّه عليه نعمته بشهود ذاته وأنوار صفاته ، ووهب له علوما لدنية تفصل له ما أشكل ، يكون له هداية لزيادة الترقي ، ورحمة يتهيأ بها قلبه لوحى الإلهام والتلقي. وبالله التوفيق.
ثم ذكر فضل كتابه العزيز ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٥٥ الى ١٥٧]
وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى

مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)

قلت : (أن تقولوا) : مفعول له ، أي : كراهة أن تقولوا.

يقول الحق جل جلاله : وَهذا القرآن كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ كثير النفع فَاتَّبِعُوهُ فى الأصول والفروع ، وَاتَّقُوا الشرك والمعاصي ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ببركة اتباعه فتحيا به قلوبكم ، وتنتعش به

(١٨٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٨٩

أرواحكم ، وإنما أنزلناه كراهة أَنْ تَقُولُوا يوم القيامة فى الحجة : إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا اليهود والنصارى ، وإنما خصهما بالذكر لشهرتهما دون الكتب السماوية ، وَإِنْ كُنَّا وإنه ، أي : الأمر والشأن ، كنا عَنْ دِراسَتِهِمْ أي : قراءتهم لَغافِلِينَ أي : كنا غافلين عن قراءة أهل الكتاب ، لا ندرى ما هى ولا نعرف مثلها ، أو لم ندرس مثل دراستهم ، ولم نعرف ما درسوا من الكتب ، فلا حجة علينا ، فقد قامت الحجة عليكم بنزول القرآن.

أَوْ كراهة أن تَقُولُوا أيضا : لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ كما أنزل إليهم ، لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا ، ولذلك تلقفنا فنونا من العلم ، كالقصص والأشعار والخطب والأنساب ، مع كوننا أميين ، قال تعالى لهم : فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وهو القرآن حجة واضحة تعرفونها وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لمن تدبره وعمل به ، فَمَنْ أَظْلَمُ أي : لا أحد أظلم مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ بعد أن عرف صحتها ، وَصَدَفَ أعرض عَنْها ، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ ألمه وقبحه ، بِما كانُوا يَصْدِفُونَ أي : يعرضون ويصدون عنها.

الإشارة : جعل اللّه رحمة القلوب وحياة الأرواح فى شيئين : فى التمسك بالقرآن العظيم وتدبر معانيه ، واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وفى التحصن بالتقوى جهد استطاعته ، فبقدر ما يتحقق بهذين الأمرين تقوى حياة قلبه وروحه وسره ، حتى يتصل بالحياة السرمدية ، وبقدر ما يخل بهما يحصل له موت قلبه وروحه ، والإنسان إنما فضل وشرف بحياة قلبه وروحه ، لا بحياة جسمه ، ولا حجة له أن يقول : كنت مريضا ولم أجد من يعالجنى ، ففى كل زمان رجال تقوم الحجة بهم على عباد اللّه ، فيقال لهم : قد جاءكم بينة من ربكم ، وهو الولي العارف ، وهدى ورحمة لأهل عصره ، لمن تمسك به وصحبه ، وأما من أعرض عنه بعد معرفته فلا أحد أظلم منه ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْها ... الآية.

ثم هددّ أهل الإعراض ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٥٨]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)
يقول الحق جل جلاله : هَلْ يَنْظُرُونَ أي : ما ينتظر أهل مكة إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ لقبض أرواحهم ، أو بالعذاب ، لأجل كفرهم ، وهم لم يكونوا ينتظرون ذلك ، ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبهوا بالمنتظرين ، أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أي : أمره بالعذاب ، أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يعنى : أشراط الساعة.

(١٨٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٩٠
وعن حذيفة والبراء بن عازب : كنا نتذاكر الساعة ، إذ أشرق علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : ما تذاكرون؟ قلنا :
نتذاكر الساعة ، فقال : «إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : الدجال ودابة الأرض ، وخسفا بالمشرق ، وخسفا بالمغرب ، وخسفا بجزيرة العرب ، والدخان ، وطلوع الشمس من مغربها ، ويأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى ، ونارا تخرج من عدن» «١».
يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ ، وهو طلوع الشمس من مغربها ، كما فى حديث الصحيحين «٢» ، قال الأقليشى : وذلك أن اللّه تعالى ، إذا أراد طلوعها من مغربها ، حبسها ليلة تحت العرش ، فكلما سجدت واستأذنت لم يجر لها جواب ، حتى يحبسها مقدار ثلاث ليال ، فيأتيها جبريل عليه السّلام فيقول : إن الرب تعالى يأمرك أن ترجعى إلى مغربك فتطلعى منه ، وأنه لا ضوء لك عندنا ولا نور ، فتبكى عند ذلك بكاء يسمعها أهل السبع سموات ، ومن دونها ، وأهل سرادقات العرش وحملته من فوقها ، فيبكون لبكائها مما يخالطهم من خوف الموت ، وخوف يوم القيامة ، قال : فيبيت الناس ينتظرون طلوعها من المشرق ، فتطلع الشمس والقمر خلف أقفيتهم من المغرب ، أسودين مكدّرين ، كالقارتين ، ولا ضوء للشمس ولا نور للقمر ، فيتصايح أهل الدنيا ، وتذهل الأمهات عن أولادها ، والأحبة عن ثمرة قلوبها ، فتشتغل كل نفس بنفسها ، ولا ينفع التوحيد حينئذ. هـ.
وهو معنى قوله تعالى : يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها كالمحتضر إذا صار الأمر عيانا ، وإنما ينفع الإيمان بالغيب ، وقد فات يومئذ ، فلا ينفع الإيمان نفسا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ، ولا تنفع التوبة من المعاصي وترك الواجبات حينئذ لقوله : أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً أي : لا ينفع نفسا مؤمنة لم تكن كسبت خيرا قبل ذلك اليوم ، حيث كانت فرطت فيه قبل ، وينفع اكتسابه بعد.
والحاصل : أن طلوع الشمس من مغربها يغلق بعده باب التوبة فلا يقبل الإيمان من كافر ، ولا التوبة من عاص ، وأما الإيمان المجرد عن العمل ، إذا كان حاصلا قبل ذلك اليوم ، فإنه ينفع على مذهب أهل

السنة ، وكذلك العاصي بالبعض ينفعه بعض الذي كان يعمله ، كالزانى مثلا ، إذا كان يصلى ، فتنفعه صلاته ويعاقب على العصيان ، وهكذا ، والمنفي قبوله : إنما هو الخير المتروك قبل ذلك اليوم ، فلا ينفع استدراكه بعد.

ثم قال تعالى : قُلِ انْتَظِرُوا إتيان أحد الثلاثة الملائكة بعذابكم ، أو أمر اللّه تعالى بإهلاككم ، أو بعض آياته ، إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ذلك ، لنا الفوز وعليكم الويل.

الإشارة : ما ينتظر الغافلون والمنهمكون فى اللذات والشهوات والإعراض عن اللّه إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم فجأة ، فيموتون على الغفلة ، فتنزل بهم الحسرة والندم ، وقد زلت القدم بهم ، أو يأتى أمر اللّه بطردهم والطبع على قلوبهم ، فلا ينفعهم وعظ ولا تذكير ، أو يأتى بعض آيات ربك مصيبة أو داهية تثقل قلوبهم عن

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم فى (الفتن ، باب فى الأمارات التي تكون قبل الساعة).

(٢) عن أبي هريرة رضى اللّه عنه - قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعين ...» الحديث بطوله أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الأنعام) ومسلم فى (الإيمان ، باب : إتيان الزمن الذي لا يقبل اللّه فيه الإيمان).

التوجه إلى الله ، وجوارحهم عن طاعة الله. فالغافل والعاصي بين هذه الثلاثة ، إن لم يقلع ويتب. والله تعالى أعلم.

ثم أمرهم بالإعراض عن أهل الإعراض ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٥٩]

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ فآمنوا بالبعض وكفروا بالبعض ، وهم اليهود والنصارى ، وقيل : أهل الأهواء والبدع ، فيكون إخبارا بغيب ، وفى الحديث أن رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة. قيل : يا رسول الله ، وما تلك الواحدة؟ قال : «من كان على ما أنا عليه وأصحابى».

وقرىء : «فارقوا ، أي : تركوا دينهم ، وَكانُوا شِيَعاً جمع شيعة ، أي : فرقًا متشيعة ، كل فرقة تتشيع لمذهبها وتتشيع إمامها ، أي : تنتسب إليه. لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ أي : أنت برىء منهم ، فلست فى شيء من السؤال عنهم وعن تصرفهم ، أو عن عقابهم ، وقيل : هو نهى عن التعرض لهم فيكون منسوخا بآية السيف ، إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ يتولى جزاءهم ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ من التفرق فيعاقبهم عليه.

الإشارة : الافتراق المذموم ، إنما هو فى الأصول كالتوحيد وسائر العقائد ، فقد افترقت المعتزلة وأهل السنة فى مسائل منه ، فخرج من المعتزلة اثنان وسبعون فرقة ، وأهل السنة هى الفرقة الناجية ، وأما الاختلاف فى الفروع فلا بأس به ، بل هو رحمة لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «خلاف أمتى رحمة» ، كاختلاف القراء فى الروايات ، واختلاف الصوفية فى كيفية التربية ، فكل ذلك رحمة وتوسعه على الأمة المحمدية ، إذ كل من أخذ بمذهب منها فهو سالم ، مالم يتبع الرخص. وقال بعضهم : ما دامت الصوفية بخير ما افترقوا ، فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم. ومعنى ذلك : إنما هو فى التناصح والإرشاد والنهى بعضهم لبعض عما لا يليق فى طريق السير ، فإذا سكت بعضهم عن بعض مداهنة وحياء فلا خير فيهم ، وأما قلوبهم فلا بد أن تكون متفقة متوددة ، لا بغض فيها ولا تحاسد ، وإلا لم يكونوا صوفية. واللّه تعالى أعلم.

ثم رغّب فى الخير قبل فوات إبانه ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٦٠]

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠)

يقول الحق جل جلاله : مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ قولية أو فعلية أو قلبية ، فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها من الحسنات ، فضلا من اللّه ، وهذا أقل ما وعد من الأضعاف ، وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة ، وبغير حساب ، ولذلك قيل :

المراد بالعشر : الكثرة دون العدد ، وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها قضية للعدل ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ بنفس الثواب وزيادة العقاب.

الإشارة : إنما تضاعف أعمال الجوارح وما كان من قبل النيات ، وأما أعمال القلوب فأجرها بغير حساب ، قال تعالى : إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ «١» ، وقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة». وقال الشاعر :

كلّ وقت من حبيبى قدره كألف حجّه

وقد تقدم هذا فى سورة البقرة «٢».

ثم إن تضعيف الحسنات إنما يكون لمن تمسك بالدين القيم ، وهو الذي أشار إليه بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٦١]

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١)

قلت : (دينا) : بدل من محل «صراط» لأن الأصل : هدانى صراطا مستقيما دينا قيما ، و(قيّما) : فيعل من القيام ، فهو أبلغ من مستقيم ، ومن قرأ بكسر القاف : فهو مصدر وصف به للمبالغة ، و(ملة إبراهيم) : عطف بيان لدين ، و(حنيفا) : حال من إبراهيم.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ بالوحى والإرشاد إلى ما نصب من الحجج والآيات ، دِيناً قِيَماً مستقيما يوصل من تمسك به إلى جوار الكريم ، فى حضرة النعيم ، وهو مِلَّةَ إِبْراهِيمَ أي : دينه ، حال كونه حَنِيفاً : مائلا عما سوى اللّه ، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وهو تعريض لقريش ، الذين يزعمون أنهم على دينه ، وقد أشركوا بالله عبادة الأوثان.

الإشارة : قد أخذ الصوفية من هذا الدين القيم ، الذي هدى اللّه إليه نبيه - عليه الصلاة والسلام - خلاصته ولبابه ، فأخذوا من عقائد التوحيد : الشهود والعيان على طريق الذوق والوجدان ولم يقنعوا بالدليل والبرهان ، وأخذوا من الصلاة : صلاة القلوب ، فهم على صلاتهم دائمون مع صلاة الجوارح ، على نعت قوله :

---

(١) الآية ١٠ من سورة الزمر.

(٢) راجع إشارة الآية ١٩٧ من سورة البقرة.

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ «١» وأخذوا من الزكاة : زكاة نفوسهم بالرياضة والتأديب وإضافة الكل إليه. (العبد وما كسب لسيده) ، مع أداء الزكاة الشرعية لمن وجبت عليه. وكان الشيخ أبو العباس السبتي رضى اللّه عنه يعطى تسعة أعشار زرعه ، ويمسك العشر لنفسه.

وأخذوا من الصيام : صيام الجوارح كلها ، مع صيام القلب عن شهود السّوى. وأخذوا من الحج : حج القلوب إلى حضرة علام الغيوب ، فالكعبة تشتاق إليهم وتطوف بهم ، كما تقدم فى آل عمران. ومن الجهاد : الجهاد الأكبر ، وهو جهاد النفوس ، وهكذا مراسم الشريعة كلها عندهم صافية خالصة من

الشوائب ، بخلاف غيرهم ، فلم يأخذ منها إلا قشرها الظاهر وعمل الأشباح ، فهى صور قائمة لا روح فيها لعدم الإخلاص والحضور فيها. واللّه تعالى أعلم.

ثم بيّن مقام الإخلاص ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٦٢ الى ١٦٤]

قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)

قلت : (ربّا) : حال من (غير).

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي أي : عبادتى كلها ، وقرباتى أو حجى ، وَمَحْيايَ وَمَماتِي أي : وعملى فى حياتى ، وعند موتى من الإيمان والطاعة ، أو الحياة والممات أنفسهما ، لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ أي : هى خالصة لله لا أشرك فيها غيره ، وَبِذلِكَ أي : بذلك القول والإخلاص ، أمرنى ربى ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ لأن إسلام كل نبى متقدم على إسلام أمته قُلْ لهم : أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا فأشرك مع اللّه ، وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ لأن كل شىء مربوب لا يصلح للربوبية. وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم. وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ من شرك أو غيره إِلَّا عَلَيْها وزره ، فلا ينفعنى ضمانكم وكفالتكم من عقاب ربى ، وهو رد على الكفار حيث قالوا له : اعبد آلهتنا ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها فى دنياك وأخراك ، ثم أوضح ذلك بقوله : وَلا تَزِرُ أي : تحمل نفس وازِرَةٌ أي : آثمة وِزْرَ نفس أُخْرى أي : لا يحمل أحد ذنوب أحد ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ بالبعث والحساب ، فَيُنَبِّئُكُمْ ، أي : يخبركم بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ من أمر الدين فيبين الرشد من الغى ، والمحق من المبطل.

الإشارة : الإخلاص سر من أسرار اللّه ، يودعه قلب من أحب من عباده ، وهو إخلاص العبودية لله وحده ، ولا يتحقق ذلك للعبد إلا بعد تحرره من رق الهوى وخروجه من سجن وجود نفسه ، وهذا شىء عزيز. ولذلك قيل

---

(١) الآية ٢ من سورة المؤمنون.

وقال الشيخ أبو طالب المكي رضى اللّه عنه : الإخلاص عند المخلصين : إخراج الخلق من معاملة

الخالق ، وأول الخلق :
النفس ، والإخلاص عند المحبين : ألا يعمل عملا لأجل النفس ، وألّا يدخل عليه مطالعة العوض ، أو تشوف إلى حظ طبع ، والإخلاص عند الموحدين : خروج الخلق من النظر إليهم ، أي : لا يرون مع اللّه غيره فى الأفعال ، وترك السكون إليهم ، والاستراحة إليهم فى الأحوال. هـ.
وبالإخلاص تتفاوت الدرجات ، كما أبان ذلك بقوله :
[سورة الأنعام (٦) : آية ١٦٥]
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)
يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ أي : يخلف بعضكم بعضا ، أو خلفاء اللّه فى أرضه تتصرفون فيها بإذنه على أن الخطاب عام ، أو خلفاء الأمم السابقة ، على أن الخطاب للمسلمين ، وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ فى الشرف والغناء والقوة والجاه ، وفى العلوم والأعمال والأحوال والإخلاص والمعارف ، وغير ذلك مما يقع به التفاضل بين العباد ، لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ أي : ليختبر شكركم على ما أعطاكم ، وأعمالكم فيما مكنكم فيه من الخلافة.
إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ لمن كفر نعمه ، إما فى الدنيا لمن عجل أخذه لأن كل آت قريب ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لمن شكر نعمه وآمن وعمل بطاعته ، جمع بين التخويف والترجية ليكون العبد بينهما. وبالله التوفيق.
الإشارة : من شرف هذا الآدمي أن جعله خليفة عنه ، فى ملكه ، يتصرف فيه بنيابته عنه ، ثم إن هذا التصرف يتفاوت على قدر الهمم ، فبقدر ما ترتفع الهمة عن هذا العالم يقع للروح التصرف فى هذا الوجود ، فالعوام إنما يتصرفون فيما ملّكهم اللّه من الأملاك الحسية. والخواص يتصرفون بالهمة فى الوجود بأسره ، وخواص الخواص يتصرفون بالله ، أمرهم بأمر اللّه ، إن قالوا لشىء : كن - يكون بإذن اللّه ، مع إرادة اللّه وسابق علمه وقدره ، وإلا فالهمم لا تخرق أسوار الأقدار ، والحاصل : أن من بقي مع الأكوان شهودا وافتقارا ، كان محبوسا معها ، ومن كان مع المكون كانت الأكوان معه ، يتصرف فيها بإذن اللّه ، خليفة عنه فيها ، وهم متفاوتون فى ذلك كما تقدم.
وقال تعالى : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ أي : خلفاء عنه تتصرفون فى الوجود بأسره بأرواحكم ، وأنتم فى الأرض بأشباحكم ، وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ من أقطاب وأوتاد ونجباء ونقباء وغير ذلك ، مما هو مذكور فى محله. خرطنا اللّه فى سلكهم ومنحنا ما منحهم ، بمنّه وكرمه ، وبسيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم حبيبه ونبيه. آمين - والحمد لله رب العالمين.

سورة الأعراف

هى مكية إلا ثمانى آيات ، من قوله تعالى : وَسْئَلْهُمْ إلى قوله تعالى : وَإِذْ نَتَقْنَا ، وقيل : إلى قوله : وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ. وآياتها : مائتان وخمس. قاله البيضاوي. ومضمنها : الحث على اتباع ما أنزله على نبيه من التوحيد والأحكام ، والتحذير من مخالفته ومتابعة الشيطان ، وذكر وبال من تبعه من القرون الماضية ، وما لحقهم من الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، تتميما لقوله : إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «١».

وافتتح السورة بالرموز التي بينه وبين حبيبه ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المص (١)

إما أن تكون مختصرة من المصطفى ، على عادة العشاق يرمزون إلى ذكر بعض حروف المحبوب ، اتقاء الرقباء ، أي : يا أيها المصطفى المختار لرسالتنا هذا كتاب أنزل إليك ، وإما أن تشير إلى العوالم الثلاثة : الجبروت والملكوت والملك. وزاد هنا الصاد ، إشارة إلى صدقه فيما يخبر به من علم الغيوب ، ولذلك ذكر هنا جملة من القصص والأخبار.

وقال الورتجبي : كان اللّه - تبارك وتعالى - إذا أراد أن يتكلم مع نبيه محمد صلّى اللّه عليه وسلّم بقصص الأنبياء ، وما جرى عليهم فى الدهور والأعصار ، وشأنه معهم فى الأسرار والحقائق والشرائع ، وأراد أن يخصه صلّى اللّه عليه وسلّم بشريعته ، وما يكون من طريقته الخاصة إلى حضرته ، ويخبره بما كان وما يكون ، أشار إلى هذه الأشياء بحروف التهجي ، وأعلمه سر ذلك بخفي الإشارة ولطيف الخطاب ، وعلم تعالى أنه عليه الصلاة والسلام يعرف بتلك الإشارة مراده من علم سابق ، ونبأ صادق ، وعلم تعالى أن عموم أمته لا تعرف تلك الإشارة ، فعبّر عنها بسورة طويلة من القرآن ليعرفوا مراده سبحانه من خطابه ، وخواص أمته ربما تطلع على سر بعضها ، كالصحابة والتابعين والمتقدمين من العلماء والأولياء ، كأنّ حروف المقطعات رموز ومعانى سور القرآن ، لا يعرف تلك الرموز إلا الربانيون والأحبار من الصديقين. هـ.

---

(١) من الآية ١٦٥ من سورة الأنعام. [.....]

ثم ذكر حكمة إنزال الكتاب ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : آية ٢]
كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)
قلت : (كتاب) : خبر ، أي : هذا كتاب ، و(أنزل) : صفته ، والحرج : الضيق ، و(لتنذر) : متعلق بأنزل ، أو بلا يكن ، لأنه إذا أيقن أنه من عند اللّه جسر على الإنذار ، وكذا إذا لم يخفهم ، و(ذكرى) : يحتمل النصب بإضمار فعل ، أي :
لتنذر ولتذكر ذكرى ، والجر عطف على (لتنذر) ، أي : للإنذار والتذكير ، والرفع عطف على (كتاب).
يقول الحق جل جلاله : هذا كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ من ربك ، فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ أي : ضيق وثقل من أجل تبليغه لمن يكذب به ، مخافة أن تكذّب فيه ، أو مخافة أن تقصر على القيام بتبليغه ، أو بحقوقه ، وتوجيه النهى إلى الحرج للمبالغة ، كقولك : لا أرينك هاهنا ، كأنه قال : فلا يحرج صدرك منه ، وإنما أنزلناه إليك لتنذر به من بلغه ، وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ أي : وتذكيرا وموعظة للمؤمنين لأنهم هم المنتفعون بمواعظه.
الإشارة : تذكير أهل الإنكار ووعظهم يحتاج إلى سياسة كبيرة وحلم كبير وصبر عظيم ، لا يطيقه إلا الأكابر من أهل العلم باللّه كالأنبياء والصديقين ، لسعة معرفتهم ، واتساع صدورهم لحمل الجفاء وتحمل الأذى ، ونهيه تعالى لنبيه - عليه الصلاة والسلام - عن ضيق صدره : تشريع لورثته من بعده الداعون إلى اللّه - عز وجل وإلّا فهو صلّى اللّه عليه وسلّم بحر واسع ، لا تكدره الدّلاء ، كما قال البوصيرى.
فهو البحر والأنام إضاء «١» واللّه تعالى أعلم.
ثم حضّ على الإتباع ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : آية ٣]
اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (٣)
قلت : (قليلا) : صفة لمصدر ، أو زمان محذوف ، أي : تتذكرون تذكرا قليلا ، أو زمانا قليلا ، والعامل فيه :
تذكرون ، و(ما) : زائدة لتأكيد القلة.

---
(١) الإضاءة : جمع إضاءة ، وهى : الغدران - جمع غدير. قلت : وهذا شطر بيت ، أوله : لا تقس بالنبيّ فى الفضل خلقا.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٩٧

يقول الحق جل جلاله : اتَّبِعُوا أيها الناس ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ من أحكام القرآن والسنة إذ كله وحي يوحى ، وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى «١» ، وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أي : اللّه ، أَوْلِياءَ من الجن والإنس يضلونكم عن دينه ، أو : ولا تتبعوا من دون ما أنزل إليكم أولياء ، تتبعونهم فيما يأمرونكم به وينهونكم ، وتتركون ما أنزل إليكم من ربكم ، قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ : تتعظون حيث تتركون دين اللّه وتتبعون غيره ، بعد كمال إنذاره ووضوح تذكاره ، وذلك لانطماس البصيرة وعمى القلوب ، والعياذ بالله.

الإشارة : اتباع الحبيب فى أمره ونهيه يدل على صحة دعوى المحبة ، ومخالفته يدل على بطلانها.

تعصى الإله وأنت تظهر حبّه هذا محال فى القياس بديع

لو كان حبّك صادقا لأطعته إنّ المحب لمن يحبّ مطيع «٢»

وجمع المحبة فى محبوب واحد يدل على كمالها ، وتفرق المحبة يدل على ضعفها ، ولذلك قال الشاعر :

كانت لقلبى أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى

فلا تجتمع المحبة فى محبوب واحد إلا بعد كمال معرفة المحبوب ، وشهود أنوار جماله وكمال أسراره. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من لم يتبع ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤ الى ٧]

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (٤) فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (٥) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنَّا غائِبِينَ (٧)

قلت : (كم) : خبرية ، مفعول (أهلكنا) ، وهو على حذف الإرادة ، أي : فى الحال أردنا إهلاكها ، و(بياتا أو هم قائلون) : حالان ، أي : بائتين أو قائلين ، وأغنى الضمير فى (هم) عن واو الحال.

---

(١) الآية ٥ من سورة النجم.

(٢) البيتان لعبد اللّه بن المبارك.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٩٨

يقول الحق جل جلاله : كثيرا من القرى أَهْلَكْناها لما عصت أمرنا ، وخالفت ما جاءت به رسلنا ، فَجاءَها بَأْسُنا أي : عذابنا بَياتاً أي : ليلا ، كقوم لوط قلبت مدينتهم ، عاليها سافلها ، وأرسلت عليهم الحجارة بالسّحر ، أَوْ هُمْ قائِلُونَ نصف النهار ، كقوم شعيب ، نزلت عليهم نار فأحرقتهم ، وهو عذاب يوم الظلة ، وإنما خص الوقتين لأنهما وقت دعة واستراحة ، فيكون مجيىء العذاب فيهما أفظع.

فَما كانَ دَعْواهُمْ أي : دعاؤهم واستغاثتهم حين جاءهم بأسنا ، إِلَّا أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ أي : إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه ، تحسرا ، أو : ما كان دعاؤهم إلا قولهم : .. يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ ، فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ «١» : ميتين ، فإذا أحييناهم وبعثناهم من قبورهم ، فو اللّه فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ عن قبول الرسالة وإجابة الرسل ، وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ عما أجيبوا به ، والمراد بهذا السؤال : توبيخ الكفرة وتقريعهم ، وأما قوله تعالى : وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ «٢» فالمنفى : سؤال استعلام لأن اللّه أحاط بهم علما ، أو الأول فى موقف الحساب ، وهذا عند حصول العقاب.

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ أي : على الرسل والأمم ، فنقص على الرسل ما قوبلوا به من تصديق أو تكذيب ، وعلى الأمم ما قابلوا به الرسل من تعظيم أو إنكار ، أو فلنقص على الرسل ما علمنا من قومهم حين يقولون : لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ «٣». نقص ذلك عليهم بِعِلْمٍ وتحقيق لاطلاعنا على أحوالهم ، وإحاطة علمنا بسرهم وعلانتيهم. وَما كُنَّا غائِبِينَ عنهم ، فيخفى علينا شيء من أحوالهم ، بل كنا حاضرين لديهم ، محيطين بسرهم وعلانيتهم.

الإشارة : ما أهلك اللّه قوما وعذبهم إلا بتضييع الشرائع أو إنكار الحقائق ، فمن قام بهما معا كان مصحوبا بالسلامة ، موصوفا بالكرامة فى الدارين ، ومن ضيعهما أو أحدهما لحقه الوبال فى الدارين ، فإذا لحقه إهلاك لم يسعه إلا الإقرار بالظلم والتقصير ، حيث فاته الحزم والتشمير ، فإذا ندم لم ينفعه الندم ، حيث زلت به القدم ، فالبدار البدار إلى التوبة والانكسار ، والتمسك بشريعة النبي المختار ، والتحقق بمعرفة الواحد القهار ، وصحبة الصالحين الأبرار ، والعارفين الكبار ، قبل أن تصير إلى قبرك فتجده إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار.

وكما أن الحق تعالى يسأل الرسل عما أجيبوا به ، يسأل خلفاءهم - وهم الأولياء والعارفون - عما إذا قوبلوا من تعظيم أو إنكار ، فيرفع من عظمهم فى أعلى عليين ، ويحط من أنكرهم فى محل أهل اليمين. وبالله التوفيق.

---

(١) الآيتان ١٤ - ١٥ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ٧٨ من سورة القصص.

(٣) من الآية ١٠٩ من سورة المائدة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٩٩

ثم ذكر مقادير الأعمال ووزنها ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٨ الى ٩]

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (٩)

قلت : (الوزن) : مبتدأ ، و(يومئذ) : خبره ، و(الحق) : صفته ، أي : الوزن العدل حاصل يومئذ.

يقول الحق جل جلاله : وَالْوَزْنُ أي : وزن الأعمال ، على نعت الحق والعدل ، حاصل يوم القيامة ، حين يسأل الرسل والمرسل إليهم. والجمهور على أن صحائف الأعمال توزن بميزان له لسان وكفتان ، ينظر إليه الخلائق إظهارا للمعدلة وقطعا للمعذرة ، كما يسألهم عن أعمالهم ، فتعترف بها ألسنتهم ، وتشهد بها جوارحهم ، ويؤيده ما روى : «أن الرجل يؤتى به إلى الميزان ، فينشر عليه تسعة وتسعون سجلا ، كلّ سجلّ مد البصر ، فتخرج له بطاقة فيها كلمة الشهادة ، فتوضع السّجلّات فى كفة ، والبطاقة فى كفة ، فتثقل البطاقة ، وتطيش السّجلّات» «١».

وقيل : توزن الأشخاص لما روى عنه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «إنّه ليأتى العظيم السّمين يوم القيامة لا يزن عند اللّه تعالى جناح بعوضة» «٢». والتحقيق : أن المراد به الإهانة والتصغير ، وأنه لا يساوى عند اللّه شيئا لاتباعه الهوى.

ثم فصل فى الأعمال فقال : فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ أي : حسناته ، أو الميزان الذي يوزن به حسناته ، وجمعه باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن ، فعلى الأول هو جمع موزون ، وعلى الثاني جمع ميزان ، فمن رجحت حسناته فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بالنجاة والثواب الدائم ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بتضييع الفطرة السليمة التي فطروا عليها ، واقتراف ما عرضها للهلاك ، بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ حيث بدلوا التصديق بها بالتكذيب ، والعمل فيها بالتفريط. نسأل اللّه تعالى الحفظ.

الإشارة : العمل الذي يثقل على النفس كله ثقيل فى الميزان لأنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا ، والعمل الذي يخف على النفس كله خفيف لأنه فيه نوع من الهوى إذ لا يخف عليها إلا ما لها فيه حظ وهوى.

وفى الحكم :

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند ٢/ ٢١٣ والترمذي فى (الإيمان ، باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا اللّه) وابن ماجه فى (الزهد ، باب ما يرجى من رحمة اللّه يوم القيامة) وصححه

الحاكم ١/ ٦ ، من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص.
(٢) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الكهف ، باب : «أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ..») ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب صفة القيامة ..) من حديث أبى هريرة.

(١٩٩/٢)

«إذا التبس عليك أمران ، فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا». وقال أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه : واللّه ما ثقل ميزان عبد إلا باتباعه الحق ، وما خف إلا باتباعه الهوى. قال تعالى : وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ.
هـ. بمعناه ، ذكره فى القوت. وهذا فى غير النفس المطمئنة ، وأما هى فلا يثقل عليها شىء ، وقد يثقل عليها الباطل ، ويخف عليها الحق ، لكمال رياضتها. واللّه تبارك وتعالى أعلم.
ثم ذكّرهم بالنعم ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : آية ١٠]
وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (١٠)
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ تتصرفون فيها بالبناء والسكن ، وبالغرس والحرث والزرع ، وغير ذلك من أنواع التصرفات ، وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ : أسبابا تعيشون بها كالتجارة وسائر الحرف ، قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ على هذه النعم ، فتقابلون المنعم بالكفر والعصيان ، فأنتم جديرون بسلبها عنكم ، وإبدالها بالنقم ، لو لا فضله ورحمته.
الإشارة : نعمة التمكين فى الأرض متحققة فى أهل التجريد ، المنقطعين إلى اللّه تعالى ، فهم يذهبون فى الأرض حيث شاءوا ، ومائدتهم ممدودة يأكلون منها حيث شاءوا ، فهم متمكنون من أمر دينهم لقلة عوائدهم ، ومن أمر دنياهم لأنها قائمة باللّه ، تجرى عليهم أرزاقهم من حيث لا يحتسبون ، تخدمهم ولا يخدمونها «يا دنياى اخدمي من خدمنى ، وأتعبى من خدمك». فمن قصّر منهم فى الشكر توجه إليه العتاب بقوله : وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ إلى قوله : قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ ، ومن تحقق شكره قيل له : وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ «١». واللّه تعالى أعلم.
ولما ذكر نعمة الإمداد أتبعه بنعمة الإيجاد ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١١ الى ١٨]
وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ

(١١) قالَ ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥)

قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (١٧) قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)

---

(١) الآيتان : ٥ - ٦ من سورة القصص.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠١

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ أي : خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ، ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ أي : صورنا خلقة أبيكم آدم. نزّل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره لأنه المادة الأصلية ، أي : ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا أباكم آدم ، ثم صورناه ، ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ تعظيما له ، حيث وجد فيه ما لم يوجد فيهم ، واختبارا لهم ليظهر من يخضع ممن لم يخضع ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ لآدم.

قالَ له الحق تبارك وتعالى : ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ أي : أن تسجد ، فلا : زائدة ، مؤكدة معنى الفعل الذي دخلت عليه ، ومنبهة على أن الموبّخ عليه ترك السجود ، وقيل : الممنوع من الشيء كالمضطر إلى خلافه ، فكأنه قال : ما اضطرك إلى ترك السجود إِذْ أَمَرْتُكَ.

وفيه دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور ، فأجاب بقوله : قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، أي : المانع لى من السجود هو كونى أنا خير منه ، ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول ، فكيف يحسن أن يؤمر به ، فإبليس هو الذي سنّ التكبر ، وقال بالتحسين والتقبيح العقليين أولا ، وبهذا الاعتراض كفر إبليس إذ ليس كفره كفر جحود.

ثم بيّن وجه الأفضلية ، فقال : خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ، فاعتقد أن النار خير من الطين ، وقد غلط فى ذلك ، فإن الأفضلية إنما تظهر باعتبار النتائج والثمرات ، لا باعتبار العنصر والمادة فقط ، ولا شك أن الطين ينشأ منه ما لا يحصى من الخيرات كالثمار والحبوب وأنواع الفواكه.

قال البيضاوي : رأى الفضل كله باعتبار العنصر ، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل ، كما أشار إليه بقوله تعالى : ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ «١» أي : بغير واسطة ، وباعتبار الصورة ، كما نبه عليه

بقوله تعالى : وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي وباعتبار الغاية ، وهو ملاكه ، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له لما تبين لهم أنه أعلم منهم ، وأنه له خواصا ليست لغيره. هـ.

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة ص.

(٢٠١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠٢

ولما تبين عناده قال له تعالى : فَاهْبِطْ مِنْها أي : من السماء أو من الجنة ، فَما يَكُونُ لَكَ أي : فما يصح لك أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها وتعصى فإنها موطن الخاشع المطيع ، وفيه دليل على أن الكبر لا يليق بأهل الجنة ، فإنه تعالى إنما أنزله وأهبطه لتكبره لا لمجرد عصيانه ، فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ أي : ممن أهانه اللّه لتكبره. قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «من تواضع للّه رفعه اللّه ، ومن تكبّر وضعه اللّه» «١».

ولما تحقق إبليس أنه مطرود ، سأل الإمهال فقال : أَنْظِرْنِي أي : أخرنى ، إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فلا تمتنى ، ولا تعجل عقوبتى ، قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ يقتضى أنه أجابه إلى ما سأل ، لكنه محمول على ما فى الآية الأخرى : إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ «٢» وهو نفخ الصور النفخة الأولى ، قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي أي : بعد أن أمهلتنى لأجتهدن فى إغوائهم بأى طريق يمكننى ، بسبب إغوائك إياى ، واللّه لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، وهو الطريق الذي يوصلهم إليك ، فأقعد فيه ، وأردهم عنه ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ فآتيهم من الجهات الأربع ، وذلك عبارة عن تسلطه على بنى آدم كيفما أمكنه.

قال ابن عباس : مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ : الدنيا يزيّنها لهم ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ : الآخرة ينسيها لهم ، (و عن أيمانهم) :

الحسنات يثبطهم عنها ، وَعَنْ شَمائِلِهِمْ : السيئات يزينها فى أعينهم. هـ. ولم يجعل له سبيلا من فوقهم ، ولا من تحت أرجلهم لأن الرحمة تنزل من أعلى ، فلم يحل بينهم وبينها ، والإتيان من تحت موحش ، وأيضا : السفليات محل للتواضع والخشوع ، فتكثر فيه الأنوار فيحترق بها. وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : (لأنّ فوق : التوحيد ، وتحت : الإسلام ، ولا يمكن أن يأتى من توحيد ولا إسلام).

ثم قال تعالى : وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ مطيعين ، قال بعض الصوفية : (لو كان ثم مقام أعظم من الشكر لذكره إبليس) فالشكر أعظم المقامات ، وهو الطريق المستقيم الذي قعد عليه إبليس ، والشكر : هو ألا يعصى اللّه بنعمه ، أو : صرف الجوارح كلها فى طاعة اللّه ، أو رؤية المنعم فى النعمة. وإنما

قال إبليس ذلك ظنّا لقوله :

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ

«٣» ، وسيأتى فى الإشارة حقيقته.

قالَ تعالى لإبليس : اخْرُجْ مِنْها من السماء أو الجنة ، مَذْؤُماً أي : مذموما ، من ذامه ، أي : ذمه ، مَدْحُوراً أي : مطرودا. واللّه لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فى الكفر لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ أي : منك وممن تبعك.

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (الباب ٥٧) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب - رضى اللّه عنه - .

(٢) الآية ٣٨ من سورة الحجر.

(٣) من الآية ٢٠ من سورة سبأ.

(٢٠٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠٣

تنبيه : ذكر الفخر الرازي ، فى تفسيره ، عن الشهرستاني أن إبليس جرت بينه وبين الملائكة مناظرة بعد الأمر بالسجود لآدم ، فقال لهم : إني أسلم أن اللّه خالقي وموجدى ، وهو موجد الخلق ، ولكن لى على حكمته أسئلة : الأول :
ما الحكمة فى إيجاد خلقه ، لا سيما وكان عالما بأن الكافر لا يستوجب عند خلقه الآلام؟ الثاني : ما الفائدة فى التكليف ، مع أنه لا يعود عليه نفع ولا ضرر ، وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف؟ الثالث : هب أنه كلفنى بطاعته ومعرفته ، فلما ذا كلفنى بالسجود لآدم؟ الرابع : لما عصيته فلم لعننى وأوجب عقابى ، مع أنه لا فائدة له ولا لغيره فيه ، وفيه أعظم الضرر؟ الخامس : لما فعل ذلك فلم مكننى من الدخول إلى الجنة ووسوسة آدم؟ السادس : ثم لما فعل ذلك ، فلم سلطنى على أولاده ، ومكننى من إغوائهم وإضلالهم؟ السابع : ثم لما استمهلته بالمدة الطويلة فى ذلك فلم أمهلنى ، ومعلوم أن العالم لو كان خاليا من الشر لكان ذلك خيرا؟. هـ.
قال شارح الأناجيل : فأوحى اللّه إليه من سرادقات الكبرياء : إنك ما عرفتنى ، ولو عرفتنى لعلمت أنه لا اعتراض علىّ فى شىء من أفعالى ، فأنا اللّه لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل.
قال الشهرستاني : اعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون ، وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا عن هذه الشبهات تخلصا ، أما إذا أجبنا بما أجاب به الحق - سبحانه - زالت الشبهات واندفعت

الاعتراضات. هـ. قلت : من تشمرت فكرته بنور المعرفة ، وعرف أسرار الحكمة والقدرة ، لم يصعب عليه مثل هذه الشبهات ، وسأذكر الجواب عنها على سبيل الاختصار :

أما الحكمة فى إيجاد خلقه فخلقهم ليعرف بهم. وفى الحديث القدسي : «كنت كنزا لم أعرف ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت خلقا لأعرف بهم ، وليظهر بهم آثار قدرته وأسرار حكمته. وأما تعذيب الكافر بالآلام فليظهر فيه مقتضى اسمه المنتقم.

أما فائدة التكليف فلتقوم الحجة على العبيد ، وليتميز من يستحق الإحسان ممن يستحق العذاب ، فإذا عذبه لم يكن ظالما له وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً «١» ، ولتظهر صورة العدل فى الجملة. وأما تكليفه بالسجود لآدم فلأنه ادعى المحبة ، ومقتضاها الطاعة للحبيب فى كل ما يشير إليه ، ولا تصعب إلا فى الخضوع للجنس ، أو من دونه ، فأمره بالسجود لمن دونه فى زعمه ليظهر كذبه فى دعوى محبته ، وأما لعنه وطرده فهو جزاء من كذب

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة الكهف. [.....]

وعصى. وهذا الطرد كان فى علمه تعالى ، ولكن حكمته تعالى اقتضت ترتيب الأسباب وارتباطها بالمسببات ، فكان امتناعه واعتراضه سببا لإظهار ما سبق له فى علم اللّه ، كما كانت وسوسته لآدم سببا فى إظهار خروجه من الجنة السابق فى علم اللّه. وأما تمكينه من دخول الجنة فليتسبب عنه هبوط آدم الذي سبق فى علمه لأن الحكمة اقتضت أن لكل شيء سببا. أما تسلطه على أولاده ، فليكون منديلا تمسح به أو ساخ الأقدار إذ إن الكفر والإيمان والطاعة والعصيان إنما هو بمشيئة الواحد القهار ، ولا فعل لغيره ، لكن الحق تعالى علمنا الأدب ، فخلق الشيطان والنفس والهوى مناديل ، فما كان فيه كمال نسبه لله ، وما كان فيه نقص نسبه للشيطان والنفس أدبا مع الحضرة.

وأما إمهاله فليدوم هذا المنديل عندهم ، يمسحون فيه أوساخ المقادير التي تجرى عليهم إلى انقضاء وجودهم.

وقوله : (معلوم أن العالم لو كان خاليا من الشر لكان ذلك خيرا) ، مغالطة لأن حكمته تعالى اقتضت وجود الضدين : الخير والشر ، وبهما وقع التجلي والظهور ليظهر آثار أسمائه تعالى فإن اسمه المنتقم والقهار يقتضى وجود الشر ، فيما نفهم ، وليظهر انتقامه وبطشه للعيان ، ومعلوم أن الملك إذا وصف بوصف جلالى أو جمالى لا يظهر شرف ذلك الاسم إلا بظهور آثاره فى مملكته. وقوله : (إنك ما

عرفتنى ..) إلخ .. يقتضى أنه لو عرف اللّه حق معرفته لفهم أسرار هذه الأشياء التي اعترض بها على ما بيناها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الأكوان ظاهرها أغيار ، وباطنها أنوار وأسرار ، فمن وقف مع ظاهرها لزمه الاعتراض والإنكار ، ومن نفذ إلى شهود باطنها لزمه المعرفة والإقرار ، ولعل إبليس لم ير - فى حال الأمر بالسجود - من آدم إلا الأغيار ، ولو رأى باطنه لكان أول ساجد للّه الواحد القهار.

ثم ذكر دخول آدم الجنة وخروجه منها ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٩ الى ٢٥]

وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (٢٠) وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (٢٣)

قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (٢٤) قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ (٢٥)

(٢٠٤/٢)

يقول الحق جل جلاله : وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ حواء الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما من ثمارها ، وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ التين أو العنب أو الحنطة ، فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ لأنفسكما بمخالفتكما ، فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ أي : فعل الوسوسة لأجلهما ، وهو الصوت الخفي ، لِيُبْدِيَ أي : ليظهر لَهُما ما وُورِيَ أي : ما غطى عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما أي : عوراتهما ، واللام : للعاقبة ، أي : فعل الوسوسة لتكون عاقبتهما كشف عورتهما ، وكانا لا يريانها من أنفسهما ، ولا أحدهما من الآخر. وفيه دليل على أن كشف العورة ، ولو عند الزوج من غير حاجة - قبيح مستهجن فى الطباع.

وَقالَ لهما : ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا كراهية أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ. واستدل به من قال بفضل الملائكة على الأنبياء ، وجوابه : أنه كان من المعلوم عندهما أن الحقائق لا تنقلب ، وإنما كانت رغبتهما فيما يحصل لهما من الغنى عن الطعام والشراب ، فيمكن لهما الخلود فى الجنة ، ولذلك قال : أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ الذين يخلدون فى الجنة.

ويؤخذ من قوله تعالى : ما نَهاكُما رَبُّكُما ، أن آدم عليه السّلام لم يكن ناسيا للنهى ، وإلا لما ذكره بقوله : ما نَهاكُما رَبُّكُما ، وقوله فى سورة طه : فَنَسِيَ ، أي : نسى أنه عدو له ، ولذلك ركن إلى نصيحته ، وقبل منه حتى تأول أن النهى عن عين الشجرة لا عن جنسها ، فأكل من جنسها رغبة فى الخلود ، ولكنه غره من حيث الأخذ بالظواهر وترك الاحتياط.

ولم يقصد إبليس إخراجهما من الجنة ، وإنما قصد إسقاطهما من مرتبتهما ، وإبعادهما كما بعد هو ، فلم يبلغ قصده ولا أدرك مراده ، بل ازداد سخينة عين ، وغيظ نفس ، وخيبة ظن. قال اللّه تعالى : ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى «١» ، فصار عليه السّلام خليفة لله فى أرضه ، بعد أن كان جارا له فى داره ، فكم بين الخليفة والجار؟

---

(١) الآية ١٢٢ من سورة طه.

(٢٠٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠٦

وَقاسَمَهُما أي : حلف لهما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ فيما قلت لكما. وذكر قسم إبليس بصيغة المفاعلة التي تكون بين اثنين مبالغة لأنه اجتهد فيه ، أو لأنه أقسم لهما ، وأقسما له أن يقبلا نصيحته. فَدَلَّاهُما ، أي : أنزلهما إلى الأكل من الشجرة ، بِغُرُورٍ أي : بما غرهما به من القسم ، لأنهما ظنا أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا ، فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ أي : وجدا طعمها ، آخذين فى الأكل منها ، بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما ، وتهافت عنهما ثيابهما ، فظهرت لهما عوراتهما أدبا لهما. وقيل : كان لباسهما نورا يحول بينهما وبين النظر ، فلما أكلا انكشف عنهما ، وظهرت عورتهما ، وَطَفِقا أي : جعلا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ أي : أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة ليستترا به ، قيل : كان ورق التين. فآدم أول من لبس المرقعة ، وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ هذا عتاب على المخالفة ، وتوبيخ على الاغترار بالعدو. وفيه دليل على أن مطلق النهى للتحريم. ثم صرحا بالتوبة فقالا : رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا حين صدّرناها للمعصية ، وتعرضنا للإخراج من الجنة ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ وهذه هى الكلمات التي تلقاها من ربه فتاب عليه بها.

قال البيضاوي : فيه دليل على أن الصغائر يعاقب عليها إن لم تغفر ، وقالت المعتزلة : لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر ، ولذلك قالوا : إنما قالا ذلك على عادة المقربين فى تعظيم الصغير من السيئات ، واستحقار العظيم من الحسنات. هـ.

قالَ اهْبِطُوا الخطاب لآدم وحواء وذريتهما ، أو : لهما ولإبليس ، وكرر الأمر له تبعا ليعلم أنهم قرناء له

أبدا. حال كونكم بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ أي : متعادين ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ أي : استقرار ، وَمَتاعٌ أي : تمتع ، إِلى حِينٍ انقضاء آجالكم ، قالَ فِيها أي : فى الأرض تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ للجزاء ، بالنعيم ، أو بالعذاب الأليم ، على حسب سعيكم فى هذه الدار الفانية.

الإشارة : قال بعض العارفين : كل ما نهى اللّه تعالى عنه فهو شجرة آدم ، فمن دخل جنة المعارف ، ثم غلبه القدر فأكل من تلك الشجرة - وهى شجرة سوء الأدب - أخرج منها ، فإن كان ممن سبقت له العناية ألهم التوبة ، فتاب عليه وهداه ، وأهبطه إلى أرض العبودية ليكون خليفة اللّه فى أرضه ، فأنعم بها معصية أورثت الخلافة والزلفى. وفى الحكم : «ربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول». وقال أيضا : «معصية أورثت ذلا وافتقارا ، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا». وقال بعضهم : كل سوء أدب يثمر لك أدبا فهو أدب. واللّه تعالى أعلم.

(٢٠٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠٧

ثم ذكّرهم بنعمة اللباس ، الذي عوضهم به فى الدنيا عن لباس الجنة ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ٢٦]

يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)

قلت : من قرأ : (لباس) بالرفع فهو مبتدأ ، والجملة : خبر ، والرابط : الإشارة ، والريش : لباس الزينة ، مستعار من ريش الطير.

يقول الحق جل جلاله : يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً أي : خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة ، ونظيره : قوله تعالى : وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ «١» ، وقوله تعالى : وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ «٢». من صفة ذلك اللباس : يُوارِي أي : يستر سَوْآتِكُمْ التي قصد إبليس إبداءها ، ويغنيكم عن خصف الورق. روى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ، ويقولون : لا نطوف فى ثياب عصينا اللّه تعالى فيها ، فنزلت. ولعل ذكر قصة آدم تقدمة لذلك حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان ، وأنه أغواهم فى ذلك كما أغوى أبويهم. قاله البيضاوي.

وَرِيشاً أي : ولباسا فاخرا تتجملون به وَلِباسُ أي : وأنزلنا عليكم لباس التَّقْوى وهى خشية اللّه تعالى ، أو الإيمان ، أو السمت الحسن ، واستعار لها اللباس كقولهم : ألبسك اللّه لباس تقواه ، وقيل : لباس الحرب. ومن قرأ بالرفع فخبره : ذلِكَ خَيْرٌ أي : لباس التقوى خير من لباس الدنيا لبقائه فى دار البقاء دون لباس الدنيا فإنه فإن فى دار الفناء ، ذلِكَ أي : إنزال اللباس من حيث هو خير مِنْ آياتِ اللَّهِ

الدالة على فضله ورحمته ، لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فيعرفون نعمه ، فيشكرون عليها ، أو يتعظون فينزجرون عن القبائح.

الإشارة : اللباس الذي يوارى سوءات العبودية - أي : نقائصها - هى أوصاف الربوبية ونعوت الألوهية من عز وغنى ، وعظمة وإجلال ، وأنوار وأسرار ، التي أشار إليها فى الحكم بقوله : «لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساوئك ، ومحو دعاويك ، لم تصل إليه أبدا ، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ، ونعتك بنعته ، فوصلك بما منه إليك ، لا بما منك إليه». والريش هو بهجة أسرار المعاني التي تغيب ظلمة الأواني ، أو بهجة الأنوار التي تفنى الأغيار ، ولباس التقوى هى حفظه ورعايته لأوليائه فى الظاهر والباطن مما يكدر صفاءهم أو يطمس أنوارهم.

واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٦ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الحديد.

(٢٠٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠٨

ثم حذّرهم من الشيطان ، وأعلمهم بسابق عداوته ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ٢٧]

يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)

يقول الحق جل جلاله : يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ بأن يشغلكم عما يقربكم إلى اللّه ، ويحملكم على ما يمنعكم من دخول جنته ، كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بسبب غروره ، والنهى ، فى اللفظ ، للشيطان ، والمراد : نهيهم عن اتباعه. حال كون أبويكم يَنْزِعُ الشيطان عَنْهُما لِباسَهُما بسبب غروره لهما ، وإسناد النزع إليه : مجاز للسببية لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ، وهو تعليل للنهى ، وتحذير من فتنته ، وقَبِيلُهُ : جنوده. ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم فى الجملة لا يقتصى امتناع رؤيتهم وتمثلهم لنا ، وقد جاءت فى رؤيتهم أحاديث صحيحة فتحمل الآية على الأكثر والغالب. قال تعالى : إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بما أوجدنا بينهم من التناسب ، أو بإرسالهم عليهم ، وتمكينهم من خذلانهم ، وحملهم على ما سولوا لهم ، والآية هى مقصود القصة وفذلكة الحكاية. قاله البيضاوي.

الإشارة : الحكمة فى خلق الشيطان هى كونه منديلا تمسح فيه أوساخ الأقدار ، وكونه يحوش أولياء اللّه إلى اللّه ، كلما نخسهم بنزعه فزعوا إلى مولاهم ، فلا يزال بهم كذلك حتى يوصلهم إلى حضرته ، فحينئذ ينقاد إليهم ، ويخدمهم بأولاده. وفى الحكم : «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك ، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده».

قال محمد بن واسع : تمثل لى الشيطان فى طريق المسجد ، فقال لى : يا ابن واسع ، كلما أردتك وجدت بينى وبينك حجابا ، فما ذاك؟ قال : أقرأ ، كلما أصبحت : اللهم إنك سلطت علينا عدوا من أعدائنا ، بصيرا بعيوبنا ، مطلعا على عوراتنا ، يرانا هو وقبيله من حيث لانراهم ، اللهم آيسه منا كما آيسته من رحمتك ، وقنطه منا كما قنطته من عفوك ، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بين المشرق والمغرب - وفى رواية : كما باعدت بينه وبين جنتك - إنك على كل شىء قدير. هـ.

ثم ذكر مساوئ أولياء الشيطان ، فقال :

(٢٠٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠٩

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٢٨ الى ٣٠]

وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)

يقول الحق جل جلاله ، فى وصف المشركين : وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أي : فعلة متناهية فى القبح كعبادة الصنم ، وكشف العورة فى الطواف ، احتجوا بفعل آبائهم فقالوا : وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها فاعتذروا بعذرين باطلين : أحدهما : تقليد آبائهم ، والآخر : افتراؤهم على اللّه ، فأعرض عن الأول لظهور فساده ، ورد الثاني بقوله : قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ لأن اللّه تعالى جرت عادته على الأمر بمحاسن الأفعال ومكارم الخلال. ولا حجة فيه للمعتزلة. انظر البيضاوي.

والآية كأنها جواب سؤالين مترتبين كأنه قيل لهم : لم فعلتم هذه الفواحش؟ قالوا : وجدنا عليها آباءنا ، فقيل :

ومن أين أخذها آباؤكم؟ قالوا : اللّه أمرنا بها ، فكذبهم اللّه بقوله : إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ ، أي : أتتقولون على اللّه ما لا علم لكم به إنكار يتضمن النهى عن الافتراء على اللّه.

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ أي : العدل ، وهو الوسط من كل أمر ، المتجافى عن طرفى الإفراط والتفريط ، وأمر بأن قال : وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ أي : افعلوا الصلاة فى كل مكان يمكن فيه السجود إذا حضرتكم ، ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم. والمعنى : إباحة الصلاة فى كل موضع ، فهو كقوله صلّى اللّه عليه وسلّم :

«جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا». وقيل : المراد إحضار النية والإخلاص للّه فى كل صلاة بدليل قوله :

وَادْعُوهُ أي : اعبدوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أي : الطاعة ، فلا تعبدوا معه غيره ، فإنكم راجعون إليه ، كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فيجازيكم على أعمالكم ، فاحتج على البعث الأخروى بالبدأة الأولى لاشتراكهما فى تعلق القدرة بهما ، بل العود أسهل باعتبار العادة ، وقيل : كما بدأكم من التراب ، تعودون إليه ، وقيل : كما بدأكم حفاة عراة غرلا ، تعودون ، وقيل : كما بدأكم مؤمنا وكافرا ، يعيدكم. قاله البيضاوي.

فَرِيقاً هَدى بأن وفقهم للإيمان ، وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ بمقتضى القضاء السابق ، أي : خذل فريقا حق عليهم الضلالة ، إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ يطيعونهم فيما يأمرونهم به ، مِنْ دُونِ اللَّهِ ،

(٢٠٩/٢)

وهذا تعليل لخذلانهم وتحقيق لضلالتهم ، وَيَحْسَبُونَ أي : يظنون أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ فهم على جهل مركب ، وفيه دليل على أن الكافر المخطئ والمعاند : سواء فى الذم واستحقاق العذاب إذ لا يعذر بالخطأ فى أمر التوحيد.

الإشارة : تقليد الآباء فى المساويء من أقبح المساويء ، واحتجاج العبد بتخليته مع هواه هو ممن اتخذ إلهه هواه ، إن اللّه لا يأمر بالفحشاء ، فإذا قال العبد - فى حال انهماكه : هكذا أحبنى ربى ، فهو خطأ فى الاحتجاج بل يجاهد نفسه فى الإقلاع ، ويتضرع إلى مولاه فى التوفيق فإن الحق تعالى إنما يأمر بالعدل والإحسان ، ودوام الطاعة والإذعان ، والخضوع للّه فى كل زمان ومكان ، والتحقق بالإخلاص فى كل أوان ، وإفراد المحبة والولاية للكريم المنان. وباللّه التوفيق.

ثم أمرهم بستر العورة فى الصلاة والطواف ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ٣١]

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)

يقول الحق جل جلاله : يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ أي : ثيابكم التي تستر عورتكم ، عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ لطواف أو صلاة ، واحتج به من أوجب ستر العورة فى الصلاة ، ومن السّنة أن يأخذ الرجل أحسن ثيابه

للصلاة ، وقيل : المراد بالزينة : زيادة على الستر ، كالتجمل للجمعة بأحسن الثياب وبالسواك والطيب ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا أمر إباحة لما روى أن بنى عامر ، فى أيام الحج ، كانوا لا يأكلون من الطعام إلا قوتا ، ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم ، وهمّ المسلمون بذلك ، فنزلت.

وَلا تُسْرِفُوا بتحريم الحلال ، أو بالتقدم إلى الحرام ، أو بإفراط الطعام والشره إليه ، وقد عدّ فى الإحياء من المهلكات : شره الطعام ، وشره الوقاع ، أي : الجماع. إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ لا يرتضى فعلهم.

وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : (كل ما شئت ، والبس ما شئت ، ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة) «١» أي : تكبر. وقال على بن الحسين بن واقد : جمع اللّه الطب فى نصف آية فقال : كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا.

الإشارة : إنما أمر الحق - جل جلاله - بالتزين للصلاة والطواف لأن فيهما الوقوف بين يدى ملك الملوك ، وقد جرت عادة الناس فى ملاقاة الملوك : التهيؤ لذلك بما يقدرون عليه من حسن الهيئة لأن ذلك زيادة تعظيم

---

(١) أخرجه ابن أبى شبية فى المصنف (الأدب واللباس) موقوفا على ابن عباس رضى اللّه عنه. وأخرجه مرفوعا النسائي فى (الزكاة ، باب الاختيال فى الصدقة) وابن ماجه فى (اللباس ، باب البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة) وأحمد فى المسند ٢/ ١٨١ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم يخالطه إسراف أو مخيلة».

للملك ، وتزيين البواطن بالمحبة والوداد أحسن من تزيين الظواهر وخراب البواطن «إنّ اللّه لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» «١». وملاقاة الملك بالذل والانكسار أحسن من ملاقاته بالتكبر والاستظهار. واللّه تعالى أعلم.

ولما تعاهدت قريش ، ومن دان دينها ، أنهم لا يأكلون أيام الحج دسما ولا سمنا ولا أقطا ولا طعاما جاء من الحل ، ردّ اللّه عليهم بقوله :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٣٢ الى ٣٤]

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

(٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)

قلت : من قرأ : (خالصة) بالرفع ، فخبر بعد خبر ، أو خبر عن مضمر ، ومن قرأ بالنصب ، فحال.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ وهى ما يتجمل به من الثياب وغيرها ، الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ من النبات كالقطن والكتان ، أو الحيوان كالحرير والصوف والوبر ، والمعادن كالدروع والحلي ، وَقل أيضا : من حرم الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ أي : المستلذات من المآكل والمشارب ، ويدخل فيها المناكح إذ هى من أعظم الطيبات. وفيه دليل على أن الأصل فى المطاعم والملابس وأنواع التجملات : الإباحة لأن الاستفهام للإنكار ، وبه رد مالك - رحمه اللّه - على من أنكر عليه من الصوفية ، وقال له : اتق اللّه يا مالك بلغني أنك تلبس الرقيق ، وتأكل الرقاق ، فكتب إليه بالآية.

قال تعالى : قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، ويشاركهم فيها الكفار ، ويوم القيامة تكون خالِصَةً لهم دون غيرهم. كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ أي : كتفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ فينزلونها فى محلها بخلاف الجهال.

---

(١) أخرجه مسلم فى (البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٢١١/٢)

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ وهى ما تزايد قبحها من المعاصي ، وقيل : ما يتعلق بالفروج ، ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ أي : جهرها وسرها ، أو ما يتعلق بالجوارح الظاهرة والعوالم الباطنية وهى القلوب ، وَالْإِثْمَ كقطع الرحم ، أو عام فى كل ذنب ، وَالْبَغْيَ وهو الظلم كقطع الطريق والغصب ، وغير ذلك من ظلم العباد ، أو التكبر على عباد اللّه وقوله : بِغَيْرِ الْحَقِّ : تأكيد له فى المعنى. وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً أي : حجة على استحقاق العبادة ، وهو تهكم بالمشركين ، وتنبيه على تحريم ما لم يدل عليه برهان.

وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ من الإلحاد فى صفاته ، والافتراء عليه كقولهم : اللَّهُ أَمَرَنا «١» ، ولَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا «٢».

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ أي : مدة ووقت لنزول العذاب بها إن لم يؤمنوا ، وهو تهديد لأهل مكة ، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ أي : انقرضت مدتهم ، أو دنى وقت هلاكهم ، لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً عنه وَلا يَسْتَقْدِمُونَ أي : لا يتأخرون ولا يتقدمون عنه أقصر وقت ، أو لا يطيقون التقدم والتأخر لشدة الهول ، وجعل بعضهم :

(و لا يستقدمون) استئنافا لأن الأجل إذا جاء لا يتصور التقدم ، وحينئذ يوقف على : ساعَةً ، ثم يقول : ولا هم يستقدمون عنه قبل وصوله.

الإشارة : قال شيخنا البوزيدى رضى اللّه عنه : زينة اللّه التي أظهر لعباده هى لباس المعرفة ، وهو نور التجلي ، والطيبات من الرزق هى حلاوة الشهود. هـ. وهى لمن كمل إيمانه وصدقه فى الحياة الدنيا ، وتصفو له إلى يوم القيامة ، فهى حلال على أهل التجريد يتمتعون بها فى الدارين ، وإنما حرّم عليهم ما يشغلهم عن ربهم من جهة الظاهر ، وما يقطعهم عن شهوده من جهة الباطن ، وسوء الأدب مع اللّه ، والتعرض لعباد اللّه ، والشرك بالله بأن يشهدوا معه سواه ، وأن يقولوا على اللّه ما يوهم نقصا أو خللا فى أنوار جماله وسناه. واللّه تعالى أعلم.

ثم إن العباد والزهاد وأهل البداية من المريدين السائرين - ينبغى لهم أن يزهدوا فى زينة الدنيا وطيباتها لئلا تركن إليها نفوسهم ، فيثبط سيرهم ، وأما الواصلون فهم مع اللّه ، لا مع شيء سواه ، يأخذون من اللّه باللّه ، ويدفعون بالله ، وقد اتسعت دائرة علمهم ، فليسوا مع لباس ولا أكل ولا شرب ولا جوع ولا شبع ، هم مع ما يبرز فى الوقت من المقدورات. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ١٤٨ من سورة الأنعام.

ثم وصاهم على الإيمان بالرسل ، عند ظهورهم ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٣٥ الى ٣٦]

يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٣٦)

قلت : (إما) : شرط مؤكد بما ذكره بحرف الشك للتنبيه على أن إتيان الرسل جائز ، غير واجب ، كما ظنه المعتزلة ، وجوابه : (فمن اتقى ..) إلخ ، وإدخال الفاء فى الجواب الأول دون الثاني للمبالغة فى الوعد والمسامحة فى الوعيد. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : يا بَنِي آدَمَ مهما يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي الدالة على توحيدى ومعرفتى ، فَمَنِ اتَّقى الشرك والتكذيب ، وَأَصْلَحَ فيما بينى وبينه ، منكم ، بالعمل الصالح ، فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ ،

فمن كمال الإيمان : أن يقدر الإنسان نفسه أن لو كان فى زمان كل رسول ، لكان أول من تبعه ، ولكان من خواص أصحابه ، هكذا يسير بعقله مع كل رسول من زمان آدم عليه السّلام إلى مبعث رسولنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد جعل اللّه لكل نبى خلفاء يخلفونه فى تبليغ أحكامه الظاهرة والباطنة ، وهم العلماء الأتقياء ، والأولياء العارفون الأصفياء ، فمن أراد أن يكون ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فليتبع علماء أهل زمانه فى الشريعة ، وأولياء أهل عصره فى تربية الحقيقة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من استكبر ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ٣٧]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (٣٧)

يقول الحق جل جلاله : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بأن نسب إليه الولد والشريك ، أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ التي جاءت بها الرسل من عنده ، أي : لا أحد أظلم منه ، أو : تقوّل على اللّه ما لم يقله ، وكذّب بما

(٢١٣/٢)

قاله ، أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ أي : يلحقهم نصيبهم مما كتب فى اللوح المحفوظ من الأرزاق والآجال ، حَتَّى إِذا انقضت أعمارهم وجاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ أي : يتوفون أرواحهم ، قالُوا لهم توبيخا : أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون اللّه لتدفع عنكم العذاب؟ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا غابوا عنا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ ، اعترفوا بأنهم كانوا ضالين فيما كانوا عليه ، وندموا حيث لم ينفع الندم ، وقد زلت بهم القدم.

الإشارة : كل من أعرض عن خصوص أهل زمانه ، واشتغل بمتابعة حظوظه وهواه ، ينال نصيبه من الدنيا الفانية وما قسم له فيها فإذا جاءت منيته ندم وتحسر ، وقيل له : أين ما تمتعت به وشغلك عن مولاك؟ فيقول : قد غاب ذلك وفنى وانقضى ، وكأنما كان برقا سرى ، أو طيف كرى ، والدهر كله هكذا لمن سدد نظرا ، وعند الصباح يحمد القوم السّرى ، وستعلم ، إذا انجلى الغبار ، أفرس تحتك أم حمار.

وقد قال صلّى اللّه عليه وسلّم فى بعض خطبه : «لا تخدعنّكم زخارف دنيا دنيّة ، عن مراتب جنّات

عالية فكان قد كشف القناع ، وارتفع الارتياب ، ولا قى كل امرئ مستقرّه ، وعرف مثواه ومنقلبه». وفى حديث آخر : «من بدأ بنصيبه من الدنيا فاته نصيبه من الآخرة ، ولم يدرك منها ما يريد ، ومن بدأ بنصيبه من الآخرة ، وصل إليه نصيبه من الدنيا ، وأدرك من الآخرة ما يريد».

ثم ذكر عذاب أهل التكذيب ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٣٨ الى ٣٩]

قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : قالَ اللّه تعالى أي : يوم القيامة للكفار ، بواسطة ملك ، أو بغيرها : ادْخُلُوا فِي جملة أُمَمٍ كانوا من قبلكم مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ متفقين معكم فى الكفر والضلال ، فادخلوا مصاحبين معهم فِي النَّارِ. قال تعالى ، مخبرا عن حالهم : كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ منهم فى النار لَعَنَتْ أُخْتَها التي ضلت

بالاقتداء بها ، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا أي : تداركوا وتلاحقوا ، فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ دخولا أو منزلة ، وهم الأتباع السفلة ، لِأُولاهُمْ وهم المتبوعون الرؤساء - أي : قالت لأجلهم لأن الخطاب مع اللّه لا معهم ، قالوا :

رَبَّنا هؤُلاءِ الرؤساء أَضَلُّونا حيث سنّوا لنا الضلال فاقتدينا بهم ، فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً أي : مضاعفا مِنَ النَّارِ لأنهم ضلوا وأضلوا. قالَ تعالى : لِكُلٍّ واحد منكم ضِعْفٌ أي : عذابا مضعفا ، أما القادة فلكفرهم وتضليلهم ، وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم ، وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ ما لكم ، أو ما لكل فريق منكم.

وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ أي : المتبوعون للأتباع : فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فى الإيمان والتقوى توجب أن يكون عذابنا أشد من عذابكم ، حتى يتضاعف علينا العذاب دونكم فإنا وإياكم متساوون فى الضلال واستحقاق العذاب ، فَذُوقُوا أي : باشروا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ هو من قول القادة ، أو من قول اللّه - تعالى - لجميعهم.

الإشارة : إذا قامت القيامة تحققت الحقائق ، وتميزت الطرائق ، للخاص والعام ، فيرتفع المقربون فى أعلى عليين ، ويبقى أهل اليمين فى أسفل منازل أهل الجنة مع عوام المسلمين ، فيتعلق عوامهم بخواصهم ، فيقولون لهم :

أنتم رددتمونا عن صحبة هؤلاء ، وأنتم خذلتمونا عنهم ، ثم يقولون : ربنا هؤلاء أضلونا عن صحبة هؤلاء المقربين ، فآتهم حجابا ضعفا مما لنا ، قال : لكل ضعف من الحجاب ، هم بتضليلهم لكم عن صحبتهم ، وأنتم بتقليدكم لهم ، ولكن لا تعلمون ما أعددت للمقربين حين صبروا على جفاكم ، وتحملوا مشاق طاعتي ومعرفتي لأن كل آية فى الكفار تجر ذيلها على أهل الغفلة من المؤمنين. واللّه تعالى أعلم.

ثم حرّم على الكفار دخول الجنة ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤٠ الى ٤١]

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)

قلت : (سمّ الخياط) : عين الإبرة ، وفى السين : الفتح والكسر والضم ، والخياط : ما يخاط به ، على وزن حزام ، والتنوين فى (غواش) : للعوض عن الياء ، عند سيبويه ، وللصرف عند غيره.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عن : الإيمان بها ، لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ لأدعيتهم وأعمالهم فلا تقبل ، أو : لا تفتح لأرواحهم إذا ماتوا ، بل تغلق دونها إذا وصلت بها

الملائكة إليها ، فيطرحونها فتسقط من السماء ، بخلاف أرواح المؤمنين تفتح لهم أبواب السماء حتى يفضوا إلى سدرة المنتهى. وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ أي : يدخل ، الْجَمَلُ وهو البعير فِي سَمِّ الْخِياطِ أي :

فى ثقب الإبرة ، والمعنى : لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبدا ، فلا يدخلون الجنة أبدا ، وقرأ ابن عباس (الجمل) بضم الجيم وسكون الميم ، وهو حبل السفينة ، الذي جمع بعضه إلى بعض حتى صار أغلظ ما يكون.

ثم قال تعالى : وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ أي : مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى المجرمين ، لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ أي : فراش ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ أي : أغطية من النار. وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ عبّر عنهم بالمجرمين تارة ، وبالظالمين أخرى إشعارا بأنهم بتكذيبهم الآيات ، اتصفوا بالجرم والظلم ، وذكر مع الحرمان من الجنة : الجرم ، ومع التعذيب بالنار : الظلم تنبيها على أن الظلم أعظم الإجرام.

الإشارة : أهل التربية النبوية من الشيوخ العارفين : آية من آيات اللّه ، من كذّب بهم ، واستكبر عن

الخضوع لهم ، لا تفتح لفكرته أبواب السماء ، بل يبقى مسجونا بمحيطاته ، محصورا فى هيكل ذاته ، ولا يدخل جنة المعارف أبدا ، بل يحيط به الحجاب من فوقه ومن أسفله ، فتنحصر روحه فى الأكوان ، ولم تفض إلى فضاء الشهود والعيان.

وفى الحكم : «الكائن فى الكون ، ولم تفتح له ميادين الغيوب ، مسجون بمحيطاته ، محصور فى هيكل ذاته».

وقال أيضا : «وسعك الكون من حيث جثمانيتك ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك» ، فكل من لم تثبت له الروحانية : فهو محصور فى الكون ، وكل من ثبتت له الروحانية بأن استولى معناه على حسه ، لم يسعه الكون ، ولم يحصره عرش ولا فرش ، وكذلك الصوفي لا تظله السماء ولا تقله الأرض ، أي : لا يحصره الكون من حيث فكرته. واللّه تعالى أعلم.

ثم شفع بضدهم ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤٢ الى ٤٣]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

قلت : جملة (لا نكلف) : معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب فى اكتساب النعيم المقيم ، بما تسعه طاقتهم ، ويسهل عليهم ، و(ما كنا لنهتدى) : اللام لتأكيد النفي ، وجواب «لو لا» : محذوف ، أي : لو لا هدايته إيانا ما اهتدينا.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ آمَنُوا

بالرسل ، وَعَمِلُوا الأعمال الصَّالِحاتِ على قدر طاقتهم ، لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أي : ما تسعه طاقتها ، فمن فعل ذلك ف أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ. وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ أي : نخرج من قلوبهم كل غل وعدواة ، ونطهرها منه ، حتى لا يكون بينهم إلا التودد ، فيصيرون أحبابا وإخوانا ، وإنما عبّر بالماضي لتحقق وقوعه ، كأنه وقع ومضى ، وكذلك ما يجيء بعدها ، ثم وصف الجنة فقال : تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ أي : من تحت قصورهم ، الْأَنْهارُ من عسل وخمر وماء ولبن زيادة فى لذتهم وسرورهم ، فالقصور مرتفعة فى الهواء ، والأنهار تجرى تحتها.

وَقالُوا حينئذ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا أي : لما جزاؤه هذا النعيم من الإيمان فى الدنيا والعمل الصالح ، وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ بأنفسنا لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ بتوفيقه وإرادته ، لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فاهتدينا بإرشادهم ، يقولون ذلك اغتباطا وتبجحا بأن ما عملوه فى الدنيا يقينا ، صار لهم عين اليقين فى الآخرة ، وَنُودُوا أي : نادتهم الملائكة ، أو الحق تعالى : أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أي : هذه الجنة أُورِثْتُمُوها أي :

أعطيتموها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي : بسبب أعمالكم ، وهذا باعتبار الشريعة ، وأما باعتبار الحقيقة فكل شيء منه وإليه. ولذلك قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «لن يدخل الجنّة أحدكم عمله ، قالوا : ولا أنت ، قال : ولا أنا ، إلّا أن يتغمّدنى اللّه برحمته» «١».

فالشريعة تنسب العمل للعبد ، والحقيقة تعزله عنه ، وقد آذنت بها الآية قبله بقوله : وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ ، فقد نطقوا بما تحققوا به يوم القيامة.

وقال القشيري : إنما قال : أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ تسكينا لقلوبهم ، وتطييبا لهم ، وإلّا ، فإذا رأوا تلك الدرجات ، علموا أن أعمالهم المشوبة لم تبلغ تلك الدرجات. هـ. وعن ابن مسعود أنه قال : (يجوزون الصراط بعفو اللّه ، ويدخلون الجنة برحمة اللّه ، ويقتسمون المنازل بأعمالهم). هـ.

الإشارة : والذين آمنوا بطريق الخصوص ، وعملوا الأعمال التي تناسبها ، من خرق العوائد واكتساب الفوائد ، والتخلية من الرذائل والتحلية بأنواع الفضائل على حسب الطاقة أولئك أصحاب جنة المعارف ، هم فيها خالدون فى الدنيا والآخرة ، قد نزع اللّه من قلوبهم المساويء والأكدار ، وطهّرها من جملة الأغيار ، حتى صاروا إخوانا متحابين لا لغو بينهم ولا تأثيم ، تجرى من تحت أفكارهم أنهار العلوم ، وتفتح لهم مخازن الفهوم ، فإذا تمكنوا من

---

(١) أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل) من حديث السيدة عائشة - رضى اللّه عنها.

هذه الحضرة (قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا اللّه) ، تحققوا أنهم محمولون بسابق العناية ، محفوفون بعين الرعاية ، فتحققوا بما جاءت به الرسل من عند اللّه ، وما نالوه على يد أولياء اللّه من الذوق والوجدان ، وكشف الغطاء عن عين العيان ، منحنا اللّه من ذلك حظا وافرا ، بمنّه وكرمه.

ثم ذكر تبجح أهل الجنة على أهل النار ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤٤ الى ٤٧]

وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)

قلت : (أن) : فى هذه المواضع : مخففة من الثقيلة ، أو : تفسيرية ، وحذف مفعول : (وعد) الثاني استغناء بمفعول وعد الأول ، أو لإطلاق الوعد ، فيتناول الثواب والعقاب.

يقول الحق جل جلاله : وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا من النعيم حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ أنتم ما وَعَدَ رَبُّكُمْ من البعث والحساب حَقًّا ، إنما قال أهل الجنة ذلك تبجحا بحالهم ، وشماتة بأصحاب النار ، وتحسيرا لهم ، فأجابهم أهل النار بقولهم : نَعَمْ ، قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ بين الفريقين : أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الكافرين ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ الناس عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وهى الإسلام ، وَيَبْغُونَها أي : يطلبون لها عِوَجاً زيغا وميلا عما هو عليه من الاستقامة ، أو يطلبونها أن تكون ذات عوج ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ أي : جاحدون.

وَبَيْنَهُما أي : بين الفريقين حِجابٌ ، أو بين الجنة والنار حجاب ، يمنع دخول أثر أحدهما للأخرى ، وَعَلَى الْأَعْرافِ وهو السور المضروب بين الجنة والنار ، رِجالٌ طائفة من الموحدين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، كما فى الحديث. وقال فى الإحياء : يشبه أن يكونوا من لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد ، فلم تكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية ، فلا وسيلة تقربهم ، ولا جناية تبعدهم ، ولهم السلامة فقط ، لا تقريب ولا تبعيد. هـ. قلت : لكن سيأتى أنهم يدخلون الجنة.

ثم وصفهم بقوله : يَعْرِفُونَ كُلًّا من أهل الجنة والنار ، بِسِيماهُمْ : بعلامتهم التي أعلمهم اللّه بها كبياض الوجوه فى أهل الجنة ، وسوادها فى أهل النار ، أو غير ذلك من العلامات. وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ ، إذا نظروا إليهم ، فقالوا لهم : أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ، أي : نادوهم بالسلام عليهم ، لَمْ يَدْخُلُوها أي : الجنة ، وَهُمْ يَطْمَعُونَ فى دخولها.

وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ أي : التفتوا إليهم على وجه القلة ، تعوذوا من حالهم ، قالُوا

رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فى النار.
الإشارة : إذا وصل أهل الجد والتشمير إلى حضرة العلى الكبير نادوا أهل البطالة والتقصير ، فقالوا لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا من كشف الحجاب والدخول مع الأحباب ، حقّا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقّا كما وجدنا نحن؟ قالوا على وجه الدعوى والغلط : نعم ، فأذن مؤذن بينهم ، بلسان الحال : أن لعنة اللّه على الظالمين الذين بقوا مع حظوظ أنفسهم ، ولم يخرقوا شيئا من عوائدهم ، مع تراميهم على مراتب الرجال ، وادعائهم بلوغ غاية الكمال ، الذين يصدون عن طريق الخصوص ويبغونها عوجا ، وهم بالخصلة الآخرة - وهى إشراق نور الحقيقة على أهل التربية - هم كافرون ، وبينهما حجاب كبير ، وهو حجاب الغفلة ، فلا يعرفون أهل اليقظة ، وهم أهل مقام الإحسان ، بل بينهما مفاوز ومهامه «١» ، كما قال الشاعر :
تركنا البحور الزّخرات وراءنا فمن أين يدرى النّاس أين توجّهنا
وعلى الأعراف وهو البرزخ الذي بين الحقيقة والشريعة ، رجال من أهل الاستشراف ، يعرفون كلا من العوام والخواص بسيماهم ، ونادوا أصحاب الجنة أي : الواصلين إلى جنة المعارف : أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ، لأنهم فى حالة السير ، وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ، أي : نار الحجاب والتعب ، وهم العوام ، قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.
ثم ذكر شماتة أهل الأعراف بأهل النار ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]
وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)

---

(١) المهامة : جمع مهمه : وهي المفازة البعيدة. انظر اللسان (مهه).

قلت : (ما أغنى) : استفهامية أو نافية ، و(ما كنتم) : مصدرية ، و(ادخلوا) : محكى بقول محذوف ، أي : قيل لهم ادخلوا ... إلخ.
يقول الحق جل جلاله : وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا من رؤساء الكفرة ، يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ بعلامة فيهم من سوء حالهم ، قالُوا لهم : ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ أي : كثرتكم ، أو جمعكم للمال ، شيئا أو أىّ شىء أغنى عنكم جمعكم ، وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ؟ أي : واستكباركم؟ أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ

اللَّهُ بِرَحْمَةٍ وهم ضعفاء المسلمين الذين كانت الكفرة تستحقرهم فى الدنيا ، ويحلفون أن اللّه لا يدخلهم الجنة ، قد قيل لهم : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. أو تقول الملائكة لأهل الأعراف : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ، بعد أن حبسوا على الأعراف حتى أبصروا الفريقين وعرفوهم ، وقالوا لهم ما قالوا ، تفضل اللّه عليهم ، فقيل لهم : ادخلوا الجنة.

وقيل : لما عيّر أصحاب الأعراف أهل النار ، أقسموا - أي : أهل النار - أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة ، فقال لهم اللّه تعالى : أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ، ادْخُلُوا يا أهل الأعراف الْجَنَّةَ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أصحاب الأعراف : قوم من الصالحين حصل لهم محبة القوم ، ليسوا من عوام أهل اليمين ولا من خواص المقربين ، فإذا نظروا إلى أهل الطعن على الفقراء المتوجهين ، والترفع عليهم ، قالوا لهم : ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم ، أهؤلاء الذين كنتم تطعنون عليهم ، وأقسمتم أنهم ليسوا على شى ء؟ قد قيل لهم : ادخلوا جنة المعارف لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ، وأنتم حصل لكم الخيبة ، والحرمان ، والأسر فى أيدى النفوس ، والحصر فى سجن الأكوان. عائذا بالله من ذلك.

ثم ذكر استغاثة أهل النار بأهل الجنة ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٥٠ الى ٥٣]

وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (٥١) وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)

قلت : (هدى ورحمة) : حال من مفعول (فصّلناه) ، (فيشفعوا) : جواب الاستفهام ، (أو نرد) بالنصب : عطف عليه ، وبالرفع : استئناف ، فعلى الأول : المسئول أحد الأمرين إما الشفاعة أو الرد ، وعلى الثاني : المسئول الشفاعة فقط.

يقول الحق جل جلاله : وَنادى ، يوم القيامة ، أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا أي : صبوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ ، وفيه دليل على أن الجنة فوق النار ، أو : صبوا علينا مما رزقكم اللّه من سائر

الأشربة ، ليلائم قوله أَفِيضُوا ، أو : من الطعام على حذف الفعل ، أي : أو أعطونا مما رزقكم اللّه ، قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ ، أي : منعهما عنهم ، الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً كتحريم البحائر والسوائب ، والتصدية حول البيت ، والطواف به عريانا ، وغير ذلك مما أحدثوه ، واللهو : صرف القلب إلى ما لا يحصل به نفع أخروى. واللعب : طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به لخلوه عن منفعة دينية ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا بأن أنستهم القيامة ، فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا ، والكاف : للتعليل ، أي : ننساهم لأجل نسيانهم لقاء يومهم هذا ، فلم يخطروه ببالهم ، ولم يستعدوا له ، وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ أي : نهملهم لأجل إهمالهم الاستعداد للقاء ، وإهمالهم آياتنا حتى جحدوا أنها من عند اللّه.

وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ أي : بيّنا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ ، مفصلة عَلى عِلْمٍ ، أي : عالمين بوجه تفصيله حتى جاء فى غاية الإتقان ، هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فإنهم المنتفعون بهدايته ورحمته دون غيرهم.

هَلْ يَنْظُرُونَ أي : ما ينتظر الكفار به إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، أي : ما يئول إليه أمره من تبين صدقه ، بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد ، بقيام الساعة وما بعدها ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ بظهور ما نطق به ، يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ ، ولم يؤمنوا به : قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ أي : قد تبين أنهم جاءوا بالحق ، وحصل لهم اليقين حيث لم ينفع ، ثم طلبوا من يشفع فيهم فقالوا : فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا اليوم ، أَوْ نُرَدُّ أي :

وهل نرد إلى الدنيا فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ فنستبدل الكفر بالإيمان ، والعصيان بالطاعة والإذعان ، أو :

فيشفعوا لنا فى أحد الأمرين : إما السلامة من العذاب ، أو الرد إلى الدنيا فنستبدل الكفر بالإيمان.

قال تعالى :

قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ أي : بخسوها بسوء أعمالهم وكفرهم ، وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أي : غاب عنهم افتراؤهم فلم ينفعهم.

الإشارة : إذا وصل أهل الجد والتشمير إلى حضرة العلى الكبير ، وأفاض عليهم من ماء غيبه ، حتى امتلأت قلوبهم وأسرارهم ، فأثمر لهم العلوم اللدنية والأسرار الربانية ناداهم أهل البطالة والتقصير : أفيضوا علينا من الماء الذي سقاكم اللّه منه ، أو مما رزقكم من العلوم والمعارف. قالوا : إن اللّه

حرمهما على البطالين الذين اتخذوا طريق القوم لهوا ولعبا ، وغرتهم الحياة الدنيا فقبضتهم فى شبكتها ، فيقول تعالى : فاليوم ننساهم من لذيذ مشاهدتى ، وحلاوة معرفتى ، كما نسوا لقائى بشهود ذاتى ، وأنكروا على أوليائى وأهل معرفتى ، وجحدوا وجود التربية وحجروا على قدرتى ، ولقد جئناهم بكتاب فصّلنا فيه كل شيء فقلنا فيه : ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها «١» إلى يوم القيامة ، هل ينظرون إلا تأويله؟ يوم يأتى تأويله بظهور درجات المقربين ، فى أعلى عليين ، حينئذ يحصل لهم اليقين بوجود المقربين ، أو بالتربية النبوية فى كل زمان وحين ، فيطلب الشفاعة فى اللحوق بهم ، أو يرد إلى العمل بعملهم .. هيهات! قد بعثر ما فى القبور ، وحصّل ما فى الصدور ، فخسر المبطلون ، وفاز المجتهدون السابقون. جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه.

ثم عرّف الحق - جل جلاله - بنفسه ليعرفه من أراد معرفته فى الدنيا ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٥٤ الى ٥٦]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)

قلت : (حثيثا) أي : سريعا صفة لمصدر محذوف ، أي : طلبّا حثيثا ، أو حال من الفاعل ، أي : حاثا ، و(مسخرات) حال فيمن نصب ، وخبر فيمن رفع ، و(تضرعا وخفية) : مصدران ، حالان من الواو ، وكذلك (خوفا وطمعا).

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ رَبَّكُمُ الذي يستحق أن تعبدوه ، هو اللَّهُ وحده الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أي : أظهرهما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ أي : مقدار ستة أيام من أيام الدنيا إذ لم يكن ثمّ شمس ، ولو شاء خلقهن فى لمحة ، والعدول إليه لتعليم خلقه التأني والتثبت.

---

(١) من الآية ١٠٦ من سورة البقرة.

ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ استواء يليق به ، والعرش : جسم عظيم محيط بالأكوان. سمى به لارتفاعه ، وللتشبيه بسرير الملك ، فالأكوان فى جوفه ممحوقة فقد استولى عليها ومحقها ، كذلك أسرار معانى الربوبية الأزلية قد استولت عليه ومحقته ، فيمكن أن يكون الحق تعالى عبّر بالاستواء عن هذا الاستيلاء

، وسيأتي في الإشارة تمامه إن شاء اللّه.

وقال القشيري : ثم استوى على العرش ، أي : توحّد بجلال الكبرياء بوصف الملكوت ، وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهور للحشم والرعية برزوا لهم على سرير ملكهم في إيوان مشاهدتهم. فأخبر الحقّ - سبحانه وتعالى - بما يقرب من فهم الخلق ، بما ألقى إليهم من هذه الكلمات ، بأنه استوى على العرش ، ومعناه : اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية ، وانفراده بنعت الجبروت وجلاء الربوبية ، وتقدّس الجبّار عن الأقطار ، والمعبود عن الحدود. هـ.

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ أي : يغطي نور النهار بظلمة الليل ، يَطْلُبُهُ حَثِيثاً أي : يعقبه سريعا كالطالب له ، لا يفصل بينهما شيء ، وَخلق الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أي : بقضائه وتصريفه ، ومن عجائب تسخيرها أن جعلها مقرونة بأمور غيبية ، دالة على ظهور شيء منها.

والنهى عن النظر في النجوم أو تصديق المنجمين إنما هو لمن اعتقد التأثير لها مستقلة بنفسها ، أو تصديقهم في تفصيل ما يخبرون به لأنهم إنما يقولون ذلك عن ظن وتخمين وجهل ، فإنّ علم النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء ، ثم اندرس ذلك العلم ، فلم يبق إلا ما هو مختلط ، لا يتميز فيه الصواب من الخطأ ، فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار يخلق اللّه - تعالى - بها في الأرض ، وفي النبات والحيوان شيئا ، يعنى في الجملة ليس قادحا في الدين ، بل هو الحق ، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل : قادح في الدين ، فالكواكب ما خلقت عبثا ، ولهذا نظر عليه الصلاة والسلام إلى السماء ، وقرأ قوله تعالى : رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا ... الآية «١».

انظر : الإحياء للغزالي.

ثم قال تعالى : أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ أي : الإيجاد والتصرف بالأمر والنهى ، تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ أي : تعاظم في ألوهيته ، وتعالى في ربوبيته ، وتفرد في وحدانيته.

قال البيضاوي : (و تحقيق الآية - واللّه أعلم - أن الكفرة كانوا متخذين أربابا ، فبيّن لهم أن المستحق للربوبية واحد - وهو اللّه تعالى لأنه الذي له الخلق والأمر ، فإنه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم ، وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك العلوية ، والأجرام السفلية ، ثم بعد تمام خلق عالم الملك أخذ في تدبيره كالملك الجالس على عرشه

---

(١) الآية ١٩١ من سورة آل عمران.

وسريره لتدبير مملكته ، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب ، وتكوير الليالى والأيام ، فله الخلق والأمر. وكذلك قال فى آية السجدة بعد ذكر الخلق : ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ «١» ، فربّ الخلائق : من هذا صفته ، لا غيره. انتهى بالمعنى.
ثم أمرهم بأن يدعوه ، متذللين مخلصين ، فقال : ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً أي : ذوى تضرع وخفاء فإن الإخفاء دليل الإخلاص ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ المتجاوزين ما أمروا به فى الدعاء وغيره ، ونبه على أن الداعي ينبغى ألّا يطلب ما لا يليق به كرتبة الأنبياء ، وقيل : الاعتداء فى الدعاء ، هو الصياح به ، والتشدق ، أو اختراع دعوة لا أصل لها فى الشرع ، وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «سيكون قوم يعتدون فى الدّعاء ، وحسب المرء أن يقول :
اللّهم إنّى أسألك الجنّة وما يقرب إليها من قول وعمل. ثم قرأ : إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» «٢».
وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بالكفر والمعاصي ، بَعْدَ إِصْلاحِها ببعث الأنبياء ، وشرع الأحكام ، أو : ولا تفسدوا فى الأرض بالمعاصي الموجبة لفساد العالم بالقحط والفتن ، بعد إصلاحها بالخصب والأمان ، وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً أي : خوفا من الرد لقصور الأعمال ، وطمعا فى القبول بالفضل والكرم إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ المخلصين.
قال البيضاوي : هو ترجيح للطمع ، وتنبيه على ما يتوصل به إلى الإجابة ، وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الترحم ، أو لأنه صفة محذوف أي : أمر قريب ، أو على تشبيه فعيل الذي هو بمعنى مفعول ، أو للفرق بين القريب من النسب ، والقريب من غيره. هـ. قلت : والأحسن أنه إنما ذكره لأن المراد بالرحمة هنا : سر الخصوصية ، وهو مذكر ، فراعى معنى اللفظ ، كأنه قال : إن سر الولاية - وهى الخصوصية - قريب من المحسنين.
واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : قوله تعالى : (فى ستة أيام) : قال الورتجبي : فى كل يوم من هذه الأيام : ظهور صفة من صفاته ا لست : أولها : العلم ، والثاني : القدرة ، والثالث : السمع ، والرابع : البصر ، والخامس : الكلام ، والسادس : الإرادة ، كملت الأشياء بظهور أنوار الصفات الستة ، ولما أتمها صارت الحدثان كجسد آدم بلا روح ، فتجلى من صفته السابعة -

---

(١) الآية ٤ من سورة السجدة.
(٢) أخرجه أبو يعلى فى مسنده «٢/ ٧١» من حديث سعد بن أبى وقاص. وصدر الحديث إلى قوله (فى الدعاء) أخرجه أبو داود فى (الطهارة ، باب الإسراف فى الماء) وابن ماجه فى (الدعاء ، باب كراهية الاعتداء فى الدعاء) والحاكم فى المستدرك «١/ ٥٤٠» وصححه ووافقه الذهبي ، من حديث عبد اللّه بن مغفل.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٢٥

وهى حياته القديمة الأزلية الباقية ، المنزهة عن همهمة الأنفاس والمشابهة والقياس - فقامت الأشياء بصفاته القائمة بذاته ، ويكون إلى الأبد لحياتها بروح حياته ، المقدسة عن الاتصال والانفصال. قلت : وهى المعبّر عنها بالمعاني القائمة بالأواني. ثم قال : وفى أدق الإشارة : السموات : الأرواح ، والأرض : الأشباح ، والعرش : القلوب ، بدأ بكشف الصفات للأرواح ، وبدأ بكشف الأفعال للأشباح ، ثم بدأ بكشف الذات للقلوب لأن مناظر القلوب للغيوب ، والغيوب من القلوب محل تجلى استواء القدم ، استوى قهر القدم ، بنعت الظهور للعدم ، أي : فتلاشى العدم ، ثم استوى تجلى الصفات على الأفعال ، واستوى تجلى الذات على الصفات ، فاستوى بنفسه لنفسه ، المنزه عن المباشرة بالحدثان والاتصال والانفصال عن الأكوان. قلت : أي : إذ لا حدثان ولا أكوان لأنها لما قرنت بالقدم تلاشت ، وما بقي إلا نعت القدم.

ثم قال : خصّ السموات والأرض بتجلى الصفات ، وخص العرش بتجلى الذات. قلت : لأن المعاني المستولية على العرش باقية على أصلها ، وهى أسرار الذات لم تتردّ برداء الكبرياء ، وهو حجاب الحس الظاهر ، بخلاف المعاني القائمة بالأواني ، وهى أنوار الصفات ، تجلت مرتدية بحجاب القهرية ، فقيل لها : تجلى الصفات.

ثم قال : السموات والأرض جسد العالم ، والعرش قلب العالم ، والكرسي دماغ العالم ، خص الجميع بالأفعال والصفات ، وخص العرش بظهور الذات لأنه قلب الكل ، وهو غيب الرحمن وعلمه وحكمته ، رأيته فى المكاشفة أنوارا شعشعانيا ، بلا جسم ولا مكان ولا صورة ، يتلألأ ، فسألت عن ذلك ، فقيل لى : هذا عالم يسمى عرشا. انتهى.

قلت : وأقرب من هذا كله : أن العرش قد استولى على ما فى جوفه من العوالم ، حتى صارت فى وسطه كلا شيء ، ومعانى أسرار الربوبية ، وهى العظمة الأصلية - قد استولت عليه ، وأحاطت به ، ومحت وجوده ، فعبّر الحق - جل جلاله - عن استيلاء هذه العظمة - التي هى أسرار الربوبية - على العرش بالاستواء. وإلى هذا أشار فى الحكم العطائية بقوله : «يا من استوى برحمانيته على عرشه ، فصار العرش غيبا فى رحمانيته ، كما صارت العوالم غيبا فى عرشه ، محققت الآثار بالآثار ، ومحوت الآثار - وهى العرش وما احتوى عليه - بمحيطات أفلاك الأنوار» وهى أسرار الذات المحيطات بالآثار ، من العرش إلى الفرش ، فعبّر عن المعاني المستولية على العرش بالرحمانية لأن الرحمانية صفة الذات ، والصفة لا تفارق الموصوف ، فافهم.

قلت : ومن كحل عينه بإثمد توحيد الذات لا يستبعد أن يكون الحق - جل جلاله - يتجلى بتجل

خاص من أسرار ذاته وأنوار صفاته ، يستوى بتلك العظمة على العرش ، كما يتجلى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده ، إذ تجلياته لا تنحصر ، بل كل ما ظهر فى عالم الشهادة فإنما هو نور من تجلى ذاته وصفاته. وهذا القدر كاف لمن شم شيئا

(٢٢٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٢٦

من أسرار التوحيد ، وقد تكلم ابن جزى هنا على الخوف والرجاء ، وأطال فيهما ، ولكنه يجنح لتصوف أهل الظاهر ، وقد تقرر فى محله.

وقوله تعالى : إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ : هو تقييد لقوله : يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ فالمختص بالرحمة هم المحسنون. انظر لفظ الحكم. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق - جل جلاله - تصاريف قدرته المفهوم من قوله : (ألا له الخلق والأمر) ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٥٧ الى ٥٨]

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)

قلت : (نشرا) : حال من الرياح ، وهو جمع نشور ، بمعنى ناشر ، ومن قرأ بسكون الشين ، فهو تخفيف منه ، ومن قرأ بفتح النون ، فمصدر فى موضع الحال ، بمعنى : ناشرات ، أو مفعول مطلق فإن الإرسال والنشر متقاربان ، ومن قرأه بالباء وسكون الشين فهو جمع بشير ، مخفف ، و(أقلّت) : مشتق من القلة لأن الحامل للشيء يستقله ، و(ثقالا) :

جمع لأن السحاب جمع بمعنى السحائب.

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ أو الرياح نَشْراً أي : تنشر السحاب ، وتفرقه إلى الأرض التي أراد اللّه أن تمطر ، أو بشارة بالمطر «١» ، بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أي : قبل نزول المطر ، فهى قدامه فإن الصبا تثير السحاب ، والشمال تجمعه ، والجنوب تذره ، والدبور تفرقه. قاله البيضاوي.

حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ أي : حملت سَحاباً ثِقالًا بالماء لأنها تحمل الماء فتثقل به ، سُقْناهُ أي : السحاب بما اشتمل عليه من الماء ، لِبَلَدٍ مَيِّتٍ أي : لإحيائه أو لسقيه بعد يبسه ، كأنه ميت ، فَأَنْزَلْنا بِهِ أي : بالبلد ، أو بالسحاب ، أو بالسوق ، أو بالريح ، الْماءَ الذي فى السحاب ، فَأَخْرَجْنا بِهِ أي : بالماء ، مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ من كل أنواعها وأصنافها ، كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى من القبور ، أي : كما نحيى البلد بإحداث القوة

(١) هذا المعنى على قراءة «بشرا» ، جمع بشير ، وهى قراءة عاصم. وقرأ الباقون «نشرا» بالنون. راجع الإتحاف (٢/ ٥٢). [.....]

(٢٢٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٢٧

النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى الحسية. قاله البيضاوي.

وقال ابن جزى : هو تمثيل لإخراج الموتى من القبور بإخراج الزرع من الأرض ، وقد وقع ذلك فى القرآن فى مواضع منها : كَذلِكَ النُّشُورُ «١» وكَذلِكَ الْخُرُوجُ «٢». هـ. لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على إحياء الموتى ، إذ لا فرق.

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ أي : الأرض الكريمة والتراب الجيد يَخْرُجُ نَباتُهُ بسهولة ، حسنا قويا نضرا ، بِإِذْنِ رَبِّهِ أي : بمشيئته وقدرته ، وَالَّذِي خَبُثَ من الأرض كالحرة والسبخة ، لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً قليلا عديم النفع ، أو عسيرا بمشقة ، كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ نكررها ونرددها لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ نعمة اللّه ، فيتفكرون فيها ، ويعتبرون بها.

قال البيضاوي : والآية مثل لمن تدبر الآيات وانتفع بها ، ولمن لم يرفع إليها رأسا ولم يتأثر بها ، ومثله فى البخاري فى حديث طويل «٣». وقال ابن عباس وغيره : هو ضرب مثل للمؤمن والكافر. وقال ابن جزى :

يحتمل أن يكون المراد ما يقتضيه ظاهر اللفظ ، فتكون متممة للمعنى الذي قبلها فى المطر ، وأن تكون تمثيلا للقلوب فالطيب : قلب المؤمن ، والخبيث : قلب الكافر ، وقيل : هما للفهم والبليد. هـ.

الإشارة : وهو الذي يرسل رياح الهداية ، تنشر سحاب الواردات الإلهية والنفحات الربانية ، بين يدى معرفته ، أو تبشر بها قبل وصولها ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا بالعلوم اللدنية ، سقناه لقلب ميت بالجهل والهوى ، فأنزلنا مما فيه من ماء ذلك الأمطار ، فأخرجنا به من ثمرات العلوم وأزهار الحكم ونوار اليقين. وفى الحكم : «لا تزكين واردا لم تعلم ثمرته ، فليس المقصود من السحابة الأمطار ، وإنما المقصود وجود الأثمار». (كذلك نخرج الموتى) أي :

نحى القلوب الموتى بالجهل ، (لعلكم تذكرون). والبلد الطيب ، وهو القلب الطيب ، إذا هبت عليه هذه الواردات ، ونزلت فيه أمطار النفحات ، يخرج نباته من العلوم والمعارف بإذن ربه ، والذي خبث من القلوب لا يخرج ما فيه إلا نكدا - أي : ضعيفا لعدم تأثره بالواردات والمواعظ.

وقال الورتجبي : ذكر - سبحانه - القلب الذي هو بلد اللّه الذي مطر عليه من بحر امتنانه ، ويخرج نبات ألوان الحالات والمقامات. ثم قال : وكل قلب بذره الهوى فنباته الشهوات. هـ.

---

(١) من الآية ١١ من سورة ق.

(٢) من الآية ٩ من سورة فاطر.

(٣) وذلك قول الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم : «مثل ما بعثني اللّه به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير ...» الحديث أخرجه البخاري فى (العلم - باب فضل من علم وعلّم) ومسلم فى (الفضائل - باب بيان ما بعث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من الهدى والعلم) عن أبى موسى رضى اللّه عنه.

(٢٢٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٢٨

ثم شرع فى ذكر قصص الأنبياء مع أممهم ، تفصيلا لقوله : (و كم من قرية أهلكناها ..) ... الآية ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٥٩ الى ٦٤]

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٦٠) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٦٢)
أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣)
فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (٦٤)

قلت : (أو عجبتم) : الهمزة للإنكار ، والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف ، أي : أكذبتم وعجبتم ، و(فى الفلك) : يتعلق بأنجينا ، أو بمن معه ، أو حال من الموصول.

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ ، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن إدريس ، نبىء بعده «١» ، بعث وهو ابن خمسين سنة أو أربعين ، وعاش ألفا وثلاثمائة سنة ، فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ يستحق أن يعبد ، إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ ، إن لم تؤمنوا وتوحدوا اللّه عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ وهو يوم القيامة ، أو يوم نزول الطوفان.

قالَ الْمَلَأُ أي : الأشراف مِنْ قَوْمِهِ لأنهم يملأون العيون عند رؤيتهم ، قالوا له : إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : فى خطأ بيّن عن الحق ، قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ أي : ليس بي شىء من الضلال ، بالغ لهم فى النفي كما بالغوا له فى الإثبات ، وعرض لهم به ، وتلطف لهم فى القول ، وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ

الْعالَمِينَ أي : لست فى ضلال كما اعتقدتم ، ولكنى فى غاية من الهدى لأنى رسول من رب العالمين ، أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي كما أمرنى ، وَأَنْصَحُ لَكُمْ جهدى ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ من صفاته الجلالية والجمالية ومن رحمته وعذابه ، أو من قدرته وشدة بطشه ، أو أعلم من جهة وحيه أشياء لا علم لكم بها ، وجمع الرسالات لاختلاف أوقاتها ، أو لتنوع معانيها ، كعلم العقائد والمواعظ والأحكام.

(١) أي : بعد إدريس - عليه السلام.

ثم قال لهم : أَوَعَجِبْتُمْ أي : أكذبتم وعجبتم من أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ أي : تذكير ووعظ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى لسان رَجُلٍ مِنْكُمْ أي : من جملتكم ، أو من جنسكم كانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون :
وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ «١» ، قال القشيري : عجبوا من كون شخص رسولا ، ولم يعجبوا من كون الصنم شريكا لله ، هذا فرط الجهالة وغاية الغواية. هـ. وحكمة إرساله كونه جاءكم لِيُنْذِرَكُمْ عاقبة الكفر والمعاصي ، وَلِتَتَّقُوا اللّه بسبب ذلك الإنذار ، وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ بتلك التقوى ، وفائدة حرف الترجي التنبه على أن التقوى غير موجب للترحم بذاته ، وإنما هو - أي : الترحم - فضل من اللّه ، وأن المتقى ينبغى ألا يعتمد على تقواه ، ولا يأمن من عذاب اللّه.
فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ هو ومن آمن به ، وكانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة ، وقيل : عشرة ، وقيل : ثمانية ، حملناهم فِي الْفُلْكِ أي : السفينة ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا بالطوفان إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ أي : عمى القلوب ، غير مستبصرين ، وأصله : عميين ، مخفف. قاله البيضاوي.
الإشارة : الشريعة المحمدية : سفينة نوح عليه السّلام ، فمن ركب بحر الحقائق وحاد عنها حال بينه وبينها الموج فكان من المغرقين فى بحر الزندقة والكفر ، ومن تمسك بها فى ذلك كان من الناجحين الفائزين.
ثم ذكر قصة هود عليه السّلام فقال :
[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٦٥ الى ٧٢]
وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٦٦) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً

فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)
قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)

---

(١) كما جاء فى الآية ٢٤ من سورة (المؤمنون).

(٢٢٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٣٠

قلت : (أخاهم) : عطف على نوح ، و(هودا) : عطف بيان أو بدل ، وكذلك (أخاهم صالحا) وما بعده حيث وقع.

يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا إِلى قبيلة عادٍ أَخاهُمْ أي : واحد من قبيلتهم ، كقولهم : يا أخا العرب ، فإنه هود بن عبد اللّه بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وقيل : هو هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، فهو ابن عم أبى عاد ، وإنما أرسل إليهم منهم لأنهم أفهم لقوله ، وأعرف بحاله ، وأرغب فى اتباعه ، ثم وعظهم فقال : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ عذاب اللّه ، قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ

، كان قومه أحسن من قوم نوح ، إذ كان من أشرافهم من آمن به كمرثد بن سعد ، ولذلك قيد الملأ بمن كفر ، بخلاف قوم نوح لم يكن أحد منهم آمن به ، فأطلق الملأ ، قالوا لهود عليه السّلام : إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ أي : متمكنا فى خفة العقل ، راسخا فيها ، حيث فارقت دين قومك ، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ فى ادعاء الرسالة.

قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ ، وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي ، وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ ، يحتمل أن يريد أمانته على الوحى ، أو أنهم كانوا قد عرفوه بالأمانة والصدق قبل الرسالة. ثم قال : أَوَعَجِبْتُمْ من أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ، تقدم تفسيرها.

قال البيضاوي : وفى ذكر إجابة الأنبياء الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا به والإعراض عن مقالتهم :

كمال النصح والشفقة ، وهضم النفس ، وحسن المجادلة ، وهكذا ينبغى لكل ناصح ، وفى قوله : وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ : تنبيه على أنهم عرفوه بالأمرين. هـ.

ثم قال لهم : وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ فى مساكنهم ، أو خلفاء فى الأرض من بعدهم بأن جعلكم ملوكا ، فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض ، من رمل عالج إلى بحر عمان ، خوفهم أولا من

عقاب اللّه ، ثم ذكرهم بإنعامه وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً أي : قامة وقوة ، فكانوا عظام الأجساد ، فكان أصغرهم : ستين ذراعا ، وأطولهم : مائة ذراع. فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ أي : نعمه ، تعميم بعد تخصيص ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أي : لكى يفضى بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدى إلى الفلاح ، ومن شكرها : الإيمان برسولهم.

قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا من الأصنام ، استبعدوا اختصاص اللّه بالعبادة والإعراض عما وجدوا عليه آباءهم انهماكا فى التقليد ، وحبا لما ألفوه مع اعترافهم بالربوبية ، ولذلك قال لهم هود عليه السّلام : قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، بعد أن قالوا : فَأْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فيه.

قالَ قَدْ وَقَعَ أي : وجب عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ عذاب وَغَضَبٌ إرادة الانتقام ، أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ أي : أتجادلونني فى عبادة مسميات أسماء ، ففى الكلام حذف. وأراد بقوله : سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ أي : جعلتم لها أسماء ، فدل ذلك على أنها محدثة ، فلا يصح أن تكون آلهة ، أو سميتموها آلهة من غير دليل ، وهو معنى قوله : ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ أي : حجة تدل على استحقاقها للعبادة ، فالمجادلة يحتمل أن تكون فى عبادتها ، أو فى تسميتها آلهة ، والمراد بالاسم - على الأول - المسمى ، وعلى الثاني : التسمية .. قاله ابن جزى. فَانْتَظِرُوا نزول العذاب ، الذي طلبتم حين أصررتم على العناد ، إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ نزوله.

قال تعالى : فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا عليهم. قال القشيري : لا رتبة فوق رتبة النبوة ، ولا درجة أعلى من درجة الرسالة ، وقد أخبر سبحانه : أنه نجىّ هودا برحمته ، وكذا نجىّ الذين آمنوا معه برحمته ، ليعلم أن النجاة لا تكون باستحقاق العمل ، وإنما تكون ابتداء فضل من اللّه ورحمة ، فما نجا من نجا إلا بفضل اللّه سبحانه وتعالى. هـ.

وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أي : استأصلناهم ، وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ ، تعريض بمن آمن منهم ، وتنبيه على أن الفارق بين من نجا وبين من هلك : هو الإيمان.

روى أنهم كانوا يعبدون الأصنام ، فبعث اللّه إليهم هودا فكذبوه ، وزادوا عتوا ، فأمسك اللّه عنهم

المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ، وكان الناس حينئذ ، مسلمهم ومشركهم ، إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من اللّه الفرج ، فجهزوا إليه «قيل بن عنز» ، ومرثد بن سعد ، فى سبعين من أعيانهم ، وكان إذ ذاك بمكة العمالقة أولاد عمليق بن لاود بن سام ، وسيدهم : معاوية بن بكر ، فلما قدموا عليه ، وهو بظاهر مكة ، أنزلهم وأكرمهم ، وكانوا أخواله وأصهاره ، فلبثوا عنده شهرا يشربون الخمر ، وتغنى عليهم الجرادتان – قينتان له – فلما رأى ذهولهم عما

(٢٣١/٢)

بعثوا له أهمه ذلك ، واستحيا أن يكلمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم ، فعلم المغنيتين بيتين من الشعر ، وأمرهما أن تغنيا به وهما :

ألا يا قيل ويحك ، قم ، فهينم لعلّ اللّه يسقينا الغماما

فيسقى أرض عاد ، إنّ عادا قد امسوا لا يبينون الكلاما

فلما غنيتا به أزعجهم ذلك ، فقال مرثد : واللّه لا يسقون بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم ، وتبتم إلى اللّه ، سقيتم ، فقالوا لمعاوية : احبسه عنّا ، لا يقدمنّ معنا مكة فإنه فد اتبع دين هود ، وترك ديننا ، ثم دخلوا مكة ، فقال قيل : اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم ، فأنشأ اللّه سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه مناد من السماء : يا قيل اختر لنفسك ولقومك. فقال : اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء ، فخرجت إلى عاد من وادي المغيث ، فاستبشروا بها ، وقالوا : هذا عارض ممطرنا ، فجاءتهم ، فيها ريح عقيم ، فأهلكتهم ، روى أنها لما قربت من ديارهم حملت أنعامهم فى الهواء ، كأنها جراد ، فاستمرت عليهم سبع ليال وثمانية أيام ، شدخت رؤوسهم إلى الحجارة حتى هلكوا جميعا ، ونجا هود والمؤمنون معه ، فأتوا مكة وعبدوا اللّه حتى هلكوا. قاله البيضاوي وغيره.

وهاهنا بحث وهو أن البيت إنما بناه إبراهيم عليه السّلام حسبما فى الصحيح ، ولم تعمر مكة إلا بعد إنزال إسماعيل فيها ، وهود كان قبل إبراهيم ، والبيت حينئذ خرب ، كان خربه الطوفان ، فكيف يتوجهون إليه وهو لم يكن؟.

ويمكن الجواب : بأنهم كانوا يلتجئون إلى رسومه وخربته التي بقيت بعد الطوفان لأن أول من بناه آدم عليه السّلام فلما خربه الطوفان بقي أثره ، فكانوا يتبركون به ، وفى بعض التواريخ : أن العماليق بنوه قبل إبراهيم ، فكانوا يطوفون به ويتبركون ، ثم هدم ، وبناه بعدهم خليل اللّه إبراهيم. وبهذا – إن صح – يزول الإشكال. واللّه تعالى أعلم.

وأما من قال : إن هودا تعدد ، فغير سديد.

الإشارة : قد تضمنت موعظة هود عليه السّلام لقومه خصلتين ، بهما النجاة من كل هول وشر ، والفوز بكل خير ، وهما : التوحيد والتقوى ، وهى الطاعة لله ولرسوله فيما جاء به من أمر ونهى. فالتوحيد تطهير الباطن من الشرك الجلى والخفي ، والتقوى : حفظ الجوارح من المخالفة فى السر والعلانية ، وهاتان الخصلتان هما أساس الطريق ونهايته. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة صالح عليه السّلام ، فقال :

(٢٣٢/٢)

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٧٣ الى ٧٩]

وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)

قلت : آيَةً : حال ، والعامل فيها : الإشارة ، وبُيُوتاً : حال من الجبال.

يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا إِلى ثَمُودَ قبيلة أخرى من العرب ، سموا باسم أبيهم الأكبر : ثمود بن غابر بن إرم بن سام ، وقيل : سموا به لقلة ما بهم من التثميد ، وهو الماء القليل ، وكانت مساكنهم الحجر ، بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وقد دخلها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه ، فقال لهم صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلّا أن تكونوا باكين مخافة أن يصيبكم مثل ما أصابهم» «١».

أرسلنا إليهم أَخاهُمْ صالِحاً ، وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. وقال وهب بن منبه : بعث اللّه صالحا حين راهق الحلم. وقال الكواشي : إنه مات ابن ثمان وخمسين سنة ، وأقام فى قومه ينذرهم عشرين. هـ.

---

(١) أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء – باب قول اللّه تعالى : وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً) ومسلم فى (الزهد – باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين) من حديث سيدنا عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنه.

(٢٣٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٣٤

قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتى ، وهى : هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً لأنها جاءت من عند اللّه بلا وسائط وأسباب ، على ما سيأتى ، فَذَرُوها أي : اتركوها ، تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ العشب ، وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ ، نهى عن المس ، الذي هو مقدمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى مبالغة فى الأمر وإزاحة للعذر. قاله البيضاوي. فَيَأْخُذَكُمْ إن مستموها بسوء عَذابٌ أَلِيمٌ ، وهو الهلاك بالصيحة.

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأَكُمْ أي : هيأ لكم القرار فِي الْأَرْضِ أي : أرض الحجاز ، تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً أي : تبنون مما انبسط منها قصورا ، فالسهل ضد الجبل ، وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً أي : تنجرون بيوتا من الجبال ، وكانوا يسكنون القصور فى الصيف والجبال فى الشتاء. فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بالمعاصي والكفر.

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ عن الإيمان ، لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أي : للذين استضعفوهم واستذلوهم – أعنى لمن آمن منهم – : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟ ، قالوه على وجه الاستهزاء ، قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ، لم يقولوا فى الجواب : نعم تنبيها على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل أو يخفى على ذى رأى ، وإنما الكلام فيمن آمن ومن كفر فلذلك قال : قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ على المقابلة ، ووضعوا آمَنْتُمْ بِهِ موضع أُرْسِلَ بِهِ ردا لما جعلوه معلوما مسلما.

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ نحروها ، أسند إلى جميعهم فعل بعضهم كما يأتى لأنه كان برضاهم ، وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ أي : استكبروا عن امتثال أمره ، وهو ما بلغهم صالح بقوله : فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ ، وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أي : صيحة جبريل ، فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ باركين على ركبهم ، ميتين.

روى : أنهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم ، وكثروا ، وعمروا أعمارا طوالا لا تفى بها الأبنية ، فنحتوا البيوت من الجبال ، وكانوا فى خصب وسعة ، فعتوا وأفسدوا فى الأرض ، وعبدوا الأصنام ، فبعث اللّه إليهم صالحا من أشرافهم ، فأنذرهم ، فسألوه آية ، فقال لهم : أىّ آية تريدون؟ فقالوا : اخرج معنا إلى عيدنا فتدعو إلهك وندعو آلهتنا ، فمن استجيب له اتبع ، فخرج معهم ، فدعوا أصنامهم فلم تجبهم ،

ثم أشار سيدهم «جندع بن عمرو» إلى صخرة منفردة يقال لها : «الكاثبة» ، قال له : أخرج من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء ، فإن فعلت صدقناك ، فأخذ

عليهم صالح مواثيقهم : لئن فعلت ذلك لتؤمنن؟ قالوا : نعم ، فصلى ، ودعا ربه ، فتمخضت الصخرة تمخّض النتوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة عشراء ، جوفاء وبراء كما وصفوا ، وهم ينظرون ، ثم أنتجت ولدا مثلها فى العظم ، فآمن به جندع فى جماعة ، ومنع الناس من الإيمان : ذؤاب بن عمرو ، والحباب صاحب أصنامهم ، ورباب كاهنهم.

فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر ، وترد الماء غبّا ، فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها ، ثم تنفحج «١» ، فيحلبون ما شاءوا حتى تمتلىء أوانيهم ، فيشربون ويدخرون ، وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه ، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق ذلك عليهم ، فزينت عقرها لهم «عنيزة أم غنم» وصدقة بنت المختار ، فعقروها واقتسموا لحمها ، وعاقرها : الأحمر ، واسمه قدار ، استعان برجل آخر ، فلما شربت اختبأ لها فى جانب تل ، فضربها صاحبه بالسهم ، وعقرها قدار بسيفه ، واقتسموا لحمها ، فرقى ولدها جبلا اسمه : قارة ، فرغى ثلاثا ، ودخل صخرة أمه ، فقال لهم صالح عليه السّلام : أدركوا الفصيل ، عسى أن يرفع عنكم العذاب ، فلم يقدروا عليه حيث دخل الصخرة بعد رغائه ، فقال لهم صالح عليه السّلام : تصبح وجوهكم غدا مصفرة ، وبعد غد محمرة ، واليوم الثالث مسودة ، ويصبحكم العذاب ، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه ، فأنجاه اللّه إلى أرض فلسطين. ولما كان ضحوة اليوم الرابع : تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع ، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ، ظاهره : أن توليته عنهم بعد أن أبصرهم جاثمين ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم ، كما خاطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أهل قليب بدر ، وقال لهم : «قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّا ، فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقا؟» «٢» أو ذكر ذلك على سبيل التحسر عليهم. قاله البيضاوي.

الإشارة : كل ما قص علينا الحق - جل جلاله - من قصص الأمم الماضية ، فالمراد به : تخويف هذه الأمة المحمدية وزيادة فى يقينهم ، فالواجب على من أراد السلامة فى الدارين أن يتمسك بما جاء به الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم من غير زيادة ولا نقصان ، ويتحرى فى ذلك جهده يقصد بذلك رضا اللّه ورسوله. وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ «٣» ، ومن سلك الطريق المستقيم وصل إلى

النعيم المقيم. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الفحج : تباعد ما بين الفخذين. انظر النهاية (فحج).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري فى (المغازي - باب قتل أبى جهل) عن ابن عمر رضى اللّه عنه.

(٣) من الآية ١٠١ من سورة آل عمران.

(٢٣٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٣٦

ثم ذكر قصة لوط عليه السّلام ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٨٠ الى ٨٤]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)

قلت : (شهوة) : مفعول له ، أو مصدر فى موضع الحال.

يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ واعظا لهم : أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ أي : اللواط توبيخا وتقريعا على تلك الفعلة المتناهية فى القبح ، ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ أي : ما فعلها أحد قبلكم ، وبخهم على أمرين : إتيان الفاحشة ، واختراعها أولا ، ثم قال لهم : إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ ، وصفهم بالشهوة البهيمية ، وفيه تنبيه على أن العاقل ينبغى أن يكون الداعي له إلى المباشرة :

طلب الولد وإبقاء النوع لا قضاء الوطر ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ أي : عادتكم السرف فى كل شىء ، حتى تجاوزتم ما أحل الله لكم من النساء إلى ما حرم عليكم من إتيان الذكور ، وهو إضراب عن الإنكار إلى الإخبار بحالهم التي أدت بهم إلى ارتكاب أمثالها وهى اعتياد الإسراف فى كل شىء ، أو عن الإنكار عليها إلى الذم لهم على جميع معايبهم ، أو عن محذوف ، مثل : لا عذر لكم فيه ، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف. قاله البيضاوي.

وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ له حين وعظهم ، إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ أي : لوط ومن آمن به ، مِنْ قَرْيَتِكُمْ أي : ما أجابوه بشىء يصلح للجواب ، لكن قابلوا نصحه بالأمر بإخراجه من قريتهم ، والاستهزاء بهم ، حيث قالوا : إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ من الفواحش.

قال تعالى : فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ أي : من آمن معه ، إِلَّا امْرَأَتَهُ فإنها كانت تسر الكفر كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ أي : الباقين فى ديارهم فهلكوا وهلكت معهم.

وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً أي : نوعا عجيبا من المطر ، بيّنه بقوله : وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ «١» ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ.

---

(١) الآية ٧٤ من سورة الحجر.

(٢٣٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٣٧

روى أن لوط بن هاران بن تارح لما هاجر عمه إبراهيم إلى الشام ، ونزل بالأردن ، وكان هاجر هو معه ، أرسله الله تعالى إلى أهل سدوم ، ليدعوهم إلى الله ، وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة ، فلم ينتهوا عنها ، فقلع جبريل مدينتهم ، وجعل عاليها سافلها ، وأمطر الحجارة على ما قربهم من القرى ، وسيأتى فى سورة هود بقية قصتهم ، إن شاء الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة : إنما أهلك اللّه قوم لوط حيث آثروا شهوة نفوسهم على عبودية ربهم ، وغلبهم الطبع البهيمى على مقتضى العقل الصافي ، وقد تقدم قول الغزالي : إن الشّره إلى الوقاع من جملة المهلكات. فعلى المريد أن يصفى قصده ، ولا ينزل إلى أرض الحظوظ إلا بالإذن والتمكين والرسوخ فى اليقين ، ولا ينزل بالشهوة والمتعة. وقد قال عليه السّلام :

«المؤمن يأكل بشهوة أهله» «١» فلا يأتى ما أحلّ اللّه له من متعة النّساء إلا قياما بحقّ الغير وطلبا للنسل. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة شعيب عليه السّلام فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٨٥ الى ٩٣]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَها عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (٨٧) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَما يَكُونُ لَنا أَنْ

نَعُودَ فِيها إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (٨٩)
وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (٩٣)

---

(١) أخرجه الديلمي فى الفردوس (ح ٦٥٤٧) من حديث أبى أمامة الباهلي ، بلفظ «المؤمن يأكل بشهوة عياله ، والمنافق يأكل أهله بشهوته».

(٢٣٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٣٨

يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً ، ومدين : قبيلة من أولاد مدين بن إبراهيم ، شعيب بن ميكائل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل ، على ما قيل. وقد تقدم فى البقرة أن مدين ومدان من ولد ابراهيم عليه السّلام ، وشعيب هذا يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه.
قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ يريد المعجزة التي كانت له ، وليس فى القرآن بيان ما هى معجزته. وحمل الواحدي البينة على الموعظة. وقال فى الكشاف : ومن معجزات شعيب : ما روى من محاربة عصا موسى التنين ، حين دفع إليه غنمه ، وولادة الغنم الدرع خاصة ، حين وعده أن يكون له الدرع من أولادها ، ووقوع عصا آدم فى يده فى المرات السبع ، وغير ذلك من الآيات. هـ. وفيه نظر لأن هذ وقعت بعد مقالته لقومه ، وإنما كانت إرهاصات لموسى عليه السّلام ، وفى حديث البخاري : «ما بعث اللّه نبيّا إلّا وآتاه ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا ، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» «١». وهو صريح فى أنه لا بد من الآية لكل رسول ، ولعل اللّه تعالى لم يذكر معجزة شعيب وهود فى القرآن مع وجودها لظاهر الحديث.
ثم قال لهم : فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ ، وكانوا مطففين ، أي : فأوفوا المكيال الذي هو آلة الكيل ، أي : كبروها بدليل قوله : وَالْمِيزانَ الذي هو الآلة ، ويحتمل أن يريد بهما المصدر ، أي : الكيل والوزن.
وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ أي : لا تنقصوهم حقوقهم ، وإنما قال : أَشْياءَهُمْ ، للتعميم تنبيها على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير ، والقليل والكثير ، وقيل : كانوا مكّاسين لا يدعون شيئا إلا مكسوه.

وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بالكفر والظلم ، بَعْدَ إِصْلاحِها بإقامة الشرائع وظهور العدل ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أي : ذلك الذي أمرتكم به ونهيتكم عنه هو خير لكم من إبقائكم على ما أنتم عليه ، ومعنى الخيرية : الزيادة مطلقا إذ لا خير فيما هم فيه ، أو : فى الإنسانية وحسن الأحدوثة وجمع المال. قاله البيضاوي.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري فى (فضائل القرآن ، باب كيف نزل الوحى) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٢٣٨/٢)

وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ أي : طريق تُوعِدُونَ من أراد الإيمان بالعقوبة ، وكانوا يجلسون على الطرقات والمراصد ، يقولون لمن يريد شعيبا : إنه كذاب فلا يفتنك عن دينك ويوعدون من آمن ، وقيل : كانوا يقطعون الطريق.

وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : تصدون الناس عن طريق اللّه ، وهو الإيمان به وبرسوله ، وهو الذي قعدوا لأجله فى كل طريق ، وقوله : مَنْ آمَنَ بِهِ من أراد الإيمان به ، أو من آمن حقيقة كانوا يصدونه عن العمل ، وَتَبْغُونَها عِوَجاً أي : وتطلبون لطريق اللّه عوجا بإلقاء الشّبه فيها ، أو بوصفها للناس بأنها معوجّة.

وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا عددكم وعددكم فَكَثَّرَكُمْ بالبركة فى النسل والمال ، وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ من الأمم قبلكم ، فاعتبروا بهم.

وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا أي : تربصوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا أي : بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين ، فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين ، وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ إذ لا معقب لحكمه ، ولا حيف فيه.

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ فى جوابه عن وعظه : لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا أي : ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم من القرية أو عودكم فى الكفر ، وشعيب عليه السّلام لم يكن فى ملتهم قط لأن الأنبياء - عليهم السّلام - لا يجوز عليهم الكفر مطلقا ، لكنهم غلّبوا الجماعة على الواحد فخوطب هو وقومه بخطابهم ، وعلى ذلك أجرى الجواب فى قوله : قالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ. قاله البيضاوي. وقال ابن عطية : وعاد : قد يكون بمعنى صار ، فلا يقتضى تقدم ذلك المحال ، قلت : ويؤيده ما فى حديث الجهنميين : «قد عادوا حمما» «١» أي :

صاروا.

ثم قال شعيب عليه السّلام : قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها أي : إن رجعنا إلى ملتكم بعد الخلاص منها ، فقد اختلقنا على اللّه الكذب ، وهذا كله فى حق قومه كما تقدم. وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا خذلاننا وارتدادنا ، وفيه تسليم للإرادة المغيبة ، والعلم المحيط ، فإن القلوب بيد اللّه يقلبها كيف يشاء. فإن قلت : هو معصوم فلا يصح فيه العود؟. قلت : قاله أدبا مع الربوبية ، واستسلاما لقهر

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري فى (الرقاق - باب صفة الجنة والنار) ومسلم فى (الإيمان - باب معرفة طريق الرؤية) من حديث أبى سعيد الخدري رضى اللّه عنه.

الألوهية ، كقول نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم : «يا مقلّب القلوب ثبت قلبى على دينك» «١». وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أي : أحاط علمه بكل شيء مما كان وما يكون منا ومنكم ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا فى أن يثبتنا على الإيمان ، ويخلصنا من الإشراك. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا أي : احكم بيننا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ بالعدل ، بتمييز المحق من المبطل ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ أي : الفاصلين.

وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً وتركتم دينكم إِنَّكُمْ إِذاً أي : إذا اتبعتموه لَخاسِرُونَ لاستبدالكم ضلالته بهداكم ، أو لفوات ما يحصل لكم من البخس والتطفيف. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أي : الزلزلة. وفى سورة الحجر. الصَّيْحَةُ ، ولعلها كانت من مبادئها ، فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ أي : فى مدينتهم جاثِمِينَ : باركين ميتين.

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أي : استؤصلوا كأنهم لم يقيموا فيها ساعة. الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ دينا ودنيا ، بخلاف الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا فإنهم الرابحون ، ولأجل التنبيه على هذا والمبالغة فيه كرر الموصول ، واستأنف الجملتين وأتى بهما اسميتين.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، قاله بعد هلاكهم ، تأسفا عليهم ، ثم أنكر على نفسه فقال : فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ ليسوا أهلا للحزن عليهم ، لاستحقاقهم ما نزل بهم.

الإشارة : يؤخذ من قوله : وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها أن إقامة الشرائع ، وظهور الدين من علامة إصلاح الأرض وبهجتها ، وخصبها وعافيتها ، وترك الشرائع وظهور المعاصي من علامة فساد

الأرض وخرابها.

ويؤخذ من قوله : وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ ... الآية ، أن حض الناس على الإيمان ودلالتهم على اللّه من أفضل القربات عند اللّه ، وأعظم الوسائل إلى اللّه.

ويؤخذ من قوله : وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أن الإنسان لا يقف مع ظاهر الوعد والوعيد ، ولعل اللّه تعالى علّق ذلك الوعد أو الوعيد بشروط وأسباب أخفاها ، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير اللّه قراره. وفى بعض الآثار القدسية : «يا عبدى لا تأمن مكرى وإن أمّنتك ، فعلمى لا يحيط به محيط». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه مطولا أحمد فى المسند (٦/ ٩١) عن السيدة عائشة رضى اللّه عنها والترمذي فى (القدر - باب ما جاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن) من حديث أنس رضى اللّه عنه. وفى (الدعوات ، باب ٩٠) من حديث أم سلمة رضى اللّه عنها. [.....]

(٢/ ٢٤٠)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٤١

ولما سرد قصص الأمم السالفة ذكر حاله معهم ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٩٤ الى ٩٩]

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (٩٩)

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ أي : رسول إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ أي : بالبؤس والضر ، كالقحط والأمراض ، لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ أي : يتضرعون ويتذللون ، ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ الحالة السَّيِّئَةِ الحالة الْحَسَنَةَ أي : أعطيناهم ، بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة ، السلامة والسعة ، حَتَّى عَفَوْا : كثروا عددا وعددا ، يقال : عفا النبات : إذا كثر ، ومنه : «اعفوا اللّحى» «١». وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ كفرا لنعمة اللّه عليهم ، ونسيانا لذكره ، واعتقادا بأنه من عادة الدهر يتعاقب فى الناس بين السراء والضراء ، فقد مس آباءنا منه شيء مثل ما مسنا ، فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً : فجأة وَهُمْ لا

يَشْعُرُونَ بنزول العذاب.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى المتقدمة فى قوله : وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ وقيل : مكة وما حولها. وقيل : مطلقا ، آمَنُوا وَاتَّقَوْا مكان كفرهم وعصيانهم ، لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لوسّعنا عليهم الخير ، ويسرناه لهم من كل جانب. وقيل : المراد : المطر والنبات. وَلكِنْ كَذَّبُوا بالرسل ، وكفروا النعم ، فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ من الكفر والمعاصي.

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أي : أبعد ذلك أمن أهل القرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ؟ أي : ليلا ، فى حال نومهم. أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا أيضا ضُحًى ضحوة النهار وَهُمْ يَلْعَبُونَ من

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري فى (اللباس - باب إعفاء اللحى) من حديث ابن عمر رضى اللّه عنه.

فرط الغفلة ، أو يشتغلون بما لا ينفعهم ، أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ وهو أن يستدرجهم بالنعم حتى يأخذهم بغتة؟ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ الذين خسروا أنفسهم ، بترك النظر والاعتبار ، حتى هلكوا ، فلم ينفعهم حينئذ الندم.

الإشارة : إظهار المحن والمنن وتعاقبهما على الإنسان ، حكمتها : الرجوع إلى اللّه ، وتضرع العبد إلى مولاه ، فمن فعل ذلك كان معتمدا عليه فى الحالتين ، مغترفا من بحر المنة بكلتا اليدين ، ومن نزلت به المحن ثم أعقبته لطائف المنن ، فلم يرجع إلى مولاه ، ولا شكره على ما خوله من نعماه ، بل قال : هذه عادة الزمان يتعاقب بالسراء والضراء على الإنسان ، فهذا عبد منهمك فى غفلته ، قد اتسعت دائرة حسه ، وانطمست بصيرة قدسه ، يصدق عليه قوله تعالى : أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ «١».

وقال القشيري فى قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا ... الآية : أي : لو آمنوا باللّه واتّقوا الشرك (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) بأسباب العطاء ، فإن سبق بخلافه القضاء فأبواب الرضا ، والرضا أتم من العطاء. ويقال : ليس العبرة بالنعمة العبرة بالبركة فى النعمة. ه.

قوله تعالى : وَلكِنْ كَذَّبُوا أي : شكّوا فى هذا الوعد فلم يتقوا بالإيمان والتقوى حتى يتركوا الأسباب ، والشاك فى الصادق المصدوق مكذب. وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : للناس أسباب ، وسببنا الإيمان والتقوى ، ثم تلا هذه الآية : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا ... الآية ، وقد تقدم عند

قوله : الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ «٢». ما يتعلق بالأمن من مكر اللّه.
ولما ذكر هلاك الأمم الماضية ، خوّف من خلفهم بعدهم إلى يوم القيامة ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٠٠ الى ١٠٢]
أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (١٠١) وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (١٠٢)

---

(١) من الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.
(٢) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.

قلت : (أن لو نشاء) : «أن» مخففة ، وهى وما بعدها : فاعل (يهد) أي : أو لم يتبين لهم قدرتنا على إهلاكهم لو نشاء ذلك؟ وإنما عدى «يهدى» باللام لأنه بمعنى يتبين ، و(نطبع) : استئناف ، أي : ونحن نطبع على قلوبهم.
يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَهْدِ أي : يتبين لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أي : يخلفون من قبلهم ويرثون ديارهم وأموالهم ، أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ أي : أهلكناهم بِذُنُوبِهِمْ بسبب ذنوبهم ، كما أهلكنا من قبلهم ، لكن أمهلناهم ولم نهملهم ، وَنحن نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ بالغفلة والانهماك فى العصيان ، فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ سماع تدبر واعتبار.
تِلْكَ الْقُرى ، التي قصصنا عليك آنفا ، نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها من أخبارها ، أي : بعض أخبارها ، ولها أبناء غيرها لا نقصها عليك وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ : بالمعجزات ، فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا عند مجيئهم ، بها بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ مجيئها ، يعنى : أن ظهور المعجزات لم ينفعهم ، بل الشيء الذي كذبوا به قبل مجيئها ، وهو التوحيد وتصديق الرسل استمروا عليه بعد مجيئها.
أو : فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولا ، حين جاءتهم الرسل ، فلم تؤثر فيم دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة. كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ فلا تلين شكيمتهم بالآيات والنذر.
وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ أي : لأكثر أهل القرى مِنْ عَهْدٍ ، بل جلّهم نقضوا ما عهدناهم عليه من الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج ، وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ أي : علمناهم لَفاسِقِينَ ، و«إن» مخففة ،

واللام : فارقة.

الإشارة : ينبغى لمن فتح اللّه بصيرته أن ينظر بعين الاعتبار فيمن سلف قبله ، كيف تركوا الدنيا ورحلوا عنها ، ولم يأخذوا منها إلا ما قدموا أمامهم؟ قدموا على ما قدّموا ، وندموا على ما خلفوا ، ولم ينفعهم الندم وقد زلت بهم القدم ، فالدهر خطيب يسمع القاصي والقريب ، وهو ينادى بلسان فصيح ، عادلا عن الكناية إلى التصريح ، قائلا : أما حصل لكم الإنذار؟ أما كفاكم ما تشاهدون فى الاعتبار؟ أين من سلف قبلكم؟. أو ما كانوا أشد منكم أو مثلكم؟ قد نما ذكرهم وعلا قدرهم ، وخسف بعد الكمال بدرهم ، فكأنهم ما كانوا ، وعن قريب مضوا وبانوا ، أفضوا إلى ما قدموا ، وانقادوا قهرا إلى القضاء وسلموا ، فيا أيها الغافلون ، أنتم بمن مضى لاحقون ، ويا أيها الباقون أنتم إليهم تساقون ، قضاء مبرم ، وحكم ملزم ، ليس عنه محيد لأحد من العبيد.

(٢٤٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٤٤

ثم شرع فى قصص موسى عليه السّلام ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٠٣]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ بَعَثْنا من بعد الرسل المتقدمين مُوسى بن عمران بِآياتِنا : بمعجزاتنا الدالة على صدقه ، إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِها أي : طغوا بسببها ، وزادوا عتوا على عتوهم ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ كيف غرقوا عن آخرهم ، وأكلهم البحر.

الإشارة : إذا أراد اللّه - تعالى - أن يهلك قوما بعث إليهم من يذكرهم ، فإذا زادوا فى العتو والطغيان عاجلهم بالعقوبة. ذكر الشعراني : أن مدينة بالمشرق صنعوا وليمة يتنزهون فيها ، فخرجوا إلى بستان ، فلما صنعوا الطعام دخل عليهم فقير ، فقال : أعطونى ، فأعطوه ، ثم قال : أعطونى فزادوه ، ثم قال : أعطونى ، فجروه حتى أخرجوه ، فأرسل عليهم من أخرجهم من تلك المدينة وخربها ، فهى خربة إلى اليوم. سبحان المدبر الحكيم الواحد القهار!.

ثم ذكر دعوة موسى إلى فرعون ، وما كان من أمره معه ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٠٤ الى ١٠٥]

وَقالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٠٥)

قلت : من قرأ : «علىّ» بشد الياء ، فحقيق : مبتدأ ، و«علىّ» : متعلق به ، و(ألّا أقول) : خبره ، أي

: حقيق عليّ قول الحق. ومن قرأ : (على) بالتخفيف ، فحقيق : صفة لرسول ، و«على» : حرف جر ، و(ألّا أقول) : مجرور ، أي : إني رسول حقيق على قول الحق ، وعدّاه بعلى لتضمنه معنى حريص ، أو تكون (على) بمعنى الباء أي : حقيق بقول الحق ، وقد يبقى على أصله لأمن الالتباس والمعنى : حقيق على قول الحق أن أكون أنا قائله ، لا يرضى إلا مثله ناطقا به. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ، حَقِيقٌ واجب عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ لأننى معصوم من النطق بغيره ، فإن كذّبتنى فقد جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أي : بمعجزة واضحة ، تدل على صدقى ، وهى العصا. فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ أي : فخل سبيلهم ، حتى يرجعوا معى إلى الأرض المقدسة : التي هى وطن آبائهم ، وكان قد استعبدهم واستخدمهم فى الأعمال الشاقة وذلك أنه لما توفّى يوسف عليه السّلام غلب عليهم فرعون واستعبدهم حتى أنقذهم اللّه على يد موسى ، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى رسولا إلى فرعون : أربعمائة عام.

(٢٤٤/٢)

ثم طلب منه إظهار المعجزة ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٠٦ الى ١١٢]

قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (١١٠)

قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)

قلت : يقال : أرجأ ، بالهمز ، يرجىء بمعنى أخر فمن قرأ بالهمزة فعلى الأصل ، ومن قرأه بغير الهمزة فيحتمل أن يكون بمعنى المهموز ، وسهلت الهمزة ، أو يكون بمعنى الرجاء ، أي : أطمعه ، وأما ضم الهاء وكسرها فلغتان ، وأما إسكانها فلغة أجرى فيها الوصل مجرى الوقف. وقد تتبع البيضاوي توجيه القراءات ، فانظره إن شئت.

يقول الحق جل جلاله : قالَ فرعون لموسى عليه السّلام : إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ من عند من أرسلك ، كما ذكرت ، فَأْتِ بِها وأحضرها ليثبت بها صدقك إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعواك ، فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ أي : ظاهر أمره ، لا يشك فى أنه ثعبان ، وهى الحية العظيمة.

روى أنه لما ألقاها صار ثعبانا أشعر ، فاغرا فاه ، بين لحييه ثمانون ذراعا ، وضع لحيه الأسفل على

الأرض والأعلى على سور القصر ، ثم توجه نحو فرعون ، فهرب منه وأحدث ، وانهزم الناس مزدحمين ، فمات منهم خمسة وعشرون ألفا ، وصاح فرعون : يا موسى ، أنشدك الذي أرسلك خذه ، وأنا أومن بك ، وأرسل معك بنى إسرائيل ، فأخذه فعاد عصا. قاله البيضاوي.

ثم أظهر له معجزة أخرى : وَنَزَعَ يَدَهُ من جيبه ، أو من تحت إبطه ، فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ أي : بيضاء بياضا خارجا عن العادة ، يجتمع عليها النظارة ، أو بيضاء للنظار ، لا أنها كانت بيضاء فى خلقتها ، بل كانت شديدة الأدمة كلون صاحبها. روى أنه كان شديد الأدمة فأدخل يده فى جيبه أو تحت إبطه ، ثم نزعها ، فإذا هى بيضاء نورانية ، غلب شعاعها شعاع الشمس.

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ ، قيل : قاله هو وأشراف قومه ، على سبيل المشاورة فى أمره ، فحكى عنه فى سورة الشعراء ، وعنهم هنا ، أو قاله هو ووافقوه عليه ، كعادة جلساء الملوك مع أتباعهم.

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بالحيل ، أو بالقتال ، أو بإخراج بنى إسرائيل ، وكانوا خداما لهم ، فتخرب البلد

(٢٤٥/٢)

من بعدهم ، لأنهم خدامها وعمارها. قال فرعون : فَما ذا تَأْمُرُونَ أي : تشيرون علىّ أن أفعل؟

قالُوا أَرْجِهْ أي : أخّره وَأَخاهُ أي : أخّرهما حتى تنظر فى أمرهما ، وقيل : أمروه بسجنهما ، وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ أي : مدائن عمالتك حاشِرِينَ يحشرون لك السحرة ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ.

ثم ذكر مجيئهم ، وما كان من أمرهم مع موسى عليه السّلام ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١١٣ الى ١١٩]

وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (١١٣) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (١١٧)

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ (١١٩)

قلت : من قرأ : (أئن) بهمزتين ، فهو اسم استفهام ، ومن قرأ بهمزة واحدة ، فيحتمل أن يكون خبرا ، كأنهم قالوا :

لا بد لنا من أجر ، أو استفهاما حذفت منه الهمزة ، والتنكير للتعظيم ، واستأنف الجملة ، كأنها جواب

عن سائل قال :

فماذا قالوا إذ جاءوا؟ قالوا : إن لنا لأجرا ... إلخ ، و(إنكم) : عطف على ما سدّ مسده نعم ، من تمام الجواب ، كأنه قال :

نعم نعطيكم الأجر ونقربكم.

يقول الحق جل جلاله : وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ بعد ما أرسل الشرطة فى طلبهم ، قالُوا لما وصلوا إليه : إِنَّ أئن لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ لموسى؟ قالَ نَعَمْ إن لكم أجرا وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ إلىّ. فأنعم لهم بالأجر ، وزادهم التقريب منه والجاه عنده تحريضا لهم. واختلف فى عدد السحرة اختلافا متباينا ، من سبعين رجلا إلى سبعين ألفا ، وكل ذلك لا أصل له فى صحة النقل.

ولمّا خرجوا إلى الصحراء لمقابلته قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ خيّروا موسى مراعاة للأدب ، وإظهارا للجلادة ، ولكن كانت رغبتهم فى أن يلقوا قبله ، ولذلك عبّروا عن إلقاء موسى بالفعل وعن إلقائهم بالجملة الاسمية ، وفيه إشارة إلى أنهم أهل الإلقاء المتمكنون فيه. ولذلك أسعفهم ، قالَ أَلْقُوا أسعفهم كرما ومسامحة وازدراء بهم ، فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ، بأن خيلوا إليها خلاف ما فى حقيقة الأمر ، وَاسْتَرْهَبُوهُمْ أي : خوفوهم بما أظهروا لهم من أعمال السحر ، وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ فى فنّه.

روى أنهم ألقوا حبالا غلاظا ، وخشبا طوالا ، كأنها حيات ، ملأت الوادي ، وركب بعضها بعضا.

(٢٤٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٤٧

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ ، فألقاها ، فصارت ثعبانا عظيما ، على قدر الجبل ، وقيل : إنه طال حتى جاوز النيل ، فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ أي : تبتلع ما يَأْفِكُونَ ما يزوّرونه من إفكهم وكذبهم. روى أنها لما ابتلعت حبالهم وعصيهم ، وكانت ملأت الوادي ، فابتلعتها بأسرها ، أقبلت على الحاضرين ، فهربوا وازدحموا حتى هلك منهم جمع عظيم ، ثم أخذها موسى فصارت عصا كما كانت ، فقال السحرة : لو كان هذا سحرا لبقيت حبالنا وعصينا.

فَوَقَعَ الْحَقُّ أي : ثبت بظهور أمره ، وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ. فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ أي : صاروا أذلاء مبهوتين ، أو انقلبوا إلى المدينة مقهورين.

ولما رأى السحرة ذلك علموا أنه ليس من طوق البشر ، وليس هو من السحر ، فتحققوا أنه من عند اللّه ، فآمنوا ، كما أشار إليه بقوله :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٢٠ الى ١٢٦]

وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (١٢٠) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (١٢٢) قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)
قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (١٢٦)

يقول الحق جل جلاله : وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ على وجوههم ساجِدِينَ لما عرفوا الحق وتحققوا به ، فآمنوا لأن الحق بهرهم ، واضطرهم إلى السجود بحيث لم يتمالكوا ، أو ألهمهم اللّه ذلك وحملهم عليه ، حتى ينكسر فرعون بالذين أراد بهم كسر موسى ، وينقلب الأمر عليه.

قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ. رَبِّ مُوسى وَهارُونَ أبدلوا الثاني من الأول لئلا يتوهم أنهم أرادوا به فرعون.

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ أي : باللّه أو بموسى ، قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ أي : إن هذه لحيلة صنعتموها أنتم وموسى فِي الْمَدِينَةِ فى مصر ، ودبرتموها قبل أن تخرجوا للميعاد لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها أي : القبط ، وتخلص لكم ولبنى إسرائيل ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة ما صنعتم.

(٢٤٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٤٨

ثم فصّل ما هددهم به ، فقال : لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ من كل شق عضو ، كيد ورجل من كل واحد ، ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ تفضيحا لكم وتنكيلا لأمثالكم ، وليس فى القرآن أنه أنفذ ذلك ، ولكن روى عن ابن عباس وغيره أنه فعله. قيل : إنه أول من سنّ ذلك - أي : القطع من خلاف - فشرعه اللّه للقطاع تعظيما لجرمهم ، فلذلك سماه اللّه محاربة للّه ورسوله.

قالُوا أي : السحرة لما خوفهم : إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ بالموت ، فيكرم مثوانا ، فلا نبالى بوعيدك ، كأنهم اشتاقوا إلى اللقاء ، فهان عليهم وعيده ، أو إنا وأنت إلى ربنا منقلبون ، فيحكم بيننا وبينك ، وَما تَنْقِمُ مِنَّا أي : وما تعيب علينا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا ، وهو لا يعاب عند العقلاء ، لأنه خير الأعمال ، وأصل المناقب ومحاسن الخلال ، ثم فزعوا إلى اللّه فقالوا : رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً أي : اصبب علينا صبرا يغمرنا ، كما يفرغ الماء على الشيء فيغمره ، وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ ثابتين على الإسلام.

قال البيضاوي : قيل : إنه فعل بهم ذلك ، وقيل : إنه لم يقدر عليه ، لقوله : أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ «١». هـ. وقد تقدم قول ابن عباس وغيره. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : انظر من سبقت له العناية ، هؤلاء السحرة جاءوا يحادون اللّه فأمسوا أولياء اللّه ، فكم من خصوص تخرج من اللصوص ، وانظر أيضا صبرهم وثباتهم على دينهم ، وعدم مبالاتهم بعدوهم ،

هكذا ينبغى أن يكون من مراده مولاه ، لا يلتفت إلى شيء سواه ، وعند هذه التصرفات يفتضح المدّعون ويثبت الصادقون ، عند الامتحان يعز المرء أو يهان.

ثم قال تعالى فى تتمة قصة موسى عليه السّلام :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٢٧ الى ١٢٩]

وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (١٢٧) قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة القصص.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ أي : تتركهم يخالفون دينك لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ أي : يخربوا ملكك بتغيير دينك ودعوتهم إلى مخالفتك ، وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ أي : يترك موسى دينك ومعبوداتك التي تعبد ، قيل : كان يعبد الكواكب ، وقيل : صنع لقومه أصناما وأمرهم أن يعبدوها تقربا إليه. ولذلك قال : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى «١». قال فرعون فى جوابهم : سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ أي : ذكورهم وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ أي : بناتهم ، كما كنا نفعل من قبل ، ليعلم أنّا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ، ولا يتوهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه. وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ غالبون ، وهم مقهورون تحت أيدينا.

قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، قاله تسكينا لهم حين سمعوا قول فرعون وما هددهم به ، ثم قال لهم : إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وسيورثها لكم إن صبرتم وآمنتم. وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، فتكون العاقبة لكم إن اتقيتم ، وهو وعد لهم بالنصر والعز ، وتذكير بما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وملكهم.

قالُوا أي : بنو إسرائيل : أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا بقتل الأبناء ، وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا بإعادته ، فلم يرتفع عنا الذل بمجيئك ، قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ، تصريحا بما كنّى عنه أولا ، لما رأى أنهم لم يتسلوا بذلك ، ولعله أتى بحرف الطمع ، أي : الترجي لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم ، أو أولادهم ، وقد روى أن مصر إنما فتح لهم فى زمن داود عليه السّلام. قاله البيضاوي.

فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ أي : فإذا استخلفكم يرى ما تعملون من شكر أو كفران ، أو طاعة أو عصيان ، فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم من كفر أو إحسان.

الإشارة : ما وقع للأنبياء مع قومهم وقع مثله لأشياخ هذه الأمة وفقرائها مع أهل زمانهم ، ولما كثرت الأحوال من الفقر أو خرق العوائد ، وظهروا بتخريب ظواهرهم ، وقعت بهم الشكاية إلى السلطان ، وقالوا له : هؤلاء يخربون ملكك ، فآل على نفسه إن مكنه اللّه منهم لا يترك منهم أحدا ، فكفى اللّه بأسه ، فاستعانوا باللّه وصبروا ، واشتغلوا بذكر اللّه ، وغابوا عمن سواه ، فكانت العاقبة للمتقين.

ثم ذكر ابتلاءه لقوم فرعون ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٣٠ الى ١٣١]

وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١)

---

(١) كما جاء فى الآية ٢٤ من سورة النازعات.

قلت : عبّر فى جانب الحسنة بإذا ، المفيدة للتحقيق ، وعرّف الحسنة لكثرة وقوعها ، وعبّر فى جانب السيئة بإن المفيدة للشك ، ونكّر السيئة لندورها.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ أي : بالجدب والقحط لقلة الأمطار والمياه ، وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ بكثرة العاهات ، لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أي : لكى ينتبهوا أن ذلك من شؤم كفرهم ومعاصيهم ، ويتعظوا ، وترق قلوبهم بالشدائد ، فيفزعوا إلى اللّه ، ويرغبوا فيما عنده.

فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ من الخصب والسعة والرخاء ، قالُوا لَنا هذِهِ أي : قالوا : هذه لنا ولسعودنا ، ونحن مستحقون له. وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ : جدب وبلاء يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أي : يتشاءموا بهم ، ويقولون : ما أصابتنا إلا بشؤمهم ، وهذا إغراق فى وصفهم بالغباوة والقساوة فإن الشدائد ترقق القلوب ، وتذلل العرائك أي : الطبائع ، وتزيل التماسك ، سيما بعد مشاهدة الآيات ، وهى لم تؤثر فيهم ، بل زادوا عندها عتوا وانهماكا فى الغى.

قال تعالى : أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أي : سبب طائرهم وشرهم عنده ، وهو حكمه ومشيئه ، أو سبب شؤمهم عند اللّه ، وهو أعمالهم المكتوبة عنده ، فإنها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم. قال ابن جزي :

أي : حظهم ونصيبهم الذي قدر لهم من الخير والشر عند اللّه ، وهو مأخوذ من زجر الطير ، ثم سمى به ما يصيب الإنسان ، ومقصود الآية : الرد عليهم فيما نسبوا إلى موسى من الشؤم. هـ. وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن ما يصيبهم من اللّه تعالى بلا واسطة ، أو من شؤم أعمالهم.

الإشارة : هذه الخصلة جارية أيضا في هذه الأمة ، أعني التطاير ، ترى العوام إذا نزل بهم بلاء أو شدة قالوا :

بظهور هؤلاء وقع بنا ما وقع ، ولقد سمعت ممن حكى لي هذه المقالة عن العامة وقت ابتداء ظهور الفقراء ، وذلك أنهم آذوهم أذى شديدا ، فأرسل اللّه عليهم كثرة الأمطار كادت أن تكون طوفانا ، فقالوا : ما أصابنا هذا إلا من شؤم هذه المرقعات التي ظهرت ، ولم يدروا أن ذلك منهم لإذايتهم أهل اللّه. واللّه تعالي أعلم.

ثم ذكر عتو آل فرعون ، وعقوبته لهم ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٣٢ الى ١٣٧]

وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (١٣٦)

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)

قلت : (مهما) : اسم شرط جازم ، و(تأتنا) : شرطها ، وجملة (فما نحن) : جوابها ، قيل : مركبة ، وأصلها : «ما» الشرطية ، ضمت إليها «ما» الزائدة ، نحو : أينما ، ثم قلبت الألف هاء ، والمشهور : أنها بسيطة ، ومحلها : رفع بالابتداء ، أو نصب بفعل يفسره : «تأتنا» ، والضمير فى : «به» عائد على «مهما».

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : فرعون وقومه : مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ ، وإنما سموها آية على زعم موسى ، لا لاعتقادهم ، ولذلك قالوا : لِتَسْحَرَنا بِها أي : لتسحر بها أعيننا وتشبه علينا ، فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. وهذا من عظيم عتوهم وانهماكهم فى الكفر.

قال تعالى : فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وهو مطر شديد نزل بهم مع فيض النيل ، حتى هدم بيوتهم وكادوا يهلكون ، وامتنعوا من الزراعة ، وقيل : الطاعون ، وقيل : الجدري ، وقيل الموتان ، وَالْجَرادَ وهو المعروف ، أكل زروعهم وثمارهم ، حتى أكل ثيابهم وأبوابهم وسقف بيوتهم ، وَالْقُمَّلَ قيل : أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها ، وقيل : البراغيث ، وقيل السوس ، والتحقيق : أنه صغار القراد ، دخل ثيابهم وشعورهم ولحاهم ، وقرىء : «القمل» بفتح القاف وهو القمل المعروف ، دخل ثيابهم وامتلأت منها ، وَالضَّفادِعَ ، وهى المعروفة ، كثرت عندهم حتى امتلأت بها فروشهم وأوانيهم ، وإذا تكلم أحدهم وثب الضفدع إلى فيه. وَالدَّمَ صارت مياههم دما ، فكان يستسقى من البئر القبطي والإسرائيلي في إناء واحد ، فيخرج ما يلي القبطي دما ، وما يلي الإسرائيلي ماء.

قال البيضاوي : روي أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة ، لا يقدر أحد أن يخرج من بيته ، ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلي تراقيهم ، وكانت بيوت بني إسرائيل متصلة ببيوتهم ، فلم يدخل فيها قطرة ، وركب على أرضهم فمنعتهم من الحرث والتصرف فيها ، ودام ذلك عليهم أسبوعا ، فقالوا لموسى عليه السّلام : أدع لنا ربك بما عهد

(٢٥١/٢)

عندك يكشف عنا ونحن نؤمن بك ، فدعا اللّه فكشف عنهم ، ونبت لهم من الكلأ والزرع والثمار ما لم يعهد مثله ، ولم يؤمنوا ، فبعث اللّه عليهم الجراد فأكلت زرعهم وثمارهم ، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب ، ففزعوا إليه ثانيا ، فدعا ، وخرج إلي الصحراء ، وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب ، فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها ، فلم يؤمنوا ، فسلط عليهم القمل وأكل ما أبقاه الجراد ، فكان يقع في أطعمتهم ويدخل في ثيابهم وجلودهم فيمصها ، ففزعوا إليه فرفع عنهم ، فقالوا : قدتحققنا الآن أنك ساحر ، ثم أرسل اللّه عليهم الضفادع بحيث لا ينكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه ، وكانت تملأ مضاجعهم ، وتثب إلى قدورهم وهى تغلي وأفواههم عند التكلم ، ففزعوا وتضرعوا ، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف اللّه عنهم ، ثم نقضوا العهد ، فأرسل اللّه عليهم الدم ، فصارت مياههم دما ، حتى يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على الماء ، فيكون ما يلي القبطي دما ، وما يلي الإسرائيلي ماء ، ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دما فى فيه ، وقيل : سلط عليهم الرعاف. هـ.

آياتٍ أي : حال كون ما تقدم آيات مُفَصَّلاتٍ ، مبينات ، لا تشكل على عاقل أنها آيات اللّه ونقمته. قيل : كان بين كل واحدة منها شهر ، وامتداد كل واحدة أسبوعا ، وقيل : إن موسى ثبت فيهم ، بعد ما

غلب السحرة ، عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل ، فَاسْتَكْبَرُوا عن الإيمان وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ أي :
عادتهم الإجرام.
وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ يعنى : العذاب المفصل ، أو الطاعون الذي أرسله عليهم بعد ذلك ، قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ أي : بعهده عندك ، وهو النبوة ، أو بالذي عهده إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك فى آياتك. والمعنى : ادع اللّه متوسلا إليه بما عهد عندك من النبوة والجاه ، أو بدعائك إليه ووسائلك ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ : العذاب لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ أي : أقسمنا بعهد اللّه لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ كما طلبت ، قال تعالى : فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إلى حد من الزمان هم بالغوه ثم يهلكون ، وهو وقت الغرق أو الموت ، وقيل : إلى أجل عينوه لإيمانهم ، إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ جواب «لمّا» ، أي : فلما كشفنا عنهم جاءوا بالنكث من غير تأمل ولا توقف ، فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ أي : فأردنا الانتقام منهم ، فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ أي : البحر الذي لا يدرك قعره أو لجته ، بِأَنَّهُمْ أي : بسبب أنهم كَذَّبُوا بِآياتِنا التي أرسلناها عليهم. وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ أي : أغرقناهم بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها.
وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ بالاستبعاد وذبح الأبناء مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا يعنى : أرض الشام ، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة ، وتمكنوا من نواحيها الَّتِي بارَكْنا فِيها بالخصب وسعة العيش ، وهى أرض الشام. وزاد ابن جزي : ومصر.

(٢٥٢/٢)

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أي : نفذت ومضت واستقرت ، والكلمة هنا : ما قضى فى الأزل من إنقاذهم من عدوهم ، وقيل : قوله : وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ «١» وكانت حسنى لما فيها من النصر والعز ، بِما صَبَرُوا أي : بسبب صبرهم على الشدائد وَدَمَّرْنا أي : خربنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ من القصور والعمارات ، وَما كانُوا يَعْرِشُونَ من البنيان المرتفع كصرح هامان ، أو ما كانوا يرفعون من الكروم في البساتين على العرشان ، فالأول من العرش ، والثاني من العريش.
الإشارة : قد جرت عادة اللّه فى خلقه أن يظهر الخواص من عباده ، فينكروا أو يستضعفوا ، حتى إذا طهّروا من البقايا وتمكنوا من شهود الحق ، منّ اللّه عليهم بالعز والنصر والتمكين ، فمنهم من يمكن من التصرف في الحس والمعنى ، ويقره الوجود بأسره ، ومنهم من يمكّن من التصرف فى الكون بهمته

، ولكنه تحت أستار الخمول ، لا يعرفه إلا من اصطفاه لحضرته ، وهذا من شهداء الملكوت ، ضنّ به الحق تعالى فلم يظهره لخلقه. واللّه تعالى أعلم وأحكم.

ثم ذكر نجاة موسى عليه السّلام وقومه من فرعون ، وخروجهم إلى الشام ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٣٨ الى ١٤١]

وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)

يقول الحق جل جلاله : وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ أي : قطعنا بهم الْبَحْرَ ، روى أنهم عبروه يوم عاشوراء ، بعد مهلك فرعون ، فصاموه شكرا ، فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ أي : مروا على قوم من العمالقة ، وقيل : من لخم ، يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ أي : يقيمون على عبادتها ، قيل : كانت تماثيل البقر ، وذلك أول شأن عبادة العجل ،

---

(١) من الآية ٥ من سورة القصص.

وهؤلاء القوم ، قيل : هم الجبارون الذين أمر موسى بقتالهم بعد وصوله إلى الشام ، ولما رآهم بنو إسرائيل قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً أي : مثالا نعبده كَما لَهُمْ آلِهَةٌ يعبدونها ، قالَ لهم موسى عليه السّلام :

إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ، وصفهم بالجهل المطلق ، وأكده بإن لبعد ما صدر منهم ، بعد ما رأوا من الآيات الكبرى.

قال البيضاوي : ذكر ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن منّ اللّه تعالى عليهم بالنعم الجسام ، وآراهم من الآيات العظام ، تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عما كان يرى منهم ويلقى من التشغيب ، وإيقاظا للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم. هـ. وذكر فى «القوت» أن يهوديا قال لعلى رضى اللّه عنه : كيف اختلفتم وضربتم وجوه بعضكم بالسيف ، ونبيكم قريب عهد بكم؟ فقال : أنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم :

اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ. هـ.

ثم قال لهم موسى عليه السّلام : إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ : مدمر هالك ما هُمْ فِيهِ يعنى : أن اللّه تعالى يهدم دينهم الذي هم فيه ، ويحطم أصنامهم ويجعلها رضاضا. وَباطِلٌ : مضمحل ما كانُوا يَعْمَلُونَ من عبادتها ، وإن قصدوا بها التقرب إلى اللّه تعالى ، وإنما بالغ فى هذا الكلام تنفيرا وتحذيرا عما طلبوا. قالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ أطلب لكم إِلهاً أي : معبودا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ أي : والحال أنه قد خصكم بنعم لم يعطها غيركم ، وفيه تنبيه على سوء مقابلتهم حيث قابلوا تخصيص اللّه لهم بما استحقوه تفضلا ، بأن قصدوا أن يشركوا به أخس شيء من مخلوقاته وأبلده ، وهو البقر.

وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أي : ، واذكروا صنعه معكم فى هذا الوقت حيث نجاكم من فرعون ورهطه يَسُومُونَكُمْ أي : يذيقونكم سُوءَ الْعَذابِ ، ثم بيّنه بقوله : يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ ذكوركم وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ أي : بناتكم ، وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ أي : وفى ذلك القتل امتحان عظيم ، أو فى ذلك الإنجاء نعمة عظيمة وامتنان عظيم.

الإشارة : من جاوز بحر التوحيد وحاد عنه ، ولم يغرق فيه ، لا يخلو من طلب شرك جلى أو خفى لأن النفس ما دامت لم تغرق فى بحر الوحدة ، ولم تسبها جمال المعاني ، قطعا تميل إلى شيء من جمال الحس ، لأن الروح فى أصلها عشاقة ، إن لم تعشق جمال الحضرة تعشق جمال الحس ، ومن ركن إلى شيء مما سوى اللّه فهو شرك عند الموحدين من المحققين ، ويؤخذ من الآية أن شكر النعم هو تلخيص التوحيد ، وانفراد الوجهة إلى اللّه تعالى لأن بنى إسرائيل لمّا أنعم اللّه عليهم بالإنجاء وفلق البحر قابلوا ذلك بطلب الشرك ، فسقطو من عين اللّه واستمر ذلهم إلى يوم القيامة. واللّه تعالى أعلم.

(٢٥٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٥٥

ولما استقر بنو إسرائيل بالشام طلبوا من نبيهم نزول الكتاب وتقرير الشرائع ، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٤٢]

وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)

يقول الحق جل جلاله : وَواعَدْنا مُوسى لإنزال الكتاب ثَلاثِينَ لَيْلَةً من ذي القعدة ، وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ من ذي الحجة ، فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ بالغا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، روى أنه عليه السّلام وعد بني إسرائيل ، بمصر ، أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من اللّه تعالى ، فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره بصوم ثلاثين ، فلما أتم أنكر خلوف فيه فتسوك ، فقالت الملائكة : كنا نشم منك رائحة

المسك فأفسدته بالسواك ، فأمره اللّه تعالى أن يزيد عليها عشرا ، ثم أنزل عليه التوراة.
وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ ، عند ذهابه إلى الطور للمناجاة : اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي أي : كن خليفتي فيهم وَأَصْلِحْ ما يجب أن يصلح من أمورهم ، أو كن مصلحا ، وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ أي : لا تتبع سبيل من يسلك الإفساد ، ولا تطع من دعاك إليه.
الإشارة : كل من انقطع إلى اللّه تعالى بكليته واعتزل عن الخلق ، وأخلى قلبه عما سوى الحق ، حصلت له المناجاة والمكالمة ، كما وقعت للكليم عليه السّلام ، وكل ما منحه اللّه للانبياء يكون منه نصيب للأولياء من هذه الأمة ، واللّه تعالى أعلم. وفى الحديث : «من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» «١».
قال بعض الحكماء : والسر في ذلك أن اللّه تعالى أمر بطينة آدم فخمرت فى الماء أربعين يوما ، فتربى فيها أربعون حجابا ، فلو لا تلك الحجب ما استطاع المقام في الأرض ، فمن أيده اللّه على زوالها تشبه بالملأ الأعلى ، وخرقت له العوائد ، وأشرق النور من قلبه. ولهذا المعنى بقي داود عليه السّلام ساجدا أربعين يوما ، فقبلت توبته ، ومكث إبراهيم عليه السّلام في نار النمرود أربعين يوما ، فاتخذه اللّه خليلا ، وكان بعد ذلك يقول : ما رأيت أحلى من تلك الأيام ، فمن أخلص في عبادته وأزال تلك الحجب عن قلبه كان ربانيا. قال تعالى : وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ «٢». انظر الشطيبى.
ويوخذ من الآية أن الشيخ إذا أراد أن يسافر من زاويته ينبغي له أن يخلف خليفة عنه ليقوم له بنظام الزاوية ، إذ لا خير فى قوم ليس فيهم من يعظهم فى اللّه. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، بسند ضعيف عن أبى أيوب. ورواه أحمد بنحوه عن مكحول مرسلا. راجع كشف الخفاء (٢/ ٢٢٤).
(٢) من الآية ٧٩ من سورة آل عمران.

ولما سمع سيدنا موسى عليه السّلام كلام الحق بلا واسطة ، طمع فى الرؤية بلا واسطة ، كما قال تعالى :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٤٣]
وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ

تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا الذي وقتنا له وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ من غير واسطة كما يكلم الملائكة. وفيما روى : أنه كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة ، وفيه تنبيه على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المحدثين. قاله البيضاوي. وقال الورتجبي : أي : أسمع عجائب كلامه كليمه ليعرفه بكلامه لأن كلامه مفاتيح كنوز الصفات والذات. هـ. وقال ابن جزي : لما سمع موسى كلام اللّه طمع في رؤيته ، فسألها ، كما قال الشاعر :

وأبرح ما يكون الشّوق يوما إذا دنت الديار من الدّيار.

قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ أي : أرني نفسك أنظر إليك ، بأن تكشف الحجب عني ، حتى أنظر إلى ذاتك المقدسة من غير واسطة ، كما أسمعتني كلامك من غير واسطة. قال البيضاوي : وهو دليل علي أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال ، وخصوصا ما يقتضي الجهل باللّه ، ولذلك رده بقوله تعالى : لَنْ تَرانِي دون لن أرى ولن أريك ، ولن تنظر إليّ ، تنبيها على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على حال في الرائي ، لم توجد فيه بعد ، وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا : أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً «١» خطأ ، إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبههم ، كما فعل بهم حين قالوا : اجْعَلْ لَنا إِلهاً «٢» ، والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ إذ لا يدل الإخبار عن عدم رؤيته إياه على أنه لا يراه أبدا ، وألا يراه غيره أصلا ، فضلا عن أن يدل على استحالتها. ودعوى الضرورة فيه مكابرة وجهالة بحقيقة الرؤية. هـ.

وهو تعريض بالزمخشرى وردّ عليه ، فإنه هنا أطلق لسانه في أهل السنة - عفا اللّه عنه - . والتحقيق : أن رؤيته تعالى برداء الكبرياء - وهي أنوار الصفات - جائزة واقعة - ، وأما رؤية أسرار الذات - وهي المعاني الأزلية ، التي هى كنه الربوبية - فغير جائزة إذ لو ظهرت تلك الأسرار لتلاشت الأكوان واضمحلت ، ولعل هذا المعنى هو الذي طلب سيدنا موسى عليه السّلام ، فلذلك قال له : لَنْ تَرانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ عند تجلى هذه

---

(١) من الآية ١٥٣ من سورة النساء.

(٢) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.

الأسرار له ، فَسَوْفَ تَرانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ أي : أظهر له شيئا من أنوار الربوبية التي هى أسرار

المعاني الأزلية ، جَعَلَهُ دَكًّا أي : مدكوكا مفتتا ، والدك والدق واحد. وقرأ حمزة : «دكاء» بالمد ، أي : أرضا مستوية ، ومنه : ناقة دكاء لاسنم لها. وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً مغشيا عليه من هول ما رأى ، فَلَمَّا أَفاقَ قالَ تعظيما لما رأى : سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ من الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذن ، وقال بعضهم : تبت إليك من عدم الاكتفاء بقوله : لَنْ تَرانِي حتى نظر إلى الجبل ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ أنك لا ترى بلا واسطة نور الصفات ، أو أول أهل زماني إيمانا.

الإشارة : رؤية الحق جائزة واقعة عند الصوفية فى الدارين ، ولكن لا ينالها فى هذه الدار إلا خواص الخواص ، ويعبّرون عنها بالشهود والعيان ، ولا يكون ذلك إلا بعد الفناء ، وفناء الفناء بعد موت النفس وقتلها ، ثم الغيبة عن حسها ورسمها ، تكون بعد التهذيب والتدريب والتربية على يد شيخ كامل ، لا يزال يسير به ويقطع به فى المقامات ، ويغيبه عن نفسه ورؤية وجوده ، حتى يقول له : ها أنت وربك ، وذلك أن الحق جل جلاله تجلى لعباده بأسرار المعاني خلف رداء الأوانى ، وهو حس الأكوان ، فأسرار المعاني لا يمكن ظهورها إلا بواسطة الأوانى ، أو تقول :

أسرار الذات لا تظهر إلا فى أنوار الصفات ، فلو ظهرت أسرار الذات بلا واسطة لاضمحلت الأشياء واحترقت ، كما فى الحديث : «حجابه النّور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» «١».

فالمراد بالنور نور الصفات ، وهو الأواني الحاملة للمعانى ، لو كشف ذلك النور حتى تظهر أسرار الذات لأحرقت كل شيء أدركه بصره. والواسطة عند المحققين هى عين الموسوط ، فلا يزال المريد يفني عن عين الواسطة فى شهود الموسوط حتى يغيب عن الواسطة بالكلية ، أو تقول : لا يزال يغيب عن الأوانى بشهود المعاني حتى تشرق شمس العرفان ، فتغيب الأوانى فى ظهور المعاني ، فيقع العيان على فقد الأعيان ، «كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان» ، «ما حجبك عن الحق وجود موجود معه ، إذ لا شيء معه ، وإنما حجبك توهم موجود معه».

والحاصل : أن الحق تعالى تكون رؤيته أولا بالبصيرة دون البصر ، لأن البصيرة تدرك المعاني ، والبصر يدرك الحسيات ، فإذا انفتحت البصيرة استولى نورها على نور البصر ، فلا يرى البصر حينئذ إلا ما تراه البصيرة. قال بعض العارفين : هذه المزية العظمى - وهى رؤية الحق تعالى - فى الدنيا على هذا الوجه : خاص بخواص الأمة

---

(١) أخرجه مسلم فى (الإيمان - باب فى قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : إن اللّه لاينام) من حديث أبى موسى.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٥٨

المحمدية – دون سائر الأمم – وراثة عن نبيهم صلّى اللّه عليه وسلّم ، فإنه خص بالرؤية دون غيره من الأنبياء. وإلى ذلك أشار ابن الفارض فى تائيته ، مترجما بلسان الحقيقة المحمدية ، حيث قال :

ودونك بحرا خضته ، وقف الألى بساحله ، صونا لموضع حرمتى

ولا تقربوا مال اليتيم إشارة لكف يد صدّت له ، إذ تصدّت

وما نال شيئا منه غيري سوى فتى على قدمي فى القبض والبسط ما فتى

قال شارحه القاشاني : أراد بهذا البحر : الرؤية التي منع منها موسى عليه السّلام ، وخص بها محمد – عليه الصلاة السلام – وأفراد من أتباعه. ثم قال : ورد فى الخبر : أنه لما أفاق موسى عليه السّلام من صعقته قيل له : ليس ذلك لك ، ذلك ليتيم يأتى من بعدك ، ثم قال : سبحانك تبت إليك عما تعديت لما ليس لى ، وأنا أول المؤمنين بتخصيص محمد صلّى اللّه عليه وسلّم بهذا المقام. هـ.

وقيل فى قوله : فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ أي : جبل العقل ، بحيث طمس نوره بنور شمس العرفان ، وخر موسى صعقا ، أي : ذهب وجوده فى وجود محبوبه ، وحصل له الزوال فى مكان الفناء والسكر ، فلما أفاق ورجع إلى البقاء تمسك بمقام العبودية والأدب مع الربوبية فقال : سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ من رؤية جبل الحس قبل شهود نور المعنى ، وأنا أول المؤمنين بأن نور المعاني خلف رداء الأوانى ، لا يدرك إلا بعد الصعقة ، واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر نزول التوراة ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٤٤ الى ١٤٧]

قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٥٩

قلت : الرّشد والرّشد : لغتان ، قرىء بهما.

يقول الحق جل جلاله : قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ اخترتك عَلَى النَّاسِ الموجودين في زمانك ،

وهارون ، وإن كان نبيا ، كان مأمورا باتباعه ، ولم يكن كليما ولا صاحب شرع. فقد اصطفيتك على أهل زمانك بِرِسالاتِي لك إليهم ، ومن قرأ بالجمع فالمراد : أوقات التبليغ بأنواع الأحكام أو أسفار التوراة ، وَخصصتك بِكَلامِي ، وقد شاركه نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم مع زيادة الرؤية ، فَخُذْ ما آتَيْتُكَ أي : أعطيتك من الرسالة والتكليم ، واقنع بهما ولا تطلب غير ذلك ، وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ على هذه النعمة ، وفيه نوع تأديب له.

روى أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة ، وأعطاه التوراة يوم النحر.

قال تعالى : وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يحتاجون إليه مَوْعِظَةً أي : تذكيرا وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ يتوقفون عليه في الأحكام والوعظ. واختلف في الألواح : هل كانت سبعة أو عشرة أو اثنين ، وهل كانت من زمرد أو زبرجد أو ياقوت أحمر ، أو خشب ، أو صخرة صماء ، شقها اللّه تعالى لموسى عليه السّلام فقطعها بيده ، وكان فيها التوراة.

قال تعالى لموسى عليه السّلام : فَخُذْها أي : الألواح أو الرسالة بِقُوَّةٍ أي : بجد واجتهاد ، وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها بأحسن ما فيها ، فإن فيها ما هو حسن وأحسن منه كالقصاص مع العفو ، أو بواجباتها ، فإن الواجب أفضل من المندوب ، وهذا كقوله في كتابنا : وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ «١» ، ويجوز أن يراد بالأحسن : البالغ في الحسن مطلقا ، لا بالإضافة إلى غيره ، كقولهم : الصيف أحر من الشتاء ، فيكون الأمر بأخذ كل ما فيها لأنه بالغ الحسن ، ثم بشرهم بخراب ملك عدوهم ، فقال : سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ أي : دار فرعون وقومه خاوية على عروشها ، أي : أريكم كيف أقفرت منهم لمّا هلكوا ، وقيل : منازل عاد وثمود ومن هلك من الأمم ، لتعتبروا بها ، وقيل : جهنم.

وقرأ ابن عباس : «سأورثكم» بالثاء المثلثة ، كقوله : وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ «٢».

سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ المنصوبة فى الآفاق والأنفس الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا من عجائب المصنوعات فلا يتفكرون فيها ، أو القرآن وغيره من الكتب ، أصرف عنها الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون ، ولا يؤمنون بها ، عقوبة لهم على تكبرهم ، وقيل : الصرف : منعهم من إبطالها

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة الشعراء.

وإطفاء نورها ، وإن اجتهدوا ، كما فعل فرعون وغيره ، فعاد عليهم بإعلائها وإظهار نورها ، وذلك التكبر صدر منهم بِغَيْرِ الْحَقِّ أي : تكبروا بما ليس بحق ، وهو دينهم الباطل.
وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ منزلة أو معجزة لا يُؤْمِنُوا بِها لعنادهم ، واختلال نظرهم ، بسبب انهماكهم في الهوى وحب الجاه ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ أي : طريق الصواب والحق يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا لاستيلاء الشيطان عليهم ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ أي : الضلال يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا أي : يسلكونه ويتبعونه ، لأن سجيتهم الضلال ، ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ أي : ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم الآيات.
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ أي : وبلقائهم الدار الآخرة ، أو : ما وعد اللّه فى الآخرة ، حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ لا ينتفعون بها ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ أي : لا يجزون إلا مقدار أعمالهم.
وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً «١».
الإشارة : كل من أقامه اللّه فى مقام من المقامات ، أو حال من الأحوال ، كيفما كان ، يقال له : خذ ما آتيتك ، واقنع بما أوليتك ، وكن من الشاكرين عليه ، وإلا سلبناك ما أعطيناك ، فالرضا بالقسمة واجب ، وطلب باب الفضل والكرم لازب ، والأمر مبهم ، والعواقب مغيبة ، ومنتهى المقام على التعيين لا يعلم إلا بعد الموت. وقوله تعالى :
فَخُذْها بِقُوَّةٍ أي : بجد واجتهاد. قال فى الإحياء : الأخذ بالجد أن يكون القارئ متجردا لله عند قراءته ، منصرف الهمة إليه عن غيره ، وهو يشير للحضور.
وقوله تعالى : يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها قال الورتجبي : يأخذون بأبينها لهم ، وهى المحكمات التي توجب العبودية ، ويأخذون بمتشابهها التي هى وصف الصفات بحسن الاعتقاد والتسليم فيها ، لأن علومها وحقائقها لا تكشف إلا للربانيين. قال تعالى : وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ... «٢» الآية. هـ. وقوله تعالى :
سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ. قال القشيري : سأحرم المتكبرين بركة الاتباع ، حتى لا يتلقوا الآيات التي يكاشفون بها بالقبول ، ولا يسمعوا ما يخاطبون به بسمع الإيمان. هـ.

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة الكهف. [.....]
(٢) الآية ٧ من سورة آل عمران.

ثم شرع فى ذكر مساوئ بنى إسرائيل فبدأ بعبادتهم العجل ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٤٨ الى ١٤٩]
وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (١٤٩)
قلت : «عجلا» : مفعول أول لاتخذ ، و«جسدا» : بدل منه ، وحذف الثاني - أي : «إلها» - لدلالة أوله ، و(له خوار) :
نعت له.
يقول الحق جل جلاله : وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ أي : من بعد ذهابه للميقات ، مِنْ حُلِيِّهِمْ التي كانوا استعاروها من القبط ، حين هموا بالخروج من مصر ، وإضافتها إليهم لأنها كانت تحت أيديهم ، فصنع لهم منها السامري عِجْلًا جَسَداً بلا روح ، فألقى فى جوفه من تراب أثر فرس جبريل ، فصار لَهُ خُوارٌ ، فقال لهم : هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى ، فعكفوا على عبادته ، واتخذوه إلها.
قال تعالى : أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أي : ألم يروا ، حين اتخذوه إلها ، أنه لا يقدر على كلام ، ولا على إرشاد سبيل ، كآحاد البشر ، حتى حسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقدر ، وهذا تقريع على فرط ضلالتهم وإخلالهم بالنظر. قال تعالى : اتَّخَذُوهُ إلها وَكانُوا ظالِمِينَ فى اتخاذه ، وضعوا الأشياء فى غير محلها ، أي : كانت عادتهم الظلم ، فلم يكن اتخاذ العجل بدعا منهم.
وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ كناية عن اشتداد ندمهم ، فإن النادم المتحسر يعض يده غما ، فتصير يده مسقوطا فيها. أو يسقط رأسه ، أي : يطأطئها لبعض يده. وقال الدماميني : العرب تضرب الأمثال بالأعضاء ، ولا تريد أعيانها ، تقول للنادم : يسقط فى يده ، وفى الذليل : رغم أنفه. هـ. أي : ولمّا ندموا على ما فعلوا ، وَرَأَوْا أي :
علموا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا باتخاذ العجل ، قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا بالتجاوز عن خطيئتنا ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ دنيا وأخرى.
الإشارة : كل من ركن إلى شىء وعكف على محبته من دون اللّه فهو فى حقه عجل يعبده من دون اللّه ، «ما أحببت شيئا إلا وكنت عبدا له ، وهو لا يحب أن تكون عبدا لغيره». عافانا اللّه من ذلك.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٦٢
ثم ذكر رجوع موسى عليه السّلام من الطور ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٥٠ الى ١٥٣]
وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣)
قلت : (بئسما) : «ما» نكرة موصوفة : تمييز ، تفسير للضمير المستكن في (بئس) ، والمخصوص : محذوف ، أي :

بئس شيئا خلفتموني خلافتكم هذه ، و«ابن أم» : منادى مضاف ، منصوب بفتحة مقدرة قبل ياء المتكلم ، وأصله : ابن أمي ، فحذفت الياء ، وفتحت الميم تخفيفا.
يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى من ميقاته إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ على قومه ، أَسِفاً أي : حزينا عليهم حيث ضلوا ، قالَ لهم ، أو لأخيه ومن معه من المؤمنين : بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أي : من بعد انطلاقى إلى المناجاة ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ أي : أسابقتم قضاء ربكم ووعده ، واستعجلتم إتيانى قبل الوقت الذي قدّر فيه ، أو أعجلتم عقوبة ربكم وإهلاكه لكم حيث عبدتم غيره.
وَأَلْقَى الْأَلْواحَ طرحها من شدة الغضب حمية للدين ، روى أن التوراة كانت سبعة أسفار فى سبعة ألواح ، فلما ألقاها انكسرت ، فرفع ستة أسباعها ، وكان فيها تفصيل كل شىء ، وبقي سبع كان فيه المواعظ والأحكام ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ : بشعر رأسه يَجُرُّهُ إِلَيْهِ توهما فى أنه قصّر فى زجرهم ، وهارون كان أكبر منه بثلاث سنين ، وكان حمولا ليّنا ، ولذلك كان أحبّ إلى بنى إسرائيل ، ولما رأى هارون ما يفعل به أخوه قالَ ابْنَ أُمَّ ، ذكر الأم ليرققه ، وكان شقيقا له ، إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي حين أنكرت عليهم ، فقد بذلت جهدى فى كفهم ، وقهرونى حتى قاربوا قتلى ، فلم أقصّر ، فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ فلا تفعل بي ما يشمتون بي ، أي :
يستشفون بي لأجله ، وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ معدودا فى عدادهم بالمؤاخذة ، أو نسبة التقصير.
قالَ موسى : رَبِّ اغْفِرْ لِي ما صنعت بأخى ، وَلِأَخِي إن فرّط فى كفّهم ، وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ بمزيد الإنعام علينا ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فأنت أرحم منا على أنفسنا.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٦٣

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وهو ما أمرهم من قتل أنفسهم ، أو الطاعون الذي سلط عليهم ، وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وهى ضرب الجزية والهوان إلى يوم القيامة ، وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ على الله ، ولا فرية أعظم من فريتهم ، حيث فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى ، ولعله لم يفتر أحد مثلها قبلهم ولا بعدهم ، حيث جعلوا البقر إلههم وإله الرسول ، نسأل اللّه الحفظ.

ثم ذكر توبتهم ، فقال : وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ من الكفر والمعاصي ، ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها من بعد السيئات وَآمَنُوا واشتغلوا بما يقتضيه الإيمان من الأعمال الصالحات ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها من بعد التوبة لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وإن عظم الذنب كجريمة عبدة العجل - وكثر كجرائم بنى إسرائيل.

الإشارة : الغضب للّه وبالله ، والأسف على دين اللّه ، من أمارة الغيرة على دين اللّه ، لكنّ صاحب هذا المقام مالك نفسه ، يظهر الغلظة ويبطن الرحمة ، قياما بشهود الحكمة والقدرة ، وأما ما صدر من سيدنا موسى - عليه السّلام - فتشريع لأهل التشريع ، لئلا يقع التساهل في تغيير المناكر. وساق الإمام الهروي هذه الآية في منازل السائرين في باب المراد ، وهو المخصوص من ربه بما لم يرده هو ولا خطر بباله ، والإشارة بذلك إلى الضنائن الذين ورد فيهم الخبر : «إنّ للّه ضنائن من خلقه ، ألبسهم النور السّاطع ، وغذاهم في رحمته ، وفعل بهم وفعل ...» أورده الإمام أبو نعيم في الحلية «١».

وحاصله : أن المرادين هم قوم مخصوصون ، ملطوف بهم ، محمول عنهم ، ومنه : وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ «٢» فقد خص - عليه الصلاة والسلام - بما لم يخطر على باله قبل النبوة.

قال الهروي : والمراد : ثلاث درجات : الدرجة الأولى : أن يعصم العبد وهو مستشرف للجفا اضطرارا بتنغيص الشهوات وتعويق الملاذ ، وسد مسالك المعاطب عليه ، إكراما ، والدرجة الثانية : أن توضع عن العبد عوراض النقص ، ويعافيه من سمة اللائمة ، ويملكه عواقب الهفوات ، كما فعل لسليمان عليه السّلام فى قتل الخيل حمله على الريح الرخاء ، فأغناه عن الخيل ، وكما فعل لموسى عليه السّلام حين ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه لم يعتب عليه كما عتب على آدم ونوح وداود ويونس - عليهم السلام. هـ.

قال شارحه الإمام عبد المعطي السكندري : وهذه الدرجة أتم في الحمل علي الأعمال وركوب الأهوال ، والتلطف في تعليم الإقبال مما قبلها ، فإن ما قبلها منع من الشهوات ، وصيانة عن الآفات جبرا وقهرا وحفظا ، وهذا حفظ عنها بإظهار صفح برفق وإكرام ولطف ، فتقوى المحبة في القلب ، فيحمل ذلك على سرعة الموافقة ، ومتى

---

(١) الجزء الأول ص ٦ بنحوه عن ابن عمر - مرفوعا.

(٢) من الآية ٨٦ من سورة القصص.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٦٤

عرف العبد تقصيره في حق مولاه ، ورأى مع ذلك تجاوزه عنه ، وإحسانه إليه ، فضلا عن ترك مؤاخذته بما جناه ، انغرس في قلبه محبته ، وقوى بذلك نشاطه ، وخفت عليه الأعمال ، وقويت منه الأحوال ، فكلاهما محفوظ معان ، إلا أن الأول قهر مع تعلقه ، وهذا إكرام ولطف بعد جريان هفوته ، ثم ذكر الدرجة الثالثة ، فانظره. هـ. بنقل المحشى.

ثم كمّل القصة ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٥٤]

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَفِي نُسْخَتِها هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا سَكَتَ أي : سكن عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ لمّا كان الغضب هو الحامل له على ما فعل صار كأنه كان يأمره به ويغريه عليه ، حتى عبّر عن سكونه بالسكوت ، أي : لما سكن غضبه أَخَذَ الْأَلْواحَ التي ألقاها ، وَفِي نُسْخَتِها أي : وفيما نسخ فيها ، أي : كتب هُدىً وَرَحْمَةً أي : بيان للحق وإرشاد إلى الصلاح والخير ، لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ أي : للذين يخافون ربهم ويهابونه لأنهم هم المنتفعون بها ، ودخلت اللام فى المفعول لضعف العامل بتأخره.

الإشارة : الغضب لأجل النفس يفسد الإيمان ، كالحنظل مع العسل ، ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام - للذي قال له : أوصنى ، قال : «لا تغضب» ، ثم كرر عليه : أوصني ، قال : «لا تغضب» ، ثلاثا ، لأن الغضب المفرط يغطى نور العقل ، فيصدر من صاحبه أمور منكرة ، قد يخرج بها عن الإيمان بالكلية ، وقد يؤدى إلى قتل نفسه والعياذ بالله ، والغضب معيار الصوفية قال بعضهم : إذا أردت أن تعرف الرجل فغضبه وانظر ما يخرج منه ، إلى غير ذلك مما ورد فيه ، فإن كان غضبه لله أو بالله فلا كلام عليه ، وهو حال الأنبياء وأكابر الأولياء - رضى اللّه عنهم - .

ولما انقضت قضية العجل أراد سيدنا موسى عليه السّلام أن يذهب بقوم ، يعتذرون عن عبادة العجل ، كما قال تعالى :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٥٥]

وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (١٥٥)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٦٥

يقول الحق جل جلاله : وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ من قومه سَبْعِينَ رَجُلًا يعتذرون عن قومهم فى عبادة العجل ، لِمِيقاتِنا الذي وقتنا لهم يأتون إليه ، وقيل : إن اللّه تعالى أمره به بأن يأتيه فى سبعين من بني إسرائيل ، فاختار من كل سبط ستة ، فزاد على السبعين اثنان ، فقال : يتخلف منكم رجلان ، فتشاجروا ، فقال : إن لمن قعد أجر من خرج ، فقعد كالب ويوشع ، وذهب معه الباقون ، فلما دنوا من الجبل غشيه غمام ، فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجدا ، فسمعوه يكلم موسى ، يأمره وينهاه ، ثم انكشف الغمام ، فأقبلوا إليه ، وقالوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً «١» ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أي : الصعقة ، أو رجفة الجبل ، عقابا لهم على قولهم ، فصعقوا منها ، يحتمل أن تكون رجفة موت أو إغماء. والأول أظهر لقوله : ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ «٢».

فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ موسى : رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، تمنى هلاكهم وهلاكه قبل ذلك الوقت ، لأنه خاف من تشغيب بني إسرائيل عليه ، إن رجع إليهم دون هؤلاء السبعين ، ربما قالوا : عرّضهم للهلاك ، أو يكون قال ذلك على وجه الاستسلام والانقياد للقضاء ، أي : لو شئت أن تهلكنا من قبل ذلك لفعلت ، فإنا عبيدك وتحت قهرك تفعل بنا ما تشاء ، أو يكون قاله على وجه التضرع والرغبة ، أي : لو شئت أن تهلكنا قبل اليوم لفعلت ، لكنك عافيتنا وأنقذتنا وأغرقت عدونا ، فافعل بنا الآن كما عودتنا ، وأحي هؤلاء الذين أمتهم ، إذ ليس ببعيد من عميم إحسانك ، أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا من العناد والتجاسر على طلب الرؤية ، أو بما فعل السفهاء من عبادة العجل.

إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ أي : ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك ، حتى طمعوا في الرؤية ، أو فتنتك لهم بأن أجريت الصوت من العجل حتى افتتنوا به ، وهذا اعتراف بالقدر ، ورجوع إلى قوله : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ... «٣» الآية ، ولذلك قيل : إنه قال له تعالى : نعم هى فتنتى يا حكيم الحكماء. هـ. أي : ما هذه الأمور كلها التي صدرت من بني إسرائيل إلا فتنتك تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ ضلالته ، باتباع المخايل ، وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ هدايته ، فيقوى بها إيمانه ، وهو اعتذار عن فعل السفهاء فإنه كان بقضاء اللّه ومشيئته.

أَنْتَ وَلِيُّنا القائم بأمرنا ، أو ناصرنا من الوقوع في أسباب المهالك ، فَاغْفِرْ لَنا ما قارفنا من الذنوب ، وَارْحَمْنا أي : اعصمنا من الوقوع فى مثله ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة ،

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٥٦ الى ١٥٧]

وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ

فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)
وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً أي : حالة حسنة من حسن معيشة وتوفيق طاعة ، وَفِي الْآخِرَةِ حسنة نعيم الجنة ، إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ أي : تبنا إليك ، من هاد يهود : إذا رجع ، أي : رجعنا إليك بالتوبة مما سلف منا.

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٥٦ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٨٥ من سورة طه.

الإشارة : السلامة من العطب هو في مقام الهيبة والأدب ، ولذلك قيل : قف بالبساط ، وإياك والانبساط. وأما مقام الإدلال فلا يصح إلا من أكابر الأنبياء ، والأولياء المحققين بمقام المحبوبية ، المتحفين بغاية الخصوصية ، ومنه قول سيدنا موسى عليه السّلام : أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا ، كما قال في الإحياء. والإدلال : هو انبساط يثور من مقام الأنس والتحقق بالمحبة الخاصة ، ولا يتفق إلا من محبوب مأخوذ عنه ، ليس عليه بغية من نفسه ، ولا شعور بوجوده وأنانيته ، وإلا ردّ في وجهه وكان سبب عطبه. ومن الإدلال : ما وقع لأبي الحسن الشاذلي رضى اللّه عنه فى حزبه الكبير ، من قوله : وليس من الكرم ألا تحسن إلا لمن أحسن إليك ... إلخ. وقد وقع لغيره من المحبوبين.
واللّه تعالى أعلم.
ثم أجاب الحق – سبحانه وتعالى – سؤال موسى عليه السّلام فى قوله : (و اكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة) فقال :
قالَ عَذابِي أُصِيبُ ...
يقول الحق جل جلاله : فى جواب سيدنا موسى عليه السّلام : قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ ممن أخذته الرجفة وغيرهم ، وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فى الدنيا للمؤمنين والكافرين ، وفى الآخرة مخصوصة بالمؤمنين ، فَسَأَكْتُبُها كتابة خاصة لا تليق بكم يا بنى إسرائيل ، إنما تليق بالأمة المحمدية الموسومة بالآداب المرضية ، الذين يَتَّقُونَ الكفر والمعاصي ، وإن وقعت هفوة بادروا إلى التوبة ، وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ ، خصصها بالذكر لأنها كانت أشق عليهم. وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ فلا يكفرون بشىء منها ، بل يؤمنون

بجميع الكتب والأنبياء ، وليس ذلك لغيرهم. ولذلك خصهم اللّه بهذه الرحمة فنصرهم على جميع الأمم ، وأعلى دينهم على جميع الأديان ، ومكّن لهم مالم يمكن لغيرهم.

(٢٦٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٦٧

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ صلّى اللّه عليه وسلّم النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ وهو نبينا ومولانا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وكونه أميا شرف له ، إذ الكتابة وسيلة للعلوم ، وقد أعطى منها ما لم يعط أحد من العالمين ، من غير تعب تعلمها ، ولارتفاع الارتياب فى نبوته صلّى اللّه عليه وسلّم ، فهى من جملة معجزاته قال تعالى : وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ... الآية «١». قال بعضهم : لما قال اللّه تعالى : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ طمع فيها كل أحد ، حتى إبليس ، فلما قال : فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ يئس إبليس ، وبقيت اليهود والنصارى ، فلما قال : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ يئس اليهود والنصارى. هـ.

الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ اسما وصفة ، ونص ما فى التوراة على ما فى صحيح البخاري ، عن عبد اللّه بن سلام : «يا أيّها النبيّ إنّا أرسلناك شاهدا ومبشّرا ونذيرا ، وحرزا للأمّيين ، أنت عبدى ورسولى ، سمّيتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب فى الأسواق ، ولا يجازى بالسّيّئة السّيّئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه اللّه حتّى يقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلّا اللّه ، فيفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صمّا ، وقلوبا غلفا» «٢».

ومما فى التوراة أيضا ، وهو مما أجمع عليه أهل الكتاب ، وهو باق فى أيديهم إلى الآن أن الملك قد نزل على إبراهيم ، فقال له : فى هذا العام يولد لك غلام اسمه إسحاق ، فقال إبراهيم : يا رب ليت إسماعيل يعيش يخدمك ، فقال اللّه لإبراهيم : ذلك لك ، قد استجيب لك فى إسماعيل ، وأنا أباركه ، وأنميه ، وأكثره ، وأعظمه بماذماذ ، وتفسيره :

محمد صلّى اللّه عليه وسلّم.

ومن ذلك مما فى التوراة أيضا : أن الرب - تعالى - جاء من طور سيناء ، وطلع على «ساغين» ، وظهر من جبل فاران ، ويعنى بطور سيناء : موضع مناجاة موسى ، وساغين موضع عيسى ، وفاران هى مكة ، موضع مولد نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وفى التوراة أيضا : أن هاجر أم إسماعيل لما غضبت عليها سارة ، تراءى لها ملك ، فقال لها : يا هاجر ، أين تريدين ، ومن أين أقبلت؟ فقالت : أهرب من سيدتى سارة ، فقال لها : يا هاجر ، ارجعي إلى سارة ، وستحملين وتلدين ولدا اسمه إسماعيل ، وهو يكون عين الناس ، وتكون يده فوق الجميع ، وتكون يد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع. هـ.

وهذا الذي وعدها الملك إنما ظهر بمبعث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وظهور دينه وعلو مكانه ، ولم يكن ذلك لإسماعيل ولا لغيره من أولاده ، لكن الأصل يشرف بشرف فرعه ، وفى التوراة أيضا : أن اللّه أوحى إلى إبراهيم عليه السّلام : قد أجبت دعاءك فى إسماعيل ، وباركت عليه ، وسيلد اثنى عشر عظيما ، وأجعله لأمة عظيمة. وفى بعض كتبهم : لقد

---

(١) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت.

(٢) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الفتح ، باب : «إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا») من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص.

تقطعت السماء من بهاء محمد المحمود ، وامتلأت الأرض من حمده ، لأنه ظهر بخلاص أمته. هـ.

ونص ما فى الإنجيل : أن المسيح قال للحواريين : إنى ذاهب عنكم ، وسيأتيكم الفارقليط ، الذي لا يتكلم من قبل نفسه ، إنما يقول كما يقال له. هـ. والفارقليط بالعبرانية : اسم محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقيل معناه : الشافع المشفع.

وعن شهر بن حوشب - فى قصة إسلام كعب الأحبار ، وهو من اليمن من حمير - : أن كعبا أخبره بأمره ، وكيف كان ذلك ، وكان أبوه من مؤمنى أهل التوراة برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، قبل ظهوره ، قال كعب : وكان أبى من أعلم الناس بالتوراة وكتب الأنبياء ، ولم يكن يدخر عنى شيئا مما كان يعلم ، فلما حضرته الوفاة دعانى فقال : يا بنى ، قد علمت أنى لم أكن أدخر عنك شيئا مما كنت أعلم ، إلا أنى حبست عنك ورقتين فيهما ذكر نبى يبعث ، وقد أطل زمانه ، فكرهت أن أخبرك بذلك ، فلا آمن عليك بعد وفاتي أن يخرج بعض هؤلاء الكذابين فتتبعه ، وقد قطعتهما من كتابى ، وجعلتهما فى هذه الكوة التي ترى ، وطينت عليهما ، فلا تتعرض لهما حتى يخرج هذا النبي ، فإذا خرج فاتبعه وانظر فيهما ، فإن اللّه تعالى يزيدك بهذا خيرا ، فلما مات والدي لم يكن شىء أحب إلى من أن ينقضى المأتم حتى أنظر ما فى الورقتين ، فإذا فيهما : «محمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، خاتم النبيين لا نبى بعده ، مولده بمكة ، ومهاجره طيبة ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يجزى بالسيئة الحسنة ، ويعفو ويغفر ويصفح ، أمته الحمّادون ، الذين يحمدون اللّه على كل شرف وعلى كل حال ، وتذلل ألسنتهم بالتكبير ، وينصر اللّه نبيهم على كل من ناوأه ، يغسلون فروجهم بالماء ، ويتأزرون على أوساطهم ، وأناجيلهم فى صدورهم ، ويأكلون قربانهم فى

بطونهم ، ويؤجرون عليها ، وتراحمهم بينهم تراحم بنى الأم والأب ، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم ، وهم السابقون المقربون ، والشافعون المشفع فيهم». «١». ثم أسلم على يد عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه.

قال الحق جل جلاله فى بقية أوصاف نبينا - عليه الصلاة السلام - : يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ مما حرم على اليهود كالشحوم وغيرها ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ كالدم ولحم الخنزير وسائر الخبائث ، أو كالربا والرشوة وغيرهما من المحرمات. قال ابن جزى : مذهب مالك أن الطيبات هى الحلال ، وأن الخبائث هى الحرام. ومذهب الشافعي : أن الطيبات هى المستلذات ، إلا ما حرمه الشرع منها ، كالخمر والخنزير ، وأن الخبائث هى المستقذرات كالخنافس والعقارب. هـ.

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ أي : الثقل الذي عليهم ، وهو مثال لما كلفوا به - أي : بنو إسرائيل - فى شرعهم من المشقات كقتل الأنفس فى التوبة ، وقطع موضع النجاسة من الثوب ، وتعيين القصاص فى العمد والخطأ. «٢»

---

(١) أخرجه بنحوه مختصرا الدارمي فى (المقدمة - باب صفة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم) والبغوي فى تفسيره ، (٣/ ٢٨٩) وابن سعد فى الطبقات ١/ ٣٦٠.

(٢) من هنا يبدأ سقط كبير فى المخطوطة الأصلية سيستمر حوالي عشرين صفحة.

(٢٦٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٦٩

وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ عبارة عما منعت منه شريعتهم ، كتحريم الشحوم ، وتحريم العمل يوم السبت ، وشبه ذلك. فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ أي : منعوه وحفظوه من عدوه ، حتى لا يقوى عليه ، أو عظموه بالتقوية حتى انتصر ، وأصله : المنع ، ومنه التعزير ، وَنَصَرُوهُ حتى أظهروا دينه فى حياته وبعد مماته ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ وهو القرآن ، وإنما سماه نورا لأنه بإعجازه ظاهر أمره ومظهر غيره ، أو لأنه كاشف للحقائق مظهر لها. أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بالرحمة الأبدية ، وهذا آخر جواب سيدنا موسى عليه السّلام.

الإشارة : قوله تعالى وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، قال القشيري : لم يعلّقها بالمشيئة - يعنى : كما قال فى العذاب - لأنها نفس المشيئة ، ولأنها قديمة ، والإرادة لا تتعلق بالقديم ، فلمّا كان العذاب من صفات الفعل علّقه بالمشيئة ، بعكس الرحمة لأنها من صفات الذات. ويقال فى قوله تعالى : وَسِعَتْ

كُلَّ شَيْءٍ : مجال لآمال العصاة لأنهم ، وإن لم يكونوا من جملة المطيعين العابدين والعارفين ، فهم «شي ء». هـ.

قلت : وبهذا العموم تشبث إبليس فى قضية له مع سهل ، وذلك أنه لما تراءى له ، ضحك ، فقال له : كيف تضحك وقد أبلست من رحمة اللّه؟ فقال له : قال تعالى : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وأنا شيء ، فسكت سهل ، ثم تذكر تمام الآية ، فقال : قال تعالى : فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، فهى مقيدة لا مطلقة ، فقال له : التقوى فعل العبد ، والرحمة صفة الرب ، ولا يتغير وصف الحق بفعل العبد ، فعجز سهل.

قلت : والجواب : أن إبليس جاء من جهة الفرق ، ولو نظر للجمع لوجد الرحمة وصفه ، والتقوى فعله ، وفعله يغير وصفه ، والكل منه وإليه. واللّه تعالى أعلم.

وقال الورتجبي : جميع الخلائق مستغرقون فى بحر الرحمة ، لأن إيجاد الحق إياهم ، على أي وصف كانوا ، عين رحمته ، حيث دخلوا تحت نظره وسلطانه وربوبيته ، ومباشرة قدرته فيهم ، ثم إن الخلق بالتفاوت فى الرحمة فالجمادات مستغرقة فى نور فعله ، وهى الرحمة الفعلية ، والحيوانات مستغرقة فى نور صفاته ، وهى الرحمة الصفاتية ، والعقلاء من الجن والإنس والملائكة مستغرقون فى نور ذاته ، وهى الرحمة القديمة الذاتية من جهة تعريفهم ربوبيته ووحدانيته ، وهم من جهة الأجسام وما يجرى عليها ، فى الرحمة العامة ، ومن جهة الأرواح وما يجرى عليها ، فى الرحمة الخاصة ، وهم فيها بالتفاوت ، فبعضهم فى رؤية العظمة ذابوا ، وبعضهم فى رؤية القدم والبقاء تاهوا ، وبعضهم فى رؤية الجلال والجمال عشقوا وطاشوا ، ومن خرج من مقام الرحمة إلى أصل الصفة ، ومن الصفة إلى أصل الذات استغرق فى الراحم ، وفنى عن الرحمة ، فصار رحمة للعالمين ، وهذا وصف نبينا - عليه الصلاة والسلام - ، لأنه وصل بالكل إلى الكل ، فوصفه برحمة الكل بقوله : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ «١» ، ثم خص رحمته الخاصة الصفاتية ، بعد أن عم الكل برحمته العامة للمنفردين بالله عن غير اللّه ، القانتين بعظمته فى عظمة الذين بذلوا وجوههم لحق ربوبيته عليهم بقوله : فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ .... هـ.

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

(٢٦٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٧٠

قال فى الحاشية : واعتبر قوله : فَسَأَكْتُبُها ، فإنه يقتضى كون الرحمة السابقة مطلقة ، والتغيير طارئ ، والطارئ لا ينافى الذات. هـ. قلت : فتكون على هذا الرحمة التي وسعت كل شيء رحمة عامة ، إذ لا

يخلو مخلوق من رحمته فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فالخلق كلهم مرحومون إيجادا وإمدادا ، وأما فى الآخرة فما من عذاب إلا واللّه أشد منه فى قدرته ، والرحمة التي كتبت للمتقين رحمة خاصة ، ويدل على هذا ما فى القوت «١» على قوله : فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، قال : معناه خصوص الرحمة وصفوها لا كلها ، إذا لا نهاية للرحمة ، لأنها صفة الراحم الذي لا حد له ، ولأنه لم يخرج من رحمته شيء ، كما لم يخرج من حكمته وقدرته شيء. هـ.

وقال السيوطي : فسأكتبها فى الآخرة ، ووجه تخصيصها فى الآخرة بالمؤمنين : تمحضها هنالك من غير شوب بضد ، ولا كذلك فى الدنيا ، وإن كانت غالبة ، والكافر عمته فى الدنيا عموما ظاهرا ، وسلب منها فى الآخرة بحسب الظاهر ، وإن لم يخل عنها فى الجملة ، لأن غضبه تعالى لا حدّ له لو لا رحمته.

وحاصله : أنه لم تفى جهنم بغضبه ، لأنه لا يفى المتناهي بغير المتناهي ورحمته عمت الكافر فى الدنيا لإمهاله وبسط نعمه عليه ، وفى الإمهال فسحة فى الحال وأمل الإقلاع فى المآل ، وقد يتفق كثيرا ، أي : الإقلاع ، فلا يتعين أن يكون الإمهال استدراجا ، على أنه إنما يتجلى تجليا أوليا ذاتيا برحمة مطلقة من غير تفصيل ، إذ لا تعدد فى الذات ، وإنما يظهر التفصيل بالصفات ، وإن كان يسرى إليها من الذات ، ولكن الرحمة تظهر أولا من الذات ، مع قطع النظر عن الصفات لظهورها ، ولا تظهر النقمة إلا من الصفات ، وهى خفية فى تجلى الذات المطلق ، ولذلك قال : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وعلق العذاب على المشيئة ، فخص به دونها. هـ. من الحاشية مع زيادة بيان.

ثم أمره بالدعاء إلى الإيمان ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٥٨]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الأحمر والأسود ، والعرب والعجم ، والإنس والجن ، خص بهذه الدعوة العامة ، وإنما بعثت الرسل إلى قومها خاصة. فادع الناس أيها الرسول إلى اللّه تعالى ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يتصرف فيهما كيفما شاء ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لأن من ملك العالم كان هو الإله لا غير ، يُحيِي وَيُمِيتُ لعموم قدرته ونفوذ أمره ،

---

(١) أي قوت القلوب لأبى طالب المكي.

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ أي : ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل قبله من كتبه ووحيه. وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة ، أي : لم يقل : فآمنوا بالله وآمنوا لإجراء هذه الصفات عليه ، الداعية إلى الإيمان به واتباعه ، ولذلك قال : وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إلى طريق الحق والرشد ، جعل رجاء الاهتداء آثر الأمرين تنبيها على أن من صدّقه ، ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد فى خطط الضلالة. قاله البيضاوي.

الإشارة : لا غنى للمريد عن متابعة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولو بلغ ما بلغ ، لقوله تعالى : وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وغاية الاهتداء غير متناهية ، لأن أدب العبودية مقرون مع عظمة الربوبية ، فكما أن الترقي فى مشاهدة الربوبية لا نهاية له ، كذلك أدب العبودية لا نهاية له ، ولا تعرف كيفية الأدب إلا بواسطة تعليمه عليه الصلاة والسلام ، فواسطة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لا تفارق العبد ، ولو عرف ما عرف ، وبلغ ما بلغ. واللّه تعالى أعلم.

ثم رجع الحق تعالى إلى الكلام مع بنى إسرائيل ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٥٩]

وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ قَوْمِ مُوسى ، يعنى بنى إسرائيل ، أُمَّةٌ طائعة يَهْدُونَ الناس بكلمة الحق ، أو متلبسين بِالْحَقِّ وهم الذين ثبتوا حين افتتن الناس بعبادة العجل ، والأحبار الذين تمسكوا بالتوراة من غير تحريف ، أو الذين آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَبِهِ أي : بالحق يَعْدِلُونَ فى أحكامهم وقضاياهم.

قال البيضاوي : أتبع ذكرهم ذكر أضدادهم على ما هو عادة القرآن تنبيها على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر. هـ.

الإشارة : فى كل أمة ، وفى كل عصر ، أمة صالحة ، يبصرون الناس بالحق ، ويدعون إلى اللّه ، فمنهم من يهدى إلى تزيين الظواهر بالشرائع ، وهم العلماء الأتقياء ، ومنهم من يهدى إلى تنوير السرائر بالحقائق ، وهم الصوفية الأولياء ، المحققون بمعرفة اللّه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أحوال بنى إسرائيل ، فقالوا :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٦٠]

وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٧٢
قلت : أسباطا : بدل لا تمييز لأن تمييز العدد يكون مفردا ، والتمييز محذوف ، أي : فرقة أسباطا.
وقال الزمخشري : يصح تمييزا لأن كل قبيلة أسباط لاسبط. هـ. فكأنه قال : وقطعناهم اثنتي عشرة سبطا سبطا. والسبط فى بنى إسرائيل كالقبيلة عند العرب ، و(أمما) : بدل بعد بدل على الأول ، وعلى الثاني بدل من أسباط.
يقول الحق جل جلاله : وَقَطَّعْناهُمُ أي : بنى إسرائيل ، أي : فرقناهم اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً اثنى عشر سبطا ، أُمَماً متميزة ، كل سبط أمة مستقلة ، وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ فى التيه ، أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ انفجرت ، إلا أن الانبجاس أخف من الانفجار ، أي : فضرب فانبجست ، وحذفه للإيماء إلى أن موسى لم يتوقف فى الامتثال ، وأن ضربه لم يكن مؤثرا يتوقف عليه الفعل من ذاته ، بل سبب عادى وحكمة جارية ، والفعل إنما هو بالقدرة الإلهية ، أي : نبعت مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ كل سبط مَشْرَبَهُمْ ، وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ لتقيهم من حر الشمس ، وَأَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى ، وقلنا لهم : كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ سبق فى سورة البقرة ، وكذلك الإشارة «١».
ثم قال :
[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٦١ الى ١٦٢]
وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)
يقول الحق جل جلاله : وَاذكروا إِذْ قِيلَ لبنى إسرائيل : اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ بيت المقدس ، وَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ ، وَقُولُوا : أمرنا حِطَّةٌ ، وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً سجود انحناء ، نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ التي سلفت ، سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ وعد بالغفران والزيادة عليه ، وإنما أخرج الثاني مخرج الاستئناف ، يعنى : سنزيد ، ولم يقل : وسنزيد للدلالة على أنه تفضل محض ، ليس فى مقابلة ما أمروا به ، فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ قالوا : حبة فى شعرة ، مكان حطة ، لأنهم حملوا الحطة على الحنطة. فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ قد مر تفسيره ، وإشارته ، فى سورة البقرة «٢».

---

(١) راجع تفسير الآية ٦٠ من سورة البقرة.
(٢) راجع تفسير الآية ٥٨ من سورة البقرة. [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٧٣
تنبيه : وقع اختلاف كثير فى اللفظ بين هذا الموضع من هذه السورة وبين سورة البقرة ، فى فَانْفَجَرَتْ وفَانْبَجَسَتْ ، وقوله : وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا ووَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا ، وقوله هنا : وَكُلُوا ، وهناك فَكُلُوا. فقال الزمخشري : لا بأس باختلاف العبارتين ، إذا لم يكن هناك تناقض. ووجّه بعضهم الفرق بأن ما فى هذه السورة سيق فى محل الغضب والعقاب على عبادة العجل ، وما فى سورة البقرة سيق فى محل الامتنان ، فلذلك عبّر هنا بانبجست لأنه أقل من انفجرت ، وعبّر هنا بقيل مبنيا للمجهول تحقيرا لهم أن يذكر نفسه لهم ، وعبّر هنا بالسكنى لأنه أشق من الدخول ويستلزمه ، وعبّر هنا بالواو لأن السكنى تجامع الأكل ، بخلاف الدخول ، فإن الأكل مسبب عنه ، فعبّر بالفاء ، وزاد فى البقرة الواو فى : سَنَزِيدُ ، كأنه نعمة أخرى ، بخلاف هذا ، وزاد هنا مِنْهُمْ لتقدم ذكرهم فى قوله : وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ، وعبّر هنا بالظلم لأنه أعم من الفسق وغيره. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر اعتداءهم فى السبت وما ترتب عليه ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٦٣ الى ١٦٦]
وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (١٦٦)
قلت : (إذ يعدون) : بدل من (القرية) ، بدل اشتمال ، أو منصوب بكانت ، أو بحاضرة ، و(إذ تأتيهم) : منصوب بيعدون ، و(سبتهم) : مصدر مضاف للفاعل ، يقال : سبت اليهود سبتا : إذا عظم يوم السبت وقطع شغله فيه ، و(شرعا) : حال ، ومعناه : ظاهرة قريبة منهم ، يقال : شرع منه فلان إذا دنا منه.
يقول الحق جل جلاله : وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ أي : اليهود ، سؤال تقرير وتوبيخ على تقديم عصيانهم وعما هو من معلومهم ، الذي لا يعلم إلا بتعليم أو وحي ، وقد تحققوا أنك أمي ، فيكون ذلك معجزة وحجة عليهم ، عَنِ الْقَرْيَةِ أي : عن خبرها وما وقع لها ، الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ قريبة منه ، وهى «إيلة» ، قرية بين مدين والطور ، على شاطىء البحر ، وقيل : مدين ، وقيل : طبرية ، إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ : يتجاوزون حدود اللّه

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٧٤
بالاصطياد فى يوم السبت ، وكان حراما عليهم لاشتغالهم عنه بالعبادة ، إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً : ظاهرة على وجه الماء ، دانية منهم ، وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ بل تغوص كلها فى البحر ، كَذلِكَ أي : مثل هذا البلاء الشديد نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ أي : بسبب فسقهم. وقيل : «كذلك» : متصل بما قبله ، أي : لا تأتيهم مثل ذلك الإتيان الذي تأتيه يوم السبت.
ثم افترقت بنو إسرائيل ثلاث فرق : فرقة عصت بالصيد يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلت القوم ، وفرقة سكتت واعتزلت فلم تنه ولم تعص. وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ ، وهى التي لم تنه ولم تعص ، لمّا رأت مهاجرة الناهية وطغيان العاصية : لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ بالموت بصاعقة ، أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فى الآخرة؟ قالُوا : نهينا لهم مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ أي : عذرا إلى اللّه تعالى ، حتى لا تنسب إلى تفريط فى النهى عن المنكر ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فينزجرون عن العصيان ، إذ اليأس منهم لا يحصل إلا بالهلاك.
فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أي : تركوا ما وعظوا به ترك الناسي ، أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بالاعتياد ومخالفة أمر اللّه ، بِعَذابٍ بَئِيسٍ : شديد ، من بؤس يبؤس بؤسا ، وقرىء (بيئس) على وزن ضيغم ، و«بئس» بالكسر والسكون ، كحذر ، وبيس بتخفيف الهمزة ، ومعناها واحد ، أي : بما عاقبناهم بالمسخ ، بِما كانُوا يَفْسُقُونَ أي : بسبب فسقهم.
قال ابن عباس : لا أدرى ما فعل بالفرقة الساكتة؟ وقال عكرمة : لم تهلك لأنها كرهت ما فعلوه. ورجع إليه ابن عباس وأعجبه ، لأن كراهيتها تغيير المنكر فى الجملة ، مع قيام الفرقة الناهية به لأنه فرض كفاية. قال تعالى :
فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ تكبرا عن ترك ما نهوا عنه ، قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ أذلاء صاغرين.
قال البيضاوي : قُلْنا لَهُمْ كُونُوا ، هو كقوله : إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «١» ، والظاهر يقتضى أن اللّه تعالى عذّبهم أولا بعذاب شديد ، فعتوا بعد ذلك ، فمسخهم قردة وخنازير ، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريرا وتفصيلا للأولى.
روى أن الناهين لما أيسوا عن اتعاظ المعتدين ، كرهوا مساكنتهم ، فقسموا القرية بجدار فيه باب مطروق ، فأصبحوا يوما ولم يخرج إليهم أحد من المعتدين ، فقالوا : إن لهم شأنا ، فدخلوا عليهم فإذا هم قردة ، فلم يعرفوا أنسباءهم ، ولكن القردة تعرفهم ، فجعلت تأتى أنسباءهم وتشم ثيابهم ، وتدور باكية حولهم ، ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام. هـ.
الإشارة : المسخ على ثلاثة أقسام : مسخ الأشباح ، ومسخ القلوب ، ومسخ الأرواح ، فمسخ الأشباح

هو الذي وقع لبنى إسرائيل ، قيل : إنه مرفوع عن هذه الأمة ، والصحيح : أنه يقع فى آخر الزمان ، ومسخ القلوب يكون بالانهماك

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النحل.

(٢٧٤/٢)

فى الذنوب ، والإصرار على المعاصي ، وعلامته : الفرح بتيسير العصيان ، وعدم التأسف على ما فاته من الطاعة والإحسان ، ومسخ الأرواح : الانهماك فى الشهوات ، والوقوف مع ظواهر الحسيات ، أو تكثيف الحجاب ، والوقوف مع العوائد والأسباب ، دون مشاهدة رب الأرباب. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر عقوبة بنى إسرائيل فى الدنيا ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٦٧]

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)

قلت : تأذن : أعلم ، وهى تفعل ، وهى من الإيذان بمعنى الإعلام ، كتوعّد وأوعد ، أو : عزم ، لأن العازم على الشيء يؤذن نفسه بفعله ، وأجرى مجرى القسم كعلم اللّه وشهد اللّه ، ولذلك أجيب باللام القسمية.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكروا إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ أي : أعلم وأظهر ذلك فى عالم الشهادة ، لَيَبْعَثَنَّ على بنى إسرائيل ، أي : ليسلطن عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ كالإذلال وضرب الجزية ، وقد بعث اللّه عليهم بعد سليمان عليه السّلام بختنصر ، فخرب ديارهم ، وقتل مقاتلتهم ، وسبى نساءهم وذراريهم ، وضرب الجزية على من بقي منهم ، وكانوا يؤدونها إلى المجوس ، حتى بعث اللّه نبينا محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم ففعل بهم ما فعل ، فى بنى قريظة والنضير وخيبر ، ثم ضرب اللّه عليهم الجزية إلى آخر الدهر ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ فعاقبهم فى الدنيا ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لمن تاب وآمن ، وإنما أكد هنا الخبر باللام دون ما فى آخر الأنعام «١» ، لأن ما هنا فى اليهود ، وما فى آخر الأنعام فى المؤمنين ، فأكد ما هنا باللام ، فقال : لَسَرِيعُ الْعِقابِ زيادة فى توبيخهم ونكالهم.

الإشارة : مواطن الذل والهوان هو الانهماك فى المخالفة والعدوان ، وقد ينسحب ذلك فى الذرية إلى آخر الزمان ، فإن اللّه تعالى يقول : أنا الملك الودود ، أعاقب الأحفاد بمعاصي الجدود ، ومواطن العز والحرمة والأمان : هو الطاعة والتعظيم والإحسان ، ينسحب ذلك على الأحفاد ، إلى منتهى الزمان ،

فإن اللّه تعالى يحفظ الأولاد ببركة الأجداد. وقد تذاكر بعض التابعين ما يكون فى آخر الزمان من الفتن والفساد ، فقال بعضهم : يا ليتنى كنت عقيما أو لم أتزوج ، فقال له من هو أكبر منه : ألا أدلك على ما يحفظ اللّه به عقبك؟ قال : نعم ، دلنى ، قال : قوله تعالى :
وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً ... الآية «٢». وبالله التوفيق.

---

(١) فى قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ الآية الأخيرة من سورة الأنعام.
(٢) الآية ٩ من سورة النساء.

(٢٧٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٧٦
ثم قال تعالى فى شأن اليهود :
[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٦٨ الى ١٧٠]
وَقَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا ما فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)
قلت : (أمما) : مفعول ثان لقطّعنا ، أو حال ، وجملة (منهم الصالحون) : صفة ، وجملة (يأخذون) : حال من فاعل (ورثوا) ، و(يقولون) عطف على (يأخذون) ، أو حال ، والفعل من (سيغفر) : مسند إلى الجار والمجرور ، أو إلى مصدر (يأخذون) ، و(أن لا يقولوا) : عطف بيلن من (ميثاق الكتاب) ، أو تفسير له ، أو متعلق به ، أي : لأن لا يقولوا ، و(درسوا) : عطف على (ألم يؤخذ) من حيث المعنى ، أي : ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ولم يدرسوا ما فيه ، أو حال ، أي : وقد درسوا ، و(الذين يمسكون) : مبتدأ ، وجملة : (إنا لا نضيع أجر المصلحين) : خبر ، والرابط :
ما فى المصلحين من العموم ، فوضع موضع الضمير تنبيها على أن الإصلاح كالمانع من التضييع ، أو حذف العائد ، أي : منهم ، ويحتمل أن يكوت عطفا على (الذين يتقون) أي : خير للمتقين والذين يتمسكون بالكتاب.
يقول الحق جل جلاله : وَقَطَّعْناهُمْ أي : فرقناهم فِي الْأَرْضِ أُمَماً : فرقا ، ففى كل بلد من البلدان فرقة منهم ، فليس لهم إقليم يملكونه ، تتمة لإذلالهم ، حتى لا تكون لهم شوكة قط ، مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وهو

من تمسك بدين التوراة ، ولم يحرف ، ولم يفرق ، أو من آمن منهم بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم فى زمانه وبعده ، وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ أي : ومنهم ناس دون ذلك ، أي : منحطون عن الصلاح ، وهم كفرتهم وفسقتهم ، وَبَلَوْناهُمْ أي :
اختبرناهم بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ أي : بالنعم والنقم ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ينتبهون فينزجرون عمّا هم عليه.
فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أي : فخلف ، من بعد الأولين ، خلف ، أي : بدل سوء ، وهو مصدر نعت به ، فالخلف ، بالسكون ، شائع فى الشر ، يقال : جعل اللّه منك خلفا صالحا. والمراد بالخلف فى الآية : اليهود الذين أدركوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَرِثُوا الْكِتابَ التوراة ، من أسلافهم ، يقرؤونها ويقفون على ما فيها ، يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى حطام هذا الشيء الحقير ، من الدنو ، أو من الدناءة ، وهو ما كانوا يأخذون من الرشا فى الأحكام ، وعلى تحريف الكلام. وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا لا يؤاخذنا اللّه بذلك ويتجاوز عنه ، اغترارا وحمقا.

وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أي : يرجون المغفرة ، والحال أنهم مصرون على الذنب ، عائدون إلى مثله ، غير تائبين منه ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أي : فى الكتاب ، وهو التوراة ، أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، وهو تكذيب لهم فى قولهم : سَيُغْفَرُ لَنا ، والمراد : توبيخهم على القطع بالمغفرة مع عدم التوبة ، والدلالة على أنه افتراء على اللّه ، وخروج عن ميثاق الكتاب ، وَدَرَسُوا ما فِيهِ أي : وقد درسوا ما فيه ، وعلموا ما أخذ عليهم فيه من المواثيق ، ثم تجرأوا على اللّه ، وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ مما يأخذ هؤلاء من العرض الفاني. أَفَلا تَعْقِلُونَ «١» فيعلموا ذلك ، ولا يستبدلوا الأدنى الحقير المؤدى إلى العقاب بالنعيم الكبير المخلد فى دار الثواب ، ومن قرأ بالخطاب فهو لهم ، من باب التلوين فى الكلام.
وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ أي : يتمسكون بالتوراة ، وَأَقامُوا الصَّلاةَ المفروضة عليهم ، إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ منهم. وهذا فيمن مات قبل ظهور الإسلام ، أو : والذين يمسكون بالقرآن ، وَأَقامُوا الصَّلاةَ مع المسلمين ، إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ.
الإشارة : تفريق النسب فى البلدان ، إن كان فى الذل والهوان ، فهو من شؤم المخالفة والعصيان ، وإن كان مع العز وحفظ الحرمة ، فقد يكون لقصد الخير والبركة ، أراد اللّه أن ينمى تلك البلاد ، بنقل ذلك إليها ، كأولاد الصالحين والعلماء وأهل البيت. ويؤخذ من قوله : وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ، أن العبد مأمور بالرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء ، فى السراء بالحمد والشكر ،

وفى الضراء بالتسليم والصبر.
ويؤخذ من مفهوم قوله : وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أن من عقد التوبة وحل عقدة الإصرار غفر له ما مضى من الأوزار. وفى قوله : أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ ... الآية ، تحذير لعلماء السوء. وقوله : وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ ... الآية ، أي : والذين يمسكون بظاهر الكتاب وأقاموا صلاة الجوارح ، إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ مع عامة أهل اليمين ، والذين يمسكون بباطن الكتاب وأقاموا صلاة القلوب - التي هى العكوف فى الحضرة - حضرة الغيوب - إنا لا نضيع أجر المصلحين لقلوبهم ، وهو شهود رب العالمين مع المقربين ، فى حضرة الأنبياء والمرسلين ، جعلنا اللّه منهم وفى حزبهم ، آمين.
ولمّا ذكر من تمسك بالكتاب طوعا ، ذكر من تمسك به كرها من أسلاف اليهود ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : آية ١٧١]
وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب «تعقلون» بالخطاب ، وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف (٢/ ٦٨).

قلت : جملة (خذوا) : محكية ، أي : وقولنا لهم : خذوا.
يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ نَتَقْنَا أي : قلعنا ورفعنا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ أي : فوق بنى إسرائيل ، كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ أي : سقيفة ، والظلة : كل ما أظلك ، وَظَنُّوا أي : تيقنوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ أي : ساقط عليهم بسبب عصيانهم لأن الجبل لا يثبت فى الجو لأنهم كانوا يوعدون به ، وإنما عبّر بالظن لأنه لم يقع بالفعل حين الظن ، وسبب نتق الجبل أنهم امتنعوا من أحكام التوراة ، فلم يقبلوها لثقلها ، فرفع اللّه الطور فوقهم ، وقيل لهم :
إن قبلتم ما فيها وإلّا ليقعن عليكم ، فقلنا لهم حين الرفع : خُذُوا ما آتَيْناكُمْ من الأحكام بِقُوَّةٍ ، وَاذْكُرُوا ما فِيهِ بالعمل به ، ولا تتركوه كالمنسى ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.
الإشارة : من لم ينقد إلى اللّه بملاطفة الإحسان ، قيد إليه بسلاسل الامتحان ، عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل.

ولما ذكر الميثاق الخاص ، ذكر الميثاق العام ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٧٢ الى ١٧٤]

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)

قلت : (من ظهورهم) : بدل من (بنى آدم) ، أي : من ظهور بنى آدم ، و(ذريتهم) : مفعول به ، و(بلى) : حرف جواب ، يجاب بها عن الهمزة إذا دخلت على منفى ، فخرجت عن الاستفهام إلى التقرير ، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما بعد النفي ، نحو : أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ «١» ، فيجاب ببلى ، أي : شرحت ، وكذا نظائرها ، ومنه :

(أ لست بربكم ..) الآية.

وقد يجاب بها الاستفهام المجرد عن النفي ، كما فى الحديث : «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قالوا :

بلى» «٢». ولكنه قليل ، فلا يقاس عليه ، بل يوقف على ما سمع ، والكثير : أنها جواب للنفى ، ومعناها : إثبات ما نفى ، ورفع النفي ، لا إثباته وتقريره ، بخلاف «نعم» فإنها تقرر ما قبلها من إثبات أو نفى ، ولذا قال ابن عباس : (و لو قالوا : نعم ، لكفروا) ، وقد تقدم الفرق بينهما فى سورة البقرة ، «٣» ثم الكثير : مراعاة صورة النفي ، فيجاب ببلى ، وقد

---

(١) الآية الأولى من سورة الشرح.

(٢) أخرجه مسلم فى (الإيمان - باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة) من حديث عبد اللّه بن مسعود - رضى اللّه عنه.

(٣) راجع تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة.

ينظر للمعنى وما يفيده الاستفهام الإنكارى من نفيه للنفى ، فيصير الكلام إيجابا ، فيصح الجواب بنعم فى الجملة ، لكن لمّا كان محتملا امتنع فى الآية. انظر المغني. وقوله : (أن تقولوا) : مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكروا إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ من ظهور بنى آدم ذُرِّيَّتَهُمْ وذلك أن اللّه تعالى لمّا خلق آدم ، وأهبطه إلى الأرض ، أخرج من صلبه نسيم بنيه ، بعضهم من صلب بعض

، على نحو ما يتوالدون ، قرنا بعد قرن كالذر ، وكان آدم بنعمان ، وهو جبل يواجه عرفة ، وقال لهم حين أخرجهم : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ فأقروا كلهم ، وقالُوا بَلى أنت ربنا ، شَهِدْنا بذلك على أنفسنا ، لأن الأرواح حينئذ كانت كلها على الفطرة ، علّامة درّاكة ، فلما ركبت فى هذا القالب نسيت الشهادة ، فبعث اللّه الأنبياء والرسل يذكّرون الناس ذلك العهد ، فمن أقرّ به نجا ، ومن أنكره هلك ، ويحتمل أن يكون ذلك من باب التمثيل ، وأن أخذ الذرية من الظهر عبارة عن إيجادهم فى الدنيا ، وأما إشهادهم فمعناه : أن اللّه نصب لبنى آدم الأدلة على ربوبيته ، وشهدت بها عقولهم ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم ، وقال : (أ لست بربكم)؟ وكأنهم قالوا بلسان الحال : أنت ربنا.

والأول هو الصحيح لتواتر الأخبار به ، فقوله : (شهدنا) : هو من تمام الجواب ، فهو تحقيق لربوبيته وأداء لشهادتهم بذلك ، فينبغى أن يوقف عليه ، وقيل : إنّ (شهدنا) : من قول اللّه أو الملائكة ، فيوقف على (بلى) ، لكنه ضعيف.

ثم ذكر حكمة هذا الأخذ ، فقال : أَوْ تَقُولُوا أي : فعلنا ذلك كراهة أن تقولوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ ، أو كراهية أن تقولوا : إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ فاقتدينا بهم ، أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ، يعنى : آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك ، ولا بد من حذف كلام هنا لتتم الحجة ، والتقدير : أخذنا ذلك العهد فى عالم الأرواح ، وبعثنا الرسل يجددونه في عالم الأشباح ، كراهة أن تقولوا : إنا كنا عن هذا غافلين ، ويدل على هذا قوله تعالى : وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ... الآية «١». وقوله : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ «٢» ، ولا يكفى مجرد الإشهاد الروحاني فى قيام الحجة لأن ذلك العهد نسيته الأرواح حين دخلت فى عالم الأشباح ، فلا تهتدى إليه إلا بدليل يذكرها ذلك.

قال البيضاوي : والمقصود من إيراد هذا الكلام هاهنا : إلزام اليهود مقتضى الميثاق العام ، بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم ، والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية ، ومنعهم من التقليد ، وحملهم على النظر والاستدلال ، كما قال تعالى : وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ الدالة على وحدانيتنا سمعا وعقلا ، وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عن التقليد واتباع الباطل.

---

(١) الآية ١٥ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨٠
الإشارة : أخذ الحق جل جلاله العهد على الأرواح أن تعرفه وتوحده مرتين ، أحدهما : قبل ظهور الكائنات ، والثاني : بعد ظهورها. والأول أخذه عليها في معرفة الربوبية ، والثاني تجديدا له مع القيام بآداب العبودية. قال بعضهم : أخذ الأول على الأرواح يوم المقادير ، وذلك قبل السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، ثم أخذ الثاني على النفوس بعد ظهورها فى عالم الأشباح ، كما نبهت عليه الآية والأحاديث.
وقال ابن الفارض فى تائيته :
وسابق عهد لم يحل مذ عهدته ولا حق عقد جلّ عن حلّ فترة
قال القاشاني : أراد بالعهد السابق : ما أخذه اللّه على الأرواح الإنسانية المستخرجة من صلب الروح الأعظم ، الذي هو آدم الكبير ، فى صور المثل ، قبل تعلقها بالأشباح ، وهو عقد المحبة بين الرب والمربوب ، فى قوله سبحانه :
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ... الآية. وبالعهد اللاحق : ما أخذه عليهم بواسطة الأنبياء ، من عقد الإسلام بعد التعلق بالأبدان ، وهو توكيد للعهد الأول ، وتوثيقه بالتزام أحكام الربوبية والتزامها. هـ. وقال فى الحاشية : كلام ابن الفارض ينظر إلى العهد الأول ، الروحاني ، وكلام غيره ينظر إلى الثاني النفساني ، وهو ظاهر الآية. هـ. قلت : وفيه نظر ، فإن كلام ابن الفارض مشتمل على العهدين معا ، الروحاني فى الشطر الأولى ، والنفساني فى الشطر الثاني.
والحاصل مما تقدم : أن العهد أخذ على الأرواح ثلاث مرات ، أحدها : حين استخرجت من صلب الروح الأعظم الذي هو آدم الكبير ، وهو معنى القبضة النورانية ، التي أخذت من عالم الجبروت.
والثاني : حين استخرجت من صلب آدم الأصغر ، كالذر ، والثالث : حيث دخلت فى عالم الأشباح ، على ألسنة الرسل ، ومن ناب عنهم ، فالمذكور فى الآية هو الثاني ، وهو أحسن من حمل القاشاني الآية على الأول.
فالحاصل : أن الأخذ الأول كان على الأرواح مجردة عن مادة التطوير والتمثيل ، بإقرارها إقرار النفوس ، لا إقرار الألسنة ، والأخذ الثاني كان على الأرواح بعد خروجها من الوجود العلمي إلى الوجود العيني ، فتطورت الأرواح بصفاتها الذاتية ، من سمع وبصر ولسان وغيرها ، فى عالم المثال ، بصور مثالية لتبصر بها ظهور الرب ، وتسمع خطابه ، وتجيب سؤاله ، بإقرارها حينئذ إقرار الألسنة ، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية. وأما العهد الذي أخذه بواسطة الأنبياء في ظهور عالم الأشباح فإنما هو تذكير للعهدين ، وتجديد لهما ، وهو الذي تقوم به الحجة عليها ، فلا بد من انضمامه إلى الأوّلين فى قيام الحجة ، كما تقدم.
فالموجودات ثلاث : علمى ، ثم خيالى مثالى ، ثم نوعى حسى. فأخذ على كل واحد عهد من الأولين بلا واسطة ، والثالث بواسطة الرسل. واللّه تعالى أعلم.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨١

ثم ذكر وبال من نقض هذا العهد ، مع تمكنه من العلم به ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٧٥ الى ١٧٨]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٧٨)

قلت : أتبعه الشيطان : أدركه ، يقال : أتبع القوم : لحقهم ، ومنه : فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ «١» أي : لحق بني إسرائيل. قاله في الأساس.

يقول الحق جل جلاله : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ على اليهود نَبَأَ أي : خبر الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا علمّا بكتابنا ، فَانْسَلَخَ مِنْها بأن كفر بها ، وأعرض ، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فأدركه فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ. قال عبد اللّه بن مسعود : هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى عليه السّلام إلى ملك مدين ، داعيا إلى اللّه ، فرشاه الملك ، وأعطاه الملك على أن يترك دين موسى ، ويتابع الملك على دينه ، ففعل وأضل الناس على ذلك.

وقال ابن عباس : هو رجل من الكنعانيين ، اسمه : «بلعم» ، كان عنده الاسم الأعظم ، فلما أراد موسى قتل الكنعانيين ، وهم الجبارون ، سألوه أن يدعو على موسى باسم اللّه الأعظم ، فأبى ، فألحوا عليه حتى دعا ألا يدخل المدينة ، ودعا موسى عليه. فالآيات التي أعطيها ، على هذا : اسم اللّه الأعظم ، وعلى قول ابن مسعود : هو ما علمه موسى من الشريعة. قيل : كان عنده من صحف إبراهيم.

وقال عبد اللّه بن عمرو بن العاص : هو أمية بن أبى الصلت الثقفي «٢» ، وكان قد أوتى علما وحكمة ، وأراد أن يسلم قبل غزوة بدر ، ثم رجع عن ذلك ومات كافرا ، وكان قد قرأ الكتب ، وخالط الرهبان ، وسمع منهم أن اللّه تعالى مرسل رسولا في ذلك الزمان ، فرجا أن يكون هو ، فلما بعث اللّه محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم حسده ، وقال : ما كنت لأؤمن لرسول ليس من ثقيف.

---

(١) من الآية ٩٠ من سورة يونس.

(٢) أخرجه النسائي فى السنن الكبرى (التفسير - ٦/ ٣٤٨) والطبري فى تفسيره (٩/ ١٢٠) ، قال أبو حيان فى البحر : والأولى فى مثل هذا - إذا ورد عن المفسرين - أن تحمل أقاويلهم على التمثيل ، لا على الحصر فى معين ، فإنه يؤدى إلى الاضطراب والتناقض

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨٢
قال تعالى : وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ إلى منازل الأبرار بِها أي : بسبب تلك الآيات وملازمتها ، وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ أي : مال إلى الدنيا وحطامها ، أي : أخلد إلى أرض الشهوات ، وَاتَّبَعَ هَواهُ فى إيثار الدنيا واسترضاء قومه ، أو صيانة رئاسته وجاهه. قال البيضاوي : وكان من حقه أن يقول : ولكنه أعرض عنها ، فأوقع موقعه : أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ مبالغة وتنبيها على ما حمله عليه ، وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. هـ.
فَمَثَلُهُ أي : فصفته التي هى مثل فى الخسة ، كَمَثَلِ الْكَلْبِ أي : كصفته فى أخس أحواله ، وهو إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ أي : يلهث دائما ، سواء حمل عليه بالزجر والطرد ، أو ترك ولم يتعرض له ، بخلاف سائر الحيوانات لضعف فؤاده ، واللهث : إدلا ع اللسان من التنفس الشديد ، والمراد : لازم اللهث ، وهو نفى الرفع ووضع المنزلة.
قال ابن جزي : اللهث : هو تنفس بسرعة ، وتحريك أعضاء الفم ، وخروج اللسان ، وأكثر ما يعتري ذلك الحيوانات عند الحر والتعب ، وهى حالة دائمة للكلب ، ومعنى «إن تحمل عليه» : أن تفعل معه ما يشق عليه ، من طرد أو غيره ، أو تتركه دون أن تحمل عليه ، فهو يلهث على كل حال. ووجه تشبيه ذلك الرجل به أنه إن وعظته فهو ضال ، وإن لم تعظه فهو ضال ، فضلالته على كل حال. هـ. وقال الواحدي : وذلك أنه زجر فى المنام عن الدعاء على موسى ، فلم ينزجر ، وترك عن الزجر ، فلم يهتد. هـ. وقيل : إن ذلك الرجل خرج لسانه على صدره ، فصار مثل الكلب ، وصورته ولهثه حقيقة. هـ. وفعل به ذلك حين دعا على موسى عليه السّلام. وفى ابن عطية : ذكر «المعتمد» أن موسى قتله.
قال تعالى : ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صفتهم كصفة الكلب في لهثه وخسته ، أو كصفة الرجل المشبه به ، لأنهم إن أنذروا لم يهتدوا ، وإن تركوا لم يهتدوا. أو شبههم بالرجل فى أنهم رأوا الآيات فلم تنفعهم ، كما أن الرجل لم ينفعه ما عنده من الآيات. وقال الواحدي : يعني : أهل مكة كانوا متمنين هاديا يهديهم ، فلما جاءهم من لا يشكّون فى صدقه كذبوه ، فلم يهتدوا لمّا تركوا ، ولم يهتدوا أيضا لما دعوا بالرسول ، فكانوا ضالين عن الرسول فى الحالتين. هـ.
فَاقْصُصِ الْقَصَصَ المذكور على اليهود ، فإنها نحو قصصهم ، لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ تفكرا يؤدى إلى الاتعاظ ، فيؤمنوا به ، فإنّ هذه القصص لا توجد عند من لم يقرأ إلا بوحي ، فيتيقنوا نبوتك. ساءَ أي : قبح مَثَلًا مثل الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا حيث شبهوا بالكلاب اللاهثة ، وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ بتعريضها للهلاك.
قال البيضاوي : إما أن يكون داخلا فى الصلة ، معطوفا على الَّذِينَ كَذَّبُوا ، بمعنى : الذين

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨٣

جمعوا بين تكذيب الآيات وظلم أنفسهم ، أو منقطعا عنها ، بمعنى : وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم ، فإن وباله لا يتخطاها ولذلك قدّم المفعول. هـ.

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ ، هو تصريح بأن الهدى والضلال بيد اللّه تعالى ، وأنّ هداية اللّه يخص بها بعضا دون بعض ، وأنها مستلزمة للاهتداء ، والإفراد فى الأول والجمع فى الثاني لاعتبار اللفظ والمعنى ، تنبيها على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم ، بخلاف الضالين. والاقتصار فى الإخبار عمّن هداه اللّه بالمهتدي : تعظيم لشأن الاهتداء ، وتنبيه على أنه ، في نفسه ، كمال جسيم ، ونفع عظيم ، لو لم يحصل له غيره لكفاه ، وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها. قاله البيضاوي.

الإشارة : فى الحديث : «أشدّ النّاس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه» «١». والعلم النافع هو الذي تصحبه الخشية والمراقبة والتعظيم والإجلال ، ويوجب لصاحبه الزهد والسخاء والتواضع والانكسار ، وهو علم التوحيد الخاص ، الذي هو مشاهدة الحق. وقال الورتجبي فى قوله : آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها : ذكر أنه تعالى أعطاه آياته ، ولو أعطاه قرب مشاهدته ما انسلخ منه ، لأن من رآه أحبه ، ومن أحبه استأنس به واستوحش مما سواه ، فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجا بوجدان آياته ، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه ، واشتغاله بهواه وعداوة كليمه بقوله : فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ ، ولو ذاق طعم حبه لم يلتفت إلى غيره ، مكر به فى الأزل ، فكان مكره مستداما إلى الأبد ، فالكرامات الظاهرة عارضة للامتحان بين الأزل والأبد ، وعند الأصل القديم لا يعتبر العرض الطارئ. هـ.

وقال فى الإحياء : إن بلعم أوتى كتاب اللّه تعالى فأخلد إلى الشهوات ، فشبه بالكلب ، أي : سواء أوتى الحكمة أو لم يؤتها فهو يلهث إلى الشهوات. هـ. وفى ذكر قصته تحذير لعلماء هذه الأمة وصلحائها. وقال الشيخ أبو الحسن رضى اللّه عنه : من أخلدت نفسه إلى أرض الشهوات ، وغلبته عن النهوض إلى الطاعات ، فدواؤه فى حرفين ، أحدهما : أن يذكر منّة اللّه عليه بنعمة الإيمان والإسلام ، ويقيد هذه النعمة بالشكر ، لئلا تفلت من يده ، والثاني : أن يتوجه إلى اللّه بالتضرع والاضطرار ، آناء الليل والنهار ، وفى رمضان راجيا الإجابة ، قائلا : اللهم سلّم سلّم. فإن أهمل هاتين الخصلتين فالشقاوة لازمة له. هـ. بالمعنى لطول العهد به. وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرجه البيهقي فى الشعب (باب فى نشر العلم - ح ١٧٧٨) وزاد السيوطي فى الجامع الصغير (ح ١٠٥) عزوه لابن عدى فى الكامل والطبراني فى الصغير عن أبى هريرة ، وضعّفه.

(٢٨٣/٢)

ثم ذكر علامة أهل الضلالة والخسران ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٧٩]

وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (١٧٩)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ ذَرَأْنا خلقنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ كتبنا عليهم الشقاء فى سابق الأزل ، فهم من قبضة أهل النار ، كما قال : «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى» «١».

ثم ذكر علامتهم فقال : لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها المواعظ والتذكير للأكنة التي جعلت عليها ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها دلائل وحدانيتنا وكمال قدرتنا ، فلا ينظرون بها نظر اعتبار ، وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها الآيات والمواعظ ، سماع تأمل وتدبر ، أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ فى عدم التفقه والاستبصار ، أو فى أن هممهم ومشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش ، مقصورة عليها ، فهممهم فى بطونهم وفروجهم ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ من الأنعام ، لأنها تطلب منافعها وتهرب من مضارها ، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة ، وأيضا : الأنعام رفع عنها التكليف فلا تعذب ، بخلاف الكافر ، وأيضا : البهائم تقبل الرياضة والتأديب لما يراد بها ، والكافر عاص على الدوام ، أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ الكاملون فى الغفلة المنهمكون فيها.

الإشارة : النار على قسمين : حسية ومعنوية ، كما أن الجنة كذلك ، فالنار الحسية لتعذيب الأشباح ، والنار المعنوية لتعذيب الأرواح ، والجنة الحسية لنعيم الأشباح ، والمعنوية لنعيم الأرواح. النار الحسية معلومة. والنار المعنوية هى نار القطيعة وغم الحجاب ، وأهلها هم أهل الغفلة ، وهم كثير من الجن والإنس ، ليس لهم قلوب تجول فى معاني التوحيد ، وليس لهم أعين تنظر بعين الاعتبار ، وليس لهم آذان تسمع المواعظ والتذكار ، إن هم إلا كالأنعام ، غير أن اللّه تعالى تفضل عليهم برسم الإسلام.

والجنة الحسية هى جنة الزخارف ، والجنة المعنوية هى جنة المعارف ، وأعدها اللّه لقلوب تجول فى الأنوار والأسرار ، ولأعين تنظر بعين الاعتبار والاستبصار ، حتى تشاهد أنوار الواحد القهار ، ولآذان تسمع المواعظ والتذكار ، وتعي ما تسمع من الحكم والأسرار ، وبالله التوفيق.

---

(١) أخرج أحمد في المسند (٥/ ٢٣٩) عن معاذ بن جبل : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم تلا هذه الآية : أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، فقبض بيديه قبضتين فقال : «هذه فى الجنة ولا أبالى وهذه فى النار ولا أبالى».

(٢٨٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨٥

ثم عرّف بذاته بتعريف أسمائه ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٨٠]

وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)

يقول الحق جل جلاله : وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى تسعة وتسعين ، فَادْعُوهُ بِها أي : سموه بها. قال ابن جزى : أي : سموه بأسمائه ، وهذا إباحة لإطلاق الأسماء على اللّه سبحانه ، فأما ما ورد منها فى القرآن والحديث فيجوز إطلاقه على اللّه إجماعا ، وأما ما لم يرد ، وفيه مدح ولا تتعلق به شبهة ، فأجاز أبو بكر بن الطيب إطلاقه على اللّه ، ومنع ذلك أبو الحسن الأشعري وغيره ، ورأوا أن أسماء اللّه تعالى موقوفة على ما ورد فى القرآن والحديث. وقد ورد فى حديث الترمذي عدتها «١» ، أعني : تعيين التسعة والتسعين.

واختلف أهل الحديث : هل هى مرفوعة أو موقوفة على أبى هريرة؟ والذي فى الصحيح : «إنّ للّه تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنّة» «٢». وهل الإحصاء بالحفظ أو بالعلم أو بالتخلق أو بالتعلق أو بالتحقق؟ أقوال. قلت : كونها موقوفة بعيد جدا إذ ليس هذا مما يقال بالرأى.

وسبب نزول الآية : أن أبا جهل سمع بعض الصحابة يقرأ ، فيذكر اللّه مرة ، والرحمن أخرى ، فقال : يزعم محمد أن الإله واحد ، وها هو يعبد آلهة كثيرة ، فنزلت الآية مبيّنة أن تلك الأسماء الكثيرة هى لمسمى واحد ، و(الحسنى) :

مصدر وصف به ، أو تأنيث أحسن ، وحسن أسماء اللّه هي أنها صفة مدح وتعظيم وتحميد ، وقيل : الدعاء بها :

التوسل بكل واحد منها.

قال تعالى : وَذَرُوا أي : اتركوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ أي : يميلون فِي أَسْمائِهِ عن الكمال إما بتعطيلها ، أو إنكار شيء منها ، وإما بزيادة فيها ، مما يوهم نقصا أو فسادا.

قال القشيري : الإلحاد : هو الميل عن القصد ، وذلك على وجهين : بالزيادة والنقصان فأهل التمثيل زادوا فألحدوا ، وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا. هـ. قال البيضاوي : أي : اتركوا تسمية الزائغين فيها ،

الذين يسمونه بما لا توقيف فيه ، إذ ربما يوهم معنى فاسدا ، كقولهم : يا أبا المكارم ، يا أبيض الوجه ، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمى به نفسه ، كقولهم : ما نعرف إلا رحمان اليمامة ، أو : وذروهم وإلحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام ، واشتقاقها منه كاللات من اللّه ، والعزى من العزيز ، فلا توافقوهم عليه ، أو أعرضوا عنهم ولا تحاوروهم. هـ.

---

(١) أخرج حديث الأسماء الحسنى الترمذي فى (الدعوات باب ٨٣) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه. [.....]

(٢) أخرجه البخاري فى (الدعوات - باب لله مائة اسم غير واحد) ومسلم فى (الذكر والدعاء - باب فى أسماء اللّه تعالى وفضل من أحصاها). من حديث أبى هريرة - رضى اللّه عنه - مرفوعا.

قال ابن جزي : قيل : معنى (ذروا) : اتركوهم فلا تجادلوهم ولا تتعرضوا لهم ، فالآية ، على هذا ، منسوخة بالقتال ، وقيل : معنى (ذروا) للوعيد والتهديد ، كقوله : ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ «١» ، وهو الأظهر. هـ. قلت : وهو أليق بقوله بعده : سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ من الإلحاد وغيره.

الإشارة : قال القشيري بعد كلام : ويقال إن اللّه سبحانه وقف الخلق بأسمائه ، فهم يذكرونها قالة ، وتعزّز بذاته ، والعقول - وإن صفت - لا تهجم على حقائق الإشراف إذ الإدراك لا يجوز على الحق ، فالعقول عند بواده الحقائق متقنعة بنقاب الحيرة عن التعرض للإدراك ، وطلبه فى أحوال الرؤية. والحق سبحانه عزيز باستحقاق نعوت التعالي متفرّد. هـ.

قلت : وأسماء اللّه الحسنى كلها تتجلى فى مظاهر الإنسان ، وتتوارد عليه انفرادا واجتماعا ، وقد تجتمع فى واحد ، إذا كان عارفا ، كلها ، بحيث يتخلق بها ، غير أن تجلياتها تختلف عليه ، تارة ملكا قدوسا ، وتارة رحمانيا رحيما ، وهكذا. وقد تقدم بيان كيفية التعلق والتخلق والتحقق بها ، فى شرحنا : الفاتحة الكبير ، واللّه تعالى أعلم.

ولمّا ذكر فيما تقدم خواص قوم سيدنا موسى ، ذكر هنا خواص هذه الأمة المحمدية ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٨١]

وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)

يقول الحق جل جلاله : وَمِمَّنْ خَلَقْنا أي : ومن جملة ما خلقنا : أُمَّةٌ : طائفة يَهْدُونَ الناس بِالْحَقِّ ويحملونهم عليه ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ فى حكوماتهم وقضاياهم. روي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال :

«هذه الآية لكم ، وقد تقدم مثلها لقوم موسى» «٢».
قال البيضاوي : ذكر ذلك بعد ما بيّن أنه خلق للنار طائفة ضالين ، ملحدين عن الحق ، للدلالة على أنه خلق أيضا للجنة أمة هادين بالحق ، عادلين فى الأمر ، واستدل به على صحة الإجماع ، لأن المراد منه أن فى كل قرن طائفة بهذه الصفة لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا تزال من أمّتى طائفة على الحقّ ، إلى أن يأتى أمر اللّه» «٣» إذ لو اختص بعهد الرسول أو غيره لم يكن لذكره فائدة ، فإنه معلوم. هـ.
الإشارة : هذه الأمة التي خلقها اللّه لهداية خلقه ، وهى الطائفة التي لا تزال على الحق ، وهى مؤلفة من العلماء الأنقياء على اختلاف أصنافهم وعلومهم ، ومن الأولياء العارفين ، فالعلماء يهدون إلى التمسك بالشرائع وإتقانها ، والأولياء العارفون يهدون إلى التحقق بالحقائق وأذواقها ، فالعلماء داعون إلى أحكام اللّه ، والعارفون داعون إلى

---

(١) الآية ١١ من سورة المزمل.
(٢) أخرجه بنحوه الطبري فى التفسير (٩/ ١٣٥).
(٣) أخرجه البخاري فى (الاعتصام - باب قول النبي : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق) ومسلم فى (الإمارة - باب قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق) من حديث المغيرة.

معرفة ذات اللّه ، العلماء لإصلاح الظواهر ، والأولياء لإصلاح البواطن ، ولا يقوم هذا إلا بهذا ، فالظاهر من غير باطن فسق ، والباطن من غير ظاهر إلحاد ، وسيأتى عند قوله : فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ... «١» الآية ، تمثيل منزلتهم عند اللّه. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر ضدهم ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٨٢ الى ١٨٣]
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)
قلت : أصل الاستدراج : الاستصعاد ، أو الاستنزال درجة بعد درجة ، ومعناه : نسوقهم إلى الهلاك شيئا فشيئا.
يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا ، وألحدوا فى أسمائنا ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ أي : ندرجهم إلى الهلاك شيئا فشيئا ، مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ما نريد بهم ، وذلك أن تتواتر النعم عليهم ، فيظنوا أنها لطف

من اللّه بهم ، فيزدادوا بطرا وانهماكا في الغي ، حتى تحق عليهم كلمة العذاب. وَأُمْلِي لَهُمْ أي : وأمهلهم ، أي :
وأمدهم بالأموال والبنين والعدة والعدد ، حتى نأخذهم بغتة ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أي : أخذي شديد ، وإنما سماه كيدا لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.
الإشارة : قال الشيخ زروق رضى اللّه عنه : الاستدراج : هو كمون المحنة في عين المنة ، وهو من درج الصبى إذا أخذ في المشي شيئا بعد شيء ، ومنه : الدرج الذي يرتقى عليه إلى العلو ، كذلك المستدرج هو الذي تؤخذ منه النعمة شيئا بعد شيء وهو لا يشعر. قال تعالى : سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ. هـ. فالاستدراج ليس خاصا بالكفار ، بل يكون في المؤمنين خواصهم وعوامهم.
قال في الحكم : «خف من وجود إحسانه إليك ، ودوام إساءتك معه ، أن يكون ذلك استدراجا لك سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ». وقال سهل بن عبد اللّه رضى اللّه عنه : نمدهم بالنعم ، وننسيهم الشكر عليها ، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم : أخذوا.
وقال ابن عطاء رضى اللّه عنه : كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة ، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة. وقال الشيخ ابن عباد رضى اللّه عنه : الخوف من الاستدراج بالنعم من صفة المؤمنين ، وعدم الخوف منه مع الدوام على الإساءة من صفة الكافرين. يقال : من أمارات الاستدراج : ركوب السيئة والاغترار بزمن المهلة ، وحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة ، وهذا من المكر الخفي. قال تعالى : سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ أي : لا يشعرون بذلك ،

---

(١) من الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

وهو أن يلقى في أوهامهم أنهم على شيء ، وليسوا كذلك ، يستدرجهم في ذلك شيئا فشيئا ، حتى يأخذهم بغتة ، كما قال تعالى : فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ إشارة إلى مخالفتهم وعصيانهم ، بعد ما رأوا من الشدة ، فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ أي : فتحنا عليهم أسباب العوافي وأبواب الرفاهية ، حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا من الحظوظ الدنيوية ، ولم يشكروا عليها برجوعهم منها إلينا ، أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً أي : فجأة ، فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ «١» آيسون قانطون من الرحمة. هـ.
ثم ندبهم إلى التفكر ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٨٤ الى ١٨٦]

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)

قلت : (و ما خلق) : عطف على (ملكوت) ، و(أن عسى) : مخففة ، و(أن يكون) : مصدرية ، أو عطف على (ملكوت) أيضا.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فى أمر محمد صلّى اللّه عليه وسلّم حتى يتحققوا أنه ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ يعنى : نبينا محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم. روى أنه صلّى اللّه عليه وسلّم لما أمر بالإنذار صعد الصّفا ، فدعاهم ، فخذا فخذا ، يحذّرهم بأس اللّه تعالى ، فقال قائلهم : إن صاحبكم لمجنون ، بات يصوت إلى الصباح ، فنزلت «٢».

إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ أي : بيّن الإنذار واضح أمره ، لا يخفى على ناظر. أَوَلَمْ يَنْظُرُوا «٣» نظر استدلال فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : فى عظمتهما وما اشتملتا عليه من العجائب ، وَما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ أي : وينظروا فيما خلق اللّه من شيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها ، لتدلهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها ، وعظم شأن مالكها ومتولى أمرها ، ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه.

وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ أي : أو لم ينظروا أيضا فى اقتراب أجلهم وتوقع حلول الموت بهم ، فيسارعوا إلى طلب الحق ، والتوجه إلى ما ينجيهم من عذابه ، قبل مفاجأة الموت ونزول العذاب. فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ أي : بعد القرآن ، يُؤْمِنُونَ إن لم يؤمنوا به ، وهو النهاية فى البيان؟ كأنه إخبار عنهم بالطبع

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنعام.

(٢) أخرجه الطبري فى التفسير ، (٩/ ١٣٦) بإسناد صحيح إلى قتادة.

(٣) إلى هنا ينتهى السقط الموجود فى المخطوطة الأصلية.

على القلوب والتصميم على الكفر ، بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النظر ، وقيل : هو متعلق بقوله : وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ كأنه قيل : لعل أجلهم قد اقترب ، فما لهم لا يبادرون بالإيمان بالقرآن ، وما ذا ينتظرون بعد وضوحه؟ وإن لم يؤمنوا به فبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به؟! .. قاله البيضاوي.

ثم بيّن أن أمرهم بيده ، فقال : مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ أصلا ، ولا يقدر أحد عليه ، وَنَذَرُهُمْ «١» فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ : يتحيرون. ومن قرأ بالياء فمناسب لقوله : (من يضلل) ، ومن جزمه فعطف على محل : (فلا هادى له) لأنه جواب الشرط.

الإشارة : قد أرشد الحق - تعالى - عباده إلى التفكر والاعتبار ، وقد تقدم الكلام عليه في «آل عمران» ، وقد علّم هنا أهل الاستدلال كيفيته وهو أن ينظر الإنسان فى أمر الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وما ظهر على يديه من المعجزات وخوارق العادات ، وأعظمها القرآن العظيم ، ثم ما أتى به من العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، وما نطق به من الحكم العجيبة ، وما أخبر به من قصص الأمم الدارسة والشرائع المتقدمة ، مع كونه أميا لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يجالس أحدا ممن له خبرة بذلك ، فتطلع عليه شمس المعرفة به حتى لا يخالطه وهم ، ولا يخطر بساحته خاطر سوء ، ثم يتفكر فى عجائب ملكوت السموات والأرض ، وما اشتملتا عليه من ضروب المصنوعات ، وعجائب المخلوقات ، فيتحقق بوجود الصانع القادر على كل شيء ، هذا إن لم يجد شيخا يخرجه من سجن الدليل ، وإن وجده استغنى عن هذا بإشراق شمس العرفان ، والخروج إلى فضاء الشهود والعيان.

ثم ذكر أمر الساعة ، التي خوّفهم بها بقوله : وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٨٧]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧)

قلت : إنما سميت القيامة ساعة : لسرعة حسابها ، أو وقوعها ، لقوله : وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وابو جعفر (نذرهم) بنون العظمة ورفع الراء على الاستئناف ، وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء على الغيبة ورفع الراء ، وقرأ حمزة والكسائي بالياء وجزم الراء عطفا على محل قوله تعالى فَلا هادِيَ لَهُ راجع الإتحاف (٢/ ٧٠).

يقول الحق جل جلاله : يَسْئَلُونَكَ أي : قريش ، عَنِ السَّاعَةِ أي : قيام الناس من قبورهم للحساب ، أَيَّانَ مُرْساها أي : متى إرساؤها ، أي : ثبوتها ووقوعها؟ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي استأثر بعلمها ، لم يطلع

عليها ملكا مقربا ، ولا نبيا مرسلا ، لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها أي : لا يظهرها عند وقت وقوعها ، إِلَّا هُوَ ، والمعنى أن إخفاءها يستمر إلى وقت وقوعها ، ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها ، وكأنه إشارة إلى الحكمة فى إخفائها. أو ثقلت على السموات والأرض أنفسهما لتبدلهما وتغير حالهما ، لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً : فجأة على غفلة ، كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّ الساعة تهيج بالنّاس ، والرّجل يصلح حوضه ، والرّجل يسقى ما شيته ، والرّجل يقوّم سلعته فى سوقه ، والرّجل يخفض ميزانه ويرفعه». «١». والمراد :

النفخ فى الصور للصعق ، لأن الساعة مرتّبة عليه وقريبة منه.

يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها أي : عالم بها ، من حفى على الشيء : إذا سأل عنه ، فإنّ من بالغ في السؤال عن الشيء ، والبحث عنه ، استحكم علمه فيه ، أي : يسألونك عن وقت قيامها ، كأنك بليغ فى السؤال عنها فعلمتها ، وليس كما يزعمون ، وأما قوله : فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها «٢» : فقيل : معناه : التعجب عن كثرة اهتمامه بالسؤال ، أي : فى أي شغل أنت من ذكراها والسؤال عنها؟ ولا يعارض ما هنا لأنه استغنى عن ذلك بتلك الآية ، وبعدها نزلت هذه ، واللّه أعلم.

وقيل : «عنها» : يتعلق ب (يسألونك) ، أي : يسألونك عنها كأنك حفى بهم ، أي : شفيق بهم ، قيل : إن قريشا قالوا :

إنّ بيننا وبينك قرابة ، فقل لنا : متى الساعة؟ فقال له الحق تعالى : قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ لا يعلمها غيره ، وكرره لتكرر «يسألونك». وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أن علمها عند اللّه لم يؤته أحدا من خلقه.

الإشارة : إذا أشرق نور اليقين فى القلب صارت الأمور المستقبلة حاصلة ، والغائبة حاضرة ، والآجلة عاجلة ، فأهل اليقين الكبير قدّموا ما كان آتيا ، فحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، ووزنوا أعمالهم قبل أن توزن عليهم ، وجازوا الصراط بسلوكهم المنهاج المستقيم ، ودخلوا جنة المعارف قبل حصول جنة الزخارف ، فالموت فى حقهم إنما هو انتقال من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام ، ومن دار الغرور إلى دار الهناء والسرور. وفي الحكم : «لو أشرق لك نور اليقين فى قلبك ، لرأيت الاخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها».

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن جرير فى التفسير ، (٩/ ١٠٤) من حديث قتادة ، وفى البخاري ، عن أبى هريرة رفعه : «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه». أخرجه البخاري فى (الرقاق - باب ٤) وبنحوه مسلم فى (الفتن - باب قرب الساعة).

(٢) الآية ٤٣ من سورة النازعات.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٩١

قال الشيخ ابن عباد رضى اللّه عنه : نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هى عليه ، فيحق به الحق ، ويبطل به الباطل ، والآخرة حق ، والدنيا باطل ، فإذا أشرق نور اليقين فى قلب العبد أبصر به الآخرة التي كانت غائبة عنه حاضرة لديه ، حتى كأنها لم تزل ، فكانت أقرب إليه من أن يرتحل إليها ، فحق بذلك حقها عنده ، وأبصر الدنيا الحاضرة لديه ، قد انكسف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب ، فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة ، فظهر له بطلانها ، حتى كأنها لم تكن ، فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهادة فى الدنيا والتجافي عن زهرتها ، والإقبال على الآخرة ، والتهيؤ لنزول حضرتها ، ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور. كما قال النبي - صلى اللّه عليه وسلم - : «إنّ النور إذا دخل القلب انشرح له الصّدر وانفسح ، قيل يا رسول اللّه : هل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال : نعم. التّجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله» «١». أو كما قال - صلى اللّه عليه وسلم - .

وعند ذلك تموت شهواته وتذهب دواعى نفسه ، فلا تأمره بسوء ، ولا تطالبه بارتكاب منهي ، ولا تكون له همة إلا المسارعة إلى الخيرات ، والمبادرة لاغتنام الساعات والأوقات ، وذلك لاستشعاره حلول الأجل ، وفوات صالح العمل ، وإلى هذا الإشارة بحديثي حارثة ومعاذ - رضى اللّه عنهما - . روى أنس بن مالك رضى اللّه عنه قال : بينما رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يمشى إذ استقبله شاب من الأنصار ، فقال له النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «كيف أصبحت يا حارثة؟ قال : أصبحت مؤمنا بالله حقا ، قال : انظر ما تقول ، فإن لكلّ قول حقيقة؟ فقال : يا رسول اللّه عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى بعرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنّة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها ، فقال : أبصرت فالزم ، عبد نور اللّه الإيمان فى قلبه ..» إلى آخر الحديث «٢».

وروى أنس رضى اللّه عنه أيضا : أن معاذ بن جبل دخل على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وهو يبكى ، فقال له : كيف أصبحت يا معاذ؟

فقال : أصبحت بالله مؤمنا ، قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّ لكل قول مصداقا ، ولكل حق حقيقة ، فما مصداق ما تقول؟» فقال :

يا نبيّ اللّه ، ما أصبحت صباحا قط إلا ظننت أنى لا أمسى ، ولا أمسيت قط إلا ظننت أنى لا أصبح ، ولا خطوت خطوة قط إلا ظننت أنى لا أتبعها أخرى ، وكأنى أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها ، معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون اللّه ، وكأنى أنظر إلى عقوبة أهل النّار وثواب أهل الجنة. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «عرفت فالزم». انظر بقية كلامه رضى اللّه عنه.

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (٧/ ٣٦٢).
(٢) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية ١٢٦ من سورة الأنعام.

(٢٩١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٩٢
ثم أمر نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم بالاعتراف بالتقصير عن علم الغيب ، الذي اختص اللّه به كعلم الساعة وغيرها ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : آية ١٨٨]
قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)
قلت : «وما مسنى السوء» : عطف على «استكثرت» ، أي : لو علمت الغيب لاستكثرت الخير واحترست من السوء ، أو استئناف ، فيوقف على ما قبله ، ويراد حينئذ بالسوء : الجنون ، والأول أحسن لاتصاله بما قبله ، و(لقوم) : يجوز أن يتعلق ببشير ونذير ، أي : أبشر المؤمنين وأنذرهم ، وخصهم بالبشارة والنذارة لانتفاعهم بهما ، ويجوز أن يتعلق بالبشارة وحدها ، فيوقف على (نذير) ، ويكون المتعلق بنذير محذوف ، أي : نذير للكافرين ، والأول أحسن. قاله ابن جزى.
يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : أنا لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا أي : لا أجلب لها نفعا ولا أدفع عنها ضررا ، إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ من ذلك ، فيعلمنى به ، ويوقفنى عليه ، وهو إظهار للعبودية والتبري من ادعاء العلم بالغيوب ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ أي : لو كنت أعلم ما يستقبلنى من الأمور المغيبة كشدائد الزمان وأهواله ، لاستعددت له قبل نزوله باستكثار الخير والاحتراس من الشر ، حتى لا يمسنى سوء ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ أي : ما أنا إلا عبد مرسل بالإنذار والبشارة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فإنهم المنتفعون بهما ، أو نذير لمن خالفنى بالعذاب الأليم ، وبشير لمن تبعني بالنعيم المقيم.
الإشارة : العبودية محل الجهل وسائر النقائص ، والربوبية محل العلم وسائر الكمالات ، فمن آداب العبد أن يعرف قدره ، ولا يتعدى طوره ، فإن ورد عليه شيء من الكمالات فهو وارد من اللّه عليه ، وإن ورد عليه شيء من النقائص فهو أصله ومحله ، فلا يستوحش منه ، وكان شيخنا يقول : إن علمنا فمن ربنا ، وإن جهلنا فمن أصلنا وفصلنا. أو كلام هذا معناه ، فالاستشراف إلى الاطلاع على علم الغيوب من أكبر الفضول ، وموجب للمقت من علام الغيوب. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر أصل النشأة ، ليدل على نقص العبد وجهله ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٨٩ الى ١٩٠]
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)

(٢٩٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٩٣
يقول الحق جل جلاله : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ آدم عليه السّلام ، وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها أي : خلق من ضلعها زوجها حواء ، سلها منه وهو نائم ، لِيَسْكُنَ إِلَيْها ليستأنس بها ، ويطمئن بها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه.
فَلَمَّا تَغَشَّاها أي : جامعها حين ركبت فيه الشهوة ، حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً أي : خف عليها ، ولم تلق منه ما تلقى بعض الحبالى من حملهن من الأذى والكرب ، أو حملا خفيفا ، يعنى النطفة قبل تصورها ، فَمَرَّتْ بِهِ أي : ذهبت وجاءت به ، مخففة ، واستمرت إلى حين ميلاده ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ أي : ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبره فى بطنها ، دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما آدم وحواء ، قائلين : لَئِنْ آتَيْتَنا ولدا صالِحاً أي : سويا سالما فى بدنه ، تام الخلقة ، لَنَكُونَنَّ لك مِنَ الشَّاكِرِينَ على هذه النعمة المجددة.
فَلَمَّا آتاهُما ولدا صالِحاً كما سألا ، جعل أولادهما لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما ، فسموا عبد العزى وعبد مناف وعبد الدار. فالآية إخبار بالغيب فى أحوال بنى آدم ممن كفر منهم وأشرك ، ولا يصح فى آدم وحواء هذا الشرك لعصمة الأنبياء ، وهذا هو الصحيح. وقد يعاتب الملك الأب على ما فعل أولاده ، كما إذا خرجوا عن طاعته فيقول له : أولادك فعلوا وفعلوا ، على عادة الملوك.
وقيل : لما حملت حواء أتاها إبليس فى صورة الرجل ، فقال لها : وما يدريك ما فى بطنك لعله بهيمة أو كلب ، وما يدريك من أين يخرج؟ فخافت من ذلك ، ثم قال لها : إن أطعتينى ، وسميته عبد الحارث ، فسأخلصه لك ، وكان اسم إبليس فى الملائكة : الحارث ، وإن عصيتنى قتلته ، فأخبرت بذلك آدم ، فقال لها : إنه عدونا الذي أخرجنا من الجنة ، فلما ولدت مات الولد ، ثم حملت مرة أخرى ، فقال لها إبليس مثل ذلك ، فعصته ، فلما ولدت مات الولد ، ثم حملت مرة ثالثة ، فسمياه عبد الحارث طمعا فى حياته «١» ، فقوله : جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما أي : فى التسمية لا غير ، لا فى عبادة غير اللّه.
والقول الأول أصح ، لثلاثة أوجه : أحدها : أنه يقتضى براءة آدم وحواء من الشرك ، قليله وكثيره ، وذلك هو حال الأنبياء - عليهم السلام - . والثاني : أنّ جمع الضمير فى قوله : فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ، يقتضى أن الشرك وقع من أولادهما ، لا منهما. الثالث : أن هذه القصة تفتقر إلى نقل صحيح ، وهو غير موجود. انظر : ابن جزى.

الإشارة : قال الورتجبي : فى قوله لِيَسْكُنَ إِلَيْها : لم يجد آدم عليه السّلام فى الجنة إلاسنا تجلى الحق ، فكاد أن يضمحل بنور التجلي ، لتراكمه عليه ، فعلم اللّه - سبحانه - أنه لا يتحمل أثقال التجلي ، وعرف أنه يذوب فى نور

---

(١) هذه القصة يظهر عليها أنها من آثار أهل الكتاب ، وقد أعلّها أهل الحديث ، رغم ورودها فى كتب الحديث وغيرها. راجع تفسير :

ابن كثير (٢/ ٢٧٥) ، والإسرائيليات والموضوعات للشيخ أبى شهبة (١٧٩). والآية تتحدث عن (نمط) فى السلوك البشرى ، وترسم نموذجا لأى زوجين بشريين يريدان الإنجاب من اللّه - بإلحاح ، وعند ما يعطيهما اللّه تعالى ما سألاه ، ينسبان ذلك لغير اللّه تعالى. [.....]

(٢٩٣/٢)

حسنه ، وكل ما فى الجنة مستغرق فى ذلك النور ، فيزيد عليه ضوء الجبروت والملكوت ، فخلق منه حواء ليسكن آدم إليها ، ويستوحش بها سويعات من سطوات التجلي ، ولذلك قال صلّى اللّه عليه وسلّم لعائشة - رضي اللّه عنها - : «كلمينى يا حميراء». ثم قال : وقال بعضهم : خلقها ليسكن آدم إليها ، فلما سكن إليها غفل عن مخاطبة الحقيقة ، بسكونه إليها ، فوقع فيما وقع من تناول الشجرة. هـ. فكل من سكن إلى غير اللّه تعالى كان سكونه بلاء فى حقه ، يخرجه من جنة معارفه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ردّ على من أشرك من بنى آدم ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٩١ الى ١٩٥]

أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ (١٩٥)

يقول الحق جل جلاله : أَيُشْرِكُونَ مع اللّه أصناما جامدة ، لا يخلقون شيئا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، فهي مخلوقة

غير خالقة. واللّه تعالى خالق غير مخلوق ، وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً أي : لا يقدرون أن ينصروا من عبدهم ، وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ فيدفعون عنها ما يعتريها ، فهي في غاية العجز والذلة ، فكيف تكون آلهة؟

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ أي : وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا تجيبكم ، فلا تهتدى إلى ما دعيت إليه لأنها جمادات ، أو : وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى الحق لا تجيبكم ، سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ عن دعائهم ، فالدعاء في حقهم وعدمه سواء ، وإنما لم يقل : أم صمتم ليفيد الاستمرار على عدم إجابتهم لأن الجملة الاسمية تقتضي الاستمرار.

ثم قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون اللّه ، هم عِبادٌ أَمْثالُكُمْ من حيث إنها مسخرة مملوكة ، فكيف يعبد العبد مع ربه ، فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى أنها تستحق أن تعبد ، والأمر للتعجيز لأن الأصنام لا تقدر أن تجيب فلا تستحق أن تعبد ثم عاد عليهم بالنقض فقال : أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ، ومعناه : أن الأصنام جمادات عادمة للحس والجوارح والحياة ، ومن كان كذلك لا يكون

(٢٩٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٩٥ إلها ، فإنّ من وصف الإله الإدراك والحياة والقدرة. وإنما جاء هذا البرهان بلفظ الاستفهام لأن المشركين مقرون أن أصنامهم لا تمشي ، ولا تبطش ، ولا تبصر ، ولا تسمع ، فلزمتهم الحجة ، والهمزة في قوله : أَلَهُمْ : للاستفهام مع التوبيخ ، و(أم) ، فى المواضع الثلاثة : تضمنت معنى الهمزة ومعنى بل ، وليست عاطفة. قاله ابن جزى. قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ استعينوا بهم فى عداوتي ، ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ أي : لا تؤخرون ، فإنكم وأصنامكم لا تقدرون على مضرتى وكيدى ، ومفهوم الآية : الرد عليهم ببيان عجز أصنامهم وعدم قدرتها على المضرة.

الإشارة : كل ما سوى اللّه قد عمه العجز والتقصير ، فليس بيده نفع ولا ضر ، وفى الحديث : «لو اجتمع الإنس والجنّ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه اللّه لك ، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلّا بشيء قدّره اللّه عليك». أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم ، فالخلق كلهم فى قبضة القهر ، مصروفون بقدرة الواحد القهار ، ليس لهم أرجل يمشون بها ، ولا أيد يبطشون بها ، ولا أعين يبصرون بها ، ولا آذان يسمعون بها ، وإنما هم مجبورون فى قوالب المختارين ، فلا تركن إليهم أيها العبد فى شيء ، إذ ليس بيدهم شيء ، ولا تخف منهم فى شيء ، إذ لا يقدرون على شيء. قال ابن جزى : وفيها – أي : فى الآية – إشارة إلى التوكل على اللّه والاعتصام به وحده ، وأن

غيره لا يقدر على شيء.

ثم أفصح بذلك ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٩٦]

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦)

يقول الحق جل جلاله : قل لهم أيضا يا محمد : إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ أي : هو ناصري وحافظي منكم ، فلا تضرونني ولو حرصتم أنتم وآلهتكم ، الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ أي : القرآن ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ أي : ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلا عن أنبيائه ، فلا أخافكم بعد أن تولى حفظي منكم.

الإشارة : قال القشيري : من قام بحقّ اللّه تولّي أموره على وجه الكفاية ، فلا يحوجه إلى أمثاله ، ولا يدع شيئا من أحواله إلا أجراه على ما يريد بحسن إفضاله ، فإن لم يفعل ما يريده جعل العبد راضيا بما يفعله ، فروح الرضا على الأسرار أتمّ من راحة العطاء على القلوب. هـ.

ثم قال تعالى :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٩٧ الى ١٩٨]

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (١٩٨)

يقول الحق جل جلاله ، فى إتمام الرد على المشركين : وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ أي : تعبدونها من دونه ، لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ، فلا تبال بهم أيها الرسول ، وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا ، يحتمل أن يريد الأصنام ، فيكون تحقيرا لها ، وردا على من عبدها فإنها جماد موات لا تسمع شيئا ، أو يريد الكفار ، ووصفهم بأنهم لا يسمعون ، يعنى : سمعا ينتفعون به ، لإفراط نفورهم ، أو لأن اللّه طبع على قلوبهم ، وَتَراهُمْ أي : الأصنام ، يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ لأنهم مصورون بصورة من ينظر ، فقوله :

وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ : مجاز ، وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ حقيقة ، لأن لهم صورة الأعين ، وهم لا يرون بها شيئا ، هذا إن جعلناه وصفا للأصنام ، وإن كان وصفا للكفار فقوله : وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ حقيقة ، وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ مجاز ، لأن الإبصار وقع منهم فى الحس ، لكن لمّا لم ينفعهم لعمى قلوبهم ، نفاه عنهم كأنه لم يكن.

قال المحشي : شاهدوا بأبصار رؤوسهم ، لكنهم حجبوا عن الرؤية ببصائر أسرارهم وقلوبهم ، فلم يعتد

برؤيتهم. هـ.

الإشارة : فى الآية تحويش للعبد إلى الاعتماد على اللّه واستنصاره به فى جميع أموره ، فلا يركن إلى شيء سواه ، ولا يخاف إلا من مولاه ، إذ لا شيء مع اللّه.

وقوله تعالى : وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ... الآية. قال المحشى : يقال : رؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم ، لكن لما يحصل للقلوب من مكاشفة الغيوب ، وذلك على مقدار الاحترام وحضور الإيمان. هـ.

يعني : أن النظر إلى الأكابر ، من العارفين بالله ، ليست مقصودة لرؤية أشخاصهم ، وإنما هى مقصودة لفيضان أمدادهم ، وذلك على قدر التعظيم والاحترام ، وصدق المحبة والاحتشام ، فكل واحد من الناظرين إليهم يغرف على قدر محبته وتعظيمه. روى أن بعض الملوك زار قبر أبى يزيد البسطامي ، فقال : هل هنا أحد ممن أدرك الشيخ أبا يزيد البسطامي؟ فأتى بشيخ كبير ، فقال : أنا أدركته ، فقال : ما سمعته يقول؟ فقال : سمعته يقول : (من رآنى لا تأكله النار). فقال الملك : هذا لم يكن للنبى - عليه الصلاة والسلام - فقد رآه كثير من الكفار فدخلوا النار ، فكيف يكون لغيره؟ فقال له الشيخ : يا هذا ، الكفار لم يروه صلّى اللّه عليه وسلّم على أنه رسول اللّه ، وإنما رأوه على أنه محمد بن عبد اللّه ، فسكت. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم بمكارم الأخلاق ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٩٩ الى ٢٠٠]

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم : خُذِ الْعَفْوَ أي : اليسر من أخلاق الناس ولا تبحث عنها ، أو : خذ من الناس ، فى أخلاقهم وأموالهم ومعاشرتهم ، ما سهل وتيسر مما لا يشق عليهم لئلا ينفروا. فهو كقول الشاعر :

خذ العفو منّى تستديمي مودّتى «١» ....

أو : خذ فى الصدقات ما سهل على الناس من أموالهم وهو الوسط ، ولا تأخذ كرائم أموالهم مما يشق عليهم ، أو تمسك بالعفو عمن ظلمك ولا تعاقبه ، وهذا أوفق لتفسير جبريل الآتي ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ أي : المعروف ، وهو أفعال الخير ، أو العرف الجاري بين الناس. واحتج المالكية بذلك على الحكم بالعرف

الذي يجرى بين الناس.
وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ أي : لا تكافئ السفهاء على قولهم أو فعلهم ، واحلم عليهم. ولمّا نزلت سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم جبريل عنها ، فقال : «لا أدرى حتّى أسأل ، فعرج ، ثم رجع فقال : يا محمد ، إنّ اللّه يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمّن ظلمك» «٢». وعن جعفر الصادق : (أمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم فيها بمكارم الأخلاق) ، وهى على هذا ثابتة الحكم ، وهو الصحيح. وقيل : كانت مداراة للكفار ، ثم نسخت بالقتال.
وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ ينخسنك منه نخس ، أي : وسوسة تحملك على خلاف ما أمرت به كاعتراء غضب ، ومقابلة سفيه ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ والتجئ إليه إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يسمع استعاذتك ، ويعلم ما فيه صلاح أمرك ، فالاستعاذة عند تحريك النفس مشروعة ، وفى الحديث : أن رجلا اشتد غضبه ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما به أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم» «٣».
الإشارة : كل ما أمر به الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم تؤمر به أمته ، وخصوصا ورثته من الصوفية ، فهم مطالبون بالتخلق بأخلاقه صلّى اللّه عليه وسلّم أكثر من غيرهم ، لأن غيرهم لم يبلغ درجتهم. وقال الورتجبي : خُذِ الْعَفْوَ : أي : فاعف عنهم من قلة عرفانهم حقك ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ أي : تلطف عليهم فى أمرك ونهيك لهم ، فإنهم ضعفاء عن حمل وارد أحكام شرائعك وحقائقك ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ الذين ليس لهم استعداد النظر إليك ، ولا يعرفون حقوقك ، فإنّ منكر معجزات أنبيائى وكرامات أوليائى لا يبلغ إلى درجة القوم. قال بعض المشايخ - حين ذكر أهل الظاهر - : دع هؤلاء الثقلاء. هـ. فوصف علماء الظاهر بالثقلاء لثقل ظهورهم بعلم الرسوم ، فلم ينهضوا إلى حقائق العلوم ودقائق الفهوم ، وفى تائية ابن الفارض :

---

(١) هذا شطر بيت تمامه : (و لا تنطقى فى سورتى حين أغضب) وهو لحاتم ، راجع : تفسير أبى حيان (٤/ ٤٤٤).
(٢) أخرجه الطبري فى التفسير (٩/ ١٥٥) عن سفيان بن عيينه عن أبى المرادي ، وقال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : (هذا منقطع ، وأخرجه ابن مردويه موصولا من حديث جابر وحديث قيس بن سعد). انظر تفسير البغوي (٣/ ٣١٦) مع حاشية المحقق.
(٣) أخرجه بنحوه البخاري فى (بدء الخلق - باب صفه إبليس وجنوده) ومسلم فى (البر - باب فضل من يملك نفسه عند الغضب) من حديث سليمان بن صرد.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٩٨

وجز مثقلا لو خف طفّ موكّلا بمنقول أحكام ومعقول حكمة

قال شارحه : أمره بالمجاوزة عن المثقلين بأثقال العلوم الظاهرة ، من الفقهاء ، والمتكلمين بأحكام المنقولات ، والفلاسفة الموكلين بالمعقولات والحكمة ، ووصف مثقلا بأنه : لو خف طفا ، أي : لأنه لو كان خفيفا بوضع الأثقال عنه كان طفيفا ، لا يرى لنفسه قدرا ، واللازم منتف فالملزوم مثله هـ.

ثم إن البشر لا بد أن تعتريه أحكام البشرية ، كالغضب وشبهه ، كما بيّنه الحق تعالى بقوله :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٢٠١ الى ٢٠٢]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)

قلت : الطيف - بسكون الياء - : مصدر طاف به الخيال يطيف طيفا ، أو مخفف من طيّف كهين ولين وميت.

ومن قرأ (طائف) : فاسم فاعل ، والمراد به : لمّة الشيطان ووسوسته. وحذف مفعول (تذكروا) للعموم على ما يأتى فى المعنى. وقوله : (فإذا هم مبصرون) : أتى بإذا الفجائية ليقتضى سرعة تيقظهم ، وبالجملة الاسمية ولم يقل :

تذكروا فأبصروا ليفيد أنهم كانوا على البصري ، وإنما السّنة طرقتهم ثم رجعوا عنها.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا الشرك والمعاصي ، إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ أي : لمّة منه ، كما فى الحديث : «إنّ للشّيطان لمّة وللملك لمّة ...» «١» إلخ ، فإذا أخذتهم تلك السنة وغفلوا تَذَكَّرُوا عقاب اللّه وغضبه ، أو ثواب اللّه وإنعامه ، أو مراقبته والحياء منه ، أو مننه وإحسانه ، أو طرده وإبعاده ، أو حجبه وإهماله ، أو عداوة الشيطان وإغواءه ، كلّ على قدر مقامه ، فلما تذكروا ذلك فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ بسبب ذلك التذكر ، أي : فإذا هم على بصيرة من ربهم التي كانوا عليها قبل المس ، أو : فإذا هم مبصرون مواقع الخطأ ومكائد الشيطان فيحترزون منها ، ولا يعودون إليها بخلاف المنهمكين فى الغفلة ، كما قال تعالى : وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ أي : وإخوان الشياطين ، الذين لم يتقوا ، يمدونهم ، أي : ينصرونهم ، ويكونون مددا لهم فى الضلال والغي بالتزيين والحمل عليه ، ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ لا يمسكون عن إغوائهم حتى يوردوهم النار ، أو : لا يقصر الكفار عن غيهم وضلالهم حتى يهلكوا.

الإشارة : البصيرة حارسة للقلب ، الذي هو بيت الرب ، فإذا نامت طرقها الشيطان ، فإن كان نومها خفيفا أحست به وطردته ، وهذه بصيرة المتقين ، الذين ذكرهم اللّه تعالى بقوله : إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا ، وإذا كان نومها ثقيلا سرق الشيطان ما فيها ، ولم تفطن به ، وهذه بصيرة الغافلين ، الذين هم إخوان الشياطين.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (تفسير سورة البقرة ، آية : الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ....) من حديث عبد اللّه بن مسعود. والمراد باللمّة :
النزول والقرب ، والمراد بها : ما يقع فى القلب بواسطة الشيطان أو الملك. فأما كان من خطرات الخير فهو من الملك ، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان. راجع : النهاية (لمم ٤/ ٢٧٣).

(٢٩٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٩٩
قال القشيري : إنما يمس المتقين طيف الشيطان فى ساعات غفلتهم عن ذكر الله ، ولو أنهم استداموا ذكر الله بقلوبهم لما مسّهم طائف الشيطان ، فإن الشيطان لا يقرب قلبا فى حال شهوده الله لأنه يخنس عند ذلك ، ولكل عازم فترة ، ولكلّ عالم هفوة ، ولكل عابد شدة ، ولكل قاصد فترة ، ولكل سائر وقفة ، ولكل عارف حجبة. قال - عليه الصلاة والسلام - : «الحدّة تعترى خيار أمتى» «١».
فأخبر بأن خيار الأمة ، وإن جلت رتبتهم ، لا يتخلصون عن حدة تعتريهم في بعض أحوالهم ، فتخرجهم عن دوام الحلم. هـ. وكأنه يشير إلى أن طائف الشيطان يمس الواصلين والسائرين ، وهو كذلك بدليل أول الآية فى قوله : وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ ... الآية ، ومسه للسائر أو الواصل زيادة به ، وترقية له ، وتحويش له إلى ربه ، واللّه تعالى أعلم.
ثم ردّ اللّه على من طلب الآيات ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : آية ٢٠٣]
وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)
يقول الحق جل جلاله : وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ أي : الكفار ، بِآيَةٍ بمعجزة مما اقترحوا ، أو من القرآن حين يتأخر الوحى ، قالُوا لَوْ لا هلا اجْتَبَيْتَها أي : تخيرتها وطلبتها من ربك ، أو هلا اخترعتها وتقولتها من نفسك كسائر ما تقرأ؟ قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي فلا أطلب منه آية ، فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ «٢» ، أو : لا أخترع القرآن من عند نفسى ، بل أتبع ما يوحى إلىّ من ربي.
هذا القرآن بَصائِرُ للقلوب مِنْ رَبِّكُمْ ، أي : من عند ربكم ، بها تبصر الحق وتدرك الصواب ، وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وإرشاد أو طمأنينة لقلوب المؤمنين.
الإشارة : قد تقدم مرارا ما فى طلب الآيات من ضعف اليقين ، وعدم الصدق بطريق المقربين ، وإنما على الأولياء أن يقولوا : هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بطريق المخصوصين. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالإنصات للقرآن ، الذي هو أعظم الآيات ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ٢٠٤]

وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ ، مطلقا ، فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لكى تعتبروا وتتدبروا ، فإنما نزل لذلك ، وهل على الوجوب أو الاستحباب - وهو الراجح؟ قولان ، وقيل : الاستماع المأمور به

---

(١) أخرجه الطبراني فى الكبير (١١/ ٦٤) عن ابن عباس رضى اللّه عنه ، وضعفه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٣٨٠٨).

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

لقراءة الإمام فى الصلاة ، وقيل : فى الخطبة ، والأول الراجح ، لوجهين : أحدهما : عموم اللفظ ، ولا دليل على تخصيصه ، والثاني : أن الآية مكيّة ، والخطبة إنما شرعت بالمدينة. وقوله تعالى : لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أي : بسبب ما تكتسبه القلوب من الرقة والخشية عند استماع القرآن ، قال بعضهم : الرحمة أقرب شيء إلى مستمع القرآن لهذه الآية. قاله ابن جزى.

الإشارة : الاستماع لكلام الحبيب أشهى للقلوب من كل حبيب ، لا سيما لمن سمعه بلا واسطة ، فكل واحد ينال من لذة الكلام على قدر حضوره مع المتكلم ، وكل واحد ينال من لذه شهود المتكلم على قدر رفع الحجاب عن المستمع ، واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر بالذكر القلبي ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٢٠٥ الى ٢٠٦]

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)

يقول الحق جل جلاله ، لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم ولمن تبعه : وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ أي : فى قلبك بحركة لسان القلب ، أو فى نفسك سرا بحركة لسان الحس ، تَضَرُّعاً وَخِيفَةً أي : متضرعا وخائفا ، وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ أي : متكلما كلاما فوق السر ودون الجهر ، فإنه أدخل فى الخشوع والإخلاص ، ولا حجة فيه لمن منع الذكر جهرا لأن الآية مكية حين كان الكفرغالبا ، فكانوا يسبون الذاكر والمذكور ، ولما هاجر المصطفى - عليه الصلاة والسلام - إلى المدينة ، جهر الصحابة بالتكبير

والذكر. فالآية منسوخة. انظر : الحاوي فى الفتاوي للإمام السيوطي. فقد أجاب عن الآية بأجوبة.
فقوله : بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ أي : فى الصباح والعشى ، حين تتيقظ من نومك الشبيه بالبعث ، وحين تريد النوم الشبيه بالموت ، وقيل : المراد صلاة العصر والصبح ، وقيل : صلاة المسلمين ، قبل فرض الخمس ، وقيل : للاستغراق ، وإنما خص الوقتين لأنهما محل الاشتغال ، فأولى غيرهما. وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ عن ذكر اللّه.
إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يعنى ملائكة الملأ الأعلى ، لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ ينزهونه عما لا يليق به ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ أي : يخصونه بالعبادة والتذلل ، لا يشركون به غيره ، وهو تعريض بالكفار ،

(٣٠٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٠١
وتحريض للمؤمنين على التشبه بالملأ الأعلى ، ولذلك شرع السجود عند قراءتها. وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «إذا قرأ ابن آدم السجدة ، فسجد ، أعتزل الشيطان يبكى ، يقول : يا ويله أمر هذا بالسّجود فسجد فله الجنّة ، وأمرت بالسّجود فعصيت فلى النار» «١».
الإشارة : اعلم أن الذكر على خمسة أقسام : ذكر اللسان فقط لعوام المسلمين ، وذكر اللسان مع القلب لخواص الصالحين وأول المتوجهين ، وذكر القلب فقط للأقوياء من السائرين ، وذكر الروح لخواص أهل الفناء من الموحدين ، وذكر السر لأهل الشهود والعيان من المتمكنين ، وفى قطع هذه المقامات يقع السير للسائرين ، فيترقى من مقام ، إلى مقام ، حتى يبلغ إلى ذكر السر ، فيكون ذكر اللسان فى حقه غفلة.
وفى هذا المقام قال الواسطي رضى اللّه عنه : الذاكرون فى حال ذكره أشد غفلة من التاركين لذكره لأن ذكره سواه.
وفيه أيضا قال الغزالي : ذكر اللسان يوجب كثرة الذنوب. وقال الشاعر :
ما إن ذكرتك إلّا همّ يلعننى سرّى ، وقلبى ، وروحى ، عند ذكراك
حتّى كأنّ رقيبا منك يهتف بي : إيّاك ، ويحك ، والتّذكار إياك
أما ترى الحقّ قد لاحت شواهده وواصل الكلّ من معناه معناك
وقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ... الآية ، قال القشيري : أثبت لهم عندية الكرامة ، وحفظ عليهم أحكام العبودية كى لا ينفك حال جمعهم عن نعت فرقهم ، وهذه سنّة اللّه تعالى مع خواص عباده ، يلقاهم بخصائص عين الجمع ، ويحفظ عليهم حقائق عين الفرق ، لئلا يخلّوا بآداب العبودية فى أوان وجود الحقيقة. هـ.

(١) أخرجه مسلم فى (الإيمان - باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة) من حديث أبى هريرة - رضى اللّه عنه.

(٣٠١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٠٢

(٣٠٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٠٣

سورة الأنفال

مدنية. وآياتها : ست وسبعون آية ، نزلت كلها فى غزوة بدر الكبرى ، حين اختلف الصحابة - رضى اللّه عنهم - فى قسمة الغنائم ، وهى الأنفال. ووجه المناسبة لما قبلها : تحريض المؤمنين على الطاعة ، والانقياد في شأن الغنائم وغيرها حتى يتشبهوا بالملائكة فى سرعة الانقياد والخضوع لله تعالى ، فى قوله : إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ الآية «١».

قال الحق جل جلاله :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

يقول الحق جل جلاله : يَسْئَلُونَكَ عَنِ قسمة الْأَنْفالِ وهى الغنائم ، سميت الغنيمة نفلا لأنها عطية من اللّه تعالى ، وزيادة فضل ، كما يسمى ما يشترطه الإمام للشجاع المقتحم خطرا ، نفلا لأنه عطية له زيادة على سهمه ، وكما سمى يعقوب عليه السّلام نافلة لأنه عطية زائدة على ولد إبراهيم عليه السّلام ، حيث كان حفيده. ثم أجابهم الحق تعالى فقال : قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ أي : أمرها إلى اللّه ورسوله ، يقسمها رسول صلّى اللّه عليه وسلّم حيث يأمره اللّه تعالى ، وفى الوضع الذي يعينه له.

وسبب نزولها : اختلاف المسلمين في غنائم بدر كيف تقسم ، هل فى المهاجرين لفقرهم ، أو فى

الأنصار لنصرهم ، أو فيهما معا. قال ابن جزى : وذلك أنهم كانوا يوم بدر ثلاث فرق : فرقة مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فى العريش تحرسه وتؤنسه ، وفرقة اتبعوا المشركين فقتلوهم وأسروهم ، وفرقة أحاطوا بأسلاب العدو وعسكرهم لما انهزموا ، فلما انجلت الحرب واجتمع الناس ، ورأت كل فرقة أنها أحق بالغنيمة من غيرها ، اختلفوا فيما بينهم. فنزلت الآية. هـ.

---

(١) الآية : ٢٠٦ من سورة الأعراف.

(٢/٣٠٣)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٠٤

وقيل : شرط رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لمن كان له غناء أن ينفله ، فتسارع شبابهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ، ثم طلبوا نفلهم ، وكان المال قليلا ، فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات : كنا ردءا لكم ، وفئة تنحازون إلينا ، فلا تختصوا بشيء دوننا ، فنزلت ، فقسمها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بينهم على السواء. ولهذا قيل : لا يلزم الإمام الوفاء بما وعد ، وهذا قول الشافعي رضى اللّه عنه.

وعن سعد بن أبي وقاص رضى اللّه عنه قال : لمّا كان يوم بدر قتل أخى عمير ، وقتلت سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه ، وأتيت به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، واستوهبته منه ، فقال : «ليس هذا لى ، ولكن ضعه فى القبض «١»» ، فطرحته ، وفى قلبى ما لا يعلمه إلا اللّه من قتل أخى وأخذ سلبى ، فما جاوزتها إلّا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال ، فقال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «سألتنى السّيف وليس لى ، وإنّه قد صار لى فاذهب فخذه» «٢».

فَاتَّقُوا اللَّهَ فى المشاجرة والاختلاف ، وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ أي : أصلحوا الحال التي بينكم بالمواساة والموادة وسلامة الصدور ، والمساعدة فيما رزقكم اللّه ، وتسليم أمره إلى اللّه تعالى ورسوله ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فيما يأمركم به إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان يقتضى الاستماع والاتباع ، أو إن كنتم كاملى الإيمان فإن كمال الإيمان يقتضي التمسك بهذه الخصال الثلاث : امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

ثم ذكر شروط كمال الإيمان ، فقال : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الكاملون فى الإيمان : الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ خافت واقشعرت لذكره استعظاما له وهيبة من جلاله ، وقيل : هو الرجل يهم بالمعصية فيقال له : اتق اللّه ، فينزع عنها خوفا من عقابه ، وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ القرآنية زادَتْهُمْ إِيماناً أي : يقينا وطمأنينة بتظاهر الأدلة التي اشتملت عليها ، أو بالعمل بموجبها. وهو دليل على أن الإيمان يزيد

بالطاعة وينقص بالمعصية ، بناء على أن العمل داخل فيه ، والتحقيق : أن العمل خارج عنه ، لكن نوره يتقوى به وينقص بنقصانه أو بالمعصية ، وسيأتى فى الإشارة الكلام عليه.

ومن أوصاف أهل الإيمان : التوكل على اللّه والاعتماد عليه ، كما قال : وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وقد تقدم فى «آل عمران» الكلام على التوكل «٣» ، ثم وصفهم بإقامة الدين فقال : الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ

---

(١) القبض - بالتحريك : بمعنى المقبوض ، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم. انظر : النهاية (قبض).

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ١/ ١٨٠ وابن أبى شيبة (١٢/ ٣٧٠) وسعيد بن منصور (٢٦٨٩) والطبرى فى التفسير ، وبنحوه أخرجه أبو داود فى (الجهاد ، باب فى النفل) والترمذى فى (التفسير - سورة الأنفال).

(٣) راجع إشارة الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

فى الواجب والتطوع. أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لأنّهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلب ، من الخشية والإخلاص والتوكل ، ومحاسن أعمال الجوارح التي هى العيار عليها ، كالصلاة والصدقة ، لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ أي : كرامات وعلو منزلة ، أو درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم ، وَمَغْفِرَةٌ لما فرط من ذنوبهم ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ أعده لهم فى الجنة ، لا ينقطع مدده ، ولا ينتهى أمده ، بمحض الفضل والكرم.

الإشارة : الأنفال الحقيقة هى المواهب التي ترد على القلوب ، من حضرة الغيوب من العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، لا تزال تتوالى على القلوب ، حتى تغيب عما سوى المحبوب ، فيستغنى غناء لا فقر معه أبدا ، وهذه غنائم خصوص الخصوص ، وغنائم الخصوص : هى القرب من الحبيب ، ومراقبة الرقيب ، بكمال الطاعة والجد والاجتهاد ، وهذه غنائم العباد والزهاد ، وغنائم عوام أهل اليمين : مغفرة الذنوب ، والستر على العيوب ، والنجاة من النار ، ومرافقة الأبرار ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «من قال عند نومه : أستغفر اللّه العظيم الذي لا إله إلّا هو الحىّ القيّوم وأتوب إليه ، غفر اللّه ذنوبه ، وإن كانت مثل زبد البحر ، وعدد الرمال وعدد أيّام الدّنيا» «١».

قال الشيخ زروق : وهذه هى الغنيمة الباردة ، وهذه الأمور بيد اللّه وبواسطة رسول اللّه صلّى اللّه عليه

وسلّم وهو معنى قوله :
قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، ثم دل على موجباتها فقال : فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ ... الآية ، وقوله تعالى : زادَتْهُمْ إِيماناً : اعلم أن الإيمان على ثلاثة أقسام : إيمان لا يزيد ولا ينقص ، وهو إيمان الملائكة ، وإيمان يزيد وينقص ، وهو إيمان عامة المسلمين ، وإيمان يزيد ولا ينقص وهو إيمان الأنبياء والرسل ، ومن كان على قدمهم من العارفين الروحانيين الراسخين في علم اليقين ، ومن تعلق بهم من المريدين السائرين ، فهؤلاء إيمانهم دائما فى الزيادة ، وأرواحهم دائما فى الترقي فى المعرفة ، يزيدون بالطاعة والمعصية لتيقظهم وكمال توحيدهم ، وفي الحكم : «وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول». وقال أيضا : «معصية أورثت ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا» واللّه تعالى أعلم.

ثم تكلم على الخروج إلى غزوة بدر ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٥ الى ٦]

كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (٥) يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الدعوات - باب ١٧) من حديث أبى سعيد رضى اللّه عنه.

قلت : (كما أخرجك) : خبر عن مبتدأ محذوف ، أي : هذه الحال ، وهى عزلهم عن تولية الأنفال فى كراهتهم لها ، كحال إخراجك فى الحرب فى كراهتهم لها ، أو حالهم فى كراهية ما رأيت من تنفيلك للغزاة ، مثل حالهم فى كراهية خروجك ، أو صفة لمصدر الفعل المقدر فى قوله : لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، أي : الأنفال تثبت لله وللرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، مع كراهتهم ، ثباتا مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك ، يعنى المدينة لأنها مسكنه أو بيته منها ، وجملة : (و إن فريقا) :
حال من أخرجك ، أي : أخرجك فى حال كراهية فريق من المؤمنين.

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم : قد كره أصحابك قسمتك للأنفال كما كرهوا إخراجك رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ لقتال العدو ، والحال أن فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ خروجك لذلك ، وتلك الكراهية من قبل النفس وطبع البشرية ، لا من قبل الإنكار فى قلوبهم لأمر اللّه ورسوله ، فإنهم راضون مستسلمون ، غير أن الطبع ينزع لحظه ، والعبد مأمور بمخالفته وجهاده.

وذلك الفريق الذي كره خروجك للقتال يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ أي : يخاصمونك فى إيثارك الجهاد لإظهار الحق ، حيث أرادوا الرجوع للمدينة ، وقالوا : إنا لم نخرج لقتال ، قالوا ذلك بَعْدَ ما تَبَيَّنَ لهم أنهم منصورون أينما توجهوا ، بإعلام الرسول لهم ، لكن الطبع البشري ينزع إلى مواطن السلامة ، كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ أي : يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت ، وهو يشاهد أسبابه ، وكان ذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم ، إذ روى أنهم كانوا رجّالة ، وما كان فيهم إلا فارسان ، وذلك أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لم يخرج لقصد الجهاد ، وإنما لملاقاة عير قريش ، لمّا سمع أنها قدمت من الشّام ، وفيها تجارة عظيمة ، ومعها أربعون راكبا ، فيهم أبو سفيان ، وعمرو بن العاص ، ومخرفة بن نوفل ، وعمرو بن هشام ، فأراد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يتعرض لها ويأخذها غنيمة ، حيث أخبره جبريل بقدومها من الشام ، فأخبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم المسلمين ، فأعجبهم تلقيها ، لكثرة المال وقلة الرجال ، فلما خرجوا ، بلغ الخبر أبا سفيان ، فسلك بالعير طريق السّاحل ، واستأجر من يذهب إلى مكة يستنفرها ، فلما بلغهم خروج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لعيرهم ، نادى أبو جهل فوق الكعبة : يا أهل مكة ، النّجاء النجاء ، على كل صعب وذلول ، عيركم وأموالكم إن أصابها محمّد لن تفلحوا بعدها أبدا.

وقد رأت ، قبل ذلك بثلاث ليال ، عاتكة بنت المطلب ، رؤيا وهو أن رجلا تمثل على جبل قبيس فنادى :

يا آل لكع ، اخرجوا إلى مصارعكم ، ثم تمثل على الكعبة ، فنادى مثل ذلك ، ثم أخذ حجرا فضرب به ، فلم يبق بيت فى مكة إلا دخله شيء من ذلك الحجر ، فحدثت بها العباس ، وبلغ ذلك أبا جهل ، فقال : أما ترضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتنبأ نساؤهم؟ لنتربص ثلاثا ، فإن لم يظهر ما تقول لنكتبن عليكم يا بنى هاشم أنكم أكذب بيت فى العرب ، فلما مضت ثلاث ليال جاء رسول أبى سفيان ليستنفرهم.

(٢/٣٠٦)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٠٧

فخرج أبو جهل بجموع أهل مكة ، ومضى بهم إلى بدر ، وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوما فى السنة ، وكان رسول صلّى اللّه عليه وسلّم بوادي ذفران ، فنزل عليه جبريل بالوعد بإحدى الطائفتين : إما العير وإما قريش ، فاستشار فيه أصحابه ، فقال بعضهم : ما خرجنا لقتال ولا تهيأنا له ، وردد عليهم وقال : إن العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل ، فقالوا : يا رسول اللّه ، عليك بالعير ودع العدو ، فغضب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقام أبو بكر وعمر فأحسنا

، ثم قام سعد بن عبادة فقال : انظر فى أمرك ، وامض ، فو اللّه لو سرت إلى عدن ما تخلّف رجل من الأنصار ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : امض يا رسول اللّه لما أمرك ربك ، فإنا معك حيثما أحببت ، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل : فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ «١» ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فتبسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : أشيروا على أيها الناس ، يريد الأنصار لأنهم كانوا عددهم ، وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم برءاء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم ، فتخوف ألّا يروا نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة ، فقام سعد بن معاذ وقال : لكأنّك تريدنا يا رسول اللّه؟ فقال : أجل ، فقال : قد آمنّا بك وصدّقناك ، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ ، فأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السّمع والطّاعة ، فامض يا رسول اللّه لما أردت ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلّف منّا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا ، وإنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللّقاء ، ولعلّ اللّه يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة اللّه ، فنشّطه قوله ، ثم قال : «سيروا على بركة اللّه ، وأبشروا فإنّ اللّه قد وعدني إحدى الطائفتين ، واللّه لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم».

ثم مضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حتى نزل بأصحابه آخر مياه من مياه بدر ، فبنى له هناك عريش ، فجلس فيه هو وأبو بكر ، فلما انتشب القتال أخذ قبضة من تراب فرمى بها وجوه القوم ، وقال : شاهت الوجوه ، فلم تبق عين من الكفار إلا وقع فيها شيء منها ، ونزلت الملائكة فى العنان ، أي : السماء ، فقتل منهم سبعون ، وأسر سبعون ، وقيل : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لما فرغ من غزوة بدر ، قيل له : عليك بالعير ، فقال العباس - وهو فى وثاقه : لا يصلح ، فقيل له : لم؟ فقال له : لأن اللّه وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك ما وعدك ، فكره بعضهم قوله ، ثم رجع صلّى اللّه عليه وسلّم إلى المدينة منصورا فرحا مسرورا ، وقد أنجزه اللّه ما وعده.

الإشارة : من حكمته تعالى الجارية فى عباده أن كل ما يثقل على النفوس ويشق عليها فى بدايته تكون عاقبته الفتح والنصر ، والهناء والسرور ، فكل ما تكرهه النفوس فغايته حضرة القدوس ، وما تحقق سير السائرين إلا

---

(١) الآية ٢٤ من سورة المائدة.

بمحاربة نفوسهم ومخالفة عوائدهم. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم ، قال لابن عباس فى

حديث طويل : «وفى الصّبر على ما تكره خير كثير». واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية قصة بدر ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٧ الى ٨]

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)

قلت : (و إذ) : ظرف لا ذكر ، محذوفة ، و(أنها لكم) : بدل اشتمال من (إحدى الطائفتين) ، والشوكة : الحدة ، مستعارة من واحد الشوك ، وسميت الحرب شوكة لحدة سلاحها.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكروا إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ قريشا ، أو عيرهم ، وعدكم أَنَّها لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ وتتمنون أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ أي : ذات الحرب تَكُونُ لَكُمْ وهى العير ، فإنها لم يكن فيها إلا أربعون رجلا ، وتكرهون ملاقاة النفير لكثرة عددهم وعددهم ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ أي : يظهر الحق ، وهو الإسلام ، بقتل الكفار وهلاكهم فى تلك الغزوة ، بِكَلِماتِهِ أي : بإظهار كلماته العليا ، أو بكلماته التي أوحى بها فى هذه الحال ، أو بأوامره للملائكة بالإمداد ، أو بنفوذ كلماته الصادقة بهلاكهم ، وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ أي : يستأصلهم ويقطع شوكتهم.

ومعنى الآية : أنكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تلقوا مكروها ، واللّه يريد إعلاء الدين وإظهار الحق ، وما يحصل لكم من فوز الدارين. وإنما فعل ما فعل من سوقكم إلى القتال لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ أي : ليظهر الدين ويبطل الكفر.

قال البيضاوي : وليس بتكرار لأن الأول لبيان المراد ، وما بينه وبين مرادهم من التفاوت ، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم على اختيار ذات الشوكة وقصره عليها. هـ. وقال ابن جزى : ليس تكرارا للأول لأن الأول مفعول يريد ، وهذا تعليل لفعل اللّه تعالى ، ويحتمل أن يريد بالحق الأول الوعد بالنصرة ، وبالحق الثاني الإسلام ، فيكون المعنى : أنه نصرهم ليظهر الإسلام ، ويؤيد هذا قوله : وَيُبْطِلَ الْباطِلَ أي : يبطل الكفر ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ذلك ، فإن اللّه لا بد أن يظهر دينه على الدين كله ، ولو كره الكافرون.

الإشارة : وعد الله المتوجهين إليه بالوصول إلى سر الخصوصية ، وهى الولاية ، لكن بعد المجاهدة والمحاربة للنفوس لأن الحضرة لا يدخلها إلا أهل التهذيب والتدريب ، وترى كثيرا من الناس يتمنون أن تكون لهم من غير حرب ولا قتال ، ويريد الله أن يحق الحق بكشف الحجب عن القلوب ، حتى لا

يشاهدوا إلا الحق ، ويبطل الباطل ، وهو السّوى ، ولا يكون فى العادة إلا بعد موت النفوس وتهذيبها وتطهيرها بالرياضة على شيخ عارف. قال الششترى مترجما عن لسان الحقيقة :

إن ترد وصلنا فموتك شرط لا ينال الوصال من فيه فضله

ثم ذكر إمدادهم بالملائكة ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٩ الى ١٠]

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)

قلت : (إذ) : بدل من (إذ يعدكم) ، أو متعلق بقوله : (ليحق الحق) ، أو باذكر.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا حين كنتم تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ وتدعون بالغوث والنصر ، وذلك أن الصحابة - رضى الله عنهم - لمّا علموا ألّا محيص لهم عن القتال أخذوا يقولون : ربنا انصرنا على عدوك ، يا غياث المستغيثين أغثنا.

وعن عمر : رضى اللّه عنه (أنه صلّى اللّه عليه وسلّم نظر إلى المشركين وهم ألف ، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة ، فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعوه : «اللهم أنجز لى ما وعدتني ، اللهمّ إن تهلك هذه العصابة لم تعبد فى الأرض» ، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه ، فقال أبو بكر : يا نبيّ اللّه ، كفاك مناشدتك ربّك ، فإنه سينجز لك ما وعدك) «١». وقد تقدم أن الأنبياء وكبراء الأولياء لا يقفون مع ظاهر الوعد والوعيد ، لسعة دائرة علمهم ، بل لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير الله قرارهم ، ولعل ذلك الوعد يكون متوقفا على شروط أخفاها الحق تعالى لتظهر قهريته وانفراده بالعلم المحيط.

ولما استغاثوا بالله وأظهروا الحاجة إليه أجابهم فقال : فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ مقويكم ومكثركم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ يتبع بعضهم بعضا ، ويتبع المؤمنين ، فكانوا خلفهم ردءا لهم ، فمن قرأ بفتح الدال

---

(١) أخرجه مسلم فى (الجهاد - باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر). [.....]

فهو اسم مفعول ، ومن قرأه بالكسر فاسم فاعل ، وصح معنى القراءتين ، لأن الملائكة المنزلين يتبع بعضهم بعضا ، فمنهم تابعون ومتبوعون ، ومن قرأ بالفتح فالمراد مردفين بالمؤمنين ، فكانوا مقدمة الجيش ، ومن قرأ بالكسر فالمراد مردفين للمؤمنين تابعين لهم ، فكانوا ساقة للجيش.

ثم ذكر حكمة الإمداد بقوله : وَما جَعَلَهُ اللَّهُ أي : الإمداد ، إِلَّا بُشْرى أي : بشارة بالنصر ، وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ فيزول ما بها من الوجل لقلتكم ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لا يتوقف على سبب ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يغلب ، حَكِيمٌ فى تدبير الأسباب وترتيبها رداء للقدرة الأزلية ، فإمداد الملائكة ، وكثرة العدد ، والتأهب ، وسائط ، لا تأثير لها ، فلا تحسبوا النصر منها ، ولا تيأسوا منه بفقدها ، فحكم الأزل جلّ أن يضاف إلى العلل.

الإشارة : إظهار الفاقة والابتهال لا يقدح فى صحة التوكل على الكبير المتعال ، بل هو شرف للإنسان ، وتقريب من الكريم المنان ، بل من شأن العارف الكامل الرجوع إلى اللّه فى كل شيء ، والتعلق به فى كل حال ، ولو وعده بالنصر أو الإجابة ، لا يقطع عنه السؤال ، عبودية وتملقا بين يدى الحبيب.

وقد اختلف الصوفية : أي الحالين أشرف : هل الدعاء والتضرع؟ أو السكوت والرضى تحت مجارى الأقدار؟ وقال بعضهم : يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه ، صاحب رضى بقلبه ، ليجمع بين الأمرين. قال القشيري :

والأولى أن يقال : إن الأوقات مختلفة ، ففى بعض الأحوال الدعاء أفضل ، وفى بعض الأحوال السكوت أفضل ، وإنما يعرف ذلك فى الوقت لأن علم الوقت يحصل فى الوقت ، فإذا وجد فى قلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء منه أولى ، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت أتم. هـ. وقد تقدم فى آل عمران إشارة الإمداد «١». وبالله التوفيق.

ثم ذكر تأمينهم ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ١١ الى ١٢]

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (١٢)

---

(١) راجع إشارة الآية ١٢٥ من سورة آل عمران.

قلت : (إذ) : بدل ثان من (إذ يعدكم) ، أو متعلق بالنصر ، لما فى (عند اللّه) من معنى الفعل ، أو بإضمار اذكروا. ومن قرأ بضم الياء ، فهو من أغشى ، أي : غطى ، ومن قرأ بالتشديد ، فهو من غشى المضعف ، وكلاهما يتعدى إلى مفعولين ، الكاف الأول والنعاس الثاني ، ومن قرأ بالفتح والتخفيف ،

فهو من غشى يغشى المتعدى إلى واحد ، و(أمنة) : مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا إِذْ يُغَشِّيكُمُ ، أي : حين كان يغشيكم النُّعاسَ وأنتم فى القتال ، حين ينزل عليكم الأمن من العدو بعد شدة الخوف ، وذلك لأجل الأمن الذي نزل من اللّه عليكم بعد شدة خوفكم.

قال ابن مسعود رضى اللّه عنه : النعاس عند حضور القتال علامة أمن من العدو.

ثم ذكّرهم بمنة أخرى ، فقال : وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ من الحدث والجنابة ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ أي : وسوسته وتخويفه إياهم من العطش ، روى أنهم نزلوا فى كثيب رمل دهس ، تسوخ فيه الأقدام ، على ماء قليل ، وناموا فاحتلم أكثرهم ، فوسوس إليهم الشيطان ، وقال : كيف تنصرون وأنتم تصلون محدثين مجنبين ، وتزعمون أنكم أولياء اللّه وفيكم رسوله؟ ، فأشفقوا ، فأنزل اللّه المطر ، فمطروا ليلا حتى جرى الوادي ، فاتخذوا الحياض على عدوته ، وسقوا الركاب ، واغتسلوا وتوضؤوا ، وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو ، حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الدهوسة ، وهذا معنى قوله : وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ أي : وليربط على قلوبكم بالوثوق على لطف اللّه وزوال ما وسوس إليهم الشيطان ، وذهاب الكسل عنها. وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ حتى لا تسوخ فى الرمل ، أو بالربط على القلوب حتى تثبت فى مداخص الحرب.

واذكروا أيضا : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ أي : أثبت أقدامكم حين أوحي إلى الملائكة أني معكم فى نصر المؤمنين وتثبيتهم ، فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا بتكثير عددهم ، أو بالبشارة لهم ، أو بمحاربة أعدائهم ، على قول من قال : إنهم باشروا القتال. سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ والجزع ، حتى لا يثبتوا لقتالكم ، يحتمل أن يكون من خطاب اللّه للملائكة ، أو استئناف إخبارا للمؤمنين عما يفعله بعدوهم عاجلا وآجلا.

ثم قال للملائكة أو للمؤمنين : فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ أي : أعاليها التي هى المذابح والرؤوس ، وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ أي : أصابعهم ، أي : جزوا رقابهم واقطعوا أطرافهم.

الإشارة : كان شيخ شيخنا يشير على الفقراء ، إذا كثرت عليهم الخواطر والهواجس ، بالنوم ، ويقول : من تشوش خاطره فليرقد حتى يشبع من النعاس ، فإنه يجد قلبه لأن النعاس أمنة من اللّه يذهب به رجز الشيطان وثقله ، ويربط على القلوب فى الحضرة لأنه زوال ، وإذا زال العبد ظهر الحق وزهق الباطل.

وقوله تعالى : وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً : هو ماء الغيب الذي يطهر القلوب من شهود السّوى ،

ويذهب به رجز الشيطان ، وهى ظلمة الأكوان ، التي تنعقد فى القلب من حب الهوى الذي هو من تزيين الشيطان ، ويثبت به الأقدام ، حتى تثبت عند مصادمة أنوار الحضرة ، التي هى تجلى الذات ، فلا يثبت لها إلا الشجعان والأبطال وأكابر الرجال. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر علة أمرهم بقتل الكفار ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ١٣ الى ١٤]

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (١٣) ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (١٤)

قلت : (ذلكم) : مبتدأ حذف خبره ، أي : ذلكم العقاب أو العذاب ، أو خبر ، أي : الأمر ذلكم ، أو منصوب بمضمر يفسره فذوقوه ، و(أن للكافرين) : عطف على (ذلكم) ، أو نصب على المفعول معه ، وقرىء بالكسر استئنافا.

يقول الحق جل جلاله : لِكَ

الضرب لأعناق الكفار ، أو الأمر به أَنَّهُمْ

بسبب أنهم اقُّوا

أي : خالفوالَّهَ وَرَسُولَهُ

، وصاروا كأنهم فى شق وهو فى شق مبالغة فى المخالفة والمباعدة ، مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

ويبعد عنهماإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ

لكل من خالفه أو خالف رسوله ، وهو تقرير للتعليل ، أو وعيد بما أعد اللّه لهم فى الآخرة بعد ما حاق بهم فى الدنيا ، ذلِكُمْ العذاب فَذُوقُوهُ وباشروا مرارته ، وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ ، والمعنى : ذوقوا ما عجل لكم من النقمة فى الدنيا مع ما يحل عليكم فى الآخرة من عذاب النار ، ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أن الكفر سبب العذاب العاجل والآجل.

الإشارة : مخالفة اللّه ورسوله توجب الطرد والبعاد ، وموافقة اللّه ورسوله توجب القربة والوداد ، وهذه الموافقة التي توجب للعبد المحبة والوداد تحصل بخمسة أشياء : امتثال أمره ، واجتناب نهيه ، والإكثار من ذكره ، والاستسلام لقهره ، والاقتداء بنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم والتأدب بآدابه ، والتخلق بأخلاقه ، وبأضداد هذه الأشياء يحصل للعبد المخالفة التي توجب طرده وبعده ، وهي مخالفة أمره ، وارتكاب نهيه ، والغفلة عن ذكره ، والتسخط عند نزول قهره ، وعدم الاقتداء بنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم بارتكاب البدع المحرمة والمكروهة ، حتى يفضى به الحال إلى المشاققة والمباعدة ، مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ

. وبالله التوفيق.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣١٣

ثم نهى عن الفرار فى الحرب ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ١٥ الى ١٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)

قلت : (زحفا) : مصدر ، وزحف الصبى إذا دب على مقعده قليلا قليلا ، سمى به الجيش المقابل للقتال لأنه يندفع للقتال شيئا فشيئا ، ونصبه على الحال من فاعل «لقيتم» ، أو «من الذين كفروا» ، و(متحرفا) و(متحيزا) :

حالان ، و(إلا) ملغاة ، ووزن متحيز : متفيعل ، لا متفعل ، وإلا لكان متحوزا لأنه من حاز يحوز.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا

زاحفين لهم ، تدبون إليهم ويدبون إليكم ، تريدون قتالهم متوجهين إليهم ، فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ بالانهزام عنهم ، فإنه حرام ، وهو من الكبائر ، ويفيد بألا يكون الكفار أكثر من ثلثى المسلمين ، فإن زادوا على ثلثى المسلمين حلّ الفرار ، وأن يكون المسلمون مسلحين ، وإلا جاز الفرار ممن هو بالسلاح دونه ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ ، وهو أن يكرّ راجعا أمام العدو ليرى عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه ، وهو من مكائد الحرب ، أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ أي :

منحازا إلى جماعة من المسلمين ليستعين بهم ، فإن كانت الجماعة حاضرة فى الحرب ، أو قريبة ، فالتحيز إليها جائز باتفاق ، واختلف فى التحيز إلى المدينة والإمام والجماعة إذا لم يكن شىء من ذلك حاضرا.

ويروى عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أنه قال : أنا فئة لكل مسلم. وروى عن ابن عمر : أنه كان فى سرية بعثهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ففرّوا إلى المدينة ، فقلت : يا رسول اللّه ، نحن الفرّارون ، فقال : «أنتم الكرّارون ، وأنا فئتكم» «١».

فمن فرّ من الجهاد بالشرط المتقدم فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، ومن هذا يفهم أنه من الكبائر. قال البيضاوي : وهذا إذا لم يزد العدو على الضعف ، لقوله : الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ... «٢»

الآية ، وقيل : الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه فى الحرب. هـ.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله للمتوجهين إليه بالمجاهدة والمكابدة : إذا لقيتم أعداءكم من القواطع كالحظوظ ، والشهوات ، وسائر العلائق ، فاثبتوا حتى تظفروا ، ولا ترجعوا وتولوهم الأدبار فيظفروا بكم ، إلا متحرفا

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٧٠) وأبو داود فى (الجهاد - باب فى التولي يوم الزحف) والترمذي وحسنه فى (الجهاد - باب ما جاء فى الفرار يوم الزحف).
(٢) الآية ٦٦ من سورة الأنفال.

لقتال بإيثار بعض الرخص ، ليقوى على ما هو أشد منها مشقة عليها ، أو متحيزا إلى جماعة من أكابر العارفين ، فإنهم يغنونه بالمشاهدة عن المجاهدة ، إذا ملكهم زمام نفسه ، وفعل كل ما يشيرون به عليه ، فإن ذلك يفضى به إلى الراحة بعد التعب ، والمشاهدة بعد المجاهدة ، إذ لا تجتمع المجاهدة فى الظاهر مع مشاهدة الباطن عند أهل الذوق.
قال القشيري - بعد كلامه على الآية : فالأقوياء من الأغنياء ينفقون على خدمهم من نعمهم ، والأصفياء من الأولياء ينفقون على مريديهم من هممهم يجبرون كسرهم وينوبون عنهم ، ويساعدونهم بحسن إرشادهم ، ومن أهمل مريدا وهو يعرف صدقه ، أو خالف شيخا وهو يعرف فضله وحقّه ، فقد باء من اللّه بسخط ، واللّه تعالى حسيبه فى مكافأته على ما حصل من قبيح وصفه. هـ.
ثم عزلهم عن الحول والقوة ، فقال :
[سورة الأنفال (٨) : الآيات ١٧ الى ١٨]
فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (١٨)
يقول الحق جل جلاله : فلم تقتلوا الكفار بحولكم وقوتكم وذلتكم ، وقلة عدتكم وعددكم ، وكثرة عدد عدوكم وعدتهم ، وَلكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ بواسطة مباشرتكم ، حيث أيدكم وسلطكم عليهم ، وإمداد الملائكة لكم ، وإلقاء الرعب فى قلوب عدوكم.
قال البيضاوي : روى أنه لما أطلّت قريش من العقنقل - اسم جبل - قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها ، يكذّبون رسولك ، اللّهمّ إنّى أسألك ما وعدتني» ، فأتاه جبريل ، وقال له : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فلمّا التقى الجمعان تناول كفا من الحصباء فرمى بها فى وجوههم ، وقال : «شاهت الوجوه» ، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه ، فانهزموا. وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر ، فيقول الرجل :
قتلت وأسرت ، فنزلت الآية ، وإلغاء جواب شرط محذوف ، تقديره : إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ، ولكن اللّه قتلهم ، وَما رَمَيْتَ يا محمد رميا توصلها إلى أعينهم ، ولم تقدر عليه إِذْ رَمَيْتَ أي : حين

ألقيت صورة الرمي ، وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى ، أتى بما هو غاية الرمي ، فأوصلها إلى أعينهم جميعا ، حتى انهزموا وتمكنتم من قطع دابرهم. هـ. فالرمى ، حقيقة ، إنما وقع من اللّه تعالى ، وإن ظهر حسا من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

(٣١٤/٢)

وإنما فعل ذلك ليقطع طرفا من الكفار ، ويحد شوكتهم ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً أي : ليختبر المؤمنين منه اختبارا حسنا ، ليظهر شكرهم على هذه النعمة ، أو لينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لاستغاثتهم ودعائهم ، عَلِيمٌ بنياتهم وأحوالهم. ذلِكُمْ أي : البلاء الحسن ، أو القتل ، أو الرمي ، واقع لا محالة ، أو الأمر ذلكم ، وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ أي : مضعف كيد الكافرين ، ومبطل حيلهم ، أي : المقصود بذلك القتل أو الرمي إبلاء المؤمنين ، وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله للمريدين المتوجهين لحضرة محبوبهم : فلم تقتلوا نفوسكم بمجاهدتكم إذ لا طاقة لكم عليها ، ولكن اللّه قتلها بالنصر والتأييد ، حتى حييت بمعرفته ، ويقول للشيخ : وما رميت القلوب بمحبتى ومعرفتى ، ولكن اللّه رمى تلك القلوب بشىء من ذلك ، وإنما أنت واسطة وسبب من الأسباب العادية ، لا تأثير لك فى شيء من ذلك.

حكى أن الحلاج ، لما كان محبوسا للقتل ، سأله الشبلي عن المحبة ، فقال : الغيبة عما سوى المحبوب ، ثم قال :

يا شبلى ، ألست تقرأ كتاب اللّه؟ فقال الشبلي : بلى ، فقال : قد قال اللّه لنبيه - عليه الصلاة والسلام - : وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى ، يا شبلى إذا رمى اللّه قلب عبده بحبّة من حبّه ، نادى عليه مدى الأزمان بلسان العتاب. هـ. والمقصود بذلك : تخصيص أوليائه المقربين بالمحبة والمعرفة والتمكين ، وتوهين كيد الغافلين المنكرين لخصوصية المقربين. واللّه تعالى أعلم.

ولما أرادت قريش الخروج إلى غزوة بدر ، تعلقوا بأستار الكعبة ، وطلبوا الفتح ، وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين ، وأهدى الفئتين ، وأكرم الحزبين ، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة الأنفال (٨) : آية ١٩]

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

يقول الحق جل جلاله لكفار مكة على جهة التهكم : إِنْ تَسْتَفْتِحُوا أي : تطلبوا الفتح ، أي : الحكم

على أهدى الفئتين وأعلى الجندين وأكرم الحزبين ، فَقَدْ جاءَكُمُ الحكم كما طلبتم ، فقد نصر اللّه أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين ، وهو محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وحزبه ، وَإِنْ تَنْتَهُوا عن الكفر ومعاداة الرسول ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين ، وَإِنْ تَعُودُوا لمحاربته نَعُدْ لنصره ، وَلَنْ تُغْنِيَ تدفع عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ جماعتكم شَيْئاً من المضار وَلَوْ كَثُرَتْ فئتكم ، إذ العبرة بالنصرة لا بالكثرة ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بالنصر والمعونة.

(٣١٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣١٦

ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار ، أي : ولأن اللّه مع المؤمنين ، وقيل : الخطاب للمؤمنين ، والمعنى : إن تستنصروا فقد جاءكم النصر ، وإن تنتهوا عن التكاسل فى القتال ، والرغبة عما يختاره الرسول ، فهو خير لكم ، وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار ، أو تهييج العدو ، ولن تغنى ، حينئذ ، عنكم كثرتكم إذ لم يكن اللّه معكم بالنصر ، فإنه مع الكاملين فى إيمانهم. قاله البيضاوي.

الإشارة : إن تستفتحوا أيها المتوجهون ، أي : تطلبوا الفتح من اللّه فى معرفته ، فقد جاءكم الفتح ، حيث صح توجهكم وتركتم حظوظكم وعلائقكم ، لأن البدايات مجلاة النهايات ، من وجد ثمرة عمله عاجلا فهو علامة القبول آجلا ، وإن تنتهوا عن حظوظكم وعوائقكم فهو خير لكم ، وبه يقرب فتحكم ، وإن تعودوا إليها نعد إليكم بالتأديب والإبعاد ، ولن تغنى عنكم جماعتكم شيئا فى دفع التأديب ، أو البعد ، ولو كثرت ، وأن اللّه مع المؤمنين الكاملين فى الإيمان بالنصر والرعاية.

ثم أمر بالسمع والطاعة ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٢٠ الى ٢١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ فيما أمركم به ونهاكم عنه ، وَرَسُولَهُ فيما ندبكم إليه ، من الجهاد وغيره ، وَلا تَوَلَّوْا أي : تعرضوا عن الرسول وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ القرآن يأمركم بالتمسك به ، والاقتداء بهديه. والمراد بالآية : النهى عن الإعراض عن الرسول. وذكر طاعة اللّه إما هو للتوطئة والتنبيه على أن طاعة اللّه فى طاعة الرسول ، لقوله : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ «١» ، ثم أكد النهى بقوله : وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا بآذاننا ، كالكفرة والمنافقين ، ادّعوا السماع ، وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ سماعا ينتفعون به ، فكأنهم لا يسمعون رأسا.

الإشارة : لما غاب عليه الصلاة والسلام بقي خلفاؤه فى الظاهر والباطن وهم العلماء الأتقياء ،

والعارفون الأصفياء. فمن تمسك بهم ، واستمع لقولهم ، فقد تمسك بالرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومن أعرض عنهم فقد أعرض عنه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فمن تمسك بما جاءت به العلماء ، فاز بالشريعة المحمدية ، وكان من الناجين الفائزين. ومن تمسك بالأولياء العارفين ، واستمع لهم ، وتبع إرشادهم ، فاز بالحقيقة الربانية ، وكان من المقربين. ومن سمع منهم الوعظ والتذكير ،

---

(١) من الآية ٨٠ من سورة النساء.

ثم صرفه عن نفسه إلى غيره ، يصدق عليه قوله تعالى : وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ وكان من شر الدواب التي أشار إليهم تعالى بقوله :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٢٢ الى ٢٣]

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ وهو كل من يدب على وجه الأرض ، الصُّمُّ عن سماع الحق ، الْبُكْمُ عن النطق به ، الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ الحق ولا يعرفونه ، عدهم من البهائم ثم جعلهم شرها لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله ، وهو استعمال العقل فيما ينفعهم من التفكر والاعتبار. قال ابن قتيبة : نزلت هذه الآية فى بنى عبد الدار ، فإنهم جدوا فى القتال مع المشركين ، يعنى يوم بدر ، وحكمها عام.

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً سعادة كتبت لهم ، أو انتفاعا بالآيات ، لَأَسْمَعَهُمْ سماع تفهم ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ، مع كونه قد علم الأخير فيهم ، لَتَوَلَّوْا عنه ، ولم ينتفعوا به ، وارتدوا بعد التصديق والقبول ، وَهُمْ مُعْرِضُونَ عنه ، لعنادهم ، وقيل : إنهم طلبوا من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يحيي لهم قصى بن كلاب ، ويشهد له بالرسالة ، حتى يسمعوا منه ذلك ، فأنزل اللّه : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ كلامه بعد إحيائه ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ، لسبق الشقاوة فى حقهم.

الإشارة : اعلم أن الأمر الذي شرف به الآدمي وفضل غيره هو معرفة خالقه ، واستعمال العقل فيما يقربه إليه ، وسماع الوعظ الذي يزجره عن غيه ، فإذا فقد هذا كان كالبهائم أو أضل ، ولله در ابن البنا ، حيث يقول فى مباحثه :

واعلم أنّ عصبة الجهّال بهائم فى صور الرّجال

واعلم أيضا أن بعض القلوب لا تقبل علم الحقائق ، فأشغلها بعلم الشرائع ، ولو علم فيها خيرا لأسمعها تلك الأسرار ، ولو أسمعها ، مع علمه بعدم قبولها ، لتولت عنها وأعرضت لضيق صدرها وعدم التفرغ لها.

ثم دل على ما فيه حياة القلوب ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٢٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)

(٣١٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣١٨

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ أي : أجيبوه فيما دعاكم إليه ، وَلِلرَّسُولِ فيما دلكم عليه من الطاعة والإحسان ، إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ من العلوم الدينية فإنها حياة القلب ، كما أن الجهل موته ، أو إذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ الحياة الأبدية ، فى النعيم الدائم ، من العقائد والأعمال ، أو من الجهاد ، فإنه سبب بقائكم إذ لو تركتموه لغلبكم العدو وقتلكم ، أو الشهادة ، لقوله تعالى : أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ «١» ، ووحد الضمير فى قوله : إِذا دَعاكُمْ باعتبار ما ذكر ، أو لأن دعوة الله تسمع من الرسول.

وفى البخاري : أن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم دعا أبيّ بن كعب ، وهو فى الصّلاة ، فلم يجب ، فلما فرغ أجاب ، فقال له صلّى اللّه عليه وسلّم :

«ما منعك أن تجيبنى؟ فقال : كنت أصلى ، فقال : ألم تسمع قوله : اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ.» «٢»

فاختلف فيه العلماء ، فقيل لأن إجابته صلّى اللّه عليه وسلّم لا تقطع الصلاة ، فيجيب ، ويبقى على صلاته ، وقيل : إن دعاءه كان لأمر لا يقبل التأخير ، وللمصلى أن يقطع الصلاة لمثله ، كإنقاذ أعمى وشبهه.

ثم قال تعالى : وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ فينقله من الإيمان إلى الكفر ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن اليقين إلى الشك ، ومن الشك إلى اليقين ، ومن الصفاء إلى الكدر ، ومن الكدر إلى الصفاء. قال البيضاوي : هو تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله تعالى : وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ «٣» ، وتنبيه على أنه مطلع على مكنونات القلوب ، مما عسى أن يغفل عنها صاحبها ، أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها ، قبل أن يحول اللّه بينه وبين قلبه بالموت أو غيره ، أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ، ويغير مقاصده ، ويحول بينه وبين الكفر ، إن أراد

سعادته ، وبينه وبين الإيمان ، إن قضى شقاوته. هـ. وَاعلموا أيضا أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فيجازيكم بأعمالكم وعقائدكم.

الإشارة : قد جعل اللّه ، من فضله ورحمته ، في كل زمان وعصر ، دعاة يدعون الناس إلى ما تحيا به قلوبهم ، حتى تصلح لدخول حضرة محبوبهم ، فهم خلفاء عن اللّه ورسوله ، فمن استجاب لهم وصحبهم حيى قلبه ، وتطهر سره ولبه ، ومن تنكب عنهم ماتت روحه في أودية الخواطر والأوهام.

---

(١) من الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه البخاري في (تفسير سورة الأنفال - باب قول اللّه تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ..) وفيه أن المدعو هو «أبو سعيد المعلى» وليس «أبى» أما حديث أبى فأخرجه الترمذي في : (فضائل القرآن - باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب) وأحمد في المسند ٥/ ١١٤ والدارمي في (فضائل القرآن - باب فضل فاتحة الكتاب) والحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٨) وصححه ووافقه الذهبي. وقال الحافظ ابن حجر : وجمع البيهقي بأن القصة وقعت لأبى بن كعب ولأبى سعيد بن المعلى. راجع الفتح ٨/ ١٥٨.

(٣) الآية ١٦ من سورة ق.

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

وقوله تعالى : وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ حيلولة الحق تعالى بين المرء وقلبه هو تغطيته وحجبه عن شهود أسرار ذاته وأنوار صفاته ، بالوقوف مع الحس ، وشهود الفرق بلا جمع ، ويعبر عنه أهل الفن بفقد القلب ، فإذا قال أحدهم : فقدت قلبى ، فمعناه : أنه رجع لشهود حسه ووجود نفسه ، ووجدان القلب هو احتضاره بشهود معانى أسرار الذات وأنوار الصفات ، فيغيب عن نفسه وحسه ، وعن سائر الأكوان الحسية ، وفقدان القلب يكون بسبب سوء الأدب ، وقد يكون بلا سبب اختبارا من الحق تعالى ، هل يفزع إليه فى فقده أو يبقى مع حاله.

وقد تكلم الغزالي على القلب فقال ، فى أول شرح عجائب القلب من الإحياء : إن المطيع بالحقيقة للّه هو القلب ، وهو العالم باللّه ، والعامل للّه ، وهو الساعي إلى اللّه ، والمتقرب إليه ، المكاشف بما عند اللّه ولديه ، وإنما الجوارح أتباع ، والقلب هو المقبول عند اللّه ، إذا سلّم من غير اللّه ، وهو المحجوب عن اللّه إذا صار مستغرقا فى غير اللّه ، وهو المطالب والمخاطب ، وهو المعاتب والمعاقب ، وهو الذي يسعد بالقرب من اللّه ، فيفلح إذا زكاه ، ويخيب ويشقى إذا دنسه ودساه. ثم قال : وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه ، وإذا جهله فقد جهل نفسه ، وإذا جهل نفسه ، جهل ربه ، ومن جهل قلبه فهو لغيره أجهل ، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقد حيل بينهم وبين أنفسهم ، فإن اللّه يحول بين المرء وقلبه ، وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ، ومعرفة صفاته ، وكيفية تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إلى أعلى عليين ، ويرتقى إلى عالم الملائكة المقربين ، ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ، ويترصد ما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه ، فهو ممن قال اللّه تعالى فيهم :

نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ «١» الآية. هـ.

وقد أنشد من وجد قلبه ، وعرف ربه ، وغنى بما وجد ، فقال :

أنا القرآن والسّبع المثاني وروح الرّوح لا روح الأوانى

فؤادى عند معلوم مقيم تناجيه وعندكم لسانى

فلا تنظر بطرفك نحو جسمى وعد عن التنعم بالأوانى

فأسرارى تراءت مبهمات مستّرة بأنوار المعانى

فمن فهم الإشارة فليصنها وإلّا سوف يقتل بالسنان

كحلّاج المحبة إذ تبدّت له شمس الحقيقة بالتدانى

---

(١) الآية ١٩ من سورة الحشر.

(٣١٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٢٠

ومن أسباب تشتت القلب وفقده دخول الفتنة عليه ، الذي أشار إليه بقوله :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٢٥]

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢٥)

قلت : دخلت النون فى (لا تصيبن) لأنه فى معنى النهى ، على حد قوله : لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ «١». انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : وَاتَّقُوا فِتْنَةً ، إن نزلت ، لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، بل تعم الظالم وغيره ، ثم يبعث الناس على نيتهم ، وذلك كإقرار المنكر بين أظهركم ، والمداهنة فى الأمر بالمعروف ، واقتراف الكبائر ، وظهور البدع ، والتكاسل فى الجهاد ، وعن الفرائض ، وغير ذلك من أنواع الذنوب ، وفى الحديث :

«لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ، أو ليعمّنّكم اللّه بعذابه» «٢». أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم. قالت عائشة رضى اللّه عنه : أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : «نعم ، إذا كثر الخبث» «٣».

قال القشيري ، فى معنى الآية : احذروا أن ترتكبوا زلّة توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها ، بل يعمّ شؤمها من تعاطاها ومن لم يتعاطاها. وغير المجرم لا يؤخذ بجرم من أذنب ، ولكن قد ينفرد واحد بجرم فيحمل أقوام من المختصين بفاعل هذا الجرم ، كأن يتعصبوا له إذا أخذ بحكم ذلك الجرم ، فبعد ألا يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالما فى الحال ، بل تصيب أيضا ظالما فى المستقبل بسبب تعصبه لهذا الظالم ، ورضاه به. هـ. وسيأتى تمامه فى الإشارة.

وحكى الطبري أنها نزلت فى على بن أبى طالب وعمار بن ياسر وطلحة والزبير ، وأن الفتنة ما جرى لهم يوم الجمل. هـ. قال تعالى : وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ لمن ارتكب معاصيه وتسبب فى فتنة غيره.

الإشارة : فى القشيري ، لما تكلم على تفسير الظاهر ، قال : وأما من جهة الإشارة فإن العبد إذا باشر

زلّة بنفسه عادت إلى القلب منها الفتنة ، وهى العقوبة المعجلة ، ونصيب النفس من الفتنة العقوبة ، والقلب إذا حصلت

---

(١) من الآية ١٨ من سورة النمل.
(٢) أخرجه بلفظ مقارب الإمام أحمد فى المسند (٥/ ٣٨٨). والترمذي فى (الفتن - باب ما جاء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) وحسنه. من حديث حذيفة بن اليمان. ولفظ الترمذي : «والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن اللّه أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».
(٣) أخرجه البخاري فى (المناقب ، باب علامات النبوة فى الإسلام) عن أم المؤمنين زينب بنت جحش مطولا. وفيه السائلة :
زينب ، وليست عائشة - رضى اللّه عن أزواجه نبينا الطاهرات.

منه فتنة ، وهو همه بما لا يجوز ، تعدّت فتنته إلى السر وهى الحجبة. وكذلك المقدّم فى شأنه ، إذا فعل ما لا يجوز ، انقطعت البركات التي كانت تتعدى منه إلى متّبعيه وتلامذته ، فكان انقطاع تلك البركات عنهم نصيبهم من الفتنة ، وهم لم يعملوا ذنبا ، ويقال : إن الأكابر إذا سكتوا عن التنكير على الأصاغر أصابتهم فتنة بتركهم الإنكار عليهم فيما فعلوا من الإجرام.
ثم قال : ويقال : إنّ الزاهد إذا انحط إلى رخصة الشرع فى أخذ الزيادة من الدنيا بما فوق الكفاية - وإن كانت من وجه حلال - تعدت فتنته إلى من يتخرج على يديه من المبتدئين ، فيحمله على ما رأى منه على الرغبة فى الدنيا ، وترك التقلل ، فيؤديه إلى الانهماك فى أودية الغفلة فى الأشغال الدنيوية.
والعابد إذا جنح إلى سوء ترك الأوراد تعدّى ذلك إلى ما كان ينشط فى المجاهدة به ، ويتوطّن الكسل ، ثم يحمله الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات ، فيصير كما قيل :
إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة»
فهذا يكون نصيبهم من الفتنة ، والعارف إذا رجع إلى ما فيه حظ له ، نظر إليه المريد فتتداخله فتنة فترة فيما هو به من صدق المنازلة ، فيكون ذلك نصيبه من فتنة العارف. وبالجملة : إذا غفل الملك ، وتشاغل عن سياسة رعيته ، تعطّل الجند والرعية ، وعظم فيهم الخلل والبليّة ، وفى معناه أنشدوا :
رعاتك ضيّعوا - بالجهل منهم غنيمات فساستها ذئاب.

انتهى كلامه رضى اللّه عنه.

ثم ذكّرهم بالنعم ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٢٦]

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ أي : اذكروا هذه النعمة ، حيث كنتم بمكة وأنتم قليل عددكم مع كثرة عدوكم ، مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ أي : أرض مكة ، يستضعفكم قريش ويعذبونكم ويضيقون عليكم ، تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ أي : قريش ، أو من عداهم ، فَآواكُمْ إلى المدينة ، وجعلها لكم مأوى

---

(١) البيت لأبى العتاهية .. انظر : (نهاية الأرب ٣/ ٨٠ ومعاهد التنصيص ٢/ ٨٣).

تتحصنون بها من أعدائكم ، وَأَيَّدَكُمْ أي : قواكم بِنَصْرِهِ على الكفار ، أو بمظاهرة الأنصار ، أو بإمداد الملائكة يوم بدر ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ من الغنائم ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ هذه النعم.

والخطاب للمهاجرين ، وقيل : للعرب كافة فإنهم كانوا أذلاء فى أيدي فارس والروم ، يخافون أن يتخطفهم الناس من كثرة الفتن ، فكان القوى يأكل الضعيف منهم ، فآواهم اللّه إلى الإسلام ، فحصل بينهم الأمن والأمان ، وأيدهم بنصره ، حيث نصرهم على جميع الأديان ، وأعزهم بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، ورزقهم من الطيبات ، حيث فتح عليهم البلاد ، وملكوا ملك فارس والروم ، فملكوا ديارهم وأموالهم ، ونكحوا نساءهم وبناتهم ، لعلهم يشكرون.

الإشارة : التذكير بهذه النعمة يتوجه إلى خصوص هذه الأمة ، وهم الفقراء المتوجهون إلى اللّه ، فهم قليل فى كل زمان ، مستضعفون فى كل أوان ، حتى إذا تمكنوا وتهذبوا ، وطهروا من البقايا ، منّ عليهم بالنصر والعز والتأييد ، كما وعدهم بقوله : وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ... الآية «١» ، والغالب عليهم شكر هذه النعم ، لما خصهم به من كمال المعرفة. واللّه تعالى أعلم.

ثم نهاهم عن الخيانة ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٢٧ الى ٢٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ

وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ بتضييع أوامره وارتكاب نواهيه ، وَالرَّسُولَ بمخالفة أمره وترك سنته ، أو بالغلول فى الغنائم ، أو بأن تبطنوا خلاف ما تظهرون.

قيل : نزلت فى أبى لبابة فى قصة بنى قريظة. روى أنه صلّى اللّه عليه وسلّم حاصرهم إحدى وعشرين ليلة ، فسألوا الصلح كما صالح إخوانهم بنى النّضير ، على أن يصيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحا من الشّام ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأبوا وقالوا : أرسل لنا أبا لبابة ، وكان مناصحا لهم لأنّ عياله وماله فى أيديهم ، فبعثه إليهم ، فقالوا :

ما ترى؟ هل ننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه ، أنه الذّبح ، فقال أبو لبابة : فما زالت قدماى حتّى علمت أنّى قد خنت اللّه ورسوله ، فنزل وشدّ نفسه إلى سارية فى المسجد ، وقال : واللّه لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت ، أو يتوب اللّه علىّ ، فمكث سبعة أيام حتى خرّ مغشيا عليه ، ثم تاب اللّه عليه ، فقيل له : قد تيب عليك فحلّ نفسك ، فقال :

---

(١) الآية ٥ من سورة القصص.

لا واللّه لا أحلها حتى يكون رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم هو الذي يحلنى ، فجاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فحلّه ، فقال : إنّ من تمام توبتى أن أهجر دار قومى الّتى أصبت فيها الذّنب ، وأن أنخلع من مالى ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «يجزيك الثّلث أن تتصدّق به» «١».

ثم قال تعالى : وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ فيما بينكم ، أو فيما أسر الرسول إليكم من السر فتفشوه ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أن الخيانة ليست من شأن الكرام ، بل هى من شأن اللئام ، كما قال الشاعر :

لا يكتم السرّ إلا كلّ ذى ثقة فالسرّ عند خيار النّاس مكتوم

أو : وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح.

وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ

لأنه سبب الوقوع فى الإثم والعقاب ، أو محنة من اللّه تعالى ليبلوكم فيهم ، فلا يحملنكم حبهم على الخيانة ، كما فعل أبو لبابة. وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

لمن آثر رضا اللّه ومحبته عليهم ، وراعي حدود اللّه فيهم ، فعلّقوا هممكم بما يؤديكم إلى أجره العظيم ، ورضاه العميم ، حتى تفوزوا بالخير الجسيم.

الإشارة : خيانة اللّه ورسوله تكون بإظهار الموافقة وإبطان المخالفة ، بحيث يكون ظاهره حسن وباطنه قبيح ، وهذا من أقبح الخيانة ، وينخرط فيه إبطان الاعتراض على المشايخ وإظهار الوفاق ، وهو من أقبح العقوق لهم ، وأما خيانة الأمانة فهى إفشاء أسرار الربوبية لغير أهلها ، فمن فعل ذلك فسيف الشريعة فوق رأسه ، إذا كان سالكا غير مجذوب ، لأن من أفشى سر الملك استحق القتل ، وكان خائنا ، ومن كان خائنا لا يؤمن على السر ، فهو حقيق أن ينزع منه ، إن لم يقتل أو يتب ، ولله در القائل :

سأكتم علمى عن ذوى الجهل طاقتى «٢» ولا أنثر الدّر النفيس على البهم

فإن قدّر اللّه الكريم بلطفه ولا قيت أهلا للعلوم وللحكم

بذلت علومى واستفدت علومهم وإلّا فمخزون لدىّ ومكتتم

---

(١) أخرجه عن قتادة - مرسلا - ابن جرير فى التفسير ، وعزاه السيوطي فى الدر المنثور لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ وابن جرير. [.....]

(٢) إذا لم يعلم الجاهل وكتمنا عنه العلم ، فما فائدة العلم إذن ..؟!

ثم دلهم على ما فيه دواء القلوب ومحو العيوب ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٢٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ ، كما أمركم ، يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً نورا فى قلوبكم ، تفرقون به بين الحق والباطل ، والحسن والقبيح. قال ابن جزى : وذلك دليل على أن التقوى تنور القلب ، وتشرح الصدر ، وتزيد فى العلم والمعرفة. هـ. أو : نصرا يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين ، أو مخرجا من الشبهات ، أو نجاة مما تحذرون فى الدارين من المكروهات ، أو ظهورا يشهر أمركم ويثبت صيتكم ، من قولهم : سطع فرقان الصبح ، أي : نوره ، وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ أي : يسترها ، فلا يفضحكم يوم القيامة ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ يتجاوز عن مساوئكم ، أو يكفر صغائركم ويغفر كبائركم ، أو يكفر ما تقدم ويغفر ما تأخر ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ، ففضله أعظم من كل ذنب ، وفيه تنبيه على أن ما وعده لهم على التقوى تفضل منه وإحسان ، لا أن تقواهم أوجبت ذلك عليه ، كالسيد إذا وعد عبده أن يعطيه شيئا فى مقابلة عمل أمره به ، مع أنه واجب عليه لا محيد

له عنه. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : الفرقان الذي يلقيه اللّه فى قلوب المتقين من المتوجهين هو نور الواردات الإلهية ، التي ترد على القلوب من حضرة الغيوب ، وهى ثلاثة أقسام : وارد الانتباه : وهو نور يفرق به بين الغفلة واليقظة ، وبين البطالة والنهوض إلى الطاعة ، فيترك غفلته وهواه ، وينهض إلى مولاه ، ووارد الإقبال : وهو نور يفرق به بين الوقوف مع ظلمة الحجاب وبين السير إلى شهود الأحباب ، ووارد الوصال : وهو نور يفرق به بين ظلمة الأكوان ، ونور الشهود ، أو بين ظلمة سحاب الأثر وشهود شمس العرفان.
وإلى هذه الواردات الثلاثة أشار فى الحكم بقوله : «إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا ، أورد عليك الوارد ليسلمك من يد الأغيار ، ويحررك من رق الآثار ، أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك».
ثم ذكّر نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم بما فعل معه من الحفظ والرعاية من أعدائه اللئام ، فقال :
[سورة الأنفال (٨) : آية ٣٠]
وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (٣٠)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر ، يا محمد ، نعمة اللّه عليك بحفظه ورعايته لك إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا من قريش ، حين اجتمعوا فى دار الندوة لِيُثْبِتُوكَ أي : يحبسوك فى الوثاق والسجن ، أَوْ يَقْتُلُوكَ بسيوفهم ، أَوْ يُخْرِجُوكَ من مكة.
وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم ، خافوا على أنفسهم ، واجتمعوا فى دار الندوة متشاورين فى أمره ، فدخل عليهم إبليس فى صورة شيخ ، وقال : أنا من نجد ، سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم ، ولن تعدموا منى رأيا ونصحا ، فقال أبو البحتري : أرى أن تحبسوه فى بيت ، وتسدوا منافذه ، غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه فيها ، حتى يموت ، فقال الشيخ : بئس الرأى ، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ، ويخلصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو : أرى أن تحملوه على جمل ، فتخرجوه من أرضكم ، فلا يضركم ما صنع ، فقال الشيخ :
بئس الرأى ، يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما ، وتعطوه سيفا ، فتضربوه ضربة واحدة ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإن طلبوا العقل عقلناه. فقال الشيخ : صدق هذا الفتى ، فتفرقوا على رأيه ، فأتى جبريل النبي

صلّى اللّه عليه وسلّم وأخبره الخبر ، وأمره بالهجرة ، فبيت عليّا رضى اللّه عنه على مضجعه ، وخرج مع أبى بكر إلى الغار ، ثم سافر مهاجرا إلى المدينة «١».

قال تعالى : وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ برد مكرهم عليهم ، أو مجازاتهم عليه ، أو بمعاملة الماكرين معهم ، بأن أخرجهم إلى بدر ، وقلل المسلمين فى أعينهم ، حتى تجرءوا على قتالهم ، فقتلوا وأسروا ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ إذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره ، وإسناد أمثال هذا مما يحسن ، للمزاوجة ، ولا يجوز إطلاقها ابتداء لما فيه من إيهام الذم. قاله البيضاوي.

الإشارة : وإذ يمكر بك أيها القلب الذين كفروا ، وهم القواطع من العلائق والحظوظ والشهوات ، ليحبسوك فى سجن الأكوان ، مسجونا بمحيطاتك ، محصورا فى هيكل ذاتك ، أو يقتلوك بالغفلة والجهل وتوارد الخواطر والأوهام ، أو يخرجوك من حضرة ربك إلى شهود نفسك ، أو من صحبة العارفين إلى مخالطة الغافلين ، أو من حصن طاعته إلى محل الهلاك من موطن معصيته ، أو من دائرة الإسلام إلى الزيغ والإلحاد ، عائذا بالله من المحن ، واللّه خير الماكرين ، فيرد كيد الماكرين ، وينصر أولياءه المتوجهين والواصلين. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى التفسير ، وأبو نعيم فى الدلائل (باب عصمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حين تعاهد المشركون على قتله) عن ابن عباس ، وأخرجه عبد الرزاق ، فى المصنف : (المغازي ، باب من هاجر إلى الحبشة) عن عروة بن الزبير. وأخرجه ابن سعد فى الطبقات (باب خروج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأبى بكر إلى المدينة) عن عائشة رضى اللّه عنها ..

ثم ذكر مساوئ أهل المكر ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٣١]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١)

قلت : «إذا» : ظرفية شرطية ، خافضة لشرطها ، معمولة لجوابها ، أي : قالوا وقت تلاوة الآيات : لو نشاء ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا القرآنية قالُوا قَدْ سَمِعْنا ما تتلوه علينا ، لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أي : أخبارهم المسطورة أو أكاذيبهم المختلقة. قال البيضاوي : وهذا قول النّضر بن الحارث ، وإسناده إلى الجمع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم ، فإنه كان قاصهم ،

أي : يقص عليهم أخبار فارس والروم ، فإذا سمع القرآن يقص أخبار الأنبياء قال : لو شئت لقلت مثل هذا ، أو قول الذين ائتمروا فى شأنه : وهذا غاية مكائدهم ، وفرط عنادهم ، إذ لو استطاعوا ذلك لسارعوا إليه ، فما منعهم أن يشاوءا وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين ، ثم قارعهم بالسيف ، فلم يعارضوا ، مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا ، خصوصا فى باب البيان؟ هـ. بالمعنى.

الإشارة : هذه المقالة بقيت سنة فى أهل الإنكار على أهل الخصوصية ، إذا سمعوا منهم علوما لدنية ، أو أسرارا ربانية ، أو حكما قدسية ، قالوا : لو نشاء لقلنا مثل هذا ، وهم لا يقدرون على كلمة واحدة من تلك الأسرار ، وهذا الغالب على المعاصرين لأهل الخصوصية ، دون من تأخر عنهم ، فإنهم مغروورن عنده ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا «١».

ثم ذكر استعجالهم للعذاب عنادا وعتوا ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٣٢]

وَإِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣٢)

قلت : «الحق» : خبر كان.

(١) من الآية ٤٣ من سورة فاطر.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا الذي أتى به محمد هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ كأصحاب لوط ، أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ ، قيل : القائل هذا هو النّضر بن الحارث ، وهو أبلغ فى الجحود. روى أنه لما قال : «إن هذا إلا أساطير الأولين» ، قال له النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «ويلك إنه كلام اللّه» فقال هذه المقالة. والذي فى صحيحى البخاري ومسلم : أن القائل هو أبو جهل «١» ، وقيل : سائر قريش لمّا كذبوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم دعوا على أنفسهم ، زيادة فى تكذيبهم وعتوهم. وقال الزمخشري : ليس بدعاء ، وإنما هو جحود ، أي : إن كان هذا هو الحق فأمطر علينا ، لكنه ليس بحق فلا نستوجب عقابا. بالمعنى.

الإشارة : قد وقعت هذه المقالة لبعض المنكرين على الأولياء ، فعجلت عقوبته ، ولعل ذلك الولي لم تتسع دائرة حلمه ومعرفته ، وإلا لكان على قدم نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم حيث قال اللّه تعالى فى شأنه :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤)

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ موجود فِيهِمْ ، ونازل بين أظهرهم ، وقد جعلتك رحمة للعالمين ، خصوصا عشيرتك الأقربين ، وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ قيل : كانوا يقولون : غفرانك اللهم ، فلما تركوه عذبوا يوم بدر ، وقيل : وفيهم من يستغفر ، وهو من بقي فيهم من المؤمنين ، فلما هاجروا كلهم عذبوا ، وقيل : على الفرض والتقدير ، أي : ما كان اللّه ليعذبهم لو آمنوا واستغفروا.

قال بعض السلف : كان لنا أمانان من العذاب : النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والاستغفار ، فلما مات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ذهب الأمان الواحد وبقي الآخر «٢» ، والمقصود من الآية : بيان ما كان الموجب لإمهاله لهم والتوقف على إجابة دعائهم ، وهو وجوده صلّى اللّه عليه وسلّم أو من يستغفر فيهم.

ثم قال تعالى : وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ أي : وأىّ شيء يمنع من عذابهم؟ وكيف لا يعذبون وَهُمْ يَصُدُّونَ الناس عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ؟ أي : يمنعون المتقين من المسجد الحرام ، ويصدون رسوله عن

---

(١) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الأنفال) ومسلم فى (صفات المنافقين ، باب فى قوله تعالى : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) من حديث أنس بن مالك رضى اللّه عنه.

(٢) رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم باق فينا بهديه وسننه ، وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ.

الوصول إليه. وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ المستحقين لولايته مع شركهم وكفرهم ، وهو ردّ لما كانوا يقولون : نحن ولاة البيت الحرام فنصد من نشاء وندخل من نشاء. قال تعالى : إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ أي : ما المستحقون لولايته إلا المتقون ، الذين يتقون الشرك والمعاصي ، ولا يعبدون فيه إلا اللّه ، ويعظمونه ، حق تعظيمه. وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن لا ولاية لهم عليه ، وإنما الولاية لأهل الإيمان ، وكأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ذلك ويعاند ، أو أراد به الكل ، كما يراد بالقلة العدم. قاله البيضاوي.

الإشارة : قد جعل اللّه رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم أمانا لأمته ما دام حيّا ، فلما مات صلّى اللّه عليه

وسلّم بقيت سنته أمانا لأمته ، فإذا أميتت سنته أتاهم ما يوعدون من البلاء والفتن ، وكذلك خواص خلفائه ، وهم العارفون الكبار ، فوجودهم أمان للناس ، فقد قالوا : إن الإقليم الذي يكون فيه القطب لا يصيبه قحط ولا بلاء ، ولا هرج ولا فتن لأنه أمان لذلك الإقليم ، خلافة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر تلاعبهم بالدين ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٣٥]

وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ صَلاتُهُمْ التي يصلونها فى بيت اللّه الحرام ، ويسمونها صلاة ، أو ما يضعون موضعها ، إِلَّا مُكاءً أي : تصفيرا بالفم ، كما يفعله الرعاة ، وَتَصْدِيَةً أي : تصفيقا باليد ، الذي هو من شأن النساء ، مأخوذ من الصدى ، وهو صوت الجبال والجدران. قال ابن جزى : كانوا يفعلون ذلك إذا صلى المسلمون ، ليخلطوا عليهم صلاتهم.

وقال البيضاوي : روى أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، الرجال والنساء ، مشبكين بين أصابعهم ، يصفرون فيها ويصفقون ، وقيل : كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يصلى ، يخلطون عليه ، ويرون أنهم يصلون أيضا ، ومساق الآية : تقرير استحقاقهم العذاب المتقدم فى قوله : وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ، أو عدم ولايتهم للمسجد ، فإنها لا تليق بمن هذه صلاته. هـ.

قال تعالى : فَذُوقُوا الْعَذابَ الذي طلبتم ، وهو القتل والأسر يوم بدر ، فاللام للعهد ، والمعهود : (أو ائتنا بعذاب أليم) ، أو عذاب الآخرة ، بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أي : بسبب كفركم اعتقادا وعملا.

الإشارة : وما كان صلاة أهل الغفلة عند بيت قلوبهم إلا ملعبة للخواطر والهواجس ، وتصفيقا للوسواس والشيطان ، وذلك لخراب بواطنهم من النور ، حتى سكنتها الشياطين واستحوذت عليها ، والعياذ بالله ، فيقال لهم :

ذوقوا عذاب الحجاب والقطيعة ، بما كنتم تكفرون بطريق الخصوص وتبعدون عنهم. واللّه تعالى أعلم.

(٣٢٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٢٩

ولما سلمت عير قريش من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ووقعت غزوة بدر ، وكان مات فيها صناديدهم ، حبس أبو سفيان ذلك المال ، وأنفقه فى حرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأنزل اللّه فى ذلك وفي غيره ، ممن أنفق فى إعانة الكفار على حرب المسلمين قوله :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٣٧)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا بذلك عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، ويحاربون اللّه ورسوله. قيل : نزلت فى أصحاب العير فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم : أعينوا بهذا المال على حرب محمد ، لعلنا ندرك منه ثأرنا ، ففعلوا ، وقيل : فى المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثنى عشر رجلا من قريش ، يطعم كل واحد منهم ، كل يوم ، عشر جزر ، وقيل : فى أبى سفيان ، استأجر ليوم أحد ألفين من العرب ، وأنفق عليهم أربعين أوقية.

قال تعالى : فَسَيُنْفِقُونَها بتمامها ، ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يتأسفون على إنفاقها من غير فائدة ، فيصير إنفاقها ندما وغما ، لفواتها من غير حصول المقصود ، وجعل ذاتها تصير حسرة ، وهى عاقبة إنفاقها مبالغة.

قال البيضاوي : ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم فى تلك الحال ، وهو إنفاق بدر ، والثاني عن إنفاقهم فيما يستقبل ، وهو إنفاق غزوة أحد ، ويحتمل أن يراد بهما واحد ، على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق ، ومساق الثاني لبيان عاقبته ، وهو لم يقع بعد. هـ. قلت : وهذا الأخير هو الأحسن.

ثم ذكر وعيدهم فقال : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أي : الذين ثبتوا على الكفر منهم إذ أسلم بعضهم ، إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ يضمون ويساقون ، لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ الكافرين من المؤمنين ، أو الفساد من الصلاح ، أو ما أنفقه المشركون فى عداوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وما أنفقه المسلمون فى نصرته ، أي : حشرهم إليه ليفرق بين الخبيث والطيب ، وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ أي : يجمعه ، أو يضم بعضه إلى بعض ، حتى يتراكموا من فرط ازدحامهم ، فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ كله ، أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ الكاملون فى الخسران ، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم ، والإشارة تعود على الخبيث لأنه بمعنى الفريق الخبيث ، أو على المنفقين ليصدوا عن سبيل اللّه. واللّه تعالى أعلم.

(٣٢٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٣٠

الإشارة : كل من أنفق ماله فى لهو الدنيا وفرجتها ، من غير قصد حسن ، بل لمجرد الحظ والهوى ، تكون عليه حسرة وندامة ، تنقضى لذاته وتبقى تبعاته ، وهو من كفران نعمة المال ، فهو معرض للزوال ، وإن بقي فهو استدراج ، وعلامة إنفاقه فى الهوى : أنه إن أتاه فقير يسأله درهما منعه ، وينفق فى النزهة والفرجة الثلاثين والأربعين ، فهذا يكون إنفاقه حسرة عليه ، والعياذ باللّه.

ثم ندب إلى التوبة ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٣٨]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا كقريش وغيرهم : إِنْ يَنْتَهُوا عن الكفر ومعاداة الرسول بالدخول فى الإسلام ، يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ من ذنوبهم ، ولو عظمت ، وَإِنْ يَعُودُوا إلى الكفر وقتاله فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ أي : مضت عادتى مع الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير والهلاك ، كعاد وثمود وأضرابهم ، وكما فعل بهم يوم بدر ، فليتوقعوا مثل ذلك ، وهو تهديد وتخويف.

الإشارة : قل للمنهمكين فى الذنوب والمعاصي : لا تقنطوا من رحمتى ، فإني لا يتعاظمنى ذنب أغفره ، فإن تنتهوا أغفر لكم ما قد سلف. وأنشدوا :

يستوجب العفو الفتى ، إذا اعترف بما جنى ، وما أتى ، وما اقترف

لقوله : (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف)

وللشافعى رضى اللّه عنه :

فلمّا قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت الرّجا منّى لعفوك سلّما

تعاظمنى ذنبى ، فلما قرنته بعفوك ربّى ، كان عفوك أعظما

فما زلت ذا جود وفضل ومنّة تجود وتعفو منّة وتكرّما

فإن لم ينته المنهمك فى الهوى فقد مضت سنة اللّه فيه بالطرد والإبعاد ، ويخاف عليه سوء الختام ، والعياذ باللّه.

ثم أمر بجهاد من لم ينته عن كفره ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٣٩ الى ٤٠]

وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)

يقول الحق جل جلاله : وقاتلوا من لم ينته عن كفره حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، أي : حتى لا يوجد منهم شرك ، فهو كقوله عليه الصلاة السلام : «أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا : لا إله إلّا اللّه» «١». وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ بحيث تضمحل الأديان الباطلة ويظهر الدين الحق ، فَإِنِ انْتَهَوْا عن الكفر وأسلموا ، فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فيجازيهم على انتهائهم ، وقرأ يعقوب بتاء الخطاب على معنى : فإن اللّه بما

تعملون يا معشر المسلمين من الجهاد ، والدعوة إلى الإسلام ، والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، بَصِيرٌ فيجازيكم ، ويضاعف أجوركم بمن أسلم على أيديكم.

وَإِنْ تَوَلَّوْا ، ولم ينتهوا عن كفرهم ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ ناصركم ، فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم ، نِعْمَ الْمَوْلى فلا يضيع من تولاه ، وَنِعْمَ النَّصِيرُ فلا يغلب من نصره.

الإشارة : يؤمر المريد بجهاد القواطع والعلائق والخواطر ، حتى لا يبقى فى قلبه فتنة بشيء من الحس ، ويكون القلب كله لله ، فإن انتهت القواطع فإن اللّه بصير به ، يجازيه على جهاده ، ومجازاته : إدخاله الحضرة المقدسة ، مع المقربين ، وإن لم ينته فليستمر على مجاهداته وانقطاعه إلى ربه ، وليستنصر به فى مجاهدته ، فإن اللّه مولاه وناصره ، وهو نعم المولى ونعم النصير.

ثم ذكر قسم الغنائم التي تنشأ عن القتال ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٤١]

وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)

---

(١) أخرجه البخاري فى (الاعتصام - باب الاقتداء بسنن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم) ومسلم فى (الإيمان - باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا :
لا إله إلا اللّه) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

قلت : (فأن لله) : مبتدأ حذف خبره ، أي : فكون خمسه لله ثابت ، أو خبر ، أي : فالواجب كون خمسه لله.

يقول الحق جل جلاله : وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ مما أخذتموه من الكفار قهرا بالقتال ، لا الذي هربوا عنه بلا قتال ، فكله للإمام فىء ، يأخذ حاجته ويصرف باقيه فى مصالح المسلمين ، ولا الذي طرحه العدو خوف الغرق ، فلواجده ، بلا تخميس ، وكذا ما أخذه من كان ببلاد العرب على وجه التلصيص ، فأما ما أخذه بالقتال : فلله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ الجمهور على أن ذكر اللّه للتعظيم كقوله : وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ «١» ، وإنما المراد : قسم الخمس على الخمسة الباقية.

واختلف العلماء فى الخمسة ، فقال مالك : الرأى للإمام ، يلحقه ببيت الفيء ، ويعطى من ذلك البيت

لقرابة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ما رءاه ، كما يعطى منه اليتامى والمساكين وغيرهم ، وإنما ذكر من ذكر على جهة التنبيه عليهم ، لأنهم من أهم ما يدفع إليهم. وقال الشافعي : يعطى للخمسة المعطوفة على (اللّه) ، ولا يجعل لله سهما مختصا ، وإنما ذكر ابتداء تعظيما ، لأن الكل ملكه ، وسهم الرسول يأخذه الإمام ، يصرفه فى المصالح ، فيعطى للأربعة المعطوفة على الرسول ، ويفضل أهل الحاجة. وقال مالك : لا يجب التعميم ، فله أن يعطى الأحوج ، وإن حرم غيره ، ومبنى الخلاف : هل اللام لبيان المصرف أو للاستحقاق ، كما فى آية الزكاة.

وقال أبو حنيفة : على ثلاثة أسهم ، لليتامى والمساكين وابن السبيل ، قال : وسقط الرسول وذوو القربى بوفاته عليه الصلاة والسلام. وقال أبو العالية : يقسم على ستة ، أخذا بظاهر الآية ، ويصرف سهم اللّه إلى الكعبة ، وسهم الرسول فى مصالح المسلمين ، وسهم ذوى القربى لأهل البيت الذين لا تحل لهم الزكاة ، ثم يعطى سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال البيضاوي : وذوو القربى : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، لما روى : أنه صلّى اللّه عليه وسلّم قسم سهم ذوى القربى عليهما ، فقال عثمان وجبير بن مطعم : هؤلاء إخوانك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك اللّه منهم ، أرأيت إخواننا من بنى المطّلب ، أعطيتهم وحرمتنا ، وإنّما نحن وهم بمنزلة واحدة؟ فقال عليه الصلاة والسلام : «إنّهم لم يفارقونا فى جاهليّة ولا إسلام» وشبّك بين أصابعه «٢». وقيل : بنو هاشم وحدهم. قلت : وهو مشهور مذهب مالك - وقيل : جميع قريش. هـ.

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة التوبة.

(٢) أخرجه أبو داود فى (الخراج - باب فى بيان مواضع قسم الخمس) وابن ماجه فى (الجهاد - باب قسمة الخمس) من حديث جبير بن مطعم. وفى البخاري بعضه ، راجع صحيح البخاري (فرض الخمس - باب : ومن الدليل على أن الخمس للإمام).

(٣٣٢/٢)

ثم قال تعالى : إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ، أي : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء ، فسلموه إليه ، واقنعوا بالأخماس الأربعة ، وَما وكذا إن كنتم آمنتم بما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم من القرآن ، فى شأن الأنفال ، ومن النصر والملائكة ، يَوْمَ الْفُرْقانِ يوم بدر ، فإنه فرّق فيه بين الحق والباطل ، يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ المسلمون والكفار ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على نصر القليل على الكثير ، بالإمداد بالملائكة ، وبلا إمداد ، ولكن حكمته اقتضت وجود الأسباب والوسائط

، واللّه حكيم عليم.

الإشارة : واعلموا أنما غنمتم من شيء من العلوم اللدنية ، والمواهب القدسية ، والأسرار الربانية ، بعد مجاهدة العلائق والعوائق ، حتى صار دين القلب كله للّه ، فلله خمسه فناء ، وللرسول بقاء ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل تعظيما وآدابا. يعنى : أن العلم بالله يقتضى القيام بهذه الوظائف : الفناء فى اللّه ، بالغيبة عما سواه ، وشهود الداعي الأعظم ، وهو رسول اللّه ، والأدب مع عباد اللّه ، ليتحقق الأدب مع اللّه. واللّه تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم بيّن يوم الفرقان ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٤٢ الى ٤٤]

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَلكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)

قلت : (إذ) : بدل من (يوم الفرقان) ، أو ظرف لالتقى ، أو لاذكر ، محذوفة ، والعدوة مثلث العين : شاطىء الوادي ، و(الدنيا) أي : القربى ، نعت له ، و(القصوى) : تأنيث الأقصى ، وكان قياسه : قلب الواو ياء ، كالدنيا والعليا تفرقة بين الاسم والصفة ، فجاء على الأصل ، كالقود ، وسمع فيه : «القصيا» على الأصل ، وهو شاذ. و(الركب) :

مبتدأ ، و(أسفل) : ظرف خبره.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا أي : بعدوة الوادي القريبة من المدينة ، وَهُمْ أي : كفار قريش ، بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى أي : البعيدة منها ، وَالرَّكْبُ أي : العير التي قصدتكم ، أَسْفَلَ مِنْكُمْ أي : فى مكان أسفل منكم ، يعنى الساحل ، ثم جمع اللّه بينكم على غير ميعاد ، وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لهذا الجمع ، أنتم وهم للقتال ، ثم علمتم حالكم وحالهم لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ هيبة منهم لكثرتهم وقلتكم ، لتتحققوا أن ما اتفق لكم من الفتح والظفر ليس إلا صنيعا من اللّه تعالى خارقا للعادة ، فتزدادوا إيمانا وشكرا ، وَلكِنْ اللّه جمع بينكم من غير ميعاد لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا سابقا فى الأزل ، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه فى ذلك اليوم ، لا يتخلف عنه ساعة.

لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، أي : قدّر ذلك الأمر العجيب ليموت من يموت عن بينة عاينها ، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها ، لئلا يكون له حجة ومعذرة ، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة ، فكل من عاينها ولم يؤمن قامت الحجة عليه. أو ليهلك بالكفر من هلك عن بينة وحجة قائمة عليه ، ويحيي بالإيمان من حى به عن بينة من ربه ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ بكفر من كفر وإيمان من آمن ، فيجازى كلا على فعله. ولعل الجمع بين وصف السمع والعلم لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد.

واذكر أيضا إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلًا ، كان صلّى اللّه عليه وسلّم قد رأى الكفار فى نومه قليلا ، فأخبر بذلك أصحابه ، فقويت نفوسهم وتجرءوا على قتالهم ، وكانوا قليلا فى المعنى ، وَلَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً فى الحس لَفَشِلْتُمْ لجبنتم ، وَلَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ فى أمر القتال ، وتفرقت آراؤكم ، وَلكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ أي : أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي : يعلم ما يكون فيها من الخواطر وما يغير أحوالها.

وَاذكر أيضا إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ أي : يريكم اللّه الكفار ، إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ، حتى قال ابن مسعود لمن إلى جنبه : أتراهم سبعين؟ فقال : أراهم مائة ، تثبتا وتصديقا لرؤيا الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ، حتى قال أبو جهل : إن محمدا وأصحابه أكلة جزور - بفتح الهمزة والكاف - جمع آكل - ، أي : قدر ما يكفيهم جذور فى أكلهم.

قال البيضاوي : قللهم فى أعينهم قبل التحام القتال ليجترءوا عليهم ولا يستعدوا لهم ، ثم كثّرهم حين رأوهم مثليهم لتفجأهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم ، وهذا من عظائم آيات اللّه فى تلك الوقعة ، فإن البصر ، وإن كان قد يرى الكثير قليلا والقليل كثيرا ، لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد ، وإنما يتصور ذلك بصد اللّه الأبصار عن إبصار بعض دون بعض ، مع التساوي فى المرئي. هـ.

وإنما فعل ذلك فى الجهتين لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا أي : ليظهر اللّه أمرا كان سبق به القضاء والقدر ، فكان مفعولا فى سابق العلم ، لا محيد عنه ، ومن شأن الحكمة إظهار الأسباب والعلل ، كما أن من شأن القدرة إبراز ما سبق فى الأزل ، وإنما كرره لاختلاف الفعل المعلل به لأن الأول علة لالتقائهم من غير ميعاد ، وهنا لتقليلهم فى أعين الكفرة ، أو للتنبيه على أن المطلوب من العبد هو النظر إلى سابق القدر ، ليخف عليه ما يبرز منه من الشدائد والأهوال ، ولذلك قال أثره : وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ، وإذا كانت الأمور كلها راجعة إلى اللّه تعالى فلا يسع العبد إلا الرضا والتسليم لكل ما

يبرز منها ، فكل ما يبرز من عند الحبيب حبيب. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الأرواح والأسرار بالعدوة القريبة من بحر الحقائق ، ليس بينها وبينه إلا إظهار أدب العبودية ، وهو الذي بين بحر الحقيقة والشريعة ، والأنفس وسائر القواطع بالعدوة القصوى منه ، والقلب ، الذي هو الركب المتنازع فيه ، بينهما ، أسفل من الروح ، وفوق مقام النفس ، الروح تريد أن تجذبه إليها ليسكن الحضرة ، والنفس وجنودها تريد أن تميله إليها ليسكن وطن الغفلة معها ، والحرب بينهما سجال ، تارة ترد عليه الواردات الإلهية ، التي هى جند الروح ، فتنزل عليه بغتة من غير ميعاد ، فتجذبه إلى الحضرة.

وتارة ترد عليه الخواطر والهواجم الردية فتحطه إلى أرض الحظوظ بغتة ، ليقضى اللّه أمرا كان مفعولا فى سابق علمه ، فإذا أراد اللّه عناية عبد قلّل عنه مدد الأغيار ، حتى يراها كلا شيء ، وقواه بمدد الأنوار حتى يغيب عنه كل شيء ، فتذهب عنه ظلمة الأغيار ، وإذا أراد اللّه خذلان عبد قطع عنه مدد الأنوار ، وقوى عليه مدد الأغيار ، حتى ينحط إلى الدرك الأسفل من النار ، والعياذ باللّه من سوء القضاء والقدر ، وإليه الإشارة بقوله : (ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حى عن بينة) الآية. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر ما يقوى مدد الأنوار ، وهو الصبر والذكر ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)

قلت : (بطرا ورئاء) : مصدران فى موضع الحال ، أي : بطرين ومراءين ، أو مفعول لأجله ، و(يصدّون) : عطف على (بطرا) على الوجهين ، أي : صادين ، أو للصد.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً جماعة من الكفار عند الحرب ، فَاثْبُتُوا للقائهم ، ولا تفروا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ فى تلك الحال سرا داعين له ، مستظهرين بذكره ، متوجهين لنصره ، معتمدين على حوله وقوته ، غير ذاهلين عنه بهجوم الأحوال وشدائد الأهوال إذ لا يذكر اللّه تعالى فى ذلك الحال إلا الأبطال من الرجال ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ بالظفر وعظيم النوال. قال البيضاوي : وفيه تنبيه على أن العبد ينبغى ألا يشغله شيء عن ذكر اللّه ، وأن يلتجيء إليه عند الشدائد ، ويقبل عليه بشراشره

«١» ، فارغ البال ، واثقا بأن لطفه لا ينفك عنه فى جميع الأحوال. هـ.
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فيما يأمركم به وينهاكم عنه فإن الطاعة مفتاح الخيرات ، وَلا تَنازَعُوا باختلاف الآراء ، كما فعلتم فى شأن الأنفال ، فَتَفْشَلُوا وتجبنوا ، وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ أي : ريح نصركم بانقطاع دولتكم ، شبه النصر والدولة بهبوب الريح من حيث إنها تمشى على مرادها ، لا يقدر أحد أن يردها ، وقيل : المراد بها الريح حقيقة ، فإن النصرة لا تكون إلا بريح يبعثه اللّه من ناحية المنصور تذهب إلى ناحية المخذول. وفى الحديث : «نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدبور» «٢». وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ بالمعونة والكلاءة والنصر.
وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ ، يعنى : أهل مكة ، خرجوا بَطَراً أي : فخرا وأشرا وَرِئاءَ النَّاسِ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة ، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة أتاهم رسول أبى سفيان ، يقول لهم : ارجعوا فقد سلمت عيركم ، فقال أبو جهل : لا واللّه حتى نأتى بدرا ، ونشرب بها الخمور ، وتغنى علينا القيان ، ونطعم بها من حضرنا من العرب ، فتسمع بنا سائر العرب ، فتهابنا ، فوافوها ، ولكن سقوا بها كأس المنايا ، وناحت عليهم النوائح مما نزل بهم من البلايا ، فنهى اللّه المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مراءين ، وأمرهم أن يكونوا أهل تقوى وإخلاص ، لأن النهى عن الشيء أمر بضده. وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : خرجوا ليصدوا الناس عن طريق اللّه ، باتباع طريقهم ، وَاللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ فيجازيهم عليه.
الإشارة : خاطب اللّه المتوجهين إليه ، السائرين إلى حضرته ، وأمرهم بالثبوت ودوام السير ، وبالصبر ولزوم الذكر عند ملاقاة القواطع والشواغب ، وكل ما يصدهم عن طريق الحضرة ، وذلك بالغيبة عنه والاشتغال بالله عنه ،

---

(١) أي : بجملته ، واحده : شرشرة.
(٢) أخرجه البخاري فى (الاستسقاء - باب قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «نصرت بالصبا») ومسلم فى (الاستسقاء - باب ريح الصباء والدبور).
عن ابن عباس رضى اللّه عنه.

وعدم الإصغاء إلى خوضه وتكديره ، فمن صبر ظفر ، ومن دام على السير وصل ، وأمرهم أيضا بطاعة اللّه ورسوله ، ومن يدلهم على الوصول إليه ، ممن هو خليفة عنه فى أرضه ، وأمرهم بعدم المنازعة

والملاجحة ، فإن التنازع يوجب تفرق القلوب والأبدان ، ويوجب الفشل والوهن ، ويذهب بريح النصر والإعزاز ، كما أن الوفاق يوجب النصر ودوام العز.

ونهاهم عن التشبه بأهل الخوض والتكدير ، ممن أولع بالطعن والتنكير ، بل يكونون على خلافهم مخلصين فى أعمالهم وأحوالهم ، دالين على اللّه ، داعين إلى طريق اللّه ، يحببون اللّه إلى عباده ، ويحببون عباد اللّه إلى اللّه ، وهذه صفة أهل اللّه. نفعنا اللّه بذكرهم. آمين.

ثم ذكر الباعث على خروج الكفار لغزوة بدر ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٤٨]

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (٤٨)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ السيئة ، ومن جملتها : خروجهم إلى حربك بأن وسوس لهم ، وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ ، قيل : قال لهم ذلك مقالة نفسانية ، بأن ألقى فى روعهم ، وخيّل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ، لكثرة عددهم وعددهم ، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فى ذلك قربة مجيرة لهم من المكاره.

فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ أي : تلاقى الفريقان ، ورأى بعضهم بعضا ، نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ رجع القهقهرى ، أي : بطل كيده ، وعاد ما خيل لهم أنه مجير لهم سبب هلاكهم ، وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ ، أي : تبرأ منهم وخاف عليهم ، وأيس من حالهم ، لمّا رأى إمداد المسلمين بالملائكة.

وقيل : إن هذه المقالة كانت حقيقة لسانية. روى أن قريشا ، لما اجتمعت على المسير إلى بدر ، ذكرت ما بينهم وبين بنى كنانة من العداوة ، فهموا بالرجوع عن المسير ، فمثل لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك الكناني ، وقال :

لا غالب لكم اليوم وإنى جار لكم ، وإنى مجيركم من بنى كنانة ، فلما رأى الملائكة تنزل نكص على عقبيه ، وكانت يده فى يد الحارث بن هشام ، فقال له : إلى أين؟ أتخذلنا فى هذه الحالة؟ فقال : إنى أرى ما لا ترون ، ودفع فى صدر الحارث ، فانطلق وانهزموا ، فلما بلغوا مكة ، قالوا : هزم النّاس سراقة ، فبلغه ذلك ، فقال : واللّه ما شعرت بسيركم حتى بلغني هزيمتكم! فلما أسلموا علموا أنه الشيطان.

(٣٣٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٣٨

وعلى هذا ، يحتمل أن يكون معنى قوله : إِنِّي أَخافُ اللَّهَ أي : أخاف أن يصيبنى مكروها من الملائكة

، أو يهلكنى ، ويكون هذا الوقت هو الوقت الموعود ، إذ رأى فيه ما لم ير قبله. والأول : ما قاله الحسن ، واختاره ابن حجر. وقال الورتجبي : أي : إنى أخاف عذاب اللّه ، وذلك بعد رؤية البأس ، ولا ينفع ذلك ، ولو كان متحققا فى خوفه ما عصى اللّه طرفة عين. هـ.

وذكر ابن حجر عن البيهقي ، عن عليّ -كرم اللّه وجهه - ، قال : هبت ريح شديدة ، فلم أر مثلها ، ثم هبت ريح شديدة ، وأظنه ذكر ثالثة ، فكانت الأولى جبريل ، والثانية ميكائيل ، والثالثة إسرافيل ، وكان ميكائيل عن يمين النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وفيها أبو بكر ، وإسرافيل عن يساره ، وأنا فيها.

وعن عليّ أيضا : قيل لىّ ولأبى بكر يوم بدر : مع أحدكما جبريل ، ومع الآخر ميكائيل ، وإسرافيل ملك عظيم يحضر الصف ويشهد القتال. انتهى.

وقوله تعالى : وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ ، يجوز أن يكون من كلام إبليس ، وأن يكون مستأنفا.

الإشارة : عادة الشيطان مع العوام أن يغريهم على الطعن والإنكار على أولياء اللّه ، وإيذائهم لهم ، فإذا رأى غيرة اللّه على أوليائه نكص على عقبيه ، وقال : إنى منكم برىء إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف اللّه ، واللّه شديد العقاب.

ثم ذكر مقالة المنافقين فى شأن المسلمين ، حيث خرجوا لغزوة بدر ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٤٩]

إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)

يقول الحق جل جلاله : واذكروا إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ من أهل المدينة ، أو نفر من قريش كانوا أسلموا وبقوا بمكة ، فخرجوا يوم بدر مع الكفار ، منهم : قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو القيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن ربيعة بن الأسود ، وعلى بن أمية بن خلف ، وَهم الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أي : شك لم تطمئن قلوبهم ، بل بقي فيها شبهة ، قالوا : غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ أي : اغتر المسلمون بدينهم ، فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به ، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف. فأجابهم الحق تعالى بقوله : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ أي : غالب لا يذل من استجار به ، وإن قلّ ، حَكِيمٌ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ، ويعجز عن دركه الفهم.

الإشارة : إذا عظم اليقين فى قلوب أهل التقى أقدموا على أمور عظام ، تستغرب العادة إدراكها ، أو يغلب العطب فيها ، فيقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : غرّ هؤلاء طريقتهم ، ومن يتوكل على اللّه فإن اللّه عزيز

لا يغلب ، ولا يغلب من انتسب إليه ، وتوكل فى أموره عليه ، حكيم فلا يخرج عن حكمته وقدرته شيء ، أو عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ به ، والتجأ إلى ذّماره «١» ، حكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره ، قاله فى الإحياء. ثم قال : وكل ما ذكر فى القرآن من التوحيد هو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار ، والتوكل على الواحد القهار. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر عاقبة أهل النفاق والريب ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٥٠ الى ٥١]

وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٥١)

قلت : جواب (لو) محذوف ، أي : لرأيت أمرا عظيما ، و(الملائكة) : فاعل (يتوفى) فلا يوقف على ما قبله ، ويرجحه قراءة ابن عامر بالتاء ، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير (اللّه) ، و(الملائكة) : مبتدأ ، و(يضربون) : خبر ، والجملة : حال من (الذين كفروا) ، والرابط : ضمير الواو ، وعلى هذا فيوقف على ما قبله ، وعلى الأول (يضربون) :

حال من الملائكة ، و(ذوقوا) : عطف على (يضربون) على حذف القول ، أي : ويقولون ذوقوا.

و(ذلك) : مبتدأ ، و(بما قدمت) : خبر ، و(أن اللّه) : عطف على «ما» للدلالة على أن مقيدة بانضمامه إليه. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ تَرى يا محمد ، أو يا من تصح منكم الرؤية ، حال الَّذِينَ كَفَرُوا حين تتوفاهم الْمَلائِكَةُ ببدر ، أو مطلقا ، وهم يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ ، أو حين يتوفاهم اللّه ويقبض أرواحهم ، حال كونهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، أي : يضربون ما أقبل منهم وما أدبر ، فيعمونهم بالضرب ، أو يضربون وجوههم وظهورهم ، أو أستاههم ، لرأيت أمرا فظيعا. وَيقولون لهم : ذُوقُوا أي :

باشروا عَذابَ الْحَرِيقِ يوم القيامة بشارة لهم بما يلقون من العذاب فى الآخرة. وقيل : تكون معهم مقامع من حديد ، كلما ضربوا التهبت النار منها ، ذلِكَ العذاب إنما وقع بكم بِما بسبب قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ أي : بما كسبتم من الكفر والمعاصي ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ حتى يعذب بلا سبب ، أو يهمل العباد بلا جزاء.

الإشارة : قد ذكر الحق جل جلاله حال الكاملين فى العصيان فى هذه الآية ، وذكر فى سورة النحل الكاملين فى الطاعة ، بقوله الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ ... الآية «٢» وسكت عن المخلطين ، ولعلهم يرون طرفا من هذا أو طرفا من هذا. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الذّمار : الحوزة والحرم والأهل .. انظر : اللسان (ذمر).
(٢) الآية ٣٢ من سورة النحل.

ثم ذكر حال المتقدمين من الجبابرة ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٥٢ الى ٥٤]

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (٥٢) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ (٥٤)

قلت : (كدأب) : خبر عن مضمر ، أي : دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون ، وهو عملهم وطريقتهم ، التي دأبوا فيها ، أي : داموا عليها ، (ذلك) : مبتدأ ، و(بأنّ اللّه) : خبر ، وقال سيبويه : خبر ، أي : الأمر ذلك ، والفاء سببية.

يقول الحق جل جلاله : عادة هؤلاء الكفرة العاصين المعاصرين لك ، فى استمرارهم على الكفر والمعاصي ، كعادة آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مضوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، ثم فسر دأبهم فقال : كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ الدالة على توحيده ، المنزلة على رسله ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ كما أخذ هؤلاء ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ لا يغلبه فى دفعه شىء.

ذلِكَ العذاب الذي حل بهم ، بسبب ذنوبهم وكفرهم لأن اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ فيبدلها بالنقمة ، حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ أي : حتى يبدلوا ما بأنفسهم ، من حال الشكر إلى حال الكفر ، أو من حال الطاعة إلى حال المعصية ، كتغيير قريش حالهم : من صلة الرحم ، والكف عن التعرض لإيذاء الرسول ومن تبعه ، بمعاداة الرسول ، والسعي فى إراقة دم من تبعه ، والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها ، إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد البعثة ، وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لما يقولون ، عَلِيمٌ بما يفعلون. دأبهم فى ذلك التغيير كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ لمّا بدلوا وغيّروا ، ولم يشكروا ما بأيديهم من النعم ، وَكُلٌّ من الفرق المكذبة كانُوا ظالِمِينَ فأغرقنا آل فرعون ، وقتلنا صناديد قريش بظلمهم ، وما كنا ظالمين.

الإشارة : إذا أنعم اللّه على قوم بنعم ظاهرة أو باطنة ، ثم لم يشكروا اللّه عليها ، بل قابلوها بالكفران ، وبارزوا المنعم بالذنوب والعصيان ، فاعلم أن اللّه تعالى أراد أن يسلبهم تلك النعم ، ويبدلها بأضدادها

من النقم ، فمن شكر النعم فقد قيدها بعقالها ، ومن لم يشكرها فقد تعرض لزوالها. فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود ، فمن أعطى ولم

(٣٤٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٤١

يشكر ، سلب منها ولم يشعر ، والشكر : ألا يعصى اللّه بنعمه ، كما قال الجنيد رضى اللّه عنه. واللّه تعالى أعلم ومن جملة كفران النعم ، نقض العهد ، كما أبان ذلك بقوله :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٥٥ الى ٥٩]

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ (٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩)

قلت : (فهم لا يؤمنون) : جملة معطوفة على جملة الصلة ، والفاء للتنبيه على أن تحقق المعطوف عليه يستدعى تحقق المعطوف ، و(الذين عاهدت) : بدل بعض من (الذين كفروا) ، و(فشرد) : جواب (إما) ، والتشريد : تفريق على اضطراب.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ منزلة الَّذِينَ كَفَرُوا ، تحقق كفرهم ، وسبق به القدر ، فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أبدا لما سبق لهم من الشقاء. نزلت فى قوم مخصوصين ، وهم بنو قريظة ، الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ أي : أخذت عليهم العهد ألا يعاونوا عليك الكفار ، ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ أي : يخونون عهدك المرة بعد المرة ، فأعانوا المشركين بالسلاح يوم أحد ، وقالوا : نسينا ، ثم عاهدهم ، فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق ، وركب كعب بن الأشرف فى ملأ منهم إلى مكة ، فحالفوا المشركين على حرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فخرج إليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقتل مقاتلتهم وسبا ذراريهم ، وَهُمْ لا يَتَّقُونَ شؤم الغدر وتبعته ، أو : لا يتقون اللّه فى ذلك الغدر ونصرته للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

قال تعالى لنبيه عليه الصلاة السلام : فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ أي : مهما تصادفهم وتظفر بهم فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ أي : فرّق عنك من يناصبك بسبب تنكيلهم وقتلهم ، أو نكّل بهم مَنْ خَلْفَهُمْ بأن تفعل بهم من النقمة ما يزجر غيرهم لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أي : لعل من خلفهم يتعظون فينزجروا عن حربك.

وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ معاهدين خِيانَةً أي : نقض عهد بأمارات تلوح لك ، فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ أي : فاطرح إليهم عهدهم عَلى سَواءٍ أي : على عدل وطريق قصد فى العداوة ، ولا تناجزهم بالحرب قبل

العلم بالنبذ ، فإنه يكون خيانة منك ، أو على سواء فى العلم بنقض العهد ، فتستوي معهم فى العلم بنقض العهد ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ أي : لا يرضى فعلهم ، وهو تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال.

(٣٤١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٤٢
وَلا يَحْسَبَنَّ ، يا محمد ، الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا قدرتنا ، ونجوا من نكالنا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ أي : لا يفوتون فى الدنيا والآخرة ، فلا يعجزون قدرتنا ، أو لا يجدون طالبهم عاجزا عن إدراكهم ، بل اللّه محيط بهم أينما حلوا. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : شرف الإنسان وكماله فى خمسة أشياء : الإيمان باللّه ، وبسائر ما يتوقف الإيمان عليه ، والوفاء بالعهود ، والوقوف مع الحدود ، والرضى بالموجود ، والصبر على المفقود. وذله وخسته فى خمسة أشياء : الكفر والجحود ، ونقض العهود ، وتعدى الحدود ، وعدم الرضى بالموجود ، والجزع على المفقود.
وقال القشيري فى قوله تعالى : فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ ... الآية : أي : إن صادفت واحدا من هؤلاء الذين دأبهم نقض العهد ، فاجعلهم عبرة لمن يأتي بعدهم ، لئلا يسلكوا طريقهم ، فيستوجبوا عقوبتهم. كذلك من فسخ عقده مع اللّه بقلبه ، برجوعه إلى رخص التأويلات ، ونزوله إلى السكون مع العادات ، يجعله اللّه نكالا لمن بعده ، بحرمان ما كان خوّله وتنغيصه عليه. ثم قال عند قوله : وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً : يريد ، إذا تحقّقت خيانة قوم منهم ، فصرّح بأن لا عهد بينك وبينهم ، فإذا حصلت الخيانة زال سمت الأمانة ، وخيانة كل أحد على ما يليق بحاله. هـ.
ثم أمر بالاستعداد للحرب لمن نقض العهد ، فقال :
[سورة الأنفال (٨) : آية ٦٠]
وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠)
يقول الحق جل جلاله : وَأَعِدُّوا لَهُمْ ، أي : لناقضى العهد ، أو لمطلق الكفار ، مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ، أي : ما قدرتم عليه من كل ما يتقوى به فى الحرب. وعن عقبة بن عامر ، قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول على المنبر : «ألا إنّ القوة الرّمى» «١» قالها ثلاثا ، ولعله عليه الصلاة والسلام خصه بالذكر لأنه أعظم القوى ، وَأعدوا لهم أيضا مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ أي : من الخيل المربوطة للجهاد ، وهو اسم للخيل التي تربط فى سبيل اللّه ، بمعنى مفعول ، أو مصدر ، أو جمع ربيط كفصيل

وفصال.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الإمارة – باب فضل الرمي) عن عقبة بن عامر رضى اللّه عنه.

والمراد : الحث على استعداد الخيل العتاق التي تربط وتعلف بقصد الجهاد ، وهو من جملة القوة ، فهو من عطف الخاص على العام ، للاعتناء بأمر الخيل لما فيها من الإرهاب. ولذلك قال : تُرْهِبُونَ بِهِ أي : تخوفون بذلك الأعداء ، أو بما ذكر من الخيل المربوطة ، عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ، يعنى : كفار مكة ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ أي : من غيرهم من الكفرة ، كفارس والروم وسائر الكفرة ، لا تَعْلَمُونَهُمُ أي : لا تعرفونهم اليوم ، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وسيمكنكم منهم ، فتقاتلونهم وتملكون ملكهم ، وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فى شأن الاستعداد وغيره مما يستعان به على الجهاد ، يُوَفَّ إِلَيْكُمْ جزاؤه ، وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ بتضييع عمل أو نقص أجر ، بل يضاعفه لكم أضعافا كثيرة ، بسبعمائة أو أكثر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وأعدوا ، لجهاد القواطع والعلائق التي تعوقكم عن الحضرة ، ما استطعتم من قوة ، وهو العزم على السير من غير التفات ، ومن رباط القلوب فى حضرة الحق ، ترهبون به عدو اللّه ، وهو الشيطان ، وعدوكم ، وهى النفس ، وآخرين من دونهم : الحظوظ واللحوظ وخفايا خدع النفوس ، لا تعلمونهم ، اللّه يعلمهم كالرياء والشرك الخفي ، فإنه يدب دبيب النمل ، وما تنفقوا من شىء يوف إليكم أضعافا مضاعفة ، بالعز الدائم والغنى الأكبر ، وأنتم لا تظلمون.

وقال الورتجبي : أعلم اللّه المؤمنين والعارفين استعداد قتل أعداء اللّه ، وسمى آلة القتال بقوة ، وتلك القوة قوة الإلهية ، التي لا ينالها العارف من اللّه إلا بخضوعه بين يديه ، بنعت الفناء فى جلاله ، فإذا كان كذلك يلبسه اللّه لباس عظمته ونور كبريائه وهيبته ، ويغريه إلى الدعاء عليهم ، ويجعله منبسطا ، حتى يقول فى سره : إلهى خذهم ، فيأخذهم بلحظة ، ويسقطهم صرعى بين يديه بعونه وكرمه ، ويسلى قلب وليه بتفريجه من شرور معارضيه ومنكريه ، وذلك سهم رمى نفوس الهمة عن كنانة الغيرة ، كما رمى نبى اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلى منكريه حين قال : «شاهت الوجوه» ، وهذا الرمي من اللّه بقوله : وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى .

سمعت أن ذا النون المصري رضى اللّه عنه كان فى غزو ، وغلب المشركون على المؤمنين ، فقيل له : لو دعوت اللّه ، فنزل عن دابته وسجد ، فهزم المشركون فى لحظة ، وأخذوا جميعا ، وأسروا ، وقتلوا.

وأيضا : وأعدوا : أي : اقتبسوا من اللّه قوة من قوى صفاته لنفوسكم حتى يقويكم فى محاربتها. قال أبو على الروذبارى ، فى قوله : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ، فقال : القوة هى الثقة بالله ، قيل ظاهر الآية : إنه الرمي بسهام القسي. وفى الحقيقة : رمى سهام الليالى فى الغيب بالخضوع والاستكانة ، ورمى القلب إلى الحق معتمدا عليه ، راجعا إليه عما سواه. هـ.

(٣٤٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٤٤

ثم بيّن أن المعول على اللّه ونصرته ، لا على السلاح والآلات بقوله : هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، أي :

قواك بقوته الأزلية ، ونصرك بنصرته الأبدية ، ووفق المؤمنين بإعانتك على عدوك. ثم بيّن سبحانه أن نصرة المؤمنين لم تكن إلا بتأليفه بين قلوبهم ، وجمعها على محبة اللّه ومحبة رسوله ، بعد تباينها بتفرقة الهموم فى أودية الامتحان ، بقوله : وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ. وقال القشيري : الإشارة بقوله : تُرْهِبُونَ : إلى أنه لا يجاهد على رجاء غنيمة ينالها ، أو إشفاء صدر عن قضية حقد ، بل قصده أن تكون كلمة اللّه هى العليا. هـ.

ثم دلّ على الصلح لمصلحة ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٦١ الى ٦٣]

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ أي : وإن مالوا للصلح فَاجْنَحْ لَها أي : فصالحهم ، ومل إلى المعاهدة معهم ، وتوكل على اللّه فلا تخف منهم أن يكونوا أبطنوا خداعا فإن اللّه يعصمك من مكرهم وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ «١» ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لأقوالهم ، الْعَلِيمُ بأحوالهم.

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ بعد الصلح فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ أي : فحسبك اللّه وكافيك شرهم ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ أي : قواك ونصرك بِنَصْرِهِ تحقيقا ، وَبِالْمُؤْمِنِينَ تشريفا ، أو بِنَصْرِهِ قدرة وَبِالْمُؤْمِنِينَ حكمة ، والقدرة والحكمة منه وإليه ، فلا دليل عليه للمعتزلة حيث نسبوا الفعل للعبد ، وقالوا : العطف يقتضى المغايرة.

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ مع ما كان فيها فى زمن الجاهلية من المعصية والضغائن والتهالك على الانتقام ، حتى لا يكاد يأتلف فيهم قلبان ، ثم صاروا كنفس واحدة ، وهذا من معجزاته صلّى اللّه عليه وسلّم. قال تعالى : لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ، فى إصلاح ما بينهم ، ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لتناهى عدواتهم

إلى حد لو أنفق منفق فى إصلاح

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة فاطر. [.....]

(٣٤٤/٢)

ذات بينهم ما فى الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة بينهم ، وَلكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ بقدرته البالغة فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء. إِنَّهُ عَزِيزٌ تام القدرة ، لا يعصى عليه ما يريده ، حَكِيمٌ يعلم كيف ينبغى أن يفعل ما يريده.

قيل : إن الآية نزلت فى الأوس والخزرج ، كان بينهم إحن وضغائن لا أمد لها ، ووقائع هلكت فيها ساداتهم ، فأنساهم اللّه ذلك ، وألفّ بينهم بالإسلام ، حتى تصادقوا وصاروا أنصار الدين. وبالله التوفيق.

الإشارة : وإن مالت النفس وجنودها إلى الصلح مع صاحبها بأن ألقت السلاح ، ومالت إلى فعل كل ما فيه خير وصلاح ، وعقدت الرجوع عن هواها ، والدءوب على طاعة مولاها ، فالواجب عقد الصلح معها ، وتصديقها فيما تأمر به أو تنهى عنه ، مما يرد عليها ، مع التوكل على مولاها ، فإن خدعت بعد ذلك ، أو رجعت إلى مألوفها ، فالله يكفى أمرها ، ويقوى صاحبها على ردها ، إما بسبب شيخ كامل ، أو أخ صالح ، فإن الصحبة فيها سر كبير ، لا سيما مع أهل الصفاء ، الذين صفت قلوبهم ، وألف اللّه بينهم بالمحبة والوداد ، وحسن الظن والاعتقاد ، وإما بسابق عناية ربانية وقوة إلهية. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه بالاكتفاء بالله وعدم الالتفات إلى ما سواه ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٦٤]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)

قلت : (حسبك) : مبتدأ ، و(اللّه) : خبر ، ويصح العكس ، و(من اتبعك) : إما عطف على (اللّه) ، أي : كفاك اللّه والمؤمنون ، أو فى محل نصب على المفعول معه ، أو فى محل جر عطف على الضمير ، على مذهب الكوفيين ، أي : حسبك وحسب من اتبعك اللّه ، والأول : أصح.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ أي : كافيك اللّه ، فلا تلتفت إلى شىء سواه ، أي : لمّا مننت عليك بائتلاف قلوب المؤمنين فى نصرتك ، فلا تلتفت إليهم فى محل التوحيد ، فإنى حسبك وحدي بغير معاونة الخلق ، فينبغى أن تفرد القدم عن الحدوث فى سيرك منى إلىّ ، وأنا حسب المؤمنين عن كل ما دونى ، وإن كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا ، ولا ينبغى فى حقيقة التوحيد النظر إلى

غيرى ، وإنما أيدتك بواسطة المؤمنين ، وذكرتهم معى تشريفا لأمتك ، وسترا لقدرتى ، وإظهارا لكمال حكمتى ، وإلا فقدرتى لا يفوتها شيء ، ولا تتوقف على شيء «جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل».
قال البيضاوي : نزلت الآية تأييدا فى غزوة بدر ، وقيل : أسلم مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ، ثم أسلم عمر رضى اللّه عنه ، فنزلت. ولذلك قال ابن عباس - رضى اللّه عنهما - : نزلت فى إسلامه.

(٣٤٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٤٦
الإشارة : ما خوطب به النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يخاطب به ورثته الكرام ، من الاكتفاء بالله وعدم الالتفات إلى ما سواه ، وتصحيح عقد التوحيد ، والاعتماد على الكريم المجيد. واللّه تعالى أعلم.
ثم أمره بالتحريض على الجهاد ، فقال :
[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٦٥ الى ٦٦]
يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)
قلت : التحريض : هو الحث على الشيء والمبالغة فى طلبه ، وهو من الحرض ، الذي هو الإشفاء على الهلاك.
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ أي : حثهم عَلَى الْقِتالِ أي : الجهاد. ثم أمرهم بالصبر والثبات للعدو بقوله : إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وهذا خبر بمعنى الأمر ، أي : يقاتل العشرون منكم المائتين ، والمائة الألف ، وليثبتوا لهم ، ولا يصح أن يكون خبرا محضا إذ لو كان خبرا محضا لما تخلف فى الواقع ، ولو فى جزئية إذ خبره تعالى لا يخلف.
قال الفخر الرازي : حسن هذا التكليف لما كان مسبوقا بقوله : حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فلما وعد المؤمنين بالكفاية والنصر كان هذا التكليف سهلا لأن من تكفل اللّه بنصره فإن أهل العالم لا يقدرون على إذايته. هـ.
وإنما كان القليل من المؤمنين يقاوم الكثير من الكفار بِأَنَّهُمْ بسبب أنهم قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ، أي : لأنهم جهلة بالله واليوم الآخر ، فلا يثبتون ثبات المؤمنين ، رجاء الثواب والترقي فى الدرجات ، قتلوا أو ماتوا

، بخلاف الكفار فلا يستحقون من اللّه إلا الهوان والخذلان.
ولمّا كلفهم بهذا فى أول الإسلام ، وشقّ ذلك عليهم ، خفف عنهم فقال : الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فلا يقاوم الواحد منكم العشرة ، ولا المائة الألف ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ،

(٣٤٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٤٧
وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ
أمرهم بمقاومة الواحد لاثنين. وقيل : كان فيهم قلة ، فلما كثروا خفف عنهم ، وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد ، والضعف :
ضعف البدن ، لا ضعف القلب.
قال بعض الصحابة - رضي اللّه عنهم - : لما نزل التخفيف ذهب من الصبر تسعة أعشار ، وبقي العشر. ولذلك قال تعالى هنا : وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ، أي : بالنصر والمعونة ، فكيف لا يغلب من يقاومهم ولو كثر عدده؟.
الإشارة : ينبغى لأهل التذكير أن يحرضوا الناس على جهاد نفوسهم ، الذي هو الجهاد الأكبر ، وإنما كان أكبر لأن العدد الحسى يقابلك وتقابله ، بخلاف النفس فإنها جاء تحت الرماية خفية عدو حبيب ، فلا يتقدم لجهادها إلا الرجال ، فينبغى للشيوخ أن يحضوا المريدين على جهادها ، ويهونوا لهم شأنها فإنّ النفس لا يهول أمرها إلا قبل رمى اليد فيها ، فاذا رميت يدك فيها بالعزم على قتلها ضعفت ولانت ، وسهل علاجها ، وإذا خفت منها ، وسوّفت لها ، طالت عليك وملكتك. ولا بد فى جهادها من شيخ يريك مساوئها ، ويعينك بهمته على قتلها ، وإلّا بقيت فى العنت معها ، والشغل بمعاناتها حتى تموت بلا حصول نتيجة جهادها ، وهى المعرفة بسيدها وخالقها. واللّه تعالى أعلم.
ثم عاتبهم على أخذ الفداء من الأسارى ، فقال :
[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٦٧ الى ٦٩]
ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩)
يقول الحق جل جلاله : ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى يقبضها حَتَّى يُثْخِنَ أي : يبالغ فِي الْأَرْضِ بالقتل حتى يذل الكفر ويقل حزبه ، ويعز الإسلام ويستولى أهله. تُرِيدُونَ بقبض الأسارى عَرَضَ الدُّنْيا حطامها

بأخذ الفداء منهم ، وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ أي : يريد لكم ثواب الآخرة ، الذي يدوم ويبقى ، أو يريد سبب نيل الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ يغلب أولياءه على أعدائه ، حَكِيمٌ يعلم ما يليق بكمال حالهم ويخصهم بها ، كما أمر بالإثخان ، ومنع من أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين ، وخيّر بينه وبين المنّ لما تحولت الحال ، وصارت الغلبة للمؤمنين.

روى أنه عليه الصلاة والسلام أتى يوم بدر بسبعين أسيرا ، فيهم العبّاس وعقيل بن أبى طالب. فاستأذن فيهم فقال أبو بكر رضى اللّه عنه : قومك وأهلك ، استبقهم ، لعلّ اللّه يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوّى بها أصحابك. وقال عمر

رضى اللّه عنه : اضرب أعناقهم ، فإنهم أئمّة الكفر ، وإنّ اللّه أغناك عن الفداء ، فمكّنى من فلان - لنسيب له - ومكّن عليّا وحمزة من أخويهما ، فلنضرب أعناقهم ، فلم يهو ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقال : «إنّ اللّه ليلين قلوب رجال حتّى تكون ألين من كل لين ، وإنّ اللّه ليشدّد قلوب رجال حتّى تكون أشدّ من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال :

فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «١» ، ومثلك يا عمر مثل نوح ، قال : رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً» «٢». فخيّر أصحابه ، فأخذوا الفداء ، فنزلت ، فدخل عمر رضى اللّه عنه على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فإذا هو وأبو بكر يبكيان ، فقال : يا رسول اللّه : أخبرنى ، فإن أجد بكاء بكيت ، وإلا تباكيت؟ فقال : «أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء ، ولقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» «٣» لشجرة قريبة.

والآية دليل على أن الأنبياء - عليهم السلام - يجتهدون ، وإنه قد يكون الخطأ ، ولكن لا يقرون عليه. قاله البيضاوي. قال القشيري : أخذ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يوم بدر منهم الفداء ، وكان ذلك جائزا لوجوب العصمة ، ولكن لو قتلهم كان أولى. هـ. وقال ابن عطية : إنما توجه العتاب للصحابة على استبقاء الرجال دون قتلهم ، لا على الفداء لأن اللّه تعالى قد كان خيّرهم ، فاختاروا الفداء على أن يقتل منهم سبعين ، كما تقدم فى سورة آل عمران «٤». ثم قال :

والنبي عليه الصلاة والسلام خارج عن ذلك الاستبقاء. انظر تمامه فى الحاشية.

فإن قلت : إذا كان الحق تعالى خيّرهم فكيف عاتبهم ، وهم لم يرتكبوا محظورا؟ فالجواب : أن العتاب تابع لعلو المقام ، فالخواص يعاتبون على المباح ، إن كان فعله مرجوحا ، والحق تعالى إنما عاتبهم على رغبتهم فى أمر دنيوى ، وهو الفداء ، حتى آثروا قتل أنفسهم على أخذه ، ويدل عليه قوله : تُرِيدُونَ

عَرَضَ الدُّنْيا ، وهذا إنما كان فى بعضهم ، وجلهم إنما اختاروا الفداء استبقاء لقرابة الرسول عليه الصلاة والسلام. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى فى تمام عتابهم : لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ أي : لو لا حكم اللّه سبق إثباته فى اللوح المحفوظ ، وهو ألا يعاقب المخطئ فى اجتهاده ، أو أنه سيحل لكم الغنائم ، أو ما سبق فى الأزل من العفو عنكم ، لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ من الفداء أو من الأسارى ، عَذابٌ عَظِيمٌ. روى أنه عليه الصلاة والسلام قال ، حين نزلت :

«لو نزل العذاب ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ» وذلك لأنه أيضا أشار بالإثخان.

---

(١) الآية ٣٦ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ٢٦ من سورة نوح.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٣٨٣) والترمذي ببعض الاختصار فى (تفسير سورة الأنفال) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي فى (المغازي ، ٣/ ٢١) وكذلك أخرجه البيهقي فى الدلائل (٣/ ١٣٨) كلهم عن ابن مسعود. وأخرجه بنحوه مسلم فى (الجهاد - باب الإمداد بالملائكة) من حديث ابن عباس عن سيدنا عمر - رضى اللّه عن الجميع.

(٤) عند تفسير قوله تعالى : (أ ولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا) الآية ١٦٥.

ثم أباح لهم الغنائم وأخذ الفداء فقال : فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ من الكفار ، ومن جملته : الفدية ، فإنها من الغنائم ، حَلالًا طَيِّباً أي : أكلا حلالا ، وفائدته : إزاحة ما وقع فى نفوسهم بسبب تلك المعاتبة ، أو حرمتها على المتقدمين. روى أنه لما عاتبهم أمسكوا عنها حتى نزلت : فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ ، ووصفه بالطيب تكسينا لقلوبهم ، وزيادة فى حليتها. وفي الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «أعطيت خمسا لم يعطهنّ أحد من الأنبياء قبلى : أحلّت لى الغنائم ، ونصرت بالرّعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأعطيت الشّفاعة ، وخصصت بجوامع الكلم» «١». أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم قال تعالى : وَاتَّقُوا اللَّهَ فى مخالفته إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أي : يغفر لكم ما فرط ، ويرحمكم بإباحة ما حرم على غيركم توسعة عليكم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما ينبغى للفقير المتوجه أن يكون له أتباع يتصرف فيهم ويستفيد منهم ، عوضا عن الدنيا ،

حتى يبالغ فى قتل نفسه وتموت ، ويأمن عليها الرجوع إلى وطنها من حب الرئاسة والجاه ، أو جمع المال ، والتمتع بالحظوظ ، فإن تعاطي ذلك قبل موت نفسه كان ذلك سبب طرده ، وتعجيل العقوبة له ، حتى إذا تداركه اللّه بلطفه ، وسبقت له عناية من ربه ، فيقال له حينئذ : لو لا كتاب من اللّه سبق لمسك فيما أخذت عذاب عظيم.

ثم بشّر الأسارى بخلف ما أخذ منهم من الفداء بأكثر منه ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٧٠ الى ٧١]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

قلت : (أسرى) : جميع أسير ، ويجمع على أسارى. وقرىء بهما ، و(خيرا مما) : اسم تفضيل ، وأصله : أخير ، فاستغنى عنه بخير ، وكذلك شر أصله : أشر ، قال فى الكافية :

وغالبا أغناهم خير وشر عن قولهم : أخير منه وأشر.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى الذين أخذتم منهم الفداء : إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً أي : إيمانا وإخلاصا يكون فى المستقبل ، يُؤْتِكُمْ خَيْراً أي : أفضل وأكثر مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ من الفداء.

---

(١) أخرجه البخاري فى (أول كتاب التيمم) ومسلم فى (المساجد) من حديث جابر بن عبد اللّه - بلفظ : «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة» بدل : «وخصصت بجوامع الكلم» ، وقد جاءت هذه العبارة بنحوها فى رواية عند مسلم عن أبى هريرة ، وفيها : (فضلت على الأنبياء بست) وساق الخمس السابقة.

روى أنها نزلت فى العباس رضى اللّه عنه كلّفه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يفدى نفسه ، وابني أخويه : عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث ، فقال : يا محمد تركتنى أتكفف قريشا ما بقيت ، فقال له عليه الصلاة والسلام : وأين الذهب الذي دفعته لأمّ الفضل وقت خروجك ، وقلت لها : لا أدرى ما يصيبنى فى وجهي هذا ، فإن حدث بي حدث فهو لك ، ولعبد اللّه ، وعبيد اللّه والفضل ، وقثم ، قال له وما يدريك؟ قال : أخبرنى به ربى تعالى ، قال : فأشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلا اللّه ، وأنك

رسول اللّه ، واللّه لم يطلع عليه أحد إلا اللّه ، ولقد دفعته إليها في سواد اللّيل.
قال العباس : فأبدلني اللّه خيرا من ذلك ، أعطاني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من المال الذي قدم من البحرين ما لم أقدر على حمله ، ولي الآن عشرون عبدا ، إن أدناهم يضرب - أي : يتجر - في عشرين ألفا ، وأعطاني زمزم ، ما أحب أنّ لي بها جميع أموال أهل مكة ، وأنا أنتظر المغفرة من ربكم ، يعني : الموعود بقوله تعالى : (يغفر لكم واللّه غفور رحيم) «١».
وَإِنْ يُرِيدُوا الأسارى خِيانَتَكَ بنقض ما عهدوك به ، فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ بالكفر والمعاصي فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وأمكنك من ناصيتهم ، فقبضوا وأسروا ببدر ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ لا يخفى عليه شيء ، حَكِيمٌ فيما دبر وأمضى.
الإشارة : يقال للفقراء المتوجهين إلى اللّه ، الذين بذلوا أموالهم ومهجهم ، وقتلوا نفوسهم في طلب محبوبهم :
إن يعلم اللّه في قلوبكم خيرا ، كصدق وإخلاص ، يؤتكم أفضل مما أخذ منكم ، من ذبح النفوس وحط الرؤوس ودفع الفلوس. وهو الغناء الأكبر ، والسر الأشهر ، الذي هو الفناء في اللّه ، والغيبة عما سواه ، وثمرته : المشاهدة التي تصحبها المكالمة ، وهذا هو الإكسير والغنا الكبير ، فكل من باع نفسه في طلب هذا فقد ربحت صفقته وزكت تجارته ، مع غفران الذنوب ، وتغطية المساويء والعيوب. وبالله التوفيق.
ثم بيّن فضائل المهاجرين والأنصار ، ومنزلة من آمن ولم يهاجر ، والذين هاجروا بعد الحديبية ، تتميما للتحريض على الجهاد ، فبدأ أولا بالمهاجرين والأنصار ، فقال :

---

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك ٣/ ٣٢٤) وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي - والطبري في تفسير الآية ، عن السيدة عائشة رضى اللّه عنها.

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٧٢ الى ٧٣]
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسادٌ كَبِيرٌ (٧٣)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا أوطانهم فى الخروج مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، لنصرة الدين بالجهاد ، وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ فصرفوها فى الإعداد للجهاد ، كالكراع والسلاح ، وأنفقوها على المجاريح ، وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بمباشرة القتال ، وَالَّذِينَ آوَوْا رسول اللّه ومن هاجر معه ، وواسوهم بأموالهم ، وَنَصَرُوا دين اللّه ورسوله ، أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ فى التعاون والتناصر ، أو فى الميراث.

وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة ، دون الأقارب ، حتى نسخ بقوله : وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ «١».

ثم ذكر من لم يهاجر فقال : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ لا فى النصرة ، ولا فى الميراث ، حَتَّى يُهاجِرُوا إليكم ، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ على المشركين فِي إظهار الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ أي : فواجب عليكم نصرهم وإعانتهم ، لئلا يستولى الكفر على الإيمان ، إِلَّا عَلى قَوْمٍ كان بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عهد ومِيثاقٌ ، فلا تنقضوا عهدهم بنصرهم ، فإن الخيانة ليست من شأن أهل الإيمان. وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا يخفى عليه من أوفى ومن نقض.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ فى الميراث. ويدل بمفهومه ، على منع التوارث والمؤازرة بينهم وبين المسلمين. إِلَّا تَفْعَلُوهُ أي : إلا تفعلوا ما أمرتم به من موالاة المؤمنين ونصرتهم ، أو نصرة من استنصر بكم ممن لم يهاجر ، تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ باستيلاء المشركين على المؤمنين ، وَفَسادٌ كَبِيرٌ بإحلال المشركين أموال المؤمنين وفروجهم ، أو : إلّا تفعلوا ما أمرتم به من حفظ الميثاق ، تكن فتنة فى الأرض ، فلا يفى أحد بعهد أبدا ، وفساد كبير بنهب الأموال والأنفس.

الإشارة : أهل التجريد ، ظاهرا وباطنا ، هم الذين آمنوا وهاجروا حظوظهم ، وجاهدوا نفوسهم بسيوف المخالفة ، وآووا من نزل أو التجأ إليهم من إخوانهم أو غيرهم ، أو آووا أشياخهم وقاموا بأمورهم ، ونصروا الدين بالتذكير

---

(١) الآية ٦ من سورة الأحزاب.

والإرشاد والدلالة على اللّه ، أينما حلوا من البلاد ، أولئك بعضهم أولياء بعض فى العلوم والأسرار ، وكذلك فى الأموال. فقد قال بعض الصوفية : (الفقراء : لا رزق مقسوم ، ولا سر مكتوم). وهذا فى حق أهل الصفاء من المتحابين فى اللّه.

والذين آمنوا ولم يهاجروا هم أهل الأسباب من المنتسبين ، قد نهى اللّه عن موالاتهم فى علوم الأسرار وغوامض التوحيد لأنهم لا يطيقون ذلك لشغل فكرتهم بالأسباب أو بالعلوم الرسمية ، نعم ، إن وقعوا فى شبهة أو حيرة ، وجب نصرهم بما يزيل إشكالهم ، لئلا تقع بهم فتنة أو فساد كبير فى اعتقادهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم أثنى على المهاجرين والأنصار ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٧٤]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)

قال البيضاوي : لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام ، - أي : مهاجرين ، وأنصار ، ومن آمن ولم يهاجر - بيّن أن الكاملين فى الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم ، بتحصيل مقتضاه من الهجرة ، والجهاد ، وبذل المال ، ونصرة الحق ، ووعد لهم الوعد الكريم ، فقال : لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ لا تبعة له ، ولا فتنة فيه. ثم ألحق بهم فى الأمرين من يلتحق بهم ويتسم بسمتهم فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٧٥]

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)

أي : من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار. هـ.

ثم نسخ الميراث المتقدم ، فقال :

وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يقول الحق جل جلاله وَأُولُوا الْأَرْحامِ من قرابة النسب ، بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فى التوارث من الأجانب ، وظاهره : توريث ذوى الأرحام ، كالخال والعمة وسائر ذوى الأرحام ، وبه قال أبو حنيفة ، ومنعه مالك ، ورأى أن الآية منسوخة بآية المواريث التي فى النساء ، أو يراد بالأولية : غير الميراث ، كالنصرة وغيرها. وقوله : فِي كِتابِ اللَّهِ أي : فى القرآن ، أو اللوح المحفوظ. إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ من أمر المواريث وغيرها ، أو عليم بحكمة إناطتها بنسبة الإسلام والمظاهرة أولا ، وبالقرابة ثانيا ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الناس ثلاثة : عوام ، وخواص ، وخواص الخواص. فالعوام : هم الذين لا شيخ لهم يصلح للتربية.

والخواص : هم الذين صحبوا شيخ التربية ، ولم ينهضوا إلى مقام التجريد. وخواص الخواص : هم الذين صحبوا شيخ التربية وتجردوا ظاهرا وباطنا ، خربوا ظواهرهم ، وعمّروا بواطنهم ، وهم الذين خاضوا بحار التوحيد ، وذاقوا أسرار التفريد. وهم الذين أشار المجذوب الى مقامهم بقوله :

يا قارئين علم التوحيد هنا البحور إليّ تغبى

هذا مقام أهل التجريد الواقفين مع ربى

فأهل التجريد ، كالمهاجرين والأنصار ، وأهل الأسباب من أهل النسبة ، كمن لم يهاجر من الصحابة ، ومن تجرد بعد ودخل معهم ، التحق بهم. قال تعالى : وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ ، ومن لا نسبة له كمن لا صحبة له ، وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

وصلّى اللّه على سيدنا ومولانا محمد ، وآله وصحبه ، وسلّم تسليما ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين «١».

---

(١) كتب فى آخر المجلد الأول من النسخة الأصلية : هذا آخر السفر الأول من (البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد) ، ووافق الفراغ من تبييضه سادس عشر من جمادى الأولى ، سنة ست عشر ومائتين وألف ، يتلوه سورة التوبة بحول اللّه وقوته.

انتهى ، بحوله وقوته ، عشية يوم استخراجه من مبيضته الجمعة ثالث وعشرين من جمادى الأولى ، أيضا ، من تلك السنة المذكورة قبل. ونسأله الإعانة على التمام ، بجاه النبي - عليه السّلام - صلى اللّه عليه - على مر الليالى والأيام.

(٣٥٣/٢)

(٣٥٤/٢)

سورة التّوبة «١»

(مدنية). ولها أسماء أخر : سورة براءة لتبرئها من المنافقين ، والمقشقشة ، أي : المبرئة من النفاق ، والبحوث لبحثها عن أحوال المنافقين ، والمبعثرة والمنقرة والمثيرة ، والحافرة لأنها بعثرت ونقرت وأثارت وحفرت عن أحوال المنافقين ، والمخزية والفاضحة ، والمنكلة ، والمشردة ، والمدمدمة ،

وسورة العذاب لأنها أخزت المنافقين ، وفضحتهم ، ونكلتهم ، وشردتهم ، ودمدمت عليهم ، وذكرت ما أعد اللّه لهم من العذاب.

وآياتها : مائة وثلاثون ، وقيل : وتسع وعشرون. ومناسبتها : قوله : إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «٢» ، فذكر في هذه السورة نقض ذلك الميثاق.

واتفقت المصاحف والقراء على ترك البسملة في أولها ، فقال عثمان رضى اللّه عنه : أشبهت معانيها معانى الأنفال ، أي : لأن فى الأنفال ذكر العهود وفى براءة نبذها. وكانتا تدعى القرينتين فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلذلك قرنت بينهما ووضعتهما فى السبع الطوال «٣» ، وكان الصحابة قد اختلفوا : هل هما سورة واحدة أو سورتان؟ فتركت البسملة بينهما لذلك. وقال على بن أبى طالب رضى اللّه عنه : البسملة أمان ، وبراءة نزلت بالسيف ، فلذلك لم تبدأ بالأمان.

وقال البيضاوي : لما اختلف الصحابة فى أنهما سورة واحدة ، وهى سابعة السبع الطوال ، أو سورتان ، تركت بينهما فرجة ، ولم تكتب بسم اللّه. هـ.

ثم ابتدأ بنقض عهود المشركين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١ الى ٢]

بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ (٢)

قلت : (براءة) : خبر عن مضمر ، أي : هذه براءة ، و(من) : ابتدائية ، متعلقة بمحذوف ، أي : واصلة من اللّه ، و(إلى الذين) : متعلقة به أيضا ، أو مبتدأ لتخصيصها بالصفة ، و(إلى الذين) : خبر.

---

(١) بداية المجلد الثاني فى النسخة الأصلية.

(٢) من الآية ٧٢ من سورة الأنفال.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٥٧) وأبو داود فى (الصلاة ، باب من جهر ببسم اللّه الرحمن الرحيم) والترمذي فى (التفسير ، سورة التوبة) والحاكم فى (٢/ ٢٢١) وصححه ووافقه الذهبي.

يقول الحق جل جلاله : هذه بَراءَةٌ أي : تبرئة مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ واصلة إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فقد تبرأ اللّه ورسوله من كل عهد كان بين المشركين والمسلمين ، لأنهم نكثوا أولا ، إلا أناسا منهم لم ينكثوا ، وهم بنو ضمرة وبنو كنانة ، وسيأتى استثناؤهم. قال البيضاوي : وإنما علقت البراءة بالله

وبرسوله ، والمعاهدة بالمسلمين للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهود المشركين إليهم ، وإن كانت صادرة بإذن اللّه واتفاق الرسول فإنهما برئا منها. هـ.

وقال ابن جزى : وإنما أسند العهد إلى المسلمين لأن فعل الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم لازم للمسلمين ، وكأنهم هم الذين عاهدوا المشركين ، وكان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قد عقد العهد مع المشركين إلى آجال محدودة ، فمنهم من وفّى ، فأمر اللّه أن يتم عهده إلى مدته ، ومنهم من نقض أو قارب النقض ، فجعل له أجل أربعة أشهر ، وبعدها لا يكون له عهد. هـ. وإلى ذلك أشار بقوله : فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ آمنين لا يتعرض لكم أحد ، وبعدها لا عهد بينى وبينكم.

وذكر الطبري : أنهم أسلموا كلهم فى هذه المدة ولم يسح أحد. هـ.

وهذه الأربعة الأشهر : شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، لأنها نزلت فى شوال ، وقيل : هى عشرون من ذى الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وعشر من الآخر ، لأن التبليغ كان يوم النحر لما روى (أنها لمّا نزلت أرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عليا رضى اللّه عنه راكبا العضباء ليقرأها على أهل الموسم ، وكان قد بعث أبا بكر رضى اللّه عنه أميرا على الموسم ، فقيل : لو بعثت بها إلى أبى بكر؟ فقال : «لا يؤدّى عنّى إلا رجل منّى» فلمّا دنا علىّ رضى اللّه عنه سمع أبو بكر الرّغاء ، فوقف ، وقال : هذا رغاء ناقة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فوقف ، فلمّا لحقه قال : أمير أو مأمور؟ قال : مأمور ، فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضى اللّه عنه ، وحدّثهم عن مناسكهم ، وقام علىّ - كرم اللّه وجهه - يوم النّحر ، عند جمرة العقبة ، فقال : يا أيها النّاس ، إنى رسول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إليكم ، فقالوا : بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية من أول السورة ، ثم قال : أمرت بأربع : ألا يقرب البيت بعد هذا مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنّة إلا نفس مؤمنة ، وأن يتمّ إلى كلّ ذى عهد عهده.) «١».

ولعل قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «ولا يؤدى عنى إلا رجل منى» خاص بنقض العهود لأنه قد بعث كثيرا من الصحابة ليؤدوا عنه ، وكانت عادة العرب ألّا يتولى العهد ونقضه على القبيلة إلا رجل منها. قاله البيضاوي مختصرا.

ثم قال تعالى لأهل الشرك : وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ أي : لا تفوتونه ، وإن أمهلكم ، وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ فى القتل والأسر فى الدنيا ، والعذاب المهين فى الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الصلاة - باب ما يستر من العورة) ومسلم فى (الحج - باب لا يحج البيت مشرك) كلاهما من حديث أبى هريرة ، وليس فيه ذكر قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : (لا يؤدى عنى إلا رجل منى) ، وقد جاءت فى رواية عند أحمد فى المسند (١/ ٣) والترمذي فى (تفسير سورة التوبة).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٥٧

الإشارة : قد وقع التبرؤ من أهل الشرك مطلقا ، أما الشرك الجلى فقد تبرأ منه الإسلام والإيمان ، وأما الشرك الخفي فقد تبرأ منه مقام الإحسان ، ولا يدخل أحد مقام الإحسان حتى لا يعتمد على شيء ، ولا يستند إلى شيء ، إلا على من بيده ملكوت كل شيء ، فيطرح الأسباب وينبذ الأرباب ، ويرفض النظر إلى العشائر والأصحاب ، حتى لا يبقى فى نظره إلا الكريم الوهاب ، فمن أصرّ على شركه الجلى أو الخفي فإن اللّه يمهل ولا يهمل ، فلا بد أن يلحقه وباله : إما خزى فى الدنيا ، أو عذاب فى الآخرة ، كلّ على ما يليق به.

وقال القشيري : إن قطع عنهم الوصلة فقد ضرب لهم مدة على وجه المهلة ، فأمّنهم فى الحال ليتأهبوا لتحمّل مقاساة البراءة فيما يستقبلونه فى المآل. والإشارة فيه : أنهم إن أقلعوا فى هذه المهلة عن الغىّ والضلال ، وجدوا فى المآل ما فقدوا من الوصال ، وإن أبوا إلا التمادي فى ترك الخدمة والحرمة ، انقطع ما بينه وبينهم من الوصلة. هـ. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر بإظهار تلك البراءة للناس ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٣ الى ٤]

وَأَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤)

قلت : (و أذان) : مبتدأ ، أو خبر ، على ما تقدم فى براءة ، وهو فعال بمعنى إفعال كالعطاء بمعنى الإعطاء ، أي :

وإعلام من اللّه ورسوله واصل إلى الناس ، ورفع «رسوله» إما عطف على ضمير برىء ، أو على محل «إن» واسمها ، أو مبتدأ حذف خبره ، أي : ورسوله كذلك.

يقول الحق جل جلاله : وَأَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ واصل إلى الناس ، يكون يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ وهو يوم النحر لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله ، ولأن الإعلام كان فيه. ولما روى أنه - عليه الصلاة والسلام - وقف يوم النحر ، عند الجمرات ، فى حجة الوداع ، فقال : «هذا يوم الحج الأكبر» «١» ، وقيل : يوم عرفه لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «الحج عرفة» «٢». ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الحج - باب الخطبة أيام منى) عن نافع عن ابن عمر.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٤/ ٣٠٩) وأبو داود فى (المناسك ، باب من لم يدرك عرفة) والترمذي

فى (الحج ، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج) ، كذلك أخرج الحديث النسائي وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن يعمر. [.....]

(٣٥٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٥٨

وذلك الإعلام بأنّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ - عليه الصلاة والسلام - كذلك. قال البيضاوي : ولا تكرار فإن قوله : بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ : إخبار بثبوت البراءة ، وهذا إخبار بوجوب الإعلام بذلك ، ولذلك علقه بالناس ولم يخص بالمعاهدين. هـ. فَإِنْ تُبْتُمْ يا معشر الكفار ورجعتم عن الشرك ، فَهُوَ أي : الرجوع خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أي : أعرضتم عن التوبة وأصررتم على الكفر فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ لا تفوتونه طلبا ، ولا تعجزونه هربا فى الدنيا ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ فى الآخرة.

ولما أمر بنقض عهود الناكثين استثنى من لم ينقض فقال : إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ أي : لكن الذين عاهدتم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وهم بنو ضمرة وبنو كنانة ، ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً من شروط العهد ، ولم ينكثوا ، ولم يقتلوا منكم ، ولم يضروكم قط ، وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً أي : لم يعاونوا عليكم أحدا من أعدائكم ، فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى تمام مُدَّتِهِمْ ، وكانت بقيت لهم من عهدهم تسعة أشهر. ولا تجروهم مجرى الناكثين إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ، وهو تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى. قاله البيضاوي.

الإشارة : من أعظم شؤم الشرك : أن اللّه ورسوله تبرآ من أهله مرتين : خاصة وعامة ، فيجب على العبد التخلص منه خفيا أو جليا ، ويستعين على ذلك بصحبة أهل التوحيد الخاص ، حتى يخلصوه من أنواع الشرك كلها ، فإن صدر منه شيء من ذلك فليبادر بالتوبة ، فإن تولى وأصر على شركه ، كان ذلك سبب هوانه وخزيه ، وباللّه التوفيق.

ثم أمر بجهاد المشركين ، بعد الأربعة الأشهر التي أمهلهم فيها ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٥]

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

يقول الحق جل جلاله : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ أي : انقضى الأشهر الْحُرُمُ وهى الأربعة التي أمهلهم فيها ، فمن قال : إنها شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، فهى الحرم المعروفة ، زاد فيها شوال ، ونقص رجب ، وسميت حرما تغليبا للأكثر ، ومن قال : إنها ذو الحجة إلى ربيع الثاني ، فسميت حرما

لحرمتها ومنع القتال فيها حينئذ. وغلط من قال : إنها الأشهر الحرم المعلومة لإخلاله بنظم الكلام ومخالفته للإجماع لأنه يقتضى بقاء حرمة الأشهر الحرم. انظر البيضاوي.

فإذا انقضت الأربعة التي أمهلتهم فيها فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ الناكثين حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ من حل أو حرم ، وَخُذُوهُمْ أسارى ، ويقال للأسير : أخيذ ، وَاحْصُرُوهُمْ واحبسوهم ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ كل ممر وطريق لئلا ينبسطوا فى البلاد ، فَإِنْ تابُوا عن الشرك وآمنوا ، وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ تصديقا لتوبتهم وإيمانهم فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ أي : فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك.

وفيه دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله ، بل يقاتل كما فعل الصديق رضى اللّه عنه بأهل الردة.

والآية : فى معنى قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا لا إله إلّا اللّه ، ويقيموا الصّلاة ، ويؤتوا الزّكاة ...»

الحديث «١».

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، هو تعليل لعدم التعرض لمن تاب ، أي : فخلوهم لأن اللّه قد غفر لهم ، ورحمهم بسبب توبتهم.

الإشارة : فإذا انقضت أيام الغفلة والبطالة التي احترقت النفس فيها ، فاقتلوا النفوس والقواطع والعلائق حيث وجدتموهم ، وخذوا أعداءكم من النفس والشيطان والهوى ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد يتعرضون فيه لكم ، فإن أذعنوا ، وانقادوا ، وألقوا السلاح ، فخلوا سبيلهم ، إن اللّه غفور رحيم.

ولما أمر بقتال المشركين وأخذهم أينما ثقفوا ، استثنى من أتى يطلب الأمان ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٦]

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ (٦)

قلت : «أحد» : فاعل بفعل يفسره : «استجارك».

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ أتاك أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ المأمورين بالتعرض لهم ، حيثما وجدوا ، اسْتَجارَكَ يطلب جوارك ، ويستأمنك ، فَأَجِرْهُ أي : فأمنه حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ويتدبره ، ويطلع على حقيقة الأمر ، لعله يسلم ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ أي : موضع أمنه إن لم يسلم ، ولا تترك أحدا يتعرض له حتى يبلغ محل أمنه ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ أي : ذلك الأمر الذي أمرتك به بسبب أنهم قوم لا علم لهم بحقيقة

الإيمان ، ولا ما تدعوهم إليه ، فلا بد من إيجارهم ، لعلهم يسمعون ويتدبرون فيكون ذلك سبب إيمانهم.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الاعتصام - باب الاقتداء بسنن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم) ومسلم فى (الإيمان - باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّه). من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٣٥٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٦٠

الإشارة : وإن استجارك - أيها العارف - أحد من عوام المسلمين ممن لم يدخل معكم بلاد الحقائق ، وأراد أن يسمع شيئا من علوم القوم ، فأجره حتى يسمع شيئا من علومهم وأسرارهم ، فلعل ذلك يكون سببا فى دخوله فى طريق القوم. ولا ينبغى للفقراء أن يطردوا من يأتيهم من العوام ، بل يتلطفوا معهم ، ويسمعوهم ما يليق بحالهم لأنّ العوام لا علم لهم بما للخواص ، فإنّ أطلعوا على ما خصهم اللّه به من العلوم دخلوا معهم ، إن سبق لهم شيء من الخصوصية.

وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضى اللّه عنه : لا ينبغى لأهل الخصوصية أن يدخلوا بلد العموم إلا فى جوار أحد منهم ، وإلا أنكرته البلد لأن البلد أمّ تغير على غير أبنائها ، ولا ينبغى أيضا للعموم أن يدخلوا بلد الخصوص إلا فى جوار رجل منهم ، وإلا أنكرته البلد. هـ. بالمعنى.

ثم استبعد الحق أن يكون للمشركين عهد مع المسلمين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٧ الى ١١]

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)

قلت : (إلا الذين) : محله النصب على الاستثناء ، أو جر على البدل من «المشركين» ، أو رفع على الانقطاع ، أي :

لكن الذين عاهدتم فما استقاموا لكم ، و(الإل) : القرابة والحلف ، وحذف الفعل فى قوله : (كيف وإن يظهروا عليكم) للعلم به بما تقدم ، أي : كيف يكون لهم عهد والحال أنهم إن يظهروا عليكم .. إلخ يقول الحق جل جلاله ، فى استبعاد العهد من المشركين والوفاء به : كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ

عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ؟ مع شدة حقدهم وعداوتهم للرسول وللمسلمين ، مع ما تقدم لهم من النقض والخيانة فيه ، إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ قيل : هم المستثنون قبل. وقال ابن إسحاق : هى قبائل بنى بكر ، كانوا

(٢/٣٦٠)

دخلوا وقت الحديبية ، فى المدة التي كانت بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وبين قريش ، فلم يكن نقض إلا قريش وبنو الديل من بنى بكر ، فأمر المسلمون بإتمام العهد لمن لم يكن نقض. وقال ابن عباس : هم قريش ، وقال مجاهد : خزاعة ، وفى هذين القولين نظر لأن قريشا وخزاعة كانوا أسلموا وقت الأذان لأنهم أسلموا فى الفتح ، والأذان بعده بسنة.

قال تعالى فى شأن من استثنى : فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ على العهد ولم يغدروا ، فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ على الوفاء ، أي : تربصوا بهم وانتظروا أمرهم ، فإن استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ الذين إذا عاهدوا وفوا ، وإذا قالوا صدقوا.

ثم كرر استبعاد وفائهم فقال : كَيْفَ يصح منهم الوفاء بعهدكم وَهم إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ويظفروا بكم فى وقعة لا يَرْقُبُوا أي : لا يراعوا فِيكُمْ إِلًّا قرابة أو حلفا ، وقيل : ربوبية ، أي : لا يراعون فيكم عظمة الربوبية ولا يخافون عقابه ، وَلا ذِمَّةً أي : عهدا ، أو حقّا يعاب على إغفاله ، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ بأن يعدوكم بالإيمان ، والطاعة ، والوفاء بالعهد ، فى الحال ، مع استبطان الكفر والغدر ، وَتَأْبى أي : تمنع قُلُوبُهُمْ ما تفوه به أفواههم ، وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ متمردون ، لا عقيدة تزجرهم ، ولا مروءة تردعهم ، وتخصيص الأكثر لما فى بعض الكفرة من التمادي على العهد ، والتعفف عما يجر إلى أحدوثة السوء. قاله البيضاوي.

اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ أي : استبدلوا بها ثَمَناً قَلِيلًا أي : عرضا يسيرا ، وهو اتباع الأهواء والشهوات ، فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ دينه الموصل إليه ، أو بيته بصد الحجاج عنه. إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أي : قبح عملهم هذا ، أو ساء ما كانوا يعملون من كونهم لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً فيكون تفسيرا لعملهم السوء ، لا تكريرا. وقيل : الأول فى الناقضين العهد ، وهذا خاص بالذين اشتروا ، وهم اليهود ، أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم.

وقوله تعالى : فِي مُؤْمِنٍ : فيه إشارة إلى أن عداوتهم إنما هى لأجل الإيمان فقط ، وقوله أولا : فِيكُمْ ، كان يحتمل أن يظن ظان أن ذلك للإحن التي وقعت بينهم ، فزال هذا الاحتمال بقوله : فِي مُؤْمِنٍ. قاله ابن عطية.

وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ فى الشرارة والقبح. فَإِنْ تابُوا عن الكفر ، وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، حث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين وخصال التائبين. قاله البيضاوي.

الإشارة : لا ينبغى للخواص أن يثقوا بمحبة العوام ، ولا يغتروا بما يسمعون من عهودهم ، فإن محبتهم على الحروف ، مهما رأوا خلاف ما أملوا من حروفهم ، وأطماعهم ، نكثوا وأدبروا ، فللعارف غنى بالله عنهم. وفى ذلك

يقول سيدنا على - كرم اللّه وجهه - :

ما الفخر إلّا لأهل العلم ، إنّهم على الهدى لمن استهدى أدلّاء

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

ثم ذكر حكم من نقض العهد ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٢ الى ١٥]

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ أي : نقضوها مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ أي : من بعد ما أعطوكم من العهود على الوفاء بها ، وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام ، فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ أي : فقاتلوهم لأنهم أئمة الكفر ، فوضع أئمة الكفر موضع الضمير للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم فى الكفر ، فهم أحقاء بالقتل ، وقيل : المراد رؤساء المشركين ، والتخصيص : إما لأن قتلهم أهم ، وهم أحق به ، أو للمنع من مراقبتهم ، إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ على الحقيقة ، وإلّا لم يقدروا أن ينكثوها ، واستشهد به الحنفية على أن يمين الكافر لا تلزم ، وهو ضعيف لأن المراد نفى الوثوق عليها ، لا أنها ليست بأيمان. قاله البيضاوي. قلت : وما قالته الحنفيّة هو مذهب المالكية ، إذا حنث فى حال الكفر ، ثم أسلم ، فلا يلزمه شيء. وقرأ ابن عامر بكسر الهمزة ، أي : لا إيمان لهم صحيحا يعصم دماءهم.

لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ أي : ليكن غرضكم فى مقاتلتهم أن ينتهوا عما هم عليه ، كما هى طريقة أهل الإخلاص ، لا إيصال الإذاية لهم ، أو مقابلة عداوة.
ثم حضّ على قتالهم فقال : أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ التي حلفوها للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وللمؤمنين على ألا يعاونوا عليهم ، فعاونوا بنى بكر على خزاعة ، وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ حين تشاوروا فى أمره بدار الندوة

(٣٦٢/٢)

على ما مرّ ، وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بالمعاداة والمقاتلة لأنه - عليه الصلاة والسلام - بدأهم بالدعوة ، وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي به ، فعدلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلة ، فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم ، أَتَخْشَوْنَهُمْ أي : أتهابون قتالهم حتى تتركوا أمرى ، فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن قضية الإيمان ألا يخاف إلا منه.
ثم وعدهم بالنصر فقال : قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ يهنهم بالقتل والأسر ، وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ، فيمكنكم من رقابهم ، ويملككم أموالهم ونساءهم ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، يعني : بنى خزاعة شفوا صدورهم من بنى بكر لأنهم كانوا أغاروا عليهم وقتلوا فيهم. وقيل : بطونا من اليمن قدموا مكة وأسلموا ، فلقوا من أهلها أذى شديدا ، فشكوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : أبشروا ، فإن الفرج قريب. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ بما لقوا منهم حين أغاروا عليهم ، وقد أوفى اللّه بما وعدهم بفتح مكة وهوازن.
والآية من المعجزات. قاله البيضاوي. وهذا يقتضي أن هذا التخصيص كان قبل الفتح ، فيلتئم مع ما بعده ، ويبعد اتسامه مع ما قبله من البراءة ، ونبذ العهد والإعلام بذلك لكونه بعد الفتح ، واللّه أعلم. قاله المحشي. ويمكن الجواب بأن يكون صدر السورة نزل بعد الفتح ، وبعضها من قوله : (و إن أحد من المشركين ..) إلخ نزل قبل الفتح ، فإن الآيات كانت تنزل متفرقة فيقول صلّى اللّه عليه وسلّم : «اجعلوا هذه الآية فى محل كذا». واللّه تعالى أعلم.
ثم أخبر تعالى بأن بعض المشركين يتوب من كفره بقوله : وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ هدايته ، فيهديه للإيمان ، ثم يتوب عليه ، وقد كان ذلك فى كثير منهم. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بما كان ويكون ، حَكِيمٌ لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق حكمته.
الإشارة : من رجع عن طريق القوم ، ونقض عهد الأشياخ ، ثم طعن فى طريقهم ، لا يرجى فلاحه ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، أعني فى طريق الخصوص لأنه جمع بين نقض العهد والطعن على الأولياء ،

وقد قال تعالى : «من آذى لى وليا فقد آذنني بالحرب». ومن رجع عنها لضعف ووهن ، مع بقاء الاعتقاد والتسليم ، فربما تقع الشفاعة منهم فيلحق بهم ، بخلاف الأول ، فقد تقدم عن القشيري ، فى سورة آل عمران ، أنهم يريدون الشفاعة فيه ، فيخلق اللّه صورة على مثله ، فإذا رأوها تركوا الشفاعة فيه ، فيبقى مع عوام أهل اليمين. فانظره «١». وبالله التوفيق.

---

(١) راجع إشارة الآية ٩٠ من سورة آل عمران.

(٣٦٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٦٤

ثم عاتبهم على تأخر بعضهم عن الجهاد ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٦]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٦)

قلت : «أم» : منقطعة ، بمعنى الهمزة للإنكار والتوبيخ على الحسبان ، والخطاب للمؤمنين أو المنافقين ، والوليجة : البطانة والصحبة.

يقول الحق جل جلاله : أَمْ حَسِبْتُمْ أي : أظننتم أَنْ تُتْرَكُوا من غير اختبار ، وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ أي : ولم يتبين الخلّص منكم ، وهم الذين جاهدوا ، من غيرهم ، والمراد : علم ظهور ، أي : أظننتم أن تتركوا ولم يظهر منكم المجاهد من غيره. قال البيضاوي : نفى العلم ، وأراد نفى المعلوم للمبالغة ، فإنه كالبرهان عليه من حيث أن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه. هـ. بل يختبركم حتى يظهر الذين جاهدوا منكم.

وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً بطانة ، أي : جاهدوا ، وأفردوا محبتهم لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولم يتخذوا من دونهم بطانة ، أي : أصحاب سر يوالونهم ويبثون إليهم أسرارهم ، بل اكتفوا بمحبة اللّه ومودة رسول اللّه والمؤمنين ، دون موالاة من عاداهم ، والتعبير ب (لما) : يقتضي أن ظهور ذلك متوقع ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ : تهديد لمن يفعل ذلك.

الإشارة : إفراد المحبة لله ولأولياء اللّه من أعظم القربات إلى اللّه ، وأقرب الأمور الموصلة إلى حضرة اللّه ، والالتفات إلى أهل الغفلة بالصحبة والمودة ، من أعظم الآفات والأسباب المبعدة عن اللّه ، والعياذ بالله. وفى الحديث : «المرء على دين خليله». و«المرء مع من أحبّ» ، و«من أحبّ قوما حشر معهم.» إلى غير ذلك من الآثار فى هذا المعنى.

ثم نهى عن دخول المشركين المساجد ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٧ الى ١٨]

ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ (١٧) إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)

(٣٦٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٦٥

يقول الحق جل جلاله : ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أي : ما صح لهم أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ أي : شيئا من المساجد ، فضلا عن المسجد الحرام ، وقيل : هو المراد ، وإنما جمع لأنه قبلة المساجد وإمامها ، فأمره كأمرها ، ويدل عليه قراءة من قرأ بالتوحيد ، أي : ليس لهم ذلك ، وإن كانوا قد عمروه تغلبا وظلما ، حال كونهم شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ بإظهار الشرك وتكذيب الرسول ، أي : ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متباينين :

عمارة بيت اللّه ، وعبادة غير اللّه ، أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فى الدنيا والآخرة لما قارنها من الشرك والافتخار بها ، وَفِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ لأجل كفرهم.

إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ ، أي : إنما تستقيم عمارتها بهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية ، ومن عمارتها : تزيينها بالفرش ، وتنويرها بالسرج ، وإدامة العبادة والذكر ودروس العلم فيها ، وصيانتها مما لم تبن له كحديث الدنيا.

وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : قال اللّه تعالى : «إنّ بيوتى فى أرضى المساجد ، وإنّ زوّارى فيها عمّارها ، فطوبى لعبد تطهر فى بيته ، ثم زارنى فى بيتي ، فحقّ على المزور أن يكرم زائره». ووقف عبد اللّه بن مسعود على جماعة فى المسجد يتذاكرون العلم فقال : بأبى وأمي العلماء ، بروح اللّه ائتلفتم ، وكتاب اللّه تلوتم ، ومسجد اللّه عمرتم ، ورحمة اللّه انتظرتم ، أحبكم اللّه وأحب من أحبكم. هـ.

وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول صلّى اللّه عليه وسلّم لما علم أن الإيمان بالله قرينه وتمامه الإيمان به ، ولدلالة قوله : وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ عليه. قاله البيضاوي.

وَلَمْ يَخْشَ فى أموره كلها إِلَّا اللَّهَ ، فهذا الذي يصلح لعمارة بيت اللّه ، فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ، وعبّر بعسى ، قطعا لأطماع المشركين فى الاهتداء والانتفاع بأعمالهم ، وتوبيخا لهم على القطع بأنهم مهتدون فإن كان اهتداء هؤلاء ، مع كمالهم ، دائرا بين عسى ولعل ، فما ظنك بأضدادهم؟

، ومنعا للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم فيتكلوا عليها. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «من رأيتموه يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان» ، ثم تلا الآية «١».

الإشارة : مساجد الحضرة محرمة على أهل الشرك الخفي والجلي ، لا يدخل الحضرة إلا قلب مفرد ، فيه توحيد مجرد ، لا يعمر مساجد الحضرة إلا قلب مطمئن بالله ، غائب عما سواه ، قد رفض الركون إلى الأسباب ، وأفرد

---

(١) أخرجه الترمذي فى (التفسير - سورة التوبة) وابن ماجه فى (المساجد - باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة) والدارمي فى (الصلاة - باب المحافظة على الصلوات) من حديث أبى سعيد الخدري.

الوجهة لمسبب الأسباب ، قطع الشواغل والعلائق حتى أشرقت أنوار الحقائق. إنما يعمر مساجد حضرة القدوس من آمن باللّه واليوم الآخر ، وأقام صلاة القلوب ، وآتى زكاة النفوس ، ولم يراقب أحدا من المخلوقين ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين إلى حضرة رب العالمين.

ولما افتخر قوم من قريش بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، بيّن اللّه تعالى أن الجهاد أفضل من ذلك ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٩ الى ٢٢]

أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)

قلت : السقاية والعمارة : مصدران ، فلا يشبهان بالجثة ، فلا بد من حذف ، أي : أجعلتم أهل سقاية الحاج كمن آمن ، أو أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن.

يقول الحق جل جلاله : أَجَعَلْتُمْ أهل سِقايَةَ الْحاجِّ ، وَأهل عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ من أهل الشرك المحبطة أعمالهم ، كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ من أهل الإيمان ، وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعلاء كلمة اللّه ، المثبتة أعمالهم ، بل لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ أبدا لأن أهل الشرك الذين حبطت أعمالهم فى أسفل سافلين ، إن لم يتوبوا ، وأهل الإيمان والجهاد فى أعلى عليين.

ونزلت الآية فى على - كرم اللّه وجهه - والعباس وطلحة بن شيبة ، افتخروا ، فقال طلحة : أنا صاحب

البيت ، وعندى مفاتحه ، وقال العباس : أنا صاحب السقاية ، وقال على رضى اللّه عنه : لقد أسلمت وجاهدت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فبيّن اللّه تعالى أن الإيمان والجهاد أفضل ، ووبخ من افتخر بغير ذلك فقال : وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أي : الكفرة الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ومعاداة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وداموا على ذلك ، وقيل : المراد بالظالمين : الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين.

ثم أكد ذلك بقوله : الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً ، وأعلى رتبة ، وأكثر كرامة ، عِنْدَ اللَّهِ ، ممن لم يستجمع هذه الصفات ، أو من أهل السقاية والعمارة عندكم ،

وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ بكل خير ، الظافرون بنيل الحسنى والزلفى عند اللّه ، دون من عداهم ممن لم يفعل ذلك.

ثم زاد فى كرامتهم فقال : يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ أي : تقريب وعطف منه وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها أي : فى الجنان نَعِيمٌ مُقِيمٌ دائم ، لانفاد له ولا انقطاع. وتنكير المبشر به إشعار بأنه وراء التعيين والتعريف ، حال كونهم خالِدِينَ فِيها أَبَداً ، أكد الخلود بالتأبيد لأنه قد يطلق على طول المكث ، إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ يستحقر دونه مشاق الأعمال المستوجبة له ، أو نعيم الدنيا إذ لا قدر له فى جانب نعم الآخرة.

الإشارة : لا يستوي من قعد فى وطنه مع عوائده وأسبابه ، راكنا إلى عشائره وأحبابه ، واقفا مع هواه ، غافلا عن السير إلى مولاه ، مع من هاجر وطنه وأحبابه ، وخرق عوائده وأسبابه ، وجاهد نفسه وهواه ، سائرا إلى حضرة مولاه ، لا يستوون أبدا عند اللّه لأن هؤلاء مقربون عند لله ، والآخرون فى محل البعد عن اللّه ، ولو كثر علمهم وعملهم عند اللّه ، شتان بين من همته القصور والحور ، وبين من همته الحضور ورفع الستور ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ، وجنات المعارف لهم فيها نعيم لأرواحهم ، وهو الشهود والعيان ، لا يحجب عنهم طرفة عين ، إن اللّه عنده أجر عظيم ، لا يخطر على قلب بشر. لا حرمنا اللّه من ذلك.

ثم نهى عن موالاة أهل الغفلة وإن قربوا نسبا ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٢٣ الى ٢٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ

فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (٢٤)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ الذين بقوا على كفرهم أَوْلِياءَ توالونهم بالمحبة والطاعة ، إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ واختاروه على الإيمان. نزلت فى شأن المهاجرين فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا : إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا ، وذهبت تجارتنا ، وبقينا ضائعين.

وقيل : نزلت فيمن ارتد ولحق بمكة ، فنهى اللّه عن موالاتهم. وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ بوضعهم الموالاة فى غير موضعها.

(٣٦٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٦٨

قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ أي : أصحابكم ، أو أقرباؤكم ، وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها اكتسبتموها ، وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها أي : فوات وقت إنفاقها ، وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها لحسنها وسعتها ، فإن كان ذلك أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أي : من الإيمان بالله وصحبة رسوله ، وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فآثرتم ذلك ، وتخلفتم عن الإيمان والهجرة ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ أي : بعقوبة عاجلة أو آجلة ، أو بنصر وفتح على المؤمنين ، كفتح مكة وغيرها ، والمراد بالمحبة : الاختيارية دون الطبيعة فإنها لا تدخل تحت التكليف ، والتحفظ عنها لأن حب الأوطان والعشائر طبيعى ، والحب المكلف به اختياري ، بحيث يجاهد نفسه فى إبدال الطبيعي بالاختيارى.

ثم هدد من وقف مع حب الأوطان بقوله : وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ لا يرشدهم ولا يوفقهم. وفى الآية تهديد عظيم ، وقلّ من تحفظ عنه. قاله البيضاوي.

الإشارة : الهجرة من أوطان الغفلة واجبة ، ومفارقة الأصحاب والعشائر الذين لا يوافقون العبد على النهوض إلى اللّه فريضة ، فيجب على المريد أن يهاجر من البلد التي لا يجد فيها قلبه ، ولا يجد فيها من يتعاون به على ربه ، كائنة ما كانت ، وما رأينا وليّا قط أنتج فى بلده ، إلا القليل ، فلما هاجر صلّى اللّه عليه وسلّم من وطنه إلى المدينة. وحينئذ نصر الدين ، بقيت سنة فى الأولياء ، لا تجد وليا يعمر سوقه إلا فى غير بلده ، ويجب عليه أيضا أن يعتزل من يشغله عن اللّه من الآباء والأبناء والأزواج والعشائر ، وكذلك الأموال والتجارات التي تشغل قلبه عن اللّه ، بعد أن يقيم فى أولاده حقوق الشريعة ، فاللبيب هو الذي يجمع بين الحقيقة والشريعة ، فلا يضيع من يعول ، ولا يترك حق من يتعلق به من الزوجة أو غيرها ، ويذكر اللّه مع ذلك ، فيخالطهم بحسه ، ويفارقهم بقلبه ، فإن لم يستطع وأراد دواء

قلبه فليخير الزوجة ، ويوكل من ينوب عنه في القيام بحقوق العيال ، حتى يقوى قلبه ويتمكن مع ربه ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ «١».

ولإبراهيم بن أدهم رضى اللّه عنه :

هجرت الخلق طرا فى رضاكا وأيتمت البنين لكى أراكا

فلو قطعتنى إربا فإربا لما حنّ الفؤاد إلى سواكا

وباللّه التوفيق

---

(١) الآيتان : ٢ - ٣ من سورة الطلاق.

(٣٦٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٦٩

ثم ذكّرهم بالنعم ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٢٥ الى ٢٧]

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧)

قلت : (و يوم حنين) : عطف على (مواطن) ، أو منصوب بفعل مضمر ، وهذا أحسن لأن قوله : (إذ أعجبتكم كثرتكم) خاص بيوم حنين. انظر : ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله ، فى تذكيرهم بالنعم : لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ أي : فى مواقف الحرب ومداحضها فى مواضع كثيرة ، وَنصركم أيضا يَوْمَ حُنَيْنٍ ، وهى غزوة كانت بعد فتح مكة ، متصلة بها ، فى موضع يقال له : حنين ، سمى باسم رجل كان يسكنه ، وهو واد بين مكة والطائف ، حارب فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم والمسلمون ، وكانوا اثنى عشر ألفا : عشرة آلاف من الذين حضروا فتح مكة ، وألفان انضموا إليهم من الطلقاء ، قاتلوا هوازن وثقيف ومن انضم إليهم من قبائل العرب.

وكانوا ثلاثين ألفا ، فلما التقوا مع بعض المشركين قال بعض المسلمين : لن نغلب اليوم من قلة ، إعجابا بكثرتهم ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فأدرك المسلمين إعجابهم ، واعتمادهم على كثرتهم ، فانهزموا حتى وصل جلهم إلى مكة ، وبقي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فى مركزه ، ليس معه إلا عمه العباس ، آخذا بلجامه ، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث ، وناهيك شهادة على تناهى شجاعته صلّى اللّه عليه

وسلّم ، فقال للعباس - وكان صيّتا - : صح بالناس ، فنادى : يا عباد اللّه ، يا أصحاب الشجرة ، يا أصحاب سورة البقرة ، فكروا عنقا واحدا ، يقولون : لبيك لبيك ، ونزلت الملائكة ، فالتقوا مع المشركين ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : هذا حين حمى الوطيس «١» ، ثم أخذ كفا من تراب فرماهم ، وقال : شاهت الوجوه ، ثم قال : انهزموا وربّ الكعبة ، فانهزموا «٢».

---

(١) الوطيس : حفرة تحتقر تحت الأرض ، فتوقد فيها النار ويصغّر رأسها ، ويخرق فيها خرق للدخان. ثم يوضع فيها اللحم ، ويسد ، ثم يؤتى من الغد واللحم غاب لم يحترق ، ولحمها شواء ، وهى مجاز فى شدة الحرب.

(٢) أخرجه بنحوه مسلم فى (الجهاد - باب غزوة حنين) من حديث سيدنا العباس رضى اللّه عنه.

(٣٦٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٧٠

فأشار تعالى إلى مقالتهم معاتبا لهم عليها بقوله : إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً أي : فلم تغن تلك الكثرة عنكم شيئا من الإغناء ، أو من أمر العدو. وهذه المقالة صدرت من غير النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كما تقدم لأنه معصوم من الإعجاب ، وإن ثبت أنه قال ذلك فليس على وجه الإعجاب ، بل على وجه الإخبار ، وعلى ذلك جرى الحكم فى المذهب : من حرمة الفرار عند بلوغ اثنى عشر ألفا ، وكان المسلمون يومئذ اثنى عشر ألفا بالطلقاء وهم مسلمة الفتح : وكانوا الفين ، وسموا بالطلقاء لمنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عليهم ، يقال لمن أطلق من أسر : طليق ، وجمعه على طلقاء نادر لأنه يشترط فى فعيل ، الذي يجمع على فعلاء ، أن يكون بمعنى فاعل ، كظريف وشريف ، لا بمعنى مفعول ، كدفين ودفنى ، وسخين وسخنى ، ومنه. طليق.

ثم قال تعالى : وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ برحبها ، أي : ضاقت على كثرة اتساعها ، فلم تجدوا فيها مكانا تطمئن إليه نفوسكم من الدهش ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ هاربين عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ أي : طمأنينته عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ بعد انهزامهم ، فرجعوا وقاتلوا ، أو على من بقي مع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولم يفروا. وإعادة الجار للتنبيه على اختلاف حالهما.

وَأَنْزَلَ جُنُوداً من الملائكة لَمْ تَرَوْها بأعينكم ، وكانوا خمسة آلاف ، أو ثمانية ، أو ستة عشر ، على اختلاف الأقوال. وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا بالقتل والأسر والسبي ، وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ أي : ما فعل بهم هو جزاء كفرهم فى الدنيا ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ منهم ، بالتوفيق للإسلام ، وَاللَّهُ

غَفُورٌ رَحِيمٌ يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم بالتوفيق والهداية.
روى أن أناسا منهم جاؤوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأسلموا ، وقالوا : يا رسول اللّه ، أنت خير الناس وأبرهم ، وقد سبى أهلونا وأولادنا ، وأخذت أموالنا - وقد سبى يومئذ ستة آلاف نفس ، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى ، فقال :
«اختاروا ، إما سبيكم ، وإما أموالكم». فقالوا : ما كنّا نعدل بالأحساب شيئا. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّ هؤلاء جاءونا تائبين ، وأنا خيّرتهم بين الذّرارى والأموال ، فلم يعدلوا بالأحساب شيئا ، فمن كان بيده سبى فطابت نفسه أن يرده فشأنه ، ومن لا ، فليعطنا ، وليكن قرضا علينا حتّى نصيب شيئا فنعطيه مثله» ، فقالوا : رضينا وسلّمنا ، فقال : «إنّى لا أدرى ، لعلّ فيكم من لا يرضى ، فارجعوا حتى يرفع إلىّ عرفاؤكم أمركم» فرفعوا إليه أمرهم ، وقالوا : قد رضوا ، فردّ السبي إليهم ، وقسم الأموال فى المؤلفة قلوبهم «١» ، ترغيبا فى تسكين قلوبهم للإسلام. والغزوة مطولة فى كتب السيرة ، واللّه تعالى أعلم.

---

(١) القصة أخرجها البخاري فى (المغازي باب قول اللّه تعالى : ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم) عن عروة عن المسور ومروان.

الإشارة : لقد نصركم اللّه ، يا معشر المريدين ، على جهاد نفوسكم وتيسير أموركم ، فى مواطن كثيرة ، إذا رجعتم إلى ربكم ، واعتزلتم من حولكم وقوتكم فى جميع أموركم ، فمن علامة النجاح فى النهاية الرجوع إلى اللّه فى البداية ، ما تعذر مطلب أنت طالبه بربك ، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك.
فمن رجع إلى نفسه ، أو استند إلى عقله وحدسه ، لم تغن عنه شيئا ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ورجع من حيث جاء ، فإن انتبه ، ورجع إلى ربه ، أنزل سكينة عليه ، وأيده باليقين ، ورجا أن يدرك أمله من رب العالمين.
قال الورتجبي : قوله تعالى : (ثم أنزل اللّه سكينته على رسوله) ، سكينته - عليه الصلاة والسلام - زيادة أنوار كشف مشاهدة اللّه ، له ، حين خاف من مكر الأزل ، فأراه اللّه اصطفائيته الأزلية ، وأمنه من مكره ، لا أنه ينظر من الحق إلى نفسه طرفة عين ، لكن إذا غاب فى بحر القدم لم ير للحدث أثرا ، ورأى الحدثان متلاشية فى فيض العظمة ، ففزع منه به ، فآواه اللّه منه إليه ، حتى سكن به عنه. هـ.
ثم أمر بمنع المشركين من دخول البيت الحرام ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٢٨]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ أي : عين الخبث ، مبالغة فى خبثهم ، إما لخبث باطنهم بالكفر ، أو لأنهم لا يتطهرون من النجاسات ، ولا يتوقون منها ، فهم ملابسون لها غالبا.
وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : أن أعيانهم نجسة كالكلاب. قاله البيضاوي. فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ ، وهو نص على منع المشركين - وهم عبدة الأوثان - من المسجد الحرام ، وهو مجمع عليه ، وقاس مالك على المشركين جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ، وقاس على المسجد الحرام سائر المساجد ، ومنع جميع الكفار من جميع المساجد.
وجعلها الشافعي عامة فى الكفار ، خاصة بالمسجد الحرام ، فمنع جميع الكفار من دخول المسجد الحرام خاصة ، وأباح دخول غيره ، وقصرها أبو حنيفة على موضع النهى ، فمنع المشركين خاصة من دخول المسجد الحرام وأباح لهم دخول سائر المساجد ، وأباح دخول أهل الكتاب فى المسجد الحرام وغيره. قاله ابن جزى.
قوله تعالى : بَعْدَ عامِهِمْ هذا يعنى : سنة تسع من الهجرة ، حين حج أبو بكر بالناس ، وقرأ علىّ رضى اللّه عنه عليهم سورة براءة.

(٣٧١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٧٢
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً أي : فقرا بسبب منع المشركين من الحرم ، وكانوا يجلبون لها الطعام ، فخاف الناس قلة القوت منها ، إذا انقطع المشركون عنهم ، فوعدهم اللّه بالغنى بقوله : فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ من عطائه وتفضله بوجه آخر ، وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدرارا ، وأسلمت العرب كلها ، وتمادى جلب الطعام إلى مكة ، ثم فتح عليهم البلاد ، وجلبت لهم الغنائم ، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض ، وما زال كذلك إلى الآن.
وقيده بالمشيئة لتنقطع الآمال إلى اللّه ، ولينبه على أنه متفضل فى ذلك ، وإن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض ، وفى عام دون عام ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بأحوالكم ، حَكِيمٌ فيما يعطى ويمنع.
الإشارة : بيوت الحضرة - وهى القلوب المقدسة - لا ينبغى أن يدخلها شىء من شرك الأسباب ، أو الوقوف مع رفق الأصحاب ، أو الركون إلى معلوم حتى يفرد التعلق بالحي القيوم ، ولا ينبغى أيضا أن

يدخلها شيء من نجاسة حس الدنيا وأكدارها وأغيارها ، فيجب على أربابها الفرار من مواطن الكدر ، والعزلة عن أربابها لئلا يدخل فيها شيء من نجاستها ، فتموت بعد حياتها ، وكان عيسى - عليه الصلاة والسلام - يقول لأصحابه : (لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم ، قالوا : من الموتى يا روح اللّه؟ قال : المحبون للدنيا الراغبون فيها). فإن خفتم عيلة بالفرار منهم واعتزال نجاستهم ، فسوف يغنيكم اللّه من فضل غيبه إن شاء ، فى الوقت الذي يشاء ، إذ لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء. واللّه تعالى أعلم.

قال القشيري : إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ أي : لأنهم فقدوا طهارة الأسرار ، فبقوا فى مزابل الظنون والأوهام ، فمنعوا قربان المساجد التي هى مساجد القرب ، وأمّا المؤمنون فطهّرهم عن التدنّس بشهود الأغيار ، فطالعوا الحقّ فردا فيما ينشيه من الأمر ويمضيه من الحكم. هـ.

ثم أمر بجهاد أهل الكتاب ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٢٩]

قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله للمؤمنين : قاتِلُوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ على ما يجب له ، لإشراكهم عزير وعيسى ، ولتجسيمهم ، وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لأنهم ينكرون المعاد الجسماني ،

(٣٧٢/٢)

فإيمانهم فى الجانبين كلا إيمان ، وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ محمد صلّى اللّه عليه وسلّم لأنهم يحلون الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير ، وغير ذلك مما حرمته الشريعة المحمدية ، وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ أي : لا يدخلون فى الإسلام ، الذي هو الدين الحق ، الناسخ لسائر الأديان ومبطلها.

ثم بيّن الذين أمر اللّه بقتالهم بقوله : مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وهم اليهود والنصارى. وحين نزلت خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لغزوة تبوك لقتال النصارى ، ووصل إلى أوائل بلد العدو ، فصالح أهل أدرج وأيلة ، وغيرهما ، على الجزية وانصرف ، وذلك امتثال للآية.

قال تعالى : فقاتلوهم حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ أي : ما تقرر عليهم أن يعطوه ، وقدرها عند مالك : أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعون درهما على أهل الورق ، يؤخذ ذلك من كل رأس ، واتفق العلماء على قبول الجزية من اليهود والنصارى ، ويلحق بهم المجوس لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب» «١» لأن لهم شبهة كتاب ، فألحقوا بهم. واختلفوا فى قبولها من عبدة الأوثان قال مالك

: تؤخذ من كل كافر إلا المرتد ، ولا تؤخذ من النساء والصبيان والمجانين.

وقوله تعالى : عَنْ يَدٍ أي : يباشر إعطاءها بيده ، لا يبعثها مع أحد ، أو لا يمطل بها ، كقولك : يدا بيد ، أو عن استسلام وانقياد ، كقولك : ألقى فلان بيده. وَهُمْ صاغِرُونَ أذلاء محقورون. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : تؤخذ الجزية من الذمي ، وتوجأ عنقه ، أي : تصفع.

الإشارة : يؤمر المريد بقتل نفسه وحظوظه وهواه ، وأعظمها : حب الدنيا والرئاسة والجاه ، ولا يزال يخالف هواها ، ويعكس مراداتها ، ويحملها ما يثقل عليها ، حتى تنقاد إليه بالكلية ، بحيث لا يثقل عليه شيء ، ويستوى عندها العز والذل ، والفقر والغنى ، والمدح والذم ، والمنع والعطاء ، والفقد والوجد ، فإن استوت عندها هذه الأحوال فقد أسلمت وأعطت ما يجب عليها ، فيجب حفظها ورعايتها ، وتصديقها فيما يرد عليها. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر الباعث على جهاد أهل الكتاب ، وهو فساد اعتقادهم ، فقال :

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ (الزكاة ، باب جزية أهل الكتاب والمجوس) والشافعي فى مسنده (الجزية) والبيهقي فى السنن الكبرى (٩/ ١٨٩) ، والبغوي فى شرح السنة (١١/ ١٦٩) عن عبد الرحمن بن عوف.

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٣٠ الى ٣٣]

وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)

قلت : (عزيز) : (مبتدأ) ، و(ابن اللّه) : خبر ، فمن نونه جعله مصروفا لأنه عنده عربى ، ومن حذف تنوينه :

إما لمنعه من الصرف للعلمية والعجمة عنده ، وإما لالتقاء الساكنين تشبيها للنون بحروف اللين ، وهو ضعيف ، والأول أحسن.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ، قال ابن عباس : هذه المقالة قالها أربعة منهم ،

وهم : سلام بن مشكم ، ونعمان أو لقمان بن أوفى ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصّيف «١». وقيل : لم يقلها إلا فنحاص ، ونسب ذلك لجميعهم لسكوتهم عنه. قال البيضاوي : إنما قال ذلك بعضهم من متقدميهم ، أو ممن كانوا بالمدينة ، وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوراة ، وهو - أي عزير - لما أحياه اللّه بعد مائة عام ، أملى عليهم التوراة حفظا ، فتعجبوا من ذلك ، وقالوا : ما هذا إلا أنه ابن اللّه ، والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قرئت عليهم فلم يكذبوا مع تهالكهم على التكذيب. هـ.

وَقالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ، هو أيضا قول بعضهم ، وإنما قالوه استحالة أن يكون الولد بلا أب ، أو لما كان يفعل من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، وتقدم الرد عليهم ، وسبب إدخال هذه الشبهة عليهم ، فى سورة المائدة. «٢»

قال تعالى : ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ من غير دليل ولا برهان ، بل قالوا به من عندهم يُضاهِؤُنَ أي : يشابهون فى هذه المقالة قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، يعنى : قدماءهم ، على معنى أن الكفر قديم فيهم.

قال ابن جزى : فإن كان الضمير لليهود والنصارى ، أي : المتقدمين ، فالإشارة بقوله : (الذين كفروا من قبل) للمشركين من العرب ، إذ قالوا : الملائكة بنات اللّه ، وهم أول كافر ، أو للصابئين ، أو لأمم تقدمت ، وإن كان الضمير للمعاصرين للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم من اليهود والنصارى ، فالذين كفروا من قبل هم أسلافهم المتقدمون. هـ.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٤/ ٣٦).

(٢) عند تفسير قوله تعالى : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ... الآية ٧٢.

قاتَلَهُمُ اللَّهُ أي : أهلكهم ودمرهم لأن من قاتله اللّه هلك ، فيكون دعاء ، أو تعجبا من شناعة قولهم ، أَنَّى يُؤْفَكُونَ أي : كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ أي : علماءهم وَرُهْبانَهُمْ عبّادهم أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ بأن أطاعوهم فى تحريم ما أحل اللّه ، وتحليل ما حرم اللّه ، وفى السجود لهم ، وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ بأن جعلوه ابن اللّه ، وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً وهو اللّه الواحد الحق ، وأما طاعة الرسول - عليه الصلاة والسلام - وسائر من أمر بطاعته ، فهو فى الحقيقة طاعة للّه ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ تقرير للتوحيد ، سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ تنزيها له عن أن

يكون معه شريك.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا أي : يخمدوا نُورَ اللَّهِ القرآن أو الإسلام بجملته ، بِأَفْواهِهِمْ كقولهم فيه : سحر ، وشعر ، وغير ذلك ، وفيه إشارة إلى ضعف حيلتهم فيما أرادوا ، وَيَأْبَى اللَّهُ لا يرضى إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ بإعلاء التوحيد ، وإظهار الإسلام ، وإعزاز القرآن وأهله ، وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ ذلك ، فإن اللّه لا محالة يتم نوره ، ويظهر دينه.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، الضمير في «يظهره» : للدين الحق ، أو للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، واللام في «الدين» : للجنس ، أي : على سائر الأديان فينسخها ، أو على أهلها فيخذلهم ، وقد أنجز وعده ، وأظهر دينه ورسوله على الأديان كلها ، حتى عم المشارق والمغارب ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ذلك الإظهار ، فيظهره اللّه رغما عن أنفهم. وقيل : يتحقق ذلك عند نزول عيسى عليه السّلام ، حتى لا يبقى دين إلا دين الإسلام ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من انطمس نور بصيرته نسب لله ما لا يليق بكمالاته ، ومن لم تنهضه سوابق العناية وقف مع الوسائط ، ولم ينفذ إلى شهود الموسوط ، وقد عيّر اللّه قوما وقفوا مع الوسائط فقال : اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وقال ، في شأن الواسطة العظمى غيرة على القلوب أن تقف مع غيره : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ «١» ، إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ «٢» ، ودخل بعض العارفين على إنسان وهو يبكى ، فقال : وما يبكيك؟ فقال له : مات أستاذى ، فقال له ذلك العارف : ولم جعلت أستاذك من يموت؟. فالوسائط كالأنبياء والأولياء ، إنما هم موصّلون إلى اللّه ، دالون عليه ، فمن وقف معهم ولم ينفذ إلى اللّه فقد اتخذه ربا عند الخواص.

---

(١) من الآية ١٢٨ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ١٢ من سورة هود.

وقال الورتجبي على هذه الآية : عيّر الحق تعالى من بقي في رؤية المقتدى به دون رؤية الحق ، وإن كان وسيلة منه ، فإن في إفراد القدم من الحدوث ، النظر إلى الوسائط ، وهو شرك ، وتصديق ذلك تمام الآية وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً. غيرة الوحدانية ما أبقت في البين غيرا من الشواهد والآيات وجميع الخلق. قال اللّه تعالى :

قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ «١». ولما رأى صلّى اللّه عليه وسلّم غيرة القدم على شأن استهلاك الغير زجر من مدحه وتجاوز في المدح فقال : «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح».

ثم قال الورتجبي : قال بعضهم في هذه الآية : سكنوا إلى أمثالهم ، فطلبوا الحق من غير مظانه ، وطرق الحق واضحة لمن كحل بنور التوفيق ، وبصر سبل التحقيق ، ومن أعمى عن ذلك كان مردودا عن طريق الحق إلى طرق الضالين من الخلق ، وقد وقع أنهم معيرون وموبخون بقلة عرفانهم أهل الحقائق ، وركونهم إلى أهل التقليد ، وسقطوا عن منازل أهل التوحيد في التفريد ، وهكذا شأن من اقتدى بالزوّاقين من أهل السالوس المتزينين بزى المشايخ والعارفين المتحققين ، وتخلف خلف الجامعين للدنيا ، الذين يقولون : نحن أبناء المشايخ ونحن رؤساء الطريقة ، يضحك اللّه الدهر من جهلهم حيث علموا أن الولاية بالنسب ، حاشا أن من لم يذق طعم وصال اللّه ، وقلبه معلق بغير اللّه ، هو من أولياء اللّه.

قال الجنيد : إذا أراد اللّه بالمريد خيرا هداه إلى صحبة الصوفية ، ووقاه من صحبة القراء. ولو اشتغلوا بشأنهم وجمع دنياهم ، ولم يتعرضوا لأولياء اللّه ، ولم يقصدوا إسقاط جاههم ، لكفيهم شقاوتهم ، لا سيما ويطعنون على الصديقين العارفين. قال اللّه في شأنهم : يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ ، كيف تطفأ بتراب حسبانهم أنوار شموس الصفات ، التي تبرز من جباه وجوههم ، ولئالىء خدودهم ، وأصلها ثابت في أفلاك الوحدانية وسموات القيومية ، ويزيد نورهم على نور لأنه تعالى بلا نهاية ولا منتهى لصفاته.

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ) : إن اللّه سبحانه سن سنة أزلية : ألا يجد أحد سبيله إلا من يقيض له أستاذا عارفا بالله ، وبسرّ دينه وربوبيته ، فيدله إلى منهاج عبوديته ، ومعارج روحه وقلبه ، إلى مشاهدة ربوبيته ، ويكون هو واسطة بينه وبين اللّه ، وإن كان الفضل بيد اللّه ، يؤتيه من يشاء بغير علة ولا سبب ، جعله واسطة للتأديب لا للتقريب ، وصيره شفيعا للجنايات ، لا شريكا في الهدايات ، هداه نور القرآن ، وبيّنه حقيقة البيان ، مع إظهار البرهان. قيل : جعل اللّه الوسائط طريقا لعباده إليه ، وبعثهم أعلاما على الطرق ونورا يهتدى بهم ، وعرفهم سبل الحق وحقيقة الدين ، قال اللّه تعالى : (أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ). انتهى كلامه.

---

(١) من الآية ٩١ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٧٧

ثم ذكر مساوئ الأحبار والرهبان ، تنفيرا من طاعتهم ، وذما لمن اتخذهم أربابا ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٣٤ الى ٣٥]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)

قلت : (يحمى عليها) : الجار والمجرور : نائب الفاعل ، وأصله : يوم تحمى النار الشديدة الحمى عليها ، فجعل الإحماء للنار مبالغة ، ثم حذفت النار ، وأسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيها على المقصود ، فانتقل من صيغة التأنيث إلى صيغة التذكير.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ يأخذونها بالرشا فى الأحكام ، وسمى أخذ المال أكلا لأنه الغرض الأعظم منه ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : يعوقون الناس عن الدخول فى دينه ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ أي : يدخرونها وَلا يُنْفِقُونَها أي : الأموال المفهومة من الذهب والفضة ، أو الكنوز ، أو الفضة ، واكتفى بذكرها عن الذهب إذ الحكم واحد ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ وهو الكي بها ، وهذا الحكم يحتمل أن يرجع لكثير من الأحبار والرهبان ، فيكون مبالغة فى وصفهم ، بالحرص على المال وجمعه ، وأن يراد به المسلمون الذين يجمعون الأموال ، ويقتنونها ولا يؤدون حقها ، ويكون اقترانه بأكلة الرشا من أهل الكتب للتغليظ.

ويدل عليه : أنه لما نزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ذكر ذلك عمر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : «إنّ اللّه لم يفرض الزّكاة إلا ليطيّب بها ما بقي من أموالكم.» «١»

وقوله - عليه الصلاة والسلام - : «ما أدى زكاته فليس بكنز» «٢». وقال أبو ذر وجماعة من الزهاد : كل ما فضل عن حاجة الإنسان فهو كنز ، وحمل الآية عليه.

---

(١) أخرجه أبو داود فى (الزكاة ، باب فى حقوق المال) والحاكم فى المستدرك (١/ ٤٠٩) من حديث ابن عباس ، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي. [.....]

(٢) أخرجه البيهقي فى الكبرى (كتاب الزكاة ٤/ ٨٣) وابن عدى فى الكامل فى (ترجمة سويد بن عبد العزيز ٣/ ١٣٦٢) من حديث ابن عمر مرفوعا وأخرجه موقوفا البخاري (٢/ ٢٧١).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٧٨

ثم ذكر وعيدهم فقال : يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها

أي : على الأموال المكنوزة فِي نارِ جَهَنَّمَ أي : يوم توقد النار ذات الحمى الشديد عليها ، حتى تكون صفيحة واحدة ، فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، خصهم بالعذاب ، لأنهم كانوا يعرضون عن السائل ، ويولون ظهره ، فيعرضون عنه بجباههم وجنوبهم. أو لأنها أشرف الأعضاء ، لاشتمالها على الدماغ والقلب والكبد. أو لأنها أصول الجهات الأربع ، التي هى مقادم الإنسان مؤخره وجنبتاه.

يقال لهم : هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أي : لمنفعتها ، وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها ، فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ أي : وبال كنزكم ، أو ما كنتم تكنزونه. وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «ما من صاحب ذهب ولا فضّة لا يؤدى منها حقّها إلّا إذا كان يوم القيامة صفّحت له صفائح من نار ، فأحمى عليها فى نار جهنم ، فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره ، كلما بردت أعيدت له ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله : إما إلى الجنة وإما إلى النار». رواه مسلم بطوله «١».

قال ابن عطية : روى أن أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قالوا : قد ذم اللّه تعالى كسب الذهب والفضة ، فلو علمنا أىّ المال خير حتى نكسبه؟ فقال عمر : أنا أسأل لكم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فسأله ، فقال : «لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة تعين المرء على دينه» «٢». وروي أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال ، لما نزلت الآية : «تبّا للذّهب والفضّة» «٣». فحينئذ أشفق أصحابه ، وقالوا ما تقدم. هـ. ولابن حجر :

من خير ما يتخذ الإنسان فى دنياه كيما يستقيم دينه.

قلب شكور ، ولسان ذاكر ، وزوجة صالحة تعينه.

وهو نظم لهذا الحديث ، وقد تكلم عليه فى الجامع وشرحه. قاله المحشى.

الإشارة : هذه الآية تغبر فى وجوه علماء السوء ، الذين يتساهلون فى أكل الدنيا بالعلم ، كقبض الرشا ، وقبض ما فوق أجرته فى الأحكام ، فترى بعض قضاة الجور يقبضون المثاقيل على إنزال يده على الحكم ، مع أنه واجب عليه ، حيث تعين عليه بنصب الإمام له ، وتجر ذيلها على أغنياء الدنيا ، الذين يجمعون الأموال ويكنزونها ، فترى

---

(١) أخرجه مسلم فى (الزكاة ، باب إثم مانع الزكاة) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٢٧٨ - ٢٨٢) والترمذي فى (التفسير - سورة التوبة) وابن ماجه فى (الكفاح باب أفضل النساء) عن ثوبان.

(٣) أخرج هذه الرواية الإمام أحمد فى المسند (٥/ ٣٦٦) عن عبد اللّه بن أبى الهذيل.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٧٩

أحدهم ينفق فى نزهته وشهوة نفسه الأموال العريضة ، وإذا أتاه فقير يسأله درهما أو درهمين ، تمعر «١» وجهه ، وتغير لونه ، فبشرهم بعذاب أليم. وبالله التوفيق.

ولمّا ذكر وعيد من لم يزك كنزه ، ذكر الحول التي تجب به الزكاة ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٣٦]

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)

قلت : (عند اللّه) : معمول لعدة لأنها مصدر ، و(فى كتاب اللّه) : صفة لاثنى عشر ، و(يوم) : متعلق بالثبوت المقدر فى الخبر ، أي : ثابتة فى كتاب اللّه يوم خلق الأكوان والزمان ، وقوله : (منها) : أي : الأشهر ، ثم قال : (فيهن).

وضابط الضمير إن عاد على الجماعة المؤنثة ، حقيقة أو مجازا ، إن كانت أكثر من عشرة ، قلت : منها وفيها ، وإن كانت أقل من عشرة ، قلت : منهن وفيهن ، قال تعالى : يَأْكُلُهُنَّ «٢» وقال هنا : (فيهن). انظر الإتقان. و(كافة) :

حال من الفاعل أو المفعول.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ فى كل سنة عِنْدَ اللَّهِ فى علم تقديره ، اثْنا عَشَرَ شَهْراً : أولها المحرم ، وآخرها ذو الحجة. وأول من جعل أولها المحرم : عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه.

وهذه العدة ثابتة فِي كِتابِ اللَّهِ اللوح المحفوظ ، أو فى حكمه ، أو القرآن ، يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، أي : هذا أمر ثابت فى نفس الأمر منذ خلق اللّه الأجرام والأزمنة ، مِنْها أي : الأشهر أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ واحد فرد ، وهو رجب ، وثلاثة سرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ أي : تحريم الأشهر الحرم هو الدين القويم ، دين إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وتمسكت به العرب حتى غيّره بعضهم بالنسيء ، فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ بهتك حرمتها والقتال فيها ، ثم نسخ بقوله : وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً أي : فى الأزمنة كلها كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً لأنهم ، إن قاتلتموهم فيها قاتلوكم فهذا نسخ لتحريم القتال فى الأشهر الحرم.

---

(١) أي يتغير ، وأصله : قلة النضارة وعدم إشراق اللون ، من قولهم : مكان أمعر ، وهو الجدب الذي

لا خصب فيه ... انظر النهاية فى غريب الحديث (معر) ، واللسان (معر).
(٢) من الآية ٤٦ من سورة يوسف.

(٣٧٩/٢)

وقال عطاء : لا يحل للناس أن يغزوا فى الأشهر الحرم ، ولا فى الحرم ، إلا أن يبدأوا بالقتال ، ويرده غزوه صلّى اللّه عليه وسلّم حنينا والطائف فى شوال وذى القعدة. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ بالنصر والمعونة ، وفيه بشارة وضمان لهم بالنصر بسبب تقواهم.

الإشارة : أهل الفهم عن اللّه : الأزمنة كلها عندهم حرم ، والأمكنة كلها عندهم حرام ، فهم يحترمون أوقاتهم ، ويغتنمون ساعاتهم لئلا تضيع. قال الحسن البصري : أدركت أقواما كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهيمكم ، يقول : كما لا يخرج أحدكم دينارا ولا درهما إلا فيما يعود عليه نفعه ، كذلك لا يحبون أن يخرجوا ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه وقال الجنيد رضى اللّه عنه : الوقت إذا فات لا يستدرك ، وليس شيء أعز من الوقت. هـ.

وكل جزء يحصل له من العمر غير خال من عمل صالح ، يتوصل به إلى ملك كبير لا يفنى ، ولا قيمة لما يوصل إلى ذلك لأنه فى غاية الشرف والنفاسة ، ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف الصالح لأنفاسهم ولحظاتهم ، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم ، ولم يضيعوا أعمارهم فى البطالة والتقصير ، ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير ، وإلى هذا الإشارة بقوله : (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) بتضييعها فى غير ما يقرب إلى اللّه. ثم أمر بجهاد القواطع ، التي تترك العبد فى مقام الشرك الخفي ، وبشّرهم بكونه معهم بالنصر والتأييد ، والمعونة والتسديد.

ثم عاب على المشركين ما أحدثوا من النسيء ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٣٧]

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (٣٧)

قلت : (النسي ء) : التأخير ، يقال بالهمزة وبقلبها ياء.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّمَا النَّسِيءُ ، وهو تأخير حرمة الشهر الحرام إلى شهر آخر ، وذلك أن العرب كانوا أصحاب حروب وإغارات ، وكانت محرمة عليهم فى الأشهر الحرم ، فيشق عليهم تركها ، فيجعلونها فى شهر حرام ، ويحرمون شهرا آخر بدلا منه ، وربما أحلوا المحرم وحرموا صفر ، حتى يكملوا فى العام أربعة أشهر محرمة ، وإنما ذلك زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ لأنه تحريم ما أحل اللّه ، وتحليل ما

حرم اللّه ، وهو كفر آخر ضموه إلى كفرهم ، يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا عن الحق ، ضلالا زائدا على ضلالا زائدا على ضلالهم ، أو يضلهم اللّه بذلك ، يُحِلُّونَهُ عاماً أي :
يحلون الشهر الحرام عاما ، ويجعلون مكانه آخر ، وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً ، فيتركونه على حرمته ، فكانوا تارة ينسئون وتارة يتركون.

(٣٨٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٨١
قيل : أول من أحدث ذلك : جنادة بن عوف الكناني كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى : إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ، ثم ينادى من قابل : إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه ، فتتبعه العرب.
ثم حرّموا شهرا آخر مكان المحرم لِيُواطِؤُا ليوافقوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ ، وهى الأربعة الحرم ، فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ عليهم من القتال فى الأشهر الحرم ، زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ أي : خذلهم وأضلهم ، والمزين حقيقة : اللّه ، أو الشيطان حكمة وأدبا. وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ إلى طريق الرشد ، ما داموا على غيهم ، حتى يسلكوا سبيل نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم.
الإشارة : إنما تأخير التوبة واليقظة وترك السير إلى مقام التصفية والترقية ، زيادة فى البعد والقسوة ، يضل به الذين هجروا طريق التربية والتصفية ، عن مقام أهل الإحسان والمعرفة ، فتارة يحلون المقام مع النفس الأمارة ، ويقولون : قد انقطعت التربية ، وعدم الطبيب الذي يداويها ويخرجها عن وصفها ، وتارة يحرمون المقام معها والاشتغال بحظوظها وهواها ، ويقولون : البركة لا تنقطع ، والمدد لا ينعدم ، ليوافقوا بين الأمر بمجاهدتها فى قوله :
وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا ، وبين من قال : قد انقطعت التربية ، زين لهم سوء أعمالهم ، واللّه لا يهدى القوم الكافرين إلى السير والوصول إلى ربهم.
ثم عاتبهم على التأخر عن الجهاد فى غزوة تبوك ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : الآيات ٣٨ الى ٣٩]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)
قلت : (اثاقلتم) : أصله : تثاقلتم ، أدغمت التاء فى الثاء ، وجلبت الهمزة للساكن ، وقرىء على الأصل ، وضمن معنى الإخلاد ، فعدّى بإلى.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ للجهاد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، اثَّاقَلْتُمْ أي : تباطأتم وأخلدتم إِلَى الْأَرْضِ كسلا وفشلا ، وكان ذلك فى غزوة تبوك ، أمروا بها بعد رجوعهم من الطائف ، فى وقت عسر ، وحر ، وبعد الشقة ، وكثرة العدو ، فشق عليهم ذلك ،

(٣٨١/٢)

أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا وكدرها ، مِنَ الْآخِرَةِ ، بدل الآخرة ونعيمها ، فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : التمتع بها فى جانب الآخرة ، إِلَّا قَلِيلٌ مستحقر ، لسرعة فنائه ومزجه بالكدر.

إِلَّا تَنْفِرُوا مع رسوله إلى ما استنفرتم إليه ، يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً فى الدنيا والآخرة فى الدنيا : بالإهلاك بأمر فظيع ، كقحط وظهور عدو ، وغير ذلك من المهلكات ، وفى الآخرة : بعذاب النار. وَيَسْتَبْدِلْ مكانكم قَوْماً غَيْرَكُمْ فى الدنيا ، يكونون مطيعين لله ورسوله ، كأهل اليمن وأمثالهم ، وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً إذ لا يقدح تثاقلكم فى نصر دينه شيئا ، فإنه الغنى عن كل شىء ، فى كل وقت. وقيل : الضمير للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم فإن اللّه وعده بالعصمة والنصرة ، ووعده حق ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شىء ، فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد ، كما فعل معه فى الغار والهجرة ، على ما يأتى.

الإشارة : ما لكم إذا قيل لكم : انفروا إلى من يعرفكم بالله ، ويعلمكم كيف تجاهدون نفوسكم فى طلب مرضاة اللّه ، اثاقلتم وأخلدتم إلى أرض الحظوظ والشهوات ، أرضيتم بالحياة الدنيا الدنية ، بدل الحياة الأبدية ، فى الحضرة القدسية؟ أرضيتم بحياة الأشباح بدل حياة الأرواح؟ فما متاع الحياة الدنيا الفانية فى جانب الحياة الأبدية فى الحضرة العلية ، إلا نزر قليل حقير ذليل ، إلا تنفروا لجهاد نفوسكم ، يعذبكم عذابا أليما ، بغم الحجاب ، وشدة التعب والنصب ، وتوارد الخواطر والهموم ، وترادف الأكدار والغموم ، ويستبدل قوما غيركم يكونون عارفين بالله ، مرضيين عند اللّه ، راضين عن اللّه ، واللّه على كل شىء قدير.

ثم ذكر نصرته لرسوله بلا سبب ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٤٠]

إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)

قلت : «إن» : شرط ، وجوابه محذوف ، دلّ عليه قوله : فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ أي : إن لم تنصروه فسينصره اللّه ، الذي نصره حين أخرجه الذين كفروا ، حال كونه ثاني اثنين ، فدل بنصره فى الماضي على نصره فى المستقبل ، وإسناد الإخراج إلى الكفرة لأن همهم بإخراجه أو قتله كان سببا لإذن اللّه له فى الخروج ، و(إذ هما) : بدل من (أخرجه) بدل البعض ، و(إذ يقول) : بدل ثان ، و(كلمة اللّه) : مبتدأ ، و(العليا) : خبر. وقرأ يعقوب : بالنصب عطفا على كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، والأول : أحسن للإشعار بأن كلمة اللّه عالية فى نفسها ، فاقت غيرها أم لا.

(٣٨٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٨٣

يقول الحق جل جلاله : إِلَّا تَنْصُرُوهُ تنصروا محمدا ، وتثاقلتم عن الجهاد معه ، فسينصره اللّه ، كما نصره حين أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا من مكة ، حال كونه ثانِيَ اثْنَيْنِ أي : لم يكن معه إلا رجل واحد ، وهو الصدّيق ، إِذْ هُما فِي الْغارِ نقب فى أعلى غار ثور ، وثور جبل عن يمين مكة ، على مسيرة ساعة. إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ : أبى بكر رضى اللّه عنه : لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا بالعصمة والنصرة.

روى أن المشركين طلعوا فوق الغار يطلبون رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، حين فقدوه من مكة ، فأشفق أبو بكر على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال عليه الصلاة والسلام : «ما ظنّك باثنين اللّه ثالثهما» «١» فأعماهم اللّه عن الغار ، فجعلوا يترددون حوله فلم يروه. وقيل : لما دخل الغار بعث اللّه حمامتين ، فباضتا فى أسفله ، والعنكبوت نسجت عليه.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ أي : أمنه الذي تسكن إليه القلوب ، عَلَيْهِ أي : على رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو على صاحبه ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها ، يعنى الملائكة ، أنزلهم ليحرسوه فى الغار ، أو يوم بدر وأحد وغيرهما ، فتكون على هذا : الجملة معطوفة على : (فقد نصره اللّه). وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا وهى الشرك ، أو دعوى الكفر ، السُّفْلى . وَكَلِمَةُ اللَّهِ التي هى التوحيد ، أو دعوة الإسلام ، هِيَ الْعُلْيا حيث خلص رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم من بين الكفار ، ونقله إلى المدينة ، ولم يزل ينصره حتى ظهر التوحيد وبطل الكفر ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ غالب على أمره ، حَكِيمٌ فى أمره وتدبيره.

الإشارة : ما قيل فى حق الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم يقال فى حق ورثته ، الداعين إلى اللّه بعده من العارفين باللّه ، فيقال لمن تخلف عن صحبة ولىّ عصره وشيخ تربية زمانه : إلا تنصروه فقد نصره اللّه وأعزه ، وأغناه عن غيره ، فمن صحبه فإنما ينفع نفسه ، فقد نصره اللّه حين أنكره أهله وأبناء جنسه ، كما هى سنة اللّه فى أوليائه ، لأن الداخل على اللّه منكور ، والراجع إلى الناس مبرور ، فمن دخل مع الخصوص قطعا أنكرته العموم ، فنخرجه ثانى اثنين هو وقلبه ، فيأوى إلى كهف الأنس باللّه ، والوحشة

مما سواه ، فيقول لقلبه : لا تحزن إن اللّه معنا ، فينزل اللّه عليه سكينة الطمأنينة والتأييد ، وينصره بأجناد أنوار التوحيد والتفريد ، فيجعل كلمة أهل الإنكار السفلى ، وكلمة الداعين إلى اللّه هى العليا ، واللّه عزيز حكيم.

---

(١) أخرجه البخاري فى (فضائل أصحاب النبي ، باب مناقب المهاجرين) ومسلم فى : (فضائل الصحابة ، باب فضائل أبى بكر رضى اللّه عنه).

(٣٨٣/٢)

ثم نهضهم إلى الجهاد ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (٤٢)

قلت : (يهلكون) : حال من فاعل (يحلفون) ، أو بدل منه. قال فى القاموس : (الشقة) - بالضم والكسر : البعد والناحية يقصدها المسافر ، والسفر البعيد والمشقة. هـ.

يقول الحق جل جلاله : انْفِرُوا للجهاد مع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، حال كونكم خِفافاً نشاطا ، وَثِقالًا كسالى لمشقته ، أو (خفافا) لمن قلّ عياله ، (و ثقالا) لمن كثر عياله ، أو خفافا لمن كان فقيرا ، وثقالا لمن كان غنيا ، أو خفافا ركبانا ، وثقالا مشاة ، أو خفافا بلا سلاح ، وثقالا بالسلاح ، أو خفافا شبابا ، وثقالا شيوخا ، أو خفافا أصحاء ، وثقالا مرضى. ولذللك قال ابن أمّ مكتوم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : أعليّ الغزو يا رسول اللّه؟ قال : «نعم» ، حتى نزل : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ «١».

وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي : بما أمكن إمّا بهما أو بأحدهما ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ من تركه ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ما فى ذلك من الأجر العظيم والخير الجسيم ، أي : لو علمتم ذلك ما قعدتم خلف سرية.

ثم عاتب من أراد التخلف ، فقال : لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً من الدنيا ، وَسَفَراً قاصِداً متوسطا أو قريبا ، لَاتَّبَعُوكَ أي : لو كان ما دعوا إليه أمرا دنيويا ، كغنيمة كبيرة ، أو سفرا متوسطا ، لا تبعوك ولوافقوك على الخروج ، وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ أي : المسافة التي تقطع بمشقة ، وذلك أن الغزوة - أي : تبوك - كانت إلى أرض بعيدة ، وكانت فى شدة الحر ، وطيب الثمار ، فشقت عليهم. وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ

أي : المتخلفون إذا رجعت من تبوك ، معتذرين ، يقولون : لَوِ اسْتَطَعْنا الخروج لَخَرَجْنا مَعَكُمْ ، لكن لم تكن لنا استطاعة من جهة العدة والبدن وهذا إخبار بالغيب قبل وقوعه. يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ بوقوعها فى العذاب ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فى ذلك لأنهم كانوا مستطيعين الخروج ، وإنما قعدوا كسلا وجبنا ، واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٦١ من سورة النور.

(٣٨٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٨٥

الإشارة : انفروا إلى جهاد أنفسكم وقطع علائقكم وعوائقكم ، لكى تستأهلوا لدخول حضرة ربكم ، وسافروا إلى من يعينكم ويقوى مدد أجناد أنواركم ، وهم المشايخ العارفون ، فسيروا إليهم خفافا وثقالا ، نشّاطا وكسّالا ، والغالب أن النفس يشق عليها ما يكون سببا فى قتلها ، فلا ينفر إليها خفافا أول مرة إلا النادر.

ثم أمر ببذل الأموال والمهج فى طريق الوصول إلى حضرة اللّه ، وعاتب من تخلف عن ذلك وطلب الراحة والبقاء فى وطن نفسه. قال القشيري : أمرهم بالقيام بحقه ، والبدار إلى أداء أمره على جميع أحوالهم ، خِفافاً أي : فى حال حضور قلوبكم ، فلا يمسّكم نصب المجاهدات ، وَثِقالًا أي : إذا رددتم إليكم فى مقاساة نصب المكابدات. فإنّ البيعة أخذت عليكم فى المنشط والمكره. هـ. ومثله عند الورتجبي عن أبى عثمان قال : خفافا وثقالا فى وقت النشاط والكراهية ، فإن البيعة على هذا وقعت ، كما روى عن جرير بن عبد اللّه أنه قال : بايعنا رسول اللّه على المنشط والمكره. هـ.

ثم عاتب رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم لشدة قربه ، وعظيم منزلته ، وتلطّف له على إذنه للمنافقين فى التخلف ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٤٣ الى ٤٥]

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ (٤٣) لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)

يقول الحق جل جلاله ، لنبيه – عليه الصلاة والسلام – ملاطفا له فى الكلام : عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ، لم بادرت إلى الإذن إلى المنافقين فى التخلف ، واستكفيت بالإذن العام فى قولنا : فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ «١» ، فإن الخواص من المقربين لا يكتفون بالإذن العام ، بل يتوقفون إلى الإذن الخاص.

ولذلك عوتب يونس عليه السّلام. والمعنى : لأى شيء أذنت لهم فى القعود حين استأذنوك واعتذروا لك بأكاذيب؟ وهلا توقفت حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا فى الاعتذار ، وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ فيه.

قال ابن عطية : قوله : الَّذِينَ صَدَقُوا يريد : فى استئذانك ، وأنك لو لم تأذن لهم لخرجوا معك ، وقوله :

وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ يريد : أنهم استأذنوك يظهرون لك أنهم يقفون عند حدّك ، وهم كذبة ، قد عزموا على

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة النور.

العصيان ، أذنت أو لم تأذن. هـ. قال ابن جزى : كانوا قد قالوا : استأذنوه فى القعود ، فإن أذن لنا قعدنا ، وإن لم يأذن قعدنا ، وإنما كان يظهر الصادق من الكاذب لو لم يأذن لهم ، فحينئذ كان يقعد العاصي والمنافق ، ويسافر المطيع الصادق. هـ.

لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أي : ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك فى أن يجاهدوا ، بل الخلّص منهم يبادرون إليه ، ولا يوقفونه على الإذن فيه ، فضلا عن أن يستأذنوا فى التخلف عنه ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ فيثيبهم ويقربهم ، وهى شهادة لهم بالتقوى وعدة لهم بثوابه.

إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ فى التخلف الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وخصص ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر إشعارا بأن الباعث على الجهاد والوازع عنه : الإيمان وعدم الإيمان بهما ، وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ أي : شكّت فى الإيمان والبعث ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ : يتحيرون. ونزلت الآية فى عبد اللّه بن أبيّ والجدّ بن قيس ، وأمثالهما من المنافقين.

الإشارة : لا ينبغى للعارفين بالله الداعين إلى اللّه ، أن يأذنوا لمن استأذنهم فى التخلف عن الجهاد الأكبر ، ويرخصون له فى البقاء مع النفس والهوى ، وجمع حطام الدنيا ، شفقة ورحمة لأن الشفقة فى هذا المعنى لا تليق بأهل التربية ، فقد قالوا : الشفقة والرطوبة لا تليق بشيوخ التربية ، بل لا يليق بهم إلا الأمر بما تموت به النفوس ، وتحيا به الأرواح ، وإن كان فيه حتفهم. وقد قالوا أيضا : إذا كان الشيخ يحرش على المريد «١» ، ويقدمه للمهالك فى نفسه أو ماله أو جاهه ، فهو دليل على أنه يحبه وينصحه ، وإذا كان يرخص له فى أمور نفسه ، ويأمره بالمقام معها ، فهو غير ناصح له.

وأما الإذن فى التجريد وعدمه : فإن رآه أهلا له لنفوذ عزمه ، فيجب عليه أن يأمره به ، وإن رآه لا يليق

به لعوارض قامت به ، منعه منه ، حتى ينظر ما يفعل اللّه به ، وسأل رجل القطب ابن مشيش ، فقال له : يا سيدى أستأذنك فى مجاهدة نفسى؟ فقال له : لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ. إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ.

---

(١) أي : يدفعه.

(٣٨٦/٢)

ثم ذكر سبب تخلفهم ، وهو عدم الإرادة ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٤٦ الى ٤٨]

وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاَّ خَبالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كارِهُونَ (٤٨)

قلت : (ما زادوكم إلا خبالا) قال بعضهم : هو استثناء منقطع ، أي : مازادوكم شيئا ، لكن خبالا يحدثونه فى عسكركم بخروجهم. قال ذلك لئلا يلزم أن الخبال واقع فى عسكر المسلمين ، لكن خروجهم يزيد فيه. وفيه نظر لأن الاستثناء المفرغ لا يكون منقطعا ، ويمكن هنا أن يكون متصلا لأن غزوة تبوك خرج فيها كثير من المنافقين ، فحصل الخبال ، فلو خرج هؤلاء المستأذنون فى التخلف ، القاعدون ، لزاد الخبال بهم.

وقوله : (و لأوضعوا) أي : أسرعوا ، والإيضاع : الإسراع ، و(خلالكم) : ظرف ، أي : لأسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة ، وجملة : (يبغونكم) : حال من فاعل «أوضعوا».

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ أَرادُوا أراد المنافقون الْخُرُوجَ إلى الغزو معكم ، وكانت لهم نية فى ذلك لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً أي : لاستعدوا له أهبته قبل أوانه. فما فعلوا ، وَلكِنْ تثبطوا لأنه تعالى كره انْبِعاثَهُمْ ، أي : نهوضهم للخروج ، فَثَبَّطَهُمْ أي : حبسهم وكسر عزمهم ، كسلا وجبنا ، وَقِيلَ لهم : اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ من النساء والصبيان وذوى الأعذار ، وهو ذم لهم وتوبيخ. والقائل فى الحقيقة هو اللّه تعالى ، وهو عبارة عن قضائه عليهم بالقعود ، وبناه للمجهول تعليما للأدب. قال البيضاوي : هو تمثيل لإلقاء اللّه كراهة الخروج فى قلوبهم ، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود ، أو حكاية قول بعضهم

لبعض ، أو إذن الرسول لهم. هـ.
لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مازادكم خروجهم شيئا إِلَّا خَبالًا فسادا وشرا. والاستثناء من أعم الأحوال ، فلا يلزم أن يكون الخبال موجودا ، وزاد بخروجهم ، أو إذا وقع خبال بحضور بعضهم معكم مازادكم هؤلاء القاعدون بخروجهم إلا خبالا زائدا على ما وقع. وَلَأَوْضَعُوا أي : لأسرعوا خِلالَكُمْ أي : فيما بينكم ، فيسرعون فى المشي بالنميمة والتخليط والهزيمة والتخذيل ، يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ أي : حال كونهم طالبين لكم الفتنة ، بإيقاع

(٣٨٧/٢)

الخلل بينكم ، حتى تختلف قلوبكم ورأيكم ، فيذهب ريح نصركم ، وَفِيكُمْ قوم سَمَّاعُونَ لَهُمْ فيقبلون قولهم ، إما بحسن الظن بهم ، أو لنفاق بهم ، فيقع الخلل بسبب قبول قولهم ، أو فيكم سماعون لأخباركم فينقلونه إلى غيركم ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ فيعلم ضمائرهم ، وما ينشأ عنهم ، وسيجازيهم على فعلهم.
لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ أي : تشتيت أمرك وتفريق أصحابك مِنْ قَبْلُ أي : من قبل هذا الوقت ، كرجوعهم عنك يوم أحد ، ليوقعوا الفشل فى الناس ، وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ أي : دبروها من كل وجه ، فدبروا الحيل ، ودوروا الآراء فى إبطال أمرك ، فأبطل اللّه سعيهم ، حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ أي : علا دينه ، وَهُمْ كارِهُونَ أي : على رغم أنفهم ، والآيتان تسلية للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنين على تخلفهم ، وبيان ما ثبطهم اللّه لأجله وكره انبعاثهم له ، وهتك أستارهم ، وكشف أسرارهم ، وإزاحة اعتذارهم. انظر البيضاوي.
الإشارة : الناس على ثلاثة أقسام : قسم أقامهم الحق تعالى لخدمة أنفسهم وحظوظهم عدلا. وقسم أقامهم الحق تعالى لخدمة معبودهم فضلا. وقسم اختصهم بالتوجه إلى محبوبهم رحمة وفضلا.
فالأولون : أثقلهم بكثرة الشواغل والعلائق ، ولو أرادوا الخروج منها لأعدوا له عدة بالتخفيف والزهد ، ولكن كره اللّه انبعاثهم فثبطهم ، وقيل : اقعدوا مع القاعدين ، أقامهم لإصلاح عالم الحكمة ، وأما أهل الخدمة : فرآهم لم يصلحوا لصريح معرفته ، فشغلهم بخدمته ، ولو أرادوا الخروج من سجن الخدمة إلى فضاء المعرفة لأعدوا له عدة بصحبة أهل المعرفة الكاملة. وأما أهل التوجه إلى محبته وصريح معرفته فلم يشغلهم بشيء ، ولم يتركهم مع شيء ، بل اختصهم بمحبته ، وقام لهم بوجود قسمته ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ «١». وكل قسم لو دخل مع من فوقه على ما هو عليه ، لأفسده ، وما زاده إلا خبالا وشرا. واللّه تعالى أعلم.

ولما دعا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم الناس إلى غزوة تبوك ، قال له الجدّ بن قيس - من كبار المنافقين - : ائذن لى فى القعود ، ولا تفتنى برؤية بنات بنى الأصفر ، فإني لا أصبر على النساء ، فأنزل اللّه فى شأنه «٢» :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٤٩ الى ٥٠]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠)

---

(١) الآية ٧٤ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه مطولا ابن جرير فى التفسير (١٠/ ١٠٤) وذكره الواحدي فى الأسباب (٢٥٢) ، من طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس رضى اللّه عنه.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي فى القعود ، وَلا تَفْتِنِّي ولا توقعنى فى الفتنة ، أي : فى العصيان والمخالفة ، بأن تأذن لى ، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف ، أذن أو لم يأذن ، أو فى الفتنة بسبب ضياع المال والعيال إذ لا كافل لهم بعدي ، أو فى الفتنة بنساء الروم ، كما قال الجدّ بن قيس : قد علمت الأنصار أني مولع بالنساء ، فلا تفتنى ببنات بنى الأصفر ، ولكنى أعينك بمال ، واتركني.

قال تعالى : أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا أي : إن الفتنة هى التي سقطوا فيها ، وهى فتنة الكفر والنفاق ، لا ما احترزوا عنه ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ ، أي : دائرة بهم يوم القيامة ، أو الآن لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها ، ومن أعظم أسبابها : بغضك وانتظارهم الدوائر بك.

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ كنصر أو غنيمة فى بعض غزواتك ، تَسُؤْهُمْ لفرط حسدهم وبغضهم ، وَإِنْ تُصِبْكَ فى بعضها مُصِيبَةٌ ككسر أو شدة كيوم أحد ، يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ أي : يتبجحوا بتخلفهم أو انصرافهم ، واستحمدوا رأيهم فى ذلك ، وَيَتَوَلَّوْا عن متحدّثهم ومجمعهم ، أو عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَهُمْ فَرِحُونَ مسرورون بما صنعوا من التخلف عن الجهاد.

الإشارة : ومن ضعفاء اليقين من يستأذن المشايخ فى البقاء مع الأسباب وفتنة الأموال ، ويقول : لا تفتنى بالأمر بالتجريد ، فإنى لا أقدر عليه ، ويرضى بالسقوط فى فتنة الأسباب والشواغل ، فإن ضم إلى ذلك الإنكار على أهل التجريد ، بحيث إذا رأى منهم نكبة أو كسرة من أجل التجريد ، والخروج

عن عوائد الناس وما هم عليه ، فرح ، وإذا رأى منهم نصرا وعزا انقبض ، ففيه خصلة من النفاق ، والعياذ بالله.

ثم رد عليهم ، بقوله :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٥١ الى ٥٣]

قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلاَّ ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ (٥٣)

(٣٨٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٩٠

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : لَنْ يُصِيبَنا من حسنة أو مصيبة ، إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا فى اللوح المحفوظ ، لا يتغير بموافقتكم ولا بمخالفتكم ، هُوَ مَوْلانا متولى أمرنا وناصرنا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أي : وإليه فليفوض المؤمنون أمورهم رضا بتدبيره لأن مقتضى الإيمان ألا يتوكل إلا على اللّه إذ لا فاعل سواه ، قُلْ لهم : هَلْ تَرَبَّصُونَ أي : تنتظرون بنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ أي : إلا إحدى العاقبتين اللتين كل منهما حسنى : إما النصر وإما الشهادة ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أيضا إحدى العاقبتين السوأتين : إما أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ بقارعة من السماء ، أَوْ بِأَيْدِينا أي : أو بعذاب بأيدينا ، وهو القتل على الكفر ، فَتَرَبَّصُوا ما هو عاقبتنا ، إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ما هو عاقبتكم.

الإشارة : ثلاثة أمور توجب للعبد الراحة من التعب ، والسكون إلى رب الأرباب ، وتذهب عنه حرارة التدبير والاختيار ، وظلمة الأكدار والأغيار : أحدها : تحقيق العلم بسبقية القضاء والقدر ، حتى يتحقق بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه. قال تعالى : قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ «١» ، وليتأمل قول الشاعر :

ما لا يقدّر لا يكون بحيلة أبدا ، وما هو كائن سيكون

سيكون ما هو كائن فى وقته وأخو الجهالة متعب محزون

وقد ورد عن سيدنا على – كرم اللّه وجهه – أنه قال : سبع آيات : من قرأها أو حملها معه لو انطبقت السماء على الأرض لجعل اللّه له فرجا ومخرجا من أمره ، فذكر هذه الآية : قُلْ لَنْ يُصِيبَنا ، وآية فى سورة يونس :

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ... الآية «٢» ، وآيتان فى سورة هود : وَما مِنْ دَابَّةٍ .. ، الآية «٣» ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ... الآية «٤» ، وقوله تعالى : وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها

وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٥» ، ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٦» ووَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ... فى الزمر إلى قوله : عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ «٧» ، ونظمها بعضهم فقال :

---

(١) من الآية ١٧ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ١٠٧ من سورة يونس. [.....]

(٣) الآية ٦ من سوة هود.

(٤) الآية ٥٦ من سورة هود.

(٥) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت.

(٦) الآية ٢ من سورة فاطر

(٧) الآية ٣٨ من سورة الزمر.

عليك بقل ، وإن ، وما ، إنى ، فى هود وكأين ، ما يفتح ، ولئن مكملا

وإنما أشار رضى اللّه عنه إلى معنى الآيات لا إلى لفظها لأنها كلها تدل على النظر لسابق القدر ، والتوكل على الواحد القهار.

الأمر الثاني : تحقق العبد برأفته - تعالى - ورحمته ، وأنه لا يفعل به إلا ما هو فى غاية الكمال فى حقه ، إن كان جمالا فيقتضى منه الشكر ، وإن كان جلالا فيقتضى منه الصبر ، وفيه غاية التقريب والتطهير وطى المسافة بينك وبين الحبيب. وفى الحكم : «خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك ، وتردّ فيه إلى وجود ذلتك ، إن أردت بسط المواهب عليك فصحح الفقر والفاقة لديك ، الفاقة أعياد المريدين». إلى غير ذلك من كلامه فى هذا المعنى.

الأمر الثالث : تحققه بخالص التوحيد فإذا علم أن الفاعل هو اللّه ولا فاعل سواه رضى بفعل حبيبه ، كيفما كان ، كما قال ابن الفارض رضى اللّه عنه :

أحبّاى أنتم ، أحسن الدّهر أم أسا فكونوا كما شئتم أنا ذلك الخلّ

وكما قال صاحب العينية :

تلذّ لى الآلام إذ كنت مسقمى وإن تختبرني فهى عندى صنائع

تحكّم بما تهواه فىّ فإنّنى فقير لسلطان المحبّة طائع

فهذه الأمور الثلاثة ، إذا تفكر فيها العبد دام حبوره وسروره ، وسهلت عليه شئونه وأموره.
وقوله تعالى : (قل هل تربصون بنا ...) الآية ، مثله يقول أهل النسبة لأهل الإنكار : هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنين ، إما حسن الخدام بالموت على غاية الإسلام ، يموت المرء على ما عاش عليه ، وإما الظفر بمعرفة الملك العلام على غاية الكمال والتمام ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم اللّه بعقوبة من عنده بسبب إذايتكم ، أو بدعوة من عندنا إذا أذن لنا. وبالله التوفيق.
ثمّ «١» ذكر سبب إبطال عملهم وصدقاتهم ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : آية ٥٤]
وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسالى وَلا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كارِهُونَ (٥٤)

---

(١) تفسير قوله تعالى : قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً .. الآية ٥٣ ، لا يوجد فى النسخ الخطية التي بين أيدينا.

قلت : (أن تقبل) : بدل من ضمير (منعهم) ، أو على حذف الجار ، و(إلا أنهم كفروا) : فاعل ، أي : وما منع قبول نفقاتهم ، أو من قبول نفقاتهم ، إلا كفرهم بالله وبرسوله ، ويحتمل أن يكون الفاعل ضميرا يعود على اللّه تعالى و(أنهم) مفعول من أجله.
يقول الحق جل جلاله : وَما مَنَعَهُمْ وما منع المنافقين من قبول نفقاتهم وأعمالهم إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ إلا كفرهم بالله وبرسوله ، أو : ما منعهم اللّه من قبول نفقاتهم إلا لأجل كفرهم بالله وبرسوله ، وكونهم لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسالى متثاقلين ، وَلا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كارِهُونَ أي : لا يعطون المال إلا فى حال كراهيتهم للإعطاء لأنهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون بتركها عقابا ، فهم يعطون ذلك رياء ونفاقا.
الإشارة : لا يتقبل اللّه إلا عمل المخلصين ، إما إخلاص العوام لقصد الثواب وخوف العقاب ، أو إخلاص الخواص لإظهار العبودية وإجلال الربوبية ، وعلامة الإخلاص : وجود النشاط والخفة حال المباشرة للعمل ، أو قبلها ، والغيبة عنه بعد الوقوع ، واللّه تعالى أعلم.
ثم نهى عن الاغترار بحال المنافقين ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : آية ٥٥]
فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ

(٥٥)

يقول الحق جل جلاله : فَلا تُعْجِبْكَ ، أيها الناظر إلى المنافقين ، كثرة أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ فإن ذلك استدراج ووبال لهم إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بسبب ما يكابدون فى جمعها وحفظها من المتاعب ، وما يرون فيها من الأمراض والمصائب ، أو ما ألزموا به من أداء زكاتها ، مع كونهم لا يرجون خلفها وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ فلا يستوفون التمتع بها فى الدنيا لقصر مدتها ، ولا يجدون ثواب ما أعطوا منها لعدم إيمانهم. وأصل الزهوق : الخروج بصعوبة ، لصعوبة خروج أرواحهم ، والعياذ بالله.

الإشارة : ينبغى لمريد الآخرة ألا يستحسن شيئا من الدنيا ، التي هى مدرجة الاغترار ، بل ينبغى له أن ينظر إليها وإلى أهلها بعين الغض والاحتقار ، حتى ترتفع همته إلى دار القرار ، وينبغى لمريد الحق - تعالى - ألا يحقر

(٣٩٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٩٣

شيئا من مصنوعاته ، ولا يصغر شيئا من تجلياته ، إذ ما فى الوجود إلا تجليات العلى الكبير ، إما من مظاهر اسمه الحكيم ، أو اسمه القدير ، فيعطى الحكمة حقها والقدرة حقها ، ويتلون مع كل واحدة بلونها ، وبالله التوفيق.

ثم ذكر وصف نفاق المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٥٦ الى ٥٧]

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)

قلت : الفرق : الخوف ، و(مدخلا) : أصله : متدخلا ، مفتعل من الدخول ، قلبت التاء دالا وأدغمت.

يقول الحق جل جلاله : وَيَحْلِفُونَ لكم بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ أي : من جملة المسلمين ، وَما هُمْ مِنْكُمْ لكفر قلوبهم ، وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ : يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين ، فيظهرون الإسلام تقية وخوفا لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أي : حصنا يلتجئون إليه ، أَوْ مَغاراتٍ غيرانا ، أَوْ مُدَّخَلًا ثقبا أو جحرا ينجحرون فيه. وقرأ يعقوب : «مدخلا» بضم الميم وسكون الدال ، أي : دخولا ، أو مكانا يدخلون فيه ، لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ أي : يسرعون إسراعا لا يردهم شيء كالفرس الجموح.

الإشارة : قد يتطفل على القوم من ليس منهم ، فيظهر الوفاق ويبطن النفاق ، كحال أهل النفاق ،

فينبغى أن يستر ويحلم عليه ، كما فعل عليه الصلاة والسلام - بالمنافقين ، تلطف معهم فى حياتهم ، واللّه يتولى سرائرهم ، وبالله التوفيق.

ثم شرع يتكلم فى مساوئ المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ (٥٩)

قلت : (لو) : شرطية ، و(أنهم) : قال سيبويه : مبتدأ ، والخبر محذوف : ولو رضاهم ثابت أو موجود .. إلخ. وقال غيره : فاعل بفعل محذوف ولو ثبت رضاهم ، وجواب (لو) : محذوف ، أي : ولو أنهم رضوا لكان خيرا لهم.

(٣٩٣/٢)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْهُمْ ومن المنافقين مَنْ يَلْمِزُكَ أي : يعيبك ، ويعترض عليك فِي قسم الصَّدَقاتِ ، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وفرحوا ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها شيئا إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ. والآية نزلت فى ابن أبي رأس المنافقين ، قال : ألا ترون إلى صاحبكم إنّما يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم ، ويزعم أنّه يعدل. وقيل : فى ذى الخويصرة رأس الخوارج ، كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقسم غنائم حنين ، فاستعطف قلوب أهل مكة ، فآثرهم بالعطاء ، فقال : اعدل يا رسول اللّه ، فقال : «ويلك ، إن لم أعدل فمن يعدل؟» «١».

قال تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أي : بما أعطاهم الرسول من الغنيمة ، وذكر اللّه للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان بأمر اللّه ووحيه ، فكأنه فعله هو. وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ أي : كفانا فضله ، سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ صدقة أو غنيمة أخرى ، فيؤتينا أكثر مما أتانا ، إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ فى أن يغنينا من فضله وجوده. فلو فعلوا هذا لكان خيرا لهم من اعتراضهم عليك ، الموجب لهم المقت والعذاب.

الإشارة : لا يكون المؤمن كاملا حتى يستوى عنده المنع والعطا ، والفقد والوجد ، والفقر والغنى ، والعز والذل.

وأما إن كان فى حالة العطاء والوجد يفرح ، وفى حالة المنع والفقد يسخط ، فلا فرق بينه وبين أهل النفاق ، إلا من حيث التوسم بالإيمان ، ولو أنه رضى بما قسم اللّه له ، واكتفى بعلمه ، ورغب اللّه فى

زيادته من فضله ، لكان خيرا له وأسلم. واللّه تعالى أعلم وأحكم.

ثم بيّن مصرف الصدقات الواجبة قطعا لأطماع من لا يستحقها ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٦٠]

إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ وَالْعامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقابِ وَالْغارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّمَا تدفع الصَّدَقاتُ الواجبة - أي : الزكاة - لهؤلاء الثمانية ، وهذا يرجّح أن لمزهم كان فى قسم الزكاة لا فى الغنائم ، واختصاص دفع الزكاة بهؤلاء الثمانية مجمع عليه ، واختلف :

هل يجب تعميمهم؟ فقال مالك : ذلك إلى الإمام ، إن شاء عمم وإن شاء خصص ، وإن لم يلها الإمام فصاحب المال

---

(١) أخرجه البخاري فى (المناقب ، باب علامات النبوة) ومسلم فى (الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم) من حديث أبى سعيد الخدري - رضى اللّه عنه - .

مخير ، وبه قال أبو حنيفة وأحمد ، وأفتى به بعض الشافعية ، وقال الشافعي : يجب أن تقسم على هذه الأصناف بالسواء ، إن وجدت.

أولها : الفقير : وهو من لا شىء له ، وثانيها : المسكين : وهو من له شىء لا يكفيه. فالفقير أحوج ، وهو مشتق من فقار الظهر ، كأنه أصيب فقاره ، والمسكين من السكون ، كأن العجز أسكنه. ويدل على هذا قوله تعالى : أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ «١» ، فسماهم مساكين مع ملكهم السفينة ، وأنه صلّى اللّه عليه وسلّم سأل المسكنة وقيل بالعكس ، لقوله تعالى : أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ «٢». وقيل : هما سواء. وَالْعامِلِينَ عَلَيْها أي : الساعين فى تحصيلها وجمعها ، ويدخل فيهم الحاشر والكاتب والمفرق ، ولا بأس أن يعلف خيلهم منها ، ويضافون منها بلا سرف. وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ قال مالك : هم كفار ظهر ميلهم للإسلام ، فيعطون ترغيبا فى الإسلام. وقيل : قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة ، فيعطون ليتمكن الإسلام فى قلبهم ، وحكمهم باق ، وقيل : أشراف يترقب بإعطائهم إسلام نظائرهم.

وَفِي الرِّقابِ أي : فى فك الرقاب ، يشترون ويعتقون. وَالْغارِمِينَ ، أي : من عليهم دين ، فيعطى ليقضى دينه ، ويشرط أن يكون استدانه فى غير فساد ولا سرف ، وليس له ما يبيع فى قضائه. وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ

يعنى : الجهاد ، فيعطى منها المجاهدون وإن كانوا أغنياء ، ويشترى منها آلة الحرب ، ولا يبنى منها سور ولا مركب. وَابْنِ السَّبِيلِ وهو الغريب المحتاج لما يوصله لبلده ، ولم يجد مسلفا ، إن كان مليّا ببلده ، وإلا أعطى مطلقا.

فرض اللّه ذلك فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ أي : حقّا محدودا عند اللّه. قال ابن جزى : ونصبه على المصدر- يعنى : لفعل محذوف كما تقدم- فإن قيل : لم ذكر مصرف الزكاة فى تضاعيف ذكر المنافقين؟ فالجواب : أنه خص مصرف الزكاة فى تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها ، فاتصلت هذه الآية فى المعنى بقوله : (و منهم من يلمزك فى الصدقات ..). هـ. (وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) يضع الأشياء فى مواضعها.

الإشارة : إنما النفحات والمواهب للفقراء والمساكين ، الذين افتقروا من السّوى ، وسكنوا فى حضرة شهود المولى. وفى الحكم : «ورود الفاقات أعياد المريدين ، ربما وجدت من المزيد فى الفاقة ما لا تجده فى الصوم والصلاة ، الفاقات بسط المواهب. إن أردت بسط المواهب عليك فصحح الفقر والفاقة لديك. إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ».

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة الكهف.

(٢) الآية ١٦ من سورة البلد.

وقال الهروي : الفقر صفة مهجورة ، وهو ألذّ ما يناله العارف ، لكونها تدخله على اللّه ، وتجلسه بين يدى اللّه ، وهو أعلم المقامات حكما لقطع العوائق ، والتجرد من العلائق ، واشتغال القلب بالله. قيل : الفقير الصادق لا يملك ولا يملك. وقال الشبلي : الفقير لا يستغنى بشيء دون اللّه. وقال الشيخ ابن سبعين رضى اللّه عنه : الفقير هو الذي لا يحصره الكون. هـ. يعنى : لخروج فكرته عن دائرة الأكوان. وقال القشيري : الفقير الصادق عندهم : من لا سماء تظله ، ولا أرض تقلّه ، ولا سهم يتناوله ، ولا معلوم يشغله ، فهو عبد اللّه بالله. هـ.

وقال السهروردي فى عوارفه : الفقر أساس التصوف ، وبه قوامه ، ويلزم من وجود التصوف وجود الفقر لأن التصوف اسم جامع لمعانى الفقر والزهد ، مع زيادة أحوال لا بد منها للصوفي ، وإن كان فقيرا زاهدا.

وقال بعضهم : نهاية الفقر بداية التصوف لأن التصوف اسم جامع لكل خلق سني ، والخروج من كل

خلق دنى ، لكنهم اتفقوا ألّا دخول على اللّه إلا من باب الفقر ، ومن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بشيء مما أشار إليه القوم.

وقال أبو إسحاق الهروي أيضا : من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف فليختر سبعا على سبع ، فإن الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير. اختاروا الفقر على الغنى ، والجوع على الشبع والدّون على المرتفع ، والذلّ على العز ، والتواضع على الكبر ، والحزن على الفرح ، والموت على الحياة. هـ.

وقال بعضهم :

إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى حذرا أن يدخله فيفسد عليه فقره ، كما يحترز الغنى من الفقر حذرا أن يفسد عليه غناه.

قال بعض الصالحين : كان لى مال ، فرأيت فقيرا فى الحرم جالسا منذ أيام ، ولا يأكل ولا يشرب وعليه أطمار رثة ، فقلت : أعينه بهذا المال فألقيته فى حجره ، وقلت : استعن بهذا على دنياك ، فنفض بها فى الحصباء ، وقال لى :

اشتريت هذه الجلسة مع ربى بما ملكت ، وأنت تفسدها علىّ؟ ثم انصرف وتركنى ألقطها. فو اللّه ما رأيت أعز منه لمّا بدّدها ، ولا أذل منى لما كنت ألقطها. هـ.

وكان بعضهم إذا أصبح عنده شيىء أصبح حزينا ، وإذا لم يصبح عنده شيىء أصبح فرحا مسرورا ، فقيل له :

إنما الناس بعكس هذا ، فقال : إنى إذا لم يصبح عندى شيء فلى برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أسوة ، وإذا أصبح لى شيء لم يكن لى برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أسوة حسنة. هـ. وجمهور الصوفية : يفضلون الفقير الصابر على الغنى الشاكر ، ويفضلون الفقر فى الجملة على الغنى لأنه- عليه الصلاة والسلام- اختاره ، وما كان ليختار المفضول. وشذ منهم يحيى بن معاذ الواعظ وأحمد بن عطاء.

(٣٩٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٩٧

قال القشيري : كان ابن عطاء يفضل الغنى على الفقر ، فدعا عليه الجنيد فأصيب عقله ثلاثين سنة ، فلما رجع إليه عقله قال : إنما أصابنى ما أصابنى بدعاء الجنيد. وتكلم يحيى بن معاذ ، ففضل الغنى على الفقر ، فأعطاه بعض الأغنياء ثلاثين ألف درهم ، فدعا بعض المشايخ عليه ، فقال : لا بارك اللّه له فيها ، فخرج عليه اللص فنهبه إياها.

هـ. وحكى عن أبى يزيد البسطامي : أنه قال : أسرى بروحى ، فرأيت كأنى واقف بين يدى اللّه ،

فسمعت قائلا يقول : يا أبا يزيد ، إن أردت القرب منا فأتنا بما ليس عندنا ، فقلت : يا مولاى وأي شيىء ليس عندك ، ولك خزائن السماوات والأرض؟ فسمعت : يا أبا يزيد ، ليس عندي ذل ولا فقر ، فمن أتانى بهما بلّغته. هـ.

وقال فى الإحياء : الفقر المستعاذ منه : فقر المضطر ، والمسئول هو : الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى اللّه عز وجل. هـ. قلت : والأحسن أن المستعاذ منه هو : فقر القلوب من اليقين ، فيسكنها الجزع والهلع ، والفقر المسئول هو : التخفيف من الشواغل والعلائق ، واللّه تعالى أعلم.

وقد تكلم القشيري هنا على أخذ الزكاة وتركها ، فقال : من أهل المعرفة من رأى أنّ أخذ الزكاة المفروضة أولى ، قالوا : لأن اللّه- سبحانه- جعل ذلك ملكا للفقير ، فهو أحل له من المتطوع به.

ومنهم من قال : الزكاة المفروضة لأقوام مستحقة ، ورأوا الإيثار على الإخوان أولى ، فلم يزاحموا أرباب السهمان ، وتحرجوا من أخذ الزكاة ، ومنهم من قال : إن ذلك وسخ الأموال ، وهو لأصحاب الضرورات. وقالوا : نحن آثرنا الفقر اختيارا .. فلم يأخذوا الزكاة المفروضة. هـ.

وقوله تعالى : (و العاملين عليها) : هم : المستعدون للمواهب بالتفرغ والتجريد ، (و المؤلفة قلوبهم) على حضرة محبوبهم ، والجادّون فى فك الرقاب من الجهل والغفلة وهم أهل التذكير ، الداعون إلى اللّه ، (و الغارمين) أي :

الدافعون أموالهم ومهجهم فى رضى محبوبهم ، فافتقروا فاستحقوا حظهم من المواهب والأسرار ، و(فى سبيل اللّه) أي : والمجاهدون أنفسهم فى مرضاة اللّه ، (و ابن السبيل) : السائحين فى طلب معرفة اللّه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر نوعا آخر من مساوئ المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٦١]

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٦١)

قلت : (قل أذن خير) : من قرأ بالإضافة ف (لكم) : متعلق بالاستقرار ، أي : هو أذن خير كائن لكم. ومن قرأ بالتنوين ف (خير) : خبر عن «أذن» خبر ثان ، ومن قرأ : «ورحمة» بالرفع فعطف على (أذن خير) ، ومن قرأ بالجر ، فعطف على «خير» ، المجرور.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ فيه : هُوَ أُذُنٌ يسمع كل ما يقال له ويصدقه

حقا كان أو باطلا ، فإذا حلفنا له أنا لم نقل شيئا صدقنا. والقائل لهذه المقالة : قيل : هو نبتل بن الحارث ، وكان من مردة المنافقين. وقيل : عتاب بن قشير ، في جماعة ، قالوا : محمد أذن سامعه ، نقول ما شئنا ، ثم نأتيه فيصدقنا فيما نقول. قال البيضاوي : سمى بالجارحة للمبالغة كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع ، كما سمى الجاسوس عينا. هـ.

قال تعالى في الرد عليهم : قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ أي : هو لكم سماع خير وحق ، فيسمع الخير والحق ويبلغه لكم ، أو قل : هو أذن خير لكم من كونه غير أذن لأن كونه أذنا يقبل معاذيركم ولو كان غير أذن لكذبكم وفضحكم. وفي (الوجيز) أي : مستمع خير وصلاح ، لا مستمع شر وفساد.

قال البيضاوي : وهو تصديق لهم بأنه أذن ، لكن لا على الوجه الذي ذموا به- يعنى من تنقصه بقلة الحزم والانخداع- بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله. ثم فسر ذلك بقوله : يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يصدق بالله وبما له من الكمالات ، وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ويصدقهم لما يعلم من خلوصهم ، واللام مزيدة للتفرقة بين إيمان التصديق وإيمان الإذعان والأمان ، وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ أي : هو رحمة لمن أظهر الإيمان منكم ، بحيث يقبله ولا يكشف سره. وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلا بكم ، بل رفقا بكم وترحما عليكم. قاله البيضاوي.

وفي ابن عطية : وخص الرحمة بالذين آمنوا إذ هم الذين نجوا بالرسول وفازوا. وفي الوجيز : وهو رحمة لهم ، لأنه كان سبب إيمانهم. هـ. فظاهره أن الإيمان الصادر منهم كان حقيقيا ، وهو حسن خلاف ظاهر. قال البيضاوي : أي : هو رحمة لمن وفقه اللّه للإيمان منكم.

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ بأى نوع من الإيذاء ، لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ موجع بسبب إيذايته.

الإشارة : تعظيم الرسول عليه السّلام ومدحه وذكر محاسنه ، من أجل القربات وأعظم الطاعات لأن تعظيمه ناشيء عن محبته ، ومحبته عقد من عقود الإيمان ، لا يتم الإيمان إلا بها ، والإخلال بهذا الجانب من أعظم المعاصي عند اللّه ، ولذلك قبح كفر المنافقين واليهود ، الذين كانوا يؤذون جانب النبوة ، وما عابه به المنافقون في هذه الآية هو عين الكمال عند أهل الكمال.

قال القشيري : عابوه بما هو أمارة كرمه ، ودلالة فضله ، فقالوا : إنه لحسن خلقه ، يسمع ما يقال له ، وقد قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «المؤمن غرّ كريم ، والمنافق خبّ لئيم» «١». قالوا : من الفاضل؟ قالوا : الفطن المتغافل ، وأنشدوا :

وإذا الكريم أتيته بخديعة فرأيته فيما تروم يسارع

فاعلم بأنّك لم تخادع جاهلا إنّ الكريم- بفضله- يتخادع «٢». هـ.
وكل ولى يتخلق بهذا الخلق السني الذي هو التغافل والانخداع فى اللّه ، وكان عبد اللّه بن عمر يقول : (من خدعنا فى اللّه انخدعنا له). ورأى سيدنا عيسى عليه السّلام رجلا يسرق ، فقال له : سرقت يا فلان؟ فقال : واللّه ما سرقت ، فقال عليه السّلام : (آمنت بالله وكذبت عينى). فمن أخلاق الصوفي أن يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، كيفا كانوا ، ورحمة للذين آمنوا ، فمن آذى من هذا وصفه فله عذاب أليم. وبالله التوفيق.
ومن مساوئ المنافقين أيضا : أنهم يرضون الناس بسخط اللّه ، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله :
[سورة التوبة (٩) : الآيات ٦٢ الى ٦٣]
يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)
قلت : إنما وحدّ الضمير فى (يرضوه) إما لأن رضى أحدهما رضى الآخر ، فكأنهما شيء واحد ، أو لأن الكلام إنما هو فى إيذاء الرسول- عليه الصلاة والسلام- وإرضائه ، فذكر اللّه تعظيما لجانب الرسول ، أو لأن التقدير : واللّه أحق أن يرضوه ، ورسوله كذلك فهما جملتان. والضمير فى (أنه من يحادد) : ضمير الشأن ، و(فأن) : إما تأكيد

---

(١) أخرجه أبو داود فى (الأدب ، باب فى حسن العشرة) والترمذي فى (البر والصلة ، باب ما جاء فى البخيل) عن أبى هريرة ، بلفظ : «الفاجر» بدل المنافق.
(٢) البيتان منسوبان إلى عبد المجيد بن إسماعيل الرومي ، راجع النجوم الزاهرة ٥/ ٢٧٢.

(٣٩٩/٢)

لأن الأولى ، وجملة (فله) : جواب ، أو تكون بدلا منها ، أو فى موضع خبر عن مبتدأ محذوف ، أي : فحقّ ، أو واجب له نار جهنم.
يقول الحق جل جلاله : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ أي : المنافقون ، لَكُمْ أيها المؤمنون ، حين يعتذرون فى التخلف عن الجهاد وغيره ، لِيُرْضُوكُمْ أي : لترضوا عنهم وتقبلوا عذرهم ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ بالطاعة والوفاق ، واتباع ما جاء به ، إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ صادقين فى إيمانهم. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ أي : الأمر والشأن ، مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يعاديهما ، ويخالف أمرهما فَأَنَّ لَهُ ، فواجب أن له نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ، ذلِكَ الْخِزْيُ أي : الهول الْعَظِيمُ ، والهلاك الدائم ، والعياذ بالله.

الإشارة : من أرضى الناس بسخط اللّه أسخطهم عليه وسخط عليه ، ومن أسخط الناس فى رضى اللّه أرضاهم عليه ، ورضى عنه ، فمن أقر منكرا حياء أو خوفا من الناس ، فقد أسخط مولاه ، ومن أنكر منكرا ، ولم يراقب أحدا ، فقد أرضى مولاه ، ومن راقب الناس لم يراقب اللّه ، ومن راقب اللّه لم يراقب الناس ، (و اللّه ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين). وتأمل قول الشاعر :

من راقب النّاس مات غمّا وفاز باللذات الجسور

وبالله التوفيق.

ومن أخلاقهم أيضا : الخوف من الفضيحة ، والاستهزاء بالدين ، كما أبان ذلك بقوله :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٦٤ الى ٦٦]

يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)

قلت : الضمائر فى «عليهم» ، و«تنبئهم» و«قلوبهم» ، تعود على المنافقين خلافا للزمخشرى فى الأولين ، فقال : يعود على المؤمنين ، وتبعه البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ أي : فى شأنهم ، سُورَةٌ من القرآن على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، تُنَبِّئُهُمْ أي : تخبرهم ، أي : المنافقين ، بِما فِي قُلُوبِهِمْ من الشك والنفاق ، وتهتك أستارهم ،

وكانوا يستهزؤون بأمر الوحى والدين ، فقال تعالى لنبيه- عليه الصلاة والسلام : قُلِ لهم : اسْتَهْزِؤُا تهديدا لهم ، إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ من إنزال السورة فيكم ، أو ما تحذرون من إظهار مساوئكم وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ عن استهزائهم ، لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فيما بيننا. روى أن ركبا من المنافقين مروا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فى غزوة تبوك ، فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل ، يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه ، هيهات هيهات!! فأخبر اللّه نبيه ، فدعاهم فقال : «قلتم : كذا وكذا؟» فقالوا : لا ، واللّه ، ما كنا فى شىء من أمرك ، ولا من أمر أصحابك ، ولكنا كنا فى شىء مما يخوض فيه الركب ، ليقصر بعضنا على بعض السفر «١».

قال تعالى : قُلْ أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ ، توبيخا لهم على استهزائهم بما لا يصح الاستهزاء به ، لا تَعْتَذِرُوا أي : لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ أي : قد أظهرتم الكفر

بإيذاء الرسول والطعن عليه ، بعد إظهار إيمانكم الكاذب. إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ بتوبتهم وإخلاصهم ، حيث سبق لهم ذلك كان منهم رجل اسمه مخشيّ ، تاب ومات شهيدا. أو لكفهم عن الإيذاء ، نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا فى علم اللّه مُجْرِمِينَ مصرين على النفاق ، أو مستمرين على الإيذاء والاستهزاء. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الاستهزاء بالأولياء والطعن عليهم من أسباب المقت والبعد من اللّه ، والإصرار على ذلك شؤمه سوء الخاتمة ، وترى بعض الطاعنين عليهم يحذر منهم أن يكاشفوا بأسرارهم ، وقد يطلع اللّه أولياءه على ذلك ، وقد لا يطلعهم ، وبعد أن يطلعهم على ذلك لا يواجهوهم بكشف أسرارهم لتخلقهم بالرحمة الإلهية. واللّه تعالى أعلم.

ومن مساوئ المنافقين أيضا : أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف ، كما قال تعالى :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٦٧ الى ٦٩]

الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٦٩)

---

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١٠/ ١٧٣) عن قتادة.

قلت : قال فى الأساس : ومن المجاز : نسيت الشيء : تركته ، (نسوا اللّه فنسيهم). قال فى المشارق : ونسى بمعنى ترك ، معناه مشهور فى اللغة ، ومنه : (نسوا اللّه فنسيهم) أي : تركوا أمره فتركهم. وقوله : (كالذين من قبلكم) : خبر ، أي : أنتم كالذين ، أو مفعول بمحذوف ، أي : فعلتم مثل فعل من قبلكم.

يقول الحق جل جلاله : الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أي : متشابهة فى الكفر والبعد عن الإيمان ، لا فرق بين ذكورهم وإناثهم فى النفاق والكفر ، وهو نفى لأن يكونوا مؤمنين. وقيل : إنه تكذيب لهم فى حلفهم بالله : إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وتقرير لقوله : وَما هُمْ مِنْكُمْ ، وما بعده كالدليل عليه ، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين. وهو قوله : يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ كالكفر والمعاصي ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمَعْرُوفِ كالإيمان والطاعة ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ عن الإعطاء والمبار ، وهو كناية عن البخل والشح. نَسُوا اللَّهَ أي : غفلوا ، أي : أغفلوا ذكره ، وتركوا طاعته ، فَنَسِيَهُمْ فتركهم من لطفه ورحمته وفضله ، إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ الكاملون فى التمرد والفسوق عن دائرة الخير.

وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ أي : المجاهرين بالكفر ، نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أي : مقدرين الخلود. قال ابن جزى : الأصل فى الشر أن يقال : أوعد ، وإنما يقال فيه : «وعد» إذا صرح بالشر. هـ. هِيَ حَسْبُهُمْ أي : جزاؤهم عقابا وعذابا ، وفيه دليل على عظم عذابها ، وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ أبعدهم من رحمته ، وأهانهم ، وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ لا ينقطع ، وهو العذاب الذي وعدوه ، أو ما يقاسونه من تعب النفاق ، والخوف من المؤمنين.

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أي : أنتم كالذين من قبلكم ، أو فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم ، كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالًا وَأَوْلاداً ، وهو بيان لتشبيههم بهم ، وتمثيل حالهم بحالهم ، فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ أي : نصيبهم من ملاذ الدنيا وحظوظها ، فأمّلوا بعيدا وبنوا مشيدا ، فرحلوا عنه وتركوه ، فلا ما كانوا أملوا أدركوا ، ولا إلى ما فاتهم رجعوا ، فَاسْتَمْتَعْتُمْ أنتم بِخَلاقِكُمْ أي : بنصيبكم مما خلق اللّه لكم وقدره لكم فى الأزل ، كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ ، ثم تركوا ذلك ورحلوا عنه ، كذلك ترحلون أنتم عنه وتتركونه.

قال البيضاوي : ذمّ الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المخدّجة من الشهوات الفانية ، والتهائهم بها عن النظر فى العاقبة ، والسعى فى تحصيل اللذائذ الحقيرة تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء آثارهم. هـ.

(٤٠٢/٢)

وَخُضْتُمْ فى الباطل كَالَّذِي خاضُوا أي : أو كخوضهم ، أو كالخوض الذي خاضوه ، وقيل : كالذين خاضوا فيه ، فأوقع الذم على الجمع. أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ أي : لم يستحقوا عليها ثوابا فى الدارين ، وَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ الكاملون فى الخسران ، خسروا الدنيا والآخرة.

الإشارة : ينبغى لأهل الإيمان الكامل أن يتباعدوا عن أوصاف المنافقين فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويمدّون أيديهم بالعطاء والإيثار ، ويذكرون اللّه على سبيل الاستهتار ، حتى يذكرهم برحمته. ويتشبهون بمن قبلهم من الصالحين الأبرار ، فقد استمتعوا بلذيذ المناجاة ، وحلاوة المشاهدات ، وبلطائف العلوم والمكاشفات ، أولئك الذين ثبتت لهم الكرامة من اللّه فى الدنيا والآخرة ، وأولئك هم الفائزون.

ثم هدد المنافقين بإهلاك من قبلهم ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٧٠]

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله ، فى شأن المنافقين : أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ : خبر الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كيف دمرهم اللّه وأهلكهم ، حيث خالفوا رسلهم ، قَوْمِ نُوحٍ أغرقهم بالطوفان ، وَقوم عادٍ أهلكهم بالريح ، وَثَمُودَ أهلكهم بالصيحة ، وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ أهلك نمرود ببعوض ، وأهلك أصحابه به ، أرسل عليهم سحابة من البعوض فخرطتهم ، ودخلت بعوضة فى دماغه فأكلت دماغه ، حتى هلك ، وَأَصْحابِ مَدْيَنَ ، وهم قوم شعيب ، أهلكوا بالنار يوم الظلة ، وَالْمُؤْتَفِكاتِ مدائن قوم لوط ، ائتفكت بهم ، أي : انقلبت ، فصار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارات من سجيل. أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ أي : كل واحدة منهن أتاها رسول بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الواضحة ، فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ أي : لم يكن من عادته ما يشابه ظلم الناس ، كالعقاب بلا جرم.

وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب.

الإشارة : ينبغى للمؤمن المشفق على نفسه أن يتحرى مواطن الهلكة ، فيجتنبها بقدر الإمكان فينظر ما فعل اللّه بأهل المخالفة والمعاصي ، فيهرب منها بقدر إمكانه ، وينظر ما فعل بأهل طاعته وطاعة رسوله من النصر والعز فى الدارين ، فيبادر إليها فوق ما يطيق ، ويعظم الرسل ، ومن كان على قدمهم ممن حمل الأمانة بعدهم ، ويشد يده على صحبتهم وخدمتهم فهذا يسعد سعادة الدارين. وبالله التوفيق.

(٤٠٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٠٤

ثم ذكر أضداد المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٧١ الى ٧٢]

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

يقول الحق جل جلاله : وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ أي : أصدقاء بَعْضٍ ، وهذا فى مقابلة قوله : الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وخص المؤمنين بالوصف بالولاية ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ضد ما فعله المنافقون ، وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ ضد قوله : وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فى سائر الأمور ، ضد قوله : نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ، أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ لا محالة لأن السين مؤكدة للوقوع ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غالب على كل شيء ، لا يمتنع عليه ما يريده ، حَكِيمٌ يضع الأشياء مواضعها.

ثم ذكر ما أعد لهم فقال : وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً أي : تستطيبها النفس ، أو يطيب فيها العيش. وفى الحديث : «إنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر» «١». وفى حديث آخر : «إنّ فى الجنّة غرفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدّها اللّه لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وبذل السلام ، وتابع الصّيام ، وصلّى باللّيل والنّاس نيام» «٢».

وذلك فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، أي : إقامة وخلود. وعنه- عليه الصلاة والسلام- : «جنات عدن : دار اللّه ، التي لم ترها عين ، ولا تخطر على قلب بشر ، لا يسكنها غير ثلاثة : النبيون ، والصديقون ، والشهداء. يقول اللّه تعالى :

طوبى لمن دخلك.» «٣» قاله البيضاوي. ثم قال : ومرجع العطف فيها- أي : فى قوله : وَمَساكِنَ طَيِّبَةً- يحتمل

---

(١) أخرجه بسياق أخر مطولا ، البزار كما فى كشف الأستار (٣/ ٥١) ، وعزاه فى الفتح السماوي (٢/ ٦٨٦) لابن أبى حاتم وابن مردويه كلهم عن الحسن عن عمران بن حصين وأبى هريرة.

(٢) أخرجه الامام أحمد فى المسند (٥/ ٣٤٣) والطبراني فى الكبير (٣/ ٣٤٢) وعبد الرزاق فى المصنف (١١/ ٤١٨) والبغوي فى التفسير (٦/ ٣٠٦) عن أبى مالك الأشعري. [.....]

(٣) أخرجه البزار ، (كشف الأستار ٤/ ١٩٢) وابن جرير فى التفسير (١٠/ ١٨٠) ، من حديث أبى الدرداء.

أن يكون لتعدد الموعود لكل واحد له ، أي : فكل مؤمن ومؤمنة له جنات ومساكن أو للجميع على سبيل التوزيع ، أي : فالجنات والمساكن معدة للجميع ، ثم يقسمونها على حسب سعيهم فى الدنيا ، أو إلى تغاير وصفه- أي : الموعود- فكأنه وصفه أولا بأنه جنس ما هو أبهى الأماكن التي يعرفونها لتميل إليه طبائعهم أول ما يقرع أسماعهم. ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش ، معرى عن شوائب

الكدرات التي لا تخلو عن شيء منها أماكن الدنيا ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار رب العالمين ، لا يعتريهم فيها فناء ولا تغيير.
ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال : وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة ، والمؤدى إلى نيل الوصول والفوز باللقاء. وعنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «إن اللّه تعالى يقول لأهل الجنّة : هل رضيتم؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا : وأيّ شيء أفضل من ذلك؟ قال : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا» «١». ذلِكَ أي : الرضوان ، أو جميع ما تقدم ، هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الذي تستحقر دونه الدنيا وما فيها. هـ.

الإشارة : قد أعد اللّه لأهل الإيمان الحقيقي الذين بذلوا مهجهم وأموالهم في مرضاته ، جنات المعارف ، تجرى من تحت أفكارهم أنهار العلوم والحكم ، ومساكن طيبة ، هى : عكوف أرواحهم في الحضرة ، متلذذين بحلاوة الفكرة والنظرة ، في محل المشاهدة والمكالمة ، والمساررة والمناجاة ، ورضوان من اللّه ، الذي هو نعيم الأرواح ، أكبر من كل شيىء لأن نعيم الأرواح أجلّ وأعظم من نعيم الأشباح ، حتى إن المقربين ليضحكون على أهل اليمين ، حين يرونهم يلعبون مع الولدان والحور ، كما ذكر الغزالي. وأما المقربون فيشاركونهم في ذلك ، ويزيدون عليهم بلذة الشهود.
قال القشيري ، عند قوله تعالى : إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ «٢» : إنه لا تنافى بين اشتغالهم بلذاتهم مع أهليهم وبين شهود مولاهم ، كما أنهم اليوم مستلذون بمعرفته بأى حالة هم فيها ، ولا يقدح اشتغالهم بحظوظهم في معارفهم. انتهى لفظه ، وهو حسن. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في (الرقاق ، باب صفة الجنة والنار) وفى مواضع أخرى ، ومسلم في (الجنة ، باب : إحلال الرضوان على أهل الجنة) من حديث أبى سعيد الخدري- رضى اللّه عنه-.
(٢) الآية ٥٥ من سورة «يسن».

ثم أمر نبيه بالإغلاظ على المنافقين ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : الآيات ٧٣ الى ٧٤]
يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَما نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ بالسيف ، وَالْمُنافِقِينَ باللسان بإلزام الحجة وبإقامة الحدود ما لم يظهر عليهم ما يدل على كفرهم ، فإن ظهر عليهم ذلك فحكمهم كحكم الزنديق ، فيقتل على المشهور. وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ بالقول والفعل ، إن استوجبوا ذلك ، ولا تراقبهم ، وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ أي : المرجع ، مصيرهم.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا ، روى : أنه صلّى اللّه عليه وسلّم أقام فى غزوة تبوك شهرين ، ينزل عليه القرآن ، ويعيب المتخلفين ، فقال الجلاس بن سويد : لئن كان ما يقول محمد فى إخواننا حقا لنحن شرّ من الحمير ، فبلغ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فاستحضره ، فحلف بالله ما قال ، فنزلت ، فتاب الجلاس وحسنت توبته «١».

قال تعالى : وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ، يعنى : ما تقدم من قول الجلاس ، أو قول ابن أبىّ : سمن كلبك يأكلك ، أو : لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ ... الآية. وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام ، ولم يقل :

بعد إيمانهم لأنهم يقولون بألسنتهم : آمنا ، ولم يدخل فى قلوبهم ، وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا من قتل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وهو :

أن خمسة عشر منهم توافقوا ، عند مرجعه من تبوك ، أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي ، إذا وصل إلى العقبة بالليل ، فأخذ عمّار بن ياسر بخطام راحلته يقودها ، وحذيفة خلفها يسوقها ، فبينما هم كذلك إذ سمع حذيفة تقعقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح ، فقال : إليكم إليكم يا أعداء اللّه ، فهربوا «٢». أو : هموا بإخراجه من المدينة ، أو إخراج المؤمنين ، أو هموا بأن يتوّجوا عبد اللّه بن أبىّ ، وإن لم يرض رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلم ينالوا شيئا من ذلك.

---

(١) أخرجه البيهقي فى الدلائل (باب مرجع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من تبوك) عن عروة بن الزبير.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند ٥/ ٤٥٣ عن أبى الطفيل. والبيهقي فى الدلائل (باب رجوع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من تبوك) عن عروة.

وَما نَقَمُوا أي : وما عابوا وكرهوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ الذي حقهم أن يشكروا عليه ،

وذلك أن أكثر أهل المدينة كانوا محاويج ، فى ضنك من العيش ، فلما قدمهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم استغنوا بالغنائم ، وقتل للجلاس مولى ، فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بديته اثنى عشر ألفا ، فأعطيت له ، فاستغنى.

فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ ، وهذا حمل الجلاس على التوبة ، والضمير يعود على الرجوع المفهوم من التوبة ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا عنك بالإصرار على النفاق ، يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ بالقتل والنار ، وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ينجيهم من العذاب.

الإشارة : كفار الخصوصية على قسمين : قسم أظهروا الإنكار على أهلها ، وقسم أبطنوه وأظهروا الوفاق ، ففيهم شبه بأهل النفاق ، فينبغى الإعراض عن الجميع ، والاشتغال بالله عنهم ، وهو جهادهم والإغلاظ عليهم ، فعداوة العدو حقا هو اشتغالك بمحبة الحبيب حقا. وقد تصدر عنهم فى جانب أهل الخصوصية مقالات ثم ينكرونها ، وقد يهمّوا بما لم ينالوا من إذايتهم وقتلهم ، لو قدروا. واللّه يتولى الصالحين.

ونزل فى ثعلبة بن حاطب ، قوله تعالى :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٧٥ الى ٧٨]

وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ وقال : لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وهو ثعلبة بن حاطب ، أتى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقال : ادع اللّه أن يرزقنى مالا. فقال له النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه». فراجعه ، وقال : والذي بعثك بالحق ، لئن رزقنى اللّه مالا لأعطين كلّ ذى حقّ حقّه ، فدعا له ، فاتخذ غنما ، فنمت كما تنمو الدود ، حتى ضاقت بها المدينة ، فنزل واديا ، وانقطع عن الجماعة والجمعة ، فسأل عنه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقيل : كثر ماله حتى لا يسعه واد ، فقال : «يا ويح ثعلبة». فبعث له مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ، ومروا بثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرآه الكتاب الذي فيه الفرائض ، فقال : ما هذه صدقة ، ما هذه إلا أخت الجزية ، فارجعا حتى أرى رأيى ، فنزلت فيه الآية ، فجاء ثعلبة بالصدقة ، فقال : إن اللّه منعنى أن أقبل منك ، فجعل يحثو التراب على رأسه ، فقال له صلّى اللّه عليه وسلّم : «هذا منك فقد أمرتك فلم

تطعنى» ، فقبض الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، فجاء بها إلى أبى بكر ، فلم يقبلها ، ثم جاء بها إلى عمر فى خلافته ، فلم يقبلها منه ، وهلك فى زمن عثمان ، بعد أن لم يقبلها منه «١».
وهذا معنى قوله : فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ أي : منعوا حق اللّه منه ، وَتَوَلَّوْا عن طاعة اللّه ، وَهُمْ مُعْرِضُونَ أي : وهم قوم عادتهم الإعراض عنها ، فَأَعْقَبَهُمْ أي : فأردفهم نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ عقوبة على العصيان بما هو أشد منه ، أو فجعل اللّه عاقبة فعلهم ذلك نفاقا متمكنا فى قلوبهم وسوء اعتقاد. قال البيضاوي : ويجوز أن يكون الضمير للبخل ، والمعنى : فأورثهم البخل نفاقا متمكنا فى قلوبهم إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ، أي : يلقون اللّه بالموت ، والمراد : يلقون جزاءه أو عقابه. وذلك بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ أي : بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدق والصلاح ، وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ أي : وبكونهم كاذبين فيه فإن خلف الوعد متضمن للكذب ، مستقبح من الوجهين.
أَلَمْ يَعْلَمُوا أي : المنافقون ، أو من عاهد اللّه ، أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ أي : ما أسروا فى أنفسهم من النفاق ، وَنَجْواهُمْ ما يتناجون فيه ، فيما بينهم ، من المطاعن وتسمية الزكاة جزية ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ فلا يخفى عليه شىء من ذلك ، واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : فى الحكم العطائية : «من تمام النعمة عليك : أن يرزقك ما يكفيك ، ويمنعك ما يطغيك».
وقال أبو سعيد الخدري رضى اللّه عنه : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : «خير الرّزق ما يكفى ، وخير الذّكر الخفيّ» «٢» وقال صلى اللّه عليه وسلم : «ما طلعت شمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان ، يسمعان الخلائق : أيّها النّاس ، هلمّوا إلى ربّكم ، ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى» «٣».
وقال بعض العارفين : كل من لا يعرف قدر ما زوى عنه من الدنيا ، ابتلى بأحد وجهين : إما بحرص مع فقر يتقطع به حسرات ، أو رغبة فى غنى تنسيه شكر ما أنعم به عليه.

---

(١) أخرجه الطبراني فى الكبير (٨/ ٢٦٠) والبيهقي فى الدلائل (باب قصة ثعلبة بن حاطب ٥/ ٩٠) وابن جرير فى التفسير (١٠/ ١٨٩). كذلك البغوي وغيره ، كلهم عن أبى أمامة الباهلي ، وذكر الحافظ ابن الحجر فى الكافي الشاف : أن إسناد هذه القصة ضعيف جدا. راجع : الكافي الشاف (٢/ ٢٩٢) والإصابة (١/ ٤٠١) والحاوي للسيوطى (٢/ ١٨٣).
وثعلبة بن حاطب- المذكور فى القصة شهد بدرا. وقد قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا يدخل النار أحد شهد بدرا والحديبية». وحكى صلّى اللّه عليه وسلّم عن رب العزة أنه قال لأهل بدر : «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فمن هذا شأنه ، كيف يؤول به الأمر إلى ما آل إليه ما نزلت فيه الآيات؟ وقد أستشهد ثعلبة يوم أحد ، وفى القصة المذكورة أنه هلك فى عهد عثمان. وهذا دليل على أن القصة غير صحيحة أصلا ، راجع فى هذا : الشهاب الثاقب فى الذب عن الصحابي ثعلبة بن حاطب ..
(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٧٢ ، عن سعد بن مالك. وأخرجه ابن حبان- بتقديم وتأخير- عن سعد بن

أبي وقاص (الإحسان ٢/ ٨٩ ح ٨٠٦).
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٩٧) وابن حبان (٢٤٧٦ موارد) والحاكم (٢/ ٤٤٥) ، وصححه ووافقه الذهبي كلهم عن أبي الدرداء. وقال الهيثمي (٣/ ١٢٢) : رجاله رجال الصحيح.

(٤٠٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٠٩
وقد ثبت عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «ليس الغنى بكثرة العرض ، إنما الغنى غنى النّفس».
وغنى النفس عن الدنيا :
شرف الأولياء المختارين ، وعز أهل التقوى المؤمنين المحسنين. ولقد صدق قول الشاعر :
غنى النّفس ما يغنيك عن سد خلّة فإن زدت شيئا عاد ذلك الغنى فقرا.
وقد قيل : من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى اللّه عيني قلبه. وقالت الجارية المجنونة لعبد الواحد بن زيد : يا عبد الواحد ، اعلم أن العبد إذا كان في كفاية ، ثم مال إلى الدنيا ، سلبه اللّه حلاوة الزهد ، فيظل حيرانا والها ، فإن كان له عند اللّه تعالى نصيب ، عاتبه وحيا في سره ، فقال : عبدى أردت أن أرفع قدرك عند ملائكتي وحملة عرشي ، وأجعلك دليلا لأوليائي وأهل طاعتي في أرضي ، فملت إلى عرض من أعراض الدنيا وتركتني فورثتك بذلك الوحشة بعد الأنس ، والذل بعد العز ، والفقر بعد الغنى ، عبدى ارجع إلى ما كنت عليه ، أرجع بك إلى ما كنت تعرفه. هـ. وقد تقدمت الحكاية. وفي بعض الكتب : إن أهون ما أصنع بالعالم ، إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتي. هـ.
ثم ذم المنافقين بعيب آخر ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : الآيات ٧٩ الى ٨٠]
الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (٨٠)
قلت : (الذين) : مبتدا حذف خبره ، أي : منهم الذين ، أو خبر عن مبتدأ ، أو منصوب على الذم ، أو بدل من ضمير سرهم. وأصل المطوعين : المتطوعين ، فأدغمت التاء في الطاء ، و(جهدهم) : مصدر جهد في الأمر : بالغ فيه.
يقول الحق جل جلاله : ومنهم الَّذِينَ يَلْمِزُونَ أي : يعيبون الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ ، روى أنه صلّى اللّه عليه وسلّم حث على الصدقة ، فجاء عبد الرّحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ، وقال : كان لي ثمانية آلاف ، فأقرضت ربي أربعة ، وأمسكت لعيالي أربعة. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه

وسلّم : «بارك اللّه لك فيما أعطيت وفيما أمسكت».
فبارك اللّه له حتى صالحته إحدى زوجتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم. وتصدّق عاصم بن عدى بثمانية أوسق تمرا ، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر ، فأمره رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن ينثره على تمر الصدقات ،

فلمزهم المنافقون ، وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، ولقد كان اللّه ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل ، فنزلت الآية «١».
ونزلت فى أبى عقيل : وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ إلا طاقتهم ، فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ يستهزءون بهم. قال تعالى : سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ جازاهم على سخريتهم ، كقوله : اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ «٢» ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ على كفرهم.
اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، يريد به التساوي بين الأمرين فى عدم الإفادة ، كما نص عليه بقوله : إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، روى أن عبد اللّه بن عبد اللّه بن أبىّ - وكان من خيار المسلمين - سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فى مرض أبيه ، أن يستغفر له ، ففعل ، فنزلت : سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ «٣» ، وذلك لأنه - عليه الصلاة والسلام - فهم من السبعين العدد المخصوص ، وقال :
ولو علمت أني إن زدت على السبعين غفر له ، لزدت «٤» ، فبيّن له أن المراد به التكثير ، دون التحديد ، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة فى التكثر لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد ، فكأنه العدد بأسره قاله البيضاوي.
ذلِكَ أي : عدم قبول استغفارك بسبب أنهم كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أي : ليس لبخل منا ، ولا تقصير فى حقك ، بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها. وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ المتمردين فى كفرهم ، وهو كالدليل على الحكم السابق ، فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر ، والإرشاد إلى الحق ، والمنهمك فى كفره ، المطبوع عليه ، لا ينقلع ولا يهتدى ، والتنبيه على عذر الرسول فى استغفاره ، وهو عدم يأسه من إيمانهم ، ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة ، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله : ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ... الآية «٥». قاله البيضاوي.
الإشارة : من نصب الميزان على المؤمنين فيما يصدر منهم ، أو على الصالحين أو الأولياء فيما يظهر عليهم ، حتى يسخر منهم ، سخر اللّه منه ، وأبعده من رحمته ، فلا تنفع فيه شفاعة الشافعين ولا

استغفار المستغفرين. وفى

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (٢٦٠) عن قتادة.

(٢) من الآية ١٥ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٦ من سورة المنافقون.

(٤) أخرجه بسياق آخر ، البخاري فى (تفسير سورة التوبة). ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر) عن ابن عمر.

(٥) الآية ١١٣ من سورة التوبة.

بعض الأخبار : «من تتبع عورة أخيه المؤمن تتبع اللّه عورته حتى يفضحه ، ولو فى جوف بيته». ومن اشتغل بإذاية الأولياء ، ولم يتب ، مات على سوء الخاتمة ، وذلك جزاء من حارب اللّه - والعياذ بالله - .

ثم ذكر تخلف المنافقين عن الجهاد ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٨١ الى ٨٣]

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (٨٣)

قلت : (خلاف رسول اللّه) : منصوب على الظرفية ، أي : بعده ، يقال : أقام خلاف الحي ، أي : بعدهم ، وقيل :

مصدر خالف ، فيكون مفعولا لأجله ، أو حال.

يقول الحق جل جلاله : فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ أي : الذين خلفهم اللّه عن الغزو ، وأقعدهم عنه ، ولذلك عبّر بالمخلفين دون المتخلفين ، فرحوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ أي : بعده فى غزوة تبوك ، وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إيثارا للراحة والدّعة على طاعة اللّه ورسوله. وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج ، وأما المنافقون فآثروا الراحة وقعدوا ، وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قاله بعضهم لبعض ، أو قالوه للمؤمنين تثبيطا لهم. قال ابن جزى : قائل هذه

المقالة رجل من بنى سليم ، ممن صعب عليه السفر إلى تبوك فى الحر. هـ. قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ، وقد آثرتموها بهذه المخالفة ، لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ أن مآلهم إليها ، أو كيف هى؟ ... ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ، وهو إخبار عما يئول إليه حالهم فى الدنيا والآخرة ، أي : سيضحكون قليلا ، ويبكون كثيرا لما يرون من سوء العاقبة ، وأتى به على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتم واجب وقوعه. قال ابن جزى : أمر بمعنى الخبر ، فضحكهم القليل فى الدنيا مدة بقائهم فيها ،

(٢/٤١١)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤١٢

وبكاؤهم الكثير فى الآخرة ، أي : سيضحكون قليلا فى الدنيا ، ويبكون كثيرا فى الآخرة ، وقيل : هو بمعنى الأمر ، أي : يجب أن يكونوا يضحكون قليلا ويبكون كثيرا فى الدنيا ، لما وقعوا فيه. هـ.

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ أي : فإن ردك اللّه من الغزو إلى المدينة ، وفيها طائفة من المتخلفين – يعني منافقيهم – وكانوا اثنى عشر رجلا ممن تخلف من المنافقين ، وإنما لم يقل : إليهم لأن منهم من تاب من النفاق ، وندم على التخلف ، فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك ، فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا عقوبة لهم ، وفيها خزى وتوبيخ لهم ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، يعنى :

عن تبوك ، وهو تعليل لعدم خروجهم معه فى المستقبل ، فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ أي : المتخلفين ، أي : لعدم تأهلهم للجهاد كالنساء والصبيان.

الإشارة : من قلّ إيقانه ، وضعف نور إيمانه ، فرح ببقائه ، مع متابعة هواه وتيسير أمور دنياه ، وكره ارتكاب مشاق المجاهدة ، واقتحام حر المخالفة والمكابدة ، وثبط من رآه يروم تلك الوجهة ، ويريد أن يتأهب لدخول ميدان تلك الحضرة فسيندم قريبا ، حين يفوز الشجعان بحضرة الوصال ، ويتأهلون لمشاهدة الكبير المتعال ، ولا ينفع الندم وقد زلت القدم ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ «١». وباللّه التوفيق.

ثم نهى نبيه عن الصلاة على المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٨٤ الى ٨٥]

وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ (٨٤) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ

(٨٥)
قلت : (أبدا) : ظرف لمات ، أي : مات في مدة لا حياة بعدها فإن حياة الكافر للتعذيب ، وهي كلا حياة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم : وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ من المنافقين إذا مات على كفره ، بحيث (مات أبدا) أي : موتة لا حياة بعدها. نزلت في عبد اللّه بن أبيّ رأس المنافقين ، فإنه لما مرض ، دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فسأله أن يستغفر له ويكفنه في ثوبه الذي يلي جسده ، ويصلي عليه ، فلما مات أرسل قميصه ليكفن فيه ، وذهب ليصلي عليه ، فنزلت. وروى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لما تقدم للصلاة عليه جذبه جبريل بثوبه ، وتلى عليه الآية

---

(١) الآيات ١١ - ١٣ من سورة الواقعة. [.....]

(٤١٢/٢)

فانصرف ، ولم يصل عليه. وقيل : صلى عليه ثم نزلت. وفي البخاري : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لما تقدم للصلاة عليه جذبه عمر ، فقال : كيف تصلى عليه وقد نهاك ربك عن الصلاة على المنافقين؟ فقال : «إنّما خيّرنى ...»

الحديث «١».

قال البيضاوي : وإنما لم ينه عن التكفين في قميصه ، ونهى عن الصلاة عليه لأن الضنة بالقميص كانت مخلة بالكرم ، ولأنه كان مكافأة لإلباس العباس قميصه حين أسر ببدر «٢» ، والمراد من الصلاة : الدعاء للميت والاستغفار له ، وهو ممنوع في حق الكافر ، ولذلك رتب النهى على قوله : (مات أبدا) يعنى : الموت على الكفر ، فإن إحياء الكافرين للتعذيب ، دون التمتع ، فكأنه لم يحيى. هـ.

واستدل ابن عبد الحكم ، بهذه الآية ، على وجوب الصلاة على المؤمنين ، وقرر اللخميّ وجه الدليل منها بطريق النهى عن الشيء أمر بضده لأن ضد النهى عن الصلاة أمر بها. وأبطله المازري قائلا : وإنا هو من دليل الخطاب ، ومفهوم المخالفة ، وبيان عدم صحة كونها من باب النهى عن الشيء ، أنّ شرط ذلك اتحاد متعلق الأمر والنهى ، كقولك لزيد : لا تسكن ، ومعناه تحرك ، ومتعلقهما هنا مختلف ، فمتعلق النهى : المنافقون ، ومتعلق الأمر :

المؤمنون. وكذا رد كونها دالة مفهوم المخالفة. انظر الحاشية الفاسية.

ثم قال تعالى : وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ أي : ولا تقف على قبره للدفن ، أو الزيارة ، ثم علل النهى فقال :

إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا ، والحال أنهم فاسِقُونَ خارجون عن دائرة الإسلام.
ثم نهى عن الاغترار بمالهم فقال : وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ ، وقد تقدم ، وإنما كرره للتأكيد ، وهو حقيق به ، فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد ، والنفوس مجبولة على حبهما ، فكرر النهى عن الاغترار بهما ، ويجوز أن تكون هذه فى فريق آخر غير الأول. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الجنائز ، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين) ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر) وتمام الحديث : «إنما خيرنى اللّه فقال : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ .. الآية ، وسأزيد على سبعين» فصلى عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأنزل اللّه عز وجل : وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ.
(٢) أخرج البخاري فى (الجهاد ، باب الكسوة للأسارى) عن جابر بن عبد اللّه رضى اللّه عنهما - قال : (لما كان يوم بدر أتى بالعباس ، ولم يكن عليه ثوب ، فنظر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم له. قميصا ، فوجدوا قميص عبد اللّه بن أبىّ يقدر عليه ، فكساه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إياه ، فلذلك نزع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قميصه الذي ألبسه).

الإشارة : إذا حصل للعبد القرب من الحبيب قربت منه الأشياء كلها ، ورغبت فى خلّته الملائكة والجن والإنس والروحانيون ، فإذا مات صلت على جسده أجناد الأرض ، وعلى روحه أجناد السماء ، وفرحت بقدومه الملائكة والروحانيون ، وربما شفعه اللّه فى أهل عصره أجمعين ، وإذا حصل للعبد البعد من ربه بعدت عنه الأشياء كلها ، ورفضت جسده وروحه الجن والإنس والملائكة ، فلا يصل عليه أحد ، ولا يقف على قبره بشر ، فالحذر الحذر من كل ما يبعد من حضرة الحبيب من المخالفات والإصرار على الزلات ، فإنه بريد الكفر ، الذي هو البعد الكبير - والعياذ بالله - . والبدار البدار إلى ما يقرب من الحبيب ، من أنواع الطاعات ، والمسارعة إلى الخيرات ، وسائر الأخلاق الحسنة والشيم المستحسنة. وبالله التوفيق.
ثم أشار إلى تخلفهم عن الجهاد مع قدرتهم عليه ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : الآيات ٨٦ الى ٨٩]
وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ

الْقاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٨٧) لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ، أو بعضها ، فى شأن الجهاد قائلة : أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وحده ، وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ صلّى اللّه عليه وسلّم ، اسْتَأْذَنَكَ فى التخلف أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ أي : أولوا الغنى والسعة ، وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ الذين قعدوا لعذر ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ مع النساء ، جمع خالفة ، وقد يقال : الخالفة للذى لا خير فيه. وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ بالكفر والنفاق ، فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ما فى الجهاد وموافقة الرسول من السعادة ، وما فى التخلف عنه من الشقاوة.

لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أي : إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا ، فقد جاهد من هو خير منهم ، وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ منافع الدارين : النصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنة والكرامة فى الآخرة. وقيل : الحور ، لقوله : فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ «١» ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بالمطالب

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الرحمن.

(٤١٤/٢)

البهية والمراغب السنية. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ بيان لبعض الخيرات الأخروية.

الإشارة : إذا ظهر الدعاة إلى اللّه يشوقون الناس إلى حضرة اللّه ترى من صرف عنه عنان العناية ، ولم يضرب له مع السابقين بسهم الهداية ، يميل إلى التقاعد إلى وطن الراحة ، والميل إلى ما ألفه من سيىء العادة ، يستأذن أن يتخلف مع النساء والصبيان ، ويتنكب طريق الأقوياء من الشجعان ، فإن تخلف هذا مع عوام الضعفاء فقد تقدم لهذا الأمر من يقوم به من الأقوياء ، اختارهم اللّه لحضرته ، وقواهم على مكافحة مشاهدته ومحبته ، جاهدوا نفوسهم فى معرفة محبوبهم ، وبذلوا أموالهم ومهجهم فى الوصول إلى مطلوبهم ، (و أولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون).

ثم ذكر اعتذار الأعراب ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٩٠]

وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ

عَذابٌ أَلِيمٌ (٩٠)

قلت : (المعذّرون) : أصله : المعتذرون ، نقلت حركة التاء إلى العين ، وأدغمت التاء فى الذال. وقرأ يعقوب :

«المعذرون» : اسم مفعول ، من أعذر ، إذا بالغ فى العذر.

يقول الحق جل جلاله : وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ يعتذرون فى التخلف عن الغزو لِيُؤْذَنَ لَهُمْ فى القعود ، قيل : هم أسد وغطفان استأذنوا فى التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال. قيل : كاذبين ، وقيل : صادقين. وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل ، قالوا : إن غزونا معك غارت طيّىء على أهالينا ومواشينا ، وقيل :

نزلت فى قوم من غفار. وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ من غير هؤلاء ، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا فى تخلفهم ، فكذبوا فى دعواهم الإيمان بالله ورسوله ، يقال : كذبت فلانا - بالتخفيف ، أي : أخبرته بالكذب. ثم ذكر وعيدهم فقال : سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فى الدنيا بالقتل ، وفى الآخرة بالنار.

الإشارة : المتخلفون عن طريق الخصوص على ثلاثة أقسام :

قسم : أقروا بها ، وعرفوا صحتها ، ثم شحوا بأنفسهم وبخلوا بأموالهم ، فاعتذروا فى التخلف عنها بأعذار باطلة ، فهؤلاء لا حجة لهم عند اللّه ، وقوم أقبح منهم ، لم يلتفتوا إلى من جاء بها ولم يرفعوا بذلك رأسا. قال تعالى فى مثلهم : وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ.

وقسم : أقروا بها ، وطلبوا الدخول فيها ، لكن غلبتهم الأقدار ، وأظهروا غاية الاعتذار ، وتحقق عذرهم عند الواحد القهار ، وإليهم الإشارة بقوله تعالى :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٩١ الى ٩٣]

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٩٣)

قلت : جواب «إذا» يحتمل أن يكون (تولوا) ، وجملة (قلت) : حال من الكاف فى (أتوك) ، أي :

أتوك قائلا :

لا أجد .. إلخ ، ويحتمل أن يكون الجواب : «قلت» ، و(تولوا) استئناف لبيان حالهم حينئذ ، و(من الدمع) : للبيان ، وهى ، مع المجرور ، فى محل نصب على التمييز ، فهو أبلغ من تفيض دمعها لأنه يدل على أن العين صارت دمعا فياضا ، و(حزنا) : علة ، أو حال ، أو مصدر لفعل دل عليه ما قبله ، و(ألا يجدوا) : متعلق به ، أي : حزنا على ألّا يجدوا ما ينفقون ، و(إنما السبيل) راجع لقوله : (ما على المحسنين من سبيل).

يقول الحق جل جلاله : لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ كالهرمى ، وَلا عَلَى الْمَرْضى كالزّمنى ومن أضناه المرض ، وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ فى الغزو حَرَجٌ أي : لا حرج على هؤلاء فى التخلف عن الغزو ، إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ بالإيمان والطاعة فى السر والعلانية. قيل : نزلت فى بنى مقرن ، وهم ستة أخوة صحبوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقيل : فى عبد اللّه بن مغفل.

ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ أي : ليس عليهم جناح ، ولا إلى معاتبتهم سبيل ، وإنما وضع المحسنين موضع المضمر للدلالة على أنهم منخرطون فى سلك المحسنين ، غير معاتبين فى ذلك ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ بالمسيء فكيف بالمحسنين؟ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ معك إلى الغزو ، وهم البكاءون سبعة من الأنصار : معقل بن يسار ، وصخر بن خنساء ، وعبد اللّه بن كعب ، وسالم بن عمير ، وثعلبة بن غنمة «١» ،

---

(١) فى الأصل : ختمة.

وعبد اللّه بن مغفّل «١» ، وعلية بن زيد. أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقالوا : نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة ، والنعال المخصوفة ، نغزوا معك ، فقال : لا أجد ، فتولّوا وهم يبكون «٢». وقيل : هم بنو مقرّن ، وقيل : أبو موسى وأصحابه ، وعليه اقتصر البخاري.

قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ وليس عندى ما أحملكم عليه ، تَوَلَّوْا عنك وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ أي : يفيض دمعها حَزَناً على أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ فى غزوهم.

زاد البخاري : فلما رجع أبو موسى وأصحابه ، أتى - عليه الصلاة والسلام - بنهب إبل «٣» ، فدعاهم وحملهم عليها ، فقالوا : يا رسول اللّه ، إنّك حلفت ألا تحملنا ، فخفنا أن نكون أغفلناك يمينك ، فقال : «ما أنا حملتكم ، ولكن اللّه حملكم ، وإنّى واللّه ، ما أحلف على يمين فأرى خيرا

منها إلّا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير» «٤». أو كما قال عليه الصلاة والسلام.
قال تعالى : إِنَّمَا السَّبِيلُ أي : الحرج والمعاتبة عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ في القعود ، وَهُمْ أَغْنِياءُ واجدون للأهبة ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ كالنساء والصبيان ، وهو استئناف لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر ، وهو رضاهم بالدناءة ، والانتظام في جملة النساء والصبيان إيثارا للدعة والكسل ، وَطَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ بالكفر والغفلة حتى غفلوا عن وخامة العاقبة ، فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ما يؤول إليه حالهم من الندم والأسف.
الإشارة : كل من لم ينهض إلى صحبة الخصوص الذين جعلهم اللّه أدوية القلوب ، توجه العتاب إليه يوم القيامة ، إذ لا يخلو من لم يصحبهم من عيب أو نقص أو خاطر سوء ، حتى ربما يلقى اللّه بقلب سقيم.
قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى اللّه عنه : من لم يتغلغل في علمنا هذا ، مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر. وقال الغزالي : دواء القلوب واجب عينا على كل مسلم ، فكل من قصر في ذلك عوقب يوم القيامة ، إلا من حبسه عذر صحيح : من مرض مزمن ، أو كبر سن ، أو فقر مدلق. قال تعالى : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) ، فإن أحبوا أولياء اللّه ، وصدقوهم وعظموهم ، ودلّوا الناس على صحبتهم ، فهؤلاء محسنون ، (ما على المحسنين من سبيل واللّه غفور) لضعفهم ، (رحيم) بهم.

---

(١) في الأصول : معقل.
(٢) أخرجه الطبري في التفسير (١٠/ ١٤٦) وذكره الواحدي في الأسباب (٢٦٢) عن محمد بن كعب القرظي.
(٣) نهب أي : غنيمة.
(٤) أخرجه البخاري في (المغازي ، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن).

وقال الورتجبي : (إذا نصحوا لله ورسوله) أي : إذا عرّفوا عبادّ الله طريق الله ، والأسوة بسنة رسول اللّه. هـ. وقد قال الحواريون : يا روح اللّه ، ما النصيحة لله؟ قال : تقديم حق اللّه على حق الناس. هـ. ولا حرج أيضا على من لم يجد ما ينفق على الأشياخ من الأموال ، فإن من أعطى نفسه كفته عن إعطاء المال. قال تعالى : (و لا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) إلى الحضرة (قلت لا أجد ما أحملكم

عليه) فإن بذل الأموال مع المهج أنهض من أحدهما ، (تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألّا يجدوا ما ينفقون) ليتحببوا به في قلوب المشايخ. قال بعض المشايخ :

أردنا أن نجعل من يسوق مع من لا يسوق على حد سواء ، فلم يعتدلوا. هـ.

وقوله تعالى : (حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) ، ليس حزنهم على فوات الدنيا ، وإنما حزنهم على تخلفهم عن رسول اللّه ، وعن صحبة أهل الكمال. وقال القشيري : شقّ عليهم أن يكون على قلب الرسول - عليه الصلاة والسلام - منهم ، أو بسببهم ، شغل ، فتمنّوا أن لو أزيحت علتهم ، لا ميلا إلى الدنيا ولكن لئلا يعود إلى قلب الرسول من فعلهم كراهة ، ولقد قيل :

من عفّ خفّ على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مملول. هـ»

ولما رجع - عليه الصلاة والسلام - من غزوة تبوك ، جاء المنافقون يعتذرون بالأعذار الكاذبة ، ففضحهم اللّه بقوله :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٩٤ الى ٩٦]

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (٩٦)

---

(١) في القشيري : (ممجج مملول) قلت : والبيت ورد غير منسوب في عيون الأخبار (٣/ ١٩١) وورد : (أنشد ثعلب) في أدب الدنيا والدين (٣٣٨).

قلت : مفعول (نبأ) الثاني : محذوف ، أي : نبأنا جملة من أخباركم ، و(جزاء) : مصدر لمحذوف ، أي : يجازون جزاء ، أو علة ، أي : للجزاء بما كسبوا.

يقول الحق جل جلاله : يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ يعنى : المنافقين ، إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ من تبوك ، قُلْ لهم : لا تَعْتَذِرُوا بالمعاذير الكاذبة لأنه لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ أي : لن نصدقكم فيها لأنه قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ أعلمنا بالوحى ، على لسان نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ببعض أخباركم ، وهو ما في ضمائركم من الشر والفساد.

وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ : هل تتوبون من الكفر ، أم تثبتون عليه؟ وكأنه استتابة وإمهال للتوبة ، ثُمَّ

تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وهو اللّه ، والأصل : ثم تردون إليه فوضع هذا الوصف موضع الضمير للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلانيتهم ، لا يعزب عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم ، فَيُنَبِّئُكُمْ أي : يخبركم بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بالتوبيخ والعقاب عليه.

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ من غزوكم لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ أي : عن عتابهم ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ لا توبخوهم إِنَّهُمْ رِجْسٌ لخبث قلوبهم لا ينفع فيهم التأنيب ، فإن المقصود من العتاب : التطهير بالحمل على الإنابة ، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير ، فهو علة للإعراض وترك المعاتبة ، وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ أي : منقلبهم إليها ، والمعنى : أن النار كفتهم عتابا ، فلا تتكلفوا عتابهم ، وذلك جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ من الكفر والنفاق.

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ بحلفهم ، فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم من الستر والإرفاق ، وإشراكهم فى الغنائم ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ بذلك فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ أي : فإن رضاكم لا يستلزم رضى اللّه ، ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا فى سخط اللّه وبصدد عقابه ، أو إن أمكنهم أن يلبسوا عليكم لا يمكنهم أن يلبسوا على اللّه فإنه يهتك سترهم وينزل الهوان بهم. والمقصود من الآية : النهى عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم ، بعد الأمر بالإعراض عنهم وعدم الالتفات نحوهم. قاله البيضاوي.

الإشارة : قد يظهر لهذه الطائفة منافقون ، إذا ظهر على أهل اللّه عز أو نصر جاءوا يعتذرون عن تخلفهم عنه ، ويحلفون أنهم على محبتهم فلا ينبغى الاغترار بشأنهم ، ولا مواجهتهم بالعتاب بل الواجب الإعراض عنهم والغيبة فى اللّه عنهم ، فسيرى اللّه عملهم ورسوله ، ثم يردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤهم بما كانوا يعملون.

(٤١٩/٢)

ثم ذكر منافقى البادية ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٩٧ الى ٩٩]

الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

يقول الحق جل جلاله : الْأَعْرابُ ، وهم سكان البادية ، قال ابن عزيز : يقال : رجل أعرابى ، إذا كان

بدويا. وإن لم يكن من العرب ، ورجل عربى ، إذا كان منسوبا إلى العرب ، وإن لم يكن بدويا. أهل البوادي من المنافقين هم أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً من أهل الحاضرة ، وذلك لتوحشهم وقساوتهم ، وعدم مخالطتهم لأهل العلم ، وقلة استماعهم للكتاب ، وَأَجْدَرُ أي : أحق أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ من الشرائع وفرائضها وسننها ، لبعدهم عن مجالس العلم ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ يعلم كل واحد من أهل الوبر والمدر ، حكيم فيما يدبر من إسكان البادية ، أو الحاضرة ، ويختار لكل واحد بحكمته البالغة ما يليق به ، وسياتى بقية الكلام على سكنى الحاضرة أو البادية فى الإشارة ، إن شاء اللّه.

وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ أي : يعد ما يُنْفِقُ من الزكاة وغيرها فى سبيل اللّه ، مَغْرَماً أي : غرامة وخسرانا إذ لا يحتسبه عند اللّه ، ولا يرجو عليه ثوابا ، وإنما ينفقه لرياء أو تقية ، فيثقل عليه ثقل المغرم الذي ليس بحق ، وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ أي : دوائر الزمان ونوبه ، أو ينتظر بكم مصائب الزمان ، لينقلب الأمر عليكم فيتخلص من الإنفاق الذي كلف به.

قال تعالى : عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ ، وهو دعاء عليهم بنحو ما يتربصونه - أي : عليهم يدور من الدهر ما يسوءهم - أو جعل اللّه دائرة السوء نازلة بهم. قال ابن عطية : كل ما كان بلفظ دعاء من جهة اللّه - عز وجل - فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء لأن اللّه تعالى لا يدعو على مخلوقاته وهى فى قبضته ، ومن هذا قوله : وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ «١» ، وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ «٢» ، وهى كلها أحكام تامة تضمنها خبره تعالى. هـ. أو إخبار عن

---

(١) الآية الأولى من سورة الهمزة.

(٢) الآية الأولى من سورة المطففين.

وقوع ما يتربصونه عليهم. قال البيضاوي : الدوائر فى الأصل : مصدر أضيف إليه السوء للمبالغة ، كقولك : رجل صدق. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : «السّوء» هنا ، وفى الفتح «١» بضم السين. هـ.

وَاللَّهُ سَمِيعٌ لما يقولونه عند الإنفاق ، عَلِيمٌ بما يضمرونه من الرياء وغيره.

ثم ذكر ضدهم ، فقال : وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ أي : يعد ما ينفقه من الزكاة وغيرها قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ تقربهم إليه زلفى لإخلاصهم فيها. وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أي :

ويتخذ ما ينفق سبب صلوات الرسول لأنه - عليه الصلاة والسلام - كان يدعو للمتصدقين ، ويقول : اللهم صلّ على فلان ، ويستغفر لهم. ولذلك سن للمصدّق عليه أن يدعو للمتصدق عند أخذ صدقته ،

لكن ليس له أن يصلى عليه ، كما كان يفعل صلّى اللّه عليه وسلّم لأن ذلك منصبه ، فله أن يتفضل به على غيره.

أَلا إِنَّها أي : نفقاتهم ، قُرْبَةٌ لَهُمْ تقربهم إلى حضرة ربهم ، وهذا شهادة من اللّه لصحة معتقدهم وكمال إخلاصهم ، سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ، وعد من اللّه لهم بإحاطة الرحمة بهم ، أو سيدخلهم فى جنته التي هى محل رحمته وكرامته ، والسين لتحقق وقوعه. إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يغفر ما فرط من الخلل ، ويتفضل برحمته على ما نقص عن درجات الكمال. قيل : إن الآية الأولى نزلت فى أسد وغطفان وبنى تميم فهم الذين يتخذون ما ينفقون مغرما. والثانية نزلت فى عبد اللّه ذى البجادين وقومه فهم الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند اللّه وصلوات الرسول. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد ورد الترغيب فى سكنى المدن لأنها محل العلم وسماع الوعظ ، وفيها من يستعان بهم على الدين ، وورد الترغيب أيضا فى سكنى الجبال والفرار بالدين من الفتن ، وخصوصا فى آخر الزمان. ولهذا اختار كثير من الصحابة والتابعين سكنى البوادي كأبى ذر ، وسلمة بن الأكوع ، وغيرهما - رضى اللّه عنهم - .

والتحرير فى المسألة : أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والمقاصد ، فمن كان مراده تحقيق الشريعة ، وتحرير مسائل العلم الظاهر ، والقيام بوظائف الدين ، ولم يجد فى البادية من يعينه على ذلك فسكنى المدن أفضل له ، ومن كان مراده تصفية قلبه وتحقيق علم الطريقة ، وتهيئة القلب لإشراق أنوار الحقيقة ، فالاعتزال فى البوادي ، وقرون الجبال ، أوفق له ، إن وجد من يستعين بهم على ذلك لأن شواغل المدن وعوائدها كثيرة ، وقد كثرت فيها الحظوظ والأهوية فلا تجد فيها إلا من هو مفتون بدنيا أو مبتلى بهوى ، بخلاف أهل البادية ، هذه العوائد فيهم قليلة ، وجلّ أهلها على الفطرة.

وأيضا : هم مفتقرون إلى من يسوسهم بالعلم أكثر من غيرهم ، فمن تصدى لتعليمهم وتذكيرهم لا يعلم قدره إلا اللّه. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه : [أرحم الناس بالناس : من يرحم من لا يرحم نفسه]. أي : من يرحم

---

(١) فى قوله تعالى : وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ .. الآية ٦ من سورة الفتح.

الجاهل الذي لا يرحم نفسه بأن يعلمه ما ينفع به نفسه ويرحمها. وقال الغزالي فى الإحياء : يجب على

العلماء أن يبعثوا من يعلم الناس فى البوادي فإن أخلوا بذلك الأمر عاقبهم اللّه ، فمن تعرض لتعليمهم قام بهذا الواجب. واللّه تعالى أعلم. وأما ما يذكر حديثا : «أمتى فى المدن ، وقليل فى البادية» ، فلم يصح ، بل قال - عليه الصلاة والسلام - للرجل الذي أراد أن ينتقل إلى المدينة : «اعبد اللّه حيثما كنت ، فإن اللّه لن يترك من أعمالك شيئا». وكذلك قوله :

إذا أراد اللّه بعبد خيرا نقله من البادية إلى الحاضرة لم أقف عليه حديثا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر فضل السابقين إلى الإسلام ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠٠]

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)

قلت : (السابقون) : مبتدأ ، (و الذين اتبعوهم) : عطف عليه ، وجملة (رضى اللّه عنهم) : خبر.

يقول الحق جل جلاله : وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ إلى الإسلام مِنَ الْمُهاجِرِينَ وهم الذين صلوا إلى القبلتين ، أو الذين شهدوا بدرا ، أو الذين أسلموا قبل الهجرة ، وَمن الْأَنْصارِ وهم أهل بيعة العقبة الأولى ، وكانوا سبعة ، أو أهل العقبة الثانية ، وكانوا سبعين ، أو الذين أسلموا حين قدم عليهم مصعب بن عمير.

وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ اللاحقين بالسابقين من الفريقين ، أو من الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ، وَرَضُوا عَنْهُ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ وقرأ ابن كثير : «من تحتها» ، كما هى فى مصحف أهل مكة. خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أي : الفلاح الدائم الكبير.

الإشارة : لكل زمان سابقون ، قد شمروا عن ساق الجد والاجتهاد ، ورفضوا كل ما يقطعهم عن محبوبهم من العشائر والأولاد ، قد خرقوا عوائد أنفسهم ، فأبدلوا العز بالذل ، والجاه بالخمول ، والغنى بالفقر ، والرفعة بالتواضع ، والرغبة بالزهد ، وشغل الظاهر بالتفرغ ليتفرغ بذلك الباطن. وسافروا فى طلب محبوبهم ، وصحبوا المشايخ ، وخدموا الإخوان ، حتى ارتفعت عنهم الحجب والأستار ، وتمتعوا بمشاهدة الكريم الغفار فتهيئوا لتذكير العباد ، وحيت بهم الأقطار والبلاد. وفى مثلهم يقول الشاعر :

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها كأنّكم فى بقاع الأرض أمطار

وتشتهي العين فيكم منظرا حسنا كأنّكم فى عيون الناس أقمار.

(فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون).

ثم ذكر بقية من المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠١]

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ (١٠١)

يقول الحق جل جلاله : وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ ، يا أهل المدينة ، مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ ساكنون حولكم ، وهم : جهينة ، ومزينة ، وأسلم ، وغفار ، وأشجع ، كانوا نازلين حول المدينة ، أما أسلم وغفار فتابوا ، ودعا لهم - عليه الصلاة والسلام - فقال : «أسلم سالمها اللّه ، وغفار غفر اللّه لها» وأما الباقي فأسلم بعضهم.

قال تعالى : وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قوم مَرَدُوا أي : استمروا عَلَى النِّفاقِ ، واجترءوا عليه ، وتمرنوا وتمهروا فيه ، لا تَعْلَمُهُمْ أي : لا تعرفهم يا محمد بأعيانهم ، وهو بيان لمهارتهم وتنوقهم فى تحرى مواقع التهم إلى حد قد خفى عليك حالهم ، مع كمال فطنتك وحذق فراستك ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ، ونطّلع على أسرارهم ، إن قدروا أن يلبسوا عليك فلا يقدرون أن يلبسوا علينا ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ بالفضيحة والقتل ، أو بأحدهما وعذاب القبر ، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان فى الحرب ، أو بإقامة الحدود وعذاب القبر ، أو بتسليط الحمى عليهم مرتين فى السنة ، ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ بعد الموت ، وهو عذاب النار.

الإشارة : قد جعل اللّه - سبحانه - بحكمته وقدرته ، فى كلّ عصر وأوان بحرين : بحرا من النور وبحرا من الظلمة ، من عصر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلى قيام الساعة ، فلا بد فى كل عصر من نور وظلمة ، وإيمان وكفران ، ونفاق وإخلاص ، وصفاء وخوض ، فأهل النور نورهم فى الزيادة إلى قرب قيام الساعة ، وأهل الظلمة كذلك ، إذ لا تعرف الأشياء إلا بأضدادها ، ولا يظهر شرف النور إلا بوجود الظلمة ، ولا شرف الصفاء إلا بوجود الخوض ، ولا فضل العلم إلا بوجود الجهل ، وهكذا جعل اللّه من كل زوجين اثنين ، ليقع الفرار إلى الواحد الحق ، فمن رام انفراد أحدهما فى الوجود فهو جاهل بحكمة الملك الودود. واللّه تعالى أعلم.

(٤٢٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٢٤

ولما ذكر من كمل صفاؤه من السابقين ، ومن كمل خوضه من المنافقين ، ذكر من جمع بين الصفاء والخوض ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠٢]

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

يقول الحق جل جلاله : وَقوم آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ وهو التخلف عن الجهاد ، ولم يعتذروا عن تخلفهم بالأعذار الكاذبة ، وهم طائفة من المتخلفين لما بلغهم ما نزل فى المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد ، وقالوا : لا نحل أنفسنا حتى يحلنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلما قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم دخل المسجد ، فصلى فيه ركعتين ، على عادته ، فرآهم وسأل عنهم ، فذكر له سببهم ، فنزلت الآية فأطلقهم «١».

خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً بعمل سيىء وَآخَرَ سَيِّئاً بعمل صالح ، خلطوا العمل الصالح الذي هو إظهار الندم والاعتراف بالذنب ، بآخر سيىء وهو التخلف وموافقة أهل النفاق ، أو خلطوا عملا صالحا ، وهو ما سبق لهم من الجهاد مع الرسول ، وغيره من الأعمال ، بآخر سيىء ، وهو تخلفهم عن تبوك. عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أي : يقبل توبتهم المدلول عليها بقوله : اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ، والرجاء فى حقه تعالى واجب. إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليهم.

قال بعضهم : ما فى القرآن آية أرجى لهذه الأمة من هذه الآية. وقال القشيري : قوله : وَآخَرَ سَيِّئاً بعد قوله : عَمَلًا صالِحاً ، دليل على أن الزّلّة لا تحبط ثواب الطاعة إذ لو أحبطته لم يكن العمل صالحا ، وهو كذلك.

انتهى. قلت : وما ذكره من عدم الإحباط هو مذهب أهل السنة ، خلافا للمعتزلة ، ولا يعارضه حديث مسلم : «أنّ رجلا قال : واللّه لا يغفر اللّه لفلان ، وإنّ اللّه قال : من الذي يتألّى «٢» علىّ ألّا أغفر لفلان ، وإنّى غفرت له وأحبطت عملك» «٣» أو كما قال لأن هذا الرجل كان من بنى إسرائيل ، ولعل شرعهم مخالف لشرعنا لأن هذه الأمة المحمدية قد وضع اللّه عنها أثقال بنى إسرائيل ، فهى ملة سمحة ، ولعل هذا الرجل أيضا كان قانطا من رحمة اللّه ومكذبا بها ، فهو كافر. انظر الحاشية الفاسية.

الإشارة : الناس ثلاثة : سابقون ومخلطون ومنهمكون. فالسابقون فائزون ، والمخلطون راجون ، والمنهمكون هالكون ، إلا من تاب وعمل صالحا ، فالسابقون هم الذين غلب إحسانهم على إساءتهم ، وصفاؤهم على كدرهم ، إن هفوا رجعوا قريبا ، فقد تمر عليهم السنين الطويلة ولا يكتب عليهم ملك الشمال شيئا وذلك ليقظتهم ، لا لعصمتهم ،

---

(١) أخرجه البيهقي فى الدلائل (باب حديث أبى لبابة وأصحابه ٥/ ٢٧٢) وابن جرير فى التفسير (١١/ ١٠) عن ابن عباس - رضى اللّه عنه.

(٢) يتألى : يحلف. والألية : اليمين .. انظر النهاية (ألى ١/ ٦٢). [.....]

(٣) أخرجه مسلم فى (البر والصلة ، باب النهى عن تقنيط الإنسان من رحمة اللّه) من حديث جندب - رضى اللّه عنه.

(٢/٤٢٤)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٢٥

والمخلطون هم الذين يكثر سقوطهم ورجوعهم ، عسى اللّه أن يتوب عليهم. والمنهمكون هم المصرون على الفواحش ، فإن سبقت لهم عناية رجعوا ، وإن لم تسبق لهم عناية فهم معرّضون لنقمة اللّه وحلمه. واللّه تعالى أعلم.

ولما تاب اللّه على المتخلفين ، وأطلقهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من الوثاق ، قالوا : يا رسول اللّه ، هذه أموالنا التي خلفتنا ، خذها فتصدّق بها وطهّرنا ، فقال عليه الصلاة السلام : «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا». فأنزل اللّه فى ذلك :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٠٣ الى ١٠٤]

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

يقول الحق جل جلاله ، لنبيه - عليه الصلاة السلام : خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ التي عرضوها عليك ، صَدَقَةً ، وهو الثلث ، فأخذ عليه الصلاة السلام من أموالهم الثلث ، وترك لهم الثلثين ، أو : خذ من أموالهم صدقة ، وهى الزكاة المفروضة ، والضمير لجميع المسلمين. من صفة تلك الصدقة : تُطَهِّرُهُمْ أنت يا محمد بها من الذنوب ، أو حب المال المؤدى بهم إلى البخل ، الذي هو أقبح الذنوب. وقرىء بالجزم جواب الأمر.

وَتُزَكِّيهِمْ أي : تنمى بها حسناتهم ، أو ترفعهم بِها إلى درجات المخلصين ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ أي : ترحم عليهم ، وادع لهم بالرحمة ، فكان عليه الصلاة السلام يقول لمن أتاه بصدقته : «اللهمّ صلّ على آل فلان».

فأتى أبو أوفى بصدقته فقال : «اللّهمّ صلّ على آل أبى أوفى» «١».

إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ تسكن إليها نفوسهم ، وتطمئن بها قلوبهم ، لتحققهم بقبول دعائه عليه الصلاة السلام. قال القشيري : انتعاشهم بهمّتك معهم أتم من استقلالهم بأموالهم. هـ. وجمع الصلوات لتعدد الموعد لهم ، وقرأ الأخوان وحفص بالتوحيد. وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أي : سميع باعترافهم عليم بندامتهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ إذا صحت ، والضمير إما للتوب عليهم ، والمراد أن يمكن

فى قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقتهم ، أو لغيرهم ، والمراد به التحضيض على التوبة ، وَأنه هو الذي يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ يقبلها قبول من يأخذ شيئا ليؤدى بدله ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ أي : من شأنه قبول توبة التائبين ، والمتفضل عليهم بجوده وإحسانه.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الزكاة ، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة) ومسلم فى (الزكاة ، باب الدعاء لمن أتى بصدقته) من حديث عبد اللّه بن أبى أوفى.

(٤٢٥/٢)

الإشارة : أخذ المشايخ من أموال الفقراء سبب فى غناهم ، واتساع حالهم حسا ومعنى ، وقد قالوا : إذا أراد اللّه أن يغنى فقيرا سلط عليه وليا يأخذ ماله ، أو أمره شيخه بإعطاء ماله ، فإن ذلك عنوان على غناه. وقد ذكر ذلك شيخ أشياخنا سيدى على الجمل العرانى فى كتابه. وقد رأيت فى مناقب شرفاء وزان : أن الشيخ مولاى التهامي أرسل إلى أخيه مولاى الطيب ، وكان من خواص تلامذته ، أن يدفع إليه جميع ماله ليصنع به كسوة للمرابطين ، فأرسل له جميع ما يملك ، حتى كسوة الدار وأثاث البيت ، فكان ذلك سببا فى فيضان ماله ، فلا تجد مدينة ولا قبيلة إلا وفيها ملك من أملاك مولاى الطيب ، حتى إلى بلاد الجزائر وما والاها ، وذلك بسبب تجارة شيخه له.

واللّه تعالى أعلم.

ثم هدد أهل التخليط ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠٥]

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

يقول الحق جل جلاله : وَقُلِ اعْمَلُوا ما شئتم من خير أو شر ، فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ فإنه لا يخفى عليه خيرا كان أو شرا ، وَسيرى ذلك أيضا رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، فيظهر لهم ما يبدو منكم ، فإن الطول يفضح صاحبه. وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ بالموت ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فيخبركم بما عملتم بالمجازاة عليه.

الإشارة : كل من ظهر بدعوى أو تعرض لمقام من المقامات يقال له : (و قل اعملوا فسيرى اللّه عملكم ورسوله والمؤمنون) ، فإن كان أمره مبنيا على أساس الإخلاص والتقوى ثبت وانتهض ، وشعشع نوره ، وإن كان مبنيا على غير أساس ، افتضح وكسف نوره ، وسيرد الجميع إلى عالم الغيب والشهادة ،

فيجازى كلّا بعمله.

ثم نزل فى شأن الثلاثة الذين خلّفوا قوله تعالى :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠٦]

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

قلت : الإرجاء هو التأخر ، يقال : أرجاه - بالهمز وتركه - : أخره.

يقول الحق جل جلاله : وَآخَرُونَ من المتخلفين ، تخلفوا من غير عذر ، ولم يعتذروا بشيء ، مُرْجَوْنَ أي : مؤخرون لِأَمْرِ اللَّهِ فى شأنهم إِمَّا أن يُعَذِّبُهُمْ على تخلفهم عن الجهاد مع

(٤٢٦/٢)

رسوله ، وَإِمَّا أن يَتُوبُ عَلَيْهِمْ حيث تابوا وندموا ، والترديد باعتبار العباد ، وفيه دليل على أن كلا الأمرين بإرادته تعالى ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بأحوالهم ، حَكِيمٌ فيما فعل بهم.

والمراد بهؤلاء الثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الناس ألا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ، فلما رأوا ذلك أخلصوا نياتهم ، وفوضوا أمرهم إلي اللّه ، فرحمهم «١» ، وسيأتى تمام قصتهم وتوبة اللّه عليهم بعد ، إن شاء اللّه.

الإشارة : وآخرون مؤخرون عن صحبة المشايخ العارفين ، حتى ماتوا مفروقين ، إما أن يعذبهم على ما أصروا من المساويء والذنوب ، وإما أن يتوب عليهم بفضله وكرمه ، إنه عليم لا يخفى عليه ما أسروا ، حكيم فيما قضى عليهم من أمر الحجاب بعدله وقضائه.

ثم ذكر أهل مسجد الضرار ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٠٧ الى ١١٠]

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ الْحُسْنى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

قلت : قرأ نافع وابن عامر : بغير واو «٢» مبتدأ حذف خبره ، أي : معذبون ، أو فى : (لا تقم فيه أبدا) ، أو فى قوله :

(لا يزال) ، أو صفة لقوله : (و آخرون) ، على من يقول : إن «المرجون» غير الثلاثة المخلفين ، بل في المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنيانهم مسجد الضرار. ومن قرأ بالواو فعطف على قوله : (آخرون) ، أو مبتدأ حذف

---

(١) أخرج قصتهم البخاري في (المغازي ، باب حديث كعب بن مالك) ومسلم في (التوبة ، باب حديث توبة كعب بن مالك) من حديث عبد اللّه بن كعب عن أبيه.
(٢) في قوله تعالى : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا ....

(٤٢٧/٢)

خبره ، أي : وممن وصفنا : الذين ، أو منصوب على الذم ، و(ضرارا) وما بعده : علة ، وأصل (هار) : هائر ، فأخرت الهمزة ، ثم قلبت ياء ، ثم حذفت لالتقاء الساكنين.
يقول الحق جل جلاله : وَمنهم الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً أي : لأجل المضارة بالمؤمنين وللكفر الذي أسروه ، وهو تعظيم أبي عامر الكافر ، وَتَفْرِيقاً بَيْنَ جماعة الْمُؤْمِنِينَ الذين كانوا يصلون في مسجد قباء.
روى أن بني عمرو بن عوف لمّا بنوا مسجد قباء سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يأتيهم فيصلي فيه ، فأتاهم فصلّى فيه ، فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف ، فبنوا مسجدا على قصد أن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب ، إذا قدم من الشام ، فلما أتموه أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقالوا : إنا قد بنينا مسجدا لذى الحاجة والعلة والليلة المطيرة ، فصل لنا فيه حتى نتخذه مصلىّ ، وكان ذلك قبل خروجه لتبوك ، فقال لهم : «إني على جناح سفر ، وإذا قدمنا ، إن شاء اللّه ، صلّينا فيه». فلما قدم أتوه ، فأخذ ثوبه ليقوم معهم ، فنزلت الآية ، فدعا مالك بن الدّخشم ، ومعن بن عدى ، وعامر بن السّكن ، فقال : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه ففعلوا ، واتخذوا مكانه كناسة «١».
ثم أشار إلى قصدهم الفاسد ، فقال : وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أي : واتخذوه انتظارا ليؤمهم فيه من حارب اللّه ورسوله ، يعنى : أبا عامر الراهب ، فإنه قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يوم أحد : لا أجد قوما يقاتلونك إلّا قاتلتك معهم ، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ، فانهزم مع هوازن ، ثم هرب إلى الشام ليأتي من قيصر بجنود يحارب بهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فمات بقنّسرين «٢» طريدا وحيدا. وكان أهل المدينة يسمونه قبل الهجرة : الراهب ، فسماه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم

الفاسق.

وقوله : مِنْ قَبْلُ : متعلق بحارب ، أي : حارب من قبل هذا الوقت ، أو باتخذوا ، أي : اتخذوا مسجدا من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف لأنه قبيل غزوة تبوك. وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى أي : ما أردنا ببنيانه إلا الخصلة الحسنى ، وهى الصلاة والذكر والتوسعة على المسلمين. وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فى حلفهم.

ثم نهاه عن الصلاة فيه فقال : لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً للصلاة إسعافا لهم ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ من أيام وجوده ، أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ أي : أولى بأن تصلى فيه ، وهو مسجد قباء ، أسسه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فى أيام مقامه بقباء ، حين هاجر من مكة ، من الاثنين إلى الجمعة ، وهذا أوفق للقصة. وقيل : مسجد الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم لقول أبى سعيد : سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عنه؟ فقال : «مسجدكم هذا مسجد المدينة» «٣».

---

(١) انظر تفسير البغوي ٤/ ٩٣ - ٩٤ وأسباب النزول للواحدى (٢٦٤).

(٢) قنسرين : مدينة قريبة من حلب من جهة حمص.

(٣) أخرجه مسلم فى (الحج ، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالمدينة).

فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، كانوا يستنجون بالماء ، ويجمعون بين الماء والحجر ، أو يتطهرون من المعاصي والخصال المذمومة ، طلبا لمرضات اللّه تعالى ، أو من الجنابة ، فلا ينامون عليها ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ يرضى عنهم ، ويدنيهم من جنابه إدناء المحب لحبيبه.

وقيل : لما نزلت مشى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومعه المهاجرون ، حتى وقف على باب مسجد قباء ، فإذا الأنصار جلوس ، فقال : «أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا ، فأعادها ، فقال عمر : إنهم مؤمنون وأنا معهم ، فقال عليه الصلاة والسلام :

أترضون بالقضاء؟ فقالوا : نعم ، قال : أتصبرون على البلاء؟ قالوا : نعم ، قال : أتشكرون فى الرّخاء؟ قالوا : نعم ، فقال عليه الصلاة والسلام : مؤمنون وربّ الكعبة. فجلس ، ثمّ قال : يا معشر الأنصار ، إنّ اللّه عزّ وجلّ قد أثنى عليكم ، فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟ فقالوا : يا رسول اللّه ، نتبع الغائط الأحجار الثّلاثة ، ثم نتبع الأحجار الماء. فقال : رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا» «١».

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ بأن قصد به وجه اللّه ، وابتغاء مرضاته ، فحسنت النية فى أوله ، خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى قصد الرياء والمنافسة ، فكأنه بنى على شَفا أي : طرف جُرُفٍ : حفرة هارٍ أي : واه ضعيف ، أشرف على السقوط ، أو ساقط ، فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ أي :
طاح فى جهنم ، وهذا ترشيح للمجاز ، فإنه لما شبهه بالجرف وصفه بالانهيار ، الذي هو من شأن الجرف ، وقيل : إن ذلك حقيقة ، وإنه سقط فى جهنم ، وإنه لم يزل يظهر الدخان فى موضعه إلى قيام الساعة.

والاستفهام للتقرير ، والذي أسس على التقوى والرضوان : هو مسجد قباء ، أو المدينة ، على ما تقدم ، والذي أسس على شفا جرف هار هو مسجد الضرار ، وتأسيس البناء على التقوى هو تحسين النية فيه ، وقصد وجه اللّه ، واظهار شرعه ، والتأسيس على شفا جرف هار هو فساد النية وقصد الرياء ، والتفريق بين المؤمنين ، وذلك على وجه الاستعارة والتشبيه البالغ. قاله ابن جزى. وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ إلى ما فيه صلاح ونجاة.

لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ أي : مبنيهم ، مصدر بمعنى المفعول ، الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً أي : شكا ونفاقا فِي قُلُوبِهِمْ ، والمعنى : أن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم وتزايد نفاقهم ، فإنه حملهم على ذلك ، ثم لمّا هدمه الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم رسخ ذلك فى قلوبهم وازداد ، بحيث لا يزول رسمه من قلوبهم ، إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ أي : تتقطع قُلُوبِهِمْ

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : لم أجده هكذا ، وكأنه ملفق من حديثين ، فإن صدر الحديث أخرجه الطبراني فى الأوسط من حديث ابن عباس إلى قوله (و رب الكعبة) ، وروى بقيته ابن مردويه. انظر الفتح السماوي (٢/ ٧٠٤).

بالموت ، بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك ، أو لا يزال بنيانهم ريبة ، أي : شكا فى الإسلام بسبب بنيانه ، لاعتقادهم صواب فعلهم ، أو غيظا بسبب هدمه ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بنياتهم ، حَكِيمٌ فيما أمر من هدم بنيانهم.

الإشارة : من أراد أن يؤسس بنيان أعماله وأحواله على التقوى والرضوان ، فليؤسسه على الإخلاص والنية الحسنة ، ومتابعة السنة المحمدية ، فإنها لا تنهدم أبدا ، ومن أراد أن يؤسسها على شفا جرف هار فليؤسسها على الرياء والسمعة ، وقصد الكرامات وطلب الأعواض ، فإنها تنهدم سريعا ولا تدوم ،

فما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير اللّه انقطع وانفصل. وبالله التوفيق.

ثم ذكر كرامة أهل الإخلاص ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١١١]

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)

قلت : جملة (يقاتلون) : حال من (المؤمنين) بيانا للشراء ، أو استئنافا لبيان ما لأجله الشراء ، وقيل : «يقاتلون» : بمعنى الأمر ، و(وعدا) : مصدر لما دل عليه الشراء ، فإنه فى معنى الوعد ، أي : وعدهم وعدا حقا لا خلف فيه.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ أي : عوضهم فى بذل مهجهم وأموالهم فى سبيله الجنة ونعيمها ، ومن جملته : النظر إلى وجهه الكريم. قال بعضهم : فانظر ..

ما أكرمه سبحانه ، فإنّ أنفسنا هو خلقها ، وأموالنا هو رزقها ، ثم وهبها لنا ، ثم اشتراها منا بهذا الثمن الغالي ، فإنها لصفقة رابحة. هـ.

ثم بيّن وجه الشراء فقال : يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعلاء كلمة اللّه ، فَيَقْتُلُونَ الكفار ، وَيُقْتَلُونَ شهداء فى سبيل اللّه. وقرأ الأخوان بتقديم المبنى للمفعول لأن الواو لا ترتب ، وأنّ فعل البعض قد يسند إلى الكل ، أي : فيموت بعضهم ويجاهد الباقي. وعد ذلك لهم وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا لا خلف فيه ، مذكورا ذلك الوعد فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ أي : إن اللّه بيّن فى الكتابين أنّ اللّه اشترى من أمة محمد أنفسهم وأموالهم بالجنة ،

(٤٣٠/٢)

كما بيّنه فى القرآن ، أو كل أمة أمرت بالجهاد ووعدهم هذا الوعد. وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ هو مبالغة فى الإنجاز ، أي : لا أحد أوفى منه بالعهد ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ أي : فافرحوا به غاية الفرح ، فإنه أوجب لكم أعظم المطالب ، كما قال : وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. قال بعضهم : ناهيك من بيع ، البائع فيه رب العلا ، والثمن جنة المأوى ، والواسطة محمد المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم.

الإشارة : قد اشترى الحق جل جلاله منا أنفسنا وأموالنا بالجنة ، فمن باع نفسه لله بأن خالف هواها

وخرق عوائدها ، وسعى فى طلب مولاها ، عوضه جنة المعارف ، معجلة ، وزاده جنة الزخاف ، مؤجلة.
ومن باع ماله بأن أنفقه فى مرضاة اللّه ، وبخل بنفسه ، عوضه جنة الزخارف ، مؤجلة.
قال فى الإحياء - فى باب الذكر وفضيلته - : وأنه يوجب الأنس والحب ، فإذا حصل الأنس بذكر اللّه انقطع عن غير اللّه ، وما سوى اللّه هو الذي يفارقه عند الموت ، فلا يبقى معه فى القبر أهل ، ولا مال ، ولا ولد ، ولا ولاية ، ولا يبقى معه إلا ذكر اللّه ، فإن كان فى أنس به تمتع به ، وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه ، إذ ضرورات الحاجات فى الحياة تصد عن ذكر اللّه ، ولا يبقى بعد الموت عائق ، فكأنه خلّى بينه وبين محبوبه ، فعظمت غبطته ، وتخلص من السجن الذي كان ممنوعا فيه ، عما به أنسه.
ثم قال : ولأجل شرف ذكر اللّه عظمت رتبة الشهادة لأن المطلوب هو الخاتمة ، ومعنى الخاتمة : وداع الدنيا كلها ، والقدوم على اللّه ، والقلب مستغرق باللّه ، منقطع العلائق عن غيره ، والحاضر صفّ القتال قد تجرد قلبه للّه ، وقطع طمعه من حياته ، حبا للّه وطمعا فى مرضاته ، وحالة الشهيد توافق معنى قولك : (لا إله إلا اللّه) ، فإنه لا مقصود له سوى اللّه. هـ. فما يجده أهل التملق من لذيذ الحلاوة فى مناجاتهم ، وأهل الشهود فى حال غيبتهم فى محبوبهم ، ليس هو من نعيم الدنيا ، بل من نعيم الجنة ، قدّمه اللّه لأوليائه ، وهو معنى جنة المعارف المعجلة عوضا لمن باع نفسه للّه.
قال بعض العارفين : النفوس ثلاثة : نفس معيبة ، لا يقع عليها بيع ولا شراء ، وهى نفس الكافر ، ونفس تحررت لا يصح بيعها ، وهى نفس الأنبياء والمرسلين ، لأنها خلقت مطهرة من البقايا ، ونفس يصح بيعها وشراؤها ، وهى نفس المؤمن ، فإذا باعها للّه ، واشتراها الحق تعالى منه ، وقع عليها التحرير ، وذلك حين تتحرر من رقّ الأكوان ، وتتخلص من بقايا الأثر.
وقال بعض أهل التحقيق : اشترى اللّه تعالى أعز الأشياء بأجل الأشياء ، وإنما اشترى الأنفس دون القلوب لأن القلب حر لا يقع عليه البيع لأنه للّه فلا يباع ولا يشترى ، أما سمعت قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «القلب بيت الرب».

(٤٣١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٣٢
أي : لأنه محل مناجاته ، ومعدن معرفته ، وخزانة سره ، فليس للشيطان عليه من سبيل. قال تعالى : إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ «١». وأما النفس فإنها مملوكة تباع وتشترى. هـ.
ثم بيّن أوصاف البائعين ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : آية ١١٢]

التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)

قلت : (التائبون) : خبر ، أي : هم التائبون ، أو مبتدأ حذف خبره ، أي : التائبون فى الجنة وإن لم يجاهدوا ، لقوله تعالى : وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى «٢» ، أو خبره ما بعده ، أي : التائبون عن الكفر ، على الحقيقة ، هم الجامعون لهذه الخصال.

يقول الحق جل جلاله ، فى وصف البائعين أنفسهم وأموالهم : هم التَّائِبُونَ عن الكفر والمعاصي والهفوات والغفلات ، الْعابِدُونَ لله ، مخلصين له الدين ، الْحامِدُونَ الله فى السراء والضراء وعلى كل حال ، السَّائِحُونَ أي : الصائمون ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «سياحة أمتى الصوم» «٣» ، شبه بها من حيث إنه يعوق عن الشهوات ، أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملكوت والجبروت. أو السائحون للجهاد ، أو لطلب لعلم ، أو لزيارة المشايخ والإخوان.

الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ فى الصلاة ، الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ أي : بكل ما هو معروف محمود ، كالإيمان والطاعة ، وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ أي : كل ما هو منكر فى الشرع ، كالكفر والمعاصي ، وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ أي : لكل ما حده الشارع وعينه من الحقائق والشرائع. قال البيضاوي : وعطف قوله : وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ دون ما قبله للدلالة على أنه بما عطف عليه فى حكم خصلة واحدة ، كأنه قال : الجامعون بين الوصفين ، وعطف أيضا قوله : وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ للتنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل ، وهذا مجملها ، وقيل :

---

(١) من الآية ٦٥ من سورة الإسراء.

(٢) من الآية ٩٥ من سورة النساء.

(٣) أخرجه ابن جرير فى التفسير (١١/ ٣٥) موقوفا على السيدة عائشة ، بلفظ «سياحة هذه الأمة الصيام ، وأخرجه مرفوعا ، عن عبيد بن عمير ، بلفظ : (سئل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن السائحين فقال : «هم الصائمون»).

(٤٣٢/٢)

للإيذان بأن التعداد قد تم بالسابع ، من حيث إن السبعة هو العدد التام ، والثامن ابتداء لعدد آخر معطوف عليه ، ولذلك سمى واو الثمانية. هـ. بالمعنى.

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الموصوفين بهذه الفضائل ، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم

دعاهم إلى ذلك ، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك ، وحذف المبشر به للتعظيم ، كأنه قيل : وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام. قاله البيضاوي.

الإشارة : قد جمعت هذه الآية معارج الترقي من البداية إلى النهاية ، فأول المقامات : التوبة ، فإذا تابت النفس ورجعت عن هواها قصدت السير إلى حضرة مولاها ، فاشتغلت بالعبادة الظاهرة ، التي هى عمل الشريعة ، فإذا ظهر عليها أمارات التوفيق ، ولاحت لها أنوار التحقيق ، حمدت اللّه وشكرته تقييدا لتلك النعمة ، ثم تسيح فكرتها فى ميادين الغيوب من الملكوت إلى الجبروت ، ثم ترد إلى مراسم الشريعة ، إذ منتهى الكمال : التزام الشرائع ، فتركع وتسجد البشرية ، أدبا فى عالم الأشباح ، ويركع القلب ويسجد فى مسجد الحضرة فى عالم الأرواح ، فحينئذ تصلح للوعظ والتذكير ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر الظاهرين لأهل التشريع ، والباطنين لأهل التحقيق ، فالأول يسمى وعظا وتذكيرا ، والثاني يسمى تربية وترقية ، ولا يقبل ذلك إلا ممن وقف مع الحدود ، ووفى بالعهود ، فيبشر حينئذ بالسعادة العظمى والمقام الأسنى.

قال القشيري : قوله تعالى : السَّائِحُونَ أي : الصائمون ، ولكن عن شهود غير اللّه ، الممتنعون عن خدمة غير اللّه ، المكتفون من اللّه باللّه. ويقال : السائحون الذين يسيحون فى الأرض على جهة الاعتبار طلبا للاستبصار ، ويسيحون بقلوبهم فى مشارق الأرض ومغاربها بالتفكّر فى جوانبها ومناكبها ، والاستدلال بتغيّرها على منشئها ، والتحقق بحكم خالقها بما يرون من الآيات التي فيها ، ويسيحون بأسرارهم فى الملكوت ، فيجدون روح الوصال ، ويعيشون بنسيم الأنس بالتحقيق بشهود الحق. انتهى.

وانظر الورتجبي فقد جعل وصف الإيمان يحمل على التوبة ، ثم التوبة الصادقة تستدعى العبادات والمجاهدات المؤدية للعبودية ، فإذا تمت له نعمة العبودية اقتضت حمد اللّه تعالى ، فيحمده تعالى معترفا بعجزه عن القيام بحمده كما فى حديث : «أنت كما أثنيت على نفسك» «١» ، ثم الحمد والذكر يقتضى حبس النفس عن مألوفاتها حين عاين حمى هلال جماله فى سماء الإيقان. ألا ترى كيف قال عليه الصلاة والسلام : «صوموا لرؤيته» ،

---

(١) أخرجه مسلم فى (الصلاة ، باب : ما يقال فى الركوع والسجود) من حديث السيدة عائشة - رضى اللّه عنها.

ولا يكون فطره إلا على حلاوة مشاهدته لقوله : «وأفطروا لرؤيته» ، فالسائحون طيارون بقلوبهم فى

أقطار الغيب ، وذلك يقتضى الخضوع بنعت الفناء عند مشاهدة العظمة ، فيركع شوقا لجماله ، وخضوعا لجلاله ، وعند ركوعه وخضوعه تحيط به أنوار الصفات ، فيسجد لكل الجهات (فأينما تولوا فثم وجه اللّه) «١». وهذا السجود يقتضى الغربة ، والغربة تقتضى المشاهدة ، والمشاهدة تصير شاهدها متصفا بصفاتها ، فمن وقع فى نور أسماء اللّه وصفاته صار متصفا بوصف الربوبية ، متمكنا فى العبودية ، فيحكم بحكم اللّه ، ويعدل بعدل اللّه ، فيصفهم اللّه بهذه النعوت ، قال : (الآمرون بالمعروف) الداعون الخلق إلى الحق ، والناهون لهم عن متابعة الشهوات ، والحافظون لحدود اللّه ، القائمون فى مقام العبودية بعد كشف صفات الربوبية لهم ، فلا يتجاوزون عن حد العبودية ، وإن ذاقوا طعم حلاوة الربوبية لأنهم فى محل التمكين على أسوة مراتب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، مع كماله ، قال : «أنا العبد لا إله إلا اللّه». انتهى.

ثم نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين ، وينخرط فيهم من تخلف عن تبوك من المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١١٣ الى ١١٤]

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)

يقول الحق جل جلاله : ما كانَ ينبغى لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ الذين ماتوا على الشرك ، وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى أي : من قرابتهم ، مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ لموتهم على الشرك. روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبى طالب ، لما حضرته الوفاة : «قل : لا إله إلا اللّه ، كلمة أحاجّ لك بها عند اللّه». فأبى ، فقال : «واللّه لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» ، فكان يستغفر له حتى نزلت الآية «٢».

وقيل : إن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم استأذن ربه أن يستغفر لأمه ، فنزلت ، وقيل : إن المسلمين أرادوا أن يستغفروا لآبائهم ، فنزلت ، وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم إذ لم يتحقق أنهم أصحاب الجحيم ، فإنه طلب توفيقهم للإيمان.

ثم رفع إيهام النقض باستغفار إبراهيم عليه السّلام لأبيه الكافر ، فقال : وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ ، وقيل : إنه صلّى اللّه عليه وسلّم قال فى شأن عمه : «لأستغفرن لك ، كما استغفر إبراهيم لأبيه» ، فنزلت :

---

(١) من الآية ١١٥ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخاري فى (مناقب الأنصار ، باب : قصة أبى طالب) ومسلم فى (الإيمان ، باب : الدليل على صحة إسلام من حضره الموت). [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٣٥
وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ. والموعدة التي وعدها إياه قوله : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ «١». أي : لأطلبن المغفرة لك بالتوفيق للإيمان ، فإنه يجب ما قبله.
والمعنى : لا حجة لكم فى استغفار إبراهيم لأبيه ، فإن ذلك لم يكن إلا لوعد تقدم بقوله : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ..
إلخ. فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ بأن مات على الكفر ، أو أوحى إليه بأنه لن يؤمن ، تَبَرَّأَ مِنْهُ بأن قطع استغفاره له ، إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ أي : لكثير التأوه ، وهو كناية عن فرط ترحمه ، أو كثير الدعاء ، أو مؤمن ، أو فقيه ، أو كثير الذكر لله ، أو كثير التأوه من خوف اللّه ، حَلِيمٌ صبور على الأذى ، والجملة : لبيان ما حمله على الاستغفار.
الإشارة : الشفاعة لا تكون فيمن تحقق غضب اللّه عليه ، فإن ذلك من سوء الأدب ، كالدعاء بالمحال ، وأما من لم يتحقق غضبه عليه فالشفاعة فيه مرغب فيها. قال عليه الصلاة والسلام : «اشفعوا تؤجروا» «٢» ، والاستغفار شفاعة. وقد ورد فى الخبر : «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات خمسا وعشرين مرّة كتب من الأبدال».
والشفقة مطلوبة ، ما لم يظهر مراد اللّه من خلقه ، فإن برز من عنصر القدرة شىء من القهريات ، فالتسليم لمراده تعالى أحسن ، فالله أرحم بعباده منك أيها الشفيق ، وسيأتى عند قوله تعالى : يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ «٣» ، وبالله التوفيق.
ثم عذر نبيه فى استغفاره لعمه قبل النهى ، أو من استغفر من المسلمين لأسلافهم المشركين ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : الآيات ١١٥ الى ١١٦]
وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١١٦)
يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً أي : يسميهم ضلالا ، ويؤاخذهم مؤاخذتهم ، بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ للإسلام ، حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ أي : حتى يبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه ، فإن خالفوا بعد

---

(١) من الآية ٤ من سورة الممتحنة.
(٢) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب : تعاون المؤمنين) ومسلم فى (البر والصلة ، باب : استحباب الشفاعة) من حديث أبى موسى الأشعري ، وبقية الحديث : (و يقضى اللّه على لسان نبيه ما شاء).
(٣) الآية ٧٦ من سورة هود.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٣٦

البيان ، أضلهم وآخذهم إن لم يتوبوا. قال البيضاوي : وكأنه بيان عذر الرسول فى قوله لعمه : «لأستغفرن لك» ، ولمن استغفر لأسلافه المشركين قبل المنع. وقيل : إنه فى قوم مضوا على الأمر الأول فى القبلة والخمر ، ولم يعلموا بالنسخ والمنع. وفى الجملة : دليل على أن الغافل غير مكلف. هـ. وقال ابن جزى : نزلت فى قوم من المسلمين استغفروا للمشركين من غير إذن ، فخافوا على أنفسهم من ذلك ، فنزلت الآية تأنيسا لهم ، أي : ما كان الله ليؤاخذكم بذلك قبل أن يبيّن لكم المنع من ذلك. هـ. إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فيعلم أمرهم قبل النهى وبعده.

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، يتصرف فيهما وفى ساكنهما كيف يشاء ، يُحْيِي من يريد إبرازه لعالم الشهادة ، وَيُمِيتُ من يريد رده لعالم الغيب ، أو يحيى قلوبا بالإيمان والمعرفة ، ويميت قلوبا بالكفر والغفلة. وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ.

قال البيضاوي : لمّا منعهم من الاستغفار للمشركين ، ولو كانوا أولى قربى ، وتضمن ذلك وجوب التبري منهم رأسا ، بيّن لهم أن اللّه تعالى مالك كل موجود ، ومتولى أمره والغالب عليه ، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه ، ليتوجهوا إليه ويتبرؤوا مما عداه ، حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه. هـ.

الإشارة : وما كان اللّه ليضل قوما عن السير إلى حضرته ، أو الترقي فى العلوم والمعارف بعد الوصول ، حتى يبين لهم ما يتقون من سوء الأدب على لسان الشارع أو المشايخ ، فإذا تبين لهم ذلك ثم ارتكبوه وأصروا عليه ، أضلهم ، وأتلفهم عن الوصول إلى حضرة قدسه ، فإنّ كل طاعة وحسن أدب يقرب من الحضرة ، وكل معصية وسوء أدب يبعد عن الحضرة ، وقد قالوا : من أساء الأدب على البساط ، طرد إلى الباب ، ومن أساء الأدب فى الباب ، طرد إلى سياسة الدواب. وبالله التوفيق.

ثم ذكر توبته على الثلاثة المرجون ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١١٧ الى ١١٨]

لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٣٧

قلت : فى «كاد» ضمير الشأن ، أو يرتفع بها قلوب.

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ أي : برأه وطهره من الذنوب ، كقوله : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ «١» ، وَتاب على الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ مما عسى أن يكون ارتكبوه إذ لا يخلو العبد من ذنب أو عيب. وقيل : هو حض على التوبة ، وإظهار لفضلها ، بأنها مقام الأنبياء والصالحين.

وقيل : تاب عليهم من نقص المقامات التي ترقوا عنها ، إلى ما هو أكمل منها ، فما من أحد إلا وله مقام يستنقص بالنسبة إلى ما فوقه.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه : ذكر توبة من لم يذنب لئلا يستوحش من أذنب ، لأنه ذكر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، والمهاجرين والأنصار ، ولم يذنبوا ، ثم قال : وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ، فذكر من لم يذنب ليؤنس من قد أذنب ، فلو قال أولا : لقد تاب على الثلاثة لتفطرت أكبادهم. هـ.

ثم وصفهم بقوله : الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ ، يعنى : حين محاولة غزوة تبوك. والساعة هنا بمعنى الحين والوقت ، والعسرة : الشدة والضيق ، أي : الذين خرجوا معه وقت العسرة والضيق ، فقد كانوا فى عسرة الظّهر ، يعتقب العشرة على بعير واحد ، وفى عسرة الزاد حتى قيل : إن الرجلين كانا يقتسمان تمرة واحدة. مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ عن الثبات على الإيمان ، أو عن اتباع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، لما رأوا من الشدة والضيق وشدة الحر ، ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ كرره للتأكيد ، وللتنبيه على أنه تاب عليهم لأجل ما كابدوا من العسر ، إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ حيث قبلهم ، وتاب عليهم ، وتاب على الثلاثة ، وهم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر ولا نفاق ، ولا قصد للمخالفة ، فلما رجع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عتب عليهم ، وأمر الناس ألا يكلموهم ، وأن يعتزلوا نساءهم ، فبقوا على ذلك خمسين ليلة ، ثم أنزل اللّه توبتهم.

وقد وقع حديثهم فى البخاري ومسلم «٢» وكتب السير.

ومعنى قوله : الَّذِينَ خُلِّفُوا أي : تخلفوا عن الغزو. وقال كعب بن مالك : خلفوا عن قبول العذر ، وليس بالتخلف عن الغزو ، ويقوى ذلك كونه جعل : حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ غاية للتخلف ، أي : خلفوا عن قبول العذر ، وأخروا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ أي : برحبها وسعتها ، وذلك لإعراض الناس

---

(١) من الآية ٢ من سورة الفتح.

(٢) انظر البخاري فى (تفسير سورة التوبة ، باب : قوله تعالى : (و على الثلاثة ألين خلفوا ..) ، ومسلم فى (التوبة ، حديث توبة كعب ابن مالك وصاحبيه).

(٤٣٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٣٨

عنهم بالكلية ، وهو مثل لشدة الحيرة. وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ من فرط الوحشة والغم ، وَظَنُّوا أي : علموا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ أي : من سخطه إِلَّا إِلَيْهِ أي : إلا إلى استغفاره والرجوع إليه ، ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ بالتوفيق بالتوبة ، لِيَتُوبُوا بإظهارها والدوام عليها ، وليعدوا من التوابين ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ لمن تاب ، ولو عادوا فى اليوم سبعين مرة ، الرَّحِيمُ متفضل عليهم بالنعم التي لا تحصى.

الإشارة : قال الورتجبي : التوبة توبتان : توبة العبد ، وتوبة اللّه ، توبة العبد : الرجوع من الزلات إلى الطاعات ، وتوبة اللّه : رجوعه إلى العبد بنعت الوصال ، وفتح باب المآب ، وكشف النقاب عن الاحتجاب ، وطلب العتاب.

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم ونعتذر.

انظر لطف اللّه بنبيه وأصحابه ، كيف تاب لأجلهم مكان توبتهم ، رجع إليه قبل رجوعهم إليه ، ليسهل عليهم طريق الرجوع إليه ، فرجوعه إلى نبيه بكشف المشاهدة ، ورجوعه إليهم بكشف القربة ، فتوبته للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم من غيبته عن المشاهدة باشتغاله بأداء الرسالة ، وتوبة القوم من غيبتهم عن ملاحظة الحضرة ، فلما ذاقوا طعم الجنايات ، واحتجبوا عن المشاهدات أدركهم فيض الوصال ، وانكشف لهم أنوار الجمال ، وهكذا سنة اللّه فى الأنبياء والأولياء ، إذا ذابوا فى مقام الامتحان ، وبقوا فى الحجاب عن مشاهدة الرحمن ، تمطر عليهم وبل سحاب الكرم ، ويلمع لأبصار أسرارهم نور شرف القدم فيؤنسهم بعد إياسهم ، ويوصلهم بعد قنوطهم. قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا «١» ، وقال تعالى : حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ... الآية «٢». ثم قال عن بعضهم : توبة الأنبياء فى مشاهدة الخلق فى وقت الإبلاغ إذ الأنبياء لا يغيبون عن الحضرة ، بل لا يحضرون فى مواضع الغيبة لأنهم فى عين الجمع أبدا. هـ.

قال المحشي : وحاصله : توبة اللّه المذكورة وهبيّة ، وهى فى كل أحد على حسب ما يليق بمقامه ، وإنما يليق بمقام الرسل ترقيته عن مقام إلى أعلى ، أو من شعور بخلق لأجل الإبلاغ ، إلى الغيبة عن ذلك ، وكذلك أبدا كأهل الجنة. هـ.

ثم حضّ على الصدق ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١١٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ بالمحافظة على ما أمركم به ، والانكفاف عما نهاكم عنه ، وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ فى إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم وعهودهم.

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الشورى.

(٢) الآية ١١٠ من سورة يوسف.

قال ابن جزى : ويحتمل أن يريد به صدق اللسان إذ كان هؤلاء قد صدقوا ولم يعتذروا بالكذب ، فنفعهم اللّه بذلك ، ويحتمل أن يريد أعم من صدق اللسان وهو الصدق فى الأقوال والأعمال والمقاصد والعزائم ، والمراد بالصادقين : المهاجرين ، لقوله فى الحشر : لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ ... : إلى قوله وأُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ «١». وقد احتج بها أبو بكر الصديق على الأنصار يوم السقيفة ، فقال : (نحن الصادقون ، وقد أمركم اللّه أن تكونوا معنا) أي : تابعين لنا. هـ زاد السهيلي : ولمّا استحق الصادقون أن تكون الخلافة فيهم ، استحق الصّدّيق أن تكون الخلافة له ، مادام حيا إذ كان صديقا. هـ.

الإشارة : الصدق سيف حازم ، ما وضع على شىء إلا قطعه. ويكون فى الأقوال ، وهو صيانتها من الكذب ، ولو أدى إلى التلف. وفى الأفعال ، وهو صيانتها من الرياء وطلب العوض. وفى الأحوال ، وهو تصفيتها من قصد فاسد ، كطلب الشهرة ، أو إدراك مقام من المقامات ، أو ظهور كرامات ، أو غير ذلك من المقاصد الدنية. قال القشيري : الصادقون هم السابقون الأولون ، كأبى بكر وعمر وغيرهما ، والصدق : استواء السّرّ والعلانية ، وهو عزيز ، وكما يكون فى الأقوال يكون فى الأحوال ، وهو أتمّ. هـ.

ثم عاتب الحق تعالى أهل المدينة ومن جاورها على التخلف عن الغزو ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٢٠ الى ١٢١]

ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)

قلت : (و لا يرغبوا) : منصوب بالعطف ، أو مجزوم بالنهى ، والوادي : أصله : فاعل ، من ودي ، إذا سال ، وهو منقوص ، وهو فى اللغة : كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل.

---

(١) الآية ٨ من سورة الحشر.

(٤٣٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤٠

يقول الحق جل جلاله : ما كانَ يصح لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ، ولا لمن حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ ، أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فى غزوة ولا سرية ولا غيرهما ، وهو نهى بصيغة النفي للمبالغة. وَلا ينبغى لهم أن يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ بأن يصونوها من اقتحام المشقات والمتاعب التي تحملها نبى اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، حيث قعدوا عنه ، ولم يكابدوا معه ما كابده من الأهوال.

روى أن أبا خيثمة دخل بستانه ، بعد خروجه - عليه الصلاة والسلام - لتبوك ، وكانت له امرأة حسناء ، فرشت له فى الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظلّ ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فى الضّحّ «١» والريح ، ما هذا بخير ، فقام ، فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومر كالريح ، فمدّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم طرفه إلى الطريق ، فإذا براكب يقطع السراب ، فقال : كن أبا خيثمة ، فكانه «٢» ، ففرح به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، واستغفر له «٣».

ثم علل النهى بقوله : ذلِكَ إشارة إلى النهى عن التخلف المفهوم من الكلام ، بِأَنَّهُمْ أي : بسبب أنهم لا يُصِيبُهُمْ فى سفرهم ظَمَأٌ من حر العطش ، أو عطش ، وَلا نَصَبٌ تعب ، وَلا مَخْمَصَةٌ مجاعة ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلا يَطَؤُنَ يدوسون بأرجلهم أو بدوابهم مَوْطِئاً مكانا يَغِيظُ الْكُفَّارَ أي : يغيظهم ذلك الوطء ، وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا كالقتل ، والأسر ، والنصب ، وكل ما ينكبهم ، إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ ، أي : إلا استوجبوا به ثوابا جزيلا. وذلك مما يوجب النهوض إلى الغزو معه صلّى اللّه عليه وسلّم فإن اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ على إحسانهم. وهو تعليل لقوله : إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ .. إلخ.

وفيه تنبيه على أن الجهاد إحسان ، أما فى حق الكفار فلأنه سعى فى تكميلهم بأقصى ما يمكن ، كضرب المداوي للمجنون ، وأما فى حق المؤمنين فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم على الإسلام. قاله البيضاوي.

وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً فى أمر الجهاد ، ولو علاقة سيف ، وَلا كَبِيرَةً مثل ما أنفق عثمان رضى اللّه عنه فى جيش العسرة ، وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً فى سيرهم ، وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل ، إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ذلك

، ولم يضع منه شيء ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ بذلك أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ، أي : جزاء أحسن أعمالهم ، أو أحسن جزاء أعمالهم. قاله البيضاوي.

---

(١) الضّح - بالكسر : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض ... راجع النهاية ٨٧.

(٢) أي : فكان هو.

(٣) أخرجه بنحوه البيهقي فى الدلائل (باب لحوق أبى ذر وأبى خيثمة برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بعد خروجه). وانظر الفتح السماوي (٢/ ٧٠٧ - ٧٠٨).

(٤٤٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤١

الإشارة : لا ينبغى للفقراء أن يتخلفوا عن أشياخهم إذا سافروا لحج أو غزو أو تذكير أو زيارة ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، فيقعدون فى الراحة والدعة وشيخهم فى التعب والنصب لأن ما يصيبهم من مشاق السفر زيادة فى ترقيهم ومعرفتهم ، وتقوية لمعانيهم ، إلى غير ذلك من فوائد السفر ، فهو فى حق السائرين أمر مؤكد ، فكلما سار البدن فى عالم الشهادة سار القلب فى عالم الغيب ، كما هو مجرب. واللّه تعالى أعلم.

ولما ذمّ اللّه تعالى من تخلف عن تبوك ، ووسمه بالنفاق ، لم يقدر أحد بعد ذلك على التخلف ، فخفف عنهم بقوله :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٢٢]

وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ يستقيم لهم أن ينفروا كَافَّةً جميعا لنحو غزو ، أو طلب علم ، كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعا ، فإنه بخل ، ووهن للإسلام. قال ابن عباس : هذه الآية فى البعوث إلى الغزو والسرايا ، أي : لا ينبغى خروج جميع المؤمنين فى السرايا ، وإنما يجب ذلك إذا خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بنفسه ، ولذلك عاتبهم فى الآية المتقدمة على التخلف عنه. فالآية الأولى فى الخروج معه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهذه فى السرايا التي كان يبعثها ، وقيل : هى ناسخة لكل ما ورد من الأمر بخروج الجميع ، فهى دليل على أن الجهاد فرض كفاية.

فَلَوْ لا : فهلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ جماعة كبيرة ، كقبيلة أو بلدة ، طائِفَةٌ قليلة منها لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ، أما إذا خرجوا للغزو فإنه لا يخلو الجيش من عالم أو عارف يتفقهون ، مع أن مشاق السفر تشحذ الأذهان

، وترقق البشرية ، فتستفيد الروح حينئذ علوما لدنية ، وأسرارا ربانية ، من غير تعلم ، وهذا هو العلم الذي يصلح للإنذار.

قال فى الإحياء : التفقه : الفقه عن اللّه بإدراك جلاله وعظمته ، وهو العلم الذي يورث الخوف والخشية والهيبة والخشوع ، ويحمل على التقوى وملازمتها ، وهذا مقتضى الآية. فإن معرفة صفاته تعالى المخوفة والمرجوة هو الذي يحصل به الإنذار ، لا الفقه المصطلح عليه. هـ. وأما إذا وقع الخروج لطلب العلم فالتفقه ظاهر.

ثم قال تعالى : وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ، أي : وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من التفقه إرشاد القوم وإنذارهم. وتخصيصه بالذكر لأنه أهم ، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية ، وأنه ينبغى أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم ، لا الترفع على الناس والتبسط فى البلاد. قاله البيضاوي.

وقوله : لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ، أي : لعلهم يخافون مما حذروا منه.

(٤٤١/٢)

قال البيضاوي : وقد قيل : للآية معنى آخر ، وهو أنه لما نزل فى المتخلفين ما نزل تسابق المؤمنون إلى النفير ، وانقطعوا عن التفقه ، فأمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ، ويبقى أعقابهم يتفقهون ، حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد الأكبر ، لأن الجدال بالحجة هو الأصل ، والمقصود من البعثة ، فيكون الضمير فى لِيَتَفَقَّهُوا ، ولِيُنْذِرُوا : للفرق البواقي بعد الطوائف النافرة للغزو ، وفى رَجَعُوا : للطوائف النافرة ، أي : ولينذروا البواقي من قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصّلوا أيام غيبتهم من العلوم. هـ. وتقدير الآية على هذا : فلو لا نفر من كل فرقة طائفة ، وجلس طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم الخارجين للغزو إذا رجعوا إليهم من غزوهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال القشيري : لو اشتغل الكلّ بالتّفقّه فى الدّين لتعطّل عليهم المعاش ، ولمنعهم الكافر عن درك المطلوب ، فجعل ذلك فرضا على الكفاية. ويقال : المسلمون على مراتب : فعوامّهم كالرعية للملك وكتبة الحديث كخزنة الملك. وأهل القرآن كحفّاظ الدفاتر ونفائس الأموال. والفقهاء بمنزلة الوكلاء إذ الفقيه يوقع الحكم عن اللّه.

وعلماء الأصول كالقوّاد وأمراء الجيوش. والأولياء كأركان الباب. وأرباب القلوب وأصحاب الصفاء كخواص الملك وجلسائه. فشغل قوما بحفظ أركان الشرع ، وآخرين بإمضاء الأحكام ، وآخرين بالردّ على المخالفين ، وآخرين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجعل قوما مفردين لحضور القلب وهم

أصحاب الشهود ، ليس لهم شغل ، يراعون مع اللّه أنفاسهم ، وهم أصحاب الفراغ ، لا يستفزّهم طلب ، ولا يهزّهم أمر ، فهم بالله لله ، بمحو ما سوى اللّه ، وأمّا الذين يتفقهون فى الدّين فهم الداعون إلى اللّه ، وإنما يفهم الخلق عن اللّه بمن كان يفهم عن اللّه. هـ.

قوله : وأما الذين يتفقهون .. إلخ ، الداعون إلى اللّه على الحقيقة هم العارفون بالله ، وهم أصحاب الشهود ، الذين وصفهم قبل ، وأما الفقهاء فى الدّين فإنما يدعون إلى أحكام اللّه ، وتعلم دينه دون معرفة ذاته وصفاته فدعواهم ضعيفة التأثير ، فلا ينهض على أيديهم ما ينهض على أيدى العارفين.

وقال الورتجبي ، فى قوله تعالى : (ليتفقهوا فى الدين) : قال المرتعش : السياحة والأسفار على ضربين : سياحة لتعلم أحكام الدين وأساس الشريعة ، وسياحة لآداب العبودية ورياضة الأنفس ، فمن رجع عن سياحة الأحكام قام بلسانه يدعو الخلق إلى ربه ، ومن رجع من سياحة الأدب والرياضة قام فى الخلق يهديهم لأخلاقه وشمائله.

وسياحة هى سياحة الحق ، وهى رؤية أهل الحق والتأدب بآدابهم ، فهذا بركته تعم البلاد والعباد. هـ.

ثم أمر بجهاد الأقرب فالأقرب ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٢٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ، أي : جاهدوا الأقرب فالأقرب بالتدريج ، كما أمر رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم بإنذار عشيرته الأقربين ، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وقيل : هم يهود حوالى المدينة ، كقريظه والنضير وخيبر ، وقيل : الروم بالشام وهو قريب من المدينة ، وكانت أرض العرب قد عمها الإسلام ، وكانت العراق حينئذ بعيدة. وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً شدة وصبرا على قتالهم ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ بالإعانة والنصر والحراسة.

الإشارة : ينبغى لأهل الوعظ والتذكير أن يبدأوا بالأقرب فالأقرب على التدريج ، قال الرفاعي رضى اللّه عنه : إذا أراد اللّه أن يرقى عبدا إلى مقامات الرجال كلفه بأمر نفسه أولا ، فإذا أدب نفسه واستقامت معه ، كلفه بأهله فإن أحسن إليهم وساسهم ، كلفه بأهل بلده ، فإن أحسن إليهم وساسهم ، كلفه جهة من البلاد ، فإن هو نصحهم ، وساسهم ، وأصلح سريرته مع اللّه ، كلفه رتبة ما بين السماء والأرض ، فإن لله خلقا لا يعلمهم إلا اللّه ، ثم لا يزال يرتفع من سماء إلى سماء حتى يرتفع ويصل إلى محل

القطب الغوث ، وهناك يطلعه اللّه على بعض غيبه. انتهى.
والغلظة التي تكون فى المذكر ، إذا رأى منكرا ، أو ذكر له وأراد النهى عنه. وأما فى الترغيب والإرشاد فينبغى أن يغلب جانب اللطافة واللين. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر حال المنافقين عند نزول الوحى ، لأن السورة جلها فى فضيحتهم ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٢٤ الى ١٢٧]
وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ (١٢٥) أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٢٧)

(٤٤٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤٤
يقول الحق جل جلاله : وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ من القرآن ، فَمِنْهُمْ فمن المنافقين مَنْ يَقُولُ إنكارا واستهزاء : أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ السورة إِيماناً ، كما يزعم أصحاب محمد : أن القرآن يزيدهم إيمانا ، فلا زيادة فيه ، ولا دليل أنه من عند اللّه. قال تعالى فى الرد عليهم : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً لتنوير قلوبهم ، وصفاء سرائرهم ، فتزيدهم إيمانا وعلما لما فيها من الإنذار والإخبار ، ولانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم ، وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ بنزولها لأنها سبب لزيادة إيمانهم ، وارتفاع درجاتهم ، بخلاف قلوب المنافقين فلظلمانيتها وخوضها لم تزدهم إلا خوضا ، كما قال تعالى :
وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ كفر وشك ، فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ أي : كفرا بها ، مضموما إلى الكفر بغيرها ، الذي كان حاصلا فيهم ، وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ أي : وتحكم ذلك فى قلوبهم حتى ماتوا عليه.
أَوَلا يَرَوْنَ أي : المنافقون ، أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ أي : يبتلون ويختبرون بأصناف البليات ، كالأمراض والجوع ، أو بالجهاد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات ، أو يفضحون بكشف سرائرهم. يفعل ذلك بهم فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ لا يَتُوبُونَ : لا ينتهون من نفاقهم وكفرهم ، وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ يعتبرون.
وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ ، يريدون الهرب ، يقولون : هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ إذا قمتم ، فإن لم يرهم أحد قاموا وانصرفوا. قال البيضاوي : تغامزوا بالعيوب ، إنكارا لها وسخرية ، أو غيظا لما

فيها من عيوبهم. هـ. قال ابن عطية : المعنى : إذا ما أنزلت سورة فيها فضيحتهم ، نظر بعضهم إلى بعض على جهة التقرير ، يفهم من تلك النظرة : التقرير : هل معكم من ينقل عنكم؟ هل يراكم من أحد حين تدبرون أمركم؟ وقوله :
ثُمَّ انْصَرَفُوا أي : عن طريق الاهتداء ، وذلك أنهم حينما بيّن لهم كشف أسرارهم ، يقع لهم - لا محالة - تعجب وتوقف ونظر ، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنة لهم ، فهم ، إذ يصممون على الكفر ، ويرتكبون فيه ، كأنهم انصرفوا عن تلك الحال ، التي كانت مظنة النظر الصحيح والاهتداء. هـ.
والتحقيق : أن معنى انْصَرَفُوا : قاموا عن مجلس النبي صلّى اللّه عليه وسلّم مخالفة الفضيحة. صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عن الإيمان دعاء عليهم ، أو إخبار ، فيستوجبون ذلك بِأَنَّهُمْ بسبب أنهم قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ لا يفهمون عن اللّه ولا عن رسوله - عليه الصلاة والسلام - ، أو لا يفقهون سوء فهمهم أو عدم تدبرهم.
الإشارة : زيادة الإيمان عند سماع القرآن يكون على حسب التصفية والتطهير من الأغيار ، فبقدر ما يصفو القلب من الأغيار يكشف له عن أسرار القرآن. قال بعضهم : كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة ، فجاهدت نفسى

(٤٤٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤٥
وطهرتها ، فصرت كأنى أسمعه من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، يتلوه على أصحابه ، ثم رفعت إلى مقام فوقه ، فكنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل يلقيه على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم منّ علىّ اللّه بمنزلة أخرى ، فأنا الآن أسمعه من المتكلم به ، فعندها وجدت له نعيما لا أصبر عليه. هـ. بلفظه.
مثل هذا يزيده القرآن إيقانا ، ويستبشر قلبه عند سماعه ، وأما من كان مريض القلب بحب الدنيا ، مغمورا بالشكوى والأوهام والخواطر ، فلا يزيده القرآن إلا بعدا حيث لم يتدبر فيه ، ولم يعمل بمقتضاه ، وإذا حضر مثل هذا الغافل مجلس وعظ أو تذكير أو ذكر لم يطق الجلوس ، بل نظر : هل يراه من أحد؟ ثم انصرف ، صرف اللّه قلبه عن حضرة قدسه لعدم فهمه عن ربه. واللّه تعالى أعلم.
ثم ختم السورة بذكر محاسن نبيه - عليه الصلاة والسلام - لما ظهر عليه فى هذه السورة من الرحمة والرأفة بالمؤمنين ، ومن العفو والصفح عن المعتذرين ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٢٨ الى ١٢٩]
لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)
قلت : «عزيز» : صفة «لرسول» ، و«ما عنتم» : فاعله ، و«ما» : مصدرية ، أي : عزيز عليه عنتكم ،

أو عزيز : خبر مقدم ، و«ما عنتم» مبتدأ ، والعنت : المشقة والتعب.
يقول الحق جل جلاله ، مخاطبا العرب ، أو قريش ، أو جميع بنى آدم : لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم ، أي : من قبيلتكم ، بحيث تعرفون حسبه وصدقه وأمانته ، وتفهمون خطابه ، أو من جنسكم من البشر. وقرأ ابن نشيط : بفتح الفاء ، أي من أشرافكم. قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّ اللّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى بنى هاشم من قريش ، واصطفاني من بنى هاشم ، فأنا مصطفى من مصطفين».
عَزِيزٌ عَلَيْهِ ، أي : شديد شاق عليه ما عَنِتُّمْ أي : عنتكم ومشقتكم ولقاؤكم المكروه فى دينكم ودنياكم.
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ أي : على إيمانكم وسعادتكم وصلاح شأنكم ، بِالْمُؤْمِنِينَ منكم ومن غيركم رَؤُفٌ رَحِيمٌ أي : شفيق بهم ، قدّم الأبلغ منهما لأن الرأفة شدة الرحمة للفاصلة. وسمى رسوله هنا باسمين من أسمائه تعالى.

فَإِنْ تَوَلَّوْا عن الإيمان بك ، بعد هذه الحالة المشهورة ، التي منّ اللّه عليهم بها ، فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ أي : كافينى أمركم ، فإن قلت ذلك فإنه يكفيك شأنهم ويعينك عليهم ، أو فإن أعرضوا فاستعن بالله وتوكل عليه ، فإنه كافيك ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فلا يتوكل إلا عليه ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، أي : الملك العظيم ، أو الجسم الأعظم المحيط ، الذي تنزل منه الأحكام والمقادير.
وعن أبى : آخر ما نزل هاتان الآيتان. وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «ما نزل القرآن علىّ إلّا آية آية ، وحرفا حرفا ، ما خلا سورة براءة ، و(قل هو اللّه أحد) فإنهما أنزلتا علىّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة» «١» قاله البيضاوي.
وهاتان الآيتان أيضا مما وجدتا عند خزيمة بن ثابت ، بعد جمع المصحف ، فألحقتا فى المصحف ، بعد تذكر الصحابة لهما وإجماعهم عليهما. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : ينبغى لورثته - عليه الصلاة والسلام - الداعين إلى اللّه ، أن يتخلقوا بأخلاقه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فيشق عليهم ما ينزل بالمؤمنين من المشاق والمكاره ، وييسرون ولا يعسرون عليهم ، ويحرصون على الخير للناس كافة ، ويبذلون جهدهم فى إيصاله إليهم ، ويرحمونهم ويشفقون عليهم ، فإن أدبروا عنهم استغنوا بالله وتوكلوا عليه ، وفوضوا أمرهم إليه ، من غير أسف ولا حزن.
وقال الورتجبي : قوله تعالى : عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ ، اشتد عليه مخالفتنا مع الحق ، ومتابعتنا هوانا

واحتجابنا عن الحق. قال بعضهم : شق عليه ركوبكم مراكب الخلاف. قال سهل : شديد عليه غفلتكم عن اللّه ولو طرفة عين.

ثم قال فى قوله تعالى : (فإن تولوا فقل حسبى اللّه ...) الآية : سلى قلبه بإعراضهم عن متابعته ، مع كونه حريصا على هدايتهم ، أي : ففى اللّه كفاية عن كل غير وسوى.

قال القشيري : أمره أن يدعو الخلق إلى التوحيد ، ثم قال له : فإن أعرضوا عن الإجابة فكن بنا ، بنعت التجريد. ويقال : قال له : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ، ثم أمره أن يقول : حسبى اللّه. قوله تعالى : حَسْبُكَ :

عين الجمع ، وقوله : حَسْبِيَ اللَّهُ فرق ، بل هو الجمع ، أي : قل ، ولكن بنا تقول ، فنحن المتولون عنك وأنت مستهلك فى عين التوحيد فأنت بنا ، ومحو عن غيرنا. هـ وبالله التوفيق. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

---

(١) عزاه فى الفتح السماوي ، للثعلبى ، من حديث السيدة عائشة ، وقال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : (إسناده واه) ، وقال الولي العراقي : هو منكر جدا. وقال التفتازانيّ فى حاشيته على الكشاف : هذا يخالف ما ثبت فى أحاديث صحيحة وردت فى أسباب نزول كثير من الآيات ، فإنها نزلت منفردة. وذلك يدل على أن السورة لم تنزل جملة ، ولو لم تكن إلا آية : «وعلى الثلاثة الذين خلفوا ..» لكفى. هـ. راجع الفتح السماوي (٢/ ٧١١)

(٢/٤٤٦)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤٧

سورة يونس

مكية. وهى مائة وتسع آيات. ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» مع قوله : أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فقد تعجبوا منه مع كونهم يعرفون أمانته وصدقه.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (١) أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (٢)

قلت : (عجبا) خبر كان ، واسمها : (أن أوحينا) ، ومن قرأ بالرفع فالأمر بالعكس ، أو كان تامة ، واللام

متعلقة بعجبا ، وهو مصدر للدلالة على أنهم جعلوه أعجوبة لهم ، يتوجهون نحوه بإنكارهم واستهزائهم. قال في المغني : المصدر الذي ليس فى تقدير حرف الموصول وصلته لا يمنع التقديم عليه ، على أن السعد قال فى المطوّل : إن معمول المصدر إذا كان ظرفا أو شبهه ، الأظهر أنه جائز التقديم ، قال تعالى : فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ «٢» ، وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ «٣» ومثل هذا كثير فى الكلام ، وليس كل ما أول بشيء حكمه حكم ما أول به ، مع أن الظرف مما يكيفه رائحة الفعل لأن له شأنا ليس لغيره لتنزله من الشيء منزلة نفسه لوقوعه فيه وعدم انفكاكه عنه ، ولهذا اتسع فى الظروف ما لم يتسع فى غيرها. هـ.

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المجتبى المختار تِلْكَ الآيات التي تنزل عليك هى آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ ، الذي اشتمل على الحكم الباهرة والعبر الظاهرة ، أو المحكم الذي لم ينسخ منه شيء بكتاب آخر بعده ، أو كلام حكيم. أَكانَ لِلنَّاسِ أي : كفار قريش وغيرهم عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ ولم يكن من عظمائهم؟ والاستفهام للإنكار ، والرد على من استبعد النبوة ، أو تعجب من أن يبعث اللّه رجلا من وسط الناس.

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.

(٢) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات. [.....]

(٣) من الآية ٢ من سورة النور.

قيل : كانوا يقولون : العجب أن اللّه تعالى لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب. وهذا من فرط حماقتهم ، وقصور نظرهم على الأمور العاجلة ، وجهلهم بحقيقة الوحى والنبوة.

هذا .. وأنه - عليه الصلاة والسلام - لم يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه ، إلا فى المال ، وخفة الحال أعون شيء فى هذا الباب ، ولذلك كان أكثر الأنبياء قبله كذلك - أي : خفافا من المال - وقيل : تعجبوا من أنه بعث بشرا رسولا ، كما سبق فى سورة الأنعام. قاله البيضاوي.

ثم فسّر الوحى المذكور فقال : أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ أي : أوحينا إليه بأن أنذر الناس أي : خوفهم من غضب ربهم ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ، عمم الإنذار ، إذ ليس من أحد إلا وفيه ما ينبغى أن ينذر منه ، وخصص البشارة إذ ليس للكفار ما يصح أن يبشروا به ، قاله البيضاوي.

أي : بشر المؤمنين بأنّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ أي : سابقة ومنزلة رفيعة ، سميت قدما لأن السبق

يكون بها ، كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد ، وأضيفت إلى الصدق لتحققها وللتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية. قال ابن جزي : أي : عمل صالح قدموه ، وقال ابن عباس : السعادة السابقة لهم فى اللوح المحفوظ. هـ وقال ابن عطية : والصدق فى هذه الآية بمعنى الصلاح ، كما تقول : رجل صدق ورجل سوء. هـ.

قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا الكتاب ، أو ما جاء به الرسول ، لَسِحْرٌ «١» مُبِينٌ أي : بيّن ظاهر ، وقرأ ابن كثير والكوفيون : لَساحِرٌ ، على أن الإشارة إلى الرسول ، وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول أمورا خارقة للعادة ، معجزة لهم عن المعارضة ، وكلامهم هذا يحتمل أن يكون تفسيرا لما ذكره قبل من تعجبهم ، أو يكون مستأنفا.

الإشارة : تعجب الناس من أهل الخصوصية سنة ماضية ، فكما خفى عن أعين الكفار سر النبوة ، خفى عن أعين الخفافيش سر الخصوصية ، فلا يطلع عليها إلا من سبق له قدم صدق عند ربه ، فسبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية فلم يدل عليها إلا من أراد أن يوصله إلى مشاهدة عظمة الربوبية.

قال فى لطائف المنن : فأولياء اللّه أهل كهف الإيواء ، فقليل من يعرفهم ، وسمعت الشيخ أبا العباس رضى اللّه عنه يقول : معرفة الولي أصعب من معرفة اللّه ، فإنّ اللّه تعالى معروف بكماله وجماله ، ومتى تعرف مخلوقا مثلك يأكل كما تأكل ، ويشرب كما تشرب؟ ، وإذا أراد اللّه أن يعرفك بولي من أوليائه طوى عنك وجود بشريته ، وأشهدك وجود خصوصيته. هـ.

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي «لساحر» بالألف وكسر الحاء. وقرأ الباقون «لسحر» بغير ألف ، إشارة إلى الوحى - انظر الإتحاف (٢/ ١٠٤).

ثم فسر عظمة ربوبيته ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣ الى ٤]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (٤)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ رَبَّكُمُ الذي يستحق العبادة وحده هو اللَّهُ الذي أظهر الكائنات من العدم إلى الوجود ، وبه رد على من أنكر النبوة ، كأنه يقول : إنما أدعوكم إلى عبادة اللّه الذي خلق الأشياء ، فكيف تنكرون ذلك وهو الحق المبين؟ ثم فصّل ذلك فقال : الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ التي هى أصول الكائنات ، فِي مقدار سِتَّةِ أَيَّامٍ من أيام الدنيا ، ولم يكن حينئذ ليل ولا نهار ، والجمهور : أن ابتداء الخلق يوم الأحد. وفى حديث مسلم : يوم السبت ، وأنه خلق الأرض ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، ثم دحا الأرض بعد ذلك. ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ استواء يليق به ، كاستواء الملك على سريره ليدبر أمر مملكته ، ولذلك رتب عليه : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، وقد تقدم الكلام عليه فى الأعراف «١».

قال البيضاوي : يدبر أمر الكائنات على ما تقتضيه حكمته ، وسبقت به كلمته ، بتحريك أفلاكها ، وتهييء أسبابها ، والتدبير : النظر فى عواقب الأمور لتجىء محمودة العاقبة. هـ.

ما مِنْ شَفِيعٍ تقبل شفاعته إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ له فى الشفاعة ، وهو تقرير لعظمته وعزة جلاله ، ورد على من يزعم أن آلهتهم تشفع لهم عند اللّه ، وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له ، كالأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء. ذلِكُمُ اللَّهُ أي : الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية هو اللَّهُ رَبُّكُمْ لا غير إذ لا يشاركه أحد فى شىء من ذلك ، فَاعْبُدُوهُ : أفردوه بالعبادة أَفَلا تَذَكَّرُونَ أي :

تتفكرون أدنى تفكر ، فتعرفون أنه المستحق للربوبية والعبادة ، لا ما تعبدونه من الأصنام.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ بالبعث جَمِيعاً فيجازيكم على أعمالكم ، ويعاقبكم على شرككم ، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا : مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله : إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ وعد من اللّه. إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ بإظهاره فى الدنيا ثُمَّ يُعِيدُهُ بعد إهلاكه فى الآخرة. لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، تعليل للعودة وهى البعثة ،

---

(١) راجع تفسير الآية : ٥٤ من سورة الأعراف.

وقوله : بِالْقِسْطِ أي : بالعدل بأن يعدل فى جزائهم ، فلا يظلم مثقال ذرة ، أو بعدلهم وقيامهم على العمل فى أمورهم ، أو بإيمانهم لأنه العدل القويم ، كما أن الشرك ظلم عظيم. وهو الأوجه لمقابلة قوله : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بسبب كفرهم وشركهم - الذي هو الظلم العظيم - لكنه غيّر النظم للمبالغة فى استحقاقهم العذاب والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة ، وأما العقاب فإنما هو واقع بالعرض ، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ،

ولذلك لم يعينه ، وأما عقاب الكفرة فإنه إنما ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم.

والآية كالدليل لقوله : إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ، فإنه لمّا كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة اللّه المكلفين على أعمالهم ، كان مرجع الجميع إليه لا محالة ، ويؤيده قراءة من قرأ : «أنه يبدأ» بالفتح ، أي : لأنه ، ويجوز أن يكون منصوبا بما نصب «وعد اللّه». قاله البيضاوي.

الإشارة : تقدم بعض إشارة هذه الآية فى الأعراف ، وقال الورتجبي هنا : جعل العرش مرآت تجلى قدسه ومأوى أرواح أحبابه لقوله : ثُمَّ اسْتَوى ... الآية ، ثم قال : ثم دعاهم إلى عبادته بعد معرفته بقوله : فَاعْبُدُوهُ. وقال القشيري : ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ تعريف ، وقوله : فَاعْبُدُوهُ تكليف ، فحصول التعريف بتحقيقه ، والوصول إلى ما ورد به التكليف بتوفيقه. هـ. وقال فى قوله : إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً : الرجوع يقتضى ابتداء ، والأرواح قبل حصولها فى الأشباح كان لها فى مواطن التسبيح والتقديس إقامة ، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند محبّيه وذويه ، وأنشدوا :

أيا قادما من سفرة الهجر مرحبا أنا ذاك لا أنساك ما هبّت الصّبا. هـ.

وفى الإحياء : كل من نسى اللّه أنساه - لا محالة - نفسه ، ونزل إلى رتبة البهائم ، وترك الترقي إلى أفق الملأ الأعلى ، وخان فى الأمانة التي أودعها له تعالى ، وأنعم بها عليه ، وكان كافرا لنعمته ، ومتعرضا لنقمته فإن البهيمة تتخلص بالموت ، وأما هذا فعنده أمانة سترجع - لا محالة - إلى مودعها ، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها ، وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة ، وإنما هبطت إلى هذا القالب الفاني وغربت فيه ، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها ، وتعود إلى بارئها وخالقها ، إما مظلمة منكسة ، وإما زاهرة مشرقة ، والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية ، والمظلمة أيضا راجعة إلى الحضرة إذ المرجع ومصير الكل إليه ، إلّا أنها ناكسة رؤوسها عن جهة أعلى عليين ، إلى جهة أسفل سافلين ، ولذلك قال تعالى : وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ «١» فبيّن أنهم عند ربهم منكسون منحوسون ، قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم ، وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل ، وذلك حكم اللّه تعالى فيمن حرمه توفيقه ، ولم يهده طريقه ، فنعوذ بالله من الضلال والنزول فى منازل الجهال. هـ.

---

(١) من الآية ١٢ من سورة السجدة.

(٢/٤٥٠)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٥١

قلت : ظاهر كلامه : أن الروح لا ترجع إلى وطنها وتتصل بحضرة ربها إلا بعد خراب هذا البدن ،

والحق أنها ترجع لأصلها ، وتتصل بحضرة ربها مع قيام هذا البدن إذا كمل تطهيرها وتمت تصفيتها من بقايا الحس ، وانقطع عنها علائق هذا العالم الجسماني ، فتتصل حينئذ بالعالم الروحاني ، مع قيام العالم الجسماني ، كما هو مقرر عند أهل التحقيق ، واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إيجاد النيرين ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٥ الى ٨]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ (٧) أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨)

قلت : «ضياء» : مفعول ثان ، أي : ذات ضياء ، وهو مصدر كقيام ، أو جمع ضوء كسياط ، والياء منقلبة عن الواو ، وفى رواية عن ابن كثير بهمزتين فى كل القرآن على القلب ، بتقديم اللام على العين ، والضمير فى «قدره» للشمس والقمر ، كقوله : وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ «١» ، أو للقمر فقط.

يقول الحق جل جلاله : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً أي : ذات ضوء وإشراق أصلى ، وَالْقَمَرَ نُوراً أي : ذا نور عارض ، مقتبس من نور الشمس عند مقابلته إياها ، ولذلك يزيد نوره وينقص ، فقد نبه سبحانه بذلك على أنه خلق الشمس نيرة فى ذاتها ، والقمر نورا بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها ، فالنور أعم من الضياء ، والضياء أعظم من النور. وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ أي : قدر سير كل واحد منهما منازل ، أو القمر فقط ، وخصصه بالذكر لسرعة سيره ، ومعاينة منازله ، وإناطة أحكام الشرع به. ولذلك علله بقوله : لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ أي : حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالى فى معاملتكم وتصرفاتكم :

ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ الذي تقدم من أنواع المخلوقات إِلَّا بِالْحَقِّ أي : ملتبسا بالحق ، مراعيا فيه مقتضى الحكمة البالغة ، لا عبثا عاريا عن الحكمة ، أو ما خلق ذلك إلا ليعرف فيها ، فما نصبت الكائنات لتراها ، بل لترى

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة التوبة.

فيها مولاها. وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : الحق الذي خلق اللّه به كل شىء كلمة

«كن». قال سبحانه :

وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ «١». هـ. وهو بعيد هنا.

يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «٢» فإنهم المنتفعون بالنظر فيها والاعتبار بها.

ثم بيّن وجه الاعتبار فقال : إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أي : تعاقبهما بالذهاب والمجيء ، أو بالزيادة والنقصان ، وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من أنواع الكائنات وضروب المخلوقات ، لَآياتٍ دالة على وجود الصانع ووحدته ، وكمال علمه وقدرته ، لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ اللّه ، ويخشون العواقب ، فإن ذلك يحملهم على التفكر والتدبر ، بخلاف المنهمكين فى الغفلة والمعاصي ، الذين أشار إليهم بقوله :

إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا أي : لا يتوقعونه ، أو : لا يخافون بأسه لإنكارهم البعث ، وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها ، وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا : قنعوا بها بدلا من الآخرة لغفلتهم عنها ، وَاطْمَأَنُّوا بِها أي : سكنوا إليها مقصرين هممهم على لذائذها وزخارفها ، وسكنوا فيها سكون من يظن أنه لا ينزعج عنها.

وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا المتقدمة الدالة على كمال قدرتنا ، غافِلُونَ : لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون لانهماكهم فى الغفلة والذنوب.

قال البيضاوي : والعطف إما لتغاير الوصفين ، والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأسا ، والانهماك فى الشهوات ، بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلا ، وإما لتغاير الفريقين ، والمراد بالأولين : من أنكر البعث ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ، وبالآخرين من ألهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل والإعداد له. هـ.

أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ أي : بما واظبوا عليه وتمرنوا به من المعاصي. قال ابن عطية : وفى هذه اللفظة رد على الجبرية ، ونص على تعلق العقاب بالتكسب. هـ.

الإشارة : هو الذي جعل شمس العيان مشرقة فى قلوب أهل العرفان ، لا غروب لها مدى الأزمان ، وجعل قمر توحيد الدليل والبرهان نورا يهتدى به إلى طريق الوصول إلى العيان ، وقدّر السير به منازل - وهى مقامات اليقين ومنازل السائرين - ينزلون فيها مقاما إلى صريح المعرفة ، وهى التوبة والخوف ، والرجاء والورع ، والزهد والصبر ، والشكر والرضى والتسليم والمحبة ، والمراقبة والمشاهدة. ما خلق اللّه ذلك إلا بالحق ، ليتوصل به إلى الحق. إن فى اختلاف ليل القبض ونهار البسط على قلب المريد لآيات دالة له على السير ، لقوم يتقون السّوى ، أو شواغل الحس.

---

(١) من الآية ٧٣ من سورة الأنعام.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب بياء الغيب (يفصل). والباقون بنون العظمة (نفصل) انظر الإتحاف (٢/ ١٠٤).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٥٣
إن الذين لا يرجون الوصول إلينا لقصر همتهم ، ورضوا بالحياة الدنيا وشهواتها ، واطمأنوا بها ولم يرحلوا عنها ، إذ لا يتحقق سير السائرين إلا بمجاهدة تركها والرحيل بالقلب عنها ، والذين هم عن آياتنا غافلون لانهماكهم فى الهوى والحظوظ ، أولئك مأواهم نار القطيعة وغم الحجاب ، بما كانوا يكسبون من الاشتغال بالحظوظ والشهوات.

وبالله التوفيق.

ثم ذكر أضدادهم ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٩ الى ١٠]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٠)

قلت : (تجرى) : جملة استئنافية ، أو خبر ثان لإنّ ، أو حال من الضمير المنصوب فى يَهْدِيهِمْ.

و(دعواهم) :

مبتدأ ، و(سبحانك) : مقول للخبر - أي : قولهم سبحانك. والتحية مأخوذة من تمنى الحياة والدعاء بها ، يقال : حياه تحية ، ويقال للوجه : محيا لوقوع التحية عند رؤيته ، و(آخر) : مبتدأ ، و(أن الحمد لله) : خبر ، وأن مخففة.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ أي : يسددهم بِإِيمانِهِمْ بسبب إيمانهم إلى الاستقامة والنظر ، أو إلى سلوك سبيل يؤدى إلى الجنة ، أو إلى إدراك الحقائق العرفانية ، كما قال - عليه الصلاة والسلام - : «من عمل بما علم أورثه اللّه علم ما لم يعلم» ، أو لما يشتهونه فى الجنة ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ الأربعة ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، دَعْواهُمْ فِيها أي : دعاؤهم فيها : سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ أي : اللهم إنا نسبحك تسبيحا. وروى : أن هذه الكلمة هى ثمر أهل الجنة ، فإذا اشتهى أحدهم شيئا قال : سبحانك اللهم ، فينزل بين يديه. رواه ابن جريج وسفيان بن عيينة.

وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ أي : ما يحيى به بعضهم بعضا ، أو تحية الملائكة إياهم ، أو تسليم اللّه تعالى عليهم فيها سلام ، وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ أي : وخاتمة دعائهم فى كل موطن حمده تعالى وشكره. والمعنى : أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمته وكبرياءه مجّدوه ونعتوه بنعوت الجلال ، وقدّسوه عند مشاهدته عن كل تماثيل وخيال ، فحيّاهم بسلام من عنده ، وعند ما منحهم سلامه وأحلّ عليهم رضوانه ، وأدام لهم كرامته وجواره ، وأراهم وجهه ، حمدوه بما حمد به نفسه ، فكانت بدايتهم

بالتنزيه والتعظيم ، وخاتمة دعائهم فى كل موطن حمده وشكره على ما مكنهم فيه ، من رؤية وجهه الكريم ، ودوام النعيم المقيم ، وسمى دعاء لأنه يستدعى المزيد من فضله. قاله المحشى.

(٤٥٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٥٤

الإشارة : إن الذين استكملوا الإيمان ، وأخلصوا الأعمال ، يهديهم ربهم إلى من يوصلهم إلى جنة حضرته ، ببركة إيمانهم ، تجرى من تحت أفكارهم أنهار العلوم ، فى جنات مشاهدة طلعته ، والتنعم بأنوار معرفته ، فإذا عاينوا ذلك أدهشتهم الأنوار ، فبادروا إلى التنزيه والتقديس ، فيجيبهم الحق تعالى بإقباله عليهم بأنوار وجهه ، وأسرار ذاته ، فيحمدونه ويشكرونه على ما أولاهم من سوابغ نعمته ، والسكون فى جوار حضرته ، منحنا اللّه من ذلك الحظ الأوفر ، آمين.

ولمّا تعجب الكفار من بعث الرسول منهم ، وكفروا به ، استعجلوا ما خوفهم به من العذاب ، فأنزل اللّه جوابا لهم :

[سورة يونس (١٠) : آية ١١]

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)

قلت : (استعجالهم) : نصب على المصدر ، أي : استعجالا مثل استعجالهم بالخير. قال البيضاوي : وضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعارا بسرعة إجابته لهم فى الخير ، حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم. هـ. (فنذر) :

عطف على فعل محذوف دلت عليه الشرطية ، كأنه قيل : ولكن لا نعجل ولا نقضى بل نمهلهم فنذر .. إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ حيث يطلبونه ، كقولهم : فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ «١» ، ائْتِنا بِما تَعِدُنا «٢» اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ كما يعجل اللّه لهم الخير حين يسألونه لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ أي : لأميتوا وأهلكوا من ساعتهم ، وقرأ ابن عباس ويعقوب :

«لقضى» بالبناء للفاعل ، أي : لقضى اللّه إليهم أجلهم ، ولكن من حلمه تعالى وكرمه يمهلهم إلى تمام أجلهم ، فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا استدراجا وإمهالا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ : يتحيرون. والعمه : الخبط فى الضلال ، وهذا التفسير أليق بمناسبة الكلام. وقيل : نزلت فى دعاء الإنسان على نفسه وماله وولده بالشر ، أي : لو عجل اللّه للناس الشر كما يحبون تعجيل الخير لهلكوا سريعا ، فهو كقوله وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ «٣» ويكون قوله :

فَنَذَرُ .... إلخ استئنافا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من حلمه تعالى وسعة جوده أنه لا يعامل عبده بما يستحقه من العقاب ، ولا يعاجله بما يطلبه إن لم يكن فيه سداد وصواب ، حكى أن رجلا قال لبعض الأنبياء - عليهم السلام - : قل لربى : كم أعصيه وأخالفه ولم يعاقبنى ، فأوحى اللّه إلى ذلك النبي : ليعلم أنى أنا وأنت أنت. هـ. بل من عظيم كرمه تعالى أنه قد يعامل

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

(٢) من الآية ٧٧ من سورة الإسراء.

(٣) من الآية ١١ من سورة الإسراء.

السائرين بعكس ما يستحقونه فى جانب المخالفة فقد تهوى بهم أنفسهم إلى مقام الخفض فيرتفعون ، وإلى مقام البعد فيقتربون ، وهذا فى قوم سبقت لهم العناية ، فلم تضرهم الجناية ، وحفت بهم الرعاية ، فلم تستهوهم الغواية ، إذا صدرت منهم المخالفة ندموا وانكسروا. والغالب فيمن كان تحت جناح الأولياء الكبار أن يسلك به هذا المسلك العظيم وما ذلك على اللّه بعزيز.

وإذا كان الحق تعالى يعجل الخير ويمهل الشر ، كان الواجب على العبد شكره على الدوام ، لا الإعراض عنه ونسيانه ، كما نبه عليه تعالى بقوله :

[سورة يونس (١٠) : آية ١٢]

وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)

قلت : (لجنبه) : متعلق بحال محذوفة ، أي : مضطجعا لجنبه ، و(كأن) مخففة يقول الحق جل جلاله : وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ فى بدنه أو ماله أو أحبابه ، دَعانا لإزالته مخلصا فيه ، وتضرع إلينا حال كونه مضطجعا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً ، وفائدة الترديد تقسيم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار ، فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ أي : مضى على طريقه واستمر على كفره ، ولم يشكر اللّه على دفعه ، أو مرّ عن موقف الدعاء ، ولم يرجع إليه. كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا أي : كأنه لم يدعنا إلى كشف ضُرٍّ مَسَّهُ قط نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ «١» كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ أي : مثل هذا التزيين زين للمسرفين ما كانُوا يَعْمَلُونَ من الانهماك فى الشهوات ، والإعراض عن شكر المنعم عند المسرات وذهاب العاهات.

وفى الآية تهديد لمن تشبه بهذه الحالة ، بل الواجب على العبد دوام التجائه إلى ربه ، والشكر له عند ظهور إجابته وإسدال عافيته.

الإشارة : من حسن الأدب السكون تحت مجارى الأقدار ، والتسليم لأحكام الواحد القهار ، «فليس الشأن أن ترزق الطلب ، إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب» ، وحسن الأدب : هو الفهم عن اللّه فإذا شرح صدرك للدعاء ، فادع ولا تكثر ، فإن المدعو قريب ، ليس بغافل فينبه ، ولا ببعيد فتنادى عليه ، فإذا دعوته وأجابك فاشكره ، وإن أخّر عنك

---

(١) الآية ٨ من سورة الزمر.

الإجابة فاصبر فقد ضمن الإجابة فيما يريد ، لا فيما تريد ، وفى الوقت الذي يريد لا فى الوقت الذي تريد. واللّه تعالى أعلم.

ثم هدد من أساء الأدب ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٣ الى ١٤]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ يا أهل مكة ، لَمَّا ظَلَمُوا بالكفر وتكذيب الرسل ، وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ : بالمعجزات الواضحات ، الدالة على صدقهم ، وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا أي : ما استقام لهم أن يؤمنوا ، لما سبق لهم من الشقاء ولفساد استعدادهم ، أو ما كانوا ليؤمنوا بعد أن هلكوا لفوات محله ، كَذلِكَ أي : مثل ذلك الجزاء - وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم الرسل وإصرارهم عليه ، بحيث تحقق أنه لا فائدة فى إمهالهم - نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ أي : نجزى كل مجرم ، أو نجزيهم ، ووضع المظهر موضع المضمر للدلالة على كمال جرمهم ، وأنهم أعلام فيه. قاله البيضاوي.

ثُمَّ جَعَلْناكُمْ يا أمة محمد خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ من بعد إهلاكهم ، فقد استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها ، استخلاف من يختبر لِنَنْظُرَ أي : لنظهر ما سبق به العلم ، فيتبين فى الوجود ، كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، أخيرا أم شرا؟ فنعاملكم على مقتضى أعمالكم.

وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه يقول : «إنما جعلنا خلفا لينظر كيف عملنا ، فأروا اللّه حسن أعمالكم فى السر والعلانية ، وكان أيضا يقول : (قد استخلفت يا ابن الخطاب ، فانظر كيف

تعمل).
الإشارة : ما هلك من هلك إلا لإخلاله بالشرائع أو بالحقائق ، فالشرائع ، صيانة للأشباح ، والحقائق صيانة للأرواح ، فمن قام بالشرائع كما ينبغى صان نفسه من الآفات الدنيوية والأخروية ، ومن قام بالحقائق على ما ينبغى ، صان روحه من الجهل بالله فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، ومن قام بهما معا صان جسمه وروحه ، وكان من المقربين ، ومن قام بالشرائع دون الحقائق صان جسمه وترك روحه معذبة فى هذه الدار بالخواطر والوساوس والأوهام ، وفى تلك الدار بالبعد والمقام مع العوام. ومن قام بالحقائق دون الشرائع فإن كان دعوى عذب جسمه وروحه لزندقته ، وإن كان حقا عذب جسمه هنا بالقتل ، كما فعل بالحلاج ، والتحق بالمقربين فى تلك الدار.

(٤٥٦/٢)

ويقال لأهل كل عصر : ولقد أهلكنا القرون من قبلكم بالبعد وغم الحجاب ، لما ظلموا بالوقوف مع الحظوظ والشهوات ، وجاءتهم رسلهم التي توصلهم إلى ربهم - وهم أولياء زمانهم - بالآيات الواضحة على صدقهم ، ولو لم يكن إلا هداية الخلق على يديهم - فأنكروهم ، وما كانوا ليؤمنوا بهم لما سبق لهم من البعد ، ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم ، لننظر كيف تعملون مع شيوخ التربية فى زمانكم ، هل تنكرونهم أو تقرونهم. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر حال أهل الإنكار ، فقال :
[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٥ الى ١٦]
وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)
يقول الحق جل جلاله : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ يعنى كفار قريش آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا من المشركين ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أي : بكتاب آخر ليس فيه ما نستبعده من البعث والحساب ، والعقاب بعد الموت ، أو ما ذكره من سب آلهتنا ، وعيب ديننا ، أو اجعل هذا الكلام الذي من قبلك على اختيارنا ، فأحل ما حرمته ، وحرم ما أحللته ليكون أمرنا واحدا وكلمتنا متصلة ، أَوْ بَدِّلْهُ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى.
قُلْ لهم يا محمد : ما يَكُونُ : ما يصح لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي : من قبل نفسى ، وإنما اكتفى بالجواب المذكور عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر ، قل لهم : أَنْ أي : ما أَتَّبِعُ إِلَّا

ما يُوحى إِلَيَّ ، لا أقدر أن أقول شيئا من عندى. قال البيضاوي : هو تعليل لما يكون ، فإن المتبع لغيره فى أمر لم يستبد بالتصرف فيه بوجه ، وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات لبعض ، ورد لما عرّضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامه واختراعه ، ولذلك قيد التبديل فى الجواب وسماه عصيانا فقال : إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ يوم القيامة ، وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح. هـ.

قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أرسلنى إليكم ، ولا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ، وَلا أَدْراكُمْ أي : أعلمكم بِهِ على لسانى. وفى قراءة ابن كثير : «ولأدراكم» ، بلام التأكيد ، أي : لو شاء اللّه ما تلوته عليكم ولأعلمكم به على لسان غيرى.

(٤٥٧/٢)

والمعنى أنه الحق لا شك فيه ، لو لم أرسل به أنا لأرسل به غيرى. وحاصل المعنى : أن الأمر بمشيئة اللّه لا بمشيئتى ، حتى أجعله على نحو ما تشتهون. ثم قرر ذلك بقوله : فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً منذ أربعين سنة مِنْ قَبْلِهِ أي : من قبل نزول هذا القرآن ، لا أتلوه ولا أعلم منه شيئا ، وفيه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة ، فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يدرس فيها علما ، ولا يشاهد عالما ، ولم ينشد قريضا - أي شعرا - ولا خطبة ، ثم قرأ عليهم كتابا أعجزت فصاحته كل منطيق ، وفاق كل منظوم ومنثور ، واحتوى على قواعد علمى الأصول والفروع ، وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هى عليه ، علم أنه معلم به من عند اللّه. قاله البيضاوي.

فكل من له عقل سليم أدرك حقّيته ، ولذلك قرعهم بقوله : أَفَلا تَعْقِلُونَ أي : أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر ، فتعلموا أنه ليس من طوق البشر ، بل هو من عند الحكيم العليم الواحد القهار.

الإشارة : إذا ظهر أهل التربية الداعون إلى اللّه بطريق صعبة على النفوس ، يسيرون الناس عليها ، كخرق العوائد وتخريب الظواهر والتجريد ، قال من لا يرجو الوصول إلى اللّه - لغلبة الهوى عليه : ائتونا بطريق غير هذا لنتبعكم عليه ، يكون سهلا على النفوس ، موافقا لعوائدنا ، أو بدلوا هذا بطريق أسهل ، وأما هذا الذي أتيتم به ، فلا نقدر عليه ، وربما رموه بالبدعة ، فيقولون لهم : ما يكون لنا أن نبدله من تلقاء أنفسنا ، إن نتبع إلا ما سلك عليه أشياخنا وأشياخهم ، فما ربّونا به نربّى به من تبعنا ، فإن خالفنا طريقهم خفنا من عقاب اللّه ، حيث غششنا من اتبعنا ، وقد مكثنا معكم قبل صحبة أشياخنا سنين ، فلم تروا علينا شيئا من ذلك حتى صحبناهم ، فدل ذلك على أنه موروث عن أشياخهم وأشياخ أشياخهم ، أفلا تعقلون؟.

ثم سجل بالظلم على من كذب أو كذّب ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٧ الى ١٨]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)

يقول الحق جل جلاله : فَمَنْ أَظْلَمُ لا أحد أظلم مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بأن تقوّل على اللّه ما لم يقل ، وهذا بيان لبراءته مما اتهموه به من اختراعه القرآن ، وإشارة إلى كذبهم على اللّه فى نسبة الشركاء له

(٤٥٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٥٩

والولد ، أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ فكفر بها ، فلا أظلم منه إِنَّهُ أي : الأمر والشأن لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ أي : لا يظفرون ببغيتهم ، ولا تنجح مساعيهم لاشراكهم باللّه. كما قال تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ من الجمادات التي لا تقدر على ضر ولا نفع ، والمعبود ينبغى أن يكون مثيبا ومعاقبا حتى تكون عبادته لجلب نفع أو دفع ضر. وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ الأوثان شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا ، أو فى الآخرة إن يكن بعث ، وكأنهم كانوا شاكين فيه ، وهذا من فرط جهالتهم ، حيث تركوا عبادة الموجد للأشياء ، الضار النافع ، إلى عبادة ما يعلم قطعا أنه لا يضر ولا ينفع. قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ أتخبرونه بِما لا يَعْلَمُ وجوده فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وهو أن له شريكا فيهما يستحق أن يعبد. وفيه تقريع وتهكم بهم.

قال ابن جزى : هو رد عليهم فى قولهم بشفاعة الأصنام ، والمعنى : أن شفاعة الأصنام ليست بمعلومة للّه الذي هو عالم بما فى السموات والأرض ، وكل ما ليس بمعلوم له فهو عدم محض ، ليس بشىء ، فقوله : أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ تقرير لهم على وجه التوبيخ والتهكم ، أي : كيف تعلمون اللّه بما لا يعلم. هـ. قال ابن عطية : وفى التوقيف على هذا أعظم غلبة لهم ، إذ لا يمكنهم إلا أن يقولوا : لا نفعل ولا نقدر أن نخبر اللّه بما لا يعلم.

ثم نزّه نفسه عن ذلك فقال : سُبْحانَهُ وَتَعالى أي : تنزيها له وتعاظم عَمَّا يُشْرِكُونَ أي : إشراكهم ، أو عن الشركاء الذين يشركونهم معه. وقرأ الأخوان : بالتاء ، أي : عما تشركون أيها الكفار.

الإشارة : فى هذه الآية زجر كبير لأهل الدعوى ، الذين ادعوا الخصوصية افتراء ، ولأهل الإنكار الذين كذبوا من ثبتت خصوصيته ، وتسجيل عليهم بالإجرام ، وبعدم النجاح والفلاح ، وفيها أيضا : زجر لمن

اعتمد على مخلوق فى جلب نفع أو دفع ضر ، أو اغتر بصحبة ولى يظن أنه يشفع له مع إصراره وعظيم أوزاره. واللّه تعالى أعلم.
ثم إن اختلاف الناس على الأنبياء وتكذيبهم وإشراكهم إنما هو أمر عارض ، حصل لهم باندراس العلم وقلة الإنذار ، كما قال تعالى :
[سورة يونس (١٠) : آية ١٩]
وَما كانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)
يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً موحّدين ، على الفطرة الأصلية ، أو متفقين على الحق ، وذلك فى عهد آدم ، إلى أن قتل قابيل أخاه هابيل ، أو بعد الطوفان إلى زمان اختلافهم ، أو الأرواح

(٤٥٩/٢)

حيث استخرجهم واستشهدهم ، فاتفقوا على الإقرار ، ثم اختلفوا فى عالم الأشباح باتباع الهوى والأباطيل ، أو ببعثة الرسل فتبعتهم طائفة وكفرت أخرى. وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ فى اللوح المحفوظ ، بتأخير الحكم ، أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة ، فإنه يوم الفصل والجزاء ، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ عاجلا فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ بإهلاك المبطل وإبقاء المحق.
الإشارة : اختلاف الناس على الأولياء كاختلافهم على الأنبياء ، أمر سبق به الحكم الأزلى لا محيد عنه ، فمن طلب اتفاقهم عليه فهو جاهل بالله وبطريق أهل اللّه. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر اقتراحهم الآيات ، فقال :
[سورة يونس (١٠) : آية ٢٠]
وَيَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)
يقول الحق جل جلاله : وَيَقُولُونَ يقول الكفار : لَوْ لا هلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ظاهرة مِنْ رَبِّهِ تدل على صدقه ، يعاينها الناس كلهم ، فتلجئهم إلى الإيمان به ، وهذا الأمر على هذا الوجه لم يكن لنبى قط ، إنما كانت الآية تظهر معرّضة للنظر ، فيهتدى بها قوم ، ويكفر بها آخرون ، فَقُلْ لهم : إِنَّمَا علم الْغَيْبُ لِلَّهِ مختص به ، فلم أطّلع عليه حتى أعلم وقت نزولها ، ولعله علم ما فى نزولها من الضرر لكم فصرفها عنكم ، فَانْتَظِرُوا نزول ما اقترحتموه ، إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ لذلك ، وهذا وعد قد صدقه اللّه بنصرته - عليه الصلاة السلام - وأخذهم ببدر وغيره ، أو من المنتظرين لما يفعل اللّه بكم لعنادكم وجحودكم

الآيات.

الإشارة : ما زالت العامة تطلب من مشايخ التربية الكرامات ، فجوابهم ما قال تعالى لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم : (قل إنما الغيب لله) فانتظروا ما يظهر على أيديهم من الهداية والإرشاد ، وإحياء البلاد والعباد بذكر اللّه ، وهذا أعظم الكرامة ، فإن إخراج الناس عن عوائدهم وعن دنياهم خارق للعادة ، سيما فى هذا الزمان الذي احتوت فيه الدنيا على القلوب ، فلا ترى عالما ولا صالحا ولا منتسبا إلا وهو مغروق فى بحر ظلماتها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم ذكر جزئيات من الآيات لمن فهم واعتبر ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٢١ الى ٢٣]

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)

قلت : (جاءتها) : جواب «إذا» ، وجملة (دعوا) : بدل من «ظنوا» بدل اشتمال لأن دعاءهم من لوازم الظن.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ، كصحة وعافية وخصب مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ ، كمرض أو قحط إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا بالطعن فيها ، والاحتيال فى دفعها ، فقد قحط أهل مكة حتى أكلوا الجلود والميتة ، ثم رحمهم بالغيث ، فطعنوا فى آياته بالتكذيب ، وكادوا رسوله - عليه الصلاة والسلام - قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً منكم ، فقد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم ، ووصف مكر اللّه بالسرعة وإن كان الاستدراج يمهلهم لأنه متيقن واقع لا محالة ، وكل آت قريب.

إِنَّ رُسُلَنا الحفظة يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ فنجازيكم عليه. قال البيضاوي : هو تحقيق للانتقام ، وتنبيه على أن ما يدبرون فى إخفائه لم يخف على الحفظة فضلا أن يخفى على اللّه. وعن يعقوب : «يمكرون» بالياء ليوافق ما قبله. هـ. قال ابن جزى : هذه الآية للكفار ، وتتضمن النهى لمن كان كذلك من غيرهم ، والمكر هنا :

الطعن فى آيات اللّه وترك شكره ، ومكر اللّه الموصوف بالسرعة هو عقابه لهم ، سماه مكرا مشاكلة لفعلهم ، وتسمية للعقوبة باسم الذنب. هـ.

فنزول الرحمة بعد الشدة آية تدل على كمال قدرته. وقد ورد أنه لما نزل بهم القحط التجئوا إليه صلّى اللّه عليه وسلّم وقالوا :

يا محمد إنك جئت تأمر بمكارم الأخلاق ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع اللّه يغيثنا ، فدعا ، فنزل عليهم الغيث ، فكانت معجزة له - عليه الصلاة والسلام - .

ثم ذكر آية أخرى فقال : هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ بقدرته فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ : السفن ، وَجَرَيْنَ بِهِمْ بمن فيها ، عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة ، كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم ، ففيه التفات. ومقتضى القياس : وجرين بكم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ : لينة الهبوب ، وَفَرِحُوا بِها لسهولة السير بها ، جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ أي : شديد الهبوب ، وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ من كل جهة لهيجان البحر حينئذ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ أي : أهلكوا ، أو سدت عليهم مسالك الخلاص ، كمن أحاط به العدو.

(٤٦١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٦٢

قال ابن عطية : ركوب البحر وقت حسن الظن به للجهاد والحج متفق على جوازه ، وكذا لضرورة المعاش بالصيد ويتصرف للتجر ، وأما ركوبه لطلب الدنيا والاستكثار فمكروه عند الأكثر. قلت : ما لم يكن لبلد تجرى فيه أحكام الكفار على المسلمين وإلّا حرم. ثم قال : وأما ركوبه وقت ارتجاجه فممنوع ، وفى الحديث : «من ركب البحر فى ارتجاجه فقد برئت منه الذمة» وقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «البحر لا أركبه أبدا».

وعن على - كرم اللّه وجهه - أنه قال : لو لا هذه الآية ، لضربت عنق من يركب البحر. فقال ابن عباس : إنى لأعلم كلمات من قالهن عند ركوب البحر وأصابه عطب فعلىّ ديته ، قيل : وما هى؟ قال : اللهم يا من له السموات خاشعة ، والأرضون السبع خاضعة ، والجبال الراسية طائعة ، أنت خير حفظا وأنت أرحم الراحمين ، وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ «١» صلى اللّه على محمد النبي المصطفى ، وعلى أهل بيته ، وأزواجه وذريته ، وعلى جميع النبيين والمرسلين ، والملائكة المقربين ، وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «٢». قال بعض الفضلاء :

جربته فصح. هـ.

ثم قال تعالى فى وصف الكفار عند إحاطة البحر بهم : دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ من غير إشراك لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدة الخوف ، قائلين : لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ الشدة لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إجابة لدعائهم إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بالكفر والمعاصي ، بِغَيْرِ الْحَقِّ أي : سارعوا إلى ما كانوا عليه من البغي والفساد فى الأرض بغير الحق ، واحترز بقوله : بِغَيْرِ الْحَقِّ عن تخريب المسلمين ديار الكفرة ، وإحراق زروعهم ، وقلع أشجارهم ، فإنها إفساد بحق. قاله البيضاوي.
قلت : وفى كونه بغيا نظر ، والأظهر أن قوله : بِغَيْرِ الْحَقِّ تأكيد لا مفهوم له.
يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ فإن وباله عائد عليكم ، أو على أبناء جنسكم ، وذلك مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا تتمتعون به ساعة ، ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فى القيامة ، فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بالجزاء عليه.
الإشارة : وإذا أذقنا الناس حلاوة المعرفة والعلم ، بعد ضرر الجهل والغفلة ، إذا لهم مكر فى آياتنا وهم الأولياء والمشايخ ، الذين فتح اللّه بسببهم عليهم - بالطعن عليهم والانتقال عنهم ، كما يفعله بعض المريدين ، أو جلّ طلبة

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر.
(٢) الآية ٤١ من سورة هود.

العلم ، بنسيان مشايخهم ونسيان العهد إليهم ، قل اللّه أسرع مكرا بهم ، فيريهم أن الأمداد باقية ، تجرى عليهم استدراجا ، ثم يحبس ذلك عنهم فتيبس أشجار معانيهم ، وتظلم قلوبهم.
ثم قال تعالى : هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ إليه فى بر الشريعة ، وبحر الحقيقة ، فيقع السير بينهما ، فإذا كانت الشريعة أقوى نقص له منها وزاد فى حقيقته ، وإذا قويت حقيقته نقص له منها إلى شريعته ، هكذا حتى تعتدلا ، فتكمل تربيته ، فإذا ركبوا سفن الأفكار وساروا بأرواحهم فى تيار البحار ، فخاضوا بأفكارهم بحار التوحيد وأسرار التفريد ، وجرت أفكارهم فى عالم الملكوت بريح طيبة - وهى ريح السلوك - جاءتها ريح عاصف ، وهى الواردات الإلهية ، تأتى من حضرة القهار ، لا تصادم شيئا إلا دمغته ، فإذا خافوا على نفوسهم صدمات الجذب أو المحو دعوا اللّه مخلصين له الدين ، فلما ردهم إلى السلوك اشتغلوا برياضة نفوسهم بالمجاهدة والمكابدة ، فبغوا عليها كما بغت عليهم فى أيام غفلتهم. وباللّه التوفيق.
ثم حذّر من زهرة الدنيا ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٢٤ الى ٢٥]
إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا فى سرعة تقضيها ، وذهاب نعيمها بعد إقبالها ، واغترار الناس بها كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ أي : اشتبك بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ حتى اختلط بعضه ببعض ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ من الزرع والبقول والحشيش ، حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها أي :
زينتها وبهجتها بكمال نباتها ، وَازَّيَّنَتْ أي : تزينت بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة كعروس أخذت من ألوان الثياب والحلي فتزينت بها.

وَظَنَّ أَهْلُها أي : أهل الأرض أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها متمكنون من حصدها ورفع غلتها ، أَتاها أَمْرُنا أي : بعض الجوائح ، كالريح والمطر ، لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها أي : زرعها حَصِيداً : شبيها بما

(٤٦٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٦٤

حصد من أصله ، كَأَنْ لَمْ تَغْنَ : كأن لم تقم بِالْأَمْسِ ، أو كأن لم يغن زرعها ، أي : لم ينبت. والمراد : تشبيه الدنيا فى سرعة انقضائها بنبات أخضرّ ثم صار هشيما ، كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ويتدبرون عواقب الأمور ، فيعلمون أن الدنيا سريعة الزوال ، وشيكة التغير والانتقال ، فيزهدون فيها ويجعلونها مزرعة لدار السلام ، التي هى دار البقاء.

وهى التي دعا إليها عباده بقوله : وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ أي : السلامة من الفناء وجميع الآفات ، أو دار اللّه الذي هو السلام. وتخصيص هذا الاسم للتنبيه على ذلك ، أو دار يسلم اللّه والملائكة فيها على من يدخلها ، وهى الجنة ، وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ توفيقه إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ، التي توصل إليها وإلى رضوانه فيها ، وهو الإسلام والتدرع بلباس التقوى ، وفى تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة ، وأن المصرّ على الضلالة لم يرد اللّه رشده. قاله البيضاوي.

الإشارة : ما ذكره الحق تعالى فى هذه الآية هو مثال لمن صرف همته إلى الدنيا ، وأتعب نفسه فى جمعها ، فبنى وشيد وزخرف وغرس ، فلما أشرف على التمتع بذلك اختطفته المنية ، فلا ما كان أمّل أدرك ، ولا إلى ما فاته من العمل الصالح رجع.

وفى بعض خطبه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : «أما رأيتم المؤاخذين على الغرة ، المزعجين بعد

الطمأنينة ، الذين أقاموا على الشبهات ، وجنحوا إلى الشهوات ، حتى أتتهم رسل ربهم ، فلا ما كانوا أمّلوا أدركوا ، ولا ما فاتهم رجعوا ، قدموا على ما قدّموا ، وندموا على ما خلفوا ، ولم ينفع الندم وقد جف القلم». وقال أيضا صلّى اللّه عليه وسلّم :

«لا تخدعنكم زخارف دنيا دنية عن مراتب جنات عالية ، فكأن قد كشف القناع ، وارتفع الارتياب ولا فى كل امرئ مستقره ، وعرف مثواه ومنقلبه».

وروى عن جابر رضى اللّه عنه أنه قال : شهدت مجلسا من مجالس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، إذ أتاه رجل أبيض ، حسن الشعر واللون ، فقال : السلام عليك يا رسول اللّه ، قال : وعليك السلام. قال : يا رسول اللّه ، ما الدنيا؟ فقال : حلم النائم ، وأهلها مجازون ومعاقبون. قال : يا رسول اللّه ، فما الآخرة؟. قال : الأبد ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، قال : يا رسول اللّه ، فما الجنة؟ قال : ترك الدنيا بنعيمها أبدا ، ثم قال : فما خير هذه الأمة؟ قال : الذي يعجل بطاعة اللّه ، قال : فكيف يكون الرجل فيها؟ - أي فى الدنيا - قال : متشمرا كطالب قافلة ، قال : وكم القرار بها؟ قال : كقدر المتخلف عن القافلة ، قال : فكم ما بين الدنيا والآخرة؟ قال كغمضة عين. ثم ذهب الرجل فلم ير ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «هذا جبريل ، أتاكم يزهدكم فى الدنيا».

(٤٦٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٦٥

وقال الورتجبي عند قوله : وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ : الله تعالى يدعو العباد من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية ، لئلا يفتنوا بزخرفها وغرورها ، وليصلوا إلى جواره ونعيم مشاهدته. هـ.

قال المحشى : قلت : وذلك أن أعلى اللذات التحقق بصفات الربوبية ، وهى محبوبة للقلب والروح بالطبع ، لما فيه من المناسبة لها. ولذلك قال : قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي «١» ، ثم المناسب إنما هو بقاء لا فناء فيه ، وعز لا ذل فيه ، وغنى لا فقر فيه ، وكمال لا نقص فيه ، وأمن لا خوف فيه ، وهذا كله من أوصاف الربوبية ، وحق كل عبد أن يطلب ملكا عظيما لا آخر له ، ولا يكون ذلك فى الدنيا لانصرافها وشوبها بآلام مكدّرات ، وإنما ذلك فى الآخرة ، ولكن الشيطان بتلبيسه وحسده يدعو إلى ما لا يدوم من العاجلة ، متوسلا بما فى الطبع من العجلة ، واللّه يدعو إلى الملك الحقيقي ، وذلك بالزهد فى العاجل والراحة منه عاجلا ، ليكون ملكا فى الدنيا ، وبالقرب من اللّه والرغبة فى التحقق به وبأوصافه ليكون ملكا فى الآخرة.

وفى الطيبي : قيل لابن أدهم : مالنا ندعو فلا نجاب؟ فقال : لأنه دعاكم فلم تجيبوه ، ثم قرأ : وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ ، وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا «٢». هـ.

ثم فسر ما دعا إليه ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٢٦]

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فيما بينهم وبين ربهم بتوحيده وعبادته ، وفيما بينهم وبين عباده بكف أذاهم وحمل جفاهم ، لهم الْحُسْنى أي : المثوبة الحسنى ، وهى الجنة وزيادة ، وهى النظر إلى وجهه الكريم ، أو الحسنى : ما يثيب به على العمل ، والزيادة : ما يزيد على ما يستحق العبد تفضلا كقوله :

وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ «٣» ، أو الحسنى : مثل حسناتهم ، والزيادة : التضعيف بعشر أمثالها إلى سبعمائة أو أكثر ، وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ : لا يغشاها قَتَرٌ : غبرة فيها سواد تغبر الوجه وَلا ذِلَّةٌ أي : هوان ، والمعنى لا يرهقهم ما يرهق أهل النار ، أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من خزى وسوء حال ، أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ : دائمون ، لا زوال لهم عنها ، ولا انقراض لنعيمها ، بخلاف الدنيا وزخارفها فقد تقدم مثالها.

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء. [.....]

(٢) من الآية ٢٦ من سورة الشورى.

(٣) من الآية ١٧٣ من سورة النساء.

الإشارة : للذين أحسنوا بالانقطاع إلى اللّه والزهد فيما سواه ، الحسنى ، وهى المعرفة ، وزيادة ، وهى الترقي فى المقامات ، والعروج فى سماء المشاهدات ، والازدياد من الأسرار والمكاشفات ، وترداف المناجاة والمكالمات ، ولا يغشى وجوههم قتر ولا ذلة ، بل وجوههم بنور البقاء ضاحكة مستبشرة ، وهم خالدون فى نعيم الفكرة والنظرة.

ثم ذكر أضدادهم ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٢٧]

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٧)

قلت : (و الذين) : مبتدأ على حذف مضاف ، أي : جزاء الذين كسبوا ، و(جزاء) : خبر. أو على تقدير «لهم» ، أو معطوف على (للذين أحسنوا) على مذهب من يجوز : فى الدار زيد والحجرة عمرو. أو (جزاء) : مبتدأ ، و(بمثلها) :
خبر ، والجملة حينئذ كبرى. ومن قرأ (قطعا) بفتح الطاء فجمع قطيع ، وهو مفعول ثان ، و(مظلما) : حال من الليل ، ومن قرأ (قطعا) بالسكون فمصدر ، و(مظلما) نعت له ، أو حال منه أو من الليل.
يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ كالكفر والشرك ، وما يتبعهما من المعاصي ، جزاؤهم سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها لا يزاد عليها ، فلا تضاعف سيئاتهم ، عدلا منه سبحانه ، وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ أي : هوان عند حشرهم للنار ، ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ يعصمهم من عذاب اللّه وغضبه ، كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أي : يحشرون مسودة وجوههم ، كأنما أكسيت وجوههم قطعا كثيرة من الليل المظلم ، أو قطعا مظلما من الليل ، أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ.
قال البيضاوي : هذا مما يحتج به الوعيدية - يعنى المعتزلة - فى تخليد العصاة. والجواب : أن الآية فى الكفار لاشتمال السيئات على الكفر والشرك ، ولأن الذين أحسنوا يتناول الكثير من أهل القبلة ، فلا يتناوله قسيمه. هـ.
الإشارة : جزاء المعاصي البعد والهوان ، وتسويد وجوه القلوب والأبدان ، كما أن جزاء الطاعة التقريب والإبرار ، وتنوير وجوه القلوب والأسرار والإحسان ، وفى ذلك يقول ابن النحوي فى منفرجته :
ومعاصي اللّه سماجتها تزدان لذي الخلق السّمج «١»
ولطاعته وصباحتها أنوار صباح منبلج

---

(١) سماجتها : من سمج - بالضم - أي : قبح - وتزدان ، أي : تتزين وتحسن ، والسمج : القبيح.

قيل لبعض الصالحين : ما بال المجتهدين من أحسن الناس خلقا؟ قال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره. هـ نعم ، إن صحب المعصية توبة وانكسار ، وصحب الطاعة عز واستكبار ، انقلبت حقيقتهما ، فقد تقرب المعصية وتبعد الطاعة. وفى الحكم : «معصية أورثت ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبار ، وقال أيضا :
«وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول».
ثم ذكر موطن وعد المحسنين ووعيد المسيئين ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٢٨ الى ٣٠]
وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (٢٩) هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)
قلت : (مكانكم) : مفعول ، أي : الزموا مكانكم ، و(أنتم) تأكيد للضمير المنتقل إليه ، و(شركاؤكم) عطف عليه.
يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يعنى فريق الحسنى ، وفريق النار ، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا : الزموا مَكانَكُمْ من الخزي والهوان ، حتى تنظروا ما يفعل بكم ، أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ معكم ، تمثل حينئذ معهم ، فَزَيَّلْنا : فرّقنا بَيْنَهُمْ وقطعنا الوصل التي كانت بينهم ، وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ، ينطقها اللّه تعالى تكذيبا لهم فتقول : ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ ، وإنما عبدتم فى الحقيقة أهواءكم لأنها الأمارة لكم بالإشراك.
وقيل المراد بالشركاء : الملائكة والمسيح.
فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ ، فإنه العالم بحقيقة الحال ، إِنْ كُنَّا أي : إنه الأمر والشأن كنا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ ، لم نأمركم بها ولم نرضها. قال ابن عطية : وظاهر هذه الآية أن محاورتهم إنما هى مع الأصنام دون الملائكة وعيسى ، بدليل القول لهم : مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ. ودون فرعون ، ومن عبد من الجن ، بدليل قوله : إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ ، وهؤلاء لم يغفلوا قط عن عبادة من عبدهم. هـ.
هُنالِكَ تَبْلُوا : فى ذلك المقام تبلوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ أي : تختبر ما قدمت من الأعمال خيرا أو شرا فتعاين نفعه وضرره ، وقرأ الأخوان : «تتلوا» من التلاوة ، أي : تقرأه فى صحائف أعمالها ، أو من التلو ، أي :
تتبع عملها فتقودها إلى الجنة أو إلى النار. والمعنى : تفعل بها فعل المختبر لحالها المعرّف لسعادتها وشقاوتها ،

فتعرف ما أسلفت من أعمالها ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ : إلى جزائه إياهم بما أسلفوا ، مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أي متولّى أمورهم على الحقيقة ، لا ما اتخذوه مولى بافترائهم ، وَضَلَّ أي : ضاع وغاب عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ من أن آلهتهم تشفع لهم ، أو ما كانوا يدّعون أنها آلهة.
الإشارة : من أحب شيئا كان عبدا له ، ومن عبد شيئا حشر معه. روى : أن الدنيا تبعث على صورة

عجوز شمطاء زرقاء ، تنادى : أين أولادى وأحبابى؟ ثم تذهب إلى جهنم فيذهبون معها. فمن عبد دنياه وهواه وقف موقف الهوان ، ومن أحب مولاه ولم يحب معه شيئا سواه ، وقف موقف العز والتقريب فى مواطن الإحسان. فهناك تفضح السرائر ، وتكشف الضمائر ، وتظهر مقامات الرجال ، ويفتضح من أسر النقص وادعى الكمال فيرتفع المقربون إلى شهود مولاهم الحق ، ويبقى المدعون مع حظوظهم فى حجاب الحس والخلق. واللّه تعالى أعلم.

ثم عرفهم من يستحق العبادة ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣١ الى ٣٣]

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ بإنزال الأمطار ، وإنبات الحبوب ، فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية ، أو من كل واحد منهما توسعة عليكم ، أو من السماء لأهل التوكل ، وَمن الْأَرْضِ لأهل الأسباب. وقل لهم أيضا : أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ أي : من يستطيع خلقهما وتسويتهما ، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتهما ، وسرعة انفعالهما من ادنى شيء ، أو من أمرهما بيده ، إن شاء ذهب بهما؟ وقل لهم أيضا : وَمَنْ يقدر أن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، فيخرج الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان؟ وهكذا.

وقل لهم أيضا : وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أي : ومن يلى تدبير العالم ، من عرشه إلى فرشه؟ وهو تعميم بعد تخصيص ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، لا محيص لهم عن الإقرار بسواه إذ لا يقدرون على المكابرة والعناد فى ذلك لفرط وضوحه. فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ عقاب اللّه وغضبه؟ بسبب إشراككم معه ما لا يشاركه فى شيء من ذلك ، فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ أي : المتولى لهذه الأمور هو ربكم ، الذي يستحق أن تعبدوه ، الثابت ربوبيته ، لأنه هو

الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم ، دون من تعبدونه من الأوثان. فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ أي :

ليس بعد الحق إلا الضلال ، فمن تخطى الحق - الذي هو عبادة اللّه - وقع فى الضلال.

قال ابن عطية : حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة فى هذه المسألة – التي هى توحيد اللّه تعالى – وكذلك هو الأمر فى نظائرها ، وهى مسائل الأصول التي الحقّ فيها فى طرف واحد ، لأن الكلام فيها إنما هو فى تقرير وجود ذات كيف هى ، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال تعالى فيها : لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً «١». هـ.

فَأَنَّى تُصْرَفُونَ عن الحق إلى الضلال.

كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أي : كما حق الحق فى الاعتقادات كَذلِكَ حَقَّتْ أي : وجبت وثبتت –كَلِمَةُ رَبِّكَ فى اللوح المحفوظ أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ، وذلك فى قوم مخصوصين. قال البيضاوي : أي : كما حقت الربوبية لله ، أو أن الحق بعده الضلال ، أو أنهم مصروفون عن الحق ، كذلك حقت كلمة اللّه وحكمه عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا : تمردوا فى كفرهم ، وخرجوا عن حد الإصلاح أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ، وهو بدل من الكلمة ، أو تعليل لها ، والمراد بها العدة بالعذاب. وقرأ نافع وابن عامر :

«كلمات» بالجمع هنا ، وفى آخر السورة ، وفى غافر «٢». هـ.

الإشارة : قل من يرزقكم من سماء الأرواح علوم الأسرار والحقائق ، ومن أرض النفوس علوم الشرائع والطرائق؟ أمّن يملك السمع والأبصار فيصرفهما إلى سماع الوعظ والتذكار ، ونظر التفكر والاعتبار ليلتحق صاحبهما بالمقربين الأبرار؟ وقدّم السمع لأنه أنفع لإيصال النفع إلى القلب من البصر. أم من يخرج الحي من الميت ، فيخرج العارف من الجاهل ، والذاكر من الغافل ، أو يخرج القلب الحي من الميت بحيث يحييه بالمعرفة بعد الجهل؟ ومن يدبر الأمر لخواص عباده؟ أي : تدبيرا خاصا ، بحيث يقوم لهم بتدبير شئونهم ، حيث لم يدبروا معه.

فمن لم يدبر دبر له ، فالفاعل لهذه الأمور هو الحق المنفرد بالوجود ، فكل ما سواه باطل ، كما قال القائل :

ألا كلّ شىء ما خلا اللّه باطل وكلّ نعيم لا محالة زائل

قال صلّى اللّه عليه وسلّم «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كلّ شىء ...» إلخ «٣». فكل من صرف عن شهود الحق إلى نظر السّوى فهو فى ضلال. قال تعالى فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ، لكن من حقت عليه

---

(١) الآية ٤٨ من سورة المائدة.

(٢) فى قوله تعالى : وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ الآية/ ٦.

(٣) راجع إشارة الآية ١٥٠ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧٠

كلمة الشقاء لا يؤمن بأهل الفناء والبقاء ، فلا يزال فى تعب وشقاء ، إذ لا طريق إلى شهود الحق وإفراده بالوجود إلا بصحبة أهل الفناء والبقاء ، الموصوفين بالكرم والجود ، واعلم أن كل من لم يصل إلى مقام الشهود ، فهو ضال عندهم فى مذهبهم ، وبالله التوفيق.

ثم ذكر عجز آلهتهم ، احتجاجا عليهم ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣٤ الى ٣٥]

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)

قلت : من قرأ (يهدّى) «١» بفتح الهاء ، فأصله : يهتدى ، نقلت حركة التاء إلى الهاء ، وأدغمت فى الدال. ومن قرأ بكسر الهاء فعلى التقاء الساكنين ، حين سكنت التاء لتدغم. ومن كسر الياء فعلى الاتباع ، ومن قرأ بالاختلاس فإشارة إلى عروض الحركة ، ومن قرأ : «يهدى» بالسكون ، فمعناه يهدى غيره.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ بإظهاره للوجود ثُمَّ يُعِيدُهُ بالبعث. فإن قلت كيف يحتج عليهم بالإعادة ، وهم لا يعترفون بها؟ فالجواب : أنها لظهور برهانها وتواتر أخبارها كأنها معلومة عندهم ، فلو أنصفوا ونظروا لأقروا بها ، ولذلك أمر الرسول بأن ينوب عليهم فى الجواب ، فقال : قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لأن لجاجهم وجحودهم لا يتركهم يعترفون بها ، ولذلك قال لهم : فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ : تصرفون عن سواء السبيل. وقُلْ لهم أيضا : هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ بنصب الدلائل ، وإرسال الرسل ، والتوفيق للنظر والتدبر؟ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ. قال البيضاوي : وهدى كما يعدى بإلى لتضمنه معنى الانتهاء ، يعدى باللام للدلالة على منتهى غاية الهداية. انظر تمامه.

أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وهو اللّه أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إلى شىء ، فأولى ألا يهدى غيره إِلَّا أَنْ يُهْدى ؟ أي : إلا أن يهديه غيره ، وهى معبوداتهم ، كالملائكة والمسيح وعزير ، فلا يستطيعون أن يهدوا أنفسهم إلا أن يهديهم اللّه. وحمل ابن عطية الآية على الأصنام ، وقال : معنى قوله : أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى هى

---

(١) فى قوله تعالى : «أمن لا يهدى». وقد قرأ حفص ويعقوب بفتح الباء وكسر الهاء وتشديد الدال ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وورش بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. وقرأ أبو بكر بكسر الياء والهاء ، وقرأ

حمزة والكسائي بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال. وقرأ قالون وأبو عمرو بفتح الياء وتشديد الدال ، واختلف فى الهاء عنهما .. انظر الإتحاف (٢/ ١٠٩).

(٢/٤٧٠)

عبارة عن أنها لا تنتقل إلّا أن تنقل. قال : ويحتمل أن يكون ما ذكره اللّه من تسبيح الجمادات هو اهتداؤه.

ويحتمل أن يكون الاستثناء فى اهتدائها إشارة إلى مذاكرة الكفار يوم القيامة حسبما مضى فى هذه السورة. هـ.

فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أي : أىّ شيء حصل لعقولكم ، فكيف تحكمون بشيء يقتضى العقل بطلانه بأدنى تفكر؟.

الإشارة : فى الآية تحريض على رفع الهمة عن السّوى ، إلى من بيده البدء والإعادة ، والإرشاد والهداية ، إلا من جعل على يديه الإرشاد والهداية ، وهم الأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء ، فالخضوع إليهم خضوع إلى اللّه على الحقيقة ، واتباعهم اتباع لله على الحقيقة ، وكل من تبع غيرهم فإنما يتبع الظن والهوى دون الحق ، كما أبان ذلك بقوله تعالى :

[سورة يونس (١٠) : آية ٣٦]

وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (٣٦)

يقول الحق جل جلاله : وَما يَتَّبِعُ أكثر المشركين فى اعتقادهم إِلَّا ظَنًّا مستندا إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة ، كقياس الغائب على الشاهد ، والخالق على المخلوق ، بأدنى مشاركة موهومة. والمراد بالأكثر :

الجميع ، أو من ينتسب منهم إلى تمييز ونظر ، ولم يرض بالتقليد الصرف ، إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ من علم التحقيق شَيْئاً ، أو مِنَ الاعتقاد الْحَقِّ شَيْئاً من الإغناء. قال البيضاوي : وفيه دليل على أن تحصيل العلم فى الأصول واجب ، وأن الاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز. هـ. وعدم الاكتفاء بالظن إنما هو فى الأصول ، وأما الفروع فالظن فيها كاف. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ ، هذا وعيد لهم على اتباعهم الظن ، وإعراضهم عن النظر والاستدلال ، وعلى عدم اتباعهم من يدلهم على الحق. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الناس على قسمين : أهل تصديق وإيمان ، وأهل شهود وعيان. فأهل التصديق والإيمان هم عامة أهل اليمين ، وهم أكثر المسلمين من العلماء والصالحين ، يستندون فى معرفتهم بالله إلى الدليل

والبرهان ، فتارة يقوى عندهم الدليل فيترقّون عن اتباع الظن إلى الجزم والتصميم ، وتارة يضعف فيرجعون إلى اتباع الظن الراجح.

وأما أهل الشهود والعيان ، فقد غابت عنهم الأكوان فى شهود المكوّن ، فصاروا يستدلون بالله على وجود غيره ، فلا يجدونه ، حتى قال بعضهم : لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع ، فإنه لا غير معه حتى أشهده ، محال أن تشهده وتشهد معه سواه. وقال شاعرهم :

مذ عرفت الإله لم أر غيرا وكذا الغير عندنا ممنوع

مذ تجمّعت ما خشيت افتراقا فأنا اليوم واصل مجموع

(٤٧١/٢)

وقال آخر :

عجبت لمن يبغى عليك شهادة وأنت الّذى أشهدته كلّ شاهد

وقال فى الحكم : «شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه ، المستدل به عرف الحق لأهله ، فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ، وإلا .. فمتى غاب حتى يستدل عليه ، ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التي توصل إليه!».

ولا مطمع لأحد فى التطهير من الظنون والأوهام إلا بصحبة شيخ كامل عارف بالله ، فيلقى إليه نفسه ، فلا يزال يسير به ، حتى يقول له : ها أنت وربك ، فحينئذ ترتفع عنه الشكوك والظنون والأوهام ، ويبلغ فى مشاهدة الحق إلى عين اليقين وحق اليقين. وأما قول الجنيد رضى اللّه عنه : (أدركت سبعين صديقا ، كلهم يعبدون اللّه على الظن والوهم ، حتى الشيخ أبا يزيد ، ولو أدرك صبيا من صبياننا لأسلم على يديه). فقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه :

معنى كلامه : أنهم ظنوا وتوهموا أنهم بلغوا إلى مقام النهاية ، بحيث لا مقام فوق ذلك ، ولو أدرك أحدهم صبيا لنبههم على أن ما فاتهم أكثر مما أدركوا ولا نقادوا له. هـ بالمعنى. واللّه تعالى أعلم.

ولما ذكر أن اتباع الظن غير كاف ، ذكر ما يجب اتباعه وهو القرآن ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣٧ الى ٤٠]

وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ

قلت : «تصديق» : مصدر ، والعامل فيه «كان» محذوفة ، أو «أنزل» ، و«لا ريب» : خبر ثالث لها ، و«من رب العالمين» : خبر آخر ، أي : كائنا من رب العالمين ، أو متعلق بتصديق أو بتفصيل ، و«لا ريب» : اعتراض ، أو بالفعل المعلل بهما – وهو «نزل» – ويجوز أن يكون حالا من «الكتاب» ، أو من الضمير فى «فيه» ، و«أم» : منقطعة بمعنى بل مع الاستفهام الإنكارى ، و«كيف» خبر كان.
يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : ما صح له أن يفترى من الخلق ، إذ لا قدرة له على ذلك ، وَلكِنْ كان تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب ، أو : ولكن أنزله تصديقا

(٤٧٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧٣
لما سلف قبله من الكتب الإلهية ، المشهود على صدقها لأنه مطابق لها ، فلا يكون كذبا ، كيف وهو لكونه معجزا عيار عليها ، شاهد على صحتها؟ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ أي : وأنزله تفصيل ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع ، التي تضمنها الكتاب ، لا رَيْبَ فِيهِ : لا ينبغى أن يرتاب فيه لما احتفّت به من شواهد الحق ، وارتياب الكفار فيه كلا ريب. كائنا مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ، أو نزل منه.
أَمْ : بل يَقُولُونَ افْتَراهُ محمد من عند نفسه؟ قُلْ فَأْتُوا أنتم بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فى البلاغة وحسن النظم ، وجودة المعنى ، فإنكم مثلى فى العربية والفصاحة ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ : من قدرتم عليه من الجن والإنس ، يعينكم على ذلك ، مِنْ دُونِ اللَّهِ فإنه وحده قادر على ذلك ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أنه مفترى.
بَلْ كَذَّبُوا أي : سارعوا إلى التكذيب بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وهو القرآن ، بحيث لم يستمعوه ، ولم يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه ، حتى يعلموا أحق هو أم لا ، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علما ، من ذكر البعث والجزاء ، وسائر ما يخالف دينهم ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ أي : ولم يقفوا بعد على تأويله ، ولم تبلغ أذهانهم معانيه ، أو لم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب ، حتى يتبين لهم أنه صدق أو كذب ، والمعنى : أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى ، ثم إنهم فاجئوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ، ويتصفحوا معناه.
ومعنى التوقع فى لَمَّا : أنه قد ظهر بالآخرة إعجازه لمّا كرر عليهم التحدّى فزادوا أذهانهم فى معارضته فتضاءلت دونها ، أو لمّا شاهدوا وقوع ما أخبر به طبق ما أخبر مرارا فلم يقلعوا عن التكذيب تمردا وعنادا. قاله البيضاوي. قال ابن جزى : لمّا يأتهم ما فيه من الوعيد لهم ، أي : وسيأتيهم يوم القيامة أو قبله.

كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أنبياءهم ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ، فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.
وَمِنْهُمْ من المكذبين مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ أي : يصدق به فى نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند ، أو من يؤمن به ويتوب عن كفره ، وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ فى نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره ، أولا يؤمن فيما يستقبل فيموت على كفره ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ : بالمعاندين أو المصرّين.
الإشارة : إذا تطهرت القلوب من الأغيار ، وتصفّت من الأكدار ، أوحى إليها بدقائق العلوم والأسرار ، وما كان لتلك العلوم أن تفترى من دون اللّه ولكن تكون تصديقا لما قبلها من علوم القوم وأسرارها ، التي يهبها اللّه لأوليائه ، وفيها تفصيل طريق السير ، وما أوجبه اللّه على المريدين من الآداب ، وشروط المعاملة ، فمن طعن فى ذلك فليأت بشيء من ذلك من عند نفسه ، ويستعن على ذلك بأبناء جنسه ، بل كذّب بما لم يحط به علمه ، ولم يبلغه عقله

وفهمه ، فإن كشفت عند الله الحقائق ظهر تأويل ما ينطق به أهل الحقائق ، ومن الناس من يؤمن بهذه الأسرار ، ومنهم من لا يؤمن بها ويطعن على أهلها ، حتى ربما رموهم بالزندقة لأجلها ، وربك أعلم بالمفسدين.
ثم أمر نبيه بالبراءة ممن كذبه ، فقال :
[سورة يونس (١٠) : الآيات ٤١ الى ٤٤]
وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)
قلت : «من» الموصولة لفظها مفرد ، ومعناها واقع على الجمع أو غيره ، فإن عاد الضمير عليها جاز فيه مراعاة المعنى ومراعاة اللفظ ، فقوله : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ راعى جانب المعنى ، وقوله : وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ راعى جانب اللفظ ، فإن راعى أولا اللفظ جاز أن يرجع إلى مراعاة المعنى ، كقوله : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا «١» وأما إن راعى أولا المعنى فلا يرجع إلى مراعاة اللفظ ، لأن مراعاة المعنى أقوى. انظر الإتقان.
يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ كَذَّبُوكَ كذبك قومك بعد إلزام الحجة لهم فَقُلْ لهم : لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أي : فتبرأ منهم وقل لهم : لى جزاء عملى ، ولكم جزاء عملكم ، حقا كان أو باطلا ، أَنْتُمْ

بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ، لا تؤاخذون بعملي ولا أؤاخذ بعملكم ، ولأجل ما فيه من إيهام الإعراض عنهم وتخلية سبيلهم قيل : إنه منسوخ بآية السيف.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ إذا قرأت القرآن ، أو علمت الشرائع ، ولكن لا يقبلون ، كالأصم الذي لا يسمع أصلا ، أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ تقدر على إسماعهم وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ أي : ولو انضم إلى صممهم فقد عقولهم ، فهو أحرى في عدم الاستماع.

قال البيضاوي : وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام هو فهم المعنى المقصود منه ، ولذلك لا توصف به - أي : بالاستماع - البهائم ، وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل وتدبره. وعقولهم لما كانت مؤوفة - أي : قاصرة بمعارضة الوهم ومشايعة الإلف والتقليد بعدت أفهامهم عن فهم الحكم والمعاني الدقيقة ، فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق. هـ.

---

(١) من الآية ١٦ من سورة سيدنا (محمد صلّى اللّه عليه وسلّم).

(٤٧٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧٥

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أي : يعاينون دلائل نبوتك ، ولكن لا يصدقون ، كأنهم عمى عنها ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ : تقدر على هدايتهم وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ أي : وإن انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة ، فإن المقصود من الإبصار هو الاعتبار والاستبصار ، والعمدة في ذلك البصيرة ، فإذا فقدت فلا اعتبار ولا استبصار ، ولذلك يحدس الأعمى المتبصر ، ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحمق. والآية كالتعليل للأمر بالتبري.

إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً بسلب حواسهم وعقولهم ، وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بإفسادها وإهمالها ، وتفويت منافعها عليهم. وفيه دليل على أن للعبد كسبا ، وأنه ليس مسلوب الاختيار بالكلية ، كما زعمت الجبرية ، ويجوز أن يكون وعيدا لهم ، بمعنى : أن ما يحيق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من اللّه ، لا يظلمهم به ، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابه. قاله البيضاوي.

الإشارة : إذا رأى أهل الوعظ والتذكير قوما غرقوا في بحر الهوى ، وأخذتهم شبكة الدنيا واستحوذت عليهم الغفلة ، فذكروهم وبذلوا جهدهم في نصحهم ، فلم يقلعوا ، فليتبرؤا منهم ، وليقولوا : نحن براء مما تعملون ، وأنتم بريئون مما نعمل. ومنهم من يستمع إلى وعظك أيها الواعظ ، ولكن لا يتعظ ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون. ومنهم من يشاهد كرامتك وخصوصيتك ولكن لا يهتدى ، أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون؟ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً ، بل في كل زمان يبعث من يذكر

ويداوى أمراض القلوب ، (و لكن الناس أنفسهم يظلمون) ، حيث حادوا عنهم ، وأساءوا الظن بهم ، وبالله التوفيق.

ثم ذكر وقت مجيء تأويل ما كذبوا به ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٤٥ الى ٤٨]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٨)

قلت : كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا : حال ، أي : نحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة. أو صفة ليوم ، والعائد محذوف ، أي : كأن لم يلبثوا قبله ، أو لمصدر محذوف ، أي : حشرا كأن لم يلبثوا قبله. وجملة : يَتَعارَفُونَ : حال أخرى مقدرة ، أو بيان لقوله : كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا ، أو لتعلق الظرف ، والتقدير : يتعارفون يوم نحشرهم. و«إما» : شرط ،

ونُرِيَنَّكَ فعله ، أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ : عطف عليه. فَإِلَيْنا جواب نَتَوَفَّيَنَّكَ ، وجواب الأول محذوف ، أي : إن أريتك بعض عذابهم فى الدنيا فذاك ، وإن توفيناك قبل ذلك فإلينا مرجعهم.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ونجمعهم للحساب ، فتقصر عندهم مدة لبثهم فى الدنيا وفى البرزخ ، كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا ، أو فى القبور لهول ما يرون ، حال كونهم يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ أي : يعرف بعضهم بعضا ، كأن لم يتفارفوا إلا قليلا ، وهذا فى أول حشرهم ، ثم ينقطع التعارف لشدة الأمر عليهم لقوله : وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً. يُبَصَّرُونَهُمْ «١».

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ خسرانا لاربح بعده ، وَما كانُوا مُهْتَدِينَ إلى طريق الربح أصلا ، أو إلى طريق توصلهم إلى معرفة اللّه ورضوانه ، لترك استعمال ما منحوه من العقل فيما يوصل إلى الإيمان بالله ورسله ، فاستكسبوا جهالات أدت بهم إلى الرّدى والعذاب الدائم.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ أي : مهما نبصرنك بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ من العذاب فى حياتك ، كما أراه يوم بدر.

أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قبل أن نريك فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فنريكه فى الآخرة ، ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ ، فيجازيهم عليه حينئذ ، فالترتيب إخبارى.

وقال البيضاوي ، تبعا للزمخشرى : ذكر الشهادة وأراد نتيجتها ومقتضاها ، وهو العقاب ، ولذلك رتبها

على الرجوع بشم ، أو مؤدّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة. هـ.
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ من الأمم الماضية رَسُولٌ يبعثه إليهم ، يدعوهم إلى الحق ، فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ بالمعجزات «فكذبوه» قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ : بالعدل ، فأنجى الرسول ومن تبعه ، وأهلك المكذبين وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ، حيث أعذر إليهم على ألسنة الرسل. وقيل معناه : لكل أمة يوم القيامة رسول تنسب إليه. كقوله : يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ «٢» فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر أو بالإيمان قُضِيَ بَيْنَهُمْ بإنجاء المؤمنين وعقاب الكافرين ، كقوله : وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ «٣».
وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ الذي تعدنا ، استبعادا له واستهزاء به إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فيه ، وهو خطاب منهم للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم.

---

(١) من الآيتين ١٠ - ١١ من سورة المعارج.
(٢) الآية ٧١ من سورة الإسراء.
(٣) الآية ٦٩ من سورة الزمر.

الإشارة : أهل الغفلة إذا بعثوا أو ماتوا ندموا على ما فوّتوا ، وقصر بين أعينهم ما عاشوا فى البطالة والغفلة ، كأن لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار. فالبدار البدار أيها الغافل إلى التوبة واليقظة ، قبل أن تسقط إلى جنبك ، فتنفرد رهينا بذنبك.
فأما أهل اليقظة - وهم العارفون بالله - فقد حصل لهم اللقاء ، قبل يوم اللقاء ، قد خسر الوصول من كذّب بأهل الوصول ، وما كان أبدا ليهتدى إلى الوصول إلا بصحبة أهل الوصول. وإما نرينك أيها العارف بعض الذي نعدهم من الوصول لمن تعلق بك ، أو نتوفينك قبل ذلك ، فإلينا مرجعهم فنوصلهم بعدك بواسطة أو بغيرها. ولكل أمة رسول يبعثه اللّه يذكر الناس ويدعوهم إلى اللّه ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط ، فيوصل من تبعه ويبعد من انتكبه. واللّه تعالى أعلم بأسرار كتابه.
ثم أجاب عن قولهم متى هذا الوعد ، فقال :
[سورة يونس (١٠) : الآيات ٤٩ الى ٥٢]
قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ

إلاَّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)

قلت : قدّم فى الأعراف «١» النفع ، وهنا الضر لأن السؤال فى الأعراف عن مطلق الساعة المشتملة على النفع والضر ، وهنا السؤال عن العقاب الذي وعدهم به ، بدليل قوله : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ. وقوله : إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ منقطع ، ويصح الاتصال. وقوله ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ وضع المظهر موضع المضمر ، أي : ماذا تستعجلون منه؟. والجملة الاستفهامية جواب الشرط ، كما يقال : إن أتيتك ماذا تعطيني؟ ، أو محذوف ، أي : إن أتاكم ألكم منه منعة أو به طاقة فماذا تستعجلون منه؟ وقال الواحدي : الاستفهام للتهويل والتفظيع ، أي : ما أعظم ما تستعجلون منه ، كما تقول : أعلمت ما ذا تجنى على نفسك؟. أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ ، دخلت همزة التقرير على «ثم» العاطفة ، أي : إن استعجلتم ثم وقع بكم العذاب آمنتم به حين لا ينفعكم.

---

(١) فى قوله تعالى : قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا .. الآية ١٨٨.

(٤٧٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧٨

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً ، فكيف أملك لكم ما تستعجلون من طلب العذاب؟ إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ : لكن ما شاء اللّه من ذلك يكون ، أو : لا أملك إلا ما ملكنى ربى بمشيئته وقدرته ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ مضروب إلى هلاكهم ، إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ عنه ساعَةً ، وَلا هم يَسْتَقْدِمُونَ عنه ، فلا تستعجلوا ، فسيحين وقتكم وينجز وعدكم ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ الذي تستعجلون بَياتاً أي : وقت بيات واشتغال بالنوم ، أَوْ نَهاراً حين تشتغلون بطلب معاشكم ، ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ؟ أىّ شيء من العذاب يستعجلونه وكله مكروره لا يلائم الاستعجال؟

وهو متعلق بأرأيتم ، لأنه فى معنى أخبرونى ، و«المجرمون» وضع موضع المضمر للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغى أن يفزعوا من مجيء العذاب ، لا أن يستعجلوه. قاله البيضاوي.

أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ أي : أثم تؤمنون إذا وقع العذاب وعاينتموه ، حين لا ينفعكم إيمانكم ، آلْآنَ أي : فيقال لكم الآن آمنتم حين فات وقته ، وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ تكذيبا واستهزاء ، ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بعد هلاكهم : ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ أي : العذاب المؤلم الذي تخلدون فيه ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ من الكفر والمعاصي.

الإشارة : لا يشترط فى الولي أن يكاشف بالأمور المغيبة حتى يحترز من المكاره أو يجلب المنافع ، إذ لم يكن ذلك للنبى ، فكيف يكون للولى؟ بل هو معرض للمقادير الجارية على الناس ، يجرى عليه ما

يجرى عليهم ، نعم ..
باطنه محفوظ من السخط أو القنط ، يتلقى كل ما يلقى إليه بالرضا والتسليم. فمن شرط ذلك فيه فهو محروم من بركة أولياء زمانه. واللّه تعالى أعلم.
ثم استخبروا عن العذاب أو الوحي ، هل هو حق أم لا؟ كما قال تعالى :
[سورة يونس (١٠) : الآيات ٥٣ الى ٥٤]
وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥٤)
قلت : (أحق) : مبتدأ ، والضمير فاعله سد مسد الخبر ، و(إي) : حرف جواب ، بمعنى نعم ، وهو من لوازم القسم ، ولذلك يوصل بواوه ، فيقال : إي واللّه ، ولا يقال «إي» وحده.

(٤٧٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧٩
يقول الحق جل جلاله : وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أي : يستخبرونك أَحَقٌّ هُوَ أي : ما تقول من الوعد أو ادعاء النبوة. قيل : قاله حيي بن أخطب لما قدم مكة. قُلْ لهم : إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ أي : العذاب الموعود لحق ، أو ما ادعيته من النبوة لثابت ، والأول أرجح لقوله : وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ : بفائتين العذاب الموعود.
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ بالشرك أو التعدي على الغير ما فِي الْأَرْضِ من خزائنها وأموالها لَافْتَدَتْ بِهِ : لجعلته فدية لها من العذاب ، وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ أي : أخفى رؤساء هؤلاء الكفار الندامة خوف الشماتة والتعيير من سفلتهم ، لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ ، أو جميعهم ، لأنهم بهتوا بما عاينوا ، مما لم يحتسبوا من فظاعة الأمر وهوله ، فلم يقدروا أن ينطقوا ، وقيل أظهروها ، من قولهم : أسر الشيء : أظهره ، ومنه : أسارير الوجه ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ، ليس تكرارا لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم ، والثاني فى جزاء المشركين على شركهم. قاله البيضاوي.
الإشارة : كثير من الناس من يستخبر عن شيخ التربية ، أحق وجوده أم لا؟ قل : إي وربى إنه لحق ، ولا يخلو منه زمان ، إذ القطب والعدد الذي يقوم الوجود بهم لا ينقطع ، والقطبانية لا تدرك من غير تربية أصلا ، وما أنتم بفائتين عنه إن طلبتموه بصدق الاضطرار. ولو أن لكل نفس ظلمت نفسها - حيث بقيت بعيبها وغم حجابها حتى لقيت مولاها - ما فى الأرض جميعا لافتدت به من البعد وغم الحجاب ، وفوات القرب من الأحباب ، وقد قضى بين الخلائق بالحق ، فارتفع المقربون الذين لقوا اللّه بقلب سليم ، وانحط الغافلون ، الذين لقوا اللّه بقلب سقيم ، وندموا على ترك صحبة من يخلصهم من عيبهم

، فإن كانت لهم رئاسة علم أو صلاح أضمروا ذلك عمن قلدهم ، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً.
ولذلك قال :
[سورة يونس (١٠) : الآيات ٥٥ الى ٥٦]
أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)
يقول الحق جل جلاله : أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ خلقا وملكا وعبيدا ، يتصرف فيهم تصرف المالك فى ملكه ، فلا يتطرقه ظلم ولا جور. ويحتمل أن يكون تقريرا لقدرته على الإثابة والعقاب ، أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أي : ما وعد به من الثواب والعقاب ، لا خلف فيه ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ لقصور

(٤٧٩/٢)

عقولهم ، فلا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ يحيى من يريد إظهاره للدنيا ، ويميت من يريد نقله للآخرة ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بالموت والنشور لأن من قدر على الإيجاد والإعدام فى الدنيا قدر عليها فى العقبى لأن القادر لذاته لا تزول قدرته ، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبدا. هـ. من البيضاوي.
الإشارة : ما وعد به الحق سبحانه القاصدين إليه من الوصول والمعرفة به حق ، إن وفوا بشرطه ، وهو صحبة من يوصل إليه ، مع الصدق والتعظيم ، وإخلاص القصد ، هو يحيى قلوبا بمعرفته ، ويميت قلوبا بالغفلة والجهل به ، وإليه ترجعون ، فيظهر العارف من الجاهل والذاكر من الغافل.
فهذه موعظة لمن اتعظ ، كما قال تعالى :
[سورة يونس (١٠) : الآيات ٥٧ الى ٥٨]
يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)
قلت : (بفضل اللّه) يتعلق بمحذوف ، يفسره ما بعده ، أي : ليفرحوا بفضل اللّه ، أو بقوله «فليفرحوا». وكرر قوله : (فبذلك) تأكيدا ، والفاء بمعنى الشرط ، كأنه قال : إن فرحوا بشىء فبهما فليفرحوا.
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ يعنى القرآن العظيم ، وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ من الشك والجهل ، وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ هداية فى بواطنهم بأنوار التحقيق ، ورحمة فى ظواهرهم بآداب التشريع.

قال البيضاوي : قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية «١» ، الكاشفة عن محاسن الأعمال وقبائحها ، والراغبة فى المحاسن ، والزاجرة عن القبائح ، والحكمة النظرية التي هى شفاء لما فى الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد ، وهدى إلى الحق واليقين ، ورحمة للمؤمنين حيث أنزلت عليهم فنجوا من ظلمات الضلال بنور الإيمان ، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان.

والتنكير فيها للتعظيم. هـ.

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ أي : بمطلق الفضل والرحمة ، فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا لا بغيره ، أو الفضل : الإسلام ، والرحمة : القرآن. وقرأ يعقوب بتاء الخطاب ، وروى مرفوعا ، ويؤيده قراءة من قرأ : «فافرحوا» ، هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

---

(١) فى الأصول : «العلمية» والمثبت هو الذى فى البيضاوى وهو أنسب بالسياق.

من حطام الدنيا ، فإنها إلى الزوال ، وقرأ ابن عامر : «تجمعون» بالخطاب ، على معنى : فبذلك فليفرح المؤمنون ، فهو خير مما تجمعون أيها المخاطبون.

الإشارة : قد جعل اللّه فى خواصّ أوليائه موعظة للناس بما يسمعون منهم من التذكير والإرشاد ، وشفاء لما فى الصدور ، لما يسرى منهم إلى القلوب من الإمداد ، وما يكتسبه من صحبهم من أنوار التحقيق ، وهدى إلى صريح العرفان وإشراق أنوار الإحسان ، ورحمة بسكون القلوب والطمأنينة بذكر علام الغيوب ، قل بفضل اللّه وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، ففضل اللّه : أنوار الإسلام والإيمان ، ورحمته : أنوار الإحسان ، أو فضل اللّه : أحكام الشريعة ، ورحمته : الطريقة والحقيقة ، أو فضل اللّه : حلاوة المعاملة ، ورحمته : حلاوة المشاهدة ، أو فضل اللّه :

استقامة الظواهر ، ورحمته : استقامة البواطن ، أو فضل اللّه : محبته ، ورحمته : معرفته. إلى غير ذلك مما لا ينحصر ، ولم يقل : فبذلك فلتفرح يا محمد لأن فرحه صلّى اللّه عليه وسلّم بالله ، لا بشىء دونه.

ولمّا كانت موعظة القرآن العظيم مشتملة على التحليل والتحريم ، رد اللّه تعالى على من افترى خلافه ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٥٩ الى ٦٠]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ

(٥٩) وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠)

قلت : (ما أنزل) : نصب بأنزل أو بأرأيتم لأنه بمعنى أخبرونى.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ أَرَأَيْتُمْ : أخبرونى ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ بقدرته ، وإن سترها بالأسباب العادية ، وقوله : لَكُمْ دل على أن المراد منه : ما حلّ ، ولذلك وبّخ على التبعيض بقوله : فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالًا كالبحائر وأخواتها ، وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا «١».

قُلْ لهم : آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ فى التحريم والتحليل ، فتقولون ذلك عنه ، أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ فى نسبة ذلك إليه؟ ، وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، أىّ شىء ظنهم يفعل بهم ، أيحسبون

---

(١) من الآية ١٣٩ من سورة الأنعام. [.....]

(٤٨١/٢)

أنه لا يجازيهم عليه؟ وفيه تهديد عظيم لهم ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، حيث أنعم عليهم بالعقل ، وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وشرع لهم الأحكام ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ هذه النعمة.

قال ابن عطية : ثنّى بإيجاب الفضل على الناس فى الإمهال لهم مع الافتراء والعصيان ، والإمهال داعية إلى التوبة والإنابة ، ثم استدرك من لا يرى حق الإمهال ولا يشكره ، ولا يبادر فيه على جهة الذم لهم ، والآية بعد هذا تعم جميع فضل اللّه ، وجميع تقصير الخلق فى شكره ، لا رب غيره. هـ.

الإشارة : الوقوف مع حدود الشريعة ، والتمسك بالسنة النبوية قولا وفعلا ، وأخذا وتركا ، والاهتداء بأنوار الطريقة تخلية وتجلية ، هو السير إلى أسرار الحقيقة ، فمن تخطى شيئا من ذلك فقد حاد عن طريق السير.

وبالله التوفيق.

ثم هددهم بمراقبته عليهم ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٦١]

وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٦١)

قلت : الضمير فى مِنْهُ يعود على القرآن ، وإن لم يتقدم ذكره لدلالة ما بعده عليه ، كأنه قال : وما تتلو شيئا من القرآن ، وقيل : يعود على الشأن ، والأول أرجح لأن الإضمار قبل الذكر تفخيم للشيء. قاله ابن جزى. قلت :

والأحسن أن يعود على اللّه تعالى لتقدم ذكره قبل ، ومن قرأ : وَلا أَصْغَرَ ، وَلا أَكْبَرَ بالفتح فعطف على مِثْقالِ ممنوع من الصرف ، أو مبنى مع «لا» ، ومن قرأ بالرفع فعطف على موضعه ، أو مبتدأ ، وإِلَّا فِي كِتابٍ :

خبر.

يقول الحق جل جلاله : وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ أي : أمر من الأمور ، والخطاب للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم والمراد هو وجميع الخلق ، ولذلك قال فى آخرها. وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ، ومعنى الآية : إحاطة علم اللّه تعالى بكل شيء ، وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ أي : وما تتلو شيئا من القرآن ، أو وما تتلو من اللّه من قرآن ، أي : تأخذه عنه.

وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ أي عمل كان ، وهو تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم «١» ، ولذلك ذكر الحق تعالى ، حيث خص بالذكر ما فيه فخامة وتعظيم ، وذكر حيث عمم ما يتناول الجليل والحقير ، أي : لا تعملون شيئا

---

(١) أي : رأس المخاطبين ، وهو رأس الوجود ، سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - .

إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً : رقباء مطلعين عليه ظاهرا وباطنا ، إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ : حين تخوضون فيه وتندفعون إليه ، يقال : أفاض الرجل فى الأمر : إذا أخذ فيه بجد واندفع إليه ، ومنه : فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ «١» ، وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ أي : ما يغيب عنه مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ : ما يوازن نملة ، فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ والمراد : لا يغيب عنه شيء فى الوجود بأسره ، وخصهما لأن العامة لا تعرف غيرهما. قال فى الكشاف : فإن قلت : لم قدّم هنا الأرض بخلاف سورة سبأ»

؟ فالجواب : أن السماء قدمت فى سبأ لأن حقها التقديم ، وقدمت الأرض هنا لما ذكرت الشهادة على أهل الأرض. هـ. وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ أي : اللوح المحفوظ ، أو علمه تعالى المحيط ، المبيّن للأشياء على ما هى عليه.

الإشارة : هذه الآية وأمثالها هى أصل المراقبة عند القوم ، وهى على ثلاثة أقسام : مراقبة الظواهر ،

ومراقبة القلوب ، ومراقبة السرائر. فالأولى للعوام ، والثانية للخواص ، والثالثة لخواص الخواص.
فأما مراقبة الظواهر : فهى اعتقاد العبد أن اللّه يراه ، ومطلع عليه فى كل مكان ، فينتج له الحياء من اللّه ، فيستحيي أن يسيء الأدب معه وهو بين يديه ، وفى بعض الأخبار القدسية : «إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم ، فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم؟».
وقال - عليه الصلاة والسلام - : «أفضل الناس إيمانا من يعلم أن اللّه معه فى كل مكان» أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم :
وروى أن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنه مرّ براعي غنم ، فقال له : أعطنا شاة من غنمك ، فقال له : ليست لى. فقال له : قل لصاحبها أكلها الذئب ، فقال له الراعي : وأين اللّه؟!. وروى أن رجلا خلا بجارية فراودها على المعصية ، وقال لها :
لا ترانا إلا الكواكب ، فقالت له : وأين مكوكبها؟.
وأما مراقبة القلوب فهى : تحقيق العبد أن اللّه مطلع على قلبه ، فيستحى منه أن يجول فيما لا يعنى ، أو يدبر ما لا يفيد ولا يجدى ، أو يهم بسوء أدب فإن جال فى ذلك استغفر وتاب.
وأما مراقبة السرائر فهى : كشف الحجاب عن الروح ، حتى ترى اللّه أقرب إليها من كل شىء ، فتستحى أن تجول فيما سواه من المحسوسات ، فإن فعلت بادرت إلى التوبة والاستغفار ، فالتوبة لا تفارق أهل المراقبة مطلقا ، وقد تقدم فى أول سورة النساء «٣» بعض الكلام على المراقبة ، فمن لم يحكم أمر المراقبة ، لم يذق أسرار المشاهدة.

---

(١) من الآية ١٩٨ من سورة البقرة.
(٢) فى قوله تعالى «عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ...» الآية : ٣.
(٣) راجع إشارة الآية الأولى من سورة النساء.

(٤٨٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٨٤
فالمراقبة مفتاح المشاهدة ، والمشاهدة مفتاح المعرفة ، والمعرفة هى الولاية ، التي أشار إليها بقوله :
[سورة يونس (١٠) : الآيات ٦٢ الى ٦٤]
أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)

قلت : «الذين آمنوا» : صفة للأولياء ، أو منصوب على المدح ، أو مرفوع به على تقدير : «هم» ، أو مبتدأ ، و«لهم البشرى» : خبر.

يقول الحق جل جلاله : أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ الذين يتولونه بالطاعة ، وهو يتولاهم بالكرامة لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من لحوق مكروه ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ بفوات مأمول.

ثم فسرهم بقوله : الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ ، فمن جمع بين الإيمان والتقوى فهو ولى – أعنى الولاية العامة – وسيأتى بقية الكلام فى الإشارة إن شاء اللّه ، هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا

وهو ما بشّر به المتقين فى كتابه ، على لسان نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم من الحفظ والعز والكفاية ، والنصر فى الدنيا وما يثيبهم به فى الآخرة ، أو ما يريهم من الرؤيا الصالحة يراها أو ترى له. روى ذلك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم «١» ، أو محبة الناس للرجل الصالح ، أو ما يتحفهم به من المكاشفات ، أو التوفيق لأنواع الطاعات ، أو بشرى الملائكة عند النزع ، أو رؤية المقعد قبل خروج الروح ، فِي الْآخِرَةِ

هى الجنة أو تلقّى الملائكة إياهم عند الحشر بالبشرى والكرامة.

تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ

أي : لا تغيير لأقواله ولا اختلاف لمواعيده ، واستدل ابن عمر بالآية على أن القرآن لا يقدر أحد أن يغيره ، لِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

الإشارة إلى كونهم مبشّرين فى الدارين ، أو لانتفاء الخوف والحزن عنهم مع ما بشروا به ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الولاية على قسمين : ولاية عامة ، وولاية عرفية خاصة ، فالولاية العامة ، هى التي ذكرها الحق تعالى ، فكل من حقق الإيمان والتقوى فله من الولاية على قدر ما حصّل منها ، والولاية الخاصة خاصة بأهل الفناء والبقاء ، الجامعين بين الحقيقة والشريعة ، بين الجذب والسلوك ، مع الزهد التام والمحبة الكاملة ، وصحبة من

---

(١) عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن قوله : (لهم البشرى فى الحياة الدنيا) قال : «هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ، أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٣١٥) ، والترمذي فى : (الرؤيا ، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات) وابن ماجه فى (الرؤيا ح ٣٨٩٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٣٤٠) والدارمي فى : (الرؤيا).

تحققت ولايته. فقد سئل - عليه الصلاة السلام - عن أولياء اللّه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقال : «الذين نظروا إلى باطن الدنيا ، حين نظر النّاس إلى ظاهرها ، واهتمّوا بآجل الدّنيا حين اهتمّ النّاس بعاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم ، وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم ، فما عارضهم من نائلها عارض إلا رفضوه ، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه ، خلقت الدنيا فى قلوبهم فما يجددونها وخربت بينهم فما يعمرونها ، وماتت فى صدورهم فما يحيونها ، بل يهدمونها ، فيبنون بها آخرتهم ، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم ، نظروا إلى أهلها صرعى قد حلّت بهم المثلات ، فما يرون أمانا دون ما يرجون ، ولا خوفا دون ما يجدون».

وفى حديث آخر : قيل : يا رسول اللّه من أولياء اللّه؟ قال «المتحابّون فى اللّه». وقال القشيري رضى اللّه عنه : علامة الولي ثلاث : شغله باللّه ، وفراره إلى اللّه ، وهمه اللّه. هـ وقال أبو سعيد الخراز رضى اللّه عنه : إذا أراد اللّه أن يوالى عبدا من عباده فتح عليه باب ذكره ، فإذا اشتد ذكره فتح عليه باب القرب ، ثم رفع إلى مجلس الأنس ، ثم أجلسه على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية ، وكشف له عن الجلال والعظمة ، فإذا عاين ذلك بقي بلا هو ، فحينئذ يفنى نفسه ويبرأ من دعاويها. هـ.

فأنت ترى كيف جعل الفناء هو نهاية السير والوصول إلى الولاية ، فمن لا فناء له لا محبة له ، ومن لا محبة له لا ولاية له. وإلى ذلك أشار ابن الفارض رضى اللّه عنه ، فى تائيته بقوله :

فلم تهونى ما لم تكن فيّ فانيّا ولم تفن ما لم تجتل فيك صورتى

وقوله تعالى : الَّذِينَ آمَنُوا أي : إيمان الخصوص ، وَكانُوا يَتَّقُونَ ما سوى اللّه فلا يطمئنون إلى شىء سواه ، هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا

حلاوة الذوق والوجدان ، مع مقام الشهود والعيان ، فِي الْآخِرَةِ

بإدراك ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر ببال من المعارف والأسرار ، فمن أدرك هذا فليوطن نفسه على الإنكار.

ولذلك سلّى نبيه ، وينسحب على ورثته مما يلقونه من أهل الإنكار ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٦٥]

وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)

قلت : (إن) استئناف ، ومن قرأ بالفتح فعلى إسقاط لام العلة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم : وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ فى جانب الربوبية ، أو فى جانبك بالطعن والشتم والتهديد ، فالعاقبة لك بالنصر والعز فإن اللّه يعز أولياءه ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً أي : إن الغلبة لله جميعا ،

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٨٦

لا يملك غيره منها شيئا ، فهو يقهرهم وينصرك عليهم ، هُوَ السَّمِيعُ لأقوالهم ، الْعَلِيمُ بمكائدهم ، فيجازيهم عليها.

الإشارة : الداخل على اللّه منكور ، فكل من رام الخصوصية فليعوّل على الطعن والإنكار ، وليتسلّ بما تسلى به النبي المختار ، ولينتظر العز والنصر من الواحد القهار ، فإن الأمر كله بيده كما قال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٦٦ الى ٦٧]

أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)

قلت : (و ما يتبع) : يحتمل الاستفهام ، فتكون منصوبة بيتبع ، أي : أيّ شيء يتبعون ما يتبعون؟ إلا الظن ، ويحتمل النفي ، أي : ما يتبع الذين يدعون الشركاء يقينا إن يتبعون إلا الظن ، أو تكون «إن» تأكيدا لها ، و«إلا الظن» إبطال لنفى «ما».

يقول الحق جل جلاله : أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ من الملائكة والثقلين ملكا وعبيدا ، فلا يصلح أحد منهم للألوهية ، وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات لا تصلح للربوبية ، فأحرى الجامدات التي يدعونها آلهة ، وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ أي : أىّ شيء يتبعون ، تحقيرا لهم ، أو ما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء يقينا ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وما سولت لهم أنفسهم ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ : يكذبون فيما ينسبون إلى اللّه ، أو يحزرون «١» ويقدرون أنها شركاء تقديرا باطلا ، بل الواجب أن يعبدوا من عمت قدرته ونعمه على خلقه ، ولذلك قال : هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ راحة لأبدانكم ، وَالنَّهارَ مُبْصِراً طلبا لمعاشكم ، وفيه تنبيه على كمال قدرته وعظيم نعمته ، ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ سماع تدبر واعتبار.

الإشارة : كل من ركن إلى شيء دون اللّه ، محبة أو خوفا أو طمعا فيه ، فقد أشرك مع اللّه ، ولم يتبع إلا الظن والوهم ، وفى الحكم : «ما قادك شيء مثل الوهم ، أنت حر مما أنت عنه آيس ، وعبد لما أنت فيه طامع ، فكيف يترك العبد سيده الذي بيده ملك السموات والأرض ، ويتعلق بعبد مثله حقير؟. يترك الملك الكبير ويتعلق بالعبد الصغير».

---

(١) حزر الشيء : قدره تخمينا.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٨٧
هو الذي جعل ليل القبض لتسكنوا فيه عن التعلق بالغير ، ونهار البسط لتبصروا فى انتشاركم الحقائق العرفانية والأسرار الربانية ، إن كنتم تسمعون به ومنه ، فتنزهونه عما لا يليق به ، كما قال تعالى :
[سورة يونس (١٠) : الآيات ٦٨ الى ٧٠]
قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)
قلت : (عندكم) : متعلق بالاستقرار ، و(من سلطان) فاعل به لأن المجرور والظرف إذا نفى يرفع الفاعل بالاستقرار ، و(متاع) : خبر ، أي : ذلك متاع ... إلخ.
يقول الحق جل جلاله : قالُوا أي : المشركون ومن تبعهم : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً أي : تبنّاه كالملائكة وغيرهم ، سُبْحانَهُ أي : تنزيها له عما يقول الظالمون ، فإن التبني لا يصح إلا ممن يتصور منه الولد ، هُوَ الْغَنِيُّ عن كل شيء ، مفتقر إليه كلّ شيء ، والولد مسبب عن الحاجة ، والحق تعالى لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وعبيدا ، فلا يفتقر إلى اتخاذ الولد ، وهو الغنى بالإطلاق ، لا يحتاج إلى من يعينه ، واجب الوجود لا يفتقر إلى من يخلفه فى ملكه. إِنْ عِنْدَكُمْ أي : ما عندكم مِنْ سُلْطانٍ أي : برهان بِهذا ، بل افتريتموه من عندكم ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ ، وهو توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم ، وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة ، وأن العقائد لا بد فيها من قاطع ، وأن التقليد فيها غير سائغ. قاله البيضاوي.
قلت : والتحقيق أن إيمان المقلّد صحيح ، وأن تقليد الأنبياء والرسل والكتب السماوية صحيح مكتف عن الدليل.
ثم هدد أهل الشرك فقال : قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه ، لا يُفْلِحُونَ : لا ينجون من النار ، ولا يفوزون بالجنة ، إنما ذلك الافتراء مَتاعٌ فِي الدُّنْيا يقيمون به رئاستهم فى الكفر ، فيتمتعون به قليلا ، أو لهم تمتع فى الدنيا مدة أعمارهم ، ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ بالموت ، فيلقون الشقاء المؤبد ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ.
الإشارة : إظهار الكائنات من الغيب إلى الشهادة كلها على حد سواء فى الاختراع والافتقار ، ليس بعضها أقرب من بعض ، وأما قوله : - عليه الصلاة والسلام - : «الخلق عيال اللّه وأحبّ الخلق إلى اللّه أنفعهم لعياله» فمعناه أنهم فى حفظه وكفالته مفتقرون إليه فى إيصال المادة ، كافتقار الولد إلى أبيه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٨٨
وأما قرب العبد من ربه بطاعته فمعناه قرب محبة ورضا ، لا قرب مسافة أو نسب إذ أوصاف العبودية غير مجانسة لأوصاف الربوبية ، بل هى بعيدة منها مع شدة قربها ، ولذلك قال فى الحكم : «إلهى ما أقربك منّى وما أبعدنى عنك ..» إلخ ، ، وقد تشرق على العبد أنوار الربوبية فتكسوه حتى يغيب عن حسه ورسمه فلا يرى إلا أنوار ربه ، فربما تغلبه الأنوار ، فيدّعى الاتحاد أو الحلول ، وهو معذور عند أهل الباطن لسكره ، وقد رفع التكليف عن السكران ، فإذا صحى وبقي على دعواه قتل شرعا. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر بعض قصص الأنبياء عليهم السلام ، تسلية لرسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال :
[سورة يونس (١٠) : الآيات ٧١ الى ٧٣]
وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)
قلت : (و شركاءكم) : مفعول معه ، أو بفعل محذوف أي : اعزموا أمركم وأجمعوا شركاءكم ومن قرأ : «اجمعوا» بهمزة وصل ، فشركاءكم : معطوف ، و«غمة» : خفيّا ، وفى الحديث : «فإن غمّ عليكم فاقدروا له».
يقول الحق جل جلاله : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ أي : خبره مع قومه ، قيل : اسمه عبد الغفار ، وسمى نوحا لكثرة نوحه من هيبة ربه ، إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ أي : عظم وشقّ عَلَيْكُمْ مَقامِي أي : كونى بين أظهركم ، وإقامتى بينكم مدة مديدة أذكركم بالله ، أو قيامى عليكم لوعظكم ، أو نفسى ووجودى معكم ، كقولك :
فعلت كذا لمكان فلان ، أي : له ، أي : لو صعب عليكم وجودى بينكم ، وَتَذْكِيرِي لكم بِآياتِ اللَّهِ أدعوكم بها إلى اللّه ، فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ : وثقت به ، فلا أبالى ببعدكم عنى وتخويفكم إياى ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ أي : اعزموا عليه ، وَشُرَكاءَكُمْ مع شركائكم ، أو وأمر شركائكم ، أو أجمعوا أمركم واتّفقوا عليه وأجمعوا شركاءكم. والمعنى : أنه أمرهم بالعزم والإجماع على قصده ، والسعى فى إهلاكه ، على أي وجه يمكنهم لشدة ثقته بالله وعدم مبالاته بهم.
ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ فى قصد إهلاكى عَلَيْكُمْ غُمَّةً : مستورا خفيّا ، بل اجعلوه ظاهرا مكشوفا تتمكنون فيه

، لأن من يكتم أمرا ويخفيه لا يقدر أن يفعل ما يريد ، أو ثم لا يكن حالكم عليكم غما ، أي : لا يلحقكم غم إذا

(٤٨٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٨٩

أهلكتمونى وتخلصتم من ثقل مقامى وتذكيرى. ثُمَّ اقْضُوا أي : أنفذوا قضاءكم إِلَيَّ فيما تريدون. وقرأ السرى بن ينعم : «أفضوا» بالفاء وقطع الهمزة ، أي : انتهوا إلىّ بشرّكم ، وَلا تُنْظِرُونِ : ولا تمهلون.

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ : أعرضتم عن تذكيرى ، فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ يوجب توليكم وإعراضكم لثقله عليكم.

واتهامكم إياى لأجله ، أو يفوتنى إذا توليتم عنى ، إِنْ أَجْرِيَ : ما ثوابى على الدعوة والتذكير إِلَّا عَلَى اللَّهِ لا تعلق لى بشيء دونه ، آمنتم أو توليتم ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ المنقادين لحكمه ، لا أخالف أمره ، ولا أرجو غيره.

فَكَذَّبُوهُ : فأصروا على تكذيبه بعد إلزامهم الحجة ، وتبين أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمرّدهم فلا جرم حقت عليهم كلمة العذاب ، فهلكوا بالغرق ، فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ آمن مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ، وكانوا ثمانين ، وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ عمروا الأرض بعد الهالكين وخلفوهم فيها ، ولم يعقب منهم إلا أولاد نوح عليه السّلام ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا بالطوفان ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ، تعظيم لما جرى عليهم ، وتحذير لمن كذب الرسول ، وتسلية له. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا يكون الرجل كامل اليقين حتى يسقط من قلبه خوف المخلوقين ، فلا يبالى بهم ولو أجمعوا على كيده ، إذ ليس بيدهم شيء ، وإنما أمرهم بيد اللّه ، ويقول لهم كما قال نوح عليه السّلام : (فأجمعوا أمركم وشركاءكم.)

وكما قال هود عليه السّلام : فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ «١». وفى الحديث : «لو اجتمع الخلق كلهم على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلّا بشيء قدّره اللّه عليك ، جفّت الأقلام وطويت الصّحف». وقال أيضا صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا يكمل إيمان العبد حتّى يكون الناس عنده كالأباعد» ، يعنى : لا يهابهم ولا يراقبهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما بين نوح وموسى - عليهما السلام - من الأنبياء ، على سبيل الإجمال ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٧٤]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)

(١) الآيتان ٥٥ - ٥٦ من سورة هود.

(٤٨٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٩٠

قلت : (بما كذبوا به) ذكر هنا الرابط ، وحذفه فى سورة الأعراف ، إشارة إلى جواز الأمرين ، وإليه أشار فى الألفية ، بقوله :

كذا الذي جرّ بما الموصول جر ك «مرّ بالّذى مررت فهو بر» «١»

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ : من بعد نوح عليه السّلام رُسُلًا كهود وصالح وإبراهيم وغيرهم إِلى قَوْمِهِمْ ، كل رسول إلى قومه ، فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ : بالمعجزات الواضحات المثبتة لدعواهم ، فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم فى الكفر ، ولسبق شقاوتهم ، فما آمنوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ مجيئهم المعجزات ، يعنى أنهم طلبوا المعجزات ليؤمنوا ، فلما جاءتهم استمروا على تكذيبهم ، كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ فلا تنفع فيهم معجزة ولا تذكير ، وفيه دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة اللّه ، مع إثبات كسب العبد ، لقيام عالم الحكمة - الذي هو رداء لتصرف القدرة - . واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كما بعث اللّه فى كل أمة رسولا يذكرهم ويدعوهم إلى اللّه ، بعث اللّه فى كل عصر وليّا عارفا ، يدعو الخلق إلى معرفة اللّه وتوحيده الخاص ، فمن سبقت له العناية آمن به من غير طلب آية ، ومن سبق له الخذلان لا يصدق به ولو رأى ألف برهان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر بعثة موسى وهارون - عليهما السلام - مفصلة لما فيها من التأسى والتسلية ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٧٥ الى ٧٨]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قالَ مُوسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ بَعَثْنا ، من بعد هؤلاء الرسل مُوسى وَهارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآياتِنا التسع ، فَاسْتَكْبَرُوا عن اتباعها ، وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ معتادين الإجرام ، فلذلك تهاونوا برسالة ربهم ، واجترءوا على ردها ، فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا وعرفوه ، وهو بعثة موسى عليه السّلام لتظاهر المعجزات على يديه ، القاهرة المزيحة للشك ، قالُوا من فرط تمردهم : إِنَّ هذا الذي جئت به لَسِحْرٌ مُبِينٌ : ظاهر.

قالَ لهم مُوسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ إنه سحر ، فكيف يقدر السحرة على مثله؟ أَسِحْرٌ هذا : أيتوهم أحد أن يكون هذا سحرا؟ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ أي : لو كان سحرا لا ضمحلّ ، ولم يبطل سحر

(١) انظر باب الموصول (حذف العائد).

السحرة ، والعالم بأن الساحر لا يفلح لا يستعمل السحر ، فهذا كله من كلام موسى عليه السّلام ، أو من تمام قولهم إن جعل قوله : «أسحر هذا» محكيا لقولهم ، كأنهم قالوا : أجئتنا بالسحر لتطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون ، والأول أرجح.

قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا لتصرفنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا من عبادة الأصنام ، وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ : الملك فيها ، سمى الملك كبرياء لاتّصاف الملوك بالتكبر ، وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ : بمصدّقين.

الإشارة : السحر على قسمين : سحر يسحر القلوب الى حضرة الرحمن ، وسحر يسحرها إلى حضرة الشيطان ، فالسحر الذي يسحر إلى حضرة الرحمن : هو ما جاءت به الأنبياء والرسل ، وقامت به الأولياء بعدهم من الأمور التي تقرب إلى الحضرة ، إمّا ما يتعلق بالظواهر ، كتبيين الشرائع ، وإمّا ما يتعلق بالبواطن ، كتبيين الطرائق والأمور التي تشرق بها أسرار الحقائق ، وأما السحر الذي يسحر إلى حضرة الشيطان : فكل ما يشغل عن ذكر الرحمن ، ولذلك قال عليه السّلام : «اتّقوا الدّنيا فإنّها أسحر من هاروت وماروت».

ثم ذكر معارضة فرعون ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٧٩ الى ٨٢]

وَقالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)

قلت : (ما جئتم به) موصولة على من قرأ : «السحر» بلا استفهام ، ومن قرأ بالاستفهام ف «ما» مبتدأ ، و(جئتم) خبرها ، و(السحر) : بدل منه ، أو خبر لمحذوف ، أي : أهو السحر؟ أو مبتدأ حذف خبره ، أي : السحر هو.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ فِرْعَوْنُ لما أراد معارضة موسى عليه السّلام : ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ وفى قراءة الأخوين : «سحّار» ، عَلِيمٍ : حاذق فى فنه ، فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ

مُلْقُونَ ، فَلَمَّا أَلْقَوْا حبالهم وعصيهم ، فانقلبت حيّات فى أعين الناس ، يركب بعضها بعضا ، قالَ لهم مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ أي : الذي جئتم به هو السحر ، لا ما سماه فرعون وقومه سحرا من معجزات العصا. وقرأ البصري : «آلسحر» أي : أىّ شيء جئتم به هو السحر هو؟ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ : سيمحقه ، أو سيظهر بطلانه ، إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ لا يثبته ولا يديمه ، وفيه دليل على أن السحر تمويه لا حقيقة له ، وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ السابقة الأزلية ، أو بأوامره وقضاياه ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ذلك.

الإشارة : الأكوان كلها عند أهل التحقيق شعوذة سحرية ، خيالية كخيال السحر الذي يظهره المشعوذ ، تظهر ثم تبطن ، وليس فى الوجود حقيقة إلا الواحد الأحد الفرد الصمد ، فهى ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته. وهى أيضا

أشبه شيء بالظلال ، والظلال لا وجود لها من ذاتها ، وإنما تابعة لشواخصها ، ولذلك قالوا : ظلال الأشجار لا تعوق السفن عن التّسيار ، فظلال الأكوان وأجرامها لا تعوق سفن الأفكار عن التسيار فى بحار معانى الأسرار ، بل تغيب عن ظلال حسها إلى فضاء شهود معانيها ، فالعارف لا يحجبه عن اللّه شيء لنفوذه إلى شهود أسرار الربوبية فى كل شيء ، واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر من تبع موسى ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٨٣]

فَما آمَنَ لِمُوسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣)

قلت : الضمير فى «ملئهم» يعود على فرعون ، وجمعه على ما هو المعتاد فى ضمير العظماء ، أو باعتبار آل فرعون ، كما يقال : ربيعة ومضر ، أو على الذرية ، أو على «قومه» ، و(أن يفتنهم) بدل من فرعون ، أو مفعول بخوف ، وأفرد ضمير الفاعل ، فلم يقل : أن يفتنوهم للدلالة على أن الخوف من الملأ كان بسبب فرعون.

يقول الحق جل جلاله : فَما آمَنَ لِمُوسى أي : صدّقه فى أول مبعثه إِلَّا ذُرِّيَّةٌ : إلا شباب وفتيان مِنْ قَوْمِهِ : من بنى إسرائيل ، آمنوا عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أي : مع خوف من فرعون وقومه ، أو على خوف من فرعون وملأ بنى إسرائيل لأن الأكابر من بنى إسرائيل كانوا يمنعون أولادهم من الإيمان خوفا من فرعون ، وهذا أرجح. خافوا أَنْ يَفْتِنَهُمْ : يعذبهم حتى يردهم عن دينهم ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي

الْأَرْضِ : لغالب فيها ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ فى الكفر والعتوّ حتى ادعى الربوبية ، واسترقّ أسباط الأنبياء.

الإشارة : أهل التصديق بأهل الخصوصية قليل فى كل زمان ، وإيذاء المنتسبين لهم سنة جارية فى كل أوان ، فكل زمان له فراعين يؤذون المنتسبين ، والعاقبة للمتقين.

ثم أمرهم بالتوكل والثبات ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٨٤ الى ٨٦]

وَقالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٨٦)

(٤٩٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٩٣

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ مُوسى لقومه ، لمّا رأى خوفهم من فرعون : يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا أي : ثقوا به واعتمدوا عليه ، ولا تبالوا بغيره ، إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ مستسلمين لقضاء اللّه ، أو منقادين لأحكامه ، قائمين بطاعته بعد تحصيل الإيمان به ، وقال لهم ذلك مع علمه بإيمانهم وإسلامهم إنهاضا لهم وتحريضا على الصبر ، كما تقول : إن كنت رجلا فافعل كذا.

فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا لأنّا مؤمنون مخلصون ، رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً أي : موضع فتنة لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أي : لا تسلطهم علينا فيفتنونا ، وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ أي : من كيدهم ، أو من شؤم مشاهدتهم. وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغى أن يتوكل أولا لتجاب دعوته لأنه يتسبب فى نجاح أمره ، ثم يدعو. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : التوكل هو ثمرة الإيمان ونتيجته ، فكلما قوى الإيمان واشتدت أركانه قوى التوكل وظهرت أسراره ، وكلما ضعف الإيمان ضعف التوكل ، فالتّوغل فى الأسباب نتيجة ضعف الإيمان ، والتقلل منها نتيجة صحة التوكل والإيقان ، والتوكل : أن تكون بما فى يد اللّه أوثق مما فى يدك. قال تعالى : ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ «١» والتوكل قد يوجد مع الأسباب ، ومع التجريد أنفع ، وقد تقدم الكلام عليه فى آل عمران «٢». وباللّه التوفيق.

ثم أمر بنى إسرائيل باتخاذ المساجد ، وجعلها فى البيوت خوفا من فرعون ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٨٧]

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)

يقول الحق جل جلاله : وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا أي : اتخذا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً للصلاة والعبادة ، وقيل : أراد الإسكندرية ، وهى من مصر ، وَاجْعَلُوا أنتما وقومكما بُيُوتَكُمْ التي تسكنون فيها قِبْلَةً : مصلّى ومساجد. روى أن فرعون أخافهم ، وهدم مواضع كانوا اتخذوها للصلاة ، فأمروا بإخفائها وجعلها فى بيوتهم ، وتكون متوجهة نحو القبلة - يعنى مكة - وكان موسى يصلى إليها.

فإن قلت : لم خصّ موسى وهارون بالخطاب فى قوله : أَنْ تَبَوَّءا ، ثم خوطب بها بنو إسرائيل فى قوله :

وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ؟ ، فالجواب : أن التبوأ واتخاذ المساجد مما يتعاطاه رؤوس القوم للتشاور ، بخلاف جعل البيوت قبلة فمما ينبغى أن يفعله كل أحد.

---

(١) الآية ٩٦ من سورة النحل.

(٢) عند إشارة قوله تعالى : فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الآية ١٥٩.

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ فى تلك البيوت ، أمروا بذلك أول مرة لئلا تظهر عليهم الكفرة ويفتنونهم عن دينهم ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بالنصر والعز فى الدنيا ، وبالجنة فى العقبى.

الإشارة : اتخاذ الأماكن للعبادة والعزلة مطلوب عند القوم ، وفى الحكم : «ما نفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة» ، وأصلهم فى ذلك : اعتزاله صلّى اللّه عليه وسلّم فى غار حراء فى مبدأ الوحى ، فالخلوة للمريد لا بد منها فى ابتداء أمره ، فإذا قوى نوره ودخل مقام الفناء صلح له حينئذ الخلطة مع الناس ، بحيث يكون جسده مع الخلق وقلبه مع الحق ، فإن لله رجالا أشباحهم مع الخلق تسعى ، وأرواحهم فى الملكوت ترعى. وقال بعضهم : [الجسد فى الحانوت والقلب فى الملكوت] ، فإذا رجع إلى البقاء لم يختر حالا على حال لأنه مع اللّه على كل حال ، وهذا من أقوياء الرجال. نفعنا اللّه بهم.

ثم ذكر دعاء موسى على فرعون ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٨٨ الى ٨٩]

وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩)

قلت : اللام فى (ليضلوا) لام كى ، متعلقة بآتيت محذوفة ، أو بالمذكورة ، ولفظ (ربنا) تكرار ، أو تكون لام الأمر ، فيكون دعاء عليهم بلفظ الأمر ، بما علم من قرائن أحوالهم أنه لا يكون غيره. فَلا يُؤْمِنُوا : جواب الدعاء ، أو عطف على (ليضلوا).

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً : ما يتزين به من الملابس والمراكب ونحوها ، وَأَمْوالًا : أنواعا من المال فِي الْحَياةِ الدُّنْيا استدراجا ، رَبَّنا آتيتهم ذلك لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ طغيانا وبطرا بها ، وصرفها فى غير محلها ، أو ربنا اجعلهم ضالين عن سبيلك ، كقول نوح عليه السّلام : وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالًا «١» لما أيس من إيمانهم ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ أي : أهلكها وامحقها ، وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ بالقسوة ، واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان ، فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ أي : إن تطمس على أموالهم وتشدد على قلوبهم لا يؤمنوا إلا قهرا.

---

(١) الآية ٢٦ من سورة نوح.

(٤٩٤/٢)

وفى الآية دليل على جواز الدعاء على الظالم بالمعصية ، أو الكفر ، وقد فعله سعد بن أبى وقاص على الذي شهد فيه بالباطل ، ووجه جوازه مع استلزامه وقوع المعاصي : أنه لم يعتبر من حيث تأديته إلى المعاصي ، ولكن من حيث تأديته إلى نكاية الظالم وعقوبته ، وهذا كما قيل فى تمنى الشهادة أنه مشروع ، وإن كان يؤدى إلى قتل الكافر للمسلم ، وهو معصية ووهن فى الدين ، ولكن الغرض من تمنى الشهادة ثوابها ، لا نفسها.

قالَ تعالى : قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما يعنى موسى وهارون ، وكان يؤمّن على دعاء أخيه ، فَاسْتَقِيما أي : اثبتا على ما أنتما عليه من الاستقامة والدعوة وإلزام الحجة ، ولا تستعجلا ، فإن ما طلبتما كائن ولكن فى وقته ، روى أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة ، وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ : طريق الجهلة فى استعجال الأشياء قبل وقتها ، أو فى عدم الوثوق والاطمئنان بوعدنا ، وقرأ ابن ذكوان : «ولا تتبعان» بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين ، وهو قليل ، قال ابن مالك :

ولم تقع خفيفة بعد الألف «١».

ويحتمل أن تكون نون الرفع ، و«لا» نافية ، أي : والأمر لا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون.

الإشارة : دعاء الأولياء على الظالم مشروع بعد الإذن الإلهامى على ما يفهمونه ، وقد مكث الشيخ أبو الحسن سنين لم يدع على ابن البراء «٢» حتى كان سنة فى عرفة ، فقال : الآن أذن لى فى الدعاء

على ابن البراء .... إلخ.

فإن لم يكن إذن فالصبر أولى ، بل الأولى الدعاء له بالهداية ، حتى يأخذ اللّه بيده وهذا مقام الصديقين ، فإذا وقع الدعاء مطلقا وتأخرت الإجابة فلا يستعجل ، فيكون تبع سبيل الذين لا يعلمون ، وفى الحكم : «لا يكن تأخّر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجبا ليأسك ، فقد ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لا فيما تختار أنت لنفسك ، وفى الوقت الذي يريد ، لا فى الوقت الذي تريد» ، وقال أيضا : «لا يشككنّك فى الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه لئلا يكون ذلك قدحا فى بصيرتك ، وإخمادا لنور سريرتك». وبالله التوفيق.

ثم أجاب دعاءهما ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٩٠ الى ٩٢]

وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (٩٢)

---

(١) عجز البيت : لكن شديدة وكسرها ألف.

(٢) هو أبو القاسم ابن البراء ، قاضى تونس عند دخول الشيخ الشاذلى إليها. وقد رأى ابن البراء إقبال الناس على الشاذلى ، فسعى فى الكيد له واتهامه عند السلطان بالعمل على قلب نظام الحكم. ولكن اللّه نجاه من كل هذه المكائد.

قلت : (فأتبعهم) أي : تبعهم ، يقال : تبع وأتبع ، لغتان.

يقول الحق جل جلاله : وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ أي : جوزناهم فى البحر يبسا حتى بلغوا الشط الآخر حافظين لهم. روى أن بنى إسرائيل حين جاوزوا البحر كانوا ستمائة ألف ، وكان يعقوب عليه السّلام قد دخل مصر فى نيف وسبعين من ذريته ، فتناسلوا حتى بلغوا وقت موسى العدد المذكور.

فَأَتْبَعَهُمْ : فأدركهم فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ، روى أنهم كانوا ثمانمائة ألف أدهم ، سوى ما يناسبها من أواسط الخيل. تبعهم بَغْياً وَعَدْواً : باغين وعادين عليهم. مستمرا على بغيه حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ أي : بأنه لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فآمن حين لا ينفع الإيمان بمعاينة

الموت ، ومن قال بصحة إيمانه فغلط كالحاتمى «١» فإنه قال فى الفصوص : إنه من الناجين ، وذلك من جملة هفواته.
قال تعالى لفرعون : آلْآنَ أي : أتؤمن الآن وقد أيست من نفسك ، وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ مدة عمرك وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ : الضالين المضلين ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ أي : ننقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ، ونجعلك طافيا على وجه الماء ، أو نلقيك على نجوة من الأرض ليراك الناس ، فيتحققوا بغرق من معك ، حال كونك بِبَدَنِكَ عاريا عن الروح ، أو عريانا بلا لباس ، أو بدرعك ، وكانت له دروع من ذهب يعرف بها ، وكان مظاهرا بينها.
لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً : لمن وراءك علامة يعرفون أنك من الهالكين ، والمراد : بنو إسرائيل إذ كان فى نفوسهم من عظمته ما خيّل إليهم أنه لا يهلك ، حتى كذبوا موسى عليه السّلام حين أخبرهم بغرقه ، إلى أن عاينوه منطرحا على ممرهم من الساحل ، أو لمن يأتى بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك ، فيكون ذلك عبرة ونكالا للطغيان ، أو حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظيم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور ، بعيد عن مظانّ الربوبية ، أو آية تدل على كمال قدرته وإحاطة علمه وحكمته ، فإن إفراده بالإلقاء إلى الساحل دون غيره يفيد أنه مقصود لازاحة الشك فى أمره.
وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ، والإخبار بهذا الأخذ الذي وقع فى قعر البحر من أعلام النبوة إذ لا يمكن أن يخبر بها إلّا علّام الغيوب الذي لا يخفى عليه شىء ، ولا يخلو منه مكان. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أي : الشيخ محيى الدين بن عربى. [.....]

الإشارة : كل من دخل بحر التوحيد علما - وهو فرعون برؤية نفسه - ، ولم يصحب من يغيبه عنها غرق فى بحر الزندقة والدعوى ، فإن رجع إلى الإيمان بعد معاينة الهلاك بسيف الشريعة قيل له : الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين؟ فإن تاب حقيقة رجى له النجاة ، وإن قتل كان آية ونكالا لمن خلفه.
واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكّر بنى إسرائيل بما أنعم عليهم ، فقال :
[سورة يونس (١٠) : آية ٩٣]

وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

قلت : (مبوّأ) : ظرف بمعنى منزل يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ بَوَّأْنا أي : أنزلنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ أي : منزل صدق ، أي :

منزلا صالحا مرضيا يصدق فيه ظن قاصده وساكنه ، فما ظن فيه من الكمالات وجدها صدقا وحقا ، والمراد به : الشام وقراها ، وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ من اللذائذ ، وكانوا متفقين على دينهم ، وعلى ظهور دين الإسلام ، فَمَا اخْتَلَفُوا فى أمر دينهم حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ بأن قرؤوا التوراة وعلموا أحكامها ، ثم طغوا وعصوا ، أو فى أمر محمد صلّى اللّه عليه وسلّم إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، فيميز المحقّ من المبطل بالإنجاء والإهلاك.

الإشارة : قد يمد اللّه عباده بأنواع النعم ، ثم يبعث لهم من يذكرهم بأيام اللّه ، ويعرفهم به ، فإذا اختلفوا عليه ظهر الشاكر من غيره ، فيغير عليهم تلك النعم ، فيوصل إليه أهل التصديق والاستماع والاتباع ، ويبعد أهل الإنكار والابتداع. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالسؤال لأهل العلم لمن وقعت له شبهة ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٩٤ الى ٩٥]

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (٩٥)

(٤٩٧/٢)

يقول الحق جل جلاله : فَإِنْ كُنْتَ يا محمد فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ الخطاب للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، والمراد به : من وقع له شك ، فإن الملك إذا أراد أن يعرض بأحد خاطب كبير القوم وهو يريد غيره ، فهو كقول العامة : الكلام مع السارية وافهمى يا جارية. وأما النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فهو بعيد من الشك لأنه عين اليقين ، وهو الذي علّم الناس اليقين ، ولذلك قال - عليه الصلاة السلام - لما نزلت : «لا أشكّ ولا أسأل» «١» والمراد بالذين يقرءون الكتاب : من أسلم منهم ، كعبد اللّه بن سلام وغيره ، أو فإن كنت أيها المستمع فى شك مما أنزلنا إليك على لسان فاسأل ... إلخ ، وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع إلى حلها ، بالرجوع إلى أهل اليقين إن كانت فى التوحيد ، أو إلى أهل العلم إن كانت فى الفروع.

قال ابن عطية : الخواطر التي لا ينجو منها أحد ، هى خلاف الشك الذي يحال فيه على الاستشفاء بالسؤال. هـ.

أي : فإنها معفوّ عنها.

ثم قال تعالى : لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ واضحا لا مدخل للمرية فيه بالآيات القاطعة فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ : الشاكّين بالتزلزل على ما أنت عليه من الجزم واليقين ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ ، وهذا كله يجرى على ما تقدم من أنه لكل سامع. وقال البيضاوي : هو من باب التهييج والتثبيت ، وقطع الأطماع عنه ، كقوله : فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ «٢» هـ.

الإشارة : لا تنقطع عن العبد الأوهام والشكوك والخواطر ، حتى يدخل مقام الإحسان ويكاشف بمقام الشهود والعيان ، بالغيبة عن حس الأكوان ، بسطوع أنوار المعاني عند غيبة الأواني ، ومن غاب عن حس نفسه غاب عنه حس جميع الأكوان وذلك بصحبة أهل العرفان ، الذين سلكوا الطريق حتى أفضوا إلي عين التحقيق ، فزاحت عنهم الشكوك والأوهام ، وانحلت عنهم الشّبه ، وزالت عن قلوبهم الأسقام ، واطلعوا على تأويل المتشابه من القرآن ، فبصحبة هؤلاء ترتفع الخواطر والشكوك ، ويرتفع العبد إلى حضرة ملك الملوك ، فجلوس ساعة مع هؤلاء تعدل عبادة سنين. وفى بعض الآثار : (تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين) قلت : وقد من اللّه علينا بمعرفتهم وصحبتهم ، بعد أن تحققنا بخصوصيتهم ، فلله الحمد وله الشكر.

ثم أخبر عمن سبق له الشقاء ، فلا ينفع فيه سؤال ولا صحبة ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٩٦ الى ٩٧]

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٩٧)

---

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١١/ ١٦٨) ، عن قتادة وسعيد بن جبير ، وزاد المناوى فى الفتح السماوي (٢/ ٧١٦) عزوه لعبد الرزاق فى تفسيره.

(٢) من الآية ٨٦ من سورة القصص.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ أي : ثبتت عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ بأنهم لا يؤمنون ، أو بأنهم مخلدون فى العذاب لا يُؤْمِنُونَ أبدا إذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه ، وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ وعاينوها فإن السبب الأصلى لإيمانهم هو تعلق إرادته تعالى ، وقد أراد خلافه ، فلا يؤمنوا حَتَّى يَرَوُا

الْعَذابَ الْأَلِيمَ وحينئذ لا ينفعهم ، كما لم ينفع فرعون ، وبالله التوفيق.

الإشارة : من انتكبه التوفيق لا يصدق بأهل التحقيق ، ولو رأى منهم ألف كرامة ، فلا تنفك عنه الشكوك والأوهام حتى يفضى إلى شرب كأس الحمام ، فيلقى اللّه بقلب سقيم ، وربما مات على الشك ، فيلحقه العذاب الأليم ، عائذا بالله من ذلك.

ثم وبخ من فوت إيمانه عن وقته ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٩٨]

فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (٩٨)

قلت : (فلو لا) تحضيضية ، و(إلا قوم يونس) : استثناء منقطع ، ويجوز الاتصال فيكون الاستثناء من معنى النفي الذي تضمنه حرف التحضيض لأن المراد بالقرى : أهلها ، كأنه قال : ما آمن أهل قرية من القرى الماضية فنفعها إيمانها إلا قوم يونس ، ويؤيده قراءة الرفع. و«يونس» : عجمى مثلث النون.

يقول الحق جل جلاله : فَلَوْ لا كانَتْ هلا وجدت قَرْيَةٌ من القرى التي أهلكناها آمَنَتْ قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخر الإيمان إلى نزوله كما فعل فرعون ، فَنَفَعَها حينئذ إِيمانُها بأن يقبله اللّه منها فيكشف عنها العذاب ، إِلَّا لكن قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، فرفعنا عنهم العذاب حين آمنوا بعد أن ظهرت مخايله ، فنجوا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ : إلى تمام آجالهم.

روى أن يونس عليه السّلام بعث إلى أهل نينوى من الموصل ، فكذبوه وأصروا على تكذيبه ، فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث ، فلما دنا الموعد وأغامت السماء غيما أسود ذا دخان شديد فهبط حتى غشى مدينتهم ، فهابوا ، فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه ، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، وفرقوا بين كل والدة وولدها ، فحن بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والضجيج ، وأخلصوا التوبة والإيمان ، وتضرعوا إلى اللّه تعالى ، فرحمهم وكشف العذاب عنهم ، وكان يوم عاشوراء ويوم الجمعة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للعبد أن يعتنى بتربية إيمانه وتقوية إيقانه قبل فوات إبّانه ، وهو انصرام أجله. وتربيته تكون بصحبة أهل اليقين ، فإن لم يعثر بهم فبمطالعة كتبهم ، والوقوف على أخبارهم ومناقبهم ، مع دوام التفكر والاعتبار ،

والإكثار من الطاعة والخضوع والافتقار ، والتمسك بالذل والانكسار. قال تعالى فى بعض الأخبار :

«أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى» وبالله التوفيق.

كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٩٩ الى ١٠٠]

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (١٠٠)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ هداية الخلق كلهم لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً بحيث لا يتخلف عنه أحد ، لكن حكمته اقتضت وجود الخلاف ، فمن رام اتفاقهم على الإيمان فقد رام المحال ، ولذلك قال : أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ بالقهر على ما لم يشأ اللّه منهم حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ كلهم.

قال البيضاوي : وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء ، وإيلاؤها حرف الاستفهام الإنكارى ، وتقديم الضمير على الفعل ، للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل ، فلا يمكنه تحصيله بالإكراه فضلا عن الحث والتحريض عليه ، إذ روى أنه - عليه الصلاة السلام - كان حريصا على إيمان قومه ، شديد الاهتمام به ، فنزلت ، ولذلك قرره بقوله : وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ بمشيئته وألطافه وتوفيقه فلا تجهد نفسك فى هداها ، فإنه إلى اللّه تعالى. وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ : العذاب أو الخذلان فإنه سببه عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ : لا يستعملون عقولهم بالنظر فى الحجج والآيات ، أو لا يعقلون دلائل القرآن وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع. ويؤيد الأول قوله قُلِ انْظُرُوا ... إلخ. هـ.

الإشارة : فى الآية تسلية لأهل التذكير حين يرون الناس لم ينفع فيهم تذكيرهم ، وفيها تأديب لمن حرص على هداية الناس كلهم ، أو يتمنى أن يكونوا كلهم خصوصا ، فإن هذا خلاف حكمته تعالى.

قال تعالى : وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ «١» فالداعون إلى اللّه لا يكونون حرصا على الناس أبدا ، بل يدعون إلى اللّه ، ويذكّرون باللّه ، وينظرون ما يفعل اللّه اقتداء بنبي اللّه ، بعد أن علمه اللّه كيف يكون مع عباد اللّه. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر باستعمال العقل فى التفكر والاعتبار ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٠١ الى ١٠٣]

قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

---

(١) من الآية ١١٨ من سورة هود.

قلت : (ماذا) إن كانت استفهامية علقت (انظروا) عن العمل ، وإن كانت موصولة فمفعول به ، و(ما تغنى الآيات) : يحتمل الاستفهام فى محل نصب بتغنى ، أو النفي. «ثم ننجى» معطوف على محذوف دل عليه : (إلا مثل أيام) أي : فكانت عادتنا معهم أن نهلك المكذبين ، ثم ننجى رسلنا ومن آمن معهم. و«كذلك» مصدر معمول لننجى ، و(حقا) اعتراض بينهما ، وهو مصدر لفعل محذوف ، أي : مثل ذلك الإنجاء ننجى المؤمنين يحق ذلك حقا ، وعلى هذا يوقف على : (الذين آمنوا) ، ثم يبتدأ بقوله : (كذلك حقّا ..) إلخ. وقيل : خبر عن (الذين آمنوا) أي : والذين آمنوا مثلهم فى الإنجاء ، وهو ضعيف.

يقول الحق جل جلاله : قُلِ للمشركين الذين طلبوا منك الآية : انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من الآيات والعبر ، وعجائب الصنع ليدلكم على وحدانية اللّه تعالى ، وكمال قدرته ، ثم بيّن أن الآيات لا تفيد من سبق عليه الشقاء ، فقال : وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ فى علم اللّه وحكمه ، ثم هددهم بالهلاك فقال : فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أي : مثل وقائعهم ونزول العذاب بهم إذ لا يستحقون غيره ، فهو من قولهم : أيام العرب ، لوقائعها.

قُلْ لهم : فَانْتَظِرُوا هلاككم إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ لذلك ، أو فانتظروا هلاكى إنى معكم من المنتظرين هلاككم ، ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا أي : عادتنا أن ننجى رسلنا وَالَّذِينَ آمَنُوا معهم من ذلك الهلاك ، كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ من أصحاب محمد صلّى اللّه عليه وسلّم حين نهلك المجرمين حقّا واجبا علينا كما هى عادتنا مع من تحبب إلينا بالإيمان والطاعة.

الإشارة : أمر الحق - جل جلاله - أهل النظر والاستبصار بأن ينظروا ماذا فى السموات والأرض من الأسرار والأنوار ، أمرهم أن يشاهدوا أسرار الذات وأنوار الصفات ، دون الوقوف مع الأجرام الحسّيات ، أمرهم أن ينظروا المعاني خلف رقة الأوانى ، لا أن يقفوا مع الأوانى ، وإليه أشار ابن الفارض فى خمريته ، حيث قال :

ولطف الأوانى - فى الحقيقة - تابع للطف المعاني ، والمعاني بها تسمو

فالأكوان كلها أوانى حاملة للطف المعاني ، وأصل الأوانى معانى ، تحسست وتكثفت فمن لطّف الأوانى وذوّبها بفكرته رجعت معانى ، واتصلت المعاني بالمعاني ، وغابت حينئذ الأوانى ، ولا يعرف هذا إلا من صحب أهل المعاني ، وهم أهل الفناء والبقاء ، ومن لم يصحبهم فحسبه الوقوف مع الأجرام الحسية ، ويستعمل فكرة التصديق والإيمان ، وهى عبادة التفكر والاعتبار والأولى فكرة أهل الشهود والاستبصار ، وفى أمثالهم قال الشاعر :

هم الرّجال وغبن أن يقال لمن لم يتّصف بمعاني وصفهم رجل

وقد ذكر فى الحكم هذه الإشارة فقال : «أباح لك أن تنظر ما فى المكوّنات ، وما أباح لك أن تقف

مع ذوات المكونات ، (قل انظروا ماذا فى السموات) فتح لك باب الأفهام ، ولم يقل : انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الأجرام».

(٥٠١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠٢

ومن سبق له فى العلم القديم الخذلان لا يخرج عن دائرة الأكوان ، فلا يؤمن بوجود أهل الشهود والعيان ، فما ينتظر مثل هذا إلا ما نزل بأمثاله ، من هجوم الحمام قبل خروجه من سجن الأجرام ، فإنه لا ينجو من سجن الأكوان إلا من صحب أهل العرفان ، الذين أفضوا إلى فضاء الشهود والعيان ، وقليل ما هم.

ثم أمر نبيه بالتبرء من الشرك وأهله ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٠٤ الى ١٠٧]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)

قلت : (و أن أقم) : عطف على (أن أكون) وإن كان بصيغة الأمر لأنّ الغرض وصل «أن» بما يتضمن معنى المصدر ليدل معه عليه ، وصيغ الأفعال كلها كذلك ، سواء الخبر منها والطلب ، والمعنى : وأمرت بالإيمان والاستقامة.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لأهل مكة أو لجميع الناس : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي بأن شككتم فى صحته حتى عبدتم غير اللّه ، فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ فهذا خلاصة دينى اعتقادا وعملا ، فاعرضوها على العقل السليم ، وانظروا فيها بعين الإنصاف ، لتعلموا صحتها ، وهو أنى لا أعبد ما تخلقونه وتعبدونه ، ولكن أعبد خالقكم ، الذي هو يوجدكم ويتوفاكم.

وإنما خص التوفى بالذكر لأنه أليق بالتهديد ، انظر البيضاوي. وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بالله وحده ، الذي دل عليه العقل ونطق به الوحى.

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً مائلا عن الأديان الفاسدة ، أي : أمرت بالاستقامة بذاتى كلها فى الدين والتوغل فيه ، بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح ، أو : أن أقيم وجهى فى الصلاة باستقبال القبلة.

وقيل لى : وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بالله فى شيء ، وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ بنفسه ولا بدعوته ، فَإِنْ فَعَلْتَ ودعوته فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ ، وهو تنفير وتحذير للغير من الميل اليه.
ثم بيّن من يستحق العبادة والدعاء ، وهو اللّه تعالى فقال : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ أي : يصيبك بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ : لا رافع له إِلَّا هُوَ أي : اللّه ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ : لا دافع لِفَضْلِهِ الذي أرادك به.

(٥٠٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠٣
قال البيضاوي : ولعله ذكر الإرادة مع الخير ، والمس مع الضر ، مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات ، وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول ، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا لاستحقاق لهم عليه ، ولم يستثن لأن مراد اللّه لا يمكن رده. هـ.
يُصِيبُ بِهِ بذلك الخير مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، فتعرّضوا لخيره بالتضرع والسؤال ، ولا يمنعكم من ذلك ما اقترفتم من العصيان والزلل ، فإنه غفور رحيم.
الإشارة : ينبغى لمن تمسك بطريق الخصوص ، وانقطع بكليته إلى مولاه ، أن يقول لمن خالفه فى ذلك : إن كنتم فى شك من دينى - من طريقى - فلا أعبد ما تعبدون من دون اللّه ، من متابعة الهوى والحرص على الدنيا ، ولكن أعبد اللّه الذي يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين ، وأن أقيم وجهى للدين حنيفا مائلا عن دينكم ودنياكم ، كما قال القائل :
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى
وقال آخر :
تركت للنّاس ما تهوى نفوسهم من حبّ دنيا ومن عزّ ومن جاه
كذاك ترك المقامات هنا وهنا والقصد غيبتنا عمّا سوى اللّه.
وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ ، وهو ما سوى اللّه ، فليس بيد أحد ضر ولا نفع ، ولا جلب ولا دفع ، قال فى الحكم : «لا ترفعنّ إلى غيره حاجة هو موردها عليك ، فكيف يرفع إلى غيره ما كان هو له واضعا؟! من لا يستطيع أن يرفع حاجته عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا؟!».
قال بعضهم : من اعتمد على غير اللّه فهو فى غرور لأن الغرور ما لا يدوم ، ولا يدوم شيء سواه ، وهو الدائم القديم ، لم يزل ولا يزال ، وعطاؤه وفضله دائمان ، فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء ، فى كل نفس وحين وأوان وزمان. هـ.

وقال وهب بن منبّه : أوحى اللّه إلى داود عليه السّلام : يا داود أما وعزتى وجلالى وعظمتى لا ينتصر بي عبد من عبادى دون خلقى ، أعلم ذلك من نيته فتكيده السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجا ، أما وعزتى وجلالى لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق ، دونى ، أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السموات من يده ، وأسخطت الأرض من تحته ولا أبالى فى أي واد هلك. هـ.

وقال بعضهم : قرأت فى بعض الكتب : أن اللّه عز وجل يقول : [وعزتى وجلالى ، وجودى وكرمى ، وارتفاعي فوق عرشى فى علو مكانى ، لأقطعن آمال كل مؤمّل لغيرى بالإياس ، ولأكسونه ثوب المذلة بين

الناس ، ولأنحينّه من قربى ، ولأقطعنه من وصلي ، أيؤمّل غيرى فى النوائب ، والشدائد بيدي ، وأنا الحي ، ويرجى غيرى ويقرع بالفكر باب غيرى ، وبيدي مفاتح الأبواب ، وهى مغلقة وبابى مفتوح لمن دعانى ، ومن ذا الذي أملنى لنائبة فقطعت به دونها؟ ومن ذا الذي رجانى بعظيم جرمه فقطعت رجاءه منى؟ ومن ذا الذي قرع بابى فلم أفتح له؟ جعلت آمال خلقى بينى وبينهم متصلة ، فقطعت بغيري ، وجعلت رجاءهم مدخورا لهم عندى فلم يرضوا بحفظي ، وملأت سمواتى بمن لا يملون تسبيحى من ملائكتى ، وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بينى وبين عبادى ، فلم يثقوا بقولي ، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبى أنه لا يملك كشفها أحد غيرى؟ فما لى أراه بآماله معرضا عنى؟ ومالى أراه لاهيا إلى سواى ، أعطيته بجودي ما لم يسألنى ، ثم انتزعته منه فلم يسألنى رده ، وسأل غيرى ، أفتراني أبدا بالعطية قبل المسألة ثم أسأل فلا أجيب سائلى؟ أبخيل أنا فيبخلنى خلقى؟ أليس الدنيا والآخرة لى؟ أوليس الفضل والرحمة بيدي؟ أوليس الجود والكرم لى؟ أوليس أنا محل الآمال؟ فمن ذا الذي يقطعها دونى؟ وما عسى أن يؤمّل المؤملون لو قلت لأهل سمواتى وأهل أرضى : أمّلونى ، ثم أعطيت كل واحد منهم من الفكر مثل ما أعطيت الجميع ، ما انتقص ذلك من ملكى عضو ذرّة ، وكيف ينقص ملك كامل أنا فيه؟. فيا بؤس القانطين من رحمتى ، ويا بؤس من عصانى ولم يراقبنى ، وثب على محارمى ولم يستح منّى.] هـ.

ثم أزاح عذرهم بإرسال النذير ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٠٨ الى ١٠٩]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها

وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (١٠٩)
يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ الرسول أو القرآن ، فَمَنِ اهْتَدى بالإيمان والمتابعة فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ لأن نفعه لها ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها لأن وبال الضلال عليها ، وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أي : موكل عليكم ، فأقهركم على الإيمان ، وإنما أنا بشير ونذير. وهو منسوخ بآية السيف. وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ بالامتثال والتبليغ ، وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بينك وبين عدوك ، بالأمر بالقتال ثم بالنصر والعز ، وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ إذ لا يمكن الخطأ فى حكمه ، لاطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر.

(٥٠٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠٥

الإشارة : يا أيها الناس قد جاءكم من يعرفكم بالحق من ربكم ، فمن اهتدى بمعرفته واتباعه نفع نفسه ، حيث أخرجها من غم الحجاب ، وشفاها من سقم الشك والارتياب ، ومن ضل عن معرفته فوباله عليه ، حيث ترك نفسه فى أودية الخواطر تجول ، وحرمها من اللّه حقيقة الوصول. ويقال للعارف إذا أعرض الخلق عنه ، ولم ينفع فيهم تذكيره ووعظه : اتبع ما يوحى إليك من وحي الإلهام ، فإنه حق فى حق الخصوص إذ لا يتجلى فى قلوبهم إلا ما هو حق ، حيث تطهرت من خواطر الخلق. واصبر حتى يحكم اللّه بإرسال ريح الهداية ، وهو خير الحاكمين. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

(٥٠٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠٦

(٥٠٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠٧

سورة هود

مكية إلا قوله تعالى : إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ نزلت فى نبهان التمار بالمدينة ، وهى مائة وثلاث وعشرون آية. ووجه المناسبة لما قبلها : قوله تعالى : وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ «١» وهو كتاب أحكمت آياته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. الر.

[سورة هود (١١) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٥)

قال فى القوت ، فى تفسير الر : هذه ثلاثة أسماء : (اللّه ، لطيف ، رحيم). وقيل : هى حرف من اسم الرحمن.

قلت : أو مختصرة من الرسول خطابا للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم. ويمكن أن يشير بالحروف للعوالم الثلاثة فالألف لوحدة الجبروت ، واللام لتدفق أنوار الملكوت ، والراء لسريان إمداد الرحموت فى سائر الموجودات ، وأعظمها وعنصرها :

نزول الكتاب العزيز. ولذلك بدأ بذكره ، فقال :

الر كِتابٌ ...

قلت : (كتاب) : خبر ، أي : هذا كتاب. و(أحكمت) : صفة. و(من لدن) : خبر ثان ، أو خبر «كتاب» إن جعل مبتدأ ، أو صفة له ، إن كان خبرا. و(ألّا تعبدوا) : «أن» : مفسرة ، أو مصدرية فى موضع مفعول لأجله ، أو بدل من الآيات ، أو مستأنف. و(أن استغفروا) : عطف عليه. و(حين) : متعلق بمحذوف ، أي : ألا إنهم يثنونها حين يستغشون ... إلخ. و(يعلم) : استئناف لبيان النقض عليهم.

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المصطفى ، هذا الذي تقرؤه كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ أتقنت ، ونظمت نظما محكما ، لا يعتريه خلل من جهة اللفظ ولا المعنى ، أو أحكمت من النسخ بشريعة أخرى ، أو أحكمت

---

(١) من الآية : ١٠٩ من سورة يونس.

بالحجج والبراهين ، أو جعلت حكيمة لأنها مشتملة على أمهات الحكم العملية. ثُمَّ فُصِّلَتْ بينت لاشتمالها على بيان العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار. أو فصلت سورة سورة ليسهل حفظها ، وفصلت بالإنزال نجما نجما ، فى أزمنة مختلفة. أو فصل فيها ولخص ما يحتاج إليه من الأحكام.
و(ثم) : للتفاوت فى الحكم لأن الأحكام صفة ذاتية ، والتفصيل إنما هو بحسب من يفصل له. نزل ذلك الكتاب مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ، ولذلك كان محكما مفصلا بالغا فى ذلك الغاية لأن الحكيم الخبير لا يخفى عليه ما يخل بنظم الكلام.
قائلا ذلك الكتاب : ألا تعبدوا معه غيره. وقال فى القوت : كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ يعنى : بالتوحيد ، ثُمَّ فُصِّلَتْ أي : بالوعد والوعيد. ثم قال : مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ أي : بالإحكام للأحكام ، خَبِيرٍ بالتفصيل للحلال والحرام. أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ هذا هو التوحيد الذي أحكمه. إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ بالعذاب ، وَبَشِيرٌ بالثواب لمن آمن به. هذا هو الوعد والوعيد. قال البيضاوي : إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ أي : من اللّه ، (نذير وبشير) بالعقاب على الشرك والثواب على التوحيد. وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ : عطف على «ألا تعبدوا» ، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ثم توصلوا إلى مطلبكم بالتوبة فإن المعرض عن طريق الحق لا بد له من رجوع. وقيل : استغفروا من الشرك ، ثم توبوا إليه بالطاعة ، ويجوز أن يكون «ثم» : للتفاوت بين الأمرين. هـ.
قال ابن جزى : (استغفروا ربكم) مما تقدم من الشرك والمعاصي ، ثم ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة. هـ.
وقال الواحدي : (استغفروا ربكم) من ذنوبكم السابقة ، (ثم توبوا إليه) من المستأنفة متى وقعت. هـ.
يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً يحييكم حياة طيبة بالأرزاق والنعم والخيرات ، فتعيشوا فى أمن ودعة. إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى تمام أجلكم ، فلا يستأصلكم بالعذاب ، أو يمتعكم بالرجاء فيه والرضا بقضائه لأن الكافر قد يمتع بالأرزاق فى الدنيا استدراجا ، وَيُؤْتِ فى الآخرة كُلَّ ذِي فَضْلٍ عمل صالحا ، فَضْلَهُ أي : جزاء فضله ، فيوفى ثواب عمله ، أو يعطى كل ذى فضل فى دينه جزاء فضله فى الدنيا والآخرة. وهو وعد للمؤمن التائب بخير الدارين.
وَإِنْ تَوَلَّوْا أي : وإن تتولوا عما أمرتكم به ، فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ يوم القيامة ، أو يوم الشدة بالقحط والجوع ، وقد نزل بهم حتى أكلوا الجيف. أو يوم بدر إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ أي : رجوعكم فى ذلك اليوم الكبير ، أو بالموت ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على بعثهم وعذابهم أشد العذاب. وكأنه تقرير لكبر اليوم.
أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ يلوونها عن الحق وينحرفون عنه ، أو يعطفونها على الكفر وعداوة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو يولون ظهورهم إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لئلا يروه من شدة البغض والعداوة ، لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أي : من الرسول - عليه الصلاة والسلام - أو : من اللّه بسرهم ، فلا يطلع رسوله

والمؤمنين عليه. قيل : إنها نزلت فى طائفة من المشركين ، قالوا : إن أرخينا ستورنا ، واستغشينا ثيابنا ، وطوينا صدورنا على عداوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم كيف يعلم ذلك؟

(٥٠٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠٩

والحاصل : إن الإثناء إن كان عن الحق - فالضمير فى : (منه) ، يعود على اللّه ، وإن كان عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فالضمير يعود عليه وفى البخاري عن ابن عباس : (أنها نزلت فيمن كان يستحى أن يتخلّى أو يجامع فيفضى إلى السماء).

وقوله : أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ : يحتمل أن يكون عند النوم ، فيكون الإثناء عن الحق ، أو عن اللّه ، أو عند مواجهة الرسول ، فيكون الإثناء عن رؤيته - عليه الصلاة السلام ، أو عن سماع القرآن. قال تعالى : يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ فى قلوبهم ، وَما يُعْلِنُونَ بأفواههم ، - فقد استوى فى علمه سرهم وعلانيتهم ، فكيف يخفى عليه أمرهم واستخفاؤهم منه؟ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي : بالأسرار صاحبة الصدور ، أو بحقائق الصدور وما احتوت عليه.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله : هذا كتاب أحكمت آياته بالتعريف بالذات ، ثم فصلت ببيان الصفات ، أو :

أحكمت بتبيين الحقائق ، ثم فصلت بتبيين الشرائع. أو : أحكمت ببيان ما يتعلق بعالم الأرواح من التعريف ، ثم فصلت ببيان ما يتعلق بعالم الأشباح من التكليف ، أو : أحكمت ببيان أسرار الملكوت ، ثم فصلت ببيان أحكام الملك. ثم بيّن ما يتعلق بالذات فقال : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، وبيّن ما يتعلق بالصفات من التفصيل فقال : (و أن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) ، أو : بيّن ما يتعلق بالحقائق ، ثم ما يتعلق بالشرائع ، وهكذا. فإن جمعتم بين الحقائق والشرائع يمتعكم متاعا حسنا بشهود ذاته ، والتنزه فى أنوار صفاته ، إلى أجل مسمى ، وهو : النزول فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ويؤت كل ذى فضل من المعرفة جزاء فضله من الشهود ، فمن تولى عن هذا خاف من عذاب يوم كبير ، وهو : غم الحجاب ، والتخلف عن الأحباب. ثم عاتب أهل الشهود حيث تركوا مقام المشاهدة وتنزلوا إلى مقام المراقبة ، بقوله : (ألا إنهم يثنون صدورهم ...) الآية.

ثم بيّن كمال علمه تكميلا لقوله : (يعلم ما يسرون وما يعلنون) ، فقال :

[سورة هود (١١) : آية ٦]

وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٦)

يقول الحق جل جلاله : وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ أي : كل ما يدب عليها عاقلا أو غيره ، إِلَّا عَلَى اللَّهِ

رِزْقُها غذاؤها ومعاشها لتكفله إياه بذلك تفضلا وإحسانا. وإنما أتى بعلى التي تقتضى الوجوب تحقيقا لوصوله ، وتهييجا على التوكل وقطع الوساوس فيه ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها أماكنها فى الحياة والممات ، أو الأصلاب والأرحام. أو : مستقرها فى الأرض بعد وجودها ، ومستودعها : موادها قبل إيجادها. أو بالعكس : مستقرها : موادها فى العلم قبل الظهور ، ومستودعها : إقامتها فى الدنيا بعد الوجود. كُلٌّ واحد من الدواب على اختلاف أجناسها وأصنافها فِي كِتابٍ مُبِينٍ مذكور فى اللوح المحفوظ ، أو فى العلم القديم المبين للأشياء ، قال البيضاوي : وكأنه أريد بالآية كونه عالما بالمعلومات كلها ، وبما بعدها بيان كونه قادرا على الممكنات بأسرها ، تقريرا للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد. هـ.

(٥٠٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥١٠

الإشارة : هم الرزق ، وخوف الخلق ، من أمراض القلوب ، ولا ينقطعان عن العبد حتى يكاشف بعلم الغيوب وهو التوحيد الخاص أعنى : الرسوخ فى الشهود والعيان. وإنما يضر العبد ما كان ساكنا ، وأما الخواطر التي تلمع وتذهب ، فلا تضر لأن الإنسان خلق ضعيفا.

واعلم أن الرزق على قسمين : رزق الأرواح ، ورزق الأشباح. فرزق الأرواح معنوى ، وهو : قوت الروح من المعرفة وعلم اليقين. ورزق الأشباح حسى ، وهو : الطعام والشراب. وقد تكفل اللّه بالأمرين معا ، وأمر بالتسبب فيهما ، قياما برسم الحكمة. فالتكفل حقيقة ، والتسبب شريعة ، فالعامة اشتغلوا بالتسبب فى الرزق الحسى والبحث عنه ، ولم يعبأوا بالرزق المعنوي ، ولا عرفوه من شدة إعراضهم عنه ، مع أنهم لو فقدوا الرزق المعنوي لماتت أرواحهم. والخاصة اشتغلوا بالتسبب فى الرزق المعنوي والبحث عنه ، ولم يعبأوا بالرزق الحسى من شدة إعراضهم عنه ، مع أنهم لو فقدوا الرزق الحسى لهلكت أشباحهم. وخاصة الخاصة يتسببون فى الرزق الحسى والمعنوي ، وليس هم مع إرادتهم فى واحد منهما ، وإنما هم أبدا مع إرادة مولاهم راتعين أبدا ، حيث دفعتهم إرادة سيدهم فى الحسى أو فى المعنوي من غير تبرم ولا التفات لغيره ، كما قال القائل «١».

أراني كالآلات وهو محركى أنا قلم ، والاقتدار أصابع

العامة قد حجبوا عن اللّه بإرادتهم للرزق الحسى ، حيث صار الرزق الحسى هو حظ النفوس. صاروا مع حظ نفوسهم لا غير ، والخاصة وجدوا اللّه فى طلبهم للرزق المعنوي ، لأنه حق اللّه ، لا حظ للنفس فيه ، لأجل ذلك لمّا كانوا لله كان اللّه لهم. وخاصة الخاصة ليس هم مع إرادتهم فى شىء ، بل هم بالله فى الأحوال كلها لا بنفوسهم.

قد انمحت إرادتهم فى إرادة اللّه ، فصارت إرادتهم إرادة اللّه ، وفعلهم فعله. وهذا المقام يقال له : التمكين بالتلوين.

هـ. قاله شيخ شيوخنا سيدى على الجمل العمراني رضى اللّه عنه فى كتابه ، نفعنا اللّه بهم جميعا.

قوله تعالى : وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها أي : يعلم مستقرها فى العلم ، ومستودعها فى العمل ، أو مستقرها فى الحال ، ومستودعها فى المقام ، أو مستقرها فى الفناء ، ومستودعها فى البقاء ، أو مستقرها فى التلوين ومستودعها فى التمكين ، أو مستقرها فى عالم الأشباح ، ومستودعها فى عالم الأرواح. وأنشدوا :

كلّ شيء سمعته أو تراه فهو للقبضتين يشير

ضع قميصى عن العيون ترى ما غاب عنك فقد أتاك البشير

---

(١) وهو الشيخ عبد الكريم الجيلي ، فى العينية.

(٥١٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥١١

فالمراد بالقبضتين : الحس والمعنى ، وإن كانا فى الأصل قبضة واحدة ، لكن لما تجلت بالضدين سمّاها قبضتين.

فالحس رداء للمعانى. وسماه هنا قميصا لأنه يستر كالرداء ، فإذا رفع القميص عن عيون البصيرة رأت ما غاب عنها من أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، وهذا معنى قوله : ضع قميصى عن العيون. إلخ ...

ورفع حجاب المعنى عن البصيرة هو بشير الولاية وعنوانها. واللّه تعالى أعلم.

ولما بيّن كمال علمه ذكر كمال قدرته ، فقال :

[سورة هود (١١) : آية ٧]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وما بينهما وما فيهما فِي مقدار سِتَّةِ أَيَّامٍ من أيام الدنيا ، أو خلق العالم العلوي والسفلى فى مقدار ذلك. وجمع السموات دون الأرض لاختلاف العلويات بالأصل والذات دون السفليات. وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ قيل : لم يكن بينهما حائل ، وكان موضوعا على متن الماء. واستدل به على إمكان الخلاء ، وعلى أن الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم. وقيل : كان الماء على متن الريح. واللّه أعلم بذلك. قاله البيضاوي.

قلت : الخلاء هو الفضاء الخارج عن دائرة الأكوان. وهو عند المتكلمين من جملة الممكنات ، ووجه الاستدلال من الآية على إمكانه : أن العرش والماء لما كانا محصورين لزم أن يكون ما خرج عنهما خلاء ، وكل ما سوى اللّه فهو ممكن. وعند الصوفية : هو أسرار الذات الأزلية الجبروتية ، كما أن الأكوان هى أنوار الصفات الملكوتية ، ولا شيء معه ، سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ. ونقل بعض أهل التاريخ : أن اللّه تعالى خلق بعد العرش ياقوتة صفراء ، ذكروا من عظمتها وسعتها ، ثم نظر إليها ، فذابت من هيبته ، فصارت ماء ، فكان العرش مرتفعا فوقها ، ثم اضطرب ذلك الماء ، فعلته زبدة ، خلق منها الأرض ، ثم ارتفع من الماء دخان خلق منه السموات «١». هـ.

خلق ذلك لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا أي : ليختبركم اختبارا تقوم به الحجة عليكم ، أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا بالزهد فى هذا العالم الفاني ، وتعلق ألهمه بالعالم الباقي قال البيضاوي : أي : يعاملكم معاملة المبتلى لأحوالكم ، كيف تعملون؟ فإن جملة ذلك أسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم ، وما تحتاج إليه أعمالكم ، ودلائل

---

(١) كلام أهل التاريخ لا برهان عليه ، والأصح : أن يرجع فى هذا - إن أمكن معرفته - إلى علماء الطبيعة .. وإلا فإن اللّه تعالى يقول :

ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ .. الآية ٥١ من سورة الكهف.

وأمارات تستدلون بها وتستنبطون منها. ثم قال : فالمراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح. ولذلك قال صلّى اللّه عليه وسلّم :

«أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم اللّه وأسرع فى طاعة اللّه.» والمعنى : أكمل علما وعملا. هـ.

قال المحشى : ويتجه كون المعنى : أيكم أكثر شكرا للّه على تمهيد تلك المنافع والمصالح. والشكر يشمل الطاعات القلبية والبدنية. ويحتمل أنه كآية : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «١». وأن بقاء الدنيا وخلقها إنما هو للتكليف ، فإذا لم يبق فى الأرض من يعبد اللّه انقضت الدنيا ، وجاءت الساعة ، كما تقتضيه الأحاديث الصحاح «٢» والمتبادر ما قدمناه ، وحاصله : أنه خلق الأشياء من أجل ابن آدم ، ولتدله على خالقه فيجنى بها ثمار معرفته تعالى ، ويعترف بشكره ، وإفراد عبادته. وقد جاء. «خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلى».

قلت : فيكون المعنى : هو الذي أظهر الوجود من عرشه إلى فرشه ، ليختبركم أيكم أحسن عملا

بالاشتغال باللّه ، والعكوف فى حضرته دون الوقوف مع ظاهر الكون ، والاشتغال بحسه ، مع كونه خلق من أجله. ثم قال : وقوله تعالى : (وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ...) الآيه ، هو : تنبيه على أن إنكار الكفار للبعث بعد إقرارهم بأن اللّه تعالى خالق العالم ، الذي هو أعظم من البعث ، تناقض منهم لأن إقرارهم بقدرته على الأكبر ، ثم إنكارهم لما هو أيسر تناقض هـ أي : ولئن ذكرت لهم البعث بعد الموت لقالوا ما هذا إلا سحر ظاهر. أي : ما البعث أو القول به ، أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر فى الخديعة أو البطلان. وقرأ حمزة ساحر أي : القائل بهذا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى صحيح البخاري قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «كان اللّه ولا شىء معه ، وكان عرشه على الماء» الحديث.

فأخبر صلّى اللّه عليه وسلّم أن الحق جل جلاله كان فى أزله لا شىء معه ، ثم أظهر الأشياء من نوره بنوره لنوره ، فهو الآن على ما كان عليه. وعن أبى رزين : قلنا : يا رسول اللّه! أين كان ربّنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال : «كان فى عماء ما فوقه هواء ، وما تحته هواء ، وخلق عرشه على الماء» «٣»

والعماء هو : الخفاء ، قال تعالى : فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ «٤» ، أي : خفيت. ويقال للسحاب عماء لأنه يخفى ما فيه ، وقال الششترى : فى المقاليد «٥» : كان فى عمى ، ما فوقه هواء وما تحته هواء. هى الوحدة المصمتة الصّمدية ، البحر الطامس «٦» الذي هو الأزل والأبد ، فلم يكن موجود غير الوجود الذي هو هو. هـ.

---

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

(٢) ومنها قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض : اللّه اللّه». أخرجه مسلم (كتاب الإيمان ، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان).

(٣) أخرجه الترمذي فى سننه ، (كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة هود) ، وحسنه. وأخرجه ابن ماجه (المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية). قلت : وهذا من حديث الصفات. نؤمن به ونكل علمه إلى اللّه تعالى.

(٤) من الآية : ٦٦ من سورة القصص.

(٥) اسمه كاملا : المقاليد الوجودية فى أسرار الصوفية.

(٦) يقال : طريق طامس ، أي : بعيد لا مسلك فيه.

والحاصل : أن الحق جل جلاله كان فى سابق أزله ذاتا مقدسة ، لطيفة خفية عن العقول ، نورانيه متصفة بصفات الكمال ، ليس معها رسوم ولا أشكال ، ثم أظهر الحق تعالى قبضة من نوره حسية معنوية إذ لا ظهور للمعنى إلا بالحس ، فقال لها : كونى محمدا ، فمن جهة حسها محصورة ، ومن جهة معناها لا نهاية لها ، متصلة ببحر المعاني الأزلي ، الذي برزت منه ، وما نسبتها من ذلك البحر من جهة حسها إلا كخردلة فى الهواء. وقد أشار ابن الفارض إلى وصف هذه الخمرة الأزلية - وهو تفسير للعماء المذكور قبل - فقال :

صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هوا ونور ولا نار ، وروح ولا جسم

تقدّم كلّ الكائنات حديثها قديما ولا شكل هناك ، ولا رسم

وقامت بها الأشياء ثمّ لحكمة بها احتجبت عن كلّ من لا له فهم

فالأشكال والرسوم متفرعة من تلك القبضة المحمدية ، والقبضة متدفقة من بحر الجبروت الذي لا نهاية له ، فهى منه حقيقة ، وما ظهر تحديدها إلا من جهة حسها. فهى كثلجة فى بحر ، ماؤها الباطني متصل فى البحر ، وظاهرها محدود محصور. فالأشكال كلها غريقة فى بحر الجبروت ، ولذلك قال صاحب العينية «١» :

هو العرش والكرسيّ والمنظر البهي هو السّدرة التي إليها المراجع

وقال أيضا :

هو الموجد الأشياء وهو وجودها وعين ذوات الكلّ وهو الجوامع

فأوصافه والاسم والأثر الذي هو الكون عين الذّات واللّه جامع

فالأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، فالحق تعالى كما كان لا شىء معه ، فهو الآن كما كان. إذ التغير فى حقه تعالى محال ، ولا يعلم هذه الأسرار إلا من صحب أهل الأسرار ، وحسب من لم يصحبهم التسليم. كما رمزوا وأشاروا إليه :

وإن لم تر الهلال فسلّم لأناس رأوه بالأبصار

وقوله تعالى : لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا أي : ليظهر منكم من يقف مع الأكوان ، ومن ينفذ إلى شهود المكون. وهو الذي حسن عمله ، وارتفعت همته. ولئن قلت أيها العامي : إنكم تحيون بالمعرفة من بعد موت قلوبكم بالجهل والغفلة إن صحبتمونى ، ليقولن أهل الإنكار : إن هذا إلا سحر مبين.

---

(١) غفر اللّه له. ولو لا الأمانة العلمية لحذفت هذه الأبيات.

ثم خوفهم بالعذاب الذي استعجلوه ، فقال :
[سورة هود (١١) : آية ٨]
وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨)
قلت : (يوم) : معمول لخبر ليس ، وهو دليل جواز تقديمه إن كان ظرفا.
يقول الحق جل جلاله : وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ الموعود فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، إِلى أُمَّةٍ أي : أوقات معدودة قلائل ، لَيَقُولُنَّ استهزاء : ما يَحْبِسُهُ؟ أي : ما يمنعه من الوقوع الآن؟ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ وينزل بهم كيوم بدر ، أو يوم القيامة لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ليس مدفوعا عنهم حين ينزل بهم ، وَحاقَ نزل وأحاط بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ، وضع الماضي موضع الاستقبال تحقيقا للوقوع ، ومبالغة فى التهديد.
الإشارة : إمهال العاصي ليس بإهمال له فإن اللّه تعالى يمهل ولا يهمل. فإمهاله إما استدراج ، أو انتظار لتوبته ، فليبادر العبد بالتوبة قبل الفوات ، وبالعمل الصالح قبل الممات. فما أبعد ما فات ، وما أقرب ما هو آت ، وبالله التوفيق.
ومما وقع به الاختبار : الوقوف مع النعم دون شهود المنعم ، كما أبان ذلك بقوله :
[سورة هود (١١) : الآيات ٩ الى ١١]
وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)
قلت : (و لئن) : شرط وقسم ، ذكر جواب القسم ، واستغنى به عن جواب الشرط.
يقول الحق جل جلاله : وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً أي : أعطيناه نعمة يجد لذتها. ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ أي : سلبنا تلك النعمة منه إِنَّهُ لَيَؤُسٌ قنوط ، حيث قلّ رجاؤه من فضل اللّه لقلة صبره ، وعدم ثقته بربه ، كَفُورٌ : مبالغ فى كفران ما سلف له من النعم ، كأنه لم ير نعمة قط. وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ كصحة بعد سقم ، وغنى بعد فقر ، أو علم بعد جهل ، لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ. أي : المصائب التي مستثنى ، عَنِّي ، ونسى مقام الشكر. إِنَّهُ لَفَرِحٌ أي : بطر متعزز بها ، فَخُورٌ على الناس ، متكبر بها ، مشغول بذلك عن شكرها ، والقيام بحقها. قال البيضاوي : وفى لفظ الإذاقة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان فى الدنيا من النعم

والمحن كالأنموذج لما يجده فى الآخرة ، وأنه يقع فى الكفر والبطر بأدنى شيء لأن الذوق : إدراك المطعم ، والمس مبدأ الوصول إليه. هـ.

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا على الضراء إيمانا بالله ، واستسلاما لقضائه ، وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ شكرا لآلائه ، سابقها ولا حقها ، أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لذنوبهم ، وَأَجْرٌ كَبِيرٌ أقله الجنة ، وغايته النظرة. والاستثناء من الإنسان لأن المراد به الجنس. ومن حمله على الكافر - لسبق ذكرهم - جعله منقطعا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للعبد أن يكون شاكرا للنعم ، صابرا عند النقم ، واقفا مع المنعم دون النعم. إن ذهبت من يده نعمة رجى رجوعها ، وإن أصابته نقمة انتظر انصرافها. والحاصل : أنه يكون عبد اللّه فى جميع الحالات.

حكى أن سيدنا موسى عليه السّلام قال : يا رب دلنى على عمل إذا عملته رضيت عنى. قال : إنك لا تطيق ذلك ، فخر موسى ساجدا متضرعا ، فقال : يا ابن عمران إن رضاى فى رضائك بقضائي. هـ.

وقال ابن عباس - رضى اللّه عنه - أول شيء كتبه اللّه فى اللوح المحفوظ : أنا اللّه لا إله إلا أنا ، محمد رسولى ، فمن استسلم لقضائى ، وصبر على بلائي ، وشكر نعمائى ، كتبته صديقا ، وبعثته مع الصديقين ، ومن لم يستسلم لقضائى ، ولم يصبر على بلائي ، ولم يشكر نعمائى ، فليتخذ ربا سوائى.

هـ. وروى عن ابن مسعود رضى اللّه عنه أنه قال : ثلاث من رزقهن رزق خير الدنيا والآخرة : الرضا بالقضاء ، والصبر على الأذى ، والدعاء فى الرخاء. هـ.

من جملة الأذى : التكذيب والإنكار ، كما أبان ذلك بقوله تعالى لنبيه - عليه الصلاة والسلام - :

[سورة هود (١١) : الآيات ١٢ الى ١٤]

فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم : فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ ، فلا تبلغه وهو ما فيه تشديد على المشركين ، مخافة ردهم واستهزائهم به. ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه. فالعصمة مانعة من ذلك. فالرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يترك شيئا من الوحي إلا بلغه ، ولكن الحق تعالى شجعه وحرضه على التبليغ فى المستقبل. ولو قوبل بالإنكار.

ثم قال له : وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أي : ولعله يعرض لك فى بعض الأحيان ضيق فى صدرك ، فلا تتلوه عليهم مخافة أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ ينفقه للاستتباع كالملوك ، أو يستغنى به عن طلب المعاش ، أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ يشهد له ، والقصد تسليته صلّى اللّه عليه وسلّم عن قولهم ، حتى يبلغ الرسالة ولا يبالى بهم. وإنما قال :
ضائِقٌ ليدل على اتساع صدره صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقلة ضيقه فى الحال. إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ، ولا عليك ، ردوا أو اقترحوا ، فلا يضيق صدرك بذلك. وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ فتوكل عليه ، فإنه عالم بحالهم ومجازيهم على أقوالهم وأفعالهم.
أَمْ بل يَقُولُونَ افْتَراهُ أي : ما يوحى إليه ، قُلْ لهم : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ فى البيان وحسن النظم. تحداهم أولا بعشر سور ، فلما عجزوا سهل الأمر عليهم وتحداهم بسورة. وتوحيد المثل باعتبار كل واحد. مُفْتَرَياتٍ مختلقات من عند أنفسكم ، إن صح أنى اختلقته من عند نفسى فإنكم عرب فصحاء مثلى.
وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ للمعاونة على المعارضة ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أنه مفترى. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فإن عجزوا عن الإتيان ، فَاعْلَمُوا أيها الرسول والمؤمنون أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ بإذنه ، أو بما لا يعلمه إلا اللّه من الغيوب. والمعنى : دوموا على إيمانكم ، وزيدوا يقينا فيه.
قال البيضاوي : وجمع الضمير إما لتعظيم الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو لأن المؤمنين كانوا يتحدونهم ، فكان أمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - متناولا لهم من حيث إنه يجب اتباعه عليهم فى كل أمر إلا ما خصه الدليل. أو للتنبيه على أن التحدي مما يوجب رسوخ إيمانهم وقوة يقينهم.
ولذلك رتب عليه قوله : فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ملتبسا بما لا يعلمه إلا اللّه ، لأنه العالم والقادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره. وَأَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لظهور عجز آلهتهم. فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟ ثابتون على الإسلام ، راسخون مخلصون فيه ، إذا تحقق عندكم إعجازه مطلقا.
ويجوز أن يكون الكل خطابا للمشركين ، والضمير فى يَسْتَجِيبُوا لمن استطعتم ، أي : فإن لم يستجيبوا لكم ، أي : من استعنتم به على المعارضة لعجزهم ، وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعارضة ، فَاعْلَمُوا أنه نظم لا يعلمه إلا اللّه وأنه منزل من عنده ، وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق ، فهل أنتم داخلون فى الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة؟ وفى مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب ، والتنبيه على قيام الموجب ، وزوال العذر. هـ. وقال فى الوجيز : فإن لم يستجيبوا لكم من تدعون إلى المعاونة ، ولا تهيأ لكم المعارضة ، فقد قامت عليكم الحجة ، فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ أي : أنزل واللّه عالم بإنزاله ، وعالم أنه من عنده ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟ استفهام ، معناه الأمر ، كقوله : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ «١». هـ.

(١) من الآية ٩١ من سورة المائدة. [.....]

(٢/٥١٦)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥١٧

الإشارة : ينبغى لأهل الوعظ والتذكير أن يعمموا الناس فى التذكير ، ولا يفرقوا بين أهل الصدق ، وأهل التنكير. بل ينصحوا العباد كلهم ، ولا يتركوا تذكيرهم ، مخافة الرد عليهم ، ولا تضيق صدورهم بما يسمعون منهم ، اقتداء بنبيهم صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقد قال لقمان لابنه حين أمره بالتذكير : وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ «١» ، فإن طلبوا من المذكر الدليل فليقل : إنما أنا نذير ، واللّه على كل شيىء وكيل. فإن قالوا : هذا الذي تذكر كلنا نعرفه ، فليقل : فأتوا بسورة من مثله ، أو بعشر سور من مثله. واللّه تعالى أعلم.

ولا ينفع الوعظ والإنذار إن كانت همته كلها مصروفة للدنيا ، كما قال تعالى :

[سورة هود (١١) : الآيات ١٥ الى ١٦]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)

قلت : «ما صنعوا فيها» : الضمير يعود على الدنيا ، والظرف يتعلق بصنعوا. أو يعود على الآخرة ، ويتعلق الظرف بحبط ، أي : حبط فى الآخرة ما صنعوا من الأعمال فى الدنيا.

يقول الحق جل جلاله : مَنْ كانَ يُرِيدُ بعمله الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها ، فكان إحسانه وبره رياء وسمعة ، نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها أي : نوصل إليهم جزاء أعمالهم فى الدنيا ، من الصحة والرئاسة ، وسعة الأرزاق ، وينالون ما قصدوا من حمد الناس ، وإحسانهم وبرهم ، وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ لا ينقصون شيئا من أجورهم ، فيحتمل : أن تكون الآية نزلت فى أهل الرياء من المؤمنين الذين يراؤون بأعمالهم كما ورد فى حديث الغازي والغنى القارئ المرائين ، وأنهم أول من تسعر بهم جهنم. ويحتمل أن تكون نزلت فى الكفار ، وهو أليق بقوله : أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة ، وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة. وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها أي : فى الدنيا ، فكل ماصنعوا فى الدنيا من الإحسان حبط يوم القيامة لأنهم لم يريدوا به وجه اللّه. والعمدة فى انتظار ثواب الأعمال هو الإخلاص ، وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ لأنه لم تتوفر فيه شروط الصحة التي من جملتها الإخلاص.

الإشارة : فى الحديث : «من كانت الدّنيا همّه : فرّق اللّه عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته

من الدّنيا إلا ما قسم له. ومن كانت الآخرة نيته : جمع اللّه عليه أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدّنيا وهى صاغرة» «٢».

---

(١) الآية : ١٧ من سورة لقمان.

(٢) أخرجه الترمذي فى [صفة القيامة ، باب ٣٠] من حديث أنس بن مالك. وابن ماجه : [الزهد ، باب الهمّ بالدنيا] من حديث زيد بن ثابت.

(٥١٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥١٨

قلت : ومن كان اللّه همه كفاه هم الدارين. فطالب الدنيا أسير ، وطالب الآخرة أجير ، وطالب الحق أمير. فارفع همتك أيها العبد عن الدار الفانية ، وعلق قلبك بالدار الباقية ، ثم ارفعها إلى شهود الذات العالية ، ولا تكن ممن قصر همته على هذه الدار فتكن ممن ليس له فى الآخرة إلا النار. وحصّن أعمالك بالإخلاص ، وإياك وملاحظة الناس فتبوأ بالخيبة والإفلاس ، وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ضد من تقدم ، فقال :

[سورة هود (١١) : آية ١٧]

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١٧)

قلت : (أ فمن كان) : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : كمن كان يريد الدنيا وزينتها.

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ ، طريقة واضحة مِنْ رَبِّهِ وهو النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنون ، كمن ليس كذلك ، ممن همه الدنيا؟! والمراد بالبينة : ما أدرك صحته العقل والذوق ، أي : على برهان واضح من ربه ، وهو الدليل العقلي والأمر الجلى. أو برهان من اللّه يدله على الحق والصواب فيما يأتيه ويذره ، وَيَتْلُوهُ ويتبع ذلك البرهان - الذي هو دليل العقل ، شاهِدٌ مِنْهُ أي : من اللّه يشهد بصحته ، وهو : القرآن ، لأنه مصباح البصيرة والقلب فهو يشهد بصحة ما أدركه العقل من البرهان.

وَمِنْ قَبْلِهِ أي : من قبل القرآن ، كِتابُ مُوسى يعنى : التوراة ، فإنها أيضا متلوة شاهدة بما عليه الرسول ومن تبعه من البينة الواضحة. أو البينة : القرآن ، والشاهد : جبريل عليه السّلام ، أو علىّ - كرم اللّه وجهه - ، أو الإنجيل. وهو حسن ، لقوله : وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى فإن التوراة قبل الإنجيل. قال ابن

عطية : وهنا اعتراض وهو أن الضمير فى «قبله» عائد على القرآن ، فلم لم يذكر الإنجيل – وهو قبله – بينه وبين كتاب موسى؟

فالانفصال عنه : أنه خصّ التوراة بالذكر لأن الملّتين متفقتان على أنها «١» من عند اللّه ، والإنجيل قد خالف فيها.

فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الكتابين أولى. وهذا كقول الجن : إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى «٢». وقول النجاشي : «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة». هـ. وإذا فسرنا الشاهد بالإنجيل سقط الاعتراض.

---

(١) فى ابن عطية : مجتمعتان أنهما.

(٢) من الآية ٣٠ من سورة الأحقاف.

(٥١٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥١٩

ثم وصف التوراة بقوله : إِماماً. أي : مؤتما به فى الدين ، لأجله ، وَرَحْمَةً على المنزل عليهم.

أُولئِكَ أي : من كان على بينة من ربه ، يُؤْمِنُونَ بِهِ أي : بالقرآن ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ : كأهل مكة ، ومن تحزب منهم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ يدخلها لا محالة ، فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ شك مِنْهُ أي : من ذلك الموعد ، أو القرآن ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ الثابت وقوعه ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ لقلة نظرهم ، وإخلال فكرتهم.

الإشارة : لا يكون العبد على بينة من ربه حتى يتحقق فيه أمران ، أولهما : التوبة النصوح ، والثاني : الزهد التام. فإذا تحقق فيه الأمران كان على بينة من ربه. وهى درجات أولها : بينة ناشئة عن صحيح النظر والاعتبار ، وهى لقوم نظروا فى الحجج والبراهين العقلية والدلائل السمعية ، فأدركوا وجود الحق من طريق الإيمان بالغيب ، وهم : أهل الدليل والبرهان. وثانيها : بينة ناشئة عن الرياضات والمجاهدات والاعتزال فى الخلوات ، فخرقت لهم العوائد الحسيات فرأوا كرامات وخوارق عادات ، فأدركوا وجود الحق على وجه التحقيق والبيان ، مع رقة الحجاب والوقوف بالباب. وهم : العبّاد ، والزهاد ، والصالحون من أهل الجد والاجتهاد. وثالثها : بينة ناشئة عن الذوق والوجدان ، والمكاشفة والعيان ، وهى لقوم دخلوا فى تربية المشايخ ، فتأدبوا وتهذبوا ، وشربوا خمرة غيبتهم عن حسهم ورسمهم فغابوا عن الأكوان بشهود المكون. فهم يستدلون باللّه على غيره. قدّسوا الحق أن يحتاج الى دليل ، وهؤلاء هم الأفراد وخواص العباد ، وإليهم أشار الشاعر بقوله :

الطّرق شتّى وطريق الحقّ مقفرة والسّالكون طريق الحقّ أفراد
لا يعرفون ولا تدرى مسالكهم فهم على مهل يمشون قصّاد
والنّاس فى غفلة عمّا يراد بهم فجّلهم عن سبيل الحق رقّاد
وقال فى القوت : أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ أي : من شهد مقام اللّه – عز وجل – بالبيان ، فقام له بشهادة الإيقان ، فليس هذا كمن زين له سوء عمله ، واتبع هواه ، فآثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته ، متبع لشهيده ، مستقيم على محبة معبوده. هـ. وقال الورتجبي : تقدير الآية على وجه الاستفهام : أفمن كان على بينة من ربه كمن هو فى الضلالة والجهالة؟ أفمن كان على معرفة من ربه ، وولاية وسلامة وكرامة ، وكل عارف إذا شاهد الحق سبحانه بقلبه وروحه ، وعقله وسره ، فأدرك فيض أنوار جماله ، وقربه ، يؤثر ذلك فى هيكله حتى يبرز من وجهه نور اللّه الساطع ، ويراه كل صاحب نظر ، قال تعالى : وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ ، والبينة : بصيرة المعرفة ، والشاهد : بروز نور المشاهدة منه. وأيضا : البينة : كلام المعرفة. والشاهد : الكتاب والسنة. ثم قال عن الجنيد : البينة : حقيقة يؤيدها ظاهر العلم. هـ.

والحاصل : أن البينة أمر باطني ، وهى : المعرفة ، إما بالبرهان ، أو بالعيان ، والشاهد الذي يتلو هو العلم الظاهر ، فيتفق ما أدركه العقل أو الذوق مع ما أفاده النقل ، فتتفق الحقيقة مع الشريعة. كلّ فى محله ، الباطن منور بالحقائق ، والظاهر مؤيد بالشرائع. وهذا غاية المطلوب والمرغوب. رزقنا اللّه من ذلك الحظ الأوفر بمنّه وكرمه.
ثم ذكر وعيد من كذب بها فقال :
[سورة هود (١١) : الآيات ١٨ الى ٢٤]
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (١٩) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢)
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤)

قلت : (مثلا) : تمييز.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ أَظْلَمُ أي : لا أحد أظلم مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بأن أسند إليه مالم يقله ، وكذب بما أنزله ، أو نسب للّه ما لا يليق بجلاله. أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ يوم القيامة ، بأن يحبسوا في الموقف ، وتعرض عليهم أعمالهم على رؤوس الأشهاد ، وَيَقُولُ الْأَشْهادُ من الملائكة والنبيين ، أو كل من شهد الموقف : هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ وهو تهويل عظيم لما يحيق بهم حينئذ ، لظلمهم بالكذب على اللّه ، ورد الناس عن طريق اللّه.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ عن دينه ، وَيَبْغُونَها عِوَجاً يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب.

أو يبغون أهلها أن يعوجوا عنها بالردة والكفر ، أو يطلبون اعوجاجها بالطعن فيها. وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ أي :

والحال أنهم كافرون بالبعث. وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به.

(٥٢٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٢١

أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أي : ما كانوا ليعجزوا اللّه فى الدنيا أن يعاقبهم. بل هو قادر على ذلك ، وأخرهم ليوم الموعود ، ليكون أشد وأدوم. وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يمنعونهم من العقاب ، يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ بسبب ما اتصفوا به ، كما ذكره بقوله : ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ لتصاممهم عن الحق ، وبغضهم اهله. أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

حين اشتروا عبادة الأصنام بعبادة اللّه ، وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

من أن الأصنام تشفع لهم ، أو خسروا بما بدلوا وضاع عنهم ما أملوا ، فلم يبق لهم سوى الحسرة والندامة. لا جَرَمَ لا شك ، أو لا بد أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ : فلا أحد أكثر خسرانا منهم حيث حرموا النعيم المخلد ، واستبدلوه بالعذاب المؤيد.

ثم ذكر ضدهم فقال : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا ، أي : اطمأنوا أو خشعوا ، أو تابوا إِلى رَبِّهِمْ. أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ دائمون.

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ المتقدمين فريق الكافر ، وفريق المؤمن : كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، فمثل الكافر كمن جميع بين العمى والصمم ، ومثل المؤمن كمن جمع بين السمع والبصر. فالواو لعطف الصفات ، ويجوز أن يكون شبه الكافر بمن هو أعمى فقط ، وبمن هو أصم فقط ، والمؤمن بضدهما ، فهو تمثيل للكافرين بمثالين ، قاله ابن جزى. وقال البيضاوي : يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات اللّه ، وبالأصم لتصاممه عن استماع كلام اللّه ، وتأبيه عن تدبره معانيه. وتشبيه المؤمن

بالسميع والبصير لأن أمره بالضد ، فيكون كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين. أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم ، والمؤمن بالجامع بين ضديهما ، والعاطف لعطف الصفة على الصفة ، كقوله : فالأيب الصّابح فالغانم «١» فهذا من بيان اللف والطباق. هـ. هَلْ يَسْتَوِيانِ : هل يستوى الفريقان؟ مَثَلًا أي : من جهة التمثيل ، بل لا استواء بينهما ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ تتعظون بضرب الأمثال فترجعون عن غيكم.

الإشارة : كل من ترامى على مراتب الرجال ، أو ادعى مقاما من المقامات وهو لم يدركه ، يريد بذلك إمالة وجوه الناس إليه ، يفضح يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، ويقال له : هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ ...

الآية. فكل آية فى الكفار تجر ذيلها على عصاة المؤمنين. وقد تقدم أمارات من كان على بنية من ربه ، فمن أدعى مقاما من تلك المقامات وهو يعلم أنه لم يصله نادت عليه الآية.

---

(١) فى الأصول : (القائم والصالح والأديب). والمثبت هو الذي فى البيضاوي. والشاهد فيه عطف صفات موصوف واحد بالفاء.

ثم شرع فى ذكر قصص الأنبياء - عليهم السلام - تسلية لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم وتتميما لقوله : (فلعلك تارك) ، (و ضائق).

فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٢٥ الى ٢٧]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (٢٧)

قلت : من قرأ : إنى بالكسر ، فعلى إرادة القول ، ومن قرأ بالفتح ، فعلى إسقاط الخافض ، أي : بأنى ، و(بادى الرأى) : ظرف ل (اتبعك) ، على حذف مضاف أي : وقت حدوث أول رأيهم. وهو من البدء أي : الحدوث ، أو من البدوّ ، أي : الظهور. أي :

اتبعوك فى ظاهر الرأى دون التعمق فى النظر.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فقال لهم : إِنِّي لَكُمْ ، أو بأنى لكم نَذِيرٌ مُبِينٌ أي :

بين ظاهر ، أو أبين لكم موجبات العذاب ، ووجه الخلاص منه ، قائلا : أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، ولا تعبدوا معه غيره ، إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ مؤلم ، وهو فى الحقيقة صفة للعذاب ، ووصف به زمانه على طريقة [جدّ جدّه ، ونهاره صائم] للمبالغة.

فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا لا مزية لك علينا تخصك بالنبوءة ووجوب الطاعة ، وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا أخساؤنا وسقاطنا جمع أرذل. بادِيَ الرَّأْيِ من أول الرأى من غير تفكر ولا تدبر ، أي : اتبعك هؤلاء بادى الرأى من غير ترو. أو ظاهرا رأيهم خفيفا عقلهم. وإنما استرذلوهم ، لأجل فقرهم ، جهلا منهم ، واعتقادا أن الشرف هو المال والجاه. وليس الأمر كذلك. بل الشرف إنما هو بالإيمان والطاعة ، ومعرفة الحق. وقيل : إنهم كانوا حاكة وحجامين. وقيل : أراذل فى أفعالهم ، لقوله : وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ «١». ثم قالوا : وَما نَرى لَكُمْ أي : لك ولمتبعيك عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ يؤهلكم للنبوءة ، واستحقاق المتابعة. بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ أنت فى دعوى النبوءة ، وهم فى دعوى العلم بصدقك. فغلب المخاطب على الغائبين.

---

(١) الآية ١١٢ من سورة الشعراء.

(٥٢٢/٢)

الإشارة : تكذيب الصادقين سنة ماضية ، وأتباع الخصوص موسومون بالذلة والقلة ، وهم أتباع الرسل والأولياء ، وهم أيضا جل أهل الجنة لأن المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «أهل الجنّة كلّ ضعيف مستضعف» «١» وقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا سقّط الناس؟ فقال لها الحق تعالى : «أنت رحمتى أرحم بك من أشاء» حسبما فى الصحيح.

ثم أجابهم بقوله :

[سورة هود (١١) : آية ٢٨]

قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (٢٨)

قلت : «أنلزمكموها» : يصح فى الضمير الثاني الوصل والفصل لتقدم الأخص.

يقول الحق جل جلاله : قالَ نوح لقومه : يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ : أخبرونى ، إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي على طريقة واضحة من عند ربى ، أو حجة واضحة شاهدة بصحة دعواى ، وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ النبوة ، فَعُمِّيَتْ خفيت عَلَيْكُمْ فلم تهتدوا إليها ، أَنُلْزِمُكُمُوها أنكرهكم على الاهتداء بها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ لا

تختارونها ولا تتأملون فيها. ولم يؤمر بالجهاد ، بل تركهم حتى نزل بهم العذاب.

الإشارة : طريقة أهل التذكير - الذين هم على بينة من ربهم - : أنهم يذكرون الناس ، ولا يكرهون أحدا على الدخول فى طريقهم ، إذا عميت عليهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٢٩ الى ٣٠]

وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠)

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن نوح عليه السّلام : وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ على التبليغ المفهوم من السياق ، مالًا : جعلا أنتفع به ، إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ فإنه المأمول منه. ثم طلبوا منه طرد الضعفاء ليجالسوه ، فقال لهم : وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ فيخاصموني إن طردتهم ، أو : إنهم ملاقوه

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى (الزهد ، باب من لا يؤبه له) من حديث معاذ بن جبل.

(٥٢٣/٢)

فيفوزون بقربه ، فكيف أطردهم؟ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ لقاء ربكم ، أو بأقدارهم ، أو تسفهون عليهم فتدعوهم أراذل ، أو قوما جهالا استحكم فيكم الجهل وشختم فيه ، فلا ينفع فيكم الوعظ والتذكير. وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ : من يدفع انتقامه عنى إِنْ طَرَدْتُهُمْ وهم بتلك الصفة الكاملة من الإيمان والخوف منه؟

أَفَلا تَذَكَّرُونَ فتعلموا أن التماس طردهم ، وتوقيف الإيمان عليه ليس بصواب.

الإشارة : قال القشيري : قوله تعالى : لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالًا ، فيه تنبيه للعلماء - الذين هم ورثة الأنبياء أن يتأدبوا بأنبيائهم ، وألا يطلبوا من الناس شيئا فى بث علومهم ، ولا يرتفقوا منهم بتعليمهم ، والتذكير لهم ، وما ارتفق من المستمعين فى بث فائدة يذكّر بها من الدين ، ويعظ بها المسلمين فلا يبارك اللّه فيما يسمعون به عن اللّه ، ولا ينتفعون به ، ويحصلون به على سخط من اللّه هـ «١».

قلت : هذا إن كان له تشوف وتطلع بذلك ، بحيث لو لم يعلم ، أو لم يذكر. وأما إن كان يعلم ويذكر للّه ، ثم يتصدق عليه للّه ، فلا بأس به إن شاء اللّه. وما زالت الأشياخ والأولياء يقبضون زيارات الفقراء ، وكل من يأتيهم ، ويذكرونهم ويعرفونهم باللّه ، لأن ذلك ربح للمعطى وتقريب له. وما ربح الناس إلا

من فلسهم ونفسهم بذلوها للّه ، فأغناهم اللّه. وقد تقدم عند قوله : خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً ... «٢» بعض الكلام على هذا المعنى ، واللّه تعالى أعلم.

ولما قالوا له : لو كنت نباللّه ، لأغناك اللّه عن التكسب ، ولأعلمك بما يفعل أتباعك فإنهم ما اتبعوك إلا فى الظاهر دون الباطن ، قال لهم :

[سورة هود (١١) : آية ٣١]

وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)

يقول الحق جل جلاله : قال نوح لقومه : وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ حتى أنفق منها متى شئت ، فأستغنى عن مباشرة الأسباب ، بل ما أنا إلا بشر ، أو لا أدعى ما ليس لى فتنكروا قولى ، أي : لا أفوه لكم ، ولا أتعاطى غير ما ألهمنى اللّه له ، فلست أقول : عندى خزائن اللّه ، أي : القوة التي توجد بها الأشياء بعد عدمها. أو :

عندى خزائن اللّه التي ينزل منها الأشياء ، كالريح والمياه ونحوها ، كما قال تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ «٣» فتبرأ عليه السّلام من هذه الدعوى.

---

(١) بالمعنى.

(٢) من الآية : ١٠٣ من سورة التوبة.

(٣) من الآية ٢١ من سورة الحجر.

(٥٢٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٢٥

ثم قال : وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ أي : ولا أقول : إنى أعلم الغيب ، فأعلم من أصحابى ما يسترونه عنى فى نفوسهم ، فسبيلى قبول ما ظهر منهم. أو : لا أعلم أنهم اتبعونى فى بادى الرأى من غير بصيرة وعقد قلب وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ حتى تقولوا : ما نراك إلا بشرا مثلنا. وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ أي : تحتقرهم. من زريت على الرجل : قصرت به. قلبت تاؤه دالا لتجانس الزاى للتاء «١» ، والمراد بهم ضعفاء المؤمنين ، أي : لا أقول فى شأن من احتقرتموهم ، لفقرهم : لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً فإنّ ما أعد اللّه لهم فى الآخرة خير مما آتاكم فى الدنيا. اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ من خير أو غيره. إِنِّي إِذاً أي : إن قلت شيئا من ذلك ، لَمِنَ الظَّالِمِينَ.

قال البيضاوي : وإسناده إلى الأعين للمبالغة ، والتنبيه على أنهم استرذلوهم بادى الرأى من غير روية ،

مما عاينوه من رثاثة حالهم وقلة منالهم ، دون تأمل فى معانيهم وكمالاتهم. وقال أيضا : وإنما استرذلوهم لفقرهم لأنهم لمّا لم يعلموا إلا ظاهرا من الحياة الدنيا كان الأحظ «٢» بها أشرف عندهم ، والمحروم منها أرذل. هـ.

الإشارة : لا يشترط فى وجود الخصوصية ظهور الكرامة فقد تظهر الكرامة على من لم تكمل له الاستقامة ، فلا يشترط فيه الاطلاع على خزائن الغيوب ، وإنما يشترط فيه التطهير من نقائص العيوب ، لا يشترط فيه الإنفاق من الغيب ، وإنما يشترط فيه الثقة بما ضمن له فى الغيب. واللّه تعالى أعلم.

ثم استعجلوا العذاب ، كما قال تعالى :

[سورة هود (١١) : الآيات ٣٢ الى ٣٤]

قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)

قلت : إِنْ أَرَدْتُ : شرط حذف جوابه لتقدم ما يدل عليه ، وكذا (إن كان اللّه يريد أن يغويكم) ، والتقدير : إن كان اللّه يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم. أي : فكذلك. فهو من تعليق الشرط ، كقولك : إن دخلت الدار ، إن كلمت زيدا ، فأنت طالق. فلا تطلق إلا بهما ، ثم استأنف : (هو ربكم).

يقول الحق جل جلاله : قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا : خاصمتنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا : خصامنا ومخاطبتنا ، فَأْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى الدعوى والوعيد ، فإن مناظرتك

---

(١) لأن الزاى مجهورة والتاء مهموسة ، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها.

(٢) فى الأصول : (اللاحظ لها). والمثبت هو الذي فى تفسير البيضاوي.

ووعظك لا يؤثر فينا. قالَ نوح عليه السّلام : إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ دونى إِنْ شاءَ عاجلا أو آجلا ، وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ بدفع العذاب عنكم ، أو الهرب منه حتى تعجزوا القدرة الإلهية ، وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ، وأراد اللّه أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، فإن النصح مع سابق الشقاء عنت. وهذا جواب لما أوهموا من أن جداله كلام لا طائل تحته ، وهو دليل على أن إرادة اللّه تعالى يصح تعلقها بالإغواء ، وأن خلاف مراد اللّه تعالى محال. ولذلك قيل : مراد اللّه من خلقه ما هم عليه. ثم قال : هُوَ رَبُّكُمْ

خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته.

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فيجازيكم على أعمالكم.

الإشارة : ينبغى لأهل الوعظ ، والتذكير أن لا يملوا - ولو أكثروا - إذا قابلهم الناس بالبعد والإنكار ، وليقولوا : ولا ينفعكم نصحنا إن أردنا أن ننصحكم إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ... الآية.

ولما كان المقصود من القصة تسلية رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم خاطبه فى أثنائها بقوله :

[سورة هود (١١) : آية ٣٥]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : أَمْ يَقُولُونَ أي : كفار قريش : هذا الذي يقرؤه محمد علينا ، ويقصه من خبر من قبلنا افْتَراهُ من عنده. قُلْ لهم : إِنِ افْتَرَيْتُهُ تقديرا فَعَلَيَّ إِجْرامِي أي : وباله على دونكم ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ مما ترتكبون من الإجرام بتكذيبكم وكفركم.

الإشارة : ينبغى لمن قوبل بالتكذيب والإنكار أن يكتفى بعلم اللّه ، ويقول لمن كذبه ما قال نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم لمن كذبه : (إن افتريته فعلى إجرامي ...) الآية. وفى الحكم : «متى آلمك عدم إقبال الناس عليك ، أو توجههم بالذم إليك ، فارجع إلى علم اللّه فيك ، فإن كان لا يقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم ..».

قال الشيخ زروق رضى اللّه عنه : وذلك لأن عدم قناعتك بعلمه يصيبك فى قلبك ودينك ، وأذاهم يصيبك فى عرضك وبدنك ودنياك ، وأيضا : أذاهم يردك إليه ، فهو فائدتك ، وعدم القناعة بعلمه يردك إليهم ، فهى مصيبة توجب ثلاثا ، هى علامة عدم القناعة بعلمه : أولها : التصنع والمراءة ، الثاني : طلب رضاهم بما أمكن فى جميع الحالات. الثالث : إظهار علمه وعمله وحاله ، ليعلموا برتبته.

والقناعة بعلمه علامتها ثلاث : أولها : قصد الإخلاص فى كلّ ، بحيث لا يبالى أين رآه الخلق ، وكيف رأوه.

الثاني : طلب رضاه بالعمل بطاعته ، وترك ما لا يرضيه ، رضوا بذلك أو سخطوا. الثالث : الاكتفاء بعلمه فيما يجرى عليه من حكمه وحكمته ، قال إبراهيم التيمي رضى اللّه عنه لبعض أصحابه : ما يقول الناس فىّ؟ فقال :

يقولون إنه مرائى ، فقال : الآن طاب العمل. قال بشر الحافى : اكتفى - واللّه - بعلم اللّه. فلم يحب أن يدخل مع علم اللّه غيره ، وقال أيضا : سكون النفس لقبول المدح لها أشد عليها من المعاصي.

وقال أحمد بن أبى الحوارى رضى اللّه عنه : من أحب أن يعرف بشيء من الخير ، أو يذكر به ، فقد أشرك مع اللّه فى عبادته لأن من عمل على المحبة لا يحب أن يرى عمله غير محبوبه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى اللّه عنه. لا تنشر علمك ، ليصدقك الناس ، وانشر علمك ليصدقك اللّه. وإن كان لام العلة موجودا ، فعلّة تكون بينك وبين اللّه من حيث أمرك ، خير لك من علّة تكون بينك وبين الناس ، من حيث نهاك.

ولعلّة تردك إلى اللّه خير لك من علة تقطعك عن اللّه. هـ. المراد منه.

ثم تمم قصة نوح عليه السّلام ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٣٦ الى ٣٩]

وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ بعد هذا إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ قبل ، وكان هذا الوحى بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى اللّه تعالى. فكان الرجل منهم يأتيه بابنه ، ويقول : يا بنى لا تصدق هذا الشيخ ، فهكذا عهد إلىّ أبى وجدى. فلما نزل الوحى وأيس من إيمانهم دعا عليهم ، وقال : رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «١». قال له تعالى : فَلا تَبْتَئِسْ : تحزن وتغتم بِما كانُوا يَفْعَلُونَ من التكذيب والإيذاء ، أقنطه أولا من إيمانهم ، ونهاه أن يغتم لأجلهم.

ثم أمره بصنع السفينة ، فقال : وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا بحفظنا ورعايتنا ، أو بمرأى منا ومسمع غير محتاج إلى آلة حفظ وحرس ، وَوَحْيِنا إليك ، كيف تصنعها ، روى أنه لما جهل صنعها أوحى اللّه إليه : أن اصنعها على مثال جؤجؤ الطائر. وروى أيضا : أنها كانت مربعة الشكل ، طويلة فى السماء ، ضيقة الأعلى ، وأن المراد منها إنما كان الحفظ ، لا سرعة المشي. والأول أرجح. أعنى : على صورة ظهر الطائر. قال فى الأساس : عملت سفينة نوح عليه السّلام

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة نوح.

من ساج ، وهو خشب أسود ، رزان ، لا تكاد الأرض تبليه ، يجلب من الهند. هـ. وفى رواية أخرى : صنعها نوح عليه السّلام ، وجبريل يصف له ، فكان أسفلها كأسفل السفن وأعلاها كالسقف ، وداخلها كالبيت ، ولها أبواب فى جوانبها. هـ.
ثم إن نوحا عليه السّلام لما تحقق هلاك قومه ، رق عليهم ، فهمّ أن يراجع اللّه فى شأنهم ، فقال له تعالى : وَلا تُخاطِبْنِي ولا تراجعنى فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ، ولا تدع باستدفاع العذاب عنهم إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ : محكوم عليهم بالغرق لا محالة. فلا سبيل إلى كفه.
وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ، حكى ما وقع بصيغة الحال استحضارا لتلك الحال العجيبة ، وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ : جماعة مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ : استهزءوا به ، لأنه كان يعمل السفينة فى برية بعيدة من الماء. أو أن عزته تنفى صنعته ، فكانوا يضحكون منه ، ويقولون له : صرت نجارا بعد أن كنت نبيا. قالَ لهم : إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ ، فنسخر منكم حين يأخذكم فى الدنيا الغرق ، وفى الآخرة الحرق. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ ، وهو : الغرق ، والحرق بعده ، وَيَحِلُّ أي : ينزل عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ : دائم ، وهو النار يوم القيامة.
الإشارة : إذا تحقق الولي بإعراض الخلق عنه ، وأيس منهم أن يتبعوه. فلا يحزن ، ولا يغتم منهم ، ففى اللّه غنى عن كل شيء ، وليس يغنى عنه شيء. وفى إعراض الخلق راحة لقلب الولي ولبدنه ، فإذا سخروا منه فليقل فى نفسه :
إن تسخروا منا اليوم ، فنسخر منكم حين تحقق الحقائق ، فيرتفع المقربون ، وينسفل الباطلون ، وكان شيخ أشياخنا سيدى على العمراني رضى اللّه عنه كثيرا ما يقول : ليت القيامة قامت ، حتى يظهر الرجال من غيرهم. أو ما هذا معناه.
ثم ذكر مبدأ الطوفان ، فقال :
[سورة هود (١١) : آية ٤٠]
حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠)
قلت : حتى : غاية لقوله : (و يصنع الفلك) ، أو ابتدائية. و(اثنين) مفعول باحمل ، و(أهلك) : عطف عليه.
يقول الحق جل جلاله : حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا بغرقهم ، أو أمرنا للأرض بالفوران وللسحاب بالإرسال ، وَفارَ التَّنُّورُ نبع الماء منه وارتفع كالقدر تفور. والتنور : تنور الخبز ، ابتدأ منه النبوع ، على خرق العادة ، أرادت ابنته أن تسجره ففار الماء فى النار ، روى أنه كان تنور آدم ، خلص إلى نوح ، فكان يوقد فيه ، وقيل : كان فى الكوفة فى موضع مسجدها. وقيل : فى الهند ، وقيل : التنور : وجه الأرض «١». قاله ابن عباس.

(١) ورجح الطبري القول الأول لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب. [.....]

(٥٢٨/٢)

فلما فار بالماء قُلْنَا احْمِلْ فِيها فى السفينة ، مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ من كل نوع من الحيوان ذكرا وأنثى - روى أن نوحا عليه السّلام وقف على باب السفينة ، وحشر إليه الوحوش ، فكان الذكر يقع فى يمينه ، والأنثى فى شماله ، وهو يدخل فى السفينة. وآخر ما دخل الحمار ، فتمسك الشيطان بذنبه فزجره نوح فلم ينعق ، فدخل معه ، فجلس عند مؤخر السفينة. وروى أن نوحا عليه السّلام آذاه نتن الزبل والعذرة ، فأوحى اللّه إليه : أن امسح على ذنب الفيل ، ففعل فخرج من أنفه خنزير وخنزيرة ، فكفياه أمر ذلك الأذى. وروى أن الفأر آذى الناس ، فأوحى اللّه إليه : أن امسح على جبهة الأسد ففعل ، فعطس فخرج منه هرّ وهرّة. فكفياه أمر الفار «١». انظر ابن عطية.

وَاحمل أيضا أَهْلَكَ أي : امرأتك وبنيك ونساءهم ، إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ أنه من المغرقين يريد : ابنه كنعان وأمه واعلة ، فإنهما كانا كافرين. وَاحمل مَنْ آمَنَ بك. قال تعالى : وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ، قيل : كانوا تسعة وسبعين : زوجته المسلمة ، وبنوه الثلاثة : حام وسام ويافث ، ونساؤهم ، واثنان وسبعون رجلا وامرأة من غيرهم. وفى بعض الآثار : أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «سام أبو العرب ، ويافث أبو الروم ، وحام أبو الحبش» «٢».

قاله ابن عطية. وسيأتى خلافه فى سورة الصافات. وهو الراجح. وقال البيضاوي : روى أن نوحا عليه السّلام اتخذ السفينة فى سنتين ، وكان طولها ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسين ، وسمكها ثلاثين.
وجعل لها ثلاثة بطون. فحمل فى أسفلها الدواب والوحش ، وفى وسطها الإنس ، وفى أعلاها الطير.
هـ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : حتى إذا جاء أمرنا بكمال الطهارة من العيوب ، وفار تنور القلب بعلم الغيوب ، وجرت سفينة الفكرة فى بحار التوحيد ، وأسرار التفريد ، قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين علم الشريعة والحقيقة ، وعلم الحكمة والقدرة ، وعلم الحس والمعنى ، وعلم الأشباح والأرواح ، وعلم الملك والملكوت.
وتحمل من تمسك بها من أهل المحبة والوداد ، إلا من سبق عليه القول بالمكث فى مقام البعاد ، وتحمل من آمن بخصوصيتها من العباد ، فتقربه من مسلك التوفيق والتسديد ، حين يمن الحق تعالى عليها بالقرب من أهل المحبة والوداد. وباللّه التوفيق.
ثم أمرهم بالركوب فى السفينة ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٤١ الى ٤٣]
وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (٤٢) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)

---

(١) هذه الأخبار ذكرها الطبري وغيره ، وهى من الإسرائيليات التي ينبغى تنقية كتب التفسير منها.
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٩/ ٥ والترمذي وحسنه فى (المناقب ، باب فضل العرب) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٤٦) وصححه ووافقه الذهبي ، عن سمرة بن جندب - رضى اللّه عنه.

(٥٢٩/٢)

قلت : (مجريها ومرساها) : مشتقان من الجري والإرسال ، أي : الثبوت ، وهما إما ظرفان زمانيان ، أو مكانيان ، وإما مصدران ، والعامل فيهما : ما فى (بسم اللّه) من معنى الفعل. وإعراب «بسم اللّه» : إما حال مقدرة من الضمير فى «اركبوا» ، أي : اركبوا متبركين بسم اللّه ، أو قائلين : بسم اللّه ، وقت إجرائها وإرسائها. أو (مجراها ومرساها) :
مبتدأ ، و(بسم اللّه) : خبر. فيوقف على (فيها) أي : إجراؤها وإرساؤها حاصل بسم اللّه.
يقول الحق جل جلاله : وَقالَ نوح لمن كان معه : ارْكَبُوا فى السفينة وسيروا فيها. روى أنهم ركبوا أول يوم من رجب ، وقيل : يوم العاشر منه ، واستوت على الجودي يوم عاشوراء ، بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها أي : متبركين بسم اللّه وقت إجرائها ، أو قائلين بسم اللّه وقت إجرائها وإرسائها ، روى : أنه عليه السّلام كان إذا أراد أن يجرى السفينة قال : بسم اللّه ، فتجرى ، وإن أراد أن يوقفها قال : بسم اللّه ، فتوقف. إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ، فلو لا مغفرته لما فرط منكم ، ورحمته إياكم ، لما أنجاكم. فركبوا مسلمين وساروا.
وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ ، والموج : ما يرتفع من الماء عند اضطرابه ، أي : كل موجة من الطوفان كالجبال فى تراكمها وارتفاعها ، وما قيل من أن الماء أطبق ما بين السماء والأرض ، وكانت السفينة تجرى فى جوفه ، لم يثبت. وكيف يكون الموج كالجبال؟ والمشهور أنه علا شوامخ الجبال ، خمسة عشر ذراعا ، وإن صح ذلك فلعل ارتفاع الموج كالجبال كان قبل التطبيق.
وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ ، كان كنعان. وقيل : كان لغير رشدة ، وهو خطأ لأن الأنبياء عصمت من أن تزنى

أزواجهم. والمراد بالخيانة فى قوله : فَخانَتاهُما «١». فى الدين. وَكانَ فِي مَعْزِلٍ فى ناحية ، عزل نفسه فيها عن أبيه ، أو عن دينه ، فقال له أبوه : يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا فى السفينة ، وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ فى الدين ، أو فى الاعتزال عنا ، وكان يظنه مؤمنا ، لإخفاء كفره. قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي يمنعنى مِنَ الْماءِ ، فلا أغرق ، قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ أي : إلا الراحم ، وهو اللّه ، فلا عاصم إلا أرحم الراحمين. أو : لا عاصِمَ لا ذو عصمة إلا من رحم اللّه ، فلا معصوم إلا من رحمه اللّه.

فالاستثناء حينئذ متصل. أو : لا عاصم اليوم من أمر اللّه لكن من رحمه اللّه فهو المعصوم. أو : لا ذو عصمة لكن الراحم يعصم من شاء ، والاستثناء منقطع.

وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ بين نوح وابنه ، فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ فصار من المهلكين بالماء. روى أنه صنع بيتا من زجاج ، وحمل معه طعامه وشرابه ، وصعد على وجه الماء فسلط اللّه عليه البول حتى غرق فى بوله «٢».

واللّه تعالى أعلم بشأنه.

---

(١) من الآية : ١٠ من سورة التحريم.

(٢) الآية صريحة فى أن الولد أراد أن يأوى إلى جبل يعصمه من الماء .. فماذا ينفع الزجاج هنا. وما ذكره الشيخ المفسر لا دليل عليه.

(٥٣٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٣١

الإشارة : إذا دخل العارف فى بحر الفناء ، وغاب عن حسه ورسمه ، واتصل معناه ببحر معانى الأسرار ، جرت سفينة فكرته فى بحر الذات وأنوار الصفات ، فقال لأصحابه : اركبوا فيها ، بسم اللّه مجريها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم ، حيث غطى وصفكم بوصفه ، ونعتكم بنعته. فوصلكم بما منه إليه ، لا بما منكم إليه. فصارت سفن الأفكار تجرى بهم فى موج كالجبال ، وهى تيار بحر الذات. فالخمرة الأزلية الخفية الصافية بحر لا ساحل له ، وما ظهر من أنوار الصفات أمواجه. فأنوار الآثار هى أمواج البحار ، وما عظم من أمواجه يسمى التيار ، ولذلك قيل : العارفون يغرقون فى بحر الذات ، وتيار الصفات ، فتراهم إذا غرقوا فى بحر الأسرار وتيار الأنوار ، وساروا فيها بمدد أسرارهم ، تلاطمت عليهم أمواجه. وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، فلا عاصم اليوم من أمر اللّه إلا من رحم ، فآواه إلى جبل السنة المحمدية. فكان من الناجين.

وآخرون حال بينهم الموج ، فكانوا من المغرقين ، فالتبس الأمر عليهم ، فقالوا بالحلول والاتحاد ، أو

نفى الحكمة والأحكام. وهذا فى حق من ركب بلا رئيس ماهر ، وإلا رده إلى سفينة النجاة ، وهى : التمسك بالشريعة المحمدية فى الظاهر ، والتحقق بالحقيقة الأصلية. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر انتهاء الطوفان ، فقال :

[سورة هود (١١) : آية ٤٤]

وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)

قلت : (بعدا) : منصوب على المصدر ، أي : أبعدوا بعدا.

يقول الحق جل جلاله : وَقِيلَ أي : قال اللّه : يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ الذي خرج منك ، فانفتحت أفواها ، فرجع إليها ما خرج منها ، وَيا سَماءُ أَقْلِعِي : أمسكى عن الأمطار. روى أنها أمطرت من كل موضع ، فبقى ما نزل منها بحارا على وجه الأرض.

قال البيضاوي : نوديا بما ينادى به أولو العلم ، وأمرا بما يؤمرون به ، تمثيلا لكمال قدرته ، وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما ، بالأمر المطاع ، الذي يأمر المنقاد لحكمه ، المبادر إلى امتثال أمره ، مهابه من عظمته ، وخشية من أليم عقابه. والبلع : النشف ، والإقلاع : الإمساك. هـ.

وَغِيضَ الْماءُ نقص ولم ينشف ما خرج منها ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ : وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين ، وإنجاء المؤمنين ، وَاسْتَوَتْ : استقرت السفينة عَلَى الْجُودِيِّ جبل بالموصل. وقيل : بالشام. وتقدم أنه

(٥٣١/٢)

نزل يوم عاشوراء ، فصامه شكرا. وبقي ستة أشهر على الماء. وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ هلاكا لهم. يقال :

بعد ، إذا بعد بعدا بعيدا ، بحيث لا يرجى عوده ، ثم استعير للهلاك. وخص بدعاء السوء.

والآية - كما ترى - فى غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها ، والدلالة على كنه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال. وإيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل ، وأنه متعين فى نفسه ، مستغن عن ذكره ، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره للعلم به ، فإن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار. قاله البيضاوي.

فإن قلت : قد عم الغرق الدنيا كلها ، مع أن دعوة نوح عليه السّلام لم تكن عامة ، وقد قال تعالى : وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا «١»؟ فالجواب : أن الكفر قد كان عم الموجودين فى ذلك الزمان ، مع تمكنهم من النظر والاستدلال على الصانع وتوحيده ، ومع قدرتهم على الإتيان إلى نوح فى أمر

الشرائع ، فقصروا فى الجهتين.

وأيضا : لم تكن الأرض كلها معمورة بالناس ، فكل من كان موجودا سمع بدعوة نوح فجحدها. واللّه تعالى أعلم.

وانظر ابن عطية عند قوله : وَاصْنَعِ الْفُلْكَ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا توالت على القلب الواردات الإلهية السماوية ، والأحوال النفسانية المزعجة ، خيف على العقل الاختطاف والاصطلام ، فقيل يا أرض النفس ابلعي ماءك واسكني ، ويا سماء الواردات أقلعى ، وغيض الماء ، أي :

نقص هيجان الحال ، وقضى الأمر بالاعتدال ، واستوت سفينة الفكرة على جبل العقل ، فحاز الشرف والكمال لكونه برزخا بين بحرين ، يعطى الحقيقة حقها والشريعة حقها ، فيعطى كل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه.

وقيل : بعدا لمن تخلف عن هذا المقام ، وظلم نفسه بإلقائها فى سجن الهوى وغيهب الظلام. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا غرق كنعان مع من غرق ، استفهم نوح عليه السّلام ربه عن الوعد الذي وعده بإنجاء أهله ، كما قال تعالى :

[سورة هود (١١) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (٤٥) قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (٤٦) قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (٤٧)

---

(١) من الآية : ١٥ من سورة الاسراء.

قلت : (و إنّ وعدك) : عطف على (إن ابني). و(أنت أحكم) : حال من الكاف. و(إنى أعظك) : مفعول من أجله ، أي : كراهية أن تكون من الجاهلين.

يقول الحق جل جلاله : وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ بعد تعميم الغرق ، أي : أراد النداء بدليل عطف قوله : فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ، فإنه هو النداء ، أو تكون فصيحة جوابا عن مقدر ، كأن قائلا قال : ماذا قال

في ندائه؟

فقال : إن ابني من أهلى وقد وعدتني أن تنجينى وأهلى ، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ لا يتطرقه الخلف ، فما باله غرق؟

وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ لأنك أعلمهم وأعدلهم ، فلم أعرف وجه حكمك عليه بالغرق. أو لأنك أكثر حكمة من ذوى الحكم ، فلم أفهم حكمة غرقه.

قالَ تعالى : يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ لأنه خالفك فى الدين ، ولا ولاية بين الكافر والمؤمن ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ أي : ذو عمل فاسد. جعل ذاته نفس العمل مبالغة. وقرأ الكسائي ويعقوب : (عمل) بلفظ الماضي. أي : عمل عملا فاسدا ، استحق به البعد عنك. أو : إنه - أي سؤالك - عمل غير صالح. ويقوى هذا قراءة ابن مسعود : «إنه عمل غير صالح أن تسألنى ما ليس لك به علم». وقراءة الجماعة : فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أصواب هو أم لا ، حتى تقف على كنهه. وإنما سمى نداءه سؤالا لتضمنه معنى السؤال ، بذكر الوعد واستنجازه واستفسار المانع.

ثم وعظه بقوله : إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ أي : إنى أعظك كراهة أن تكون من الجاهلين ، الذين يسألون ما لا يوافق القدر. وقد استثنيته بقولي : إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ. وليس فيه وصفه بالجهل ، بل وعظه لئلا يقع فيه ، والحامل له على السؤال ، مع أنه استثنى له غلبة الشفقة على الولد ، مع كونه لم يتحقق أنه ممن سبق عليه القول.

قالَ نوح : يا رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ فى المستقبل ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ما لا علم لى بصحته. وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ما فرط منى من السؤال ، وَتَرْحَمْنِي بالتوبة تفضلا وإحسانا ، وبالتوفيق والعصمة فى المستقبل ، أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ بسوء أدبى معك.

الإشارة : قال الورتجبي : أدب نبيه نوحا عليه السّلام بأن لا يسأل إلا ما وافق القدر. وكل دعاء لم يوافق مراده تعالى فى سابق علمه لم يؤثر فى مراد الداعي. وقوله : (إنه عمل غير صالح) أي : ليس عمله على موافقة السنة ، ثم وعظه ، وقال : (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) ، الجاهل : من جهل قدر اللّه ، أي : أنزهك عن سوء الأدب فى السؤال ، على غير قاعدة مرادك. هـ. وقال فى الحكم : «ليس الشأن وجوب الطلب ، إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب».

(٥٣٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٣٤

ثم أمره بالنزول إلى الأرض من السفينة ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]

قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)

قلت : «تلك» : مبتدأ. و«من أنباء» : خبر. و«نوحيها» : خبر ثان ، و«ما كنت تعلمها» : خبر ثالث ، أو حال من الهاء ، أي : حال كونها مجهولة عندك وعند قومك.

يقول الحق جل جلاله : قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ من السفينة إلى عمارة الأرض بِسَلامٍ مِنَّا ، أي : متلبسا بسلامة من المكاره ، من جهة حفظنا ورعايتنا. أو مسلما عليك. وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وزيادات فى نسلك حتى تصير آدما ثانيا. فالبركة هى : الخير النامي. أو : مباركا عليك ، وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ أي : هم الذين معك ، أو ناشئة ممن معك ، فقد تشعبت الأمم ممن معه من ذريته. والمراد : المؤمنون ، بدليل قوله : وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ فى الدنيا ، ونوسع عليهم فيها ، ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ فى الآخرة ، وهم الكفار ممن نشأ من ذريته. وقيل :

هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب ، والعذاب : ما نزل بهم فى الدنيا.

تِلْكَ القصة ، أو خبر نوح عليه السّلام ، هى مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ أي : بعض أخبار الغيب نُوحِيها إِلَيْكَ لا طريق إلى معرفتها إلا الوحى ، ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا الوقت لو لا إيحاؤنا إليك بها ، فهى من دلائل نبوتك لأنك لم تغب عنهم ، ولم تخالط غيرهم ، فتعين أنه من عند اللّه. فإن كذبوك فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ وأنت أعظمهم. فالعاقبة لك فى الدنيا بالنصر والعز ، وفى الآخرة بالرفيق الأعلى. أو فاصبر على مشاق التبليغ مع إيذاية قومك ، كما صبر نوح عليه السّلام. إن العاقبة للمتقين بالنصر فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة.

الإشارة : يقال للمريد إذا تمكن من الفناء ، وارتفعت فكرته عن عالم الأكوان : اهبط إلى مقام البقاء لتقوم بآداب العبودية بعد مشاهدة عظمة الربوبية ، انزل إلى سماء الحقوق ، أو أرض الحظوظ بالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين ، لا بقصد متابعة الشهوة والمتعة. اهبط بسلام منا أي : بسلامة من الرجوع أو الشقاء ، وبركات عليك وعلى من تبعك. ولذلك قيل : من رجع إلى البقاء أمن من الشقاء. وأمم قد ضلوا عن متابعتك ، سنمتعهم فى الدنيا بمتابعة الهوى ، ثم يمسهم منا عذاب الحجاب وسوء الحساب. تلك الواردات الإلهية نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أيها العارف من قبل هذا ، أنت ولا من تبعك ، فاصبر فإن الجمال مقرون بالجلال ، والعاقبة للمتقين. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هود عليه السّلام ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٥٠ الى ٥٢]

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)

قلت : «أخاهم» : عطف على نوح في قوله : (و لقد أرسلنا نوحا) ، و(هودا) : بدل.

يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا إِلى قبيلة عادٍ أَخاهُمْ هُوداً ، قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده ، ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ يستحق أن يعبد ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ على اللّه ، باتخاذ الأوثان آلهة.

يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ : على التبليغ أَجْراً حتى يثقل عليكم ، أو تتهموني لأجله ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي خلقني. بهذا خاطب كل رسول قومه إزاحة للتهمة ، وتمحيصا للنصيحة ، فإنها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع. أَفَلا تَعْقِلُونَ : أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل ، والصواب من الخطأ.

وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ من الشرك ، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، ثم ارجعوا إليه بطاعته فيما أمر ونهى. أو : ثم توبوا من المعاصي لأن التوبة من الذنوب لا تصح إلا بعد الإيمان ، والتطهير من الشرك ، يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً أي : كثير الدر ، أي النزول ، وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ : يضاعف قوتكم ، ويزدكم فيها. وإنما دعاهم إلى اللّه ، ووعدهم بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات. وقيل : حبس اللّه عنهم المطر ، وأعقم أرحام نسائهم ثلاثين سنة فوعدهم هود عليه السّلام على الإيمان والتوبة بالأمطار وتضاعف القوة بالتناسل. قاله البيضاوي.

وقال ابن جزي : وفي الآية دليل على أن التوبة والاستغفار سبب لنزول المطر. روى : أن عادا كان المطر قد حبس عنهم ثلاث سنين ، فأمرهم بالتوبة والاستغفار ، ووعدهم على ذلك بالمطر. هـ. وَلا تَتَوَلَّوْا : ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه ، مُجْرِمِينَ مصرين على إجرامكم.

الإشارة : في تكرير القصص والأخبار وعظ وتذكير لأهل الاعتبار ، وزيادة إيقان لأهل الاستبصار ، وتهديد وتخويف لأهل الإصرار ، وحث على المبادرة إلى التوبة والاستغفار. قوله تعالى : (و يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) ، أي : استغفروا ربكم من الشرك الخفي ، ثم توبوا إليه من النظر إلى وجودكم ، ورؤية أعمالكم ، يرسل سحاب

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٣٦
الواردات الإلهية والعلوم الإلهامية على قلوبكم وأسراركم ، مدرارا ، ويزدكم قوة فى شهود الذات إلى قوتكم فى شهود الصفات ، ولا تتولوا عن شهوده بشهود أثره ، مجرمين معدودين فى زمرة المجرمين المصرين على الكبائر ، وهم لا يشعرون.

وقال الورتجبي : استغفروا من النظر إلى غيرى ، وتوبوا إلىّ من نفوسكم ، ورؤية طاعتكم وأعواضها ، يرسل سماء القدم على قلوبكم مدرار أنوار تجليها ، ويزدكم ، أي : يزد قوة أرواحكم فى طيرانها. انظر تمامه.

ثم ذكر ما أجابه به قومه ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٥٣ الى ٥٧]

قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)

قلت : (إن نقول إلا اعتراك) : الاستثناء مفرغ ، و«اعتراك» : مقول لقول محذوف ، أي : ما نقول إلا قولنا اعتراك ، و(ما من دابة) : «ما» نافية ، و«من» صلة و«دابة» ، مبتدأ مجرور بمن الزائدة ، وجملة (إلا هو آخذ) : خبر.

يقول الحق جل جلاله : قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ بمعجزة واضحة تدل على صدق دعواك ، وهذا كذب منهم وجحود لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات. وفى الحديث : «ما من نبىّ إلّا أوتى من المعجزات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنّما كان الذي أوتيته وحيا أوحى إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» «١». كما فى الصحيح. ويحتمل أن يريدوا : ما جئتنا بآية تضطر إلى الإيمان بك ، وإن كان قد أتاهم بآية نظرية. ولم يذكر فى القرآن معجزة معينة لهود عليه السّلام ، مع الاعتقاد أنه لم يخل من معجزة لما فى الحديث.

ثم قالوا : وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا بتاركي عبادتهم عَنْ قَوْلِكَ أي : بسبب قولك ، أو صادرين عن قولك ، وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ أبدا ، وهو إقناط له عن الإجابة والتصديق. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ أصابك بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ بجنون لما سببتها ، ونهيت عن عبادتها ، ولذلك صرت تهذو وتتكلم بالخرافات.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الاعتصام ، باب قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعثت بجوامع الكلم) ومسلم فى (الإيمان ، باب : وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٣٧
قالَ هود عليه السّلام : إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ على براءتي من شرككم ، وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي أي : اقصدوا كيدى وهلاكى ، جَمِيعاً ، أنتم وشركاؤكم ، ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ لا تؤخرون ساعة. وهذا من جملة معجزاته ، فإن مواجهة الواحد الجم الغفير من الجبابرة ، والفتاك العطاش إلى إراقة دمه ، بهذا الكلام ، ليس إلا لتيقنه باللّه ، ومنعهم من إضراره ليس إلا لعصمته إياه. ولذلك عقبه بقوله : إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، فهو تقرير له. والمعنى : أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لم تضرونى فإنى متوكل على اللّه ، واثق بكلاءته ، وهو مالكى ومالككم ، لا يحيق بي ما لم يرده ، ولا تقدرون على ما لم يقدره.
ثم برهن عليه بقوله : ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها : إلا وهو مالك لها ، قادر عليها ، يصرفها على ما يريد بها. والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك. قاله البيضاوي. وقال ابن جزى : أي : هى فى قبضته وتحت قهره ، وهذه الجملة تعليل لقوة توكله على اللّه ، وعدم مبالاته بالخلق. هـ. إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أي : إنه على الحق والعدل ، ولا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم. وقال فى القوت : أخبر عن عدله فى محله ، وقيام حكمته ، وأنه وإن كان آخذا بنواصي العباد فى الخير والشر ، والنفع والضر لاقتداره ، فإن ذلك مستقيم فى عدله ، وصواب من حكمه. هـ.
فَإِنْ تَوَلَّوْا أي : فإن تتولوا وتعرضوا عما جئتكم به ، فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ. أي : فقد أديت ما علىّ من الإبلاغ ، فلا تفريط منى ، ولا عذر لكم فقد جاءكم النذير ، وقامت الحجة عليكم ، وما بقي إلا هلاككم. وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ يسكنون دياركم ، ويعمرون بلادكم ، فإن عتوا وطغوا سلك بهم مسلككم ، وَلا تَضُرُّونَهُ بتوليكم عن الإيمان به ، شَيْئاً من الضرر. أو لا تضرونه شيئا إذا أهلككم واستخلف غيركم ، إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ رقيب ، فلا يخفى عليه أعمالكم ، ولا يغفل عن مجازاتكم.
أو حافظ مستول عليه ، فلا يمكن أن يضره شىء. قاله البيضاوي.
الإشارة : ما يقال للأولياء إلا ما قيل للرسل ، فإذا توجه العبد إلى مولاه ، وسقط على من هو أهل للتربية ، وترك ما كان عليه قبل من الانتساب إلى غيره ، وخرق عوائد نفسه ، أو أصابه شىء من المكاره ، قال الناس : ما اعتراه إلا بعض الصالحين بسوء ، فيقول لهم : إنى أشهد اللّه ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه. فإن أجمعوا على إضراره أو قتله قال لهم : فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها ، وأنتم دواب مقهورون تحت قبضة الحق ، إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ لا ينتقم إلا من أهل الانتقام ، «من عاد لى وليا فقد آذنته بالحرب»

، فإن ذكرهم باللّه ودلهم على الطريق ، فكذبوه وأعرضوا عنه ، قال : عسى أن يذهب بكم ، ويستخلف قوما غيركم ، يكونون متوجهين إليه أكثر منكم ، ولا تضرونه شيئا. وباللّه التوفيق.

(٥٣٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٣٨

ثم ذكر نزول العذاب الذي وعدهم به ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٥٨ الى ٦٠]

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)

قلت : إنما قال هذا وفى قصة شعيب : (و لما) ، بالواو ، وفى قصة صالح ولوط : (فلما) ، بالفاء لأن قصة صالح ولوط ذكرهما بعد الوعيد ، فى بالفاء التي تقتضى التسبب ، كما تقول : وعدته فلما جاء الوعيد كان .. إلخ ، بخلاف قصة هود وشعيب لم يتقدم ذلك فيهما ، فعطف بالواو. قاله الزمخشري.

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا : عذابنا ، أو أمرنا بالعذاب ، نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وكانوا أربعة آلاف ، وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ ، وهو ريح السموم ، وكانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطع أمعاءهم. والتكرير لبيان ما نجاهم منه ، وإعلاما بأنه عذاب غليظ ، وتعديدا للنعمة فى نجاتهم. ويحتمل أن يريد بالنجاة الأولى : من عذاب الدنيا ، وهو الريح الذي نزل بقومهم ، وبالنجاة الثانية : عذاب الآخرة ، وهو العذاب الغليظ ، ولذلك عطفه على النجاة الأولى التي أراد بها النجاة من الريح.

وَتِلْكَ عادٌ الإشارة إلى القبيلة ، أو إلى قبورهم وآثارهم تهويلا وتهديدا ، جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ كفروا بها ، وَعَصَوْا رُسُلَهُ ، والجمع إما لأنّ من عصى رسولا فكأنما عصى الكل لأنهم متفقون فى الدعوة ، مع أنهم أمروا بطاعة كل رسول. وإمّا على إرادة الجنس ، كقولك : فلان يركب الخيل ، وإن لم يركب إلا فرسا واحدا. وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ يعنى : كبراءهم الطاغين ، والعنيد : الطاغي ، والمعنى : عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم ، وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم ، وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أي : جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدارين فى الدنيا أهلكتهم ، وفى الآخرة أحرقتهم.

أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ جحدوه ، أو كفروا نعمه. وفيه تشنيع لكفرهم وتهويل لأمرهم ، بالإتيان بحرف التنبيه ، وتكرار اسم عاد أَلا بُعْداً لِعادٍ أي : هلاكا لهم ، دعا عليهم بالهلاك بعد أن هلكوا للدلالة على أنهم كانوا مستحقين له ، مستوجبين لما نزل بهم بسبب ما حكى عنهم. وإنما كرر «ألا» ، وأعاد

ذكرهم تفظيعا لأمرهم ، وحثّا على الاعتبار بحالهم. ثم بيّنهم بقوله : قَوْمِ هُودٍ. فهو عطف بيان لعاد ، وفائدته : تمييزهم عن عاد الثانية ، التي هى عاد إرم ، والإيماء إلى [استحقاقهم للبعد] «١» بما جرى بينهم وبينه. قاله البيضاوي.

---

(١) فى الأصول : [استحقارهم له]. والمثبت هو الذي فى تفسير البيضاوي.

الإشارة : من أراد سلامة الدارين والظفر بقرة العين ، فليتمسك بالإيمان باللّه ، وبكل رسول أتى من عند اللّه ، وليتبع من يدعو إلى اللّه. وهم أهل المحبة والوداد ، السالكون مناهج الرشاد والسداد. وليتجنب كل جبار عنيد ، وهو :
كل من يحول بينك وبين اللّه ، ويغفلك عن ذكر اللّه. وقوله تعالى : (ألا بعدا لعاد) وأخواتها ، فيها تخويف لأهل القرب والوصال.
قال فى الإحياء : ولخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ، ليست لغيرهم ، وبعض مخاوفهم أشد من بعض ، فأولها : خوف الإعراض ، وأشد منه : خوف الحجاب ، وأشد منه : خوف الإبعاد ، وهذا المعنى من سورة هود هو الذي شيب سيد المحبين ، أنه سمع : (ألا بعدا لعاد) ، (ألا بعدا لمدين) ، وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه فى قلب من ألف القرب وذاقه ، وتنعّم به. ثم قال : ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فإنا قدّمنا : أن درجات القرب لا نهاية لها. هـ.
ثم ذكر قصة صالح عليه السّلام فقال :
[سورة هود (١١) : الآيات ٦١ الى ٦٣]
وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)
قلت : قال الشطيبى : صالح : هو ابن عبيد بن عابر بن أرفخشد بن سام بن نوح. وثمود هم أولاد ثمود بن عوص بن عاد بن إرم بن سام بن نوح. هـ. وفيه نظر فقد ذكر البيضاوي فى سورة الأعراف أن بين صالح ونوح تسعة أجداد ، فانظره.
يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً ، قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ

هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ كونكم من الأرض لأنه خلق آدم منها ، والنطف التي هى مواد نسله أصلها منها ، وَاسْتَعْمَرَكُمْ عمركم فِيها وجعلكم تعمرونها بعد من مضى قبلكم ، ثم تتركونها لغيركم. أو استبقاكم فيها مدة أعماركم ، ثم ترحلون عنها. فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ من كل شىء ، مُجِيبٌ لمن دعاه.

(٥٣٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٤٠

قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أي : كنا نرجو أن ننتفع بك لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد ، فتكون لنا سيدا ، أو مستشارا فى الأمور ، وأن توافقنا على ديننا ، فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا منك أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا قبلنا لتصرفنا عن ديننا ، وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ من التوحيد ، والتبري من الأوثان ، مُرِيبٍ : موقع فى الريبة مبالغة فى الشك ، قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ طريقة واضحة مِنْ رَبِّي وبصيرة نافذة منه ، وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً : نبوة ، فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ من يمنعنى من عذابه إِنْ عَصَيْتُهُ وأطعتكم فى ترك التبليغ ، وموافقتكم فى الدين الفاسد ، فَما تَزِيدُونَنِي باستتباعكم غَيْرَ تَخْسِيرٍ بترك ما منحنى اللّه به ، والتعرض لغضبه ، أو فما تزيدوننى بما تقولون لى غير تخسير لكم لأنه يجركم إلى الخسران. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من وجهه الحق تعالى يدعو إلى اللّه فإنما يدعو إلى خصلتين : إفراد الحق بنعوت الألوهية ، والقيام بوظائف العبودية شكرا لنعمة الإيجاد ، وتوالى الإمداد. فقول صالح عليه السّلام : (اعبدوا اللّه مالكم من إله غيره) ، هذا إفراد الحق بالربوبية ، وقوله : (هو أنشأكم من الأرض) ، هذه نعمة الإيجاد. وقوله : (و استعمركم فيها) هى : نعمة الإمداد ، وقوله : (فاستغفروه ثم توبوا إليه) ، هو القيام بوظائف العبودية شكرا لتلك النعمتين. وفى قوله : (إن ربى قريب مجيب) : ترهيب وترغيب.

وقوله تعالى : (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) : يؤخذ من الآية : أن شعاع الخصوصية ، وآثارها ، تظهر على العبد قبل شروق أنوارها ، وهو جار فى خصوص النبوة والولاية ، فلا تظهر على العبد فى الغالب حتى يتقدمها آثار وأنوار ، من مجاهدة أو أنس ، أو اضطرار أو انكسار ، أو عرق طيب. واللّه تعالى أعلم. وكل من واجهه منهم تكذيب أو إنكار يقول : (أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ...) الآية. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر معجزة الناقة ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٦٤ الى ٦٨]

وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ

(٦٤) فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (٦٨)

(٥٤٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٤١

قلت : «آية» : نصبت على الحال ، والعامل فيها : معنى الإشارة. و(لكم) : حال منها ، تقدمت عليها لتنكيرها.

و(من خزى يومئذ) - حذف المعطوف ، أي : ونجيناهم من خزى يومئذ ، ومن قرأ بكسر الميم أعربه ، ومن قرأ بالفتح بناه لاكتساب المضاف البناء من المضاف إليه. قاله البيضاوي. وقال فى الألفية :

وابن ، أو أعرب ما كإذ قد أجريا واختر بنا متلو فعل بنيا

وقبل فعل معرب أو مبتدا أعرب ، ومن بنى فلن يفندا

وثمود : اسم قبيلة ، يصح فيه الصرف باعتبار الحي أو الأب الأكبر ، وعدمه باعتبار القبيلة. وقد جاء بالوجهين فى هذه الآية.

يقول الحق جل جلاله : قال صالح لقومه بعد ظهور آية الناقة ، وقد تقدم فى الأعراف قصتها : هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً تدل على صدقى ، فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ أي : ترعى نباتها وتشرب ماءها ، وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ ، فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ : عاجل ، لا يتأخر عن مسكم لها بالسوء إلا ثلاثة أيام.

فَعَقَرُوها وقسموا لحمها فَقالَ لهم : تَمَتَّعُوا : عيشوا فِي دارِكُمْ منازلكم ثَلاثَةَ أَيَّامٍ الأربعاء والخميس والجمعة. وقيل : عقروها يوم الأربعاء ، وتأخروا الخميس والجمعة والسبت ، وهلكوا يوم الأحد.

ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فيه ، بل هو حق.

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا : عذابنا ، أو أمرنا بهلاكهم ، نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، قيل : كانوا ألفين وثمانمائة رجل وامرأة. وقيل : أربعة آلاف ، وقال كعب : كان قوم صالح أربعة عشر ألفا ، سوى النساء والذرية ، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات. انظر القرطبي. قلت : وقول كعب : كان قوم صالح ... إلخ ، لعله يعنى الجميع : من آمن ومن لم يؤمن ، فآمن ألفان وثمانمائة ، وهلك الباقي. وكذا هود ، أسلم أربعة آلاف ، وهلك الباقي.

قال تعالى : فنجينا صالِحاً ومن معه بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، ونجيناهم مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ وهو : هلاكهم بالصيحة ، أو من هوان يوم القيامة ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ القادر على كل شىء ، الغالب عليه ، وَأَخَذَ الَّذِينَ

ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ باركين على ركبهم ، ميتين ، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا : يعيشوا ، أو يقيموا فِيها ساعة ، أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ جحدوه ، أَلا بُعْداً لِثَمُودَ هلاكا وسحقا لهم.

الإشارة : ما رأينا أحدا ربح من ولى وهو يطلب منه إظهار الكرامة ، بل إذا أراد اللّه أن يوصل عبدا إليه كشف له عن سر خصوصيته ، بلا توقف على كرامة. وقد يظهرها اللّه له بلا طلب تأييدا له ، وزيادة فى إيقانه ، فإن طلب الكرامة ، وظهرت له ، ثم أعرض عنه ، فلا أحد أبعد منه. قال تعالى ، فى حق من رأى المعجزة ثم أعرض :

(ألا بعدا لثمود). وباللّه التوفيق.

(٥٤١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٤٢

ثم ذكر قصة لوط ، مع ما تقدمها من بشارة إبراهيم عليه السّلام ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٦٩ الى ٧٣]

وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣)

قلت : «سلاما» : منصوب على المصدر ، أي : سلمنا سلاما. ويجوز نصبه بقالوا لتضمنه معنى ذكروا.

(قال سلام) : إما خبر ، أي : أمرنا سلام ، أو جواب سلام ، وإما مبتدأ ، أي : عليكم سلام. وكسر السين : لغة. وإنما رفع جوابه ليدل على ثبوت سلامه فيكون قد حياهم بأحسن مما حيوه به. (فما لبث أن جاء). «ما» : نافية و«أن جاء» :

فاعل «لبث». ونكر وأنكر بمعنى واحد. والإيجاس : الإدراك أو الإضمار. و(من وراء إسحاق يعقوب) : من قرأ بالنصب فبفعل دل عليه الكلام ، أي : ووهبنا لها يعقوب. ومن رفعه فمبتدأ ، أي : ويعقوب مولود من بعده. و(شيخا) :

حال ، والعامل فيه : الإشارة ، أي : أشير إليه شيخا. و(أهل البيت) : نصب على المدح والاختصاص ، أو على النداء.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ ، وهم الملائكة ، قيل : ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل : تسعة ، جاءوه بِالْبُشْرى بالولد. فلما دخلوا عليه قالُوا سَلاماً أي : سلمنا عليك سلاما

، أو ذكروا سلاما ، قالَ سَلامٌ أي : عليكم سلام ، فَما لَبِثَ أي : أبطأ ، أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ مشوى بالرضف ، أي : بالحجر المحمى. وقيل : حنيذ بمعنى يقطر ودكه «١». كقوله : بِعِجْلٍ سَمِينٍ «٢» ، فامتنعوا من أكله ، فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ لا يمدون إليه أيديهم ، نَكِرَهُمْ أي : أنكر ذلك منهم ، وَأَوْجَسَ : أدرك ، أو أضمر مِنْهُمْ خِيفَةً أي : خوفا ، خاف أن يريدوا به مكروها لامتناعهم من طعامه ، وكان من عادتهم إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه ، وإلا خافوه.

والظاهر أنه أحس بأنهم ملائكة ونكرهم لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره اللّه عليه فأمنوه ، وقالوا :

لا تَخَفْ إِنَّا ملائكة أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ

لنعذبهم ، وإنما لم نأكل طعامك لأنا لا نأكل الطعام. وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ من وراء ستر تسمع محاورتهم ، أو على رؤوسهم للخدمة ، فَضَحِكَتْ سرورا بزوال الخيفة ، أو بهلاك

---

(١) الودك : دسم اللحم.

(٢) من الآية ٢٦ من سورة الذاريات.

أهل الفساد ، أو بإصابة رأيها ، فإنها كانت تقول لإبراهيم : اضمم إليك لوطا ، فإنى لأعلم أن العذاب نازل بهؤلاء القوم. وقيل : معنى ضحكت : حاضت. يقال : ضحكت الشجرة : إذا سال صمغها. وقيل : ضحكت سرورا بالولد الذي بشرت به. فيكون فى الكلام تقديم وتأخير ، أي : فبشرناها فضحكت ، وهو ضعيف.

قال تعالى : فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ ولد ولدها. وتوجيه البشارة إليها لأنه من نسلها ، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد ، قالَتْ يا وَيْلَتى يا عجبا ، وأصله فى الشر ، فأطلق على كل أمر فظيع. وقرىء بالياء على الأصل ، أي : يا ويلتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ابنة تسعين ، أو تسع وتسعين وَهذا بَعْلِي : زوجى ، وأصله : القائم بالأمر ، شَيْخاً ابن مائة أو مائة وعشرين سنة ، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ يتعجب منه لكونه نشأ الولد من هرمين.

وهو استغراب من حيث العادة ، لا من حيث القدرة ، ولذلك قالوا : أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ منكرين عليها ، فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ، ومهبط الوحى ومظهر المعجزات. وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع ، ولذلك قالوا : رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ أي : بيت إبراهيم ،

فلا تستغرب ما يظهر منهم من خوارق العادات ، لا سيما من نشأت وشابت فى ملاحظة الآيات ، إِنَّهُ تعالى حَمِيدٌ فاعل ما يستوجب به الحمد ، أو محمود على كل حال ، مَجِيدٌ كثير الخير والإحسان. أو ممجّد بمعنى العلو والشرف التام. قال ابن عطية هنا : إن فى الآية دليلا على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق. وفيه نظر «١». وسيأتى فى سورة الصافات ما هو الحق ، إن شاء اللّه تعالى.

الإشارة : من شأن أهل الكرم والامتنان : المبادرة إلى من أتاهم بالبر والإحسان إما بقوت الأرواح ، أو بقوت الأشباح. من أتاهم لقوت الأرواح بادروه بإمداد الروح من اليقين والمعرفة ، ومن أتاهم لقوت الأشباح بادروه بالطعام والشراب ، كلا ما يليق به ، ومن شأن الضيف اللبيب المبادرة إلى أكل ما قدم إليه ، من غير اختيار ، إلا لمانع شرعى أو عادى. ومن شأن أهل التحقيق والتصديق ألا يتعجبوا مما يظهر من القدرة من الخوارق إذ القدرة صالحة لكل شىء ، حاكمة على كل شىء ، هى تحكم على العادة ، لا العادة تحكم عليها. وهذا شأن الصديقين لا يتعجبون من شىء ولا يستغربون شيئا ، ولذلك توجه الإنكار إلى سارة من الملائكة ، ولم يتوجه إلى مريم حيث سألت استفهاما ، ولم تتعجب ، ووصفت بالصديقية دون سارة. واللّه تعالى أعلم.

ولما تحقق إبراهيم عليه السّلام بهلاك قوم لوط أسف عليهم ، كما قال تعالى :

[سورة هود (١١) : الآيات ٧٤ الى ٧٦]

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)

---

(١) راجع ، مع تقريرنا بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السّلام.

قلت : «لما» : حرف وجود لوجود ، تفتقر للشرط والجواب. فشرطها : «ذهب» ، وجوابها : محذوف ، أي : جعل يجادلنا. والتأوه : التفجع والتأسف ، ومنه قول الشاعر.

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوّه آهة الرجل الحزين «١»

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ ، وهو ما أوجس فى نفسه من الخيفة ، وَجاءَتْهُ الْبُشْرى بدل الروع ، جعل يُجادِلُنا أي : يخاصم رسلنا فِي شأن قَوْمِ لُوطٍ ، ويدافع عنهم ، قال : إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها «٢» ، إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ ، غير عجول من الانتقام إلى من أساء إليه ، أَوَّاهٌ كثير التأوه والتأسف على الناس ، مُنِيبٌ راجع إلى اللّه. والمقصود من ذلك :

بيان الحامل له على المجادلة ، وهى : رقة قلبه وفرط ترحمه. قال تعالى على لسان الملائكة : يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ، الجدال إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ بهلاكهم ، ونفذ قضاؤه الأزلى فيهم ، ولا مرد لما قضى ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ غير مصروف بجدال ولا دعاء ، ولا غير ذلك.

الإشارة : قال الورتجبي : قوله تعالى : (إن إبراهيم لحليم أواه) حليم بأنه كان لا يدعو على قومه ، بل قال :

فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٣». وتأوه زفرة قلبه من الشوق إلى جمال ربه ، هكذا وصف العاشقين. ثم قال : ومجادلته كمال الانبساط ، ولم يكن جهلا ، ولكن كان مشفقا ، بارا كريما ، رأى مكانة نفسه فى محل الخلة والاصطفائية القديمة ، وهو تعالى يحب غضب العارفين ، وتغير المحبين ، ومجادلة الصديقين ، وانبساط العاشقين حتى يحثهم على ذلك.

وفى الحديث المروي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «لما أسرى بي رأيت رجلا فى الحضرة يتذمر ، فقلت لجبريل : من هذا؟ فقال : أخوك موسى يتذمّر على ربّه - أي : يجترىء عليه انبساطا - فقلت : وهل يليق له ذلك؟ فقال : يعرفه فيتحمل عنه». ثم قال : ولا يجوز الانبساط إلا لمن كان على وصفهم. هـ. قال فى الصحاح : يتذمّر على فلان : إذا تنكّر له وأوعده. قاله المحشى.

والحاصل أن ابراهيم عليه السّلام حملته الشفقة والرحمة ، حتى صدر ، منه ما صدر مع خلته واصطفائيته ، فالشفقة والرحمة من شأن الصالحين والعارفين المقربين ، غير أن العارفين باللّه مع مراد مولاهم ، يشفقون على عباد اللّه ، مالم يتعين مراد اللّه ، فاللّه أرحم بعباده من غيره. ولذلك قال لخليله ، لما تعين قضاؤه : يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا.

---

(١) عزاه القرطبي فى تفسيره إلى المثقّب العبدى.

(٢) من الآية : ٣٢ من سورة العنكبوت.

(٣) من الآية : ٣٦ من سورة ابراهيم.

فالشفقة التي تؤدى إلى معارضة القدر لا تليق بأهل الأقدار ، وفى الحكم «ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره اللّه». ولهذا قالوا : الشفقة لا تليق بالأولياء.

قال جعفر الصادق - رحمه اللّه - : ست خصال لا تحسن بستة رجال : لا يحسن الطمع فى العلماء ، ولا العجلة فى الأمراء ، ولا الشح فى الأغنياء ، ولا الكبر فى الفقراء ، ولا الشفقة فى المشايخ ، ولا

اللؤم فى ذوى الأحساب. وقولنا :

الشفقة لا تليق بالأولياء ، يعنى إذا تعين مراد اللّه ، أو إذا ظهرت المصلحة فى عدمها ، كأمر الشيخ المريد بما تموت به نفسه ، فإذا كان الشيخ يحن على الفقراء فى هذا المعنى لا تكمل تربيته. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هلاك لوط ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٧٧ الى ٨٣]

وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (٧٩) قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

قلت : «سى ء» : مبنى للمفعول ، صله : سوىء ، نقلت حركة الواو إلى السين بعد ذهاب حركتها ، ثم قلبت الواو ياء. و(ذرعا) : تمييز محول عن الفاعل ، أي : ضاق ذرعه ، وهو كناية عن شدة الانقباض عن مدافعة الأمر المكروه ، وعجزه عن مقاومته. و(لو أن لى بكم قوة) : إما للتمنى فلا جواب له ، أو محذوف ، أي : لدفعت.

وفى (أسر) لغتان : قطع الهمزة ، من الإسراء ، ووصلها من السّرى ، وقرىء بهما معا ، و(إلا امرأتك) بالرفع بدل من (أحد) ، وبالنصب منصوب بالاستثناء من (فأسر بأهلك). ومنشأ القراءتين : هل أخرجها معه ، فالتفت أم لا؟

فمن رفع ذهب إلى أنه أخرجها. ومن نصب ذهب إلى أنه لم يسر بها ، وهما روايتان.

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا ، وهم الملائكة المتقدمون ، لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ساءه مجيئهم لأنهم أتوه فى صورة غلمان حسان الوجوه ، فظن أنهم بشر ، فخاف عليهم من قومه أن يقصدوهم للفاحشة ، ولا يقدر على مدافعتهم ، وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً أي : ضاق صدره بهم ، وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ : شديد ، من عصبه : إذا شده ، وروي أن اللّه تعالى قال لهم : لا تهلكوا قومه حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فلما مشى معهم منطلقا بهم إلى منزله ، قال لهم : أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا : وما أمرهم؟ قال : أشهد باللّه أنها شرّ قرية فى الأرض عملا. قال ذلك أربع مرات. فدخلوا منزله ، ولم يعلم بذلك أحد ، فخرجت امرأته فأخبرتهم ، وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ يسرعون إِلَيْهِ كأنهم يدفعون إليه دفعا ، لطلب الفاحشة من أضيافه. وَمِنْ قَبْلُ ذلك الوقت كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ الفواحش ، كاللواطة وغيرها ، مستمرين عليها مجاهرين بها ، حتى لم يستحيوا ، وجاءوا يهرعون إليها.

قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي تزوجوهن ، وكانوا يطلبونهن قبل ، فلا يجيبهم لخبثهم ، وعدم كفاءتهم ، لا لحرمة المسلمات على الكفار ، فإنه شرع طارئ قال ابن جزى : وإنما قال لهم ذلك ليقى أضيافه ببناته. قيل : ان اسم بناته ، الواحدة : ريثا ، والأخرى : غوثا. هـ. ولم يذكر الثالثة ، فعرضهن عليهم «١» ، وقال : هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ أحل لكم ، أو أقل فحشا ، كقولك : الميتة أطيب من المغصوب ، فَاتَّقُوا اللَّهَ بترك الفواحش ، وَلا تُخْزُونِ لا تفضحونى فِي ضَيْفِي فى شأنهم ، فإن افتضاح ضيف الرجل خزى له. أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ عاقل يهتدى إلى الحق ويرعوى عن القبيح.

قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ من حاجة ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ وهو إتيان الذكران ، قالَ لَوْ أَنَّ لِي ليت لى بِكُمْ قُوَّةً طاقة على دفعكم بنفسي ، أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ أو ألجأ إلى أصحاب أو عشيرة يحموننى منكم ، شبه ما يتمتع بهم بركن الجبل فى شدته ، قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «رحم اللّه أخى لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد» «٢» يعنى : اللّه تعالى.

(١) قال مجاهد وغيره : إن المراد بناته عليه السّلام نساء أمته ، وأضافهم إليه لأن كل نبى أب لأمته.
[.....]
(٢) أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب : «ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون»).

(٥٤٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٤٧

روى أنه أغلق بابه دون أضيافه ، وأخذ يجادلهم من وراء الباب ، فتسوروا الجدار ، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب ، قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ : لن يصلوا إلى إضرارك بإضرارنا ، فهون عليك ودعنا وإياهم. فخلاهم ، فلما دخلوا ضرب. جبريل عليه السّلام بجناحيه وجوههم ، فطمس أعينهم ، وأعماهم ، فخرجوا يقولون : النجاء النجاء فى بيت لوط سحرة ، فقالت الملائكة للوط عليه السّلام : فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ سر بهم بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ : بطائفة منه ، وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ : لا يتخلف ، أو لا ينظر إلى ورائه لئلا يرى ما يهوله.

والنهى فى المعنى يتوجه إلى لوط ، وإن كان فى اللفظ مسندا إلى أحد.

إِلَّا امْرَأَتَكَ ، اسمها : واهلة. أي : فلا تسر بها ، أو : ولا ينظر أحد منكم إلى ورائه إلا امرأتك فإنها تنظر.

روى أنها خرجت معه ، فلما سمعت صوت العذاب التفتت وقالت : يا قوماه ، فأدركها حجر فقتلها ، ولذلك قال :

إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ من العذاب ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ وقت الصُّبْحُ فى نزول العذاب بهم ، فاستبطأ لوط وقت الصبح ، وقال : هلا عذبوا الآن؟ فقالوا : أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ.

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا عذابنا ، أو أمرنا به ، جَعَلْنا مدائنهم عالِيَها سافِلَها ، روى أن جبريل عليه السّلام أدخل جناحه تحت مدائنهم ، ورفعها إلى السماء ، حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب ، وصياح الديكة ، ثم قلبها بهم.

وَأَمْطَرْنا عَلَيْها على المدائن ، أي : أهلها ، أو على ما حولها. روى أنه من كان منهم خارج المدائن أصابته الحجارة من السماء ، وأما من كان فى المدائن ، فهلك لمّا قلبت. فأرسلنا عليهم حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ : من طين طبخ بالنار ، أو من طين متحجر كقوله : حِجارَةً مِنْ طِينٍ «١» ، وأصلها : سنكين «٢» ، ثم عرب ، وقيل : إنه من أسجله إذا أرسله ، أي : من مثل الشيء المرسل ، وقيل : أصله من

سجين ، أي : جهنم ، ثم أبدلت نونه لاما ، مَنْضُودٍ : مضموم بعضه فوق بعض ، معدا لعذابهم ، أو متتابع يتبع بعضه بعضا فى الإرسال ، كقطر الأمطار.

مُسَوَّمَةً أي : معلمة للعذاب ، وقيل : معلمة ببياض وحمرة ، أو بسيما تتميز به عن حجارة الأرض ، أو باسم من يرمى به فكل حجارة كان فيها اسم من ترمى به ، وقوله : عِنْدَ رَبِّكَ ، أي : فى خزائن علمه وقدرته ، وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ، بل هى قريبة من كل ظالم.

قال ابن جزى : الضمير للحجارة ، والمراد بالظالمين : كفار قريش ، فهذا تهديد لهم ، أي : ليس الرمي بالحجارة ببعيد منهم لأجل كفرهم ، وقيل : الضمير للمدائن ، أي : ليست مدائنهم ببعيد منهم أفلا يعتبرون بها. كقوله :

---

(١) من الآية ٣٣ من سورة الذاريات.

(٢) فى البيضاوي : «سنك كل».

(٥٤٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٤٨

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ «١». وقيل : الظالمين على العموم. هـ. وقال البيضاوي : وعنه - عليه الصلاة والسلام : «أنّه سأل جبريل ، فقال : يعنى : ظالمى أمّتك ، ما من ظالم منهم إلّا وهو معرض لحجر يسقط عليه من ساعة» إلى ساعة» «٢». هـ.

الإشارة : الاعتناء بشأن الأضياف ، وحفظ حرمتهم : من شأن الكرام ، والاستخفاف بحقهم ، والتجاسر عليهم ، من فعل اللئام. وفى الحديث : «من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه». والإسراع إلى الفواحش من علامة الهلاك ، لا سيما اللواط والسفاح. والإيواء إلى اللّه والاعتصام به من علامة الفلاح ، والبعد عن ساحة أهل الفساد من شيم أهل الصلاح ، وكل من اشتغل بالظلم والفساد فالرمى بالحجارة إليه بالمرصاد.

ثم ذكر قصة شعيب ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٨٤ الى ٨٦]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦)

قلت : «مفسدين» : حال مؤكدة لمعنى عاملها ، وهو : «لا تعثوا». وفائدة ذكره : إخراج ما يقصد به الإصلاح ، كما فعله الخضر عليه السّلام.

يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً ، أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه السّلام أو أهل مدين ، وهى بلده ، فسميت باسمه ، قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ، وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ ، وكانوا مطففين. أمرهم أولا بالتوحيد فإنه رأس الأمر ، ثم نهاهم عما اعتادوه من : البخس المنافى للعدل ، المخل بحكمة المعاوضة ، ثم قال لهم : إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ بسعة كرخص الأسعار ، وكثرة الأرزاق ، فينبغى أن تشكروا عليها ، وتتعففوا بها عن البخس ، لا أن تنقضوا الناس حقوقهم ، أو بسعة ونعمة ، فلا

---

(١) من الآية : ٤٠ من سورة الفرقان.

(٢) عزاه فى الفتح السماوي (٢/ ٧٢١) للثعلبى مرفوعا ، بغير إسناد.

(٥٤٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٤٩

تزيلوها بما أنتم عليه فإن من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ يوم القيامة ، فإنه محيط بكل ظالم ، أو عذاب الاستئصال فى الدنيا ، ووصف اليوم بالإحاطة ، وهى صفة العذاب لاشتماله عليه.

وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ بالعدل من غير زيادة ولا نقصان. صرح بالأمر بالاستيفاء بعد النهى عن ضده مبالغة ، وتنبيها على أنهم لا يكفيهم الكف عن تعمد التطفيف ، بل يلزمهم السعى فى الإيفاء ولو بالزيادة ، حيث لا يتأتى دونها ، وقد تكون الزيادة محظورة ، ولذلك أمرهم بالعدل فى قوله : (بالقسط) ، بلا زيادة ولا نقصان.

وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ لا تنقصوهم حقهم ، وهو تعميم بعد تخصيص ، فإنه أعم من أن يكون فى الميزان والمكيال وفى غيره ، وكذا قوله : وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فإن العثو - وهو الفساد - يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد. وقيل : المراد بالبخس : المكس ، كأخذ العشور فى المعاملات ، والعثو : السرقة وقطع الطريق والغارة ، وأكده بقوله : مُفْسِدِينَ وفائدته : إخراج ما يقصد به الإصلاح ، كما فعل الخضر عليه السّلام ، وقيل :

معناه : مفسدين أمر دينكم ومصالح آخرتكم. قاله البيضاوي.

بَقِيَّتُ اللَّهِ أي : ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن الحرام ، خَيْرٌ لَكُمْ مما تجمعون بالتطفيف ، إِنْ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان يقتضى الاكتفاء بالحلال عن الحرام. أو إن كنتم مؤمنين فالبقية خير لكم ، فإن خيريتها تظهر باعتبار الثواب والنجاة من العذاب ، وذلك مشروط بالإيمان ، أو : إن كنتم مصدقين لى فى قولى لكم.

وقيل : البقية : الطاعة ، كقوله : وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ «١». وقرىء ، «تقية اللّه» بالتاء المثناة ، وهى تقواه التي تكف عن المعاصي ، وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ أحفظ عليكم أعمالكم ، وأجازيكم عليها ، إنما أنا نذير وناصح مبلغ ، وقد أعذرت حين أنذرت. أو : أحفظكم عن القبائح وأمنعكم منها. أو : لست بحافظ عليكم نعم اللّه إن سلبت عنكم بسوء صنيعكم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كما أمر الحق تعالى بالوفاء فى الموازين أمر بالوفاء فى الأعمال والأحوال والمقامات. ولذلك قيل للجنيد فى النوم : [أفضل ما يتقرب به إلى اللّه عمل خفى ، بميزان وفي] ، فالوفاء فى الأعمال : إتقانها فى الظاهر ، باستيفاء شروطها وآدابها ، وإخلاصها فى الباطن مع حضور القلب فيها. والوفاء فى الأحوال : ألا تخرج عن قواعد الشريعة ، بأن لا تكون محرمة ولا مكروهة ، وأن يقصد بها موت النفوس وحياة الأرواح ، والوفاء فى المقام : ألا ينتقل عن مقام إلى غيره حتى يتحقق بالمقام الذي أنزل فيه. وفيه خلاف بين الصوفية : هل يصح الانتقال عن مقام قبل التحقق به ، ثم يحققه فى المقام الذي بعده ، أم لا؟.

---

(١) من الآية : ٤٦ من سورة الكهف.

والمقامات التي ينزل فيها المريد : التوبة ، والخوف ، والرجاء ، والورع ، والزهد ، والتوكل ، والصبر ، والرضى ، والتسليم ، والمحبة ، والمراقبة ، والمشاهدة بالفناء ثم البقاء ، أو الإسلام ، ثم الإيمان ، ثم الإحسان. فلا ينتقل من مقام إلى ما بعده حتى يحقق المقام الذي هو فيه ، ذوقا وحالا. وقيل : يجوز أن ينتقل إلى ما بعده إذا كان ذا قريحة فتحقق له ما قبله. واللّه تعالى أعلم. وطريق الشاذلية مختصرة ، تطوى عن المريد هذه المقامات ، فينزل فى أول قدم فى مقام الإحسان ، شعر أم لا ، ثم يحصل الفناء ثم البقاء ، إن وجد شيخا كاملا تربى على يد شيخ كامل ، وإلا فلا.

وقول الجنيد رضى اللّه عنه : (عمل خفى) ، اعلم أن الخفاء على ثلاثة أقسام : خفاء عوام الصالحين ، وهو : إخفاء الأعمال عن الناس مخافة الرياء. وخفاء المريدين ، وهو : الإخفاء عن ملاحظة الخلق ومراقبتهم ، ولو كانوا بين أظهرهم ، فإخفاؤهم قلبى لا قالبى. وخفاء العارفين الواصلين ، وهو : الإخفاء

عن رؤية النفس ، فهم يغيبون عن أنفسهم ووجودهم ، فى حال أعمالهم ، فليس لهم عن نفوسهم إخبار ، ولا مع غير اللّه قرار. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر ما أجابه به قومه فقال :
[سورة هود (١١) : آية ٨٧]
قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)
قلت : «تأمرك أن نترك» : على حذف مضاف ، أي : تأمرك بتكليف أن نترك لأن الرجل لا يؤمر بفعل غيره. و(أن نفعل) : عطف على (ما) أي : أو نترك فعلنا فى أموالنا ما نشاء.
يقول الحق جل جلاله : قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ التي تكثر منها هى التي تَأْمُرُكَ أن تأمرنا أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا من الأصنام ، وندخل معك فى دينك المحدث ، أجابوا به ما أمرهم به من التوحيد بقوله : ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ، على وجه التهكم والاستهزاء بصلواته. وكان كثير الصلاة ، ولذلك جمعوها وخصوها بالذكر. وقرأ الأخوان وحفص بالإفراد المراد به الجنس.
ثم أجابوه عن نهيهم عن التطفيف وأمرهم بالإيفاء ، فقالوا : أَوْ نترك أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا من البخس وغيره؟ وقيل : كانوا يقطعون الدراهم والدنانير ، فنهاهم عن ذلك .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ، تهكموا به وقصدوا وصفه بضده ، من خفة العقل والسفه لأن العاقل عندهم هو الحريص على جمع الدنيا وتوفيرها ، وهو الحمق عند العقلاء ، أو إنك موسوم بالحلم والرشيد فلا ينبغى لك أن تنهانا عن تنمية أموالنا والتصرف فيها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الإنكار على من أمر بالخروج عن العوائد والتقلل من الدنيا من طبع أهل الكفر والجهل ، وكذلك رميه بالحمق والسفه. فلا تجد الناس اليوم يعظمون إلا من أقرهم على توفير دنياهم ورئاستهم ، والتكاثر منها ، وأما من زهدهم فيها وأمرهم بالقناعة ، فإنهم يرفضونه ، ويحمقونه. وهذا طبع من طبع الأمم الخالية ، الجاهلة باللّه ، وبما أمر به ، وفى الحديث : «لتتبعنّ سنن من قبلكم ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتّى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه».
وباللّه التوفيق.
ثم ذكر موعظة شعيب لقومه ، فقال :
[سورة هود (١١) : الآيات ٨٨ الى ٩٠]

قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)

قلت : جواب «إن كنت» : محذوف ، أي : فهل ينبغى أن أخون فى وحيه وأخالفه فى أمره.

يقول الحق جل جلاله : قالَ شعيب لقومه : يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ، وهى النبوة والعلم والحكمة ، وَرَزَقَنِي مِنْهُ من عنده ، وبإعانته ، بلا كد فى تحصيله ، رِزْقاً حَسَناً : حلالا ، إشارة إلى ما آتاه من المال الحلال. فهل يسع لى بعد هذا الإنعام ، الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية ، أن أخون فى وحيه ، وأخالفه فى أمره ونهيه ، حتى لا أنهاكم عن عبادة الأوثان ، والكف عن العصيان ، والأنبياء لا يبعثون إلا بذلك ، وهذا منه اعتذار لما أنكروا عليه من الأمر بالخروج عن عوائدهم ، وترك ما ألفوه من دينهم الفاسد ، أي : كيف أترك ما أمرنى به ربى من تبليغ وحيه ، وأنا على بينة منه ، وقد أغنانى اللّه عنكم وعن غيركم.

ولذلك قال إثره : وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ أي : وما أريد أن آتى ما أنهاكم عنه لأستبد به دونكم ، فتتهمونى إن أردت الاستبداد به. يقال : خالفنى فلان إلى كذا : إذا قصده وأنت مول عنه ، وخالفنى عنه :

إذا ولى عنه وأنت قاصده. إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ أي : ما أريد إلا أن أصلحكم بأمرى لكم بالمعروف ، ونهيي لكم عن المنكر جهد استطاعتي.

قال البيضاوي : ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن ، وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعى فى كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة : أهمها وأعلاها : حق اللّه تعالى. وثانيها : حق النفس ، وثالثها : حق الناس. هـ.

قلت : فحق اللّه : كونه على بينة من ربه ، وحق النفس : تمكينه من الرزق الحسن. وحق الناس : نصحهم من غير طمع ، ولا حظ.

ثم قال : وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ وما توفيقى لإجابة الحق ، والصواب ، إلا بهدايته ومعونته ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فإنه القادر على كل شيء ، وما عداه عاجز بل معدوم ، ساقط عن درجة الاعتبار. وفيه إشارة إلى محض التوحيد ، الذي هو أقصى مراتب العلم باللّه. وَإِلَيْهِ أُنِيبُ أرجع فى جميع أمورى. وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ :

لا يكسبنكم شِقاقِي : معاداتى ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ من الغرق ، أَوْ قَوْمَ هُودٍ من الريح ، أَوْ قَوْمَ صالِحٍ من الصيحة ، والمعنى : لا تخالفوني فيجركم ذلك إلى الهلاك كما هلك الأمم قبلكم ، وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ زمانا ولا مكانا ، فإن لم تعتبروا بمن قبلكم ، فاعتبروا بهم إذ هم ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمساويء ، فلا يبعد عنكم ما أصابهم. وإنما أفرد «بعيد» لأن المراد : وما إهلاكهم ، أو وما هم بشيء بعيد.

وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ عما أنتم عليه إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ عظيم الرحمة للتائبين ، وَدُودٌ متودد إليهم ، فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل البليغ المودة بمن يوده ، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار. قاله البيضاوي.

الإشارة : قد تضمنت خطبة شعيب عليه السّلام ست خصال ، من اجتمعت فيه فاز بسعادة الدارين :

الأولى : فتح البصيرة ، ونفوذ العزيمة ، وتنوير القلب بمعرفة اللّه ، حتى يكون على بينة من ربه.

الثانية : تيسير الرزق الحلال ، من غير تعب ولا مشقة ، يستعين به على طاعة ربه ، ويقوم به بمؤنة أمره.

الثالثة : السعى فى إصلاح عباد اللّه وإرشادهم ، ودعاؤهم إلى اللّه من غير طمع ولا حرف ، ويكون حاله يصحح مقاله ، فلا يترك ما أمر به ، ولا يفعل ما نهى عنه.

الرابعة : الاعتماد على اللّه والرجوع إليه فى توفيقه وتسديده ، وفى أمر دنياه ودينه ، بحيث لا يرجو إلا اللّه ، ولا يخاف إلا منه.

الخامسة : الحذر والتحذير من مخالفة ما جاءت به الرسل من عند اللّه ، والتمسك بما أمروا به من طاعة اللّه ، والاعتبار بمن هلك قبله ممن خالف أمر اللّه.

السادسة : تحقيق التوبة والانكسار ، والإكثار من الذكر والاستغفار. فذلك سبب المودة من الكريم الغفار. ولأجل هذه الخطبة سمى شعيب خطيب الأنبياء. واللّه تعالى أعلم.

(٥٥٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥٣

ثم ذكر جواب قومه ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٩١ الى ٩٣]

قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (٩١) قالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي

مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)

قلت : «سوف تعلمون» : ذكره هنا بغير فاء ، وفى الأنعام بالفاء «١» لأن الكلام فى سورة الأنعام مع الأمة المحمدية ، فأتى بالفاء لمطلق السببية ، وهنا مع قوم شعيب عليه السّلام ، فحذفها لأنه أبلغ فى التهويل. فكأن الجملة بيانية لجواب سائل قال : فما يكون بعد ذلك؟ فقال : سوف تعلمون ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ ما نفهم كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ من أمر التوحيد ، وترك التبخيس ، وما ذكرت من الدليل عليها وذلك لانهماكهم فى الهوى ، وقصور عقلهم ، وعدم تفكرهم. وقيل : قالوا ذلك استهانة بكلامه ، أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم. ثم قالوا : وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً لا قوة لك تمتنع بها منا إن أردنا بك سوءا ، أو : نراك ناحل البدن ، أو : ضرير البصر. وضعفه ابن عطية «٢». وَلَوْ لا رَهْطُكَ أي : قومك ، الذين هم باقون على ملتنا ، وكونهم فى عزة عندنا ، لَرَجَمْناكَ : لقتلناك بالحجارة.

أو بأصعب وجه ، وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ فتمنعنا عزتك من رجمك.

قال البيضاوي : وهذا ديدن السفيه المحجوج ، يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد. وفى إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لا فى ثبوت العزة ، وأن المانع لهم من إيذائه عزة قومه. ولذلك قال :

يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا ، وجعلتموه كالمنسى المنبوذ وراء الظهر ، بإشراككم به ، والإهانة لرسوله. وهو يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب. والظهرى : منسوب إلى الظهر ، والكسر من تغيير البناء. هـ. قال ابن جزى : فإن قيل : إنما وقع الكلام فيه وفى رهطه ، بأنهم هم الأعزة دونه ، فكيف طابق جوابه كلامهم؟ فالجواب : أن تهاونهم به ، وهو رسول اللّه ، تهاون باللّه. فلذلك قال : أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ. هـ.

---

(١) فى قوله تعالى : (قال يا قوم اعملوا على مكانتكم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون) الآية : ١٣٥.

(٢) قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، لا تقوم عليه حجة بضعف بصره أو بدنه ، والظاهر من قولهم «ضعيفا» أنه ضعيف الانتصار والقدرة.

إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ فلا يخفى عليه شىء منها ، فيجازى عليها بتمامها. وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى

مَكانَتِكُمْ : على حالتكم من تمكنكم فى الدنيا ، وعزتكم فيها ، إِنِّي عامِلٌ على حالى ، سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ ، يهينه فى الدنيا والآخرة ، وَسوف تعلمون مَنْ هُوَ كاذِبٌ منى ومنكم ، وَارْتَقِبُوا وانتظروا ما أقول لكم ، إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ : مرتقب لذلك. وهو فعيل بمعنى فاعل ، كالصريح والرفيع. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا يفقه المواعظ والتذكير إلا أهل الإيمان والتنوير. وأما القلب القاسي بالكفر والمعاصي فلا يسمع إلا ما تسمعه البهائم من الناعق والراعي. فبقدر ما يرق القلب يتأثر بالمواعظ ، وبقدر ما يغلظ باتباع الحظوظ والهوى يغيب عن تدبر المواعظ. وسبب تنوير القلب ورقته : قربه من اللّه ، وتعظيمه لحرمات اللّه ، وتعظيم من جاء من عند اللّه من أنبيائه ورسله ، وورثتهم القائمين بحجته ، كالأولياء والعلماء الأتقياء. وسبب ظلمة القلب وقساوته : بعده من اللّه ، وإهانته لحرمات اللّه ، واتخاذه أمره ظهريا ، وجعل ذكره نسيا منسيا. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر هلاك قوم شعيب ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٩٤ الى ٩٥]

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا : عذابنا لقوم شعيب ، نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، لا بعمل استحقوا به ذلك إذ كل من عنده ، وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ قيل : صاح بهم جبريل فهلكوا ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ : ميتين. وأصل الجثوم : اللزوم فى المكان. كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها كأن لم يقيموا فيها ساعة ، أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ ، شبههم بهم لأن عذابهم كان أيضا بالصيحة ، غير أن صيحة ثمود كانت من فوق ، وصيحة مدين كانت من تحت ، على ما قيل ، ويدل عليه : التعبير عنهما بالرجفة فى آية أخرى «١» ، والرجفة فى الغالب إنما تكون من ناحية الأرض. وفى البيضاوي خلاف هذا ، وهو غير جيد.

قال قتادة : بعث اللّه شعيبا إلى أمتين : أصحاب الأيكة ، وأصحاب مدين ، فأهلك أصحاب الأيكة بالظلة ، على ما يأتى ، وأما أهل مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين. قيل : وآمن بشعيب من الفئتين : تسعمائة إنسان. وكان أهل الأيكة أهل غيطة وشجر ، وكان شجرهم الدّوم «٢» - وهو شجر المقل.

---

(١) كما فى قوله تعالى : فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ. الأعراف ٧٨ ، ٩١.

(٢) الدّوم : شجر يشبه النخلة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥٥

الإشارة : سبب النجاة من الهلاك فى الدارين : توحيد اللّه ، وتعظيم من جاء من عند اللّه. وسبب الهلاك :

الإشراك باللّه ، وإهانة من عظمه اللّه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر رسالة موسى عليه السّلام بعد شعيب لأنه من تلامذته ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٩٦ الى ٩٩]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا بمعجزاتنا الدالة على صدقه ، وَسُلْطانٍ مُبِينٍ وتسلط ظاهر على فرعون ، أو برهان بيّن على نبوته. قال البيضاوي : والفرق بينهما : أن الآية نعم الأمارة والدليل القاطع ، والسلطان يخص بالقاطع ، والمبين يخص بما فيه جلاء. هـ. أرسلناه إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ جماعته ، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ أي : اتبعوا أمره بالكفر بموسى ، أو : فما اتبعوا موسى الهادي إلى الحق ، المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة ، واتبعوا طريقة فرعون المنهمك فى الضلالة والطغيان ، الداعي إلى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل لفرط جهالتهم ، وعدم استبصارهم ، وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ أي : ليس أمره برشد وصواب ، وإنما هو غى وضلال.

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ إلى النار ، كما يتقدمهم فى الدنيا إلى الضلال ، فَأَوْرَدَهُمُ : أدخلهم النَّارَ ذكره بلفظ الماضي مبالغة فى تحققه ، ونزّل النار لهم منزلة الماء ، فسمى إتيانها موردا. ثم قال : وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ أي : بئس المورد الذي وردوه ، فإنّ المورد إنما يراد لتبريد الأكباد ، وتسكين العطش ، والنار بضد ذلك.

والآية كالدليل على قوله : وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ فإنّ من هذا عاقبته لم يكن فى أمره رشد ، أو تفسير له ، على أن المراد بالرشيد : ما يكون مأمون العاقبة حميدها. قاله البيضاوي. وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أي : تتبعهم اللعنة فى الدارين بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ : بئس العون المعان ، أو العطاء المعطى.

فالرفد : العطاء ، والإرفاد : المعونة ، ومنه : رفادة قريش ، أي : معونتهم للفقراء فى الحج بالطعام.

والمخصوص بالذم محذوف ، أي :

رفدهم ، وهو اللعنة فى الدارين.

الإشارة : إذا أردت أن تعرف قدر الرجل فى مرتبة الخصوصية فاسأل عن إمامه الذي يقتدى به ، فإن كان من أهل الخصوصية فصاحبه من الخصوص ، إن دامت صحبته معه ، وإن كان من العموم فصاحبه من العموم.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥٦
والمراد بالخصوصية : تحقيق مقام الفناء ، ودخول بلاد المعاني. فكل من لم يحصل مقام الفناء ، ولم يشهد إلا المحسوسات فهو من العوام ، ولو بلغ من العلم والعمل ما بلغ ، ولو رأى من الكرامات أمثال الجبال. فمن صحب مثل هذا الذي لم يفن عن نفسه ، ولم يخرج عن دائرة حسه ، لم يخرج من العمومية لأن نفسه فرعونية. قال تعالى :
وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ، وفى الخبر : «المرء على دين خليله» وقال الشاعر :
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكلّ قرين بالمقارن يقتدى «١»
واللّه تعالى أعلم.
ثم وعظ نبيه بما جرى على الأمم المتقدمة آنفا ، فقال :
[سورة هود (١١) : الآيات ١٠٠ الى ١٠٤]
ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَما نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤)
قلت : (ذلك) : مبتدأ. و(من أنباء) : خبر ، و(نقصه) : خبر ثان. وجملة : (منها قائم وحصيد) : استئنافية لا حالية لعدم الرابط.
يقول الحق جل جلاله : ذلِكَ النبأ الذي أخبرناك به فى هذه السورة ، هو مِنْ أَنْباءِ الْقُرى الماضية المهلكة ، نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، ونخبرك به تهديدا لأمتك وتسلية لك. مِنْها ما هو قائِمٌ البناء باقى الأثر ، وَمنها حَصِيدٌ أي : محصود عافى الأثر ، كالزرع المحصود. أو : منها ما هو ساكن بقوم آخرين ، قائم العمارة بغير من هلك ، ومنها ما هو دارس على أثره ، واندرست أطلاله.
قال تعالى : وَما ظَلَمْناهُمْ بإهلاكنا إياهم ، وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بأن عرضوها له بارتكابهم ما يوجب هلاكهم ، فعبدوا معى غيرى ، فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ : ما نفعتهم ، ولا قدرت أن تدفع عنهم العذاب ، آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ من ذلك العذاب ، لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ - حين جاءهم عذابه

(١) البيت منسوب إلى عدى بن زيد. انظر : نهاية الأرب ٣/ ٦٥ والعقد الفريد ٢/ ٣١١.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥٧
وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ أي : مثل ذلك الأخذ الوبيل أخذ ربك إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ فلا يمهلها ، وقد يمهلها ثم يأخذها. فكل ظالم معرض لذلك. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّ اللّه ليملى للظّالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته».
ثم قرأ : وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ .... الآية. فالآية تعم قرى المؤمنين حيث عبّر بظالمة دون كافرة. قاله ابن عطية. إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ وجيع عظيم ، غير مرجو الخلاص منه ، وهو مبالغة فى التهديد والتحذير.
إِنَّ فِي ذلِكَ الذي نسرده عليك من قصص الأمم الدارسة ، لَآيَةً لعبرة لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ فيعتبر به ويتعظ لعلمه بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعد اللّه للمجرمين فى الآخرة. وأما من أنكر الآخرة فلا ينفعه هذا الوعظ والتذكير لفساد قلبه ، وموت روحه.
ذلِكَ أي : يوم القيامة الذي وقع التخويف به ، يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ : محشورون إليه أينما كانوا.
وعبّر باسم المفعول دون الفعل للدلالة على الثبوت والاستقرار ، ليكون أبلغ لأن «مجموع» أبلغ من «يجمع».
وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ أي : تشهده أهل السموات وأهل الأرض لفصل القضاء ، ويحضره الأولون والآخرون ، لاقتضاء الثواب والعقاب. فاليوم مشهود فيه ، . فحذف الظرف اتساعا .. وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ أي : إلا لانتهاء مدة معدودة فى علم اللّه ، لا يتقدم ولا يتأخر عنها ، قد اختص اللّه تعالى بها. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : التفكر والاعتبار من أفضل عبادة الأبرار لأنه يزهد فى الدنيا الفانية ، ويشوق إلى الدار الباقية ، ويرقق القلب ، ويستدعى مخافة الرب ، فلينظر الإنسان بعين الاعتبار فى الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، والأماكن الدارسة كيف رحل أهلها عن الدنيا أحوج ما كانوا إليها ، وتركوها أحب ما كانت إليهم؟ وفى بعض الخطب الوعظية : أين الفراعين المتكبرة ، وأين جنودها المعسكرات؟ أين الأكاسير المنكسرة؟ وأين كنوزها المقنطرات؟ أين ملوك قيصر والروم؟ وأين قصورها المشيدات؟ أين ملوك عدن ، أهل الملابس والحيجان «١»؟ وأين ملوك اليمن ، أهل العمائم والتيجان؟ قد دارت عليهم - واللّه - الأقدار الدائرات ، وجرت عليهم برياحها العاصفات ، وأسكنتهم تحت أطباق الرجام «٢» المنكرات ، وصيرت أجسامهم طعمة للديدان والحشرات ، وأيمت منهم الزوجات ، وأيتمت منهم البنين والبنات.
أفضوا إلى ما قدموا ، وانقادوا قهرا إلى القضاء وسلموا. فلا ما كانوا أملوا أدركوا ، ولا إلى ما فاتهم من العمل الصالح رجعوا. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر شأن ذلك اليوم المشهود ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ١٠٥ الى ١٠٨]

يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)

---

(١) الحيجان : جمع غير قياسي للمحجن ، وهو : عصا معقّفة الرأس كالصولجان.

(٢) أي : الحجارة.

قلت : (يوم يأتى) : العامل فى الظرف : «لا تكلم» ، أو : اذكر ، مضمر. والضمير فى «يأتى» : يعود على اليوم.

وقال الزمخشري : يعود على «اللّه» لعود الضمير عليه في قوله : (إلا بإذنه) ، وضمير «منهم» على أهل الموقف المفهوم من قوله : (لا تكلم نفس).

يقول الحق جل جلاله : يَوْمَ يَأْتِ ذلك اليوم المشهود ، وهو : يوم الجزاء لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ لا تتكلم نفس بما ينفع وينجى فى جواب أو شفاعة إِلَّا بِإِذْنِهِ تعالى ، وهذا كقوله : لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ «١» ، وهذا فى موقف ، وقوله : هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ «٢» ، فى موقف آخر. والمأذون فيه هى الجوابات الحقية ، أو الشفاعات المرضية ، والممنوع منه هى الأعذار الباطلة.

ثم قسّم أهل الموقف ، فقال : فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وجبت له النار بمقتضى الوعيد لكفره وعصيانه. وَمِنهم سَعِيدٌ وجبت له الجنة بمقتضى الوعد لإيمانه وطاعته. فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ، الزفير : إخراج النفس ، والشهيق : رده. ويستعملان فى أول النهيق وآخره. أو الزفير : صوت المحزون ، والشهيق : صوت الباكي. أو الزفير من الحلق ، والشهيق من الصدر. والمراد بهما : الدلالة على شدة الكرب والغم ، وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه ، وانحصرت فيه روحه ، أو تشبيه حالهم بأصوات الحمير. قاله البيضاوي.

خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أي : سموات النار وأرضها. وهى دائمة أبدا ، ويدل عليه قوله تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ «٣» ، أو يكون عبارة عن التأبيد : كقول العرب : ما لاح كوكب وما ناح الحمام ، وشبه ذلك بما يقصد به الدوام ، وهذا أصح.

وقوله : إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ ، للناس هنا كلام واختلاف. وأحسن ما قيل فيه ما ذكره البقاعي ، قال : والذي ظهر لى - واللّه أعلم - أنه لما تكرر الجزم بالخلود فى الدارين ، وأن الشرك لا يغفر ، والإيمان موجب للجنة ، فكان

---

(١) من الآية : ٣٨ من سورة النبأ. [.....]
(٢) الآيتان : ٣٥ - ٣٦ من سورة المرسلات.
(٣) من الآية : ٤٨ من سورة ابراهيم.

(٥٥٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥٩
ربما يظن أنه لا يمكن غير ذلك ، كما ظنه المعتزلة ، لا سيما إذا تأمل القطع فى مثل قوله : إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ «١» ، مع تقييد غيره بالمشيئة فى قوله : وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ «٢» ، جاء هذا الاستثناء معلما أن الأمر فيه إلى اللّه كغيره من الأمور ، له أن يفعل فى كلها ما يشاء ، وإن جزم القول فيه ، لكنه لا يقع غير ما أخبر به ، وهذا كما تقول : اسكن هذه الدار عمرك إلا ما شاء زيد ، وقد لا يشاء زيد شيئا. فكما أن التعليق بدوام السموات والأرض غير مراد الظاهر ، كذلك الاستثناء ، فلا يشاء اللّه قطع الخلود لأحد من الفريقين ، وسوقه هكذا أدل على القدرة وأعظم فى تقليد المنة. هـ.

وقال الجلال السيوطي ، فى «البدور السافرة فى أمور الآخرة» : اعلم أن للعلماء فى هذا الاستثناء أقوالا ، أشبهها بالصواب : أنه ليس باستثناء ، وإنما «إلا» بمعنى «سوى» ، كما تقول : لى عليك ألف درهم إلا ألفان ، التي لى عليك ، أي : سوى الألفين ، والمعنى : خالدين فيها قدر مدة السموات والأرض فى الدنيا سوى ما شاء ربك من الزيادة عليها ، فلا منتهى له. وذلك عبارة عن الخلود. والنكتة فى تقديم ذكر مدة السموات والأرض : التقريب إلى الأذهان بذكر المعهود أولا ، ثم أردفه بما لا إحاطة للدهر به. والجري على عادة العرب فى قولهم فى الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده : لا آتيك ما دامت السموات والأرض. هـ. ومثله لابن عطية. قال : ويؤيد هذا التأويل قوله بعد :
عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ أي : غير مقطوع ، وهذا قول الفراء ، فإنه يقدر الاستثناء المنقطع بسوى ، وسيبويه بلكن.
هـ. وقال الورتجبي : قال ابن عطاء : (إلا ما شاء ربك) من الزوائد لأهل الجنة من الثواب. ومن الزوائد لأهل النار من العقاب. هـ. (إن ربك فعال لما يريد) من غير حجر ولا اعتراض.

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ كما تقدم.
عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ : غير مقطوع ، وهو تصريح بأن الثواب غير مقطوع ، وتنبيه على أن المراد من الاستثناء تعليم الأدب فقط. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : السعادة على قسمين : سعادة الظاهر ، وسعادة الباطن. والشقاوة كذلك. أما سعادة الظاهر ففى الدنيا بالراحة من التعب ، وفى الآخرة بالنجاة من العذاب. وأما سعادة الباطن ففى الدنيا براحة القلب من كد الهموم والأحزان ، باليقين والاطمئنان ، فى حضرة الشهود والعيان ، وفى الآخرة بدوام النظر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر. وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب. وشقاوة الباطن بالبعد عن اللّه ، وافتراقه عن حضرة مولاه.

قال فى نوادر الأصول : الشقاوة : فراق العبد من اللّه ، والسعادة اندساسه إليه. هـ. وقال الشيخ أبو الحسن رضى اللّه عنه فى حزبه الكبير : والسعيد من أغنيته عن السؤال منك ، والشقي حقا من حرمته مع كثرة السؤال لك.

(١ - ٢) الآية : ٤٨ من سورة النساء.

قال شيخ شيوخنا - سيدى عبد الرحمن الفاسى - فى حاشيته عليه : ومدار السعادة : الجمع على اللّه والغيبة عمن سواه ، فيفنى العبد عن وجوده ، ويبقى بربه ، فيشغله استغراقه فى شهوده عن الشعور بغيريته ، وينمحى عنه أمل شيء يرجى ، أو خوف شيء يتقى ، فليس له عن سوى الحق إخبار ، ولا مع غيره قرار. وعند ما حل بهذه الحضرة ، وظفر بقرة عينه ، وحياة روحه ، وسر حياته ، لا يتصور منه سول ، ولا فوات مأمول. «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك» ، «اشتاقت الجنّة إلى علىّ وعمّار وسلمان وصهيب وبلال» كما فى الأثر.

نعم ، إن رد إليه تصور منه الدعاء على وجه العبودية ، وأداء الأمر وإظهار الفاقة ، لا على وجه الاقتضاء والسببية.

«جل حكم الأزل أن ينضاف إلى الأسباب والعلل».

ثم قال : وعلى ما تقرر فى السعادة ، فالشقاوة : احتجاب العبد بوجوده عن شهوده ، فلا ينفكّ عن أمل ، ولا عن خوف عطب. فيستحثه الطبع للسؤال جلبا أو دفعا. وهو فى ذلك فى شقاء ، سواء أعطى أو منع لفقده قرة عينه وراحة قلبه ، لأسره فى طبعه ، ومكابدة أمره وهلعه. كما قال تعالى : إِنَّ

الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ «١». فلم يستثن من كد الطبع ومكابدته غير أهل الصلاة الدائمة ، وهم أهل الوجهة للّه ، المواجهين بعناية اللّه ، المتحققين بذكر اللّه. وقد ورد : «هم القوم لا يشقى جليسهم» فضلا عنهم. وعلى الجملة : فالمراد بالسعادة والشقاوة فى كلامه - أي : الشاذلي - الباطنة لا الظاهرة ، والقلبية لا القالبية.

وإن كان قد تطلق على ذلك أيضا ، لكن لكل مقام مقال. وقد قال تعالى : فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى «٢».

قال فى نوادر الأصول : تابع القرآن قد أجير من شقاء العيش فى الدنيا لراحة قلبه من غموم الدنيا وظلماتها ، وسيره فى الأمور بقلبه فى راحة لأنه منشرح الصدر واسعه ، وبدنه فى راحة لأنه ميسر عليه أمور الدنيا ، تهيأ له فى يسر لضمان اللّه ، واكتنافه له. وكذا يجار فى الآخرة من شقاء العيش فى سجون النيران. أعاذنا اللّه من ذلك. هـ.

ثم حذّر من الشرك ، الذي هو سبب الخلود فى النار ، فقال :

[سورة هود (١١) : آية ١٠٩]

فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩)

---

(١) الآيات : ١٩ - ٢٢ من سورة المعارج.

(٢) من الآية ١٢٣ من سورة طه.

يقول الحق جل جلاله : فَلا تَكُ يا محمد فِي مِرْيَةٍ. فى شك مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ المشركون ، أي : لا تشك فى فساد ما هم فيه ، بعد ما أنزل عليك من حال الناس ، وتبيين ما لأهل السعادة الموحدين ، مما لأهل الشقاء المشركين ، ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ، وهو تعليل للنهى ، أي : ما يعبدون عبادة إلا كعبادة آبائهم. أو ما يعبدون شيئا إلا مثل ما عبد آباؤهم من الأوثان تقليدا من غير برهان ، وقد بلغك ما لحق آباءهم من العذاب فسيلحقهم مثل ذلك لاتفاقهم فى سبب الهلاك. وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ حظهم من العذاب ، كآبائهم ، غَيْرَ مَنْقُوصٍ من نصيبهم شيء. فالتوفية لا تقتضى التمام. تقول : وفيته حقه ، وتريد وفاء بعضه.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فلا تكن أيها العارف فى مرية مما يعبد هؤلاء العوام ، من جمع الدنيا ، والتكاثر منها ، وصرف الهمة إلى تحصيلها ، واستعمال الفكر فى أسباب جمعها ، وانهماك النفس فى حظوظها وشهواتها. ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، ممن سلك هذا المسلك الذميم ، وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ، بانحطاط درجتهم عن درجة المقربين. قال بعض الحكماء : دار الدنيا كأحلام المنام ، وسرورها كظل الغمام ، وأحداثها كصوائب السهام ، وشهواتها : كمشرب الشمام ، وفتنتها كأمواج الطوام. هـ.

ولما ذكر رسالة موسى عليه السّلام ، وشأن فرعون ووبال من تبعه ، ذكر نزول التوراة عليه ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ١١٠ الى ١١١]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)

قلت : (و إنّ كلّا لما ليوفينهم) : إن : مخففة عاملة ، والتنوين فى (كلّا) عوض عن المضاف. و«ما» : موصولة ، واللام : لام الابتداء ، و(ليوفينهم) : جواب لقسم محذوف ، وجملة القسم وجوابه : صلة «ما» ، أي : وإن كان الفريقين للذين ، واللّه ، ليوفينهم ربك أعمالهم. ومن قرأ : «لمّا» بالتشديد ، فعلى أن (إن) نافية ، و«لما» بمعنى إلا ، وقيل : غير هذا.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ : التوراة ، فَاخْتُلِفَ فِيهِ فآمن به قوم وكفر به قوم ، كما اختلف هؤلاء فى القرآن ، وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ وهى : كلمة الإنظار إلى يوم القيامة ، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بإنزال ما يستحقه المبطل من الهلاك ، ونجاة المحق. وَإِنَّهُمْ أي : قوم موسى ، أو كفار قومك ، لَفِي شَكٍّ مِنْهُ أي : التوراة ، أو من القرآن ، مُرِيبٍ : موقع فى الريبة. وَإِنَّ كُلًّا من

(٥٦١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٦٢

الفريقين المختلفين ، المؤمنين والكافرين ، للذين لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ جزاء أعمالهم ، ولا يهمل منه شيئا – إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فلا يفوته شيء منه وإن خفى.

الإشارة : الاختلاف على الأنبياء والأولياء سنة ماضية. ولو لا أن اللّه سبحانه حكم فى سابق علمه أنه لا يفضح الضمائر إلا يوم تبلى السرائر ، لفضح أسرار البطالين ، وأظهر منار الذاكرين من السائرين أو الواصلين.

لكنه سبحانه أخر ذلك بحكمته وحلمه ، إلى يوم الدين. واللّه تعالى أعلم.

ثم بيّن أصل الأعمال وأفضلها ، وهى الاستقامة ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ١١٢ الى ١١٥]
فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)

قلت : (و من تاب) : عطف على فاعل (استقم) للفصل ، (فتمسّكم) : جواب النهى. ويقال : ركن يركن :
كعلم يعلم ، وركن يركن : كدخل يدخل. و(ثم لا تنصرون) : مستأنف لا معطوف ، و(طرفى) : منصوب على الظرفية. و(زلفا) : جمع زلفة ، كقربة ، أزلفه : قربه.

يقول الحق جل جلاله : فَاسْتَقِمْ يا محمد كما أُمِرْتَ ، وَليستقم مَنْ تابَ مَعَكَ من الكفر وآمن بك. وهى شاملة للاستقامة فى العقائد كالتوسط بين التشبيه والتعطيل ، بحيث يبقى العقل مصونا من الطرفين ، وفى الأعمال من تبليغ الوحى ، وبيان الشرائع كما أنزل ، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط ولا إفراط. وهى فى غاية العسر. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «شيّبتنى هود» «١». قاله البيضاوي.

قال المحشى الفاسى : واللائق أن إشفاقه - عليه الصلاة والسلام - من أجل أمته لا من أجل نفسه لأجل عصمته ، وإنما أشفق عليهم لتوعد اللعين لهم بقوله : لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ «٢». هـ.

قلت : ولا يبعد

---

(١) الحديث كاملا : «شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت». أخرجه الترمذي وحسنه فى (كتاب التفسير - سورة الواقعة) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٤٣) وصححه ووافقه الذهبي ، وأخرجه البيهقي فى الدلائل (١/ ٣٥٧) والبغوي فى شرح السنة (١٤/ ٣٧٢) وفى التفسير ، كلهم من حديث ابن عباس رضى اللّه عنه.
(٢) من الآية : ١٦ من سورة الأعراف.

أن يكون أشفق - عليه الصلاة والسلام - من صعوبة استقامته التي تليق به ، فبقدر ما يعلو المقام يطلب بزيادة الأدب ، وبقدر ما يشتد القرب يتوجه العتاب. ولذلك كان الحق تعالى يعاتبه على ما لا يعاتب عليه غيره. وقد قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد تقدم كلام الإحياء فى قوله : أَلا

بُعْداً لِعادٍ «١».

ثم قال تعالى : وَلا تَطْغَوْا ولا تخرجوا عما حد لكم ، إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، فيجازيكم على النقير والقطمير ، وهو تهديد لمن لم يستقم ، وتعليل للأمر والنهى. وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا : لا تميلوا إليهم أدنى ميل ، فإن الركون : هو الميل اليسير ، كالتزيى بزيهم ، وتعظيم ذكرهم ، وصحبتهم من غير تذكيرهم ووعظهم.

فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ لركونهم إليهم. قال الأوزاعى : ما من شىء أبغض إلى اللّه تعالى من عالم يزور عاملا «٢». هـ.

وقال سفيان : فى جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك. هـ. وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «من دعا لظالم بالبقاء - أي : بأن قال : بارك اللّه فى عمرك - فقد أحبّ أن يعصى اللّه فى أرضه» «٣» وسئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك فى برية ، هل يسقى شربة ماء؟ فقال : لا. فقيل له : يموت؟! فقال : دعه يموت. هـ. وهذا إغراق ، ولعله فى الكافر المحارب ، واللّه أعلم.

قال البيضاوي : وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلما موجبا للنار ، فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم ، ثم بالميل إليهم ، ثم بالظلم نفسه ، والانهماك فيه. ولعل الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم والتهديد عليه. وخطاب الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ومن معه من المؤمنين بها للتثبيت على الاستقامة التي هى العدل فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفى إفراط أو تفريط ، ظلم على نفسه أو غيره ، بل ظلم فى نفسه. هـ.

وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ من أنصار يمنعون العذاب عنكم ، ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ : ثم لا ينصركم اللّه إن سبق فى حكمه أنه يعذبكم.

ولمّا كان الركون إلى الظلم ، أو إلى من تلبس به فتنة ، وهى تكفرها الصلاة ، كما فى الحديث «٤» ، أمر بها إثره ، فقال : وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ غدوة وعشية ، وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ ساعات منه قريبة من النهار.

والمراد بالصلاة المأمور بها : الصلوات الخمس. فالطرف الأول : الصبح ، والطرف الثاني : الظهر والعصر ، والزلف من الليل : المغرب ، والعشاء ، إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ يكفرنها قال ابن عطية : لفظ الآية عام فى

---

(١) راجع إشارة الآيات : ٥٨ - ٦٠ من سورة نفسها.

(٢) المراد بالعامل هنا : الحاكم أو الوالي.

(٣) قال الحافظ العراقي فى المغني : لم أجده مرفوعا ، وإنما أورده ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت ، من قول الحسن البصري.

(٤) سيذكر الشيخ الحديث بعد قليل.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٦٤
الحسنات خاص فى السيئات لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «ما اجتنبت الكبائر» ، ثم قال : وروى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «الجمعة إلى الجمعة كفّارة ، والصّلوات الخمس ، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر» «١» انظر تمامه فى الحاشية.
قال ابن جزى : روى أن رجلا قبّل امرأة ، [قلت : هو نبهان التمار] ، فذكر ذلك للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم وصلّى معه الصلاة ، فنزلت الآية ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «أين السائل؟» فقال : ها أنا ذا ، فقال : «قد غفر اللّه لك بصلاتك معنا». فقال الرجل : ألي خاصّة ، أو للمسلمين عامّة؟ فقال : «للمسلمين عامّة» «٢». والآية على هذا مدنية. وقيل : إن الآية كانت قبل ذلك ، وذكرها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم للرجل مستدلا بها. والآية على هذا مكية كسائر السورة ، وإنما تذهب الحسنات - عند الجمهور - الصغائر إذا اجتنبت الكبائر. هـ. قلت : وقيل : تكفر مطلقا اجتنبت الكبائر أم لا ، وهو الظاهر ، لأنه إذا حصل اجتناب الكبائر كفرت بلا سبب لقوله تعالى : إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ .... «٣» الآية. وقوله عليه الصلاة والسلام : «ما اجتنبت الكبائر». معناه : أن الصلوات والجمعة مكفرة لما عدا الكبائر.
والحاصل : أن من اجتنب الكبائر كفرت عنه الصغائر بلا سبب لنص الآية. ومن ارتكب الكبائر والصغائر وصلى ، كفرت الصغائر دون الكبائر ، وبهذا تتفق الآية مع الحديث. واللّه تعالى أعلم.
قال ابن عطية فى قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى ... «٤» الآية : الشهادة ماحية لكل ذنب إلا لمظالم العباد. وقد روى : «أن اللّه يتحمل عن الشهيد مظالم العباد ، ويجازيهم عنه». ختم اللّه لنا بالحسنى. انتهى.
ذلِكَ أي : ما تقدم من وعظ ووعد ووعيد ، وأمر الاستقامة ، أو القرآن كله ، ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ : عظة للمتقين. وخص الذاكرين لمزيد انتفاعهم بالوعظ ، لصقالة قلوبهم. وفى الخبر : «لكل شىء مصقلة ، ومصقلة القلوب ذكر اللّه». وَاصْبِرْ على مشاق الاستقامة ، ودوامها فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وهم : أهل الاستقامة ظاهرا وباطنا.
الإشارة : الاستقامة على ثلاثة أقسام : استقامة الجوارح ، واستقامة القلوب ، واستقامة الأرواح والأسرار.
أما استقامة الجوارح فتحصل بكمال التقوى ، وتحقيق المتابعة للسنة المحمدية. وأما استقامة القلوب

---

(١) أخرجه مسلم فى : (الطهارة ، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة .. مكفرات) عن أبى

هريرة رضى اللّه عنه.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري فى (التفسير ، سورة هود) ومسلم فى (التوبة ، باب قوله : إن الحسنات يذهبن السيئات) من حديث ابن مسعود – رضى اللّه عنه. أما قول المفسر : [هو نبهان التمار) فقد جاء فى سياق آخر ، للثعلبى فى تفسيره ، وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح ٨/ ٢٠٧ : وهذا إن ثبت حمل على واقعة أخرى ، لما بين السياق من المغايرة.

(٣) من الآية : ٣١ من سورة النساء. [.....]

(٤) من الآية : ١١١ من سورة التوبة.

(٥٦٤/٢)

فتحصل بتطهيرها من سائر العيوب ، كالكبر والعجب ، والرياء ، والسمعة ، والحقد والحسد ، وحب الجاه والمال ، وما يتفرع عن ذلك من العداوة والبغضاء ، وترك الثقة بمجىء الرزق ، وخوف سقوط المنزلة ، من قلوب الخلق ، والشح والبخل ، وطول الأمل ، والأشر والبطر ، والغل والمباهاة ، والتصنع والمداهنة ، والقسوة والفظاظة والغلظة ، والغفلة والجفاء ، والطيش ، والعجلة ، والحمية ، وضيق الصدر ، وقلة الرحمة. إلى غير ذلك من أنواع الرذائل.

فإذا تطهر القلب من هذه العيوب اتصف بأضدادها من الكمالات : كالتواضع للّه ، والخشوع بين يديه ، والتعظيم لأمره ، والحفظ لحدوده ، والتذلل لربوبيته ، والإخلاص فى عبوديته ، والرضى بقضائه ، ورؤية المنة له فى منعه وعطائه. ويتصف فيما بين خلقه بالرأفة والرحمة ، واللين والرفق ، وسعة الصدر والحلم ، والاحتمال والصيانة ، والنزاهة والأمانة ، والثقة والتأنى ، والوقار ، والسخاء والجود ، والحياء ، والبشاشة والنصيحة. إلى غير ذلك من الكمالات.

وأما استقامة الأرواح والأسرار ، فتحصل بعدم الوقوف مع شىء سوى اللّه تعالى ، وعدم الالتفات إلى غيره حالا كان أو مقاما أو كرامة ، أو غير ذلك : كما قال الششترى رضى اللّه عنه :

فلا تلتفت فى السّير غيرا ، وكلّ ما سوى اللّه غير ، فاتخذ ذكره حصنا

وكلّ مقام لا تقم فيه إنّه حجاب ، فجدّ السّير واستنجد العونا

ومهما ترى كلّ المراتب تجتلى عليك فحل عنها ، فعن مثلها حلنا

وقل : ليس لى فى غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنا

وقوله تعالى : (و لا تركنوا إلى الذين ظلموا) : هو نهى عن صحبة الغافلين والميل إليهم. قال بعض الصوفية :

قلت لبعض الأبدال : كيف الطريق إلى التحقيق ، والوصول إلى الحق؟ قال : لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة ، قلت : لا بد لى ، قال : لا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة ، قلت : لا بد لى ، قال : لا تعاملهم لأن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم لا بد لى من معاملتهم؟ قال : لا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة. قلت : هذا لعله يكون؟ قال : يا هذا أتنظر إلى اللاعبين ، وتسمع كلام الجاهلين ، وتعامل البطالين ، وتسكن إلى الهلكى ، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة ، وقلبك مع غير اللّه عز وجل!! هيهات! هذا ما لا يكون أبدا. هـ. ونقل الورتجبي عن جعفر الصادق : ولا تركنوا إلى نفوسكم فإنها ظلمة. هـ.

(٥٦٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٦٦

ثم ذكر سبب هلاك الأمم الماضية ، وهو فشو الظلم ، وعدم تغيير المنكر ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ١١٦ الى ١١٧]

فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا منهم وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ (١١٧)

قلت : (لو لا) ، تحضيضية ، ويقترن بها هنا معنى التفجع والتأسف ، كقوله : يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ «١» ، و«إلا قليلا» : منقطع ، ولا يصح اتصاله ، إلا إذا جعل استثناء من النفي اللازم للتحضيض. أي : ما كان فى القرون الماضية أولو بقية إلا قليل. يقال : فلان من بقية القوم ، أي : خيارهم ، وإنما قيل فيه «بقية» لأن الشرائع والدول تقوى أولا ثم تضعف. فمن ثبت فى وقت الضعف على ما كان فى أوله ، فهو بقية الصدر الأول. قاله ابن عطية.

وقوله : «بظلم» : حال من «ربك» أي : ما كان ربك ليهلك القرى ظالما لهم ، أو متعلق بيهلك.

يقول الحق جل جلاله : فَلَوْ لا : فهلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ كقوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكرهم ، أُولُوا بَقِيَّةٍ من الرأى ، والعقل ينكرون عليهم ، أي : فهلا وجد فيهم من فيه بقية من العقل والحزم والثبوت ، يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ ، لكن قليلا ممن أنجينا منهم كانوا كذلك ، فأنكروا على أهل الفساد ، واعتزلوهم فى دينهم فأنجيناهم. وفى هذا تحريض على النهى عن المنكر والأمر بالمعروف ، وأنه سبب النجاة فى الدارين. وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ : ما أنعموا فيه من الشهوات ، واهتموا بتحصيل أسبابها ، وأعرضوا عما وراء ذلك ، وَكانُوا مُجْرِمِينَ كافرين. قال البيضاوي : كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم الماضية ، وهو : فشو الظلم فيهم ، واتباع الهوى ، وترك النهى

عن المنكرات مع الكفر. هـ.
وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ أي : متلبسا بظلم ، وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ ، فيعذبهم بلا جرم ، أي : ما كان ليعذبهم ظالما لهم بلا سبب. أو ما كان ليهلك القرى بشرك وأهلها مصلحون فيما بينهم ، لا يضمون إلى شركهم فسادا وبغيا ، وذلك لفرط رحمته ومسامحته فى حقوقه. ومن ذلك قدّم الفقهاء ، عند تزاحم الحقوق ، حقوق العباد. وقال بعضهم : [الذنوب ثلاثة : ذنب لا يغفره اللّه ، وهو الشرك. وذنب لا يعبأ اللّه به ، وهو ما كان بينه وبين عباده ، وذنب لا يتركه اللّه ، وهو حقوق عباده]. وقالوا : قد يبقى الملك مع الشرك ولا يبقى مع الظلم.
الإشارة : أولو البقية الذين ينهون عن الفساد فى الأرض هم : أهل النور المخزون المستودع فى قلوبهم من نور الحق ، إذا قابلوا منكرا دمغوه بالحال أو المقال ، وإذا قابلوا فسادا أصلحوه ، وإذا قابلوا فتنة أطفأوها. وإذا قابلوا بدعة

---

(١) من الآية : ٣٠ من سورة يس.

أخمدوها. وإذا واجهوا ضالا أرشدوه ، أو غافلا ذكروه ، أو طالبا للوصول وصلوه ، يمشون فى الأرض بالنصيحة ، لا يخافون فى اللّه لومة لائم. أولئك لهم الأمن وهم مهتدون.
قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم : إنّ أحبّ عباد اللّه إلى اللّه الذين يحببون اللّه إلى عباده ، ويحببون عباد اللّه إلى اللّه ، ويمشون فى الأرض بالنصيحة» أما كونهم يحببون اللّه إلى عباده فلأنهم يذكرون لهم آلاءه وإحسانه وبره. والنفس تحب بالطبع من أحسن إليها. وأما كونهم يحببون عباد اللّه إلى اللّه فلأنهم يردونهم عن غيهم وحظوظهم ، التي تبعدهم عن ربهم. فإذا رجعوا إليه أحبهم.
وسئل ذو النون المصري رضى اللّه عنه عن وصف الأبدال ، فقال : سألت عن دياجى الظلام لأكشف لك عنهم ، هم قوم ذكروا اللّه بقلوبهم ، تعظيما لربهم لمعرفتهم بجلاله ، فهم حجج اللّه تعالى على خلقه ، ألبسهم اللّه - تعالى - النور الساطع من محبته ، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته ، وأقامهم مقام الأبطال لإرادته ، وأفرغ عليهم من مخافته ، وطهّر أبدانهم بمراقبته ، وطيبهم بطيب أهل معاملته ، وكساهم حللا من نسج مودته ، ووضع على رؤوسهم تيجان مبرته ، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب ، فهى متعلقة بمواصلته ، فهممهم إليه ثائرة ، وأعينهم بالغيب ناظرة ، قد أقامهم على باب

النظر من رؤيته ، وأجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته ، ثم قال لهم : إن أتاكم عليل من فقدى فداووه ، أو مريض من فراقى فعالجوه ، أو خائف منى فانصروه ، أو آمن منى فحذّروه ، أو راغب فى مواصلتى فمنّوه ، أو راحل نحوى فزودوه ، أو جبان فى متاجرتى فشجعوه ، أو آيس من فضلى فرجّوه ، أو راج لإحسانى فبشروه ، أو حسن الظن بي فباسطوه ، أو محب لى فواصلوه ، أو معظم لقدرتى فعظموه ، أو مسيء بعد إحسانى فعاتبوه ، أو مسترشد فأرشدوه. هـ.

وهذا بقدر اللّه ومشيئته ، كما قال تعالى :

[سورة هود (١١) : الآيات ١١٨ الى ١١٩]

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)

قلت : الاستثناء من ضمير «يزالون».

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً ، متفقين على الإيمان ، أو الكفران ، لكن مقتضى الحكمة وجود الاختلاف ليظهر مقتضيات الأسماء فى عالم الشهادة فاسمه : الرحيم والكريم يقتضى وجود من يستحق الكرم والرحمة ، وهم : أهل الإيمان. واسمه : المنتقم والقهار يقتضى وجود من يستحق الانتقام

والقهرية ، وهم أهل الكفر والعصيان. قال البيضاوي : وفيه دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة ، وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل أحد ، وأن ما أراد يجب وقوعه. هـ.

وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ بعضهم على الحق ، وهم أهل الرحمة والكرم ، وبعضهم على الباطل ، وهم أهل القهرية والانتقام. أو مختلفين فى الأديان والملل والمذاهب ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ إلا ناسا هداهم اللّه من فضله ، فاتفقوا على ما هو أصل الدين والعمدة فيه ، كالتوحيد والإيمان بجميع الرسل وبما جاءوا به ، وهم المؤمنون.

وقوله : وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ إن كان الضمير للناس ، فالإشارة إلى الاختلاف ، واللام للعاقبة ، أي : ولتكون عاقبتهم الاختلاف خلقهم ، وإن كان الضمير يعود على «من» ، فالإشارة إلى الرحمة ، أي : إلا من رحم ربك وللرحمة خلقه. وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الأزلية على ما سبق له الشقاء ، أي : نفذ قضاؤه ووعيده فى أهل الشقاء ، أو هى قوله للملائكة : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أي : من أهل العصيان منهما ، لا من جميعهما.

الإشارة : الاختلاف بين الناس حكم أزلى ، لا محيد عنه. وقد وقع بين أهل الحق وبين أهل الباطل. فقد اختلفت هذه الأمة فى الأصول والفروع. أما الأصول فأهل توحيد الدليل وقع بينهم تخالف فى صفات الحق ، كالمعتزلة والقدرية والجهمية والجبرية مع أهل السنة. وأما الفروع فالاختلاف بينهم شهير. فقد كان فى أول الإسلام اثنا عشر مذهبا. ولا تجد علما من علم الفروع إلا وبين أهله اختلاف ، إلا أهل التوحيد الخاص ، وهم :

المحققون من الصوفية ، فكلهم متفقون فى الأذواق والوجدان ، وإن اختلفت طرقهم ، وكيفية سيرهم. فهم متفقون فى النهايات ، التي هى معرفة الشهود والعيان ، على طريق الذوق والوجدان ، وفى ذلك يقول ابن البنا - رحمه اللّه - :

مذاهب الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف

وأما قول من قال : [ما زالت الصوفية بخير ما اختلفوا ، فإذا اتفقوا فلا خير فيهم] ، فالمراد بالاختلاف : تغيير بعضهم على بعض ، عند ظهور نقص أو عيب أو ذنب. فإذا اتفقوا وسكت بعضهم عن بعض فلا خير فيهم. وقوله عليه الصلاة والسلام : «خلاف أمتى رحمة». المراد : الاختلاف فى الفروع كاختلاف المذاهب ففى ذلك رخصة لأهل الاضطرار لأن من قلد عالما لقى اللّه سالما. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة سرد قصص الأنبياء ، فقال :

قلت : «وكلّا» مفعول «نقص» ، و«ما نثبت به» : بدل ، أو «ما» مفعول «نقصّ» ، و«كلّا» : مصدر. أي : ونقص

[سورة هود (١١) : آية ١٢٠]

وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)

عليك كلّا من الاقتصاص ما نثبت به فؤادك.

يقول الحق جل جلاله : وكل نبأ نَقُصُّ عَلَيْكَ من أخبار الرسل ، ونخبرك به ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ ، ليزيدك يقينا وطمأنينة وثباتا بما تسمع من أخبارهم ، وما جرى لهم مع قومهم ، وما لقوا من الأذى منهم ، فتتسلى بهم ، وتثبت على أداء الرسالة ، واحتمال أذى الكفار. وَجاءَكَ فِي هذِهِ السورة ، أو الأنباء المقتصة عليك ، الْحَقُّ أي : ما هو حق ، وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ ، فيتحملون ، ويصبرون لما

يواجههم من الأذى والإنكار.

الإشارة : ذكر أحوال الصالحين ، وسيرهم وكراماتهم جند من جنود القلب ، وذكر أشعارهم ومواجيدهم جند من جنود الروح ، وقد ورد : أن عند ذكرهم تنزل الرحمة ، أي : رحمة القلوب باليقين والطمأنينة. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمره بتهديد من خالفه ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ١٢١ الى ١٢٣]

وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

يقول الحق جل جلاله : وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ : حالكم إِنَّا عامِلُونَ على حالنا ، وَانْتَظِرُوا وقوع ما نزل بمن قبلكم ممن خالف رسوله فإنه نازل بكم ، إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ما وعدنا ربنا من النصر والعز.

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا يعلمه غيره فلا يعلم غيب العواقب ، ووقت وقوع المواعد إلا هو. وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فيرجع لا محالة أمرهم وأمرك إليه ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فإنه كافيك أمرهم وأمر غيرهم. وفى تقديم العبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع التوكل العابد دون البطال. وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أنت وهم ، فيجازى كلّا ما يستحقه. أو عما يعمل الكافرون ، فيمهلهم ولا يهملهم.

الإشارة : (فاعبده وتوكل عليه) : يقول تعالى : يا عبدى قم بخدمتي أقم لك بقسمتي ، قف ببابي وانتسب لجنابى أكفك شئونك ، وتكن من أحبابى. أأدعوك لدارى ، وأمنعك من وجود إبرارى ، أأكلفك بخدمتي ، ولا أقوم لك بقسمتي ، فثق بي كفيلا ، واتخذني وكيلا ، أعطك عطاء جزيلا ، وأمنحك فخرا جليلا. قال القشيري : ويقال : إن التوكل : سكون القلب بضمان الربّ. ويقال : سكون الجأش فى طلب المعاش ، ويقال : الاكتفاء بوعده عند عدم نقده ، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد. وسيأتى تمامه فى سورة الفرقان ، إن شاء اللّه. وباللّه التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليما.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٧١

سورة يوسف

مكية. وهى مائة وإحدى عشرة آية. وكأنها تتميم لما ذكر قبلها من قصص الأنبياء ، فهى من جملة ما يثبّت به الفؤاد ، ويقع به التسلية ، مما يواجه به العبد من الأنكاد. وإنما أفردت بالسورة ، لمزيد شرح وطول.

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (٣)

قلت : (قرآنا) : حال ، و(عربيا) : نعت له. و(لعلكم) : يتعلق بأنزلناه أو بعربيا. و(أحسن) : مفعول (نقصّ) ، و(بما أوحينا) : مصدرية ، ويجوز أن يكون (هذا القرآن) : مفعول (نقصّ) ، و(أحسن القصص) : مصدر.

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المجتبى ، والمحبوب المنتقى ، تِلْكَ الآيات التي تتلى عليك هى آياتُ الْكِتابِ المنزل عليك من حضرة قدسنا ، الْمُبِينِ أي : الظاهر صدقه ، الشهير شأنه. أو الظاهر أمره فى الإعجاز والبلاغة ، الواضح معانيه فى الفصاحة ، والبراعة. أو المبين للأحكام الظاهرة والباطنة. أو البين لمن تدبره أنه من عند اللّه. أو المبين لمن سأل تعنّتا من أحبار اليهود سؤالهم إذ روى أنهم قالوا لكبراء المشركين : سلوا محمدا : لم انتقل يعقوب من الشام؟ وعن قصة يوسف. فنزلت السورة. إِنَّا أَنْزَلْناهُ أي : الكتاب ، قُرْآناً أي : مقروءا ، أو مجموعا ، عَرَبِيًّا بلغة العرب لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أي : أنزلناه بلغتكم كى تفهموه وتستعملوا عقولكم فى معانيه فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص ، ولم يخالط من يعلم ذلك ، معجز إذ لا يتصور إلا بالإيحاء.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ أحسن الاقتصاص لأنه اقتص على أبدع الأساليب ، أو أحسن ما يقص لاشتماله على العجائب والحكم والآيات والعبر ، بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ مشتملا على هذه السورة التي فيها قصة يوسف ، التي هى من أبدع القصص ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ عن هذه

القصة ، لم تخطر ببالك ، ولم تقرع سمعك. قال البيضاوي : وهو تعليل لكونه موحىّ ، و«إن» هذه : مخففة ، واللام هى الفارقة. هـ.

الإشارة : ما نزل القرآن بلسان عربى مبين إلا لنعقل عظمة ربنا ونعرفه ، وذلك لا يكون إلا بعد استعمال العقول الصافية ، والأفكار المنورة ، فى الغوص على درر معانيه. فحينئذ تطلع على أنوار التوحيد وأسرار التفريد ، وعلى أنوار الصفات ، وأسرار الذات ، وعلى توحيد الأفعال وتوحيد الصفات وتوحيد الذات. قال تعالى : ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ «١» ، لكن لا يحيط بهذا إلا أهل التجريد ، الذين صفت عقولهم من الأكدار ، وتطهرت من الأغيار ، وملئت بالمعارف والأسرار. قال تعالى : لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ «٢». وهم : أهل العقول الصافية المتفرغة من شواغل الحس. واللّه تعالى أعلم.

ثم شرع فى ذكر القصة ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٤ الى ٦]

إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (٤) قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

قلت : (إذ قال) : معمول لا ذكر ، أو بدل من (أحسن القصص) إن جعل مفعولا ، بدل اشتمال ، و(يا أبت) :

أصله : يا أبى ، عوض من الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة ، ولذلك قلبت فى الوقف هاء ، فى قراءة ابن كثير وأبى عمر ويعقوب. وإنما أعاد العامل فى «رأيتهم» لطول الكلام ، وجمع الشمس والقمر والكواكب جمع العقلاء لوصفهم بصفاتهم.

يقول الحق جل جلاله : إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يعقوب بن اسحق بن ابراهيم : يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ فى النوم أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ. وقد ذكر البيضاوي حديثا فى تفسير هذه الكواكب فانظره. قيل : إن يوسف عليه السّلام كان نائما فى حجر أبيه ، فنظر فيه ، وقال فى نفسه : أترى هذا الوجه

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة ص.

أحسن أم الشمس أم القمر؟ فإذا بيوسف قد انتبه من نومه ، وقال : يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ...
إلخ ، فلما قص الرؤيا على أبيه بكى ، فقال يوسف : لم تبكى يا أبتى؟ قال : يا بنى لم يسجد مخلوق لمخلوق إلا عند المحنة ، والبلاء ، ألا ترى الملائكة لما أسجدهم اللّه لآدم ، كيف ابتلى بالخروج من الجنة؟ ثم قال له : يا بنى الشمس والقمر أنا وخالتك - وكانت أمه قد ماتت - والإحدى عشر كوكبا إخوتك. هـ.
قالَ يا بُنَيَّ ، وهو تصغير ابن ، صغر للشفقة أو لصغر السن ، وكان ابن ثنتى عشرة سنة ، لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً فيحتالوا لإهلاكك حيلة. فهم يعقوب عليه السّلام من رؤياه أن اللّه يصطفيه لرسالته ، ويفوقه على إخوته ، فخاف عليه حسدهم. ومن خاف من شىء سلط عليه.
والرؤيا تختص بالنوم ، والرؤية ، بالتاء بالبصر. قال البيضاوي : وهى انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك ، والمصادفة منها إنما يكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ. انظر تمامه فيه. وأخرج الحاكم فى المستدرك ، والطبراني فى الأوسط ، عن ابن عمر قال :
لقى عمر عليّا - رضى اللّه عنهما - فقال : يا أبا الحسن ، الرجل يرى الرؤيا فمنها ما يصدق ، ومنها ما يكذب ، قال :
نعم. سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : «ما من عبد ولا أمة ينام فيمتلى نوما إلا عرج بروحه إلى السماء. فالتى لا تستيقظ إلا عند العرش فتلك الرؤيا التي تصدق ، والتي تستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تكذب» «١». هـ. فمنها ما تكون واضحة المعنى لا تحتاج إلى تعبير ، ومنها ما تكون خفية تحتاج إلى تعبير. والمعبر يحتاج إلى علم وفراسة وزيادة إلهام ، فعلم التعبير علم مستقل ، قد أعطى اللّه منه ليوسف عليه السّلام حظا وافرا.
ولما قال يعقوب لابنه : لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً قال : يا أبت ، الأنبياء لا يكيدون ، قال له : إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ظاهر العداوة لأجل ما فعل بآدم وحواء ، فلا يألوا جهدا فى تسويلهم ، وإثارة الحسد فيهم ، حتى يحملهم على الكيد. قيل : لم يسمع كلام يوسف فى رؤياه إلا خالته - أم شمعون - فقالت لإخوته : التعب عليكم ، والإقبال على يوسف. فحركهم ذلك حتى فعلوا ما فعلوا. وقيل : أخبرت بذلك ولدها شمعون ، فأخبر شمعون إخوته فخلوا به وقالوا له : إنك لم تكذب قط. فأخبرنا بما رأيت فى نومك ، فأبى. فأقسموا عليه ، فأخبرهم. فوقعوا فيما فعلوا به.
ثم قال له : وَكَذلِكَ أي : وكما اجتباك لهذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس ، يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ للنبوة والملك ، أو لأمور عظام ، وَيُعَلِّمُكَ

أي : وهو يعلمك مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ من تعبير

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٣٩٦ و٣٩٧).

(٥٧٣/٢)

الرؤيا لأنها أحاديث الملك إن كانت صادقة ، وأحاديث الشيطان إن كانت كاذبة. أو يعلمك من تأويل غوامض علوم كتب اللّه ، وسنن الأنبياء وحكم الحكماء. وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ بالنبوة ، أو بأن يجمع لك بين نعمة الدنيا ، ونعمة الآخرة ، وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ يريد : سائر بنيه. ولعله استدل على نبوتهم بضوء الكواكب ، كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ من قبلك ، أو من قبل هذا الوقت. فأتمها على إبراهيم بالرسالة والخلة والإنجاء من النار ، وإسحاق بالرسالة والإنقاذ من الذبح «١» ، وهم : إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ ، فهما عطف بيان لأبويك ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ بمن يستحق الاجتباء ، حَكِيمٌ لا يخلو فعله من حكمة ، نعمة كانت أو نقمة.

الإشارة : البداية مجلاة النهاية ، يوسف عليه السّلام نزلت له أعلام النهاية فى أول البداية. وكذلك كل من سبق له شيء من العناية ، لا بد تظهر أعلامه فى أول البداية «من أشرقت بدايته أشرقت نهايته».

من كانت باللّه بدايته كانت إليه نهايته.

وأوصاف النهاية تأتى على ضد أوصاف البداية فكمال العز فى النهاية لا يأتى إلا بعد كمال الذل فى البداية.

وتأمل قول الشاعر :

تذلّل لمن تهوى لتكسب عزّة فكم عزّة قد نالها المرء بالذّلّ

وتأمل قضية سيدنا يوسف عليه السّلام ما نال العز والملك حتى تحقق بالذل ، والملك وكمال الغنى فى النهاية لا يأتى إلا بعد كمال الفقر فى البداية ، وكمال العلم لا يأتى إلا بعد إظهار كمال الجهل ، وكمال القوة لا يأتى إلا بعد كمال الضعف .. وهكذا جعل اللّه تعالى بحكمته الأشياء كامنة فى أضدادها «تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه». فالاجتباء يكون بعد الابتلاء ، وإتمام النعم يكون بعد تقديم النقم ، وذلك لتكون أحلى وأشهى ، فيعرف قدرها ويتحقق منه شكرها ، وهذا السر فى تقديم أهوال يوم القيامة على دخول الجنة ليقع نعيمها فى النفس كل موقع. ولا فرق بين جنة الزخارف ، وجنة المعارف.

(حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات). واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٧ الى ٨]
لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٨)

---

(١) الثابت أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل عليه السّلام. راجع التعليق على تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

(٥٧٤/٢)

قلت : (يوسف) : عجمى ، وفى سينه ثلاث لغات : الضم - وهو الأشهر - والفتح ، والكسر.
يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ أي : فى قصصهم آياتٌ دلائل قدرة اللّه وحكمته ، وعلامة نبوتك ، حيث أخبرت بها من غير تعلم. ففى ذلك آيات لِلسَّائِلِينَ أي : لمن سأل عن قصتهم.
والمراد بإخوته : علاته العشرة ، والعلات : أبناء أمهات لأب واحد ، فكانوا إخوته لأبيه ، وهم : يهوذا ، وروبيل ، وشمعون ، ولاوى ، وريالون ، ويشجر ، ودنية من بنت خالته ليّا ، تزوجها يعقوب أولا ، فلما توفيت تزوج راحيل ، فولدت له بنيامين ، ويوسف. وقيل : جمع بينهما ، ولم يكن الجمع حينئذ محرما. وأربعة آخرون من سريتين ، وهم : دان ، وتفثالي ، وجاد ، وآشر.
إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ بنيامين ، وخص بالإضافة لأنه شقيقه ، أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ أي : والحال أنا جماعة أقوياء ، فنحن أحق بالمحبة لأنهما لا كفاءة فيهما. والعصبة : العشرة ففوق. إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ خطأ ظاهر لتفضيل المفضول. روى أنه كان أحب إليه لما كان يرى فيه من مخايل الخير ، وكان إخوته يحسدونه ، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة ، بحيث لم يصبر عنه ، فتناهى حسدهم حتى حملهم على التعرض لقتله. وهكذا شأن الحسد يبلغ بصاحبه أمرا عظيما.
الإشارة : كان يعقوب عليه السّلام لا يفارق يوسف ليلا ولا نهارا. وهكذا شأن المحبين. وأنشدوا :
ولى كبد يسرى إليهم سلامه بجمر تلظّى ، والفؤاد ضرامه
وأجفان عين لا تملّ من البكا وصبّ تشكّى للحبيب غرامه
فأنتم سرورى ، أنتم غاية المنى وقلبى إليكم والغرام زمامه
فو اللّه ما أحببت ما عشت غيركم لأن اشتياقى لا يحل اكتتامه. هـ.
قال الجنيد ، رضى اللّه عنه : رأيت غلاما حسن الوجه يعنف كهلا حسنا ، فقلت : يا غلام ، لم تفعل هذا؟ قال : لأنه يدعى أنه يهوانى ، ومنذ ثلاث ما رآنى ، قال : فوقعت مغشيا على ، فلما أفقت ما

قدرت على النهوض ، فقيل لى فى ذلك ، فقلت : ينبغى للمحب ألا يفارق باب محبوبه على أي حال.
وأنشدوا :
لازم الباب إن عشقت الجمالا واهجر النّوم إن أردت الوصالا
واجعل الروح منك أوّل نقد لحبيب أنواره تتلالا

قلت : فالحبيب غيور لا يحب أن يرى فى قلب حبيبه غيره. فإذا رأى فيه شيئا أخرجه منه ، وفرق بينه وبينه غيرة منه واعتناء به ، وهو السر فى افتراق يوسف من أبيه. واللّه تعالى أعلم.
ثم تعرضوا ليوسف ، فقالوا :
[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٩ الى ١٠]
اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (٩) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (١٠)
يقول الحق جل جلاله : قال إخوة يوسف لما حركهم الحسد : اقْتُلُوا يُوسُفَ قيل : إنما قاله شمعون ودان ، ورضى به الآخرون ، أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً أي : فى أرض بعيدة يأكله السباع ، أو يلتقطه أحد ، فإن فعلتم يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ أي : يصف إليكم وجه أبيكم فيقبل بكليته عليكم ، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ، ولا ينازعكم فى محبته أحد ، وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ من بعد يوسف ، أو الفراغ من أمره ، أو قتله ، أو طرحه ، قَوْماً صالِحِينَ تائبين إلى اللّه عما جنيتم ، مع محبة أبيكم. أو صالحين فى أمور دنياكم ، فإنها تنتظم لكم بخلو وجه أبيكم لكم ، قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ هو يهوذا ، وكان أحسنهم فيه رأيا ، وقيل : روبيل : لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ فإن القتل عظيم ، وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ «١» الْجُبِّ : فى قعره ، سمى به لغيبته عن أعين الناظرين. ومن قرأ بالجمع ، فكان بتلك الجب غيابات ، يَلْتَقِطْهُ : يأخذه بَعْضُ السَّيَّارَةِ أي : الذين يسيرون فى الأرض ، إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ ما يفرق بينه وبين أبيه ولا بد ، أو كنتم فاعلين بمشورتى.
الإشارة : إن أردت أن يخلو لك وجه قلبك فيخلو لك وجه حبيبك ، حتى تشاهده عيانا وتعرفه إيقانا ، فاقتل كل ما يميل إليه قلبك ويعشقه من الهوى ، واطرح عن عين بصيرتك رؤية السّوى ، ترى من أنوار وجهه وأسرار محاسنه ، ما تبتهج به القلوب والأسرار ، وتتنزه فى رياض محاسنه البصائر والأبصار.
وأنشدوا :
إن تلاشى الكون عن عين كشفى شاهد القلب غيبه فى بيان
فاطرح الكون عن عيانك وامح نقطة الغين إن أردت ترانى

(١) قرأ الجمهور «غيابة» بالإفراد هنا وفى الموضع التالي فى الآية (١٨) وقرأ نافع «غيابات» بالجمع فى الموضوعين ، وقد سار المفسر هنا على قراءة الجمهور ، وسار فى الموضع التالي على قراءة نافع.

(٥٧٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٧٧

ثم احتالوا على أبيهم فى إرسال يوسف معهم ، كما قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ١١ الى ١٤]

قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (١٢) قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (١٣) قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (١٤)

قلت : (تأمننا) : اجتمع نونان ، فيجوز الإدغام ، وبه قرأ أبو جعفر ، وقرأ الجماعة بالإشمام. وقوله : (يرتع ويلعب) : جواب الأمر ، فمن قرأ بكسر العين فجزمه بحذف الياء ، وهو من رعى الإبل ، ومن قرأ بالإسكان فهو من الرتع ، وهى الإقامة فى الخصب والتنعم ، والتاء على هذا أصلية. ووزن الفعل : يفعل ، ووزنه على الأول يفتعل ، قال ابن عطية : فيرتع على قراءة نافع من رعى الإبل ، أي : يتدرب فى رعى الإبل وحفظ المال. قال أبو على : وقراءة ابن كثير : (نرتع) بالنون (و يلعب) بالياء ، فنزعها حسن لإسناد النظر فى المال والرعاية إليهم ، واللعب إلى يوسف لصباه ، وقرأ أبو عمر وابن عامر : (نرتع ونلعب) بالنون فيهما ، وإسكان العين والباء ، من الرتوع ، وهو : الإقامة فى الخصب والمرعى فى أكل وشرب ، وقرأ عاصم والأخوان : (يرتع ويلعب) بإسناد ذلك كله إلى يوسف. هـ. قلت : وكذا قرأ نافع ، غير أنه يكسر العين وهم يسكنون.

(و نحن عصبة) : حال ، والرابط الواو ، والعصبة : الجماعة من العشرة إلى فوق.

يقول الحق جل جلاله : قال إخوة يوسف لأبيهم : يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ أي : لم تخافنا عليه؟ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ نشفق عليه ، ونريد له الخير. أرادوا أن يستنزلوه عن رأيه فى حفظه منهم لما تنسم من حسدهم. قلت : قد نصحوه فى الحقيقة حيث تسببوا فى ملكه وعزه. روى أنهم لما قالوا له : (مالك ....) إلخ ، اهتزت أركانه ، واصفر لونه ، واصطكت أسنانه ، وتحركت جوانبه ، كأنه علم بما فى قلوبهم بالفراسة. ثم قالوا :

أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ : يتسع فى أكل الفواكه ونحوها. أو يتعلم الرعاية ، وَيَلْعَبْ بالاستباق والإنتضال ، وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ أن يناله مكروه.

قالَ يعقوب : إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ لشدة مفارقته عليّ ، وقلة صبرى عنه ، وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ : لاشتغالكم بالرتع واللعب ، أو لقلة اهتمامكم به ، وإنما خاف عليه من الذيب

(٥٧٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٧٨

لأن الأرض كانت مذأبة ، وقيل : رأى فى المنام أن الذئاب أحدقت بيوسف فكان يخافه ، وإنما كان تأويلها : إحداق إخوته به حين أرادوا قتله. قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ : جماعة ، إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ : مغبونون من القوة والحزم ، أو مستحقون بأن يدعى عليهم بالخسارة.

الإشارة : لم يسمح يعقوب عليه السّلام بفراق حبيبه ساعة ، وكذلك العبد لا ينبغى أن يغفل عن سيده لحظة لأن الغفلة فراق ، والذكر انجماع ، والعبد لا صبر له عن سيده. وأنشدوا :

فلأبكين على الفراق كما بكى سفا لفرقة يوسف يعقوب

ولأدعونك فى الظلام كما دعا عند البلية ربّه أيوب

وأنشدوا أيضا فى ذم الغفلة :

غفلت عن الأيّام يا أخى فانتبه وشمّر فإن الموت لا شك واقع

على أي شيء هو حزنك قائم جنود المنايا تأتيك فانهض وسارع

قيل : إن بعض الصالحين رأى أستاذه فى المنام ، فقال له : يا أستاذ ، أي الحسرات عندكم أعظم؟

قال : حسرة الغافلين. وأنشدوا :

تيقظ إلى التّذكار فالعمر قد مضى وحتى متى ذا السكر من غفلة الهوى

ورأى ذو النون المصري بعض الصالحين فى المنام ، فقال له : ما فعل اللّه بك؟ قال : أوقفنى بين يديه ، وقال :

يا مدعى ، ادعيت محبتى ثم غفلت عنى. وأنشدوا :

تغافلت عن فهم الحقيقة بالهوى فلا أذن تصغى ولا عين تذرف

ضعفت ولكن فى أمانيك قوة فيا تابع اللذات كم تتخلف

ورأى عبد اللّه بن مسلمة والده فى النوم ، فقال له : يا أبت ، كيف ترى حالك؟ فقال له : يا ولدي عشنا غافلين.

وأنشدوا :

غفلت وحادى الموت يحدوك للبلا وجسمك يا مغرور أصبح معتلا

وحتى متى يا صاح بابك مغلق أتاك نذير الموت والعمر قد ولّى

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٧٩
قيل : ما أصاب يعقوب ما أصابه فى ولده إلا من أجل خوفه عليه ، وغفلته عن استيداعه ربه ، ولو استودعه ربه لحفظه ، لكن لا ينفع حذر من قدر. (و كان أمر اللّه قدرا مقدورا).
ثم ذكر انصرافهم بيوسف ، وما كان من شأنه ، فقال :
[سورة يوسف (١٢) : الآيات ١٥ الى ١٨]
فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (١٦) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ (١٧) وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (١٨)
قلت : (لمّا) حرف وجود لوجود ، يطلب الشرط والجواب ، وجوابها هنا محذوف ، أي : فعلوا به ما فعلوا.
وقيل : جوابها : (أجمعوا) ، وقيل : (أوحينا) على زيادة الواو فيهما. وجملة : (و هم لا يشعرون) : حال من (تنبئنهم) ، فيكون خطابا ليوسف عليه السّلام ، أو من (أوحينا) أي : وهم لا يشعرون حين أوحينا إليه. فيكون حينئذ الخطاب لسيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم. و(صبر جميل) : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : مثل. أو : خبر عن مبتدأ ، أي :
أمرى صبر جميل. و(على قميصه) : فى موضع نصب على الظرف ، أي : فوق قميصه. أو : حال من الدم إن جوز تقديمها على المجرور.
يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا ذَهَبُوا بيوسف معهم وَأَجْمَعُوا أي : عزموا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ «١» الْجُبِّ وهو بئر بأرض الأردن ، أو بين مصر ومدين ، أو على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب.
قال الفراء : كان حفره شداد بن عاد. فانظره. قال السدى : ذهبوا بيوسف وبه عليهم كرامة ، فلما برزوا فى البرية أظهروا له العداوة ، وجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ، فجعل لا يرى منهم رحيما. فضربوه حتى كادوا يقتلونه ، فجعل يصيح : يا أبتاه يا يعقوب ، لو تعلم ما صنع بابنك بنو الإماء. هـ.
وكان إخوته سبعة من خالته الحرة ، والباقون من سريتين له ، كما تقدم.
وقال ابن عباس رضى اللّه عنه : كان يعقوب عليه السّلام ينظر إلى يوسف عليه السّلام حتى غاب عنه ، وعن نظره ، فلما علموا أنهم غيبوه عنه ، وضعوه فى الأرض وجروه عليها ، ولطموا خده ، فجرد شمعون سكينه وأراد ذبحه ، فتعلق بذيل

(١) راجع التعليق على تفسير الآية «٩» من نفس السورة.

روبيل وضربه ، وكذلك جميع إخوته إذا لجأ لواحد منهم طرده ، فضحك عند ذلك يوسف عليه السّلام ، فقال له يهوذا :

ليس هذا موضع الضحك يا يوسف ، فقال : من تعزز بغير اللّه ذل ، ظننت أنه لا يصيبنى وأنا بينكم مكروه لما رأيت من قوتكم وشدتكم ، فسلطكم اللّه على بشؤم تلك الفكرة حتى لا يكون التوكل إلا عليه والتعزز إلا به. هـ. بالمعنى.

وقال الفراء : كانت زينب بنت يعقوب عليه السّلام - أخت يوسف - وكانت رأت فى منامها كأن يوسف وضع بين الذئاب وهم ينهشون ، فانتبهت فازعة ، ومضت إلى أبيها باكية ، فقالت يا أبت ، أين أخي يوسف؟ قال : أسلمته إلى إخوته ، فمضت خلفه حتى لحقت به ، فأمسكته ، وتعلقت بذيله ، وقالت : لا أفارقك اليوم يا أخى أبدا ، فقال لها إخوتها : يا زينب ، أرسليه من يدك ، فقالت : لا أفعل ذلك أبدا لأنى لا أطيق فراق أخى ، فقالوا : بالعشي نرده إليك ويأتيك. ثم أقبل يوسف عليه السّلام يقبل رأسها ويديها ، ويقول لها : يا أختاه دعينى أسير مع إخوتى أرتع وألعب ، فذهب ، وجلست تشيعه بعينها ، ودموعها تتناثر مما رأت خوفا عليه. هـ.

فلما غابوا به عنها فعلوا به ما تقدم ، وهموا بقتله ، فقال لهم يهوذا : أما عاهدتمونى ألا تقتلوه فأتوا به إلى البئر فدلوه فيها فتعلق بشفيرها ، فربطوا يده ، ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم ، ويحتالوا به على أبيهم ، فقال : يا إخوتاه ردّوا علىّ قميصى أتوارى به ، فقالوا : ادع الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر يلبسوك ويؤنسوك. فلما بلغ نصفها ألقوه ، وكان فيها ماء ، فسقط ، ثم آوى إلى صخرة كانت فيها فقام عليها يبكى ، فجاءه جبريل بالوحى ، كما قال :

وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ ... إلخ. وكان ابن سبع عشرة سنة ، وقيل : كان مراهقا. وقال ابن عطية : كان ابن سبع سنين ، أوحى إليه فى صغره كما أوحى إلى يحيى وعيسى - عليهما السلام - .

وفى القصص : أن ابراهيم عليه السّلام ، حين ألقى فى النار ، جرد من ثيابه ، فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فدفعه إبراهيم إلى إسحق ، وإسحق إلى يعقوب ، فجعله فى تميمة علقها على يوسف ، فأخرجه جبريل وألبسه يوسف.

ثم قال له فيما أوحى إليه : لَتُنَبِّئَنَّهُمْ أي : لتحدثنهم بِأَمْرِهِمْ هذا بما فعلوا بك ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ أنك

يوسف ، لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم ، وطول العهد المغير للحال والهيئات. وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر ، حين دخلوا عليه ممتارين ، فعرفهم وهم له منكرون ، إلى أن قال لهم : هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ «١» وفى رواية : أوحى إليه : يا يوسف لا تحزن على ما أصابك ، فإنك تصل إلى ملك كبير ، ويقف إخوتك بين يديك. بشره بما يؤول إليه أمره ، إيناسا وتطبيبا لقلبه. وقيل : وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ متصل بقوله : وَأَوْحَيْنا أي : آنسناه بالوحى وهم لا يشعرون ذلك.

---

(١) الآية ٨٩ من سورة يوسف.

(٥٨٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٨١

وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً آخر النهار ، وقرىء عشى بضم العين والقصر ، جمع أعشى ، أي : عشى من البكاء. فجاءوا إليه يَبْكُونَ أي : متباكين. روى أنه لما سمع بكاءهم فزع وقال : يا بنى ، أين يوسف؟ فقالوا :

يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ أي : نتسابق بأقدامنا فى العدو ، أو الرمي وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا : بمصدق لنا ، وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ لسوء ظنك ، وفرط محبتك ليوسف.

وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ : فوق قميصه بِدَمٍ كَذِبٍ ، أي : ذى كذب بمعنى مكذوب فيه لأنهم ذبحوا جديا ، ولطخوا قميصه بدمه. روى أنه لما سمع بخبر يوسف صاح ودعا بقميصه فأخذه ، وألقاه على وجهه ، وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص ، وقال : ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا! أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه.

وفى رواية أخرى : أنه لما رأى صحة القميص ضحك ، فقالوا له : الضحك والبكاء من فعل المجانين! فقال : أما بكائي فعلى يوسف لما رأيت الدم ، وأما ضحكى ، فإنى لما رأيت صحة القميص رجوت أن الحديث غير صحيح ، ولذلك قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً أي : سهلت لكم ، وهونت فى أعينكم أمرا عظيما حتى أقدمتم عليه. وقيل : لما سمع مقالهم غشى عليه إلى الصباح ، وهم يبكون بأجمعهم ، ويقولون بينهم : بئس ما فعلناه بيوسف ووالده ، وأي عذر لنا عند اللّه. فلما أفاق نظر إلى أولاده وقال : هكذا يا أولادى كان ظنى فيكم ، بئس ما فعلتم ، وبئس ما سولت لكم أنفسكم فَصَبْرٌ جَمِيلٌ أي : فأمرى صبرى جميل. وفى الحديث : «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق» «١». وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ أي : على احتمال ما تصفونه من هلاك ابني يوسف.

وهذه الجريمة كانت قبل استنبائهم ، إن صح أنهم تنبأوا. وقد تقدم فى سورة البقرة الخلاف فى نبوة

الأسباط فراجعه «٢».

الإشارة : فى هذه الآية رجاء كبير لأهل العصيان ، وبشارة وتأنيس لمن أراد مقام الإحسان ، بعد الإساءة والغفلة والنسيان ، وذلك أن هؤلاء السادات فعلوا بيوسف عليه السّلام ما فعلوا ، فلما تابوا بعد هذا الفعل العظيم اجتباهم الحق تعالى ، وتاب عليهم ، وقربهم حتى صاروا أنبياء ، على حد قول بعض العلماء. ولذلك قيل : [كم من خصوص خرجوا من اللصوص ، وكم من عابد ناسك خرج من ظالم فاتك]. وفى الحكم : «من استغرب أن ينقذه اللّه من

---

(١) أخرجه ابن جرير فى التفسير (١٢/ ١٦٦) عن حبان بن أبى جبلة ، مرسلا.

(٢) راجع تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته ، فقد استعجز القدرة الالهية ، وكان اللّه على كل شىء مقتدرا».

وللشافعى رضي اللّه عنه :

فلمّا قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت الرّجا منّى لعفوك سلّما

تعاظمنى ذنبى فلمّا قرنته بعفوك ربّى كان عفوك أعظما

وهذا إنما يكون بالتوبة النصوح ، والنهوض التام ، والمجاهدة الكبيرة ، كما فعل إبراهيم بن أدهم ، والفضيل ابن عياض ، والشيخ أبو يعزى ، وغيرهم ممن كانوا لصوصا فصاروا خصوصا. قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «من لم يغلب نفسه وهواه فليس له حظّ فى عقباه». وأنشدوا :

جنينا على النّفس التي لك رشدها بطبع الهوى فيها وتيه من الحجا

جزى اللّه خيرا من أعدّ لدائه دواء التّقى فاستعمل الخوف والرّجا

جبان وترجو أن تلقّب فارسا متى شابه العضب اليمانيّ دملجا

وفيها أيضا : تنويه بمقام الصابرين وعاقبة المتقين ، فإن يعقوب عليه السّلام ، لما استعمل الصبر الجميل ، جمع اللّه شمله بولده مع ما أعد له من الثواب الجزيل. ويوسف عليه السّلام ، لما صبر على ما أصابه من المحن عوضه العز الدائم بترادف المدن. وفى الخبر : «أعلى الدرجات درجات الصابرين». لكل عمل ثواب محدود ، وثواب الصبرين غير محدود ولا معدود. قيل : إن اللّه تعالى أعطى لكل صابر قصرا فى الجنة مسيرة الشمس أربعين يوما ، من درة بيضاء معلقة فى الهواء ، ليس تحته دعامة ، ولا فوقه علاقة ، وله أربعة آلاف باب ، يدخل من كل باب سبعون ألف ملك ، يسلمون

على صاحبه ولا ترجع النوبة إليهم أبدا. هـ.
ثم ذكر خروج يوسف من البئر ، وبيعه ، ودخوله مصر ، فقال :
[سورة يوسف (١٢) : الآيات ١٩ الى ٢٢]
وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)

(٥٨٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٨٣
قلت : (بضاعة) : حال من المفعول ، أي : وأخفوه مبضعا به للتجارة. و(لنعلمه) : عطف على محذوف ، أي :
مكناه فى الأرض ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه .. إلخ. و(دراهم) : بدل من (ثمن). قال الهروي :
الأشدّ : من خمسة عشر إلى أربعين سنة. وهو جمع شدة ، مثل : نعمة وأنعم ، وهى : القوة والجلادة فى البدن والعقل. هـ.
يقول الحق جل جلاله : وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ رفقة تسير من مدين إلى مصر ، فنزلوا قريبا من الجب ، وكان ذلك بعد ثلاث من إلقائه فيه. فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ الذي يرد الماء ، ويستقى لهم ، وهو : مالك بن ذعر الخزاعي ، فَأَدْلى دَلْوَهُ أرسلها فى الجب ليملأها ، فتعلق بها يوسف ، فلما رآه قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ نادى البشرى ، بشارة لنفسه ، أو لقومه ، كأنه قال : تعال هذا أوانك. وقيل : اسم لصاحبه ، ناداه ليعينه على إخراجه فأخرجوه ، وَأَسَرُّوهُ أي : أخفاه الوارد ، وأصحابه عن الرفقة ، وقالوا : دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه بمصر ، حال كونه بِضاعَةً أي : متاعا مبضعا به للتجارة ، أي : يباع ويتجر بثمنه. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ لم يخف عليه أسرارهم.
وَشَرَوْهُ أي : باعه السيارة من الرفقة ، أو إخوته ، فيكون الضمير راجع لهم. روى أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بالطعام ، فأتاه يومئذ فلم يجده فيها ، وأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا : هذا غلامنا فاشتروه ، وسكت يوسف خوفا من أن يقتلوه. أو اشتروه من إخوته لأن شرى قد يستعمل بمعنى اشترى. فاشتراه الرفقة منهم بِثَمَنٍ بَخْسٍ أي : مبخوس ، لزيفه أو نقصانه ، دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ قليلة ، فإنهم يزنون ما بلغ الأوقية ، ويعدّون ما دونها. قيل :

كان عشرين درهما. وقيل : اثنين وعشرين. روى أن الذي اشتراه منهم مالك بن ذعر المتقدم ، وكان صعلوكا ، فسأل يوسف أن يدعو له فدعا له فصار غنيا. روى أنه قال لهم : بكم تبيعونه؟ فقالوا له : إن اشتريته بعيوبه بعناه لك. فقال : وما عيوبه؟ فقالوا : سارق كذاب ، يرى الرؤيا الكاذبة. فقال لهم : بكم تبيعونه لى مع عيوبه؟ ويوسف عليه السّلام ينظر إليهم ولا يتكلم ، وهو يقول فى نفسه : ما أظنه يقوم بثمنى لأنهم يطلبون أموالا كثيرة. قال لهم مالك :

معى دراهم قليلة تعد ولا توزن ، فقالوا له : هاتها. فاشتراه منهم بتلك الدراهم المعدودة. قال ابن عباس : كانت سبعة عشر درهما ، جعل له ذلك جزاء لما قوم نفسه ، وظن أنهم يطلبون فيه الأموال. هـ.

وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ : الراغبين عنه. يحتمل أن يكون الضمير لإخوته ، وزهدهم فيه ظاهر. أو يكون للرفقة ، فإن كانوا

(٥٨٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٨٤

بائعين فزهدهم فيه لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به خائف من انتزاعه ، وإن كانوا مبتاعين فلأنهم اعتقدوا أنه آبق.

قال الفراء : لما اشتراه منهم مالك ، قال لهم : اكتبوا لى كتابا بخطكم بأنكم بعتم منى هذا الغلام بكذا وكذا ، فكتبوا له ذلك ، فلما أراد الرحيل قالوا له : اربطه لئلا يهرب ، فلما همّ بربطه قال له يوسف : خلنى أودّع ساداتى فلعلّى لا ألقاهم بعد هذا اليوم. فقال له مالك : ما أكرمك من مملوك ، حيث يفعل بك هذا وأنت تتقرب منهم. فقال له يوسف : كل أحد يفعل ما يليق به ، فقال له : دونك ، فقصدهم وهم قيام صفا واحدا ، فلما دنا منهم بكوا وبكى يوسف عليه السّلام ، ثم قالوا : واللّه لقد ندمنا يا يوسف على ما فعلنا ، ولو لا الخشية من والدنا لرددناك. هـ. ثم ذهبوا به إلى مصر فباعوه ، فاشتراه العزيز الذي كان على خزائن مصر. واسمه : «قطفير» ، وكان الملك يومئذ «ريان بن الوليد العلقمي» ، وقد آمن بيوسف ، ومات فى حياته.

وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ راعيل ، أو زليخا ، أَكْرِمِي مَثْواهُ اجعلي مقامه عندنا كريما ، والمعنى : أحسنى تعهده ، عَسى أَنْ يَنْفَعَنا فى ضياعنا وأموالنا ، نستظهر به فى مصالحنا ، أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً أي : نتبنّاه ، وكان عقيما ، لما تفرس فيه من الرشد. ولذلك قيل : (أفرس الناس عزيز مصر ، وابنة شعيب التي قالت : يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ «١» ، وأبو بكر حين استخلف عمر) «٢».

قال البيضاوي : روى أنه اشتراه العزيز وهو ابن تسع عشرة سنة ، ولبث فى منزله ثلاث عشرة سنة ، واستوزره الريان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة. واختلف فيما اشتراه به

من جعل شراء غير الأول ، فقيل : عشرون دينارا ، وزوجا نعل ، وثوبان أبيضان. وقيل : ملؤه – أي وزنه – فضة ، وقيل : ذهبا. هـ.

وقيل : مسكا وحريرا.

وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ أي : وكما مكنا محبته فى قلب العزيز ، أو كما مكناه فى منزله ، أو كما أنجيته ، وعطفنا عليه العزيز ، مكناه فى الأرض ، ليتصرف فيها بالعدل ، وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ أي :

من تأويل كتب اللّه المتقدمة ، أو من تأويل الأحكام الحادثة بين الناس ليحكم فيها بالعدل ، أو من تعبير المنامات ، ليستعد لها قبل حلولها. أي : كان القصد فى إنجائه وتمكينه : إقامته العدل ، وتيسير أمور الناس ، وليعلم معانى كتب اللّه وأحكامه فينفذها ، وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ : لا يرده شيء ، ولا ينازعه فيما يريد جبار ولا عنيد ، أو : غالب

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة القصص.

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٤٦) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، عن ابن مسعود وكذلك أخرجه الطبراني فى الكبير (٨/ ١٨٥ ح ٨٨٢٩).

على أمر يوسف ، فيدبر أمره بالحفظ والرعاية ، والنصر والعز فى عاقبة أمره ، خلاف ما أراد به إخوته ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أن الأمر كله بيده ، أو لا يفهمون لطائف صنعه ، وخفايا لطفه.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ منتهى اشتداد جسمه ، وكمال عقله. وتقدم تفسير الهروي له ، وحده. وقيل : ما بين الثلاثين والأربعين ، آتَيْناهُ حُكْماً : حكمة ، وهى النبوة. أو العلم المؤيد بالعمل. أو حكما بين الناس بالعدل.

وَعِلْماً يعنى : علم تأويل الأحاديث ، أو علما بأسرار الربوبية ، وكيفية آداب العبودية. وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إذا كمل عقلهم ، وتوفر آدابهم ، وكمل تهذيبهم ، آتيناهم الحكمة وكمال المعرفة. وفيه تنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاء على إحسانه وإتقانه عمله فى عنفوان شبابه.

الإشارة : من ظن انفكاك لطف اللّه عن قدره فذلك لقصور نظره ، لا سيما لطفه بالمتوجهين إليه ، أو العارفين به الواصلين لحضرته. فكل ما ينزل بهم فإنما هو أقدار جارية ، وأمداد سارية ، وأنوار بهية ، وألطاف خفية ، تسبق لهم الأنوار قبل نزول الأقدار ، فلا تحوم حول قلوبهم الأكدار ، ولا تغير قلوبهم

رؤية الأغيار ، عند نزول شدائد الأقدار ، يحفظ عليهم أسرار التوحيد ، وينزل عليهم أنوار التأييد ، عند نزول القضاء الشديد ، والبلاء العتيد. ولا بن الفارض رضي اللّه عنه :

أحبّائى أنتم ، أحسن الدّهر أم أسا فكونوا كما شئتم أنا ذلك الخل

وقال صاحب العينية :

تلذّ لى الآلام إذ كنت مسقمى وإن تختبرني فهى عندى صنائع

تحكّم بما تهواه فيّ فإنّنى فقير لسلطان المحبّة طائع

وقد جرت عادة اللّه تعالى أن يعقب الجلال بالجمال ، والمحن بالمنن ، والذل بالعز ، والفقر بالغنى ، فبقدر ما تشتد المحن تأتى بعدها مواهب المنن ، وبقدر ما ينزل من الجلال يأتى بعده الجمال. سنة اللّه فى خلقه ، ولن تجد لسنة اللّه تبديلا. لا راد لما قضى ، ولا معقب لما به حكم وأمضى.

قال تعالى : وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ : قال بعض المفسرين : هذه الآية هى قطب هذه السورة ، ثم قال : أراد آدم البقاء فى الجنة ، وما أراد اللّه ذلك ، فكان الأمر مراد اللّه. وأراد إبليس أن يكون رأس البررة الكرام ، وأراد اللّه أن يكون إمام الكفرة اللئام ، فكان الأمر كما أراد اللّه. وأراد النمرود هلاك إبراهيم عليه السّلام ، ولم يرده اللّه ، فكان الأمر كما

أراد اللّه. وأراد فرعون هلاك موسى عليه السّلام ، فأهلكه اللّه ، ونجى موسى. وأراد داود أن يكون الملك لولده ميشا ، وأراد اللّه أن يكون لسليمان عليه السّلام ، فكان كما أراد اللّه. وأراد أبو جهل هلاك سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ونبوة الوليد بن المغيرة ، فأهلك اللّه أبا جهل والوليد ونبأ محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم. وأراد المنذر بن عاد البقاء فى الدنيا ، فأهلكه اللّه وخرب ملكه. وأراد إرم العاتي ، الذي بنى إرم ذات العماد ، يحاكى بها الجنة ، أن يسكنها خالدا فيها ، فكذبه اللّه ، وحال بينه وبينها ، وغيبها عنه ، حتى مات بحسرتها. هـ.

ثم ذكر مراودة زليخا ليوسف ، وما كان من شأنهما ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٢٣ الى ٢٩]

وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ

نَفْسِي وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)

فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ (٢٩)

قلت : المراودة : المطالبة ، من راد يرود : إذا جاء وذهب لطلب الشيء ، ومنه الرائد. و(هيت) : اسم فعل معناه :

تعال ، أو أقبل ، مبنى على الفتح كأين ، واللام للتبيين ، كالتي في : سقيا لك ، وقرأ ابن كثير : بالضم تشبيها بحيث ، ونافع وابن عامر بالفتح ، وهي لغة فيه. وقرىء : «هئت» بالهمز كجئت ، من هاء يهيء : إذا تهيأ. و(معاذ اللّه) :

مصدر لمحذوف ، أي : أعوذ باللّه معاذا. و(إنه) : ضمير الشأن. و(لو لا) : حرف امتناع ، وجوابها محذوف ، أي :

لخالطها ، ولا يجوز أن يكون (و همّ بها) جوابها لأن حكمها حكم الشرط ، فلا يتقدم عليها جوابها. قاله البيضاوي.

(٥٨٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٨٧

قلت : وبهذا يرد على من وقف على (همت به) ، كالهبطي ومن تبعه ، إلا أن يحمل على أنه ابتداء كلام مع حذف الجواب. واستحسنه البعض ليكون همّ يوسف خارجا عن القسم ، (و كذلك) : في موضع المصدر ، أي : ثبتناه مثل ذلك التثبيت لنصرف .. إلخ ، و(المخلصين) بالفتح : اسم مفعول من : أخلصه اللّه. وبالكسر : اسم فاعل بمعنى :

أخلص دينه للّه.

يقول الحق جل جلاله : وَراوَدَتْهُ للفاحشة ، أي : تمحلت وطلبت منه أن يوافقها الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها وهى زليخا. وترك التصريح بها استهجانا. فراودته عن نفسه ، وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ ، قيل : كانوا سبعة. والتشديد للتكثير ، أو للمبالغة في الإيثاق ، وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ أي : أقبل وبادر ، أو تهيأت لك. روى أنها تزينت بأحسن ما عندها ، وقالت : تعال يا يوسف ، قالَ مَعاذَ اللَّهِ أي : أعوذ باللّه معاذا ، إِنَّهُ أي : الشأن ، رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ سيدى أحسن إقامتي وتربيتي ، إذ قال لك أكرمي مثواى ، فما جزاؤه أن أخونه في أهله ، أو أنه تعالى ربى أحسن منزلي بأن عطف عليّ قلب سيدى ، ولطف بي في أمورى ، فلا أعصيه ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ المجاوزون الإحسان إلى الإساءة ، أو الزناة فإن الزنى ظلم على الزاني والمزنيّ

بأهله.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها ، قال ابن جزى : أكثر الناس الكلام فى هذه الآية ، حتى ألفوا فيها التآليف ، فمنهم مفرط ومفرّط وذلك أن منهم من جعل همّ المرأة وهمّ يوسف من حيث الفعل الذي أرادته.

وذكروا من ذلك روايات من جلوسه بين رجليها ، وحله للتكّة ، وغير ذلك مما لا ينبغى أن يقال به لضعف نقله ولنزاهة الأنبياء عن مثله ، ومنهم من قال : همت به لتضربه على امتناعه ، وهمّ بها ليقتلها أو يضربها ليدفعها. وهذا بعيد يرده قوله :

لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ. ثم قال : والصواب – إن شاء اللّه – : أنها همت به من حيث مرادها ، وهمّ بها كذلك ، لكنه لم يعزم على ذلك ، ولم يبلغ إلى حد ما ذكر من حل التكّة ، بل كان همه خطرة خطرت على قلبه ، ولم يتابعها ، ولكنه بادر إلى التوبة والإقلاع عن تلك الخطرة ، حتى محاها من قلبه ، لمّا رأى برهان ربه. ولا يقدح هذا فى عصمة الأنبياء لأن الهم بالذنب ليس بذنب ، ولا نقص فى ذلك لأن من همّ بذنب ثم تركه كتب له حسنة. هـ.

قلت : وكلامه حسن لأن الخطرات لا طاقة للبشر على تركها ، وبمجاهدة مخالفتها فضّل البشر على جنس الملائكة ، وقال البيضاوي : والمراد بهمه : ميل الطبع ، ومنازعة الشهوة ، لا القصد الاختياري ، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف ، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل ، لمن يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم أو مشارفته ، كقوله : قتلته لو لم أخف اللّه. هـ. ومثله فى تفسير الفخر ، وأنه مال إليها بمقتضى الطبع ، ومنع منه بصارف العصمة ، كالصائم يشتاق الماء البارد ، ويمنعه منه صومه.

ومثله أيضا فى لطائف المنن : همت به همّ إرادة ، وهمّ

(٥٨٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٨٨

بها همّ ميل لا همّ إرادة. قال المحشى الفاسى : وفيه نظر لأن ذلك لا يتصور فى النفوس المطمئنة.

وإنما ذلك شأن أرباب التلوين والمجاهدة ، دون أهل التمكين والمشاهدة ، وخصوصا الأنبياء إذ صارت نفوسهم مشاكلة للروح ، مندرجة فيها ، ولذلك صارت مطمئنة ، وميلها حينئذ إنما يكون للطاعة ، وأما غير الطاعة ، فهى بمنزلة القذر والنتن تشمئز منه ، ولا يتصور بحال ميلها إليه. ثم أطال الكلام فى ذلك.

قلت : أما تفسير الهم بالميل فلا يليق بالنفس المطمئنة. وأما تفسيره بالخاطر فيتصور فى المطمئنة وغيرها.

وإنما سماه اللّه تعالى همّا فى حق يوسف عليه السّلام لأن الأنبياء – عليهم السّلام – لعلو منصبهم ،

وشدة قربهم من الحضرة ، يشدد عليهم فى مطالبة الأدب ، فيجعل الخاطر فى حقهم همّا ، وظنا. كما قال تعالى : حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا «١» فيمن خفف الذال ، أو كما قال تعالى فى حق يونس عليه السّلام : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ «٢» على أحد التفاسير. واللّه تعالى أعلم.
ثم قال تعالى : لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ لخالطها. والبرهان الذي رأى : قيل : ناداه جبريل : يا يوسف تكون فى ديوان الأنبياء ، وتفعل فعل السفهاء. وقيل : رأى يعقوب عاضا على أنامله ، يقول : إياك يا يوسف والفاحشة.
وقيل : تفكر فى قبح الزنى فاستبصر. وقيل : رأى زليخا غطت وجه صنمها حياء منه ، فقال : أنا أولى أن أستحى من ربى. كَذلِكَ أي : مثل ذلك التثبيت ثبتناه لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ خيانة السيد ، وَالْفَحْشاءَ ، الزنى إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ الذين أخلصناهم لحضرتنا. أو من الذين أخلصوا وجهتهم إلينا.
وَاسْتَبَقَا الْبابَ أي : تسابقا إلى الباب ، وابتدرا إليه ، وذلك أن يوسف عليه السّلام فرّ منها ليخرج حين رأى البرهان ، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج ، وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ أي : شقت قميصه من خلف لما اجتذبته لترده. والقدّ : الشق طولا ، والقطّ : الشق عرضا ، وَأَلْفَيا سَيِّدَها : وصادفا زوجها لَدَى الْبابِ وفيه إطلاق السيد على الزوج ، وإنما أفرد الباب هنا ، وجمعه فى قوله : وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ لأن المراد هنا الباب البراني الذي هو المخرج من الدار. قالَتْ لزوجها : ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ؟ قالته إيهاما أنها فرت منه تبرئة لساحتها عند زوجها ، وإغراء له عليه انتقاما لنفسها لما امتنع منها.
قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي : طالبتنى بالمواقعة بها. قال ذلك تبرئة لساحته ، ولو لم تكذب عليه ما قاله.

---

(١) من الآية : ١١٠ من سورة يوسف. [.....]
(٢) من الآية/ ٨٧ من سورة الأنبياء.

وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها ، قيل : ابن عمها. وقيل : ابن خالها صبيا فى المهد. وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف. وكونه لم يتكلم قط ، ثم تكلم كرامة ليوسف عليه السّلام ، وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «تكلم فى المهد أربعة : ابن ماشطة ابنة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى». وذكر مسلم فى صحيحه - فى قصة الأخدود - : «أن امرأة أتى بها

لتطرح فى النار ، ومعها صبى يرضع ، فقال لها : يا أمّه ، اصبري ، لا تجزعى. فإنك على الحق ..» «١» وعدّ بعضهم عشرة تكلموا فى المهد ، فذكر إبراهيم عليه السّلام ، ويحيى ابن زكريا ، ومريم ، ونبينا محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وطفلا فى زمنه عليه السّلام ، وهو : مبارك اليمامة ، وقد نظمهم السيوطي ، وزاد واحدا ، فقال :

تكلّم فى المهد النّبيّ محمّد ويحيى وعيسى والخليل ومريم

وصبيّ جريج ثم شاهد يوسف وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم

وطفل عليه مرّ بالأمة الّتى يقال لها تزنى ولا تتكلّم

وماشطة فى عهد فرعون طفلها وفى زمن الهادي المبارك تختم

وذكر ابن وهب عن أبى لهيعة قال : بلغني أن المولود فيما تقدم كان يولد فى الليل ، فيصبح يمشى مع أمه. هـ وضعف ابن عطية كون شاهد يوسف صبيا بالحديث : «لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة» ، وبأنه لو كان الشاهد صبيا لكان الدليل نفس كلامه ، دون أن يحتاج إلي الاستدلال بالقميص. هـ. وقد يجاب بأن الحصر باعتبار بنى إسرائيل ، مع أن الوحى يتزايد شيئا فشيئا ، فأخبر بثلاثة ، ثم أخبر بآخرين ، وبأن الاستدلال وقع بهما تحقيقا للقضية.

ثم ذكر الحق تعالى ما قاله الشاهد ، فقال : إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ لأنه يدل على أنها قدت قميصه من قدامه بالدفع عن نفسها. أو لأنه أسرع خلفها فعثر بذيله فانقدّ جيبه. وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ لأنها جذبته إلى نفسها حين فرّ منها. والجملة الشرطية محكية بالقول ، أي : قال : إن كان ... إلخ. وتسميتها شهادة لأنها أدت مؤداها. والجمع بين «إن» و«كان» : على تأويل : إن يعلم أنه كان ، ونحوه ، ونظيره : قولك : إن أحسنت إلىّ فقد أحسنت إليك من قبل. فإن معناه : إن تمدن على بإحسانك امنن عليك بإحسانى. ومعناه : إن ظهر أنه كان قميصه .. إلخ.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الزهد والرقائق ، باب قصة أصحاب الأخدود ...) من حديث صهيب رضى اللّه عنه.

فَلَمَّا رَأى زوجها قميص يوسف قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ أي : قولك : ما جَزاءُ ... إلخ. مِنْ كَيْدِكُنَّ من حيلتكن. والخطاب لها ولأمثالها ولسائر النساء ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ لأن كيد النساء ألطف وأعلق بالقلب

، وأشد تأثيرا من النفس والشيطان لأنهن يواجهن به الرجال ، والنفس والشيطان يوسوسان مسارقة. ثم التفت العزيز إلى يوسف وقال : يُوسُفُ أي : يا يوسف. وحذف النداء إشارة إلى تقريبه وملاطفته ، أَعْرِضْ عَنْ هذا الأمر واكتمه ، ولا تذكره ، وَاسْتَغْفِرِي يا زليخا لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ من القوم المذنبين ، من خطأ إذا أذنب متعمدا. والتذكير للتغليب. قاله البيضاوي.

الإشارة : إذا أراد اللّه أن يصافي عبده بخصوصية النبوة أو الولاية ، كلأه بعين الرعاية ، وجذبه إليه بسابق العناية فإذا امتحنه أيّده بعصمته ، وسابق حفظه ورعايته. ولا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية فالشهوة فى البشر أمر طبيعى ، وبمجاهدتها ظهر شرفه. لكن النفس المطمئنة لا تحتاج فى دفعها إلى كبير مجاهدة.

والنفس اللوامة لا بد فى دفعها من المكابدة والمجاهدة فالهواجم والخواطر ترد على القلوب كلها ، لكن النفس المطمئنة لها قوة على دفعها ، وقد تتصرف فيها بإمضاء ما قدره اللّه الواحد القهار عليها. وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً. وذلك كمال فى حقهم لا نقصان إذ بذلك تتميز قهرية الربوبية من ضعف العبودية ، فما ظهرت كمالات الربوبية إلا بظهور نقائص العبودية. أما الإصرار على العيوب فلا يوجد مع الخصوصية مطلقا ، وأما هجومها على العبد من غير إصرار فيكون مع وجود خصوصية النبوة والولاية ، وقد تقع بها الزيادة إن صحبها الانكسار والإنابة. وفى الحكم : «ربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول». واللّه تعالى أعلم.

واعلم أن ما امتحن به الصديق عليه السّلام مع العصمة ، قد وقع مثله كثيرا فى هذه الأمة المحمدية مع الحفظ والامتناع ذكر الرصاع فى كتاب التحفة : أن بعض الطلبة كان ساكنا فى مدرسة فاس ، فخرجت امرأة ذات يوم إلى الحمام بابنتها ، فتلفّت البنت وبقيت كذلك إلى الليل ، فرأت بابا خلفه ضوء ، فأتت إليه ، فوجدت فيه رجلا ينظر فى كتاب ، فقالت : إن لم يكن الخير عند هذا فلا يكون عند أحد. فقرعت الباب ، فخرج الرجل فذكرت له قصتها ، وأنها خافت على نفسها. فرأى أنه تعيّن عليه حفظها ، فأدخلها وجعل حصيرا بينه وبينها ، وبقي كذلك ينظر فى كتابه ، فإذا بالشيطان زين له عمله ، فحفظه اللّه ببركة العلم ، فأخذ المصباح ، وجعل يحرك أصابعه واحدا بعد واحد حتى أحرقها ، والبنت تنظر إليه وتتعجب ، ثم خرج ينظر إلى الليل فوجده ما زال ، فأحرق أصابع اليد الأخرى ، ثم لاح الضوء ، فقال : اخرجى ، فخرجت إلى دارها سالمة ، فذكرت القضية لوالديها ، فأتى أبوها إلى مجلس العلم ، وذكر القصة للشيخ ، فقال للحاضرين : أخرجوا أيديكم وأمنوا على دعائى لهذا الرجل ، فأخرجوا أيديهم ، وبقي رجل ، فعلم الشيخ أنه صاحب القضية ، فناداه ، فأخبره ، فذكر أنه زوجه الأب منها. هـ. مختصرا.

فمن ترك شيئا للّه عوضه اللّه مثله ، أو أحسن منه. وكذلك فعل الحق تعالى بيوسف عليه السّلام قد زوجه زليخا على ما يأتى إن شاء اللّه.
وحدثنى شيخ شيخى مولاى العربي رضى اللّه عنه ، أنه وقف على حكايات تناسب هذا وهو أن رجلا صالحا تعلق قلبه بابنة الملك ، فلما رأى نفسه أنه لا يقدر على تزوجها تلطف حتى دخل عليها فى قبتها ليلا ، فوجدها نائمة على فراشها ملقى على وجهها رداؤها ، وشمعة تشعل عند رأسها ، وأخرى عند رجلها ، وطعام موضوع عندها. فكشف عن وجهها فرأى من الجمال ما أبهر عقله فجعل يتردد فى نفسه ، ويخاصمها على فعل الفاحشة ، فبينما هو كذلك إذ أبصر لوحا فوق رأسها مكتوبا فيه وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً «١» ، فتاب للّه تعالى عليه ، وزجر نفسه عن هواها ، فوضع يده فى ذلك الطعام ليأكل منه ، وترك فيه أثرا ، فلما أفاقت البنت رأت أثر اليد فى الطعام ، فسألت أهل الدار ، فكلهم قالوا : ما دخل عليك أحد منا ، فتيقنت أن رجلا دخل عليها ، وكان يخطبها كثير ممن له الرئاسة والجاه ، فخافت على نفسها من أن يطرقها أحد منهم فيغضبها ، فقالت لأبيها : لا بد أن تزوجنى ، فقال فى نفسه : واللّه لا أزوجها الا لرجل صالح ، فخرج مختفيا إلى المدرسة ، فأتى بعض الناس ، فقال : سمعت هنا برجل صالح ، فأردت أن أزوره فأشار إلى ذلك الرجل الذي دخل على بنته ثم سأل ثانيا ، وثالثا ، فكلهم أشار إليه ، فأتى إليه فقال له : إن لى بنتا جميلة خطبها منى كثير من الناس ، فأردت أن أزوجكها ، فجهزها بما يليق بها ، وزوجها إياه. هـ.
وذكر ابن عرضون : أن رجلا كان بالقيروان من العلماء الأتقياء ، يقال له شقران ، وكان جميل الصورة ، فهوته امرأة ، فأرسلت إلى عجوز ، وأسرت إليها أمره على أن توصله إليها ، فأتت إليه العجوز ، وقالت : عندى ابنة مريضة ، وأرادت أن توصى ، وعسى أن تصل إليها وتدعو لها ، فلبس ثيابه ، ومشى معها إلى أن وصلت إلى الدار فأدخلته ، فوجد صبية جميلة ، فقالت له : هلمّ ، فقال : إنى أخاف اللّه رب العالمين. فقالت له العجوز : هيهات يا شقران ، واللّه لئن لم تفعل لأصيحنّ ، وأقول : إنك دخلت علينا وعارضتنا ، فقال لها : إن كان ولا بد فدعينى حتى أدخل الحجرة ، فقالت له : افعل ما بدا لك ، فدخل الحجرة ، فقال : اللهم إنها ما هوت منى إلا صورتى فغيّرها ، فخرج من الحجرة ، وقد ظهر عليه الجذام. فلما رأته ، قالت : اخرج ، فخرج سالما. وهذه الحكاية مشهورة ببلاد القيروان. هـ.
قلت : وقد نزل بنا فى حال شبابنا كثير مما يشبه هذا ، فحفظنا اللّه بمنّه وكرمه وحسن رعايته. فلله المنة والحمد ، لا أحصى ثناء عليه.

---

(١) من الآية ٢ من سورة الطلاق.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٩٢

ولما شاع خبر زليخا مع يوسف عليه السّلام ، عاب عليها بعض النسوة ، كما قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٣٠ الى ٣٤]

وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)

قلت : (نسوة) : اسم جمع لامرأة. وتأنيثه غير حقيقى ، ولذلك جرد فعله من التاء. و(فى المدينة) متعلق بقال ، أي : أشعن الخبر فى المدينة ، أو : صفة لنسوة ، فيتعلق بالاستقرار. و(حبا) : تمييز. و(حاش للّه) : قال أبو على الفارسي : هى هنا فعل ، والدليل على ذلك من وجهين ، أحدهما : أنها دخلت على لام الجر ، ولا يدخل حرف على حرف. والآخر : أنها حذف منها الألف ، على قراءة الجماعة ، والحروف لا يحذف منها شىء. وقرأها أبو عمرو بالألف على الأصل ، والفاعل بحاش ضمير يوسف ، أي : بعد يوسف عن الفاحشة لخوف اللّه.

وقال الزمخشري : حاش : وضع موضع المصدر ، كأنه قال : تنزيها للّه. وحذف منه التنوين مراعاة لأصله من الحرفية. وقال البيضاوي : هو حرف يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء ، فوضع موضع التنزيه. واللام للبيان ، كما فى قولك : سقيالك. هـ. و(ليكونن) : نون التوكيد الخفيفة كتبت بالألف لشبهها بالتنوين.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ : مصر ، وكانوا خمسا : زوجة الحاجب ، والساقي ، والخباز ، والسجان ، وصاحب الدواب. قلن : امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها : خادمها عَنْ نَفْسِهِ أي : تطلب مواقعة غلامها إياها ، قَدْ شَغَفَها حُبًّا قد دخل شغاف قلبها حبّه ، وهو غلافه ، إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ فى خطأ عن الرشد بيّن ظاهر. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ باغتيابهن. وسماه مكرا لأنهن أخفينه كما يخفى الماكر مكره. وقيل : كانت استكتمتهن سرها فأفشينه. فلما بلغها إفشاؤه أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ تدعوهن. قيل :

دعت أربعين امرأة فيهن الخمس. وَأَعْتَدَتْ : أعدت لَهُنَّ مُتَّكَأً ما يتكئن عليه من الوسائد ونحوها.
وقيل : المتكأ : طعام ، فإنهم كانوا يتكئون للطعام عند أكله ، وقرىء فى الشاذ : «متكأ» ، بسكون التاء وتنوين الكاف ، وهو الأترج. وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ليقطعن به. وهذا يدل على أن الطعام كان مما يقطع بالسكاكين كالأترج. وقيل : كان لحما.
وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فأسعفها لأنه كان مملوك زوجها ، فخرج عليهن ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ : عظمن شأنه وجماله الباهر ، وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر». وقيل : كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران. وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ : جرحنها بالسكين لفرط الدهشة. اشتغلن بالنظر إليه ، وبهتن من جماله حتى قطعن أيديهن ، وهنّ لا يشعرن ، كما يقطع الطعام. وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ تنزيها له عن صفات العجز عن أن يخلق مثله. أو تنزيها له أن يجعل هذا بشرا. اعتقدوا أن الكمال خاص بالملائكة ، وكونه فى البشر فى حيز المحال ، أو تعجبا من قدرته على خلق مثله. ما هذا بَشَراً لأن هذا الجمال غير معهود للبشر. ، إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ على اللّه لأن الجمع بين الجمال الرائق ، والكمال الفائق ، والعصمة البالغة.
من خواص الملائكة.
قالَتْ لهن : فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ توبيخا لهن على اللوم ، أي : فهو ذلك الغلام الكنعانى ، الذي لمتننى فى الافتتان به قبل أن ترونه. ولو كنتن رأيتنّه لعذرتنّى ، وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ : فامتنع طلبا للعصمة. أقرت لهن حين عرفت أنهن يعذرنها كي يعاونها على إلانة عريكته ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ به لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ الأذلاء ، وهو من صغر ، بالكسر ، يصغر صغارا. فقلن له : أطع مولاتك.
قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ من فعل الفاحشة بالنظر إلى العاقبة. وإن كان مما تشتهيه النفس. لكن ربّ شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا. قيل : إنما ابتلى بالسجن لقوله هذا ، وإنما كان اللائق به أن يسأل اللّه العافية ، فالاختيار لنفسه أوقعه فى السجن ، ولو ترك الاختيار لكان معصوما من غير امتحان بالسجن ، كما كان معصوما وقت المراودة ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي : وإن لم تصرف عنى كَيْدَهُنَّ من تحبيب ذلك إلىّ ، وتحسينه عندى بالتثبيت على العصمة ، أَصْبُ إِلَيْهِنَّ أمل إلى جانبهن بطبعي ومقتضى شهوتى ، وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ من السفهاء بارتكاب ما يدعوننى إليه. فإن الحكيم لا يفعل ما هو قبيح. أو من الذين لا يعملون بما يعلمون ، فإنهم جهال ، وكلامه هذا : تضرع إلى اللّه تعالى ، واستغاثة به.

فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ : أجاب دعاءه الذي تضمنه كلامه ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ حيث ثبته على العصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن ، وآثرها على اللذة الفانية إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لدعاء الملتجئين إليه ، الْعَلِيمُ بإخلاصهم أو بما يصلح بهم.

الإشارة : الحب إذا كان على ظاهر القلب ، ولم يخرق شغافه ، كان العبد مع دنياه ، وآخرته ، بين ذكر ، وغفلة.

فإذا دخل سويداء القلب ، وخرق شغافه نسى العبد دنياه وأخراه ، وغاب عن نفسه وهواه ، وضل فى محبة مولاه.

ولذلك قيل لعاشقة يوسف : (إنا لنراها فى ضلال مبين) أي : فى استغراق فى المحبة حتى ضل عنها ما دون محبوبها. ومنه قوله تعالى : وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى «١» أي : وجدك ضالا فى محبته ، فهداك إلى حضرة مشاهدته ومقام قربه ، فكان قاب قوسين أو أدنى. وعلامة دخول المحبة شغاف القلب أربعة أشياء : الاستيحاش ، والإيناس ، وذكر الحبيب مع الأنفاس ، وحضوره مع الخواطر والوسواس. وأنشدوا :

تاللّه ما طلعت شمس ولا غربت إلّا وذكرك مقرون بأنفاسى

ولا جلست إلى قوم أحدّثهم إلّا وأنت حديثى بين جلّاسى

ولا شربت لذيذ الماء من ظمأ إلا رأيت خيالا منك فى الكأس

إن كان للنّاس وسواس يوسوسهم فأنت واللّه وسواسى وخنّاسي

لو لا نسيم بذكراكم أفيق به لكنت محترقا من حرّ أنفاسى

وقال آخر :

خيالك فى وهمي ، وذكرك فى فهمى ومثواك فى قلبى ، فأين تغيب؟

قوله تعالى : (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ....) الآية : أدهشتهم طلعة يوسف ، وجماله الباهر. وزليخا لما استمرت معه لم تفعل شيئا من ذلك. كذلك المريد إذا استشرف على أنوار الحضرة وجمالها ، أدهشته وحيرته ، فلو لا التأييد الإلهى ما أطاقها ، فإذا صبر على صدماتها واستمر مع تجليات أنوارها ذهب دهشه ، واطمأن قلبه بشهود محبوبه من وراء أردية العز والكبرياء ، وهذه هى الطمأنينة الكبرى والسعادة العظمى.

وقوله تعالى : (قال رب السجن أحب إلىّ) ، هكذا ينبغى للعبد أن يكون يختار ما يبقى على ما يفنى فرب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا ، ورب صبر ساعة أورثت نعيما جزيلا. وباللّه التوفيق.

---

(١) الآية ٧ من سورة الضحى.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٩٥

ثم ذكر سجن يوسف ، وما يتبعه من إخراجه ، وتمليكه وتمكينه ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٣٥ الى ٣٨]

ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨)

قلت : (ليسجننه) : مفسر للفاعل ، أي : ظهر لهم سجنه إذ الجملة لا تكون فاعلا على المشهور ، وجوزه بعضهم مستدلا بالآية. وقيل : محذوف ، أي : بدا لهم رأى ليسجننه. وقال الإمام القصار ، الفاعل هو القسم المفهوم من اللام الموطئة له ، أي : بدا لهم قسمهم ليسجننه.

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ بَدا لَهُمْ أي : ظهر للعزيز وأهله ، مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ الدالة على براءة يوسف كشهادة الصبى ، وقدّ القميص ، وقطع الأيدى ، واستعصامه منهن ، فظهر لهم سجنه. وأقسموا لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ : حتى يظهر ما يكون منه ليظن الناس أنها محقة فيما ادعت عليه. فخدعت زوجها حتى وافقها على سجنه. وروى أنه لما أدخل السجن ندمت زليخا على سجنه ، وعيل صبرها على فراقه ، فأرسلت إلى السجان ليطلقه ، فأبى ، فلبث فيه سبع سنين.

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ أي : فسجنوه واتفق أنه دخل معه فى ذلك اليوم رجلان آخران ، من عبيد الملك : ساقيه وخبازه ، اتهما أنهما أرادا أن يسمّاه ، قالَ أَحَدُهُما وهو الساقي : إِنِّي أَرانِي فى المنام أَعْصِرُ خَمْراً أي : عنبا. وسماه خمرا : باعتبار ما يؤول إليه. روى أنه قال : رأيت كأن الملك دعانى وردنى إلى قصره ، فبينما أنا أدور فى القصر ، وإذا بثلاثة عناقيد من العنب ، فعصرتها ، وحملت ذلك إلى الملك لأسقيه له.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٩٦

وَقالَ الْآخَرُ وهو الخباز : إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ : تنهش الطَّيْرُ مِنْهُ ، قال :

رأيت كأن العزيز دعانى ، وأخرجنى من السجن ، ودفع لى طيفورة عليها خبز ، فوضعتها على رأسى ، والطير تأكل منه. نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا. وإنما قالا له ذلك لأنهما رأياه فى السجن يعظ الناس ويعبر رؤياهم ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، كان عليه السّلام إذا رأى محتاجا طلب له ، وإذا رأى مضيقا وسع عليه فقالا له : فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه.

قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ فى النوم ، إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما تأويله فى الدنيا.

أو : لا يأتيكما طعام ترزقانه فى اليقظة لتأكلاه إلا أخبرتكما به ، ما هو؟ وما لونه؟ وما صفته؟ وكم هو؟ قبل أن يأتيكما ، إخبارا بالغيب ، فيأتيهما كذلك معجزة. وصف نفسه بكثرة العلم والمكاشفة ليكون وسيلة إلى دعائهما إلى التوحيد.

ثم قال لهما : ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي بالوحى والإلهام. وليس ذلك من قبيل التكهن أو التنجيم. روى أنهما قالا له : من أين لك هذا العلم ، وأنت لست بكاهن ولا منجم؟ فقال لهما : ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ طريقة قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ أي : علمنى ذلك لأنى تركت ملة أهل الكفر ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ، وإنما قال ذلك تمهيدا للدعوة ، وإظهارا أنه من بيت النبوة لتقوى رغبتهما فى الاستماع إليه ، والوثوق به. ما كانَ لَنا : ما صح لنا معشر الأنبياء أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ أىّ شرك كان ، ذلِكَ التوحيد مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا بالوحى وَعَلَى النَّاسِ ببعثنا إليهم ، وإرشادنا إياهم وتثبيتهم عليه ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ هذا الفضل فيعرضون عنه. أو من فضل اللّه علينا بالوحى والإلهام ، وعلى الناس بنصب الدلائل وإنزال الآيات. ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها ، ولا يستدلون بها ، فيوحدون خالقها ، فهم كمن كفر النعمة ولم يشكرها.

الإشارة : جرت عادة الحق - تعالى - فى خلقه أنه لا يأتى الامتكان إلا بعد الامتحان ، ولا يأتى السلوان إلا بعد الأشجان ، ولا يأتى العز إلا بعد الذل ، ولا يأتى الوجد إلا بعد الفقد. فبقدر ما يضيق على البشرية تتسع ميادين الروحانية ، وبقدر ما تسجن النفس وتحبس عن هواها ، تتسع الروح فى مشاهدة مولاها.

(٥٩٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٩٧

وقوله تعالى : وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ : إشارة إلى أن امتحانه بالسجن كان لتكميل حقيقته وشريعته ، فمن رأى أنه يحمل الطعام فإشارة إلى حمل لواء الشريعة ، ومن رأى أنه يعصر خمرا فإشارة إلى تحقيق خمرة الحقيقة ، فيكون من أهل مقام الإحسان ، ولذلك قال : إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، ثم ذكر نتيجة

مقام الإحسان – وهو التوحيد الخاص – فقال : ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْ ءٍ. وذكر أن ذلك ناله من باب الكرم لا من باب العمل ، فقال : ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ. واللّه تعالى أعلم.
ثم دعاهم إلى التوحيد ، فقال :
[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٣٩ الى ٤٠]
يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)
قلت : الإضافة فى (صاحبى السجن) : على معنى (فى) كقولك :
يا سارق الليلة أهل الدّار.
يقول الحق جل جلاله : يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أي : يا ساكنيه ، أو يا صاحبى فيه أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ : متعددون ، خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ المتوحّد فى الألوهية ، الْقَهَّارُ : الغالب على أمره ، لا يقاومه غيره ، ما تَعْبُدُونَ أنتم ومن على دينكم من أهل مصر ، مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ أي : ما تعبدون إلا مسميات أسماء من الحجارة والخشب ، سميتموها آلهة من غير حجة تدل على استحقاقها للعبادة. والمعنى : سميتم آلهة ما لا يستحق الألوهية ، ثم عبدتموها. ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها أي : بعبادتها مِنْ سُلْطانٍ : من حجة ولا برهان. إِنِ الْحُكْمُ فى أمر العبادة إِلَّا لِلَّهِ لأنه المستحق لها دون غيره ، من حيث إنه الواجب لذاته ، الموجد للكل ، هو المالك لأمره ، أَمَرَ على لسان أنبيائه أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ولا تعبدوا معه سواه ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ القويم الذي لا عوج فيه ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ دلائل توحيده ، فيتخبطون فى جهالتهم. قال البيضاوي : وهذا من التدرج فى الدعوة وإلزام الحجة بيّن لهم أولا : رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة ، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ،

ويعبدونها لا تستحق الألوهية ، ثم دل على ما هو الحق القويم ، والدين المستقيم ، الذي لا يقتضى العقل غيره ، ولا يرتضى العلم دونه. هـ.
الإشارة : كل من لم يجمع قلبه على مولاه ، واتبع حظوظه وهواه ، فله أرباب متفرقون بقدر ما يميل إليه قلبه من هذا العرض الفاني. قال ابن عطية : وقد ابتلى بأرباب متفرقين من يخدم أبناء الدنيا ويؤملهم. هـ. وفى الحديث : «خاب من رجى غير اللّه وضلّ سعيه ، وطاب وقت من وثق باللّه». وللّه در القائل :

حرام على من وحّد اللّه ربّه وأفرده أن يجتدى أحدا رفدا
فيا صاحبى قف بي على الحق وقفة موت بها وجدا وأحيا بها وجدا
وخلّ ملوك الأرض تجهد جهدها فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى
ثم فسر لهما الرؤيا ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (٤١) وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)

قلت : (منهما) : يتعلق بظن ، والظن يحتمل أن يكون بمعنى اليقين لأن قوله : (قضى الأمر) يقتضى ذلك ، أو يبقى على بابه.

يقول الحق جل جلاله : قال يوسف : يا صاحِبَيِ السِّجْنِ المستفتيان عن الرؤيا ، أَمَّا أَحَدُكُما وهو الساقي ، فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً كما كان يسقيه قبل ، ويعود إلى ما كان عليه ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، فقالا : كذبنا ما رأينا شيئا ، فقال : قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ ، سبق به القضاء فى الأزل ، وهو ما يؤول إليه أمركما ، ولذلك وحده ولم يقل : قضى أمراكما. روى أنه لما دعاهما إلى التوحيد أسلم الساقي وأبى الخباز ، فأخرج بعد ثلاث وصلب.

وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا يوسف ، أي : تيقن ، أو غلب على ظنه أنه ناج منهما ، إما عن وحي ، على الأول ، أو باجتهاد بسبب الرؤيا : اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ عند سيدك ، وهو الملك ، وقل له : غلام سجن ظلما ،

لعله يخلصنى. قال ابن عطية : يحتمل أن يذكره بعلمه ومكانته ، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق. أو يذكره بهما. هـ. وقال الورتجبي : يحتمل أن قوله : اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ : عرّف له طريقتى مع اللّه حتى يعرفنى أني رسول اللّه ، ويطيعنى فى طاعة اللّه ، وينجو بذلك من عذابه ، ويصل إلى ثوابه ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وليوحد اللّه تعالى ، ويتخلص من كيد الشيطان ، وما معه من الإنسان. هـ.

فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ أي : فأنسى الساقي أن يذكر يوسف لربه. أو أنسى يوسف ذكر اللّه حتى استغاث بغير ، فأدبه ، فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «رحم اللّه أخى

يوسف ، لو لم يقل : اذكرني عند ربّك ، لما لبث فى السّجن سبعا بعد الخمس».
روى أن جبريل عليه السّلام أتاه بعد المقالة ، فقال له : من أخرجك من الجبّ ، وخلّصك من القتل ، وعصمك من الفاحشة؟ فقال : اللّه. فقال : كيف تعتصم بغيره ، وتثق بالمخلوق ، وترفع قصتك إليه ، وتترك ربك؟! قال :

يا جبريل كلمات جرت على لسانى ، وأنا تائب لا أعود لمثلها. هـ. والاستعانة بالمخلوق ، وإن كانت جائزة شرعا ، لكنها لا تليق بمقام الأقوياء. فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ البضع : من الثلاث إلى التسع. روى أن يوسف عليه السّلام سجن خمس سنين أولا ، ثم سجن بعد المقالة سبع سنين.

الإشارة : النسيان والغفلة التي لا تثبت فى القلب ، والخواطر التي ترد وتذهب من أوصاف البشرية التي لا تنافى الخصوصية ، إذ لا انفكاك للعبد عنها. قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ «١» فالطيف لا ينجو منه أحد لأنه من جملة أوصاف العبودية التي بها تعرف كمالات الربوبية. وقد قال تعالى فى حق سيد العارفين : وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ «٢» فالعصمة التي تجب للأنبياء إنما هى مما يوجب نقصا أو غضا من مرتبتهم. وهذه الأمور إنما توجب كمالا لأنها بها يتحقق كمال العبودية التي هى شرف العبد. فافهم وسلم ، ولا تنتقد ، فإن هذه الأمور لا يفهمها إلا العارفون باللّه ، دون غيرهم من أهل العلم الظاهر.

وقال الورتجبي : إن يوسف عليه السّلام لم يعلم وقت إيمان الملك ، ولم يأت وقت دخوله فى الإسلام ، فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فى سابق حكمه ، على تقدير وقت إيمان الملك ، فلبث فى السجن إلى وقت إيمان الملك ، فنسيان يوسف : احتجابه عن النظر إلى قدره السابق. هـ.

---

(١) من الآية ٢٠١ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف.

ثم ذكر سبب خروجه من السجن ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٤٣ الى ٤٩]

وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ (٤٣) قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (٤٤) وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا

الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧)

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)

قلت : يقال : عبرت الرؤيا – بالتخفيف – عبارة ، وهو أفصح من عبّرت – بالتشديد – تعبيرا. واللام للبيان ، أو لتقوية العامل لضعف الفعل بتأخيره عن مفعوله. والأصل : تعبرون الرؤيا. وأصل (ادكر) : اذتكر ، فقلبت التاء دالا مهملة ، وأدغمت المعجمة فيها فبقيت دالا. وإليه أشار ابن مالك بقوله : فى ادّان وازدد وادّكر دالا بقي «١» و(دأبا) حال ، أي : دائبين ، أو مصدر بإضمار فعله ، أي : تدأبون دأبا. وفيه لغتان : السكون ، والفتح.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الْمَلِكُ وهو ملك مصر الذي كان العزيز وزيرا له ، واسمه : «ريان بن الوليد». وقيل : «مصعب بن الريان» ، وكان من الفراعنة – روى أن يوسف عليه السّلام لما لبث فى السجن سبع سنين سجد ، وقال : إلهى ، خلصنى من السجن. فكلما دعا يوسف أمنت الملائكة ، فاتفق فى الليلة التي دعا فيها يوسف أن رأى الملك تلك الرؤيا التي ذكرها بقوله : إِنِّي أَرى فى المنام سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ خرجن من نهر يابس ، وسبع بقرات عجاف – مهازيل – خرجن بأثرهن فابتلعت المهازيل السمان ، وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ قد انعقد حبّها ، وَسبعا أُخَرَ يابِساتٍ قد أدركت ، فالتوت اليابساتعلى الخضر حتى غلبن عليها. فلما رأى

---

(١) صدر البيت : (طاتا افتعال رد إثر مطبق). انظر باب الإبدال.

ذلك انتبه مرعوبا ، وجمع ندماءه ، ودعا المفسرين ، فقال : يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيايَ اعبروها ، إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ أي : إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا.

قالُوا : هذه أَضْغاثُ أَحْلامٍ تخاليطها ، جمع ضغث ، وأصله : ما جمع من أخلاط النبات وحزم ، فاستعير للرؤيا الكاذبة. وإنما جمعوا أَحْلامٍ للمبالغة فى وصف الحلم بالكذب. ثم قالوا : وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ ، والمعنى : ليس لها تأويل عندنا لأنها أكاذيب الشيطان ، وإنما التأويل للمنامات الصادقة.

وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما من صاحبى السجن ، وهو الساقي ، وكان حاضرا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أي : وتذكر بعد جماعة من السنين ، وهى سبع سنين ، أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ إلى من عنده علمها ، أو إلى السجن.
روى أنه لما سمع مقالة الملك بكى ، فقال الملك : مالك تبكى؟ قال : أيها الملك إن رؤياك هذه لا يعبرها إلا الغلام العبراني الذي فى السجن ، فتغير وجه الملك ، وقال : إنى نسيته ، وما ذكرته منذ سبع سنين ، ما خطر لى ببال. فقال الساقي : وأنا مثلك ، فقال له الملك : وما يدريك أنه يعبر الرؤيا؟
فحدثه بأمره ، وأمر الساقي فقال له : امض إليه وسله ، فقال : إني واللّه أستحى منه لأنه أوصانى ونسيت ، فقال له : لا تستح منه لأنه يرى الخير والشر من مولاه فلا يلومك. فأتاه.
فقال : يُوسُفُ أي : يا يوسف ، أَيُّهَا الصِّدِّيقُ : المبالغ فى الصدق. وإنما وصفه بالصّدّيقية لما جرب من أحواله ، وما رأى من مناقبه ، مع ما سمع من تعبير رؤياه ورؤيا صاحبه ، أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ ، وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ أي : أفتنى فى رؤيا ذلك واعبرها لى ، لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ أي : أعود إلى الملك ومن عنده ، أو إلى أهل البلد إذ قيل : إن السجن كان خارج البلد.
لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ تأويلها. أو يعلمون فضلك ومكانتك. وإنما لم يجزم بعلمهم لأنه ربما اخترم دونه ، أو لعلهم لا يفهمون ما يقول لهم.
قالَ فى تعبيرها : تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً أي : على عادتكم المستمرة من الخصب والرخاء.
فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ : اتركوه فِي سُنْبُلِهِ لئلا تأكله السوس ، وهى نصيحة خارجة عن عبارة الرؤيا ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ فى تلك السنين ، أي : لا تدرسوا منه إلا ما تحتاجون إلى أكله خاصة ، وذلك أن أرض مصر لا يبقى فيها الطعام عامين. فعلمهم حيلة يبقى بها السنين المخصبة إلى السنين المجدبة ، وهو أن يتركوه فى سنبله غير مدرس فإن الحبة إذا بقيت فى غشائها حفظت بإذن اللّه.

(٦٠١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٠٢
ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ أي : ذات شدة وجوع يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ أي : يأكل أهلهن ما ادخرتم لأجلهن. أسند الأكل إلى السنين مجازا تطبيقا بين المعبر والمعبر به ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ أي :
مما تخزنون وتخبئون للزراعة والبذر. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ أي : يغيثهم اللّه بالفرج من القحط ، أو يغاث بالمطر ، لكن مصر إنما تسقى من النيل. وَفِيهِ أيضا يَعْصِرُونَ العنب والزيتون لكثرة الثمار. أو يعصرون الضروع لحلب اللبن لأجل الخصب. وهذه بشارة بشرهم بها بعد أن أوّل

البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة. والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع فى السنين المخصبة فى السنين المجدبة. ولعله علم ما فى السنة الثامنة من الخصب والرخاء بالوحى ، أو بأن انتهاء الجدب لا يكون إلا بالخصب ، وبأن سنة اللّه الجارية أن يوسع على عباده بعد ما ضيّق عليهم ، لقوله فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً «١». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الروح فى أصل نشأتها علامة داركة ، تكاشف بالأمور قبل وقوعها ، إذا غابت عن إحساسها الذي حجبها عن ذلك العلم ، ولو كانت من كافر إذا غابت عن حسها بنوم ، أو اصطلام عقل. فمن طهرها من دنس الشرك بالتوحيد ، وغيبها عن شواغل الحس بالتفرغ والتجريد ، رجعت إلى أصلها ، وفاضت عليها العلوم التي كانت لها قبل التركيب فى هذا القالب الحسى ، علما وكشفا. ولا شىء أنفع لها فى الرجوع من السهر والجوع. وفى الجوع أسرار كثيرة حسية ، ومعنوية ، وبسببه جمع اللّه شمل يوسف بأبيه وإخوته. وبه أيضا ملّك اللّه يوسف ونصره ومكنه فى الأرض حتى ملك مصر وأهلها.

ولذلك قال نبينا - عليه الصلاة والسّلام - : «اللهم أعنّى عليهم - أي على قريش - بسبع كسبع يوسف» «٢».

وذكر الغزالي فى الإحياء ، فى أسرار الجوع ، أربعين خصلة. وفى بعض الأثر : (أن اللّه تعالى عذب النفس بأنواع من العذاب ، ومع كل عذاب يقول لها : من أنا؟ فتقول هى : ومن أنا؟ حتى عذبها بالجوع ، فقالت : أنت ربى سبحانك الواحد القهار). والممدوح منه هو المتوسط دون إفراط ولا تفريط ، كما قال البوصيرى :

واخش الدّسائس من جوع ومن شبع فربّ مخمصة شرّ من التّخم

وباللّه التوفيق.

---

(١) الآية ٥ من سورة الشرح.

(٢) أخرجه البخاري فى أكثر من موضع ، منها : (كتاب التفسير - سورة الروم).

ثم ذكر خروجه من السجن وتمكينه من الملك ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٥٠ الى ٥٧]

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ

مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (٥٢) وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)

قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

يقول الحق جل جلاله : ولما جاء الرسول من عند يوسف بالتعبير ، وسمعه الملك ، تعجب منه ، واستعظم علمه وعقله وقال : لا ينبغى لمثل هذا أن يسجن ، ائْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ ليخرجه ، قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ : ما شأنهن حتى قطعن أيديهن ، وهل رأين منى ميلا إليهن. وإنما تأنى فى الخروج ، وقدّم سؤال النسوة ، والفحص عن حاله ليظهر براءة ساحته ، وليعلم الملك أنه سجن ظلما ، فلا يقدر الحاسد أن يتوسل به إلى تقبيح أمره. وفيه دليل على أنه ينبغى أن يتقى مواضع التهم ، ويجتهد فى نفيها ، وفى الحديث : «من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التّهم».

وفيه دليل على حلمه وصبره ، وعدم اهتباله بضيق السجن إذ لم يجب الداعي ساعة دعى بعد طول سجنه.

ومن هذا المعنى تواضع معه نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم حيث قال : «لو لبثت فى السّجن ما لبث يوسف لأجبت الدّاعى» «١». ولم يذكر امرأة العزيز كرما ، ومراعاة للأدب ، ورعيا لذمام زوجها ، وسترا لها. بل ذكر النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

---

(١) أخرجه البخاري فى (تفسير يوسف - باب فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك ...) عن أبى هريرة رضى اللّه عنه.

ثم قال : إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ حين قلن لى : أطع مولاتك. وفى عبارته تعظيم لكيدهن ، والاستشهاد عليه بعلم اللّه ، وبراءته مما قذف به ، والوعيد لهن على كيدهن. ثم جمع الملك النسوة ، وكن ستّا أو سبعا ، مات منهن ثلاث ويوسف فى السجن ، وبقي أربع ومعهن امرأة العزيز. وقالَ لهن : ما خَطْبُكُنَّ ما

شأنكن إِذْ راوَدْتُنَّ أي : حين راودتن يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ، وأسند المراودة إلى جميعهن لأن الملك لم يتحقق أن امرأة العزيز هى التي راودته وحدها. قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ تنزيها للّه أن يعجز عن خلق عفيف مثله ، أو تنزيها ليوسف أن يعصيه لأجل خوف اللّه. وهذه تبرئة ليوسف ولهن ، أو لهن فقط. وتكون تبرئة يوسف فى قولهن :

ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ : من ذنب.

قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أي : تبين ووضح ، أو ثبت واستقر ، أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فى قوله : راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي فلما رجع إليه الرسول ، وذكر ما قالته النسوة ، وما أقرت به امرأة العزيز ، قال : ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ أي : فعلت ذلك التثبت والتأنى فى الخروج ليعلم العزيز أنى لم أخنه فى زوجته بِالْغَيْبِ فى حال غيبته ، أو بظهر الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة ، بل تعففت عنها. وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ أي : لا ينفذه ولا يسدده. أو لا يهدى الخائنين لكيدهم. وأوقع الفعل على الكيد مبالغة. وفيه تعريض بامرأة العزيز فى خيانتها زوجها ، وتوكيد لأمانته.

روى عن ابن عباس أنه لما قال : لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ قال له جبريل عليه السّلام : ولا حين هممت. فقال : وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي لا أنزهها فى عموم الأحوال ، أو لا أزكيها على الدوام. قاله تواضعا وإظهارا للعبودية ، وتنبيها على أنه لم يرد بذلك تزكية نفسه ، ولا العجب بحاله ، بل إظهارا لنعمة العصمة والتوفيق.

ثم قال : إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ بحيث إنها مائلة بالطبع إلى الشهوات ، فتهم بها ، وتستعمل القوى والجوارح فى نيلها فى كل الأوقات. ، إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي : إلا وقت رحمة ربى بالعصمة والحفظ ، أو : إلا ما رحم اللّه من النفوس فيعصمها من ذلك. وقيل : الاستثناء منقطع ، أي : لكن رحمة ربى هى التي تصرف الإساءة ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ، يغفر ما همت به النفوس ، ويرحم من يشاء بالعصمة. أو يغفر للمستغفر ذنبه المعترف على نفسه ، ويرحمه بالتقريب بعد تعرضه للإبعاد.

وقيل : إن قوله تعالى : ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ إلى هنا ، هو من كلام زليخا. والأول أرجح «١».

---

(١) ورجح الحافظ ابن كثير القول الثاني ، وقال : إنه الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة.

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي أي : أجعله خاصتى وخلاصتى ، أو أجعله خالصا لنفسى. قال

أولا : ائْتُونِي بِهِ فقط ، فلما تبين له حاله وظهر كماله ، قال : ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي روى أنه لما أراد أن يخرجه أرسل إليه بخلعة يأتى فيها ، وكان بين السجن والبلد : أربعة فراسخ ، فقال يوسف : لا أخرج من السجن حتى لا يبقى فيه أحد ، فأمر الملك بخروج جميع من فيه. فلما خرج من السجن اغتسل وتنظف ، ولبس ثيابا جددا ، فلما دخل على الملك ، قال : اللهم إنى أسألك من خيره ، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره. ثم سلّم عليه ودعا له بالعبرانية ، فقال : ما هذا اللسان؟. فقال : لسان آبائي. وكان الملك يعرف سبعين لسانا ، فكلمه بها ، فأجابه بجميعها ، فتعجب منه ، فقال : أحب أن أسمع رؤياى ، فحكاها ، ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها ، فأجلسه على السرير ، وفوض إليه أمره. وهذا معنى قوله تعالى : فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ أي : فلما أتوا به وكلمه وشاهد منه الرشد والدهاء ، قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ عندنا مَكِينٌ أي : فى مكانة ومنزلة ، أَمِينٌ :

مؤتمن على كل شيء ، ثم فوض إليه أمر المملكة.

وقيل : توفى قطفير – أي : العزيز – فنصّبه منصبه ، وزوجه من زليخا بعد أن شاخت ، وافتقرت ، فدعا اللّه تعالى فرد عليها جمالها وشبابها ، فوجدها عذراء ، وولد منها إفرائيم وميشا. ثم قال له الملك : ما ترى نصنع فى هذه السنين المخصبة؟.

قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ أي : أرض مصر ألى أمرها. والخزائن : كل ما يخزن فيه طعام ومال وغيرهما. إِنِّي حَفِيظٌ لها ممن لا يستحقها ، عَلِيمٌ بوجوه التصرف فيها. قال البيضاوي : ولعله عليه السّلام لما رأى أنه يستعمله فى أمره لا محالة ، آثر ما تعم فوائده وعوائده ، وفيه دليل على جواز طلب التولية ، وإظهار أنه مستعد لها ، والتولي من يد الكافر ، إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به. وعن مجاهد : أن الملك أسلم على يديه. هـ. قلت : وقد تقدم عن الورتجبي ما يدل عليه.

وقال ابن عطية : وطلب يوسف للعمل إنما هو حسبة منه عليه السّلام لرغبته أن يقع العدل ، ونحو هذا هو دخول أبى بكر رضى اللّه عنه فى الخلافة ، مع نهيه المستشير له من الأنصار عن أن يتأمّر على اثنين. فجائز للفاضل أن يعمل ويطلب العمل إذا رأى ألا عوض منه. هـ. وفى «الاكتفاء فى أخبار الخلفاء» : أن عمر أراد أبا هريرة على العمل ، فامتنع ، فقال له : أوليس يوسف خيرا منك ، وقد طلب العمل؟ فقال : يوسف نبى بن نبى ، وأنا ابن أميمة ، فأنا أخاف ثلاثا واثنين : أن أقول بغير علم ، وأقضى بغير عدل ، وأن يضرب ظهرى ، ويشتم عرضى ، ويؤخذ مالى. هـ.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٠٦

وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ أي : ومثل ذلك الصنع الجميل الذي صنعنا بيوسف مكناه فِي الْأَرْضِ أرض مصر ، يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ : ينزل من بلادها حيث يريد هو ، أو ينزل منها حيث نريد «١» ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ فى الدنيا والآخرة ، وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، بل نوفى أجورهم عاجلا وآجلا.

ويوسف أفضلهم فى زمانه ، فمكّنه اللّه من أرض مصر ، حتى ملكها بأجمعها وذلك أنه لما فوض إليه الملك اجتهد فى جمع الطعام وتكثير الزراعات ، حتى دخلت السنون المجدبة ، وعم القحط مصر والشام ، ونواحيهما ، وتوجه الناس إليه ، فباعهم فى السنة الأولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق لهم منها شىء ، ثم فى السنة الثانية بالحلى والحلل ، ثم فى السنة الثالثة بأمتعة البيوت ، ثم فى الرابعة بالدواب ، ثم فى الخامسة بالرباع والعقار ، ثم فى السادسة بأولادهم ، ثم فى السابعة برقابهم حتى استرقهم جميعا ، ثم عرض الأمر على الملك فقال : الرأى رأيك. فأعتقهم ورد إليهم أموالهم.

قال تعالى : وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ الشرك والفواحش ، فهو أحق بالرغبة وأولى بالطلبة. وقال ابن جزى فى قوله : نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ : الرحمة هنا المراد بها الدنيا ، وكذلك الأجر فى قوله : وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ بدليل قوله بعد ذلك : وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ فأخبر تعالى أن رحمته فى الدنيا يصيب بها من يشاء من مؤمن وكافر ، وطائع وعاص ، وأن المحسنين لا بد من أجرهم فى الدنيا. فالأول فى المشيئة ، والثاني واقع لا محالة. ثم أخبر أن أجر الآخرة خير من ذلك كله لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ ، وفيه إشارة إلى أن يوسف عليه السّلام جمع اللّه له بين الدنيا والآخرة. هـ.

الإشارة : فى الآية ثلاث فوائد : الأولى : مدح التأنى فى الأمور ، ولو كانت جلالية لأنه يدل على كمال العقل والرزانة ، وطمأنينة القلب. وذم العجلة لأنها من خفة العقل والطيش ، وعدم الصبر والاحتمال. يؤخذ ذلك من تأنى يوسف عليه السّلام فى السجن بعد طول مدته. وفى الحديث : «التّأنّى من اللّه ، والعجلة من الشّيطان» «٢».

الثانية : عدم تزكية النفس ، ودوام اتهاما ، ولو بلغت من التصفية ما بلغت. وقد تقدم فى قوله تعالى : وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها «٣» ، وقال بعض الصوفية : وكيف يصح لعاقل أن يزكى نفسه والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يقول : إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ، والنفوس ثلاثة : أمارة ، ولوامة ، ومطمئنة. وزاد بعضهم : اللهامة من قوله تعالى : فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها «٤» ..

---

(١) هذا المعنى على قراءة (نشاء) بالنون ، وبها قرأ ابن كثير ، انظر الإتحاف (٢/ ١٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي فى (كتاب البر والصلة ، باب ما جاء فى التأنى والعجلة) بلفظ «الأناة» ، من حيث سهل بن سعيد الساعدي ، وأخرجه - بلفظ المفسر ، البيهقي فى : شعب الايمان ، من حديث أنس. وضعف السيوطي حديث البيهقي. انظر الجامع الصغير (ح/ ٣٣٩٠)

(٣) من الآية ٧٠ من سورة الأنعام. [.....]
(٤) الآية : ٨ من سورة الشمس.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٠٧

الثالثة : تسلية أهل البلاء ، إذا صحبهم الإحسان والتقوى ، وبشارتهم بالعز بعد الذل ، والغنى بعد الفقر ، والنصر والتمكين فى الأرض بعد الاستضعاف والهوان ، يؤخذ ذلك من قوله : وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وفى ذلك يقول الشاعر :

وكلّ عبد أراد اللّه عزّته فهو العزيز ، وعزّ اللّه يغشاه

قد لاح عزّ له فى الأرض منتشر فهو الحبيب لمن ناداه لبّاه

يا حسنه ومتى قد طال مطلبه تاج البرية والرحمن صفّاه.

ولما أصاب أرض كنعان ما أصاب سائر البلاد ، وسمع يعقوب عليه السّلام بأن ملك مصر يبيع الطعام ، أرسل بنيه - غير بنيامين - إلى مصر للميرة ، كما قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٥٨ الى ٦٢]

وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ (٦١) وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

يقول الحق جل جلاله : وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ إلى مصر للميرة ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ، إنما أنكروه لبعد العهد ولتغير سنه ، ولأنهم فارقوه فى سن الحداثة ، ولتوهمهم أنه هلك ، أو لقلة تأملهم فى حاله لشدة هيبتهم إياه ، أو لأنه كان ملثما. روى أنهم دخلوا عليه فى قصر ملكه وهو فى هيئة عظيمة من الملك ، والتاج على رأسه ، فقال لهم بعد أن عرفهم : من أنتم ، وما أمركم ، وما جاء بكم إلى بلادي ، ولعلكم عيون؟

فقالوا : معاذ اللّه ، نحن بنوا أب واحد ، وهو شيخ صدّيق ، نبى من الأنبياء ، اسمه يعقوب. قال : كم أنتم؟ قالوا : كنا اثنى عشر ، فذهب أحدنا إلى البرية ، فهلك. فقال : فكم أنتم هاهنا؟ قالوا : عشرة. قال : فأين الحادي عشر؟ قالوا : عند أبيه يتسلّى به عن الهالك ، قال : فمن يشهد لكم؟ قالوا : لا يعرفنا هاهنا من يشهد لنا. قال : فدعوا عندى بعضكم رهينة ، وائتوني بأخ لكم من أبيكم حتى

أصدقكم ، فاقترعوا فأصابت شمعون. وهذا معنى قوله : وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ أعطاهم ما اشتروا منه من الطعام ، وأوقر ركابهم ، قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ وهو : بنيامين

(٦٠٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٠٨

- بكسر الباء - على وزن إسرائيل ، قاله فى القاموس. وقيل : كان يوسف عليه السّلام يعطى لكل نفس حملا ، ولا يزيد عليه ، فسألوه حملا زائدا لأخيهم من أبيهم فأعطاهم ، وشرط عليهم أن يأتوا به ليعلم صدقهم. ثم قال لهم : أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ للأضياف. قال لهم ذلك ترغيبا فى رجوعهم ، وقد كان أحسن ضيافتهم غاية الإحسان.

روى أنه عليه السّلام نادى صاحب المائدة ، وقال له : لا تنزل هؤلاء بدار الغرباء ، ولا بدار الأضياف ، ولكن أدخلهم دارى ، وانصب لهم مائدة كما تنصبها لى ، واحفظهم وأكرمهم. فسأله عنهم ، فلم يجب ، فبسط لهم الفرش والوسائد ، فلما جن الليل أمر أن توضع بين أيديهم الموائد ، والشماع ، والمجامر ، وهم ينظرون من كوة إلى دار الأضياف ، وقد بلغ بهم الجهد ، فكانوا يعطونهم قرصة شعير لكل أحد من الغرباء ، وهم يرون ما بين أيديهم من الإكرام والطعام ، وقد بلغ الحمل من الطعام ألفا ومائتى دينار. فقال بعضهم لبعض : إن هذا الملك أكرمنا بكرامة ما أكرم بها أحدا من الغرباء! فقال شمعون : لعل الملك سمع بذكر آبائنا فأكرمنا لأجلهم. وقال آخر : لعله أكرم فقرنا وفاقتنا. ويوسف عليه السّلام ينظر إليهم من كوة ويسمع كلامهم ، ويبكى. ثم قال لولده ميشا : أشدد وسطك بالمنطقة واخدم هؤلاء القوم ، فقال له : من هم يا أبت؟ فقال : هم أعمامك يا بنى ، قال : يا أبت هؤلاء الذين باعوك؟ قال : نعم ، باعوني حتى صرت ملك مصر ، ما تقول يا بنى ، أحسنوا أم أساءوا؟ قال : بل أحسنوا ، فما أقول لهم؟ قال : لا تكلمهم ، ولا تفش لهم سرا حتى يأذن اللّه بذلك ، فبقوا فى الضيافة ثلاثا أو أكثر ، ثم جهزهم ، وأرسلهم ، وشرط عليهم أن يأتوا بأخيه بنيامين.

قال لهم : فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ. أي : لا تدخلوا ديارى ولا تقربوا ساحتى ، قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ أي : سنجهد فى طلبه منه ، وَإِنَّا لَفاعِلُونَ ذلك ، لا نتوانى فيه ، وَقالَ لِفِتْيانِهِ لغلمانه الكيالين ، وقرأ الأخوان وحفص : لِفِتْيانِهِ ، بجمع الكثرة : اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ أي : ثمنهم الذي اشتروا به ، فِي رِحالِهِمْ فى أوعيتهم. فأمر أن يجعل بضاعة كل واحد فى رحله ، وكانت نعالا وأدما. وإنما فعل ذلك يوسف تكرما وتفضلا عليهم ، وترفقا أن يأخذ ثمن الطعام منهم ، وخوفا من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به إليه.

لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها أي : لعلهم يعرفون هذه اليد والكرامة فى رد البضاعة إليهم ، فيرجعون إلينا. فليس

الضمير للبضاعة لأن ميز البضاعة لا يعبر عنه بلعل ، وإنما المعنى : لعلهم يعرفون لها يدا وتكرمة ، ويرون حقها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ، أي : لعل معرفتهم بهذه الكرامة تدعوهم إلى الرجوع. وقصد بذلك

(٦٠٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٠٩

استمالتهم والإحسان إليهم. أو : لعلهم يعرفون البضاعة ، ولا يستحلون متاعنا فيرجعون به إلينا ، وضعف هذا ابن عطية ، فقال : وقيل : قصد يوسف برد البضاعة أن يتحرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن فيرجعوا لدفع الثمن. وهذا ضعيف من وجوه. ثم قال : ولسرورهم بالبضاعة ، وقولهم : هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا ، يكشف أن يوسف لم يقصد هذا ، وإنما قصد أن يستميلهم ويصلهم كما تقدم.

الإشارة : قوله : فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ، كذلك أهل الخصوصية من أهل مقام الإحسان ، يعرفون مقامات أهل الإيمان ومراتبهم ، وأهل مقام الإيمان ينكرونهم ولا يعرفون مقامهم ، كما قال القائل :

تركنا البحور الزّخرات وراءنا فمن أين يدرى النّاس أين توجّهنا؟

فكلما علا بالولى المقام خفى عن الأنام ، ولا يعرف مراتب الرجال إلا من دخل معهم ، وشرب مشربهم ، وإلا فهو جاهل بهم. وقوله تعالى : فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي : كذلك الحق - جل جلاله - يقول لعبده : ائتنى بقلبك ، فإن لم تأتنى به فلا أقبل طاعتك ، ولا تقرب إلى حضرتى. قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّ اللّه لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ، وإنّما ينظر إلى قلوبكم ونيّاتكم». أو كما قال - عليه الصلاة والسّلام - .

وقوله تعالى : سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ : كذلك ينبغى للعبد أن يحتال على قلبه حتى يرده إلى ربه وذلك بقطع العلائق ، والفرار من الشواغل والعوائق ، حتى تشرق عليه أنوار الحقائق.

وقوله تعالى : اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ ... الآية. كذلك ينبغى للواعظ والمذكر أن يبشر الناس ، وينمى بضاعتهم ، وهو : الإيمان والمحبة للّه ومعرفته ، ويجعلها فى قلوبهم بحسن وعظه ، ونور حاله ، فيكون ممن ينهض الناس حاله ، ويدل على اللّه مقاله. ولا يقنط الناس ويفلسهم من الإيمان والمحبة ، بل ينبغى أن يجمع بين التبشير والتحذير ، والترغيب والترهيب ، ويغلب جانب الترغيب بذكر إحسان اللّه وآلائه .. لعلهم يعرفون ذلك إذا انقلبوا إلى أسبابهم ، لعلهم يرجعون إلى اللّه فى غالب أحوالهم. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر رجوعهم من مصر إلى أبيهم ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٦٣ الى ٦٧]

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (٦٣) قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)

(٦٠٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦١٠

قلت : (نكتل) : أصله : نكتيل ، بوزن نفتعل ، من الكيل ، قلبت الياء ألفا لتحرك ما قبلها ، ثم حذفت للساكنين.

و(حفظا) : تمييز ، ومن قرأ بالألف فحال ، كقوله : للّه دره فارسا. أو تمييز ، وهو أرجح. و(ما نبغى) : استفهامية ، أو نافية. و(نمير أهلنا) : عطف على محذوف ، أي : ردت فنستظهر بها ونمير ... إلخ.

قال فى القاموس : مار يمير بالكسر : جلب الطعام. هـ. و(إلا أن يحاط) : استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي : لتأتننى به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم.

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ أي : حكم بمنعه بعد هذا ، إن لم نذهب بأخينا بنيامين ، فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ أي : نرفع المانع من الكيل ، ونكتل ما نحتاج إليه. وقرأ الأخوان بالياء : يكتل لنفسه ، فنضم اكتياله إلى اكتيالنا ، وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ من أن يناله مكروه. قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ أي : ما آمنكم عليه إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ، وقد قلتم فى يوسف : وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً «١» فأثق به ، وأفوض أمرى إليه ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فأرجو أن يرحمنى بحفظه ، ولا يجمع علىّ مصيبتين.

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ : أوعيتهم ، وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي أي : ما نطلب ، فهل من مزيد على هذه الكرامة ، أكرمنا وأحسن مثوانا ، وباع منا ، ورد علينا متاعنا ، ولا نطلب وراء ذلك إحسانا.

أو : ما نتعدى فى القول ، ولا نزيد على ما حكينا لك من إحسانه. أو : ما نبغى على أخينا ، ولا نكذب على الملك.

هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا ، هو توضيح وبيان لقولهم : ما نَبْغِي ، أي : ردت إلينا فنتقوى بها. وَنَمِيرُ أَهْلَنا

(١) قراءة حمزة والكسائى وحفص : «حافظا» بالألف ، وقرأ الآخرون : حفظا بغير الألف ، على المصدر ، انظر الإتحاف (٢/ ١٥٠).

(٢/ ٦١٠)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦١١

: نسوق لهم الميرة - وهو : الطعام حين نرجع إلى الملك ، وَنَحْفَظُ أَخانا من المكاره فى ذهابنا وإيابنا .. وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ بزيادة حمل بعير أخينا ، إذ كان يوسف عليه السّلام لا يعطى إلا كيل بعير لكل واحد.

ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ أي : ذلك الطعام الذي أتينا به شيء قليل لا يكفينا حتى نرجع ويزيدنا كيل أخينا. أو ذلك الحمل الذي يزيدنا لبعير أخينا - كيل قليل عنده ، يسهل عليه لا يتعاظمه ، فلا يمنعنا منه. كأنهم استقلّوا ما كيل لهم فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك ، ويزدادوا إليه ما يكال لأخيهم. وقيل : إنه من كلام يعقوب عليه السّلام ، والمعنى : أن حمل بعير شيء قليل لا يخاطر لمثله بالولد.

قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ لأنى رأيت منكم ما رأيت ، حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ حتى تعطونى ما أثق به من عهد اللّه ، وتحلفوا لى الأيمان الموثقة لَتَأْتُنَّنِي بِهِ فى كل حال ، إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ إلا أن تغلبوا ، ولا تطيقوا الإتيان به. أو : إلا أن تهلكوا جميعا ويحيط الموت بكم فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ عهدهم وحلفوا له ، قالَ أبوهم : اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ من طلب الموثق وإتيان الولد وَكِيلٌ أي : مطلع رقيب ، لا يغيب عنه شيء.

ثم وصاهم وَقالَ لهم : يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ. وكانت فى ذلك العهد خمسا : باب الشام ، وباب المغرب ، وباب اليمن ، وباب الروم ، وباب طيلون. فقال لهم : ليدخل كل أخوين من باب ، خاف عليهم العين لأنهم أهل جمال وأبّهة ، مشتهرين فى مصر بالقربة والكرامة فإذا دخلوا كبكبة واحدة أصابتهم العين. ولعله لم يوصهم بذلك فى المرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين حينئذ ، وللنفس آثار من العين ، وقد قال عليه الصلاة والسّلام : «العين حقّ ، تدخل الرّجل القبر والجمل القدر» «١».

وكان عليه الصلاة والسّلام يتعوذ منها ، بقوله : «اللهم إنّى أعوذ بك من كلّ نفس هامّة ، وعين لامّة» «٢». ويؤخذ من الآية والحديث : التحصن منها قياما برسم الحكمة. والأمر كله بيد اللّه. ولذلك قال يعقوب عليه السّلام : وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ مما قضى عليكم بما أشرت به عليكم ، والمعنى : أن ذلك لا يدفع من قدر اللّه شيئا ، فإن الحذر لا يمنع القدر ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ فما حكم

به عليكم لا ترده حيلة ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ أي : ما وثقت إلا به ، ولا ينبغى أن يثق أحد إلا به. وإنما كرر حرف الجر زيادة فى الاختصاص ترغيبا فى التوكل على اللّه والتوثق به.

---

(١) قال فى كشف الخفاء : (ح ١٧٩٧) رواه أبو نعيم عن جابر مرفوعا ، وحديث «العين حق» بدون الزيادة ، متفق عليه.
مكث أخرجه البخاري فى (الطب ، باب العين حق) ومسلم فى (السّلام ، باب الطب والمرضى) من حديث أبى هريرة - رضى اللّه عنه.
(٢) أخرجه البخاري فى (كتاب الأنبياء ، باب ١٠) من حديث ابن عباس ، قال : كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يعوذ الحسن والحسين ويقول ... وذكر الحديث.

الإشارة : روى أن إخوة يوسف لما رجعوا عنه صاروا لا ينزلون منزلا إلا أقبل عليهم أهل ذلك المنزل بالكرامات والضيافات ، فقال شمعون : لما قدمنا إلى مصر ما التفت إلينا أحد ، فلما رجعنا صار الناس كلهم يكرموننا؟ فقال يهوذا : الآن أثر الملك عليكم ، ونور حضرته قد لاح عليكم. هـ. قلت : وكذلك من قصد حضرة العارفين لا يرجع إلا محفوفا بالأنوار ، معمورا بالأسرار ، مقصودا بالكرامة والإبرار.
قوله تعالى : فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا ... إلخ قال الأستاذ القشيري : المحبة غيور لما كان ليعقوب تسلّ عن يوسف برؤية بنيامين ، أبت المحبة إلا أن تظهر سلطانها بالكمال ، فغارت على بنيامين أن ينظر إليه يعقوب بعين يوسف. هـ. قلت : وكذلك الحق تعالى غيور أن يرى فى قلب حبيبه شيئا غيره ، فإذا رأى ذلك أزاله عنه ، وفرق بينه وبين ذلك الشيء ، حتى لا يحب شيئا سوى محبوبه. هذا مما يجده أهل الأذواق فى قلوبهم.
وقوله تعالى فى وصية يعقوب : لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ ، فيه إشارة إلى أن الدخول على اللّه لا يكون من باب واحد بحيث يلتزم المريد حالة واحدة وطريقة واحدة كالعزلة فقط ، أو الخلطة فقط ، أو الصمت على الدوام ، أو ذكر الاسم على الدوام. بل لا بد من التلوين قبل التمكين وبعده فالعزلة على الدوام : مقام الضعف ، والخلطة من غير عزلة بطالة. بل لا يكون عارفا حتى يعرف اللّه ، ويكون قلبه معه فى العزلة والخلطة ، والصمت والكلام ، والقبض والبسط ، والفقد والوجد ، ويترقى من ذكر الاسم إلى الفكرة والنظرة ، كما هو مقرر عند أهل الفن.
وقوله تعالى : عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ، فيه تهييج على مقام التوكل ، وحث على الثقة

باللّه فى جميع الأمور. وفى ذلك يقول الشاعر :

توكّل على الرّحمن فى كلّ حاجة وثق باللّه ، دبّر الخلق أجمع

وضع عنك همّ الرّزق فالربّ ضامن وكفّ عن الكونين والخلق أربع

قوله : «والخلق أربع» : أراد العالم العلوي والسفلى ، والدنيا والآخرة. وكلها أكوان مخلوقة يجب كف البصر والبصيرة عن الميل إليها ، والوقوف معها. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر رجوعهم إلى مصر ، واتصال يوسف بأخيه ، وإمساكه عنده إلى أن اتصل بأبيه ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٦٨ الى ٧٦]

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (٧٠) قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (٧١) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢)

قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ (٧٣) قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (٧٤) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)

قلت : (ما كان) : جواب «لما» ، و(إلا حاجة) : استثناء منقطع. و(جزاؤه) : مبتدأ ، و(من) : شرطية أو موصولة ، وخبرها : (فهو جزاؤه) ، والجملة : خبر (جزاء) الأول. أو (جزاؤه) : مبتدأ ، و(من) : خبر ، على حذف مضاف ، أي :

جزاؤه أخذ من وجد فى رحله ، وتم الكلام ، و(فهو جزاؤه) : جملة مستقلة تقريرية لما قبلها.

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ أي : من أبواب متفرقة فى البلد ، ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ أي : ما أغنى عنهم رأى يعقوب واتّباعهم له مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ مما قضى عليهم ، فاتّهموا بالسرقة وظهرت عليهم ، فأخذ بنيامين الذي كان الخوف عليه ، وتضاعفت المصيبة على يعقوب ، إِلَّا حاجَةً : لكن حاجة فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ يعنى : شفقته عليهم ، وتحرزه من أن يعانوا ، قَضاها أظهرها ووصى بها. وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ بالوحى ونصب الدليل. ولذلك قال : وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ

شَيْءٍ فلم يغتر بتدبيره ، ففيه تنزيه ليعقوب عن الوقوف مع الأسباب والعوائد ، ورفع إيهام وقوفه مع عالم الحكمة. وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ سر القدر ، وأنه لا ينفع منه الحذر.
قال ابن عطية : قوله : ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، معناه : مادرأ عنهم قدرا لأنه لو قضى أن تصيبهم عين لأصابتهم ، مفترقين أو مجتمعين. وإنما طمع يعقوب عليه السّلام أن تصادف وصيته القدر فى سلامتهم.

(٢/٦١٣)

ثم أثنى اللّه - عز وجل - على يعقوب بأنه لقن مما علمه اللّه من هذا المعنى ، واندرج غيره فى ذلك العموم ، وقال :
إن أكثر الناس ليس كذلك. هـ.
وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ أي : ضم إليه بنيامين على الطعام ، أو فى المنزل. روى أنه أضافهم ، فأجلسهم اثنين اثنين ، فبقى بنيامين وحيدا فبكى ، وقال : لو كان يوسف حيا لجلس معى ، فأجلسه معه على مائدته ، ثم قال : لينزل كل اثنين بيتا ، وهذا لا ثانى له فيكون معى ، فبات عنده وقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال : من يجد إذا مثلك ، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ وعرفه بنفسه ، فَلا تَبْتَئِسْ لا تحزن بِما كانُوا يَعْمَلُونَ فى حقنا من الأذى ، أو : لا تحزن بما يعمله فتيانى ، ولا تبالي بما تراه فى تحيّلى فى أخذك.
فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ ، التي هى الصواع ، فِي رَحْلِ أَخِيهِ ، وهى إناء يشرب بها الملك ، ويأكل فيها ، وكان من فضة ، وقيل : من ذهب. وقيل : كان صاعا يكال به. وقصد بجعله فى رحل أخيه أن يحتال على إمساكه معه إذ كان شرع يعقوب أن من سرق استعبده المسروق منه. ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بعد أن انصرفوا : أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ ، والخطاب لإخوة يوسف ، وإنما استحل رميهم بالسرقة مع علمه بأنهم أبرياء لما فى ذلك من المصلحة فى المآل ، وبوحي لا محالة ، وإرادة من اللّه تعالى عنتهم بذلك ، يقويه قوله تعالى :
كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ، ويمكن من أن يكون فيه تورية ، وفيها مندوحة عن الكذب ، أي : إنكم لسارقون يوسف من أبيه ، حين باعوه.
قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ أي : أىّ شيء ضاع منكم؟ والفقد : غيبة الشيء عن الحس. قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ الذي يكيل به ، أو يشرب فيه ، وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ من الطعام ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ كفيل أؤديه إلى من رده. وفيه دليل على جواز الجعل ، وضمان الجعل قبل تمام العمل. قاله البيضاوي.

قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ فيما مضى ، استشهدوا بعلمهم بديانتهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من الديانة والأمانة فى دخولهم أرضهم ، حتى كانوا يجعلون الأكمة فى أفواه إبلهم لئلا تنال زرع الناس ، قالُوا فَما جَزاؤُهُ أي : السارق ، إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ فى ادعاء البراءة. قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ يحبس فى سرقته ، ويسترقّ للمسروق منه ، وهذا كان قصد يوسف عليه السّلام ، وهى كانت شريعة يعقوب ، وكانت أيضا شريعتنا فى أول الإسلام ثم نسخ بالقطع. ثم قالوا : كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ بالسرقة.

فَبَدَأَ المؤذن أو يوسف لأنهم ردّوا إلى مصر ، أي : بدأ فى التفتيش ، بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ بنيامين ، تقية للتهمة ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَها أي : السقاية ، أو الصواع لأنه يذكر ويؤنث ، مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ أي : مثل ذلك الكيد كِدْنا لِيُوسُفَ أي : علمناه الحيلة بالوحى فى أخذ أخيه ، ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ملك مصر لأن دينه كان الضرب وتغريم ضعف ما أخذ دون الاسترقاق. إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك. أو : لكن أخذه بمشيئة اللّه وإرادته. نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ بالعلم والعمل ، كما رفعنا درجته ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ أرفع درجة منه.

قال البيضاوي : واحتج به من زعم أنه تعالى عالم بذاته إذ لو كان ذا علم لكان فوقه من هو أعلم منه - أي :

لدخوله تعالى فى عموم الآية - والجواب : أن المراد كل ذى علم من الخلق لأن الكلام فيهم ، ولأن العليم هو اللّه تعالى. ومعناه : الذي له العلم البالغ ، ولأنه لا فرق بينه وبين قولنا : فوق كل العلماء عليم ، وهو مخصوص. هـ.

قلت : وقد ورد ثبوت العلم له تعالى فى آيات وأحاديث. كقوله تعالى : أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ «١» ، وأُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ «٢» «وإنى على علم من علم اللّه علّمنيه» «٣» إلى غير ذلك مما هو صريح فى الرد عليهم.

الإشارة : يؤخذ من قوله تعالى : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ : امتثال أمر الأب فيما يأمر وينهى. ولا فرق بين أب البشرية وأب الروحانية - وهو الشيخ - ، فامتثال أمره واجب على المريد ، ولو كان فيه حتف أنفه ، وأمره مقدم على أمر الأب كما تقدم فى سورة النساء. وقد قالوا : أركان التصوف ثلاثة : الاجتماع ، والاستماع ، والاتباع. وقوله تعالى : ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حاجَةً ... إلخ : فيه الجمع بين مراعاة القدرة والحكمة ، فالقدرة تقتضى التفويض إذ لا فعل لغير اللّه ، والحكمة تقتضى الحذر ، واستعمال الأسباب لأن الحكمة رداء للقدرة. فالكمال هو الجمع بينهما سترا لأسرار

الربوبية ، فالباطن ينظر لتصريف القدرة ، والظاهر يستعمل أستار الحكمة.

وقوله تعالى : فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ... الآية. هذا من فعل أهل التصريف باللّه ، المأخوذين عنهم ، لا يدخل تحت قواعد الشرع لأن فاعله مفعول به ، أو ناظر بنور اللّه إلى غيب مشيئة اللّه ، كأفعال

---

(١) من الآية ١٦٦ من سورة النساء.

(٢) من الآية ١٤ من سورة هود.

(٣) جزء من حديث موسى الخضر وأخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب حديث الخضر) ، من حديث ابن عباس رضى اللّه عنه.

الخضر عليه السّلام. قال الورتجبي : إن اللّه سبحانه إذا خصّ نبيا ، أو وليا ألبسه صفاته بتدريج الحال ففى كل حالة له يكسوه نورا من صفته ، فمن جملة صفاته : كيد الأزل ومكر الأبد ، فكسى علم كيده قلب يوسف ، حتى كاد برؤية كيد اللّه الأزلى ، فعرفه فيه أسرار لطف صنائعه ، وعلم حقائق أفعاله وقدرته. هـ.

وقوله : نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ : أي : بالعلم باللّه كالكشف عن أسرار ذاته وأنوار صفاته ، والتخلق بمعاني أسمائه ، والتحقق بمقامات اليقين ، ومنازل السائرين. وهذه درجات المقربين ، وليس فوقها إلا درجة الأنبياء والمرسلين. أو بالعلم بأحكام اللّه وشرائعه كالعلم بأحكام العبادات والعادات ، وسائر المعاملات. وهذه درجات عامة أهل اليمين من العلماء الأتقياء والصالحين ، ومنتهى درجاتهم هى ابتداء درجات العارفين المقربين ، ثم الأنبياء والمرسلين. وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ، ومنتهى العلم إلى اللّه العظيم.

ثم ذكر جوابهم ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٧٧ الى ٧٩]

قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (٧٧) قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (٧٩)

قلت : معنى الشرط والجواب : إن ثبت أن بنيامين يسرق فقد سرق أخ له ، أي : سرقته كسرقة أخيه ،

و (مكانا) :

تمييز.

يقول الحق جل جلاله : قال إخوة يوسف ، لما ظهرت السرقة عليهم : إِنْ يَسْرِقْ بنيامين فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ أخوه يوسف مِنْ قَبْلُ ، فهذا الأمر إنما صدر من ابني راحيل ، لا منا ، قصدوا بذلك رفع المضرة عن أنفسهم ، ورموا بها يوسف وشقيقه ، وهذه السرقة التي رموه بها قيل : كانت ورثت عمته من أبيها منطقة ، وكانت تخص يوسف وتحبه ، فلما شب ، أراد يعقوب انتزاعه منها ، فشدت المنطقة على وسطه ، ثم أظهرت ضياعها ، ففتّش عليها ، فوجدت مشدودة على وسطه ، فصارت أحق به فى حكمهم ، وقيل : كان لجده من أمه صنم من ذهب ، فسرقه وكسره ، وألقاه فى الجيف. وقيل : كان فى البيت عناق أو دجاجة فأعطاها السائل «١».

---

(١) لم يرد نص ثابت عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فى تعيين المراد بالسرقة التي وصفوه بها ، فاللّه أعلم بالذي كان.

(٢/٦١٦)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦١٧

فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ أي : أخفى هذه الإجابة ، ولم يكذبهم فيها. أو : الحزازة التي وجد فى نفسه من قولهم : فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ أي : أسر كراهية مقالتهم. أو : المقالة التي يفسرها قوله : قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً أي : قال فى نفسه خفية : أنتم شر مكانا ، أي : أنتم أقبح منزلة فى السرقة بسرقتكم أخاكم ، أو بسوء صنيعكم بما فعلتم معى. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ ، وقد علم سبحانه أن الأمر ليس كما يصفون ، فهو إشارة إلى كذبهم فيما نسبوا إليه من السرقة.

قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فى السن ، أو القدر ، ذكروا حاله استعطافا له ، وكانوا أعلموه بشدة محبة أبيه فيه ، فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ فإن أباه ثكلان ، أي : حزين على أخيه الهالك ، يستأنس به ، إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ إلينا ، فأتمم إحسانك ، أو من المتعودين الإحسان فلا تغير إحسانك. قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ فإنّ أخذ غيره ظلم ، فلا آخذ أحدا مكانه إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ فى مذهبكم لأن اللّه أمرنا باسترقاق السارق فاسترقاق غيره ظلم.

الإشارة : النفس الأمارة من شأنها الانتصار ، ودفع النقائص عنها والعار. والنفس المطمئنة من شأنها الاكتفاء بعلم اللّه ، والرضا بما يجرى به القضاء من عند اللّه ، فإذا اختلجها شىء من الانتصار أسرّته ، ولم تخرجه إلى حالة الإظهار.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه : آداب الفقير المتجرد أربعة أشياء : الحرمة للأكابر ، والرحمة للأصاغر ، والانتصاف من نفسه ، وعدم الانتصار لها. هـ. فالفقير إذا انتصر لنفسه فقد نقض العهد مع ربه ، فيجب عليه التوبة. وقالوا : [الصوفي دمه هدر ، وعرضه وماله مباح]. يعنى : أنه لا ينتصر لنفسه ، فكل من آذاه لا يخاف من جانبه فكأنه مباح ، مع كونه حراما بالشريعة ، بل هو أشد حرمة من غيره. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٨٠ الى ٨٣]

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَما شَهِدْنا إِلاَّ بِما عَلِمْنا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (٨١) وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ (٨٢) قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)

قلت : (نجيأ) : حال ، أي : انفردوا عن الناس مناجين. وإنما أفرده لأنه مصدر ، أو بزنته. و(من قبل ما) :

يحتمل أن تكون مزيدة ومصدرية مرفوعة بالابتداء ، أي : تفريطكم فى يوسف واقع من قبل هذا. قاله ابن جزى.

وفيه نظر فإن الظرف المقطوع لا يقع خبرا ، أو منصوبة بالعطف على مفعول (تعلموا) ، أي : لم تعلموا أخذ ميثاق أبيكم ، وتفريطكم فى يوسف قبل هذا.

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا أي : يئسوا مِنْهُ من يوسف أن يجيبهم إلى ما دعوه إليه من أخذ أحدهم مكان أخيهم ، خَلَصُوا أي : تخلصوا من الناس ، وانفردوا عنهم نَجِيًّا متناجين ، يناجى بعضهم بعض : كيف وقع للصاع؟ وكيف يتخلصون من عهد أبيهم؟ ثم فسر تلك المناجاة : قالَ كَبِيرُهُمْ فى السن ، وهو روبيل ، أو فى الرأى ، وهو شمعون ، وقيل يهوذا : أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ عهدا وثيقا ، وحلفتم له لتأتن بابنه إلا أن يحاط بكم؟ فكيف تصنعون معه ، وَمِنْ قَبْلُ هذا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ واعتذرتم بالأعذار الكاذبة؟ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ فلن أفارق أرض مصر حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي فى الرجوع ، أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي : أو يقضى لى بالخروج منها ، أو بتخليص أخى منهم قهرا ، وَهُوَ خَيْرُ

الْحاكِمِينَ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.
روى أنهم كلموا العزيز فى إطلاقه ، فقال روبيل ، وقيل : يهوذا : أيها الملك ، لتتركن أخانا أو لأصيحن صيحة تضع منها الحوامل ، ووقف شعر جسده فخرجت من ثيابه ، فقال يوسف لابنه الصغير ، واسمه نائل : قم إلى جنبه ومسّه ، فمسه ، وكان بنو يعقوب إذا غضب أحدهم لا يسكن غضبه إلا إذا مسه أحد من آل يعقوب ، فلما مسه ولد يوسف عليه السّلام سكن غضبه ، فقال : من هذا؟ إن فى هذا البلد لبذرا من بذر يعقوب.
وقيل : إنهم هموا بالقتال ، وقال يهوذا لإخوته : تفرقوا فى أسواق مصر ، وأنا أصيح صيحة نشق مراريهم ، فإذا سمعتم صوتى ، فاخربوا يمينا وشمالا ، فلما غضب ، وأراد أن يصيح ، مسه ولد يوسف فسكن ، فلما لم يسمعوا صوته أتوا إليه فوجدوه قد سكن غضبه ، فقال : إن هنا بذرا من آل يعقوب.
ثم قال لهم : ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ على ما شهدنا من ظاهر الأمر ، وَما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا بأن رأينا الصاع استخرج من وعائه. وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ أي : ما كنا

(٦١٨/٢)

لباطن الأمر حافظين ، فلا ندرى أسرق ، أو أحد دسه فى وعائه؟ أو ما كنا حين أعطيناك العهد حافظين للغيب ، عالمين بالقدر المغيب ، وأنك تصاب به كما أصبت بأخيه. وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وهى القرية التي لحقهم فيها المنادى ، أي : أرسل إليهم واسألهم عن القصة إن اتهمتنا. وَسل أيضا الْعِيرَ : أهل العير ، الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها ، والعير : جماعة الإبل. وَإِنَّا لَصادِقُونَ فيما أخبرناك به. هذا تمام وصية كبيرهم. فلما رجعوا إلى أبيهم ، وقالوا له ما قال لهم كبيرهم ، .
قالَ لهم أبوهم : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً أي : زينت لكم أمرا فصنعتموه ، وإلا فمن أين يدرى الملك أن السارق يؤخذ فى السرقة ، إذ ليست بشريعته ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ أي : فأمرى صبر جميل ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً بيوسف وبنيامين ، وأخيهما الذي بقي بمصر إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بحالي وحالهم ، الْحَكِيمُ فى تدبيره. روى أن عزرائيل دخل ذات يوم على يعقوب - عليهما السّلام - فقال له يعقوب : جئت لقبض روحى ، أو لقبض روح أحد من أولادى وأهلي؟. قال : إنما جئت زائرا ، فقال له : أقسمت عليك باللّه إلا ما أخبرتنى ، هل قبضت روح يوسف؟ فقال : لا ، بل هو حى سوىّ ، وهو ملك وله خزائن ، وجنود وعبيد ، وعن قريب يجمع اللّه شملك به. هـ.
الإشارة : فلما استيأس القلب من الدنيا ، والرجوع إليها ، وقطع يأسه من حظوظها وهواها ، خلصت له المناجاة ، وصفت له أنوار المشاهدات ، وأنواع المكالمات ، والقلب هو كبير الأعضاء وملكها ،

فيقول لها : ألم تعلموا أن اللّه قد أخذ عليكم موثقا ألا تعصوه ولا تخالفوه ، ومن قبل هذا ، وهو زمان البطالة ، قد فرطتم فى عبادته ، فلن أبرح أرض العبودية حتى يأذن لى فى العروج إلى سماء شهود عظمة الربوبية ، أو يحكم لى بالوصال ، وهو خير الحاكمين. فإن وقعت من الجوارح هفوة فيقال لها : ارجعوا إلى أبيكم - وهو القلب - فقولوا : إن ابنك سرق ، أي : تعدى وأخذ ما ليس له من الهوى فيما ظهر لنا ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، فرب معصية فى الظاهر طاعة فى الباطن ، واسأل البشرية التي كنا فيها والخواطر التي أقبلنا على المعصية فيها ، فيقول القلب : بل زينت لكم أنفسكم أمر الهوى ، فدواؤكم الصبر الجميل ، والتوبة للعظيم الجليل ، عسى اللّه أن يأتينى بهم جميعا ، فنصرفهم فى طاعة اللّه ومرضاته. واللّه تعالى أعلم بأسرار حكم كتابه ، فعلم الإشارة يقبل مثل هذا وأكثر. وإياك والانتقاد فقد قالوا فى باب الإشارة أرق من هذا وأغرب. وباللّه التوفيق.

ثم قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٨٤ الى ٨٧]

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (٨٥) قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (٨٧)

قلت : يا أسفى ، ويا ويلتى ، ويا حسرتى ، مما عوض فيه الألف عن ياء المتكلم. والأسف : أشد الحزن. وقيل : شدة الحسرة. و(كظيم) : إما بمعنى مفعول ، كقوله : (و هو مكظوم) أي : فهو مملوء غيظا على أولاده ، ممسك له فى قلبه ، تقول : كظم السقاء إذا شد على ملئه. أو بمعنى فاعل كقوله : وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ «١» من كظم البعير جرّته إذا ردها فى جوفه. و(تفتأ) : من النواقص اللازم للنفى ، وحذفه هنا لعدم الإلباس لأنه لو كان مثبتا لأكد باللام والنون. والحرض : المريض المشرف على الهلاك ، وهو فى الأصل مصدر ، ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع. والبث : أشد الحزن.

يقول الحق جل جلاله : وَتَوَلَّى يعقوب عن أولاده ، أي : أعرض عَنْهُمْ لما لم يصدقهم ، كراهة إما صادف منهم ، ورجع إلى تأسفه وَقالَ يا أَسَفى أي : يا شدة حزنى عَلى يُوسُفَ. وإنما تأسف على يوسف دون أخويه لأن محبته كانت أشد لإفراط محبته فيه ، ولأن مصيبته سبقت عليهما. وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ من كثرة البكاء مِنَ الْحُزْنِ ، كأنّ العبرة محقت سوادها ، وقيل : ضعف بصره ، وقيل : عمى. وقد

روى أنه :

«حزن يعقوب حزن سبعينثكلى ، وأعطى أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنّه باللّه قطّ».

وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع. ولعل أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف ، فإنه قلّ من يملك نفسه عند الشدائد ، وقد بكى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وقال : «القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول إلّا ما يرضى ربّنا ، وإنّا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون».

فَهُوَ كَظِيمٌ أي : مملوء غيظا على أولاده لما فعلوا. أو كاظم غيظه ، ماسك له ، لم يظهر منه شيئا ، ولم يشك لأحد.

---

(١) من الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.

قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا : لا تزال تَذْكُرُ يُوسُفَ تفجعا عليه ، حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً : مشرفا على الهلاك ، أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ : من الميتين.الَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي

أي : شدة همى حُزْنِي

الذي لاصبر عليه ، لَى اللَّهِ

لا إلى أحد منكم ولا غيركم فخلّونى وشكايتى ، فلست ممن يجزع ويضجر فيستحق التعنيف ، وإنما أشكو إلى اللّه ، ولا تعنيف فيه لأن فيه إظهار الفقر ، والعجز بين يديه ، وهو محمود. أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

أي : أعلم من لطف اللّه ورأفته ورحمته ، ما يوجب حسن ظنى وقوة رجائى ، وأنه لا يخيب دعائى ، ما لا تعلمون. أو : وأعلم من طريق الوحى من حياة يوسف ما لا تعلمون لأنه رأى ملك الموت فأخبره بحياته ، كما تقدم. وقيل : علم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى تخر له إخوته سجّدا.

يا بَنِيَّ اذْهَبُوا إلى الأرض التي تركتم بها أخويكم ، فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ أي : تعرفوا من خبرهما ، وتفحّصوا عن حالهما. والتحسس : طلب الشيء بالحواس. وإنما لم يذكر الولد الثالث لأنه بقي هناك اختيارا ، وفى ذكر يوسف دليل على أنه كان عالما بحياته. وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ : لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه ، أو من رحمته ، وقرىء بضم الراء ، أي : من رحمته التي يحيى بها العباد ، أي : ولا تيأسوا من حى معه روح اللّه فكل من بقي روحه يرجى ، أي : ويوسف عندى ، فمن معه روح اللّه فلا تيأسوا من رجوعه. إِنَّهُ أي :

الشأن لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ باللّه وصفاته لأن العارف لا يقنط من رحمته فى شىء من الأحوال. وإنما جعل اليأس من صفة الكافر لأن سببه تكذيب بالربوبية ، أو جهل بصفة اللّه وقدرته ، والجهل بالصفة جهل بالموصوف ، فالإياس من رحمة اللّه كفر.

وأما حديث الرجل الذي قال : (إذا متّ فاحرقونى ، ثم اذرونى فى البحر والبر فى يوم رائح ، فلئن قدر اللّه علىّ ليعذبنى عذابا ما عذبه أحد من الناس) ، حسبما فى الصحيح «١» ، فليس فيه اليأس ولا تعجيز القدرة ، لكن لما غلبه الخوف المفرط لم يتأمل ولم يضبط حاله إما لحقه من الخوف وغمره من الدهش والخشية ، دون عقد ولا إصرار على نفى الرحمة واليأس منها. ويدل على ذلك قوله : (لما قال له الرب - تعالى - : ما حملك على هذا؟ قال :

مخافتك ، فغفر له). ولم يقل اليأس من رحمتك. انظر المحشى الفاسى.

الإشارة : لم يتأسف يعقوب عليه السّلام على فقد صورة يوسف الحسية ، إنما تأسف على فقد ما كان يشاهد فيه من جمال الحق وبهائه ، فى تجلى يوسف وحسن طلعته البهية ، وفى ذلك يقول ابن الفارض :

عينى لغير جمالكم لا تنظر وسواكم فى خاطرى لا يخطر

---

(١) أخرج قصة هذا الرجل البخاري فى (الرقاق ، باب الخوف من اللّه) من حديث أبى سعيد الخدري رضى اللّه عنه.

فلما فقد ذلك التجلي الجمالي حزن عليه ، وإلا فالأنبياء - عليهم الصلاة والسّلام - أولى بالغنى باللّه عما سواه.

فإذا حصل للقلب الغنى باللّه لم يتأسف على شىء ، ولم يحزن على شىء لأنه حاز كل شىء ، ولم يفته شىء.

«ماذا فقد من وجده ، وما الذي وجد من فقده». وللّه در القائل :

أنا الفقير إليكم والغنىّ بكم وليس لى بعدكم حرص على أحد

وهذا أمر محقق ، مذوق عند العارفين أهل الغنى باللّه. وقوله : (إنما أشكو بثي وحزنى إلى اللّه) : فيه رفع الهمة عن الخلق ، والاكتفاء بالملك الحق ، وعدم الشكوى فيما ينزل إلى الخلق .. وهو ركن من أركان طريق التصوف ، بل هو عين التصوف. وباللّه التوفيق.

ثم ذهبوا إلى مصر كما أمرهم أبوهم ، قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٨٨ الى ٩٢]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (٨٩) قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (٩١) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)

قلت : (من يتق ويصبر) : من قرأ بالياء : أجرى الموصول مجرى الشرط لعمومه وإبهامه ، فعطف على صلته بالجزم ، ومنه قول الشاعر :

كذلك الذي يبغى على النّاس ظالما تصبه على رغم عواقب ما صنع

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ على يوسف حين رجعوا إليه مرة ثالثة ، قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ شدة الجوع ، وَجِئْنا إليك بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ : رديئة ، أو قليلة ، أو ناقصة ، تدفع

وترد ، من أزجيته ، دفعته. ومنه : يُزْجِي سَحاباً «١» قيل : كانت دراهم زيوفا وقيل : الصنوبر وحبة الخضراء.

وقيل : سويق المقل أي : الدوم. وقيل : عروضا. فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ : أتممه لنا ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا بالمسامحة ، وقبول المزجاة ، أو بالزيادة على ثمننا. وهذا يقتضى أن الصدقة كانت حلالا على الأنبياء قبل نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو خلاف المشهور. أو برد أخينا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ أحسن الجزاء. والتصدق : التفضل مطلقا ، ومنه قوله صلّى اللّه عليه وسلّم فى القصر : «هذه صدقة تصدّق اللّه عليكم بها ، فأقبلوا صدقته» «٢».

روى أن يعقوب عليه السّلام لما أرسلهم المرة الثالثة ليتحسسوا أخبار يوسف وأخيه ، أرسل معهم كتابا ونصه : بسم اللّه الرحمن الرحيم ، من يعقوب الحزين إلى عزيز مصر ، ولو عرفت اسمك لذكرتك فى كتابى هذا ، يا من اعتز بعز اللّه ، فاللّه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وإنى أيها العزيز قد اشمأز قلبى ، وقطع الحزن أوصالى ، وإنى ناه إلى الإقراح ، دائم البكاء والصياح ، وإنى من نطفة آباء كرام ، فكيف يتولد اللصوص منى وأنا من الخصوص! وقد أخبرت أنك وضعت الصّاع بالليل فى رحل ولدي الأصغر ، وإنى حزين عليه كما كنت حزينا على أخيه الفقيد ، حزنا دائما سرمدا شديدا. وإن كنت

أفجعتني في الآخر ، فإن قلبي لا محالة طائر. ثم ختمه بالسلام.

فلما دفعوه ليوسف قرأه ، وبكى بكاء شديدا ، ثم دفعه لأخيه بنيامين فقرأه وبكى أيضا. ثم نزل عن سريره ، ثم دفع لهم الكتاب الذي كانوا كتبوه لمالك بن ذعر لمّا باعوه بخطوط شهادتهم ، كان أخذه من مالك حين باعه. فلما قرأوه تغيرت ألوانهم وتضعضعت أركانهم ، وبهتوا ، فقال لهم : هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ من إيذاء يوسف ، وتفريقه من أبيه ، ومضرة أخيه من بعده ، فإنهم كانوا يذلونه ويشتمونه ، أي : هل علمتم قبحه فتبتم منه؟

قاله نصحا وتحريضا لهم على التوبة. إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ أي : فعلتم ذلك حين كنتم جاهلين قبح ذلك. وإنما سماهم جاهلين لأن فعلهم حينئذ فعل الجهال ، أو لأنهم حينئذ كانوا صبيانا طياشين ، فعرفوه حينئذ على ظن ، فقالوا : أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ؟ بالاستفهام التقريرى. وقرأ ابن كثير على الإيجاب. قيل : عرفوه بذوائبه وشمائله حين نزل إليهم وكلمهم. وقيل : تبسم فعرفوه بثناياه. وقيل : رفع التاج عن رأسه فعرفوه بشامة كانت في رأسه بيضاء ، وكانت لسارة ويعقوب مثلها.

قالَ لهم : أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي من أبي وأمي. ذكره تعريفا لنفسه به ، وتفخيما لشأنه ، وإدخالا له في المنة بقوله : قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا بالسلامة والكرامة والعز ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللّه وَيَصْبِرْ على بلواه ، وعلى طاعته وتقواه فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وضع المحسنين موضع المضمر تنبيها على أن المحسن جمع بين الصبر والتقوى. فمن اتقى اللّه وصبر فهو محسن ..

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة النور.

(٢) أخرجه مسلم في (صلاة المسافرين ، باب صلاة المسافرين وقصرها) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه.

قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا بحسن الصورة وكمال السيرة ، أو فضلك علينا رغما على أنفنا ، وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ أي : والحال أن شأننا أنّا كنا مذنبين فيما فعلنا معك. قالَ لا تَثْرِيبَ : لا عتاب عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ أي : لا عقوبة عليكم في هذا اليوم. ثم دعا لهم فقال : يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، فيوقف على اليوم. وقيل : يتعلق بيغفر ، فيوقف على ما قبله ، وهو بعيد لأنه تحكم على اللّه ، وإنما يصلح أن يكون دعاء ، إذ هو الذي يليق بآداب الأنبياء ، فكأنه أسقط حق نفسه بقوله : لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، ثم دعا اللّه أن يغفر لهم اللّه حقه. قاله ابن جزى ، وصدر به البيضاوي. وبه تعلم ضعف وقف الهبطى. ثم قال في تمام

دعائه : وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فإنه يغفر الصغائر والكبائر ، ويتفضل على التائب.
قال البيضاوي : ومن كرم يوسف عليه السّلام أنهم لما عرفوه أرسلوا له ، وقالوا : إنك تدعوننا بالبكرة والعشى إلى الطعام ، ونحن نستحى منك لما فرط منا فيك ، فقال لهم : إن أهل مصر كانوا ينظرون إلىّ بالعين الأولى ، ويقولون :
سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ، ولقد شرفت بكم ، وعظمت فى أعينهم حيث إنكم إخوتى ، وإنى من حفدة إبراهيم عليه السّلام. هـ.
الإشارة : من رام الدخول إلى حضرة الكريم الغفار ، فليدخل من باب الذل والانكسار. وفى الحكم : «ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار». فإذا قرعت الباب ، ورمت الدخول مع الأحباب ، فقل بلسان التضرع والانكسار : يا أيها العزيز الغفار مسنا الضر ، وهو البعد والغفلة ، وجئنا ببضاعة مزجاة عمل مدخول ، وقلب معلول ، فأوف لنا ما أملناه من الجزاء المأمول ، وتفضل علينا بالقبول والوصول ، وقل : اليوم نغفر لكم ونغطى مساوءكم ، ونوصلكم بما منى إليكم من الإحسان ، لا بما منكم إلينا من الطاعة والإذعان. هؤلاء إخوة يوسف لما أظهروا فاقتهم ، واستقلوا بضاعتهم ، وأحضروا شكايتهم ، سمح لهم وقربهم ، وكشف لهم عن وجهه الجميل ، ومنحهم العطاء الجزيل ، فما ظنك بالرب العظيم الجليل ، الذي هو أرحم الراحمين ، ومحل أمل القاصدين.
ثم أمرهم بالرجوع إلى أبيهم ، والإتيان به وبمن معه من أولادهم ، فقال :
[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٩٣ الى ٩٨]
اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (٩٧)
قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)

قلت : جواب (لو لا) : محذوف ، أي : لو لا أن تفندون لقلت إنه قريب ، أو لصدقتمونى.
يقول الحق جل جلاله : قال يوسف لإخوته لما عرفوه ، وأزال ما بينه وبينهم من الوحشة ، وقد أخذ قميصه :
اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا ، روى أن هذا القميص كان لإبراهيم الذي لبسه حين كان فى النار ، وقيل : ألبسه

له جبريل حين خرج من النار ، وكان من ثياب الجنة ، ثم كان لإسحاق ثم ليعقوب ، ثم كان دفعه ليوسف ، فكان عنده في حفاظ من قصب ، وكان في عنقه في الجب ، وأمره جبريل بإرساله ، وقال : إن فيه ريح الجنة ، لا يلقى على مبتلى إلا عوفي. قال ابن عطية : وهذا كله يحتاج إلى سند ، والظاهر : أنه قميص يوسف الذي هو منه بمنزلة قميص كل أحد. وبهذا تتبين الغرابة في أن وجد يعقوب ريحه من بعد ، ولو كان من قميص الجنة لما كان في ذلك غرابة ، ويجده كل أحد. هـ.

قلت : وما قاله لا ينهض لأن ما ظهر من الجنة إلى دار الدنيا لا يبقى على حاله دائما لأنه من أسرار الغيب ، بل لا يجده إلا أهل الذوق من أهل القرب ، كنور الحجر الأسود ، وغيره مما نزل من الجنة. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال لهم اذهبوا به : فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً أي : يرجع بصيرا ، علم ذلك بوحي ، أو تجربة من القميص ، وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ نسائكم وذراريكم وأموالكم.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ من مصر ، وخرجت من عمارتها ، قالَ أَبُوهُمْ لمن حضره : إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ أوجده اللّه ، ريح ما عبق من قميصه حين أقبل إليه به يهوذا من ثمانين فرسخا لأن يعقوب كان إذ ذاك ببيت المقدس ، ويوسف بمصر ، لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ تنسبوني إلى الفند ، وهو : نقصان عقل يحدث من هرم. ولذلك لا يقال عجوز مفندة لأن نقصان عقلها ذاتي. أي : لو لا أن تحمقوني لقلت إنه قريب ، أو لصدقتموني في ذلك ، أو لو لا أن تلوموني ، وتردوا عليّ قولي لقلت إنه ريح يوسف. قالُوا أي : الحاضرون : تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ أي : إنك لفي خطئك القديم بالإفراط في محبة يوسف ، وإكثار ذكره ، وتوقع لقائه.

(٦٢٥/٢)

فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أي : المبشر ، وهو : يهوذا. روى أنه قال : كنت أحزنته بحمل قميصه الملطّخ بالدم إليه ، اليوم أفرحه بحمل هذا إليه. وفي رواية عنه قال : إني ذهبت إليه بقميص التّرحة ، فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة. فلما وصل إليه أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ طرح البشير القميص على وجه يعقوب ، أو : ألقاه يعقوب بنفسه على وجهه ، فَارْتَدَّ بَصِيراً بقدرة اللّه وبركة القميص. قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ من حياة يوسف ، وإنزال الفرج.

قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ ، وقد اعترفنا بذنوبنا ، وسألنا المغفرة. قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، أخره إلى السّحر ، أو إلى صلاة الليل ، أو إلى ليلة الجمعة ، تحريا لوقت الإجابة ، أو إلى أن يتحلل لهم من يوسف ، فإن عفو المظلوم شرط في المغفرة ، ويؤيده ما روى

أنه لما اجتمع به ، وتحلل منه ، استقبل يعقوب القبلة قائما يدعو ، ويوسف خلفه يؤمن ، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين ، حتى نزل جبريل وقال : إن اللّه قد أجاب دعوتك فى أولادك ، وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة. وهو ، إن صح ، دليل نبوتهم ، وأن ما صدر منهم كان قبل نبوتهم ، قاله البيضاوي.
الإشارة : اعلم أن الحق - جل جلاله - جعل للبشرية عينين حسيين ، تبصر بهما الحسيات ، وجعل للقلب عينين معنويين يرى بهما المعاني. فالأول : يسمى البصر ، والثاني : البصيرة. فأحد عيني القلب تبصر أنوار الشريعة ، والأخرى تبصر أسرار الحقيقة. وقد يغشى القلب ظلمة الكفر ، فتغطيهما معا ، وهو : عمى البصيرة. وقد يغشاه ظلمة المعاصي ، واتباع الحظوظ والهوى ، فتعمى عين الحقيقة ، وتضعف عين الشريعة ، ودواؤهما : إلقاء قميص المعرفة على وجه عين الحقيقة ، وجلباب العصمة على عين الشريعة ، فيرجع القلب بصيرا. ولا بد من صحبة شيخ عارف يعطيه هذا القميص ، ويقول : اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه بصيرتكم ، تأتى بصيرة عارفة ، فإذا قرب منها هذا القميص هبّ عليها نسيم الوصال ، وهاج عليها الوجد والحال. وأنشدت بلسان المقال :
سويداء قلبى أصبحت حرما لكم تطوف بها الأسرار من عالم اللّطف
وسائل ما بين المحبّين أصبحت تجلّ عن التّعريف والرّسم والعرف
رسائل جاءتنا برؤيا جنابكم عوارف عرف فاق كلّ شذا عرف

ثم ذكر دخول يعقوب مصر ، وجمع شمله بيوسف - عليهما السّلام - ، فقال :
[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٩٩ الى ١٠٠]
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)
يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ. قبل هذا الكلام محذوفات ، وهى : فرحل يعقوب بأهله حتى بلغوا إليه ، ولما دخلوا على يوسف .... إلخ.
روى أن يوسف عليه السّلام وجه إليه رواحل وأموالا ليتجهز إليه بمن معه ، وأرسل إليه مائة وثمانين كسوة من رفيع الثياب والعمائم لإخوته ، وقميصان مذهبان للإناث ، فلما وصلت إلى يعقوب لبس ، وألبس أولاده ، وركبوا المراكب ، وخرجوا من أرض كنعان يريدون مصر ، فلما قربوا ، أمر يوسف عليه

السّلام العساكر أن تخرج معه للقائهم ، فأول من لقيهم ثلاثون ألف فارس ، كلهم يسجدون بين يدى يعقوب ، وهو يتعجب من عظم تلك الأجناد ، ويضحك من نصر اللّه تعالى ، وعزه لابنه. ثم لقيهم البغال ، والجواري لنساء إخوته وأولادهم. ثم لقيهم أربعون ألف شيخ من الوزراء والكبراء. ثم استقبلهم يوسف عليه السّلام مترجلا ماشيا على قدميه ، متواضعا لأبيه ، فى مائة ألف ، كلهم على أرجلهم ، معهم الملك «ريّان» ثم سلّم يوسف عليه السّلام والملك على أبيه ، ثم أقبلا يبكيان ، وبكى إخوته وضج الناس بالبكاء ، ثم ضم إليه أبويه ، وقيل : أباه وخالته ، وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ، ثم حمل يعقوب عليه السّلام فى هودج من الذهب ، ويوسف عليه السّلام ، وإخوته يمشون بين يديه مترجلين حتى دخلوا مصر ، ثم أتوا إلى قصر مملكته.

قال ابن عباس : فجلس يوسف عليه السّلام على سريره ، وأبوه عن يمينه ، وخالته عن شماله ، وإخوته بين يديه ، فخروا له سجدا لأنها كانت عادتهم فى ذلك الزمان - يعنى تحيتهم على الملوك - روى أنهم قالوا فى سجودهم :

سبحان مؤلف الشتات بعد الإياس ، سبحان كاشف الضر بعد البأس. فقال يوسف لأبيه : يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ ... إلخ - هكذا ذكر القصة صاحب الزهر الأنيق فى قصة يوسف الصديق. وهذا معنى قوله : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ بلده ومملكته آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ أي : اعتنقهما ، وسلّم عليهما ، وضمهما إليه. قيل : الأبوين حقيقة. وقيل : أباه وخالته. ونزّل الخالة منزلة الأم تنزيل العم منزلة الأب فى

(٦٢٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٢٨

قوله : نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ

«١» ، .

وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ من القحط وأصناف المكاره. والمشيئة متعلقة بالدخول المكيّف بتلك الهيئة لا بالأمن. وقال ابن جزى : راجعة إلى الأمن. قال البيضاوي : وكان أولاد يعقوب الذين دخلوا مصر اثنين وسبعين رجلا ، وامرأة ، وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وتسعين رجلا سوى الذرية ، والهرمى. هـ.

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ، أي : حين دخلوا قصر مملكته ، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً تحية وتكرمة فإن السجود كان عندهم يجرى مجرى التحية. وقيل : معناه : خروا لأجله سجدا للّه شكرا. وقول البيضاوي : الرفع مؤخر عن الخرور ، فيه نظر لما تقدم عن صاحب الزهر الأنيق ، ولا داعى إلى الخروج عن الظاهر إلا

بنص صريح.

قال ابن عطية : واختلف فى هذا السجود فقيل : كان المعهود عندنا من وضع الوجه بالأرض ، وقيل : بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه ، مما كان سيرة تحيتهم للملوك فى ذلك الزمان. وأجمع المفسرون أن ذلك السجود ، كيفما كان ، إنما كان تحية لا عبادة.

قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ، وأعطى اللّه هذه الأمة السّلام تحية أهل الجنة. ثم قال : قال أبو عمرو الشيباني : تقدم يوسف يعقوب عليه السّلام فى المشي فى بعض تلك المواطن ، فهبط جبريل فقال : أتتقدم أباك؟ إن عقوبتك لذلك ألا يخرج من نسلك نبى. هـ. قال المحشى الفاسى : وما أظن لهذا صحة ، وقد كان من ذريته «يوشع بن نون» عليه السّلام ، ويوسف المذكور فى سورة الطّول «٢» على قول. وفى البيضاوي : وكان عمر يوسف مائة وعشرين سنة ، وقد ولد له من راعيل : إفرائيم وميشا ، وهو جد يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب. هـ. قلت : المذكور فى قصة أيوب أن زوجه رحمة إنما كانت ابنة إفرائيم بن يوشع لابنته.

ثم قال : يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ التي رأيتها أيام الصبا ، وهى : رؤيا أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون لى ، قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا : صدقا. وكان بين رؤياه وبين صدق تأويلها ثمانون عاما ، وقيل :

أربعون ، وهو الأصح. وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ، ولم يذكر الجب لئلا يخجل إخوته ، ولأنه خرج من الجب إلى الرق ، ومن السجن إلى الملك ، فالنعمة هذا أوضح. وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ : من البادية لأنهم كانوا أصحاب المواشي وأهل البدو ، فعد عليهم من النعم انتقالهم للحاضرة لأنها محل الراحة. مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي : أفسد بيننا وحرش ، من نزغ الدابة إذا نخسها. إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ

---

(١) من الآية ١٣٣ من سورة البقرة.

(٢) أي سورة غافر من الآية ٣٤. [.....]

أي : لطيف التدبير لما يشاء من الأمور إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ، ويتسهل دونها ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بوجوه المصالح والتدابير ، الْحَكِيمُ الذي يفعل كل شيء فى وقته ، على وجه تقتضيه الحكمة.

روى أن يوسف عليه السّلام طاف بأبيه - عليهما السّلام - فى خزائنه ، فلما أدخله خزانة القرطاس ،

قال : يا بنى ، ما أغفلك ، عندك هذه القراطيس وما كتبت لى على ثمانى مراحل ، قال : أمرنى جبريل ، قال : أو ما تسأله؟ قال :

أنت أبسط منى ، سله ، فقال جبريل : أمرنى ربى بذلك لقولك : (إنى أخاف أن يأكله الذئب) ، فهلا خفتنى. هـ.

قاله البيضاوي. وزاد فى القوت : لم خفت عليه الذئب ولم ترجنى؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ، ولم تنظر إلى حفظى له؟ فهذا على معنى قول يوسف عليه السّلام للساقى : (اذكرني عند ربك) ، فهذا مما يعتب على الخصوص من خفى سكونهم ، ولمح نظرهم إلى ما سوى اللّه عز وجل. هـ.

الإشارة : ما أحلى الوصال ، بعد الفراق ، وما ألذ شهود الحبيب على الاشتياق ، فبقدر طول البين يعظم قدر الوصول ، وبقدر حمل مشاق الطلب يظفر بالمأمول. فجدّ أيها العبد فى طلب مولاك ، وغب فى سيرك إليه عن حظوظك وهواك ، تظفر بالوصل الدائم فى عزك وعلاك ، وتتصل بكل ما كنت تأمله من مطالبك ومناك. وأنشدوا :

وإن امرؤ أمسى بقربك نازلا فأهلا به ، حاز الفضائل كلّها

وألبسته حلى المحاسن فاكتسى حلل الرضا فازداد قربا ما انتهى

وباللّه التوفيق.

ثم إن يوسف عليه السّلام لما تمكن من الملك الفاني ، اشتاق إلى الملك الباقي ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : آية ١٠١]

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)

قلت : (فاطر) : نعت المنادى ، أو منادى بنفسه.

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن يوسف عليه السّلام : رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ أي : من بعض الملك ، وهو ملك مصر ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ الكتب المتقدمة ، أو تأويل الرؤيا. و«من» : للتبعيض فيهما إذ لم يعط ملك الدنيا كلها ، ولا أحاط بالعلم كله. فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ : مبدعهما ومنشئهما ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي

الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ

: أنت ناصرى ومتولى أمرى فى الدارين ، تَوَفَّنِي مُسْلِماً : اقبضنى مسلما ، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ من

آبائي ، أو جماعة الصالحين فى الرتبة والكرامة ، أو بالصالحين لحضرة قدسك.
روى أن يعقوب عليه السّلام أقام معه أربعا وعشرين سنة ، ثم توفى ، فنقله يوسف عليه السّلام إلى الشام ليدفن مع أبويه.
هكذا ذكر بعض المفسرين. وقال فى الزهر الأنيق : بقي يعقوب عليه السّلام بمصر أربعين سنة فى أطيب وقت ، وأكمل عافية ، ثم أوحى اللّه إلى جبريل : أن انزل إلى يعقوب ، وقل له : يرحل إلى الأرض المقدسة ، عند قبور آبائه ، يجاورهم حتى ألحقه بهم. فنادى يعقوب عليه السّلام يوسف وأولاده ، وقال لهم : قد أمرنى ربى بمجاورة أبى ليقبض روحى هناك ، ثم ودّعهم ، وخرج إلى الأرض المقدسة ، فزار قبور آبائه فبكى ، فرأى فى المنام إبراهيم على كرسى ، وإسماعيل عن يمينه ، وإسحق عن يساره ، وهم يقولون : الحق بنا يا يعقوب ، فانتبه ، ثم قام فوجد قبرا محفورا تخرج منه رائحة المسك ، فقال : لمن هذا؟ قال له ملك عنده : هو لمن يتمنى سكناه ، فقال : أنا ، فقبض روحه ملك الموت ، ثم نزل جبريل وميكائيل - عليهما السّلام - وكفناه ، وصليا عليه ، ودفناه.
قال كعب الأحبار : توفى يعقوب وهو ابن مائتى سنة ، ولما وصل نعيه يوسف بكى ، وبكى معه إخوته. هـ.
«قلت» : ظاهره أنهم لم يحضروا موته ، وهو خلاف قوله تعالى : أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ «١» ، إلا أن يؤول بمعنى : قرب ، فتكون وصيته وقعت حين أراد الرجوع إلى الشام ، وهو خلاف الظاهر.
ثم إن يوسف تاقت نفسه إلى الملك المخلد ، فتمنى الموت ، فقال : رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ... إلخ. روى أنه عاش بعد قوله هذا مدة ، ثم ماتت زليخا ، ولم يتزوج بعدها ، وعاش بعدها أربعين يوما ، ثم اشتاق إلى اللقاء واللحوق بآبائه ، فتوفاه اللّه طيبا طاهرا ، فتخاصم أهل مصر فى مدفنه ، حتى هموا بالقتال ، فرأوا أن يجعلوه فى صندوق من مرمر - أي : رخام - فيدفنوه فى النيل بحيث يمر عليه الماء ، ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعا فيه.
وفى رواية : أنهم دفنوه على ضفة النيل فخصبت وجدبت الأخرى فنقلوه للأخرى فخصبت وجدبت الأولى ، فجعلوه فى صندوق ، ودفنوه فى النيل فاخضرت الجهتان ، ثم نقله موسى عليه السّلام إلى مدفن آبائه. وكان عمره :
مائة وعشرين سنة ، وقد تقدم ذكر أولاده الثلاثة : إفرائيم ، وميشا ، ورحمة امرأة أيوب ، وتقدم البحث فيها ، وذكر فى الزهر الأنيق أنه ولد له من زليخا عشرة أولاد ، فانظره. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : إذا كان العبد فى زيادة من الأعمال ، وفى الترقي إلى مقامات الكمال ، فلا بأس أن يتمنى البقاء فى هذه الدار لزيادة الزاد إلى دار القرار ، وإذا كان فى نقصان من الأعمال ، أو خاف النقصان بعد الكمال ، فلا بأس بطلب الرحيل والانتقال كما طلبه الصّدّيق عليه السّلام بعد الملك التام. وكما فعل عمر رضى اللّه عنه حين انتشرت

(١) الآية ١٣٤ من سورة البقرة.

(٦٣٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٣١

رعيته ، وخاف التقصير فى سيرته. وقد تقدم فى سورة البقرة تفصيل ذلك ، ولقد أحسن الشاعر فى التحذير ، من الاغترار بزخرف هذه الدار ، فقال :

هو الحمام فلا تبعد زيارته ولا تقل : ليتنى منه على حذر

يا ويح من غرّه دهر فسرّ به لم يخلص الصّفو إلا شيب بالكدر

انظر لمن باد تنظر آية عجبا وعبرة لأولى الأبصار والبصر

بادوا فعادوا حديثا ، إنّ ذا عجب ما أوضح الرّشد لو لا غفلة النّظر

تنافس النّاس فى الدّنيا وقد علموا أنّ المقام بها كاللّمح بالبصر

فخلّ عن زمن تخشى عواقبه إنّ الزمان إذا فكّرت ذو غير

واعمل لأخراك لا تبخل بمكرمة ومهّد العذر ليس العين كالأثر

ثم نبه الحق تعالى أن الإخبار بقصة يوسف عليه السّلام من أعلام النبوة لنبينا صلّى اللّه عليه وسلّم فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ١٠٢ الى ١٠٧]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧)

قلت : (ذلك) : مبتدأ ، و(من أنباء الغيب) : خبر. و(نوحيه) : حال.

يقول الحق جل جلاله : ذلِكَ أي : خبر يوسف وقصته ، هو مِنْ أَنْباءِ أخبار الْغَيْبِ التي لم يكن لك بها علم ، وإنما علمته بالوحى الذي نُوحِيهِ إِلَيْكَ فأخبرتهم به. وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ أي : وما حضرت عندهم ، إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ : حين عزموا أمرهم على أن يجعلوه فى غيابة الجب ، وَهُمْ يَمْكُرُونَ به ، وبأبيه ليرسله معهم. ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحدا من الأحبار

(٦٣١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٣٢
فتعلمت ذلك منه ، فتحققوا أنه وحي من عند اللّه ، ولكن جحدوا وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ على إيمانهم ، وبالغت فى إظهار الآيات لهم ، بِمُؤْمِنِينَ لعنادهم وتصميمهم على الكفر ، وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ على تبليغ هذا النبأ ، أو القرآن ، مِنْ أَجْرٍ كما يفعله حملة الأخبار من الأحبار. إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ : عظة من اللّه ، لِلْعالَمِينَ من الجن والإنس.

وَكَأَيِّنْ : كثيرا مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الدالة على وجود صانعها وتوحيده ، وكمال قدرته وتمام حكمته ، يَمُرُّونَ عَلَيْها ويشاهدونها ، وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ : لا يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون. وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ أي : وما يصدق أكثرهم بوجود اللّه فى إقرارهم بوجوده ، وخالقيته للأشياء ، وأنه الرزاق المميت ، إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ بعبادة الأصنام ، أو باتخاذ الأحبار والرهبان أربابا ، أو بنسبة التبني إليه ، أو بالوقوف مع الأسباب ، أو غير ذلك من أنواع الشرك الجلى والخفي. قيل : نزلت فى مشركى مكة ، وكانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكا تملكه وما ملك. وقيل : فى أهل الكتاب.

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ : عقوبة تغشاهم وتشملهم ، مِنْ عَذابِ اللَّهِ المرسل على الأمم المتقدمة ، أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً : فجأة ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بإتيانها ، غير مستعدين لها.

الإشارة : قوله تعالى : وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ : مثله يقال لأهل الوعظ والتذكير الداعين إلى مقام الخصوصية ، وما أكثر الناس ولو حرصت على هدايتهم ، بمهتدين إلى مقام الخصوصية لأن أهل الخصوصية أفراد قليلون فى كل زمان قال تعالى : وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ «١». وتقدم فى سورة هود «٢» ما يتعلق بقوله : وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ.

وقوله تعالى : وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ ... إلخ ، فيه ذم الغفلة ، والإعراض عن التفكر والاعتبار فإن الحق - جل جلاله - ما أظهر هذه الكائنات إلا ليعرف بها ، وتظهر فيها أسرار ذاته ، وأنوار صفاته. قال فى لطائف المدن :

فما نصبت الكائنات لتراها ، ولكن لترى فيها مولاها فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها تراها من حيث ظهوره فيها ، ولا تراها من حيث كونيتها. قال «٣» : ولنا فى هذا المعنى :

ما أثبت لك المعلم إلا لتراها بعين من لا يراها

فارق عنها رقى من ليس يرضى حالة دون أن يرى مولاها. هـ.

---

(١) من الآية ١٣ من سورة سبأ.

(٢) عند إشارة الآية ٢٩.

(٣) أي : الشيخ السكندرى صاحب لطائف المدن

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٣٣

وقوله تعالى : وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ : لا ينجو من الشرك الخفي إلا أهل التوحيد الخاص ، وهم الذين غابوا عن الأكوان جملة بشهود المكون ، قد سقط من نظرهم وجود الأغيار ، وتطهرت سرائرهم من لوث الأكدار ، ولم يبق فى مشهدهم إلا الواحد القهار ، فلم يعتمدوا على الوسائط والأسباب ، برؤية مسبب الأسباب ، ولم يركنوا إلى العشائر والأصحاب ، فإن التفتوا إلى غيره غفلة ، أدبهم ، وردهم إلى حضرته. هذا شأنهم معه أبدا. جعلنا اللّه منهم ، وخرطنا فى سلكهم. آمين.

ثم أوضح طريقهم ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : آية ١٠٨]

قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحانَ اللَّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)

قلت : (أدعو) : حال من الياء ، و(على بصيرة) : حال ثان ، و(أنا ومن اتبعنى) : الضمير - تأكيد للمستكن فى (أدعو) ، أو فى (على بصيرة) ، أو مبتدأ خبره : (على بصيرة) ، مقدم.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : هذِهِ سَبِيلِي : طريقى الذي جئت به من عند ربى وهى الدعوة إلى التوحيد ، والتأهب ليوم المعاد. ثم فسرها بقوله : أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ ، أو حال كونى داعيا إلى اللّه أي : إلى توحيده ومعرفته والأدب معه ، عَلى بَصِيرَةٍ : حجة واضحة ، وبينة من ربى ، لا عن تقليد أو عمى. أدعو إلى اللّه أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي فمن كان على قدمى فهو يدعو أيضا إلى اللّه على بصيرة وبينة من ربه ، وَسُبْحانَ اللَّهِ :

وأنزهه عن الشركاء والأنداد ، وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ به شركا جليا ولا خفيا ، بل مخلصا موحدا.

الإشارة : لا يصلح العبد أن يكون داعيا إلى الله حتى يكون على بصيرة من ربه ، بحيث لا يبقى فيه تقليد بحت ، ولا يختلجه شك ولا وهم. والدعاة إلى الله على ثلاث مراتب : فمنهم من يدعو على بصيرة الإسلام وهم الدعاة إلى معرفة أحكام اللّه وشرائعه ، ومنهم من يدعو علي بصيرة الإيمان ، وهم الدعاة إلى معرفة صفات الله تعالى وكمالاته ، ومعرفة ما يجب له تعالى وما يستحيل وما يجوز على طريق البرهان الواضح. ومنهم من يدعو إلى الله على بصيرة الإحسان ، وهم الدعاة إلى معرفة الذات العلية على نعت الشهود والعيان ، من طريق الذوق والوجدان وهم العارفون بالله ، أهل النور المخرق ، بحيث كل من واجههم خرق النور إلى باطنه. وهذه الدعوة الحقيقية والبصيرة النافذة ، وأهل هذا المقام هم أهل التربية النبوية ، فدعوة هؤلاء أكثر نفعا ، وأنجح تأثيرا فى زمن يسير يهدى الله على أيديهم الجم الغفير.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٣٤

قال فى نوادر الأصول : الداعي إلى الله على بصيرة - أي معاينة - هو الذي قلبه عند الله ، وعلى بصيرة فى الطريق ، ومحل القلوب فى تلك المراتب ناطقا بالله ، عن الله ، فلذلك يلج آذان المستمعين ، مع الكسوة التي تخرق كل حجاب ، وهو نور الله ، لأنه خرج من قلب مشحون بالنور ، فخرق كل حجاب قد تراكم على قلوب المخلصين ، فخلصها إلى نور التوحيد فأنارها بمنزلة جمرة وصلت النفخة إليها ، فالتهبت نارا ، فأضاءت البيت. وهذا سبيل الناطق عن الله. ثم قال : وكيف يجوز الدعاء إلى الله لمن ليس عند الله ، وهو لله ، وإنما قلبه عند نفسه ولنفسه ، مشغول بنهمته وشهواته وأحواله ، وإنما هذا لمن تفرغ من نفسه ، واشتغل بالله. هـ.

ثم رد على من زعم من الكفار أن الرسول من البشر ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ١٠٩ الى ١١٠]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)

قلت : (يوحى) : نعت لرجال ، وكذا (من أهل القرى) : نعت ثان ، و(حتى) : غاية لمحذوف ، أي : وما أرسلنا إلا رجلا يوحى إليهم فأوذوا مثلك ، ودام عليهم ، حتى إذا استيأسوا جاءهم نصرنا.

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ يا محمد إِلَّا رِجالًا بشرا لا ملائكة ، وهو رد لقولهم : لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً «١» ، وقيل : معناه : نفى استنباء النساء. وصفة أولئك الرجال : يوحى إليهم «٢» كما أوحى إليك ، فتميزوا بالوحى عن غيرهم ، وهم مِنْ أَهْلِ الْقُرى . وهم المدن والأمصار ، والمداشر «٣» الكبار لأنهم أحلم وأعلم ، بخلاف أهل العمود فإنهم أهل جفاء وجهالة. قال الحسن : (لم يبعث اللّه نبيا من أهل البادية ، ولا من النساء ، ولا من الجن).

قال ابن عطية : والتبدّى مكروه إلا فى الفتن ، وحين يفرّ بالدين ، لحديث : «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها سعف الجبال ... «٤»» الحديث. وفى ذلك أذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لسلمة بن الأكوع «٥». هـ.

---

(١) من الآية ١٤ من سورة فصلت.

(٢) قرأ حفص (نوحى) بنون العظمة.

(٣) المداشر : القرى.

(٤) أخرجه البخاري فى (كتاب الإيمان ، باب من الديين الفرار من الفتن) من حديث أبى سعيد الخدري.
(٥) أخرج البخاري فى (الفتن ، باب التعرب فى الفتنة) ، عن سلمة بن الأكوع : (أنه دخل على الحجاج ، فقال : يا ابن الأكوع ، ارتددت على عقيبك؟ قال : لا ، ولكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أذن لى فى البدو).

(٦٣٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٣٥

قلت : والفتنة تتنوع بتنوع المقامات ففتنة أهل الظاهر : تعذر إقامة الشريعة لكثرة الهرج والفتن ، وفتنة أهل الباطن : تعذر جمع القلب باللّه لكثرة الحس ، وتعرض الشواغل والعلائق. فمن وجد ذلك فى الحواضر فلينتقل إلى البوادي ، إن وجد من يعينه على الدين. والغالب أن الحواضر فى هذا الزمان يغلب فيها العوائد والشهوات ، وتعترى فيها الشواغل والشواغب ، بخلاف البادية. فإذا كان عليه الصلاة والسلام أذن لسلمة : خوف فتنة الظاهر ، فأولى خوف فتنة الباطن لأنه إذا فسد القلب فسد الجسد كله.
ثم قال ابن عطية : وقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا تعرب فى الإسلام «١»». وقال : «من بدا جفا» «٢». وعن معاذ بن جبل أنه قال : (الشّيطان ذئب الإنسان ، كذئب الغنم يأخذ الشّاة القاصية فإيّاكم والشّعاب ، وعليكم بالمساجد ، والجماعات ، والعامة) «٣».
ثم قال : ويعترض هذا ببدو يعقوب ، وينفصل عن ذلك بوجهين : أحدهما : أن ذلك البدو لم يكن فى أهل العمود ، بل بتقرّ فى منازل وربوع ، والثاني : إنما جعله بدوا بالإضافة إلى مصر ، كما هى بنات الحواضر الصغار بدو بالإضافة إلى الحواضر الكبار. هـ.
قلت : فالتعرب المنهي عنه هو اعتزال الرجل وحده فى جبل أو شعب ، وأما إن تقرر فى جماعة يقيمون الدين ، ويجتمعون عليه ، فليس بتعرب ولا بدو. ويدل عليه جواب ابن عطية الأول عن يعقوب عليه السّلام. والحاصل : أن أهل القلوب يفتشون على مصالح قلوبهم ، فأينما وجدوها فهى حاضرتهم. وقد ظهر فى البوادي أكابر من الأولياء ، ربما لم يظهروا فى الحواضر. واللّه تعالى أعلم.
ثم قال تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا أي : كفار مكة ، فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من المكذبين لرسلهم : كيف هلكوا وتركوا آثارهم يشاهدونها خرابا دارسة ، فيحذروا تكذيبك ليؤمنوا ويتأهبوا للدار الآخرة وَلَدارُ الْآخِرَةِ أي : ولدار الحياة الآخرة خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا الشرك والمعاصي ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ، وتستعملون عقولكم لتعلموا أنها خير. أو : أفلا يعقلون الذين يسيرون فى الأرض ليعلموا أن

الدنيا فانية ، والدار الآخرة خير لأنها باقية.

---

(١) ورد : «لا تعرب بعد الهجرة» ، أخرجه ، مطولا ، عبد الرزاق فى المصنف ، (باب : لا رضاع بعد الفطام ، ٧/ ٤٦٤ ح ١٣٨٩٩) ، من حديث جابر بن عبد الله رضى اللّه عنه ..

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٣٧١) ، وأبو داود فى (الصيد ، باب اتباع الصيد) والترمذي فى (الفتن ، باب سكنى البادية) والنسائي فى (الصيد ، باب اتباع الصيد) من حديث ابى هريرة ، وصححه الترمذي.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٢٣٣) من حديث معاذ بن جبل.

فإن أبيتم وكذبتم نبيكم فقد كذب من قبلكم رسلهم ، وآذوهم ، وتأخر نصرهم حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ من النصر ، أو من إيمان قومهم لانهماكهم فى الكفر ، وتماديهم من غير وازع ، وَظَنُّوا أي : تيقنوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا «١» أي : أن قومهم كذبوهم فيئسوا من إيمانهم. أو : وظنوا أن من آمن بهم قد كذبوهم لطول البلاء وتأخر النصر. وأما قراءة (كذبوا) بالتخفيف فمعناه : وظنوا أنهم قد كذب عليهم فى وعد النصر .. وأنكرت عائشة - رضى اللّه عنها - هذه الرواية ، وقالت : معاذ اللّه لم تكن الرسل تظن بربها ذلك. كما فى البخاري «٢».

وقد يجاب بأن ذلك كانت خواطر وهواجس من وسواس النفس ، يمر ولا يثبت ، وهو من طبع البشر ، لا يدخل تحت التكليف. وسماه ظنا مبالغة فى طلب المراقبة ، كما تقدم فى قوله : وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها. وقال ابن جزى ، على هذه القراءة : الضميران يعودان على المرسل إليهم ، أي : ظن الأتباع أن الرسل قد كذبوا عليهم فى دعوى الرسالة ، أو فى مجىء النصر لما اشتد عليهم البلاء ، وتأخر عنهم النصر.

فلما يئسوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ نجاته ، وهو : النبي والمؤمنون. وإنما لم يعينهم للدلالة على أنهم الذين يستأهلون نجاتهم بالمشيئة القديمة ، لا يشاركهم فيها غيرهم ، وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ إذا نزل بهم. وفيه بيان المستثنين بالمشيئة ، كأنه قال : ولا نشاء نجاة المجرمين.

الإشارة : قد وجد كثير من الأولياء بالمدن والحواضر ، وكثير منهم فى القرى والمداشر. وفضل اللّه يؤتيه من يشاء ، لا يختص بمكان ولا زمان ، غير أن جلهم جمعوا بين علم المدن وتفرغ البوادي ، يعنى : جمعوا بين شريعة المدن وحقيقة البوادي لأن أهل المدن شريعتهم قوية ، وحقيقتهم ضعيفة.

والبوادي بالعكس لكثرة العلائق فى المدن وخفتها فى البوادي ، والحقيقة تحتاج إلى تفرغ كبير وتفكر كثير ، واللّه تعالى أعلم.
وقوله تعالى : وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا بالتخفيف ، معناه : أنهم لم يقفوا مع ظاهر الوعد لسعة علمهم لأن ذلك الوعد قد يكون فى علم الغيب متوقفا على شروط خفية لا يعلمها ذلك النبي أو الولي ، ليتحقق انفراده تعالى بالعلم الحقيقي ، والقهرية الغالبة. فلذلك كان العارفون لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير اللّه قرارهم.
وقال الورتجبي : إنهم استغرقوا فى قلزوم «٣» الأزلية ، وغابوا تحت بحار الديمومية ، ولم يروا الحق من كمال استغراقهم فى الحق. فلما لم يروه ناداهم لسان غيرة قهر القدم : أين أنتم؟ غبتم عنه وعن الحقيقة ، فتطلع أنوار الحقيقة عليهم ، ويأخذ لطفها عن شبكات امتحان القهر. وهذا دأب الحق مع الأنبياء والأولياء حتى لا يسكنوا إلى ما وجدوا منه ، بل يفنوا به عن كل ماله إليهم. هـ.

---

(١) قرأ «كذبوا» بالتخفيف ، عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر ، وقرأ الباقون «كذّبوا» بالتشديد. انظر القراءة وتوجيهها فى الإتحاف (٢/ ١٥) والبحر المحيط (٥/ ٣٤٧).
(٢) (كتاب التفسير ، باب سورة يوسف). [.....]
(٣) أي : بحر.

قال المحشى الفاسي : وحاصل ما أشار إليه : أن قراءة التخفيف تشير إلى أخذهم عن الوقوف مع الوعد ، والسكون إليه ، غيبة فى الحق عن مقتضى وعده ، لا تكذيبا لوعده ، بل ذلك أحوال غالبة آخذة عن الصفة ، غيبة فى الموصوف. وهذا حال الصوفي كما يعرف ذلك أهله. وهو صحيح فى نفسه ولكنه بعيد عن مرمى الآية فإن صاحب الغيبة لا يوصف بظن خلاف الوعد ، وإن كان غائبا عنه. وأقرب منه ما ذكره الترمذي الحكيم : من أن ظن ذلك كان لظن فقد شرط فى الموعود أوجب عدم القطع لوقوع الوعد. واللّه أعلم.
وقد قال فى الحكم : «لا يشككنك فى الوعد عدم وقوع الموعود ، وإن تعين زمنه». يعنى أنه قد يتخلف لفقد شرط كما فى قضية الجرو الذي تخلف جبريل من أجله. أو لعدم تحقيق الوقت لأن تعيينه كان من قبل أنفسهم من غير وحي ، فلما تأخر ظنوا ذلك بأنفسهم. واللّه تعالى أعلم. هـ.
والحاصل : أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لما تأخر عنهم النصر هجس فى أنفسهم تخلف

الوعد خوفا أن يكون متوقفا على شرط لم يعلموه ، أو جعلوا له وقتا فهموه من أمارات ، فلما تأخر عنه ظنوا أنه قد تخلف. وأما قضية الجرو الذي أشار إليها : فكان جبريل عليه السّلام وعد نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم أن يأتيه فى وقت مخصوص ، فدخل جرو البيت ، فلم ينزل فى ذلك الوقت ، فلما نزل بعد ذلك ، قال : «إنما تخلّفنا عن الوقت لأنّ الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب» «١». كما فى الصحيح.

ثم قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : آية ١١١]

لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ أي : فى قصص الأنبياء وأممهم ، أو فى قصة يوسف وإخوته ، عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ : لذوى العقول الصافية الخالصة من شوائب الإلف والعادة ، ومن الركون إلى الحس لأن الإخبار بهم على يد نبى أمي آية واضحة لمن تفكر بقلب خالص. ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى أي : ما كان القرآن حديثا مفترى ، وَلكِنْ كان تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب الإلهية ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ يحتاج إليه فى الدارين إذ ما من أمر دينى إلا وله مستند من القرآن بوسط ، أو بغير وسط. وَهُدىً من الضلال ، وَرَحْمَةً ينال بها خير الدارين ، لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ : يصدقون به ، ويتدبرون فى معانيه.

---

(١) أخرجه البخاري فى (كتاب اللباس/ باب : لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة).

الإشارة : تفكر الاعتبار يشد عروة الإيمان ، وفكرة الاستبصار تشد عروة الإحسان. قال فى الحكم : «الفكرة فكرتان : فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان. فالأولى : لأهل التفكر والاعتبار ، والثانية : لأهل الشهود والاستبصار». ومرجع الاعتبار إلى خمسة أمور :

الأول : التفكر فى سرعة انصرام الدنيا وانقراضها ، وذهاب أهلها. قرنا فقرنا ، وجيلا فجيلا. فيوجب ذلك الزهد فى الدنيا ، والإعراض عن زخارفها الغرارة ، والتأهب للدار الباقية.

الثاني : التفكر فى الدار الباقية ، ودوام نعيمها ، أو عذابها. وذلك مرتب على السّعى فى هذه الدار ، فيوجب ذلك انتهاز الفرصة فى الأعمال ، واغتنام الأوقات والساعات قبل الفوات.

الثالث : التفكر فى النعم التي أنعم الحق - تعالى - بها على الإنسان إما ظاهرة كالعافية فى البدن ، والرزق الحلال ، وما يتبع ذلك مما لا يحصى قال تعالى : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها «١». وإما

باطنة : كنعمة الإسلام والإيمان ، وصحيح العرفان ، والاستقامة فى الدين ، ولا سيما إن رزقه اللّه من يأخذ بيده من شيخ عارف. فهذه نعمة عظمى قلّ من يسقط عليها. فيوجب له ذلك الشكر الذي هو أعلى المقامات ، ومتكفّل بالزيادات ، قال تعالى :

لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ «٢» .. ولا يعرف العبد ما عليه من النعم إلا بالتفكر فى أضدادها ، والنظر إلى أهل البلاء.

الرابع : التفكر فى عيوبه ومساوئه ، لعله يسعى فى تطهيرها ، أو يشتغل بها عن عيوب غيره.

الخامس : التفكر فيما أظهر اللّه تعالى من أنواع المكونات ، وضروب المصنوعات فيعرف بذلك جلالة الصانع ، وعظيم قدرته ، وإحاطة علمه ، وحكمته. فإن اتصل بشيخ عارف غيّبه عنها بشهود مكونها.

وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم ..

(٢) من الآية ٧ من سورة إبراهيم.

فهرس المجلد الثاني

[المجلد الثالث]

سورة الرّعد

مكية إلى قوله : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، والباقي مدنى ، وقيل : مدنية كلها. وآيها :

خمس وأربعون. ومناسبتها لما قبلها : قوله : ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى ، مع قوله تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي

أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ فإنه كالدليل على كونه غير مفترى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ المر ....

[سورة الرعد (١٣) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١)

قيل : معناه : أنا أعلم ، اللّه أعلم وأرى. وقيل : مختصرة من لفظ المرسل ، على عادة رمز المحبين. أو إشارة إلى العوالم الأربعة : فالألف لوحدة الجبروت ، واللام لتدفق أنوار الملكوت ، والميم لحس عالم الملك ، والراء لسريان أمداد الرحموت.

قال تعالى :

تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ ...

قلت : تِلْكَ : مبتدأ ، وآياتُ : خبر ، والَّذِي أُنْزِلَ : مبتدأ ، والْحَقُّ : خبر ، والجملة الثانية كالحجة على الجملة الأولى.

يقول الحق جل جلاله : أيها المرسل المعظم ، والحبيب المفخم ، تِلْكَ الآيات التي تتلوها على الناس هى آياتُ الْكِتابِ المنزل من حضرة قدسنا. وَالكتاب أي : القرآن الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هو الْحَقُّ الذي لا ريب فيه ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

الإشارة : لو صفت القلوب من الأكدار ، وملئت بالمعارف والأنوار لفهمت أسرار الكتاب ، وجواهر معانيه ، ولأدركت معرفة الحق من كلامه لأن الكلام صفة المتكلم ، ولكن أكثر الناس اشتغلوا بمتابعة الهوى ، فصرفوا عن فهم الكلام ، وفاتهم معرفة المتكلم ، ولذلك لم يكتف الحق تعالى بآيات الكتاب حتى ذكر دلائل توحيده وكمال قدرته ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : آية ٢]

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)

قلت : اللَّهُ : مبتدأ ، والَّذِي رَفَعَ : خبره ، ويجوز أن يكون الموصول صفة ، والخبر : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، وعَمَدٍ :

اسم جمع عمود ، وقياس جمعه : عمد ، كرسول ورسل ، وشهاب وشهب ، وليس جمعا خلافا لأبى

عبيد. قاله ابن عطية. وقال البيضاوي : جمع عماد ، كإهاب وأهب. وجملة : تَرَوْنَها : إما حال ، أو استئنافية فالضمير للسماوات ، وإما صفة لعمد فالضمير لها ، أي : ليس لها عمد مرئية ، فيقتضى بالمفهوم أن لها عمدا لا ترى. وقيل : إن عمدها جبل قاف المحيط بالدنيا. والجمهور : أنه لا عمد لها البتة. فالمراد نفى العمد ، ونفى رؤيتها. قاله ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله مستدلا على وجوده ، وكمال قدرته : اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ فوقكم كالسقف المرفوع بِغَيْرِ عَمَدٍ : أساطين ، بل بقدرة أزلية ، تَرَوْنَها مرفوعة فوقكم. أو بغير عمد مرئية ، بل بعمد خفية ، وهى : أسرار الذات العلية إذ لا فاعل سواه. ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ استواء استيلاء وإحاطة ، حتى صار العرش غيبا فى إحاطة قهريته وأسرار ذاته. وقد كانت العرب تجعل لملوكها سريرا يجلسون عليه لتدبير المملكة ، فخاطبنا الحق تعالى بقدر ما نفهم «١» ، ولذلك رتب عليه قوله : وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لأن هذا من تدبير ملكه ، أي : ذللهما لما أراد منهما ، كالحركة المستمرة على حد من السرعة لينتفع بهما عباده فى معاشهم ومعالم دينهم. كُلٌّ منهما يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى : لمدة معينة تتم فيها أدواره ، أو لغاية مضروبة ينقطع فيها سيرهما وهى يوم القيامة حين تكوّر الشمس والقمر. يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أمر ملكه من الإيجاد والإعدام ، والإحياء والإماتة ، وغير ذلك ، يُفَصِّلُ الْآياتِ : ينزلها ، ويبين معانيها مفصلة ، أو يحدث الدلائل واحدا بعد واحد لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ : لكى تتفكروا فيها ، وتتحققوا كمال قدرته ، فتعلموا أنّ من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قادر على الإعادة والجزاء.

الإشارة : اللّه الذي رفع سموات الأرواح ، وزينها بنجوم العلم وقمر التوحيد ، وأشرق عليها شموس العرفان وأسرار التفريد ، ثم استوى بأسرار ذاته وأنوار صفاته على العرش ، وهو قلب العارف لأنه سرير المعرفة ، ومحل بيت الرب ، وسخر شمس المعرفة وقمر التوحيد ، يجريان بالترقي إلى محل التمكين ، وهو الأجل المسمى لهما ، يدبر أمر السير والترقي ، ويفصّل دلائل الطريق الموصلة إلى عين التحقيق لعلكم بالوصال إلى ربكم توقنون ، حين يكون ذوقا وكشفا. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر العالم السفلى ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٣ الى ٤]

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

---

(١) سئل الإمام مالك ، عن الاستواء على العرش ، فقال : (الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ..) ، وإذا كان علم حقيقة الصفات فرع عن علم حقيقة الذات المقدسة ، وإذا كنا لا نحيط بالله علما ، فإننا لن نحيط بصفات الله علما ، كذلك ، فنقول : آمنا به ، كلّ عند ربنا.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٧

قلت : رَواسِيَ : جمع راسية ، من رسى الشيء : ثبت ، وجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ من خفض عطف على أَعْنابٍ ، ومن رفع عطف على جَنَّاتٌ. وصِنْوانٌ : نعت تابع ، وغَيْرُ : عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ بسطها طولا وعرضا لتثبت عليها الأقدام وتتقلب عليها الحيوان والأنام ، وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ : جبالا ثوابت لتستقر وتثبت ، فلا تميد كالسفينة ، وَجعل فيها أَنْهاراً مطردة دائمة الجري ، من غير نفاد ولا فتور. ضمها إلى الجبال لأنها أسباب لتولدها فى العادة.
وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أي : وجعل فيها صنفين اثنين من كل الثمرات فكل ثمرة فيها صنفان أحمر وأسود ، أو حلو وحامض ، قال ابن جزى : فإن قيل : تقتضى الآية أنه تعالى خلق من كل ثمرة صنفين ، وقد خلق من كثير من الثمرات أصنافا كثيرة؟ فالجواب : أن ذلك زيادة فى الاعتبار ، وأعظم فى الدلالة على القدرة بذكر الاثنين لأن دلالة غيرهما من باب أولى. هـ.

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ ، أي : يجعل الليل غشاء على النهار ولباسا له ، فيصير الجو مظلما بعد ما كان مضيئا.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ دلائل وجوده وباهر قدرته لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فيها فإن وجودها وتخصيصها فى هذا الشكل العجيب ، دليل على وجود صانع حكيم ، دبر أمرها ، وهيأ أسبابها.

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ قريب بعضها من بعض ، مع اختلاف أوصافها ، بعضها طيبة وبعضها سبخة ، وبعضها رخوة وبعضها صلبة ، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر ، وبعضها بالعكس ، وبعضها معادن مختلفة. ولو لا تخصيص قادر مخصص لتلك الأفعال ، على وجه دون وجه ، لم يكن الحكم كذلك لاشتراك تلك القطع فى الطبيعة الأرضية ، وما يلزمها ويعرض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية ، من حيث إنها متضامة متشاركة فى السبب والأوضاع. قاله البيضاوي. وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ أي : وفى الأرض أيضا بساتين فيها أنواع من الأعناب والزروع ، والنخيل ، من صفة تلك النخيل : صِنْوانٌ أي : نخلات كثيرة متفرعة من أصل واحد ، وَغَيْرُ صِنْوانٍ أي : غير متفرعة ، بل كل نخلة منفردة بأصل واحد ، يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ. وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ أي : فى الثمر المأكول قدرا وشكلا ، وطعما ، ورائحة ولونا ،

مع اتفاق الماء الذي تسقى به. وذلك مما يدل أيضا على الصانع القادر الحكيم ، فإن إيجادها ، مع اختلاف الأصول والأسباب ، لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار. وفيه رد على الطبائعيين. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ :
يستعملون عقولهم بالتفكر والاعتبار ، فيدركون عظمة الواحد القهار.
الإشارة : ذكر أولا سماء الأرواح ، وما يناسبها من أنوار التوحيد وأسرار التفريد ، وذكر هنا أرض النفوس ، وما يلائمها من جبال العقول وأنهار العلوم ، فقال : وهو الذي مد أرض النفوس ، وجعل فيها جبالا من العقول الشامخة ، حتى أدركت الصانع ، وتحققت بوجوده ووحدانيته ، بالدلائل الواضحة ، والبراهين القطعية. وأنبع منها أنهارا من العلوم الرسمية ، والرقائق الوعظية. وجعل فيها من كل صنف من ثمار ما جنت بمجاهدتها صنفين اثنين : قبضا وبسطا ، منعا ووجدا ، ذلا وعزا ، فقرا وغنى. يغشيانها غشاء الليل للنهار فإذا كان ليل القبض غشيه نهار البسط ، فيزيله ، وإذا كان المنع ، غشيه الوجد ، وإذا كان الذل غشيه العز ، وإذا كان الفقر غشيه الغنى ، وهكذا. ودوام حال من قضايا المحال.
وفى أرض النفوس أيضا قطع متجاورة ، مع اختلاف ألوانها وطبائعها ، وعلومها ومعارفها ، ومواجدها وألسنتها.
وفيها أيضا جنات المعارف - إن اتصلت بطبيب عارف - من أعناب الحقائق الناشئة عن خمرة الأزل ، وزرع الشرائع الناشئة عن الكسب والتحصيل ، ونخيل الأذواق والوجدان ، صنوان وغير صنوان - يعنى من تعتريه الأحوال ، ومن لا تعتريه لكمال رسوخه ، تسقى بخمرة واحدة ، وهى الخمرة الأزلية ، على أيدى الوسائط ، أو بلا وسائط ، وهو نادر. ونفضل بعضها على بعض فى الأذواق والوجدان فترى العارفين بعضهم قطب فى الأحوال ، وبعضهم قطب فى المقامات كان الجنيد رضى اللّه عنه قطبا فى العلوم ، وكذا الشاذلى والجيلاني والغزالي ، وأمثالهم. وكان الشيخ أبو زيد قطبا فى الأحوال ، وكان سهل التستري قطبا فى المقامات. والأولياء كلهم لا يخرجون عن هذا التقسيم ، كل واحد وما يغلب عليه ، مع مشاركته لغيره فى الثلاث «١». واللّه تعالى أعلم.
ولما ذكر دلائل قدرته ذكر وعيد من أعرض عنها حتى أنكر البعث ، فقال :
[سورة الرعد (١٣) : آية ٥]
وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٥)

---

(١) هذه الإشارة ينبغى أن تتضمن توجيها : لدراسة الكون دراسة علمية والاستفادة فى ذلك فى إعمار الأرض ، وإنقاذ المسلمين من التخلف العلمي والحضارى ، ومن التبعية لحضارة الغرب المادية فانظر إلى قوله تعالى : (يتفكرون) ، (يعقلون) ومتعلقهما ، أعنى : الأرض ، والرواسي ، والأنهار ، والنبات ،

والري .. وغير ذلك ، كيف غفلنا نحن المسلمين عن التفكر ، والتعقل فى هذه الموضوعات؟ وما العلم الطبيعي إلا مبنى على هذا الأصل ، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

(٣/٨)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩

قلت : فَعَجَبٌ : خبر ، وقَوْلُهُمْ : مبتدأ ، وأَ إِذا كُنَّا ... إلخ - محكى به. واختلف القراء هنا ، وفى مواضع من القرآن ، فمنهم من قرأ بالاستفهام فى الأول دون الثاني ، ومنهم بالعكس ، ومنهم من قرأ بالاستفهام فيهما. فمن قرأ بالاستفهام فى الأول دون الثاني فإنما القصد هو الثاني لأنهم إنما أنكروا كون الإنسان يصير ترابا ثم يبعث ، وأما كونهم يصيرون ترابا فلا إنكار عندهم فيه. ومن قرأ بالاستفهام فى الثاني فعلى الأصل ، ومن قرأ بالاستفهام فيهما فزيادة تأكيد. والعامل فى إذا محذوف ، دل عليه : لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أي : أنجدد إذا .... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ تَعْجَبْ يا محمد من إنكارهم البعث فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أي : فقولهم حقيق بأن يتعجب منه ، فإنّ من قدر على إنشاء ما قصّ عليك من عجائب السماوات والأرض ، وأنواع الثمار على اختلاف أصنافها وألوانها ، كانت الإعادة أيسر شيء عليه ، فالآيات المعدودة كما هى دالة على وجود المبدأ ، فهى دالة على إمكان الإعادة ، لأنها دالة على كمال قدرته تعالى. ثم فسر قولهم فى الإنكار : قالوا : أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أي : أنجدّد إذا متنا ، وكنا ترابا ، أُولئِكَ القائلون ذلك ، أو المنكرون البعث ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ لأنهم كفروا صفة القدرة ، وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ أي : مقيدون بالضلال ، قد أحاط بهم الشقاء ، لا يرجى خلاصهم ، أو : يغلّون يوم القيامة. وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ لا ينفكون عنها. وتوسط ضمير الفصل لتخصيص الخلود بالكفار ، ففيه رد على المعتزلة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إنكار بعث الأرواح من غفلاتها وجهلها ، كإنكار بعث الأشباح بعد موتها ، يتعجب من الأول كما يتعجب من الثاني فالقدرة صالحة ، فمن قدر على بعث الأشباح بعد موتها الحسى قدر على بعث الأرواح بعد موتها المعنوي. «من استغرب أن ينقذه اللّه من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته ، فقد استعجز قدرة الإلهية وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً». وقد أحيا اللّه أرواحا كثيرة كانت ميتة بالجهل والمعاصي ، فصارت عارفة باللّه ، من خواص أولياء اللّه من كانوا لصوصا فصاروا خصوصا ، ومنهم من كانوا كفارا ، فصاروا أبرارا. وباللّه التوفيق.

ثم استمر بهم الإنكار حتى استعجلوا ممن أوعدهم بذلك العذاب ، فقال تعالى :

[سورة الرعد (١٣) : آية ٦]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (٦)

قلت : «المثلات» : جمع مثلة ، كسمرة ، وهى العقوبة العظيمة ، التي تجعل الإنسان مثلا لمن بعده. وفيها لغات وقراءات شاذة. وعَلى ظُلْمِهِمْ : حال ، والعامل فيه : المغفرة.

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ أي : بالنقمة قبل العافية ، طلبوا نزول العذاب الذي أوعدهم به استهزاء ، وَقَدْ خَلَتْ : مضت مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ : عقوبات أمثالهم من

المكذبين ، أو المصيبات الدواهي ، حتى صاروا مثلا لمن بعدهم. فمالهم لم يعتبروا ، ولم يخافوا حلول مثلها عليهم؟

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ أي : مع ظلمهم أنفسهم بالكفر والمعاصي ، فسترهم وأمهلهم فى الدنيا. فالمغفرة هنا لغوية ، وقيل : يغفر لهم بالتوبة. وقيل : بلا قيد التوبة ، بل بمجرد الحلم. قال البيضاوي : وفيه جواز العفو قبل التوبة ، فإن التائب ليس على ظلمه ، ومن منع ذلك خص الظلم بالصغائر المكفرة باجتناب الكبائر. هـ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ لمن يريد تعذيبه ، أو للكفار. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «لو لا عفو اللّه وتجاوزه ما هنأ أحد العيش ، ولو لا وعيده وعقابه لاتّكل كلّ أحد» «١». قاله البيضاوي.

الإشارة : ترى بعض المستهزئين بالأولياء يؤذيهم بلسانه ، أو بغيره ، ويقول : إن كان بيده ما يفعل يفعله بي ، واللّه تعالى يقول : «من آذى لى وليّا فقد آذنته بالحرب». ولكن الحق تعالى يمهل ولا يهمل وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ.

ثم طلبوا المعجزة ، كما قال تعالى :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٧ الى ١٠]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (٨) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (٩) سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ (١٠)

.

قلت : وَسارِبٌ : عطف على جملة مَنْ هُوَ أي : ومن هو سارب ، ليكمل التقسيم أربعة : من أسر ، ومن جهر به ، ومن استخفى ، ومن سرب أي : برز. انظر ابن جزى. والْمُتَعالِ : منقوص ، يجوز فى

الوقف عليه حذف الياء وإثباتها ، وكذلك : هاد ، وواق ، وشبهه ، غير أن الراجح فى المعرّف بأل الإثبات ، وفى المنوّن : الحذف. قال ابن مالك :

وحذف يا المنقوص ذى التّنوين ما لم ينصب) أولى من ثبوت فاعلما

وغير ذى التّنوين بالعكس ، وفى نحو مر : لزوم ردّ اليا اقتفى

وأثبتها ابن كثير فى الجميع ، ووافقه يعقوب فى المعرّف بأل ، وحذفها غيره مطلقا.

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٢١٤٥) عن سعيد بن المسيب ، مرسلا ، وزاد فى الفتح السماوي (٢/ ٧٣٨) عزوه للثعلبى.

يقول الحق جل جلاله : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا من أهل مكة : لَوْ لا : هلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ أي : معجزة واضحة مِنْ رَبِّهِ كما أوتى موسى وعيسى. ولم يعتدوا بالآيات المنزلة عليه كانشقاق القمر وانقياد الشجر ، وتسليم الحجر ، وأعظمها : القرآن العظيم. وذلك عناد منهم. قال تعالى : إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ مرسل إليهم لتنذرهم كغيرك من الرسل ، وما عليك إلا الإتيان بما تصح به نبوتك من جنس المعجزات ، لا مما يقترح عليك.

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ رسول يهديهم إلى الحق والصواب ، مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم ففى زمن موسى عليه السّلام كان الغالب عليهم السحر ، فأوتى بالعصا تنقلب حية ليبطل سحرهم ، وفى زمن عيسى عليه السّلام كان الغالب عليهم الطب ، فأوتى إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى الذي يعجزون عن مثله ، وفى زمن نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم كان الغالب عليهم البلاغة والفصاحة ، بها كانوا يتباهون ويتناضلون ، فأوتى القرآن العظيم ، أعجز ببلاغته البلغاء والفصحاء. أو : ولكل قوم هاد ، يقدر على هدايتهم ، وهو اللّه تعالى ، أي : إنما عليك الإنذار ، واللّه هو الهادي لمن يشاء ، أو : ولكل قوم واعظ ومذكر من نبىّ أو ولىّ. روى أنها لما نزلت قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «أنا المنذر ، وأنت يا علىّ الهادي» «١».

ثم أردف ذلك ما يدل على كمال علمه وقدرته ، وشمول قضائه وقدره تنبيها على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه ، وإنما لم ينزله لعلمه بأن اقتراحهم كان عنادا لا استرشادا. أو أن وقت الإنزال لم يحضر ، فقال :

اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى هل هو ذكر أو أنثى ، أو تام أو ناقص ، أو حسن أو قبيح «٢». وهو من

الخمس التي اختص بها. وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ أي : ما تنقص فى الجثة بمرض الجنين أو إسقاطه ، وما تزداد بنمو الجنين إلى أمده أو أكثر. قال البيضاوي : مدة الحمل عندنا أربع سنين ، وخمس عند مالك ، وسنتان عند أبى حنيفة. روى أن الضحاك ولد لسنتين ، وهرم بن حيان لأربع سنين. وأعلى عدده لا حد له. «٣» - قلت : يعنى مع تحققه - وقيل : المراد نقصان دم الحيض وزيادته.

هـ. وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ : بقدر محدود ، ووقت مخصوص ، لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، فالحق - تعالى - قد خص كل حادث بوقت مخصوص معين ، وهيأ له أسبابا تسوقه إليه على ما تقتضيه حكمته.

---

(١) أخرجه الطبري فى تفسيره (١٣/ ١٠٨) عن ابن عباس. وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٢) والآلوسى (١٣/ ٨).

(٢) هذا النوع الذي ذكره الشيخ المفسر ، من المعرفة ، ليس هو النوع الذي اختص الله نفسه بعلمه - وهو يعلمه أيضا - فإن هذا العلم ممكن للإنسان ، بل قد علمه فعلا عن طريق الأشعة وغيرها.

والأساس فى فهم الآية قوله تعالى فى الآية «ما» وهى التي تدل على الماهية.

فقوله تعالى : اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى أي : يعلم ماهيته وحقيقته ، هل يكون شخصا مؤمنا أو كافرا ، سعيدا أو شقيا فى الدنيا والآخرة ، يعلم كنهه وهويته ومعتقده ، واتجاهاته وميوله ، وفكره وعمله ، ونيته ومصيره ، علما كليا وتفصيليا ، وهو ما يستحيل على العقل البشرى أن يعلمه ، فالله هو المختص وحده بعلم ذلك كله ، فضلا على علمه : هل هو ذكر أو أنثى .. إلخ ما يعلمه الإنسان بأدوات العلم التجريبى.

(٣) ما قاله الإمام البيضاوي عن مدة الحمل يرجع فيه إلى أهل الطب المختصين ، فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ، وقد قال أهل الاختصاص : إن الجنين إذا ظل فى الرحم أكثر من مدته ، فإن الرحم قد ينفجر. إلخ ما قالوا.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٢

عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أي : الغائب عن الحس ، والظاهر فيه الْكَبِيرُ : العظيم الشأن ، الذي يصغر كل شىء دون عظمته وكبريائه ، الْمُتَعالِ : المستعلى عن سمة الحوادث ، أو : المستعلى بقدرته على كل شىء.

سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ فى نفسه وَمَنْ جَهَرَ بِهِ لغيره ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ : طالب للخفاء مستترا بظلمة الليل ، وَمن هو سارِبٌ بِالنَّهارِ أي : بارز فيه. فقد أحاط اللّه بذلك ، علما وسمعا وبصرا.

فالآية مقررة لما قبلها من كمال علمه وشموله.

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ١١ الى ١٣]

لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (١١) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (١٣)

لَهُ مُعَقِّباتٌ أي : لمن أسر أو جهر ، أو استخفى أو برز ، مُعَقِّباتٌ : ملائكة تعتقب فى حفظه ، أي : يعقب بعضها بعضا ، اثنان بالليل واثنان بالنهار ، أو : لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها. أو : جماعة من الملائكة وكلّهم اللّه بحفظ الآدمي ، يعقب بعضهم بعضا ، وهو مناسب لقوله : يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أي :

يحرسونه من الآفات التي تنزل من أمر اللّه وإرادته. أو : يحفظونه من عقوبة اللّه وغضبه. إذا أذنب ذنبا أمهلوه واستغفروا له. أو : يراقبون أحواله من أجل أمر اللّه ، إذ أمرهم اللّه بذلك ، أو يكون صفة للمعقبات ، أي : له معقبات من أجل أمر اللّه ، حيث أمرهم بحفظه. وقيل : الضمير فى لَهُ : يعود إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، المتقدم فى قوله : إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ ، فتكون نزلت فيمن أراد غدر النبي صلى اللّه عليه وسلم سرا ، على ما يأتى فى الآية الآتية. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد تقدم مرارا حال من طلب الكرامة من الأولياء ، وأنه جاهل بهم ، ولا يعرفهم مادام يلتمس الكرامة منهم. وأىّ كرامة أعظم من الاستقامة ، والمعرفة باللّه ، على نعت الشهود والعيان؟!. وقوله تعالى : وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ أي : ولكل عصر عارف باللّه ، يهدى الناس إلى حضرة اللّه ، وهم ورثة الهادي الأعظم والنبي الأفخم ، نبينا - عليه الصلاة والسّلام - أولهم سيدنا على - كرم اللّه وجهه للحديث المتقدم ، لأنه أول من أظهر علم التصوف وأفشاه ، ثم أخذه عنه الحسن البصريّ وهذبه ، ثم حبيب العجمي ، ثم داود الطائي ، ثم معروف الكرخي ، ثم سرى السقطي ، ثم إمام الطريقة : أبو القاسم الجنيد ، ثم انتشر فى الأرض ، فلكل عصر رجال يحملون لواء الحقيقة ، ويهدون الناس إلى لباب الشريعة. وهم العارفون باللّه. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «يبعث اللّه على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لهذه الأمّة أمر دينها» «١» أي : يجدد الطريقة بعد دروسها ، ويحيى الحقيقة بعد خمود أنوارها ، ويظهر الشريعة بعد خفاء أعلامها. وقد يكون واحدا ومتعددا. وقد بعث اللّه فى رأس هذه المائة الثالثة عشر ، أربعة ، أحيا اللّه بهم الحقيقة ، وأظهر بهم أنوار الشريعة ، يمشون فى الأرض بالنصيحة ، ويهدون الناس إلى رب العالمين ، واللّه ولى المتقين ، وشهرتهم تغنى عن تعيينهم ، وتقدم اثنان فى العقود.

---

(١) أخرجه ابن داود في (الملاحم ، باب ما يذكر في قرن المائة) من حديث أبي هريرة ، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (ح ١٨٤٥).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣

وقوله تعالى : اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى : ما تحمل كل نفس من العلوم ، وما تحمل كل روح من الأسرار.

وما تغيض الأرحام ، أي : القلوب ، فقد تنقص أنوارها بمباشرة الأغيار ، وقد تزداد بالتفرغ أو صحبة العارفين الكبار.

وكل شيء عنده بمقدار ، فالفتح له وقت معلوم ، وحد محدود ، والمراتب والمقامات مقسومة محدودة في الأزل ، كل أحد يأخذ ما قسم له. وقوله تعالى : سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ ... إلخ ، فيه تحقيق المراقبة وتشديد المحاسبة على الخواطر والقلوب. واللّه تعالى أعلم.

وإذا كان العبد على هداية من ربه أو نعمة ، فلا تزول عنه إلا من جهته ، كما قال تعالى :

إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ...

قلت : وَإِذا : ظرف ، والعامل فيه : مادل عليه الجواب ، أي : لا يرد ما قضى إذا أراد إنفاذه. وخَوْفاً وَطَمَعاً :

منصوبان على العلة بتقدير المضاف ، أي : إرادة الخوف والطمع ليتحد الفاعل. أو بتأويل : يجعلكم ترون البرق خوفا وطمعا. والثِّقالَ : نعت للسحاب ، وجمعه لأن السحاب جنس بمعنى الجمع. وجملة : وَهُمْ يُجادِلُونَ : إما استئنافية ، أو حال من الموصول. والْمِحالِ : المكر والخديعة. من محل بفلان إذا كاده وعرّضه للهلاك ، ومنه تمحّل : إذا تكلّف استعمال الحيلة ، فالميم أصلية ، ووزنه : فعال ، وقيل : مشتق من الحيلة ، فالميم زائدة ، ووزنه : مفعل ، وأصله : محيل.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ من النعم والعافية إلى النقمة والبلية حَتَّى يُغَيِّرُوا هم ما بِأَنْفُسِهِمْ من الطاعة وترك المعصية ، إلى ارتكاب الذنوب. فلا يسلب النعم عن قوم إلا بارتكاب ذنب ، ولو من البعض إذا سكت الكل. وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ أي : فلا رادّ له ولا معقب لحكمه ، وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ أي : ليس لهم من يلي أمرهم ، ويدفع عنهم السوء الذي قضاه اللّه عليهم ، وأراد نزوله بهم لأن وقوع خلاف مراد اللّه تعالى محال.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً أي : خوفا مما ينشأ عن البرق من الصواعق والأمور الهائلة ، وطمعا في نزول الغيث الذي يكون معه غالبا ، وَيُنْشِئُ أي : يخلق السَّحابَ الغيم المسحب ، الثِّقالَ :

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٤
المثقل بالمطر الحاملة له ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ أي : متلبسا بحمده ، يقول : سبحان اللّه وبحمده.
أو : يدل الرعد بنفسه على وحدانيته تعالى وكمال قدرته ، ملتبسا بالدلالة على كمال فضله ، ونزول رحمته. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : سئل النبي صلى اللّه عليه وسلم عن الرعد فقال : «ملك موكّل بالسّحاب ، له مخاريق من نار يسوق السّحاب» «١».
وَتسبح أيضا الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ أي : من خوفه وإجلاله ، وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ نار تنزل من السماء وقت ضرب الرعد ، فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ فيهلكه ، وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ أي : الكفار ، حيث يكذبون رسوله فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة ، والتفرد بالألوهية ، وبعث الناس وحشرهم للمجازاة ، وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ أي : شديد المكر بأعدائه ، الذين أرادوا أن يمكروا بنبيه - عليه الصلاة والسّلام - .
روى أن عامر بن الطّفيل وأربد بن ربيعة وفدا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قاصدين لقتله ، فأخذ عامر بالمجادلة مع سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليشغله ، ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف ، فتنبه له الرسول - عليه الصلاة والسّلام - وقال :
«اللّهمّ اكفنيهما بما شئت» ، فأرسل اللّه على أربد صاعقة فقتلته ، ورمى عامر بغدة ، فمات فى بيت امرأة سلوليّة ، فكان يقول : غدّة كغدّة البعير ، وموت فى بيت امرأة س لوليّة! فنزلت الآية من أولها «٢» ، وهو قوله : لَهُ مُعَقِّباتٌ ...
إلخ ، على قول.
الإشارة : من جريان حكمته تعالى فى خلقه أنه لا يسلب النعم عنهم إلا بسوء أدب منهم ، كلّ على قدر مقامه ، فالنعم الظاهرة يسلبها بترك الطاعة الظاهرة ، أو بالمخالفة الظاهرة ، والنعم الباطنة يسلبها بترك المراقبة الباطنة أو المشاهدة الباطنة. فلكل مقام حقوق وآداب فمن أخلّ بحقوق مقام نقص له منه ، إلا أن يتوب. وقد يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه ، فيظن أنه لم يسلب. ولو لم يكن إلا ترك المزيد. وقد يبعد ، وهو لا يشعر ، ولو لم يكن إلا وتركه وما يريد. كما فى الحكم. : «إن اللّه لا يغير ما فى القلوب من أنوار الشهود والعيان ، حتى يغيروا ما بأنفسهم من حسن الأدب بسوء الأدب». وهذا ما لم يتحقق له مقام المحبوبية والتمكن مع اللّه فى المعرفة. وإلا فالرعاية والعناية محفوفة بقلبه ، فقد يبلغ الولي إلى مقام يقال له : افعل ما شئت فقد غفرت لك ، كما وقع لأهل بدر ، وراجع ما تقدم عند قوله : أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ «٣» وقد يغير اللّه قلب عبده اختبارا له ، فيسلبه حلاوة المعاملة أو المعرفة ، فإن هو اضطرب وتضرع ردّ له حاله ، وإن لم يضطرب ولم يفزع إلى اللّه لم يرد له شيئا.
وإليه الإشارة بقوله : وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ ... الآية.

(١) أخرجه فى سياق طويل ، أحمد فى المسند (٢/ ٢٧٤) والترمذي في (تفسير سورة الرعد) ، وقال : حسن غريب.
(٢) أخرجه ابن جرير فى التفسير (١٣/ ١٢٦) عن ابن عباس رضى اللّه عنه فى سياق أطول من هذا. وهو ضعيف لوجود السدى والكلبي فى السند.
(٣) الآية ٨٢ من سورة الأنعام. [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٥

هو الذي يريكم برق لمعان أنوار المشاهدة ، عند الاستشراف على الحضرة القدسية ، خوفا من الرجوع لعدم إطاقة ذلك النور ، وطمعا فى الوصول إلى التمكين ، فلا يزال تترادف عليه البروق حتى يستمر ذلك كبرق متصل ، وهى أنوار المواجهة. وينشئ سحاب الواردات ثقالا بالعلوم والأسرار ، ويرسل الصواعق تصعق وجود الحس عن أسرار المعاني ، فيصيب بها من يشاء ممن سبقت له العناية. وأهل الإنكار والتكذيب بطريق الخصوص يجادلون فى اللّه بتكذيب أوليائه وإنكار هذه الأنوار ، وهو شديد المحال ، فيمكر بهم ويتركهم فى مقام البعد ، وهم لا يشعرون.
ومن جملة التغيير الذي يسلب النعم ويوجب النقم : الركون إلى غير اللّه بالدعاء وغيره ، كما قال تعالى :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ١٤ الى ١٥]
لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (١٥)
يقول الحق جل جلاله : لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ لأنه الذي يحق أن يدعى فيجيب ، دون غيره فإنما له الدعاء الباطل لأنه يدعى فلا يسمع ولا يجيب. أو : له دعوة الحق ، وهى كلمة التوحيد «لا إله إلا اللّه» ، فمن دعا إليها فقد دعا إلى الحق. والأول أرجح لمناسبة قوله : وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ، أي : والأصنام الذين يدعونهم من دونه لا يستجيبون لهم بشىء مما طلبوا ، أو : والمشركون الذين يدعون أصناما من دون اللّه لا يستجيبون لهم بشىء ، فحذف المفعول للدلالة عليه ، فلا يستجيبون لهم إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ إلا استجابة كاستجابة من بسط كفيه إلى الماء يشير إليه ، لِيَبْلُغَ فاهُ أي : يطلب منه أن يصعد إليه ويبلغ فاه وَما هُوَ بِبالِغِهِ أي : ليس الماء ببالغ فاه لأنه جماد لا

يشعر بدعائه ، ولا يقدر على إجابته من حيث هو ، شبّه إجابة الأصنام لمن عبدهم بإجابة الماء لمن بسط إليه كفه ، وأشار إليه بالإقبال إلى فيه ، ولا يبلغ فاه أبدا لأنه جماد لا يسمع ولا يعقل ، وكذلك الأصنام لا تسمع ولا تجيب من بسط إليها يده ليطلب منها لأنها خشب وأحجار. وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ للأصنام إِلَّا فِي ضَلالٍ وخسران وضياع.

ثم ذكر الحقيق بالعبادة والطلب ، فقال : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً يحتمل أن يكون السجود حقيقة ، فالملائكة والمؤمنون يسجدون طوعا فى الشدة والرخاء ، والكفار يسجدون كرها فى الشدة والضرورة. أو يكون مجازا وهو : انقيادهم لما أراد منهم ، شاءوا أو كرهوا. وَتسجد أيضا ظِلالُهُمْ بانقيادها للّه تعالى فى طولها وقصرها ، وميلها من جانب إلى جانب ، بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ ، أي : طرفى النهار.

وخصّ هذان الوقتان - وإن كان سجودهما دائما - لأن الضلال إنما تعظم وتكبر فيهما. وقال الواحدي : كل شخص مؤمن أو كافر ظله يسجد للّه تعالى ، ونحن لا نقف على كيفية ذلك. هـ.

(١٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٦

وقال القشيري : ذلك سجود شهادة ، لا سجود عبادة ، فإن امتنع من إقامة الشهادة قوم قالة فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة ، فكل مخلوق من عين وأثر ، حجر ومدر أو غير ذلك فمن حيث البرهان للّه ساجد ، ومن حيث البيان للواحد شاهد. هـ.

وقال أبو حيان : عن الفراء : الظل فى الأصل مصدر ، ثم أطلق على الخيال الذي يظهر للجرم طوله بسبب انخفاض الشمس ، وقصره بسبب ارتفاعها ، فهو منقاد للّه تعالى فى طوله وقصره وميله من جانب. ثم قال :

والحاصل أنها جارية على مقتضى إرادته تعالى ومشيئته ، من الامتداد والتقلص ، والفيء والزوال. هـ.

وقيل : لا يعلم تسبيح الجماد والنبات والحيوان البهيمي وسجودها إلا من كاشفه اللّه تعالى بحقيقة ذلك من نبى أو ملك أو صدّيق. وأما حمدها للّه تعالى وتسبيحها بلسان الحال فيعلمه العلماء. قاله المحشى الفاسي.

الإشارة : كل من تعلق فى نوائبه بغير اللّه ، أو ركن فى حوائجه إلى غير مولاه ، فهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وليس بواصل إليه ، ولا ببالغ قصده ومناه ، بل دعاؤه فى تلف وخسران ، وجزاؤه الخيبة والحرمان.

فالواجب على العبد أن يقصر حوائجه على مولاه ، وينقاد إليه بكليته فى حال الطوع والإكراه. إما أن

ينقاد إليه بالإحسان ، أو بسلاسل الامتحان. «عجب ربّك من قوم يساقون إلى الجنّة بالسّلاسل» «١».

ثم ذكر الحقيق بالدعوة ، والعبادة ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : آية ١٦]

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد للمشركين : مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : خالقهما ، ومدبر أمرهما ، قُلْ لهم : هو اللَّهُ لا خالق سواه ، ولا مدبر غيره ، أجاب عنهم بذلك ، إذ لا جواب لهم سواه لأنهم يقرون به ، ولكنهم يشركون به. فأبطل ذلك بقوله : قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ أصناما جامدة تتولونها بالمحبة والنصرة والدفع ، وهم جوامد لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا أي : لا يقدرون أن يجلبوا لأنفسهم نفعا ، ولا يدفعون عنهم ضرا ، فكيف يقدرون أن ينفعوا غيرهم ممن عبدهم ، أو يدفعون عنه ضرا؟!. وهو دليل على ضلالهم وفساد رأيهم ، فى اتخاذهم الأصنام أولياء ، رجاء أن يشفعوا لهم.

---

(١) هذا لفظ حديث صحيح أخرجه البخاري فى (كتاب الجهاب ، باب الأسارى فى السلاسل) عن أبى هريرة رضى اللّه عنه.

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أي : الكافر الجاهل ، الذي عميت بصيرته بالجهل والشرك ، والمؤمن الموحد الذي انفتحت بصيرته بالإيمان والعلم. أو المعبود الغافل عن عبادة من عبده ، والعالم بأسرار عباده. أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ الكفر والإيمان ، أو الجهل والعلم. أَمْ : بل جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ من صفتهم ، خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ، فَتَشابَهَ التبس الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ فلم يدروا ما خلق اللّه مما خلق أصنامهم ، وهذا كله داخل فى الإنكار. والمعنى : هل خلق شركاؤهم خلقا كخلق اللّه ، فالتبس الخلق عليهم ، فلم يميزوا خلق اللّه من خلق أصنامهم ، حتى ظنوا أنها تستحق أن تعبد مع اللّه ، أو يطلب منها حوائج دون اللّه؟!.

ثم أبطل ذلك بقوله : قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، قال البيضاوي : والمعنى أنهم ما اتخذوا له شركاء

خالقين مثله حتى يتشابه الخلق عليهم ، فيقولوا : هؤلاء خلقوا كما خلق اللّه ، واستحقوا العبادة كما استحقها ، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق ، فضلا عما يقدر عليه الخالق. هـ. قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا خالق غيره فيشاركه فى العبادة. جعل الخلق موجب العبادة ، ولازم استحقاقها ، ثم نفاه عما سواه ليتحقق انفراده بالربوبية والقهرية كما أفاده قوله : وَهُوَ الْواحِدُ فى الألوهية ، الْقَهَّارُ بتصريف أحكام الربوبية. هـ.

الإشارة : إذا علم العبد أن ربه قائم بأمر خلقه ، مدبر لشأن ملكه ، من عرشه إلى فرشه ، جعل حوائجه كلها وقفا عليه ، وانحاش بكليته إليه ، ورفع همته عن خلقه ، إذ ليس بيدهم ضر ولا نفع ، ولا جلب ولا دفع ، بل هم عاجزون عن إصلاح أنفسهم ، فكيف يقدرون أن ينفعوا غيرهم؟! وفى الحكم العطائية : «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك ، فكيف يرفع إلى غيره ما كان هو له واضعا ، من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه : فكيف يستطيع أن يكون لها من غيره رافعا». وقال بعض العارفين من المكاشفين - رضى اللّه عنهم - : قيل لى فى نوم كاليقظة ، أو يقظة كالنوم : لا تبدينّ فاقة فأضاعفها عليك مكافأة لسوء أدبك ، وخروجك عن حد عبوديتك.

إنما ابتليتك بالفاقة لتفزع بها إلىّ ، وتتضرع بها لدىّ ، وتتوكل فيها علىّ. سبكتك بالفاقة لتصير ذهبا خالصا ، فلا تزيفن بعد السبك ، وسمتك بالفاقة وحكمت لنفسى بالغنى ، فإن وصلتها بي وصلتك بالغنى ، وإن وصلتها بغيري قطعت عنك مواد معونتى ، وحسمت أسبابك من أسبابى ، طردا لك عن بابى. فمن وكلته إلىّ ملك ، ومن وكلته إليه هلك. هـ.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه : آيست من نفع نفسى لنفسى ، فكيف لا آيس من نفع غيرى لها ، ورجوت اللّه لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى؟. هـ. فالبصير من اعتمد فى أموره على مولاه ، والأعمى من ركن فى حوائجه إلى سواه. فأنوار التفويض والتسليم لا تستوى مع ظلمات الشرك والتدبير قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ. وباللّه التوفيق.

(١٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٨

ثم ضرب مثلا لنور العلم مع ظلمات الجهل ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ١٧ الى ١٨]

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ

يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (١٨)

قلت : جُفاءً : حال. والْحُسْنى : مبتدأ ، ولِلَّذِينَ : خبر مقدم. والَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا : مبتدأ ، ولَوْ أَنَّ : خبر ، أو (لِلَّذِينَ) : متعلق بيضرب ، والْحُسْنى : نعت لمصدر محذوف ، والَّذِينَ : معطوف على الَّذِينَ الأولى ، أي : يضرب الأمثال للذين استجابوا الاستجابة الحسنى وللذين لم يستجيبوا ، ثم استأنف قوله : لو أن ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ أي : السحاب ، أو ناحية السماء ، ماءً مطرا ، فَسالَتْ به أَوْدِيَةٌ : أنهار ، جمع واد ، وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة ، فاتسع واستعمل للماء الجاري فيه. بِقَدَرِها أي : بقدر صغرها وكبرها ، كل يسيل على قدره ، أو بقدر ما قسم فى قسمة اللّه تعالى ، وعلم أنه نافع غير ضار ، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً أي : رفعه على وجه الماء ، وهو ما يحمله السيل من غثاء ونحوه ، أو ما يطفوا على الماء من غليانه ، رابِياً : عاليا على وجه الماء ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ «١» من ذهب وفضة ، وحديد ورصاص ونحاس ، وغيره ، ابْتِغاءَ أي : لطلب حِلْيَةٍ كالذهب والفضة ، أَوْ مَتاعٍ كالحديد والنحاس يصنع منه ما يتمتع به من الأوانى وآلات الحرب والحرث.

والمقصود بذلك : بيان منافعها ، فكل واحد منهما له زَبَدٌ مِثْلُهُ أي : مثل زبد الماء ، وهو خبثه الذي تخرجه النار عند سبكه.

كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فمثل الحق - وهو العلم باللّه وبأحكامه -كمثل الأمطار الغزيرة ، ومثل القلوب التي سكن فيها ، وجرت حكمه على ألسنة أهلها كالأودية والأنهار والخلجان ، كلّ يحمل منه على قدره ، وسعة صدره. ومثل الباطل الذي دمغه وذهب به كالزبد وخبث الحديد والنحاس ، أو الذهب والفضة. وسيأتى فى الإشارة تكميله إن شاء اللّه. وروى مثل هذا عن ابن عباس. وإنكار ابن عطية له جمود ، وتذكّر حديث البخاري :

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص (يوقدون) بالياء. على أن الضمير للناس. وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب .. انظر الإتحاف (٢/ ١٦٢).

«مثل ما بعثني اللّه به من الهدى ...» الحديث «١» ، فإنه يشهد لذلك التأويل. وتقدم له بنفسه فى قوله : أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ «٢» ما يشير إلى تفسير أهل الإشارة والرموز. وراجع ما تقدم لنا فى خطبة

الكتاب يظهر لك الحق والصواب.

قال البيضاوي : مثّل الحقّ فى إفادته وثباته ، بالماء الذي ينزل من السماء ، فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة ، فتنفع به أنواع المنافع ، ويمكث فى الأرض ، فيثبت بعضه فى منابعه ، ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والآبار ، وبالفلزّ الذي ينتفع به فى صوغ الحلي ، واتخاذ الأمتعة المختلفة ، ويدوم ذلك مدة متطاولة.

والباطل ، فى قلة نفعه وسرعة ذهابه ، بزبدهما ، وبيّن ذلك بقوله : فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً ، أي : مرميا به ، من جفاه : رمى به وأبعده ، أي : يرمى به السيل والفلز المذاب. هـ. وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ كالماء ، وخالص الذهب أو الحديد ، فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ لينتفع به أهلها. كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لإيضاح المشكلات المعنوية ، بالمحسوسات المرئية.

لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ بالإيمان والطاعة ، الْحُسْنى أي : المثوبة الحسنى ، أو الجنة. وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ من الكفرة لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ من هول ذلك المطلع. أو :

يضرب الأمثال للذين استجابوا الاستجابة الحسنى ، وللذين لم يستجيبوا له. ثم بيّن مثال غير المستجيبين بقوله :

لَوْ أَنَّ لَهُمْ ... إلخ : أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ أقبحه وأشده ، وهو أن يناقش فيه ، بأن يحاسب العبد على كل ذنب ، ولا يغفر منه شىء ، وَمَأْواهُمْ : مرجعهم جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ الفراش والمستقر ، والمخصوص محذوف ، أي : هذا.

الإشارة : قد اشتملت الآية على ثلاثة أمثلة : مثال للعلم النافع ، ومثال للعمل الخالص ، وللحال الصافي. فمثّل الحقّ تعالى العلم النافع بالمطر النازل من السماء ، فإنه تحيا به الأرض ، وتجرى به الأودية والعيون والآبار ، ويحبس فى الخلجان والقدور لنفع الناس ، وتتطهر به الأرض من الخبث لأنه ترمى به السيول فيذهب جفاء ، كذلك العلم النافع تحيا به النفوس بعد الموت بالجهل والشك ، وتحيا به الأرواح بعد موتها بالغفلة والحجاب ، وتمتلئ به القلوب على قدر وسعها وسعتها ، وعلى قدر ما قسم لهم من علم اليقين ، أو عين اليقين ، أو حق اليقين ، وتتطهر به النفوس من البدع وسائر المعاصي.

---

(١) لفظ الحديث كاملا : «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصابت أرضا ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب ، أمسكت الماء فنفع الله الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه الله به ، فعلم وعلّم. ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» أخرجه البخاري فى (العلم ، باب فى من علم وعلّم)

ومسلم فى (الفضائل ، باب بيان ما بعث النبي به من الهدى والعلم) من حديث أبى موسى رضى اللّه عنه.

(٢) من الآية ٤٠ من سورة يوسف.

ومثّل العمل الخالص الذي تصفّى من الرياء والعجب وسائر العلل ، بالحديد المصفى من خبثه لتصنع منه السيوف والآلات ، أو النحاس المصفى لتصنع منه الأوانى ، وغيرها مما ينفع به الناس.

ومثّل الحال الصافي من العلل بالذهب المصفى ، أو الفضة ، إذا صفيت وذهب خبثها ليصنع بهما الحلي والحلل ليتزين بها أهلها ، فأشار إلى المثال الأول - وهو العلم - بقوله : أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً إلخ. وأشار الى الحال بقوله : وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ ، وأشار إلى العمل بقوله : أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ. وقدّم الحال ، لشرفه ، ومثّله بالذهب والفضة لزيادة الرغبة فيه لأنه ثمرة العمل ، ومرجعه إلى الوجدان والأذواق ، وهو عزيز لا يجده إلا المقربون.

والحاصل : أن المراتب أربعة : العلم ، والعمل ، والحال ، والمقام. وإنما لم يضرب الحق تعالى مثلا للمقام لأن النزول فيه لا يكون إلا بعد التصفية ، فليس فيه علة ، يحتاج إلى التصفية منها. فمقامات اليقين كلها يجرى فيها العلم ، والعمل ، والحال ، والمقام. فالتوبة مثلا : يتعلق العلم بمعرفة حقيقتها ، وفضليتها ، ثم يسعى فى العمل بالمجاهدة والرياضة حتى يذهب زبده وخبثه ، حتى يذوق حلاوة الاستقامة مع بقية الخوف من السقوط ، وهذا هو الحال ، ثم تطمئن النفس ، وترسخ التوبة النصوح ، وهذا هو المقام. وكذلك الصبر ، يتعلق به العلم أولا ثم يسعى فى مرارة استعماله حتى يذوق حلاوة الشدة والفاقة ثم يرسخ فيه ، وهكذا يجرى فى المقامات كلها .. وهى اثنا عشر مقاما :

التوبة ، والخوف ، والرجاء والورع ، والزهد ، والصبر ، والشكر ، والرضى ، والتسليم ، والمحبة ، والمراقبة ، والمشاهدة.

وهى : بروج شمس المعرفة ، وقمر التوحيد. وكذلك معرفة الشهود والعيان : يتعلق العلم أولا بأسرار التوحيد ، ثم يعمل فى خرق عوائد نفسه حتى تموت ، فيشرق عليها أنوار التوحيد ، غير أنها تظهر وتخفى ، ثم يصير الشهود مقاما ، رسوخا وتمكينا.

وقد أشار فى الحكم إلى بعض هذا فقال : «حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال». وكل واحد من الثلاثة يحتاج إلى تصفية حتى يذهب زبده وخبثه فتصفية العلم بالإخلاص والتحقيق ، فيذهب عنه قصد الرئاسة والجاه ، أو التوصل إلى الدنيا ، ويذهب به

الشكوك والأوهام فهذا زبده.

وتصفية العمل بالإخلاص فى أوله ، والإتقان والحضور فى وسطه ، والكتمان فى آخره ، فيذهب عنه الرياء والعجب به ، والتوصل به إلى حظ نفساني. وتصفية الحال بصحة القصد وإفراد الوجهة ، وإذا هاج عليه الوارد ملك نفسه وأمسكها ، فيذهب به قصد الظهور ، وطلب المراتب الدنيوية والكرامات الحسية ، التي هى من حظ النفس وتشتيت القلب ، إن لم يفرد وجهته للّه ، وانحلال عزمه وخمود نوره ، إن لم يمسك نفسه عند هواجم الحال. فهذا زبد الحال الذي يذهب عنه بمجاهدة النفس ، ويمكث فى أرض القلوب صفاء اليقين والمعرفة وخالص العمل فى مقام العبودية. وباللّه التوفيق.

(٢٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢١

ثم ذكر حال من عرف هذا العلم النازل ، وحال من أنكره ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ١٩ الى ٢٤]

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ (٢٣)

سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)

قلت : أُولئِكَ .. إلخ : جملة خبر الموصولات ، إن رفعت بالابتداء ، وإن جعلت صفات لأولى الألباب : فاستئناف بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات. وجَنَّاتُ : بدل من عُقْبَى الدَّارِ. ومَنْ صَلَحَ : عطف على الواو بفصل المفعول ، وسَلامٌ عَلَيْكُمْ : محكى بحال محذوفة ، أي : قائلين سلام عليكم ، وحذف الحال - إذا كان قولا - كثير مطرد.

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هو الْحَقُّ فيستجيب له ، وينقاد له كَمَنْ هُوَ أَعْمى عمى القلب ، لا يستجيب ولا يستبصر؟ أنكر الحق - جل جلاله - على من اشتبه عليه الحق من الباطل ، بعد ما ضرب المثل ، فإن الأمور المعنوية ، إذا ضرب لها الأمثال المحسوسة ، صارت فى غاية الوضوح لا تخفى إلّا على الخفافشة ، الذين انطمس نور قلوبهم بالكفر أو المعاصي. ولذلك قال : إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ ذوو العقول الصافية والقلوب المنورة ، التي تطهرت من كدر العوائد والشهوات ، ولم تركن إلى المألوفات والمحسوسات.

ثم وصفهم بقوله : الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ما عقدوه على نفوسهم من معرفة عظمة الربوبية والقيام بوظائف العبودية ، حين قالوا : بَلى «١». وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ ما أوثقوه على نفوسهم ، وتحملوه من المواثيق التي بينهم وبين اللّه ، وبينهم وبين عباد اللّه. وهو تعميم بعد تخصيص تأكيدا على الوفاء بالعهود.

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ من الرحم ، وموالاة المؤمنين ، وحضور مجالس الصالحين ، والعلماء العاملين ، والاقتداء بقولهم والاهتداء بهديهم. وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ : غضبه وعذابه ، أو إبعاده وطرده ، وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ : مناقشته ، فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

---

(١) فى قوله تعالى : (وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ..) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

وَالَّذِينَ صَبَرُوا على مشاق الطاعة وترك المخالفة ، أو على ما تكرهه النفوس ، ويخالفه الهوى. فعلوا ذلك ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ طلبا لرضاه ، أو لرؤية وجهه وشهود ذاته ، لا فخرا ورياء ، وطلبا لحظ نفسانى. وَأَقامُوا الصَّلاةَ المفروضة ، بحيث حافظوا على شروطها وأركانها ، وحضور السر فيها ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ من الأموال فرضا ونفلا ، سِرًّا وَعَلانِيَةً إن تحقق الإخلاص ، وإلا تعيّن الإسرار. أو سرا لمن لا يعرف بالمال ، وجهرا لمن يعرف به لئلا يتهم ، أو ليقتدى به. وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أي : يدفعون الخصلة السيئة بالخصلة الحسنة ، فيجازون الإساءة بالإحسان امتثالا لقوله تعالى : ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ «١» ، أو :

يدفعون الشرك بقول : «لا إله إلا اللّه» ، أو يفعلون الحسنات فيدرءون بها السيئات ، كقوله : إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ «٢». قيل : نزلت فى الأنصار. وهى عامة.

ثم ذكر جزاءهم ، فقال : أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ أي : عاقبة دار الدنيا وما يؤول إليه أهلها. وهى : الجنة التي فسّرها بقوله : جَنَّاتُ عَدْنٍ أي : إقامة ، يَدْخُلُونَها مخلدين فيها. والعدن : الإقامة ، وقيل : هى بطنان الجنة ، أي : مداخلها لا ربضها ، فيدخلونها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ أي : يلحق بهم من صلح من أهلهم ، وإن لم يبلغ فى العمل مبلغهم ، تبعا لهم وتعظيما لشأنهم ، أو بشفاعتهم لهم. وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة ، وأن الموصوفين بتلك الصفات يقرب بعضهم من بعض - لما بينهم من القرابة والوصلة - فى دخول الجنة زيادة فى أنسهم ، لكن يقع التفاوت فى الدرجات والنعيم والقرب ، على قدر اجتهادهم فى التحقق بتلك الصفات ، والدءوب

عليها. والتقييد بالصلاح يدل على أن مجرد الانتساب لا ينفع من غير عمل.

وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ من أبواب المنازل ، أو من أبواب الفتوح والتحف ، قائلين : سَلامٌ عَلَيْكُمْ بشارة بدوام السلامة ، هذا بِما صَبَرْتُمْ ، أو سلامة لكم بسبب صبركم. فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ التي سكنوها ورحلوا عنها دارهم هذه.

الإشارة : أفمن تصفّت مرآة قلبه من الأكدار والأغيار ، حتى أبصرت أمطار العلوم والأسرار النازلة من سماء الملكوت على النبي المختار ، فتضلع منها حتى امتلأ منها قلبه وسره ، ونبع بأنهار العلوم لسانه وفكره ، كمن هو أعمى القلب والبصيرة ، فلم يرفع بذلك رأسا؟ إنما ينتفع بتلك العلوم أولوا القلوب الصافية التي ذهب خبثها ، فصفت علومها وأعمالها وأحوالها من زبد المساوئ والعيوب ، الذين دخلوا تحت تربية المشايخ ، فأوفوا بعهودهم ، وواصلوهم ،

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة المؤمنون.

(٢) من الآية ١١٤ من سورة هود.

وخافوا ربهم أن يبعدهم من حضرته ، أو يناقشهم الحساب فحاسبوا أنفسهم على الأنفاس والأوقات ، وصبروا على دوام المجاهدات ، حتى أفضوا إلى فضاء المشاهدات ، وأقاموا صلاة القلوب - وهى العكوف فى حضرة الغيوب - وأنفقوا مما رزقهم من سعة العلوم ومخازن الفهوم ، ويقابلون الإساءة بالإحسان لأنهم أهل مقام الإحسان. أولئك لهم عقبى الدار وهى العكوف فى حضرة الكريم الغفار ، تدخل على أبواب قلوبهم المواهب والأسرار ، تقول بلسان الحال : سلام عليكم بما صبرتم فى مجاهدتكم ، فنعم عقبى الدار.

ثم شفع بضدهم ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتاعٌ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ... الذي أخذه عليهم فى عالم الذر ، حيث قال : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى «١» ، ثم كفروا به بعد بعث الرسل المنبهين عليه. أو ينقضون العهود فيما بينهم

وبين عباد اللّه ، إن أعطوا ذلك من أنفسهم ، وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ من الأرحام ، أو ممن يدل على اللّه من الأنبياء ، والعلماء الأتقياء فإنّ اللّه أمر بوصلهم ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بالظلم والمعاصي ، وتهييج الفتن ، أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ : البعد والطرد من رحمة اللّه ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ : سوء عاقبة الدار ، وهو العذاب والهوان ، حيث اغتروا فى الدنيا بسعة الأرزاق ، وظنوا أن ذلك من علامة إقبال الحق.

ولم يدروا أن اللّه يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ ، ولو كان من أهل الشقاء ، وَيَقْدِرُ يضيقه على من يشاء ، ولو كان من أهل السعادة والعناية ، وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا واطمأنوا بها ، وقنعوا بنعيمها الفاني ، وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فى جنب الآخرة إِلَّا مَتاعٌ إلا متعة لا تدوم ، كعجالة الراكب وزاد الراعي. وفى الحديث عنه صلى اللّه عليه وسلم :

«ما لى وللدّنيا ، إنّما مثلى ومثل الدّنيا كراكب سافر فى يوم صائف ، فاستظلّ تحت شجرة ، ثم راح عنها وتركها» «٢». والمعنى : أنهم أشروا بما نالوا من الدنيا ، ولم يصرفوها فيما يستوجبون به نعيم الآخرة ، واغتروا بما هو فى جنبه نزر قليل النفع ، سريع الزوال. قاله البيضاوي.

---

(١) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (١/ ٣٠١) والحاكم (٤/ ٣٠٩) وصححه ووافقه الذهبي من حديث ابن عباس رضى اللّه عنه ، قال : دخل عمر على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو على حصير ، قد أثر فى جنبه ، فقال : يا نبى الله لو اتخذت فراشا أوثر من هذا؟ فقال : مالى وللدنيا ..» الحديث.

الإشارة : لا شيء أفسد على المريد من نقض عهود المشايخ ، والرجوع عن صحبتهم فإنه لمّا دخل فى حماهم انقبض عنه الشيطانو الدنيا والهوى ، وأسفوا عليه ، فإذا رجع إليهم ، واتصلوا به ، فعلوا به مالم يفعلوا بغيره كمن هرب من عدوه ثم اتصل به. وتنسحب عليه الآية من قوله : وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ إلى قوله : أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ أي : البعد عن الحضرة ، (و لهم سوء الدار) وهو : غم الحجاب والبقاء من وراء الباب. فإذا رجعت إليه الدنيا يقال له : (اللّه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) فلا تغتر ولا تفرح بالعرض الفاني ، فما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع قليل ، ثم التحسر الوبيل.

ثم أجاب عمن طلب المعجزة ليؤمن ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : آية ٢٧]
وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (٢٧)
يقول الحق جل جلاله : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا من أهل مكة : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ظاهرة مِنْ رَبِّهِ كما أنزلت على من قبله فنؤمن حينئذ؟ قُلْ لهم : إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ بعد ظهور الآيات والمعجزات. وليس الإيمان والهداية بيد العبد فى الحقيقة. وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ أي : من أقبل ورجع عن عناده من غير احتياج إلى معجزة. قال البيضاوي : وهو جواب ، يجرى مجرى التعجب من قولهم ، كأنه قال : قل لهم ما أعظم عنادكم! إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ممن كان على صفتكم ، فلا سبيل إلى اهتدائه ، وإن نزلت كل آية ، ويهدى إليه من أناب لما جئت به ، بل بأدنى منه من الآيات. هـ.
الإشارة : تقدم مرارا أن من سبقت له من اللّه عناية الخصوصية ، لم يتوقف على ظهور آية. ومن لم يسبق له شيء فى الخصوصية لا ينفع فيه ألف آية. فاللّه تعالى يضل من يشاء عن دخول حضرته ، ولو رأى من أولياء زمانه ما رأى ، ويهدى إلى حضرته من أناب ، ورجع بلا سبب. وباللّه التوفيق.
ثم وصف أهل الإنابة ، فقال :
[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]
الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)
قلت : الموصول : بدل ممن أناب ، أو خبر عن مضمر ، أي : هم. والموصول الثاني بدل ثان ، أو مبتدأ ، وجملة طُوبى : خبر ، وهى فعلى ، من الطيب ، كبشرى من البشارة ، قلبت ياؤها واوا لضم ما قبلها ، ومعناها : أصبت خيرا وطيبا. وقيل : شجرة فى الجنة. وسوغ الابتداء بها : ما فيها من معنى الدعاء.

يقول الحق جل جلاله ، فى وصف من سبقت له الهداية واتصف بالإنابة : هم الَّذِينَ آمَنُوا باللّه وبرسوله إيمانا تمكّن من قلوبهم ، واطمأنت إليه نفوسهم فإذا حركتهم الخواطر والهواجم ، أو فتن الزمان وأهواله تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، وترتاح بذكر اللّه أنسا به ، واعتمادا عليه ورجاء منه ، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته ، أو بذكر آلائه ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته ، أو بكلامه القرآن ، الذي هو أقوى المعجزات. قاله البيضاوي. وقال فى القوت : معنى تطمئن بذكر اللّه : تهش وتستأنس به. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى بعد كلام : والحاصل أن المراد من الطمأنينة : السكون إلى

المذكور ، والأنس به ، ووجود الرّوح والفرح والانشراح ، والغنى به. هـ.
قال تعالى : أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ لا بغيره ، فلا تسكن إلا إليه ، ولا تعتمد إلا عليه فإن سكنت إلى غيره ذهب نورها ، وعظم قلقها. الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ أي : لهم عيش طيب وحياة طيبة. أو الجنة ، أو شجرة فيها ، وَحُسْنُ مَآبٍ أي : مرجع يرجعون إليه بعد الموت.
الإشارة : الطمأنينة على قسمين : طمأنينة إيمان ، وطمأنينة شهود وعيان. قوم اطمأنوا إلى غائب موجود ، وقوم إلى آخر مشهود. قوم اطمأنوا بوجود اللّه من طريق الإيمان على نعت الدليل والبرهان ، وقوم اطمأنوا بشهود اللّه من طريق العيان على نعت الذوق والوجدان. وهذه ثمرة الإكثار من ذكر اللّه.
قال الشيخ الشاذلى رضي اللّه عنه : حقيقة الذكر : ما اطمأن بمعناه القلب ، وتجلى فى حقائق سحاب أنوار سمائه الرب. هـ. وقال الورتجبي : إن كان الإيمان من حيث الاعتقاد ، فطمأنينة القلب بالذكر ، وإن كان من حيث المشاهدة فطمأنينة القلوب باللّه وكشف وجوده. هـ. فطمأنينة الإيمان لأهل التفكر والاعتبار من عامة أهل اليمين.
وطمأنينة العيان لأهل الشهود والاستبصار من خاصة المقربين. أهل الأولى يستدلون بالأشياء على اللّه ، وأهل الثانية يستدلون باللّه على الأشياء فلا يرون إلا مظهر الأشياء. وشتان بين من يستدل به أو يستدل عليه المستدل به عرف الحق لأهله ، وأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه. وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه! ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التي توصل إليه؟!. كما فى الحكم.
وقال فى المناجاة : «إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟!. أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التي توصل إليك؟!».

وقال الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه : «كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟! أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده كلّ شى ء؟ أي : وظهر بكل شى ء». وفى ذلك يقول الشاعر :
عجبت لمن يبغى عليك شهادة وأنت الّذى أشهدته كلّ شاهد
وقال آخر :
لقد ظهرت فما تخفى على أحد إلّا على أكمه لا يبصر القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا وكيف يبصر من بالعزّة استترا

وأهل طمأنينة الإيمان على قسمين باعتبار القرب والبعد : فمنهم من يطمئن بوجود الحق على نعت القرب والأنس ، وهم أهل المراقبة من الزهاد والصالحين ، والعلماء العابدين المجتهدين ، وهم متفاوتون فى القرب على قدر تفرغهم من الشواغل والعلائق ، وعلى قدر التخلية والتحلية. ومنهم من يطمئن إليه على نعت البعد من قلبه ، وهم أهل الشواغل والشواغب ، والعلائق والعوائق. وعلامة القرب : وجود حلاوة المعاملة ، كلذيذ المناجاة ، والأنس به فى الخلوات ، ووجود حلاوة القرآن والتدبر فى معانيه ، حتى لا يشبع منه فى كل أوان. وعلامة البعد : فقد الحلاوة المذكورة ، وعدم الأنس به فى الخلوة ، وفقد حلاوة القرآن ، ولو كان من أعظم علماء اللسان.

وأهل طمأنينة الشهود على قسمين أيضا : فمنهم من تشرق عليه الأنوار ، وتحيط به الأسرار ، فيغرق فى الأنوار وتطمس عنه الآثار ، فيسكر ويغيب عن الأثر فى شهود المؤثر ، ويسمى عندهم هذا المقام : مقام الفناء. ومنهم من يصحو من سكرته ، ويفيق من صعقته ، فيشهد المؤثر ، لا يحجبه جمعه عن فرقه ، ولا فرقه عن جمعه ، ولا يضره فناؤه عن بقائه ، ولا بقاؤه عن فنائه ، يعطى كل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه ، وهو مقام البقاء ، ولا يصح وجوده إلّا بعد وجود ما قبله ، فلا بقاء إلا بعد الفناء ، ولا صحو إلا بعد السكر. ومن ترامى على هذا المقام - أعنى مقام البقاء - من غير تحقيق مقام السكر والفناء فهو لم يبرح عن مقام أهل الحجاب.

واعلم أن طمأنينة الإيمان تزيد وتنقص ، وطمأنينة العيان ، إن حصلت ، تزيد ولا تنقص. فمواد أسباب زيادة طمأنينة الإيمان أشياء متعددة ، فمنهم من تزيد طمأنينته بالتفكر والاعتبار ، إمّا فى عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات ، فيطمئن إلى صانع عظيم القدرة باهر الحكمة. وإما بالنظر فى معجزات الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، وباهر علمه ، وعجائب حكمه وأسراره ، وإخباره بالأمور الغيبية السابقة والآتية ، مع كونه نبيا أميا. فإذا تحقق بمعرفة الرسول فقد

تحقق بمعرفة اللّه ، واطمأن به لأنه الواسطة العظمى ، بين اللّه وبين عباده. ومنهم من تزيد طمأنينته بموالاة الطاعات وتكثير القربات ، كالذكر وغيره. ومنهم من تزيد طمأنينته بزيارة الأولياء أحياء أو ميتين. ومادة الأحياء أكثر ، ونور طمأنينتهم أبهر ، لا سيما العارفين ، وفى الأثر : تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين.

وأما طمأنينة أهل الشهود : فزيادتها باعتبار زيادة الكشف وحلاوة الشهود ، والترقي فى العلوم والأسرار ، والاتساع فى المقامات إلى ما لا نهاية له ، فى هذه الدار الفانية وفى الدار الباقية ، ففى كل نفس

يجدد لهم كشوفات وترقيات ومواهب وتحف ، على قدر توجههم وتحققهم. حققنا اللّه بمقامهم ، وأتحفنا بما أتحفهم. آمين.

ولا بد فى تحصيل طمأنينة الشهود من صحبة شيخ عارف طبيب ماهر ، يقدح عين البصيرة حتى تنفتح فما حجب الناس عن شهود الحق إلا طمس البصيرة ، فإذا اتصل بشيخ عارف كحل عين بصيرته أولا بإثمد علم اليقين ، فيدرك شعاع نور الحق قريبا منه ، ثم يكحل عينه ثانيا بإثمد عين اليقين ، فيدرك عدمه لوجود الحق ، أي :

يغيب عن حسه بشهود معناه القائم به. ثم يكحل عينه بإثمد حق اليقين فيدرك وجود الحق - بلا واسطة قدرة وحكمة ، معنى وحسا ، لا يتحجب بأحدهما عن الآخر. وإلى هذا أشار فى الحكم بقوله : «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق ، لا عدمك ولا وجودك. كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما كان عليه».

وأهل طمأنينة الشهود هم خاصة ورثة الرسول - عليه الصلاة والسلام - الذي أشار إليه بقوله :

[سورة الرعد (١٣) : آية ٣٠]

كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ (٣٠)

قلت : كَذلِكَ : مفعول مطلق بأرسلناك ، أي : مثل ذلك الإرسال المتقدم أرسلناك. وقال ابن جزى : الكاف تتعلق بالمعنى الذي فى قوله : يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ. هـ. أي : كما أن الإضلال والهداية بيده كذلك اختصاصك بالرسالة إلى أمة ... إلخ ، وجملة : وَهُمْ يَكْفُرُونَ : حال من ضمير عَلَيْهِمُ أي : لتتلو عليهم فى حال كفرهم لعلهم يؤمنون. ومَتابِ : مفعل ، من التوبة.

يقول الحق جل جلاله : قد أرسلنا قبلك رسلا فأنذروا وبشروا قومهم ، كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ أي : مثل ذلك الإرسال أرسلناك فى أمة ، أو كما هدينا من أناب إلينا اختصصناك برسالتنا ، فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مضت مِنْ قَبْلِها أي : تقدمها أُمَمٌ أرسل إليهم رسلهم فليس ببدع إرسالك إلى هذه الأمة الأمية ، لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ : لتقرأ عليهم الكتاب ، الذي أوحينا إليك ، والحالة أنهم يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ أي : بالبليغ

الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ، ووسعت كل شيء رحمته ، فلم يشكروا ما أنعم به عليهم ، وخصوصا إرسالك إليهم ، وإنزال القرآن عليهم ، الذي هو مناط المنافع الدينية والدنيوية. قيل : نزلت فى أبى

جهل ، وقيل : فى قريش حين قالوا : لا نعرف الرحمن ، والمعنى : أرسلناك إليهم رحمة لتتلو عليهم ما هو مناط الرحمة ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ - ، والحال : أنهم يكفرون ببليغ الرحمة. قُلْ هُوَ رَبِّي أي : الرحمن خالقى ومتولى أمرى ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لا مستحق للعبادة غيره ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فى أمورى ، ومن جملتها نصرى عليكم. وَإِلَيْهِ مَتابِ مرجعى فى أمورى كلها ، لا أرجع إلى أحد غيره ، ولا أتعلق بشىء سواه.

الإشارة : قد بعث اللّه فى كل عصر عارفا باللّه يحيي به الدين ، ويعرف الطريق إلى رب العالمين فالأرض لا تخلو ممن يقوم بالحجة ، غير أنهم تارة يخفون لفساد الزمان ، وتارة يظهرون رحمة للأنام. فإذا وقع الإنكار عليهم ، أو استغرب وجودهم ، يقال لهم : كذلك أرسلنا فى كل أمة نذيرا ، وداعيا ، فإرسالكم أنتم وإظهاركم ليس ببدع ، لتعلموا الناس ما أوحى إليكم من طريق الإلهام فإظهاركم رحمة ، وهم يكفرون هذه النعمة. فاعتمدوا على الرحمن ، وثقوا بالواحد المنان ، وارجعوا إليه فى كل حال وشأن. فمن توكل عليه كفاه ، ومن التجأ إليه حماه.

ثم رجع إلى تتميم الجواب عن قول الكفار : (لو لا أنزل عليه آية من ربه) ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : آية ٣١]

وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (٣١)

قلت : جواب لَوْ : محذوف ، أي : لم يؤمنوا لسابق الشقاء ، أو : لكان هذا القرآن ، وسيأتى بيانه.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً أنزل عليك ، من صفته : سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أي : زعزعت عن مقارها ، أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ : تصدعت وتشققت من خشية اللّه عند قراءته ، أو : تشققت فجعلت أنهارا وعيونا ، أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى فتجيب من قبورها جهرا ، لما آمنوا لعنادهم وغلبة الحسد عليهم. فهذا كقوله تعالى : وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا «١» ،

---

(١) من الآية ١١١ من سورة الأنعام.

أو : ولو أن قرآنا بهذه الصفة : من تسيير الجبال ، وتقطيع الأرض ، وتكليم الموتى ، لكان هذا القرآن

لأنه الغاية فى الإعجاز ، والنهاية فى التذكير والإنذار ، والأول أرجح لمناسبة ما قبله وما بعده.

روى أن قريشا قالوا : يا محمد ، إن سرّك أن نتبعك فسيّر بقرآنك الجبال عن مكة ، حتى تتسع لنا فنتخذها بساتين وقطائع. أو سخر لنا به الريح لنركبها ، فنتّجر بها إلى الشام. أو ابعث لنا قصيّ بن كلاب فإنه كان شيخ صدق ، أو غيره من آبائنا ، فيكلمونا فيك ، ويشهدوا لك بما تقول. فنزلت الآية.

بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً ليس لى منه شيء ، فهو القادر على الإتيان بما اقترحتموه من الآيات ، إلا أن الإرادة لم تتعلق بذلك لأنه علم أنه لا ينجع فيكم شيء من ذلك لفرط عنادكم ، فإذا رأيتموها قلتم : إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ «١». وبيّن ذلك قوله : أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا من إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم ، وفرط عنادهم ، علما منهم أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ، أو : أَفَلَمْ يَيْأَسِ أي :

يعلم الَّذِينَ آمَنُوا أن الهداية بيد اللّه ، ومشيئته ، فلو شاء لهدى الناس جميعا. وكون «يَيْأَسِ» بمعنى «علم» : لغة هوازن فقد علموا بما أعلمهم أن اللّه لا يهدى من يضل. وقد قرأ على وابن عباس وجماعة : «أفلم يتبين الذين آمنوا» وهو يقوى تفسير ييأس بيعلم.

قال البيضاوي : وإنما استعمل اليأس بمعنى العلم ، لأنه مسبّب عن العلم ، فإن الميئوس منه لا يكون إلا معلوما.

ولذلك علّقه بقوله : أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً فإن معناه نفى هدى بعض الناس لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم ، وهو - على الأول - يتعلق بمحذوف تقديره : أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمانهم علما منهم أن لو يشاء اللّه لهدى الناس جميعا. أو : بآمنوا ، على حذف الجار ، أي : بأن اللّه ... إلخ. هـ.

وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا من قريش والعرب ، تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا من الكفر والمعاصي ، قارِعَةٌ : داهية تقرعهم تقلقهم ، وتصيبهم فى أنفسهم وأولادهم وأموالهم. أو غزوات المسلمين إليهم ، إمّا أن تنزل بهم أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ فيفزعون منها وتتطاير إليهم شررها. وقيل : نزلت فى كفار مكة ، فإنهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، كان لا يزال يبعث السرايا ، فتغير حواليهم وتختطف أموالهم. وعلى هذا يجوز أن يكون ضمير تَحُلُّ خطابا للرسول صلى اللّه عليه وسلم أي : تحل بجيشك قريبا من دارهم ، حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ بالموت أو بالبعث أو فتح مكة. إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ لا متناع الخلف فى وعده تعالى.

---

(١) كما جاء فى الآية ١٥ من سورة الحجر.

الإشارة : لو أن عارفا باللّه سيّر الجبال عن أماكنها ، وفجر الأرض عيونا ، وكلمه الموتى لما آمن بخصوصيته إلا من سبقت له عناية الخصوصية. فلو شاء اللّه لهدى الناس إلى معرفته جميعا. لكن الحكمة اقتضت وجود الخلاف ، قال تعالى : وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ «١» ، فمن لم يهتد إلى معرفتهم لا يزال تطرقه قوارع الشكوك والأوهام ، وخواطر السوء ، أو تحل قريبا من قلبه ، إن لم تتمكن فيه ، حتى يأتي وعد اللّه بحضور موته ، فقد يتداركه اللطف والرعاية ، وقد يتسع الخرق عليه فيموت على الشك ، والعياذ باللّه. بخلاف من صحب أهل الطمأنينة واليقين ، لا يموت إلا على اليقين لأن همة الشيوخ قد حلّقت عليه ، والعناية قد حفت به. واللّه ولى المتقين.
قال الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه : (و اللّه لا يكون الشيخ شيخا حتى تكون يده مع الفقير أينما ذهب) ، والمراد باليد :
الهمة والحفظ. ووقت الموت أولى بالحضور ، وقد شاهدنا ذلك من إخواننا ممن حضره الموت منهم ، أخبر أنه يرى شيخه حاضرا معه. فلله الحمة والمنة.
ثم سلّى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من إذاية قومه ، فقال :
[سورة الرعد (١٣) : آية ٣٢]
وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (٣٢)
يقول الحق جل جلاله ، فى تسلية رسوله صلى اللّه عليه وسلم : وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فأوذوا وأهينوا ، فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : أمهلتهم فى دعة ورغد عيش ، مدة من الزمان ، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ بالهلاك والاستئصال ، فَكَيْفَ كانَ عِقابِ؟ أي : عقابى إياهم ، وهو تهويل لما نزل بهم ، وتخويف لغيرهم من المستهزئين بالرسول صلى اللّه عليه وسلم والمقترحين عليه الآيات.
الإشارة : الاستهزاء بأهل الخصوصية فى بدايتهم سنة ماضية ، ويتسلون بمن سلف من خصوص الأنبياء والأولياء. وما هدد به الكفار يهدد به أهل الإنكار. وباللّه التوفيق.
ثم وبخهم على الشرك وأوعدهم عليه ، فقال :
[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]
أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (٣٤)

---
(١) من الآية ١١٨ من سورة هود.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣١
قلت : أَفَمَنْ مع صلته : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : أفمن هو رقيب على كل شيء أحق أن يعبد أم غيره.
أو كمن ليس كذلك؟!.
يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ أي : حفيظ رقيب على عمل كل نفس بِما كَسَبَتْ من خير أو شر ، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ، ولا يفوت عنده شيء من جزائهم ، أحق أن يعبد أم غيره؟. أو كمن ليس كذلك ممن هو جماد لا يسمع ، ولا يعقل!!. وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ بعد هذا البيان التام ، قُلْ لهم : سَمُّوهُمْ أي : اذكروا أسماءهم ، فلا تجدون إلا أسماء إناث كاللات والعزى ومناة ، أو أسماء أحجار وخشب فبأى وجه تستحق أن تعبد ، وتشرك مع اللّه فى ألوهيته؟.
أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ بل أتخبرونه بما لا يعلم وجوده فى الأرض ، وهذا تهكم بهم ، كأنهم علموا استحقاق الأصنام العبادة ، ولم يعلمها الحق تعالى ، وهو محال. والمعنى : أن اللّه لا يعلم لنفسه شركاء وإذا لم يعلمهم فليسوا بشيء ، فكيف تفترون الكذب فى عبادتهم؟ أَمْ تسمونهم شركاء ، بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ، من غير حقيقة واعتبار معنى ، كتسمية الخبث مسكا ، والبول عطرا.
بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ أي : انخداعهم وغرورهم حتى توهموا الباطل حقا ، أو مكرهم بالإسلام وكيدهم لأهله ، وَصُدُّوا «١» عَنِ السَّبِيلِ أي : وصدوا الناس عن طريق الحق ، حيث منعوهم من الإسلام.
ومن قرأ بضم الصاد مبنيا للمفعول فمعناه : صدّهم الشيطان عن طريق الحق وضلوا عنه. وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ أي : من يخذله اللّه فليس له من يوفقه غيره. لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بالقتل والأسر ، وسائر ما يصيبهم من المصائب ، وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُ
لشدته ودوامه ، وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ
أي : من عذابه مِنْ واقٍ
يقيهم ويعصمهم منه.
الإشارة : كل من تحقق أن اللّه قائم عليه استحيا منه أن يسيء الأدب بين يديه ، يقول اللّه تعالى فى بعض الأخبار : «إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم ، فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم؟». وكل من وقف مع الأسباب واعتمد عليها ، أو طمع فى الخلق وركن إليهم ، فقد جعل للّه شركاء ، فيقال له : سمّ هؤلاء تجدهم خلقا عاجزين ، لا قدرة لهم على شيء ، ولا ينفعوك بشيء إلا ما قسم اللّه لك فى الأزل.
بل زين لضعفاء اليقين مكرهم ، حتى انخدعوا وافتتنوا برؤية الأسباب ، أي : كفروا كفرا دون كفر بأن شكّوا فى

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ، بضم الصاد ، على البناء للمفعول ، وقرأ الباقون بالفتح على البناء للفاعل .. انظر الإتحاف (٢/ ١٦٢).

الرزق ، والشكّ فى الرزق شكّ فى الرزّاق ، وصدوا عن طريق اليقين ، والغنى برب العالمين ، لهم عذاب فى الحياة الدنيا بالذل والحرص والحرمان.

قال بعض العارفين : لو قيل للطمع : من أبوك؟ لقال : الشك فى المقدور ، ولو قيل له : ما حرفتك؟ لقال : الذل والهوان ، ولو قيل له : ما غايتك؟ لقال : الحرمان. وفى الحكم : «ما بسقت أغصان ذلّ إلّا على بذر طمع». وقال

الشاعر : العبد حرّ ما قنع والحرّ عبد ما طمع

ولعذاب الآخرة أشق حيث يسقط بضعف يقينه عن درجة المقربين على سبيل الدوام ، وما لهم من اللّه من واق يقيهم من غم الحجاب ، وعدم اللحوق بالأحباب الذين ترقوا إلى القرب من الحبيب. واللّه تعالى أعلم.

ثم وصف الجنة تشويقا وترغيبا فى سلوك طريقها وهو الإيمان ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : آية ٣٥]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ (٣٥)

قلت : مَثَلُ الْجَنَّةِ : مبتدأ. قال سيبويه : الخبر محذوف ، أي : فيما يتلى عليكم صفة الجنة. وقال الفراء : الخبر هو : تَجْرِي ... إلخ ، وعلى قول سيبويه يكون تَجْرِي : حالا من العائد المحذوف ، أي : التي وعدها المتقون حال كونها تجرى ... إلخ. والمراد بالمثل هنا : الصفة ، لا ضرب المثل. وظِلُّها : مبتدأ حذف خبره ، وظلها كذلك.

والأكل بضم الهمزة : المأكول ، ويجوز فيه ضم الكاف وإسكانها ، وأما الأكل بالفتح فمصدر.

يقول الحق جل جلاله : صفة الجنة التي وعدها المتقون هى غرف وقصور تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ من ماء وخمر وعسل ولبن ، أُكُلُها دائِمٌ ما يؤكل من ثمارها وأنواع أطعمتها لا ينقطع ، وَظِلُّها دائم ، لا ينسخ بالشمس كظلال الدنيا ، تِلْكَ الجنة الموصوفة بهذه الأوصاف هى عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا الشرك والمعاصي ، هى مآلهم وعاقبة استقرارهم ، وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ لا محيد عنها ، هى مآلهم وإليها

رجوعهم.

وفى ترتيب العقبيين إطماع للمتقين ، وإقناط للكافرين.

الإشارة : مثل جنة المعارف التي وعدها المتقون لكل ما يشغل عن اللّه هى حضرة مقدسة ، يتنعم فيها أسرار العارفين ، تجرى من تحت قلوبهم أنهار العلوم والحكم ، لذتها وقوت الأرواح فيها دائم ، وهى الفكرة فى ميادين أنوار

التوحيد ، وجولان الروح فى فضاء أسرار التفريد. وظل روحها وريحانها دائم ، وهو : سكون القلب إلى اللّه ، وفرح الروح بشهود اللّه. وإليه أشار ابن الفارض بقوله ، رحمه اللّه ، فى وصف خمرتها :

وإن خطرت يوما على خاطر امرئ أقامت به الأفراح وارتحل الهمّ

تلك عقبى الذين اتقوا السّوى ، وعقبى المنكرين لوجود أهل هذه الجنة نار القطيعة والبعد. أعاذنا اللّه من ذلك.

ثم ذكر حال الفريقين : أهل الفرح باللّه ، وأهل الإنكار على أحباء اللّه ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ (٣٧)

قلت : حُكْماً : حال من ضمير أَنْزَلْناهُ.

يقول الحق جل جلاله ، فى حق من سبقت له السعادة : وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ كعبد اللّه بن سلام ومخيريق وأصحابهما ، ومن أسلم من النصارى ، وهم : ثمانون رجلا : أربعون بنجران ، وثمانية باليمن ، واثنان وثلاثون من الحبشة. أو : كل من آمن من أهل الكتاب ، فإنهم كانوا يَفْرَحُونَ بما يوافق كتبهم.

ثم ذكر ضدهم فقال : وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ أي : ومن كفرتهم الذين تحزبوا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالعداوة والشحناء ككعب بن الأشرف وأصحابه من اليهود ، والعاقب والسيد وأشياعهما من النصارى ، مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، وهو ما يخالف شرائعهم التي نسخت به ، أو ما يوافق ما حرّفوا منها.

قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ ، وهو جواب للمنكرين ، أي : قل لهم : إنما أمرت فيما أنزل إلىّ أن أعبد اللّه وأوحده ، وهو العمدة فى الأديان كلها ، فلا سبيل لكم إلى إنكاره. وأما إنكاركم ما

يخالف شرائعكم فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية فى جزئيات الأحكام لأنها تابعة للمصالح والعوائد ، وتتجدد بتجددها. إِلَيْهِ أَدْعُوا لا إلى غيره ، وَإِلَيْهِ مَآبِ أي : وإليه مرجعى بالبعث لا إلى غيره. وهذا هو القدر المتفق عليه من الشرائع ، وهو الأمر بعبادة اللّه وحده ، والدعاء إليه ، واعتقاد المآب إليه ، وهو الرجوع بالبعث يوم القيامة فلا يخالف ما قبله من الشرائع ، فلا معنى للإنكار حينئذ.

(٣٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٤

وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ أي : ومثل هذا الإنزال المشتمل على أصول الدين المجمع عليها ، أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا أي : يحكم فى القضايا والوقائع ، بما تقتضيه الحكمة ، مترجما بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه وحفظه.

وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ التي يدعونك إليها كتقرير دينهم ، والصلاة إلى قبلتهم بعد ما حوّلت عنها ، بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ بنسخ ذلك ، ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ينصرك ، وَلا واقٍ يقيك عتابه. وهو حسم لأطماعهم ، وتهييج للمؤمنين على الثبات فى دينهم. وباللّه التوفيق.

الإشارة : الفرح بما أنزل من عند اللّه هو مقدمات الفرح باللّه ، فإذا رفعت أكنة الغفلة عن القلب تلذذ بسماع الخطاب من وراء الباب ، وذلك أمارة القرب. وهذا مقام أهل المراقبة من المحبين. فإذا جدّ فى السير رفعت عنه الحجب والأستار ، وواجهته الأنوار والأسرار ، فيكاشف بأسرار الذات وأنوار الصفات ، فيتلذذ بشهود المتكلم ، فيسمع حينئذ الكلام من المتكلم به بلا واسطة. وهذا مقام أهل الشهود من المحبين المقربين. (و من الأحزاب) ، وهم أهل الرئاسة والجاه ، من ينكر وجود بعض هذه المقامات تعصبا وحمية. أو ينسبها لنفسه غلطا وجهلا ، فيقول له من تحقق بهذا المقام : إنما أمرت أن أعبد اللّه ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب. ويغيب عنه بالاشتغال باللّه ، وبالدعاء إليه. فإن غفل واشتغل به ، أو ركن إلى قوله ، قيل له : ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من اللّه من ولىّ ولا واق.

ولما قالت اليهود - لعنهم اللّه - لو كان محمد رسولا لما أولع بالنساء ، ردّ اللّه عليهم بقوله :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٣٨ الى ٣٩]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ يا محمد ، وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً كثيرة : كداود عليه السّلام كان له مائة امرأة ، وابنه كان له ألف ، على ما قيل ، وغيرهما من الأنبياء والرسل.

وَجعلنا لهم منهن ذُرِّيَّةً ، وأنت يا محمد منهم فليس ببدع أن يكون الرسول بشرا ، يتزوج النساء ، ويحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر ، إلا أنه لا يشغله ذلك عن أداء الرسالة ، ونصيحة الأمة ، وإظهار شريعة الدين ، والقيام بحقوق رب العالمين. ولما أجابهم بشبهتهم قالوا : أظهر لنا معجزة كما كانت لهم ، كالعصا وفلق البحر ، وإحياء الموتى؟ فأنزل اللّه وَما كانَ لِرَسُولٍ ما صح له ولم يكن فى وسعه أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ تقترح عليه ، ويظهرها إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وإرادته فإنه القادر على ذلك. لِكُلِّ أَجَلٍ من آجال بنى آدم وغيرهم ، كِتابٌ يكتب فيه وقت موته ، وانتقاله من الدنيا.

(٣٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٥

يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ من ديوان الأحياء ، فيكتب فى الأموات ، وَيُثْبِتُ من لا يموت. قيل : إن هذا الكتاب يكتب ليلة القدر ، أو ليلة النصف من شعبان ، ويجمع بينهما بأن الكتابة تقع ليلة النصف ، وإبرازه للملائكة ليلة القدر ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ أي : الأصل المنسوخ منه كتب الآجال ، وهو اللوح المحفوظ ، أو العلم القديم. وهذا التفسير يناسب اقتراح الآيات لأنهم إذا أجيبوا بظهور الآية ولم يؤمنوا ، عوجلوا بالهلاك ، وذلك له كتاب محدود. قال الورتجبي : بيّن الحق - سبحانه - أن أوان إتيان الآية بأجل معلوم فى وقت معروف ، بقوله : لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ أي :

لكل مقدور فى الأزل فى قضية مرادة وقت معلوم فى علم اللّه ، لا يأتى إلا فى وقته هـ.

أو : لِكُلِّ أَجَلٍ أي : عصر وزمان ، كِتابٌ فيه شريعة مخصوصة على ما يقتضيه استصلاحهم.

يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ : ينسخ ما يستصوب نسخه من الشرائع ، وَيُثْبِتُ ما تقتضى الحكمة عدم نسخه.

وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ وهو : اللوح المحفوظ فإنه جامع للكائنات. وهذا يترتب على قوله : وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، وهو ما لا يوافق شريعتهم. قال سيدى عبد الرحمن الفاسى : يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ ما يستصوب نسخه ، وَيُثْبِتُ ما تقتضيه حكمته ، فلا ينكر مخالفته للشرائع فى بعض الأحكام مع موافقته للحكم ، وهو الأصول الثابتة فى أصول الشرائع ، ولذا قال : وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ أي : لا يبدل. هـ.

وقريب منه للبيضاوى.

وقيل : إن المحو والإثبات عام فى جميع الأشياء. قال ابن جزى : وهذا ترده القاعدة المتقررة بأن القضاء والقدر لا يتبدل ، وعلم اللّه لا يتغير. هـ. قلت : أما القضاء المبرم وهو : علم اللّه القديم الذي استأثر اللّه به ، فلا شك أنه لا يتبدل ولا يتغير ، وأما القضاء الذي يبرز إلى علم الخلائق من الملائكة وغيرهم ، فيقع فيه المحو والإثبات ، وذلك أن الحق تعالى قد يطلعهم على بعض الأقضية ، وهى عنده متوقفة على أسباب وشروط ، يخفيها عنهم بقهريته ، ليظهر اختصاصه بالعلم الحقيقي ، فإذا أراد

الملائكة أن ينفذوا ذلك الأمر محاه اللّه تعالى ، وأثبت ما عنده فى علم غيبه ، وهو أمّ الكتاب ، حتى قال بعضهم : إن اللوح الحفوظ له جهتان : جهة تلى عالم الغيب ، وفيه القضاء المبرم ، وجهة تلى عالم الشهادة ، وفيه القضاء الذي يرد ويمحى لأنه قد تكتب فيه أمور ، وهى متوقفة على شروط وأسباب فى علم الغيب ، لم تظهر فى هذه الجهة التي تلى عالم الشهادة ، فيقع فيها المحو والإثبات ، وبهذا يندفع إشكالات كقوله فى الحديث : «لا يردّ القضاء إلا الدّعاء ، وصلة الرحم تزيد فى العمر» «١».

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي ، فى (كتاب القدر ، باب : ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء) ، من حيث سلمان. وأخرج البخاري فى (الأدب باب ، من بسط له فى الرزق) من حديث أبى هريرة قال صلى اللّه عليه وسلم : «من سره أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره ، فليصل رحمه». [.....]

وقول ابن مسعود ، وعمر - رضى اللّه عنهما - : اللهم إن كنت كتبتنا فى ديوان الشقاء فامحنا ، واكتبنا فى ديوان السعادة ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت. هـ. أي : إن كنت أظهرت شقاوتنا فامحها ، وأظهر سعادتنا فإنك تمحو ما تشاء ... إلخ. وفى ابن عطية ما يشير إلى هذا ، قال : وأصوب ما يفسر به أم الكتاب ، أنه كتاب الأمور المجزومة التي سبق القضاء فيها بما هو كائن ، وسبق ألا تبدل ، ويبقى المحو والتثبيت فى الأمور التي سبق فى القضاء أن تبدل وتمحى وتثبت. قال نحوه قتادة. هـ.

الإشارة : قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ... الآية ، قد أثبت تعالى لأهل خصوصية النبوة والرسالة الأزواج والذرية ، وكان ذلك كمالا فى حقهم. وكذلك أهل خصوصية الولاية ، تكون لهم أزواج وذرية ، ولا يقدح فى مرتبتهم ، بل يزيد فيها ، وذلك بشرط أن يقع ذلك بعد التمكين ، أو يكون فى صحبة شيخ عارف كامل عند أمره ونهيه ، يكون فعل ذلك بإذنه ، فإذا كان هذا الشرط فإن التزوج يزيد صاحبه تمكينا من اليقين.

قال الورتجبي فى هذه الآية : أعلم تعالى ، بهذه الآية ، الجهّال أنه إذا شرّف وليا أو صدّيقا بولايته ومعرفته لم يضرّ به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد ، ولم يكن بسط الدنيا له قدحا فى ولايته. هـ.

وقال الغزالي فى الإحياء ، فى الترغيب فى النكاح : قال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً ، فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل ، ومدح

أولياءه بسؤال ذلك فى الدعاء ، فقال تعالى : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ «١» الآية ، ويقال : إن اللّه تعالى لم يذكر فى كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين. وقالوا : إن يحيى عليه السّلام قد تزوج فلم يجامع.

قيل : إنما فعل ذلك لنيل الفضل وإقامة السّنة ، وقيل : لغض البصر. وأما عيسى عليه السّلام فإنه سينكح إذا نزل الأرض ، ويولد له.

وأما الأخبار فقوله صلى اللّه عليه وسلم : «النّكاح سنّتى ، فمن أحبّ فطرتى فليستنّ بسنّتى». وقال أيضا صلى اللّه عليه وسلم : «تناكحوا تكاثروا فإنّى أباهى بكم الأمم يوم القيامة ، حتّى السّقط». وقال أيضا : «من رغب عن سنّتى فليس منّى ، وإنّ من سنّتى النّكاح ، فمن أحبّنى فليستنّ بسنّتى». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «من ترك التّزوّج مخافة العيلة فليس منّا». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «من نكح للّه وأنكح للّه استحقّ ولاية اللّه».

---

(١) من الآية ٧٤ من سورة الفرقان.

ثم قال «١» : وقال ابن عباس لابنه : لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج. وكان ابن مسعود يقول : لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج ، لا ألقى اللّه عزبا. وكان معاذ رضي اللّه عنه مطعونا وهو يقول : زوجونى ، لا ألقى اللّه عزبا. وكان ماتت له زوجتان بالطاعون. وكان عمر يكثر النكاح ، ويقول : لا أتزوج إلا للولد. وكان لعلىّ رضي اللّه عنه أربع نسوة ، وسبع عشرة سرية ، وهو أزهد الصحابة. فدل أن تزوج النساء لا يدل على الرغبة فى الدنيا.

قال سفيان : كثرة النساء ليس من الدنيا. واستدل بقضية علىّ رضي اللّه عنه قال : وكان أزهد الصحابة. وروى أن بشر الحافى رئى فى المنام ، فقيل له : ما فعل اللّه بك؟ فقال : رفعت إلى منازلى فى الجنة فأشرفت على مقامات الأنبياء ، ولم أبلغ منازل المتأهلين. وفى رواية : قال لى : ما كنت أحب أن تلقانى عزبا ، قال الرائي : فقلت له : ما فعل أبو نصير التمار؟ قال : رفع فوقى بسبعين درجة بصبره على بنياته وعياله. وقد قيل : فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد ، وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب. هـ. كلام الغزالي باختصار.

وقوله تعالى : يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ ، من جملة ما يقع فيه المحو والإثبات الواردات الإلهية التي ترد على القلوب من تجليات الغيوب فإن القلب إذا تطهر من الأكدار ، وصفا من الأغيار ، كان كل ما

يتجلى فيه من الغيوب فهو حق ، إلا أنه ينسخ بعضها بعضا فقد يخبر الولي بأمر ، يكون ، أو لا يكون على حسب ما تجلى فى قلبه ، ثم يمحو اللّه ذلك ، ويثبت فى قلبه خلافه. أو يظهر فى الوجود خلاف ما أخبر ، وليس بكذب فى حقه ، ولكن الحق تعالى يظهر لخلقه أمورا من مقدوراته ، متوقفا وجودها على أسباب وشروط أخفاها الحق تعالى عن خلقه ، ليظهر عجزهم عن إحاطة علمه. فالنسخ إنما يقع فى فعله لا فى أصل علمه.

قال الأستاذ القشيري : المشيئة لا تتعلق إلا بالحدوث ، والمحو والإثبات لا يكون إلا من أوصاف الحدوث ، فصفات ذات الحق - سبحانه - من كلامه وعلمه ، لا يدخل تحت المحو والإثبات ، إنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله. هـ. وقال سهل رضي اللّه عنه : يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ الأسباب ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ القضاء المبرم. هـ.

وقال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن الفاسى : وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ : العلم الأول الثابت الذي لا يطرأ عليه تغيير ولا تبديل ، ولا يقبل النسخ والتحريف. ومطالعته : بالفناء عن الحقيقة الخلقية ، والبقاء بالأنوار الصمدانية ، والأنفاس الرحمانية. قال فى القوت : والمحبة من أشرف المقامات ، ليس فوقها إلا مقام الخلة ، وهو مقام فى المعرفة الخاصة ، وهى : تخلل أسرار الغيب ، فيطلع على مشاهدة المحبوب ، بأن يعطى إحاطة بشيء من علمه بمشيئته ، على مشيئته

---

(١) أي : الإمام الغزالي ، رحمه الله تعالى.

التي لا تتقلب ، وعلمه القديم الذي لا يتغير. وفى هذا المقام : الإشراف على بحار الغيوب ، وسرائر ما كان فى القديم ، وعواقب ما يدب. ومنه : مكاشفة العبد بحاله ، وإشهاده من المحبة مقامه ، والإشراف على مقامات العباد فى المآل ، والاطلاع عليهم فى تقلبهم فى الأبد حالا ومآلا. هـ.

قلت : هذا الاطلاع إنما هو إجمالي لا تفصيلي ، وقد يقع فيه المحو والإثبات لأنه من جملة المعلومات التي دخلت عالم التكوين ، التي يقع فيها التبديل والتغيير.

ثم قال صاحب القوت : وقد قال أحسن القائلين : وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ «١» ، والاستثناء واقع على إعطاء الإحاطة بشيء من شهادة علمه ، بنور ثاقب من وصفه ، وشعاع لائح من سبحاته ، إذا شاء ، وذلك إذا أخرجت النفس من الروح ، فكان روحانيا ، خروج الليل من النهار. هـ.

ثم تمّم الجواب عن اقتراحهم الآيات ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٤٠ الى ٤٣]
وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ (٤٣)

قلت : وَإِنْ ما : شرطية ، اتصلت ما الزائدة بأن الشرطية للتأكيد ، والجواب : فَإِنَّما ... إلخ ، أو : فلا تحتفل فإنما ... إلخ ، ولا مُعَقِّبَ : فى موضع الحال ، أي : يحكم نافذا حكمه ، كقوله : جاء زيد لا سلاح معه ، أي : حاسرا.

ومَنْ عِنْدَهُ : عطف على بِاللَّهِ.

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلى اللّه عليه وسلم تسكينا له : وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ من العذاب الذي استعجلوه ، أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قبل أن ترى ذلك ، فلا تحتفل بشأنهم ، فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ للرسالة لا غير ، وَعَلَيْنَا الْحِسابُ : المجازاة. والمعنى : كيفما دار الحال در معه ، أريناك بعض ما أوعدناهم فى حياتك ، أو توفيناك قبله ، فلا تهتم بإعراضهم ، ولا تستعجل بعذابهم فإنا فاعلون ذلك لا محالة ، وهذا طلائعه ، فقد فتحنا عليك كثيرا من بلادهم ونقصناها عليهم.

---

(١) من الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ أي : أرض الكفرة ، نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها بما نفتحه على المسلمين منها ، فيخافوا أن نمكّنك من أرضهم ، وتنزل بساحتهم ، منصورا عليهم ، فإذا نزلت بساحتهم ، ولم يخضعوا لك ، فساء صباح المنذرين. وقيل : الأرض جنس ، ونقصها بموت الناس ، وهلاك الثمرات ، وخراب البلاد ، وشبه ذلك. وذلك مقدمات العذاب الذي حكم به عليهم ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ : لا راد له. والمعقب : الذي يعقب الشيء بالإبطال ، ومنه قيل لصاحب الدين : معقب لأنه يعقب غريمه للاقتضاء ، والمعنى : أنه حكم للإسلام بالإقبال ، وعلى الكفرة بالإدبار ، وذلك كائن لا يمكن تغييره.

وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ فيحاسبهم عما قليل فى الآخرة ، بعد ما عذّبهم بالقتل والإجلاء فى الدنيا.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بأنبيائهم ، وبمن تبعهم ، فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً ، إذ لا يؤبه بمكر دون مكره ، فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. سمّى العقوبة باسم الذنب للمشاكلة ، يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ

كُلُّ نَفْسٍ فينفذ جزاءها. وَسَيَعْلَمُ الكافر «١» أي : جنس الكافر ، بدليل قراءة : «الْكُفَّارُ» ، لِمَنْ هي عُقْبَى الدَّارِ أي : لمن تكون العاقبة فى الدارين ، دار الفناء ودار البقاء ، هل لأهل الإسلام المعد لهم دار السلام؟

أو للكفار المعد لهم دار البوار؟. قال البيضاوي : وهذا كالتفسير لمكر اللّه بهم ، واللام تدل على أن المراد بالعقبى العاقبة المحمودة ، مع ما فى الإضافة إلى الدار كما عرفت. هـ.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا من رؤساء اليهود : لَسْتَ مُرْسَلًا ، ولم نجد لك ذكرا فى كتابنا ، ولا ما يشهد لك عندنا. قال تعالى : قُلْ لهم : كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فإنه أظهر من الأدلة على رسالتى ما يغنى عن شاهد يشهد عليها منكم ، ولا من غيركم. وَيشهد لى أيضا : مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ الأول العلم الحقيقي ، كعبد اللّه بن سلام ، ومن أسلم من اليهود والنصارى الذين علموا صفته صلى اللّه عليه وسلم من التوراة والإنجيل ، وعلماء المؤمنين الذين عندهم علم القرآن ، وما احتوى عليه من النظم المعجز ، والعلوم الغيبية الدالة على نبوته صلى اللّه عليه وسلم.

أو علم اللوح المحفوظ ، وهو اللّه ، أي : كفى باللّه الذي لا يستحق العبادة غيره ، وبمن لا يعلم ما فى اللوح المحفوظ إلا هو ، شهيدا بيننا. ويؤيده قراءة من قرأ : «وَمَنْ عِنْدَهُ» بكسر الميم. وعلم الكتاب ، على الأول : مرفوع بالظرف فإنه معتمد على الموصول. ويجوز أن يكون مبتدأ ، والظرف خبره. وهو متعين على الثاني. قاله البيضاوي.

الإشارة : قد قال تعالى فى الحديث القدسي : «من آذى لى وليّا فقد آذن بالحرب». وجرت عادة اللّه تعالى أن ينتقم لأوليائه ، ويغار عليهم ، ولو بعد حين ، فإذا أوذى أحدهم ، واستعجل ذلك يقول له الحق تعالى ما قال لنبيه صلى اللّه عليه وسلم : فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قبل ذلك ، فليس الأمر بيدك ، فإنما عليك بلاغ ما جاء به

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي «الكفار» جمع تكسير. وقرأ الباقون. (الكافر) على الإفراد ... انظر الإتحاف (٢/ ١٦٣).

نبيك من نصح العباد ، وإرشادهم إلى معالم دينهم ، وتصفية بواطنهم ، وعلينا الحساب فنجازى من أقبل ومن أدبر. ومن جملة الانتقام : حبس الأمطار ، ونقص الثمار ، وتخريب البلاد ، وكثرة موت العباد ، فتنقص الأرض من أطرافها. أفلم يعتبروا بذلك ، ويقصروا عن مكرهم بأولياء اللّه؟.

وقد مكر الذين من قبلهم بأولياء زمانهم ، فلم يغنوا شيئا ، فمكر اللّه بهم ، وخذلهم عن طاعته ، وسيعلم أهل الإنكار لمن تكون عاقبة الدار. ويقول الذين كفروا بخصوصية ولىّ من أولياء اللّه : لست وليّا. فيقول لهم : كفى باللّه شهيدا بينى وبينكم ، ومن عنده علم الخصوصية ، وهم : السادات الصوفية ، فلا يعرف الولىّ إلا ولىّ مثله ، ولا يعرف أهل الخصوصية إلا من له الخصوصية. وباللّه التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

سورة إبراهيم

مكية. وهى إحدى وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله : قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً «١» ، مع قوله : كِتابٌ أَنْزَلْناهُ فإنه تصريح بالشهادة له. أو : وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ ، على تفسيره بالقرآن ، مع قوله : كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الر ...

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٣)

الألف : آلاؤه ، واللام : لطفه ، والراء : رحمته. فكأنه يقول : بآلائنا ولطفنا ورحمتنا أنزلنا إليك كتابنا ، ولذلك رتّب عليه قوله :

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ ...

قلت : (كتاب) : خبر ، أي : هذا كتاب ، و(بإذن) : متعلق بتخرج ، أو حال من فاعله ، أو مفعوله. و(إلى صراط) : بدل من (النور). (اللّه الذي) من رفعه فعلى الابتداء ، والموصول خبره ، أو خبر عن محذوف ، ومن خفضه فبدل من (العزيز) ، و(الذين يستحبون) : صفة للكافرين أو نصب ، أو رفع على الذم.

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المحبوب ، هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ بدعائك إياهم إلى العمل به ، مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ من ظلمات الضلال والجهل إلى نور الهداية والعلم ، بِإِذْنِ رَبِّهِمْ بتوفيقه وهدايته وتسهيله ، إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ أي : لتخرجهم إلى نور العلم الذي هو سلوك طريق

العزيز الحميد ، التي توصل إلى رضوانه ومعرفته. وفى ذكر الوصفين إشارة إلى أنه لا يذل سالكه ، ولا يخيب سائله ، بل تحمد عاقبته.
ثم ذكر الموصوف بهما بقوله : اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أي : الموصوف بالعزة والحمد هو الله الذي استقر له ما فى السموات وما فى الأرض ملكا وعبيدا. ثم ذكر وعيد من كفر بكتابه أو به ،

---

(١) من الآية ٤٣ سورة الرعد.

فقال : وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ بكتابه ، ولم يخرجوا به من ظلمات كفرهم ، مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ ، والويل : كلمة عذاب تقال لمن استحق الهلاك ، أي : هلاك لهم من أجل عذاب شديد يلحقهم. وقيل : واد فى جهنم.
ثم ذكر وجه استحقاقهم العذاب بقوله : الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يختارونها عَلَى الْآخِرَةِ ، فإنّ من أحب شيئا اختاره وطلبه ، وَيَصُدُّونَ الناس عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بتعويقهم عن الإيمان ، وَيَبْغُونَها عِوَجاً أي : ويبغون لها زيغا ، ونكوبا عن الحق ، ليتوصلوا للقدح فيها ، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير ، أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ أي : فى تلف بعيد عن الحق ، بحيث ضلوا عن الحق ، وبعدوا عنه بمراحل.
والبعد فى الحقيقة : للضال ، ووصف به فعله للمبالغة.
الإشارة : قد أخرج صلى اللّه عليه وسلم أمته من ظلمات عديدة إلى أنوار متعددة ، أولها : ظلمة الكفر والشرك إلى نور الإيمان والإسلام ، ثم من ظلمة الجهل والتقليد إلى نور العلم والتحقيق ، ثم من ظلمة الذنوب والمعاصي إلى نور التوبة والاستقامة ، ثم من ظلمة الغفلة والبطالة إلى نور اليقظة والمجاهدة ، ثم من ظلمة الحظوظ والشهوات إلى نور الزهد والعفة ، ثم من ظلمة رؤية الأسباب ، والوقوف مع العوائد ، إلى نور شهود المسبب ، وخرق العوائد ، ثم من ظلمة الوقوف مع الكرامات وحلاوة الطاعات إلى نور شهود المعبود ، ثم من ظلمة الوقوف مع حس الأكوان الظاهرة إلى شهود أسرار المعاني الباطنة ، فيغيب عن الأكوان بشهود المكون. وهذا آخر ظلمة تبقى فى النفس ، فتصير حينئذ روحا ، وسرا من أسرار اللّه ، ويصير صاحبها روحانيا ربانيا عارفا باللّه ، ولا يبقى حينئذ إلا الترقي فى شهود الأسرار أبدا سرمدا. وهذا محل القطبانية والتهيؤ للتربية النبوية ، ويصير وليا محمديا ، يخرج الناس من هذه الظلمات إلى هذه الأنوار.

وأما من لم يبلغ هذا المقام ، فإنما له الإخراج من أحد هذه الأشياء فالغزاة والمجاهدون يخرجون من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، والعلماء يخرجون من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، والعباد والزهاد يخرجون من صحبهم من الذنوب إلى التوبة والاستقامة. وأما ما بقي من الظلمات فلا يخرج منها إلا الربانيون الروحانيون ، أهل التربية النبوية ، بإذن ربهم ، يدلهم على صراط العزيز الحميد ، الموصل إلى العز المديد. وويل لمن أنكر هؤلاء ، واشتغل بمتابعة حظوظه وهواه ، واستحبّ حياة دنياه على أخراه ، أولئك فى ضلال عن حضرة الحق بعيد. وباللّه التوفيق.

ولمّا كان الإخراج من هذه الظلمات لا يكون إلا بالمقال والحال ، بعث اللّه الرسل ، وورثتهم من الأولياء الداعين إلى اللّه بلسان قومهم ، كما قال تعالى :

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٤]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ قبلك إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ ، وأنت بعثناك بلسان قومك. وإنما قال : بلسان قومه ، ولم يقل بلسان أمته لأن الأمة قد تكون أوسع من قومه ، كما فى حق نبينا - عليه الصلاة والسلام - فقد بعث إلى العرب والعجم ، والجن والإنس ، فقومه الذين يفهمون عنه : يترجمون إلى من لا يفهم ، فتقوم الحجة عليهم. وكذلك إعجاز القرآن يدركه أهل الفصاحة والبلاغة ، فإذا وقع العجز عن معارضته منهم قامت الحجة على غيرهم ، كما قامت الحجة فى معجزة موسى عليه السّلام بعجز السحرة ، وفى معجزة عيسى بعجز الأطباء.

ثم بيّن الحكمة ، فى كون الداعي لا يكون إلا بلسان قومه ، بقوله : لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ما أمروا به فيفهمونه عنه بسرعة ، ثم ينقلونه ويترجمونه لغيرهم ، فتقوم الحجة عليهم ولذلك أمر النبي صلى اللّه عليه وسلم بإنذار عشيرته أولا ، فإذا فهموا عنه بلّغوا إلى غيرهم. قال البيضاوي : ولو نزل على من بعث إلى أمم مختلفة كتب على ألسنتهم استقل ذلك بنوع من الإعجاز ، لكن أدى إلى اختلاف الكلمة وإضاعة فضل الاجتهاد فى تعلم الألفاظ ومعانيها ، والعلوم المتشعبة منها ، وما فى إتعاب القرائح وكد النفس من القرب المقتضية لجزيل الثواب. هـ.

فالرسل - عليهم الصلاة والسلام - إنما عليهم البيان بلسانهم ، والهداية بيد ربهم ، ولذلك قال تعالى : فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ إضلاله ، فيخذله عن الإيمان ، وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ بالتوفيق له ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب

على أمره ، فلا يغلب على مشيئته ، الْحَكِيمُ فى صنعه ، فلا يضل ولا يهدى إلا لحكمة أرادها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما بعث اللّه وليا داعيا إلا بلسان قومه ، وقد يخرق له العادة ، فيطلعه على جميع اللغات ، كما قال المرسى رضي اللّه عنه : من بلغ هذا المقام لا يخفى عليه شيء. وذلك من باب الكرامة كما كان صلى اللّه عليه وسلم يخاطب كل قوم بلغتهم معجزة له صلى اللّه عليه وسلم فقد اتسع علمه - عليه الصلاة والسلام - فأحاط بحقائق الأشياء وأسمائها ومفهوماتها ، وأصول اللغة وفروعها ، فعلم ما علمه سيدنا آدم عليه السّلام ، أو أكثر ، وإلى ذلك أشار القطب ابن مشيش فى تصليته المشهورة بقوله : «وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق». وقال البوصيرى فى همزيته :

لك ذات العلوم من عالم الغي ب ومنها لآدم الأسماء

ولمّا كان علاج موسى عليه السّلام فى إخراج أمته من الظلمات إلى النور ، قريبا من علاج نبينا - عليه الصلاة والسلام - ذكره بإثره ، كما فعل فى سورة طه ، فقال :

(٣/٤٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٤

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٥ الى ٨]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)

قلت : (أَنْ أَخْرِجْ) : إما تفسيرية لا محل لها ، أي : وقلنا : أن أخرج لأن فى الإرسال معنى القول ، أو على إسقاط الخافض ، أي : بأن أخرج فإنّ صيغ الأفعال سواء فى الدلالة على المصدر ، فيصح أن توصل بها «أَنْ» الناصبة.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا كاليد والعصا ، وسائر معجزاته التسع ، وقلنا له : أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ بنى إسرائيل ، وفرعون وملأه مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، أما فرعون وملؤه فظاهر ، وأما بنو إسرائيل فقد كان فرعون فتن جلّهم ، وأضلهم مع القبط ، فكانوا أشياعا متفرقين ، لم يبق لهم دين. فإن قلت : إذا كان موسى عليه السّلام مبعوثا إلى القبط ، فلم لم يرجع إليهم بعد خروجه عنهم إلى الشام؟ فالجواب : أنه لما بلّغهم الرسالة قامت الحجة عليهم ،

فيجب عليهم أن يهاجروا إليه للدين.
ثم أمره بالتذكير فقال : وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ : بوقائعه التي وقعت على الأمم الدراجة قبلهم ، وأيام العرب
:
حروبها. أو ذكّرهم بنعم اللّه وآلائه ، وبنقمه وبلائه فالأيام تطلق على المعنيين. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ فى بلائه ، شَكُورٍ لنعمائه. وإنما خصه لأنه إذا سمع ما نزل على من قبله من البلاء ، وأفيض عليهم من النعماء ، اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر. وقيل : المراد لكل مؤمن ، وإنما عبّر عنهم بذلك تنبيها على أن الصبر والشكر عنوان الإيمان. قاله البيضاوي.
وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ : حين أنجاكم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ : رهطه ، يَسُومُونَكُمْ : يولونكم سُوءَ الْعَذابِ : أقبحه ، يستعبدونكم ويكلفونكم مشاق الأعمال ، وَيُذَبِّحُونَ

(٣/٤٤)

أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ ، قال البيضاوي : المراد بالعذاب هنا غير المراد به فى سورتى البقرة والأعراف لأنه هناك مفسر بالتذبيح والقتل ، ومعطوف عليه هنا ، فهو هنا إما جنس العذاب ، أو استعبادهم واستعمالهم بالأعمال الشاقة. هـ. وَفِي ذلِكُمْ الامتحان بَلاءٌ أي : ابتلاء مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ اختبركم به حتى أنقذكم منه ، ليعظم شكركم ، أو : فى ذلك الإنجاء بلاء ، أي : نعمة واختبار عظيم ، لينظر كيف تعملون فى شكر هذه النعمة.
ولذلك قال لهم موسى عليه السّلام : وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ أي : آذن ، بمعنى أعلم ، كتوعّد وأوعد ، غير أنّ تأذن أبلغ من آذن لما فى تفعّل من التكلف والمبالغة ، أي : أعلمكم ، وقال : واللّه لَئِنْ شَكَرْتُمْ يا بنى إسرائيل ما أنعمت به عليكم من الإنجاء وغيره ، بالإيمان والعمل الصالح ، وبالإقرار باللسان ، وإفراد النعمة للمنعم بالجنان ، لَأَزِيدَنَّكُمْ نعمة على نعمة. وهذا الخطاب ، وإن كان لبنى إسرائيل ، يعم جميع الخلق ، والزيادة إما من خير الدنيا ، أو ثواب الآخرة. وشكر الخواص يكون على السراء والضراء فتكون الزيادة فى الضراء ، إما فى الثواب أو فى التقريب. ثم ذكر ضده فقال : وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ ما أنعمت به عليكم ، وقابلتموه بالكفر والعصيان ، إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ فأعذبكم به على كفركم. قال البيضاوي : ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد. هـ. فصرح بوصول الزيادة إليهم ، ولم يقل : أعذبكم عذابا شديدا ، بل عظم عذابه فى الجملة.
وَقالَ مُوسى ، فى شأن من لم يشكر : إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً من الثقلين ، فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عن شكركم ، حَمِيدٌ : محمود على ألسنة خلقه ، من الملائكة وغيرهم. فكل ذرة من المخلوقات

ناطقة بحمده حالا أو مقالا ، فهو غنى أيضا عن حمدكم ، فما ضررتم بالكفر إلا أنفسكم حيث حرمتموها مزيد الإنعام ، وعرضتموها لشديد الانتقام. وباللّه التوفيق.

الإشارة : ذكر الحق تعالى فى هذه الآية مقامين من مقامات اليقين : الصبر والشكر ، ومدح من تخلق بهما واستعملهما فى محلهما ، فيركب أيهما توجه إليه منهما ، ويسير بهما إلى ربه. فالصبر عنوان الظفر ، وأجره لا ينحصر ، والشكر ضامن للزيادة ، قال بعض العارفين : (لم يضمن الحق تعالى الزيادة فى مقام من المقامات إلا الشكر) ، فدل أنه أفضل المقامات وأحسن الطاعات ، من حيث إنه متضمن للفرح باللّه ، وموجب لمحبة اللّه. ولا شك أن مقام الشكر أعلى من مقام الصبر لأن الشاكر يرى المنن فى طى المحن ، فيتلقى المهالك بوجه ضاحك لأنه لا يكون شاكرا حقيقة حتى يشكر فى السراء والضراء ، ولا يشكر فى الضراء حتى يراها سراء ، باعتبار ما يواجه به فى حال الضراء من الفتوحات القلبية ، والمواهب اللدنية ، فتنقلب النقمة نعمة. بخلاف مقام الصبر ، صاحبه يتجرع مرارة الصبر لأنه لم يترق إلى شهود المبلى فى حال بلائه ، ولو ترقى إلى شهوده للذّت لديه البلايا ، كما قال صاحب العينية :

تلذّ لى الآلام إذ كنت مسقمى وإن تختبرني فهى عندى صنائع

(٣/٤٥)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٦

لكن هذه الأحوال تختلف على العبد باعتبار القوة والضعف فتارة تجده قويا يتلقى المهالك بوجه ضاحك ، وتارة تصادفه الأقدار ضعيفا فلا يبقى معه إلا الصبر وتجرع مرارة البلاء ، والعياذ باللّه. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه فى كتاب القصد : «رأيت كأنى مع النبيين والصديقين ، فأردت الكون معهم ، ثم قلت : اللهم اسلك بي سبيلهم مع العافية مما ابتليتهم ، فإنهم أقوى ونحن أضعف منهم ، فقيل لى : قل : وما قدّرت من شىء فأيّدنا كما أيدتهم».

ثم ذكّرهم بمن سلف قبلهم ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٩]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)

قلت : (شك) : فاعل بالمجرور ، و(فاطر) : نعت له.

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن نبيه موسى عليه السّلام فى تذكير قومه ، أو من كلامه تذكيرا لهذه

الأمة :

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ : ما جرى عليهم حين عصوا أنبياءهم قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ كقوم شعيب ، وأمم كثيرة لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ لكثرة عددهم ، واندراس آثارهم. ولذلك قال ابن مسعود : كذب النسّابون. جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الواضحات ، فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ ليعضوا عليها غيظا مما جاءت به الرسل ، كقوله : عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ «١». أو : وضعوها عليها تعجبا منهم ، أو : استهزاء بهم ، كمن غلب عليه الضحك. أو إسكاتا للأنبياء ، وأمرا لهم بإطباق الأفواه ، أو : ردوها فى أفواه الأنبياء ، يمنعونهم من التكلم ، أو : ردوا أياديهم ، أي : نعم الأنبياء عليهم ، وهى : مواعظهم والشرائع التي أتوهم بها من عند اللّه ، ردوها فى أفواه الأنبياء حيث كذبوها ، ولم يعملوا بها ، كما تقول لمن لم يمتثل أمرك : ترك كلامى فى فمى وذهب. وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ على زعمكم ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا

---

(١) من الآية ١١٩ من سورة آل عمران.

تَدْعُونَنا إِلَيْهِ من التوحيد والإيمان ، مُرِيبٍ : موقع فى الريبة ، أو : ذى ريبة ، وهو : قلق النفس بحيث لا تطمئن إلى شىء.

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ١٠ الى ١٢]

قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (١٠) قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)

فأجابتهم الرسل عن دعواهم الشك فى الربوبية ، قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ : أفى وجوده شك ، أو فى ألوهيته ، أو فى وحدانيته شك؟ قال البيضاوي : أدخلت همزة الإنكار على الظرف لأن الكلام فى المشكوك فيه ، لا فى الشك ، أي : إنما ندعوكم إلى اللّه ، وهو لا يحتمل الشك لكثرة الأدلة ، وظهور دلالتها عليه. هـ. وأشار إلى ذلك بقوله : فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : خالقهما ومبدعهما على هذا الشكل الغريب ، والإتقان العجيب إذ لا يصدر إلا من إله عظيم القدرة ، باهر الحكمة ، واحد فى

ملكه لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «١» ، وهو يَدْعُوكُمْ إلى الإيمان والتوحيد ، ببعثه إيانا ، والتصديق بنا ، لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ إن آمنتم ، أي : يغفر لكم بعض ذنوبكم ، وهو ما تقدم قبل الإسلام ، ويبقى ما يذنب بعده فى المشيئة ، أو : ما بينكم وبينه دون المظالم.

والجمهور : أنه يغفر للكافر ما سلف مطلقا ، وقيل : «مِنْ» : زائدة ، على غير مذهب سيبويه. قال البيضاوي : وجيئ بمن ، فى خطاب الكفرة ، دون المؤمنين فى جميع القرآن تفرقة بين الخطابين ، ولعل المعنى فيه أن المغفرة ، حيث جاءت فى خطاب الكفار ، مرتبة على الإيمان ، وحيث جاءت فى خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة ، والتجنب عن المعاصي ، ونحو ذلك فيتناول الخروج عن المظالم.

هـ. وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى : إلى وقت سماه اللّه ، وجعله آخر أعماركم. وقال الزمخشري تبعا للمعتزلة : يؤخركم إن آمنتم إلى آجالكم ، وإن لم تؤمنوا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت ، وهذا على قولهم بالأجلين. وأهل السنة يأبون هذا فإن الأجل عندهم واحد محتوم ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : التفكر والاعتبار أفضل عبادة الأبرار ، وفى الحديث : «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة».

فيتفكر العبد فيما سلف قبله من القرون الماضية والأمم الخالية ، كيف رحلوا عن ديارهم المشيدة ، وفروشهم الممهدة ، واستبدلوها بضيق القبور ، وافتراش التراب تحت الجنوب ، وجاءهم الموت وهم غافلون ، وتجرعوا كأسها وهم كارهون ، فلا ما كانوا أمّلوا أدركوا ، ولا إلى مافاتهم رجعوا ، قدموا على ما قدّموا ، وندموا على ما خلفوا ، ولم ينفع الندم وقد جف القلم. فيوجب هذا التفكر الانحياش إلى اللّه ، والمسارعة إلى طاعة اللّه ، والزهد فى هده الدار الفانية ، والتأهب للسفر إلى الدار الباقية فيفوز فوزا عظيما. وفى تكذيب الصادقين تسلية للعارفين ، وللمتوجهين من المريدين ، إذا قوبلوا بالإيذاء والتكذيب ، وباللّه التوفيق.

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

ثم ذكر ما أجاب به الكفار رسلهم ، فقال :

قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا يقول الحق جل جلاله : وقال الذين كفروا لرسلهم : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا لا فضل لكم علينا ، فلم تختصون بالنبوة دوننا ، ولو شاء اللّه أن يبعث رسلا إلى البشر لأرسلهم من جنس أفضل ، كالملائكة ، أو : ما أنتم إلا بشر ، والبشر لا يكون رسولا. قال ابن جزى : يحتمل أن يكون

استبعادا لتفضيل بعض البشر على بعض بالنبوة ، أو يكون إحالة لنبوة البشر ، والأول أظهر لطلبهم البرهان بقولهم : فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ ، ولقول الرسل : وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ. هـ. ثم قالوا للرسل : تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا من الأصنام بهذه الدعوى ، فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ : ببرهان بيّن يدل على فضلكم ، واستحقاقكم لهذه المرتبة التي هى مرتبة النبوة. كأنهم لم يعتبروا ما جاءوا به من البينات والحجج ، فاقترحوا عليهم آية أخرى تعنتا ولجاجا.

قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ : ما نحن إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ بالنبوة والرسالة ، فمنّ علينا بذلك ، وإن كنا بشرا مثلكم ، سلّموا لهم مشاركتهم فى الجنس ، وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل اللّه ومنّه عليهم. وفيه دليل على أن النبوة مواهب عطائية لا كسبية.

ثم أجابوهم عما اقترحوا بقولهم : وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، فليس لنا الإتيان بآيات ، ولا فى قدرتنا أن نأتيكم بما اقترحتموه ، وإنما هو أمر متعلق بمشيئة اللّه ، يخص من يشاء بها ، على ما تقتضيه حكمته وسابق إرادته.

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ، فلنتوكل نحن عليه ، فى الصبر على معاناتكم ومعاداتكم. عمموا الأمر بذكر المؤمنين للإشعار بأن الإيمان موجب للتوكل ، وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا ، ألا ترى قولهم : وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ أي : أىّ عذر لنا فى ترك التوكل على اللّه؟ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا أي : طرقنا التي نعرفه بها ، فنوحده ، ونعلم أن الأمور كلها بيده ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا : على أذاكم حتى يحكم اللّه بيننا ، وهو جواب عن قسم محذوف ، أكدوا به توكلهم ، وعدم مبالاتهم بما يجرى من الكفار عليهم. وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ أي : فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم ، المسبب عن إيمانهم. قاله البيضاوي تبعا للزمخشرى.

قال ابن جزى : إن قيل : لم كرر الأمر بالتوكل؟ فالجواب عندى : أن قوله : وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ راجع إلى ما تقدم من طلب الكفار : فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ أي : حجة ظاهرة ، فتوكل الرسل فى ورود ذلك إلى اللّه. وأما قوله : فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ فهو راجع إلى قولهم : (وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا) أي : نتوكل على اللّه فى دفع أذاكم. هـ. وهو حسن ، لكن التعبير بالمتوكلين يقتضى أن التوكل حاصل ، والمطلوب الدوام عليه ، وقد يقال :

إنما عبّر ثانيا بفظ المتوكلين كراهية إعادة اللفظ بعينه ، أي : من كان متوكلا على اللّه فإنه الحقيق بذلك. وقال فى القوت : أي : ليتوكل عليه فى كل شىء من توكل عليه فى شىء. وهذا أحسن وجوهه.

قال فى الحاشية : والوجه الآخر : وعليه فليتوكل ، فى توكله من توكّل عليه فى الأشياء لأن الوكيل فى كل شيء واحد ، فينبغى أن يكون التوكل فى كل شيء واحد. هـ.

الإشارة : سر الخصوصية مستور بأوصاف البشرية ، ولا فرق بين خصوصية النبوة ، والولاية. سترها الحق تعالى غيرة عليها أن يعرفها من لا يعرف قدرها فلا يطلع عليها إلا من سبقت له من اللّه العناية ، وهبت عليه ريح الهداية. وفى الحكم : «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية». وقال أيضا : «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه». قال فى لطائف المنن : فأولياء اللّه أهل كهف الإيواء ، فقليل من يعرفهم ، ولقد سمعت شيخنا أبا العباس المرسى رضي اللّه عنه يقول : معرفة الولي أصعب من معرفة اللّه فإن اللّه معروف بكماله وجماله ، وحتى متى تعرف مخلوقا مثلك ، يأكل كما تأكل ، ويشرب كما تشرب؟ قال فيه : وإذا أراد اللّه أن يعرفك بولي من أوليائه طوى عنك وجود بشريته ، وأشهدك وجود خصوصيته. هـ.

قلت : ومعنى : «طوى عنك وجود بشريته» هو : عدم الوقوف مع أوصافها اللازمة للنقائص ، بل تنفذ منها إلى شهود خصوصيته ، التي هى محل الكمالات. فأوصاف البشرية الذاتية للبشر لا تزول عن الولي ، ولا عن النبي كالأكل والشرب ، والنوم والنكاح ، والضعف والفقر ، وغير ذلك من نعوت البشر لأنها فى حقهم رداء وصوان لستر خصوصيتهم صيانة لها أن تتبدل بالإظهار ، وينادى عليها بلسان الاشتهار ، ولذلك اختفوا عن كثير من الخلق.

وإلى هذا أشار فى الحكم بقوله : «لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم البشرية».

وقال صاحب كتاب (أنوار القلوب) : للّه سبحانه عباد ضنّ بهم عن العامة ، وأظهرهم للخاصة ، فلا يعرفهم إلا شكل ، أو محب لهم ، وللّه عباد ضنّ بهم عن الخاصة والعامة ، وللّه عباد يظهرهم فى البداية ويسترهم فى النهاية ، وللّه عباد يسترهم فى البداية ويظهرهم فى النهاية ، وللّه عباد لا يظهر حقيقة ما بينه وبينهم إلى الحفظة فمن سواهم ، حتى يلقوه بما أودعهم منه فى قلوبهم ، وهم شهداء الملكوت الأعلى ، والصفح «١» الأيمن من العرش الذين

---

(١) الصفح : الجنب.

يتولى اللّه قبض أرواحهم بيده ، فتطيب أجسادهم به ، فلا يعدوا عليها الثرى ، حتى يبعثوا بها مشرقة

بنور البقاء الأبد مع الباقي الأحد عز وجل. هـ.
وقال أبو يزيد رضي اللّه عنه : أولياء اللّه تعالى عرائس ، ولا يرى العرائس إلا من كان محرما لهم ، وأما غيرهم فلا. وهم مخبأون عنده فى حجاب الأنس ، لا يراهم أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة. هـ. وجميع ما أجاب به الأنبياء قومهم يجيب به الأولياء من أنكر عليهم ، من قوله : (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا) ، من التعلق بالأسباب والانهماك فى الحظوظ ، ومتابعة الهوى ، وحب الدنيا ، ومن قولهم : (فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ) إلى تمام ما أجابوا به. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر تخويف الكفار للرسل بإخراجهم من الديار ، فقال :
[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ١٣ الى ١٧]
وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ (١٧)
قلت : (وَ اسْتَفْتَحُوا) : معطوف على (فَأَوْحى) إن كان الضمير للرسل ، واستئناف إن كان للكفار. و(يُسْقى) :
معطوف على محذوف ، أي : يلقى فيها ويسقى ، و(صَدِيدٍ) : عطف بيان لماء ، و(يَتَجَرَّعُهُ) : صفة لماء ، أو حال من ضمير (يُسْقى).
يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ تخويفا لهم : واللّه لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا ، حلفوا ليكونن أحد الأمرين إما إخراج الرسل من ديارهم ، أو عودهم إلى ملتهم ، والعود هنا بمعنى الصيرورة لأنهم لم يكونوا على ملتهم ، كما تقدم فى قصة شعيب عليه السّلام. ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ، ولمن آمن معه ، فغلّب الجماعة على الواحد ، وقال الذين كفروا فى كل عصر لكل رسول أتاهم : لنخرجنك ، أو لتعودن فى ملتنا. فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أي : إلى رسلهم ، مجتمعين أو مفترقين - على القولين - وقال فى إيحائه : واللّه لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ فتخلى بلادهم ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ أي : أرضهم وديارهم ،

لقوله : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا «١». ذلِكَ الميراث والإسكان لِمَنْ خافَ مَقامِي أي : قيامه للحساب بين يدى فى القيامة ، أو قيامى على عبادى ، وحفظى لأعمالهم

، واطلاعي على سرهم وعلانيتهم. أو خاف عظمة ذاتي وجلالي ، وَخافَ وَعِيدِ أي : وعيدي بالعذاب ، أو عذابى الموعود للكفار.

وَاسْتَفْتَحُوا أي : استفتح الرسل : طلبوا من اللّه الفتح على أعدائهم ، أو القضاء بينهم وبين أعاديهم ، كقوله :

رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ «٢» واستفتح الكفرة واستنصروا على غلبة الرسل ، على نحو قول أبى جهل فى غزوة بدر : اللهم ، أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا يعرف ، فأحنه الغداة ، أي : أهلكه. أو : استفتح الفريقان معا ، فكل واحد منهما سأل اللّه أن يهلك المبطل وينصر المحق. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن : بكسر التاء على الأمر للرسل بطلب الفتح. وَخابَ : خسر كُلُّ جَبَّارٍ : متكبر على اللّه ، عَنِيدٍ : معاند للحق ولمن جاء به. وهذا هو الفتح الذي فتح لهم ، وهو : خيبة المتكبرين وفلاح المؤمنين.

ثم ذكر مآل خيبتهم بقوله : مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ أي : أمامه وبين يديه ، فإنه مرصد بها ، واقف على شفيرها فى الدنيا ، مبعوث إليها بعد الموت فيلقى فيها ، وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ ، وهو ما يسيل من جلود الكفار من القيح والدم. يَتَجَرَّعُهُ : يتكلف جرعه ، أي : زهوقه فى حلقه. روى : «أن الكافر يؤتى بالشربة منه فيتكرهها ، فإذا أدنيت منه شوت وجهه ، وسقطت فيها فروة رأسه ، فإذا شربها قطعت أمعاءه» «٣». فيتجرعه وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ أي : لا يقارب أن يسيغه ، أي : يبتلعه بصعوبة فكيف يسيغه ، بل يكلف به ويطول عذابه ثم يبتلعه لأن نفى «كاد» يقتضى الوقوع. والسوغ : جواز الشراب على الحلق بسهولة ، وهذا بخلافه. وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ أي : أسباب الموت مِنْ كُلِّ مَكانٍ من أجل الشدائد التي تحيط به من جميع الجهات. أو : من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وإبهام رجليه. وَما هُوَ بِمَيِّتٍ فيستريح ، وَمِنْ وَرائِهِ : من بين يديه عَذابٌ غَلِيظٌ أي : يستقبل فى كل وقت عذابا أشد مما هو عليه ، وقيل : هو الخلود فى النار ، وقيل : حبس الأنفاس فى الأجساد. قاله الفضيل بن عياض. وقيل : قوله : وَاسْتَفْتَحُوا : كلام منقطع عن قصة الرسل ، بل نزل فى أهل مكة حين استفتحوا بطلب المطر فى السنة التي أخذتهم بدعوة الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، فخيب اللّه رجاءهم ولم يسقهم ، وأوعدهم أن يسقيهم - بدلا من سقياهم المطر - صديد أهل النار. قال معناه البيضاوي.

---

(١) من الآية ١٣٧ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٢٦٥) والترمذي فى (أبواب صفة جهنم ، باب ما جاء فى صفة شراب أهل النار) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٥١) وصححه ووافقه الذهبي ، عن أبى أمامة مرفوعا.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٢

الإشارة : ما خوّفت الكفار به رسلهم خوفت به العوام فقراءهم وأولياءهم ، قال التجيبى ، فى الإنالة ، لما تكلم على خفاء الأولياء ، قال : ومعلوم أن العصمة لم تثبت إلا للنبيين والرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأنّ غيرهم يصيب ويخطئ ، ويذنب ويتوب ، لكن لما سطرت مناقب الرجال ، وكراماتهم ، ولم تذكر سيئاتهم ، وطال العهد بهم ، ظن أكثر الخلق أن ليس لهم سيئات ، وقد كان لهم فى أزمانهم المحب والمبغض ، والمسلّم والمنتقد. ثم قال : فمن يرضى يقول أحسن ما يعلم ، ومن يسخط يقول أقبح ما يعلم ، وقد رأى أولئك فى أزمانهم من الأذى والتنقص ، وإساءة الظن بهم ما كان يقصر عنه صبر غيرهم ، وقد أخرج أبو يزيد البسطامي من بسطام مرارا ، ورفع الشبلي والخواص والنوري للسلطان ، وتستر الجنيد بالفقه حين ضيّق على الفقراء ، وقبض على الحلاج ، وضرب ، ومثّل به ، على أنه ساحر زنديق. هـ. المراد منه.

قلت : وقد وقع بنا فى مدينة تطوان أيام التجريد أمثال هذا ، فقد خوفنا بالضرب مرارا ، وسجنا وأخرجنا من زاويتنا ، وقال لنا محتسبهم : واللّه لنخرجنكم من مدينتنا ، ونركبكم فى سفينة إلى بر النصارى ، فقلت له : حبا وكرامة ، ولعلنا نذكرهم اللّه حتى يسلموا ، ولما وصل الخبر بهذه المقالة إلى شيخنا ، كتب لنا بهذه الآية : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ .... إلخ. وكل آية فى الكفار تجر ذيلها على من تشبه بهم ، وإن كان مسلما. وباللّه التوفيق.

ثم ضرب مثلا لعمل الكفار ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ١٨]

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٨)

قلت : (مَثَلُ) : مبتدأ ، والخبر محذوف عند سيبويه ، أي : فيما يتلى عليكم مثلهم. وقال الفراء : الخبر ما بعده ، وهو جملة : (أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ) ، أو (أَعْمالُهُمْ) : بدل ، والخبر : (كَرَمادٍ) ، وعلى قول سيبويه تكون جملة : (أَعْمالُهُمْ) :

مستأنفة لبيان مثلهم.

يقول الحق جل جلاله : مَثَلُ أعمال الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ فى عدم الانتفاع بها وذهابها :

كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فى الهوى بسرعة فِي يَوْمٍ عاصِفٍ : شديد ريحه. والعصف : اشتداد الريح. وصف به زمانه للمبالغة ، كقولهم : نهاره صائم ، وليله قائم. شبه صنائعهم من الصدقة ، وصلة الرحم ، وإغاثة الملهوف ، وعتق الرقاب ، ونحو ذلك من مكارمهم فى حبوطها - لبنائها على غير أساس من الإيمان باللّه ، والتوجه بها إليه - بغبار طارت به الريح العاصفة فِي يَوْمٍ عاصِفٍ ، لا يَقْدِرُونَ يوم القيامة

مِمَّا كَسَبُوا من أعمالهم عَلى شَيْءٍ من الانتفاع بها لحبوطها ، وتلاشيها ، فلا يقدرون منها على شىء ، ولا يجدون ثوابها ،

(٥٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٣

وحيل بينهم وبين النفع ، كما حالت الرياح بينك وبين ما تنسفه ، فهو كما قيل : فذلكة التمثيل. ذلِكَ إشارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون ، هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ أي : هو الغاية فى البعد عن طريق الحق.

الإشارة : العمل الذي يثبت لصاحبه هو الذي يصحبه الإخلاص فى أوله ، والإسرار فى آخره ، والتبري فيه من الحول والقوة ، وفي الحديث عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إنّ الإبقاء على العمل أشدّ من العمل ، وإنّ الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح ، معمول به فى السر ، يضعّف أجره بسبعين ضعفا ، فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويعلنه ، فيكتب علانيته ، ويمحى تضعيف أجره كله ، ثم لا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويحب أن يحمد عليه ، فيمحى من العلانية ويكتب رياء ، فاتقى اللّه امرؤ صان دينه ، وإن الرياء شرك». رواه البيهقي «١».

وبهذا تظهر فضيلة عمل القلوب ، كعبادة التفكر والاعتبار ، أو الشهود والاستبصار ، أو نية صالحة وهدى صالح ، أو زهد فى القلب ، وورع وصبر ، وشكر وحلم ، وغير ذلك من أعمال القلوب ، التي لا يطلع عليها ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، بل يتولى جزاءه أكرم الأكرمين. ولذلك قيل : ذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح. وقال عليه الصلاة والسلام : «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة» ولهذا أمر به - أي :

بالتفكر - بعد ضرب المثل للعمل الظاهر ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد ، أو أيها السامع ، أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ لتدل على الحق ، أو بالوجه الذي يحقّ أن تخلق لأجله ، وهو التعريف بخالقها ، وبقدرته الباهرة التي تقدر على الإيجاد والإعدام ، ولذلك قال : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، أي : إن يشأ يعدمكم ويستبدل مكانكم خلقا آخر. فإنّ من قدر على إيجاد صورهم ، وما تتوقف عليه مادتهم ، قادر على أن يبدلهم بخلق آخر وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ أي : بمتعذر ، أو ممتنع لأن قدرته عامة التعلق ، لا تختص

بمقدور دون آخر ، ومن كان هذا شأنه كان حقيقا بأن يفرد بالعبادة والقصد رجاء لثوابه ، وخوفا من عقابه يوم الجزاء ، الذي أشار إليه بقوله : وَبَرَزُوا لِلَّهِ ... إلخ.

---

(١) فى شعب الإيمان (باب فى إخلاص العمل لله وترك الرياء ح ٦٨١٣ ، ح ٦٨٦٤) من حديث أبى الدرداء ، مرة بلفظ (إن الإبقاء) ومرة بلفظ «إن الاتقاء».

الإشارة : ألم تر أن اللّه خلق سماوات الأرواح ، لشهود الحق فى مقام التعريف ، وأرض النفوس لعبادة الحق فى مقام التكليف. الأرواح مستقرها سماء الحقائق ، والأشباح مقرها أرض الشرائع. عالم الأرواح محل التعريف ، وعالم الأشباح محله التكليف. والأرواح لا تنفك عن الأشباح فى الصورة الخلقية ، غير أنها تعرج عنها بالتصفية والذكر ، حتى تترقى إلى عالم الأرواح ، فلا تشهد إلا الأرواح فى محل الأشباح وهذا من أعظم أسرار الربوبية ، التي يطلع عليها العارفون باللّه ، فإذا أطلعهم اللّه على هذا المقام كوشفوا بأسرار الذات العلية ، وبعالم الأرواح الذي هو مظهر أرواح الأنبياء والرسل ، فلا يغيبون عن اللّه ساعة ، ولا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ولا عن مقام أرواح الأنبياء والأولياء.

وفى هذا المقام قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه : لى ثلاثون سنة ، ما غاب عنى الحق طرفة عين. وقال أيضا :

لو غاب عنى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ساعة ما عددت نفسى من المسلمين. وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل العمراني رضي اللّه عنه : مما منّ اللّه به علىّ أنى ما ذكرت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولا خطر على قلبى إلا وجدتني بين يديه ... إلخ كلامه.

نفعنا اللّه بهم.

وأهل هذا المقام موجودون فى كل زمان ، فإن القادر فى زمانهم هو القادر فى زماننا ، وفى قوله تعالى : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ .. الآية ، إشارة إلى هذا ، أي : إن يشأ يذهبكم عن شهود أنفسكم ، ويأت بخلق جديد ، تشاهدون به أسرار ربكم ، وما ذلك على اللّه بعزيز. قال أبو المواهب التونسى رضي اللّه عنه : حقيقة الفناء محو واضمحلال ، وذهاب عنك وزوال. هـ. فيبرزون من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، كما قال تعالى :

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٢١]

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ

شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ (٢١)
قلت : (تَبَعاً) : جمع تابع ، أو مصدر نعت به للمبالغة على حذف مضاف ، أي : كنا لكم ذا تبع ، و(مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْ ءٍ) : من ، الأولى للبيان ، والثانية زائدة ، هذا المختار. و(مَحِيصٍ) : إما مصدر ، أو اسم مكان.
يقول الحق جل جلاله : وَبَرَزُوا لِلَّهِ أي : لأمر اللّه جَمِيعاً ، فيبرزون من قبورهم يوم القيامة حفاة عراة ، لفصل القضاء ، أو : برزوا للّه على ظنهم فإنهم كانوا يرتكبون الفواحش خفية ، ويظنون أنها تخفى على اللّه ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا للّه عند أنفسهم. وإنما عبّر بالماضي لتحقق وقوعه. فيقول حينئذ الضُّعَفاءُ وهم :
الأتباع ، لضعف رأيهم عندهم ، لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا وهم الرؤساء الذين استتبعوهم وغووهم : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ

(٣/٥٤)

تَبَعاً فى الكفر ، وتكذيب الرسل ، والإعراض عن نصحهم ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ أي : فهل أنتم دافعون عنا شيئا من عذاب اللّه؟.
قالُوا ، أي : رؤساؤهم ، فى جوابهم واعتذارهم : لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ أي : لو هدانا اللّه للإيمان ، ووفقنا إليه لهديناكم ، ولكن ضللنا فأضللناكم ، أي : اخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا ، ولو هدانا اللّه لطريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناه عنكم ، لكن سدّ دوننا طريق الخلاص ، سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ، أي : مستو علينا الجزع والصبر ، ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ : من مهرب ومنجى ، ويحتمل أن يكون قوله : سَواءٌ عَلَيْنا .. إلخ ، من كلام الفريقين معا ، ويؤيده ما روى أنهم يقولون : تعالوا نجزع ، فيجزعون خمسمائة عام ، فلا ينفعهم ، فيقولون : تعالوا نصبر ، فيصبرون كذلك ، ثم يقولون : سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ. نسأل اللّه العصمة بمنّه وكرمه.
الإشارة : إذا ترقى العارفون ، ومن تعلق بهم ، عن عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، وبرزوا لشهود اللّه فى كل شىء ، وقبل كل شىء ، وبعد كل شىء ، وعند كل شىء ، وتنزهوا فى حضرة الأسرار ، ورفعوا يوم القيامة مع المقربين الأبرار ، بقي ضعفاء اليقين الذين تعوقوا عن صحبتهم ، فى غم الحجاب ، وتعب الحس والخواطر ، مسجونين فى سجن الأكوان ، فيقولون لمن عوّقهم عن صحبة العارفين من أهل الرئاسة والجاه : إنا كنا لكم تبعا ، فهل تمنعون شيئا مما نحن فيه من غم الحجاب ، وسقوط الدرجة؟ فيقولون : لو هدانا اللّه لصحبتهم لهديناكم. فإذا نظروا يوم القيامة إلى ارتفاع درجاتهم ضجوا ، وفزعوا على ما فاتهم ، فلا ينفعهم ذلك فما لهم من محيص عن تخلفهم عن مقام المقربين. روى أن

أهل عليين إذا أشرفوا على الأسفلين تشرق منازلهم من أنوار وجوههم.

وسيأتى - إن شاء اللّه - الحديث عند قوله : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ «١».

ثم ذكر خطبة الشيطان على أهل النار ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٢٢]

وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٢)

قلت : (إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ) : الاستثناء منقطع ، ويجوز الاتصال ، و(بِما أَشْرَكْتُمُونِ) : مصدرية ، أو موصولة اسمية ، و(مِنْ قَبْلُ) : يتعلق بأشركتمون ، وعلى الثاني : بكفرت.

---

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٦

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الشَّيْطانُ ، أي : إبليس الأقدم لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ أي : أمر الحساب ، وفرغ منه ، ودخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار. روى أنه ينصب له منبر من نار ، فيقوم خطيبا فى النار على أهل النار ، يعنى على الأشقياء من الثقلين ، فيقول فى خطبته : إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ، أي : وعدا حقا أنجزه لكم ، وهو وعد البعث والجزاء ، وَوَعَدْتُكُمْ وعد الباطل ، وهو : ألّا بعث ولا حساب ، وإن كان واقعا شىء من ذلك فالأصنام تشفع لكم ، فَأَخْلَفْتُكُمْ ، أي : فظهر خلاف ما وعدتكم ، جعل تبين خلف وعده كالإخلاف منه مجازا. وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ من تسلط ، فألجئكم إلى الكفر والمعاصي ، إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ إلا دعائى إياكم إليها بتسويل وتزيين ، فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، وهو ليس من جنس التسلط ، لكنه تهكم بهم ، على طريقة قوله :

تحيّة بينهم ضرب وجيع «١».

ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا ، أي : ما تسلطت عليكم بالقهر ، لكن دعوتكم فأسرعتم إجابتى ، فَلا تَلُومُونِي فإنّ من اشتهر بالعداوة لا يلام على أمثال ذلك ، وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ حيث أطعتمونى حين دعوتكم ، ولم تطيعوا ربكم لما دعاكم. ولا حجة للمعتزلة فى الآية على أن العبد يخلق أفعاله لأن كسب العبد مقدر فى ظاهر الأمر ، لقيام عالم الحكمة ، وهو رداء لعالم القدرة ، فالقدرة تبرز ، والحكمة تستر ، وهو ما يظهر من اختيار العبد ، ولا اختيار له فى الحقيقة قال تعالى : وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما

فَعَلُوهُ «٢» ، وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ «٣».
ثم قال لهم : ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ : بمغيثكم من العذاب ، وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ : بمغيثي ، إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، أي : إنى كفرت اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم فى دار الدنيا ، بمعنى : تبرأت منه واستنكرته ، كقوله تعالى : وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ «٤». أو : إنى كفرت باللّه الذي أشركتمونى معه فى طاعته من قبل ، حين امتنعت من السجود. والأول أظهر.
قال تعالى : إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ. ويحتمل أن يكون من تتمة خطبة الشيطان ، قال البيضاوي : وفى حكاية أمثال ذلك لطف للسامعين ، وإيقاظ لهم ، حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم. هـ.
الإشارة : ينبغى لك أيها العبد الصالح الناصح لنفسه أن تصغى بسمع قلبك إلى هذه المقالة ، التي تصدر من الشيطان عند فوات الأوان ، فتبادر إلى خلاص نفسك مادمت فى قيد حياتك ، قبل حلول رمسك «٥» ، قبل أن تزل

---

(١) عجز بيت أوله : وخيل قد دلفت ، لها نجيع. [.....]
(٢) من الآية ١١٢ من سورة الأنعام.
(٣) من الآية ٣٠ من سورة الإنسان ، ومن الآية ٢٩ من سورة التكوير.
(٤) من الآية ١٤ من سورة فاطر.
(٥) أي : دخول القبر.

بك القدم ، حيث لا ينفعك الندم ، فتحاسب نفسك ، وتتدبر فى عواقب أمرك ، وتصحح عقائد توحيدك ، وتعمل جهدك فى طاعة ربك ، وتجتنب مواقع غرور الشيطان ، وتعتمد على فضل الكريم المنان ، وتجعل الموت نصب عينيك ، وما هو مستقبل تجعله حاصلا ، وما هو متوقع تجعله واقعا فكل ما هو آت قريب ، و(إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) «١». وفى الحكم : «لو أشرق نور اليقين فى قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها ، ولرأيت محاسن الدنيا وكسفة الفناء ظاهرة عليها». وباللّه التوفيق.
ثم شفع بأضداد من غرّهم الشيطان ، فقال :
[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٢٣]
وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ

فِيها سَلامٌ (٢٣)

يقول الحق جل جلاله : وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا ، أي : أدخلهم اللّه على أيدى الملائكة جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ، فيدخلونها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ بأمره ، فيأذن للملائكة أن تدخلهم حين يقضى بينهم.

تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ أي : تحييهم الملائكة ، أو الخدام ، حين يتلقونهم يسلمون عليهم ، ويهنؤنهم ، على ما فى الحديث.

الإشارة : فى ذكر هذه الآية بعد خطبة الشيطان تنبيه على وجه الخلاص منه ، حتى لا يكون من أهل خطبته ، وهو تصحيح الإيمان وتقوية مواده ، وهو ما ذكرنا قبل فى مواد طمأنينة أهل الإيمان. وإن أسعده اللّه بصحبة عارف رقّاه إلى شهود العيان ، فلا يكون للشيطان ولا لغيره عليه سلطان ، لتحقيق عبوديته ، وارتقائه إلى شهود عظمة ربوبيته قال تعالى : إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ «٢» ، وهم الذين رسخت فى قلوبهم شجرة الإيمان ، وارتفعت أغصانها إلى الرحمن ، الذي أشار إليها بقوله :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٢٤ الى ٢٧]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ (٢٧)

---

(١) من الآية ١٣٤ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ٤٢ من سورة الحجر.

قلت : (كَلِمَةً طَيِّبَةً) : يجوز أن يكون مفعولا بمحذوف ، أي : جعل كلمة ، وتكون الجملة تفسيرية لضرب المثل ، وأن تكون (كَلِمَةً) : بدلا من (مَثَلًا) ، و(شجرة) : صفة لها ، أو خبرا عن مضمر ، أي : هى شجرة.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد ، أو أيها السامع ، كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لأهل «لا إله إلا اللّه» ، وهم : أهل التوحيد ، الذين رسخ التوحيد فى قلوبهم ، وعبّروا عنه بألسنتهم. فمثال الكلمة الطيبة التي نطقوا بها ، ورسخ معناها فى قلوبهم كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ : كالنخلة مثلا ، أَصْلُها ثابِتٌ فى الأرض ،

غائص بعروقه فيها ، وَفَرْعُها فِي السَّماءِ أي : أعلاها. أو يريد الجنس ، أي : فروعها وأفنانها فى السماء ، تُؤْتِي أُكُلَها :

تعطى ما يؤكل من ثمرها كُلَّ حِينٍ وقّته اللّه لإثمارها ، فقيل : سنة ، وبه قال ابن عباس وجماعة من المفسرين والفقهاء ، واستدلوا بها على من حلف لا يكلم أخاه حينا لزمه سنة ، وعن ابن عباس أيضا والضحاك وغيرهما :

كُلَّ حِينٍ أي : غدوة وعشية ، ومتى أريد جناها. قلت : وهذا هو الظاهر.

واختلف فى هذه الشجرة الطيبة ، التي ضرب اللّه بها المثل لكلمة الإخلاص ، فقيل : غير معينة ، وقيل : النخلة ، وبه قال الجمهور. قال الشطيبى : وقيل : جوزة الهند ، فإنها ثابتة الأصل ، متصلة النفع ، يكون طعمها أولا لبنا ، ثم عسلا ، ثم تنعقد طعاما ، ويصنع بلبنها ما يصنع بلبن المواشي ، ثم يكون كالخل ، ثم كالخمر ، ثم كالزيت ، كل هذا قبل عقد الطعم ، وأما النخلة فهى : ستة أشهر طلع رخص ، وستة أشهر رطب طيب ، فنفعه متصل. وقال أبو حنيفة :

إنه ببلاد اليمن نوع من التمر ، يقال له : الباهين ، يطعم السنة كلها. هـ. قلت : وقد ذكر ابن مقشب جوزة الهند ، ووصفها كما قال الشطيبى ، وقوله : «فى النخلة ستة أشهر ..» إلخ ، فيه نظر ، وصوابه : ثلاثة ، فإن المعاينة ترده.

والمشبه بهذه الشجرة : المؤمن الكامل الدائم نفعه ، المتصل علمه ، أوقاته معمورة بذكر اللّه ، أو تذكير عباد اللّه ، وحركاته وسكناته فى طاعة اللّه ، حيث أراد بها وجه اللّه ، فكل حين وساعة يصعد منه عمل إلى اللّه.

ثم قال تعالى : وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ لأن فى ضربها زيادة إيضاح وإفهام وتذكير فإنه تصوير للمعانى وتقريبها من الحس ، لتفهم سريعا.

ثم ذكر ضدها فقال : وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كلمة الكفر (كَشَجَرَةٍ) كمثل شجرة خَبِيثَةٍ ، كالحنظلة مثلا ، اجْتُثَّتْ : استؤصلت ، وأخذت جثتها ، وقلعت بالكلية (مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ) ، أي : قطعت من فوق الأرض لأن عروقها قريبة منه ، ما لَها مِنْ قَرارٍ : استقرار. وهذا فى مقابلة قوله : أَصْلُها ثابِتٌ. قال البيضاوي :

واختلف فى الكلمة والشجرة ففسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد - أي : (لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ) ، ودعوة الإسلام والقرآن ، والكلمة الخبيثة بالإشراك باللّه تعالى ، والدعاء إلى الكفر ، وتكذيب الحق. ولعل

المراد بهما ما يعم ذلك ، فالكلمة الطيبة : ما أعرب عن حق ، أو دعا إلى صلاح ، والكلمة الخبيثة : ما كان على خلاف ذلك. وفسرت الشجرة الطيبة بالنخلة ، وروى ذلك مرفوعا ، وبشجرة فى الجنة ، والخبيثة بالحنظلة ، ولعل المراد بهما أيضا ما يعم ذلك. هـ.

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ وهو : لا إله إلا اللّه ، أو كل ما يثبت فى القلب ، ويتمكن فيه من الحق ، بالحجة الواضحة فِي الْحَياةِ الدُّنْيا مدة حياتهم ، فلا يزلون إذا افتتنوا فى حياتهم ، أو عند موتهم ، وهى حسن الخاتمة ، وَفِي الْآخِرَةِ عند السؤال ، فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم فى القبر ، وعند الموقف ، فلا تدهشهم أهوال القيامة. روى أنه صلى اللّه عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال : «ثمّ تعاد روحه فى جسده ، فيأتيه ملكان ، فيجلسانه فى قبره ، ويقولان له : من ربّك ، وما دينك ، ومن نبيّك؟ فيقول : ربى اللّه ، ودينى الإسلام ، ونبيى محمد صلى اللّه عليه وسلم. فينادى مناد من السّماء : أن صدق عبدى. فذلك قوله تعالى : يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ» «١».

قلت : والقدرة صالحة لهذا كله. قال الغزالي : هو أشبه شيء بحال النائم.

وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والتقليد ، فلا يهتدون إلى الحق ، ولا يثبتون فى مواقف الفتن. وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ من تثبيت بعض ، وإضلال آخرين ، من غير اعتراض عليه ولا تعقيب لحكمه.

الإشارة : الكلمة الطيبة ، هى كلمة التوحيد ، والشجرة الطيبة هى شجرة الإيمان ، وأصلها هو : التوحيد الثابت فى القلب ، وفروعها : الفرائض والواجبات ، وأغصانها : السنن المؤكدات ، وأوراقها : المندوبات والمستحبات ، وأزهارها :

الأحوال والمقامات ، وأذواقها : الوجدان وحلاوة المعاملات ، وانتهاء طيب أثمارها : العلوم وكشف أسرار الذات ، الذي هو مقام الإحسان ، وهى معرفة الشهود والعيان. فمن لم يبلغ هذا المقام لم يجن ثمرة شجرة إيمانه. ومن نقص شيئا من هذه الفروع نقص بقدرها من شجرة إيمانه ، إمّا من فروعها ، أو من أغصانها ، أو من ورقها ، أو من حلاوة أذواقها ، أو من عرف أزهارها ، أو من طيب ثمرتها. ومعلوم أن الشجرة إذا نبتت بنفسها فى الخلاء ، ولم تلقّح كانت ذكّارة ، تورق ولا تثمر ، فهى شجرة إيمان من لا شيخ له يصلح للتربية ، فإن الفروع والأوراق كثيرة ، والثمار ضعيفة ، أىّ ريح هاج عليها أسقطها. وراجع ما تقدم فى إشارة قوله تعالى : وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ «٢». وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرجه بنحوه مطولا أبو داود فى (السّنة ، باب المسألة فى القبر) والحاكم فى المستدرك (١/ ٣٧) وصححه من حديث البراء بن عازب. وأصل الحديث فى الصحيحين.

(٢) من الآية ٣٥ من سورة المائدة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٠

ثم ذكر وبال من أنكر هذه النعمة – أعنى نعمة الإيمان – فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٢٨ الى ٣٠]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا شكر نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً بأن وضعوا الكفر مكان الشكر ، أو : بدلوا نفس النعمة كفرا فإنهم لما كفروها سلبت منهم ، فصاروا تاركين لها محصلين للكفر مكانها كأهل مكة ، خلقهم اللّه من نسل إسماعيل عليه السّلام ، وأسكنهم حرمه ، وجعلهم خدّام بيته ، ووسّع عليهم أبواب رزقه ، وعطف عليهم قلوب خلقه ، وتمم شرفهم ببعثة نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فكفروا ذلك ، فقحطوا ، وجاعوا حتى أكلوا الميتة ، وأسروا وقتلوا يوم بدر ، وصاروا كذلك مسلوبى النعمة ، موصوفين بالكفر ، وعن عمر بن الخطاب وعليّ بن أبى طالب – رضى اللّه عنهما – : أنها نزلت فى الأفجرين من قريش : بنى المغيرة ، وبنى أمية فأمّا بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتّعوا إلى حين. وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ : من أطاعهم فى الكفر والتبديل ، أي : أنزلوهم دارَ الْبَوارِ : دار الهلاك ، بحملهم على الكفر معهم. ثم فسرها بقوله : جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها :

يحترقون فيها ، وَبِئْسَ الْقَرارُ وبئس المستقر جهنم.

ثم بيّن كفرهم ، فقال : وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً : أشباها وأمثالا ، يعبدونها معه ، لِيُضِلُّوا «١» عَنْ سَبِيلِهِ عن طريق التوحيد ، أي : ليكون عاقبتهم الضلال أو الإضلال ، على القراءتين ، أي : ليضلوا فى أنفسهم ، أو ليضلوا غيرهم. وليس الضلال أو الإضلال كان غرضهم فى اتخاذ الأنداد ، ولكن لمّا كان نتيجته وعاقبته جعل كالغرض.

قُلْ تَمَتَّعُوا بشهواتكم الدنيوية ، فإنها فانية ، أو بعبادتكم الأوثان ، فإنها من قبيل الهوى ، والأمر للتهديد.

وفى التهديد بصيغة الأمر إيذان بأن المهدد عليه كالمطلوب لإفضائه إلى المهدد به ، وأن الأمرين كائنان لا محالة ، فلا بد من وقوع تمتعهم ، ولا بد من إفضائهم إلى النار. ولذلك علقه بقوله : فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ، وأن المخاطب ، لانهماكه فيه ، كالمأمور به من آمر مطاع. قاله البيضاوي.

الإشارة : ظهور أهل التربية فى زمان الغفلة والجهل نعمة عظيمة ، لكن لا يعرفها إلا من سقط عليها ، ومن أنكرها ، وسدّ بابها ، وعوّق الناس عن الدخول فى طريقها ، فقد بدل نعمة اللّه كفرا ، وأحلّ الناس – من تبعه – دار

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو : بفتح الياء ، وقرأ الباقون بضمها ، من أضل. انظر : الإتحاف (٢/ ١٦٩).

البوار ، وهى : الإقبال على الدنيا ، والانهماك فى الغفلة ، وخراب الباطن من نور اليقين ، وكثرة الخواطر والوساوس ، والحرص والجزع والهلع ، وغير ذلك من أمراض القلوب. وأىّ عذاب للمؤمن أشد من هذا فى الدنيا؟ ويسقط فى الآخرة عن درجة المقربين ، ومن لم يصحب أهل التوحيد الخالص لا يخلو من عبادة أنداد وأشباه بمحبته لهم والركون إليهم. ومن أحب شيئا فهو عبد له. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه ذات يوم : إنا لا نحب إلا اللّه ، ولا نحب معه شيئا سواه. فقال له بعض الحاضرين : قال جدك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «النفس مجبولة على حب من أحسن إليها». فقال له الشيخ : إنا لا نرى الإحسان إلا من اللّه ، ولا نرى معه غيره. هـ. بالمعنى.

ثم ذكر ضد أهل الشرك ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٣١]

قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١)

قلت : (يُقِيمُوا) : جواب شرط مقدر ، يتضمنه قوله : (قُلْ) ، تقديره : إن تقل لهم أقيموا يقيموا ، ومعمول القول ، على هذا ، محذوف. وفيه تنبيه على أنهم لفرط مطاوعتهم للرسول - عليه الصلاة والسلام - ، بحيث لا ينفك فعلهم عن أمره ، وأنه كالسبب الموجب له ، أي : مهما قلت أقاموا وأنفقوا. وقيل : جزم بإضمار لام الأمر. ولا يصح أن يكون جواب الأمر من غير حذف لأن أمر المواجهة لا يجاب بلفظ الغيبة. انظر البيضاوي. وقال ابن عطية : إلّا إن ضمّن (قُلْ) معنى : بلّغ أو أدّ ، فيصح أن يكون (يُقِيمُوا) : جواب أمره. و(سِرًّا وَعَلانِيَةً) : حالان ، أو ظرفان ، ومن قرأ : «لا بيع» بالبناء «١» فقد بنى «لا» مع اسمها بناء التركيب ، ومن قرأ بالرفع فقد أهملها.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ، خصهم بالإضافة إليه تشريفا لهم ، وتنويها بقدرهم ، وتنبيها على أنهم الذين قاموا بحقوق العبودية. قل لهم يا محمد : يُقِيمُوا الصَّلاةَ التي هى عنوان الإيمان ، بإتقان شروطها وأركانها وآدابها ، وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ من الأموال ، فرضا ونفلا ، سِرًّا وَعَلانِيَةً أي : مسرين ومعلنين ، أو فى سر وعلانية ، والأحب : إعلان الواجب ، وإخفاء المتطوع به ، إلا فى محل الاقتداء لأهل الإخلاص. مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ فيبتاع المقصر ما يتدارك به تقصيره ، أو ما

يفدى به نفسه ، وَلا خِلالٌ : ولا مخاللة ومودة تنفع فى ذلك اليوم ، حتى ينفع الخليل خليله ، وإنما ينفع العمل الصالح ، كالإنفاق لوجه اللّه ، وإقام الصلاة ، وغير ذلك.

الإشارة : قد مدح اللّه هاتين الخصلتين : الصلاة والإنفاق ، وأمر بهما فى مواضع من القرآن لأنهما عنوان الصدق ، أحدهما : عمل بدني ، والآخر : عمل مالى. أما الصلاة فإنها طهارة للقلوب ، واستفتاح لباب الغيوب ، وهى

---

(١) قرأ ابن كثير وابن عمرو ويعقوب «لا بيع فيه ولا خلال» وقرأ الباقون «لا بيع فيه ولا خلال» راجع الإتحاف (٢/ ١٦٩).

(٦١/٣)

محل المناجاة ، ومعدن المصافاة ، تتسع فيها ميادين الأسرار ، وتشرق فيها شوارق الأنوار ، كما فى الحكم. وفى بعض الأخبار : (إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع اللّه الحجب بينه وبينه ، وواجهه بوجهه ، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء ، يصلون بصلاته ، ويؤمّنون على دعائه ، وإن المصلى لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ، ويناديه مناد : لو يعلم المناجى من يناجى ما انفتل «١». وإن أبواب السماء لتفتح للمصلى. وإن اللّه تعالى يباهى ملائكته بصفوف المصلين). وفى التوراة : يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدىّ مصليا باكيا ، فأنا الذي اقتربت من قلبك ، وبالغيب رأيت نورى. هـ. فكانوا يرون أن تلك المراقبة والبكاء ، وتلك الفتوح التي يجدها المصلى فى قلبه من دنو الرب من القلب.

وأما الصدقة فإنها برهان على إيمان صاحبها ، وفى الحديث : «الصّدقة برهان» ، فهى تدل على خروج حب الدنيا من القلب ، وعلى اتصاف صاحبها بمنقبة السخاء ، التي هى أفضل الخصال ، وفى الحديث : «السّخىّ قريب من اللّه ، قريب من النّاس ، قريب من الجنّة ، بعيد من النّار ، والبخيل بعيد من اللّه ، بعيد من النّاس ، بعيد من الجنّة ، قريب من النّار ، ولجاهل سخى أحبّ إلى اللّه من عالم بخيل».

ثم ذكّرهم بالنعم ، ليقيدوها بالشكر قبل أن تسلب منهم ، كما سلبت ممن ذكر قبل ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٣٢ الى ٣٤]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ

اللَّيْلَ وَالنَّهارَ (٣٣) وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)

قلت : (اللَّهُ) : مبتدأ ، و(الَّذِي) ، وما بعده : خبر ، و(رِزْقاً لَكُمْ) : مفعول أخرج ، و(مِنَ الثَّمَراتِ) : بيان له ، حال ، ويجوز العكس ، ويجوز أن يراد بالرزق : المصدر ، فينصب على العلة أو المصدر لأن (أخرج) فيها معنى «رزق» ، و(دائِبَيْنِ) : حال ، والدءوب : الدوام على عمل واحد ، و(مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ) : يحتمل أن تكون «ما» مصدرية ، أو موصولة ، أو موصوفة.

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ من أجلكم ، السماء تظلكم ، والأرض تقلكم ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ ، تعيشون به وتتفكهون منه. ويشمل الملبوس ،

---

(١) أي : ما انصرف.

كالقطن ، والكتان ، وشبه ذلك وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ : بمشيئته وقدرته ، إلى حيث توجههم مع أسباب حكمته ، تغطية لقدرته ، وهو ما يتوقف عليه جريها وإرساؤها ، من الجبال والقلاع ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ مطردة لانتفاعكم بالسفن والشرب ، وسائر منافعها ، فجعلها معدّة لانتفاعكم وتصرفكم. وقيل :

تسخير هذه الأشياء : تعليم كيفية اتخاذها والانتفاع بها.

وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ متماديين فى الطلوع والغروب ، يدأبان فى سيرهما وإنارتهما ، وإصلاح ما يصلحانه من المكونات ، بقدرة خالقهما ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ يتعاقبان لسكناتكم ومعايشكم. وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ أي : وآتاكم بعض جميع ما سألتموه ، وهو ما يليق بكم ، وما سبق لكم فى مشيئته وعلمه. قال البيضاوي : ولعل المراد بما سألتموه : ما كان حقيقا بأن يسأل لاحتياج الناس إليه ، سئل أو لم يسأل. هـ. وقرأ الضحاك وابن عباس : «مِنْ كُلٍّ» بالتنوين ، أي : وآتاكم من كل شيء احتجتم إليه ، وسألتموه بلسان الحال. ويجوز على هذا أن تكون «ما» نافية ، فى موضع الحال ، أي : وآتاكم من كل شيء غير سائليه.

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها : لا تحصروها ، ولا تطيقوا عدّ أنواعها ، فضلا عن أفرادها ، فإنها غير متناهية فمنها ظاهرة ، ومنها باطنة ، كالهداية والمعرفة. قال طلق بن حبيب : إن حق اللّه أثقل من

أن يقوم به العباد ، ونعمه أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا توابين ، وأمسوا توابين. هـ. وقال أبو الدرداء : من لم ير نعمة اللّه إلا فى مطعمه ومشربه ، فقد قلّ علمه ، وحضر عذابه. هـ. إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ بظلم النعمة لمّا غفل عن شكرها ، أو بظلم نفسه لمّا عرضها للحرمان ، بارتكاب المعاصي ، كَفَّارٌ : شديد الكفران ، وقيل : ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع ، كفّار فى النعمة يجمع ويمنع. قاله البيضاوي.

الإشارة : اللّه الذي أنزل من سماء الملكوت علوما وأسرارا ، تحيا به القلوب والأرواح ، فأخرج به من أرض النفوس ثمرة اليقين والطمأنينة ، رزقا لأرواحكم. وسخر لكم فلك الفكرة تجرى فى بحر التوحيد ، وفضاء التفريد بأمره. وسخر لكم أنهار العلوم ، منها ما هو علم الرسوم لإصلاح الظواهر ، ومنها ما هو علم الحقائق لإصلاح الضمائر. وسخر لكم شمس العرفان وقمر الإيمان ، دائبين ، يستضيىء بقمر التوحيد فى السير إلى معرفة أنوار الصفات ، وبشمس العرفان إلى أسرار الذات. وسخّر لكم ليل القبض لتسكنوا فيه ، ونهار البسط لتنشروا فى اقتباس العلوم ، وربما أفادك فى ليل القبض ما لم تستفده فى نهار البسط (لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً). وآتاكم من كل ما سألتموه حين كمل تهذيبكم ، وصح وصلكم ، فيكون أمركم بأمر اللّه. وإن تعدوا نعمة اللّه لا تحصوها إذ نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد لا حدّ لهما فى هذه الدار وفى تلك الدار ، ففى كل نفس يمدهم بمدد جديد ، ومع هذا كله يغفل العبد عن هذه النعم!! إن الإنسان لظلوم كفار. وشكرها : نسبتها لمعطيها ، وحمد اللّه عليها. وفى الحكم : «لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك فإنّ ذلك مما يحط من وجود قدرك».

قال سهل بن عبد اللّه رضي اللّه عنه : ما من نعمة إلا والحمد أفضل منها ، والنعمة التي ألهم بها الحمد أفضل من الأولى لأن الشكر يستوجب المزيد. وفى أخبار داود عليه السّلام أنه قال : إلهى ، ابن آدم ليس فيه شعرة إلا وتحتها نعمة ، وفوقها نعمة ، فمن أين يكافئها؟ فأوحى اللّه تعالى إليه : يا داود ، إنى أعطى الكثير وأرضى باليسير ، وإنّ شكر ذلك أن تعلم أن ما بك من نعمة فمنى. هـ.

ومن جملة النعم التي يجب الشكر عليها - وهى التي بدّلها الكفار كفرا - عمارة بيت اللّه الحرام ، ودعاء إبراهيم عليه السّلام ، الذي أشار إليه الحق تعالى بقوله :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٣٥ الى ٣٨]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ

ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (٣٨)

قلت : قال هنا : اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ بالتعريف ، وقال فى سورة البقرة : بَلَداً»

بالتنكير ، قال البيضاوي :

الفرق بينهما أن المسئول فى الأول - أي : فى التعريف - إزالة الخوف وتصييره أمنا ، وفى الثاني جعله من البلاد الآمنة. هـ. وفرّق السهيلي : بأن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان بمكة حين نزول آية إبراهيم لأنها مكية فلذلك قال فيه : «الْبَلَدَ» بلام التعريف التي للحضور ، بخلاف آية البقرة ، فإنما هى مدنية ، ولم تكن مكة حاضرة حين نزولها ، فلم يعرفها بلام تعريف الحضور. هـ. قال ابن جزى : وفيه نظر لأن ذلك كان حكاية عن إبراهيم عليه السّلام ، ولا فرق بين كونه بالمدينة أو بمكة. هـ.

قلت : لا نظر فيه لأن الحق تعالى لم يحك لنا قصص الأنبياء بألفاظهم ، وإنما ترجم عنها بلسان عربى ، فينزل على رعاية مقتضى الحال. ولذلك اختلفت الألفاظ فى قصص الأنبياء لأن كل قصة تنزل على ما يقتضيه المقام والحال ، من تعريف وتنكير ، واختصار وإطناب. وقد ذكر أبو السعود فى سورة الأعراف ما يؤيد هذا ، فانظره. واللّه تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ يعنى : مكة ، آمِناً لمن فيها من أغدرة الناس عليها ، أو من الخسف والعذاب ، أو من الطاعون والوباء ، وَاجْنُبْنِي أي : امنعني

---

(١) فى الآية ١١٦.

واعصمني ، وَبَنِيَّ من بعدي ، من أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ أي : اجعلنا منهم فى جانب بعيد. قال البيضاوي : وفيه دليل على أن العصمة للأنبياء بتوفيق اللّه وحفظه إياهم ، وهو بظاهره لا يتناول أحفاده وجميع ذريته ، وزعم ابن عيينة أن أولاد إسماعيل لم يعبدوا الصنم ، محتجا به ، وإنما كانت لهم حجارة يدورون بها ، ويسمونها الدوار ، ويقولون : البيت حجر ، وحيثما نصبت حجرا فهو بمنزلته. هـ. قال ابن جزى : وبَنِيَّ يعنى : من صلبه ، وفيهم أجيبت دعوته ، وأما أعقاب بنيه فعبدوا الأصنام. هـ. وقد قال فى الإحياء : عنى إبراهيم عليه السّلام بالأصنام ، الذهب والفضة ، بمعنى : حبهما والاغترار بهما ، والركون إليهما. قال عليه الصلاة والسلام : «تعس عبد الدّينار والدّرهم ...» الحديث لأن رتبة النبوة

أجلّ من أن يخشى عليها أن تعتقد الألوهية فى شيء من الحجارة. هـ.

قلت : الظاهر أن يبقى اللفظ على ظاهره ، فى حقه وفى حق بنيه. أما فى حقه فلسعة علمه وعدم وقوفه مع ظاهر الوعد ، كما هو شأن الأكابر ، لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير اللّه قرارهم ، وهذا كقوله : وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً «١». وتقدم هذا المعنى مرارا. وأما فى حق بنيه فإنما قصد العموم فى نسله ، لكن لم يجب إلا فيما كان من صلبه فإن دعاء الأنبياء - عليهم السّلام - لا يجب أن يكون كله مجابا ، فقد يجابون فى أشياء ، ويمنعون من أشياء. وقد سأل نبينا صلى اللّه عليه وسلم لأمته أشياء ، فأجيب فى البعض ، ومنع البعض. كما فى الحديث «٢».

ثم قال إبراهيم عليه السّلام : رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ أي : إن الأصنام أتلفت كثيرا من الخلق عن طريق الحق ، فلذلك سألت منك العصمة ، واستعذت بك من إضلالهن ، وإسناد الإضلال إليهن باعتبار السببية ، كقوله : وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا «٣». فَمَنْ تَبِعَنِي على دينى فَإِنَّهُ مِنِّي لا ينفك عنى فى أمر الدين ، وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، تقدر أن تغفر له ابتداء ، أو بعد التوفيق للتوبة. وفيه دليل على أن كل ذنب فلله أن يغفره ، حتى الشرك ، إلا أن الوعيد فرّق بينه وبين غيره. قاله البيضاوي. قال ابن جزى : وَمَنْ عَصانِي يريد : بغير الكفر ، أو عصاه بالكفر ثم تاب منه ، فهو الذي يصح أن يدعى له بالمغفرة ، ولكنه ذكر اللفظ بالعموم لما كان فيه - عليه السّلام - من التخلق بالرحمة للخلق ، وحسن الخلق. هـ.

رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي أي : بعض ذريتى ، وهو : إسماعيل عليه السّلام ، أو : أسكنت ذرية من ذريتى ، وهو إسماعيل ومن ولد منه فإن إسكانه متضمن لإسكانهم ، بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ يعنى : وادي مكة ، لأنها حجرية

---

(١) من الآية ٨٠ من سورة الأنعام.

(٢) قال صلى اللّه عليه وسلم : «سألت ربى ثلاثا ، فأعطانى ثنتين ، ومنعنى واحدة. سألت ربى أن لا يهلك أمتى بالسّنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» أخرجه مسلم فى (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض) من حديث عامر بن سعد عن أبيه. [.....]

(٣) من الآية ٧٠ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٦

لا تنبت ، والوادي : ما بين الجبلين ، وإن لم يكن فيه ماء. ولم يقل : ولا ماء ، ولعله علم بوحي أنه سيكون فيه الماء ، عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ الذي حرّمه على الجبابرة من التعرض له والتهاون به ، أو : لم يزل محترما تهابه الجبابرة ، أو منع منه الطوفان ، فلم يستأصله ويمح أثره. وهذا الدعاء وقع منه أول ما قدم ، ولم يكن موجودا ، فلعله قال ذلك باعتبار ما كان ، أي : عند أثر بيتك المحرم ، أو باعتبار ما يؤول إليه من بنائه وعمارته واحترامه.

وقصة إنزاله ولده بمكة : أن هاجر كانت مملوكة لسارة ، وهبها لها جبار من الجبابرة وذلك أن إبراهيم عليه السّلام دخل مدينة ، وكان فيها جبار يغصب النساء الجميلات ، فأخذها ، وأدخلها بيتا ، فلما دخل عليها دعت عليه ، فسقط ، ثم قالت : يا رب إن مات قتلونى فيه ، فقام. فلما دنا منها ، دعت عليه ، فسقط ، فقال فى الثالثة : ما هذه إلا شيطانة ، أخرجوها عنى ، وأعطوها هاجر ، فعصمها اللّه منه ، وأخدمها هاجر ، ثم وهبتها لإبراهيم ، فوطئها فحملت بإسماعيل ، فلما ولدته غارت منها ، فتعب إبراهيم معها ، ثم ناشدته سارة أن يخرجها من عندها ، فركب البراق ، وخرج بها تحمل ولدها حتى أنزلها مكة ، تحت دوحة ، قريبا من موضع زمزم. فلما ولى تبعته ، وهى تقول : لمن تتركنا فى هذه البلاد ، وليس بها أنيس؟ ثم قالت : أاللّه أمرك بهذا؟ قال : نعم ، قالت : إذا لا يضيعنا. فرجعت تأكل من مزود ، تم تركها لها ، وتشرب من قربة ماء ، فلما فرغ الماء نشف اللبن ، وجعل الولد يتخبط من العطش ، فجعلت تطوف من الصفا ، وكان جبلا صغيرا قريبا منها ، وتذهب إلى المروة ، وتسعى بينهما ، لعلها ترى أحدا ، فلما بلغت سبعة أطواف وسمعت صوتا فى الهواء ، فقالت : أغث إن كان معك غياث ، فتبدّى جبريل بين يديها حتى وصل إلى موضع زمزم ، فهمز بعقبه ففار الماء ، فلما رأته دهشت ، وخافت عليه يذهب فجعلت تحوطه ، وتقول : زم زم ، فانحصر الماء. قال صلى اللّه عليه وسلم : «يرحم اللّه أمّ إسماعيل ، لو تركته ، كان عينا معينا» «١». فشربت ، ودرّ لبنها.

ثم إن جرهم رأوا طيورا تحوم ، فقالوا : لا طيور إلا على الماء. فقصدوا الموضع ، فوجدوها مع ابنها ، وعندها عين ، فقالوا لها : أتشركيننا فى مائك ، ونشركك فى ألباننا؟ ففعلت. وفى حديث البخاري : «قالوا لها : أتحبين أن نسكن معك؟ قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء». فرحلوا إليها ، وسكنوا معها ، ثم زوجوا ولدها منهم. وحديث إتيان إبراهيم يتعاهد ابنه ، وبنائهما الكعبة ، مذكور فى البخاري «٢» والسّير.

ثم قال : رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ أي : ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع «٣» من كل مرتفق ومرتزق ، إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم. وتكرير النداء وتوسيطه ، للإشعار بأنها المقصودة بالذات من إسكانهم ثمّة. والمقصود من الدعاء : توفيقهم لها ، وقيل : اللام للأمر ، وكأنه طلب منهم الإقامة ، وسأل من اللّه أن يوفقهم لها. فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً

---

(١) أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب : تزفّون : النّسلان فى المشي) من حديث ابن عباس – رضي اللّه عنه.

(٢) فى الموضع السابق ذكره.

(٣) البلقع : هى الأرض القفر التي لا شيء بها : انظر : اللسان (بلقع ١/ ٣٤٨).

(٣/٦٦)

مِنَ النَّاسِ أي : اجعل أفئدة من بعض الناس ، تَهْوِي إِلَيْهِمْ أي : تسرع إليهم شوقا ومحبة ، و«من» : للتبعيض ، ولذلك قيل : لو قال : أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم ، ولحجت اليهود والنصارى. وقيل : للبيان أي : أفئدة ناس. وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ مع كونهم بواد لا نبات فيه ، لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ تلك النعمة ، فأجاب دعوته ، فجعله حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء ، حتى إنه يوجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية ، فى يوم واحد.

رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ أي : تعلم سرنا ، كما تعلم علانيتنا ، والمعنى : إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ، وأرحم منا بأنفسنا ، فلا حاجة لنا إلى الطلب ، لكننا ندعوك إظهارا لعبوديتك ، وافتقارا إلى رحمتك ، واستجلابا لنيل ما عندك. قاله البيضاوي. أي : فيكون مناسبا لحاله فى قوله : «علمه بحالي يغنى عن سؤالى».

وقيل : ما نخفى من وجد الفرقة ، وما نعلن من التضرع إليك والتوكل عليك. وتكرير النداء للمبالغة فى التضرع واللجوء إلى اللّه تعالى. وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ لأن علمه أحاط بكل معلوم. و«من» : للاستغراق.

الإشارة : ينبغى للعبد أن يكون إبراهيميا ، فيدعو بهذا الدعاء على طريق الإشارة ، فيقول : رب اجعل هذا القلب آمنا من الخواطر والوساوس ، واجنبنى وبنىّ ، أي : بعّدنى ومن تعلق بي ، أن نعبد الأصنام ، التي هى الدنانير والدراهم ، وكل ما يعشق من دون اللّه ، (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) فتلفوا فى حبها والحرص عليها ، فلا فكرة لهم إلا فيهما ، ولا شغل لهم إلا جمعهما ، فمن تبعني فى الزهد فيهما ، والغنى بك عنهما ، فإنه منى ، ومن عصانى ، واشتغل بمحبتهما وجمعهما ، (فإنك غفور رحيم).

وقوله : رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ فيه : تعليم اليقين لمن طلب تربية اليقين. قال الورتجبي : فيه إشارة إلى تربية أهله بحقائق التوكل والرضا والتسليم ، ونعم التربية ذلك ، فأعلمنا بسنته القائمة الحنيفية السمحة السهلة ، الخليلية الحبيبية ، الأحمدية المصطفوية – صلوات اللّه عليهما –

أن العارف الصادق ينبغى له ألا يكون معوله على الأملاك والأسباب - فى حياته وبعد وفاته - لتربية عياله ، فإنه تعالى حسبه ، وزاد فى تربيتهم بأن يؤدّبهم بإقامة الصلاة ، إظهارا للعبودية ، وإخلاصا فى المعرفة ، وطلبا للمشاهدة ، ومناجاة فى القربة بقوله :

«ربنا ليقيموا الصلاة». إلخ.

وقال القشيري : أخبر عن صدق توكله وتفويضه ، أي : أسكنت قوما من ذريتى بواد غير ذى زرع ، عند بيتك المحرّم. وإنما رد الرّفق لهم فى الجوار فقال : عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، ثم قال : لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ. أي : أسكنتهم لإقامة

(٦٧/٣)

حقّك ، لا لطلب حظوظهم. ويقال : اكتفى بأن يكونوا فى ظلال عنايته عن أن يكونوا فى ظلال نعيمهم. ثم قال :

قوله : بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ أي : أسكنتهم هذا الوادي ، ولا متعلق من الأغيار لقلوبهم ، ولا متناول لأفكارهم وأسرارهم ، فهم مطروحون ببابك ، مقيمون بحضرتك ، جار فيهم حكمك ، إن راعيتهم كفيتهم ، وكانوا أعزّ خلق اللّه ، وإن أقصيتهم وأوبقتهم كانوا أضعف وأذلّ خلقك. هـ.

وقوله تعالى : فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ : قال القشيري : ليشتغلوا بعبادتك ، فأفرّد قوما يقومون لهم بكفايتهم ، وارزقهم من الثمرات ، فإنّ من قام بحقّ اللّه قام اللّه بحقّه. فاستجاب اللّه دعاءه فيهم ، فصارت القلوب من أهل كل بر وبحر كالمجبولة على محبة ذلك البيت ، ومحبة أولئك المصلين من سكانه. وقال الورتجبي : سأل أن يجعلهم مرادى جلاله وجماله ، ويجعلهم آية الصادقين والعاشقين ، بقوله : (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) ، تميل بوصف الإرادة والمحبة لك ، والاقتداء بهم فى إقامة سنتك ، وألبسهم لباس أنوارك ، وألق فى قلوب خلقك محبتهم بمحبتك. هـ.

ومعنى قوله : مرادى جلاله وجماله : أي : مظهرا لجلاله وجماله ، يعشقهم البرّ والفاجر ، والكامل والناقص ، فقد ظهر فيهم الجلال والجمال. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية كلام إبراهيم عليه السّلام فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٣٩ الى ٤١]

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ (٤١)

قلت : (لسميع الدعاء) : من إضافة أمثلة المبالغة إلى مفعوله ، أي : لسميع دعاء من دعاه. و(من

ذريتى) :

عطف على مفعول «اجعل» ، أي : اجعلنى وبعض ذريتى مقيمين للصلاة.

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن خليله عليه السّلام : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ أي : مع كبر سنى عن الولد ، إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ ، روى أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة ، وإسحاق لمائة وثنتى عشرة سنة ، وقيل : غير ذلك. وإنما ذكر كبر سنه ليكون أعظم فى إظهار النعمة ، وإظهارا لما فيه من الآية ، ولذلك قال : إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ أي : يجيب من دعاه ، من قولك : سمع الملك كلامى ، إذا اعتنى به. وفيه إشعار بأنه تقدم منه سؤال الولد ، فسمع منه ، وأجابه حين وقع اليأس منه ، ليكون من أجلّ النعم وأجلاها.

ثم طلب الاستقامة له ولولده بقوله : رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ أي : متقنا لها ، مواظبا عليها ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِي فاجعل من يقيمها. والتبعيض لعلمه بالوحى أنّ من ولده من لا يقيمها ، أو باستقرار عادته فى الأمم الماضية أن منهم من يكون كفارا. رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ أي : استجب ، أو تقبل عبادتى. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ ، وكان هذا الدعاء قبل النهى ، أو قبل تحقق موتهما على الكفر ، أو يريد آدم وحواء.

وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ أي : يثبت ويتحقق وجوده ، مستعار من القيام على الرّجل ، كقولهم : قامت الحرب على ساق.

أو يقوم إليه أهله ، فحذف المضاف ، أي : يقوم أهل الحساب إليه ، وأسند إليه قيامهم مجازا.

الإشارة : إتيان النسل البشرى ، أو الروحاني ، من أجلّ النعم وأكملها على العبد. وفى الحديث : «إذا مات العبد انقطع عمله إلّا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم بثّه فى صدور الرّجال ، أو ولد صالح يدعو له بعد موته». والولد الروحاني أتم لتحقق استقامته فى الغالب. وطلب ذلك محمود كما فعل الخليل وزكريا ، وغيرهما ، وقد مدح اللّه من فعل ذلك بقوله : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ «١». وقرة عين فى الذرية : أن يكونوا على الاستقامة فى الدين ، وسلوك منهاج الصالحين. وكل ما أتوا به من الطاعة والإحسان فللوالدين حظ ونصيب من ذلك ، ولا فرق بين الولد الروحاني والبشرى ، وفى ذلك يقول الشاعر «٢» :

والمرء فى ميزانه أتباعه فاقدر إذن قدر النبيّ محمّد

واللّه تعالى أعلم.

ثم تمم قوله : (يوم يقوم الحساب) بذكر أهواله ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٤٢ الى ٤٥]
وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (٤٥)

---

(١) من آية ٧٤ من سورة الفرقان.

(٢) وهو الإمام البوصيرى. انظر ديوانه/ ١٢٢. وفيه : فاقدر إذن فضل النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلم.

قلت : (يوم يأتيهم) : مفعول ثان لأنذر ، ولا يصح أن يكون ظرفا. و(نجب دعوتك) جواب الأمر.

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَحْسَبَنَّ أيها السامع ، أن اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، أو أيها الرسول ، بمعنى : دم على ما أنت عليه من أن اللّه مطلع على أفعالهم ، لا تخفى عليه خافية ، غير غافل عنهم. وهو وعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة. وقيل : إنه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم فالحق تعالى يمهل ولا يهمل. إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ ، أي : يؤخر عذابهم لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ ، أي : تحد فيه النظر ، من غير أن تطرف من هول ما ترى.

مُهْطِعِينَ : مسرعين إلى الداعي مذلة واستكانة ، كإسراع الأسير والخائف ونحوه. أو مقبلين بأبصارهم ، لا يطرفون هيبة وخوفا ، مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ : رافعيها إلى السماء كرفع الإبل رأسها عند رعيها أعالي الشجر. وذلك من شدة الهول ، أو من أجل الغل الذي فى عنقه ، كقوله : إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ «١». وقال الحسن فى هذه الآية : وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد. هـ.

لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، بل تقف أعينهم شاخصة لا تطرف ، أو : لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ : خلاء ، محترقة ، فارغة من الفهم ، لا تعى شيئا لفرط الحيرة والدهشة. ومنه يقال للأحمق وللجبان : قلبه هواء ، أي : لا رأى فيه ولا قوة. وقيل : خالية من الخير ، خاوية من الحق.

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يا محمد ، أي : خوفهم هذا اليوم ، وهو : يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ ، يعنى يوم القيامة ، أو يوم

الموت فإنه أول مطلع عذابهم ، فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا بالشرك والتكذيب : رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ أي : أخّر العذاب عنا ، وردنا إلى الدنيا ، وأمهلنا إلى أجل قريب ، نُجِبْ دَعْوَتَكَ حينئذ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ، ونظيره : لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ «٢». قال تعالى لهم : أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ أنكم باقون فى الدنيا ، ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ عنها بالموت ولا بغيره ، ولعلهم أقسموا بطرا وغرورا. أو دل عليه حالهم حيث بنوا مشيدا ، وأمّلوا بعيدا. أو أقسموا أنهم لا ينقلون إلى دار أخرى ، وأنهم إذا ماتوا لا يزالون عن تلك الحالة ، ولا ينقلون إلى دار الجزاء ، كقوله : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ «٣».

وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بالكفر والمعاصي ، من الأمم السالفة كعاد وثمود ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ بما تشاهدون من آثارهم الدارسة ، وديارهم الخربة ، وما تواتر عندكم من أخبارهم ،

---

(١) الآية ٨ من سورة يس.

(٢) الآية ١٠ من سورة المنافقون.

(٣) الآية ٣٨ من سورة النحل.

وَقد ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ من أحوالهم ، أي : بيّنا لكم أنكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب ، أو بيّنا لكم صفات ما فعلوا ، وما فعل بهم ، التي هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة.

الإشارة : كما أمهل سبحانه الظالمين إلى دار الشدائد والأهوال ، أمهل عباده الصالحين إلى دار الكرامة والنوال لأن هذه الدار لاتسع ما أراد أن يعطيهم من الخيرات لأنها ضيقة الزمان والمكان ، فقد أجلّ مقدارهم أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها ، وتلك الدار باقية لا نفاد لها ، ففيها يتمحض الجمال والجلال. فبقدر ما ينزل على أهل الجلال من الأهوال ينزل على أهل الجمال من الكرامة والنوال.

وتأمل ما تمناه أهل الجلال حين نزلت بهم الأهوال من قولهم : (ربنا أخّرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) ، ثم بادر إلى إجابة الداعي ، واتباع الرسول الهادي ، فى كل ما جاء به من الأوامر والنواهي ، واعتبر بمساكن الذين ظلموا أنفسهم ، كيف فعل بهم الزمان؟

وكيف غرتهم الأماني وخدعهم الشيطان ، حتى أسكنهم دار الذل والهوان؟ فشد يدك على الطاعة والإحسان ، والشكر للّه على الهداية لنعمة الإسلام والإيمان ، وعلق قلبك بمقام الإحسان فإن اللّه

يرزق العبد على قدر نيته.

وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ما فعل بأهل المكر والخذلان ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٤٦ الى ٥٢]

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (٤٦) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (٤٩) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠)

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (٥١) هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (٥٢)

قلت : (و إن كان مكرهم) «إن» نافية ، واللام للجحود ، ومن قرأ «لّتزول» بفتح اللام ، فإن مخففة ، واللام فارقة و(يوم تبدل) : بدل من (يوم يأتيهم) ، أو ظرف للانتقام ، أو مقدر باذكر ، أو (بمخلف وعده). ولا يجوز أن ينتصب بمخلف لأن ما قبل «إن» لا يعمل فيما بعدها. و(السماوات) : عطف على (الأرض) ، أي : وتبدل السماوات.

يقول الحق جل جلاله : وَقَدْ مَكَرُوا بك يا محمد مَكْرَهُمْ الكلى ، واستفرغوا جهدهم فى إبطال الحق وتقرير الباطل ، وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ أي : مكتوب عنده فعلهم ، فيجازيهم عليه. أو عند اللّه ما يمكرهم به

(٣/٧١)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٧٢

جزاء لمكرهم ، وإبطالا له ، وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ فى العظم والشدة لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ الثوابت لو زالت تقديرا ، أو ما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، أي : الشرائع والنبوات الثابتة كالجبال الرواسي. والمعنى على هذا تحقير مكرهم لأنه لا تزول منه تلك الجبال الثابتة الراسخة ، أو : وإن مكرهم لتزول منه الجبال من شدته ، ولكن اللّه عصم ووقى.

وقيل : الآية متصلة بما قبلها ، أي : وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، ومكروا مكرهم فى إبطال الحق.

فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، يعنى : وعد النصر على الأعداء. وقدّم المفعول الثاني ، والأصل :

مخلف رسله وعده ، فقدّم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا على الإطلاق ، ثم قال : رُسُلَهُ ليعلم أنه إذا لم يخلف وعد أحد من الناس ، فكيف يخلف وعد رسله وخيرة خلقه؟! فقدّم الوعد أولا بقصد الإطلاق ، ثم ذكر الرسل لقصد التخصيص. إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ : غالب لا يماكر ، قادر لا يدافع ، ذُو انتِقامٍ لأوليائه من أعدائه.

يظهر ذلك يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ، أو اذكر يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ، فتبدل أرض الدنيا يوم القيامة بأرض بيضاء عفراء «١» ، كقرصة النّقى «٢» ، كما فى الصحيح «٣». وَتبدل السَّماواتُ بأن تنشق وتطوى كطى السجل للكتب ، ويبقى العرش بارزا ، وهو سماوات الجنة.

قال البيضاوي : والتبديل يكون فى الذات ، كقوله : بدلت الدراهم بالدنانير ، وعليه قوله : بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها «٤» ، وفى الصفة ، كقولك : بدلت الحلقة خاتما ، إذا أذبتها وغيرت شكلها. وعليه قوله : يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ «٥». والآية تحتملها ، فعن على رضى اللّه عنه : تبدل أرضا من فضة وسموات من ذهب ، وعن ابن عباس - رضى اللّه تعالى عنهما - : هى تلك الأرض ، وإنما تغير صفاتها ، ويدل عليه ما روى أبو هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «تبدّل الأرض غير الأرض فتنبسط ، وتمدّ مد الأديم العكاظىّ «لا ترى فيها عوجا ولا أمتا» «٦».

قال ابن عطية : وأكثر المفسرين على أن التبديل يكون بأرض بيضاء عفراء ، لم يعص اللّه فيها ، ولا سفك فيها دم ، وليس فيها معلم لأحد. وروى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «المؤمن فى وقت التبديل فى ظل العرش». وروى عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «الناس ، وقت التبديل ، على الصّراط» «٧». وروى أنه قال : «٨» «الناس حينئذ أضياف اللّه فلا يعجزهم ما

---

(١) العفرة : بياض ليس بالناصع .. انظر النهاية (عفر).

(٢) قرصة النّقىّ : الدقيق النقي من الغش والنخال انظر فتح الباري (١١/ ٣٨٣).

(٣) قال صلى اللّه عليه وسلم : (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء ، كقرصة النقي ، ليس فيها علم لأحد». أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة). ومسلم فى (صفات المنافقين ، باب فى البعث والنشور) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

(٤) من الآية ٥٦ من سورة النساء.

(٥) من الآية ٧٠ من سورة الفرقان. [.....]

(٦) جزء من حديث الصور المشهور المروي عن أبى هريرة.

(٧) أخرجه مسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب فى البعث والنشور) من حديث السيدة عائشة - رضى اللّه عنها.

(٨) أخرجه بنحوه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٧/ ٢٢٥٣) من حديث أبى أيوب الأنصاري. وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٤٤).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٧٣

وفى سراج المريدين لابن العربي : أن اللّه خلق الأرض مختلفة محدودبة ويخلقها يوم القيامة مستوية ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، متماثلة بيضاء كخبرة النقي ، كما فى الصحيح ، وأما تبديل السموات فليس فى كيفيتها حديث ، وإنما هو مجهول. وفى حديث مسلم : «أين يكون الناس يوم تبدل الأرض؟ قال : هم على الصراط». قال : يحتمل أنه الصراط المعروف ، ويحتمل أنه اسم لموضع غيره ، تستقر الأقدام عليه ، وكأنه الأظهر للحديث الآخر. وقد سألته عائشة - رضى اللّه عنها - أين يكون الناس يوم تبدل الأرض؟ قال صلى اللّه عليه وسلم : «هم فى الظّلمة دون الجسر» «١».

والجسر : الصراط. هـ.

أما تبديل الأرض : فظاهر الآيات أنها قبل البعث والحشر ، فلا يقع البعث والحشر ، إلا على الأرض المبدلة كقوله : وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ «٢». وقوله : وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً «٣» .. ثم قال : يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ «٤». وقوله : إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ «٥» ، ثم قال : إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا «٦» ، إلى غير ذلك من الآيات. والأرواح حينئذ أضياف اللّه ، أو فى ظل العرش ، أو دون الجسر ، حيث يعلم اللّه. وأما تبديل السماوات فظاهر الأخبار أنه وقت وقوف الناس فى المحشر ، حيث تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة تنزيلا. واللّه تعالى أعلم.

وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ ، أي : وبرزوا من أجداثهم لمحاسبة الواحد القهار ، أو لمجازاته. وتوصيفه بالوصفين للدلالة على أنه فى غاية الصعوبة ، كقوله : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ «٧» ، وأن الأمر إذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار ، وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ : قرن بعضهم إلى بعض فِي الْأَصْفادِ : فى القيود ، أو الأغلال ، كل واحد قرن مع صاحبه ، على حسب مشاركتهم فى العقائد والأعمال ، كقوله : وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ «٨». أو قرنوا مع الشياطين ، أو مع ما اكتسبوا من العقائد الزائفة والأهوية الفاسدة ، أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال. فقوله : فِي الْأَصْفادِ : متعلق بمقرنين ، أو حال من ضميره. والصفد : القيد أو الغل.

سَرابِيلُهُمْ : قمصانهم ، والسربال : القميص ، مِنْ قَطِرانٍ ، وهو الذي تهنأ به الإبل ، أي : تدهن به. وللنار فيه اشتعال شديد ، فلذلك جعل قميص أهل النار. قال البيضاوي : وهو أسود منتن ، تشتعل فيه النار بسرعة ،

---

(١) أخرجه مسلم مطولا فى (الحيض ، باب بيان صفة منى الرجل والمرأة) من حديث ثوبان ، مولى

رسول الله صلى اللّه عليه وسلم.
(٢) من الآية ٤٧ من سورة الكهف.
(٣) الآيتان ١٠٥ - ١٠٦ من سورة طه.
(٤) من الآية ١٠٨ من سورة طه.
(٥) الآية الأولى من سورة الواقعة.
(٦) الآيتان : ٤ - ٥ من سورة الواقعة.
(٧) الآية ١٦ من سورة غافر.
(٨) الآية ٧ من سورة التكوير.

(٧٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٧٤
يطلى به جلود أهل النار ، حتى يكون طلاؤه لهم كالقميص ، ليجتمع عليهم لذغ القطران ووحشة لونه ونتن ريحه ، مع إسراع النار فى جلودهم. على أنّ التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين. هـ.
وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ، أي : تكسوها وتأكلها لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق ، ولم يخضعوا بها إلى الخالق ، كما تطلع على أفئدتهم لأنها فارغة من المعرفة والنور ، مملوءة بالجهالات والظلمة. ونظيره قوله :
أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ «١» ، وقوله تعالى : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ «٢».
فعل ذلك بهم لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ من الإجرام ، أو ما كسبت مطلقا لأنه إذا بيّن أن المجرمين معاقبون لإجرامهم علم أن المطيعين يثابون لطاعتهم. ويتعين ذلك إذا علق اللام ببرزوا. إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ ، فيحاسب الناس فى ساعة واحدة لأنه لا يشغله حساب عن حساب ، فكل شخص يظهر له أنه واقف بين يديه ، يحاسب في وقت حساب الآخر لأن ذلك وقت خرق العوائد.
هذا القرآن ، أو ما فيه من الوعظ والتذكير ، أو ما وصفه من قوله : وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا ... «٣» إلخ ، بَلاغٌ لِلنَّاسِ أي : كفاية لهم عن غيره فى الوعظ وبيان الأحكام ، يقال : أعطيته من المال ما فيه بلاغ له ، أي :
كفاية. أو بلاغ أي : تبليغ لهم ، كقوله : إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ «٤» ، وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ» ، وقوله : وَلِيُنْذَرُوا بِهِ : عطف على محذوف ، أي : لينصحوا به ، ولينذروا به ، أو متعلق بمحذوف ، أي : ولينذروا به أنزلناه ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ بالنظر والتأمل فيما فيه من الآيات الدالة على

وحدانيته تعالى ، أو المنبهة على ما يدل عليه. وَلِيَذَّكَّرَ أي : ليتعظ به أُولُوا الْأَلْبابِ أي : القلوب الصافية بالتدبر فى أسرار معانيه وعجائب علومه وحكمه ، فيرتدعوا عما يرديهم ، ويتذرعوا بما يحظيهم. واعلم أنه سبحانه ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد ، هى الغاية والحكمة فى إنزال الكتاب : تكميل الرسل للناس ، واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد ، وإصلاح القوة العملية التي هى التدرع بكمال التقوى. جعلنا اللّه من الفائزين بغايتها. قال معناه البيضاوي.

الإشارة : قد مكر أهل الغفلة بالأولياء ، قديما وحديثا ، واحتالوا على إطفاء نورهم ، فأبى اللّه إلا نصرهم وعزهم (إن اللّه عزيز ذو انتقام) فينتقم لهم وينصرهم. ووقت نصرهم هو حين يتحقق فناؤهم عن الرسوم والأشكال ، فتبدل الأرض عندهم غير الأرض والسماوات فتنقلب كلها نورا مجموعا ببحر الأنوار ، وبمحيطات أفلاك الأسرار ،

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ٤٨ من سورة القمر.

(٣) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم. [.....]

(٤) من الآية ٤٨ من سورة الشورى.

(٥) الآية ٥٤ من سورة النور.

فتذهب ظلمة الأكوان بتجلى نور المكون ، اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ «١». وبرزوا من سجن الأكوان لشهود الواحد القهار.

وقال الورتجبي : يريد أن أرض الظاهر وسماء الظاهر تبدل من هذه الأوصاف ، وظلمة الخليقة ، إلا أنها منورة بنور جلال الحق عليها ، وأنها صارت مشرق عيان الحق للخلق حين بدا سطوات عزته ، بوصف الجبارية والقهارية بقوله : وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها «٢» وهناك يا أخى يدخل الوجود تحت أذيال العدم من استيلاء قهر أنوار القدم ، قال : كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ «٣». قيل : فأين الأشياء إذ ذاك؟ قال : عادت إلى مصادرها. وقال : متى كانوا شيئا حتى صاروا لا شى ء؟! لأنهم أقل من الهباء فى الهواء فى جنب الحق. هـ.

وترى المجرمين ، وهم الغافلون ، مقرنين فى قيود الأوهام ، والشكوك ، مسجونين فى محيطات الأكوان ، سرابيلهم ظلمة الغفلة ، تغشى وجوههم نار القطيعة ، لا تظهر عليها بهجة المحبين ، ولا

أسرار العارفين. فعل ذلك بهم ليظهر فضيلة المجتهدين. هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به وبال الغفلة والحجاب ، وليتحقق أولوا الألباب أن الوجود إنما هو للواحد القهار. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة النور.

(٢) من الآية ٦٩ من سورة الزمر.

(٣) من الآية ٨٨ من سورة القصص.

سورة الحجر

مكية. وهى تسع وتسعون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ «١» ، مع قوله جل جلاله : تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ فهى تتميم لعنوان القرآن ، وتفسير له.

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (٤) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (٥)

قلت : رب : حرف جر ، تدل على التقليل غالبا. وفيها ثمانى لغات : التخفيف ، والتثقيل مع ضم الراء وفتحها بالتاء ، ودونها. وتدخل عليها (ما) فتكفها عن العمل ، ويجوز دخولها حينئذ على الفعل ، ويكون ماضيا ، أو منزلا منزلته فى تحقيق وقوعه ، وقد تدخل على الجملة الاسمية كقول الشاعر :

ربّما الجامل المؤبّل فيهم وعناجيج بينهنّ المهار

وجملة : (إلا ولها) : صفة لقرية ، والأصل ألا يدخلها الواو ، كقوله : إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ «٢» ، لكن لما شابهت صورة الحال دخلت عليها تأكيدا لوصفها بالموصوف.

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المعظم ، تِلْكَ الآيات التي تتلوها هى آياتُ الْكِتابِ الذي أنزلناه إليك ، وَآيات قُرْآنٍ عربى مُبِينٍ واضح البيان ، مبينا للرشد والصواب ، فمن تمسك به وآمن بما فيه كان من المسلمين الناجين ، ومن تنكب عنه وكفر به كان من الكافرين الهالكين ، وسيندم حين لا ينفع الندم ، كما قال تعالى : رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ : متمسكين بما فيه حتى يكونوا من الناجين. وهذا التمني قيل : يكون عند الموت ، وقيل : فى القيامة ، وقيل : إذا خرج العصاة من النار ، وهذا أرجح لحديث فى ذلك «٣». ومعنى التقليل فيه : أنه تدهشهم أهوال يوم القيامة ، فإن حانت منهم إفاقة فى بعض الأوقات تمنوا أن لو كانوا مسلمين.

---

(١) من الآية ٥٢ من سورة إبراهيم.

(٢) من الآية ٢٠٨ من سورة الشعراء.

(٣) عن أبى موسى الأشعري عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «إذا اجتمع أهل النار فى النار ، ومعهم من شاء اللّه من أهل القبلة ، قال الكفار لمن فى النار من أهل القبلة : ألستم مسلمين؟ قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا فى النار؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا -

---

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٧٨

قال تعالى :

ذَرْهُمْ : دعهم اليوم يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا بدنياهم ، وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ : ويشغلهم توثقهم بطول الأعمار ، واستقامة الأحوال ، عن الاستعداد للمعاد ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءهم.

والأمر للتهديد ، والغرض : حصول الإياس من إيمانهم ، والإيذان بأنهم من أهل الخذلان ، وأنّ نصحهم بعد هذا تعب بلا فائدة. وفيه إلزام الحجة لهم. وفيه التحذير عن إيثار التنعم ، وما يؤدى إليه طول الأمل من الهلاك عاجلا وآجلا ، ولذلك قال تعالى بعد : وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ أي : أجل مقدر كتب فى اللوح المحفوظ ، ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها أي : أجل هلاكها ، وَما يَسْتَأْخِرُونَ عنه ساعة. وتذكير الضمير فى يَسْتَأْخِرُونَ للحمل على المعنى ، لأن الأمة واقعة على الناس. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : انظر هذا التهديد العظيم ، والخطر الجسيم لمن تمتع بدنياه ، وعكف على حظوظه وهواه : (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون). وللّه در القائل :

تفكّرت فى الدّنيا وفى شهواتها ولذّاتها حتّى أطلت التّفكّرا

وكيف يلذّ العيش من هو سالك سبيل المنايا رائحا أو مبكّرا
فلا خير فى الدّنيا ولا فى نعيمها لحرّ مقلّ كان أو مكثرا
ثم أجاب من اقترح الآيات ، فقال :
[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٦ الى ٩]
وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧)
ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (٩)
يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : كفار قريش : يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ فى زعمه ، أو قالوه تهكما ، إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ أي : إنك لتقول قول المجانين ، حين تدعى أنه ينزل عليك الذكر ، أي : القرآن.
لَوْ ما : هلا تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ ليصدقوك فيما تدعى ، أو يعضدوك على الدعوى ، أو للعقاب على تكذيبنا ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعواك ، قال تعالى : ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ لعذابهم أو لغيره إِلَّا بِالْحَقِّ من الوحى ، والمصالح التي يريدها اللّه ، لا باقتراح مقترح ، أو اختيار كافر ، أو : إلا تنزيلا ملتبسا بالحق ، أي : بالوجه

- بها ، فيغضب اللّه تعالى لهم ، بفضل رحمته ، فيأمر بكل من كان من أهل القبلة فى النار فيخرجون منها ، فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين». أخرجه ابن جرير فى التفسير ، وابن أبى عاصم فى السّنة (١/ ٤٠٥) ، وابن أبى حاتم فى تفسيره (٧/ ٢٢٥٥) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٤٢) وصححه.

الذي قدره فى الأزل ، واقتضته الحكمة الإلهية ، وهو أنه لا تنزل إلا باستئصال العذاب ، وقد سبق فى العلم القديم أن من ذريتهم من سبقت كلمتنا له بالإيمان ، أو يراد بالحق : العذاب ، ويؤيده قوله : وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ أي :
ولو نزلت الملائكة لعوجلوا ، وما كانوا ، إذا نزلت ، مؤخرين عن العذاب ساعة.
ثم رد إنكارهم نزول الذكر واستهزاءهم ، فقال : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ أي : القرآن ، وأكده بأن وضمير الفصل ، وحفظه بعد نزوله ، كما قال : وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ من التحريف ، والزيادة والنقص ، بأن جعلناه معجزا ، مباينا لكلام البشر ، لا يخفى تغيير نظمه على أهل اللسان. قال القشيري : نزل التوراة ، ووكل

حفظها إلى بنى إسرائيل ، بما استحفظوا من كتاب اللّه ، فحرّفوا وبدّلوا ، وأنزل القرآن ، وأخبر أنه حافظه ، فلا جرم أنه كتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ويقال : إنه أخبر أنه حافظ القرآن ، وإنما يحفظه بقرائة ، فقلوب القرّاء هى خزائن كتابه وهو لا يضيع حفظة كتابه ، فإن فى ذلك تضييع كتابه. هـ.

وقال ابن عطية على قوله : ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ «١» : ذهبت جماعة من العلماء إلى أنهم بدلوا ألفاظا من تلقائهم ، وأن ذلك ممكن فى التوراة لأنهم استحفظوها ، وغير ممكن فى القرآن لأن اللّه تعالى ضمن حفظه. هـ.

الإشارة : كل ما جاء فى القرآن من الإنكار على الرسل على أيدى الكفرة وتنقيصهم ، والاستهزاء بهم ، ففيه تسلية لمن بعدهم من الأولياء. وكذلك ما ذكره الحق تعالى من مقالات أهل الجهل فى جانبه كقوله : لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ «٢» ، وقوله : وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ «٣» ، إلى غير ذلك من مقالات أهل الجهل ، فكأن الحق تعالى يقول : لو سلم أحد من الناس ، لسلمت أنا وأنبيائى ، الذين هم خاصة خلقى ، فليكن بي وبرسلى أسوة لمن أوذى من أوليائى. وباللّه التوفيق.

ثم تمم تلك التسلية ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ١٠ الى ١٥]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (١١) كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤)

لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٨١ من سورة آل عمران.

(٣) من الآية ٦٤ من سورة المائدة.

يقول الحق جل جلاله فى تسلية رسوله - عليه الصلاة والسلام - : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رسلا فِي شِيَعِ : فرق الْأَوَّلِينَ أي : القرون الماضين ، جمع شيعة ، وهى : الفرقة المتفقة على طريق واحد ، وتتشيع لمذهب أو رجل ، من شاعه إذا تبعه ، أي : نبأنا رجالا فيهم ، وجعلناهم رسلا إليهم ،

فكذبوهم واستهزءوا بهم ، فكانوا : ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ كما يفعل بك هؤلاء المجرمون.

كَذلِكَ نَسْلُكُهُ أي : ندخل الاستهزاء فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ. والسلك : إدخال الشيء فى الشيء كالخيط فى المخيط ، وفيه دليل على أنه تعالى يخلق الباطل فى قلوبهم. وإذا سلك فى قلوبهم التكذيب لا يُؤْمِنُونَ بِهِ أبدا. أو : نسلكه ، أي : القرآن مستهزءا به ، أي : مثل ذلك السلك نسلك الذكر فى قلوب المجرمين مكذّبا غير مؤمن به ، ثم هددهم على عدم الإيمان به ، فقال : وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أي : تقدمت طريقتهم على هذه الحالة من الكفر والاستهزاء ، حتى هلكوا بسبب ذلك ، أو مضت سنته فى الأولين بإهلاك من كذب الرسل منهم ، فيكون وعيدا لأهل مكة.

وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أي : على هؤلاء المقترحين المعاندين من كفار قريش ، باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ : يصعدون إليها ، ويرون عجائبها طول نهارهم ، لكذبوا ، أو فظلت الملائكة يعرجون فيها وهم يشاهدونهم لقالوا من شدة عنادهم وتشكيكهم فى الحق : إِنَّما سُكِّرَتْ : حيرت أَبْصارُنا ، فرأينا الأمر على غير حقيقته من أجل السكر الذي أصابنا بالسحر.

ويحتمل أن يكون مشتقا من السكر بفتح السين ، وهو السد ، أي : سدّت أبصارنا ، ومنعنا من الرؤية الحقيقية.

بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ سحرنا محمد ، كما قالوا عند ظهور غيره من الآيات. قال البيضاوي : وفي كلمتى الحصر والإضراب دلالة على جزمهم بأن ما يرونه لا حقيقة له ، بل هو باطل خيّل ما خيل لهم بنوع من السحر. هـ. وذلك من فرط عنادهم ، وشقاوتهم. والعياذ باللّه.

الإشارة : هذا كله من قبيل التسلية لأهل الخصوصية ، إذا قوبلوا بالإنكار والاستهزاء ، فيرجعون إلى اللّه ، والاكتفاء بعلمه ، والاشتغال باللّه عنه. وقد قال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضى اللّه عنه : عداوة العدو حقا هى اشتغالك بمحبة الحبيب ، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو نال مراده منك ، وفاتتك محبة الحبيب. وقال الولي الصالح سيدى أبو القاسم الخصاصى رضى اللّه عنه لبعض تلامذته : لا تشتغل قط بمن يؤذيك ، واشتغل باللّه يرده عنك ، فإنه هو الذي حركه عليك ، ليختبر دعواك فى الصدق. وقد غلط فى هذا الأمر خلق كثير اشتغلوا بإيذاء من آذاهم ، فدام الأذى مع الإثم ، ولو أنهم رجعوا إلى اللّه لردهم عنهم ، وكفاهم أمرهم. هـ.

(٣/٨٠)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٨١

ثم دلهم على المعجزة الحقيقية ، التي تدلهم على التوحيد الذي فيه نجاتهم ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ١٦ الى ٢٥]

وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (٢٠)

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً اثنى عشر برجا ، وهى : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسّنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت ، والبرج عبارة عن قطعة فى الفلك تقطعها الشمس فى شهر فتقطع البروج كلها فى سنة ، ستة يمانية ، وستة شمالية ، وهى مختلفة الهيئات والخواص ، على ما دل عليه الرصد والتجربة. وكل ذلك بقدرة المدبر الحكيم. قال تعالى : وَزَيَّنَّاها بالأشكال والهيئات البهية لِلنَّاظِرِينَ المعتبرين ليستدلوا بها على قدرة مبدعها ، وتوحيد صانعها.

وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ : مرجوم ، فلا يقدر أن يصعد إليها ليسترق السمع منها ، أو يوسوس أهلها ، أو يتصرف فى أمرها ، أو يطلع على أحوالها.

إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ أي : حفظناها من الشياطين ، إلا من استرق منها. والاستراق : الاختلاس ، روى أنهم يركبون بعضهم بعضا حتى يصلوا إلى السماء ، فيسمعون أخبار السماء من الغيب ، فيخطف الجن الكلمة قبل الرمي فيلقيها إلى الكهنة ، ويخلط معها مائة كذبة ، كما فى الصحيح. وروى عن ابن عباس : أنهم كانوا لا يحجبون عن السماوات ، فلما ولد عيسى عليه السّلام منعوا من ثلاث سماوات ، فلما ولد محمد صلى اللّه عليه وسلم منعوا من كلها بالشهب. وقيل :

الاستثناء منقطع ، أي : ولكن من استرق السمع ، فَأَتْبَعَهُ لحقه شِهابٌ مُبِينٌ ظاهر للمبصرين. والشهاب :

شعلة نار يقتبسها الملك من النجم ، ثم يضرب به المسترق ، وقيل : النجوم هى التي تضرب بنفسها ، فإذا أصابت الشيطان قتلته أو خبلته فيصير غولا.

ثم ذكر معجزة الأرض فقال : وَالْأَرْضَ مَدَدْناها : بسطناها ، وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ جبالا ثوابت ، وَأَنْبَتْنا فِيها فى الأرض ، أو فيها وفى الجبال مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ مقدر بمقدار معين تقتضيه

حكمته. فالوزن مجاز ، أو ما يوزن حقيقة كالعشب النافعة ، أو كالذهب والفضة وسائر الأطعمة. وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ تعيشون بها من المطاعم والملابس ، وَخلقنا لكم مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ من الولدان والخدمة والمماليك ، وسائر ما تظنون أنكم ترزقونهم ظنا كاذبا فإن اللّه يرزقكم وإياهم.
قال البيضاوي : وفذلكة الآية : الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار معين ، مختلفة الأجزاء فى الوضع ، محدثة فيها أنواع النباتات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة ، مع جواز ألا تكون كذلك على كمال قدرته ، وتناهى حكمته ، والتفرد فى ألوهيته ، والامتنان على العباد بما أنعم فى ذلك ليوحدوه ويعبدوه. ثم بالغ فى ذلك فقال : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ أي : وما من شىء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه ، فضرب الخزائن مثلا لاقتداره ، أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد. هـ. قال ابن جزى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ قيل : المطر ، واللفظ أعم من ذلك ، والخزائن :
المواضع الخازنة ، وظاهر هذا أن الأشياء موجودة قد خلقت. هـ. وَما نُنَزِّلُهُ أي : نبرزه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ : بمقدار محدود فى وقت معلوم اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة ، لا يزيد ولا ينقص على ما سبق به العلم.
وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ : حوامل للماء فى أوعية السحاب ، يقال : لقحت الناقة والشجرة إذا حملت ، فهى لاقحة ، وألقحت الريح الشجر فهى ملقحة. ولواقح : جمع لاقحة ، أي : حاملة ، أو جمع ملقحة على حذف الميم الزائدة ، فهى على هذا ملقحة للسحاب أو الشجر ، ونظيره : الطوائح ، بمعنى المطيحات فى قوله :
ومختبط ممّا تطيح الطّوائح «١» والرياح أربعة : صبا ، ودبور ، وجنوب ، وشمال. والعرب تسمى الجنوب الحامل واللاقحة ، وتسمى الشمال الحائل والعقيم. وفى البخاري صلى اللّه عليه وسلم : «نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدّبور» «٢». وروى أبو هريرة رضي اللّه عنه ، عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «الرّيح الجنوب من الجنة ، وهى اللواقح التي ذكر اللّه ، وفيها منافع للناس» «٣». وفى حديث : «الرّيح من نفس الرحمن» «٤». والإضافة هنا إضافة خلق إلى خالق ، كما قال : مِنْ رُوحِي «٥». ومعنى نفس الرحمن ، أي :

---

(١) عجز بيت صدره : (لبيك يزيد صارع لخصومة). وينسب البيت لأكثر من واحد ، والمختبط : طالب العرف المحتاج ، تطيح :
تذهب وتهلك ، والطوائح : جمع المطيحة ، بمعنى السنين أو الجوائح. انظر حاشية الشهاب (٥/ ٢٨٩).
(٢) أخرجه البخاري (كتاب الاستسقاء ، باب إذا هبت الريح) من حديث ابن عباس - رضي اللّه عنه

[.....] . -

(٣) أخرجه ابن جرير فى تفسيره. وو زاد السيوطي ، فى الدر المنثور (٤/ ١٧٩) ، عزوه لابن أبى الدنيا فى كتاب السحاب ، وأبى الشيخ فى العظمة ، والديلمي فى المسند ، وابن مردويه ، من حديث أبى هريرة.

(٤) أخرجه أبو داود فى (الأدب ، باب : ما يقول إذا هاجت الريح) ، عن أبى هريرة ، مرفوعا ، بلفظ : (الريح من روح اللّه) مطولا.

(٥) من الآية ٢٩ من سورة الحجر.

من تنفيسه وإزالة الكرب والشدائد ، فمن التنفيس بالريح : النصر بالصبا ، وذر الأرزاق بها ، وجلب الأمطار ، وغير ذلك مما يكثر عده. قاله ابن عطية.

والمختار فى تفسير اللواقح : أنها حاملة للماء ، بدليل قوله : فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ أي : جعلناه لكم سقيا. يقال : سقى وأسقى بمعنى واحد عند الجمهور. وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ : بممسكين له فى الجبال ، والغدران ، والعيون ، والآبار ، فتخرجونه متى شئتم ، بل ذلك من شأن المدبر الحكيم ، فإن طبيعة الماء تقتضى الغور ، فوقوفه دون حد لا بد له من مسبب مخصص ، وجريه بلا انتهاء لا يكون إلا بقدرة السميع العليم ، الذي لا تتناهى قدرته. أو : وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ بقادرين متمكنين من إخراجه وقت الاحتياج إليه. نفى عنهم ما أثبته لنفسه بقوله : عِنْدَنا خَزائِنُهُ.

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ أي : نحيى من نريد إحياءه بإيجاد الحياة فيه ، ونميت من نريد إماتته بإزالة الحياة منه. وقد أول الحياة بما يعم الحيوان والنبات. وتكرير الضمير للدلالة على الحصر. وَنَحْنُ الْوارِثُونَ :

الباقون إذا مات الخلائق كلهم.

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ أي : علمنا من تقدم ولادة ، ومن تأخر ، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد ، أو من تقدم إلى الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة ، ومن تأخر ، لا يخفى علينا شىء من أحوالكم. وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته ، فإنّ ما يدل على كمال قدرته دليل على كمال علمه. قيل : رغّب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى الصف الأول ، فازدحموا عليه ، فنزلت ، وقيل : إن امرأة حسناء كانت تصلى خلف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فتقدم بعض القوم لئلا ينظر إليها ، وتأخر بعض ليبصرها ، فنزلت.

قاله البيضاوي.
وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ لا محالة للجزاء ، كأن هذا هو الغرض من ذكر العلم بالمتقدمين والمتأخرين لأنه إذا أحاط بهم علما لم تصعب عليه إعادتهم وحشرهم. إِنَّهُ حَكِيمٌ باهر الحكمة ، عَلِيمٌ واسع العلم والإحاطة بكل معلوم. قال البيضاوي : وفى توسيط الضمير - يعنى فى قوله : هُوَ يَحْشُرُهُمْ للدلالة على أنه القادر والمتولى لحشرهم لا غيره ، وتصدير الجملة بأن لتحقيق الوعيد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم. هـ.
الإشارة : ولقد جعلنا فى سماء قلوب العارفين بروجا ، وهى المقامات التي ينزلون فيها بشموس عرفانهم ، وهى : التوبة ، والخوف ، والرجاء ، والورع ، والزهد ، والصبر ، والشكر ، والرضى ، والتسليم ، والمحبة ، والمراقبة ،

والمشاهدة. وزيناها للناظرين أي : السائرين حتى يقطعوها جملة محمولين بعناية الجذب ، حتى يحلو لهم ما كان مرا على غيرهم ، وحفظنا سماء قلوبهم من طوارق الشيطان ، إلا ما كان طيفا خياليا لا يثبت ، بل يتبعه شهاب الذكر فيحرقه ، وأرض النفوس مددناها لقيام رسم العبودية ، وظهور عالم الحكمة وآثار القدرة ، وألقينا فيها جبال العقول الرواسي ، لتعرف الرب من المربوب الذي اقتضته الحكمة. وأنبتنا فيها من العلوم الرسمية والعقلية ، ما قدر لها فى العلم المكنون ، وجعلنا لكم فيها من علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ما تتقوت به قلوبكم ، وتعيش به أرواحكم وأسراركم ، وتعولون به من لستم له برازقين من المريدين السائرين.
سئل سهل رضي اللّه عنه عن القوت ، فقال : هو الحي الذي لا يموت ، فقيل : إنما سألناك عن القوام. فقال : القوام هو العلم ، فقيل : سألناك عن الغذاء ، فقال : الغذاء هو الذكر ، فقيل : سألناك عن طعام الجسد ، فقال : مالك وللجسد ، دع من تولّاه أولا يتولاه آخرا ، إذا دخلت عليه علة رده إلى صانعه ، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها. وأنشدوا :
يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته وتطلب الربح مما فيه خسران
عليك بالنفس فاستكمل فضيلتها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
واستكمال فضيلة النفس هو تزكيتها وتحليتها حتى تشرق عليها أنوار العرفان ، وتخرج من سجن الأكوان. وباللّه التوفيق. ثم قال تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ من الأرزاق المعنوية والحسية ، أو العلوم اللدنية ، والفتوحات القدسية ، إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ فمن توجه بكليته إلينا فتحنا له خزائن غيبنا ، وأطلعناه على

مكنون سرنا شيئا فشيئا ، وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ. وقال الورتجبي : علم الإشارة فى الآية : دعوة العباد إلى حقائق التوكل ، وهى : قطع الأسباب ، والإعراض عن الأغيار ، قيل : كان الجنيد رضي اللّه عنه إذا قرأ هذه الآية وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ ، قال : فأين تذهبون؟. وقال حمدون : قطع أطماع عبيده عمن سواه بقوله : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ ، فمن رفع بعد هذا حاجته إلى غيره ، فهو لجهله ولؤمه. هـ.

وأرسلنا رياح الهداية لواقح ، تلقح الطمأنينة والمعرفة فى قلوب المتوجهين ، وتلقح اليقين والتوفيق فى قلوب الصالحين ، وتلقح الإيمان والهداية فى قلوب المؤمنين ، فأنزلنا من سماء الغيب ماء العلم اللدني ، فأسقيناكموه على أيدى وسائط الشيوخ ، أو بلا واسطة ، وما أنتم له بخازنين ، بل يفيض على قلوبكم عند غلبة الحال ، أو لهداية مريد ، أو عند الاحتياج إليه عند استفتاح القلوب ، وإنا لنحن نحيى قلوبا بالمعرفة واليقين ، ونميت قلوبا بالجهل والكفر ، ونحن الوارثون لبقاء أنوارنا على الأبد. ولقد علمنا المستقدمين منكم إلى حضرة قدسنا بالاستعداد ، وإعطاء الكلية

من نفسه ، ولقد علمنا المستأخرين عنها بسبب ضعف همته ، وإن ربك هو يحشرهم فيقرب قوما لسبقهم ، ويبعد آخرين لتأخرهم. إنه حكيم عليم.

ثم ذكر أول نشأة الثقلين ، ليدل بها على الحشر والإعادة ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٢٦ الى ٢٧]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ (٢٧)

قلت : قال فى الصحاح : الحمأ المسنون : المنتن المتغير. وسنّة الوجه : صورته ، ثم قال : والمسنون : المصوّر ، وقد سننته أسنّه سنّا إذا صوّرته ، والمسنون : المملّس. وفى القاموس : الحمأ المسنون : المنتن ، ورجل مسنون الوجه :

مملسه ، حسنه ، سهله. أو فى وجهه وأنفه طول. وسنن الطين : عمله فخارا. هـ. وفى ابن عطية : هو من سننت السكين والحجر : إذا أحكمت تلميسه. انظر بقية كلامه. وموضع مِنْ حَمَإٍ : نعت لصلصال ، أي : كائن من حمأ. و(الجان) : منصوب بمحذوف يفسره ما بعده.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ أي : أصله ، وهو آدم ، مِنْ صَلْصالٍ أي : طين يابس يصلصل. أي : يصوت إذا نقر فيه وهو غير مطبوخ ، فإذا طبخ فهو فخار ، مِنْ حَمَإٍ : من طين أسود مَسْنُونٍ : متغير منتن ، من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به فإنّ ما يسيل بينهما يكون منتنا ،

ويسمى سنينا. أو مسنون : مصور ، أو مصبوب ليتصور ، كالجواهر المذابة تصب فى القوالب ، من السن ، وهو الصب ، كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صلصل ، ثم غير ذلك طورا بعد طور حتى سواه ونفخ فيه من روحه.

وَالْجَانَّ وهو : إبليس الأول ، ومنه تناسلت الجن ، خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ أي : من قبل خلق الإنسان ، مِنْ نارِ السَّمُومِ : من نار الحر الشديد النافذ فى المسام ، ولا يمتنع خلق الحياة فى الأجرام البسيطة ، كما لم يمتنع خلقها فى الجواهر المجردة ، فضلا عن الأجساد المؤلفة ، التي الغالب فيها الجزء الناري ، فإنها أقبل منها لها من التي الغالب فيها الجزء الأرضى. وقوله : مِنْ نارٍ : لاعتبار الغالب ، كقوله : خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ «١».

ومساق الآية كما هو للدلالة على قدرة اللّه تعالى ، وبيان بدء خلق الثقلين ، فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر ، وهو قبول المواد للجمع والإحياء. قاله البيضاوي.

---

(١) من الآية ١١ من سورة فاطر.

(٨٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٨٦

الإشارة : اعلم أن الخمرة الأزلية ، حين تجلت فى مرائى جمالها ، تلونت فى تجليها ، فتجلت نورانية ونارية ، ومائية وترابية ، وسماوية وهوائية ، إلى غير ذلك من ألوان تجلياتها ، فكانت الملائكة من النور ، والجن من النار ، والآدمي من التراب ، إلا أن الآدمي فيه روح نورانية سماوية ، فاجتمع فيه الضدان : النور والظلمة فشرف قدره فى الجملة ، فاستحق الخلافة ، فإذا غلبت روحانيته على جسمانيته فضل على جميع التجليات ، وما مثاله إلا كالمرآة التي خلفها الطلاء ، فينطبع فيه الوجود بأسره ، إذا صقلت مرآة قلبه ، فتكون معرفته بالحق أجلى وأنصع من معرفة غيره لأن المرآة التي خلفها الطلاء يتجلى فيها ما يقابلها أكثر من غيرها. وأيضا بشرية الآدمي كالياقوتة السوداء إذا صقلت كانت أعظم اليواقيت.

وسيأتى بقية الكلام عند قوله تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ «١» إن شاء اللّه.

ثم ذكر تشريف آدم الملائكة بالسجود له ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٢٨ الى ٤١]

وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢)

قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧)
إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١)
قلت : (و إذ قال) : ظرف لاذكر ، وقوله : (فقعوا) : أمر ، من وقع ، يقع ، قع ، فهو مما حذفت فاؤه. وقوله :
فَسَجَدَ معطوف على محذوف ، أي : فخلقه ، وأمر الملائكة فسجدوا.

---

(١) من الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يا محمد إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ ، قبل خلق آدم : إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، وصفه لهم بذلك ليظهر صدق من يمتثل أمره ، قال تعالى : فَإِذا سَوَّيْتُهُ : عدلت خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي حين جرى آثاره فى تجاويف أعضائه فحيي ، وأصل النفخ : إجراء الروح فى تجويف جسد آخر. ولما كان الروح يتعلق أولا بالبخار اللطيف المنبعث من القلب ، وتفيض عليه القوة الحيوانية فيسرى فى تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن ، جعل تعلقه بالبدن نفخا. قاله البيضاوي. وأضاف الروح إلى نفسه إضافة ملك إلى مالك ، أي : من الروح الذي هو لى ، وخلق من خلقى.
فإذا نفخت فيه فَقَعُوا : فاسقطوا لَهُ ساجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ حين أكمل خلقته ، وأمرهم بالسجود ، وقيل : اكتفى بالأمر الأول ، كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ، أكد بتأكيدين للمبالغة فى التعميم ومنع التخصيص ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى : امتنع أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ، قال البيضاوي : إن جعل الاستثناء منقطعا اتصل به قوله : أَبى أي : لكن إبليس أبى أن يسجد «١» ، وإن جعل متصلا كان قوله أَبى : استئنافا ، على أنه جواب سائل قال : هلا سجد؟ فقال : أبى .. إلخ. قلت : والأحسن : أن يقدر السؤال بعد قوله : إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أي : وما شأنه؟ فقال : أبى أن يكون مع الساجدين.
قال تعالى : يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أىّ شىء عرض لك ، أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ لآدم؟ قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ أي : لا يصح منى ، بل ينافى حالى أن أسجد لِبَشَرٍ جسمانى كثيف ، وأنا روحانى لطيف ، وقد خَلَقْتَهُ

مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، وهو أخس العناصر ، وخلقتنى من نار وهى أشرفها. استنقص آدم من جهة الأصل ، وغفل عن الكمالات التي خصه اللّه بها ، منها : أنه خلقه بيديه بلا واسطة ، أي : بيد القدرة والحكمة ، بخلاف غيره ، ومنها : أنه خصه بالعلوم التي لم توجد عند غيره من الملائكة ، ومنها : أنه نفخ فيه من روحه المضافة إلى نفسه ، ومنها : أنه جعله خليفة فى أرضه ... إلى غير ذلك من الخواص التي تشرف بها فاستحق السجود.

---

(١) وهذا هو الصحيح فإبليس ، بنص الآية السابقة عن خلق الجان ، قد خلق من نار السموم ، فهذا نص فى اختلاف خلقته ، وخلقه ، عن الملائكة ، فهو جنس آخر غير الملائكة التي خلقها الله من نور ، ولا يعصون الله ما أمرهم ، فهذان دليلان قطعيان فى الثبوت والدلالة ، على أن إبليس ليس ، ولم يكن من الملائكة ، لا خلقا ولا خلقا ، فالاستثناء منقطع.

(٨٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٨٨

قال له تعالى لمّا امتنع واستكبر : فَاخْرُجْ مِنْها أي : من السماء ، أو من الجنة ، أو من زمرة الملائكة ، فَإِنَّكَ رَجِيمٌ : مطرود من الخير والكرامة فإنّ من يطرد يرجم بالحجر ، أو شيطان يرجم بالشهب ، فهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته ، أي : ليس الشرف بالأصل ، إنما الشرف بالطاعة والقرب. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ :

الطرد والإبعاد إِلى يَوْمِ الدِّينِ يوم الجزاء ، ثم يتصل باللعن الدائم. وقيل : إنما حد اللعن لأنه أبعد غاية يضربها الناس ، أو لأنه يعذب فيه بما ينسى اللعن ، فيصير كأنه زال عنه ذلك اللعن.

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي : أخرنى إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ، أراد أن يجد فسحة فى الإغواء ، ونجاة من الموت ، إذ لا موت بعد وقت البعث ، فأجابه إلى الأول دون الثاني ، قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ :

المعين فيه أجلك عند اللّه ، وانقراض الناس كلهم ، وهو النفخة الأولى عند الجمهور.

وهذه المخاطبة ، وإن لم تكن بواسطة ، لا تدل على منصب إبليس لأن خطاب اللّه له على سبيل الإهانة والإذلال. قاله البيضاوي. وجزم ابن العربي ، فى سراج المريدين ، بأن كلام الحق تعالى إنما كان بواسطة ، قال :

لأن اللّه لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس ، فكيف يكلم من تولى إضلالهم. هـ. وتردد المازرىّ فى ذلك وقال : لا قاطع فى ذلك ، وإنما فيه ظواهر ، والظواهر لا تفيد اليقين. ثم قال : وأما قوله : ما

مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ :

فيحتمل أن يكون بواسطة أو بغيرها ، تقول العرب : كلمت فلانا مشافهة ، بالكلام ، وتارة بالبعث. هـ.

قلت : الظاهر أنه كلمه بلا واسطة من وراء حجاب ، كلام عتاب وإهانة ، كما يوبخ الكفار يوم القيامة ، مع أن الواسطة محذوفة عند المحققين ، وإن وجدت ، صورة.

ثم قال : رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي أي : بسبب إغوائك لى ، لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وقيل : الباء للقسم ، أي :

بقدرتك على إغوائى ، لأزينن لهم المعاصي والكفر فى الدنيا ، التي هى دار الغرور. قال ابن عطية : قوله :

رَبِّ : مع كفره ، يخرج على أنه يقر بالربوبية والخلق ، وهذا لا يدفع فى صدر كفره. وقال ، على قوله : لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ : ليس هذا موضع كفره عند الحذاق لأن إبايته إنما هى معصية فقط ، أي : وإنما كفره لاعتراضه لأمر الحق واستكباره. وأما قوله وتعليله فإنما يقتضى أن آدم مفضول ، وقد أمره أن يسجد لمن هو أفضل منه ، فرأى أن ذلك جور ، فقاس وأخطأ ، وجهل أن الفضائل إنما هى حيث جعلها اللّه تعالى المالك للجميع. هـ. مختصرا. وقال المازري : أما كفر إبليس فمقطوع به لقوله : اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ «١» ثم قال : ويؤكده قوله : رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي ، وقوله : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ ... الآية «٢» ، وغير ذلك من ظواهر ما يدل على كفره.

---

(١) من آية ٣٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٨٥ من سورة (ص).

وأما : هل حدث هذا الكفر بعد إيمان سابق ، أو لم يزل كافرا منذ كان؟ فهذا لا يحصله إلا نص قرآن ، أو خبر متواتر ، أو إجماع أمة ، وهى المحصلة للعلم ، وهذه الثلاثة مفقودة هنا. هـ. قلت : والظاهر أن كفره لم يظهر إلا بعد الأمر بالسجود لآدم ، وإنما سبق به العلم القديم ، وكان قد أظهر الإيمان والعبادة واللّه تعالى أعلم.

وقوله : وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ لأحملنهم على الغواية أجمعين ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ الذين أخلصتهم لطاعتك ، وطهرتهم من الشهوات ، فلا يعمل فيهم كيدى. ومن قرأ بالكسر فمعناه : الذين أخلصوا دينهم للّه ، وتحصنوا بالإخلاص فى سائر أعمالهم. قالَ تعالى : هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ،

الإشارة إلى نجاة المخلصين ، أو إلى العبادة والإخلاص ، أي : هذا الطريق الذي سلكه أهل الإخلاص فى عبوديتهم هو طريق وارد علىّ ، وموصل إلى جوارى ، لا سبيل لك على أهله لأنه مستقيم لا عوج فيه. وقيل : الإشارة إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص ، أي : هذا أمر إلىّ مصيره ، والنظر فيه لى ، علىّ أن أراعيه وأبينه ، مستقيم لا انحراف فيه. وقرأ الضحاك ومجاهد والنخعي ، وغيرهم : «علىّ» بكسر اللام والتنوين ، من العلو والشرف ، والإشارة حينئذ إلى الإخلاص ، أي : هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بإغوائك أهله يا إبليس.

الإشارة : إنما يصعب الخضوع للجنس أو لمن دونه ، فى حق من يغلب حسه على معناه ، وفرقه على جمعه ، وأما من غلب معناه على حسه ، حتى رأى الأشياء الحسية أوانى حاملة للمعانى ، أي : لمعانى أسرار الربوبية ، بل رآها أنوارا بارزة من بحر الجبروت ، لم يصعب عليه الخضوع لشيء من الأشياء لأنه يراها قائمة باللّه ، ولا وجود لها مع اللّه ، فلا يخضع حينئذ إلا للّه ، فالملائكة - عليهم السلام - نفذت بصيرتهم ، فرأوا آدم عليه السّلام قبلة للحضرة القدسية ، فغلب عليهم شهود المعاني دون الوقوف مع الأوانى ، فخضعوا لآدم صورة ، وللّه حقيقة. وإبليس وقف مع الحس ، وحجب بالفرق عن الجمع ، فلم ير إلا حس آدم دون معناه ، فامتنع عن السجود. وفى الحكم العطائية : «فمن رأى الكون ، ولم يشهد الحق فيه ، أو عنده ، أو قبله ، أو بعده ، أو معه ، فقد أعوزه وجود الأنوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار». ولهذا المعنى صعب الخضوع للأشباح لغلبة الفرق على الناس ، إلا من سبقت له العناية ، فإنه يخضع مع الفرق محبة للّه ، حتى يفتح اللّه عليه فى مقام الجمع ، فيخضع للّه وحده. والتوفيق لهذا ، والسير على منهاجه - أعنى الخضوع لمن يوصل إلى اللّه - هو الصراط الذي أشار إليه الحق تعالى بقوله : (هذا صراط علىّ مستقيم). واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر من لا تسلط للشيطان عليه ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٤٢ الى ٤٨]

إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ (٤٦)

وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ (٤٨)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩٠

قلت : (إلا من اتبعك) : يحتمل أن يكون منقطعا ، ويريد بالعباد : الخصوص من أهل الإيمان والإخلاص ، أي :

إن عبادى المخلصين لا تسلط لك عليهم ، لكن من اتبعك من الغاوين فهو من حزبك. ويحتمل الاتصال ، ويريد بالعباد جميع الناس ، أي : إن عبادى كلهم ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من أهل الغواية ، فإنك تتسلط عليه بالوسوسة والتزيين والتحريض فقط ، فيتبعك لقوله يوم القيامة : وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي «١». وعلى الاتصال يكون المستثنى منه أكثر من المستثنى ، وإلا تناقض مع قوله :

لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قال أبو المعالي : كون المستثنى أكثر من المستثنى منه ليس معروفا فى كلام العرب. انظر ابن عطية والبيضاوي.

ومِنْهُمْ : حال من جزء مقدم ، أي : لكل باب جزء حاصل منهم مقسوم ، أو من المستكن فى الظرف لا من مقسوم لأن الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفها. وإِخْواناً : حال من الضمير المضاف إليه لأنه جزء ما أضيف إليه ، والعامل فيه : الاستقرار ، أو معنى الإضافة ، وكذا : عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ ، ويجوز أن يكونا صفتين لإخوان ، أو حالين من ضميره.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ عِبادِي المتحققين بالعبودية لى ، المخلصين فى أعمالهم ، لَيْسَ لَكَ يا إبليس عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ أي : غلبة وتسلط بالغواية والإضلال ، إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ الذين سبقت لهم الغواية ، وتنكبتهم العناية. وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ : لموضع إبعاد الغاوين أو المتبعين لك أَجْمَعِينَ ، لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ يدخلون فيها لكثرتهم ، أو طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى المتابعة ، وفى كل طبقة باب يسلك منه إليها ، فأعلاها : جهنم ، وهى للمذنبين من الموحدين ، ثم لظى لليهود ، ثم الحطمة للنصارى ، ثم السعير للصابئين ، ثم سقر للمجوس ، ثم الجحيم للمشركين ، وكبيرهم أبو جهل ، ثم الهاوية ، وهى الدرك الأسفل ، للمنافقين ،

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩١

وعبّر فى الآية عن النار جملة ، بجهنم إذ هى أشهر منازلها وأولها ، وهو موضع العصاة الذين لا يخلدون ، ولهذا روى أن جهنم تخرب وتبلى ، يعنى : حين يخرج العصاة منها. وقيل : أبواب الطبقات

السبع كلها من جهنم ، ثم ينزل من كل باب إلى طبقته التي تفضى إليه. قاله ابن عطية.

قال البيضاوي : ولعل تخصيص العدد بالسبعة ، لانحصار مجامع المهلكات فى الركون إلى المحسوسات ، ومتابعة القوة الشهوية والغضبية. هـ. فالقوة الشهوية محلها ست وهى : السمع والبصر والشم واللسان والبطن والفرج. والقوة الغضبية فى البطش باليد والرجل ، فالمعاصى المهلكات جلها من هذه السبع ، وملكها القلب ، إذا صلح صلحت ، وإذا فسد فسدت. كما فى الحديث. ثم قال البيضاوي : أو لأن أهلها فرق سبع. هـ. يعنى : الفرق التي تقدمت للطبقات ، قال تعالى : لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ أي : من الأتباع جُزْءٌ مَقْسُومٌ أفرد له ، لا يدخل إلا منه ، ولا يسكن إلا فى طبقته. وقد تقدم أهل كل طبقة ، من عصاة الموحدين إلى المنافقين.

ثم شفع بضدهم ، على عادته سبحانه وتعالى فى كتابه ، فقال : إِنَّ الْمُتَّقِينَ للكفر والفواحش ، أو لمتابعة إبليس ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، لكل واحد جنة وعين ، أو لكل واحد جنات وعيون ، يقال لهم عند دخولهم :

ادْخُلُوها ، وقرأ رويس عن يعقوب : «أدخلوها» بضم الهمزة وكسر الخاء ، على البناء للمفعول ، فلا يكسر حينئذ التنوين ، أي : تقول الملائكة لهم : ادخلوها ، أو قد أدخلهم اللّه إياها. بِسَلامٍ أي : سالمين من المكاره والآلام ، أو مسلما عليكم بالتحية والإكرام ، آمِنِينَ من الآفة والزوال.

وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ أي : من حقد وعداوة كانت فى الدنيا ، وعن على رضي اللّه عنه : (أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم) ، أو من التحاسد على درجات ومراتب القرب.

قلت : أما التحاسد على مراتب القرب فلا يكون لاستغناء كل أحد بما لديه ، وأما التأسف والندم على فوات ذلك بالتفريط فى الدنيا فيحصل ، ففى الحديث : «ليس يتحسّر أهل الجنّة على شىء إلّا على ساعة مرّت لهم لم يذكروا اللّه فيها» «١». ولا يحصل التحسر حتى يرى ما فاته باعتبار وقوفه. قال ابن عطية : ذكر هنا نزع الغل من قلوب أهل الجنة ، ولم يذكر له موطنا ، وجاء فى بعض الحديث أن ذلك على الصراط ، وجاء فى بعضها : أن ذلك على أبواب الجنة ، وفى بعضها : أن الغل يبقى على أبوابها كمعاطن الإبل. ثم قال : وجاء فى بعض الأحاديث : أن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم فى الجنة. والذي يقال فى هذا : أن اللّه ينزعه فى موطن من قوم وفى موطن من آخرين. هـ.

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (باب فى محبة الله عز وجل ٥١٢) من حديث معاذ بن جبل ، وعزاه السيوطي فى الجامع الصغير (٢/ ٤٧١) للطبراني والبيهقي فى الشعب ، ورمز له بالحسن.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩٢

قلت : والذي جاء فى الأحاديث الواردة فى أخبار الآخرة : أن أهل الجنة ، إذا قربوا منها وجدوا على بابها عينين ، فيغتسلون فى إحداهما ، فتنقلب أجسادهم على صورة آدم عليه السّلام ، ثم يشربون من الأخرى فتطهر قلوبهم من الغل والحسد ، وسائر الأمراض ، وهو الشراب الطهور. قال القشيري فى قوله تعالى : وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً «١» : يقال : يطهّرهم من محبة الأغيار ، ويقال : ويطهّرهم من الغلّ والغشّ والدعوى ... إلخ ما يأتى إن شاء اللّه تعالى. واللّه تعالى أعلم ، وسترى وتعلم.

ثم قال تعالى : إِخْواناً ، أي : لما نزعنا ما فى صدورهم من الغل صاروا إخوانا متوددين ، لا تباغض بينهم ولا تحاسد ، عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ يقابل بعضهم بعضا على الأسرة ، لا ينظر أحد فى فناء صاحبه. وقال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : المتجه أن المقابلة معنوية ، وهى عدم إضمار الغل والإعراض ، سواء اتفق ذلك حسا أم لا ، ومن أضمر لأخيه غلا فليس بمقابله ، ولو كان وجهه إلى وجهه ، بل ذلك أخلاق نفاق ، ولذلك شواهد بذمه لا بمدحه. هـ. لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ أي : تعب ، وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ ، لأن تمام النعمة لا يكون إلا بالخلود والدوام فيها. أكرمنا اللّه بتمام نعمته ، ودوام النظر إلى وجهه. آمين.

الإشارة : لا ينقطع عن العبد تسلط الشيطان حتى يدخل مقام الشهود والعيان ، حين يكون عبدا خالصا للّه ، حرا مما سواه ، وذلك حين ينخرط فى سلك القوم ، ويزول عنه لوث الحدوث والعدم ، فيفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل ، وذلك بتحقيق مقام الفناء ، ثم الرجوع إلى مقام البقاء. قال الشيخ أبو المواهب رضي اللّه عنه : من رجع إلى البقاء أمن من الشقاء وذلك أن العبد حين يتصل بنور اللّه ، ويصير نورا من أنواره ، يحترق به الباطل ويدمغ ، فلا سبيل للأغيار عليه. ولذلك قال بعضهم : نحن قوم لا نعرف الشيطان ، فقال له القائل : فكيف ، وهو مذكور فى كتاب اللّه تعالى ، قال تعالى : إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا «٢»؟. فقال : نحن قوم اشتغلنا بمحبة الحبيب ، فكفانا عداوة العدو. وحين يتحقق العبد بهذا المقام ينخرط فى سلك قوله تعالى : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ. وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ .. الآية ، وهذا لا ينال إلا بالخضوع لأهل النور ، حتى يوصلوه إلى نور النور ، فيصير قطعة من نور ، غريقا فى بحر النور. ومع هذا لا ينقطع عنه الخوف والرجاء ، لقوله تعالى :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٤٩ الى ٥٠]

نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (٥٠)

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الإنسان.

(٢) من الآية ٦ من سورة فاطر.

البحر المديد ج ٣ ، ص : ٩٣
يقول الحق جل جلاله : نَبِّئْ : أخبر ، عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ لمن آمن بي ، وصدق رسلي ، وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ لمن كفر بي ، وجحد رسلي ، أو بعضهم. قال البيضاوي : هى فذلكة ما سبق من الوعد والوعيد ، وتقرير له ، وفى ذكر المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين متقى الذنوب بأسرها ، كبيرها وصغيرها ، وفى توصيف ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيب - أي : لم يقل وأنا المعذب المؤلم - ترجيح الوعد. هـ.
وذكر ابن عطية أن سبب نزولها : أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جاء إلى جماعة من أصحابه ، عند باب بنى شيبة فى الحرم ، فوجدهم يضحكون ، فزجرهم ووعظهم ، ثم ولى ، فجاءه جبريل عن اللّه ، فقال : يا محمد أتقنّط عبادى؟ وتلى عليه الآية ، فرجع بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إليهم وأعلمهم «١». هـ. ثم قال : ولو لم يكن هذا السبب لكان ما قبلها يقتضيها إذ تقدم ذكر ما فى النار وذكر ما فى الجنة ، فأكّد تعالى تنبيه الناس بهذه الآية. هـ.
قيل : وهذه الآية أبلغ ما فى القرآن فى إثارة الخوف والرجاء ، من الآي التي لا تشبهها فى الإجمال لما فيها من التصريح ، ثم الرجاء فيها أغلب لأجل التقديم ، مع ذكره فى آية الرجاء ، لصفاته العلية وأسمائه الحسنى ، وذلك يؤذن بالتهمم به وترجيحه ، وهو مذهب الصوفية فى حال الحياة والممات.
الإشارة : الخوف والرجاء يتعاقبان على الإنسان ، فتارة يغلب عليه الخوف ، وتارة يغلب عليه الرجاء. هذا قبل الوصول ، وأما بعد الوصول فالغالب عليهم الاعتدال ، قال فى التنبيه : أما العارفون الموحدون فإنهم على بساط القرب والمشاهدة ، ناظرون إلى ربهم ، فانون عن أنفسهم ، فإذا وقعوا فى ذلة ، أو أصابتهم غفلة ، شهدوا تصريف الحق تعالى لهم ، وجريان قضائه عليهم. كما أنهم إذا صدرت منهم طاعة ، أو لاح منهم لائح من يقظة ، لم يشهدوا فى ذلك أنفسهم ، ولم يروا فيها حولهم ولا قوتهم لأن السابق إلى قلوبهم ذكر ربهم ، فأنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره ، وقلوبهم ساكنة بما لاح لهم من أنواره ، ولا فرق عندهم بين الحالين لأنهم غرقى فى بحار التوحيد ، قد استوى خوفهم ورجاؤهم ، فلا ينقص من خوفهم ما يجتنبونه من العصيان ، ولا يزيد فى رجائهم ما يأتون من الإحسان. هـ. قلت : بل طرق الرجاء عندهم أرجح ، كما تقدم لأن الرجاء ناشئ عن غلبة المحبة ، وهى غالبة.
واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري فى تفسيره (١٤/ ١٠٢) عن رجل من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وذكره الواحدي فى أسباب النزول (٢٨٣) بدون سند.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩٤

ثم ذكر قصة إبراهيم مع أضيافه لاشتمالها على الرحمة ، وهى البشارة بالولد ، وعلى النقمة ، وهى الإعلام بتعذيب قوم لوط ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٥١ الى ٦٠]

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (٥٥)

قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (٦٠)

قلت : سَلاماً : مفعول بمحذوف ، أي : سلمنا سلاما ، أو نسلم عليكم سلاما. والضيف يطلق على الواحد والجماعة ، والمراد هنا : جماعة من الملائكة. و(تبشرون) : قرئ بشد النون بإدغام نون الرفع فى نون الوقاية ، وبالتخفيف بحذف إحدى النونين ، وبالفتح ، على أنها نون الرفع. و(يقنط) : بالفتح والكسر ، يقال : قنط كضرب وعلم.

يقول الحق جل جلاله : وَنَبِّئْهُمْ أي : وأخبر عبادى عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ حين بشروه بالولد ، وأعلموه بعذاب قوم لوط ، لعلهم يعتبرون فيرجون رحمته ويخافون عذابه. أو : ونبئهم أن من اعتمد منهم على كفره وغوايته ، فالعذاب لاحق به فى الدنيا ، كحال قوم لوط. ثم ذكر قصتهم من أولها فقال : وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ ، وذلك حين دَخَلُوا عَلَيْهِ ، وهم أربعة : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، فَقالُوا سَلاماً أي : نسلم عليكم سلاما ، قال : سلام ، ثم أتاهم بعجل حنيذ ، فلما قربه إليهم ، قالوا : إنا لا نأكل طعاما إلا بثمن ، فقال إبراهيم : إن له ثمنا ، قالوا : وما ثمنه؟ قال : تذكرون اسم اللّه على أوله ، وتحمدونه على آخره ، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال : حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا ، فلما رأى أنهم لا يأكلون فزع منهم. ومن طريق آخر : أن جبريل مسح بجناحه العجل ، فقام يدرج حتى لحق بأمه فى الدار. هـ. هكذا ذكر القصة المحشى الفاسى عن ابن حجر.

فلما أحس إبراهيم عليه السّلام بالخوف منهم قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ : خائفون إما لامتناعهم من أكل طعامه ، أو لأنهم دخلوا بغير إذن ، أو فى غير وقت الدخول. والوجل : اضطراب النفس لتوقع مكروه.

قالُوا لا تَوْجَلْ :

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩٥
لا تخف ، ثم عللوا نهيه عن الخوف فقالوا : إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ وهو إسحاق ، لقوله : فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ «١» ، عَلِيمٍ إذا بلغ أوان العلم. قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ أي : أبشرتموني بالولد مع أني قد كبر سني ، وكان حينئذ من مائة سنة وأكثر ، فَبِمَ تُبَشِّرُونَ؟ أي : فبأى أعجوبه تبشرون؟ أو فبأى شيء تبشرون؟
فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شيء. قال ذلك على وجه التعجب من ولادته في كبره.
قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ : باليقين الثابت الذي لا محالة في وقوعه ، فلا تستبعده ، ولا تشك فيه ، فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ : من الآيسين ، فإن اللّه تعالى قادر على أن يخلق بشرا من غير أبوين ، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر. وكان استعجاب إبراهيم باعتبار العادة دون القدرة ولذلك قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ أي : لا ييأس من رحمة ربه إِلَّا الضَّالُّونَ : المخطئون طريق المعرفة ، فلا يعرفون سعة رحمته تعالى ، وكمال قدرته. قال القشيري : أي : من الذي يقنط من رحمة اللّه إلا من كان ضالا ، فكيف أخطأ ظنكم بي ، فتوهمتم أني أقنط من رحمة ربى؟. هـ. وفيه دليل على تحريم القنوط قال تعالى : إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ «٢».
قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ أي : ما شأنكم الذي أرسلتم لأجله سوى البشارة؟ ولعله علم أن كمال المقصود ليس هو البشارة فقط ، لأنهم كانوا عددا ، والبشارة لا تحتاج إلى عدد ، ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم. أو لأنهم بشروه في تضاعيف الحال لإزالة الوجل ، ولو كانت تمام المقصود لابتدروه بها. ثم أجابوه : قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ يعنى : قوم لوط لأن شأنهم الإجرام بفعل الفاحشة ، إِلَّا آلَ لُوطٍ أي : لكن آل لوط لم نرسل إلى عذابهم إذ ليسوا مجرمين. أو أرسلنا إلى قوم أجرموا كلهم ، إلا آل لوط ، لنهلك المجرمين وننجى آل لوط ، ويدل عليه قوله : إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ من العذاب الذي يهلك به قوم لوط.
قال ابن جزى : قوله : إِلَّا آلَ لُوطٍ : يحتمل أن يكون استثناء من قومه ، فيكون منقطعا لوصف القوم بالإجرام ، ولم يكن آل لوط مجرمين. ويحتمل أن يكون استثناء من الضمير في مُجْرِمِينَ فيكون متصلا ، كأنه قال : إلى قوم أجرموا كلهم إلا آل لوط فلم يجرموا ، وقوله : إِلَّا امْرَأَتَهُ استثناء من آل لوط ، فهو استثناء من استثناء. قيل : وفيه دليل على أن الأزواج من الآل لأنه استثنى امرأته من آله. وقال الزمخشري : إنما هو

---

(١) من الآية ٧١ من سورة هود. [.....]
(٢) من الآية ٨٧ من سورة يوسف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩٦

استثناء من الضمير المجرور فى قوله : إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ، وذلك هو الذي يقتضيه المعنى. هـ. أي : إنا لمنجوهم من العذاب إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ الباقين فى العذاب مع الكفرة لتهلك معهم ، وقرأ أبو بكر عن عاصم : «قدرنا» بالتخفيف ، وهما لغتان ، يقال : قدّر اللّه كذا وقدره. قال البيضاوي : وإنما علق ، والتعليق من خواص أفعال القلوب لتضمنه معنى العلم ، ويجوز أن يكون (قدرنا) : أجرى مجرى قلنا لأن التقدير بمعنى القضاء قول ، وأصله : جعل الشيء على مقدار غيره ، وإسناد التقدير إلى أنفسهم ، وهو فعل اللّه تعالى لما لهم من القرب والاختصاص. هـ.

قلت : وفيه إشارة إلى حذف الوسائط ، كما هو توحيد المحققين. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية ، فالوجل والخوف والفرح والحزن والتعجب والاستعظام للأشياء الغريبة ، كل ذلك من وصف البشر ، يقع من الخصوص وغيرهم ، لكن فرق بين خاطر وساكن فالخصوص تهجم عليهم ولا تثبت ، بخلاف العموم.

ويؤخذ من الآية : أن صحبة الخصوص لا تنفع إلا مع الاعتقاد والتعظيم ، فإنّ امرأة نبى اللّه لوط كانت متصلة به حسا ، ومصاحبة له ، ولم ينفعها ذلك ، حيث لم يكن لها فيه اعتقاد ولا تعظيم. وكذلك صحبة الأولياء : لا تنفع إلا مع الصدق والتعظيم. وقول ابن عطاء اللّه : «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه.

ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه» : مقيد بوصول التعظيم والاعتقاد ، والاستماع والاتباع. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هلاك قوم لوط ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٦١ الى ٧٧]

فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)

وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (٧٠) قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ

لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)
وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)

(٣/٩٦)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩٧

قلت : وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ ، القضاء هنا بمعنى القدر السابق ، وضمّنه معنى أوحينا ، فعداه بإلى. و(أنّ دابر) : بدل من الأمر ، وفى ذلك تفخيم الأمر وتعظيم له ، ومُصْبِحِينَ : حال من «هؤلاء» ، أو من ضمير مقطوع ، وجمعه للحمل على المعنى لأن دابر بمعنى دوابر ، أي : قطعنا دوابرهم حال كونهم داخلين فى وقت الصباح.

ولَعَمْرُكَ : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : قسمى ، قال ابن عزيز : عمر وعمر واحد ، ولا يقال فى القسم إلا مفتوحا ، وإنما فتح فى القسم فقط لكثرة الاستعمال.

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ، وهم أضياف إبراهيم ، فلما دخلوا عليه ولم يعرفهم ، قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ لا نعرفكم. أو تنكركم نفسى مخافة أن تطرقونى بشىء ، قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ أي : ما جئناك بما تنكرنا لأجله ، بل جئناك بما يسرك ، وهو : قطع الفاحشة من بلدك ، وإتيان العذاب لعدوك الذي توعدناهم ، فكانوا يمترون فيه ويشكون فى إتيانه ، وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِّ باليقين الثابت ، وهو إتيان العذاب لا محالة ، وَإِنَّا لَصادِقُونَ فيما أخبرناك به.

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ : فاذهب بهم بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ أي : فاخرج بهم فى طائفة من الليل ، قيل : آخره ، وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ أي : كن خلفهم فى ساقتهم ، حتى لا يبقى منهم أحد ، أو : أمره بالتأخر عنهم ليكونوا قدامه ، فلا يشتغل قلبه بهم لو كانوا خلفه لخوفه عليهم ، أي : ليسرع بهم ، ويطلع على أحوالهم. وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ خلفه ، لينظر ما وراءه ، فيرى من الهول ما لا يطيقه ، أو : ولا ينصرف أحد منكم ، ولا يتخلف لغرض فيصيبه ما أصابهم. وقيل : نهوا عن الالتفات ليوطنوا أنفسهم على الهجرة. وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ أي : إلى حيث أمركم اللّه ، وهو الشام أو مصر ، وقال بعضهم : «ما من نبى هلك إلا لحق بمكة ، وجاور بها حتى مات».

وَقَضَيْنا : أوحينا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ ، وهو هلاك قومه ، ذكره مبهما ثم فسره بقوله : أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ وهو كناية عن استئصالهم ، والمعنى : أنهم يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد ، حال كونهم وقت العذاب مُصْبِحِينَ : داخلين فى الصباح.

وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ، وهى سدوم ، يَسْتَبْشِرُونَ بأضياف لوط طمعا فيهم فى فعل الفاحشة ، والظاهر : أن هذا المجيء إليه ، وما جرى له معهم من المحاورة ، كان قبل الإعلام بهلاكهم ، كما تقدم فى هود.

وانظر ابن عطية. فلما جاءوه يراودونه عن ضيفه قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ بهتك حرمة ضيفى ، فإن

(٩٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩٨

من فضح ضيفه فقد فضح هو ، ومن أسىء إلى ضيفه فقد أسىء إليه ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فى ركوب الفاحشة ، وَلا تُخْزُونِ : ولا تهينونى بإهانتهم. والخزي هو الهوان ، أو : ولا تخجلون فيهم ، من الخزاية وهو الحياء.

قالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ عن أن تجير منهم أحدا ، أو تحول بيننا وبينهم ، وكانوا يتعرضون لكل أحد ، وكان لوط عليه السّلام يمنعهم ويزجرهم عنه بقدر وسعه. وذكر السدى : أنهم إنما كانوا يفعلون الفاحشة بالغرباء ، ولا يفعلونها بعضهم ببعض ، فكانوا يعترضون الطرق. هـ. أو : أو لم ننهك عن ضيافة العالمين وإنزالهم؟ قالَ هؤُلاءِ بَناتِي تزوّجوهنّ إياكم ، وقد كان يمنعهم قبل ذلك لكفرهم ، فأراد أن يقى أضيافه بهن. ولعله لم يكن حراما فى شريعته. أو يريد بالبنات نساء القوم فإن نبى كل أمة بمنزلة أبيهم ، إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ قضاء الوطر ، أو : ما أقول لكم من التزويج ، فأبوا ، ولجوا فى عملهم.

قال تعالى لنبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم : لَعَمْرُكَ : لحياتك يا محمد ، أقسم بحياته - عليه الصلاة والسلام - لشرف منزلته عنده. قال ابن عباس - رضى اللّه عنهما : «ما خلق اللّه خلقا أكرم عليه من محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته ، فقال : لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ قال القرطبي : وإذا أقسم اللّه بحياة نبيه فإنما أراد التصريح لنا أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته. وقد قال الإمام أحمد فيمن أقسم بالنبي صلى اللّه عليه وسلم : ينعقد به يمينه ، وتجب الكفارة بالحنث ، واحتج بكون النبي صلى اللّه عليه وسلم أحد ركنى الشهادة. قال ابن خويز منداد : هذا إذ استدل من جوّز الحلف به عليه الصلاة والسلام ، بأن أيمان المسلمين جرت من عهده صلى اللّه عليه وسلم حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا جاء صاحبه قال له : احلف لى بما حوى هذا القبر ، وبحق ساكن هذا القبر ، يعنى النبي صلى اللّه عليه وسلم. هـ «١».

قلت : ومذهب مالك أنه لا ينعقد يمين بغير اللّه ، وصفاته ، وأسمائه. وقيل : إن قوله تعالى : لَعَمْرُكَ : هو من قول الملائكة للوط ، أو لحياتك يا لوط ، إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ : أي : لفى غوايتهم ، أو شدة غلمتهم التي أزالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ والصواب ، يتحيرون. والغلمة : شهوة الوقاع. والعمه : الحيرة ، أي : إنهم لفى عماهم يتحيرون ، فكيف يسمعون نصح من نصحهم؟ والضمائر لقوم لوط ، وقيل : لقريش ، والجملة : اعتراض.

قال تعالى : فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ، يعنى : صيحة هائلة مهلكة. قال ابن عطية : هذه الصيحة صيحة الرجعة ، وليست كصيحة ثمود. هـ. وقيل : صاح بهم جبريل فأهلكتهم الصيحة ، مُشْرِقِينَ : داخلين فى وقت شروق الشمس فابتدئ هلاكهم بعد الفجر مصبحين ، واستوفى هلاكهم مشرقين. فَجَعَلْنا عالِيَها أي : عالى المدينة ، أو قراها ، سافِلَها ، فصارت منقلبة بهم.

---

(١) ملخّصا.

روى أن جبريل عليه السّلام اقتلع المدينة بجناحيه ورفعها ، حتى سمعت الملائكة صراخ الديكة ونباح الكلاب ، ثم قلبها وأرسل الكل ، فمن كان داخل المدينة أو القرى مات ، ومن كان خارجا عنها أرسلت عليه الحجارة ، كما قال تعالى : وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ : من طين متحجر مطبوخ بالنار. وقد تقدم فى سورة هود «١» مزيد بيان لهذا. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ : المتفكرين المعتبرين المتفرسين فى الأمور ، الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته ، وَإِنَّها أي : المدينة أو القرى ، لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ : لفى طريق ثابت يسلكه الناس ، ويمرون به ، ويرون آثارها. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً : لعبرة لِلْمُؤْمِنِينَ باللّه ورسله فإنهم هم المهتدون للتفكر والاعتبار ، دون من غلبت عليه الغفلة والاغترار ، كحال الكفار والفجار. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما بعث اللّه داعيا يدعو إليه إلا وكان أول ما يدعوهم إليه ، بعد الإيمان ، الخروج من العوائد والحظوظ النفسانية ، وما هلك من هلك من الأمم إلا بالبقاء معها ، وعدم الخروج عنها ، وما نجى من نجى إلا بالخروج عنها.

وكذلك فى طريق الخصوصية : ما بعث اللّه وليا مربيا إلا وكان أول ما يأمر : بخرق ، العوائد لاكتساب الفوائد ، فلا طريق لخصوصية الولاية إلا منها. وفى الحكم : «كيف تخرق لك العوائد ، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد». فمن تربى فى الرئاسة والجاه فلا مطمع له فى الخصوصية حتى يبدلهما بالخمول والذل ، وكذلك من تعود جمع الدنيا واحتكارها ، فلا بد من الزهد فيها والخروج عنها ، وكذلك سائر العوائد النفسانية ، والحظوظ الجسمانية ، فمن جاور قوما منهمكين فيها ، ولم يجد من يساعده على خرقها ، فليهاجر منها ، ويقال له : فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد إلى الرجوع ، إلا بعد الرسوخ والتمكين فى معرفة الحق تعالى ، وليمض حيث يجد من ينهض معه إلى اللّه فى نقل عوائدها وعوائقها.

وقوله تعالى : وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ : هذه عادة أهل الغفلة ، إن جاءهم من يجدون فيه موافقة هواهم ، هرعوا إليه مستبشرين ، وإن جاء من ينصحهم ويأمرهم بالخروج عن أهوائهم أدبروا عنه ، ومقتوه ، وربما أخرجوه من بلدهم ، قال تعالى فى أمثالهم : (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون). وباللّه التوفيق.

ثم ذكر قصة شعيب عليه السّلام ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٧٨ الى ٧٩]

وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ (٧٩)

قلت : «إن» : مخففة ، واللام فارقة.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ ، وهم قوم شعيب ، كانوا يسكنون غيضة ، وهى الأيكة. والأيكة : الشجر الملتف ، قيل : كانت من الدوح ، وقيل : من السدر ، فكانوا يسكنون فيها ، ويرتفقون بها

---

(١) راجع تفسير الآيات ٨١ - ٨٣.

فى معايشهم ، فبعث اللّه لهم شعيبا عليه السّلام فكفروا به ، فسلط اللّه عليهم الحر سبعة أيام ، ثم رأوا سحابة فخرجوا فاستظلوا تحتها ، فاضطرمت عليهم نارا ، فاحترقوا. قال تعالى : فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ بالهلاك بالحر ، وَإِنَّهُما ، يعنى : سدوم مدينة قوم لوط ، والأيكة قرية شعيب. وقيل : الأيكة ومدين لأن شعيبا عليه السّلام كان مبعوثا إليهما ، وكان ذكر أحدهما مغن عن الآخر ، لَبِإِمامٍ مُبِينٍ : لبطريق واضح يسلك منه إلى الشام ، فيعتبر كل من وقف بآثارهم. والإمام : ما يؤتم به ، ويوصل إلى المقصود من طريق أو غيره. وقيل : وَإِنَّهُما أي : لوط وشعيب ، على طريق من الشرع واضح. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما أهلك اللّه قوما إلا كانوا عبرة لمن بعدهم ، فالعاقل يبحث عن سبب هلاكهم ، فيعمل جهده فى التحرز منه ، والغافل منهمك فى غفلته ، لا يلقى لذلك بالا ، حتى يأتيه ما يوعد. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر قصة صالح عليه السّلام ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٨٠ الى ٨٤]

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٨١) وَكانُوا يَنْحِتُونَ

مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)

قلت : (بيوتا) : مفعول (ينحتون) ، بمعنى يتخذون ، أو يصنعون. و(آمنين) : حال من فاعل (ينحتون).

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ هم قوم ثمود ، والحجر : واديهم الذي يسكنونه ، وهو بين المدينة والشام. كذبوا صالحا عليه السّلام ، ومن كذّب واحدا من الرسل فكأنما كذّب الجميع لأنهم جاءوا بأمر متفق عليه ، وهو التوحيد ، أو يراد به الجنس ، كما تقول : فلان يركب الخيل ، وإنما يركب فرسا واحدا ، أو يراد به صالح ومن معه من المؤمنين لموافقتهم له فيما يدعو إليه. وَآتَيْناهُمْ آياتِنا يعنى : الناقة ، وما كان فيها من العجائب ، كسقيها وشربها ودرها ، أو ما نزل على نبيهم من الكتب ، أو ما نصب لهم من الأدلة. فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ : لم ينظروا فيها ، ولم يعتنوا بأمرها. وَكانُوا يَنْحِتُونَ : يصنعون ، والنحت : النقر بالمعاول فى الحجر والعود وشبهه ، فكانوا يتخذون مِنَ الْجِبالِ بالنقر فيها ، بُيُوتاً يسكنونها آمِنِينَ من الانهدام ، ونقب اللصوص ، وتخريب الأعداء لوثوقها. أو من العذاب لفرط غفلتهم ، أو حسبانهم أن الجبال تحميهم منه. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ : داخلين فى وقت الصباح ، فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ من بناء البيوت الوثيقة ، واستكثار الأموال والعدد.

(١٠٠/٣)

الإشارة : من علامة الغفلة عن اللّه : الإنكار على أولياء اللّه ، والإعراض عما خصهم اللّه تعالى به من الآيات وخوارق العادات ، كالعلوم اللدنية والمواهب القدسية ، وكمال المعرفة ، والرسوخ فى اليقين ، وشهود رب العالمين ، مع الاشتغال بعمارة هذه الدار ، ونسيان دار القرار كأنه أمن من الموت من شدة الاغترار. وسبب ذلك : عدم التفكر والاعتبار. ولذلك قال تعالى بإثر قصص من أهلكهم من الأمم الغافلة :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٨٥ الى ٨٦]

وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨٦)

يقول الحق جل جلاله : وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما من الكائنات إِلَّا بِالْحَقِّ أي : إلا خلقا ملتبسا بالحق ، وهو الدلالة على كمال قدرتنا وباهر حكمتنا ، فمن كمال القدرة : إهلاك أهل الفساد ، ودفع شرورهم وإبطال فسادهم ، ومن باهر حكمته أنه لم يهلكهم إلا بسبب عتوهم

وفسادهم. فالحكمة رداء للقدرة ، القدرة تبرز ، والحكمة تستر ، فإظهار الكائنات يدل على كمال القدرة ، وترتيبها على أسباب وشروط يدل على باهر الحكمة. ومن مقتضيات الحكمة : ترتيب الجزاء على العمل ، بحيث لا يهمل عملا ، فأهل الإكرام يترتب إكرامهم وإنعامهم على عملهم الصالح ، واعتقادهم الصحيح ، وما قاسوه من المجاهدة والمكابدة. وأهل الانتقام يترتب الانتقام منهم على عملهم الفاسد ، واعتقادهم الباطل ، وعلى ما قالوا فى الدنيا ، التي هى مزرعة الآخرة ، من الدعة والحظوظ الفانية ، ولذلك رتّب عليه قوله :

وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فيجازى فيها من يستحق الإكرام ، ويعاقب من يستحق الانتقام ، وينتقم لك فيها ممن يكذبونك ، فَاصْفَحِ اليوم الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ولا تعجل بالانتقام ، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم. وكان هذا قبل الأمر بالقتال. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الذي خلقك وخلقهم ، وبيده أمرك وأمرهم ، الْعَلِيمُ بحالك وبحالهم ، فهو الحقيق بأن تتكل عليه حتى يحكم بينك وبينهم. أو : هو الخلاق لأشباحكم وأرواحكم ، العليم بما هو الأصلح لكم فى الوقت ، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح. والخلاق أبلغ من الخالق باعتبار اللغة ، وأفعال اللّه تعالى كلها عظيمة كثيرة.

الإشارة : ما نصبت لك الكائنات لتراها بعين الفرق ، بل لترى فيها مولاها بعين الجمع. وما جعل لك هذه الدار لتتخذها دار القرار ، وإنما جعلها قنطرة ومعبرا لدار القرار. إنما جعل لك الدنيا الفانية مزرعة للدار الباقية. وإن الساعة لآتية ، فاصبر فى هذه الدار اللمحة اليسيرة على شدائد الزمان ، وجفوة الإخوان ، واصفح الصفح الجميل ،

حتى ترد النعيم الباقي ، والجزاء الجزيل. وتخلق بأخلاق الحليم الكريم ، إن ربك هو الخلاق العليم ، فلا قدرة لك على شىء إلا بقدرة السميع العليم.

ثم أمر نبيه بالغنى باللّه وبكلامه ، عن التطلع إلى زهرة الدنيا ، والمراد : الأمر بدوامه على ما كان عليه ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٨٧ الى ٩٩]

وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)

فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ

(٩٤) إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

قلت : السبع المثاني : هى الفاتحة عند الجمهور ، و(من المثاني) : للبيان ، وعطف القرآن عليها من عطف العام على الخاص. و(أنزلنا) : نعت لمفعول النذير ، أي : أنا النذير عذابا مثل العذاب الذي أنزل على المقتسمين. وقيل :

صفة لمصدر محذوف يدل عليه : (و لقد آتيناك) فإنه بمعنى أنزلنا إليك إنزالا مثل ما أنزلنا على المقتسمين ، وهم ، على هذا ، أهل الكتاب. و(عضين) : جمع عضة. وأصله : عضوة ، من عضوت الشيء : فرّقته ، حذفت لامه ، وعوض منها هاء التأنيث ، فجمع على عضين ، كعزة وعزين. وقيل : أصله : عضة من عضهته : رميته بالبهتان ، قال فى الصحاح : عضهه عضها : رماه بالبهتان. وقد أعضهت ، أي : جئت بالبهتان. فهما قولان فى أصل عضة.

هل هو واوي أو هائى. والموصول مع صلته نعت للمقتسمين.

يقول الحق جل جلاله ، لنبيه عليه الصلاة والسلام : وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي ، وهى فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات ، وتثنى - أي : تكرر - فى كل صلاة ، فالمثانى من التثنية ، وقيل : من الثناء لأن فيها الثناء على اللّه تعالى ، وقيل : السبع المثاني هى السبع الطوال ، وهى البقرة وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال مع براءة. ولذلك تركت البسملة بينهما. وكونها مثانى لتثنية قصصها ، أو ألفاظها ، وقيل :

هى الحواميم السبع. وَآتيناك الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، ففيه الغنية والكفاية عن كل شيء.

لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ : لا تطمح ببصرك طموح راغب إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ أي : أصنافا من الكفار ، من زهرة الحياة الدنيا ، فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته. وفى حديث أبى بكر : «من أوتى القرآن ، فرأى أن أحدا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى ، فقد صغر عظيما وعظم صغيرا». «١» قال ابن جزى : أي : لا تنظر إلى ما متعناهم به فى الدنيا ، ومعنى الآية : تزهيد فى الدنيا ، كأنه يقول : قد آتيناك السبع المثاني والقرآن العظيم فلا تنظر إلى الدنيا ، فإن الذي أعطيناك أعظم منها. هـ.

وروى أنه صلى اللّه عليه وسلم وافى مع أصحابه أذرعات ، فرأى سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنّضير ، فيها أنواع البرّ ، والطيب والجواهر ، وسائر الأمتعة ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقربنا

بها ، ولأنفقناها في سبيل اللّه ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : «قد أعطيتم سبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل». «٢».

وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ : لا تتأسف على كفرهم حيث أنذرتهم فلم ينزجروا ولم يؤمنوا. أو : حيث متعناهم بالدنيا فلم ينتفعوا بها ، ولم يصرفوها في مرضاة اللّه ، وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ أي : تواضع وألن جانبك للمؤمنين ، وارفق بهم. والجناح ، هنا ، استعارة. وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ : البين الإنذار ، أنذرتكم ببيان وبرهان أن عذاب اللّه نازل بكم إن لم تؤمنوا ، وفي الحديث : «أنا النذير ، والموت مغير ، والقيامة الموعد». أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، وفي حديث آخر : «أنا النّذير العريان». وكانت العرب ، إذا رأى أحدهم جيشا يقصدهم ، تجرد من ثيابه ، ثم أنذر قومه ليصدقوه ، أي : وقل : إني أنذرتكم أن ينزل بكم عذابه.

كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ، أي : مثل العذاب الذي أنزل على المقتسمين ، وهم أهل الكتاب ، الذين آمنوا ببعض الكتب وكفروا ببعض ، فاقتسموا قسمين. والعذاب الذي نزل بهم هو الذل والهوان وضرب الجزية ، أو تسليط عدوهم عليهم. وقيل : هم كفار قريش اقتسموا أبواب مكة في الموسم ، فوقف كل واحد منهم على باب ، وكانوا اثني عشر رجلا ، لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام ، يقول أحدهم : هو ساحر ، والآخر : هو شاعر ، فأهلكهم اللّه يوم بدر. وقيل : هم الرهط الذين اقتسموا ، أي : تقاسموا ليبيتوا صالحا ، فأسقط اللّه عليهم الغار الذي كمنوا فيه ، فشدخهم.

أو : آتيناك القرآن ، وأنزلناه عليك كما أنزلنا التوراة على المقتسمين ، وهم اليهود ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ أي : أجزاء متفرقة ، وقالوا فيه أقوالا مختلفة ، فقالوا عنادا وكفرا : بعضه موافق للتوراة والإنجيل ، وبعضه

---

(١) قال الولي العراقي : لم أقف عليه ، وقال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف : لم أجده من حديث أبي بكر.

وأخرجه ابن عدى في الكامل (٢/ ٧٨٧) ، ولفظه : (من تعلم القرآن وظن أن أحدا ...) فذكره من حديث ابن مسعود مرفوعا ..

وراجع الفتح السماوي (٢/ ٧٥٠).

(٢) قال المناوى في الفتح السماوي : لم أقف عليه. وذكره الواحدي في الأسباب (٢٨٣) عن الحسين بن الفضل مرسلا.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٠٤

باطل مخالف لهما. وإذا قلنا المقتسمين : هم كفار قريش ، حيث اقتسموا أبواب مكة ، فقد جعلوا القرآن عضين أجزاء متفرقة ، فقد قسموه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين ، أو جعلوه بهتانا متعددا ، على تفسير العضة بالبهت.

وفى الحديث : «لعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم العاضهة والمستعضهة»»

أي : الباهتة ، والمستبهتة : الطالبة له.

قال تعالى فى وعيد المقتسمين : فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ من التقسيم والتكذيب ، أو عن كل ما عملوه من الكفر والمعاصي ، وفى البخاري : «لنسألنهم عن لا إله إلا اللّه». فإن قيل : كيف يجمع بين هذا وبين قوله : فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ؟ «٢» فالجواب : أن السؤال المثبت هو على وجه الحساب والتوبيخ ، والسؤال المنفي هو على وجه الاستفهام المحض لأن اللّه تعالى يعلم الأعمال ، فلا يحتاج إلى سؤال. وقيل : فى القيامة مواطن وخوارق ، فموطن يقع فيه السؤال ، وموطن يذهب بهم إلى النار بغير سؤال.

قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ : فاجهر ، وصرح به ، وأنفذه ، من صدع بالحجة :

إذا تكلم بها جهارا. أو : فرّق ، بما تؤمر به ، بين الحق والباطل ، وأصله : الشق والإبانة ، وما : مصدرية ، أو موصولة ، والعائد محذوف ، أي : بما تؤمر به من الشرائع. وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فلا تلتفت إلى ما يقولون ، ولا يمنعك ذلك من تبليغ الوحى والصدع به وإظهاره.

إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بك ، وبما أنزلنا إليك بأن أهلكنا كل واحد منهم بمصيبة تخصه ، من غير سعى من النبي صلى اللّه عليه وسلم فى ذلك. وكانوا خمسة من أشراف قريش : الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل ، وعدى بن قيس ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن يغوث ، كانوا يبالغون فى إيذاء النبي صلى اللّه عليه وسلم ، والاستهزاء به ، فقال جبريل للنبى صلى اللّه عليه وسلم :

«أمرت بأن أكفيكهم» فأومأ إلى ساق الوليد فمرّ بنبّال فتعلق بثوبه سهم ، فلم ينعطف لأخذه ، تعظما ، فأصاب عرقا فى عقبه فمات. وقيل : خدش بأسفل رجله فمات من تلك الخدشة. وأومأ إلى أخمص العاص فدخلت فيها شوكة ، فانتفخت حتى صارت كالرحى ، فمات. وأشار إلى أنف الحارث فامتخط قيحا فمات. وأومأ إلى الأسود ابن عبد يغوث ، وهو قاعد فى أصل شجرة ، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ، ويضرب وجهه بالشوك حتى مات. وقيل :

استسقى بطنه فمات ، ولعله جمع بينهما. وأومأ إلى عينى الأسود بن المطلب فعمي. وفى السيرة ، بدل عدى بن قيس ، الحارث بن الطلاطلة ، وأن جبريل أشار إلى رأسه فامتخط قيحا فقتله «٣».

---

(١) عزاه فى الفتح السماوي (٢/ ٧٥٢) لابن عدى فى الكامل من حديث ابن عباس ، وفى إسناده

ضعف.

وقوله : العاضهة والمستعضهة : أي : الساحرة والمستسحرة ... انظر النهاية (٣/ ٢٥٥).

(٢) الآية ٣٩ من سورة الرحمن.

(٣) أخرجه الطبراني فى الأوسط ، كما فى المجمع (٧/ ٤٦) ، وأبو نعيم فى الدلائل ، (باب قوله : فاصدع بما تؤمر ٢/ ٣١٦) والبيهقي فى الدلائل (باب المستهزءون وأسماؤهم) من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٣/١٠٤)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٠٥

وقيل : هم الذين قتلوا ببدر كأبى جهل ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبى معيط. والأول أرجح لأن اللّه تعالى كفاه أمرهم بمكة قبل الهجرة. إلا أن يكون عبّر بالماضي عن المستقبل لتحققه ، أي : إنا سنكفيك المستهزئين الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ يعبدونه من دون اللّه فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عاقبة أمرهم فى الدارين.

ثم سلّى نبيه عن أذاهم فقال : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ فى جانبنا من الشرك والطعن فى القرآن ، والاستهزاء بك ، فلا تعبأ بهم ، ولا تلتفت إليهم. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أي : فنزه أنت ذاتنا وصفتنا ، مكان مقالتهم فينا فإن مثلك منزهنا لا غير ، وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ أي : المصلين ، أو : فافزع إلى اللّه فيما نابك وضاق منه صدرك بالتسبيح والتحميد. وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ من المصلين ، يكفك ، ويكشف الغم عنك ، وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة» «١» أو : فنزهه عما يقولون ، حامدا له على أن هداك للحق ، وكن من الساجدين له شكرا.

وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ أي : الموت ، فإنه متيقن لحاقه ، وليس اليقين من أسماء الموت ، وإنما العلم به يقين ، لا يمترى فيه ، فسمى يقينا تجوزا. أو : لما كان يحصل اليقين بعده بما كان غيبا سمى يقينا. والمعنى :

فاعبده ما دمت حيا ، ولا تخلّ بالعبادة لحظة. وفى بعض الأحاديث عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : «إن اللّه لم يوح إلىّ أن أجمع المال ، وأكون من التاجرين ، وإنما أوحى إلىّ أن : سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» «٢». أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

الإشارة : يقال للعابد ، أو الزاهد : ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ، تتمتع بحلاوته ، وبالتهجد بتلاوته ، ففيه كفايتك وغناك ، فلا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أصنافا من أهل الدنيا ، الراغبين فيها ، المشتغلين بها عن عبادة خالقها. قيل : لما نزلت هذه الآية قال صلى اللّه عليه وسلم :

«إياكم والنظر فى أبناء الدنيا ، فإنه يقسى القلب ويورث حب الدنيا ، ولا تكثروا الجلوس مع أهل الثروة ، فتميلوا لزينة الدنيا فو اللّه لو كانت الدنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «من تواضع لغنى لأجل غناه اقترب من النار مسيرة سنة ، وذهب ثلثا دينه». هذا إن تواضع بجسمه فقط ، فإن تواضع بجسمه وقلبه ذهب دينه كله.

ويقال للعارف : ولقد آتيناك شهود المعاني ، وغيبناك عن حس الأواني ، حتى شهدت المتكلم بالسبع المثاني ، فسمعت القرآن من منزله دون واسطة. وذلك بالفناء ، عن الوسائط ، فى شهود الموسوط ، حتى يفنى عن نفسه فى حال قراءته.

---

(١) أخرجه بنحوه أبو داود فى (الصلاة ، باب وقت قيام النبي صلى اللّه عليه وسلم الليل) عن حذيفة ، وأخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٨٨) فى قصة الخندق مطولا.

(٢) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٥/ ١٨٩٧) والواحدي : فى الوسيط (٣/ ٥٤) والبغوي فى تفسيره (٤/ ٣٩٧) عن جبير بن نفيل ، مرسلا ..

ويقال له : لا تمدن عينيك إلى شهود الحس ، ولا إلى ما متعنا به أصنافا من أهل الحس ، الواقفين مع شهود الحس فإن ذلك يحجبك عن شهود المعاني القائمة بالأواني ، بل المفنية للأوانى عند سطوع المعاني. ولا تحزن عليهم حيث رأيتهم منهمكين فى الحس فإن قيام عالم الحكمة لا يكون إلا بوجود أهل الحس ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين بخصوصيتك ، وقل : إنى أنا النذير المبين من الاشتغال بالبطالة ، والغفلة ، حتى ينزل بأهلهما ما نزل على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين أجزاء متفرقة فما كان فيه مما يدل على التسهيل لجواز جمع الدنيا واحتكارها والاشتغال بها أخذوا به ، وما كان فيه مما يدل على الزهد فيها ، والانقطاع إلى اللّه عنها ، والتجريد عن أسبابها ، رفضوه. فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون.

فاصدع ، أيها العارف الواعظ ، بما تؤمر من الأمر بالزهد ، والانقطاع إلى اللّه ، ولرفض كل ما يشغل عن اللّه ، ولا تراقب أحدا فى ذات اللّه ، وأعرض عن المشركين ، الذين أشركوا فى محبة اللّه سواه ، وشهدوا الأكوان موجودة مع اللّه ، وهى ثابتة بإثباته ، ممحوه بأحدية ذاته ، فلا وجود لها فى الحقيقة مع اللّه. فإن استهزءوا بك ، وصغروا أمرك ، فسيكفيكهم اللّه. فاشتغل باللّه عنهم ، فلا يضيق صدرك بما فيه يخوضون ، (فسبح بحمد ربك) أي : نزهه عن شهود السّوى معه ، حامدا اللّه على ما أولاك من

نعمة توحيده ، (و كن من الساجدين) للّه شكرا ، وقياما برسم العبودية ، أو : كن من الساجدين بقلبك في حضرة القدس ، حتى يأتيك اليقين «١».

وفي الورتجبي ، في قوله : (و لقد نعلم أنك يضيق صدرك) ، قال : واسى الحقّ حبيبه بما سمع من أعدائه ، وقال له : أنت بمرأى منا ، يضيق صدرك من لطافتك ، بما يقول الجاهلون بنا في حقنا ، مما لا يليق بتنزيهنا ، فنزه أنت صفتنا مكان مقالتهم فينا ، فإنّ مثلك منزهنا لا غير ، وكن من الساجدين حتى ترانا بوصف ما علمت منا ، وتخرج من ضيق الصدر بما تشاهد من جمالنا ، فإذا كنت تعايننا سقط عنك ضيق صدرك من جهة مقالتهم. هـ.

وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) اليقين - هنا - هو الموت. أي : اعبد ربك إلى آخر لحظة من عمرك.

سورة النّحل

مكية ، إلا قوله : وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ ... الآية ، نزلت في غزوة أحد. وهي مائة وثمان وعشرون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله : حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ «١» وهو الموت وما بعده من البعث والحساب ، وهو أمر اللّه الذي أشار إليه بقوله :

[سورة النحل (١٦) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)

يقول الحق جل جلاله : أَتى أَمْرُ اللَّهِ أي : البعث والحساب. وعبّر بالماضي لتحقق وقوعه ، أو : ثبت أمره وقضاؤه ، وقد جف القلم بما يكون ، لا عن سؤال واستعجال ، وتدبير من الخلق ، ولو كان كذلك لنافى انفراده بتدبير ملكه ، ولذلك نزه نفسه بقوله : سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ. أو : إهلاك اللّه إياهم يوم بدر ، وكانوا يستعجلون ما أوعدهم الرسول من قيام الساعة ، وإهلاكهم ونصره عليهم ، استهزاء وتكذيبا ولذلك قال :

فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ، والمعنى : أن الأمر الموعود به بمنزلة الماضي ، لتحقق وقوعه من حيث إنه واجب الوقوع فلا تستعجلوا وقوعه ، فإنه لا خير لكم فيه ، ولا خلاص لكم منه.

وروى لما نزل قوله : أَتى أَمْرُ اللَّهِ ، وثب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قائما ، ورفع الناس رؤوسهم ،

فلما قال : فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ، سكن. وكان المشركون يقولون : إن صح ما يقول محمد من قيام الساعة ، فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا ، فقال تعالى : سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ أي : تنزه وجلّ عن أن يكون له شريك ، فيدفع ما أراد بهم. هـ.

وقرأ الأخوان بالخطاب ، على وفق قوله : (فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ) ، والباقون بالغيب ، على تلوين الخطاب ، أو على أن الخطاب للمؤمنين ، أي : أتى أمر اللّه أيها المؤمنون فلا تستعجلوه ، سبحانه وتعالى عما يشركه به المشركون. أو : لهم ولغيرهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا أشرق نور اليقين فى صميم القلوب تحقق وقوع ما وعد اللّه به من أمر الغيوب ، فصار الماضي آتيا ، والمستقبل واقعا. وفى الحكم : «لو أشرق نور اليقين فى قلبك ، لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها ، ولرأيت الدنيا وكسفة الفناء ظاهرة عليها». وكذلك المقادير المستقبلة والمواعيد الغيبية ، كلها عند أهل اليقين محققة الوقوع ، واجبة الحصول ، ينتظرون وقوعها فى مواقيتها ، شيئا فشيئا ، ويتلقونها بالمعرفة والأدب فإن كانت جلالية فبالرضى والتسليم ، وإن كانت جمالية فبالحمد والشكر ، هكذا نظرهم دائما إلى ما يبرز من عنصر القدرة ، ليس لهم

---

(١) من الآية الأخيرة من سورة الحجر.

وقت دون ما هم فيه ، ولا أمل دون ما أقامهم الحق تعالى فيه ، ليس لهم عن أنفسهم إخبار ، ولا مع غير اللّه قرار ، ولا يستعجلون ما تأخر وقوعه من أقداره ، ولا يشركون مع اللّه فى تدبيره واختياره. قد هجم عليهم اليقين ، فهم ، فى عموم أوقاتهم ، مستغرقون فى شهود المحبوب ، غائبون عن كل مرغوب ومطلوب ، سوى شهود وجه المحبوب ، جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه. آمين.

وسبب وجود هذا فى قلوبهم حياة روحهم بالإيمان التام ، والمعرفة الكاملة ، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة النحل (١٦) : آية ٢]

يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)

قلت : (أن أنذروا) : مفسرة ، بمعنى أي لأن الوحى فيه معنى القول. أو مصدرية فى موضع الجر ، بدلا من الروح ، أو النصب بنزع الخافض ، أو مخففة من الثقيلة. وقوله : (لا إله إلا أنا) : جرى على المعنى ، ولم يجر على اللفظ ، وإلا لقال : لا إله إلا اللّه. انظر ابن عطية. قال المحشى الفاسى : وسر

ذلك هنا : التصريح بالمقصود ، وأن الإله الواحد هو المتكلم لا غيره ، كما قيل فى قوله : إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ «١» ، أي : ولم يقل : فإياه فارهبوا ، بل نقل الكلام من الغيبة إلى التكلم مبالغة فى الترهيب ، وتصريحا بالمقصود ، كأنه قال : فأنا ذلك الإله الواحد ، فإياى فارهبون لا غير. هـ.

قلت : وكأنه قال هنا : ينزل الملائكة بالوحى أن أعلموا أنه لا يعبد إلا إله واحد ، وأنا ذلك الواحد.

يقول الحق جل جلاله ، تحقيقا لما وعدهم به ، وأن ذلك الوعد ، مع دنوه وقربه بالوحى ، فلا خلف فيه ، فقال :

يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ أي : جبريل ، جمعه تعظيما ، أو : لأنه قد ينزل معه غيره من الملائكة ، فيحضرون الوحى حرّسا له. أو : لأنه قد ينزل بالوحى غيره من الملائكة ، كما فى صحيح مسلم : «إن سورة الحمد نزل بها ملك لم ينزل إلى الأرض قبل ذلك» «٢». وقال عليه الصلاة والسلام : «إن إسرافيل وكّل بي فى ثلاث سنين ، فكان يأتينى بالكلمة والكلمتين ، ثم كان جبريل يأتينى بالقرآن فى كل وقت». وروى أن خالد بن سنان كان نبيا ، وكان يأتيه بالوحى مالك خازن النار ، وكان بعد عيسى عليه السّلام ، ولم يبق فى النبوة إلا عشرين يوما ، ثم مات ، فلقصر مدته لم يعد نبيا ، بعد عيسى ونبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وإنما كانت فترة خمسمائة عام. وذكر ابن العربي أن ذا القرنين كان ينزل عليه ملك ، يقال له : رفائيل ، فكان يلقى إليه الوحي ، ويطوى له الأرض. هكذا نقل الشطيبى عنه فى اللباب ، فانظره.

---

(١) من الآية ٥١ من سورة النحل.

(٢) أخرجه بطوله مسلم فى (صلاة المسافرين ، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة) عن ابن عباس رضي اللّه عنه. [.....]

(١٠٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٠٩

وقوله : بِالرُّوحِ أي : بالوحي ، أو القرآن فإنه سبب حياة القلوب والأرواح الميتة بالجهل والحجاب ، أو سبب حياة الدين بعد موته واندراسه بالكفر فإن الوحي يقوم فى الدين مقام الروح من الجسد. ينزل ذلك مِنْ أَمْرِهِ أي : من أجل أمره وبيان شأنه ، أو بأمره وإذنه ، عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أن يصطفيه للرسالة ، قائلا لهم :

أَنْ أَنْذِرُوا : خوفوا أهل الشرك ، أو أعلموا عبادى أَنَّهُ أي : الأمر والشأن ، لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ بترك الكفر والمعاصي ، أي : اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية ، بأن توحدوه ، وتطيعوه فيما أمر به.

قال البيضاوي : والآية تدل على أن نزول الوحى بواسطة الملائكة ، وأن حاصله : التنبيه على التوحيد ، الذي هو القوة العلمية ، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمالات القوة العملية. وأن النبوة عطائية - أي : لا كسبية - ، والآيات التي بعدها دليل على وحدانيته ، من حيث إنها تدل على أنه تعالى هو الموجد لأصول العالم وفروعه ، على وفق الحكمة والمصلحة ، ولو كان له شريك لقدر على ذلك ، فيلزم التمانع. هـ.

الإشارة : قوله تعالى : بِالرُّوحِ : قال الورتجبي : الروح : الوحي الإلهي ، سماه بالروح لأنه كلامه صدر من ذاته ، وهو حياة قلوب الصديقين من المكلّمين والمحدّثين ، وهو سبب حياة قلوب المؤمنين ، يحييهم بعلمه من موت الجهالة. هـ.

وقال القشيري فى قوله : عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ : على الأنبياء بالوحى والرسالة ، وعلى أسرار أرباب التوحيد ، وهم المحدّثون بالتعريف والعلم. فالتعريف للأولياء من حيث الإلهام والخواطر ، أي : الواردات. وإنزال الملائكة على قلوبهم غير ممنوع ، ولكنهم لا يؤمرون أن يتكلموا بذلك ، ولا يحملون الرسالة إلى الخلق. هـ.

قلت : وكأنه ينظر إلى قوله - عليه الصلاة والسلام - : «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» ، فهم يشاركون الأنبياء فى الوحي الإلهامى ، ولا يبلغون ذلك إلا لمن صدقهم وتبعهم فى طريقهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم عرّف بنفسه ، بما أظهر من تجلياته العلوية والسفلية ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٣ الى ٩]

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)

قلت : (وَ الْأَنْعامَ) : منصوب بمحذوف ، يفسره : (خَلَقَها) ، أو معطوف على «الإنسان» ، و(خَلَقَها لَكُمْ) : بيان لما خلقت لأجله ، وما بعده تفصيل له. و(مِنْها تَأْكُلُونَ) : إنما قدّم المعمول للمحافظة على رؤوس الآي ، أو : لأن الأكل منها هو المعتمد عليه فى المعاش ، وأما الأكل من غيرها من سائر

الحيوانات المأكولات فعلى سبيل التداوى والتفكه. قاله البيضاوي. قلت : ولعله ، عند مالك ، للاختصاص ، أي : منها تأكلون لا من غيرها إذ لا يؤكل عنده غيرها من البهائم الإنسية.
وقوله : (لَكُمْ) : يحتمل أن يتعلق بما قبلها أو بما بعدها ، ويختلف الوقف باختلاف ذلك. (إِلَّا بِشِقِّ) : فيه لغتان :
الكسر والفتح ، بمعنى التعب والكلفة ، وقيل : المفتوح مصدر شقّ الأمر عليه ، أي : صعب ، والمكسور بمعنى : النصف ، كأنه ذهب نصف قوّته بالتعب. (وَ الْخَيْلَ) : عطف على «الْأَنْعامَ».
و(زِينَةً) : مفعول من أجله ، عطف على موضع «لِتَرْكَبُوها» : أي : للركوب والزينة ، أو مفعول مطلق ، أي : لتتزينوا بها زينة.
يقول الحق جل جلاله : خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ : أوجدهما بِالْحَقِّ أي : ملتبسا بالحق لتدل على وحدانية الحق ، وكمال قدرته وباهر حكمته ، حيث أوجدهما على مقدار مخصوص ، وشكل بديع ، وأوضاع مختلفة ، وهيئات متعددة. أو : خلقهما بقضائه وتدبيره الحق ، لا بمشاركة وتدبير أحد معه ، ولا بمعاونة شريك ولا ظهير ، ولذلك نزه نفسه بقوله : تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، كما نزه نفسه ، ابتداء ، لمّا نفى الاستعجال لأنه من تدبير الخلق أيضا والصدور عن رأيهم ، وفى معناه : تنزيل الوحى على ما يشاء ، لا على ما يشاء غيره لانفراده أيضا فى ملكه. وفى إبرازه ذلك ، على ما يخالف آراء الخلق ، أدل دليل على وحدانيته فى ملكه ، وإنما وضع كل شيء ودبره دلالة على وحدانيته وهدايته لخلقه إليه.
ثم شفع بخلق الإنسان فقال : خَلَقَ الْإِنْسانَ أي : جنسه مِنْ نُطْفَةٍ : من ماء مهين يخرج من مكان مهين ، فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ : مجادل ، كثير الجدل والخصام ، مبين لحجته ، أو : خصيم : مكافح لخالقه ، قائل :
(من يحيى العظام وهى رميم). روى أن أبيّ بن خلف أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم بعظم رميم ، فقال : يا محمد ، أترى اللّه يحيى هذا بعد ما قد رمّ؟ فقال : «نعم». فنزلت. فعلى الأول : تكون الآية عامة لكل إنسان ، وعلى الثاني : خاصة بالكافر. والأول أظهر.
ولمّا ذكر نعمة الإيجاد ذكر نعمة الإمداد ، فقال : وَالْأَنْعامَ وهى : الإبل والبقر والغنم ، خَلَقَها : أوجدها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ ما يدفأ به فيقى البرد ، يعنى : ما يتخذ من جلود الأنعام وأصوافها من الثياب ، وَلكم

فيها أيضا مَنافِعُ أخر كنسلها وظهورها. وإنما عبّر بالمنافع ليتناول عوضها. وَمِنْها تَأْكُلُونَ أي :

تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان. وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ أي : زينة وبهجة حِينَ تُرِيحُونَ تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي ، وَحِينَ تَسْرَحُونَ تخرجونها إلى المرعى بالغداة فإن الأفنية والمشارع والطرق تتزين بها فى الذهاب والرواح ، ويجل أهلها فى أعين الناظرين إليها. وقدّم الإراحة لأن الجمال فيها أظهر لأنها تقبل ملأى البطون ، حاملة الضروع ، ثم تأوى إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ : أحمالكم عليها من الأمتعة وغيرها إِلى بَلَدٍ بعيد ، لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ عليها ، فضلا عن أن تحملوها على ظهوركم ، إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إلا بكلفة ومشقة فديحة ، أو : إلا بذهاب شقها ، أي : نصف قوتها من التعب. إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ حيث رحمكم بخلقها وذللها للحمل ، والركوب عليها ، وأنعم عليكم بالأكل من لحومها وألبانها.

وَخلق لكم الْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها ، وَتتزينوا بها زِينَةً ، أو للركوب والزينة.

قال البيضاوي : وتغيير النظم - أي : حيث لم يقل : وللزينة - لأن الزينة بفعل الخالق ، والركوب من فعل المخلوق - أي : باعتبار الحكمة - ، ولأن المقصود خلقها للركوب ، وأما التزين بها فحاصل بالعرض. وقرئ بغير واو ، فيحتمل أن يكون علة لركوبها ، أو مصدرا فى موضع الحال من الضمير ، أي : متزينين ، أو متزينا بها. واستدلّ به على حرمة لحومها ، ولا دليل فيه إذ لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد منه ، غالبا ، ألا يقصد منه غيره أصلا ، ويدل عليه أن الآية مكية. وعامة المفسرين والمحدثين أن الحمر الأهلية حرمت عام خيبر. هـ. وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ مما لا يحيط البشر بعلمها من عجائب المخلوقات ، وضروب المصنوعات ، مما يؤكل ومما لا يؤكل ، وما خلق فى الجنة والنار ، مما لا يخطر على قلب بشر.

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ أي : وعلى اللّه بيان السبيل القصد ، أي : الطريق الموصل إلى المقصود. أو : على اللّه تقويم طريق الهدى بنصب الأدلة وبعث الرسل ، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي : السبيل القصد ، أي : القاصد المستقيم الموصل إلى المطلوب كأنه يقصد الوجه الذي يقصده السالك لا يميل عنه. والمراد من السبيل : الجنس ، ولذلك أضاف إليه القصد ، وقال : وَمِنْها جائِرٌ عن القصد ، أو عن اللّه ، كطريق اليهود والنصارى وغيرهم. والسبيل بمعنى الطريق ، يذكر ويؤنث ، وأنّث هنا. وتغيير الأسلوب - أي : حيث لم يقل : قصد السبيل والجائر - لأنه ليس بحق على اللّه أن يبين طريق الضلالة ، ولأن المقصود ، بالأصالة ، بيان سبيله ، وتقسيم السبيل إلى القصد والجائر إنما جاء بالعرض. وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ أي : ولو شاء هدايتكم أجمعين لهداكم إلى قصد السبيل ، هداية مستلزمة للاهتداء. قاله البيضاوي.

الإشارة : هذه العوالم من العرش إلى الفرش كلها نصبت للآدمى ، وخلقت من أجله ، السماوات تظله ، والأرض تقله ، والحيوانات تخدمه وتنفعه ، يتصرف فيها خليفة عن الله فى ملكه. فالواجب عليه شكر هذه النعم ، وألا يقف معها ، ويشتغل بها عن خدمة خالقها. يقول الحق تعالى ، فى بعض كلامة بلسان الحال أو المقال : «يا ابن آدم ، خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقتك من أجلى ، فلا تشتغل بما خلق لأجلك عمّا خلقت لأجله». والواجب عليه أيضا من طريق الخصوص : ألا يقف مع حس أجرامها ، دون النفوذ إلى أسرار معانى خالقها ومظهرها لئلا يبقى مسجونا بمحيطاته ، محصورا فى هيكل ذاته ، بل ينفذ إلى فضاء شهود بحر المعاني ، المحيط بالأوانى ، والمفنى لها ، بصحبة شيخ كامل ، يخرجه من سجن الأكوان إلى فضاء شهود المكوّن. وباللّه التوفيق.
وقوله : وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ : اعلم أن الحق - جل جلاله - بيّن طريق الوصول إلى نعيمه الحسى والفوز برضوانه ، وطريق الوصول إلى حضرة قدسه ومحل شهوده وعيانه ، وأرسل الرسل ببيان الطريقين. فوكل ببيان الأولى العلماء ، ووكل ببيان الثانية الأولياء. فالعلماء قاموا ببيان الشرائع الموصلة إلى نعيم الأشباح ، والأولياء العارفون قاموا ببيان الحقائق الموصلة إلى نعيم الأرواح ، وهو النعيم الأكبر قال تعالى : وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ «١». فالرضوان على قسمين :
قوم نالهم الرضوان من طريق الخطاب مع سدل الحجاب ، وهم أهل الشرائع ، وقوم نالهم الرضوان بمكافحة الخطاب ورفع الحجاب ، وهم أهل الحقائق ، وهم المقربون ، نفعنا الله بهم ، وخرطنا فى سلكهم. آمين.
ثم ذكر بقية التجليات ، فقال :
[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٠ الى ١٦]
هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)

---

(١) من الآية ٧٢ من سورة التوبة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١١٣

قلت : (لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ) : يحتمل أن يتعلق بأنزل ، أو يكون فى موضع خبر (شَرابٌ) ، أو صفة لماء و(مَواخِرَ) :

جمع ماخرة ، يقال : مخرت السفينة الماء مخرا : شقته ، وقيل : المخر : صوت جرى الفلك فى البحر من هبوب الريح.

وقيل : معناه : تجيىء وتذهب بريح واحدة. و(لِتَبْتَغُوا) : عطف على «لِتَأْكُلُوا» ، و(أَنْ تَمِيدَ) : مفعول من أجله ، أي :

كراهة أن تميد بكم. و(أَنْهاراً وَسُبُلًا) : مفعول بمحذوف ، أي : وخلق أو وجعل أنهارا ، وقيل : معطوف على «رَواسِيَ» لأن ألقى ، فيه معنى الجعل ، و(عَلاماتٍ) : عطف على (أَنْهاراً وَسُبُلًا) ، أو نصب على المصدر ، أي : ألقى ذلك لعلكم تعتبرون ، وعلامات دالة على وحدانيته.

يقول الحق جل جلاله : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ أي : السحاب ، أو جانب السماء ، ماءً : مطرا لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ تشربونه بلا واسطة ، أو بواسطة العيون والأنهار والآبار لأنه يحبس فيها ، ثم يشرب منها ، لقوله : فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ «١» ، وقوله : فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ «٢» ، وَمِنْهُ شَجَرٌ أي : ومنه يكون شجر ، يعنى : الشجر الذي ترعاه المواشي ، وقيل : كل ما نبت على الأرض فهو شجر ، فِيهِ تُسِيمُونَ :

ترعون مواشيكم ، من أسام الماشية : رعاها ، وأصلها : السومة ، التي هى العلامة لأنها تؤثر بالرعي علامات.

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ ، وقرأ أبو بكر بالنون على التفخيم ، وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ أي : ومن بعض كل الثمرات إذ لم ينبت فى الأرض كل ما يمكن من الثمار. قال البيضاوي : ولعل تقديم ما يسام فيه على ما يؤكل منه لأنه سيصير غذاء حيوانيا هو أشرف الأغذية - يعنى اللحم - ، ومن هذا : تقديم الزرع ، والتصريح بالأجناس الثلاثة وترتيبها. هـ.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، فيستدلون على وجود الصانع وباهر قدرته ، فإن من تأمل الحبة تقع فى الأرض يابسة ، ويصل إليها نداوة تنفذ فيها ، فينشق أعلاها ، ويخرج منه ساق الشجر ، وينشق أسفلها فيخرج منه عروقها ، ثم ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار ، والأكمام والثمار ، ويشتمل كل منها على أجسام مختلفة الأشكال والطبائع ، مع اتحاد المواد ، علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار ، مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد ، ولعل وصل الآية به لذلك. قاله البيضاوي باختصار.

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ١٨ من سورة المؤمنون.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١١٤

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ «١» بأن هيأها لمنافعكم ، مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ ، أي : مذللات لما يريد منها ، وهو حال من الجميع ، أي : نفعكم بها حال كونها مسخرات للّه ، منقادة لحكمه ، أو لما خلقن له ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أي : لأهل العقول السليمة الصافية من ظلمة الغفلة والشهوات ، وإنما جمع هنا ، دون ما قبله وما بعده لأن الأولى راجعة إلى إنزال المطر ، وهو متحد ، والثالثة راجعة إلى ما ذرأ فى الأرض ، وهو متحد فى الجنس والهيئة ، بخلاف العوالم العلوية ، فإنها مختلفة فى الجنس والهيئة. وقال البيضاوي : جمع الآية وذكر العقل لأنها تتضمن أنواعا من الدلالة ظاهرة لذوى العقول السليمة ، غير محوجة إلى استيفاء فكر ، كأحوال النبات. هـ.

وَما ذَرَأَ أي : وسخر لكم ما ذرأ ، فهو عطف على الليل ، أي : سخر لكم ما خلق لكم فى الأرض من حيوانات ونبات ، مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ أبيض وأسود ، أحمر وأصفر ، مع اتحاد المادة ، فالماء واحد والزهر ألوان ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ يتذكرون أن اختلافها فى الألوان والطبائع ، والهيئات والمناظر ، ليس إلا بصنع صانع حكيم.

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ : ذلله بحيث هيأه للتمكن من الانتفاع به بالركوب فيه ، والاصطياد ، والغوص ، لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا هو السمك ، ووصفه بالطراوة لأنه أرطب اللحوم ، فيسرع إليه الفساد ، فيسارع إلى أكله طريا ، ولإظهار قدرته فى خلقه عذبا طريا فى ماء زعاق «٢» أجاج ، واحتج به مالك على أن من حلف ألا يأكل لحما حنث بأكل السمك ، وأجيب بأن مبنى الأيمان على العرف ، وهو لا يفهم منه عند الإطلاق ألا ترى أن الله سمى الكافر دابة ، ولا يحنث من حلف ألا يركب دابة بركوبه. قاله البيضاوي. ويجاب بالاحتياط للحنث فالحنث يقع بأدنى شىء ، بخلاف البر ، لا يقع إلا بأتم الأشياء.

وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً كاللؤلؤ والمرجان ، تَلْبَسُونَها يلبسها نساؤكم ، وأسند اللباس إليهم لأن لباس النساء تزين للرجال «٣» ، فكأنه مقصود لهم ، وَتَرَى الْفُلْكَ : السفن مَواخِرَ فِيهِ جوارى فيه تمخر الماء ، أي : تشقه ، أو تصوت من هبوب الريح ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ

: من سعة رزقه بركوبه للتجارة ، أو : وترى الفلك جوارى فيه لتركبوها ، ولتبتغوا من سعة رزقه. قال ابن عطية : فيه إباحة ركوب البحر للتجارة وطلب الأرباح. هـ. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي : تعرفون نعم اللّه فتقوموا بشكرها. ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر لأنه أقوى فى باب الإنعام من حيث جعل المهالك سببا للانتفاع ، وتحصيل المعاش. قاله البيضاوي.

---

(١) قرأ حفص وابن عامر : (و النجوم مسخرات) بالرفع على الابتداء ، وقرأ الباقون بالنصب .. انظر

الإتحاف (٢/ ١٨١).

(٢) الزّعاق من الماء : المرّ الغليظ ، لا يطاق شربه ... انظر : لسان العرب (زعق).

(٣) هذا فى المنزل ، وللأزواج فقط ، وأما ما سوى ذلك فهو - أي : اللباس - للتستر والاحتشام ، تعبدا لله ، وطاعة لأمره ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَّ ... الآية.

وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ جبالا رواسى أرست الأرض كراهة أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ تميل وتضطرب لأن الأرض قبل أن تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة ، وكان من حقها أن تتحرك كالسفينة على البحر ، فلما خلقت الجبال تقاومت جوانبها بثقلها نحو المركز ، فصارت كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة.

وقيل : لما خلق الله الأرض جعلت تمور - أي : تتحرك - فقالت الملائكة : ما يستقر أحد على ظهرها ، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال.

وَأَنْهاراً أي : وجعل فيها أنهارا تطرد لسقى الناس والبهائم ، وسائر المنافع ، وذكره بعد الجبال لأن الغالب انفجارها منها ، وَسُبُلًا أي : وجعل فيها طرقا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ لمقاصدكم ، أو لمعرفة ربكم ، بالنظر فى دلالة هذه المصنوعات المتقدمة ، على صانعها.

وَجعل فيها عَلاماتٍ : معالم يستدلّ بها السابلة على معرفة الطرق من الجبال ، والمناهل ، والرياح ، وغير ذلك ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ إلى الطرق بالليل ، فى البراري والبحار ، والمراد بالنجم : الجنس ، بدليل قراءة : «وبالنّجم» بضمتين على الجمع. وقيل : المراد : الثريا ، والفرقدان وبنات نعش «١» ، والجدى. والضمير لقريش لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة ، مشهورين بالاهتداء فى مسايرهم بالنجوم ، وإخراج الكلام عن سنن الخطاب ، وتقديم النجم ، وإقحام الضمير للتخصيص ، كأنه قيل : وبالنجم خصوصا ، هؤلاء خصوصا يهتدون ، يعنى : قريشا ، فالاعتبار بذلك ، والشكر عليهم ألزم لهم وأوجب عليهم. هـ. وأصله للزمخشرى.

الإشارة : هو الذي أنزل من سماء الغيوب ماء ، أي : علما لدنيا تحيا به القلوب ، وتتطهر به النفوس من أدناس العيوب. لكم منه شراب ، أي : خمرة تحيا بها الأرواح ، وتغيب عن حضرة الأشباح ، ويخرج منه على الجوارح أشجار العمل ، تثمر بالأذواق ، فيه تسيمون ، أي : فى أذواق العمل ترعون بنفوسكم وقلوبكم ، ثم ترحلون عنه إلى حلاوة شهود ربكم ، فمن وقف مع حلاوة العمل ، أو المقامات أو الكرامات ، بقي محجوبا عن ربه ، وعليه نبّه صاحب البردة بقوله :

وراعها ، وهى فى الأعمال سائمة وإن هى استحلت المرعى فلا تسم

وقال فى الحكم : «ربما وقفت القلوب مع الأنوار ، كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار».

وقال الششترى :

وقد تحجب الأنوار للعبد مثل ما تبعد «٢» من إظلام نفس حوت ضغنا.

---

(١) الفرقدان : نجمان فى السماء لا يغربان ، انظر اللسان (فرقد). وبنات نعش : سبعة كواكب ، تشاهد جهة القطب الشمالي. انظر (المعجم الوسيط/ نعش).

(٢) فى ديوان الششترى : تقيّد.

(١١٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١١٦

ينبت بذلك العلم طعام نفوسكم من قوت الشريعة ، ومصباح قلوبكم من عمل الطريقة ، وثمرة الأعمال فى عوالم الحقيقة ، وفواكه العلوم من مخازن الفهوم. وسخر لكم ليل القبض ، ونهار البسط لتسكنوا فيه لما خصكم فيه من مقام التسليم والرضا ، ولتبتغوا من فضله من فيض العلوم وكشف الغطاء ، فتشرق حينئذ شمس العرفان ، ويستنير قمر الإيمان ، وتطلع نجوم العلم ، كل مسخر فى محله ، لا يستتر أحد بنور غيره ، وهذا مقام أهل التمكين ، يستعملون كل شىء فى محله. وما ذأر لكم فى أرض نفوسكم من أنواع العبادات وأحوال العبودية ، متلونة باعتبار الأزمنة والأمكنة ، وهو الذي سخر بحر المعاني لتأكلوا منه لحما طريا علما جديدا لم يخطر على قلب بشر ، وتستخرجوا منه جواهر ويواقيت من الحكم ، تلبسونها وتتزين قلوبكم وألسنتكم بها.

وترى الفلك ، أي : سفن الفكرة ، فيه مواخر عائمة فى بحر الوحدة ، بين أنوار الملكوت وأسرار الجبروت لتبتغوا من فضله ، وهى معرفة الحق بذاته وأسمائه وصفاته ، ولعلكم تشكرون ، فتقيدوا هذه النعم الجسام لئلا تزول. وألقى فى أرض البشرية جبال العقول لئلا يلعب بها ريح الهوى ، وأجرى عليها أنهارا من العلوم حين انزجرت عن هواها ، وجعل لها طرقا تهتدى بها إلى معرفة ربها ، فتهتدى أولا إلى نجم الإسلام ، ثم إلى قمر توحيد البرهان ، ثم إلى شهود شمس العرفان. وبالله التوفيق.

ولما ذكر دلائل التوحيد ، أنكر على من أشرك بعد هذا البيان ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٧ الى ٢٣]

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)

إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)

قلت : (و ما يشعرون أيان يبعثون) ، الضمير الأول للأصنام ، والثاني للكفار الذين عبدوهم ، وقيل : للأصنام فيهما ، وقيل : للكفار فيهما ، و(لا جرم) : إما أن يكون بمعنى لا شك ، أو لا بد ، أو تكون «لا» نفيا لما تقدم. و«جرم» :

فعل ، بمعنى وجب ، أو حق ، و(أن اللّه) : فاعل بجرم.

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ يَخْلُقُ كل شىء ، ويقدر على كل شيء ، كَمَنْ لا يَخْلُقُ شيئا ، ولا يقدر على شيء ، بل هو أعجز من كل شى ء؟ وهو إنكار على من أشرك مع اللّه غيره ، بعد إقامة الدلائل

(١١٦/٣)

المتكاثرة على كمال قدرته ، وباهر حكمته ، بذكر ما تقدم من أنواع المخلوقات وبدائع المصنوعات ، وكان حق الكلام : أفمن لا يخلق كمن يخلق ، لكنه عكس تنبيها على أنهم ، بالإشراك باللّه ، جعلوه من جنس المخلوقات العجزة ، شبيها بها. والمراد بمن لا يخلق ، كل ما عبد من دون اللّه ، وغلب أولى العلم منهم ، فعبّر بمن ، أو يريد الأصنام ، وأجراها مجرى أولى العلم لأنهم سموها آلهة ، ومن حق الإله أن يعلم ، أو للمشاكلة بينه وبين من يخلق. أَفَلا تَذَكَّرُونَ فتعرفوا فساد ذلك فإنه لظهوره كالحاصل للعقل الذي يحضر عنده بأدنى تذكر والتفات.

ولما ذكر أنواعا من المخلوقات على وجه الاستدلال على وحدانيته - وفى ضمنها : تعداد النعم على خلقه - أعقبها بقوله : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها أي : لا تطيقوا عدها ، فضلا أن تطيقوا القيام بشكرها. ثم أعقبها بقوله : إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ تنبيها على أن العبد فى محل التقصير ، لو لا أن اللّه يغفر له تقصيره فى أداء شكر نعمه ، ويرحمه ببقائها مع تقصيره فى شكرها.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ من عقائدكم وأعمالكم ، وهو وعيد لمن كفر النعم وأشرك مع اللّه غيره ، سرا أو علانية ، ثم قال تعالى : والذين تدعون «١» أي : والأصنام الذين تعبدونهم مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً لظهور عجزهم. لمّا نفى المشاركة بين من يخلق ومن لا يخلق ، بيّن أنها لا تخلق شيئا ليتحقق نفي الألوهية عنها ضرورة. ثم علل عجزها ، وعدم استحقاقها للألوهية بقوله : وَهُمْ يُخْلَقُونَ أي : وهم مخلوقون مفتقرون فى وجودهم إلى التخليق ، والإله لا بد أن يكون واجب الوجود.

وهم ، أيضا ، أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ أي : لم تكن لهم حياة قط ، ولا تكون ، وذلك أغرق فى موتها ممن تقدمت له حياة ، ثم مات. والإله ينبغى أن يكون حيا بالذات لا يعتريه الممات. وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

يُبْعَثُونَ أي : لا يعلمون وقت بعثهم ، أو بعث عبدتهم ، فكيف يكون لهم وقت يجازون فيه من عبدهم ، والإله ينبغي أن يكون عالما بالغيوب ، قادرا على الجزاء لمن عبده؟ وفيه تنبيه على أن البعث من توابع التكليف. قاله البيضاوي.

قال ابن جزى : نفى عن الأصنام صفة الربوبية ، وأثبت لهم أضدادها وهى أنهم مخلوقون غير خالقين ، وغير أحياء ، وغير عالمين وقت البعث ، فلما قام البرهان على بطلان ربوبيتهم ، أثبت الربوبية للّه وحده ، فقال : إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ. هـ. وهو تصريح بما أقام عليه الحجج والبراهين بما تقدم.

---

(١) قرأ عاصم ويعقوب : «يدعون» : بالياء. على الالتفات. وقرأ الباقون «تدعون» بتاء الخطاب انظر الإتحاف (٢/ ١٨٢).

(١١٧/٣)

ثم ذكر سبب إصرارهم على الكفر - وهو إنكار البعث والتكبر - فقال : فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ أي : فالمنكرون للبعث قلوبهم منكرة لوحدانيته تعالى ، وهم مستكبرون عن اتباع الرسل فيما جاءوا به ، والخضوع لهم لأن المؤمن بالآخرة يكون طالبا للدلائل ، متأملا فيما يسمع ، فينتفع به ، خاضعا للحق ، متبعا لمن جاء به ، بخلاف الكافر ، يكون حاله بالعكس منهمكا فى الغفلة ، متبعا للهوى ، ينكر بقلبه ما لا يعرف إلا بالبرهان «١» ، اتباعا للأسلاف ، وتقليدا لهم ، وركونا إلى المألوف.

قال تعالى تهديدا لمن هذا وصفه : لا جَرَمَ : لا بد ، أو لا شك ، أو حقّ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ ، فيجازيهم عليه إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ مطلقا ، فضلا عن الذين استكبروا عن توحيده واتباع رسوله. ومفهومه : أنه يحب المتواضعين الخاضعيين للحق ، ولمن جاء به ، وهم المؤمنون. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد تضمنت الآية ثلاث خصال من خصال أهل التوحيد : الأولى : رفع الهمة عن الخلق ، وتعلقها بالخالق فى جميع المطالب والمآرب إذ لا يترك العبد من هو خالق كل شىء ، قادر على كل شىء ، دائم لا يموت ، ويتعلق بعبد عاجز ضعيف ، لا يقدر على نفع نفسه ، فكيف ينفع غيره؟ (أ فمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) ، (و الذين تدعون من دون اللّه لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء). وأنشدوا فى هذا المعنى :

حرام على من وحّد اللّه ربّه وأفرده أن يحتذى أحدا رفدا

فيا صاحبى قف بي على الحقّ وقفة أموت بها وجدا ، وأحيا بها وجدا
وقل لملوك الأرض تجهد جهدها فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى
والخصلة الثانية : تذكر البعث وما بعده ، وتقريبه وجعله نصب العين إذ بذلك يحصل الزهد فى هذه الدار الفانية ، والاستعداد والتأهب للدار الباقية ، وبه تلين القلوب ، وتتحقق بعلم الغيوب ، وبه يحصل الخضوع للحق ، والتعظيم لمن جاء به. بخلاف من أنكره ، أو استبعده ، قال تعالى : (فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ).

---

(١) هذا من سمات المؤمنين ، وليس الكافرين ، فالكافرون : لا برهان لهم (.. لا برهان له به ..) ، (قل هاتوا برهانكم ..) .. (قل هل عندكم من علم ..) (لو لا يأتون عليهم بسلطان).
ويرحم اللّه أسلافنا ، علمونا ذلك ، فنقلنا عنهم هذه القاعدة : (إن كنت ناقلا – فالصحة ، وإن كنت مدّعيا : فالدليل) ، واللّه – تقدس وتعالى – أمرنا ألا نتبع إلا ما قام عليه الدليل ، (و لا تقف ما ليس لك له علم) ، والعلم هو ما قام عليه البرهان الجلي.

(١١٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١١٩
الخصلة الثالثة : التواضع والخضوع للّه ، ولمن دعا إلى اللّه ، وهو سبب المحبة من اللّه ، ورفع الدرجات عند اللّه قال صلى اللّه عليه وسلم : «من تواضع للّه رفعه ، ومن تكبر وضعه اللّه». وقال أيضا : «من تواضع دون قدره ، رفعه اللّه فوق قدره». بخلاف المتكبر فإنه ممقوت عند اللّه ، مطرود عن باب اللّه قال تعالى : (إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ). وفى الحديث : «لا يدخل الجنّة من فى قلبه مثقال ذرّة من خردل من كبر» «١» ، أو كما قال صلى اللّه عليه وسلم ، والتكبر : بطر الحق وغمط الناس ، أي : جحد الحق ، واحتقار الناس. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر وصف المتكبرين ، ووبال تكبرهم ، فقال :
[سورة النحل (١٦) : الآيات ٢٤ الى ٢٩]
وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ

عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)
فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)
قلت : (ما ذا) ، يجوز أن يكون اسما واحدا مركبا منصوبا ب (أَنْزَلَ) ، وأن تكون (ما) : استفهامية فى موضع رفع بالابتداء ، و(ذا) : بمعنى «الذي» : خبر ، وفى أنزل ضمير محذوف ، أي : ما الذي أنزله ربكم؟ واللام فى (لِيَحْمِلُوا) :
لام العاقبة والصيرورة ، أي : قالوا : هو أساطير الأولين فأوجب ذلك أن يحملوا أوزارهم وأوزار غيرهم ، وقيل : لام الأمر ، و(بِغَيْرِ عِلْمٍ) : حال من المفعول فى (يُضِلُّونَهُمْ) ، أو من الفاعل ، و(تُشَاقُّونَ) : من قرأه بالكسر فالمفعول :
ضمير المتكلم ، وهو اللّه تعالى ، ومن قرأه بالفتح فالمفعول محذوف ، أي : تشاقون المؤمنين من أجلهم. و(ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ) : حال من ضمير المفعول فى : «تتوفاهم».

---

(١) أخرجه مسلم فى (الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه) ، من حديث ابن مسعود - رضى الله عنه.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أي : كفار قريش : ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ على رسوله محمد - عليه الصلاة والسلام - ؟ قالُوا : هو أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أي : ما سطره الأولون وكتبوه من الخرافات. وكان النضر بن الحارث قد اتخذ كتب التواريخ ، ويقول : إنما يحدّث محمد بأساطير الأولين ، وحديثى أجمل من حديثه.
والقائل لهم هم المقتسمون ، وتسميته ، حينئذ ، منزلا إما على وجه التهكم ، أو على الفرض والتقدير ، أي : على تقدير أنه منزل ، فهو أساطير لا تحقيق فيه. ويحتمل أن يكون القائل لهم المؤمنين ، فلا يحتاج إلى تأويل.
لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ أي : قالوا ذلك ليضلوا الناس ، فكان عاقبتهم أن حملوا أوزار ضلالهم كاملة ، وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ : وبعض أوزار ضلال من كانوا يضلونهم - وهو حصة التسبب فى الوقوع فى الضلال - حال كونهم بِغَيْرِ عِلْمٍ أي : يضلون من لا يعلم أنهم ضلّال. وفيه دليل على أن الجاهل فى العقائد غير معذور إذ كان يجب عليه أن يبحث عن الحق وأهله ، وينظر فى دلائله وحججه «١».
قال البيضاوي : (بِغَيْرِ عِلْمٍ) : حال من المفعول أي : يضلون من لا يعلم أنهم ضلّال ، وفائدتها :

الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم إذ كان عليهم أن يبحثوا ، ويميزوا بين المحق والمبطل. هـ. وقال المحشى : ففيه ذم تقليد المبطل ، وأن مقلده غير معذور ، بخلاف تقليد المحق الذي قام بشاهد صدقه المعجزة ، أو غير ذلك ، كدليل العقل والنقل فيما تعتبر دلالته. هـ. قلت : ويجوز أن يكون حالا من الفاعل ، أي : يضلّون فى حال خلوهم من العلم ، فقد جمعوا بين الضلال والإضلال.

قال تعالى فى شأن أهل الإضلال : أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ ، أي : بئس شيئا يزرونه فعلهم هذا.

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي : دبروا أمورا ليمكروا بها الرسل ، فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ أي : قصد ما دبروه من أصله ، فهدمه ، فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وصار ما دبروه ، وبنوه من المكر ، سبب هلاكهم ، وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ لا يحتسبون ولا يتوقعون ، وهو على سبيل التمثيل. وقال ابن عباس وغيره : المراد به نمرود بن كنعان ، بنى الصرح ببابل ، سمكه خمسة آلاف ذراع ليترصّد أمر السماء ، فبعث اللّه ريحا فهدمته ، فخرّ عليه وعلى قومه ، فهلكوا ، وقيل : إن جبريل عليه السّلام هدمه ، فألقى أعلاه فى البحر ، وانجعف «٢» من أسفله.

---

(١) ما ذكر الشيخ هو كلام المعتزلة - عموما - أما كلام أهل السنة - فيما يختص بمن ثبت له عقد الإسلام - فهو إعذاره بالجهل ، وتبليغه الحجة حتى يتبين له الحق بيانا لا يغيب على مثله ، وحتى يعرف الحق ويميزه ، كما يميز الشمس .. فإن أصر على فعل الشرك أو الكفر بعد هذا فهو كافر ، لا عذر له ، يقول الشوكانى تعليقا على حديث سجود معاذ للنبى صلى اللّه عليه وسلم : «وفى هذا الحديث دليل على أن من سجد - جاهلا - لغير الله ، لم يكفر» وقال فى السيل الجرار : «فلا بد من شرح الصدر بالكفر ، فلا اعتبار بما يقع من طوارئ عقائد الشرك ، لا سيما مع الجهل بمخالفتها لعقائد الإسلام ، إلى غير ذلك مما قرره ابن العربي ، والقاسمى ، وابن القيم وغيرهم ، فى هذه المسائل. فتأملها لأنها خطيرة جدا ، فعدم إحكام هذه الأصول يوقعنا فى جحيم تكفير جهلة المسلمين. والأمر لله.

(٢) يقال : جعفه جعفا : قلبه وقلعه. فانجعف. انظر اللسان : (جعف).

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ : يذلهم ويعذبهم بالنار ، وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ ، أضافها إلى نفسه استهزاء ، أو حكاية لإضافتهم إياها إليه فى الدنيا زيادة فى توبيخهم ، أي : أين الشركاء الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ : تعادون المؤمنين فى شأنهم ، أو تشاقوننى فى شأنهم فإن مشاقة المؤمنين كمشاقته ، أو تحاربون

وتخارجون ، فتكونون في شق والحق في شق ، قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وهم الأنبياء والعلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد ، فيشاققونهم ويتكبرون عليهم ، أو الملائكة : إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ : الذلة والعذاب عَلَى الْكافِرِينَ. وفائدة قولهم ذلك لهم : إظهار الشماتة وزيادة الإهانة ، وحكايته ، ليكون لطفا لمن سمعه من المؤمنين ، فيزيد حذرا وحزما فى الطاعة ، وقال الواحدي : إن الخزي اليوم والسوء عليهم لا علينا. هـ. أي : فيقولونه اعترافا واستبشارا بإنجاز ما وعدهم اللّه ، كما قالوا : الحمد اللّه الذي هدانا لهذه الهداية.

ثم وصفهم بقوله : الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ تقبض أرواحهم ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ بأن عرضوها للعذاب المخلد ، فَأَلْقَوُا السَّلَمَ أي : استسلموا ، وألقوا القياد من أنفسهم ، حين عاينوا الموت ، قائلين : ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ : من كفر وعدوان ، يحتمل أن يكون قولهم ذلك قصدوا به الكذب اعتصاما به ، كقولهم : وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ «١» ، أو يكونوا أخبروا على حساب اعتقادهم فى أنفسهم ، فلم يقصدوا الكذب ، ولكنه كذب فى نفس الأمر. قال الحسن : هى مواطن ، فمرة يقرون على أنفسهم ، كما قال تعالى : شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ

«٢» ، ومرة يجحدون كهذه الآية ، فتجيبهم الملائكة بقولهم : بَلى قد كنتم تعملون السوء والعدوان ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فهو يجازيكم عليه. وقيل : إن قوله : فَأَلْقَوُا السَّلَمَ إلى آخر الآية ، راجع إلى شرح حالهم يوم القيامة ، فيتصل فى المعنى بقوله عز وجل : أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ إلخ ، فيكون الرّاد عليهم بقوله : (بلى) ، هو اللّه تعالى ، أو : أولوا العلم ، ويقوى هذا قوله بعده : فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ لأن دخولها لا يكون إلا بعد البعث والحساب ، لا بعد الموت إذ لا يكون بعد الموت إلا العرض عليها غدوا وعشيا ، والمراد بدخول أبوابها ، أي : التي تفضى إلى طبقاتها ، التي هى بعضها على بعض ، وأبوابها كذلك ، كل صنف يدخل من بابه المعدّ له ، خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى أي : مقام الْمُتَكَبِّرِينَ جهنم.

الإشارة : وإذا قيل لأهل الغفلة والإنكار : ماذا أنزل ربكم ، على قلوب أولياء زمانكم من المواهب وأسرار الخصوصية؟ قالوا : أساطير الأولين ، ثم عوّقوا الناس عن الدخول فى طريقهم لتطهير قلوبهم ، فيحملوا أوزارهم

---

(١) كما حكى عنهم اللّه تعالى فى الآية ٢٣ من سورة الأنعام. [.....]

(٢) من الآية ١٣٠ من سورة الأنعام.

كاملة يوم القيامة حيث ماتوا مصرين على الكبائر وهم لا يشعرون. ويحملون من أوزار الذين يضلونهم عن طريق الخصوص بغير علم ، بل جهلا وعنادا وحسدا ، ألا ساء ما يزرون.

قلت : الذي أتلف العوام عن الدين ثلاثة أصناف : علماء السوء ، وفقراء السوء - وهم أهل الزوايا والنسبة - ، وقراء السوء لأن هؤلاء هم المقتدى بهم ، والمنظور إليهم ، فإذا رأوهم أقبلوا على الدنيا ، وقصروا فى الدين ، تبعوهم على ذلك فضلوا معهم ، فقد ضلوا وأضلوا ، وإذا أنكروا على أولياء الله ، ومكروا بهم ، اقتدوا بهم فى ذلك ، فيتولى اللّه حفظ أوليائه ، ويهدم مكرهم قال تعالى : (فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ) .. الآية ، فإذا كان يوم القيامة أبعدهم عن حضرته ، وأسكنهم مع عوام خلقه. فإذا أنكروا ما فعلوا فى الدنيا ، يقال لهم : (بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ، فيخلدون فى عذاب القطيعة والحجاب ، فبئس مثوى المتكبرين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أضدادهم ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٣٠ الى ٣٢]

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)

قلت : (خَيْراً) : منصوب بفعل محذوف ، أي : أنزل خيرا ، فهو مطابق للسؤال لأن المؤمنين معترفون بالإنزال ، بخلاف قوله : (أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ) فهو مرفوع على الخبر لأنهم لا يقرون بالإنزال ، فلا يصح تقدير فعله. وإنما عدلوا بالجواب عن السؤال لإنكارهم له ، وقالوا : هو أساطير الأولين ولم ينزله اللّه.
و(لِلَّذِينَ) : خبر ، و(حَسَنَةٌ) :
مبتدأ ، والجملة : بدل من (خَيْراً) ، أو تفسير الخير الذي قالوه ، والظاهر أنه استئناف من كلام الحق.
(جَنَّاتُ عَدْنٍ) :
يحتمل أن يكون هو المخصوص بالمدح ، فيكون مبتدأ ، وخبره فيما قبله ، أو خبر ابتداء مضمر ، أو مبتدأ ، وخبره :
(يَدْخُلُونَها) ، أو محذوف ، أي : لهم جنات عدن. و(طَيِّبِينَ) : حال من مفعول «توفاهم».

يقول الحق جل جلاله : وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا الشرك ، وهم المؤمنون : ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً ، أي : أنزل خيرا ، مقرين بالإنزال ، غير مترددين فيه ولا متلعثمين عنه ، على خلاف الكفرة لمّا ذكر الحق تعالى مقالة الكفار الذين قالوا : أساطير الأولين ، عادل ذلك بذكر مقالة المؤمنين من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وأوجب لكل فريق ما يستحق من العقاب أو الثواب ، روى أن العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بأخبار النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فإذا جاء الوفد ، وسأل المقتسمين

من الكفار ، قالوا له : أساطير الأولين ، وإذا سأل المؤمنين : ماذا أنزل ربكم؟ قالوا : خيرا. فنزلت الآية فى شأن الفريقين.

ثم ذكر جزاء المؤمنين فقال : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا بالإيمان والطاعة ، حَسَنَةٌ أي : حالة حسنة من النصر ، والعز ، والتمكين فى البلاد ، مع الهداية للمعرفة والاسترشاد. وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ أي : ولثواب الآخرة خير مما قدّم لهم فى الدنيا لدوامه ، وصفائه ، وعظيم شأنه ، وعن أنس قال : قال رسول الله صلى اللّه عليه وسلم :

«إنّ اللّه لا يظلم المؤمن حسنة ، يثاب عليها الرزق فى الدّنيا ، ويجازى بها فى الآخرة» «١». وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ دار الآخرة ، حذفت ، لتقدم ذكرها ، أو هى : جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها على الأبد ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ من أنواع المشتهيات حسية ومعنوية ، وفى تقديم الظرف فى قوله : (فِيها) تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريد إلا فى الجنة. قاله البيضاوي.

كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الذين قالوا خيرا وفعلوا خيرا ، وأحسنوا فى دار الدنيا حتى ماتوا على الإحسان ، كما قال : الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ : طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه فى مقابلة ظالمى أنفسهم ، وقيل : فرحين لبشارة الملائكة إياهم بالجنة ، أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية إلى الحضرة القدسية.

قاله البيضاوي. وقال ابن عطية : (طَيِّبِينَ) : عبارة عن صلاح حالهم ، واستعدادهم للموت. وهذا بخلاف ما قال فى الكفرة : (ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ) ، والطيب لا خبث معه ، ومنه قوله تعالى : طِبْتُمْ فَادْخُلُوها «٢». هـ.

وقال الترمذي الحكيم : (طَيِّبِينَ) أي : مستعدين للقاء ، يسلّم عليهم ، ويقال لهم : ادخلوا الجنة بلا هول ولا حساب ، بخلاف غير المستعد للقاء ، فإنما يسلم عليه ، ويقال له : ادخل الجنة بعد أهوال القبر وأهوال القيامة. هـ. وهذا معنى قوله : يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا يلحقكم بعد مكروه. وهذا لأجل الاستعداد كما تقدم. ثم تقول لهم : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بعد بعثكم ، أو بأرواحكم فى عالم البرزخ ، إن كانوا من الشهداء أو الصديقين ، بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى دار الدنيا.

فإن قلت : كيف التوفيق بين الآية وبين الحديث : «لن يدخل أحدكم الجنّة بعمله ، قالوا : ولا أنت؟ قال : ولا أنا ، إلّا أن يتغمّدنى اللّه برحمته»؟ فالجواب : أن الهداية لصالح العمل ، والتوفيق له ، هو برحمة اللّه أيضا ، فالعمل الصالح رحمة من رحمات اللّه ، فما دخل أحد الجنة إلا برحمته ، فرجعت

الآية إلى الحديث. ومقصد الحديث : نفى وجوب ذلك على اللّه تعالى بالعقل ، كما ذهب إليه فريق من المعتزلة. وهنا جواب آخر صوفى وهو الجمع بين الحقيقة والشريعة ، فنسبة العمل إلى العبد شريعة ، ونفيه عنه ، بإجراء اللّه ذلك عليه ، حقيقة. فالآية سلكت مسلك الشريعة فى

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : جزاء المؤمن بحسناته فى الدنيا والآخرة). من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

(٢) من الآية ٧٣ من سورة الزمر.

نسبة العمل للعبد فضلا ونعمة «من تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك». والحديث سلك مسلك الحقيقة لأن الدين كله دائر بين حقيقة وشريعة ، فإذا شرّع القرآن حققته السّنة ، وإذا شرّعت السّنة حققها القرآن. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وقيل للذين اتقوا التقوى الكاملة : ماذا أنزل ربكم من المقادير؟ قالوا : خيرا ، فكل ما ينزل بهم من قدر الله وقضائه ، جلاليا كان أو جماليا ، جعلوه خيرا ، وتلقوه بالرضا والتسليم. يقولون : إذا كنت أنت المبتلى ، فافعل ما شئت ، لا يتضعضعون ولا يسأمون ، ولا يشكون لأحد سوى محبوبهم لأن الشكوى تنافى دعوى المحبة ، كما قال الشاعر :

إن شكوت الهوى فما أنت منّا احمل الصّد والجفا يا معنّا

تدّعى مذهب الهوى ثم تشكو أين دعواك فى الهوى ، قل لى : أينا؟

لو وجدناك صابرا لهوانا لأعطيناك كلّ ما تتمنى.

وإنما قالوا ، فى كل ما ينزل بهم : خيرا ، أو جعلوه لطفا وبرا لما يجدون فى قلوبهم ، بسببه ، من المزيد والألطاف ، والتقريب وطى مسافة النفس ، ما لا يجدونه فى كثير من الصلاة والصيام سنين لأن الصلاة والصيام من أعمال الجوارح ، وما يحصل فى القلب من الرضا والتسليم ، وحلاوة القرب من الحبيب ، من أعمال القلوب ، وذرة منها خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح «١».

وفى الخبر : «إذا أحبّ اللّه عبد ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن رضي اصطفاه». وفى صحيح مسلم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «عجبا لأمر المؤمن ، إنّ أمره كلّه له خير ، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن. إن أصابته سرّاء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضرّاء صبر ، فكان خيرا له» «٢» ، وفى البخاري ومسلم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «ما يصيب المؤمن من وصب ، ولا نصب ،

ولا سقم ، ولا حزن ، حتى الهمّ يهمّه ، إلا كفّر له من سيئاته» «٣» ، وقال أيضا : صلى اللّه عليه وسلم : «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه ، إلا حطّ به عنه سيئاته كما تحطّ الشّجرة ورقها». «٤». وروى عن عيسى عليه السّلام أنه كان يقول : لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو بذلك من كفارة خطاياه. هـ. فتحصل أن ما ينزل بالمؤمن كلّه خير ، فإذا سئل : ماذا أنزل ربكم؟ قال : خيرا.

---

(١) ليس هذا مفيدا لتقليل شأن الصلاة والصوم .. إلخ ، وإنما يريدك الشيخ أن تجعل عمل القلب مع عمل الجارحة.
(٢) رواه مسلم فى (الزهد ، باب المؤمن أمره كله خير) ، عن صهيب رضى اللّه عنه.
(٣) رواه البخاري فى (المرض ، باب ما جاء فى كفارة المرض) ، ومسلم فى (البر والصلة ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه) ، عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.
(٤) أخرجه البخاري فى (المرض ، باب قول المريض : إنى وجع) ، ومسلم فى (البر والصلة ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض ..) من حديث ابن مسعود - رضى الله عنه.

ثم قال تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا أي : بالرضا عنى فى جميع الأحوال ، والاشتغال بذكرى فى كل حال ، لهم فى الدنيا حَسَنَةٌ : حلاوة المعرفة ، ودوام المشاهدة ، وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لصفاء المشاهدة فيها ، واتصالها بلا كدر إذ ليس فيها من شواغل الحس ما يكدرها ، بخلاف الدنيا لأن أحكام البشرية لا ينفك الطبع عنها ، كغلبة النوم ، وتشويش المرض وغيره ، بخلاف الجنة ، ليس فيها شىء من الكدر ، ولذلك مدحها بقوله : وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ.
ثم قال : كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ لكل ما يشغل عن اللّه الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، طاهرين ، مطهرين من شوائب الحس ، ودنس العيوب ، طيبة نفوسهم بحب اللقاء ، قد طيبوا أشباحهم بحسن المعاملة ، وقلوبهم بحسن المراقبة ، وأرواحهم بتحقيق المشاهدة. تقول لهم الملائكة الكرام : سلام عليكم ، ادخلوا جنة المعارف إثر موتكم ، وجنة الزخارف إثر بعثكم بما كنتم تعملون من تطهير أجسامكم من الزلات ، وتطهير قلوبكم من الغفلات ، وتطهير أرواحكم من الفترات. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر وعيد أضدادهم ، الذين قالوا فيما أنزل لهم : (أساطير الأولين) ، فقال :
[سورة النحل (١٦) : الآيات ٣٣ الى ٣٧]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٤) وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٣٧)

يقول الحق جل جلاله : لْ يَنْظُرُونَ

أي : ما ينظر هؤلاء الكفرة ، الذين قالوا فيما أنزل اللّه من الوحى : هو أساطير الأولين ، لّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ

لقبض أرواحهم ، وْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ

: قيام الساعة ، أو العذاب المستأصل لهم فى الدنيا ، ذلِكَ

أي : مثل ذلك التكذيب والشرك ، عَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

، فأصابهم ما أصابهم ، ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ

بإهلاكهم ، لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

لكفرهم ومعاصيهم ، المؤدية إلى عذابهم.

(١٢٥/٣)

فَأَصابَهُمْ جزاء سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا من الكفر والمعاصي ، وهو العذاب ، وَحاقَ أي : وأحاط بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أي : نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزءون به. والحيق لا يكون إلا فى الشر.

وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كالبحائر والسوائب والحوامي. قالوا ذلك على وجه المجادلة والمخاصمة ، والاحتجاج على صحة فعلهم ، أي : إنّ فعلنا هو بمشيئة اللّه ، فهو صواب ، ولو شاء اللّه ألا نفعله ما فعلناه. والجواب : أن الاحتجاج بالقدر لا يصح فى دار التكليف ، وقد بعث اللّه الرسل بالنهى عن الشرك ، وتحريم ما أحل اللّه ، ونحن مكلفون باتباع الشريعة ، لا بالنظر إلى فعل الحقيقة من غير شريعة فإنه زندقة فالشريعة رداء الحقيقة ، فمن خرق رداء الشريعة ، وتمسك بالحقيقة وحدها ، فقد استحق العقاب ، ولذلك قال تعالى : كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فأشركوا باللّه ، وحرموا ما أحل اللّه ، وردوا رسله.

فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أي : الإبلاغ الموضح للحق فمن تمسك بما جاءوا به فهو على صواب ، ومن أعرض عنه فهو على ضلال ، ولا ينفعه تمسكه بالحقيقة من غير اتباع الشريعة. والحقيقة هى أنه لا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، طاعة كان أو معصية ، كفرا أو إيمانا ، لكن الأمر غير تابع للإرادة ، ونحن مكلفون باتباع الأمر فقط.

ثم بيّن أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية فى الأمم الماضية ، جعلها سببا لهدى من أراد اهتداءه ، وزيادة الضلال لمن أراد إضلاله ، كالغذاء الصالح ، فإنه ينفع المزاج السوي - أي : المعتدل - ويقويه ، ويضر المزاج المنحرف ويعيبه ، فقال : وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا قائلا : أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ أي : يأمر بعبادة اللّه وحده واجتناب ما سواه ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وفقهم للإيمان وأرشدهم إليه ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فلم يوفقهم ، ولم يرد إرشادهم فليس كل من تمسك بشىء وأمهل فيه يدل أنه على صواب ، كما ظن المشركون ، بل النظر إلى ما جاءت به الرسل من الشرائع ، وكلها متفقة على وجوب التوحيد وإبطال الشرك.

ثم أمرهم بالنظر والاعتبار بحال من أشرك وكذب الرسل ، فقال : فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ يا معشر قريش ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ كعاد وثمود وغيرهم ، لعلكم تعتبرون.

ثم نهى نبيه عن الحرص عليهم فقال : إِنْ تَحْرِصْ يا محمد عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ أي : من يريد إضلاله وقضى بشقائه وهو الذي حقت عليه الضلالة ، وقرأ غير الكوفيين بالبناء للمفعول «١» ، وهو أبلغ ، أي : فإن اللّه لا يهدى من يضله ، أي : لا يهدى غير اللّه من يريد اللّه إضلاله. وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ ليس لهم من ينصرهم يدفع العذاب عنهم.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي : «يهدى» بفتح الياء وكسر الدال ، على البناء للفاعل ، أي : لا يهدى الله من يضله. وقرأ الباقون : «يهدى» بضم الياء وفتح الدال ، على البناء للمفعول ، يعنى : من أضله الله فلا هادى له. انظر الإتحاف (٢/ ١٨٤) والبحر المحيط (٥/ ٤٧).

الإشارة : هل ينظر من عكف على دنياه ، وأكب على متابعة حظوظه وهواه ، إلا أن تنزل الملائكة لقبض روحه ، فيندم حيث لا ينفع الندم ، وقد زلت به القدم ، فيتمنى ساعة تزاد فى عمره فلا يجدها ، أو يأتى أمر ربك أمر يحول بينه وبين العمل الصالح كمرض مزمن ، أو فتنة مضلة. كذلك فعل من قبله ، اغتر بدنياه حتى اختطف لأخراه. وما ظلمهم اللّه ، بل بعث الرسل وأخلفهم بأهل الوعظ والتذكير ،

فحادوا عنهم ، فأصابهم جزاء سيئات ما عملوا من الغفلة والبطالة ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ، من وبال التقصير ، وفوات مقام أهل الجد والتشمير.

وقال الذين أشركوا فى محبة اللّه سواه من الحظوظ وزهرة الدنيا : لو شاء اللّه ما فعلنا ذلك ، محتجين بالقدر ، مع الإقامة على البطالة والخذلان. كذلك فعل من قبلهم من أهل الغفلة ، فهل على الرسل وخلفائهم إلا البلاغ المبين؟ فقد حذّروا من متابعة الدنيا ، وبلّغوا أن اللّه غيور لا يحب من أشرك معه غيره فى محبته ، فقد بعث فى كل أمة وعصر نذيرا ، يأمر بعبادة اللّه وحده ، واجتناب كل ما سواه فمنهم من هداه اللّه ، فاختاره لحضرته ، فلم يحب سواه. ومنهم من حقت عليه الضلالة عن مقام الخصوص ، فبقى فى مقام البعد مكذّبا بطريق الخصوص. فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين كان عاقبتهم الحرمان ولزوم الخذلان. ويقال للعارف المذكّر لمثل هؤلاء : (إن تحرص على هداهم فإن اللّه لا يهدى من يضل) .. الآية. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى لأهل الشرك ، وهو إنكار البعث ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٣٨ الى ٤٠]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (٣٩) إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)

قلت : (وَ أَقْسَمُوا) : عطف على (وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) إيذانا بأنهم ، كما أنكروا التوحيد ، أنكروا البعث ، مقسمين عليه زيادة فى القطع على فساده ، فرد اللّه عليهم بأبلغ رد ، فقال : (بلى). قاله البيضاوي. وتقدم الكلام على «بلى» ، فى البقرة والأعراف «١» ، و(وَعْداً) : مصدر مؤكد لنفسه ، وهو ما دل عليه «بلى» فإن «يبعث» وعد ، أي : بلى ، وعدهم ذلك وعدا حقا ، ونصب ابن عامر ، فيكون عطفا على «نقول» ، أو جوابا للأمر.

يقول الحق جل جلاله : وَأَقْسَمُوا أي : المشركون ، بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ أي : أبلغها وأوكدها ، لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، فردّ اللّه عليهم بأبلغ رد ، فقال : بَلى يبعثهم وَعْداً عَلَيْهِ إنجازه

---

(١) راجع تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة ، والآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

حَقًّا ، لا يخلف لامتناع الخلف فى وعده ، أو : لأن البعث مقتضى حكمته لتنزيه فعله عن العبث ،

وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أنهم يبعثون ، إما لعدم علمهم بأنه من موجبات الحكمة ، التي جرت عادته بمراعاتها ، وإما لقصور نظرهم باعتبار المألوف ، ووقوفهم مع العوائد ، فتوهموا امتناعه ، وقالوا : أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ «١» ، ولم ينظروا إلى قدرة اللّه التي لا يعجزها شيء.

ثم بيّن حكمة البعث ، فقال : لِيُبَيِّنَ لَهُمُ أي : يبعثهم ليبين لهم الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وهو الحق من الباطل فإن الناس مختلفون فى أديانهم ومذاهبهم فيبعثهم اللّه ليبين لهم الحق فيما اختلفوا فيه ، فيظهر من كان على الحق ممن كان على الباطل ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ فيما كانوا يزعمون من عدم البعث ، وتمسكهم بالحق ، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث ، المقتضى له من حيث الحكمة ، وهو التمييز بين الحق والباطل ، والمحق والمبطل.

ثم بيّن كمال قدرته الموجبة للبعث وغيره فقال : إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، فأمره بين الكاف والنون ، فإذا كان إيجاد الأشياء من العدم بلفظ «كن» ، فأولى إعادتها. وكون أمره بين الكاف والنون كناية عن السرعة ، وإلّا فلا يحتاج إلى لفظ «كن» ، بل مهما أراد شيئا ، أظهره أقرب من لحظ العيون ، وإنما جاءت العبارة على قدر ما تفهم العقول ، وعلى هذا فلا يحتاج إلى ما تعسّفه ابن عطية وغيره من كون القول فى الأزل ، وإظهاره فيما لا يزال - يعنى : فى وقت إظهاره - فإن الكلام إنما خرج مخرج الاستعارة أو المجاز ، فلا يتوقف إيجاد الأشياء على «كن». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ترى بعض الجهال يقسمون باللّه جهد أيمانهم : أن اللّه لا يفتح على فلان ، لما يرون فيه من الجهل والغباوة ، أو من الطغيان والمعاصي ، فلا يبعث اللّه روحه بإحيائها بعد موتها ، وتلفها فى عالم الحس ، مع أن القدرة صالحة قال فى الحكم : «من استغرب أن ينقذه اللّه من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته ، فقد استعجز القدرة الإلهية ، وكان اللّه على كل شيء مقتدرا». فإن سبقت له العناية يقل الحقّ تعالى فى شأنه : بلى ، يبعثه ، ويحيى روحه بالمعرفة واليقين ، وعدا عليه حقا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن قدرته عامة. فكم من جاهل غبى يخرج منه عالم ولي ، وكم من خصوص خرجوا من اللصوص ، واللّه يختص برحمته من يشاء. يبعثهم ليبين لهم الذي يختلفون فيه من نفوذ قدرته تعالى وعموم تعلقها ، وليعلم الذين كفروا بطريق الخصوص أنهم كانوا كاذبين فيما زعموا (إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

---

(١) من الآية ٥ من سورة الرعد.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٢٩

ثم ذكر الطريق الموصلة إلى إحياء الأرواح ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)

قلت : (الَّذِينَ صَبَرُوا) : نعت للذين هاجروا ، أو على تقدير : (هم) ، أو نصب على المدح.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ أي : طلب رضا اللّه ، أو : فى نصر دينه ، أو : طلب معرفته ، مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا من بعد ما ظلمهم الكفار بالإيذاء والتضييق ، وهم : رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه المهاجرون. ظلمهم قريش وضيقوا عليهم ، فهاجر بعضهم إلى الحبشة ، وبعضهم إلى المدينة. قال ابن عطية : الجمهور أنها نزلت فى الذين هاجروا إلى أرض الحبشة لأن الآية مكية ، وهجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية. هـ. قلت :

والمختار : العموم ، ويكون من جملة الإخبار بما سيقع ، أو : هم المحبوسون المعذبون بمكة ، بعد هجرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهم بلال ، وصهيب ، وعمّار ، وخبّاب ، وأبو جندل بن سهيل «١» ، أو : كل من هاجر من بلده لإقامة دينه.

لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً أي : لننزلنهم فى الدنيا بقعة حسنة ، وهى المدينة ، أو منزلة حسنة ، وهى العز والتمكين فى البلاد ، وكل أمل بلغه المهاجرون ، أو حياة حسنة ، وهى الاستقامة والمعرفة. وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مما يعجل لهم فى الدنيا من سعة الأموال ، وتعظيم الشأن والحال ، وهو النعيم الدائم.

وعن عمر رضي اللّه عنه : أنه كان ، إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاءه من قسم الغنائم ، يقول له : (خذ ، بارك اللّه لك فيه ، هذا ما وعدك اللّه فى الدنيا ، وما ادخر لك فى الآخرة أفضل) «٢».

والضمير فى قوله : لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ لكفار قريش ، أي : لو علموا أن اللّه يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم. أو للمهاجرين ، أي : لو علموا أن أجر الآخرة خير مما عجل لهم لزادوا فى اجتهادهم وصبرهم.

ثم وصفهم بالصبر والتوكل فقال : الَّذِينَ صَبَرُوا على الشدائد ، كأذى الكفرة ، ومفارقة الوطن ، ونزول الفاقة ، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فيما نزل بهم ، منقطعين إلى اللّه ، مفوضين إليه الأمر كله ، فآواهم إليه ، وكفاهم كل مؤونة ، ورزقهم من حيث لا يحتسبون.

الإشارة : والذين هاجروا حظوظهم وهواهم ، وكل ما نهى اللّه عنه ابتغاء مرضات اللّه ، أو فارقوا أوطانهم

---

(١) فى الأصول : وأبو جندل وسهيل.

(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٥/ ٢٠).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣٠
وديارهم فى طلب معرفة اللّه ، كما فعل كثير من الصوفية ، فقلّ أن تجد وليا إلا وهاجر من بلده لإقامة دينه وجبر قلبه ، وإفراغ سره لربه ، من بعد ما ظلموا بإيذاء الخلق - كما هو سنة اللّه فى خواصه - لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ، وهى معرفة الشهود والعيان فى الباطن ، واستقامة الدين والعافية فى الظاهر. هذا فى الدنيا ، ولأجر الآخرة أكبر وأكبر إذ فيه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر. الذين صبروا على مجاهدة النفوس ، وحط الرءوس ، ودفع الفلوس ، أو على ضروب الفاقات ، ونزول البليات ، وركوب الأهوال والآفات ، إذ لا يأتى الجمال إلا بعد الجلال ، ولا تأتى الحلاوة إلا بعد المرارة.
لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتّى تلعق الصبرا «١»
وعلى ربهم يتوكلون ، أي : مفوضين فى أمورهم كلها للّه ، ليس لهم مع اللّه اختيار ، ولا لهم عن أنفسهم إخبار ، بل هم كالميت بين يدى الغاسل. حققنا الله من هذا المقام بالحظ الأوفر .. آمين.
ولا بد من الواسطة فى الوصول إلى هذا ، إما رسول أو خليفته ، كما قال تعالى :
[سورة النحل (١٦) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]
وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)
قلت : (بِالْبَيِّناتِ) : يتعلق بأرسلنا الذي فى أول الآية ، على التقديم والتأخير ، أي : وما أرسلنا إلا رجالا بالبينات ، فاسألوا أهل الذكر ، أو بأرسلنا مضمرا ، وكأنه جواب سائل قال : بم أرسلوا به؟ فقال : بالبينات ، أو : صفة لرجال ، أي :
رجالا ملتبسين بالبينات ، أو : بيوحى. انظر البيضاوي.
يقول الحق جل جلاله ، فى الرد على قريش ، حيث قالوا : اللّه أعظم من أن يكون رسوله بشرا : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ يا محمد إِلَّا رِجالًا بشرا ، نُوحِي إِلَيْهِمْ «٢» كما يوحى إليك. فليس ببدع أن يكون الرسول بشرا ، بل جرت السنة الإلهية بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشرا يوحى إليه على ألسنة الملائكة إذ لا يطيق كل البشر رؤية الملائكة ولا التلقي منهم. فإن شككتم فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ : أهل الكتاب ، أو علماءهم الأحبار ، أي :
الذين لم يسلموا ، لأنهم لا يتهمون فى شهادتهم ، من حيث إنهم مدافعون فى صدر ملة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وأنتم إلي

(١) من قصيدة لأبى الطيب أحمد بن الحسين ، المعروف بالمتنبي.

(٢) قرأ الجمهور : (يوحى) بالياء وفتح الحاء ، وقرأ حفص (نوحى) بالنون وكسر الحاء .. انظر الإتحاف (٢/ ١٨٤). [.....]

(١٣٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣١

تصديق من لم يؤمن من أهل الكتاب أقرب من تصديقكم المؤمنين منهم ، فاسألوهم ليخبروكم : هل كانت الرسل ملائكة أو بشرا ، إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ذلك.

قال البيضاوي : وفى الآية دليل على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكا للدعوة العامة. وأما قوله : جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا «١» فمعناه : رسلا إلى الأنبياء. وقيل : لم يبعثوا إلى الأنبياء إلا متمثلين بصورة الرجال. وردّ بما روى أنه عليه صلى اللّه عليه وسلم رأى جبريل عليه السّلام على صورته التي هو عليها مرتين. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم. هـ. ومفهوم قوله : «الدعوة العامة» : أن الدعوة الخاصة كالأنبياء - عليهم السلام - ، فإن اللّه يبعث إليهم الملك ليعلمهم أمر دينهم.

ثم قال تعالى : بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ أي : أرسلناهم بالمعجزات والكتب. وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ أي : القرآن لأنه تذكير ووعظ ، لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ من الأحكام ، مما أمروا به ونهوا عنه ، ومما تشابه عليهم منه. والتبيين أعم من أن ينص على المقصود ، أو يرشد إلى ما يدل عليه ، كالقياس ودليل العقل. قاله البيضاوي. قال ابن جزى : يحتمل أن يريد : لتبين القرآن بسردك نصّه وتعليمه ، أو لتبين معانيه بتفسير مشكله ، فيدخل فى هذا ما سنته السنة من الشريعة. هـ. وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فى عجائبه وأسراره ، فيخوضون بسفن أفكارهم فى تيار بحر معانيه وأنواره ، فينتبهون للحقائق والشرائع.

الإشارة : كما لم يبعث اللّه فى الدعوة العامة - وهى دعوة الرسالة - إلا رجالا من البشر ، كذلك لم يبعث اللّه فى الدعوة الخاصة - وهى دعوة الولاية إلى سر الخصوصية - إلا رجالا من البشر أحياء ، يربون التربية النبوية العرفية ، فلا يصلح للتربية النساء لقلة عقلهن «٢» ، ولا الجن لانحرافه عن الاعتدال الذي فى البشر ، ولا الميت لعدم وجود بشريته فإنّ بشرية الحي تمد البشرية ، والروحانية تمد الروحانية. فلا تتهذب البشرية إلا بشهود بشرية الشيخ ، ولا تصفى الروحانية إلا بالقرب من روحانية الشيخ. ولذلك قالوا : الثدي الميتة لا ترضع. وقولنا : «التربية العرفية» أعنى : بالصحبة العرفية ، وأما التربية الغيبية ، على وجه خرق العادة ، كطيران الشيخ إلى المريد ، أو المريد إلى الشيخ ، فلا تجد صاحب هذه التربية إلا منحرفا لإحدى الجهتين ، إما إلى الحقيقة أو إلى الشريعة ، بخلاف التربية العرفية ، فلا يكون صاحبها ، فى الغالب ، إلا معتدلا كاملا.

(١) من الآية الأولى من سورة فاطر.

(٢) هذا رأى الشيخ المفسر ، لكن تاريخ المسلمين لا يمنع من هذا ، وسير الصالحات الزاهدات تبرهن على عكس ذلك ، اقرأ مثلا كتاب ذكر النسوة التعبدات الصوفيات ، لأبى عبد الرحمن السلمى ، وتراجم الصالحات فى سير أعلام النبلاء ، وفى حلية الأولياء وفى صفة الصفوة. وعلى أية حال : من يقوم بتربية الأولاد فى بيوت المسلمين الصالحين؟ ورب امرأة صالحة تربى رجلا ، بل رجالا.

وقوله تعالى : (فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) هم العارفون باللّه ، فإذا أشكل علينا أمر من أمر القلوب كأسرار التوحيد ، وأمر الخواطر ، رجعنا إليهم لأنهم أهل الذوق والكشف ، يجيبون سائلهم بالهمة والحال ، حتى يقلعوا عروق ما أشكل على السائل ، إن أتاهم متعطشا لهفانا ، وكذا ما أشكل فى أمر الدنيا ، من فعل تريد أن تفعله أو تتركه ، فينبغى الرجوع إليهم لأنهم ينظرون بنور اللّه ، فلا ينطقهم اللّه إلا بما هو حق سبق به القدر. وأما أمور الدين ، فإن كان له علم بالشريعة الظاهرة فالرجوع إليه ، وإن لم يكن له علم بالظاهر ، فالعلماء قائمون بهذا الأمر.

وقوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) يفهم منه أن من كان من أهل الفهم عن اللّه ، يأخذ العلم عن اللّه بإلهام أو تجل حقيقى ، فلا يحتاج إلى سؤالهم ، حيث صفت مرآة قلبه ، وقد يكون الولي ذاكرا ، باعتبار قوم ، وغير ذاكر ، باعتبار آخرين ، الذين هم أنهض منه حالا ، وأصوب مقالا. واللّه تعالى أعلم.

ثم هدد أهل المكر بأهل الخصوصية ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٤٧)

قلت : (مَكَرُوا السَّيِّئاتِ) : صفة لمحذوف ، أي : المكرات السيئات ، والتخوّف ، قيل : معناه : التنقص ، وهو أن تنقصهم شيئا فشيئا. روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صلى اللّه عليه وسلم توقف فى معناها ، فقال على المنبر : ما تقولون فيها؟ فسكتوا ، فقام شيخ من هذيل ، فقال : هذه لغتنا ، التخوف : التنقص. فقال : هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها؟

فقال : نعم. قال شاعرنا أبو كثير يصف ناقته :

تخوّف الرّحل منها تامكا قردا كما تخوّف عود النّبعة السفن «١»

فقال عمر : عليكم بديوانكم لا تضلوا ، قالوا : وما ديواننا؟ قال : شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم. هـ.

يقول الحق جل جلاله : أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا المكرات السيئات برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وبالمؤمنين ، حيث قصدوا ردّ دينه ، وصدوا الناس عن طريقه ، أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ كما خسف بقارون ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ أي : بغتة من حيث لا يظنون ، كما فعل بقوم لوط ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ

---

(١) اختلف فى نسبة البيت ، فنسبه الزمخشرى فى تفسيره لزهير ، وأبو حيان لأبى كثير الهذلى ، ونسبه ابن منظور لابن مقبل ، مرة ، ولذى الرمة ، أخرى ، وقوله : تامكا قردا ، أى : سناما مرتفعا ، والنبعة : واحدة النبع ، وهو من شجر الجبال ، والسفن : المبرد.

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

في متاجرهم ومسايرهم فى طلب معاشهم ، فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ بفائتين قدرتنا حتى نعجز عن أخذهم ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ : على تنقص ، بأن ينقص أموالهم وأنفسهم ، شيئا فشيئا ، حتى يهلكوا جميعا ، من غير أن يهلكهم جملة واحدة. وعليه يترتب قوله : فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ حيث لم يهلككم دفعة واحدة ، أو : على تخوف : على مخافة بأن يهلك قوما قبلهم ، فيتخوفوا ، فيأتيهم العذاب وهم متخوفون.

وهو قسيم قوله : (وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ) ، وقوله : فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ أي : حيث لم يعاجلكم بالعقوبة.
واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما خوف به أهل المكر بالأنبياء والرسل ، يخوف به أهل المكر بالأولياء والمنتسبين ، وقد تقدم هذا مرارا.

ثم أمر بالتفكر والاعتبار لأنه سبب النجاة من الاغترار ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٤٨ الى ٥٠]

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (٥٠)

قلت : الاستفهام للإنكار ، و(مِنْ شَيْ ءٍ) : بيان ل «ما». والضمير فى (ظِلالُهُ) يعود على (ما) ، أو على (شَيْ ءٍ).

و(سُجَّداً) : حال من الظلال ، وكذا جملة : (وَ هُمْ داخِرُونَ) ، وجمعه بالواو لأنه من صفة العقلاء.

وقال الزمخشري :

هما حالان من الضمير فى (ظِلالُهُ) إذ هو بمعنى الجمع لأنه يعود على قوله : (مِنْ شَيْ ءٍ) ، فعلى الأول يكون السجود من صفة الضلال ، وعلى الثاني يكون من صفة الأجرام. و(مِنْ دابَّةٍ) : يحتمل أن يكون بيانا ل (ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) معا لأن كل حيوان يصح أن يوصف بأنه يدب ، ويحتمل أن يكون بيانا ل (ما فِي الْأَرْضِ) خاصة ، فعلى الأولى : يكون عطف الملائكة عليه ، من عطف الخاص على العام تشريفا لهم ، وعلى الثاني : من عطف المباين.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أي : أهل المكر والخدع بالرسل والمؤمنين ، إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ من الأجرام والأشكال كالجبال والأشجار والبحار ليظهر لهم كمال قدرته وقهره ، فيخافوا سطوته وبطشه ، حتى لا يمكروا بخواصه. حال كون ما خلق من الأجرام يَتَفَيَّؤُا أي : يميل ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ أي : يرجع الظل من جانب إلى جانب ، أي : يميل عن الأيمان والشمائل ، وذلك أن الظل من وقت

(١٣٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣٤

طلوع الشمس إلى الزوال يكون إلى جهة ، ومن الزوال إلى الغروب يكون إلى جهة أخرى. ثم يمتد الظل ويعم بالليل إلى طلوع الشمس. والتفيؤ : من الفيء ، وهو : الظل الذي يرجع بعكس ما كان غدوة. وقال رؤبة بن العجاج : يقال بعد الزوال : ظل وفيء ، ولا يقال قبله إلا ظل. ففى لفظ «يَتَفَيَّؤُا» ، هنا ، تجوز.

وقال فى سلوة الأحزان : فاء الظل : معناه : رجع بعكس ما كان من بكرة إلى الزوال وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى الزوال ، إنما هى فى نسخ الظل العام قبل طلوعها ، فإذا زالت ، ابتدأ رجوع الظل العام ، ولا يزال ينمو حتى تغيب الشمس فيعم. والظل الممدود فى الجنة لم يذكر اللّه تعالى فيها فيئا لأنه لا مذهب له ، ولا تكون الفيئة إلا بعد ذهاب الظل ، ولا ذهاب لظل الجنة ، فلا يتعقل له فيأة. هـ.

واستعمال اليمين والشمال ، فى غير الإنسان ، تجوز فإنهما فى الحقيقة خاص بالإنسان. هـ.

حال كون تلك الأجرام ، أو الظلال سُجَّداً لِلَّهِ ، قيل : حقيقة. قال الضحاك : إذا زالت الشمس سجد كل شىء قبل القبلة ، من نبات أو شجر ، ولذلك كان الصالحون يستحبون الصلاة فى ذلك الوقت.

وقال مجاهد : إنما تسجد الظلال ، لا الأشخاص. وقيل : هو عبارة عن الخضوع والطاعة ، وميلان الظلال ودورانها بالسجود ، كما يقال للمشير برأسه نحو الأرض ، على جهة الخضوع : ساجدا ، ثم استشهد لذلك. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : والمتّجه : أنه خضوع وطاعة للمشيئة وانقياد ، لا حقيقة لأنه لا يقال فيه ، كذلك : أو لم يروا ، وإنما يرى الانقياد. وخص الظل لأنه مشهود ذلك فيه ، ولو حاول صاحبه عدمه أو ضده ، لم يستطع ، بخلاف الأفعال الاختيارية ، فإن الجبر فيها غير محسوس ، فظهر سر الإشارة للظلال. واللّه أعلم. هـ.

قال البيضاوي : المراد من السجود : الاستسلام ، سواء كان بالطبع أو الاختيار ، يقال : سجدت النخلة ، إذا مالت لكثرة الحمل ، وسجد البعير ، إذا طأطأ رأسه ليركب. أو سُجَّداً : حال من الظلال وَهُمْ داخِرُونَ : حال من الضمير ، والمعنى : ترجع الظلال ، بارتفاع الشمس وانحدارها ، بتقدير اللّه

تعالى ، من جانب إلى جانب ، منقادة إلى ما قدّر لها من التفيؤ ، أو واقعة على الأرض ، ملتصقة بها ، على هيئة الساجد ، والأجرام فى أنفسها أيضا داخرة ، أي : صاغرة منقادة لأفعال اللّه. هـ.
وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أي : ينقاد لإرادته ، وتأثير قدرته طبعا ، ولتكليفه وأمره طوعا ليصح إسناده إلى عامة أهل السموات والأرض. وقوله : مِنْ دابَّةٍ : بيان لهما لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية ، سواء كان فى أرض أو سماء ، وَالْمَلائِكَةُ عطف على المبين به ، عطف خاص على عام ،

(١٣٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣٥
أو عطف المجردات على الجسمانيات ، وبه احتج من قال : إن الملائكة أرواح مجردة. قاله البيضاوي. قلت : وهو خلاف الجمهور. بل الملائكة : أجسام لطيفة نورانية متحيزة ، لها مادة نورانية وتشكيل مخصوص ، غير أن اللّه تعالى أعطاها قوة التشكيل لأنها قريبة من أسرار المعاني الأزلية. وعبّر الحق تعالى ب «ما» ليشمل العقلاء وغيرهم.
ثم قال تعالى فى وصف الملائكة : وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ عن عبادته ، يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ هو تقرير ، وبيان لنفى الاستكبار عنهم ، أي : يخافون عظمة ربهم من فوقهم إذ هم محاطون بأفلاك أسرار الجبروت ، مقهورون تحت القدرة والمشيئة ، أو : يخافون عذاب ربهم أن يرسل عليهم من فوقهم ، أو : يخافون ربهم وهو من فوقهم بالقهر والغلبة. والجملة : حال من الضمير فى (يَسْتَكْبِرُونَ) ، أو بيان له وتقرير لأن من خاف ربه لم يستكبر عن عبادته ، وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ من الطاعة وتدبير الأمور التي أمرهم بتدبيرها. وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء. قاله البيضاوي.
الإشارة : كل ما دخل تحت عالم التكوين لزمته العبودية ، وأحاطت به القهرية ، فلا بد من الخضوع لأحكام الواحد القهار ، تكليفية كانت أو تعريفية ، فمن لم ينقد لها بملاطفة الإحسان ، قيد بسلاسل الامتحان. وبهذا امتاز الخصوص من العموم ، فالخصوص علموا أن سلسلة الأقدار فى عنقهم ، تجرهم إلى مراد ربهم ، فاستسلموا لها ، وانقادوا ، وخضعوا ، وتأدبوا لها ، فاستحقوا التقريب والاصطفائية. والعموم جهلوا هذه السلسلة ، أو علموها ، ولم يقدروا على الاستسلام لها فاستحقوا البعد من حضرة الحق إذ لا يدخلها إلا أهل التهذيب والتأديب. وباللّه التوفيق.
ثم نهى عن الشرك الجلي والخفي ، فقال :
[سورة النحل (١٦) : الآيات ٥١ الى ٥٥]
وَقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ

وَلَهُ الدِّينُ واصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)

قلت : (إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ) ، إلهين : مفعول أول ، واثنين : تأكيد ، والثاني : محذوف ، أي : معبودين لكم ، وفائدة التأكيد :

التنبيه على أن المقصود هو النهى عن الاثنينية تنبيها على أن الاثنينية تنافى الألوهية ، كما ذكر الواحد فى قوله :

إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ إثبات الوحدانية دون الإلهية. قاله البيضاوي. وعبارة صاحب المطول : لفظ إلهين حامل لمعنى الجنسية - أعنى : الإلهية - ومعنى العدد - أعنى : الاثنينية - وكذا لفظ «الله» حامل لمعنى الجنسية والوحدة ،

والغرض المسوق له الكلام فى الأول : النهى عن اتخاذ الاثنين من الإله لا إثبات جنسه ، فوصف الإلهين باثنين وإله بواحد إيضاحا لهذا الغرض وتفسيرا له. هـ. ويحتمل أن يكون «اثْنَيْنِ» مفعولا أولا ، و«إِلهَيْنِ» مفعولا ثانيا.

وقوله : (فَإِيَّايَ) : مفعول بفعل محذوف ، أي : ارهبوا ، ولا يعمل فيه (ارهبون) لأنه أخذ مفعوله ، وهو : ياء المتكلم ، و(واصِباً) : حال من (الدِّينُ). و(ما بِكُمْ) : إما شرطية ، أو موصولة متضمنة معنى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول فإن استقرار النعمة بهم يكون سببا للإخبار بأنها من الله ، لا سببا لحصولها منه لأن جواب الشرط يكون مسببا عن فعله ، واستقرار النعمة بهم ليس سببا فى حصولها من الله ، وإنما هو سبب فى الإخبار بأنها من الله. فتأمله. وأصله للبيضاوى ، والجملة : يحتمل أن تكون استئنافية ، أو حالية ، فيتصل الكلام بما قبله ، أي : كيف تتقون غير الله ، والحال أن ما بكم من نعمة فمنه وحده؟ واللام فى (لِيَكْفُرُوا) : لام الأمر على وجه التهديد ، كقوله بعد : (فَتَمَتَّعُوا) ، فعلى هذا يبتدأ بها ، وقيل : هى لام العاقبة ، فعلى هذا توصل بما قبلها لأنها فى الأصل لام كى ، وهو بعيد.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ ، بأن تعبدوا الله تعالى ، وتعبدوا معه الأصنام ، إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ لا شريك له ولا ظهير ، ولا معين ولا وزير ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ، عدل من الغيبة إلى التكلم مبالغة فى الترهيب ، وتصريحا بالمقصود ، كأنه قال : فأنا ذلك الإله الواحد ، فإياى فارهبون ، لا غيرى ، وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ خلقا وملكا وعبيدا ، وَلَهُ الدِّينُ أي : الطاعة والانقياد واصِباً :

لازما ، أو : واجبا وثابتا لما تقرر أنه الإله وحده ، والحقيق بأن يرهب منه ، فلا يدان لأحد إلا هو.
وقيل : وَلَهُ الدِّينُ أي : الجزاء واصِباً أي : دائما ، فلا ينقطع ثوابه لمن آمن ، ولا عقابه لمن كفر.
أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ مع أنه ليس بيد غيره نفع ولا ضر؟! كما قال : وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ أي : وأىّ شىء اتصل بكم من نعمة فهو من الله وحده ، ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ أي : فلا تتضرعون عند الشدة إلا إليه ، ولا تستغيثون إلا به. والجؤار : رفع الصوت فى الدعاء والاستغاثة ، ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ وهم : كفاركم ، ففى وقت الشدة ينسون أصنامهم ، وفى الرخاء يرجعون إليها. فعلوا ذلك لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ من نعمة الكشف عنهم ، كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة ، أو يكون تهديدا ، أي : ليكفروا ما شاءوا فسوف يعلمون ، كقوله : فَتَمَتَّعُوا بكفركم فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة أمركم.

(١٣٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣٧
الإشارة : قال فى التنوير : أبى المحققون أن يشهدوا غير الله لما حققهم به من شهود القيومية ، وإحاطة الديمومية. هـ. فمن فتح اللّه بصيرته ، لم يشهد مع الحق سواه إذ الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، فما حجبك عن الحق وجود موجود معه إذ لا شىء معه ، وإنما حجبك توهم موجود معه». فمن غاب عن ثنوية نفسه غاب عن ثنوية الأكوان ، ووقع على عين الشهود والعيان. فما ظهر فى الوجود إلا أسرار ذاته وأنوار صفاته. وبالله التوفيق.
ثم ذكر جهالة أهل الشرك وسفاهة رأيهم ، فقال :
[سورة النحل (١٦) : الآيات ٥٦ الى ٦٠]
وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)
قلت : الضمير فى (يَجْعَلُونَ) للكفار ، وفى (يَعْلَمُونَ) لهم ، أو للأصنام. و(لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ) : يجوز أن يكون (ما يَشْتَهُونَ) مبتدأ ، وخبره : (لَهُمْ) ، وأن يكون مفعولا بفعل مضمر ، أي : ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون ، وأن يكون معطوفا على البنات ، وهذا منعه البصريون لاتحاد الفاعل والمفعول ، وهو الواو ، وضمير لهم فى الغيبة ، فلا يقال :
زيد ضربه ، وإنما يقال : ضرب نفسه ، ولا يقال : أنا ضربتنى ، ويجوز ذلك فى أفعال القلوب. وقال

البيضاوي :
ولا يبعد تجويزه فى المعطوف ، كما فى الآية.
يقول الحق جل جلاله : وَيَجْعَلُونَ أي : كفار العرب لِما لا يَعْلَمُونَ إلاهيتهم ببرهان ولا حجة ، وهم الأصنام. أو : لما لا علم لهم من الجمادات التي يعبدونها ، نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ من الزرع والأنعام ، بقولهم :
هذا لله وهذا لشركائنا ، تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ سؤال توبيخ وعتاب عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ من أنها آلهة بالتقرب إليها ، أو عما كنتم تفترون على الله من أنه أمركم بذلك.
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ من قولهم : الملائكة بنات اللّه ، وكانت خزاعة وكنانة يقولون ذلك. سُبْحانَهُ تنزيها له عن ذلك ، وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ أي : ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون ، وهم البنون ، والمعنى : أنهم يجعلون لله البنات التي يكرهونها - وهو منزه عن الولد - ، ويختارون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور.
وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى

(١٣٧/٣)

أي : أخبر بولادتها عنده ، ظَلَّ أي : صار وَجْهُهُ مُسْوَدًّا : متغيرا تغير مغتم من الكآبة والحياء من الناس ، وَهُوَ كَظِيمٌ : ممتلئ غيظا ، يَتَوارى يختفى مِنَ الْقَوْمِ أي : من قومه حياء منهم ، مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ من قبح المبشر به ، متفكرا فى نفسه ، أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أي : يتركه ، عنده على ذل وهوان ، أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أي : يخفيه فيه ويئده ، وهى : الموءودة ، وتذكير الضمير للفظ «ما» ، أَلا ساءَ : بئس ما يَحْكُمُونَ حكمهم هذا حيث نسبوا لله تعالى البنات ، التي هى عندهم بهذا المحل.
لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ أي : صفة السوء ، وهى : الحاجة إلى الولد المنادية بالموت ، واستبقاء الذكور استظهارا بهم ، وكراهة البنات ووأدهن خشية الإملاق ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى أي : الصفة العليا ، وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلق ، والجود الفائق ، والنزاهة عن صفات المخلوقين ، والوحدانية فى الذات والصفات والأفعال. وقال الأزهرى : المثل الأعلى ، أي : التوحيد والخلق والأمر ، ونفى كل إله سواه. ويترجم عن هذا كله بقول : «لا إله إلا الله». هـ. وَهُوَ الْعَزِيزُ فى ملكه ، الْحَكِيمُ فى صنعه ، أي : المنفرد بكمال القدرة والحكمة ، فالقدرة مظهرة للأشياء فى أوقاتها ، والحكمة تسترها برداء أسبابها وشروطها. والله تعالى أعلم.
الإشارة : ينبغى لأهل التوحيد الكامل أن يتنزهوا عن شبهة الشرك فى أعمالهم وأموالهم ، فلا يشركون فيما رزقهم الله ، من الأموال ، أحدا من المخلوقين ، يجعلون لهم نصيبا فى أموالهم ، على قصد

الحفظ ، أو إصلاح النتاج ، كما تفعله العامة مع الصالحين ، فإن ذلك مما يقدح فى صفاء التوحيد إذ لا فاعل سواه. وقوله تعالى : وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ... الآية ، فيه ذم وتهديد لمن يكره البنات ، وينقبض من زيادتهن لأن فيه نزغة من فعل الجاهلية ، بل ينبغى إظهار البسط والبرور بهن أكثر من الذكور ، ولا شك أن النفقة عليهن أكثر ثوابا من الذكور ، وفى الحديث : «من ابتلى بهذه البنات ، فأحسن إليهنّ ، كنّ له حجابا من النّار». «١» إلى غير ذلك من أحاديث كثيرة ترغب فى الإحسان إليهن. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إمهاله تعالى للكفار ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ٦١]

وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١)

---

(١) أخرجه البخاري فى (الزكاة ، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة) ، ومسلم فى (البر والصلة ، باب فضل الإحسان إلى البنات) عن السيدة عائشة - رضى اللّه عنها.

(١٣٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣٩

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ أي : بكفرهم ومعاصيهم الصادرة من بعضهم ، ما تَرَكَ عَلَيْها أي : على الأرض مِنْ دَابَّةٍ : نسمة تدب عليها ، بشؤم ظلمهم. وعن ابن مسعود : (كاد الجعل «١» يهلك فى جحره بذنب ابن آدم). وقيل : لو هلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء ، وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى سماه لأعمارهم ، أو لعذابهم ، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ عنه ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ عليه ، بل يهلكون ، أو يعذبون حينئذ لا محالة ، فالحكمة فى إمهال أهل الكفر والمعاصي لئلا يعم العذاب ، كقوله : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً «٢» ، و(لعل الله تعالى يخرج من أصلابهم من يوحد الله). والله تعالى أعلم.

الإشارة : إن الله يهم أن ينزل إلى أهل الأرض عذابا لما يرى فيهم من كثرة الظلم والفجور ، فإذا رأى حلق الذكر ومجالس العلم رفع عنهم العذاب. وفى بعض الأخبار : «لو لا شيوخ ركع ، وصبيان رضّع ، وبهائم رتّع ، لصبّ عليكم العذاب صبّا». «٣».

ثم ذكر وعيد الكفار ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ٦٢]

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢)

قلت : (أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى) : بدل من (الْكَذِبَ) ، ومن قرأ (مُفْرِطُونَ) بالكسر ، فاسم فاعل من الإفراط ، وهو : تجاوز الحد ، ومن قرأها بالفتح فاسم مفعول ، من أفرط فى طلب الماء ، إذا قدمه. ومن قرأ بالتشديد فمن التفريط.

يقول الحق جل جلاله : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ لأنفسهم من البنات ، والشركاء فى الرئاسة وأراذل الأموال ، وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ مع ذلك ، وهو أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى عند اللّه ، وهى الجنة. وهذا كقوله :

وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى «٤». قال تعالى : لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ أي : لا شك ، أو حقا أن لهم النار ، وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ مقدّمون إليها ، أو متركون فيها ، أو مفرطون فى المعاصي والظلم ، متجاوزون الحد فى ذلك. أو مفرطون فى الطاعة من التفريط.

---

(١) الجعل : حيوان كالخنفساء ... انظر : النهاية (جعل ، ١/ ٢٧٧).

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

(٣) أخرجه البيهقي فى الكبرى (صلاة الاستسقاء ، باب استحباب الخروج بالضعفاء والصبيان ٣/ ٣٤٥) والطبراني فى الأوسط (ح ٦٥٣٩) ، وابن عدى فى الكامل (٤/ ١٦٢٢) عن مالك بن عبيدة الديلي ، عن أبيه ، عن جده.

(٤) من الآية ٥٠ من سورة فصلت.

الإشارة : الواجب فى حق الأدب أن ما كان من الكمالات ينسب إلى اللّه تعالى ، كائنا ما كان ، وما كان من النقائص ينسب إلى العبد ، وإن كان ، فى الإيجاد والاختراع ، كل من عند اللّه ، وهو بهذا الاعتبار فى غاية الحسن.

كما قال صاحب العينية رضي اللّه عنه :

وكلّ قبيح إن نسبت لحسنه أتتك معانى الحسن فيه تسارع

يكمّل نقصان القبيح جماله فما ثمّ نقصان ولا ثمّ باشع

ثم سلّى نبيه صلى اللّه عليه وسلم بقوله :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٦٣ الى ٦٤]
تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٦٣)
وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)
قلت : (وَ هُدىً وَرَحْمَةً) : معطوفتان على «لِتُبَيِّنَ» ، وانتصبا على المفعولية من أجله ، أي : لأجل البيان والهدى والرحمة.
يقول الحق جل جلاله : تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا رسلا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ يا محمد ، فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ السوء ، فرأوها حسنة ، فأصروا على قبائحها ، وكذبوا الرسل ، فصبروا حتى نصروا. فاصبر كما صبروا ، حتى تنصر كما انتصروا. فكان عاقبة من اتبع الشيطان الهلاك والوقوع فى العذاب ، فَهُوَ وَلِيُّهُمُ أي : متولى أمورهم الْيَوْمَ فى الدنيا ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فى الآخرة ، أو : فهو وليهم يوم القيامة ، على أنه حكاية حال آتية ، أي : لا ولى لهم غيره فى ذلك اليوم ، وهو عاجز عن نصر نفسه ، فكيف ينصر غيره؟
وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ : القرآن إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ : للناس الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ من التوحيد ، والقدر ، وأحوال المعاد ، وأحكام الأفعال ، وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ به ، فإنهم المنتفعون بإنزاله.
الإشارة : كل من وقف دون الوصول إلى مشاهدة الحق ، فهو مزين له فى عمله ، مستدرج به وهو لا يشعر ، وحظه يوم القيامة الندم والأسف. وفى ذلك يقول أبو المواهب «١» :
من فاته منك وصل حظّه النّدم ومن تكن همّه تسمو به الهمم

---

(١) التونسى ، صاحب «قوانين حكم الإشراق».

وناظر فى سوى معناك حقّ له يقتصّ من جفنه بالدّمع وهو دم
والسّمع إن جال فيه من يحدّثه سوى حديثك أمسى وقره الصّمم
فهذه علامات الوصول إلى الحق ، بحيث ترتفع همته إلى حضرة الحق ، ويصرف نظره فى معانى أسرار التوحيد ، وسمعه فيما يقرب إلى صريح التفريد ، ومن لم يبلغ هذا المقام ، لم ينقطع عنه تزيين الشيطان ، فيزين له عمله ، فيقف معه. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر دلائل توحيده وباهر قدرته ، وفى معرفتهما معرفة ذاته ، فقال :
[سورة النحل (١٦) : آية ٦٥]

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)

يقول الحق جل جلاله : وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً مطرا فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها أنبت فيها أنواع النبات بعد يبسها ، فكانت هامدة غبراء ، غير منبتة ، شبيهة بالميت ، فصارت ، بعد إنزال المطر ، مخضرة مهتزة رابية شبيهة بالحي. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ سماع تدبر وإنصاف فإن هذه الآية ظاهرة ، تدرك بأدنى تنبيه وسماع ، غير محتاجة إلى كثرة تفكر واعتبار.

الإشارة : واللّه أنزل من سماء الغيوب ماء العلوم النافعة ، فأحيا به أرض النفوس الميتة بالغفلة والجهل ، فصارت مبتهجة بأنوار التوحيد وأسرار التفريد ، وفى ذلك يقول الشاعر :

إنّ عرفان ذى الجلال لعزّ وضياء وبهجة وسرور

وعلى العارفين أيضا بهاء وعليهم من المحبّة نور

فهنيئا لمن عرفك ، إلهى هو ، واللّه ، دهره ، مسرور

ثم ذكر دليلا آخر ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٦٦ الى ٦٧]

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)

قلت : سقى وأسقى : لغتان ، على المشهور. والضمير فى (بُطُونِهِ) : للأنعام ، وذكّره باعتبار ما ذكر «١» ، كقوله :

كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ «٢» ، أو : باعتبار الجنس ، وعدّه سيبويه فى المفردات المبنية على أفعال ،

---

(١) أي : مما فى بطون ما ذكرناه.

(٢) الآيتان : ١١ - ١٢ من سورة عبس.

كأخلاق وأكباش ، فهو ، عنده ، اسم جمع ، كقوم ورهط ، فلفظه مفرد ومعناه جمع ، فذكّره هنا مراعاة للفظه ، وأنثه ، فى سورة المؤمنين مراعاة لمعناه. ومن قال : إنه جمع «نعم» ، جعل الضمير للبعض فإن اللبن لبعضها دون جميعها.

و(من) فى قوله : «مِمَّا» للتبعيض ، و«مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ» لابتداء الغاية ، و(مِنْ ثَمَراتِ) : يتعلق بمحذوف

، أي :

ونسقيكم من ثمرات النخيل ، يدل عليه (نُسْقِيكُمْ) الأول. و(تَتَّخِذُونَ) : استئناف لبيان الإسقاء ، أو يكون (ثَمَراتِ) :

عطفا على (مِمَّا فِي بُطُونِهِ) ، أو يتعلق (مِنْ ثَمَراتِ) بتتخذون ، أي : تتخذون من ثمرات النخيل سكرا. وكرر (مِنْهُ) للتأكيد ، أو يكون (تَتَّخِذُونَ) : صفة لمحذوف ، أي : شيء تتخذون منه سكرا.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ لَكُمْ أيها الناس ، فِي الْأَنْعامِ وهى : الإبل والبقر والغنم ، لَعِبْرَةً ظاهرة تدل على كمال قدرته ، وعجائب حكمته ، وهى أنا نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ أي : بعض ما استقر فى بطونه من الغذاء ، مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وهو ما فى الكرش من القذر ، وَدَمٍ وهو ما تولد من لباب الغذاء ، لَبَناً خالِصاً من روائح الفرث ، صافيا من لون الدم. والمعنى : أن اللّه يخلق اللبن متوسطا بين الفرث والدم يكتنفانه ، ومع ذلك فلا يغير له لونا ولا طعما ولا رائحة. وعن ابن عباس : (إن البهيمة إذا اعتلفت ، وانطبخ العلف فى كرشها ، كان أسفله فرثا ، وأوسطه لبنا ، وأعلاه دما). ثم وصفه بقوله : سائِغاً لِلشَّارِبِينَ سهل المرور فى حلقهم ، حتى قيل : لم يغصّ أحد قط من اللبن. وروى ذلك عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «١».

وَنسقيكم ، أيضا ، مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ أي : من عصيرهما. ثم بيّن كيفية الإسقاء فقال : تَتَّخِذُونَ مِنْهُ أي : مما ذكر سَكَراً يعنى : الخمر ، سميت بالمصدر ، ونزل قبل تحريم الخمر ، فهى منسوخة بالتحريم. وقيل : هى على وجه المنة بالمنفعة التي فى الخمر ، ولا تعرّض فيها لتحليل الخمر ولا تحريم ، وهذا هو الصحيح. وفي دعوى النسخ نظر لأن النسخ إنما يكون فى الأحكام المشروعة المقررة ، وهنا ليس كذلك ، إنما فيه امتنان واعتبار فقط. وَتتخذون من ثمراتها رِزْقاً حَسَناً كالتمر ، والزبيب ، والدبس - وهو ما يسيل من الرطب - ، والخلّ ، والربّ «٢» ، وقيل : السّكر : المائع من هاتين الشجرتين كالخل ، والرّب ، والرزق الحسن : العنب والتمر. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً دالة على كمال قدرته تعالى ، لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يستعملون عقولهم بالتأمل ، والنظر فى الآيات.

---

(١) روى ذلك بلفظ : «ما شرب أحد لبنا فيشرق» ، عزاه السيوطي ، فى الدر (٤/ ٢٨) ، لابن مردويه عن يحيى بن أبى كبشة عن أبيه عن جده مرفوعا.

(٢) الرّبّ : ما يطبخ من التمر ... انظر : النهاية (ربب ٢/ ١٨١).

الإشارة : كما استخرج الحق ، جل جلاله ، من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ، استخرج مذهب أهل السنة ، القائلين بالكسب ، من بين مذهب الجبرية ومذهب المعتزلة ، بين قوم أفرطوا ، وقوم فرطوا. واستخرج أيضا مذهب الصوفية - أعنى : المحققين منهم - من بين الواقفين مع ظاهر الشريعة والمتمسكين بمجرد الحقيقة ، بين قوم تفسقوا وقوم تزندقوا ، بين قوم وقفوا مع عالم الحكمة ، وقوم وقفوا مع شهود القدرة من غير حكمة ، وهو ، إن لم يكن عن غلبة سكر ، كفر. واستخرج ، أيضا ، مذهب أهل التربية من بين سلوك محض وجذب محض ، فأهل السلوك المحض محجوبون عن اللّه ، وأهل الجذب المحض غائبون عن طريق اللّه ، وأهل التربية برزخ بين بحرين ، الجذب فى بواطنهم ، والسلوك على ظواهرهم. ولا يعرف هذا إلا من شرب مشربهم ، قد أخذوا من ثمرات نخيل الشرائع وأعناب الحقائق ، سكرا فى قلوبهم ، بشهود محبوبهم ، ورزقا حسنا معرفة فى أسرارهم ، وعبودية فى ظواهرهم ، فصاروا جامعين بين جذب الحقائق وسلوك الشرائع ، كل واحد فى محله. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر دليلا آخر ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٦٨ الى ٦٩]

وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)

قلت : (أَنِ اتَّخِذِي) : مفسرة للوحى الذي أوحى إلى النحل ، أو مصدرية ، أي : بأن اتخذي. و(مِنَ) : للتبعيض فى الثلاثة مواضع ، (ثُمَّ كُلِي) : عطف على (اتَّخِذِي). و(مِنْ) : للتبعيض لأنها لا تأكل من جميع الشجر ، وقيل :

من كل الثمرات التي تشتهيها ، فتكون للبيان. و(ذُلُلًا) : حال من السبل ، أو من الضمير فى (فَاسْلُكِي).

يقول الحق جل جلاله : وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أي : ألهمها ، وقذف فى قلوبها ذلك. والوحى على ثلاثة أقسام : وحي إلهام ، ووحي منام ، ووحي أحكام. وقال الراغب : أصل الوحى : الإشارة السريعة ، إما بالكلام رمزا ، وإما بصوت مجرد عن التركيب ، أو بإشارة ببعض الجوارح ، والكناية. ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى الأنبياء : وحي ، وذلك أضرب إما برسول مشاهد ، وإما بسماع كلام من غير معاينة ، كسماع موسى كلام اللّه ، وإما بالقاء فى الروع ، وإما بإلهام ، نحو : وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى «١» ، وإما تسخير ، كقوله : وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ، أو بمنام ، كقوله صلى اللّه عليه وسلم : «انقطع الوحى ، وبقي المبشرات رؤيا المؤمن» «٢».

(١) من الآية ٧ من سورة القصص. [.....]

(٢) أخرجه البخاري فى (التعبير ، باب المبشرات) ، بلفظ : «لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا : وما المبشرات؟ قال الرؤيا الصالحة» من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(١٤٣/٣)

ثم بيّن ما أوحى إليها فقال : أَنِ اتَّخِذِي ، أو بأن اتخذي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً تأوين إليها ، كالكهوف ونحوها ، وَمِنَ الشَّجَرِ بيوتا ، كالأجباح «١» ونحوها ، وَمِمَّا يَعْرِشُونَ أي : يهيئون ، أو يبنون لك الناس من الأماكن ، وإلا لم تأو إليها. وذكرها بحرف التبعيض لأنها لا تبنى فى كل جبل ، وكل شجر ، وكل ما يعرش من كرم أو سقف ، ولا فى كل مكان منها. وإنما سمى ما تبنيه ، لتتعسل فيه ، بيتا تشبيها ببناء الإنسان لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة ، التي لا يقوى عليها حذّاق المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة. ولعل ذكره : للتنبيه على ذلك. قاله البيضاوي. قلت : وليس للنحل فعل فى الحقيقة ، وإنما هو صنع العليم الحكيم فى مظاهر النحل.

ثم قال لها : ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ التي تشتهيها ، حلوها ومرها. قيل : إنها ترعى من جميع النوار إلا الدفلة «٢». فَاسْلُكِي أي : ادخلى سُبُلَ رَبِّكِ طرقه فى طلب المرعى ، أو : فاسلكى راجعة إلى بيوتك ، سبل ربك ، لا تتوعر عليك ولا تلتبس. وأضافها إليه لأنها خلقه وملكه. ذُلُلًا : مطيعة منقادة لما يراد منك ، أو اسلكى طرقه مذللة مسخرة لك ، فلا تعسر عليك وإن توعرت ، ولا تضل عن العود منها وإن بعدت. قال مجاهد : لم يتوعّر على النحل قط طريق.

يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ وهو العسل ، عدل عن خطاب النحل إلى خطاب الناس : لأنه محل الإنعام عليهم ، والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم. وسماه شرابا لأنه مما يشرب. وظاهر الآية أن العسل يخرج من بطون النحل ، وهو ظاهر كلام سيدنا على بن أبى طالب رضي اللّه عنه فى تحقيره للدنيا ، قال : (أشرف لباس ابن آدم فيها نفثة دود ، وأشرف شراب فيهارجيع نحلة - أو قىء نحلة - ، وأشرف لذة فيها مبال فى مبال). وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل. قاله ابن عطية. قلت : والذي ألفيناه ، ممن يتعاطاهم ، أنه يخرج من دبرهم.

وقوله : مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ أي : أبيض ، وأحمر ، وأسود ، وأصفر ، بحسب اختلاف سن النحل ، ومراعيها. وقد يختلف طعمه ورائحته باختلاف مرعاه. ومنه قول عائشة للنبى - عليه الصلاة والسلام : (جرست نحله العرفط) «٣» وهو نبت منتن الرائحة ، شبهت رائحته برائحة المغافير «٤».

ثم قال تعالى : فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إما بنفسه ، كما فى الأمراض البلغمية ، أو مع غيره ، كما فى سائر

الأمراض ، إذ قلما ما يكون معجون إلا والعسل جزء منه. قاله البيضاوي. قال السيوطي : قيل : لبعضها ، كما دل

---

(١) الجبح : هى مواضع النحل فى الجبل ، وفيها تعسل ، وقيل : الأجباح : حجارة الجبل .. انظر اللسان - جبح.

(٢) الدفلة : نبت مرّ ، أخضر ، حسن المنظر انظر .. اللسان (دخل ، ٢/ ١٣٩٧).

(٣) جاء ذلك فى حديث شرب النبي صلى اللّه عليه وسلم العسل. وأخرجه البخاري فى (الطلاق ، باب لم تحرم ما أحل اللّه لك). والعرفط - بالضم - :
شجر الطّلح ، وله صمغ كريه الرائحة ، فإذا أكلته النحلة حصل فى عسلها من ريحه. انظر النهاية (عرفط).

(٤) المغافير : جمع مغفور ومغفار ، وهو صمغ حلو ، له رائحة كريهة ، يسيل من شجر العرفط ، يؤكل ، أو يوضع فى ثوب ، ثم ينضح بالماء ، فيشرب. انظر اللسان (غفرة ٥/ ٣٢٧٥).

(١٤٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٤٥
عليه تنكير شفاء ، أو لكلها بضميمة إلى غيره - أقول : وبدونها ، بنية - وقد أمر به صلى اللّه عليه وسلم من استطلق بطنه ، رواه الشيخان. هـ. قال ابن جزى : لأن أكثر الأدوية مستعملة من العسل كالمعاجن ، والأشربة النافعة من الأمراض.
وكان ابن عمر يتداوى به من كل شىء ، فكأنه أخذه من العموم. وعلى ذلك يدل الحديث عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «أن رجلا جاء إليه فقال : أخى يشتكى بطنه ، فقال : اسقه عسلا ، فذهب ثم رجع ، فقال : قد سقيته فما نفع ، قال : فاذهب فاسقه عسلا ، فقد صدق اللّه وكذب بطن أخيك ، فسقاه ، فشفاه اللّه عز وجل» «١».
إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر ، علم ، قطعا ، أنه لا بد له من قادر مدبر حكيم ، يلهمها ذلك ويحملها عليه ، وهو الحق تعالى.
الإشارة : إنما كان العسل فيه شفاء للناس لأن النحل ترعى من جميع العشب ، فتأخذ خواص منافعها. وكذلك العارف الكامل يأخذ النصيب من كل شىء ، ويعرف اللّه فى كل شىء ، فإذا كان بهذه المنزلة ، كان فيه شفاء للقلوب ، كل من صحبه ، بصدق ومحبة ، شفاه اللّه ، وكل من رآه ، بتعظيم وصدق ،

أحياه اللّه. وقد قالوا فى صفة العارف : هو الذي يأخذ النصيب من كل شيء ، ولا يأخذ النصيب منه شيئا ، يصفو به كدر كل شيء ، ولا يكدر صفوه شيء ، قد شغله واحد عن كل شيء ، ولم يشغله عن الواحد شيء .. إلى غير ذلك من نعوته. وقال الورتجبي :

قال أبو بكر الوراق : النحلة لمّا تبعت الأمر ، وسلكت سبيلها على ما أمرت به ، جعل لعابها شفاء للناس ، كذلك المؤمن ، إذا اتبع الأمر ، وحفظ السر ، وأقبل على مولاه ، جعل رؤيته وكلامه ومجالسته شفاء للخلق ، ومن نظر إليه اعتبر ، ومن سمع كلامه اتعظ ، ومن جالسه سعد. هـ.

ثم ذكر دلالة أخرى على قدرته ، وهى الإحياء والإماتة ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ٧٠]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ : أظهركم إلى عالم الشهادة ، ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ : يردكم إلى عالم الغيب عند انتهاء آجالكم ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ أي : أخسه ، يعنى : الهرم والخرف ، الذي يشابه الطفولية فى نقصان القوة والعقل. وقيل : هو خمس وتسعون سنة ، وقيل : خمس وسبعون سنة ، والتحقيق : أن ذلك لا ينضبط بسن. لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ليصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفولية ، فى نقصان العقل والنسيان وسوء الفهم. وليس المراد نفى العلم بالكلية ، بل عبارة عن قلة العلم لغلبة النسيان. وقيل : المعنى : لئلا يعلم زيادة على علمه شيئا. قال عكرمة : (من قرأ القرآن لم يصر بهذه المنزلة).

---

(١) أخرجه البخاري فى (الطب ، باب الدواء بالعسل) ، ومسلم فى (السلام ، باب التداوى بسقى العسل) عن أبى سعيد الخدري رضي اللّه عنه.

قلت : جاء فى بعض الأحاديث ما يقتضى تخصيص القارئ للقرآن بالمتبع له ، وأنه الذي يمتعه الله بعقله حتى يموت ، وهو الذي يشهد له الحس ، أي : الوجود فى الخارج ، بالصدق ، لوجود الخرف فى كثير ممن يحفظه.

قاله فى الحاشية.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ أي : عليم بمقادير الأشياء وأوقاتها ، قدير على إيجاد الأشياء وإعدامها ، عند انتهاء

آجالها ، فيميت الشاب النشط عند تمام أجله ، ويبقى الهرم الفاني إلى انقضاء أجله. قال البيضاوي : وفيه تنبيه على أن تفاوت أعمار الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم ، ركب أبنيتهم ، وعدل أمزجتهم ، على قدر معلوم ، ولو كان ذلك بمقتضى الطبائع لم يقع التفاوت إلى هذا المبلغ. هـ.

الإشارة : الخلق والتوفى هو من جملة الظهور والبطون ، عند أهل التوحيد الخاص ، والرد إلى أرذل العمر لا يلحق العارفين باللّه. وقد قيل ، فى استثناء قوله : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ «١» من الرد إلى أسفل سافلين : إن الصالح لا يدركه الخرف وإن أدركه الهرم. وذلك دليل على سعادته ، وعدم تشويه صورته فى الآخرة ، والله تعالى قادر على وقاية أوليائه مما يشين به أعداءه عاجلا. وفى الحديث : «إذا قرأ الرجل القرآن ، واحتشى من أحاديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - أي : امتلأ - وكانت هناك غزيرة - يعنى : فقه نفس ومعرفة - ، كان خليفة من خلفاء الأنبياء» «٢».

ثم سفه رأى من أشرك بعد هذه الدلائل ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ٧١]

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١)

يقول الحق جل جلاله : وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ، فمنكم غنى ومنكم فقير ، ومنكم ملوك مستغنون عن غيرهم ، ومنكم مماليك محتاجون إلى غيرهم ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا وهم الموالي ، أي :

السادات ، بِرَادِّي رِزْقِهِمْ : بمعطى رزقهم عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ : على مماليكهم ، أي : ليس الموالي بجاعلى ما رزقناهم من الأموال وغيرها ، شركة بينهم وبين مماليكهم ، فَهُمْ أي : المماليك فِيهِ سَواءٌ مع

---

(١) من الآية ٦ من سورة البلد.

(٢) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (٧٩٤) للرافعى فى تاريخه ، عن أبى أمامة ، وضعّفه. وانظر : فيض القدير ، للمناوى (١/ ٤١٦).

ساداتهم. وهو احتجاج على وحدانيته تعالى ، وإنكار ورد على المشركين ، فكأنه يقول : أنتم لا تسوّون بين أنفسكم وبين مماليككم فى الرزق ، ولا تجعلونهم شركاء لكم ، بل تأنفون من ذلك ، فكيف تجعلون عبيدى شركاء لى فى ألوهيتى؟! وهذا كقوله : ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما

مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ «١». ويحتمل أن يكون ذما وعتابا لمن لا يحسن إلى مملوكه ، حتى يرد ما رزقه اللّه عليه ، كما فى الحديث : «أطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون» «٢».

أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ، حيث يجعلون له شركاء ، فإنه يقتضى أن يضاف إليهم بعض ما أنعم اللّه عليهم ، ويجحدوا أنه من عند اللّه ، أو حيث أنكروا هذه الحجج ، بعد ما أنعم اللّه عليهم بإيضاحها ، أو حيث بخسوا مماليكهم مما يجب لهم من الإنفاق. على التفسير الثاني.

الإشارة : واللّه فضّل بعضكم على بعض فى أرزاق العلوم ، والأسرار والمواهب ، فمنكم غنى بالله ، ومنكم فقير منه فى قلبه ، ومنكم عالم به ومنكم جاهل ، ومنكم قوى اليقين ومنكم ضعيف ، فما الذين فضّلوا بالعلوم اللدنية والأسرار الربانية برادّى تلك العلوم على الجهلة وضعفاء اليقين ، بأن يطلعوهم على أسرار الربوبية قبل استحقاقها - فإن ذلك بخس بحقها - حتى يرونهم أهلا لها بأن يبذلوا لهم أنفسهم وأموالهم ، ويملكون لهم رقابهم يتصرفون فيها تصرف المالك فى مملوكه ، فحينئذ يشاركونهم فيما منحهم اللّه من أرزاق العلوم وأسرار الفهوم ، وقد قيل : لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

سأكتم علمى عن ذوى الجهل طاقتى ولا أنثر الدرّ النّفيس على البهم

فإن قدّر اللّه الكريم بلطفه ولا قيت أهلا للعلوم وللحكم

بذلت علومى واستفدت علومهم وإلّا فمخزون لدىّ ومكتتم

فمن منح الجهّال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

ثم ذكّرهم بالنعم التي لا قدرة لأحد عليها ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ٧٢]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة الروم.

(٢) أخرجه مسلم فى (الزهد ، باب حديث جابر الطويل) ، من حديث أبى اليسر.

قلت : الحفدة : جمع حافد ، وهو الخديم المسرع فى الخدمة ، والحفد فى اللغة : الخدمة ، ومنه فى القنوت : «وإليك نسعى ونحفد» ، أي : نسرع فى خدمتك. وسموا أولاد الأولاد حفدة لأنهم يسرعون فى خدمة جدهم ، حين كبر ولزم الدار ، وقيل : هم البنات لأنهن يخدمن الدار.

يقول الحق جل جلاله : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً حيث خلق حواء من ضلع آدم ، وسائر النساء من نطفة الرجال ، والنساء خلقهن لكم ، لتتأنسوا بهن ، ولتتمتعوا بهن فى الحلال ، وليكون أولادكم مثلكم.

وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ من صلبكم وَحَفَدَةً أولاد أولادكم أو بناتكم فإن البنات يخدمن فى البيوت أشد الخدمة ، أو الأصهار من قبل النساء ، أو الخدم ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ من اللذائذ والمشتهيات كأنواع الثمار والحبوب والفواكه ، والحيوان أكلا وركوبا وزينة ، أو الحلالات ، و«مِنْ» : للتبعيض فإن طيبات الدنيا أنموذج من نعيم الآخرة. أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وهو أن الأصنام تنفعهم لأن الأصنام باطلة لا حقيقة لوجودها ، وإضافة النفع لها : كفر بنعمة الله ، ولذلك قال : وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ حيث أضافوها إلى أصنامهم ، أو حيث حرّموا منها ما أحله الله لهم كالبحائر والسوائب. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : والله جعل لكم من أنفسكم المطهرة أصنافا من العلوم اللدنية. قال أبو سليمان الداراني : (إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام ، جالت فى الملكوت ، ثم عادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة ، من غير أن يؤدى إليها عالم علما). وجعل لكم من تلك العلوم بنين روحانيين ، وهو التلامذة ، يحملون تلك العلوم ، وحفدة : من ينقل ذلك عنهم إلى يوم القيامة ، ورزقكم من الطيبات ، وهى حلاوة المعرفة عند العارفين ، وحلاوة الطاعات عند المجتهدين.

أفبالباطل - وهو ما سوى اللّه - يؤمنون ، فيقفون مع الوسائط والأسباب ، ويغيبون عن مسبب الأسباب ، وبنعمة اللّه - التي هى شهود الحق بلا وسائط - هم يكفرون.

ثم عاب على من وقف مع غير الله ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٧٣ الى ٧٤]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤)

قلت : رِزْقاً : مفعول بيملك ، فيحتمل أن يكون مصدرا ، أو اسما لما يرزق ، فإن كان مصدرا ، فشيئا مفعول به لأن المصدر ينصب المفعول ، وإن كان اسما ، فشيئا بدل منه. وجمع الضمير فى يَسْتَطِيعُونَ ، وأفرده فى يَمْلِكُ لأن (ما) مفردة لفظا ، واقعة على الآلهة ، فراعى أولا اللفظ ، وفى الثاني المعنى.

يقول الحق جل جلاله : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : غيره ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ بالمطر وَالْأَرْضِ بالنبات ، فلا يرزقونهم من ذلك شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ : لا يقدرون على شيء من ذلك لعجزهم ، وهم الأصنام ، فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ لا تجعلوا له أشباها تشركونهم به ، أو تقيسونهم عليه ، فإنّ ضرب المثل تشبيه حال بحال ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ألّا مثل له ، أو فساد ما يقولون عليه من القياس ، وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ذلك ، ولو علمتموه لما تجرأتم عليه ، فهو تعليل للنهى ، أي : إنه يعلم كنه الأشياء ، وأنتم لا تعلمون ، فدعوا رأيكم ، وقفوا عند ما ما حد لكم.

الإشارة : كل من ركن إلى شيء دون الحق تعالى ، أو اعتمد عليه فى إيصال المنافع أو دفع المضار ، تصدق عليه الآية ، وتجر ذيلها عليه ، فلا تجعلوا للّه أمثالا تعتمدون عليهم وتركنون إليهم ، فالله يعلم من هو أولى بالاعتماد عليه والركون إليه ، وأنتم لا تعلمون ذلك ، أو تعلمون ولا تعملون ، ولقد قال من علم ذلك وتحقق به :

حرام على من وحّد اللّه ربّه وأفرده أن يجتدى أحدا رفدا

فيا صاحبى ، قف بي على الحقّ وقفة أموت بها وجدا ، وأحيا بها وجدا

وقل لملوك الأرض تجهد فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

قال سهل رضي اللّه عنه : «ما من قلب ولا نفس إلا واللّه مطلع عليه فى ساعات الليل والنهار ، فأيما نفس أو قلب رأى فيه حاجة إلى غيره ، سلط عليه إبليس». وقال الأستاذ أبو على الدقاق رضي اللّه عنه : من علامة المعرفة : ألا تسأل حوائجك ، قلّت أو كثرت ، إلا من اللّه سبحانه ، مثل موسى عليه السّلام اشتاق إلى الرؤية ، فقال : رب أرنى أنظر إليك ، واحتاج مرة إلى رغيف ، فقال : رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير. هـ. وقال فى التنوير : اعلم ، رحمك الله ، أن رفع الهمة عن المخلوقين ، وعدم التعرض لهم ، أزين لهم من الحلي للعروس ، وهم أحوج إليه من الماء لحياة النفوس ... إلخ كلامه رضي اللّه عنه.

ثم ضرب مثلا لنفسه ، ولمن يعبد معه ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٧٥ الى ٧٦]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٥٠

قلت : «عَبْداً» : بدل من «مَثَلًا» ، و«مَنْ» : نكرة موصوفة ، أي : عبدا مملوكا ، وحرا رزقناه منا رزقا حسنا ، وقيل :

موصولة. و«سِرًّا وَجَهْراً» : على إسقاط الخافض ، وجمع الضمير فى «يَسْتَوُونَ» لأنه للجنسين ، و«رَجُلَيْنِ» : بدل من :

«مَثَلًا».

يقول الحق جل جلاله : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لضعف العبودية ، وعظمة الربوبية ، ثم بيّنه فقال : عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ ، وهذا مثال للعب ... بد ، وَمَنْ رَزَقْناهُ أي : وحرا رزقناه مِنَّا رِزْقاً حَسَناً ، فَهُوَ يتصرف فيه كيف يشاء ، يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً ، وهذا : مثال للرب تبارك وتعالى ، مثّل ما يشرك به من الأصنام بالمملوك العاجز عن التصرف رأسا ، ومثّل لنفسه بالحر المالك الذي له مال كثير ، فهو يتصرف فيه ، وينفق منه كيف شاء.

وقيل : هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق. وتقييد العبد بالمملوك للتمييز من الحر فإنه أيضا عبد للّه. وبسلب القدرة عن المكاتب والمأذون فى التصرف ، فإن الأصنام إنما تشبه العبد القنّ «١» الذي لا شوب حرية فيه ، بل هى أعجز منه بكثير ، فكيف تضاهى الواحد القهار ، الذي لا يعجزه مقدور؟ ولذلك قال : هَلْ يَسْتَوُونَ؟ أي : العبيد العجزة ، والمتصرف بالإطلاق. الْحَمْدُ لِلَّهِ على بيان الحق ووضوحه لأنها نعمة جليلة يجب الشكر عليها ، أو الحمد كله لله لا يستحقه غيره ، فضلا عن العبادة لأنه مولى النعم كلها. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أي : لا علم لهم :

فيضيفون النعم إلى غيره ويعبدونه لأجلها ، أو لا يعلمون ما يصيرون إليه من العذاب فيشركون به.

ثم ضرب الله مثلا آخر فقال : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ، ثم بيّنه بقوله : رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ ولد أخرس ، لا يفهم ولا يفهم ، لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ من الصنائع والتدابير لنقصان عقله ، وَهُوَ كَلٌّ أي : ثقيل عيال عَلى مَوْلاهُ الذي يلى أمره ، أَيْنَما يُوَجِّهْهُ : يرسله فى حاجة أو أمر لا يَأْتِ بِخَيْرٍ بنجح وكفاية مهم. وهذا مثال للأصنام. هَلْ يَسْتَوِي هُوَ أي : الأبكم المذكور ، وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ومن هو منطيق متكلم بحوائجه ، ذو كفاية ورشد ، ينفع الناس ويحثهم على العدل الشامل لمجامع الفضائل ، وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أي : وهو فى نفسه على طريق مستقيم ، لا يتوجه إلى مطلب إلا ويحصله بأقرب سعى؟

وهذا مثال للحق تعالى ، فضرب هذا المثل لإبطال المشاركة بينه وبين الأصنام ، وقيل : للكافر والمؤمن.

والأصوب : كون المثلين معا فى الله مع الأصنام لتكون الآية من معنى ما قبلها وما بعدها فى تبيين أمر الله ، والرد على أمر الأصنام. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) العبد القنّ : الذي ملك هو وأبواه ، ويقابله : عبد المملكة ، الذي ملك هو دون أبويه. انظر : النهاية (قنن).

الإشارة : الحق تعالى موصوف بكمالات الربوبية ، منعوت بعظمة الألوهية ، وعبيده موسومون بنقائص العبودية ، وقهرية الملكية. فمن أراد أن يمده الله فى باطنه بكمالات الربوبية من قوة وعلم ، وغنى وعز ، ونصر وملك ، فليتحقق فى ظاهره بنقائص العبودية من ذل ، وفقر ، وضعف ، وعجز ، وجهل. فبقدر ما تجعل فى ظاهرك من نقائص العبودية يمدك فى باطنك بكمالات الربوبية «تحقق بوصفك يمدك بوصفه» ، والتحقق بالوصف إنما يكون ظاهرا بين خلقه ، لا منفردا وحده إذ ليس فيه كبير مجاهدة إذ كل الناس يقدرون عليه ، وإنما التحقق بالوصف - الذي هو ضامن للمدد الإلهى - هو الذي يظهر بين الأقران. وباللّه التوفيق.

ثم بيّن كمال علمه وقدرته ، بعد أن ذكر كمالات ذاته ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٧٧ الى ٧٨]

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)

قلت : أمهات : جمع أم ، زيدت فيه الهاء فرقا بين من يعقل ومن لا يعقل ، قاله ابن جزى. والذي لغيره حتى ابن عطية : إنما زيدت للمبالغة والتأكيد. وقرئ بضم الهمزة ، وبكسرها اتباعا للكسرة قبلها.

يقول الحق جل جلاله : وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : يعلم ما غاب فيهما ، كان محسوسا أو غير محسوس قد اختص به علمه ، لا يعلمه غيره. ثم برهن على كمال قدرته فقال : وَما أَمْرُ السَّاعَةِ أي : قيام القيامة ، فى سرعته وسهولته ، إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ كرد البصر من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ : أو أمرها أقرب منه بأن يكون فى زمان نصف تلك الحركة ، بل أقل لأن الحق تعالى يحيى الخلائق دفعة واحدة ، فى أقل من رمشة عين ، و«أَوْ» للتخيير ، أو بمعنى بل. إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على أن يحيى الخلائق دفعة ، كما قدر أن يوجدهم بالتدريج.

ثم دلّ على قدرته فقال : وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً جهالا ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ أي : الأسماع وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ أي : القلوب ، فتكتسبون ، بما تدركون من المحسوسات ، العلوم البديهية ، ثم تتمكنون من العلوم النظرية بالتفكر والاعتبار ، ثم تدركون معرفة الخالق لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ، أظهركم أولا من العدم ، ثم أمدكم ثانيا بضروب النعم ، طورا بعد طور ، حتى قدمتم عليه.

وقدّم فى جميع القرآن نعمة السمع على البصر لأنه أنفع للقلب من البصر ، وأشد تأثيرا فيه ، وأعم نفعا منه فى الدين إذ لو كانت الناس كلهم صما ، ثم بعثت الرسل ، فمن أين يدخل عليهم الإيمان والعلم؟ وكيف يدركون آداب العبودية وأحكام الشرائع؟ إذ الإشارة تتعذر فى كثير من الأحكام. وإنما أفرده ، وجمع الأبصار والأفئدة لأن متعلق السمع جنس واحد ، وهى الأصوات ، بخلاف متعلق البصر ، فإنه يتعلق بالأجرام والألوان ، والأنوار والظلمات ، وسائر المحسوسات ، وكذلك متعلق القلوب معانى ومحسوسات ، فكانت دائرة متعلقهما أوسع مع متعلق السمع.

والله تعالى أعلم.

الإشارة : ما غاب فى سماوات الأرواح من علوم أسرار الربوبية ، وفى أرض النفوس من علوم أحكام العبودية ، هو فى خزائن الله ، يفتح منهما ما شاء على من يشاء إذ أمره تعالى بين الكاف والنون. وما أمر الساعة ، التي يفتح الله فيها الفتح على عبده ، بأن يميته عن نفسه ، ثم يحييه بشهود طلعة ذاته ، إلا كلمح البصر أو هو أقرب. لكن حكمته اقتضت الترتيب والتدريج ، فيخرجه إلى هذا العالم جاهلا ، ثم يفتح سمعه للتعلم والوعظ ، وبصره للنظر والاعتبار ، وقلبه للشهود والاستبصار ، حتى يصير عالما عارفا بربه ، من الشاكرين الذين يعبدون الله ، شكرا وقياما برسم العبودية. وبالله التوفيق.

ثم حضّ على التفكير ، الذي هو سبب المعرفة وشبكة العلوم ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٧٩ الى ٨٣]

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ (٨٣)

قلت : مُسَخَّراتٍ : حال من الطَّيْرِ ، وسَكَناً : مصدر وصف به ، أي : شيئا سكنا ، أو : فعل بمعنى

مفعول.

وأَثاثاً : مفعول بمحذوف ، أي : وجعل من أوبارها أثاثا.

(١٥٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٥٣

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ يَرَوْا ، وفى قراءة : ا لم تروا «١» بتوجيه الخطاب لعامة الناس ، إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ : مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية ، فِي جَوِّ السَّماءِ فى الهواء المتباعد من الأرض. ما يُمْسِكُهُنَّ فيه إِلَّا اللَّهُ فإن ثقل جسدها يقتضى سقوطها ، ولا علاقة فوقها ولا دعامة تحتها تمسكها ، إِنَّ فِي تسخيره ذلِكَ لها لَآياتٍ لعبرا ودلالة على قدرته تعالى إذ لا فاعل سواه فإنّ إمساك الطيران فى الهواء هو على خلاف طباعها ، لو لا أن القدرة تحملها ، ففيه آيات لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لأنهم هم المنتفعون بها.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً : موضعا تسكنون فيه وقت إقامتكم ، كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر. و«مِنْ» للبيان ، أي : جعل لكم سكنا ، أي : موضعا تسكنونه ، وهو بيوتكم ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً ، هى القباب المتخذة من الأدم ، ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر ، فإنها ، من حيث إنها نابتة على جلودها ، كأنها من جلودها ، تَسْتَخِفُّونَها أي : تجدونها خفيفة ، يخف عليكم حملها وثقلها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ أي : سفركم ، وفيه لغتان : الفتح والسكون «٢» ، وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ : حضوركم ، أو نزولكم ، وَجعل مِنْ أَصْوافِها أي : الغنم ، وَأَوْبارِها أي : الإبل ، وَأَشْعارِها أي : المعز ، أَثاثاً :

متاعا لبيوتكم كالبسط والأكسية ، وَمَتاعاً تمتعون به إِلى حِينٍ إلى مدة من الزمان ، فإنها ، لصلابتها ، تبقى مدة مديدة ، أو : إلى مماتكم ، أو : إلى أن تقضوا منها أوطاركم ، أو : إلى أن تبلى.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ من الشجر والجبال والأبنية ، وغيرها ، ظِلالًا تتقون بها حر الشمس ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً جمع : كن ، ما تكنون ، أي : تستترون به من الحر والبرد ، كالكهوف والغيران والبيوت المجوفة فيها ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ جمع : سربال ثيابا من الصوف والكتان والقطن وغيرها ، تَقِيكُمُ الْحَرَّ والبرد ، وخص الحر بالذكر ، اكتفاء بأحد الضدين ، أو لأن وقاية الحر كانت أهم عندهم. وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ : حربكم ، كالطعن والضرب. وهى : الدروع ، وتسمى : الجواشن ، جمع جوشن ، وهو الدرع ، كَذلِكَ كإتمام هذه النعم بخلق هذه الأشياء المتقدمة ، يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ فى الدنيا بخلق ما تحتاجون إليه ، لَعَلَّكُمْ يا أهل مكة تُسْلِمُونَ أي : تنظرون فى نعمه ، فتؤمنون به ، أو تنقادون لحكمه.

وفي قراءة : بفتح التاء ، أي : تسلمون من العذاب بالإيمان ، أو تنظرون فيها ، فتوحدون ، وتسلمون من الشرك ، أو من الجراح بلبس الدروع.

---

(١) وهى قراءة ابن عامر وحمزة ويعقوب. وقرأ الباقون : (يَرَوْا) بالغيب لقوله «يَعْبُدُونَ». انظر الإتحاف (٢/ ١٨٧).

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بإسكان العين ، والباقون بفتحها.

فَإِنْ تَوَلَّوْا : أعرضوا ، ولم يقبلوا منك ، أو لم يسلموا. فَإِنَّما عَلَيْكَ يا محمد الْبَلاغُ الْمُبِينُ أي : الإبلاغ البين ، فلا يضرك إعراضهم حيث بلّغتهم.

يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ أي : يقرون بأنها من عنده ، ثُمَّ يُنْكِرُونَها بإشراكهم وعبادتهم غير المنعم بها ، وبقولهم : إنها بشفاعة آلهتنا ، أو بسبب كذا ، أو بإعراضهم عن حقوقها. وقيل : نعمة اللّه : نبوة نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، عرفوها بالمعجزات ، ثم أنكروها عنادا. وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ الجاحدون عنادا. وذكر الأكثر إمّا لأن بعضهم لم يعرف الحق لنقصان عقله ، أو لتفريطه فى النظر ، أو لم تقم عليه الحجة لأنه لم يبلغ حد التكليف ، أو كان فيهم من داخله الإسلام ، ومن أسلم بعد ذلك. وإما لأنه أقام الأكثر مقام الكل ، كقوله : بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ «١». قال بعضه البيضاوي.

الإشارة : قال الورتجبي : بيّن الحقّ تعالى قدرته فى إمساكه أطيار الأرواح فى هواء الملكوت وسماء الجبروت ، حتى ترفرفت بأجنحة العرفان والإيقان ، على سرادق مجده وبساط كبريائه ، مسخرات بأنوار جذبه ، ما يمسكهن إلا الله ، بكشف جماله لها ، أمسكها به عن قهر سلطانه وسبحات جلاله ، حتى لا تفنى - أي : تتلاشى - فى بهائه. هـ.

والله جعل لكم من بيوتكم سكنا - وهى العبودية - ، تسكنون فيها وتأوون إليها ، بعد طيران الفكرة فى جو أنوار الملكوت ، وميادين أسرار الجبروت. أو الحضرة تسكن فيها قلوبكم ، فتصير معشّش أرواحكم ، إليها تأوون ، وفيها تسكنون. وجعل لكم منازل تنزلون فيها عند السير إلى حضرة ربكم ، وهى المقامات التي يقطعها المريد ، ينزل فيها ويرتحل عنها. وجعل لكم من أردية الأكوان وألوانها واختلاف أصنافها ، تمتعا بشهود أنوار مكونها فيها ، إلى انطوائها وظهور أضدادها بقيام الساعة ، فتظهر القدرة وتبطن الحكمة ، ويظهر المعنى ويبطن الحس.

واللّه جعل لكم مما خلق من الأكوان ظلالا ، والظلال لا وجود لها من ذاتها ، فكذلك الأكوان لا

وجود لها مع الحق ، وإنما هى ظلال. والظلال ليست بموجودة ولا مفقودة. وجعل لكم من جبال العقل أكنانا ، تستترون بنوره من جذب الاصطلام بمواجهة أنوار الحضرة. وجعل لكم سرابيل الشرائع تقيكم حرّ الحقيقة ، وسرابيل الحقائق تقيكم بأس سهام الأقدار ، فإنّ من عرف اللّه حقيقة هان عليه ما يواجه به من المكاره. وفى هذا المعنى أنشد بعضهم :

نلبس عمام من الماء ونشدّها شدّ مائل

ونلبس من الثّلج برنس إذا حمت القوائل

ونشعل من الرّيح قنديل ومن الضّباب فتائل «٢»

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة النحل. [.....]

(٢) هذا شعر عامى ، أو زجل ، وهو جيد المعنى ، ويعبر عن همة عالية عند قائله. وقوله : إذا حمت القوائل ، يعنى : إذا اشتد الحر فى أوقات الظهيرة. وبقية الزجل واضح المعنى.

والمراد بعمامة الماء : كناية عن الحقيقة لأنها كالماء لحياة النفوس. وميل شدها : كناية عن قوتها ، وتكبيرها على الشريعة. والمراد ببرنس الثلج : برد التشريع ، فإذا قويت الحقيقة ، وخاف من الاحتراق ، نزل إلى برد التشريع. والمراد بالريح : هبوب نسيم الواردات الإلهية ، يشعل منها قنديل الفكرة - التي هى سراج القلب - ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له ، وهذه حالة السائر ، وأما الواصل فقد سكن النور فى قلبه ، فلا يحتاج إلى سراج غيره تعالى. وفى ذلك يقول الشاعر :

كلّ بيت أنت ساكنه غير محتاج إلى سرج

وجهك المحمود حجّتنا يوم يأتى الناس بالحجج

والمراد بالضباب : وجود السّوى ، فإنه يحترق عند اشتعال الفكرة. واللّه تعالى أعلم. وباقى الآية ظاهر إشارته.

ثم ذكر وعيد من أعرض عن هذه النعم ، التي هى دلائل قدرته ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٨٤ الى ٨٩]

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ

وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

قلت : «تِبْياناً» : حال من الكتاب ، وهو مصدر ، قال فى القاموس : والتبيان : مصدر شاذ. وفى ابن عطية :

والتبيان : اسم ، لا مصدر. والمصادر فى مثله مفتوحه ، كالترداد والتكرار. هـ. وقال فى الصحاح : لم يجئ على الكسر إلا هذا ، والتّلقاء. هـ.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ من الأمم شَهِيداً أي : رسولا يشهد لها أو عليها ، بالإيمان أو بالكفر ، وهو يوم القيامة ، ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فى الاعتذار إذ لا عذر لهم. «١»

---

(١) فى باب أحوالهم عند الخروج من الدنيا ، حكى القشيري فى الرسالة ، عن أبى محمد الهروي «أنه قال : ومكثت عند الشبلي ، الليلة التي مات فيها ، فكان يقول - طول ليله - : هذين البيتين :

كل بيت أنت ساكنة غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج

أو : فى الرجوع إلى الدنيا. وعبّر بثم لزيادة ما يحيق بهم من شدة المنع من الاعتذار ، مع ما فيه من الإقناط الكلي. وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ : لا يطلب منهم العتبى ، أي : الرجوع إلى ما يرضى الله. والمعنى : أنهم لا يؤذن لهم فى الاعتذار عما فرطوا فيه مما يرضى اللّه ، ولا يطلب منهم الرجوع إلى تحصيله.

وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا :

كفروا الْعَذابَ : جهنم فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ العذاب وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ يمهلون عنه إذا رأوه.

وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ : أوثانهم التي دعوها شركاء للّه ، أو الشياطين الذين شاركوهم فى الكفر بالحمل عليه ، قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ أي : نعبدهم ونطيعهم من دونك. وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين فى ذلك. فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ قالوا لهم : إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ أي : أجابوا بالتكذيب فى أنهم شركاء اللّه ، أو أنهم عبدوهم حقيقة ، وإنما عبدوا أهواءهم كقوله : كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ «١» ، وقوله : ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ «٢» ، أو لأنهم ، لما كانوا غير راضين

بعبادتهم ، فكأن عبادتهم لم تكن لهم. وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ أي : الاستسلام ، أي : استسلموا لحكمه (يَوْمَئِذٍ) ، بعد أن تكبروا عنه فى الدنيا ، ولا ينفع يومئذ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ أي : غاب وضاع وبطل ما كانُوا يَفْتَرُونَ من أن آلهتهم تنصرهم وتشفع لهم.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا الناس عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بالمنع من الإسلام ، والحمل على الكفر ، زِدْناهُمْ عَذاباً بصدهم ، فَوْقَ الْعَذابِ المستحق بكفرهم. قال ابن مسعود : «عقارب ، أنيابها كالنخل الطوال ، تلسعهم». وعن عبيد بن عمير : عقارب كالبغال الدّلم - أي : السود جدا ، والأدلم : الشديد السواد. وذلك العذاب بِما كانُوا يُفْسِدُونَ أي : بكونهم مفسدين بصدهم عما فيه صلاح العالم.

وَاذكر أيضا : يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ يعنى : نبيهم فإنّ نبى كل أمة بعث منها. وَجِئْنا بِكَ يا محمد شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ على أمتك ، أو على هؤلاء الشهداء ، وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ : القرآن تِبْياناً بيانا بليغا لِكُلِّ شَيْءٍ من أمور الدين على التفصيل ، أو الإجمال بالإحالة على السنة أو القياس. وَهُدىً من الضلالة ، وَرَحْمَةً بنور الهداية لجميع الخلق. وإنما حرم المحروم لتفريطه ، وَبُشْرى بالجنة ، وغيرها ، لِلْمُسْلِمِينَ الموحدين خاصة. وباللّه التوفيق.

الإشارة : قد بعث اللّه فى كل دهر وعصر شهيدا يشهد على أهله ، ويكون حجة عليهم يوم القيامة ، وهم صنفان : صنف يشهد على من فرط فى أحكام الشريعة ، وهم : العلماء الأتقياء ، وصنف يشهد على من فرط فى

---

(١) من الآية ٨٢ من سورة مريم.

(٢) من الآية ٣ من سورة القصص.

أسرار الحقيقة ، وهم : الأولياء الكبراء ، أعنى : العارفين باللّه ، فمن فرط فى شىء منهما قامت عليه الحجة فإذا اعتذر لا ينفعه ، وإذا طلب الرجوع لا يجده ، وإذا أحاط به عذاب الحجاب لا ينفك عنه. وكل من أحب شيئا من دون اللّه ، تبرأ منه يوم القيامة ، وكل من أنكر الخصوصية على أولياء زمانه ، وصد الناس عنه تضاعف عذابه ، وكثف حجابه يوم القيامة. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر أن القرآن فيه تبيان كل شىء ، ذكر آية تضمنت أصول الأحكام ، فيها تبيان كل شىء إجمالا ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ٩٠]

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ أي : التوحيد ، أو الإنصاف ، أو فعل الفرائض ، وَالْإِحْسانِ ، وهو : فعل المندوبات. وذلك فى حقوق الله تعالى ، وفى حق عباده ، أو العدل فى الأحكام ، كل واحد فيما ولى فيه «كلكم راع». والإحسان إلى عباد الله برهم وفاجرهم. قال ابن عطية : العدل : هو فعل كل مفروض من عقائد وشرائع ، وسير مع الناس فى أداء الأمانات ، وترك الظلم ، والإنصاف ، وإعطاء الحق. والإحسان هو : فعل كل مندوب إليه.

وقال البيضاوي : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ : بالتوسط فى الأمور اعتقادا ، كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك ، والقول بالكسب ، المتوسط بين محض الجبر والقدر ، وعملا ، كالتعبد بأداء الواجبات ، المتوسط بين البطالة والترهب ، وخلقا ، كالجود المتوسط بين البخل والتبذير ، والإحسان : إحسان الطاعات ، وهو إما بحسب الكمية ، كالتطوع بالنوافل ، أو بحسب الكيفية ، كما قال - عليه الصلاة والسلام : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى : وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه ، وهو تخصيص بعد تعميم للمبالغة.

وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ : عن الإفراط فى متابعة القوة الشهوية ، كالزنى فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها ، وَالْمُنْكَرِ : ما ينكر على متعاطيه فى إيثاره القوة الغضبية ، وَالْبَغْيِ : الاستعلاء والاستيلاء على الناس ، والتجبر عليهم ، فإنها الشيطنة التي هى مقتضى القوة الوهمية ، ولا يوجد من الإنسان شر إلا وهو مندرج فى هذه الأقسام ، صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث ، ولذلك قال ابن مسعود رضى اللّه عنه : «هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر». وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون ، فلو لم يكن فى القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شىء ، وهدى ورحمة للعالمين ، ولعل إيرادها عقب قوله : وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ للتنبيه عليه. هـ.

وفى القوت : هى قطب القرآن. هـ. وعن عثمان بن مظعون : أنه قال : لمّا نزلت هذه الآية قرأتها على أبى طالب ، فعجب ، وقال : آل غالب ، اتبعوه تفلحوا ، فو اللّه إن الله أرسله ليأمر بمكارم الأخلاق. هـ. قال ابن عطية :

وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى : لفظ يقتضى صلة الرحم ، ويعم جميع إسداء الخير إلى القرابة ، وتركه مبهما أبلغ لأن كل من وصل فى ذلك إلى غاية - وإن علت - يرى أنه مقصر ، وهذا المعنى المأمور به فى جانب

ذى القربى داخل تحت العدل والإحسان ، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماما به وحضا عليه. هـ.
يَعِظُكُمْ بما ذكر من التمييز بين الأمر والنهى ، والخير والشر ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ : تتعظون فتنهضون إلى ما أمرتكم به وندبتكم إليه ، وتنكفوا عما نهيتكم عنه وحذرتكم منه.
الإشارة : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) بالتوسط فى الأمور كلها ، كالتوسط فى السير والمجاهدة فإن الإسراف يوقع فى الملل ، قال – عليه الصلاة والسلام – : «لا يكن أحدكم كالمنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى». وقال صلى اللّه عليه وسلم أيضا : «إنّ اللّه لا يمل حتى تملوا». واللّه ما رأيت أحدا أسرف فى الأحوال فوصل إلى ما قصد ، إلا النادر ، وخير الأمور أوسطها. ويأمر بالإحسان ، وهو : مقام الشهود والعيان. (وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى) قرابة الدين ، وهم : الإخوان فى الله ، ما يستحقونه من النصح والإرشاد ، (وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ) : الركون لغير الله ، (وَ الْمُنْكَرِ) : التكبر على عباد الله ، (وَ الْبَغْيِ) : ظلم أحد من خلق الله ، من الفيل إلى الذرة.
وقال فى الإحياء : بين التبذير والإقتار المذمومين وسط ، وهو المحمود المأمور به ، والواجب منه شيئان : واجب بالشرع ، وواجب بالمروءة. والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة ، فإن منع واحدا منهما فهو بخيل ، كالذى يمنع أداء الزكاة ، ويمنع أهله وعياله النفقة ، أو يؤديها لا بطيب نفسه ، بل بتكلف ومشقة. وكالذى يتيمم الخبيث من ماله ، ولا يعطى من أطيبه وأوسطه ، فهذا كله بخل. وأما واجب المروءة فهو : ترك المضايقة والاستقصاء فى المحقرات ، وذلك يختلف فيستقبح من الغنى ما لا يستقبح من الفقير ، ويستقبح من الرجل مع أقاربه ما لا يستقبح مع الأجانب ، وكذلك الجار والمماليك والضيف. هـ.
وقال الورتجبي : إن الله تعالى دعا عباده إلى الاتصاف بصفته ، منها : العدل والإحسان والشفقة والرحمة ، والقدس ، والطهارة عما لا يليق به. فهو العادل والمحسن ، والرحمن الرحيم ، غير ظالم جائر ، وهو منزه عن جميع العلل ، فمن كسى أنوار هذه الصفات ، بنعت الذوق والمباشرة ، واستحلى تربيتها يخرج عادلا محسنا ، رؤوفا رحيما ، طاهرا مطهرا ، صادقا مصدقا ، وليا ، حبيبا محبوبا ، مريدا مرادا ، مراعى محفوظا ، يعدل بنفسه فيدفعها عن الشك والشرك ، ورؤية الغير وطلب العوض فى العبودية ، ويأخذ منها الإنصاف بينها وبين عباد الله ، ويحسن إلى من أساء إليه ، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه ، ويراعى ذوى القرابة ، فى المعرفة والمحبة من المريدين والصادقين ، ويرحم الجهال من المسلمين ، وينهى نفسه عن مباشرة فواحش الأنانية ، ومباشرة الهوى والشهوة ،

ويدفعها عن الظلم باستكباره عن العبودية ، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله لتكون مطمئنة فى عبودية الحق ، ذاكرة لسلطان ربوبيته ، وقهر جبروته وملكوته وإحاطته بكل ذرة ، وفناء الخليقة فى حقيقته. هـ.

ومن مكارم الأخلاق الداخلة تحت العدل : الوفاء بالعهد ، كما قال تعالى :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٩١ الى ٩٦]

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (٩١) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)

قلت : وَقَدْ جَعَلْتُمُ : حال ، وأَنْكاثاً : حال من الغزل ، وهو : جمع نكث - بالكسر - بمعنى منكوث ، أي :

منقوض. وأَنْ تَكُونَ : مفعول من أجله ، وتَتَّخِذُونَ : جملة حالية من ضمير «تَكُونُوا».

يقول الحق جل جلاله : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ كالبيعة للرسول - عليه الصلاة والسلام - وللأمراء ، والأيمان ، والنذور ، وغيرها ، إِذا عاهَدْتُمْ الله على شيء من ذلك ، وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ أيمان البيعة ، أو مطلق الأيمان ، بَعْدَ تَوْكِيدِها بعد توثيقها بذكر الله ، أو صفته ، أو أسمائه ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا شاهدا ورقيبا ، بتلك البيعة فإن الكفيل مراع لحال المكفول رقيب عليه ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ فى نقض الأيمان والعهود. وهو تهديد لمن ينقض العهد ، وهذا فى الأيمان التي فى الوفاء بها خير ، وأما ما كان تركه أولى فيكفّر عن يمينه ، وليفعل الذي هو خير ، كما فى الحديث.

وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها : أفسدته مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أي : إبرام وإحكام أَنْكاثاً أي :

طاقات ، أي : صيرته طاقات كما كان قبل الغزل ، بحيث حلت إحكامه وإبرامه ، حتى صار كما كان ، والمراد :

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٦٠

تشبيه الناقض بمن هذا شأنه ، وقيل : هى «ريطة بنت سعد القرشية» فإنها كانت خرقاء - أي : حمقاء - تغزل طول يومها ثم تنقضه ، فكانت العرب تضرب بها المثل لمن قال ولم يوف ، أو حلف ولم يبر فى يمينه. تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أي : لا تكونوا متشبهين بامرأة خرقاء ، متخذين أيمانكم مفسدة ودخلا بينكم. وأصل الدخل : ما يدخل الشيء ، ولم يكن منه ، يقال : فيه الدخل والدغل ، وهو قصد الخديعة.

تفعلون ذلك النقض لأجل أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ : بأن تكون جماعة أزيد عددا وأوفر مالا ، من جماعة أخرى ، فتنقضون عهد الأولى لأجل الثانية لكثرتها. نزلت فى العرب ، كانت القبيلة منهم تحالف الأخرى ، فإذا جاءها قبيلة أقوى منها ، غدرت الأولى ، وحالفت الثانية. وقيل : الإشارة بالأربى هنا إلى كفار قريش إذ كانوا حينئذ أكثر من المسلمين ، فحذر من بايع على الإسلام أن ينقضه لما يرى من قوة كفار قريش.

إِنَّما يَبْلُوكُمُ : يختبركم اللَّهُ بِهِ بما أمر من الوفاء بالعهد لينظر المطيع منكم والعاصي. أو : بكون أمة هى أربى ، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله ، أم تغترّون بكثرة قريش وشوكتهم ، وقلة المؤمنين وضعفهم؟ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فى الدنيا حين يجازيكم على أعمالكم بالثواب والعقاب. وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً أهل دين واحد متفقين على الإسلام ، وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ بعدله ، وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ بفضله ، وَلَتُسْئَلُنَّ يوم القيامة سؤال تبكيت ومجازاة ، عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى الدنيا لتجازوا عليه.

وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ، كرره تأكيدا مبالغة فى قبح المنهي عنه من نقض العهود ، فَتَزِلَّ قَدَمٌ عن محجة الإسلام بَعْدَ ثُبُوتِها : استقامتها عليه ، والمراد : أقدامهم ، وإنما وحد ونكّر للدلالة على أن زلل قدم واحد عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة؟ وَتَذُوقُوا السُّوءَ : العذاب فى الدنيا بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : بصدكم عن الوفاء بعهد الله ، أو بصدكم غيركم عنه فإن من نقض البيعة ، وارتد ، جعل ذلك سنّة لغيره ، وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ فى الآخرة.

وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ أي : لا تستبدلوا عهد الله وبيعة رسوله صلى اللّه عليه وسلم بأخذكم ثَمَناً قَلِيلًا : عرضا يسيرا من الدنيا ، بأن تنقضوا العهد لأجله. قيل : هو ما كانت قريش يعدونه لضعفاء المسلمين ، ويشترطون لهم على الارتداد ، إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ من النصر والعز ، وأخذ الغنائم فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى الآخرة ، هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مما يعدونكم ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ذلك فلا تنقضوا ، أو إن كنتم من أهل العلم والتمييز.

ما عِنْدَكُمْ من أعراض الدنيا يَنْفَدُ ينقضى ويفنى ، وَما عِنْدَ اللَّهِ من خزائن رحمته ، وجزيل نعمته باقٍ لا يفنى ، وهو تعليل للنهى عن نقض العهد طمعا فى العرض الفاني ، وَلَنَجْزِيَنَّ «١» الَّذِينَ صَبَرُوا على الوفاء بالعهود ، أو على الفاقات وأذى الكفار ، أو مشاق التكاليف ، أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ بما يرجح فعله من أعمالهم ، كالواجبات والمندوبات ، أو بجزاء أحسن من أعمالهم. وبالله التوفيق.

الإشارة : الوفاء بالعهود ، والوقوف مع الحدود ، من شأن الصالحين الأبرار ، كالعباد والزهاد ، والعلماء الأخيار.

وأما أهل الفناء والبقاء من العارفين : فلا يقفون مع شىء ، ولا يعقدون على شىء ، هم مع ما يبرز من عند مولاهم فى كل وقت وحين ، ليس لهم عن أنفسهم إخبار ، ولا مع غير الله قرار. يتلونون مع المقادير كيفما تلونت ، وذلك من شدة قربهم وفنائهم فى ذات مولاهم. قال تعالى : كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ «٢» ، فهم يتلونون مع الشئون البارزة من السر المكنون فمن عقد معهم عقدا ، أو أخذ منهم عهدا ، فلا يعول على شىء من ذلك إذ ليست أنفسهم بيدهم ، بل هى بيد مولاهم. وليس ذلك نقصا فى حقهم ، بل هو كمال «٣» لأنه يدل على تغلغلهم فى التوحيد حتى هدم عزائمهم ، ونقض تدبيرهم واختيارهم. ولا يذوق هذا إلا من دخل معهم ، وإلّا فحسبه التسليم ، وطرح الميزان عنهم ، إن أراد الانتفاع بهم. والله تعالى أعلم.

وهذه الحالة التي أقامهم الحق تعالى فيها هى الحياة الطيبة ، التي أشار إليها الحق تعالى بقوله :

[سورة النحل (١٦) : آية ٩٧]

مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

يقول الحق جل جلاله : مَنْ عَمِلَ صالِحاً بأن صحبه الإخلاص ، وتوفرت فيه شروط القبول ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب ، وإنما المتوقع عليها تحقيق العقاب ، فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً فى الدنيا ، بالقناعة والكفاية مع التوفيق والهداية. قال البيضاوي : يعيش عيشا طيبا ، فإنه ، إن كان موسرا ، فظاهر ، وإن كان معسرا يطيب عيشه بالقناعة ، والرضا بالقسمة ، وتوقع الأجر العظيم ، بخلاف الكافر ، فإنه ، إن كان معسرا ، فظاهر ، وإن كان موسرا لم يدعه الحرص وخوف الفوات أن يهنأ بعيشه ، وقيل : فى الآخرة ، أي : فى الجنة. هـ. وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ من الطاعة ، فيجازيهم على الحسن بجزاء الأحسن. وبالله التوفيق.

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وأبو جعفر : (و لنجزين) بالنون ، وقرأ الباقون بالياء على الغيب.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن.

(٣) العارف الحق هو الذي يلتزم أمر الله ويجتنب مناهيه ، وهو شاهد بقلبه مولاه ، فان عما سواه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٦٢

الإشارة : الحياة الطيبة إنما تتحقق بكمالها عند أهل التجريد حيث انقطعت عنهم الشواغل فى الظاهر ، والعلائق فى الباطن ، فاطمأنت قلوبهم بالله ، وسكنت أرواحهم فى حضرة الله ، وتحققت أسرارهم بشهود الله ، فدام سرورهم ، واتصل حبورهم بحلاوة معرفة محبوبهم ، وهذه نتيجة شرب الخمرة الأزلية ، كما قال ابن الفارض فى مدحها :

وإن خطرت يوما على خاطر امرئ أقامت به الأفراح ، وارتحل الهمّ

هذا فى الخطور ، فما بالك بالسكون ودوام الحضور؟ وقال أيضا فى شأنها :

فما سكنت والهمّ ، يوما ، بموضع كذلك لا يسكن مع النّغم الغم

وإنما تحقق لهم هذا الأمر العظيم لرسوخ قدمهم فى مقام الإحسان ، وسكونهم فى جنة العرفان ، فهبّ عليهم نسيم الرضا والرضوان ، وترقت أرواحهم إلى مقام الروح والريحان ، فقلوبهم بحار زاخرة لا تكدرها الدلاء ، وأرواحهم أنوار ساطعة لا يؤثر فيها ليل القبض والابتلاء ، وأسرارهم بأنوار المواجهة مشرقة ، فدام سرورها بكل ما يبرز من عنصر القضاء. والحاصل : أن أهل هذا المقام عندهم من الإكسير والقوة ما يقلبون به الأعيان ، فيقلبون الشرّيات خيريات ، والمعاصي طاعات ، والإساءة إحسانا ، والجلال جمالا .. وهكذا ، فأنّى تغير قلوب هؤلاء الأكدار؟

وأنى تنزل بساحتهم الأغيار ، وهم فى حضرة الكريم الغفار؟ نفعنا اللّه بذكرهم ، وخرطنا فى سلكهم ، آمين.

ومن جملة الحياة الطيبة : التنعم بحلاوة القرآن ، ولا يتحقق ذلك إلا بالبعد والحفظ من خوض الشيطان ، ولذلك أمر بالتعوذ منه عند قراءته ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٩٨ الى ١٠٠]

فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

يقول الحق جل جلاله : فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ أردت قراءته ، كقوله : إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ «١» ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ أي : فسل اللّه أن يعيذك من وسواسه لئلا يوسوسك فى القراءة ، فيحرمك حلاوة التلاوة فإنه عدو لا يحب لابن آدم الربح أبدا ، والجمهور على أنه مستحب عند التلاوة ، وعن عطاء : أنه واجب. ومذهب مالك : أنه لا يتعوذ فى الصلاة. وعند الشافعي وأبى حنيفة : يتعوذ فى كل ركعة تمسكا بظاهر

(١) من الآية ٦ من سورة المائدة.

(١٦٢/٣)

الآية لأن الحكم المرتب على شرط يتكرر بتكرره ، وأخذ مالك بعمل أهل المدينة فى ترك التعوذ فى الصلاة.

وهو تابع للقراءة فى السر والجهر ، وعن ابن مسعود : قرأت على النبي صلى اللّه عليه وسلم فقلت : أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم ، فقال : «قل : أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم» «١».

ثم قال تعالى : إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ أي : تسلط وولاية عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أي : لا تسلط له على أولياء اللّه المؤمنين به ، والمتوكلين عليه ، فإنهم لا يطيعون أوامره ، ولا يصغون إلى وساوسه ، إلا فيما يحتقر ، على ندور وغفلة. إِنَّما سُلْطانُهُ أي : تسلّطه عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ : يحبونه ويطيعونه ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ أي : باللّه ، أو : بسبب الشيطان ، مُشْرِكُونَ حيث حملهم على الشرك فأطاعوه.

الإشارة : الاستعاذة الحقيقية من الشيطان هى : الغيبة عنه فى ذكر اللّه أو شهوده ، فلا ينجح فى دفع الشيطان إلا الفرار منه إلى الرحمن. قال تعالى : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ «٢». فإن الشيطان كالكلب ، كلما اشتغلت بدفعه قوى نبحه عليك ، فإما أن يخرق الثياب ، أو يقطع الإهاب ، فإذا رفعت أمره إلى مولاه كفه عنك. وقد قال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضي اللّه عنه : عداوة العدو حقا هو اشتغالك بمحبة الحبيب حقا ، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو ، فاتتك محبة الحبيب ، ونال مراده منك. هـ.

فالعاقل هو الذي يشتغل بذكر اللّه باللسان ، ثم بالقلب ، ثم بالروح ، ثم بالسر ، فحينئذ يذوب الشيطان ولا يبقى له أثر قط ، أو يذعن له ويسلم شيطانه ، فإنما حركه عليك ليوحشك إليه. وفى الحكم : «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك ، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده». فإذا تعلقت بالقوى المتين ، هرب عنك الشيطان اللعين. وسيأتى مزيد كلام إن شاء اللّه عند قوله تعالى : إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ .. «٣» الآية. وباللّه التوفيق.

ومن أقبح وسوسة الشيطان : الطعن فى القرآن ، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٠١ الى ١٠٣]

وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ

يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣)

---

(١) عزاه المناوى فى الفتح السماوي (٢/ ٧٥٨) للثعلبى.

(٢) من الآية ٥٠ من سورة الذاريات.

(٣) من الآية ٦ من سورة فاطر.

(١٦٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٦٤

قلت : وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ : معترض بين الشرط ، وهو : إِذا وجوابه ، وهو : قالُوا لتوبيخ الكفار ، والتنبيه على فساد سندهم. وهُدىً وَبُشْرى : عطف على : «لِيُثَبِّتَ».

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ بأن نسخنا الأولى لفظا أو حكما ، وجعلنا الثانية مكانها ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ من المصالح ، فلعل ما يكون فى وقت ، يصير مفسدة بعده ، فينسخه ، وما لا يكون مصلحة حينئذ ، يكون مصلحة الآن ، فيثبته مكانه. فإذا نسخ ، لهذا المصلحة ، قالُوا أي : الكفرة :

إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ : كذاب متقوّل على اللّه ، تأمر بشىء ثم يبدو لك فتنهى عنه ، قال تعالى : بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ حكمة النسخ ولا حقيقة القرآن ، ولا يميزون الخطأ من الصواب.

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ يعنى : جبريل. والقدس : الطهر والتنزيه لأنه روح منزه عن لوث البشرية. نزله مِنْ رَبِّكَ ملتبسا بِالْحَقِّ : بالحكمة الباهرة ، أو مع الحق فى أمره ونهيه وإخباره ، أو أنزله حقا ، لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا على الإيمان لأنه كلام اللّه ، ولأنهم إذا سمعوا الناسخ والمنسوخ ، وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح ، رسخت عقائدهم ، واطمأنت قلوبهم. وَأنزله هُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ المنقادين لأحكامه ، أي : نزله تثبيتا وهداية وبشارة للمسلمين.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ يعنون : غلاما نصرانيا اسمه : جبر ، وقيل : يعيش. قيل : كانا غلامين ، اسم أحدهما : جبر ، والآخر يسار ، وكانا يصنعان السيوف ، ويقرآن التوراة والإنجيل ، فكان النبي صلى اللّه عليه وسلم يجلس إليهما ، ويدعوهما إلى الإسلام ، فقالت قريش : هذان هما اللذان يعلمان محمدا ما يقول. قال تعالى فى الرد عليهم : لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ أي : لغة الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه ، وينسبون إليه تعليم القرآن ، أعجمى ، وَهذا القرآن لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ذو بيان وفصاحة. قال البيضاوي :

والجملتان مستأنفتان لإبطال طعنهم ، وتقريره يحتمل وجهين أحدهما : أن ما سمعه منه كلام أعجمى لا

يفهمه هو ولا أنتم ، والقرآن عربى تفهمونه بأدنى تأمل ، فكيف يكون ، - أي : القرآن - ما تلقفه منه؟ وثانيهما : هب أنه تلقف منه المعنى باستماع كلامه ، لكن لم يتلقف منه اللفظ لأن ذلك أعجمى وهذا عربى ، والقرآن ، كما هو معجز باعتبار المعنى ، معجز باعتبار اللفظ ، مع أن العلوم الكثيرة التي فى القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق فى تلك العلوم مدة متطاولة ، فكيف يعلم جميع ذلك من غلام سوقى ، سمع منه ، بعض أوقات ، كليمات عجمية ، لعله لم يعرف معناها؟! فطعنهم فى القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة دليل على غاية عجزهم. هـ.

الإشارة : كما وقع النسخ فى وحي أحكام ، يقع فى وحي إلهام فقد يتجلى فى قلب الولي شىء من الأخبار الغيبية ، أو يأمر بشىء يليق ، فى الوقت ، بالتربية ، ثم يخبر أو يأمر بخلافه لوقوع النسخ أو المحو ، فيظن من لا معرفة له بطريق الولاية أنه كذب ، فيطعن أو يشك ، فيكون ذلك قدحا فى بصيرته ، وإخمادا لنور سريرته ، إن كان داخلا تحت تربيته. واللّه تعالى أعلم.

(١٦٤/٣)

ثم ذكر وبال من طعن فى كلام اللّه ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٠٤ الى ١٠٩]

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ (١٠٥) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (١٠٧) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (١٠٨)

لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٠٩)

قلت : «مَنْ كَفَرَ» : شرطية مبتدأ ، وكذلك مَنْ شَرَحَ. وفَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ : جواب عن الأولى والثانية لأنهما بمعنى واحد ، ويكون جوابا للثانية ، وجواب الأولى : محذوف يدل عليه جواب الثانية. وقيل : مَنْ كَفَرَ : بدل من الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ، أو من المبتدأ فى قوله : أُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ ، أو من الخبر. وإِلَّا مَنْ أُكْرِهَ : استئناف من قوله : مَنْ كَفَرَ.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ لا يصدّقون بِآياتِ اللَّهِ ، ويقولون : هى من عند غيره ، لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ إلى سبيل النجاة ، أو إلى اتباع الحق ، أو إلى الجنة. وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فى الآخرة. وهذا فى قوم علم أنهم لا يؤمنون ، كقوله : إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ «١».

وقال ابن عطية : فى الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : إن الذين لا يهديهم اللّه لا يؤمنون باللّه. ولكنه قدّم وأخر تهمما بتقبيح أفعالهم. هـ.

قال البيضاوي : هددهم على كفرهم ، بعد ما أماط شبهتهم ، ورد طعنهم فيه ، ثم قلب الأمر عليهم ، فقال :

إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لأنهم لا يخافون عذابا يردعهم عنه ، وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ على الحقيقة ، أو الكاملون فى الكذب لأن تكذيب آيات اللّه ، والطعن فيها ، بهذه الخرافات أعظم الكذب. وأولئك الذين عادتهم الكذب لا يصرفهم عنه دين ولا مروءة. أو الكاذبون فى قولهم : إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ ، إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ. هـ. والكلام كله مع كفار قريش.

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة يونس.

(١٦٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٦٦

ثم ذكر حكم من ارتد عن الإيمان طوعا أو كرها ، فقال : مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ فعليهم غضب من اللّه ، إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ على التلفظ بالكفر ، أو على الافتراء على اللّه ، وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ لم تتغير عقيدته ، وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً أي : فتحه ووسعه ، فاعتقده ، وطابت به نفسه ، فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ إذ لا أعظم من جرمه.

روى أن قريشا أكرهوا عمّارا وأبويه - وهما ياسر وسمية - على الارتداد ، فربطوا سمية بين بعيرين ، وطعنوها بحربة فى قلبها ، وقالوا : إنك أسلمت من أجل الرجال ، فماتت - رحمة اللّه عليها - وقتلوا ياسرا زوجها ، وهما أول قتيلين فى الإسلام. وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا مكرها ، فقيل : يا رسول اللّه إن عمارا كفر ، فقال : «كلا ، إن عمّارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه». فأتى عمّار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو يبكى ، فجعل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يمسح عينيه ، ويقول : «ما لك ، إن عادوا لك فعد لهم بما قلت» «١».

وهو دليل على جواز التكلم بالكفر عند الإكراه. وإن كان الأفضل أن يجتنب عنه ، إعزازا للدين ، كما فعل أبواه.

لما روى أنّ مسيلمة أخذ رجلين ، فقال لأحدهما : ما تقول فى محمد؟ فقال : رسول اللّه. وقال : ما تقول فىّ؟ فقال :

أنت أيضا ، فخلى سبيله ، وقال للآخر : ما تقول فى محمد؟ فقال : رسول اللّه ، فقال : ما تقول فىّ؟

فقال : أنا أصم ، فأعاد عليه ثلاثا ، فأعاد جوابه ، فقتله ، فبلغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فقال : أما الأول فقد أخذ برخصة اللّه ، وأما الآخر فقد صدع بالحق ، فهنيئا له «٢». هـ. قاله البيضاوي.
قال ابن جزى : وهذا الحكم فيمن أكره على النطق بالكفر ، وأما الإكراه على فعل وهو كفر ، كالسجود للصنم ، فاختلف هل يجوز الإجابة إليه أو لا؟ فأجازه الجمهور ، ومنعه قوم. وكذلك قال مالك : لا يلزم المكره يمين ، ولا طلاق ، ولا عتاق ، ولا شيء فيما بينه وبين اللّه ، ويلزمه ما كان من حقوق الناس ، ولا تجوز له الإجابة إليه كالإكراه على قتل أحد أو أخذ ماله. هـ. وذكر ابن عطية أنواعا من الأمور المكره بها ، فذكر عن مالك : أن القيد إكراه ، والسجن إكراه ، والوعيد المخوف إكراه ، وإن لم يقع ، إذا تحقق ظلم ذلك المتعدى ، وإنفاذه فيما يتوعد به. ثم ذكر خلافا فى الحنث فى حق من حلف للدرء عن ماله ، لظالم ، بخلاف الدرء عن النفس والبدن ، فإنه لا يحنث ، قولا واحدا ، إلا إذا تبرع باليمين ، ففى لزومه خلاف. وانظر المختصر فى الطلاق.

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (٢٢٨) عن ابن عباس. وأخرجه بنحوه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٥٧) من حديث محمد بن عمار بن ياسر ، وصححه ، ووافقه الذهبي. وانظر تفسير الطبري (١٤/ ١٨٠).
(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٤/ ٢٥٠) لابن أبى شيبة عن الحسن مرسلا. [.....]

ثم علل نزول العذاب بهم ، فقال : ذلِكَ الوعيد بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ أي : بسبب أنهم آثروها عليها ، وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ ، الذين سبق لهم الشقاء ، فلا يهديهم إلى ما يوجب ثبات الإيمان فى قلوبهم ، ولا يعصمهم من الزيغ. أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ فغابت عن إدراك الحق والتدبر فيه ، وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ الكاملون فى الغفلة ، حتى أغفلتهم الحالة الزائفة عن التأمل فى العواقب. لا جَرَمَ : لا شك أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ حيث ضيعوا أعمارهم ، وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد. قاله البيضاوي.
الإشارة : من سبق له البعاد لا ينفعه الكد والاجتهاد ، ومن سبقت له العناية لا تضره الجناية. ففى التحقيق :
ماثمّ إلا سابقة التوفيق. فمن كان فى عداد المريدين السالكين ، ثم أكره على الرجوع إلى طريق الغافلين ، مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ ، أي : بالتصديق بطريق الخصوص ، وهو مصمم على الرجوع إليها

فلا بأس عليه أن ينطق بلسانه ، ما يرى أنه رجع إليهم. فإذا وجد فسحة فرّ بدينه. وكذلك إذا أخذه ضعف أو فشل وقت القهرية ، ثم أنهضته العناية ، ففرّ إلى اللّه ، التحق بأولياء اللّه ، وأما من شرح صدره بالرجوع عن طريق القوم ، وطال مقامه مع العوام ، فلا يفلح أبدا فى طريق الخصوص ، والتحق بأقبح العوام ، إلا إن بقي فى قلبه شيء من محبة الشيوخ والفقراء ، فلعله يحشر معهم ، ودرجته مع العوام.

قال القشيري : إذا علم اللّه صدق عبده بقلبه ، وإخلاصه فى عقده ، ثم لحقته ضرورة فى حاله ، خفّف عنه حكمه ، ورفع عنه عناءه ، فإذا تلفظ بكلمة الكفر مكرها ، وهو بالتوحيد محقق ، عذر فيما بينه وبين ربه. وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم ، وتجردوا لسلوك طريق اللّه ، ثم اعترضت لهم أسباب ، فاتفقت لهم أعذار ، فنفذ ما يوجبه الحال ، وكان لهم ببعض الأسباب اشتغال ، أو إلى شيء من العلوم رجوع ، لم يقدح ذلك فى حجة إرادتهم ، ولا يعدّ ذلك منهم شكا وفسخا لعهودهم ، ولا تنتفى عنهم سمة الفيئة إلى اللّه. هـ. قلت : هذا إن بقوا فى صحبة الشيوخ ، ملازمين لهم ، أو واصلين إليهم ، وأما إن تركوا الصحبة ، أو الوصول ، فلا شك فى رجوعهم إلى العمومية.

ثم قال فى قوله : وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً : من رجع باختياره ، ووضع قدما فى غير طريق اللّه ، بحكم هواه ، فقد نقض عهد إرادته للّه ، وفسخ عقد قصده إلى اللّه ، وهو مستوجب الحجبة ، إلى أن تتداركه الرحمة. هـ. قال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن الفاسى ، ما نصه : وفى مكاتبة لشيخنا العارف أبى المحاسن يوسف بن محمد : فإن اختلفت الأشكال ، وتراكمت الفتن والأهوال ، وتصدعت الأحوال ، ربما ظهر على العارف وصف لم يكن معهودا ، وأمر لم يكن بالذات مقصودا ، فيكون معه قصور فى جانب الحق ، لا فى جانب الحقيقة ، فلا يضر ، إن رجع فى ذلك لمولاه فرارا ، وإلى ربه اضطرارا. فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ. هـ.

(١٦٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٦٨

ثم رغب فى التوبة ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ١١٠]

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)

قلت : إنَّ الثانية : تأكيد ، والخبر للأول.

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا من دار الكفر إلى المدينة مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا أي : عذبوا على الإسلام كعمار بن ياسر ، وأشباهه من المعذبين على الإسلام. هذا على قراءة الضم. وقرأ

ابن عامر : «فُتِنُوا» بفتح التاء ، أي : فتنوا المسلمين وعذبوهم ، فتكون فيمن عذب المسلمين ، ثم أسلم وهاجر وجاهد ، كعامر ابن الحضرمي ، أكره مولاه جبرا حتى ارتد ، ثم أسلما وهاجرا ثم جاهدا ، وصبرا على الجهاد وما أصابهم من المشاق ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها من بعد الهجرة والجهاد والصبر ، لَغَفُورٌ رَحِيمٌ أي : لغفور لما مضى قبل ، رحيم يجازيهم على ما صنعوا بعد.

الإشارة : من نزلت به قهرية ، أو حصلت له فترة ، حتى رجع عن طريق القوم ، ثم تاب وهاجر من موطن حظوظه وهواه ، وجاهد نفسه فى ترك شواغل دنياه ، واستعمل السير إلى من كان يدله على الله إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ يغفر له ما مضى من فترته ، ويلحقه بأصحابه وأبناء جنسه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر يوم الجزاء لمن صبر وهاجر ، أو الخسران لمن جحد وكفر ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ١١١]

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١١١)

قلت : يَوْمَ : منصوب باذكر ، أو بغفور رحيم.

يقول الحق جل جلاله : واذكر يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها عن ذاتها ، وتسعى فى خلاصها ، لا يهمها شأن غيرها يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ «١» ، وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ جزاء ما عَمِلَتْ على التمام ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ : لا ينقصون من أجورهم مثقال ذرة.

الإشارة : النفس التي تجادل عن نفسها ، وتوفى ما عملت من خير أو شر ، إنما هى النفس الأمارة أو اللوامة.

وأما النفس المطمئنة باللّه ، الفانية فى شهود ذات اللّه ، لا ترى وجودا مع اللّه فلا يتوجه عليها عتاب ، ولا يترتب عليها حساب إذ لم يبق لها فعل تحاسب عليه. وعلى تقدير وجوده فقد حاسبت قبل أن تحاسب ، بل هى فى عداد

(١) الآيات : ٣٤ - ٣٦ من سورة عبس.

السبعين ألفا ، الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وهم المتوكلون. أو تقول : هى فى عداد من يلقى اللّه باللّه ، فليس لها شىء سوى اللّه ، فحجته ، ايوم تجادل النفوس ، هو اللّه. كما قال الشاعر :

وجهك المحمود حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج

وباللّه التوفيق.

ثم ضرب مثلا لمن كفر النعم ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١١٢ الى ١١٣]

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ (١١٣)

قلت : قَرْيَةً : بدل من : مَثَلًا.

يقول الحق جل جلاله : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ، ثم فسره بقوله : قَرْيَةً : مكة ، وقيل : غيرها.

كانَتْ آمِنَةً من الغارات ، لا تهاج ، مُطْمَئِنَّةً لا تحتاج إلى الانتقال عند الضيق أو الخوف ، يَأْتِيها رِزْقُها : أقواتها رَغَداً : واسعا مِنْ كُلِّ مَكانٍ من نواحيها ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ بطرت بها ، أو بنبي اللّه ، سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ، استعار الذوق لإدراك أثر الضرر ، واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف ، أما الإذاقة فقد كثر استعمالها فى البلايا حتى صارت كالحقيقة ، وأما اللباس فقد يستعيرونه لما يشتمل على الشيء ويستره يقول الشاعر :

غمر الرّداء إذا تبسّم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال

فقد استعار الرداء للمعروف ، فإنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه ، والمعنى : أنهم لما كفروا النعم أنزل اللّه بهم النقم ، فأحاط بهم الخوف والجوع إحاطة الثوب بمن يستتر به ، فإن كانت مكة ، فالخوف من سرايا النبي صلى اللّه عليه وسلم وغاراته عليهم ، وإن كان غيرها ، فمن كل عدو ، وذلك بسبب ما كانوا يصنعون من الكفر والتكذيب.

وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ ، يعنى : محمدا صلى اللّه عليه وسلم ، والضمير لأهل مكة. عاد إلى ذكرهم بعد ذكر مثلهم.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ : الجوع والقحط ، ووقعه بدر ، وَهُمْ ظالِمُونَ ملتبسون بالظلم ، غير تائبين منه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ضرب اللّه مثلا قلبا كان آمنا مطمئنا باللّه ، تأتيه أرزاق العلوم والمواهب من كل مكان ، فكفر نعمة الشيخ ، وخرج من يده قبل كماله ، فأذاقه اللّه لباس الفقر بعد الغنى باللّه ، والخوف من الخلق ، وفوات الرزق ، بعد اليقين بسبب ما صنع من سوء الأدب وإنكار الواسطة ، ولو خرج إلى من هو أعلى منه لأن من بان فضله عليك وجبت خدمته عليك ، ومن رزق من باب لزمه. وهذا أمر مجرب عند أهل الذوق بالعيان ، وليس الخبر كالعيان ، هذا إن كان أهلا للتربية ، مأذونا له فيها ، جامعا بين الحقيقة

والشريعة ، وإلا انتقل عنه إلى من هو أهل لها. وباللّه التوفيق.

ثم أمر بالشكر ، الذي هو قيد النعم ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١١٤ الى ١١٨]

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)

قلت : الْكَذِبَ : مفعول بتقولوا ، وهذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ : بدل منه ، أي : لا تقولوا الكذب ، وهو قولكم : هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ ، ولِما فى قوله : لِما تَصِفُ موصولة ، ويجوز أن ينتصب الكذب ب تَصِفُ ، ويكون «ما» مصدرية. ويكون قوله : هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ معمولا لتقولوا ، أي : لا تقولوا : هذا كذا وهذا كذا لأجل وصف ألسنتكم الكذب.

يقول الحق جل جلاله : فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً ، أمرهم بأكل ما أحل لهم ، وشكر ما أنعم عليهم ، بعد ما زجرهم عن الكفر ، وهددهم عليه ، بما ذكر من التمثيل والعذاب الذي حل بهم صدا لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة. قاله البيضاوي. وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لتدوم لكم إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ فلا تنسبوا نعمه إلى غيره ، كشفاعة الأصنام وغيرها. إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، تقدم تفسيرها فى البقرة

والمائدة «١». قال البيضاوي : أمرهم بتناول ما أحل لهم ، وعدد عليهم محرماته ، ليعلم أن ما عداها حل لهم. ثم أكد ذلك بالنهى عن التحريم والتحليل بأهوائهم بقوله : وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لما لم يحله اللّه ولم يحرمه ، كما قالوا : ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا ... «٢» الآية. هـ.

تقولون ذلك لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ بنسبة ذلك إليه. إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ أبدا لأنهم تعجلوا فلاح الدنيا بتحصيل أهوائهم ، فحرموا فلاح الآخرة ، ولذلك قال : مَتاعٌ قَلِيلٌ أي : لهم تمتع فى الدنيا قليل ، يفنى ويزول. وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فى الآخرة.

وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ فى سورة الأنعام بقوله : وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ .. «٣» الآية ، وَما ظَلَمْناهُمْ بالتحريم ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه. ذكر الحق تعالى ما حرم على المسلمين ، وما حرم على اليهود ليعلم أن تحريم ما عدا ذلك افتراء على اللّه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يقول الحق - جل جلاله - ، لمن بقي على العهد من شكر النعم بالإقرار بفضل الواسطة : فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ من قوت اليقين وفواكه العلوم ، وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إن كنتم تخصونه بالعبادة وإفراد الوجهة. إنما حرّم عليكم ما يشغلكم عنه ، كجيفة الدنيا والتهارج عليها ، ونجاسة الغفلة ، وما يورث القساوة والبلادة ، وقلة الغيرة على الحق ، وما قبض من غير يد اللّه ، أو ما قصد به غير وجه اللّه ، إلا وقت الضرورة فإنها تبيح المحذور. واللّه تعالى أعلم.

ثم حضّ على التوبة لمن وقع فى شيء من هذا ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ١١٩]

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ كالشرك ، والافتراء على اللّه ، وغير ذلك ، بِجَهالَةٍ أي : ملتبسين فى حال العمل بجهالة ، كالجهل باللّه وبعقابه ، وعدم التدبر فى عواقبه لغلبة الشهوة عليه ، ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا عملهم ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها أي : التوبة ، أو الجهالة ، لَغَفُورٌ لذلك السوء ، رَحِيمٌ بهم يثيبهم على الإنابة.

---

(١) راجع تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة ، والآية ٣ من سورة المائدة.

(٢) من الآية ١٣٩ من سورة الأنعام.

(٣) من الآية ١٣٦ من سورة الأنعام.

الإشارة : كل من أساء الأدب ، ثم تاب وأناب ، التحق بالأحباب. قال بعضهم : «كل سوء أدب يثمر أدبا فهو أدب». والتوبة تتبع المقامات فتوبة العوام : من الهفوات ، وتوبة الخواص : من الغفلات ، وتوبه خواص الخواص :

من الفترات عن شهود الحضرات. وباللّه التوفيق.

ولمّا رغّب في الشكر ذكر أنه من ملة خليله إبراهيم عليه السّلام ، ودين حبيبه - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - تحريضا عليه ، فقال تعالى :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٢٠ الى ١٢٣]

إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً أي : إماما قدوة قال تعالى : إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً «١» ، قال ابن مسعود : «الأمة : معلّم الناس الخير» ، أو أمة وحده ، اجتمع فيه ما افترق فى غيره ، فكان وحده أمة من الأمم لكماله واستجماعه لخصال الكمال التي لا تكاد تجتمع إلا فى أشخاص كثيرة ، كقول الشاعر :

وليس على اللّه بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد «٢»

وهو رئيس الموحدين ، وقدوة المحققين ، جادل فرق المشركين ، وأبطل مذاهبهم الزائفة بالحجج الدامغة.

ولذلك عقّب ذكره بتزييف مذاهب المشركين. أو : لأنه كان وحده مؤمنا وسائر الناس كفارا. قاله البيضاوي. وكان قانِتاً لِلَّهِ مطيعا قائما بأوامره ، حَنِيفاً مائلا عن الباطل ، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وأنتم يا معشر قريش تزعمون أنكم على دينه ، وأنتم مشركون.

وكان شاكِراً لِأَنْعُمِهِ ، لا يخل بشكر قليل منها ولا كثير. ولذلك ذكرها بلفظ جمع القلة ، اجْتَباهُ : اختاره للنبوة والرسالة والخلة. وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ التي توصل إلى حضرة النعيم ، ودعا إليها ، وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً بأن حببناه إلى كافة الخلق ، ورزقناه الثناء الحسن فى الملل كلها ، حتى إنّ أرباب

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

(٢) البيت للحسن بن هانئ ، هو لمعروف بأبى نواس.

الملك والجبابرة يتولونه ويثنون عليه. ورزقناه أولادا طيبة ، وعمرا طويلا فى الطاعة والمعرفة ، ومالا حلالا.

وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ لحضرتنا ، المقربين عندنا ، اللذين لهم الدرجات العلا كما سأله ذلك بقوله :

وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ «١».

ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ يا محمد أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ دينه ومنهاجه فى التوحيد ، والدعوة إليه بالرفق ، والمجادلة بالتي هى أحسن ، كل واحد بحسب فهمه. وكان حَنِيفاً مائلا عما سوى اللّه ، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، بل كان قدوة الموحدين. كرره ردا على اليهود والنصارى والمشركين فى زعمهم أنهم على دينه مع إشراكهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من تمسك بطاعة اللّه ظاهرا ، أو مال عما سوى اللّه باطنا ، وشكر الله دائما ، ودعا الناس إلى هذا الأمر العظيم : كان وليا إبراهيميا ، محمديا ، خليلا حبيبا ، مقربا ، قد اجتباه الحق تعالى إلى حضرته ، وهداه إلى صراط مستقيم ، وعاش فى الدنيا سعيدا ، ومات شهيدا ، وألحق بالصالحين. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ولما ادّعت اليهود أنها على ملة إبراهيم دون غيرها ، رد الله عليهم بأن السبت ليس من ملته ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ١٢٤]

إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ أي : فرض تعظيمه وإفراده للعبادة ، عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ على نبيهم ، وهم : اليهود أمرهم موسى عليه السّلام أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة ، فأبوا وقالوا : نريد يوم السبت لأنه تعالى فرغ فيه من خلق السموات والأرض ، فألزمهم الله السبت ، وشدّد عليهم فيه.

وقيل : لما أمرهم بيوم الجمعة ، قبل بعضهم ، وأبى أكثرهم ، فاختلفوا فيه. وقيل : اختلافهم : هو أن منهم من حرّم الصيد فيه ، ومنهم من أحله ، فعاقبهم الله بالمسخ. والتقدير على هذا : إنما جعل وبال السبت - وهو المسخ ، (عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا) فأحلوا فيه الصيد تارة ، وحرموه أخرى ، أو أحله بعضهم ، وحرمه بعضهم ، وذكرهم هنا تهديدا للمشركين ، كذكر القرية التي كفرت بأنعم الله ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فيجازى كل فريق بما يستحقه ، فيثيب المطيع ، ويعاقب العاصي.

الإشارة : الاختلاف على الأكابر كالشيوخ والعلماء ، والتقدم بين أيديهم بالرأى والكلام ، من أقبح المساويء ، وسو الأدب يوجب لصاحبه العطب كالقطع عن اللّه ، والبعد من ساحة حضرته. قال بعضهم : إذا جالست الكبراء فدع ما تعلم لما لا تعلم لتفوز بالسر المكنون. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٨٣ من سورة الشعراء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٧٤
ثم أمر نبيه بالدعوة إلى اللّه ، فقال :
[سورة النحل (١٦) : آية ١٢٥]
ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)

يقول الحق جل جلاله : ادْعُ يا محمد الناس إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ إلى طريقه الموصل إليه ، وهو : الإسلام والإيمان ، والإحسان لمن قدر عليه ، بِالْحِكْمَةِ بسياسة النبوة ، أو بالمقالة المحكمة ، وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ مواعظ القرآن ورقائقه ، أو الخطابات المقنعة والعبر النافعة ، وَجادِلْهُمْ أي : جادل معاندتهم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ بالطرق التي هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين ، وإيثار الوجه الأيسر ، والمقدمات التي هى أشهر فإن ذلك أنفع فى تليين لهبهم ، وتبيين شغبهم ، فالأولى :
لدعوة خواص الأمة الطالبين للحق. والثانية : لدعوة عوامهم ، والثالثة : لدعوة معاندهم.
قال ابن جزى : الحكمة هى : الكلام الذي يظهر جوابه ، والموعظة : هى : الترغيب والترهيب.
والجدال هو : الرد على الخصم. وهذه الأشياء الثلاثة يسميها أهل العلوم العقلية بالبرهان والخطابة والجدل ، وهذه الآية تقتضى مهادنة نسخت بالسيف. وقيل : إن الدعاء بهذه الطريقة ، من التلطف والرفق ، غير منسوخ ، وإنما السيف لمن لا تنفعه هذه الموعظة من الكفار ، وأما العصاة فهى فى حقهم محكمة إلى يوم القيامة باتفاق. هـ.
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ أي : إنما عليك البلاغ والدعوة. وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فليس من شأنك ، بل اللّه أعلم بالضالين والمهتدين ، وهو المجازى للجميع.
الإشارة : الدعاء بالحكمة هو الدعاء بالهمة والحال ، يكون من أهل الحق والتحقيق لأهل الصدق والتصديق.
والدعاء بالموعظة الحسنة هو الدعاء بالمقال من طريق الترغيب والتشويق ، يكون لأهل التردد فى سلوك الطريق.
والدعاء بالمجادلة الحسنة هو الدعاء بالوعظ والتذكير. وذكر بيان الطريق ، وفضيلة علم التحقيق ، يكون لأهل الإنكار إن وصلوا إلى أهل التحقيق. والحاصل : أن الدعاء بالحكمة : لأهل المحبة والتصديق. والدعاء بالموعظة :

لأهل التردد فى الطريق. والدعاء بالمجادلة : لأهل الإنكار حتى يعرفوا الحق من الباطل. وإن شئت قلت : الدعاء بالحكمة هو للعارفين الكبار ، والدعاء بالموعظة الحسنة هو لأهل الوعظ والتذكار من الصالحين الأبرار ، والدعاء بالمجادلة الحسنة هو للعلماء الأخيار. وقد تجتمع فى واحد إن جمع بين الظاهر والباطن. واللّه تعالى أعلم.

(١٧٤/٣)

ولما أمره بالدعوة العامة أمره بالصبر العام لأن الدعوة لا تنفك عن الأذى ، فيحتاج صاحبها إلى صبر كبير ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٢٦ الى ١٢٨]

وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ عاقَبْتُمْ من آذاكم فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ أي : إن صنع بكم صنيع سوء فافعلوا مثله ، ولا تزيدوا عليه. والعقوبة ، فى الحقيقة ، إنما هى فى الثانية. وسميت الأولى عقوبة لمشاكلة اللفظ. وقال الجمهور : إن الآية نزلت فى شأن حمزة بن عبد المطلب ، لما بقر المشركون بطنه يوم أحد ، قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «لئن أظفرنى اللّه بهم لأمثّلنّ بسبعين منهم». فنزلت الآية «١» ، فكفّر النبي صلى اللّه عليه وسلم عن يمينه ، وترك ما أراد من المثلة. ولا خلاف أن المثلة حرام ، وقد وردت أحاديث بذلك. ومقتضى هذا : أن الآية مدنية. ويحتمل أن تكون الآية عامة ، ويكون ذكرهم حمزة على وجه المثال. وتكون ، على هذا ، مكية كسائر السورة.

واختلف العلماء فيمن ظلمه رجل فى مال ، ثم ائتمن عليه ، هل يجوز خيانته ، فى القدر الذي ظلمه فيه؟ فأجاز ذلك قوم لظاهر الآية ، ومنعه مالك لقوله صلى اللّه عليه وسلم : «أدّ الأمانة لمن ائتمنك ، ولا تخن من خانك» «٢». قاله ابن جزى.

وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ ، ولم تعاقبوا من أساء إليكم ، لَهُوَ أي : الصبر خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ فإن العقوبة مباحة ، والصبر أفضل من الانتقام ، ويحتمل أن يريد بالصابرين هنا العموم ، أو يريد المخاطبين ، كأنه قال : فهو خير لكم.

ثم صرح بالأمر لرسوله به لأنه أولى الناس به لزيادة علمه باللّه ، فقال : وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ إلا بتوفيقه وتثبيته. روى أنه صلى اللّه عليه وسلم قال لأصحابه : «أما أنا فأصبر كما أمرت ، فماذا

تصنعون؟» قالوا : نصبر كما ندبنا. وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ على الكافرين حيث لم يؤمنوا حرصا عليهم. أو على المؤمنين لأجل ما فعل بهم. وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ أي : لا يضيق صدرك بمكرهم ، ولا تهتم بشأنهم ، فأنا ناصرك عليهم.

والضيق - بفتح الضاد مخفّفا - من ضيّق كميت وميّت. وقرئ بالكسر ، وهو مصدر. ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين ، معا ، لضاق.

---

(١) أخرجه الواحدي فى أسباب النزول (ص ٢٩١) عن ابن عباس. وأخرجه البزار (كشف الأستار ، ٢/ ٣٢٧) في سياق أطول ، عن أبى هريرة ، وراجع طبقات ابن سعد (٣/ ١٢ - ١٣) وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود فى (البيوع والإجارات ، باب فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده) ، والترمذي فى (البيوع ، ح ١٢٦٤) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(١٧٥/٣)

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا الكفر والمعاصي ، وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ فى أعمالهم ، فهو معهم بالولاية والنصر والرعاية والحفظ. أو مع الذين اتقوا اللّه بتعظيم أمره. والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه. أو مع الذين اتقوا ما يقطعهم عن الله ، والذين هم محسنون بشهود اللّه كما قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «الإحسان أن تعبد اللّه كأنك تراه».

فهو معهم بالمحبة والوداد «فإذا أحببته كنت له». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من شأن الصوفية : الأخذ بالعزائم ، والتمسك بالأحسن فى كل شىء ، ممتثلين لقوله تعالى : الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ «١». ولذلك قالوا : الصوفي : دمه هدر ، وماله مباح لأنه لا ينتصر لنفسه ، بل يدفع بالتي هى أحسن السيئة. فالصبر دأبهم ، والرضى والتسليم خلقهم.

وحقيقة الصبر هى : حبس القلب على حكم الرب ، من غير جزع ولا شكوى. ومواطنه أربعة : الطاعة ، والمعصية ، والنعمة ، والبلية. فالصبر على الطاعة : بالمبادرة إليها ، وعن المعصية : بتركها ، وعلى النعمة : بشكرها ، وأداء حق اللّه فيها ، وعلى البلية : بالرضى وعدم الشكوى بها.

وأقسام الصبر ستة : صبر فى اللّه ، وصبر للّه ، وصبر مع اللّه ، وصبر باللّه ، وصبر على اللّه ، وصبر عن اللّه.

أما الصبر فى اللّه : فهو الصبر فى طلب الوصول إلى اللّه ، بارتكاب مشاق المجاهدات والرياضات.

وهو صبر الطالبين والسائرين. وأما الصبر للّه : فهو الصبر على مشاق الطاعات وترك المنهيات ونزول البليات ، يكون ذلك ابتغاء مرضاة اللّه ، لا لطلب أجر ولا نيل حظ. وهو صبر المخلصين. وأما الصبر مع اللّه : فهو الصبر على حضور القلب مع اللّه ، على سبيل الدوام مراقبة أو مشاهدة. فالأول : صبر المحبين ، والثاني : صبر المحبوبين.

وأما الصبر باللّه : فهو الصبر على ما ينزل به من المقادير ، لكنه باللّه لا بنفسه ، وهو صبر أهل الفناء من العارفين المجذوبين السالكين. وأما الصبر على اللّه : فهو الصبر على كتمان أسرار الربوبية عن غير أهلها ، أو الصبر على دوام شهود اللّه. وأما الصبر عن اللّه : فهو الصبر على الوقوف بالباب عند جفاء الأحباب ، فإذا كان العبد فى مقام القرب واجدا لحلاوة الأنس ، مشاهدا لأسرار المعاني ، ثم فقد ذلك من قلبه ، وأحس بالبعد والطرد - والعياذ باللّه - فليصبر ، وليلزم الباب حتى يمن الكريم الوهاب ، ولا يتزلزل ، ولا يتضعضع ، ولا يبرح عن مكانه ، مبتهلا ، داعيا إلى اللّه ، راجيا كرم مولاه ، فإذا استعمل هذا فقد استعمل الصبر قياما بأدب العبودية. وهو أشد الصبر وأصعبه ، لا يطيقه إلا العارفون المتمكنون ، الذين كملت عبوديتهم ، فكانوا عبيدا للّه فى جميع الحالات ، قرّبهم أو أبعدهم.

روى أن رجلا دخل على الشبلي رضي اللّه عنه ، فقال : أي صبر أشد على الصابر؟ فقال له الشبلي : الصبر فى اللّه ، قال :

---

(١) من الآية ١٨ من سورة الزمر.

لا ، قال : الصبر للّه ، قال : لا ، قال : الصبر مع اللّه ، قال : لا ، فقال له : وأي شىء هو؟ فقال : الصبر عن اللّه. فصاح الشبلي صيحة عظيمة ، كادت تتلف فيها روحه. هـ. لأن الحبيب لا يصبر عن حبيبه. لكن إذا جفا الحبيب لا يمكن إلا الصبر والوقوف بالباب ، كما قال الشاعر :

إن شكوت الهوى ، فما أنت منّا احمل الصّد والجفا ، يا معنا

وقال رجل لأبى محمد الحريري رضي اللّه عنه : كنت على بساط الأنس ، وفتح على طريق البسط ، فزللت زلة ، فحجبت عن مقامى ، فكيف السبيل إليه؟ دلنى على الوصول إلى ما كنت عليه. فبكى أبو محمد وقال : يا أخى ، الكل فى قهر هذه الخطة ، لكنى أنشدك أبياتا لبعضهم ، فأنشأ يقول :

قف بالديار فهذه آثارهم تبكى الأحبة حسرة وتشوقا

كم قد وقفت بربعها مستخبرا عن أهله ، أو سائلا ، أو مشفقا

فأجابنى داعى الهوى فى رسمها فارقت من تهوى فعز الملتقى
ومن هذا المعنى قضية الرجل الذي بقي فى الحرم أربعين سنة يقول : لبيك. فيقول له الهاتف : لا لبيك ولا سعديك ، وحجك مردود عليك. فقيل له فى ذلك ، فقال : هذه بابه ، وهل ثمّ باب أخرى أقصده منها؟ فقبله الحق تعالى ، ولبى دعوته. وكذلك قضية الرجل الذي قيل له ، من قبل الوحي : إنك من أهل النار فزاد فى العبادة والاجتهاد. فهذا كله يصدق عليه الصبر عن اللّه. لكن لا يفهم كماله إلا من كملت معرفته ، وتحقق بمقام الفناء ، فحينئذ قد يسهل عليه أمره لكمال عبوديته ، كما قال القائل :
وكنت قديما أطلب الوصل منهم فلمّا أتانى العلم وارتفع الجهل
تيقنت أنّ العبد لا طلب له فإن قربوا : فضل ، وإن بعدوا : عدل
وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو
وأما من لم تكمل معرفته ، فقد ينكره ويذمه ، كالعباد والزهاد والعشاق ، فإنهم لا يطيقونه ، فإما أن يختل عقلهم ، أو يرجعون إلى الانهماك فى البطالة. واللّه تعالى أعلم. وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١٧٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٧٨

(١٧٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٧٩

سورة الإسراء

مكية ، إلا قوله : وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ... الآيات الثمان. وهى : مائة وعشر آيات. وكأنّ وجه المناسبة لما قبله قوله : إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا «١» ، إشارة إلى أن من اتقى اللّه ، وحصّل مقام الإحسان ، أسرى بروحه إلى عالم الملكوت وأسرار الجبروت. وافتتح السورة بالتنزيه ، لئلا يتوهم الجهال أنه - عليه الصلاة والسلام - عرج به للقاء الحق تعالى فى جهة مخصوصة ، فنزه الحقّ تعالى نفسه ، فى افتتاح سورة الإسراء دفعا لهذا الإيهام ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ

آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)
قلت : «سُبْحانَ» : مصدر غير متصرف ، منصوب بفعل واجب الحذف ، أي : أسبح سبحان. وهو بمعنى التسبيح ، أي : التنزيه ، وقد يستعمل علما له ، فيقطع عن الإضافة ويمنع الصرف ، كقول الشاعر :
قد أقول لمّا جاءنى فخره سبحان من علقمة الفاخر «٢»
و«لَيْلًا» : منصوب على الظرفية لأسرى. وفائدة ذكره ، مع أن السرى هو السير بالليل ، ليفيد التقليل ، ولذلك نكّره ، كأنه قال : أسرى بعبده مسيرة أربعين ليلة فى بعض الليل ، وذلك أبلغ فى المعجزة.
ويقال : أسرى وسرى ، رباعيا وثلاثيا.
يقول الحق جل جلاله : سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ وهو : نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، أي : تنزيها له عن الأماكن والحدود والجهات ، إذ هو أقرب من كل شيء إلى كل شيء. وإنما وقع الإسراء برسوله - عليه الصلاة والسلام - ليقتبس أهل العالم العلوي ، كما اقتبس منه أهل العالم السفلي ، فأسرى به لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ بعينه لما روى أنه - عليه الصلاة والسلام - قال : «بينما أنا فى المسجد الحرام فى الحجر ، عند البيت ، بين النّائم واليقظان ، إذ أتانى جبريل بالبراق» «٣».

---

(١) من الآية ١٢٨ من سورة النحل.
(٢) البيت للأعشى. انظر ديوانه ، ص ٩٣ ، ولسان العرب (سبح).
(٣) أخرجه بطوله البخاري في مواضع ، منها : (مناقب الأنصار ، باب المعراج) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب الإسراء) ، من حديث أنس ابن مالك عن مالك بن صعصعة.

أو : من الحرم لما روى أنه كان نائما فى بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء ، فأسري به ، وسماه مسجدا لأن الحرم كله مسجد. قاله البيضاوي. قلت : والظاهر أنه وقع مرتين : مرة بجسده من البيت ، ومرة بروحه من بيت أم هانئ. واللّه تعالى أعلم بما كان.
قال فى المستخرج من تفسير الغزنونى وغيره : قيل : كان رؤيا صادقة ، وقيل : أسرى بروحه ، وهو خلاف القرآن ، وإن أسند إلى عائشة - رضى اللّه عنها - ، والجمهور على ما رواه عامة الصحابة ، دخل كلام بعضهم فى بعض ، عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «أتانى جبريل عليه السّلام ، وإذا دابة فوق الحمار ودون البغل ، خطوها مد بصرها ، فمرّ بي بين السماء والأرض إلى بيت

المقدس ، فنشر لى رهط من الأنبياء ، فصليت بهم. وإذا أنا بالمعراج ، وهو أحسن ما رأيت ، فعرج بي ، فرأيت فى سماء الدنيا رجلا أعظم الناس وجها وهيكلا ، فقيل : هذا أبوك آدم ، وفى السماء الثانية شابين ، فقيل : هما يحيي وعيسى ، وفى الثالثة رجلا أفضل الناس حسنا ، فقيل : أخوك يوسف ، وفى الرابعة إدريس ، وفى الخامسة هارون ، وفى السادسة موسى ، وفى السابعة إبراهيم – صلوات اللّه على جميعهم.

فانتهيت إلى سدرة المنتهى ، فغشيتها ملائكة ، كأنهم جراد من ذهب ، فرأيت جبريل عليه السّلام يتضاءل كأنه صعوة – أي : عصفور – فتخلف ، وقال : وما منا إلا له مقام معلوم ، فجاوزت سبعين حجابا ، ثم احتملنى الرفرف إلى العرش ، فنوديت : حيّ ربك. فقلت : لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» «١». فلما أخبر بما رأى كذّبه أهل مكة ، ولو كان فى النوم ما أنكره المشركون.

وقيل : كانا معراجين ، بمكة والمدينة ، فى النوم واليقظة. هـ.

قلت : وقوع المعراج بالمدينة غريب. قال المهدوى : مرتبة الإسراء بالجسم إلى تلك الحضرات العلية خاصة بنبينا ، لم يكن لغيره من الأنبياء. وعدّه السيوطي من الخصائص. قال ابن جزى : وحجة الجمهور : أنه لو كان مناما ، لم تنكره قريش ، ولم يكن فى ذلك ما يكذّب ، ألا ترى أن أم هانئ قالت له – عليه الصلاة والسلام :

(لا تخبر بذلك أحدا). وحجة من قال إنه كان مناما : قوله تعالى : وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ «٢» ، وإنما يقال : الرؤيا ، فى المنام ، ويقال ، فيما يرى بالعين : رؤية ، وقوله ، فى آخر حديث الإسراء : «فاستيقظت وأنا فى المسجد الحرام» ، ثم قال : وقد يجمع بينهما بأنه وقع مرتين «٣». هـ.

وقوله تعالى : إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى هو : بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ، الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ ببركات الدين والدنيا لأنه مهبط الوحى ومتعبد الأنبياء ، ومحفوف بالأنهار والأشجار والثمار.

أسرينا

---

(١) أخرج حديث الإسراء والمعراج ، برواياته المتعددة ، وطرقه البخاري فى (الصلاة ، باب كيف فرضت الصلاة فى الإسراء) ، و(بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة) ، و(مناقب الأنصار ، باب المعراج). ومسلم فى (الإيمان ، باب الإسراء). [.....]

(٢) من الآية ٦٠ من سورة الإسراء.

(٣) وهذا هو الصواب.

به لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا الدالة على عجائب قدرتنا ، ونكشف له عن أسرار ذاتنا ، فأطلعه اللّه على عجائب الملكوت ، وأراه سنا الجبروت. روى عكرمة عن ابن عباس : أنه قال : قد رأى محمد ربه ، قلت : أليس اللّه يقول : لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ «١» ، قال : ويحك ، ذلك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره ، وقد رأى ربه مرتين. هـ.

قلت : معنى كلامه : أنه إذا تجلى بنوره الأصلي ، من غير واسطة ، لا يمكن إدراكه ، وأما إذا تجلى بواسطة المظهر فإنه يمكن إدراكه ، والحاصل : أن الحق تعالى إنما يتجلى على قدر الرائي ، لا على قدره إذ لا يطيقه أحد. وسيأتي ، في الإشارة ، بقية الكلام عليه ، إن شاء اللّه. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أي : السميع لأقوال حبيبه في حال مناجاته ، البصير بأحواله ، فيكرمه ويقربه على حسب ذلك.

الإشارة : قال بعض الصوفية : إنما قال تعالى : بِعَبْدِهِ ، ولم يقل : بنبيه : ولا برسوله ليدل على أن كل من كملت عبوديته كان له نصيب من الإسراء. غير أن الإسراء بالجسد مخصوص به - عليه الصلاة والسلام - ، وأما الإسراء بالروح فيقع للأولياء على قدر تصفية الروح ، وغيبتها عن هذا العالم الحسى ، فتعرج أفكارهم وأرواحهم إلى ما وراء العرش ، وتخوض في بحار الجبروت ، وأنوار الملكوت ، كلّ على قدر تخليته وتحليته. وإنما خص الإسراء بالليل لكونه محل فراغ المناجاة والمواصلات ، ولذلك رتب بعثه مقاما محمودا على التهجد بالليل في هذه السورة. قاله المحشى.

وقوله تعالى : سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى ، قال الورتجبي : أي : تنزه عن إشارة الجهات والأماكن في الفوقية ، وما يتوهم الخلق من أنه إذ أوصل عبده إلى وراء الوراء ، أنه كان في مكان ، أي : لا تتوهموا برفع عبده إلى ملكوت السموات ، أنه رفع إلى مكان ، أو هو في مكان ، فإن الأكوان والمكان أقل من خردلة في وادي قدرته ، أي :

في بحر عظمته ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام : «الكون في يمين الرحمن أقل من خردلة».
والعندية والفوقية منه ، ونزّه نفسه عن أوهام المشبّهات ، حيث توهموا أنه أسرى به إلى المكان ، أي : سبحان من تنزه عن هذه التهمة. هـ. وقال القشيري : أرسله الحق تعالى ليتعلم أهل الأرض منه العبادة ، ثم رقّاه إلى السماء ليتعلّم منه الملائكة - عليهم السلام - آداب العبادة ، قال تعالى : ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى «٢» ، وما التفت يمينا ولا شمالا ، ما طمع في مقام ، ولا في إكرام ، تحرر عن كلّ طلب وأرب ، تلك الليلة. هـ.

---

(١) من الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ١٧ منسورة النجم.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٨٢

قلت : ولذلك أكرمه اللّه تعالى بالرؤية ، التي منع منها نبيه موسى عليه السّلام ، حيث وقع منه الطلب «ربما دلهم الأدب على ترك الطلب» ، وقال الورتجبي : أسرى به عن رؤية فعله وآياته ، إلى رؤية صفاته ، ومن رؤية صفاته إلى رؤية ذاته ، وأشهده مشاهد جماله ، فرأى الحق بالحق ، وصار هنالك موصوفا بوصف الحق ، فكان صورته روحه ، وروحه عقله ، وعقله قلبه ، وقلبه سره ، فرأى الحق بجميع وجوده لأن وجوده فان بجميعه ، فصار عينا من عيون الحق ، فرأى الحق بجميع العيون ، وسمع خطابه بجميع الأسماع ، وعرف الحق بجميع القلوب. هـ.

وقال ، فى قوله تعالى : إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى : سبب بداية المعراج بالذهاب إلى المسجد الأقصى ، لأن هناك الآية الكبرى من بركة أنوار تجليه لأرواح الأنبياء وأشباحهم ، وهناك بقربه طور سيناء ، وطور زيتا ، والمصيصة ، ومقام إبراهيم وموسى وعيسى ، وفى تلك الجبال مواضع كشوف الحق ، ولذلك قال : (بارَكْنا حَوْلَهُ) ، انظر تمامه.

ولمّا كان لسيدنا موسى عليه السّلام مزيد كلام ومراجعة مع نبينا - عليه الصلاة والسلام - فى قضية الإسراء ، ذكره بإثره ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٢ الى ٣]

وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً (٣)

قلت : (ذُرِّيَّةَ) : منادى ، أي : يا ذرية من حملنا مع نوح ، والمراد : بنى إسرائيل. وفى ندائهم بذلك : تلطف وتذكير بالنعم ، وقيل : مفعول أول بتتخذوا ، أي : لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دونى وكيلا ، فتكون كقوله :

وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً «١».

يقول الحق جل جلاله : وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ التوراة وَجَعَلْناهُ أي : التوراة هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ ، وقلنا : أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا تفوضون إليه أموركم ، وتطيعونه فيما يأمركم. بل فوضوا أموركم إلى اللّه ، واقصدوا بطاعتكم وجه اللّه ، يا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ ، فاذكروا نعمة الإنجاء من الغرق ، وحمل أسلافكم فى سفينة نوح ، إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً يحمد اللّه ويشكره فى جميع حالاته. وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره ، وحث للذرية على الاقتداء به. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب هو ، إفراد الوجهة إلى الحق ، ورفع الهمة عن الخلق ، حتى لا يبقى الركون إلا إليه ، ولا الاعتماد إلا عليه ، وهو مقتضى التوحيد. قال تعالى : لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا «٢». وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ٨٠ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ٩ من سورة المزمل.

(١٨٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٨٣

ثم ذكر ما أحدث بنو إسرائيل ، وما جرى عليهم فى القضاء السابق ، فقال : -

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٤ الى ٨]

وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (٤) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً (٧) عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً (٨)

يقول الحق جل جلاله : وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أي : أخبرناهم وأوحينا إليهم فِي الْكِتابِ التوراة ، وقلنا : واللّه لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ إلخ. أو : قضينا عليهم فِي الْكِتابِ اللوح المحفوظ ، لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ أي : إفسادتين ، أولاهما : مخالفة أحكام التوراة وقتل أشعياء ، وقيل : أرمياء. وثانيتهما : قتل زكريا ويحيى ، وقصد قتل عيسى عليه السّلام ، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ولتستكبرن عن طاعة اللّه ، أو لتظلمن الناس وتستعلون عليهم علوا كبيرا.

فَإِذا جاءَ وَعْدُ عقاب أُولاهُما أي : أول مرتى الإفساد بأن أفسدوا فى الأرض المرة الأولى بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا بختنصر وجنوده أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ذوى قوة وبطش فى الحرب شديد ، فَجاسُوا فترددوا لطلبكم خِلالَ الدِّيارِ وسطه ، للقتل أو الغارة ، فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم ، وحرقوا التوراة ، وخربوا المسجد. وفى التذكرة للقرطبى : أنه سلّط عليهم فى المرة الأولى بختنصر ، فسباهم ، ونقل ذخائر بيت المقدس على سبعين ألف عجلة ، وبقوا فى يده مائة سنة. ثم رحمهم اللّه تعالى وأنقذهم من يده ، على يد ملك من ملوك فارس ، ثم عصوا ، فسلط عليهم ملك الروم قيصر. هـ. قال تعالى : وَكانَ وَعْداً مَفْعُولًا أي : وكان وعد عقابهم وعدا مقضيا لا بد أن يفعل.

ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ أي : الدولة والغلبة عَلَيْهِمْ أي : على الذين بعثوا عليكم ، فرجع الملك إلى بنى إسرائيل ، واستنقذوا أسراهم ، فقيل : على يد «بهمن بن إسفنديار» ملك فارس ، فاستنقذهم ، ورد أسراهم إلى الشام ، وملّك دانيال عليهم ، فاستولوا على من كان فيها من أتباع بختنصر ، وقيل : على يد داود عليه السّلام حين قتل جالوت.

قال تعالى : وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً أي : عددا مما كنتم. والنفير : من ينفر مع الرجل من قومه ، وقيل : جمع نفر ، وهم : المجتمعون للذهاب إلى الغزو.

(١٨٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٨٤

ثم قال تعالى لهم : إِنْ أَحْسَنْتُمْ بفعل الطاعة والعمل الصالح ، أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ لأن ثوابه لها ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فإنّ وبالها عليها. وذكر باللام للازدواج. فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ أي : وعد عقوبة المرة الأخيرة ، بأن أفسدوا فى المرة الآخرة ، بعثنا عليكم عبادا لنا آخرين ، أولى بأس شديد لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ ، يجعلوها تظهر فيها آثار السوء والشر ، كالكآبة والحزن ، كقوله : سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا «١» وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ بيت المقدس كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا وليهلكوا ما عَلَوْا عليه تَتْبِيراً إهلاكا ، أو مدة علوهم. قال البيضاوي : وذلك بأن اللّه سلّط عليهم الفرس مرة أخرى ، فغزاهم ملك بابل ، اسمه «حردون» ، وقيل : «حردوس» ، قيل : دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم ، فوجد دما يغلى ، فسأل عنه ، فقالوا : دم قربان لم يقبل منا. فقال : ما صدقتمونى ، فقتل عليه ألوفا منهم ، فلم يهدأ الدم. ثم قال : إن لم تصدقونى ما تركت منكم أحدا ، فقالوا : دم يحيى ، فقال : لمثل هذا ينتقم منكم ربكم ، ثم قال : يا يحيى ، قد علم ربى وربك ما أصاب قومك ، فاهدا بإذن اللّه ، قبل ألّا أبقى منهم أحدا ، فهدأ. هـ.

وقال السهيلي فى كتاب «التعريف والإعلام» : المبعوث فى المرة الأولى هم أهل بابل ، وكان إذ ذاك عليهم «بختنصر» ، حين كذّبوا أرمياء وجرحوه وحبسوه. وأما فى المرة الأخيرة : فقد اختلف فيمن كان المبعوث عليهم ، وأن ذلك كان بسبب قتل يحيى بن زكريا. فقيل : بختنصر ، وهذا لا يصح لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى ، وبختنصر كان قبل عيسى بزمان طويل. هـ. وقول الجلال السيوطي : وقد أفسدوا فى الأولى بقتل زكريا ، فبعث عليهم جالوت وجنوده ، ولا يصح لأنه يقتضى أن داود تأخر عن زكريا ، وهو باطل.

ثم قال تعالى لبنى إسرائيل : عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ بعد المرة الأخرى ويجبر كسركم ، وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا إلى عقوبتكم ، وقد عادوا بتكذيب نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وقصد قتله ، فعاد إليهم بتسليطه عليهم ، فقتل من بنى قريظة سبعمائة فى يوم واحد ، وسبى ذراريهم ، وباعهم فى الأسواق ، وأجلى بنى النضير ، وضرب الجزية على الباقين. هذا فى الدنيا ، وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ منهم ومن غيرهم حَصِيراً محبسا ، لا يقدرون على الخروج منها ، أبد الآباد. وقيل : بساطا كبسط الحصير ، كقوله : لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ «٢». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد قضى الحقّ جل جلاله ما كان وما يكون فى سابق علمه ، فما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه. فالواجب على العبد أن يكون ابن وقته ، إذا أصبح نظر ما يفعل اللّه به. فأسرار القدر قد استأثر الله بعلمها ،

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة الملك.

(٢) من الآية ١١ ٤ من سورة الأعراف.

(١٨٤/٣)

وأبهم على عباده أمرها ، فلو ظهرت لبطل سر التكليف. ولذلك لما سئل عنه سيدنا على - كرم اللّه وجهه - قال للسائل :

(بحر عميق لا تطيقه) ، فأعاد عليه السؤال ، فقال : (طريق مظلم لا تسلكه) لأنه لا يفهم سر القضاء والقدر ، إلا من دخل مقام الفناء والبقاء ، وفرّق بين القدرة والحكمة ، وبين العبودية والربوبية ، فإذا تحقق العارف بالوحدة ، علم أنّ الحق تعالى أظهر من خلقه مظاهر أعدهم للإكرام ، وأظهر خلقا أعدهم للانتقام ، وأبهم الأمر عليهم ، ثم خلق فيهم كسبا واختيارا فيما يظهر لهم ، وكلفهم لتقوم الحجة عليهم ، وتظهر صورة العدل فيهم. وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً. فالقدرة تبرز ما سبق فى الأزل ، والحكمة تستر أسرار القدر. لكن جعل للسعادة علامات كالتوفيق والهداية للإيمان ، وللشقاوة علامات كالخذلان والكفران. نعوذ باللّه من سوء القضاء وحرمان الرضا. آمين.

ومن علامة السعادة : التمسك بما جاء به القرآن العظيم ، كما قال تعالى :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٩ الى ١٠]

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٠)

قلت : «وَأَنَّ الَّذِينَ» : إما عطف على «إِنَّ» الأولى ، أو على «وَيُبَشِّرُ» بإضمار يخبر.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي للطريق التي هِيَ أَقْوَمُ الطرق وأعدلها ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الأعمال الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً وهو : الخلود فى النعيم المقيم ، وزيادة النظر إلى وجهه الكريم. وَيخبر أَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا أي : أعددنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً ، أو : ويبشر المؤمنين ببشارتين : ثوابهم ، وعقاب أعدائهم.

الإشارة : لا شك أن القرآن يهدى إلى طريق الحق إما إلى طريق توصل إلى نعم جنانه ، أو إلى طريق

توصل إلى شهوده ودوام رضوانه ، فالأولى طريق الشرائع والأحكام ، والثانية طريق الحقائق والإلهام ، لكن لا يدرك هذا من القرآن إلا من صفت مرآة قلبه بالمجاهدة والذكر الدائم ، ولذلك أمر شيوخ التربية المريد بالاشتغال بالذكر المجرد ، حتى يشرق قلبه بأنوار المعارف ، ويرجع من الفناء إلى البقاء ، ثم بعد ذلك يمر بالتلاوة ، ليذوق حلاوة القرآن ، ويتمتع بأنواره وأسراره ، وقد أنكر بعض من لا معرفة له بطريق التربية على الفقراء هذا الأمر - أعنى : ترك التلاوة فى بدايتهم - محتجا بهذه الآية ، ولا دليل فيها عليم لأن كون القرآن يهدى للتى هى أقوم يعنى : التمسك والتدبر فى معانيه ، ولا يصح ذلك على الكمال إلا بعد تصفية القلوب ، كما هو مجرب ، ولا ينكر هذا إلا من لا ذوق له فى علوم القوم ، وربما يذكر وجود التربية من أصلها ، ويسد الباب فى وجوه الناس ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

(١٨٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٨٦
فإذا اتصل العبد بأهل هذا الطريق ، ثم تأخر الفتح عنه ، فلا يقنط ولا يستعجل ، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله :
[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١١ الى ١٤]
وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً (١١) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً (١٢) وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (١٣) اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤)
قلت : (دُعاءَهُ) : مفعول مطلق. والإضافة فى قوله : (آيَةَ اللَّيْلِ) و(آيَةَ النَّهارِ) : بيانية ، أي : فمحونا الآية التي هى الليل ، وجعلنا الآية التي هى النهار مبصرة. وإذا أريد بالآيتين الشمس والقمر تكون للتخصيص ، أي : وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين ، أو : وجعلنا الليل والنهار ذوى آيتين .. إلخ ، و(كُلَّ شَيْ ءٍ) : منصوب بفعل مضمر ، يفسره ما بعده ، وكذا : (وَ كُلَّ إِنسانٍ) و(يَلْقاهُ مَنْشُوراً) : صفتان لكتاب.
يقول الحق جل جلاله : وَيَدْعُ الْإِنْسانُ على نفسه وولده وماله بِالشَّرِّ عند الغضب والقنط.
دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ مثل دعائه بالخير. وهو ذم له يدل على عدم صبره ، وربما وافق وقت الإجابة فيهلك ، وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا يسارع إلى كل ما يخطر بباله ، لا ينظر عاقبته. ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر ، وبالدعاء استعجاله بالعذاب استهزاء ، كقول النضر بن الحارث : اللهم انصر خير الحزبين اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ .. الآية «١». وقيل : المراد بالإنسان : آدم

عليه السّلام ، فإنه لما انتهى الروح إلى سرّته ذهب ليقوم ، فسقط ، وهو بعيد. فإذا نزلت بالإنسان قهرية فلا يقنط ولا يستعجل ، فإنّ وقت الفرج محدود ، فالليل والنهار مطيتان ، يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، ويأتيان بكل موعود.

ولذا قال تعالى إثره : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ دالتين على كمال قدرتنا ، وباهر حكمتنا ، يتعاقبان على الإنسان ، يقربان له كل بعيد ، ويأتيان له بكل موعود. فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ أي : فمحونا الآية التي هى الليل بأن جعلناها مظلمة ، لتسكنوا فيه ، وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً أي : مضيئة مشرقة لتبتغوا من فضله ، أو : وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين ، وهما : الشمس والقمر ، فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ ، وهو القمر بأن جعلناه أطلس ، لا نور فيه من ذاته ، بل نوره مستمد من نور الشمس ، وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ ، وهى الشمس مُبْصِرَةً للناس ، أو مبصرا فيها بالضوء الذاتي ، لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ لتطلبوا فى بياض النهار أسباب معاشكم ، وَلِتَعْلَمُوا

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

(١٨٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٨٧

باختلافهما وبحركتهما ، عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ وحساب الأوقات من الأشهر والأيام ، فى معاملتكم وتصرفاتكم ، وَكُلَّ شَيْءٍ تفتقرون إليه فى أمر الدين والدنيا فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا بيّناه تبيينا لا لبس فيه ، أو : وكل شيء يظهر فى الوجود ، فصّلناه وقدّرناه فى اللوح المحفوظ تفصيلا ، فلا يظهر فى عالم الشهادة إلا ما فصل فى عالم الغيب.

وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ أي : حظه وما قدر له من خير وشر ، فهو لازم فِي عُنُقِهِ لا ينفك عنه.

ويقال لكل ما لزم الإنسان : قد لزم عنقه. وإنما قيل للحظ المقدر فى الأزل من الخير والشر : طائر لقول العرب :

جرى لفلان الطائر بكذا من الخير والشر ، على طريق الفأل والطيرة ، فخاطبهم اللّه بما يستعملون ، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر هو ملزم لأعناقهم ، لا محيد لهم عنه ، كالسلسلة اللازمة للعنق ، يجر بها إلى ما يراد منه. ومثله : أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ «١» ، وقال مجاهد : «ما من مولود يولد إلا فى عنقه ورقة ، مكتوب فيها شقى أو سعيد». أو : وكل إنسان ألزمناه عمله يحمله فى عنقه ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً مكتوب فيه عمله ، وهو صحيفته. يَلْقاهُ مَنْشُوراً ، ويقال له : اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً محاسبا ، لا تحاسبك إلا نفسك ، أو : رقيبا وشهيدا على عملك ، أو

: لا يعد عليك أعمالك إلا نفسك. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : ينبغى للإنسان أن يكون داعيا بلسانه ، مفوضا للّه فى قلبه ، لا يعقد على شيء من الحظوظ والمآرب ، فقد يدعو بالخير فى زعمه ، وهو شر فى نفس الأمر فى حقه ، وقد يدعو بالشر وهو خير. وقد تأتيه المضار من حيث يرتقب المسار ، وقد تأتيه المسار من حيث يخاف الضرر وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ. فالتأني والسكون من علامة العقل ، والشّره والعجلة من علامة الحمق. فما كان من قسمتك لا بد يأتيك فى وقته المقدر له ، وما ليس من قسمتك لا يأتيك ، ولو حرصت كل الحرص. فكل شيء سبق تفصيله وتقديره ، فمن وجد خيرا فليحمد اللّه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلوم إلا نفسه ، كما قال تعالى :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١٥ الى ١٧]

مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧)

---

(١) من الآية ١٣١ من سورة الأعراف.

يقول الحق جل جلاله : مَنِ اهْتَدى وآمن باللّه وبما جاءت به الرسل فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ لأن ثواب اهتدائه له ، لا ينجى اهتداؤه غيره ، وَمَنْ ضَلَّ عن طريق اللّه فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها لأن إثم إضلاله على نفسه ، لا يضر به غيره فى الآخرة ، وَلا تَزِرُ أي : لا تحمل نفس وازِرَةٌ آثمة وِزْرَ نفس أُخْرى أي : ذنوب نفس أخرى ، بل إنما تحمل وزرها ، إلا من كان إماما فى الضلالة ، فيحمل وزره ووزر من تبعه ، على ما يأتى فى آية أخرى : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ «١».
ومن كمال عدله تعالى : أنه لا يعذّب حتى ينذر ويعذر على ألسنة الرسل ، كما قال تعالى : وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ أحدا فى الدنيا ولا فى الآخرة حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا يبين الحجج ، ويمهد الشرائع ، ويلزمهم الحجة.
وفيه دليل على أن لا حكم قبل الشرع ، بل الأمر موقوف إلى وروده ، فمن بلغته دعوته ، وخالف أمره ، واستكبر عن اتباعه ، عذبناه بما يستحقه. وهذا أمر قد تحقق بإرسال آدم عليه السّلام ومن بعده من الأنبياء الكرام - عليهم السّلام - فى جميع الأمم ، قال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا «٢» ،

وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ «٣» ، فإن دعوتهم إلى اللّه قد انتشرت ، وعمت الأقطار ، واشتهرت ، انظر إلى قول قريش الذين لم يأتهم نبى بعد إسماعيل عليه السّلام : ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ «٤» فإنه يفهم منه أنهم سمعوه فى الملة الأولى ، فمن بلغته دعوة أحد منهم ، بوجه من الوجوه ، فقصّر ، فهو كافر مستحق للعذاب. فلا تغتر بقول كثير من الناس بنجاة أهل الفترة ، مع إخبار النبي صلى اللّه عليه وسلم أن آباءهم ، الذين مضوا فى الجاهلية ، فى النار ، وأن ما يدحرج من الجعل «٥» خير منهم ، إلى غير ذلك من الأخبار. قاله البقاعي.

وقال الإمام أبو عبد اللّه الحليمي - أحد أجلاء الشافعية ، وعظماء أئمة الإسلام - فى أول منهاجه ، فى باب : «من لم تبلغه الدعوة» : وإنما قلنا : إن من كان منهم عاقلا مميزا إذا رأى ونظر ، إلا أنه لا يعتقد دينا فهو كافر لأنه ، وإن لم يكن سمع دعوة نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فلا شك أنه سمع دعوة أحد من الأنبياء قبله ، على كثرتهم وتطاول أزمان دعوتهم ، ووفور مدد الذين آمنوا واتبعوهم ، والذين كفروا بهم وخالفوهم ، فإنّ الخبر قد يبلغ على لسان المخالف ، كما

---

(١) من الآية ١٢ من سورة العنكبوت.

(٢) من الآية ٢٦ من سورة النحل.

(٣) من الآية ٢٤ من سورة فاطر.

(٤) من الآية ٧ من سورة ص. [.....]

(٥) الجعل : حيوان معروف كالخنفساء ... انظر : النهاية فى غريب الحديث (جعل).

يبلغ على لسان الموافق ، وإذا سمع أيّة دعوة كانت إلى اللّه تعالى ، فترك أن يستدل بعقله ، كان معرضا عن الدعوة فكفر ، واللّه أعلم. وإن أمكن أن يكون لم يسمع قط بدين ، ولا بدعوة نبى ، ولا عرف أن فى العالم من يثبت إلها ، وما نرى أن ذلك يكون ، فأمره على الاختلاف ، يعنى : عند من يوجب الإيمان بمجرد العقل ، ومن لا يوجبه إلا بانضمام النقل. هـ.

وقال الزركشي ، فى آخر باب النيات ، من شرحه على المنهاج : وقد أشار الشافعي إلى عسر تصور عدم بلوغ الدعوة ، حيث قال : وما أظن أحدا إلا بلغته الدعوة ، إلا أن يكون قوم من وراء النهر. وقال الدميري : وقال الشافعي :

ولم يبق أحد لم تبلغه الدعوة. انتهى على نقل شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى رضي اللّه عنه.

ثم قال تعالى : وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً

أي : تعلقت إرادتنا بإهلاكها لإنفاذ قضائنا السابق ، ودنا وقت إهلاكها ، أَمَرْنا مُتْرَفِيها

منعميها ، بمعنى رؤسائها بالطاعة على لسان رسول بعثناه إليهم ، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده ، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة ، لقوله : فَفَسَقُوا فِيها

خرجوا عن أمرنا. وقيل : أمرناهم :

ألهمناهم الفسق وحملناهم عليه ، أو : جعلنا لهم أسباب حملهم على الفسق بأن صببنا عليهم من النعم ما أبطرهم ، وأفضى بهم إلى الفسوق ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ

وجب عليها كلمة العذاب السابق بحلوله ، أو بظهور معاصيهم.

فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً

أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريبها. وَكَمْ أَهْلَكْنا أي : كثيرا أهلكنا مِنَ الْقُرُونِ أي : الأمم مِنْ بَعْدِ نُوحٍ كعاد وثمود وأصحاب الأيكة ، وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً عالما ببواطنها وظواهرها ، فيعاقب عليها أو يعفو. وباللّه التوفيق.

الإشارة : من اهتدى إلى حضرة قدسنا فإنما يهتدى لينعم نفسه بأسرار قدسنا ، ومن ضل عنها فإنما يضل عليها حيث حرمها لذيذ المعرفة. فإن كان فى رفقة السائرين ، ثم غلبه القضاء ، فلا يتعدى وبال رجوعه إلى غيره ، بل ما كان يصل إليه من المدد يرجع إلى أصحابه ، وما كنا معذبين أحدا بإسدال الحجاب بيننا وبينه ، حتى نبعث من يعرّف بنا ، ويكشف الحجاب بيننا وبين من يريد حضرتنا. والمراد بالحجاب : حجاب الوهم بإثبات حس الكائنات ، فلو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان ، ولو أشرق نور الإيقان لغطى وجود الأكوان.

وإذا أردنا أن نتلف قلوبا أمرنا أربابها بالتنعم بالحظوظ والشهوات ، فخرجوا عن طريق المجاهدة والرياضة ، فحق عليها القول بغم الحجاب ، فدمرناها تدميرا ، أي : تركناها تجول فى أودية الخواطر والشكوك ، فتلفت وهلكت ، نعوذ باللّه من شر الفتن ودرك المحن.

وسبب الهلاك هو حب الدنيا ، كما قال تعالى :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١٨ الى ٢٢]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً (١٨) وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (١٩) كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ

مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (٢٢)

قلت : (لِمَنْ نُرِيدُ) : بدل من ضمير (لَهُ) بدل بعض من كل. و(كُلًّا) : مفعول (نُمِدُّ) ، و(هؤُلاءِ) : بدل منه.

و(كَيْفَ) : حال ، و(دَرَجاتٍ) و(تَفْضِيلًا) : تمييز.

يقول الحق جل جلاله : مَنْ كانَ يُرِيدُ بعمله الدنيا الْعاجِلَةَ ، مقصورا عليها همه ، عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ التعجيل له. قيّد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لأنه لا يجد كل متمن ما يتمناه ، ولا كل واحد جميع ما يهواه. قاله البيضاوي. ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ فى الآخرة جَهَنَّمَ يَصْلاها يدخلها ويحترق بها ، حال كونه مَذْمُوماً مَدْحُوراً مطرودا من رحمة اللّه. والآية فى الكفار ، وقيل : فى المنافقين ، الذين يغزون مع المسلمين لقصد الغنائم. والأصح : أنها تعم كل من اتصف بهذا الوصف.

وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها عمل لها عملها اللائق بها ، وهو : الإتيان بما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه ، لا التقرب بما يخترعون بآرائهم. وفائدة اللام فى قوله : «لَها» : اعتبار النية والإخلاص.

والحال أن العامل مُؤْمِنٌ إيمانا صحيحا لا شرك معه ولا تكذيب ، فإنه العمدة ، فَأُولئِكَ الجامعون للشروط الثلاثة كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً عند اللّه ، مقبولا مثابا عليه فإن شكر اللّه هو الثواب على الطاعة.

كُلًّا نُمِدُّ أي : كل واحد من الفريقين نمد بالعطاء مرة بعد أخرى ، هؤُلاءِ المريدين للدنيا ، وَهَؤُلاءِ المريدين للآخرة ، نمد كلا مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ فى الدنيا ، وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ فيها مَحْظُوراً ممنوعا من أحد ، لا يمنعه فى الدنيا مؤمن ولا كافر ، تفضلا منه تعالى. انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ فى الرزق والجاه ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا من الدنيا ، فينبغى الاعتناء بها دونها ، والتفاوت فى الآخرة حاصل للفريقين ، فكما تفاوتت الدرجات فى الجنة تفاوتت الدركات فى النار.

وسبب التفاوت : زيادة اليقين ، والترقي فى أسرار التوحيد لأهل الإيمان ، أو الانهماك فى الكفر والشرك لأهل الكفران. ولذلك قال تعالى : لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ تعبده. والخطاب لكل سامع ، أو للرسول صلى اللّه عليه وسلم ، والمراد أمته ، فَتَقْعُدَ فتصير حينئذ مَذْمُوماً مَخْذُولًا جامعا على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين ، والخذلان من اللّه. ومفهومه : أن الموحد يكون ممدوحا منصورا فى الدارين.

الإشارة : قال صلى اللّه عليه وسلم : «من كانت الدّنيا همّه ، فرّق اللّه عليه أمره ، وجعل فقره بين

عينيه ، ولم يأته من الدّنيا إلّا ما قسم له. ومن كانت الآخرة نيّته ، جمع اللّه عليه أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدّنيا وهى صاغرة» «١» ، واعلم أن الناس على قسمين قوم أقامهم الحق لخدمته ، وهم : العباد والزهاد ، وقوم اختصهم بمحبته ، وهم : العارفون باللّه أهل الفناء والبقاء ، قال تعالى : كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ ، وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً. انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ فى الكرامات والأنوار ، وفى المعارف والأسرار. وفضل العارفين على غيرهم كفضل الشمس على سائر الكواكب ، هذا فى الدنيا ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ، يقع ذلك بالترقي فى معارج أسرار التوحيد ، وبتفاوت اليقين فى معرفة رب العالمين. وقال القشيري فى تفسير الآية : منهم من لا يغيب عن الحضرة لحظة ، ثم يجتمعون فى الرؤية ، ويتفاوتون فى النصيب لكلّ. وليس كلّ أحد يراه بالعين الذي يراه به صاحبه. وأنشدوا :

لو يسمعون - كما سمعت - حديثها خرّوا لعزّة ركّعا وسجودا «٢»

وقال الورتجبي : فضّل العابدين بعضهم على بعض فى الدنيا بالطاعات ، وفضّل العارفين بعضهم على بعض بالمعارف والمشاهدات ، فالعباد فى الآخرة فى درجات الجنان متفاوتون ، والعارفون فى درجات وصال الرحمن متفاوتون. وقال القشيري أيضا : من كانت مشاهدته اليوم على الدوام ، كانت رؤيته غدا على الدوام ، ومن لا فلا. هـ.

وقد تقدم تفاوت الناس فى الرؤية بأبسط من هذا ، عند قوله تعالى : لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ «٣». واللّه تعالى أعلم.

ثم بيّن السعى للآخرة ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٢٣ الى ٢٥]

وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٥/ ١٨٣) ، وابن ماجة فى (كتاب الزهد ، باب الهم فى الدنيا) من حديث زيد بن ثابت ، وأخرجه الترمذي فى (القيامة ، باب ٣٠) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

(٢) البيت لكثير عزة. انظر ديوانه (٤٤٢) ، وتزيين الأسواق (١/ ٤١).

(٣) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٩٢

قلت : (قَضى) ، هنا ، بمعنى حكم وأوجب وأمر ، لا بمعنى القضاء إذ لو كان كذلك لما عبد غير اللّه. وفى مصحف ابن مسعود : «ووصى ربك ألا تعبدوا». و(أن) : مفسرة ، أو مصدرية ، أي : بأن لا تعبدوا ، و(إِمَّا) : إن الشرطية دخلت عليها «ما» المؤكدة. و(فَلا تَقُلْ) : جوابها. وتوحيد ضمير الخطاب فى (عِنْدَكَ) ، وفيما سبق - مع أن ما سبق ضمير الجمع - للاحتراز عن التباس المراد ، فإنّ المقصود نهى كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما.

ولو قوبل الجمع بالجمع ، أو بالتثنية ، لم يحصل هذا المرام.

و«أُفٍّ» : اسم فعل ، معناها : قول مكروه ، يقال عند الضجر ونحوه. قال الهروي : أي : لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم ، ويقال لكل ما يضجر منه ويستثقل : أفّ له. وقال فى القاموس : أفّ ، يؤفّ ، ويئفّ : تأفف من كرب أو ضجر.

وأفّ : كلمة تكره ، وأفف تأفيفا ، وتأفّف ، قالها «١» ، ولغتها أربعون ، ثم ذكرها. وحركتها للبناء ، وتنوينها للتنكير.

يقول الحق جل جلاله : وَقَضى رَبُّكَ أمر أمرا مقطوعا به ، ب أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ لأن غاية التعظيم لا يكون إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام ، وهو اللّه وحده ، وَأحسنوا بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً لأنهما السبب الظاهر فى وجود العبد ، وبهما قامت نعمة الإمداد من التربية والحفظ فى مظاهر الحكمة ، وإلّا فما ثمّ إلا تربية الحق تعالى ، ظهرت فى مظاهر الوالدين ، لكن أمر بشكر الواسطة «من لم يشكر الناس لم يشكر اللّه».

ثم أمر ببرهما ، فقال : إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما أي : مهما بلغ زمن الكبر ، وهما عندك فى كفالتك ، هما أو أحدهما ، فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ أي : فلا تضجر فيما يستقذر منهما ويستثقل من مؤنتهما ، ولا تنطق بأدنى كلمة توجعهما ، فأحرى ألا يقول لهما ما فوق ذلك. فالنهى عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياسا بطريق الأحرى. وقال فى الإحياء : الأفّ : وسخ الظفر ، والتف : وسخ الأذن ، أي : لا تصفهما بما تحت الظفر من الوسخ ، فأحرى غيره ، وقيل : لا تتأذّ بهما كما يتأذى بما تحت الظفر. هـ.

وَلا تَنْهَرْهُما ولا تزجرهما عما لا يعجبك بإغلاظ ، فإن كان لإرشاد دينى فبرفق ولين. وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً جميلا لينا لا غلظ فيه ، وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ ألن لهما جانبك الذليل ، وتذلل لهما وتواضع. استعار للذل جناحا ، وأضافه إليه مبالغة فإنّ الطير إذا تذلل أرخى جناحه إلى الأرض ، كذلك الولد ، ينبغى أن يخضع لأبويه ، ويلين جانبه ، ويتذلل لهما غاية جهده. وذلك مِنَ الرَّحْمَةِ أي : من إفراط الرحمة

(١) أي : قال كلمة «أف».

(١٩٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٩٣

لهما والرقة والشفقة عليهما. وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما أي : وادع اللّه أن يرحمهما برحمته الباقية ، ولا تكتف برحمتك الفانية ، وإن كانا كافرين لأن من الرحمة أن يهديهما للإسلام ، فقل : اللهم ارحمهما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً أي : رحمة مثل رحمتهما علىّ وتربيتهما وإرشادهما لى فى صغرى ، وفاء بعهدك للراحمين. فالكاف فى محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف ، أي : رحمة مثل تربيتهما ، أو مثل رحمتهما لى ، على أن التربية رحمة. ويجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معا ، وقد ذكر أحدهما فى أحد الجانبين والآخر فى الآخر ، كما يلوح له التعرض لعنوان الربوبية ، كأنه قيل : رب ارحمهما ، وربّهما كما ربيانى صغيرا. ويجوز أن يكون الكاف للتعليل ، كقوله : وَاذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ «١».

ولقد بالغ الحق تعالى فى التوصية بالوالدين حيث شفع الإحسان إليهما بتوحيده سبحانه ، ونظمهما فى سلك القضاء بعبادته ، ثم ضيق فى برهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تتفلت من المتضجر ، وختمها بأن جعل رحمته التي وسعت كلّ شىء مشبهة بتربيتهما. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «رضا اللّه فى رضا الوالدين ، وسخطه فى سخطهما» «٢». وروى : أن رجلا قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إن أبوىّ بلغا من الكبر إلى أنّى ألى منهما ما وليا منّى فى الصغر ، فهل قضيتهما حقهما؟ قال : «لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك ، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما». وروى أن شيخا أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : إن ابني هذا له مال كثير ، ولا ينفق علىّ من ماله شيئا ، فنزل جبريل وقال : إن هذا الشيخ أنشأ فى ابنه أبياتا ، ما قرع سمع بمثلها ، فاستنشدها ، فأنشدها الشيخ ، فقال :

غذوتك مولودا ، ومنتك يافعا ، تعلّ بما أجرى عليك ، وتنهل

إذا ليلة ضافتك بالسّقم لم أبت لسقمك ، إلا باكيا أتململ

كأنّ ى أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دونى ، وعينى تهمل

فلمّا بلغت السّنّ والغاية الّتى إليها مدى ما كنت فيك أؤمّل

جعلت جزائى غلظة وفظاظة كأنّك أنت المنعم المتفضّل

فليتك ، إذ لم ترع حقّ أبوّتى ، فعلت كما الجار المجاور يفعل «٣»

(١) من الآية ١٩٨ من سورة البقرة.
(٢) أخرجه الترمذي فى (البر ، باب الفضل فى رضا الوالدين) ، وابن حبان (الإحسان - البر والصلة ح ٤٣٠) ، وصححه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٥٢) من حديث عبد الله بن عمرو.
(٣) أخرجه بنحوه البيهقي فى الدلائل (٦/ ٣٠٤) ، والطبراني فى الأوسط عن جابر بن عبد الله. وفى آخره : فأخذ النبي صلى اللّه عليه وسلم بتلابيب ابنه وقال : «أنت ومالك لأبيك».

(١٩٣/٣)

ومن تمام برهما : زيارتهما بعد موتهما ، والدعاء لهما ، والتصدق عليهما ، ففى الحديث : «إنما الميت فى قبره كالغريق ، ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديقه ، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها». وروى مالك فى الموطأ عن سعيد بن المسيب أنه قال : (كان يقال : إن الرجل ليرفع بدعاء ولده من بعده ، وأشار بيده نحو السماء) ، وهو مرفوع إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم : من طريق أبى هريرة قال : «إن اللّه ليرفع العبد الدرجة ، فيقول : يا رب ، أنّى لى بها؟! فيقول : باستغفار ابنك لك» «١» ، وسأل رجل النبي صلى اللّه عليه وسلم : هل بقي من بر أبوىّ شيء أبرهما به ، بعد موتهما؟ فقال : «نعم .. الصلاة عليهما - أي : الترحم والاستغفار لهما - ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما» «٢».
قال تعالى : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ من قصد البر إليهما ، واعتقاد ما يجب لهما من التوقير. وكأنه تهديد على أن يضمر لهما كراهة واستثقالا ، إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ قاصدين للصلاح ، أو طائعين للّه ، فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ : التوابين ، أو الرجّاعين إلى طاعته ، غَفُوراً لما فرط منهم عند حرج الصدر من إذاية ظاهرة أو باطنة ، أو تقصير فى حقهما. ويجوز أن يكون عاما لكل تائب ، ويندرج فيه الجاني على أبويه اندراجا أوليا. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : كل ما أوحى اللّه تعالى به فى حق والدي البشرية ، يجرى مثله فى والد الروحانية ، وهو الشيخ ، ويزيد لأنه أوكد منه لأنّ أب البشرية كان السبب فى خروجه إلى دار الدنيا ، معرضا للعطب أو السلامة ، وأب الروحانية كان سببا فى خروجه من ظلمة الجهل إلى نور العلم والوصلة ، وهما السبب فى التخليد فى النعيم الذي لا يفنى ولا يبيد. وقد تقدم فى سورة النساء تمام هذه الإشارة «٣». واللّه تعالى أعلم.
ثم أمر بالإحسان إلى القرابة لقربهما من الوالدين ، تعظيما لهما ، فقال :
[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٢٦ الى ٣٠]

وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٣٠)

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٥٠٩) ، وابن ماجة فى (الأدب ، باب بر الوالدين) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه أبو داود فى (الأدب ، باب فى بر الوالدين) وابن ماجة فى (الأدب ، باب صل من كان أبوك يصل) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٠٦٦) ، وصححه ووافقه الذهبي من حديث مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري.

(٣) راجع إشارة الآية ٣٦ من سورة النساء.

(١٩٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٩٥

يقول الحق جل جلاله : وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ أي : أعط ذا القربة حقه من البر ، وصلة الرحم ، وحسن المعاشرة. وقال أبو حنيفة : إذا كانوا محاويج فقراء : أن ينفق عليهم. وقيل : الخطاب للرسول صلى اللّه عليه وسلم أن يؤتى قرابته من بيت المال ، وَآت الْمِسْكِينَ حقه وَابْنَ السَّبِيلِ الغريب ، من برهما والإحسان إليهما ، وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً بصرف المال فيما لا ينبغى ، وإنفاقه على وجه السرف. قال ابن عزيز : التبذير فى النفقة : الإسراف فيها ، وتفريقها فى غير ما أحل اللّه. هـ. وأصل التبذير : التفريق. روى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال لسعد ، وهو يتوضأ :

«ما هذا السّرف؟ فقال : أو فى الوضوء سرف؟ فقال : نعم ، وإن كنت على نهر جار» «١».

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ أي : أمثالهم فى الشر فإن التضييع والإتلاف شر. أو : على طريقتهم ، أو : أصدقاؤهم وأتباعهم لأنهم يطيعونهم فى الإسراف ، روى أنهم كانوا ينحرون الإبل ويتياسرون عليها - أي : يتقامرون - من الميسر ، وهو القمار - ويبذرون أموالهم فى السمعة ، فنهاهم اللّه تعالى عن ذلك ، وأمرهم بالإنفاق فى القرابات. وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً مبالغا فى الكفر ، فينبغى ألا يطاع.

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ أي : وإن أعرضت عما ذكر من ذوى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد ، حيث لم تجد ما تعطيهم ، ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها أي : لطلب رزق تنتظره يأتيك لتعطيهم منه ،

فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً فقل لهم قولا لينا سهلا ، بأن تعدهم بالعطاء عند مجئ الرزق ، وكان صلى اللّه عليه وسلم إذا سأله أحد ، ولم يجد ما يعطيه ، أعرض عنه ، حياء منه. فأمر بحسن القول مع ذلك ، مثل : رزقنا اللّه وإياكم ، واللّه يغنيكم من فضله ، وشبه ذلك.

ثم أمره بالتوسط فى العطاء ، فقال : وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ أي : لا تمسكها عن الإنفاق كل الإمساك ، وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ ، وهو استعارة لغاية الجود ، فنهى الحقّ تعالى عن الطرفين ، وأمر بالتوسط فيهما ، كقوله : إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ... «٢» الآية. فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً أي : فتصير ، إذا أسرفت ، ملوما عند اللّه وعند الناس بالإسراف وسوء التبذير ، محسورا : منقطعا بك ، لا شيء عندك. وهو من قولهم : حسر السفر بالبعير : إذا أتعبه ، ولم يبق له قوة. وعن جابر رضي اللّه عنه : بينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالس ، أتاه صبى ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٢٢١) ، وابن ماجة فى (الطهارة ، باب ما جاء فى القصد فى الوضوء) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) من الآية ٦٧ من سورة الفرقان.

فقال له : إن أمّى تستكسيك الدّرع الذي عليك ، فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه ، وقعد عريانا ، وأذّن بلال ، وانتظره للصلاة ، فلم يخرج ، فأنزل اللّه : وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ ... الآية «١».

ثم سلّاه بقوله : إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ يوسعه لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ يضيقه على من يشاء. فكل ما يصيبك من الضيق فإنما هو لمصلحة باطنية ، إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً يعلم سرهم وعلانيتهم ، فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم فيرزقهم على حسب مصالحهم ، ويضيق عليهم على قدر صبرهم. والحاصل : أنه يعطى كل واحد ما يصلح به ، واللّه أعلم.

الإشارة : أمر الحق - جل جلاله - رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، وخلفاءه ممن كان على قدمه ، أن يعطوا حق الواردين عليهم من قرابة الدين والنسب ، والمساكين والغرباء ، من البر والإحسان حسا ومعنى كتعظيم ملاقاته ، م وإرشادهم إلى ما ينفع بواطنهم ، والإنفاق عليهم ، من أحسن ما يجد ، حسا ومعنى ، وخصوصا الإخوان فى اللّه. فكل ما ينفق عليهم فهو قليل فى حقهم ، ولا يعد سرفا ، ولو أنفق ملء الأرض ذهبا. قال فى القوت : دعا إبراهيم بن أدهم الثورىّ وأصحابه إلى طعام ، فأكثر منه ، فقال له سفيان : يا أبا إسحاق أما تخاف أن يكون هذا سرفا؟ فقال إبراهيم : ليس فى الطعام سرف. هـ.

قلت : هذا إن قدّمه إلى الإخوان الذاكرين اللّه قاصدا وجه اللّه ، وأما إن قدمه مفاخرة ومباهاة دخله السرف. قاله فى الحاشية الفاسية ، ومثله فى تفسير القشيري ، وأنه لا سرف فيما كان للّه ، ولو أنفق ما أنفق. بخلاف ما كان لدواعى النفس ولو فلسا. هـ. وأما الخروج عن المال كله فمذموم ، إلا من قوى يقينه ، كالصدّيق ، ومن كان على قدمه. وكذلك الاستقراض على اللّه ، واشتراؤه بالدّين من غير مادة معلومة ، إن كان قوى اليقين ، وجرّب معاملته مع الحق ، فلا بأس بفعل ذلك وإلّا فليكف لئلا يتعرض لإتلاف أموال الناس فيتلفه اللّه. وباللّه التوفيق.

ولما أمر بما يقربنا إليه نهى عما يبعدنا عنه ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٣١ الى ٣٥]

وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (٣٣) وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥)

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٥/ ٩٠) ، والواحدي فى أسباب النزول ص ٩٤). وقال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : لم أجده. [.....]

قلت : (خَشْيَةَ) : مفعول من أجله لأن الخشية قلبية ، بخلاف الإملاق ، فإنه حسى فجرّ بمن فى سورة الأنعام. «١» وهذه الآية فى أغنياء العرب ، الذين كانوا يخشون وقوع الفقر ، وما فى «الأنعام» نزلت فى فقرائهم ، الذين كان الفقر واقعا بهم ، ولذلك قدّم هناك كاف الخطاب ، وأخّره هنا ، فتأمله.

و«خِطْأً» يقال : خطئ خطأ ، كأثم إثما. وقرأ ابن عامر : «خِطْأً» ، بفتحتين ، فهو إما اسم مصدر أخطأ ، أو لغة فى خطئ ، كمثل ومثل ، وحذر وحذر. وقرأ ابن كثير :

«خطاء» بالمد ، إما لغة ، أو مصدر خاطأ. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مخافة الفاقة المستقبلة ، وقد كانوا يقتلون البنات – وهو الوأد – مخافة الفقر ، فنهاهم عن ذلك ، وضمن لهم أرزاقهم ، فقال : نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً إثما كَبِيراً لما فيه من قطع التناسل وانقطاع النوع وإيلام الروح. وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى ، نهى عن

مقاربته بالمقدمات. كالعزم ، والنظر وشبهه ، فأحرى مباشرته ، إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً أي : فعلة ظاهرا فحشها وقبحها ، وَساءَ سَبِيلًا قبح طريقا طريقه ، وهو غصب الأبضاع لما فيه من اختلاط الأنساب وهتك محارم الناس ، وتهييج الفتن.

وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنى بعد إحصان ، وقتل مؤمن معصوم عمدا ، كما فى الحديث «٢». ويلحق بها أشياء فى معناها : كالحرابة ، وترك الصلاة ، ومنع الزكاة.

وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً أي : غير مستوجب للقتل فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ أي : الذي يلى أمره بعد وفاته ، وهو الوارث ، سُلْطاناً تسلطا بالمؤاخذة بمقتضى القتل بأخذ الدية ، أو القصاص ، وقوله : مَظْلُوماً : يدل على أن القتل عمد لأن الخطأ لا يسمى ظلما. أو : جعلنا له حجة غالبة ، فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ بأن يقتل من لا يحق قتله ، أو بالمثلة ، أو قتل غير القاتل ، إِنَّهُ أي : الولي كانَ مَنْصُوراً حيث وجب القصاص له ، وأمر الولاة بمعونته. أو : إنه ، أي : المقتول ، كان منصورا فى الدنيا بثبوت القصاص ممن قتله ، وفى الآخرة بالثواب.

وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ فضلا عن أن تتصرفوا فيه إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلا بالطريقة التي هى أحسن ، كالحفظ والتنمية ، حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ حتى يتم رشده ، ثم يدفع له ، فإن دفعه لمن يتصرف فيه بالمصلحة فلا بأس ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إذا عاهدتم اللّه أو الناس ، إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا أي : مطلوبا الوفاء

---

(١) فى قوله تعالى : قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... الآية ١٥١.

(٢) أخرجه البخاري فى (الديات ، باب قول اللّه تعالى : «أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» ... إلخ) ، ومسلم فى (القسامة ، باب ما يباح به دم المسلم) عن عبد اللّه بن مسعود ، قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول اللّه ، إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

به ، فيطلب من المعاهد ألا يضيعه ، أو : مسئولا عنه ، فيسأل عنه الناكث ويعاتب عليه ، أو : يسأل العهد نفسه لم نكثت ، تبكيتا للناكث ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ ولا تبخسوا فيه ، وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ بالميزان السوي. والقسطاس : لغة رومية ، ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لأن غير العربي ، إذا استعملته العرب ، فأجرته مجرى كلامهم فى الإعراب والتعريف والتنكير ، صار عربيا. قاله

البيضاوي. ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا أي :
أحسن عاقبة ومآلا. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : ولا تقتلوا ما أنتجته الأفكار الصافية من العلوم بإهمال القلوب فى طلب رزق الأشباح ، خشية لحوق الفقر ، فإنّ اللّه ضامن لرزق الأشباح والأرواح. ولا تميلوا إلى الحظوظ ، التي تخرجكم عن حضرة الحق فإن ذلك من أقبح الفواحش. ولا تقتلوا النفس بتوالي الغفلة والجهل ، التي حرّم اللّه قتلها وإهمالها ، وأمر بإحيائها بالذكر والعلم ، ومن قتل بذلك مظلوما بحيث غلبته نفسه ، ولم تساعده الأقدار ، فقد جعلنا لعقله سلطانا ، أي : تسلطا عليها بمجاهدتها وقتلها وردها إلى مولاها ، فلا يسرف فى قتلها ، بل بسياسة وحيلة ، كما قال القائل :
واحتل على النّفس فربّ حيله أنفع فى النّصرة من قبيله
إنه كان منصورا ، إن انتصر بمولاه ، وآوى بها إلى شيخ كامل ، قد فرغ من تأديب نفسه وهواه. وقد تقدم باقى الإشارة فى سورة الأنعام «١» وغيرها. وباللّه التوفيق.
ثم قال تعالى :
[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٣٦ الى ٤٠]
وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (٣٨) ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (٣٩) أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (٤٠)

---

(١) راجع إشارة الآيتين : ١٥١ - ١٥٢ من سورة الأنعام.

قلت : قفا الشيء يقفوه : تبعه. والضمير فى «عَنْهُ» : يجوز أن يعود لمصدر «لا تَقْفُ» ، أو لصاحب السمع والبصر.
وقيل : إن «مَسْؤُلًا» مسند إلى «عَنْهُ» كقوله تعالى : غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ «١» ، والمعنى : يسأل صاحبه عنه ، وهو خطأ لأن الفاعل وما يقوم مقامه لا يتقدم. قاله البيضاوي.
قال ابن جزى : الإشارة فى «أُولئِكَ» : إلى السمع والبصر والفؤاد ، وإنما عاملها معاملة العقلاء فى الإشارة بأولئك لأنها حواس لها إدراك ، والضمير فى «عَنْهُ» : يعود على «كُلُّ» ، ويتعلق «عَنْهُ»

بمسئولا. هـ. وضمير الغائب يعود على المصدر المفهوم من «مَسْؤُلًا». و(مَرَحاً) : مصدر فى موضع الحال. و(مَكْرُوهاً) : نعت لسيئة ، أو بدل منها ، أو خبر ثان لكان.

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَقْفُ تتبع ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فلا تقل ما لا تحقيق لك به من ذم الناس ورميهم بالغيب. فإذا قلت : سمعت كذا ، أو رأيت كذا ، أو تحقق عندى كذا ، مما فيه نقص لأحد ، فإنك تسأل يوم القيامة عن سند ذلك وتحقيقه. وهذا معنى قوله : إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا. قال البيضاوي : ولا تتبع ما لم يتعلق علمك به تقليدا ، أو رجما بالغيب. واحتج به من منع اتباع الظن ، وجوابه : أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند ، سواء كان قطعيا أو ظنيا إذ استعماله بهذا المعنى شائع. وقيل : إنه مخصوص بالعقائد. وقيل : بالرمي وشهادة الزور ، ويؤيده قوله صلى اللّه عليه وسلم : «من قفا مؤمنا بما ليس فيه ، حبسه اللّه فى ردغة الخبال «٢» ، حتّى يأتى بالمخرج» «٣». إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ أي : كل هذا الأعضاء الثلاثة كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا كل واحد منها مسئول عن نفسه ، يعنى : عما فعل به صاحبه. هـ مختصرا.

وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً أي : ذا مرح ، وهو : التكبر والاختيال ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ لن تجعل فيها خرقا لشدة وطأتك وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا تتطاول عليها عزا وعلوا ، وهو تهكم بالمختال ، وتعليل للنهى ، أي : إذا كنت لا تقدر على هذا ، فلا يناسبك إلا التواضع والتذلل بين يدى خالقك ، كُلُّ ذلِكَ المذكور ، من قوله : لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إلى هنا ، وهى : خمس وعشرون خصلة ، قال ابن عباس : (إنها المكتوبة فى ألواح موسى) ، فكل ما ذكر كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ «٤» أي : خصلة قبيحة مَكْرُوهاً أي : مذموما مبغوضا.

والمراد بما ذكر : من المنهيات دون المأمورات.

---

(١) من الآية ٧ من سورة الفاتحة.

(٢) قال ابن الأثير : وردغة الخبال ، جاء فى الحديث أنها عصارة أهل النار ... انظر النهاية (خبل - ردغ).

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٧٠) وأبو داود فى (الأقضية ، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها) ، من حديث ابن عمر ، بلفظ : «من قال فى مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال ، حتى يخرج مما قال».

(٤) قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف «سيئه» بضم الهمز والهاء مضافا لهاء المذكر الغائب. اسم كان ، وقرأ الباقون «سيئة» بفتح الهمزة ونصب تاء التأنيث مع التنوين على التوحيد خبر كان ... انظر الإتحاف (٢/ ١٩٧) والبحر المحيط (٦/ ٣٥).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٠٠

ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ التي هى علم الشرائع ، أو معرفة الحق لذاته ، والعلم للعمل به. وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ ، كرره ، للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه ، وأنه رأس الحكمة وملاكها ، ومن عدمه لم تنفعه علومه وحكمه ، ولو جمع أساطير الحكماء ، ولو بلغت عنان السماء. والخطاب للرسول صلى اللّه عليه وسلم ، والمراد : غيره ممن يتصور منه ذلك. ورتب عليه ، أولا : ما هو عاقبة الشرك فى الدنيا ، وهو : الذم والخذلان ، وثانيا :

ما هو نتيجته فى العقبى. فقال : فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً تلوم نفسك ، وتلومك الملائكة والناس ، مَدْحُوراً مطرودا من رحمة اللّه.

ثم قبّح رأيهم فى الشرك ، فقال : أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ ، وهو خطاب لمن قال : الملائكة بنات اللّه. والهمزة للإنكار ، أي : أفخصّكم ربكم بأفضل الأولاد ، وهم البنون ، وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً بنات لنفسه ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً أي : عظيم النكر والشناعة ، لا يقدر قدره فى إيجاب العقوبة لخرمه لقضايا العقول ، بحيث لا يجترئ عليه أحد حيث تجعلونه تعالى من قبيل الأجسام المتجانسة السريعة الزوال ، ثم تضيفون إليه ما تكرهونه ، وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين ، ثم جعلتم الملائكة ، الذين هم أشرف الخلق ، أدونهم ، تعالى اللّه عن قولكم علوا كبيرا.

الإشارة : ينبغى للإنسان الكامل أن يكون فى أموره كلها على بينة من ربه ، فيحكّم على ظاهره الشريعة المحمدية ، وعلى باطنه الحقيقة القدسية ، فإذا تجلى فى باطنه شيء من الواردات أو الخواطر فليعرضه على الكتاب والسنّة ، فإن قبلاه أظهره وفعله ، وإلّا رده وكتمه ، كان ذلك الأمر قوليا أو فعليا ، أو تركا أو عقدا فقد انعقد الإجماع على أنه لا يحل لامرئ مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم اللّه فيه ، وإليه الإشارة بقوله : وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فإن لم يجد نصا فى الكتاب أو السنة فليستفت قلبه ، إن صفا من خوض الحس ، وإن لم يصف فليرجع إلى أهل الصفاء ، وهم أهل الذكر. قال تعالى : فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ «١» ، ولا يستفت أهل الظنون ، وهم أهل الظاهر ، قال تعالى : إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً «٢».

وقال القشيري فى تفسير الآية هنا : وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أي : جانب محاذاة الظنون ، وما لم يطلعك اللّه عليه ، فلا تتكلف الوقوف عليه من غير برهان. فإذا أشكل عليك شيء فى حكم الوقت ، فارجع إلى اللّه ،

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة النحل ، ومن الآية ٧ من سورة الأنبياء.

(٢) من الآية ٣٦ من سورة يونس.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٠١
فإن لاح لقلبك وجه من التحقيق فكن مع ما أريد ، وإن بقي الحال على حدّ الالتباس فكل علمه إلى اللّه ، وقف حيثما وقفت. ويقال : الفرق بين من قام بالعلم ، ومن قام بالحق : أنّ العلماء يعرفون الشيء أولا ، ثم يعملون بعلمهم ، وأصحاب الحقائق يجرى ، بحكم التصريف عليهم ، شيء ، ولا علم لهم به على التفصيل ، وبعد ذلك يكشف لهم وجهه ، فربما يجرى على لسانهم شيء لا يدرون وجهه ، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوه من شواهد العلم إذ يتحقق ذلك بجريان الحال فى ثاني الوقت. انتهى. قلت : وإلى هذا المعنى أشار فى الحكم العطائية بقوله : الحقائق ترد فى حال التجلي مجملة ، وبعد الوعى يكون البيان ، فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ

.

قوله تعالى : وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً ، ورد فى بعض الأخبار ، فى صفة مشى الصوفية : أنهم يدبون على أقدامهم دبيب النمل ، متواضعين خاشعين ، ليس فيه إسراع مخل بالمروءة ، ولا اختيال مخل بالتواضع. واللّه تعالى أعلم.
ثم أمر بالرجوع إلى كتابه ، فقال :
[سورة الإسراء (١٧) : آية ٤١]
وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤١)
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ صَرَّفْنا بيّنا فِي هذَا الْقُرْآنِ من الأمثال والعبر ، والوعد والوعيد لِيَذَّكَّرُوا ليتعظوا به ، وَما يَزِيدُهُمْ ذلك إِلَّا نُفُوراً عن الحق وعنادا له.
الإشارة : من شأن القلوب الصافية : إذا سمعت كلام الحبيب فرحت واهتزت ، أو خشعت واقشعرت من هيبة المتكلم ، كلّ على ما يليق بمقامه ، ومن شأن القلوب الخبيثة المكدرة : نفورها من كلام الحق إذ الباطل لا يقاوم الحق ، ولا يطيق مواجهته. واللّه تعالى أعلم.
ثم أبطل مذاهب أهل الشرك ، فقال :
[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٤٢ الى ٤٤]
قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤)
يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : لَوْ كانَ مَعَهُ فى الوجود آلِهَةٌ تستحق أن تعبد ، كَما يَقُولُونَ «١» أيها المشركون ، أو كما يقول المشركون أيها الرسول ، إِذاً لَابْتَغَوْا لطلبوا

(١) قرأ حفص وابن كثير : (يقولون) بالياء ، وقرأ الآخرون بالتاء ، ، انظر الإتحاف (٢/ ١٩٩).

(٣/٢٠١)

إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا طريقا يقاتلونه. وهذا جواب عن مقالتهم الشنعاء. والمعنى : لطلبوا إلى من هو ملك الملك طريقا بالمعاداة ، كما تفعل الملوك بعضهم مع بعض. وهذا كقوله : إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ «١». وقيل : لابتغوا إليه سبيلا بالتقرب إليه والطاعة لعلمهم بقدرته ، وتحققهم بعجزهم ، كقوله : أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ «٢». ثم نزه نفسه عن ذلك فقال : سُبْحانَهُ تنزيها له وَتَعالى ترافع عَمَّا يَقُولُونَ من الشركاء ، عُلُوًّا تعاليا كَبِيراً لا غاية وراءه. كيف لا وهو تعالى فى أقصى غاية الوجود! وهو الوجوب الذاتي ، وما يقولونه من أنّ له تعالى شركاء وأولادا ، فى أبعد مراتب العدم ، أعنى : الامتناع لأنه من خواص المحدثات الفانية.

تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ «٣» أي : تنزهه ، وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ كلها تدل على تنزيهه عن الشريك والولد ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ينزهه عما هو من لوازم الإمكان ، وتوابع الحدوث ، بلسان الحال ، حيث تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم ، الواجب لذاته. قاله البيضاوي. وظاهره : أن تسبيح الأشياء حاليّ لا مقالى ، والراجح أنه مقالى. ثم مع كونه مقاليا لا يختص بقول مخصوص ، كما قال الجلال السيوطي ، أي :

تقول : سبحان اللّه وبحمده. بل كل أحد يسبح بما يناسب حاله. وإلى هذا يرشد كلام أهل الكشف ، حتى ذكر الحاتمي : أن من لم يسمعها مختلفة التسبيح لم يسمعها ، وإنما سمع الحالة الغالبة عليه.

وورد فى الحديث :

«ما اصطيد حوت فى البحر ، ولا طائر يطير ، إلّا بما ضيع من تسبيح اللّه تعالى» «٤». وفى الحديث أيضا : «ما تطلع الشمس فيبقى خلق من خلق اللّه ، إلا يسبح اللّه بحمده ، إلا ما كان من الشيطان وأعتى بنى آدم». «٥»

ومذهب أهل السنة : عدم اشتراط البنية للعلم والحياة ، فيصح الخشوع من الجماد ، والخشية للّه والتسبيح منه له.

وقد قال ابن حجر على حديث حنين الجذع : فيه دلالة على أن الجمادات قد يخلق اللّه لها إدراكا كالحيوان ، بل كأشرف الحيوان ، وفيه تأييد لمن يحمل قوله : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ على ظاهره. هـ.

وقال ابن عطية : اختلف أهل العلم فى هذا التسبيح فقالت فرقة : هو تجوز ، ومعناه : أن كل شيء تبدو فيه صفة الصانع الدالة عليه ، فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المعتبر. وقالت فرقة : قوله : مِنْ شَيْءٍ : لفظه عموم ،

---

(١) من الآية ٩١ من سورة المؤمنون.
(٢) من الآية ٥٧ من سورة الإسراء.
(٣) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص ويعقوب : (تسبح) بالتاء ، وقرأ الآخرون بالياء ، انظر : الاتحاف ٢/ ١٩٩.
(٤) عزاه السيوطي فى الدر (٤/ ٣٣٣) لأبى الشيخ عن مرثد بن أبى مرثد. [.....]
(٥) ذكره السيوطي بنحوه فى الدر (٤/ ٣٣٢) وعزاه لابن مردويه ، عن عمرو بن عبسة ، عن النبي صلى اللّه عليه وسلم.

(٢٠٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٠٣
ومعناه الخصوص فى كل حى ونام ، وليس ذلك فى الجمادات الميتة. فمن هذا قول عكرمة : الشجرة تسبح ، والاسطوانة لا تسبح. قال يزيد الرقاشي للحسن - وهما فى طعام ، وقد قدّم الخوان - : أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد؟
فقال : قد كان يسبح مدة. يريد أن الشجرة ، فى زمان نموها واغتذائها ، تسبح. وقد صارت خوانا أو نحوه ، أي : صارت جمادا. وقالت فرقة : هذا التسبيح حقيقة ، وكل شيء ، على العموم ، يسبح تسبيحا لا يسمعه البشر ولا يفقهه ، ولو كان التسبيح ما قاله الآخرون من أنه أثر الصنعة ، لكان أمرا مفهوما ، والآية تنطق بأنه لا يفقه ، وينفصل عنه بأن يريد بقوله : لا تَفْقَهُونَ : الكفار والغفلة ، أي : أنهم يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة اللّه فى الأشياء. هـ.
قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن العارف : وربما يدل للعموم تسبيح الحصى فى يده - عليه الصلاة والسلام - ، وكذا حنين الجذع ومحبة أحد ، وكذا تسبيح الطعام. وأما التخصيص بالناميات من نبات غير يابس ، وحجر متصل بموضعه ، فهو خصوص تسبيح بالاستمداد إلى الحياة ، ولا ينتفى مطلق الاستمداد لأن الجماد يستمد الوجود وبقاءه من الله ، فهو عام ، وقد قال تعالى : يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ «١» ، وتدبر حنين الجذع. هـ. وسيأتى فى الإشارة بقية كلام عليه ، وقال البيضاوي أيضا فى قوله : وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ أيها المشركون لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم التسبيح. ويجوز

أن يحمل التسبيح على المشترك من اللفظ والدلالة لإسناده إلى ما يتصور منه اللفظ ، وإلى ما لا يتصور منه ، وعليهما ، أي : ويحمل - عند من جوز إطلاق اللفظ على معنييه. هـ.
إِنَّهُ كانَ حَلِيماً حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ، مع ما أنتم عليه من موجباتها من الإعراض عن النظر فى الدلائل الواضحة ، الدالة على التوحيد ، والانهماك فى الكفر والإشراك ، غَفُوراً لمن تاب منكم. وباللّه التوفيق.
الإشارة : كل ما دخل عالم التكوين من العرش إلى الفرش ، أو ما قدر وجوده من غيرهما كله قائم بين حس ومعنى ، بين عبودية وربوبية ، بين قدرة وحكمة. فالحس محل العبودية ، فيه تظهر قهرية الربوبية ، والمعنى هو أسرار الربوبية القائمة بالأشياء ، فالأشياء كلها تنادى بلسان معناها ، وتقول : سبحانه ما أعظم شأنه ، ولكن لا يفقه هذا التسبيح إلا من خاض بحار التوحيد ، وغاص فى أسرار التفريد.
فالأشياء ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، قائمة من حيث حسها ، ممحوة من حيث معناها ، ولا وجود للحس من ذاته ، وإنما هو رداء لكبرياء ذاته. وفى الحديث ، فى وصف أهل الجنة : «وليس بينهم وبين أن ينظروا إلى الرحمن إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن». فمن خرق حجاب الوهم ، وفنى عن دائرة الحس فى دار

---

(١) من الآية ١٠ من سورة سبأ.

الدنيا ، لم يحتجب الحق تعالى عنه فى الدارين طرفة عين. فتحصل أن الأشياء كلها تسبح من جهة معناها بلسان المقال ، ومن جهة حسها بلسان الحال ، وتسبيحها كما ذكرنا. ولا يذوق هذا إلا من صحب العارفين الكبار ، حتى يخرجوه عن دائرة حس الأكوان إلى شهود المكون. وحسب من لم يصحبهم التسليم ، كما قال القائل :
إذا لم تر الهلال فسلّم لأناس رأوه بالأبصار
والله تعالى أعلم.
وسبب عدم فقه تسبيح الأشياء : غفلة القلوب ، وطبع الأكنّة عليها ، كما قال تعالى :
[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٤٥ الى ٤٩]
وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (٤٥) وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (٤٦) نَحْنُ

أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨) وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٤٩)

قلت : (أَنْ يَفْقَهُوهُ) : مفعول من أجله ، أي : كراهة أن يفقهوه ، و(نُفُوراً) : مصدر فى موضع الحال. والضمير فى (بِهِ) : يعود على «ما» ، أي : نحن أعلم بالأمر الذي يستمعون به من الاستهزاء والسخرية.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ الناطق بالتنزيه والتسبيح ، ودعوتهم إلى العمل بما فيه من التوحيد ، ورفض الشرك ، وغير ذلك من الشرائع ، جَعَلْنا بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على دواعى الحكم الخفية بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، خصّ الآخرة بالذكر من بين سائر ما كفروا به دلالة على أنها معظم ما أمروا بالإيمان به ، وتمهيدا لما سينقل عنهم من إنكار البعث ، أي : جعلنا بينك وبينهم حِجاباً يمنعهم عن فهمه والتدبر فيه ، مَسْتُوراً عن الحس ، خفيا ، معنويا ، وهو الران الذي يسبح على قلوبهم من الكفر ، والانهماك فى الغفلة. أو : ذا ستر ، كقوله : وَعْدُهُ مَأْتِيًّا «١» ، أي : آتيا ، فهو ساتر لقلوبهم عن الفهم والتدبر.

---

(١) من الآية ٦١ من سورة مريم.

نفى عنهم فقه الآيات ، بعد ما نفى عنهم فقه الدلالات المنصوبة فى الأشياء بيانا لكونهم مطبوعين على الضلالة ، كما صرح به فى قوله : وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أغطية تكنها ، وتحول بينها وبين إدراك الحق وقبوله. فعلنا ذلك بهم كراهة أَنْ يَفْقَهُوهُ ، وَجعلنا فِي آذانِهِمْ وَقْراً ثقلا وصمما يمنعهم من استماعه. ولمّا كان القرآن معجزا من حيث اللفظ والمعنى ، أثبت لمنكريه ما يمنع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ. قاله البيضاوي.

وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ أي : واحدا غير مشفوع به آلهتهم ، وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً هربا من استماع التوحيد ، والمعنى : وإذا ذكرت فى القرآن وحدانية اللّه تعالى ، فرّ المشركون عن ذلك لما فى ذلك من رفض آلهتهم وذمها. قال تعالى : نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ أي : بالأمر الذي يستمعون به من الاستهزاء ، وكانوا يستمعون القرآن على وجه الاستهزاء ، وَإِذْ هُمْ نَجْوى أي : ونحن أعلم بغرضهم ، حين همّ جماعة ذات نجوى ، يتناجون بينهم ويخفون ذلك. ثم فسر نجواهم بقوله : إِذْ يَقُولُ

الظَّالِمُونَ ، وضع الظالمين موضع الضمير للدلالة على أن تناجيهم بقولهم هذا محض ظلم ، أي : إذ يقولون : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً مجنونا قد سحر حتى زال عقله.

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ ، مثلوك بالساحر ، والشاعر ، والكاهن ، والمجنون ، فَضَلُّوا عن الحق فى جميع ذلك ، فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا إلى الهدى ، أو إلى الطعن فيما جئت به بوجه فهم يتهافتون ، ويخبطون ، كالمتحير فى أمره لا يدرى ما يفعل. ونزلت فى الوليد بن المغيرة وأصحابه من الكفار.

وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ، أنكروا البعث ، واستبعدوا أن يجعلهم خلقا جديدا ، بعد فنائهم وجعلهم ترابا. والرفات : الذي بلي ، حتى صار غبارا وفتاتا. و«أَإِذا» : ظرف ، والعامل فيه : ما دل عليه قوله :

(لَمَبْعُوثُونَ) ، لا نفسه لأن ما بعد «إن» والهمزة ، لا يعمل فيما قبله ، أي : أنبعث إذا كنا عظاما .. إلخ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد تقدم فى سورة «الأنعام» «١» تفسير الأكنة التي تمنع من فهم القرآن والتدبر فيه ، والتي تمنع من الشهود والعيان ، فراجعه ، إن شئت. وفى الآية تسلية لمن أوذى من الصوفية فرمى بالسحر أو غيره. وباللّه التوفيق.

ثم أمر نبيه بالجواب عما أنكروه من البعث ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٥٠ الى ٥٢]

قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٢)

---

(١) راجع إشارة الآية ٢٥ من سورة الأنعام.

قلت : (قَرِيباً) : خبر كان ، أو ظرف له على أن «كان» تامة ، أي : عسى أن يقع فى زمن قريب. و(أَنْ يَكُونَ) :

إما : اسم «عَسى » وهى تامة ، أو خبرها ، والاسم مضمر ، أي : عسى أن يكون البعث قريبا ، أو : عسى أن يقع فى زمن قريب. (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ) : منصوب بمحذوف اذكروا يوم يدعوكم. أو : بدل من «قريب» على أنه ظرف. انظر أبا السعود. و(بِحَمْدِهِ) : حال من ضمير (فَتَسْتَجِيبُونَ) ، أي : منقادين له

، حامدين له لما فعل بكم.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لمن أنكر البعث : كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً ، أَوْ خَلْقاً آخر مِمَّا يَكْبُرُ أي : يعظم فِي صُدُورِكُمْ عن قبول الحياة ، فإنكم مبعوثون ومعادون لا محالة ، أي : لو كنتم حجارة أو حديدا ، أو شيئا أكبر عندكم من ذلك ، وأبعد من الحياة ، لقدرنا على بعثكم إذ القدرة صالحة لكل ممكن.

ومعنى الأمر هنا : التقدير ، وليس للتعجيز ، كما قال بعضهم. انظر ابن جزى ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا إلى الحياة مرة أخرى ، مع ما بيننا وبين الإعادة ، من مثل هذه المباعدة؟ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ولم تكونوا شيئا لأن القادر على البدء قادر على الإعادة ، بل هى أهون ، فَسَيُنْغِضُونَ يحركون إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ تعجبا واستهزاء ، وَيَقُولُونَ استهزاء : مَتى هُوَ أي : البعث ، قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ، فإنّ كل ما هو آت قريب.

واذكروا يَوْمَ يَدْعُوكُمْ يناديكم من القبور على لسان إسرافيل ، فَتَسْتَجِيبُونَ أي : فتبعثون من القبور بِحَمْدِهِ بأمره ، أو ملتبسين بحمده ، حامدين له على كمال قدرته ، عند مشاهدة آثارها ، ومعاينة أحكامها ، كما قيل : إنهم يقومون ينفضون التراب عن رؤوسهم ، ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ ما لبثتم فى الدنيا إِلَّا قَلِيلًا لما ترون من الهول ، أو تستقصرون مدة لبثكم فى القبور ، كالذى مرّ على قرية.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من كان قلبه أقسى من الحجارة والحديد ، واستغرب أن ينقذه اللّه من شهوته ، وأن يخرجه من وجود جهالته وغفلته ، فقل لهم : كونوا حجارة أو حديدا ، أو خلقا أكبر من ذلك ، فإن اللّه قادر على أن يحيى قلوبكم بمعرفته ، ويلينها بعد القساوة ، بسبب شرب خمرته. فسيقولون : من يعيدنا إلى هذه الحالة؟ قل : الذي فطركم على توحيده أول مرة ، حين أقررتم بربوبيته ، يوم أخذ الميثاق.

فسينغضون إليك رؤوسهم تعجبا واستغرابا ، ويقولون :

متى هو هذا الفتح؟! قل : عسى أن يكون قريبا يوم يدعوكم إلى حضرته بشوق مقلق ، أو خوف مزعج ، بواسطة شيخ عارف ، أو بغير واسطة ، فتستجيبون بحمده ومنته ، وتظنون إن لبثتم فى أيام الغفلة إلا قليلا فتلين قلوبكم ، وتطمئن نفوسكم ، وتنشرح صدوركم ، وتحسن أخلاقكم ، فلا تخاطبون العباد إلا بالتي هى أحسن ، كما قال تعالى :

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٠٧

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٥٣ الى ٥٥]

وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (٥٥)

يقول الحق جل جلاله : وَقُلْ لِعِبادِي المؤمنين : يَقُولُوا للمشركين الكلمة الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ولا تخاشنوهم ، إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ يهيج بينهم الجدال والشر ، فلعل المخاشنة لهم تفضى إلى العناد وازدياد الفساد. وكان هذا بمكة ، قبل الأمر بالقتال ، ثم نسخ «١». وقيل : فى الخطاب من المؤمنين بعضهم لبعض ، أمرهم أن يقولوا ، فيما بينهم ، كلاما لينا حسنا. إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ العداوة والبغضاء إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً ظاهر العداوة.

يقولون لهم فى المخاطبة الحسنة : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ بالتوبة والإيمان ، أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ بالموت على الكفر. وهذا تفسير للكلمة التي هى أحسن ، وما بينهما اعتراض ، أي : قولوا هذه الكلمة ونحوها ، ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار فإنه يثير الشر ، مع أن ختام أمرهم غيب. وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا موكولا إليك أمرهم ، فتجبرهم على الإيمان ، وإنما أرسلناك مبشرا ونذيرا ، فدارهم ، ومر أصحابك باحتمال الأذى منهم. روى أن المشركين أفرطوا فى إيذائهم فشكوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فنزلت ، وقيل : شتم رجل عمر رضي اللّه عنه ، فهمّ به ، فأمره اللّه بالعفو.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وبأحوالهم ، فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء. وهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبى طالب نبيا ، وأن يكون العراة الجياع أصحابه. وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ بالفضائل النفسانية ، والتفرغ من العلائق الجسمانية ، لا بكثرة الأموال والأتباع ، حتى يستبعدوا نبوة سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم لقلة ماله ، وضعف أصحابه فإن سيدنا داود عليه السّلام كان مثله فى قلة ماله وأتباعه ، ثم قواه بالملك والنبوة. ولذا قال : وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً وقيل : هو إشارة إلى تفضيل نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم فإنه مذكور فى الزبور ، وهو أنه خاتم الأنبياء ، وأمته خير الأمم ، وأنهم يرثون الأرض بالفتح عليهم قال تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ «٢». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) دعوى النسخ هنا ، لا برهان عليها ، ولا مجال لها فالأخلاق لا تنسخ.

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٠٨

الإشارة : من أوصاف الصوفية - رضى اللّه عنهم - أنهم هينون لينون كلفّة حرير ، لا ينطقون إلا بالكلام الحسن ، ولا يفعلون إلا ما هو حسن ، ويفرحون ولا يحزنون ، وينبسطون ولا ينقبضون. من رأوه مقبوضا بسطوه ، ومن رأوه حزينا فرّحوه ، ومن رأوه جاهلا أرشدوه بالتي هى أحسن. وهم متفاوتون فى هذا الأمر ، مفضل بعضهم على بعض فى الأخلاق والولاية ، فكل من زاد فى الأخلاق الحسنة زاد تفضيله عند الله. وفى الحديث : «إنّ الرّجل ليدرك بحسن الخلق ، درجة الصائم النهار ، القائم اللّيل» «١». وباللّه التوفيق.

ثم رجع إلى الكلام مع المشركين والرد عليهم ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٥٦ الى ٥٧]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً (٥٧)

قلت : (أُولئِكَ) : مبتدأ ، و(الَّذِينَ يَدْعُونَ) : صفته ، و(يَبْتَغُونَ) : خبره. وضمير «تَحْوِيلًا» : للكفار ، وفى «يَدْعُونَ» :

للآلهة المعبودين. وقيل : الضمير فى «يَدْعُونَ» و«يَبْتَغُونَ» : للأنبياء المذكورين قبل فى قوله : فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ ، والوسيلة : ما يتوسل به ويتقرب إلى اللّه ، و(أَيُّهُمْ) : بدل من فاعل (يَبْتَغُونَ) ، و«أيّ» : موصولة ، أي :

يبتغى من هو أقرب إليه تعالى - الوسيلة ، فكيف بمن دونه؟ أو ضمّن معنى يبتغون : يحرصون ، أي : يحرصون أيهم يكون إليه تعالى أقرب؟

يقول الحق جل جلاله : قُلِ لهم : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أنهم آلهة تعبدونهم مِنْ دُونِهِ كالملائكة والمسيح وعزير ، أو كالأصنام والأوثان ، فَلا يَمْلِكُونَ لا يستطيعون كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ ، كالمرض والفقر والقحط ، وَلا تَحْوِيلًا لذلك عنكم إلى غيركم ، قال تعالى : أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ أنهم آلهة ، هم فى غاية الافتقار إلى اللّه والتوسل إليه ، كلهم يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أي : التقرب بالطاعة ، ويحرصون أَيُّهُمْ أَقْرَبُ إلى اللّه من غيره ، فكيف يكونون آلهة؟ أو : أولئك الذين يدعونهم آلهة ، يطلبون إلى ربهم الوسيلة

---

(١) أخرجه ، بنحوه ، أحمد فى المسند (٦/ ١٣٣) وأبو داود فى (الأدب ، باب فى حسن الخلق) عن عائشة رضي اللّه عنه ، وأخرجه الحاكم فى المستدرك (١/ ٦٠) عن أبى هريرة ، وصححه ، ووافقه الذهبي.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٠٩
بالطاعة ، يطلبها أيهم أقرب ، أي : الذي هو أقرب ، فكيف بغير الأقرب؟ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ كسائر العباد ، فكيف يزعمون أنهم آلهة؟ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً مخوفا ، أي : حقيقا بأن يحذره كل أحد ، حتى الرسل والملائكة. أعاذنا اللّه من جميعه. آمين.
الإشارة : كل ما دخل عالم التكوين لزمته القهرية والعبودية ، فهو عاجز عن إصلاح نفسه ، فكيف يصلح غيره؟
ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، فكيف يدفع عن غيره؟ فارفع همتك ، أيها العبد ، إلى مولاك ، وأنزل حوائجك كلها به دون أحد سواه ، فكل ما سواه مفتقر إليه ، والفقير المضطر لا ينفع نفسه ، فكيف ينفع غيره؟ واللّه يتولى هداك.
ثم بيّن قهريته تعالى ، فقال :
[سورة الإسراء (١٧) : آية ٥٨]
وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (٥٨)
يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ أي : أهلها ، إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ بالموت والاستئصال ، أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً بالقتل وغيره ، كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ فى اللوح المحفوظ مَسْطُوراً مكتوبا. وقال فى المستخرج : وإن من قرية إلا نحن مهلكوها الصالحة بالإفناء ، والطالحة بالبلاء ، أو معذبوها بالسيف إذا ظهر فيهم الزنى والربا. هـ. قال ابن جزى : روى أن هلاك مكة بالحبشة ، والمدينة بالجوع ، والكوفة بالترك ، والأندلس بالخيل. ثم قال : وأما هلاك قرطبة وأشبيلية وطليطلة وغيرها ، فبأخذ الروم لها.
هـ. قلت : قد استولى العدو على الأندلس كلها فهو خرابها. أعاد اللّه عمارتها بالإسلام. آمين.
وقال فى حسن المحاضرة : وأخرج الحاكم فى المستدرك عن كعب قال : الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية - والجزيرة أرض بالبصرة ، وموضع باليمامة ، لا جزيرة الأندلس - ثم قال : ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة : والكوفة آمنة من الخراب حتى تخرب مصر ، ولا تكون الملحمة حتى تخرب الكوفة ، ولا تفتح مدينة الكفر حتى تكون الملحمة ، ولا يخرج الدجال حتى تفتح مدينة الكفر. قال : وأخرج الديلمي فى مسند الفردوس ، وأورده القرطبي فى التذكرة من حديث حذيفة مرفوعا : يبدو الخراب فى أطراف الأرض ، حتى تخرب مصر ، ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب البصرة ، وخراب البصرة من العراق ، وخراب مصر من جفاف النيل ، وخراب مكة من الحبشة ، وخراب المدينة من الجوع ، وخراب اليمن من الجراد ، وخراب الأبلة من الحصار ، وخراب فارس من الصعاليك ، وخراب الترك من الديلم ، وخراب الديلم من الأرمن ، وخراب الأرمن من الخرز ، وخراب

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢١٠

الخرز من الترك ، وخراب الترك من الصواعق ، وخراب السند من الهند ، وخراب الهند من الصين ، وخراب الصين من الرمل ، وخراب الحبشة من الرجفة ، وخراب العراق من القحط. هـ.

قلت : وسكت عن المغرب ، ولعله المعنىّ بقوله عليه الصلاة والسلام : «لا تزال طائفة من أمّتى ظاهرين على الحقّ حتّى يأتى أمر اللّه» «١». زاد فى رواية : وهم أهل المغرب ، ورجحه صاحب المدخل «٢» ، قال : لأنهم متمسكون بالسنة أكثر من المشرق «٣». واللّه تعالى أعلم بغيبه.

الإشارة : القرية محل تقرر السر ، وهو القلب ، فإما أن يهلكه اللّه بالتلف والضلال ، وإما أن يعذبه عذابا شديدا بالمجاهدات والمكابدات ، ثم ينعمه نعيما كبيرا بالمشاهدات والمناجاة. كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

ثم أجاب عن تأخر الآيات بعد اقتراحها ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٥٩]

وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً (٥٩)

قلت : (أَنْ نُرْسِلَ) : مفعول «منعنا» ، و(إِلَّا أَنْ كَذَّبَ) : فاعل.

يقول الحق جل جلاله : وما صرفنا عن إرسال الآيات التي اقترحتها قريش بقولهم : اجعل لنا الصّفا ذهبا ، إلا تكذيب الأولين بها ، فهلكوا ، وهم أمثالهم فى الطبع ، كعاد وثمود ، وأنها لو أرسلت لكذبوها ، فيهلكوا أمثالهم ، كما مضت به سنتنا ، وقد قضينا فى أزلنا ألا نستأصلهم لأن فيهم من يؤمن ، أو يلد من يؤمن.

ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال : وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ بسبب سؤالهم ، مُبْصِرَةً بينة ذات إبصار ، أو بصائر واضحة الدلالة ، يدركها كلّ من يبصرها. فَظَلَمُوا بِها فكفروا بها ، أو : فظلموا أنفسهم بسبب عقرها ، فهلكوا ، وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ المقترحة إِلَّا تَخْوِيفاً من نزول العذاب المستأصل ، فإن لم يخافوا نزل بهم ، أو : وما نرسل بالآيات غير المقترحة ، كالمعجزات وآيات القرآن ، إلا تخويفا بعذاب الآخرة فإن أمر من بعث إليهم مؤخر إلى يوم القيامة. قاله البيضاوي.

---

(١) أخرجه البخاري فى (المناقب. باب ٢٨) ومسلم فى (الإمارة ، باب قوله صلى اللّه عليه وسلم : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق» من حديث معاوية رضي اللّه عنه.

(٢) هو ابن الحاج العبدري صاحب «المدخل إلى الشرع الشريف».

(٣) فى تعيين هذه الطائفة يقول الإمام النووي : يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين ، منهم شجعان مقاتلون ، ومنهم فقهاء محدثون ، ومنهم زهاد ، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونون متفرقين فى أقطار الأرض. هـ.

(٢١٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢١١

قال فى الحاشية : ومقتضى حديث الكسوف ، وقوله فيه : «ذلك يخوف بهما عباده» : أن التخويف لا يختص بالخوارق ، بل يعم غيرها ، مما هو معتاد نفيه ، ويأتى غبا. وفى الوجيز : (بِالْآياتِ) أي : العبر والدلالات. وفى الورتجبي : الآيات هى : الشباب والكهولة والشيبة ، وتقلب الأحوال بك ، لعلك تعتبر بحال ، أو تتعظ بوقت. هـ.

الإشارة : إمساك الكرامات عن المريد السائر أو الولي : رحمة واعتناء به ، فلعله حين تظهر له ، يقف معها ويستحسن حاله ، أو يزكى نفسه ويرفع عنها عصا التأديب ، فيقف عن السير ، ويحرم الوصول إلى غاية الكمال ، وفى الحكم : «ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها ، إلا نادته هواتف الحقيقة : الذي تطلب أمامك». وقال الششترى رضي اللّه عنه :

ومهما ترى كلّ المراتب تجتلى عليك ، فحل عنها ، فعن مثلها حلنا

وقل : ليس لى فى غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ، ولا طرفة تجنى

ولما نزّه تعالى نفسه فى أول السورة عن الجهة ، التي توهمها قضية الإسراء ، صرّح هنا بأنه محيط بكل مكان وزمان ، لا يختص بمكان دون مكان ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٦٠]

وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْياناً كَبِيراً (٦٠)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذْ قُلْنا لَكَ فيما أوحينا إليك إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ علما وقدرة ، وأسرار وأنوارا ، كما يليق بجلاله وتجليه ، فلا يختص بمكان ولا زمان ، بل هو مظهر الزمان والمكان ، وقد كان ولا زمان ولا مكان ، وهو الآن على ما عليه كان ، وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ فى قضية الإسراء ، قال ابن عباس : «هى رؤيا عين» حيث رأى أنوار جبروته فى أعلى عليين ، وشاهد أسرار ذاته أريناك ذلك فى ذلك المكان إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ اختبارا لهم ، من يصدق بذلك ولا يكيف ، ومن يجحده من الكفرة. ومن يقف مع ظاهره ، فيقع فى التجسيم والتحييز ، ومن تنهضه السابقة إلى التعشق فيجاهد

نفسه حتى تعرج روحه إلى عالم الملكوت ، فتكاشف بإحاطة أسرار الذات بكل شيء.
وإنما خص الحق تعالى إحاطته بالناس ، مع أنه محيط بكل شيء ، كما فى الآية الأخرى : أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ «١» لأنهم المقصودون بالذات من هذا العالم ، وما خلق إلا لأجلهم. فاكتفى بالإحاطة بهم عن إحاطته بكل شيء.

---

(١) من الآية ٥٤ من سورة فصلت.

ثم قال تعالى : وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وهى : شجرة الزقوم ، أي : ما جعلناها إلا فتنة للناس. وذلك أن قريشا لما سمعوا أن فى جهنم شجرة الزقوم ، سخروا من ذلك ، فافتتنوا بها ، حيث أنكروها ، وكفروا بالقرآن ، وقالوا : كيف تكون شجرة فى النار ، والنار تحرق الشجر؟! وقفوا مع الإلف والعادة ، ولم ينفذوا إلى عموم تعلق القدرة. ومن قدر على حفظ وبر السّمندل «١» منها ، وهو يمشى فيها ، قدر على أن يخلق فى النار شجرة ، ولم تحرقها. وقال أبو جهل : ما أعرف الزقوم إلا التمر بالزبد. فإن قيل : أين لعنت شجرة الزقوم فى القرآن؟ فالجواب :
أن المراد لعنة آكلها ، وقيل : إن اللعنة هنا بمعنى الإبعاد ، وهى فى أصل الجحيم.
قال تعالى : وَنُخَوِّفُهُمْ بأنواع التخويف ، أو بالزقوم ، فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً عتوا مجاوزا للحد.
الإشارة : الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته. فإذا انمحت الأكوان ثبتت وحدة المكون. «كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما كان عليه» ، من قامت به الأشياء ، وهو وجودها ونور ذاتها ، ومحيط بها ، كيف تحصره ، أو تحيزه ، أو تحول بينه وبين موجوداته؟ قيل لسيدنا على - كرم اللّه وجهه - : يا ابن عم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :
أين كان ربنا قبل خلق الأشياء؟ فتغير وجهه ، وسكت ، ثم قال : قولكم : أين؟ يقتضى المكان ، وكان اللّه ولا زمان ولا مكان ، وهو الآن على ما عليه كان. هـ.
وقال الشيخ الشاذلى : (قيل لى : يا على بي قل ، وعلى دل ، وأنا الكل). وفى الحديث : «لا تسبّوا الدهر ، فإنّ اللّه هو الدّهر ، بيده الليل والنّهار» ، ولا يفهم هذا على التحقيق إلا أهل الذوق ، بصحبة أهل الذوق. وإلا فسلّم تسلم ، واعتقد التنزيه وبطلان التشبيه. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.
ثم بيّن عداوة إبليس المتقدمة فى قوله : إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٦١ الى ٦٤]
وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (٦١) قالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (٦٤)

---

(١) السّمندل : طائر ، إذا انقطع نسله ، وهرم ، ألقى نفسه فى الجمر ، فيعود إلى شبابه. وقيل : هو دابة ، يدخل النار فلا تحرقه .. انظر اللسان (سمندل ٣/ ٢١٠٥).

(٢١٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢١٣
قلت : (طِيناً) : منصوب على إسقاط الخافض ، أو : حال من الراجع إلى الموصول ، و(أَ رَأَيْتَكَ) : الكاف للخطاب ، لا موضع لها. وتقدم الكلام عليه فى سورة الأنعام «١». و(هذَا) : مفعول «أرأيت» ، و(جزاء) : مصدر ، والعامل فيه :
«جَزاؤُكُمْ» ، فإنّ المصدر ينصب بمثله أو فعله أو وصفه ، وقيل : حال موطئة لقوله : «مَوْفُوراً».
يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ امتنع ، وقالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً أي : من طين فهو أصله من الطين ، وأنا أصلى من النار ، فكيف أسجد له وأنا خير منه؟! ثم قالَ إبليس : أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ أي : أخبرنى عن هذا الذي كرمته علىّ بأمرى بالسجود له ، لم كرمته علىّ؟ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ أي : واللّه لئن أخرتن إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ لأستأصلن من احتنكت السّنة أموالهم أي : استأصلتها. أي : لأهلكن ذُرِّيَّتَهُ بالإغواء والإضلال ، إِلَّا قَلِيلًا أو : لأميلنهم وأقودنّهم ، مأخوذ من تحنيك الدابة ، وهو أن يشد على حنكها بحبل فتنقاد. أي : لأقودنهم إلى عصيانك ، إلا قليلا ، فلا أقدر أن أقاوم شكيمتهم لما سبق لهم من العناية.
قال ابن عطية : وحكم إبليس على ذرية آدم بهذا الحكم من حيث رأى الخلقة مجوفة مختلفة الأجزاء ، وما اقترن بها من الشهوات والعوارض كالغضب ونحوه ، ثم استثنى القليل لعلمه أنه لا بد أن يكون فى ذريته من يصلب فى طاعة اللّه. هـ. قلت : إنما يحتاج إلى هذا : من وقف مع ظاهر الحكمة فى عالم الحس ، وأما من نفذ إلى شهود القدرة فى عالم المعاني : فلا.
قالَ تعالى : اذْهَبْ امض لما قصدته ، وهو : طرد وتخلية لما بينه وبين ما سولت له نفسه. فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ التفت إلى الخطاب ، وكان الأصل أن يقال : جزاؤهم ، بضمير الغيبة ليرجع

إلى فَمَنْ تَبِعَكَ ، لكنه غلب المخاطب ليدخل إبليس معهم ، فتجازون على ما فعلتم جَزاءً مَوْفُوراً وافرا مكملا ، لا نقص فيه. وَاسْتَفْزِزْ استخفف ، أو اخدع مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ أن تستفز بِصَوْتِكَ بدعائك إلى الفساد ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ أي : صح عليهم ، من الجلبة ، وهى : الصياح ، بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ أي : بأعوانك من راكب وراجل ، قيل : هو مجاز ، أي : افعل بهم جهدك. وقيل : إن له من الشياطين خيلا ورجالا. وقيل : المراد : بيان الراكبين فى طلب المعاصي ، والماشين إليها بأرجلهم. وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام ، والتصرف فيها على ما لا ينبغى ، كإنفاقها فى المعاصي ، وَالْأَوْلادِ بالحث على التوصل إلى الولد بالسبب الحرام ، كالزنى وشبهه من فساد الأنكحة ، وكتسمية الولد عبد شمس وعبد الحارث وعبد العزى.

---

(١) راجع تفسير الآية ٤٠ من سورة الأنعام.

وقال فى الإحياء : قال يونس بن زيد : بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ، ثم ينشأون معهم. قال ابن عطية : وما أدخله النقّاش من وطء الجن ، وأنه يحبل المرأة من الإنس ، فضعيف كله. هـ. قال فى الحاشية :

وضعفه ظاهر ، والآية مشيرة لرده لأنها إنما أثبتت المشاركة فى الولد ، لا فى الإيلاء ، فإنه لم يرد ، ولو قيل به لكان ذريعة لفساد كبير ، ولكان شبهة يدرأ بها الحد ، ولا قائل بذلك. وانظر الثعالبي الجزائرى فقد ذكر حكاية فى المشاركة فى الوطء عمن اتفق له ذلك ، فاللّه أعلم. وأما عكس ذلك إيلاء الإنسى الجنية ، فأمر لا يحيله العقل ، وقد جاء الخبر به فى أمر بلقيس «١». قاله المحشى الفاسى.

وَعِدْهُمْ بأن لا بعث ولا حساب ، أو المواعد الباطلة كشفاعة الآلهة ، والاتكال على كرامة الآباء ، وتأخير التوبة ، وطول الأمل ، وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً وباطلا. والغرور : تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب. قاله البيضاوي.

الإشارة : ينبغى لك أيها الإنسان أن تكون مضادا للشيطان ، فإذا امتنع من الخضوع لآدم فاخضع أنت لأولاد آدم بالتواضع واللين ، وإذا كان هو مجتهدا فى إغواء بنى آدم بما يقدر عليه ، فاجتهد أنت فى نصحهم وإرشادهم ، وتعليمهم ووعظهم وتذكيرهم ، بقدر ما يمكنك ، واستعمل السير إليهم بخيلك ورجلك ، حتى تنقذهم من غروره وكيده. وإذا كان هو يدلهم على الشرك الجلي والخفي ، فى أموالهم

وأولادهم ، فدلّهم أنت على التوحيد ، والإخلاص ، فى اعتقادهم وأعمالهم وأموالهم. وإذا كان يعدهم بالمواعد الكاذبة ، فعدهم أنت بالمواعد الصادقة كحسن الظن باللّه ، إن صحبه العمل بما يرضيه. فإن فعلت هذا كنت من عباد اللّه الذين ليس له عليهم سلطان ، كما أشار إليهم بقوله :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٦٥ الى ٦٩]

إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (٦٦) وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً (٦٩)

قلت : (أَ فَأَمِنْتُمْ) : الهمزة للتوبيخ ، والفاء للعطف على محذوف ، أي : أنجوتم من البحر فأمنتم.

---

(١) قصة سيدنا سليمان من أكثر القصص امتلاء بالإسرائيليات ، فعليك بما هو فى القرآن ، وما صح من حديث رسولنا الكريم صلى اللّه عليه وسلم. [.....]

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ عِبادِي المخلصين ، الذين يتوكلون علىّ فى جميع أمورهم ، لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ أي : تسلط وقدرة على إغوائهم حيث التجئوا إلىّ ، واتخذوني وكيلا وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا حافظا لمن توكل عليه ، فيحفظهم منك ومن أتباعك.

ثم ذكر ما يحث على التعلق به ، والتوكل عليه فى جميع الأحوال الدينية والدنيوية ، فقال : رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي يجرى لَكُمُ الْفُلْكَ ويسيرها فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بالتجارة والربح ، وجلب أنواع الأمتعة التي لا تكون عندكم ، إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً فى تسخيرها لكم حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه فى سيرها ، وسهل عليكم ما يعسر من أسباب معاشكم ومعادكم.

وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ يعنى : خوف الغرق ، ضَلَّ غاب عنكم مَنْ تَدْعُونَ من تعبدون من الآلهة. أو : من تستغيثون به فى حوادثكم ، إِلَّا إِيَّاهُ وحده ، فإنكم حينئذ لا يخطر ببالكم سواه ، ولا تدعون ، لكشفه ، إلا إياه ، فكيف تعبدون غيره ، وأنتم لا تجدون فى تلك الشدة إلا إياه؟ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ من الغرق إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ عن التوحيد ، أو عن شكر النعمة ، وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً بالنعم ، جحودا لها ، إلا القليل ، وهو كالتعليل للإعراض.

أَفَأَمِنْتُمْ أي : أنجوتم من البحر ، وأمنتم أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ بأن يقلبه عليكم وأنتم عليه ، أو يخسف بكم فى جوفه ، كما فعل بقارون ، أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً أي : ريحا حاصبا ، يرميكم بحصباء كقوم لوط ، ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا حافظا لكم منه ، فإنه لا راد لفعله. أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى بأن يخلق فيكم دواعى تحملكم إلى أن ترجعوا لتركبوا فيه فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ أي : ريحا شديدة ، لا تمر بشىء إلا قصفته ، أي : كسرته ، فَيُغْرِقَكُمْ ، وعن يعقوب : «فتغرقكم» على إسناده إلى ضمير الريح. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : بنون التكلم فى الخمسة. يفعل ذلك بكم بِما كَفَرْتُمْ بكفركم ، أي : بسبب إشراككم ، أو كفرانكم نعمة الإنجاء ، ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً مطالبا يتبعنا بثأركم ، كقوله : وَلا يَخافُ عُقْباها «١» ، أو : لا تجدوا نصيرا ينصركم منه. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : العباد الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، هم الذين أضافهم إلى نفسه بأن اصطفاهم لحضرة قدسه ، وشغلهم بذكره وأنسه ، لم يركنوا إلى شيء سواه ، ولم يلتجئوا إلّا إلى حماه. فلا جرم أنه يحفظهم برعايته ، ويكلؤهم بسابق عنايته. فظواهرهم قائمة بآداب العبودية ، وبواطنهم مستغرقة فى شهود عظمة الربوبية. فلمّا قاموا بخدمة الرحمن ، حال بينهم وبين كيد الشيطان ، وقال لهم : ربكم الذي يزجى لكم فلك الفكرة فى بحر الوحدة لتبتغوا

---

(١) الآية ١٥ من سورة الشمس.

(٢١٥/٣)

الوصول إلى حضرة الأحدية ، إنه كان بكم رحيما. ثم إذا غلب عليكم بحر الحقيقة ، وغرقتم فى تيار الذات ، غاب عنكم كل ما سواه ، وطلبتم منه الرجوع إلى بر الشريعة ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم عن شهود السّوى ، وجحدتم وجوده ، لكن القلوب بيد الرحمن ، يقلبها كيف شاء فلا يأمن العارف من المكر ، ولو بلغ ما بلغ ، ولذلك قال : أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر فتغرقون فى الحس ، وتشتغلون بعبادة الحس ، أو يرسل عليكم حاصبا : واردا قهّاريّا ، يخرجكم عن حد الاعتدال ، أم أمنتم أن يعيدكم فى بحر الحقيقة ، تارة أخرى ، بعد الرجوع للبقاء ، فيرسل عليكم واردا قهاريا يخرجكم عن حد الاعتدال ، ويحطكم عن ذروة الكمال ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر كرامة بنى آدم ، وتفضيلهم ردّا لقول الشيطان «أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ» ، فقال :
[سورة الإسراء (١٧) : آية ٧٠]
وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا

تَفْضِيلاً (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ قاطبة ، برهم وفاجرهم ، أي : كرمناهم بالصورة الحسنة ، والقامة المعتدلة ، والتمييز بالعقل ، والإفهام بالكلام ، والإشارة والخط ، والتهدى إلى أسباب المعاش والمعاد ، والتسلط على ما فى الأرض ، والتمتع به ، والتمكن من الصناعات ، وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة. ومن جملته : ما ذكره ابن عباس رضي اللّه عنه من أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه ، إلا الإنسان يرفعه إليه بيده ، وأما القرد فيده بمنزلة رجله لأنه يطأ بها القاذورات فسقطت حرمتها. وَحَمَلْناهُمْ أي : بنى آدم ، فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ على الدواب والسفن فيمشون محمولين فى البر والبحر. يقال : حملته حملا : إذا جعلت له ما يركب. وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ من فنون النعم ، وضروب المستلذات ممّا يحصل بصنعهم وبغير صنعهم ، وَفَضَّلْناهُمْ بالعلوم والإدراكات ، مما ركّبنا فيهم عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا وهم : من عدا الملائكة - عليهم السلام - . تَفْضِيلًا عظيما ، فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولا يكفروها ، ويستعملوا قواهم فى تحصيل العقائد الحقّيّة ، ويرفضوا ما هم عليه من الشرك ، الذي لا يقبله أحد ممن له أدنى تمييز ، فضلا عمن فضّل على من عدا الملأ الأعلى ، والمستثنى جنس الملائكة ، أو الخواص منهم ، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس عدم تفضيل جنس بنى آدم على الملائكة ، عدم تفضيل بعض أجزائه كالأنبياء والرسل ، فإنهم أفضل من خواص الملائكة ، وخواص الملائكة - كالمقربين مثلا - أفضل من خواص بنى آدم ، كالأولياء ، والأولياء أفضل من عوام الملائكة. واللّه تعالى أعلم.

(٢١٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢١٧

الإشارة : قد كرّم اللّه هذا الآدمي ، وشرفه على خلقه بخصائص جعلها فيه ، منها : أنه جعله نسخة من الوجود ، فيه ما فى الوجود ، وزيادة ، قد انطوت فيه العوالم بأسرها ، من عرشها إلى فرشها ، وإلى هذا المعنى أشار ابن البنا ، فى مباحثه ، حيث قال :

يا سابقا فى موكب الإبداع ولا حقا فى جيش الاختراع

اعقل فأنت نسخة الوجود للّه ما أعلاك من موجود

أليس فيك العرش والكرسىّ والعالم العلوىّ والسّفلىّ

ما الكون إلا رجل كبير وأنت كون مثله صغير

وقال آخر :

إذا كنت كرسيّا ، وعرشا ، وجنّة ، ونارا ، وأفلاكا تدور ، وأملاكا

وكنت من السّرّ المصون حقيقة وأدركت هذا بالحقيقة إدراكا

ففيم التّأنّي في الحضيض تثبّطا مقيما مع الأسرى ، أما آن إسراكا؟!

ومنها : أنه جعله خليفة في ملكه ، وجعل الوجود بأسره خادما له ، ومنتفعا به ، الأرض تقله ، والسماء تظله ، والجهات تكتنفه ، والحيوانات تخدمه ، والملائكة تستغفر له ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه الخلق. قال تعالى : وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ «١».

ومنها : أن جعل ذاته مشتملة على الضدين : النور والظلمة ، الكثافة واللطافة ، الروحانية والبشرية ، الحس والمعنى ، القدرة والحكمة ، العبودية وأسرار الربوبية ، إلى غير ذلك. ولذلك خصه بحمل الأمانة.

ومنها : أنه جعله قلب الوجود ، هو المنظور إليه من هذا العالم ، وهو المقصود الأعظم من إيجاد هذا الكون ، فهو المنعّم دون غيره ، إن أطاع اللّه ، ألا ترى قوله تعالى : وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ «٢» ، فنعيم الجنان خاص بهذا الإنسان ، أو : من التحق به من مؤمني الجان. وقال الورتجبي : كرامة اللّه تعالى لبني آدم سابقة

---

(١) من الآية ١٣ من سورة الجاثية.

(٢) من الآية ٧٥ من سورة الزمر.

على كون الخلق جميعا لأنها من صفاته ، واختياره ، ومشيئته الأولية. أوجد الخلق برحمته ، وخلق آدم وذريته بكرامته ، الخلق كلهم في حيز الرحمة ، وآدم وذريته في حيز الكرامة. الرحمة للعموم ، والكرامة للخصوص. خلق الكلّ لآدم وذريته ، وخلق آدم وذريته لنفسه ، ولذلك قال : وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي «١» ، جعل آدم خليفته ، وجعل ذريته خلفاء أبيهم ، الملائكة والجن في خدمتهم ، والأمر والنهى والخطاب معهم ، والكتاب أنزل إليهم ، والجنة والنار والسموات والأرض والشمس والقمر والنجوم ، وجميع الآيات ، خلق لهم. والخلق كلهم طفيل لهم ، ألا ترى اللّه يقول لحبيبه صلى اللّه عليه وسلم : «لولاك ما خلقت الكون»؟ ولهم كرامة الظاهر ، وهى : تسوية خلقهم ، وظرافة صورهم ، وحسن نظرتهم ، وجمال وجوههم ، حيث خلق فيها السمع والأبصار والألسنة ، واستواء القامة ، وحسن المشي ، والبطش ، وإسماع الكلام ، والتكلم باللسان ، والنظر بالبصر ، وجميع ذلك ميراث فطرة آدم ، التي صدرت من حسن اصطناع صورته. الذي قال : خَلَقْتُ بِيَدَيَّ «٢» ، فنور وجوههم من معادن نور

الصفة ، وأنوار الصفات نوّرت آدم وذريته ، فتكون نورا من حيث الصفات والهيئات ، والحسن والجمال ، متصفون متخلقون بالصفات الأزلية ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام : «خلق آدم على صورته» من حيث التخلق لا من حيث التشبيه. انظر تمامه.

والحاصل أنه فضلهم بالخلق والخلق ، وذلك يجمع محاسن الصورة الظاهرة والباطنة. هـ. قاله المحشى الفاسى.

ثم ذكر محل ظهور كرامة بنى آدم ، وهو يوم القيامة ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٧١ الى ٧٢]

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢)

قلت : يجوز فى (أَعْمى) – الثاني – : أن يكون وصفا كالأول ، وأن يكون من أفعل التفضيل ، وهو أرجح لعطف «وَأَضَلُّ» عليه ، الذي هو للتفضيل. وقال سيبويه : لا يجوز أن يقال : هو أعمى من كذا ، وإنما يقال : هو أشد عمى ، لكن إنما يمتنع ذلك فى عمى البصر ، لا فى عمى القلب. قاله ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله : واذكر يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ بنبيهم. فيقال : يا أمّة فلان ، يا أمة فلان ، احضروا للحساب. أو : بكتاب أعمالهم ، فيقال : يا صاحب الخير ويا صاحب الشر ، فهو مناسب لقوله : (فَمَنْ أُوتِيَ ...) إلخ.

---

(١) من الآية ٤١ من سورة طه.

(٢) من الآية ٧٥ من سورة ص.

وقال محمد بن كعب القرظي : بأسماء أمهاتهم ، فيكون جمع «أم» ، كخف وخفاف ، لكن فى الحديث : «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم» «١» ، ولعل ما قاله القرظي مخصوص بأولاد الزنا. وفى البيضاوي :

قيل : بأمهاتهم ، والحكمة فى ذلك : إجلال عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين ، وألا يفتضح أولاد الزنى. هـ.

وقال أبو الحسن الصغير : قيل لأبى عمران : هل يدعى الناس بأمهاتهم يوم القيامة أو بآبائهم؟ قال : قد جاء فى ذلك شيء أنهم يدعون بأمهاتهم فلا يفتضحوا. وفى البخاري – باب يدعى الناس بآبائهم ،

وساق حديث ابن عمر :

«ينصب لكلّ غادر لواء يوم القيامة. يقال : هذه غدرة فلان ابن فلان» «٢» ، فظاهر الحديث أنهم يدعون بآبائهم ، وهو الراجح ، إلا فيمن لا أب له. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى : فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ أي : فمن أوتى صحيفة أعماله ، يومئذ ، من أولئك المدعوين بيمينه إظهارا لخطر الكتاب ، وتشريفا لصاحبه ، وتبشيرا له من أول الأمر ، فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ المؤتى لهم. والإشارة إلى «من» : باعتبار معناها لأنها واقعة على الجمع إيذانا بأنهم حزب مجتمعون على شأن جليل ، وإشعارا بأن قراءتهم لكتبهم يكون على وجه الاجتماع ، لا على وجه الانفراد كما فى حال الدنيا. وأتى بإشارة البعيد إشعارا برفع درجاتهم ، أي : أولئك المختصون بتلك الكرامة ، التي يشعر بها الإيتاء المذكور ، يقرأون كتابهم وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ولا ينقصون من أجور أعمالهم المرسومة فى صحيفتهم أدنى شيء ، فإن الفتيل - وهو :

قشر النواة - مثل فى القلة والحقارة.

ثم ذكر أهل الأخذ بالشمال فقال : وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ الدنيا ، التي فعل بهم ما فعل من فنون التكريم والتفضيل ، أَعْمى فاقد البصيرة ، لا يهتدى إلى رشده ، ولا يعرف ما أوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل ، فضلا عن شكرها والقيام بحقوقها ، ولا يستعمل ما أودعنا فيه من العقل والقوى ، فيما خلق له من العلوم والمعارف ، فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى كذلك ، لا يهتدى إلى ما ينجيه مما يرديه لأن النجاة من العذاب والتنعم بأنواع النعم الأخروية مرتب على العمل فى الدنيا ، ومعرفة الحق ، ومن عمى عنه فى الدنيا فهو فى الآخرة أشد عمى عما ينجيه ، وَأَضَلُّ سَبِيلًا عنه لزوال الاستعداد الممكن لسلوك طريق النجاة. وهذا بعينه هو الذي أخذ كتابه

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٤) ، وأبو داود فى (الأدب ، باب فى تغيير الأسماء) عن أبى الدرداء ، وصححه الهيثمي فى المجمع (٣/ ٦٩).

(٢) أخرجه البخاري فى (كتاب الأدب ، باب يدعى الناس بآبائهم).

بشماله ، بدلالة ما سبق من القبيل المقابل ، ولعل العدول عن التصريح به إلى ذكره بهذا العنوان للإشعار بالعلة الموجبة له ، فإنّ العمى عن الحق والضلال هو السبب فى الأخذ بالشمال ، وهذا كقوله فى الواقعة : وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ «١» ، بعد قوله : وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ

«٢». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يدعو الحق تعالى ، يوم القيامة ، الأمم إلى الحساب بأنبيائها ورسلها ، ثم يدعوهم ، ثانيا ، للكرامة بأشياخها وأئمتها التي كانت تدعوهم إلى الحق على الهدى المحمدي. فيقال : يا أصحاب فلان ، ويا أصحاب فلان ، اذهبوا إلى الجنة ، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. وهذا في حق أهل الحق والتحقيق ، الدالين على سلوك الشريعة ، والتمسك بأنوار الحقيقة ذوقا وكشفا ، فكل من تبعهم ، وسلك منهاجهم ، كان من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وهم : أولياء اللّه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وأما من لم يكن من حزبهم ، ولم يدخل تحت تربيتهم ، فإن استعمل عقله وقواه فيما ينجيه يوم القيامة كان من الذين يؤتون كتابهم بيمينهم ، ولا يظلمون فتيلا. ومن أهل عقله واستعمل قواه في البطالة والهوى ، كان من القبيل الذي عاش في الدنيا أعمى ، ويكون في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، والعياذ باللّه.

ثم ذكر نوعا من هذا القبيل ، الذي أعمى اللّه بصيرته ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٧٣ الى ٧٧]

وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧٤) إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً (٧٥) وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً (٧٧)

قلت : «وَإِنْ» : مخففة من الثقيلة في الموضعين ، واسمها : ضمير الشأن ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، أي : إن الشأن قاربوا أن يفتنوك. و(سُنَّةَ) : مفعول مطلق ، أي : سنّ اللّه ذلك سنة.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ كادُوا أي : كفار العرب ، لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ من أمرنا ونهينا ، ووعدنا ووعيدنا ، لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ لتقول ما لم أقل لك ، مما اقترحوا عليك. نزلت في ثقيف ،

---

(١) الآية ٩٢ من سورة الواقعة.

(٢) الآية ٩٠ من نفس السورة.

إذ قالوا للنّبى صلى اللّه عليه وسلم : لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب : لا نعشّر ، ولا نحشّر ، ولا نحنى في صلاتنا ، وكلّ ربا لنا فهو لنا ، وكلّ ربا علينا فهو موضوع ، وأن تمتّعنا

باللات سنة ، وأن تحرّم وادينا كما حرمت مكة ، فإذا قالت العرب : لم فعلت؟ فقل : اللّه أمرنى بذلك. فأبى عليهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «١» ، وخيّب سعيهم. فالآية ، على هذا ، مدنية. وقيل : فى قريش ، قالوا للنبى صلى اللّه عليه وسلم : لا نمكنك من استلام الحجر ، حتى تلمّ بآلهتنا ، وتمسّها بيدك «٢». وقيل : قالوا : اقبل بعض أمرنا ، نقبل بعض أمرك ، والآية ، حينئذ ، مكية كجميع السورة.

وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا أي : لو فعلت ما أرادوا منك لصرت لهم وليا وحبيبا ، ولخرجت من ولايتي ، وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ على ما أنت عليه من الحق بعصمتنا لك ، لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا من الركون ، الذي هو أدنى ميل ، أي : لو لا أن عصمناك ، لقاربت أن تميل إليهم لقوة خدعهم ، وشدة احتيالهم. لكن عصمتنا منعتك من المقاربة. وهو صريح فى أنه - عليه الصلاة والسلام - ما همّ بإجابتهم ، مع قوة الداعي إليها ، ولا قارب ذلك. وهو دليل على أن العصمة بتوفيق اللّه وحفظه. قاله البيضاوي. وفيه رد على ابن عطية ، حيث قال :

قيل : إنه همّ بموافقتهم ، لكن كان ذلك خطرة ، والصواب : عدم ذلك لأن التثبيت والعصمة مانع من ذلك.

وقد أجاد القشيري فى ذلك ، ونصه : ضربنا عليك سرادقات العصمة ، وآويناك فى كنف الرعاية ، وحفظناك عن خطر اتباع هواك ، فالزّلل منك محال ، والافتراء فى نعتك غير موهوم ، ولو جنحت لحظة إلى جانب الخلاف لتضاعفت عليك شدائد البلاء لكمال قدرك وعلوّ شأنك فإنّ كل من هو أعلى درجة فذنبه - لو حصل - أشدّ تأثيرا.

وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ ... الآية : لو وكلناك ونفسك ، ورفعنا عنك ظلّ العصمة ، لقاربت الإمام بشىء مما لا يجوز من مخالفة أمرنا ، ولكنّا أفردناك بالحفظ ، بما لا تتقاصر عنك آثاره ، ولا تغرب عن ساحتك أنواره. إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ، هبوط الأكابر على قدر صعودهم. هـ.

إِذاً أي : لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركون لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ عذاب الْحَياةِ ، وَضِعْفَ عذاب الْمَماتِ ، أي : مثلى ما يعذّب غيرك فى الدنيا والآخرة لأن خطأ الخطير أخطر. وكأن أصل الكلام : عذابا ضعفا فى الحياة ، وعذابا ضعفا فى الممات ، أي : مضاعفا ، ثم حذف الموصوف ، وأقيمت الصفة مقامه ، ثم أضيفت

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : «لم أجده ، وذكره الثعلبي عن ابن عباس من غير سند». وذكره الواحدي فى الأسباب (ص ٢٩٧) بدون سند أيضا.

(٢) أخرجه الطبري (١٥/ ١٣٠) عن سعيد بن جبير ، بسند ضعيف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٢٢

إضافة موصوفها. وقيل : الضعف من أسماء العذاب. وقيل : المراد بضعف الحياة : عذاب الآخرة لأن حياته دائمة ، وبضعف الممات : عذاب القبر. ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً يدفع عنك العذاب.

وَإِنْ كادُوا أي : كاد أهل مكة لَيَسْتَفِزُّونَكَ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم مِنَ الْأَرْضِ التي أنت فيها. وهى : أرض مكة ، لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا إلا زمنا قليلا. وقد كان كذلك ، فإنهم أهلكوا ببدر بعد هجرته صلى اللّه عليه وسلم ، وقيل : نزلت فى اليهود فإنهم حسدوا مقام النبي صلى اللّه عليه وسلم بالمدينة ، فقالوا :

الشام مقام الأنبياء ، فإن كنت نبيا فالحق بها حتى نؤمن بك. فوقع ذلك فى قلبه صلى اللّه عليه وسلم ، فخرج مرحلة ، فنزلت «١» ، فرجع صلى اللّه عليه وسلم ، ثم قتل منهم بنى قريظة ، وأجلى بنى النضير بقليل ، سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا أي :

عادته تعالى : أن يهلك من أخرجت رسلهم من بين أظهرهم ، فقد سنّ ذلك فى خلقه ، وأضافها إلى الرسل لأنها سنت لأجلهم. وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا أي : تغييرا وتبديلا.

الإشارة : من شأن العارف الكامل أن يأخذ بالعزائم ، ويأمر بما يقتل النفوس ، ويوصل إلى حضرة القدوس ، وهو كل ما يثقل على النفوس ، فإن أتاه من يفتنه ويرده إلى الهوى ، حفظته العناية ، واكتنفته الرعاية ، فيقال له :

وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك وحي إلهام ، لتفترى علينا غيره ، فتأمر بالنزول إلى الرخص والتأويلات ، وإذا لا تخذوك خليلا. ولو لا أن ثبتناك بالحفظ والرعاية ، لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ، وهى :

خواطر تخطر ولا تثبت. إذا لأذقناك ضعف الحياة ، وهو : الذل والحرص والطمع. وضعف الممات ، وهو : السقوط عن مقام المقربين ، أهل الرّوح والريحان. وإن كادوا ليستفزونك من أرض العبودية ، ليخرجوك منها إلى إظهار الحرية ، من العز والجاه ، وإذا لا يلبثون خلافك ممن اتبعك إلا قليلا لأن من رجع إلى مباشرة الدنيا والحس قلّ مدده ، فيقل انتفاعه ، فلا يتبعه إلا القليل. هذه سنة اللّه فى أوليائه ، ولن تجد لسنة اللّه تحويلا.

ثم أمر بمراسم الشريعة ، التي هى عنوان العناية ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٧٨ الى ٧٩]

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (٧٩)

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٧/ ٢٣٤١) والبيهقي فى الدلائل (باب ماروى فى سبب خروج

النبي صلى اللّه عليه وسلم) إلى تبوك عن عبد الرحمن بن غنم ، وضعف الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٣) هذا القول لأن هذه الآية مكية. وسكنى المدنية بعد ذلك.

(٣/٢٢٢)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٢٣

قلت : الدلوك : الميل. واشتقاقه من الدّلك لأن من نظر إليها حينئذ يدلك عينه. واللام للتأقيت بمعنى : عند.

و(قُرْآنَ) : عطف على (الصَّلاةَ) ، أو منصوب بفعل مضمر ، أي : اقرأ قرآن الفجر ، أو على الإغراء.

يقول الحق جل جلاله : أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ أي : عند زوال الشَّمْسِ ، وهو إشارة إلى إقامة الصلوات الخمس ، فدلوك الشمس : زوالها وهو إشارة إلى الظهر والعصر ، وغسق الليل : ظلمته ، وهو إشارة إلى المغرب والعشاء ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ صلاة الصبح ، وإنما عبّر عن صلاة الصبح بقرآن الفجر لأن القرآن يقرأ فيها أكثر من غيرها لأنها تصلى بسورتين طويلتين ، ثم مدحها بقوله : إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، أو : يشهده الجم الغفير من المصلين ، أو فيه شواهد القدرة من تبدل الظلمة بالضياء ، والنوم ، الذي هو أخو الموت ، بالانتباه.

ثم أمر بقيام الليل فقال : وَمِنَ اللَّيْلِ أي : بعض الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ أي : اترك الهجود ، الذي هو النوم فيه ، للصلاة بالقرآن ، نافِلَةً لَكَ أي : فريضة زائدة لك على الصلوات الخمس ، أو فريضة زائدة لك لاختصاص وجوبها بك ، أو نافلة زائدة لك على الفرائض غير واجبة. وكأنه ، لما أمر بالفرائض ، أمر بعدها بالنوافل. وتطوعه - عليه الصلاة والسلام لزيادة الدرجات ، لا لجبر خلل أو تكفير ذنب لأنه مغفور له ما تقدم وما تأخر. و«مِنَ» : للتبعيض ، والضمير فى «بِهِ» : للقرآن. والتهجد : السهر ، وهو : ترك الهجود ، أي : النوم. فالتفعل هنا للإزالة كالتأثم والتحرج ، لإزالة الإثم والحرج.

ثم ذكر ثوابه فى حقه - عليه الصلاة والسلام - فقال : عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً عندك وعند جميع الناس ، وهى : الشفاعة العظمى. وفيه تهوين لمشقة قيام الليل. روى أبو هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال :

«المقام المحمود هو المقام الّذى أشفع فيه لأمّتى «١»». وقال ابن عباس رضي اللّه عنه : مقاما محمودا يحمده فيه الأولون والآخرون ، ويشرف فيه على جميع الخلائق ، يسأل فيعطى ، ويشفع فيشفّع. وعن حذيفة : يجمع الناس فى صعيد واحد ، فلا تتكلم فيه نفس إلا بإذنه ، فأول مدعو محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فيقول : «لبيك وسعديك. والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، وبك وإليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت».

ثم يأذن له فى الشفاعة. واللّه تعالى أعلم.
وقال ابن العربي المعافري فى أحكامه : واختلف فى وجه كون قيام الليل سببا للمقام المحمود على قولين ، فقيل :
إن البارئ تعالى يجعل ما يشاء من فضله سببا لفضله ، من غير معرفة منا بوجه الحكمة. وقيل : إن قيام الليل فيه

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٤٤١) ، والترمذي وحسّنه فى (التفسير ، سورة الإسراء) ، والبيهقي فى الدلائل (٥/ ٤٨٤) ، وأصل الحديث عند البخاري ومسلم.

(٢٢٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٢٤
الخلوة به تعالى ، والمناجاة معه دون الناس ، فيعطى الخلوة به والمناجاة فى القيامة ، فيكون مقاما محمودا ، ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم. وأجلّهم فيه درجة : نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فيعطى من المحامد ما لم يعط قبل ، ويشفّع فيشفع. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : وقد يقال : إن ذلك مرتب على قوله : (أَقِمِ الصَّلاةَ ..) الآية ، ولا يخص بقيام الليل ، والصلاة ، مطلقا مفاتحة للدخول على اللّه ومناجاة له ، ولذلك جاء فى حديث الشفاعة افتتاحه بأن «يخر ساجدا حامدا ، فيؤذن حينئذ بالشفاعة». ومن تواضع رفعه اللّه. هـ.
الإشارة : قوم اعتنوا بإقامة صلاة الجوارح ، وهم : الصالحون الأبرار ، وقوم اعتنوا بإقامة صلاة القلوب ، التي هى الصلاة الدائمة ، وهم العارفون الكبار ، وقوم اعتنوا بسهر الليل فى الركوع والسجود ، وهم العباد والزهاد والصالحون ، أولوا الجد والاجتهاد. وقوم اعتنوا بسهره فى فكرة العيان والشهود ، وهم المقربون عند الملك الودود.
الأولون يوفّون أجرهم على التمام بالحور والولدان ، والآخرون يكشف لهم الحجاب ويتمتعون بالنظر على الدوام ، الأولون محبون ، والآخرون محبوبون ، الأولون يشفعون فى أقاربهم ومن تعلق بهم ، والآخرون قد يشفع واحد منهم فى أهل عصره. وما ذلك على اللّه بعزيز.
ولما أمره بالقيام بوظائف العبودية ، أمره بالتعلق فى أموره كلها بالربوبية ، فقال :
[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٨٠ الى ٨١]
وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً (٨٠) وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (٨١)

يقول الحق جل جلاله : وَقُلْ يا محمد : رَبِّ أَدْخِلْنِي فى الأمور كلها مُدْخَلَ صِدْقٍ بأن أدخل فيها بك لا بنفسي ، وَأَخْرِجْنِي منها مُخْرَجَ صِدْقٍ كذلك ، مصحوبا بالفهم عنك ، والإذن منك فى إدخالى وإخراجى. وقيل : أدخلنى قبرى مدخل صدق راضيا مرضيا ، وأخرجنى منه عند البعث مخرج صدق ، أي : إخراجا مرضيا ملقى بالكرامة. فيكون تلقينا للدعاء بما وعده من البعث ، المقرون بالإقامة للمقام المحمود ، التي لا كرامة فوقها. وقيل : المراد : إدخال المدينة ، والإخراج من مكة. وقيل : إدخاله - عليه الصلاة والسلام - مكة ظاهرا عليها ، وإخراجه منها آمنا من المشركين. وقيل : إدخاله الغار ، وإخراجه منه سالما. وقيل : إدخاله فيما حمله من أعباء الرسالة ، وإخراجه منه مؤديا حقه. وقيل : إدخاله فى كل ما يلائمه من مكان أو أمر ، وإخراجه منه بالحفظ والرعاية ، بحيث يدخل باللّه ويخرج باللّه. وهو الراجح كما قدمناه.

وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ أي : من مستبطن أمورك ، سُلْطاناً نَصِيراً أي : حجة ظاهرة ، تنصرنى على من يخالفنى ويعادينى ، أو : عزا ناصرا للإسلام ، مظهرا له على الكفر. فأجيبت دعوته - عليه الصلاة والسلام -

---

بقوله : فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ «١» ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ «٢» ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ... «٣» الآية ، وبقوله : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ... «٤» الآية. وذلك حين يظهر الحق ، ويزهق الباطل ، كما قال : وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ أي : الإسلام أو الوحى ، وَزَهَقَ الْباطِلُ ذهب ، وهلك الكفر والشرك ، وتسويلات الشيطان إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً أي : شأنه أن يكون مضمحلا غير ثابت. وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم دخل مكّة يوم الفتح ، وحول البيت ثلاثمائة وستّون صنما ، فجعل يطعن بمخصرة «٥» كانت بيده فى عين كل واحد ، ويقول : جاء الحقّ وزهق الباطل ، فينكبّ لوجهه ، حتّى ألقى جميعها ، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من صفر ، «٦» فقال : يا علىّ ، ارم به فصعد إليه ، ورمى به ، فكسره «٧». هـ.

الإشارة : إذا تمكن العارفون من شهود حضرة القدس ومحل الأنس ، وصارت معشش قلوبهم كان نزولهم إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ بالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين. فلم ينزلوا إلى سماء الحقوق بسوء الأدب والغفلة ، ولا إلى أرض الحظوظ بالشهوة والمتعة ، بل دخلوا فى ذلك باللّه وللّه ، ومن اللّه وإلى اللّه ، كما فى الحكم. ثم قال : وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ

ليكون نظرى إلى حولك وقوتك إذا أدخلتنى ، وانقيادي إليك إذا أخرجتنى. وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً ينصرنى ولا ينصر عليّ ، ينصرنى على شهود نفسى ، حتى أغيب عنها وعن متعتها وهواها ، ويفنينى عن دائرة حسى ، حتى تتسع عليّ دائرة المعاني عندى ، وأفضى إلى فضاء الشهود والعيان ، فحينئذ يزهق الباطل ، وهو ما سوى اللّه ، ويجيء الحق ، وهو وجود الحق وحده ، فأقول حينئذ : وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً ، وإنما أثبته الوهم والجهل ، وإلا فلا ثبوت له ابتداء وانتهاء.

وثبوت الوهم والجهل فى القلب : مرض من الأمراض ، وشفاؤه فى التمسك بما جاء به القرآن العظيم ، كما قال تعالى :

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٨٢]

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَساراً (٨٢)

---

(١) من الآية ٥٦ من سورة المائدة. [.....]

(٢) من الآية ٣٣ من سورة التوبة.

(٣) من الآية ٥٥ من سورة النور.

(٤) الآيتان : ١٧١ - ١٧٢ من سورة الصافات.

(٥) المخصرة : ما يختصره الإنسان بيده ، فيمسكه من عصا ونحوها ... انظر : مختار الصحاح ، (خصر).

(٦) أي : من نحاس.

(٧) أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة الإسراء) ، ومسلم فى (الجهاد ، باب فتح مكة).

قلت : (مِنَ) : للبيان ، قدمت على المبيّن اعتناء ، فالقرآن كله شفاء. وقيل : للتبيعض ، والمعنى : أن منه ما يشفى من المرض الحسى ، كالفاتحة وآية الشفاء ، ومن المرض المعنوي ، كآيات كثيرة.

يقول الحق جل جلاله : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ لما فى الصدور ، ومن سقام الريب والجهل ، وأدواء الأوهام والشكوك ، وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ به ، العالمين بما احتوى عليه من عجائب الأسرار وغرائب العلوم ، المستعملين أفكارهم وقرائحهم فى الغوص على درره ويواقيته ، أي : وننزل ما هو تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم ، ورفع الأوهام والشكوك عنهم ، كالدواء الشافي للمرض ، وعن النبي صلى اللّه

عليه وسلم : «من لم يستشف بالقرآن لا شفاه اللّه» «١». وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ الكافرين المكذبين ، الواضعين الأشياء فى غير محلها ، مع كونه فى نفسه شفاء من الأسقام ، إِلَّا خَساراً إلا هلاكا بكفرهم وتكذيبهم به. ولا يفسر الخسران هنا بالنقصان فإن ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يعبّر عنه بالهلاك ، لا بالنقصان المنبئ عن حصول بعض مبادئ الإسلام ، فهم فى الزيادة فى مراتب الهلاك ، من حيث إنهم ، كلما جدّدوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة ازدادوا بذلك هلاكا.

وفيه إيماء إلى أن ما بالمؤمنين من الشّبه والشكوك المعترية لهم فى أثناء الاهتداء والاسترشاد ، بمنزلة الأمراض ، وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك ، وإسناد زيادة الخسران إلى القرآن ، مع أنهم هم المزدادون فى ذلك بسوء صنيعهم باعتبار كونه سببا لذلك ، حيث كذّبوا به ، وفيه تعجيب من أمره حيث جعله مدار الشفاء والهلاك. قاله أبو السعود.

الإشارة : لا يحصل الاستشفاء بالقرآن إلا بعد التصفية والتطهير للقلب ، بالتخلية والتحلية ، على يد شيخ كامل ، عارف بأدواء النفوس ، حتى يتفرغ القلب من الأغيار والأكدار ، ويذهب عنه وساوس النفوس وخواطر القلوب ليتفرغ لسماع القرآن والتدبر فى معانيه. وأما إن كان القلب محشوا بصور الأكوان ، مصروفا إلى الخواطر والأغيار ، لا يذوق له حلاوة ، ولا يدرى ما يقول ، فلا يهتدى لما فيه من الشفاء ، إذ لا يستشفى بالقرآن إلا من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولأجل ذلك كان من شأن شيوخ التربية أن يأمروا المريد بالذكر المجرد ، حتى تشرق عليه أنواره ، وتذهب به عنه أغياره. وحينئذ يأمره بتلاوة القرآن ليذوق حلاوته ، فإذا كمل تطهيره ، تمتع بحلاوة شهود المتكلم ، فيسمعه من الحق بلا واسطة ، وهو المراد بالرحمة المذكورة بعد الشفاء. واللّه تعالى أعلم.

وإذا أدرك العبد هذه النعمة العظمى ، وجب عليه دوام الشكر ، كما نبّه عليه تعالى بذكر ضدها ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٨٣ الى ٨٤]

وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً (٨٤)

---

(١) عزاه فى الكنز (٢٨١٠٦) للدارقطني فى الأفراد ، عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ بالصحة والعافية والنعمة ، أَعْرَضَ عن ذكرنا ، فضلا

عن القيام بالشكر ، وَنَأى أي : تباعد بِجانِبِهِ لوى عطفه وبعد بنفسه. فالنأى بالجانب : أن يلوى عن الشيء عطفه ويوليه عرض وجهه ، فهو تأكيد للإعراض. أو عبارة عن التكبر لأنه من ديدن المستكبرين ، وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ من فقر ، أو مرض ، أو نازلة من النوازل ، كانَ يَؤُساً شديد اليأس من روحنا وفرجنا. وفى إسناد المسّ إلى الشر ، بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة إيذان بأن الخير مراد بالذات ، والشر ليس كذلك. وهذا الوصف المذكور هنا هو وصف للإنسان باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذا الوصف ، ولا ينافيه قوله تعالى : وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ «١» ، ونظائره فإن ذلك فى نوع آخر من جنس الإنسان. وقيل : أريد به الوليد بن المغيرة.

قال تعالى : قُلْ كُلٌّ أي : كل واحد منكم وممن هو على خلافكم يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ على طريقته التي تشاكل حاله من الهدى والضلالة ، فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلًا أي : فربكم ، الذي يراكم على هذه الأحوال والطرق ، أعلم بمن هو أسدّ طريقا وأبين منهاجا. وقد فسرت الشاكلة أيضا بالطبيعة والعادة والدين والنية.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للمؤمن المشفق على نفسه أن يمعن النظر فى كلام سيده ، فإذا وجده مدح قوما بعمل ، بادر إلى فعله ، أو بوصف ، بادر إلى التخلق به ، وإذا وجده ذم قوما ، بسبب عمل ، تباعد عنه جهده ، أو بوصف تطهر منه بالكلية. وقد ذم الحق تعالى هنا من بطر بالنعمة وغفل عن القيام بشكرها ، ومن جزع عند المصيبة وأيس من ذهابها ، فليكن المؤمن على عكس هذا ، فإذا أصابته مصيبة أو بلية تضرع إلى مولاه ، ورجى فضله ونواله ، وإذا أصابته نعمة دنيوية أو دينية أكثر من شكرها ، وشهد المنعم بها فى أخذها وصرفها ، ولا سيما نعمة الإيمان والمعرفة ، وتصفية الروح من غبش الحس والوهم ، حتى ترجع لأصلها ، الذي هو سر من أسرار اللّه ، الذي أشار إليه بقوله تعالى :

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٨٥]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ أي : عن حقيقة الروح ، الذي هو مدبر البدن الإنسانى ، ومبدأ حياته. روى أن اليهود قالوا لقريش : سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح ،

(١) من الآية ٥١ من سورة فصلت.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٢٨
فإن أجاب عنها كلها أو سكت فليس بنبي ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى. فبيّن لهم القصتين وأبهم أمر الروح ، وهو مبهم فى التوراة ، فقال : قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، أظهر فى مقام الإضمار إظهارا لكمال الاعتناء بشرفه ، أي : هو من جنس ما استأثر اللّه بعلمه من الأسرار الخفية ، التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر. وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا لا يمكن تعلقه بأمثال هذه الأسرار.
روى أنه صلى اللّه عليه وسلم لما قال لهم ذلك ، قالوا : نحن مختصون بهذا الخطاب ، قال عليه الصلاة والسلام : «بل نحن وأنتم». فقالوا : ما أعجب شأنك ، ساعة تقول : وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً «١» ، وتارة تقول هذا ، فنزلت : قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي «٢» الآية. وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ... «٣» الآية.
وهذا من ركاكة عقولهم فإن من الحكمة الإنسانية أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية ، بل ما نيط به المعاش والمعاد ، وذلك بالإضافة إلى ما لا نهاية له من متعلقات علمه سبحانه ، قليل ينال به خير : كثير فى نفسه.
وقال ابن حجر : أخرج الطبراني عن ابن عباس أنهم قالوا : أخبرنا عن الروح ، وكيف تعذب الروح فى الجسد وإنما الروح من اللّه؟. هـ. قلت : يجاب بأنها لما برزت لعالم الشهادة لحقتها العبودية ، وأحاطت به القهرية. وقال القشيري : أرادوا أن يغالطوه فيما به يجيب ، فأمره أن ينطق بأمر يفصح عن أقسام الروح ، لأنّ ما يطلق عليه لفظ «الرُّوحِ» يدخل تحت قوله : قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، ثم قال : وفى الجملة : الروح مخلوقة ، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد ، ما دام الروح فى جسده ، والروح لطيفة تقرب للكثافة فى طهارتها ولطافتها. وهى مخلوقة قبل الأجساد بألوف من السنين. وقيل : إن أدركها التكليف ، كان للروح صفاء التسبيح ، وضياء المواصلة ، ويمن التعريف بالحق. هـ. وقيل : المراد بالروح : خلق عظيم روحانى من أعظم الملائكة ، وقيل : جبريل عليه السّلام ، وقيل : القرآن. ومعنى (مِنْ أَمْرِ رَبِّي) من وحيه وكلامه ، لا من كلام البشر. واللّه تعالى أعلم بمراده.
الإشارة : قد أكثر الناس الكلام فى شأن الروح ، فرأى بعضهم أن الإمساك عنها أولى لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يجب عنها. وبيّن الحق تعالى أنها من أمر اللّه وسر من أسراره. ورأى بعضهم أن النهى لم يرد عن الخوض فيها صريحا ، فتكلم على قدر فهمه. فقال بعضهم : حقيقة الروح : جسم لطيف مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأرطب ، وقال صاحب (الرموز فى فتح الكنوز) على حديث : «من عرف نفسه عرف ربه» : قد ظهر

---

(١) من الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

(٣) من الآية ٢٧ من سورة لقمان ، وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف للثعلبى فى التفسير ، بغير سند ولا راو.

(٢٢٨/٣)

لى من سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه ، وهو : أن اللّه ، سبحانه ، وضع هذا الروح فى هذه الجثة الجثمانية ، لطيفة لاهوتية ، فى كثيفة ناسوتية ، دالة على وحدانيته تعالى وربانيته ، ووجه الاستدلال من عشرة أوجه : الأول : أن هذا الهيكل الإنسانى لمّا كان مفتقرا إلى محرك ومدبر ، وهذا الروح هو الذي يدبره ويحركه ، علمنا أن هذا العالم لا بد له من محرك ومدبر. الثاني : لمّا كان مدبر الجسد واحدا علمنا أن مدبر هذا العالم واحد لا شريك له في تدبيره وتقديره. قال تعالى : لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «١» ، الثالث : لمّا كان لا يتحرك هذا الجسم إلا بتحريك الروح وإرادته علمنا أنه لا يتحرك بخير أو شر إلا بتحريك اللّه وقدرته وإرادته.

الرابع : لمّا كان لا يتحرك فى الجسد شىء إلا بعلم الروح وشعورها ، لا يخفى على الروح من حركة الجسد شىء ، علمنا أنه تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء. الخامس : لمّا كان هذا الجسد لم يكن فيه شىء أقرب إلى الروح من شىء علمنا أنه تعالى قريب إلى كل شىء ، ليس شىء أقرب إليه من شىء ، ولا شىء أبعد إليه من شىء ، لا بمعنى قرب المسافة لأنه منزه عن ذلك.

السادس : لمّا كان الروح موجودا قبل الجسد ، ويكون موجودا بعد عدمه علمنا أنه تعالى موجود قبل خلقه ، ويكون موجودا بعد عدمهم ، ما زال ، ولا يزال ، وتقدس عن الزوال. السابع : لمّا كان الروح فى الجسد لا تعرف له كيفية علمنا أنه تعالى مقدس عن الكيفية.

الثامن : لمّا كان الروح فى الجسد لا تعرف له كيفية ولا أينية ، بل الروح موجود فى سائر الجسد ، ما خلا منه شىء فى الجسد. كذلك الحق سبحانه موجود فى كل مكان ، وتنزه عن المكان والزمان.

التاسع : لمّا كان الروح فى الجسد لا يحس ولا يجس ولا يمس ، علمنا أنه تعالى منزه عن الحس والجس والمس. العاشر : لمّا كان الروح فى الجسد لا يدرك بالبصر ، ولا يمثل بالصور ، علمنا أنه تعالى لا تدركه الأبصار ، ولا يمثل بالصور والآثار ، ولا يشبه بالشموس والأقمار ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «٢». هـ. وحديث «من عرف نفسه ...»

إلخ ، قال النووي : غير ثابت ، وقال السمعاني : هو من كلام يحيى ابن معاذ الرازي. واللّه تعالى أعلم.

وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح ، أمخلوقة هى؟ قال : نعم. ولولا ذلك لما أقرت بالربوبية حتى قالت : «بلى».

قلت : لما انفصلت عن الأصل كستها أردية العبودية ، فأقرت بالربوبية. وقال الورتجبي : الروح : شعاع الحقيقة ، يختلف آثارها في الأجساد. قال : ومن خاصيتها أنها تميل إلى كل حسن ومستحسن ، وكل صوت طيب ، وكل رائحة طيبة لحسن جوهرها وروح وجودها ، ظاهرها غيب اللّه ، وباطنها سر اللّه ، مصورة بصورة آدم ، فإذا أراد اللّه ________________

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

(٢) من الآية ١١ من سورة الشورى.

خلق آدمي أحضر روحه ، فصور صورته بصورة الروح فلذلك قال عليه الصلاة والسلام إشارة وإبهاما : «خلق اللّه آدم على صورته». هـ. قلت : يعنى : أن إظهار الروح من بحر الجبروت ، فى التجلي الأول ، كان على صورة آدم ، ثم خلق آدم على صورة الروح الأعظم ، وهو التجلي الأول من بحر المعاني ، فكانت أول التجليات من ذات الرحمن ، فقال فى حديث آخر : «إن اللّه خلق آدم على صورة الرحمن». واللّه تعالى أعلم. وقيل : الصوت الطيب روحانى ، ولتشاكله مع الروح ، صار يهيج الروح ويحثها للرجوع لأصلها ، إذا كان صاحبها له ذوق سليم ، يسمع من صوت طيب كريم. سمع أبو يزيد نغمة ، فقال : أجد النغم نداء منه تعالى. وقيل : إن الروح لم تدخل فى جسد آدم إلا بالسماع ، فصارت لا تخرج من سجنه إلا بالسماع. واللّه تعالى أعلم.

ثم بيّن قوله : وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٨٦ الى ٨٩]

وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (٨٧) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٨٩)

قلت : قال ابن جزى : هذه الآية متصلة المعنى بقوله : وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا أي : فى قدرتنا أن نذهب بالذي أوحينا إليك ، فلا يبقى عندكم شىء من العلم. هـ. (إلا رحمة) : يحتمل أن يكون متصلا ، أي : لا تجد من يتوكل برده إلا رحمة ربك. أو منقطعا ، أي : لو شئنا لذهبنا بالقرآن ، لكن رحمة من ربك تمسكه من الذهاب ، و(لا يأتون) : جواب القسم الدال عليه اللام الموطئة ، وسد مسد جواب الشرط. ولولا اللام لكان جوابا للشرط ، ولم يجزم لكون الشرط ماضيا ، كقول زهير :

فإن أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب ما لى ولا حرم «١»

و(إلا كفورا) : استثناء مفرغ منصوب بأبى لأنه فى معنى النفي ، أي : ما رضى أكثرهم إلا الكفر به.

يقول الحق جل جلاله : وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أي : بالقرآن الذي هو منبع العلوم التي أوتيتموها ، ومقتبس الأنوار ، فلا يبقى عندكم من العلم إلا قليلا. والمراد بالإذهاب : المحو من المصاحف

---

(١) انظر ديوانه/ ٩١. [.....]

(٢٣٠/٣)

والصدور. وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه : (أول ما تفقدون من دينكم : الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، وليصلين قوم ولا دين لهم. وإن هذا القرآن تصبحون يوما وما فيكم منه شيء. فقال رجل : كيف ذلك ، وقد أثبتناه فى قلوبنا ، ودونّاه فى مصاحفنا ، وعلمناه أبناءنا ، وأبناؤنا يعلمه أبناءهم؟! فقال : يسرى عليه ، ليلا ، فيصبح الناس منه فقراء ، ترفع المصاحف ، وينزع ما فى القلوب) «١».

ثُمَّ إن رفعناه لا تَجِدُ لَكَ بِهِ أي : القرآن عَلَيْنا وَكِيلًا أي : من يتوكل علينا استرداده مسطورا محفوظا ، إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فإنها إن تأتك لعلها تسترده ، أو : لكن رحمة من ربك أمسكته فلم يذهب. إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ، كإرسالك للناس كافة ، وإنزال الكتاب عليك ، وإنعامه فى حفظك ، وغير ذلك مما لا يحصى.

ثم نوّه بقدر الكتاب الذي أنزله فقال : قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ، واتفقوا عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة فى البلاغة ، وحسن النظم ، وكمال المعنى ، لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ أبدا لما تضمنه من العلوم الإلهية ، والبراهين الواضحة ، والمعاني العجيبة ، التي لم يكن لأحد بها علم ، ثم جاءت فيه على الكمال ، ولذلك عجزوا عن معارضته. وقال أكثر الناس : إنما عجزوا عنه لفصاحته ، وبراعته ، وحسن نظمه. ووجوه إعجازه كثيرة. وإنما خص الثقلين بالذكر لأن المنكر كونه من عند اللّه منهما ، لا لأنّ غيرهما قادر على المعارضة. وإنما أظهر فى محل الإضمار ، ولم يقل : لا يأتون به لئلا يتوهم أن له مثلا معينا ، وإيذانا بأن المراد نفى الإتيان بمثل ما ، أي : لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات البديعة ، وفيهم العرب العاربة ، أرباب البراعة والبيان. فلا يقدرون على الإتيان بمثله وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً أي : ولو تظاهروا وتعاونوا على الإتيان بمثله ما قدروا. وهو عطف على مقدر ، أي : لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا لبعض ، ولو كان .. إلخ.

ومحله النصب على الحالية ، أي : لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ، ولو على هذه الحالة.
ثم قال تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنا أي : كررنا ورددنا على أنحاء مختلفة ، توجب زيادة تقرير وبيان ، ووكادة رسوخ واطمئنان ، لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ المنعوت بما ذكر من النعوت الفاضلة ، مِنْ كُلِّ مَثَلٍ من كل معنى بديع ، هو ، فى الحسن والغرابة واستجلاب الأنفس ، كالمثل ليتلقوه بالقبول ، أو بيّنّا لهم كل شيء محتاجون إليه من العلوم النافعة ، والبراهين القاطعة ، والحجج الواضحة. وهذا يدل على أن إعجاز القرآن هو بما فيه من

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (باب فى الأمانات ../ ٥٢٧٣) ببعض الاختصار موقوفا.

(٢٣١/٣)

المعاني والعلوم ، فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً إلا جحودا وامتناعا من قبوله. وفيه من المبالغة ما ليس فى نفى مطلق الإيمان لأنّ فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور والجحود ، وأنهم بالغوا فى عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الإباء. وباللّه التوفيق.
الإشارة : كما وقع التخويف بإذهاب خصوصية النبوة والرسالة ، يقع التخويف بإذهاب خصوصية الولاية والمعرفة العيانية ، فإن القلوب بيد اللّه ، يقلبها كيف يشاء. والخصوصية أمانة مودعة فى القلوب ، فإذا شاء رفعها رفعها ، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره. وما زالت الأكابر يخافون من السلب بعد العطاء ، ويشدون أيديهم على الأدب لأن سوء الأدب هو سبب رفع الخصوصية ، والعياذ باللّه.
قال القشيري : سنّة الحقّ مع خيار خواصه أن يديم هم شهود افتقارهم إليه ليكونوا فى جميع الأحوال منقادين بجريان حكمه ، ثم قال : والمراد والمقصود : إدامة تفرّد سرّ حبيبه به ، دون غيره. هـ. وأما سلب الأولياء بعضهم لبعض فلا يكون فى خصوصية المعرفة بعد التمكين إذ لا مانع لما أعطى الكريم ، وإنما يكون فى خصوصية التصريف وسر الأسماء ، إذا كان أحدهما متمكنا فيه ، وقابل من لم يتمكن ، قد ينجذب إلى القوى بإذن اللّه ، وقد يزال منه إذا طغى به. واللّه تعالى أعلم.
ثم أظهر الحق تعالى جحودهم وعتوهم ، فقال :
[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٩٠ الى ٩٦]
وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ

قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً (٩٣) وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلاَّ أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً (٩٤)
قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً (٩٥) قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٩٦)

(٢٣٢/٣)

قلت : من قرأ «كِسَفاً» بالتحريك : فهو جمع. ومن قرأ بالسكون : فمفرد. و(قَبِيلًا) : حال من «الله». وحذف حال الملائكة لدلالة الأول عليه. و(أَنْ يُؤْمِنُوا) : مفعول ثان لمنع. و(إِلَّا أَنْ قالُوا) : فاعل «مَنَعَ».

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : كفار قريش ، عند ظهور عجزهم ، ووضوح مغلوبيتهم بالإعجاز التنزيلى ، وغيره من المعجزات الباهرة ، معلّلين بما لا يمكن فى العادة وجوده ، ولا تقتضى الحكمة وقوعه ، من الأمور الخارقة للعادة ، كما هو ديدن المبهوت المحجوج ، قالوا للنبى - عليه الصلاة والسلام - فى جمع من أشرافهم :

إن مكة قليلة الماء ، ففجر لنا فيها عينا من ماء ، وهو معنى قوله تعالى : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ أرض مكة يَنْبُوعاً عينا لا ينشف ماؤها. وينبوع : يفعول ، من نبع الماء إذا خرج.

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ أي : بستان يستر أشجاره ما تحتها من العرصة ، مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ أي : تجريها بقوة ، خِلالَها فى وسطها تَفْجِيراً كثيرا ، والمراد : إما إجراء الأنهار خلالها عند سقيها ، أو إدامة إجرائها ، كما ينبىء عنه «الفاء» ، أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً «١» قطعا متعددة ، أو قطعا واحدا ، و(كَما زَعَمْتَ) : يعنون بذلك قوله تعالى : إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ «٢» ، أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا أي : مقابلا نعاينه جهرا ، أو ضامنا وكفيلا يشهد بصحة ما تدعيه ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أي : ذهب. وقرئ به. وأصل الزخرفة : الزينة ، أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ أي : فى معارجها فحذف المضاف. وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ أي : لأجل رقيك فيها وحده حَتَّى تُنَزِّلَ منها عَلَيْنا كِتاباً فيه تصديقك ، نَقْرَؤُهُ نحن ، من غير أن يتلقى من قبلك. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : قال عبد اللّه بن أميّة لرسول صلى اللّه عليه وسلم - وكان ابن عمته - : لن أؤمن لك حتّى تتّخذ إلى السماء سلّما ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر ، حتّى تأتيها ، وتأتى معك بصك منشور ، معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول. هـ. ثم أسلم عبد اللّه بعد ذلك. ولم يقصدوا بتلك الاقتراحات الباطلة إلا العناد واللجاج. ولو أنهم أوتوا أضعاف ما اقترحوا من الآيات ، ما زادهم ذلك

إلا مكابرة. وإلا فقد كان يكفيهم بعض ما شهدوا من المعجزات ، التي تخر لها صم الجبال.
قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام - : قُلْ تعجبا من شدة شكيمتهم. وفى رواية «قال» : سُبْحانَ رَبِّي تنزيها له من أن يتحكم عليه أو يشاركه أحد فى قدرته. أو تنزيها لساحته - سبحانه - عما لا يليق بها ، من مثل هذه الاقتراحات الشنيعة ، التي تكاد السموات يتفطرن منها ، أو عن طلب ذلك ، تنبيها على بطلان ما قالوه ، هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً لا ملكا ، حتى يتصور منى الرقى فى السماء ونحوه ، رَسُولًا مأمورا من قبل ربى

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم : (كسفا) بفتح السين ، أي : قطعا ، جمع كسفة ، وقرأ الباقون : بسكون السين على التوحيد ، جمع «كسفة» كسدرة وسدر. انظر : شرح الهداية (٢/ ٣٩٠) ، والإتحاف (٢/ ٢٠٥).
(٢) من الآية ٩ من سورة سبأ.

بتبيلغ الرسالة ، كسائر الرسل. وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره اللّه على أيديهم ، حسبما يلائم حال قومهم ، ولم يكن أمر الآيات إليهم ، ولا لهم أن يتحكموا على ربهم بشيء منها.
وَما مَنَعَ النَّاسَ أي : الذين حكيت أباطيلهم ، أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى أي : الوحى ، وهو ظرف لمنع ، أو يؤمنوا ، أي : وما منعهم وقت مجيئ الوحى المقرون بالمعجزات المستدعية للإيمان ، أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك ، إِلَّا أَنْ قالُوا أي : إلا قولهم : أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا ، منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر. وليس المراد أن هذا القول صدر من بعضهم فمنع بعضا آخر منهم ، بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل ، المستتبع بهذا المقول منهم. وإنما عبّر عنه بالقول إيذانا بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير روية ، ولا مصداق له فى الخارج. وقصر المانع من الإيمان فيما ذكر ، مع أن لهم موانع شتى ، إما لأنه معظمها ، أو لأنه المانع بحسب الحال ، أعنى : عند سماع الجواب بقوله تعالى : هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا إذ هو الذي يتشبثون به حينئذ ، من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية.
قُلْ لهم من قبلنا تثبيتا للحكمة ، وتحقيقا للحق المزيح للريب : لَوْ كانَ أي : لو وجد واستقر فِي الْأَرْضِ بدل البشر مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ قارين ساكنين فيها ، لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا يهديهم إلى الحق لتمكنهم من الاجتماع به والتلقي منه. وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق

المفاوضة مع الملائكة لأنها منوطة بالتناسب والتجانس ، فبعث الملائكة إليهم مناقض للحكمة التي يدور عليها أمر التكوين والتشريع. وإنما يبعث الملك إلى الخواص ، المختصين بالنفوس الزكية ، المؤيدة بالقوة القدسية ، فيتلقون منهم ويبلغون إلى البشر.

قُلْ كَفى بِاللَّهِ وحده شَهِيداً على أني أديت ما عليّ من مواجب الرسالة ، وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد. فهو شهيد بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وكفى به شهيدا ، ولم يقل : بيننا تحقيقا للمفارقة ، وإبانة للمباينة ، إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ من الرسل والمرسل إليهم ، خَبِيراً بَصِيراً محيطا بظواهر أعمالهم وبواطنها ، فيجازيهم على ذلك. وهو تعليل للكفاية. وفيه تسلية للرسول – عليه الصلاة والسلام – وتهديد للكفار ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : طلب الكرامات من الأولياء جهل بطريق الولاية ، وسوء الظن بهم ، إذ لا يشترط فى تحقيق الولاية ظهور الكرامة ، وأىّ كرامة أعظم من كشف الحجاب بينهم وبين محبوبهم ، حتى عاينوه وشاهدوه حقا ، وارتفعت عنهم الشكوك والأوهام ، وصار شهود الحق عندهم ضروريا ، ووجود السّوى محالا ضروريا ، فلا كرامة أعظم من

(٢٣٤/٣)

هذه؟ وكلامنا مع العارفين ، وأما الصالحون والعباد والزهاد فهم محتاجون إلى الكرامة ليزداد إيقانهم ، وتطمئن نفوسهم إذ لم يرتفع عنهم الحجاب ، ولم تنقشع عنهم سحابة الأثر.

والهداية بيد اللّه ، كما قال تعالى :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٩٧ الى ٩٨]

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً (٩٧) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٩٨)

قلت : (عَلى وُجُوهِهِمْ) : حال من ضمير «نحشرهم». و(عُمْياً ..) إلخ : حال أيضا من ضمير «وُجُوهِهِمْ».

و(مَأْواهُمْ) : استئناف ، وكذا : (كُلَّما ..) إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ إلى الحق الذي جاء من قبله على أيدى الرسل ، فَهُوَ الْمُهْتَدِ إليه ، وإلى ما يؤدى إليه من الثواب ، أو فهو المهتدى إلى كل مطلوب ، وَمَنْ يُضْلِلْ أي : يخلق فيه الضلال ، كهؤلاء المعاندين ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ ينصرونهم من عذابه ، أو يهدونهم إلى

طريقه ، ويوصلونهم إلى مطالبهم الدنيوية والأخروية. ووحد الضمير أولا فى قوله : (فَهُوَ الْمُهْتَدِ) : مراعاة للفظ «من» ، وجمع ثانيا فى (لَهُمْ) مراعاة لمعناها تلويحا بوحدة طريق الحق ، وتعدد طرق الضلال.

وَنَحْشُرُهُمْ ، فيه التفات من الغيبة إلى التكلم إيذانا بكمال الاعتناء بأمر الحشر ، أي : ونسوقهم يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ أي : كابين عليها سحبا ، كقوله : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ «١» ، أو : مشيا إلى المحشر بعد القيام ، فقد روى أنه قيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : كيف يمشون على وجوههم؟ قال : «الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم» «٢». حال كونهم عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا لا يبصرون ما يقر أعينهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم ، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ، لمّا كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ، ولا ينطقون بالحق ولا يستمعونه. ويجوز أن يحشروا ، بعد الحساب ، من الموقف إلى النار ، مؤوفي «٣» القوى والحواس. وأن يحشروا كذلك ، ثم تعاد إليهم قواهم وحواسهم ، فإنّ إدراكاتهم بهذه المشاعر فى بعض المواطن مما لا ريب فيه.

---

(١) من الآية ٤٨ من سورة القمر.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٣٥٥٤) ، والترمذي وحسنه فى (التفسير - سورة الإسراء) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) مؤوفي : صيغة جمع مضافة ، من الآفة ، وهى العاهة. وأيف الزرع : أصابته آفة ، فهو مؤوف على وزن : معوف. انظر مختار الصحاح (أوف).

مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ هى مسكنهم ، كُلَّما خَبَتْ خمدت زِدْناهُمْ سَعِيراً توقدا ، أي : كلما سكن لهبها ، وأكلت جلودهم ولحومهم ، ولم يبق فيهم ما تتعلق به النار وتحرقه ، زدناهم توقدا بأن بدلناهم جلودا غيرها فعادت ملتهبة ومسعرة. ولعل ذلك عقوبة على إنكارهم البعث مرة بعد مرة ، ليروها عيانا ، حيث لم يعلموها برهانا ، كما يفصح عنه قوله : ذلِكَ أي : ذلك العذاب جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ بسبب أنهم كَفَرُوا بِآياتِنا العقلية والنقلية ، الدالة على وقوع الإعادة دلالة واضحة. وَقالُوا منكرين البعث أشد الإنكار : أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً أي : أنوجد خلقا جديدا بعد أن صرنا ترابا؟ و«خَلْقاً» : إما مصدر مؤكد من غير لفظه ، أي : لمبعوثون مبعثا جديدا ، أو حال ، أي : مخلوقين مستأنفين.

الإشارة : من يهده اللّه إلى صريح المعرفة وسر الخصوصية فهو المهتد إليها ، يهديه أولا إلى صحبة

أهلها ، فإذا تربى وتهذب أشرقت عليه أنوارها. ومن يضلله عنها ، فلا ينظر ولا يهتدى إلى صحبة أهلها ، فيحشر يوم القيامة محجوبا عن اللّه ، كما عاش محجوبا. يموت المرء على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه ، لا يبصر أسرار الذات فى مظاهر النعيم ، ولا ينطق بالمكالمة مع الرحمن الرحيم ، ولا يسمع مكالمة الحق مع المقربين وذلك بسبب إنكاره لأهل التربية فى زمانه ، وقال : لا يمكن أن يبعث اللّه من يحيي الأرواح الميتة بالجهل بالمعرفة الكاملة.

وفيه إنكار لعموم القدرة الأزلية ، وتحجير على الحق. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر دلائل عموم قدرته ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٩٩ الى ١٠٠]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (١٠٠)

قلت : (وَ جَعَلَ)

: عطف على «قادِرٌ» لأنه فى قوة قدر ، أو استئناف. و(لَوْ أَنْتُمْ) : الضمير : فاعل بفعل يفسره ما بعده ، كقول حاتم :

لو ذات سوار لطمتنى «١».

وفائدة ذلك الحذف والتفسير للدلالة على الاختصاص والمبالغة. وقيل فى إعرابه غير هذا.

---

(١) مثل لحاتم الطائي ، انظر ديوانه (٢٦).

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أي : أو لم يتفكروا ولم يعلموا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ من غير مادة ، مع عظمها ، قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ فى الصّغر والحقارة. على أن المثل مقحم ، أي : على أن يخلقهم خلقا جديدا فإنهم ليسوا أشد خلقا منهم ، ولا الإعادة بأصعب من الإبداء ، وَجَعَلَ لَهُمْ أي : لموتهم وبعثهم أَجَلًا محققا لا رَيْبَ فِيهِ وهو : القيامة. فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً إلا جحودا ، وضع الظاهر موضع الضمير تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيه.

قُلْ لهم : لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي خزائن رزقه وسائر نعمه التي أفاضها على كافة الموجودات ، إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ لبخلتم ، خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ مخافة النفاد بالإنفاق ، إذ ليس فى الدنيا أحد إلا وهو يختار

النفع لنفسه ، ولو آثر غيره بشيء فإنما يؤثره لغرض يفوقه ، فهو إذا بخيل بالإضافة إلى جود اللّه سبحانه ، إلا من تخلق بخلق الرحمن من الأنبياء وأكابر الصوفية. وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً مبالغا فى البخل لأن مبنى أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج إليه ، وملاحظة العوض فيما يبذل. يعنى : أن طبع الإنسان ومنتهى نظره : أن الأشياء تتناهى وتفنى ، وهو لو ملك خزائن رحمة اللّه لأمسك خشية الفقر ، وكذلك يظن أن قدرة اللّه تقف دون البعث ، والأمر ليس كذلك ، بل قدرته لا تتناهى ، فهو يخترع من الخلق ما يشاء ، ويخترع من الأرزاق ما يريد ، فلا يخاف نفاد خزائن رحمته. وبهذا النظر تتصل الآية بما قبلها. انظر ابن عطية.

قلت : ويمكن أن تتصل فى المعنى بقوله : (أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا) ، فكأنّ الحق تعالى يقول لهم : لو كانت بيدكم خزائن رحمته ، لخصصتم بالنبوة من تريدون ، لكن ليست بيدكم ، ولو كانت بيدكم تقديرا ، لأمسكتم خشية الإنفاق لأن طبع الإنسان البخل وخوف الفقر ، فهو كقوله تعالى : أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ «١» ، بعد قوله : وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ «٢». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الحق تعالى قادر على أن يخلق ألف عالم فى لحظة ، وأن يفنى ألف عالم فى لحظة ، فلا يعجزه شيء من الممكنات. وكما قدر أن يحيي الإنسان بعد موته الحسى هو قادر على أن يحييه بعد موته المعنوي بالجهل والغفلة ، على حسب ما سبق له فى المشيئة ، وجعل لذلك أجلا لا ريب فيه ، فلا يجحد هذا إلا من كان ظالما كفورا.

قل لمن يخصص الولاية بنفسه ، أو بأسلافه ، وينكر أن يفتح اللّه على قوم كانوا جهالا : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم الخصوصية عندكم خشية أن ينفد ما عندكم ، وكان الإنسان قتورا ، لا يحب الخير إلا لنفسه.

---

(١) الآية ٩ من سورة ص.

(٢) الآية ٤ من سورة ص.

ثم سلّى رسوله صلى اللّه عليه وسلم عما اقترحوا عليه من الآيات تشغيبا وعنادا ، بما جرى لموسى عليه السّلام مع قومه ، بعد ظهور الآيات ، فلم تنفعهم شيئا ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١٠١ الى ١٠٤]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً (١٠١) قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (١٠٢) فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (١٠٣) وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (١٠٤)

قلت : قال فى الأساس : ثبره اللّه : أهلكه هلاكا دائما ، لا ينتعش بعده ، ومن ثم يدعو أهل النار : وا ثبوراه. وما ثبرك عن حاجتك : ما ثبطك عنها. وهذا مثبر فلانة : لمكان ولادتها ، حيث يثبرها النفاس.

وفى القاموس : الثبر :

الحبس والمنع ، كالتثبير والصرف عن الأمر وعن الحبيب ، واللعن والطرد. والثبور : الهلاك والويل والإهلاك. هـ.

و(إِذْ جاءَهُمْ) : إما متعلق بآياتنا ، أو بقلنا محذوف.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ واضحات الدلالة على نبوته ، وصحة ما جاء به من عند اللّه. وهى : العصا ، واليد ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطوفان ، والسنون ، ونقص الثمرات. وقيل : انفجار الماء من الحجر ، ونتق الطور ، وانفلاق البحر ، بدل الثلاث. وفيه نظر فإن هذه الثلاث لم تكن لفرعون ، وإنما كانت بعد خروج سيدنا موسى عليه السّلام.

وعن صفوان بن عسال : أن يهوديا سأل النبي صلى اللّه عليه وسلم عنها فقال : «ألّا تشركوا به شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النّفس التي حرّم اللّه إلّا بالحقّ ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الرّبا ، ولا تمشوا ببريء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا المحصنة ، ولا تفرّوا من الزّحف ، وعليكم ، خاصّة اليهود ، ألّا تعدوا فى السّبت». فقبّل اليهودي يده ورجله - عليه الصلاة والسلام «١».

قلت : ولعل الحق تعالى أظهر لهم تسعا ، وكلفهم بتسع ، شكرا لما أظهر لهم ، فأخبر - عليه الصلاة والسلام - السائل عما كلفهم به لأنه أهم ، وسكت عما أظهر لهم لأنه معلوم. وإنما قبّل السائل يده لموافقته لما فى التوراة ، وقد علم أنه ما علمه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلا بالوحى ، وقوله عليه الصلاة والسلام : «وعليكم ، خاصة اليهود ، ألا تعدوا» ، حكم مستأنف زائد على الجواب ، ولذلك غيّر فيه سياق الكلام.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الاستئذان ، باب ما جاء فى قبلة اليد والرجل) ، وقال : حسن صحيح. والنسائي فى (تحريم الدم ، باب السحر) ، والإمام أحمد (٤/ ٢٣٩) والحاكم وصححه فى (الإيمان ١/ ٩).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٣٩

قال تعالى : فَسْئَلْ «١» بَنِي إِسْرائِيلَ أي : سل ، يا محمد ، بنى إسرائيل المعاصرين لك عما ذكرنا من قصة موسى لتزداد يقينا وطمأنينة ، أو : ليظهر صدقك لعامة الناس ، أو : قلنا لموسى : سل بنى إسرائيل من فرعون ، أي : اطلبهم منه ليرسلهم معك ، أو سل بنى إسرائيل أن يعضدوك ويكونوا معك. ويؤيد هذا : قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «فسل» على صيغة الماضي ، بغير همز ، وهى لغة قريش. إِذْ جاءَهُمْ أي : آتينا موسى تسع آيات حين جاءهم بالرسالة ، أو قلنا له : سل بنى إسرائيل حين جاءهم بالوحى. فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ حين أظهر له ما آتيناه من الآيات ، وبلغة ما أرسل به : إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً أي : سحرت فتخبط عقلك.

قالَ له موسى : لَقَدْ عَلِمْتَ يا فرعون ، ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ الآيات التي ظهرت على يدى إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ خالقهما ومدبرهما ، ولا يقدر عليها غيره ، حال كونها بَصائِرَ بينات تبصرك صدقى ، ولكنك تعاند وتكابر ، وقد استيقنتها أنفسكم ، فجحدتم ظلما وعلوا ، وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً أي : مهلكا مقطوعا دابرك ، أو مغلوبا مقهورا ، أو مصروفا عن الخير. قابل موسى عليه السّلام قول فرعون : إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً بقوله : وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً وشتان ما بين الظنين ظنّ فرعون إفك مبين ، وظن موسى حق اليقين لأنه بوحي من رب العالمين ، أو من تظاهر أماراته.

فَأَرادَ فرعون أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ أي : يستخفهم ويزعجهم مِنَ الْأَرْضِ أرض مصر ، فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً فعكسنا عليه علمه ومكره ، فاستفززناه وقومه من بلده بالإغراق. وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ من بعد إغراقه لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ التي أراد أن يستفزكم هو منها. أو أرض الشام. وهو الأظهر ، إذ لم يصح أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر بالسكنى. وانظر عند قوله : وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ «٢» فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ أي : الحياة الآخرة ، أو الدار الآخرة ، أي : قيام الآخرة ، جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً مختلطين إياكم وإياهم ، ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم. واللفيف : الجماعات من قبائل شتى. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا ينفع فى أهل الحسد والعناد ظهور معجزة ولا آية ، ولا يتوقف عليها من سبقت له العناية ، لكنها تزيد تأييدا ، وطمأنينة لأهل اليقين ، وتزيد نفورا وعنادا ، لأهل الحسد من المعاندين. وباللّه التوفيق.

---

(١) قرأ ابن كثير والكسائي : «فسل» بنقل حركة الهمزة إلى السين. وقرأ الباقون : (فَسْئَلْ). انظر الإتحاف ٢/ ٢٠٦.

(٢) الآية ٥٩ من سورة الشعراء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٤٠

ولما ذكر آية موسى عليه السّلام ذكر آية نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم وهو القرآن ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١٠٥ الى ١٠٩]

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (١٠٥) وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (١٠٩)

قلت : تقديم المعمول ، وهو (بِالْحَقِّ) : يؤذن بالحصر. و(قُرْآناً) : مفعول بمحذوف يفسره ما بعده.

يقول الحق جل جلاله فى شأن القرآن : وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ أي : ما أنزلنا القرآن إلا ملتبسا بالحق ، المقتضى لإنزاله ، وما نزل إلا بالحق الذي اشتمل عليه من الأمر والنهى ، والمعنى : أنزلناه حقا مشتملا على الحق. أو : ما أنزلناه من السماء إلا محفوظا بالرصد من الملائكة ، وما نزل على الرسول إلا محفوظا من تخليط الشياطين. ولعل المراد : عدم اعتراء البطلان له أولا وآخرا. وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً للمطيعين بالثواب ، وَنَذِيراً للعاصين بالعقاب ، وهو تحقيق لحقية بعثه - عليه الصلاة والسلام - إثر تحقيق حقية إنزال القرآن.

وَقُرْآناً فَرَقْناهُ أي : أنزلناه مفرقا منجما فى عشرين سنة ، أو ثلاث وعشرين. قال القشيري : فرق القرآن ليهون حفظه ، ويكثر تردد الرسول عليه من ربه ، وليكون نزوله فى كل وقت ، وفى كل حادثة وواقعة دليلا على أنه ليس مما أعانه عليه غيره. هـ. لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ على مهل وتؤدة وتثبت فإنه أيسر للحفظ ، وأعون على الفهم ، وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، والحوادث الواقعة.

قُلْ للذين كفروا : آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا ، فإنّ إيمانكم لا يزيده كمالا ، وامتناعكم منه لا يزيده نقصانا. أو : أمر باحتقارهم وعدم الاكتراث بهم ، كأنه يقول : سواء آمنتم به أو لم تؤمنوا لأنكم لستم بحجة ، وإنما الحجة لأهل العلم ، وهم : المؤمنون من أهل الكتاب ، الذين أشار إليهم بقوله : إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ أي : العلماء الذين قرأوا الكتب السالفة من قبل تنزيله ، وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة ، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل ، والمحق والمبطل ، إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ القرآن يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ أي : يسقطون على وجوههم سُجَّداً تعظيما لأمر للّه ، أو شكرا لإنجازه ما وعد فى تلك الكتب من نعتك ، وإظهارك ، وإنزال القرآن عليك.

والأذقان : جمع ذقن ، وهو : أسفل الوجه حيث اللحية. وخصها بالذكر لأنها أول ما تلقى فى الأرض من وجه الساجد. والجملة : تعليل لما قبلها من قوله : آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا من عدم المبالاة. والمعنى : إن لم تؤمنوا

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٤١

فقد آمن من هو أعلى منكم وأحسن إيمانا منكم. ويجوز أن يكون تعليلا لقل ، على سبيل التسلية للرسول - عليه الصلاة السلام ، كأنه يقول : تسلّ بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ، ولا تكترث بإيمانهم وإعراضهم.

وَيَقُولُونَ فى سجودهم : سُبْحانَ رَبِّنا عن خلف وعده إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا أي : إن الأمر والشأن كان وعد ربنا مفعولا لا محالة ، وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ كرره لاختلاف السبب ، فإن الأول : لتعظيم اللّه وشكر إنجاز وعده. والثاني : لما أثر فيهم من مواعظ القرآن ، يَبْكُونَ : حال ، أي : حال كونهم باكين من خشية اللّه ، وَيَزِيدُهُمْ القرآن خُشُوعاً ، كما يزيدهم علما باللّه تعالى.

الإشارة : وبالحق أنزلناه ، أي بالتعريف بأسرار الربوبية ، وبالحق نزل لتعليم آداب العبودية. أو : بالحق أنزلناه ، يعنى : علم الحقيقة ، وبالحق نزل علم الشريعة والطريقة. وما أرسلناك إلا مبشرا لأهل الإخلاص بالوصول والاختصاص ، ونذيرا لأهل الخوض بالطرد والبعد. وقرآنا فرقناه ، لتقرأه نيابة عنا ، كى يسمعوه منا بلا واسطة ، عند فناء الرسوم والأشكال ، ونزّلناه ، للتعريف بنا تنزيلا ، قل آمنوا به لتدخلوا حضرتنا ، أو لا تؤمنوا ، فإن أهل العلم بنا قائمون بحقه ، خاشعون عند تلاوته ، متنعمون بشهودنا عند سماعه منا. وباللّه التوفيق.

ولما كان القرآن مشتملا على أسماء كثيرة من أسماء اللّه الحسنى ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول فى دعائه :

«يا اللّه ، يا رحمن» ، قالوا : إنه ينهانا عن عبادة إلهين ، وهو يدعو إلها آخر. وقالت اليهود : إنك لتقل ذكر الرحمن ، وقد أكثر اللّه تعالى ذكره فى التوراة ، فأنزل اللّه ردا على الفريقين :

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى ...

قلت : «أي» : شرطية ، و(ما) : زائدة تأكيدا لما فى «أيا» من الإبهام ، وتقدير المضاف : أىّ الأسماء تدعو به فأنت مصيب.

يقول الحق جل جلاله : قُلِ يا محمد للمؤمنين : ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ نادوه بأيهما شئتم ، أو سموه بأيهما أردتم. والمراد : إما التسوية بين اللفظين فإنهما عبارتان عن ذات واحد ، وإن اختلف الاعتبار ، والتوحيد إنما هو للذات ، الذي هو المعبود بالحق ، وإما أنهما سيان فى حسن الإطلاق والوصول إلى المقصود ، فلذلك قال : أَيًّا ما تَدْعُوا أىّ اسم تدعوا به تصب ، فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فيكون الجواب محذوفا ، دلّ عليه الكلام. وقيل : التقدير أياما تدعو به فهو حسن ، فوضع موضعه : فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه إذ حسن جميع الأسماء يستدعى حسن

ذينك الاسمين ، وكونها حسنى لدلاتها على صفات الكمال من الجلال والجمال إذ كلها راجعة إلى حسن ذاتها ، وكمالها جمالا وجلالا.

(٢٤١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٤٢

قال فى شرح المواقف : ورد فى الصحيحين : «إنّ للّه تسعة وتسعين اسما ، مائة إلّا واحدا ، من أحصاها دخل الجنّة» «١» ، وليس فيها تعيين تلك الأسماء. لكن الترمذي والبيهقي عيّناها. وهى الطريقة المشهورة ، ورواية الترمذي : «اللّه الذي لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ المصور ، الغفار القهار ، الوهاب الرزاق ، الفتاح العليم ، القابض الباسط ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، السميع البصير ، الحكم العدل ، اللطيف الخبير ، الحليم العظيم ، الغفور الشكور ، العلى الكبير ، الحفيظ المقيت ، الحسيب الجليل ، الكريم الرقيب ، المجيب ، الواسع الحكيم ، الودود المجيد ، الباعث الشهيد ، الحق الوكيل ، القوى المتين ، الولي الحميد ، المحصى المبدئ المعيد ، المحيي المميت ، الحي القيوم ، الواجد الماجد ، الواحد ، الأحد الصمد ، القادر المقتدر ، المقدم المؤخر ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الوالي المتعالي ، البر التواب ، المنتقم العفو الرؤوف ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام ، المقسط الجامع ، الغنى المغني المانع ، الضار النافع ، النور الهادي ، البديع الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور» «٢».

وقد ورد التوقيف بغيرها ، أمّا فى القرآن فكالمولى ، والنصير والغالب ، والقاهر والقريب ، والرب والأعلى ، والناصر والأكرم ، وأحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين ، وذى الطول ، وذى القوة ، وذى المعارج ، وغير ذلك. وأما فى الحديث ، فكالمنان ، والحنان ، وقد ورد فى رواية ابن ماجة «٣» أسماء ليست فى الرواية المشهورة كالقائم ، والقديم ، والوتر ، والشديد ، والكافي ، وغيرها.

وإحصاؤها : إما حفظها لأنه إنما يحصل بتكرار مجموعها وتعدادها مرارا ، وإما ضبطها حصرا وعلما وإيمانا وقياما بحقوقها ، وإما تعلقا وتخلقا وتحققا. وقد ذكرنا فى شرح الفاتحة الكبير كيفية التعلق والتخلق والتحقق بها.

وفى ابن حجر : أن اسماء اللّه مائة ، استأثر اللّه بواحد ، وهو الاسم الأعظم ، فلم يطلع عليه أحدا ، فكأنه قيل : مائة لكن واحد منها عند اللّه. وقال غيره : ليس الاسم الذي يكمل المائة مخفيا ، بل هو الجلالة. وممن جزم بذلك البيهقي ، فقال : الأسماء الحسنى مائة ، على عدد درجات الجنة ، والذي يكمل المائة : «اللّه» ، ويؤيده قوله تعالى : وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى «٤». فالتسعة والتسعون للّه فهى

زائدة عليه وبه تكمل المائة. هـ.

---

(١) أخرجه البخاري (الدعوات ، باب للّه مائة اسم غير واحد) ، ومسلم فى (الذكر ، باب فى أسماء اللّه تعالى ...) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.
(٢) أخرجه الترمذي فى (الدعوات ، باب ٨٣). وأخرج البيهقي روايته فى (السنن الكبرى ، كتاب الإيمان ، باب أسماء الله عز وجل ثناؤه) من حديث أبى هريرة. [.....]
(٣) أخرجها فى (الدعاء ، باب أسماء الله عز وجل).
(٤) من الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

قلت : ولعله ذكر اسما آخر يكمل التسعة والتسعين. وإلا فهو مذكور فى الرواية المتقدمة من التسعة والتسعين.
واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ) ، قال الورتجبي : إن اللّه سبحانه دعا عباده إلى معرفة الاسمين الخاصين ، اللذين فيهما أسرار جميع الأسماء والصفات والذات ، والنعوت والأفعال فاللّه اسمه ، وهو اسم عين جمع الجمع ، والرحمن اسم عين الجمع فالرحمن مندرج تحت اسمه : «الله» لأنه عين الكل ، وإذا قلت : اللّه ذكرت عين الكل. ثم قال : وإذا قال «الله» يفنى الكل ، وإذا قال : «الرحمن» يبقى الكل ، من حيث الاتصاف والاتحاد ، فالاتصاف بالرحمانية يكون ، والاتحاد بالألوهية يكون. ثم قال : عن الأستاذ : من عظيم نعمه سبحانه على أوليائه : أنه ينزههم بأسرارهم فى رياض ذكره بتعداد أسمائه الحسنى ، فيتنقلون من روضة إلى روضة ، ومن مأنس إلى مأنس ، ويقال :
الأغنياء تنزههم فى بساتينهم ، وتنزههم فى منابت رياحينهم. والفقراء تنزههم فى مشاهد تسبيحهم ، ويستروحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله. هـ. قلت : والعارفون تنزههم فى مشاهدة أسرار محبوبهم ، وما يكشف لهم من روض جماله وجلاله. وباللّه التوفيق.
ثم أمره بإخفاء قراءته عن المشركين لئلا يسبوا القرآن ومن جاء به ، فقال :
[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١١٠ الى ١١١]
قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ

يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (١١١)

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَجْهَرْ بقراءة صلاتك ، بحيث تسمع المشركين ، فإن ذلك يحملهم على السب واللغو فيها ، وَلا تُخافِتْ أي : تسر بِها حتى لا تسمع من خلفك من المؤمنين ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا واطلب بين المخافتة والإجهار طريقا قصدا ، فإنّ خير الأمور أوسطها. والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه طريق يتوجه إليه المتوجهون ، ويؤمه المقتدون ليوصلهم إلى المطلوب. روى أن أبا بكر رضي اللّه عنه كان يخفت ، ويقول : أناجى ربّى ، وقد علم حاجتى. وعمر رضي اللّه عنه كان يجهر ، ويقول : أطرد الشّيطان وأوقظ الوسنان. فلما نزلت ، أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أبا بكر أن يجهر قليلا ، وعمر أن يخفض قليلا «١».

وقيل : المعنى : وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ كلها ، وَلا تُخافِتْ بِها بأسرها ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا بالمخافتة نهارا والجهر ليلا. وقيل : (بِصَلاتِكَ) بدعائك. وذهب قوم إلى أنها منسوخة لزوال علة السب واللغو

---

(١) أخرجه بنحوه أبو داود فى (التطوع ، باب فى رفع الصوت بالقراءة فى صلاة الليل) ، والترمذي فى (المواقيت ، باب ما جاء فى قراءة الليل) عن أبى قتادة.

بإظهار الدين وإخفاء الشرك وبطلانه فالحمد للّه على ذلك كما قال تعالى : وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مدلج حيث قالوا : عزيز ابن اللّه ، والمسيح ابن اللّه ، والملائكة بنات اللّه. تعالى اللّه عن قولهم علوا كبيرا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ فى الألوهية كما تقول الثنوية القائلون بتعدد الآلهة.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ أي : لم يكن له ناصر ينصره (مِنَ الذُّلِّ) أي : لم يذل فيحتاج إلى ولي يواليه ليدفع ذلك عنه. وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد من هذه نعوته ، دون غيره إذ بذلك يتم الكمال ، وما عداه ناقص حقير ، ولذلك عطف عليه : وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً عظيما ، وفيه تنبيه على أن العبد وإن بالغ فى التنزيه والتمجيد ، واجتهد فى العبادة والتحميد ، ينبغى أن يعترف بالقصور عن حقه فى ذلك. روى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علّمه هذه الآية : (وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ...) إلخ «١». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الإجهار بالذكر والقراءة والدعاء ، مباح لأهل البدايات ، لمن وجد قلبه فى ذلك ، وأما النهى الذي فى الآية فمنسوخ لأن الصحابة ، حين هاجروا من مكة ، رفعوا أصواتهم بالقراءة والتكبير. لكن

المداومة عليه من شأن أهل البعد عن الحضرة ، وأما أهل القرب فالغالب عليهم السكوت أو المخافتة قال تعالى : وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً «٢». وأما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام لأبى بكر رضي اللّه عنه بالإجهار قليلا ، وعمر بالخفض قليلا فإخراج لهم عن مرادهم تربية لهم. وختم السورة بآية العز إشارة إلى أن من أسرى بروحه ، أو بجسده إلى الملأ الأعلى كان عاقبته العز والرفعة فى الدارين.

---

(١) أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (باب ما يلقن الصبى إذا أفصح بالكلام) ، من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده.

(٢) من الآية ١٠٨ من سورة طه.

سورة الكهف

مكية. وهى مائة وإحدى عشرة آية ، أو خمس عشرة. ووجه المناسبة لما قبلها : أنه لمّا أمر نبيه صلى اللّه عليه وسلم بالحمد للّه على كمال تنزيهه ، أخبر أنه يستحق ذلك لإنعامه بأجلّ النعم ، وهو إنزال الكتاب العزيز ، الذي هو سبب الهداية الموصلة إلى النعيم المقيم. أو تكون تتميما لقوله : وَقُرْآناً فَرَقْناهُ ... «١» إلخ.

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (١) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (٢) ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (٤)

ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً (٥)

قلت : (قَيِّماً) : حال من الكتاب ، والعامل فيه : «أَنْزَلَ» ، ومنعه الزمخشري للفصل بين الحال وذى الحال ، واختار أن العامل فيه مضمر ، تقديره : جعله قيّما ، و«لِيُنْذِرَ» : يتعلق بأنزل ، أو بقيّما. والفاعل : ضمير الكتاب ، أو النبي صلى اللّه عليه وسلم ، و«بَأْساً» : مفعول ثان ، وحذف الأول ، أي : لينذر الناس بأسا ، كما حذف الثاني من قوله : (وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا ...) إلخ لدلالة هذا عليه ، و(مِنْ عِلْمٍ) : مبتدأ مجرور بحرف زائد ، أو فاعل بالمجرور لاعتماده على النفي ، و«كَلِمَةً» : تمييز.

يقول الحق جل جلاله : الْحَمْدُ لِلَّهِ أي : الثناء الجميل حاصل للّه ، والمراد : الإعلام بذلك للإيمان به ، أو الثناء على نفسه ، أو هما معا. ثم ذكر وجه استحقاقه له ، فقال : الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ أي : الكتاب الكامل المعروف بذلك من بين سائر الكتب ، الحقيق باختصاص اسم الكتاب ، وهو جميع القرآن. رتّب استحقاق الحمد على إنزاله تنبيها على أنه أعظم نعمائه ، وذلك لأنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد ، والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد.

وفى التعبير عن الرسول صلى اللّه عليه وسلم بالعبد ، مضافا إلى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه صلى اللّه عليه وسلم إلى معاريج العبادة وكمال العبودية أقصى غاية الكمال ، حيث كان فانيا عن حظوظه ، قائما بحقوقه ، خالصا فى عبوديته لربه.

---

(١) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء.

(٢٤٥/٣)

وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ أي : للكتاب عِوَجاً شيئا من العوج ، باختلاف فى اللفظ ، وتناقض فى المعنى ، وانحراف فى الدعوة. قال القشيري : صانه عن التناقض والتعارض ، فهو كتاب عزيز من ربّ عزيز ، ينزل على عبد عزيز.

قَيِّماً : مستقيما متناهيا فى الاستقامة ، معتدلا لا إفراط فيه ولا تفريط ، فهو تأكيد لما دل عليه نفى العوج ، مع إفادته كون ذلك من صفاته الذاتية ، حسبما تنبئ عنه الصيغة. أو قيّما بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد ، على ما ينبئ عنه ما بعده من الإنذار والتبشير ، فيكون وصفا له بالتكميل ، بعد وصفه بالكمال ، أو : قيّما على ما قبله من الكتب السماوية ، وشاهدا بصحتها ومهيمنا عليها. لِيُنْذِرَ : ليخوّف اللّه تعالى به ، أو الكتاب ، والأول أولى لتناسب المعطوفين بعده ، أي : أنزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا بَأْساً : عذابا شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ أي :

صادرا من عنده ، نازلا من قبله ، فى مقابلة كفرهم وتكذيبهم.

وَيُبَشِّرَ- بالتشديد والتخفيف ، الْمُؤْمِنِينَ : المصدقين به ، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ أي : العمال الصَّالِحاتِ التي تنبثّ فى تضاعيفه أَنَّ لَهُمْ أي : بأن لهم فى مقابلة إيمانهم وأعمالهم أَجْراً حَسَناً ، هو الجنة وما فيها من المثوبات الحسنى ، ماكِثِينَ فِيهِ أي : فى ذلك الأجر أَبَداً على سبيل الخلود. والتعبير بالمضارع فى الصلة- أعنى : الذين يعملون- للإشعار بتجدد الأعمال الصالحات واستمرارها ، وإجراء الموصول على الموصوف بالإيمان إيماء بأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان.

وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه ، مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية. وتكرير الإنذار بقوله تعالى : وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً : متعلق بفرقة خاصة ، ممن عمّه الإنذار السابق ، من مستحقى البأس الشديد للإيذان بكمال فظاعة حالهم ، لغاية شناعة كفرهم وضلالهم ، أي :

وينذر ، من بين سائر الكفرة ، هؤلاء المتفوهين بمثل هذه القولة العظيمة ، وهم كفار العرب الذين قالوا : الملائكة بنات اللّه ، واليهود القائلون : عزير ابن اللّه ، والنصارى القائلون : المسيح ابن اللّه.

ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ أي : ما لهم باتخاذه الولد شيء من علم أصلا لضلالهم وإضلالهم ، وَلا لِآبائِهِمْ الذين قلدوهم ، فتاهوا جميعا فى تيه الجهالة والضلالة ، أو : ما لهم علم بما قالوا ، أصواب أم خطأ ، بل إنما قالوه رميا بقول عن عمى وجهالة ، من غير فكر ولا روية ، كقوله تعالى : خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ «١». أو : ما لهم علم بحقيقة ما قالوا ، وبعظم رتبته فى الشناعة ، كقوله تعالى : وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ، تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ «٢» ، وهو الأنسب لقوله كَبُرَتْ كَلِمَةً أي : عظمت مقالتهم هذه فى الكفر والافتراء لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائه لما فيه من التشبيه والتشريك ، وإيهام احتياجه تعالى إلى ولد يعينه ويخلفه. فما أقبحها مقالة تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ أي : يتفوهون

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة الأنعام.

(٢) الآيات : ٨٨- ٩٠ من سورة مريم.

بها من غير حقيقة ولا تحقيق لمعناها ، إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً : ما يقولون فى ذلك إلا قولا كذبا ، لا يكاد يدخل فيه إمكان الصدق أصلا.

الإشارة : من كملت عبوديته للّه ، وصار حرا مما سواه ، بحيث تحرر من رق الأكوان ، وأفضى إلى مقام الشهود والعيان ، أنزل اللّه على قلبه علم التحقيق ، وسلك به منهاج أهل التوفيق ، منهاجا قيما ، لا إفراط فيه ولا تفريط ، محفوظا فى باطنه من الزيغ والإلحاد ، وفى ظاهره من الفساد والعناد ، قد تولى اللّه أمره وأخذه عنه ، فهو على بينة من ربه فيما يأخذ ويذر. فإن أذن له فى التذكير وقع فى مسامع الخلق عبارته ، وجليت إليهم إشارته ، فبشّر وأنذر ، ورغّب وحذّر ، يبشر أهل التوحيد والتنزيه بنعيم الجنان ، وبالنظر إلى وجه الرحمن ، وينذر أهل الشرك بعذاب النيران ، وبالذل والهوان ، نعوذ

بالله من موارد الفتن.

ولمّا كانت قريش تتفوه بشيء من هذه الكلمات ، التي شنّع الله على من تفوه بها ، وكان عليه الصلاة والسلام يتأسف من ذلك ، خفف عنه ذلك ، وأمره بالتسلي عنهم ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٦ الى ٨]

فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (٦) إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (٨)

قلت : (أسفا) : مفعول من أجله لباخع ، أو حال ، أي : متأسفا ، وجواب «إن» : محذوف ، أي : إن لم يؤمنوا فلعلك باخع نفسك.

يقول الحق جل جلاله : فَلَعَلَّكَ يا محمد باخِعٌ : مهلك نَفْسَكَ وقاتلها بالغم والأسف على تخلف قومك عن الإيمان وفراقهم عنك ، عَلى آثارِهِمْ إذا تولوا عنك ، عند ما تدعوهم إلى الله. شبهه ، لأجل ما تداخله من الوجد على توليتهم ، بمن فارقته أعزته ، وهو يتحسر على آثارهم ، ويبخع نفسه وجدا عليهم. إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أي : القرآن الذي عبّر عنه فى صدر السورة بالكتاب ، صدر ذلك منك أَسَفاً أي :

بفرط الحزن والتأسف عليهم.

ثم علل وجه إدبارهم عن الإيمان ، وهو اغترارهم بزهرة الدنيا ، فقال : إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ من الأشجار والأزهار والثمار ، وما اشتملت عليه من المعادن ، وأنواع الملابس والمطاعم ، والمراكب والمناكح ، زِينَةً لَها أي : مبهجة لها ، يستمتع بها الناظرون ، وينتفعون بها مأكلا وملبسا ، ونظرا واعتبارا ، حتى إن الحيّات والعقارب من حيث تذكيرها بعذاب الآخرة ، من قبيل المنافع ، بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على الصانع ، وكذلك الأزواج والأولاد ، بل هم من أعظم زينتها ، داخلون تحت الابتلاء. جعلنا ذلك لِنَبْلُوَهُمْ :

لنختبرهم ، حتى يظهر ذلك للعيان ، أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، أيهم أزهد فيها ، وأقبلهم على الله بالعمل الصالح إذ لا عمل أحسن من الزهد فى الدنيا إذ هو سبب للتفرغ لأنواع العبادة ، بدنية وقلبية.

قال أبو السعود : وحسن العمل : الزهد فيها ، وعدم الاكتراث بها ، والقناعة باليسير منها ، وصرفها على ما ينبغي ، والتأمل فى شأنها ، وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها ، والتمتع بها حسبما أذن الشرع ، وأداء حقوقها ، والشكر على نعمها ، لا جعلها وسيلة إلى الشهوات ، والأغراض الفاسدة ، كما يفعله

الكفرة وأهل الأهواء .. انظر بقية كلامه.

وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها عند تناهى الدنيا ، صَعِيداً جُرُزاً أي : ترابا يابسا ، لا نبات فيه ، بعد ما كان يتعجب من بهجته النظار ، ويتشرف بمشاهدته الأبصار ، فلا يغتر بما يذهب ويفنى إلا من لا عقل له ، فلا تستغرب إدبارهم ، إذ لا عقل لهم.

ويحتمل أن يكون تسلية للنبى صلى اللّه عليه وسلم من حيث إنه أرشده إلى شهود تدبير الحق ، فيسلو ، بذلك ، عن إعراضهم لغيبته فى المصور المدبر عن الصور ، وعن الزينة فى المزيّن ، فالكون مظهر الصفات ومرآتها ، ويغيب فى الذات- التي هى معدنها- بإفناء الظاهر ، وإفناء الأفعال ، كما نبّه عليه بقوله : وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ... إلخ.

الإشارة : الخصوصية- من حيث هى- لها بداية ونهاية ، فمن شأن أهل بدايتها : الحرص على الخير لهم ولعباد اللّه ، فيتمنون أن الناس كلهم خصوص أو صالحون ، فإذا رأوا الناس أعرضوا عنها تأسفوا عليهم ، وإذا أقبلوا عليهم فرحوا من أجلهم ، زيادة فى الهداية لعباد اللّه ، فإذا تمكنوا منها ورسخت أقدامهم فيها ، وحصل لهم الفناء الأكبر ، لم يحرصوا على شىء ، ولم يتأسفوا من فوات شىء ، لهم ولغيرهم. وقد يتوجه العتاب لهم على الحرص فى بدايتهم تكميلا لهم ، وترقية إلى المقام الأكمل.

وقوله تعالى : إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ ... إلخ ، هو حكمة تخلف الناس عن الخصوصية ، حتى يتميز الطالب لها من المعرض عنها ، فمن أقبل على زينة الدنيا وزهرتها ، فاتته الخصوصية ، وبقي من عوام الناس ، ومن أعرض عنها وعن بهجتها ، وتوجه بقلبه إلى اللّه ، كان من المخصوصين بها ، المقربين عند اللّه.

وهذا هو أحسن الأعمال التي اختبر اللّه به عباده بقوله : لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وفى الحديث : «الدنيا مال من لا مال له ، لها يجمع من لا عقل له. وعليها يعادى من لا علم عنده» «١». وفى الزهد والترغيب أحاديث كثيرة مفردة بالتأليف ، وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٦/ ٧١) ، والبيهقي فى شعب الإيمان (باب فى الزهد/ ١٠٦٣٧) عن السيدة عائشة.

رضى الله عنها ، بدون العبارة الأخيرة.

ثم شرع فى قصة أهل الكهف المقصودة بالذات ، فقال

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٩ الى ١٢]

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً (١٠) فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (١١) ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً (١٢)

قلت : (أَمْ) : منقطعة مقدرة ببل ، التي هى للانتقال من حديث إلى حديث ، لا للإبطال ، والهمزة : للاستفهام عند الجمهور ، وبمعنى «بل» ، فقط ، عند غيرهم ، و(عَجَباً) : خبر كان ، و(مِنْ آياتِنا) : حال منه ، و(إِذْ أَوَى) : ظرف لعجبا ، لا لحسبت ، أو مفعول اذكر ، أي : اذكر هذا الوقت العجيب ، وهو حين التجأ الفتية إلى الكهف ، و(لَنا) و(مِنْ أَمْرِنا) : يتعلق ب (هَيِّئْ) ، و(أَيُّ الْحِزْبَيْنِ) : معلق لنعلم عن المفعولين لما فيه من معنى الاستفهام ، وهو مبتدأ ، و«أَحْصى » : خبره ، وهو فعل ماض ، و(أَمَداً) : مفعوله.

و(لِما لَبِثُوا) : حال منه ، أو مفعول «أَحْصى » ، واللام زائدة ، و(لِما) : موصولة ، و(أَمَداً) : تمييز ، وقيل : (أَحْصى) :

اسم تفضيل ، من الإحصاء بحذف الزوائد ، و(أَمَداً) : منصوب بفعل دل عليه أحصى ، أي : يحصى كقوله :

وأضرب منّا بالسّيوف القوانسا

«١» لأن اسم التفضيل لا ينصب المفعول به ، إجماعا ، ويجوز أن يكون تمييزا بعد اسم التفضيل.

يقول الحق جل جلاله : أَمْ حَسِبْتَ أي : ظننت يا محمد ، والمراد : حسبان أمته أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ ، وهو الغار الواسع فى الجبل. واختلف فى موضعه فقيل : بقرب فلسطين ، وقيل : بالأندلس بمقربة من لوشة فى جهة غرناطة. وذكر ابن عطية أنه دخل كهفهم ، وفيه موتى ، ومعهم كلبهم ، وعليهم مسجد ، وقريب منه بناء يقال له الرّقيم ، قد بقي موضع جدرانه ، وفى تلك الجهة آثار يقال لها : مدينة «دقيوس» ، واللّه أعلم. وقال ابن جزى : ومما يبعد ذلك ما روى أن معاوية مرّ عليهم ، وأراد الدخول إليهم ولم يدخل ، هيبة ، ومعاوية لم يدخل الأندلس قط ، وأيضا : فإن الموتى فى لوشة يراهم الناس ، ولا يدرك أحد الرعب الذي ذكر اللّه فى أهل الكهف. هـ.

---

(١) هذا عجز : صدره :

أكرّ وأحمى للحقيقة منهم

... وهو للعباس بن مرداس ... وقوله : القوانسا : جمع قونس ، وهو أعلى بيضة الرأس.

انظر : اللسان (قنس ٥/ ٣٧٥١) ، والمغني لابن هشام (٢/ ٧٠٩).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٥٠

والمشهور : أن الرقيم هو اللوح المكتوب فيه أسماؤهم وأنسابهم ، وكان جعل ذلك الكتاب فى خزانة الملك ، وهو لوح من رصاص أو حجر ، أمر بكتب أسمائهم فيه لما شكا قومهم فقدهم. وقيل : اسم كلبهم.

أي : أظننت أنهم كانُوا فى قصتهم مِنْ بين آياتِنا عَجَباً أي : كانوا عجبا دون باقى آياتنا ، ليس الأمر كذلك. والمعنى : أن قصتهم ، وإن كانت خارقة للعادة ، ليست بعجيبة ، بالنسبة إلى سائر الآيات التي من تعاجيبها ما ذكر من خلق اللّه تعالى على الأرض ، من الأجناس والأنواع الفائتة الحصر من مادة واحدة ، بل هى عندها كالنزر الحقير. وقال القشيري : أزال موضع الأعجوبة من أوصافهم ، بما أضاف إلى نفسه بقوله : (مِنْ آياتِنا) ، وقلب العادة من قبل اللّه غير مستنكر ولا مبتدع. هـ.

ثم ذكر أول قصتهم ، فقال : إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ : جمع فتى ، وهو الشاب الكامل ، أي : اذكر حين التجأ الفتية إلى الكهف ، هاربين بدينهم ، خائفين على إيمانهم من كفار قومهم ، ورأسهم «دقيانوس» ، على ما يأتى فى قصتهم.

فَقالُوا حين دخلوا الغار : رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ من مستبطن أمورك وخزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن أعين العادات ، رَحْمَةً خاصة تستوجب الرفق والأمن من الأعداء ، وَهَيِّئْ : أصلح لَنا مِنْ أَمْرِنا الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ومهاجرتهم ، رَشَداً : هداية نصير بها راشدين مهتدين ، أو : اجعل أمرنا كله رشدا وصوابا ، كقولك : لقيت منك أسدا ، فتكون من باب التجريد ، أو : إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب ، وأصل التهيئة : إحداث هيئة الشيء.

فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ أي : أنمناهم ، شبّه الإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها ، وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها فى الحجب عن الشعور عند النوم لأنها تحتاج إلى الحجب أكثر ، إذ هى الطريقة للتيقظ غالبا. والفاء فى (فَضَرَبْنا) : مثلها فى قوله : فَاسْتَجَبْنا لَهُ «١» ، بعد قوله : إِذْ نادى ، فإنّ الضرب المذكور ، وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال ، والبعث ، وغير ذلك ، إيتاء رحمة لدنّيّة خفية عن أبصار المستمسكين بالأسباب العادية استجابة لدعوتهم ، أي : فاستجبنا لهم وأنمناهم ، فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً أي : ذوات عدد ، أو تعدّ عددا ، أو معدودة ، ووصف السنين بذلك : إمّا للتكثير ، وهو الأنسب بكمال القدرة ، أو التقليل ، وهو الأليق بمقام إنكار كون القصة عجبا من سائر الآيات العجيبة فإن مدة لبثهم كبعض يوم عنده تعالى.

---

(١) من الآية ٩٠ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٥١

ثُمَّ بَعَثْناهُمْ أيقظناهم من تلك النومة الشبيهة بالموت ، لِنَعْلَمَ علم مشاهدة ، أي : ليتعلق علمنا تعلقا حاليا كتعلّقه أولا تعلقا استقباليا ، أَيُّ الْحِزْبَيْنِ : الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم المذكور فى قوله : قالُوا لَبِثْنا يَوْماً ... إلخ ، أَحْصى أي : أضبط لِما لَبِثُوا : للبثهم ، أَمَداً أي : غاية ، فيظهر بذلك عجزهم ، ويفوضوا ذلك إلى العليم الخبير ، ويتعرفوا حالهم وما صنع اللّه بهم ، من حفظ أبدانهم وأديانهم ، فيزدادوا يقينا بكمال قدرته وعلمه ، وليتيقنوا به أمر البعث ، ويكون ذلك لطفا بمؤمنى زمانهم ، وآية بينة لكفارهم ، وعبرة لمن يأتى بعدهم ، فهذه حكم إيقاظهم بعد نومهم ، واللّه عليم حكيم.

الإشارة : عادته تعالى فيمن انقطع إليه بكليته ، وآوى إلى كهف رعايته ، وأيس من رفق مخلوقاته ، أن يكلأه بعين عنايته ، ويرعاه بحفظ رعايته ، ويغيّب سمع قلبه عن صوت الأكدار ، ويصون عين بصيرته عن رؤية الأغيار ، حين انحاشوا إلى حمى رحمته المانع ، وتظللوا تحت ظل رشده الواسع. وباللّه التوفيق.

ثم تمّم قصتهم ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١٣ الى ١٦]

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً (١٣) وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً (١٤) هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً (١٦)

قلت : (بِالْحَقِّ) : إما صفة لمصدر محذوف ، أو حال من ضمير «نَقُصُّ» ، أو من «نَبَأَهُمْ» ، أو صفة له ، على رأى من يرى حذف الموصول مع بعض صلته ، أي : نقصّ قصصا ملتبسا بالحق ، أو نقصه متلبسين بالحق ، أو نقص نبأهم ملتبسا بالحق ، أو نبأهم الذي هو ملتبس بالحق. وإِذْ قامُوا : ظرف لربطنا ، وشَطَطاً : صفة لمحذوف ، أي :

قولا شططا ، أي : ذا شطط ، وصف به للمبالغة. و(هؤُلاءِ) : مبتدأ ، وفى اسم الإشارة : تحقير لهم ، و(قَوْمُنَا) : عطف بيان له. و(اتَّخَذُوا) : خبر ، و(ما يَعْبُدُونَ) : موصول ، عطف على الضمير المنصوب ، أو مصدرية ، أي : وإذ

اعتزلتموهم ومعبوديهم إلا اللّه ، أو عبادتهم إلا عبادة اللّه ، وعلى التقديرين : فالاستثناء متصل على تقدير أنهم كانوا مشركين يعبدون اللّه والأصنام. ومنقطع على تقدير تمحضهم بعبادة الأوثان ، ويجوز أن تكون (ما) نافية على أنه إخبار من اللّه - تعالى - عن الفتية بالتوحيد ، معترض بين «إِذِ» وجوابه العامل فيها.

يقول الحق جل جلاله : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ ، والنبأ : الخبر الذي له شأن وخطر ، قصصا ملتبسا بِالْحَقِّ : بالصدق الذي لا يطرقه كذب ولا ريبة.

وخبرهم ، حسبما ذكر محمد بن إسحاق : أنه قد مرج أهل الإنجيل ، وظهرت فيهم الخطايا ، وطغت ملوكهم ، فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت ، وكان من بالغ فى ذلك وعتا عتوا كبيرا : «دقيانوس» فإنه غلا فيه غلوا كبيرا ، فجاس خلال الديار والبلاد بالعبث والفساد ، وقتل من خالفه ممن تمسك بدين المسيح ، وكان يتتبع الناس فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان ، فمن رغب فى الحياة الدنيا الدنية : تبعه وصنع ما يصنع ، ومن آثر عليها الحياة الأبدية : قتله وقطع آرابه «١» ، وعلّقها بسور المدينة وأبوابها. فلما رأى الفتية ذلك ، وكانوا عظماء مدينتهم ، وكانوا بنى الملوك ، قاموا فتضرعوا إلى اللّه تعالى ، واشتغلوا بالصلاة والدعاء ، فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أعوان الجبار ، فأحضروهم بين يديه ، فقال لهم ما قال ، فخيّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان ، فقالوا : إن لنا إلها ملأ السماوات والأرض عظمة وجبروتا ، لن ندعو من دونه أحدا ، ولن نقر بما تدعونا إليه أبدا ، فاقض ما أنت قاض ، فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة ، وأخرجهم من عنده. زاد فى رواية : وضمنهم أهلهم ، وخرج إلى مدينة (نينوى) لبعض شأنه ، وأمهلهم إلى رجوعه ليتأملوا فى أمرهم ، وإلّا فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين.

فأجمعت الفتية على الفرار والالتجاء إلى الكهف الحصين ، فأخذ كلّ منهم من بيت أبيه شيئا ، فتصدقوا ببعضه ، وتزودوا بالباقي ، فأووا إلى الكهف. وفى رواية : أنهم مروا بكلب فتبعهم ، على ما يأتى فى شأنه ، فجعلوا يصلّون فى ذلك الكهف آناء الليل وأطراف النهار ، ويبتهلون إلى اللّه - سبحانه - بالأنين والجؤار ، ففوضوا أمر نفقتهم إلى «يمليخا» ، فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان ، ويلبس ثياب المساكين ، ويدخل المدينة ويشترى ما يهمهم ، ويتحسس ما فيها من الأخبار ، ويعود إلى أصحابه ، فلبثوا على ذلك إلى أن قدم الجبار المدينة فطلبهم ، وأحضر آباءهم ، فاعتذروا بأنهم عصوهم ونهبوا أموالهم ، وبذروها فى الأسواق ، وفروا إلى الجبل.

فلما رأى «يمليخا» ما رأى من الشر رجع إلى أصحابه وهو يبكى ، ومعه قليل من الزاد ، فأخبرهم بما شهد من الهول ، ففزعوا إلى اللّه - عز وجل - وخروا له سجدا ، ثم رفعوا رؤوسهم وجلسوا يتحدثون فى أمرهم ، فبينما هم كذلك

(١) أي أعضاءه. واحده : إرب .. انظر اللسان (أرب ١/ ٥٥).

(٢٥٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٥٣
إذ ضرب اللّه على آذانهم فناموا ، ونفقتهم عند رؤوسهم. فخرج «دقيانوس» فى طلبهم بخيله ورجله ، فوجدهم قد دخلوا الكهف ، فأمر بإخراجهم فلم يطق أحد منهم أن يدخله ، فلما ضاق بهم ذرعا ، قال قائل منهم : أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم؟ قال : بلى. قال : فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعا وعطشا ، ففعل فكان شأنهم ما قص اللّه تعالى ، إذ قال :
إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ، استئناف بيانى ، كأن سائلا سأل عن حالهم ، فقال : إنهم فتية شبان كاملون فى الفتوة آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ، فيه التفات إلى ذكر الربوبية التي اقتضت تربيتهم وحفظهم ، وَزِدْناهُمْ هُدىً بأن ثبّتناهم على ما كانوا عليه ، وأظهرنا لهم من مكنونات محاسننا ما آثروا به الفناء على البقاء. وفيه التفات إلى التكلم لزيادة الاعتناء بشأنهم ، وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أي : قويناهم ، حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل والأوطان ، والنعيم والإخوان ، واجترءوا على الصدع بالحق من غير خوف ولا حذر ، والرد على دقيانوس الجبار إِذْ قامُوا أي : انتصبوا لإظهار شعار الدين ، قال مجاهد : خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد. فقال أكبرهم : إنى لأجد فى نفسى شيئا ، إن ربى هو رب السموات والأرض ، فقالوا : نحن أيضا كذلك ، فقاموا جميعا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وعزموا على التصميم بذلك. وقيل : قاموا بين يدى الجبار من غير مبالاة به ، حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ، فحينئذ يكون ما سيأتى من قوله تعالى : (هؤُلاءِ ...) إلخ : منقطعا صادرا عنهم ، بعد خروجهم من عنده.
ثم قالوا : لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً ، لا استقلالا ولا اشتراكا ، ولم يقولوا : ربا للتصميم على الرد على المخالفين ، حيث كانوا يسمون أصنامهم آلهة ، وللإشعار بأن مدار العبودية على وصف الألوهية. لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً : قولا ذا شطط ، وهو الجور والتعدي ، أي : لقد جرنا وأفرطنا فى الكفر ، وقلنا قولا خارجا عن حد المعقول ، إن دعونا إلها غير اللّه جزما.
هؤُلاءِ قَوْمُنَا قد اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، فيه معنى الإنكار ، لَوْ لا : هلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ : على ألوهيتهم بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ : بحجة ظاهرة ، فَمَنْ أَظْلَمُ أي : لا أحد أظلم مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بنسبة الشريك إليه فإنه أظلم من كل ظالم.
وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ أي : فارقتموهم وَفارقتم ما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ : فالتجئوا إليه ، والمعنى : وإذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا ، يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ : يبسط لكم ويوسع

عليكم مِنْ رَحْمَتِهِ فى الدارين ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين ، مِرفَقاً : ما ترتفقون به ، أي : تنتفعون ، وجزمهم بذلك لنصوع يقينهم ، وقوة وثوقهم بفضل اللّه. واللّه تعالى أعلم.

(٢٥٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٥٤

الإشارة : قد وصف اللّه - تعالى - أهل الكهف بخمسة أوصاف هى من شعار الصوفية الإيمان ، الذي هو الأساس ، وزيادة الاهتداء بتربية الإيقان إلى الوصول الى صريح العرفان ، وربط القلب فى حضرة الرب ، والقيام فى إظهار الحق أو لداعى الوجد ، والصدع بالحق من غير مبالاة بأحد من الخلق.
وقال الورتجبي فى قوله تعالى : وَزِدْناهُمْ هُدىً : أي : زدناهم نورا من جمالى ، فاهتدوا به طرق معارف ذاتي وصفاتي ، وذلك النور لهم على مزيد الوضوح إلى الأبد لأن نورى لا نهاية له. وقال عند قوله : إِذْ قامُوا : قد استدل بهذه الآية بعض المشايخ على حركة الواجدين فى وقت السماع والذكر لأن القلوب إذا كانت مربوطة بالملكوت ومحل القدس حرّكها أنواع الأذكار وما يرد عليها من فنون السماع. والأصل قوله : وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا ، نعم هذا المعنى إذا كان القيام قياما بالصورة ، أي : الحسية فى القيام الحسى ، وإذا كان القيام من جهة الحفظ والرعاية ، والربط من جهة النقل من محل التلوين إلى محل التمكين ، فالاستدلال بها فى السكون فى الوجد أحسن ، إذا كان الربط بمعنى التسكين والقيام بمعنى الاستقامة. هـ.
قلت : الحاصل : أنا إذا حملنا القيام على الحسى ففيه دليل لأهل البداية على القيام فى الذكر والسماع. وإذا حملناه على القيام المعنوي ، وهو النهوض فى الشيء ، أو الاستقامة عليه كان فيه دلالة لأهل النهاية على السكون وعدم التحرك ، وكأنه يشير إلى قضية الجنيد فى بدايته ونهايته. واللّه تعالى أعلم.
وقال ابن لب : قد اشتهر الخلاف بين العلماء فى القيام لذكر اللّه - تعالى - وقد أباحته الصوفية ، وفعلته ودامت عليه ، واستفادوه من كتاب اللّه تعالى من قوله - عز وجل - فى أصحاب الكهف : إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وإن كانت الآية لها محامل أخر سوى هذا. هـ. قلت : وقوله تعالى : الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً «١» : صريح فى الجواز.
وقال فى القوت : وقد روينا أنه صلى اللّه عليه وسلم مرّ برجل يظهر التأوه والوجد ، فقال من كان معه : أتراه يا رسول اللّه مرائيا؟ فقال : «لا ، بل أَوَّاهٌ مُنِيبٌ» «٢» ، وقال لآخر : أظهر صوته بالآية : «أسمع اللّه عز وجل ولا تسمّع» ، فأنكر عليه بما شهد فيه ، ولم ينكر على أبى موسى قوله : (لو علمت أنك تسمع لحبّرته لك تحبيرا) لأنه ذو نية فى الخير وحسن قصد به ، ولذا كل من كان له حسن

قصد ، ونية خير ، فى إظهار عمل ، فليس من السمعة والرياء فى شيء لتجرده من الآفة الدنيوية ، وهى الطمع والمدح. هـ.

---

(١) من الآية ١٥١ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند (٤/ ١٥٩) ، والطبراني فى الكبير (١٧/ ٢٩٥) ، عن عقبة بن عامر ، وحسّنه الهيثمي فى المجمع (٩/ ٣٧٢). [.....]

(٣/٢٥٤)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٥٥

ثم ذكر حالهم فى الكهف ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١٧ الى ١٨]

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (١٨)

قلت : (تزاور) أصله : تتزاور ، فأدغمت التاء فى الزاى. وقرأ الكوفيون بحذفها ، وابن عامر ويعقوب : «تزوّر» كتمرد ، كلها من الزّور بمعنى الميل. و(ذات اليمين) : ظرف بمعنى الجهة. وجملة : (و هم فى فجوة) : حال ، و(ذراعيه) : مفعول «باسط» لأنه حكاية حال ، أي : يبسط ، و(فرارا) : مصدر لأنه عبارة عن معنى التولية ، أو حال ، أي : لوليت فارا ، ورُعْباً : مفعول ثان لملئت ، أو تمييز.

يقول الحق جل جلاله ، فى بيان حالهم بعد ما أووا الى الكهف : وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ أي : تنتحى وتميل عَنْ كَهْفِهِمْ الذي أووا إليه ، والخطاب للرسول صلى اللّه عليه وسلم ، أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب. وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية تحقيقا ، بل الإنباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم ذاتَ الْيَمِينِ أي : جهة ذات يمين الكهف ، عند الداخل إلى قعره ، وَإِذا غَرَبَتْ أي : وتراها إذا غربت تَقْرِضُهُمْ أي : تقطعهم وتتعدى عنهم ذاتَ الشِّمالِ أي : جهته وجانبه الذي يلى المشرق. وكان ذلك بتصريف اللّه تعالى على منهاج خرق العادة كرامة لهم. وقيل : كان باب الكهف شماليا يستقبل بنات نعش «١» ، وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ : فى موضع واسع منه ، وذلك موقع لإصابة الشمس ، ومع ذلك ينحيها اللّه عنهم.

ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ أي : ما صنع اللّه بهم من ميل الشمس عنهم عند طلوعها وغروبها ، من آيات اللّه

العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته ، وفضيلة التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه. قال بعضهم : هذا قبل سد دقيانوس باب الكهف ، قلت : كان قبل السد وبعد هدم السد لأنه هدم بعد ، فما قام أهل الكهف حتى وجدوه مهدوما. وظاهر الآية يرجح من قال : إنه من باب خرق العادة.

---

(١) بنات نعش : سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي .. انظر المعجم الوسيط (نعش).

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ الذي أصاب الفلاح. والمراد : إما الثناء عليهم ، والشهادة بإصابة المطلوب ، والإخبار بتحقيق ما أمّلوه من نشر الرحمة وتهيئة المرافق ، أو التنبيه على أن أمثال هذه الآية كثيرة ، ولكن المنتفع بها هو من وفقه اللّه وهداه للاستبصار بها ، وَمَنْ يُضْلِلْ أي : يخلق فيه الضلال بصرف اختياره إليه ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُ ، ولو بالغت فى التتبع والاستقصاء ، وَلِيًّا : ناصرا مُرْشِداً ، يهديه إلى ما ذكر من الفلاح.

والجملة معترضة بين أجزاء القصة.

ثم قال : وَتَحْسَبُهُمْ بالفتح والكسر ، أي : تظنهم أَيْقاظاً ، لانفتاح أعينهم ، أو لكثرة تقلبهم ، وهو جمع «يقظ» بضم القاف وكسرها ، وَهُمْ رُقُودٌ أي : نيام ، وَنُقَلِّبُهُمْ فى رقودهم ذاتَ الْيَمِينِ أي : جهة تلى أيمانهم ، وَذاتَ الشِّمالِ أي : جهة تلى شمائلهم لكى لا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : لو لم يتقلبوا لأكلتهم الأرض. قيل : كانوا يتقلبون مرتين فى السنة. وقيل : مرة يوم عاشوراء. وقيل : فى تسع سنين.

وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ ، حكاية حال ماضية أي : يبسط ذراعيه ، وهو من المرفق إلى رأس الأصابع. بِالْوَصِيدِ أي : بموضع من الكهف ، وقيل : بالفناء من الكهف ، وقيل : العتبة. وهذا الكلب ، قيل : هو كلب مروا به فتبعهم ، فطردوه مرارا ، فلم يرجع ، فأنطقه اللّه ، فقال : يا أولياء اللّه لا تخشوا إصابتى فإني أحب أحباء اللّه ، فناموا حتى أحرسكم. وقيل : هو كلب راع مروا به فتبعهم «١» على دينهم ، ومر معه كلبه ، ويؤيده قراءة : (و كالبهم) أي : وصاحب كلبهم ، وقيل : هو كلب صيد لهم أو زرع ، واختلف فى لونه قيل أحمر ، وقيل : أصفر ، وقيل : أصهب «٢».

لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ أي : لو عاينتهم وشاهدتهم. والاطلاع : الإشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة ، لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً : هربا بما شاهدت منهم ، وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ، أي : خوفا يملأ الصدور برعبه ، لما ألبسهم اللّه من الرهبة ، أو لعظم أجرامهم وانفتاح أعينهم ، وكانت منفتحة كالمستيقظ الذي يريد أن

يتكلم. وعن معاوية : أنه غزا الروم فمرّ بالكهف ، فقال : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال ابن عباس رضي اللّه عنه : ليس لك ذلك قد منع اللّه تعالى منهو خير منك ، حيث قال : لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ... الآية ، فلم يسمع ، وقال : ما أنتهي حتى أعلم علمهم ، فبعث ناسا ، وقال : اذهبوا فانظروا ، ففعلوا ، فلما دخلوا بعث اللّه ريحا فأحرقتهم. هـ «٣».

الإشارة : للصوفية - رضى اللّه عنهم - تشبه قوى بأهل الكهف ، فى الانقطاع إلى اللّه ، والتجرد عن كل ما سواه ، والانحياش إلى اللّه ، والفرار من كل ما يشغل عن اللّه ، والتماس الرحمة الخاصة من اللّه ، وطلب التهيئة لكل رشد

---

(١) أي الراعي.

(٢) الأصهب : الأشقر. وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٧٦) : واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ، ولا دليل ولا حاجة إليها ، بل هى مما ينهى عنه ، فإن مستندها رجم بالغيب.

(٣) عزاه المناوى فى الفتح السماوي (٢/ ٧٩٢) لابن أبى حاتم ، وعبد بن حميد ، وابن أبى شيبة ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وقال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : وإسناده صحيح.

وصواب ، ولهذا المعنى ختم الشيخ القطب ابن مشيش تصليته المشهورة بما دعوا به ، حين أووا إلى كهف الإيواء تشبّها بهم فى مطلق الانقطاع والفرار من مواطن الحس. ولذلك لمّا تشبهوا بهم حفظهم اللّه - أي : الصوفية - ممن رام أذاهم ، وغيّبهم عن حس أنفسهم ، وأشهدهم عجائب لطفه وقدرته ، ومن تمام التشبه بهم : أنك قلّ أن تجد فرقة تسافر منهم إلا ويتبعهم كلب يكون معهم ، حتى شهدت ذلك فى جل أسفارنا مع الفقراء تحقيقا لكمال التشبيه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر بعثهم من نومهم ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَسائَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً

يقول الحق جل جلاله : وَكَذلِكَ أي : وكما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلاء والتحلل ، وكان ذلك آية دالة على كمال قدرتنا ، بَعَثْناهُمْ من النوم لِيَتَسائَلُوا بَيْنَهُمْ أي : ليسأل بعضهم بعضا ، فيترتب عليه ما فصّل من الحكم البالغة ، أو : ليتعرفوا حالهم وما صنع اللّه بهم ، فيزدادوا يقينا على كمال قدرة اللّه ، ويستبصروا أمر البعث ، ويشكروا ما أنعم اللّه به عليهم.
قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ هو رئيسهم ، واسمه : «مكسليمنيا» : كَمْ لَبِثْتُمْ فى منامكم؟ لعله قال ذلك لما رأى من مخالفة حالهم ، لما هو المعتاد فى الجملة ، قالُوا أي : بعضهم : لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قيل : إنما قالوا ذلك لأنهم دخلوا الكهف غدوة ، وكان انتباههم آخر النهار ، فقالوا : لَبِثْنا يَوْماً ، فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعد قالوا : أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، وكان ذلك إخبارا عن ظن غالب ، فلم يعزوا إلى الكذب.
قالُوا أي : بعض آخر منهم ، بما سنح له من الأدلة ، ولما رأى من طول أظافرهم وشعورهم : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ أي : أنتم لا تعلمون مدة لبثكم ، وإنما يعلمها اللّه - سبحانه - ، وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من حسن الأدب ، فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ «١» هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، أعرضوا عن البحث عن المدة ، وأقبلوا على

---

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر : بورقكم - ساكنة الراء - والباقون بكسرها. راجع الإتحاف ٢/ ٢١٢.

(٢٥٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٥٨
ما يهم فى الوقت ، والورق : الفضة ، مضروبة أو غير مضروبة ، ووصفها باسم الإشارة يقتضى أنها كانت معينة ليشترى بها قوت ذلك اليوم ، وحملها دليل على أن التزود لا ينافى التوكل ، وقد كان نبينا صلى اللّه عليه وسلم يتزود لغار حراء ليتعبد فيه. ثم قالوا : فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أي : أىّ أهلها أَزْكى طَعاماً أي : أحل وأطيب ، أو أكثر وأرخص ، فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ أي : من ذلك الأزكى طعاما ، وَلْيَتَلَطَّفْ : وليتكلف اللطف فى دخول المدينة وشراء الطعام ، لئلا يعرف ، وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ولا يخبر بكم ولا بمكانكم أحدا من أهل المدينة ، أو : لا يفعل ما يؤدى إلى ذلك.
ثم علل النهى بقوله : إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ : يطلعوا عليكم ، أو يظفروا بكم ، والضمير : للأهل المقدر فى «أيها» أي : إنّ أهل المدينة إن يظفروا بكم يَرْجُمُوكُمْ إن ثبتم على ما أنتم عليه ، أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ أي : يصيروكم إليها ويدخلوكم فيها كرها ، كقوله تعالى : أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا «١» ،

وقيل : كانوا على ملتهم ثم خالفوهم للحق. وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً إن دخلتم فيها ، ولو بالكره والجبر ، أَبَداً ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وفيه من التشديد والتحذير ما لا يخفى.

الإشارة : وكذلك بعثنا من توجه إلينا من نوم الغفلة والجهالة ليتساءلوا بينهم ليتعرفوا ما أنعم اللّه به عليهم من اليقظة والنجاة من البطالة ، فإذا انتبهوا من نوم الغفلة ، استصغروا أيام البطالة لأن أيام الغفلة قليلة أمدادها ، وإن كثرت آمادها ، وفى الحكم : «رب عمر اتسعت آماده ، وقلّت أمداده» ، بخلاف زمان اليقظة ، فإنه كثيرة أمداده ، وإن قلّت آماده ، فهو طويل معنى ، وإن قلّ حسا ، ولذلك قال فى الحكم أيضا : «ورب عمر قليلة آماده ، كثيرة أمداده». وقال أيضا : «من بورك له فى عمره : أدرك فى يسير من الزمان من منن اللّه تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة».

فإن توقفوا على قوت أشباحهم التمسوا أطيبه وأزكاه وأحله ، فإنّ أكل الحلال ينور القلوب وينشط الأعضاء للطاعة ، وتلطفوا فى أخذه من غير مزاحمة ولا حرص ولا تعب ، فإن أطلعهم اللّه على سره المكنون من أسرار ذاته بالغوا فى إخفائه ، حتى لا يشعروا به أحدا من خلقه ، غير من هو أهل له لأنهم ، إن أظهروه لغيرهم ، رجموهم أو أعادوهم إلى ملتهم ، بأن يقهروهم إلى الرجوع عن طريق القوم ، ولن يفلحوا إذا أبدا. وباللّه التوفيق.

---

(١) من الآية ١٣ من سورة إبراهيم.

ثم ذكر اطلاع قوم أهل الكهف عليهم ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : آية ٢١]

وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (٢١)

قلت : إِذْ يَتَنازَعُونَ : ظرف لقوله : (أَعْثَرْنا) ، لا ليعلموا ، أي : أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم ... إلخ ، و(رَجْماً) : حال ، أي : راجمين بالغيب ، أو مفعول مطلق ، أي : يرجمون رجما.

يقول الحق جل جلاله : وَكَذلِكَ أي : وكما أنمناهم وبعثناهم لازدياد يقينهم أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ : أطلعنا الناس عليهم لِيَعْلَمُوا أي : ليعلم القوم الذين كانوا فى ذلك الوقت أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ أي : وعده بالبعث والثواب والعقاب حَقٌّ صادق لا خلف فيه ، أو : ثابت لا مرد له لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث ، وَأَنَّ السَّاعَةَ أي : القيامة ، التي هى عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعا للحساب

والجزاء ، لا رَيْبَ فِيها : لا شك في قيامها ، فإنّ من شاهد أنه جل وعلا توفّى نفوسهم وأمسكها ثلاثمائة سنة وأكثر ، حافظا لأبدانها من التحلل والفساد ، ثم أرسلها كما كانت ، لا يبقى معه ريب ، ولا يختلجه شك ، في أن وعده تعالى حق ، وأنه يبعث من في القبور ، ويجازيهم بأعمالهم.

وكان ذلك الإعثار إِذْ يَتَنازَعُونَ : حين كانوا يتنازعون بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ، في أمر البعث مختلفين فيه ففرقة أقرّت ، وفرقة جحدت ، وقائل يقول : تبعث الأرواح فقط ، وآخر يقول : تبعث جميع الأجسام بالأرواح ، قيل :

كان ملك المدينة حينئذ رجلا صالحا ، ملكها ثمانيا وعشرين سنة ، ثم اختلف أهل مملكته في البعث كما تقدم ، فدخل الملك بيته وغلق الباب ، ولبس مسحا وجلس على رماد ، وسأل ربه أن يظهر الحق ، فألقى اللّه - عز وجل - في نفس رجل من ذلك البلد الذي فيه الكهف ، أن يهدم بنيان فم الكهف ، فهدم ما سدّ به «دقيانوس» باب الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه ، فعند ذلك بعثهم اللّه - تعالى - فجرى بينهم من التقاول ما جرى.

روى أنّ المبعوث لمّا دخل المدينة ليشترى الطعام ، أخرج دراهمه ، وكانت على ضرب (دقيانوس) ، فاتهموه أنه وجد كنزا ، فذهبوا به إلى الملك ، فقص عليه القصة ، فقال بعضهم : إن آباءنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من

(٢٥٩/٣)

(دقيانوس) ، فلعلهم هؤلاء ، فانطلق الملك وأهل المدينة من مسلم وكافر ، فدخلوا عليهم وكلموهم ، ثم قالت الفتية للملك :

نودعك اللّه ونعيذك به من الإنس والجن ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم ، فماتوا ، فألقى الملك عليهم ثيابه ، وجعل لكل منهم تابوتا من ذهب ، فرآهم في المنام كارهين للذهب ، فجعلها من الساج ، وبنى على باب الكهف مسجدا. وقيل : لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى : مكانكم حتى أدخل أولا لئلا يفزعوا ، فدخل ، فعمّى عليهم المدخل ، فبنوا ثمّة مسجدا.

وقيل : المتنازع فيه : أمر الفتية قبل بعثهم ، أي : أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم ، وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الأحوال والأهوال ، ويتلقون ذلك من الأساطير وأفواه الرجال. وعلى التقديرين : فالفاء في قوله :

فَقالُوا ابْنُوا فصيحة ، أي : أعثرنا عليهم فرأوا ما رأوا ، ثم ماتوا ، فقال بعضهم : ابْنُوا عَلَيْهِمْ : على باب كهفهم بُنْياناً لئلا يتطرق إليهم الناس ، ففعلوا ذلك ضنا بمقامهم ومحافظة عليهم.

ثم قالوا : رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، كأنهم لما عجزوا عن إدراك حقيقة حالهم من حيث النسبة ، ومن حيث العدد ، ومن حيث بعد اللبث فى الكهف ، قالوا ذلك تفويضا إلى علام الغيوب. أو : يكون من كلامه سبحانه ردا لقول الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين ، قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ ، وهو الملك والمسلمون ، وكانوا غالبين فى ذلك الوقت :

لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ، فذكر فى القصة أنه جعل على باب الكهف مسجدا يصلى فيه.

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٢٢ الى ٢٦]

سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (٢٢) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (٢٦)

ثم وقع الخوض فى عهد نبينا - عليه الصلاة والسلام - بين نصارى نجران حين قدموا المدينة ، فجرى بينهم ذكر أهل الكهف وبين المسلمين فى عددهم ، كما قال تعالى : سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وهو قول اليعقوبية من النصارى ، وكبيرهم السيد ، وقيل : قالته اليهود ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ، هو قول النسطورية منهم ، وكبيرهم العاقب ، رَجْماً بِالْغَيْبِ : رميا بالخبر من غير اطلاع على حقيقة الأمر ، أو ظنا بالغيب من غير تحقيق ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وهو ما يقوله المسلمون بطريق التلقي من هذا الوحى ، وعدم نظمه فى سلك الرجم بالغيب ، وتغيير سبكه بزيادة الواو المفيدة لزيادة تأكيد النسبة فيما بين طرفيها ، يقضى بصحته.

قال تعالى : قُلْ يا محمد تحقيقا للحق ، وردا على الأولين : رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ أي : ربى أقوى علما بعدتهم ، ما يَعْلَمُهُمْ أي : ما يعلم عددهم إِلَّا قَلِيلٌ من الناس ، قد وفقهم اللّه تعالى للاطلاع عليهم بالدلائل أو بالإلهام. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : «أنا من ذلك القليل» ، قال : حين وقعت الواو انقطعت العدة ، وأيضا حين سكت عنه تعالى ولم يقل : رجما بالغيب ، علم أنه حق. وعن على - كرم اللّه وجهه - : أنهم سبعة ، أسماؤهم :

يمليخا ، وهو الذي ذهب بورقهم ، ومكسيلمينيا ، وهو أكبرهم والمتكلم عنهم ، ومشلينا ، وفى رواية الطبري : ومجسيسيا بدله ، وهؤلاء أصحاب يمين الملك ، وكان عن يساره : مرنوش ودبرنوش وجشاذنوس ، وكان يستشير هؤلاء الستة

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٦١
فى أمره ، والسابع : الراعي الذي تبعهم حين هربوا من دقيانوس ، واسمه : كفشططيوش «١». وذكر ابن عطية عن الطبري غير هؤلاء ، وكلهم عجميون ، قال : والسند فى معرفتهم واه. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : عادة الحق تعالى فى أوليائه أن يخفيهم أولا عن أعين الناس ، رحمة بهم إذ لو أظهرهم فى البدايات لفتنوهم وردوهم إلى ما كانوا عليه ، حتى إذا تخلصوا من البقايا ، وتمكنوا من معرفة الحق وشهوده ، أعثر عليهم من أراد سعادته ووصوله إلى حضرته ليعلموا أن وعد اللّه بإبقاء العدد الذين يحفظ اللّه بهم نظام العالم فى كل زمان حق ، وأنّ خراب العالم بانقراضهم ، وقيام الساعة لا ريب فيه. وفى الآية تنبيه على ذم الخوض بما لا علم للعبد به ، ومدح من رد العلم إلى اللّه فى كل شىء. واللّه تعالى أعلم.
ثم نهى نبيه عن المجادلة بعد وضوح الحق ، فقال :
فَلا تُمارِ فِيهِمْ ...
قلت : (إِلَّا أَنْ يَشاءَ) : استثناء مفرغ من النهى ، أي : لا تقولن فى حال من الأحوال ، إلا حال ملابسة بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد ، وهو أن تقول : إن شاء اللّه ، أو : فى وقت من الأوقات ، إلا وقت إن شاء اللّه.
يقول الحق جل جلاله : فَلا تُمارِ أي : لا تجادل فِيهِمْ فى شأن أهل الكهف إِلَّا مِراءً ظاهِراً قدر ما تعرض له الوحى من وصفهم ، من غير زيادة عليه ، مع تفويض العلم إلى اللّه ، فلا تصرح بجهلهم ، ولا تفضح خطأهم ، فإنه يخل بمكارم الأخلاق ، وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ : فى شأنهم مِنْهُمْ من الخائضين أَحَداً فإن فيما أوحى إليك لمندوحة عن ذلك ، مع أنهم لا علم لهم بذلك.

---

(١) فى النطق بهذه الأسماء اختلاف كثير ، وقال الحافظ ابن كثير : فى تسميتهم بهذه الأسماء ، واسم كلبهم ، نظر فى صحته ، والله أعلم ، فإن غالب ذلك متلقى عن أهل الكتاب. وقد قال الله تعالى : فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً أي : سهلا هينا ، فإن الأمر فى معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة. انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٧٨.

(٣/٢٦١)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٦٢
وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ أي : لأجل شىء تعزم عليه : إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ الشيء غَداً : فيما يستقبل من الزمان مطلقا ، فيصدق بالغد وما بعده لأنه نزل حين قالت اليهود لقريش : سلوه عن الروح ، وعن أصحاب

الكهف ، وعن ذى القرنين. فسألوه صلى اللّه عليه وسلم فقال : «غدا أخبركم» ، ولم يستثن ، فأبطأ عليه الوحى ، حتى شقّ عليه ، وكذبته قريش ، ثم نزلت السورة بعد أربعة عشر يوما ، أو قريبا منها «١» ، على ما ذكره أهل السّير ، أي : لا تقل إنى فاعل شيئا فى حال من الأحوال إلا متلبسا بمشيئته على الوجه المعتاد ، وهو أن تقول : إن شاء اللّه ، أو فى وقت من الأوقات ، إن شاء اللّه أن تقوله ، بمعنى : أن يأذن لك فيه ، فإن النسيان بمشيئته تعالى.

وَاذْكُرْ رَبَّكَ بقولك : إلا أن يشاء اللّه مستدركا له ، إذا نَسِيتَ : إذا فرط منك نسيان ثم ذكرته. وعن عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنه : ولو بعد سنة ما لم يحنث. ولذلك جوّز تأخير الاستثناء. وعامة الفقهاء على خلافه ، إذ لو صح ذلك لما تقرر طلاق ولا عتاق ، ولم يعلم صدق ولا كذب ، وقال القرطبي : هذا فى تدارك الترك والتخلص من الإثم ، وأما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون إلا متصلا به ، ويجوز أن يكون المعنى : واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء مبالغة فى الحث عليه ، أو : اذكر ربك إذا اعتراك نسيان لتستدرك ما فات ، وحمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها. وسيأتى فى الإشارة بقية الكلام عليها.

وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي : يوفقنى لِأَقْرَبَ مِنْ هذا أي : لنبأ أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف ، من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى ، رَشَداً أي : إرشادا للناس ودلالة على ذلك. وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ما هو أعظم وأبين لقصص الأنبياء ، المتباعدة أيامهم ، والإخبار بالغيوب والحوادث النازلة فى الأعمار المستقبلة إلى قيام الساعة. أو : لأقرب رشدا وأدنى خيرا من المنسى ، أي : عسى أن يدلنى على ما هو أصلح لى من الذي نسيته إذ يجوز أن يكون نسيانه خيرا له من ذكره إذ فيه إظهار قهريته تعالى ، وغناه عن خلقه ، وعدم مبالاته بإدبار من أدبر وإقبال من أقبل ، أو : الطريق الأقرب من هذا الذي هدى إليه أهل الكهف رشدا وصوابا ، وقد فعل ذلك حيث هداه إلى الدين القيّم الذي أظهره على الأديان كلها ، ولو كره المشركون.

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ أحياء ، مضروبا على آذانهم ، ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ، روى عن على - كرم اللّه وجهه - أنه قال : عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية ، واللّه تعالى ذكر السنة القمرية ، والتفاوت بينهما فى كل مائة ثلاث سنين ، فيكون ثلاث مائة سنة وتسع سنين. هـ. قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا أي : الزمان

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر (٤/ ٣٩٤) لابن المنذر عن مجاهد ، فى سياق طويل ، وأخرج الطبري (١٥/ ١٩١) نحوه فى سياق طويل ، عن ابن عباس.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٦٣

الذي لبثوا فيه. لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : ما غاب فيهما ، وخفى من أحوال أهلها ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ أي : ما أسمعه وما أبصره. دل بصيغة التعجب على أن سمعه تعالى وبصره خارج عما عليه إدراك المدركين لأنه تعالى لا يحجبه شيء ، ولا يحول دونه حائل ، ولا يتفاوت بالنسبة اليه اللطيف والكثيف ، والصغير والكبير ، والخفي والجلي. والتعجب فى حقه تعالى مجاز لأنه إنما يكون مما خفى سببه ، ولأنه دهشة وروعة تلحق المتعجب عند معاينة ما لم يعتده ، وهو تعالى منزّه عن ذلك ، فيؤوّل بأنه مبالغة فى إحاطة سمعه وبصره بكل شيء ، كما تقدم.

ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ أي : ما لأهل السموات والأرض من دونه تعالى من ولى يتولى أمورهم وينصرهم إلا هو سبحانه ، وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ : فى قضائه فى علم الغيب أَحَداً منهم ، ولا يجعل له فيه مدخلا ، وقرئ بالخطاب لكل أحد ، أي : ولا تشرك أيها السامع فى حكمه وتدبيره أحدا من خلقه ، فإنه لا فعل له ولا تدبير. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد تضمنت إشارة الآية خمس خصال من خصال الصوفية :

الأولى : ترك المراء والجدال ، إلا ما كان على وجه المذاكرة والمناظرة فى استخراج الحق أو تحقيقه ، من غير ملاججة ولا مخاصمة ، فى سهولة وليونة وسلامة القلوب.

الثانية : استفتاء القلوب فيما يعرض من الأمور قال صلى اللّه عليه وسلم : «استفت قلبك ، وإن أفتاك المفتون وأفتوك ، فالبر ما اطمأن القلب وسكن إليه ، والإثم ما حاك فى الصدر وتردد» «١» ، والمراد بالقلوب التي تستفتى. القلوب الصافية المنورة بذكر اللّه ، الزاهدة فيما سوى اللّه ، فإنها إذا كانت بهذه الصفة لا يتجلى فيها إلا الحق ، ولا تسكن إلا إلى الحق ، بخلاف القلوب المخوضة بحب الدنيا والهوى ، فلا تفتى إلا بما يوافق هواها.

الثالثة : التفويض إلى مشيئة اللّه وتدبيره ، والرضا بما يبرز به القضاء ، بحيث لا يعقد على شيء ، ولا يجزم بفعل شيء ، إلا ملتبسا بمشيئة اللّه ، فينظر ما يفعل اللّه ، فالعاقل إذا أصبح نظر ما يفعل اللّه به ، والجاهل إذا أصبح نظر ما يفعل بنفسه ، كما قال صاحب الحكم.

الرابعة : الاشتغال بالذكر والفكر ، حتى يغيب عما سوى المذكور قال تعالى : (وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ) أي : إذا نسيت ما سواه ، حينئذ تكون ذاكرا حقيقة ، فالذكر الحقيقي : هو الذي يغيب صاحبه عن شهود نفسه ورسمه وحسه ، حتى يكون الحق تعالى هو المتكلم على لسانه لشدة غيبته فيه ، وهذا أمر مشاهد لمن عثر على شيخ التربية والتزم صحبته.

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند (٤/ ٢٢٤) ، وابن عساكر فى تاريخ دمشق (تهذيب ٣/ ٢١٢) عن وابصة. وصححه محقق المسند. وزاد فى كشف الخفاء (٢/ ١٢٤) عزو الحديث لأبى يعلى وأبى نعيم.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٦٤

الخامسة : التماس الترقي والزيادة فى الاهتداء واليقين ، فكل مقام يدركه ينبغى أن يطلب مقاما أعلى منه ، ولا نهاية لعلمه تعالى ولا لعظمته ، (و قل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا) ، وباللّه التوفيق.

ثم أمره بتلاوة كتابه الذي هو أصل كل رشد وصواب ، وأقرب هداية لذوى الألباب ، فقال تعالى :

[سورة الكهف (١٨) : آية ٢٧]

وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٧)

يقول الحق جل جلاله : وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ أي : اسرده على ما نزل ، ولا تسمع لقولهم : ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا «١» ، أو اتبع أحكامه ، لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ : لا قادر على تبديله غيره ، أو : لا مغير لما وعد بكلماته للمخالفين له ، وَلَنْ تَجِدَ أبدا مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً أي : ملجأ ، تعدل إليه عند إلمام ملمة ، أو : لن تجد ، إن بدلت تقديرا ، وخالفت ما أنزل إليك ، ملتحدا : ملجأ تميل إليه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : القرآن شفاء لكل داء فمن نزلت به شدة حسية أو معنوية ، دنيوية أو دينية ، ففزع إليه بالتلاوة أو الصلاة به ، رأى فرجا ، وقريبا ، فالالتجاء إلى كلام الله هو الالتجاء إلى الله ، فإنّ الحق تعالى يتجلى فى كلامه للقلوب على قدر صفائها ، وأما من التجأ إلى غير اللّه فقد خاب رجاؤه وبطل سعيه قال تعالى : (وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً) تميل إليه فيأويك. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بصحبة الفقراء ، الذين يعينونه على تلاوة كتابه ونصر دينه والتمسك به ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : آية ٢٨]

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨)

قلت : (وَ لا تَعْدُ) : نهى مجزوم بحذف الواو ، و(عَيْناكَ) : فاعل ، و(تُرِيدُ) : حال من الكاف ، أو من فاعل (تَعْدُ).

يقول الحق جل جلاله : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ أي : احبسها مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أي : يعبدونه بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ ، قيل : الصلوات الخمس ، فالغداة : الصبح ، والعشىّ : الظهر وما بعده ، وقيل : الصبح والعصر ،

---

(١) من الآية ١٥ من سورة يونس.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٦٥
قلت : والأظهر أنها الصلاة التي كانوا يصلونها قبل فرض الصلاة ، وهى ركعتان بالغداة والعشى. قال ابن عطية :
ويدخل فى الآية من يدعو فى غير صلاة ، ومن يجمع لمذاكرة علم ، وقد روى عبد الله بن عمر عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «لذكر الله بالغداة والعشيّ أفضل من حطم السّيوف فى سبيل الله ، ومن إعطاء المال سحا» «١».
وقيل : (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) فى جميع الأوقات ، وفى طرفى النهار ، والمراد بهم فقراء المؤمنين كعمار وصهيب وخباب وبلال ، روى أن رؤساء الكفرة من قريش قالوا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك وصحبناك ، وقالوا : إن ريح جبابهم تؤذينا ، فنزلت الآية «٢».
روى أنه صلى اللّه عليه وسلم لما نزلت خرج إليهم وجلس بينهم ، وقال : «الحمد لله الذي جعل فى أمتي من أمرت أن أصبر نفسى معه» «٣». وقيل : نزلت فى بيان أهل الصفّة ، وكانوا نحو سبعمائة ، فتكون الآية مدنية.
ثم وصفهم بالإخلاص ، فقال : يُرِيدُونَ وَجْهَهُ أي : معرفة ذاته ، لا جنة ولا نجاة من نار ، وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ أي : لا تجاوزهم بنظرك إلى غيرهم ، من عداه : إذا جاوزه ، وفى الوجيز : ولا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة ، تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وأصحاب الدنيا.
وَلا تُطِعْ فى تنحية الفقراء عن مجلسك مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا أي : جعلناه غافلا عن الذكر وعن الاستعداد له ، كأولئك الذين يدعونك إلى طرد الفقراء عن مجلسك ، فإنهم غافلون عن ذكرنا ، على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء فى مجامع الأوقات ، وفيه تنبيه على أن الباعث على ذلك الدعاء غفلة قلبية عن جناب الله - سبحانه - حتى خفى عليه أن الشرف إنما هو بتحلية القلب بالفضائل ، لا بتحلية الجسد بالملابس والمآكل. وَاتَّبَعَ هَواهُ : ما تهواه نفسه ، وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً : ضياعا وهلاكا ، وهو من التفريط والتضييع ، أو من الإفراط والإسراف ، فإن الغفلة عن ذكر الله - تعالى - تؤدى إلى اتباع الهوى المؤدى إلى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب. والله تعالى أعلم.
الإشارة : فى الآية حثّ على صحبة الفقراء والمكث معهم ، وفى صحبتهم أسرار كبيرة ومواهب غزيرة ، إذ بصحبتهم يكتسب الفقير آداب الطريق ، وبصحبتهم يقع التهذيب والتأديب ، حتى يتأهل لحضرة التقريب ،

(١) عزاه فى كنز العمال (١/ ٤٢٩ ح ١٨٥٠) لابن شاهين فى الترغيب فى الذكر عن ابن عمر. وأخرجه ، بدون العبارة الأخيرة ، الديلمي فى الفردوس (٣/ ٤٥٤ ح ٥٤٠٢) عن أنس .. وحطم السيوف ، أي : كسرها.
(٢) أخرجه البيهقي فى الشعب (باب فى الزهد وقصر الأمل) عن سلمان ، وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٤/ ٣٩٦) لابن مردويه ، وأبى نعيم فى الحلية.
(٣) أخرجه الطبري (١٥/ ٢٣٥) عن قتادة ، وأخرجه البيهقي فى الموضع السابق ذكره ، ضمن الرواية ذاتها عن سلمان.

(٢٦٥/٣)

وبصحبتهم تدوم حياة الطريق ، ويصل العبد إلى معالم التحقيق ، وفى ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضي اللّه عنه :
ما لذّة العيش إلا صحبة الفقرا هم السّلاطين والسّادات والأمرا
فاصحبهم وتأدّب فى مجالسهم وخلّ حظّك مهما خلّفوك ورا
إلى آخر كلامه.
وقوله تعالى : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ قال القشيري : لم يقل : واصبر قلبك لأن قلبه كان مع الحق تعالى ، فأمره بصحبة الفقراء جهرا بجهر ، واستخلص قلبه لنفسه سرا بسرّ. هـ. قال الورتجبي : اصبر نفسك مع هؤلاء الفقراء ، العاشقين لجمالى ، المشتاقين إلى جلالى ، الذين هم فى جميع الأوقات يسألون متى لقاء وجهى الكريم ، ويريدون أن يطيروا بجناح المحبة إلى عالم وصلي ، حتى يكونوا متسلين بصحبتك عن مقام الوصال ، وفى رؤيتهم لك رؤية ذلك الجمال. هـ.
وقوله تعالى : يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، بيّن أن دعاءهم وسؤالهم إنما هو رؤيته ولقاؤه ، شوقا إليه ومحبة فيه ، من غير تعلق بغيره ، أو شغل بسواه ، بل همتهم اللّه لا غيره ، وإلّا لما صدق قصر إرادتهم عليه. قال فى الإحياء : من يعمل اتقاء من النار خوفا ، أو رغبة فى الجنة رجاء ، فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود فى الآخرة ، وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة اللّه وتعظيمه لذاته ولجلاله ، لا لأمر سواه. ثم قال : وقول رويم : الإخلاص : ألا يريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين ، هو إشارة لإخلاص الصدّيقين ، وهو الإخلاص المطلق ، وغيره إخلاص بالإضافة إلى حظوظ العاجلة. هـ. من الحاشية.
ثم أمره بالصدع بالحق ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : آية ٢٩]
وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً (٢٩)
قلت : «الْحَقُّ» : خبر ، أي : هذا الذي أوحى إليّ الحقّ.
يقول الحق جل جلاله : وَقُلِ يا محمد لأولئك الغافلين المتبعين أهواءهم ، أو : لمن جاءك من الناس : هذا الذي جئتكم به من عند ربى هو الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ أي : من جهة ربكم ، لا من جهتى ، حتى يتصور فيه التبديل ، أو يمكن التردد فى اتباعه. فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ ، وهو تهديد ، أي : فمن شاء أن يؤمن فليؤمن كسائر المؤمنين ، ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعليل ، ومن شاء أن يكفر فليفعل ، وفيه مع التهديد الاستغناء عن متابعتهم ، وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم.

(٢٦٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٦٧
ثم أوعدهم على الكفر ، فقال : إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ أي : هيأنا للكافرين بالحق ، بعد ما جاء من اللّه سبحانه ، والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن اختيارهم الكفر ظلم وتجاوز عن الحد ، ووضع للشيء فى غير محله ، أي :
هيأنا لهم ناراً عظيمة أَحاطَ بِهِمْ أي : محيط بهم سُرادِقُها أي : سورها المحيط بها ، والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه ، والسرادق : ما يحيط بالشيء ، كالجدار ونحوه. قيل : هو حائط من نار ، وقيل : دخانها.
وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا من العطش يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ : كمذاب الحديد والرصاص فى الحرارة. وقيل : كردىء الزيت فى اللون ، يَشْوِي الْوُجُوهَ إذا قدم ليشرب بحرارته. عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «هو كعكر الزّيت ، فإذا قرّب من الكافر سقطت فروة وجهه فيه ، فإذا شربه تقطّعت أمعاؤه» «١».
بِئْسَ الشَّرابُ ذلك ، وَساءَتْ النار مُرْتَفَقاً : متّكا ، وأصل الارتفاق : نصب المرفق تحت الخد ليتكئ عليه ، وأنى ذلك فى النار ، وإنما هو لمقابلة قوله فى المؤمنين : وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً.
الإشارة : ينبغى للواعظ ، أو المذكر ، أو العالم ، ألا يحرص على الناس ، بل يستغنى باللّه فى أموره كلها ، وإنما يبين الحق من الباطل ، ويقول : هذا الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن يشاء فليكفر. هذا إذا كان لعامة الناس ، وأما إن كان لخاصتهم كأهل الرئاسة والجاه ، فاختلف فيه فقال بعضهم : يسلك هذا المنهاج ، يبين الحق ولا يبالى ، محتجا بالآية ، قال : نحن أمة محمدية ، قال تعالى له : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ... الآية ، وقال بعضهم : ينبغى أن يلين لهم القول لقوله تعالى : فَقُولا

لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى «٢» ، وهو الأليق بطريق السياسة ، فمن أعرض عن الوعظ ، وبقي على ظلمه ، فالآية تجر ذيلها عليه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٣٠ الى ٣١]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (٣١)

---

(١) أخرجه ، دون العبارة الأخيرة ، أحمد فى المسند (٣/ ٧٠) ، والترمذي فى (صفة جهنم ، باب ما جاء فى صفة شراب أهل النار) ، والبغوي فى تفسيره (٥/ ١٦٨) ، عن أبى سعيد الخدري رضى الله عنه. [.....]

(٢) الآية ٤٤ من سورة طه.

قلت : جملة : (إِنَّا لا نُضِيعُ) : خبر «إِنَّ» ، والعائد محذوف ، أي : أحسن عملا ، أو : وقع الظاهر موقعه فإن من أحسن عملا فى الحقيقة هو الذي آمن وعمل صالحا. وأُولئِكَ : استئناف لبيان الأجر ، أو : خبر «إِنَّ» ، وما بينهما اعتراض ، أو خبر بعد خبر. و(مِنْ أَساوِرَ) : ابتدائية ، و(مِنْ ذَهَبٍ) : بيانية ، و(أَساوِرَ) : جمع أسورة ، أو أسوار جمع سوار ، فهو جمع الجمع.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أي : اختاروا الإيمان ، من قوله : (فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ) ، وكأنه فى المعنى عطف على قوله : (أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ) ، أي : والذين آمنوا هيأنا لهم كذا وكذا ، ولعل تغيير سبكه : للإيذان بكمال تنافى مآلى الفريقين ، أي : إن الذين آمنوا بالحق الذي أوحى إليك وَعَمِلُوا الأعمال الصَّالِحاتِ ، حسبما بيّن فيما أوحى إليك ، إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ، وأتقنه على ما تقتضيه الشريعة.

أُولئِكَ المنعوتون بهذه النعوت الجليلة لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي من تحت قصورهم الْأَنْهارُ من ماء ولبن وخمر وعسل ، يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ أي : كل واحد يحلّى بسوارين من ذهب.

وكانت الأساور عند العرب من زينة الملوك ، وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً ، وخصت الخضرة بثيابهم لأنها أحسن الألوان وأكثرها طراوة. وتلك الثياب مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ، السندس : ما رقّ من الديباج ،

والإستبرق : ما غلظ منه ، جمع النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ جمع أريكة ، وهو السرير فى الحجال ، أي : متكئين على الأسرة المزينة بالستور الرفيعة ، كحال العرائس المتنعمين. نِعْمَ الثَّوابُ ذلك ، وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً : متّكأ. والآية عامة وإن نزلت فى خصوص الصحابة رضى الله عنهم ، وأماتنا على منهاجهم. آمين.

الإشارة : إن الذين آمنوا إيمان الخصوص ، وعملوا الأعمال التي تقرب إلى حضرة القدوس وهى تحمل ما يثقل على النفوس ، أولئك لهم جنات المعارف ، تجرى من تحت قلوبهم أنهار العلوم والمواهب ، يحلّون فيها بمقامات اليقين ، ويلبسون ثياب العز والنصر والتمكين ، متكئين على سرر الهنا والسرور ، قد انقضت عنهم أيام المحن والشرور ، جعلنا الله فيهم بمنّه وكرمه.

ثم ضرب مثلا لمن اغتر بدنياه ، ولمن زهد فيها وأقبل على مولاه ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٣٢ الى ٤٤]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (٣٣) وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (٣٥) وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (٣٦)

قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (٣٨) وَلَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً (٣٩) فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (٤١)

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مُنْتَصِراً (٤٣) هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً (٤٤)

قلت : «رَجُلَيْنِ» : بدل من «مَثَلًا» ، وجملة جَعَلْنا ... بتمامها : بيان للتمثيل ، أو صفة لرجلين ، وما شاءَ اللَّهُ :

خبر ، أي : هذا ما شاء اللّه ، أو الأمر ما شاء اللّه ، أو مبتدأ حذف الخبر ، أي : الذي شاء اللّه كائن ، أو شرطية ، والجواب محذوف ، أي : أىّ شيء شاء اللّه كان ، و(هُنالِكَ) : ظرف مقدم ، و(الْوَلايَةُ)

: مبتدأ ، والظرف : إشارة إلى الآخرة ، وهذا أحسن.

يقول الحق جل جلاله : وَاضْرِبْ لَهُمْ أي : للفريقين فريق المؤمنين والكافرين المتقدمين ، مَثَلًا من حيث عصيان الكافر ، مع تقلبه فى النعيم ، وطاعة المؤمن ، مع مكابدته مشاقّ الفقر ، وما كان مآلهما ، لا من حيث ما ذكر من أن للكافر فى الآخرة كذا وللمؤمن كذا ، أي : واضرب لهم حالى رَجُلَيْنِ مقدرين أو محققين ، هما أخوان من بنى إسرائيل ، أو شريكان : كافر ، واسمه قطروس ، ومؤمن ، اسمه يهوذا ، اقتسما ثمانية آلاف دينار ، أو ورثاها من أبيهما ، فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا ، وصرف المؤمن نصيبه إلى وجوه البر.

روى : أن الكافر اشترى أرضا بألف دينار ، فقال صاحبه المؤمن : اللهم إن فلانا اشترى أرضا بألف ، وإنى أشترى منك أرضا فى الجنة بألف ، فتصدق بألف دينار ، ثم إن صاحبه بنى دارا بألف دينار ، فقال المؤمن : اللهم إن صاحبى بنى دارا بألف ، وإنى أشترى منك دارا فى الجنة بألف ، فتصدق بألف دينار ، ثم إن صاحبه تزوج

(٢٦٩/٣)

امرأة بألف دينار ، فقال : اللهم ، إن فلانا تزوج بألف دينار ، وإنى أخطب منك من نساء الجنة بألف ، فتصدق بألف دينار ، ثم إن صاحبه اشترى خادما ومتاعا بألف دينار ، فقال : اللهم إن فلانا اشترى خادما ومتاعا بألف ، وإنى أشترى منك خادما ومتاعا من الجنة بألف ، فتصدق بألف دينار ، ثم أصابته حاجة ، فقال : لعل صاحبى يناولنى معروفه ، فأتاه ، فقال : ما فعل مالك؟ فأخبره قصته ، فقال : أو إنك لمن المصدقين بهذا؟ واللّه لا أعطيك شيئا ، فلما توفيا آل أمرهما إلى ما ذكر اللّه فى سورة الصافات بقوله : قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ ، يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ... «١» الآية.

وبيّن حالهما فى الدنيا بقوله : جَعَلْنا لِأَحَدِهِما وهو الكافر ، جَنَّتَيْنِ : بستانين مِنْ أَعْنابٍ : من كروم متنوعة ، وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ أي : جعلنا النخل محيطة بهما محفوظا بها كرومهما ، وَجَعَلْنا بَيْنَهُما : وسطهما زَرْعاً ليكون كل منهما جامعا للأقوات والفواكه ، متواصل العمارة ، على الهيئة الرائقة ، والوضع الأنيق. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها : ثمرها وبلغ مبلغا صالحا للأكل ، وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً أي : لم تنقص من أكلها شيئا فى كل سنة ، بخلاف سائر البساتين ، فإن الثمار غالبا تكثر فى عام وتقل فى عام ، وَفَجَّرْنا خِلالَهُما : فيما بين كل من الجنتين نَهَراً على حدة ، وقرئ بالسكون. والنهر : الماء الكثير ، وكان لكل بستان نهر ليدوم شربها ويدوم بهاؤها.

ولعل تأخير تفجير النهر عن ذكر إيتاء الأكل ، مع أن الترتيب الخارجي العكس للإيذان باستقلال كل

من إيتاء الأكل وتفجير النهر فى تكميل محاسن الجنتين ، كما فى قصة البقرة ونحوها ، ولو عكس لأوهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها مرتب على بعض.

وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ أي : وكان لصاحب الجنتين أنواع من المال غير الجنتين ، من ثمر ماله : إذا كثر. قال ابن عباس : الثمر : جميع المال من الذهب ، والفضة ، والحيوان ، وغير ذلك. وقال مجاهد : هو الذهب والفضة خاصة. فَقالَ لِصاحِبِهِ المؤمن ، أخيه أو شريكه ، وَهُوَ يُحاوِرُهُ : يراجعه فى الكلام ، من حار إذا رجع ، وذلك أنه سأله عن ماله فيما أنفقه ، فقال : قدمته بين يدى ، لأقدم عليه ، فقال له : أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَأَعَزُّ نَفَراً : حشما وأعوانا وأولادا ذكورا لأنهم الذين ينفرون معه.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ : بستانه الذي تقدم وصفه ، وإنما وحّده إما لعدم تعلق الغرض بتعدده ، أو لاتصال أحدهما بالآخر ، أو لأن الدخول يكون فى واحد واحد. فدخله وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ ضارّ لها بعجبه وكفره ، قالَ حين دخوله : ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ الجنة ، أي : تفنى أَبَداً لطول أمده وتمادى غفلته ، وإنكارا لفناء الدنيا

---

(١) الآيتان ٥٠ - ٥١ من سورة الصافات. وانظر تفسير البغوي ٥/ ١٧٠ ، وزاد المسير ٥/ ١٣٨.

وقيام الساعة ، ولذلك قال : وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً أي : كائنة فيما سيأتى ، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي بالبعث عند قيامها ، كما تقول ، لَأَجِدَنَّ حينئذ خَيْراً مِنْها : من الجنتين مُنْقَلَباً أي : مرجعا وعاقبة ، أي : كما أعطانى هذا فى الدنيا سيعطينى أفضل منه فى الآخرة ، ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة : اعتقاد أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه فى الدنيا لاستحقاقه لذاته ، وكرامته عليه ، ولم يدر أن ذلك استدراج.

قالَ لَهُ صاحِبُهُ أخوه المسلم وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ أي : أصلك مِنْ تُرابٍ ، فإن خلق آدم عليه السّلام من تراب متضمن لخلق أولاده منه إذ لم تكن فطرته مقصورة على نفسه ، بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس ، انطواء مجانسا مستتبعا لجريان آثارها على الكل ، فكان خلقه عليه السّلام من تراب خلقا للكل منه ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ هى مادتك القريبة ، ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا أي : عدلك وكملك إنسانا ذكرا ، أو صيرك رجلا ، وفى التعبير بالموصول مع صلته : تلويح بدليل البعث ، الذي نطق به قوله تعالى : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ «١».

قال البيضاوي : جعل كفره بالبعث كفرا باللّه لأنه منشأ الشك فى كمال قدرة اللّه ، ولذلك رتّب الإنكار

على خلقه إياه من التراب ، فإن من قدر على إبداء خلقه منه قدر أن يعيده منه. هـ.

ثم قال أخوه المسلم : لكِنَّا أصله : لكن أنا ، وقرئ به ، فحذفت الهمزة ، فالتقت النونان فوقع الإدغام ، هُوَ اللَّهُ رَبِّي ، «هُوَ» : ضمير الشأن ، مبتدأ ، خبره : «هُوَ اللَّهُ رَبِّي» ، وتلك الجملة : خبر «أَنَا» ، والعائد منها : الضمير ، وقرئ بإثبات «أنا» فى الوصل والوقف ، وفى الوقف خاصة ، ومدار الاستدراك قوله تعالى : أَكَفَرْتَ ، كأنه قال : أنت كافر ، لكنى مؤمن موحد ، وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ، وفيه تنبيه على أن كفره كان بالإشراك. قاله أبو السعود.

قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : والذي يظهر من قوله : وَلَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ ... الآية ، ومن قوله :

يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ ... الآية ، أنه إشراك باللّه فى عدم صرف المشيئة إليه ، ودعوى الاستقلال بنفسه دونه ، وقد قال وهب بن منبه : (قرأت فى تسعين كتابا من كتب اللّه أن من وكل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر) ، ثم شكه فى البعث تكذيب بوعد اللّه ، وهو كفر صراح. هـ.

وَلَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ : بستانك ، قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ أي : هلا قلت عند دخولها : ما شاءَ اللَّهُ أي : الأمر ما شاء اللّه ، أو ما شاء اللّه يكون ، والمراد : تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة اللّه تعالى ، إن شاء أبقاها ، وإن شاء أخفاها ، لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ أي : لا قوة لى على عمارتها وتدبير أمرها إلا بمعونة اللّه وإقداره.

---

(١) من الآية ٥ من سورة الحج.

قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «من رأى شيئا فأعجبه فقال : ما شاء اللّه لا قوّة إلّا باللّه ، لم يضرّه شى ء»»

. وقال لأبى هريرة : «ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنّة؟ قال : بلى يا رسول اللّه ، قال : لا قوة إلّا باللّه ، إن قالها العبد قال اللّه عز وجل : أسلم عبدى واستسلم» «٢». وقال لعبد اللّه بن قيس : «ألا أدلّك على كنز من كنوز الجنّة؟ قال : بلى ، يا رسول اللّه ، قال : لا حول ولا قوّة إلّا باللّه» «٣».

ثم قال له أخوه المسلم : إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالًا وَوَلَداً فى الدنيا ، وفيه تقوية لمن فسر النفر بالولد ، فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ فى الآخرة أو فى الدنيا خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ والمعنى : إن ترنى أفقر منك فأنا أتوقع من صنع اللّه سبحانه أن يقلب ما بي وبك من الفقر والغنى ، فيرزقنى جنة خيرا من جنتك ، ويسلبك

لكفرك نعمته ، ويخرب جنتك ، وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً : عذابا مِنَ السَّماءِ يذهبها ، من برد أو صاعقة ، وهو جمع : حسبانة ، وهي : المرامى من هذه الأنواع المذكورة ، وتطلق أيضا ، في اللغة ، على سهام ترمى دفعة واحدة ، فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أي : أرضا ملساء ، يزلق عليها لاستئصال ما عليها من النبات والشجر والبناء ، أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها أي : النهر الذي خلالها غَوْراً : غائرا ذاهبا في الأرض ، و«زَلَقاً» و«غَوْراً» : مصدران ، عبّر بهما عن الوصف مبالغة. فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً أي : لن تستطيع أبدا للماء الغائر طلبا ، بحيث لا يبقى له أثر يطلبه به ، فضلا عن وجدانه ورده.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ أي : هلكت أشجاره المثمرة ، وأمواله المعهودة ، وأصله : من إحاطة العدو ، وهو عطف على مقدر ، كأنه قيل : فوقع بعض ما وقع من المحذور ، وأهلكت أمواله ، روى أن اللّه تعالى أرسل عليها نارا فأحرقتها وغار ماؤها. فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ظهرا لبطن ، أو يضرب يديه واحدة على أخرى ، يصفق بهما ، وهو كناية عن الندم ، كأنه قال : فأصبح يندم عَلى ما أَنْفَقَ فِيها أي : في عمارتها من الأموال. وجعل تخصيص الندم بها دون ما هلك الآن من الجنة لأنه إنما يكون على الأفعال الاختيارية. انظر أبا السعود.

وَهِيَ أي : الجنة خاوِيَةٌ : ساقطة عَلى عُرُوشِها أي : دعائمها المصنوعة للكروم ، فسقطت العروش أولا ثم سقطت الكروم عليها. وتخصيص حالها بالذكر ، دون الزرع والنخل ، إمّا لأنها العمدة وهما من متمماتها ، وإمّا لأن ذكر هلاكها مغن عن ذكر هلاك الباقي لأنها حيث هلكت ، وهى مشتدة بعروشها فهلاك

---

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (ح ٢٠٦) من حديث أنس مرفوعا ، والبيهقي في شعب الإيمان (باب في تعديد نعم الله عز وجل ، ح ٤٣٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٩٨) عن أبي هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه البخاري في (المغازي ، باب غزوة خيبر) ، ومسلم في (الذكر ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر) من حديث أبي موسى الأشعري.

ما عداها أولى ، وإما لأن الإنفاق في عمارتها أكثر. وَيَقُولُ أي : يقلب وهو يقول : يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ، كأنه تذكر موعظة أخيه ، وعلم أنه إنما أتى من قبل شركه ، فتمنى أن لم يكن مشركا فلم يصبه ما أصابه.

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ : جماعة يَنْصُرُونَهُ : يقدرون على نصره بدفع الهلاك عن أمواله ، مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فإنه القادر على ذلك وحده ، وَما كانَ مُنْتَصِراً أي : وما كان فى نفسه ممنوعا بقوته من انتقامه سبحانه منه. هُنالِكَ فى ذلك المقام ، وفى تلك الحال الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ أي : النصرة له وحده ، لا يقدر عليها أحد غيره ، وقرئ : «الحق» بالكسر ، صفة للّه ، وبالرفع ، نعت للولاية. ويحتمل أن يكون : هُنالِكَ ظرفا لمنتصرا ، أي :

وما كان ممتنعا من انتقام اللّه منه فى ذلك الوقت ، ففيه تنبيه على أن قوله : يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ : كان عن اضطرار وجزع مما دهاه ، فلذلك لم ينفعه ، كقوله تعالى : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا «١». وحينئذ استأنف تعالى الإخبار عن كمال حفظه لأوليائه فقال : الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ أي : الحفظ والرعاية والنصرة إنما هى من اللّه لأوليائه فى الدنيا والآخرة ، لا يخذلهم فى حال من الأحوال ، بل يتولى سياستهم ونصرهم وهدايتهم ، كما هو شأن من اعتز باللّه ، دون من اعتز بغيره ، فقوله : وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ : رد لقوله : وَأَعَزُّ نَفَراً أي : بل النصرة للّه لأوليائه ، دون من تولى غيره.

والحاصل : أن من تولى اللّه فعاقبته النصرة ، ومن تولى غيره فعاقبته الخذلان. والعياذ باللّه. ويحتمل أن يكون قد تم الكلام على القصة ، ثم أعاد الكلام إلى ما قبل القصة ، فقال : هُنالِكَ عند ذلك ، يعنى : يوم القيامة الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ يتولون اللّه ويؤمنون به ، ويتبرأون مما كانوا يعبدون ، هُوَ خَيْرٌ ثَواباً أي : خير من يرجى ثوابه ، وَخَيْرٌ عُقْباً أي : عاقبة لأوليائه. والعقب : العاقبة ، يقال : عاقبة كذا وعقباه وعقبه ، أي : آخره.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد ضرب اللّه مثلا لمن عكف على هواه ، وقصر همته على زخارف دنياه ، ولمن توجه بهمته إلى مولاه ، وقدّم دنياه لأخراه ، فكان عاقبة الأول : الندم والخسران ، وعاقبة الثاني : الهنا والرضوان ، أو لمن وقف مع علمه واعتمد عليه ، ولمن تبرأ من حوله وقوته فى طلب الوصول إليه.

قال فى لطائف المنن : لا تدخل جنة علمك وعملك ، وما أعطيت من نور وفتح فتقول كما قال من خذل ، فأخبر اللّه عنه بقوله : وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً ... الآية. ولكن أدخلها كما بيّن

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة غافر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٧٤
لك ، وقل كما رضى لك : وَلَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وافهم هاهنا قوله صلى اللّه عليه وسلم :
«لا حول ولا قوّة إلّا باللّه كنز من كنوز الجنة» «١». وفى رواية أخرى : «كنز من كنوز تحت العرش».
فالترجمة : «٢» ظاهر الكنز ، والمكنوز فيها : صدق التبري من الحول والقوة ، والرجوع إلى حول اللّه وقوته.
ثم ضرب مثلا فى سرعة ذهابها وفنائها ، فقال :
[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٤٥ الى ٤٦]
وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (٤٥) الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)
قلت : كَماءٍ : خبر عن مضمر ، أي : هى كماء ، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا لا ضرب ، على أنه بمعنى «صيّر».
يقول الحق جل جلاله : وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : واذكر لهم ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها ، وسرعة انقراضها وفنائها لئلا يطمئنوا إليها ويغفلوا عن الآخرة ، هى كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ وهو المطر ، فَاخْتَلَطَ بِهِ أي : بسببه نَباتُ الْأَرْضِ بحيث التف وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه ، ثم مرت مدة قليلة فَأَصْبَحَ هَشِيماً أي : مهشوما مكسورا ، تَذْرُوهُ الرِّياحُ أي : تفرقه وتطيره ، كأن لم يغن بالأمس ، وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً : قادرا ، ومن جملة الأشياء : الإفناء والإنشاء.
الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : مما تذروه رياح الأقدار ، ويلحقه الفناء والبوار ، ويدخل فى الزينة :
الجاه ، وجميع ما فيه للنفس حظ فإنه يفنى ويبيد ، ثم ذكر ما لا يفنى فقال : وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ وهى أعمال الخير بأسرها ، أو : الصلوات الخمس ، أو : «سبحان اللّه ، والحمد للّه ، ولا اله الا اللّه ، واللّه أكبر» ، زاد بعضهم : «ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم». قال عليه الصلاة والسلام : «هى من كنز الجنة ، وصفايا الكلام ، وهن الباقيات الصالحات ، يأتين يوم القيامة مقدمات ومعقبات» «٣».

---

(١) أخرجه البخاري فى (الدعوات ، باب الدعاء إذا علا عقبة) ، ومسلم فى (الذكر والدعاء ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر) ، من حديث أبى موسى الأشعري. بلفظ : «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ فقلت : بلى يا رسول اللّه. قال : لا حول ولا قوة إلا بالله».
(٢) أي : اللفظ والكلام المنطوق به.

(٣) أخرجه الطبراني فى الأوسط (٤/ ٢٢٠ ح ٤٠٤٧) بلفظ : «قولوا : سبحان الله ، والحمد الله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله فإنهن يأتين يوم القيامة مستقدمات ومنجيات ومجنبات ، وهن الباقيات الصالحات» ، من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

أو : الهمات العالية والنيات الصالحة إذ بها ترفع الأعمال وتقبل. أو : كل ما أريد به وجه اللّه ، وسميت باقية :

لبقاء ثوابها عند فناء كل ما تطمح إليه النفس من حظوظ الدنيا وزينتها الفانية.

قال في الإحياء : كل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا ، كالمال والجاه مما ينقضى على القرب ، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات ، كالعلم والحرية لبقائهما كمالا فيه ، ووسيلة إلى القرب من اللّه تعالى ، أما الحرية من الشهوات فتقطع عن غير اللّه ، وتجرده عن سواه ، وأما العلم الحقيقي فيفرده باللّه ويجمعه عليه. هـ.

وهى ، أي : الباقيات الصالحات خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ أي : فى الآخرة ثَواباً أي : عائدة تعود على صاحبها ، بخلاف ما شأنه الفناء من المال والبنين فإنه يفنى ويبيد. وهذا كقوله تعالى : ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ «١». وقوله : عِنْدَ رَبِّكَ : بيان لما يظهر فيه خيريتها ، لا لأفضليتها من المال والبنين مع مشاركتها لها فى الخيرية إذ لا مشاركة لهما فى الخيرية فى الآخرة. ثم قال تعالى : وَخَيْرٌ أَمَلًا أي : ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند اللّه تعالى ، حيث ينال صاحبها فى الآخرة كل ما كان يؤمله فى الدنيا ، وأما ما مرّ من المال والبنين فليس لصاحبه فيه أمل يناله. وتكرير «خَيْرٌ» للإشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة فيه.

الإشارة : قد تقدم ، مرارا ، التحذير من الوقوف مع بهجة الدنيا وزخارفها الغرارة لسرعة ذهابها وانقراضها.

روى أبو هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «يا أبا هريرة تريد أن أريك الدنيا؟ قلت : نعم ، فأخذ بيدي ، وانطلق ، حتى وقف بي على مزبلة ، رؤوس الآدميين ملقاة ، وبقايا عظام نخرة ، وخرق بالية قد تمزقت وتلوثت بنجاسات الآدميين ، فقال : يا أبا هريرة هذه رؤوس الآدميين التي تراها ، كانت مثل رؤوسكم ، مملوءة من الحرص والاجتهاد على جمع الدنيا ، وكانوا يرجون من طول الأعمار ما ترجون ، وكانوا يجدّون فى جمع المال وعمارة الدنيا كما تجدّون ، فاليوم قد تعرّت عظامهم ، وتلاشت أجسامهم كما ترى ، وهذه الخرق كانت أثوابهم التي كانوا يتزينون بها ، وقت

التجمل ووقت الرعونة والتزين ، فاليوم قد ألقتها الرياح فى النجاسات ، وهذه عظام دوابهم التي كانوا يطوفون أقطار الأرض على ظهورها ، وهذه النجاسات كانت أطعمتهم اللذيذة التي كانوا يحتالون فى تحصيلها ، وينهبها بعضهم من بعض ، قد ألقوها عنهم بهذه الفضيحة التي لا يقربها أحد من نتنها ، فهذه جملة أحوال الدنيا كما تشاهد وترى ، فمن أراد أن يبكى على الدنيا فليبك ، فإنها موضع البكاء.

قال أبو هريرة رضي اللّه عنه :

فبكى جماعة الحاضرين» «٢».

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة النحل.

(٢) لم أقف على حديث بهذا السياق.

(٢٧٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٧٦

ثم ذكر ما يكون بعد فناء الدنيا التي تقدم مثالها من أهوال الحشر والحساب ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٤٧ الى ٤٩]

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (٤٧) وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (٤٩)

قلت : وَيَوْمَ : معمول لمحذوف ، أي : واذكر ، أو عطف على قوله : «عند ربك» ، أي : والباقيات الصالحات خير عند ربك ويوم القيامة ، و(حَشَرْناهُمْ) : عطف على (نُسَيِّرُ) للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذي ينكره المشركون ، وعليه يدور أمر الجزاء ، وكذا الكلام فيما عطف عليه منفيا وموجبا ، وقيل : هو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الأهوال ، كأنه قيل : وحشرناهم قبل ذلك. و(نُغادِرْ) : نترك ، يقال : غادره وأغدره : إذا تركه ، ومنه : الغدير لما يتركه السيل فى الأرض من الماء ، وَ(صَفًّا)

: حال ، أي : مصطفين.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ أي : حين نقلعها من أماكنها ونسيرها فى الجو ، على هيئتها ، كما ينبئ عنه قوله تعالى : وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ «١» أو : نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منثورا ، والمراد من ذكره : تحذير الغافلين مما فيه من الأهوال ، وقرئ :

«تسيّر» بالبناء للمفعول جريا على سنن الكبرياء ، وإيذانا بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل لظهور تعينه ، ثم قال : وَتَرَى الْأَرْضَ أي :
جميع جوانبها ، والخطاب للرسول صلى اللّه عليه وسلم ، أو لكل من يسمع ، بارِزَةً : ظاهرة ، ليس عليها جبل ولا غيره. بل تكون قاعاً صَفْصَفاً ، لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً «٢». وَحَشَرْناهُمْ : جمعناهم إلى الموقف من كل حدب ، مؤمنين وكافرين ، فَلَمْ نُغادِرْ أي : لم نترك مِنْهُمْ أَحَداً.
عُرِضُوا عَلى رَبِّكَ
، شبهت حالتهم بحال جند عرض على السلطان ، ليأمر فيهم بما يأمر. وفى الالتفات إلى الغيبة ، وبناء الفعل للمفعول ، مع التعرض لعنوان الربوبية ، والإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - من

---

(١) الآية ٨٨ من سورة النمل.
(٢) الآيتان ١٠٧ - ١٠٨ من سورة طه. [.....]

تربية المهابة ، والجري على سنن الكبراء ، وإظهار اللطف به صلى اللّه عليه وسلم ما لا يخفى. قاله أبو السعود.فًّا
أي :
مصطفّين غير متفرقين ولا مختلطين ، كل أمة صفّ ، وفى الحديث الصحيح : «يجمع اللّه الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، صفوفا ، يسمعهم الدّاعى وينفذهم البصر ...» «١» الحديث بطوله. وفى حديث آخر : «أهل الجنة ، يوم القيامة ، مائة وعشرون صفا ، أنتم منها ثمانون صفا» «٢».
يقال لهم - أي : للكفرة منهم : قَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
، وتركتم ما خولناكم وما أعطيناكم من الأموال وراء ظهوركم. أو : حفاة عراة غرلا ، كما فى الحديث.
وهذه المخاطبة ، بهذا التقريع ، إنما هى للكفار المنكرين للبعث ، وأما المؤمنون المقرون بالبعث فلا تتوجه إليهم هذه المخاطبة ، ويدل عليه ما بعده من قوله : لْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً
أي : زعمتم فى الدنيا أنه ، أي : الأمر والشأن ، لن نجعل لكم وقتا يتنجّز فيه ما وعدته من البعث وما يتبعه. وهو إضراب وانتقال من كلام ، إلى كلام ، كلاهما للتوبيخ والتقريع.
وَوُضِعَ الْكِتابُ أي : كتاب كل أحد ، إما فى يمينه أو شماله ، وهو عطف على : ُ رِضُوا)
، داخل تحت الأمور الهائلة التي أريد بذكرها تذكير وقتها ، وأورد فيه ما أورد فى أمثاله من صيغة

الماضي لتحقق وقوعه ، وإيثار الإفراد للاكتفاء بالجنس ، والمراد : صحائف أعمال العباد. ووضعها إما فى أيدى أصحابها يمينا وشمالا ، أو فى الميزان. فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ قاطبة ، المنكرون للبعث وغيرهم ، مُشْفِقِينَ : خائفين مِمَّا فِيهِ من الجرائم والذنوب ، وَيَقُولُونَ ، عند وقوفهم على ما فى تضاعيفه نقيرا أو قطميرا : يا وَيْلَتَنا أي :

ينادون بتهلكتهم التي هلكوها من بين التهلكات ، ومستدعين لها ليهلكوا ، ولا يرون تلك الأهوال ، أي : يا ويلتنا احضرى فهذا أوان حضورك ، يقولون : ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ : لا يترك صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً من ذنوبنا إِلَّا أَحْصاها أي : حواها وضبطها ، وجملة لا يُغادِرُ : حال محققة لما فى الاستفهام من التعجب ، أو استئنافية مبنية على سؤال مقدر ، كأنه قيل : ما شأنه حتى يتعجب منه؟ فقال : لا يغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها ، وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا فى الدنيا من السيئات ، أو جزاء ما عملوا حاضِراً : مسطورا عتيدا ، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ، فيكتب مالم يعمل من السيئات ، أو يزيد فى عقابه المستحق له. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بطوله البخاري فى (تفسير سورة الإسراء ، باب قوله تعالى : ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ ...) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها) ، عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.
(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٤٥٣) ، والبراز (كشف الأستار/ ٣٥٣٤) عن ابن مسعود.

الإشارة : ويوم نسير جبال الحس ، أو الوهم ، عن بساط المعاني ، وترى أرض العظمة بارزة ظاهرة لا تخفى على أحد ، إلا على أكمه لا يبصر القمر فى حال كماله ، وحشرناهم إلى الحضرة القدسية ، فلم نغادر منهم ، أي :

ممن ذهب عنه الحس والوهم ، أحدا ، وعرضوا على ربك لشهود أنوار جماله وجلاله ، صفا ، للقيام بين يديه ، فيقول لهم : لقد جئتمونا من باب التجريد ، كما خلقناكم أول مرة ، مطهّرين من الدنس الحسى ، غائبين عن العلائق والعوائق ، وكنتم تزعمون أن هذا اللقاء لا يكون فى الدنيا ، وإنما موعده الجنة ، ومن مات عن شهود حسه ، وعن حظوظه ، حصل له الشهود واللقاء قبل الموت الحسى ، ووضع الكتاب فى حق أهل الحجاب ، فترى المجرمين من أهل الذنوب مشفقين مما فيه ، ووجود العبد : ذنب لا يقاس به ذنب ، فنصب الموازين ، ومناقشة الحساب إنما هو لأهل الحجاب ، وأما العارفون الفانون عن أنفسهم ، الباقون بربهم ، لم يبق لهم ما يحاسبون عليه إذ لا يشهدون لهم فعلا ،

ولا يرون لأحد قوة ولا حولا. واللّه تعالى أعلم.
ولمّا كان سبب العذاب ووجود الحجاب هو التكبر على رب الأرباب ، ذكر وباله بإثر الحشر والحساب ، أو تقول :
لمّا ذكر قصة الرجلين ذكر قبح صنيع من افتخر بنفسه ، وأنه شبيه بإبليس ، وكل من افتخر واستنكف عن الانتظام فى سلك فقراء المؤمنين كان داخلا فى حزبه. وقال الواحدي : ثم أمر اللّه تعالى نبيه أن يذكر لهؤلاء المتكبرين عن مجالسة الفقراء قصة إبليس وما ورّثه الكبر ، فقال :
[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٥٠ الى ٥١]
وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥١)
قلت : (إِلَّا إِبْلِيسَ) : استثناء منقطع ، إذا قلنا : إن إبليس لم يكن من الملائكة ، وإذا قلنا : إنه منهم يكون متصلا ، ويكون معنى «كانَ» : صار ، أي : إلا إبليس صار من الجن لمّا امتنع من السجود ، أو بأن الملائكة كان منهم قوم يقال لهم الجن ، وهم الذين خلقوا من النار. وجملة (كانَ مِنَ الْجِنِّ) : استئنافية سيقت مساق التعليل ، كأنه قيل : ما له لم يسجد؟ فقيل : كان أصله جنّيا.
يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ أي : وقت قولنا لهم : اسْجُدُوا لِآدَمَ سجود تحية وتكريم ، فَسَجَدُوا جميعا امتثالا للأمر ، إِلَّا إِبْلِيسَ أبى واستكبر لأنه كانَ مِنَ الْجِنِّ ،

(٢٧٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٧٩
وكان رئيسهم فى الأرض ، فلما أفسدوا أرسل اللّه عليهم جندا من الملائكة ، فغزوهم ، فهربوا فى أقطار الأرض ، وأخذ إبليس أسيرا ، فعرجوا به إلى السماء ، فأسلم وتعبد فى أقطار السموات ، فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع ونزع لأصله ، فَفَسَقَ أي : خرج عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أي : عن طاعته ، أو صار فاسقا كافرا بسبب أمر اللّه تعالى إذ لو لا ذلك لما أبى ، والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح ما فعله.
قال تعالى : أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أي : أولاده ، أو أتباعه ، وهم الشياطين ، جعلوا ذرية مجازا. وقال قتادة :
إنهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم. وقيل : يدخل ذنبه فى دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين.

والهمزة للإنكار والتعجب ، والفاء للتعقيب ، أي : أعقب علمكم بصدور تلك القبائح منه ، تتخذونه وذريته أَوْلِياءَ أحباء مِنْ دُونِي فتستبدلونهم ، وتطيعونهم بدل طاعتى ، والحال أنهم ، أي : إبليس وذريته لَكُمْ عَدُوٌّ أي : أعداء. وأفرد تشبيها له بالمصدر ، كالقبول والولوع ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ : الواضعين للشيء فى غير محله ، بَدَلًا استبدلوه من اللّه تعالى ، وهو إبليس وذريته. وفى الالتفات إلى الغيبة ، مع وضع الظاهر موضع الضمير ، من الإيذان بكمال السخط ، والإشارة إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح ، ما لا يخفى.

ما أَشْهَدْتُهُمْ أي : ما أحضرت إبليس وذريته ، أو : جميع الكفار خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، حيث خلقتهما قبل خلقهم ، وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ : ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ، كقوله : وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ «١». قاله البيضاوي.

قلت : الظاهر إبقاء الأنفس على ظاهرها ، أي : ما أحضرتهم خلق أنفسهم ، أي : ما كانوا حاضرين حين خلقت أنفسهم ، بل هم محدثون فى غاية العجز والجهل ، فكيف تتخذونهم أولياء من دونى؟ وفى الآية رد على المنجّمين الذين يخوضون فى أسرار غيب السموات بالتخمين ، وعلى الطبائعيين من الأطباء ومن سواهم ، من كل متخوض فى هذه الأشياء ، وعلى الكهّان وكل من يتطلع على الغيب بطريق الحدس ، والمصدقين لهم. انظر ابن عطية.

قال تعالى : وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ من الشياطين عَضُداً أي : أعوانا فى شأن الخلق ، أو فى شأن من شؤونى ، حتى تتخذوهم أولياء وتشركوهم فى عبادتى ، وكان الأصل أن يقول : وما كنت متخذهم ، فوقع المظهر موقع الضمير ذما لهم ، وتسجيلا عليهم بالإضلال ، وتأكيدا لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء ، وفيه تهكم بهم وإيذان بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم حيث لا يفهمون هذا الأمر الجلى الذي لا يكاد يشتبه على أبلد الصبيان ، فيحتاجون إلى التصريح به. انظر أبا السعود.

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة النساء.

الإشارة : فى الآية تنفير من الاستكبار والترفع على عباد اللّه تشبيها بإبليس ، وحث على التواضع والخضوع للّه فى خلقه وتجلياته كيفما كانت ، وفيها أيضا الحض على إفراد الوجهة والمحبة للّه ، والتبري من كل ما سواه مما يشغل عن اللّه ، وفيها أيضا : النهى عن التطلع إلى ما لم يرد به من أسرار القدر نص صريح فى كتاب الله ولا فى سنة رسول اللّه من أسرار القدر ، وفيها أيضا : النهى عن

الاستعانة بأعداء اللّه فى أي شأن كان. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر وبال من اتخذ وليّا غير اللّه ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٥٢ الى ٥٣]

وَيَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً (٥٣)

قلت : «مَوْبِقاً» : اسم مكان ، أو مصدر ، من : وبق وبوقا ، كوثب وثوبا ، ووبق وبقا ، كفرح فرحا.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ يَقُولُ الحق تعالى للكفار توبيخا وتعجيزا لهم : نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أنهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم ، والمراد بهم كل ما عبد من دون اللّه ، أو إبليس وذريته ، فَدَعَوْهُمْ أي : نادوهم للإغاثة ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ : فلم يغيثوهم ، وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ أي : بين الداعين والمدعوين مَوْبِقاً أي : مهلكا يهلكون فيه جميعا ، وهو النار ، وقيل : العداوة ، وهى نوع من الهلاك ، لقول عمر رضي اللّه عنه : «لا يكن حبك كلفا ، ولا بغضك تلفا» «١». وقيل : المراد بالبين : الوصل ، أي : وجعلنا وصلهم فى الدنيا هلاكا فى الآخرة ، كقوله : لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ «٢» ، وقيل : المراد بالشركاء : الملائكة ، وعزير ، وعيسى - عليهم السّلام - ، ويراد حينئذ بالموبق : البرزخ البعيد ، أي : وجعلنا بينهم وبين من عبدوهم برزخا بعيدا لأنهم فى قعر جهنم ، وهم فى أعلى عليين.

وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ، وضع المظهر موضع المضمر تصريحا بإجرامهم ، وذما لهم ، أي : ورأوا النار فَظَنُّوا أي : أيقنوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها مخالطوها وواقعون فيها ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً أي : انصرافا ومعدلا ينصرفون إليه ، نسأل اللّه السلامة من مواقع الهلاك.

---

(١) قال المناوى فى الفتح السماوي ٢/ ٧٩٦ : «لم أقف عليه» ، ومعنى المثل : لا يكن حبك حبا مفرطا يؤدى إلى الولع والهيام ، وبغضك بغضا مفرطا يجر إلى التلف.

(٢) من الآية ٩٤ من سورة الأنعام.

الإشارة : من اتخذ اللّه وليا ، بموالاة طاعته وإفراد محبته ، كان اللّه له وليا ونصيرا عند احتياجه وفاقته ، ومجيبا له عند دعائه واستغاثته ، ومن اتخذ وليّا غير اللّه خاب ظنه ومناه ، فإذا استغاث به جعل بينه وبين المستغيث به موبقا وبرزخا بعيدا ، ومن والى أولياء اللّه فإنما والى اللّه ، إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ «١». وباللّه التوفيق.

ثم ذكر كفرهم بالقرآن ، مع كونه آية واضحة للعيان ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٥٤ الى ٥٩]

وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً (٥٥) وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آياتِي وَما أُنْذِرُوا هُزُواً (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨)

وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (٥٩)

قلت : جَدَلًا : تمييز ، ورَبُّكَ : مبتدأ ، والْغَفُورُ : خبره ، وذُو الرَّحْمَةِ : خبر بعد خبر ، وقيل : الخبر : (لَوْ يُؤاخِذُهُمْ) ، والْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ : صفتان للمبتدأ ، ، وإيراد المغفرة على جهة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب ، وأيضا : المغفرة ترك المؤاخذة ، وهى غير متناهية ، والرحمة فعل ، وهو متناهى ، وتقديم الوصف الأول لأن التخلية قبل التحلية ، و(المهلك) بضم الميم وفتح اللام : اسم مصدر ، من أهلك ، فالمصدر ، على هذا ، مضاف للمفعول لأن الفعل متعد ، وقرئ بفتح الميم ، من هلك ، فالمصدر ، على هذا ، مضاف للفاعل.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ صَرَّفْنا أي : كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظر العجيب ، فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ لمصلحتهم ومنفعتهم ، مِنْ كُلِّ مَثَلٍ من كل خبر يحتاجون إليه ، أو : من كل مثل

---

(١) من الآية ١٠ من سورة الفتح.

مضروب يعتبرون به ، ومن جملته ما مر من مثل الرجلين ، ومثل الحياة الدنيا. أو : من كل نوع من أنواع المعاني البديعة الداعية إلى الإيمان ، التي هى ، فى الغرابة والحسن واستجلاب القلوب ، كالمثل المضروب ، ليتلقوه بالقبول ، فلم يفعلوا. وَكانَ الْإِنْسانُ بحسب جبلّته أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا أي : أكثر الأشياء ، التي يتأتى منها الجدل ، جدلا ، وهو هنا شدة الخصومة بالباطل ، والمعنى : أن جدله أكثر من جدل كل مجادل ، وفيها ذم الجدل. وسببها :

مجادلة النضر بن الحارث كما قيل ، وهى عامة.
وَما مَنَعَ النَّاسَ أي : أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم ، من أَنْ يُؤْمِنُوا باللّه تعالى ، ويتركوا ما هم فيه من الإشراك ، إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى أي : حين جاءهم القرآن الهادي إلى الإيمان ، بسبب ما فيه من فنون العلوم وأنواع الإعجاز ، فيؤمنوا ، وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ عما فرط منهم من أنواع الذنوب ، التي من جملتها : مجادلتهم للحق بالباطل ، إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أي : ما منعهم إلا إتيان سنة الأولين ، وهو نزول العذاب المستأصل أو انتظاره ، فيكون على حذف مضاف ، أي : انتظار سنة الأولين ، وهو الهلاك.
قال ابن جزى : معناها أن المانع للناس من الإيمان والاستغفار هو القضاء عليهم بأن تأتيهم سنّة الأمم المتقدمة ، وهى الإهلاك فى الدنيا ، أو يأتيهم العذاب أي : عذاب الآخرة. هـ. قلت : والظاهر أن معنى الآية : ما منعهم من الإيمان إلا انتظار آية يرونها عيانا ، كعادة الأمم الماضية ، فيهلكوا كما هى سنّة اللّه فى خلقه ، أو : عذاب ينزل بهم جهرا ، وهو معنى قوله : أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا أي : مقابلة وعيانا.
قال تعالى : وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إلى الأمم إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ أي : مبشرين للمؤمنين بالثواب ، ومنذرين للكافرين بالعقاب ، دون إظهار الآيات واقتراح المعجزات ، وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ باقتراح الآيات كالسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها. يفعلون ذلك لِيُدْحِضُوا بِهِ أي : بالجدال الْحَقَّ ، أي :
يزيلونه عن مركزه ويبطلونه ، من إدحاض القدم وهو إزلاقها. وجدالهم : قولهم لرسلهم عليهم السلام : ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا «١» ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً «٢» ، ونحوها. وَاتَّخَذُوا آياتِي التي تخرّ لها صمّ الجبال ، وهو القرآن ، وَما أُنْذِرُوا أي : وإنذارى لهم ، أو : الذي أنذروا به من العذاب والعقاب ، هُزُواً مهزوءا به ، أو محل استهزاء.

---

(١) الآية ١٥ من سورة يس.
(٢) الآية ٢٤ من سورة المؤمنون.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ وهو القرآن العظيم ، فَأَعْرَضَ عَنْها فلم يتدبرها ولم يؤمن بها ، أي : لا أحد أظلم منه لأنه أظلم من كل ظالم حيث ضم إلى المجادلة التكذيب والإعراض ، وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ من الكفر والمعاصي ، ولم يتفكر فى عاقبتها ، إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً : أغطية كثيرة تمنعهم

من التدبر في الآيات ، وهو تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم ، فعل ذلك بهم كراهة أَنْ يَفْقَهُوهُ ، أو : منعناهم أن يقفوا على كنهه. وَجعلنا فِي آذانِهِمْ وَقْراً أي : ثقلا يمنعهم من استماعه ، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً أي : فلن يكون منهم اهتداء البتة مدة التكليف للطبع المتقدم على قلوبهم ، وهذا في قوم مخصوصين سبق لهم الشقاء.

و«إذاً» : حرف جزاء وجواب ، وهو ، هنا ، عن سؤال من النبي صلى اللّه عليه وسلم المدلول عليه بكمال عنايته بإسلامهم ، كأنه قال صلى اللّه عليه وسلم : مالى لا أدعوهم؟ فقال : إن تدعهم ... إلخ. وجمع الضمير الراجع إلى الموصول في هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه ، كما أن إفراده في المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار اللفظ.

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ : البليغ المغفرة ذُو الرَّحْمَةِ الموصوف بها ، لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا من المعاصي ، التي من جملتها : ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل ، وإعراضهم عن آيات ربهم ، وعدم مبالاتهم بما اجترحوا من الموبقات ، لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ قبل يوم القيامة لاستجلاب أعمالهم لذلك ، والمراد : إمهال قريش ، مع إفراطهم في عداوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ وهو يوم القيامة ، أو يوم بدر ، والمعطوف عليه ببل : محذوف ، أي : لكنهم ليسوا بمؤاخذين ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا أي : ملجأ يلتجئون إليه ، أو منجى ينجون به ، يقال : وأل : أي : نجا ، ووأل إليه : أي : التجأ إليه.

وَتِلْكَ الْقُرى أي : قرى عاد وثمود وأضرابها ، أي : وأهل تلك القرى أَهْلَكْناهُمْ بالعذاب لَمَّا ظَلَمُوا أي : وقت ظلمهم ، كما فعلت قريش بما حكى عنهم ، وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ أي : عيّنّا لهلاكهم مَوْعِداً أي : وقتا معينا ، لا محيد لهم عن ذلك ، فلتعتبر قريش بذلك ولا تغتر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد صرّف اللّه في كتابة العزيز كل ما يحتاج إليه العباد ، من علم الظاهر والباطن ، لكن خوض القلوب فيما لا يعنى ، وكثرة مجادلتها بالباطل ، صرفتها عن فهم أسرار الكتاب واستخراج غوامضه. فمن صفت مرآة قلبه أدرك ذلك منه. وتصفيتها بصحبة أهل الصفاء ، وهم العارفون باللّه ، ولا تخلو الأرض منهم حتى يأتي أمر اللّه ، وما منع الناس من الإيمان بهم وتصديقهم إلا انتظارهم ظهور كرامتهم ، ونزول العذاب على من آذاهم ، وهو جهل بطريق الولاية لأنهم رحمة للعباد ، أرسلهم الحق تعالى في كل زمان ، يذكّرون الناس بالتحذير والتبشير ، وبملاطفة الوعظ والتذكير ، فاتخذهم الناس وما ذكروا به هزوا ولعبا ، حيث حادوا عن تذكيرهم ، ونفروا عن

صحبتهم ، فلا أحد أظلم ممن ذكّر باللّه وبآياته ، فأعرض واستكبر ونسى ما قدمت يداه من المعاصي والأوزار ، سبب ذلك : جعل الأكنة على القلوب ، وسفح ران المعاصي والذنوب ، فلا يفقهون وعظا ولا تذكيرا ، ولا يستمعون تحذيرا ولا تبشيرا ، وإن تدعهم إلى الهدى والرجوع عن طريق الردى ، فلن يهتدوا إذا أبدا لما سبق لهم فى سابق القضاء ، فلو لا مغفرته العامة ، ورحمته التامة ، لعجل لهم العذاب ، لكن له وقت معلوم ، وأجل محتوم ، لا محيد عنه إذا جاء ، ولا ملجأ منه ولا منجا. نسأل اللّه العصمة بمنّه وكرمه.

ولمّا ذكر الحق جل جلاله قصة أهل الكهف ، وكان وقع فيها عتاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - حيث لم يستثن بتأخير الوحى ، وبقوله : وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ ... إلخ ، ذكر هنا قصة موسى مع الخضر - عليهما السلام - وكان سببها عتاب الحق لموسى عليه السّلام حيث لم يردّ العلم إليه ، حين قال له القائل : هل تعلم أحدا أعلم منك؟ فقال : لا ، فذكر الحق تعالى قصتهما تسلية لنبينا عليه الصلاة والسلام بمشاركة العتاب ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : آية ٦٠]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (٦٠)

قلت : لا أَبْرَحُ : ناقصة ، وخبرها : محذوف : اعتمادا على قرينة الحال إذ كان ذلك عن التوجه إلى السفر ، أي : لا أبرح أسير فى سفرى هذا ، ويجوز أن تكون تامة ، من زال يزول ، أي : لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف عليه السّلام ، وكان ابن أخته ، سمى فتاه إذ كان يخدمه ويتبعه ويتعلم منه العلم. والفتى فى لغة العرب : الشاب ، ولمّا كانت الخدمة أكثر ما تكون من الفتيان ، قيل للخادم : فتى ، ويقال للتلميذ : فتى ، وإن كان شيخا ، إذا كان فى خدمة شيخه ، فقال موسى عليه السّلام : لا أَبْرَحُ : لا أزال أسير فى طلب هذا الرجل ، يعنى : الخضر عليه السّلام ، حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ، وهو ملتقى بحر فارس والروم مما يلى المشرق ، وهذا مذهب الأكثر. وقال ابن جزى : مجمع البحرين :

عند «طنجة» حيث يتجمع البحر المحيط والبحر الخارج منه ، وهو بحر الأندلس. قلت : وهو قول كعب بن محمد القرظي. أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً أي : زمنا طويلا أتيقن معه فوات الطلب. والحقب : الدهر ، أو ثمانون سنة ، أو سبعون.

وسبب هذا السفر : أن موسى عليه السّلام لما ظهر على مصر ، بعد هلاك القبط ، أمره اللّه تعالى أن يذّكر قومه هذه النعمة ، فقام فيهم خطيبا بخطبة بليغة ، رقّت بها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقالوا له : من أعلم الناس؟ فقال : أنا.

وفى رواية : هل تعلم أحدا أعلم منك؟ فقال : لا. فعتب اللّه عليه إذ لم يردّ العلم إليه عز وجل ، فأوحى اللّه إليه : أعلم

منك عبد لى بمجمع البحرين ، وهو الخضر «١» ، وكان قبل موسى عليه السّلام ، وكان فى مقدّمة ذى القرنين ، فبقى إلى زمن موسى عليه السّلام ، وسيأتى ذكر التعريف به فى محله ، إن شاء اللّه.

وقال ابن عباس رضي اللّه عنه : إن موسى عليه السّلام سأل ربه : أىّ عبادك أحب إليك؟ قال : الذي يذكرنى ولا ينسانى ، قال :

فأى عبادك أقضي؟ قال : الذي يقضى بالحق ولا يتبع الهوى ، قال : فأى عبادك أعلم؟ قال : الذي يستقى علم الناس إلى علمه ، عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى ، أو ترده عن ردى ، قال : يا رب إن كان فى عبادك من هو أعلم منى فدلنى عليه؟ قال : أعلم منك الخضر ، قال : أين أطلبه؟ قال : على ساحل البحر عند الصخرة «٢». قال : يا رب ، كيف لى به؟ قال : خذ حوتا فى مكتل ، فحيثما فقدته فهو هناك ، فأخذ حوتا مشويا ، فجعله فى مكتل ، فقال لفتاه :

إذا فقدتّ الحوت فأخبرنى ، وذهبا يمشيان إلى أن اتصلا بالخضر ، على ما يأتى تمامه ، إن شاء اللّه تعالى. وحديث الخطبة هو الذي فى صحيح البخاري «٣» وغيره. واللّه تعالى أعلم أىّ ذلك كان.

الإشارة : قصة سيدنا موسى مع الخضر - عليهما السلام - هى السبب فى ظهور التمييز بين أهل الظاهر وأهل الباطن ، فأهل الظاهر قائمون بإصلاح الظواهر ، وأهل الباطن قائمون بتحقيق البواطن.

أهل الظاهر مغترفون من بحر الشرائع ، وأهل الباطن مغترفون من بحر الحقائق. وقيل : هو المراد بمجمع البحرين ، حيث اجتمع سيدنا موسى ، الذي هو بحر الشرائع ، والخضر عليه السّلام ، الذي هو بحر الحقائق ، ولا يفهم أن سيدنا موسى عليه السّلام خال من بحر الحقائق ، بل كان جامعا كاملا ، وإنما أراد الحق تعالى أن ينزله إلى كمال الشرف ، بالتواضع فى طلب زيادة العلم تأديبا له وتربية ، حيث ادعى القوة فى نسبته العلم إلى نفسه ، وفى الحكم : «منعك أن تدعى ما ليس لك مما للمخلوقين ، أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين!».

وهذه عادة اللّه تعالى مع خواصّ أحبائه ، إذا أظهروا شيئا من القوة ، أو خرجوا عن حد العبودية ، ولو أنملة ، أدبهم بأصغر منهم علما وحالا عناية بهم ، وتشريفا لهم لئلا يقفوا دون ذروة الكمال ، كقضية الشاذلى مع المرأة التي قالت له : تمنّ على ربك بجوع ثمانين يوما ، وأنا لى تسعة أشهر ماذقت شيئا.

وكقضية الجنيد والسّري فى جماعة من الصوفية ، حيث تكلموا فى المحبة ، وفاض كل واحد على قدر

اتساع بحره فيها ، فقامت امرأة بالباب ، عليها جبة صوف ، فردت على كل واحد ما قال ، حيث أظهروا قوة علمهم ، فأدبهم بامرأة.

ويؤخذ من طلب موسى الخضر - عليهما السلام - والسفر إليه : الترغيب فى العلم ، ولا سيما علم الباطن ، فطلبه أمر مؤكد. قال الغزالي رضي اللّه عنه : هو فرض عين إذ لا يخلو أحد من عيب أو اصرار على ذنب ، إلا الأنبياء - عليهم السلام - وقد قال الشاذلى رضي اللّه عنه : من لم يغلغل فى علمنا هذا مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر. وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرج حديث موسى والخضر ، البخاري فى مواضع منا : (العلم ، باب ما ذكر فى ذهاب موسى عليه السّلام فى البحر إلى خضر) ، و(أحاديث الأنبياء ، باب حديث الخضر) ، و(التفسير ، سورة الكهف) ، ومسلم فى (الفضائل ، باب من فضائل الخضر).

(٢) أخرجه الطبري فى التفسير (١٥/ ٢٧٧) وعزاه السيوطي فى الدر (٤/ ٤٢٣) لابن المنذر ، وابن أبى حاتم فى التفسير.

(٣) أخرج البخاري حديث الخطبة فى (تفسير سورة الكهف ، باب «فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما») ، عن أبيّ بن كعب.

(٣/٢٨٥)

ثم ذكر بقية القصة ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٦١ الى ٦٥]

فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (٦١) فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً (٦٢) قالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَما أَنْسانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً (٦٣) قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً (٦٤) فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (٦٥)

قلت : بَيْنِهِما : ظرف مضاف إليه اتساعا ، أو بمعنى الوصل ، وسَرَباً : مفعول ثان لاتخذ ، وإِذْ أَوَيْنا : متعلق بمحذوف ، أي : أخبرنى ما دهانى حين أويت إلى الصخرة حتى لم أخبرك بأمر الحوت ، فإنى نسيت أن أذكر لك أمره. وأَنْ أَذْكُرَهُ : بدل من الهاء فى (أَنْسانِيهُ) بدل اشتمال للمبالغة ، وعَجَباً : مفعول ثان لاتخذ ، وقيل : إن الكلام قد تم عند قوله : (فِي الْبَحْرِ) ، ثم ابتدأ التعجب فقال : (عَجَباً) أي : أعجب عجبا ، وهو بعيد. قاله ابن جزى. قلت : وهذا البعيد هو الذي ارتكب الهبطى.

و(قَصَصاً) : مصدر ، أي : يقصان قصصا.
يقول الحق جل جلاله : ثم إن موسى ويوشع - عليهما السلام - حملا حوتا مشويا وخبزا ، وسارا يلتمسان الخضر ، فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما بين البحرين ، أو مجمع وصل بعضهما ببعض ، وجدا صخرة هناك ، وعندها عين الحياة ، لا يصيب ذلك الماء شيئا إلا حيي بإذن اللّه ، وكانا وصلا إليها ليلا ، فناما ، فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطرب فى المكتل ، ودخل البحر ، وقد كانا أكلا منه ، وكان ذلك بعد استيقاظ يوشع ، وقيل : توضأ عليه السّلام من تلك العين ، فانتضح الماء على الحوت ، فحيى ودخل البحر ، فاستيقظ موسى ، وذهبا ، ونَسِيا حُوتَهُما أي : نسيا تفقد أمره وما يكون منه ، أو نسى يوشع أن يعلمه ، وموسى عليه السّلام أن يأمر فيه بشيء ، فَاتَّخَذَ الحوت سَبِيلَهُ أي : طريقه فِي الْبَحْرِ سَرَباً مسلكا كالطّاق ، قيل : أمسك اللّه جرية الماء على الحوت فجمد ، حتى صار كالطاق فى الماء معجزة لموسى أو الخضر - عليهما السلام.
فَلَمَّا جاوَزا مجمع البحرين ، الذي جعل موعدا للملاقاة ، وسارا بقية ليلتهما ويومهما إلى الظهر ، وجد موسى عليه السّلام حرّ الجوع ، ف قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا أي : ما نتغدى به ، وهو الحوت ، كما ينبئ عنه الجواب ، لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً : تعبا وإعياء. قيل : لم ينصب موسى ولم يجع قبل ذلك ، ويدل عليه الإتيان بالإشارة ، وجملة (لَقَدْ لَقِينا) : تعليل للأمر بإيتاء الغذاء ، إما باعتبار أن النّصب إنما يعترى بسبب الضعف الناشئ عن الجوع ، وإمّا باعتبار ما فى أثناء التغذي من استراحة ما.

(٣/٢٨٦)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٨٧
قالَ فتاه عليه السّلام : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ أي : التجأنا إليها ونمنا عندها ، فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ أي : أخبرنى ما دهانى حتى لم أذكر لك أمر الحوت ، فإنى نسيت أن أذكر لك أمره ، ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السّلام مما اعتراه من النسيان ، مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تنسى ، وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ بوسوسته الشاغلة له عن ذلك ، أَنْ أَذْكُرَهُ ، ونسبته للشيطان هضما لنفسه ، واستعمال الأدب فى نسبة النقائص إلى الشيطان ، وإن كان الكل من عند اللّه. وهذه الحالة ، وإن كانت غريبة لا يعهد نسيانها ، لكنه قد تعود بمشاهدة أمثالها من الخوارق مع موسى عليه السّلام ، وألفها قبل اهتمامه بالمحافظة عليها ، أو لاستغراقه وانجذاب سره إلى جناب القدس ، حتى غاب عن الإخبار بها.
قلت : والظاهر أن نسيانه كان أمرا إلهيا قهريا بلا سبب ، وحكمته ما لقى من النصب لتعظم حلاوة العلم الذي يأخذه عن الخضر عليه السّلام ، فإن المساق بعد التعب ألذ من المساق بغير تعب ،

ولذلك : «حفت الجنة بالمكاره».

ثم قال : وَاتَّخَذَ الحوت سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ، فيه حذف ، أي : فحيى الحوت ، واضطرب ، ووقع فى البحر ، واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا ، أو اتخاذا عجبا يتعجب منه ، وهو كون مسلكه كالطاق ، قالَ موسى عليه السّلام : ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ أي : ذلك الذي ذكرت من أمر الحوت هو الذي كنا نطلبه لكونه أمارة للفوز بالمرام ، فَارْتَدَّا أي : رجعا عَلى طريقهما الذي جاءا منه ، يقصّان. يتبعان آثارِهِما قَصَصاً ، حتى أتيا الصخرة فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا ، التنكير للتفخيم والإضافة للتعظيم ، وهو الخضر عليه السّلام عند الجمهور ، واسمه : بليا بن ملكان يعصوا ، والخضر لقب له لأنه جلس على فروة بيضاء فاهتزّت تحته خضراء ، كما فى حديث أبى هريرة عنه - صلى اللّه عليه وسلم «١».

وقال مجاهد : سمى خضرا لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله ، ثم قال : وهو ابن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، وكان أبوه ملكا. هـ. وفى الحديث أن النبي صلى اللّه عليه وسلم ذكر قصة الخضر ، فقال : كان ابن ملك من الملوك ، فأراد أبوه أن يستخلفه من بعده ، فأبى وهرب ، ولحق بجزائر البحر ، فلم يقدر عليه. قيل : إنه شرب من عين الحياة فمتع بطول الحياة.

روى أن موسى عليه السّلام حين انتهى إلى الصخرة رأى الخضر عليه السّلام على طنفسة - أي : بساط - على وجه الماء ، فسلم عليه. وعنه - عليه الصلاة والسّلام - أنه قال : انتهى موسى إلى الخضر ، وهو نائم مسجى عليه ثوب ، فسلّم عليه فاستوى جالسا ، وقال : عليك السّلام يا نبى بنى إسرائيل ، فقال موسى : من أخبرك أنى نبى بنى إسرائيل؟ قال : الذي أدراك بي ، وذلك عليّ.

---

(١) أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى).

قال تعالى فى حق الخضر : آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا ، هى الوحى والنبوة ، كما يشعر به تنكير الرحمة ، وإضافتها إلى جناب الكبرياء ، وقيل : هى سر الخصوصية ، وهى الولاية. وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً خاصا ، لا يكتنه كنهه ، ولا يقدر قدره ، وهو علم الغيوب ، أو أسرار الحقيقة ، أو علم الذات والصفات ، علما حقيقيا. فالخضر عليه السّلام قيل : إنه نبى بدليل قوله فيما يأتى : وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، وقيل : وليّ ، واختلف : هل مات ، أو هو حى؟

وجمهور الأولياء : أنه حي ، وقد لقيه كثير من الصلحاء والأولياء ، حتى تواتر عنهم حياته «١». واللّه

تعالى أعلم.

الإشارة : إنما صار الحوت دليلا لسيدنا موسى عليه السّلام بعد موته وخروجه عن إلفه ، ثم حيي حياة خصوصية لمّا أنفق عليه من عين الحياة ، كذلك العارف لا يكون دالا على اللّه ، وإماما يقتدى به حتى يموت عن شهود حسه ، ويخرق عوائد نفسه ، ويفنى عن بشريته ، ويبقى بربه ، حينئذ تحيا روحه بشهود عظمة ربه ، ويصير إماما ودليلا موصلا إليه ، ويظهر منه خرق العوائد ، كما ظهر من الحوت ، حيث أمسك عن الماء الجرية فصار كالطّاق ، وذلك اقتدار ، وإلى ذلك تشير أحوال الخضر ، فكان الحوت مظهرا لحاله فى تلك القصة. قاله فى الحاشية بمعناه.

وقال قبل ذلك فى قوله : وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً : أي اتخذ الحوت ، وجوّز كون فاعل (اتَّخَذَ) : موسى ، أي : اتخذ موسى سبيل الحوت فى البحر عجبا وخرق عادة بأن مشى على الماء فى طريق الحوت ، حتى وجد الخضر على كبد البحر. ثم قال : وعلى الجملة : فالقضية تشير من جهة الخضر : للاقتدار وإسقاط الأسباب ، ومن جهة موسى : لإثبات الأسباب حكمة ، وحالة الاقتدار أشرف ، وصاحب الحكمة أكمل ونفعه عام ، بخلاف الآخر ، فإن نفعه خاص. هـ.

وقوله تعالى : وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ، العلم اللدني : هو الذي يفيض على القلب من غير اكتساب ولا تعلم ، قال عليه الصلاة والسّلام : «من عمل بما علم أورثه اللّه علم ما لم يعلم». وذلك بعد تطهير القلب من النقائص والرذائل ، وتفرغه من العلائق والشواغل ، فإذا كمل تطهير القلب ، وانجذب إلى حضرة الرب ، فاضت عليه العلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، منها ما تفهمها العقول وتدخل تحت دائرة النقول ، ومنها ما لا تفهمها العقول ولا تحيط بها النقول ، بل تسلم لأربابها ، من غير أن يقتدى بهم فى أمرها ، ومنها ما تفيض عليهم فى جانب علم الغيوب كمواقع القدر وحدوث الكائنات المستقبلة ، ومنها ما تفيض عليهم فى علوم الشرائع وأسرار الأحكام ، ومنها فى أسرار الحروف وخواص الأشياء ، إلى غير ذلك من علوم اللّه تعالى. وباللّه التوفيق.

---

(١) بين أهل العلم خلاف فى شأن الخضر ، هل هو نبى أم لا؟ وهل هو حى أم لا؟ ... راجع فى ذلك تفسير : ابن كثير (٣/ ٩٩) ، وفتح الباري (٦/ ٤٣٤) ، والمعالم الصوفية فى قصة سيدنا موسى والخضر ، للأستاذ الدكتور جودة المهدى ، فى حولية كلية أصول الدين بطنطا ، العدد الأول ، / ١٩٨٧ م.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٨٩

ثم تمم قصتهما بعد التقائهما ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٦٦ الى ٧٠]

قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (٦٦) قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (٦٨) قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (٦٩) قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (٧٠)

قلت : «رُشْداً» : مفعول ثانى لعلمت ، أو : علة لأتبعك ، أو : مصدر بإضمار فعله ، أو : حال من كاف «أَتَّبِعُكَ» ، أو :

على إسقاط الخافض ، أي : من الرشد ، وفيه لغتان : ضم الراء وسكون الشين ، وفتحهما ، وهو : إصابة الخير ، وخُبْراً : تمييز محول عن الفاعل ، أي : لم يحط به خبرك. و«لا أَعْصِي» : عطف على : «صابِراً».

يقول الحق جل جلاله : ولما اتصل موسى بالخضر - عليهما السّلام - استأذنه فى صحبته ليتعلم منه ، ملاطفة وأدبا وتواضعا ، وكذلك ينبغى لمن يريد التعلم من المشايخ : أن يتأدب ويتواضع معهم. قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً أي : مما علمك اللّه من العلم الذي يدل على الرشد وإصابة الصواب ، لعلى أرشد به فى دينى. ولا ينافى كونه نبيا ذا شريعة أن يتعلم من غيره من أسرار العلوم الخفية إذ لا نهاية لعلمه تعالى ، وقد قال له تعالى فيما تقدم : أعلم الناس من يبتغى علم غيره إلى علمه. روى أنهما لما التقيا جلسا يتحدثان ، فجاءت خطافة أو عصفور فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين ، فقال الخضر : يا موسى خطر ببالك أنك أعلم أهل الأرض؟ ما علمك وعلمى وعلم الأولين والآخرين فى جنب علم اللّه إلا أقل من الماء الذي حمله هذا العصفور.

ولمّا سأله صحبته قالَ له : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً لأنك رسول مكلف بحفظ ظواهر الشرائع ، وأنا أطلعنى اللّه تعالى على أمور خفية ، لا تتمالك أن تصبر عنها لمخالفة ظاهرها للشريعة. وفى صحيح البخاري :

«قال له الخضر : يا موسى ، إنى على علم من علم اللّه علّمنيه ، لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم اللّه علّمكه اللّه ، لا أعلمه» «١».

ثم علل عدم صبره بقوله : وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً؟ لأنى أتولى أمورا خفية لا خبر لك بها ، وصاحب الشريعة لا يسلم لصاحب الحقيقة العارية من الشريعة ، قالَ له موسى عليه السّلام : سَتَجِدُنِي إِنْ

---

(١) جاء ذلك فى رواية البخاري ، التي أخرجها فى (العلم ، باب ما يستحب للعالم إذا سئل : أىّ الناس أعلم)؟ من حديث أبىّ بن كعب. [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٩٠

شاءَ اللَّهُ صابِراً معك ، غير معترض عليك. وتوسيط الاستثناء بين مفعولى الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن ، ولئلا يتوهم تعلقه بالصبر ، وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ، هو داخل فى الاستثناء ، أي : ستجدنى إن شاء اللّه صابرا وغير عاص.

وقال القشيري : وعد من نفسه شيئين : الصبر ، وألّا يعصيه فيما يأمره به. فأما الصبر فقرنه بالمشيئة ، حتى وجده صابرا ، فلم يقبض على يدى الخضر فيما كان منه من الفعل. والثاني قال : وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ، فأطلق ولم يستثن ، فعصى ، حيث قال له الخضر : فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ، فكان يسأله ، فبالاستثناء لم يخالف ، وبالإطلاق خالف. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : وفيه نظر للحديث الصحيح : «يرحم اللّه موسى ، لو صبر ...» مع أن قوله : «ولا أعصى ...» إلخ ، غير خارج عن الاستثناء ، كما تقدم ، وإن احتمل خروجه ، والظاهر :

أن الاستثناء ، كالدعاء ، إنما ينفع إذا صادف القدر ، وهو هنا لم يصادف ، مع أنه هنا عارضه علم الخضر بكونه لم يصبر من قوله : لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ، وقد أراد اللّه نفوذ علم الخضر. هـ.

وقال ابن البنا : أن العهد إنما هو على قدر الاستطاعة ، وإن الوفاء بالملتزم إنما يكون فيما لا يخالف الشرع ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق لأن موسى عليه السّلام لم يلتزم إلا ذلك. ولمّا رأى ما هو محرم تكلم .. فافهم. هـ.

ثم شرط عليه التسليم لما يرى ، فقال : فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ تشاهده من أفعالى ، فهمته أم لا ، أي : لا تفاتحنى بالسؤال عن حكمته ، فضلا عن مناقشته واعتراضه ، حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً حتى أبتدى بيانه لك وحكمته ، وفيه إيذان بأن ما يصدر منه له حكمة خفية ، وعاقبة صالحة. وهذا من أدب المتعلم مع العالم ، والتابع مع المتبوع ، أنه لا يعترض على شيخه بل يسأل مسترشدا بملاطفة وأدب ، وهذا فى العلم الظاهر.

وسيأتى فى الإشارة ما يتعلق بعلم الباطن.

الإشارة : قد أخذ الصوفية - رضى اللّه عنهم - آداب المريد مع الشيخ من قضية الخضر مع موسى - عليهما السّلام - فطريقتهم مبنية على السكوت والتسليم ، حتى لو قال لشيخه : لم؟ لم يفلح أبدا ، سواء رأى من شيخه منكرا أو غيره ، ولعله اختبار له فى صدقه ، أو اطلع على باطن الأمر فيه ، فأحوالهم خضرية ، فالمريد الصادق يسلم لشيخه فى كل ما يرى ، ويمتثل أمره فى كل شىء ، فهم وجه الشريعة فيه أم لا ، هذا فى علم الباطن ، وأما علم الظاهر فمبنى على البحث والتفتيش ، مع ملاطفة وتعظيم.

قال الورتجبي : امتحن الحق تعالى موسى عليه السّلام بصحبة الخضر لاستقامة الطريقة ولتقويم السنة فى متابعة المشايخ ، ويكون أسوة للمريدين والقاصدين فى خدمتهم أشياخ الطريقة. هـ. قال القشيري فى قوله : (فلا تسألن عن شى ء) : قال :
ليس للمريد أن يقول لشيخه : لم ، ولا للمتعلم أن يقول لأستاذه ، ولا للعامى أن يقول للمفتى فيما يفتى ويحكم : لم. هـ.

(٣/٢٩٠)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٩١

وقال ابن البنا فى تفسيره : يؤخذ من هذه القصة : ترك الاعتراض على أولياء اللّه إذا ظهر منهم شيء مخالف للظاهر لأنهم فيه على دليل غير ظاهر لغيرهم ، اللهم إلا أن يدعوك إلى اتباعه ، فلا تتبعه إلا عن دليل ، ويسلم له فى حاله ، ولا تعترض عليه ، ولا يمنعك ذلك من طلب العلم والتعلم منه ، وإن كنت لا تعمل بعمله لأنه لا يجب عليك تقيده إلا عن دليل ، فلا تعمل مثل عمله ، وأنت ترى أنه مخالف لك فى ظنك ، ولا علم لك بحقيقة باطن الأمر ، فلا تقف ما ليس لك به علم. واللّه الموفق والمرشد. هـ.
قلت : ما ذكره إنما هو فى حق من لم يدخل تحت تربيته ، فإنما هو طالب علم أو تبرك ، وأما من التزم صحبته على طريق التربية فلا يتأخر عن امتثال ما أمره به ، كيفما كان ، نعم ، إن لم ينبغ التوقف والتأنى فى الاقتداء به.
وقال فى القوت فى قوله : فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ : الشيء فى هذا الموضع وصف مخصوص من وصف الربوبية من العلم ، الذي علمه الخضر عليه السّلام من لدنه ، لا يصلح أن يسأل عنه ، من معنى صفات التوحيد ونعوت الوحدانية ، لا يوكل إلى العقول ، بل يخص به المراد المحمول. هـ.
قال المحشى الفاسى : وهو - أي : المحمول - ما يرشق فيهم من وصف الحق وقدرته ، فيتصرفون ، وهم فى الحقيقة مصرّفون ، وهؤلاء هم أهل القبضة ، الذين علّمهم سرّ الحقيقة ، فلهم قدرة لنفوذ شعاعها فيهم ، فتتكوّن لهم الأشياء ، وتنفعل لحملهم سر الحقيقة وظهورها لهم وفيهم ، وهم كما قال : مرادون محمولون ، فما يجرى عليهم :
قدر وَما رَمَيْتَ ... الآية. هـ.
ثم ذكر ما أراه من الخوارق ، فقال :
[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٧١ الى ٧٧]
فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (٧١) قالَ أَلَمْ

أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٢) قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (٧٣) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (٧٤) قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٥)

قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (٧٦) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (٧٧)

قلت : ضمّن ركوب السفينة معنى الدخول فيها ، فعداه بفي ، وقد تركه على أصله فى قوله : لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً «١».

يقول الحق جل جلاله : فَانْطَلَقا أي : موسى والخضر ، وسكت عن الخادم لكونه تبعا ، وقيل : إن يوشع لم يصحبهما ، بل رجع ، فصارا يمشيان على ساحل البحر ، فمرت بهم سفينة ، فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر ، فحملوهم بغير نول ، فلما لجّجوا البحر أخذ الخضر فأسا فخرق السفينة ، فقلع لوحا أو لوحين مما يلى الماء ، فحشاها موسى بثوبه ، وقالَ أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها أو : ليغرق أهلها «٢» ، لَقَدْ جِئْتَ أي : أتيت وفعلت ، شَيْئاً إِمْراً أي : عظيما هائلا ، يقال : أمر الأمر : عظم ، قالَ الخضر : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً تذكيرا لما قاله له من قبل ، وإنكارا لعدم الوفاء بالعهد ، قالَ موسى عليه السّلام : لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ أي :

بنسياني ، أو بالذي نسيته ، وهو وصيته بأن لا يسأله عن حكمة ما صدر عنه من الأفعال الخفية الأسباب قبل بيانه ، أراد : نسى وصيته ، ولا مؤاخذة على الناسي ، وفى الحديث : «كانت الأولى من موسى نسيانا». أو : أراد بالنسيان الترك ، أي : لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة. وَلا تُرْهِقْنِي أي : لا تغشنى ولا تحمّلنى مِنْ أَمْرِي ، وهو اتباعك ، عُسْراً أي : لا تعسّر عليّ فى متابعتك ، بل يسرها عليّ بالإغضاء والمسامحة.

فَانْطَلَقا أي : فقبل عذره فخرجا من السفينة فانطلقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قيل : كان يلعب مع الغلمان ففتل عنقه ، وقيل : ضرب رأسه بحجر ، وقيل : ذبحه ، والأول أصح لوروده فى الصحيح ، روى أن اسم الغلام «جيسور» بالجيم ، وقيل : بالحاء المهملة ، فإن قلت : لم قال خَرَقَها بغير فاء ، وقال فَقَتَلَهُ بالفاء؟ فالجواب :

أن «خرقها» : جواب الشرط ، وقتله : من جملة الشرط ، معطوفا عليه ، والجزاء هو قوله : (قالَ

أَقَتَلْتَ) ، فإن قلت : لم خولف بينهما؟ فالجواب : أن خرق السفينة لم يتعقب الركوب ، وقد تعقب القتل لقاء الغلام. هـ. وأصله للزمخشرى.

وقال البيضاوي : ولعل تغيير النظم بأن جعل خرقها جزاء ، واعتراض موسى عليه السّلام مستأنفا فى الأولى ، وفى الثانية فَقَتَلَهُ من جملة الشرط ، واعتراضه جزاء لأن القتل أقبح ، والاعتراض عليه أدخل ، فكان جديرا بأن يجعل عمدة الكلام ، ولذلك وصله بقوله : لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً أي : منكرا. هـ.

وناقشه أبو السعود بما يطول ذكره.

---

(١) من الآية ٨ من سورة النحل.

(٢) بفتح الياء والراء ، على الغيب ، وأهلها : بالرفع على الفاعلية ، وهى قراءة حمزة والكسائي ، وقرأ الباقون بضم التاء وكسر الراء ، مخففة مع سكون الغين على الخطاب ، وأهلها بالنصب على المفعولية .. انظر الإتحاف (٢/ ٢٢١).

قالَ موسى عليه السّلام فى اعتراضه : أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً «١» : طاهرة من الذنوب ، وقرئ بغير ألف مبالغة ، بِغَيْرِ نَفْسٍ أي : بغير قتل نفس محرمة ، فيكون قصاصا. وتخصيص نفى هذا القبيح بالذكر من بين سائر القبيحات من الكفر بعد الإيمان ، والزنا بعد إحصان لأنه أقرب إلى الوقوع نظرا لحال الغلام. لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً أي : منكرا ، قيل : أنكر من الأول ، إذ لا يمكن تداركه ، كما يمكن تدارك الأول بالسد ونحوه. وقيل :

«الإمر» أعظم لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة.

قالَ له الخضر عليه السّلام : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ، زاد «لَكَ» لزيادة تأكيد المكافحة بالعتاب على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر ، لما تكرر منه الإنكار ، ولم يرعو بالتذكير ، حتى زاد فى النكير فى المرة الثانية بذكر المنكر. قالَ موسى عليه السّلام : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها بعد هذه المرة فَلا تُصاحِبْنِي إن سألت صحبتك ، وقرأ يعقوب : «فلا تصحبنى» رباعيا ، أي : لا تجعلنى صاحبا لك ، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً أي : قد أعذرت ووجدت من قبلى عذرا فى مفارقتى ، حيث خالفتك ثلاث مرات.

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «يرحم اللّه أخي موسى ، استحيا ، فقال ذلك ، لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب» «٢».

وفي البخاري : «وددنا لو صبر موسى ، حتى يقص اللّه علينا من أمرهما» «٣».
فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ ، هي أنطاكية ، وقيل : أيلة ، وقيل الأبلة ، وهى أبعد أرض اللّه من السماء ، وقيل : برقة ، وقال أبو هريرة وغيره : هى بالأندلس. ويذكر أنها الجزيرة الخضراء. قلت : وهى التي تسمى اليوم طريفة ، وأصلها بالظاء المشالة. وذلك على قول أن مجمع البحرين عند طنجة وسبتة. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «كانوا أهل قرية لئاما». وقال قتادة : شر القرى التي لا يضاف فيها الضيف ، ولا يعرف لابن السبيل حقه.
ثم وصف القرية بقوله : اسْتَطْعَما أَهْلَها أي : طلبا منهم طعاما ، ولم يقل : استطعماهم ، على أن يكون صفة لأهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم ، فإن الإباء من الضيافة ، مع كونهم أهلها قاطنين بها ، أشنع وأقبح.
روى أنهما طافا بالقرية يطلبان الطعام ، فلم يطعموهما. واستضافاهم فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما بالتشديد ، وقرئ بالتخفيف. يقال : ضافه : إذا كان له ضيفا ، أضافه وضيّفه : أنزله ضيفا. وأصل الإضافة : الميل ، من : ضاف السهم

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر : «زاكية» بألف بعد الزاى ، وتخفيف الياء ، اسم فاعل من «زكا» ، وقرأ الباقون : «زكية» بتشديد الياء من غير ألف ... انظر الإتحاف ٢/ ٢٢١.
(٢) أخرجه ، بنحوه ، أبو داود فى (الحروف والقراءات ح ٢٩٨٤) ، وأصل الحديث فى صحيح مسلم فى (الفضائل ، باب من فضائل الخضر) .. فى سياق طويل.
(٣) أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة الكهف).

عن الغرض : مال ، ونظيره : زاره ، من الازورار ، أي : الميل. فبينما هما يمشيان ، فَوَجَدا فِيها جِداراً ، قال وهب : كان طوله مائة ذراع ، يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ أي : يسقط ، استعار الإرادة للمشارفة للدلالة على المبالغة فى ذلك ، والانقضاض : الإسراع فى السقوط ، وهو انفعال ، من القض ، يقال : قضضته فانقض ، ومنه : انقضاض الطير والكوكب لسقوطه بسرعة. وقرئ : أن ينقاض ، من انقاضت السنّ : إذا سقطت طولا. فَأَقامَهُ قيل : مسحه بيده فقام ، وقيل : نقضه وبناه ، وهو بعيد. قالَ له موسى : لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً نتعشى به ، وهو تحريض له على أخذ الجعل ، أو تعريض بأنه فضول ، وكأنه لمّا رأى الحرمان ومساس الحاجة كان اشتغاله بذلك فى ذلك الوقت مما لا يعنى ، فلم يتمالك الصبر

عليه.

قال ابن التين : إن الثالثة كانت نسيانا لأنه يبعد الإنكار لأمر مشروع ، وهو الإحسان لمن أساء. هـ.

وفيه نظر فقد قال القشيري فى تفسير الآية : لم يقل موسى : إنك ألممت بمحظور ، ولكن قال : لو شئت ، أي : فإن لم تأخذ بسببك فهلا أخذت بسببنا ، فكان أخذ الأجر خيرا من الترك ، ولئن وجب حقّهم فلم أخللت بحقنا؟ ويقال : إنّ سفره ذلك كان سفر تأديب ، فردّ إلى تحمّل المشقة ، وإلّا فهو نسي ، حيث سقى لبنات شعيب ، وكان ما أصابه من التعب والجوع أكثر ، ولكنه كان فى ذلك الوقت محمولا ، وفى هذا الوقت متحمّلا. هـ.

قلت : لأن الحق تعالى أراد تأديبه فلم يحمل عنه ، فكان سالكا محضا ، وفى وقت السقي : كان مجذوبا محمولا عنه.

ثم قال القشيري : وكما أن موسى كان يحب صحبة الخضر لما له فيه من غرض استزادة من العلم ، كان الخضر يحب ترك صحبته إيثارا للخلوة باللّه عنه. هـ. قاله فى الحاشية الفاسية.

الإشارة : يؤخذ من خرق السفينة أن المريد لا تفيض عليه العلوم اللدنية والأسرار الربانية حتى يخرق عوائد نفسه ، ويعيب سفينة وجوده ، بتخريب ظاهره ، حتى لا يقبله أحد «١» ، ولا يقبل عليه أحد ، فبذلك يخلو بقلبه ويستقيم على ذكر ربه ، وأما مادام ظاهره متزينا بلباس العوائد ، فلا يطمع فى ورود المواهب والفوائد.

ويؤخذ من قتل الغلام : أنه لا بد من قتل الهوى ، وكل ما فيه حظ للنفس والشيطان ، والطريق فى ذلك أن تنظر ما يثقل على النفس فتحمله لها ، وما يخف عليها فتحجزها عنه ، حتى لا يثقل عليها شيء من الحق.

ويؤخذ من إقامة الجدار رسم الشرائع قياما بآداب العبودية ، وصونا لكنز أسرار الربوبية. ويؤخذ منه أيضا :

الإحسان لمن أساء إليه ، فإن أهل القرية أساءوا بترك ضيافة الخضر ، فقابلهم بالإحسان حيث أقام جدارهم.

واللّه تعالى أعلم.

---

(١) فى هذا الكلام نظر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٩٥

ثم ذكر افتراقهما ، وبيان الحكمة فى تلك الخوارق التي فعل ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٧٨ الى ٨٢]

قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (٧٩) وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً (٨٠) فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً (٨١) وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (٨٢)

قلت : هذا ، الإشارة إما إلى نفس الفراق ، كقولك : هذا أخوك ، أو إلى الوقت الحاضر ، أي : هذا وقت الفراق.

أو إلى السؤال الثالث. و(بَيْنِي) : ظرف مضاف إليه المصدر مجازا ، وقرئ بالنصب ، على الأصل ، وغَصْباً :

مصدر نوعي ليأخذ.

يقول الحق جل جلاله : قالَ الخضر عليه السّلام : هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ فلا تصحبنى بعد هذا ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً أي : سأخبرك بالخبر الباطن ، فيما لم تستطع عليه صبرا لكونه منكرا فى الظاهر ، فالتأويل : رجوع الشيء إلى مآله ، والمراد هنا : المآل والعاقبة ، وهو خلاص السفينة من اليد العادية ، وخلاص أبوى الغلام من شره ، مع الفوز بالبدل الأحسن ، واستخراج اليتيمين للكنز ، وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعته ، ولم يقل : «بتأويل ما رأيت» نوع تعريض به ، وعتابه عليه السّلام.

ثم جعل يفسر له ، فقال : أَمَّا السَّفِينَةُ التي خرقتها ، فَكانَتْ لِمَساكِينَ : ضعفاء ، لا يقدرون على مدافعة الظلمة ، فسماهم مساكين لذلهم وضعفهم ، ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم : «اللّهمّ أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرني فى زمرة المساكين» «١». فلم يرد مسكنة الفقر ، وإنما أراد التواضع والخضوع ، أي : احشرني مخبتا متواضعا ، غير جبار ولا متكبر ، وقيل : كانت السفينة لعشرة إخوة : خمسة زمنى»

، وخمسة يَعْمَلُونَ فِي

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم) ، وابن ماجة (فى الزهد ، باب مجالسة الفقراء).

(٢) أخرجه الترمذي في (الزهد ، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم) ، وابن ماجة (في الزهد ، باب مجالسة الفقراء).

(٢٩٥/٣)

الْبَحْرِ. وإسناد العمل إلى الكل ، حينئذ ، بطريق التغليب ، ولأن عمل الوكيل بمنزلة الموكل. فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها : أجعلها ذات عيب ، «١» وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ أي : أمامهم ، وقرئ به ، أو خلفهم ، وكان رجوعهم عليه لا محالة ، وكان اسمه : «جلندى بن كركر» وقيل : «هدد بن بدد» ، قال ابن عطية : وهذا كله غير ثابت ، يعني : تسمية الملك. يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صالحة ، وقرئ به ، غَصْباً من أصحابها. وكان حق النظم أن يتأخر بيان إرادة التعيّب عن خوف الغصب ، فيقول : فكانت لمساكين ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة ، فأردت أن أعيبها لأن إرادة التعيب مسبّب عن خوف الغصب ، وإنما قدّم للاعتناء بشأنها إذ هي المحتاجة إلى التأويل ، ولأن في التأخير فصلا بين السفينة وضميرها ، مع توهم رجوعه إلى الأقرب. قال البيضاوي : ومبنى ذلك - أي : التعيب وخوف الغصب - على أنه متى تعارض ضرران يجب حمل أهونهما بدفع أعظمهما ، وهو أصل ممهد ، غير أن الشرائع في تفاصيله مختلفة. هـ.
وَأَمَّا الْغُلامُ الذي قتلته ، فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ وقد طبع هو كافرا ، وإنما لم يصرح بكفره لعدم الحاجة إليه لظهوره من قوله : فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما : فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طُغْياناً عليهما وَكُفْراً بنعمتهما لعقوقه وسوء صنيعه ، فيلحقهما شرا ، أو لشدة محبتهما له فيحملهما على طاعته ، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره ، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر ، فلعله يميلهما إلى رأيه فيرتدا. وإنما خشى الخضر عليه السّلام منه ذلك لأن اللّه سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على عاقبة أمره ، وقرئ : «فخاف ربك» ، أي : كره سبحانه كراهية من خاف سوء عاقبة الأمر. ويجوز أن يكون القراءة المشهورة من قول اللّه سبحانه على الحكاية ، أي فكرهنا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ بأن يرزقهما بدله ولدا خَيْراً مِنْهُ زَكاةً : طهارة من الذنوب والأخلاق الردية ، وَأَقْرَبَ رُحْماً أي : رحمة وعطفا ، وفي التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليهما ما لا يخفى من الدلالة على وصول الخير إليهما ، فلذلك قيل : ولدت لهما جارية ، تزوجها نبى من الأنبياء فولدت نبيا ، هدى اللّه تعالى على يديه أمة من الأمم ، وقيل : ولدت سبعين نبيا ، وقيل : أبدلهما ابنا مؤمنا مثلهما.
وَأَمَّا الْجِدارُ الذي أقمت فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ أي : القرية المذكورة فيما سبق ، ولعل التعبير عنها بالمدينة لإظهار نوع اعتداد بها ، باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح ، قيل : اسم

اليتيمين :
أصرم وصريم. وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما من فضة وذهب ، كما في الحديث «٢» ، والذم على كنزهما إنما هو لمن لم يؤد زكاته ، مع أن هذه شريعة أخرى. قال ابن عباس : (كان لوحا من ذهب ، مكتوب فيه : عجبت لمن يؤمن

---

(١) أي : مرضى بمرض مزمن.
(٢) أخرجه الترمذي في (تفسير سورة الكهف) ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٩) ، عن أبى الدرداء مرفوعا.

بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب؟ وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله الا اللّه ، محمد رسول اللّه) «١». وقيل : كانت صحفا فيها علم مدفون.
وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً ، فيه تنبيه على أن سعيه في ذلك كان لصلاح أبيهما ، وفيه دليل على أن اللّه تعالى يحفظ أولياءه في ذريتهم ، قيل : كان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة أجداد. قال محمد بن المنكدر : (إن اللّه تعالى ليحفظ بالرجل الصالح ولده ، وولد ولده ، ومسربته التي هو فيها ، والدويرات التي حولها ، فلا يزالون في حفظ اللّه وستره). وكان سعيد بن المسيب يقول لولده : إني لأزيد في صلاتي من أجلك ، رجاء أن أحفظ فيك ، ويتلو هذه الآية. وفي الحديث : «ما أحسن أحد الخلافة في ماله إلا أحسن اللّه الخلافة في تركته» «٢». ويؤخذ من الآية :
القيام بحق أولاد الصالحين إذ قام الخضر عليه السّلام بذلك.
فَأَرادَ رَبُّكَ أي : مالكك ومدبر أمرك. وفي إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السّلام ، دون ضميرهما ، تنبيه له عليه السلام على تحتم كمال الانقياد ، والاستسلام لإرادته سبحانه ، ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما برز من القدرة في الأمور المذكورة وغيرها. أراد أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما : حلمهما وكمال رأيهما ، وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما من تحت الجدار ، ولو لا أني أقمته لا نقض ، وخرج الكنز من تحته ، قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته ، وضاع بالكلية رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ مصدر في موضع الحال ، أي : يستخرجا كنزهما مرحومين به من اللّه تعالى. أو : يتعلق بمضمر ، أي : فعلت ما فعلت من الأمور التي شاهدتها ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ بمن فعل له أو به.

وقد استعمل الخضر عليه السّلام غاية الأدب فى هذه المخاطبة فنسب ما كان عيبا لنفسه ، وما كان ممتزجا له ولله تعالى فإن القتل بلا سبب ظاهره عيب ، وإبداله بخير منه خير ، فأتى بضمير المشاركة ، وما كان كمالا محضا ، وهو إقامة الجدار ، نسبه للّه تعالى.

ثم قال : وَما فَعَلْتُهُ أي : ما رأيت من الخوارق عَنْ أَمْرِي أي : عن رأيي واجتهادي ، بل بوحي إلهى ملكى ، أو إلهامي ، على اختلاف فى نبوته أو ولايته ، ذلِكَ أي : ما تقدم ذكره من التأويلات ، تَأْوِيلُ أي : مآل وعاقبة ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً أي : تفسير ما لم تستطع عليه صبرا ، فحذف التاء تخفيفا ، وهو فذلكة لما تقدم ، وفى جعل الصلة غير ما مرّ تكرير للتنكير عليه وتشديد للعتاب. قيل : كل ما أنكر سيدنا موسى

---

(١) أخرجه الطبري فى تفسيره (١٦/ ٦). وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٩٩).

(٢) عزاه فى كنز العمال (١٦٠٧١) لابن المبارك ، عن ابن شهاب ، مرسلا. وذكره مرفوعا : ابن عدى فى الكامل (٦/ ٢٢٩١) عن ابن عمر ، وضعّفه.

عليه السّلام على الخضر قد جرى له مثله ، ففى هذه الأمثلة حجة عليه ، وذلك أنه لما أنكر خرق السفينة ، نودى : يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت مطروح فى اليم؟ فلما أنكر قتل الغلام قيل له : أين إنكارك من وكزك القبطي وقضائك عليه؟ فلما أنكر إقامة الجدار ، نودى : أين هذا من رفعك الحجر لبنات شعيب دون أجر؟ واللّه تعالى أعلم.

روى أنه قال له : لو صبرت لأتيت بك على ألفى عجيبة ، كلها مما رأيت. ولما أراد موسى عليه السّلام أن يفارقه ، قال له : أوصنى ، قال : لا تطلب العلم لتحدث به ، واطلبه لتعمل به. هـ.

وفى رواية : قال له : اجعل همتك فى معادك ، ولا تخض فيما لا يعنيك ، ولا تأمن الخوف ، ولا تيأس الأمن ، وتدبر الأمور فى علانيتك ، ولا تذر الإحسان فى قدرتك. فقال له : زدنى يا ولى اللّه ، فقال : يا موسى إياك واللجاجة ، ولا تمش فى غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تعير أحدا بخطيئة بعد الندم ، وابك على خطيئتك يا ابن عمران ، وإياك والإعجاب بنفسك ، والتفريط فيما بقي من عمرك ، فقال له موسى : قد أبلغت فى الوصية ، أتم اللّه عليك نعمته ، وغمرك فى رحمته ، وكلأك من عدوه. فقال الخضر : آمين. فأوصنى أنت يا نبى اللّه ، فقال له موسى : إياك والغضب إلا فى اللّه ، ولا ترضى عن أحد إلا فى اللّه ، ولا تحب لدنيا ولا تبغض لدنيا ، فإنك تخرج من الإيمان وتدخل فى

الكفر ، فقال له الخضر : قد أبلغت فى الوصية يا ابن عمران ، أعانك اللّه على طاعته ، وأراك السرور فى أمرك ، وحببك إلى خلقه ، وأوسع عليك من فضله ، قال موسى : آمين.

تنبيه : قد تقدم أن الجمهور على حياة الخضر عليه السّلام. وسبب تعميره أنه كان على مقدمة ذى القرنين ، فلما دخل الظلمات أصاب الخضر عين الحياة ، فنزل فاغتسل منها ، وشرب من مائها ، فأخطأ ذو القرنين الطريق ، فعاد ، فلم يصادفها ، قالوا : وإلياس أيضا فى الحياة ، يلتقيان فى كل سنة بالموسم ، واحتج من قال بموت الخضر بقوله - عليه الصلاة والسلام ، كما فى اللصحيح ، بعد صلاة العشاء : «أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإنّه على رأس مائة سنة ، لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد» «١» ، ويجاب بأن الخضر عليه السّلام كان فى ذلك الوقت فى السحاب ، أو يخصص الحديث به كما يخص بإبليس ومن عمّر من غيره. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الاعتراض على المشايخ موجب للبعد عنهم ، والبعد عنهم موجب للبعد عن اللّه ، فلا وصول إلى اللّه إلا بالوصول إليهم مع التعظيم والاحترام «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه» كما فى الحكم. فالواجب على المريد ، إذا كان بين يدى الشيخ ، السكوت

---

(١) أخرجه البخاري فى (العلم ، باب السمر فى العلم) ، ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب قوله صلى اللّه عليه وسلم : لا تأتى مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم) ، من حديث ابن عمر - رضى اللّه عنه.

والتسليم والاحترام والتعظيم ، إلا أن يأمره بالكلام ، فيتكلم بآداب ووقار وخفض صوت ، فإذا رأى منه شيئا يخالف ظاهر الشريعة فليسلم له ، ويطلب تأويله ، فإن الشريعة واسعة ، لها ظاهر وباطن ، فلعله على ما لم يفهمه المريد.

وكذلك الفقراء لا ينكر عليهم إلا ما كان محرّما مجمعا على تحريمه ، ولا تأويل فيه ، كالزنا بالمعينة أو اللواط ، وأما ما اختلف فيه ، ولو خارج المذهب ، فلا ينكر عليه ، وكذلك ما فيه تأويل. هذا إن صحت عدالته ، فقد قالوا : إن صحت عدالة المرء فليترك وما فعل. وتأمل قضية شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن المجذوب فى مسألة الثور الذي أمر الفقراء بذبحه ، فلما ذبحوه تبين أنه كان صدقة عليه ، وكذلك غيره من أرباب الأحوال ، يلتمس لهم أحسن المخارج ، فإن أحوالهم خضرية ، وما رأينا أحدا

أولع بالإنكار فأفلح أبدا. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر قصة ذى القرنين ، الذي وقع السؤال عنه مع الروح وأهل الكهف ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٨٣ الى ٨٨]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً (٨٥) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (٨٦) قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً (٨٧)

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً (٨٨)

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْئَلُونَكَ أي : اليهود ، سألوه على وجه الامتحان ، أو قريش ، بتلقينهم. والتعبير بالمضارع للدلالة على استمرارهم على ذلك إلى ورود الجواب ، والمراد : ذو القرنين الأكبر ، وكان على عهد إبراهيم عليه السّلام ، ويقال : إنه الذي قضى لإبراهيم حين تحاكم إليه فى بئر السبع بالشام ، واسمه تبرس ، وقيل :

هرديس «١» ، وأما ذو القرنين الأصغر ، بالقرب من زمن عيسى عليه السّلام ، واسمه الإسكندر ، وهو صاحب أرسطو الفيلسوف ، وقيل : المراد به هنا الأصغر ، واقتصر عليه المحلّى.

قال الإمام الرازي : والأول أظهر لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التي نطق بها التنزيل إنما هو الأكبر ، كما شهدت به كتب التواريخ. قلت : كلاهما بلغا الغاية القصوى ، وملكا المشارق والمغارب ، أما ذو القرنين الأكبر ، فقيل : إنه كان ملكا عادلا صالحا ، ملك الأقاليم ، وقهر أهلها من الملوك ، ودانت له البلاد ، وإنه كان داعيا

---

(١) ليس فى هذا الشأن خبر عن الرسول الأعظم صلى اللّه عليه وسلم. [.....]

إلى اللّه تعالى ، سائرا فى الخلق بالمعونة التامة والسلطان المؤيد المنصور ، وكان الخضر على مقدمة جيشه ، بمنزلة المستشار الذي هو من الملك بمنزلة الوزير. وقيل : كان ابن خالته. وذكر الأزرقى وغيره أنه أسلم على يد إبراهيم عليه السّلام ، فطاف معه بالكعبة مع إسماعيل. وروى أنه حج ماشيا ، فلما سمع إبراهيم عليه السّلام بقدومه تلقاه ودعا له ، وأوصاه بوصايا. ويقال : إنه أتى بفرس ليركب ، فقال : لا أركب فى بلد فيه الخليل ، فعند ذلك سخّر له السحاب ، وطوى له الأسفار ، فكانت السحاب

تحمله وعساكيره وجميع آلاتهم ، إذا أرادوا غزو قوم. وسئل عنه عليّ رضي اللّه عنه :
أكان نبيا أو ملكا – بالفتح؟ فقال : لم يكن نبيا ولا ملكا ، ولكن كان عبدا أحبّ اللّه فأحبه اللّه ، وناصح اللّه فناصحه ، فسخر له السحاب ، ومدّ له الأسباب «١».
وقال مجاهد : ملك الأرض أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان : سليمان وذو القرنين ، والكافران : نمرود وبختنصر. هـ.
وأما ذو القرنين الأصغر ، وهو الإسكندر اليوناني ، فروى أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن كان طوائف ، ثم قصد ملوك العرب وقهرهم ، ثم مضى حتى أتى البحر الأخضر ، ثم عاد إلى مصر ، فبنى الإسكندرية وسماها باسمه ، ثم دخل الشام وقصد بنى إسرائيل ، وورد بيت المقدس وذبح فى مذبحة ، ثم انعطف الى أرمينية وباب الأبواب ، ودان له العراقيون والقبط والبربر ، واستولى على ملوك الفرس ، وقصد السند وفتحه ، وبنى مدينة سرنديب وغيرها ، ثم قصد الصين ، وغزا الأمم البعيدة ، ورجع إلى العراق ومرض ومات.
روى أن أهل النجوم : قالوا له : إنك تموت على أرض من حديد ، وتحت سماء من خشب ، فبلغ بابل ، ورعف ، وسقط عن دابته ، فبسطت له دروع من حديد ، فنام عليها ، فآذته الشمس ، فأظلوه بترس من خشب ، فنظر ، فقال : هذه أرض من حديد وسماء من خشب ، فمات ، وهو ابن ألف وستمائة سنة ، وقيل : ثلاثة آلاف ، قال ابن كثير : وهو غريب. قلت : والذي لابن عساكر : أنه عاش ستا وثلاثين سنة ، وأنه كان بعد داود وسليمان – عليهما السلام – ثم قال ابن عساكر بعد كلام : وإنما بيّنا هذا لأن كثيرا من الناس يعتقدون أنهما واحد ، وأن المذكور فى القرآن العظيم هو المتأخر ، فيقع بذلك خطأ كبير. كيف لا ، والأول كان عبدا صالحا مؤمنا ، ملكا عادلا ، وزيره الخضر عليه السّلام ، وقد قيل : إنه كان نبيا ، وأما الثاني فقد كان كافرا ، وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف ، وقد كان بينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة ، فأين هذا من ذلك؟!. هـ فتأمله مع ما ذكر فى اللباب من تعزيته أمه ، مما يدل على إسلامه ، قال فيه : لما علم ذو القرنين أن الموت استعجله ، دعا بكاتبه ، فقال له : أكتب تعزيتى لأمى ، بسم اللّه

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٦/ ٨ ، والبغوي ٥/ ١٩٧.

الرحمن الرحيم ، من الإسكندر ابن قيصر ، رفيق أهل الأرض بجسده وأهل السماء بروحه ، إلى أمي

رومية ذات الصفا ، التي لم تتمتع بثمرتها فى دار الفناء ، وعما قريب تجاوره فى دار البقاء ، يا أماه أسألك بودك لى وودى لك ، هل رأيت لحيّ قرارا فى الدار الدنيا؟ وانظري إلى الشجر والنبات يخضر ويبتهج ، ثم يهشم ويتناثر ، كأن لم يغن بالأمس ، وإنى قد قرأت فى بعض الكتب فيما أنزل اللّه : يا دنياى ارحلى بأهلك ، فإنك لست لهم بدار ، إنما الدنيا واهبة الموت ، موروثة الأحزان ، مفرقة الأحباب ، مخربة العمران ، وكل مخلوق فى دار الأغيار ليس له قرار. انظر بقية كلامه فيه. ولا يلزم من صحبته أرسطاطاليس أن يكون على دينه. واللّه تعالى أعلم.

واختلف فى ذى القرنين المذكور فى القرآن : هل كان نبيا أو ملكا - بفتح اللام - أو ملكا - بالكسر - وهو الصحيح ، واختلف فى وجه تسميته بذي القرنين فقيل : كان فى رأسه أو تاجه ما يشبه القرنين ، وقيل : لأنه كان له ذؤابتان ، وقيل : لأنه دعا الناس إلى اللّه عز وجل ، فضرب بقرنه الأيمن ، ثم دعا إلى اللّه فضرب بقرنه الأيسر ، وقيل : لأنه رأى فى منامه أنه صعد الفلك فأخذ بقرني الشمس ، وقيل : لأنه انقرض فى عهده قرنان ، وقيل : لأنه سخر له النور والظلمة ، فإذا سرى يهديه النور من أمامه ، وتحوطه الظلمة من ورائه. هـ.

ثم ذكر الحق تعالى الجواب ، فقال : قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ أي : سأذكر لكم مِنْهُ ذِكْراً أي : خبرا مذكورا ، أو قرآنا يخبركم بشأنه ، والسين للتأكيد ، والدلالة على التحقق المناسب لمقام تأييده صلى اللّه عليه وسلم ، وتصديقه بإنجاز وعده ، لا للدلالة على أن التلاوة ستقع فى المستقبل لأن هذه الآية نزلت موصولة بما قبلها ، حين سألوه صلى اللّه عليه وسلم عنه ، وعن الروح ، وعن أهل الكهف ، فقال : غدا أخبركم ، فتأخر الوحى كما تقدم ، ثم نزلت السورة مفصلة.

ثم شرع فى تلاوة ذلك الذكر ، فقال : إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ أي : مكنا له فيها قوة يتصرف فيها كيف يشاء ، بتيسير الأسباب وقوة الاقتدار ، حيث سخر له السحاب ، ومدّ له فى الأسباب ، وبسط له النور ، فكان الليل والنهار عليه سواء ، وسهل له السير فى الأرض ، وذللت له طرقها ، وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه سَبَباً أي : طريقا يوصله إليه من علم ، أو قدرة ، أو آلة ، فأراد الوصول إلى الغرب فَأَتْبَعَ سَبَباً : طريقا يوصله إليه.

حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ أي : منتهى الأرض من جهة المغرب ، بحيث لا يتمكن أحد من مجاوزته ، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي ، الذي فيه الجزاير المسماة بالخالدات ، التي هى مبدأ الأطوال على أحد القولين. وَجَدَها أي : الشمس ، تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ أي : ذات حما ، وهو الطين الأسود ،

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٠٢

وقرئ : حامية ، أي : حارة ، روى أن معاوية رضي اللّه عنه قرأ حامية ، وعنده ابن عباس ، فقال ابن عباس : حمئة ، فقال معاوية لعبد اللّه بن عمرو بن العاص : كيف تقرأ؟ قال : كما يقرأ أمير المؤمنين ، ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب؟ قال : فى ماء وطين ، كذا نجده فى التوراة ، فوافق قول ابن عباس رضي اللّه عنه.

وليس بينهما تناف ، لجواز كون العين جامعة بين الوصفين ، وأما رجوع معاوية إلى قول ابن عباس بما سمعه من كعب الأحبار ، مع أن قراءته أيضا متواترة ، فلكون قراءة ابن عباس قطعية فى مدلولها ، وقراءته محتملة ، ولعله لمّا بلغ ساحل البحر المحيط رآها كذلك ، إذ ليس فى مطمح نظره غير الماء ، كما يلوح به قوله تعالى : وَجَدَها تَغْرُبُ ، ولم يقل : كانت تغرب فإن الشمس فى السماء لا تغرب فى الأرض.

وَوَجَدَ عِنْدَها أي : تلك العين قَوْماً قيل : كان لباسهم جلود الوحش ، وطعامهم ما لفظه البحر ، وكانوا كفارا ، فخيّره اللّه تعالى بين أن يعذبهم بالقتل ، وأن يدعوهم إلى الإيمان ، فقال : قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ بالقتل من أول الأمر ، وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً أمرا ذا حسن ، وذلك بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع ، واستدل بهذا على نبوته ، ومن لم يقل بها قال : كان بواسطة نبى كان معه فى ذلك العصر ، أو إلهاما ، بعد أن كان التخيير موافقا لشريعة ذلك النبي ، قالَ ذو القرنين ، لمن كان عنده : مختارا للشق الأخير ، وهو الدعاء إلى الإسلام : أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فى نفسه ، وأصرّ على الكفران ، ولم يقبل الإيمان فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ بالقتل. وعن قتادة : أنه كان يطبخ من كفر فى القدور «١» ، ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فى الآخرة نُعَذِّبُهُ فيها عَذاباً نُكْراً منكرا فظيعا ، لم يعهد مثله ، وهو عذاب النار. وفيه دلالة ظاهرة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحى إليه ، أي : حيث لم يقل : «ثم يرد إليك» ، وأن مقاولته كانت مع النبي ، أو مع من عنده من أهل مشورته.

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ بموجب دعوته وَعَمِلَ عملا صالِحاً حسبما يقتضيه الإيمان فَلَهُ فى الدارين جَزاءً الْحُسْنى «٢» ، أي : المثوبة الحسنى ، أو الفعلة الحسنى جزاء ، على قراءة النصب ، على أنه مصدر مؤكد للجملة ، قدّم عليه المبتدأ اعتناء ، أو حال ، أو تمييز. وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا أي : مما نأمر به يُسْراً : سهلا ميسرا ، غير شاق عليه. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) لا يصح نسبة هذا - إطلاقا - لذى القرنين - رحمه اللّه.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب : «جزاء» بفتح الهمزة منونة ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : بالرفع من غير تنوين ، على الابتداء ، والخبر : الظرف قبله ، والحسنى مضاف إليها ... انظر : شرح الهداية (٢/ ٤٠٢) ، والإتحاف (٢/ ٢٢٤).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٠٣
الإشارة : ذو القرنين لمّا أقبل بكليته على مولاه ، ودعا إلى اللّه ، ونصح للّه ، مكّنه اللّه تعالى من الأرض ، ويسر له أموره ، حتى قطع مشارقها ومغاربها ، وكذلك من انقطع إلى اللّه ، ورفع همته إلى مولاه ، وأرشد الخلق إلى اللّه ، تكون همته قاطعة ، يقول للشيء كن فيكون ، بقدرة اللّه وقدره. وسخر له الكون بأسره ، يكون عند أمره ونهيه «أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك» ، يقول اللّه تعالى ، فى بعض كلامه : «يا عبدى كن لى كما أريد ، أكن لك كما تريد».
قال القشيري : ذو القرنين مكّن له فى الأرض جهرا ، فكانت تطوى له إذا قطع أحوازها ، وسهل له أن يندرج فى مشارقها ومغاربها ، ويحظر أقطارها ومناكبها ، ومن كان فى محل الإعانة من الأولياء فالحق سبحانه يمكنه فى المملكة ، ليحصل عند همته ما أراد من حصول طعام أو شراب ، أو غيره من قطع مسافة ، أو استتار عن أبصار ، وتصديق مأمول ، وتحقيق سؤال ، وإجابة دعاء ، وكشف بلاء ، وفوق ذلك تمكينه من تحقيق همه له فى أمره ، ثم فوق ذلك فى التمكين فى أن يحضر بهمتهم قوما بما شاءوا ، ويمنع قوما عما شاءوا ، فلهم من الحق تحقيق أمل ، إذا تصرفوا فى المملكة بإرادات فى سوانح وحادثات ، وفوق هذا التمكين فى المملكة إيصال قوم إلى منازل ومحالّ ، فاللّه يحقق فيهم همتهم. هـ. قلت : وفوق ذلك كله تمكينهم من شهود ذاته ، فى كل وقت وحين ، حتى لو طلبوا الحجاب لم يجابوا ، ولو كلفوا أن يروا غيره لم يستطيعوا ، وهؤلاء هم الذين لهم التمكين فى الإيصال إلى منازل السائرين ومحالّ الواصلين. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر سير ذى القرنين إلى جهة المشرق ، فقال :
[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٨٩ الى ٩١]
ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٨٩) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً (٩٠) كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً (٩١)
قلت : مَطْلِعَ فيه لغتان : الكسر والفتح ، وكَذلِكَ : خبر عن مضمر ، أي : أمر ذى القرنين كما وصفنا لك ، أو صفة مصدر محذوف لوجد ، أو نَجْعَلْ أي : وجدا أو جعلا كذلك ، أو صفة لقوم ، أي : على قوم مثل ذلك القبيل ، الذي تغرب عليهم الشمس فى الكفر والحكم ، أو صفة لستر ، أي : سترا مثل ستركم.
يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ أَتْبَعَ ذو القرنين سَبَباً : طريقا راجعا من مغرب الشمس ، موصلا إلى مشرقها ، حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ أي : الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولا من معمورة الأرض ، قيل : بلغه فى اثنتي عشرة سنة ، وقيل : فى أقل من ذلك.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٠٤
وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ عراة لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً من اللباس والبنيان ، قيل : هم الزنج ، وفى اللباب : قيل : إنهم بنو كليب ، وقيل : إن بنى كليب طائفة منهم ، وهم قوم بآخر صين الصين ، على صور بنى آدم ، إلّا أنهم لهم أذناب كأذناب الكلاب ، ووجوه كوجوه الكلاب ، وأكثر قوتهم الحوت ، ومن مات منهم أكلوه ، وملأوا موضع دماغه مسكا وعنبرا ، وحبسوه عندهم تبركا بآبائهم وأبنائهم. ثم قال : وليس لهم لباس إلا الجلود على عورتهم. هـ.
وعن كعب : أن أرضهم لا تمسك الأبنية ، وبها أسراب ، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب أو البحر ، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم ، يتراعون فيها كما ترعى البهائم. قال رجل من سمرقند : خرجت حتى جاوزت الصين ، فقالوا لى : بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ، فاستأجرت رجلا حتى بلغتهم ، فإذا أحدهم يفرش أذنه ، ويلبس الأخرى ، وكان صاحبى يحسن لسانهم ، فسألهم فقالوا : جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس. قال : فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة ، فغشى علىّ ، ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء ، إذا هى فوق الماء كهيئة الزيت ، فأدخلونا سربا لهم ، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر يصطادون السمك فيطرحونه فى الشمس فينضج «١». هـ.
وعن مجاهد : من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض. هـ.
وقوله تعالى : كَذلِكَ أي : أمر ذى القرنين كما وصفنا ، فى رفعة المحل وبسط الملك ، أو أمره فيهم كأمره فى أهل مغرب الشمس ، من التخيير والاختيار ، أو وجد قوما عند مطلع الشمس كذلك ، وحكم فيهم ، بحكم أولئك.
أو : (لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ) سترا مثل ستركم من اللباس والأكنان والجبال. قال الحسن : كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر ، ولا تحمل البناء ، فإذا طلعت الشمس هربوا إلى البحر. هـ. قال تعالى : وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ من الأسباب والعدد ، وما صدر عنه وما لاقاه خُبْراً : علما تعلق بظواهره وخفايا أمره ، يعنى : أن ذلك بلغ من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.
الإشارة : كان ذو القرنين فى الظاهر يلتمس مطلع الشمس الحسية ، وفى الباطن يلتمس مطلع الشمس المعنوية ، وهى شمس القلوب ، التي تكشف أستار الغيوب ، ثم أتبع سببا يوصل إلى شمس العيان ، فوجدها تطلع على قلوب أهل العرفان ، لم يجعل لهم من دونها سترا على الدوام ، لما أتحفهم به من غاية الوصال والإكرام ، حتى قال قائلهم :
لو حجب عنى الحق تعالى طرفة عين ما أعددت نفسى من المسلمين ، وكذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أو تقول : وجدها تطلع على أهل التجريد ، الخائضين فى بحار التوحيد ، وأسرار التفريد ،

وفيهم قال المجذوب رضي اللّه عنه :

أقارئين علم التّوحيد هنا البحور إليّ تنبى

هذا مقام أهل التّجريد الواقفين مع ربّى

---

(١) قال الآلوسى معقبا : (و أنت تعلم أن مثل هذه الحكايات لا ينبغى أن يلتفت إليها ويعول عليها ، وما هى إلا أخبار عن هيان بن بيان ، تحكيها العجائز لصغار الصبيان). انظر روح المعاني (١٦/ ٣٦).

(٣٠٤/٣)

قد تجردوا من لباس الزينة والافتخار ، ولبسوا لباس المسكنة والافتقار ، فعوضهم اللّه تعالى فى قلوبهم لباس الغنى والعز والاقتدار ، صبروا قليلا ، واستراحوا زمنا طويلا ، تذللوا قليلا ، وعزّوا عزا طويلا ، جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه.

ثم أخذ ذو القرنين من الجنوب إلى الشمال ، كما قال تعالى :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٩٢ الى ١٠١]

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٩٢) حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣) قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (٩٦) فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (٩٧) قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (٩٩) وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (١٠٠) الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (١٠١)

. قلت : بَيْنَ السَّدَّيْنِ : مفعول ، لا ظرف لأنه يستعمل متصرفا.

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ أَتْبَعَ ذو القرنين سَبَباً : طريقا ثالثا بين المشرق والمغرب ، سالكا من الجنوب إلى الشمال ، حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ : بين الجبلين ، اللذين سدّ ما بينهما ، وهو منقطع أرض الترك ، مما يلى المشرق ، لا جبال أرمينية وأذربيجان ، كما توهم ، وفيه لغتان : الضم والفتح ، وقيل : ما كان من فعل اللّه فهو مضموم ، وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح. وَجَدَ مِنْ دُونِهِما أي : من ورائهما : مما يلى بر الترك ، قَوْماً : أمة من الناس لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ : يفهمون قَوْلًا لغرابة لغتهم ،

وقلة فطنتهم ، وقرئ بالضم رباعيا ، أي : لا يفصحون بكلامهم ، واختلف فيهم ، قيل : هم جيل من الترك قال السدى : الترك سرية من يأجوج ومأجوج ، خرجت ، فضرب ذو القرنين السد ، فبقيت خارجة. قلت : ولعلهم طلبوا منه ذلك ، حين اعتزلوا قومهم ، ثم قال : فجميع الترك منهم. وعن قتادة : أنهم ، - أي : يأجوج ومأجوج - اثنتان وعشرون قبيلة ،

(٣٠٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٠٦

سد ذو القرنين على إحدى وعشرين ، وبقيت واحدة ، فسموا الترك لأنهم تركوا خارجين. قال أهل التاريخ : أولاد نوح عليه السّلام ثلاثة : سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب والعجم والروم ، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ، ويافث أبو الترك والخرز والصقالبة ويأجوج ومأجوج. هـ.

وقرئ بالهمز فيهما لأنه من أجيج النار ، أي : ضوؤها وشررها ، شبهوا به فى كثرتهم وشدتهم ، وهو غير منصرف للعجمة والعلمية.

قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ ، إما أن يكون قالوه بواسطة ترجمان ، أو يكون فهم كلامهم ، فيكون من جملة ما آتاه اللّه تعالى من الأسباب ، فقالوا له : إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ «١» ، قد تقدم أنهم من أولاد يافث. وما يقال : إنهم من نطفة احتلام آدم لم يصح ، واختلف فى صفاتهم ، فقيل : فى غاية صغر الجثة وقصر القامة ، لا يزيد قدمهم على شبر ، وقيل : فى نهاية عظم الجسم وطول القامة ، تبلغ قدودهم نحو مائة وعشرين ذراعا ، وفيهم من عرضه كذلك.

قال عبد اللّه بن مسعود : سألت النبي صلى اللّه عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج ، فقال : «هم أمم ، كل أمة أربع مائة ألف ، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه ، كلهم قد حمل السلاح» ، قيل : يا رسول اللّه صفهم لنا ، قال : «هم ثلاثة أصناف : صنف منهم أمثال الأرز - وهو شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع - وصنف عرضه وطوله سواء ، عشرون ومائة ذراع ، وصنف يفرش أذنه ويلتحف بالأخرى ، لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ، ومن مات منهم أكلوه ، مقدّمتهم بالشام ، وساقتهم بخراسان ، يشربون أنهار المشرق ، وبحيرة طبرية». «٢».

فقالوا له : إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أي : فى أرضنا ، بالقتل ، والتخريب ، وإتلاف الزرع ، قيل : كانوا يخرجون أيام الربيع ، فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ، ولا يابسا إلا احتملوه ، وكانوا يأكلون الناس أيضا.

فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً أي : جعلا من أموالنا عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا بالفتح وبالضم ، أي : حاجزا يمنعهم منا؟

قالَ ما مَكَّنِّي – بالفك وبالإدغام – أي : ما مكننى فِيهِ رَبِّي ، وجعلنى فيه مكينا قادرا من الملك والمال وسائر الأسباب ، خَيْرٌ من جعلكم ، فلا حاجة لى به ، فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ الأبدان وعمل الأيدى ، كصنّاع يحسنون البناء والعمل ، وبآلات لا بد منها فى البناء ، أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً أي : حاجزا حصينا ، وبرزخا مكينا ، وهو أكبر من السد وأوثق ، يقال : ثوب مردم إذا كان ذا رقاع فوق رقاع ، وهذا إسعاف لهم فوق ما يرجون.

---

(١) هذه قراءة الجماعة (بدون همز) ، وقرأ عاصم بالهمز .. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٢٢٥).
(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٤/ ٤٥٠) لابن أبى حاتم ، وابن مردويه وابن عدى ، وابن عساكر ، وابن النجار ، وفيه أن السائل هو حذيفة.

(٣/٣٠٦)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٠٧
آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ : جمع زبرة ، وهى القطعة الكبيرة ، وهذا لا ينافى رد خراجهم لأن المأمور الإيتاء بالثمن أو المناولة ، كما ينبئ عنه قراءة : «ائتوني» بوصل الهمزة ، أي : جيئونى بزبر الحديد ، على حذف الباء ، ولأن إيتاء الآلة من قبيل الإعانة بالقوة ، دون الخراج على العمل.
قال القشيري : استعان بهم فى الذي احتاج إليه منهم ، ولم يأخذ منهم عمالة لما رأى أن من الواجب عليه حق الحماية على حسب المكنة. هـ.
ولعل تخصيص الأمر بالإتيان بها دون سائر الآلات من الفحم والحطب وغيرهما لأن الحاجة إليها أمس لأنها الركن فى السد ، ووجودها أعز. قيل : حفر الأساس حتى بلغ الماء ، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب ، والبنيان من زبر الحديد ، وجعل بينهما الفحم والحطب ، حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ، وكان بينهما مائة فرسخ ، وذلك قوله تعالى : حَتَّى إذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ، وقرئ بضمهما «١» ، أي : مازال يبنى شيئا فشيئا حتى إذا جعل ما بين ناصيتى الجبلين من البنيان مساويا لهما فى السّمك. قيل : كان ارتفاعه : مائتى ذراع ، وعرضه : خمسون ذراعا. وقرئ (سوّى) بالتشديد ، من التسوية.
فلما سوّى بين الجبلين بالبناء ، قالَ للعملة : انْفُخُوا النيران فى الحديد المبنى ، ففعلوا حَتَّى إذا جَعَلَهُ أي : المنفوخ فيه ناراً أي : كالنار فى الحرارة والهيئة. وإسناد الجعل إلى ذى القرنين ، مع أنه من فعل العملة للتنبيه على أنه العمدة فى ذلك ، وهم بمنزلة الآلة. قالَ للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة وغيرها :

آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً أي : آتوني نحاسا مذابا أفرغه عليه ، وإسناد الإفراغ إلى نفسه ، لما تقدم.
فَمَا اسْطاعُوا أي : استطاعوا أَنْ يَظْهَرُوهُ أي : يعلوه بالصعود لارتفاعه ، والفاء فصيحة ، أي : ففعلوا ما أمرهم به من إيتاء القطر ، فأفرغوه عليه ، فاختلط والتصق بعضه ببعض ، فصار جبلا صلدا ، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه أو ينتقبوه فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ لارتفاعه وملاسته ، وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً لصلابته ، وهذه معجزة له لأن تلك الزبر الكبيرة إذا أثرت فيها حرارة النار لا يقدر أحد أن يجول حولها ، فضلا عن إفراغ القطر عليها ، فكأنه تعالى صرف النار عن أبدان المباشرين للأعمال. واللّه على كل شيء قدير.
قالَ ذو القرنين ، لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم : هذا أي : السد ، أو تمكينه منه ، رَحْمَةٌ عظيمة مِنْ رَبِّي على كافة العباد ، لا سيما على مجاوريه ، وفيه إيذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق ، بل هو إحسان إلهى محض ، وإن ظهر بمباشرتى. والتعرض لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة.

---

(١) أي : الصاد والدال فى «الصدفين». وهى قراءة ابن كثير ، وأبى عمرو ، وابن عامر ، ويعقوب. وقرأ أبو بكر : بضم الصاد وإسكان الدال ، وقرأ الباقون بفتحهما .. انظر الإتحاف (٢/ ٢٢٧).

فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي : وقت وعده بخروج يأجوج ومأجوج ، أو بقيام الساعة بأن شارف قيامها ، جَعَلَهُ أي : السد المذكور ، مع متانته ورصانته ، دَكَّاءَ : مدكوكا مبسوطا مستويا بالأرض ، وفيه بيان عظمة قدرته تعالى ، بعد بيان سعة رحمته ، وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا : كائنا لا محالة.
روى عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إنّ يأجوج ومأجوج يحفرون السد ، حتّى إذا كادوا يرون شعاع الشّمس ، قال الّذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا ، فيعيده اللّه كأشدّ ما كان ، حتّى إذا بلغت مدّتهم ، حفروا ، حتّى إذا كادوا يرون شعاع الشّمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء اللّه ، فيعودون إليه ، وهو على هيئته كما تركوه ، فيحفرونه فيخرجون على النّاس» «١». وسيأتى فى الأنبياء تمام قصة خروجهم ، إن شاء اللّه ، وهذا آخر كلام ذى القرنين.
قال تعالى : وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ : يوم مجىء الوعد ، ويخرجون ، يَمُوجُ فِي بَعْضٍ يزدحمون فى البلاد ، أو : يموج بعض الخلق فى بعض ، فيضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم ، حيارى من شدة الهول.
روى أنهم يأتون البحر فيشربونه ويأكلون دوابه ، ثم يأكلون الشجر وما ظفروا به ، ممن لم يتحصن

منهم من الناس ، ولا يقدرون على دخول مكة والمدينة وبيت المقدس ، ثم يبعث اللّه عليهم مرضا فى رقابهم ، فيموتون مرة واحدة ، فيرسل اللّه طيرا فترميهم فى البحر ، ثم يرسل مطرا تغسل الأرض منهم ، ثم توضع فيها البركة ، وهذا بعد خروج الدجال ونزول عيسى عليه السّلام ، ثم تنقرض الدنيا ، كما قال تعالى :

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ لقيام الساعة ، فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً ، وسكت الحق تعالى عن النفخة الأولى اكتفاء بذكرها فى موضع آخر ، أي : جمعنا الخلائق بعد ما تفرقت أوصالهم ، وتمزقت أجسادهم ، فى صعيد واحد للحساب والجزاء ، جمعا عجيبا لا يكتنه كنهه ، وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ أظهرناها وأبرزناها يَوْمَئِذٍ أي : يوم إذ جمعنا الخلائق كافة ، لِلْكافِرِينَ منهم ، بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا ، عَرْضاً فظيعا هائلا لا يقدر قدره ، وخص العرض بهم ، وإن كان بمرأى من أهل الموقف قاطبة لأن ذلك لأجلهم.

ثم ذكر وصفهم بقوله : الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ وهم فى الدنيا فِي غِطاءٍ كثيف وغشاوة غليظة عَنْ ذِكْرِي : عن سماع القرآن وتدبره ، أو : عن ذكرى بالتوحيد والتمجيد ، أو كانت أعين بصائرهم فى غطاء عن ذكرى على وجه يليق بشأنى ، وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً أي : وكانوا مع ذلك لفرط تصاممهم عن الحق وكمال عداوتهم للرسول صلى اللّه عليه وسلم ، لا يستطيعون استماعا منه لذكرى وكلامى ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية ، كما أن الأول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار.

---

(١) أخرجه بنحوه ، مطولا ، أحمد فى المسند (٢/ ٥١٠) ، والترمذي فى (التفسير) ، وابن ماجة فى (الفتن ، باب فتنة الرجال) ، من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

الإشارة : السياحة فى أقطار الأرض مطلوبة عند الصوفية فى بداية المريد ، أقلها سبع سنين ، وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضي اللّه عنه : أقلها أربع عشرة سنة. وفيها فوائد ، منها : زيارة الإخوان ، والمذاكرة معهم ، وهى ركن فى الطريق ، ومنها : نفع عباد اللّه ، إن كان أهلا لتذكيرهم ، (فلأن يهدى اللّه به رجلا واحدا خير له مما طلعت عليه الشمس). ومنها : تأسيس باطنه وتشحيذ معرفته ، ففى كل يوم يلقى تجليا جديدا ، وتلوينا غريبا ، يحتاج معه إلى معرفة كبيرة وصبر جديد ، فالمريد كالماء ، إذا طال مكثه فى مكانه أنتن وتغيّر ، وإذا جرى عذب وصفي. ومنها : أنه قد يلقى فى سياحته من يربح منه ، أو يزيد به إلى ربه.

روى أن ذا القرنين بينما هو يسير فى سياحته إذ رفع إلى أمة صالحة ، يهدون بالحق وبه يعدلون ، يقسمون بالسوية ، ويحكمون بالعدل ، وقبورهم بأبواب بيوتهم ، وليست لبيوتهم أبواب ، وليس عليهم أمراء ، وليس بينهم قضاة ، ولا يختلفون ولا يتنازعون ، ولا يقتتلون ، ولا يضحكون ولا يحزنون ، ولا تصيبهم الآفات التي تصيب الناس ، أطول الناس أعمارا ، وليس فيهم مسكين ولا فظ ولا غليظ ، فعجب منهم ، وقال : خبّرونى بأمركم ، فلم أر فى مشارق الأرض ومغاربها مثلكم ، فما بال قبوركم على أبواب بيوتكم؟ قالوا : لئلا ننسى الموت ليمنعنا ذلك من طلب الدنيا ، قال : فما بال بيوتكم لا أبواب لها؟ قالوا : ليس فيها متهم ، ولا فينا إلا أمين مؤتمن. قال : فما بالكم ليس فيكم حكّام؟ قالوا : لا نختصم ، قال : فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟ قالوا : لا نتكاثر. قال : فما بالكم ليس فيكم ملوك؟ قالوا : لا نفتخر ، قال : فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟ قالوا : من ألفة قلوبنا وصلاح ذات بيننا ، قال : فما بال طريقتكم واحدة وكلمتكم مستقيمة؟ قالوا : من أجل أننا لا نتكاذب ، ولا نتخادع ، ولا يغتاب بعضنا بعضا. قال :
أخبرونى من أين تشابهت قلوبكم واعتدلت سيرتكم؟ قالوا : صلحت صدورنا فنزع منها الغل والحسد ، قال : فما بالكم ليس فيكم فقير ولا مسكين؟ قالوا : من قبل أنّا نقسم بيننا بالسوية. قال : فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ؟ قالوا : من قبل الذلة والتواضع ، قال : فما جعلكم أطول الناس أعمارا؟ قالوا : من قبل أنّا لا نتعاطى إلا الحق ونحكم بالسوية.
قال : فما بالكم لا تضحكون؟ قالوا : لا نغفل عن الاستغفار. قال : فما بالكم لا تحزنون؟ قالوا : من قبل أنّا وطّنّا أنفسنا للبلاء. فقال : فما بالكم لا تصيبكم الآفات كما تصيب الناس؟ قالوا : لأنا لا نتوكل على غير اللّه ، قال : هل وجدتم آباءكم هكذا؟ قالوا : نعم ، وجدنا آباءنا يرحمون مساكينهم ، ويواسون فقراءهم ، ويعفون عمن ظلمهم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم ، ويحلمون عمن جهل عليهم ، ويصلون أرحامهم ، ويؤدون أمانتهم ، ويحفظون وقت صلاتهم ، ويوفون بعهدهم ، ويصدقون فى مواعدهم ، فأصلح اللّه تعالى بذلك أمرهم وحفظهم ، ما كانوا أحياء ، وكان حقا علينا أن نخلفهم فى تركتهم. فقال ذو القرنين : لو كنت مقيما لأقمت فيكم ، ولكن لم أومر بالمقام. هـ. ذكره الثعلبي.

(٣٠٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣١٠

وقال فى القوت : قوله تعالى ، فى صفة أعدائه المحجوبين : كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي : دليل الخطاب فى تدبر معناه أن أولياءه المستجيبين له سامعون منه مكاشفون بذكره ، ناظرون إلى غيبه ، قال تعالى فى ضده : ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ «١» ، وقال : مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ... «٢»

الآية. هـ.

وسبب غطاء القلوب عن الاستماع والاستبصار هو اتباع الهوى ومحبة غير المولى ، فلذلك أنكره الحق تعالى على الكفار بقوله :

[سورة الكهف (١٨) : آية ١٠٢]

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢)

قلت : أَنْ يَتَّخِذُوا : سد مسد المفعولين ، أو حذف الثاني ، أي : أحسبوا اتخاذهم نافعهم ونُزُلًا : حال من جهنم.

يقول الحق جل جلاله منكرا على الكفار المتقدمين : أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا حين أعرضوا عن ذكرى ، وكانت أعينهم فى غطاء عن رؤية دلائل توحيدى ، أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي كالملائكة والمسيح وعزير ، أو الشياطين لأنهم عباد ، مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ أي : معبودين من دونى ، يوالونهم بالعبادة ، أن ذلك ينفعهم ، أو :

ألا نعذبهم على ذلك ، بل نعذبهم على ذلك ، إِنَّا أَعْتَدْنا يسّرنا وهيأنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا أي : شيئا يتمتعون به أول ورودهم القيامة. والنزل : ما يقدم للنزيل أي : الضيف ، وعدل عن الإضمار ذما لهم على كفرهم ، وإشعارا بأن ذلك الاعتداد بسبب كفرهم ، وعبّر بالإعتاد تهكما بهم ، وتخطئة لهم ، حيث كان اتخاذهم أولياء من قبيل العتاد ، وإعداد الزاد ليوم المعاد ، فكأنه قيل : إنا أعتدنا لهم ، مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذّخر ، جهنم عدة لهم. وفى ذكر النزل : إيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أنموذج له ، وتستحقر دونه ، وقيل :

النزل : موضع النزول ، أي : أعتدناها لهم منزلا يقيمون فيه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما أحببت شيئا إلا وكنت له عبدا ، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدا ، فأفرد قلبك للّه ، وأخرج منه كلّ ما سواه ، فحينئذ تكون عبدا للّه ، حرا مما سواه ، فكل ما سوى اللّه باطل ، وظل آفل ، فكن إبراهيميا ، حيث قال :

لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ «٣» ، فارفع أيها العبد همتك عن الخلق ، وعلقها بالملك الحق ، فلا تحب إلا اللّه ، ولا تطلب شيئا

---

(١) من الآية ٢٠ من سورة هود.

(٢) الآية ٢٤ من سورة هود.

(٣) من الآية ٧٦ من سورة الأنعام.

سواه ، كائنا ما كان ، من جنس الأشخاص ، أو من جنس الأحوال أو المقامات أو الكرامات لئلا تنخرط فى سلك من اتخذ من دون اللّه أولياء ، فتكون كاذبا فى العبودية.
روى عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه أنه قال : قرأت الفاتحة ، فقلت : الحمد للّه رب العالمين. فقال لى الهاتف من قبل اللّه تعالى : صدقت ، فقلت : الرحمن الرحيم ، فقال : صدقت. فقلت : مالك يوم الدين ، فقال : صدقت.
فلما قلت : إياك نعبد ، قال كذبت لأنك تعبد الكرامات ، قال : ثم أدبنى ، وتبت لله تعالى. ذكره ابن الصباغ مطولا.
قلت : ولعله قبل ملاقاة الشيخ ، ولذلك عاتبه بقوله : يا أبا الحسن عوض ما تقول : «سخّر لى خلقك» ، قل : يا رب كن لى ، أرأيت إن كان لك أيفوتك شى ء؟ نفعنا الله بجميعهم.
وهذا الغلط يقع للمتوجهين ولغيرهم ، يظنون أنهم يحسنون صنعا ، وهم يسيئون ، كما قال تعالى :
[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١٠٣ الى ١٠٦]
قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (١٠٤) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (١٠٥) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً (١٠٦)
. قلت : أَعْمالًا : تمييز ، وفِي الْحَياةِ : متعلق بسعيهم.
يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ يا معشر الكفرة بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا أي : بالذين خسروا من جهة أعمالهم كصدقة ، وعتق ، وصلة رحم ، وإغاثة ملهوف ، حيث عملوها فى حال كفرهم فلم تقبل منهم ، وهم : الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ
أي : بطل بالكلية فِي الْحَياةِ الدُّنْيا أي : بطل ما سعوا فيه فى الحياة الدنيا وعملوه ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ : يظنون أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أي : يأتون بها على الوجه الأكمل ، وقد تركوا شرط صحتها وكمالها ، وهو الإيمان ، واختلف فى المراد بهم ، فقيل : مشركو العرب ، وقيل : أهل الكتابين ، ويدخل فى الأعمال ما عملوه فى الأحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات. وقيل : الرهبان الذين يحبسون أنفسهم فى الصوامع ويحملونها على الرياضات الشاقة.
والمختار : العموم فى كل من عمل عملا فاسدا ، يظن أنه صحيح من الكفرة ، بدليل قوله : أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ : بدلائل التوحيد ، عقلا ونقلا ، وَلِقائِهِ : البعث وما يتبعه من أمور الآخرة ، فَحَبِطَتْ لذلك أَعْمالُهُمْ المعهودة حبوطا كليا ، فَلا نُقِيمُ لَهُمْ أي : لأولئك الموصوفين بحبوط

الأعمال ، يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً أي : فنهينهم ، ولا نجعل لهم مقدارا واعتبارا لأن مدار التكريم : الأعمال الصالحة ، وقد حبطت بالمرة قال صلى اللّه عليه وسلم : «يؤتى بالرّجل السّمين العظيم يوم القيامة ، فلا يزن جناح بعوضة اقرأوا إن شئتم :
فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً «١». أو : لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزانا لأن الكفر أحبطها. أو : لا نقيم لهم وزنا نافعا. قال أبو سعيد الخدري رضي اللّه عنه : يأتى أناس بأعمالهم يوم القيامة ، هى عندهم فى العظم كجبال تهامة ، فإذا وزنوها لا تزن شيئا ، فذلك قوله : فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً.
ثم بيّن مآل كفرهم بعد أن بيّن مآل أعمالهم ، فقال : ذلِكَ الصنف الذين حبطت أعمالهم جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ، أو الأمر ذلك ، ثم استأنف بقوله : جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا أي : بسبب كفرهم المتضمن لسائر القبائح ، التي من جملتها ما تضمنه قوله : وَاتَّخَذُوا آياتِي الدالة على توحيدى أو كلامى ، أو معجزاتى ، وَرُسُلِي هُزُواً أي : مهزوا بهم ، فلم يقتنعوا بمجرد الكفر ، بل ارتكبوا ما هو أعظم ، وهو الاستهزاء بالآيات والرسل. عائذا بالله من ذلك.
الإشارة : كل آية فى الكفار تجر ذيلها على الغافلين ، فكل من قنع بدون عبادة فكرة الشهود والعيان ، ينسحب عليه من طريق الباطن أنه ضل سعيه ، وهو يحسب أنه يحسن صنعا ، فلا يقام له يوم القيامة وزن رفيع ، فتنسحب الآية على طوائف ، منها : من عبد اللّه لطلب المنزلة عند الناس ، وهذا عين الرياء روى عن عثمان أنه قال على المنبر : (الرياء سبعون بابا ، أهونها مثل نكاح الرجل أمه). ومنها : من عبد اللّه لطلب العوض والجزاء عند الخواصّ ، ومنها : من عبد اللّه لطلب الكرامات وظهور الآيات ، ومنها : من عبد اللّه بالجوارح الظاهرة ، وحجب عن الجوارح الباطنة ، وهى عبادة القلوب ، فإن الذرة منها تعدل أمثال الجبال من عبادة الجوارح ، ومنها : من وقف مع الاشتغال بعلم الرسوم ، وغفل عن علم القلوب ، وهو بطالة وغفلة عند المحققين ، ومنها : من قنع بعبادة القلوب ، كالتفكر والاعتبار ، وغفل عن عبادة الأسرار ، كفكرة الشهود والاستبصار ، والحاصل : أن كل من وقف دون الشهود والعيان فهو بطّال ، وإن كان لا يشعر ، وإنما ينكشف له هذا الأمر عند الموت وبعده ، وسيأتى عند قوله تعالى :
وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ «٢» ، زيادة بيان على هذا إن شاء اللّه. فقد يكون الشيء عبادة عند قوم وبطالة عند آخرين حسنات الأبرار سيئات المقربين. ولا يفهم هذا إلا من ترقى عن عبادة الجوارح إلى عبادة القلوب والأسرار. وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الكهف) ، ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب صفة القيامة والجنة والنار) ، عن أبى هريرة رضي اللّه عنه
(٢) الآية ٤٧ من سورة الزمر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣١٣
ثم ذكر ضد من تقدم من الكفرة ، فقال :
[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١٠٧ الى ١١٠]
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً (١٠٨) قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (١٠٩) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠)

.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بآيات ربهم ولقائه ، وَعَمِلُوا الأعمال الصَّالِحاتِ ، كانَتْ لَهُمْ فيما سبق من حكم اللّه تعالى ووعده ، جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ ، وهى أعلى الجنان. وعن كعب : أنه ليس فى الجنة أعلى من جنة الفردوس ، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، أي : أهل الوعظ والتذكير من العارفين. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «فى الجنّة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السّماء والأرض ، أعلاها الفردوس ، ومنها تفجّر أنهار الجنّة ، فوقها عرش الرحمن ، فإذا سألتم اللّه فسلوه الفردوس» «١».
وقال أيضا صلى اللّه عليه وسلم : «جنان الفردوس أربع : جنتان من فضّة ، أبنيتهما وآنيتهما ، وجنّتان من ذهب ، أبنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه» «٢» ، وقال قتادة : الفردوس : ربوة الجنة. وقال أبو أمامة : هى سرة الجنة. وقال مجاهد : الفردوس : البستان بالرومية. وقال الضحاك : هى الجنة الملتفة الأشجار.
كانت لهم نُزُلًا أي : مقدمة لهم عند ورودهم عليه ، على حذف مضاف ، أي : كانت لهم ثمار جنة الفردوس نزلا ، أو جعلنا نفس الجنة نزلا مبالغة فى الإكرام ، وفيه إيذان بأن ما أعدّ اللّه لهم على ما نطق به الوحى على لسان النبوة بقوله : «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر».
هو بمنزلة النزل بالنسبة إلى الضيافة وما بعدها ، وإن جعل النزل بمعنى المنزل فظاهر. خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا أي : لا يطلبون تحولا عنها إذ لا يتصور أن يكون شىء أعز عندهم ، وأرفع منها ، حتى تنزع إليه أنفسهم ، أو تطمح نحوه أبصارهم. ونعيمهم مجدد بتجدد أنفاسهم ، لا نفاد له ولا نهاية لأنه مكون بكلمة «كن» ، وهى لا تتناهى.

---

(١) أخرجه ، بنحوه ، البخاري فى (كتاب التوحيد ، باب : وكان عرشه على الماء) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه. [.....]

(٢) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الرحمن ، باب ومن دونهما جنتان) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى) ، من حديث عبد الله بن قيس.

(٣/٣١٣)

قال تعالى : قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ أي : جنس البحر مِداداً ، وهو ما تمد به الدواة من الحبر ، لِكَلِماتِ رَبِّي وهى ما يقوله سبحانه لأهل الجنة ، من اللطف والإكرام ، مما لا تكيفه الأوهام ، ولا تحيط به الأفكار ، فلو كانت البحار مدادا والأشجار أقلاما لنفدت ، ولم يبق منها شيء ، قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي لأن البحار متناهية ، وكلمات اللّه غير متناهية. ثم أكده بقوله : وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً أي : لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى ، هذا لو لم يجئ بمثله مددا ، بل ولو جئنا بمثله مَدَداً عونا وزيادة لأن ما دخل عالم التكوين كله متناه.

قُلْ لهم : إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يتناهى كلامى ، وينقضى أجلى ، وإنما خصصت عنكم بالوحى والرسالة يُوحى إِلَيَّ من تلك الكلمات : أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا شريك له فى الخلق ، ولا فى سائر أحكام الألوهية ، فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ : يتوقعه وينتظره ، أو يخافه ، فالرجاء : توقع وصول الخير فى المستقبل ، فمن جعل الرجاء على بابه ، فالمعنى : يرجو حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضى وقبول.

ومن حمله على معنى الخوف ، فالمعنى : يخاف سوء لقائه. قال القشيري : حمله على ظاهره أولى لأن المؤمنين قاطبة يرجون لقاء اللّه ، فالعارفون باللّه يرجون لقاءه والنظر إليه ، والمؤمنون يرجون لقاءه وكرامته بالنعيم المقيم. هـ بالمعنى.

والتعبير بالمضارع فى (يَرْجُوا) للدلالة على أن اللائق بحال المؤمنين : الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء ، أي : فمن استمر على رجاء لقاء كرامة اللّه ورضوانه فَلْيَعْمَلْ لتحصيل تلك الطلبة العزيزة عَمَلًا صالِحاً ، وهو الذي توفرت شروط صحته وقبوله ، ومدارها على الإتقان ظاهرا ، والإخلاص باطنا. وقال سهل :

العمل الصالح : المقيد بالسنّة ، وقيل : هو اعتقاد جواز الرؤية وانتظار وقتها. وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً إشراكا جليا ، كما فعل الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا حيث كفروا بآيات ربهم ولقائه ، أو إشراكا خفيا ، كما يفعله أهل الرياء ، ومن يطلب به عوضا أو ثناء حسنا.

قال شهر بن حوشب : جاء رجل إلى عبادة بن الصامت ، فقال : أرأيت رجلا يصلى يبتغى وجه اللّه ،

ويحب أن يحمد عليه ، ويتصدق يبتغي وجه اللّه ويحب أن يحمد عليه ، ويحج كذلك؟ قال عبادة : ليس له شيء ، إن اللّه تعالى يقول : «أنا خير شريك ، فمن كان له شريك فهو له». وروى أن جندب بن زهير قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنّى لأعمل العمل للّه تعالى ، فإذا اطّلع عليه سرّنى ، فقال له عليه الصلاة والسلام : «لك أجران : أجر السّرّ ، وأجر العلانية» «١»

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب عمل السر) ، وابن ماجة فى (الزهد ، باب الثناء الحسن) ، عن أبى هريرة بدون ذكر جندب ابن زهير.

وذلك إذا قصد أن يقتدى به ، وكان مخلصا فى عمله. وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «اتقوا الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر؟ قال : الرياء» «١».

وقال صلى اللّه عليه وسلم - لما نزلت هذه الآية - : «إن أخوف ما أخاف على أمتى الشرك الخفي ، وإياكم وشرك السرائر ، فإنّ الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء» ، فشق ذلك على القوم ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ألا أدلكم على ما يذهب اللّه عنكم صغير الشرك وكبيره؟ قالوا : بلى ، قال : قولوا : «اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك من كل ما لا أعلم».

وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «من قرأ آخر سورة الكهف - يعنى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ... إلى آخره - كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ، ومن قرأها كلّها كانت له نورا من الأرض إلى السّماء» «٢». وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ عند مضجعه :

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ... إلخ ، كان له من مضجعه نورا يتلألأ إلى مكّة ، حشو ذلك النّور ملائكة يصلّون حتّى يقوم ، وإن كان بمكة كان له نورا إلى البيت المعمور». قلت : ومما جرّب أن من قرأ هذه الآية (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ...)

إلخ ، ونوى أن يقوم فى أي ساعة شاء ، فإن اللّه تعالى يوقظه بقدرته. وانظر الثعلبي.

الإشارة : إن الذين آمنوا إيمان الخصوص ، وعملوا عمل الخصوص - وهو العمل الذي يقرب إلى الحضرة - كانت لهم جنة المعارف نزلا ، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا لأنّ من تمكن من المعرفة لا يعزل عنها ، بفضل اللّه وكرمه ، كما قال القائل :

مذ تجمّعت ما خشيت افتراقا فأنا اليوم واصل مجموع

ثم يترقون فى معاريج التوحيد ، وأسرار التفريد ، أبدا سرمدا ، لا نهاية لأن ترقيتهم بكلمة القدرة الأزلية ، وهى كلمة التكوين ، التي لا تنفد (قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي ...) الآية. هذا مع كون وصف البشرية لا يزول عنهم ، فلا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية. قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ وحي إلهام ، ويلقى فى روعى أنما إلهكم إله واحد ، لا ثانى له فى ذاته ولا فى أفعاله ، فمن كان يرجو لقاء ربه فى الدنيا لقاء الشهود والعيان ، ولقاء الوصول إلى صريح العرفان فليعمل عملا صالحا ، الذي لا حظ فيه للنفس عاجلا ولا آجلا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ، فلا يقصد بعبادته إلا تعظيم الربوبية ، والقيام بوظائف العبودية ، واللّه تعالى أعلم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم «٣».

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٤٢٨) ، والبغوي فى شرح السنة (١٤/ ٣٢٤).
(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٤٣٩) ، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (باب ما يستحب أن يقرأ فى اليوم والليلة) من حديث معاذ. قال الحافظ ابن حجر : وفي إسناده ابن لهيعة.
(٣) فى آخر نسخة د. حسن عباس : انتهى الجزء الثاني من تفسير القرآن المجيد ، للعلامة الأديب ، فريد عصره ، ووحيد دهره ، سيدى أحمد بن عجيبة الشريف ، غفر الله له ، ولكاتبه ، وللمسلمين أجمعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .. أمين.

سورة مريم

مكية - وهى ثمان وتسعون آية. والمقصود من السورة الرد على النصارى فى إشراكهم عيسى عليه السّلام لله تعالى فى ألوهيته ، فهى كالتتميم لقوله : وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً «١».

قال تعالى :

[سورة مريم (١٩) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

كهيعص (١)

قيل : هى مختصرة من أسماء الله تعالى ، فالكاف من كاف ، والهاء من هاد ، والياء من يمين ، والعين من عليم أو عزيز ، والصاد من صادق. قاله الهروي عن ابن جبير.

قال أبو الهيثم : جعل الياء من يمين ، من قولك : يمن الله الإنسان ييمنه يمنا فهو ميمون. هـ. ولذا ورد الدعاء بها ، فقد روى عن عليّ - كرم الله وجهه - أنه كان يقول : (يا كهيعص أعوذ بك من الذنوب التي توجب النقم ، وأعوذ بك من الذنوب التي تغير النعم ، وأعوذ بك من الذنوب التي تهتك العصم ، وأعوذ بك من الذنوب التي تحبس غيث السماء ، وأعوذ بك من الذنوب التي تديل الأعداء ، انصرنا على من ظلمنا) «٢». كان يقدم هذه الكلمات بين يدى كل شدة. فيحتمل أن يكون توسل بالأسماء المختصرة من هذه الحروف ، أو تكون الجملة ، عنده ، اسما واحدا من أسماء الله تعالى ، وقيل : هو اسم الله الأعظم. ويحتمل أن يشير بهذه الرموز إلى معاملته تعالى مع أحبائه ، فالكاف كفايته لهم ، والهاء هدايته إياهم إلى طريق الوصول إلى حضرته ، والياء يمنه وبركته عليهم وعلى من تعلق بهم ، والعين عنايته بهم فى سابق علمه ، والصاد صدقه فيما وعدهم به من الإتحاف والإكرام. والله تعالى أعلم.

وقيل : هى مختصرة من أسماء الرسول - عليه الصلاة والسلام - أي : يا كافى ، يا هادى ، يا ميمون ، يا عين العيون ، أنت صادق مصدق. وعن ماضى بن سلطان تلميذ أبى الحسن الشاذلى - رضى الله عنهما - : [أنه رأى فى منامه أنه اختلف مع بعض الفقهاء فى تفسير قوله : (كهيعص. حم. عسق) ، فقلت : هى أسرار بين الله تعالى وبين رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، وكأنه قال : «كاف» أنت كهف الوجود ، الذي يؤم إليه كلّ موجود ، «ها» هبنا لك الملك ، وهيأنا لك الملكوت ، «يع» يا عين العيون ، «ص» صفات الله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ، «حاء» حببناك ، «ميم»

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(٢) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند (١/ ١١٢).

ملّكناك ، «عين» علمناك ، «سين» ساررناك ، «قاف» قربناك. فنازعونى فى ذلك ولم يقبلوه ، فقلت : نسير إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ليفصل بيننا ، فسرنا إليه ، فلقينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال لنا : الذي قال محمد بن سلطان هو الحق]. وكأنه يشير إلى أنها صفات أفعال.

قال تعالى :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٢ الى ٦]

ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا (٣) قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)

قلت : (ذِكْرُ) : خبر عن مضمر ، أي : هذا ذكر ، والإشارة للمتلو فى هذه السورة لأنه باعتبار كونه على جناح الذكر فى حكم الحاضر الشاهد. وقيل : مبتدأ حذف خبره ، أي : فيما يتلى عليك ذكر رحمت ربك. وقيل : خبر عن (كهيعص) ، إذا قلنا هى اسم للسورة ، أي : المسمى بهذه الحروف ذكر رحمة ربك ، و(عَبْدَهُ) : مفعول لرحمة ربك ، على أنها مفعول لما أضيف إليها ، أو لذكر ، على أنه مصدر أضيف إلى فاعله على الاتساع. ومعنى ذكر الرحمة : بلوغها إليه ، و(زَكَرِيَّا) : بدل منه ، أو عطف بيان ، و(إِذْ نادى) : ظرف لرحمة ، وقيل : لذكر ، على أنه مضاف إلى فاعله ، وقيل : بدل اشتمال من زكريا ، كما فى قوله : وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ ...

«١» ، و(مِنِّي) : حال من العظم ، أي : كائنا منى ، و(شَيْباً) : تمييز.

يقول الحق جل جلاله : هذا الذي نتلوه عليك فى هذه السورة هو ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا.

قال الثعلبي : [فيه تقديم وتأخير]. أي : ذكر ربك عبده زكريا برحمته ، إِذْ نادى رَبَّهُ وهو فى محرابه فى طلب الولد نِداءً خَفِيًّا : سرا من قومه ، أو فى جوف الليل ، أو مخلصا فيه لم يطلع عليه إلا الله. ولقد راعى عليه السّلام حسن الأدب فى إخفاء دعائه ، فإنه أدخل فى الإخلاص وأبعد من الرياء ، وأقرب إلى الخلاص من كلام الناس ، حيث طلب الولد فى غير إبّانه ومن غائلة مواليه الذين كان يخافهم.

قالَ فى دعائه : رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي أي : ضعف بدني وذهبت قوتى. وإسناد الوهن إلى العظم لأنه عماد البدن ودعامة الجسد ، فإذا أصابه الضعف والرخاوة أصاب كله ، وإفراده للقصد إلى الجنس المنبئ عن شمول الوهن إلى كل فرد من أفراده. ووهن بدنه عليه السّلام : لكبر سنه ، قيل : كان ابن سبعين ، أو خمسا وسبعين ، وقيل :

مائة ، وقيل : أكثر.

---

(١) الآية١٦ من السورة نفسها.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣١٩

وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً أي : ابيضّ شمطا. شبه عليه السّلام الشيب من جهة البياض والإنارة بشواظ النار ، وانتشاره فى الشعر وفشوّه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى محل الشعر ومنبته وهو الرأس ، وأخرجه مخرج التمييز ، ففيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى ، حيث كان الأصل : واشتعل شيب رأسى ، فأسند الاشتعال إلى الرأس لإفادة شموله لكلها ، فإن وزانه : اشتعل بيته نارا بالنسبة إلى اشتعلت النار فى بيته ، ولزيادة تقريره بالإجمال أولا ، والتفصيل ثانيا ، ولمزيد تفخيمه بالتكثير من جهة التنكير.

ثم قال : وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا أي : لم أكن بدعائى إياك خائبا فى وقت من أوقات هذا العمر الطويل ، بل كنت كلما دعوتك استجبت لى. توسل إلى اللّه بسابق حسن عوائده فيه ، لعله يشفع له ذلك بمثله ، إثر تمهيد ما يستدعى ويستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال. والتعرض فى الموضعين لوصف الربوبية لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة فى التضرع ، ولذلك قيل : من أراد أن يستجاب له فليدع الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته.

ثم قال : وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ أي : الأقارب ، وهم : بنو عمه ، وكانوا أشرار بنى إسرائيل ، فخاف ألا يحسنوا خلافته فى أمته ، فسأل الله تعالى ولدا صالحا يأمنه على أمته. وقوله : مِنْ وَرائِي : متعلق بمحذوف ، أي :

جور الموالي ، أو مما فى الموالي من معنى الولاية ، أي : خفت أن يلوا الأمر من ورائي ، وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً : لا تلد من حين شبابها ، فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ أي : أعطنى من محض فضلك الواسع ، وقدرتك الباهرة ، بطريق الاختراع ، لا بواسطة الأسباب العادية لأن التعبير بلدنّ يدل على شدة الاتصال والالتصاق ، وَلِيًّا : ولدا من صلبى ، يلبى الأمر من بعدي.

والفاء : لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فإن ما ذكره عليه السّلام من كبر السن وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عن الولد بتوسط الأسباب ، فاستوهبه على الوجه الخارق للعادة ، ولا يقدح فى ذلك أن يكون هناك داع آخر إلى الإقبال على الدعاء المذكور ، من مشاهدته للخوارق الظاهرة عند مريم ، كما يعرب عنه قوله تعالى : هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ «١». وعدم ذكره هنا اكتفاء بما تقدم ، فإن الاكتفاء بما ذكر فى موطن عما ترك فى موطن آخر من النكتة التنزيلية. وقوله : يَرِثُنِي : صفة لوليّا ، وقرئ بالجزم هو وما عطف عليه جوابا للدعاء ، أي : يرثنى من حيث العلم والدين والنبوة ، فإن الأنبياء - عليهم السلام - لا يورثون من جهة المال. قال : صلى اللّه عليه وسلم «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» «٢». وقيل : يرثنى فى الحبورة ، وكان عليه السّلام حبرا.

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٤٦٣).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٢٠
وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ النبوة والملك والمال. قيل : هو يعقوب بن إسحاق. وقال الكلبي ومقاتل : هو يعقوب ابن ماثان ، أخو عمران بن ماثان ، أبى مريم ، وكانت زوجة زكريا أخت أم مريم ، وماثان من نسل سليمان عليه السّلام ، فكان آل يعقوب أخوال يحيى. قال الكلبي : كان بنو ماثان رؤوس بنى إسرائيل وملوكهم ، وكان زكريا رئيس الأحبار يومئذ ، فأراد أن يرث ولده حبورته ، ويرث من بنى ماثان ملكهم. هـ.
وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا أي : مرضيا ، فعيل بمعنى مفعول ، أي : ترضى عنه فيكون مرضيا لك ، ويحتمل أن يكون مبالغة من الفاعل ، أي : راضيا بتقديرك وأحكامك التعريفية والتكليفية. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : طلب الوارث الروحاني - وهو وارث العلم والحال - جائز ليبقى الانتفاع به بعد موته. وقيل : السكوت والاكتفاء بالله أولى ، ففى الحديث : «يرحم اللّه أخانا زكريّا ، وما كان عليه من يرثه» «١».
وقوله تعالى : نِداءً خَفِيًّا. الإخفاء عند الصوفية أولى فى الدعاء والذكر وسائر الأعمال ، إلا لأهل الاقتداء من الكملة ، فهم بحسب ما يبرز فى الوقت.
وقوله تعالى : وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا. فيه قياس الباقي على الماضي ، فالذى أحسن فى الماضي يحسن فى الباقي ، فهذا أحد الأسباب فى تقوية حسن الظن بالله وأعظم منه من حسّن الظن بالله لما هو متصف به تعالى من كمال القدرة والكرم ، والجود والرأفة والرحمة ، فإن الأول ملاحظ للتجربة ، والثاني ناظر لعين المنّة.
قال فى الحكم : «إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه ، حسّن ظنك به لوجود معاملته معك ، فهل عوّدك إلا حسنا؟
وهل أسدى إليك إلا مننا؟».
ثم ذكر إجابته لزكريا عليه السّلام ، فقال :
[سورة مريم (١٩) : الآيات ٧ الى ١١]
يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (٩) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/ ٣) ، وابن جرير (١٦/ ٤٨) عن قتادة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٢١

قلت : «عِتِيًّا» : مصدر ، من عتا يعتو ، وأصله : عتوو ، فاستثقل توالى الضمتين والواوين ، فكسرت التاء ، فقلبت الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ، ثم قلبت الثانية أيضا لاجتماع الواو والياء ، وسبق إحداهما بالسكون. (قالَ كَذلِكَ) : خبر ، أي : الأمر كذلك ، فيوقف عليه ، ثم يقول : (قالَ رَبُّكَ) ، أو مصدر لقال الثانية ، أي : مثل ذاك القول قال ربك. و(سَوِيًّا) : حال من فاعل (تُكَلِّمَ).

يقول الحق جل جلاله : يا زَكَرِيَّا ، كلمه بواسطة الملك : إِنَّا نُبَشِّرُكَ ونجيب دعوتك بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لأنه حيى به عقم أمه. أجاب نداءه فى الجملة ، لا من كل وجه ، بل على حسب المشيئة ، فإنه طلب ولدا يرثه ، فأجيب فى الولد دون الإرث فإن الجمهور على أن يحيى مات قبل موت أبيه - عليهما السلام - وقيل : بقي بعده برهة ، فلا إشكال حينئذ. وفى تعيين اسمه تأكيد للوعد وتشريف له ، وفى تخصيصه به - كما قال تعالى : لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا أي : شريكا فى الاسم ، حيث لم يتسم به أحد قبله - مزيد تشريف وتفخيم له عليه السّلام فإن التسمية بالأسماء البديعة الممتازة عن أسماء الناس تنويه بالمسمى لا محالة»

. وقيل : (سَمِيًّا) : شبيها فى الفضل والكمال ، كما قال تعالى : هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا «٢» فإنه عليه السّلام لم يكن قبله أحد مثله فى بعض أوصافه ، لأنه لم يهم بمعصية قط ، وأنه ولد لشيخ فان ، وعجوز عاقر ، وأنه كان حصورا ، ولم تكن هذه الخصال لغيره.

قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ أي : من أين وكيف يحدث لى غلام ، وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً : عقيمة ، وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا : يبسا فى الأعضاء والمفاصل ، ونحولا فى البدن ، لكبره ، وكان سنّه إذ ذاك مائة وعشرين ، وامرأته ثمان وتسعين. وتقدم الخلاف فيه. وإنما قاله عليه السّلام مع سبق دعائه وقوة يقينه ، لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة فى آل عمران استعظاما لقدرة الله تعالى ، وتعجيبا منها ، واعتدادا بنعمته تعالى عليه فى ذلك ، بإظهار أنه من محض فضل الله وكرمه ، مع كونه فى نفسه من الأمور المستحيلة عادة. وقيل : كان دهشا من ثمرة الفرح ، وقيل : كان ذلك منه استفهاما عن كيفية حدوثه. وقيل : بل كان ذلك بطريق الاستبعاد ، حيث كان بين الدعاء والبشارة ستّون سنة ، وكان قد نسى دعاءه ، وهو بعيد.

قالَ كَذلِكَ أي : الأمر كما ذكر من كبر السن وعقم المرأة ، لكن هو على قدرتنا هين ، ولذلك قال : قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، أو مثل ذلك القول البديع قال ربك ، ثم فسره بقوله : هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، أو «مثل» مقحمة ، أي : ذلك قال ربك. والإشارة إلى مصدره ، الذي هو عبارة عن إيجاد الولد السابق ، أو كذلك قضى ربك.

(١) وجه الفضيلة : أن اللّه تعالى تولى تسميته ، ولم يكل ذلك إلى أبويه ، فسمّاه باسم لم يسبق إليه ... راجع : زاد المسير (٥/ ٢١٠).
(٢) من الآية ٦٥ من سورة مريم.

ثم قال : هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً أي : وقد أوجدت أصلك «آدم» من العدم ، ثم نشأت أنت من صلبه ، ولم تك شيئا ، فإن نشأة آدم عليه السّلام وتصويره منطوية على نشأة أولاده ، ولذلك قال في آية أخرى :
وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ «١» الآية. انظر تفسير أبى السعود.
قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً أي : علامة تدلنى على تحقق المسئول ، وبلوغ المأمول ، وهو حمل المرأة بذلك الولد ، لأتلقى تلك النعمة العظيمة بالشكر حين حدوثها ، ولا أؤخر الشكر إلى وقت ظهورها ، وينبغي أن يكون سؤاله الآية بعد البشارة ببرهة من الزمان لما يروى أن (يحيى كان أكبر من عيسى - عليهما السلام - بستة أشهر ، أو بثلاث سنين) ، ولا ريب في أن دعاء زكريا عليه السّلام كان في صغر مريم ، لقوله تعالى : هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ «٢» ، وهى إنما ولدت عيسى عليه السّلام وهى بنت عشر سنين ، أو ثلاث عشرة سنة ، أو يكون تأخر ظهور الآية إلى قرب بلوغ مريم - عليها السلام.
قالَ له تعالى : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ أي : أن لا تقدر على أن تكلم الناس مع القدرة على الذكر ، ثَلاثَ لَيالٍ بأيامهن ، للتصريح بها في آل عمران «٣» ، حال كونك سَوِيًّا أي : سوىّ الخلق سليم الجوارح ، مابك شائبة بكم ولا خرس ، وإنما منعت بطريق الاضطرار مع كمال الأعضاء. وحكمة منعه لينحصر كلامه في الشكر والذكر في تلك الأيام.
فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ : من المصلّى ، وكان مغلقا عليه ، فالمحراب مكان التعبد ، أو من الغرفة ، وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب ، ليدخلوا ويصلوا ، إذ خرج عليهم متغيرا لونه ، فأنكروه ، وقالوا له : مالك؟ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أي : أومأ إليهم ، وقيل : كتب في الأرض : أَنْ سَبِّحُوا أي : صلوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا : صلاة الفجر وصلاة العصر ، ولعلها كانت صلاتهم. أو : نزهوا ربكم طرفى النهار ، ولعله أمر أن يسبح فيها شكرا ، ويأمر قومه بذلك. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : إجابة الدعاء مشروطة بالاضطرار ، قال تعالى : أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ «٤» وفى الحكم :

«ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار». فإذا اضطررت إلى مولاك ، فلا محالة يجيب دعاك ، لكن فيما يريد لا فيما تريد ، وفى الوقت الذي يريد ، لا فى الوقت الذي تريد. فلا تيأس ولا تستعجل (وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ). فإذا رأيت مولاك أجابك فيما سألته ، فاجعل كلامك كله فى شكره وذكره ، واستفرغ أوقاتك ، إلا من شهود إحسانه وبره. وبالله التوفيق.

---

(١) الآية ١١ من سورة الأعراف. [.....]
(٢) من الآية ٣٨ من سورة آل عمران.
(٣) فى قوله تعالى : قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً الآية ٤١.
(٤) من الآية ٦٢ من سورة النمل.

ثم ذكر وصيته ليحيى عليه السّلام ونعوته ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ١٢ الى ١٥]

يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً وَكانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (١٤) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)

. قلت : «صَبِيًّا» : حال من مفعول «آتَيْناهُ» ، و«حَناناً» و«زَكاةً» : عطف على «الْحُكْمَ». و«مِنْ لَدُنَّا» : متعلق بمحذوف ، صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية ، أي : وآتيناه الحكم وتحنّنا عظيما واقعا من جنابنا ، أو شفقة فى قلبه ورحمة على أبويه وغيرهما. قال ابن عباس : (ما أدرى ما حنانا إلا أن يكون تعطف رحمة الله على عباده). ومنه قولهم : «حنانيك» ، مثل سعديك ، وأصله : من حنين الناقة على ولدها ، و(بَرًّا)
: عطف على «تَقِيًّا».

يقول الحق جل جلاله : يا يَحْيى أي : قلنا يا يحيى ، وهذا استئناف طوى قبله جمل كثيرة ، مما يدل على ولادته ونشأته ، حتى أوحى إليه ، ثم قال له : يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ أي : التوراة ، وقيل : كتاب خص به ، فدلت الآية على رسالته. وفى تفسير ابن عرفة : أن يحيى رسول كعيسى. هـ. وقوله : بِقُوَّةٍ أي : بجد واجتهاد ، وقيل :
بالعمل به ، وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ، قال ابن عباس : (الحكم هنا النبوة ، استنبأه وهو ابن ثلاث سنين) ، قلت : كون الصبى نبيا جائز عقلا ، واقع عند الجمهور ، وأما بعثه رسولا فجائز عقلا ، وظاهر كلام

الفخر «١» هنا أنه واقع ، وأن يحيي وعيسى بعثا صغيرين. وقال ابن مرزوق فى شرح البخاري ما نصه : (الأعم : بعث الأنبياء بعد الأربعين) لأنه بلوغ الأشد ، وقيل : أرسل يحيى وعيسى - عليهما السلام - صبيين. وقال ابن العربي : يجوز ، ولم يقع.

وقول عيسى عليه السّلام : (إنى عبد اللّه) إخبار عما وجب فى المستقبل ، لا عما حصل. واستشكل جواز بعث الصبى بأنه تكليف ، وشرطه : البلوغ ، إن كانت الشرائع فيه سواء. انظر المحشى الفاسى.

قلت : والذي يظهر أن يحيي وعيسى - عليهما السلام - تنبئا صغيرين ، وأرسلا بعد البلوغ. والله تعالى أعلم. وقيل : الحكم : الحكمة وفهم التوراة والفقه فى الدين. روى أنه دعاه الصبيان إلى اللعب ، فقال : ما للعب خلقت.

وَآتيناه حَناناً أي : تحنّنا عظيما مِنْ لَدُنَّا : من جناب قدسنا ، أو تحننا من الناس عليه. قال عوف : الحنان المحبّب ، وَزَكاةً : طهارة من العيوب والذنوب ، أو صدقة تصدقنا به على أبويه ، أو : وفّقناه للتصدق على الناس. وَكانَ تَقِيًّا مطيعا للّه ، متجنبا للمعاصى ، وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ : لطيفا بهما محسنا إليهما ،

---

(١) أي الفخر الرازي فى تفسيره.

وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا

متكبرا عاقا ، فالجبّار : هو المتكبر ، لأنه يجبر الناس على أخلاقه. وقيل : من لا يقبل النصيحة ، أو عاصيا اللّه تعالى. وَسَلامٌ عَلَيْهِ

أي : سلامة من اللّه تعالى عليه ، يَوْمَ وُلِدَ

من أن يناله الشيطان بما ينال بنى آدم ، وَيَوْمَ يَمُوتُ

من عذاب القبر ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا

من هول القيامة وعذاب النار.

روى أن يحيي وعيسى - عليهما السلام - التقيا ، فقال له يحيى : استغفر لى ، فأنت خير منى ، فقال له عيسى :

أنت خير منى ، أنا سلمت على نفسى وأنت سلم الله عليك.

الإشارة : أخذ الكتاب بالقوة - وهو الجد والاجتهاد فى قراءته - هو أن يكون متجردا لتلاوته ،

منصرف الهمة إليه عن غيره ، فلا يصدق على العبد أن يأخذ كتاب ربه بقوة ، حتى يكون هكذا عند تلاوته. قال الورتجبي :

خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ أي : خذ كتابنا بنا لابك ، والكتاب كلام الحق الأزلي ، أي : خذ الكتاب الأزلي بالقوة الأزلية. هـ. ومعناه أن يكون التالي فانيا عن نفسه ، متكلما بربه ، ويسمعه من ربه ، فهذا حال المقربين.

واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة مريم – عليها السلام – فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ١٦ الى ٢١]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (١٧) قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (١٩) قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)

قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (٢١)

قلت : (إِذِ انْتَبَذَتْ)

: بدل اشتمال من مريم ، على أن المراد بها نبؤها ، فإن الظرف مشتمل على ما فيها ، وقيل :

بدل الكل ، على أن المراد بالظرف ما وقع فيه. وقيل : «إِذِ»

ظرف لنبأ المقدر ، أي : اذكر نبأ مريم حين انتبذت لأن الذكر لا يتعلق بالأعيان ، لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبأها عند انتباذها فقط ، بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستثناء داخل فى حيز الظرف متمم للنبأ. و(مَكاناً)

: مفعول بانتبذت ، باعتبار ما فيه من معنى الإتيان ، أي : اعتزلت وأتت مكانا شرقيا ، أو ظرف له ، أي : اعتزلت فى مكان شرقى. و(بَشَراً)

: حال. وجواب (إِنْ كُنْتَ)

: محذوف ، أي : إن كنت تقيا فإنى عائذة بالرحمن منك. و(بَغِيًّا) أصله : بغوي ، على وزن فعول ،

(٣٢٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٢٥

فأدغمت الواو – بعد قلبها ياء – فى الياء ، وكسرت الغين للياء «١» ، و(لِنَجْعَلَهُ) : متعلق بمحذوف ، أي : ولنجعله آية فعلنا ذلك ، أو معطوف على محذوف ، أي : لنبين لهم كمال قدرتنا ولنجعله .. إلخ. أو على جملة : (هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ) لأنها فى معنى العلة ، أي : كذلك قال ربك لقدرتنا على ذلك

ولنجعله .. إلخ.
يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ
يا محمد فِي الْكِتابِ
: القرآن ، والمراد هذه السورة الكريمة لأنها هى التي صدرت بذكر زكريا ، واستتبعت بذكر قصة مريم لما بينهما من الاشتباك. أي : اذكر فى الكتاب نبأ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ
حين اعتزلت مِنْ أَهْلِها
وأتت مَكاناً شَرْقِيًّا
من بيت المقدس ، أو من دارها لتتخلى فيه للعبادة ، ولذلك اتخذت النصارى المشرق قبلة. وقيل : قعدت فى مشربة لتغتسل من الحيض ، محتجبة بشىء يسترها ، وذلك قوله تعالى : فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً
، وكان موضعها المسجد ، فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها ، وإذا طهرت عادت إلى المسجد. فبينما هى تغتسل من الحيض ، محتجبة دونهم ، أتاها جبريل عليه السّلام فى صورة آدمي ، شاب أمرد ، وضىء الوجه.
قال تعالى : فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا
:
جبريل عليه السّلام ، عبّر عنه بذلك توفية للمقام حقه. وقرىء بفتح الراء لكونه سببا لما فيه روح العباد ، يعنى اتباعه والاهتداء به ، الذي هو عدة المقربين فى قوله : فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ «٢». فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا
: سوىّ الخلق ، كامل البنية ، لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئا ، وقيل : تمثل لها فى صورة شاب ترب «٣» لها ، اسمه يوسف ، من خدم بيت المقدس ، وإنما تمثل لها فى تلك الصورة الجميلة لتستأنس به ، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلامه تعالى إذ لو ظهر لها على صورة الملكية ، لنفرت منه ولم تستطع مقاومته.
وأما ما قيل من أن ذلك لتهيج شهوتها ، فتنحدر نطفتها إلى رحمها ، فغلط فاحش ، ينحو إلى مذهب الفلاسفة ، ولعلها نزعة مسروقة من مطالعة كتبهم ، يكذبه قوله تعالى : قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا
، فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها ميل إليه ، فضلا عن ما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة. نعم يمكن أن يكون ظهر على ذلك الحسن الفائق والجمال اللائق لابتلائها واختبار عفّتها ، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه. وذكر عنوان الرحمانية للمبالغة فى العياذ به تعالى ، واستجلاب آثار الرحمة الخاصة ، التي هى العصمة مما دهمها. قاله أبو السعود.
وقولها : إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا

أي : تتقى الله فتبالى بالاستعاذة به.

---

(١) أي لمناسة الياء.

(٢) الآيتان ٨٨ – ٨٩ من سورة الواقعة.

(٣) أي : فى مثل سنها : فالتّرب : اللّدة والسّنّ ... انظر : اللسان (ترب ١/ ٤٢٥).

قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ

أي : لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر ، وإنما أنا رسول من استعذت برحمانيته لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً

أي : لأكون سببا فى هبة الغلام ، أو : ليهب لك ربك غلاما – فى قراءة الياء – .

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتسليتها ، والإشعار بعلية الحكم فإن هبة الغلام لها من أحكام تربيتها. وقوله : زَكِيًّا

أي : طاهرا من العيوب صالحا ، أو تزكو أحواله وتنمو فى الخير ، من سن الطفولية إلى الكبر.

قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ كما وصفت ، وَالحال أنه لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ بالنكاح ، وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا زانية فاجرة تبتغى الرجال؟ قالَ لها الملك : كَذلِكِ أي : الأمر كما قلت لك قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ أي : هبة الغلام من غير أن يمسسك بشر هين سهل على قدرتنا ، وإن كان مستحيلا عادة لأنى لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط ، بل أمرنا بين الكاف والنون ، وَإنما فعلنا ذلك لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ يستدلون به على كمال قدرتنا. والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الجلالة ، وَلنجعله رَحْمَةً عظيمة كائنة مِنَّا عليهم ، ليهتدوا بهدايته ، ويرشدوا بإرشاده. وَكانَ ذلك أَمْراً مَقْضِيًّا فى الأزل ، قد تعلق به قضاء الله وقدره ، وسطّر فى اللوح المحفوظ ، فلا بدّ من جريانه عليك ، أو : كان أمرا حقيقا بأن يقضى ويفعل لتضمنه حكما بالغة وأسرارا عجيبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : لا تظهر النتائج والأسرار إلا بعد الانتباذ عن الفجار ، وعن كل ما يشغل القلب عن التذكار ، أو عن الشهود والاستبصار ، فإذا اعتزل مكانا شرقيا ، أي : قريبا من شروق الأنوار والأسرار ، بحيث يكون قريبا من أهل الأنوار ، أو بإذنهم ، أرسل الله إليه روحا قدسيا ، وهو وارد ربانى تحيا به روحه وسره وقلبه وقالبه ، فيهب له علما لدنيا ، وسرا ربانيا ، يكون آية لمن بعده ، ورحمة لمن اقتدى به وتبعه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حملها وولادتها وما كان من شأنها مع قومها ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٢٢ الى ٣٣]

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا (٢٢) فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (٢٣) فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦)

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا (٢٧) يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (٣١)

وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)

(٣٢٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٢٧

قلت : (رُطَباً) : تمييز ، فيمن أثبت التاءين «١» ، أو حذف إحداهما ، ومفعول به ، فيمن قرأ بتاء واحدة مع كسر القاف.

يقول الحق جل جلاله : فَحَمَلَتْهُ بأن نفخ جبريل فى درعها ، فدخلت النفخة فى جوفها. قيل : إن جبريل عليه السّلام رفع درعها فنفخ فى جيبه ، وقيل : نفخ عن بعد ، فوصل الريح إليها فحملت فى الحال ، وقيل : إن النفخة كانت فى فيها ، وكانت مدة حملها سبعة أشهر ، وقيل : ثمانية. ولم يعش ولد من ثمانية. وفى ابن عطية :

تظاهرت الروايات أنها ولدت لثمانية أشهر ، ولذلك لا يعيش ابن ثمانية أشهر حفظا لخاصية عيسى ، فتكون معجزة له. هـ. وقيل : تسعة أشهر. وقيل : ثلاث ساعات ، حملته فى ساعة ، وصور فى ساعة ، ووضعته فى ساعة حين زالت الشمس. وقيل : ساعة ، ما هو إلا أن حملت فوضعت ، وسنها حينئذ ثلاث عشرة سنة ، وقيل : عشر سنين ، وقد حاضت حيضتين.

فَانْتَبَذَتْ بِهِ أي : فاعتزلت ملتبسة به حين أحست بقرب وضعها ، مَكاناً قَصِيًّا : بعيدا من أهلها وراء الجبل ، وقيل : أقصى الدار. فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ فألجأها المخاض. وقرئ بكسر الميم. وكلاهما مصدر ، محضت المرأة : إذا تحرك الولد فى بطنها للخروج ، إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ لتستتر به ، أو لتعتمد عليه عند الولادة ، وهو ما بين العرق والغصن. وكانت نخلة يابسة ، لا رأس لها ولا قعدة ، قد جيىء بها لبناء

بيت ، وكان الوقت شتاء ، والتعريف فى النخلة إما للجنس أو للعهد ، إذ لم يكن ثمّ غيرها ، ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريها من آياتها ما يسكن روعتها ، وليطعمها الرطب ، الذي هو من طعام النفساء الموافق لها.

قالَتْ حين أخذها وجع الطلق : يا لَيْتَنِي مِتُّ «٢» بكسر الميم ، من مات يمات ، وبالضم ، من مات

---

(١) فى قوله تعالى : (تُساقِطْ).

(٢) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف : «مت» بكسر الميم ، والباقون بالضم.

(٣٢٧/٣)

يموت ، قَبْلَ هذا الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت ، وإنما قالته ، مع أنها كانت تعلم ما جرى لها مع جبريل عليه السّلام من الوعد الكريم استحياء من الناس ، وخوفا من لائمتهم ، أو جريا على سنن الصالحين عند اشتداد الأمر ، كما روى عن عمر رضي اللّه عنه أنه أخذ تبنة من الأرض ، فقال : «ليتني هذه التبنة ولم أكن شيئا». وقال بلال : (ليت بلالا لم تلده أمه). ثم قالت : وَكُنْتُ نَسْياً «١» أي : شيئا تافها شأنه أن ينسى ولا يعتد به ، مَنْسِيًّا لا يخطر ببال أحد من الناس. وقرئ بفتح النون ، وهما لغتان نسى ونسى ، كالوتر والوتر. وقيل : بالكسر : اسم ما ينسى ، وبالفتح : مصدر.

فَناداها أي : جبريل عليه السّلام مِنْ تَحْتِها ، قيل : إنه كان يقبل الولد من تحتها ، أي : من مكان أسفل منها ، .

وقيل : من تحت النخلة ، وقيل : ناداها عيسى عليه السّلام ، ويرجحه قراءة من قرأ بفتح الميم ، أي : فخاطبها الذي تحتها :

أَلَّا تَحْزَنِي ، أو : بألا تحزنى ، على أنّ «أن» مفسرة ، أو مصدرية ، حذف عنها الجار. قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ أي : بمكان أسفل منك سَرِيًّا أي : نهرا صغيرا ، حسبما روى مرفوعا. «٢» قال ابن عباس رضى اللّه عنهما : (إن جبريل عليه السّلام ضرب برجله الأرض ، فظهرت عين ماء عذب ، فجرى جدولا).

وقيل : فعله عيسى ، أي : ضرب برجله فجرى ، وقيل : كان هناك نهر يابس - أجرى اللّه تعالى فيه الماء ، كما فعل مثله بالنخلة ، فإنها كانت يابسة لا رأس لها ، فأخرج لها رأسا وخوصا وتمرا. وقيل : كان هناك نهر ماء. والأول أظهر لأنه الموافق لبيان إظهار الخوارق ، والمتبادر من النظم الكريم.

وقيل : (سَرِيًّا) أي : سيدا نبيلا رفيع الشأن جليلا ، وهو عيسى عليه السّلام ، والتنوين حينئذ للتفخيم. والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى. والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها

لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية.

ثم قال : وَهُزِّي إِلَيْكِ أي : حركى النخلة إليك ، أي : جاذبة لها إلى جهتك. فهزّ الشيء : تحريكه إلى الجهات المتقابلة تحريكا عنيفا ، والمراد هنا ما كان بطريق الجذب والدفع. والباء فى قوله : بِجِذْعِ النَّخْلَةِ :

صلة للتأكيد ، لقول العرب : هزّ الشيء وهز به ، أو للإلصاق. فإذا هززت النخلة تُساقِطْ «٣» أي : تتساقط.

وقرئ : تساقط ، وتسقط ، أي : النخلة عليك إسقاطا متواترا بحسب تواتر الهز رُطَباً جَنِيًّا أي : طريا ، وهو ما قطع قبل يبسه. فعيل بمعنى مفعول ، أي : مجنيا صالحا للاجتناء. فَكُلِي من ذلك الرطب

---

(١) قرأ حفص وحمزة بفتح النون ، والباقون بكسرها .. انظر الإتحاف (٢/ ٢٣٥).

(٢) أخرج المرفوع الطبراني فى المعجم الصغير (١/ ٢٤٤) من حديث البراء بن عازب ، وأخرجه فى الكبير (١٢/ ٣٤٦ ح ١٣٣٠٣) من حديث ابن عمر.

(٣) هذه قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبى عمرو ، وابن عمرو ، والكسائي. وقرأ حفص «تساقط» بضم التاء وتخفيف السين وكسر القاف.

وقرأ حمزة «تساقط» بفتح التاء والقاف وتخفيف السين ، والأصل : تتساقط. انظر : التبصرة/ ٢٥٦ ، والإتحاف (٢/ ٢٣٥).

(٣٢٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٢٩

وَاشْرَبِي من ذلك السرى ، وَقَرِّي عَيْناً وطيبى نفسا وارفضى عنك ما أحزنك وأهمك ، فإنه تعالى قد نزه ساحتك عن التهم ، بما يفصح به لسان ولدك من التبرئة. أو : وقرى عينا بحفظ اللّه ورعايته فى أمورك كلها.

وقرة العين : برودتها ، مأخوذ من القرّ ، وهو البرد لأن دمع الفرح بارد ، ودمع الحزن سخن ، ولذلك يقال : قرة العين للمحبوب ، وسخنة العين للمكروه.

فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً آدميا كائنا من كان فَقُولِي له إن استنطقك أو لامك : إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً أي : صمتا ، وقرىء كذلك ، وكان صيامهم السكوت ، فكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الطعام. وذكر ابن العربي فى الأحوذى : أن نبينا - عليه الصلاة والسلام - اختص بإباحة الكلام لأمته فى الصوم ، وكان محرما على من قبلنا ، عكس الصلاة. هـ. قالت : فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا أي :

بعد أن أخبرتكم بنذرى ، وإنما أكلم الملائكة أو أناجى ربى. وقيل : أمرت بأن تخبر عن نذرها بالإشارة. قال الفراء : العرب تسمى كل ما وصل إلى الإنسان كلاما ، ما لم يؤكّد بالمصدر ، فإذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام. هـ. وإنما أمرت بذلك ونذرته لكراهة مجادلة السفهاء ومقاولتهم ، وللاكتفاء بكلام عيسى عليه السّلام فإنه نص قاطع فى قطع الطعن.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها عند ما طهرت من نفاسها ، تَحْمِلُهُ أي : حاملة له. قال الكلبي : احتمل يوسف النجار – وكان ابن عمها – مريم وابنها عيسى ، فأدخلهما غارا أربعين يوما ، حتى تعلّت من نفاسها ، ثم جاءت به تحمله بعد أربعين يوما ، وكلمها عيسى فى الطريق ، فقال : يا أمه ، أبشرى ، فإنى عبد الله ومسيحه. فلما رآها أهلها ، بكوا وحزنوا ، وكانوا قوما صالحين. قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ أي : فعلت شَيْئاً فَرِيًّا : عظيما بديعا منكرا ، من فرى الجلد : قطعه. قال أبو عبيدة : (كل فائق من عجب أو عمل فهو فرىّ). قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : فى حق عمر رضي اللّه عنه : «فلم أر عبقريا من النّاس يفرى فريّه» «١» أي : يعمل عمله.

يا أُخْتَ هارُونَ ، عنوا هارون أخا موسى لأنها كانت من نسله ، أي : كانت من أعقاب من كان معه فى طبقة الأخوة ، وكان بينها وبينه ألف سنة. أو يا أخت هارون فى الصلاح والنسك ، وكان رجلا صالحا فى زمانهم اسمه هارون ، فشبهوها به. ذكر لما مات تبع جنازته أربعون ألفا ، كلهم يسمى هارون من بنى إسرائيل. وقيل : إن هارون الذي شبهوها به كان أفسق بنى إسرائيل ، فشتموها بتشبيهها به. ما كانَ أَبُوكِ عمران امْرَأَ سَوْءٍ

---

(١) أخرجه البخاري فى مواضع ، منها : (فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه) عن عبد اللّه بن عمر ، وأخرجه مسلم فى (فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر رضي اللّه عنه) عن أبى هريرة ، ولفظ الحديث كاملا كما فى البخاري : قال صلى اللّه عليه وسلم :
«أريت فى المنام أنى أنزع بدلو على بكرة على قليب ، فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين نزعا ضعيفا ، واللّه يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب ، فاستحالت غربا ، فلم أر عبقريا يفرى فريه ، حتى روى الناس وضربوا بعطن».

وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ، فمن أين لك هذا الولد من غير زوج؟. هذا تقرير لكون ما جاءت به فريا منكرا ، أو تنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش الفواحش.

فَأَشارَتْ إِلَيْهِ أي : إلى عيسى أن كلموه ، ولم تكلمهم وفاء بنذرها ، وإشارتها إليه من باب الإدلال ، رجوعا لقوله لها : (وَ قَرِّي عَيْناً) ، ولا تقر عينها إلا بالوفاء بما وعدت به من العناية بأمرها والكفاية لشأنها ، وذلك يقتضى انفرادها بالله وغناها به ، فتدل بالإشارة. وكان ذلك طوع يدها ، وتذكّر قضية جريج. قاله فى الحاشية.

قالُوا منكرين لجوابها : كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ، ولم يعهد فيما سلف صبى يكلمه عاقل. و«كانَ» هنا : تامة. و«صَبِيًّا» : حال. وقيل : زائدة ، أي : من هو فى المهد.

قالَ عيسى عليه السّلام : إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ، أنطقه اللّه تعالى بذلك ، تحقيقا للحق ، وردا على من يزعم ربوبيته.

قيل كان المستنطق لعيسى زكريا - عليهما السلام - وعن السدى : (لما أشارت إليه ، غضبوا ، وقالوا : لسخريتها بنا أشدّ علينا مما فعلت). روى أنه عليه السّلام كان يرضع ، فلما سمع ذلك ترك الرضاع ، وأقبل عليهم بوجهه ، واتكأ على يساره ، وأشار بسبابته ، فقال ما قال. وقيل : كلمهم بذلك ، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان.

ثم قال فى كلامه : آتانِيَ الْكِتابَ : الإنجيل : وَجَعَلَنِي مع ذلك نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِي مُبارَكاً : نفّاعا للناس ، معلما للخير أَيْنَ ما كُنْتُ أي : حيثما كنت ، وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ : أمرنى بها أمرا مؤكدا ، وَالزَّكاةِ زكاة الأموال ، أو بتطهير النفس من الرذائل ما دُمْتُ حَيًّا فى الدنيا. وَجعلنى بَرًّا بِوالِدَتِي فهو عطف على مُبارَكاً. وقرئ بالكسر ، على أنه مصدر وصف به مبالغة ، وعبّر بالفعل الماضي فى الأفعال الثلاثة إما باعتبار ما سبق فى القضاء المحتوم ، أو بجعل ما سيقع واقعا لتحققه. ثم قال :

وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا عند اللّه تعالى ، بل متواضعا لينا ، سعيدا مقربا ، فكان يقول : سلونى ، فإن قلبى لين ، وإنى فى نفسى صغير ، لما أعطاه اللّه من التواضع.

ثم قال : وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ، كما تقدم على يحيى. وفيه تعريض بمن خالفه ، فإن إثبات جنس السلام لنفسه تعريض بإثبات ضده لأضداده ، كما فى قوله تعالى : وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى «١» فإنه تعريض بأن العذاب على من كذّب وتولى.

فهذا آخر كلام عيسى عليه السّلام ، وهو أحد من تكلم فى المهد ، وقد تقدم ذكرهم فى سورة يوسف نظما ونثرا. وكلهم معروفون ، غير أن ماشطة ابنة فرعون لم تشتهر حكايتها. وسأذكرها كما ذكرها الثعلبي. قال : قال ابن عباس :

(لما أسرى بالنبي صلى اللّه عليه وسلم مرت به ريح طيبة فقال : يا جبريل ما هذه الرائحة؟ قال : رائحة ماشطة بنت فرعون ، كانت

---

(١) الآية ٤٧ من سورة طه. [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٣١
تمشطها ، فوقع المشط من يدها ، فقالت : بسم اللّه ، فقالت ابنته : أبى؟ فقالت : لا ، بل ربى وربك ورب أبيك. فقالت :
أخبر بذلك أبى؟ قالت : نعم ، فأخبرته فدعاها ، وقال : من ربك؟ قالت : ربى وربك فى السماء ، فأمر فرعون ببقرة - أي : آنية عظيمة من نحاس - فأحميت ، ودعاها بولدها ، فقالت : إن لى إليك لحاجة ، قال : وما حاجتك؟ قالت :
تجمع عظامى وعظام ولدي فتدفنها جميعا ، قال : وذلك لك علينا من الحقّ ، سأفعل ذلك لك ، فأمر بأولادها واحدا واحدا ، حتى إذا كان آخر ولدها ، وكان صبيا مرضعا ، قال : اصبري يا أمه .. فألقاها فى البقرة مع ولدها «١». هـ.
الإشارة : يؤخذ من الآية أمور صوفية ، منها : أن الإنسان يباح له أن يستتر فى الأمور التي تهتك عرضه ، ويهرب إلى مكان يصان فيه عرضه ، إلا أن يكون فى مقام الرياضة والمجاهدة ، فإنه يتعاطى ما تموت به نفسه ، ومنها : أنه لا بأس أن يلجأ الإنسان إلى ما يخفف آلامه ويسهل شدته ، ولا ينافى توكله.
ومنها : أن لا بأس أن يتمنى الموت إذا خاف ذهاب دينه أو عرضه ، أو فتنة تحول بينه وبين قلبه.
ويؤخذ أيضا من الآية : أن فزع القلب عند الصدمة الأولى لا ينافى الصبر والرضا لأنه من طبع البشر ، وإنما ينافيه تماديه على الجزع.
ومنها : أن تحريك الأسباب الشرعية لا ينافى التوكل ، لقوله تعالى : (وَ هُزِّي إِلَيْكِ). لكن إذا كانت خفيفة مصحوبة بإقامة الدين ، غير معتمد عليها بقلبه ، فإن كان متجردا فلا يرجع إليها حتى يكمل يقينه ، ويتمكن فى معرفة الحق تعالى. وقد كانت فى بدايتها تأتى إليها الأرزاق بغير سبب كما فى سورة آل عمران «٢» ، وفى نهايتها قال لها : (وَ هُزِّي إِلَيْكِ). قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه :
كانت فى بدايتها متعرفا إليها بخرق العادات وسقوط الأسباب ، فلما تكمل يقينها رجعت إلى الأسباب ، والحالة الثانية أتم من الحالة الأولى ، وأما من قال : إن حبها أولا كان للّه وحده ، فلما ولدت انقسم حبها ، فهو تأويل لا يرضى ولا ينبغى أن يلتفت إليه ، لأنها صدّيقة ، والصدّيق والصدّيقة لا ينتقلان من حالة إلا إلى أكمل منها.
ومنها : أن الإنسان لا بأس أن يوجب على نفسه عبادة ، إذا كان يتحصن بها من الناس ، أو من نفسه ، كالصوم أو الصمت «٣» أو غيرهما ، مما يحجزه عن العوام ، أو عن الانتصار للنفس.
وقوله تعالى : (وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ...) الآية : قال : الورتجبي : سلام يحيى سلام تخصيص الربوبية على العبودية. ثم قال : وسلام عيسى من عين الجمع ، سلام فيه مزية ظهور الربوبية فى معدن

العبودية. وأرفع المقامين سلام الحق على سيد المرسلين كفاحا فى وصاله وكشف جماله ، ولو سلّم عليه بلسانه كان بلسان الحدث ، ولا يبلغ رتبة سلامه بوصف قدمه. هـ.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٣٠٩) مرفوعا. والحديث فى مجمع الزوائد (١/ ٦٥) وعزاه لأحمد والبزار والطبراني فى الكبير والأوسط.

(٢) فى قوله تعالى : كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .. الآية ٣٧.

(٣) قلت : ما قاله جائز فى الصوم ، وغير جائز فى الصمت لما ورد فى الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الذي نذر الصوم والصمت أن يتم صومه ، وأن يتكلم. فتأمله فإنه دقيق.

ثم شرع فى الرد على النصارى ، وعلى من أشرك معه غيره ، فقال تعالى :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٣٤ الى ٤٠]

ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٨)

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (٤٠)

قلت : وَإِنَّ اللَّهَ : عطف على قوله : (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ) فيمن كسر ، وعلى حذف اللام فيمن فتح ، أي : ولأن الله ربى وربكم. وقال الواحدي وأبو محمد مكى : عطف على قوله : (بِالصَّلاةِ) أي : أوصانى بالصلاة وبأن الله ... إلخ : وقال المحلى :

بالفتح ، بتقدير اذكر ، وبالكسر بتقدير «قل». و(قَوْلَ الْحَقِّ) : مصدر مؤكد لقال ، فيمن نصب ، وخبر عن مضمر ، فيمن رفع ، أي : هو ، أو هذا. و(إِذا قَضى) : بدل من (يَوْمَ الْحَسْرَةِ) ، أو ظرف للحسرة. و(هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) : جملتان حاليتان من الضمير المستقر فى الظرف فى قوله : (فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) أي : مستقرين فى الضلال وهم فى تينك الحالتين.

يقول الحق جل جلاله : ذلِكَ المنعوت بتلك النعوت الجليلة ، والأوصاف الحميدة هو عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

، لا ما يصفه النصارى به من وصف الألوهية ، فهو تكذيب لهم على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني ، حيث جعله موصوفا بأضداد ما يصفونه به. وأتى بإشارة البعيد للدلالة على علو رتبته وبعد منزلته ، وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ، ونزوله منزلة المشاهد المحسوس.
هذا قَوْلَ الْحَقِّ ، أو قال عيسى قَوْلَ الْحَقِّ الذي لا ريب فيه ، وأنه عبد الله ورسوله ، الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ أي : يشكون أو يتنازعون ، فيقول اليهود : ساحر كذاب ، ويقول النصارى : إله ، أو ابن اللّه. ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ أي : ما صح ، أو ما استقام له أن يتخذ ولدا ، سُبْحانَهُ وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، فهو تنزيه عما بهتوه ، ونطقوا به من البهتان ، وكيف يصح أن يتخذ الله ولدا ، وهو يحتاج إلى أسباب ومعالجة ، وأمره تعالى أسرع من لحظ العيون ، إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.
ثم قال لهم عيسى عليه السّلام : وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، فهو من تمام ما نطق به فى المهد ، وما بينهما اعتراض ، للمبادرة للرد على من غلط فيه ، أي : فإني عبد ، وإن الله ربى وربكم فاعبدوه وحده ولا تشركوا معه غيره ، هذا الذي ذكرت لكم من التوحيد صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ لا يضل سالكه ولا يزيغ متبعه.

(٣٣٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٣٣
قال تعالى : فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، تنبيها على سوء صنيعهم ، بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشا للاختلاف ، فإن ما حكى من مقالات عيسى عليه السّلام ، مع كونها نصوصا قاطعة فى كونه عبده تعالى ورسوله ، قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط ، وفرّق النصارى ، فقالت النسطورية : هو ابن الله ، وقالت اليعقوبية : هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء ، وقالت الملكانية : هو ثالث ثلاثة. فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وهم : المختلفون فيه بأنواع الضلالات. وأظهر الموصول فى موضع الإضمار إيذانا بكفرهم جميعا ، وإشعارا بعلّيّة الحكم ، مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ أي : ويل لهم من شهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة ، أو : من وقت شهوده أو مكانه ، أو من شهادة اليوم عليهم ، وهو أن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء - عليهم السلام - وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ، بالكفر والفسوق.
أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ أي : ما أسمعهم وما أبصرهم ، تعجب من حدة سمعهم وإبصارهم يومئذ. والمعنى : أن أسماعهم وأبصارهم يَوْمَ يَأْتُونَنا للحساب والجزاء جدير أن يتعجب منها ، بعد أن كانوا فى الدنيا صما عميا. أو :
ما أسمعهم وأطوعهم لما أبصروا من الهدى ، ولكن لا ينفعهم يومئذ مع ضلالهم عنه اليوم ، فقد سمعوا

وأبصروا ، حين لم ينفعهم ذلك. قال الكلبي : لا أحد يوم القيامة أسمع منهم ولا أبصر ، حين يقول اللّه لعيسى : أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ «١». هـ. ويحتمل أن يكون أمر تهديد لا تعجب ، أي : أسمعهم وأبصرهم مواعيد ذلك اليوم ، وما يحيق بهم فيه ، فالجار والمجرور ، على الأول ، فى موضع رفع ، وعلى الثاني : نصب. لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ أي : فى الدنيا ، فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : لا يدرك غايته ، حيث غفلوا عن الاستماع والنظر بالكلية. ووضع الظالمين موضع الضمير للإيذان بأنهم فى ذلك ظالمون لأنفسهم حيث تركوا النظر.

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ يوم يتحسر الناس قاطبة ، أما المسيء فعلى إساءته ، وأما المحسن فعلى قلة إحسانه ، إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ أي : فرغ من يوم الحساب ، وتميز الفريقان ، إلى الجنة وإلى النار.

روى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سئل عن ذلك ، فقال : «حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح ، فيذبح ، والفريقان ينظرون ، فينادى يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ، وأهل النار غما إلى غمهم ، ثم قرأ صلى اللّه عليه وسلم : وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ، وأشار بيده إلى الدنيا» «٢» قال مقاتل : (لو لا ما قضى اللّه من تعميرهم فيها ، وخلودهم لماتوا حسرة حين رأوا ذلك). وَهُمْ فى

---

(١) الآية ١١٦ من سورة المائدة.

(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير ، باب : وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ). ومسلم فى (الجنة وصفة نعيمها ، باب : النار يدخلها الجبارون) ، من حديث أبى سعيد الخدري - رضى اللّه عنه - .

هذا اليوم فِي غَفْلَةٍ عما يراد بهم فى الآخرة ، وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ بهذا لاغترارهم ببهجة الدنيا ، فلا بد أن تنهد دعائمها ، وتمحى بهجتها ، ويفنى كل ما عليها ، قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها لا ينبغى لأحد غيرنا أن يكون له عليها وعليكم ملك ولا تصرف ، أو : إنا نحن نتوفى الأرض ومن عليها ، بالإفناء والإهلاك ، توفى الوارث لإرثه ، وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ يردون إلى الجزاء ، لا إلى غيرنا ، استقلالا أو اشتراكا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للعبد المعتنى بشأن نفسه أن يحصّن عقائده بالدلائل القاطعة ، والبراهين الساطعة ، على وفاق أهل السنّة ، ثم يجتهد فى صحبة أهل العرفان ، أهل الذوق والوجدان ، حتى يطلعوه على مقام الإحسان ، مقام أهل الشهود والعيان. فإذا فرط فى هذا ، لحقه الندم والحسرة ، فى يوم لا ينفع

فيه ذلك. فكل من تخلف عن مقام الذوق والوجدان فهو ظالم لنفسه باخس لها ، يلحقه شيء من الخسران ، ولا بد أن تبقى فيه بقية من الضلال ، حيث فرط عن اللحوق بطريق الرجال ، قال تعالى : (لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ).

(وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ) أي : يوم يرفع المقربون ويسقط المدعون. فأهل الذوق والوجدان حصل لهم اللقاء فى هذه الدار ، ثم استمر لهم فى دار القرار. روى أن الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه قال يوما بين يدى أستاذه :

(اللهم اغفر لى يوم لقائك). فقال له شيخه - القطب ابن مشيش - رضى اللّه عنهما : هو أقرب إليك من ليلك ونهارك ، ولكن الظلم أوجب الضلال ، وسبق القضاء حكم بالزوال عن درجة الأنس ومنازل الوصال ، وللظالم يوم لا يرتاب فيه ولا يخاتل ، والسابق قد وصل فى الحال ، «أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين». هـ. كلامه رضي اللّه عنه.

ثم استتبع بذكر قصص الأنبياء ، تتمة للرد على أهل الشرك ، بأن الملل كلها متفقة على إبطاله ، وقدّم الخليل لأنه إمام أهل التوحيد ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٤١ الى ٤٥]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (٤١) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (٤٢) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (٤٣) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (٤٤) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (٤٥)

قلت : (إِذْ قالَ)

: بدل اشتمال من (إِبْراهِيمَ) ، وما بينهما : اعتراض ، أو متعلق بكان.

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ القرآن أو السورة ، إِبْراهِيمَ أي : أتل على الناس نبأه وبلغه إياهم ، كقوله : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ «١» لأنهم ينتسبون إليه عليه السّلام ، فلعلهم باستماع قصته يقلعون عما هم عليه من الشرك والعصيان. إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً ملازما للصدق فى كل ما يأتى ويذر ، أو كثير التصديق لكثرة ما صدق به من غيوب اللّه تعالى وآياته وكتبه ورسله ، فالصدّيق مبالغة فى الصدق ، يقال : كل من صدق بتوحيد اللّه وأنبيائه وفرائضه ، وعمل بما صدق به فهو صدّيق ، وبذلك سمى أبو بكر الصدّيق ، وسيأتى فى الإشارة تحقيقه عند الصوفية ، إن شاء اللّه.

والجملة : استئناف مسوق لتعليل موجب الأمر فإن وصفه عليه السّلام بذلك من دواعى ذكره ، وكان أيضا نَبِيًّا ، أي : كان جامعا بين الصديقية والنبوة ، إذ كل نبى صدّيق ، ولا عكس. ولم يقل : نبيا صديقا لئلا يتوهم تخصيص الصديقية بالنبوة.

إِذْ قالَ لِأَبِيهِ

آزر ، متلطفا فى الدعوة مستميلا له : يا أَبَتِ

، التاء بدل من ياء الإضافة ، أي : يا أبى ، لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ

ثناءك عليه حين تعبده ، ولا جؤارك إليه حين تدعوه ، وَلا يُبْصِرُ

خضوعك وخشوعك بين يديه ، أو : لا يسمع ولا يبصر شيئا من المسموعات والمبصرات ، فيدخل فى ذلك ما ذكر دخولا أوليا ، وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً

أي : لا يقدر أن ينفعك بشيء فى طلب نفع أو دفع ضرر.

انظر لقد سلك عليه السّلام فى دعوته وموعظته أحسن منهاج وأقوم سبيل ، واحتج عليه بأبدع احتجاج ، بحسن أدب ، وخلق جميل ، لكن وقع ذلك لسائر ركب متن المكابرة والعناد ، وانتكب بالكلية عن محجة الصواب والرشاد ، أي :

فإنّ من كان بهذه النقائص يأبى من له عقل التمييز من الركون إليه ، فضلا عن عبادته التي هى أقصى غاية التعظيم ، فإنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام ، الخالق الرازق ، المحيي المميت ، المثيب المعاقب ، والشيء لو كان مميزا سميعا بصيرا قادرا على النفع والضر ، لكنه ممكن ، لاستنكف العقل السليم عن عبادته ، فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر.

ثم دعاه إلى اتباعه لأنه على المنهاج القويم ، مصدّرا للدعوة بما مرّ من الاستعطاف والاستمالة ، حيث قال :

يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ ، لم يسم أباه بالجهل المفرط ، وإن كان فى أقصاه ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، وإن كان فى أعلاه ، بل أبرز نفسه فى صورة رفيق له ، أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق ،

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة الشعراء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٣٦

فاستماله برفق ، حيث قال : فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا أي : مستقيما موصلا إلى أسمى المطالب ، منجيا من الضلال المؤدى إلى مهاوى الردى والمعاطب.

ثم ثبّطه عما كان عليه من عبادة الأصنام ، فقال : يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ ، فإن عبادتك للأصنام عبادة له ، إذ هو الذي يسولها لك ويغريك عليها ، ثم علل نهيه فقال : إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا ، فهو تعليل لموجب النهى ، وتأكيد له ببيان أنه مستعص على ربك ، الذي أنعم عليك بفنون النعم ، وسينتقم منه فكيف تعبده؟.

والإظهار فى موضع الإضمار لزيادة التقرير ، والاقتصار على ذكر عصيانه بترك السجود من بين سائر جناياته لأنه ملاكها ، أو لأنه نتيجة معاداته لآدم وذريته ، فتذكيره به داع لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته. والتعرض لعنوان الرحمانية لإظهار كمال شناعة عصيانه.

وقوله : يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان ، وهو اقترانه معه فى الهوان الفظيع. و(مِنَ الرَّحْمنِ) : صفة لعذاب ، أي : عذاب واقع من الرحمن ، وإظهار (الرَّحْمنِ) للإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب ، كما فى قوله تعالى : ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ «١» ، فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا أي : فإذا قرنت معه فى العذاب تكون قرينا له فى اللعن المخلد. فهذه موعظة الخليل لأبيه ، وقد استعمل معه الأدب من خمسة أوجه :

الأول : ندائه : بيا أبت ، ولم يقل يا آزر ، أو يا أبى.

الثاني : قوله : (ما لا يَسْمَعُ ...)

إلخ ، ولم يقل : لم تعبد الخشب والحجر.

الثالث : قوله : (إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ) ، ولم يقل له : أنك جاهل ضال.

الرابع : قوله : (إِنِّي أَخافُ) ، حيث عبّر له بالخوف ولم يجزم له بالعذاب.

الخامس : فى قوله : (أَنْ يَمَسَّكَ) ، حيث عبّر بالمس ولم يعبر باللحوق أو النزول. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد جمع الحق تبارك وتعالى لخليله مقام الصدّيقية والنبوة مع الرسالة والخلة ، وقدّم الصديقية لتقدمها فى الوجود فى حال الترقي ، فالصديقية تلى مرتبة النبوة ، كما تقدم فى سورة النساء. فالصدّيق عند الصوفية هو الذي يعظم صدقه وتصديقه ، فيصدّق بوجود الحق وبمواعده ، حتى يكون ذلك نصب عينيه ، من غير تردد ولا تلجلج ، ولا توقف على آية ولا دليل. ثم يبذل مهجته وماله فى مرضاة مولاه ، كما فعل الخليل ، حيث قدم

---

(١) الآية ٦ من سورة الانفطار.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٣٧

بدنه للنيران وطعامه للضيفان وولده للقربان. وكما فعل الصدّيق ، حيث واسى النبي صلى اللّه عليه وسلم بنفسه فى الغار ، وخرج عن ماله خمس مرار. وكما فعل الغزالي حيث قدم نفسه للخراب ، حين اتصل بالشيخ وخرج عن ماله وجاهه فى طلب مولاه. ، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه : فى حقه : «إنا لنشهد له بالصدّيقية العظمى» ، وناهيك بمن شهد له الشاذلى بالصدّيقية.

ومن أوصاف الصدّيق أنه لا يتعجب من شيء من خوارق العادة ، مما تبرزه القدرة الأزلية ، ولا يتعاظم شيئا ولا يستغربه ، ولذلك وصف الحق تعالى مريم بالصديقية دون سارة ، حيث تعجبت ، وقالت : أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ «١» وأما مريم فإنما سألت عن وجه ذلك ، هل يكون بنكاح أم لا ، واللّه تعالى أعلم.

وفى الآية إشارة إلى حسن الملاطفة فى الوعظ والتذكير ، لا سيما لمن كان معظما كالوالدين ، أو كبيرا فى نفسه.

فينبغي لمن يذكره أن يأخذه بملاطفة وسياسة ، فيقر له المقام الذي أقامه اللّه تعالى فيه ، ثم يذكره بما يناسبه فى ذلك المقام ، ويشوقه إلى مقام أحسن منه ، وأما إن أنكر له مقامه من أول مرة ، فإنه يفرّ عنه ولم يستمع إلى وعظه ، كما هو مجرب. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر جواب أبيه له ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٤٦ الى ٤٨]

قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)

قلت : هذا استئناف بياني ، مبنى على سؤال نشأ عن صدر الكلام ، كأنه قيل : فماذا قال أبوه عند ما سمع هذه النصائح الواجبة القبول؟ فقال مصرا على عناده : أراغب ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : قالَ له أبوه فى جوابه : أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي أي : أمعرض ومنصرف أنت عنها فوجّه الإنكار إلى نفس الرغبة ، مع ضرب من التعجب ، كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل ، فضلا عن ترغيب الغير عنها ، ثم هدده فقال : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ عن وعظك لَأَرْجُمَنَّكَ بالحجارة ، أي : واللّه لئن لم تنته عما أنت عليه من النهى عن عبادتها لأرجمنك بالحجر ، وقيل باللسان ، وَاهْجُرْنِي أي : واتركني مَلِيًّا أي : زمنا طويلا ، أو ما دام الأبد ، ويسمى الليل والنهار ملوان ، وهو عطف على محذوف ، أي : احذرنى واهجرني.

---

(١) الآية ٧٢ من سورة هود.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٣٨
قالَ له إبراهيم عليه السّلام : سَلامٌ عَلَيْكَ منى ، لا أصيبك بمكروه ، وهو توديع ومتاركة على طريق مقابلة السيئة بالحسنة ، أي : لا أشافهك بما يؤذيك ، ولكن سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي أي : أستدعيه أن يغفر لك. وقد وفى عليه السّلام بقوله فى سورة الشعراء : وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ «١». أو : بأن يوفقك للتوبة ويهديك للإيمان. والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لا ريب فى جوازه ، وإنما المحظور استدعاء المغفرة مع بيان شقائه بالوحى ، وأما الاستغفار له بعد موته فالعقل لا يحليه. ولذلك قال صلى اللّه عليه وسلم لعمه أبى طالب : «لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنك». ثم نهاه عنه كما تقدم فى التوبة. فالنهى من طريق السمع ، ولا اشتباه أن هذا الوعد من إبراهيم ، وكذا قوله : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ «٢» وقوله : وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ «٣» إنما كان قبل انقطاع رجائه من إيمانه ، بدليل قوله : فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ «٤».

وقوله تعالى : إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا أي : بليغا فى البر والألطاف ، رحيما بي فى أمورى ، قد عوّدنى الإجابة. أو عالما بي يستجيب لى إن دعوته ، وفى القاموس : حفى كرضى ، حفاوة. ثم قال : واحتفا : بالغ فى إكرامه وأظهر السّرور والفرح به ، وأكثر السؤال عن أحواله ، فهو حاف وحفي. هـ.

وَأَعْتَزِلُكُمْ أي : أتباعد عنك وعن قومك ، وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ بالمهاجرة بديني ، حيث لم تؤثر فيكم نصائحى ، وَأَدْعُوا رَبِّي : أعبده وحده ، أو أدعوه بطلب المغفرة لك - أي قبل النهى - أو : أدعوه بطلب الولد ، كقوله : رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ «٥» ، عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا أي : عسى ألا أشقى بعبادته ، أو : لا أخيب فى طلبه ، كما شقيتم أنتم فى عبادة آلهتكم وخبتم. ففيه تعريض بهم ، وفى تصدير الكلام بعسى من إظهار التواضع وحسن الأدب ، والتنبيه على أن الإجابة من طريق الفضل والكرم ، لا من طريق الوجوب ، وأن العبرة بالخاتمة والسعادة ، وفى ذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير ما لا يخفى.

الإشارة : انظر كيف رفض آزر من رغب عن آلهته ، وإن كان أقرب الناس إليه ، فكيف بك أيها المؤمن ألّا ترفض من يرغب عن إلهك ويعبد معه غيره ، أو يجحد نبيه ورسوله ، بل الواجب عليك أن ترفض كل ما يشغلك عنه ، غيرة منك على محبوبك ، وإذا نظرت بعين الحقيقة لم تجد الغيرة إلا على الحق ، إذ ليس فى الوجود إلا الحق ، وكل ما سواه باطل على التحقيق.

---

(١) الآية ٨٦ من سورة الشعراء.

(٢) فى الآية ٤ من سورة الممتحنة.

(٣) من الآية ٨٦ من سورة الشعراء.

(٤) الآية ١١٤ من سورة التوبة.

(٥) الآية ١٠٠ من سورة الصافات.

فمن اعتزل كل ما سوى اللّه ، وأفرد وجهته إلى مولاه ، لم يشق فى مطلبه ومسعاه ، بل يطلعه اللّه على أسرار ذاته ، وأنوار صفاته ، حتى لا يرى فى الوجود إلا الواحد الأحد الفرد الصمد. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر نتيجة الانفراد عمن يصد عن اللّه ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٤٩ الى ٥٠]

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)

قلت : (وَ كُلًّا) : مفعول أول لجعلنا ، و(عَلِيًّا) : حال من اللسان.

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ أي : اعتزل إبراهيم قومه وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ بأن خرج من «كوثى» بأرض العراق ، مهاجرا إلى الشام واستقر بها ، وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ ولده وَيَعْقُوبَ حفيده ، بعد أن وهب له إسماعيل من أمته هاجر ، التي وهبت لزوجه سارة ، ثم وهبتها له ، فولد له منها إسماعيل ، ولما حملت هاجر بإسماعيل غارت منها سارة ، فخرج بها مع ولدها إسماعيل حتى أنزلهما مكة ، فكان سبب عمارتها. ثم حملت سارة بإسحاق ، ثم نشأ عنه يعقوب ، وإنما خصمها بالذكر لأنهما كانا معه فى بلده ، وإسحاق كان متصلا به يسعى معه فى مآربه ، فكانت النعمة بهما أعظم.

ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله هاهنا لبيان كمال عظم النعمة التي أعطاها اللّه تعالى إياه ، فى مقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقارب ، فإنهما شجرة الأنبياء ، لهما أولاد وأحفاد ، لكل واحد منهم شأن خطير وعدد كثير.

وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا أي : وكل واحد منهما أو منهم جعلناه نبيا ورسولا.

وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا هى النبوة ، وذكرها بعد ذكر جعلهم أنبياء للإيذان بأنها من باب الرحمة والفضل. وقيل : الرحمة : المال والأولاد ، وما بسط لهم من سعة الرزق ، وقيل : إنزال الكتاب ، والأظهر أنها عامة لكل خير دينى ودنيوى. وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا : رفيعا فى أهل الأديان ، فكل أهل دين يتلونهم ، ويثنون عليهم ، ويفتخرون بهم استجابة لدعوته بقوله : وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ «١».

والمراد باللسان : ما يوجد به الكلام فى لسان العرب ولغتهم ، وإضافته إلى الصدق ، ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء لما يثنون عليهم ، وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار ، وتبدل الدول ، وتحول الملل والنحل. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٨٤ من سورة الشعراء. [.....]

الإشارة : كل من اعتزل عن الخلق وانفرد بالملك الحق ، طلبا فى الوصول إلى مشاهدة الحق ، لا بد أن تفيض عليه المواهب القدسية والأسرار الوهبية والعلوم اللدنية ، وهى نتائج فكرة القلوب الصافية ، وفى الحكم : «ما نفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة». قال الجنيد رضي اللّه عنه : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه : (ثمار العزلة : الظفر بمواهب المنة ، وهى أربعة : كشف الغطاء ، وتنزل الرحمة ، وتحقق المحبة ، ولسان الصدق فى الكلمة ، قال اللّه تعالى : فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ ... الآية). وقال بعض الحكماء : من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راءاهم ، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا ، فهلك كما هلكوا.

وقال بعض الصوفية : قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى اللّه : كيف الطريق إلى التحقيق؟ قال : لا تنظر إلى الخلق ، فإن النظر إليهم ظلمة ، قلت : لا بد لى ، قال : لا تسمع كلامهم ، فإن كلامهم قسوة ، قلت : لا بد لى ، قال : لا تعاملهم ، فإن معاملتهم خسران ووحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم ، لا بد لى من معاملتهم ، قال : لا تسكن إليهم ، فإن السكون إليهم هلكة ، قلت : هذا لعله يكون ، قال : يا هذا أتنظر إلى اللاعبين ، وتسمع كلام الجاهلين ، وتعامل البطالين ، وتسكن إلى الهلكى ، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع اللّه؟! هيهات .. هذا لا يكون أبدا ، ثم غاب عنى.

وقال القشيري رضي اللّه عنه : فأرباب المجاهدات ، إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الردية لم ينظروا إلى المستحسنات - أي : من الدنيا - . قال : وهذا أصل كبير لهم فى المجاهدات فى أحوال الرياضة. هـ. وقال فى «القوت» : ولا يكون المريد صادقا حتى يجد فى الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده فى العلانية ، وحتى يكون أنسه فى الواحدة ، وروحه فى الخلوة ، وأحسن أعماله فى السر. هـ.

قلت : العزلة عن الخلق والفرار منهم شرط فى بداية المريد ، فإذا تمكن من الشهود ، وأنس قلبه

بالملك الودود ، واتصل بحلاوة المعاني ، ينبغى له أن يختلط بالخلق ويربى فكرته لأنهم حينئذ يزيدون فى معرفته ويتسع بهم لأنه يراهم حينئذ أنوارا من تجليات الحق ، ونوارا يرعى فيهم ، فيجتنى حلاوة الشهود ، وفى ذلك يقول شيخ شيوخنا المجذوب :

الخلق نوار وأنا رعيت فيهم هم الحجاب الأكبر والمدخل فيهم.

وفى مقطعات الششترى :

عين الزحام هم الوصول لحيّنا.

وباللّه التوفيق.

(٣٤٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٤١

ثم ذكر قصة موسى عليه السّلام ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٥١ الى ٥٣]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥١) وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (٥٣)

قلت : «نَجِيًّا» : حال من أحد الضميرين فى (نادَيْناهُ) أو (قَرَّبْناهُ) ، وهو أحسن. و«هارُونَ» : عطف بيان.

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى ، قدّم ذكره على ذكر إسماعيل لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب لأنه من نسله ، إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً «١» : موحدا ، أخلص عبادته من الشرك والرياء ، وأسلم وجهه للّه تعالى ، وأخلص نفسه عما سواه. وقرئ بالفتح ، على أن اللّه تعالى أخلصه من الدنس. قال القشيري أي : خالصا للّه ، لم يكن لغيره بوجه. ثم قال : ولم يغض فى اللّه على شىء. هـ.

وَكانَ رَسُولًا نَبِيًّا أرسله اللّه تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه ، ولذلك قدّم رسولا مع كونه أخص وأعلى ، وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ، الطور : جبل بين مصر ومدين ، أي : ناديناه من ناحيته اليمنى ، وهى التي تلى يمين موسى عليه السّلام ، فكانت الشجرة فى جانب الجبل عن يمين موسى ، أو من أيمن ، أي : من جانبه الميمون ، ومعنى ندائه منه : أنه سمع الكلام من تلك الناحية ، وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا أي : مناجيا لنا نكلمه بلا واسطة ، فالتقريب :

تقريب تكرمة وتشريف ، مثّل حاله عليه السّلام بحال من قرّبه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته.

وقيل : (نَجِيًّا) من النجو ، وهو العلو والارتفاع ، أي : رفعناه من سماء إلى سماء ، حتى سمع صريف القلم يكتب له فى الألواح.

وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أي : من أجل رحمتنا ورأفتنا به ، أو من بعض رحمتنا أَخاهُ هارُونَ ، أي : وهبنا له مؤازرة أخيه ومعاضدته ، إجابة لدعوته : وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ، هارُونَ أَخِي «٢» لا نفسه لأنه كان أكبر منه ، وجد قبله ، حال كونه نَبِيًّا : رسولا مشركا معه فى الرسالة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كما وصف الحق تعالى خليله بالصديقية وصف كليمه بالإخلاص ، وكلاهما شرط فى حصول سر الخصوصية ، سواء كانت خصوصية النبوة أو الولاية ، فمن لا تصديق عنده لا سير له ، ومن لا إخلاص له لا وصول له. وحقيقة الإخلاص : إخراج الخلق من معاملة الحق ، وهى ثلاث طبقات سفلى ، ووسطى ، وعليا.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف (مخلصا) بفتح اللام.

(٢) الآيتان ٢ - ٣ من سورة طه.

فالسفلى : أن يفعل العبادة للّه تعالى ، طالبا لعوض دنيوى ، كسعة الأرزاق ، وحفظ الأموال والبدن ، فهذا إخلاص العوام ، وإنما كان إخلاصا لأنهم لم يلاحظوا مخلوقا فى عملهم.

والوسطى : أن يعبد اللّه مخلصا ، طالبا لعوض أخروى ، كالحور والقصور.

والعليا : أن يفعل العبادة قياما برسم العبودية ، وأدبا مع عظمة الربوبية ، غير ملتفت لجنة ولا نار ، ولا دنيا ولا آخرة ، مع تعظيم نعيم الجنان ، لأنه محل اتصال الرؤية كما قال ابن الفارض رضي اللّه عنه :

ليس شوقى من الجنان نعيما غير أنى أريدها لأراك

فإذا تحقق للعبد مقام الإخلاص الكامل ، صار مقربا نجيا فى محل المشاهدة والمكالمة. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر نبيه إسماعيل عليه السّلام فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٥٤ الى ٥٥]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥٤) وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ ، فصل ذكره عن أبيه وأخيه لإبراز كمال الاعتناء بأمره ، لإيراده مستقلا بترجمته ، إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ ، هذا تعليل لموجب الأمر بذكره. وإيراده عليه السّلام بهذا الوصف لكمال شهرته به.

روى أنه واعد رجلا أن يلقاه في موضع ، فجاء إسماعيل ، وانتظر الرجل يومه وليلته – وقيل : ثلاثة أيام – فلما كان في اليوم الآخر ، جاء الرجل ، فقال له إسماعيل : ما زلت هنا من أمس. وقال الكلبي : انتظره سنة ، وهو بعيد.

قال ابن عطية : وقد فعل مثل هذا نبينا صلى اللّه عليه وسلم قبل مبعثه ، ذكره النقاش وأخرجه الترمذي وغيره ، وذلك في مبايعة وتجارة «١» هـ. وقال القشيري : وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه ، فصبر على ذلك ، إلى أن ظهر الفداء ، وصدق الوعد دلالة حفظ العهد. هـ.

وقال ابن عطاء : وعد لأبيه من نفسه الصبر ، فوفى به ، في قوله : سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ «٢». هـ. وهذا مبنى على أنه الذبيح ، وسيأتى تحقيق المسألة إن شاء اللّه «٣».

---

(١) أخرج أبو داود في (الأدب ، باب في العدة) عن عبد اللّه بن أبى الحمساء ، قال : بايعت النبي صلى اللّه عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية ، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ، فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث ، فجئت فإذا هو في مكانه ، فقال : «يافتى ، لقد شققت على ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك».

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الصافات.

(٣) سبق التعليق على هذه المسألة عند تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

وَكانَ رَسُولًا نَبِيًّا أي : رسولا لجرهم ومن والاهم ، مخبرا لهم بغيب الوحى ، وكان أولاده على شريعته ، حتى غيرها عمرو بن لحى الخزاعي ، فأدخل الأصنام مكة. فمازالت تعبد حتى محاها نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم بشريعته المطهرة.

وَكانَ إسماعيل يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ، قدّم الأهل اشتغالا بالأهم ، وهو أن يقبل بالتكميل على نفسه ، ومن هو أقرب الناس إليه ، قال تعالى : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ «١» ، وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ «٢» ، قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً «٣» ، وقصد إلى تكميل الكل بتكميلهم لأنهم قدوة يؤتسى بهم.

وقيل : أهله : أمته لأن الأنبياء – عليهم السلام – آباء الأمم. وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا لاتصافه بالنعوت الجليلة التي من جملتها ما ذكر من الخصال الحميدة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد وصف الحق – جل جلاله – نبيه إسماعيل بثلاث خصال ، بها كان عند ربه مرضيا ، فمن اتصف بها كان مرضيا مقربا : الوفاء بالوعد ، والصدق في الحديث لأنه مستلزم له ، وأمر الناس

بالخير. أما الوفاء بالعهد فهو من شيم الأبرار ، قد مدح اللّه تعالى أهله ، ورغّب فيه وأمر به ، قال تعالى : وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا «٤». وقال تعالى : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ «٥» فإخلاف الوعد من علامة النفاق ، قال صلى اللّه عليه وسلم :

«آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان» وخلف الوعد إنما يضر إذا كان نيته ذلك عند عقده ، أو فرط فيه ، وأما إن كان نيته الوفاء ، ثم غلبته المقادير ، فلا يضر ، لا سيما فى حق أهل الفناء ، فإنهم لا حكم لهم على أنفسهم فى عقد ولا حل ، بل هم مفعول بهم ، زمامهم بيد غيرهم ، كل ساعة ينظرون ما يفعل اللّه بهم ، فمثل هؤلاء لا ميزان عليهم فى عقد ولا حل. فمثلهم مع الحق كمثل الأطفال المحجر عليهم فى التصرف ، ولذلك قالوا : (الصوفية أطفال فى تربية الحق تعالى). فإياك أن تطعن على أولياء اللّه إذا رأيت منهم شيئا من ذلك ، والتمس أحسن المخارج ، وهو ما ذكرته لك ، فإنه عن تجربة وذوق. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر نبيه إدريس عليه السّلام ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٥٦ الى ٥٧]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (٥٧)

---

(١) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

(٢) الآية ١٠٢ من سورة طه.

(٣) الآية ٦ من سورة التحريم.

(٤) الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

(٥) الآية ٩١ من سورة النحل.

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ وهو سبط شيث ، وجدّ أبى نوح ، فإنه نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ ، وهو إدريس عليه السّلام ، واشتقاقه من الدرس لكثرة دراسته لما أوحى إليه ، وكثرة ذكره للّه تعالى.

روى أنه كان خياطا فكان لا يدخل الإبرة ولا يخرجها إلا بذكر اللّه. وروى أنه جاء إليه الشيطان يفتنه بفستق ، فقال له : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى هذه الفستقة؟ فقال له عليه السّلام : (اللّه قادر على أن يدخل الدنيا كلها فى سم هذه الإبرة ، ونخس عينه) ذكره السنوسى فى شرح مقرأه. قال ابن

وهب : إنه دعا قومه إلى لا إله إلا اللّه ، فامتنعوا فهلكوا. وفى حديث أبى ذر : أنه رسول ، وجمع بينه وبين حديث الشفاعة ، وقولهم لنوح : إنك أول رسول ، بأن تكون رسالته لقومه خاصة ، كهود وصالح ، وكذا آدم وشيث ، فإنه أرسل لبنيه لتعليم الشرائع والإيمان ، ولم يكونوا كفارا ، وخلفه فى ذلك شيث ، قال المحشى الفاسى : والأظهر عندى فى نوح أنه أول رسول من أهل العزم ، لا مطلقا.

قال ابن عطية : والأشهر أن إدريس عليه السّلام لم يرسل ، وإنما هو نبى فقط ، وذهب إلى ذلك ابن بطال ، ليسلم من المعارضة ، وهي مدفوعة بما ذكرنا. هـ. فالمشهور أن إدريس رسول إلى قومه. روى أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة ، وأنه أول من خط بالقلم ، ونظر فى علم النجوم والحساب ، وخاط الثياب. قيل : وهو أول نبى بعث إلى أهل الأرض.

قال تعالى فى وصفه : إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا : خبران لكان ، والثاني مخصص للأول إذ ليس كل صدّيق نبى. وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا ، هو شرف النبوة والزلفى عند اللّه تعالى. وقيل : علو الرتبة بالذكر الجميل فى الدنيا ، كما قال تعالى فى حق نبينا : وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ «١» ، وقيل : الجنة ، وقيل : السماء الرابعة ، وهو الصحيح.

روى عن كعب وغيره فى سبب رفعه أنه مشى ذات يوم فى حاجته ، فأصابه وهج الشمس وحرها ، فقال : يا رب أنا مشيت يوما ، فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحدا! ، اللهمّ خفّف عنه من ثقلها ، واحمل عنه حرها ، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف ، فقال : يا رب كلفتنى بحمل الشمس ، فما الذي قضيت فيه؟ فقال : إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرّها فأجبته ، قال : يا رب اجعل بينى وبينه خلّة ، فأذن له ، حتى أتى إدريس ، فقال له إدريس : أخبرت أنك أكرم الملائكة عند ملك الموت ، فاشفع لى ليؤخر

---

(١) الآية ٤ من سورة الشرح.

أجلى ، لأزداد شكرا وعبادة ، فقال له الملك : لا يؤخر اللّه نفسا إذا جاء أجلها ، فقال : قد علمت ذلك ، ولكنه أطيب لنفسى ، قال : نعم ، ثم حمله ملك الشمس على جناحه فرفعه إلى السماء «١». روى أنه مات هناك وردت إليه روحه بعد ساعة ، فهو فى السماء الرابعة حى. وهذه قصص اللّه أعلم بصحتها. وباللّه التوفيق.

الإشارة : ارتفاع المكان والشأن يكون على قدر صفاء الجنان ، والإقبال على الكريم المنان ، فبقدر

التوجه والإقبال يكون الارتفاع والوصال.

بقدر الكد تكسب المعالي ومن رام العلا سهر الليالى

أتبغي العز ثم تنام ليلا يغوص البحر من طلب اللآلى

قال بعضهم : من عامل اللّه على بساط الأنس : رفع ، لا محالة ، إلى حضرة القدس. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر مدحهم فى الجملة ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : آية ٥٨]

أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا (٥٨)

قلت : «أُولئِكَ» : مبتدأ ، و«الَّذِينَ» : خبره ، أو «الَّذِينَ» : صفته ، و«إِذا تُتْلى » : خبره. والإشارة إلى المذكورين فى السورة ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل ، و(مِنَ النَّبِيِّينَ) : بيان للموصول ، و(مِنْ ذُرِّيَّةِ) :

بدل منه بإعادة الجار ، و(سُجَّداً وَبُكِيًّا) : حالان من الواو ، و(بُكِيًّا) : جمع باك ، كمساجد وسجود ، وأصله : بكوى ، فاجتمع الواو والياء ، وسبق إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت فى الياء ، وحركت الكاف بالكسر المجانس للياء.

يقول الحق جل جلاله : أُولئِكَ المذكورون فى السورة الكريمة هم الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بفنون النعم الدينية والدنيوية ، مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ، وهو إدريس عليه السّلام ونوح ، وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ أي : ومن ذرية من حملناهم فى السفينة ، وهو إبراهيم لأنه من ذرية سام بن نوح ، وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ ، وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وقوله : وَإِسْرائِيلَ أي : ومن ذرية إسرائيل ، وهو يعقوب ، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية. وَمِمَّنْ هَدَيْنا أي : ومن جملة من هديناهم إلى الحق واجتبيناهم إلى النبوة من غير هؤلاء.

---

(١) عقّب ابن كثير على هذه الرواية وأمثالها بأن فيها غرابة ونكارة ، وهى من أخبار كعب الأحبار من الإسرائيليات.

إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا ، هذا استئناف لبيان خشيتهم من اللّه تعالى وإخباتهم له ، مع مالهم من علو الرتبة وسمو الطبقة فى شرف النسب ، وكمال النفس والزلفى من اللّه عز وجل ،

أي :

إذا تتلى عليهم ، آيات الرحمن ، إما عند نزولها عليهم ، أو بسماعها من غيرهم ، لحديث : «أحب أن أسمعه من غيرى». ثم بكى صلى اللّه عليه وسلم عند قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً «١» فكان الأنبياء عليهم السلام مثله ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا ساجدين وباكين. عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا» «٢». وعن عمر رضي اللّه عنه أنه قرأ سورة مريم ، فسجد فيها ، فقال : (هذا السجود ، فأين البكاء)؟

قال بعضهم : ينبغى أن يدعو الساجد فى سجوده بما يليق بآيتها ، فهاهنا يقول : اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم ، المهديين الساجدين لك ، الباكين عند تلاوة آياتك. وفى الإسراء يقول : اللهم اجعلنى من الخاضعين لوجهك ، المسبحين بحمدك ، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك ، وهكذا. والذي ورد فى الخبر : يقول :

«سجد وجهى للذى خلقه وصوّره ، وشقّ سمعه وبصره ، بحوله وقوته ، اللهم اكتب لى بها أجرا ، وضع عنى بها وزرا ، واجعلها لى عندك ذخرا ، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود عليه السّلام». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد أثنى اللّه تعالى على هؤلاء السادات المنعم عليهم بكونهم إذا سمعوا كلام الحبيب خضعوا ورقّت قلوبهم ، وهو أول درجة المحبة ، وفوقه الفرح بكلام الحبيب من مكان قريب ، وفوقه الفرح بشهود المتكلم ، وهنا ينقطع البكاء لدخول صاحب هذا المقام جنة المعارف ، وليس فى الجنة بكاء.

وأيضا : من شأن القلب فى أول أمره الرطوبة ، يتأثر بالواردات والأحوال ، فإذا استمر عليها اشتد وصلب بحيث لا يؤثر فيه شىء من الواردات الإلهية. وفى هذا المعنى قال أبو بكر رضي اللّه عنه ، حين رأى قوما يبكون عند سماع القرآن : (كذلك كنا ثم قست القلوب) «٣» ، فعبّر عن تمكنه بالقسوة ، تواضعا واستتارا ، وإنما أثنى على هؤلاء السادات بهذه الخصلة لأنها سلّم لما فوقها. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٤١ من سورة النساء ، والحديث : أخرجه البخاري فى (التفسير - سورة النساء) ، ومسلم فى (الصلاة ، باب : فضل استماع القرآن) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه.

(٢) الحديث أخرجه بنحوه ابن ماجة فى (إقامة الصلاة ، باب فى حسن الصوت بالقرآن) من حديث سعد بن أبى وقاص. [.....]

(٣) قال الحافظ أبو نعيم : «.. عن أبى صالح : لما قدم أهل اليمن - زمان أبى بكر - وسمعوا القرآن ، جعلوا يبكون ، قال : فقال أبو بكر :

[هكذا كنا ، ثم قست القلوب]. قال الشيخ أبو نعيم رحمه الله : «ومعنى قوله : قست القلوب :

قويت ، واطمأنت بمعرفة الله تعالى.

أ. هـ. الحلية ، ج ١ ، ص ٣٣ - ٣٤ ويحتمل أن يكون المعنى : أنهم كانوا أرقاء القلوب بمشاهدتهم لحضرة النبي صلى اللّه عليه وسلم .. ثم طال الأمد .. فقست القلوب .. وهذا منه تواضع ، رضي اللّه عنه.

ثم ذكر أضدادهم ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٥٩ الى ٦٣]

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا (٦٣)

قلت : (جَنَّاتِ عَدْنٍ) : بدل من الجنة ، بدل بعض لاشتمالها عليها ، وما بينهما اعتراض ، أو نصب على المدح. و(إِلَّا سَلاماً) : منقطع ، أي : لكن يسمعون سلاما ، ويجوز اتصاله ، على أن المراد بالسلام الدعاء بالسلامة ، فإن أهل الجنة أغنياء عنه ، فهو داخل فى اللغو. و(بِالْغَيْبِ) : حال من عائد الموصول ، أي : وعدها ، أو من العباد ، و(مَأْتِيًّا) : أصله مأتوى ، فأبدل وأدغم كما تقدم.

يقول الحق جل جلاله : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ أي : جاء بعد أولئك الأكابر ، خَلْفٌ أي : عقب سوء ، يقال لعقب الخير «خَلَفٌ» بفتح اللام ، ولعقب الشر «خَلْفٌ» بسكون اللام ، أي : فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء ، أَضاعُوا الصَّلاةَ أي : تركوها وأخروها عن وقتها ، وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ من شرب الخمر ، واستحلال نكاح الأخت ، من الأب ، والانهماك فى فنون المعاصي ، وعن على رضي اللّه عنه : هم من بنى المشيد ، وركب المنضود ، ولبس المشهور. قلت : ولعل المنضود : السرج المرصعة بالجواهر والذهب. وقال مجاهد : هذا عند اقتراب الساعة ، وذهاب صالح أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ينزو بعضهم على بعض فى السكك والأزقة. هـ. فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا : شرا ، فكل شر عند العرب غى ، وكل خير رشاد. قال ابن عباس : الغيّ : واد فى جهنم ، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حرّه ، أعد للزانى المصرّ ، ولشارب الخمر المدمن ، ولأهل الرياء والعقوق والزور ، ولمن أدخلت على زوجها ولدا من غيره. هـ.

إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ، هذا يدل على أن الآية فى الكفار. فَأُولئِكَ المنعوتون بالتوبة والإيمان

والعمل الصالح ، يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بموجب الوعد المحتوم ، أو يدخلهم الله الجنة ، وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً : لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئا ، وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرهم ، ولا ينقص أجورهم ، إذا صححوا المعاملة مع ربهم.

(٣٤٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٤٨

جَنَّاتِ عَدْنٍ أي : إقامة ، لإقامة داخلها فيها على الأبد ، الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ أي : ملتبسين بالغيب عنها لم يروها ، وإنما آمنوا بها بمجرد الإخبار ، أو ملتبسة بالغيب ، أي : غائبة عنهم غير حاضرة. والتعرض لعنوان الرحمانية للإيذان بأن وعده وإنجازه لكمال سعة رحمته تعالى ، إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا يأتيه من وعد به لا محالة ، وقيل : هو مفعول بمعنى فاعل ، أي : آتيا لا محالة ، وقيل : مأتيا : منجزا ، من أتى إليه إحسانا ، أي : فعله.

لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً أي : فضول كلام لا طائل تحته ، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها. وفيه تنبيه على أن اللغو ينبغي للعبد أن يجتنبه فى هذه الدار ما أمكنه. وفى الحديث : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» «١». وهو عامّ فى الكلام وغيره. إِلَّا سَلاماً ، أي : لا يسمعون لغوا ، لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم ، أو تسليم بعضهم على بعض ، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا أي : على قدرهما فى الدنيا ، إذ ليس فى الجنة نهار ولا ليل ، بل ضوء ونور أبدا. قال القرطبي : ليلهم إرخاء الحجب وإغلاق الأبواب ، أي : ونهارهم رفع الحجب وفتح الأبواب.

قال القشيري : الآية ضرب مثل لما عهد فى الدنيا لأهل اليسار ، والقصد : أنهم أغنياء مياسير فى كل وقت. هـ.

وسيأتى عند قوله : يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ «٢» كيفية أرزاقهم.

قال تعالى : تِلْكَ الْجَنَّةُ : مبتدأ وخبر ، جىء بهذه الجملة لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها ، وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتها وعلو رتبتها ، أي : تلك الجنة التي وصفت بتلك الأوصاف العظيمة هى الَّتِي نُورِثُ أي : نورثها مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا للّه بطاعته واجتناب معاصيه ، أي : نديمها عليهم بتقواهم ، ونمتعهم بها ، كما يبقى عند الوارث مال مورثه يتمتع به ، والوراثة أقوى ما يستعمل فى التملك والاستحقاق من الألفاظ من حيث إنها لا يعقبها فسخ ولا استرجاع ولا إبطال.

وقيل : يرث المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار ، لو آمنوا وأطاعوا ، زيادة فى كرامتهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قوله تعالى : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ... الآية تنسحب على من كان أسلافه صالحين ،

فتنكب عن طريقهم ، فضيّع الدين ، وتكبر على ضعفاء المسلمين ، واتبع الحظوظ والشهوات ، وتعاطى الأمور العلويات ، فإن ضم إلى ذلك الافتخار بأسلافه ، أو بالجاه والمال ، كان أغرق فى الغى والضلال ، يصدق عليه قول القائل :

إن عاهدوك على الإحسان أو وعدوا خانوا العهود ولكن بعد ما حلفوا

بل يفخرون بأجداد لهم سلفت نعم الجدود ، ولكن بئس ما خلّفوا

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد باب ١١) ، وابن ماجة فى (الفتن ، باب : كف اللسان فى الفتنة) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) الآية ٧١ من سورة الزخرف.

(٣٤٨/٣)

إلا من تاب ورجع إلى ما كان عليه أسلافه ، من العلم النافع والعمل الصالح ، والتواضع للصالح والطالح ، فيرافقهم فى جنة الزخارف أو المعارف ، التي وعد الرحمن عباده المخصوصين بالغيب ، ثم صارت عندهم شهادة ، إنه كان وعده مأتيا ، لا يسمعون فيها لغوا لأن الحضرة مقدسة عن اللغو ، (إِلَّا سَلاماً) لسلامة صدورهم ، ولهم رزقهم فيها من العلوم والأسرار والمواهب ، فى كل ساعة وحين ، لا يرث هذه الجنة إلا من اتقى ما سوى اللّه ، وانقطع بكليته إلى مولاه. وباللّه التوفيق.

ولما أبطأ الوحي عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» فنزل «١» :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٦٤ الى ٦٥]

وَما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

قلت : وجه المناسبة لما قبله - واللّه أعلم - : أن الحق جل جلاله لما سرد قصص الأنبياء وما نشأ بعدهم ، وكان جبريل هو صاحب وحيهم الذي ينزل به عليهم ، ذكر هنا أن نزوله ليس باختياره ، فقال : وَما نَتَنَزَّلُ ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا لقول جبريل عليه السّلام : وَما نَتَنَزَّلُ عليك يا محمد إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ، وذلك حين أبطأ الوحى عنه صلى اللّه عليه وسلم ، لما سئل عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ، فلم يدر كيف يجيب ، ورجا أن يوحى إليه فيه ، فأبطا عليه أربعين يوما. قاله عكرمة. وقال مجاهد :

ثنتى عشرة ليلة ، أو خمس عشرة. فشقّ على النبي صلى اللّه عليه وسلم مشقة شديدة. وقال : يا جبريل قد اشتقت إليك ، فقال جبريل : إنى كنت أشوق ، ولكنى عبد مأمور ، إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست ، فأنزل الله هذه الآية وسورة الضحى «٢» ، والتنزل : النزول على مهل ، وقد يطلق على مطلق النزول ، والمعنى : وما نتنزل وقتا غبّ وقت «٣» إلا بأمر الله تعالى ، على ما تقتضيه حكمته.

وقيل : هو إخبار عن أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها مخاطبين بعضهم لبعض بطريق التبجح والابتهاج ، أي : ما نتنزل هذه الجنان إلا بأمر الله تعالى ولطفه ، وهو مالك الأمور كلها ، سالفها ومترقّبها وحاضرها ، فما وجدناه وما نجده هو من لطفه وفضله. هـ. قلت : ولا يخفى حينئذ مناسبته. ثم قال : لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ أي : وما نحن فيه من الأماكن والأزمنة ، فلا ننتقل من مكان إلى مكان ، ولا ننزل فى زمان دون زمان ، إلا بأمره ومشيئته ، وعن مقاتل : لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا من

---

(١) أخرجه البخاري فى (التفسير - سورة مريم) وفى (التوحيد ، باب وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ) من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري فى تفسيره (١٦/ ١٠٣) ، وعزاه ابن حجر فى الكافي الشافي لأبى نعيم فى الدلائل.

(٣) غب بمعنى بعد ، ومنه قولهم : غب سلام.

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

أمر الدنيا ، وَما خَلْفَنا من أمر الآخرة ، وَما بَيْنَ ذلِكَ مما بين النفختين ، وهو أربعين سنة. أو ما بين أيدينا بعد الموت ، وما خلفنا قبل أن يخلقنا ، وما بين ذلك مدة حياتنا ، أي : له علم ذلك كله ، وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا : تاركا لك ومهملا شأنك ، أو : ذاهلا عنك حتى ينسى أمر الوحي إليك لأنه محال ، يعني : أن عدم نزول جبريل لم يكن إلا لعدم الأمر به لحكمة بالغة فيه ، ولم يكن تركه تعالى لك إهمالا وتوديعا ، كما زعمت الكفرة.

وفي إعادة اسم الرب المضاف إلى ضميره صلى اللّه عليه وسلم من تشريفه والإشعار بعلية الحكم ما لا يخفى.

وقوله تعالى : رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فإن من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحته الغفلة والنسيان. والفاء في قوله : فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، من كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما. أو من كونه تعالى غير تارك له عليه السّلام ، أو غير ناس لأعمال العاملين ، والمعنى على الأول : فحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده ، أو حين عرفته تعالى لا ينساك ، أو : ينسى أعمال العاملين فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها ، ولا تحزن بإبطاء الوحي وهزء الكفرة ، فإنه يراقبك ويلطف بك في الدنيا والآخرة ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا أي : شبيها ونظيرا ، أو هل تعلم أحدا تسمى بهذا الاسم غير الله تعالى ، والتسمية تقتضى التسوية بين المتشابهين ، ولا مثل له ، لا موجودا ولا موهوما ، مع أن المشركين مع غلوهم في المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلا ، ولم يتجاسر أحد أن يسمى بهذا الاسم ، ولو تجاسر أحد لهلك.

وقيل : إن أحدا من الجبابرة أراد أن يسمى ولده بهذا الاسم ، فخسف به وبتلك البلدة. ذكره القشيري في التحبير. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما قاله جبريل عليه السّلام من كونه لا ينزل إلا بأمر ربه ليس خاصا به بل كل أحد لا حركة له ولا سكون إلا بالله وبمشيئته ، فلا يصدر عن أحد من عبيده قول ولا فعل ، ولا حركة ولا سكون ، إلا وقد سبق في علمه وقضائه كيف يكون ، فلا انتقال ولا نزول إلا بقدر سابق وتحريك لاحق «ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه». وقال الشاعر :

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن قسمت منيته بأرض فليس يموت فى أرض سواها
فراحة الإنسان أن يكون ابن وقته ، كل وقت ينظر ما يفعل اللّه به ، فبهذا ينجو من التعب ، ويتحقق له الأدب.
وباللّه التوفيق.
ثم ردّ على من أنكر البعث ، بعد أن ردّ على من اعتقد الشرك ، وبهما كفرت العرب ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٦٦ الى ٧٢]

وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (٦٧) فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا (٧٠)
وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (٧٢)

قلت : (أَ إِذا) : ظرف ، والعامل فيه محذوف ، أي : أأخرج إذا مت ، لا المتأخر عن اللام لأنه لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، إلا أن يرخص فى الظروف. واللام فى «لَسَوْفَ» ليست للتأكيد ، فإنه منكر ، وكيف يحقق ما ينكر ، وإنما كلامه حكاية لكلام النبي صلى اللّه عليه وسلم ، كأنه الذي قال : واللّه إن الإنسان إذا مات لسوف يخرج حيا ، فأنكر الكافر ذلك وحكى قوله ، فنزلت الآية على ذلك ، قاله الجرجاني : و(الشَّياطِينَ) : عطف على ضمير المنصوب ، أو مفعول معه.
و(جِثِيًّا) : حال من ضمير (لَنُحْضِرَنَّهُمْ) البارز ، أي : لنحضرنهم جاثين ، جمع جاث ، من جثى إذا قعد على ركبتيه ، وأصله : «جثوو» بواوين ، فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين ، فكسرت الثاء تخفيفا ، وانقلبت الواو الأولى ياء لانكسار ما قبلها ، فاجتمعت واو وياء ، وسبقت إحداهما بسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت الأولى فى الثانية ، ومن قرأ بكسر الجيم : فعلى الإتباع.
و«أَيُّهُمْ» : مبنى على الضم عند سيبويه ، لأنه موصول ، فحقه البناء كسائر الموصولات ، لكنه أعرب فى بعض التراكيب للزوم الإضافة ، فإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فقوى شبه الحرف فيه ، وهو منصوب المحل بلننزعن ، وقرئ منصوبا على الإعراب ، ومرفوعا عند الخليل وغيره بالابتداء ، وخبره : «أَشَدُّ» ، والجملة محكية ، والتقدير :

لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشد ... إلخ. وقال يونس : علق عنها الفعل وارتفعت بالابتداء ، و(عِتِيًّا) و(صِلِيًّا) أصلهما : عتوى وصلوى ، من عتى وصلى ، بالكسر والفتح ، فاعلا بما تقدم.

يقول الحق جل جلاله : وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أي : جنس الإنسان ، والمراد الكفرة ، وإسناد القول إلى الكل لوجود القول فيما بينهم ، وإن لم يقله الجميع ، كما يقال : بنو فلان قتلوا فلانا ، وإنما القاتل واحد ، وقيل : القائل : أبيّ بن خلف ، فإنه أخذ عظاما بالية ، ففتتها ، وقال : يزعم محمد أنا نبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذا الحال ، فنزلت.

أي : يقول بطريق الإنكار والاستبعاد : أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أي : أأبعث من الأرض بعد ما متّ وأخرج حيا؟ قال تعالى : أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ ، من الذّكر الذي يراد به التفكر ، ولذلك قرىء بالتشديد من

(٣٥١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٥٢

التذكير. والإظهار فى موضع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بأن الإنسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليها من شؤون التكوين ، فإذا ترك التفكر التحق بالبهائم ، فهلّا يذكر أصله! ، وهو أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ أي : من قبل الحالة التي فيها ، وهى حالة حياته ، وَلَمْ يَكُ شَيْئاً أي : والحال أنه لم يك شيئا أصلا ، وحيث خلقناه وهو فى تلك الحال فلأن نبعث الجمع بتفرقاته أولى وأظهر لأن الإعادة أسهل من البدء.

قال تعالى : فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ أي : لنجمعنهم بالسّوق إلى المحشر بعد ما أخرجتهم من الأرض.

وإقسامه سبحانه بربوبيته مضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام لتحقيق الأمر ، والإشعار بعلّيّته ، وتفخيم شأنه ، ورفع منزلته صلى اللّه عليه وسلم ، وفيه إثبات البعث بالطريق البرهاني على أبلغ وجه وآكده ، كأنه أمر واضح غنى عن التصريح به ، وإنما المحتاج إلى البيان ما بعد ذلك من الأهوال ، أي : حيث ذكر الحشر وما بعده. ولم يصرح بنفس البعث لتحقق وضوحه ، وإنما قال : فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ أي : نجمعهم وَالشَّياطِينَ المغوين لهم ، إلى المحشر ، وقيل : إن الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين التي كانت تغويهم ، كل منهم مع شيطانه فى سلسلة ، ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا : باركين على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلع ، والجثو : جلسة الذليل الخائف.

والآية كما ترى ، صريحة فى الكفرة ، فهم الذين يساقون من الموقف إلى شاطىء جهنم ، جثاة إهانة بهم ، أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من شدة الخوف. وأما قوله تعالى : وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً «١» فهى عامة للناس فى حال الموقف قبل التواصل إلى الثواب والعقاب ، فإن أهل الموقف جاثون على

الرّكب ، كما هو المعتاد فى مقام التفاؤل والخصام ، قلت : ولعل هذا فيمن يناقش الحساب ، وأما غيرهم فيلقى عليهم سحابة كنفه ، ثم يقررهم بذنوبهم ويسترهم ، كما فى الحديث.
ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أي : من كل أمة تشيعت دينا من الأديان ، أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا أي : من كان منهم أعصى وأعتى ، فيطرحهم فيها. قال ابن عباس : أي : أيهم أشد جرأة ، وقال مجاهد : فجورا وكذبا ، وقال مقاتل : علوا ، أو غلوا فى الكفر ، أو كبرا ، وقال الكلبي : قائدهم ورأسهم ، أي : فيبدأ بالأكابر فالأكابر بالعذاب ، ثم الذي يليهم جرما. وفى ذكر الأشدية تنبيه على أنه تعالى يعفو عن بعض أهل العصيان من غير الكفرة ، إذا قلنا بعموم الآية ، وأما إذا خصصناها بالكفرة ، فالأشدية باعتبار التقديم للعذاب.
قال تعالى : ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا أي : أولى بصليها وأحق بدخولها ، وهم المنتزعون الذين هم أشدهم عتوا ، أو رؤوسهم ، فإن عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالهم.

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الجاثية.

(٣٥٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٥٣
وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها ، فيه التفات لإظهار مزيد الاعتناء ، وقرىء : «وَإِنَّ مِنْهُمْ». ويحتمل أن يكون الخطاب لجميع الخلق ، أي : وإن منكم أيها الناس إِلَّا وارِدُها أي : واصلها وحاضرها ، يمر بها المؤمنون وهى خامدة ، وتنهار بغيرهم. وعن جابر أنه صلى اللّه عليه وسلم سئل عن ذلك فقال : «إذا دخل أهل الجنّة الجنّة قال بعضهم لبعض :
أليس قد وعدنا ربّنا أن نرد النّار؟ فيقال لهم : قد وردتموها وهى خامدة». وأما قوله تعالى : أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ فالمراد به الإبعاد عن عذابها ، وقيل : ورودها : الجواز على الصراط بالمرور عليها.
وعن ابن مسعود : الضمير فى (وارِدُها) للقيامة ، وحينئذ فلا يعارض : لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها «١» ، ولا ما جاء فيمن يدخل الجنةبغير حساب ، ولا مرور على الصراط ، فضلا عن الدخول فيها ، على أنه اختلف فى الورود ، فقيل : الدخول وتكون بردا وسلاما على المؤمن. وقيل : المرور كما تقدم ، وقيل : الإشراف عليها والاطلاع.
قال القشيري : كلّ يرد النار ، ولكن لا ضير منها ولا إحساس لأحد إلا بمقدار ما عليه من السيئات ، والزلل ، فأشدّهم فيها انهماكا : أشدهم فيها بالنار اشتعالا واحتراقا ، وأما برىء الساحة ، نقى الجانب بعيد الذنوب ، فكما فى الخبر :

«إن النار عند مرورهم ربوة كربوة اللّبن – أي : جامدة كجمود اللبن حين يسخن – فيدخلونها ولا يحسون بها ، فإذا عبروها قالوا : أليس قد وعدنا جهنم على الطريق؟ فيقال لهم : عبرتم وما شعرتم». هـ.

كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا أي : كان ورودهم إياها أمرا محتوما أوجبه اللّه تعالى على ذاته ، وقضى أنه لا بد من وقوعه. وقيل : أقسم عليه ، ويشهد له : «إلا تحلة القسم» «٢».

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا الكفر والمعاصي ، بأن تكون النار عليهم بردا وسلاما ، على تفسير الورود بالدخول ، وعن جابر أنه قال : سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : «الورود الدّخول ، لا يبقى برّ ولا فاجر إلّا دخلها ، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما ، كما كانت على إبراهيم ، حتّى إنّ للنّار ضجيجا من بردهم» «٣». وإن فسرنا الورود بالمرور ، فنجاتهم بالمرور عليها والسلامة من الوقوع فيها ، وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا : باركين على ركبهم ، قال ابن زيد : الجثى شر الجلوس ، لا يجلس الرجل جاثيا إلا عند كرب ينزل به. هـ.

---

(١) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(٢) يقصد حديث : «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار ، إلا تحلة القسم» أخرجه البخاري فى (الأيمان والنذر ، باب قول الله تعالى : «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ») ومسلم فى (البر والصلة ، باب : فضل من يموت له ولد فيحتسبه).

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٣٢٩) والحاكم فى المستدرك (الأهوال ٤/ ٥٨٧) ، والبيهقي فى الشعب (١/ ٣٣٦) ، من حديث جابر ابن عبد اللّه. والحديث : صححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي فى المجمع (٧/ ٥٥) : رواه أحمد ، ورجاله ثقات.

الإشارة : من أراد كرامة الآخرة فليربّ يقينه فيها ، حتى تكون نصب عينيه ، فإنه يرد على اللّه كريما. ومن أراد السلامة من أهوالها فليخفف من أوساخها وأشغالها ، ويلازم طاعة اللّه واتباع الرسول صلى اللّه عليه وسلم. ومن أراد سرعة المرور على الصراط فليلزم اليوم اتباع الصراط المستقيم ، فبقدر ما يستقيم عليها تستقيم أقدامه على الصراط ، وبقدر ما يزل عنها يزلّ عن الصراط.

قال فى الإحياء ، لما تكلم على العدل فى الكيل والوزن ، قال بعد كلامه : وكل مكلف فهو صاحب موازين فى أفعاله وأقواله وخطراته ، فالويل له إن عدل عن العدل ، ومال عن الاستقامة ، ولو لا تعذّر

هذا واستحالته لما ورد قوله تعالى : (وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها ..) الآية ، فلا ينفك عبد ليس معصوما عن الميل عن الاستقامة ، إلا أن درجات الميل تتفاوت تفاوتا عظيما ، فبذلك تتفاوت مدة إقامتهم فى النار إلى أوان الخلاص ، حتى لا يبقى بعضهم إلا بقدر تحلة القسم ، ويبقى بعضهم ألفا وألوف سنين ، نسأل اللّه تعالى أن يقربنا من الاستقامة والعدل ، فإن الاستداد على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه غير مطموع فيه فإنه أدق من الشعرة ، وأحدّ من السيف ، ولولاه لكان المستقيم عليه لا يقدر على جواز الصراط الممدود على متن النار ، الذي من صفته أنه أدق من الشعر ، وأحدّ من السيف ، وبقدر الاستقامة على الصراط المستقيم يخف مرور العبد يوم القيامة على الصراط. هـ.

وقال الترمذي الحكيم : يجوز الأولياء والصديقون وهم لا يشعرون بالنار ، قال اللّه تعالى : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ «١» ، وإنما بعدوا عنها لأن النور احتملهم واحتوشهم ، فهم يمضون فى النار ، حتى إذا خرجوا منها قال بعضهم لبعض : أليس قد وعدنا النار ، فذكر ما تقدم. ثم قال : فأما ضجة النار فمن بردهم ، وذلك أن الرحمة باردة تطفئ غضب الرب ، فبالرحمة نالوا النور ، حتى أشرق فى قلوبهم وصدورهم ، فكان نوره فى قلوبهم ، والرحمة مظلة عليهم ، فخمدت النار من بردهم عند ما لقوها ، فضجت من أجل أنها خلقت منتقمة ، فخافت أن تضعف عن الانتقام. ولذلك روى أنها تقول : «جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى». «٢» هـ.

وقال الورتجبي : إذا كان جمال الحق مصحوبهم ، فلا بأس بالوقوف فى النيران ، فإن هناك أهل الجنان.

إذا نزلت سلمى بواد فماؤها زلال وسلسال ، وسيحانها ورد. هـ.

وقال جعفر الصادق : لو لا مقاربة النفوس ما دخل أحد النار ، فلما فارقتهم نفوسهم أوردهم النار بأجمعهم ، فمن كان أشد إعراضا عن خبث النفس كان أسرع نجاة من النار ، ألا ترى اللّه يقول : (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا). هـ. قلت.

---

(١) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية (٩/ ٣٢٩) ، والخطيب فى تاريخ بغداد (٥/ ١٩٤) ، والطبراني فى الكبير ، وابن عدى فى الكامل ، والحكيم الترمذي فى نوادر الأصول ، وفى سنده : سليم بن منصور بن عمار ، وهو ضعيف ، انظر : مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٠) ، وكشف الخفاء (١/ ٣٧٣ - ٣٧٤).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٥٥

وقد تقدم أن من لاحساب عليهم - وهم المقربون - يمرون على الصراط ولا يحسون به ، وهم الذين يمرون عليه كالطير أو كالبرق ، جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه ، وبجاه خير الخلق مولانا محمد نبيه وحبه ، آمين.

ثم ذكر أحوال من سقط فى جهنم ويبقى فيها جثيّا ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٧٣ الى ٧٤]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً (٧٤)

قلت : «هم أحسن» : صفة لكم.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ على الكفرة آياتُنا الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامة مآلهم ، والناطقة بحسن عاقبة المؤمنين ، حال كونها بَيِّناتٍ : واضحات فى نفسها ، أو بينات الإعجاز ، أو بينات المعاني ، قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : قالوا ، ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادين له ، أو : قال الذين تمرّدوا فى الكفر والعتو وهم النضر بن الحارث وأتباعه ، قالوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، اللام للتبليغ ، أي : قالوا مبلغين الكلام لهم ، وقيل : لام الأجل ، كقوله تعالى : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ «١» أي : لأجلهم وفى حقهم ، والأول أولى لأن الكلام هنا كان معهم بدليل قوله : أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أي : المؤمنين والكفار ، خَيْرٌ كأنهم قالوا : أينا خَيْرٌ مَقاماً أي : مكانا :

نحن أو أنتم ، وقرىء بالضم ، أي : موضع إقامة ومنزل ، وَأَحْسَنُ نَدِيًّا مجلسا ومجتمعا ، أو : أينا خير منزلا ومسكنا ، وأحسن مجلسا؟.

يروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنونها ، ويتزينون بالزينة الفاخرة ، ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين ، يريدون بذلك أن خيريتهم ، حالا ، وأحسنيتهم ، مقالا ، مما لا يقبل الإنكار ، وأنّ ذلك لكرامتهم على اللّه سبحانه وزلفاهم عنده ، وأنّ الحال التي عليها المؤمنون ، من الضرورة والفاقة ورثاثة الحال لقصور حظهم عند اللّه. وما هذا القياس العقيم والرأى السقيم إلا لكونهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، وذلك مبلغهم من العلم ، فردّ عليهم بقوله : وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً : مالا ومتاعا وَرِءْياً منظرا ، أي : كثيرا من القرون التي كانوا أفضل منهم ، فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية ، كعاد وثمود وأضرابهم العاتية قبل هؤلاء ،

---

(١) الآية ١١ من سورة الأحقاف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٥٦

أهلكناهم بفنون العذاب ، ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا ، لما فعلنا بهم ما فعلنا ، وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى ، كأنه قيل : فلينتظر هؤلاء أيضا مثل ذلك.

و«أثاثا» : تمييز ، وهو متاع البيت ، أو ما جد منه ، و«رءيا» : كذلك ، فعل من الرؤية بمعنى المنظر ، قال ابن عزيز : «رءيا» بهمزة ساكنة : ما رأيت عليه من شارة حسنة وهيئة ، وبغير همز : يجوز أن يكون على معنى الأول «١» ، ويجوز أن يكون من الريّ. أي : منظرهم مرتو من النعمة. وزيّا ، بالزاي المعجمة ، فى قراءة ابن عباس ، يعنى هيئة ومنظرا. هـ.

الإشارة : رفعة القدر والمقام لا تكون بالتظاهر بمفاخر اللباس والطعام ، ولا بحسن الهيئة ومنظر الأجسام ، وأنما يكون باحتظاء القلوب بمعرفة اللّه ، وتمكين اليقين من القلوب ، واطلاعها على أسرار الغيوب ، مع القيام بوظائف العبودية ، أدبا مع عظمة الربوبية ، ونسيان النفوس والاشتغال عنها بالعكوف فى حضرة القدوس ، فأهل القلوب لا يعبأون بظواهر الأشباح ، وإنما يعتنون بحياة الأرواح.

كمل حقيقتك التي لم تكمل والجسم دعه فى الحضيض الأسفل

فقوت قلوبهم التواجد والأذكار ، وحياة أرواحهم العلوم والأسرار ، وأنشدوا :

بالقوت إحياء الجسوم ، وذكره تحيا به الألباب والأرواح

هو عيشهم ووجودهم وحياتهم حقا وروح نفوسهم والرّاح.

وأما من عظم جهله ، وكثف حجابه ، فإنما ينظر إلى بهجة الظواهر وتزيينها بأنواع المفاخر ، أو إلى من عظم جاهه وكثرت أتباعه ، وهذه نزعة جاهلية ، حيث قالوا حين يتلى عليهم الوعظ والتذكير : (أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا) ، يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ «٢». وباللّه التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى مدد الفريقين أهل الضلال وأهل الإيمان ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٧٥ الى ٧٦]

قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦)

---

(١) أي : هو مهموز الأصل ، أي : منظرا ، من الرؤية ، سهلت همزته بإبدالها ياء ، ثم أدغمت الياء فى الياء. [.....]

(٢) الآية ٧ من سورة الروم.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٥٧

قلت : «ويزيد» : عطف على «فليمدد» لأنه فى معنى الخبر ، أي : من كان فى الضلالة يمده اللّه فيها ، ويزيد فى هداية الذين اهتدوا مددا لهدايتهم ، أو عطف على «فسيعلمون» ، وجمع الضمير فى (رأوا) وما بعدها باعتبار معنى (من) ، وأفرد أولا باعتبار لفظها.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : مَنْ كانَ مستقرا فِي الضَّلالَةِ مغمورا فى الجهل والغفلة عن عواقب الأمور ، مشتغلا بالحظوظ الفانية ، فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا أي : يمد له بطول العمر وتيسير الحظوظ ، إما استدراجا ، كما نطق به قوله تعالى : إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً «١» ، أو قطعا للمعاذير كما نطق به قوله تعالى : أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ «٢» ، أو : (فَلْيَمْدُدْ لَهُ) : يدعه فى ضلاله ، ويمهله فى كفره وطغيانه ، كقوله تعالى : وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ «٣». والتعرض لعنوان الرحمانية لبيان أن أفعالهم من مقتضيات الرحمة مع استحقاقهم تعجيل الهلاك.

وكأنه جل جلاله لما بيّن عاقبة الأمم المهلكة ، مع ما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظ العاجلة ، أمر رسوله صلى اللّه عليه وسلم أن يجيب هؤلاء المفتخرين بما لهم من الحظوظ بمآل أمر الفريقين ، وهو استدراج أهل الضلالة ثم أخذهم ، وزيادة هداية أهل الإيمان ثم إكرامهم ، كما بيّن ذلك بقوله : حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ ، فهو غاية للحد الممتد ، أي : نمد لهم فى الحياة وفنون الحظوظ حتى ينزل بهم ما يوعدون إِمَّا الْعَذابَ الدنيوي بالقتل ، والأسر ، وغلبة أهل الإيمان عليهم ، وَإِمَّا السَّاعَةَ ، وهو يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والهوان ، و«إما» هنا : لمنع الخلو ، لا لمنع الجمع فإن العذاب الأخروى لا ينفك عنهم بحال.

فَسَيَعْلَمُونَ حينئذ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً من الفريقين ، بأن يشاهدوا الأمر على عكس ما كانوا يقدّرون ، فيعلمون أنهم شر مكانا ، لا خير مقاما ، وَيعلمون أنهم أَضْعَفُ جُنْداً أي : جماعة وأنصارا ، لا أحسن نديّا ، كما كانوا يدعونه ، وليس المراد أن لهم يوم القيامة جندا سيضعف ، وما كان له من فئة ينصرونه من دون اللّه ، وإنما ذكر ذلك ردا لما كانوا يزعمون أن لهم أعوانا وأنصارا ، يفتخرون بهم فى الأندية والمحافل ، فردّ ذلك بأنه باطل وظل آفل ، ليس تحته طائل.

ثم ذكر فريق أهل الإيمان فقال : وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً أي : كما يمد لأهل الضلالة زيادة فى ضلالهم ، كذلك يزاد فى هداية أهل الهداية ثوابا على طاعتهم لأن كلا يجزى بوصفه ، فلا تزال الهداية تنمو فى

---

(١) من الآية ١٧٨ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ٣٧ من سورة فاطر.

(٣) من الآية ١١٠ من سورة الأنعام.

(٣٥٧/٣)

قلوبهم حتى يردوا موارد الكرم ، أمّا فى الدنيا فبكشف الحجاب وانقشاع السحاب حتى يشاهدوا رب الأرباب ، فما كانوا يؤمنون به غيبا صار عيانا ، وأمّا فى الآخرة فبنعيم الحور والقصور ، ورؤية الحليم الغفور.

فقد بيّن الحق تعالى حال المهتدين إثر بيان حال الضالين ، وأن إمهال الكافر وتمتيعه بالحظوظ ليس لفضله ، وأن منع المؤمن من تلك الحظوظ ليس لنقصه ، بل قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا الفانية ، وقوم ادخرت لهم طيباتهم للحياة الباقية ، قال تعالى : وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ كأنواع الطاعات ، خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ لبقاء فوائدها ودوام عوائدها .. وقد تقدم تفسيرها»

.

والتعرض لعنوان الربوبية والإضافة إلى ضميره صلى اللّه عليه وسلم لتشريفه ، أي : فهى أفضل ثَواباً أي : عائدة مما يتمتع به الكفرة من النعم الفانية ، التي يفتخرون بها لأن مآلها الحسرة السرمدية والعذاب الأليم ، ومآل الباقيات الصالحات النعيم المقيم فى دار الدوام ، كما أشير إليه بقوله : وَخَيْرٌ مَرَدًّا أي : مرجعا وعاقبة ، وتكرير الخير لمزيد الاعتناء بشأن الخيرية وتأكيد لها فى التفضيل ، مع أن ما للكفرة بمعزل من أن يكون له خيرية فى العاقبة ، ففيه نوع تهكم بهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن الحق - جل جلاله - يرزق العبد على قدر نيته ، ويمده على قدر همته ، فمن كانت همته فى الحظوظ العاجلة والشهوات الفانية ، أمده اللّه فيها ، ومتعه بها ما شاء ، على حسب القسمة ، ثم أعقبه الندم والحسرة ، ومن كانت همته الآخرة ، أمده سبحانه فى الأعمال التي توصله إلى نعيمها ، كصلاة وصيام وصدقة وتدريس علم ، وأذاقه من حلاوتها ما يهون عليه مرارتها ، ثم أعقبه النعيم الدائم من القصور والحور ، وأنواع الطيبات ، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

ومن كانت همته اللّه - أي : الوصول إلى حضرته دون شيء سواه - أمده اللّه فى الأعمال التي توصله إليه ، وهى أعمال القلوب من التخلية والتحلية ، كالتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل ، وكقطع المقامات بأنواع المجاهدات ، ورأس ذلك أن يوصله إلى شيخ كامل جامع بين الحقيقة والشريعة ، بين الجذب والسلوك ، قد سلك الطريق على شيخ كامل ، فإذا وصله إليه وكشف له عن سر خصوصيته فليستبشر بحصول المطلب وبلوغ الأمل. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر بعض من مدّ له فى الضلالة وخصه بزيادة ضلالته ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٧٧ الى ٨٠]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً (٨٠)

---

(١) راجع تفسيرالآية ٤٦ من سورة الكهف.

يقول الحق جل جلاله فى حق العاص بن وائل : أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا : القرآن المشتمل على البعث والحساب ، قال خبّاب بن الأرت : كان لى على العاص بن وائل دين ، فاقتضيته ، فقال : لا ، واللّه لا أقضيك حتى تكفر بمحمّد ، ، فقلت : لا واللّه لا أكفر بمحمّد حتّى تموت ثم تبعث ، قال العاص : فإذا متّ ثم بعثت ، جئتنى وسيكون لى ثمّ مال وولد ، فأعطيك ، لأنكم تزعمون أن فى الجنة ذهبا وفضة - استهزاء واستخفافا - وفى رواية البخاري : «كنت قينا «١» فى الجاهلية ، فصنعت للعاصى سيفا فجئت أتقاضاه ...» «٢» فذكر الحديث. فالهمزة للتعجيب من حاله ، للإيذان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يقضى منها العجب ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي : أنظرت فرأيت الذي كفر بآياتنا الباهرة التي من حقها أن يؤمن بها كل من شاهدها.

وَقالَ مستهزءا بها ، مصدّرا باليمين الفاجرة : واللّه لَأُوتَيَنَّ فى الآخرة مالًا وَوَلَداً أي : انظر إلى حاله فتعجب من حالته البديعة وجرأته الشنيعة ، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أي : أبلغ من عظمة الشأن إلى أن يرتقى إلى علم الغيب ، الذي استأثر به العليم الخبير ، حتى ادعى أن يؤتى فى الآخرة مالا وولدا ، وأقسم عليه ، أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً بذلك ، فإنه لا يتوصل إلى العلم بذلك إلا بأحد هذين الطريقين ، وهذا رد لكلمته الشنعاء ، وإظهار لبطلانها إثر ما أشير إلى التعجب منها.

والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بعلّية الرحمة للإيتاء ، فإن الرحمة تقتضى الإعطاء على الدوام.

والعهد :

قيل : كلمة الشهادة ، أو العمل الصالح ، فإن وعده تعالى بالثواب عليها كالعهد ، قال القشيري : أَطَّلَعَ الْغَيْبَ فقال بتعريف له منا ، أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً أي : ليس الأمر كذلك. ثم قال : ودليل الخطاب يقتضى أن المؤمن إذا أمّل من الله شيئا جميلا ، فاللّه تعالى يحققه له لأنه على عهد مع اللّه تعالى ، واللّه لا يخلف الميعاد. هـ.

ثم أبطل ما أمله الكافر فقال : كَلَّا أي : انزجر عن هذه المقالة الشنيعة ، فهو ردع له عن التفوه بتلك العظيمة ، وتنبيه على خطئه ، قال تعالى : سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ أي : سنظهر ما كتبنا عليه ، فهو كقول الشاعر :

إذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة أي : تبين أني لم تلدنى لئيمة ، أو : سنحفظ عليه ما يقول فنجازيه عليه فى الآخرة ، أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة فى الحال ويجازى عليها فى المآل ، فإن نفس الكتابة لم تتأخر عن القول لقوله تعالى : ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ «٣» قال ابن جزى : إنما جعله مستقبلا لأنه إنما يظهر الجزاء والعقاب فى المستقبل. هـ.

---

(١) القين : الحدّاد والصانع ، والجمع أقيان وقيون. انظر اللسان (قين ٥/ ٣٧٩٨).

(٢) أخرجه البخاري فى (البيوع. باب ذكر القين والحدّاد) ، وفى (تفسير سورة مريم) ، ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب ٤).

(٣) الآية ١٨ من سورة ق.

(٣٥٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٦٠

قلت : والظاهر إنما أبرزه بصورة المستقبل ، تنبيها على عدم نسخه ، وأنه ماض نافذ. قاله فى الحاشية.

وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا ، مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والأولاد ، أي : نطول له من العذاب ونمد له فيه ما يستحقه ، أو نزيد فى مضاعفة عذابه ، لكفره وافترائه على اللّه سبحانه ، واستهزائه بآياته العظام ، ولذلك أكده بالمصدر ، دلالة على فرط الغضب والسخط.

وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ ، قال مكى : حرف الجر محذوف ، أي : نرث منه ما يقول. هـ. والظاهر أن (ما) : بدل من الضمير ، وهو الهاء ، أي : نرث ما يقول وما يدعيه لنفسه اليوم من المال والولد. وفيه إيذان بأنه ليس لما يقول مصداق موجود سوى القول ، أي : ننزع منه ما آتيناه ، وَيَأْتِينا يوم القيامة فَرْداً لا يصحبه مال ولا ولد كان له فى الدنيا ، فضلا أن يؤتى ثمّة مالا وولدا زائدا. وقال القشيري : فردا بلا حجة على قوله وقسمه : (لَأُوتَيَنَّ مالًا وَوَلَداً) ، وذلك منه استهزاء ومحض كفر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يفهم من الآية أن الإنسان إذا آمن بآيات اللّه وعمل بما أمره اللّه يكون له عهد عند اللّه ، فإذا تمنى شيئا أو منّاه غيره لا يخيبه اللّه ، ويتفاوت الناس فى العهد عند اللّه ، على قدر تفاوتهم فى طاعته ومعرفته ، وسيأتى فى قوله : لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً «١» زيادة بيانه. واللّه تعالى أعلم.

ثم رد على أهل الضلالة ما زعموا ، من نفع الأصنام لهم ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٨١ الى ٨٤]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)
أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)

يقول الحق جل جلاله : واتخذ المشركون الأصنام آلِهَةً يعبدونها من دون اللّه لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا يوم القيامة ، ووصلة عنده يشفعون لهم ، كَلَّا لا يكون ذلك أبدا ، فهو ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل ، وإنكار لوقوع ما علّقوا به أطماعهم ، سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ أي : تجحد الآلهة عبادتهم لها ، بأن ينطقهم اللّه تعالى وتقول ما عبدتمونا ، أو : سيكفر الكفرة عبادتهم لها حين شاهدوا سوء عاقبة عبادتهم لها ، كقوله : وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ «٢» وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا أي : تكون الآلهة ، التي كانوا يرجون أن تكون لهم عزا ، ضدا للعز ،

---

(١) الآية ٨٧ من هذه السورة.

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الأنعام.

أي : ذلا وهوانا لأنهم تعززوا بمخلوق بسخط الخالق ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : «من طلب رضا المخلوق بمعصية الخالق عاد حامده من الناس ذاما» «١». وتكون عونا عليهم ، وآلة لعذابهم ، حيث تجعل وقود النار وحصب جهنم ، أو تكون الكفرة ضدا وأعداء للآلهة ، كافرين بها ، بعد أن كانوا يحبونها كحب اللّه ، ويعبدونها من دون اللّه ، وتوحيد الضد لتوحيد المعنى الذي عليه تدور مضادتهم ، فإنهم بذلك كشيء واحد ، كقوله عليه الصلاة والسلام : «وهم يد على من سواهم» «٢».

وسبب عبادتهم للأصنام تزيين الشيطان ، وفاء بقوله : لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ «٣» كما قال تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ أي : سلطهم عليهم ومكنهم من إغوائهم ، بقوله تعالى : وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ «٤» الآية.

وهذا تعجيب لرسوله صلى اللّه عليه وسلم مما نطقت به الآيات الكريمة عن هؤلاء الكفرة ، العتاة المردة ، من فنون القبائح من الأقاويل والأفاعيل ، والتمادي فى الغي ، والانهماك فى الضلال ، والتصميم على الكفر ، من غير صارف يلويهم ، ولا عاطف يثنيهم ، وإجماعهم على مدافعة الحق بعد اتضاحه ، وتنبيه على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم ، لا أن له مسوغا فى الجملة ، أي :

ألم تر ما فعلت الشياطين بالكفرة حتى صدر منهم ما صدر من تلك القبائح والعظائم ، وليس المراد تعجيبه عليه السّلام من مطلق إرسال الشياطين عليهم ، كما يوهمه تقليل الرؤية ، بل عما صدر عنهم من حيث إنها من آثار إغواء الشياطين ، كما ينبئ عنه قوله تعالى : تَؤُزُّهُمْ أَزًّا أي : تغريهم وتهيجهم على المعاصي تهييجا شديدا ، بأنواع الوساوس والتسويلات. فالأز والاستفزاز أخوان ، معناهما : شدة الانزعاج ، وجملة (تَؤُزُّهُمْ) : حال مقدرة من الشياطين ، أو استئناف وقع جوابا عن صدر الكلام ، كأنه قيل : ماذا تفعل بهم الشياطين؟ قال : (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا).

فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ بأن يهلكوا حسبما تقتضى جناياتهم ويبيدوا عن آخرهم ، وتطهر الأرض من فسادهم ، إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا أي : لا تستعجل بهلاكهم ، فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس قلائل نعدها عدا ، ثم نأخذهم أخذا. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ٤/ ٢١٨) من حديث السيدة عائشة. وقال الهيثمي فى المجمع : (١٠/ ٢٢٨) : رواه البزار من طريق قطبة بن العلاء عن أبيه ، وكلاهما ضعيف. وورد معنى الحديث عند الترمذي ، ولفظه : «من التمس رضا الناس بسخط اللّه ، سخط اللّه عليه ، وأسخط الناس عليه».
(٢) طرف من حديث أخرجه أحمد فى المسند (١/ ١٢٢) وأبو داود فى : (الديات ، باب إيقاد المسلم بالكافر) ، والنسائي فى (القسامة ، باب القود بين الأحرار والعبيد) من حديث سيدنا على.
(٣) من الآية ٣٩ من سورة الحجر.
(٤) من الآية ٦٤ من سورة الإسراء ٤٣. [.....]

الإشارة : كل من اتخذ شيئا يتعزز به من دون اللّه وطاعته انقلب عليه ذلا وهوانا ، ولذلك قيل : «من تعزز بمخلوق مات عزه». فإن أردت عزا لا يفنى فلا تتعزز بعز يفنى ، وهو التعزز بالمال أو الجاه ، أو غير ذلك مما يفنى ، وسيأتى عند قوله : مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً «١». وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ «٢» زيادة بيان. وكما أرسل الحق تعالى الشياطين على الكافرين تزعجهم إلى المعاصي أرسل الملائكة والواردات الإلهية إلى المؤمنين تنهضهم إلى طاعة اللّه ، وتزعجهم إلى السير لمعرفة اللّه. فالملائكة تحرك العبد إلى الطاعة ، والواردات تزعجه إلى الحضرة ، تخرجه عن عوائده وتدمغ له من علائقه ، وعوائقه ، حتى ينفرد لحضرة الحق :

وفى الحكم : «الوارد يأتى من حضرة قهار ، لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمغه بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ

عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ». وقال أيضا : «متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد لديك «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها».
وقال القشيري على قوله : (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) : أي : تزعجهم إزعاجا ، فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وظلمة ، وخاطر الحقّ يكون بروح وسكون ، وهذه إحدى الفوارق بينهما. هـ. قلت : ومن الفوارق أيضا : أن خاطر الحق لا يأمر إلا بالخير مع برودة وانشراح فى القلب وسكون وأناة .. وفى الحديث «العجلة من الشيطان ، والأناة من الرحمن» «٣». هـ. بخلاف خاطر الشيطان فإنه لا يأمر إلا بالشر ، وقد يأمر بالخير إذا كان يجرّ به إلى الشر ، وعلامته أن يكون فيه ظلمة ودخن وعجلة وبطش ، وقد استوفى الكلام عليهم فى النصيحة الكافية. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر مآل فريق الإيمان وفريق الضلال ، فقال :
[سورة مريم (١٩) : الآيات ٨٥ الى ٨٧]
يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (٨٧)
قلت : (يَوْمَ نَحْشُرُ) : إما ظرف لفعل مؤخر للإشعار بضيق العبارة عن حصره لكمال جماله أو فظاعته ، والتقدير : يوم نحشر المتقين إلى الرحمن ، ونسوق المجرمين ، نفعل بالفريقين ما لا يفى به نطاق المقال ، أو ظرف لا ذكر ، و(وَفْداً) و(وِرْداً) : حالان.

---

(١) من الآية ١٠ من سورة فاطر.
(٢) من الآية ٨ من سورة المنافقون.
(٣) أخرجه البيهقي فى السنن الكبرى (١٠/ ١٠٤) بتقديم وتأخير ، من حديث أنس بن مالك ، وعزاه فى مجمع الزوائد لأبى يعلى عن أنس ، وقال : ورجاله رجال الصحيح.

يقول الحق جل جلاله : يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ : نجمعهم إِلَى الرَّحْمنِ أي : إلى ربهم يغمرهم برحمته الواسعة ، وَفْداً : وافدين عليه ، كما يفد الوفود على الملوك ، منتظرين لكرامتهم وإنعامهم. وعن على كرم اللّه وجهه : (لما نزلت هذه الآية ، قلت : يا رسول اللّه ، إنى قد رأيت الملوك ووفودهم ، فلم أر وفدا إلا راكبا ، فما وفد اللّه؟ قال : «يا على إذا حان المنصرف من بين يدى اللّه ، تلقت الملائكة المؤمنين بنوق بيض ، رحالها وأزمّتها الذهب ، على كل مركب حلة لا تساويها الدنيا ، فيلبس كل مؤمن

حلة ، ثم يستوون على مراكبهم ، فتهوى بهم النوق حتى تنتهى بهم إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ».

وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ كما تساق البهائم إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً : عطاشا ، فإن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش ، أو كالدواب التي ترد الماء ، أي : يوم نحشر الفريقين نفعل ما نفعل مما لا يفى به نطاق العبارة ، لما يقع فيه من الدواهي الطامة ، أو الكرائم العامة ، أو : اذكر يوم نحشر الفريقين ، على طريق الترغيب والترهيب.

وقوله تعالى : لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ : استئناف مبين لما فيه من الأمور الدالة على هوله ، وضمير الواو : إما لجميع العباد المدلول عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيها ، أو إلى المتقين فقط ، أو إلى المجرمين.

و(مَنِ اتَّخَذَ) : منصوب على الاستثناء ، أو بدل من الواو ، أي : لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم إلا من استعد له بالتحلي بالإيمان والتقوى ، ففيه ترغيب للعباد فى تحصيل الإيمان والتقوى ، المؤدى إلى نيل هذه الرتبة العليا. أولا يملك المتقون الشفاعة إلا شفاعة من اتخذ العهد بالإسلام والعمل الصالح ، أو لا يملك المجرمون أن يشفع لهم إلا من كان منهم مسلما ، فيشفع فى مثله. فمن ، على هذا الثالث ، بدل من الواو فقط. والأول أحسن لعمومه.

قال ابن مسعود رضي اللّه عنه : سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : «أما يعجز أحدكم أن يتّخذ كلّ صباح ومساء عهدا عند اللّه ، يقول كلّ صباح ومساء : اللهمّ فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشّهادة ، إنّى أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا ، بأنى أشهد أن لا إله إلّا أنت ، وحدك لا شريك لك ، وأنّ محمّدا عبدك ورسولك ، فلا تكلنى إلى نفسى ، فإنك إن تكلنى إلى نفسى تقرّبنى من الشرّ وتباعدني من الخير ، وإنّى لا أثق إلّا برحمتك ، فاجعل لى عندك عهدا توفّينيه يوم القيامة ، إنّك لا تخلف الميعاد. فإذا قال ذلك طبع عليه طابع ووضع تحت العرش ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذين لهم عند اللّه عهد فيدخلون الجنّة». هـ.

الإشارة : ورود العباد على اللّه يوم القيامة يكون على قدر ورودهم إليه اليوم فى الدنيا ، فبقدر التوجه إليه اليوم تعظم كرامة وروده فى الآخرة ، فمن ورد على اللّه تعالى من باب الطاعة الظاهرة حملته صور الطاعات إلى الآخرة ، ومن ورد من باب الطاعات القلبية حملته الأنوار إلى الفراديس العالية ، ومن ورد من باب الطاعات

السرية - كالفكرة والنظرة فى مقام المشاهدة - حمله الحق إلى الحضرة القدسية ، فيكون فى مقعد صدق عند مليك مقتدر. قال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن العارف فى قوله تعالى : (وَفْداً) : قيل : ركبانا على نجائب طاعتهم ، وهم مختلفون ، فمن راكب على صور الطاعات ، ومن راكب على نجائب الهمم ، ومن راكب على نجائب الأنوار ، ومن محمول يحمله الحق فى عقباه ، كما يحمله اليوم فى دنياه ، وليس محمول الحق كمحمول الخلق. هـ.

وقوله تعالى : (لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ ...) الآية ، اعلم أن العهد الذي تكون به الشفاعة يوم القيامة هو الطاعة وتربية اليقين والمعرفة ، فتقع الشفاعة لأهل الطاعات على قدر طاعتهم وإخلاصهم ، وتقع لأهل اليقين على قدر يقينهم ، وهم أعظم من أهل المقام الأول ، وتقع لأهل المعرفة على قدر عرفانهم ، وهم أعظم من القسمين ، حتى إن منهم من يشفع فى أهل عصره كلهم ، وقد سمعت من شيخنا الفقيه ، شيخ الجماعة سيدى التاودى بن سودة ، أن بعض الأولياء قال عند موته : يا رب شفعنى فى أهل زمانى ، فقال له الحق تعالى - من جهة الهاتف - : لم يبلغ قدرك هذا ، فقال : يا رب إن كان ذلك من جهة عملى واجتهادي فلعمرى إنه لم يبلغ ذلك ، وإن كان من جهة كرمك وجودك فوعزتك وجلالك لهو أعظم من هذا ، فقال له : إنى شفعتك فى أهل عصرك. هـ. بالمعنى. فمن رجع إلى كرم اللّه وجوده ، ودخل من هذا الباب ، وجد الإجابة أقرب إليه من كل شيء. وباللّه التوفيق.

ثم كرر الرد على أهل الشرك والضلال وشنّع عليهم ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٨٨ الى ٩٥]

وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (٨٩) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (٩١) وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢)
إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (٩٥)

قلت : «هَدًّا» : مصدر مؤكد لمحذوف ، هو حال من الجبال ، أي : تهد هدّا. و«أَنْ دَعَوْا» : على حذف اللام ، أي :

لأن دعوا ، وفيه احتمالات أخر.

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً هذه المقالة صدرت من اليهود والنصارى ، ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله ، لعن اللّه جميعهم ، فسبحان اللّه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ، فحكى جنايتهم إثر جناية عبدة الأصنام ، وعطف القصة على القصة لاشتراكهم فى الضلالة ، قال تعالى فى شأنهم : لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا أي : فعلتم أمرا منكرا شديدا ، لا يقادر قدره ، فهو رد لمقالتهم الباطلة ، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٦٥
المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب ، المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح ، وتسجيل عليهم بغاية الوقاحة والجهل.
و(جاء) يستعمل بمعنى فعل ، فيتعدى تعديته ، والإد - بكسر الهمزة وفتحها ، وقرئ بهما فى الشاذ - : العظيم المنكر ، الإدّ : الشدة ، قيل : الأدّ : فى كلام العرب : أعظم الدواهي.
ثم وصفه وبيّن هوله فقال : تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ : يتشققن مرة بعد أخرى ، من عظم ذلك الأمر وشدة هوله ، وهو أبلغ من «ينفطرن» كما قرئ به ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ أي : وتكاد تنشق وتذهب ، وَتَخِرُّ الْجِبالُ أي : تسقط وتنهدم هَدًّا بحيث لا يبقى لها أثر. والمعنى : أن هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمها ، بحيث لو تصورت بصورة محسوسة ، لم يطق سمعها تلك الأجرام العظام ، ولتفتتت من شدة قبحها ، أو : إن فظاعتها واستجلاب الغضب والسخط بها بحيث لو لا حلمه تعالى ، لخر العالم وتبددت قوائمه ، غضبا على من تفوه بها. قال محمد بن كعب : كاد أعداء اللّه أن يقيموا علينا الساعة ، يعنى : لأن ما ذكر أوصاف الساعة.
وذلك أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً أي : تكاد تنفطر السموات وتنشق الأرض ، وتنهدم الجبال لأجل أن دعوا ، أي : نسبوا أو سموا للرحمن ولدا ، وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً أي : قالوا اتخذ الرحمن ولدا ، أو دعوا له ولدا ، والحال أنه مما لا يليق به تعالى اتخاذ الولد لاستحالته عليه تعالى. ووضع الرحمن موضع الضمير للإشعار بعلية الحكم لأن كل ما سواه تعالى منعّم عليه برحمته ، أو نعمة من أثر الرحمة ، فكيف يتصور أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولى أصولها وفروعها ، حتى يتوهم أن يتخذه ولدا ، وقد صرح به قوله عز قائلا : إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : ما منهم من أحد من الملائكة أو الثقلين إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً مملوكا للّه فى الحال بالانقياد وقهرية العبودية. لَقَدْ أَحْصاهُمْ أي : حصرهم وأحاط بهم ، بحيث لا يخرج أحد من حيطة علمه ، وقبضة قدرته وقهريته ، ما وجد منهم وما سيوجد ، وما يقدر وجوده لو وجد ، كل ذلك فى علمه وقضائه وقدره وتدبيره ، لا خروج لشىء عنه ، وفى ذلك تصوير لقيام ربوبيته على كل شىء ، وأنه عالم بكل شىء ، جملة وتفصيلا ، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً أي : وكل واحد منهم يأتى يوم القيامة فردا من الأموال والأنصار والأتباع ، متفردا بعمله ، فإذا كان شأنه تعالى وشأنهم كذلك فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئا منهم ولدا؟!.
وفى الحديث القدسي : «قال اللّه تعالى : كذّبنى عبدى ، ولم يكن له ذلك ، وشتمنى عبدى ولم يكن له ذلك ، أما تكذيبه إياى فأن يقول : من يعيدنا كما بدأنا؟ وأما شتمه إياى فأن يقول : اتخذ اللّه ولدا ، وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لى كفوا أحد» «١». وهو فى البخاري. وفى صيغة اسم

الفاعل فى قوله : آتِيِ من الدلالة على إتيانهم كذلك البتة ما ليس فى صيغة المضارع لو قيل يأتيه. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري (فى تفسير سورة الإخلاص) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣٦٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٦٦

الإشارة : إذا علمت أيها المؤمن أن الحق جل جلاله يغضب هذا الغضب الكلى على من أشرك مع اللّه ، أو اعتقد فيه ما ليس هو عليه من التنزيه وكمال الكمال ، فينبغى لك أن تخلص مشرب توحيدك من الشرك الجلى والخفي ، علما وعقدا وحالا وذوقا ، حتى لا يبقى فى قلبك محبة لشىء من الأشياء ولا خوف من شيء ، ولا تعلق بشيء ، ولا ركون لشيء ، إلا لمولاك ، وحينئذ يصفى مشرب توحيدك ، وتكون عبدا للّه خالصا حرا مما سواه ، ومهما بقي فيك شيء من محبة الهوى نقص توحيدك بقدره ، ولم تصل إليه مادمت تميل إلى شيء سواه. وفى ذلك يقول الششترى رضي اللّه عنه :

إن ترد وصلنا فموتك شرط لا ينال الوصال من فيه فضله

فكن عبدا للّه حقيقة ، وانخرط فى سلك قوله : إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً.

فحينئذ تكون حرا مما سواه ، ويملك الوجود بأسره ، يكون عند أمرك ونهيك. وفى ذلك يقول القائل :

دعونى لملكهم فلما أجبتهم قالوا دعوناك للملك لا للملك

وإذا فتحت عين القدرة وعين الحكمة وضعت كل شيء فى محله ، فتتنزه بعين القدرة فى رياض الملكوت وبحار الجبروت ، وتتنزه بعين الحكمة فى بهجة الملك وأسرار الحكمة. فعين القدرة تقول : كل من فى السموات والأرض نور من أنوار الرحمن ، وسر من أسرار ذاته ، وعين الحكمة تقول : كل من فى السموات والأرض عبد مملوك تحت قهرية ذاته ، فاعرف الضدين ، وأنزل كل واحد فى محله ، تكن عارفا باللّه ، فإن أردت أن تعرفه بضد واحد بقيت جاهلا به.

فالحكمة تثبت العبودية صورة صونا لكنز الربوبية ، والقدرة تغيبك عنها بشهود أسرار الربوبية ، وفى الحكم : «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية».

فالعبودية لازمة من حيث العبد ، والغيبة عنها واجبة من حيث الرب ، فإثبات العبودية ، حكمة ، فرق ، والغيبة عنها فى شهود أنوار الربوبية : جمع ، فالعارف مجموع فى فرقه ، مفروق فى جمعه.

ولما ذكر قبائح الكفرة أتبعه بذكر محاسن المؤمنين ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : آية ٩٦]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (٩٦)

قلت : لما استحقر الكفرة أحوال المؤمنين حتى قالوا : أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ، أخبر اللّه تعالى المؤمنين وبشرهم أنهم سيعزهم ويلقى مودتهم فى قلوب عباده.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ فى قلوب الناس مودة وعطفا ، حتى يحبهم كل من سمع بهم ، فيحبهم ويحببهم إلى عباده من أهل السموات والأرض ، أي : سيحدث

لهم فى القلوب مودة من غير تعرض لأسبابها ، سوى ما لهم من الإيمان والعمل الصالح ، أو وُدًّا فيما بينهم ، فيتحابون ويتواددون ويحبهم اللّه.

قال القشيري : يجعل فى قلوبهم ودّا للّه ، وهو نتيجة أعمالهم الخالصة ، وفى الخبر : «لا يزال العبد يتقرب إلىّ بالنوافل حتى يحبنى وأحبه». والتعرض لعنوان الرحمانية لما أنّ الموعود من آثارها ، وأن مودتهم رحمة بهم وبمن أحبهم. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال لعلىّ رضي اللّه عنه : «قل اللّهمّ اجعل لى عندك عهدا ، واجعل لى فى صدور المؤمنين مودّة» فنزلت الآية «١». وفى حديث البخاري وغيره : «إذا أحبّ اللّه عبدا قال لجبريل : إنى أحب فلانا فأحبّه ، فيحبّه جبريل ، ثمّ ينادى فى أهل السّماء إنّ اللّه قد أحبّ فلانا فأحبّوه ، فيحبّه أهل السّماء ، ثمّ يضع له المحبة فى الأرض» «٢».

وقال قتادة : (سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا) قال : أي واللّه ودا فى قلوب أهل الإيمان. وإن هرم بن حيان يقول :

ما أقبل عبد بقلبه على اللّه إلا أقبل اللّه بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم. قلت : ولفظ الحديث : «ما أقبل عبد بقلبه إلى اللّه عز وجل إلا جعل اللّه قلوب المؤمنين تفد إليه بالودّ والرحمة ، وكان اللّه إليه بكل خير أسرع» «٣». نقله فى الترغيب. وفى حديث آخر : «يعطى المؤمن ودّا فى صدور الأبرار ، ومهابة فى صدور الفجار». فتودّد الناس للعبد دليل على قبوله عند مولاه. أنتم شهداء اللّه فى أرضه. وفى بعض الأثر :

«لا يموت العبد الصالح حتى يملأ مسامعه مما يحب ، ولا يموت الفاجر حتى يملأ مسامعه مما

يكره». بالمعنى.

وأتى الحق جل لجلاله بالسين لأن السورة مكية ، وكانوا إذ ذلك ممقوتين عند الكفرة ، فوعدهم ذلك ، ثم أنجزه لهم حين جاء الإسلام ، فعزوا وانتصروا ، وتعشقت إليهم قلوب الخلق من كل جانب ، كما هو مسطر في تواريخهم. وقيل : الموعود في القيامة ، حين تعرض حسناتهم على رؤوس الأشهاد كأنها أنوار الشمس الضاحية «٤» ، ولعل إفراد هذا بالوعد من بين مالهم من الكرامات السنية لأن الكفرة سيقع بينهم يومئذ تقاطع وتباغض وتضاد. والله تعالى أعلم.

---

(١) عزاه فى المنثور (٤/ ٥١٢) لابن مردويه والديلمي ، عن البراء.

(٢) أخرجه البخاري فى (بدء الخلق ، باب : ذكر الملائكة) ، ومسلم فى (البر والصلة ، باب إذا أحب الله عبدا) من حديث أبى هريرة.

(٣) أخرجه الطبراني فى الأوسط (٥/ ١٨٦ ح ٥٠٢٥) بزيادة فى أوله ، من حديث أبى الدرداء ، وقال الهيثمي فى المجمع :

(١٠/ ٢٤٧) : رواه الطبراني فى الكبير والأوسط. وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب ، وهو كذاب.

(٤) التعبير بالاستقبال بالنسبة إلى الله تحقيق ، كالماضى ، والحاضر ، فليس عند الله زمن كما هو عندنا. والأحسن فى تأويل الآية أن نجعل السين حرف توكيد. والله أعلم.

(٣٦٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٦٨

الإشارة : سنّة اللّه تعالى فى أوليائه ، فى حال بدايتهم ، أن يسلط عليهم الخلق ، وينزل عليهم الخمول والذل بين عباده ، حتى يمقتهم أقرب الناس إليهم ، رحمة بهم واعتناء بقلوبهم لئلا تسكن إلى غيره. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه : اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا .. إلخ. فإذا تطهروا من البقايا وكملت فيهم المزايا ، وتمكنوا من معرفة الحق ، أعزهم وألقى مودتهم فى قلوب عباده ، هذا دأبه معهم فى الغالب ، وقد يحكم على بعضهم بالخمول حتى يلقاه على ذلك ، ولا يكون ذلك نقصا فى حقه بل كمالا ، وهم شهداء الملكوت ، لم يأخذوا من أجرهم شيئا. واللّه تعالى أعلم.

ولما ختم السورة الكريمة ، أمر نبيه صلى اللّه عليه وسلم بتبليغها ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٩٧ الى ٩٨]

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (٩٨)

قلت : الفاء لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم ، كأنه قيل – بعد إيحاء السورة الكريمة : بلغ هذا المنزّل عليك ، وبشر به ، وأنذر فإنما يسرناه .. إلخ. قاله أبو السعود.

يقول الحق جل جلاله : فَإِنَّما يَسَّرْناهُ أي : القرآن بِلِسانِكَ بأن أنزلناه على لغتك ، والباء بمعنى «على» وقيل : ضمّن التيسير معنى الإنزال ، أي : يسرنا القرآن وأنزلناه بلغتك لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ أي : السائرين إلى التقوى بامتثال ما فيه من الأمر والنهى ، وَتُنْذِرَ بِهِ أي : تخوف به قَوْماً لُدًّا لا يؤمنون به ، لجاجا وعنادا ، واللّدّ : جمع ألد ، وهو الشديد الخصومة ، اللجوج المعاند.

وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ أي : كثيرا من القرون الماضية أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين ، فهو وعد لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالنصر على الكفرة ووعيد لهم بالهلاك ، وحث له صلى اللّه عليه وسلم على الإنذار ، أي : دم على إنذارك لهم ، فسيهلكون كما أهلكنا من قبلهم من القرون ، هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أي : هل تشعر بأحد منهم ، وترى له من باقية أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً أي : صوتا خفيا ، هيهات قد انقطع دابرهم وهدأت أصواتهم ، وخربت قصورهم وديارهم ، وكذلك نفعل بغيرهم ، والمعنى : أهلكناهم بالكلية ، واستأصلناهم بحيث لا يرى منهم أحد ، ولا يسمع لهم صوت خفى ولا جلى. وجملة : (هَلْ تُحِسُّ) : استئناف مقرر لمضمون ما قبله ، وأصل الرّكز : الخفاء ، ومنه : ركز الرمح إذا غيب طرفه فى الأرض ، والرّكاز : المال المدفون المخفي. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما أنزل اللّه القرآن وسهله على عباده إلا ليقع به الوعظ والتذكير ، فأمر اللّه رسوله فى حياته بالبشارة والإنذار به ، وبقي الأمر لخلفائه ، فالواجب على العلماء والأولياء أن يتصدوا للوعظ والتذكير ، ولا يكفى عنه تعليم رسوم الشريعة ، فإن الوعظ إنما هو التخويف والتبشير ، كما قال تعالى : لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا.

لكن لا يتصدى للوعظ إلا من له نور يمشى به فى الناس ، فيسبقه نور قلبه إلى القلوب المستمعة ، فيقع كلامهم فى قلوب السامعين. قال فى الحكم : «تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ، فحيثما صار التنوير وصل التعبير». هذا النور هو نور المعرفة الذي هى مقام الفناء ، ويشترط فيه أيضا : أن يكون مأذونا له فى الكلام من شيخ كامل ، أو وحي إلهامى حقيقى ، فحينئذ يقع كلامه فى مسامع الخلق. وفى الحكم : «من أذن له فى التعبير حسنت فى مسامع الخلق عبارته ، وجليت إليهم إشارته».

وقال أيضا : «ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار ، إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار». وفى أمثال هؤلاء المتصدين للوعظ والتذكير ورد الخبر القدسي : «إنّ أودّ الأودّاء إلىّ من يحببنى إلى عبادى ، ويحبب عبادى إلىّ ، ويمشون فى الأرض بالنصيحة» .. جعلنا اللّه من خواصهم بمنّه وكرمه آمين. وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلّم تسليما.

(٣٦٩/٣)

(٣٧٠/٣)

سورة طه

مكية. وهى مائة وخمس وثلاثون آية. ووجه مناسبتها لما قبلها قوله : فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ «١» مع قوله :

ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى

، كأنه يقول : فإنما سهلناه عليك لترتاح به لا لتتعب. ثم افتتحها برموز بينه وبين حبيبه ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طه (١) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى (٣) تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى (٤)

الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (٥) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى (٦)

وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى (٧) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى (٨)

قلت : عن ابن عباس أن «طه» من أسماء الله تعالى ، وقيل : معناه : طوبى لمن هدى ، وقيل : يا طاهر يا هادى ، فالطاء تشير إلى طهارته صلى اللّه عليه وسلم وتطهيره من دنس الحس ، والهاء تشير إلى هدايته فى نفسه ، وهدايته غيره إلى حضرة القدس.

وروى عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «لى عشرة أسماء ..» فذكر أن منها «طه ويس» ، وقيل : معناه : طأ الأرض بقدمك لأنه كان يرفع رجلا فى الصلاة ويضع أخرى فى طول تهجده ، فأبدل الهمزة ألفا ، والضمير للأرض ، ورد بأنه لو كان كذلك لكتبت بالألف ، فإنّ الكتابة بصورة الحرف مع التلفظ

بخلافه من خصائص حروف المعجم. وقيل :

معناه : يا رجل. وهو مروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم ، وهو عندهم على اللغة النبطية ، أو السريانية «٢». قيل : من جعل معنى «طه» يا رجل ، لم يقف على طه ، وكذا من جعله اسما للنبى صلى اللّه عليه وسلم لأن النداء تنبيه على ما بعده ، ومن جعلها افتتاحا ، أو على وجه من الوجوه المذكورة فى البقرة ، وقف عليها ، إلا فى قول من جعلها قسما ، فإنه لا يقف عليها لأن قوله : (ما أَنْزَلْنا ...) إلخ جواب قسم.

---

(١) من الآية ٩٧ من سورة مريم.

(٢) انظر تفسير البغوي (٥/ ٢٦٢) ، وزاد المسير (٥/ ٢٦٩).

(٣٧١/٣)

قلت : المتبادر من سبب نزولها ومن قوله : (ما أَنْزَلْنا) : إما القسم أو النداء ، فالقسم على أن ذلك من أسماء الله ، والنداء على كون ذلك بمعنى يا رجل ، أو من أسمائه صلى اللّه عليه وسلم. وأمّا غير ذلك فبعيد ، إلا أن يكون ما بعد ذلك استئنافا بعد الوقف على «طه». قاله فى الحاشية.

و(إِلَّا تَذْكِرَةً) : مفعول لأجله. والاستثناء منقطع ، أي : ما أنزلناه لتتعب به ، لكن أنزلناه للتذكرة والوعظ ، و(تَنْزِيلًا) :

مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله ، أي : أنزل تنزيلا ، والأصح : أنه بدل من اللفظ بفعله الناصب له ، فلا يجمع بينه وبين المبدل منه ، وفيه معنى التأكيد لما قبله ، أو هو نص فى معناه ، وإنما تلون الكلام بالالتفات ، أو منصوب على المدح والاختصاص ، أو مفعول بيخشى ، أو حال من «الْقُرْآنَ» ، و(الرَّحْمنُ) : رفع على المدح ، وقد عرفت أن المرفوع مدحا ، فى حكم الصفة الجارية على ما قبلها ، وإن لم يكن تابعا له فى الإعراب ، ولذلك ألزموا حذف المبتدأ ليكون فى صورة متعلق من متعلقاته. وقرئ بالجر صفة للموصول ، وما قيل من أن الموصولات لا توصف إلا بالذي وحده فمذهب كوفى ، أو (الرَّحْمنُ) : مبتدأ ، و(عَلَى الْعَرْشِ) : خبره. و«عَلَى» : متعلقة باستوى ، قدمت للفواصل. و(إِنْ تَجْهَرْ) : شرط ، والجواب محذوف دل عليه (فَإِنَّهُ ...) إلخ ، أي : فالله غنى عن جهرك ، فإنه ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله تسلية لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، أو ترويحا له من التعب : يا محمد ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى أي : لتتعب نفسك بالمجاهدة فى العبادة.

روى أنه صلى اللّه عليه وسلم كان يقوم باللّيل حتّى تورّمت قدماه ، فقال له جبريل عليه السّلام : «أبق على نفسك ، فانّ لها عليك حقا». أي : ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك «١» وحملها على الرياضات الشاقة ، والشدائد الفادحة ، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة. أو : ما أنزلناه لتتعب نفسك فى تبليغه بمكابدة الشدائد فى مقاومة العتاة ومحاورة الطغاة ، وفرط التأسف على كفرهم والتحسر على إيمانهم ، كقوله : لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ «٢» ، بل للتبليغ ، وقد فعلت. وإطلاق الشقاء فى هذا المعنى شائع ، ومنه قولهم : أشقى من رائض مهر ، وقيل : إن أبا جهل والنضر بن الحارث قالا لرسول صلى اللّه عليه وسلم : إنك شقى ، حيث تركت دين آباءك ، وما نزل عليك هذا القرآن إلا لتشقى ، فردّ اللّه ذلك عليهم. والأول أظهر ، والعموم أحسن ، فإنه نفى عنه جميع الشقاء فى الدنيا والآخرة.

إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى أي : ما أنزلناه لتتعب ، لكن أنزلناه تذكرة وموعظة لمن يخشى الله - عز وجل - ليتأثر بالإنذار ، لرقة قلبه ولين عريكته ، أو لمن علم الله أنه يخشى بالتخويف ، وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لأنهم المنتفعون بها.

---

(١) أي : إجهاد نفسك.

(٢) الآية ٣ من سورة الشعراء.

تَنْزِيلًا أي : أنزل تنزيلا ، أو حال كون القرآن تنزيلا ، أي : منزلا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى ، ونسبة التنزيل إلى الموصول بعد نسبته إلى نون العظمة بقوله : (ما أَنْزَلْنا) لبيان فخامته تعالى بحسب الأفعال والصفات ، إثر بيانها بحسب الذات بطريق الإبهام ، ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير.

وتخصيص خلقهما بالذكر لتضادهما. وتقديم الأرض لكونه أقرب إلى الحس ، ووصف السموات بالعلى ، وهو جمع «عليا» لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل. وكل ذلك إلى قوله : (لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى) ، مسوق لتعظيم المنزل - عز وجل - المستتبع بتعظيم المنزّل عليه ، الداعي إلى تربية المهابة وإدخال الروعة ، المؤدية إلى استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان ، واستمالتهم إلى الخشية ، المفضية إلى التذكير والإيمان.

ثم قال تعالى : الرَّحْمنُ أي : هو الرحمن ، ووصف تعالى بالرحمانية إثر وصفه بالخالقية للإيذان بأن ربوبيته تعالى ، وقيامه بالأشياء ، من طريق الرحمة والإحسان ، لا بالإيجاب ، وفيه إشارة إلى أن تنزيله

القرآن أيضا من رحمته – تعالى – ، كما ينبئ عنه قوله عز من قائل : الرَّحْمنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ «١». أو : (الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى) : مبتدأ وخبر ، وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذي من شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب للإيذان بأن ذلك أمر بيّن لا خفاء فيه ، غنى عن الإخبار صريحا. والاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان ، يقال : استوى فلان على سرير الملك مرادا به ملك الملك والتصرف ، وإن لم يقعد على سرير أصلا ، والمراد : تعلق قدرته وقهريته فى جميع الكائنات بالتدبير والتصرف التام.

وسئل أحمد بن حنبل عن الاستواء ، فقال : استواء من غلب وقهر ، لا استواء كما يتوهم البشر. وسئل عنه مالك والشافعي – رضى الله عنهما – فقالا : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب ، والسؤال عن هذا بدعة وضلالة ، آمنوا بلا تشبيه ، وصدّقوا بلا تمثيل ، وأمسكوا عن الخوض فى هذا كل الإمساك.

وقال الجنيد رضي اللّه عنه : خلق الله العرش فوق سبع سموات ، وجعله قبلة لدعاء المخلوقات ، وقابله بقلب عبده المؤمن ، ليكون محلا للتجليات والتنزلات والمخاطبات. هـ. وقد تقدم الكلام عليها فى الأعراف مستوفيا «٢».

لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما ، وَما بَيْنَهُما من الموجودات الكائنة فى الجو دائما ، كالهواء والسحاب ، أو أكثريا كالطير ، أي : له ذلك وحده دون غيره ، لا شركة ولا استقلالا ، كل ما ذكر هو له ملكا وتصرفا ، وإحياء وإماتة ، وإيجادا واعداما ، وَما تَحْتَ الثَّرى :

وما وراء التراب المتصل بالهوى السفلى. وعن محمد بن كعب : أنه ما تحت الأرضين السبع. وعن السدى : أن

---

(١) الآيتان : ١ – ٢ من سورة الرحمن.

(٢) راجع تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف. [.....]

الثرى هو الصخرة التي عليها الأرض السابعة ، وذكره مع دخوله تحت ما فى الأرض لزيادة التقرير. وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ أي : وإن تجهر بذكره تعالى – أو دعائه ، فاعلم أنه تعالى غنى عن جهرك فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى أي : ما أسررته إلى غيرك ، وشيئا أخفى من ذلك ، وهو ما أخطرته ببالك ، من غير أن تتفوه به

أصلا أو : السر : ما أسررته فى نفسك ، وأخفى منه : ما ستسره فى المستقبل. وهو إمّا نهى عن الحركة ، كقوله تعالى :

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ «١» وإما إرشاد للعباد إلى أن الجهر ليس لإسماعه تعالى بل لغرض آخر من تأنيس النفس بالذكر وتثبيته فيها ، ومنعها من الاشتغال بغيره ، وقطع الوسوسة عنها ، وهضمها بالتضرع والجؤار. هذا والغرض من الآية : بيان إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء ، إثر بيان سعة سلطانه وشمول قدرته بجميع الكائنات.

ثم بيّن الموصوف بتلك الكمالات ، فقال : اللَّهُ أي : ما ذكر من صفات الكمال ، موصوفها الله المعبود بالحق ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أي : لا معبود بحق إلا هو ، ولا مستحق للعبادة إلا هو. وهو تصريح بما تضمنه ما قبله من اختصاص الألوهية به سبحانه ، فإنّ ما أسند إليه تعالى من خلق جميع الموجودات ، ومن الرحمانية والمالكية للكل ، والعلم الشامل ، يقتضى اختصاصه تعالى بالألوهية والربوبية ، وقوله تعالى : لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى بيان لكون ما ذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه تعالى وصفاته ، من غير تعدد فى ذاته تعالى فالأسماء والصفات كثيرة ، والمسمى والموصوف واحد.

و(الْحُسْنى) : تأنيث الأحسن ، فعلى ، يوصف به الواحد المؤنث ، والجمع المذكر والمؤنث ، ك مَآرِبُ أُخْرى «٢» ، وآياتِنَا الْكُبْرى «٣». والله تعالى أعلم.

الإشارة : من تأمل القرآن العظيم ، وما جاء به الرسول - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - وجده يدل على ما يفضى إلى الراحة دون التعب ، وإلى السعادة العظمى دون الشقاء ، لكن لا يتوصل إلى الراحة إلا بعد التعب ، ولا يفضى العبد إلى السعادة الكبرى إلا بعد الطلب ، فإذا اجتهد العبد فى طلب ربه ، وكله إلى شيخ ينقله من عمل الجوارح إلى عمل القلوب ، فإذا وصل العمل إلى القلب استراحت الجوارح ، وأفضى حينئذ إلى روح وريحان ، وجنة ورضوان ، أعنى جنة العرفان. ولذلك قال الشيخ أبو الحسن : «ليس شيخك من يدلك على تعبك ، إنما شيخك من يريحك من تعبك» ، كما فى لطائف المنن.

وقال شيخنا القطب ابن مشيش : وقد سئل عن قوله صلى اللّه عليه وسلم : «يسّروا ولا تعسّروا» فقال : دلوهم على الله ، ولا تدلوهم على غيره ، فإن من دلّك على الدنيا فقد غشك ، ومن دلّك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلّك على الله فقد

---

(١) من الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ١٨ من سورة طه.

(٣) من الآية ٢٣ من سورة طه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٧٥

نصحك. هـ. فإذا دلك على الله غيّبك عن وجود نفسك بشهود ربك ، وهى السعادة العظمى ، كما تقدم في سورة هود. فمن اتخذ شيخا ثم لم ينقله من مقام التعب ، ولم يرحله من مقام إلى مقام ، فاعلم أنه غير صالح للتربية.

وقوله تعالى : إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى ، قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن العارف : قيل : أنزل الله القرآن لتذكير سابق الوصال لأن الأرواح لمّا دخلت الأشباح اكتسبت خشية ووحشة وفرقة عن معادنها ، فأنزل الله القرآن تأنيسا لأن المحب يأنس بكتاب حبيبه وكلامه. وقال جعفر الصادق : أنزل الله القرآن موعظة للخائفين ، ورحمة للمؤمنين ، وأنسا للمحبين. وأيضا : القرآن يذكّر عظمة الله الموجبة خشيته ، فهو مذهب للغفلة. ثم قال : وفى الشهود الحاصل بالتذكير رفع المشقة ، ووجدان الراحة بالطاعة ، لكونه يصير محمولا ، وقد قال : وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي «١» ، أي : لشهودى فيها ، وفى ذلك قرة عين ، وراحة ، وأنس ، وتشابه حال المصلى بحال موسى ، بجامع النجوى ، فلذلك ذكر فى سياقه. واللّه أعلم. هـ.

وقوله تعالى : الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى ، تفسيرها هو الذي قصد ابن عطاء الله فى الحكم بقوله : «يا من استوى برحمانيته على عرشه ، فصار العرش غيبا فى رحمانيته ، كما صارت العوالم غيبا فى عرشه ، محقت الآثار بالآثار ، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار». وأنت خبير بأن الرحمانية وصف لازم للذات ، والصفة لا تفارق الموصوف ، فإذا استوت الرحمانية على العرش وغمرته فقد استوت عليه أسرار الذات وغمرته ، وهى أفلاك الأنوار التي أحاطت بالعرش والآثار ، ومحت كل شىء ، حتى لم يبق إلا الذي ليس كمثله شىء ، وليس معه شىء ، وهو السميع البصير. وما نسبة حس الآثار بالنسبة إلى أفلاك الأسرار التي استوت عليه إلا كالهباء فى الهواء. والله تعالى أعلم وأعظم.

ثم ذكر قصص موسى عليه السّلام ، وتسليته لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، وعما لقى من التعب فى تبليغ الوحى ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٩ الى ١٦]

وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (٩) إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (١٠) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى (١٣)

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى (١٦)

---

(١) من الآية ١٤ من سورة طه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٧٦

قلت : قال القشيري : أجرى اللّه [سنته] «١» فى كتابه أن يذكر قصة موسى فى أكثر المواضع التي يذكر فيها حديث نبينا - عليه الصلاة والسلام - يتبعه بذكر موسى ، تنبيها على علو شأنه ، لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور ، فالتكرير فى التفصيل يوجب التفضيل فى الوصف لأن القضية الواحدة إذا أعيدت مرارا كثيرة كانت فى باب البلاغة أتم ، ولا سيما فى كل مرة فائدة زائدة. هـ.

قلت : ولعل وجه تناسقهما فى الذكر قرب المنزلة ، ومشاركة الصفة ، وذلك باعتبار المعالجة وهداية الأمة ، فإن أمة موسى عليه السّلام كانت انتشرت فلم يقع لنبى هداية على يديه لقومه مثله ، إلا لنبينا - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - فإن أمته انتشرت وشاعت مسير الشمس والقمر ، وفى حديث البخاري ما يدل على هذا ، حين عرضت عليه الأمم صلى اللّه عليه وسلم مرة ، فرأى أمة موسى عليه السّلام كثيرة ، ثم رأى أمته قد سدت الأفق. فانظر لفظه فيه «٢».

وقال أبو السعود : المناسبة إنما هى تقرير أمر التوحيد الذي إليه انتهى مساق الحديث ، وبيان أنه مستمر فيما بين الأنبياء ، كابرا عن كابر ، وقد خوطب به موسى عليه السّلام ، حيث قيل له : إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ، وبه ختم عليه السلام مقاله ، حيث قال : إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ «٣» ، ثم ردّ مناسبة التسلية بأن مساق النظم الكريم إنما هو لصرفه عليه السلام عن اقتحام المشاق. فانظره.

و(هَلْ) : لفظة استفهام ، والمراد به التشويق لما يخبره به ، أو التنبيه. و(إِذْ رَأى) : ظرف للحديث لأن فيه معنى الفعل ، أو لمضمر مؤخر ، أي : حين رأى كان كيت وكيت ، أو : لاذكر ، أي : اذكر وقت رؤيته .. إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى أي : قصته فى معالجة فرعون ، فإنا سنذكرها لك تسلية وتقريرا لأمر التوحيد ، إِذْ رَأى ناراً تلمع فى الوادي ، وذلك أنه عليه السلام استأذن شعيبا عليه السّلام فى

---

(١) ما بين المعكوفتين زيادة ليست فى الأصول.

(٢) قال ابن عباس رضي اللّه عنه : خرج علينا النبي صلى اللّه عليه وسلم يوما ، فقال : عرضت علىّ الأمم ، فجعل يمر النبي معه الرجلان ، والنبي معه الرهط ، والنبي ليس معه أحد ، ورأيت سوادا كثيرا سد الأفق ، فرجوت أن تكون أمتى. فقيل : هذا موسى وقومه. ثم قيل لى : انظر ، فرأيت سوادا كثيرا سد الأفق ، فقيل لى : انظر هكذا وهكذا ، فرأيت سوادا كثيرا سد الأفق ، فقيل : هؤلاء أمتك ، ومع

هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ...» الحديث أخرجه البخاري فى (الطب ، باب من لم يرق)

(٣) من الآية ٩٨ من سورة طه.

(٣٧٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٧٧

الخروج إلى أمه وأخيه ، فخرج بأهله ، وأخذ على غير الطريق ، مخافة من ملوك الشام ، فلما وافى وادي طوى ، وهو بالجانب الغربي من الطور ، ولد له ولد فى ليلة مظلمة شاتية مثلجة ، وكانت ليلة الجمعة ، وقد ضل عن الطريق ، وتفرقت ماشيته ، ولا ماء عنده ، فقدح النار فلم تور المقدحة.

فبينما هو فى ذلك إِذْ رَأى ناراً على يسار الطريق من جانب الطور ، فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا أي : أقيموا مكانكم. أمرهم عليه السّلام بذلك لئلا يتبعوه ، كما هو المعتاد من النساء. والخطاب للمرأة والخادم والولد ، وقيل : لها وحدها ، والجمع للتعظيم ، إِنِّي آنَسْتُ أي : أبصرت ناراً ، وقيل : الإيناس خاص بإبصار ما يؤنس به. لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أي : بشعلة مقتبسة من معظم النار ، وهو المراد بالجذوة فى سورة القصص «١» ، وبالشهاب القبس ، «٢» أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً هاديا يدلنى إلى الطريق ، فهو مصدر بمعنى الفاعل ، و(أَوْ) فى الموضعين : لمنع الخلو ، لا لمنع الجمع إذ يمكن أن يقتبس من النار ويجد هاديا. ومعنى الاستعلاء فى قوله : عَلَى النَّارِ لأن أهلها يستعلون عليها عند الاصطلاء ، ولما كان الإيتاء بها غير محقق ، صدّر الجملة بكلمة الترجي.

فَلَمَّا أَتاها أي : النار التي آنسها. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : رأى شجرة خضراء ، حفت بها ، من أسفلها إلى أعلاها ، نار بيضاء ، تتقد كأضوء ما يكون ، فوقت متعجبا من شدة ضوئها ، روى أن الشجرة كانت عوسجة ، وقيل : سمرة «٣» .. بينما هو ينظر ، نُودِيَ فقيل : يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ، أو بأنى أنا ربك ، وتكرير الضمير لتأكيد الدلالة ، وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة. يروى أنه لما نودى يا موسى ، قال عليه السّلام : من المتكلم؟ فقال الله عز وجل : (أَنَا رَبُّكَ) ، فوسوس إليه الخاطر : لعلك تسمع كلام شيطان ، قال : فلما قال : (إِنَّنِي أَنَا) ، عرفت أنه كلام الله عز وجل. قيل : إنه سمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء.

ثم قال له : فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ لأنه أليق بحسن الأدب ، ومنه أخذ الصوفية - رضى الله عنهم - خلع نعالهم بين يدى المشايخ والأكابر ، وقيل : ليباشر الوادي المقدس بقدميه ، ومنه يؤخذ تعظيم المساجد ، بخلعها ولو طاهرة ، وقيل : إن نعليه كانتا من جلد حمار غير مدبوغ. وقيل : النعلين :

الكونين ، أي : فرغ قلبك من الكونين إن أردت دخول حضرتنا. وقوله تعالى : إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ : تعليل لوجوب الخلع ، وبيان لسبب ورود الأمر بذلك.
روى أنه عليه السّلام خلعهما وألقاهما وراء الوادي ، و«طُوىً» : بدل من الوادي ، وهو اسم له. وقرأ منونا لتأوله بالمكان ، وغير المنون لتأوله بالبقعة.

---

(١) فى قوله : لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ، من الآية ٢٩ من سورة القصص.
(٢) فى قوله : سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ، من الآية ٧ من سورة النمل.
(٣) انظر تفسير الطبري (١٦/ ١٤٣) ، والبغوي (٤/ ٢٦٥).

(٣/٣٧٧)

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ أي : اصطفيتك للنبوة والرسالة ، وقرأ حمزة : (و إنّا اخترناك) بنون العظمة ، فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى أي : للذى يوحى إليك ، أو لوحينا إليك ، وهو : إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا ، فالجملة بدل من «ما».
فَاعْبُدْنِي أفردنى بالعبادة والخضوع ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فإن اختصاص الألوهية به سبحانه من موجبات تخصيص العبادة به تعالى. وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي : لتذكرنى فيها لاشتمالها على الأذكار ، وأفردت بالذكر ، مع اندراجها فى الأمر بالعبادة لفضلها على سائر العبادات لما نيطت به من ذكر المعبود ، وشغل القلب واللسان بذكره ، فإنّ الذكر كما ينبغى لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة.
أو «لِذِكْرِي» : لإخلاص ذكرى وابتغاء وجهى ، بحيث لا ترائى بها غيرى. وقيل : لذكرى إياها ، وأمرى بها فى الكتب ، أو لأن أذكرك فيها بالمدح والثناء ، وقيل : لأوقات ذكرى ، وهى مواقيت الصلوات ، وقيل : لذكر صلاتى إذا نسيتها ، لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال : «من نام عن صلاة ، أو نسيها ، فليصلّها إذا ذكرها لأنّ اللّه تعالى يقول : وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي» «١».
قال بعضهم : [أصول العمل ثلاثة] «٢» : أقوال وأفعال وأحوال ، فأفضل الأقوال : لا إله إلا الله ، وأفضل الأفعال :
الصلاة لله أو بالله ، وأفضل الأحوال : الطمأنينة بشهود الله.
إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ : كائنة لا محالة ، وهو تعليل لوجوب العبادة وإقامة الصلاة ، وإنما عبّر بالإتيان تحقيقا

لحصولها ، بإبرازها فى معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين. أَكادُ أُخْفِيها أي : لا أظهرها ، بأن أقول :
آتية فقط ، فلا تأتى إلا بغتة ، أو أكاد أظهرها بإيقاعها ، من أخفاه ، إذا أظهره ، فأخفى - على هذا - من الأضداد.
وردّه ابن عطية ، فإن الذي بمعنى الظهور هو : «خفى» الثلاثي ، لا «أخفى». وقال الزمخشري : قد جاء فى بعض اللغات : أخفى بمعنى خفى ، أي : ظهر ، فلا اعتراض.
ونقل الثعلبي عن ابن عباس وأكثر المفسرين أن المعنى : أكاد أخفيها عن نفسى ، فكيف عن غيرى؟ وكذلك هو فى مصحف أبى ، وفى مصحف عبد الله : فكيف يعلمها مخلوق ، وفى بعض القراءات : وكيف أظهرها لكم؟ قال قطرب : فإن قيل : كيف يخفى الله تعالى عن نفسه ، وهو خلق الأشياء؟ قلنا : إن الله تعالى كلم العرب بكلامهم الذي يعرفونه. انظر بقية كلامه.

---

(١) أخرجه بنحوه : البخاري فى (مواقيت الصلاة ، باب من نسى صلاة فليصل إذا ذكرها) ، ومسلم فى (المساجد ، باب قضاء الصلاة الفائتة ، واستحباب تعجيل قضائها) ، من حديث أنس رضي اللّه عنه.
(٢) ما بين المعكوفتين : مشتبه فى المخطوطة الأمّ ، وغير موجود فى غيرها.

وظهور علاماتها لا يزيل إخفاءها. قال ابن عرفة فى تفسيره : وإذا ظهرت عند وقوع الأشراط لم ينسلخ عنها معنى الخفاء المتقدم ، غاية الأمر أنها بذكر الأشراط وسط بين الإخفاء والإظهار ، فتكون مقاربة لكل واحد منهما. هـ.
وقوله تعالى : لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى متعلق بآتية ، أو بأخفيها - على معنى : أظهرها ، لتجزى كل نفس بسعيها ، أي : بعملها خيرا كان أو شرا. فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها أي : عن ذكر الساعة ومراقبتها والاستعداد لها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها حتى تكسل عن التزود لها. والنهى - وإن كان بحسب الظاهر متوجها للكافر عن صد موسى عليه السّلام - لكنه فى الحقيقة نهى له عليه السّلام عن الانصداد عنها ، على أبلغ وجه ، فإنّ النهى عن أسباب الشيء المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهاني ، كقوله تعالى : لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي «١» ، أي : لا تتبع فى الصد عنها من لا يؤمن بها وَاتَّبَعَ هَواهُ أي : ما تهواه نفسه من اللذات الفانية ، فَتَرْدى : فتهلك فإنّ الإغفال عنها ، وعن تحصيل ما ينجى من أهوالها ، مستتبع

للهلاك لا محالة. وبالله التوفيق.

الإشارة : وهل أتاك أيها العارف حديث موسى ، كيف سار إلى نور الحبيب ، ومناجاة القريب ، إذ رأى نارا فى مرأى العين ، وهو نور تجلّى الحبيب بلا بين ، فقال لأهله ومن تعلق به : امكثوا ، أقيموا فى مقام الطلب ، واصبروا وصابروا ورابطوا على قلوبكم ، فى نيل المطلب ، إنى آنست نارا ، وهو نور وجه الحبيب فى مرائى تجلياته ، وهذا مقام الفناء ، لعلى آتيكم منها بقبس ، تقتبسون منه أنوارا لقلوبكم واسراركم. أو أجد على النار هدى يهديني إلى مقام البقاء والتمكين ، فلما أتاها ، وتمكن من شهودها ، نودى يا موسى : إنى أنا ربك ، فلا نار ولا أثر ، وإنما وجه الحبيب قد تجلى وظهر ، فى مرأى الأثر ، فاخلع نعليك ، أي : اخرج عن الكونين إن أردت شهود حضرة المكون ، كما قال القائل :

واخلع النعلين ، إن جئت إلى ذلك الحي ففيه قدسنا

وعن الكونين كن منخلعا وأزل ما بيننا من بيننا

إنك بالواد المقدس ، أي : بحر حضرة القدس ومحل الأنس ، قد طويت عنك الأكوان ، وأبصرت نور الشهود والعيان ، وأنا اخترتك لحضرتي ، واصطفيتك لمناجاتى ، فاستمع لما يوحى إليك منى ، فأنا الله لا إله إلا أنا وحدي ، فإذا تمكنت من شهودى ، فانزل لمقام العبودية شكرا ، وأقم الصلاة لذكرى ، إن الساعة آتية لا محالة ، فأكرم مثواك ، وأجل منصبك ، وأرفعك مع المقربين ، فلا يصدنك عن مقام الشهود أهل العناد والجحود ، فتسقط عن مقام القرب والأنس ، وتصير فى جوار أهل حجاب الحس ، ولعل هذا المنزع هو الذي انتحى ابن الفارض ، حيث قال فى كلام له :

---

(١) من الآية ٨٩ من سورة هود.

آنست فى الحيّ نارا ليلا فبشّرت أهلي

قلت : امكثوا ، فلعلّى أجد هداى ، لعلّى

دنوت منها فكانت نار التكلم قبلى

نوديت منها كفاحا : ردّوا ليالى وصلي

حتى إذا ما تدانى ال ميقات فى جمع شملى

صارت جباليّ دكا من هيبة المتجلّى

ولاح سرّ خفي يدريه من كان مثلي
فالموت فيه حياتى وفى حياتى قتلى
وصرت موسى زمانى مذ صار بعضى كلي
قوله : «صارت جبالى دكا» ، أي : جبال وجوده ، فحصل الزوال من هيبة نور المتجلى ، وهو الكبير المتعال. وهذا إنما يكون بعد موت النفس وقهرها ، فإنها حينئذ تحيا بشهود ربها ، حياة لا موت بعدها. وقوله : «مذ صار بعضى كلى» يعنى : إنما حصلت له المناجاة والقرب الحقيقي حين فنيت دائرة حسه ، فاتصل جزء معناه بكل المعنى المحيط به ، وهو بحر المعاني المفنى للأوانى. وبالله التوفيق.
ثم ذكر مكالمته مع كليمه عليه السّلام ، فقال :
[سورة طه (٢٠) : الآيات ١٧ الى ٢٣]
وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (١٧) قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (١٨) قالَ أَلْقِها يا مُوسى (١٩) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى (٢٠) قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (٢١)
وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى (٢٣)
قلت : (وَ ما) : استفهامية ، مبتدأ ، و(تِلْكَ) : خبر ، أو بالعكس ، فما : خبر ، وتلك : مبتدأ ، وهو أوفق بالجواب.
و(بِيَمِينِكَ) : متعلق بالاستقرار حالا ، أي : وما تلك ، قارة أو مأخوذة بيمينك ، والعامل معنى الإشارة.
وقيل : (تِلْكَ) :
موصولة ، أي : وما التي هى بيمينك ، والاستفهام هنا : إيقاظ وتنبيه له عليه السّلام على مما سيبدو له من العجائب ، وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه.

يقول الحق جل جلاله : وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى ، إنما سأله ليريه عظيم ما يفعل بها من قلبها حية ، فمعنى السؤال : تقريره على أنها عصى ، ليتبين له الفرق بين حالها قبل قلبها وبعده ، وقيل : إنما سأله ليؤنسه وينبسط معه ، فأجابه بقوله : هِيَ عَصايَ ، نسبها لنفسه تحقيقا لوجه كونها بيمينه ، روى أنها كانت عصا آدم عليه السّلام ، فأعطاها له شعيب ، حين قدمه لرعى غنمه ، على ما يأتى فى سورة القصص. وكان فى رأسها شعبتان ، وفى أسفلها سنان ، واسمها نبعة ، فى قول مقاتل «١».

أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها أي: أعتمد عليها إذا مشيت، وعند الإعياء، والوقوف على رأس قطيع الغنم، وَأَهُشُّ أي: أخبط بِها الورق من الشجر ليسقط عَلى غَنَمِي فتأكله. وقرئ بالسين، وهو زجر الغنم، تقول العرب: هس هس، فى زجرها، وعداه بعلى لتضمنه معنى الإقبال والتوجه. وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى أي: حاجات أخرى من هذا الباب. قال ابن عباس: كان موسى عليه السّلام يحمل عليها زاده وسقاءه، فجعلت تأتيه وتحرسه، ويضرب بها الأرض فتخرج ما يأكل يومه، ويركز بها فيخرج الماء، فإذا رفعها ذهب، وكان يرد بها عن غنمه ونعمه الهوام بإذن الله، وإذا ظهر له عدو حاربت وناضلت عنه، وإذا أراد الاستسقاء من البئر أدلاها، فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كالدلو فيستقى بها، وكان يظهر على شعبتيها كالشمعتين بالليل فيستضيئ بها، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فتغصّنت غصن تلك الشجرة وأورقت وأثمرت. فهذه المآرب «٢».

وكأنه عليه السّلام فهم أن المقصود من السؤال بيان حقيقتها، وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء، فلذلك أطنب فى كلامه، فلما بدت منها خوارق بديعة علم أنها آية باهرة ومعجزات قاهرة، وأيضا: الإطناب فى مناجاة الأحباب محمود.

قالَ له تعالى: أَلْقِها يا مُوسى لترى من شأنها ما لم يخطر ببالك، قيل: إنما أمر بإلقائها قطعا للسكون إليها، لما كان فيها من المآرب، وبالغ الحق تعالى فى ذلك بقلبها حية، حتى خاف منها، وحين قطعه عنها، وأخرجها من قلبه، بالفرار منها ردها إليه بقوله: خُذْها وَلا تَخَفْ فَأَلْقاها على الأرض فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى، روى أنه عليه السّلام ألقاها فانقلبت حية صفراء، فى غلظ العصا، ثم انتفخت وعظمت، فلذلك شبهت بالجان تارة، وبالثعبان مرة أخرى، وعبّر عنها هنا بالاسم العام للحالين، وقيل: انقلبت من أول الأمر ثعبانا، وهو أليق بالمقام، كما يفصح عنه قوله عز وجل: فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ «٣»، وإنما سميت بالجان فى الجلادة وسرعة المشي، لا فى صغر الجثة. وقيل: الجان عبارة عن ابتداء حالها، والثعبان عن انتهائه.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٥/ ٢٦٨). [.....]

(٢) قال الحافظ ابن كثير عن هذه المآرب: الظاهر أنها - أي: العصا - لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السّلام صيرورتها ثعبانا، فما كان يفرّ منها هاربا، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية، انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٥).

(٣) من الآية ١٠٧ من سورة الأعراف

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٨٢

قالَ تعالى : خُذْها يا موسى ، وَلا تَخَفْ ، قال ابن عباس رضي اللّه عنه : انقلبت ثعبانا ذكرا ، يبتلع كل شيء من الصخر والشجر ، فلما رآه كذلك خاف ونفر ، ولحقه ما يلحق البشر عند مشاهدة الأهوال من الخوف والفزع ، إذ لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية. سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى أي : سنعيدها ، بعد الأخذ ، إلى حالتها الأولى التي كانت عليها عصا ، قيل : بلغ عليه السّلام عند ذلك من الثقة وعدم الخوف إلى حيث كان يدخل يده في فمها ، ويأخذ بلحييها. فلما أخذها عادت عصا ، وحكمة قلبها وأخذها هنا ليكون معها على ثقة عند مخاصمة فرعون ، وطمأنينة من أمره ، فلا يعتريه شائبة دهش ولا تزلزل. والسيرة : فعلة من السير ، يجوز بها إلى الطريقة والهيئة ، وانتصابها على نزع الخافض.

ثم أراه معجزة أخرى ، فقال : وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ أي : أدخلها تحت عضدك ، فجناح الإنسان : جنباه ، مستعار من جناح الطير ، تَخْرُجْ بَيْضاءَ : جواب الأمر ، أي : إن أدخلتها تخرج بيضاء شعاعية ، مِنْ غَيْرِ سُوءٍ أي : حال كونها كائنة من غير عيب بها كبرص ونحوه. روى أنه عليه السّلام كان آدم اللون ، فأخرج يده من مدرعته بيضاء ، لها شعاع كشعاع الشمس ، تضيء حال كونها آيَةً أُخْرى أي : معجزة أخرى غير العصا ، لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى أي : فعلنا ما فعلنا ، لنريك بعض آياتنا العظمى ، أو : لنريك الكبرى من آياتنا. قال ابن عباس : «كانت يد موسى أكبر آياته». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يقال للفقير : وما تلك بيمينك أيها الفقير؟ فيقول : هى دنياى أعتمد عليها فى معاشى وقيام أمورى ، وأنفق منها على عيالى ، ولى فيها حوائج أخرى من الزينة والتصدق وفعل الخير ، فيقال له : ألقها من يدك أيها الفقير ، واخرج عنها ، أو أخرجها من قلبك إن تيسر ذلك مع الغيبة عنها ، فألقاها وخرج عنها ، فيلقيها ، فإذا هى حية كانت تلدغه وتسعى فى هلاكه وهو لا يشعر. فلما تمكن من اليقين ، وحصل على غاية التمكين ، قيل له : خذها ولا تخف منها ، حيث رفضت الأسباب ، وعرفت مسبب الأسباب ، فاستوى عندك وجودها وعدمها ، ومنعها وإعطاؤها ، سنعيدها سيرتها الأولى ، تأخذ منها مأربك ، وتخدمك ولا تخدمها. يقول الله تعالى : «يا دنياى ، اخدمي من خدمنى ، وأتبعى من خدمك» «١».

وأما قوله تعالى فى حديث آخر مرفوعا : «تمررى على أوليائى ولا تحلو لهم فتفتنهم عنى» «٢» فالمراد بالمرارة : ما يصيبهم من الأهوال والأمراض وتعب الأسفار ، وإيذاء الفجار وغير ذلك. وقد يلحقهم الفقر الظاهر شرفا لهم ، لقوله صلى اللّه عليه وسلم : «الفقر فخرى وبه أفتخر» «٣» ، أو كما قال عليه السّلام إن صح. وقال شيخنا البوزيدى رضي اللّه عنه :

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي فى تاريخه (٨/ ٤٤) عن ابن مسعود مرفوعا. وقال الشوكانى فى الفوائد (ص/ ٢٣٨) : «وفى إسناده الحسن بن داود والحديث موضوع». والحديث فى الإتحاف السنية

(٢٥٧) للديلمى مختصرا.

(٢) أخرجه البيهقي فى الشعب (ح ٩٨٠٠) بنحوه ومطولا عن قتادة بن النعمان ، وقال البيهقي : لم نكتبه إلا بهذا الإسناد ، وفيه مجاهيل. والحديث فى الاتحافات (٢٥٨) للديلمى.

(٣) قال القاري فى الأسرار المرفوعة (ص ٢٥٥ ، ح ٣٢٠) «قال الحافظ ابن حجر : «موضوع لا أصل له».

(٣٨٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٨٣

الحديث الأول : فى الصالحين المتوجهين من أهل الظاهر ، والثاني - يعنى تمرى .. إلخ - فى الأولياء العارفين من أهل الباطن. هـ. ويقال له أيضا - إن تجرد وألقى الدنيا من يده وقلبه : اضم يد فكرتك إلى قلبك ، تخرج بيضاء نورانية صافية ، لا تخليط فيها ولا نقص ، هى آية أخرى ، بعد آية التجريد والصبر على مشاقه.

وقال فى اللباب : اليد : يد الفكر ، والجيب : جيب الفهم ، وخروجها بيضاء بالعرفان. هـ. قال الورتجبي : أرى اللّه موسى من يده أكبر آية ، وذلك أنه ألبس أنوار يد قدرته يد موسى ، فكان يد موسى يد قدرة اللّه ، من حيث التخلق والاتصاف ، كما فى حديث : «كنت له سمعا وبصرا ولسانا ويدا». هـ. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ابتداء رسالة موسى عليه السّلام ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٢٤ الى ٣٥]

اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (٢٤) قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)

وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (٢٩) هارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣)

وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً (٣٥)

قلت : (هارُونَ) : مفعول أول ، و(وَزِيراً) : مفعول ثان ، قدّم اعتناء بشأن الوزارة ، و(لِي) : صلة ، لا جعل ، أو متعلق بمحذوف حال من (وَزِيراً) لأنه صفة له فى الأصل. و(مِنْ أَهْلِي) : إما صفة وزيرا ، أو صلة لا جعل ، وقيل : إن (لِي وَزِيراً) : مفعولا اجعل ، و(هارُونَ) : عطف بيان لوزير. و(أَخِي) فى الوجهين : بدل من هارون ، أو عطف بيان آخر.

يقول الحق جل جلاله ، لنبيه موسى عليه السّلام : اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ بما رأيته من الآيات الكبرى.

وادعه إلى عبادتى وحدي ، وحذره من نقمتى ، إِنَّهُ طَغى أي : جاوز الحد فى التكبر والعتو والتجبر ، حتى تجاسر على دعوى الربوبية. قالَ موسى عليه السّلام مستعينا بربه عز وجل : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي أي : وسعه حتى لا يضيق بحمل أعباء الرسالة ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي أي : سهّله حتى لا يصعب علىّ شىء أقصده. والجملة استئنافية بيانية ، كأن سائلا قال : فماذا قال عليه السّلام ، حين أمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير؟ فقيل : قال رب اشرح لى صدرى ... إلخ.

كأنه ، لما أمر بهذا الخطاب الجليل ، تضرع إلى ربه الجليل ، وأظهر عجزه وضعفه ، وسأل ربه تعالى أن يوسع صدره ، ويفسح قلبه ، ويجعله عليما بشؤون الناس وأحوالهم ، حليما صفوحا عنهم ، ليلتقى ما عسى أن يرد عليه من

(٣٨٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٨٤

الشدائد والمكاره ، بجميل الصبر وحسن الثبات ، فيلقاها بصدر فسيح ، وجأش رابط ، وأن يسهل عليه مع ذلك أمره ، الذي هو أجلّ الأمور وأعظمها ، وأصعب الخطوب وأهولها ، بتيسير الأسباب ورفع الموانع. وفى زيادة كلمة (لِي) ، مع انتظام الكلام بدونها ، تأكيد لطلب الشرح والتيسير بإبهام المشروح والميسّر أولا ، ثم تفسيرهما ثانيا ، وفى تقديمهما وتكريرهما : إظهار مزيد اعتناء بشأن كل من المطلوبين ، وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما.

ثم قال : وَاحْلُلْ أي : امشط وافسح عُقْدَةً مِنْ لِسانِي ، روى أنه كان فى لسانه رتة من أثر جمرة أدخلها فاه فى صغره. وذلك أنه كان فى حجر فرعون ذات يوم ، فلطمه ونتف لحيته ، فقال فرعون لآسية امرأته : هذا عدو لى ، فقالت آسية : على رسلك ، إنه صبى لا يفرق بين الجمر والياقوت ، ثم جاءت بطستين فى أحدهما الجمر ، وفى الآخر الياقوت ، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار ، حتى رفع جمرة ووضعها على لسانه ، فبقيت له رتة فى لسانه ، واختلف فى زوال العقدة بكمالها فمن قال به تمسك بقوله تعالى : قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى ، ومن لم يقل به احتج بقول : هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً «١» ، وقوله تعالى : وَلا يَكادُ يُبِينُ «٢» وأجاب عن الأول : بأنه لم يسأل حلّ عقدة لسانه بالكلية ، بل حلّ عقدة تمنع الإفهام ، فخفف بعضها لدعائه ، لا جميعها ، ولذلك نكّرها ووصفها بقوله : مِنْ لِسانِي أي : عقدة كائنة من عقد لسانى ، يَفْقَهُوا قَوْلِي أي :

إن تحلل عقدة لسانى يفقهوا قولى.

وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً أي : معينا ومقويا مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي ليعيننى على تحمل ما كلفتنى به من أعباء التبليغ. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي أي : قّ به ظهرى ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي واجعله شريكا لى فى أمر الرسالة ، حتى

نتعاون على أدائها كما ينبغى ، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ، هو غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة ، من قوله : (وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً ...) إلخ ، ولا شك أن الاجتماع على العبادة والذكر سبب فى دوامهما وتكثيرهما. وفى الحديث : «يد الله مع الجماعة» «٣» ، ولذلك ورد الترغيب فى الاجتماع على الذكر : والجمع فى الصلاة ليقوى الضعيف بالقوى ، والكسلان بالنشيط ، وقيل : المراد بكثرة التسبيح والذكر ما يكون منها فى تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المردة العتاة ، لأنه هو الذي يختلف فى حالتى التعدد والانفراد ، فإن كلّا منهما يصدر منه ، بتأييد الآخر ، من إظهار الحق ، ما لا يصدر منه حال الانفراد. والأول أظهر.

وكَثِيراً : وصف لمصدر أو زمن محذوف ، أي : ننزهك عما لا يليق بجلالك وجمالك ، تنزيها كثيرا ، أو زمنا كثيرا ، ومن جملة ذلك : ما يدعيه فرعون الطاغية ، وتقبله منه الفئة الباغية من ادعاء الشرك فى الألوهية.

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة القصص.

(٢) من الآية ٥٢ من سورة الزخرف.

(٣) أخرجه الترمذي فى (الفتن ، باب ما جاء فى لزوم الجماعة) ، من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه ، وقال الترمذي : حديث حسن.

(٣٨٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٨٥

وَنَذْكُرَكَ بأن نصفك بما يليق بك من صفات الكمال ، ذكرا كَثِيراً ، إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً أي : عالما بأحوالنا ، وبأن ما دعوناك به مما يصلحنا ويقوينا على ما كلفتنا من أداء الرسالة ، و(بِنا) : متعلق ببصيرا.

والله تعالى أعلم.

الإشارة : فإذا انخلعت أيها الفقير عن الكونين ، وألقيت عصاك بوادي البين ، فاذهب إلى فرعون نفسك ووجود حسك ، إنه طغى عليك ، حيث حجبك عن شهود ربك ، فلا حجاب بينك وبين ربك ، إلا حجاب نفسك ، ووقوفك مع شهود حسك ، فهو أكبر الفراعين فى حقك ، فاهدم وجوده ، وأغرق فى بحر الحقيقة شهوده ، وذلك بالغيبة عنه فى شهود مولاه ، فإذا تعسر الأمر عليك فاستعن بمولاك ، وقل : اللهم اشرح لى صدرى ، ووسعه لمعرفتك ، ويسر لى أمرى فى السير إلى حضرة قدسك ، واحلل عقدة الكون من قلبى ولسانى ، حتى لا أعقد إلا على محبتك ، ولا أتكلم إلا بذكرك وشكرك ،

كما قال الشاعر :

فإن تكلمت لم أنطق بغيركم وإن صمتّ فأنتم عقد إضماری.

واجعل لی وزيرا من أهلی ، وهو شيخی ، أشدد به أزری ، وأشركه فی أمری ، حتی يتوجه بكلية همته إلی سری ، كی ننزهك تنزيها كثيرا ، بحيث لا نری معك غيرك ، ونذكرك كثيرا ، بحيث لا نفتر عن ذكرك بالقلب أو الروح أو السر ، إنك كنت بنا بصيرا. قال الورتجبي : قوله تعالى : (اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ ..) إلخ ، لما علم موسى مراد الحق منه بمكابدة الأعداء ، والرجوع من المشاهدة إلى المجاهدة ، سأل من الحق شرح الصدر ، وإطلاق اللسان ، وتيسير الأمر ، ليطيق احتمال صحبة الأضداد ومكابدتهم. ثم قال : فطلب قوة الإلهية وتمكينا قادريا بقوله : (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) ، عرف مكان مباشرة العبودية أنها حق الله ، وحق الله فی العبودية مقام امتحان ، وفی الامتحان حجاب عن مشاهدة الأصل ، فخاف من ذلك ، وسأل شرح الصدر ، أي : إذا كنت فی غين الشريعة عن مشاهدة غيب الحقيقة ، اشرح صدری بنور وقائع المكاشفة ، حتی لا أكون محجوبا بها عنك. ألا ترى إلى سيد الأنبياء والأولياء صلوات الله عليه ، كيف أخبر عن ذلك الغين ، وشكی من صحبة الأضداد فی أداء الرسالة ، بقوله : «إنه ليغان على قلبی فاستغفر الله فی اليوم سبعين مرة» هـ. وفيه مقال «١» ، إذ هو غين أنوار لا غين أغيار ، فتأمله. والله تعالى أعلم.

ثم أجاب الحق جل جلاله سؤاله ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٣٦ الى ٤١]

قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى (٤٠)

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)

---

(١) بل فيه مقالات ، فالشريعة يستحيل أن تكون غينا ، والله تعالى يقول فيها ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها ويقول :

وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ... ويقول : وكذلك جعلناه نورا فشريعته روح ونور.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٨٦

قلت : (مَرَّةً) : منصوب على الظرفية الزمانية ، وأصله : فعلة ، من المرور ، اسم للمرور الواحد ، ثم شاع فى كل فرد واحد من أفراد أمثاله ، ويقرب منها الكرة والرجعة. و(إِذْ) : ظرف لمننا ، و(أَنِ اقْذِفِيهِ) : مفسرة ، أو مصدرية ، و(يَأْخُذْهُ) : جواب «أن اقذفيه». و(لِتُصْنَعَ) : متعلق بألقيت ، عطف على علة مضمرة ، أي : ليتعطف عليك ولتربى على حفظى ورعايتى. و(إِذْ تَمْشِي) : ظرف (لِتُصْنَعَ) على أن المراد وقت مشيها إلى بيت فرعون ، وما يترتب عليه من القول والرجع إلى أمه.

يقول الحق جل جلاله : قالَ اللّه تعالى لموسى عليه السّلام : قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ أي : أعطيت مسؤولك ، وبلغنا لك مأمولك فى كل ما طلبت منا. والإيتاء ، هنا ، عبارة عن تعلق الإرادة بوقوع تلك المطالب وحصولها ، وإن كان وقوع بعضها مستقبلا ، ولذلك قال : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ «١» ، وإعادة النداء فى قوله : يا مُوسى تشريفا له بتوجيه الخطاب بعد تشريفه بإجابة المطلب.

ثم ذكّره بنعمة أخرى قد سلفت ، فقال : وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى قبل أن يكون منك لنا طلب ، فكيف لا نجيبك بعد الطلب؟ وتلك المنة : إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ حين تحيرت فى أمرك ، وخافت عليك من عدوك ، فأوحينا إليها وحي منام أو إلهام أو بملك كريم - عليهما السلام - فقلنا لها : أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ أي : ضعيه فيه ، وأغلقى عليه حتى لا يصل الماء إليه ، فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ أي : ألقيه فى البحر بتابوته ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ أي : فسيرميه البحر بالساحل ، ولمّا كان إلقاء البحر له بالساحل أمرا واجب الوقوع لتعلق الإرادة الربانية به ، جعل البحر كأنه مأمور بإلقائه ، ذو تمييز ، مطيع ، فإن يلقه يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وهو فرعون. ولا تخافي عليه إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ «٢».

وتكرير عداوته والتصريح بها للإشعار بأن عداوته له ، مع تحققها ، لا تضره ، بل تؤدى إلى محبته ، لأن الأمر بما فيه الهلاك من القذف فى البحر ، ووقوعه فى يد العدو ، مشعر بأن هناك ألطافا خفية ، ومننا كامنة مندرجة تحت قهر صورى.

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة القصص.

(٢) كما جاء فى الآية ٧ من سورة القصص.

(٣/٣٨٦)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٨٧

وليس المراد بالساحل نفس الشاطئ ، بل ما يقابل الوسط ، وهو ما يلى الساحل من البحر ، حيث يجرى ماؤه إلى نهر فرعون ، لما روى أنها جعلت فى التابوت قطنا محلوجا ، ووضعته فيه ، ثم قيّرته

«١» وألقته فى اليم. وقيل : كان التابوت من البردي ، صنعته أمه. وقال مقاتل : صنعه لها رجل مؤمن اسمه «حزقيل» ، ثم طلته بالقار - أي : الزفت - وألقته فى اليم ، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير ، فدفعه الماء إليه ، فأتى به إلى بركة فى البستان ، وكان فرعون جالسا ثمّ مع آسية بنت مزاحم ، فأمر به فأخرج ، فإذا فيه صبى أصبح الناس وجها ، فأحبه فرعون حبا شديدا لا يكاد يتمالك الصبر عنه ، وذلك قوله تعالى : وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ، قال ابن عباس : «أحبه وحبّبه إلى خلقه».
وقال قتادة : «ملاحة كانت فى عينى موسى ، ما رآه أحد إلّا عشقه» ، أي : وألقيت عليك محبة عظيمة كائنة منى ، قد زرعت فى القلوب ، بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ، ولذلك أحبك عدو الله وأهله ، وذلك ليتعطف عليك.
وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي أي : ولتربّى بالحنو والشفقة ، وتغذى بمرأى منى ، مصحوبا برعايتى وحفظى ، فى أحسن تربية ونشأة. وكان ابتداء ذلك : إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ تتبع تابوتك ، فلما أخرجت التمسوا لك المراضع ، فَتَقُولُ لفرعون وآسية ، حين رأتهما يطلبان له مرضعة يقبل ثديها ، وكان لا يقبل ثديا. وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية ، والأصل : إذ مشت فقالت : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ؟ يضمه إلى نفسه ويربيه ، وذلك إنما يكون بقبول ثديها. روى أنه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما فى النيل لا يرتضى ثدى امرأة ، واضطروا إلى تتبع النساء ، فخرجت أخته مريم لتتعرف خبره ، فجاءت متنكرة ، فقالت ما قالت ، وقالوا :
نعم ، فجاءت بأمه فقبل ثديها.
قال تعالى : فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ وفاء بعهدنا ، كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها بلقائك ، وَلا تَحْزَنَ أي : ولا يطرأ عليها حزن بفراقك بعد ذلك ، وَقَتَلْتَ بعد ذلك نَفْساً ، وهى نفس القبطي الذي استغاثه الإسرائيلى عليه.
قال كعب : كان إذ ذاك ابن ثنتى عشرة سنة ، فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ أي : غم قتله ، خوفا من عقاب الله تعالى بالمغفرة ، ومن اقتصاص فرعون ، بوحينا إليك بالمهاجرة ، وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً أي : ابتليناك ابتلاء عظيما ، وخلصناك مرة بعد أخرى ، حتى صلحت للنبوة والرسالة ، وهو تحمل ما ناله فى سفره من الهجرة عن الوطن ، ومفارقة الأحباب ، والمشي راجلا ، وفقد الزاد ، بعد ما خلصه من الذبح ، ثم من البحر ، ثم من القصاص بالقتل.
وسئل عنها ابن عباس ، فقال : خلّصناك من محنة بعد محنة ، ولد فى عام كان يقتل فيه الغلمان ، فهذه فتنة ، وألقته

---

(١) أي : دهنته بالقار.

أمه في البحر ، وهمّ فرعون بقتله ، وقتل قبطيا ، وأجّر نفسه عشر سنين ، وضل الطريق ، وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة ، فكل واحدة من هذه فتنة. هـ. لكن الذي يقتضيه النظم الكريم أن لا تعد إجارته نفسه وما بعدها من الفتون لأن المراد : ما وقع له قبل وصوله إلى مدين ، بدليل قوله تعالى : فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ، إذ لا ريب أن الإجارة وما بعدها كانت بعد وصوله إلى مدين ، أي : لبثت عشر سنين في أهل مدين.

وقال وهب : لبث عند شعيب ثمانيا وعشرين سنة ، عشرا منها في مهر امرأته صفراء بنت شعيب ، وثماني عشرة أقام عنده حتى ولد له. وأشار باللبث في مدين ، دون الوصول إليها ، إلى ما أصابه في تضاعيفها ، من فنون الشدائد والمكاره ، التي كل واحدة منها فتنة. و«مَدْيَنَ» : بلدة شعيب عليه السّلام ، على ثماني يمراحل من مصر ، ولم تبلغها مملكة فرعون ، خوفا على نفسه من هيبة النبوة أن يصيبه ما أصاب من خالفه.

ثُمَّ جِئْتَ إلى المكان الذي آنست فيه النار ، ورأيت فيه الخوارق ، وخصصت فيه بالرسالة ، عَلى قَدَرٍ قدرته لك في الأزل ، ووقت عينته لك ، لأكلمك وأرسلك فيه إلى فرعون ، فما جئت إلا على ذلك القدر ، غير متقدم ولا متأخر ، وقيل : على مقدار من الزمان ، يوحى فيه إلى الأنبياء ، وهو رأس أربعين سنة. وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي أي : اختصصتك بالرسالة والمحبة والمناجاة ، وهو تذكير لقوله : وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ، وتمهيد لإرساله عليه السّلام إلى فرعون مؤيّدا بأخيه ، حسبما طلب ، بعد تذكيره المنن السالفة ، زيادة في وثوقه عليه السّلام بحصول نظائرهم اللاحقة ، والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى : وَفَتَنَّاكَ إلى تاء المتكلم لمناسبتها للنفس فإنها أدخل في تحقيق الاصطناع والاستخلاص. والله تعالى أعلم.

الإشارة : قال قد أوتيت سؤلك أيها الفقير ، حيث وصلناك إلى من يأخذ بيدك ، ويرشدك إلى ربك ويربيك. ولقد مننا عليك مرة أخرى ، حيث أنشأناك بين أبوين مسلمين ، فقذفناك في تابوت الإسلام ، ثم في نهر الإيمان ، ثم رميناك في بحر العرفان ، وألقينا عليك محبة منا ، فأحببناك وأحببتنا ، وألقينا محبتك في قلوب عبادنا ، فتربيت في حفظنا ورعايتنا ، فلما فارقت الأوطان وهجرت الإخوان ، في طلب تحقيق العرفان ، رددناك إليهم بعد التمكين ، لتنهضهم إلى الله ، فتقرّ أعينهم بطاعة رب العالمين ، وقتلت نفسا كانت تحجبك عن ربك ، فنجيناك من غم الحجاب ، وأخرجناك من سجن الأكوان ، إلى فضاء الشهود والعيان ، وفتناك بمجاهدة نفسك فتونا عظاما ، فتنة الفقر ، ثم فتنة الذل ، ثم فتنة هجر الأوطان ، حتى تخلصت من حبس الأكوان ، وجئت إلينا على قدر قدرناه لك ، ووقت عيناه لفتحك ، فاصطنعتك لنفسي ، واجتبيتك لحضرتي بسابق عنايتي ، من غير حول منك ولا قوة ، فعنايتنا فيك سابقة ، فأين كنت حين واجهتك عنايتنا ، وقابلتك رعايتنا؟ لم يكن في أزلنا إخلاص أعمال ، ولا وجود أحوال ، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال ووجود النوال ، كما في الحكم. وأنشدوا :

(٣٨٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٨٩

فلا عمل منّى إليك اكتسبته سوى محض فضل لا بشيء يعلّل

وقال آخر :

قد كنت أحسب أنّ وصلك يشترى بنفائس الأموال والأرباح

وظننت جهلا أنّ حبّك هيّن تفنى عليه كرائم الأرواح

حتّى رأيتك تجتبى وتخصّ من تختاره بلطائف الإمناح

فعلمت أنّك لا تنال بحيلة فلويت رأسى تحت طيّ جناح

وجعلت فى عشّ الغرام إقامتى أبدا وفيه توطنى ورواح

ثم أرسلهما الحق تعالى إلى فرعون ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٤٢ الى ٤٨]

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (٤٤) قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى (٤٥) قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى (٤٦)

فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)

يقول الحق جل جلاله لسيدنا موسى عليه السّلام : اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ أي : ليذهب معك أخوك بِآياتِي : بمعجزاتى التي أريتكها ، من اليد والعصا ، فإنهما وإن كانتا اثنتين ، لكن فى كل واحدة منهما آيات ، فإنّ فى انقلاب العصا حيوانا : آية ، وكونها ثعبانا عظيما : آية ، وسرعة حركته ، مع عظم جرمه : آية ، وكذلك اليد فإنّ بياضها فى نفسه آية ، وشعاعها آية ، ثم رجوعها إلى حالتها الأولى آية. والباء للمصاحبة ، أي : اذهبا مصحوبين بمعجزاتنا ، مستمسكين بها ، وَلا تَنِيا : لا تفترا ولا تقصرا فِي ذِكْرِي عند تبليغ رسالتى ، ولا يشغلكما معاناة التبليغ عن ذكرى ، بما يليق بحالكما من ذكر لسان أو تفكر أو شهود ، فلا تغيبا عن مشاهدتى باشتغالكما بأمرى ، حتى لا تكونا فاترين فى عينى.

اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى : تجبر وعلا. ولم يكن هارون حاضرا وقت هذا الوحى ، وإنما جمعهما تغليبا.

روى أنه أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى - عليهما السلام ، وقيل : سمع بإقباله فتلقاه.

(٣٨٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٩٠

فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لأنّ تليين القول مما يكسر ثورة عناد العتاة ، ويلين عريكة الطغاة. قال ابن عباس : أي : لا تعنفا فى قولكما. وقيل : القول اللين : هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى .. إلخ ، ويعارضه قوله بعد : فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ وقيل : كنّياه ، وكان له ثلاثة كنى : أبو العباس ، وأبو الوليد ، وأبو مرة. وقيل : عداه على قبول الإيمان شبابا لا يهرم ، وملكا لا ينزع منه إلا بالموت ، وتبقى عليه لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى الموت ، . وقيل : اللطافة فى القول فإنه رباك وأحسن تربيتك ، وله عليك حق الأبوة ، لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ بما بلغتماه من ذكر ، ويرغب فيما رغبتماه فيه ، أَوْ يَخْشى عقابى.

ومحل الجملة : النصب على الحال من ضمير التثنية ، أي : فقولا له قولا لينا ، راجيين تذكرته ، أي : باشرا وعظه مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر علمه ولا يخيب سعيه. وفائدة هذا الإبهام : الحثّ على المبالغة فى وعظه. هذا جواب سيبويه عن الإشكال ، وهو أنه تعالى علم أنه لا يؤمن ، وقال : لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ، فصرف الرجاء إلى موسى وهارون ، أي : اذهبا على رجائكما. وقال الوراق : قد تذكّر حين ألجمه الغرق. وقال الزجاج : خاطبهم بما يعقلون.

قلت : كونه تعالى علم أنه لا يؤمن هو من أسرار القدر الذي لا يكشف فى هذه الدار ، وهو من أسرار الحقيقة ، وإنما بعثت الرسل بإظهار الشرائع ، فخاطبهم الحق تعالى بما يناسب التبليغ فى عالم الحكمة ، والله تعالى أعلم. وجدوى إرسالهما إليه ، مع العلم بإحالته ، إلزام الحجة وقطع المعذرة.

قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أي : يعجل علينا بالعقوبة ، ولا يصبر إلى تمام الدعوة وإظهار المعجزة. وهو من «فرط» إذا تقدم ، ومنه : الفارط ، للوليد الذي مات صغيرا. وقرئ بضم الياء ، من «أفرط» إذا حمله على العجلة ، أي : نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار والخوف على الملك أو غيرهما ، على المعاجلة والعقاب ، أَوْ أَنْ يَطْغى يزداد طغيانا ، كأن يقول فى شأنك مالا ينبغى ، لكمال جرأته وقساوته ، وإظهار «أَنْ» لإظهار كمال الاعتناء بالأمر ، والإشعار بتحقيق الخوف من كل منهما ، وهذا القول يحتمل أن يكون قاله موسى ودخل هارون بالتبع ، إيذانا بأصالة موسى عليه السّلام فى كل قول وفعل ، وتبعية هارون عليه السّلام ، أو يكون هارون قال ذلك بعد تلاقيهما ، فحكى الله قولهما عند نزول الآية ، كما فى قوله تعالى : يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ «١» ، فإن هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة الجمع ، مع أن كلا من المخاطبين لم يخاطب إلا بطريق الانفراد لاستحالة جمعهم فى الوجود ، فكيف باجتماعهم فى الخطاب؟.

---

(١) من الآية ٥١ من سورة «المؤمنون».

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٩١

قالَ تعالى لهما : لا تَخافا ، وهو استئناف بيانى ، كأن قائلا قال : فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما إليه؟ فقيل : قال : لا تخافا ما توهمتما من الأمرين ، إِنَّنِي مَعَكُما بحفظي ورعايتى ونصرى ومعونتى ، أَسْمَعُ وَأَرى ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل ، فأفعل فى كل حال ما يليق بها من دفع ضر وشر ، وجلب نفع وخير.

فَأْتِياهُ ، أمر بإتيانه ، الذي هو عبارة عن الوصول إليه ، بعد ما أمر بالذهاب إليه ، فلا تكرار ، فَقُولا له : إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ إليك ، أمر بذلك من أول الأمر ، ليعرف الطاغية شأنهما ، ويبنى جوابه على ذلك ، فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ أي : أطلقهم من الأسر والقهر ، وأخرجهم من تحت يدك العادية. وليس المراد إرسالهم معه إلى الشام ، بدليل قوله : وَلا تُعَذِّبْهُمْ بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب ، فإنهم كانوا تحت مملكة القبط ، يستخدمونهم فى الأعمال الصعبة ، من الحفر ونقل الأحجار ، وضرب اللبن والطين ، وبناء المدائن ، وغير ذلك من الأعمال الشاقة ، ويقتلون ذكور أولادهم عاما دون عام ، فكانت رسالة موسى إلى فرعون بالإيمان بالله وحده ، وتسريح بنى إسرائيل. روى أنه لمّا رغبه فى الإيمان بذكر ما أعد الله لأهله من الخلود فى الجنة والملك الدائم ، أعجبه ، فقال : حتى أستشير هامان ، وكان غائبا ، فقدم ، فأخبره ، فقال هامان : قد كنت أرى لك عقلا ، بينما أنت رب تصير مربوبا ، وبينما أنت تعبد تصير تعبد غيرك ، فغلبه على رأيه.

فقال له موسى : قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، قال فرعون : وما هى؟ فأدخل يده فى جيب قميصه ثم أخرجها بيضاء ، لها شعاع كشعاع الشمس ، فعجب منها ، ولم يره العصا إلا بعد ذلك ، يوم الزينة. قاله الثعلبي. قلت : والذي يظهر من سورة الشعراء «١» - بل هو صريح فيها - أنه أراه العصا واليد. وإنما أفردت فى اللفظ ، هنا لأن المراد اثبات الحجة بصحة الرسالة ، لا تعدد الآية ، وكذلك قوله تعالى : قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ «٢» ، أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ «٣» ، وأما قوله تعالى : فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ «٤» فالظاهر أن المراد بها آية من الآيات.

ثم قال له : وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى أي : وسلام الله وملائكته والمؤمنين المقتضى سلامة الدارين ، على من اتبع الهدى ، بتصديق آيات اللّه تعالى الهادية إلى الحق ، دون من اتبع الغى والهوى ، وفيه من الترغيب ،

---

(١) فى قوله تعالى : قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ. قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ. الشعراء : ٣٠ - ٣٣. [.....]

(٢) من الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

(٣) من الآية ٣٠ من سورة الشعراء.

(٤) من الآية ١٠٦ من سورة الأعراف.

فى اتباعها على ألطف وجه ، مالا يخفى. إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا من جهة ربنا ، أَنَّ الْعَذابَ الدنيوي والأخروى عَلى مَنْ كَذَّبَ بآيات اللّه وَتَوَلَّى أي : أعرض عن قبولها ، وفيه من التلطف فى الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به مالا مزيد عليه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى لأهل العلم ولأهل الوعظ والتذكير أن يتعاونوا على نشر العلم ووعظ العباد ، ويتوجهوا إليهم فى أقطار البلاد ، فإن ذلك فرض كفاية على أهل العلم ، ولا يشغلهم نشر العلم عن ذكر اللّه ، ولا تذكير العباد عن شهود الله ، كما قال الله تعالى : وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي أي : ولا تغفلا عن شهودى وقت إرشاد عبادى ، فإن توجهوا إلى الجبابرة والفراعنة فليلينوا لهم المقال ، وليدعوهم إلى أسهل الخلال ، فإن ذلك أدعى إلى الامتثال ، خلافا لمن قال هذه ملة موسوية ، وأما الملة المحمدية فقال تعالى فيها : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ «١» فإنّ بيان الحق لا ينافى أن يكون بملاطفة وإحسان ، فإن خاف الواعظ من صولة المتجبر فإن الله معه ، يحفظه ويرعاه ، ويسمعه ويراه ، فإن لم يسمع لقوله ولم يتعظ لوعظه ، فقد بلغ ما عليه ، وليقل بلسان الحال أو المقال : (و السلام على من اتبع الهدى). وبالله التوفيق.

ثم ذكر جواب فرعون ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٤٩ الى ٥٥]

قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (٤٩) قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (٥٠) قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى (٥١) قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (٥٤) مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى (٥٥)

قلت : (خَلْقَهُ) : يحتمل أن يكون اسما بمعنى المخلوق ، فيكون مفعولا أولا ، و(كُلَّ شَيْ ءٍ) : مفعولا ثانيا ، أو يكون مصدرا بمعنى الخلقة ، فيكون مفعولا ثانيا ، أي : أعطى كل شيء خلقته وصورته التي هو عليها.

يقول الحق جل جلاله : قالَ فرعون فى جواب موسى ، لما أتاه مع أخيه وبلغا الرسالة ، وقالا له ما

أمرهما به ربهما ، وإنما حذفه للإيجاز ، وللإشعار بأنهما لما أمرا بذلك سارعا إلى الامتثال من غير تلعثم ، أو بأن

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

(٣٩٢/٣)

ذلك من الظهور بحيث لا حاجة إلى التصريح به ، فقال لهما فرعون : فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى ؟ لم يضف الرب إلى نفسه لغاية عتوه وطغيانه ، بل أضافه إليهما ، وفى الشعراء : وَما رَبُّ الْعالَمِينَ «١» ، والجمع بينهما تعدد الدعوة ، ففى كل مرة حكى لنا ما قال. وتخصيص النداء بموسى ، مع توجيه الخطاب إليهما لأنه الأصل فى الرسالة ، وهارون وزيره.

قالَ موسى عليه السّلام مجيبا له : رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ أي : ربنا هو الذي أعطى كل شىء خلقه ، أي : مخلوقاته مما يحتاجون إليه ويرتفقون به فى قوام أبدانهم ومعايشهم ، أو اعطى كل شىء خلقته وصورته التي يختص بها ، ولم يجعل خلق الإنسان فى خلق البهائم ، ولا خلق البهائم فى خلق الإنسان. ولكن خلق كل شىء فقدره تقديرا. أو أعطى كل شىء فعله وتصرفه ، فاليد للبطش ، والرجل للمشى ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع ، أو أعطى كل شىء شكله من جنسه ، للإنسان زوجة ، وللبعير ناقة ، وللفرس رمكة ، وللحمار أتانا. ثُمَّ هَدى إلى طريق الانتفاع والارتقاء ، بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله ، فألهمه الرضاع والأكل والشرب والجماع ، وطلب الرعي وتوقى المهالك ، وكيف يأتى الذكر الأنثى.

ولمّا كان الخلق - الذي هو عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام - مقدما على الهداية ، التي هى عبارة عن إيداع القوى المحركة والمدركة فى تلك الأجسام ، عطف بثم المفيدة للتراخى. ولقد ساق عليه السّلام جوابه على نمط رائق ، وأسلوب لائق حيث بيّن أنه تعالى عالم قادر بالذات ، خالق لجميع الكائنات ، منعم عليهم بجميع النعم السابغات ، هاد لهم إلى طرق المرتفقات.

قالَ فرعون : فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى أي : ما حالها بعد الموت ، وما فعل الله بها؟ فقال له موسى : هذا غيب لا يعلمه إلا الله ، وهو معنى قوله : عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي ، أو ما حال القرون الماضية والأمم الخالية ، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة؟ فأجابه عليه السّلام بأن العلم بأحوالهم مفصلة مما لا ملامسة له بمنصب الرسالة ، وإنما علمها عند الله عز وجل. وكأنّ عدو الله ، لما خاف أن يبهت ، ويفتضح ، ويظهر للناس حجة موسى عليه السّلام ، أراد أن يصرفه عليه السّلام إلى مالا يعنى ، من ذكر

الحكايات التي لا مسيس لها بمنصب الرسالة فلذلك أعرض عنه ، وقالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي ، وهذا أحسن من الأول لأنه لو كان سؤاله عن أحوالها بعد الموت لأمكن أن يقول له :
من اتبع الهدى منهم فقد سلم وتنعم ، ومن تولى فقد عذب وتألّم ، حسبما نطق به قوله تعالى :
وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى . وقيل : فما بالها لم تبعث كما يزعم موسى ، أو : ما بالها لم تكن على دينك ، أو : ما بالها كذبت ولم يصبها عذاب ، وكلها بعيدة.

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الشعراء.

(٣٩٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٩٤
قلت : والذي يظهر أن الطاغية فهم قوله تعالى : ثُمَّ هَدى أي : إلى الإيمان ، فاعترض بقوله : فما بال القرون الأولى لم تؤمن حتى هلكت؟ فأجابه موسى عليه السّلام بقوله : عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي ، فهو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى. وقوله : فِي كِتابٍ أي : اللوح المحفوظ ، فقد أثبتت فيه بتفاصيلها ، ويجوز أن يكون ذلك عبارة عن تمكنه وتقريره فى علم الله - عز وجل - تمكن من استحفظ الشيء ، وقيده بالكتابة ، كما يلوح به قوله تعالى : لا يَضِلُّ رَبِّي أي : لا يخطئ ابتداء ، وَلا يَنْسى فيتذكر. وفيه تنبيه على أن كتابته فى اللوح المحفوظ ليس لحاجته إليه فى العلم به ابتداء أو بقاءا. وإظهار (رَبِّي) فى موضع الإضمار ، للتلذذ بذكره ، وللإشعار بعلّية الحكم فإن الربوبية مما تقتضى عدم الضلال والنسيان.
ولقد أجاب عليه السّلام عن السؤال بجواب عبقرى بديع ، حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها ، مع أنه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شئونه تعالى ، ووصف الحق تعالى بأوصاف لا يمكن عدو الله أن يتصف بشيء منها ، لا حقيقة ولا مجازا ، ولو قال له : هو الخالق الرازق ، وشبه ذلك ، لأمكن أن يغالط ويدعى ذلك لنفسه.
ثم تخلص إليه حيث قال ، بطريق الحكاية عن الله عز وجل ، أو من كلامه عليه السّلام : الذى جعل لكم الأرض مهادا «١» أي : كالمهد تتمهدونها بالسكن والقرار ، أي : جعل كل موضع منها مهدا لكل واحد منكم. وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا أي : طرقا تتوصلون بها من قطر إلى قطر ، لتقضوا منها مآربكم ، وتنتفعوا بمرافقها ومنافعها ، ووسطها بين الجبال والأودية لتعرف أمارات سبلها. وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً هو المطر ، فَأَخْرَجْنا بِهِ ، يحتمل أن يكون من كلام الله ، وما قبله من كلام موسى ، أو كله من كلام الله تعالى ، حكاه موسى عليه السّلام ، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على

كمال القدرة والحكمة ، والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن ، أي : فأخرجنا بذلك الماء أَزْواجاً : أصنافا ، سميت أزواجا لازدواجها ، واقتران بعضها ببعض ، كائنة مِنْ نَباتٍ شَتَّى : متفرقة ، جمع شتيت : أي : متفرق ، وهو ، فى الأصل ، مصدر ، يستوى فيه الواحد والجمع ، يعنى : أنها مختلفة فى الشكل واللون والطعم والرائحة والنفع ، وبعضها صالح للناس على اختلاف صلاحها لهم ، وبعضها للبهائم.

ومن تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده ، لمّا كان تحصيلها بعمل الأنعام ، جعل علفها مما يفضل عن حاجتهم ، ولا يليق بكونه طعاما لهم ، وهو معنى قوله : كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ ، والجملة : حال ، على إرادة القول ، أي : أخرجنا منها أصناف النبات ، قائلين : كلوا وارعوا أنعامكم ، آذنين فى ذلك لكم.

---

(١) قرأ عاصم وحمزه والكسائي : (مهدا). وقرأ باقي السبعة : «مهادا» : انظر الإتحاف (٢/ ٢٤٧).

إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور ، من شئونه تعالى ، وأفعاله وأنعامه ، لَآياتٍ جليلة واضحة الدلالة على عظيم شأنه تعالى ، فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وعلى صحة نبوة موسى وهارون - عليهما السلام ، لِأُولِي النُّهى أي : العقول الصافية ، جمع «نهية» ، سمى بها العقل ، لنهيه عن اتباع الباطل ، وارتكاب القبيح ، أي : لذوى العقول الناهية عن الأباطيل ، التي من جملتها ما يدعيه الطاغية وما يقبله منه الفئة الباغية.

وتخصيص كونها آيات لهم ، مع أنها آية للعالمين لأنهم المنتفعون بها.

مِنْها خَلَقْناكُمْ أي : من الأرض الممهدة لكم ، خلقناكم بخلق أبيكم آدم عليه السّلام ، وأنتم فى ضمنه ، إذ لم تكن فطرته مقصورة على نفسه عليه السّلام ، بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس ، انطواء إجماليا ، فكان خلقه عليه السّلام منها خلقا لكل منها ، وقيل : خلقت أبدانكم من النطفة المتولدة من الأغذية المتولدة من الأرض. وقال عطاء : إن الملك الموكل بالرحم ينطلق ، فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه العبد ، فيذره على النطفة ، فتخلق من التراب ومن النطفة. هـ.

وَفِيها نُعِيدُكُمْ بالإماتة وتفريق الأجزاء ، والكلام على الأشباح دون الأرواح ، فإنها ، بعد السؤال ، تصعد إلى السماء ، كما يأتى عند قوله تعالى : فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ... «١» الآية. ولم يقل : وإليها نعيدكم إشارة إلى استقرار العبد فيها ، وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى بتأليف أجزائكم المتفتتة ، المختلطة بالتراب ، على الهيئة السابقة ، ورد الأرواح إليها. وكون هذا الإخراج تارة أخرى : باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها ، وإن لم يكن على التارة الثانية. والتارة فى الأصل : اسم للتور ، وهو الجريان

، فالتارة واحدة منه ، ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتحدة ، كما مر فى المرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ، مما سبق لهم فى أزله ، ثم هدى إلى الأسباب الموصلة إليه ، فمنهم من كان حظه فى الأزل قوت الأشباح ، هداه إلى أسبابها ، وهم أهل مقام البعد ، ومنهم من كان حظه قوت القلوب ، فهداه إلى أسبابها من المجاهدة فى الطاعات وأنواع القربات ، وهم أنواع : فمنهم من شغلهم بتدريس العلوم وتدقيق الفهوم ، وتحرير المسائل وتمهيد النوازل ، وهداهم إلى أسباب ذلك ، وهم حملة الشريعة ، إن صحت نيتهم وثبت إخلاصهم. ومنهم من شغلهم بتوالي الطاعات وتعمير الأوقات ، وهداهم إلى أسبابها ، وقواهم على مشاقها ، وهم العباد والزهاد. ومنهم من شغلهم بإطعام الطعام والرفق بالأنام ، وتعمير الزوايا وقبول الهدايا ، وهداهم إلى أسباب عمارتها والقيام بها ، وهم الصالحون. ومنهم : من كان حظه قوت الأرواح ، وهم المريدون السائرون ، أهل الرياضة والتصفية ، والتخلية والتحلية ، والتهذيب والتدريب ، وهداهم إلى أسبابها ، ووصلهم

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الواقعة.

إلى شيخ كامل يبينها ويسلّكها ، وهم فى ذلك مقامات متفاوتة ، على حسب صدقهم وجدهم ، ومنهم من كان حظه قوت الأسرار ، وهم العارفون الكبار ، السابقون المقربون ، أهل الفناء والبقاء ، أهل الرسوخ والتمكين ، فهداهم إلى ما أمّلوا ، ووصلهم إلى ما طلبوا. نفعنا الله بهم ، وخرطنا فى سلكهم. آمين.

وقوله : فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى ... الآية ، فيه زجر للمريد عن الاشتغال بالحكايات الماضية ، لأن فى ذلك شغلا عن الله ، إلا ما كان فيه زيادة إلى الله ، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم.

وقوله تعالى :

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً أي : جعل أرض النفوس مهادا للقيام برسم العبودية ، وسلك فيها سبلا توصل إلى مشاهدة الربوبية ، لمن سلكها بالرياضة والمجاهدة ، وأنزل من سماء الملكوت ماء الواردات الإلهية ، تحيا به الأرواح ، فتخرج أصنافا من العلوم والحكم شتى ، كلوا برعى القلوب فى نوار تجلياتها ، وارعوا لقوت أشباحكم من ثمار حسياتها ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى. (مِنْها خَلَقْناكُمْ) : من أرض نفوسكم أخرجناكم ، بشهود عظمة الربوبية ، وفيها نعيدكم للقيام برسم العبودية ، ومنها نخرجكم

لتكونوا لله ، لا لشيء دونه. أو منها خلقناكم ، أي :
أخرجناكم من شهود ظلمتها إلى نور خالقها ، بالفناء عنها ، وفيها نعيدكم بالرجوع إلى الأثر فى مقام البقاء ، (و منها نخرجكم تارة أخرى) بعقد الحرية فى مقام البقاء ، فتكونوا عبيدا شكّرا. وبالله التوفيق.
ثم إن فرعون لم تنفعه هذه الموعظة ، ولا ما رأى من الآيات الباهرة ، حتى طلب المعارضة ، كما أبان ذلك الحق سبحانه بقوله :
[سورة طه (٢٠) : الآيات ٥٦ الى ٥٩]
وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى (٥٦) قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (٥٨) قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)
قلت : (مَوْعِداً) : مصدر ، مفعول أول ل (فَاجْعَلْ). و(مَكاناً) : مفعول بفعل محذوف ، أي : تعدنا مكانا سوى ، لا بموعد لأنه وصف ، ويجوز نصبه على إسقاط الخافض ، و(يَوْمُ الزِّينَةِ) : على حذف مضاف ، أي : مكان يوم الزينة ، و(أَنْ يُحْشَرَ) : عطف على يوم ، أو الزينة.
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرَيْناهُ أي : فرعون ، آياتِنا ، حين قال له : فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ «١» ، وعبّر بالجمع ، مع

---

(١) الآيات : ٣١ - ٣٣ من سورة الشعراء.

كونهما اثنتين ، باعتبار ما فى تضاعيفهما من الخوارق ، التي كل واحدة منها آية. وقد رأى فرعون من هاتين الآيتين أمورا دواهى ، فإنه روى أنه عليه السّلام ، لما ألقى العصا ، انقلبت ثعبانا أشعر ، فاغرافاه ، بين لحييه ثمانون ذراعا ، وضع لحيه الأسفل على الأرض ، والأعلى على سور القصر ، ثم توجه نحو فرعون ، فهرب وأحدث ، وانهزم الناس مزدحمين ، فمات منهم خمسة وعشرون ألفا من قومه ، فصاح فرعون : يا موسى أنشدك الذي أرسلك إلا أخذته ، فأخذه ، فعاد عصا. وروى أنها ، لما انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ، ثم انحطت مقبلة نحو فرعون ، وجعلت تقول : يا موسى مرنى بما شئت ، ويقول فرعون : أنشدك .. إلخ. ونزع يده من جيبه ، فإذا هى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن العادة.
ففى تضاعيف كلّ من الآيتين آيات جمة ، لكنها لما كانت غير مذكورة بالصراحة ، أكدت بقوله تعالى : كُلَّها ، كأنه قيل : أريناه آياتنا بجميع مستتبعاتها وتفاصيلها ، قصدا إلى بيان أنه لم يبق له فى ذلك

عذر.

وقيل : أريناه آياتنا التسع ، وهو بعيد لأنها إنما ظهرت على يده عليه السّلام بعد ما غلبت السحرة على مهل ، فى نحو من عشرين سنة ، والكلام هنا قبل المعارضة ، اللهم إلا أن يكون الحق تعالى أخبرنا أنه أراه الآيات التسع كلها ، فأبى عن الإيمان ، ثم رجع إلى إتمام القصة.

وأبعد منه : من عدّ فى الآيات ما جعل لإهلاكهم ، لا لإرشادهم إلى الإيمان من فلق البحر ، وما ظهر بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبنى إسرائيل من نتق الجبل والحجر ، وغير ذلك ، وكذلك من عدّ منها الآيات الظاهرة على يد الأنبياء - عليهم السلام - حيث حكاها موسى عليه السّلام لفرعون ، بناء على أن حكايته إياها له فى حكم إظهارها بين يديه لاستحالة الكذب عليه ، فإنّ حكايته إياها لفرعون مما لم يجر ذكره هنا ، فكل هذا بعيد من سياق النظم الكريم.

قال تعالى : فَكَذَّبَ فرعون موسى ، وَأَبى الإيمان والطاعة ، مع ما شاهد على يده من الشواهد الناطقة بصدقه. جحودا وعنادا لعتوه واستكباره ، وقيل : كذّب بالآيات جميعا ، وأبى أن يقبل شيئا منها.

قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى ، هذا استئناف مبين لكيفية تكذيبه وإبائه. والمجيء إما على حقيقته ، أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدي له ، أي : أجئتنا من مكانك الذي كنت فيه ترعى الغنم لتخرجنا من أرضنا؟ أو : أقبلت إلينا لتخرجنا من مصر بما أظهرت لنا من السحر ، فإن ذلك مما لا يصدر عن عاقل لكونه من باب محاولة المحال ، وإنما قاله تحريضا لقومه على مقت موسى والبعد عنه ، بإظهار أن مراده عليه السّلام إخراج القبط من وطنهم ، وحيازة أموالهم ، وإهلاكهم بالكلية ، حتى لا يميل أحد إليه ، (و الله غالب على أمره). وسمى ما أظهره عليه السّلام من المعجزة الباهرة سحرا ، ثم ادعى أنه يعارضه ، حيث قال : فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ أي : وإذا كان الأمر كذلك ، فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك ، فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً أي :

وعدا لا نُخْلِفُهُ أي : لا نخلف ذلك الوعد ، ولا نجاوزه نَحْنُ وَلا أَنْتَ ، بل نجتمع فيه وقت ذلك الموعد ،

(٣٩٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٩٨

وإنما فوض اللعين أمر الوعد إلى موسى عليه السّلام للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب ودخول الرعب إليه ، وإظهار الجلادة ، بإظهار أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة ، طال الأمر أو قصر ، كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه السّلام ، وتوسيط كلمة «النفي» بينهما للإيذان بمسارعته إلى عدم الاختلاف.

وقوله تعالى : مَكاناً سُوىً أي : يكون ذلك الوعد - أي : وعد الاجتماع - فى مكان مستو ، تستوى مسافته بيننا وبينك ، عدلا ، لا ظلم على أحد فى الإتيان إليه ، منا ومنك ، وفيه لغتان : ضم السين وكسرها.

قالَ لهم موسى عليه السّلام : مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ أي : مكان الزينة لأن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه فى ذلك اليوم ، وهو يوم عيد لهم ، فى كل عام يتزينون ويجتمعون فيه ، وقيل : يوم النيروز ، . وقيل : يوم عاشوراء ، وقيل : يوم سوق لهم. وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى أي : موعدكم يوم الزينة ، وحشر الناس ضحى ، أو يوم حشر الناس فى وقت الضحى ، يجتمعون نهارا جهارا ، أراد عليه السّلام أن يكون أبلغ فى إظهار الحجة وإدحاض الباطل ، بكونه على رؤوس الأشهاد. والله تعالى أعلم.

الإشارة : من سبق له البعد عن الرحمن ، لا ينفع فيه خوارق معجزات ، ولا قاطع برهان ودليل ، أبعده التكبر والطغيان ، ودفع الحق بالباطل. نعوذ بالله من موارد الخذلان.

ثم ذكر جمعهم ، وما كان من شأنهم ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٦٠ الى ٦٩]

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى (٦٠) قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (٦١) فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى (٦٢) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (٦٤)

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (٦٥) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (٦٧) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (٦٨) وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (٦٩)

قلت : (إِنْ هذانِ لَساحِرانِ) : من خفّف (إِنْ) : جعلها نافية ، أو مخففة ، واللام فارقة. ومن ثقّلها وقرأها :

(هذانِ) بالألف ، فقيل : على لغة بلحارث بن كعب وخثعم وكنانة ، فإنهم يلزمون الألف رفعا ونصبا وجرا ، ويعربونها تقديرا ، وقيل : اسمها : ضمير الشأن ، أي : إنه الأمر والشأن هاذان لهما ساحران. وقيل : «إن» بمعنى «نعم» ، لا تعمل ، وما بعدها : جملة من مبتدأ وخبر. وقالت عائشة - رضي اللّه

عنها – : إنه خطأ من الكتاب ، مثل قوله :
وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ «١» ، وَالصَّابِئُونَ «٢» ، فى المائدة ، ويرده تواتر القراءة.
يقول الحق جل جلاله : فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ أي : انصرف عن المجلس ، ورجع إلى وطنه ، فَجَمَعَ كَيْدَهُ أي : حيله وسحرته ليكيد به موسى عليه السّلام ، ثُمَّ أَتى الموعد ، ومعه ما جمعه من كيده وسحرته ، وسيأتى عددهم.
قالَ لَهُمْ مُوسى ، حيث اجتمعوا من طريق النصيحة : وَيْلَكُمْ أي : ألزمكم الله الويل ، إن افتريتم على الله الكذب ، لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً بإشراك أحد معه ، كما تعتقدون فى فرعون ، أو بأن تحيلوا الباطل حقا ، فَيُسْحِتَكُمْ أي : يستأصلكم ، بسببه ، بِعَذابٍ لا يقادر قدره ، وقرئ رباعيا وثلاثيا ، يقال : سحت وأسحت.
فالثلاثى : لغة أهل الحجاز ، والرباعي : لغة بنى تميم ونجد. وَقَدْ خابَ وخسر مَنِ افْتَرى على الله ، كائنا من كان ، بأى وجه كان ، فيدخل الافتراء المنهي عنه دخولا أوليا ، أو : قد خاب فرعون المفترى على الله ، فلا تكونوا مثله فى الخيبة.
فَتَنازَعُوا أي : السحرة ، حين سمعوا كلامه عليه السّلام ، أَمْرَهُمْ أي : فى أمرهم الذي أريد منهم من مغالبته عليه السّلام ، وتشاوروا وتناظروا بَيْنَهُمْ فى كيفية المعارضة ، وتشاجروا ، ورددوا القول فى ذلك ، وَأَسَرُّوا النَّجْوى أي : من موسى عليه السّلام لئلا يقف عليه فيدافعه ، ونجواهم على هذا هو قوله : قالُوا إِنْ هذانِ أي :
موسى وهارون ، لَساحِرانِ عظيمان يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ مصر ، بالاستيلاء عليها بِسِحْرِهِما الذي أظهره قبل ، وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى أي : بمذهبكم ، الذي هو أفضل المذاهب وأمثلها ، بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما.
قال ابن عطية : والأظهر ، فى الطريقة هنا ، أنه السيرة والمملكة. والمثلى : تأنيث الأمثل ، أي : الفاضلة الحسنة. هـ. وقيل : الطريقة هنا : اسم لوجوه القوم وأشرافهم ، لأنهم قدوة لغيرهم ، والمعنى : يريدان أن يصرفا وجوه الناس وأشرافهم إليهما ، ويبطلان ما أنتم عليه. وقال قتادة : (طريقتهم المثلى يومئذ : بنو إسرائيل ، كانوا أكثر القوم

---

(١) من الآية ١٦٢ من سورة النساء.
(٢) من الآية ٦٩ من سورة المائدة. وللألوسى – رحمه اللّه – كلام طيب فى هذه القضية ، راجعه فى تفسيره (١٦/ ٢٢٤).

عددا وأموالا ، فقال فرعون : إنما يريدان أن يذهبا به لأنفسهما). ولا شك أن حمل الإخراج على إخراج بنى إسرائيل من بينهم ، مع بقاء قوم فرعون على حالهم آمنين فى ديارهم : بعيد ، مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله.
وقوله تعالى : فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ : تصريح بالمطلوب ، أي : إذا كان الأمر كما ذكر ، من كونهما ساحرين يريدان إخراجكم من بلادكم ، فأجمعوا كيدكم ، أي : اجعلوه مجمعا عليه ، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم ، وارموه عن قوس واحدة. وقرأ أبو عمرو : (فاجمعوا) ، من الجمع ، أي : فاجمعوا أدوات سحركم ورتبوها كما ينبغى ، ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا أي : مصطفين ، أمروا بذلك لأنه أهيب فى صدور الرائين ، وأدخل فى استجلاب الرهبة من المشاهدين. قيل : كانوا سبعين ألفا ، مع كل واحد منهم حبل وعصا ، وأقبلوا عليه إقبالة واحدة ، وقيل : كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط ، والباقي من بنى إسرائيل ، وقيل : تسعمائة ثلاثمائة من الفرس ، وثلاثمائة من الروم ، وثلاثمائة من الإسكندرية ، وقيل : خمسة عشر ألفا. واللّه تعالى أعلم. ولعل الموعد كان مكانا متسعا ، خاطبهم موسى عليه السّلام بما ذكر فى قطر من أقطاره ، وتنازعوا أمرهم فى قطر آخر ، ثم أمروا أن يأتوا وسطه على الوجه المذكور.
ثم قالوا فى آخر نجواهم : وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى فاز بالمطلوب من غلب ، يريدون بما وعدهم فرعون من الأجر والتقريب ، أو بالرئاسة والجاه والذكر الحسن فى الناس. وقيل : كان نجواهم أن قالوا - حين سمعوا مقاله موسى عليه السّلام : ما هذا بقول ساحر ، وقيل : كان ذلك أن قالوا : إن غلبنا موسى اتبعناه ، وقيل : قالوا فيها : إن كان ساحرا غلبناه ، وإن كان من السماء فله أمر. فيكون إسرارهم حينئذ من فرعون ، ويحمل قولهم : إِنْ هذانِ لَساحِرانِ ... إلخ ، على أنهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل المذكورة ، ثم أعرضوا عن ذلك بعد التنازع والتناظر ، واستقرت آراؤهم على المغالبة والمعارضة. واللّه تعالى أعلم بما كان.
ثم طلبوا المعارضة ، فقالوا : يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ما تلقيه أولا ، وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى ما نلقيه. خيروه عليه السّلام فيما ذكر مراعاة للأدب ، لما رأوا عليه من مخايل الخير ، وإظهارا للجلادة ، قالَ بَلْ أَلْقُوا أنتم أولا ، مقابلة لأدبهم بأحسن منه ، فبتّ القول بإلقائهم أولا ، وإظهارا لعدم المبالاة بسحرهم ، ومساعدة لما أوهموا من الميل إلى البدء ، وليستفرغوا أقصى جهدهم وسعيهم ، ثم يظهر اللّه سبحانه سلطانه ، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، كما تعود من ربه.
فألقوا ما عندهم ، فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى أي : ففوجىء موسى ، وتخيل سعى حبالهم وعصيهم من سحرهم ، وذلك أنهم كانوا لطخوها بالزئبق ، فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت ، فخيل إليه أنها تتحرك. قلت : هكذا ذكر كثير من المفسرين. والذي يظهر أن تحريكها إنما كان

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٠١
من تخييل السحر الذي يقلب الأعيان فى مرأى العين ، كما يفعله أهل الشعوذة ، وهو علم معروف من علوم السحر ، ويدل على ذلك ما ورد أنها انقلبت حيات تمشى على بطونها ، تقصد موسى عليه السّلام ، فكيف يفعل الزئبق هذا؟ قال ابن جزى : استدل بعضهم بهذه الآية أن السحر تخييل لا حقيقة له. هـ.
فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً أي : خوفا ، مُوسى أي : أضمر فى نفسه بعض خوف ، من جهة الطبع البشرى المجبول على النفرة من الحيات ، والاحتراز من ضررها. وقال مقاتل : إنما خاف موسى ، إذ صنع القوم مثل صنيعه ، بأن يشكّوا فيه ، فلا يتبعوه ، ويشك فيه من تابعه. قُلْنا لا تَخَفْ ما توهمت ، إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى الغالب عليهم ، والجملة : تعليل لنهيه عن الخوف ، وتقرير لغلبته ، على أبلغ وجه ، كما يعرب عنه الاستئناف ، وحرف التحقيق ، وتأكيد الضمير ، وتعريف الخبر ، ولفظ العلو.
ثم قال له : وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ أي : عصاك ، وإنما أبهمت تفخيما لشأنها ، وإيذانا بأنها ليست من جنس العصا المعهودة ، بل خارجة عن حدود أفراد الجنس ، مبهمة الكنه ، مستتبعة لآثار غريبة ، وأما حمل الإبهام على التحقير ، بمعنى : لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم ، وألق العويد الذي فى يدك ، فإنه بقدرة الله تعالى يتلقفها مع وحدته وكثرتها ، وصغره وكبرها ، فيأباه ظهور حالها ، وما وقع منها فيما مر من تعظيم شأنها.
وقوله تعالى : تَلْقَفْ ما صَنَعُوا : جواب الأمر ، من لقفه ، إذا ابتلعه والتقمه بسرعة ، أي : تبتلع ، وتلتقم بسرعة ، ما صنعوا من الحبال والعصى ، التي تخيل إليك ، والجملة الأمرية معطوفة على النهى عن الخوف ، موجبة لبيان كيفية غلبته عليه السّلام وعلوه ، وإدحاض الخوف عنه ، فإن ابتلاع عصاه لأباطيلهم ، التي منها أوجس فى نفسه ما أوجس ، مما يقلع مادته بالكلية. وهذا ، كما ترى ، صريح فى أن خوفه عليه السّلام لم يكن - كما قال مقاتل - من خوف شك الناس وعدم اتباعه له عليه السّلام ، وإلا لعلله بما يزيله من الوعد بالنصر الذي يوجب اتباعه.
فتأمله. قاله أبو السعود. وفيه نظر بأن قوله : تَلْقَفْ ما صَنَعُوا صريح فى عدم الالتباس إذ لا ينبغى التباس مع ابتلاع عصاه لعصيهم ، فتأمله. إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ أي : إن الذي صنعوه كيد ساحر وحيله. وقرأ أهل الكوفة : (سحر) بكسر السين ، فالإضافة للبيان ، كما فى «علم فقه» ، أو : كيد ذى سحر ، أو يسمى الساحر سحرا مبالغة. والجملة تعليل لقوله : (تَلْقَفْ) أي : تبتلعه لأنه كيد ساحر ، وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى أي : حيث وجد ، وأين أقبل ، وهو من تمام التعليل. والله تعالى أعلم.
الإشارة : يقال للفقير ، المتوجه إلى الله تعالى ، من قبل الحق : إمّا أن تلقى الدنيا من يدك ، وإمّا أن

نكون أول من ألقاها عنك ، أي : إما أن تتركها اختيارا ، أو تزول عنك اضطرارا لأن عادته تعالى ، مع المتوجه الصادق ، أن يدفع عنه كل ما يشغله من أمور الدنيا. فيقول - إن كان صادق القلب - : بل ألقها ، ولا حاجة لي بها ، فألقاها الحق تعالى ،

وأخرجها من يده ، عناية به ، فإذا أشغالها وعلائقها كانت تسعى فى هلاكه وخراب قلبه وتضييع عمره ، فأوجس فى نفسه خيفة من العيلة ولحوق الفاقة ، قلنا : لا تخف ، حيث توجهت إلى مولاك ، فإن الله يرزق بغير حساب وبلا أسباب ، وألق ما فى يمين قلبك من اليقين ، تلقف ما صنعوا ، أي : ما صنعت بك خواطر السوء والشيطان ، لأنه يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء ، وإنما صنعوا ذلك تخويفا وتمويها ، لا حقيقة له ، كما يفعل الساحر ، (و لا يفلح الساحر حيث أتى).

ثم ذكر إسلام السحرة ، وما كان من شأنهم ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٧٠ الى ٧١]

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى (٧٠) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى (٧١)

قلت : (فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) ، قال المحلى : أي : عليها ، وهو مذهب كوفى ، وأما مذهب البصريين فيقولون : ليست «فِي» بمعنى «على» ، ولكن شبه المصلوب ، لتمكنه فى الجذع ، بالحالّ فى الشيء ، وهو من الاستعارة التعبيرية.

و(مِنْ خِلافٍ) : فى موضع الحال ، أي : مختلفات.

يقول الحق جل جلاله : فلما ألقى موسى عصاه انقلبت حية عظيمة ، فابتلعت تلك الحبال والعصى ، فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر ، وإنما هى آية من آيات الله. روى أن رئيسهم قال : كنا نغلب أعين الناس ، وكانت الآلات تبقى علينا ، فلو كان هذا سحرا ، فأين ما ألقينا من الآلات؟ فاستدلوا بما رأوا على صحة رسالة موسى. فألقاهم ما شاهدوه على وجوههم ، فتابوا وآمنوا ، وأتوا بما هو غاية الخضوع ، قيل : لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ، والثواب والعقاب. وعن عكرمة : لما خروا سجدا ، أراهم الله تعالى ، فى سجودهم ، منازلهم فى الجنة. ولا ينافيه قولهم : إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا ، لأن كون تلك المنازل منازلهم هو السبب فى صدور هذا القول منهم.

قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى ، قدّموا هارون إما لكبر سنه ، أو للمبالغة فى الاحتراز عن التوهم الباطل

من جهة فرعون ، حيث كان ربّى موسى عليه السّلام فى صغره ، فلو قدّموا موسى لربما توهم اللعين وقومه ، من أول الأمر ، أن مرادهم فرعون ، فأزاحوا تلك الخطرة من أول مرة. قالَ آمَنْتُمْ لَهُ أي : لموسى ، واللام لتضمن الفعل معنى الانقياد والخضوع ، أي : أذعنتم له قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ أي : من غير أن آذن لكم ، إِنَّهُ أي :
موسى لَكَبِيرُكُمُ أي : أستاذكم وأعلمكم فى فنكم ، الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ، فتواطأتم على ما فعلتم. وهذه منه شبهة واهية أين كان موسى عليه السّلام ، وأين كان السحرة ، حتى علمهم؟ ولكن صدر منه هذا خوفا على الناس أن يتبعوا موسى عليه السّلام ، ويقتدوا بالسحرة ، فأوهم عليهم ، مع ما سبق فى علم الله من ضلالتهم.

(٣/٤٠٢)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٠٣
ثم أقبل على السحرة بالوعيد ، فقال : فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ أي : فو الله لأقطعن أيديكم وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ أي : اليد اليمنى والرجل اليسرى. وتعيين تلك الحال للإيذان بتحقيق هذا الأمر وإيقاعه لا محالة ، فتعيين تلك الحالة المعهودة من باب السياسة ، أو لأنها معهودة لمن خرج عن حكم طاعته. وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ أي : عليها ، وإتيان كلمة «فِي» للدلالة على إبقائهم عليها زمنا مديدا ، تشبيها فى استمرارهم عليها باستقرار الظرف فى المظروف المشتمل عليه ، وقيل : هو أول من صلب. وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا ، يريد نفسه أو موسى عليه السّلام ، حيث خافوا من عصاه فأسلموا ، فهم اللعين أن إيمانهم لم يكن للمعجزة ، إنما كان خوفا ، حيث رأوا عصاه ابتلعت حبالهم وعصيهم ، أو يريد (أَيُّنا) أي : أنا أو رب موسى وهارون ، الذي آمنتم به ، أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى أي : أدوم. قالوا : لم يثبت فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به ، ولم يثبت فى الأخبار ، لكن روى عن ابن عباس ، وغيره ، أنه أنفذه. وروى أن امرأة فرعون كانت تسأل : من غلب؟ فيقال لها : موسى ، فقالت : آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون يهددها ، وقال : انظروا أعظم صخرة ، فإن استقرت على قولها فألقوها عليها ، فلما ألقوها رفعت بصرها إلى السماء فأريت بيتها فى الجنة ، فمضت على قولها ، وانتزعت روحها منها ، وألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه. قاله الثعلبي. والله تعالى أعلم.
الإشارة : من سبقت له العناية ، لا تضره الجناية. هؤلاء السحرة جاءوا يحادون الله ورسوله ، فأضحوا أولياء الله. روى أن موسى عليه السّلام لما قال لهم : أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ ، سمع هاتفا يقول : ألقوا يا أولياء الله ، فتحير موسى عليه السّلام ، وأوجس فى نفسه خيفة ، وقال : كيف أعارض أولياء الله ، فلما ألقى عصاه ظهرت ولايتهم. فكم من لصوص خرج منهم الخصوص. ففى أمثال هؤلاء تقوية لرجاء أهل

الجناية ، إذا طلبوا من الله سرّ العناية ، وإدراك مقام الولاية ، ولذلك ابتدأ القشيري فى رسالته بذكر من تقدم له جنايات من الأولياء ، كالفضيل ، وابن أدهم ، وأضرابهم - رضى الله عن جميعهم - .

ثم ذكر ثبوت السحرة على الإيمان ، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٧٢ الى ٧٦]

قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)

(٤٠٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٠٤

قلت : (هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا) : نصب على إسقاط الخافض ، اتساعا ، لا نصب على الظرفية لأن الظرف المختص لا ينتصب على الظرفية ، على المشهور ، و(الَّذِي فَطَرَنا) : عطف على (ما جاءَنا) ، أو قسم حذف جوابه ، أي : وحق الذي فطرنا لا نؤثرك .. إلخ.

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن السحرة ، لمّا خوفهم فرعون : قالُوا غير مكترثين بوعيده : لَنْ نُؤْثِرَكَ أي : لن نختارك ، باتباعك عَلى ما جاءَنا من الله تعالى على يد موسى عليه السّلام مِنَ الْبَيِّناتِ أي : المعجزات الظاهرة لأن ما ظهر من العصا كان مشتملا على معجزات جمة ، كما تقدم. وَالَّذِي فَطَرَنا : خلقنا وخلق سائر المخلوقات ، أي : لن نختارك على ما ظهر لنا من دلائل صحة نبوة موسى ، ولا على الذي خلقنا ، حتى نتبعك ونترك الحق ، وكان ما شاهدوه آية حسية ، وهذه آية عقلية. وإيراده بعنوان فاطريته تعالى للإشعار بعلّية الحكم ، فإن خالقيته تعالى لهم ولفرعون - وهو من جملة مخلوقاته - مما يوجب عدم إيثارهم له عليه سبحانه ، أو : وحق الذي فطرنا لا نؤثرك على ما جاءنا ، فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ أي : فاصنع ما أنت صانعه ، أو : فاحكم ما أنت حاكمه. وهو جواب لقوله : (فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ ..) إلخ. إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا أي : إنما تصنع ما تهواه ، أو تحكم ما تراه فى هذه الحياة الدنيا الفانية ، ولا رغبة لنا فى البقاء فيها ، رغبة فى سكنى الدار الدائمة ، بسبب موتنا على الإيمان.

إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا التي اقترفنا ، من الكفر والمعاصي ، ولا يؤاخذنا بها فى الآخرة ، فلا نغتر بتلك الحياة الفانية ، حتى نتأثر بما أوعدتنا به من القطع والصلب ، وَيغفر لنا أيضا ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ الذي عملناه فى معارضة موسى عليه السّلام ، بإكراهك وحشرك لنا من المدائن القاصية ، وخصوه بالذكر ، مع اندراجه فى خطاياهم إظهارا لغاية نفرتهم عنه ، ورغبة فى مغفرته ، وفى ذكره

الإكراه : نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة ، وقيل : أرادوا الإكراه على تعلم السحر ، لما روى أن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط ، والباقي من بنى إسرائيل ، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر ، وقيل : إنه أكرههم على المعارضة ، حيث روى أنهم قالوا لفرعون : أرنا موسى نائما ، ففعل ، فوجدوه تحرسه عصاه ، فقالوا : ما هذا بسحر ، فإن الساحر إذا نام بطل سحره ، فأبى إلا أن يعارضوه. لكن يأباه تصديهم للمعارضة بالرغبة والنشاط ، كما يعرب عنه قولهم :
إِنَّ لَنا لَأَجْراً .. «١» إلخ ، وقولهم : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ «٢» ، إلا أن يقال : لما رأوا جدّه طمعوا وطلبوا الأجر. وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى أي : وثواب الله خير من إيثار الدنيا الفانية ، وأبقى فى الدار الباقية ، أو : والله فى ذاته خير ، وجزاؤه أبقى ، نعيما كان أو عذابا.

---

(١) من الآية ١١٣ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة الشعراء.

ثم عللوا خيريته وبقاءه فقالوا : إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً بأن يموت على الكفر والمعاصي ، فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها فيستريح وينتهى عذابه ، وهذا تحقيق لقوله : (وَ أَبْقى) ، وَلا يَحْيى حياة ينتفع بها ، وضمير (إِنَّهُ) : للشأن ، وفيه تنبيه على فخامة مضمون الجملة لأن مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره ، مع ما فيه من زيادة التقرير ، فإن الضمير لا يفهم منه أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر ، فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه ، فيتمكن ، عند وروده ، فضل تمكن ، كأنه قيل الشأن الخطير هذا.
وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً به تعالى ، وما جاء من عنده من المعجزات ، التي من جملتها ما شهدناه ، حال كونه قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ أي : الأعمال الصالحات ، وهى كل ما استقام شرعا وخلص عقدا ، فَأُولئِكَ أي : من يأت مؤمنا .. إلخ. وجمع الإشارة باعتبار معنى «من» ، كما أن الإفراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم ، أي : فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات ، لَهُمُ بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحات الدَّرَجاتُ الْعُلى أي : المنازل الرفيعة ، وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الإيمان المجرد عن العمل فى استتباع الثواب ، لأن ما نيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى ، لا بالثواب مطلقا.
ثم فسر تلك الدرجات ، فقال : جَنَّاتُ عَدْنٍ أي : إقامة على الخلود ، حال كونها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى ، الإشارة إلى ما أنتج لهم من الفوز بالدرجات العلى. والبعد فى الإشارة للتفخيم ، أي : ما تقدم من الفوز بالدرجات العلى هو جزاء من تطهر من دنس الكفر والمعاصي ، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة ، وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى. وتقدم ذكر حال المجرم ، للمسارعة إلى بيان أشدية عذابه ودوامه ، ردا على ما ادعاه فرعون بقوله : أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى ، هذا وقد قيل : إن قوله : إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ .... إلخ ، ابتداء كلام من الله عز وجل. والله تعالى أعلم.
الإشارة : فى الآية تحريض للفقراء أهل النسبة وأرباب الأحوال ، على الثبوت فى طريق السلوك ، وعدم الرجوع عنها ، حين يكثر عليهم الإنكار والتهديد ، والتخويف بأنواع العذاب ، فلا يكترثون بذلك ولا يتضعضعون ، وليقولوا كما قال سحرة فرعون : (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ...) الآية. وقد جرى هذا على كثير من الصوفية ، أوذوا على النسبة ، فمنهم من قتل ، ومنهم من طوف ، ومنهم من أجلى عن وطنه ، إلى غير ذلك مما جرى عليهم ، ومع ذلك لم يرجعوا عما هم عليه ، حتى وصلوا إلى حضرته تعالى وذاقوا. وما رجع من رجع إلا من الطريق ، وأما من وصل فلا يرجع أبدا ، ولو قطع إربا إربا. والله ولي المتقين.

(٤٠٥/٣)

ثم ذكر خروج بنى إسرائيل إلى الشام وغرق فرعون ، فقال :
[سورة طه (٢٠) : الآيات ٧٧ الى ٧٩]
وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى (٧٩)
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي بعد ما لبث يدعو فرعون إلى الله تعالى ويريه الآيات المفصلات ، بعد غلبة السحرة ، نحوا من عشرين سنة ، كما فصّل ذلك فى الأعراف ، فلما أيس من إيمانهم أوحى الله بالخروج عنهم ، أي : والله لقد أوحينا إلى موسى أن أسر ، أو بأن أسر بعبادي الذين أرسلتك لإنقاذهم من يد فرعون ، أي : سر بهم من مصر ليلا إلى بحر القلزم. والتصدير بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها ، والتعبير عنهم بعبادي لإظهار الرحمة والاعتناء بهم ، والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون ، حيث استعبدهم ، وهم عباده عز وجل ، وفعل بهم من فنون العذاب ما فعل. فَاضْرِبْ لَهُمْ أي : اجعل لهم ، أو اتخذ لهم طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً أي : يابسا لا ماء فيه ، لا تَخافُ دَرَكاً أي : حال كونك آمنا من أن يدرككم العدو ، وَلا تَخْشى الغرق. وقرأ حمزة : «لا تخف» بالجزم ، جوابا للأمر ، فيكون (و لا تخشى) : إما استئناف ، أي : وأنت لا تخشى ، أو عطف عليه ،

والألف للإطلاق ، أو يقدر الجزم ، كقوله :

ألم يأتيك والأنباء تنمى «١» ... إلخ.

وتقديم نفى خوف الدرك ، للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه من الخوف ، حيث قالوا : إِنَّا لَمُدْرَكُونَ «٢».

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ أي : تبعهم ومعه جنوده حتى لحقهم ، يقال : اتبعتهم ، أي : تبعتهم ، إذا كانوا سبقوك ولحقتهم ، ويؤيده قراءة : (فاتّبعهم) بالشد. وقيل : الباء زائدة ، والمعنى : فأتبعهم فرعون جنوده ، أي : ساقهم خلفهم ، وأيا ما كان ، فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوى ذكره ، ثقة بظهوره ، وإيذانا بكمال مسارعة موسى إلى الامتثال ، أي : ففعل ما أمر به من الإسراء بهم ، وضرب الطريق فى البحر وسلكوه ، فأتبعهم بجنوده برا وبحرا.

روى أن موسى عليه السّلام خرج بهم أول الليل ، وكانوا ستمائة وسبعين ألفا ، فأخبر فرعون بذلك ، فأتبعهم بعساكره ، وكانت مقدمته سبعمائة ألف ، فقص أثرهم فلحقهم ، بحيث تراءى الجمعان ، فلما أبصروا رهج «٣» الخيل ، قالوا : إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ، قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ «٤». فلما قربوا ، قالوا : يا موسى أين نمضى ، البحر أمامنا ، وخيل فرعون خلفنا ، فعند ذلك ضرب موسى عصاه البحر فانفلق على ثنتى عشرة فرقة ،

---

(١) هذا صدر بيت عجزه : بما لاقت لبون بنى زياد. وهو لقيس بن زهير العبسي .. انظر تفسير القرطبي.

(٢) الآية ٦١ من سورة الشعراء. [.....]

(٣) الرّهج : الغبار.

(٤) الآيتان ٦١ - ٦٢ من سورة الشعراء.

كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ «١» أي : كالجبل العظيم من الماء ، وكانوا يمرون به ، وكلهم بنو أعمام ، لا يرى بعضهم بعضا ، فقالوا : قد غرق إخواننا ، فأوحى الله إلى أطواد الماء : أن اشتبكى ، وصارت شبابك ، يرى بعضهم بعضا ، ويسمع بعضهم كلام بعض ، فلما أتى فرعون الساحل ، وجد البحر منفلقا ، فقال : سحر موسى البحر ، فقالوا :

إن كنت ربا فادخل كما دخل ، فجاء جبريل على رمكة وديق ، أي : تحب الفحل ، وكان فرعون على

حصان ، فاقتحم جبريل بالرمكة الماء ، فلم يتمالك حصان فرعون ، فاقتحم البحر على إثره ، ودخل القبط كلهم ، فلما لجّجوا ، أوحى الله تعالى إلى البحر أن أغرقهم ، فعلاهم البحر وأغرقهم.

فعبر موسى عليه السّلام بمن معه من الأسباط سالمين ، وأما فرعون وجنوده فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ أي :

علاهم منه وغمرهم من الأمر الهائل ، الذي لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه. قال القشيري : فغرقوا بجملتهم ، وآمن فرعون لما ظهر له البأس ، فلم ينفعه إقراره ، وكان ينفعه لو لم يكن إصراره ، وقد أدركته الشقاوة التي سبقت له من التقدير. هـ. وقال الكواشي : (و غشيهم) من الغضب والغرق ، وغير ذلك ، مالا يعلم حقيقته إلا الله تعالى. هـ. فإبهام الصلة للتهويل والتفخيم ، وقيل : (غشيهم من اليم) ما سمعت قصته فى غير هذه السورة ، وليس بشيء فإن مدار الإبهام على التهويل والتفخيم ، بحيث يخرج عن حدود الفهم والوصف ، لا سماع قصته فقط.

وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ أي : أتلفهم وسلك بهم مسلكا أدى بهم إلى الخيبة والخسران ، حيث ماتوا على الكفر ، وأوصلهم إلى العذاب الهائل الدنيوي ، المتصل بالعذاب الدائم الأخرى ، وَما هَدى أي : ما أرشدهم قط إلى طريق توصلهم إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية. وهو تقرير لإضلاله وتأكيد له ، وفيه نوع تهكم به فى قوله : وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ «٢» ، فإن نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة ، وذلك إنما يتصور فى حقه بطريق التهكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : انظر عاقبة من شدّ يده على دينه ، وصبر على شدائد زمانه ، كيف خرقت له العوائد ، وجاءه العز والنصر فأنساه تلك الشدائد ، وأهلك الله من كان يؤذيه من الأعداء ، وسلك به سبيل النجاة والهدى ، وهذه عادة الله مع أوليائه ، يشدد عليهم أولا بضروب البلايا والمحن ، ثم يعقبهم العز والنصر وضروب المنن ، ولذلك ذكّر الله بنى إسرائيل بما أنعم عليهم بعد البحر ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٨٠ الى ٨٢]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى (٨٢)

---

(١) من الآية ٦٣ من سورة الشعراء.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة غافر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٠٨

يقول الحق جل جلاله لبنى إسرائيل ، بعد ما أنجاهم من الغرق ، وأفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية : يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ فرعون وقومه ، حيث كانوا يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ «١» ، وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ أي : واعدناكم بواسطة نبيكم ، إتيان جانب الطور ، الجانب الأيمن منه للمناجاة وإنزال التوراة. وهل هو الطور الذي أبصر فيه النار ووقعت فيه الرسالة ، أو غيره؟ خلاف. ونسبة المواعدة إليهم مع كونه لموسى عليه السّلام خاصة ، أو له وللسبعين المختارين ، نظر إلى ملابستها إياهم ، وسراية منفعتها إليهم ، وإعطاء لمقام الامتنان حقه. كما فى قوله تعالى :

وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ «٢» حيث نسب الخلق والتصوير للمخاطبين ، مع أن المخلوق كذلك هو آدم عليه السّلام.

ثم قال تعالى : وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ حين تهتم ، الْمَنَّ وَالسَّلْوى أي : الترنجبين والطير السّمانى ، حيث كان ينزل عليهم المنّ وهم فى التيه ، مثل الثلج ، من الفجر إلى الطلوع ، لكل إنسان صالح ، ويبعث الجنوب عليهم السّمانى ، فيذبح الرجل منه ما يكفيه. وقلنا لهم : كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ أي : من لذائذه ، أو حلاله. وفى البدء بنعمة الإنجاء ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن الترتيب ما لا يخفى. وَلا تَطْغَوْا فِيهِ أي :

فيما رزقناكم بالإخلال بشكره ، والتعدي لما حدّ لكم فيه ، كالترفه والبطر والمنع من المستحق. وقال القشيري :

مجاوزة الحلال إلى الحرام ، أو بالزيادة على الكفاف وما لا بدّ منه ، فأزاد على سدّ الرمق ، أو بالأكل على الغفلة والنسيان. هـ. وقيل : لا تدخروا ، فادّخروا فتعودوا ، وقيل : لا تنفقوه فى المعصية ، فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي بفعل شىء من ذلك ، أي : ينزل ويجب ، من حلّ الدين إذا وجب. وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى أي : تردّى وهلك ، أو وقع فى المهاوى.

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ أي : كثير الغفران لِمَنْ تابَ عن الشرك والمعاصي ، التي من جملتها الطغيان فيما ذكر ، وَآمَنَ بما يجب الإيمان به ، وَعَمِلَ صالِحاً أي : عملا صالحا مستقيما عند الشرع ، وفيه ترغيب وحث لمن وقع فى زلّة أو طغيان على التوبة والإيمان ، ثُمَّ اهْتَدى أي : استقام على الهدى ودام عليها حتى مات.

وفيه إشارة إلى أن من لم يستمر عليها بمعزل عن الغفران. قال الكواشي : (ثُمَّ اهْتَدى) أي : علم أن ذلك بتوفيق من الله تعالى. هـ.

الإشارة : إذا ذهبت عن العبد أيام المحن ، وجاءت له أيام المنن ، فينبغى له أن يتذكر ما سلف له من المحن ، وينظر ما هو فيه الآن من المنن ، ليزداد شكرا وتواضعا ، فتزداد نعمه ، وتتواتر عليه الخيرات. وأما إن نسى أيام

(١) من الآية ٤٩ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١١ من سورة الأعراف.

(٤٠٨/٣)

المحن ، ولم يشكر ما هو فيه من المنن ، فحقيق أن تزول عنه ، ويرجع إلى ما كان عليه. وتذكّر حديث الأبرص والأقرع والأعمى ، حسبما فى الصحيح «١». فإن الأبرص والأقرع ، حين شفاهما الله وأغناهما ، أنكرا ما كانا عليه ، فرجعا إلى ما كانا عليه ، والأعمى حين أقر بما كان عليه ، وشكر الحال الذي حال إليه ، دامت نعمته وكثر خيره.

فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود. فيقال لأهل النعم ، إن قاموا بشكرها : كلوا من طيبات ما رزقناكم ، ولا تطغوا فيه ، بأن تصرفوه فى غير محله ، أو تمنعوه عن مستحقه ، فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ... الآية.

وقوله تعالى : وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ .. إلخ ، قال القشيري : وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ من الزّلّة وَآمَنَ فلم ير أعماله من نفسه ، بل جميع الحوادث من الحقّ ، وَعَمِلَ صالِحاً فلم يخلّ بالفرائض ، ثُمَّ اهْتَدى للسّنة والجماعة.

وقال أيضا : ثم اهتدى بنا إلينا. هـ.

قال الورتجبي : التائب : المنقطع إلى الله ، والمؤمن : العارف بالله ، والعمل الصالح : تركه ما دون الله ، فإذا كان كذلك ، فاهتدى بالله إلى الله ، ويكون مغمورا برحمة الله ، ومعصوما بعصمة الله. هـ.

ثم ذكر فتنة بنى إسرائيل بالعجل ، بعد ذهاب موسى إلى المناجاة ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٨٣ الى ٨٨]

وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى (٨٣) قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى (٨٤) قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (٨٨)

يقول الحق جل جلاله لموسى عليه السّلام ، لما ذهب إلى الطور ، لموافاة الميقات ، للعهد الذي عهد إليه ، واختار سبعين من بنى إسرائيل ، يحضرون معه لأخذ التوراة بأمره تعالى ، فلما دنا من الجبل

حمله الشوق ، فاستعجل إلى الجبل ، وترك قومه أسفله ، فقال له الحق جل جلاله : وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى أي : ما حملك على

---

(١) أخرج حديث الثلاثة البخاريّ فى (أحاديث الأنبياء ، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع بنى إسرائيل) ، ومسلم فى (الزهد ، ح ٢٩٦٤) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

العجلة ، وأىّ شىء أعجلك منفردا عن قومك ، وقد أمرتك باستصحابهم ، ولعل فى إفرادك عنهم عدم اعتناء بهم؟

فأجاب عليه السّلام بقوله : هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي أي : هم هؤلاء قريبا منى ، فهم معى ، وإنما سبقتهم بخطإ يسيرة ، ظننت أنها لا تخلّ بالمعية ، ولا تقدح فى الاستصحاب ، فإن ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقة.

قال الكواشي : ولما كان سؤال الرب تعالى لموسى يقتضى شيئين : أحدهما : إنكار العجلة ، والثاني : السؤال عن السبب والحامل عليها ، كان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة فى نفس ما أنكر عليه ، فاعتل أن قال :

إن ما وجد منى تقدم يسير ، لا يعتد بمثله فى العادة لقربه ، كما يتقدم الوفد رئيسهم ومتقدمهم ، ثم عقبه بجواب السؤال فقال : عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى لتزداد عنى رضا لمسارعتى إلى الامتثال لأمرك ، واعتنائى بالوفاء بعهدك لأنه ظن أن إسراعه إليه أبلغ فى رضاه. وفى هذا دليل على جواز الاجتهاد للأنبياء - عليهم السّلام - والمعنى : لتعلم أنى أحبك ولا قرار لى مع غيرك. هـ.

وقال القشيري : (هم أولاء على أثرى) ما خلّفتهم لتضييعى إياهم ، ولكن عجلت إليك ربّ لترضى. قال :

يا موسى ، رضائى فى أن تكون معهم ، ولا تتقدمهم ولا تسبقهم ، وكونك مع الضعفاء ، الذين استصحبتهم فى حصول رضاى ، أبلغ من تقدّمك عليهم. هـ.

قالَ له تعالى : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ أي : ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم. روى أنهم أقاموا على ما وصاهم به موسى عليه السّلام عشرين ليلة ، بعد ذهابه ، فحسبوها مع أيامها أربعين ، وقالوا : قد أكملنا العدة ، وليس من موسى عين ولا أثر ، وكان وعدهم أن يغيب عنهم أربعين يوما ، واستخلف هارون على من بقي منهم ، وكانوا ستمائة ألف ، فافتتنوا بعبادة العجل كلهم ، ما نجا

منهم إلا اثنا عشر ألفا. وهذا معنى قوله تعالى :

وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ، حيث كان هو السبب فى فتنتهم ، فقال لهم : إنما أخلف موسى عليه السّلام ميعادكم لما معكم من حلى القوم ، فهو حرام عليكم ، فكان من أمر العجل ما يأتى تفسيره إن شاء الله.

فإخباره تعالى بهذه الفتنة عند قدومه عليه السّلام ، قبل وقوعها ، إما باعتبار تحققها فى علمه تعالى ، وإما باعتبار التعبير عن المتوقع بالواقع ، كما فى قوله تعالى : وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ «١» ، أو لأن السامري كان قد عزم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه السّلام ، وتصدى لها بترتيب مبادئها ، فكانت الفتنة واقعة عند الإخبار بها.

والسامري منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل ، يقال لها : سامرة ، وقيل : كان رجلا من كرمان. وقال ابن عباس :

كان من قرية يعبدون البقر ، فدخل فى بنى إسرائيل وأظهر الإسلام ، وفى قلبه ما فيه من حب عبادة البقر ، فابتلى الله به بنى إسرائيل ، واسمه : موسى بن ظفر.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة الأعراف.

(٣/٤١٠)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤١١

فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ بعد ما استوفى الأربعين وأخذ التوراة ، لا عقب الإخبار بالفتنة ، كما يتوهم من قوله تعالى : غَضْبانَ أَسِفاً ، فإن كون الرجوع بعد الأربعين أمر مقرر مشهور ، يرفع كون الرجوع عقب الفتنة. والأسف : أشد الغضب ، وقيل : أسفا : حزينا جزعا على ضلال قومه. قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً بأن يعطيكم التوراة فيها ما فيها من النور والهدى ، أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أي : مدة مفارقتى إياكم.

والهمزة للإنكار ، والمعطوف محذوف ، أي : أوعدكم ذلك فطال زمان الإنجاز ، فأخطأتم بسببه ، أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ شديد كائن مِنْ رَبِّكُمْ أي : من مالك أمركم ، فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي أي : وعدي إياكم بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات ، أو وعدكم إياى بأن تثبتوا على ما أمرتكم به ، على إضافة المصدر إلى فاعله أو مفعوله ، والفاء ، لترتيب ما بعدها ، كأنه قيل : أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتمونى خطأ أَمْ أَرَدْتُمْ حلول الغضب عليكم فأخلفتموه عمدا.؟

قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ أي : وعدنا إياك بالثبات على ما أمرتنا به ، بِمَلْكِنا أي : بسلطاننا وقدرتنا ، ونحن نملك أمرنا. وفيه لغتان : فتح الميم وكسرها. يعنون : لو خلينا وأمورنا ، ولم يسوّل لنا السامرىّ

ما سوله ، ما أخلفنا ، ولكن غلبنا على أمرنا ، واستغوانا السامري مع مساعدة الأحوال.
وقال القشيري : أي : لم نكن فى ابتداء حالنا قاصدين إلى ما حصل منّا ، ولا عالمين بما آلت إليه عاقبة أمرنا ، وإنّ الذي حملنا عليه حليّ القبط ، صاغ السامريّ منه العجل ، فآل الأمر إلى ما بلغ من الشر ، وكذلك الحرام لا يخلو شؤمه من الفتنة والشر. هـ.
وقوله تعالى : وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ، استدراك عما سبق ، واعتذار ببيان منشأ الخطأ ، أي : حملنا أحمالا من حلى القبط ، التي استعرناها منهم ، حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس. وقيل : كانوا استعاروها لعيد كان لهم ، ثم لم يردوها إليهم ، مخافة أن يقفوا على أمرهم. وقيل : لما رمى البحر أجساد القبط ، وكان غالب ثيابهم الذهب والفضة ، التقطها بنو إسرائيل ، فهى زينة القوم التي صيغ منها العجل ، ولعل تسميتها أوزارا لأنها تبعات وآثام ، حيث لم تحل الغنائم لهم.
فَقَذَفْناها أي : فى النار رجاء الخلاص من عقوبتها ، أو قذفناها إلى السامري وألقاها فى النار ، فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ما كان معه منها كما ألقيناه ، أو ألقى ما كان معه من تراب حافر فرس جبريل ، كان قد صرّه فى عمامته ، وكان ألقى إليه الشيطان : أنه ما خالط شيئا إلا حيى ، فألقاه فى فمه فصار يخور.
روى : أنه قال لهم : إنما تأخر موسى عنكم ، لما معكم من الأوزار ، فالرأى أن نحفر حفرة ويسجر فيها نار ، ونقذف فيها كل ما معنا ، ففعلوا ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ من ذلك الحلي المذاب عِجْلًا أي : صورة عجل

جَسَداً أي : جثة ذات لحم ودم ، أو جسدا من ذهب لا روح فيه ، لَهُ خُوارٌ أي : صوت عجل ، فَقالُوا أي : السامري ومن افتتن به : هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ أي : غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور.
فقوله تعالى : (فَأَخْرَجَ لَهُمْ ...) إلخ .. هو من كلام الله تعالى ، حكاية لنتيجة فتنة السامري ، قولا وفعلا ، قصدا إلى زيادة تقريرها ، وتمهيدا للإنكار عليهم ، وليس من كلام المعتذرين ، وإلا لقال : فأخرج لنا .. والله تعالى أعلم.
الإشارة : ينبغى لرئيس القوم ، إذا كان فى سفر ، أن يكون وسطهم ، أو سائقا لهم ، ولا يتقدمهم أو يستعجل لأمر عنهم ، فإن التأنى كله من الله ، والعجلة كلها من الشيطان ، والخير كله فى الاجتماع مع الضعفاء والمساكين ، حتى يكون كأحدهم ، فإن فارقهم ، لأمر مهم ، فليستخلف عليهم من يثق به فى دينه ، وليكن اعتماده فى ذلك على ربه ، ونظره كله إلى رعايته وحفظه. قال الكواشي : عن ابن عطاء : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السّلام : أتدري من أين أتيت؟ - يعنى فى فتنة قومه - قال : لا يا رب

، قال : حين قلت لهارون : اخلفني في قومي ، أين كنت أنا حين اعتمدت على هارون؟. هـ.
فكل فتنة أو ضلال يصيب الفقراء ، فإنما ذلك من عدم الاجتماع مع أهل الفن ، أو قلة الاستماع لهم ، فإن أصابتهم فتنة الأسباب ، والركون إلى شيء من الدنيا في غيبة الشيخ ، فليرجع إليهم غضبان أسفا ، وليقل لهم : ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ، وهو الفتح الكبير لو صبرتم على السير والتجريد ، أفطال عليكم العهد ، فقد كانت الرجال تمكث في خدمة الأشياخ العشرين والثلاثين سنة ، أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ، بالإبعاد وإسدال الحجاب ، حيث خالفتم عهود أشياخكم ، فإن اعتذروا فليقبل عذرهم ، وإن ركنوا إلى عبادة شيء من عجل الدنيا فليخرجه من أيديهم ، وليقل : وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر الإنكار على عبدة العجل ، فقال :
[سورة طه (٢٠) : الآيات ٨٩ الى ٩٤]
أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً (٨٩) وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى (٩١) قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)

(٤١٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤١٣
قلت : (أَلَّا يَرْجِعُ) : «أن» محففة ، لأنّ الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين ، ومن قرأ بالنصب جعل الرؤية بصرية.
يقول الحق جل جلاله ، منكرا على عبدة العجل ومقبحا لرأيهم : أَفَلا يَرَوْنَ أي : أفلا يتفكر هؤلاء الضالون المضلون فيعلمون أن الأمر والشأن : أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ العجل كلاما ، ولا يرد عليها جوابا ، وإنما هو جماد لا روح فيه؟ فكيف يتوهمونه أنه إله؟ وتعليق الإبصار بما ذكر مع كونه عدميا للتنبيه على كمال ظهوره ، المستدعى لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم. وَهو أيضا لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً أي : أفلا يرون أيضا أن العجل لا يقدر أن يدفع عنهم ضرا ، أو يجلب لهم نفعا؟ أو لا يقدر على أن يضرهم إن لم يعبدوه ، أو ينفعهم إن عبدوه.
وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ أي : والله لقد نصحهم هارون ونبههم على الحق ، من قبل رجوع موسى عليه السّلام إليهم ، وقال لهم : يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ أي : وقعتم في الفتنة بالعجل أو ضللتم به ،

والمعنى : إنما فعل بكم الفتنة ، لا الإرشاد إلى الحق ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ وحده ، لا العجل ، أرشدهم إلى الحق بعد أن زجرهم عن الباطل. والتعرض لعنوان الرحمانية للاعتناء باستمالتهم إلى الحق المفضى إلى الرحمة الشاملة ، أي : إن ربكم الذي يستحق أن يعبد هو الرحمن لا غير. فَاتَّبِعُونِي على الثبات على الدين ، وَأَطِيعُوا أَمْرِي من ترك عبادة ما علمتم شأنه.

قالُوا فى جواب هارون عليه السّلام : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ أي : لن نزال على عبادة العجل مقيمين حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى ، جعلوا رجوعه عليه السّلام غاية لعكوفهم على عبادة العجل ، لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه ، بل بطريق التعلل والتسويف ، وقد دسّوا تحت ذلك أنه عليه السّلام لا يرجع بشيء مبين لإبطالها ، تعويلا على مقالة السامري.

روى أنهم ، لما قالوا ذلك ، اعتزلهم هارون عليه السّلام فى اثنى عشر ألفا ممن لم يعبد العجل ، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة «١» ، وكانوا يرقصون حول العجل ، قال للسبعين الذين كانوا معه : هذا صوت الفتنة ، فلما وصل إليهم قال لهم ما قال من قوله : (أَ لَمْ يَعِدْكُمْ ....) إلخ. وسمع منهم ما قالوا من قولهم : (ما أَخْلَفْنا ...) إلخ. فلما رأى هارون أخذ شعره بيمينه ، ولحيته بشماله ، غضبا ، قالَ يا هارُونُ ، وإنما جرده من الواو لأنه استئناف بيانى ، كأنه قيل : ماذا قال موسى لهارون حين سمع جوابهم له؟ وهل رضى بسكوته بعد ما شهد منهم ما شهد؟ فقيل :

قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا بعبادة العجل ، وبلغوا من المكابرة إلى أن شافهوك بتلك المقالة الشنعاء ، أَلَّا تَتَّبِعَنِ أي : أن تتبعنى. على أن «لا» مزيدة ، أي : أىّ شيء منعك ، حين رأيت ضلالتهم ، من أن

---

(١) فى الأصول : والجلبة.

تتبعنى فيما أمرتك ، وتعمل بوصيتي فتقاتلهم بمن معك؟. قال ابن عطية : والتحقيق : أن «لا» غير مزيدة ، ويقدر فعل ، أي : ما منعك مجانبتهم وسوّل لك ألا تتبعن. هـ. قلت : وفيه نظر لأن مجانبة هارون عليه السّلام للقوم كانت حاصلة ، وإنما أنكر عليه عدم مقاتلتهم ، أو عدم لحوقه ليخبره ، فتأمله. وقيل : المعنى : ما حملك على ألا تتبعن ، فإن المنع من الشيء مستلزم للحمل على مقابله ، وقيل : ما منعك أن تلحقنى وتخبرني بضلالهم ، فتكون مفارقتك زجرا لهم ، وهذا أظهر.

أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه ، فإن قوله : (اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي) متضمن للأمر بهما

حتما ، فإن الخلافة لا تتحقق إلا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو كان حاضرا ، والهمزة للإنكار ، والفاء للعطف ، أي : أخالفتني فعصيت أمرى.

لَ يَا بْنَ أُمَّ

،

خص الأم بالذكر استعطافا لحقها ، وترقيقا لقلبه ، لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه ، فإن الجمهور على أنهما شقيقان. قال له : تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي

أي : بشعر رأسى. وقد كان عليه السّلام أخذ بهما كما تقدم ، من شدة غيظه وفرط غضبه لله ، وكان حديدا متصلبا فى كل شيء ، فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل ، حتى فعل ما فعل. ثم اعتذر له أخوه بقوله : نِّي خَشِيتُ

إن قاتلت بعضهم ببعض وتفرقوا ، نْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ

برأيك ، مع كونهم أبناء رجل واحد ، كما ينبئ عنه ذكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه. وأراد عليه السّلام بالتفريق ما يستتبعه القتال من التفريق : الذي لا يرى بعده اجتماع ، فخشيت أن تقول : فرقت بينهم ، لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي

أي : قوله : (اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ..) إلخ ، يعنى : إنى رأيت أن الأصلح هو فى حفظ الدماء والمداراة معهم ، إلى أن ترجع إليهم ، فلذلك استأنيتك لتكون أنت المتدارك للأمر بما رأيت ، لا سيما وقد كانوا فى غاية القوة ، ونحن على القلة والضعف ، كما يعرب عنه قوله : إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي «١». والله تعالى أعلم.

الإشارة : كل من اعتمد على غير الله ، أو مال بمحبته إلى ما سوى الله ، فهو فى حقه عجل بنى إسرائيل ، فيقال له : كيف تركن إليه وهو لا يملك لك ضرا ولا نفعا ، وإنما فتنت به عن السير إلى ربك ، وانطمست به حضرة قدسك ، فربك الرحمن الكريم المنان ، فاتبع ما أمرك به من الطاعات ، وكن عبدا له فى جميع الحالات ، تكن خالصا لله ، حرا مما سواه. وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ١٥٠ من سورة الأعراف.

ثم وجّه العتاب إلى السامري ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٩٥ الى ٩٨]

قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (٩٥) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً (٩٧) إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (٩٨)

يقول الحق جل جلاله : قالَ موسى عليه السّلام فى توبيخ السامري : فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ أي : ما شأنك ، وما مطلوبك فيما فعلت من فتنة القوم؟ خاطبه بذلك ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ، وليفعل به وبما صنع من العقاب ما يكون نكالا للمفتونين به ، ولمن خلفهم من الأمم من بعده ، قالَ السامري فى جوابه :

بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ أي : علمت مالم يعلمه القوم ، وفطنت لما لم يفطنوا به ، أو رأيت مالم يروه ، وهذا أنسب ، وقد كان رأى جبريل عليه السّلام ، جاء راكبا فرسا ، وكان كلما رفع الفرس يده أو رجله عن الطريق اليبس ، اخضر ما تحت قدمه بالنبات ، فعرف أن له شأنا ، فأخذ من موطئه شيئا من التراب. وذلك قوله تعالى : فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ أي : أثر فرس الرسول ، وهو جبريل ، الذي أرسل إليك ليذهب بك إلى الطور.

وقال فى اللباب : كان السامري من المقربين لموسى عليه السّلام ، فرأى جبريل راكبا على فرس ، وقد دخل البحر فانفلق ، فأخذ من أثره ، ولم ير ذلك إلا من كان مع موسى. هـ. وقال قتادة : كان السامري عظيما فى بنى إسرائيل ، من قبيلة يقال لها : سامرة ، ولكن عدو الله نافق ، بعد ما قطع البحر مع بنى إسرائيل ، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة ، وهم يعكفون على أصنام لهم ، وكانوا يعبدون البقر ، قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ «١». فاغتنمها السامري فاتخذ العجل. هـ.

وقال الكواشي : وإنما عرف السامرىّ جبريل من بين سائر الناس لأن أمه ولدته فى السنة التي يقتل فيها الغلمان ، فوضعته فى كهف حذرا عليه ، فبعث الله تعالى جبريل ليربيه لما قضى على يديه من الفتنة. هـ.

وضعّفه ابن عطية. قلت : ولعل تضعيفه من جهة النقل ، وأما القدرة فهى صالحة ليقضى الله أمرا كان مفعولا.

---

(١) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.

ثم قال : فأخذت تلك القبضة فَنَبَذْتُها فى فم تلك الصورة المذابة من الحلي ، فصارت تخور ، وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي أي : زينت. والإشارة : نعت لمصدر محذوف ، أي : سوّلت لى نفسى تسويلا كائنا مثل ذلك التسويل البديع.
وحاصل جوابه : أن ما فعله إنما صدر منه بمحض اتباع هوى النفس الأمارة وإغوائها ، لا لشيء آخر من البرهان العقلي أو الإلهام الإلهى ، فعند ذلك قالَ له موسى عليه السّلام : فَاذْهَبْ أي : اخرج من بين الناس ، فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أي : فى مدة حياتك ، أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ والمعنى : أن لك فى مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية ، لا بحسب الاختيار ، بل بحسب الاضطرار الملجئ إليه ، وذلك أنه تعالى رماه بداء عقام «١» ، لا يكاد يمسّه أحد ، أو يمسّ أحدا ، إلا حمّ من ساعته حمى شديدة ، فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح بأقصى طوقه : لا مساس. وقيل : إن موسى عليه السّلام نفاه من قومه ، وأمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه. قال الحسن : (جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يماسوه. جعل ذلك له ولمن كان منه إلى يوم القيامة).
فكأن الله تعالى شدّد عليه المحنة ، وجعل ذلك عقوبة له فى الدنيا. ويقال : ابتلى بالوسواس ، وأصل الوسواس من ذلك الوقت. وقال قتادة : بقاياه اليوم يقولون ذلك : لا مساس. ويقال : إن موسى همّ بقتل السامري ، فقال الله تعالى له : لا تقتله فإنه سخى. ولعل الحكمة فى عقابه بهذه العقوبة : أن مخالطته للناس نشأت من هذه الفتنة ، فعوقب بالطرد والبعد عنهم.
ثم قال له الله : وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً أي : فى الآخرة ، لَنْ تُخْلَفَهُ أي : لن يخلفك الله ذلك الوعد ، بل ينجزه لك البتة ، بعد ما عاقبك فى الدنيا. أو لن تجاوزه ولن تخطئه ، بل لا بد لك من ملاقاته. وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ العجل ، الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً مقيما على عبادته ، لَنُحَرِّقَنَّهُ أي : والله لنحرقنه بالنار ، وقيل بالمبرد ، مبالغة فى الحرق ، ويعضده قراءة : «لَنُحَرِّقَنَّهُ» ، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ أي : لنذرينه بالريح فِي الْيَمِّ فى البحر ، رمادا ، أو مبرودا كأنه هباء ، نَسْفاً بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر ، وقد فعل عليه السّلام ذلك كله حينئذ ، كما يشهد بذلك الأمر بالنظر ، وإنما لم يصرح به تنبيها على كمال ظهوره ، واستحالة الخلف فى وعده المؤكد باليمين.
ثم نبّه على الحق فقال : إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ أي : إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله. والجملة : استئنافية مسوقة لتحقيق الحق ، إثر إبطال الباطل ، بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكل ، ثم وصفه بقوله : الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وحده ، من غير أن يشاركه فى الألوهية شيء من الأشياء ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أي : وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم. وجملة : (وَسِعَ) : بدل من الصلة ، أي : إنما إلهكم : الذي وسع كل شيء علما لا غيره كائنا

---

(١) العقام : الداء الذي لا يبرأ منه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤١٧
ما كان ، فيدخل فيه العجل دخولا أولياء. وهذا ختم كلام موسى عليه السّلام ، بتقرير أمر التوحيد ، كما كان افتتاح الوحى إليه به بقوله : إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا. والله تعالى أعلم.
الإشارة : انظر أثر حافر فرس جبريل : كيف حييت به الأشباح ، فكيف لا تحيا بتقبيل أثر وطء العارفين بالله ، أو بتقبيل أقدامهم ، بل كان من خضع لهم وقبّل أقدامهم حييت روحه ، وشعشعت أنواره ، وتحقق عرفانه ، كما هو معلوم لأن الخضوع لأولياء الله إنما هو خضوع لله لأنهم يدلون على الله ، ويبعدون عن كل ما سواه. وانظر السامري حين خضع لغير الله بمجرد هواه كيف طرد وأبعد ، حتى صار مثلا فى الناس. فقالت الصوفية : ينبغى للفقير أن يفر من أبناء جنسه ، ويكون كالسامرى ، إذا رأى أحدا قال : لا مساس ، وأنشدوا :
وخف أبناء جنسك ، واخش منهم كما تخشى الضراغم والسّنبتا
وخالطهم ، وزايلهم حذارا وكن كالسامرى إذا لمست
والسنبتاء : كل حيوان جرىء ، وقيل : اسم للنمر ويقال ، لمن ركن إلى شىء دون الله تعالى من علم ، أو عمل ، أو حال ، أو مقام ، أو فنى فى مخلوق : (و انظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا). وفى بعض الأثر : يقول الله : «يا عبدى ، لا تركن لشىء دونى ، فإن ركنت إلى علم جهّلناك فيه ، وإن ركنت إلى عمل رددناه عليك ، وإن ركنت إلى حال وقفناك معه ، وإن ركنت إلى معرفة نكرناها عليك. فأى حيلة لك أيها العبد ، فكن لنا عبدا أكن لك ربا». أو كما قال. وإليه الإشارة بقوله : (إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ ...) الآية.
ثم ذكّر نبيه صلى اللّه عليه وسلم بنعمة اطلاعه على هذه القصص البديعة ، فقال :
[سورة طه (٢٠) : الآيات ٩٩ الى ١١٠]
كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً (١٠٠) خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (١٠٢) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (١٠٣)
نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً (١٠٤) وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً (١٠٥) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (١٠٦) لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً (١٠٨)
يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (١١٠)

قلت : محل الكاف : نصب على أنه نعت لمصدر محذوف ، أي : نقص عليك قصا مثل ذلك القص المارّ. وما فى الإشارة من معنى البعد للإيذان بعلو درجته – عليه الصلاة والسلام – وبعد منزلته فى الفضل. و(مِنْ أَنْباءِ) :
فى محل النصب ، إما على أنه مفعول (نَقُصُّ) باعتبار معناه ، أي : نقص عليك بعض أنباء ، وإما على أنه متعلق بمحذوف صفة للمفعول ، أي : نقص عليك خبرا كائنا من أخبار ما قد سبق.
يقول الحق جل جلاله : كَذلِكَ أي : مثل ذلك القصص البديع الذي سمعته نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ أي : من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية ليكون تبصرة لك ، وزيادة فى علمك ، وتذكيرا لغيرك ، وعبرة لمن يقف عليه ممن يأتى بعدك. والله تعالى أعلم.

(٤١٧/٣)

الإشارة : حكايات الصالحين وسير العارفين جند من جنود القلب ، فيها تنشيط لمن يريد اللحوق بهم ، وتشويق لمقاماتهم ، وتسلية لمن يصاب فى ذات الله بمثل ما أصابهم. وبالله التوفيق.
ثم ذكر وعيد من أعرض عن القرآن المشتمل على هذه الأنباء الحسان ، فقال :
وَقَدْ آتَيْناكَ ...
قلت : (مَنْ أَعْرَضَ) : شرطية أو موصولة ، وعلى كلّ فهى صفة لذكرا ، و(خالِدِينَ) : حال من فاعل (يَحْمِلُ) ، أو الجمع ، باعتبار معنى «من» ، و(حِمْلًا) : تمييز ، تفسير لضمير (ساءَ) ، والمخصوص محذوف ، أي : ساء حملا وزرهم ، و(يَوْمَ يُنْفَخُ) : بدل من (يَوْمَ الْقِيامَةِ) ، أو منصوب باذكر.
و(يَتَخافَتُونَ) : استئناف مبين لحالهم يومئذ ، أو حال أخرى من (الْمُجْرِمِينَ). و(قاعاً) : حال من ضمير (فَيَذَرُها) ، أو مفعول ثان ليذر. و(صَفْصَفاً) : حال ثانية ، أو بدل من المفعول الثاني ، وجملة : (لا تَرى) : استئناف مبين لما سبق من القاع الصفصف ، أو حال أخرى ، و(يَوْمَئِذٍ) : ظرف ليتبعون ، أو بدل من (يَوْمَ الْقِيامَةِ).
يقول الحق جل جلاله : وَقَدْ آتَيْناكَ يا محمد مِنْ لَدُنَّا خصوص عنديتنا ذِكْراً عظيما وقرآنا كريما ، جامعا لكل كمال ، مخبرا بعجائب القصص والأمثال. مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ أي : عن ذلك الذكر العظيم الشأن ، المستتبع لسعادة الدارين ، بأن لم يؤمن به ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً أي : عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنونه. وتسميتها وزرا لتشبيهها فى ثقلها على المعاقب ، وصعوبة احتمالها ، بالحمل الذي يثقل الحامل وينقض ظهره ، وقيل : يجسّم ، ويجعل على ظهره فى طريق الحشر ، والأول أنسب لقوله :

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤١٩
خالِدِينَ فِيهِ أي : فى ذلك الوزر ، وهو العذاب ، أو فى ذلك الحمل الثقيل لاستمراره فيه بعد دخول النار ، وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا أي : بئس حملهم هذا يوم القيامة ، وإعادة يوم القيامة لزيادة التهويل.
يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ أي : ذلك اليوم هو يوم ينفخ فى الصور ، أو : اذكر يوم ينفخ فى الصور نفخة البعث ، وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ أي : المشركين يَوْمَئِذٍ أي : يوم ينفخ فى الصور ، وأعاده ، تهويلا ، حال كونهم زُرْقاً أي : زرق العيون. وإنما جعلوا كذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب ، وكانت تتشاءم بزرقة العين ، كما قال الشاعر :
لقد زرقت عيناك يا ابن مكعبر ألا كلّ ضبّيّ من اللؤم أزرق.
وقيل زرقا ، أي : عميا لأن حدقة العين تزرق من شدة العمى. وقيل : عطاشا لأن سواد العين يتغير من شدة العطش ويزرق.
يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ أي : يخفضون أصواتهم ويخفونها لما علا صدورهم من الرعب والهول. يقول فى تلك المخافتة بعضهم لبعض : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً أي : ما لبثتم فى الدنيا إلا عشر ليال استقصارا لمدة لبثهم فيها ، لزوالها ، أو لتأسفهم عليها ، لما شهدوا الشدائد والأهوال ، أو فى القبر ، وهو الأنسب بحالهم ، فإنهم ، حيث يشاهدون البعث الذي كانوا ينكرونه فى الدنيا ويعدونه من قبيل المحال لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك اعترافا به ، وتحقيقا لسرعة وقوعه ، كأنهم قالوا : قد بعثتم وما لبثتم فى القبر إلا مدة يسيرة. وقيل : ما بين النفختين ، وهو أربعون سنة.
روى أنه يرفع العذاب عن الكفار فى تلك المدة ، فيستقصرون تلك المدة إذا عاينوا أهوال يوم القيامة ، لأنهم فى طول مدتهم فى عذاب القبر لا يعقلون.
قال تعالى : نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ ، وهو مدة لبثهم ، أو نحن عالمون اليوم بما يقولون فى ذلك الوقت قبل وقوعه ، إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً أي : أعدلهم رأيا وأوفاهم عقلا : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ، ونسبة هذا القول إلى أمثلهم : استرجاع منه تعالى ، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق ، بل لكونه أدل على شدة الهول.
وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ أي : عن مآل أمرها ، وقد سأل عنها رجل من ثقيف ، وقيل : مشركو مكة ، على طريق الاستهزاء ، فَقُلْ لهم : يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً أي : يجعلها كالرمل ، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها ، أو يقلعها ويطرحها فى البحار كالهباء المنثور ، فَيَذَرُها أي : يترك ما كان تحتها من الأرض قاعاً

صَفْصَفاً أي : أرضا مستوية لأن الجبال إذا سويت ، وجعل سطحها مساويا لسائر أجزاء الأرض ، فقد جعل الكل سطحا واحدا. فالضمير فى (فَيَذَرُها) إما للجبال ، باعتبار أجزائها السافلة ، الباقية بعد النسف ، وهى مقارها ومراكزها ، وإما للأرض ، المدلول عليها بقرينة الحال لأنها الباقية بعد نسف الجبال.

والقاع والقيعة : ما استوى من الأرض وصلب ، وقيل : السهل ، وقيل : ما لا نبات فيه. والصفصف : الأرض المستوية الملساء ، فإن أجزاءها صف واحد من كل جهة ، لا تَرى فِيها أي : فى الأرض الذي نسفت جبالها عِوَجاً أي : اعوجاجا وانخفاضا ، وَلا أَمْتاً نتوءا وارتفاعا. قال ابن عباس : العوج : الأودية ، والأمت :

الروابي. وقال مجاهد : العوج : الانخفاض ، والأمت : الارتفاع والمعنى : أنك ، إن تأملت بالمقاييس الهندسية ، وجدتها مستوية الجهات. والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية.

يَوْمَئِذٍ أي : يوم إذ نسفت الجبال ، يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ أي : يتبع الناس داعى الله تعالى إلى المحشر ، وهو إسرافيل عليه السّلام ، يدعو الناس بعد النفخة الثانية ، قائما على صخرة بيت المقدس : أيها الناس هلموا إلى ربكم ، بعد أن يدعوهم إلى الخروج من قبورهم ، قائلا : أيتها العظام النخرة ، والأوصال المتمزقة ، واللحوم المتفرقة قوموا إلى العرض والحساب ، فيقبلون من كل جانب منتشرين ، كأنهم جراد منتشر ، لا يدرون أين يذهبون ، فينادى حينئذ من الصخرة للجمع للحساب. هذا ما تدل عليه الأحاديث والأخبار.

وقوله تعالى : لا عِوَجَ لَهُ أي : لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه ، فلا يزيغ عنه ، بل كلهم يقصدون صوته ، من مشارق الأرض ومغاربها وجوانبها. والتقدير : لا عوج للصوت عن أحد ، بل يصل إليه أينما كان ، ويتوجه إليه حيث كان ، وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ أي : خضعت وسكنت لهيبته فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً أي : صوتا خفيا. والهمس : صوت وطء الأقدام فى نقلها إلى المحشر ، أي : انقطعت أصوات اللسان ، فلا تسمع إلا همس الأقدام فى مشيها إلى المحشر ، من شدة الهيبة والخوف.

يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ أي : يوم إذ يقع ما ذكر من الأمور الهائلة لا تنفع شفاعة أحد ، إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ فى الشفاعة ، كالأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء ، وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا أي : ورضى قوله فى المشفوع له بحيث يقبل شفاعته. وقيل : (وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا) فى الدنيا ، وهو : لا إله إلا الله ، مخلصا من قلبه .. أو : إلا من أذن له الرحمن أن يشفع فيه ، ورضى لأجله قولا من الشافع. وهذا أليق بمقام التهويل. وأما من عداه فلا تنفع ، وإن وقعت لقوله تعالى : فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ «١».

(١) الآية ٤٨ من سورة المدثر.

(٤٢٠/٣)

يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أي : ما تقدمهم من الأحوال ، أو من أمر الدنيا ، وَما خَلْفَهُمْ : وما بعدهم مما يستقبلونه ، أو من أمر الآخرة ، وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً أي : لا تحيط علومهم بذاته المقدسة ، بحيث يدركون كنه الربوبية ، أو : لا تحيط علومهم بمعلوماته تعالى. قال القشيري : الكناية «١» في قوله : (بِهِ) ، يحتمل أن تعود إلى (ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ) ، ويحتمل أن تعود إلى الحقّ - سبحانه - وهو طريقة السّلف ، يقولون : يعلم الحق ولا يحيط به العلم ، كما قالوا : إنه يرى ولا يدرك. هـ.

الإشارة : وقد آتيناك من لدنّا ذكرا ، أي : قرآنا يجمع القلوب على الله ، ويدل على مشاهدة الله. من أعرض عنه - أي : عن الله - ولم يتوجه إليه بكليته ، فإنه يحمل وزرا ، يثقله عن الترقي إلى مقام العارفين ، فيبقى مخلدا فى حضيض الغافلين ، وذلك فى يوم يجمع اللّه فيه الأولين والآخرين ، فيكرم المتقين ، ويهين المجرمين ، حيث يزول عنهم ما كانوا فيه من الدعة والسعة ، كأنهم ما لبثوا فيه غير ساعة.

ويسألونك ، أيها العارف ، عن جبال العقل ، حين تطلع على نور قمره شمس العرفان ، فقل ينسفها ربى نسفا ، فيذر أرض النفس ، حين استولت عليها أسرار المعاني ، قاعا صفصفا ، لاتصالها بفضاء المعاني ، حين ذهبت أغيار الأواني ، لا ترى فيها انخفاضا ولا ارتفاعا. وإنما ترى وجودا متصلا ، وبحرا طامسا ، ليس فيه بعد ولا قرب ، ولا علو ولا سفل ، وفى ذلك يقول الشاعر :

من أبصر الخلق كالسراب فقد ترقى عن الحجاب

إلى وجود تراه رتقا بلا ابتعاد ولا اقتراب

ولم يشاهد به سواه هناك يهدى إلى الصواب

فلا خطاب به إليه ولا مشير إلى الخطاب

والمراد بالخلق : جميع الكائنات ، فلا خطاب من العبد إلى ربه ، لمحو العبد من شدة القرب ، ولم تبق له إشارة ولا عبارة. وفى الحكم : «ما العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته ، بل العارف من لا إشارة له لفنائه فى وجوده ، وانطوائه فى شهوده». وقالوا : من عرف اللّه كلّ لسانه ، وإليه الإشارة بقوله : وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً. وهذا بعد اتباع الداعي إلى الله وصحبته ، من غير عوج عنه ، ولا خروج عن رأيه ، حتى يقول له : ها أنت وربك. فحيئذ تحصل الهيبة

والتعظيم ، فلا يقدر أحد أن يرفع صوته ، وهو فى حضرة الملك الكريم ، وهذا شأن الصوفية ، كلامهم كله تخافت وتسارر لغلبة الهيبة عليهم.

---

(١) أي : الضمير. [.....]

(٤٢١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٢٢

قوله تعالى : يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ أي : فى دخول الحضرة ، (إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ) فى التربية والترقية ، (وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا) ، وهو ذكر الله ، يأمر به من أراد شفاعته فيه ، حتى تستولى عليه أنوار الذكر ، فيدخل مع الأحباب ، ويجلس على بساط الاقتراب ، فحيئذ يحصل له العلم بالله ، على نعت الذوق والوجدان ، وشهود العيان ، لا على نعت الدليل والبرهان.

وقوله تعالى : وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً إشارة إلى عدم الإحاطة بكنه الربوبية لمن دخل الحضرة ، فلو حصل لهم الإحاطة بالكنه لم يبق ترقّ ، وكيف؟ وهم يترقون فى أسرار الذات وأنوار الصفات دائما سرمدا ، فى هذه الدار وفى تلك الدار! ، ففى كل ساعة يتجدد لهم من لذيذ المشاهدات وأنوار المكاشفات ، ما تعجز عنه العقول ، وتكلّ عنه طروس النقول. نعم يحصل لهم العلم الضروري بالذات العلية ، ويشاهدون ما تجلى من أسرارها وأنوارها ، وتسرح فكرتهم فى بحر الأولية والآخرية ، والظاهرية والباطنية ، والعظمة الفوقية وما تحت الثرى ، ويخوضون فى بحار الأحدية ، ويتفكرون فى قاموس كنه الربوبية ، فلا خوف ولا ملل ، من غير إحاطة ، كما تقدم. والله تعالى أعلم.

فإذا رجعوا إلى مشاهدة الرسوم خضعت وجوههم للحى القيوم ، كما قال تعالى :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١١١ الى ١١٢]

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً (١١٢)

قلت : (وَ قَدْ خابَ ..) إلخ : استئناف ، تعليل ما لأجله عنت وجوههم ، أو اعتراض ، كأنه قيل : خابوا وخسروا ، أو حال من الوجوه ، و(مَنْ) : عبارة عنها ، مغنية عن ضميرها ، أي : خضعت الوجوه ، والحال أنها خابت حين حملت ظلما. وقيل : (الْوُجُوهُ) على العموم ، فالمعنى حينئذ : وقد خاب من حمل منهم ظلما ، ومن قرأ : «فلا يخف» : فعلى النهى ، وهو جواب ، ومن قرأ بالرفع : فعلى الخبر ، أي : فهو لا يخاف.

يقول الحق جل جلاله : وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ أي : ذلت وخضعت خضوع العناة ، أي :

الأسارى في يد الملك القهار ، ومنه قيل للأسير : «عان» ، أي : خاضع ذليل ، وفي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت :

مليك على عرش السّماء مهيمن لعزّته تعنو الوجوه وتسجد

ولعلها وجوه المجرمين ، كقوله تعالى : سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا «١» ، ويؤيده وصله بقوله : وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً أي : وعنت الوجوه لأنها قد خابت وخسرت حين حملت ظلما.

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة الملك.

(٤٢٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٢٣

قال ابن عباس رضي اللّه عنه : (خسر من أشرك بالله ولم يتب) ، فإنما تذل وجوه من أشرك بالله ، وأما أهل التوحيد فأشار إليهم بقوله : (وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ ...) إلخ ، فهو قسيم لقوله : (وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً) ، لا لقوله :

(وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ).

وإذا حملنا (عَنَتِ) على مطلق الخضوع أو السجود كان عاما لأن الخلائق كلها تخضع لله في ذلك الوقت. ثم فصلهم : فمن حمل ظلما فقد خاب وخسر ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ أي : بعضها ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فالإيمان شرط في صحة الطاعات وقبول الحسنات ، فَلا يَخافُ ظُلْماً أي : منع ثواب قد استحقه بموجب الوعد ، أو زيادة عقاب على موجب سيئاته ، وَلا هَضْماً أي : كسرا ونقصا من ثواب حسناته ، وأصل الهضم :

النقص والكسر يقال : هضمت لك من حقك ، أي : حططت ، وهضمت الطعام : حططته إلى أسفل المعدة ، وامرأة هضيمة الكشح : أي : ضامرة البطن ، فالحق تعالى إنما تعرض لنفي الظلم والهضم عن عامل الصالحات لأن نفي ذلك إنما يكون مع العمل ، ففيه يتوهم الهضم والنقص ، وأما بدونه فلا ..

نعم ، الإيمان المجرد نافع على مذهب أهل السنة ، لكن صاحبه على خطر في نفوذ الوعيد ، ولو غفر له ، فإنه ناقص عن درجة عامل الصالحات ، كما علم شرعا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا سرحت الفكرة وجالت في أقطار الملكوت وأسرار الجبروت ، وتحققت بعدم الإحاطة ، رجعت إلى عش العبودية ، وخضعت للحى القيوم ، وقد خاب وخسر من لم يبلغ إلى هذا المقام ، حين حمل ظلما بالميل إلى الشيء من السّوى ، بغلبة الطبع والهوى ، وأما من نهض إلى مولاه ، واشتغل بالأعمال التي تقربه إلى حضرته ، فلا يخاف ظلما ولا هضما فإن الله يرفع العبد على قدر همته ،

وينعمه على قدر طاعته. وبهذا جاء الوحى والتنزيل ، كما قال تعالى :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١١٣ الى ١١٤]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّاوَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (١١٣) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (١١٤)

قلت : (وَ كَذلِكَ) : عطف على قوله : (كَذلِكَ نَقُصُّ) ، و«ذلك» : إشارة إلى إنزال ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد ، المنبئة عما سيقع من أهوال يوم القيامة.

(٤٢٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٢٤

يقول الحق جل جلاله : وَكَذلِكَ أي : ومثل ذلك الإنزال المتقدم ، أَنْزَلْناهُ أي : القرآن كله ، وإضماره ، من غير سبقية ذكره للإيذان بنباهة شأنه ، وكونه مركوزا فى العقول ، حاضرا فى الأذهان ، حال كونه : قُرْآناً عَرَبِيًّا ليفهمه العرب ، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز ، الدال على كونه خارجا عن طوق البشر ، نازلا من عند خلّاق القوى والقدر. وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ أي : كررنا فيه بعض الوعيد ، أو من جنس الوعيد ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أي : كى يتقوا الكفر والمعاصي بالفعل ، أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً اتعاظا واعتبارا يؤديهم إلى الاتقاء ، فَتَعالَى اللَّهُ أي : تعاظم شأنه عما يصفه الكفرة ، وتهاون العصاة ، الذين لم يحدث فيهم القرآن زجرا ولا وعظا ، أي : ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله ، الْمَلِكُ لها ، النافذ أمره ونهيه ، الحقيق بأن يرجى وعده ، ويخشى وعيده ، الْحَقُّ فى ألوهيته لذاته ، أو الثابت الذي لا يمكن عدمه ، أزلا وأبدا.

وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ أي : وإذا كنا أنزلنا عليك قرآنا عربيا ، وصرفنا فيه من الوعيد ، فأمهل عند نزوله ، حتى يقرأه عليك الملك ، ولا تعجل به قبل أن يتم وحيه ، ويفرغ من قراءته عليك.

كان صلى اللّه عليه وسلم ، إذا ألقى جبريل عليه الوحى ، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة ، لكمال اعتنائه بالتلقي والحفظ ، فنهى عن ذلك لأنه ربما يشغله التلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها ، ولأنّ المراد من الألفاظ فهم المعاني المتضمنة للعلوم التي لا حصر لها ، ولذلك أمره باستفاضة العلم واستزادته منه فقال : وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً أي : وقل فى نفسك ، أو بلسانك : رب زدنى علما ، والمراد : سل الله عز وجل زيادة العلم به وبأحكامه إذ لا نهاية لعلمه كما لا نهاية لذاته ، فإنه الموصل إلى مطلبك دون الاستعجال. والله تعالى أعلم.

الإشارة : وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا ، يعرب عن كمال ظهور ذاته وأنوار صفاته ، وصرفنا فيه من الوعيد

، لمن تخلف عن شهوده ، بعد كمال ظهوره ، لعلهم يتقون ما يحجبهم عن رؤيته ، أو يحدث لهم ذكرا ، أي : شوقا يزعجهم إلى النهوض إلى حضرته ، والوصول إليه ، فتعالى الله الملك الحق أن يتصل بشيء ، أو يتصل به شيء «١» ، وإنما الوصول إليه : العلم بإحاطته ووحدة ذاته.

ولا تعجل ، أيها العارف ، بالقرآن الذي ينزل على قلبك من وحي الإلهام ، من قبل أن يقضى إليك وحيه ، فإنّ الواردات الإلهية تأتى مجملة ، وبعد الوعى يكون البيان ، (فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ)

، ولكن استزد من ربك العلوم اللدنية والكشوفات الإلهية ، أي : لا يكن همك استعجال الواردات أو بقاءها ، وليكن همك استزادة العلوم ومعرفة واهبها ، فإن العلوم وسائل لمعرفة المعلوم ، والوصول للحى القيوم. وبالله التوفيق.

---

(١) رحم الله الشيخ ابن عجيبة ، وأثابه على هذه الكلمة العظيمة. ولنا أن نفهم منها نفى الحلول والاتحاد ، الذي هو مذهب أهل الزيغ والإلحاد.

(٤٢٤/٣)

ثم بيّن تصريف الوعيد على ارتكاب العصيان وبيان منشئه ، وهو عداوة الشيطان فقال : (وَ لَقَدْ ..) إلخ .. أو تقول :

لما نهاه عن العجلة لأجل خوف النسيان ، قال له : قد نسى أبوك آدم ، فالنسيان من طبع الإنسان ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١١٥ الى ١٢١]

وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى (١١٦) فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى (١١٩)

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى (١٢٠) فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (١٢١)

قلت : يقال : عهد إليه الملك ، وأوعد إليه ، وتقدم إليه : إذا أمره ووصاه.

يقول الحق جل جلاله : وَاللهِ لَقَدْ عَهِدْنا وتقدمنا إِلى آدَمَ من غرور الشيطان وعداوته ، ووصيناه ألا يغتر به ، فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ، فلا تغتر بنصحه ، فَنَسِيَ ذلك العهد ولم يحتفل به ،

حتى غفل عنه ، واغتر بإظهار نصحه ، حتى أكل من الشجرة ، متأولا أن النهى للتنزيه ، أو عن عين الشجرة ، لا عن جنسها ، فأكل من غيرها ، وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً أي : ثبات قدم ، وحزما فى الأمور ، إذ لو كان كذلك لما غرّه الشيطان بوسوسته ، وقد كان ذلك منه عليه السّلام فى بدء أمره ، قبل أن يجرب الأمور ويتولى حارها وقارها ، ويذوق شرّيها وأريها «١». وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «لو وزنت أحلام بنى آدم – أي : عقولهم – بحلم آدم ، لرجح حلمه» «٢».

وقيل : (وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) على الذنب ، فإنه أخطأ ، أو تأول ، ولم يتعمد ، وأما قوله : (وَ عَصى ...) فلعلو شأنه وقربه عد عصيانا فى حقه ، «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

ثم شرع فى بيان المعهود ، وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه ، فقال : وَإِذْ قُلْنا أي : واذكر وقت قولنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، وتعليق الذكر بالوقت ، مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة فى إيجاب ذكرها ، فإن الوقت مشتمل على تفاصيل الأمور الواقعة فيه ، فالأمر بذكره أمر بذكر تفاصيل ما وقع فيه

---

(١) الشّرى : الحنظل ، والأرى : العسل.

(٢) أخرجه ابن جرير فى التفسير (١٦/ ٢٢١) ، وسعيد بن منصور ، وابن عساكر ، وابن المنذر ، كما عزاه لهم السيوطي فى الدر المنثور (٤/ ٥٥٣) عن أبى أمامة الباهلي ، موقوفا.

(٣/٤٢٥)

بالطريق البرهاني ، أي : اذكر ما وقع فى ذلك الوقت منا ومنه ، حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه ، فقد أمرنا الملائكة بالسجود فَسَجَدُوا كلهم إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى السجود واستكبر ، أو فعل الإباء وأظهره.

فَقُلْنا عقب ذلك ، اعتناء بنصحه ، وهو العهد الذي عهدناه إليه : يا آدَمُ إِنَّ هذا الذي رأيته فعل ما فعل عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ حيث لم يرض بالسجود لك ، فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ أي : لا يكونن سببا لإخراجكما من الجنة ، والمراد : نهيهما عن الاغترار به ، فَتَشْقى : جواب النهى ، أي : فتتعب بما ينالكما من شدائد الدنيا ، من الجوع والعطش ، والفقر والضر ، وتعب الأبدان فى تحصيل المعاش واللباس ، فيكون عيشك من كد يمينك. قال ابن جبير : (أهبط إلى آدم ثور أحمر ، فكان يحرث عليه ، ويمسح العرق عن جبينه ، فهو شقاؤه). ولم يقل : فتشقيا لأنه غلّب الذّكر لأن تعبه أكثر ، مع مراعاة الفواصل.

قال تعالى له : إِنَّ لَكَ يا آدم أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى من فقد اللباس ، وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا :

لا تعطش فِيها ، وَلا تَضْحى تبرز للشمس فيؤذيك حرها ، إذ ليس فى الجنة شمس ولا زمهرير. والعدول عن التصريح له بما فى الجنة من فنون النعم من المآكل والمشارب ، والتمتع بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية - مع أن فيها من الترغيب فى البقاء فيها ما لا يخفى - إلى ما ذكر من نفى نقائضها ، التي هى الجوع والعطش والعرى والضحو لتنفير تلك الأمور المنكرة ليبالغ فى التحامى عن السبب المؤدى إليها ، على أن الترغيب قد حصل له بما أباح له من التمتع بجميع ما فيها ، سوى ما استثنى من الشجرة ، حسبما نطق به قوله تعالى : يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما «١» ، وقد طوى ذكرها هنا اكتفاء بما فى موضع آخر ، واقتصر هناك على ما ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب ، ونفى الجوع وما بعده عن أهل الجنة لأنهم لا يعوزون طعاما ولا شرابا ولا كنّا ، بل كلما تمتعوا بشيء مما ذكر ، أتبعهم بأمثاله أو أفضل منه ، من غير أن ينتهوا إلى حد الضرورة.
قال تعالى : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ أي : أنهى إليه وسوسته ، أو أسرها إليه ، قالَ فيها : يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ؟ أي : شجرة من أكل منها خلد ، ولم يمت أصلا ، سواء كان على حاله ، أو بأن يكون ملكا ، وَأدلك على مُلْكٍ لا يَبْلى أي : لا يفنى ولا يزول ، ولا يختلّ بوجه من الوجوه ، فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما قال ابن عباس رضي اللّه عنه : عريا عن النور الذي كان الله تعالى ألبسهما ، حتى بدت فروجهما.
وَطَفِقا يَخْصِفانِ يرقعان عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وقد تقدم فى الأعراف «٢».

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة البقرة.
(٢) راجع تفسير الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

الإشارة : ولقد عهدنا إلى آدم ألا ينسانا ، وألا يغيب عن شهودنا بمتعة جنتنا ، فنسى شهودنا ، ومال إلى زخارف جنتنا ، فأنزلناه إلى أرض العبودية ، حتى يتطهر من البقايا ، وتكمل فيه المزايا ، فحينئذ نسكنه فى جوارنا ، ونكشف له عن حضرة جمالنا ، على سبيل الخلود فى دارنا.
قال جعفر الصادق : عهدنا إلى آدم ألا ينسانا ، فنسى واشتغل بالجنة ، فابتلى بارتكاب النهى ، وذلك أنه ألهاه النعيم عن المنعم ، فوقع من النعمة فى البلية ، فأخرج من النعيم والجنة ليعلم أن النعيم هو مجاورة المنعم ، لا الالتذاذ بالأكل والشرب. فلا ينبغى لأحد أن ينظر إلى ما سواه ، نسأل الله تعالى أن يمدنا وإياك بالتوفيق والعناية. هـ. قال بعض الحكماء : إنما نسى آدم العهد لأنه لما خلقت له زوجته

أوقع الله في قلبه الأنس بها ، وابتلاه بشهوات النفس فيها ، فرأى في وجهها شجرة الحسن بادية ، وشهوة الوقاع عليه غالبة. هـ. أي : فترك النظر إلى جمال المعاني ، واشتغل بحس الأواني ، فأفضى به إلى ترك الأدب ، ولزمه التعب ، فليحذر المريد جهده من الميل إلى الحظوظ ، وليكن على حذر من الغفلة حين تناولها ، والعصمة من الله.

وقوله تعالى : وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ، قال الحاتمي : أي : على انتهاك الحرمة ، بل وقع بمطالعة قدر سابق ، أنساه ما توجه على التركيب من خطاب الحجر. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : وبما أشار إليه من مطالعة القدر يتضح لك قوله عليه السّلام : «فحج آدم موسى» «١» ، وليس ذلك لغيره إن لم يكن مجبورا ومأخوذا عنه ، وهذا القدر هو الفارق بين ما يجرى من المخالفة على الولي وغيره. وقد نبه على ذلك الجنيد بقوله : (و كان أمر الله قدرا مقدورا) ، فأشار لغلبة القدر وقهره ، من غير وجود عزم من العبد. هـ. قلت : احتجاج آدم وموسى - عليهما السلام - لم يكن في عالم الأشباح ، الذي هو محل التشريع ، إنما كان في عالم الأرواح ، الذي هو محل التحقيق ، فالنظر في ذلك العالم الروحاني ، إنما هو لسر الحقيقة ، وهو ألا نسبة لأحد في فعل ولا ترك ، فمن احتج بهذا غلب ، بخلاف عالم الأشباح ، لا يصح الاحتجاج بالقدر لأن فيه خرق رداء الشريعة. فتأمله.

وقال في التنوير : اعلم أن أكل آدم من الشجرة لم يكن عنادا ولا خلافا ، فإما أن يكون نسى الأمر ، فتعاطى الأكل وهو غير ذاكر ، وهو قول بعضهم ، ونحمل عليه قوله سبحانه : (فَنَسِيَ) ، وإن كان تناوله ، ذاكرا للأمر ، فهو إنما تناول لأنه قيل له : ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ ... «٢» الآية ، فلحبه في الله ، وشغفه به ، أحب ما يؤديه إلى الخلود في جواره والبقاء عنده ، أو ما يؤديه إلى الملكية لأن آدم عليه السّلام عاين قرب الملائكة من الله ،

---

(١) أخرجه البخاري في (القدر ، باب تحاج آدم وموسى عند اللّه) ، ومسلم في (القدر ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام) عن أبى هريرة. واللفظ : «حاج موسى آدم ، فقال له : أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم : يا موسى أنت الذي اصطفاك اللّه برسالاته وبكلامه ، أتلومني على أمر كتبه اللّه علىّ قبل أن يخلقنى؟ فحج آدم موسى».

(٢) من الآية ٢٠ من سورة الأعراف.

(٣/٤٢٧)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٢٨

فأحب أن يأكل من الشجرة ليتناول الملكية ، التي هى في ظنه أفضل ، لا سيما وقد قال سبحانه :

وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ «١» ، قال آدم عليه السّلام : (ما ظننت أن أحدا يحلف بالله كاذبا) ، فكان كما قال الله سبحانه :

فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ. هـ.

وسئل ابن عطاء عن قوله تعالى : هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ؟ فقال : قال آدم عليه السّلام : يا رب لم أدّبتنى ، وإنما أكلت من الشجرة طمعا فى الخلود فى جوارك؟ فقال الله : يا آدم طلبت الخلود من الشجرة لا منى ، والخلود بيدي وملكى ، فأشركت بي ، وأنت لا تعلم ، ولكن نبهتك بالخروج من الجنة حتى لا تنسانى فى وقت من الأوقات. هـ.

والحاصل : أنه إمّا أن يحمل النسيان على حقيقته ، ويكون معه وقوع الأكل بمطالعة القدر وقبضة الجبر ، ولا يعارضه : ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ لأنه اتفق ذلك صورة وظاهرا ، مع شهود الجبر باطنا ، وإمّا أن يحمل النسيان على الترك ، بتأويل أن النهى ليس على التحتم ، فتركه لما أمل من جوار الحق وقربه فى الأكل ، فقدمه لأنه أرجح عنده. قاله المحشى.

وقوله تعالى : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ ... الآية ، يؤخذ منه سد باب التأويلات والرخص فى الأمر الممنوع شرعا ، فإن أبيح بعضه ومنع البعض فلا توسعة ، فلأن تترك مباحا خير من أن تقع فى محرم ، وقد كان السلف يتركون مائة جزء من المباح ، خوفا من الوقوع فى المحرم. والله الهادي إلى سواء الطريق.

ثم قال تعالى :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١٢٢ الى ١٢٧]

ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى (١٢٢) قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى (١٢٤) قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (١٢٦)

وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى (١٢٧)

---

(١) الآية ٢١ من سورة الأعراف.

يقول الحق جل جلاله : وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ بما ذكر من أكل الشجرة فَغَوى أي : ضل عن مطلوبه ، الذي

هو الخلود ، بل ترتب عليه نقيضه ، فكان تأميل ذلك باطلا فاسدا لأنه خلاف القدر ، أو عن الرشد ، حيث اغتر بقول العدو. وقال الكواشي : فعل فعلا لم يكن له فعله ، أو أخطأ طريق الحق ، حيث طلب الخلد بأكل المنهي عنه ، فخاب ولم ينل مراده. هـ. وفى وصفه عليه السّلام بالعصيان والغواية ، مع صغر زلته ، تعظيم لها ، وزجر بليغ لأولاده عن أمثالها.

ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ ، أي : اصطفاه وقرّبه إليه ، بالحمل على التوبة والتوفيق لها. وفى التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره ، مزيد تشريف له عليه السّلام ، يعنى : آدم. فَتابَ عَلَيْهِ أي : قبل توبته حين تاب هو وزوجته ، قائلين : رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا ... «١» الآية. وَهَدى أي : هداه إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب العصمة. وإفراد آدم عليه السّلام بقبول توبته واجتبائه لأصالته فى الأمور ، واستلزام قبول توبته لقبول توبتها. الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ «٢».

قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً ، وهو استئناف بيانى ، كأنّ سائلا قال : فما قال تعالى بعد قبول توبته؟ فقيل : قال له ولزوجته : (اهْبِطا مِنْها) أي : انزلا من الجنة إلى الأرض ، حال كونكم بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ أي : متعادين فى أمر المعاش ، كما عليه الناس من التجاذب والتحارب والاختلاف فى الدين. والجمع لأنهما أصل الذرية ومنشأ الأولاد. وفى اللباب : ولما أهبطوا إلى الأرض ألقى آدم يده تحت خده ، وبكى مائة سنة ، وألقت حواء يدها على رأسها ، وجعلت تصيح وتصرخ ، فبقيت سنة فى النساء. ولم يزل آدم يبكى حتى صار بخديه أخاديد من كثرة الدموع ، وجرى من عينيه على الأرض جدولان ، يجريان إلى قيام الساعة. وأهبط آدم على ورقة من ورق الجنة ، كان يتستر بها ، وفى يده قبضة من ريحان الجنة ، فلما اشتغل بالبكاء أدارتها الرياح فى أرض الهند ، فصار أكثر نباتها طيبا. انظر بقية كلامه.

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً أي : هداية من رسول وكتاب يهدى إلى الوصول إلىّ ، أي : سيأتيكم منى رسل وكتاب. والخطاب لهما بما اشتملا عليه من ذريتهما. فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ بأن آمن بالرسل وبما جاءوا به من عند الله فَلا يَضِلُّ فى الدنيا وَلا يَشْقى فى الآخرة. ووضع الظاهر موضع المضمر يعنى : من اتبع هداى ، مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : (من قرأ الفرقان ، واتبع ما فيه ، هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ، وذلك لأن الله تعالى يقول : فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ «٣» أي : كتابى ورسولى ، فَلا يَضِلُّ فى الدنيا ، وَلا يَشْقى فى الآخرة.) وفى لفظ آخر : (أجار الله

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٣٤ من سورة النساء.

(٣) أخرجه الطبري فى التفسير (١٦/ ٢٥٥) موقوفا ، وعزاه السيوطي فى الدر (٤/ ٥٥٦) لابن أبى شيبة والطبراني وأبى نعيم فى الحلية وابن مردويه ، مرفوعا.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣٠

تابع القرآن أن يضل فى الدنيا ويشقى فى الآخرة). قال ابن عرفة : والعطف بالفاء فى قوله : (فَإِمَّا ..) إلخ ، إشارة إلى أن العداوة سبب فى أن يبعث لهم الرسل يهدونهم إلى طريق الحق ، فضلا منه تعالى ، ولذلك أتى «بإن» ، دون «إذا» المقتضية للتحقيق الموهم للوجوب. فانظره.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي عن القرآن ، أو عن الهدى الذاكر لى والداعي إلىّ ، فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً : ضيقا ، مصدر وصف به ، ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث ، يقال : منزل ضنك وعيشة ضنك. وقرئ : «ضنكى» كسكرى. وإنما كان عيشه ضيقا لأن مجامع همته ، ومطامح نظره مقصورة على أغراض الدنيا ، وهو متهالك على ازديادها ، وخائف من انتقاصها ، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة ، فإنّ نور الإيمان يوجب له القناعة ، التي هى رأس الغنى وسبب الراحة ، فيحيى حياة طيبة. وقيل : هو عذاب القبر. وروى ذلك عن النبي صلى اللّه عليه وسلم. قال أبو سعيد الخدري : «يضيق عليه قبره ، حتى تختلف أضلاعه ، ويسلط عليه تسعة وتسعون تنينا ...» الحديث ، وقيل : الصبر على الزقوم والضريع والغسلين.

وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى : فاقد البصر كقوله : وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً «١». لا أعمى عن الحجة كما قيل. قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً فى الدنيا؟ قالَ كَذلِكَ أي : مثل ذلك فعلت أنت أَتَتْكَ آياتُنا أي : حجتنا النيرة على أيدى رسلنا فَنَسِيتَها أي : عميت عنها ، وتركتها ترك المنسى الذي لا يذكر قط ، وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى : تترك فى العمى والعذاب ، جزاء وفاقا. وحشره أعمى لا يدل على دوامه ، بل يزيله عنه فيرى أهوال الموقف ومقعده ، وكذلك الصمم والبكم يزيلهما الله تعالى عنهم. أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا «٢» ، فيوم القيامة ألوان. ثم قال تعالى : وَكَذلِكَ أي : مثل ذلك الجزاء الموافق للجنايات. نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وتعدى بالانهماك فى الشهوات ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ ، بل كذّب بها وأعرض عنها ، وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ على الإطلاق ، أو عذاب النار ، أَشَدُّ وَأَبْقى من ضنك العيش ، أو منه ومن الحشر أعمى ، عائذا بالله من جميع ذلك.

الإشارة : قوله تعالى : وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ ، اعلم أن العصيان الحقيقي هو عصيان القلوب ، كالتكبر على عباد الله وتحقير شيء من خلق الله ، وكالاعتراض على مقادير الله ، وعدم الرضا بأحكام الله. قال بعض الصوفية : (أذنبت ذنبا فأنا أبكى منه أربعين سنة ، قيل : وما هو؟ قال : قلت لشيء كان : ليته لم يكن). وأما معصية

---

(١) من الآية ٩٧ من سورة الإسراء.

(٢) من الآية ٣٨ من سورة مريم. [.....]

(٤٣٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣١

الجوارح ، إن لم يكن معها إصرار ، فقد توجب القرب من الكريم الغفار «معصية أورثت ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا» ، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول. وتأمل معصية إبليس حيث كانت من القلب أورثت طردا وإبعادا ، ومخالفة آدم حيث كانت بالجوارح أورثت قربا واجتباء.

والحاصل : أن كل ما يردّ العبد إلى مولاه ، ويحقق له العبودية والانكسار ، فهو شرف له وكمال ، وكل ما يقوى وجود النفس ورفعتها فهو نقص وإبعاد ، كائنا ما كان ، فالعصمة والحفظة إنما هى من المعاصي القلبية ، أو من الإصرار ، وأما معاصى الجوارح فيجرى على العبد ما كتب ، ولا تنقصه ، بل تكمله ، كما تقدم. فالتنزيه إنما يكون من النقائص ، وهى التي توجب البعد عن الحق ، لا مما يؤدى إلى الكمال ، وبهذا تفهم أن ما وقع من الأنبياء - عليهم السلام - مما صورته المعصية ، ليس بنقص ، إنما هو كمال. وكذا ما يصدر من الأولياء ، على سبيل الهفوة ، فتأمله ، ولا تبادر بالاعتراض ، حتى تصحب الرجال ، فيعلموك النقص من الكمال.

قال الواسطي : العصيان لا يؤثر فى الاجتبائية ، وقوله : وَعَصى أي : أظهر خلافا ، ثم أدركته الاجتبائية ، فأزالت عنه مذمة العصيان ، ألا ترى كيف أظهر عذره بقوله : فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً. هـ. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه : (نعمت المعصية أورثت الخلافة).

واعلم أن آدم عليه السّلام قد أهبط إلى الأرض قبل أن يخلق ، قال تعالى : إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً «١» فقد استخلفه قبل أن يخلفه ، لكن حكمته اقتضت وجود الأسباب ، فكان أكله سببا فى نزوله للخلافة والرسالة وعمارة الأرض ، فهو نزول حسا ، ورفعة معنى ، وكذلك زلة العارف تنزله لشرف العبودية ، فيرتفع قدره عند الله.

وقوله تعالى : (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) ، هذا فيمن غلبت عليه الطينية الإمشاجية ، وأما من غلبت عليه الروحانية فهم إخوان متحابون ، أخلاء متقون ، قال تعالى : الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ «٢».

وقوله تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً) أي : داع يدعو إلىّ ، ويهدى إلى معرفتي ودخول حضرتى ، فمن تبعهم دخل تحت تربيتهم ، فلا يضل ولا يشقى ، بل يهتدى ويسعد السعادة العظمى. ومن أعرض

عن ذكرهم ووعظهم ، وتنكب عن صحبتهم ، فإن له معيشة ضنكا ، مصحوبة بالحرص والطمع ، والجزع والهلع ، ونحشره يوم القيامة أعمى عن شهود ذاتنا ، فلا يرى إلا الأكوان الحسية ، والزخارف الحسية دون أسرار الذات القدسية. قال ربّ لم حشرتنى أعمى عن شهود أسرار المعاني ، عند رؤية الأوانى ، وقد كنت بصيرا فى الدنيا ببصر الحس؟ قال : كذلك أتتك آياتنا ، وهم الأولياء العارفون ، فنسيتها ، ولم تحتفل بشأنها ، وكذلك اليوم تنسى لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه.

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.

(٤٣١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣٢

قال الورتجبي : ونحشره يوم القيامة أعمى ، يعنى : جاهلا بوجود الحق ، كما كان جاهلا فى الدنيا ، كما قال علىّ - كرم الله وجهه - : من لم يعرف الله فى الدنيا لا يعرفه فى الآخرة. وقيل : عن رؤية أوليائه وأصفيائه. هـ.

وقال القشيري : فى الخبر : «من كان بحالة لقى اللّه بها» «١». فمن كان فى الدنيا أعمى القلب ، يحشر على حالته ، يعيش على ما جهل ، ويحشر على ما جهل ، ولذلك يقولون : (من بعثنا من مرقدنا)؟ إلى أن تصير معارفهم ضرورية ، كما يتركون التدبّر فى آياته يتركون غدا فى العقوبة من غير رحمة على ضعف حالاتهم. هـ.

وكذلك نجزى من أسرف بالعكوف على شهواته ، واغتنام أوقات لذاته ، حتى انقضت أيام عمره فى البطالة ، نجزيه غم الحجاب والبعد عن حضرة الأحباب ، حيث لم يصدق بوجود آيات ربه وهم الدعاة إلى الله. ولعذاب حجاب الآخرة أشد وأبقى لدوامه واتصاله ، نعوذ بالله من غم الحجاب وسوء الحساب ، والتخلف عن حضرة الأحباب. وبالله التوفيق.

ثم حضّ على الاعتبار فى هذه الدار ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١٢٨ الى ١٣٠]

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (١٢٨) وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى (١٣٠)

قلت : (أَ فَلَمْ) : الهمزة للإنكار التوبيخي ، والفاء للعطف على محذوف ، أي : أغفلوا فلم يهد لهم. وعدي الهداية باللام لتضمنها معنى التبيين ، والفاعل مضمون (كَمْ أَهْلَكْنا) ، أي : أفلم يبين لهم مآل أمرهم كثرة إهلاكنا للقرون الأولى؟ وقيل : الفاعل ضمير عائد إلى الله. و(كَمْ ..) إلخ : معلق للفعل سد مسد مفعوله. أي : أفلم يبين الله لهم كثرة إهلاك القرون من قبلهم؟ والأوجه : أن لا يلاحظ له مفعول ، كأنه قيل : أفلم يفعل الله لهم الهداية ، ثم قيل بطريق الالتفات : كم أهلكنا .. إلخ بيانا لتلك الهداية. و(مِنَ الْقُرُونِ) : فى محل نصب ، نعت لمفعول محذوف ، أي : قرنا كائنا من القرون.

---

(١) يؤيد هذا قوله - صلى اللّه عليه وسلم : «من مات على شيء بعثه الله عليه». أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٣١٤) ، والحاكم فى المستدرك (٤/ ٣١٢) من حديث جابر رضي اللّه عنه.

وجملة (يَمْشُونَ) : حال من القرون ، أي : أهلكناهم وهم فى حال أمن وتقلب فى ديارهم ، أو من الضمير فى «لَهُمْ» ، مؤكد للإنكار ، والعامل : «يَهْدِ» ، والمعنى : أفلم يهد لهم إهلاكنا للقرون السالفة ، كقوم نوح ولوط وأصحاب الأيكة ، حال كونهم ، أي : قريش - ماشين فى مساكنهم إذا سافروا إلى الشام ، و(أَجَلٌ مُسَمًّى) : عطف على (كَلِمَةٌ) ، أو استئناف ، أي : وأجل مسمى حاصل لهم.

يقول الحق جل جلاله : أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ أي : أو لم يبين لهم عاقبة أمرهم كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أي : كثرة إهلاكنا للقرون السالفة قبلهم ، وهم يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إذا سافروا إلى الشام ، كأصحاب الحجر ، وثمود ، وفرعون ، وقوم لوط ، مشاهدين لآثار ديارهم خاربة ، مع علمهم بما جرى عليهم ، بسبب تكذيبهم ، فإنّ ذلك مما يوجب أن يهتدوا إلى الحق ، فيعتبروا ، لئلا يحل بهم مثل ما حلّ بأولئك ، أو : أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كثرة إهلاكنا للقرون السالفة قبلهم ، حال كونهم آمنين ، يَمْشُونَ فى ديارهم ويتقلبون فى رباعهم فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ «١».

إِنَّ فِي ذلِكَ الإهلاك الفظيع لَآياتٍ كثيرة عظيمة واضحة الهداية ، دالة على الحق لِأُولِي النُّهى لذوى العقول الناهية عن القبائح ، التي من أقبحها ما يتعاطاه كفار مكة من الكفر بآيات الله ، والتعامي عنها ، وغير ذلك من فنون المعاصي.

وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ، وهو تأخير العذاب عن هذه الأمة إلى الآخرة لحكمة ، لعجلنا لهم الهلاك كما عجلنا لتلك القرون المهلكة ، التي يمرون عليها ولا يعتبرون ، فأصروا على الكفر والعصيان

، فلو لا تلك العدة بتأخير العذاب لَكانَ لِزاماً أي : لكان عقاب جناياتهم لازما لهؤلاء الكفرة ، بحيث لا يتأخرون عن جناياتهم ساعة ، لزوم ما أنزل بأولئك الغابرين ، وفى التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - تلويح بأن ذلك التأخير تشريف له صلى اللّه عليه وسلم ، كما ينبىء عنه قوله تعالى : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ «٢» واللزام : مصدر لازم ، وصف به للمبالغة ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى أي : لو لا كلمة سبقت بتأخيرهم ، وأجل مسمى لأعمارهم أو عذابهم ، وهو يوم القيامة ، أو يوم بدر ، لما تأخر عذابهم أصلا. وإنما فصله عما عطف عليه ، للمسارعة إلى بيان جواب «لَوْ لا» ، وللإشعار باستقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب المعجل ، ومراعاة فواصل الآية الكريمة.

---

(١) كما جاء فى الآية ٧٨ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

(٤٣٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣٤

فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ أي : إذا كان الأمر على ما ذكرنا من أن تأخير عذابهم ليس بإهمال ، بل إمهال ، وأنه لازم لهم البتة. فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر فإن علمه صلى اللّه عليه وسلم بأنهم هالكون لا محالة مما يسليه ويحمله على الصبر ، أو اصبر على ما يقولون ، واشتغل بالله عنهم ، ولا تلتفت إلى هلاكهم ولا بقائهم ، فالله أدرى بهم. وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أي : نزّهه عما ينسبون إليه ، ما لا يليق بشأنه الرفيع ، حامدا له على ما خصك به من الهدى ، معترفا بأنه مولى النعم كلها.

قال الورتجبي : سماع الأذى يوجب المشقة ، فأزال عنه ما كان قد لحقه من سماع ما يقولونه بقوله : (وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أي : إن كان سماع ما يقولون يوحشك ، فتسبيحنا يروحك. هـ. أو : صلّ وأنت حامد لربك ، الذي يبلغك إلى كمال هدايتك ، ويرجح هذا قوله : قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها ، فإن توقيت التنزيه غير معهود ، فإنّ المراد بقبل طلوع الشمس : صلاة الفجر ، وقبل غروبها : صلاة الظهر والعصر ، وقيل : العصر فقط.

وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ أي : ساعاته فَسَبِّحْ أي : صلّ ، والمراد به المغرب والعشاء ، وآناء : جمع «إنى» ، بالكسر والقصر ، أو «أناء» بالفتح والمد. وتقديم المجرور فى قوله تعالى : وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ لاختصاصها بمزيد الفضل ، فإن القلب فيها أجمع ، والنفس إلى الاستراحة أميل ، فتكون العبادة فيها أشق ، ولذلك قال تعالى : إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا «١». وَسبح أيضا ، أَطْرافَ النَّهارِ

وهو تكرير لصلاتى الفجر والمغرب إيذانا باختصاصهما بمزيد مزية. وجمع (أَطْرافَ) بحسب اللفظ مع أمن اللبس ، أو يراد بأطراف النهار : الفجر والمغرب والظهر لأنها «٢» نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الثاني ، أو يريد التطوع فى أجزاء النهار.

قلت : وإذا حملناه على التنزيه - وهو أن يقول : سبحان الله ، أو : لا إله إلا الله ، أو كل ما يدل على تنزيه الحق - يكون تخصيص هذه الأوقات بالذكر لشرفها. فقد وردت أحاديث فى الترغيب فى ذكر الله أول النهار وآخره ، وآناء الليل حين ينتبه من نومه ، بحيث يكون كلما تيقظ من نومه سبّح الله وهلّله وكبّره ، قبل أن يعود إلى نومه.

وهكذا كان أهل اليقظة من السلف الصالح. وقوله تعالى : لَعَلَّكَ تَرْضى أي : بما يعطيك من الثواب الجزيل ، بالتسبيح فى هذه الأوقات. أو ترضى بالشفاعة فى جميع الخلائق ، فتقر عينك حينئذ. وفى صحيح البخاري :

«إنّكم ترون ربّكم كما ترون الشمس ليس دونها سحاب ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشّمس وقبل

---

(١) الآية ٦ من سورة المزمل.

(٢) أي : صلاة الظهر.

(٤٣٤/٣)

غروبها فافعلوا ، ثم تلا هذه الآية : «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها» «١» ففيه ترجيح من فسرها بالصلاة ، وفيه إشارة إلى أن الصلاة ذكر وإقبال على الله وانقطاع إليه ، وذلك مزرعة المشاهدة والرؤية فى الآخرة. وقد جاء فى أهل الجنة : «أنهم يرون ربهم بكرة وعشيا» ، هذا فى حق العموم ، وأما خصوص الخصوص ، ففى كل ساعة ولحظة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : أفلم يهد لأهل الإيمان والاعتبار ، وأهل الشهود والاستبصار ، كم أهلكنا قبلهم من القرون الخالية ، والأمم الماضية ، فهم يمشون فى مساكنهم الدارسة ، ويشاهدون آثارهم الداثرة ، كيف رحلوا عنها وتركوها ، واستبدلوا ما كانوا فيه من سعة القصور بضيق القبور ، وما كانوا عليه من الفرش الممهدة بافتراش التراب وتغطية اللحود الممددة ، فيعتبروا ويتأهبوا للحوق بهم ، فقد كانوا مثلهم أو أشد منهم ، قد نما ذكرهم ، وعلا قدرهم ، وخسف بعد الكمال بدرهم. فكأنهم ما كانوا ، وعن قريب مضوا وبانوا ، وأفضوا إلى ما قدموا ، وانقادوا قهرا ، إلى القضاء وسلموا ، ففى ذلك عبر وآيات لأولى النهى. لكن

القلوب القاسية لا ينفع فيها وعظ ولا تذكير ، فلو لا كلمة الرحمة والحلم بتأخير العذاب ، وأجل مسمى لأعمارهم لعجل لهم العقاب.

فاصبر ، أيها المتوجه إلى الله ، المنفرد بطاعة مولاه ، على ما يقولون ، مما يكدر القلوب ، واشتغل بذكر ربك وتنزيهه ، مع الطلوع والغروب وآناء الليل والنهار ، حتى تغيب فى حضرة علام الغيوب ، لعلك ترضى بمشاهدة المحبوب. وبالله التوفيق.

ولمّا كان محصل الاعتبار هو صرف الهمة عن هذه الدار ، أمر به نبيه صلى اللّه عليه وسلم ومن كان على قدمه ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١٣١ الى ١٣٢]

وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى (١٣٢)

قلت : (زَهْرَةَ) : مفعول بمحذوف ، يدل عليه (مَتَّعْنا) أي : أعطينا ، أو على الذم ، وفيه لغتان : سكون الهاء وفتحها.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاة العصر) ، ومسلم (كتاب المساجد ، باب فضل صلاتى الصبح والعصر) من حديث جرير بن عبد الله. ووقع عند مسلم أن الذي قرأ الآية هو جرير ، راوى الحديث.

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلى اللّه عليه وسلم : وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ أي : لا تطل نظرهما ، بطريق الرغبة والميل إلى ما مَتَّعْنا بِهِ من زخارف الدنيا أَزْواجاً مِنْهُمْ أي : أصنافا من الكفرة ، والمعنى : لا تنظر إلى ما أعطيناه أصناف الكفرة من زخارف الدنيا الغرارة ، ولا تستحسن ذلك ، فإنه فان ، وهو من زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : بهجتها ، ثم يفنى ويبيد ، كشأن الزهر ، فإنه فائق المنظر ، سريع الذبول والذهاب. متعناهم بذلك ، وأعطيناهم الأموال والعز فى الدنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ أي : لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم ، هل يقومون بشكره فيؤمنوا بك ، ويصرفوه فى الجهاد معك ، وينفقوه على من آمن معك .. أم لا؟ أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه ، فلا تهتم بذلك. وَرِزْقُ رَبِّكَ أي : ما ادخر لك فى الآخرة خَيْرٌ ، أو : ورزقك فى الدنيا من الكفاف مع الهدى ، خير مما منحهم فى الدنيا ، لأنه مأمون الغائلة بخلاف ما منحوه ، فعاقبته الحساب والعقاب. وَأَبْقى فإنه لا ينقطع نفسه أو أثره ، بخلاف زهرة الدنيا ، فإنها

فانية منقطعة.

فالواجب : الاشتغال بما يدوم ثوابه ، ولذلك قال له صلى اللّه عليه وسلم : وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ ، أمره بأن يأمر أهل بيته ، أو التابعين له من أمته ، بالصلاة ، بعد ما أمر هو بقوله : (وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) على ما مر ليتعاونوا على الاستعانة على الخصاصة ، ولا يهتموا بأمر المعيشة ، ولا يلتفتوا لغنى أرباب الثروة. وَاصْطَبِرْ عَلَيْها وتكلف الصبر على مداومتها ، غير ملتفت لأمر المعاش ، لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً أي : لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك ، نَحْنُ نَرْزُقُكَ وإياهم ، ففرغ قلبك لمشاهدة أسرارنا ، وَالْعاقِبَةُ المحمودة لِلتَّقْوى أي : لأهل التقوى.

روى أنه صلى اللّه عليه وسلم كان إذا أصاب أهله ضر أو خصاصة أمرهم بالصّلاة ، وتلا هذه الآية «١». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما خوطب به نبينا صلى اللّه عليه وسلم خوطب به خاصة أمته ، فلا تمدن عينيك ، أيها الفقير ، إلى ما متع به أهل الدنيا ، من زهرتها وبهجتها ، بل ارفع همتك عن النظر إليها ، واستنكف عن استحسان ما شيدوا وزخرفوا ، فإن ذلك حمق وغرور. كان عروة بن الزبير رضي اللّه عنه إذا رأى أبناء السلاطين وشاراتهم دخل داره وتلا : (وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) ...

الآية. وكان يحيى بن معاذ الرازي يقول لعلماء زمانه : يا علماء السوء دياركم هامانية ، ومراكبكم قارونية ، وملابسكم فرعونية ، فأين السنة المحمدية؟.

ولا تشتغل بطلب رزق ، فرزق ربك - وهو ما يبرز لك فى وقتك من عين المنة ، من غير سبب ولا خدمة - خير وأبقى ، أما كونه خيرا فلما يصحبه من اليقين والفرح باللّه وزيادة المعرفة ، وأما كونه أبقى لأن خزائنه لا تنفد ،

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (باب فى الصبر ، ح ٩٧٠٥) ، وأبو نعيم فى الحلية (٨/ ١٧٦) من حديث عبد اللّه بن سلام.

وعزاه الهيثمي فى مجمع الزوائد (٧/ ٦٧) للطبراني فى الأوسط ، من حديث ابن سلام ، وقال : رجاله ثقات.

مع بقاء أثره فى القلب من ازدياد اليقين ، والتعلق برب العالمين. (وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ) واصطبر أنت عليها ، فإن رزقنا يأتيك لا محالة ، فى الوقت الذي نريده ، (لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً) لك ولا لأهلك ، (نَحْنُ

نَرْزُقُكَ) ، لكن رزق المتقين ، لا رزق المترفين ، (وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى). وبالله التوفيق.
ثم ذكر بعض أقاويل الكفرة ، التي أمر عليه الصلاة والسلام بالصبر عليها. أو تقول : ثم رد على من طلب المعجزة ، بعد هذا البيان التام ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١٣٣ الى ١٣٥]

وَقالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى (١٣٥)

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : كفار مكة : لَوْ لا : هلا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ تدل على صدقه ، أو بآية مما اقترحوها من تفجير الأرض وتسيير الجبال ، ولم يعدوا ما شهدوا من المعجزات التي تخر لها الجبال من قبيل الآيات مكابرة وعنادا. قال تعالى : أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى أي : أو لم يأتهم القرآن الذي فيه بيان ما فى الصحف الأولى التوراة والإنجيل والزبور ، وسائر الكتب السماوية لاشتماله على ما فيها ، وزيادة علوم وأسرار. وهذا رد من جهته تعالى لمقالتهم ، وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها ، من إنكار إتيان الآية ، بإتيان القرآن الكريم ، الذي هو أبهر الآيات ، وأسنى المعجزات ، وأعظمها ، وأبقاها لأن حقيقة المعجزة : اختصاص مدعى النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادة ، أىّ أمر كان ، ولا ريب فى أن العلم أجلّ الأمور وأعلاها إذ هو أصل الأعمال ، ولقد ظهر ، مع حيازته لعلوم الأولين والآخرين ، على يد أمي ، لم يمارس شيئا من العلوم ، ولم يدارس أحدا من أهلها أصلا ، فأىّ معجزة تراد بعد وروده؟ وأىّ آية ترام مع وجوده؟! وفى إيراده بعنوان كونه بينة لما فى الصحف الأولى ، أي : شاهدا بحقية ما فيها من العقائد والأحكام ، التي أجمعت عليها كافة الرسل ، ما لا يخفى من تنويه شأنه وإنارة برهانه ، ومزيد تقرير وتحقيق لإتيانه. وقال بعض أهل المعاني : أو لم يأتهم بيان ما فى الكتب الأولى ، من أنباء الأمم الذين أهلكناهم ، لما سألوا الآيات ، فأتتهم ، فكفروا بها ، كيف عجلنا لهم الهلاك؟ فما يؤمن هؤلاء ، إن أتتهم البينة ، أن يكون حالهم كأولئك.

(٤٣٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣٨

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ فى الدنيا بِعَذابٍ مستأصل ، مِنْ قَبْلِهِ أي : من قبل إتيان البينة ، وهو نزول القرآن ومجيء محمد صلى اللّه عليه وسلم ، لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا يدعونا مع كتاب يهدينا ، فَنَتَّبِعَ آياتِكَ التي جاءنا بها ، مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ بالعذاب فى الدنيا ، وَنَخْزى بدخول النار يوم القيامة ، ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها ، فانقطعت حجتهم ، فإذا كان يوم القيامة قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا

وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ «١».

قُلْ لأولئك الكفرة المتمردين : كُلٌّ أي : كل واحد منكم ومنا ، مُتَرَبِّصٌ : منتظر ما يؤول إليه أمرنا وأمركم ، (فَتَرَبَّصُوا) فانتظروا. أو كلّ منتظر دوائر الزمان ، ولمن يكون النصر ، فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ عن قريب مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ أي : المستقيم ، أو السواء ، أي : الوسط الجيد ، وَمَنِ اهْتَدى من الضلالة ، هل نحن أو أنتم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : لا يشترط فى الولي العارف بالله ، الداعي إلى الله ، إظهار الآيات ، ويكفى ، برهانا عليهم ، كونهم على بينة من ربهم ، وهداية الخلق على أيديهم ، وما أظهروه من علم أسرار التوحيد ، ومن فنون علم الطريق ، مع كون بعضهم أميين ، لم يتقدم له مدارسة علم قط ، كما شهدناهم ، بعثهم الله فى كل عصر ، يعرفون بالله ، ويدلون على أسرار ذاته وأنوار صفاته ، على سبيل العيان ، لتقوم الحجة على العباد ، فإذا بعثوا يوم القيامة جاهلين بالله محجوبين عن شهود ذاته ، متخلفين عن مقام المقربين ، يقولون : لو لا أرسلت إلينا رسولا يعرفنا بك ، فنتبع آياتك حتى نصل إليك ، من قبل أن نذل بالانحطاط عن درجة المقربين ، أو نخزى بإسدال الحجاب. يقول الحق تعالى :

قد بعثتهم ، فأنكرتموهم ، فإذا اغتروا اليوم ، واحتجوا بقول من قال : انقطعت التربية ، فقل : كلّ متربص فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السّوى ومن اهتدى. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وسلّم تسليما.

---

(١) من الآية ٩ من سورة الملك.

سورة الأنبياء

مكية. وهى مائة واثنتا عشرة آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ «١» لأن علم ذلك إنما يظهر ، حقيقة ، يوم الحساب الذي صدّر به السورة ، فقال تعالى :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢)

قلت : (وَ هُمْ) : مبتدأ ، و(فِي غَفْلَةٍ) : خبر ، و(مُعْرِضُونَ) : خبر بعد خبر ، والجملة : حال من الناس. و(مِنْ ذِكْرٍ) :

فاعل بيأتي. و(مِنْ) : صلة ، و(مِنْ رَبِّهِمْ) : صفة لذكر ، أي : حاصل من ربهم ، أو متعلق بيأتيهم ، أو صفة لذكر ، وجملة (اسْتَمَعُوهُ) : حال من مفعول «يَأْتِيهِمْ» ، بإضمار (قد) أو بدونه ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال. و(هُمْ يَلْعَبُونَ) : حال أيضا من فاعل «اسْتَمَعُوهُ» ، و(لاهِيَةً) : حال من واو «يَلْعَبُونَ» ، و(قُلُوبُهُمْ) : فاعل بلاهية.

يقول الحق جل جلاله : اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ أي : قرب قيام الساعة التي هى محل حسابهم. قال ابن عباس : «المراد بالناس : المشركون» وهو الذي يفصح عنه ما بعده ، ولم يقل تعالى : «اقترب حساب الناس» ، بل قدّم لام الجر على الفاعل للمسارعة إلى إدخال الروعة ، فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجا ، كما أن تقديم اللام فى قوله تعالى : خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً «٢» لتعجيل المسرة لأن كون الخلق لأجل المخاطبين مما يسرهم ويزيدهم رغبة وشوقا إليه تعالى.

وفى إسناد الاقتراب إلى الحساب المنبئ عن التوجه نحوهم ، مع صحة إسناد الاقتراب إليهم بأن يتوجهوا نحوه ، من تفخيم شأنه ، وتهويل أمره ، مالا يخفى ، لما فيه من تصويره بشىء مقبل عليهم ، لا يزال يطلبهم حتى يصيبهم لا محالة. ومعنى اقترابه : دنوه منهم شيئا فشيئا حتى يلحقهم لأن كل آت قريب ، أي : دنا حساب أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب.

وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ تامة منه ، ساهون بالمرة عنه ، غير ذاكرين له ، لا أنهم غير مبالين به ، مع اعترافهم بإتيانه ، بل هم منكرون له ، كافرون به ، مُعْرِضُونَ عن الآيات والنذر المنبهة لهم عن سنة الغفلة. ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ

---

(١) من الآية ١٣٥ من سورة طه.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٤٢
أي : من طائفة نازلة من القرآن ، تذكر ذلك الحساب ، وتنبههم عن الغفلة عنه ، كائن أو نازل مِنْ رَبِّهِمْ ، أو ذاكر ومذكر من ناحية ربهم. وفى إضافته إليه سبحانه دلالة على شرفه ، وكمال شناعة ما فعلوه من الإعراض عنه ، وفى التعبير بعنوان الربوبية تشنيع لكمال عتوهم ، ومن صفة ذلك الذكر مُحْدَثٍ تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة ، بمعنى أنه نزل شيئا فشيئا ، أو قريب عهد بالنزول ، فمعانى القرآن قديمة ، وإظهاره بهذه الحروف والأصوات حادث. وقال ابن راهويه : قديم من رب العزة ، محدث إلى أهل الأرض.
فما ينزل عليهم شىء من القرآن يذكرهم ويعظهم إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لا يتعظون به ، ولا يتدبرون فى معانيه ،
[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٣ الى ٦]
لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)
لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ساهية ، معرضة عن التفكر والتدبر فى معانيه. وتقدير الآية : ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ، فى حال من الأحوال ، إلا حال استماعهم إياه كانوا لاعبين مستهزءين به ، لاهين عنه ، حال كون قلوبهم لاهية عنه لتناهى غفلتهم وفرط إعراضهم عن النظر والتفكر فى عواقب الأمور. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : حمل الآية على العموم هو الظاهر عند الصوفية. وقد ورد عن رجل من الصحابة أنه كان يبنى ، فلقى بعض الصحابة فقال : ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال له : اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ ، فنفض التراب ، وقال :
واللّه لا بنيت. هـ. أي : اقترب للناس حسابهم على النقير والقطمير ، وهم فى غفله عن التأهب والاستعداد ، معرضون عن اتخاذ الزاد ، ما يأتيهم من ذكر من ربهم ، يعظهم ويوقظهم ، إلا استمعوه بآذانهم ، وهم يلعبون ساهون عنه بقلوبهم لحشوها بالوساوس الشيطانية والعلائق النفسانية. لاهية قلوبهم عن التفكر والاعتبار والتدبر والاستبصار.
قال القشيري : ويقال : الغفلة على قسمين غافل عن حسابه لاستغراقه فى دنياه ، وغافل عن حسابه لاستهلاكه فى مولاه ، فالغفلة الأولى سمة الهجر ، والثانية صفة الوصل ، فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا فى عسكر الموتى ، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أبد الأبد لفنائهم فى وجود الحق. هـ.

قلت : القسمة ثلاثية : قوم غفلوا عن حسابهم لاشتغالهم بحظوظهم وهواهم ، وهم : الغافلون الجاهلون ، وقوم ذكروا حسابهم ، وجعلوه نصب أعينهم ، وتأهبوا له ، وهم : الصالحون والعباد والزهاد ، وقوم غفلوا عنه ، وغابوا عنه لاستغراقهم فى شهود مولاهم ، وهم : العارفون المقربون. جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه.

ثم ذكر المنهمكين فى الغفلة ، فقال :

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ...

(٤٤٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٤٣

قلت : «الَّذِينَ ظَلَمُوا» : بدل من الواو ، منبئ عن كونهم موصوفين بالظلم فيما أسروا به. وقال الكلبي : فيه تقديم وتأخير ، أراد الذين ظلموا أسروا النجوى. فيكون «الَّذِينَ» : مبتداء و«أَسَرُّوا» : خبر مقدم.

وقال قطرب : على لغة بعض العرب ، يقولون : أكلونى البراغيث ، وهى بلغة بلحارث وغيرهم. وقال الفراء : بدل من الناس ، أي : اقترب للناس وهم الذين ظلموا. و(هَلْ هذا ..) إلخ : بدل من النجوى ، أو مفعول بقول مضمر ، كأنه قيل : ماذا قالوا فى نجواهم؟ فقيل : قالوا : هل هذا .. إلخ و(أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) : حال من واو «تأتون» مقررة للإنكار ، مؤكدة للاستبعاد. و(مِنْ قَرْيَةٍ) : فاعل آمنت ، و«مِنْ» : صلة للعموم. و(أَهْلَكْناها) : صفة لقرية.

يقول الحق جل جلاله : وَأَسَرُّوا النَّجْوَى : أخفوا تناجيهم بحيث لم يشعر أحد بما قالوا ، وهم الَّذِينَ ظَلَمُوا بالكفر والطغيان ، قائلين فى تلك النجوى الشنيعة : هَلْ هذا أي : ما هذا الرجل الذي يزعم أنه رسول إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أي : من جنسكم ، وما أتى به سحر ، أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أي : تعلمون ذلك فتأتونه ، وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول ، وأنتم تعاينون أنه سحر؟. قالوا ذلك ، بناء على ما ارتكز فى اعتقادهم الزائغ ، أن الرسول لا يكون إلا ملكا ، وأنّ كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق هو من قبيل السحر ، وغاب عنهم أن إرسال البشر إلى البشر هو الذي تقتضيه الحكمة التشريعية. قاتلهم اللّه أنى يؤفكون. وإذا أسروا ذلك ولم يعلنوه لأنه كان على طريق توثيق العهد خفية ، وتمهيدا لمقدمات المكر والكيد فى هدم أمر النبوة ، وإطفاء نور الدين. وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ.

ثم فضح اللّه سرهم ونجواهم بقوله : قالَ «١» رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ أي : قل يا محمد : ربى يعلم القول ، سرا كان أو جهرا ، سواء كان فى السماء أو الأرض ، فلا يخفى عليه ما تناجيتم به

، فيفضحكم به ويجازيكم عليه. وقرأ أكثر أهل الكوفة : (قالَ) على الخبر ، وهو حكاية من جهته تعالى لما قاله - صلى اللّه عليه وسلم - بعد ما أوحى إليه أحوالهم وأقوالهم بيانا لظهور أمرهم وانكشاف سرهم ، وإيثار القول المشتمل على السر والجهر للإيذان بأن علمه تعالى بالسر والجهر على وتيرة واحدة ، لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء ، كما فى علوم الخلق.

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أي : المبالغ فى العلم بالمسموعات والمعلومات ، التي من جملة ما أسروه من النجوى ، فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم. بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ ، هو إضراب من جهته تعالى ، وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية قول آخر مضطرب فى مضارب البطلان ، أي : لم يقتصروا على أن يقولوا فى حقه - عليه الصلاة والسلام - : هل هذا إلا بشر ، وفى حق ما ظهر على يديه من القرآن الكريم : إنه السحر ، بل قالوا : هو تخاليط

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص : «قال ربى». وقرأ الباقون : «قل» على الأمر. انظر الإتحاف (٢/ ٢٦١).

(٤٤٣/٣)

أحلام وأباطيلها ، فهو أشبه شيء بالهذيان ، ثم أضربوا عنه ، وقالوا : بَلِ افْتَراهُ من تلقاء نفسه ، من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل. ثم قالوا : بَلْ هُوَ شاعِرٌ ، وما أتى به شعر يخيل إلى السامع ، لا حقيقة لها.

وهكذا شأن المبطل المحجوج ، متحير ، لا يزال يتردد بين باطل وأبطل ، ويتذبذب بين فاسد وأفسد. فالإضراب الأول ، كما ترى ، من جهته تعالى ، والثاني والثالث من قبلهم. وقد قيل : الكل من قبلهم ، حيث أضربوا عن قولهم : هو سحر ، إلى أنه تخاليط أحلام ، ثم إلى أنه كلام مفترى ، ثم إلى أنه قول شاعر ، وهو بعيد لأنه لو كان كذلك لقال : قالوا : بل أضغاث أحلام ... إلخ.

ثم قالوا : فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ وهو جواب عن شرط محذوف ، يفصح عنه السياق ، كأنه قيل : وإن لم يكن كما قلنا ، بل كان رسولا من اللّه تعالى ، فليأتنا بمعجزة ظاهرة كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ أي : مثل الآية التي أرسل بها الأولون كاليد ، والعصا ، والناقة وشبه ذلك. فالكاف : صفة لمصدر محذوف ، أي : إتيانا مثل إتيان الأولين.

قال تعالى : ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أي : أهلكنا أهلها ، أَفَهُمْ أي : هؤلاء المقترحون عليك الآيات ، يُؤْمِنُونَ أي : قد اقترحت الأمم السالفة الآيات على رسلها ، فأعطوا ما اقترحوا ، فلم يؤمنوا ،

فأهلكناهم ، فكيف يؤمن هؤلاء ، وهم أعتى منهم؟ فالهمزة : لإنكار الوقوع ، والفاء : للعطف على مقدر ، فأفادت إنكار وقوع إيمانهم. والمعنى : لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات ، أهم لم يؤمنوا ، فهؤلاء يؤمنون ، لو أجيبوا إلى ما سألوا وأعطوا ما اقترحوه ، مع كونهم أعتى منهم وأطغى؟ فهم فى اقتراح الآيات كالباحث على حتفه فطلبه ، وفى ترك إجابتهم إبقاء عليهم ، كيف لا ، ولو أعطوا ما اقترحوا ، مع عدم إيمانهم قطعا ، لوجب استئصالهم ، بجريان سنّة اللّه تعالى فى الأمم السالفة أن المقترحين ، إذا أعطوا ما اقترحوا ، فلم يؤمنوا ، نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة ، وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى أن هؤلاء لا يعذبون بعذاب الاستئصال ، فلذلك لم يظهر لهم ما اقترحوا من الآيات. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : العلماء باللّه ، الداعون إلى اللّه ، هم ورثة الأنبياء والرسل ، فما قيل فى الأصل قد قيل فى الفرع ، فكل عصر يوجد من ينكر على خواص ذلك العصر ، ويرميهم بالسحر والجنون. والافتراء على اللّه سنة ماضية. غير أن أولياء هذه الأمة على قدم نبيهم ، رحمة للعالمين ، فمن آذاهم لا يعاجل بالعقوبة فى الغالب ، وقد تكون باطنية ، كقسوة القلوب ، والخذلان ، والشكوك ، والأوهام. وهذا الوصف فى العارفين الكلمة ، وأما الزهاد والعباد والصالحون :

فمن آذاهم عوجل بالعقوبة فى الغالب لنقص كمالهم ، وعدم اتساع دائرة معرفتهم. وباللّه التوفيق.

(٣/٤٤٤)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٤٥

ثم ردّ على من أنكر رسالة البشر ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٧ الى ١٠]

وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠)

يقول الحق جل جلاله فى جواب قول الكفرة : هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ «١» بعد تقديم الجواب عن قولهم : فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ لأنهم قالوه بطريق التعجيز ، فلابد من المسارعة إلى رده ، كما تقدم مرارا فى الكتاب العزيز ، كقوله إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ .. «٢» الآية ، ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ الآية «٣». إلى غير ذلك ، فقال جل جلاله : وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ فى الأمم السالفة إِلَّا رِجالًا بشرا من جنس القوم الذين أرسلوا إليهم لأن مقتضى الحكمة أن يرسل البشر إلى البشر ، والملك إلى الملك ، حسبما نطق به قوله تعالى : قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا «٤»

فإن عامة البشر لا تطيق المفاوضة مع الملك لتوقفها على التناسب بين المفاوض والمستفيض فبعث لكل جنس ما يناسبه للحكمة التي يدور عليها فلك التكوين والتشريع ، والذي تقتضيه الحكمة الإلهية أن يبعث الملك إلى خواص البشر المختصين بالنفوس الزكية ، المؤيدين بالقوة القدسية ، المتعلقين بالعالم الروحاني والجسماني ، ليتلقوا من جانب العالم الروحاني ، ويلقوا إلى العالم الجسماني ، فبعث رجالا من البشر يوحى إليهم على أيدى الملائكة أو بلا واسطة.

والمعنى : وما أرسلنا إلى الأمم ، قبل إرسالك إلى أمتك ، إلا رجالا مخصوصين من أفراد الجنس ، متأهلين للاصطفاء والإرسال ، نُوحِي إِلَيْهِمْ ، بواسطة الملك ، ما يوحى من الشرائع والأحكام ، وغيرهما من القصص والأخبار ، كما يوحى إليك من غير فرق بينهما ، فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ أي : فاسألوا ، أيها الجهلة ، أهل العلم كأهل الكتب الواقفين على أحوال الرسل السالفة - عليهم الصلاة والسلام - لتزول شبهتكم إن كنتم لا علم لكم بذلك. أمروا بذلك لأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم الضروري ، لا سيما وهم كانوا يشايعون المشركين عداوته صلى اللّه عليه وسلم ، ويشاورونهم فى أمورهم ، فإذا أخبروهم أن الرسل إنما كانوا بشرا ، ولم يكونوا ملائكة ، حصل لهم العلم بالحق ، وقامت الحجة عليهم.

---

(١) من الآية ٣ من سورة الأنبياء. [.....]

(٢) من الآية ٣٣ من سورة هود.

(٣) الآية ٨ من سورة الحجر.

(٤) الآية ٩٥ من سورة الإسراء.

(٤٤٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٤٦

وتوجيه الخطاب إلى الكفرة فى السؤال ، بعد توجيهه إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - فى الإرسال لأنه الحقيق بالخطاب فى أمثال تلك العلوم والحقائق الأنيقة ، وأما الوقوف عليها باستخبار من الغير فهو من وظائف العوام.

ثم بيّن كون الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أسوة لأفراد الجنس فى أحكام البشرية ، فقال : وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً أي : أجسادا ، فالإفراد لإرادة الجنس ، أو ذوى جسد ، لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ أي : وما جعلناهم أجسادا صمدانيين ، أغنياء عن الطعام والشراب ، بل محتاجين إلى ذلك لتحقيق العبودية التي اقتضت شرفهم. وَما كانُوا خالِدِينَ لأن كل من يفتقر إلى الغذاء لا بد يتحلل بدنه بسرعة ، حسبما جرت

العادة الإلهية ، والمراد بالخلود : المكث المديد ، كما هو شأن الملائكة أو الأبدية. وهم معتقدون أنهم كانوا يموتون. والمعنى : بل جعلناهم أجسادا مفتقرة صائرة إلى الموت عند انقضاء آجالهم ، لا ملائكة ولا أجسادا صمدانية.

ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ بالنصر وإهلاك أعدائهم ، وهو عطف على ما يفهم من وحيه تعالى إليهم ، كأنه قيل :

أوحينا إليهم ما أوحينا ، ثم صدقناهم فى الوعد ، الذي وعدناهم فى تضاعيف الوحى ، بإهلاك أعدائهم ، فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ من المؤمنين وغيرهم ، ممن تستدعى الحكمة إبقاءه ، كمن سيؤمن هو أو بعض فروعه ، وهو السر فى حماية العرب من عذاب الاستئصال. أو يخص هذا العموم بغير نبى الرحمة صلى اللّه عليه وسلم فإن أمته لا تستأصل ، وإن بقي فيها من يكفر باللّه لعل اللّه يخرج من أصلابهم من يوحد اللّه تعالى. وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ أي : المجاوزين الحد فى الكفر والمعاصي.

ولمّا ذكر برهان حقّيّة الرسول - عليه الصلاة والسلام - ذكر حقية القرآن المنزل عليه ، الذي ذكر فى صدر السورة إعراض الناس عما يأتيهم من آياته ، فقال : لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ ، صدّره بالقسم إظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه ، وإيذانا بكون المخاطبين فى أقصى مراتب التنكير ، أي : واللّه لقد أنزلنا إليكم ، يا معشر قريش ، كِتاباً عظيم الشأن نيّر البرهان. فالتنكير للتفخيم ، أي : كتابا جليل القدر فِيهِ ذِكْرُكُمْ أي : شرفكم وحسن صيتكم ، كقوله تعالى : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ «١» ، أو فيه تذكيركم وموعظتكم ، أو ما تحتاجون إليه فى أمر دينكم ودنياكم ، أو ما تطلبون به حسن الذكر والثناء من مكارم الأخلاق ، أَفَلا تَعْقِلُونَ فتتدبروا فى معانيه حتى تدركوا حقيته. فالهمزة للإنكار التوبيخي. وفيه حث لهم على التدبر فى أمر الكتاب ، والتأمل فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر ، التي من جملتها القوارع السابقة واللاحقة ، والمعطوف : محذوف ، أي : أعميت بصائركم فلا تعقلون؟ واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة الزخرف.

الإشارة : ثبوت الخصوصية لا ينافى وصف البشرية ، فنسبة أهل الخصوصية من البشر كاليواقيت بين الحجر.

ولا فرق بين خصوصية النبوة والولاية فى الاتصاف بأوصاف البشرية ، التي لا تؤدى إلى نقص فى مراتبهم العلية. وتتميز خصوصية النبوة من الولاية بوحي الأحكام ، وتتميز خصوصية الولاية من العمومية

بالتطهير من الرذائل والتحلي بالفضائل ، وبالغيبة عن رؤية الأكوان ، بإشراق شمس العرفان ، وذلك بالفناء عن الأثر بشهود المؤثر ، ثم بالبقاء بشهود الأثر حكمة ، مع الغيبة عنه ، قدرة ، ولا يعرف هذا إلا أهل الذكر الحقيقي ، فلا يعرف مقام الأولياء إلا من دخل معهم ، ولا يسأل عنهم إلا أمثالهم (فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ). فلا يشترط فى الولي استغناؤه عن الطعام والشراب إذ لم يكن للأنبياء ، فكيف بالأولياء؟ ولا استغناؤه عن النساء ، قال تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً «١» ، نعم صاحب الخصوصية مالك لنفسه من غلبة الشهوة عليه ، ينزل إلى أرض الحظوظ بالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين. جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه. وتقدم الكلام على قوله تعالى : فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ فى سورة النحل «٢». وباللّه التوفيق.

ثم بيّن ما أجمل فى قوله : (وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ) ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١١ الى ١٥]

وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (١٣) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (١٤) فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ (١٥)

قلت : كم : خبرية مفيدة للتكثير ، ومحلها نصب ، مفعول بقصمنا ، و(مِنْ قَرْيَةٍ) : تمييز ، و(كانَتْ ..) إلخ : صفة لقرية.

يقول الحق جل جلاله : وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ أي : كثيرا أهلكنا من أهل قرية كانَتْ ظالِمَةً بآيات اللّه تعالى ، كافرين بها. وفى لفظ القصم - الذي هو عبارة عن الكسر بإبانة أجزاء المكسور وإزالتها بالكلية - من الدلالة على قوة الغضب والسخط ما لا يخفى. وَأَنْشَأْنا أي : أحدثنا بَعْدَها أي : بعد إهلاكها قَوْماً آخَرِينَ ليسوا منهم نسبا ولا دينا ، ففيه تنبيه على استئصالهم وقطع دابرهم بالكلية. فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا أي : أدركوا عذابنا الشديد إدراك المشاهد المحسوس إِذا هُمْ مِنْها أي : من القرية يَرْكُضُونَ :

يهربون مدبرين راكضين دوابهم. فقيل لهم ، بلسان الحال أو المقال من الملك ، أو ممن حضرهم من المؤمنين ،

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة الرعد.

(٢) الآية ٤٣ من سورة النحل.

بطريق الاستهزاء والتوبيخ : لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ من النعم والتلذذ وَإِلى مَساكِنِكُمْ التي كنتم تفتخرون بها ، لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ تقصدون للسؤال ، إذ كانوا أغنياء ، أو للتشاور والتدبر فى المهمات والنوازل ، أو تسألون الفداء فتفتدوا من العذاب ، أو تسألون عن قتل نبيكم وفيم قتلتموه.
قيل : نزلت فى أهل حاضورا ، قرية باليمن ، وكان أهلها العرب ، فبعث اللّه إليهم نبيا فكذبوه وقتلوه ، فسلط اللّه تعالى عليهم بختنصّر ، فقتلهم وسباهم ، فلما انهزموا وهربوا قالت لهم الملائكة : لا تركضوا ، وارجعوا إلى مساكنكم وأموالكم استهزاء بهم ، وأتبعهم بختنصر ، فأخذتهم السيوف ، ونادى مناد من السماء : يا لثارات الأنبياء ، فلما رأوا ذلك أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم ، فقالوا : يا وَيْلَنا يا هلاكنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ مستوجبين العذاب. وهذا اعتراف منهم وندم حين لم ينفعهم ذلك.
فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ أي : فما زالوا يرددون تلك الكلمة ، ويدعون بها ، ويقولون : يا ويلنا ، حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً أي : مثل الحصيد ، وهو المحصود من الزرع والنبات ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، فلذلك لم يجمع ، كجريح وقتيل. وجعلناهم خامِدِينَ ميتين ، من خمدت النار إذا طفئت. وهو ، مع «حَصِيداً» ، فى حيز المفعول الثاني لجعل ، كقولك : جعلته حلوا حامضا ، والمعنى : جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود ، أو حال من الضمير المنصوب فى «جَعَلْناهُمْ» ، ولفظ الآية يقتضى العموم.
واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : وكم من قرية من قرى القلوب قصمنا أهلها ، أي : ما فيها من الشكوك والأوهام ، كانت ظالمة بتلك الخواطر ، فأخرجناهم منها ، وأنشأنا بعدها أنوارا وأسرارا وعلوما آخرين. فلما أحسوا بأسنا بورود الواردات الإلهية عليها ، التي تأتى من حضرة القهار ، إذا هم منها يركضون لأن الواردات الإلهية تأتى من حضرة القهار ، لأجل ذلك لا تصادم شيئا من الظلمات إلا دمغته ، فيقال لتلك الظلمات ، التي هى الشكوك والأوهام : لا تركضوا ، ولكن ارجعوا أنوارا ، وانقلبوا واردات وأسرارا ، وتنعموا فى محلكم بشهود الحق ، لعلكم تسألون ، أي : تستفتون فى الأمور ، لأن القلب إذا صفا من الأكدار استفتى فى العلوم ، وفى الأمور التي تعرض ، قالوا بلسان الحال - أي تلك الظلمات - :
يا ويلنا إنا كنا ظالمين بحجب صاحبنا عن اللّه ، فما زالت تلك دعواهم حتى صاروا خامدين ، هامدين ، ساكنين تحت مجارى الأقدار ، مطمئنين باللّه الواحد القهار ، وهذه إشارة دقيقة ، لا يفهمها إلا دقيق الفهم غزير العلم. وباللّه التوفيق.
ثم بيّن أن إهلاك تلك القرى الظالمة كان لحكمة بليغة ومصلحة بديعة ، ولم يكن عبثا لأنه تعالى منزه عن اللعب فى خلقه ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١٦ الى ١٨]

وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)

قلت : (لاعِبِينَ) : حال من فاعل خلق ، و«إِنْ كُنَّا» : شرط حذف جوابه ، أي : إن كنا فاعلين اتخذناه من لّدنا ، وقيل : نافية.

يقول الحق جل جلاله : وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما من المخلوقات التي لا تحصى أجناسها ، ولا تعد أفرادها ، ولا تحصر أنواعها وآحادها ، على هذا النمط البديع والأسلوب الغريب ، لاعِبِينَ خالية عن الحكم والمصالح ، بل لحكم بديعة ومصالح عديدة ، دينية تقضى بسعادة الأبد أو بشقاوته ، ودنيوية لا تعد ولا تحصى ، وهذا كقوله : وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا «١» ، فالمراد من الآية : إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم ، وإبداع بنى آدم ، مؤسس على قواعد الحكم البالغة ، المستتبعة للغايات الجليلة ، وتنبيه على أن ما حكى من العذاب الهائل ، والعقاب النازل بأهل القرى ، من مقتضيات تلك الحكم ، ومتفرع عليها حسبما اقتضته أعمالهم. وإنما فعل ذلك عدلا منه ، ومجازاة على أعمالهم ، وأن المخاطبين المتقدمين - وهو قريش - على آثارهم لأن لهم ذنوبا مثل ذنوبهم.

وإنما عبّر عن نفى الحكمة باللعب ، حيث قال : لاعِبِينَ لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالي عن الحكمة ، بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحد فى استحالة صدوره منه سبحانه ، وهو اللهو واللعب ، بل إنما خلقناهما ، وما بينهما لتكون مبدأ الوجود الإنسانى وسببا لمعاشه ، ودليلا يقوده إلى تحصيل معرفتنا ، التي هى الغاية القصوى والسعادة العظمى.

ثم قرر انتفاء اللعب واللهو عنه ، فقال : لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً أي : ما يلهى به ويلعب ، لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا أي : من أنفسنا لعلمنا بحقائق الأشياء ، واستغنائنا عن جلب المصالح ودرء المفاسد. والمعنى : لو أردنا أن نخلق شيئا ، لا لتحصيل مصلحة لكم ، ولا لدرء مفسدة عنكم ، لفعلنا ذلك فى أنفسنا بأن نخلق عوالم ومظاهر عارية عن الحكمة والمصلحة لأنا أحق منكم بالاستغناء عما يجلب المصلحة ويدرأ المفسدة ، لكن من عادتنا ربط الأسباب بمسبباتها ، وأنا لم نخلق شيئا عبثا ، بل خلقنا كل نوع من النبات والحيوانات والجمادات لمصلحة ومنفعة ، علمها ، من علمها وجهلها من جهلها ، فحصل من هذا نفى التحسين والتقبيح عقلا ، بهذه الشرطية ، وإثباته سمعا.

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة ص.

أو : لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا مما يليق بشأننا من المجردات ، لا من الأجسام المرفوعة والأجرام الموضوعة ، كعادة الجبابرة من رفع العروش وتحسينها ، وتمهيد الفرش وتزيينها ، لأغراض عراض ، لكن يستحيل إرادتنا لذلك لمنافاته للحكمة الإلهية المنزهة عن الأغراض. هـ. من أبى السعود ، وأصله للزمخشرى. وفيه تكلف.

وسأل طاوس ومجاهد الحسن عن هذه الآية؟ فقال : اللهو : المرأة. وقال ابن عباس : «الولد». ومعنى (لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا) : بحيث لا يطلعون عليه ، وما اتخذنا نساء وولدا من أهل الأرض. نزلت فى الذين قالوا : اتخذ اللّه ولدا.

وتكون الآية ، حينئذ تتميما لما قبلها ، أي : ليس اللعب واللهو من شأننا ، إذ لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا.

قال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن الفاسى : حمل الآية على الزوجة غير مفيد ، إلا أن يراد بذلك مجرد الرحمة والشفقة ، مما يمكن عقلا ، فيصح دخول النفي الشرعي عليه. انظر ابن عرفة ، فقد جوّز ، عقلا ، اتخاذه على معنى الرحمة. وكذا ابن عطية فى آية الزمر «١». ومنع ذلك القشيري. قلت : وكأنه لما يشير إليه قوله تعالى : هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ «٢» فإن القهر لا يناسب التبني بوجه ، وقد يقال : إنه مانع سمعى شرعى ، لا عقلى ، فلا يخالف ما قاله ابن عرفة ولا ابن عطية. وفيه نظر لأنه يؤدى إلى تعطيل اسمه القهار ونحوه ، وهو محال ، واللّه أعلم هـ.

قلت : قد حمل النسفي الآية على الولد ، فقال : لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً أي : ولدا ، أو امرأة ، رد على من قال عيسى ابنه ، ومريم صاحبته ، لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا من الولدان أو الحور ، إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ أي : إن كنا ممن يفعل ذلك ، ولسنا ممن يفعله لاستحالته فى حقنا. هـ. قلت : والذي تكلف الحمل الأول رأى أن حمله على الولد يقتضى جواز الاتخاذ عقلا وإنما منعه عدم الإرادة. وأجاب ابن عرفة : بأن يحمل الاتخاذ على معنى الرحمة ، لا على حقيقة البنوة. قلت : من خاض بحار التوحيد الخاص وحاز مقام الجمع ، لا يتوقف فى مثل هذا إذ تجليات الحق لا تنحصر ، لكن لم يوجد منها ، ولم تتعلق إرادته إلا بما هو كمال فى حقه تعالى فى باب القدرة ، وأما باب الحكمة ، فهى رداء لمحل النقائص ، فافهم ، واصحب أهل الجمع حتى يفهموك ما ذكرت لك ، والسلام.

ثم قال تعالى : بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ أي : نرمى بالحق ، الذي هو الجد ، على الباطل ، الذي من جملته اللهو ، وهو إضراب عن اتخاذ الولد ، بل عن إرادته ، كأنه قيل : لكنا لا نريده ، بل شأننا أن نقذف بالحق على الباطل فَيَدْمَغُهُ : فيمحقه بالكلية ، كما فعلنا بأهل القرى المحكية وأمثالهم. وقد استعير ، لإيراد الحق على الباطل ، القذف ، الذي هو الرمي الشديد ، وللباطل الدمغ ، الذي هو تشتيت الدماغ وتزهيق الروح ، فكأنّ الباطل حيوان له دماغ ، فإذا تشتت دماغه مات واضمحل ، فَإِذا هُوَ زاهِقٌ أي : فإذا الباطل ذاهب بالكلية ، متلاش عن أصله. وفى (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من

الدلالة على كمال السرعة فى الذهاب والبطلان ما لا يخفى.

---

(١) فى قوله تعالى : لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ ... الآية.

(٢) من الآية ٤ من سورة الزمر.

(٣/٤٥٠)

ثم ردّ على أهل الباطل فقال : وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ أي : وقد استقر لكم الويل والهلاك من أجل ما تصفونه ، سبحانه ، بما لا يليق بشأنه الجليل ، من الولد والزوجة ، وغير ذلك مما هو باطل. وهو وعيد لقريش ومن دان دينهم ، بأنّ لهم أيضا مثل ما لأولئك القرى المتقدمة من الهلاك ، إن لم ينزجروا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما نصبت لك الكائنات لتراها كائنات ، بل لتراها أنوارا وتجليات ، الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، فالغير والسّوى عند أهل الحق باطل ، والباطل لا يثبت مع الحق. قال تعالى (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ). قال القشيري : ندخل نهار التحقيق على ليالى الأوهام ، أي : فتمحى ، وتبقى شمس الأحدية ساطعة. هـ. وباللّه التوفيق.

ثم قرر وحدانيته تعالى فى ملكه وملكوته ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١٩ الى ٢٥]

وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣)

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)

يقول الحق جل جلاله : وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : له جميع المخلوقات ، خلقا وملكا ، وتدبيرا وتصرفا ، وإحياء وإماتة ، وتعذيبا وإثابة ، من غير أن يكون لأحد فى ذلك دخل ، لا استقلالا ولا استتباعا ، ولا فرق بين أهل العالم العلوي والسفلى ، وَمَنْ عِنْدَهُ وهم الملائكة - عليهم السلام - عبّر عنهم بذلك إثر ما عبّر عنهم بمن فى السموات تنزيلا لهم - لكرامتهم عليه ، وزلفاهم عنده - منزلة المقربين عند الملك ، وهو مبتدأ وخبره :

لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ أي : لا يتعاظمون عنها ، ولا يعدون أنفسهم كبراء ، وَلا يَسْتَحْسِرُونَ أي : لا

يكلّون ولا يعيون ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ أي : ينزهونه فى جميع الأوقات ، ويعظمونه ويمجدونه دائما. وهو استئناف بيانى ، كأنه قيل : ماذا يصنعون فى عبادتهم ، أو كيف يعبدون؟ فقال : يسبحون ... إلخ. لا يَفْتُرُونَ أي : لا يتخلل تسبيحهم فترة أصلا ، ولا شغل آخر.

(٤٥١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٥٢

ولمّا برهن على وحدانيته تعالى فى ملكه بأنه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة ، وأنهم قاطبة تحت ملكه وقهره ، وأنّ عباده مذعنون لطاعته ، ومثابرون على عبادته ، ومنزهون له عن كل ما لا يليق بشأنه ، أنكر على من أشرك معه بعد هذا البيان ، فقال : أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً يعبدونها مِنَ الْأَرْضِ أي : اتخذوها من جنس الأرض ، أحجارا وخشبا ، هُمْ يُنْشِرُونَ أي : يبعثون الموتى. وهذا هو الذي يدور عليه الإنكار والتجهيل والتشنيع ، لا نفس الاتخاذ ، فإنه واقع لا محالة ، أي : بل اتخذوا آلهة من الأرض ، هم مع حقارتهم ، ينشرون الموتى ، كلا .. فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك ، وهم ، وإن لم يقولوا بذلك صريحا ، لكنهم حيث ادعوا لها الألوهية ، فكأنهم ادعوا لها الإنشار ، ضرورة لأنه من خصائص الإلهية ، ومعنى التخصيص فى تقديم الضمير فى :

هُمْ يُنْشِرُونَ : التنبيه على كمال مباينة حالهم للإنشار ، الموجبة لمزيد الإنكار ، كما فى قوله تعالى : أَفِي اللَّهِ شَكٌّ «١». وفى قوله تعالى : أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ «٢» ، فإنّ تقديم الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لأن يشك فيه ويستهزأ به.

ثم أبطل الاشتراك فى الألوهية ، فقال : لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ أي : لو كان فى السماوات والأرض آلهة غير اللّه ، كما هو اعتقادهم الباطل ، لَفَسَدَتا أي : لفسد نظامهما بما فيهما ، لوجود التمانع ، كعادة الملوك ، أو لبطلتا بما فيهما ، ولم يوجد شىء منهما للزوم العجز لهما ، بيان ذلك : أن الألوهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق ، تغييرا وبديلا ، وإيجادا وإعداما ، وإحياء وإماتة ، فبقاؤهما على ما هما عليه من غير فساد ، إما بتأثير كل منها ، وهو محال لاستحالة وقوع الأثر الواحد بين مؤثرين ، وإما بتأثير واحد منها ، فالباقى بمعزل عن الإلهية ، والمسألة مقررة فى علم الكلام.

و(إِلَّا) : صفة لآلهة ، كما يوصف بغير ، ولمّا كانت حرفا ، ظهر إعرابها فى اسم الجلالة ، ولا يصح رفعه على البدل لعدم وجود النفي. ثم قال تعالى : فَسُبْحانَ اللَّهِ أي : فسبحوا سبحان اللّه اللائق به ، ونزهوه عما لا يليق به من الأمور ، التي من جملتها : أن يكون له شريك فى الألوهية. وإيراد الجلالة فى موضع الإضمار ، حيث لم يقل فسبحانه للإشعار بعلية الحكم ، فإنّ الألوهية مناط لجميع صفات

كماله ، التي من جملتها : تنزهه تعالى عما لا يليق به ، ولتربية المهابة وإدخال الروعة. ثم وصفه بقوله : رَبِّ الْعَرْشِ ، وخصه بالذكر ، مع كونه رب كل شيء لعظم شأنه لأنّ الأكوان فى جوفه كلا شيء ، أي : تنزيها له عما يصفونه عن أن يكون من دونه آلهة.

ثم بيّن قوة عظمته وعز سلطانه القاهر ، فقال : لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ أي : لا يمكن لأحد من مخلوقاته أن يناقشه أو يسأله عما يفعل هيبة وإجلالا ، وَهُمْ يُسْئَلُونَ أي : وعباده يسألون عما يفعلون ، نقيرا وقطميرا لأنهم مملوكون له تعالى ، مستعبدون ، ففيه وعيد للكفرة ، فالآية تتميم لقوله : (لاعِبِينَ) ، بل خلقنا الأشياء كلها

---

(١) من الآية ١٠ من سورة إبراهيم.

(٢) من الآية ٦٥ من سورة التوبة.

(٤٥٢/٣)

لحكمة ، فمنها ما أدركتم حكمته ، ومنها ما غاب عنكم ، فكلوا أمره إلى اللّه ، ولا تسألوه عما يفعل ، فإنه لا يسأل عن فعله ، وأنتم تسألون.

ثم قال تعالى : أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، هو إضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة بإظهار خلوها من خصائص الألوهية ، التي من جملتها إنشار الموتى ، وإقامة البرهان القاطع على استحالة تعدد الإله ، إلى إظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة ، مع عرائها عن تلك الخصائص ، وتبكيتهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة. والهمزة : لإنكار ما اتخذوه واستقباحه ، أي : بل اتخذوا من دونه - أي : متجاوزين إياه تعالى ، مع ظهور شؤونه الجليلة الموجبة لتفرده بالألوهية - آلهة ، مع ظهور خلوهم عن خصوص الإلهية بالكلية.

قُلْ لهم ، بطريق التبكيت : هاتُوا بُرْهانَكُمْ على ما تدّعونه ، من جهة العقل والنقل فإنه لا صحة لقول لا دليل عليه فى الأمور الدينية ، لا سيما فى هذا الأمر الخطير ، فإن بهتوا فقل لهم : هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي أي : بهذا نطقت الكتب السماوية قاطبة ، وشهدت به سنّة الرسل المتقدمة كافة. فهذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ من أمتى ، أي : عظتهم ، وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي من الأمم السالفة ، أي : بهذا أمرنا ربنا ووعظنا ، وبه أمر من قبلنا ، يعنى : انفراده سبحانه بالألوهية واختصاصه بها.

وقيل : المعنى : هذا كتاب أنزل على أمتى ، وهذا كتاب أنزل على أمم الأنبياء - عليهم السلام -

قبلى ، فانظروا :
هل فى واحد منها غير الأمر بالتوحيد والنهى عن الإشراك ، ففيه تبكيت لهم. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ أي : لا يفهمونه ، ولا يميزون بينه وبين الباطل ، فهو إضراب وانتقال من تبكيتهم بمطالبة البرهان ، إلى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاججة لجهلهم وعنادهم ، ولذلك قال : فَهُمْ مُعْرِضُونَ أي : فهم لأجل جهلهم وعتوهم مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول ، لا يرعوون عما هم عليه من الغي والضلال ، وإن كررت عليهم البينات والحجج. أو معرضون عما ألقى عليهم من البراهين العقلية والنقلية لانهماكهم.
وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي «١» إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ، هذا مقرر لما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الإلهية ، وأجمعت عليه الرسل - عليهم السلام - قاطبة. وصيغة المضارع فى (يوحى) لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورة الوحى العجيبة. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : قوله تعالى : (وَ مَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ) ، العندية ، هنا ، عندية اصطفاء وتقريب ، وهذه صفة العارفين المقربين ، لا يستكبرون عن عبادته ، بل خاضعون لجلاله وقهريته على الدوام ، ولا يستحسرون :

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص : (نُوحِي) بالنون وكسر الحاء ، على التعظيم ، وقرأ الآخرون - بالياء وفتح الحاء ، (انظر : الإتحاف ٢/ ٢٦٢).

(٤٥٣/٣)

لا يملّون منها ولا يشبعون ، غير أنهم يتلونون فيها من عبادة الجوارح إلى عبادة القلوب كالتفكر والاعتبار ، إلى عبادة الأرواح كالشهود والاستبصار ، إلى عبادة الأسرار كالعكوف فى حضرة الكريم الغفار ، ينزهون اللّه تعالى فى جميع الأوقات ، لا يفترون عن تسبيحه بالمقال أو الحال.
وقوله تعالى : أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً ... إلخ ، تصدق على من مال بقلبه إلى محبة الأكوان ، أو ركن إلى الحظوظ والشهوات ، وقوله تعالى : لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا ، اعلم أن ثلاثة أشياء إذا تعدد مدبرها فسد نظامها أولها : الألوهية ، فلو تعددت لفسد نظام العالم ، وثانيها : السلطنة ، إذا تعددت فى قطر واحد فسدت الرعية ، وثالثها :
الشيخوخة ، إذا تعددت على مريد واحد فسدت تربيته ، كالطبيب إذا تعدد على مريض واحد فسد علاجه. واللّه تعالى أعلم.

وقوله تعالى : لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ قال الكواشي : يعنى : لا يسأل عن فعله وحكمه لأنه الرب ، وهم يسألون لأنهم عبيده. وبعض الناس يقول : هذه آية الدبوس «١». قلت : وقد تقلب السين زايا ، ومعناها : أن كل ما تحكم به القدرة : يجب حنو الرأس له ، من غير تردد ولا سؤال. ثم قال : ولو نظر النظر الصحيح لرآها أنصف آية فى كتاب اللّه تعالى وذلك لأنه جمع فيها بين صفة الربوبية وصفة العبودية. هـ.

وقوله : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا يعنى : أن التوحيد مما أجمعت عليه الرسل والكتب السماوية. والفناء فيه على ثلاثة أقسام : فناء فى توحيد الأفعال ، وهو ألا يرى الفعل إلا من اللّه ، ويغيب عن الوسائط والأسباب ، وفناء فى توحيد الصفات ، وهو أن يرى ألا قادر ولا سميع ولا بصير ولا متكلم إلا اللّه ، وفناء فى توحيد الذات ، وهو أن يرى ألا موجود إلا اللّه ، ذوقا ووجدا وعقدا. كما قال صاحب العينية :

هو الموجد الأشياء ، وهو وجودها وعين ذوات الكلّ ، وهو الجوامع «٢»

وقد أشار بعضهم إلى هذه الفناءات ، فقال :

فيفنى ، ثم يفنى ، ثم يفنى ، فكان فناؤه عين البقاء

وهنا - أي : فى مقام الفناء والبقاء - انتهت أقدام السائرين ، ورسخت أسرار العارفين ، مع ترقيات وكشوفات أبد الآبدين ، جعلنا اللّه من حزبهم. آمين.

---

(١) هكذا فى الأصول.

(٢) المراد : أن الحق تعالى قيوم الأشياء ومفيضها من العدم ، والمتجلى عليها بمراده منها ، إذ أنها فى ذاتها فانية من قبل ومن بعد لأنه لا قيومية لها من ذاتها. هذا هو المعنى الذي ينبغى أن يفهم من خلال هذا البيت وأشباهه. [.....]

ثم أنكر على من ادعى الولد له ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٢٦ الى ٢٩]

وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً ، حكى اللّه تعالى جناية أخرى لبعض المشركين ، جىء بها لبيان بطلانها. والقائل بهذه المقالة حى من خزاعة ، وقيل : قريش وجهينة وبنو سلمة وبنو مليح ، يقولون : الملائكة بنات اللّه ، وأمهاتهم سروات الجن ، تعالى اللّه عن قولهم علوا كبيرا.
والتعرض لعنوان الرحمانية المنبئة عن كون جميع ما سواه مربوبا له تعالى ، نعمة أو منعما عليه لإبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة ، سُبْحانَهُ أي : تنزه تنزيها يليق بكمال ذاته ، وتقدّس عن الصاحبة والولد ، بَلْ هم عِبادٌ للّه تعالى ، و«بَلْ» إبطال لما قالوا ، أي : ليست الملائكة كما قالوا ، بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ مقربون عنده ، لا يَسْبِقُونَهُ أي : لا يتقدمونه بِالْقَوْلِ ، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به. وهذه صفة أخرى لهم ، منبهة على كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره تعالى ، أي : لا يقولون شيئا حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به. وأصله : لا يسبق قولهم قوله ، ثم أسند السبق إليهم لمزيد تنزههم عن ذلك ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ أي : لا يعملون إلا ما أمرهم به ، وهو بيان لتبعيتهم له تعالى فى الأفعال ، إثر بيان تبعيتهم له فى الأقوال ، فإن نفى سبقيتهم له تعالى بالقول : عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه ، كأنه قيل : هم بأمره يقولون وبأمره يعملون ، لا بغير أمره أصلا.
يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ أي : ما عملوا وما هم عاملون ، وقيل : ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم. وهو تقرير لتحقق عبوديتهم لأنهم إذا كانوا مقهورين تحت علمه تعالى وإحاطته انتفت عنهم أوصاف الربوبية المكتسبة من مجانسة البنوة ، وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى أن يشفع له ، مهابة منه تعالى. قال ابن عباس : «هم أهل لا إله الا اللّه» ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ عز وجل مُشْفِقُونَ : خائفون مرتعدون. قال بعضهم : أصل الخشية : الخوف مع التعظيم ، ولذلك خص بها العلماء ، وأصل الإشفاق : الخوف مع الاعتناء ، فعند تعديته بمن : يكون معنى الخوف فيه أظهر ، وعند تعديته بعلى : ينعكس الأمر فيكون معنى الإشفاق فيه أظهر.
وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ أي : من الملائكة إذ الكلام فيهم ، إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ أي : متجاوزا إياه تعالى ، فَذلِكَ الذي فرض أنه قال ذلك فرض المحال ، نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كسائر المجرمين ، ولا ينفى هذا عنهم

(٤٥٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٥٦
ما ذكر قبل من صفاتهم السنية وأفعالهم المرضية لأنه فرض تقدير ، وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى ، وعزة جبروته ، واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم فى حقهم ما توهمه أولئك الكفرة ، ما لا يخفى ، كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ أي : مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الظالمين ، الذين يضعون الأشياء فى غير مواضعها ، ويتعدون أطوارهم.

قال الكواشي : هذا القول وارد على سبيل التهديد والوعيد الشديد على ارتكاب الشرك ، كقوله : وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ «١». هـ. فالقصد : تفظيع أمر الشرك ، وأنه لو صدر ممن صدر لأحبط عمله ، وكان جزاء صاحبه جهنم ، ومثل ذلك الجزاء نجزى الظالمين ، وهم الكافرون ،

والحاصل : أنه على سبيل الفرض ، مع علمه تعالى أنه لا يكون من الملائكة ، فهو من إخباره عما لا يكون كيف يكون لعلمه بما لا يكون ، مما جاز أن يكون ، كيف يكون. هـ. من الحاشية الفاسية ببعض اختصار.

فالكاف من «كَذلِكَ» : في محل مصدر تشبيهى ، مؤكد لمضمون ما قبله. والقصر ، المستفاد من التقديم للمصدر ، معتبر بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة ، أي : لا جزاء أنقص منه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أنوار الملكوت متدفقة من بحر أسرار الجبروت ، من غير تفريع ، ولا تولد ، ولا علاج ، ولا امتزاج ، بل :

كن فيكون ، لكن حكمته تعالى اقتضت ترتيب الأشياء وتفريع بعضها من بعض ، ليبقى السر مصونا والكنز مدفونا.

فأسرار الذات العلية منزهة عن اتخاذ الصاحبة والولد ، بل القدرة تبرز الأشياء بلا علاج ولا أسباب ، والحكمة تسترها بوجود العلاج والأسباب. فكل ما ظهر فى عالم التكوين قد عمّته قهرية العبودية ، وانتفت عنه نسبة البنوة لأسرار الربوبية ، فأهل الملأ الأعلى عباد مكرمون ، مقدّسون من دنس الحس ، مستغرقون فى هيمان القرب والأنس ، وأهل الملأ الأسفل مختلفون ، فمن غلب عقله على شهوته ، ومعناه على حسه ، وروحانيته على بشريته ، فهو كالملائكة أو أفضل. ومن غلبت شهوته على عقله ، وحسه على معناه ، وبشريته على روحانيته ، كان كالبهائم أو أضل. ومن التحق بالملأ الأعلى ، من الأولياء المقربين ، انسحب عليه ما مدحهم به تعالى من قوله : (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ) ، ومن قوله : (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ) ، بأن يدبروا معه شيئا قبل ظهور تدبيره ، وهم بطاعته يعملون ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشية هيبته مشفقون ، (وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ) بأن يدعى شيئا من أوصاف الربوبية ، كالكبرياء ، والعظمة على عباده ، فذلك نجزيه جهنم ، وهى نار القطيعة ، كذلك نجزى الظالمين. وفى الحكم : «منعك أن تدعى ما ليس لك مما للمخلوقين ، أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين»؟.

---

(١) من الآية ٨٨ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٥٧

ثم برهن على وحدانيته ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٣٠ الى ٣٣]

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

قلت : «فِجاجاً» : حال من «سبل» ، وأصله : وصف له ، فلما تقدم أعرب حالا. وقيل «سُبُلًا» : بدل من «فِجاجاً».

وفى إتيانه : إيذان أن تلك الفجاج نافذة لأن الفج قد يكون نافذا وقد لا. قاله المحشى.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا رؤية اعتبار أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أي : جماعة السموات وجماعة الأرض كانَتا ، ولذلك لم يقل كنّ ، رَتْقاً أي : ملتصقة بعضها ببعض. والرتق : الضم والالتصاق. وهو مصدر بمعنى المفعول ، أي : كانتا مرتوقتين ، أي : ملتصقتين ، فَفَتَقْناهُما فشققناهما ، فالفتق ضد الرتق. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : «كانتا شيئا واحدا متصلتين ، ففصل اللّه بينهما ، فرفع السماء إلى حيث هى ، وأقرّ الأرض». وفى رواية عنه : أرسل ريحا فتوسطتهما ففتقتهما. وقال السدى : (كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة ، ففتقها ، فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرض ، كانت طبقة واحدة ، ففتقها ، فجعلها سبع أرضين).

فإن قيل : متى رأوهما رتقا حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قلنا : مصب الكلام والتقرير هو فتق السماوات ورفعها ، وهو مشاهد بالأبصار ، وهم متمكنون من النظر والاعتبار ، فيعلمون أن لها مدبرا حكيما ، فتقها ورفعها ، وهو الحق جل جلاله ، وذكر الرتق زيادة إخبار ، فكأنه قال : ألم يروا إلى فتق السماوات ورفعها؟ وقال الكواشي : لمّا كان القرآن معجزا ، كان وروده برتقهما كالمشاهد المرئي ، أو : لمّا كان تلاصق السماوات والأرضين ، وما بينهما ، وتباينهما ، جائزا عقلا ، وجب تخصيص التلاصق من التباين ، وليس ذلك إلا للّه تعالى. هـ.

وقيل : كانت السماوات صلبة لا تمطر ، والأرض رتقا لا تنبت ، ففتق السماء بالأمطار ، والأرض بالنبات. وروى هذا عن ابن عباس أيضا ، وعليه أكثر المفسرين ، وعلم الكفرة الرتق والفتق ، بهذا المعنى ، مما لا خفاء فيه. والرؤية على الأول رؤية علم ، وعلى الثاني رؤية عين.

وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أي : خلقنا من الماء كل حيوان ، كقوله تعالى : وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ «١» ، وذلك لأنه من أعظم مواده ، أو لفرط احتياجه إليه ، وحبه له ، وعدم صبره عنه ، وانتفاعه به ، ويدخل

(١) من الآية ٤٥ من سورة النور.

(٤٥٧/٣)

فى ذلك : النبات مجازا دون الملائكة ، فأل فيه للحقيقة والماهية ، إلا أنه صرفه عن ذلك إلى العهد الذهني قرينة الجعل ، كما فى آية : فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ «١» ، فإن القرينة تخلص ذلك للبعضية وإرادة الأشخاص. وقيل : المراد به :

المنيّ. فأل فيه ، حينئذ ، للعهد الذهني فقط. قال القشيري : كلّ مخلوق حيّ فمن الماء خلقه ، فإنّ أصل الحيوان الذي يحصل بالتناسل النطفة ، وهى من جملة الماء. هـ. وتقدم أن الملائكة لا تناسل فيها. أَفَلا يُؤْمِنُونَ باللّه وحده ، وهو إنكار لعدم إيمانهم ، مع ظهور ما يوجبه حتما من الآيات الآفاقية والأنفسية ، الدالة على تفرده تعالى بالألوهية.

وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أي : جبالا ثوابت ، من رسا الشيء إذا ثبت ورسخ ، أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ أي : كراهية أن تتحرك وتضطرب بهم ، أو لئلا تميد بهم - بحذف اللام ، و«لا» لعدم الإلباس. وَجَعَلْنا فِيها أي :

فى الأرض ، وتكرير الجعل لاختلاف المجعولين ، ولتوفية مقام الامتنان حقه ، أو فى الرواسي لأنها المحتاجة إلى الطرق ، فِجاجاً : جمع فج ، وهو الطريق الواسع ، نفذ أم لا ، أي : جعلنا فى الأرض مسالك واسعة ، وسُبُلًا نافذة. فالسبل هى الفجاج مع قيد النفوذ. فإن قيل : أىّ فرق بين هذا وبين قوله : لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً «٢»؟ فالجواب : أنه هنا بيّن أنه خلقها على هذه الصفة ، وهناك بيّن أنه جعل فيها طرقا واسعة ، وليس فيه بيان أنه خلقها كذلك ، فما هنا تفسير لما هناك. انظر النسفي.

وقوله تعالى : لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ أي : إلى البلاد المقصودة بتلك السبل ، أو إلى مصالحهم ومهماتهم.

وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً من السقوط ، كقوله : وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ «٣» ، أو من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم ، أو من استراق السمع بالشهب ، كما قال : وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ «٤». وَهُمْ أي : الكفار عَنْ آياتِها أي : عن الأدلة التي فيها ، كالشمس والقمر والنجوم ، وغير ذلك مما فيها من العجائب الدالة على وحدانيته تعالى وقدرته وحكمته ، التي بعضها محسوس ، وبعضها معلوم بالبحث فى علمى الطبيعة والهيئة ، مُعْرِضُونَ لا يتدبرون فيها ، فيقفون على ما هم عليه من الكفر والضلال ، فيؤمنون.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ لتسكنوا فيه ، وَالنَّهارَ لتتصرفوا فيه ، وَالشَّمْسَ لتكون سراج النهار ، وَالْقَمَرَ

ليكون سراج الليل ، وهذا بيان لبعض تلك الآيات التي هم عنها معرضون. وقوله : كُلٌّ أي : كلهم ، والمراد : جنس الطوالع ، فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ أي : يسيرون سير العائم في الماء. عن ابن عباس رضي اللّه عنه :

الفلك السماء ، وقيل : موج مكفوف تحت السماء ، يجرى فيه الشمس والقمر والنجوم. وجمهور أهل الهيئة أن الفلك :

---

(١) من الآية ١٧ من سورة يوسف.

(٢) من الآية ٢٠ من سورة نوح.

(٣) من الآية ٦٥ من سورة الحج.

(٤) الآية ٧ من سورة الصافات.

جسم مستدير ، وأنهن تسعة ، وهل هى السموات السبع ، فيكون الكرسي ثامنا ، والعرش تاسعا ، أو غيرهن ، فتكون تحت السموات أو فوقها؟ قولان لهم. والمراد هنا : الجنس ، كقولك : كساهم الأمير حلة ، أي : حلة حلة ، وجعل الضمير واو العقلاء لأن السباحة حالهم.

قال فى المستخرج من كتاب الغزنوني : «كُلٌّ» أي : كل واحد من الشمس والقمر وسائر السيارة ، وإن لم تذكرن لأنه جمع قوله : (يُسَبِّحُونَ) والمعنى : يجرون كالسابح ، أو يدورون ، والسيارة تجرى فى الفلك على عكس جرى الفلك ، ولها تسعة أفلاك ، فالقمر فى الفلك الأدنى ، ثم عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الشمس ، ثم المريخ ، ثم المشترى ، ثم زحل ، والثامن : فلك البروج ، والتاسع : الفلك الأعظم.

هـ. وقال فى سورة يس : خص الشمس والقمر هنا ، وفى سورة الأنبياء لأن سيرهما أبدا على عكس دور الفلك ، وسير الخمسة قد يكون موافقا لسيره عند رجوعها. هـ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أو لم ير الذين كفروا بوجود التربية أن سموات الأرواح وأرض النفوس كانتا رتقا صلبة ، ميتة بالجهل ، ففتقناهما بالعلوم وأسرار التوحيد؟ والمعنى : أن بعض الأرواح والنفوس تكون ميتة صلبة ، فإذا صحبت أهل التربية ، انفتقت بالعلوم والأسرار ، فهذا شاهد بوجود أهل التربية ، ومن قال بانقطاعها فقوله مردود بالمشاهدة.

وجعلنا من ماء الغيب - وهى الخمرة الأزلية - كلّ شيء حى ، أفلا يؤمنون بوجود هذا الماء عند أربابه؟

وجعلنا فى أرض النفوس جبالا من العقول لئلا تميل إلى الهوى فتموت ، وجعلنا فيها طرقا يسلك منها

إلى الحضرة ، وهى كيفية الرياضة وأنواع المجاهدة ، وهى طرق كثيرة ، والمقصد واحد ، وهو الوصول إلى الفناء والبقاء ، التي هى معرفة الحق بالعيان ، وهو قوله تعالى : (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) إلى الوصول إلى حضرتنا.

وجعلنا السماء ، أي : سماء القلوب الصافية ، سقفا محفوظا من الخواطر والوساوس والشكوك والأوهام والشياطين ، قال بعضهم : (إذا كان الحق تعالى قد حفظ السماء بالشهب من الشياطين ، فقلوب أوليائه أولى بالحفظ). وهم عن آياتها ، أي : عن دلائل حفظها وصيانتها معرضون لانهماكهم فى الغفلة. وهو الذي خلق ليل القبض ونهار البسط وشمس العرفان وقمر توحيد الدليل والبرهان ، كلّ فى موضعه ، لا يتعدى أحد على صاحبه ، ولكل واحد سير معلوم وأدب محتوم. وباللّه التوفيق.

ولمّا قامت الحجة على الكفرة بما ذكر من الآيات والدلائل القاطعة ، وانقطعوا ، قالوا : ننتظر به ريب المنون ، فنستريح منه ، فأنزل اللّه تعالى :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٣٤ الى ٣٥]

وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ (٣٥)

(٤٥٩/٣)

يقول الحق جل جلاله لنبيه - عليه الصلاة والسلام - : وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أي : البقاء الدائم لكونه مخالفا للحكمة التكوينية والتشريعية ، أَفَإِنْ مِتَّ بمقتضى حكمتنا فَهُمُ الْخالِدُونَ بعدك؟ نزلت حين قالوا : نتربص به رب المنون ، فنفى عنه الشماتة بموته ، فإن الشماتة بالموت مما لا ينبغى أن يصدر من عاقل ، أي : قضى اللّه ألا يخلد فى الدنيا بشرا ، فإن متّ - يا محمد - أيبقى هؤلاء الكفرة؟ كلا كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ أي : ذائقة مرارة مفارقتها جسدها ، فتستوى أنت وهم فيها ، فلا تتصور الشماتة بأمر عام.

وَنَبْلُوكُمْ ، الخطاب : إما للناس كافة بطريق التلوين ، أو للكفرة بطريق الالتفات ، وسمى ابتلاء ، وإن كان عالما بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم لأنه فى صورة الاختبار ، أي : نختبركم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ ، أي : بالفقر والغنى ، أو بالضر والنفع ، أو بالعطاء والمنع ، أو بالذل والعز ، أو بالبلاء والعافية ، فِتْنَةً اختبارا ، هل تصبرون وتشكرون ، أو تجزعون وتكفرون. و«فِتْنَةً» : مصدر مؤكد «ل نَبْلُوكُمْ» ، من غير لفظه. وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ لا إلى غيرنا ، فنجازيكم على حسب ما يؤخذ منكم من الصبر والشكر ، أو الجزع والكفران. وفيه إيماء إلى أن المقصود من هذه الدنيا : الابتلاء والتعرض للثواب

والعقاب. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا بد لهذا الوجود بما فيه أن تنهد دعائمه ، وتسلب كرائمه ، ولا بد من الانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء ، ومن دار التعب إلى دار الهناء ، ومن دار العمل إلى دار الجزاء. فالعاقل من أعرض بكليته عن هذه الدار ، وصرف وجهته إلى دار القرار ، فاشتغل بالتزود للرحيل ، وبالتأهب للمسير ، فلا مطمع للخلود فى هذه الدار ، وقد رحل منها الأنبياء والصالحون والأبرار ، وتأمل قول الشاعر :

صبرا فى مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع

وقوله تعالى : وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، اعلم أن تخالف الآثار وتنقلات الأطوار على العبد من أفضل المنن عليه ، إن صحبته اليقظة ، فيرجع إلى اللّه تعالى فى كل حال تنزل به ، إن أصابته ضراء رجع إلى اللّه بالصبر والرضا ، وإن أصابته سواء رجع إليه بالحمد والشكر ، فيكون دائما فى السير والترقي ، وهذا معنى قوله تعالى :

وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ أي : بهما. فالرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء من أركان الطريق ، والرجوع إلى اللّه فى الضراء بالصبر والرضا ، وفى السراء بالحمد والشكر ، ورؤية ذلك من اللّه بلا واسطة. وفى الحديث عنه صلى اللّه عليه وسلم : «من ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، وظلم فغفر أو ظلم فاستغفر» ، ثم سكت - عليه الصلاة والسلام - فقالوا :

ماله يا رسول اللّه؟ قال : «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» «١». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «عجبا لأمر المؤمن ، إنّ أمره كلّه خير ، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن ، إن أصابته سرّاء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضرّاء صبر ، فكان خيرا له» «٢».

---

(١) عزاه فى الجامع الصغير (ح ٨٢٨١) ، للطبراني والبيهقي ، عن سخبرة ، وحسّنه.

(٢) أخرجه مسلم فى (الزهد ، باب : المؤمن أمره كله خير) ، عن صهيب رضي اللّه عنه.

والرجوع إلى اللّه فى الضراء أصعب ، والسير به أقوى لما فيه من التصفية والتطهير من أوصاف البشرية ، ولذلك قدّمه الحق تعالى. وفى الحديث : «إذا أحبّ اللّه عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن رضى اصطفاه» ، وفى الخبر عن اللّه تعالى : «الفقر سجنى ، والمرض قيدى ، أحبس بذلك من أحببت من عبادى». وبه يحصل على عمل القلوب الذي هو الصبر والرضا والزهد والتوكل ، وغير ذلك من

المقامات ، وذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، ومن أعمال القلوب يفضى إلى أعمال الأرواح والأسرار ، كفكرة الشهود والاستبصار.

وفكرة ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة ، بل من ألف سنة ، كما قال الشاعر :

كلّ وقت من حبيبى قدره كألف حجّه

لأن المقصود من الطاعات وأنواع العبادات : هو الوصول إلى مشاهدة الحق ومعرفته ، فالفكرة والنظرة لا جزاء لها إلا زيادة كشف الذات وأنوار الصفات ، منحنا اللّه من ذلك ، الحظ الأوفر. آمين.

ومن جملة الشر الذي ابتلى اللّه به عباده : إذاية الخلق ، كما قال لنبيه - عليه الصلاة والسلام - :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٣٦ الى ٤١]

وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠)

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٤١)

قلت : (أَ هذَا الَّذِي) : مقول لحال محذوفة ، أي : قائلين : أهذا الذي ، وحذف الحال ، إذا كان قولا ، مطرد. (وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ) : حال ، و(بَلْ تَأْتِيهِمْ) : عطف على (لا يَكُفُّونَ) أي : لا يكفونها ، بل تأتيهم.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : المشركون إِنْ يَتَّخِذُونَكَ ما يتخذونك إِلَّا هُزُواً مهزوءا بك على معنى قصر معاملتهم معه - عليه الصلاة والسلام - على اتخاذهم إياه هزوا ، كأنه قيل : ما يفعلون بك إلا اتخاذك هزوا. نزلت فى أبى جهل - لعنه اللّه - ، مرّ به النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فضحك وقال : هذا نبيّ بنى عبد مناف «١». قال القشيري : (لو شاهدوه على ما هو عليه من أوصاف التخصيص ، وما رقّاه اللّه من المنزلة ،

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر (٤/ ٥٧٣) لابن أبى حاتم عن السدى.

لظلوا له خاضعين ، ولكنهم حجبوا عن معانيه وسريرته ، وعاينوا فيه جسمه وصورته). فاستهزءوا بما لم يحيطوا بعلمه ، حال كونهم يقولون : أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ أي : يعيب آلِهَتَكُمْ ، فالذكر يكون بخير وبضده

، فإن كان الذاكر صديقا للمذكور فهو ثناء. وإن كان عدوا فهو ذم. وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ أي : بذكر اللّه وما يجب أن يذكر به من الوحدانية ، هُمْ كافِرُونَ لا يصدقون به أصلا ، فهم أحق بالهزء والسخرية منك لأنك محق وهم مبطلون. والمعنى أنهم يعيبون - عليه الصلاة والسلام - أن يذكر آلهتهم ، التي لا تضر ولا تنفع ، بالسوء ، والحال :

أنهم بذكر الرحمن ، المنعم عليهم بأنواع النعم ، التي هى من مقتضيات رحمانيته ، كافرون ، لا يذكرونه بما يليق به من التوحيد وأوصاف الكمال ، أو : بما أنزل من القرآن لأنه ذكر الرحمن ، هُمْ كافِرُونَ جاحدون ، فهم أحقاء بالعيب والإنكار. وكرر لفظ «هُمْ» للتأكيد ، أو لأن الصلة حالت بينه وبين الخبر ، فأعيد المبتدأ.

ثم قال تعالى : خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ ، العجل والعجلة مصدران ، وهو تقديم الشيء على وقته.

والمراد بالإنسان : الجنس ، جعل لفرط استعجاله ، وقلة صبره ، كأنه خلق من العجلة ، والعرب تقول لمن يكثر منه الشيء :

خلق منه ، تقول لمن يكثر منه الكرم : خلق من الكرم. ومن عجلته : مبادرته إلى الكفر واستعجاله بالوعيد. روى أنها نزلت فى النضر بن الحارث ، حين استعجل العذاب بقوله : اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا .. الآية «١» ، كأنه قال : ليس ببدع منه أن يستعجل ، فإنه مجبول على ذلك ، وطبعه ، وسجيته.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : أن المراد بالإنسان آدم عليه السّلام ، فإنه حين بلغ الروح صدره أراد أن يقوم. وروى : أنه لما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، ولمّا وصل جوفه اشتهى الطعام ، فكانت العجلة من سجيته ، وسرت فى أولاده. وإنما منع الإنسان من الاستعجال وهو مطبوع عليه ، ليتكمل بعد النقص ، كما أمره بقطع الشهوة وقد ركّبها فيه لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة. قال القشيري : العجلة مذمومة ، والمسارعة محمودة. والفرق بينهما : أن المسارعة : البدار إلى الشيء فى أول وقته ، والعجلة : استقباله قبل وقته ، والعجلة سمة وسوسة الشيطان ، والمسارعة قضية التوفيق. هـ.

وقال الورتجبي : خلقهم من العجلة ، وزجرهم عن التعجيل إظهارا لقهاريته على كل مخلوق ، وعجزهم عن الخروج عن ملكه وسلطانه. وحقيقة العجلة متولدة من الجهل بالمقادير السابقة. هـ. قلت : مازالت الطمأنينة والرّزانة من شأن العارفين ، وبها عرفوا ، والعجل والقلق من شأن الجاهلين ، وبها وصفوا.

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٦٣
وقيل : العجل الطين ، بلغة حمير ، ولا مناسبة له هنا.
قال تعالى ، صارفا للخطاب عن الرسول إلى المستعجلين : سَأُرِيكُمْ آياتِي : نقماتى ، كعذاب النار وغيره ، فَلا تَسْتَعْجِلُونِ بالإتيان بها ، وهو نهى عما جبلت عليه نفوسهم ليقهروها عن مرادها من الاستعجال.
وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ : إتيان العذاب ، أو القيامة ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى وعدكم بأنه يأتينا ، قالوه استعجالا بطريق الاستهزاء والإنكار ، لا طلبا لتعيين وقته ، والخطاب للنبى صلّى اللّه عليه وسلم والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن مجيء الساعة. قال تعالى : لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هذا استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه ، وفظاعة ما فيه من العذاب ، وأنهم يستعجلونه لجهلهم بشأنه. وقوله تعالى : حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ : مفعول «يعلم» ، وهو عبارة عن الوقت الموعود ، الذي كانوا يستعجلونه. وقوله : لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : حين يرون ويعلمون حقيقة الحال ، وهو معاينة العذاب. وجواب «لو» : محذوف ، أي : لو يعلمون الوقت الذي يستعجلونه بقولهم : متى هذا الوعد؟ وهو الوقت الذي تحيط بهم النار من ورائهم وقدامهم ، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم ، ولا يجدون ناصرا ينصرهم ، لما كانوا بهذه الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم.
بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً أي : بل تأتيهم النار أو الساعة فجأة ، فَتَبْهَتُهُمْ : فتحيّرهم أو تغلبهم ، فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها فلا يقدرون على دفعها عنهم ، أي : النار أو الساعة ، وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ : يمهلون ليستريحوا طرفة عين.
ثم سلّى رسوله عن استهزائهم ، فقال : وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ : نزل أو أحاط أو حلّ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ أي : من أولئك الرسل - عليهم السلام - جزاء ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ، وهو العذاب الدائم. نسأل اللّه العافية.
الإشارة : كل من خرق عوائد نفسه ، وخرج عن عوائد الناس ، أو أمر بالخروج عن العوائد ، رفضه الناس واتخذوه هزوا ، سنة اللّه التي قد خلت من قبل ، لم يأت أحد بذلك إلا عودى ، فإن ظهر عليه أثر الخصوصية من علم لدنى ، أو هداية خلق على يده ، استعجلوه بإظهار الكرامة ، كما هو شأن الإنسان ، خلق من عجل ، فيقول :
سأوريكم آياتي ، فإن الأمر إذا كان مؤسسا على الحق لا بد أن تظهر أنواره وأسراره ، فلو يعلم الذين كفروا بطريق الخصوص ، حين ترهقهم الحسرة ، وتحيط بهم الندامة ، إذا رأوا أهل الصفاء يسرحون فى أعلى عليين حيث شاءوا ، وجوههم كالشموس الضاحية ، لبادروا إلى الانقياد لهم ، وتقبيل التراب تحت أقدامهم ، ولكنهم اليوم فى غفلة ساهون.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٦٤

ويقال لمن أنكر عليه أهل زمانه طريق التجريد وخرق العوائد : ولقد استهزئ بمن كان قبلك ممن سلك هذه الطريق ، فأوذوا ، وضربوا ، وأخرجوا من بلادهم ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون ، إما في الدنيا أو في الآخرة.

فإذا نزل بأسه فلا حافظ منه إلا الرحمن ، كما قال تعالى :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٤٢ الى ٤٤]

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ (٤٤)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : مَنْ يَكْلَؤُكُمْ : يحفظكم بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ بأس الرَّحْمنِ الذي تستحقونه ، إذا نزل بكم ليلا أو نهارا. قال الواسطي : من يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن أن يظهر عليكم ما سبق فيكم؟ وقال ابن عطاء : من يكلؤكم من أمر الرحمن سوى الرحمن ، وهل يقدر أحد على الكلاءة سواه؟. وتقديم الليل لأن الدواهي فيه أكثر وقوعا وأشد وقعا. وفى التعرض لعنوان الرحمانية إيذان بأن كلاءتهم ليس إلا برحمته العامة. بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ أي : بل هم معرضون عن ذكره ، ولا يخطرونه ببالهم ، فضلا أن يخافوا بأسه ، حتى إذا رزقوا الكلاءة عرفوا من الكالئ ، وصلحوا للسؤال عنه.

والمعنى : أنه أمر رسوله - عليه الصلاة والسلام - بسؤالهم عن الكالئ ، ثم أضرب عنه ، وبيّن أنهم لا يصلحون لذلك ، لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم. هكذا للزمخشرى ومن تبعه. وقال ابن جزى :

والمعنى : أنه تهديد وإقامة حجة عليهم لأنهم لو أجابوا عن هذا السؤال لاعترفوا بأنه ليس لهم مانع ولا حافظ غيره تعالى - يعنى لما جربوه فى أحوال محنتهم - ثم قال : وجاء قوله : (بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) ، بمعنى أنهم ، إذا سئلوا ذلك السؤال ، لم يجيبوا عنه ، لأنهم تقوم عليهم الحجة إن أجابوا ، ولكنهم يعرضون عن ذكر اللّه. هـ. أي : يعرضون عن أن يقولوا : كالئنا اللّه عتوا وعنادا. وهو معنى قوله : (بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) ، كأنه قال : لو سئلوا ، لم يجدوا جوابا ، إلا أن يقولوا : هو اللّه ، لكنهم يعرضون عن ذكره مكابرة. قلت : وما قاله ابن جزى أحسن مما قاله الزمخشري ومن تبعه ، وأقرب.

ثم قال تعالى : أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا ، هذا انتقال من بيان جهلهم بحفظه تعالى ، أو إعراضهم عن ذكره ، إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم. والمعنى : ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تجاوز منعنا

وحفظنا ، فهم يعولون عليها واثقون بحفظها؟ وفى توجيه الإنكار والنفي إلى وجود الآلهة بما ذكر من المنع ، لا إلى نفس الصفة ،

(٤٦٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٦٥

بأن يقال : أم تمنعهم آلهتهم .. إلخ ، من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود ، فضلا عن رتبة المنع ، مالا يخفى.

ثم قال تعالى : لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ أي : يجارون. والصاحب : المجير الوافي ، يعنى : أن الأصنام لا تجير نفسها ، ولا نجيرهم نحن ، أو لا يصحبهم نصر من جهتنا ، فهم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ، ولا يصحبون بالنصر والتأييد من جهتنا ، فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم؟.

بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، إضراب عما توهموه من منع آلهتهم وحفظها لهم ، أي : ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا ، لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا ، وما كلأناهم

وآباءهم الماضين إلا تمتيعا لهم بالحياة الدنيا وإمهالا ، كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وظنوا أنهم دائمون على ذلك ، وهو أمل كاذب. أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أي :

ألا ينظرون فيرون أنّا نأتى أرض الكفرة فننقصها من أطرافها بإدخالها فى أيدى المسلمين ، فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا. وهو تمثيل وتصوير لما يخربه اللّه من ديارهم على أيدى المسلمين ، ويضيفها إلى دار الإسلام.

وفى التعبير بنأتى : إشارة إلى أن اللّه تعالى يجريه على أيدى المسلمين ، وأن عساكرهم كانت تأتيهم لغزوهم غالبة عليهم ، ناقصة من أطراف أرضهم. أَفَهُمُ الْغالِبُونَ على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، أي : أفكفار مكة يغلبون بعد أن نقصنا من أطراف أرضهم؟ أي : ليس كذلك ، بل يغلبهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه الكرام ، وقد تحقق ذلك وأنجز اللّه وعده ، واللّه غالب على أمره.

الإشارة : قل من يكلؤ قلوبكم وأسراركم من الرحمن ، أن يذهب بما أودع فيها من المعارف وأنوار الإحسان؟

فلا أحد يحفظها إلا من رحمها بما أودع فيها ، ولهذا كان العارفون لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير اللّه قرارهم ، لا يعتمدون على عمل ولا حال ، ولا على علم ولا مقال ، وفى الحكم : «إلهى ،

حكمك النافذ ، ومشيئتك القاهرة ، لم يتركا لذى حال حالا ، ولا لذى مقال مقالا». وقال أيضا : «إلهى كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها ، هدم اعتمادي عليها عدلك ، بل أقالنى منها فضلك». وكثير من الناس غافلون عن هذا المعنى ، بل هم عن ذكر ربهم معرضون.

قال الورتجبي : قوله تعالى : (قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ ...) الآية ، أخبر عن كمال إحاطته بكل مخلوق ، وتنزيهه عن العجلة بمؤاخذتهم ، كأنه يقول : أنا بذاتى تعاليت ، أدفع بلطفي القديم عنكم قهرى القديم ، ولو لا فضلى السابق وعنايتى القديمة بالرحمة عليكم ، من يدفعه بالعلة الحدثانية؟ وهذا من كمال لطفى عليكم ، وأنتم بعد معرضون عنى يا أهل الجفا ، وذلك قوله : (بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ). هـ بلفظه مع تصحيف فى النسخة.

(٤٦٥/٣)

وقوله تعالى : (بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ ...) الآية ، تمتيع العبد بطول الحياة ، إن كان ذلك فى طاعة اللّه ، وازدياد فى معرفته ، فهو من النعم العظيمة. وفى الحديث : «خيركم من طال عمره وحسن عمله» «١». لكن عند الصوفية :

أنه لا ينبغى للمريد أن ينظر إلى ما مضى من عمره فى طريق القوم ، فقد كان بعض الشيوخ يقول : لا يكن أحدكم عبد الدهور وعبد العدد. قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : معنى كلامه : أنه لا ينبغى للفقير أن يعد كم له فى طريق القوم ، ليقول : أنا لى كذا وكذا من السنين فى طريق القوم. هـ بالمعنى. ولعل علة النهى لئلا يرى للأيام تأثيرا فى الفتح ، فقد قالوا : هى لمن صدق لا لمن سبق.

وقوله تعالى : (أَ فَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها) قال القشيري : فيه إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين ، وتطاول العمر ، فإن آخر الأمر «٢» كما قيل :

آخر الأمر ما ترى : القبر واللّحد والثرى

وكما قيل :

طوى العصران «٣» ما نشراه منى فأبلى جدّتى نشر وطيّ

أرانى كلّ يوم فى انتقاص ولا يبقى مع النقصان شيّ «٤»

وكأنه فسر الأرض بأرض النفوس من باب الإشارة. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا بيّن الحق تعالى غاية هول ما يستعجله المستعجلون ، ونهاية سوء حالهم ، عند إتيانه ، ونعى عليهم جهلهم بذلك ، وإعراضهم عند ذكر ربهم ، الذي يكلؤهم من طوارق الليل والنهار ، أمر نبيه - عليه الصلاة والسلام - بأن يخبرهم أن ما ينذرهم به ، مما يستعجلونه ، إنما هو بالوحى ، لا من عنده

، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ (٤٧)

---

(١) أخرجه الترمذي (ح ٢٣٢٩) عن عبد اللّه بن بسر ، وحسّنه ، بلفظ : «خير الناس من طال عمره وحسن عمله».

(٢) فى الأصول : إلى آخر الأمد.

(٣) فى الأصول : «العمران ما نشاه» ، والمثبت : من لطائف الإشارات ... والعصران : الغداة والعشى ، أو الليل والنهار. انظر : اللسان (عصر ٤/ ٢٩٦٨).

(٤) نسب البيتان إلى محمد بن يعقوب بن إسماعيل ، انظر : الوافي بالوفيات (٥/ ٢٢٢) ، كما نسبا إلى أبى بكر بن أبى الدنيا ، كما فى تاريخ بغداد (١٤/ ٣١١). [.....]

(٣/٤٦٦)

قلت : من قرأ : «يسمع» بفتح الياء ، فالصّم : فاعل ، والدعاء : مفعول ، ومن قرأ بضم التاء ، رباعى فالصم : مفعول أول ، والدعاء : مفعول ثان. ومن قرأ : «مثقال» بضم اللام ، فكان تامة ، وبالنصب : خبر كان ، أي : وإن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : إِنَّما أُنْذِرُكُمْ وأخوفكم من العذاب الذي تستعجلونه ، أو بالساعة الموعودة ، بِالْوَحْيِ القرآنى الصادق ، الناطق بإتيانه ، وفظاعة شأنه ، أي : إنما شأنى أن أنذركم بالإخبار به ، لا بإتيانه فإنه مخالف للحكمة الإلهية إذ الإيمان برهانى لا عيانى ، فإذا أنذرتهم فلا يسمع إنذارك إلا من سبقت له العناية ، دون من سبق له الشقاء ، ولذلك قال تعالى : وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ أي :

الإنذار ، أو لا تسمع أنت الصمّ الدعاء إِذا ما يُنْذَرُونَ يخوّفون ، واللام فى الصُّمُّ للعهد ، وهو إشارة إلى هؤلاء المنذرين ، والأصل : ولا يسمعون إنذارك إذا ينذرون ، فوضع الظاهر موضع المضمر إشارة إلى تصاممهم وسد أسماعهم إذا أنذروا ، وتسجيلا عليهم بذلك. وفى التعبير بالدعاء ، دون الكلام فى الإنذار ، إشارة إلى تناهى صممهم فى حال الإنذار ، فإن الدعاء من شأنه أن يكون بأصوات عالية

مكررة مقارنة لهيئة دالة عليه ، فإذا لم يسمعوا ، مع هذه الحالة ، يكون صممهم فى غاية لا غاية وراءها.
وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ أي : دفعة يسيرة مِنْ عَذابِ رَبِّكَ أي : كائنة منه ، لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ ، وهذا بيان لسرعة تأثيرهم من مجيء نفس العذاب ، إثر بيان عدم تأثرهم من مجرد الإخبار به ، لانهماكهم فى الغفلة ، أي : واللّه لئن أصابهم أدنى شيء من هذا العذاب الذي ينذرون به ، لذلوا ، ودعوا بالويل على أنفسهم ، وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصامموا وأعرضوا. وقد بولغ فى الكلام ، حيث عبّر بالمس والنفح لأن النفح يدل على القلة ، فأصل النفح : هبوب رائحة الشيء ، يقال : نفحه بعطية ، إذا أعطاه شيئا يسيرا ، مع أن بناءها للمرة مؤكد لقلتها.
ثم بيّن ما يقع عند إتيان ما أنذروه ، فقال : وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ أي : نقيم الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال ، وهو جمع ميزان ، وهو ما يوزن به الشيء ليعرف كمّيته. وعن الحسن : «هو ميزان له كفتان ولسان» ، وإنما جمع الموازين لتعظيم شأنها ، والوزن لصحائف الأعمال فى قول ، وقيل : وضع الميزان كناية عن تحقيق العدل ، والجزاء على حسب الأعمال. وإفراد القسط لأنه مصدر وصف به للمبالغة ، كأنها فى نفسها قسط ، أو على حذف مضاف ، أي : ذوات القسط. وقوله : لِيَوْمِ الْقِيامَةِ أي : لأهل يوم القيامة ، أي : لأجلهم ، أو فى يوم القيامة ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً من الظلم ، ولا تنقص حقا من حقوقها ، بل يؤتى كل ذى حق حقه ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أي : وإن كان الشيء أو العمل مثقال حبة من خردل ، أَتَيْنا بِها : أحضرناها وجازينا عليها ، وأنث ضمير المثقال لإضافته إلى حبة ، وَكَفى بِنا حاسِبِينَ ، إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا ، أو عالمين حافظين ، لأن من حسب شيئا علمه وحفظه ، قاله ابن عباس - رضى اللّه عنهما.
الإشارة : كان صلى اللّه عليه وسلم ينذر الناس ويذكّرهم بالوحى التنزيلى ، وبقي خلفاؤه يذكرون بالوحى الإلهامى ، موافقا للتنزيلى ، ولا يسمع وعظهم ويحضر مجالسهم إلا من سبقت له سابقة العناية ، وأما من انتكبت عنه العناية تنكب مجالسهم ، وتصامم عن وعظهم وتذكيرهم ، ولا يسمع الصمّ الدعاء إذا ما ينذرون ، ولا يندمون إلا حين تنزل بهم الأهوال ، ولا ينفع الندم وقد جف القلم ، وذلك حين توضع موازين الأعمال ، فتثقل أعمال المخلصين ، وتخف أعمال المخلّصين ، ولا توضع الموازين إلا لأهل النفوس الموجودة ، وأما من غاب عن نفسه فى شهود محبوبه ، لفنائه فى شهوده ، وانطوائه فى وجوده

، فلا ينصب له ميزان إذ لا يشهد لنفسه حسا ولا فعلا ولا تركا ، وإنما الفعل كله للواحد القهار. ويكون من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، جعلنا اللّه من خواصهم بمنّه وكرمه. آمين.

ثم شرع فى تفصيل ما أجمل فى قوله : وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، إلى قوله : وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ «١» ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٤٨ الى ٥٠]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ

،

هذه الأوصاف كلها للتوراة ، فهى فرقان بين الحق والباطل ، وضياء يستضاء به ، ويتوصل به إلى سبيل النجاة ، وذكرا ، أي : شرفا ، أو وعظا وتذكيرا. وتوكيده بالقسم لإظهار كمال الاعتناء به ، أي : واللّه لقد آتيناهما وحيا ساطعا وكتابا جامعا بين كونه فارقا بين الحق والباطل ، وضياء يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية ، وذكرا ينتفع به الناس ، أو شرفا لمن عمل به ، وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره ، المغتنمون لمغانم آثاره ، أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع والأحكام ، ودخلت الواو فى الصفات ، كقوله تعالى : وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا «٢» ، وتقول : مررت بزيد الكريم والعالم والصالح.

---

(١) الآيات : ٧ - ٩.

(٢) من الآية ٣٩ من سورة آل عمران.

ثم وصف المتقين أو مدحهم بقوله : الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، حال كونهم بِالْغَيْبِ أي : يخافون عذابه تعالى ، وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ، ففيه تعريض بالكفرة ، حيث لا يتأثرون بالإنذار ما لم يشاهدوا ما أنذروه. أو يخافون اللّه فى الخلاء كما يخافونه بين الناس ، أو يخافونه بمجرد الإيمان به غير مشاهدين له ، وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ أي : خائفون معتنون بالتأهب لها. وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر ، بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها أعظم المخلوقات ، وللتنصيص على الاتصاف بضد ما اتصف به الكفرة الغافلون عنها ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الإشفاق

ودوامه لهم.

وَهذا أي : القرآن الكريم ، أشير إليه بهذا إيذانا بغاية وضوح أمره ، ذِكْرٌ يتذكر به من تذكر ، وصفه ببعض أوصاف التوراة لموافقته له فى الإنزال ، ولما مرّ فى صدر السورة من قوله : ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ ... «١» إلخ ، مُبارَكٌ كثير الخير ، غزير النفع ، يتبرك به على الدوام. قال القشيري : وصفه بالبركة هو إخبار عن ثباته ، من قولهم : برك البعير ، وبرك الطائر على الماء ، أي : داوم. وهذا الكتاب دائم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو دال على كلامه القديم ، فلا انتهاء له ، كما لا ابتداء له ولا انتهاء لكلامه. هـ.

أَنْزَلْناهُ على محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وهو صفة ثانية للكتاب أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ استفهام توبيخى ، أي : جاحدون أنه منزل من عند اللّه ، والمعنى : أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة ، فى الإنزال والإيحاء ، أنتم منكرون لكونه منزلا من عندنا فإن ذلك ، بعد ملاحظة التوراة ، مما لا مساغ له أصلا. وباللّه التوفيق.

الإشارة : كل ما وصف به التوراة وصف به كتابنا العزيز ، قال تعالى تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ «٢» وقال : وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً «٣» ، وقال هنا : وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ ، فزاده البركة لعموم خيره ودوام نفعه ، وخصوصا للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب : قال القشيري : والخشية بالغيب : إطراق السريرة فى أول الحضور ، باستشعار الوجل من جريان سوء الأدب ، والحذر من أن يبدو من الغيب بغتات التقدير ، مما يوجب حجبة العبد. هـ.

ثم ذكر بقية المشاهير من الرسل ، وبدأ بإبراهيم لموافقة شريعتنا له ، ولكونه أصل الجلّ منهم ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٥١ الى ٥٦]

وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ (٥١) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ (٥٢) قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ (٥٣) قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٥٤) قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥)

قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)

---

(١) الآية : ٢.

(٢) من الآية الأولى من سورة الفرقان.

(٣) من الآية ١٧٤ من سورة النساء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٧٠

قلت : «إذ قال» : ظرف لآتينا ، أو لرشده.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ أي : الرشد اللائق به وبأمثاله من كبراء الرسل ، وهو الاهتداء الكامل ، المستند إلى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحى ، مع الاقتدار على إصلاح الأمة وإرشادها بسياسة النبوة والوحى الإلهى ، مِنْ قَبْلُ أي : من قبل إيتاء موسى وهارون التوراة ، وتقديم ذكرهما ، لما بين التوراة والقرآن من الشبه التام. وقيل : من قبل إنزال القرآن ، أو من قبل استنبائه ، أو من قبل بلوغه ، وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ أي : بأنه أهل لما آتيناه ، أو عالمين برشده ، وما خصصناه به من الهداية الخاصة. إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ أي :

آتيناه ذلك حين قال لأبيه ، أو اذكر وقت قوله لهم : ما هذِهِ التَّماثِيلُ أي : الأصنام المصورة على صورة السباع والطيور والإنسان ، وفيه تجاهل بهم تحقيرا لها ، مع علمه بتعظيمهم لها توبيخا لهم على إجلالها مع كونها خشبا وأحجارا لا تضر ولا تنفع ، الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ أي : لأجل عبادتها مقيمون ، فلما عجزوا عن الدليل قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ فقلدناهم ، فأبطله عليه السّلام ، على طريقة التوكيد بالقسم ، فقال : لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ الذين سنّوا لكم هذه السّنّة الباطلة ، فِي ضَلالٍ مُبِينٍ : ظاهر بيّن ، بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء ، أي : واللّه لقد كنتم مستقرين فى ضلال عظيم ظاهر لعدم استناده إلى دليل ، فالتقليد إنما يجوز فيما يحتمل الحقّية فى الجملة ، لا فيما اتضح بطلانه ، سيما فى أمر التوحيد.

قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أي : بالجد ، أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ، فتقول ما تقول على الملاعبة والمزاح.

والمعنى : أجاد أنت ، أم لاعب فيما تقول؟ قالوا ذلك استعظاما منهم لإنكاره ، واستبعادا لكون ما هم عليه ضلال ، وتعجيبا من تضليله إياهم.

ثم أضرب عنهم مخبرا بأنه جاد فيما قال ، غير لاعب ، بإقامة البرهان على بطلان ما ادعوه فقال : بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ، لا التماثيل التي صورتم. وقيل : هو إضراب عما بنوا عليه مقالتهم من اعتقاد كونها أربابا لهم ، كما يفصح عنه قولهم : نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ «١» ، كأنه قال :

ليس الأمر كذلك ، بل ربكم رب السموات والأرض الذي خلقهن وأنشأهن ، فالضمير للسماوات والأرض ، وصفه تعالى بإيجادهن ، إثر وصفه تعالى بربوبيته لهن تحقيقا للحق ، وتنبيها على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من

---

(١) من الآية ٧١ من سورة الشعراء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٧١
الربوبية ، أي : أنشأهن بما فيهن من المخلوقات ، التي من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه ، من غير مثال يحتذيه ، ولا قانون ينتحيه. وقيل : الضمير للتماثيل ، وهو أدخل فى تضليلهم ، وأظهر فى إلزام الحجة عليهم لما فيه من التصريح المغني عن التأمل فى كون ما يعبدونه من المخلوقات ، والأول أقرب.

ثم قال عليه السّلام : وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ الذي ذكرت : من كون ربكم ربّ السماوات والأرض ، دون ما عداه ، كائنا ما كان ، مِنَ الشَّاهِدِينَ أي : العالمين به على سبيل الحقيقة ، المبرهنين عليه ، فإن الشاهد على الشيء : من تحققه وبرهن عليه ، كأنه قال : وأنا أعلم ذلك ، وأتحققه ، وأبرهن عليه ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : زخارف الدنيا وبهجتها ، من تشييد بناء ، وتزويق سقف وحيطان ، وإنشاء غروس وبساتين ، وجمع أموال ، وتربية جاه ، كلها تماثيل لا حقيقة لها ، فانية لا دوام لها. فمن عكف عليها ، وأولع بخدمتها وجمعها وتحصيلها ، كان عابدا لها ، فينبغى لذى الرشد والعقل الوافر ، الذي تحرر منها ، أن ينكر عليهم ، ويقول لهم : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، فإن قالوا : وجدنا آباءنا يفعلون هذا ، وعلماءنا مثلنا ، فليقل لهم : لقد كنتم وآباؤكم وعلماؤكم فى ضلال مبين ، عما كان عليه الأنبياء والأولياء والسلف الصالح. فإن قالوا : أجادّ أنت أم لا؟ فليقل : بل ربكم الذي ينبغى أن يفرد بالمحبة والخدمة ، هو رب السماوات والأرض ، لا ما أنتم عليه من محبة الدنيا وبهجتها ، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

ثم ذكر كسره للأصنام ، وما ترتب عليه ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٥٧ الى ٦٧]

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (٦٠) قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)
قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (٦٢) قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦)
أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧)

قلت : (مَنْ فَعَلَ) : استفهام ، وقيل : موصولة ، و(إِنَّهُ) : خبرها ، أي : الذي فعل هذا معدود من الظلمة ، و(يَذْكُرُهُمْ) : إما مفعول ثان لسمع لتعلقه بالذات ، على قول ، أو صفة لفتى. و(يُقالُ) : صفة

أخرى لفتى.

و«إبراهيم» : نائب فاعل يقال.

(٤٧١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٧٢

يقول الحق جل جلاله حاكيا عن خليله عليه السّلام : وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ أي : لأمكرنّ بها ، وأجتهد فى كسرها ، وفيه إيذان بصعوبة الانتهاز ، وتوقفه على الحيل والسياسة ، وذلك الكيد بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم. قال مجاهد : إنما قاله سرا ، ولم يسمعه إلا رجل فأفشاه عليه ، وقال : سمعت فتى يذكرهم. وقال السدى : كان لهم فى كل سنة مجمع وعيد ، فإذا رجعوا من عيدهم دخلوا على أصنامهم فسجدوا لها ، وقال أبو إبراهيم : يا إبراهيم ، لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ، فخرج إلى بعض الطريق ، وقال : إني سقيم ، أشتكى رجلى. فلما مضوا نادى فى آخرهم - وقد بقي ضعفاء الناس - : تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فسمعوه ، ثم دخل بيت الأصنام ، فوجد طعاما كانوا يضعونه عندها للبركة ، فإذا رجعوا أكلوه ، فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ؟ استهزاء بها ، فلم يجبه أحد ، فقال : ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ فَراغَ مال عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ «١».

فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً أي : قطعا ، جمع جذيذ. وفيه لغتان : الكسر ، كخفيف وخفاف ، والضم كحطيم وحطام.

روى أنها كانت سبعين صنما مصطفة. وثمّ صنم عظيم مستقبل الباب ، وكان من ذهب ، وفى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل ، فكسر الكل بفأس كان بيده ، ولم يبق إلا الكبير ، علّق الفأس فى عنقه ، وذلك قوله تعالى :

إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ أي : للأصنام لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ أي : إلى إبراهيم عليه السّلام يَرْجِعُونَ فيحاجهم بما سيأتى فيغلبهم ، أو إلى دينه إذا قامت الحجة عليهم. وقيل : إلى الكبير يسألونه عن الكاسر لأن من شأن الكبير أن يرجع إليه فى الملمات. وقيل : إلى اللّه تعالى وتوحيده ، عند تحققهم بعجز آلهتهم عن دفع ما يصيبهم وعن الإضرار بمن كسرهم.

فلما رجعوا من عيدهم ، ورأوا ما صنع بآلهتهم ، قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا ، على طريق الإنكار والتوبيخ ، إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ أي : لشديد الظلم لجرأته على الآلهة ، التي هى عندهم فى غاية التوقير والتعظيم. أو لمن الظالمين حيث عرّض نفسه للهلكة ، قالُوا أي : بعض منهم ، وهو من سمع مقالته : سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ أي : يعيبهم ، فلعله فعل ذلك بها ، يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ أي : يقال له هذا الاسم. قالُوا أي : السائلون : فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ أي : بمرأى منهم ، بحيث يكون نصب أعينهم ، لا يكاد يخفى

على أحد ، لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ عليه بما سمع منه ، أو بما فعله ، كأنهم كرهوا عقابه بلا بينة ، أو يحضرون عقوبتنا له.

فلما أحضروه قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ؟ واختصر إحضاره للتنبيه على أن إتيانهم به ، ومسارعتهم إلى ذلك ، أمر محقق غنى عن البيان قالَ إبراهيم عليه السّلام : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ، غار أن

---

(١) كما جاء فى الآية ٩٣ من سورة الصافات.

يعبدوا معه ، مشيرا إلى الذي لم يكسره. وعن الكسائي : أنه يقف على (بَلْ فَعَلَهُ) أي : فعله من فعله ، ثم ابتدأ :

كبيرهم هذا يخبركم فسلوه ... إلخ ، والأكثر : أنه لا وقف ، والفاعل : كبيرهم. و«هذا» : بدل ، أو وصف ، ونسب الفعل إلى كبيرهم ، وقصده تقريره لنفسه وإسناده لها ، على أسلوب تعريضى تبكيتا لهم ، وإلزاما للحجة عليهم ، لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم ، وأنه لا يصلح للألوهية ، وهذا كما لو كتبت كتابا بخط أنيق ، وأنت شهير بحسن الخط ، ومعك صاحب أمي ، فقال لك قائل : أأنت كتبت هذا؟ فتقول : بل كتبه هذا ، وهو يعلم أنه أمي لا يحسن الكتابة ، فهو تقرير لإثبات الكتابة لك على أبلغ وجه.

قال الكواشي : ومن الجائز أن يكون أذن اللّه تعالى له فى ذلك كما أذن ليوسف حين نادى على إخوته : إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ «١» ، ولم يكونوا سارقين لما فى ذلك من المصلحة لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح ، وسألوا ، علموا أن كبيرهم لم يفعل شيئا ، وأنه عاجز عن النطق ، فضلا عن الفعل ، فلا يجوز أن يعبد ، ولا يستحق العبادة إلا القادر الفعال. هـ.

وقيل : أسند الفعل إلى كبيرهم لأنه الحامل له على كسرها ، حيث رآه يعظّم أكثر منها ، ويعبد من دون اللّه ، فاشتد غضبه حتى كسرها ، وهو بعيد إذ لو كان كذلك لكسره أولا ، فتحصل أنه عليه السّلام إنما قصد التعريض بعبادتهم ، لا الإخبار المحض ، حتى يكون كذبا. فإن قلت : قد ورد فى الحديث أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات «٢»؟

فالجواب : أن معنى ذلك : أنه قال قولا ظاهره الكذب ، وإن كان القصد به معنى آخر. قاله ابن جزى.

ثم قال لهم : فَسْئَلُوهُمْ عن حالهم ، إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ فتجيبكم بمن كسرهم ، وأنتم تعلمون عجزهم عنه

، فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ أي : رجعوا إلى عقولهم ، وتفكروا بقلوبهم ، وتذكروا أنّ ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإخبار بمن كسره ، فكيف يستحق أن يكون معبودا؟ فَقالُوا أي : قال بعضهم لبعض : إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ على الحقيقة ، حيث عبدتم من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع لأنّ من لا يدفع عن رأسه الفأس ، فكيف يدفع عن عابده البأس! فأنتم الظالمون بعبادتها لا من ظلمتموه بقولكم : (إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ). أو : أنتم الظالمون لا من كسرها ، ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ ، وردّوا إلى أسفل سافلين ، أجرى الحقّ على لسانهم فى القول الأول ، ثم أدركتهم الشقاوة ، أي : انقلبوا إلى المجادلة ، بعد ما استقاموا بالمراجعة ، شبّه عودهم

---

(١) من الآية ٧٠ من سورة يوسف.
(٢) الحديث أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب قول اللّه تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا.) ومسلم فى «الفضائل ، باب من فضائل إبراهيم» من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٤٧٣/٣)

إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه ، قائلين : لَقَدْ عَلِمْتَ يا إبراهيم ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ ، فكيف تأمرنا بسؤالها؟.
قالَ مبكتا لهم وتوبيخا : أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : متجاوزين عبادته تعالى إلى ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً من النفع ، وَلا يَضُرُّكُمْ إن لم تعبدوه ، فإنّ العلم بالحالة المنافية للألوهية مما يوجب اجتناب عبادته ، أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أفّ : اسم صوت تدل على التضجر ، تضجر عليه السّلام من إصرارهم على الباطل ، بعد انقطاع عذرهم ووضوح الحق ، فأفّف بهم وبأصنامهم ، أي : لكم ولأصناكم هذا التأفف ، أَفَلا تَعْقِلُونَ أن من هذا وصفه لا يستحق أن يكون إلها. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : من أراد أن يكون إبراهيميا حنيفيا فليكسر أصنام نفسه ، وهى ما كانت تهواه وتميل إليه من الحظوظ النفسانية والشهوات الجسمانية ، حتى تنقلب حقوقا ربانية ، فحينئذ يريه الحق ملكوت السموات والأرض ، ويكون من الموقنين. وأمّ الشهوات : حب الدنيا ، ورأسها : حب الرئاسة والجاه ، وأكبر الأصنام : وجودك الحسى ، فلا حجاب أعظم منه ، ولذلك قيل :
وجودك ذنب لا يقاس به ذنب فإن غبت عنه ، وكسرته ، غابت عنك جميع العوالم الحسية ، وشهدت أسرار المعاني القدسية ، فشهدت أسرار الذات وأنوار الصفات ، وإلى هذا المعنى أشار ابن العريف رضى اللّه عنه بقوله :

بدا لك سرّ طال عنك اكتتامه ولاح صباح كنت أنت ظلامه

فأنت حجاب القلب عن سرّ غيبه ولولاك لم يطبع عليه ختامه

فإن غبت عنه حلّ فيه ، وطنّبت على موكب الكشف المصون خيامه

وجاء حديث لا يمل سماعه شهيّ إلينا نثره ونظامه

إذا سمعته النّفس طاب نعيمها وزال عن القلب المعنّى غرامه

فالغيبة عن وجود العبد فناء ، والرجوع إليه لوظائف العبودية بقاء ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) أي : إلا كبير الأصنام ، وهو وجودك الوهمي ، فلا ينبغى الغيبة عنه بالكلية حتى يترك وظائف العبودية والقيام بحقوق البشرية ، فإنّ هذا اصطلام ، بل ينبغى ملاحظته ، لعله يقع الرجوع إليه فى مقام البقاء ، واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة تحريقه وإنجائه ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٦٨ الى ٧٠]

قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٦٨) قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (٦٩) وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : قالُوا حَرِّقُوهُ أي : قال بعضهم لبعض ، لمّا عجزوا عن المحاجة ، وضاقت عليهم الحيل ، وعييت بهم العلل ، وهذا ديدن المبطل المحجوج ، إذا قرعت شبهه بالحجة القاطعة وافتضح ، لم يبق له حينئذ إلا المناصبة والمعاداة ، فناصبوا إبراهيم عليه السّلام ، وقالوا حرّقوه بالنار لأنه أشد العقوبات ، وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ بالانتقام لها إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ للنصر ، أي : إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرا مؤزرا ، فاختاروا له أهول المعاقبات ، وهو الإحراق ، وإلّا فقد فرطتم فى نصرتها ، والذي أشار بالإحراق نمرود ، أو رجل من أكراد فارس ، اسمه «هيزن» ، وقيل : «هدير» ، خسفت به الأرض ، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة «١».

روى أنهم ، لما أجمعوا على حرقه عليه السّلام ، بنوا له حظيرة بكوثى - قرية من قرى الأنباط بالعراق - فجمعوا صلاب الحطب من أصناف الخشب ، مدة أربعين يوما ، وقيل : شهرا ، حتى إن المرأة تنذر : لئن أصابت حاجتها لتحطبنّ فى نار إبراهيم. ثم أوقدوا نارا عظيمة ، لا يكاد يحوم حولها أحد ، حتى إن كانت الطير لتمر بها ، وهى فى أقصى الجو فتحترق من شدة وهجها ، ولم يقدر أحد أن يقربها ، فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السّلام فيها ، فأتى إبليس وعلمهم علم المنجنيق ، فعملوه. وقيل : صنعه

لهم رجل من الأكراد ، فخسف اللّه تعالى به فى الأرض مثل الآخر ، ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السّلام ، فوضعوه فيه مغلولا مقيدا مجردا ، فصاحت السماء والأرض ومن فيها من الملائكة : يا ربنا ، إبراهيم ، ليس فى الأرض أحد يعبدك غيره ، يحرق فيك ، فأذن لنا فى نصرته ، فقال لهم : إن استغاث بواحد منكم فأغيثوه ، فرموا به فيها من مكان شاسع ، فقال له جبريل عليه السّلام ، وهو فى الهواء : ألك حاجة؟ فقال : أما إليك فلا.

قال : فسل ربك. فقال : حسبى من سؤالى علمه بحالي «٢» ، فرفع همته عن الخلق ، واكتفى بالواحد الحق ، فجعل اللّه الخطيرة روضة. وهذا معنى قوله : قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ أي : كونى ذات برد وسلام ، أي : ابردى بردا غير ضار.

---

(١) أخرجه الطبري (١٧/ ٤٣) عن شعيب الجبائي.

(٢) انظر تفسير الطبري (١٧/ ٤٤) والبغوي (٥/ ٣٢٧) وابن كثير (٣/ ١٨٤). والوارد فى ابن كثير : «أما إليك : فلا ، وأما إلى اللّه ، فبلى».

قال ابن عباس : لو لم يقل «وسلاما» لمات إبراهيم من بردها ، ولم تبق يومئذ نار إلا طفئت ، ظنت أن الخطاب توجه لها ، فما انتفع أحد من أهل الأرض يومئذ بنار ، ولم تبق دابة إلا أتت تطفئ عنه النار ، إلا الوزغ «١». فلذلك أمر نبينا صلى اللّه عليه وسلم. بقتلها «٢» ، وسماها فويسقا «٣». قال السدى : فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم وأقعدوه على الأرض ، فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس. قال كعب : ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه «٤». وروى أنه عليه السّلام مكث فيها سبعة أيام ، وقيل : أربعين ، وقيل : خمسين ، والأول أقرب.

قال إبراهيم عليه السّلام : ما كنت أياما قط أنعم منى من الأيام التي كنت فيها. قال ابن بسار : وبعث اللّه تعالى ملك الظل فقعد إلى جنبه يؤنسه ، قالوا : وبعث اللّه بقميص من حرير الجنة. قلت : وقد تقدم ذكره فى سورة يوسف «٥».

وأتاه جبريل فقال : إن ربك يقول : أما علمت أن النار لا تضر أحبائى. فنظر نمرود من صرحه ، فأشرف عليه ، فرآه جالسا فى روضة مونقة ، ومعه جليس على أحسن ما يكون من الهيئة ، والنار محيطة به ، فنادى : يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال : نعم ، قال : فاخرج ، فقام يمشى فخرج منها ، فاستقبله نمرود وعظّمه. وقال : من الرجل الذي رأيته معك؟ قال ذلك ملك الظل ، أرسله

ربى ليؤنسنى ، فقال : إنى مقرب إلى إلهك قربانا لما رأيته من قدرته وعزته فيما صنع بك. فقال عليه السّلام : لا يقبل اللّه منك ما دمت على دينك هذا ، حتى تفارقه إلى دينى ، قال :
لا أستطيع ترك ملكى ، ولكن سأذبح له أربعة آلاف بقرة ، فذبحها ، وكف عن إبراهيم «٦» عليه السّلام.
قال شعيب الجبائي : ألقى إبراهيم فى النار وهو ابن ست عشرة سنة ، وذبح إسحاق «٧» وهو ابن سبع سنين ، وولدته سارة وهى بنت تسعين سنة ، ولمّا علمت ما أراد من ذبحه بقيت يومين وماتت فى الثالث «٨» .. هـ. وهذا كما ترى من أكبر المعجزات ، فإنّ انقلاب النار هواء طيبا ، وإن لم يكن بدعا من قدرة اللّه ، لكنه من أكبر الخوارق ، واختلف فى كيفية برودتها فقيل : إن اللّه تعالى أزال ما فيها من الحر والإحراق ، وقيل : دفع اللّه عن جسم إبراهيم حرها وإحراقها مع ترك ذلك فيها ، واللّه على كل شىء قدير.

---

(١) قال فى النهاية : الوزغ : جمع وزغة وهى التي يقال لها : سامّ أبرص ، انظر النهاية (وزغ) ، والأثر أخرجه الطبري.
(٢) جاء فيما أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب قول اللّه تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا ، ومسلم فى (السلام ، باب استحباب قتل الوزغ) عن أم شريك.
(٣) أخرجه مسلم فى الموضع السابق ذكره ، عن السيدة عائشة وابن عامر بن سعد عن أبيه. [.....]
(٤) أخرجه الطبري (١٧/ ٤٤) عن كعب.
(٥) راجع تفسير الآية ٩٦ من سورة يوسف.
(٦) ذكره البغوي فى تفسيره (٥/ ٣٢٩) وصاحب زاد المسير (٥/ ٣٦٧).
(٧) راجع : التعليق على تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.
(٨) أخرجه الطبري (١٧/ ٤٥).

قال تعالى : وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً مكرا عظيما فى الإضرار ، فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ أي : أخسر من كل خاسر ، حيث جاء سعيهم فى إطفاء نور الحق برهانا قاطعا على أنه عليه السّلام على الحق ، وهم على الباطل ، وموجبا لارتفاع درجته واستحقاقهم للهلاك ، فأرسل اللّه على نمرود وقومه البعوض ، فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ، ودخلت بعوضة فى دماغ نمرود فأهلكته بعد المحنة الشديدة ، وباللّه التوفيق.

الإشارة : أجرى اللّه تعالى عادته فى المتوجه الصادق ، إذا أراد الوصول إلى حضرته ، أن يبتليه قبل أن يمكنه ، ويمتحنه قبل أن يصافيه لأنّ محبته تعالى مقرونة بالبلاء ، والداخل على اللّه منكور ، والراجع إلى الناس مبرور. فإذا رمى الولي فى منجنيق الابتلاء ، وألقى فى نار الجلال ، وتعرضت له الأكوان : ألك حاجة؟ فيقول - إن كان مؤيدا - : أمّا إليك فلا ، وأما إلى اللّه فبلى ، فإذا قيل له : سله ، فيقول : علمه بحالي يغنى عن سؤالي. فلا جرم أن اللّه تعالى يقول لنار الجلال : كونى بردا وسلاما على وليي ، فينقلب حرها بردا وسلاما ، فلا يرى أياما أحلى من تلك الأيام التي ابتلى فيها. وهذا أمر مجرب مذوق ، وأما إن التفت إلى التعلق بغير اللّه تعالى ، فإنّ البلاء يشدد عليه ، أو يخرج من دائرة الولاية ، والعياذ باللّه. فالولى هو الذي يقلب الأعيان بهمته ، وبالنور الذي فى قلبه ، حسية كانت أو معنوية ، فيقلب الخوف أمنا ، والحزن سرورا ، والقبض بسطا ، والفاقة غنى ، وهكذا .. فحينئذ تنفعل له الأشياء وتطيعه ، وتخرق له العوائد ، حتى لو ألقى فى النار الحسية لبردت. قال الورتجبي : كان الخليل منورا بنور اللّه ، وكان فعل النار من فعل اللّه ، فغلب نور الصفة على نور الفعل ، ولو بقيت النار حتى وصل إليها الخليل لصارت مضمحلة ، فعلم الحق ذلك ، فقال لها : (كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ) حتى تبقى لظهور معجزته وبيان كرامته. هـ.

ومصداق ما ذكره : قول النار يوم للقيامة للمؤمن : جز فقد أطفأ نورك لهبى «١» ، كما ورد. واللّه أعلم.

ثم ذكر هجرة إبراهيم إلى الشام ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٧١ الى ٧٢]

وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ (٧٢)

قلت : «إلى الأرض» : يتعلق بحال محذوفة ، ينساق إليها الكلام ، أي : ذاهبا بهما إلى الأرض.

يقول الحق جل جلاله : وَنَجَّيْناهُ أي : إبراهيم وَلُوطاً ابن أخيه هاران ، ذاهبا بهما من العراق إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ ، وهى أرض الشام. وبركاته العامة : أنّ أكثر الأنبياء بعثوا فيها ، فانتشرت فى العالمين شرائعهم ، التي هى مبادئ الخيرات الدينية والدنيوية ، وهى أرض المحشر ، فيها يجمع الناس ،

---

(١) أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (٥/ ١٩٤) وأبو نعيم فى الحلية (٩/ ٣٢٩) ، عن يعلى بن منبه ، وقال فى مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٠) : رواه الطبراني ، وفيه سليم بن منصور بن عمار ، وهو ضعيف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٧٨
وفيها ينزل عيسى عليه السّلام ، وقال أبى بن كعب : ما من ماء عذب إلّا وأصله من تحت صخرة بيت المقدس ، وهى أرض خصب ، يعيش فيها الفقير والغنى.
قال ابن إسحاق : خرج إبراهيم من كوثى من أرض العراق ، وخرج معه لوط وسارة ، فنزل حرّان ، ثم خرج منها إلى مصر ، ثم خرج منها إلى الشام ، فنزل السّبع من أرض فلسطين بزوجه سارة ، بنت عمه هاران الأكبر ، ونزل لوط عليه السّلام بالمؤتفكة ، وبينهما مسيرة يوم وليلة ، وكلاهما من الشام.
وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً أي : وهبنا له إسحاق ولدا من صلبه ، وزاد يعقوب ، ولد ولده ، نافلة لأنه سأل ولدا بقوله : رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ «١» فأعطيه ، وأعطى يعقوب نافلة ، زائدا على ما سأل لأنه أعطى من غير سؤال ، فكأنه تبرعا. قال ابن جزى : واختار بعضهم - على هذا - الوقف على «إسحاق» لبيان المعنى ، وهذا ضعيف لأنه معطوف على كل قول. هـ. وقيل : (نافِلَةً) يرجع لهما معا ، أي : أعطيناه ولدا وولد ولد ، عطية ، فيكون حالا منهما معا ، قيل : هو مصدر ، كالعاقبة من غير لفظ الفعل ، الذي هو (وَهَبْنا) وقيل : اسم ، وَكُلًّا أي :
كل واحد من هؤلاء الأربعة ، جَعَلْنا صالِحِينَ بأن وفقناهم لصلاح الظاهر والباطن ، حتى استحقوا الخصوصية. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : الهجرة سنّة من سنن الأنبياء والأولياء ، فكل من لم يجد فى بلده من يعينه على دينه ، يجب عليه الانتقال إلى بلد يجد فيها ذلك. وكذلك المريد إذا لم يجد قلبه فى محل لكثرة عوائده وشواغله ، بحيث يشوش عليه قلبه ، فلينتقل إلى بلد تقل فيها العلائق والشواغل ، إن وجد فيها من يحرك معهم فنّه ، كان بادية أو حاضرة.
والغالب أن الحاضرة تكثر فيها العوائد والحظوظ والشهوات ، فلا يدخلها المريد حتى يتقوى ويملك نفسه ، يأخذ النصيب من كل شىء ، ولا ينقص من نصيبه شىء ، وقد تقدم هذا مرارا. وباللّه التوفيق.
ثم مدحهم بالإمامة والاهتداء ، فقال :
[سورة الأنبياء (٢١) : آية ٧٣]
وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ (٧٣)
يقول الحق جل جلاله : وَجَعَلْناهُمْ أي : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، أَئِمَّةً يقتدى بهم فى أمور الدين إجابة لدعوته بقوله : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي «٢» أي : فاجعل أئمة ، يَهْدُونَ الخلق إلى الحق ، بِأَمْرِنا

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة الصافات.
(٢) كما جاء فى الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

لهم بذلك ، وإرسالنا إياهم حتى صاروا مكملين ، أو يهدون الخلق بإرادتنا ومشيئتنا. وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وهى جميع الأعمال الصالحة ، أي : أمرناهم أن يفعلوا جميع الخيرات ، ليتم كمالهم بانضمام العمل الصالح إلى العلم ، وأصله : أن يفعلوا الخيرات ، ثم فعل الخيرات ، وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ ، وهو من عطف الخاص على العام دلالة على فضله وشرفه ، وأصله : وإقامة الصلاة ، فحذفت التاء المعوضة من إحدى الألفين لقيام المضاف إليه مقامها. وَكانُوا لَنا عابِدِينَ : قانتين مطيعين ، لا يخطر ببالهم غير عبادتنا ومشاهدتنا.

وأنتم يا معشر العرب والعجم من ذريتهم ، فاتبعوهم فى ذلك. وباللّه التوفيق.

الإشارة : إنما يعظم جاه العبد عند اللّه بثلاثة أمور : انحياشه بقلبه إلى اللّه ، ومسارعته إلى ما فيه رضا اللّه ، وإرشاد العباد إلى اللّه ، بدعائهم إلى اللّه بالحال والمقال ، فبقدر ما يقع من هداية الخلق على يديه يعلو مقامه عند اللّه ، إن حصلت المعرفة باللّه ، وبهذا تعرف شرف مرتبة مشيخة الصوفية ، الدالين على اللّه ، الداعين إلى حضرة اللّه ، إن تكلموا وقع كلامهم فى قلوب الخلق ، فيرجعون إلى اللّه من ساعتهم ، مجالسهم كلها وعظ وتذكير ، حالهم ينهض إلى اللّه ، ومقالهم يدل على اللّه ، ففى ساعة واحدة يتوب على يديهم من الخلق ما لا يتوب على يد العالم فى سنين وذلك لإنهاض الحال والمقال ، فلا جرم أنهم أعز الخلق إلى اللّه ، وأعظمهم قدرا عند اللّه.

قال السهروردي فى العوارف : ورد فى الخبر عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم ، إن أحب عباد اللّه إلى اللّه الذين يحبّبون اللّه إلى عباده ، ويحبّبون عباد اللّه إلى اللّه ، ويمشون فى الأرض بالنصيحة». وهذا الذي ذكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هو رتبة المشيخة والدعوة فإن الشيخ يحبب اللّه إلى عباده حقيقة ، ويحبب عباد اللّه إلى اللّه.

فأما كونه يحبب عباد اللّه إلى اللّه لأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى أفعاله وأخلاقه.

ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه اللّه ، قال تعالى : قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ «١» ، ووجه كونه يحبب اللّه إلى عباده لأنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب ، ودخل فيها نور العظمة الإلهية ، ولاح فيها جمال التوحيد ، وذلك ميراث التزكية ، قال اللّه تعالى : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها «٢» ، وفلاحها : الظفر بمعرفة اللّه ، فإذا عرفه ، قطعا ، أحبه وفنى فيه.

فرتبة المشيخة من أعلى الرتب لأنها خلافة النبوة فى الدعوة إلى اللّه.

(١) من الآية ٣١ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ٩ من سورة الشمس.

(٤٧٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٨٠

ثم قال : فعلى المشايخ وقار اللّه ، وبهم يتأدب المريد ظاهرا وباطنا ، قال اللّه تعالى : أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ «١» ، فالمشايخ ، لمّا اهتدوا ، أهلّوا للاقتداء بهم ، وجعلوا أئمة للمتقين ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، حاكيا عن اللّه عز وجل : «إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بي ، جعلت همته ولذّته في ذكرى ، فإذا جعلت همته ولذته فى ذكرى ، أحبنى وأحببته ، ورفعت الحجاب فيما بينى وبينه ، لا يسهو إذا سها الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أولئك الأبطال حقا ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابا ، ذكرتهم فصرفته بهم عنهم» «٢».

انتهى كلامه رضى اللّه عنه.

ومن كلام ذى النون المصري - لمّا تكلم على الأبدال - قال : فهممهم إليه ثائرة ، وأعينهم إليه بالغيب ناظرة ، قد أقامهم على باب النظر من رؤيته ، وأجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته ، ثم قال لهم : إن أتاكم عليل من فقدى فداووه ، أو مريض من فراقي فعالجوه ، أو خائف منى فانصروه ، أو آمن منى فحذّروه ، أو راغب فى مواصلتى فمنوه ، أو راحل نحوى فزودوه ، أو جبان فى متاجرتى فشجعوه ، أو آيس من فضلى فرجّوه ، أو راج لإحسانى فبشروه ، أو حسن الظن بي فباسطوه ، أو معظّم لقدرى فعظموه ، أو مسيء بعد إحسانى فعاتبوه ، أو مسترشد فأرشدوه. هـ. وهذه صفة مشايخ التربية على ما شهدناهم ، وما شهدنا إلا بما علمنا. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر نبيه لوطا ونوحا - عليهما السّلام - فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٧٤ الى ٧٧]

وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)

قلت : «ولوطا» : إما مفعول بمحذوف يفسره قوله : «آتيناه» أي : وآتينا لوطا ، أو : باذكر. و«نوحا» : مفعول باذكر.

يقول الحق جل جلاله : وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً أي : حكمة ، أو نبوة أو فصلا بين الخصوم بالحق ، وَعِلْماً بنا وبما ينبغي علمه للأنبياء - عليهم السّلام - من علم السياسة ، وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ اللواطة ، وقذف المارة بالحصى ، وغيرها ، وصفت بصفة أهلها ، وأسندت إليها على حذف

---

(١) من الآية ٩٠ من سورة الأنعام.

(٢) عزاه فى كنز العمال (١/ ١٨٧٢) لأبى نعيم فى الحلية ، عن الحسن ، مرسلا.

مضاف ، أي : من أهل القرية ، بدليل قوله : إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ : خارجين عن طاعة اللّه ورسوله.

وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا أي : فى أهل رحمتنا ، أو جنتنا ، إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ الذين صلحت ظواهرهم وبواطنهم ، فنجيناه جزاء على صلاحه ، كما أهلكنا قريته عقابا على فسادهم.

وَاذكر نُوحاً ، وقدّم هؤلاء عليه لتعلقهم بإبراهيم ، أي : خبره ، إِذْ نادى أي : دعا اللّه تعالى على قومه بالهلاك ، أي : اذكر نبأه الواقع وقت دعائه ، مِنْ قَبْلُ هؤلاء المذكورين ، فَاسْتَجَبْنا لَهُ دعاءه الذي من جملته قوله : أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ «١» ، فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ المؤمنين به ، من ولده وقومه ، مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ، وهو الطوفان وتكذيب أهل الطغيان. وأصل الكرب : الغم الشديد ، وَنَصَرْناهُ نصرا مستتبعا للانتقام ، مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أي : منعناه من إذايتهم ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ ، تعليل لما قبله ، فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ ، صغيرهم وكبيرهم ، ذكرهم وأنثاهم لأن الإصرار على تكذيب الحق ، والانهماك فى الشر والفساد ، مما يوجب الإهلاك العام. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : نبى اللّه لوط عليه السّلام لمّا هاجر من أرض الظلمة إلى الأرض المقدسة ، أعطاه اللّه العلم والحكمة. فكل من هاجر من وطن الغفلة إلى محل الذكر واليقظة ، وهجر ما نهى اللّه عنه عوّضه اللّه علما بلا تعلم ، وأجرى على لسانه ينابيع الحكمة. قال أبو سليمان الداراني رضى اللّه عنه : إذا اعتقدت النفس على ترك الآثام ، جالت فى الملكوت ، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة ، من غير أن يؤدّي إليها عالم علما. ومصداقه الحديث : «من عمل بما يعلم ، ورثه اللّه علم ما لم يعلم».

ولمّا أجهد نفسه فى تغيير المنكر نجّاه اللّه من أذاهم وما لحق بهم ، وكذلك نبيه نوح عليه السّلام لما دعا قومه إلى اللّه ، وأجهد نفسه فى نصحهم ، نجاه اللّه من شرهم ، وجعل النسل من ذريته ، فكان آدم الأصغر. وهذه عادة اللّه تعالى فى خواصه ، يكثر فروعهم ، ويجعل البركة فى تركتهم. وباللّه

التوفيق.

ثم ذكر داود وسليمان – عليهما السّلام – فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٧٨ الى ٨٢]

وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ (٨٢)

---

(١) من الآية ١٠ من سورة القمر.

قلت : (وَ داوُدَ) : عطف على (نُوحاً) ، أو معمول لاذكر ، و(إِذْ يَحْكُمانِ) : ظرف للمضاف المقدر ، أي : اذكر خبرهما ، و(إِذْ نَفَشَتْ) : ظرف للحكم. (فَفَهَّمْناها) : عطف على (يَحْكُمانِ) فإنه فى حكم الماضي.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر خبر داوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ أي : وقت حكمهما فِي الْحَرْثِ أي : فى الزرع ، أو فى الكرم المتدلى عناقيده ، والحرث يطلق عليهما ، إِذْ نَفَشَتْ : دخلت فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ فأفسدته ليلا ، فالنفش : الرعي بالليل ، والهمل بالنهار ، وهما الرعي بلا راع. وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ أي : لهما وللمتحاكمين إليهما ، أو على أنّ أقل الجمع اثنان ، شاهِدِينَ ، كان ذلك بعلمنا ومرأى منا ، لم يغب عنا شيء منه ، فَفَهَّمْناها أي : الحكومة ، أو الفتوى ، سُلَيْمانَ ، وفيه دليل على أن الصواب كان مع سليمان.

وقصتهما على ما قال ابن عباس وغيره : أن رجلين دخلا على داود عليه السّلام ، أحدهما : صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الزرع : إنّ هذا نفشت غنمه ليلا ، فوقعت فى حرثى ، فلم تبق منه شيئا ، فقال له داود :

اذهب فإن الغنم لك ، ولعله استوت قيمتاهما – أي : قيمة الغنم كانت على قدر النقصان فى الحرث – فخرج الرجلان على سليمان ، وهو بالباب ، وكان ابن إحدى عشرة سنة ، فأخبراه بما حكم به أبوه ، فدخل عليه ، فقال : يا نبى اللّه لو حكمت بغير هذا لكان أرفق بالفريقين ، قال : وما هو؟ قال :

يأخذ صاحب الغنم الأرض ليصلحها ، حتى يعود زرعها كما كان ، ويأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بألبانها وصوفها ونسلها ، فإذا كمل الزرع ، ردت الغنم إلى صاحبها ، والأرض بزرعها إلى ربها ، فقال داود : وفقت يا بنى ، وقضى بينهما بذلك.

والذي يظهر : أن حكمهما – عليه السّلام – كان باجتهاد ، ففيه دليل على أن الأنبياء يجتهدون فيما لم ينزل فيه وحي ، فإنّ قول سليمان عليه السّلام : «هذا أرفق» ، وقوله : «أرى أن تدفع ..» إلخ ، صريح فى أنه ليس بطريق الوحى ، وإلا لبت القول بذلك ، ولعله وجه حكم داود عليه السّلام قياس ذلك على جناية العبد ، فإنّ العبد فيما جنى. وإذا قلنا : كان بوحي ، يكون حكم سليمان ناسخا لحكم داود عليه السّلام.

(٤٨٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٨٣

وأما حكم إفساد المواشي للزرع فى شرعنا : فقال مالك والشافعي : يضمن أرباب المواشي ما أفسدت بالليل دون النهار للحديث الوارد فى ذلك «١» ، على تفصيل فى مذهب مالك فيما أفسدت بالنهار.

وقال أبو حنيفة :

لا يضمن ما أفسدت بالليل ولا بالنهار لقوله عليه الصلاة والسلام : – «العجماء جرحها جبار» «٢» ، ما لم يكن معها سائق أو قائد ، فيضمن عنده.

قال تعالى : وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً أي : كل واحد منهما آتيناه حكما ، أي : نبوة ، وعلما : معرفة بمواجب الحكم ، لا سليمان وحده. وفيه دليل على أن خطأ المجتهد لا يقدح فى علمه ولا يرفع عنه صفة الاجتهاد.

ثم بيّن ما اختص به كل واحد منهما من المعجزات ، فقال : وَسَخَّرْنا أي : ذللنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ ، حال كونها يُسَبِّحْنَ أي : مسبحات ينزهن اللّه تعالى بلسان المقال ، كما سبّح الحصا فى كف نبينا عليه الصلاة والسلام. وَسخرنا له الطَّيْرَ كانت تسبح معه. وقدّم الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أغرب وأدخل فى الإعجاز لأنها جماد. قال الكواشي : كان داود إذا سبّح سبّح معه الجبال والطير ، وكان يفهم تسبيح الحجر والشجر ، وكان إذا فتر من التسبيح ، يسمعه اللّه تعالى تسبيح الجبال والطير لينشط فى التسبيح ويشتاق إليه. وروى أنه كان إذا سار سارت الجبال معه مسبحة ، قال قتادة : «يسبحن» ، أي : يصلين معه إذا صلى ، وهذا غير ممتنع فى قدرة اللّه تعالى. وفى الأثر : «كان داود يمرّ ، وصفاح الروحاء تجاوبه ، والطير تساعده».

وَكُنَّا فاعِلِينَ بالأنبياء أمثال هذا وأكثر ، فليس ذلك ببدع منا ولا صعب على قدرتنا.

وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ أي : صنعة الدروع. واللبوس لغة فى اللباس ، والمراد : الدرع ، لَكُمْ أي : نافع لكم ، لِتُحْصِنَكُمْ «٣» أي : اللبوس ، أو داود. وقرئ بالتأنيث ، أي : الصنعة ، أو اللبوس بتأويل الدرع. وقرئ بنون العظمة ، أي : اللّه تعالى ، وهو بدل اشتمال من «لكم». وقوله : مِنْ بَأْسِكُمْ أي : من حرب عدوكم ، أو من وقع السلاح فيكم ، فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ اللّه على ذلك؟ وهو استفهام بمعنى الأمر للمبالغة والتقريع.

ثم ذكر ما اختص به سليمان عليه السّلام فقال : وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ أي : وسخرنا له الريح. وإيراد اللام هنا ، دون الأولى للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت ، فإن تسخير ما سخر لسليمان عليه السّلام كان بطريق الانقياد الكلى والامتثال لأمره ونهيه ، بخلاف تسخير الجبال ، لم يكن بهذه المثابة ، بل بطريق التبعية والاقتداء. حال كون الريح

---

(١) عن البراء بن عازب : «كانت له ناقة ضارية ، فدخلت حائطا ، فأفسدت فيه ، فكلّم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقضى بأن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها ، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها ، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل» أخرجه أبو داود فى (البيوع ، باب المواشي تفسد زرع القوم) وابن ماجه فى (الأحكام ، باب الحكم فيما أفسدت المواشي). [.....]

(٢) أخرجه البخاري فى (الزكاة : باب فى الركاز الخمس) ، ومسلم فى (الحدود ، باب جرح العجماء) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٣) قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص «لتحصنكم» بالتاء ، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالنون ، وقرأ الآخرون (ليحصنكم) بالياء. انظر الإتحاف (٢/ ٢٦٦).

عاصِفَةً شديدة الهبوب ، من حيث إنها كانت تقطع مسافة بعيدة فى مدة يسيرة ، وكانت رخاء فى نفسها ، طيبة ، وقيل : كانت رخاء تارة ، وعاصفة أخرى ، على حسب ما أراد منها. أو رخاء فى ذهابه وعاصفة فى رجوعه لأن عادة المسافرين : الإسراع فى الرجوع ، أو عاصفة إذا رفعت البساط ورخاء إذا جرت به.

تَجْرِي بِأَمْرِهِ بمشيئة سليمان ، إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها بكثرة الأنهار والأشجار والثمار ، وهى الشام. وكان منزله بها ، وتحمله إلى نواحيها. قال وهب : كان سليمان إذا خرج من منزله عكفت عليه الطير ، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره ، وكان غزّاء لا يقصر عن الغزو ، فإذا أراد غزوا أمر

فضرب له بخشب ، ثم ينصب له على الخشب ، ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب ، فإذا حمل معه ما يريد أمر العاصف فدخلت تحت الخشب فاحتملته ، فإذا استقلت ، أمر الرخاء فمرت به شهرا فى روحته وشهرا فى غدوته ، إلى حيث أراد. هـ.

وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ أي : أحاط علمنا بكل شيء ، فنجرى الأشياء على ما سبق به علمنا ، واقتضته حكمتنا.

وَمِنَ الشَّياطِينِ ، قيل : لمّا ذكر تسخير الريح - وهى شفافة لا تعقل - ذكر ما هو شفاف يعقل ، وهم الشياطين ، مع سرعة الحركة فى الكل ، أي : وسخرنا له من الشياطين مَنْ يَغُوصُونَ فى البحار ، ويستخرجون لَهُ من نفائسه ، كالدر والياقوت ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ أي : غير ما ذكر من بناء المدن والقصور والمحاريب والتماثيل والقدور الراسيات ، وقيل : الحمام ، والنورة ، والطاحون ، والقوارير ، والصابون ، مما استخرجوه له ، وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ أن يزيغوا عن أمره ، أو يبدلوا ، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه ، على ما هو مقتضى جبلتهم. وقال الزجاج : كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا ، وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار. وقيل : وكّل بهم جمعا من الملائكة ، وجمعا من مؤمنى الجن. روى أن المسخّر له عليه السّلام : كفارهم ، لا مؤمنهم لقوله تعالى : (وَ مِنَ الشَّياطِينِ). واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قوله تعالى : (فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ) ، قال الورتجبي : بيّن ، سبحانه ، أن الفضل متعلق بفضله ، لا يتعلق بالصغر والكبر والشيخوخة والاكتساب والتعلم ، إنما الفهم تعريف اللّه أحكام ربوبيته بنور هدايته ، وإبراز لطائف علومه الغيبية ، فحيث يظهر ذلك فهناك مواضع الفهوم من العلوم ، فهو سبحانه منّ على سليمان بعلمه ، ولم يمنّ عليه بشيء خارج عن نفسه من الملك ، والحدثان أفضل من العلم فإنّ العلم صفة من صفاته تعالى ، فلمّا جعله متصفا بصفاته منّ عليه بجلال كبريائه. هـ. وقال فى قوله : وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً : حكما معرفة بالربوبية ، وعلما بالعبودية. هـ.

(٣/٤٨٤)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٨٥

وقوله تعالى : (وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ ....) إلخ. (وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ ...) الآية ، لمّا كانا - عليهما السّلام - مع المكوّن كانت الأكوان معهما ، «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك» ، وذكر فى القوت : أن سليمان عليه السّلام لبس ذات يوم قميصا رفيعا جديدا ، ثم ركب البساط ، وحملته الريح ، فبينما هو يسير إذ نظر إلى عطفه نظرة ، فأنزلته الريح ، فقال : لم أنزلتنى ولم آمرك؟! فقالت : نطيعك إذا أطعت اللّه ، ونعصيك إذا عصيته. فاستغفر وحملته. هـ

بالمعنى. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر أيوب عليه السّلام ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٨٣ الى ٨٤]

وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ (٨٤)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر خبر أَيُّوبَ عليه السّلام إِذْ نادى رَبَّهُ : دعاه : أَنِّي أي : بأني مَسَّنِيَ الضُّرُّ وهو بالضم : ما يصيب النفس من مرض وهزال ، وبالفتح : الضرر فى كل شيء ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، تلطف فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ، ولم يصرح بالمطلوب من كمال أدبه ، فكأنه قال : أنت أهل أن ترحم ، وأيوب أهل أن يرحم ، فارحمه ، واكشف عنه ضره الذي مسه. عن أنس : أنه أخبر عن ضعفه حين لم يقدر على النهوض إلى الصلاة ، ولم يشتك ، وكيف يشكو ، واللّه تعالى يقول : إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ «١».

وقيل : إنما اشتكى إليه تلذذا بالنجوى ، لا تضررا بالشكوى ، والشكاية إليه غاية فى القرب ، كما أن الشكاية منه غاية فى البعد ، وسيأتى فى الإشارة تكميله ، إن شاء اللّه. روى أن أيوب عليه السّلام ، كان من الروم ، وهو أيوب بن أموص ابن تارح بن رعويل بن عيص بن إسحاق. وكانت أمه من ولد لوط عليه السّلام اصطفاه اللّه للنبوة والرسالة ، وبسط عليه الدنيا فكان له ثلاثة آلاف بعير ، وسبعة آلاف شاة ، وخمسمائة فدان ، يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ، وكان له سبعة بنين ، وسبع بنات. قاله النسفي.

زاد الثعلبي : وكانت له المشيئة من أرض الشام كلها ، وكان له فيها من صنوف المال ما لم يكن لأحد من الخيل والبقر والغنم والحمر وغيره ، وكان برا تقيا رحيما بالمساكين ، يكفل الأرامل والأيتام ، ويكرم الضيف ، ويبلغ

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة ص.

ابن السبيل ، شاكرا لأنعم اللّه ، لا يصيب منه إبليس ما يصيب من أهل الغنى من الغفلة والغرّة ، وكان معه ثلاثة قد آمنوا به : رجل من اليمن واثنان من بلده ، كهولا. قال وهب : فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة عليه فى السماء فحسده ، فقال : إلهى ، عبدك أيوب أنعمت عليه فشكرك ، وعافيته

فحمدك ، ولم تجرّبه بشدّة ولا بلاء ، فلو جربته بالبلاء ليكفرنّ بك وبنعمتك ، فقال له تعالى : انطلق ، فقد سلطتك على ماله ، فجمع عفاريته وأخبرهم ، فقال عفريت من الجن : أعطيت من القوة ما إذا تحوّلت إعصارا من نار أحرقت كل شيء آتى عليه ، فقال له إبليس :

دونك الإبل ورعاتها ، فجاءها حتى وثبت فى مراعيها ، فأثار من تحت الأرض إعصارا من نار فأحرقها وأحرق رعاءها. فلما فرغ منها تمثل إبليس براعيها ، وجلس على قعود منها ، فأتاه ، وقال : يا أيوب ، إن ربك الذي عبدته قد أحرق إبلك ورعاءها ، فقال أيوب : هو ماله ، أعارنيه ، يفعل فيه ما يشاء ، فرجع إبليس خاسئا ، حين حمد أيوب ربه ، فقال عفريت آخر : عندى من القوة ما إذا صحت لم يسمع صوتى ذو روح إلا خرجت روحه ، قال له إبليس : ائت الغنم ورعاءها ، فأتى ، فصاح ، فصارت أمواتا ورعاتها ، ثم خرج إبليس متمثلا بقهرمان «١» الرعاة ، فقال له كمقالته فى الإبل ، فأجابه أيوب بمثل ما أجابه فيها ، فرجع خاسئا ، فقال عفريت آخر : عندى من القوة ما إذا تحولت ريحا عاصفا نسفت كل شيء أتيت عليه ، قال إبليس : فأت الفدادين والحرث ، فجاءها ، فهبّت ريح عاصفة فنسفت كل شيء ، حتى كأنه لم يكن ثمّ شيء ، فخرج إبليس متمثلا بقهرمان الحرث ، فقال له مثل قوله الأول ، وردّ عليه مثل رده ، حتى أتى على جميع ماله ، وأيوب يحمد اللّه تعالى.

فقال إبليس : إلهى إن أيوب يقول : إنك ما متعته إلا بنفسه وولده ، فهل تسلطنى على ولده ، فإنها الفتنة؟ قال اللّه تعالى : قد سلطتك على ولده ، فجاء إبليس فقلب عليهم القصر منكسين ، وانطلق إلى أيوب متمثلا بالمعلم الذي يعلمهم الحكمة ، وهو جريح ، فقال : يا أيوب لو رأيت بنيك كيف عذبوا؟ ونكّسوا على رؤوسهم ، وسال دماغهم من أنوفهم ، فلم يزل من قوله حتى رقّ أيوب وبكى ، وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه ، فصعد إبليس مسرورا ، ثم ذهب أيوب ، فلما أبصر ذلك استغفر ، وصعد قرناؤه من الملائكة ، بتوبته فبادروا إلى اللّه تعالى ، وهو أعلم ، فوقف إبليس خاسئا ، فقال : إلهى إنما هوّن أيوب خطر المال والولد ، فهل أنت مسلطى على جسده؟ فإنى لك زعيم إن سلّطنى على جسده ليكفرنّ بك ، قال اللّه تعالى : قد سلطتك على جسده ، ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله ، فجاءه إبليس فوجده ساجدا ، فجاء من قبل الأرض ، فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها جسده ، فوهل ، وخرج من قرنه إلى قدمه تآليل مثل آليات الغنم ، ووقعت به حكة لا يملكها ، فحك بأظفاره ، ثم بالمسوح الخشنة ، ثم بالحجارة ، حتى نغل لحمه ، وتغير ، ونش ، وتدود ، فأخرجه أهل القرية ، وجعلوه على كناسة ، وجعلوا له عريشا ، ورفضه الخلق كلهم ، إلا «رحمة» امرأته بنت إفرائيم بن يوسف عليه السّلام ، فقامت عليه بما يصلحه.

---

(١) القهرمان : هو المسيطر الحفيظ على من تحت يديه ، وهو فارسى معرب .. انظر اللسان (قهرم).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٨٧

روى أنس أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «إنّ أيّوب نبى اللّه لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد «١»». الحديث ، وقال كعب : سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ، وما قاله - عليه الصلاة والسّلام - إن ثبت ، هو الصحيح. وقال الحسن : مكث أيوب مطرودا على كناسة ، فى مزبلة بنى إسرائيل سبع سنين وشهرا ، يختلف فيه الدود. ويمكن الجمع بين الأقوال بأن الشدة كانت سبعا والباقي مقدمات لها.

روى أن امرأته قالت له يوما : لو دعوت اللّه عز وجل؟ فقال لها : كم كانت مدة الرخاء؟ قالت : ثمانين سنة. فقال :

إنى أستحيي من اللّه أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائى. هـ. وروى أن الدود أكل جميع جسده حتى بقي عظاما نخرة ، وهو مع ذلك لا يفتر عن ذكر اللّه وحمده وشكره ، فصرخ إبليس صرخة ، وقال : أعيانى هذا العبد الذي سألت ربى أن يسلطنى عليه ، فقالت له العفاريت : أرأيت آدم حين أخرجته من الجنة ، ما أتيته إلا من قبل امرأته ، فتمثل لها بصورة رجل طيب ، وفى رواية الحسن : فى هيئة ليست كهيئة بنى آدم ، فى أحسن صورة ، فقال لها : أين بعلك يا أمة اللّه؟ فقالت : هو ذاك ، يحك قروحه ، ويتردد الدود فى جسده ، فقال لها : أنا إله الأرض الذي صنعت بصاحبك ما صنعت لأنه عبد إله السماء وتركنى ، فلو سجد لى سجدة واحدة لرددت لكما ما كان لكما.

وقال وهب : قال لها : لو أكل طعاما ولم يسمّ عليه لعوفى من البلاء ، فأخبرت أيوب ، فقال : أتاك عدو اللّه ليفتنك عن دينك ، ثم أقسم ، إن عافاه اللّه ، ليضربنها مائة ضربة. ثم حلف لا يأكل لها طعاما ، فبقى مهملا لا يأتى إليه أحد ، وقال عند ذلك : (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) من طمع إبليس فى سجودى له ، (وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) ، فقيل له : (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ) فركض ، فنبعت عين ماء ، فاغتسل منها ، فلم يبق من دائه شيء ، وسقطت الدود من جسده ، وعاد شبابه وجماله. ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى ، فشرب منها ، فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج ، وكانت امرأته «رحمة» حين حلف ، تركته مدة ، ثم ندمت وعادت ، فوجدته فى أحسن هيئة ، فلم تعرفه ، فقالت له : أين الرجل المبتلى الذي كان هنا؟ قال : أنا هو ، شفانى اللّه ، ثم عرفته بضحكه ، فتعانقا ، ثم أمره اللّه تعالى أن يأخذ جماعة من القضبان فيضربها ضربة واحدة ليبرّ فى يمينه. هـ. «٢».

---

(١) أخرجه فى حديث طويل ابن حبان (بترتيب ابن بلبان ٧/ ٢٨٩٨) ، وابن أبى حاتم فى التفسير (٨/ ٢٤٥٩) ، والبزار (كشف الأستار/ ٢٣٥٧) ، وقال الهيثمي (٨/ ٢٠٨) : رواه أبو يعلى ، والبزار ، ورجال البزار رجال الصحيح.

(٢) جل ما ذكره الشيخ المفسر من روايات فى قصة أيوب أخرجه الطبري فى تفسيره (١٧/ ٦٥) وما

بعدها ، وذكره البغوي وغيره فى تفاسيرهم. وهذا مما يجب تنزيه الأنبياء عنه. وقد ردّ العلماء المحققون هذه الأخبار ، وقال الدكتور أبو شهبة فى كتابه (الإسرائيليات والموضوعات) : والذي يجب أن نعتقده أن أيوب عليه السّلام ابتلى ، ولكن بلاءه لم يصل إلى حد هذه الأكاذيب. فأيوب عليه السّلام أكرم على اللّه من أن يلقى على مزبلة ، وأن يصاب بمرض ينفر الناس من دعوته ويقززهم منه .. إلخ كلامه.
انظر :
كتاب الإسرائيليات والموضوعات. فهو كتاب نفيس.

(٤٨٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٨٨
قلت : تسليط الشيطان على بشرية الأنبياء الظاهرة : جائز وواقع. وأما الأمراض المنفرة ، فإن كانت بعد التبليغ وتقرير الشرائع ، فجائز عند بعضهم ، وهو الصواب ، جمعا بين ما ثبت فى الأخبار عن السلف وبين الدلائل العقلية فى تنزيه الأنبياء - عليهم السّلام - ، لأن العلة هى تنفير الخلق عنهم ، وبعد التبليغ فلا يضر ، وقد ورد أن شعيبا عليه السّلام عمى فى آخر عمره ، وكذلك يعقوب ، وكان بعد تبليغ الرسالة ، فلم يضر.
ثم قال تعالى فى حق أيوب عليه السّلام : فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ إنعاما عليه ، فلمّا قام من مرضه جعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الأهل ، والمال ، ثم أحيا اللّه أولاده بأعيانهم ، ورزقه مثلهم ، ورد عليه ماله ، بأن أخلف له مثله ، وذلك قوله تعالى : وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ وقيل : كان ذلك بأن ولد له ضعف ما كان له. وقال عكرمة : آتيناه أهله فى الآخرة ، ومثلهم معهم فى الدنيا ، والأول هو ظاهر الآية ، ردهم اللّه تعالى بأعيانهم إظهارا لكمال قدرته تعالى.
ثم قال رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا : مفعول من أجله ، أي : آتينا ما ذكر لرحمتنا أيوب ، وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ أي : وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر ، ويثابوا كما أثيب ، أو لرحمتنا العابدين ، الذين من جملتهم أيوب ، وذكرنا إياهم بالإحسان ، وعدم نسياننا لهم. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : ما ينزل بالمؤمن من الأوجاع والأسقام والشدائد والنوائب ، فى النفس ، أو فى الأهل ، كله رحمة ، عظيمة ، ومنّة جسمية ، ويقاس عليه : مفارقة الأحباب والأوطان ومشاق الأسفار والمتاعب البدنية ، ويسمى عند الصوفية :
التعرفات الجلالية لأن اللّه تعالى يتعرف إليهم بها ليعرفوه عيانا ، ولذلك تجدهم يفرحون بها ، وينبسطون عند ورودها لما يتنسمون فيها ، ويجدون بعدها ، من مزيد الاقتراب وكشف الحجاب ، وطى مسافة البعد بينهم وبين رب الأرباب ، فهم يؤثرونها على الأعمال الظاهرة لما يتحققون بها من وجود

الأعمال الباطنية كالصبر والزهد والرضا والتسليم ، وما ينشأ عنها ، عند ترقيق البشرية ، من تشحيذ الفكرة والنظرة ، وغير ذلك من أعمال القلوب.

وفى الحكم : «إذا فتح لك وجهة من التعرف ، فلا تبالي معها إن قلّ عملك فإنه ما فتحها لك إلّا وهو يريد أن يتعرف إليك منها ، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك ، والأعمال أنت مهديها إليه ، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك؟». قال الشيخ ابن عباد رضى اللّه عنه : معرفة اللّه تعالى هى غاية المطالب ، ونهاية الأماني والمآرب ، فإذا واجه اللّه عبده ببعض أسبابها ، وفتح له باب التعرّف له منها ، فذلك من النعم الجزيلة عليه ، فينبغى ألا يكترث بما يفوته بسبب ذلك من أعمال البر ، وما يترتب عليها من جزيل الأجر ، وليعلم أنه سلك به مسلك الخاصة المقرّبين ،

(٤٨٨/٣)

المؤدّى إلى حقائق التوحيد واليقين ، من غير اكتساب من العبد ولا تعمّل ، والأعمال التي من شأنها أن يتلبس بها هى باكتسابه وتعمله ، وقد لا يسلم من دخول الآفات عليها ، والمطالبة بوجود الإخلاص فيها ، وقد لا يحصل له ما أمّله من الثواب عند مناقشة الحساب ، وأين أحدهما من الآخر؟.

ومثاله : ما يصاب به الإنسان من البلايا والشدائد التي تنغّص عليه لذات الدنيا ، وتمنعه من كثير من أعمال البر ، فإنّ مراد العبد أن يستمر بقاؤه فى الدنيا ، طيّب العيش ناعم البال ، ويكون حاله فى طلب سعادة الآخرة حال المترفين فلا تسخو نفسه إلا بالأعمال الظاهرة ، التي لا كثير مؤنة عليه فيها ولا مشقة ، ولا تقطع عنه لذة ، ولا يفوته شهوة ، ومراد اللّه منه أن يطهره من أخلاقه اللئيمة ، ويحول بينه وبين صفاته الذميمة ، ويخرجه من أسر وجوده إلى متسع شهوده ، ولا سبيل إلى الوصول إلى هذا المقام على غاية الكمال والتمام ، إلا بما يضاد مراده ، ويشوش عليه معتاده ، وتكون حاله حينئذ المعاملة بالباطن ، ولا مناسبة بينها وبين الأعمال الظاهرة ، فإذا فهم هذا علم أن اختيار اللّه له ، ومراده منه ، خير من اختياره لنفسه ومراده لها.

وقد روى أن اللّه تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه : «إنى إذا أنزلت بعبدي بلائي ، فدعانى ، فماطلته بالإجابة ، فشكانى ، قلت : عبدى كيف أرحمك من شيء به أرحمك»؟ وفى حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال :

«قال اللّه تعالى : إذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكنى إلى عوّاده ، أنشطته من عقالى ، وبدّلته لحما خيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمه ، ويستأنف العمل» «١».

ثم نقل عن أبى العباس ابن العريف رضى اللّه عنه قال : كان رجل بالمغرب يدعى أبا الخيّار ، وقد عمّ

جسده الجذام ، ورائحة المسك توجد منه على مسافة بعيدة ، لقيه بعض الناس ، فقال له : يا سيدى كأن اللّه تعالى لم يجد للبلاء محلا من أعدائه حتى أنزله بكم ، وأنتم خاصة أوليائه!! فقال لي : اسكت ، لا تقل ذلك لأنا لمّا أشرفنا على خزائن العطاء ، لم نجد عند اللّه أشرف ولا أقرب من البلاء ، فسألناه إيّاه «٢» ، وكيف بك لو رأيت سيّد الزهّاد ، وقطب العباد ، وإمام الأولياء والأوتاد ، في غار بأرض طرطوس وجبالها ، ولحمه يتناثر ، وجلده يسيل قيحا وصديدا ، وقد أحاط به الذباب والنمل ، فإذا كان الليل لم يقنع بذكر اللّه وشكره على ما أعطاه من الرحمة ، حتى يشدّ نفسه بالحديد ، ويستقبل القبلة عامّة ليله حتى يطلع الفجر. هـ.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (الجنائز ، بال ما ينبغى لكل مسلم أن يستشعره من الصبر ..) ، والحاكم فى المستدرك (الجنائز ١/ ٣٤٩) عن أبى هريرة ، وصححه الحاكم ، وأقره الذهبي.
(٢) أمرنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالتداوى. وقال : «اسألوا اللّه العافية».

(٣/٤٨٩)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٠
وقد تكلم الصوفية فى قول أيوب عليه السّلام : مَسَّنِيَ الضُّرُّ هل شكى ضرر جسمه ، أو ضرر قلبه من جهة دينه؟
قال بعضهم : قيل : إنه أراد النهوض إلى الصلاة فلم يستطع ، فقال : (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) ، وقيل : إنه أكل الدود جميع جسده ، حتى بقي عظاما ، فلما قصد الدود قلبه ولسانه غار على قلبه لأنه موضع المعرفة والتوحيد ، والنبوة والولاية ، وأسرار اللّه تعالى ، وخاف انقطاع الذكر ، فقال : (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) ، وقيل : خاف تبدد همه وتفرق قلبه ، وليس فى العقوبة شيء أشد من تبدد الهم ، فتارة يقول : لعلى ببلائى معاقب ، وتارة يقول : بضرى مستدرج ، فلما خاف تشتيت خاطره عليه ، قال : (مَسَّنِيَ الضُّرُّ). هـ.
قلت : هذا المقام لا يليق بالأنبياء ، وإنما يجوز على غيرهم إذ الأولياء يترقون عن هذا المقام فكيف بالأنبياء! وقال بعضهم : قال : مسنى الضر من شماتة الأعداء ، واقتصر عليه ابن جزى ، وفيه شيء إذ كثير من الأولياء سقط الناس من عينهم ، فلا يبالون بخيرهم ولا شرهم ، ولا مدحهم ولا ذمهم ، فكيف بالأنبياء - عليهم السّلام - ؟! وقال القشيري : كان ذلك منه إظهارا للعجز ، لا اعتراضا ، فلا ينافى الصبر ، مع ما فيه من التنفيس عن الضعفاء من الأمة ، ليكون أسوة. ويقال : إن جبريل أمره بذلك ، وقال له : إن اللّه يغضب إن لم يسأل ، وسيان عنده البلاء والعافية ، فسله العافية. ويقال : إن أيوب كان مكاشفا بالحقيقة ، مأخوذا عنه ، وكان لا يحس بالبلاء ، فستر عليه ، فردّه إليه ، فقال : مسنى

الضّرّ ، وقيل : أدخل على أيوب تلك الحالة ، فاستخرج منه تلك المقالة ليظهر عليه سمة العبودية «١». هـ.

وقال الورتجبي : سئل الجنيد عن قوله : (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) ، فقال عرّفه فاقة السؤال ، ليمنّ عليه بكرم النوال ، وفى الحديث المروي عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنه جاء إليه رجل فسأله عن قول أيوب «مسنى الضر» ، فبكى - عليه الصلاة والسّلام - وقال : والذي بعثني بالحق نبيا ما شكى فقرا نزل من ربه ، ولكن كان فى بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات ، فلما كان فى بعض الساعات وثب ليصلى ، فلم يستطع النهوض ، فقال : (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) إلخ. ثم قال عليه الصلاة والسّلام - : أكل الدود عامة جسد حتى بقي عظاما نخرة «٢» ، فكادت الشمس تطلع من قبله وتخرج من دبره ، وما بقي إلا قلبه ولسانه ، وكان قلبه لا يخلو من ذكر اللّه ، ولسانه لا يخلو من ثنائه على ربه ، فلما أحب اللّه له الفرج ، بعث إليه الدودتين إحداهما إلى لسانه والأخرى إلى قلبه ، فقال : يا رب ما بقي إلا هاتان الجارحتان ، أذكرك بهما ، فأقبلت هاتان الدودتان إليهما ليشغلانى عنك ويطلعان على سرى ، مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين. هـ.

وفى قوله تعالى : (رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ) : تسلية لمن أصيب بشىء من هذه التعرفات الجلالية ، وقد تقدم فى أول الإشارة الكلام على هذا. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) باختصار.

(٢) لم أقف عليه.

ثم ذكر ما بقي من مشاهير الأنبياء ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٨٥ الى ٨٦]

وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِسْماعِيلَ بن إبراهيم ، وكان أكبر من إسحاق ، وَإِدْرِيسَ واسمه : أخنوخ بن شيث بن آدم. قاله النسفي وَذَا الْكِفْلِ وهو إلياس ، أو زكريا ، أو يوشع بن نون ، قلت : كونه زكريا بعيد لأنه سيذكره بخصوصه بعد. وسمى ذا الكفل لأنه ذو حظ من اللّه ، والكفل : الحظ. أو تكفل بضعف عمل أنبياء زمانه ، أو بصيام النهار وقيام الليل. وقال أبو موسى الأشعري : إنّ ذا الكفل لم يكن نبيا ، ولكنه كان عبدا صالحا ، تكفل بعمل رجل صالح عند موته ، وكان يصلى للّه تعالى ، فى كل يوم ،

مائة صلاة ، فأحسن اللّه عليه الثناء. هـ. وقال عمر بن عبد اللّه بن الحارث : إن نبيا من الأنبياء قال : من تكفل لى أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب؟ فقال شاب : أنا ، فمات ذلك النبي ، فجلس ذلك الشاب يقضى بين الناس ، فجاءه الشيطان فى صورة إنسان ليغضبه وهو صائم ، فضرب الباب ضربا شديدا ، فقال : من هذا؟ فقال : رجل له حاجة ، فأرسل له رجلا ، فلم يرض ، ثم أرسل معه آخر ، فلم يرض ، فخرج إليه فأخذ بيده فانطلق معه إلى السوق ، ثم خلاه وذهب ، فسمى ذا الكفل. هـ.

كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ أي : كل واحد من هؤلاء موصوف بالصبر التام على مشاق التكليف وشدائد النوب ، وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا فى النبوة ، أو فى الآخرة ، إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ أي : الكاملين فى الصلاح الذي لا تحوم حوله شائبة الفساد ، وهم الأنبياء ، فإن صلاحهم معصوم من كدر الفساد. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد مدح اللّه هؤلاء السادات بخصلتين ، من تحقق بهما : التحق بهم ، وانخرط فى سلكهم : الصبر على مشاق الطاعة ، وعلى ترك المعصية ، وفى حال البلية. والصلاح ، وهو : إصلاح الظاهر بالشريعة ، وإصلاح الباطن بنور الحقيقة. فمن تحقق بهاتين الخصلتين كان من المقربين مع النبيين والصديقين. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر يونس عليه السّلام ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٨٧ الى ٨٨]

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر ذَا النُّونِ أي : صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السّلام ، إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً أي : مراغما لقومه ، فارا عنهم ، وغضب من طول دعوته إياهم ، وشدة شكيمتهم ، وتمادى إصرارهم ، فخرج مهاجرا عنهم ، قبل أن يؤمر ، وقيل : وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم لأجل توبتهم ، ولم يشعر بها ، فظن أنه كذبهم ، فغضب من ذلك ، فهو من باب المغالبة للمبالغة أو لأنه غضب لما رأى منهم من الإصرار ، وغضبوا لمفارقته إياهم ، وكان من حقه عليه السّلام أن يصبر وينتظر الإذن الخاص من اللّه تعالى ، فلما استعجل ابتلى ببطن الحوت ، وقال ابن عباس : قال جبريل ليونس عليه السّلام : انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم ، قال :

ألتمس دابة ، قال : الأمر أعجل من ذلك ، فانطلق إلى السفينة فركبها ، فاحتبست السفينة فساهموا فسهم ، فجاءه الحوت يبصبص بذنبه ، فنودى الحوت : إنا لم نجعل يونس لك رزقا ، إنما جعلناه لك

حرزا ، فالتقمه ، ومرّ به على الأبلة ، ثم على دجلة ، ثم مرّ به حتى ألقاه بنينوى. هـ.

وقال وهب بن منبه رضى اللّه عنه : إنّ يونس كان عبدا صالحا ضيّق الخلق ، «٢» فلما حمل أثقال النبوة تفسخ منها تفسّخ الرّبع «١» تحت الحمل الثقيل ، فقذفها وخرج هاربا عنها ، ولذلك أخرجه اللّه من أولى العزم ، قال لنبيه صلى اللّه عليه وسلم :

فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ «٣» وقال : وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ «٤» أي : لا تلق أمرى كما ألقاه. هـ. وأما قول الحسن : مغاضبا لربه ، فلا يليق بمقام الأنبياء - عليهم السلام - إلا أن يحمل على أن خروجه بلا إذن كأنه مغاضب. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ أي : لن نضيق عليه ، أو لن نقدر عليه بالعقوبة ، فهو من القدر ، ويؤيده قراءة من شدّد ، وعن ابن عباس رضى اللّه عنه قال : دخلت يوما على معاوية ، فقال : لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة ، فغرقت فيها ، فلا أرى لنفسى خلاصا إلا بك ، قال : وما هى؟ فقرأ الآية ... فقال : أو يظن نبى اللّه ألا يقدر عليه؟ قال : هذا من القدر لا من القدرة. هـ.

وقيل : إنه على حذف الاستفهام. أي : أيظن أن لن نقدر عليه ، وقيل : هو تمثيل لحاله بحال من ظن أن لن يقدر عليه ، أي : تعامل معاملة من ظن أن لن نقدر عليه حيث استعجل الفرار. قلت : لإعلاء مقامه كثرت مطالبته بالأدب ، فحين خرج من غير إذن خاص عدّ خروجه كأنه ظن ألا تنفذ فيه القدرة ، وتمسك عليه السّلام بالإذن العام ، وهو الهجرة من دار الكفر ، وهو لا يكفى فى حق أمثاله ، فعوقب بالسجن فى بطن الحوت.

---

(١) الربع : ولد الناقة أول ما يحمل عليه.

(٢) هذا لا يصح أن يوصف به سيدنا يونس ، الذي قال فيه سيدنا محمد : «لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى».

(٣) من الآية ٣٥ من سورة الأحقاف.

(٤) من الآية ٤٨ من سورة القلم. وانظر تفسير الطبري (١٧/ ٧٧) ، والبغوي (٥/ ٣٥٠). [.....]

(٤٩٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٣

فَنادى فِي الظُّلُماتِ أي : فى الظلمة الشديدة المتكاثفة كقوله : ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ ... «١» ،

أو فى ظلمة بطن الحوت والبحر والليل : أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ أي : بأنه لا إله إلا أنت ، أو تفسيرية ، أي

: قال لا إله إلا أنت ، سُبْحانَكَ أي : أنزهك تنزيها لائقا بك من أن يعجزك شيء ، أو : تنزيها لك عما ظننت فيك ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ لنفسى بخروجي عن قومى قبل أن تأذن لى ، أو من الظالمين لأنفسهم بتعريضها للهلكة ، وعن الحسن : ما نجاه ، واللّه ، إلا إقراره على نفسه بالظلم.

فَاسْتَجَبْنا لَهُ أي : أجبنا دعاءه الذي دعا فى ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه. عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «ما من مكروب يدعو بهذا الدّعاء إلّا استجيب له» «٢». وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ : الذلة والوحشة والوحدة ، وذلك بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات ، وقيل : بعد ثلاثة أيام ، وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ أي : مثل ذلك الإنجاء الكامل ننجى المؤمنين من غمومهم ، إذا دعوا اللّه ، مخلصين فى دعائهم. وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال :

«اسم اللّه الذي إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى : دعوة يونس بن متى ، قيل : يا رسول اللّه ، أليونس خاصة؟

قال : بل هى عامة لكل مؤمن ، ألم تسمع قول اللّه تعالى : وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ». وهنا قراءات فى نُنْجِي ، مذكورة فى كتب القراءات ، تركتها لطول الكلام فيها.

الإشارة : من تحققت له سابقة العناية لا تبعده الجناية ، ولا تخرجه عن دائرة الولاية ، بل يؤدب فى الدنيا بالابتلاء فى بدنه أو ماله ، على قدر الجناية وعلو المقام ، ثم يرد إلى مقامه. وهاهنا حكايات للصوفية - رضى اللّه عنهم - من هذا النوع ، منها : حكاية خير النساج رضى اللّه عنه ، قيل له : أكان النسج صنعتك؟ قال : لا ، ولكن كنت عاهدت اللّه واعتقدت ألا آكل الرطب ، فغلبتنى نفسى واشتريت رطلا منه ، فجلست لآكله ، فإذا رجل وقف علىّ ، وخنقنى ، وقال : يا عبد السوء ، أتهرب من مولاك - وكان له عبد اسمه : «خير» أبق منه ، ألقى اللّه شبهه علىّ - فحملنى إلى حانوته ، وقال : اعمل عملك ، أمرنى بعمل الكرباس - وهو القطن - فدليت رجلى لأنسجه ، فكأنى كنت أعمله سنين ، فبقيت معه أشهرا ، فقمت ليلة إلى صلاة الغداة ، وقلت : إلهى لا أعود ، فأصبحت ، فإذا الشبه قد زال عنى ، وعدت إلى صورتى التي كنت عليها ، فأطلقت ، فثبت علىّ هذا الاسم ، فكان سببه اتباع شهوتى.

ومنها قضية أبى الخير العسقلاني رضى اللّه عنه قال : اشتهيت السمك سنين ، ثم ظهر له من وجه حلال ، فلما مد يده ليأكل ، أخذت شوكة من عظامه إصبعه ، فذهبت فى ذلك ، فقال : إلهى هذا لمن مد يده لشهوة من حلال ، فكيف

---

(١) من الآية ١٧ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذي فى (الداعوة باب ٨٢) ، وأبو يعلى (٢/ ٦٥) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٠٥) ، وصححه ووافقه الذهبي ، من حديث سعد بن أبى وقاص. وأخرجه أحمد فى قصة (١/ ١٧٠).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٤
بمن مد يده لشهوة من حرام. ومنها : قضية إبراهيم الخواص رضى اللّه عنه قال : كنت جائعا فى الطريق ، فوافيت الرّى - اسم بلدة - فخطر ببالي أن لى بها معارف ، فإذا دخلتها أضافونى وأطعمونى ، فلمّا دخلت البلد رأيت فيها منكرا احتجت أن آمر فيه بالمعروف ، فأخذونى وضربونى ، فقلت فى نفسى : من أين أصابنى هذا ، على جوعى؟ فنوديت فى سرى : إنك سكنت إلى معارفك بقلبك ، ولم تسكن إلى خالقك.
وأمثال هذا كثير بأهل الخصوصية ، يؤدبون على أقل شىء من سوء الأدب لشدة قربهم ، ثم يردون إلى مقامهم. ومن هذا النوع قصة سيدنا يونس عليه السّلام حيث خرج من غير إذن خاص ، فأدّبه ، ثم رده إلى النبوة والرسالة ، وقد كنت سمعت من بعض الأشياخ أن أيوب عليه السّلام إنما أصيب فى ماله ، لأنه كان بجوار ماله كافر ، فكان يداريه لأجل ماله ، فأصيب فيه وفى بدنه تأديبا وتكميلا له. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر زكريا عليه السّلام فقال :
[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٨٩ الى ٩٠]
وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ (٩٠)
يقول الحق جل جلاله : وَاذكر خبر زَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ فى طلب الولد ، وقال : رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وحيدا بلا ولد يرثنى ، ثم ردّ أمره إليه مستسلما ، فقال : وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ ، فحسبى أنت ، وإن لم ترزقنى وارثا فلا أبالى فإنك خير وارث ، فَاسْتَجَبْنا لَهُ دعاءه ، وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى ولدا وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ أي : أصلحناها للولادة بعد عقمها ، أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقها. وكانت قبل سيئة الخلق ، إِنَّهُمْ أي : ما تقدم من الأنبياء ، كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ أي : إنما استحقوا الإجابة إلى مطالبهم ، وأسعفناهم فيما أمّلوا لمبادرتهم أبواب الخير ، ومسارعتهم إلى تحصيلها ، مع ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير كله ، وهو السر فى إتيان : «فى» ، دون «إلى» ، المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات ، متوجهين إليها ، كما فى قوله تعالى : وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ «١».
وَكانوا يَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً طمعا وخوفا ، وهما مصدران فى موضع الحال ، أو المفعول له ، أي : راغبين فى الثواب أو الإجابة ، وراهبين من العقاب أو الخيبة ، أو للرغبة والرهبة ، وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ :

(١) من الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٥
متواضعين خائفين ، أي : إنما نالوا هذه المراتب العلية ، واستحقوا هذه الخصوصية لاتصافهم بهذه الأوصاف الحميدة. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : الغالب فى وراثة الخصوصية الحقيقية أن تكون لغير ورثة النسب ، وأما الخصوصية المجازية ، التي هى مقام الصلاح أو العلم ، فقد تكون لورثة النسب ، وتكون لغيرهم. والخصوصية الحقيقية هى مقام الفناء والبقاء ، والتأهل للتربية النبوية ، ولا بأس بطلب وارث هذه الخصوصية ، لئلا ينقطع النفع بها. وقد قيل ، فى قول الشيخ ابن مشيش رضى اللّه عنه : اسمع نداءى بما سمعت به نداء عبدك زكريا ، إنه أشار إلى طلب الوارث الروحاني. واللّه تعالى أعلم.
وقوله تعالى : إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ ، فيه إشارة إلى بيان سبب حصول الخصوصية لأن بابها هو المسارعة إلى عمل الخيرات وأنواع الطاعات ، وأوكدها ثلاثة : دوام ذكر اللّه ، وحسن الظن باللّه ، وبعباد اللّه. وفى الحديث : «خصلتان ليس فوقهما شىء من الخير : حسن الظن باللّه ، وحسن الظن بعباد اللّه». وقوله : وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً ، هذه حالة الطالبين المسترشدين المتعطشين إلى اللّه ، يدعونه رغبا فى الوصول ، ورهبا من الانقطاع والرجوع ، وقد تكون للواصلين رغبا فى زيادة الترقي ، ورهبا من الوقوف أو الإبعاد. وقال بعضهم : الرغب والرهب حاصلتان لكل مؤمن ، إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطا ، وهو كفر ، ولو لم تكن رهبة لكان أمنا ، والأمن كفر.
واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر مريم وابنها - عليهما السلام - فقال :
[سورة الأنبياء (٢١) : آية ٩١]
وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (٩١)
يقول الحق جل جلاله : وَاذكر الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها على الإطلاق من الحلال والحرام ، والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها ، وتنزيهها عما زعموه فى حقها. فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا أي : أجرينا روح عيسى فيه وهو فى بطنها ، أو نفخنا فى درع جيبها من ناحية روحنا ، وهو جبريل عليه السّلام ، فأحدثنا بذلك النفخ عيسى عليه السّلام ، وإضافة الروح إليه تعالى لتشريف عيسى عليه السّلام ، وَجَعَلْناها وَابْنَها أي :
قضيتهما ، أو حالهما ، آيَةً لِلْعالَمِينَ ، فإن من تأمل حالهما تحقق بكمال قدرته تعالى. وإنما لم يقل آيتين ، كما قال : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ «١» لأن مجموعهما آية واحدة ، وهى ولادتها إياه من غير فحل. وقيل :

التقدير : وجعلناها آية وابنها كذلك ، فآية مفعول المعطوف عليه ، فحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١٢ من سورة الإسراء.

الإشارة : من حصّل التقوى فى صغره ، كان آية فى كبره. تقول العامة : الثور الحراث فى الربك يبان ، وتقول الصوفية : البداية مجلاة النهاية. وقالت الحكماء : الصغر يخدم على الكبر. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر اتفاقهم فى التوحيد ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٩٢ الى ٩٤]

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ (٩٤)

قلت : «أمة» : حال من «أمتكم» أي : متحدة أو متفقة ، والعامل فيه ومعنى الإشارة ، والإشارة إلى طريق الأنبياء المذكورين قبل.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ هذِهِ الطريق والسيرة التي سلكها الأنبياء المذكورون ، واتفقوا عليها ، وهو التوحيد ، هى أُمَّتُكُمْ أي : ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها ، ولا تخرجوا عنها ، حال كونها أُمَّةً واحِدَةً ، غير مختلفة فيما بين الأنبياء - عليهم السّلام - وإن اختلفت شرائعهم. وفى الحديث : «الأنبياء أبناء علّات ، أمهاتهم شتّى ، وأبوهم واحد» والعلات : الضرائر ، أي : شرائعهم مختلفة ، وأبوهم واحد ، وهو التوحيد. قال القشيري : وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ أي : ربيتكم اختيارا ، فاعبدونى شكرا وافتخارا. هـ. والخطاب للناس كافة.

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ ، أصل الكلام : وتقطعتم فى أمر دينكم وتفرقتم. إلّا أن الكلام صرف إلى الغيبة ، على طريقة الالتفات لينعى عليهم ما أفسدوه فى الدين. والمعنى : فجعلوا أمر دينهم فيما بَيْنَهُمْ قطعا ، وصاروا أحزابا متفرقة ، كأنه ينهى إلى أهل التوحيد قبائح أفعالهم ، ويقول : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين اللّه ، الذي أجمعت عليه كافة الأديان؟ ثم توعدهم بقوله : كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ أي : كل واحد ، من الفرق المتقطعة ، راجع إلينا بالبعث ، فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم.

ثم فصّل الجزاء فقال : فَمَنْ يَعْمَلْ شيئا مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ باللّه ورسله وبما يجب الإيمان به. قال القشيري : (و هو مؤمن ، أي : فى المآل بأن يختم له به) ، وكأنه يشير إلى الخاتمة لأن من لم

يختم له بالإيمان لا ثواب لأعماله ، والعياذ باللّه ، فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ أي : لا حرمان لثواب عمله ، بل سعيه مشكور مقبول ، فالكفران مثل فى حرمان الثواب ، كما أن الشكر مثل فى إعطائه ، وعبّر عن ذلك بالكفران ، الذي هو ستر النعمة

(٤٩٦/٣)

وجحدها لبيان كمال تنزهه تعالى عنه. وعبّر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به ، وَإِنَّا لَهُ أي : لسعيه كاتِبُونَ مثبتون فى صحائف أعمالهم ، نأمر الحفظة بذلك ، لا نغادر من ذلك شيئا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الصوفية - رضى اللّه عنهم - ، فى حال سيرهم إلى الحضرة وسلوكهم فى طريق التربية ، مختلفون بحسب الأزمنة والأمكنة والأشخاص. وفى حال نهايتهم - وهو الوصول إلى حضرة الشهود والعيان ، وإشراق شمس العرفان ، الذي هو مقام الإحسان ، ويعبّرون عنه بالفناء والبقاء ، وهو التوحيد الخاص - متفقون ، وفى ذلك يقول القائل :

عباراتنا شتى ، وحسنك واحد وكلّ إلى ذاك الجمال يشير

لأن ما كان ذوقا ووجدا لا يختلف ، بل يجده كل من له ذوق سليم. نعم تتفاوت أذواقهم على حسب مشاربهم ، ومشاربهم على حسب إعطائهم نفوسهم وبيعها للّه ، وتتفاوت أيضا بحسب التخلية والتفرغ ، وبحسب الجد والاجتهاد ، وكلهم على بصيرة من اللّه وبينة من ربهم. نفعنا اللّه بذكرهم ، وخرطنا فى سلكهم ، آمين.

ثم تمم قوله : كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٩٥ الى ٩٧]

وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ (٩٧)

قلت : «حرام» : مبتدأ ، وفيه لغتان : حرام وحرم ، كحلال وحلّ. و«أنهم ..» إلخ : خبر ، أو فاعل سد مسده ، على مذهب الكوفيين والأخفش. والجملة : تقرير لقوله : (كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ) ، و«لا» نافية ، أي : ممتنع على قرية أهلكناها عدم رجوعهم إلينا بالبعث ، بل كل إلينا راجعون. وقيل : «لا» زائدة ، والتقدير : ممتنع رجوع قرية أردنا إهلاكها عن غيهم ، «فإنهم» : على هذا : فاعل بحرام. قاله القصار. و«حتى» : ابتدائية ، غاية لما يدل عليه ما قبلها ، أي : يستمرون على ما هم عليه من الهلاك ، حتى إذا قامت القيامة يرجعون إلينا ، ويقولون : يا ويلنا. وقال أبو البقاء : «حتى» :

متعلقة فى المعنى بحرام ، أي : يستقر الامتناع ، أي : هذا الوقت. و«فإذا هى» : جواب «إذا». وفى الأزهرى : وقد يجمع بين الفاء وإذا الفجائية تأكيدا ، خلافا لمن منع ذلك. قال تعالى : (فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ) ، فإنه لو قيل : إذا هى ، أو فهى شاخصة لصح. هـ. وقيل : «يا ويلنا» : على حذف القول ، أي : إذا فتحت قالوا : يا ويلهم. و«اقترب» : عطف على «فتحت».

(٤٩٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٨

يقول الحق جل جلاله : وَحَرامٌ أي : ممتنع عَلى أهل قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها قدرنا هلاكها ، أو حكمنا بإهلاكها لعتوهم ، أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ بالبعث والحشر ، بل لا بد من بعثهم وحشرهم وجزائهم على أعمالهم. وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع للكل لقوله : كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ لأنهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم. وقيل : المعنى : وممتنع على قرية ، أردنا إهلاكها ، رجوعهم إلى التوبة ، أو ممتنع على قرية ، أهلكناها بالفعل ، رجوعهم إلى الدنيا. وفيه رد على مذهب القائلين بالرجعة من الروافض وأهل التناسخ ، على أن «لا» صلة. وقرىء بالكسر «١» ، على أنه تعليل لما قبله ، فحرام ، على هذا ، خبر عن مبتدأ محذوف ، أي : ذلك العمل الصالح حرام على قرية أردنا إهلاكها لأنهم لا يرجعون عن غيهم.

وقال الزجاج : المعنى : وحرام على قرية ، أردنا إهلاكها ، أن يتقبّل منهم عمل لأنهم لا يرجعون ، أي : لا يتوبون ، ويجوز حمل المفتوحة على هذا بحذف اللام ، ويستمرون على ما هم عليه من الهلاك ، أو : فليستمر امتناعهم من الرجوع.

حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ونفخ فى الصور ، وقامت القيامة ، فيرجعون ، ولا ينفعهم الرجوع. ويأجوج ومأجوج قبيلتان ، يقال : الناس عشرة أجزاء ، تسعة منها يأجوج ومأجوج. والمراد بفتحها : فتح سدها ، على حذف مضاف أي : حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج ، وَهُمْ أي : يأجوج ومأجوج ، وقيل : الناس بعد البعث ، مِنْ كُلِّ حَدَبٍ أي : نشز ومرتفع من الأرض ، يَنْسِلُونَ : يسرعون ، وأصل النسل : مقاربة الخطو مع الإسراع. ويدل على عود الضمير ليأجوج ومأجوج : قوله - عليه الصلاة والسّلام - : «ويفتح ردم يأجوج ومأجوج ، فيخرجون على الناس ، كما قال اللّه تعالى : مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ...» الحديث «٢» ، ويؤيد إعادته على الناس قراءة مجاهد : «من كل جدث» بالجيم ، وهو القبر.

ثم قال تعالى : وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ أي : ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب ، فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أي : فإذا القصة أو الشأن ، وهو أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا شاخصة ، أي : مرتفعة الأجفان ، لا تكاد تطرق من شدة الهول ، حال كونهم يقولون : يا وَيْلَنا يا هلكتنا ، هذا أوانك ، فاحضرى ، قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ تامة

مِنْ هذا الذي دهمنا من البعث ، والرجوع إليه تعالى ، للجزاء ، ولم نعلم ، حيث نبّهنا عليه بالآيات والنذر ، أنه حق ، بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ بتلك الآيات والنذر ، مكذبين بها ، أو ظالمين أنفسنا بتعريضها للعذاب

---

(١) فى قوله : «إنهم».
(٢) أخرجه ، مطولا ، مسلم ، فى (الفتن ، وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال) ، من حديث النواس بن سمعان.

(٤٩٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٩
المخلد. وهو إضراب عما قبله ، من وصف أنفسهم بالغفلة ، أي : لم نكن غافلين عنه ، حيث نبّهنا عليه بالآيات والنذر ، بل كنا ظالمين بتكذيبهم ، واللّه تعالى أعلم.
تذييل : روى حذيفة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «أول الآية : الدّجال ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من قرن عدن ، تسوق الناس إلى المحشر - أي الشام - تقيل معهم إذا قالوا ، والدّخان ، والدّابة ، ثم يأجوج ومأجوج» «١». قلت : وبعد موت يأجوج ومأجوج ، تبقى مدة عيسى عليه السّلام ، فى أمنة ورغد عيش. قيل : سبع سنين ، وقيل : أربعون. ثم يقبض عيسى ، ويدفن فى روضته صلى اللّه عليه وسلم ، ثم تهب ريح تقبض المؤمنين ، فلا يبقى من يقول اللّه اللّه ، قيل : مائة سنة ، وقيل : أقل ، ثم تخرب الكعبة ، ثم ينفخ فى الصور للصعق ، واقترب الوعد الحق. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : الحضرة محرمة على قلب خراب ، أهلكه اللّه بالوساوس والخواطر ، وفتحت عليه من الشواغل والشواغب والخواطر يأجوج ومأجوج ، فأفسدته وخربته وجعلته مزبلة للشياطين. فحرام عليه رجوعه إلى الحضرة حتى يتطهر من هذه الوساوس والخواطر ، ومن الشواغل والعلائق. قال بعض الصوفية : (حضرة القدوس محرمة على أهل النفوس). فإذا اقترب وعد الحق ، وهو أجل موته ، قال : يا ويلنا إنا كنا عن هذا غافلين ، لم نتأهب للقاء رب العالمين ، حتى لقيته بقلب سقيم. والعياذ باللّه.
ثم ذكر مآل الكفرة إذا وقع الوعد الحق ، فقال :
[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٩٨ الى ١٠٠]
إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (٩٨) لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ (١٠٠)
يقول الحق جل جلاله : إِنَّكُمْ ، يا كفار قريش ومن دان دينكم ، وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ من الأصنام

والشياطين لأنهم ، لطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم ، في حكم عبادتهم ، ويدخل فيه الشمس والقمر والنجوم ، وكل ما عبد من دون اللّه ممن لا يعقل ، للحديث الوارد في دخولهم النار ، تبكيتا لمن عبدهم لأنهم لا

---

(١) أخرجه مسلم في (الفتن ، باب الآيات التي تكون قبل قيام الساعة). من حديث حذيفة بن أسيد. ولفظه كاملا : «إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف في جزيرة العرب ، والدخان ، والدجال ، ودابة الأرض ، ويأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس».

يتضررون بالنار. وأما من يعقل فلا يدخل حيث عبّر بما. وقيل : يدخل ، ثم استثناه بقوله : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى ... ، فكل من عبد شيئا من دون اللّه فهو معه ، حَصَبُ جَهَنَّمَ أي : حطبها ، وقرئ بالطاء ، أي : وقودها أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ أي : فيها داخلون.

لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً كما زعمتم ما وَرَدُوها ما دخلوا النار ، وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ أي : وكل من العابد والمعبود في النار خالدون. لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ أي : للكفار في النار أنين وبكاء وعويل ، وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ شيئا لأن في سماع بعضهم بعضا نوع أنس. قال ابن مسعود رضى اللّه عنه : يجعلون في توابيت من نار ، ثم جعلت التوابيت في توابيت أخر لها مسامير من نار ، فلا يسمعون شيئا.

روى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم دخل المسجد الحرام ، وصناديد قريش في الحطيم ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، فجلس إليهم ، فعرض له النّضر بن الحارث ، فكلّمه النبي صلى اللّه عليه وسلم حتّى أفحمه ، ثمّ تلا عليه وعليهم : إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ... الآيات الثلاث. ثم أقبل عبد اللّه بن الزبعرى فرآهم يتساهمون ، فقال : فيم خوضكم؟ فأخفى الوليد ما قاله النبي صلى اللّه عليه وسلم ، ثم أخبره بعضهم بما قاله ، عليه الصلاة والسّلام ، فقال ابن الزبعرى للنبى صلى اللّه عليه وسلم : أأنت قلت : إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ؟ قال : نعم ، قال : قد خصمتك ، ورب الكعبة ، أليست اليهود تعبد عزيرا ، والنّصارى تعبد المسيح ، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم :

«بل هم يعبدون الشّياطين الّتى أمرتهم بهذا ، فأنزل اللّه تعالى : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى ..» «١».

قلت : كل من عبد شيئا من دون اللّه فإنما عبد فى الحقيقة الشيطان لأنه أمر به وزينه له ، ويدل على ذلك أنهم يتبرؤون يوم القيامة ، حين تتحقق الحقائق ، من عبادتهم ، كما قال تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ، قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ «٢» مع قوله تعالى : وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ «٣». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بنحوه الواحدي فى الأسباب (٤١٣). والطبراني فى الكبير (١٢/ ١٥٣ ح ١٢٧٣٩) ، عن ابن عباس وأخرجه ، مختصرا ، الطبري (١٧/ ٩٧) ، والحاكم فى (التفسير ٢/ ٣٨٥) وصححه ، ووافقه الذهبي.

(٢) الآيتان : ١٧ - ١٨ من سورة الفرقان.

(٣) من الآية ٣٨ من سورة العنكبوت.

(٣/٥٠٠)

الإشارة : من أحب شيئا حشر معه ، من أحب أولياء اللّه حشر معهم ، ومن أحب الصالحين حشر معهم ، ومن أحب الفجار حشر معهم ، ومن أحب الدنيا بعث معها ، ثم بعث إلى النار ، وهكذا .. المرء مع من أحب.

ثم استثنى بذكر حال أهل السعادة ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١٠١ الى ١٠٣]

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أي : الخصلة الحسنى ، أو المشيئة الحسنى ، وهى السعادة ، أو التوفيق للطاعة ، أو البشرى بالثواب ، أُولئِكَ عَنْها : عن جهنم مُبْعَدُونَ لأنهم فى الجنة ، وشتان ما بينهما. قال القشيري : لم يقل متباعدون ليعلم العابدون أن المدار على التقدير وسبق الحكم من اللّه ، لا على تباعد العبد وتقرّبه. هـ. وكأنه يشير لقوله : «هؤلاء إلى الجنّة ولا أبالى» «١» ، أي : بأعمالهم.

لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها أي : صوتها الذي يحس ، وحركة تلهبها ، وهذه مبالغة فى الإبعاد ، أي : لا

يقربوها حتى لا يسمعوا صوتها أو صوت من فيها. قال الكواشي : لا يسمعون صوت النار وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم من الجنة. هـ. وقال ابن عطية : وذلك بعد دخولهم الجنة لأن الحديث يقتضى أن فى الموقف تزفر جهنم زفرة لا يبقى نبى ولا ملك إلا خرّ على ركبتيه. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : محمل الحديث ، إن صح فى حق الأنبياء والأكابر ، على شهود الجلال والإجلال للّه تعالى ، ولذلك يقولون : «نفسى نفسى» ، لا من خوف النار. هـ.

قلت : أما كون الناس يصعقون يوم القيامة ، فيكون المصطفى أول من يفيق ، فثابت فى الصحيح ، أما سبب الصعقة فقد ورد فى غير البخاري : «أنه يؤتى بجهنم ، ولها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها ، ثم تزفر زفرة ، فلا يبقى نبى ولا ملك إلا خرّ» «٢» ... الحديث ، ويؤيده

---

(١) بعض حديث ، أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٤/ ١٨٦) والحاكم فى المستدرك (١/ ٣١) ، وابن حبان (١٨٠٦ موارد) ، عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي. والحديث ، صححه الحاكم ، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه ، بدون العبارة الأخيرة ، مسلم فى (الجنة وصفه نعيمها ، باب فى شدة حر نار جهنم ..) من حديث ابن مسعود رضى اللّه عنه.

قوله تعالى : وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ «١» والأنبياء - عليهم السلام - بشر عبيد ، قد تعمهم القهرية ، ولا تقدح فى منصبهم ، وليس صعقهم خوفا ، لكن غلبة ودهشا ، كما صعق موسى - عليه السّلام عند الرؤية ، ونبينا - عليه الصلاة والسلام - حين تجلى له جبريل على صورته. واللّه أعلم. وقال جعفر الصادق : وكيف يسمعون حسيسها ، والنار تخمد بمطالعتهم ، وتتلاشى برؤيتهم؟ ثم ذكر حديث قول النار للمؤمن : جز .. إلخ.

ويدل على أن هذه الحالة إنما هى بعد دخولهم الجنة ، قوله تعالى : وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ من النعيم خالِدُونَ : دائمون ، والشهوة : طلب النفس للذة. وهو بيان لفوزهم بالمطالب ، إثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب ، أي : دائمون فى غاية التنعم ، لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ، وهو القيام من القبور عند صيحة البعث ، بدليل قوله : وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ. قال ابن عباس : «تتلقاهم الملائكة بالرحمة ، عند خروجهم من القبور» ، قائلين : هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ بالكرامة والثواب ، والنعيم المقيم فيه ، أي : بعد دخولكم الجنة.

وقال الحسن : الفزع الأكبر : الانصراف إلى النار. وعن الضحاك : حين يطبق على أهل النار. وقيل : حين نفخة الصعق ، وقيل : حين يذبح الموت. قلت : من سبقت له الحسنى ينجو من جميعها. وقيل : تتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة ، مهنئين لهم قائلين : (هذا يومكم الذي كنتم توعدون) فى الدنيا ، ويبشرون بما فيه من فنون المثوبات على الإيمان والطاعات. وهذا ، كما ترى ، صريح فى أن المراد بالذين سبقت لهم الحسنى : كافة المؤمنين الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحة ، لا من ذكر من المسيح ، وعزير ، والملائكة ، كما قيل. قاله أبو السعود ، قلت : وقد يجاب بأنها نزلت فى شأنهم وتعم غيرهم لأن سبب النزول لا يخصص. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال الجنيد رضى اللّه عنه : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أي : سبقت لهم منا العناية فى البداية ، فظهرت لهم الولاية فى النهاية. هـ. (أُولئِكَ عَنْها) أي : عن نار القطيعة ، وهى أغيار الدنيا ، مبعدون ، لا يسمعون حسيسها ، ولا ما يقع فيها من الهرج والفتن ، لغيبتهم عنها بالكلية فى الشغل باللّه تعالى ، فهم فيما اشتهت أنفسهم من لذة الشهود ، والقرب من الملك الودود ، خالدون دائمون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر فى الدنيا والآخرة ، وتتلقاهم الملائكة بالبشرى بالوصول ، هذا يومكم الذي كنتم توعدون ، وهو يوم ملاقاة الحبيب والعكوف فى حضرة القريب ، عند مليك مقتدر. منحنا اللّه من ذلك الحظ الأوفر بمنّه وكرمه.

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الفجر.

(٥٠٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٠٣

ثم ذكر أوصاف ذلك اليوم ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : آية ١٠٤]

يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (١٠٤)

قلت : «يوم» : ظرف لاذكر ، أو لقوله : «لا يحزنهم الفزع» ، أو لتتلقاهم. والسجل : الصحيفة ، والكتاب : مصدر ، و«كما بدأنا» : منصوب بمضمر ، يفسره ما بعده ، و«ما» : موصولة.

يقول الحق جل جلاله : واذكر يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ وذلك يوم الحشر والناس فى الموقف ، فتجمع وتكوّر وتطوى كَطَيِّ السِّجِلِّ الصحيفة لكتاب أي : لأجل الكتابة فيها لأن الكاتب يطوى الصحيفة على اثنين ليكتب فيها. فاللام للتعليل ، أو بمعنى «على» ، أي : كطى الصحيفة على الكتابة التي فيها ، لتصان ، وقرأ أبو جعفر : «تطوى» بالبناء للمفعول. وذلك بمحو رسومها وتكوير نجومها وشمسها

وقمرها. وأصل الطى : الدرج ، الذي هو ضد النشر. وقرأ الأخوان وحفص : (لِلْكُتُبِ) بالجمع ، أي : للمكتوبات ، أي : كطى الصحيفة لأجل المعاني الكثيرة التي تكتب فيها ، أو كطيها عليها لتصان. فالكتاب أصله مصدر ، كالبناء ، ثم يوقع على المكتوب. وقيل :

السجل : ملك يطوى كتب ابن آدم ، إذا رفعت إليه ، فالكتاب ، على هذا ، اسم للصحيفة المكتوب فيها ، والطى مضاف إلى الفاعل ، وعلى الأول : إلى المفعول.

كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ أي : نعيد ما خلقنا حين نبعثهم ، كما بدأناهم أول مرة ، فالتنوين فى «خلق» مثله فى قولك : أول رجل جاءنى ، تريد أول الرجال. والتقدير : كما بدأنا أول الخلائق ، نعيدهم حفاة عراة غرلا.

قال صلى اللّه عليه وسلم : «إنّكم تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا. وأول من يكسى إبراهيم خليل اللّه»»

، أي : لأنه جرد فى ذات اللّه ، فقالت عائشة - رضى اللّه عنها - : واسوءتاه! فلا يحتشم الناس بعضهم من بعض؟ فقال : «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» «٢». ثم قرأ - عليه الصلاة والسلام - : كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ.

---

(١) أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب قول اللّه تعالى : «واتخذ اللّه إبراهيم خليلا») ومسلم فى (الجنة وصفه نعيمها ، باب فناء الدنيا) ، عن ابن عباس رضي اللّه عنه. ، [.....]

(٢) هذا ليس من الحديث السابق. بل هو حديث آخر ، أخرجه مسلم فى الموضع السابق ، عن السيدة عائشة ، بلفظ : «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، قلت : يا رسول اللّه النساء والرجال جميعا ، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال : «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

(٥٠٣/٣)

كما بدأناه من الماء نعيده كيوم ولدته أمه. قلت : قد استدل بعضهم ، بظاهر الآية والحديث ، أن أهل الجنة ليس لهم أسنان ، ولا دليل فيه لأن المقصود من الآية : الاستدلال على كمال قدرته تعالى ، وعلى البعث الذي تنكره الكفرة ، لا بيان الهيئة ، وعدم وجودها نقصان ، ولا نقص فى الجنة.

ثم أكد الإعادة بقوله : وَعْداً عَلَيْنا أي : نعيده وعدا ، فهو مصدر مؤكد لغير فعله بل لما فى «نعيده» من معنى العدة ، أي : وعدنا ذلك وعدا واجبا علينا إنجازه لأنا لا نخلف الميعاد ، إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ لما ذكرنا لا محالة ، فاستعدوا له ، وقدّموا صالح الأعمال للخلاص من هذه الأهوال. وباللّه التوفيق.

الإشارة : إذا أشرقت على القلب شموس العرفان ، انطوت عن مشهده وجود الأكوان ، وأفضى إلى فضاء العيان ، فلا سماء تظله ولا أرض تحمله ، وفى ذلك يقول الششترى رضى اللّه عنه :

لقد تجلى ما كان مخبى والكون كلّ طويت طي

وهذا غاية من سبقت له من اللّه الحسنى ، فأشرقت عليه أنوار التوجه فى البداية ، وأنوار المواجهة فى النهاية ، فزاحت عنه الأكوان ، وفاضت عليه بحار أسرار العرفان ، فصار يتصرف بهمته فى الوجود بأسره ، كما قال تعالى :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١٠٥ الى ١٠٦]

وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ (١٠٦)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ كتاب داود عليه السّلام ، مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ : التوراة ، أو اللوح المحفوظ ، أَنَّ الْأَرْضَ أي : جنس الأرض ، يعنى : مشارقها ومغاربها ، يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ وهم أمة نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ففى الآية ثناء عليهم وبشارة لهم ، وإخبار بظهور غيب تحقق ظهوره فى الوجود من فتح اللّه على هذه الأمة مشارق الأرض ومغاربها ، كقوله : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ «١». وقال القشيري : على قوله : عِبادِيَ الصَّالِحُونَ : هم أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - وهم بجملتهم قوم صالحون لنعمته ، وهم المطيعون ، وآخرون صالحون لرحمته وهم العاصون. هـ.

قال فى الحاشية الفاسية : والظاهر أن حديث : «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر اللّه» ، مفسر للآية ، وموافق لوعدها. قيل : وهذه الطائفة مفترقة من أنواع المؤمنين ، ممن فيه عائدة على الدين ونفع له من شجعان مقاتلين ، وفقهاء ومحدّثين ، وزهاد وصالحين ، وناهين وآمرين

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة النور.

بالمعروف. هـ. قلت : وعارفين متمكنين ، علماء باللّه ربانيين. ثم قال : وغير ذلك من أنواع أهل الحسنى ، ولا يلزم اجتماعهم ، بل يكونون متفرقين فى أقطار. هـ. قلت : وفيه نظر لأن مراد الآية الأمة كلها ، كما قال القشيري ، ومراد الحديث بعضها ، فلا يليق أن يكون تفسيرا لها ، وهى أعم منه. وقيل

: المراد بالأرض : أرض الشام ، وقيل :
أرض الجنة.
ثم قال تعالى : إِنَّ فِي هذا أي : ما ذكر فى السورة الكريمة من الأخبار والمواعظ البالغة ، والوعد والوعيد ، والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة ، لَبَلاغاً أي : كفاية ، أو سبب بلوغ إلى البغية ، من رضوان اللّه تعالى ، ومحبته ، وجزيل ثوابه ، فمن تبع القرآن وعمل به ، وصل إلى ما يرجو من الثواب العظيم ، فالقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر ، فهو بلاغ وزاد لِقَوْمٍ عابِدِينَ أي : لقوم همتهم العبادة دون العادة. وباللّه التوفيق.
الإشارة : قد أورث اللّه أرضه وبلاده لأهل التوجه إلى اللّه ، والإقبال عليه. فوراثة كل أحد على قدر توجهه وإقباله على مولاه. والمراد بالوراثة : التصرف بالهمة ونفوذ الكلمة فى صلاح الدين وهداية المخلوقين ، وهم على قسمين :
قسم يتصرف فى ظواهر الخلق بإصلاح ظواهرهم ، وهم العلماء الأتقياء ، فهم يبلغون الشرائع والأحكام ، لإصلاح نظام الإسلام ، وقد تقدم تفصيلهم فى سورة التوبة عند قوله تعالى : فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ... «١» إلخ ، وقسم يتصرفون فى بواطنهم وهم أهل التصرف العارفون باللّه ، على اختلاف مراتبهم من غوث وأقطاب وأوتاد ، وأبدال ، ونجباء ، ونقباء ، وصالحين ، وشيوخ مربين ، فهم يعالجون بواطن الناس بالتربية بالهمة والحال والمقال ، حتى يتطهر من يصحبهم من الرذائل ، ويتحلي بأنواع الفضائل ، فيتأهل لحضرة القدس ومحل الأنس. وهؤلاء حازوا الوراثة النبوية كلها ، كما قال ابن البنا فى مباحثه :
تبعه العالم فى الأقوال والعابد الزاهد فى الأفعال
وبهما الصوفي فى السباق لكنه قد زاد بالأخلاق.
ثم ختم ذكر الأنبياء - عليهم السلام - بذكر سيد الوجود ، وعين الرحمة ، ومنبع الكرم والجود ، وهو نبينا - عليه الصلاة والسلام - فقال :
[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١٠٧ الى ١١٢]
وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (١١١)
قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (١١٢)

---

(١) الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٠٦

قلت : رَحْمَةً : مفعول لأجله ، أو حال.

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْناكَ يا محمد إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ أي : ما أرسلناك بما ذكر من الشرائع والأحكام ، وغير ذلك مما هو مناط سعادة الدارين ، لعلة من العلل ، إلا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة. أو ما أرسلناك فى حال من الأحوال ، إلا حال كونك رحمة لهم ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ، ومنشأ لانتظام مصالحهم فى النشأتين ، ومن لم يضرب له فى هذه المغانم بسهم فإنما أوتى من قبل نفسه ، حيث فرط فى اتباعه ، وقيل : إنه رحمة حتى فى حق الكفار فى الدنيا بتأخير عذاب الاستئصال ، والأمن من المسخ والخسف والغرق ، حسبما نطق به قوله تعالى : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ «١».

قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ أي : ما يوحى إلىّ إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد لأنه المقصود الأصلى من البعثة ، وأما ما عداه فإنما هو من الأحكام المتفرعة عليه ، لا يصح بدونه. و«إنما» الأولى : لقصر الحكم على الشيء ، كقولك : إنما يقوم زيد ، والثانية : لقصر الشيء على الحكم ، كقولك : إنما زيد قائم ، أي : إنما يوحى إلىّ وحدي أنما إلهكم واحد. فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أي : مخلصون العبادة للّه وحده ، أو منقادون لما أمركم به من الإسلام؟ والاستفهام بمعنى الأمر ، أي : أسلموا. فَإِنْ تَوَلَّوْا عن الإسلام ، ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه من استماع الوحى ، فَقُلْ آذَنْتُكُمْ أي : أعلمتكم ما أمرت به ، أو بمحاربتى لكم ومخالفتى لدينكم ، لتكونوا عَلى سَواءٍ ، أو كائنين على سواء فى الإعلام به ، لم أطوه عن أحد منكم ، أو مستوين أنا وأنتم فى العلم بما أعلمتكم به من الشرائع ، لم أظهر بعضكم على شيء كتمته عن غيره. وفيه دليل بطلان مذهب الباطنية. قيل : وهذه من فصاحة القرآن وبلاغته.

وَإِنْ أَدْرِي أي : ما أدرى أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ من البعث والحساب متى يكون لأن اللّه تعالى لم يطلعنى عليه ، ولكن أنبأنى أنه آت لا محالة ، وكل آت قريب. ولذلك قال : وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ «٢» ، أو : لا أدرى متى يحل بكم العذاب ، أو ما توعدون من إظهار المسلمين وظهور الدين ، إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ أي : إنه عالم بكل شيء ، يعلم ما تجهرون به من الطعن فى الإسلام وتكذيب الآيات ، وما تكتمونه فى صدوركم من الأحقاد للمسلمين ، فيجازيكم عليه نقيرا وقطميرا. وَإِنْ أَدْرِي

---

(١) الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

(٢) من الآية ٩٧ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٠٧
لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ أي : ما أدرى لعل تأخير العذاب عنكم فى الدنيا امتحان لكم لينظر كيف تعملون ، أو استدراج لكم ، وزيادة فى افتتانكم ، وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ أي : تمتع لكم إلى حين موتكم ليكون حجة عليكم ، أو إلى أجل مقدر تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم البالغة.
قالَ «١» رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ أي : اقض بيننا وبين كفار مكة بالعدل ، المقتضى لتعجيل العذاب. فهو كقول شعيب عليه السّلام : رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ «٢» ، أو بما يحق عليهم من العذاب ، واشدد عليهم ، كقوله صلى اللّه عليه وسلم :
«اللّهمّ اشدد وطأتك على مضر» «٣» ، وقد استجيب دعاؤه - عليه الصلاة والسلام - ، حيث عذبوا ببدر أىّ تعذيب. وقرأ الكسائي وحفص : قالَ حكاية لدعائه صلى اللّه عليه وسلم. ثم استعان باللّه على إبطال ما كانوا يؤملون من النصرة لهم ، وتكذيبهم فى ذلك ، فقال : وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ كثير الرحمة على عباده ، الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ من كون الغلبة لكم. كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه ، وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة والغلبة لهم ، فكذب اللّه ظنونهم ، وخيّب آمالهم ، وغيّر أحوالهم ، ونصر رسوله صلى اللّه عليه وسلم عليهم ، وخذلهم لكفرهم. وباللّه التوفيق.
الإشارة : قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : الأنبياء - عليهم السلام - خلقوا من الرحمة ، ونبينا صلى اللّه عليه وسلم هو عين الرحمة ، قال تعالى : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ. هـ. وقال أيضا : الأنبياء - عليهم السلام - لأممهم صدقة ، ونبينا صلى اللّه عليه وسلم لنا هدية. قال صلى اللّه عليه وسلم : «وأنا النعمة المهداة» ، فالصدقة للفقراء ، والهدية للكبراء. ثم إن غاية الرحمة :
الوصول إلى التوحيد الخاص لأنه سبب الزلفى من اللّه والاختصاص ، ولذلك أمره به ، بعد أن جعله رحمة ، فقال :
قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ ... إلخ. فمن أعرض عنه فقد أوذن بالبعد والطرد. ولعل تأخير العقوبة عنه ، فى الدنيا ، استدراج ومتاع إلى حين.
ثم إن الصارف عن الدخول إلى التوحيد الخاص - وهو توحيد العيان - : القواطع الأربع : النفس ، والشيطان ، والدنيا ، والهوى. زاد بعضهم : الناس - أي : عوام الناس ، فإذا حكم اللّه بين العبد وبين هذه القواطع ، وصل إلى صريح المعرفة. قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ أي : احكم بينى وبين عدوى بحكمك الحق ، حتى تدفعه عنى وتدمغه ، وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ به عَلى ما تَصِفُونَ من التعويق والتشغيب.
واللّه المستعان ، وعليه أتوكل ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم. وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) قرأ حفص (قال) بصيغة الماضي - وقرأ الباقون (قل) ، انظر الإتحاف (٢/ ٢٦٨).

(٢) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري في (الدعوات ، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة) ، ومسلم فى (المساجد ، باب استحباب القنوت فى جميع الصلاة) عن أبى هريرة رضى اللّه عنه.

سورة الحجّ

مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة ، وهى : هذانِ خَصْمانِ ... إلى : صِراطِ الْحَمِيدِ. وهى ثمان وسبعون آية.

ومناسبتها لما قبلها : قوله : وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ «١» من قيام الساعة ، وهى التي خوّف بها فى قوله :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)

قلت : زلزلة : مصدر مضاف إلى فاعله على المجاز ، أو إلى الظرف ، وهى الساعة. و(يَوْمَ) : منصوب بتذهل.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، الخطاب عام لجميع المكلفين ممن وجد عند النزول ، وينخرط فى سلكهم من سيوجد إلى يوم القيامة. ولفظ «الناس» يشمل الذكور والإناث.

والمأمور به مطلق التقوى ، الذي هو امتثال الأوامر واجتناب النواهي ظاهرا وباطنا ، والتعرض لعنوان الربوبية ، مع إضافتها لضمير المخاطبين لتأكيد الأمر ، وتأكيد إيجاب الامتثال به لأن الربوبية دائمة ، والعبودية واجبة بدوامها ، أي : احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم.

ثم علل وجوب التقوى بذكر بعض عقوبته الهائلة عند قيام الساعة ، فقال : إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، فإن ملاحظة عظمها وهولها وفظاعة ما هى من مبادئه ومقدماته ، مما يوجب مزيد اعتناء بملابسة

التقوى والتدرع بها. والزلزلة : التحرك الشديد والإزعاج العنيف ، بطريق التكرير ، بحيث تزيل الأشياء من مقارها ، وتخرجها عن مراكزها ، وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى : إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها الآية «٢».

واختلف فى هذه الزلزلة وما ذكر بعدها ، هل هى قيام الساعة عند نفخة الصعق ، أو بعدها عند الحشر؟ فقال الحسن رضى اللّه عنه : إنها تكون يوم القيامة. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : زلزلة الساعة : قيامها. وعن علقمة والشعبي : أنها قبل طلوع الشمس من مغربها ، فإضافتها إلى الساعة لكونها من أشراطها. قال الكواشي : وهذه الزلزلة تكون قبل قيام الساعة

---

(١) من الآية ١٠٩ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية الأولى من سورة الزلزلة.

من أشراطها. قالوا : ومن أشراط الساعة ، قبل قيامها ، ست آيات : بينما الناس فى أسواقهم ، إذ ذهب ضوء الشمس ، ثم تناثرت النجوم ، ثم وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحركت واضطربت الأرض ، ففزع الإنس والجن ، وماج بعض فى بعض خوفا ودهشا ، فقالت الجن للإنس : نحن نأتيكم بالخبر ، فذهبوا ، فرأوا البحار تأجّج نارا ، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض إلى الأرض السابعة ، ثم جاءتهم الريح فماتوا. هـ. وانظر ابن عطية. قاله المحشى.

والتحقيق : ما قدمناه عند قوله : وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ «١» ، وأنّ الريح إنما تقبض أرواح المؤمنين ، وهذه الزلزلة إنما تقع عند نفخة الصعق. واللّه تعالى أعلم. وفى التعبير ب (شىء عظيم) إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها ، والعبارة ضيقة ، لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام.

ثم هوّل شأنها ، فقال : يَوْمَ تَرَوْنَها

أي : الزلزلة ، وتشاهدون هول مطلعها ، تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ

أي :

مباشرة للإرضاع ، عَمَّا أَرْضَعَتْ

أي : تغفل وتغيب ، من شدة الدهش عما هى بصدد إرضاعه من طفلها ، الذي ألقمته ثديها. فالمرضعة ، بالتاء ، هى المباشرة الإرضاع بالفعل ، والمرضع - بلا تاء - لمن شأنها ترضع ، ولو لم تباشر الإرضاع. والتعبير عنه «بما» ، دون «من» لتأكيد الذهول ، كأنها من شدة الهول لا تدرى من هو

بخصوصه ، وقيل : «ما» مصدرية ، أي : تذهل عن إرضاعها. والأول أدل على شدة الهول وكمال الانزعاج.

وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها

أي : تلقى جنينها من غير تمام ، كما أن المرضعة تذهل عن ولدها قبل الفطام. وهذا على قول من يقول : إنها قبل نفخة الصعق ظاهر ، وأما على من يقول ، إنها بعد قيام الساعة ، فقد قيل : إنه تمثيل لتهويل الأمر وشدته. وَتَرَى النَّاسَ سُكارى

أي : وترى أيها الناظر الناس سكارى ، على التشبيه ، من شدة الهول ، كأنهم سكارى لمّا شاهدوا بساط العزة وسلطنة القهرية ، حتى قال كلّ نبى : نفسى نفسى. وَما هُمْ بِسُكارى

على التحقيق ، وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

، فخوف عذابه هو الذي أذهل عقولهم ، وطيّر تمييزهم ، وردهم فى حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه. وعن الحسن : وترى الناس سكارى من الخوف ، وما هم بسكارى من الشراب. وقرئ : (سُكارى)

كعطشى. والمعنى واحد ، غير أن فعلى يختص بما فيه آفة ، كجرحى وقتلى ومرضى. والله تعالى أعلم.

الإشارة : يا أيها الناس اتقوا ربكم وتوجهوا إليه بكليتكم ، حتى تشرق على قلوبكم أنوار ربكم ، فتنزلزل أرض نفوسكم ، وتدك جبال عقولكم ، عند سطوع شمس العرفان ، والاستشراف على مقام الإحسان. إن زلزلة الساعة ، التي تشرف فيها على أسرار الذات ، شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، لو كانت أنثى ،

---

(١) الآية ٩٧ من سورة الأنبياء.

وتضع كل ذات حمل حملها كذلك ، أو تضع كل ذات حمل أثقالها بالغيبة فى ربها ، وترى الناس سكارى من خمر المحبة ، وما هم بسكارى من شراب الدّوالى «١» ، لكن من خمر الكبير المتعالي ، كما قال الششترى فى الخمرة الأزلية - بعد كلام :

لا شراب الدّوالى إنّها أرضيّة خمرها دون خمرى ، خمرتى أزليّة.

ولكن عذاب اللّه - الذي قدمه قبل دخول جنته المعنوية وحفت به ، وهى جنه المعارف - شديد ، ولكنه يحلو فى جانب ما ينال بعده ، كما قال الشاعر :

والنّفس عزّت ، ولكن فيك أبذلها والذّل مرّ ، ولكن فى رضاك حلا
يا من عذابى عذب فى محبته لا أشتكى منك لا صدا ولا مللا.
ثم ذكر حال من أنكرها ، «٢» ولم يتأهب للقائها ، فقال :
[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٣ الى ٤]
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (٤)
قلت : (وَ مِنَ النَّاسِ) : خبر ، و(من يجادل) : مبتدأ ، و(بِغَيْرِ عِلْمٍ) : حال من ضمير «يجادل» ، و(أَنَّهُ) : نائب فاعل (كُتِبَ) ، أي : كتب عليه إضلال من تولاه ، و(فأنه) : من فتح : عنده خبر عن مبتدأ مضمر ، أي : فشأنه أن يضله ، والجملة جواب «من» ، إن جعلتها شرطية ، وخبر ، إن جعلتها موصولة متضمنة لمعنى الشرط ، ومن كسر : فخبر ، أو جواب «من».
يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ ويخاصم فِي اللَّهِ أي : فى شأنه ، ويقول مالا يليق بجلال كبريائه وكمال قدرته ، ملابسا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، بل بجهل عظيم حمله على ما فعل. نزلت فى النضر ابن الحارث ، وكان جدلا ، يقول : الملائكة بنات اللّه ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا بعث بعد الموت ، واللّه غير قادر على إحياء من بلى وصار رميما «٣». وهى عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين ، وكل من يخاصم فى الدين بالهوى. وَيَتَّبِعُ فى ذلك كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ عات متمرد ، مستمر فى الشر. قال الزجاج : المريد والمارد : المرتفع الأملس ، أي : الذي لا يتعلق به شيء من الخير ، والمراد : إما رؤساء الكفرة الذين يدعونهم إلى الكفر ، وإما إبليس وجنوده.

---

(١) أي : العنب. وراجع التعليق على إشارة الآية ٢١٩ من سورة البقرة.
(٢) أي : الساعة.
(٣) ذكره البغوي فى تفسيره (٥/ ٣٦٥). [.....]

ثم وصف الشيطان المريد بقوله : كُتِبَ عَلَيْهِ أي : قضى على ذلك الشيطان أَنَّهُ أي : الأمر والشأن مَنْ تَوَلَّاهُ أي : اتخذه وليّا وتبعه ، فَأَنَّهُ أي : الشيطان يُضِلُّهُ عن سواء السبيل ، وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ أي : النار. والعياذ بالله.
الإشارة : ومن الناس من تنكبت عنه سابقة الخصوصية ، فجعل يجادل فى طريق اللّه ، وينكر على

المتوجهين إلى الله ، إذا خرقوا عوائد أنفسهم ، وسدّ الباب فى وجوه عباد اللّه ، فيقول : انقطعت التربية النبوية ، وذلك منه بلا علم تحقيق ولا حجة ولا برهان ، وإنما يتبع فى ذلك كلّ شيطان مريد ، سوّل له ذلك وتبعه فيه. كتب عليه أنه من تولاه ، وتبعه فى ذلك ، فأنه يضله عن طريق الخصوص ، الذين فازوا بمشاهدة المحبوب ، ويهديه إلى عذاب السعير ، وهو غم الحجاب والحصر فى سجن الأكوان ، وفى أسر نفسه وهيكل ذاته ، عائذا بالله من ذلك.

ثم برهن على قيام الساعة ، التي خوّف منها ، ورد من يجادل فيها ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٥ الى ٧]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ أي : إن شككتم فى أمر البعث ، فمزيل ريبكم أن تنظروا فى بدء خلقكم ، وقد كنتم فى الابتداء ترابا وماء ، وليس سبب إنكاركم البعث إلا هذا ، وهو صيرورة الخلق ترابا وماء ، فكما بدأكم منه يعيدكم منه ، كما قال تعالى : فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ أي : أباكم مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ خلقناكم مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ أي : قطعة دم جامدة ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ أي : لحمة صغيرة ، بقدر ما يمضغ ، مُخَلَّقَةٍ أي : مصورة الخلقة ، وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ أي : لم يتبين خلقها وصورتها بعد.

والمراد : تفصيل حال المضغة من كونها أولا مضغة ، لم يظهر فيها شيء من الأعضاء ، ثم ظهرت بعد ذلك شيئا فشيئا. وكان مقتضى الترتيب أن يقدم غير المخلقة على المخلقة ، وإنما أخرت عنها لأنها عدم الملكة ، والملكة أشرف من العدم.

وإنما فعلنا ذلك لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، بهذا التدريج ، كمال قدرتنا وحكمتنا لأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا ، ثم من نطفة ثانيا ، وقدر على أن يجعل النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاما ، قدر على إعادة ما بدأ ، بل هو أهون فى القياس وَنُقِرُّ أي : نثبت فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ ثبوته إِلى أَجَلٍ

مُسَمًّى : وقت الولادة ، ومالم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام. ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ من الرحم طِفْلًا ، أي : حال كونكم أطفالا.

والإفراد باعتبار كل واحد منهم ، أو بإرادة الجنس ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ أي : ثم نربيكم لتبلغوا كمال عقلكم وقوتكم. والأشد : من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل له واحد. ووقته : قيل : ثلاثون سنة ، وقيل : أربعون.

وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى قبل بلوغ الأشد أو بعده ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ أي : أخسه ، وهو الهرم والخرف ، لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً أي : لكيلا يعلم شيئا من بعد ما كان يعلمه من العلوم ، مبالغة فى انتقاص علمه ، وانتكاس حاله ، أي : ليعود إلى : ما كان عليه فى أوان الطفولية ، من ضعف البنية ، وسخافة العقل ، وقلة الفهم ، فينسى ما علمه ، وينكر ما عرفه ، ويعجز عما قدر عليه. قال ابن عباس : من قرأ القرآن ، وعمل به ، لا يلحقه أرذل العمر. ثم ذكر دليلا آخر على البعث ، فقال : وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً : ميته يابسة ، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ تحركت بالنبات وَرَبَتْ انتفخت وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ : صنف بَهِيجٍ : حسن رائق يسر ناظره.

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ أي : ذلك الذي ذكرنا من خلق بنى آدم ، وإحياء الأرض ، مع ما فى تضاعيف ذلك من أصناف الحكم ، حاصل بهذا ، وهو أن اللّه هو الحق ، أي : الثابت الوجود. هكذا للزمخشرى ومن تبعه ، وقال ابن جزى : والظاهر : أن الباء ليسست سببية ، كما قال الزمخشري ، وهو أيضا مقتضى تفسير ابن عطية ، وإنما يقدر لها فعل يتعلق به ويقتضيه المعنى ، وذلك أن يكون التقدير : ذلك الذي تقدم من خلق الإنسان والنبات ، شاهد بأن الله هو الحق ، وبأنه يحيي الموتى ، وبأن الساعة آتية ، فيصح عطف وَأَنَّ السَّاعَةَ على ما قبله ، بهذا التقدير ، وتكون هذه الأشياء المذكورة ، بعد قوله : (ذلك) ، مما استدل عليه بخلقة الإنسان والنبات. هـ.

قال المحشى الفاسى : ويرد عليه : أن تقديره عاملا خاصا يمنع حذفه ، وإنما يحذف إذا كان كونا مطلقا ، فلا يقال : زيد فى الدار ، وتريد ضاحك مثلا ، إلا أن يقال فى الآية : دل عليه السياق ، فكأنه مذكور. وعند الكواشي :

ليعلموا بأن الله هو الحق. وقال القرطبي : قوله : ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، لمّا ذكر افتقار الموجودات إليه ، وتسخيرها على وفق اقتداره واختياره ، قال بعد ذلك : ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، نبه بهذا على أن كل ما سواه ، وإن كان موجودا فإنه لا حقيقة له من نفسه لأنه مسخر ومصرف ، والحق الحقيقي هو

الموجود المطلق ، الغنى المطلق ، وإنّ وجود كل موجود من وجوب وجوده ، ولهذا قال فى آخر السورة : وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ «١» ، والحق هو الوجود الثابت ، الذي لا يزول ولا يتغير ، وهو اللّه تعالى. ثم قال عن الزجاج : (ذلك) فى موضع رفع ، أي : الأمر ما وصف لكم وبيّن لأن اللّه تعالى هو الحق ، ويجوز كونه فى موضع نصب ، أي : فعل ذلك بأن اللّه هو الحق ، قادر على ما أراد. هـ.

وذلك أيضا شاهد بأنه يُحْيِيَ الْمَوْتى كما أحيا الأرض ، مرة بعد أخرى ، وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أي : مبالغ فى القدرة ، وإلّا لما أوجد هذه الموجودات الفائتة الحصر. وتخصيص إحياء الموتى بالذكر ، مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع ، وللطعن فى نحور المنكرين. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ : قادمة عليكم ، لا رَيْبَ فِيها ، وإيثار اسم الفاعل على الفعل للدلالة على تحقق إتيانها وتقريره البتّة. ومعنى نفى الريب عنها : أنها ، فى ظهور أمرها ووضوح دلائلها ، بحيث ليس فيها مظنة الريب ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ لأنه تعالى حكم بذلك ووعد به ، وهو لا يخلف الميعاد ، والتعبير ب «من فى القبور» : خرج مخرج الغالب ، وإلّا فهو يبعث كل من يموت. واللّه تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة : يا أيها الناس المنكرون لوجود التربية النبوية ، وظهور أهل الخصوصية فى زمانهم ، الذين يحيى اللّه الأرواح الميتة ، بالجهل والغفلة ، على أيديهم إن كنتم فى ريب من هذا البعث فانظروا إلى أصل نشأتكم وتنقلات أطواركم ، فمن فعل ذلك وقدر عليه ، قدر أن يحيى النفوس الميتة بالغفلة فى كل زمان. وفى الحكم : «من استغرب أن ينقذه اللّه من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته ، فقد استعجز القدرة الإلهية ، وكان اللّه على كل شىء مقتدرا». وجرت عادته أنه لا يحييها فى الغالب إلا على أيدى أهل الخصوصية. وترى أرض النفوس هامدة ميتة بالغفلة ، فإذا أنزلنا عليها ماء الحياة ، وهى الواردات الإلهية ، وأسقيناها الخمرة القدسية ، اهتزت فرحا بالله ، وربت ، وارتفعت بالعلم بالله ، وأنبتت من أصناف العلوم والحكم ، ما تبهج منه العقول ، ذلك شاهد بوحدانية الحق ، وأن ما سواه باطل. وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة الحج.

(٣/٥١٤)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥١٥

ثم ذكر نوعا آخر من أهل الإنكار والجدل ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٨ الى ١٠]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (٨) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (٩) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ أي : فى شأنه ، فيصفه بغير ما هو أهله ، وهو أبو جهل ، كما قال ابن عباس رضى اللّه عنه ، وقيل : هو من يتصدى لإضلال الناس ، كائنا من كان. حال كونه بِغَيْرِ عِلْمٍ ، بل بجهل وهوىّ. والمراد بالعلم : الضروري ، كما أن المراد بالهدى فى قوله : وَلا هُدىً : هو الاستدلال والنظر الصحيح ، الهادي إلى المعرفة. وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ أي : وحي يستند إليه ، والحجة إنما تقوم بأحد هذه الثلاثة ، أي : يجادل فى شأنه تعالى ، من غير تمسك بمقدمة ضرورية ، ولا بحجة نظرية ، ولا ببرهان سمعى.

حال كونه ثانِيَ عِطْفِهِ أي : لاويا عنقه عن طاعة اللّه كبرا وعتوا ، أو عاطفا بجانبه ، وطاويا كشحه «١» ، معرضا متكبرا ، فثنى العطف كناية عن التكبر. وقرأ الحسن بفتح العين ، أي : مانعا تعطفه على المساكين قسوة. فعل ذلك الجدال لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : ليضل الناس عن سبيل اللّه فإنّ غرضه بالمجادلة إضلال المؤمنين ، أو جميع الناس ، وقرأ الملكي وأبو عمر : بفتح الياء ، أي : ليصير ضالا عن سبيل اللّه. وجعل ضلاله غاية لجداله ، من حيث إن المراد به الضلال المبين ، الذي لا هداية بعده ، مع تمكنه منها قبل ذلك ، أي : ليرسخ فى الضلالة أىّ رسوخ ، لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ : هوان وذل ، وهو القتل يوم بدر ، وهو بيان نتيجة ما سلكه من الطريقة ، أي : يثبت له ، بسبب ما فعل ، خزى وصغار ، وهو ما أصابه ببدر ، وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ أي : النار المحرقة.

ذلِكَ أي : ما ذكر من العذاب الدنيوي والأخروى. وما فى الإشارة من البعد للإيذان بكونه فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة ، أي : ذلك العذاب الهائل بِما قَدَّمَتْ يَداكَ أي : بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي. وإسناده إلى يديه لأن الاكتساب فى الغالب بهما. والالتفات لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد. أو يقال له يوم القيامة : ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ، فلا يأخذ أحدا بغير ذنب ولا بذنب غيره. وهو خبر عن مضمر ، أي : والأمر أنّ اللّه ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب ، وأما عطفه على «بما» فغير سديد ، ولفظ المبالغة لاقترانه بلفظ الجمع فى العبيد ، ولأن قليل الظلم منه ، مع علمه بقبحه واستغنائه عنه ، كالكثير منا. قاله النسفي.

---

(١) الكشح : الخصر.

وقيل : «ظلام» : بمعنى : ذى ظلم ، فتكون الصيغة للنّسب. والتعبير عن ذلك بنفي الظلم ، مع أن تعذيبهم بغير ذنب ، ليس بظلم قطعا ، على ما تقرر فى مذهب أهل السنة ، فضلا عن كونه ظلما بالغا لأن الحق تعالى إنما يظهر لنا كمال العدل ، وغاية التنزيه ، وإن كان فى نفس الأمر جائز أن يعذب عباده بلا ذنب ، ولا يسمى ظلما لأنه تصرف فى ملكه ، لكنه تعالى لم يظهر لنا فى عالم الشهادة إلا كمال العدل. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من يخاصم فى طريق القوم ، وينفيها عن أهلها ، إما أن يكون تقليدا ، وهو ما تقدم ، أو يكون تكبرا وعتوا ، بحيث لم يرض أن يحط رأسه لهم ، وهو ما أشير إليه هنا. ولا شك أن المتكبر لا بد أن يلحقه ذل ، ولو عند الموت. ويوم القيامة يحشر صاغرا كالذر ، كما فى الحديث. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر حال المذبذبين ، بعد ذكر حال المجادلين المصمّمين ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ١١ الى ١٣]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)

قلت : (لَمَنْ ضَرُّهُ) : قال ابن عطية : جرى فيه إشكال وهو دخول اللام على «من» ، وهو فى الظاهر مفعول ، واللام لا تدخل على المفعول. وأجيب بثلاثة أوجه أحدها : أن اللام متقدمة على موضعها ، والأصل أن يقال :

يدعو من لضرّه أقرب ، فموضعها الدخول على المبتدأ ، وثانيها : أنّ «يدعو» تأكيد ليدعو الأول ، وتم الكلام عنده ، ثم ابتدأ قوله : (لَمَنْ ضَرُّهُ) ، فمن مبتدأ ، وخبره : (لَبِئْسَ الْمَوْلى) - قلت : وإياه اعتمد الهبطي في وقفه ، وثالثها : أن معنى «يدعو» : يقول يوم القيامة هذا الكلام ، إذا رأى مضرة الأصنام ، فدخلت اللام على مبتدأ فى أول الكلام. هـ.

قلت : والأقرب ما قاله الزجاج ، وهو : أن مفعول (يدعو) محذوف ، ويكون ضميرا يعود على الضلال ، وجملة :

(يَدْعُوا) : حال ، والمعنى : ذلك هو الضلال البعيد يدعوه ، أي : حال كونه مدعوا له ، ويكون قوله : (لَمَنْ ضَرُّهُ) مستأنفا مبتدأ ، خبره : «لبئس المولى». نقله المحشى. وحكم المحلى بزيادة اللام.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ أي : على طرف من الدين لاثبات له فيه ، كالذى ينحرف إلى طرف الجيش ، فإن أحس بظفر قرّ ، وإلا فر. وفى البخاري عن ابن عباس : «كان الرجل

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥١٧
يقدم المدينة ، فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله ، قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله ، قال :
هذا الدين سوء» «١». وكأن الحق تعالى سلك فى الآية مسلك التدلي ، بدأ بالكافر المصمم ، يجادل جدالا مجملا ، يتبع فيه كل شيطان مريد. والثاني : مقلد مجادل ، من غير دليل ولا برهان ، والثالث : كافر أسلم إسلاما ضعيفا. ثم قابل الأقسام الثلاثة بضدهم ، بقوله : إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا ... الآية.
ثم كمّل حال المذبذب بقوله : فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ أي : دنيوى من الصحة فى البدن ، والسعة فى المعيشة ، اطْمَأَنَّ بِهِ أي : ثبت على ما كان عليه ظاهرا ، لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين ، الذين لا يلويهم عنه صارف ، ولا يثنيهم عنه عاطف. وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ : بلاء فى جسده ، وضيق فى معيشته ، أو شىء يفتتن به ، من مكروه يعتريه فى بدنه أو أهله أو ماله ، انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ أي : ارتد ورجع إلى الكفر ، كأنه تنكس بوجهه إلى أسفل. أو انقلب على جهته التي كان عليها. وتقدم عن ابن عباس أنها نزلت فى أعاريب قدموا المدينة ، مهاجرين ، فكان أحدهم إذا صحّ بدنه ونتجت فرسه مهرا سريا ، وولدت امرأته غلاما سويا ، وكثر ماله وماشيته ، قال : ما أصبت ، مذ دخلت فى دينى هذا ، إلا خيرا ، واطمأن ، وإن كان الأمر خلافه ، قال : ما أصبت إلا شرّا ، وانقلب عن دينه. وعن أبى سعيد رضى اللّه عنه : أنّ يهوديا أسلم فأصابته مصائب ، وتشاءم بالإسلام ، فأتى النّبى صلى اللّه عليه وسلم فقال : أقلنى ، فقال : «إنّ الإسلام لا يقال» ، فنزلت «٢».
خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ : فقدهما ، وضيعهما بذهاب عصمته ، وحبوط عمله بالارتداد. وقرأ يعقوب : خاسر ، على الحال. ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ الواضح ، الذي لا يخفى على أحد أنه لا خسران مثله.
ثم بيّن وجه خسرانه بقوله : يَدْعُوا أي : يعبد مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : متجاوزا عنه تعالى ، ما لا يَضُرُّهُ إذا لم يعبده ، وَما لا يَنْفَعُهُ إذا عبده. ذلِكَ الدعاء هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ أي : التلف البعيد عن الحق.
يَدْعُوا أي : يعبد لَمَنْ ضَرُّهُ أي : الصنم الجامد الذي ضرره أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ. وقرأ ابن مسعود : «يدعو من ضره» ، بحذف اللام. أو : ذلك هو الضلال البعيد يدعوه هذا المذبذب المنقلب على وجهه. قال ابن جزى : وهنا إشكال : وهو أنه تعالى وصف الأصنام بأنها لا تضر ولا تنفع ، ثم وصفها بأن ضررها أكثر من نفعها ، فنفى الضر ثم أثبته؟ والجواب : أن الضر المنفي أولا يراد به ما يكون من فعلها ، وهى لا تفعل شيئا ، والضر الثاني ، الذي أثبته لها ، يراد به ما يكون بسببها من العذاب وغيره.
هـ. لَبِئْسَ الْمَوْلى أي : الناصر ، وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ أي : الصاحب. أو : يدعو ويصرخ يوم القيامة ، حين

يرى استضراره بالأصنام ، ولا يرى لها أثر الشفاعة ، ويقول لمن ضره أقرب من نفعه : لبئس المولى هو ولبئس العشير. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة الحج) عن ابن عباس رضى اللّه عنه.
(٢) ذكره الواحدي فى الأسباب (٣١٧) ، بدون إسناد ، عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدري.

(٥١٧/٣)

الإشارة : ومن الناس من يعبد اللّه على حرف على طرف من الدين ، غير متمكن فيه ، فإنه أصابه خير ، وهو ما تسر به النفس من أنواع الجمال ، اطمأن به ، وإن أصابته فتنة ، وهو ما يؤلم النفس وينغص عليها مرادها وشهوتها من أنواع الجلال ، انقلب على وجهه. أو : ومن الناس من يعبد اللّه على طمع فى الجزاء الدنيوي أو الأخروى ، فإن أصابه خير فرح واطمأن به ، وإن أصابته فتنة سخط وقنط وانقلب على وجهه. أو : ومن الناس من يعبد اللّه ويسير إليه على حرف ، أي : حالة واحدة ، فإن أصابه خير كقوة ونشاط وورود حال اطمأن به وفرح ، وإن أصابته فتنة كضعف وكسل وذهاب حال ، انقلب على وجهه ، ورجع إلى العمومية ، أو وقف عن السير ، خسر الدنيا والآخرة. خسران الدنيا : ما يفوته من عز اللّه ونصره لأوليائه ، وحلاوة برد الرضا والتسليم ، ولذيذ مشاهدته. وخسران الآخرة : ما يفوته من درجة المقربين ، ودوام شهود رب العالمين. فالواجب على العبد أن يكون عبدا لله فى جميع الحالات ، لا يختار لنفسه حالا على حال ، ولا يقف مع مقام ولا حال ، بل يتبع رياح القضاء ، ويدور معها حيث دارت ، ويسير إلى اللّه فى الضعف والقوة.

قال بعضهم : سيروا إلى اللّه عرجي ومكاسير. وفى الحكم : «إلهى قد علمت ، باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار ، أن مرادك منى أن تتعرف إليّ فى كل شيء ، حتى لا أجهلك فى شى ء». وقال أيضا : «لا تطلبن بقاء الواردات ، بعد أن بسطت أنوارها ، وأودعت أسرارها ، فلك فى اللّه غنى عن كل شيء ، وليس يغنيك عنه شى ء».

فكن عبد المحوّل ، ولا تكن عبد الحال ، فالحال تحول وتتغير ، واللّه تعالى لا يحول ولا يزول ، فكن عبدا للّه ، ولا تكن عبدا لغيره.

لكلّ شيء ، إن فارقته ، عوض وليس للّه ، إن فارقت من عوض

ثم شفع الحق تعالى بضد ما ذكره قبل ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : آية ١٤]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وتمكنوا من الإيمان ، وعبدوا اللّه وحده فى جميع الحالات ، ولم يعبدوه على حرف ، وَعَمِلُوا الأعمال الصَّالِحاتِ ، جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أي : من تحت قصورها الْأَنْهارُ الأربعة. وهذا بيان حال المؤمنين العابدين له تعالى فى جميع الحالات ، وأنّ اللّه تفضل عليهم ، بما لا غاية وراءه ، إثر بيان سوء حال الكفرة ، من المجاهرين والمذبذبين ، وأنّ معبودهم لا ينفعهم ،

(٥١٨/٣)

بل يضرهم مضرة عظيمة. ثم قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ من الأفعال المتقنة ، المبنية على الحكم البالغة الرائقة ، التي من جملتها : إثابة من آمن به ، وصدّق رسوله ، وعبده على كل حال ، وعقاب من أشرك به ، وكذب رسول اللّه ، أو عبده على حرف. وباللّه التوفيق.

الإشارة : إن اللّه يدخل الذين آمنوا ، واطمأنوا به ، وعبدوه فى جميع الحالات ، وقاموا بعمل العبودية فى كل الأوقات ، جنات المعارف ، تجرى من تحتها أنهار العلوم والحكم ، إن اللّه يفعل ما يريد فيقرب هذا ، ويبعد هذا ، بلا سبب «جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى العلل». وباللّه التوفيق.

ولمّا كان نفوذ هذا الوعيد فى المشركين ، وإنجاز وعد المؤمنين تصديقا لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، ونصرة له ، ذكر حال من غاظه ذلك وكرهه ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ١٥ الى ١٦]

مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (١٥) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦)

يقول الحق جل جلاله : لا تظنوا أن اللّه غير ناصر لرسوله صلى اللّه عليه وسلم بل هو ناصر له فى الدنيا والآخرة لا محالة ، فمن كان يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، ويغيظه ذلك من أعاديه وحساده ، ويفعل ما يدفع ذلك من الخدع والمكائد ، فليبالغ فى استفراغ المجهود ، وليجاوز كل حد معهود ، فعاقبة أمره أن يختنق خنقا من ضلال مساعيه ، وعدم إنتاج مقدماته ومبادئه. فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ أي : فليمدد حبلا إلى سقف بيته ، ثُمَّ لْيَقْطَعْ أي : ليختنق ، من قطع : إذا اختنق لأنه يقطع نفسه بحبس مجاريه. أو : ليقطع من الأرض ، بعد ربط الحبل فى العنق وربطه فى السقف. فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ أي : فليصور فى نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر اللّه الذي يغيظه

بسبب فعله ، وسمى فعله كيدا ، على سبيل الاستهزاء لأنه لم يكد به محسوده ، إنما كاد به نفسه.
والمراد : ليس فى يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه ، فتحصّل أن الضمير فى (ينصره) يعود على النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وإن لم يتقدم ذكره صراحة ، لكنه معهود إذ الوحى إنما ينزل عليه. وقيل : يعود على «من» ، والمعنى على هذا : من ظن - بسبب ضيق صدره ، وكثرة غمه - أن لن ينصره اللّه ، فليختنق وليمت بغيظه ، فإنه لا يقدر على غير ذلك ، فموجب الاختناق ، على هذا ، القنوط والسخط من القضاء ، وسوء الظن باللّه تعالى ، حتى يئس من نصره.

(٥١٩/٣)

قال ابن جزى : وهذا القول أرجح من الأول لوجهين : أحدهما : أن هذا القول مناسب لمن يعبد اللّه على حرف لأنه ، إذا أصابته فتنة ، انقلب وقنط ، حتى ظنّ أن لن ينصره اللّه. ويؤيده من فسّر (أن لن ينصره اللّه) أي : لن يرزقه إذ لا خير فى حياة تخلو من عون اللّه عز وجل ، فيكون الكلام ، على هذا ، متصلا بما قبله.
ويؤيده أيضا : قوله تعالى ، قبله : إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ أي : الأمور بيد اللّه ، فلا ينبغى لأحد أن يسخط من قضاء اللّه ، ولا ينقلب إذا أصابته فتنة ، والوجه الثاني : أن الضمير فى «ينصره» ، على هذا ، يعود على ما تقدّمه ذكر ، دون الأول. هـ. وانظر ابن عطية والكواشي ، ففيهما ما يدفع درك ابن جزى ، ورده للأول ، بما فى سبب الآية ونزولها من المناسبة.
ثم قال تعالى : وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ أي : ومثل ذلك الإنزال البديع ، المنطوى على الحكم البالغة ، أنزلناه ، أي : القرآن الكريم كله ، حال كونه آياتٍ بَيِّناتٍ : واضحات الدلالة على معانيها الرائقة ، وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي به مَنْ يُرِيدُ هدايته ابتداء ، أو يثبته على الهدى دواما ، ومحل «أن» : إما الجار ، أي : ولأن اللّه يهدى ، أو الرفع ، أي : والأمر أن اللّه يهدى من يريد.
الإشارة : من غلبته نفسه ، وملكته وأسرته فى يدها فدواؤه : الفزع إلى اللّه ، والاضطرار إليه آناء الليل والنهار ، والمنهاج الواضح فى علاجها وقهرها : هو الفزع إلى أولياء اللّه ، العارفين به ، الذين سلكوا طريق التربية على يد شيخ كامل ، فإذا ظفر بهم ، فليلزم صحبتهم ، وليتبع طريقهم ، وليسارع إلى فعل كل ما يشيرون به إليه ، من غير تردد ولا توقف ، فهم معناه ، شرعا ، أم لا ، فلا شك أن اللّه ينصره ويؤيده ، ويظفر بنفسه فى أسرع مدة. وليس الخبر كالعيان ، وجرّب .. ففى التجريب علم الحقائق ، وكذلك من ابتلى بالوسواس وخواطر السوء فى أمر التوحيد ، فليفزع إليهم ، حتى يقلعوا من قلبه عروق الشكوك والأوهام ، وتذهب عنه الأمراض والأسقام ، بإشراق شمس العرفان على قلبه ، ويفضى إلى

طريق الذوق والوجدان ، وغير هذا عناء وتعب ، ولو فرض أنه يسكن عنه ذلك ، فلا يذهب عنه بالكلية ، فربما يهيج عليه فى وقت الضعف عند الموت ، فلا يستطيع دفعه ، فيلقى اللّه بقلب سقيم. والعياذ باللّه.

فإن قلت : هذا الذي دللتنى عليه عزيز غريب ، فقد دللتنى على عنقاء مغرب؟ قلت : واللّه ، إن حسنت الظن باللّه وبعباد اللّه ، واضطررت إليه اضطرار الظمآن إلى الماء ، لوجدته أقرب إليك من كل شيء. واللّه ، لقد وجدناهم وظفرنا بهم ، على مناهج الجنيد وأضرابه ، يغنون بالنظر ، ويسيرون بالمريد حتى يقول له : ها أنت وربك. والمنة للّه.

فمن ترك ما قلنا له ، وآيس من الدواء ، وظن أن لن ينصره اللّه فى الدنيا والآخرة ، فليمت غيظا وقنطا ، فلا يضر إلا نفسه لأن اللّه يهدى من يريد ، فيوفقه للدواء ، ومن يرد اللّه فتنته فلن تملك له من اللّه شيئا. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر مآل من آمن بالقرآن ، الذي هو آيات بينات ، ومآل من أعرض عنه ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : آية ١٧]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)

(٥٢٠/٣)

قلت : إنّ اللَّهَ يَفْصِلُ : خبر «إنّ» الأولى.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بما ذكر من الآيات البينات ، أو بكل ما يجب الإيمان به - فيدخل ما ذكر دخولا أوليا - أي : آمنوا بذلك ، بهداية اللّه وإرادته ، وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ ، وهم قوم من النصارى ، اعتزلوهم ، ولبسوا المسوح ، وقيل : أخذوا من دين النصارى شيئا ، ومن دين اليهود شيئا ، وهم القائلون بأن للعالم أصلين : نورا وظلمة ، ويعتقدون تأثير النجوم. وَالْمَجُوسَ وهم الذين يعبدون النار ، ويقولون : إن الخير من النور ، والشر من الظلمة ، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وهم عبدة الأصنام من العرب وغيرهم ، فهذه ستة أديان ، خمسة للشيطان ، وواحد للرحمن. إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فى الأحوال والأماكن ، فلا يجازيهم جزاء واحدا ، ولا يجمعهم فى موطن واحد. أو يحكم بين المؤمنين ، وبين الفرق الخمسة المتفقة على ملة الكفر ، بإظهار المحق من المبطل ، فيكرم المحق ويهين المبطل ، إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أي : عالم بكل شيء ، مراقب لأحواله ، حافظ له ، مطلع على سره وعقده. ومن قضية الإحاطة بتفاصيل كل فرد من أفراد الفرق المذكورة :

إجراء جزائه اللائق عليه ، وهو أبلغ وعيد. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : كما يفصل اللّه يوم القيامة بين الملل المستقيمة والفاسدة يفصل أيضا بين أرباب القلوب المستقيمة الصحيحة المعمورة بنور اللّه ، وبين أرباب القلوب السقيمة الخاربة من النور ، المعمورة بالظلمة من الوساوس والخواطر ، فيرفع الأولين مع المقربين الصديقين ، ويسقط الآخرين فى أسفل سافلين ، أو مع عامة أهل اليمين.
وباللّه التوفيق ، ثم برهن على كونه شهيدا على الأشياء بسجودها له ، وخضوعها من هيبته ، فقال :
[سورة الحج (٢٢) : آية ١٨]
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (١٨)
يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ ، أيها السامع ، أو من يتأتى منه الرؤية ، أي : رؤية علم واستبصار ، أو :
يا محمد ، علما يقوم مقام العيان ، أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ أي : ينقاد إليه انقيادا تامّا مَنْ فِي السَّماواتِ من الملائكة ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ من الإنس والجن والملائكة. ويحتمل أن تكون «من» : عامة للعاقل وغيره ،

فيدخل كل ما فى السموات من عجائب المصنوعات ، وكل ما فى الأرض من أنواع المخلوقات. ويكون قوله :
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ، من عطف الخاص على العام لاستبعاد ذلك منها عادة. ويحتمل أن يكون السجود على حقيقته ، ولكن لا نفقه ذلك ، كما لا نفقه تسبيحهم.
ونقل الكواشي عن أبى العالية : (ما فى السماء نجم ، ولا شمس ، ولا قمر ، إلا يقع ساجدا حين تغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له). وذكر فى صحيح البخاري : «أن الشمس لا تطلع حتى تسجد وتستأذن» «١». وقال مجاهد : (سجود الجبال والشجر والدواب : تحوّل ظلالها). أو سجودها : طاعتها فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله تعالى ، خاشع ، يسبح له. شبّه طاعتها له وانقيادها لأمره بسجود المكلف الذي كلّ خضوع دونه.
وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يسجد للّه تعالى سجود طاعة وعبادة ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ حيث امتنع من هذا

السجود ، الذي هو سجود عبادة لكفره وعتوه. قال ابن عرفة : قوله : «وكثير» : يحتمل كونه مبتدأ ، ويكون فى الآية حذف المقابل ، أي : وكثير من الناس مثاب ، وكثير حق عليه العذاب. فلا يرد سؤال الزمخشري. هـ. وقدّره غيره : وكثير من الناس يسجدون ، وكثير يأبى السجود فحق عليه العذاب. وقيل : وكثير حق عليه العذاب بإنكاره النبوة ، وإن سجد للصانع كالفلاسفة واليهود والنصارى. هـ.

وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ بأن صرفته الشقاوة عن الانقياد لأمره الشرعي ، فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ بالسعادة ، أو يوم القيامة ، بل يذل ويهان ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ فى ملكه يكرم من يشاء بفضله ، ويهين من يشاء بعدله ، لا معقب لحكمه. اللهم أكرمنا بطاعتك ومحبتك ، واجعلنا منقادين لأمرك وحكمك ، ونعّمنا بحلاوة شهودك ومعرفتك ، إنك على كل شيء قدير. هكذا يدعى فى هذه السجدة. وباللّه التوفيق.

الإشارة : قد تجلى الحق جل جلاله بأسرار ذاته لباطن الأشياء ، وبأنوار صفاته لظاهرها ، فتعرف لكل شيء بأسرار ذاته وأنوار صفاته ، فعرفه كلّ شيء ، ولذلك سجد له وسبح بحمده. وفى الحكم : «أنت الذي تعرّفت لكل شيء ، فما جهلك شي ء». فظواهر الأوانى ساجدة لأسرار المعاني ، وخاضعة للكبير المتعالي ، ولا يفقه هذا إلا من خاض بحر المعاني ، ولم يقف مع حس الأوانى ، ولم يمتنع من الانقياد والخضوع لجلال الحق وكبريائه فى الظاهر والباطن ، إلا من أهانه اللّه من عصاة بنى آدم. ومن يهن اللّه فماله من مكرم ، إن اللّه يفعل ما يشاء.

---

(١) أخرج البخاري فى (التوحيد باب : وكان عرشه على الماء) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب : الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان) ، عن أبى ذر قال : دخلت المسجد ، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالس ، فلما غابت الشمس قال : «يا أبا ذر تدرى أين تذهب هذه؟» قال : قلت : اللّه ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب ، وتستأذن فى السجود ، فيؤذن لها ...» الحديث.

ثم بيّن الفصل ، الذي يفصل به يوم القيامة بين المؤمنين والكفرة بفرقها الخمس ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ١٩ الى ٢٤]

هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٢٣)

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ (٢٤)

قلت : خَصْمانِ : صفة لمحذوف ، أي : فريقان خصمان ، والمراد : فريق المؤمنين ، وفريق الكفرة بأقسامه الخمسة. وقيل : اسم يقع على الواحد والاثنين والجماعة ، والمراد هنا : الجماعة ، بدليل قوله : (اختصموا) بالجمع.

يقول الحق جل جلاله : هذانِ خَصْمانِ أي : مختصمان اخْتَصَمُوا أي : فريق المؤمنين والكافرين. وقال ابن عباس رضى اللّه عنه : (راجع إلى أهل الأديان المذكورة) فالمؤمنون خصم ، وسائر الخمسة خصم ، تخاصموا فِي رَبِّهِمْ أي : فى شأنه تعالى ، أو فى دينه ، أو فى ذاته وصفاته. والكل من شؤونه تعالى ، فكل فريق يصحح اعتقاده ، ويبطل اعتقاد خصمه. وقيل : تخاصمت اليهود والمؤمنون فقالت اليهود : نحن أحق باللّه وأقدم منكم كتابا ، ونبيّنا قبل نبيّكم. وقال المؤمنون : نحن أحق باللّه منكم ، آمنا بنبينا ونبيكم ، وبما أنزل اللّه من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ، ثم كفرتم به حسدا «١». وكان أبو ذر يقسم أنها نزلت فى ستة نفر من قريش ، تبارزوا يوم بدر حمزة وعليّ ، وعبيدة بن الحارث ، مع عتبة ، وشيبه ابني ربيعة ، والوليد «٢»

. وقال عليّ رضى اللّه عنه :

إنى لأوّل من يجثو بين يدى اللّه يوم القيامة للخصومة «٣»

. هـ.

---

(١) أخرجه الطبري فى التفسير (١٧/ ١٣٢) عن ابن عباس رضى اللّه عنه.

(٢) أخرجه البخاري فى (المغازي باب قتل أبى جهل) ، وفى (تفسير سورة الحج. ، باب هذان خصمان اختصموا فى ربهم) ، ومسلم فى (التفسير ، باب فى قوله تعالى : هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ).

(٣) أخرجه البخاري فى الموضعين السابق ذكرهما ، وفى التفسير ، عن قيس بن عبادة ، عن سيدنا عليّ - كرم اللّه وجهه - .

ثم بيّن الفصل بينهم ، المذكور فى قوله : إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، فقال : فَالَّذِينَ كَفَرُوا بما أنزل على محمد صلى اللّه عليه وسلم ، قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ أي : فصّلت وقدرت على مقادير جثثهم ، تشتمل عليهم ، كما تقطع الثياب للبوس. وعبّر بالماضي لتحقق وقوعه. يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ

رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ أي : الماء الحار. عن ابن عباس رضى اللّه عنه : «لو سقطت منه نقطة على الجبال الدنيا لأذابتها». يُصْهَرُ : يذاب بِهِ أي : بالحميم ، ما فِي بُطُونِهِمْ من الأمعاء والأحشاء ، وَالْجُلُودُ تذاب أيضا ، فيؤثر فى الظاهر والباطن ، كلما نضجت جلودهم بدلت.

وتقديم ما فى الباطن للإيذان بأن تأثيرها فى الباطن أقوى من تأثيرها فى الظاهر ، مع أن ملابستها على العكس.

وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ أي : ولتعذيب الكفرة ، أو لأجلهم ، مقامع : جمع مقمعة ، وهى آلة القمع ، أي : سياط من حديد ، يضربون بها. كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أي : أشرفوا على الخروج من النار ، ودنوا منه ، حسبما روى : أنها تضربهم بلهبها فترفعهم ، حتى إذا كانوا بأعلاها ضربوا بالمقامع ، فهووا فيها سبعين خريفا. وقوله :

مِنْ غَمٍّ : بدل اشتمال من ضمير (منها) بإعادة الجار ، والعائد : محذوف ، أي : كلما أرادوا أن يخرجوا من غم شديد من غمومها أُعِيدُوا فِيها أي : فى قعرها ، بأن ردوا من أعاليها إلى أسافلها ، من غير أن يخرجوا منها ، وَقيل لهم : ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ أي : الغليظ من النار ، العظيم الإحراق.

ثم ذكر جزاء الخصم الآخر ، وهم أهل الحق ، فقال : إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، وغيّر الأسلوب فيه ، بإسناد الإدخال إلى اللّه عز وجل ، وتصدير الجملة بحرف التأكيد إيذانا بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة ، وإظهارا لمزيد العناية بحال المؤمنين ، يُحَلَّوْنَ فِيها من التحلية ، وهو التزين ، أي : تحليهم الملائكة بأمره تعالى مِنْ أَساوِرَ أي : بعض أساور : جمع سوار ، مِنْ ذَهَبٍ للبيان ، أي : يلبسون أساور مصنوعة من ذهب ، وَلُؤْلُؤاً ، من جرّه : عطفه على «ذهب» ، أو «أساور» ، ومن نصبه :

فعلى محل «من أساور» ، أي : ويحلّون لؤلؤا ، أو بفعل محذوف ، أي : ويؤتون لؤلؤا. وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ :

أبريسم ، وغيّر الأسلوب ، فلم يقل : ويلبسون حريرا لأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنيّ عن البيان ، إذ لا يمكن عراؤهم عنه ، وإنما المحتاج للبيان : أىّ لباس هو ، بخلاف الأساور واللؤلؤ ، فإنها ليست من اللوازم الضرورية ، فجعل بيان حليتهم بها مقصودا بالذات. انظر أبا السعود.

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وهو كلمة التوحيد : لا إله إلا اللّه أو : الحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، بدليل قوله : إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ «١»

. وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ أي : المحمود ، وهو الإسلام. أو :

---

(١) من الآية ١٠ من سورة فاطر.

ألهمهم اللّه فى الآخرة أن يقولوا : الحمد للّه الذي صدقنا وعده ، وهداهم فيها إلى طريق الجنة. وقيل : إلى طريق الوصول إلى اللّه العزيز الحميد ، واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : قد اختصم أهل الظاهر مع أهل الباطن فى شأن الربوبية ، فقال أهل الظاهر : الحق تعالى لا يرى فى دار الدنيا ، ولا تمكن معرفته ، إلا من جهة الدليل والبرهان ، على طريق الإيمان بالغيب. وقال أهل الباطن من أكابر الصوفية : الحق تعالى يرى فى هذه الدار ، كما يرى فى تلك الدار ، من طريق العرفان ، على نعت الشهود والعيان ، لكن ذلك بعد موت النفوس وحط الرؤوس لأهل التربية النبوية ، فلا يزال يحاذيه ويسير به ، حتى يقول : ها أنت وربك ، فحينئذ تشرق عليه شموس العرفان ، فتغطى عنه وجود حس الأكوان ، فلا يرى حينئذ إلا المكون ، حتى لو كلف أن يرى غيره لم يستطع إذ لا غير معه حتى يشهده.
وقال بعضهم : (محال أن تشهده ، وتشهد معه سواه). وفى مناجاة الحكم العطائية : «إلهى ، كيف يستدلّ عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت ، حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التي توصل إليك؟!». وقال الشيخ أبو الحسن رضى اللّه عنه : (أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان). وهذه الطريق هى طريق التربية ، لا تنقطع أبدا ، فمن كفر بها وجحدها قطعت له ثياب من نار القطيعة ، فيبقى مسجونا بسرادقات محيطاته ، محصورا فى هيكل ذاته ، لا يرى إلا ظلمة الأكوان ، يصب من فوق رأسه ، إلى قلبه ، حرّ التدبير والاختيار ، وكلما أراد أن يخرج من سجن الأكوان وغم الحجاب ردته حيرة الدّهش ، وهيبة الكبرياء والعظمة والإجلال لأن فكرته مسجونة تحت أطباق الكائنات ، مقيدة بعلائق العوائد والشواغل والشهوات. ويقال له : ذق عذاب الحريق ، وهو حرمانك من شهود التحقيق.
إن اللّه يدخل الذين آمنوا بطريق الخصوص ، جنات المعارف ، تجرى من تحتها أنهار العلوم ، يحلون فيها بأنواع المحاسن والفضائل ، ويتطهرون من جميع المساوئ والرذائل ، وهدوا إلى الطيب من القول ، وهو الذكر الدائم بالقلب الهائم ، والمخاطبة اللينة من القلوب الصافية ، وهدوا إلى طريق التربية والترقية ، حتى وصلوا إلى شهود الحبيب ، الحامد المحمود ، القريب المجيب. حققنا اللّه بمقامهم بمنّه وكرمه.
ثم شرع فى المقصود من السورة ، وهو أحكام الحج ، وبدأ بتعظيم البيت تشويقا وترغيبا فى حجه ، فقال :
[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٢٥ الى ٢٦]
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ

وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)

(٥٢٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٢٦

قلت : خبر «إن» : محذوف ، يدل عليه ما بعده ، أي : الذين كفروا نذيقهم من عذاب أليم لأنه إذا كان الملحد فى الحرم معذّبا فالجامع بين الكفر والصد أولى. ومن رفع «سواء» جعله خبرا مقدما.

و«العاكف» :

مبتدأ. ومن نصبه : جعله مفعول «جعل» ، و«العاكف» فاعل به.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ الناس عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، أي : واستمروا على الصد ، ولذلك حسن عطفه على الماضي ، وَيصدون أيضا عن الْمَسْجِدِ الْحَرامِ والدخول فيه ، كأهل مكة مع المسلمين ، الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ أي : مقاما ومسكنا للناس ، كائنا من كان ، لا فرق فيه بين مكى وآفاقى ، وضعيف وقوى ، حاضر وباد. فإن أريد بالمسجد الحرام «مكة» ، ففيه دليل على أن دور مكة لا تباع ، وأن الناس فيها سواء ، فيجوز للقادم أن ينزل منها حيث شاء ، وليس لأحد فيها ملك. وبه قال أبو حنيفة. وقال مالك وغيره : ليست الدور فيها كالمسجد ، بل هى متملّكة. وإن أريد به البيت كان نصا فى إباحته لجميع المؤمنين. وهو مجمع عليه.

سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ أي : مستو المقيم فيه وَالْبادِ ، أي : المسافر من أهل البادية ، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ أي : فى المسجد ، إحداث شىء بِإِلْحادٍ أي : بسبب ميل عن القصد ، بِظُلْمٍ ، وهما حالان مترادفان ، أي : ومن يرد فيه إحداث شىء مائلا عن الحق ، ظالما فيه ، نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ فى الآخرة.

وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك.

وَاذكر يا محمد إِذْ بَوَّأْنا : حين هيأنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ وعيناه له ، حتى بناه فى مكانه مسامتا للبيت المعمور ، حيث كان بناه آدم عليه السّلام ، وقد كان رفع إلى السماء الرابعة ، أيام الطوفان ، وكان من ياقوتة حمراء ، فأعلم اللّه إبراهيم مكانه ، بريح أرسلها ، يقال لها : الخجوج ، فكنست مكان البيت ، وقيل : سحابة على قدر البيت ، وقيل : كلمته ، وقالت له : ابن على قدرى. هـ. فبناه على أساسه القديم «١»

، وفى ابن حجر : أنه جعل طوله فى السماء تسعة أذرع ، ودوره فى الأرض ثلاثين ذراعا بذراعه. وأدخل الحجر فى البيت ، وكان قبل ذلك لغنم

(١) راجع هذه الأقوال فى تفسير الطبري (١٧/ ١٤٣) ، والبغوي (٥/ ٣٧٨).

إسماعيل. وبنى الحجارة بعضها على بعض ، أي : بلا تراب ، ولم يجعل له سقفا ، وحفر له بئرا ، عند بابه خزانة للبيت ، يلقى ما يهدى له. هـ.

روى أن الكعبة الشريفة بنيت خمس مرات ، إحداها : بنتها الملائكة ، وكانت من ياقوتة حمراء ، ثم رفعت أيام الطوفان. والثانية : بناها إبراهيم عليه السّلام ، وقيل : إن جرهم كانت بنتها قبله ، ثم هدمت ، ويدل عليه : التجاء عاد إليها ، حين نزل بهم القحط. فأرسل اللّه عليهم الريح ، وكان ذلك قبل إبراهيم عليه السّلام ، والثالثة : بنتها قريش ، وقد حضرها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قبل النبوة. والرابعة : بناها ابن الزبير ، والخامسة : الحجاج.

ثم قال تعالى : أَنْ لا تُشْرِكْ أي : وقلنا له : ألا تشرك بِي شَيْئاً ، بل خلص عملك فى بنائها وغيره ، من شوائب حظ النفس ، عاجلا وآجلا ، لا طمعا فى جزاء ، ولا خوفا من عقوبة ، بل محبة وشكرا وعبودية. قال القشيري : أي : لا تلاحظ البيت ولا بنيانك. هـ. وقيل : فى الآية طعن على من أشرك من قطّان البيت ، أي : هذا الشرط كان على أبيكم فمن بعده وأنتم ، فلم تقبلوه ، بل أشركتم وصددتم وألحدتم ، فاستحققتم التوبيخ والذم على سلوككم على غير طريق أبيكم.

وَطَهِّرْ بَيْتِيَ من الأصنام والأقذار ، لِلطَّائِفِينَ به وَالْقائِمِينَ للصلاة فيه ، أو المقيمين فيه ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ أي : المصلين ، جمعا من راكع وساجد. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إن الذين كفروا بطريق الخصوصية ، ويصدون الناس عن الدخول فيها ، ويعوقونهم عن مسجد الحضرة ، الذي جعله للناس محلا تسكن فيه قلوبهم ، وتعشش فيه أرواحهم. فكل من قصده وباع نفسه وقلبه للّه ، وصله ودخله ، وهو محل المشاهدة والمكالمة ، والمساررة والمناجاة ، محل شهود الحبيب والمساررة مع القريب ، محل نزهة الأفكار فى فضاء الشهود والاستبصار ، فمن عاق عنها نذقه من عذاب أليم. وقوله تعالى : سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ ، قال القشيري : فيه إشارة إلى أن التفاوت إنما يكون فى الطريق ، وأما بعد الوصول ، فلا تفاوت. ثم إذا اجتمعت النفوس ، فالموضع الواحد مجمعها ، ولكن لكلّ حال يعرف به «١»

. هـ. قلت : مقام التوحيد الخاص ، وهو الفناء ، هو محل الاجتماع ، وتتفاوت بعد ذلك أذواقهم ومواجيدهم ، وازدياد كشوفاتهم وترقياتهم ، تفاوتا بعيدا ، على حسب التفرغ والانقطاع ، والتأهب

والاتباع ، حسبما سبقت به القسمة الأزلية.

وقال الورتجبي ، على قوله تعالى : (و إذ بوأنا ...) الآية : هيأ لخليله وجميع أحبائه بيته ، ودلّه إلى ما فيه من الكرامات والآيات ، وما ألبسه من أنوار حضرته ليكون وسيلة لعبادته ، ومرآة لأنوار آياته. هـ.

قلت : الإشارة بالبيت

---

(١) بالمعنى.

إلى القلب لأنه بيت الرب ، أي : هيأنا لإبراهيم مكان قلبه لمشاهدة أسرار جبروتنا وأنوار ملكوتنا ، ليكون من الموقنين بشهود ذاتنا ، وقلنا له : لا تشرك بنا شيئا من السّوى ، ولا ترى معنا غيرنا ، وطهّر بيتي ، الذي هو القلب ، من الأغيار والأكدار ، ليكون محلا للطائفين به من الواردات والأنوار ، والعاكفين فيه من المشاهدات والأسرار ، والركع السجود من القلوب التي تواجهك بالتعظيم والانكسار ، فإنّ قلب العارف كعبة للواردات والأسرار ، ومحل حج قلوب الصالحين والأبرار. وفى بعض الأثر : «يا داود طهر لى بيتا أسكنه ، فقال : يا رب .. وأىّ بيت يسعك؟ فقال :

لم يسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعني قلب عبدى المؤمن». وفيه عند أهل الحديث كلام. ووسعه للربوبية بالعلم والمعرفة الخاصة. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا فرغ إبراهيم عليه السّلام من بناء البيت ، أمره ربه أن يؤذن فى الناس بالحج ، كما قال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٢٧ الى ٢٩]

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)

قلت : وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ : حال معطوفة على حال ، أي : يأتوك حال كونهم رجالا وركبانا. و(يأتين) : صفة لكل ضامر لأنه فى معنى الجمع. وقرأ عبد اللّه : «يأتون» ، صفة لرجال. و(رجال) : جمع راجل كقائم وقيام.

يقول الحق جل جلاله لإبراهيم عليه السّلام : وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ أي : ناد فيهم ليحجوا. روى : أنه عليه السّلام صعد أبا قبيس ، فقال : يا أيها الناس ، حجوا بيت ربكم ، فأسمعه اللّه تعالى الأرواح ، فأجاب من قدّر له أن يحج من الأصلاب والأرحام بلبيك اللهم لبيك. يَأْتُوكَ إن أذنت رِجالًا أي : مشاة

وَرِكباناً عَلى كُلِّ ضامِرٍ أي : بعير مهزول ، أتعبه بعد الشقة ، فهزّله ، أو زاد هزاله. وقدّم الرجال على الركبان لفضيلة المشاة ، كما ورد فى الحديث يَأْتِينَ تلك الضوامر بركبانها ، مِنْ كُلِّ فَجٍّ طريق عَمِيقٍ بعيد. قال محمد بن

(٥٢٨/٣)

ياسين : قال لى شيخ فى الطواف : من أين أنت؟ فقلت : من خراسان. فقال : كم بينك وبين البيت؟ فقلت : مسيرة شهرين أو ثلاثة. قال : فأنتم جيران البيت. فقلت : وأنت من أين سعيت؟ فقال : من مسيرة خمس سنوات ، وخرجت وأنا شاب ، فاكتهلت. فقلت : هذه واللّه هى الطاعة الجميلة ، والمحبة الصادقة ، فضحك. وقال :

زر من هويت ، وإن شطت بك الدار وحال من دونه حجب وأستار

لا يمنعنك بعد عن زيارته إنّ المحب لمن يهواه زوّار

لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ أي : يأتوك ليحضروا منافع لهم ، دنيوية ودينية ، لا توجد فى غير هذه العبادة كالطواف ونظر الكعبة ، وتضعيف أمر الصلاة لأن العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم ، أو بالمال ، وقد اشتمل الحج عليهما ، مع ما فيه من تحمل الأثقال وركوب الأهوال ، وقطع الأسباب وقطيعة الأصحاب ، وهجرة البلاد والأوطان ، ومفارقة الأهل والولدان. ولذلك ورد أنه يكفر الذنوب كلها ، كما فى الحديث : «من حجّ هذا البيت فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمّه» «١»

.

وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عند ذبح الضحايا والهدايا فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ ، وهى أيام النحر عند مالك ، وعند الشافعي : اليوم الأول والثاني والثالث لأن هذه هى أيام الضحايا عنده. ولم يجز ذبحها بالليل لقوله : فِي أَيَّامٍ.

وقال أبو حنيفة : الأيام المعلومات : عشر ذى الحجة ويوم النحر ، وهو قول ابن عباس رضى اللّه عنه ، وأما الأيام المعدودات ، فهى : الثلاثة بعد يوم النحر - فيوم النحر معلوم لا معدود ، ورابعه : معدود لا معلوم ، واليومان بعده : معلومان ومعدودان. فيذكروا اسم اللّه عَلى ما رَزَقَهُمْ أي : على ذبح ما رزقهم مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ ، وهى الإبل والبقر والغنم ، فَكُلُوا مِنْها من لحومها ، والأمر : للإباحة ، ولإزاحة ما كانت عليه الجاهلية من التحرج.

قال ابن جزى : ويستحب أن يأكل الأقل من الضحايا ، ويتصدق بالأكثر. هـ. وقال النسفي : ويجوز

الأكل من هدى التطوع والمتعة والقران لأنه دم نسك لأنه أشبه الأضحية ، ولا يجوز الأكل من بقية الهدايا. هـ. وهو حنفى ، وفى مذهب مالك تفصيل يطول ذكره.
وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ ، وهو الذي أصابه البؤس ، أي : ضرر الحاجة ، وقيل : المتعفف ، وقيل : الذي يظهر عليه أثر الجوع ، الْفَقِيرَ : المحتاج الذي أضعفه الإعسار.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الحج ، باب فضل الحج المبرور) ، ومسلم فى (الحج ، باب فى فضل الحج والعمرة ويوم عرفة) ، عن أبى هريرة.

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ أي : ليزيلوا عنهم أدرانهم ، قاله نفطويه. وقيل : قضاء التفث : قص الشارب والأظافر ، ونتف الإبط ، والاستحداد ، وسائر خصال الفطرة. وهذا بعد أن يحلوا من الحج التحلل الأصغر بالنحر. وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ أي : ما ينذرونه من البر فى الحج وغيره ، وقيل : مواجب حجهم من فعل أركانه ، وَلْيَطَّوَّفُوا طواف الإفاضة ، الذي هو ركن لا يجبر بالدم ، وبه يتم الحج ، ويكون بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ : القديم لأنه أول بيت وضع للناس ، بناه آدم ثم جدّده إبراهيم ، أو الكريم ، ومنه : عتاق الخيل لكرائمها ، أو : لأنه عتق من الغرق ، أو من أيدى الجبابرة ، فكم من جبار رام هدمه فمنعه اللّه منه. وقيل : عتيق لم يملكه أحد قطّ ، وهو مطاف أهل الغبراء ، كما أن البيت المعمور مطاف أهل السماء.
[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٣٠ الى ٣١]
ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (٣١)
ذلِكَ أي : الأمر ذلك ، وهذا من فضل الكلام ، كما يقدم الكاتب جملة من الكلام ، ثم يقول : هذا ، وقد كان كذا وكذا وكذا ، إذا أراد أن يخرج من كلام إلى كلام آخر ، وإن كان له تعلق بما قبله. والكلام هنا متصل بتعظيم حرمات البيت ، فقال : وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ ، جمع حرمة ، وهو ما لا يحل هتكه من الشريعة ، فيدخل ما يتعلق بالحج دخولا أوليا ، وقيل : حرمات اللّه : البيت الحرام ، والمشعر الحرام ، والبلد الحرام ، والشهر الحرام. وقيل : المحافظة على الفرائض والسنن واجتناب المعاصي ، فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ أي : فالتعظيم خير له ثوابا عِنْدَ رَبِّهِ ، ومعنى التعظيم : العلم بوجوب مراعاتها ، والعمل

بموجبه ، والاهتمام بشأنه ، والتأديب معه. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : قوله تعالى : ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، قال القشيري : أي : حوائجهم ، ويحققوا عهودهم ، ويوفوا نذورهم فيما عقدوه مع اللّه بقلوبهم ، فمن كان عقده التوبة فوفاؤه ألّا يرجع إلى العصيان ، ومن كان عهده اعتناق الطاعة ، فشرط وفائه ترك تقصيره ، ومن كان عهده ألّا يرجع إلى طلب مقام وتطلع إكرام ، فوفاؤه استقامته على الجملة ، التي دخل عليها فى هذه الطريق ، بألا يرجع إلى استعجال نصيب واقتضاء حظ. هـ. قلت : ومن كان عقده الوصول إلى حضرة القدس ومحل الأنس ، فوفاؤه ألا يرجع عن صحبة من سقاه خمرة المحبة ، وحمله إلى درجة المعرفة. ثم قال : ومن عاهد اللّه بقلبه ، ثم لا يفى بذلك ، فهو من جملة قول الزور. هـ. وهو أيضا ليس بمعظّم لحرمات اللّه ، حيث طلبها ثم تهاون وتركها. واللّه تعالى أعلم.

(٥٣٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٣١
ولمّا كان الإحرام يحرم لحوم الصيد ، فربما يتوهم أن اللحوم كلها تجتنب ، رفع ذلك الإيهام ، فقال : وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ ...
يقول الحق جل جلاله : وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ أي : أكلها ، إِلَّا ما يُتْلى أي : سيتلى عَلَيْكُمْ منها فى آية المائدة «١»
، كالميتة والموقوذة وأخواتهما. والمعنى : إن اللّه قد أحل لكم الأنعام إلّا ما بيّن فى كتابه ، فحافظوا على حدوده ، ولا تحرّموا شيئا مما أحلّ لكم ، كتحريم البحيرة وما معها ، ولا تحلوا ما حرّم ، كإحلال المشركين الميتة والموقوذة وغيرهما.
ثم نهى عن الأوثان التي كانوا يذبحون لها ، فقال : فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ لأن ذلك من تعظيم حرمات اللّه ، و«من» : للبيان ، أي : فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. والرجس : كل ما يستقذر من الخبث ، وسمى الأوثان رجسا على طريقة التشبيه ، أي : فكما تنفرون بطباعكم من الرجس ، فعليكم أن تنفروا عنها. والمراد : النهى عن عبادتها ، أو عن الذبح تقربا لها. وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ، وهو تعميم بعد تخصيص ، فإنّ عبادة الأوثان رأس الزور ، ويدخل فيه الكذب والبهتان وشهادة الزور. وقيل : المراد شهادة الزور فقط ، لما روى أنه - عليه الصلاة والسلام - قال : «عدلت شهادة الزّور الإشراك باللّه تعالى» ثلاثا ، وتلى هذه الآية «٢»
. والزور من الزّور ، وهو الانحراف والميل لأن صاحبه ينحرف عن الحق ، ولا شك أن الشرك داخل فى الزور لأن المشرك يزعم أن الوثن تحق له العبادة ، وهو باطل وزور.

ثم قال تعالى : حُنَفاءَ لِلَّهِ : مائلين عن كل دين زائغ إلى دين الحق ، مخلصين لله ، غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ شيئا من الأشياء ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ، أظهر الاسم الجليل لإظهار كمال قبح الشرك ، فَكَأَنَّما خَرَّ : سقط

---

(١) الآية الثالثة.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٤/ ٣٢١) ، وأبو داود فى (الأقضية : باب فى شهادة الزور) ، والترمذي فى (الشهادات ، باب ما جاء فى شهادات الزور) ، وابن ماجة فى (الأحكام ، باب شهادة الزور) ، عن خريم بن فاتك. [.....]

مِنَ السَّماءِ إلى الأرض لأنه يسقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر. وقيل : هو إشارة إلى ما يكون له حين يصعد بروحه عند الموت ، فتطرح من السماء إلى الأرض. قاله ابن البنا. فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أي : تتناوله بسرعة ، فالخطف والاختطاف : تناول الشيء بسرعة لأن الأهواء المردية كانت توزع أفكاره ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ أي : تسقطه وتقذفه. والهوى : السقوط. فِي مَكانٍ سَحِيقٍ : بعيد لأن الشيطان قد طرحه فى الضلال والتحير الكبير. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : جعل الحقّ تعالى شكر النعم أمرين : طهارة الباطن من شرك الميل إلى السّوى ، ولسانه من زور الدعوى ، وهو الترامي على مراتب الرجال قبل التحقق بها ، حنيفا موحدا ، شاكرا لأنعمة يجتبيه ربه ، ويهديه إلى صراط مستقيم. ومن يشرك باللّه بأن يحب معه غيره ، فقد سقط عن درجة القرب والتحقيق ، فتخطفه طيور الحظوظ والشهوات ، وتهوى به ريح الهوى ، فى مكان سحيق. والعياذ باللّه.

ثم حضّ على الاعتناء بشأن الهدايا ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٣٢ الى ٣٧]

ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)

لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ

وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)
يقول الحق جل جلاله : ذلِكَ أي : الأمر ذلك ، أو امتثلوا ذلك ، وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ أي : الهدايا ، فإنها معالم الدين وشعائره تعالى ، كما ينبىء عنه : وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ وتعظيمها : اعتقاد التقرب بها ، وأن يختارها سمانا حسانا غالية الأثمان ، روى «أنه صلى اللّه عليه وسلم أهدى مائة بدنة ، فيها جمل لأبى جهل ، فى

(٥٣٢/٣)

أنفه برة من ذهب «١»
». وأن عمر رضى اللّه عنه - أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار «٢»
.
وقيل : شعائر اللّه : مواضع الحج ، كعرفة ومنى والمزدلفة. وتعظيمها : إجلالها وتوقيرها ، والتقصد إليها. وقيل : الشعائر : أمور الدين على الإطلاق ، وتعظيمها : القيام بها ومراعاة آدابها ، فَإِنَّها أي : فإن تعظيمها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ أي : من أفعال ذوى تقوى القلوب ، فحذفت هذه المضافات. أو فإن تعظيمها ناشىء من تقوى القلوب لأنها مراكز التقوى.
لَكُمْ فِيها مَنافِعُ من الركوب عند الحاجة ، ولبنها عند الضرورة ، إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى أن تنحر. ومن قال : شعائر اللّه : مواضع الحج ، فالمنافع : التجارة فيها والأجر ، والأجل المسمى : الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة.
ثُمَّ مَحِلُّها منتهية إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، قال ابن جزى : من قال : إن الشعائر الهدايا ، فمحلها موضع نحرها ، وهى منى ومكة. وخصّ البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم ، وهو المقصود بالهدى. و«ثم» ، على هذا ، ليست للترتيب فى الزمان لأن محلها قبل نحرها ، وإنما هى لترتيب الجمل. ومن قال : إن الشعائر مواضع الحج ، فمحلها مأخوذ من إحلال المحرم ، أي : آخر ذلك كله : الطواف بالبيت ، أي : طواف الإفاضة إذ به يحل المحرم. هـ. أي :
محل شعائر الحج كلها تنتهى إلى الطواف بالبيت ، طواف الإفاضة. ومثله فى الموطأ.
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جماعة مؤمنة قبلكم ، جَعَلْنا مَنْسَكاً أي : متعبّدا وقربانا يتقربون به إلى اللّه - عز وجل - والمنسك - بالفتح : مصدر ، وبالكسر : اسم موضع النسك ، أي : لكلّ جعلنا عبادة يتعبدون بها ، أو موضع قربان ، يذبحون فيه مناسكهم ، لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ دون غيره ، عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ أي : عند نحرها وذبحها ، فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ أي : اذكروا على الذبائح اسم اللّه وحده فإن إلهكم إله

واحد ، فَلَهُ أَسْلِمُوا أي :
فإذا كان إلهكم إلها واحدا فأخلصوا له التقرب ، أو الذكر خاصة ، واجعلوه له سالما ، لا تشوبوه بإشراك.
وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ المطمئنين بذكر اللّه ، أو المتواضعين ، أو المخلصين ، فإن الإخبات من الوظائف الخاصة بهم.
والخبت : المطمئن من الأرض. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقيل :
تفسيره ما بعده ، وهو قوله : الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ : خافت منه هيبة لإشراق أشعة جلاله عليها. وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ من مشاق التكاليف ومصائب الزمان والنوائب ، وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ فى أوقاتها ، وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ فى وجوه الخيرات.

---

(١) البرة - بضم الموحدة - : الحلقة تجعل فى أنف الجمل ، وكانوا يتخذونها من نحاس أو غيره ، انظر اللسان (برى ١/ ٢٧٢) ، والحديث : أخرجه البيهقي فى دلائل النبوة (باب عدد حجات النبي صلى اللّه عليه وسلم ٥/ ٤٥٤) عن جابر رضى اللّه عنه. وفيه : «من فضة» ، بدلا من ذهب».
(٢) أخرجه أبو داود فى (المناسك ، باب تبديل الهدى) عن سالم عن أبيه.

وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ أي : من أعلام دينه ، وأضافها إلى نفسه تعظيما لها ، وهى : جمع بدنة ، سميت به لعظم بدنها ، ويتناول الإبل والبقر والغنم. لَكُمْ فِيها خَيْرٌ أي : منافع دينية ودنيوية ، النفع فى الدنيا ، والأجر فى العقبى. فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها بأن تقولوا عند ذبحها : بسم اللّه ، اللهم منك وإليك. حال كونها صَوافَّ أي : قائمات ، قد صففن أيديهن وأرجهلن. فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها : سقطت على الأرض ، وسكنت حركتها ، من وجب الحائط وجبة : سقط ، وهى كناية عن الموت.
فَكُلُوا مِنْها إن شئتم وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ : السائل ، من : قنع إليه قنوعا : إذا خضع ، وَالْمُعْتَرَّ الذي يعرّض ولا يسأل. وقيل : القانع : الراضي بما عنده وبما يعطى من غير سؤال ، والمعترّ : المتعرض للسؤال.
كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ أي : كما أمرناكم بنحرها سخرناها لكم ، أي : ذللناها لكم ، مع قوتها وعظم أجرامها لتتمكنوا من نحرها ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي :
لكى تشكروا إنعام اللّه عليكم.

لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها المتصدّق بها ، وَلا دِماؤُها المهراقة بالنحر ، أي : لن يصل إلى اللّه اللحم والدم ، وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ فإنه هو الذي طلب منكم ، وعليه يحصل الثواب. والمراد : لن تصلوا إلى رضا اللّه باللحوم ولا بالدماء ، وإنما تصلون إليه بالتقوى ، أي : الإخلاص للّه ، وقصد وجه اللّه ، بما تذبحون وتنحرون من الهدايا. فعبر عن هذا المعنى بلفظ (ينال) مبالغة وتأكيدا ، كأنه قال : لن تصل لحومها ولا دماؤها إلى اللّه ، وإنما يصل إليه التقوى منكم ، وقيل : كان أهل الجاهلية يلطخون الكعبة بدماء قربانهم ، فهمّ المسلمون أن يفعلوا مثل ذلك ، فنزلت الآية.

كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ أي : البدن ، وهو تكرير للتذكير والتعليل ، لقوله : لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ أي : لتعرفوا عظمة اللّه ، باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره ، فتوحدوه بالكبرياء شكرا على هدايته لكم.

وقيل : هو التكبير عند الذبح. وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ : المخلصين فى كل ما يأتون ويذرون فى أمور دينهم. وباللّه التوفيق.

الإشارة : أعظم شعائر اللّه التي يجب تعظيمها أولياء اللّه ، الدالين على اللّه ، ثم الفقراء المتوجهون إلى اللّه ، ثم العلماء المعلمون أحكام اللّه ، ثم الصالحون المنتسبون إلى اللّه ، ثم عامة المؤمنين الذين هم من جملة عباد اللّه.

ويجب تعظيم من نصبه اللّه لقيام خطة من الخطط لإصلاح العباد كالسلاطين ، ولو لم يعدلوا ، والقضاة والقواد ، والمقدمين لأمور العامة ، فتعظيم هؤلاء كله من تقوى القلوب. ويدخل فى ذلك : الأماكن المعظمة كالمساجد والزوايا ، وأما الفقير فيعظّم كل ما خلق اللّه حتى الكلاب ، ويتأدب مع كل مخلوق.

(٥٣٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٣٥

وقوله تعالى : لَكُمْ فِيها مَنافِعُ أي : لكم فى هذه التجليات ، إن عظمتموها وعرفتم اللّه فيها ، منافع ، ترعون من أنوارها وتشربون من خمرة أسرارها ، فتزدادوا معرفة وتكميلا ، إلى أجل مسمى ، وهو مقام التمكين ، فحينئذ تواجهه أنوار المواجهة ، فتكون الأنوار له ، لا هو للأنوار ، لأنه للّه لا لشىء دونه ، قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ «١»

.

ثم محل هذه الأنوار إلى بيت الحضرة ، فحينئذ يستغنى باللّه عن كل ما سواه. وقوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً أي : لكل عصر جعلنا تربية مخصوصة ، والوصول واحد ولذلك قال : (فإلهكم إله واحد). وقال القشيري : الشرائع مختلفة فيما كان من المعاملات ، متفقة فيما كان من جملة المعارف.

ثم قال : ذكّرهم اللّه بأنه هو الذي أمرهم ويثيبهم ، (فله أسلموا) : استسلموا لحكمه ، من غير استكراه من داخل القلب ولا من اللفظ. هـ.

وقوله تعالى : (وَ الْبُدْنَ ...) الآية. قال الورتجبي : فيه إشارة إلى ذبح النفس بالمجاهدات ، وزمها بالرياضات عن المخالفات ، وفناء الوجود للمشاهدات ، حتى لا يبقى للعارف فى طريقة حظ من حظوظه ، ويبقى للّه مفردا من جميع الخلائق. هـ.

وفى قوله تعالى : فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ ، إشارة إلى أن النفس لا تموت إلا بصحبة من ماتت نفسه ، فلا تموت النفس مع صحبة أهل النفوس الحية أبدا. فإذا ماتت وسقطت جنوبها ، وظفرتم بها فكلوا من أنوار أسرارها وعلومها لأن النفس ، إذا ماتت ، حييت الروح ، وفاضت عليها العلوم اللدنية ، فكلوا منها ، وأطعموا السائل والمتعرض لنفحاتكم. وقوله تعالى : لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها .. الآية ، قال الورتجبي : الإشارة فيه إلى جميع الأعمال الصالحة من العرش إلى الثرى ، لا يلحق الحق بحق المراد منه ، ولكن يصل إليه قلب جريح من محبته ، ذبح بسيف شوقه ، مطروح على باب عشقه. قال سهل فى قوله : (وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى) : هو التبري والإخلاص. هـ.

قال القشيري : لا عبرة بإظهار الأفعال ، سواء كانت بدنية أو مالية صرفا ، أو مما يتعلق بالوجهين ، ولكن العبرة بقرائنها من الإخلاص ، فاذا انضاف إلى الجوارح إخلاص القصود ، وتجرّدت عن ملاحظة أصحابها الأغيار ، صلحت للقبول ، وينال صاحبها القرب ، بشهود الحق بنعت التفرد. ثم قال : (لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ) وأرشدكم إلى القيام بحقّ العبودية على قضية الشرع ، (وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) ، الإحسان ، كما فى الخبر : «أن تعبد اللّه كأنك تراه». وأمارة صحته : سقوط تعب القلب عن صاحبه ، فلا يستثقل شيئا ولا يتبرم بشيء. هـ. قلت : خواطر الاستثقال والتبرم لا تضر لأنه طبع بشرى ، وإنما يضر ما سكن فى القلب.

---

(١) من الآية ٩١ من سورة الأنعام.

وقال فى الإحياء : ليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم ، بل ميل القلب عن حب الدنيا ، وبذلها إيثارا لوجه اللّه تعالى ، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة ، وإن عاق عن العمل عائق. فلن ينال اللّه لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم ، والتقوى هاهنا عمل القلب ، من نية القربة ، وإرادة الخير ، وإخلاص القصد لله ، وهو المقصود ، وعمل الظاهر مؤكد له ، ولذلك كانت

نية المؤمن أبلغ من عمله فإنّ الطاعات غذاء القلوب ، والمقصود : لذة السعادة بلقاء اللّه تعالى ، والتنعم بها ، وذلك فرع محبته والأنس به ، ولا يكون إلّا بذكره ، ولا يفرغ إلا بالزهد فى الدنيا ، وترك شواغلها ، والانقطاع عنها. هـ.

ومن كانت هذه صفته كان من المحسنين ، الذين يدفع اللّه عنهم المكارة والعوائق ، كما قال تعالى :

[سورة الحج (٢٢) : آية ٣٨]

إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ يدفع غائلة المشركين عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا فلا يقدرون أن يعوقوهم عن شيء من عبادة اللّه ، بل ينصرهم ويؤيدهم كما قال تعالى : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا» ، وصيغة المفاعلة : إمّا للمبالغة ، أو للدلالة على تكرير الدفع ، فإنها قد تجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين ، فيبقى تكرره من جانب واحد ، كما فى المحارسة ، أي : يبالغ فى دفع ضرر المشركين وشوكتهم ، التي من جملتها صدهم عن سبيل اللّه ، مبالغة من يغالب فيه ، أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى ، بحسب تجرد قصد الإضرار بالمسلمين ، كما فى قوله : كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ «٢»

. وقرأ المكي والبصري : «يُدافِعُ».

ثم علل ذلك الدفع بقوله : إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ أي : لأنّ اللّه يبغض كل خوان فى أمانة اللّه تعالى ، وهى : أوامره ونواهيه ، ومن أعظمها : الإيمان باللّه ورسوله. أو فى جميع الأمانات ، كفور لنعم اللّه. والمعنى : إن اللّه يدافع عنهم لأنه يبغض أعداءهم ، وهم : الخونة الكفرة ، الذين يخونون اللّه والرسول ، ويخونون أماناتهم. وصيغة المبالغة فيها لبيان أنهم كذلك فيهما ، لا لتقييد البعض بغاية الجناية فإن الخائن ممقوت مطلقا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إن اللّه يدفع عن أوليائه ، والمتوجهين إليه ، كل عائق وشاغل ، وغائلة كل غائل ، الذين حازوا ذروة الإيمان ، وقصدوا تحقيق مقام الإحسان. فمن رام صدّهم عن ذلك فهو خائن كفور ، (إن اللّه لا يحب كل خوّان كفور).

---

(١) من الآية ٥١ من سورة غافر.

(٢) من الآية ٦٤ من سورة المائدة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٣٧

ثم أمر بجهاد من صدهم وعاقهم عن سبيل اللّه ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٣٩ الى ٤١]

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)

قلت : (إلا أن يقولوا) ، قيل : منقطع. وقال الزمخشري : فى محل الجر ، بدل من حق. هـ. وهو على طريق قول الشاعر :

لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

يقول الحق جل جلاله : أُذِنَ أي : رخص وشرع ، أو أذن اللّه لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ أي : يقاتلهم الكفار المشركون ، وحذف المأذون فيه لدلالة «يقاتلون» عليه ، أي : فى قتالهم ، بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا أي : بسبب كونهم مظلومين ، وهم أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديدا ، وكانوا يأتون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج ، فيتظلمون إليه ، فيقول لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «اصبروا فإنى لم أومر بالقتال». حتى هاجر ، فنزلت هذه الآية «١»

. وهى أول آية نزلت فى الجهاد ، بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية.

وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. وعد لهم بالنصر ، وتأكيد لما مرّ من العدة الكريمة بالدفع ، وتصريح بأن المراد ليس مجرد تخليصهم من يد المشركين ، بل بغلبتهم وإظهارهم عليهم. وتأكيده بكلمة التحقيق. واللام لمزيد تحقيق مضمونه ، وزيادة توطين نفوس المؤمنين.

ثم وصف الذين أذن لهم ، أو فسرهم ، أو مدحهم بقوله : الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ ، يعنى مكة : بِغَيْرِ حَقٍّ بغير ما يوجب إخراجهم إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ أي : بغير موجب سوى التوحيد ، الذي ينبغى أن يكون موجبا للإقرار لا للإخراج. ومثله : هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ «٢»

.

وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ : لو لا أن يدفع اللّه الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ بتسليط المؤمنين على الكافرين فى كل عصر وزمان ، وإقامة الحدود وكف الظالم ، لَهُدِّمَتْ أي : لخربت باستيلاء الكفرة على الملل ، صَوامِعُ :

---

(١) عزاه الواحدي فى الأسباب (٣١٨) والبغوي فى التفسير (٥/ ٣٨٨) للمفسرين.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة المائدة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٣٨

جمع صومعة – بفتح الميم ، وهى : متعبد النصارى والصابئين منهم ، ويسمى أيضا الدير. وسمى بها موضع الأذان فى الإسلام : وَبِيَعٌ : جمع بيعة – بكسر الباء – : كنائس النصارى ، وَصَلَواتٌ : كنائس اليهود ، سميت بما يقع فيها ، . وأصلها : صلوتا بالعبرانية ، ثم عربت ، وَمَساجِدُ للمسلمين ، يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً أي : ذكرا كثيرا ، أو وقتا كثيرا ، صفة مادحة للمساجد ، خصت بها دلالة على فضلها وفضل أهلها. وقيل يرجع للأربع ، وفيه نظر فإنّ ذكر اللّه تعالى فى الصوامع والبيع والكنائس قد انقطع بظهور الإسلام ، فقصد بيانه ، بعد نسخ شرائعها مما لا يقتضيه المقام ، ولا ترتضيه الأفهام.
وقدمت الثلاثة على المساجد لتقدمها وجودا ، أو لقربها من التهديم.
وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ أي : وتالله ، لينصرن اللّه من ينصر دينه ونبيه – عليه الصلاة والسلام – وأولياءه. ومن نصره : إشهاره وإظهاره ، وتعليمه لمن لا يعلمه ، وإعزاز حامل لوائه من العلماء والأولياء.
وقد أنجز اللّه وعده ، حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم ، وأورثهم أرضهم وديارهم ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ : غالب على كل ما يريد ، ومن جملته : نصرهم وإعلاؤهم.
ثم وصف الذين أخرجوا من ديارهم بقوله : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قلت : الصواب ما قاله مكى : أنه بدل من : «من ينصره» ، فى محل نصب.
قيل : المراد بهم : الصحابة – رضى اللّه عنهم – ، وقيل : الأمة كلها. وقيل : الخلفاء الأربعة لأنهم هم الذين مكّنوا فى الأرض بالخلافة ، وفعلوا ما وصفهم اللّه به. وفيه دليل صحة أمر الخلفاء الراشدين لأن اللّه – عز وجل – أعطاهم التمكين ، ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة. وعن عثمان رضى اللّه عنه : (هذا ، واللّه ، ثناء قبل بلاء) ، يعنى : أن اللّه تعالى أثنى عليهم قبل ظهور الشر من الهرج والفتن فيهم. وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ فإنّ مرجعها إلى حكمه وتقديره فقط.
وفيه تأكيد للوعد بإظهار أوليائه وإعلاء كلمته.
الإشارة : إذا اتصل الإنسان بشيخ التربية فقد أذن له فى جهاد نفسه ، إن أراد الوصول إلى حضرة ربه لأنها ظالمة تحول بينه وبين سعادته الأبدية. وإن اللّه على نصرهم لقدير لأن همّة الشيخ تحمله وتنصره بإذن اللّه. وأما إن لم يتصل بشيخ التربية ، فإن مجاهدته لنفسه لا تصيب مقاتلها لدخولها تحت الرماية ، فلا يصيبها ضربه ، وأما الشيخ فلأنه يريه مساوئها ويعينه على قتلها.
وقوله تعالى : الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ هم الذين أمروا بقتل نفوسهم ، فإنهم إذا خرقوا عوائد

نفوسهم ، وخرجوا عن عوائد الناس ، رفضوهم وأنكروهم ، وربما أخرجوهم من ديارهم ، فقلّ أن تجد وليا بقي فى وطنه الأول ، وما نقموا منهم وأخرجوهم إلا لقصدهم مولاهم ، وقولهم : ربّنا اللّه دون شيء سواه ، فحيث خرجوا عن

(٥٣٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٣٩

عوائدهم وقصدوا مولاهم ، أنكروهم وأخرجوهم من أوطانهم ، ولو لا دفع الناس بعضهم ببعض بأن شفع خيارهم فى شرارهم ، لهدمت دعائم الوجود لأنّ من آذى وليا فقد آذن بالحرب.

قال القشيري : (وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ) ، أي : يتجاوز عن الأصاغر لقدر الأكابر استبقاء لمنازل العبادة ، تلك سنّة أجراها. ثم قال : (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ) ، أي : لم يشتغلوا فى ذلك بحظوظ ، ولكن قاموا لأداء حقوقنا. هـ.

ولمّا بشّر نبيّه - عليه الصلاة والسلام - مع المؤمنين ، بالدفع والنصر على سائر الملل ، سلّاه عن تكذيب قومه بقوله :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٤٢ الى ٤٥]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ يا محمد ، أي : أهل مكة ، فلا تحزن فلست بأول من كذب ، فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ أي : قبل قومك قَوْمُ نُوحٍ نوحا ، وَعادٌ هودا ، وَثَمُودُ صالحا ، وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ إبراهيم ، وَقَوْمُ لُوطٍ لوطا ، وَأَصْحابُ مَدْيَنَ شعيبا ، وَكُذِّبَ مُوسى كذّبه فرعون والقبط. ولم يقل : وقوم موسى لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه القبط. أو : كأنه لمّا ذكر تكذيب كلّ قوم رسولهم ، قال : وكذّب موسى ، مع وضوح آياته وظهور معجزاته ، فما ظنك بغيره؟ فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ : أمهلتهم وأخرت عقوبتهم ، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ : عاقبتهم على كفرهم ، أي : أخذت كل فريق من فرق المكذبين ، بعد انقضاء مدة إملائه وإمهاله ، فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ أي : إنكارى وتغييرى حيث أبدلتهم بالنعم نقما ، وبالحياة هلاكا ، وبالعمارة خرابا ، فكان ذلك فى غاية ما يكون من الهول والفظاعة.

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أي : كثيرا من القرى أهلكناها وخربناها بإهلاك أهلها ، وَهِيَ ظالِمَةٌ أي : والحال أنها ظالمة بالكفر والمعاصي ، فَهِيَ خاوِيَةٌ : ساقطة على عُرُوشِها ، من خوى النجم : سقط. والمعنى أنها ساقطة على سقوفها ، أي : خربت سقوفها على الأرض ، ثم تهدمت حيطانها فسقطت

فوق السقوف. ويجوز أن يكون «على عروشها» : خبرا بعد خبر ، أي : فهى خالية من السكان ، وهى على عروشها ، أي : قائمة مشرفة على السقوف الساقطة. وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ أي : وكم من بئر متروكة مهملة فى البوادي والحواضر ، لا يستسقى منها

(٥٣٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٤٠

لهلاك أهلها مع توفير مائها ، وَقَصْرٍ مَشِيدٍ : مرفوع البنيان ، من شاد البنيان : إذا رفعه ، أو مجصّص بالشيد ، أي : الجص ، أي : مبنيا بالشيد والجندل.

وقال الضحاك : كانت هذه البئر المعطلة بحضر موت ، فى بلدة يقال لها : حاضوراء ، وذلك أن أربعة آلاف ممن آمن بصالح ، ونجوا من العذاب ، أتوا حضر موت ، ومعهم صالح ، فلما حضروا ذلك الموضع ، مات صالح ، فسمى حضر موت لأن صالحا لما حضره مات ، فبنوا حاضوراء ، وقعدوا على هذه البئر ، فأقاموا دهرا طويلا ، وتناسلوا حتى كثروا ، ثم عبدوا الأصنام وكفروا ، فأرسل اللّه إليهم نبيا يقال له : «حنظلة بن صفوان» ، فقتلوه فأهلكهم اللّه ، وعطلت بئرهم وخربت قصورهم «١»

. هـ.

وحاصل المعنى : وكم قرية أهلكناها ، وكم بئر عطلناها عن سقاتها ، وقصر مشيد أخليناه عن ساكنه ، أي ، أهلكنا البادية والحاضرة جميعا ، فخلت القصور عن أربابها ، والآبار عن روادها. فالأظهر أن البئر والقصر على العموم.

الإشارة : ما سلّى به الرسل - عليهم السلام - تسلى به الأولياء - رضوان اللّه عليهم - فتكذيب أهل الخصوصية سنّة ماضية ، غير أن مكذبى الرسل يعاجلون بالعقوبة ، ومكذبى الأولياء يعاقبون بالبعد والحجاب. وقال القشيري :

(و بئر معطلة) ، الإشارة إلى العيون المفجرة من بواطنهم ، (و قصر مشيد) الإشارة إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيها ، من الهيبة والأنس وسائر المواجيد. هـ. قلت : وكأنه فسر القرية بالقلب ، وهلاكه : خلاؤه من نور التوحيد ، فقلوب الغافلين خاوية على عروش عقولهم ، المطموس نورها ، وعيون بواطنهم معطلة من الفكرة ، وأسرارهم خاربة من نور النظرة. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر بالاعتبار بمن سلف من القرون المهلكة والآبار المعطلة ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٤٦ الى ٤٨]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ

رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)

---

(١) ذكر البغوي فى التفسير (٥/ ٣٩٠).

(٥٤٠/٣)

قلت : (أ فلم) : الفاء عطف على مقدر أي أغفلوا فلم يسيروا فيعتبروا ، (فإنها) : ضمير القصة ، أو مبهم يفسره ما بعده. و(لن يخلف اللّه وعده) : حالية ، أي : ينكرون مجىء العذاب الموعود ، والحال : أنه تعالى لا يخلف وعده ، أو اعتراضية مبينة لما ذكر ، و(إنّ يوما) : استئنافية ، إن كانت الأولى حالية ، ومعطوفة ، إن كانت اعتراضية سيقت لبيان خطأهم.

يقول الحق جل جلاله : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فيروا مصارع من أهلكهم اللّه بكفرهم ، ويشاهدوا آثارهم الدارسة وقصورهم الخالية ، وديارهم الخربة ، فيعتبروا. وهو حث لهم على السفر ليشاهدوا ذلك. فَتَكُونَ لَهُمْ بسبب ما شاهدوه من مظان الاعتبار ومواطن الاستبصار قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه ، أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ما يجب أن يسمع من الوحى أو من أخبار الأمم المهلكة ممن يجاورهم من الناس فإنهم أعرف بحالهم. قال ابن عرفة : لما تضمن الكلام السابق إهلاك الأمم السالفة ، وبقيت آثارهم خرابا ، عقبه بذم هؤلاء فى عدم اتعاظهم بذلك. والسير فى الأرض : إمّا حسى ، أو معنوى باعتبار سماع أخبارها من الغير ، أو قراءتها فى الكتب. فقوله : (فتكون لهم قلوب) : راجع للسير الحسى ، وقوله : (أو آذان) للسير المعنوي. هـ.

فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ الحسية ، وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ عن التفكر والاعتبار ، أي : ليس الخلل فى مشاعرهم ، ولكن الخلل فى عقولهم ، باتباع الهوى والانهماك فى الغفلة. وذكر الصدور للتأكيد ، ونفى توهم التجوز لأن قلب الشيء : لبه ، فربما يقال : إن القلب يراد به غير هذا العضو ، ولكل إنسان أربع أعين : عينان فى رأسه ، وعينان فى قلبه ، وتسمى البصيرة ، فإن انفتح ما فى القلب ، وعمى ما فى الرأس فلا يضر ، وإن انفتح ما فى الرأس وانطمس ما فى القلب لم ينفع ، والتحق بالبهائم ، بل هو أضل.

ثم ذكر علامة عمى القلوب ، وهو الاستهزاء بالوعد الحق ، فقال : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ المتوعد به استهزاء وإنكارا وتعجيزا ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ أي : يستعجلون به ، والحال أنه تعالى لا يخلف وعده أبدا ، وقد سبق الوعد به ، فمن لا يخلف وعده فلا بد من مجيئه ، ولو بعد حين. وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ أي : كيف يستعجلونك بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه فى طول ألف سنة

من سنيكم لأن أيام الشدة طوال. وقيل : تطول حقيقة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «يدخل الفقراء الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة» «١»

.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قيل أغنيائهم) ، وابن ماجة فى (الزهد ، باب منزلة الفقراء) ، من حديث أبى هريرة ، وأبى سعيد الخدري رضى اللّه عنهما. وبنحوه أخرجه أبو داود فى (العلم ، باب فى القصص) من حديث أبى سعيد الخدري.

(٥٤١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٤٢

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها أي : كثيرا من أهل قرية كانوا ظالمين مثلكم ، قد أمهلتهم حينا وأمليت لهم ، كما أمليت لكم ، ثم أخذتهم بالعذاب والنكال بعد طول الإملاء والإمهال. والإملاء هو الإمهال مع إرادة المعاقبة. وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ أي : المرجع إلىّ ، فلا يفوتنى شىء من أمر المستعجلين وغيرهم ، أو : إلى حكمى مرجع الكل ، لا إلى غيرى ، لا استقلالا ولا شركة ، فأفعل بهم ما يليق بأعمالهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : عمى القلوب هو انطماس البصيرة ، وعلامة انطماسها أمور : إرسال الجوارح فى معاصى اللّه ، والانهماك فى الغفلة عن اللّه ، والوقيعة فى أولياء اللّه ، والاجتهاد فى طلب الدنيا مع التقصير فيما طلبه منه اللّه.

وفى الحكم : «اجتهادك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك ، دليل على انطماس البصيرة منك». وعلامة فتحها أمور : المسارعة إلى طاعة اللّه ، واستعمال المجهود فى معرفة اللّه ، بصحبة أولياء اللّه ، والإعراض عن الدنيا وأهلها ، والأنس باللّه ، والغيبة عن كل ما سواه. واعلم أن البصر والبصيرة متقابلان فى أصل نشأتهما ، فالبصر لا يبصر إلا الأشياء الحسية الحادثة ، والبصيرة لا تبصر إلا المعاني القديمة الأزلية ، فإذا انطمست البصيرة كان العبد مفروقا عن اللّه ، لا يرى إلا الأكوان الظلمانية الحادثة. وفى ذلك يقول المجذوب رضى اللّه عنه :

من نظر الكون بالكون غرّه : فى عمى البصيرة. ومن نظر الكون بالمكون : صادق ، علاج السريرة

وإذا انفتحت البصيرة بالكلية استولى نورها على نور البصر ، فانعكس نور البصر إلى البصيرة ، فلا يرى العبد إلا أسرار المعاني الأزلية ، المفنية للأوانى الحادثة ، فيغيب عن رؤية الأكوان بشهود المكون. وعلاج انفتاحها يكون على يد طبيب ماهر عارف باللّه ، يقدحها له بمرود التوحيد ، فلا يزال يعالجها

بإثمد توحيد الأفعال ، ثم توحيد الصفات ، ثم توحيد الذات ، حتى تنفتح. فتوحيد الأفعال والصفات يشهد قرب الحق من العبد ، وتوحيد الذات يشهد عدمه لوجود الحق ، وهو الذي أشار إليه فى الحكم بقوله : «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق ، لا عدمك ولا وجودك. كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان». فيرى حينئذ من أسرار الذات وأنوار الصفات ما لا يراه الناظرون ، ويشاهد ما لا يشاهده الجاهلون. وفى ذلك يقول الحلاج :

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يرى للنّاظرينا

وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت ربّ العالمينا

وألسنة بأسرار تناجى تغيب عن الكرام الكاتبينا

(٥٤٢/٣)

وقال الورتجبي : الجهال يرون الأشياء بأبصار الظواهر ، وقلوبهم محجوبة عن رؤية حقائق الأشياء ، التي هى تلمع منها أنوار الذات والصفات ، وأعماهم اللّه بغشاوة الغفلة وغطاء الشهوة. هـ.

ثم أمر نبيه بالجواب عن استعجالهم العذاب ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٤٩ الى ٥١]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (٥١)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أي : أنذركم إنذارا مبينا بما أوحى إليّ من أخبار الأمم المهلكة ، من غير أن يكون لى دخل فى الإتيان بما توعدونه من العذاب الذي تستعجلونه .. وإنما لم يقل : نذير وبشير ، مع ذكر الفريقين بعده لأن الحديث مسوق إلى المشركين فقط. والمراد بالناس : الذين قيل فيهم : (أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) ، ووصفوا بالاستعجال ، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة فى غيظهم. فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لذنوبهم ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ أي : حسن ، وهى الجنة.

والكريم من كل نعيم : ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته.

وَالَّذِينَ سَعَوْا ، يقال : سعى فى أمر فلان : إذا أفسده بسعيه ، أي : أفسدوا فِي آياتِنا أي : القرآن بسعيهم فى إبطاله ، مُعاجِزِينَ أي : مسابقين. وقرأ المكي والبصري : «معجّزين». بالشد ، أي : مثبّطين الناس عن الإيمان. يقال : عاجزه : سابقه لأنّ كل واحد منهما يطلب عجز الآخر ، واللحوق به ، فإذا

غلبه ، قيل : أعجزه وعجزه. والمعنى : سعوا فى معناها بالفساد من الطعن فيها ، حيث سمّوها سحرا وشعرا وأساطير الأولين ، مسابقين فى زعمهم وتقديرهم ، طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم. أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ أي : ملازموا النار الموقودة. وقيل : هو اسم دركة من دركاتها.

الإشارة : الدعاة إلى اللّه تعالى إنما شأنهم التحذير والتبشير ، ثم ينظرون ما يفعل اللّه فى ملكه وخلقه ، من هداية أو إضلال ، وليس من شأنهم طلب ظهور المعجزات ، أو الكرامات ، ولا الحرص على هداية الخلق بالكد والاجتهاد ، إنما شأنهم التذكير ، ويردون الأمر إلى الملك القدير ، فلا يتأسفون على من تخلف عنهم.

وكان عليه الصلاة والسلام - يحرص على هداية قومه ، فلما نهاه الحق تعالى عن ذلك ، رجع وتأدب بكمال العبودية ، وبه اقتدى خلفاؤه من بعده ، فكان صلى اللّه عليه وسلم فى أول أمره يتمنى أن ينزل عليه ما يقارب بينه وبين قومه ، لعلهم يتدبرون فيما ينزل عليه فيسلموا ، فقرأ يوما سورة النّجم ، فألقى فى مسامعهم ما يدل على مدح آلهتهم ، فحزن

(٥٤٣/٣)

- عليه الصلاة والسلام - حين نسبوا ذلك له ، فسلّاه اللّه تعالى بقوله :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٥٢ الى ٥٤]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤)

قال ابن عباس وغيره من المفسرين الأولين - رضى اللّه عنهم - : لما رأى النبي صلى اللّه عليه وسلم مباعدة قومه وتوليهم ، وشق عليه ذلك تمنى أن يأتيه من اللّه تعالى ما يقارب بينه وبين قومه ، فجلس يوما فى جمع لهم ، فنزلت سوة النجم ، فقرأها عليهم ، فلما بلغ : أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى «١»

، ألقى الشيطان على لسانه «٢»

:

تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهم لترجى هـ. قلت : بلى ، ألقى ذلك فى مسامعهم فقط ، ولم ينطق بذلك - عليه الصلاة والسلام - فلما سمعت ذلك قريش فرحوا ، ثم سجد النبي صلى اللّه عليه وسلم

فى آخر السورة ، وسجد المسلمون والمشركون ، إلا الوليد بن المغيرة ، رفع حفنة من التراب وسجد عليه ، فقالت قريش : ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر ، وقالوا : قد عرفنا أن اللّه يحيي ويميت ، ويخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فإذا جعل محمد لها نصيبا فنحن معه ، فلما أمسى أتاه جبريل. فقال يا محمد ما صنعت فقد تلوت على الناس ما لم آتك به؟ فحزن النبي صلى اللّه عليه وسلم حزنا شديدا ، فنزلت الآية تسلية له عليه الصلاة والسلام.

فقال جل جلاله : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ، يوحى إليه بشرع ، ويؤمر بالتبليغ ، وَلا نَبِيٍّ يوحى إليه ، ولم يؤمر بالتبليغ ، فالرسول مكلف بغيره ، والنبي مقتصر على نفسه ، أو الرسول : من بعث بشرع جديد ، والنبي : من قرر شريعة سابقة ، ولذلك شبه صلى اللّه عليه وسلم علماء أمته بهم ، فالنبى أعم من الرسول ، وقد سئل - عليه

---

(١) الآيتان : ١٩ - ٢٠ من سورة النجم.

(٢) النبي صلى اللّه عليه وسلم معصوم من مثل ما جاء فى قصة الغرانيق ، ونسبة هذا إلى سيدنا ابن عباس وغيره - رضى اللّه عنهما - لا يصح. وقد رد المحققون من المحدثين والمفسرين ، القصة أصلا ، وبينوا زيفها ، ونقدوها سندا ومتنا. يقول القاضي عياض فى الشفاء (٢/ ٧٥٠) : يكفيك فى توهين هذا الحديث أنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل. وإنما أولع به وبمثله المفسرون.

للمزيد راجع : تفسير القرطبي (١٢/ ٧٩) الآلوسى (١٧/ ١٧٥ - ١٨٤) وكتاب الشفاء للقاضى عياض (٢/ ٧٥٠) والإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير : ص ٣١٤ وما بعدها.

الصلاة والسلام - عن الأنبياء ، فقال : «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، قيل : فكم الرّسل منهم؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر ، جمّا غفيرا» «١»

.

إِلَّا إِذا تَمَنَّى هيأ فى نفسه ما يهواه كهداية قومه ومقاربتهم له ، أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فى تشهيه ما يوجب حصول ما تمناه ، أو مقاربته ، كما ألقى فى مسامع قريش ما يوجب مقاربتهم له - عليه الصلاة والسلام - ثم ينسخ اللّه ذلك. أو (إذا تمنى) : قرأ ، كما قال الشاعر :

تمنّى كتاب اللّه أوّل ليلة تمنّى داود الزّبور على رسل

أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ : فى قراءته ، حين قرأ سورة النجم بعد قوله : (وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى) ، تلك الغرانيق العلى ، كما تقدم.

قال القشيري : كانت لنبينا صلى اللّه عليه وسلم سكتات ، فى خلال قراءته عند قراءة القرآن ، عند انقضاء كل آية ، فتلفظ الشيطان ببعض الألفاظ ، فمن لم يكن له تحصيل توهم أنه من ألفاظ الرسول.

هـ. وقال ابن البنا : التمني هو التلاوة التي يتمنى فيها ، فيتلو النبي وهو يريد أن يفهم عنه معناها ، فيلقى الشيطان فى فهوم السامعين غير المعنى المراد ، وما قال الزمخشري : قرأ تلك الغرانيق العلى ، على جهة السهو والغلط ، فباطل ، لقول اللّه العظيم : وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى «٢» ، فهو معصوم من السهو والغلط فى تبليغ الوحى هـ.

قلت : فتحصل أنه - عليه الصلاة والسلام - لم ينطق بتلك الكلمات قط ، لا سهوا ولا عمدا ، وإنما ألقيت فى مسامع الكفار ليحصل ما تمناه - عليه الصلاة والسلام - من المقاربة. ويدل على هذا أن من حضر من المسلمين لم يسمعوا من ذلك شيئا ، فإذا تقرر هذا علمت أن ما حكاه السلف الصالح من المفسرين وأهل السّير من أصل القصة فى سبب نزول الآية صحيح ، لكنه يحتاج إلى نظر دقيق وتأويل قريب ، فلا تحسن المبادرة بالإنكار والرد عليهم ، وهم عدول ، لا سيما حبر هذه الأمة ، وإنما يحتاج اللبيب إلى التطبيق بين المنقول والمعقول ، فإن لم يمكن ، قدّم المنقول ، إن ثبتت صحته ، وحكم على العقل بالعجز. هذا مذهب المحققين من الصوفية - رضى اللّه عنهم - ونسبة الإلقاء إلى الشيطان أدب وتشريع إذ لا فاعل فى الحقيقة سواه تعالى.

فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ أي : يذهب به ويبطله ، أو يرشد إلى ما يزيحه ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ أي :

يثبتها ويحفظها عن لحوق الزيادة من الشيطان ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ أي : عليم بما يوحى إلى نبيه ، حكيم فى وحيه ، لا يدع الباطل يأتيه من بين يديه ولا من خلفه.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٢٦٥) ، والطبراني فى الكبير (٨/ ٢٥٩) ، عن أبى أمامة ، أن أبا ذر سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ... الحديث ، وفيه : «وخمسة عشر» ، وأخرجه ، بلفظ المفسر ، ابن حبان فى (العلم ، باب السؤال للفائدة ، ح ٩٤ موارد) ، والبيهقي فى السنن الكبرى (٩/ ٤) عن أبى ذر.

(٢) الآيتان : ٣ - ٤ فى سورة النجم.

ثم ذكر حكمة ذلك الإلقاء ، فقال : لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً أي : محنة وابتلاء لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : شك وشرك ، وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ البعيدة من الخير ، الخاربة من النور ، واليابسة الصلبة ، لا رحمة فيها ولا شفقة وهم المشركون المكذبون ، فيزدادون به شكا وظلمة. وَإِنَّ الظَّالِمِينَ وهم الكفرة المتقدمة ، ووضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالظلم ، لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ أي : عداوة شديدة ومخالفة تامة بعيدة عن الحق.
وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ باللّه أَنَّهُ أي : القرآن الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ أي : النازل من عنده فَيُؤْمِنُوا بِهِ أي : بالقرآن فَتُخْبِتَ : تطمئن ، أو تخشع لَهُ قُلُوبُهُمْ بالانقياد إليه والإذعان لما فيه ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ بالنظر الموصل إلى الحق الصريح ، فيتأولوا ما تشابه فى الدين بالتأويلات الصحيحة ، ويطلبوا ، لما أشكل منه ، المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة ، حتى لا يلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : إذا وقع التعبير من جانب الحق فكل واحد من المستمعين يسمع ما يليق بمقامه ويقويه فيه. فأهل الباطل يسمعون ما يليق بباطلهم ويمدهم فيه ، وأهل الحق يسمعون ما يليق بحقهم ويرقيهم ، فأهل الإيمان يسمعون ما يقوى إيمانهم ويزيدهم يقينا ، وأهل الوصول يسمعون ما يليق بمقامهم ويرقيهم فيه ، وهكذا. وتأمل قضية الثلاثة الذين سمعوا قائلا يقول : يا سعترا برى. فسمع أحدهم : اسع تر برى ، وسمع الآخر : الساعة ترى برى ... وسمع الثالث : ما أوسع برى ، فالأول : طالب للوصول ، فقال له : اسع تر برى ، والثاني : سائر مستشرف على الوصول ، فقال له : الساعة ترى برى ، والثالث : واصل قد اتسع عليه ميدان النعم ، فقال له : ما أوسع برى. وكل من قدم على الأولياء فإنما يسمع بحسب ما عنده فمن قدم عليهم بالميزان لا يسمع إلا ما يبعده ، ومن قدم بالتصديق والتعظيم لا يسمع ولا يرى إلا ما يقربه من الكمالات والأنوار. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر ضد الذين أوتوا العلم الذين تحققوا بحقية القرآن ، فقال :
[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٥٥ الى ٥٩]
وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٥٧) وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)

يقول الحق جل جلاله : وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ : شك مِنْهُ من القرآن ، أو الصراط المستقيم ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً : فجأة ، أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ، وهو عذاب يوم القيامة ، كأنه قيل : حتى تأتيهم الساعة أو عذابها ، فزاد «اليوم العقيم» لمزيد التهويل. واليوم العقيم : الذي لا يوم بعده ، كأنّ كل يوم يلد ما بعده من الأيام ، فما لا يوم بعده يكون عقيما. وقيل : اليوم العقيم : يوم بدر ، فهو عقيم عن أن يكون للكافرين فيه فرح أو راحة ، كالريح العقيم لا تأتى بخير ، أو لأنه لا مثل له فى عظم أمره لقتال الملائكة فيه ، ولكن لا يساعده ما بعده ، من قوله : الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ أي : السلطان القاهر ، والتصرف التام ، يومئذ للّه وحده ، ولا منازع له فيه ، ولا تصرف لأحد معه ، لا حقيقة ولا مجازا ، ولا صورة ولا معنى ، كما فى الدنيا ، فإنّ للبعض فيه تصرفا مجازيا صوريا. يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أي : بين فريق أهل المرية وأهل الإيمان.

ثم بيّن حكمه فيهم ، فقال : فَالَّذِينَ آمَنُوا بالقرآن الكريم ولم يماروا فيه ، وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ امتثالا لما أمر به فى تضاعيفه فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بالقرآن وشكوا فيه ، أو بالبعث والجزاء ، وَكَذَّبُوا بِآياتِنا الدالة على كمال قدرتنا أو القرآن ، فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ ، يهينهم ويخزيهم.

ثم خص قوما من الفريق الأول بفضيلة ، فقال : وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ : خرجوا من أوطانهم مجاهدين ، ثُمَّ قُتِلُوا فى الجهاد ، أَوْ ماتُوا حتف أنفهم ، لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً ، وهو ما لا ينقطع من نعيم الجنان. ومراتب الحسن متفاوته ، فيجوز تفاوت حال المرزوقين ، حسب تفاوت أرزاق الجنة.

روى أن بعض أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم قالوا : يا نبى اللّه هؤلاء الّذين قتلوا فى سبيل اللّه قد علمنا ما أعطاهم اللّه من الخير ، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا ، فما لنا معك؟ فنزلت : (وَ الَّذِينَ هاجَرُوا ...) الآيتين. وقيل : نزلت فى طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة ، فتبعهم المشركون فقتلوهم.

ثم قال تعالى : وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ، فإنه يرزق بغير حساب ، مع أنّ ما يرزقه لا يقدر عليه غيره ، لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ، وهو الجنة لأنّ فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، قيل : لمّا ذكر الرزق ذكر المسكن ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ، عليم بأحوال من قضى نحبه مجاهدا ، وآمال من مات وهو ينتظره معاهدا ، حليم بإمهال من قاتلهم معاندا.

الإشارة : من لم يصحب العارفين أهل الرسوخ واليقين ، لا يمكن أن تنقطع عنه خواطر الشكوك والأوهام ، حتى يلقى اللّه بقلب سقيم ، فيفضى إلى الهوان المقيم. والذين هاجروا فى طلب محبوبهم لتكميل يقينهم ، ثم قتلوا قبل الوصول ، أو ماتوا بعد الوصول ، ليرزقنهم اللّه جميعا رزقا حسنا ، وهو لذة الشهود والعيان ، فى مقعد صدق مع

المقربين ، (وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ). والمدخل الذي يرضونه : هو القرب الدائم ، والشهود المتصل. جعلنا اللّه من خواصهم بمنّه وكرمه.

ولمّا ذكر ثواب من هاجر وقتل فى سبيل اللّه ، أو مات ، أخبر أنه لا يدع نصرتهم فى الدنيا على من بغى عليهم ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٦٠ الى ٦٢]

ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)

قلت : (ذلك) : خبر ، أي : الأمر ذلك. و(من عاقب) : شرط سدّ مسد جوابه ، أي : من عاقب بمثل ما عوقب به ينصره اللّه.

يقول الحق جل جلاله : ذلِكَ أي : الأمر ذلك ، كما أخبرتك فى بيان الفريقين ، ثم استأنف فقال : وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ أي : لم يزد فى القصاص على ما فعل به ، وسمى الابتداء عقابا للمشاكلة ولملابسته له ، من حيث إنه سبب له وهو مسبب عنه. ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ أي : من جازى بمثل ما فعل به من الظلم ، ثم ظلم ، بعد ذلك ، وبغى عليه بعد ذلك ، فحق على اللّه أن ينصره إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ يمحو آثار الذنوب ، غَفُورٌ يستر أنواع العيوب.

ومناسبة الوصفين لما قبلهما : أن المعاقب مأمور بالعفو من عند اللّه ، بقوله : فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ «١»

، وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ «٢»

، فحين لم يفعل ذلك ، وانتصر لنفسه ، فكأنه مذنب ، فمعنى العفو فى حقه أنه لا يلزمه على ترك الفضل شيء ، وأنه ضامن لنصره فى الكرة الثانية ، إذا ترك العفو وانتقم من الباغي عليه ، وعرّض ، مع ذلك ، بما كان أولى به من العفو بذكر هاتين الصفتين.

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة الشورى. [.....]

(٢) الآية ٤٣ من سورة الشورى.

ثم ذكر دلائل قدرته على النصر وغيره بقوله : ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ أي : ذلك النصر للمظلوم بسبب أنه قادر على ما يشاء. ومن آيات قدرته أنه (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أي : يدخل أحدهما فى الآخر ، فيدخل الليل فى النهار إذا طال النهار ، ويدخل النهار فى الليل إذا طال الليل ، فيزيد فى أحدهما ما ينقص من الآخر. أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما ، بإدخال أحدهما على الآخر ، فلا يخفى عليه ما يجرى فيهما على أيدى عباده من الخير والشر ، والبغي والإنصاف. وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لما يقولون ، لا يشغله سمع عن سمع ، وإن اختلفت فى النهار الأصوات بفنون اللغات ، بَصِيرٌ بما يفعلون ، فلا يستتر عنه شىء بشىء فى الليالى ، وإن توالت الظلمات.

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الواجب لذاته ، الثابت فى نفسه ، الواحد فى صفاته وأفعاله ، فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان كونه مبديا لكل ما يوجد من الموجودات ، عالما بكل المعلومات. وإذا ثبت أنه الحق فدينه حق ، وعبادته حق ، وَأَنَّ ما يَدْعُونَ «١»

مِنْ دُونِهِ إلها هُوَ الْباطِلُ أي : المعدوم فى حد ذاته. أو الباطل ألوهيته ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أي : المتعالي عن مدارك العقول ، وعن سمات الحدوث ، أو المرتفع على كل شىء بقهريته ، أو المتعالي عن الأنداد والأشباه ، الكبير شأنا وعظمة وكبرياء إذ كل شىء يصغر دون كبريائه ، فلا شىء أعلى منه شأنا وأكبر سلطانا لأن له الوجود المطلق. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ومن عاقب نفسه وجاهدها وأدّبها فى أيام اليقظة ، بمثل ما عاقبته وجنت عليه وطغت فى أيام الغفلة ، ثم صرعته بعد ذلك وغلبته لينصرنه اللّه عليها ، حتى يغلبها ويملكها ، فكلما هاجت عليه هجم عليها ، حتى يملكها ذلك بأن اللّه يولج ليل المعصية فى نهار الطاعة ، ويولج نهار الطاعة فى ليل المعصية ، أي : يدخل أحدهما على الآخر ، فلا يزال العبد يعصى ويطيع حتى يمنّ عليه بالتوبة النصوح. أو يولج ليل المعصية فى نفس الطاعة ، فتنقلب الطاعة معصية ، إذا صحبها علو واستكبار. ويولج نهار الطاعة فى عين المعصية ، فتنقلب طاعة إذا صحبها ذل وافتقار. ذلك بأن اللّه هو الحق ، وأن ما دونه باطل.

---

(١) قرأ أبو عمرو ، وحمزة والكسائي وحفص ويعقوب ، بالياء ، على الغيب. وقرأ الباقون بالتاء ، على الخطاب .. انظر الإتحاف (٢/ ٢٧٩).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٥٠

ثم ذكر دليلا آخر على قدرته ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٦٣ الى ٦٥]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٦٥)

قلت : (فتصبح) : عطف على «أنزل» ، والعطف بالفاء أغنى عن الضمير ، وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بتجدد أثر الإنزال ، وهو الاخضرار واستمراره ، أو لاستحضار صورة الاخضرار ، وإنما لم ينصب جوابا للاستفهام لأنه لو نصب لبطل الغرض لأن معناه فى الرفع إثبات الاخضرار ، فينقلب فى النصب إلى نفيه ، كما تقول لصاحبك : ألم تر أنى أنعمت عليك فتشكر ، إن نصبته نفيت شكره ، وشكوت من تفريطه ، وإن رفعته أثبت شكره.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد ، أو يا من يسمع ، أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً مطرا فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً بالنبات ، بعد ما كانت مسودة يابسة ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ بعباده ، أو فى ذاته لا يدرك ، خَبِيرٌ بمصالح خلقه ومنافعهم ، أو اللطيف المختص بدقائق التدبير ، الخبير بكل جليل وحقير ، قليل وكثير. لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وملكا ، قد أحاط بهم قدرة وعلما ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ عن كل شىء ، المفتقر إليه كل شىء ، الْحَمِيدُ : المحمود بنعمته ، قبل ثناء من فى السموات والأرض عليه ، أو المستحق للحمد ، أعطى أو لم يعط.

ثم ذكر موجب الحمد من عباده ، فقال : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ من الأنعام لتأكلوا منها ، ومن البهائم لتركبوها فى البر ، وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ : بقدرته وإذنه ، أي : وسخر لكم المراكب حال كونها جارية فى البحر بإذنه ، وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ أي : يحفظها من السقوط ، بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك ، إِلَّا بِإِذْنِهِ : إلا بمشيئته ، وذلك يوم القيامة ، وفيه رد لا ستمساكها بذاتها فإنها مساوية لسائر الأجسام فى الجسمية ، فتكون قابلة للميل الهابط قبول غيرها. إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ حيث هيأ لهم هذه الأسباب لقيام معاشهم ، وفتح لهم أبواب المنافع ، ودفع عنهم أنواع المضار ، فأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية ، فله الحمد وله الشكر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٥١

الإشارة : ألم تر أن اللّه أنزل من سماء المعاني ماء علم الغيوب ، وهو علم أسرار الذات وأنوار الصفات ، أعنى :

التوحيد الخاص ، فإذا نزل على أرض النفوس ، اهتزت وربت ، واخضرت بالعلوم والمعارف ، إن اللّه لطيف خبير ، لطيف لسريان معانيه اللطيفة فى كل شىء ، خبير ببواطن كل شىء ، فمن كوشف بلطيف معانيه وإحاطة علمه فى كل شىء ، وبكل شىء ، حيي قلبه بمعرفة اللّه ، واخضرت أرض نفسه بأنواع العلوم والمعارف ، ألم تر أن اللّه سخر لكم ما فى الأرض ، يكون عند أمركم ونهيكم ، وفلك الفكرة تجرى فى بحر التوحيد بأمره ، ويمسك سماء الأرواح أن تقع على أرض الحظوظ إلا بإذنه ، بعد الرسوخ فى معرفته ، والتمكين من الفهم عنه ، إن اللّه بالناس لرؤوف رحيم حيث فتح لهم باب العلوم ، وهيأ لهم أسباب الفهوم ، وهى الرياضة والتأديب.

ثم ذكر دليلا آخر على قدرته ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : آية ٦٦]

وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (٦٦)

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ بعد أن كنتم جمادا ، عناصر ونطفا فى الأصلاب والأرحام ، حسبما فصل فى صدر السورة ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عند مجىء آجالكم ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ عند البعث ، لإيصال جزائكم ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ : لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم ، ودفع عنه من صنوف النقم ، أو لا يعرف نعمة الإيجاد المظهرة للوجود ، ولا نعمة الإمداد الممدة بعد الوجود ، ولا نعمة الإفناء المقربة إلى الموعود ، ولا نعمة الإحياء الموصلة إلى المقصود ، وهو التنعم فى جوار الملك الودود ، فله الحمد دائما وله الشكر.

الإشارة : وهو الذي أحياكم باليقظة بعد الغفلة ، وبالعلم بعد الجهل ، ثم يميتكم عن حظوظ نفوسكم وهواها ، ثم يحييكم بالمعرفة به ، حياة لا موت بعدها ، فمن لم يعرف هذا فهو كنود.

ولا يمكن الوقوف على هذه النعم والقيام بشكرها ، إلا بالتمسك بالشرع والوحي الإلهى ، الذي أنزل اللّه على كل أمة ، كما أبان ذلك بقوله :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٦٧ الى ٧١]

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٥٢

يقول الحق جل جلاله : لِكُلِّ أُمَّةٍ من الأمم الخالية والباقية جَعَلْنا أي : وضعنا ، وعيّنا مَنْسَكاً : شريعة خاصة يتمسكون بها ، أي : عيّنا كل شريعة لأمة معينة من الأمم ، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى ، لا استقلالا ولا اشتراكا ، فكل جيل لهم شرع مخصوص ، هُمْ ناسِكُوهُ : عاملون به ، فالأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى - عليهما السلام - منسكهم التوراة ، هم عاملون به لا غيرهم. والتي كانت من مبعث عيسى عليه السّلام إلى مبعث النبي صلى اللّه عليه وسلم منسكهم الإنجيل ، هم ناسكوه وعاملون به. وأما الأمة الموجودة عند مبعث النبي - عليه الصلاة والسلام - ومن بعدهم إلى يوم القيامة فهم أمة واحدة ، منسكهم القرآن ، ليس إلا.

والفاء في قوله : فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن تعيين كل أمة بشرع مخصوص ، يجب اتباعه ، يوجب اتباع هؤلا الموجودين لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعدم منازعتهم له في أمر الدين ، أي : فلا يجادلنك في أمر الدين ، بل يجب عليهم الاستسلام والانقياد لكل أمر ونهي. أو : فلا تلتفت إلى قولهم ، ولا تمكنهم من أن ينازعوك في الأمر ، أي : أمر الدين أو أمر الذبائح. قيل : نزلت حين قال المشركون للمسلمين : ما لكم تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتله اللّه؟ يعني : الميتة ، فأمر اللّه بالغيبة عنهم ، وعدم الالتفات إلى قولهم. وَادْعُ إِلى رَبِّكَ أي : دم على الدعاء إلى اللّه ، والتمسك بدينه القويم إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ : طريق قويم موصل إلى الحق.

وَإِنْ جادَلُوكَ بعد ظهور الحق مراء وتعنتا ، كما يفعله السفهاء ، بعد اجتهادك ألّا يكون بينك وبينهم تنازع وجدال ، فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ أي : فلا تجادلهم ، وادفعهم بهذا القول ، والمعنى : إن اللّه عالم بأعمالكم وما تستحقون عليها من الجزاء ، فهو يجازيكم به. وهذا وعيد وإنذار ، ولكن برفق ولين ، يجيب به العاقل كلّ متعنت سفيه. قال تعالى : اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ من أمر الدين ، وهو خطاب من اللّه تعالى للمؤمنين والكافرين ، تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مما كان يلقى منهم.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ ، الاستفهام للتقرير ، أي : قد علمت أن اللّه يعلم كل ما يحدث في السماء والأرض ، ولا يخفى عليه شيء من الأشياء ، ومن جملتها : ما تقوله الكفرة وما يعملونه ، إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ في اللوح المحفوظ ، إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أي : علمه بجميع ذلك عليه يسير ، فلا يخفى عليه

معلوم ، ولا يعسر عليه مقدور. وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : متجاوزين إياه ، مع ظهور دلائل عظمته وقدرته وتوحيده ، ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً : حجة وبرهانا ، وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ أي : وما ليس لهم بجواز عبادته علم من ضرورة أو استدلال ، أي : لم يتمسكوا فى عبادتهم لها ببرهان سماوى من جهة الوحى ، ولا حملهم عليها دليل عقلى ، بل لمجرد التقليد الرديء ، وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ أي : وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم من أحد ينصرهم ، أو يصوب مذهبهم ، أو يدفع العذاب عنهم ، حين يعتريهم بسبب ظلمهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كما اختلفت الشرائع باختلاف الملل ، اختلفت التربية باختلاف الأشخاص والأعصار ، وقد تقدم عند قوله : لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً «١»

. وجملتها ترجع إلى الهمة والحال ، وبهما كانت التربية فى الصدر الأول ، فكانت الملاقاة والصحبة تكفى ، ويحصل التهذيب والتصفية وكمال المعرفة. وذلك فى زمان الصحابة والتابعين إلى القرن الثالث لقربهم من النور النبوي. فلما بعد الأمر ، وأظلمت القلوب ، أحدثوا تربية الاصطلاح ، وهو التزيي بزى مخصوص ، كالمرقعة وحمل السبحة فى العنق ، والركوة ، وغير ذلك من مسائل التجريد ، وترتيب أمور تموت بها النفوس وتعالج بها القلوب ، واستعمال أوراد مخصوصة ، فكانت التربية حينئذ بالهمة والحال والاصطلاح. وقد تحصل التربية لمن له الهمة والحال بغير اصطلاح ، إذا رآه ينجع فيه ذلك ، فبقى الأمر كذلك إلى القرن التاسع ، فتصدى للتربية بالاصطلاح قوم مدّعون ، لا همة لهم ولا حال ، فقال الحضرمي حسما لهذه الدعوى : قد انقطعت التربية بالاصطلاح ، وما بقي إلا الهمة والحال ، فعليكم بالكتاب والسنة ، أي :

بظاهر الكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان ، يعنى طريق الأحوال والاصطلاح. ومراده بذلك : قطع التربية بالاصطلاح من غير همة ولا حال. وأما من له الهمة والحال فلا يقصد الحضرمي قطع تربيته بالاصطلاح.

والحاصل : أن الحضرمي ما حكم إلا على وقته لما رأى من الفساد الذي دخل فى التربية. وقد وجد بعده رجال مربون بالاصطلاح مع الهمة والحال. والمراد بالهمة : العلم باللّه على نعت الشهود والعيان ، وبالحال : إنهاض القلوب عند رؤيته لذكر اللّه لقوله - عليه الصلاة والسلام - «خيركم من إذا رؤوا ذكر اللّه». ولا بد من إذن خاص من الشيخ ، أو من يقوم مقامه ، وإلا فلا تنجح تربيته ، ولا ينهض حاله. واللّه تعالى أعلم.

فإن تأهلت للتربية بإذن خاص ، فلا ينازعنك فى الأمر ، أي : لا تلفت إلى من ينازعك ويحتج عليك بانقطاع التربية تعنتا وعنادا. وادع إلى ربك ، إنك لعلى هدى مستقيم. قال القشيري : قوله : (وَ إِنْ جادَلُوكَ ...) إلخ ، أي :

(١) من الآية ٤٨ من سورة المائدة.

(٥٥٣/٣)

كلهم إلينا ، عند ما راموا أمر الجدال ، ولا تتكل على ما تختاره من الاحتيال ، واحذر جنوح قلبك إلى الاستغاثة بالأمثال والأشكال فإنهم قوالب خاوية. وأشباح من رؤية المعاني خالية. هـ. ويوم القيامة يظهر المحق من المبطل ، ويقال فى شأن من يعبد هواه : (وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...) الآية.

ثم ذكر وصفا آخر لأهل الإنكار ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : آية ٧٢]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)

قلت : (وَ إِذا تُتْلى) : عطف على «يعبدون» ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ أي : على المشركين آياتُنا القرآنية ، حال كونها بَيِّناتٍ : واضحات الدلالة على العقائد الحقية ، والأحكام الصادقة ، تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ أي : الإنكار بالعبوس والكراهة ، فالمنكر : مصدر بمعنى الإنكار. يَكادُونَ يَسْطُونَ : يبطشون ، والسطو : الوثب والبطش ، أي. يثبون على الذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا من فرط الغيظ والغضب ، والتالون هم : النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه. قُلْ لهم : أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم ، أو مما أصابكم من الكراهة والضجر ، بسبب ما يتلى عليكم ، هو النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مثلكم ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ النار ، التي ترجعون إليها مخلدين.

الإشارة : من شأن أهل العتو والتكبر أنهم إذا وعظهم الفقراء عنفوا واستنكفوا ، ويكادون يسطون عليهم من شدة الغضب ، فما قيل لكبراء الكفار يجر ذيله على من تشبه بهم من المؤمنين.

ولمّا كان دعواهم الشريك للّه تعالى جارية فى الغرابة والشهرة مجرى الأمثال السائرة ، ضرب لها الحق تعالى مثلا ، فقال :

(٥٥٤/٣)

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٧٣ الى ٧٤]

يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ أي : يبين لكم حال مستغربة ، أو قصة بديعة رائقة حقيقة بأن تسمى مثلا ، وتنشر فى الأمصار والأعصار ، فَاسْتَمِعُوا لَهُ لضرب هذا المثل استماع تدبر وتفكر ، وهو : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ ، وعن يعقوب : بياء الغيبة ، أي : إن الذين تدعونهم آلهة وتعبدونهم مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً أي : لن يقدروا على خلقه أبدا ، مع صغره وحقارته. و«لن» : لتأبيد النفي ، فتدل على استحالته ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ أي : الذباب. ومحله : نصب على الحال ، كأنه قال : لا يقدرون على خلقه مجتمعين له ، متعاونين عليه ، فكيف إذا كانوا منفردين؟! وهذا أبلغ ما أنزل فى تجهيل قريش ، حيث وصفوا بالألوهية - التي من شأنها الاقتدار على جميع المقدورات ، والإحاطة بكل المعلومات - صورا وتماثيل ، يستحيل منها أن تقدر على أضعف ما خلقه اللّه تعالى وأذله ، ولو اجتمعوا له.

وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً من الطيب وغيره ، لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ أي : هذا الخلق الأرذل الأضعف ، لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه ، لم يقدروا ، وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : أنهم كانوا يطلونها بالعسل والطيب ، ويغلقون عليها الأبواب ، فيدخل الذباب من الكوى «١»

فيأكله ، فتعجز الأصنام عن أخذه. ضَعُفَ الطَّالِبُ : الصنم بطلب ما سلب منه ، وَالْمَطْلُوبُ : الذباب بما سلب. وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب فى الضعف ، ولو حققت لوجدت الطالب أضعف وأضعف فإنّ الذباب حيوان والصنم جماد.

ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ : ما عرفوه حق معرفته ، حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكا له ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ أي : قادر غالب ، فكيف يتجه أن يكون العاجز المغلوب شبيها له! أو : لقوى ينصر أولياءه ، عزيز ينتقم من أعدائه. بعد أن ذكر تعالى أنهم لم يقدروا له قدرا حيث عبدوا معه من هو منسلخ من صفاته ، وسموه باسمه مع عجزه. ختم بصفتين منافيتين لصفات آلهتهم وهى القوة والغلبة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من تعلق فى حوائجه بغير اللّه أو ركن بالمحبة إلى شىء سواه ، فقد أشرك مع اللّه أضعف شىء وأقله. فماذا يجدى تعلق العاجز بالعاجز ، والضعيف بالضعيف ، ضعف الطالب والمطلوب. فما قدر اللّه حق قدره من تعلق فى أموره بغيره. قال الورتجبي : بيّن سبحانه - بعد ذكر عجز الخلق والخليقة - جلال قدره الذي لا يعرفه غيره ، بقوله : (ما قدروا اللّه حق قدره) ، قال : وهذه شكاية عن إشارة الخلق إليه بما هو غير موصوف به ، فذكر

(١) الكوى : جمع كوّة ، ويجمع أيضا على كواء. وهى الخرق فى الحائط. انظر : اللسان (كوى ٥/ ٣٩٦٤). والخبر : ذكره البغوي فى تفسيره (٥/ ٤٠٠).

غيرته إذا أقبلوا إلى غير من هو موصوف بالقوة الأزلية والعزة السرمدية. ألا ترى كيف قال : (إن اللّه لقوى عزيز) ، ثم بيّن أنه تعالى اصطفى من الملائكة رسلا ، يخبرون عنه ما يتعلق بعجز الخلق عن إدراكه من وصف ذاته وصفاته ، بقوله :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٧٥ الى ٧٦]

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ يَصْطَفِي : يختار مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا يرسلهم إلى صفوة خلقه ، كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم ، وَمِنَ النَّاسِ ، كإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، يعرّفون بجلال اللّه ومعرفة قدره ، حتى يقدروه حق قدره باعتبارهم لا باعتباره فإنّ اللّه تعالى لا يمكن لأحد أن يقدره حق قدره. قال سيد العارفين : «لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك».

وقيل : نزلت ردا لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر ، وبيانا أن رسل اللّه على ضربين : ملك وبشر. وقيل : نزلت فى قولهم : أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا «١»

. إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ أي : سميع لقولهم ، بصير بمن يختاره للرسالة. أو سميع لأقوال الرسل ، بصير بأحوال الأمم فى الردّ والقبول. يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ : ما مضى ، وَما خَلْفَهُمْ : ما يأتى ، أو ما عملوا وما سيعملونه ، أو أمر الدنيا وأمر الآخرة ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ أي : إليه مرجع الأمور كلها ، ليس لأحد أن يعترض عليه فى حكمه وتدبيره واختياره من شاء من رسله. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : شرب الخمرة ، وهى المحبة الحقيقية والمعرفة الكاملة ، لا تكون إلّا على أيدى الوسائط ، والنادر لا حكم له ، فالأنبياء وسائطهم الملائكة ، والأولياء وسائطهم خلفاء الأنبياء ، وهم أهل العلم بالله الذوقى العيانى. وقال الورتجبي - إثر ما تقدم عنه - : فالملائكة وسائط الأنبياء ، والأنبياء وسائط العموم ، والأولياء للأولياء خاصة. هـ.

وتوسيط الأنبياء للعموم فى مطلق المحبة ، وتعليم ما يقرب إليها ، وأما المحبة الحقيقية فهى خاصة بالأولياء للأولياء ، كما قال. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر سببها ، وما يقرب إليها ، فقال :

---

(١) من الآية ٨ من سورة ص.

(٥٥٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٥٧

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٧٧ الى ٧٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

قلت : (ملة أبيكم) : منصوب بمحذوف ، أي : اتبعوا ملة إبراهيم.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا فى صلاتكم ، وكانوا أول ما أسلموا يصلون بلا ركوع وسجود ، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود ، وفيه دليل على أن الأعمال ليست من الإيمان ، وأن هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة ، قاله النسفي. وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ أي : واقصدوا بعبادتكم وجه اللّه ، وأخلصوا فيها ، أو هو عطف عام على خاص فإن العبادة أعم. وَافْعَلُوا الْخَيْرَ كله. قيل : لما كان للذكر مزية على غيره دعا المؤمنين أولا للصلاة التي هى ذكر خالص لقوله : وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي «١»

،

ثم إلى العبادة بغير الصلاة ، كالصوم والحج ، ثم عم بالحث على سائر الخيرات. وقال ابن عرفه : وافعلوا الخير : راجع للعبادة المتعدية ، وما قبله يختص بالقاصرة. قال المحشى : وفيه نظر لشمول العبادة لما هو متعدى النفع ، كتعليم العلم ، والصدقة ، ونحو ذلك ، بل أمر أولا بالصلاة ، وهى نوع من العبادة ، وثانيا بالعبادة ، وهى نوع من فعل الخير ، وثالثا بفعل الخير ، وهو أعم من العبادة. فبدأ بخاص ثم عام ثم بأعم. هـ. لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ : كى تفوزوا ، أي : افعلوا هذا كله ، وأنتم راجون للفلاح غير مستيقنين ، فلا تتكلوا على أعمالكم.

وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ أي : فى ذات اللّه ومن أجله حَقَّ جِهادِهِ ، أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى ، وهو الجهاد الأكبر ، ومنه : كلمة حق عند أمير جائر. قال - عليه الصلاة السلام - : «أعمال البر كلها ، إلى جنب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كنفثة إلى جنب البحر ، والأمر بالمعروف والنهى عن

المنكر إلى جنب الجهاد فى سبيل اللّه عز وجل كنفثة فى بحر ، والجهاد فى سبيل اللّه عز وجل إلى جنب مجاهدة النفس عن هواها فى اجتناب النهى ، كنفثة فى جنب بحر لجى». وهذا على معنى الخبر الذي جاء : «جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» «٢»

. يعنى : مجاهدة النفس. قاله فى القوت.

---

(١) من الآية ١٤ من سورة طه.

(٢) أخرجه الديلمي فى مسند الفردوس (تسديد القوس ، باب القاف ، قدمت من الجهاد الأصغر) ، والخطيب البغدادي فى تاريخ بغداد (١٣/ ٥٢٣) من حديث جابر ، بألفاظ مقاربة ، وآخره : «وما الجهاد الأكبر؟ قال : مجاهدة العبد هواه». وإسناده ضعيف. راجع الفتح السماوي (٢/ ٨٥١) ، وكشف الخفاء (١/ ٥١١).

(٥٥٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٥٨

قال القشيري : حق الجهاد ما يوافق الأمر فى القدر والوقت والنوع ، فإذا حصل فى شيء منه مخالفة فليس حقّ جهاده. هـ. قلت : موافقة القدر ، فى جهاد النفس ، أن يكون بغير إفراط ولا تفريط ، فالإفراط يمل ، والتفريط يخل ، وموافقة الوقت أن يكون قبل حصول المشاهدة إذ لا تجتمع مجاهدة ومشاهدة فى وقت واحد. والنوع أن يجاهدها بما يباح فى الشرع ، لا بمحرم ولا مكروه. وقال فى الحاشية : هو الوفاء بالمشروع مع رفع الحرج ، بدليل ما بعده ، فهو موافق لقوله تعالى : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ «١»

، ومما هو ظاهر فى الآية : الذب عن دينه وتغيير المناكر. هـ.

هُوَ اجْتَباكُمْ : اختاركم لدينه بإظهاره والذب عنه ، وهو تأكيد للأمر بالجهاد ، أي : وجب عليكم أن تجاهدوا لأنّ اللّه اختاركم لإظهار دينه ، وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ : ضيق ، بل وسع عليكم فى جميع ما كلفكم به ، من الطهارة ، والصلاة والصوم والحج ، بالتيمم والإيماء ، وبالقصر فى السفر ، والإفطار لعذر ، وعدم الاستطاعة فى الحج. فاتبعوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ فإن ما جاءكم به رسولكم موافق لملته فى الجملة ، لقوله صلى اللّه عليه وسلم : «جئتكم بالحنيفية السمحة» «٢»

، وسماه أبا ، وإن لم يكن أبا للأمة كلها لأنه أبو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فكان أبا لأمته لأن أمة الرسول فى حكم أولاده.

قال صلى اللّه عليه وسلم : «إنّما أنا لكم مثل الوالد» «٣»

هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ أي : اللّه ، بدليل قراءة أبى : «اللّه سماكم» أو إبراهيم لقوله : وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ «٤» مِنْ قَبْلُ أي : سماكم من قبل ظهورهم فى الكتب السالفة ، وَفِي هذا أي : القرآن ، فقد فضلكم على سائر الأمم ، وسماكم بهذا الاسم الأكرم ، لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ أنه قد بلغكم رسالة ربكم ، وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ بتبليغ الرسل رسالات اللّه إليهم. وإذا خصكم بهذه الكرامة والأثرة فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ بواجباتها ، وَآتُوا الزَّكاةَ لشرائطها ، وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ أي ثقوا به وتوكلوا عليه ، لا بالصلاة والزكاة. أو : ثقوا به فى جميع أموركم ، ولا تطلبوا الإعانة والنصر إلا منه. هُوَ مَوْلاكُمْ : مالككم وناصركم ومتولى أموركم ، فَنِعْمَ الْمَوْلى حيث لم يمنعكم رزقكم بعصيانكم ، وَنِعْمَ النَّصِيرُ أي : الناصر حيث أعانكم على طاعتكم ومجاهدة نفوسكم وأعدائكم.

---

(١) من الآية ١٦ من سورة التغابن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٥/ ٢٦٦) ، والطبراني فى الكبير (٨/ ٢٥٧ رقم ٧٨٦٨) من حديث أبى أمامة بلفظ : «إنى لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ، ولكنى بعثت بالحنيفية السمحة».

(٣) بعض حديث أخرجه أبو داود فى (الطهارة ، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة) ، والنسائي فى (الطهارة ، باب النهى عن الاستطابة بالروث) ، وابن ماجة فى (الطهارة ، باب الاستنجاء بالحجارة) ، والدارمي فى (الطهارة ، باب الاستنجاء بالأحجار) عن أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٤) من الآية ١٢٨ من سورة البقرة.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا تقربوا إلىّ بأنواع الطاعات وبالمسارعة إلى الخيرات ، لعلكم تفوزون بمعرفة أسرار الذات وأنوار الصفات ، وجاهدوا نفوسكم بأنواع المجاهدات ، كى أجتبيكم وأنزهكم فى أسرار ذاتى ، فإنى قد اجتبيتكم قبل كونكم فى أزل أزلى. وكأنه يشير إلى قوله : «لا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ...» الحديث.

والمأمور به من التقرب والمجاهدة قدر الاستطاعة ، من غير تشديد ولا تعقيد ، لقوله : (و ما جعل عليكم فى الدين من حرج) لأن مبنى الشرع الكريم على السهولة ، فالذى يتوصل إلى رضوانه أو صريح معرفته ، لا يشترط أن يستغرق كنه إمكان العبد فيه. «لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساوئك ومحو دعاويك ، لم تصل إليه أبدا ، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ، ونعتك بنعته ،

فوصلك بما منه إليك ، لا بما منك إليه». كما فى الحكم.

وقال الورتجبي : (وَ ما جَعَلَ ..) الآية ، أي : إذا شاهدتم مشاهد جمالى سهل عليكم فناؤكم فى جلالى ، وسهل عليكم بذل مهجكم إليه. ألا ترى كيف قال : (ملة أبيكم إبراهيم) ، ومن ملته : الاستسلام والانقياد ، وبذل الوجوه بنعت السخاء والكرم ، يا أسباط خليلى ، رأى أبوكم استعداد هذه المراتب الشريفة فيكم ، قبل وجودكم بنور النبوة ، فسماكم المسلمين ، أي : منقادين بين يدىّ ، عارفين بوحدانيتى. وفيما ذكرنا من أوصافكم ، حبيبى شاهد عليكم ، يعرف هذه الفضائل منكم ، وهو بلغكم نشر فضائلى عليكم. ثم قال : اطلبوا الاعتصام منى ، استعينوا لأقويكم فى طاعتى. ثم قال : (فنعم المولى) حيث لا مولى غيره ، (و نعم النصير) حيث لا يخذل من نصره فإن اللّه عزيز ممتنع من نقائص النقص. قال جعفر فى قوله : (حق جهاده) : ألّا تختار عليه شيئا ، كما لم يختر عليك لقوله : (هو اجتباكم). هـ.

وقوله تعالى : (وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ...) الآية : أي : اجتباكم واختاركم وسماكم مسلمين ، لتكونوا مرضيين عدولا ، تشهدون على الأمم ، كما يشهد محمد صلى اللّه عليه وسلم عليكم ويزكيكم ، فهو كقوله تعالى : جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ ... «١» إلخ. وإذ قد خصكم بهذه الكرامة والأثرة فاعبدوه وثقوا به ، ولا تطلبوا الولاية والنصرة إلا منه ، فهو خير ولى وناصر ، ومن كان اللّه تعالى مولاه وناصره فقد أفلح وفاز ، ولذلك افتتح السورة التي تليها به. وباللّه التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

سورة المؤمنون

مكية. وهى مائة وثمانى عشرة آية ، قيل : مناسبة افتتاح السورة بالفلاح أنه قال فيما قبلها : لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ «١» على سبيل الرجاء ، وحققه هنا بشرطه فى الجملة ، ثم لمّا ذكر وراثة المتصف بتلك

الأوصاف للفردوس ، وذلك يتضمن المعاد ، ذكر النشأة الأولى دلالة على صحته ، أي : المعاد ، ثم لمّا ذكر ابتداء خلق الإنسان وانتهاء أمره ذكّره بنعمه ، فقال : لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ ، وَأَنْزَلْنا ، فَأَنْشَأْنا .. الآيات ، ولمّا كانت هذه النعم على الإنسان تقتضى منه الشكر بالطاعة والتوحيد للكريم المنّان ، ثم إن أصنافا من الكفرة قابلوها بالكفران ، فلذلك ذكر قصصهم بعد ذكرها ، بقوله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً ... إلخ. فهذا ما تضمنته السورة من الترتيب ، قال تعالى :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ (٤)

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ (٩)

أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١١)

يقول الحق جل جلاله : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ أي : فازوا بكل مطلوب ، ونالوا كل مرغوب ، فالفلاح : الفوز بالمرام والنجاة من المكاره والآلام ، وقيل : البقاء فى الخير على الأبد ، وقد تقتضى ثبوت أمر متوقع ، فهى هنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت من قبل ، وكان المؤمنون يتوقعون مثل هذه البشارة وهى الإخبار بثبوت الفلاح لهم ، فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه. والإيمان فى اللغة : التصديق بالقلب ، والمؤمن : المصدّق لما جاء به الشرع ، مع الإذعان بالقلب ، وإلا .. فكم من كافر صدّق بالحق ولم يذعن ، تكبّرا وعنادا ، فكل من نطق بالشهادتين ،

---

(١) من الآية ٧٧ من سورة الحج.

مواطئا لسانه قلبه فهو مؤمن شرعا ، قال عليه الصلاة السلام : «لمّا خلق اللّه الجنّة ، قال لها : تكلّمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون - ثلاثا - أنا حرام على كلّ بخيل مرائى» «١» لأنه بالرياء أبطل العبادات الدينية ، وليسر له أعمال صافية.

ثم وصف أهل الإيمان بست صفات ، فقال : الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ : خاضعون بالقلب

ساكنون بالجوارح ، وقيل : الخشوع فى الصلاة : جمع الهمة ، والإعراض عما سواها ، وعلامته : ألا يجاوز بصره مصلاه ، وألّا يلتفت ولا يعبث. وعن أبى الدرداء : (هو إخلاص المقال ، وإعظام المقام ، واليقين التام ، وجمع الاهتمام).

وأضيفت الصلاة إلى المصلين لانتفاع المصلّى بها وحده ، وهى عدّته وذخيرته ، وأما المصلّى له فغنيّ عنها.

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، اللغو : كل كلام ساقط ، حقه أن يلغى ، كالكذب والشتم ونحوهما. والحق أن اللغو : كل ما لا يعنى من الأقوال والأفعال ، وصفهم بالحزم والاشتغال بما يعنيهم وما يقربهم إلى مولاهم فى عامة أوقاتهم ، كما ينبيء عنه التعبير بالاسم الدال على الثبوت والاستمرار ، بعد وصفه لهم بالخشوع ليجمع لهم بين الفعل والترك ، الشاقّين على النفس ، الّذين هما قاعدتا التكليف. وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ : مؤدون ، والمراد بالزكاة : المصدر ، الذي هو الإخراج ، لا المخرج. ويجوز أن يراد به العين ، وهو الشيء المخرج ، على حذف مضاف ، أي : لأداء الزكاة فاعلون. وصفهم بذلك ، بعد وصفهم بالخشوع فى الصلاة للدلالة على أنهم بلغوا الغاية القصوى من القيام بالطاعة البدنية والمالية ، والتجنب عن النقائص ، وتوسيط الإعراض عن اللغو بينهما لكمال ملابسته بالخشوع فى الصلاة لأن من لزم الصمت والاشتغال بما يعنى عظم خشوعه وأنسه بالله.

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ : ممسكون لها ، ويشمل فرج الرجل والمرأة ، إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ ، الظاهر أن «على» بمعنى «عن» أي : إلا عن أزواجهم ، فلا يجب حفظها عنهن ، ويمكن أن تبقى على بابها ، تقول العرب : احفظ عليّ عنان فرسى ، أي : أمسكه ، ويجوز أن يكون ما بعد الاستثناء حالا ، أي : إلا والين على أزواجهم ، من قولك : كان زياد على البصرة ، أي : واليا عليها ، والمعنى : أنهم لفروجهم حافظون فى كافة الأحوال ، إلا فى حالة تزوجهم أو تسريهم. أو يتعلق «على» بمحذوف يدل عليه : (غير ملومين) ، كأنه قيل : يلامون إلا على أزواجهم ، أي : يلامون على كل مباشرة إلا على ما أبيح لهم ، فإنهم غير ملومين عليه ، أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ أي : سراريهم ، وعبّر عنهن بما لأن المملوك يجرى مجرى غير العقلاء ، لأنه يباع كما تباع البهائم. وقال فى الكشاف : وإنما قال «ما» ، ولم يقل «من» لأن الإناث يجرين مجرى غير العقلاء «٢». هـ. يعنى : لكونهن ناقصات عقل ، كما فى الحديث. وفيه احتراس من الذكور بالملك ، فلا يباح إتيانهم والتمتع بهم للمالك ولا للمالكة ، بإجماع.

---

(١) ذكره بنحوه الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٣٩٧) من حديث ابن عباس - رضى اللّه عنهما ، وقال : رواه الطبراني فى الأوسط والكبير ، وأحد إسنادى الطبراني فى الأوسط جيد. [.....]

(٢) فى هذا الكلام نظر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٦٣

وقوله تعالى : فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ أي : لا لوم عليهم فى عدم حفظ فروجهم عن نسائهم وإمائهم. فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ طلب قضاء شهوته فى غير هذين ، فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ : الكاملون فى العدوان ، وفيه دليل على تحريم المتعة والاستمتاع بالكف لإرادة الشهوة لأن نكاح المتعة فاسد ، والمعدوم شرعا كالمعدوم حسا ، ويدل على فساده عدم التوارث فيه بالإجماع ، وكان فى أول الإسلام ثم نسخ.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ أي : لما يؤتمنون عليه ، ويعاهدون عليه من جهة الحق أو الخلق ، راعُونَ : حافظون عليها قائمون بها ، والراعي : القائم على الشيء بحفظ وإصلاح ، كراعى الغنم. وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ المفروضة عليهم يُحافِظُونَ : يداومون عليها فى أوقاتها. وأعاد الصلاة لأنها أهم ، ولأن الخشوع فيها زائد على المحافظة عليها ، ووحّدت أولا ليفاد أن الخشوع فى جنس الصلاة أيّة صلاة كانت ، وجمعت ثانيا ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل. قاله النسفي.

أُولئِكَ الجامعون لهذه الأوصاف هُمُ الْوارِثُونَ الأحقاء بأن يسمّوا وارثين ، دون غيرهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها ، وقيل : إنهم يرثون من الكفار منازلهم فى الجنة ، حيث فوّتوها على أنفسهم ، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار ، ففى الحديث : «ما منكم من أحد إلّا وله منزلان :

منزل فى الجنّة ومنزل فى النّار ، فإن مات ودخل الجنّة ، ورث أهل النّار منزله ، وإن مات ودخل النّار ، ورث أهل الجنّة منزله» «١».

ثم ترجم الوارثين بقوله : الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ، هو فى لغة الروم والحبشة : البستان الواسع ، الجامع لأصناف الثمر ، والمراد : أعلى الجنان ، استحقوا ذلك بأعمالهم المتقدمة حسبما يقتضيه الوعد الكريم ، هُمْ فِيها خالِدُونَ ، أنث الفردوس بتأويل الجنة ، أو لأنه طبقة من طبقاتها ، وهى العليا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال القشيري : الفلاح : الفوز بالمطلوب ، والظّفر بالمقصود. والإيمان : انتسام الحقّ فى السريرة ، ومخامرة التصديق بخلاصة القلب ، واستكمال التحقيق من تامور الفؤاد «٢». والخشوع فى الصلاة : إطراق السّرّ على بساط النّجوى ، باستكمال نعت الهيبة ، والذوبان تحت سلطان الكشف ، والانمحاء عند غلبات التّجلّي. هـ.

قلت : كأنه فسر الفلاح والإيمان والخشوع بغايتهن ، فأول الفلاح : الدخول فى حوز الإسلام بحصول الإيمان ، وغايته : إشراق شمس العرفان ، وأول الإيمان : تصديق القلب بوجود الرب ، من طرق الاستدلال والبرهان ، وغايته :

(١) أخرجه ابن ماجة فى (الزهد ، باب : صفة الجنة) ، عن أبى هريرة - رضى اللّه عنه.
(٢) أي : داخل القلب.

(٥٦٣/٣)

إشراق أسرار الذات على السريرة ، فيصير الدليل محل العيان ، فتبتهج السريرة بمخامرة الذوق والوجدان ، وأول الخشوع : تدبر القلب فيما يقول ، وحضوره عند ما يفعل ، وغايته : غيبته عن فعله فى شهود معبوده ، فينمحي وجود العبد عند تجلى أنوار الرب ، فتكون صلاته شكرا لا قهرا ، كما قال سيد العارفين صلى اللّه عليه وسلم : «أفلا أكون عبدا شكورا».

ولا تتحقق هذه المقامات إلا بالإعراض عن اللغو ، وهو كل ما يشغل عن اللّه ، وتزكية النفوس ببذلها فى مرضاة اللّه ، وإمساك الجوارح عن محارم اللّه ، وحفظ الأنفاس والساعات ، التي هى أمانات عند العبد من اللّه.

قال فى القوت : قال بعض العارفين : إن للّه - عز وجل - إلى عبده سرّين يسرهما إليه ، يوجده ذلك بإلهام يلهمه ، أحدهما : إذا ولد وخرج من بطن أمه ، يقول له : عبدى ، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا ، واستودعتك عمرك ، ائتمنتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة ، وانظر كيف تلقانى كما أخرجتك ، وسرّ عند خروج روحه ، يقول له : عبدى ، ما ذا صنعت فى أمانتى عندك؟ هل حفظتها حتى تلقانى على العهد والرعاية ، فألقاك بالوفاء والجزاء؟

أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟ فهذا داخل فى قوله عز وجل : (وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ) ، وفى قوله عز وجل : وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ «١» ، فعمر العبد أمانة عنده ، إن حفظه فقد أدى الأمانة ، وإن ضيّعه فقد خان ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ «٢». هـ.

ثم ذكر ابتداء خلق الإنسان وأطواره وانتهاء أمره ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ١٢ الى ١٦]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)

قلت : «خلق» : إن كان بمعنى اخترع وأحدث تعدى إلى واحد ، وإن كان بمعنى صيّر تعدى إلى مفعولين ، ومنه : (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً) ، وما بعده.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ جنس الإنسان ، أو آدم ، مِنْ سُلالَةٍ «من» :

للابتداء ، والسلالة : الخلاصة لأنها تسل من بين الكدر ، وهو ما سلّ من الشيء واستخرج منه ، فإن (فعالة) اسم لما

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٥٨ من سورة الأنفال.

(٥٦٤/٣)

يحصل من الفعل ، فتارة يكون مقصودا منه ، كالخلاصة ، وتارة غير مقصود ، كالقلامة والكناسة ، والسلالة من قبيل الأول فإنها مقصودة بالسّل ، وقيل : إنما سمى التراب الذي خلق منه آدم سلالة ، لأنه سلّ من كل تربة. وقوله :

(مِنْ طِينٍ) ، بيان ، متعلقة بمحذوف ، صفة للسلالة ، أي : خلقناه من سلالة كائنة من طين.

ثُمَّ جَعَلْناهُ أي : الجنس ، باعتبار أفراده المتغايرة لآدم عليه السّلام ، وجعلنا نسله ، على حذف مضاف ، إن أريد بالإنسان آدم ، فيكون كقوله تعالى : وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ «١» أي : جعلنا نسله نُطْفَةً : ماء قليلا فِي قَرارٍ مَكِينٍ أي : فى مستقر - وهو الرحم - (مَكِينٍ) : حصين ، أو متمكن فيه ، وصف الرحم بصفة ما استقر فيه ، مثل طريق سائر ، أي : مسير فيه.

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً أي : دما جامدا ، بأن جعلنا النطفة البيضاء علقة حمراء ، (فخلقنا العلقة مضغة) أي : قطعة لحم لا استبانة ولا تمايز فيها ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ أي : غالبها ومعظمها ، أو كلها عِظاماً ، بأن صلبناها ، وجعلناها عمودا على هيئة وأوضاع مخصوصة ، تقتضيها الحكمة ، فَكَسَوْنَا الْعِظامَ المعهودة لَحْماً بأن أنبتنا عليها اللحم ، فصار لها كاللباس ، أو كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم ، على مقدار لائق به ، وهيئة مناسبة. وقرىء بالإفراد فيهما ، اكتفاء بالجنس ، وبتوحيد الأول فقط ، وبتوحيد الثاني فحسب.

ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ أي : خلقا مباينا للخلق الأول ، حيث جعله حيوانا ، وكان جمادا ، وناطقا وسميعا وبصيرا ، وكان بضد هذه الصفات ، ولذلك قال الفقهاء : من غصب بيضة فأفرخت عنده ضمّن البيضة ، ولم يردّ الفرخ لأنه خلق آخر سوى البيضة.

فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ أي : فتعالى أمره فى قدرته الباهرة ، وعلمه الشامل. والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة ، وإدخال الروعة ، والإشعار بأنّ ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية ،

وللإيذان بأنّ من حق كل من سمع ما فصّل من آثار قدرته تعالى أو لا حظه ، أن يسارع إلى التكلم به ، إجلالا وإعظاما لشؤونه تعالى ، وقوله : (أَحْسَنُ الْخالِقِينَ) : بدل من اسم الجلالة ، أو نعت ، على أنّ الإضافة محضة ليطابقه فى التعريف ، أو خبر ، أي : هو أحسن الخالقين خلقا ، أي : أحسن المقدرين تقديرا ، فحذف التمييز لدلالة الخالقين عليه.

قيل : إنّ عبد اللّه بن أبى سرح كان يكتب الوحى للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، فلمّا انتهى - عليه الصلاة والسّلام - إلى قوله :

خَلْقاً آخَرَ ، سارع عبد اللّه إلى النطق بذلك ، فنطق بذلك ، قبل إملائه ، فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «اكتب ، هكذا

---

(١) الآيتان ٧ - ٨ من سورة السجدة.

أنزلت» ، فشكّ عبد اللّه ، فقال : إن كان محمد يوحى إليه ، فأنا يوحى إلىّ ، فارتدّ ولحق بمكة كافرا ، ثم أسلم يوم الفتح. وقيل : الحكاية غير صحيحة لأن ارتداده كان بالمدينة ، والسورة مكية «١».

ثم قال تعالى : ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ أي : بعد ما ذكر من الأمور العجيبة ، حسبما ينبىء عنه ما فى اسم الإشارة من البعد ، المشعر بعلوّ مرتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل ، لَمَيِّتُونَ : لصائرون إلى الموت لا محالة ، كما يؤذن به صيغة الصفة ، وقرىء «لمائتون» ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أي : عند النفخة ، تُبْعَثُونَ فى قبوركم للحساب والمجازاة ، فإن قلت : لم أكدّ الأول بإنّ واللام ، وعبّر بالاسم دون الثاني ، الذي هو البعث ، والمتبادر للفهم العكس لأن الموت لم ينكره أحد ، والبعث أنكره الكفار والحكماء؟ فالجواب كما قال ابن عرفة : إنه من حمل اللفظ على غير ظاهره ، مثل :

جاء شقيق عارضا رمحه إنّ بنى عمّك فيهم رماح

فهم ، لعصيانهم ومخالفتهم ، لم يعملوا للموت ، فحالهم كحال المنكر لها ، ولمّا كانت دلائل البعث ظاهرة صار كالأمر الثابت الذي لا يرتاب فيه. هـ.

الإشارة : اعلم أن الروح لها أطوار كأطوار البشرية ، من الضعف والقوة شيئا فشيئا ، باعتبار قوة اليقين والترقي إلى العلم باللّه ومشاهدته ، فتكون أولا صغيرة العلم ، ضعيفة اليقين ، تم تتربى بقوت القلوب وغذاء الأرواح فقوت القلوب : العمل الظاهر ، وقوت الأرواح : العمل الباطن ، فلا تزال تتقوت بالعمل الظاهر شيئا فشيئا حتى تقوى على كمال غايته ، ثم تنتقل إلى قوت العمل الباطن كالذكر القلبي ،

والتفكر والاعتبار ، وجولان القلب فى ميادين الأغيار ، ثم دوام حضور القلب مع الحق على سبيل الاستهتار ، ثم يفتح لها ميادين الغيوب ، ويوسع عليها فضاء الشهود ، فيكون قوتها حينئذ رؤية المحبوب ، وهو غاية المطلوب ، فتبلغ مبلغ الرجال ، وتحوز مراتب الكمال ، ومن لم يبلغ هذا بقي فى مرتبة الأطفال ، ولا يمكن حصول هذا إلا بصحبة طبيب ماهر ، يعالجها ويربيها ، وينقلها من طور إلى طور ، وإلّا بقيت الروح مريضة لا تتقوت إلا بالمحسوسات ، وهى لا تشبع ولا تغنى من جوع. وباللّه التوفيق.

ولمّا ذكر ابتداء الإنسان وانتهاءه ، ذكّره بنعمه ، أو تقول : لما ذكر نعمة الإيجاد ذكر نعمة الإمداد ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ١٧ الى ٢٢]

وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (٢١)
وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)

---

(١) انظر روح المعاني (١٨/ ١٦).

قلت : «سيناء» ، من فتحها : جعل همزتها للتأنيث ، فلم يصرفه للتأنيث والوصف ، كحمراء ، أو لألف التأنيث ، لقيامه مقام علتين ، ومن كسرها : لم يصرفه للتعريف والعجمة ، وهذا البناء ليس من أبنية التأنيث ، وإنما ألفه ألف الإلحاق ، كعلباء وجرباء. ونبت وأنبت : لغتان بمعنى واحد ، وكذلك سقى وأسقى.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ ، وهى السموات السبع ، جمع طريقة لأنها طرق الملائكة وتقلباتها ، وطرق الكواكب ، فيها مسيرها ، وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ ، أراد بالخلق السموات ، كأنه قال : خلقناها وما غفلنا عن حفظها وإمساكها ، أو الناس ، أي : خلقناها فوقكم لنفتح عليكم منها الأرزاق والبركات ، وما كنا غافلين عنكم وعما يصلحكم ، أو : خلقناها فوقكم ، وما حالت بيننا وبينكم ، بل نحن أقرب إليكم من كل شيء ، فلا نغفل عن شيء من أمركم ، قلّ أو جلّ.

وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً هو المطر ، وقيل : الأنهار النازلة من الجنة ، وهى خمسة : سيحون نهر الهند ، وجيحون نهر بلخ ، ودجلة والفرات نهرا العراق ، والنيل نهر مصر ، أنزلها اللّه تعالى من عين واحدة من عيون الجنة. هـ. وقوله تعالى : بِقَدَرٍ أي : بتقدير ، يسلمون معه من المضرة ، ويصلون إلى المنفعة ، أو بمقدار ما علمنا بهم من الحاجة ، أو : بقدر سابق لا يزيد عليه ولا ينقص ، فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ أي : جعلناه ثابتا قارا فيها ، كقوله : فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ «١» ، فماء الأرض كله من السماء ، وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ أي :

إزالته بالإفساد والتغوير ، بحيث يتعذر استنباطه ، لَقادِرُونَ كما كنا قادرين على إنزاله ، وفى تنكير «ذهاب» :

إيماء إلى كثرة طرقه ، ومبالغة فى الإيعاد به ، ولذلك كان أبلغ من قوله : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ «٢».

ثم ذكر نتائجه ، فقال : فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ أي : بذلك الماء جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ ، لَكُمْ فِيها أي : فى الجنات ، فَواكِهُ كَثِيرَةٌ تتفكهون بها سوى النخيل والأعناب ، وَمِنْها تَأْكُلُونَ أي : من الجنات تأكلون

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الزمر.

(٢) الآية ٣٠ من سورة الملك.

(٥٦٧/٣)

تغذيا وتفكها ، أو ترزقون وتحصّلون معايشكم ، من قولهم : فلان يأكل من حرفته ، وهذه الجنة وجوه أرزاقكم منها ترزقون وتتمعشون ، ويجوز أن يكون الضميران للنخيل والأعناب ، أي : لكم فى ثمرتها أنواع من الفواكه ، الرطب والعنب ، والتمر والزبيب ، والعصير والدّبس ، «١» وغير ذلك ، وطعاما تأكلونه ، وَأنبتنا به شَجَرَةً هى الزيتون تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ ، وهو جبل موسى عليه السّلام بين مصر وأيلة ، وقيل : بفلسطين ، ويقال : فيه طور سينين ، فإمّا أن يكون الطور اسم الجبل ، وسيناء اسم البقعة أضيف إليها ، أو المركب منهما علم له ، كامرىء القيس ، وتخصيصها بالخروج منه ، مع خروجها من سائر البقع ، إما لتعظيمها ، أو لأنه المنشأ الأصلى لها لأن أصل الزيتون من الشام ، وأول ما نبت فى الطور ، ومنه نقل إلى سائر البلاد ، تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ أي : متلبسة بالدهن ، أي : ما يدهن به ، وهو الزيت ، وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ أي : إدام لهم ، قال مقاتل : جعل اللّه فى هذه إداما ودهنا ، فالإدام : الزيتون ، والدهن : الزيت. وقيل : هى أول شجرة تنبت بعد الطوفان ، وخص هذه الأنواع الثلاثة لأنها

أكرم الشجر وأفضلها وأنفعها.
وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ ، جمع نعم ، وهى الإبل والبقر والغنم ، لَعِبْرَةً تعتبرون بها ، وتستدلون بأحوالها على عظم قدرة اللّه تعالى ، وسابغ نعمته ، وتشكرونه عليه ، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها من الألبان سائغة للشاربين ، أو مما استقر فى بطونها من العلف فإنّ اللبن يتكون منه ، وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ ، سوى الألبان ، وهى منافع الأصواف والأوبار والأشعار. وَمِنْها تَأْكُلُونَ أي : من لحومها ، عَلَيْها
أي : على الأنعام فى البر ، عَلَى الْفُلْكِ
فى البحرتُحْمَلُونَ
فى أسفاركم ومتاجركم ، والمراد بالأنعام فى الحمل الإبل لأنها هى المحمول عليها فى البر ، فهى سفائن العرب ، كما قال ذو الرمة :
سفينة برّ تحت خدّى زمامها يريد ناقته. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : ولقد خلقنا فوق قلوبكم سبعة حجب ، فمن خرقها أفضى إلى فضاء شهود ذاتنا وأنوار صفاتنا ، وهى حجاب المعاصي والذنوب ، وحجاب النقائص والعيوب ، وحجاب الغفلات ، وحجاب العوائد والشهوات ، وحجاب الوقوف مع حلاوة المعاملات ، وحجاب الوقوف مع الكرامات والمقامات ، وحجاب حس الكائنات ، فمن خرق هذه الحجب بالتوبة والتزكية واليقظة والعفة والرياضة ، والأنس باللّه والغيبة عما سواه ، ارتفعت عنه الحجب ، ووصل

---

(١) الدّبس : عسل التمر وعصارته .. انظر اللسان (دبس ٢/ ١٣٢٣).

إلى المحبوب. قال الورتجبي : أوضح سبع طرائق لنا إلى أنوار صفاته السبعة. هـ. وقال القشيري : الحق - سبحانه - لا يستتر من رؤيته مدرك ، ولا تخفى عليه من مخلوقاته خافية ، وإنما الحجب على أبصار الخلق وبصائرهم ، والعادة جارية أنه لا يخلق لنا الإدراك لما وراء الحجب ، ولذلك أدخلت الغفلة القلوب ، واستولى عليها الذهول ، سدّت بصائرها ، وغيبت فهومها ، ففوقها حجب ظاهرة وباطنة ، ففى الظاهر : السموات حجب تحول بيننا وبين المنازل العالية ، وعلى القلوب أغشية وأغطية ، كالشهوة والأمنية ، والإرادات الشاغلة والغفلة المتراكمة.
ثم ذكر أن طرائق المريدين الفترة ، وطرائق الزاهدين ترك عروق الرغبة. قال : وأما العارفون فربما تظلّهم فى بعض أحيانهم وقفة فى تضاعيف سيرهم إلى ساحات الحقائق ، فيصيرون موقوفين ريثما يتفضّل

الحقّ - سبحانه - عليهم بكفاية ذلك ، فيجدون نفاذا ، ويدفع عنهم ما عاقهم من الطرائق ، وفى جميع ذلك فالحق - سبحانه - غير تارك للعبد ولا غافل عن الخلق. هـ.
وقوله : وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ أي : وما كنا غافلين عن إرسال من يخرجهم من تلك الحجب القهرية ، بل بعثنا الرسل ، وفى أثرهم العارفين الربانيين ، يخرجون من تعلق بهم من تلك الطرائق ، ويوصلونهم إلى بحر الحقائق.
وأنزلنا من سماء الغيوب ماء العلم اللدني ، فأسكناه فى أرض النفوس والقلوب ، بقدر ما سبق لكل قلب منيب ، وإنا على ذهاب به من القلوب والصدور لقادرون. ولذلك كان العارفون لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير اللّه قرارهم ، فأنشأنا بذلك العلم فى قلوب العارفين جنات المعارف من نخيل الأذواق والوجدان ، وأعناب خمرة العيان ، لكم فيها فواكه كثيرة ، أي : تمتع كثير بلذة الشهود ، ومنها تتقوت أرواحكم وأسراركم ، وشجرة المعرفة تخرج من القلوب الصافية ، التي هى محل المناجاة ، كطور موسى ، أي : تنبت فيها ويخرج أغصانها إلى ظاهر الجوارح ، تنبت فى القلب بدهن الذوق والوجد ، وصبغ للآكلين ، أي : المريدين الآكلين من تلك الشجرة ، فتصبغ قلوبهم بالمعرفة واليقين.
وقوله تعالى : وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً ، قال القشيري : الإشارة فيه : أنّ الكدورات الناجمة المتراكمة لا عبرة بها ولا مبالاة ، فإنّ اللّبن الخالص السائغ يخرج من أخلاف الإبل والأنعام ، من بين ما ينطوى حواياها عليها من الوحشة ، ولكنه صاف لم يؤثر فيها بحكم الجوار ، والصفا يوجد أكثره فى عين الكدورة إذ الحقيقة لا يتعلق بها حقّ ولا باطل. ومن أشرف على سرّ التوحيد تحقّق بأنّ ظهور جميع الحدثان من التقدير ، فتسقط عنه كلفة التمييز فالأسرار عند ذلك تصفو ، والوقت لصاحبه لا يجفو ، (وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ) لازمة لكم ، ومتعدية منكم إلى كلّ متصل بكم. انتهى على لحن فيه ، فتأمله.
ولما ذكّرهم بالنعم ، ذكر من قابلها بالكفران فهلك ، فقال :
[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٢٣ الى ٣٠]
وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧)
فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٧٠

قلت : ذكر فى الحاشية وجوها من المناسبة ، فقال : لمّا استطرد ذكر الفلك ناسب ذكر نوح إثره ، لقوله : (اصْنَعِ الْفُلْكَ) ، وأيضا : هو أبو البشر الثاني ، فذكر كما ذكر أولا آدم ، فى ذكر خلق الإنسان ، وأيضا فى ذكر نجاة المؤمنين وفلاحهم ، فناسب صدر السورة ، وهلاك الكافر وهو ضد المؤمن ، كما صرح بذلك فى قوله فى آخرها : (إنه لا يفلح الكافرون) ، وفى النجاة فى الفلك مناسبة للنعم المقررة قبل ذكره. هـ. (وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) : «إن» : مخففة ، واسمها : ضمير الشأن ، واللام فارقة.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا : وتالله لقد أرسلنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ ، وقد مرّ فى الأعراف نسبه وكيفية بعثته «١» ، فَقالَ لقومه حين أرسل إليهم ، متعطفا عليهم ، ومستميلا لهم إلى الحق : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده إذ العبادة مع الإشراك لا عبرة بها ، فلذلك لم يقيدها هنا ، وقيدها فى هود ، بقوله : أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ «٢» ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أي : مالكم فى الوجود إله يستحق أن يعبد غيره ، فالرفع على المحل ، والجر على اللفظ. أَفَلا تَتَّقُونَ أفلا تخافون عقوبة اللّه ، الذي هو ربكم وخالقكم ، إذا عبدتم غيره مما ليس من استحقاق العبادة فى شىء ، أو : أفلا تخافون عذابه الذي يستوجبه ما أنتم عليه ، كما يفصح عنه قوله تعالى : إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ «٣».

---

(١) راجع تفسير الآية ٥٩ وما بعدها ، من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٢٦ من سورة هود.

(٣) الآية ٥٩ من سورة الأعراف.

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ أي : أشرافهم لعوامهم : ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فى الجنس والوصف ، يأكل ويشرب مثلكم ، من غير فرق بينكم وبينه ، يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ أي : يطلب الفضل عليكم ، ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم ، والعجب منهم أنهم رضوا بالألوهية والخضوع للحجر ، ولم يرضوا بنبوة البشر. ثم قالوا : وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً أي : لو شاء اللّه إرسال الرسل لأرسل رسلا من الملائكة.

وإنما قال : لأنزل ولم يقل : لأرسل لأنّ إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال ، فمفعول المشيئة مطلق الإنزال ، أي : لو شاء ربنا إنزال شيء من الوحى لأنزل ملائكة يرسلهم إلينا ، ما سَمِعْنا بِهذا أي : بمثل هذا الكلام ، الذي هو الأمر بعبادة اللّه وحده ، وترك عبادة ما سواه ، أو : ما سمعنا بأنّ البشر يكون رسولا ، أو بمثل نوح عليه السّلام فى دعوى النبوة ، فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ أي : الماضين قبل بعثة نوح عليه السّلام. وإنما قالوا ذلك إما من فرط عنادهم ، أو لأنهم كانوا فى فترة متطاولة ، وقيل : معناه : ما سمعنا به أنه نبى ، إِنْ هُوَ أي : ما هو إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ أي : جنون ، أو جن يخبلونه ، ولذلك يقول ما يقول. فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ أي : انتظروا واصبروا إلى زمان حتى ينجلى أمره ، فإن أفاق من جنونه ، وإلا قتلتموه.

قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ ، لمّا أيس من إيمانهم دعا اللّه بالانتقام منهم ، فالجملة استئناف نشأ عن سؤال ، كأنه قيل : فماذا قال عليه السّلام ، بعد ما سمع هذه الأباطيل؟ فقيل : قال ، لما رآهم قد أصروا على الكفر والتكذيب ، وتمادوا فى الغواية والضلال ، حتى أيس من إيمانهم بالكلية ، وقد أوحى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن :

رَبِّ انْصُرْنِي بإهلاكهم بالمرة ، فهو حكاية إجمالية لقوله : لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «١». بِما كَذَّبُونِ بسبب تكذيبهم إياى ، أو بدل تكذيبهم ، كقولك : هذا بذلك ، أي : بدل ذاك ، والمعنى : أبدلنى من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم.

فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أجبنا دعاءه وأوحينا إليه عند ذلك أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا أي : ملتبسا بحفظنا وكلاءتنا ، كأنّ معك حفاظنا يكلؤونك بأعينهم ، لئلا يتعرض لك أحد ، يفسد عملك ، ومنه قولهم : عليه من اللّه عيون كالئة ، وَوَحْيِنا أي : أمرنا وتعليمنا إياك صنعتها. روى : أنه أوحى إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ

الطائر.

وفى القاموس جؤجؤ – كهدهد – : الصدر. فَإِذا جاءَ أَمْرُنا أي : عذابنا بأمرنا ، وَفارَ التَّنُّورُ أي : فار الماء من تنور الخبز ، فخرج سبب الغرق من موضع الحرق ليكون أبلغ فى الإنذار والاعتبار. روى أنه قيل لنوح : إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأهلك السفينة ، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته ، فركب ، وكان

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة نوح. [.....]

التنور تنور آدم ، فصار إلى نوح ، وكان من حجارة. واختلف فى مكانه ، فقيل : فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل ، وقيل : بالشام ، وقيل : بالهند.

فإذا فار فَاسْلُكْ فِيها : فأدخل فى السفينة مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ من كل أمة اثنين مزدوجين ، ذكر وأنثى. قال الحسن : لم يحمل نوح فى السفينة إلا ما يلد ويبيض ، فأما البق والدود والذباب ، فلم يحمل منه شيئا ، وإنما يخرج من الطير. هـ. وَاحمل فى السفينة أَهْلَكَ نساءك وأولادك ، أو من آمن معك ، إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ أي : القول من اللّه بهلاكه ، وهو ابنه وإحدى زوجتيه ، وإنما جيء بعلى لكون السابق ضارا ، كما جيء باللام فى قوله : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى ... «١» ، وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ «٢» لكونه نافعا ، ونحوه : لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ «٣» ، وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ أي : لا تسألنى نجاة الذين كفروا ، إنهم مقضى عليهم بالإغراق لا محالة لظلمهم بالإشراك والإصرار ، ومن هذا شأنه لا يشفع له ، وكأنه عليه السّلام ندم على الدعاء عليهم ، حين تحقق هلاكهم ، فهمّ بمراجعة الحق فيهم شفقة ورحمة ، فنهى عن ذلك.

ثم قال له : فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فإذا تمكنتم عليها راكبين فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، أمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم على طريق : فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «٤». ولم يقل : فقولوا ، وإن كان أهله ومن معه قد استووا معه لأنه نبيهم وإمامهم ، فكان قوله قولهم ، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة.

وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي فى السفينة ، أو منها مُنْزَلًا مُبارَكاً أي : إنزالا مباركا ، أو موضع إنزال يستتبع خيرا كثيرا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ خير من ينزل فى كل خير ، أمر عليه السّلام بأن يشفع دعاءه بما يطابقه من ثنائه عليه تعالى ، توسلا به إلى إجابة دعائه ، فالبركة فى السفينة : النجاة فيها ، وبعد الخروج منها : كثرة

النسل وتتابع الخيرات ، إِنَّ فِي ذلِكَ فيما فعل بنوح وقومه لَآياتٍ : لعبرا ومواعظ ، وَإِنْ كُنَّا أي : وإن الشأن والقصة كنا لَمُبْتَلِينَ : مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد ، أو : مختبرين بهذه الآيات عبادنا ، لننظر من يعتبر ويذّكر ، كقوله : وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ «٥». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ١٧١ من سورة الصافات.

(٣) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٤٥ من سورة الأنعام.

(٥) الآية ١٥ من سورة القمر.

(٥٧٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٧٣

الإشارة : تقدمت إشارة هذه القصة مرارا بتكررها ، وفيها تسلية لمن أوذى من الأولياء بقول قبيح أو فعل ذميم.

وقال القشيري فى قوله : وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً : الإنزال المبارك : أن تكون باللّه وللّه على شهود اللّه ، من غير غفلة عن اللّه ، ولا مخالفة لأمر اللّه. هـ.

ثم ذكر قصة هود أو صالح ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٣١ الى ٤١]

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥)

هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (٣٩) قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ (٤٠)

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ من بعد قوم نوح قَرْناً أي : قوما آخَرِينَ هم عاد قوم هود ، حسبما روى عن ابن عباس ، ويشهد له قوله تعالى : وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ «١» ،

ومجيء قصة هود على إثر قصة نوح في الأعراف وهود والشعراء ، ونقل ابن عطية عن الطبري : أن المراد بهم ثمود قوم صالح ، قال : والترتيب يقتضى قوم عاد ، إلّا أنهم لم يهلكوا بالصيحة ، بل بالريح. قال في الحاشية : والظاهر أنهم صالح. كما قاله الطبري. وحمل الواحدي الصيحة على صيحة العذاب ، فيتجه لذلك أنهم عاد قوم هود ، وقد تقرر أن ثمود بعد عاد. ثم قال : وفى السيرة : عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وثمود بن عابر بن أرم بن سام بن نوح. هـ.

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة الأعراف.

(٥٧٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٧٤

فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ ، الإرسال يعدّى بإلى ، ولم يعدّ بهاهنا وفى قوله : كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ «١» ، وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ «٢» لأن الأمة والقرية جعلت موضعا للإرسال ، إيذانا بأن المرسل إليهم لم يأتيهم من غير مكانهم ، بل إنما نشأ بين أظهرهم ، كما ينبىء عنه قوله : رَسُولًا مِنْهُمْ أي : من جملتهم نسبا ، وهو : هود أو صالح ، فإنهما - عليهما السّلام - كانا منهم. قائلا لهم : أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ عذابه ، الذي يقتضيه ما أنتم عليه من الشرك والمعاصي.

وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ، ذكر مقال قوم هود ، فى جوابه ، فى الأعراف وهود بغير «واو» لأنه على تقدير سؤال سائل ، قال : فما قال قومه؟ فقيل : قالوا : كيت وكيت ، وهنا مع الواو لأنه عطف لما قالوه على ما قاله الرسول ومعناه : حكاية قولهم الباطل إثر حكاية قول الرسول الحق ، وليس بجواب للنبى متصل بكلامه ، وجيء بالفاء فى قصة نوح عليه السّلام لأنه جواب لقوله ، واقع عقبه ، أي : وقال الأشراف من قومه الَّذِينَ كَفَرُوا ، وصفوا بالكفر ذمّا لهم ، وتنبيها على غلوّهم فيه ، وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ أي : بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك ، أو بمعادهم إلى الحياة الثانية ، وَأَتْرَفْناهُمْ : نعّمناهم فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بكثرة الأموال والأولاد ، أي :

قالوا لأتباعهم ، مضلين لهم : ما هذا النبي إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فى الصفة والأحوال ، والاحتياج إلى القوام ، ولم يقولوا : مثلنا تهوينا لأمره عليه السّلام.

ثم فسر المثلية بقوله : يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ أي : منه ، فحذف لدلالة ما قبله عليه ، وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ فيما يأمركم به وينهاكم عنه ، إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ بالانقياد لمثلكم ، ومن حمقهم أنهم أبو اتّباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم.

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ - بالكسر والضم - من مات يمات ويموت ، وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً نخرة ، أَنَّكُمْ

مُخْرَجُونَ ، فأنكم الثانية ، توكيد للأولى للفصل بينهما ، والتقدير : أيعدكم أنكم مخرجون بالبعث إذا متم وكنتم ترابا وعظاما؟ هَيْهاتَ هَيْهاتَ ، تكرير لتأكيد البعد ، وهو اسم فعل مبنى على الفتح ، واقع موقع بعد ، فاعلها مضمر ، أي : بعد التصديق أو الوقوع لِما تُوعَدُونَ من العذاب ، أو فاعلها : «ما توعدون» ، واللام زائدة ، أي : بعد ما تعدون من البعث ، وقيل : ما توعدون من البعث. وقيل : مبتدأ ، وهما اسم للبعد ، و(لما تُوعَدُونَ) : خبر ، أي : بعد بعد لما توعدون ، إِنْ : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا ، والضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما بعده من بيانه ، وأصله : إن الحياة إلا حياتنا ، وأتى بالضمير حذرا من التكرير ، أي : لا حياة إلا هذه الحياة التي نحن فيها ، ودنت منا ، نَمُوتُ وَنَحْيا أي : يموت بعضنا ويولد بعض ، إلى انقراض العصر ، وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ بعد

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الرعد.

(٢) من الآية ٩٤ من سورة الأعراف.

الموت ، إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً

فيما يدّعيه من الإرسال ، وفيما يعدنا من البعث ، وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ : بمصدّقين بما يقول.

قالَ هود ، أو صالح - عليهما السّلام - بعد ما سلك فى دعوتهم كل مسلك ، متضرعا إلى اللّه - عز وجل - :

رَبِّ انْصُرْنِي عليهم ، وانتقم منهم بِما كَذَّبُونِ أي : بسبب تكذيبهم إياى وإصرارهم عليه ، قالَ تعالى إجابة لدعائه : عَمَّا قَلِيلٍ أي : عن زمان قليل ، زيدت «ما» ، بين الجار والمجرور لتأكيد معنى القلة ، أو نكرة موصوفة ، أي : عن شىء قليل لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ عما فعلوا من التكذيب ، وذلك عند معاينتهم العذاب.

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ، لعلهم ، حين أصابتهم الريح العقيم ، أصيبوا فى تضاعيفها بصيحة هائلة من صوته. أو يراد بها : صرير الريح وصوته. وقد روى أن شدّادا حين أتم بناء إرم ، سار إليها بأهله ، فلما دنا منها بعث اللّه عليهم صيحة من السماء ، فهلكوا ، وقيل : الصيحة : العذاب المصطلم ، قال الشاعر :

صاح الزّمان بآل فدك صيحة خرّوا لشدّتها ، على الأذقان

وإذا قلنا : هم قوم صالح ، فالصيحة صيحة جبريل عليه السّلام ، صاح عليهم فدمرهم. وقوله : بِالْحَقِّ أي : بالعدل من اللّه ، يقال : فلان يقضى بالحق ، أي : بالعدل ، أو : أخذتهم بالحق ، أي : بالأمر

الثابت الذي لا دفاع له ، فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً أي : كغثاء السيل ، وهو ما يحمله من الورق والحشيش ، شبههم فى دمارهم بالغثاء ، وهو ما يرميه السيل ، من حيث إنهم مرميّ بهم فى كل جانب وسهب.
فَبُعْداً : فهلاكا ، يقال بعد بعدا ، أي : هلك هلاكا ، وهو من المصادر المنصوبة بأفعال لا تظهر أفعالها ، أي : فسحقا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وهو إخبار ، أو دعاء ، واللام لبيان من دعى عليه بالبعد ، كقوله : هَيْتَ لَكَ «١». واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : من عادة الحق - سبحانه - ، إذا أكب الناس على دنياهم ، واتخذوا إلههم هواهم ، بعث من يذكرهم بالله ، فيقول لهم : اعبدوا اللّه ، ما لكم من إله غيره ، أي : أفردوه بالمحبة ، واقصدوه بالوجهة ، فما عبد اللّه من عبد هواه ، فيقول المترفون ، وهم المنهمكون فى الغفلة ، المحجوبون بالنعمة عن المنعم ، الذين اتسعت دائرة حسهم : ما هذا الذي يعظكم ، ويريد أن يخرجكم عن عوائدكم ، إلا بشر مثلكم ، يأكل مما تأكلون ، ويشرب مما تشربون ، ومادروا أنّ وصف البشرية لا ينافى وجود الخصوصية ، فإذا تمادوا فى غفلتهم ، وأيس من هدايتهم ، ربما دعا عليهم ، فأصبحوا نادمين ، حين لا ينفعهم الندم ، وذلك عند نزول هواجم الحمام. وباللّه التوفيق.
[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٤٢ الى ٤٤]
ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (٤٢) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (٤٤)

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة يوسف.

قلت : القرن : أهل العصر ، سموا به لقران بعضهم البعض ، و(تَتْرا) : حال ، فمن قرأه بالألف فهو كسكرى ، وهو من الوتر ، واحدا بعد واحد ، فالتاء الأولى بدل من الواو ، وأصله : وترى ، كتراث وتقوى ، والألف للتأنيث ، باعتبار أن الرسل جماعة ، ومن نوّنه جعله كأرطى ومعزى ، فيقال : أرطى ومعزى ، وقيل : مصدر بمعنى فاعل ، أي : متتابعين.
يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ أي : من بعد قوم هود ، قُرُوناً آخَرِينَ قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم ، ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ ، «من» : صلة ، أي : ما تتقدم أمة من الأمم المهلكة أَجَلَها الذي عيّن لهلاكها فى الأزل ، وَما يَسْتَأْخِرُونَ عنه ساعة. ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا ، عطف على «أنشأنا» ، على معنى أن إرسالهم متراخ عن إنشاء القرون المذكورة ، وما بينهما اعتراض ، والمعنى : ثم أنشأنا من بعدهم

قرونا آخرين ، قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولا خاصا به ، والفصل بين الجملتين بالجملة المتعرضة الناطقة بعدم تقدم الأمم أجلها المضروب لهلاكهم للمسارعة إلى بيان هلاكهم على وجه إجمالي.

وقوله : تَتْرا أي : متواترين واحدا بعد واحد ، أو متتابعين يتبع بعضهم بعضا ، كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ ، الرسول يلابس المرسل والمرسل إليه ، والإضافة تكون بالملابسة ، فأضافهم أولا إلى نون العظمة ، وهنا إلى المرسل إليهم للإشعار بكمال شناعتهم وضلالتهم ، حيث كذبت كلّ أمة رسولها المعين لها ، وعبّر عن التبليغ بالمجيء للإيذان بأنهم كذبوه فى الملاقاة الأولى ، فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً فى الهلاك ، كما تبع بعضهم بعضا فى الكفر والتكذيب ، الذي هو سبب الهلاك ، وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ أخبار ، يسمر بها ويتعجب منها ، أي : لم يبق منهم إلا حكايات يعتبر بها المعتبرون ، والأحاديث يكون اسم جمع للحديث ، ومنه : أحاديث النبي - عليه الصلاة السّلام - ويكون جمعا للأحدوثة ، وهى ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا ، وهو المراد هنا ، فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ به وبرسله ، اقتصر هنا على عدم إيمانهم ، وأما القرون الأولى ، فحيث نقل عنهم ما مرّ من العتو وتجاوز الحد فى الكفر والعدوان ، وصفهم بالظلم. واللّه تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة : كل ما حكى اللّه تعالى عن القرون الماضية والأمم السابقة ، فالمراد ترهيب هذه الأمة المحمدية ، وإزعاج لها عن أسباب الهلاك ، وإنهاض لها إلى العمل الصالح ، لتكون أحاديث حسانا بين الأمم ، فكل إنسان ينبغى له أن يجتهد فى تحصيل الكمالات العلمية والعملية ، ليكون حديثا حسنا لمن بعده ، كما قال القائل :

ما المرء إلا حديث من بعده فكن حديثا حسنا لمن وعا

وقال آخر : وما المرء إلا كالشّهاب وضوءه يحور رمادا بعد ما هو ساطع

وما المال والأهلون إلا وديعة ولا بدّ يوما «١» أن تردّ الودائع

وباللّه التوفيق ،

---

(١) فى الأصول : ولا بد من يوم.

ثم ذكر رسالة موسى وهارون - عليهما السّلام - فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٤٥ الى ٤٩]

ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَأَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عالِينَ

(٤٦) فَقالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)

قلت : «هارون» : بدل من «أخاه».

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَأَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا التسع من اليد ، والعصا ، والطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم ، ونقص الثمرات ، والطاعون. ولا مساغ لعدّ فلق البحر منها إذ المراد الآيات التي كذبوها واستكبروا عنها ، بدليل ما بعدها. وَسُلْطانٍ مُبِينٍ وحجة واضحة ملزمة للخصم الإقرار بما دعى إليه ، وهى إمّا العصا ، وإفرادها بالذكر مع اندراجها فى الآيات لأنها أبهر آياته عليه السّلام ، وقد تضمنت معجزات شتى من انقلابها ثعبانا ، وتلقفها ما أفكته السحرة ، كما تقدم. وأما التعرض لانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها ، وحراستها ، وصيرورتها شمعة ، وشجرة خضراء مثمرة ، ودلوا ورشاء ، وغير ذلك مما ظهر منها فى غير مشهد فرعون وقومه ، فغير ملائم لمقتضى المقام ، وإمّا ما أتى به من الحجج الباهرة ، فيشمل ما تقدم وغيره.

إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ أي : أشراف قومه ، خصهم بالذكر ليرتب عليه ما بعده من قوله : فَاسْتَكْبَرُوا عن الانقياد وتمردوا. تكبرا وترفعا ، وَكانُوا قَوْماً عالِينَ : متكبرين ، متمردين ، فَقالُوا ، فيما بينهم ، على طريق المناصحة : أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا ، «مثل» و«غير» يوصف بها الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث ، والبشر يطلق على الواحد ، كقوله : بَشَراً سَوِيًّا «١» ، وعلى الجمع ، كقوله : فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً «٢» ، وأراد به هنا الواحد ، فثناه ، أي : كيف نؤمن لبشرين مثلنا فى العجز والافتقار ، وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ أي : خادمون منقادون لنا كالعبيد ، وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بهما - عليهما السّلام - ، وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية ، بناء على زعمهم الفاسد ، من قياس الرئاسة الدينية على الرئاسات الدنيوية ، الدائرة على التقدم فى نيل الحظوظ الدنيوية ، من المال والجاه ، كدأب قريش ، حيث قالوا : لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ «٣». وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «٤». وعلى جهلهم بأن مناط الاصطفاء

---

(١) من الآية ١٧ من سورة مريم.

(٢) من الآية ٢٦ من سورة مريم.

(٣) الآية ١١ من سورة الأحقاف.

(٤) الآية ٣١ من سورة الزخرف. [.....]

للرسالة هو السبق فى حيازة النعوت العلية ، وإحراز الكمالات السنية ، جبلّة أو اكتسابا ، فَكَذَّبُوهُما أي : فتمادوا على تكذيبهما ، وأصروا ، واستكبروا استكبارا ، فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ بالغرق فى بحر القلزم.

وَلَقَدْ آتَيْنا بعد إهلاكهم ، وإنجاء بنى إسرائيل من ملكهم واسترقاقهم ، مُوسَى الْكِتابَ : التوراة ، ولمّا نزلت لإرشاد قومه جعلوا كأنهم أوتوها ، فقيل : لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ إلى الحق بالعمل بما من الشرائع والأحكام ، وقيل : على حذف مضاف ، أي : آتينا قوم موسى ، كقوله : عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ «١» ، أي :

من آل فرعون وملئهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من طرد وأبعد عن ساحة رحمة اللّه تعالي والوصول إليه ، فإنما سببه التكبر والعلو ، وكل من قرب ووصل إلى اللّه فإنما سببه التواضع والحنو ، ولذلك ورد : «لا يدخل الجنّة من كان فى قلبه مثقال ذرّة من كبر» «٢». وحقيقة الكبر : بطر الحقّ وغمط النّاس ، أي : إنكار الحق واحتقار الناس ، وفى مدح التواضع والخمول مالا يخفى. فمن تواضع ، دون قدره ، رفعه اللّه فوق قدره ، فالتواضع مصيدة الشرف ، به يصطاد وينال ، ومن أوصاف أهل الجنة : «كل ضعيف مستضعف ، لو أقسم على اللّه لأبره فى قسمه» «٣» ، إلى غير ذلك من الأخبار.

وكل من أنكر على أهل الخصوصية فسببه إما الحسد ، أو الجهل بأن الخصوصية لا تنافى أوصاف البشرية ، أو قياس الرئاسة الباطنية الدينية على الرئاسة الدنيوية ، فأسقط من لا رئاسة له فى الظاهر ولا جاه ، أو لعدم ظهور الكرامة ، وهى غير مطلوبة عند المحققين. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر عيسى عليه السّلام ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : آية ٥٠]

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً دالة على كمال قدرتنا بولادته منها من غير مسيس بشر ، ووحّدها لأن الأعجوبة فيهما واحدة. أو المراد : وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية ، فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ، أي : وجعلنا ابن مريم وحده ، من غير أن يكون له أب ، آية ، وأمه ، من حيث إنها ولدت من غير ذكر ، آية ، وتقديمه عليه السّلام لأصالته فيما ذكر من كونه آية ، كما أن تقديم أمه فى قوله تعالى : وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ «٤» ، لأصالتها فيما نسب إليها من الإحصان والنفخ.

---

(١) من الآية ٨٣ من سورة يونس.

(٢) أخرجه مسلم فى (الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه) عن عبد اللّه بن مسعود. رضى اللّه عنه.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ١٤٥) من حديث أنس بن مالك. وأخرجه ابن ماجة فى (الزهد ،

باب من لا يؤبه به) من حديث معاذ بن جبل ، بلفظ : «ألا أخبركم عن ملوك الجنة؟» قلت : بلى ، قال : رجل ضعيف مستضعف ، ذو طمرين ، لا يؤبه ، لو أقسم على اللّه لأبره».
(٤) الآية ٩١ من سورة الأنبياء.

(٥٧٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٧٩
وَآوَيْناهُما أي : جعلنا مأويهما ومنزلهما إِلى رَبْوَةٍ أي : أرض مرتفعة ، وهو بيت المقدس فإنها كبد الأرض ، وأقرب الأرض إلى السماء ، بمعنى أنه يزيد علوها على علو الأرض ، فينتقص بعدها عن السماء عن بعد غيرها منها بثمانية عشر ميلا ، كما جاء ، ولعل ذلك سر كونها أرض الحشر ، وكون الإسراء وقع منها. قاله المحشى ، وقيل : دمشق ، وقيل : فلسطين ، والرملة. ذاتِ قَرارٍ مستقر من الأرض ، مستوية ، منبسطة ، سهلة ، أو ذات ثمار ، يستقر لأجل ثمارها ، ساكنوها فيها ، وَمَعِينٍ أي : ماء معين ، ظاهر ، جار ، فقيل : من معن ، إذا جرى ، أو مدرك بالعين لظهوره ، من عانه ، إذا أدركه بعينه ، أو من الماعون ، وهو النفع لأنه نفاع لظهوره وجريه. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : كان عيسى عليه السّلام منقطعا عن هذا العالم ، متبتلا زاهدا ، لم يتخذ فى هذه الدنيا قرارا ، ولم يبن فيها مسكنا ولا دارا ، فكان آية للعباد والزهاد من الرجال. كما أن أمه كانت آية للنساء العابدات ، فى التبتل والانقطاع ، فآواهما إلى ربوة التقريب والاصطفاء ، ذات قرار وتمكين ومصافاة ووفاء ، وجعل ، جل جلاله ، أولياءه على قدم أنبيائه ، فمنهم على قدم نوح عليه السّلام فى القوة ونفوذ الهمة ، مهما دعا على أحد هلك. ومنهم على قدم إبراهيم عليه السّلام فى الشفقة والرحمة وعلو الهمة ، وتحقيق التوحيد ، وإمام أهل التفريد ، ومنهم على قدم موسى عليه السّلام فى المناجاة والمكالمة والقوة والعزم ، ومنهم على قدم عيسى عليه السّلام فى الزهد والانقطاع ، ومنهم على قدم نبينا محمد - عليه الصلاة والسّلام - وهو الجامع لما افترق فى غيره ، وهو قطب الدائرة ، نفعنا اللّه بهم جميعا.
ولمّا كان جلّ الأنبياء بالشام ، التي هى ذات قرار وأنعام ، أمرهم بالأكل من تلك النعم ، والشكر بالعمل الصالح ، فقال :
[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٥١ الى ٥٦]
يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ (٥٥)

نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ (٥٦)

قلت : (و إن هذه) : من كسره استأنف ، ومن فتحه حذف اللام ، أي : فاتقون لأنّ هذه ، أو معطوف على ما قبله :

(بما تعملون عليم) ، وبأن هذه ، أو بتقدير : واعلموا أن هذه. و(زُبُراً) : حال من : «أمرهم» ، أو من «واو» (تقطعوا) ، و(نسارع) : خبر «أن» ، و«ما» : موصولة.

(٥٧٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٨٠

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ ، هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما لأنهم أرسلوا متفرقين فى أزمنة مختلفة ، وإنما المعنى : الإعلام بأنّ كل رسول فى زمانه نودى بذلك ، ووصى به للإيذان بأن إباحة الطيبات شرع قديم ، جرى عليه جميع الرسل - عليهم الصلاة والسّلام - ووصّوا به ، أي : وقلنا لكل رسول : كل من الطيبات واعمل صالحا. فعبّر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع للإيجاز ، وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة من رفض الطيبات مالا يخفى. قاله أبو السعود. وقيل :

خطاب لعيسى عليه السّلام لا تصال الآية به ، وكان يأكل من غزل أمه ، وهو من أطيب الطيبات ، وقيل : لنبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم لفضله وقيامه مقام الكل ، وكان يأكل من الغنائم ، وما رزقه اللّه من غير اختيار على اللّه ، والجمع : للتعظيم فيهما ، والطيبات : ما يستطاب ويستلذ من مباحات المآكل والفواكه ، حسبما ينبىء عنه سياق النظم الكريم.

وَاعْمَلُوا عملا صالِحاً ، فإنه المقصود منكم شكرا لما أسدى إليكم ، ولا تشتغلوا بالنعم عن طاعة المنعم وشهوده ، إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ من الأعمال الظاهرة والباطنة ، عَلِيمٌ ، فأجازيكم عليه ، وفيه تهديد للمذكورين ، فما بالك بغيرهم ممن ألهته النعم عن شهود المنعم وشكره؟! وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ «١» أي : ملتكم وشريعتكم التي أنتم عليها أُمَّةً واحِدَةً أي : ملة واحدة ، متحدة فى أصول الشرائع ، التي لا تبدل بتبدل الأعصار ، وهو التوحيد وما يتبعه من أصول العقائد. وَأَنَا رَبُّكُمْ من غير أن يكون لى شريك فى الربوبية ، فَاتَّقُونِ : فخافوا عتابى فى مخالفتكم أمرى ، أو فى شق العصا ، والمخالفة بالإخلال بمواجب ما ذكر من اختصاص الربوبية بي.

والخطاب للرسل والأمم جميعا ، على أن الأمر فى حق الرسل للتهييج ، وفى حق الأمم للتحذير. قيل : وجاء هنا :

«فاتقون» ، الذي هو أبلغ فى التخويف والتحذير من قوله فى الأنبياء : فَاعْبُدُونِ «٢» لأن هذه جاءت

عقب إهلاك طوائف كثيرين ، وفى الأنبياء ، وإن تقدمت أيضا قصة نوح وما قبلها ، فإنه جاء بعدها ما يدل على الإحسان واللطف التام ، فى قصة أيوب ويونس وزكريا ومريم ، فناسب الأمر بالعبادة لمن هذه صفته.

ثم قال تعالى : فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ أي : فتفرقوا فى أمر دينهم مع اتحاده ، وجعلوه قطعا متفرقة ، وأديانا مختلفة ، بَيْنَهُمْ زُبُراً أي : قطعا - جمع زبور ، بمعنى الفرقة ، ويؤيده قراءة من قرأ : (زُبُراً) بفتح الباء ، جمع زبرة كغرفة ، أي : قطعا مختلفة ، كلّ ينتحل كتابا ، وقيل : جمع زبور ، بمعنى كتاب ، أي : كل فريق يزعم أن له كتابا يتمسك به. وعن الحسن : قطعوا كتاب اللّه قطعا وحرّفوه ، والأول أقرب ، أي : تفرقوا فى أصل الدين فرقا ،

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب «وأن» بفتح الهمزة. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف .. انظر الإتحاف (٢/ ٢٨٥).

(٢) أي : فى قوله تعالى : «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون». الآية ٩٢ من سورة الأنبياء.

وتحزبوا أحزابا ، كُلُّ حِزْبٍ من أولئك المتحزبين بِما لَدَيْهِمْ من الدين الذي اختاروه ، أو من الهوى والرأى ، فَرِحُونَ : معجبون ، يعتقدون أنه الحق.

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ فى جهالتهم وغفلتهم ، شبّه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذي يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها ، سابحون فى بحر الجهالة ، والخطاب للرسول صلى اللّه عليه وسلم إيذانا بأنهم مطبوع على قلوبهم ، أي : اتركهم على حالهم حَتَّى حِينٍ : حتى نأمرك فيهم بما شئت من الجهاد أو غيره ، أو : إلى أن يقتلوا أو يموتوا على الكفر ، أو : إلى وقت حلول العذاب بهم. فهو تهديد وتسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ونهى عن استعجال عذابهم ، وفى التنكير والإبهام مالا يخفى من التهويل.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ أي : نعطيهم إياه ونجعله مددا لهم ، مِنْ مالٍ وَبَنِينَ «من» : بيان ، أي : أيظنون أن الذي نمدهم به من الأموال والبنين ، نُسارِعُ لَهُمْ بذلك فِي الْخَيْراتِ ، بَلْ لا يَشْعُرُونَ أنه استدراج ، قيل : استدراك لقوله : أَيَحْسَبُونَ أي : بل هم أشباه البهائم ، لا شعور لهم حتى يتأملوا فى ذلك ، هل هو استدراج أو مسارعة فى الخيرات؟ وحاصل المعنى : أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجا لهم إلى المعاصي ، وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات ، ومعاملة لهم بالثواب ، جزاء على حسن

صنيعهم.

وهذه الآية حجة على المعتزلة فى مسألة الأصلح لأنهم يقولون : إن اللّه – تعالى – لا يفعل بأحد من الخلق إلا ما هو أصلح له فى الدين ، وقد أخبر أن ذلك لا خير لهم فيه ولا صلاح ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : تناول الطيبات وما تشتهيه النفس من أنواع الملذوذات ، مباح فى الشرع قديما وحديثا ، إن كان من وجه مباح وقارنه الشكر لأن الحق تعالى ما خلق ذلك إلا لعباده ليشكروه ويحمدوه ، ويتذكروا بذلك نعيم الجنان ، الذي لا يفنى ولا يزول ، وما هذا النعيم الدنيوي إلا أنموذج من نعيم الآخرة ، قال تعالى : فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ «١». هذا باعتبار عامة المسلمين ، وأما الخاصة من العبّاد والزهاد والمريدين السائرين ، فهم يجتنبون ما تجنح إليه النفس ، ويتعلق به القلب خوفا من الاشتغال بذلك عن العبادة أو السير لأن القلب إذا توجه لأمر أعرض عن الآخر ، فإذا توجه إلى طلب الشهوات أعرض عن اللّه ، وتفتّر عن السير ، وتكبّل عن النهوض إلى الحضرة. ولذلك قال فى الحكم : «كيف يشرق قلب : صور الأكوان منطبعة فى مرآته؟ أم كيف يرحل إلى اللّه وهو مكبّل بشهواته؟ أم كيف يدخل حضرة اللّه وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟» وقال بعضهم : لدغ الزنابير على الأجسام المقرحة ، أيسر من لدغ الشهوات على القلوب المتوجهة. هـ.

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة التوبة.

وأما خاصة الخاصة وهم العارفون المتمكنون ، فهم مع مولاهم ، يأخذون من يده ما يعطيهم لأن قلوبهم قد استغرقتها الأنوار ، فلم يبق فيها متسع للأغيار ، قد تهذبت نفوسهم ، واطمأنت باللّه قلوبهم ، فلا تلتفت إلى غير مولاها. وباللّه التوفيق.

وقوله تعالى : فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ .. إلخ ، الاختلاف ، إن كان فى التوحيد وما يرجع إليه من أصول العقائد ، فهو مذموم ، وهو الذي نعاه اللّه على الكفرة المتحزبة ، وأمّا إن كان فى الفروع فهو مشروع ، كاختلاف الشرائع والمذاهب ، ولذلك قال – عليه الصلاة والسّلام – : «اختلاف أمتى رحمة» ، وقال بعض الصوفية : ما زالت الصوفية بخير ما تنافروا ، فإن توافقوا فلا خير فيهم. هـ. والمراد بالتنافر – فى حقهم – التناصح ، وإنكار بعضهم على بعض إذا رأى من أحد عيبا ، فإن سكتوا عن بعضهم ، وتوافقوا على مساوئ بعضهم بعضا ، فلا خير فيهم ، وأما قلوبهم فهى متوافقة مؤتلفة.

وقوله تعالى : كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ، أما أهل الحق فهم فرحون لسلوكهم على المنهاج المستقيم ، المفضى إلى رضوان اللّه ورحمته ، وأما أهل الباطل فزين لهم الشيطان أعمالهم ليتمكنوا من التقرر عليه حتى ينفذ مراد اللّه فيهم ، ولو تحققوا أنهم على باطل لم يمكن قرارهم عليه ، فتبطل حكمته وقهريته ، وكل من أقامه الحق - تعالى - فى حرفة أو خطة ، زينها اللّه - تعالى - فى قلبه حتى يقوم بها ، وكذلك أهل الأسباب من أرباب الدليل والبرهان ، مع أهل التجريد من أهل الشهود والعيان ، لو علموا بمقام أهل العيان ما أقاموا فى الأسباب ، ولتجردوا كلهم ، فتبطل الحكمة الإلهية. وكان إبراهيم بن أدهم رضى اللّه عنه يقول : (لو يعلم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف) : فسبحان من قرّب قوما وأبعد قوما ، (وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً). واللّه تعالى أعلم وأحكم.

ثم ذكر أهل القرب ، إثر بيان أهل البعد ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٥٧ الى ٦٢]

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ (٦٠) أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ (٦١)

وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢)

قال فى الحاشية : لمّا ذكر تعالى غفلة الكفار ووعيدهم ، عقّب ذلك بوصف المؤمنين بضد ذلك ويقينهم بالرّجعى ، وإشفاقهم من جلال الحق وقهره. هـ.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ أي : من عذابه خائفون حذرون ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ المنصوبة والمنزّلة ، (يؤمنون) بتصديق مدلولها ، وبكتب اللّه كلها ، لا يفرقون بين كتبه ، كالذين تقطعوا أمرهم بينهم - وهم أهل الكتاب وغيرهم ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ شركا جليا ولا خفيا ، بخلاف مشركى العرب والعجم.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا أي : يعطون ما أعطوا من الزكوات والصدقات. وقرئ : (يأتون ما أتوا) بالقصر ، أي : يفعلون من الطاعات ، وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ : خائفة ألّا تقبل منهم لتقصيرهم بأن لا يقع على الوجه اللائق ، فيؤخذوا به ويحرموا ثوابه لأنهم إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ فيعاتبهم ، أو من مرجعهم إليه ، وهو يعلم ما يحيق عليهم ، والموصولات الأربعة عبارة عن طائفة واحدة متصفة بما ذكر ، فى حيّز صلاتها من الأوصاف الأربعة ، لا عن طوائف ، كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة ، كأنه قيل :

إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، وبآيات ربهم يؤمنون ... إلخ.
وإنما كرر الموصول إيذانا باستقلال كل واحد من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها ، وتنزيلا لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها ، وخبر «إنّ» : أُولئِكَ يُسارِعُونَ ، أشار إليهم بالجمع باعتبار اتصافهم بتلك النعوت ، مع أنّ الموصول واقع على الجمع.
ومعنى البعد للإشعار ببعد رتبتهم فى الفضل ، أي : أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة يسرعون فِي الْخَيْراتِ أي : يرغبون فى الطاعات أشد الرغبة ، فيبادرون إليها. أو يسارعون فى نيل الخيرات العاجلة والآجلة الموعودة على الأعمال الصالحات كما فى قوله ، تعالى : فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ «١» ، وقوله : وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ «٢» ، فقد أثبت لهم ما نفى عن أضدادهم ، غير أنه غيّر الأسلوب ، حيث لم يقل : أولئك نسارع لهم فى الخيرات بل أسند المسارعة إليهم إيماءا إلى كمال استحقاقهم نيل الخيرات لمحاسن الأعمال. وإيثار كلمة «فى» ، عن كلمة «إلى» إيذانا بأنهم متقلّبون فى فنون الخيرات ، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها ، كما فى قوله تعالى : سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ الآية «٣».

---

(١) من الآية ١٤٨ من سورة آل عمران.
(٢) الآية ١٢٢ من سورة النحل.
(٣) الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

وَهُمْ لَها أي : لأجل نيل تلك الخيرات ، سابِقُونَ الناس إلى الطاعات ، أو : وهم إياها سابقون ، واللام زائدة لتقوية العامل ، كقوله : (هم لها عاملون) أي : ينالونها قبل الآخرة ، فتعجل لهم فى الدنيا ، وعن ابن عباس :
(هم لها سابقون) أي : سبقت لهم من اللّه السعادة ، فلذلك سارعوا فى الخيرات. هـ. فهو إشارة إلى تيسير كلّ لما خلق له ، وأنه يسّرهم القدر لما وصفهم به من الخير ، كما أن الكفار أمدوا بما يدعوا للغفلة والإعجاب ، مما هو استدراج ومكر من حيث لا يشعرون.
قال تعالى : وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أي : طاقتها ، فهو تحريض على تحصيل ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ببيان سهولته ، وأنه غير خارج عن حد الوسع والطاقة ، أي : عادتنا جارية بأن لا نكلف نفسا من النفوس إلا ما فى طاقتها ، فإن لم يبلغوا فى فعل الطاعة مراتب

السابقين ، فلا عليهم ، بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم.

وَلَدَيْنا كِتابٌ أي : صحائف الأعمال التي يرونها عند الحساب ، حسبما يعرب عنه قوله : يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ، كقوله : هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «١» أي : عندنا كتاب أثبت فيه أعمال كل أحد على ما هو عليه ، أو أعمال السابقين والمقتصدين جميعا ، وقوله : (بالحق) : يتعلق بينطق ، أي : يظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ، أو يظهره للسامع ، فيظهر هناك جلائل أعمالهم ودقائقها ، ويرتب عليها أجزيتها ، إن خيرا فخير ، وإن شرّا فشر ، وقيل : المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، وهو مناسب لتفسير ابن عباس بسبق السعادة ، وقوله : وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ، بيان لفضله تعالى وعدله فى الجزاء ، إثر بيان لطفه فى التكليف وكتب الأعمال ، أي : لا يظلمون فى الجزاء بنقص الثواب أو بزيادة عذاب ، بل يجزون بقدر أعمالهم التي كلّفوها ، ونطقت بها صحائف أعمالهم ، أو : لا يظلمون بتكليف ما لا وسع فيه ، أو : لا ينقصون مما سبق لهم فى اللوح المحفوظ شيئا ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ذكر فى هذه الآية أربعة أوصاف من أوصاف المقربين ، أولها : الخوف والإشفاق من الطرد والإبعاد ، والثاني : الإيمان الذي لا يبقى معه شك ولا وهم ، بما تضمنته الآيات التنزيلية من الوعد والإيعاد ، والثالث : التوحيد الذي لا يبقى معه شرك جلى ولا خفى ، والرابع : السخاء والكرم ، مع رؤية التقصير فيما يعطى.

فمن جمع هذه الخصال كان من السابقين فى الخيرات ، ويسارع لهم فى تعجيل الخيرات ، وكل ذلك بقدر ما يطيق العبد ، مع بذل المجهود فى فعل الخيرات.

قال فى الحاشية : والمسارعة إلى الخيرات إنما هو بقطع الشرور ، وأول الشرور : حب الدنيا لأنها مزرعة الشيطان ، فمن طلبها وعمرها فهو حراثه وعبده ، وشر من الشيطان من يعين الشيطان على عمارة داره ، وما ذلك إلا أنه لم يهتم بأمر معاده ومنقلبه ، لما جرى عليه فى السابقة من الحكم ، ولا كذلك من وصفه بالإشفاق من المؤمنين إجلالا لربهم ، ورجوعا لحكمه فيهم غيبا ، فلا يأمنون مكره بحال ، ولا يركنون إلى أعمال ، بل عمدتهم

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الجاثية.

ربهم ورحمته فى كل حال. والله أعلم. والحاصل : أنهم مع كونهم يخشون ربهم ويؤمنون بآياته ، ولا

يشركون به شيئا ، ويودون طاعته ، يخافون عدم قبوله لهم عند الرجوع إليه ، ولقائهم له لأنه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وأحكامه لا تعلل ، ومن استغرق فيه لم يقف مع وعده. هـ.

قوله : «ومن استغرق فيه لم يقف مع وعده» أي : لأنه قد يرتب ذلك على شروط أخفاها عنه ، ليدوم خوفه واضطراره ، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره ، وليس خوف العارف من السابقة ولا من الخاتمة لأنه شغله استغراقه فى الحق والغيبة فيه عن الشعور بالسابقة واللاحقة ، إنما خوفه من الإبعاد بعد التقريب ، أو الافتراق بعد الجمع ، وهذا أيضا قبل التمكين ، وإلا فالكريم إذا أعطى لا يرجع. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر من اتصف بضد الأوصاف المتقدمة ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٦٣ الى ٦٧]

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ (٦٥) قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ (٦٧)

قلت : «بل» : إضراب عما قبله من أوصاف المؤمنين ، وانتقال إلى أضدادهم من الكافرين ، والضمير للكفرة ، و«حتى» : ابتدائية مختصة بالدخول على الجمل.

يقول الحق جل جلاله : بَلْ قُلُوبُهُمْ أي : الكفرة المستدرج بهم ، وهم لا يشعرون ، فِي غَمْرَةٍ فى غفلة غامرة لها ، مما عليه هؤلاء الموصوفون بما تقدم من الخشية وما بعده ، أو مما بيّن فى القرآن من أن لديه كتابا ينطق بالحق ، ويظهر لهم أعمالهم السيئة على رؤوس الأشهاد ، فيفضحون بها ، كما ينبئ عنه ما بعده من قوله :

قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ ... وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ أي : ولهم أعمال خبيثة كثيرة ، متجاوزة لذلك الذي وصف به المؤمنون ، من الأعمال الصالحات ، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم ، هُمْ لَها عامِلُونَ ، وعليها مقيمون ، مستمرون عليها ، حتى يأخذهم الله بالعذاب ، كما قال : حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ أي : منعميهم بِالْعَذابِ أي : عذاب الدنيا ، وهو القحط سبع سنين ، حين دعا عليهم النبي صلى اللّه عليه وسلم بقوله : «اللهمّ اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنىّ يوسف» «١» ، فقحطوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام. أو : القتل يوم

---

(١) أخرجه البخاري فى (الأذان ، باب يهوى بالتكبير حين يسجد) ، ومسلم فى (المساجد ، باب استحباب القنوت فى جميع الصلاة) ، عن أبى هريرة رضى اللّه عنه.

بدر. والحق : أنه العذاب الأخروى إذ هو الذي يفاجأون عنده بالجؤار ، فيجابون بالرد والإقناط عن النصر ، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار ، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ «١» ، فإنّ المراد به ما جرى عليهم يوم بدر كما يأتى. وأما الجوع فإن أبا سفيان ، وإن تضرع إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فلم يرد عليه بالإقناط ، بل دعا لهم فكشف عنهم. وقوله تعالى : إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ أي : يصرخون استغاثة ، والجؤار : الصراخ باستغاثة. فيقال لهم : لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ فإن الجؤار غير نافع لكم ، إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ أي : لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم.

قَدْ كانَتْ آياتِي القرآنية تُتْلى عَلَيْكُمْ فى الدنيا ، فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ أي : ترجعون القهقرى ، وتعرضون عن سماعها أشد الإعراض ، فضلا عن تصديقها والعمل بها ، والنكوص : الرجوع القهقرى ، وهى أقبح المشية لأنه لا يرى ما وراءه ، مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ، الظاهر أن الضمير للقرآن لتقدم ذكر آياته ، والباء بمعنى «عن» أي : متكبرين عن سماعه والإذعان له ، أو سببية ، أي : فكنتم بسبب سماعه مستكبرين عن قبوله ، وعمن جاء به ، أو ضمّن مستكبرين معنى مكذبين ، وقيل : يعود إلى البيت الحرام ، أو الحرم ، وأضمر ولم يذكر لأنه يفهم من السياق. والمعنى : أنهم يستكبرون بسبب المسجد الحرام لأنهم أهله وأهل ولايته ، وكانوا يقولون : لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم ، وقيل : تتعلق الباء بقوله : سامِراً أي : تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه ، وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون ، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه ، وفى النبي صلى اللّه عليه وسلم الذي جاء به ، و«سامرا» : مفرد بمعنى الجمع ، وقرئ سمّارا ، تَهْجُرُونَ «٢» ، إما من الهجر بالفتح ، بمعنى الهذيان ، أي : تهذون فى شأن القرآن كما يهذو الحالم أو السكران. أو من الترك ، أي : تتركونه وتفرون منه ، أو تهجرون النبي صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، أو من «الهجر» بالضم ، وهو الفحش ، ويؤيده قراءة من قرأ : «تهجرون» ، من أهجر فى منطقه : إذا أفحش. والله تعالى أعلم.

الإشارة : من كان قلبه فى غمرة حظوظه وهواه ، عاكفا على جمع دنياه ، لا يطمع فى دخول حضرة مولاه ، ولو صلى وصام ألف سنة. قال القشيري : لا يصلح لهذا الشأن إلا من كان فارغا من الأعمال كلها ، لا شغل له فى شأن الدنيا والآخرة ، فأمّا من شغل بدنياه ، وعلى قلبه حديث من عقباه ، فليس له نصيب من حديث مولاه. هـ.

وفى الحديث : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصّحّة والفراغ» «٣».

---

(١) الآية ٧٦ من سورة المؤمنون.

(٢) قرأ نافع «تهجرون» بضم التاء وكسر الجيم ، وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الجيم. انظر الإتحاف (٢/ ٢٨٦). [.....]

(٣) أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب ما جاء فى الرقاق ، وأن لا عيش إلا عيش الآخرة) عن ابن عباس رضى اللّه عنه.

ثم أمر بالتدبر والنظر ، لعله يقع التيقظ ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٦٨ الى ٧٤]

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢)

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ (٧٤)

قلت : الهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على محذوف ، أي : أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار فلم يتدبروا القرآن ، و«أم» : منقطعة ، فيها معنى الإضراب والتوبيخ فى الجميع.

يقول الحق جل جلاله : أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ يتدبروا القرآن ليعرفوا ، بما فيه من إعجاز النظم وصحة المدلول ، والإخبار عن المغيبات الماضية والمستقبلة ، أنه الحق ، فيؤمنوا به ، ويذعنوا لمن جاء به ، أَمْ جاءَهُمْ بل أجاءهم من الكتاب ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ، حتى استبعدوه واستبدعوه ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ أي : بل ألم يعرفوه - عليه الصلاة والسلام - بالأمانة والصدق ، وحسن الأخلاق ، وكمال العلم من غير تعلم ولا مدارسة ، وغير ذلك مما حازه من الكمالات اللائقة بالأنبياء قبله ، بل عرفوه بذلك فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ بغيا وحسدا.

أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ جنون ، وليس كذلك لأنهم يعلمون أنه أرجحهم عقلا ، وأثقبهم ذهنا ، وأتقنهم رأيا ، وأوفرهم رزانة ، ولقد شهد له بذلك كل من رآه من الأعداء والأحباب ، بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ أي : ليس الأمر كما زعموه فى حق الرسول - عليه الصلاة السلام - ، وما جاء به من القرآن ، بل جاءهم بالحق الأبلج والصراط المستقيم ، وبما خالف أهواءهم ، من التوحيد الخالص والدين القيم ، ولم يجدوا له مردا ولا مدفعا ، فلذلك نسبوه إلى الجنون ، وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ من حيث هو حق ، لا لهذا بعينه ، فلذلك أظهر فى موضع الإضمار ، كارِهُونَ • لما فى جبلّتهم من الزيغ والانحراف المناسب للباطل ولذلك كرهوا هذا الحق الأبلج ، وزاغوا عن الطريق الأبهج ، وفى التعبير بالأكثر دليل على أن أقلهم ما كان كارها للحق ، بل كان تاركا للإيمان به ، أنفة واستنكافا من توبيخ قومه ، أو لقلة فطنته وعدم تفكره ،

كأبى طالب وأضرابه. قال أبو السعود : وأنت خبير بأن التعرض لعدم كراهة بعضهم للحق ، مع اتفاق الكل على الكفر به ، مما لا يساعده المقام أصلا. هـ. فحمل الأكثر على الكل.

(٥٨٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٨٨

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ بأن كان فى الواقع آلهة شتى لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ كما تقدم فى قوله : لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «١» ، فالاتباع هنا مجاز ، أي : لو جاء الوحى على ما يشتهون لفسدت السموات ، فالحق هنا هو المذكور فى قوله : (بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) ، والمعنى : لو كان ما كرهوه من الحق ، الذي من جملته ما جاء به صلى اللّه عليه وسلم ، موافقا لأهوائهم الباطلة لفسد نظام العالم ، وتخصيص العقلاء بالذكر حيث عبّر بمن لأنّ غيرهم تبع.

بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ : بشرفهم ، وهو القرآن الذي فيه فخرهم وشرفهم ، كما قال تعالى : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ «٢» لأن الرسول منهم ، والقرآن لغتهم ، أو بتذكيرهم ووعظهم ، أو بالذكر الذي كانوا يتمنونه ، ويقولون :

(لو أن عندنا ذكرا من الأولين) «٣» ، فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ أي : فهم ، بما فعلوا من النكوص ، عن فخرهم وشرفهم معرضون ، وهذا مما جبلت عليه النفوس الأمّارة الإعراض عما فيه خيرها ، والرغبة فيما فيه هلاكها ، إلا من عصم الله ، وفى إسناد الإتيان إلى نون العظمة ، بعد إسناده إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ، من التنويه بشأن النبي صلى اللّه عليه وسلم ما لا يخفى. انظر أبا السعود.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً ، هذا انتقال من توبيخهم بما ذكر من قولهم : (أم يقولون به جنّة) ، إلى التوبيخ بوجه آخر ، كأنه قال : أم يزعمون أنك تسألهم عن أداء الرسالة خَرْجاً أي : جعلا ، فيتهمونك ، أو يثقل عليهم فلذلك لا يؤمنون ، فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ أي : رزقه فى الدنيا ، وثوابه فى الآخرة ، خير لك من ذلك لدوامه وكثرته ، أي :

لا تسألهم ذلك فإن ما رزقك الله فى الدنيا والعقبى خير لك من ذلك ، وفى التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - ، من تعليل الحكم وتشريفه صلى اللّه عليه وسلم ما لا يخفى.

والخرج والخراج واحد ، وهو : الأجر المأخوذ على العمل ، ويطلق على الغلة والضريبة ، كخراج العبد والأرض ، وقال النضر بن شميل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخراج والخرج ، فقال : الخراج مالزمك ، والخرج ما تبرّعت به ، وقيل : الخرج أخص من الخراج لأنّ الخراج يطلق على كل ما يستفيده المرء من غلة ، أو أجرة ، أو زكاة ، والخرج خاص بالأجرة ، وفى الخراج إشعار بالكثرة ،

فلذلك عبّر به فى جانبه - تعالى - والمعنى : أم تسألهم ، على هدايتك لهم ، قليلا من عطاء الخلق ، فالكثير من عطاء الخالق خير ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ : أفضل المعطين.
وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ تشهد العقول السليمة باستقامته ، ليس فيه شائبة اعوجاج ، توجب اتهامهم لك بوجه من الوجوه ، ولقد ألزمهم الله - تعالى - الحجة ، وأزاح عللهم فى هذه الآيات ، حيث حصر أقسام ما يؤدى إلى الإنكار والاتهام من قوله : أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ... إلى هنا ، وبيّن انتفاءها ، ولم يبق إلا كراهة الحق

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.
(٢) من الآية ٤٤ من سورة الزخرف.
(٣) كما حكى القرآن عنهم فى الآية ١٦٨ من سورة الصافات.

(٥٨٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٨٩

وعدم الفطنة أو العناد والمكابرة ، وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ عن طريق الحق لَناكِبُونَ أي : لعادلون عن هذا الصراط المذكور ، وهو الصراط المستقيم ، وصفهم بعدم الإيمان بالآخرة ، تشنيعا لهم بما هم عليه من الانهماك فى الدنيا ، وزعمهم ألّا حياة إلّا حياة الدنيا ، وإشعارا بعلّيّة الحكم فإن الإيمان بالآخرة وخوف ما فيها من الدواهي من أمور الدعاوى إلى طلب الحق وسلوك سبيله. والله تعالى أعلم.
الإشارة : كل من أنكر على أهل الخصوصية ، ولم يعرف خصوصيتهم فسببه ثلاثة أمور : إما أنه لم يصحبهم ولم يتدبر ما يقولون ، ولا ما يأمرون به وينهون عنه ، وإنما يرميهم رجما بالغيب ، وإما أنه حسدهم وخاف على جاهه أن ينتقل لغيره ، وإما أنهم أتوا بخرق عوائد النفوس التي لم تكن لأبائهم الأولين ، فقالوا : (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) ، وإنما جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون ، وكيف تخرق للعبد العوائد ، وهو لم يخرق من نفسه العوائد؟. (و لو اتبع الحق أهواءهم) ، بأن كانت التربية على طريق العوائد ، والاستمرار معها ، لفسد النظام ، ولبقى الكون كله ظلمة لجميع الأنام إذ لا يمكن أن يصير الكون نورا ، بظهور الحق فيه ، إلا بخرق عوائد النفوس ، وإخراجها عن هواها ، فحينئذ تخرق له ظلمة الكون ، فيفضى إلى شهود المكوّن ، (بل أتيناهم بذكرهم) أي :
بشرفهم ، بمعرفة الحق على نعت العيان ، (و هم عن ذكرهم معرضون) حيث انهمكوا فى عوائدهم ،

ولم يقبلوا من يخرجهم عنها ويعرفهم بالله لله ، من غير خراج ولا طمع.
قال تعالى لنبيه - عليه الصلاة والسلام - : (أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير). قال القشيري : أي : إنّك لا تطالبهم على تبليغ الرسالة بأجرة ، ولا بإعطاء عوض ، حتى تكون فى موضع التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة ، أم لعلك تريد أن يعقدوا لك الرئاسة ، ثم قال : والذي لك من الله - سبحانه - من جزيل الثواب ، وحسن المآب ، يغنيك عن التصدي لنيل ما يكون فى حصوله منهم مطمع. وهذه كانت سنّة الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - عملوا للّه فلم يطلبوا عليه أجرا من غير الله ، والعلماء ورثة الأنبياء فى التنزه من التّدنّس بالأطماع ، والأكل بالدين ، فإنه ربا مضرّ بالإيمان ، إن كان العمل لله فالأجر منتظر من اللّه ، وهو موعود من قبل الله. هـ.
وراجع ما تقدم فى سورة هود فإنه أو فى من هذا «١».
وقوله تعالى : (و إنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) ، هو طريق الوصول إلى شهود الذات الأقدس ، من طريق التربية ، التي هى مخالفة الهوى والخروج عن العوائد. وقال القشيري : الصراط المستقيم : هو شهود الحقّ بنعت الانفراد فى جميع الأشياء ، والإيجاف «٢» ، والاستسلام لقضايا الإلزام ، بمواطأة القلب من غير استكراه الحكم. هـ.
وقال الورتجبي عن بعضهم : لو لا أن الله - تعالى - أمر بمخالفة النفوس ومباينتها ، لاتّبع الخلق أهواءهم فى شهوات

---

(١) راجع إشارة الآية ٢٩ من سورة هود.
(٢) فى القشيري : وفى الإيجاد.

النفوس ، ولو فعلوا ذلك لضلوا عن طريق العبودية ، وتركوا أوامر الله ، وأعرضوا عن طاعته ، ولزموا المخالفة ، ألا ترى الله يقول : وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ.
ثم بيّن سبحانه أن حبيبه - عليه الصلاة والسلام - يدعوهم إلى تلك المشاهدة بقوله : (و إنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) أي : مما أوضحه أنوار جماله وشاهدته ، وهى طريق معرفته فى قلوب الصّدّيقين للأرواح القدسية. وتلك الطريقة منتهاها المحبة ، وبدايتها الأسوة والمتابعة لقوله : قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ «١». هـ. قلت : المراد بالمحبة محبة الحق لعبده بدليل الآية التي ذكر. وقال ابن عطاء : إنك لتحملهم على مسالك الوصول ، وليس كل أحد يصلح لذلك السلوك

، ولا يوفق له إلا أهل الاستقامة ، وهم الذين استقاموا مع الله ولم يطلبوا معه سواه ، ولم يروا لأنفسهم درجة ولا مقاما. هـ.

قوله تعالى : وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أي : لا يؤمنون بالحياة الآخرة ، وهى حياة النفوس بالمعرفة العيانية ، بعد موتها بالجهل والوقوف مع الحس والعوائد ، ممن لا يصدق بهذه الحياة ، وأنكر وجود من يوصل إليها عن طريق الحق الموصلة إليه ، لناكبون ، فهم فى الحيرة والتلف تائهون ، عائذا بالله من ذلك.

ثم ذكر انهماكهم فى الغفلة لسبق القضاء عليهم ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٧٥ الى ٧٧]

وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ ، كقحط وجدب ، لَلَجُّوا : لتمادوا فِي طُغْيانِهِمْ : إفراطهم فى الكفر والعتو والاستكبار وعداوة الرسول - عليه الصلاة والسلام - والمؤمنين ، يَعْمَهُونَ : يترددون عامهين عن الهدى. قال ابن عباس : لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ، ورجع إلى اليمامة ، منع الميرة عن أهل مكّة ، وأخذهم اللّه تعالى بالسنين حتّى أكلوا العلهز «٢» ، جاء أبو سفيان إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال له : أنشدك الله والرّحم ، ألست تزعم أنّك بعثت رحمة للعالمين؟ قال : بلى ، قال : قتلت الآباء بالسّيف ، والأبناء بالجوع ، فنزلت «٣». قال ابن جزى : وفيه نظر فإن الآية مكية باتفاق ، وإنما دعا النبي صلى اللّه عليه وسلم على قريش بعد الهجرة ، حسبما ورد فى الحديث. هـ.

---

(١) فالآية ٣١ من سورة آل عمران.

(٢) قال فى النهاية : هى شيء يتخذونه فى سنى المجاعة ، يخلطون الدم بأوبار الإبل ، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه. انظر النهاية (٣/ ٢٩٣). والقاموس المحيط (٢/ ٩٠).

(٣) أخرجه البيهقي فى الدلائل (باب سرية نجد) ، والنسائي فى الكبرى (التفسير ، سورة المؤمنون) ، وابن جرير فى التفسير (١٨/ ٤٥).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٩١

قلت : والتحقيق : أن القحط نزل بهم مرتين ، أحدهما قبل الهجرة ، حين دعا عليهم - صلى اللّه عليه وسلم - بقوله : «اللهم أعنّى عليهم بسبع كسبع يوسف» ، فأخذتهم سنة حصدت كل شيء ، حتى أكلوا الميتة والعظام ، وكانوا يرون كهيئة الدخان من الجوع ، فجاء أبو سفيان فقال : يا محمد ، جئت تأمر بصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع اللّه يغيثنا ، فدعا لهم .. الحديث. وفيه نزل تعالى : فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ «١» ، الآية ، وقوله هنا : وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ... الآية. ومرة أخرى بالمدينة حين استغاثوا به عليه السّلام وهو يخطب ، ولعله هو الذي ذكره ابن عباس فى إسلام ثمامة ، ولعل قوله : «فنزلت الآية» سهو لأنها نزلت قبل الهجرة ، إلّا أن تكون الآية مدنية فى السورة المكية ، وقول ابن جزى : «دعا عليهم بعد الهجرة» ، التحقيق : أنه دعا عليهم قبل وبعد. والله أعلم.

والمعنى : لو رحمناهم ، وكشفنا ما بهم من القحط والهزال برحمتنا إياهم ، ووجدوا الخصب ، لا رتدوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والاستكبار ، ولذهب عنهم هذا الخلق والتعلق بك ، وهذا كقوله تعالى فى الدخان : إِنَّكُمْ عائِدُونَ «٢» ، قيل : المراد بالضر : العذاب الأخروى ، فيكون كقوله : وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ «٣».

وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ ، وهو ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر ، وهو قوله - تعالى - فى الدخان : يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى «٤». فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ بذلك ، أي : لم يخضعوا ولم يتذللوا.

و«استكانوا» :

افتعل من السكون ، والألف زائدة ، أو استفعل من الكون ، أي : انتقل من كون إلى كون ، كاستحال ، إذا انتقل من حال إلى حال لأن الخاضع ينتقل من كون إلى كون. وَما يَتَضَرَّعُونَ أي : وليس من حالهم التضرع إليه تعالى ، وعبّر بالمضارع ، ليدل على الاستمرار ، أي : ليس شأنهم التضرع فى هذه الحالة وغيرها ، أو : فما استكانوا فيما مضى ، وما يتضرعون فيما ينزل بهم فى المستقبل ، والمعنى : تالله لقد أخذناهم بالعذاب ، وقتلناهم بالسيوف ، وما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم ، فما وجدت ، بعد ذلك ، منهم استكانة ولا تضرع.

حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ ، وهو عذاب الآخرة ، إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ : متحيرون آيسون من كل خير ، وهذا هو الصواب من حمل العذاب على عذاب الآخرة ، بدليل وصفه بالشدة والإياس. والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ١٠ من سورة الدخان.

(٢) من الآية ١٥ من سورة الدخان.

(٣) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام.

(٤) من الآية ١٦ من سورة الدخان.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٩٢

الإشارة : أهل الغفلة والبعد لا يرجعون إلى الله فى السراء ولا فى الضراء لا نهماكهم فى الغفلة والقساوة ، وأهل اليقظة يرجعون إلى الله فى السراء والضراء ، فى السراء بالحمد والشكر ، وفى الضراء بالصبر والرضا والتسليم ، مع التضرع والابتهال عبودية ، والمقتصدون يرجعون إليه - تعالى - فى الضراء ، ويغفلون عن الشكر فى السراء ، والأول ظالم لنفسه ، والثاني سابق ، والثالث مقتصد. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته - تعالى - وفى ضمنه استدعاؤهم إلى الرجوع إليه تعالى بالشكر ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٧٨ الى ٨٣]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قالُوا أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢)
لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ : خلق لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ لتشاهدوا بها عجائب مصنوعاته ودلائل قدرته ، أو لتتوصلوا إلى شهود آياته الكونية والتنزيلية ، وَالْأَفْئِدَةَ لتتفكروا بها فيما تشاهدونه منها وتعتبروا ، وخصها بالذكر لأنه يتعلق بها من المنافع مالا يتعلق بغيرها ، وقدّم السمع لأنّ أكثر العلوم إنما تنال به ، قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ أي : شكرا قليلا غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة لأن العمدة فى الشكر : صرف تلك القوى - التي هى فى أنفسها نعم باهرة - إلى ما خلقت له ، وأنتم تنتحلون بها ضلالا عظيما. وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ أي : خلقكم وبثكم فيها بالتناسل ، وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أي : تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ، فيجازيكم على إحسانكم وإساءتكم.

وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، من غير أن يشاركه فى ذلك أحد ولا شىء من الأشياء ، وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أي : المؤثر فى اختلافهما ، أَفَلا تَعْقِلُونَ فتعرفون بالنظر والتأمل أن الكل منا ، وأن قدرتنا تعم جميع الممكنات ، التي من جملتها البعث والحساب ، وقرئ «يعقلون» بالغيب ، على الالتفات لحكاية سوء حال المخاطبين ، بَلْ قالُوا عطف على مضمر يقتضيه المقام ، أي : فلم يعقلوا بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ أي : آباؤهم ومن دان دينهم ، قالُوا أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ، هو تفسير لما أبهم قبله ، أي :

قالوا : أنبعث بعد هذه الحالة ، لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا البعث مِنْ قَبْلُ : متعلق بالفعل من حيث

إسناده إلى آبائهم لا إليهم ، أي : وعد هذا آباؤنا من قبل ، أو حال من آبائنا ، أي : كائنين من قبل ، إِنْ هذا أي :

(٥٩٢/٣)

ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أي : أكاذيبهم التي سطروها ، وهى جمع أسطورة ، كأحدوثة وأعجوبة ، أو جمع أسطار ، جمع سطر ، فيكون جمع الجمع. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ذكر فى الآية خمس نعم ، يجب على العبد شكر كل واحدة منها ، فشكر نعمة السمع : أن تسمع به ما ينفع ، وتكفه عما لا ينفع ، وإذا سمعت خيرا أفشيته ، وإذا سمعت شرا دفنته. وشكر نعمة البصر : أن تنظر به فى ملكوت السموات والأرض وما بينهما ، فتعرف عظمة الصانع ، أو تشاهده وتوحده فيها. وشكر نعمة القلوب : أن تعرف بها علام الغيوب ، وتفرده بالوجود فى كل مرغوب ومرهوب. وشكر نعمة الإيجاد : أن تكون له عبدا فى كل حال. وشكر نعمة الإعادة : أن تتأهب للقائه فى كل لحظة وساعة. (و هو الذي يحيي ويميت) يحيي قلوبا بالمعرفة بعد الجهل ، ويميت قلوبا بالغفلة والجهل بعد العلم واليقظة ، وذلك بالسلب بعد العطاء ، والعياذ باللّه. وله اختلاف ليل القبض ونهار البسط على العبد ، ثم يخرجه عنهما ليكون مع اللّه لا مع شىء سواه. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر دلائل ما أنكروه من البعث ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٨٤ الى ٩٠]

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (٩٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لمن أنكر البعث : لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها من المخلوقات عاقلا أو غيره ، أي : من أوجدها ، ودبر أمرها ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شيئا؟ والجواب محذوف ، أي : فأخبرونى فإن ذلك كاف فى الجواب ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ لأنهم مقرّون بأنه الخالق ، فإن أقروا بذلك فقل أَفَلا تَذَكَّرُونَ فتعلمون أنّ من قدر على خلق السماوات والأرض وما فيهن ، كيف لا يقدر على إعادة الخلق بعد عدومها؟ فإن الإعادة أهون من البدء. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، أعيد الرب تنويها لشأن العرش ، ورفعا لمحله لئلا يكون تبعا للسماوات والأرض ، وجودا وذكرا ، ولقد روعى فى الأمر بالسؤال الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، فإن سألتهم (سيقولون للّه) أي : هى للّه ، كقولك : من

رب هذه الدار؟ فتقول : هى لفلان ، وقال الشاعر :

إذا قيل : من ربّ المزالف والقرى وربّ الجياد الجرد؟ قيل : لخالد

(٥٩٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٩٤

وقال الأخفش : اللام زائدة ، أي : هو الله ، وبعدمه قرأ أهل البصرة ، فيه وفيما بعده ، واتفقوا على إثباته فى الأول ، ليطابق السؤال ، فإن أجابوا بذلك فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ أي : أتعلمون ذلك ، ولا تتقون عذابه فى كفركم وجحودكم قدرته على البعث؟

قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ أي : التصرف التام فى كل شىء بقهره وسلطانه ، فالملكوت ، فى أصل اللغة ، مبالغة فى الملك ، زيدت الواو والتاء للمبالغة ، كالجبروت مبالغة فى الجبر ، وفى عرف الصوفية ، الملكوت :

ما بطن من أسرار المعاني القائمة بالأوانى ، أو نقول : ما غاب فى عالم الشهادة من أسرار الذات ، فحس الأوانى ملك ، ومعانيها ملكوت ، والجبروت : ما خرج عن دائرة الأكوان من بحر الأسرار ، الفائض بأنوار الملكوت ، وهذه أسماء لمسمى واحد ، وهو بحر الوحدة.

ثم قال تعالى : وَهُوَ يُجِيرُ أي : يغيث ، يقال : أجرت فلانا على فلان : إذا أغثته منه ، يعنى : وهو يغيث من شاء ممن شاء ، وَلا يُجارُ عَلَيْهِ : ولا يغيث أحد عليه ، أي : لا يمنع أحد أحدا بالنصر عليه. إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شيئا ما ، أو تعلمون ذلك ، فأجيبونى؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ أي : لله ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ أي : فمن أين تخدعون وتصرفون عن الرشد ، وعن توحيد الله وطاعته؟ فإنّ من لا يكون مسحورا مختل العقل لا يكون كذلك ، قال تعالى : بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ الذي لا محيد عنه من التوحيد والوعد بالبعث ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما قالوا من الشرك وإنكار البعث. وبالله التوفيق.

الإشارة : قل : لمن أرض النفوس ، وما فيها من الأهوية والحظوظ والعلائق؟ سيقولون : هى لله يتصرف فيها كيف يشاء ، فتارة يملّكها لعبده ، فتكون تحت قهره وسلطانه ، فيكون حرا من رق الأشياء ، وتارة يملّكه لها بعدله ، فيكون تحت قهرها وسلطانها ، تتصرف فيه كيف تشاء ، ويكون مملوكا لها ، ينخرط فى سلك من اتخذ إلهه هواه ، قل : من رب سماوات الأرواح وعرش الأسرار والأنوار ، وهو القلب الذي هو بيت الرب ، قل : سيقولون : لله ، يظهرها متى شاء ، ويوصلها إلى أصلها كيف شاء ، قل : من بيده ملكوت كل شىء ، فيتصرف فى النفوس والأرواح بالتقريب والتبعيد ، وهو يجير من الحظوظ والأهوية من يشاء ، ويسلطها على من يشاء ، ولا يجار عليه ، لا يمتنع من قهره أحد ، فأنّى تسحرون.

قال القشيري : أولا قال : (أفلا تذكرون) ، ثم قال بعده : (أفلا تتقون) قدّم التذكر على التقوى لأن بتذكيرهم يصلون إلى المعرفة «١» ، وبعد أن عرفوه ، علموا أنه يجب عليهم اتقاء مخالفته ، ثم بعد ذلك قال : (فأنى تسحرون)؟
أي : بعد وضوح الحجة ، أيّ شكّ بقي حتى تنسبوه إلى السّحر؟. هـ.

---

(١) فى القشيري : المغفرة. [.....]

ثم أبطل دعوى الولد والشريك عليه تعالى ، فقال :
[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٩١ الى ٩٢]
مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)
يقول الحق جل جلاله : مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، خلاف ما يقوله النصارى ، والعرب التي قالت : الملائكة بنات الله ، تعالى عن قولهم علوا كبيرا ، وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ يشاركه فى ألوهيته ، كما يقول عبدة الأوثان وغيرهم ، إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ أي : لو كان معه آلهة ، كما يزعمون ، لذهب كل واحد منهم بما خلقه واستبد به ليتميز ملكه من ملك الآخر ، ووقع بينهم التغالب والتحارب ، كما هو الجاري بين الملوك ، وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ : ولغلب بعضهم على بعض ، وارتفع عليه ، كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة وهم متغالبون ، وحين لم تروا أثرا لتمايز الممالك والتغالب فاعلموا أنما هو إله واحد.
قال ابن جزىّ : وليس هذا البرهان بدليل التمانع ، كما فهم ابن عطية وغيره ، بل بدليل آخر. وقال فى قوله : (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) : قال كثير من الناس : إنه دليل التمانع الذي أورده المتكلمون ، والظاهر من اللفظ أنه استدلال آخر أصح منه. هـ قال النسفي : ولا يقال : «إذا» لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب ، وهو هنا وقع لذهب جزاء وجوابا ، ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل لأن الشرط هنا محذوف ، تقديره : لو كان معه آلهة كما يزعمون لذهب .. إلخ ، دل عليه : (و ما كان معه من إله) ، وهو جواب لمن حاجّه من المشركين. هـ.
سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ من الأنداد والأولاد ، عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أي : السر والعلانية ، أو ما ظهر من حس الأكوان ، وما غاب فيها وعنها ، فمن جرّ «عالم» فبدل من الجلالة ، أو صفة له ، ومن رفعه

فخبر عن مضمر ، أي : هو عالم. فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ من الأصنام وغيرها ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإنّ تفرده تعالى بالألوهية والعلم المحيط ، موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ثلاثة إذا تعددت فسد النظام : الإله ، والسلطان ، والطبيب فلو تعدد الإله لفسد نظام العالم ، ولو تعدد الملك لفسدت الرعية بالهرج والفتن ، ولو تعدد الطبيب لفسد العلاج. والطبيب على قسمين : طبيب الأبدان ، وطبيب القلوب ، وهو شيخ التربية ، فإذا تعدد على مريد واحد فسدت تربيته لانقسام محبته واختلاف علاجه ، فالمريد ، إذا علق قلبه بغير شيخه ، لا ينهض نهوض من جمع همته على شيخه ، بل لا يجىء منه شيء. والله تعالى أعلم.

(٥٩٥/٣)

قال القشيري : كل أمر نيط بين اثنين انتفى عنه النظام وصحة التربية. هـ. وقال الورتجبي : نزه الحق - سبحانه - ذاته عن مخايل الزنادقة ، وكان منزها عن أباطيل إشارة المشبهة ، وذاته ممتنعة بكمال أحديته ، عن زعم الثنوية ، كيف يجوز أن يكون القدم محل الحوادث إذا القديم المنزه ، إذا تجلى بنعت القدم للحدثان ، صار معدوما كالعدم ، تعالى الله عن كل وهم وإشارة. هـ.

ولما توعدهم بالعذاب على كفرهم ، أمر نبيه - عليه الصلاة والسلام - بالدعاء بالنجاة منه إذا نزل بهم ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٩٣ الى ١٠٠]

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ (٩٧)

وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي أي : إذا كان لا بد من أن ترينى ما يوعدون من العذاب المستأصل فى الدنيا أو عذاب الآخرة ، رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أي : قريبا لهم فيما هم فيه من العذاب ، وفيه إيذان بفظاعة ما وعدوه من العذاب ، وأنه يجب أن يستعيذ منه من لا يكاد أن يحيق به ، وردّ لإنكارهم إياه واستعجالهم على طريقة الاستهزاء ، وقيل : أمر به صلى اللّه عليه وسلم هضما لنفسه ، وقيل : إن شؤم الكفرة قد يحيق بمن وراءهم كقوله تعالى : وَاتَّقُوا فِتْنَةً ... «١» إلخ ، وروى

عن الحسن (أنه – تعالى – أخبر نبيه صلى اللّه عليه وسلم بأن فى أمته نقمة ، ولم يطلعه على وقتها ، فأمر بهذا الدعاء) ويجوز أن يسأل النبيّ المعصوم ربه ما علم أنه يفعله ، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهارا للعبودية وتواضعا لربه. والفاء : جواب «إما» الشرطية ، أي : إن نزلت بهم النقمة فاجعلنى خارجا عنهم ، وتكرير النداء ، وتصدير كل من الشرط والجزاء به – أي : بالدعاء – لإبراز كمال الضراعة والابتهال.

قال تعالى : وَإِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ من العذاب لَقادِرُونَ ، ولكنا نؤخره لعلمنا بأن بعضهم ، أو بعض أعقابهم ، سيؤمنون ، أو : لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم ، وقيل : قد أراهم ذلك ، وهو ما أصابهم يوم بدر وفتح مكة ،

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

وهو بعيد لأن المبادر أن يكون ما استحقوه من العذاب الموعود عذابا هائلا مستأصلا لا يظهر على يديه صلى اللّه عليه وسلم للحكمة الداعية إليه ، وكانوا يضحكون ، استهزاء بهذا الوعد ، وإنكارا له ، فقال لنبيه – عليه الصلاة والسلام – : ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ أي : ادفع الخصلة السيئة بالخصلة التي هى أحسن ، وهو الصفح عنها والإحسان فى مقابلتها ، لكن بحيث لا يؤدى إلى وهن فى الدين وإهانة له. وقيل : السيئة : الشرك ، والتي هى أحسن : كلمة التوحيد ، وقيل : السيئة : المنكر ، والتي هى أحسن : النهى عنه ، وقيل : هى منسوخة بآية السيف ، وقيل : محكمة إذ المداراة مأمور بها. قال ابن عطية : أمر بمكارم الأخلاق ، وما كان منها بهذا المعنى ، فهو محكم باق فى الأمة أبدا ، وما كان بمعنى المواعدة فمنسوخ بآية القتال. هـ.

وهذا التركيب أبلغ من «ادفع بالحسنة السيئة» لما فيه من التنصيص على التفضيل ، وتقديم الجار والمجرور على المفعول للاهتمام. نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ من الشرك والولد ، أو بما يصفك به ، مما أنت على خلافه ، من السحر وغيره ، فسنجازيهم عليه ، وفيه وعيد لهم ، وتسلية لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، وإرشاد له إلى تفويض أمره إليه تعالى والاكتفاء بعلمه.

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ أي : وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت من المحاسن ، التي من جملتها دفع السيئة بالحسنة ، وأصل الهمز : النخس ، ومنه : مهماز الرائض ، شبه حثهم للناس على المعاصي بهمز الرائض الدوابّ على الإسراع والوثب. وجمع همزات لتنوّع الوساوس وتعدد

المضاف إليه ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ، أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه ، والتعوذ من أن يحضروه أصلا فى حال من الأحوال مبالغة فى التحذير من ملابستهم ، أو أن يحضروه عند التلاوة أو الصلاة ، أو عند النزع تشريعا. وإعادة الفعل ، مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به.

ولا تزال الكفرة تصف الحق بما لا يليق به من الشرك ، حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ أي : لا يزالون مشركين حتى يموتوا ، فحتى ، هنا ، ابتدائية ، دخلت على جملة الشرط ، وهى متعلقة بيصفون ، وما بينهما اعتراض مؤكد للإغضاء ، لكن لا بمعنى أنه العامل فيه لفساد المعنى ، بل بمعنى أنه معمول لمحذوف دل عليه ذلك ، أي :

تنزيها له تعالى عما يصفون ، ويستمرون على الوصف المذكور ، حتى إذا جاء أحدا منهم الموت الذي لا مرد له ، وظهرت له أحوال الآخرة ، قالَ تحسرا على ما فرّط فيه من الإيمان والطاعة : رَبِّ ارْجِعُونِ أي :

ردنى إلى الدنيا ، والواو لتعظيم المخاطب ، كخطاب الملوك ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ أي : فى الإيمان الذي تركته ، أو فى الموضع الذي تركت فيه الإيمان والطاعة وهو الدنيا لأنه ترك الدنيا وصار إلى العقبى.

(٥٩٧/٣)

قال قتاده : ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا عشيرة ، ولكن ليتدارك ما فرط. وعنه ، صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا له : نرجعك إلى الدّنيا؟ فيقول : إلى دار الهموم والأحزان؟ بل قدوما إلى اللّه تبارك ، وتعالى ، وأمّا الكافر فيقول : ارجعون لعلى أعمل صالحا ..» «١». وقال القرطبي : ليس سؤال الرجعة مختصا بالكافر ، فقد يسألها المؤمن ، كما فى آخر سورة المنافقين «٢» ، ودلت الآية على أن أحدا لا يموت حتى يعرف : اهو من أولياء الله أم من أعداء الله ، ولو لا ذلك لما سأل الرجعة ، فيعلم ذلك قبل نزول الموت وذواقه. هـ. قال المحشى الفاسى : ولعل محمل الحديث فى المؤمن الكامل غير المقصّر ، والآية فى غيره. والله أعلم. هـ.

كَلَّا أي : لا رجوع له أصلا ، وهو ردع عن طلب الرجعة ، واستبعاد لها ، إِنَّها أي : قوله : (رَبِّ ارْجِعُونِ) ، كَلِمَةٌ ، والمراد : طائفة من الكلام ، وهو (رَبِّ ارْجِعُونِ ...) إلخ ، هُوَ قائِلُها ، ولا فائدة له فيها ، ولا حقيقة لها لعدم حصول مضمونها ، أو هو قائلها لا محالة لتسليط الحسرة والندم عليه ، فلا يقدر على السكوت عليها ، (وَ مِنْ وَرائِهِمْ) أي : أمامهم ، والضمير للجماعة لأن أحدهم بمعنى كلهم ،

بَرْزَخٌ : حائل بينهم وبين الرجعة ، إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ : يوم القيامة ، وهو إقناط كلى عن الرجوع إلى الدنيا ، لما علم أنه لا رجعة يوم القيامة إلى الدنيا ، وإنما الرجوع فيه إلى الحياة الأخروية. والله تعالى أعلم.
الإشارة : ما قاله صلى اللّه عليه وسلم فى تضرعه إلى الله تعالى - كما أمره الحق تعالى - يقوله كل عارف ومتيقظ ، فيقول :
ربّ إما ترينى ما يوعده أهل الغفلة والبطالة من التحسر والندم ، عند انقراض الدنيا وإقبال الآخرة ، فلا تجعلنى فى القوم الظالمين ، أي : لا تسلك بي مسلكهم حتى أتحسر معهم ، فإذا أوذى فى الله - كما هو شأن أهل الخصوصية - يقال له : ادفع بالتي هى أحسن السيئة ، وقابل الإساءة بالإحسان ، وإياك والانتصار لنفسك ، وتعوذ بالله من همزات الشياطين ، إن قامت عليك نفسك وأرادت الانتصار ، كما هو شأن أهل الغفلة ، فى كونهم منهمكين فى الغفلة ، مملوكين فى أيدى أنفسهم ، مستمرين على ذلك ، حتى إذا حضر أجلهم طلبوا من الله الرجعة ، هيهات هيهات ، (كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) ، وفى الأثر : «ما منكم من أحد إلا وسيندم عند الموت ، إن كان محسنا أن لو زاد ، وإن كان مسيئا أن لو تاب». أو كما قال.
ولأجل هذا المعنى شد أهل اليقظة الحزم ، وشمروا عن ذراعهم فى طاعة مولاهم ، وعمروا أوقاتهم بما يقربهم إلى محبوبهم ، وتنافسوا فى ذلك أىّ تنافس ، وفى ذلك يقول القائل :

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/ ٥٢) ، من حديث ابن جريج ، مرسلا.
(٢) فى قوله تعالى «وأنفقوا مما رزقناكم من أن قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لو لا أخرتنى إلى أجل قريب ...) الآية ١٠.

السّباق ، السّباق ، قولا وفعلا حذّر النّفس حسرة المسبوق
وكان بعض العباد حفر قبرا فى بيته ، فإذا صلى العشاء دخل فيه ، وقرأ : (قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً ....) الآية ، فيقول لنفسه : ستطلبين الرجعة ولا تمكنين منها ، وأنت اليوم متمكنة من الرجوع ، قومى إلى خدمة مولاك ، قبل أن يحال بينك وبينها ، فيبيت قائما يصلى. وهكذا شأن أهل اليقظة يقدمون الندم والجد قبل فوات إبّانه. أعاننا الله على اغتنام طاعته ، وما يقربنا إلى حضرته. آمين.
ثم ذكر أهوال ذلك اليوم الموعود ، فقال :
[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ١٠١ الى ١٠٥]

فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيها كالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (١٠٥)

يقول الحق جل جلاله : فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ لقيام الساعة ، وهى نفخة البعث والنشور ، وقيل : فإذا نفخ فى الأجساد أرواحها ، على أن الصور جمع صورة ، ويؤيده القراءة بفتح الواو مع الضم ، وبه مع كسر الصاد. فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ تنفعهم ، لزوال التراحم والتعاطف بينهم من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة ، بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. قال ابن عباس : (لا يفتخرون بالأنساب والأحساب فى الآخرة ، كما كانوا يفتخرون فى الدنيا» وَلا يَتَساءَلُونَ لا يسأل بعضهم بعضا لا شتغال كل منهم بنفسه ، ولا يناقضه قوله تعالى : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ «١» لأن هذا - أي : سكوتهم - عند ابتداء النفخة الثانية ، وذلك بعدها لأن يوم القيامة ألوان ، تارة يبهتون ولا يتساءلون ، وتارة يفيقون ، فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

وقال ابن عباس : إنما عنى النفخة الأولى ، حين يصعق الناس ، (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ «٢» ، وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ. نقله الثعلبي.

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الصافات.

(٢) الآية ٦٨ من سورة الزمر.

(٥٩٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٠٠

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ أي : موزونات حسناته من العقائد الصحيحة والأعمال الصالحة ، فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بكل مرغوب ، الناجون من كل مرهوب ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ أي : ومن لم يكن له من العقائد والأعمال ما يوزن - وهم الكفار - لقوله : فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً «١» ، وتقدم ما فيه. فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ : ضيعوها بتضييع زمان استكمالها ، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها ، فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ ، وهو خبر ثان لأولئك ، أو بدل من الصلة ، وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه قال : (يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة ، فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ، ثم ينادى مناد : هذا فلان بن فلان ، من كان له حق فليأت إلى حقه ، فتفرح المرأة أن يدور لها الحق على ابنها ، أو على زوجها ، أو على أبيها ، أو على أخيها ، ثم قرأ ابن مسعود :

فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ ، ثم يقول الرب تعالى : آت هؤلاء حقوقهم ، فيقول : ربّ ،

فنيت الدنيا فمن أين آتيهم؟ فيقول للملائكة : خذوا من حسناته فأعطوا كل إنسان بقدر طلبته .....)
إلخ الحديث «٢» ، انظر النسفي.
قال تعالى : تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ تحرقها ، واللفح كالنفخ ، إلّا أنه أشد تأثيرا منه ، وتخصيص الوجوه بذلك لأنها أشرف الأعضاء. وَهُمْ فِيها كالِحُونَ : عابسون من شدة الإحراق ، والكلوح : تقلص الشفتين من الإنسان ، قال النبي صلى اللّه عليه وسلم فى كالحون : «تشويه النّار فتقلّص شفته العليا ، حتّى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخى السّفلى حتّى تبلغ سرّته» «٣». فيقال لهم - تعنيفا وتذكيرا لما به استحقوا ما ابتلوا به : أَلَمْ تَكُنْ آياتِي أي : القرآن تُتْلى عَلَيْكُمْ فى الدنيا فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ حينئذ ، فذوقوا وبال ما كنتم به تكذبون. نسأل الله التوفيق والهداية.
الإشارة : قال الترمذي الحكيم : الأنساب كلها منقطعة إلا من كانت نسبته صحيحة فى عبودية ربه ، فإن تلك نسبة لا تنقطع أبدا ، وتلك النسبة المفتخر بها ، لا نسبة الأجناس من الآباء والأمهات والأولاد. هـ. وقال الورتجبي :
عند المعاينة والمشاهدة بوجوده ونشر جوده ، نسبهم هناك نسب المعرفة والمحبة الأزلية ، واصطفائيته القدسية ، لا يفتخرون بشيء دونه ، من العرش إلى الثرى ، ولا يتساءلون شغلا بما هم فيه. هـ.
ومعنى كلام الشيخين : أن العبد ، إذا صحت نسبته إلى مولاه ، وانقطع بكليته إليه ، ورفض كل ما سواه ، اتصلت نسبته ، ودامت محبته وأنسه ، ومن تعلق بغيره ، وتودد إلى ما سواه ، انقطع ذلك وانفصل ، ومن النسب التي تتصل وتدوم ، النسبة إلى أولياء الله ، والتحبب إليهم وخدمتهم ، وهى فى الحقيقة من نسبة الله تعالى لأنها سبب معرفته

---

(١) من الآية ١٠٥ من سورة الكهف.
(٢) أخرج رواية ابن عباس ، وكذلك ، ورواية ابن مسعود ، الطبري فى تفسيره.
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ٨٨) لترمذى فى (التفسير - تفسير سورة المؤمنون) ، وقال : حسن غريب صحيح ، والحاكم (٢/ ٣٩٥) وصححه ، ووافقه الذهبي) ، عن أبى سعيد الخدري رضى اللّه عنه.

والتحقق بعبوديته ، فهى عينها ، فمن انتسب إليهم فقد انتسب إلى الله ، ومن أحبهم فإنما أحب الله ، فمحبتهم ، والاجتماع معهم يؤدى إلى محبة الله ورضوانه ، وهم الذين يكونون عن يمين الرحمن ،

يغشى نورهم الناس يوم القيامة ، يغبطهم النبيون والشهداء لمنزلتهم عند الله. قال عليه الصلاة والسلام : لما سئل عنهم : «هم رجال من قبائل شتى ، يجتمعون على ذكر الله ومحبته» أو كما قال صلى اللّه عليه وسلم كما فى الحديث «١». والله تعالى أعلم.

ثم ذكر جواب أهل النار ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ١٠٦ الى ١١٤]

قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ (١٠٦) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ (١٠٧) قالَ اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ (١١١) قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ (١١٣) قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤)

يقول الحق جل جلاله : قالُوا أي : أهل النار : رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا أي : ملكتنا شِقْوَتُنا : شقاوتنا التي اقترفناها بسوء اختيارنا ، كما ينبئ عنه إضافتها إلى أنفسهم ، أي : شقينا بأعمالنا السيئة التي عملناها ، ولا يصح حمله على الشقاوة الأزلية لأنهم غير مكلفين بصرفها عنهم إذ ليس فى اختيارهم. وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ عن الحق ، ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب ، وهذا ، كما ترى ، اعتراف منهم بأن ما أصابهم إنما أصابهم بسوء صنعهم ، وأمّا ما قيل : من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية ، فلا يصح لأن الله تعالى ما كتب عليهم الشقاء حتى علم أنهم يفعلونه باختيارهم ، بحسب الظاهر فى عالم الحكمة ، فيكون اعترافهم إنما هو بما كان فى اختيارهم ، لا بما كتب عليهم.

ثم قالوا : رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ أي : أخرجنا من النار ، وردنا إلى الدنيا ، فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصي ، فإنا متجاوزون الحد فى الظلم ، ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورن على

---

(١) عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى اللّه عليه وسلم : «ليبعثن الله أقواما يوم القيامة ، فى وجوههم النور ، على منابر اللؤلؤ ، يغبطهم الناس ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء» قال : فجثا أعرابى على ركبتيه فقال : يا رسول الله ، حلّهم لنا نعرفهم؟ قال : «هم المتحابون فى الله من قبائل شتى ، وبلاد شتى ، يجتمعون على ذكر الله تعالى ، يذكرونه» قال الهيثمي فى مجمع الزوائد (١٠/ ٧٧) رواه الطبراني وإسناده حسن.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٠٢

ما صدر عنهم لما سألوا الرجعة إلى الدنيا ، ولما وعدوا بالطاعة والإيمان. قال القرطبي : طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت.

ثم يجيبهم الحق تعالى ، بعد ألف سنة ، بقوله : قالَ اخْسَؤُا فِيها أي : اسكتوا فى النار سكوت ذل وهوان ، وانزجروا انزجار الكلاب ، يقال : خسأت الكلب ، إذا زجرته ، فخسأ ، أي : انزجر. وَلا تُكَلِّمُونِ باستدعاء الإخراج من النار والرجوع إلى الدنيا ، أو فى رفع العذاب عنكم فإنه لا يرفع ولا يخفف ، روى أنه آخر كلام يتكلمون به ، ثم لا كلام بعد ذلك إلّا الشهيق والزفير ، ويصير لهم عواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون «١».

قيل : ويرده الخطابات الآتية ، وقد يجاب : بأنها قبل هذه الكلمة.

ثم علل استحقاقهم لذلك العذاب بقوله : إِنَّهُ أي : الأمر والشأن كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي وهم المؤمنون ، أو الصحابة ، أو أهل الصفة - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - يَقُولُونَ فى الدنيا : رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ. فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا أي : هزوا ، وهو مصدر سخر ، زيدت فيه ياء النسب للمبالغة ، وفيه الضم والكسر. وقال الكوفيون : المكسور بمعنى الهزء ، والمضموم من السخرة ، بمعنى الانقياد للخدمة ، ولذلك اتفق عليه فى الزخرف «٢» ، أي : اتخذتموهم مهزوا بهم ، وتشاغلتم بهم حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي ، من فرط اشتغالكم بالاستهزاء بهم ، ولم تخافونى فى أوليائى ، وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ، وذلك غاية الاستهزاء.

قال تعالى : إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ جزاء على صبرهم على أذاكم ، أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ بكل مطلوب دونكم ، فأنهم : مفعول «جزيتهم» لأنه يتعدى إلى مفعولين ، وقرأ حمزة بالكسر على الاستئناف تعليلا للجزاء ، وبيانا أنه فى غاية الحسن ، قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ ، القائل هو الله تعالى ، أو الملك ، وقرأ المكي وحمزة : «قل» التي بلفظ الأمر للملك ، يسألهم : كم لبثوا ، فِي الْأَرْضِ التي دعوا الله أن يردهم إليها ، عَدَدَ سِنِينَ ، وهو تمييز ، أي : كم لبثتم فى الأرض من عدد السنين ، قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، استقصار لمدة لبثهم فيها بالنسبة إلى خلودهم ، ولما هم فيه من عذابها لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ، ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة ، فَسْئَلِ الْعادِّينَ أي : المتمكنين من العد فإنا بما دهمنا من العذاب بمعزل من العد ، أو الملائكة العادين لأعمار العباد وأعمالهم.

قالَ الله تعالى ، أو الملك ، تصديقا لهم فى مقالهم : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا : ما لبثتم إلا زمانا قليلا ، أو لبثا قليلا بالنسبة لما بعده ، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شيئا ، أو : لو كنتم من أهل العلم لعلمتم قلة لبثكم فيها ، فالجواب محذوف. والله تعالى أعلم.

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٥/ ٤٣١) عن الحسن.

(٢) فى قوله تعالى : وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا ..) الآية ٣٢ من سورة الزخرف.

(٣/٦٠٢)

الإشارة : إذا تميزالمتحابون فى الله ، المجتمعون على ذكر الله ومحبته وطلب معرفته ، وعرفوا بأنوارهم وأسرارهم ، وانحازوا إلى ظل العرش ، يوم لا ظل إلا ظله ، ورآهم البطالون المنكرون عليهم ، وهم فى حسرة الحساب ، يقولون بلسان الحال أو المقال : (رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا) حيث لم نصحب هؤلاء الأولياء ، وكنا قوما ضالين ، ربنا أخرجنا من هذه الحسرة ، وردنا إلى الدنيا ، فإن عدنا إلى البطالة والإنكار عليهم فإنا ظالمون ، فيقال لهم : اخسئوا فيها فقد فات الإبان ، إنه كان فريق من عبادى ، وهم المنتسبون من أهل التجريد ، المتزيون بزى الصوفية أهل التفريد ، يقولون : ربنا آمنا بطريق الحصوصية ودخلنا فيها ، فاغفر لنا ، أي : غط مساوئنا ، وارحمنا رحمة تضمنا إلى حضرتك ، وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخريا ، وانشغلتم بالوقوع فيهم ، حتى أنسوكم ذكرى ، وكنتم منهم تضحكون ، إنى جزيتهم اليوم ، بما صبروا ، أنهم هم الفائزون بشهود ذاتى ، والقرب من أحبابى ، المتنزهون فى كمال جمالى ، فى درجات المقربين من النبيين والصديقين.

قال القشيري : الحق ينتقم من أعدائه بما يطيّب به قلوب أوليائه ، وتلك خصمة الحق ، فيقول لهم : كان فريق من أوليائى يفصحون بمدحى واطرائى ، فاتخذتموهم سخريا ، فأنا اليوم أجازيهم ، وأنتقم ممن كان يناويهم. هـ.

قوله تعالى : قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ .... إلخ ، اعلم أن أيام الدنيا كلها تقصر عند انقضاء عمر العبد ، فتعود كيوم واحد ، أو بعض يوم ، فإن أفضى إلى الراحة بعد الموت نسى أيام التعب ، وغاب عنها ، فتصير كأضعاث أحلام ، وإن أفضى إلى التعب ، نسى أيام الراحة ، كأنها طيف منام. قال فى الحاشية : الأشياء ، وإن كانت كثيرة ، فقد تنقص وتقل بالإضافة إلى ما يرجّى عليها ، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض ، إن كانوا فى الراحة فقد تقل ، بالإضافة إلى الراحات التي يلقونها فى القيامة ، وإن كانت شديدة فقد تتلاشى فى جنب رؤية ذلك اليوم لما فيه من أليم تلك العقوبات المتوالية. هـ.

ثم تمم توبيخهم يوم القيامة بقوله :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ١١٥ الى ١١٨]

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ

الْكافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)
قلت : (أَ فَحَسِبْتُمْ) : المعطوف محذوف ، أي : ألم تعلموا شيئا فحسبتم ، و(عَبَثاً) : حال ، أو مفعول من أجله.

(٣/٦٠٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٠٤
يقول الحق جل جلاله : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً أي : عابثين ، أو للعبث من غير حكمة فى خلقكم وإظهاركم حتى أنكرتم البعث ، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ للحساب والجزاء ، بل خلقناكم للتكليف ، ثم للرجوع إلينا ، فنثيب المحسن ، ونعاقب المسيء. فَتَعالَى اللَّهُ أن يخلق شيئا عبثا ، وهو استعظام له تعالى ولشئونه التي يصرّف عليها عباده من البدء والإعادة ، والإثابة والعقاب ، بموجب الحكمة ، أي : ارتفع بذاته ، وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وعن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح والغايات الحميدة.
الْمَلِكُ الْحَقُّ الذي يحق له الملك على الإطلاق ، إيجادا وإعداما ، وإحياء وإماتة ، عذابا وإثابة ، وكل ما سواه مملوك له ، مقهور تحت ملكوته ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، فإنّ كل ما عداه عبيده ، رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ، فكيف بما تحته من الموجودات ، كائنا ما كان ، ووصفه بالكرم : إمّا لأنه منه ينزل الوحى الذي منه القرآن الكريم ، والخير والبركة ، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين.
وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ ، يعبده فردا أو اشتراكا ، من صفته لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ على صحة عبادته. وفيه تنبيه على أن التدين بما لا دليل عليه باطل ، فكيف بما شهدت بديهة العقول بخلافه؟ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، فهو مجاز له على قدر ما يستحقه ، إِنَّهُ أي : الأمر والشأن لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ لا فوز لهم ولا نجاة.
بدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين ، وختمت بنفي فلاح الكافرين تحريضا على الإيمان ، وعلى ما يوجب بقاءه وتنميته ، من التمسك بما جاء به التنزيل ، وبما جاء به النبي الجليل ، ليقع الفوز بالفلاح الجميل.
ثم علّمنا سؤال المغفرة والرحمة لأن شؤم المعاصي يؤدى إلى سوء الختام ، فقال : وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ، وفيه إيذان بأنهما من أهم الأمور الدينية ، حيث أمر به من قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فكيف بمن عداه؟ نسأل الله – تعالى – المغفرة الشاملة ، والرحمة الكاملة ، لنا ولإخواننا ولجميع المسلمين .. آمين.
روى عن عبد الله بن مسعود رضي اللّه عنه أنه مرّ بمصاب مبتلى ، فقرأ فى أذنه : (أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما ...)

إلخ السورة ، فبرئ من حينه. فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ماذا قرأت فى أذنه؟» فأخبره ، فقال : «والذي نفسى بيده لو أن رجلا مؤمنا قرأها على جبل لزال» «١».

الإشارة : ما أظهر الله الكائنات إلا ليعرف بها ، ويظهر فيها أسرار ذاته وأنوار صفاته ، وفى الأثر القدسي : «كنت كنزا لم أعرف ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ، فتعرفت لهم ، فبى عرفونى».

وفى إيجاد المخلوقات حكم بليغة وأسرار عجيبة ، لا يحصيها إلا من خلقها ودبّرها. فمن المخلوقات من خلقهم ليظهر فيهم أثر رحمته وكرمه وإحسانه ،

---

(١) أخرجه البغوي فى تفسيره (٥/ ٤٣٢) ، وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٧) ، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (ص ٢٩٨) قال الذهبي فى ميزان الاعتدال (٢/ ١٧٥) قال العقيلي : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : .... وساق الحديث ، فقال أبى : هذا موضوع ، هذا حديث الكذابين.

وهم أهل الإيمان والطاعة ، ومنهم من خلقهم ليظهر فيهم حلمه وعفوه ، وهم أهل العصيان ، ومنهم من خلقهم ليظهر فيهم عدله وقهره ونقمته ، وهم أهل الكفر والطغيان. وقال الحكيم الترمذي رضي اللّه عنه : إن الله خلق الخلق عبيدا ليعبدوه ، فيثيبهم على العبادة ، ويعاقبهم على تركها ، فإن عبدوه فهم اليوم له عبيد ، أحرار كرام من رق الدنيا ، ملوك فى دار السلام ، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أبّاق ، سقاط ، لئام ، أعداء فى السجون بين أطباق النيران. هـ.

وقال بعضهم : إنما أظهر الله الكون لأجل نبينا صلى اللّه عليه وسلم تشريفا له ، فهو من نوره. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام : يا عيسى بن مريم آمن بمحمد ، ومر أمتك أن يؤمنوا به ، فلو لا محمد ما خلقت آدم ، ولو لا محمد ما خلقت الجنة والنار ... الحديث.

قال القشيري : حسابه على اللّه فى آجله ، وعذابه من اللّه له فى عاجله ، وهو ما أودع قلبه حتى رضى أن يعبد معه غيره ، لقوله : ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى «١» ، كلام حاصل عن غير دليل عقل ، ولا شهادة خبر ونقل ، فما هو إلا إفك وبهتان ، وقول ليس يساعده برهان. هـ. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق – وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد ، وآله وصحبه وسلم تسليما ، والحمد لله رب العالمين «٢».

---

(١) من الآية ٣ من سورة الزمر.

(٢) فى خاتمة المجلد الثاني من النسخة الأم ما يلى : كمل السفر الثاني من (البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد) ، ووافق الفراغ من تبيضه عشية يوم الثلاثاء ، سابع عشر صفر ، عام ثمانية ومائتين وألف ، على يد جامعه «أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى» لطف الله به فى الدارين ، بمنّه وكرمه - وبسيدنا ومولانا محمد ، نبيه وحبه صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله. وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين. يتلوه الثالث من أول سورة النور - إن شاء الله - .
انتهى استخراجه من نسخة من مبيضته بحمد الله - تعالى - على توفيقه لنا وتسديده ، عشية يوم الاثنين ، آخر يوم من الشهر المذكور ، من العام المذكور ، على يد كاتبه لشيخه ومؤلفه المذكور «عبد الغفور بن التهامي البناني» ، راجيا رضا مؤلفه ، والري من بحره ، بمحض الفضل والكرم ، والصلاة على النبي الأعظم ، والرسول الأفخم ، سيدنا محمد ، عليه أفضل الصلاة والسلام. [.....]

فهرس المجلد الثالث

[المجلد الرابع]

سورة النّور «١»

مدنية. ووجه المناسبة لما قبلها : أن إقامة الحدود من أثر الرحمة التي ختم بها ما قبلها لأن بإقامة الحدود يقع الزجر عن المعاصي ، فتنزل الرحمة والعافية. قال أبو هريرة رضي اللّه عنه : (إقامة حدّ

بأرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة) «٢».
وقيل : لمّا ذكر تعالى فى مشركى قريش : وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ أي : أعمال سيئة هُمْ لَها عامِلُونَ «٣» ، ثم استطرد بعد ذلك فى أحوالهم ، كان من أعمالهم السيئة : الزنا ، وكان لهم جوار بغايا عليهن ، ويأكلون من كسبهن من الزنا ، فأنزل اللّه هذه السورة تغليظا فى أمر الزنا. هـ. وعن عائشة - رضي اللّه عنها - قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «لا تنزلوا النساء الغرف ، ولا تعلموهنّ الكتابة ، وعلّموهنّ سورة النور والغزل» «٤» أي : أحكام السورة لينزجرن عن الزنا.
وسميت سورة النور لقوله : اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ «٥» ، وحقيقة النور : ما تنكشف به حقيقة الأشياء على ما هى عليه ، فالنور الظاهر الحسى تنكشف به الأشياء الحسية ، والنور الباطن تنكشف به الأشياء الباطنية ، كمعرفة الذات الأقدس ، وما يقرب إليها من آداب العبودية. ومرجعه إلى ثلاثة : نور معرفة أحكام المعاملة ، ونور اليقين ، ونور المكاشفة. فالأول : نور الإسلام ، وهو كنور النجوم ، والثاني : نور الإيمان ، وهو كنور القمر ، والثالث :
نور الإحسان ، وهو كنور الشمس. ويسمى الأولان : نور التوجه ، والثالث : نور المواجهة. وتتفاوت هذه الأنوار على قدر التوجهو التفرغ من شواغل الحس ، فإذا أشرقت شمس العرفان لم يبق لنور النجوم ولا للقمر أثر لمحو وجود الأكوان فى محل العيان ، فصار الغيب شهادة ، والتصديق معاينة ، فانطوى الإيمان فى وجود العيان.
ولمّا كانت التقوى أساس الطريق لهذا المقام ، الذي هو نور الإيمان ، تكلم الحق تعالى فى أول السورة على أهم ما يتقى ، وهو الزنا وما يؤدى إليه من النظر والاطلاع على عورات النساء ، فقال :

---

(١) أول المجلد الثالث من النسخة الأم.
(٢) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٤٣٨١) وأخرجه بنحوه ، ابن ماجه فى (الحدود باب : اقامة الحدود ، ٢/ ٨٤٨ ، ح ٢٥٣٨) ، من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه ، وأخرجه ابن ماجه فى الموضع نفسه (ح ٢٥٣٧) والنسائي (٨/ ٧٦) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه.
(٣) من الآية ٦٣ من سورة «المؤمنون».
(٤) أخرجه البغوي فى تفسيره (٦/ ٦٨) ، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٩٦) وصححه ، وتعقبه الذهبي ، فقال : (بل موضوع ، وآفته :
عبد الوهاب ، قال أبو حاتم : كذاب) ، وقال الهيثمي فى المجمع (٤/ ٩٣) : رواه الطبراني فى الأوسط (ح ٥٧١٣) ، وفيه محمد بن إبراهيم الشامي. قال الدارقطني : كذّاب.
(٥) الآية ٣٥ من السورة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦

[سورة النور (٢٤) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها وَأَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)

قلت : «سورة» : خبر ، أي : هذه سورة ، وأشير لها ، مع عدم تقدم ذكره لأنها فى حكم الحاضر المشاهد. وقرئ بالنصب على الاشتغال ، وجملة : (أنزلناها) ، وما عطف عليه : صفة لسورة ، مؤكد لما أفاده التنكير من الفخامة.

و(الزانية) : مبتدأ ، والخبر : (فاجلدوا) ، ودخلت الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط إذ اللام موصولة ، أي : والتي زنت والذي زنى فاجلدوا ، هذا مذهب المبرد وغيره ، والاختيار عند سيبويه : الرفع على الابتداء ، والخبر : محذوف ، أي : فيما فرض عليكم ، أو : مما يتلى عليكم : حكم الزانية والزاني ، وقدّم الزانية لأنها الأصل فى الفعل ، والداعية فيها أوفر ، ولو لا تمكينها منه لم يقع. وقيل : لمّا كان وجود الزنى فى النساء أكثر ، بخلاف السرقة ، ففى الرجال أكثر ، قدّم الحق تعالى الأكثر فيهما.

يقول الحق جل جلاله : هذه سُورَةٌ ، وهى الجامعة لآيات ، بفاتحة لها وخاتمة ، مشتقة من سور البلد. من نعت تلك السورة : أَنْزَلْناها عليك ، وَفَرَضْناها أي : فرضنا الأحكام التي فيها. وأصل الفرض : القطع ، أي : جعلناها مقطوعا بها قطع إيجاب. وقرأ المكي وأبو عمرو : بالتشديد للمبالغة فى الإيجاب وتوكيده ، أو : لأن فيها فرائض شتى ، أو : لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم.

وَأَنْزَلْنا فِيها أي : فى تضاعيفها آياتٍ بَيِّناتٍ أي : دلائل واضحات لوضوح دلالتها على أحكامها لا على معانيها فإنها كسائر السور. وتكرير (أنزلنا) ، مع أن جميع الآيات عين السورة لاستقلالها بعنوان رائق داع إلى تخصيص إنزالها بالذكر إبانة لخطرها ، ورفعا لقدرها ، كقوله تعالى : وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ «١» ، بعد قوله : نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ. لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أي : لكى تتعظوا فتعملوا بموجبها عند وقوع الحوادث الداعية إلى إجراء أحكامها. وفيه إيذان بأن حقها أن تكون على بال منهم ، بحيث متى مست الحاجة إليها استحضروها.

---

(١) من الآية ٥٨ من سورة هود.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٧
ثم شرع فى تفصيل أحكامها ، فقال : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ إذا كانا حرّين ، بالغين ، غير محصنين ، وألا تكون المرأة مكرهة. وظاهر الآية : عموم المحصن وغيره ، ثم نسخ بالسنة المشهورة. وقد رجم - عليه الصلاة والسلام - ماعزا وغيره. وعن على رضي اللّه عنه : جلدتهما بكتاب اللّه ، ورجمتهما بسنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم. وقيل : نسخ بآية منسوخة التلاوة ، وهى : (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة نكالا من اللّه واللّه عزيز حكيم) ، ويأباه ما روى عن على رضي اللّه عنه. هـ. قاله أبو السعود.

وشرط الإحصان : العقل ، والحرية ، والإسلام ، والبلوغ ، والتزوج بنكاح صحيح ، ودخول معتبر. وفى التعبير بالجلد ، دون الضرب إشارة إلى أنه لا يبالغ إلى أن يصل أثر الضرب إلى اللحم ، ولكن يخفف حتى يكون حد ألمه الجلد الظاهر. والخطاب للأئمة لأن إقامة الحدود من الدّين ، وهو على الكل ، إلا أنه لا يمكن الاجتماع ، فيقوم الإمام مقامهم ، وزاد مالك والشافعي مع الجلد : تغريب عام ، أخذا بالحديث الصحيح «١». وقال أبو حنيفة : إنه منسوخ بالآية.

وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ أي : رحمة ورقة. وفيها لغات : السكون ، والفتح مع القصر والمد ، كالنشأة والنشاءة ، وقيل : الرأفة فى دفع المكروه ، والرحمة فى إيصال المحبوب. فِي دِينِ اللَّهِ أي : فى طاعته وإقامة حدوده ، والمعنى : أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا فى دين اللّه ، ولا يأخذهم اللين حتى يتركوا حدود اللّه.

إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، هو من باب التهييج ، وإلهاب الغضب للّه ، ولدينه ، فإن الإيمان يقتضى الجد فى طاعته ، والاجتهاد فى إجراء أحكامه. وذكر اليوم الآخر لتذكير ما فيه العقاب فى مقابلة المسامحة.

وجواب الشرط : مضمر ، أي : إن كنتم تؤمنون باللّه فاجلدوا ولا تعطلوا الحد.

قيل لأبى مجلز فى هذه الآية : واللّه إنا لنرحمهم إن يجلد الرجل أو تقطع يده ، فقال : إنما ذلك فى السلطان ، ليس له أن يدعهم رحمة لهم. وجلد ابن عمر جارية ، فقال للجلاد : ظهرها ورجليها وأسفلها ، وخفّف ، فقيل له : أين قوله : وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ ..؟ فقال : أأقتلها؟ ، إنّ اللّه أمرنى أن أضربها وأأدبها ، ولم يأمرنى أن أقتلها. هـ «٢».

ويجرد للجلد إلا ما يستر العورة.

وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما أي : وليحضر موضع حدّهما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ زيادة فى التنكيل ، فإن التفضيح قد ينكل أكثر من التعذيب. قال بعض العلماء : ينبغى أن يقام بين يدى الحكام ، ولا يقيمه إلا فضلاء الناس وخيارهم لأنه قيام بقاعدة شرعية ، وقربة تعبدية ، يجب المحافظة على فعلها ، وقدرها ، ومحلها ، وحالها ، بحيث

(١) أخرج البخاري في (الشهادات ، باب شهادة القاذف والسارق والزاني ح ٢٦٤٩) عن زيد بن خالد : «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم أمر فيمن زنى ولم يحصن بجلد مائة وتغريب عام».
(٢) أخرجه الطبري (١٨/ ٦٧).

لا يتعذر شيء من شروطها وحرمتها ، فإن دم المسلم وحرمته عظيمة ، فيجب مراعاته بكل ما أمكن ، فلا يقصر عن الحد ، ولا يزاد عليه. ويطلب الاعتدال في السوط ، فلا يكون لينا جدا ، ولا يابسا جدا ، وكذلك في الضرب ، فلا يرفع يده حت يرى إبطه ، ولا يخفف فيه جدا ، بل يتوسط بحيث يؤلمه ولا يضره.

وتسمية الحدّ عذابا دليل على أنه عقوبة وكفارة. و«الطائفة» : فرقة ، يمكن أن تكون حافة حول الشيء ، من الطوف ، وهو الإدارة ، وأقلها : ثلاثة ، وقيل : أربعة إلى أربعين. وعن الحسن : عشرة ، والمراد : جمع يحصل به التشهير. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : التقوى أساس الطريق ، وبها يقع السير إلى عين التحقيق. فمن لا تقوى له لا طريق له ، ومن لا طريق له لا سير له ، ومن لا سير له لا وصول له. وأعظم ما يتقي العبد شهوة الفروج ، فهى أعظم الفتن وأقبح المحن ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «ما تركت بعدي أضرّ على الرّجال من النّساء» «١» ، أو كما قال صلى اللّه عليه وسلم. وعن حذيفة رضي اللّه عنه قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «يا معشر الناس اتقوا الزنا ، فإن فيه ستّ خصال : ثلاثا في الدنيا ، وثلاثا في الآخرة : فأما اللاتي في الدنيا فيذهب البهاء ، ويورث الفقر ، وينقص العمر ، وأما اللاتي في الآخرة فيوجب السخطة وسوء الحساب والخلود في النار» «٢». والمراد بنقص العمر : قلة بركته ، وبالخلود : طول المكث.

وفي حديث آخر : «إن أهل النار ليتأذون من نتن فروج الزناة والزواني» «٣» ، وعن أنس رضي اللّه عنه قال : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «إن أعمال أمتي تعرض عليّ في كل جمعة مرتين ، فاشتد غضب اللّه على الزناة» «٤». وقال وهب بن منبه : (مكتوب في التوراة : الزاني لا يموت حتى يفتقر ، والقواد لا يموت حتى يعمى).

وفي بعض الأخبار القدسية : «يقول اللّه عز وجل : أنا اللّه لا إله إلا أنا ، خلقت مكة بيدي ، أغني الحاج ولو بعد حين ، وأفقر الزاني ولو بعد حين ، هذا وباله في الدنيا والآخرة ، وأما في عالم البرزخ فتجعل أرواحهم في تنور من نار ، فإذا اشتعلت علوا مع النار ، وإذا خمدت سقطوا إلى أسفلها ، هكذا حتى تقوم الساعة ، كما في حديث

(١) أخرجه البخاري فى (النكاح ، باب ما يتقى من شؤم المرأة ح) ، ومسلم فى (الذكر ، باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، ٤/ ٢٠٩٧ ح ٢٧٤٠) عن أسامة بن زيد رضي اللّه عنه.
(٢) عزاه فى كنز العمال (٥/ ٣١٩ ح ١٣٠٢٢) للخرائطى فى مساوئ الأخلاق. وأبى نعيم فى الحلية (٤/ ١١١) ، والبيهقي فى شعب الإيمان (ح ٥٤٧٥) ، عن حذيفة. والحديث ضعفه البيهقي.
(٣) أخرجه بنحوه البزار (كشف الأستار ح ١٥٤٨) عن بريدة رضي اللّه عنه ، وضعّفه الهيثمي فى المجمع (٦/ ٢٥٥).
(٤) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ١٧٩) عن أنس رضي اللّه عنه.

البخاري «١». وقال ابن رشد : ليس بعد الشرك أقبح من الزنا لما فيه من هتك الأعراض واختلاط الأنساب ، ومن تاب فإن اللّه يتوب على من تاب. وباللّه التوفيق.
وقوله تعالى : وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ : قال فى الإحياء : فى الحديث : «خيار أمتى أحدّاؤها» «٢» يعنى : فى الدين قال تعالى : وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ ، فالغيرة على الحرم ، والغضب للّه وعلى النفس ، بكفها عن شهوتها وهواها ، محمود ، وفقد ذلك : مذموم. هـ. وباللّه التوفيق.
ثم نهى عن نكاح الزواني ، فقال :
[سورة النور (٢٤) : آية ٣]
الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلاَّ زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلاَّ زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)
يقول الحق جل جلاله : من شأن الزَّانِي الخبيث : أنه لا يرغب إلا فى زانية خبيثة من شكله ، أو فى مشركة ، والخبيثة المسافحة لا يرغب فيها إلا من هو من شكلها ، من الفسقة أو المشركين. وهذا حكم جار على الغالب المعتاد ، جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني ، بعد زجرهم عن الزنا بهن إذ الزنا عديل الشرك فى القبح ، كما أن الإيمان قرين العفاف والتحصن ، وهو نظير قوله : الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ «٣».
روى أن المهاجرين لمّا قدموا المدينة ، وكان فيهم من ليس له مال ولا أهل ، وبالمدينة نساء بغايا مسافحات ، يكرين أنفسهن ، وهنّ أخصب أهل المدينة ، رغب بعض الفقراء فى نكاحهن لحسنهن ، ولينفقوا عليهم من كسبهنّ ، فاستأذنوا النبي صلى اللّه عليه وسلم فنزلت «٤» ، فنفرهم اللّه تعالى عنه ، وبيّن أنه من أفعال الزناة وخصائص المشركين ، فلا تحوموا حوله لئلا تنتظموا فى سلكهم وتتّسموا

بسمتهم.

قيل : كان نكاح الزانية محرما فى أول الإسلام ، ثم نسخ بقوله : وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ «٥». وقيل : المراد بالنكاح : الوطء ، أي : الزاني لا يزنى إلا بزانية مثله ، وهو بعيد ، أو باطل.

---

(١) أخرجه البخاري ، مطولا فى (الجنائز ، باب ٩٣ ح ١٣٨٦) من حديث سمرة بن جندب رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه الطبراني فى الأوسط (ح ٥٧٩٣) والبيهقي فى الشعب (ح ٨٣٠١) من حديث سيدنا علىّ ، بسند ضعيف ، وزادا : (و الذين إذا غضبوا رجعوا) .. [.....]

(٣) الآية ٢٦ من سورة النور.

(٤) عزاه السيوطيفى الدر (٥/ ٣٨) لابن أبى حاتم ، عن مقاتل.

(٥) من الآية ٣٢ من سورة النور.

وسئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عمن زنا بامرأة ثم تزوجها. فقال : «أوّله سفاح ، وآخره نكاح ، والحرام لا يحرم الحلال» «١».

ومعنى الجملة الأولى : وصف الزاني بكونه غير راغب فى العفائف ، ولكن فى الفواجر. ومعنى الثانية : وصف الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء ، ولكن الزناة ، وهما معنيان مختلفان. وقدّم الزاني هنا ، بخلاف ما تقدم فى الجلد لأن تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ماجنيا ، والمرأة هى المادة التي منها نشأت تلك الجناية ، كما تقدم ، وأما هنا فمسوقة لذكر النكاح ، والرجل أصل فيه.

ثم ذكر الحكم ، فقال : وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أي : نكاح الزواني بقصد التكسب ، أو : للجمال لما فى ذلك من التشبه بالفساق وحضور مواضع التهمة ، والتعرض لسوء المقالة والغيبة والطعن فى النسب ، وغير ذلك من المفاسد التي لا تكاد تليق بأحد من الأدانى والأراذل ، فكيف بالمؤمنين والأفاضل؟ ، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم ، مبالغة فى الزجر ، وقيل : النفي بمعنى النهى ، وقرئ به. والتحريم : إما على حقيقته ، ثم نسخ بقوله :

وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ ... «٢» إلخ ، أو : مخصوص بسبب النزول. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الصحبة لها تأثير فى الأصل والفرع ، فيحصل الشرف أو السقوط بصحبة أهل الشرف أو الأراذل ، وفى ذلك يقول القائل :

عليك بأرباب الصّدور ، فمن غدا مضافا لأرباب الصّدور تصدّرا
وإيّاك أن ترضى بصحبة ساقط فتنحط قدرا من علاك وتحقرا
فالمرء على دين خليله ، ومن تحقق بحالة لا يخلو حاضروه منها ، والحكم للغالب ، فإن كان النور قويا غلب الظلمة ، وإن كانت الظلمة قوية غلبت النور ، وصيرته ظلمة ، ولذلك نهى اللّه تعالى عن نكاح الزواني ، فإنه وإن كان

---

(١) هذا حديثان ، الأول قوله «أوله : سفاح وآخره نكاح ، أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (٧/ ٢٠٢) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٤/ ٢٤٨) والبيهقي فى الكبرى (٧/ ١٦٨). موقوفا على ابن عباس رضي اللّه عنه.
والثاني : قوله : «الحرام لا يحرم الحلال ، أخرجه ابن ماجه فى (النكاح ، باب لا يحرم الحرام حلال ، ١/ ٦٤٩ ح ٢٠١٥) والدارقطني (٧/ ١٦٩) عن ابن عمر رضي اللّه عنه.
(٢) الآية ٣٢ من سورة النور.

نور الزوج غالبا - إذا كان ذا نور - فإن العرق نزّاع ، فيسرى ذلك فى الفروع ، فلا تكاد تجد أولاد أهل الزنا إلا زناة ، ولا أولاد أهل العفة إلا أعفّاء ، وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً «١».
وفى الحديث : «إياكم وخضراء الدّمن ، قيل : وما خضراء الدمن يا رسول اللّه؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء» «٢». قال ابن السكيت : شبهها بالبقلة الخضراء فى دمنة أرض خبيثة لأن الأصل الخبيث يحن إلى أصله ، فتجىء أولادها لأصلها فى الغالب. فيجب على اللبيب - إن ساعفته الأقدار - أن يختار لزراعته الأرض الطيبة ، وهى الأصل الطيب ، لتكون الفروع طيبة. وفى الحديث : «تخيّروا لنطفكم ولا تضعوها إلّا فى الأكفاء» «٣» هـ وباللّه التوفيق.
ثم ذكر حدّ القذف ، فقال :
[سورة النور (٢٤) : الآيات ٤ الى ٥]
وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً وَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٤) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)
قلت : «ثمانين» : مفعول مطلق ، و«جلدة» : تمييز. «إلا الذين تابوا» : إما : استثناء من ضمير

«لهم» ، فمحله :

الجر ، أو : من قوله : «الفاسقون» ، فمحله : النصب لأنه بعد موجب تام.

يقول الحق جل جلاله ، فى بيان شأن العفائف ، بعد بيان شأن الزواني : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أي : يقذفون بالزنا الْمُحْصَناتِ الحرائر العفائف المسلمات المكلفات ، بأن يقول : يا زانية ، أو : يا محبة ، ولا فرق بين التصريح والتعريض ، ولا بين النساء والرجال ، قاذفا أو مقذوفا. والتعبير بالرمي ، المنبئ عن صلابة الآلة ، وإيلام المرمى ، وبعده عن الرامي إيذان بشدة تأثيره فيهن ، وكونه رجما بالغيب. والتعبير بالإحصان يدل على أن رميهن إنما كان بالزنا ، لا غير.

---

(١) من الآية ٥٨ من سورة الأعراف.

(٢) أخرجه الشهاب القضاعي ، فى مسنده (٩٥٧) ، والديلمي (الفردوس ح ١٥٣٧) عن أبى سعيد الخدري. قال العجلوني ، فى كشف الخفاء (١/ ٢٧٢) : قال ابن عدى : تفرد به الواقدي ، وذكره أبو عبيد فى الغريب. ورواه الدار قطنى فى الأفراد ، وقال : لا يصح من وجه.

(٣) أخرجه بلفظ : «تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء» : ابن ماجة فى (النكاح ، باب الأكفاء ، ١/ ٦٣٣ ، ح ١٩٦٨) ، والبيهقي فى السنن (٧/ ١٣٣) ، والدارقطني فى السنن (٢/ ٢٩٨) ، من حديث السيدة عائشة رضى اللّه عنها. وأخرجه بلفظ المفسر : ابن عدى فى الكامل (٢/ ٦١٤) ، والبغدادي فى تاريخ بغداد (١/ ٢٦٤) ، وانظر كشف الخفا (١/ ٣٠٢).

ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ يشهدون عليهن بما رموهن به ، وفى كلمة «ثم» إشارة إلى جواز تأخير الإتيان بالشهود ، كما أن فى كلمة «لم» : تحقق الإتيان بهم. وشروط إحصان القذف : الحرية ، والعقل ، والبلوغ ، والإسلام ، والعفة عن الزنا ، فإن توفرت الشروط فَاجْلِدُوهُمْ أي : القاذفين ثَمانِينَ جَلْدَةً لظهور كذبهم وافترائهم لقوله تعالى : فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ «١» ، وتخصيص رميهن بهذا الحكم ، مع أن رمى المحصنين أيضا كذلك لخصوص الواقعة ، وشيوع الرمي فيهن. والحدود كلها تشطر بالرق ، فعلى العبد فى الزنا خمسون ، وفى القذف أربعون.

وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ بعد ذلك شَهادَةً أَبَداً زجرا لهم لأن رد شهادتهم مؤلم لقلبهم ، كما أن الجلد مؤلم لبدنهم. وقد آذى المقذوف بلسانه ، فعوقب بإهدار شهادته ، جزاء وفاقا. والمعنى : ولا تقبلوا منهم شهادة من الشهادات ، حال كونها حاصلة لهم عند الرمي ، أبدا ، مدة حياتهم ، فالرد من تتمة الحدّ ،

كأنه قيل : فاجلدوهم وردوا شهادتهم ، أي : فاجمعوا لهم بين الجلد والرد. وَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ ، كلام مستأنف غير داخل في جزاء الشرط لأنه حكاية حال الرامي عند اللّه تعالى بعد انقضاء الجزاء ، وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الشر والفساد ، أي : أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق ، والخروج عن الطاعة ، والتجاوز عن الحد ، فإنهم المستحقون لإطلاق اسم الفاسق عليهم ، دون غيرهم.

إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ القذف ، وَأَصْلَحُوا أحوالهم ، فهو استثناء من الفاسقين ، بدليل قوله : فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أي : يغفر ذنوبهم ويرحمهم ، ولا ينظمهم في سلك الفاسقين. فعلى هذا لا تقبل شهادته مطلقا فيما حدّ فيه وفي غيره لأن رد شهادته وصلت بالأبد ، وأما توبته فإنما تنفعه فيما بينه وبين اللّه ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ، وهو قول ابن عباس وشريح والنخعي. وقيل : الاستثناء راجع لقوله : وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً ، فإذا تاب وأصلح قبلت شهادته مطلقا لأنه زال عنه اسم الفسق ، والأبد عبارة عن مدة كونه فاسقا ، فينتهي بالتوبة ، وبه قال الشافعي وأصحابه ، وهو قول الشعبي ومسروق وابن جبير وعطاء وسليمان بن يسار. وفصّل مالك ، فقال :

لا تجوز فيما حدّ فيه ، ولو تاب ، وتجوز فيما سواه ، وكأنه جمع بين القولين. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الغض عن مساوئ الناس من أفضل القرب ، وهو من شيم ذوى الألباب ، وبه السلامة من الهلاك والعطب ، والتعرض لمساوئهم من أعظم الذنوب ، وأقبح العيوب ، وللّه در القائل :

---

(١) من الآية ١٣ من سورة النور.

إذا شئت أن تحيا ودينك سالم وحظك موفور وعرضك صيّن

لسانك ، لا تذكر به عورة امرئ فعندك عورات وللنّاس ألسن

وإن أبصرت عيناك عيبا فقل لها : أيا عين لا تنظرى فللناس أعين

وعاشر بمعروف وجانب من اعتدي وفارق ولكن بالتي هى أحسن «١»

فالمتوجه إلى اللّه لا يشتغل بغير مولاه ، ولا يرى فى المملكة سواه ، يذكر اللّه على الأشياء ، فتنقلب نورا لحسن ظنه باللّه ، ويلتمس المعاذر لعباد اللّه لكمال حسن ظنه بهم. وباللّه التوفيق.

ثم تكلم على من رمى زوجته ، وبه يقع اللعان ، ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٦ الى ١٠]

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (٨) وَالْخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْها إِنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

قلت : (إلا أنفسهم) : بدل من (شهداء) ، أو صفة له ، على أن (إلا) بمعنى غير. و(فشهادة) : مبتدأ ، والخب محذوف ، أي : واجبة ، أو : تدرأ عنه العذاب ، أو : خبر عن محذوف ، أي : فالواجب شهادة أحدهم ، و(أنّ) ، فى الموضعين : مخففة ، ومن شدّد فعلى الأصل. و(الخامسة) : مبتدأ ، و(أنّ غضب) : خبر ، وقرأ حفص بالنصب ، أي :

ويشهد الشهادة الخامسة.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ أي : يقذفون زوجاتهم بالزنا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ أي : لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ، جعلوا من جملة الشهداء إيذانا بعدم قبول قولهم بالمرة ، فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أي : فالواجب شهادة أحدهم أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ يقول : أشهد باللّه إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فيما رماها به من الزنا. وَالْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ أي : إنه لعنة اللّه عليه ، أي :

يقول فيها : لعنة اللّه عليه إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ فيما رماها به. فإذا حلف درئ عنه العذاب ، أي : دفع عنه الحد ، وإن نكل : حدّ لقذفها.

---

(١) الأبيات بنحوها فى ديوان الشافعي ص/ ٨٤ تعليق محمد عفيف الزعبى.

وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أي : يدفع عنها الحدّ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ أي : الزوج لَمِنَ الْكاذِبِينَ فيما رماها به من الزنا ، وَالْخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْها إِنْ كانَ الزوج مِنَ الصَّادِقِينَ فيما رماها به من الزنا. وذكر الغضب فى حق النساء تغليظا لأن النساء يستعملن اللعن كثيرا ، كما ورد به الحديث : «يكثرن اللعن» «١» ، فربما يجترئن على الإقدام ، لكثرة جرى اللعن على ألسنتهن ، وسقوط وقعه عن قلوبهن ، فذكر الغضب فى جانبهن ليكون ردعا لهن.

فإذا حلفا معا فرق بينهما بمجرد التلاعن ، عند مالك والشافعي ، على سبيل التأبيد ، وقال أبو حنيفة : حتى يحكم القاضي بطلقة بائنة فتحل له بنكاح جديد إذا أكذب نفسه وتاب.

روى أن آية القذف المتقدمة لمّا نزلت قرأها النبي صلى اللّه عليه وسلم على المنبر ، فقام عاصم بن عدى الأنصاري ، فقال :

جعلنى اللّه فداءك ، إن وجد رجل مع امرأته رجلا ، فأخبر بما رأى ، جلد ثمانين ، وسماه المسلمون فاسقا ، ولا تقبل شهادته أيضا ، فكيف لنا بالشهداء ، ونحن إذا التمسنا الشهداء فرغ الرجل من حاجته ، وإن ضربه بالسيف قتل؟ اللهم افتح ، وخرج فاستقبله هلال بن أمية - وقيل : عويمر «٢» - فقال : ما وراءك؟ فقال : الشر ، وجدت على امرأتي خولة - وهى بنت عاصم - شريك بن سحماء - فقال عاصم : واللّه هذا سؤال ما أسرع ما ابتليت به ، فرجعا ، فأخبرا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فكلم خولة : فأنكرت ، فنزلت هذه الآية ، فتلاعنا فى المسجد ، وفرّق بينهما ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «ارقبوا الولد ، إن جاءت به على نعت كذا وكذا ، فما أراه إلا كذب عليها ، وإن جاءت به على نعت كذا ، فما أراه إلا صدق» فجاءت به على النعت المكروه.

قال تعالى : وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أي : تفضله عليكم وَرَحْمَتُهُ ونعمته وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ، وجواب «لو لا» : محذوف لتهويله ، والإشعار بضيق العبارة عن حصره ، كأنه قيل : لو لا تفضله تعالى

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري فى (الحيض ، باب ترك الحائض الصوم ح ٣٠٤) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب بيان نقص الإيمان ، ١/ ٨٦ - ٨٧ ، ح ٧٩) من حديث ابن عمر ، ولفظه : «يا معشر النساء تصدقن ، فإني أريتكن أكثر أهل النار. فقلن : وبم يا رسول اللّه؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ...» الحديث

(٢) كلاهما جاءت قصته فى الصحيح ، وأخرج قصة عويمر البخاري ، فى (التفسير ، سورة النور ، وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ .. ح ٤٧٤٥) ومسلم فى (أول كتاب اللعان ، ٢/ ١١٢٩ ح ١٤٩٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

وأخرج قصة هلال بن أمية : البخاري أيضا ، فى : (التفسير - سورة النور ، باب : وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكاذِبِينَ ح ٤٧٤٧). عن ابن عباس. وأخرجها مسلم فى الموضع السابق ذكره (ح ١٤٩٦) عن أنس بن مالك.

وقد جمع العلماء بين هذه الأحاديث : بأن أول من وقع له ذلك هلال ، وصادف مجىء عويمر أيضا ، فنزلت فى شأنهما معا ، فى وقت واحد. وقد جنح النووي وابن حجر الى هذا. انظر فتح الباري (٨/ ٣٠٤ - ٣٠٥) وراجع أيضا : تفسير الطبري (١٨/ ٨٢ - ٨٤) والبغوي (٦/ ١٢ - ١٥).

عليكم ورحمته وأنه تعالى مبالغ فى قبول التوبة ، حكيم فى جميع أفعاله وأحكامه ، التي من جملتها : ما شرع لكم من حكم اللعان ، لكان ما كان ، مما لا يحيط به نطاق العبارة ، من حد الزوج مع الفضيحة ، أو قتل المرأة ، أو غير ذلك من العقوبة. قال القشيري : لبقيتم فى هذه المعضلة ولم تهتدوا إلى الخروج من هذه الحالة المشكلة. هـ.

الإشارة : النفس إذا تحقق فناؤها ، وكمل تهذيبها ، رجعت سرا من أسرار اللّه ، فلا يحل رميها بنقص لأن سر اللّه تعالى منزه عن النقائص ، فإن رماها بشيء فليبادر بالرجوع عنه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من رمى أزواج النبي - عليه الصلاة والسلام - فى قضية الإفك ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ١١]

إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ (١١)

قلت : (عصبة) : خبر «إن» ، و(لا تحسبوه) : استئناف.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ وهو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء ، وقيل : هو البهتان لا تشعر به حتى يفاجئك. والمراد : ما أفك على الصديقة عائشة - رضي اللّه عنها - ، وفى لفظ المجيء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل.

وذلك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهنّ خرجت قرعتها استصحبها ، قالت عائشة - رضى اللّه عنها - : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها - قيل : هى غزوة بنى المصطلق ، وتسمى أيضا : غزوة المريسيع ، وفيها أيضا نزل التيم - فخرج سهمى ، فخرجت معه صلى اللّه عليه وسلم بعد نزول آية الحجاب ، فحملت فى هودج ، فسرنا حتى إذا قفلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ، ثم نودى بالرحيل ، فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى ، فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع أظفار «١» قد انقطع ، فرجعت فالتمسته ، فحبسنى التماسه. وأقبل الرّهط الذين كانوا يرحلونى ، فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيري ، وهم يحسبون أنّى فيه لخفتى ، فلم يستنكروا خفة الهودج ، وذهبوا بالبعير ، ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس فيه داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى ، وظننت أن سيفقدوننى ويعودون فى طلبى ، فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى ، فنمت ، وكان صفوان بن المعطّل قد عرّس «٢» من وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلى ، فلما رآنى

---

(١) الجزع - بالفتح - : الخرز اليماني .. انظر النهاية (جزع ١/ ٢٦٩).

(٢) التعريس : نزول المسافر آخر الليل نزلة للنوم والاستراحة .. انظر النهاية (عرس ٣/ ٢٠٦).

[.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٦

عرفنى ، وكان يرانى قبل الحجاب ، فاسترجع ، فاستيقظت باسترجاعه ، فخمّرت وجهى بجلبابي ، واللّه ما تكلمنا بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة ، غير استرجاعه ، فأناخ راحلته ، فوطئ على يدها ، فقمت إليها فركبتها ، وانطلق يقود بي الراحلة ، حتى أتينا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة ، وهم نزول ، وافتقدنى الناس حين نزلوا ، وماج الناس فى ذكرى ، فبينما الناس كذلك إذ هجمت عليهم ، فخاض الناس فى حديثى ، فهلك من هلك. والحديث بطوله مذكور فى الصحيحين «١» والسّير.

وقوله تعالى : عُصْبَةٌ مِنْكُمْ أي : جماعة من جلدتكم ، والعصبة : من العشرة إلى الأربعين ، وكذا العصابة ، يقال : اعصوصبوا : اجتمعوا. وهم عبد اللّه بن أبيّ رأس المنافقين ، وزيد بن رفاعة ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ، ومن ساعدهم. واختلف فى حسان بن ثابت ، فمن قال : كان منهم ، أنشد البيت المروي فى شأنهم ممن جلدوا الحد :

لقد ذاق حسّان الذي هو أهله وحمنة إذا قالا هجيرا ، ومسطح

ومن برّأ حسان من الإفك قال : إنما الرواية فى البيت : (لقد ذاق عبد اللّه ما كان أهله) ، والمشهور أن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يحد عبد اللّه بن أبيّ ، حين حدّ الرامين لعائشة ، تأليفا له قال البرماوى فى حاشيته على البخاري فى فوائد حديث الإفك : وفيه ترك الحد لما يخشى من تفريق الكلمة ، كما ترك عليه الصلاة والسلام حدّ ابن سلول. هـ. وقد روى ابن عبد البر أن عائشة برأت حسان من الفرية ، وقد أنكر حسان أن يكون قال فيها شيئا فى أبياته ، التي من جملتها :

حصان رزان ماتزن بريبة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل «٢»

إلى أن قال :

فإن كان ما بلّغت عنّى قلته فلا رفعت سوطي إلىّ أناملي

---

(١) أخرجه البخاري فى مواضع كثيرة ، منها (المغازي ، باب حديث الإفك ح ٤١٤١) ، و(التفسير - سورة النور ، باب لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً ح ٤٧٥٠) ، وأخرجه مسلم فى (التوبة ، باب فى حديث الإفك ، ٤/ ٢١٢٩ - ٢١٣٦ ، ح ٢٧٧٠).

(٢) الحصان : العفيفة ، والرزان : الرزينة الثابتة التي لا يستخفها الطيش. وتزن : ترمى وتتهم. وغرثى : جائعة ، والمعنى : لا تغتاب النساء. والغوافل : جمع غافلة ، وهى التي غفلت عن الشر. وانظر : ديوان حسان (١٩٠ - ١٩١) والبحر المحيط (٦/ ٤٠١).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٧

ويجمع بين قوله هنا ذلك ، وبين قولها له عند قوله : وتصبح غرثى من لحوم الغوافل : «لكنك لست كذلك» بأنه لم يقل نصا وتصريحا ، ولكن عرّض وأومأ ، فنسب ذلك إليه. واللّه أعلم أىّ ذلك كان.

ثم قال تعالى : لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، والخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وأبى بكر ، وعائشة ، وصفوان تسلية لهم من أول الأمر ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لاكتسابكم به الثواب العظيم ، وظهور كرامتكم على اللّه عز وجل بإنزال القرآن الذي يتلى إلى يوم الدين فى نزاهة ساحتكم وتعظيم شأنكم ، وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم ، والثناء على من ظن خيرا بكم ، مع ما فيه من صدق الرّجعى إلى اللّه ، والافتقار إليه ، والإياس مما سواه.

ثم ذكر وبال من وقع فيها بقوله : لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أي : من أولئك العصبة مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ أي : له من الجزاء بقدر ما خاض فيه ، وكان بعضهم ضحك ، وبعضهم تكلم ، وبعضهم سكت. وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ أي : معظمه وجله مِنْهُمْ أي : من العصبة ، وهو عبد اللّه بن أبيّ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ فى الآخرة ، إن كان كافرا ، كابن أبيّ ، وفى الدنيا إن كان مؤمنا ، وهو الحد وإبطال شهادتهم وتكذيبهم. وقد روى أن مسطح كف بصره ، وكذلك حسان ، إن ثبت عنه الخوض فيه ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كلام الناس فى أهل الخصوصية مقاذف لسير سفينتهم ، ورياح لها ، فكلما قوى كلام الناس فى الولي قوى سيره إلى حضرة ربه ، حتى تمنى بعضهم أن يكون غابة والناس فيه حطّابة. وفى الحكم : «إنما أجرى الأذى عليكم كى لا تكون ساكنا إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شي ء».

والحق تعالى غيور على قلوب أصفيائه ، لا يحب أن تركن إلى غيره ، فمهما ركنت إلى شيء شوش ذلك عليه ، كقضية سيدنا إبراهيم الخليل عليه السّلام مع ابنه حين أمر بذبحه ، وكقضية سيدنا يعقوب عليه السّلام مع ابنه حين غيّبه عنه. وكانت عائشة - رضى اللّه عنها - قد استولى عليها حبه - عليه الصلاة والسلام - ، فكادت أن تحجب بالواسطة عن الموسوط ، فردها إليه تعالى بما أنزل بها ، تمحيصا وتخليصا وتخصيصا ، حتى أفردت الحق تعالى بالشهود ، فقالت : بحمد اللّه ، لا بحمد أحد. وكذا شأنه تعالى مع أحبائه يردهم إليه بما يوقع بهم من المحن والبلايا ، حتى لا يكونوا لغيره. وباللّه التوفيق «١».

---

(١) هذه إشارة ممتازه تكتب بماء الرياحين على صفات القلوب.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨
ثم وبّخ الخائضين فى حديث الإفك ، فقال :
[سورة النور (٢٤) : الآيات ١٢ الى ١٣]
لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ (١٣)
قلت : قال ابن هشام : وقد يلى حرف التخصيص اسم معلق بفعل ، إما بمضمر ، نحو : «فهلّا بكرا تلاعبها وتلاعبك» «١» أي : فهلا تزوجت ، أو مؤخرا نحو : (لو لا إذ سمعتموه قلتم ..) أي : فهلا قلتم إذ سمعتموه. هـ. وإليه أشار فى الخلاصة بقوله :
وقد يليها اسم بفعل مضمر علّق أو بظاهر مؤخّر
يقول الحق جل جلاله : لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ أي : الإفك ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً بالذين هم منهم لأن المؤمنين كنفس واحدة ، كقوله : وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ «٢» أي : هلا ظنوا بإخوانهم خيرا :

عفافا وصلاحا ، وذلك نحو ما يروى عن عمر رضي اللّه عنه قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : (أنا قاطع بكذب المنافقين لأن اللّه تعالى عصمك عن وقوع الذباب على جلدك ، لئلا يقع على النجاسات فتلطّخ بها ، فإذا عصمك من ذلك فكيف لا يعصمك من صحبة من تكون ملطخة بهذه الفاحشة)!. وقال عثمان رضي اللّه عنه : (ما أوقع ظلك على الأرض لئلا يضع إنسان قدمه عليه فلمّا لم يمكّن أحدا من وضع القدم على ظلك ، فكيف يمكّن أحدا من تلويث عرض زوجتك!). وكذا قال عليّ رضي اللّه عنه : إن جبريل أخبرك أنّ على نعلك قذرا ، وأمرك بإخراج النعل عن رجلك ، بسبب ما التصق به من القذر ، فكيف لا يأمرك بإخراجها ، على تقدير أن تكون متلطخة بشيء من الفواحش)؟ قاله النسفي.
وروى أن أبا أيوب الأنصاري قال لامرأته : ألا ترين ما يقال فى عائشة؟ فقالت : لو كنت بدل صفوان أكنت تخون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ فقال : لا ، قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول اللّه ، فعائشة خير منى ، وصفوان خير منك. وفى رواية ابن إسحاق : قالت زوجة أبى يوب لأبى أيوب : ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ قال :
بلى ، وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت : لا واللّه ، فقال : عائشة خير منك ، سبحان اللّه ، هذا بهتان عظيم ، فنزل : لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ .. الآية «٣».

(١) جاء ذلك فى حديث سيدنا جابر ، وأخرجه البخاري فى (النكاح ، باب تزويج الثيبات ح ٥٠٧٩) ، ومسلم فى (الرضاع ، باب استحباب نكاح البكر ، ٢/ ١٠٨٧ ، ح ٥٦ فى الباب) ولفظ البخاري : (هلّا جارية ..).
(٢) من الآية ١١ من سورة الحجرات.
(٣) انظر تفسير ابن جرير (١٨/ ٩٦) ، والبغوي (٦/ ٢٥) ، وأسباب النزول للواحدى ، ص (٣٣٣).

وإنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة ، وعن الضمير إلى الظاهر ، ولم يقل : ظننتم بأنفسكم خيرا ، وقلتم ليبالغ فى التوبيخ بطريق الالتفات ، وليدل التصريح بلفظ الإيمان على أن المؤمن لا يسىء الظن بأحد من المؤمنين.

وَقالُوا عند سماع هذه الفرية : هذا إِفْكٌ مُبِينٌ كذب ظاهر لا يليق بمنصب الصدّيقة بنت الصدّيق. لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ هلّا جاء الخائضون بأربعة شهداء على ما قالوا فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ ، ولم يقل : «بهم» لزيادة التقرير ، فَأُولئِكَ الخائضون عِنْدَ اللَّهِ أي : فى حكمه وشرعه هُمُ الْكاذِبُونَ الكاملون فى الكذب ، المستحقون لإطلاق هذا الاسم عليهم دون غيرهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : حسن الظن بعباد اللّه من أفضل الخصال عند اللّه ، ولا سيما ما فيه حرمة من حرم اللّه. قال القشيري على الآية : عاتبهم على المبادرة إلى الاعتراض وترك الإعراض عن حرمة بيت نبيهم. ثم قال : وسبيل المؤمن ألا يستصغر فى الوفاق طاعة ، ولا فى الخلاف زلّة ، فإنّ تعظيم الأمر بتعظيم الآمر ، وإن اللّه لينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه ، ولا سيما ما تعلق به حق الرسول - عليه الصلاة والسلام - فذلك أعظم عند اللّه ، ولذلك بالغ فى التوبيخ على ما أقدموا عليه ، مما تأذى به الرسول ، وقلوب آل الصدّيق ، وقلوب المخلصين من المؤمنين. هـ ثم قال تعالى :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ١٤ الى ١٨]

وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)

قلت : (لو لا) هنا : امتناعية بخلاف المتقدمة فإنها تحضيضية ، و(إذ سمعتموه) : معمول لقلتم ، و(إذ تلقونه) :

ظرف لمسّكم.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أيها السامعون وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا من فنون النعم ، التي من جملتها : الإمهال والتوبة ، وَفي الْآخِرَةِ من ضروب الآلاء ، التي من جملتها : العفو

(١٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠

والمغفرة ، لَمَسَّكُمْ عاجلا فِيما أَفَضْتُمْ أي : بسبب ما خضتم فِيهِ من حديث الإفك عَذابٌ عَظِيمٌ يستحقر دونه التوبيخ والجلد ، يقال أفاض في الحديث ، وفاض ، واندفع : إذا خاض فيه.

إِذْ تَلَقَّوْنَهُ أي : لمسكم العذاب العظيم وقت تلقيه إياكم من المخترعين له ، يقال : تلقى القول ، وتلقنه ، وتلقفه ، بمعنى واحد ، غير أن التلقف : فيه معنى الخطف والأخذ بسرعة ، أي : إذ تأخذونه بِأَلْسِنَتِكُمْ بأن يقول بعضكم لبعض : هل بلغك حديث عائشة ، حتى شاع فيما بينكم وانتشر ، فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه. وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ أي : قولا لا حقيقة له ، وقيّده بالأفواه ، مع أن الكلام لا يكون إلا بالفم لأن الشيء المعلوم يكون في القلب ، ثم يترجم عنه اللسان ، وهذا الإفك ليس إلا قولا يدور في الأفواه ، من غير ترجمة عن علم به في القلب. وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً أي : وتظنون أن خوضكم في عائشة سهل لا تبعة فيه ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ أي : والحال أنه عند اللّه كبير ، لا يقادر قدره في استجلاب العذاب. جزع بعض الصالحين عند الموت ، فقيل له في ذلك ، فقال : أخاف ذنبا لم يكن مني على بال ، وهو عند اللّه عظيم.

وَلَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ من المخترعين والشائعين له قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا ما يمكننا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا ، وما ينبغي أن يصدر عنا ، وتوسيط الظروف بين «لو لا» و«قلتم» إشارة إلى أنه كان الواجب أن يبادروا بإنكار هذا الكلام في أول وقت سمعوه ، فلما تأخر الإنكار وبّخهم عليه ، فكان ذكر الوقت أهمّ ، فقدّم ، والمعنى : هلّا قلتم إذ سمعتم الإفك : ما يصح لنا أن نتكلم بهذا ، سُبْحانَكَ تنزيها لك ، وهو تعجب من عظم ما فاهوا به.

ومعنى التعجب في كلمة التسبيح : أن الأصل أن يسبح اللّه عند رؤية العجيب من صنائعه تعالى ، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه. أو : تنزيها لك أن يكون في حرم نبيك فاجرة ، هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ لعظمة المبهوت عليه ، واستحالة صدقه ، فإنّ حقارة الذنوب وعظمتها باعتبار متعلقاتها. وقال فيما تقدم : هذا إِفْكٌ مُبِينٌ «١». ويجوز أن يكونوا أمروا بهما معا ، مبالغة في التبري.

يَعِظُكُمُ اللَّهُ أي : ينصحكم أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أي : كراهة أن تعودوا ، أو يزجركم أن تعودوا لمثل هذا الحديث أو القذف أو الاستماع ، أَبَداً مدة حياتكم ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان وازع عنه لا محالة.

وفيه تهييج وتقريع وتذكير بما يوجب ترك العود ، وهو الإيمان الصادّ عن كل قبيح.

(١) الآية ١٢ من سورة النور.

(٢٠/٤)

وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ الدالة على الشرائع ومحاسن الأدب ، دلالة واضحة لتتعظوا وتتأدبوا ، أي : ينزلها كذلك ظاهرة مبينة ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ عليم بأحوال مخلوقاته ، حكيم فى جميع تدابيره وأفعاله ، فأنّى يصحّ ما قيل فى حرمة من اصطفاه لرسالته ، وبعثه إلى كافة الخلق ، ليرشدهم إلى الحق ، ويزكيهم ويطهرهم تطهيرا؟
واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : الكلام فى الأولياء سم قاتل لأن اللّه ينتصر لأوليائه لا محالة ، فمنهم من ينتصر لهم فى الدنيا بإنزال البلايا والمحن فى بدنه أو ولده أو ماله ، ومنهم من يؤخر عقوبته إلى الآخرة ، وهو أقبح.
ومنهم من تكون عقوبته دينية قلبية كقساوة القلب وجمود العين ، وتعويق عن الطاعة ، ووقوع فى ذنب ، أو فترة فى همة ، أو سلب لذاذة خدمة أو معرفة ، وهذه أقبح العقوبة ، والعياذ باللّه.
ثم أوعد من كان يشيع حديث الإفك ، فقال :
[سورة النور (٢٤) : الآيات ١٩ الى ٢٠]
إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (٢٠)
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ يريدون أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ أي : تنتشر الخصلة المفرطة فى القبح ، وهو الرمي بالزنا ، أو نفس الزنا ، والمراد بشيوعها : شيوع خبرها ، أي : يحبون شيوعها ويتصدون مع ذلك لإشاعتها. وإنما لم يصرح به اكتفاء بذكر المحبة فإنها مستلزمة له لا محالة ، وهم : عبد اللّه بن أبيّ وأصحابه ومن تبعهم. لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا بالحدّ والفضيحة والتكذيب. ولقد ضرب صلى اللّه عليه وسلم الحدّ كل من رمى عائشة. وتقدم الخلاف فى ابن أبى ، فقيل : حدّه ، وقيل : تركه استئلافا له. وَلهم العذاب فى الْآخِرَةِ بالنار وغيرها ، إن لم يتوبوا. وَاللَّهُ يَعْلَمُ جميع الأمور ، التي من جملتها : المحبة المذكورة ، وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ما يعلمه تعالى ، بل إنما يعلمون ما ظهر من الأقوال والأفعال المحسوسة ، فابنوا أمركم على ما تعلمونه ، وعاقبوا فى الدنيا على ما تشاهدونه من الأحوال الظاهرة ، واللّه يتولى السرائر ، فيعاقب فى الآخرة على ما تكنه الصدور.

(٢١/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٢
وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ، التكرير لتعظيم المنّة بترك المعاجلة للتنبيه على كمال عظم الجريمة ، وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ عطف على (فضل اللّه) ، أي : لو لا فضله ورأفته لعاجلكم بالعقوبة ، وإظهار اسم الجليل لتربية المهابة ، والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة ، وتصديره بحرف التأكيد لأن المراد بيان اتصافه تعالى فى ذاته بالرأفة ، التي هى كمال الرحمة ، وبالرحيمية التي هى المبالغة فيها على الدوام والاستمرار. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من شأن أهل البعد والإنكار : أنهم إذا سمعوا بحدوث نقص أو عيب فى أهل النّسبة وأهل الخصوصية فرحوا ، وأحبوا أن تشيع الفاحشة فيهم قصدا لغض مرتبتهم حسدا وعنادا ، لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، ولو لا فضل اللّه ورحمته لعاجلهم بالعقوبة. واللّه تعالى أعلم وأحلم.

ولما نزلت براءة عائشة - رضى اللّه عنها - حلف أبوها لا ينفق على مسطح شيئا غضبا لعائشة ، وكان ينفق عليه لقرابته ، فأنزل اللّه تعالى :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى وَالْمَساكِينَ وَالْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ أي : لا تسلكوا مسالكه فى كل ما تأتون وتذرون من الأفاعيل ، والتي من جملتها : منع الإحسان إلى من أساء إليكم غضبا وحميّة ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ ، وضع الظاهر موضع المضمر ، حيث لم يقل : ومن يتبعها ، أو : ومن يتبع خطواته لزيادة التقرير والمبالغة فى التنفير ، فَإِنَّهُ أي : الشيطان يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ كالبخل والشح ، وكل ما عظم قبحه ، وَالْمُنْكَرِ كالغضب ، والحمية ، وكل ما ينكره الشرع لأن شأن الشيطان أن يأمر بهما. فمن اتبع خطواته فقد امتثل أمره.

(٢٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٣
وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ بالهداية والتوفيق لأسباب التطهير والعصمة والحفظ ، ما زَكى مِنْكُمْ أي

: ما طهر من أدناس العيوب ولوث الفواحش مِنْ أَحَدٍ أَبَداً إلى ما لا نهاية له ، وإذا كان التطهير والعصمة بيد اللّه فلا تروا لأنفسكم فضلا عمن لم يعصمه اللّه فإنه مقهور تحت مجارى الأقدار ، وَلكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ يطهر من يشاء من عباده بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه بالحفظ والرعاية ، أو بالتوبة بعد الجناية ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ سميع لأقوالكم وإن خفيت ، ومن جملتها : الحلف على ترك فعل الخير ، عليم بنياتكم وإخلاصكم.

وهذا الكلام مقدمة لقوله : وَلا يَأْتَلِ ، من قولك : أليت : إذا حلفت ، أي : لا يحلف أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ أي : فى الدين ، وكفى به دليلا على فضل الصّديق رضي اللّه عنه ، وَالسَّعَةِ. أي : والسعة فى المال أَنْ يُؤْتُوا أي :

لا يحلف على ألا يعطوا أُولِي الْقُرْبى وَالْمَساكِينَ وَالْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كمسطح ، فإنه كان ابن خالته ، وكان من فقراء المهاجرين. وهذه الأوصاف هى لموصوف واحد ، جيء بها ، بطريق العطف تنبيها على أن كلّا منها علة مستقلة لاستحقاقه الإيتاء. وحذف المفعول الثاني لظهوره ، أي : على ألّا يؤتوهم شيئا ، وَلْيَعْفُوا عما فرط منهم وَلْيَصْفَحُوا بالإغضاء عنه ، فالعفو : التستر ، والصفح : الإعراض ، أي : وليتجاوزوا عن الجفاء ، وليعرضوا عن العقوبة.

أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ؟ فلتفعلوا ما تحبون أن يفعل بكم وبهم ، مع كثرة خطاياهم ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ مبالغ فى المغفرة والرحمة ، مع كثرة ذنوب العباد ، فتأدبوا بآداب اللّه ، واعفوا ، وارحموا. ولما قرأها النبي صلى اللّه عليه وسلم على أبى بكر رضي اللّه عنه قال : بل أحب أن يغفر اللّه لى. ورد إلى مسطح نفقته ، وقال : واللّه لا أنزعها منه أبدا «١».

وباللّه التوفيق.

الإشارة : كل ما يصد عن مكارم الأخلاق كالحلم ، والصبر ، والعفو ، والكرم ، والإغضاء ، وغير ذلك من الكمالات ، فهو من خطوات الشيطان ، تجب مجانبته ، فإن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر كالغضب ، والانتصار ، والحمية ، والحقد ، والشح ، والبخل ، وغير ذلك من المساوئ ، ولا طريق إلى الدواء من تلك المساوئ إلا بالرجوع إلى اللّه والاضطرار له ، والتعلق بأذيال فضله وكرمه.

---

(١) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة النور ، باب لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً ح ٤٧٥٠) وفى مواضع أخرى. وأخرجه مسلم فى (التوبة ، باب فى حديث الإفك ٤/ ٩٢٩ - ٢١٣٦ ، ح ٢٧٧٠) ، كلاهما فى سياق حديث الإفك الطويل.

ولو لا فضل اللّه عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ، فإذا تعلق باللّه ، واضطر إليه اضطرار الظمآن إلى الماء طهّره اللّه وزكاه ، إما بلا سبب ، أو بأن يلقيه إلى شيخ كامل ، يربيه ويهذبه بإذن اللّه ، وهذا هو الكثير ، والكل منه وإليه.
قال الورتجبي قوله تعالى : وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ .. إلخ : بيّن أن تطهير العباد من الذنوب لا يكون إلا بفضله السابق وعنايته الأزلية ، كيف يزكى العلل ما يكون عللا ، فالمعلول لا يطهّر ، والمعلول أفعال الحدثان على كل صنف ، ولطف القديم له استحقاق ذهاب العلل بوصوله. قال السياري : قال اللّه : وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، ولم يقل : لو لا عبادتكم وصلاتكم وجهادكم وحسن قيامكم بأمر اللّه ما نجا منكم أحد ليعلم أن العبادات ، وإن كثرت ، فإنها من نتائج الفضل. هـ.
قال فى الحاشية : وظهر لى أن الآية مقدمة لما ندب إليه الصدّيق بقوله : وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ ، ففيه إشارة إلى أن فضله وزكاته فضل من اللّه عليه ، وعناية سابقة ، وهى سبب حفظه وتحليه بخلع كوامل الأوصاف ، فليشهد ذلك ، ولا يأتل على من لم يجد ذلك ، حتى وقع فيما وقع من القذف ، بل يعذره ، ويرى منّة اللّه عليه فى كونه نزّهه بعنايته من الوقوع فى مثل ذلك ، مع كون المحل قابلا ، ولكن اللّه خصّصه. هـ.
قال الورتجبي على قوله : وَلا يَأْتَلِ .. إلخ : فى الآية بيان وتأديب اللّه للشيوخ والأكابر ألّا يهجروا صاحب العثرات والزلات ، من المريدين ، ويتخلقوا بخلق اللّه ، حيث يغفر الذنوب العظام ولا يبالى ، وأعلمهم ألّا يكفّوا أعطافهم عنهم. ثم قال : فإنّ من له استعداد لا يحتجب بعوارض البشريّة عن أحكام الطّريقة أبدا. هـ.
ثم ذكر وبال القاذفين لعائشة - رضى اللّه عنها - أو لغيرها ، فقال :
[سورة النور (٢٤) : الآيات ٢٣ الى ٢٥]
إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)
قلت : «يوم تشهد» : ظرف للاستقرار ، فى «لهم» ، أو : معمول لا ذكر.
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ يقذفون الْمُحْصَناتِ العفائف مما رمين به من الفاحشة ، الْغافِلاتِ عنها على الإطلاق ، بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها ولا من مقدماتها ، أو السليمات

الصدور ، النقيات القلوب ، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر لأنهن لم يجربن الأمور ، الْمُؤْمِناتِ المتصفات بالإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، إيمانا حقيقيا لا يخالجه شيء مما يكدره. عن ابن عباس : هنّ أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقيل : جميع المؤمنات إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل : أريدت عائشة وحدها ، وإنما جمع لأن من قذف واحدة من أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم فكأنه قذفهنّ.

ثم ذكر الوعيد ، فقال : لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبدا ، وَلَهُمْ مع ذلك عَذابٌ عَظِيمٌ ، هائل لا يقادر قدره لعظم ما اقترفوه من الجناية ، إن لم يتوبوا ، فيعذبون. يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أي : بما أفكوا وبهتوا يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ أي : يوم تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة يوفيهم اللّه جزاءهم الْحَقَّ أي : الثابت الذي يحق أن يثبت لهم لا محالة ، أو الذي هم أهله ، والحق : صفة لدينهم ، أو للّه ، ونصب على المدح. وَيَعْلَمُونَ عند ذلك أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الثابت الواجب الوجود الْمُبِينُ الظاهر البين لارتفاع الشكوك ، وحصول العلم الضروري لارتفاع الغطاء بظهور ما كان وعدا غيبا.

ولم يغلظ اللّه تعالى فى القرآن فى شيء من المعاصي تغليظه فى إفك عائشة - رضى اللّه عنها - فأوجز فى ذلك وأشبع ، وفصّل ، وأجمل ، وأكّد ، وكرّر ، وما ذلك إلا لأمر عظيم.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : (من أذنب ذنبا وتاب قبلت توبته ، إلا من خاض فى أمر عائشة - رضى اللّه عنها) «١» ، وهذا منه مبالغةّ وتعظيم لأمر الإفك ، وقد برّأ اللّه تعالى أربعة برّأ يوسف بشاهد من أهلها ، وموسى عليه السّلام من قول اليهود فيه : أنه آدر ، بالحجر الذي ذهب بثوبه ، ومريم بنطق ولدها ، وعائشة بهذه الآي العظام فى كتابه المعجز ، المتلوّ على وجود الدهر ، بهذه المبالغات. فانظر : كم بينها وبين تبرئة أولئك؟! وما ذلك إلا لإظهار علوّ منزلة رسوله ، والتنبيه على إنافة محله «٢» صلى اللّه عليه وسلم.

وقد رام بعض النصارى الطّعن على المسلمين بقضية الإفك ، فقال : كيف تبقى زوجة نبيكم مع رجل أجنبى؟

فقال له ، من كان يناظره من العلماء : قد برأها من برأ أمّ نبيكم ، فبهت الذي كفر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد مدح اللّه تعالى أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم بثلاثة أوصاف ، هى من أكمل الأوصاف : العفة ، والتغافل ، وتحقيق الإيمان أما العفة : فهى حفظ القلب من دخول الهوى ، والجوارح من معاصى المولى ، وأما التغافل : فهو

---

(١) عزاه الهيثمي فى المجمع (٦/ ٨٠) للطرانى بأسانيد.

(٢) أي : علو مقامه وارتفاعه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦

الغيبة عما سوى اللّه ، والتغافل عن مساوئ الناس. وفى الحديث : «المؤمن ثلثاه تغافل» ، وقال أيضا صلى اللّه عليه وسلم : «المؤمن غرّ كريم ، والمنافق خبّ لئيم» «١» وأما تحقيق الإيمان فيكون بالتفكر والاعتبار ، وبصحبة الصالحين الأبرار ، ثم يصير الإيمان ضروريا بصحبة العارفين الكبار.

قال القشيري : قوله تعالى : وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ : تصير المعارف ضرورية ، فيجدون المعافاة فى النظر والتذكر ، ويستريح القلب من وصفي تردّده وتغيّره ، باستغنائه ببصره عن تبصره.

ويقال : لا يشهدون هذا إلا بالحق ، فهم قائمون بالحق للحق مع الحق ، يبدى لهم أسرار التوحيد وحقائقه ، فيكون القائم فيهم والآخذ لهم عنهم ، من غير أن يردهم عليهم. هـ. وباللّه التوفيق.

ثم برهن على نزاهة أهل البيت النبوي بقوله :

[سورة النور (٢٤) : آية ٢٦]

الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ وَالطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : الْخَبِيثاتُ من النساء لِلْخَبِيثِينَ من الرجال ، وَالْخَبِيثُونَ من الرجال لِلْخَبِيثاتِ من النساء. وهذه قاعدة السنة الإلهية ، أن اللّه تعالى يسوق الأهل للأهل ، فمن كان خبيثا فاسقا يزوجه اللّه للخبيثة الفاسقة مثله ، ومن كان طيبا عفيفا رزقه اللّه طيبة مثله. وهو معنى قوله تعالى : وَالطَّيِّباتُ من النساء لِلطَّيِّبِينَ من الرجال وَالطَّيِّبُونَ من الرجال ، لِلطَّيِّباتِ من النساء فهذا هو الغالب.

وحيث كان - عليه الصلاة والسلام - أطيب الأطيبين ، وخيرة الأولين والآخرين ، تبين كون الصديقة - رضى اللّه عنها - من أطيب الطيبات ، واتضح بطلان ما قيل فيها من الخرافات ، حسبما نطق به قوله تعالى : أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ ، على أن الإشارة إلى أهل البيت ، المنتظمين فى سلك الصّدّيقيّة انتظاما أوليا ، وقيل : إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والصدّيقة وصفوان ، وما فى اسم الإشارة من معنى البعد ، للإيذان بعلو رتبة المشار إليهم ، وبعد منزلتهم فى الفضل ، أي : أولئك الموصوفون بعلو الشأن : مبرؤون مما يقوله أهله الإفك فى حقهم من الأكاذيب الباطلة.

وقيل : (الخبيثات) من القول تقال (للخبيثين) من الرجال والنساء ، أي : لائقة بهم ، لا ينبغى أن تقال إلا لهم.

(و الخبيثون) من الفريقين أحقّاء بأن يقال فى حقهم خبائث القول. (و الطيبات) من الكلم (للطيبين) من الفريقين ،

---

(١) أخرجه الترمذي فى (البر ، باب ما جاء فى البخيل ، ح ١٩٦٥) ، وأبو داود فى (الأدب ، باب فى حسن العشرة ح ٤٧٩٠) ، والبيهقي فى السنن (١٠/ ٩٥) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه ، بلفظ : «الفاجر» ، بدل «المنافق».

مختصة بهم ، وهم أحقاء بأن يقال فى شأنهم طيبات الكلم. أُولئِكَ الطيبون مُبَرَّؤُنَ مما يقول الخبيثون فى حقهم. فمآله تنزيه الصديقة أيضا. وقيل : الخبيثات من القول لا تصدر إلا من الخبيثين ، والطيبات من الكلمات لا تصدر إلا من الطيبين ، وهم مبرؤون مما يقوله أهل الخبث ، لا يقع ذلك منهم البتّة ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لما لا يخلو عنه البشر من الذنب ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ هو نعيم الجنان.

دخل ابن عباس رضي اللّه عنه على عائشة - رضى اللّه عنها - فى مرضها ، وهى خائفة من القدوم على اللّه عز وجل ، فقال : لا تخافي ، فإنك لا تقدمين إلا على مغفرة ورزق كريم ، وتلى الآية ، فغشى عليها : فرحا بما تلا.

وقالت رضى اللّه عنها - : (قد أعطيت تسعا ما أعطيتهنّ امرأة : نزل جبريل بصورتى فى راحته ، حين أمر - عليه الصلاة والسلام - أن يتزوجنى ، وتزوجنى بكرا ، وما تزوج بكرا غيرى ، وتوفى - عليه الصلاة والسلام - ورأسه فى حجرى ، وقبره فى بيتي ، وينزل عليه الوحي وأنا فى لحافه ، وأنا ابنة خليفته وصديقه ، ونزل عذرى من السماء ، وخلقت طيبة عند طيب ، ووعدت مغفرة ورزقا كريما) «١».

الإشارة : الأخلاق الخبيثة مثل الكبر ، والعجب ، والرياء ، والسمعة ، والحقد ، والحسد ، وحب الجاه والمال ، للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، فهم متصفون بها ، وهى لازمة لهم ، إلا أن يصحبوا أهل الصفاء والتطهير ، فيتطهرون بإذن اللّه ، والأخلاق الطيبات كالتواضع ، والإخلاص ، وسلامة الصدور ، والزهد ، والورع ، والسخاء ، والكرم ، وغير ذلك من الأخلاق الطيبة ، للطيبين ، والرجال الطيبون للأخلاق الطيبات. أولئك مبرءون مما يقول أهل الإنكار فيهم ، لهم مغفرة ستر لعيوبهم ، ورزق كريم لأرواحهم من قوت اليقين ، وشهود رب العالمين. وباللّه التوفيق.

ولمّا كان سبب الإفك هو تهمة الخلوة ، أمر بالاستئذان ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٢٧ الى ٢٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا

فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ (٢٩)

---

(١) هذه المناقب ثابتة بأحاديث صحيحة. انظرها فى جامع الأصول لابن الأثير (٩/ ١٣٢ - ١٤٣) والدر المنثور للسيوطى (٥/ ٥٨).

(٢٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٨

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ أي : بيوتا لستم تملكونها ولا تسكنونها ، حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا تستأذنوا ، وقرئ به ، والاستئناس : الاستعلام والاستكشاف ، استفعال ، من أنس الشيء : أبصره ، فإن المستأذن مستعلم للحال ، مستكشف له ، هل يؤذن له أم لا ، ويحصل بذكر اللّه جهرا ، كتسبيحة أو تكبيرة. أو تنحنح ، وَتُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها ، بأن يقول : السلام عليكم ، أأدخل؟ ثلاث مرات ، فإذا أذن له ، وإلا رجع ، فإن تلاقيا ، قدّم التسليم ، وإلا ، فالاستئذان. ذلِكُمْ أي : التسليم خَيْرٌ لَكُمْ من أن تدخلوا بغتة ، أو من تحية الجاهلية.

كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتا غير بيته يقول : حييتم صباحا ، حييتم مساء ، فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف. روى أن رجلا قال للنبى صلى اللّه عليه وسلّم : أأستأذن على أمي؟ قال : نعم ، قال : ليس لها خادم غيرى ، أأستاذن عليها كلما دخلت؟ قال صلى اللّه عليه وسلّم : «أتحبّ أن تراها عريانة ..؟» «١». لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أي : أمرتكم به ، أو :

قيل لكم هذا لكى تتعظوا وتعملوا بموجبه.

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها فى البيوت أَحَداً ممن يستحق الإذن ، من الرجال البالغين ، وأما النساء والولدان فوجودهم وعدمهم سواء «٢» ، فَلا تَدْخُلُوها ، على أن مدلول الآية هو النهى عن دخول البيوت الخالية لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس إخفاءه ، وأما حرمة دخول ما فيه النساء والولدان فمن باب الأولى لما فيه من الاطلاع على الحريم وعورات النساء. فإن لم يؤذن لكم فلا تدخلوا ، واصبروا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ من جهة من يملك الإذن ، أو : فإن لم تجدوا فيها أحدا من أهلها ، ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها لأن التصرف فى ملك الغير لا بد أن يكون برضاه.

وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا أي : إذا كان فيها قوم ، وقالوا : ارجعوا فَارْجِعُوا ولا تلحّوا فى طلب الإذن ، ولا تقفوا بالأبواب ، ولا تخرقوا الحجاب لأن هذا مما يوجب الكراهية والعداوة ، وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى

(١) الحديث أخرجه مالك في الموطأ (الاستئذان ، باب الاستئذان) ، وأبو داود في مراسيله (باب الاستئذان) وابن جرير في التفسير (١٨/ ١١١) ، عن عطاء بن يسار ، مرسلا وأخرجه ابن أبى شيبة في المصنف (النكاح ٤/ ٣٩٨) ، عن زيد بن أسلم مرسلا ، أيضا.
(٢) هذا الرأى ، غير مسلم به ، فالنساء ، قطعا ، يدخلن تحت مفهوم «أحد» ، وكذلك الولدان المميزون ، فكيف نقول : وجودهم وعدمهم سواء؟ ثم إنه من الثابت فى السنة الصحيحة أنه يجوز الدخول على المغيبة [أي : التي زوجها غائب فى سفر أو غزو ، أو نحو ذلك ،] فيجوز الدخول عليها بشرط وجود رجلين أو ثلاثة فما أكثر ، والدخول يحتاج إلى استئناس واستئذان .. إلخ. فدّل هذا على أن كلام المفسر ، هو رأى خاص به ، وليس حكما شرعيا. [.....]

الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما أدى إليها من قرع الباب بعنف ، والتصييح بصاحب الدار ، وغير ذلك. وعن أبى عبيد : «ما قرعت بابا على عالم قط». فالرجوع هُوَ أَزْكى لَكُمْ أي : أطيب لكم وأطهر لما فيه من سلامة الصدور والبعد عن الريبة ، والوقوف على الأبواب من دنس الدناءة والرذالة. وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ فيعلم ما تأتون وما تذرون مما كلفتموه ، فيجازيكم عليه. وهو وعيد للمخاطبين.
لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فى أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ أي : غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة ، بل يتمتع بها من يضطر إليها ، من غير أن يتخذها مسكنا كالرّبط ، والخانات ، والحمامات ، وحوانيت التجار. فِيها مَتاعٌ لَكُمْ أي : منفعة كاستكنان من الحر والبرد ، وإيواء الرجال والسلع ، والشراء والبيع ، والاغتسال ، وغير ذلك ، فلا بأس بدخولها بغير استئذان. روى أن أبا بكر رضي اللّه عنه قال : يا رسول اللّه ، إن اللّه قد أنزل عليك آية فى الاستئذان ، وإنا لنختلف فى تجارتنا إلى هذه الخانات ، فلا ندخلها إلا بإذن؟ فنزلت «١». وقيل : هى الخرابات ، يتبرّز فيها ، ويقضون فيها حاجتهم من البول وغيره ، والظاهر : أنها من جملة ما ينتظم فى البيوت ، لا أنها المرادة فقط. وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ ، وعيد لمن يدخل مدخلا من هذه المداخل لفساد أو اطلاع على عورات. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : التصوف كله آداب ، حتى قال بعضهم : اجعل عملك ملحا وأدبك دقيقا. فيتأدبون بالسنّة فى حركاتهم وسكناتهم ، ودخولهم وخروجهم ، فهم أولى بالأدب ، فيستأذنون كما أمر اللّه عند دخول منزلهم برفع صوتهم بذكر اللّه ، أو بالتسبيح ، أو بالسلام قبل الدخول. وكذا عند دخول منزل غيرهم ، أو منزل بعضهم بعضا. وأما مع الشيخ : فالأدب هو الصبر حتى يخرج ، تأدبا بقوله تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ

صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ «٢» ، فلا يقرعون بابه ، ولا يطلبون خروجه إلا لضرورة فادحة.

ولمّا كان الاستئذان إنما شرع من أجل النظر ، أمر بغض البصر ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٣٠]

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ (٣٠)

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول ، (ص ٣٣٤) ، ونسبه للمفسرين. وعزاه الآلوسى فى تفسيره (٩/ ١٣٧) لابن أبى حاتم عن مقاتل.

(٢) الآية ٥ من سورة الحجرات.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، ويندرج فيهم المستأذنون بعد دخولهم البيوت اندراجا أوليّا ، أي : قل لهم : يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ ، و«من» : للتبعيض ، والمراد : غض البصر عما يحرم ، والاقتصار على ما يحل. ووجه المرأة وكفاها ليس بعورة ، إلا خوف الفتنة ، فيحل للرجل الصالح أن يرى وجه الأجنبية بغير شهوة. وفى الموطأ : هل تأكل المرأة مع غير ذى محرم ، أو مع غلامها؟ قال مالك : لا بأس بذلك ، على وجه ما يعرف للمرأة أن تأكل معه من الرجال ، وقد تأكل المرأة مع زوجها ومع غيره ممن يؤاكله. هـ. وقال ابن القطان : فيه إباحة إبداء المرأة وجهها ويديها للأجنبى ، إذ لا يتصور الأكل إلا هكذا ، وقد أبقاه الباجى على ظاهره ، وقال عياض : ليس بواجب أن تستر المرأة وجهها ، وإنما ذلك استحباب أو سنّة لها ، وعلى الرجل غض بصره. ثم قال فى الإكمال : ولا خلاف أن فرض ستر الوجه مما اختص به أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم. هـ.

وَقل لهم أيضا : يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، إلا على أزواجهم ، أو ما ملكت إيمانهم ، وتقييد الغض بمن التبعيضية ، دون حفظ الفروج لما فى النظر من السّعة ، فيجوز النظر إلى وجه الأجنبية وكفيها وقدميها ، وإلى رأس المحارم والصدور والساقين والعضدين. قاله النسفي. قلت : ومذهب مالك : حرمة نظر الساقين والعضدين من المحرم ، فإن تعذر التحرر منه ، كشغل البنات فى الدار ، باديات الأرجل ، فليتمسك بقول الحنفي ، إن لم يقدر على غض بصره. قاله شيخنا الجنوى.

ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ أي : أطهر لهم من دنس الإثم أو الريبة ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ ، وفيه ترغيب

وترهيب ، يعنى : أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم ، فكيف يجيلون أبصارهم ، وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور؟! فعليهم ، إذا عرفوا ذلك ، أن يكونوا منه على حذر.

(٣٠/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣١

[سورة النور (٢٤) : آية ٣١]

وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ بالتستر والتصون عن الزنا ، فلا تنظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه من عورات الرجال والنساء ، وهى من الرجل : ما عدا الوجه والأطراف ، ومن النساء : ما بين السرة والركبة ، فلا يحل للمرأة أن تنظر الى الرجل ما سوى الوجه والأطراف ، أو بشهوة. وقيل : إن حصل الأمن من الشهوة جاز ، وعليه يحمل نظر عائشة إلى الحبشة.

وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ من الزنا والمساحقة. وإنما قدّم غض البصر على حفظ الفروج لأن النظر بريد الزنا ، ورائد الفجور ، فبذر الهوى طموح العين. وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ كالحلي ، والكحل ، والخضاب ، والمراد بالزينة : مواضعها ، فلا يحل للمرأة أن تظهر مواضع الزينة ، كانت متحلّية بها أم لا ، وهي : الرأس ، والأذن ، والعنق ، والصدر ، والعضدان ، والذراع ، والساق. والزينة هى : الإكليل ، والقرط ، والقلادة ، والوشاح ، والدملج ، والسوار ، والخلخال. إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها إلا ما جرت العادة بإظهارها ، وهو الوجه والكفان ، إلا لخوف الفتنة ، زاد أبو حنيفة : والقدمين ، ففى ستر هذه حرج فإن المرأة لا تجد بدّا من مزاولة الأشياء بيديها ، ومن الحاجة إلى كشف وجهها ، خصوصا فى الشهادة والمحاكمة والنكاح ، وتضطر إلى المشي فى الطرقات ، وظهور قدميها ، ولا سيما الفقيرات منهن. قاله النسفي.

وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَّ أي : وليضعن خمرهنّ ، جمع خمار ، وهو ما يستر الرأس ، عَلى جُيُوبِهِنَّ ، وهو شقّ القميص من ناحية الصدر ، وكانت النساء على عادة الجاهلية يسدلن خمرهنّ من خلفهنّ ، فتبدو نحورهن وقلائدهن من جيوبهن ، وكانت واسعة ، يبدو منها صدورهن وما حواليها ، فأمرن بإسدال خمرهن على جيوبهن سترا لما يبدو منها. وقد ضمّن الضّرب معنى الإلقاء والوضع ، فعدّى بعلى.

وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ أي : مواضع الزينة الباطنة كالصدر ، والرأس ، ونحوهما ، كره : ليستثنى منه ما رخص فيه ، وهو قوله : إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ لأزواجهن ، فإنهم المقصودون بالزينة. ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج ، أَوْ آبائِهِنَّ ، ويدخل فيهم الأجداد ، أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ فقد صاروا محارم ، أَوْ أَبْنائِهِنَّ ، ويدخل فيهم الأحفاد ، أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ لأنهم صاروا محارم أيضا ، أَوْ إِخْوانِهِنَّ الشقائق ،

(٤/٣١)

أو لأب ، أو لأم ، أَوْ بَنِي إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ وإن سفلوا ، ويدخل سائر المحارم ، كالأعمام ، والأخوال ، وغيرهم لكثرة المخالطة وقلة توقع الفتنة من قبلهم ، فإن تحققت حيل بينهم ، وعدم ذكر الأعمام والأخوال ، لأن الأحوط أن يسترن عنهم حذرا من أن يصفوهنّ لأبنائهم ، أَوْ نِسائِهِنَّ يعنى جميع المؤمنات فكأنه قال : أو صنفهن ويخرج من ذلك نساء الكفار لئلا يصفنهنّ إلى الرجال ، أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ ، يعنى : الإماء المؤمنات أو الكتابيات ، وأما العبيد ففيهم ثلاثة أقوال : منع رؤيتهم لسيدتهم ، وهو قول الشافعي ، والجواز ، وهو قول ابن عباس وعائشة ، والجواز بشرط أن يكون العبد وغدا «١» ، وهو قول مالك.

قال البيضاوي : روى أنه - عليه الصلاة والسلام - أتى فاطمة بعبد ، وهبه لها ، وعليها ثوب إذا قنّعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطّت رجليها لم يبلغ رأسها ، فقال - عليه الصلاة والسلام : «إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وغلامك» ، فانظر من أخرجه «٢». واختلف : هل يجوز أن يراها عبد زوجها ، وعبد الأجنبى ، أم لا؟

على قولين.

أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أي : الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ، أو لخدمة ، أو لشيء يعطاه ، كالوكيل والمتصرف. وقال بعضهم : هو الذي يتبعك وهمّه بطنه ، ويشترط ألا تكون له إربة ، أي :

حاجة وشهوة إلى النساء كالخصيّ ، والمخنّث ، والشيخ الهرم ، والأحمق ، فلا تجوز رؤيتهم إلا باجتماع الشرطين :

أن يكونوا تابعين ، ولا إربة لهم فى النساء. أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ ، أراد بالطفل :

الجنس ، ولذلك وصفه بالجمع ، ويقال فيه : «طفل» ما لم يراهق الحلم. و(يظهروا) معناه : يطلعون بالوطء على عورات النساء من : ظهر على كذا : إذا قوى عليه ، فمعناه : الذين لم يطيقوا وطء النساء

، أو : لا يدرون ما عورات النساء؟

وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، كانت المرأة تضرب برجلها الأرض ليسمع قعقعة خلخالها ، فيعلم أنها ذات خلخال ، فنهين عن ذلك إذ سماع صوت الزينة كإظهارها ، فيورث ميل الرجال إليهن.

ويوهم أن لهن ميلا إليهم. قال الزجاج : سماع صوت الزينة أشد تحريكا للشهوة من إبدائها. هـ.

---

(١) الوغد : الصبي. وخادم القوم ، والجمع : أوغاد ، ووغدان ، ووغدان .. انظر اللسان (وغد).

(٢) أخرجه أبو داود فى (اللباس ، باب فى العبد ينظر إلى شعر مولاته ، ح ٤١٠٦) ، والبيهقي (٧/ ٩٥) من حديث أنس رضي اللّه عنه.

(٣٢/٤)

الإشارة : غض البصر عما تكره رؤيته : من أسباب جمع القلب على اللّه وتربية الإيمان. وفى الحديث : «من غض بصره عن محارم اللّه ، عوضه اللّه إيمانا يجد حلاوته فى قلبه» «١». وفى إرسال البصر : من تشتيت القلب ، وتفريق الهم ، ما لا يخفى ، وفى ذلك يقول الشاعر :

وإنّك ، إن أرسلت طرفك رائدا لقلبك ، يوما ، أتعبتك المناظر

ترى ، ما لا كلّه أنت قادر عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

فالعباد والزهاد يغضون بصرهم عن بهجة الدنيا ، والعارفون يغضون بصرهم عن رؤية السّوى ، فلا يرون إلا تجليات المولى. قال الشبلي : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) أي : أبصار الرؤوس عن المحارم ، وأبصار القلوب عما سوى اللّه. هـ.

وقوله تعالى : وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها ، قال بعضهم : لا يجوز كل ما يستدعى فتنة للغير من إظهار حال مع اللّه ، مما هو زينة السريرة ، فلا يظهر شيئا من ذلك إلا لأهله ، إلا إذا ظهر عليه شيء من غير إظهار منه ، ولا قصد غير صالح. هـ. فلا يجوز إظهار العلوم التي يفتتن بها الناس من حقائق أسرار التوحيد ، ولا من الأحوال التي تنكرها الشريعة ، فيوقع النّاس فى غيبته. وأما قضيّة لصّ الحمّام «٢» فحال غالبة لا يقتدى بها. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر بالتوبة لأن النظر لا يسلم منه أحد فى الغالب ، فقال :

وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ ...

يقول الحق جل جلاله : وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إذ لا يكاد يخلو أحدكم من تفريط ، ولا

سيما فى الكف عن الشهوات ، وقيل : توبوا مما كنتم تفعلونه فى الجاهلية ، فإنه ، وإن جبّ بالإسلام ، لكن يجب الندم عليه ، والعزم على الكف عنه ، كلما يتذكّر ، ويخطر بالبال. وفى تكرير الخطاب بقوله : أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ :
تأكيد للإيجاب ، وإيذان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال ، حتما. قيل : أحوج الناس إلى التوبة من توهم أنه ليس

---

(١) ورد «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث اللّه له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه» أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٤) عن أبى أمامة رضي اللّه عنه.
وأخرج الحاكم (٤/ ٣١٤) عن ابن مسعود مرفوعا : «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، من تركها من مخافتى أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه».
(٢) راجع قصة لص الحمّام عند التعليق على إشارة الآية ٢٦٧ من سورة البقرة. (١/ ٣٠١)

(٤/٣٣)

له حاجة إلى التوبة. وظاهر الآية : أن العصيان لا ينافى الإيمان ، فبادروا بالتوبة لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ تفوزون بسعادة الدارين. وباللّه التوفيق.
الإشارة : التوبة أساس الطريق ، ومنها السير إلى عين التحقيق ، فمن لا توبة له لا سير له ، كمن يبنى على غير أساس. والتوبة يحتاج إليها المبتدئ والمتوسط والمنتهى ، فتوبة المبتدئ من المعاصي والذنوب ، وتوبة السائر :
من الغفلة ولوث العيوب ، وتوبة المنتهى : من النظر إلى سوى علام الغيوب.
قال ابن جزي : التوبة واجبة على كل مكلف ، بدليل الكتاب والسنة وإجماع الأمة. وفرائضها ثلاثة : الندم على الذنب من حيث عصي به ذو الجلال ، لا من حيث أضر ببدن أو مال. والإقلاع عن الذنب فى أول أوقات الإمكان ، من غير تأخير ولا توان ، والعزم ألا يعود إليها أبدا. ومهما قضى اللّه عليه بالعود ، أحدث عزما مجدّدا.
وآدابها ثلاث : الاعتراف بالذنب ، مقرونا بالانكسار ، والإكثار من التضرع والاستغفار ، والإكثار من الحسنات لمحو ما تقدم من الأوزار. ومراتبها سبع : فتوبة الكفار من الكفر ، وتوبة المخلّطين من الذنوب الكبائر ، وتوبة العدول من الصغائر ، وتوبة العابدين من الفترات ، وتوبة السالكين من علل القلوب والآفات ، وتوبة أهل الورع من الشبهات ، وتوبة أهل المشاهدة من الغفلات. والبواعث على

التوبة سبعة : خوف العقاب ، ورجاء الثواب ، والخجل من الحساب ، ومحبة الحبيب ، ومراقبة الرقيب ، وتعظيم المقام ، وشكر الإنعام. هـ.

ثم أمر بالنكاح لأنه أغض للبصر ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٣٢]

وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢)

قلت : الأيامى : جمع أيّم ، وأصله : أيايم ، فقلبت الياء لآخر الكلمة ، ثم قبلت ألفا ، فصارت أيامى.

والأيم : من لا زوج له من الرجال والنساء.

يقول الحق جل جلاله : وَأَنْكِحُوا أي : زوّجوا الْأَيامى مِنْكُمْ أي : من لا زوج له من الرجال والنساء ، بكرا كان أو ثيبا. والمعنى : زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر. والخطاب للأولياء والحكام ، أمرهم بتزويج الأيامى ، فاقتضى ذلك النهى عن عضلهن. وفى الآية دليل عدم استقلال المرأة بالنكاح ، واشتراط الولي فيه ، وهو مذهب مالك والشافعي ، خلافا لأبى حنيفة.

(٣٤/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٥

وَالصَّالِحِينَ أي : الخيّرين ، أو : من يصلح للتزوج ، مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ أي : من غلمانكم وجواريكم ، والأمر : للندب إذ النكاح مندوب إليه ، والمخاطبون : ساداتهم. ومذهب الشافعي : أن السيد يجبر على تزويج عبيده ، لهذه الآية ، خلافا لمالك ، ومذهب مالك : أن السيد يجبر عبده على النكاح ، خلافا للشافعى. واعتبار الصلاح فى الأرقّاء لأن من لا صلاح له بمعزل من أن يكون خليقا بأن يعتنى مولاه بشأنه ، وأيضا : فالتزويج يحفظ عليه صلاحه الحاصل ، وأما عدم اعتبار الصلاح فى الأحرار والحرائر لأن الغالب فيهم الصلاح ، على أنهم مستبدون بالتصرف فى أنفسهم وأموالهم ، فإذا عزموا النكاح فلا بد من مساعدة الأولياء لهم.

وقيل : المراد بالصلاح : صلاحهم للتزوج ، والقيام بحقوقهم ، فإن ضعفوا لم يزوّجوا. ونفقة العبد على سيده إن زوّجه ، أو أذن له ، وإلا خيّر فيه.

ثم قال تعالى : إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ من المال يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ بالكفاية والقناعة ، أو باجتماع الرزقين.

وفى الحديث : «التمسوا الرزق بالنكاح» «١» ، وقال ابن عجلان : إن رجلا أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فشكا إليه الحاجة ، فقال : «عليك بالباءة» ، أي : التزوج. وكذلك قال أبو بكر وعمر وعثمان لمن شكى إليهم العيلة ، متمسكين بقوله تعالى : إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ

، فبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، حسبما تقتضيه المشيئة والحكمة والمصلحة. فالغنى ، للمتزوج ، مقيد بالمشيئة ، فلا يلزم الخلف بوجود من لم يستغن مع التزوج ، وقيل : مقيد بحسن القصد ، وهو مغيب. واللّه تعالى أعلم.

الترغيب في النكاح : قال صلى اللّه عليه وسلم : «تناكحوا تكثروا ، فإني أباهي بكم الأمم حتى بالسقط» «٢». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «من أحب فطرتي فليستن بسنتي ، وهي النكاح ، فإن الرجل يرفع بدعاء ولده من بعده» «٣» ، وقال سمرة رضي اللّه عنه : (نهى النبي صلى اللّه عليه وسلم عن التبتل). وقال - عليه الصلاة والسلام : «من كان له ما يتزوج به ، فلم يتزوج ، فليس منا» «٤» وقال عليه الصلاة والسلام : «من أدرك له ولد ، وعنده ما يزوجه به ، فلم يزوجه ، فأحدث ، فالإثم بينهما». وقال

---

(١) أخرجه الديلمي (الفردوس ح ٢٨٢) من حديث ابن عباس ، وعزاه المناوى في الفتح السماوي (٢/ ٨٧) للثعلبى ، بسند فيه لين.
وانظر كشف الخفاء (١/ ١٧٧).
(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦/ ١٧٣) عن سعيد بن أبى هلال ، مرسلا ، وانظر كشف الخفاء (١/ ٣٨٠).
(٣) أخرجه - دون العبارة الأخيرة - البيهقي في الكبرى (٧/ ٧٨) وعبد الرزاق في المصنف (٦/ ١٦٩) وسعيد بن منصور في السنن (١/ ١٣٨) عن عبيد بن سعد.
(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٥٤٨١ - ٥٤٨٢) ، عن أبى نجيح مرسلا. بلفظ : «من كان موسرا لأن ينكح ، ثم لم ينكح ، فليس منى».

أبو هريرة : لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد للقيت اللّه بزوجة ، سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : «شراركم عزّابكم ، إذا تزوج أحدكم عجّ شيطانه : يا ويله عصم ابن آدم ثلثى دينه». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «مسكين ، مسكين ، رجل ليست له امرأة ، ومسكينة ، مسكينة امرأة ليست لها زوج ، قالوا : يا رسول اللّه! وإن كانت غنية من المال؟ قال : وإن».

وقال أبو أمامة : (أربعة لعنهم اللّه من فوق عرشه ، وأمّنت عليهم ملائكته : الذي يحصر نفسه عن النساء ، فلا يتزوج ولا يسترى لئلا يولد له ، والرجل يتشبه بالنساء ، والمرأة تتشبه بالرجال ، وقد خلقها

اللّه أنثى ، ومضلل المساكين). وقال سهل بن عبد اللّه : لا يصح الزهد فى النساء لأنهن قد حببن إلى سيد الزاهدين. ووافقه ابن عيينة ، فقال : ليس فى كثرة النساء دنيا لأن أزهد الصحابة كان علىّ بن أبى طالب رضي اللّه عنه ، وكان له أربع نسوة وبضّع عشرة سرّيّة. هـ. من القوت.

وقال عطية بن بسر المازني : أتى عكاف بن وداعة الهلالي النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم ، فقال له : «يا عكاف ألك زوجة؟

قال : لا ، يا رسول اللّه ، ولا أمة؟ قال : لا. قال : وأنت صحيح موسر؟ قال : نعم ، والحمد لله. قال : فإنك ، إذا من إخوان الشياطين ، إما أن تكون من رهبان النصارى ، وإما أن تكون مؤمنا ، فاصنع ما بدا لك. فإن من سنتنا النكاح ، شراركم عزابكم ، وأرذال موتاكم عزابكم ، ما للشيطان ، فى سلاح ، أبلغ من محتمل العزبة ، ألا إن المتزوجين هم المطهرون المبرءون من الخنا» «١». انظر الثعلبي.

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٣٤)

قال تعالى : وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً أي : ليجتهد فى العفة عن الزنا وقمع الشهوة من لم يجواد الاستطاعة على النكاح من المهر والنفقة ، حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ حتى يقدرهم اللّه على المهر والنفقة ، قال عليه الصلاة والسلام : «يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضّ للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» «٢» ، فانظر كيف رتّب الحق تعالى هذه الأمور أمر ،

---

(١) أخرجه مطولا أحمد فى المسند (٥/ ١٦٣ - ١٦٤) وعبد الرزاق فى المصنف (٦/ ١٧٢ ، ح ١٠٣٨٧) والطبراني فى الكبير (١٨/ ٨٥ ح ١٨٥).

(٢) أخرجه البخاري فى (النكاح ، باب قول النبي صلى اللّه عليه وسلم : من استطاع الباءة فليتزوج ح ٥٠٦٥) ، ومسلم فى (النكاح ، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه ٢/ ١٠١٨ ، ح ١٤٠٠) ، عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

أولا ، بما يعصم من الفتنة ، ويبعد عن مواقعة المعصية ، وهو غض البصر ، ثم بالنكاح المحصّن للدين ، المغني عن الحرام ، ثم بعزف النفس الأمارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة ، عند العجز عن النكاح ، إلى أن يقدر عليه.
وباللّه التوفيق.
الإشارة : الأرواح والقلوب والنفوس لا يظهر نتاجها حتى ينعقد النكاح بينها وبين شيخ كامل ، فإذا انعقدت الصحبة بينها وبين الشيخ ، قذف نطفة المعرفة فى الروح أو القلب أو النفس ، ثم يربيها فى مشيمة الهمّة ، ثم فى حضانة الحفظ والرعاية ، فيظهر منها نتاج اليقين والعلوم والأسرار والمعارف ، وأما إن بقيت أيامى لازوج لها ، فلا مطمع فى نتاجها ، قال تعالى : وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ ، وهى الأرواح ، والصالحين من قلوبكم ، ونفوسكم ، إن يكونوا فقراء من اليقين ، والمعرفة باللّه ، يغنهم اللّه من فضله بمعرفته ، واللّه واسع عليم ، وليتعفف ، عن المناكر ، الذين لا يجدون من يأخذ بيدهم ، حتى يغنيهم اللّه من فضله بالسقوط على شيخ كامل فإنه من فضل اللّه ومنته ، لا يسقط عليه إلا من اضطرّ إليه ، وصدق الطلب فى الوصول إليه. وباللّه التوفيق.
ولما أمر بتزوج العبيد ، أمر بمكاتبتهم ، فقال :
... وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ ...
قلت : الكتاب هنا : مصدر ، بمعنى الكتابة. وهى : مقاطعة العبد على مال منجّم ، فإذا أداه خرج حرا ، وإن عجز ، ولو عن نصف درهم ، بقي رقيقا.
يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ أي : والمماليك الذين يطلبون الكتابة مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ من عبيدكم فَكاتِبُوهُمْ ، والأمر للندب ، عند مالك والجمهور ، وقال الظاهرية وغيرهم : على الوجوب ، وهو ظاهر قول عمر رضي اللّه عنه لأنس بن مالك ، حين سأله مملوكه سيرين الكتابة ، فأبى عليه أنس ، فقال له عمر : لتكاتبنه ، أو لأوجعنّك بالدّرّة «١». وإنما حمله مالك على الندب لأن الكتابة كالبيع ، فكما لا يجبر على البيع لا يجبر عليها.

---

(١) أخرجه عبد الرزّاق فى المصنف (٨/ ٣٧٢ ح ١٥٥٧٨) ، والطبري (١٨/ ١٢٦).

واختلف : هل يجبر السيد عبده عليها ، أم لا؟ قولان في المذهب. ونزلت الآية بسبب حويطب بن عبد العزّى ، سأل مولاه أن يكاتبه ، فأبى عليه «١». وحكمها عام ، فأمر اللّه سادات العبيد أن يكاتبوهم إذا طلبوا الكتابة. والكتابة :
أن يقول لمملوكه : كاتبتك على كذا ، فإن أدى ذلك عتق ، ومعناه : كتبت لك على نفسى أن تعتق مني إذا وفّيت المال ، وكتبت لى على نفسك أن تفى بذلك. وتجوز حالّة ، وتسمى : القطاعة ، ومنجّمة وغير منجّمة.
وقوله تعالى : إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً ، أي : قدرة على الكسب ، وأمانة وديانة ، والنّدبية متعلقة بهذا الشرط ، فالخير هنا : القوة على الأداء بأي وجه كان ، وقيل : هو المال الذي يؤدي منه كتابته ، من غير أن يسأل أموال الناس ، وقيل : الصلاح في الدين.
وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ ، هذا أمر بإعانة المكاتب على كتابته ، واختلف : من المخاطب بذلك؟
فقيل : هو خطاب للناس أجمعين ، وقيل : للولاة ، والأمر على هذين القولين للندب ، وقيل : للسادات المكاتبين ، وهو على هذا القول ، ندب عند مالك ، ووجوب عند الشافعي. فإن كان الأمر للناس ، فالمعنى : أن يعطوهم صدقة من أموالهم ، وإن كان للولاة : فيعطوهم من الزكوات أو من بيت المال ، وإن كان للسادات فيحطّوا عنهم من كتابتهم ، وقيل : يعطوهم من أموالهم ، من غير الكتابة ، وعلي القول بالحط من الكتابة اختلف في مقدار ما يحطّ ، فقيل :
الربع ، وروي ذلك عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وقيل : الثلث ، وقال مالك : لا حد في ذلك ، بل أقل ما يطلق عليه شيء ، إلا أن الشافعي يجبره علي ذلك ، ولا بجيره مالك. وزمان الحط عنه في آخر الكتابة عند مالك ، وقيل : في أول نجم.
قاله ابن جزى.
الإشارة : العبيد على أربعة أقسام : عبد قن مقتنى للخدمة ، وعبد مأذون له فى التجارة ، وعبد مكاتب ، وعبد آبق. فمثال الأول ، وهو العبد القن : أهل الخدمة ، وهم العباد والزهاد ، أقامهم الحق تعالى لخدمته ، وقوّاهم على دوام معاملته ، أهل الصيام والقيام ، وأهل السياحة والهيام. ومثال الثاني ، وهو المأذون له : العارفون بالله ، يتصرفون فى ملك سيدهم بالله ، خلفاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، يحكمون بحكم اللّه ، ويأخذون من اللّه ويدفعون إلى اللّه ، يأخذون النصيب من كل شيء ، ولا يؤخذ من نصيبهم شيء ، قد سخّر لهم كل شيء ، ولم يسخّروا لشيء ، سلّطوا على كل شيء ، ولم

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٨١) لابن السكن فى معرفة الصحابة ، عن عبد اللّه بن صبيح ، عن أبيه. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٩
يسلّط عليهم شيء ، يخالطون الناس بجسمهم ، ويباينونهم بسرهم ، فالدنيا سوق تجارتهم ، والمعرفة رأس بضاعتهم ، والعدل فى الغضب والرضا ميزانهم ، والقصد فى الفقر والغنى عنوانهم ، والعلم باللّه مفزعهم ومنجاهم ، والقرآن كتاب الإذن من مولاهم ، والفهم عن اللّه مرجعهم ومأواهم.
ومثال الثالث ، وهو المكاتب : الصالحون من المؤمنين يعملون على فك رقبتهم من النار ، فإذا أدوا ما فرض عليهم حررهم بعد موتهم ، وأسكنهم فسيح جناته. ومثال الآبق : هم العصاة والفجار ، استمروا على عصيانهم ، حتى قدموا على الملك الجبار ، فهم تحت حكم المشيئة ، إن شاء عفا عنهم ، وإن شاء عاقبهم. واللّه تعالى أعلم.
ولما أمر بتزويج الإماء نهى عن إكراههن على الزنا ، فقال :
وَلا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ ...
يقول الحق جل جلاله : وَلا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ أي : إماءكم ، يقال للعبد : فتى ، وللأمة : فتاة. والجمع : فتيات ، عَلَى الْبِغاءِ أي : الزنا ، وهو خاص بزنا النساء. كان لابن أبىّ ست جوار : معاذة ، ومسيكة ، وأميمة ، وعمرة ، وأروى ، وقتيلة ، وكان يكرههن ، ويضرب عليهن الضرائب لذلك ، فشكت ثنتان منهن إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فنزلت الآية «١».
وقوله تعالى : إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً أي : تعففا ، ليس قيدا فى النهي عن الإكراه ، بل جرى على سبب النزول ، فالإكراه : إنما يتصوّر مع إرادة التّحصّن لأن المطيعة لا تسمى مكرهة ، ثم خصوص السبب لا يوجب تخصيص الحكم على صورة السبب ، فلا يختص النهى عن الإكراه بإرادة التعفف ، وكذلك الأمر بالزنا ، والإذن فيه لا يباح ولا يجوز شيء من ذلك للسيد ، وما يقبض من تلك الناحية سحت وربا. وفيه توبيخ للموالى لأن الإماء إذا رغبن فى التحصن فأنتم أولى بذلك ، ثم علل الإكراه بقوله : لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : لتبتغوا بإكراههن على الزنا أجورهن وأولادهن ، جيء به تشنيعا لهم على ما هم عليه من أحمال الوزر الكبير لأجل النزر الحقير ، أي :
لا تفعلوا ذلك لطلب المتاع السريع الزوال ، الوشيك الاضمحلال.

---

(١) عزاه المناوى ، فى الفتح السماوي (٢/ ٨٧٤) للثعلبى عن مقاتل ، وأخرج مسلم فى (التفسير ، باب فى قول اللّه تعالى : وَلا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ ٣٠٢٩) عن جابر ، قال : إن جارية لعبد اللّه بن أبى ، يقال لها : «مسيكة» ، وأخرى يقال لها : «أميمة» فكان :

يكرههما على الزنا ، فشكتا إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فأنزل اللّه : لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ).

(٤/٣٩)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٠

وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ على ما ذكر من البغاء ، فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ لهن رَحِيمٌ بهن ، وفى مصحف ابن مسعود كذلك. وكان الحسن يقول : لهن واللّه. وقيل : للسيد إذا تاب. واحتياجهن إلى المغفرة المنبئة عن سابقة الإثم : إما باعتبار أنهن - وإن كن مكرهات - لا يخلون فى تضاعيف الزنا من شائبة مطاوعة ما ، بحكم الجبلّة البشرية ، وإما لغاية تهويل أمر الزنا ، وحث المكرهات على التثبت فى التجافي عنه ، والتشديد فى تحذير المكرهين ببيان أنهن حيث كنّ عرضة للعقوبة ، لو لا أن تداركهن المغفرة ، الرحمة ، مع قيام العذر فى حقهن ، فما بالك بحال من يكرههن فى استحقاق العقاب؟

وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ موضّحات ، أو : واضحات المعنى ، والمراد : الآيات التي بينت فى هذه السورة ، وأوضحت معانى الأحكام والحدود. وهو كلام مستأنف جىء به فى تضاعيف ما ورد من الآيات السابقة واللاحقة لبيان جلالة شأنها ، المقتضى للإقبال الكلى على العمل بمضمونها. وصدر بالقسم الذي تعرب عنه اللام لإبراز كمال العناية بشأنها. أي : واللّه ، لقد أنزلنا إليكم ، فى هذه السورة الكريمة ، آيات مبينات لكل ما لكم حاجة إلى بيانه من الحدود وسائر الأحكام ، وإسناد البيان إليها : مجازى ، أو : آيات واضحات تصدقها الكتب القدسية والعقول السليمة ، على أن «مبيّنات» من بيّن ، بمعنى تبين ، كقولهم فى المثل : «قد بيّن الصبح لذى عينين» أي :

تبين. ومن قرأها بالبناء للمفعول ، فمعناه : قد بيّن اللّه فيها الأحكام والحدود. وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ أي : وأنزلنا مثلا من أمثال من قبلكم ، من القصص العجيبة ، والأمثال المضروبة لهم فى الكتب السابقة ، والكلمات الجارية على ألسنة الأنبياء والحكماء ، فتنتظم قصة عائشة - رضي اللّه عنها - المحاكية لقصة يوسف عليه السّلام وقصة مريم ، وسائر الأمثال الواردة فى السورة الكريمة ، انتظاما واضحا.

وتخصيص الآيات البينات بالسوابق ، وحمل المثل على قصة عائشة المحاكية لقصة يوسف ومريم ، يأباه تعقيب الكلام بما سيأتى من التمثيلات.

وَأنزلنا مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ يتعظون بها ، وينزجرون عما لا ينبغى من المحرمات والمكروهات وسائر ما يخل بمحاسن الآداب ، والمراد : ما وعظ به من الآيات والمثل ، مثل قوله : وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ «١» ، ولَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ .. «٢» إلخ ، يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ «٣».

وتخصيص المتقين لأنهم المنتفعون بها ، المغتنمون لآثارها ، المقتبسون لأنوارها ، ومدار العطف هو التّغاير العنواني المنزّل منزلة التغاير الذاتي. وقد خصّت الآيات بما بيّن الأحكام والحدود ، والموعظة بما وعظ به من

---

(١) الآية : ٢ من سورة النور.

(٢) الآية : ١٢ من سورة النور.

(٣) الآية : ١٧ من سورة النور.

قوله : (و لا تأخذكم ..) إلى آخر ما تقدم. وقيل : المراد بالآيات المبينات والمثل والموعظة : جميع ما فى القرآن المجيد من الأمثال والمواعظ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من أمر بالمعصية ودلّ عليها ، أو رضى فعلها ، فهو شريك الفاعل فى الوزر ، أو أعظم. وكل من أمر بالطاعة ودلّ عليها فهو شريك الفاعل فى الثواب ، أو أعظم. وفى الأثر : «الدّالّ على الخير كفاعله» «١».

قال القشيري : حامل العاصي على زلّته ، والداعي له إلى عثرته ، والمعين له على مخالفته ، تتضاعف عليه العقوبة ، وله من الوزر أكثر من غيره ، وعكسه لو كان الأمر فى الطاعة والإعانة على العبادة. هـ.

ومن هذا القبيل :

تعليم العلم لمن تحقق أنه يطلب به رئاسة أو جاها ، أو توصّلا إلى الدنيا المذمومة ، أو علم منه قصدا فاسدا ، فإن تحقق ذلك وعلمه ، فهو معين له على المعصية ، كمن يعطى سيفا لمن يقطع به الطريق على المسلمين. واللّه تعالى أعلم.

ثم إن أنوار الشريعة ، وهى أحكام المعاملة الظاهرة ، تهدى إلى أنوار الطريقة ، وهى أحكام المعاملة الباطنة ، وأنوار الطريقة تهدى إلى أنوار الحقيقة ، وأنوار الحقيقة تصيّر الكون كلّه نورا ، كما قال تعالى :

[سورة النور (٢٤) : آية ٣٥]

اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : منور أهلهما [بنور الإسلام والإيمان لأهل الإيمان] «٢» ، وبنور الإحسان لأهل الإحسان ، فحقيقة النور : هو الذي تنكشف به الأشياء على ما هى عليه ، حسية أو معنوية ، والمراد هنا : المعنوية بدليل قوله : يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ ، فإن انكشف به أحكام العبودية ، باعتبار المعاملة الظاهرة ، يسمّى : نور الإسلام ، وإن انكشف به أوصاف الذات العلية وكمالاتها ، من طريق البرهان ، يسمى : نور الإيمان ، وإن انكشف به حقيقة الذات وأسرارها ، من طريق العيان ، يسمى : نور الإحسان. فالأول : يشبه نور النجوم ، والثاني : نور القمر ، والثالث : نور الشمس ، ولذلك تقول الصوفية : نجوم الإسلام ، وقمر الإيمان ، وشمس العرفان.

---

(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ح ١٥٤) عن ابن مسعود ، و(ح ١٩٥١) عن أنس ، وأخرجه الطبراني فى الأوسط (ح ٣٨٤) من حديث سهل بن سعد. وجاء فى صحيح مسلم : «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله». أخرجه مسلم فى (الإمارة ، باب فضل إعانة الغازي ، ٣/ ١٥٠٦ ح ١٨٩٣) من حديث أبى مسعود البدري.

(٢) أرى أن تكون العبارة هكذا [بنور الإسلام لأهل الإسلام ، وبنور الإيمان لأهل الإيمان].

ثم ضرب المثل لذلك النور ، حين يقذفه فى قلب المؤمن ، فقال : مَثَلُ نُورِهِ أي : صفة نوره العجيبة فى قلب المؤمن - كما هى قراءة ابن مسعود - كَمِشْكاةٍ أي : كصفة مشكاة ، وهى الكوّة فى الجدار غير النافذة لأن المصباح فيها يكون نوره مجموعا ، فيكون أزهر وأنور ، فِيها مِصْباحٌ أي : سراج ضخم ثاقب ، الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ أي : فى قنديل من زجاج صاف أزهر ، الزُّجاجَةُ من شدة صفائها كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ بضم الدال وتشديد الراء ، منسوب إلى الدر لفرط ضيائه وصفائه ، وبالكسر والهمز : «أبو عمرو» على أنه يدرأ الظلام بضوئه. وبالضم والهمز : أبو بكر وحمزة ، شبهه بأحد الكواكب الدراري ، كالمشترى والزهرة ونحوهما.

توقد «١» بالتخفيف والتأنيث ، أي : الزجاجة ، أو يُوقَدُ بالتخفيف والغيب ، أو : توقد بالتشديد ، أي :

المصباح مِنْ شَجَرَةٍ أي : من زيت شجرة الزيتون ، أي : رويت فتيلته من زيت شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ كثيرة المنافع ، أو : لأنها تنبت فى الأرض التي بارك فيها للعالمين ، وهى الشام ، وقيل : بارك فيها سبعون

نبيا ، منهم إبراهيم عليه السّلام.
زَيْتُونَةٍ : بدل من شَجَرَةٍ ، من نعتها لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ أي : ليست شرقية فقط ، لا تصيبها الشمس إلا فى حالة الشروق ، ولا غربية ، لا تصيبها إلا فى حال الغروب ، بل هى شرقية غربية ، تصيبها الشمس بالغداة والعشى ، فهو أنضر لها ، وأجود لزيتونها. وقيل : ليست من المشرق ولا من المغرب ، بل فى الوسط منه ، وهو الشام ، وأجود الزيتون زيتون الشام.
يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ هو فى الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضىء بنفسه من غير مساس نار أصلا. نُورٌ عَلى نُورٍ أي : نور المصباح متضاعف على نور الزيت الصافي ، فهذا مثال النور الذي يقذفه اللّه فى قلب المؤمن فالمشكاة هو الصدر ، والمصباح نور الإيمان أو الإسلام أو الإحسان ، على ما تقدم ، والزجاجة هو القلب الصافي ، ولذلك شبهه بالكوكب الدرّىّ ، والزيت هو العلم النافع الذي يقوى اليقين. ولذلك وصفه بالصفاء والإنارة. يكاد صاحبه تشرق عليه أنوار الحقائق ، ولو لم يمسسه علمها. نُورٌ عَلى نُورٍ أي : نور الإيمان مضاف إلى نور الإسلام ، أو نور الإحسان مضاف إلى نور الإيمان والإسلام ،

---

(١) قرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص ، بياء من تحت مضمومة ، مع إسكان الواو ، وتخفيف القاف ، ورفع الدال ، على التذكير ، مبنيا للمفعول من «أوقد» أي : المصباح. وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، ويعقوب ، بتاء من فوق ، وفتح الواو والدال ، وتشديد القاف ، على وزن «تفعل» فعلا ماضيا ، فيه ضمير يعود على المصباح. وقرأ أبو بكر ، وحمزة ، والكسائي ، بالتاء من فوق ، مضمومة ، وإسكان الواو ، وتخفيف القاف ، ورفع الدال ، على التأنيث ، مضارع «أوقد» مبنى على المفعول. ونائب الفاعل ضمير يعود على «زجاجة». انظر الإتحاف (٢/ ٢٩٨).

(٤/ ٤٢)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٣
يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ أي : لهذا النور الباهر مَنْ يَشاءُ من عباده إما بإلهام أو بواسطة تعليم. وفيه إيذان بأن مناط هذه الهداية إنما هى بمشيئته تعالى ، وأن الأسباب لا تأثير لها. وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ تقريبا للفهم ، لأنه إبراز للمعقول فى هيئة المحسوس وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، معقولا كان أو محسوسا ، فيبين الأشياء بما يمكن أن تعلم به. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : اعلم أن الكون كله من عرشه إلى فرشه قطعة من نور الحق ، وسر من أسرار ذاته ، ملك ، وباطنه ملكوت فائض من بحر الجبروت ، فالكائنات كلها : اللّه نورها وسرّها ، وهو القائم بها. ولا

يفهم هذا إلا أهل الفناء من العارفين بالله ، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم لما رمزوا إليه ، وتحققوه ذوقا وكشفا.

ثم ضرب الحقّ تعالى مثلا لنوره الفائض من بحر جبروته ، فقال : مَثَلُ نُورِهِ الظاهر ، الذي تجلى به فى عالم الشهادة ، كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ أي : كطاقة انفتحت من بحر اللّطافة الكنزيّة ، خرج منها نور كثيف كالمصباح ، فالكون كله مصباح نور ، انفجر من النور ، ومن ذلك المصباح تفرعت الكائنات ، فهى كلها نور فائض من بحر نوره اللطيف ، ثم جعل الحق تعالى يصف ذلك المصباح فى توقده وتوهجه بقوله : الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ... .. إلخ. فالآية كلها من تتمة التمثيل. وقوله تعالى : وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ قيل : الإشارة فيه إلى استغناء العبد فى تلك الحالة عن الاستمداد إلا من رب العزة ، فيستغنى عن الوسائط. وقوله تعالى : نُورٌ عَلى نُورٍ أي : نور ملكوته على نور جبروته ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ أي : لشهود نوره ، أو لمعرفة نوره ، مَنْ يَشاءُ من خواص أحبابه ، كأنبيائه وأوليائه ، فمن لم يشهد هذا النور ، ولم يعرفه ، لا خصوصية له يتميز بها عن العوام ، فهو من عامة أهل اليمين ، ولو كثر علمه وعمله إذ لا عبرة بالعلم والعمل مع الحجاب. وفى الحكم : «الكائن فى الكون ، ولم تفتح له ميادين الغيوب ، مسجون بمحيطاته ، محصور فى هيكل ذاته» ، والمحجوب برؤية الأكوان من جملة العوام عند أهل العيان ، ينسحب عليه معنى المثال الآتي فى ضد هذا بقوله : (أو كظلمات ..) إلخ.

وفى الحكم. «الكون كله ظلمة ، وإنما أناره ظهور الحقّ فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه ، أو عنده ، أو قبله أو بعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار» «١». فالكون عند أهل العيان كله نور ، وعند أهل الحجاب كله ظلمة ، وهو محيط بهم ، فالظلمة محيطة بهم ، وقد ألف الغزالي فى هذه الآية كتابة :

---

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص ٣٢ حكمة ١٤).

(مشكاة الأنوار) ، وكلامه فيه يدور على أن معنى اسمه تعالى «النور» : يرجع إلى ما ثبتت به الأشياء وظهرت من العدم ، ولذلك قال قائلهم :

فالنّور يظهر ما ترى من صورة وبه ظهور الكائنات بلا امتراء

وفى لطائف المنن : اللّه نور السموات والأرض نور سموات الأرواح بمشاهدته ، ونور أرض النفوس

بمطالعته وخدمته ، وجعل قلوب أوليائه مجلاة لذاته ولظهور صفاته ، أظهرهم ليظهر فيهم خصوصا ، وهو الظاهر فى كل شىء عموما ، ظهر فيهم بأنواره وأسراره ، كما ظهر فيهم ، وفيما عداهم بقدرته واقتداره. هـ.

ثم ذكر محل ظهور ذلك المصباح ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٣٦ الى ٣٨]

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (٣٦) رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٨)

قلت : (فى بيوت) : يتعلق بمشكاة ، أي : كائنة فى بيوت ، أو توقد ، أو بيسبح ، أي : يسبح له رجال فى بيوت ، وفيه تكرير لزيادة التأكيد ، نحو : زيد فى الدار جالس فيها ، أو بمحذوف ، أي : سبّحوا فى بيوت. و(أذن) : نعت له.

يقول الحق جل جلاله : وذلك النور الذي فى المشكاة يكون فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ، وهى المساجد والزوايا المعدّة لذكر اللّه والصلاة وتلاوة القرآن. ورفعها : تعظيمها. أي : التي أمر اللّه بتعظيمها كتطهيرها من الخبث ، وتنقيتها من القذى ، وتعليق القناديل ونصب الشموع ، ويزاد التعظيم فى شهر رمضان. ومن تعظيمها :

غلقها فى غير أوقات الصلاة ، وقيل المراد برفعها : بناؤها ، كقوله تعالى : .. بَناها رَفَعَ سَمْكَها .. «١» ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ «٢» ، والأول أصح.

وَأذن أيضا أن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، وهو عام فى جميع الذّكر ، مفردا أو جماعة ، ويدخل فيه تلاوة القرآن. يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ أي : يصلى له فيها بالغداة : صلاة الفجر ، والآصال : صلاة الظهر

---

(١) من الآيتين : ٢٧ - ٢٨ من سورة النازعات.

(٢) من الآية ١٢٧ من سورة البقرة.

والعصر والعشاءين. وإنما وحّد الغدو لأن صلاته صلاة واحدة ، وفى الآصال صلوات ، وهو جمع أصيل ، وفاعل «يسبّح» : رجال. ومن قرأ بفتح الباء «١» ، فأسنده إلى أحد الظروف الثلاثة ، أعنى :

(له فيها بالغدو). و«رجال» :

مرفوع بمحذوف ، دل عليه يُسَبِّحُ أي : يسبحه رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ : لا تشغلهم تِجارَةٌ في السفر ، وَلا بَيْعٌ في الحضر ، عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ باللسان والقلب ، وقيل : التجارة : الشراء ، أي : لا يشغلهم شراء ولا بيع عن ذكر اللّه ، والجملة : صفة لرجال ، مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة ، مفيدة لكمال تبتّلهم إلى اللّه تعالى ، واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم.

وتخصيص التّجارة بالذكر لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها ، أي : لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة ، ولا فرد من أفراد البياعات ، وإن كان في غاية الربح. وإفراده بالذكر ، مع اندراجه تحت التجارة لإنه ألهى لأن ربحه متيقن ناجز في الغالب ، وما عداه متوقع في ثاني الحال.

وَلا يشغلهم ذلك أيضا عن إِقامِ الصَّلاةِ أي : إقامتها لمواقيتها من غير تأخير ، وأصله : وإقامة ، فأسقطت التاء المعوضة عن العين الساقطة بالإعلال ، وعوض عنها الإضافة ، فأقيمت الإضافة مقام التاء ، وَإِيتاءِ الزَّكاةِ أي : وعن إيتاء الزكاة ، وذكرها ، وإن لم يكن مما تفعل في البيوت ، لكونها قرينتها لا تفارق إقامة الصلاة في عامة المواضع ، مع ما فيه من التنبيه على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع في المساجد.

والمعنى : لا تجارة لهم حتى تلهيهم ، أو يبيعون ويشترون ويذكرون اللّه مع ذلك ، لا يشغلهم عن ذكر اللّه شيء ، وإذا حضرت الصلاة قاموا إليها مسرعين. يَخافُونَ يَوْماً أي : يوم القيامة تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ أي : تضطرب وتتغير من الهول والفزع ، وتبلغ إلى الحناجر ، وَتتقلب الْأَبْصارُ بالشخوص أو الزرقة. أو تتقلب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران ، والأبصار إلى العيان بعد النكران ، كقوله : فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ «٢».

يفعلون ذلك الاستغراق في التسبيح والذكر ، مع الخوف لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا أي : أحسن جزاء أعمالهم ، حسبما وعدهم بمقابلة حسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف ، وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ أي : يتفضل عليهم بأشياء وعدهم بها ، لم تخطر على بال كالنظر إلى وجهه ، وزيادة كشف ذاته ، فهو كقوله : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ «٣». وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ أي : يثيب من يشاء ثوابا لا يدخل تحت حساب الخلق ، و«من» : واقعة على من ذكرت أوصافهم الجميلة ، كأنه قيل : واللّه يرزقهم بغير حساب ، ووضعه موضع

---

(١) وبها قراءة ابن عامر وأبو بكر.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة ق.

(٣) من الآية ٢٦ من سورة يونس.

ضميرهم للتنبيه على أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى ، لا أعمالهم المحكية ، ويحتمل أن يريد بالرزق ما يرزقهم فى الدنيا مما يقوم بأمرهم ، حين تبتّلوا إلى العبادة ، يرزقهم اللّه من حيث لا يحتسبون ، من غير حصر ولا عد. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : البيوت التي أذن اللّه أن ترفع هى القلوب ، التي هى معدن الأسرار ومحل مصابيح الأنوار ، ورفعها :

صونها من الأغيار ، وتطهيرها من لوث الأكدار ، وبعدها من جيفة الدنيا ، التي هى مجمع الخبائث والأشرار ، ليذكر فيها اسم اللّه ، كثيرا ، على نعت الحضور والاستهتار ، وإنما يمكن ذلك من أهل التجريد والانقطاع إلى اللّه ، الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب عن حضرة اللّه ، والأبصار عن شهود اللّه ، وذلك بشؤم الغفلة فى الدنيا عن اللّه ، والقيام بحقوق اللّه ، ليجزيهم اللّه أحسن ما عملوا ، فى جنة الزخارف ، ويزيدهم من فضله التّنزّه فى جنة المعارف. واللّه يرزق من العلوم والمعارف من يشاء بغير حساب.

ثم ذكر ضد أهل النور ، وهم أهل الظلمة ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٣٩ الى ٤٠]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)

قلت : «كسراب» : خبر الثاني ، وهو : ما يروى فى الفلوات من لمعان الشمس وقت الظهيرة ، يسرب على وجه الأرض ، فيظنّ أنه ماء يجرى. و(بقيعة) : متعلق بمحذوف ، صفة لسراب ، أي : كائن بأرض قيعة ، أي : منبسطة ، و(سحاب ظلمات) : من جرّها : فبالإضافة «١» ، ومن رفعها : فخبر ، أي : هى ظلمات.

يقول الحق جل جلاله ، فى بيان أعمال الكفرة وظلمة قلوبهم ، بعد بيان حال المؤمنين وأنوار قلوبهم : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ التي هى من أبواب البر ، كصلة الرحم ، وفك العناة ، وسقاية الحاج ، وعمارة البيت ، وإغاثة الملهوف ، وقرى الأضياف ، ونحوها ، مما لو قارنه الإيمان لا ستوجب الثواب ، مثاله : كَسَرابٍ

---

(١) قرأ البزي (سحاب ظلمات) بالإضافة ، وقرأ الجمهور : (سحاب ظلمات) بالتنوين والرفع فيهما. انظر الإتحاف (٢/ ٢٩٩). [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٧
كفضاء (بقيعة) بأرض منبسطة ، يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ يظنه العطشان ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً أي : لم يجده كما ظنه ورجاه ، بل خاب مطمعه ومسعاه ، وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ أي : وجد جزاء اللّه ، أو حكمه ، عند عمله ، أو عند جزائه ، فَوَفَّاهُ حِسابَهُ أي : أعطاه جزاءه كله وافيا ، وإنما وحّد ، بعد تقديم الجمع ، حملا على كل واحد من الكفار.
وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ يحاسب العباد فى ساعة لأنه لا يحتاج إلى عد وعقد ، ولا يشغله حساب عن حساب ، أو قريب حسابه لأنّ كل آت قريب. شبه ما يعمله الكفرة من البر ، الذي يعتقد أنه ينفعه يوم القيامة وينجيه من عذاب اللّه ، ثم يخيب فى العاقبة أمله ، ويلقى خلاف ما قدّر ، بسراب يراه الكافر بالساهرة ، وقد غلبه عطش يوم القيامة ، فيحسبه ماء ، فيأتيه ، فلا يجد ما رجاه ، ويجد زبانية اللّه ، فيأخذونه إلى جهنم ، فيسقونه الحميم والغساق. قيل : هم الذين قال اللّه فيهم : عامِلَةٌ ناصِبَةٌ «١» ، ويَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً «٢». قيل : نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية ، كان ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح ، والتمس الدين ، فلما جاء الإسلام كفر. هـ.
ثم ضرب مثلا لأعمالهم فى الدنيا ، فقال : أَوْ كَظُلُماتٍ ، «أو» : للتنويع ، فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ عميق كثير الماء ، منسوب إلى اللج ، وهو معظم ماء البحر ، يَغْشاهُ أي : يغشى البحر ، أو من فيه ، أي : يعلوه ويغطيه بالكلية ، مَوْجٌ هو ما ارتفع من الماء ، مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ أي : من فوق الموج موج آخر ، مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ من فوق الموج الأعلى سحاب ، ظُلُماتٌ أي : هذه ظلمات ظلمة السحاب ، وظلمة الأمواج ، وظلمة البحر ، بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ ظلمة الموج على ظلمة البحر ، وظلمة الموج على ظلمة الموج الأسفل ، وظلمة السحاب على الموج ، وهذا أعظم للخوف وأقرب للعطب ، لأنه يغطى النجوم التي يهتدى بها ويشتد معه الريح والمطر ، وذلك يؤكد التلف ، إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ أي : الواقع فيه ، أو من ابتلى بها ، لَمْ يَكَدْ يَراها مبالغة فى «لم يرها» أي : لم يقرب أن يراها ، فضلا عن أن يراها. شبّه أعمالهم ، فى ظلمتها وسوادها لكونها باطلة ، وخلوها عن نور الحق ، بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب.
قال ابن جزىّ : لما ذكر حال المؤمنين عقّب ذلك بمثالين لأعمال الكفار الأول : يقتضى حال أعمالهم فى الآخرة ، وأنها لا تنفعهم ، بل يضمحل ثوابها كما يضمحل السراب. والثاني : يقتضى حال أعمالهم فى الدنيا ، وأنها فى غاية الفساد والضلال ، كالظلمة التي بعضها فوق بعض. ثم قال : وفى وصف هذه الظلمات مبالغة ، كما أن فى

(١) الآية ٣ من سورة الغاشية.
(٢) الآية ١٠٤ من سورة الكهف.

(٤/٤٧)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٨
وصف النور المذكور قبلها مبالغة. هـ. وقوله : لما ذكر حال المؤمنين ، يعنى بقوله : رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ .. إلخ ، اللّه بقوله : يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ ، وقيل : كلا المثالين فى الآخرة ، يخيبون من نفعها ، ويخوضون فى بحر ظلمتها.
وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فى قلبه ، من نور توحيده ومعرفته ، فَما لَهُ مِنْ نُورٍ أي : من لم يشأ اللّه أن يهديه لنوره : لم يهتد ، وفى الحديث : «خلق اللّه الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليها من نوره ، فمن أصابه ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل» ، وينبغى للقارىء عند هذه الآية أن يقول : (اللهمّ اجعل فى قلبى نورا ، وفى سمعى نورا ، وفى بصرى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن شمالى نورا ، ومن فوقى نورا ، ومن تحتى نورا ، واجعلنى نورا ، وأعظم لى نورا) «١» ، كما فى الحديث فى غير هذا المحل.
الإشارة : كل من لم يتحقق بمقام الإخلاص كانت أعماله كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد اللّه عنده ، فوفاه حسابه ، أي : يناقشه فيما أراد بعمله ، وأهل التوحيد الخاص : الوجود كله ، عندهم ، كالسراب ، يحسبه الناظر إليه شيئا ، حتى إذا جاءه بفكرته لم يجده شيئا ، ووجد اللّه عنده وحده ، وفيه يقول الشاعر :
من أبصر الخلق كالسّراب فقد ترقّى عن الحجاب
إلى وجود تراه رتقا بلا ابتعاد ولا اقتراب
ولم تشاهد به سواه هناك يهدى إلى الصّواب
فلا خطاب به إليه ولا مشير إلى الخطاب
ومثال من عكف على دنياه ، واتخذ إلهه هواه ، كذى ظلمات فى بحر لجى ، وهو بحر الهوى ، يغشاه موج الجهل والمخالفات ، من فوقه موج الحظوظ والشهوات ، من فوقه سحاب أثر الكائنات ، أو : يغشاه موج الغفلات ، من فوقه موج العادات ، من فوقه سحاب الكائنات ، ظلمات بعضها فوق بعض من حب الدنيا ، وحب الجاه ، وحب الرئاسة ، إذا أخرج يد فكرته لم يكد يراها.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الدعوات ، باب الدعاء إذا انتبه من الليل ح ٦٣١٦) ، ومسلم فى (صلاة

المسافرين ، باب الدعاء فى صلاة الليل ، ١/ ٥٢٥ - ٥٢٦ ، ح ٧٦٣) ، من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٤/٤٨)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٩

وقال بعضهم : الدنيا كلها بحر لّجّى ، والناس مغروقون فيه ، إلا من عصم اللّه ، وساحله الموت ، فمن لعبت به أمواج الهوى والحظوظ ، فليأوى إلى سفينة الزهد والورع ، وليتمسك برئيس عارف بأهوال البحر ، وهم العارفون باللّه ، فإنه ينجو من أهوالها ، ومن أخطأ هذا غرق فى تيارها ، ولعبت به أمواج حظوظها وشهواتها ، فكان من الهالكين ، نسأل اللّه الحفظ بمنّه وكرمه.

ثم ذكر علامات وجود ذلك النور المتقدم فى أهل السموات والأرض ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد ، وخصّه بالخطاب إيذانا بأنه صلى اللّه عليه وسلم قد أفاض عليه أعلى مراتب النور وأجلاها ، وبيّن له من أسرار الملكوت أجلّها وأخفاها ، أي : ألم تنظر بعين بصيرتك ، فتعلم علم يقين ، أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ أي : ينزهه على الدّوام مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من العقلاء وغيرهم ، تنزيها معنويا ، فإن كلا من الموجودات يدل على وجود صانع واجب الوجود ، متصف بصفات الكمال ، مقدس عن كل ما لا يليق بعلو شأنه. أو : تنزيها حسيا بلسان المقال ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم. وتخصيص التنزيه بالذكر ، مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضا لأن مساق الكلام تقبيح حال الكفرة فى إخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجمادات شركاء له ودعوى اتخاذه الولد.

وَيسبحه الطَّيْرُ حال كونها صَافَّاتٍ أي : يصففن أجنحتهن فى الهواء ، وتخصيصها بالذكر ، مع اندراجها فى جملة ما فى الأرض لعدم استمرار قرارها فيها ، ولاختصاصها بصنع بارع ، وهو اصطفاف أجنحتها فى الجو ، وتمكينها من الحركة كيف تشاء ، وإرشادها إلى كيفية استعمالها بالقبض والبسط ، ففى ذلك دلالة واضحة على كمال قدرة الصانع المجيد ، وغاية حكمة المبدئ المعيد.

كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ أي : كل واحد من الأشياء المذكورة قد علم اللّه تعالى صلاته ، أي : دعاءه وخضوعه وتسبيحه. أو : كلّ قد علم فى نفسه ما يصدر عنه من صلاة وتسبيح ، فالضمير : ما

إليه أو لكل. ولا يبعد أن يلهم اللّه الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة ، التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ لا يعزب عن علمه شيء.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٠
وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا لغيره لأنه الخالق لهما ، ولما فيهما من الذوات ، وهو المتصرف فيهما إيجادا واعداما ، (و إلى اللّه المصير) أي : إليه ، خاصّة ، رجوع الكل بالفناء والبعث لا إلى غيره ، وإظهار اسم الجلالة فى وضع الإضمار ، لتربية المهابة ، والإشعار بعلّيّة الحكم. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : ما استقر فى السموات السبع والأرضين السبع كله من قبضة النّور الأوّليّة ، بين حس ومعنى ، حسه خاضع لأحكام الربوبية ، ومعناه قاهر بسطوات الألوهية ، حسه حكمة ، ومعناه قدرة ، حسه ملك ، ومعناه ملكوت ، وهذا معنى قوله : اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، فافهم.
ثم ذكر جزئيات من تلك النور ، فقال :
[سورة النور (٢٤) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (٤٤)
يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي أي : يسوق ، برفق وسهولة ، سَحاباً : جمع سحابة ، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ أي : يضم بعضه إلى بعض ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً متراكما بعضه فوق بعض ، فَتَرَى الْوَدْقَ : المطر ، يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ من فتوقه ووسطه ، جمع خلل ، كجبال وجبل ، وقيل : مفرد ، كحجاب وحجاز.
قال القشيري : ترتفع بقدرته بخارات البحر ، فيتصعد ، بتسييره وتقديره ، إلى الهواء ، وهو السحاب ، ثم يديره إلى سمت يريد أن ينزل به المطر ، ثم ينزل ما فى السحاب من ماء البحر ، قطرة قطرة ، ويكون الماء ، حين حصوله فى بخارات البحر ، غير عذب ، فيقلبه عذبا ، ويسحّه السحاب سكبا ، فيوصل إلى كلّ موضع قدرا يكون له مرادا معلوما ، لا بالجهد من المخلوقين يمسك عن المواضع الذي عليه ينزله ، ولا بالحيلة يستنزل على المكان الذي لا يمطره. هـ. قلت : وهذا أحد الأقوال فى حقيقة المطر ، والمشهور عند أهل السنة : أن اللّه تعالى ينشىء السحاب بقدرته ، ويخلق فيه الماء بحكمته ، وينزله حيث شاء.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥١

ثم قال تعالى : وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ ، «من» الأولى : لابتداء الغاية ، والثانية : بدل من الأولى ، والثالثة : لبيان الجنس ، أي : ينزّل البرد ، وهو الثلج المكور ، من السماء ، أي : الغمام العلوي ، فكل ما علاك سماء ، من جبال فيها كائنة من البرد ، ولا غرابة فى أن اللّه يخلق فى السماء جبال برد كما خلق فى الأرض جبال حجر.

قال ابن جزى : قيل : إن الجبال هنا حقيقة ، وإن اللّه جعل فى السماء جبالا من برد ، وقيل : إنه مجاز ، كقولك :

عند فلان جبال من مال أو علم ، أي : هن فى الكثرة مثل الجبال. هـ. وأصله لابن عطية. وقال الشيخ أبو زيد الثعالبي : حمل اللفظ على حقيقته أولى ، إن لم يمنع من ذلك مانع. هـ. يعنى : ولا مانع هنا ، فيحمل على ظاهره ، وإن اللّه خلق جبال برد فى السماء. وقال الهروي عن ابن عرفة - يعنى اللغوي - : سمعت أحمد بن يحيي يقول : فيه قولان : أحدهما : وينزل من السماء بردا من جبال فى السماء من برد ، والآخر : وينزل من السماء أمثال الجبال من البرد. ويقال : إنما سمى بردا لأنه يبرد وجه الأرض أي : يقشره. هـ.

قال البيضاوي : إن الأبخرة إذا تصاعدت ولم يتخللها حرارة ، فبلغت الطبقة الباردة من الهواء ، وقوى البرد هناك ، اجتمع وصار سحابا ، فإن لم يشتد البرد تقاطر مطرا ، وإن اشتد ، فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها ، نزل ثلجا ، وإلّا نزل بردا ، وقد يبرد الهواء بردا مفرطا فينقبض ، وينعقد سحابا ، وينزل منه المطر أو الثلج. وكل ذلك لا بد وأن يسند إلى إرادة الواجب الحكيم لقيام الدليل على أنها الموجبة لاختصاص الحوادث بمحالّها وأوقاتها ، وإليه أشار بقوله : فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ والضمير للبرد. هـ. أي :

فيصيب بذلك البرد من يشاء أن يصيبه به ، فيناله ما ناله من ضرره فى بدنه وماله من زرع أو غيره.

وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ أن يصرفه عنه ، فينجو من غائلته.

يَكادُ سَنا بَرْقِهِ أي : ضوء برق السحاب ، الموصوف بما مر من الإزجاء والتآلف. وإضافة البرق إليه ، قبل الإخبار بوجوده ، فيه إيذان بظهور أمره واستغنائه عن التصريح به. وقيل : الضمير للسماء ، وهو أقرب ، أي : يكاد ضوء برق السماء ، ويحتمل أن يعود على «اللّه» تعالى لتقدم ذكره ، أي : يكاد ضوء برقه تعالى يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ ، أي : يخطفها من فرط الإضاءة ، وسرعة ورودها ، ولو عند إغماضها. يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ أي : يصرفهما بالتعاقب ، فيأتى هذا بعد هذا ، أو ينقص أحدهما وزيادة الآخر ، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد وغيرهما.

إِنَّ فِي ذلِكَ ، الإشارة إلى ما فصل آنفا ، أي : إن فى إزجاء السحاب ، وإنزال الودق ، وتقليب الليل والنهار ،

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٢

لَعِبْرَةً لدلالة واضحة على وجود الصانع القديم ، القائم بالأشياء ، والمدبر لها بقدرته وحكمته ، لِأُولِي الْأَبْصارِ لذوى العقول الصافية. وهذا من تعدد الدلائل على ظهور نوره تعالى فى الكائنات ، حيث ذكر تسبيح من فى السموات والأرض وما يطير بينهما وخضوعهم له ، وتسخير السحاب وإنزال الأمطار ، وتقليب الليل والنهار ، إلى غير ذلك من لوامح الأنوار. واللّه تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة : ألم تر أن اللّه يزجى سحاب الواردات الإلهية ، تحمل العلوم اللدنية ، ثم يؤلف بينه حتى يكون قويا ، يقتطع به صاحبه عن حسه ، ويغيبه عن أمسه ورسمه ، فترى أمطار العلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، والفتوحات العرفانية ، تخرج من خلاله ، أي : من قلب العارف ، وهى نتائج الواردات وثمراتها. وفى الحكم : «لا تزكين واردا لم تعلم ثمرته ، فليس المراد من السحابة الأمطار ، وإنما المراد منها وجود الأثمار».

وينزل من سماء الأرواح من جبال عقول ، فيها علم الرسوم الظاهرة ، فيصيب به من يشاء ، ممن أريد لحمل الشرائع والقيام بها ، ويصرفه عمن يشاء ، ممن أريد أن يكون من عامة الناس ، أو من خاصتهم. إن هبت عليه رياح الحقائق ، فأمطرت على قلبه العلوم الغيبية فأغنته عن العلوم الرسمية ، يكاد سنا برقه الساطع لقلوب أوليائه ، وهو سطوع أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، فإنها تكون أولا كالبرق ، تلمع وتخفى ، ثم يتصل ورودها وشروقها ، فتكون متصلة البروق دائمة الشروق ، نهار بلا ليل ، واتصال بلا انفصال ، ووصال بلا انقطاع. وفى ذلك يقول القائل :

طلعت شمس من أحبّ بليل واستنارت ، فما تلاها غروب

إنّ شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليس لها مغيب

يقلب اللّه ليل القبض على نهر البسط ، ونهار البسط على ليل القبض ، حتى يتصل النهار بالخروج عنهما ، ليكون للّه ، لا لشىء دونه. وباللّه التوفيق.

ولمّا ذكر التجليات العلوية ذكر التجليات السفلية ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٤٥]

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)

يقول الحق جل جلاله : وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ أي : خلق كل حيوان يدب على وجه الأرض مِنْ ماءٍ من نوع من الماء مختص بتلك الدابة ، وهو جزء مادته عند الأطباء ، أو : من ماء مخصوص ، وهو النطفة ،

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٣
ثم خالف بين المخلوقات من تلك النطفة ، فمنها أناسى ، ومنها بهائم ، ومنها هوام وسباع ، وهو كقوله : يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ «١» وهذا دليل على أن لها خالقا مدبرا ، وإلّا لم تختلف لاتفاق الأصل ، وإنما عرّف الماء فى قوله : وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ «٢» ونكّره هنا لأن المقصود ثمّة أن أجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء ، وأنه هو الأصل ، وإن تخللت بينه وبينها وسائط ، وأما هنا فالمراد نوع منه.
قالوا : إن أول ما خلق اللّه الماء ، فخلق منه النار والريح والطين ، فخلق من النار الجن ، ومن الريح الملائكة ، ومن الطين آدم ودواب الأرض. قال النسفي. وعلى الثاني : تكون الآية أغلبية لأن من الحيوانات من يتولد من غير نطفة ، كالدود والبعوض وغيرهما.
ثم فصّل أحوالهم بقوله : فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ كالحية والحوت ، وتسمية حركتها مشيا ، مع كونها زحفا ، استعارة ، كما يقال فى الشيء المستمر : قد مشى هذا الأمر على هذا النمط ، أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين. وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ كالإنسان والطير ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ كالبهائم والوحش. وعدم التعرض لما يمشى على أكثر من أربع كالعناكب ونحوها من الحشرات لعدم الاعتداد بها ، لقلتها. وتذكير الضمير فى (منهم) لتغليب العقلاء ، وكذلك التعبير بكلمة (من). وقدّم ما هو أغرق فى القدرة ، وهو الماشي بغير آلة ، ثم الماشي على رجلين ، ثم الماشي على أربع.
يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ مما ذكر ومما لم يذكر ، بسيطا أو مركبا ، على ما يشاء من الصور والأعضاء والهيئات والطبائع والقوى والأفاعيل ، مع اتحاد العنصر إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيفعل ما يشاء كما يشاء. وإظهار الاسم الجليل فى الموضعين فى موضع الإضمار لتفخيم شأن الخلق المذكور ، والإيذان بأنه من أحكام الألوهية. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : أظهر الحق تعالى الأشياء من الماء ، وأظهر الماء من نور القبضة ، وأظهر القبضة من بحر سر الذات. أو تقول : أظهر الماء من نور الملكوت ، وأبرز نور الملكوت من بحر الجبروت ، وبحر الجبروت هو بحر أسرار

---

(١) من الآية ٤ من سورة الرعد.
(٢) من الآية ٣٠ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٤
الذات الأزلية ، فالكل منه وإليه ، ولا شيء معه ، فتنوعت أنوار التجليات ، وتعددت أسماؤها بتعدد فروعها ، والمتجلى واحد ، كما قال صاحب العينية :
تجلّى حبيبى فى مرائى جماله ففى كلّ مرئي للحبيب طلائع
فلمّا تبدّى حسنه متنوّعا تسمّى بأسماء فهن مطالع.
ولا يفهم هذا إلا من هداه اللّه لمعرفته ، كما قال :
[سورة النور (٢٤) : آية ٤٦]
لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦)
يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ لكل ما يليق بيانه من الأحكام الديني ، ة والأسرار التكوينية. أو : موضحات ، أوضحنا بها ما يحتاجون إليه من علم الشرائع والأحكام ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ توفيقه إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أي : دين قيّم يوصل إلى رضوان اللّه ومعرفته.
الإشارة : لقد أنزلنا من بحر الجبروت أنوارا ساطعة لعالم الملكوت ، واللّه يهدى من يشاء إلى طريق شهود هذه الأنوار. فالطريق المستقيم هى التي توصل إلى حضرة العيان ، على نعت الكشف والوجدان ، وهى ثلاثة مدارج :
المدرج الأول : إتقان الشريعة الظاهرة ، وهى تهذيب الظواهر وتأديبها بالسنّة والمتابعة. والمدرج الثاني : إتقان الطريقة ، وهى تهذيب البواطن وتصفيتها من الرذائل ، فإذا تطهر الباطن ، وكمل تهذيبه ، أشرف على المدرج الثالث ، وهو كشف الحقائق العرفانية والأسرار الربانية ، فيفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل ، فيقع العيان عل فقد الأعيان ، وتشرق شمس العرفان فتغطى وجود الأكوان. وباللّه التوفيق. «١»
ولما ذكر إنزال الآيات ذكر افتراق الناس إلى ثلاث فرق ، فرقة آمنت ظاهرا وكفرت باطنا ، وهم المنافقون ، وفرقة آمنت ظاهرا وباطنا ، وهم المخلصون ، وفرقة كفرت ظاهرا وباطنا وهم الكافرون ، وبدأ بالأولى ، فقال :
[سورة النور (٢٤) : الآيات ٤٧ الى ٥٠]
وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)

(١) انظر النادرات العينية/ ٦٩.

(٥٤/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥

يقول الحق جل جلاله فى شأن من لم يشأ هدايته إلى صراط مستقيم : وَيَقُولُونَ أي : المنافقون آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ بألسنتهم ، وَأَطَعْنا الله والرسول فى الأمر والنهى ، ثُمَّ يَتَوَلَّى عن قبول حكمه فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أي : من بعد ما صدر عنهم من ادعاء الإيمان باللّه وبالرسول والطاعة لهما.

قال الحسن : نزلت فى المنافقين ، الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر. وقيل : نزلت فى «بشر» المنافق ، خاصم يهوديا ، فدعاه إلى كعب بن الأشرف ، ودعاه اليهودي إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقال بشر : لا ، إن محمدا يحيف علينا «١» - قبح اللّه سعيه. وقيل : فى المغيرة بن وائل ، خاصم عليّا رضي اللّه عنه فى أرض وماء ، فأبى أن يتحاكم إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وأيا ما كان فصيغة الجمع تدل على أن للقائل طائفة يساعدونه ويشايعونه فى تلك المقالة.

ثم حكم عليهم بالكفر ، فقال : وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ أي : المخلصين ، والإشارة إلى القائلين : آمنا باللّه وبالرسول ، لا إلى الفريق المتولى منهم فقط ، لئلا يلزم نفى الإيمان عنهم فقط ، دون من قبلهم ، بخلاف العكس ، فإن نفى الإيمان عن القائلين يقتضى نفيه عنهم ، على أبلغ وجه وآكده ، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم فى الكفر والفساد.

وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أي : إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأن حكمه حكم اللّه ، لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أي :

ليحكم الرسول بينهم لأنه المباشر للحكم حقيقة ، وإن كان ذلك حكم اللّه فى الحقيقة لأنه خليفته. وذكر اللّه تعالى لتفخيم شأنه عليه ، والإيذان بجلالة قدره عنده. فإذا دعوا إلى التحاكم بينهم إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ أي :

فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه صلى اللّه عليه وسلم لكون الحق عليهم ، وقد علموا أنه صلى اللّه عليه وسلم يحكم بالحق على من كان.

وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ على غيرهم يَأْتُوا إِلَيْهِ إلى الرسول مُذْعِنِينَ مسرعين فى الطاعة ، طلبا لحقهم ، لا رضا بحكم رسولهم. قال الزجاج : والإذعان : الإسراع مع الطاعة. والمعنى : أنهم لمعرفتهم أنك لا تحكم إلا بالحق المر والعدل المحض ، يمتنعون من المحاكمة إليك ، إذا ركبهم الحق ، لئلا تنزعه منهم بقضائك عليهم لخصومهم ، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك ، ولم يرضوا إلا

بحكومتك ، لتأخذ لهم ما وجب لهم على خصمهم.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/ ٥٥) ، وأسباب النزول للواحدى (ص ٣٣٧).

(٥٥/٤)

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ كفر ونفاق ، أَمِ ارْتابُوا فى نبوته صلى اللّه عليه وسلم ، أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ أن يجور اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ فيحكم بينهم بغير الحق. قسّم الحق تعالى الأمر فى صدود المنافقين عن حكومته - عليه الصلاة والسلام - إذا كان الحق عليهم إلى ثلاث : بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين ، أو مرتابين فى أمر نبوته ، أو خائفين الحيف فى قضائه ، ثم أبطل الكل بقوله : بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ، أما الأولان فلأنه لو كان شىء منهما لأعرضوا عنه ، عند كون الحق لهم لتحقق نفاقهم وارتيابهم ، وأما الثالث فلمعرفتهم بأحواله صلى اللّه عليه وسلم فى الأمان والثبات على الحق ، فهم لا يشكون أنه لا يحيف بل لأنهم هم الظالمون ، يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ، ويتم لهم جحودهم ، فيأبون المحاكمة إليه - عليه الصلاة والسلام - لأنه صلى اللّه عليه وسلم يقضى عليهم بالحق الصريح ، المؤيد بالوحى الصحيح.

الإشارة : ترى فريقا من الناس يدّعون الإيمان والطاعة والمحبة ، ونفوسهم غالبة عليهم ، فإذا دعوا إلى من يحكم بينهم وبينها ، بأن يأمرهم بمجاهدتها أو قتلها إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق ، بأن وجدوا من يدلهم على البقاء مع عوائدها وشهواتها ، يأتوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم شك ووهم ، أم ارتابوا فى وجود الطبيب ، أم يخافون أن يحيف اللّه عليهم؟ بأن يدلهم على من يتعبهم ولا يبرئهم ، حيث حسّنوا الظن به والتجئوا إليه ، فلا يدلهم إلا على من يوصلهم إليه ، بل أولئك هم الظالمون لنفوسهم ، حيث حرموها الوصول ، وتركوها فى أودية الشكوك والخواطر تجول. قال الورتجبي : وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أي : دعوا إلى مشاهدة اللّه بنعت المحبة والمعرفة ، وعبودية بنعت الإخلاص ، ودعوا إلى رسوله بالمتابعة والموافقة فى الشريعة والطريقة. هـ.

ثم ذكر الفريق الثاني ، وهم المخلصون ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٥١ الى ٥٢]

إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (٥٢)

قلت : (قول) : خبر «كان» مقدّم ، و(أن يقولوا) : اسمها مؤخر ، وقرأ الحسن : بالرفع على الاسمية ،

والأول :

أرجح صناعة ، والثاني : أظهر دلالة ، وأكثر إفادة. انظر أبا السعود.

(٥٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٧

يقول الحق جل جلاله : إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ الصادر عنهم إذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ الرسول صلى اللّه عليه وسلم بَيْنَهُمْ وبين خصومهم ، سواء كانوا منهم أو من غيرهم ، أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا قوله ، وَأَطَعْنا أمره ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بكل مطلب ، الناجون من كل مهرب. والإشارة إلى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم ، وما فيه من البعد ، للإشعار بعلو رتبتهم ، وبعد منزلتهم فى الفضل ، أي : أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجميلة هم الفائزون بكل مطلوب.

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، هذا استئناف جيء به لتقرير ما قبله من حسن حال المؤمنين ، وترغيب من عداهم فى الانتظام فى سلكهم ، أي : ومن يطع اللّه ورسوله ، كائنا من كان ، فيما أمرا به من الأحكام الشرعية اللازمة والمتعدية ، وقيل : من يطع اللّه فى فرائضه ، ورسوله فى سننه. وَيَخْشَ اللَّهَ على ما مضى من ذنوبه ، وَيَتَّقْهِ فيما يستقبل من عمره ، فَأُولئِكَ الموصوفون بما ذك ر من الطاعة والخشية ، والاتقاء ، هُمُ الْفائِزُونَ بالنعيم المقيم ، لا من عداهم.

وعن بعض الملوك : أنه سأل عن آية كافية ، فتليت عليه هذه الآية. وهى جامعة لأسباب الفوز. قال القرطبي :

ذكر أسلم : أن عمر بينما هو قائم فى مسجده صلى اللّه عليه وسلم فإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه ، وهو يقول :

أشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأشهد أن محمدا رسول اللّه ، فقال له عمر : ما شأنك؟ قال : أسلمت ، قال : ألهذا سبب؟ قال :

نعم إنى قرأت التوراة والزبور والإنجيل ، وكثيرا من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيرا يقرأ آية من القرآن ، جمع فيها كل ما فى الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند اللّه ، فأسلمت. قال : ما هذه الآية؟ قال قوله تعالى : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ فى الفرائض ، وَرَسُولَهُ فى السنن ، وَيَخْشَ اللَّهَ فيما مضى من عمره ، وَيَتَّقْهِ فيما بقي ، فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ والفائز : من نجا من النار وأدخل الجنة ، فقال عمر : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «أعطيت جوامع الكلم «١»». هـ «٢». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إنما كان قول المؤمنين الكاملين ، الطالبين الوصول إلى حضرة رب العالمين ، إذا دعوا إلى حضرة اللّه ورسوله ليحكم بينهم وبين نفوسهم التي حجبتهم حتى يغيبوا عنها ، أن يقولوا : سمعنا وأطعنا

، ويدخلوا تحت تربية المشايخ ، فإذا أمروهم أو نهوهم ، قالوا : سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون الفائزون بالوصول إلى اللّه تعالى.

ومن يطع اللّه فى أمره ونهيه ، ورسوله فى سنّته ، وما رغّب فيه ، ويخش اللّه أن يعاتبه ، أو يؤدبه ، ويتقه ، أي : يجعل

---

(١) بعض حديث ، أخرجه البخاري فى (التعبير ، باب رؤيا الليل ، ح ٦٩٩٨) ومسلم فى (المساجد ، ١/ ٣٧١ ، ح ٥٢٣) عن أبى هريرة رضى اللّه عنه. ولفظ البخاري : «أعطيت مفاتيح الكلم».

(٢) انظر تفسير القرطبي (٥/ ٤٨١٩).

وقاية بينه وبين ما يحجبه أو يبعده عنه ، فأولئك هم الفائزون الظافرون بمعرفة اللّه على نعت الشهود والعيان. وباللّه التوفيق.

ثم رجع إلى تتمة القسم الأول ، حاكيا بعض جنايتهم ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٥٣ الى ٥٤]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٥٤)

قلت : (جهد) : مصدر مؤكد لفعله ، الذي هو فى حيز النصب على الحال ، من فاعل «أقسموا» ، ومعنى جهد اليمين : بلوغ غايتها بطريق الاستعارة ، من قولهم : جهد نفسه : إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها. وأصل أقسم جهد اليمين : أقسم بجهد اليمين جهدا ، فحذف الفعل وقدم المصدر ، فوضع موضعه مضافا إلى المفعول ، كقوله :

فَضَرْبَ الرِّقابِ «١» وحكم هذا المنصوب حكم الحال ، كأنه قال : أقسموا جاهدين أيمانهم.

و(طاعة) : مبتدأ حذف خبره ، أي : طاعة معروفة أولى من تسويفكم ، أو : خبر عن محذوف ، أي : الذي يطلب منكم طاعة معروفة.

يقول الحق جل جلاله : وَأَقْسَمُوا

أي : المنافقون بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ

أي : بلغوا فيها غاية وسعهم ، بأن حلفوا باللّه. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : (من حلف باللّه فقد

جهد يمينه) ، لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَ

أي :

قالوا : لئن أمرنا محمد بالخروج للغزو ، أو من ديارنا وأموالنا ، لخرجنا. وحيث كانت مقالتهم هذه كاذبة ويمينهم فاجرة أمر عليه الصلاة والسلام - بردها حيث قيل : قُلْ لا تُقْسِمُوا

أي : قل ردا عليهم ، وزجرا عن التفوه بها : لا تحلفوا وأنتم كاذبون ، طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ

،

تعليل للنهى ، أي : لا تقسموا على ما تدعون من الطاعة لأن طاعتكم طاعة نفاقية ، معروفة بالنفاق ، واقعة باللسان فقط من غير مواطأة للقلب. وإنما عبّر عنها بمعروفة للإيذان بأن كونها نفاقية مشهور معروف لكل أحد. وحملها على الطاعة الحقيقة ، على حذف المبتدأ أو الخبر ، مما لا يساعده المقام. أنظر أبا السعود.

قال القشيري : طاعة فى الوقت أولى من تسويف فى الوعد ، ولا تعدوا بما هو معلوم أنكم لا تفوا به. هـ. وقال النسفي : طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الفاجرة. أو : الذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب ، كطاعة الخلص من المؤمنين ، لا أيمان تقسمونها بأفواهكم ، وقلوبكم على خلافها. هـ.

---

(١) من الآية ٥ من سورة سيدنا محمد.

(٥٨/٤)

إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ

من الأعمال الظاهرة والباطنة ، التي من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب المؤكدة بالأيمان الفاجرة ، وما تضمرونه فى قلوبكم من الكفر والنفاق ، والعزيمة على مخادعة المؤمنين ، وغيرها من فنون الفساد.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، أمر - عليه الصلاة والسلام - بتبليغ ما خاطبهم اللّه به ، وصرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب ، وهو أبلغ فى تبكيتهم ، فَإِنْ تَوَلَّوْا - بحذف إحدى التاءين بدليل قوله

:

وَعَلَيْكُمْ أي : فإن تعرضوا عن الطاعة إثر ما أمرتكم بها فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ من التبليغ وقد بلّغ ، وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ من التلقي بالقبول والإذعان. والمعنى : فإن تعرضوا عن الإيمان فما ضررتم إلا أنفسكم ، فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمله اللّه تعالى من أداء الرسالة ، فإذا أدى فقد خرج عن

عهدة تكليفه. وأما أنتم فعليكم ما كلفتم ، أي : ما أمرتم به من الطاعة والإذعان ، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرّضتم نفوسكم لسخط اللّه وعقوبته. قال القشيري : قل يا محمد : أطيعوا اللّه ، فإن أجابوا ، سعدوا في الدارين ، وإنما أحسنوا لأنفسهم. وإن تولوا فما أضروا إلا بأنفسهم ، ويكون اللوم في المستقبل عليهم ، وسوف يلقون سوء عواقبهم. هـ.

وَإِنْ تُطِيعُوهُ فيما أمركم به من الهدى تَهْتَدُوا إلى الحق ، الذي هو المقصد الأصلى الموصل إلى كل خير ، والمنجى من كل شر ، وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ الموضح لكل ما يحتاج إلى الإيضاح ، أو :

البيّن الوضوح لكونه مقرونا بالآيات والمعجزات المتواترة. والجملة مقررة لما قبلها من أن غائلة التولي وفائدة الإطاعة مقصورتان عليهم. واللام : إما للجنس المنتظم فيه - عليه الصلاة والسلام - انتظاما أوليا ، أو للعهد ، أي :

ما على جنس الرسول كائنا من كان ، أو ما عليه - عليه الصلاة والسلام - إلا التبليغ الواضح. وباللّه التوفيق.

الإشارة : ترى بعض الناس يقسمون باللّه جهد أيمانهم : لئن ظهر شيخ التربية وأمرهم بالخروج عن أموالهم وأنفسهم ليخرجن ، فلما ظهر تولوا وأعرضوا ، فيقال لهم : فإن تولوا فإنما عليه ما حمّل من الدلالة على اللّه ، والتعريف به ، وعليكم ما حملتم من الدخول تحت تربيته ، وإن تطيعوه تهتدوا إلى معرفة اللّه بالعيان ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

(٥٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٠

ثم وعد أهل الإخلاص بالنصر والتمكين ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٥٥ الى ٥٦]

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)

قلت : (ليستخلفنهم) : جواب لقسم مضمر ، أو تنزيل وعده تعالى منزلة القسم ، و(كما) : الكاف : محلها النصب على المصدر التشبيهى ، أي : استخلافا كائنا كاستخلافه من قبلهم. و(ما) : مصدرية. و(يعبدوننى) : حال من الموصول الأول ، مقيدة للوعد بالثبات على التوحيد ، أو استئناف ببيان

مقتضى الاستخلاف ، و(لا يشركون) : حال من واو (يعبدوننى).

يقول الحق جل جلاله : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ أي : كل من اتصف بالإيمان بعد الكفر من أي طائفة كان ، وفى أي وقت وجد ، لا من آمن من المنافقين فقط ، ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة ، بحسب ظهور الوعد الكريم. و(من) : للبيان. وقيل : للتبعيض ، ويراد المهاجرون فقط «١». وَعَمِلُوا مع الإيمان الأعمال الصَّالِحاتِ ، وتوسيط المجرور بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان وعراقته فى استتباع الآثار والأحكام ، والإيذان بكونه أول ما يطلب منهم ، وأهم ما يجب عليهم.

وأما تأخيره فى قوله : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً «٢» فإن الضمير للذين آمنوا معه صلى اللّه عليه وسلّم فلا ريب أنهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة ، مثابون عليها ، فلا بد من ورود بيانهم بعد نعوتهم الجليلة بكمالها.

ثم ذكر الموعود به ، فقال : لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أي : ليجعلنهم خلفاء متصرفين فيما تصرف الملوك فى مماليكهم ، والمراد بالأرض : أرض الكفار كلها ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «ليدخلن هذا الدين ما دخل الليل والنهار» «٣» ،

---

(١) هذا التخصيص والقصر ، لا برهان عليه ، صحيح أن المقصود بالآية هم أولا ، المهاجرون والأنصار ، ولكن كل من تحققت فيه الآية ، فهو متحقق له التمكين - بإذن اللّه .. وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ...

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٤/ ١٠٣) والبيهقي فى الكبرى (٩/ ١٨١) والحاكم (٤/ ٤٣٠) وصححه ، ووافقه الذهبي ، من حديث تميم الداري ، بلفظ : «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك اللّه بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، يعز بعز اللّه فى الإسلام ، ويذل به فى الكفر».

كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كبنى إسرائيل ، استخلفهم اللّه فى مصر والشام ، بعد إهلاك فرعون والجبابرة ، ومن قبلهم من الأمم المؤمنة التي استخلفهم اللّه فى أرض من أهلكه اللّه بكفره. كما قال تعالى : فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ «١».

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ : عطف على لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ، داخل معه فى سلك الجواب ، وتأخيره عنه مع كونه

أصل الرغائب الموعودة وأعظمها لأن النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميل ، فتصدير المواعد بها فى الاستمالة أدخل ، والمعنى : ليجعل دينهم ثابتا متمكنا مقررا لا يتبدل ولا يتغير ، ولا تنسخ أحكامه إلى يوم القيامة. ثم وصفه بقوله : الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ ، وهو دين الإسلام ، وصفه بالارتضاء تأليفا ومزيد ترغيب فيه وفضل تثبيت عليه. وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ بالتشديد والتخفيف من الإبدال ، مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ من الأعداء أَمْناً.

نزلت حيث كان أصحاب رسول صلى اللّه عليه وسلّم قبل الهجرة عشر سنين ، أو أكثر ، خائفين ، ولمّا هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون فى السلاح ويمسون فيه ، حتى قال رجل : ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ، ونضع السلاح ، فلما نزلت ، قال عليه الصلاة والسلام : «لا تصبرون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم ، محتبيا ، ليس معه حديدة» «٢» ، فأنجز اللّه وعده ، فأمنوا ، وأظهرهم على جزيرة العرب ، وفتح لهم بلاد المشرق والمغرب ، ومزقوا ملك الأكاسرة ، وملكوا خزائنهم ، واستولوا على الدنيا بحذافيرها. وفيه من الإخبار بالغيب ما لا يخفى. وقيل : الخوف والأمن فى الآخرة. ثم مدحهم بالإخلاص فقال : يَعْبُدُونَنِي وحدي ، لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً أي : حال كونهم موحدين غير مشركين بي شيئا من الأشياء ، شركا جليا ولا خفيا لرسوخ محبتهم ، فلا يحبون معه غيره ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ أي : بعد الوعد الكريم ، كفران النعمة ، أو الرجوع عن الإيمان ، كما فعل أهل الردة ، فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ الكاملون فى الفسق ، حيث كفروا تلك النعمة بعد ظهور عزها وأنوارها ، قيل : أول من كفر هذه النعمة قتلة عثمان رضي اللّه عنه فاقتتلوا بعد ما كانوا إخوانا.

والآية أوضح دليل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات على ما ينبغى هم الخلفاء - رضي اللّه عنهم - .

---

(١) من الآية ١٣ من سورة إبراهيم. [.....]

(٢) أخرجه الطبري (١٨/ ١٥٩ - ١٦٠). وعزاه فى الدر المنثور (٥/ ١٠٠) لعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، عن أبى العالية. وانظر أسباب النزول للواحدى (٣٣٨).

ولمّا كان كفر من كفر بعد الوعد إنما كان بمنع الزكاة ، قرنه مع الصلاة فى الأمر به فقال : وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ فمن فرّق بينهما فقد كفر ، وكان من الفاسقين. وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فيما دعاكم إليه وأمركم به ، ومن جملة ما أمر به : طاعة أمرائه وخلفائه لقوله : «عليكم بسنتى ، وسنّة الخلفاء الراشدين

من بعدي ، عضّوا عليها بالنواجذ» «١» ، فمن امتنع من دفع الزكاة لخليفته - كما فعل أهل الردة - فقد كفر ، ومن أداها إليه كما أمره اللّه فقد استوجب الرحمة ، لقوله : لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أي : لكى ترحموا ، فإنها من مستجلبات الرحمة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : سنة اللّه تعالى فى خواصه : أن يسلط عليهم فى بدايتهم الخلق ، فينزل بهم الذل والفقر والخوف من الرجوع عن الطريق ، ثم يعزهم ، ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، كما قال الشاذلى رضي اللّه عنه : اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ... إلخ كلامه.

قال القشيري : وفى الآية إشارة إلى أئمة الدين ، الذين هم أركان السنّة «٢» ودعائم الإسلام ، الناصحون لعباد اللّه ، الهادون من يسترشد فى اللّه. ثم قال : فأما حفاظ الدين فهم الأئمة والعلماء الناصحون لدين اللّه ، وهم أصناف : قوم هم حفّاظ أخبار الرسول صلى اللّه عليه وسلّم ، وحفّاظ القرآن ، وهم بمنزلة الخزنة ، وقوم هم علماء الأصول ، الرادّون على أهل العناد ، وأصحاب الابتداع ، بواضح الأدلة ، وهم بطارقة الإسلام وشجعانه ، وقوم هم الفقهاء المرجوع إليهم فى علوم الشريعة وفى العبادات وكيفية المعاملات ، وهم من الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين فى الملك ، وآخرون هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق ، وهم فى الدّين كخواص الملك وأعيان مجلس السلطان وأرباب الأسرار ، الذين لا يبرحون فى عالى مجلس السلطان ، فالدين معمور بهؤلاء على اختلافهم إلى يوم القيامة. هـ «٣». وتقدم مثله فى قوله : فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ... إلخ «٤». واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر الفريق الثالث ، وهم الكفرة ظاهرا وباطنا ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٥٧]

لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)

---

(١) أخرجه - بطوله - أحمد فى المسند (٤/ ١٢٧) وأبو داود فى (السنة ، باب فى لزوم السنة ٥/ ١٣ - ١٤ ح ٤٦٠٧) والترمذي فى (العلم ، باب فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٥/ ٤٣ ، ح ٢٦٧٦) وابن ماجه فى (المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين ، ١/ ١٦ ح ٤٢) من حديث العرباض بن سارية.

قلت : والنواجذ آخر الأضراس ، واحدها : ناجذ. وأراد بذلك الجد فى لزوم السنة ، فعل من أمسك الشيء بين أضراسه ، وعضّ عليها ، منعا له أن ينتزع.

(٢) فى القشيري : «الملّة».

(٣) بتصرف.

(٤) الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٣
يقول الحق جل جلاله : لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ أي : فائتين اللّه عن إدراكهم وإهلاكهم ، فى قطر من أقطار الأرض ، بل لا بد من أخذهم ، عاجلا أو آجلا ، والخطاب للرسول صلى اللّه عليه وسلّم أو لكل سامع. والَّذِينَ :
مفعول أول ، و(معجزين) : مفعول ثان. وقرأ حمزة والشامي بالغيب ، و(الذين) : فاعل ، والأول : محذوف ، أي :
لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين فِي الْأَرْضِ. ومَأْواهُمُ النَّارُ : معطوف على محذوف ، أي : بل هم مدركون ، وَمَأْواهُمُ النَّارُ أي : مسكنهم ومرجعهم ، وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ أي : واللّه لبئس المرجع هى. وفى إيراد النار ، بعنوان كونها مأوى ومصيرا لهم ، إثر نفى قوتهم بالهرب فى الأرض كل مهرب ، من الجزالة ما لا غاية وراءه. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : لا تحسبن أهل الانتقاد على أولياء اللّه أنهم فائتون ، بل لا بد من غيرة اللّه عليهم ، عاجلا أو آجلا ، فى الظاهر أو الباطن ، ومأواهم نار القطيعة ولبئس المصير. وقال القشيري على هذه الآية :
الباطل قد تكون له صولة لكنه يختل ، وما لذلك بقاء ، ولعل لبثه من عارض الشتاء فى القيظ ، أي : الحر. هـ «١». واللّه تعالى أعلم.
ثم تمم الكلام على الاستئذان المتقدم ، ووسط بينهما مواعظ تحث على الامتثال ، فقال :
[سورة النور (٢٤) : الآيات ٥٨ الى ٥٩]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩)
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، ويدخل فيه النساء ، لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ من العبيد والإماء ، وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ أي : والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار ،

(١) العبارة فى لطائف الإشارات المطبوع : [إن الباطل قد تكون له دولة ، ولكنها تخييل ، ولذلك بقاء ، وأقل لبثا ، من عارض ينشأ عن القيظ].

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٤

ثَلاثَ مَرَّاتٍ فى اليوم والليلة ، وهى مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ لأنه وقت القيام من المضاجع ، وطرح ما ينام فيه من الثياب ، ولبس ثياب اليقظة ، وربما يجدهم فى هذا الوقت نائمين متجردين ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وهى نصف النهار فى القيظ لأنها وقت وضع الثياب للقيلولة ، وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة ، والالتحاف بثياب النوم. هى ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ ، ومن نصبه فبدل من ثَلاثَ مَرَّاتٍ أي : أوقات ثلاث عورات ، وسمى كل واحد من هذه الأوقات عورة لأن الإنسان يختل تستره فيها «١» ، والعورة : الخلل ، ومنه سمى الأعور لاختلال عينه.

روى أن غلاما لأسماء بنت أبى مرثد دخل عليها فى وقت كرهته ، فنزلت «٢». وقيل : أرسل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مدلج بن عمرو الأنصاري ، وكان غلاما ، وقت الظهيرة ، ليدعو عمر رضي اللّه عنه ، فدخل عليه وهو نائم قد انكشف عنه ثوبه ، فقال عمر رضي اللّه عنه : لوددت أن اللّه تعالى نهى عن الدخول فى هذه الساعات إلا بإذن ، فانطلق إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فوجده وقد نزلت عليه هذه الآية «٣». والأمر ، قيل : للوجوب ، وقيل : للندب.

ثم عذرهم فى ترك الاستئذان فى غير هذه الأوقات ، فقال : لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ أي : لا إثم عليكم ولا على المذكورين من المماليك والغلمان فى الدخول بغير استئذان بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث ، أي : فى الأزمنة التي بين هذه العورات الثلاث.

ثم بيّن العلة فى ترك الاستئذان فى هذه الأوقات بقوله : طَوَّافُونَ أي : هم طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ لحاجة البيت والخدمة ، بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ أي : بعضكم طائف على بعض ، أو يطوف على بعض ، والجملة : إما بدل مما قبلها ، أو بيان ، يعنى : أنكم محتاجون إلى المخالطة والمداخلة ، يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام ، فلو جزم الأمر بالاستئذان فى كل وقت لأفضى إلى الحرج ، وهو مدفوع بالنص ، كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ أي : كما بيّن الاستئذان ، يبين لكم غيره من الآيات التي تحتاجون إلى بيانها ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بمصالح عباده ، حَكِيمٌ فيما دبّر وحكم به.

وَإِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ أي : الأحرار دون المماليك الْحُلُمَ أي : الاحتلام ، وهو البلوغ ، وأرادوا الدخول عليكم فَلْيَسْتَأْذِنُوا فى جميع الأوقات. قال القرطبي : لم يقل : فليستأذنوكم ، وقال فى الأولى :

---

(١) فى الأصول : «ستره» ، والمثبت من تفسير النسفي.

(٢ - ٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٠٣) والواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٣٩) والبغوي فى التفسير (٦/ ٦٠) عن مقاتل ، بدون إسناد.

(٦٤/٤)

لِيَسْتَأْذِنْكُمُ لأن الأطفال غير مخاطبين ولا متعبدين. هـ. قلت : فالمخاطبون فى الأولى هم الأولياء بتعليمهم الاستئذان وإيصائهم به ، وهنا صاروا بالغين ، فأمرهم بالاستئذان كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي : الذين بلغوا الحلم من قبلهم ، وهم الرجال المذكورون فى قوله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ... «١»

الآية. والمعنى : أن الأطفال مأذون لهم فى الدخول بغير إذن ، إلا فى العورات الثلاث ، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم بلغوا الحلم وجب أن يفطموا عن تلك العادة ، ويحملوا على أن يستأذنوا فى جميع الأوقات ، كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن.

والناس عن هذه غافلون. عن ابن عباس رضي اللّه عنه : ثلاث آيات جحدهن الناس : الإذن كله ، وقوله : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ «٢» ، وقوله : وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ .. «٣». وعن سعيد بن جبير : (يقولون : إنها منسوخة ، واللّه ما هى بمنسوخة) «٤». وعن ابن عباس أيضا قال : إنما أمروا بها حين لم يكن للبيوت الستر ، فلما وجدوا ذلك استغنوا عن الاستئذان. وعن أبى محمد مكى : هذا الأمر إنما كان من اللّه للمؤمنين إذ كانت البيوت بغير أبواب. قلت : أما باعتبار الأجانب فالأبواب تكفى ، وأما باعتبار المماليك والأطفال الذين يلجون الدار من غير حجر فلا تكفى الأبواب فى حقهم ، فلا بد من الاستئذان كما فى الآية.

كَذلِكَ أي : مثل ذلك البيان العجيب يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ. قال ابن عرفة : قال قبل هذه وبعدها : الآيات ، وفى هذه : آياته لوجهين ، الأول : هذه خاصة بالأطفال ، وما قبلها عامة فى العبيد والأطفال ، فأطلقت الآية ، ولم تقيد بالإضافة ، وهذه خاصة ، فعبّر عنها بلفظ خاص. الثاني : أن الخطاب بما هنا للبالغين ، فأسند فيه الحكم إلى اللّه تعالى ، تخويفا لهم وتشديدا عليهم. هـ. والمتبادر أنه تفنن. قاله المحشى الفاسى. وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ فيما أمر ودبر.

الإشارة : إنما أمر اللّه بالاستئذان لئلا يكشف السر إلى غير أهله غيرة منه تعالى على كشف أسرار عباده ، وإذا كان غار على كشف سر عبده ، فغيرته على كشف أسرار ذاته أولى وأحرى ، فيجب كتم أسرار الذات عن غير أهله ، وكل من خصه اللّه بسر وجب كتمه إلا على من هو أهل له ، وهو من أعطى نفسه وماله ، وباعهما للّه تعالى.

وكل من أطلع على سر من سرار اللّه أو قضاء من قضائه ، ثم استشرف أن يعلم الناس بذلك فهو كذاب. وفى الحكم :

«استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيّتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك». وباللّه التوفيق.

---

(١) الآية ٢٧ من سورة النور.

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(٣) الآية ٨ من سورة النساء. والخبر عزاه ابن كثير فى التفسير (٣/ ٣٠٣) لابن أبى حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (١٨/ ١٦٣).

ثم رخّص للعجائز فى عدم التستر من الرجال ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٦٠]

وَالْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)

قلت : «القواعد» جمع قاعد ، بغير تاء لأنهما من الصفات المختصة بالنساء ، كالطالق والحائض ، فلا تحتاج إلى تمييز ، وهو مبتدأ ، و(اللاتي ..) إلخ : صفة له ، (فليس) : خبر ، وأدخلت الفاء لما فى المبتدأ من معنى الشرط من العموم الذي فى الألف واللام. و(يرجون) : مبنى لاتصاله بنون النسوة.

يقول الحق جل جلاله : وَالْقَواعِدُ أي : العجائز مِنَ النِّساءِ اللَّاتِي قعدن عن الحيض والولادة لكبرهنّ. قال ابن قتيبة : سمين بذلك لأنهن بعد الكبر يكثرن القعود. ويقرب منه من فسره بالقعود عن التصرف للكبر ، والظاهر أن قوله : لا يَرْجُونَ نِكاحاً : نعت مخصّص ، إن فسّر القعود فيها بالقعود عن الحيض والولد لأنه قد يكون فيها مع ذلك رغبة للرجال. وقد يجعل كاشفا إذا فسر القعود باستقذار الرجال لهن من عزوف النفس عنهن ، فقوله : لا يَرْجُونَ نِكاحاً أي : لا يطمعن فى رغبة الرجال فيهن ، فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ فى أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ أي : الثياب الظاهرة ، كالجلباب الذي فوق الخمار ونحوه.

قال ابن عطية : قرأ ابن مسعود وأبىّ : «أن يضعن من ثيابهن». والعرب تقول : امرأة واضع ، للتى كبرت فوضعت خمارها ، قال فى الحاشية : والآية صادقة بما إذا دخل أجنبى بعد الاستئذان ، وبخروجهن أيضا ، ومن التبرج : لبس ما يصف لكونه رقيقا ، أو : شفافا. هـ.

ثم قيّد الرخصة بقوله : غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ أي : مظهرات زينة ، يريد الزينة الخفية ، كالشعر والنحر

والساق ونحوه ، أي : لا يقصدن بوضعهن التبرج وإظهار محاسنها ، ولكن التخفيف. وحقيقة التبرج : تكلّف إظهار ما يجب إخفاؤه ، من قولهم : سفينة بارجة : لا غطاء عليها ، إلا أنه خص بكشف المرأة زينتها أو محل حسنها للرجال.

وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ أي : يطلبن العفة عن وضع الثياب ، فيسترن خَيْرٌ لَهُنَّ من الانكشاف ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أي : سميع ما يجرى بينهن وبين الرجال من المقاولة ، عليم ، فيعلم مقاصدهن وسرائرهن فى قصد التخفيف أو التبرج ، وفيه من الترهيب ما لا يخفى.

الإشارة : إذا كمل تهذيب الإنسان وإخلاصه ، وكمل استغناؤه بربه ، فلا بأس أن يظهر من أحواله وعلومه ما يقتدى به ويهتدى ، ليعم الانتفاع به. فإن خيف منه تهمة فالاستعفاف والاكتفاء بعلم اللّه خير له. واللّه سميع عليم.

ثم أسقط الحرج عن الأعمى فى الاستئذان ، واستطرد معه غيره ، ممن اشترك معه فى مطلق العذر ، وإن اختلف المرخّص فيه ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٦١]

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)

يقول الحق جل جلاله : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ فى الدخول من غير استئذان لأنه لا يتوقع منه نظر لما يكره. وكذلك لا حرج عليه فيما لا قدرة له عليه من الجهاد وغيره ، ثم استطرد من شاركه فى مطلق العذر فقال : وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ فيما لا يقدر عليه من الجهاد وغيره ، وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ فى ذلك.

وقال سعيد بن المسيّب : كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم ، ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم ، فكانوا يتحرجون من ذلك ، ويقولون : نخشى أن تكون نفوسهم غير طيبة بذلك ، فنزلت الآية ، رخصة لهم «١». وقيل : كانوا يتحرجون من الأكل معهم لأن الأعمى لا يبصر الطيب من الطعام ، والأعرج لا يستطيع المزاحمة عليه ،

والمريض لا يستطيع استيفاءه «٢». هـ.
وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أي : لا حرج عليكم أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أي : البيت الذي فيه أهل بيتكم أزواجكم وعيالكم ، فإذا كان للزوجة أو للولد هناك شيء منسوب إليهما فلا بأس للرجل بأكله لأن الزوجين صارا كنفس واحدة ، فصار بيت المرأة بيت الزوج. وقيل : المراد ببيوتكم : بيوت أولادكم ، فجعل بيوت أولادهم بيوتهم لأن ولد الرجل من كسبه ، وماله كماله ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «أنت ومالك لأبيك» «٣» ، ولذلك لم يذكر الأولاد فى الآية لاندراجهم فى بيوتكم.

---

(١) أخرجه الواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٤٠) عن سعيد بن المسيب ، وعزاه فى مجمع الزوائد (٧/ ٨٣) للبزار ، وابن أبى حاتم وابن مردويه ، وابن النجار ، عن السيدة عائشة - رضى اللّه عنها. وقال الهيثمي : رجال البزار رجال الصحيح.
(٢) أخرجه الطبري (١٨/ ١٦٨) وذكره الواحدي فى أسباب النزول (٣٣٩) عن ابن عباس رضي اللّه عنه. [.....]
(٣) أخرجه ، من حديث جابر ، ابن ماجة فى (التجارات ، باب ما للرجل من مال ولده ، ح ٢٢٩١) ، وأخرجه من حديث ابن مسعود ، الطبراني فى الأوسط (١/ ٢٢ ح ٥٧) ، وأخرجه من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٢٠٤) ، وأبو داود فى (البيوع/ ح ٣٥٢٨ - ٣٥٢٩) ، وابن ماجه فى الموضع السابق ذكره (ح/ ٢٢٩٢).

(٦٧/٤)

ولا حرج عليكم أيضا أن تأكلوا من بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ الذكور أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ النساء ، أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ لأن الإذن من هؤلاء ثابت دلالة. واختلف العلماء فى إباحة الأكل من هذه البيوت المذكورة ، فقيل : إنه منسوخ وإنه لا يجوز الأكل من بيت أحد إلا بإذنه ، والناسخ : وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ «١» ، وقوله - عليه الصلاة والسلام - : «لا يحلّ مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس» «٢». وقيل : محكمة ، ومعناها : إذا أذنوا فى ذلك ، وقيل : ولو بغير إذن ، والتحقيق : هو التفصيل : فمن علم منه طيب نفسه وفرحه بذلك بقرينة : حلّ أكل ماله ، ومن لا فلا.
أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ قال ابن عباس : هو وكيل الرجل وقيّمه فى ضيعته وماشيته ، له أن يأكل من ثمرة ضيعته ، ويشرب من لبن ماشيته. والمراد بملك المفاتح : كونها فى يده وتحت حوزه. وقيّده ابن العربي

بما إذا لم تكن له أجرة ، وإن كانت له أجرة على فعله حرم ، يعنى : إلا إذا علم طيب نفس صاحبه فيدخل فى الصديق.

وقيل : أريد به بيت عبده لأن العبد وما فى يده لمولاه.

أَوْ صَدِيقِكُمْ أي : أو بيوت أصدقائكم ، والصديق يكون واحدا وجمعا ، وهو من يصدقك فى مودته وتصدقه فى مودتك ، يؤلمه ما يؤلمك ويؤلمك ما يؤلمه ، ويسرك ما يسره كذلك. وكان الرجل من السلف يدخل دار صديقه وهو غائب ، فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء ، فإذا حضر مولاها أعتقها سرورا بذلك ، فأما الآن فقد غلب الشحّ فلا يأكل إلا بإذن. قاله النسفي «٣».

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً : مجتمعين أَوْ أَشْتاتاً : متفرقين ، جمع شتّ ، نزلت فى بنى ليث بن عمرو ، كانوا يتحرّجون أن يأكل الرجل وحده ، فربما قعد منتظرا نهاره إلى الليل ، فإذا لم يجد من يؤاكله من الضيفان أكل أكل ضرورة. وقيل : فى قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم ، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاءوا. وقيل : فى قوم تحرجوا من الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس فى الأكل ، وزيادة بعضهم على بعض ، فخيّرهم. وقيل : كان الغنى منهم إذا دخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته ، ودعاه إلى طعام ، فيقول : إنى أتحرج أن آكل معك ، وأنا غنى وأنت فقير ، فأباح لهم ذلك. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ١٨٨ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٧٢) فى حديث خطبة الوداع الطويل ، والبيهقي فى الكبرى (٦/ ١٠٠) عن أبى حرة الرشاقى ، عن عمه. وأخرجه الديلمي (الفردوس ح ٧٦٣٥) والدار قطنى (٣/ ٢٦) ، من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

(٣) انظر تفسير النسفي (٢/ ٥٢٠).

الإشارة : ليس على من عميت بصيرته ، فلم ير إلا الكون حرج فى أن يقف مع رخص الشريعة ، ويتناول كل ما تشتهيه نفسه ، مما أباحته الشريعة ، من غير تورع ولا توقف ولا تبصر. وكذلك المريض القلب بالخواطر والأوهام ، ومن عرجت فكرته عن شهود الملكوت ، فلا بأس لهؤلاء الضعفاء أن يقفوا مع العوائد والأسباب ، ويتناولوا كل ما أباحته ظواهر الشريعة ، وأما الأقوياء فلا يأخذون إلا ما تحققوا حلّيّته ، وفهموا عن اللّه فى أخذه وتركه ، لفتح بصيرتهم وشدة تبصّرهم.

وقال الورتجبي في قوله : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ : عماه الحقيقي ألا يطيق أن ينظر بطون الأزل والغيب وغيب الغيب. وهذا من قوله - عليه الصلاة والسلام - في وصف جمال الحق سبحانه : «حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». فجعله معذورا ألا يدرك في الحقيقة وحقيقة الحق إذ يستحيل الحدث أن يحيط بالقدم أن كان واجبا معرفة الكل من حيث الحقوق لا من حيث التوحيد. هـ. ومراده ببطون الأزل : تجلياته تعالى ، البارزة من وسط بحر جبروته الغيبي ، وهي المراد بالغيب وغيب الغيب ، فالأكوان كلها برزت من بحر الذات الأزلية والكنز الغيبي ، لكنها ، لما تجلت ، كستها رداء الكبرياء ، فمن فتحت بصيرته رأى الحق تعالى فيها ، أو قبلها ، أو معها ، ومن عميت بصيرته لم ير إلا حس الأكوان الظّلمانيّة. واللّه تعالى أعلم.

ومذهب الصوفية في تناول متاع بعضهم بعضا هو ما قال القائل : «نحن : لا مال مقسوم ، ولا سرّ مكتوم ، فتركتهم لا تقسم أبدا». دخل الجنيد بيت بعض إخوانه ، فوجد زوجته ، فقال : هل عندك شيء نطعم به الفقراء؟

فأشارت إلى وعاء فيه تمر ، لا يملك غيره ، فأفرغه على رأسه ، فأكلوا ، وأخذوا ما بقي ، فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك ، فقال : الآن علمت أنه يحبني.

ثم أمر بالسلام بعد الاستئذان ، فقال :

فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ يقول الحق جل جلاله : فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً من البيوت المذكورة أو غيرها بعد الإذن ، فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ أي : فابدأوا بالسلام على أهلها ، الذين هم منكم ، الذين هم بمنزلة أنفسكم لما بينكم وبينهم من القرابة

(٤/٦٩)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٧٠

الدينية أو النّسبيّة. أو بيوتا فارغة ، أو مسجدا ، بأن تقولوا : السلام عليكم ، أو السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين ، إن كانت خاوية. تَحِيَّةً ، من نصب فعلى المصدر لسلّموا لأنها في معنى تسليما ، مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أي : بأمره مشروعة من لدنه ، أو لأنها طلب للسلامة ، وهي بيد اللّه ، مُبارَكَةً : مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامهما ، طَيِّبَةً : تطيب بها نفس المستمع. وعن أنس رضي اللّه عنه أنه - عليه الصلاة والسلام - قال : «من لقيت أحدا من أمتي فسلم عليه ، يطل عمرك. وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين» «١».

كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ ، تكرير لتأكيد الأحكام المختتمة وتفخيمها ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ : لكي تعقلوا

ما فى تضاعيفها من الشرائع والأحكام ، وتعملوا بموجبها ، فتفوزوا بسعادة الدارين. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : السلام على النفس : هو طلب الأمان لها ومنها ، فإذا سلمت النفس من موجبات الغضب من اللّه ، سلم صاحبها منها ، قال القشيري : السلام : الأمان ، فسبيل المؤمن إذا دخل بيتا أن يسلّم من اللّه على نفسه ، يعنى : بأن يقول السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين ، وأن يطلب السلامة والأمان من اللّه تعالى ، لتسلم نفسه من الإقدام على ما لا يرضى اللّه ، إذ لا يحل لمسلم أن يفتر لحظة عن الاستجارة باللّه ، بأن لا يرفع عنه ظل عصمته بإدامة حفظه من الاتصاف بمكروه الشرع. هـ.
ولمّا تكلم على الاستئذان فى الدخول ، تكلم على الاستئذان فى الخروج ، إذا كان مع كبير القوم ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٦٢]
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، إنما ذكر الإيمان باللّه ورسوله فى حيز الصلة للموصول الواقع خبرا للمبتدأ ، مع تضمنه له تقريرا لما قبله ، وتمهيدا لما بعده ، وإيذانا بأن ما بعده حقيق بأن يجعل قرينا للإيمان بهما ومنتظما فى سلكه.

---

(١) أخرجه مطولا ، البيهقي فى شعب الإيمان (ح ٨٧٥٨) ، وزاد المناوى عزوه فى الفتح السماوي (٢/ ٨٧٩) للثعلبى والجرجاني فى تاريخ جرجان ، وسنده ضعيف.

وَإِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ : عطف على (آمنوا) ، داخل فى حيز الصلة ، أي : إنما الكاملون فى الإيمان : الذين آمنوا باللّه ورسوله عن صميم قلوبهم ، وأطاعوه فى جميع الأحكام والأحوال المطردة الوقوع ، والأحوال الواقعة بحسب الاتفاق ، كما إذا كانوا معه - عليه الصلاة والسلام - على أمر مهم يجب الاجتماع فى شأنه كالجمعة ، والأعياد ، والجهاد ، وتدريب الحروب ، وغيرها من الأمور الداعية إلى الاجتماع ، لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ، ويأذن لهم ، ولو كان الأمر يقوم بدونهم ، ليتميز المخلص من المنافق ، فإن ديدنه التسلل للفرار ، ولتعظيم الجرم لما فى الذهاب بغير إذنه صلى اللّه عليه وسلّم من الخيانة.

ولمّا أراد الحقّ تعالى أن يريهم عظم الجناية فى ذهاب الذاهب عن مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم بغير إذنه ، إذا كانوا معه على أمر جامع ، جعل ترك ذهابهم والصبر معه ، حتى يأذن لهم : ثالث الإيمان ، وجعل الإيمان برسوله كالسبب له ، والبساط لذكره ، وذلك مع تصدير الجملة ب «إنما ، ثم عقبه بما يزيده توكيدا وتشديدا حيث أعاده على أسلوب آخر ، فقال : إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فقضى بأن المستأذنين هم المؤمنون خاصة. وفى «أولئك» : من تفخيم المستأذنين ، ما لا يخفى ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ فى الانصراف لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ أي : أمرهم المهم وخطبهم الملم. فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ لما علمت فى ذلك من مصلحة وحكمة.

وهذا بيان لما هو وظيفته صلى اللّه عليه وسلّم فى هذا الباب ، إثر بيان ما هو وظيفة المؤمنين ، وأن الإذن منه - عليه الصلاة والسلام - ليس بأمر محتوم ، بل هو مفوّض إلى رأيه عليه الصلاة والسلام ، وفيه من رفع شأنه صلى اللّه عليه وسلّم ما لا يخفى.

والفاء : لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي : بعد ما تحقق أن الكاملين فى الإيمان هم المستأذنون. فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ، فإن الاستئذان ، وإن كان لعذر ، فقد لا يخلو من شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة ، ففيه دليل على أن الصبر وترك الاستئذان أفضل. إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ مبالغ فى غفران فرطات العباد ، وفى إفاضة آثار الرحمة عليهم.

وما ذكره الحق تعالى فى شأن الصحابة مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - فى شأن الاستئذان ينبغى أن يكون كذلك مع أئمتهم ومقدّميهم فى العلم والدين ، لا يتفرقون عنهم إلا بإذن. والآية نزلت فى الخندق ، كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم من غير استئذان ، فنزلت «١». وبقي حكمها عاما إلى يوم القيامة. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ١١٠) لابن إسحاق وابن المنذر ، والبيهقي فى الدلائل ، عن عروة ومحمد بن كعب القرظي.

الإشارة : من آداب الفقراء مع شيخهم ألا يتحركوا لأمر إلا بإذنه ، أما أهل البدايات فيستأذنون فى الجليل والحقير ، كقضية الفقير الذي وجد بعض الباقلاء - أي : الفول - فى الطريق ، فأتى بها إلى الشيخ ، فقال : يا سيدى ما نفعل به؟ فقال : اتركه ، حتى تفطر عليه ، فقال بعض الحاضرين : يستأذنك فى الباقلاء؟ فقال : لو خالفنى فى أمر لم يفلح أبدا. وأما أهل النهايات الذين عرفوا الطريق ،

واستشرفوا على عين التحقيق ، وحصلوا على مقام الفهم عن اللّه ، فلا يستأذنون إلا فى الأمر المهم كالتزوج ، والحج ، ونحوهما. وصبره حتى يأمره الشيخ بذلك أولى ، فالمريد ، بقدر ما يترك تدبيره مع الشيخ ، ويتحقق بالتفويض معه قبل الوصول ، كذلك يتركه ويتحقق تفويضه مع اللّه بعد الوصول.
فالأدب مع الشيخ هو الأدب مع اللّه ، لكن لما كان من شأن العبد الجهل باللّه وسوء الأدب معه أمره بالتحكيم لغيره من جنسه ، فإذا حكم جنسه على نفسه قبل المعرفة حكم اللّه على نفسه بعد المعرفة.
والتحكيم فى غاية الصعوبة على النفس ، لا يرضاها إلا من سبقت له الهداية ، وجذبته جواذب العناية ، أعنى الدخول تحت الشيخ وتحكيمه على نفسه ، حتى لا يتحرك إلا بإذنه ، فهذا سبب الوصول إلى مقام الشهود والعيان ، فإذا فعل المريد شيئا من غير استئذان فليتب وليطلب من الشيخ الاستغفار له.
وينبغى للشيخ أن يقبل العذر ويسامح ويستغفر له ، لقوله تعالى : وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، فالخليفة لرسول اللّه قائم مقامه ، ونائب عنه فى رتبة التربية. واللّه تعالى أعلم.
ثم نهاهم عن التساهل فى ترك الاستئذان ، فقال :
[سورة النور (٢٤) : الآيات ٦٣ الى ٦٤]
لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)
يقول الحق جل جلاله : لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً أي : إذا احتاج الرسول صلى اللّه عليه وسلّم إلى اجتماعكم لأمر جامع ، فدعاكم ، فلا تتفرقوا عنه إلا بإذنه ، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم

بعضا ، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الراعي لأن أمره – عليه الصلاة والسلام – وشأنه ليس كشأنكم. أو :
لا تجعلوا دعاء الرسول على أحد ، كدعاء بعضكم بعضا ، فإنّ غضبه عليه ليس كغضبكم لأن غضبه غضب اللّه ، ودعاؤه مستجاب. وهذا يناسب ما قبله من جهه التحذير عن ترك الاستئذان ، فإنّ من رجع بغير استئذان معرض لغضبه – عليه الصلاة والسلام – ودعائه عليه. أو : لا تجعلوا نداءه صلى اللّه عليه وسلم كنداء بعضكم بعضا كندائه باسمه ، ورفع الصوت عليه ، وندائه من وراء الحجرات ، ولكن بلقبه المعظم يا رسول اللّه ، يا نبى اللّه ، مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت.

قال القشيري : أي : عظّموه فى الخطاب ، واحفظوا حرمته وخدمته بالأدب ، وعانقوا طاعته على مراعاة الهيبة والتوقير. هـ. فالإضافة ، على الأولين : للفاعل ، وعلى الثالث للمفعول ، لكنه بعيد من المناسبة لما قبله ولما بعده فى قوله : قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ أي : يخرجون قليلا على خفية منكم ، لِواذاً أي : ملاوذين ، بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج ، أو يلوذ بمن يخرج بالإذن إراءة أنه من أتباعه. أو مصدر ، أي : يلوذون لواذا.

واللواذ : الملاوذة ، وهى التعلق بالغير ، وهو أن يلوذ هذا بهذا فى أمر ، أي : يتسللون عن الجماعة خفية ، على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض.

ثم هددهم على المخالفة بقوله : فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أي : الذين يصدون عن أمره ، يقال : خالفه إلى الأمر : إذا ذهب إليه دونه ، ومنه : وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ «١» ، وخالفه عن الأمر : إذا صد عنه. والضمير : إما لله سبحانه ، أو للرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وهو أنسب لأنه المقصود بالذكر.

والمعنى : فليحذر الذين يخالفون عن طاعته ودينه وسنّته ، أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ محنة فى الدنيا كقتل أو زلازل وأهوال ، أو تسليط سلطان جائر ، أو عدو ، أو قسوة قلب ، أو كثرة دنيا استدراجا وفتنة.

قال القشيري : سعادة الدارين فى متابعة السّنّة ، وشقاوتهما فى مخالفتها ، ومما يصيب من خالفها : سقوط حشمة الدين عن القلب. هـ.

أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فى الآخرة. والآية تدل على أن الأمر للإيجاب ، وكلمة «أو» : لمنع الخلو ، دون منع الجمع. وإعادة الفعل صريحا للاعتناء بالتهديد والتحذير.

---

(١) من الآية ٨٨ من سورة هود.

أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من الموجودات ، خلقا وملكا وتصرفا ، وإيجادا وإعداما ، بدءا وإعادة ، و«ألا» : تنبيه على أن لا يخالفوا من له ما فى السموات والأرض. قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ أيها المكلّفون ، من الأحوال والأوضاع ، التي من جملتها الموافقة والمخالفة ، والإخلاص والنفاق. وأدخل «قد» ليؤكد علمه بما هم عليه ، ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد. والمعنى : أن جميع ما استقر فى السموات تحت ملكه وسلطانه وإحاطة علمه ، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين ، وإن اجتهدوا فى سترها؟! وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ أي : ويعلم يوم يردون إلى جزائه ، وهو يوم القيامة. والخطاب والغيبة فى

قوله : قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ يجوز أن يكون للمنافقين ، على طريق الالتفات ، ويجوز أن يكون ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ عاما ، ويُرْجَعُونَ للمنافقين. فَيُنَبِّئُهُمْ حينئذ بِما عَمِلُوا من الأعمال السيئة ، التي من جملتها : مخالفة الأمر ، ليرتب على ذلك الإنباء ما يليق به من التوبيخ والجزاء.

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء. روى عن ابن عباس رضي اللّه عنه : أنه قرأ سورة النور على المنبر فى الموسم ، وفسرها على وجه لو سمعته الروم لأسلمت. هـ.

وأما ما ورد فى فضل السور فموضوع ، وقد غلط من ذكره من المفسرين. وباللّه التوفيق.

الإشارة : شيوخ التربية خلفاء الرسول صلى اللّه عليه وسلم فى القيام بالتربية النبوية ، فيجب امتثال كل ما أمروا به ، واجتناب كل ما نهوا عنه ، فهم معناه أو لم يفهم. فإذا كانوا مجموعين على أمر جامع لم يذهب أحد حتى يستأذن شيخه ، ولا يكفى إذن بعض الفقراء ، إلا إن وجّهه الشيخ لذلك ، فلا يكون دعاء الشيخ كدعاء بعضكم بعضا فى التساهل فى مخالفة أمره ، أو امتثال أمره. قد يعلم اللّه الذين يتسللون ، فيفرون عنه لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة كتسليط الدنيا عليه فتفتنه وتنسخ حلاوة الشهود من قلبه ، أو يصيبهم عذاب أليم ، وهو السلب بعد العطاء ، والعياذ باللّه من الزلل ومواقع الضلال. نسأل اللّه تعالى أن يثبت قدمنا على المنهاج الحق ، وأن يميتنا على المحبة والتعظيم ، ورسوخ القدم فى معرفة الرحمن الرحيم. آمين. وصلى اللّه على سيدنا ومولانا محمد ، النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه ، وسلم.

(٤/٧٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٧٥

سورة الفرقان

مكية. وهى سبع وسبعون آية. ومناسبتها لما قبلها : ما فى خاتمتها من تعظيم الرسول - عليه الصلاة والسلام - وما افتتحت به من تعظيمه أيضا لكونه نذيرا للعالمين. وناسب قوله فى هذه : الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، قوله فيما قبلها : أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ «١».

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٢)

يقول الحق جل جلاله : تَبارَكَ أي : تكاثر خيره وتزايد ، أو : دام واتصل. وهى كلمة تعظيم لم تستعمل إلا لله ، والمستعمل منها الماضي فقط ، والتفاعل فيها للمبالغة. ومعناها راجع إلى ما يفيض سبحانه

على مخلوقاته من فنون الخيرات ، التي من جملتها : تنزيل القرآن ، المنطوى على جميع الخيرات الدينية والدنيوية ، أي :
تعاظم الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ أي : القرآن ، مصدر فرق بين اثنين ، إذا فصل بينهما. سمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، أو : لأنه لم ينزل جملة ، ولكن مفروقا مفصولا بين أجزائه شيئا فشيئا ، ألا ترى إلى قوله : وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ «٢»؟
أنزله عَلى عَبْدِهِ محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وإيراده - عليه الصلاة والسلام - بذلك العنوان لتشريفه ، والإيذان بكونه فى أقصى مراتب العبودية ، والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبدا للمرسل ردا على النصارى. أنزله لِيَكُونَ العبد المنزل عليه ، أو الفرقان لِلْعالَمِينَ من الثقلين ، زاد بعضهم : والملائكة ، أرسل إليهم ليتأدبوا بأدبه ، حيث لم يقف مع مقام ولا حال ، ويقتبسوا من أنواره ، وهو حكمة الإسراء ، وقيل : حتى إلى الحيوانات والجمادات ، أمرت بطاعته فيما يأمرها به ، وبتعظيمه - عليه الصلاة والسلام - . وهذا كله داخل فى العالمين لأن ما سوى اللّه كله عالم كما تقدم فى الفاتحة. وعموم الرسالة من خصائصه - عليه الصلاة والسلام - . نَذِيراً أي : مخوّفا ، وعدم التعرض للتبشير لأن الكلام مسوق لأحوال الكفرة ، ولا بشارة لهم.

---

(١) الآية الأخيرة من سورة النور.

(٢) من الآية ١٠٦ من سورة الإسراء.

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : له ، خاصة ، دون غيره ، لا استقلالا ولا اشتراكا. فالقهرية لازمة لهما ، المستلزمة للقدرة التامة والتصرف الكلى ، إيجادا وإعداما ، وإحياء وإماتة ، وأمرا ونهيا ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً كما زعم اليهود والنصارى فى عزير والمسيح - عليهما السلام - ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ كما زعمت الثنوية القائلون بتعدد الآلهة ، والرد فى نحورهم.
وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ أي : أحدث كل شىء وحده ، لا كما تقول المجوس والثنوية من النور والظلمة. أي : أظهر كل شىء فَقَدَّرَهُ أي : فهيأه لما أراد به من الخصائص والأفعال اللائقة به ، تَقْدِيراً بديعا ، لا يقادر قدره ، ولا يبلغ كنهه كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك ، والنظر والتدبير فى أمور المعاش والمعاد ، واستنباط الصنائع المتنوعة ، والدلائل المختلفة ، على وجود الصانع. أو : فقدّره للبقاء إلى أبد معلوم. وأيّا ما كان ، فالجملة تعليل لما قبلها ، فإن خلقه تعالى لجميع الأشياء على ذلك الشكل البديع

والنظام الرائق ، وكل ما سواه تحت قهره وسلطانه ، كيف يتوهم أنه ولد للّه سبحانه ، أو شريك له فى ملكه. تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا.

الإشارة : عبّر بالعبودية فى التنزيل والإسراء إشارة إلى أن كل من تحقق بالعبودية الكاملة له حظ من تنزيل الفرقان على قلبه ، حتى يفرق بين الحق والباطل ، وحظ من الإسراء بروحه إلى عالم الملكوت والجبروت ، حتى يعاين عجائب أسرار ربه. وما منع الناس من تنزل العلوم اللدنية على قلوبهم ، ومن العروج بروحهم ، إلا عدم التحقق بالعبودية الكاملة لربهم ، حتى يكونوا مع مراده ، لا مع مرادهم ، لا يريدون إلا ما أراد ، ولا يشتهون إلا ما يقضى ، قد تحرروا من رقّ الأشياء ، واتحدت عبوديتهم للواحد الأعلى. فإذا كانوا كذلك صاروا خلفاء الأنبياء ، يعرج بأرواحهم ، ويوحى إلى قلوبهم ما يفرقون به بين الحق والباطل ، ليكونوا نذرا لعالمى زمانه قال تعالى : وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ «١». وباللّه التوفيق.

ثم ردّ على أهل الشرك ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٣]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً (٣)

---

(١) الآية ٢٤ من سورة فاطر.

يقول الحق جل جلاله : وَاتَّخَذُوا أي : الكفار المدرجون تحت العالمين المنذرين ، اتخذوا لأنفسهم مِنْ دُونِهِ تعالى آلِهَةً أصناما ، يعبدونها ويستعينون بها ، وهم لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً أي : لا يقدرون على خلق شىء من الأشياء ، وَهُمْ يُخْلَقُونَ كسائر المخلوقات. والمعنى : أنهم آثروا على عبادة من هو منفرد بالألوهية والخلق ، والملك والتقدير ، عبادا عجزة ، لا يقدرون على خلق شىء ، وهم مخلوقون ومصورون. وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً أي : لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضر عنها ، ولا جلب نفع لها. وهذا بيان لغاية عجزهم وضعفهم فإن بعض المخلوقين ربما يملك دفع ضر وجلب نفع فى الجملة ، وهؤلاء لا يقدرون على شىء البتة ، فكيف يملكون نفع من عبدهم ، أو ضرر من لم يعبدهم؟! وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً أي : إماتة وَلا حَياةً أي : إحياء وَلا نُشُوراً بعثا بعد الموت ، أي : لا يقدرون على إماتة حى ، ولا نفخ الروح فى ميت ، ولا بعث للحساب والعقاب. والإله يجب أن يكون قادرا

على جميع ذلك.

وفيه إيذان بغاية جهلهم ، وسخافة عقولهم ، كأنهم غير عارفين بانتفاء ما نفى عن آلهتهم مما ذكر ، مفتقرون إلى التصريح لهم بها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من ركن إلى غير اللّه ، أو مال بمحبته إلى شيء سواه ، فقد اتخذ من دونه إلها يعبده من دون اللّه. وكل من رفع حاجته إلى غير مولاه ، فقد خاب مطلبه ومسعاه لأنه تعلق بعاجز ضعيف ، لا يقدر على نفع نفسه ، فكيف ينفع غيره؟ وفي الحكم : «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك ، فكيف ترفع إلى غيره ما كان هو له واضعا؟! من لا يستطيع أن يرفع حاجته عن نفسه ، فكيف يكون لها عن غيره رافعا؟».

قال بعض الحكماء : من اعتمد على غير اللّه فهو فى غرور لأن الغرور ما لا يدوم ، ولا يدوم شيء سواه ، وهو الدائم القديم ، لم يزل ولا يزال ، وعطاؤه وفضله دائمان ، فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء ، فى كل نفس وحين وأوان وزمان. هـ. وقال وهب بن منبه : أوحى اللّه تعالى إلى داود : يا داود أما وعزتى وجلالى وعظمتى لا ينتصر بي عبد من عبادى دون خلقى ، أعلم ذلك من نيته ، فتكيده السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجا. أما وعزتى وجلالى لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق دونى ، أعلم ذلك من نيته ، إلا قطعت أسباب السموات من يده ، وأسخت الأرض من تحته ، ولا أبالى فى أي واد هلك. هـ. وبالله التوفيق.

ولما ذكر شأن الفرقان ، ذكر من طعن فيه وفيمن نزل عليه ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٤ الى ٩]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً (٤) وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (٦) وَقالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَقالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (٨)

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩)

(٤/٧٧)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : تمردوا فى الكفر والطغيان. قيل : هم النضر ابن الحارث ، وعبد اللّه بن أمية ، ونوفل بن خويلد ، ومن ضاهاهم. وقيل : النضر فقط ، والجمع لمشايعة

الباقين له في ذلك. قالوا : إِنْ هَذا ما هذا القرآن إِلَّا إِفْكٌ كذب مصروف عن وجهه افْتَراهُ اختلقه واخترعه محمد من عند نفسه ، وَأَعانَهُ عَلَيْهِ أي : على اختلاقه قَوْمٌ آخَرُونَ ، يعنون : اليهود ، بأن يلقوا إليه أخبار الأمم الدارسة ، وهو يعبر عنها بعبارته. وقيل : هم عدّاس ، ويسار «١» ، وأبو فكيهة الرومي ، كان لهم علم بالتوراة والإنجيل. ويحتمل : وأعانه على إظهاره وإشاعته قوم آخرون ، ممن أسلم معه صلى اللّه عليه وسلم.

قال تعالى : فَقَدْ جاؤُ ، وأتوا ظُلْماً أو : بظلم ، فقد تستعمل (جاء) بمعنى فعل ، فتتعدى تعديته ، أو بحرف الجر ، والتنوين للتفخيم ، أي : جاءوا ظلما هائلا عظيما حيث جعلوا الحق البيّن ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إفكا مفترى من قول البشر ، وجعلوا العربي الفصيح يتلقى من العجمي الرومي ، وهو من جهة نظمه الفائق وطرازه الرائق لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته لعجزوا عن مثل آية من آياته. ومن جهة اشتماله على الحكم العجيبة ، المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية ، والأمور الغيبية ، بحيث لا يناله عقول البشر ، ولا تفى بفهمه الفهوم ، ولو استعملوا غاية القوى والقدر.

وَأتوا أيضا زُوراً أي : كذبا كثيرا ، لا يبلغ غايته حيث نسبوا إليه صلى اللّه عليه وسلم ما هو برىء منه.

وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أي : هو أحاديث المتقدمين ، وما سطروه من خرافاتهم كرستم وغيره. جمع أسطار ، أو : أسطورة ، اكْتَتَبَها كتبها لنفسه ، أو : استكتبها فكتبت له ، فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ أي : تلقى عليه من كتابه بُكْرَةً : أول النهار وَأَصِيلًا آخره ، فيحفظ ما يتلى عليه ثم يتلوه علينا. انظر هذه الجرأة العظيمة ، قاتلهم اللّه ، أنى يؤفكون؟

---

(١) في الأصول : سيار.

قُلْ يا محمد : أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : يعلم كل سر خفى فى السماوات والأرض ، يعنى : أن القرآن : لما اشتمل على علم الغيوب ، التي يستحيل عادة أن يعلمها محمد صلى اللّه عليه وسلم من غير تعلم إلهى ، دلّ على أنه من عند علام الغيوب ، أي : ليس ذلك مما يفترى ويختلق ، بإعانة قوم ، وكتابة آخرين من الأحاديث والأساطير المتقدمة ، بل هو أمر سماوى ، أنزله الذي لا يعزب عن علمه شيء ، أودع فيه فنون الحكم والأحكام ، على وجه بديع ، لا تحوم حوله الأفهام ، حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته ، وأخبركم بأمور مغيبات ، وأسرار مكنونات ، لا يهتدى إليها ولا يوقف عليها إلا بتوقيف العليم الخبير ، ثم جعلتموه إفكا مفترى ، واستوجبتم بذلك أن يصبّ

عليكم العذاب صبا ، لو لا حلمه ورحمته ، إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً فأمهلكم ، ولم يعاجلكم بالعقوبة. وهو تعليل لما هو المشاهد من تأخير العقوبة عنهم ، أي : كان أزلا وأبدا مستمرا على المغفرة والرحمة ، فلذلك لم يعاجلكم بالعقوبة على ما تقولون فى حقه وفى حق رسوله ، مع كمال اقتداره.
ثم ذكر طعنهم فيمن نزل عليه ، فقال : وَقالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ وقعت اللام فى المصحف مفصولة عن الهاء ، وخط المصحف سنّة لا يغير. وتسميتهم إياه بالرسول سخرية منهم ، كأنهم قالوا : أي شيء لهذا الزاعم أنه رسول يأكل الطعام كما تأكلون ، ويمشى فى الأسواق لابتغاء الأرزاق كما تمشون ، أي : إن صح ما يدعيه فما له لم يخالف حالنا؟! لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ على صورته فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ، وهذا منهم تنزل عن اقتراح كونه صلى اللّه عليه وسلم ملكا مستغنيا عن المادة الحسية ، إلى اقتراح أن يكون معه ملك يصدقه ، ويكون ردءا له فى الإنذار ، ويعبر عنه ، ويفسر ما يقوله للعامة.
أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ من السماء ، يستغنى به عن طلب المعاش معنا ، أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ بستان يَأْكُلُ مِنْها كالأغنياء المياسير. والحاصل : أنهم أول مرة ادعوا أن الرسول لا يكون إلا كالملائكة ، مستغنيا عن الطعام والشراب ، وتعجبوا من كون الرسول بشرا ، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك يصدقه ويعينه على الإنذار ، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون معه كنز ، يستظهر به على نوائبه ، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون رجلا له يستان يأكل منه ، كالمياسير ، أو نأكل نحن منه ، على قراءة حمزة والكسائي.
قال تعالى : وَقالَ الظَّالِمُونَ وهم الكفرة القائلون ما تقدم ، غير أنه وضع الظاهر موضع المضمر ، تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيه. وهم كفار قريش ، أي : قالوا للمؤمنين : إِنْ تَتَّبِعُونَ ما تتبعون إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً قد سحر فغلب على عقله ، انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ أي : انظر كيف قالوا فى حقك تلك الأقاويل العجيبة ، الخارجة عن العقول ، الجارية لغرابتها ، مجرى الأمثال ، واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال الشاذة ، البعيدة عن الوقوع؟! فَضَلُّوا عن طريق الجادة فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا فلا يجدون طريقا إليه ، أو :
فلا يجدون سبيلا إلى القدح فى نبوتك ، بأن يجدوا قولا يستقرون عليه ، أو : فضلّوا عن الحق ضلالا مبينا ، فلا

(٧٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٨٠
يجدون طريقا موصلا إليه ، فإن من اعتاد استعمال هذه الأباطيل لا يكاد يهتدى إلى استعمال المقدمات الموصلة إلى الرشد والصواب. وبالله التوفيق.

الإشارة : تكذيب الصادقين سنّة ماضية ، فإن سمع أهل الإنكار منهم علوما وأسرارا قالوا : ليست من فيضه ، إنما نقلها عن غيره ، وأعانه على إظهارها قوم آخرون ، قل : أنزلها على قلوبهم الذي يعلم السر فى السماوات والأرض ، إنه كان غفورا رحيما ، حيث ستر وصفهم بوصفه ونعتهم بنعته ، فوصلهم بما منه إليهم ، لا بما منهم إليه. وقوله تعالى : ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ ، أنكروا وجود الخصوصية مع وصف البشرية ، ولا يلزم من وجود الخصوصية عدم وصف البشرية ، كما تقدم مرارا. واللّه تعالى أعلم.

ثم رد اللّه تعالى عليهم ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ١٠ الى ١٦]

تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١) إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (١٢) وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً (١٣) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (١٤)

قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً (١٥) لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً (١٦)

قلت : (جنات) : بدل من خيرا ، و(يجعل) ، من جزمه عطفه على محل جواب الشرط ، ومن رفعه فعلى الاستئناف ، أي : وهو يجعل لك قصورا ، ويجوز عطفه على الجواب لأن الشرط إذا كان ماضيا جاز فى الجواب الرفع والجزم ، كما هو مقرر فى محله.

يقول الحق جل جلاله : تَبارَكَ أي : تكاثر وتزايد خيره الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ فى الدنيا خَيْراً لك مِنْ ذلِكَ الذي اقترحوه من أن يكون لك جنة تأكل منها بأن يجعل لك مثل ما وعدك فى الجنة ، جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، فإنه خير من جنة واحدة من غير أنهار ، كما اقترحوا ، وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً

(٤/٨٠)

وغرفا فى الدنيا ، كقصور الآخرة ، لكن لم يشأ ذلك لأن الدنيا لا تسع ما يعطيه تعالى لخواص أحبابه فى الآخرة لأنها ضيقة الزمان والمكان.

وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين ، وهو إنزال الملك وإلقاء الكنز لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية ، وإنما الذي له وجه فى الجملة هو الاقتراح الأخير فإنه غير مناف للحكمة بالكلية ، فإن بعض الأنبياء - عليهم السلام - قد أوتوا مع النبوة ملكا عظيما ، لكنه نادر.

ثم أضرب عن توبيخهم بحكاية جناياتهم السابقة ، وانتقل إلى توبيخهم بحكاية جناية أخرى ، فقال : بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ أي : بل أتوا بأعجب من ذلك كله ، وهو تكذيبهم بالساعة. ويحتمل أن يكون متصلا بما قبله ، كأنه قال : بل كذبوا بالساعة ، وكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك فى الآخرة ، وهم لا يؤمنون بها؟ ثم تخلص إلى وبال من كذّب بها ، فقال : وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً أي : وهيأنا للمكذبين بها نارا شديدة الإسعار ، أي : الاشتعال. وضع الموصول موضع ضمير «هم» ، أو : لكل من كذب بها كائنا من كان ، ويدخلون هم فى زمرتهم دخولا أوليا. ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة فى التشنيع.

إِذا رَأَتْهُمْ أي : النار ، أي : قابلتهم مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ بأن كانت منهم بمرأى للناظرين فى البعد ، كقوله صلى اللّه عليه وسلم فى شأن المؤمن والكافر : «لا تترآءى نارهما» «١» ، أي : لا يتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى. سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً أي : سمعوا صوت غليانها. شبه ذلك بصوت المتغيظ والزفير ، وهو صوت من جوفه. ولا يبعد أن يخلق اللّه فيها الإدراك فتتغيظ وتزفر. وقيل : إن ذلك من زبانيتها ، نسب إليها ، وهو بعيد.

وَإِذا أُلْقُوا مِنْها من النار مَكاناً ضَيِّقاً أي : فى مكان ضيق لأن الكرب يعظم مع الضيق ، كما أن الروح يعظم مع السعة ، وهو السر فى وصف الجنة بأن عرضها السماوات والأرض. وعن ابن عباس وابن عمر - رضى اللّه عنهما : (تضيق جهنم عليهم ، كما يضيق الزجّ «٢» على الرمح). وسئل النبي صلى اللّه عليه وسلم عن ذلك فقال :

«والذي نفسى بيده إنهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط». حال كونهم مُقَرَّنِينَ أي : مسلسلين ، أي : مقرونين فى السلاسل ، قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال. أو : يقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة ، وفى أرجلهم الأصفاد. فإذا ألقوا فى الضيق ، على هذا الوصف ، دَعَوْا هُنالِكَ أي : فى ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة ، ثُبُوراً أي : هلاكا ، بأن يقولوا : وا ثبوراه هذا حينك فتعال ، فيتمنون الهلاك ليستريحوا ، فيقال لهم : لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً أي : لا تدعوا بالهلاك على أنفسكم مرة واحدة ،

---

(١) سبق تخريجه عند تفسير الآية ٥٢ من سورة المائدة.

(٢) الزّجّ : الحديدة التي تركب فى أسفل الرمح ... اللسان (رجج ، ٣/ ١٨١١).

ودعاء واحدا ، بل ادعوا دعاء متعددا بأدعية كثيرة ، فإن ما أنتم عليه من العذاب ، لغاية شدته وطول مدته ، مستوجب لتكرر الدعاء فى كل أوان. وهو يدل على فظاعة العذاب وهو له.
وأما ما قيل من أن المعنى : إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا ، وإنما هو ثبور كثير ، إما لأن العذاب أنواع وألوان ، كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته ، أو : لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها ، فلا غاية لها ، فلا يلائم المقام. انظر أبا السعود. وعن أنس رضي اللّه عنه قال : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «أول من يكسى حلّة من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ، ويسحبها من خلفه ، وذريته من بعده ، وهو يقول : يا ثبوراه ، وهم يجاوبونه : يا ثبورهم ، حتى يقفوا على النار ، فيقال لهم : لا تدعوا ثبورا واحدا ..» «١».
قُلْ لهم يا محمد تقريعا لهم وتهكما بهم ، وتحسرا على ما فاتهم : أَذلِكَ خَيْرٌ ، والإشارة إلى السعير ، باعتبار اتصافها بما فصّل من الأحوال الهائلة ، وما فيه من معنى البعد لكونها فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة. أي : قل لهم أذلك الذي ذكر من السعير ، التي أعدت لمن كذب بالساعة ، وشأنها كيت وكيت خير أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ أي : وعدها اللّه المتقين؟ وإنما قال : «أذلك خير» ، ولا خير فى النار تهكما بهم ، كما تقدم ، وإضافة الجنة إلى الخلد للمدح ، وقيل : للتمييز عن جنات الدنيا. والمراد بالمتقين : المتصفون بمطلق التقوى ، لا بغايتها. كانَتْ تلك الجنة لَهُمْ فى علم اللّه تعالى ، أو فى اللوح ، جَزاءً على أعمالهم ، وَمَصِيراً يصيرون إليه بعد الموت.
لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ من فنون الملاذ والمشتهيات ، وأنواع النعيم والخيرات ، كقوله تعالى :
وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ «٢» ، ولعل كل فريق منهم يقنع بما أتيح له من درجات النعيم ، ولا تمتد أعناق هممهم إلى ما فوق ذلك من المراتب العالية. فلا يلزم الحرمان ، ولا تساوى أهل الجنان.
حال كونهم خالِدِينَ لا يفنون ، ولا يفنى ما هم فيه ، كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلًا أي : موعودا حقيقا بأن يسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون ، أو : مسئولا لا يسأله الناس فى دعائهم ، بقولهم :
رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ «٣» أو : تسأله الملائكة بقولهم : رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ «٤» ، وما فى «على» من معنى الوجوب ، لامتناع الخلف فى وعده تعالى ، فكأنه أوجبه على نفسه تفضلا وإحسانا. وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى اللّه عليه وسلم من تشريفه والإشعار بأنه صلى اللّه عليه وسلم هو أول الفائزين بمغانم هذا الوعد الكريم ما لا يخفى. قاله أبو السعود.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ١٥٢) ، والطبري (١٨/ ١٨٨) ، والحديث صححه الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٣٩٢). [.....]
(٢) من الآية ٧١ من سورة الزخرف.

(٣) من الآية ١٩٤ من سورة آل عمران.

(٤) من الآية ٨ من سورة غافر.

الإشارة : تبارك الذي إن شاء جعل ذلك خيرا من ذلك ، وهى جنة المعارف المعجلة ، تجرى من تحتها أنهار العلوم وفيض المواهب ، ويجعل لك قصورا تنزل فيها ، ثم ترحل عنها ، وهى منازل السائرين ومقامات المقربين ، إلى أن تسكن فى محل الشهود والعيان ، وهو العكوف فى حضرة الإحسان. بل كذّبوا بالساعة ، أي : من تنكب عن هذا الخير الجسيم ، إنما سببه أنه فعل فعل من يكذب بالساعة من الانهماك فى الدنيا ، والاشتغال بها عن زاد الآخرة. وأعتدنا لمن فعل ذلك سعيرا ، أي : إحراقا للقلب بالتعب ، والحرص ، والجزع ، والهلع ، والإقبال على الدنيا ، إذا قابلتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظا وزفيرا غيظا على طلابها ، حيث آثروها على ما فيه رضا مولاها ، وإذا ألقوا فى أشغالها ، وضاق عليهم الزمان فى إدراكها ، دعوا بالويل والثبور ، وذلك عند معاينة أعلام الموت ، والرحيل إلى القبور ، ولا ينفعهم ذلك. قل : أذلك خير أم جنة الخلد؟ ، وهى جنة المعارف ، التي وعد المتقون لكل ما سوى اللّه ، كانت لهم جزاء على مجاهدتهم وصبرهم ، ومصيرا يصيرون إليها بأرواحهم وأسرارهم. لهم فيها ما يشاؤون لكونهم حينئذ أمرهم بأمر اللّه ، كان على ربك وعدا مسئولا ، أي : مطلوبا للعارفين والسائرين. وبالله التوفيق.

ثم شرح ما يلقى أهل التكذيب من الهول والفظاعة ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ١٧ الى ١٩]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكانُوا قَوْماً بُوراً (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً (١٩)

قلت : «اتخذ» قد يتعدى إلى مفعول واحد ، كقوله : أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً «١» ، وقد يتعدى إلى مفعولين ، كقوله :

وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا «٢» ، فقرأ الجمهور : (أن نتّخذ) بالبناء لفاعل. وقرأ الحسن وأبو جعفر بالبناء للمفعول «٣». فالقراءة الأولى على تعديته لواحد ، والثانية على تعديته لاثنين. فالأول : الضمير فى (نتخذ) ، والثاني : (من أولياء). و(من) : للتبعيض ، أي : ما ينبغى لنا أن نتخذ بعض أولياء من

دونك لأن «من» لا تزاد فى المفعول الثاني ، بل فى الأول ، تقول : ما اتخذت من أحد وليّا ، ولا تقول : ما اتخذت أحدا من ولى. وأنكر القراءة أبو عمرو بن العلاء وغيره ، وهو محجوج لأن قراءة أبى جعفر من المتواتر.

---

(١) من الآية ٨ من سورة الأنبياء

(٢) من الآية ١٢٥ من سورة النساء.

(٣) أي : (نتّخذ) بضم النون وفتح الخاء.

(٨٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٨٤

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ «١» ، أو : يوم يحشرهم اللّه جميعا للبعث والحساب ، يكون ما لا تفى به العبارة من الأهوال الفظيعة والأحوال الغريبة ، فيحشرهم وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ من الملائكة والمسيح وعزير. وعن الكلبي : الأصنام ينطقها اللّه ، وقيل : عام فى الجميع. و(ما) : يتناول العقلاء وغيرهم لأنه أريد به الوصف ، كأنه قيل : ومعبودهم. فَيَقُولُ الحق جل جلاله للمعبودين ، إثر حشر الكل تقريعا للعبدة وتبكيتا : أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ ، بأن دعوتموهم إلى عبادتكم ، أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ أي : عن السبيل بأنفسهم بإخلالهم بالنظر الصحيح ، وإعراضهم عن الرشد.

وتقديم الضميرين على الفعلين بحيث لم يقل : أضللتم عبادى هؤلاء أم ضلوا السبيل لأن السؤال ليس عن نفس الفعل ، وإنما هو عن متوليه والمتصدي له ، فلابد من ذكره ، وإيلائه حرف الاستفهام. ليعلم أنه المسئول عنه. وفائدة سؤالهم ، مع علمه تعالى بالمسئول عنه لأن يجيبوا بما أجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم ، فتزيد حسرتهم.

قالُوا فى الجواب : سُبْحانَكَ تعجيبا مما قيل ، لأنهم إما ملائكة معصومون ، أو جمادات لا تنطق ولا قدرة لها على شيء ، أو : قصدوا به تنزيه عن الأنداد ، ثم قالوا : ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أي : ما صح وما استقام لنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ أي : متجاوزين إياك ، مِنْ أَوْلِياءَ نعبدهم لما قام بنا من الحالة المنافية له ، فأنّى يتصوّر أن نحمل غيرنا على أن يتخذوا غيرك ، فضلا أن يتخذونا أولياء ، أو : ما كان يصح لنا أن نتولى أحدا دونك ، فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا أن يتولونا دونك حتى يتخذونا أربابا من دونك ، وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ بالأموال والأولاد وطول العمر ، فاستغرقوا فى الشهوات ، وانهمكوا فيها حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ أي :

غفلوا عن ذكرك ، وعن الإيمان بك ، واتباع شرائعك ، فجعلوا أسباب الهداية من النعم والعوافي ،

ذريعة إلى الغواية. وَكانُوا ، فى قضائك وعلمك الأزلى ، قَوْماً بُوراً هالكين ، جمع : بائر ، كعائذ وعوذ.
ثم يقال للكفار بطريق الالتفات : فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ ، وهو احتجاج من اللّه تعالى على العبدة مبالغة فى تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب ، أي : فقال اللّه جل جلاله عند ذلك للعبدة : فقد كذبكم المعبودون أيها الكفرة ، بِما تَقُولُونَ أي : فى قولكم : هؤلاء أضلونا. والباء بمعنى «فى» ، وعن قنبل :
بالياء ، والمعنى : فقد كذبوكم بقولهم : (سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) ، والباء حينئذ كقولك : كتبت بالقلم.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وحفص : «يحشرهم» بالياء ، وقرأ الباقون بالنون .. انظر الإتحاف (٢/ ٣٠٦).

(٨٤/٤)

فما يستطيعون «١» فما يملكون صَرْفاً دفعا للعذاب عنكم وَلا نَصْراً أي : فردا من أفراد النصر.
والمعنى : فما تستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب أو ينصروكم. وعن حفص بالتاء ، أي : فما تستطيعون أنتم أيها الكفرة صرفا للعذاب عنكم ، ولا نصر أنفسكم.
ثم خاطب المكلّفين على العموم فقال : وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ يشرك بدليل قوله : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ «٢» لأن الظلم : وضع الشيء فى غير محله ، ومن جعل المخلوق شريكا لخالقه فقد ظلم ظلما عظيما.
أي : ومن يظلم منكم أيها المكلفون ، كدأب هؤلاء الكفرة ، حيث ركبوا متن المكابرة والعناد ، واستمروا على الملاجحة والفساد ، نُذِقْهُ فى الآخرة عَذاباً كَبِيراً لا يقادر قدره ، وهو الخلود فى النار ، والعياذ بالله.
الإشارة : كل من عشق شيئا وأحبه من دون اللّه فهو عابد له ، فردا أو متعددا ، فيحشر معه يوم القيامة ، فيقال لهم : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل؟ فيتبرؤون منهم ، ويقولون : بل متعتهم بالدنيا ، وألهيتهم عن الذكر والتفكر والاعتبار ، أو عن الشهود والاستبصار ، حتى نسوا ذكر اللّه ، وكانوا قوما بورا. وقد ورد : (أن الدنيا تبعث يوم القيامة على هيئة عجوز شمطاء زرقاء ، فتنادى : أين أولادى؟ فيجمعون لها كرها ، فتقدمهم ، فتوردهم النار). وقوله تعالى : وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ أي : يخرج عن حد الاستقامة فى العبودية ، وشهود عظمة الربوبية ، نذقه عذابا كبيرا ، وهو ضرب الحجاب على

سبيل الدوام ، إلا وقتا مخصوصا مع العوام. وبالله التوفيق.

ثم أجاب الحق تعالى عن قول الكفرة : (مال هذا الرسول يأكل الطعام ...) إلخ ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٢٠]

وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠)

قلت : كسرت (إنّ) لأجل اللام في الخبر. والجملة بعد (إلا) : صفة لمحذوف ، أي : وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين إلا آكلين وماشين ، وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور ، يعنى من المرسلين ، وهو كقوله تعالى : وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ «٣» ، أي : وما منا أحد. وقيل : هى حال ، والتقدير : إلا وأنهم ليأكلون.

يقول الحق جل جلاله ، فى جواب المشركين عن قولهم : ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ «٤» تسلية لنبيه صلى اللّه عليه وسلّم : وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا وصفتهم إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ بشر

---

(١) قرأ حفص (فما تستطيعون) بالتاء من فوق ، على خطاب العابدين. وقرأ الباقون بالياء على الغيب ، على إسناده إلى المعبودين.

انظر الإتحاف (٢/ ٣٠٧).

(٢) من الآية ١٣ من سورة لقمان.

(٣) من الآية ١٦٤ من سورة الصافات.

(٤) من الآية ٧ من سورة الفرقان.

يأكلون الطَّعامَ ، مفتقرون إليه فى قيام بنيتهم ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ فى طلب حوائجهم ، فليس ببدع أن تكون أنت كذلك ، وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أي : محنة ، وهو كالتعليل لما قبله ، أي : إنما جعلت الرسل مفتقرين للمادة ، وفقراء من المال ، يمشون فى الأسواق لطلب المعاش ابتلاء ، وفتنة ، واختبارا لمن تبعهم ، من غير طمع ، ولم يعرض عنهم لأجل فقرهم ، فقد جعلت بعضكم لبعض فتنة.

قال ابن عباس : أي : جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم ، وترون من خلافهم ، وتتبعوا الهدى بغير أن أعطيكم عليه الدنيا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى ، فلا يخالفون ،

لفعلت ، ولكن قدرت أن أبتلى العباد بكم وأبتليكم بهم «١». هـ.
فالحكمة فى فقر الرسل من المال : تحقيق الإخلاص لمن تبعهم ، وإظهار المزية لهم حيث تبعوهم بلا حرف.
قال النسفي : أو جعلناك فتنة لهم لأنك لو كنت صاحب كنوز وجنات لكانت طاعتهم لأجل الدنيا ، أو ممزوجة بالدنيا ، فإنما بعثناك فقيرا لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا. هـ.
قال فى الحاشية : وقد قيل : إن الدنيا دار بلاء وامتحان ، فأراد تعالى أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض ، على العموم فى جميع الناس : مؤمن وكافر ، بمعنى : أن كل واحد مختبر بصاحبه ، فالغنى ممتحن بالفقير ، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه. والفقير ممتحن بالغنى ، عليه ألا يحسده ، ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه ، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق الذي عليه ، وتوجه إليه من ذلك لأن الدار دار تكليف بموجبات الصبر ، وقد جعل تعالى إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين ، واختبارا لهم. ولمّا صبروا نزل فيهم : إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا «٢».
والحاصل : أن اللّه تعالى دبّر خلقه ، وخص كلا بما شاء ، من غنى أو فقر ، أو علم أو جهل ، أو نبوة أو غيرها. وكذا سائر الخصوصيات ليظهر من يسلّم له حكمه وقسمته ، ومن ينازعه فى ذلك ، ومن يؤدى حق ما توجه عليه من ذلك فيكون شاكرا صابرا ، ومن لا ، وهو أعلم بحكمته فى ذلك ، ولذلك قال : وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً. هـ.
وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل ، والوليد بن عتبة ، والعاص ، حين رأوا أبا ذر وعمارا وصهيبا ، وغيرهم من فقراء المسلمين ، قالوا : أنسلم فنكون مثل هؤلاء؟ فنزلت الآية ، تخاطب هؤلاء المؤمنين : أتصبرون على هذه الحالة من الشدة والفقر؟ هـ.
قال النسفي : أتصبرون على هذه الفتنة فتؤجروا ، أم لا تصبرون فيزداد غمّكم؟ حكى أن بعض الصالحين تبرّم بضنك عيشه ، فخرج ضجرا ، فرأى [خصيا فى] «٣» مواكب ومراكب ، فخطر بباله شىء ، فإذا بقارئ يقرأ هذه الآية ، فقال : بل نصبر ، ربّنا. هـ.

---

(١) انظر تفسير البغوي ٦/ ٧٧.
(٢) من الآية ١١١ من سورة المؤمنون.
(٣) في الأصول المخطوطة [فى حصباء] ، والمثبت هو الذي فى تفسير النسفي. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٨٧

قال القشيري : هو استفهام بمعنى الأمر ، فمن قارنه التوفيق صبر وشكر ، ومن قارنه الخذلان أبى وكفر. هـ.

وقيل : هو الأمر بالإعراض عما جعل فى نظره فتنة ، كما قال : وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ «١» ، فينبغى ألا ينظر بعض إلى بعض ، إلا لمن دونه ، كما ورد فى الخبر «٢». هـ.

وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً عالما بالحكمة فيما يبتلى به ، أو : بمن يصبر ويجزع. وقال أبو السعود : هو وعد كريم لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم بالأجر الجزيل لصبره الجميل ، مع مزيد تشريف له - عليه الصلاة والسلام - بالالتفات إلى اسم الرب مضافا إلى ضميره صلى اللّه عليه وسلم. هـ.

الإشارة : الطريق الجادة التي درج عليها الأنبياء والأولياء هى سلوك طريق الفقر والتخفيف من الدنيا ، إلا قدر الحاجة ، بعد التوقف والاضطرار ، ابتداء وانتهاء ، حتى تحققوا بالله. ومنهم من أتته الدنيا بعد التمكين فلم تضره. والحالة الشريفة : ما سلكها نبينا صلى اللّه عليه وسلم وهو التخفيف منها وإخراجها من اليد ، حتى مات ودرعه مرهونة عند يهودى ، فى وسق من شعير. وعادته تعالى ، فيمن سلك هذا المسلك ، أن يديل الغنى فى عقبه ، فيكونون أغنياء فى الغالب. واللّه تعالى أعلم.

وما وصف به الحق تعالى رسله من كونهم يأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق ، هو وصف للأولياء أيضا - رضى اللّه عنهم - فيمشون فى الأسواق للعبرة والاستبصار فى تجليات الواحد القهار ، فحيث يحصل الزحام يعظم الشهود للملك العلام ، وفى ذلك يقول الششترى رضي اللّه عنه : عين الزحام هو الوصول لحيّنا.

وكان شيخ أشياخنا - سيدى على العمراني - يقول لأصحابه : من أراد أن يذوق فليمش إلى السوق. هـ.

فينبغى للمريد أن يربى فكرته فى العزلة والخلطة والخلوة والجلوة ، ولا يتقصر على تربيتها فى العزلة فقط لئلا يتغير حاله فى حال الخلطة فيبقى ضعيفا. فالعزلة تكون ابتداء ، قبل دخول بلاد المعاني ، فإذا دخل بلاد المعاني فليختر الخلطة على العزلة ، حتى يستوى قلبه فى الخلوة والجلوة ، فالعزلة عن الناس عزلة الضعفاء والعزلة بين الناس عزلة الأقوياء. فالمشى فى الأسواق والأكل فيها من سنة الفقراء ، أهل الأحوال مجاهدة لنفوسهم ، وترييضا لها على إسقاط مراقبة الخلق ، والخوف منهم. وقد ورد أن اللّه تعالى أمر بذلك نبيه صلى اللّه عليه وسلم تشريفا لأهل الأحوال ، كما ذكره صاحب اللباب عند قوله : ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ ...

---

(١) من الآية ١٣١ من سورة طه.

(٢) قال صلى اللّه عليه وسلم : «إذا نظر أحدكم إلى من فضّل عليه فى المال والخلق ، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضّل عليه». أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب لينظر إلى من هو أسفل منه ، ح

٤٦٩٠) ، ومسلم فى (الزهد والرقائق ، ٤/ ٢٢٧٥ ، ح ٢٩٦٣) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٨٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٨٨

ومن آداب الداخل فى السوق : أن يكون ماشيا على رجليه ، لا راكبا ، كما وصف اللّه تعالى الرسل - عليهم السلام. وفى قوله تعالى : وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ : تسلية لمن يبتلى من الأولياء ، وتهوين له على ما يلقاه من شدائد الزمان ، وإذاية الإخوان ، وجفوة الناس. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى من أقاويل الكفرة ليبطلها كما أبطل ما قبلها ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٢١ الى ٢٤]

وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (٢٢) وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (٢٣) أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤)

قلت : (و قال) : عطف على : (و قالوا مال هذا الرسول ...) إلخ ، ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن ما حكى عنهم من الشناعة بحيث لا يصدر ممن يعتقد المصير إلى اللّه - عز وجل - .

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا أي : لا يتوقعون الرجوع إلينا بالبعث ، أو حسابنا المؤدى إلى سوء العذاب ، الذي تستوجبه مقالاتهم الشنيعة. والحاصل : أنهم ينكرون البعث بالكلية ، فأطلق الرجاء على التوقع. وقيل : لا يخافون لقاءنا لأن الرجاء فى لغة تهامة : الخوف ، قالوا : لَوْ لا هلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ رسلا دون البشر ، أو : يشهدون بنبوة محمد ودعوى رسالته ، أَوْ نَرى رَبَّنا جهرة ، فيخبرنا برسالته ، ويأمرنا باتباعه ، وإنما قالوا ذلك عنادا وعتوا.

قال تعالى : لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أي : أضمروا الاستكبار ، وهو الكفر والعناد فى قلوبهم ، أو : عظموا فى أنفسهم حتى اجترءوا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشنعاء ، وَعَتَوْا أي : تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان عُتُوًّا كَبِيراً بالغا أقصى غاياته ، أي : إنهم لم يجترءوا على هذا القول العظيم إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار ، وأقصى العتو ، حتى أمّلوا نيل المشاهدة والمعاينة والمفاوضة التي اختص بها أكابر الرسل وخاصة الأولياء ، بعد تطهير النفوس وتصفية القلوب والأرواح. وهذا كقولهم : وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ... إلى قوله : أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا «١». ولم يكتفوا بما رأوا من المعجزات القاهرة فذهبوا فى الاقتراح كل مذهب ، حتى منّتهم أنفسهم الخبيثة أمالى سدت دونها مطامع النفوس

القدسية. واللام : جواب قسم محذوف ، أي : واللّه لقد استكبروا ..
الآية. وفيه من الدلالة على قبح ما هم عليه ، والإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم ، ما لا يخفى.

---

(١) الآيات : ٩٠ - ٩٢ من سورة الإسراء.

(٨٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٨٩
يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ عند الموت أو البعث. ويَوْمَ : منصوب باذكر ، أو بما دل عليه : لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ فإنه بمعنى : يمنعون البشرى ، أو : لا يبشر المجرمون. انظر البيضاوي. والجملة : استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملائكة ، بعد استعظامه وبيان كونه في غاية ما يكون من الشناعة. وإنما قيل : يوم يرون ، دون أن يقال : يوم تنزل إيذانا ، من أول الأمر ، بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه ، بل على وجه آخر غير معهود. وتكرير (يومئذ) لتأكيد التهويل ، مع ما فيه من الإيذان بأن تقديم الظرف للاهتمام ، لا لقصر نفي البشرى على ذلك الوقت فقط فإن ذلك مخل بتفيظع حالهم. و(للمجرمين) :
تعيين على أنه مظهر ، وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالإجرام ، مع ما هم عليه من الكفر والطغيان.
وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً على ما ذكر من الفعل المنفي ، أي : لا يبشرون ، ويقولون. وهو ينبئ عن كمال فظاعة ما يحيق بهم من الشر ، وغاية هول مطلعه ، أي : يقولون ، عند مشاهدة ملائكة العذاب : حجرا محجورا ، أي : منعا ممنوعا منكم ، وهي كلمة تقولها العرب عند لقاء عدو هائل ، أو هجوم نازلة هائلة ، يضعونها موضع الاستعاذة ، فكأن المعنى : نسأل اللّه تعالى أن يمنع ذلك عنّا منعا ، ويحجره عنا حجرا. والمعنى : أنهم يطلبون نزول الملائكة - عليهم السلام - ويقترحونه ، وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة ، وفزعوا منهم فزعا شديدا. وقالوا ، عند رؤيتهم ، ما كانوا يقولون عند نزول خطب شنيع وبأس فظيع.
وقيل : هو قول الملائكة ، أي : تقول الملائكة للمجرمين ، حين يرونهم : حجرا محجورا ، أي : حراما محرما عليكم البشرى ، أي : جعل اللّه ذلك حراما عليكم ، إنما البشرى للمؤمنين. و(الحجر) : مصدر ، يفتح ويكسر ، وقرئ بهما. من حجره إذا منعه. وهو من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها. ومحجورا : لتأكيد معنى الحجر ، كما قالوا : موت مائت. وانظر ما وجّه به وقف الهبطى على «حجرا» فلعله الأوجه له.

ثم ذكر مآل أعمالهم ، فقال : وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً الهباء : شبه غبار يرى فى شعاع الشمس ، يطلع من كوّة. والقدوم هنا : مجاز. مثلت حال هؤلاء الكفرة وأعمالهم التي عملوها فى كفرهم من صلة رحم ، وإغاثة ملهوف ، وقرى ضيف ، وعتق ، ونحو ذلك ، بحال من خالف سلطانه ، فقدم إلى أشيائه ، وقصد إلى ما تحت يديه ، فأفسدها ، ومزقها كل ممزق ، ولم يترك لها عينا ولا أثرا ، أي : عمدنا إليها وأبطلناها ، أي : أظهرنا بطلانها بالكلية ، من غير أن يكون هناك قدوم. والمنثور : المفرّق ، وهو استعارة عن جعله لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع.

(٨٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٩٠

ثم ذكر ضدهم ، فقال : أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا أي : مكانا يستقرون فيه ، والمستقر : المكان الذي يستقر فيه فى أكثر الأوقات ، للتجالس والتحادث ، وَأَحْسَنُ مَقِيلًا : مكانا يأوون إليه للاستروح إلى أزواجهم. ولا نوم فى الجنة ، ولكنه سمى مكان استرواحهم إلى أزواجهم الحور مقيلا على طريق التشبيه. وروى أنه يفرغ من الحساب فى نصف ذلك اليوم ، فيقيل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار.

وقال سعيد الصواف : بلغني أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين ، حتى يكون ما بين العصر إلى غروب الشمس ، إنهم ليقيلون فى رياض الجنة حتى يفرغ من حساب الناس. وقرأ هذه الآية. هـ. وأما الكافر فيطول عليه ، كما قال تعالى : فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ «١».

قال أبو السعود : وفي وصفه بزيادة الحسن ، مع حصول الخيرية ، رمز إلى أنه مزين بفنون الزين والزخارف.

والتفضيل المعتبر فيهما : إما لإرادة الزيادة على الإطلاق ، أي : هم في أقصى ما يكون من خيرية المستقر وحسن المقيل ، وإما بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعمين فى الدنيا ، أو إلى ما لهم فى الآخرة ، بطريق التهكم بهم ، كما مرّ فى قوله : أَذلِكَ خَيْرٌ .. الآية. هـ.

الإشارة : هؤلاء طلبوا الرؤية قبل إبّانها وتحصيل شروطها ، وهى الإيمان بالله ، والإخلاص ، والخضوع لمن يدل على اللّه ، وذل النفس وتصغيرها فى طلب اللّه. ولذلك قال تعالى فى وصفهم - الذي منعهم من شهوده تعالى : لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً أي : ولو صغروا فى أنفسهم ، وخضعوا خضوعا كبيرا لحصل لهم ما طلبوا ، ولبشروا بما أملوا ، وفى ذلك يقول الشاعر :

تذلّل لمن تهوى فليس الهوى سهل إذا رضى المحبوب صحّ لك الوصل

تذلّل له تحظى برؤيا جماله ففى وجه من تهوى الفرائض والنّفل

وقيل لأبى يزيد رضي اللّه عنه ، حين قام يصلى بالليل : يا أبا يزيد ، خزائننا معمورة بالخدمة ، ائتنا من كوّة الذل والافتقار. وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي اللّه عنه : أتيت الأبواب كلها فوجدت عليها الزحام ، فأتيت باب الذل والفقر فوجدته خاليا ، فدخلت وقلت : هلموا إلى ربكم. أو كما قال.
وفى قوله تعالى : وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ .. إلخ ، الترغيب فى الإخلاص الموجب لقبول الأعمال ، والترهيب من الرياء والعجب ، الموجبان لإحباط الأعمال. وفى حديث معاذ عنه صلى اللّه عليه وسلم : «إن اللّه خلق سبعة أملاك قبل خلق السموات ، ووكل كل ملك بباب من أبواب السماء ، فتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء الأولى ، فيقول الملك : ردوه ، واضربوا به وجهه إنّ صاحبه كان يغتاب الناس ، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد إلى

---

(١) من الآية ٤ من سورة المعارج.

السماء الثانية ، فيقول الملك : ردوه إنه كان يفتخر على الناس فى مجالسهم ، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء الثالثة ، فيقول الملك : ردوه إنه كان يتكبر على الناس فى مجالسهم ، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء الخامسة ، فيقول الملك : ردوه إنه كان يحسد الناس ويقع فيهم ، ثم تصعد الحفظة إلى السماء السادسة ، فيقول الملك : ردوه إنه كان لا يرحم إنسانا قط ، بل كان يشمت بمن وقع فى بلاء ، أنا ملك الرحمة ، أمرنى ألا يجاوزنى عمله. ثم تصعد الحفظة إلى السماء السابعة ، فيقول الملك : ردوه إنه كان يحب الظهور والرفعة عند الناس ، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة ، وذكر ، وتفكر ، وحسن خلق ، فيقفون بين يدى اللّه ، ويشهدون له بالصلاح ، فيقول الرب جل جلاله : أنتم الحفظة على عمل عبدى ، وأنا الرقيب على قلبه ، إنه لم يردنى بهذا العمل ، أراد به غيرى ، فعليه لعنتى ، ثم تلعنه الملائكة والسموات. انتهى باختصار «١» ، وخرجه المنذرى. وتكلم فى وضعه. وبالله التوفيق.
ثم ذكر موطنا آخر لرؤية الملائكة ، على نمط ما تقدم ، فقال :
[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٢٥ الى ٢٩]
وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ

خَذُولاً (٢٩)

قلت : (الملك) : مبتدأ ، و(الحق) : صفته. و(للرحمن) : خبر ، و(يومئذ) : ظرف للاستقرار.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ تَشَقَّقُ أي : تنفتح ، فمن قرأ بالتخفيف : حذف إحدى التاءين ، وأصله : تتشقق. ومن شد : أدغم التاء فى الشين ، أي : تنشق السَّماءُ بِالْغَمامِ أي : عن الغمام ، فتنزل ملائكة السموات فى تلك الغمام ليقع الفصل بين الخلائق ، وهو المراد بقوله تعالى : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ ، وَالْمَلائِكَةُ «٢». قيل : هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ، ولم يكن إلا لبنى إسرائيل فى تيههم.

---

(١) ذكره مطولا المنذرى فى الترغيب والترهيب (١/ ٧١ - ٩٣) وقال : (رواه ابن المبارك فى الزهد عن رجل ، لم يسمه ، عن معاذ ، ورواه ابن حبان فى غير الصحيح ، والحاكم ، وغيرهما ، وروى عن علي وغيره. وبالجملة فآثار الوضع ظاهرة عليه فى جميع طرقه وبجميع ألفاظه. واللّه أعلم) قلت : والحديث ذكره ابن الجوزي فى الموضوعات (٣/ ١٥٤) بمعناه مطولا ، وعزاه للحاكم فى التاريخ.

(٢) من الآية ٦٥ من سورة البقرة.

وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا عجيبا غير معهود. روى أن السموات تنشق سماء سماء ، وتنزل ملائكة كل سماء فى ذلك الغمام ، وفى أيديها صحائف أعمال العباد ، فيفصل اللّه بين خلقه ، ولذلك قال : الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ أي : السلطنة القاهرة ، والاستيلاء العام ، الثابت الذي لا زوال له أصلا ، هو للرحمن وحده لأن كل ملك يزول يومئذ ، ولا يبقى إلا ملكه.

وفائدة التقييد ، مع أن الملك للّه فى الدنيا والآخرة لأن فى الدنيا قد تظهر صورة الملك للمخلوق مجازا ، ويكون له تصرف صوري ، بخلاف يوم القيامة ، ينقطع فيه الدعاوى ، ويظهر الملك للّه الواحد القهار ، وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً أي : وكان ذلك اليوم ، مع كون الملك للمبالغ فى الرحمة ، عَسِيراً أي : صعبا ، شديدا على النفوس بالنسبة للكافرين ، وأما على المؤمنين فيكون يسيرا ، بفضل اللّه تعالى. وقد جاء فى الحديث : أنه يهون يوم القيامة على المؤمنين ، حتى يكون أخف عليهم من صلاة مكتوبة ، صلّوها فى الدنيا. ففى حديث أبى سعيد الخدري حيث قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، قلت : يا رسول اللّه ، ما أطول هذا اليوم؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم : «والذي نفسى بيده إنّه ليخفّف على المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة

يصليها فى الدنيا» «١».
وَاذكر أيضا يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ ندما وتحسرا ، فعض اليد والأنامل : كناية عن شدة الغيظ والحسرة لأنها من روادفها ، فتذكر المرادفة ويراد بها المردوف ، فيرتفع الكلام بذلك فى طبقة الفصاحة ، ويجد السامع فى نفسه من الروعة ما لا يجده عند اللفظ المكنى عنه.
والمراد بالظالم : إما عقبة بن أبى معيط ، وكان خليلا لأبىّ بن خلف ، وكان عقبة يكثر مجالسة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقدم من سفر وصنع طعاما ، فدعا إليه أشراف قومه ، ودعا النبىّ صلى اللّه عليه وسلم ، فلما قرّب الطعام ، قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ما أنا بآكل من طعام ، حتى تشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأنى رسول اللّه». فقال عقبة : أشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأن محمدا رسول اللّه.
فأكل النبي صلى اللّه عليه وسلم طعامه ، وكان أبىّ بن خلف غائبا ، فلما أخبر ، قال له : صبأت يا عقبة؟ فقال : لا ، واللّه ما صبأت ، ولكن دخل علىّ رجل فأبى أن يأكل من طعامى إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم ، فشهدت له ، فطعم ، فقال : ما أنا بالذي أرضى عنك أبدا ، حتى تأتيه فتبزق فى وجهه ، وتطأ عنقه ، فوجده صلى اللّه عليه وسلم ساجدا ، ففعل ذلك ، وأخذ رحم دابته فألقاها بين كتفيه ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «لا ألقاك خارجا من مكّة إلا علوت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ٧٥) ، وابن حبان (الإحسان ، تحقيق الأرنؤوط ١٦/ ٣٢٩ ح ٧٣٣٤) ، وأبو يعلى (٢/ ٥٢٧ ح ١٣٩٠) ، وحسّنه الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٣٣٩).

رأسك بالسيف». فقتل عقبة يوم بدر صبرا. وأما أبىّ فقتله النبي صلى اللّه عليه وسلم بيده ، يوم أحد ، فى المبارزة ، طعنه فى عنقه ، فمات بمكة «١».
وعن الضحاك : لما بصق عقبة - بأمر أبىّ - فى وجه النبي صلى اللّه عليه وسلم ، رجع بصاقه فى وجهه ، وشوى وجهه وشفتيه ، حتى أثر فى وجهه وأحرق خديه ، فلم يزل فى وجهه حتى قتل ، وقتله علىّ ببدر بأمره صلى اللّه عليه وسلم بقتله. هـ.
وقال الشعبي : كان عقبة بن أبى معيط خليلا لأبي بن خلف ، فأسلم عقبة ، فقال أبىّ : وجهى من وجهك حرام ، أن تابعت محمدا ، فارتدّ لرضا صاحبه ، فنزلت الآية «٢». هـ.
وإمّا جنس الظالم ، ويدخل عقبة فيه دخولا أوليا.
يَقُولُ يا لَيْتَنِي ، الياء لمجرد التنبيه ، من غير تعيين المنبّه ، أو : المنبه محذوف ، أي : يا هؤلاء لَيْتَنِي

اتَّخَذْتُ فى الدنيا مَعَ______________

(١) من الآية ٤٨ من سورة القصص.

(٢) من الآية ٢ من سورة المائدة.

(٩٣/٤)

البحر المديد ج ٤ ، ص : ٩٤

(٩٤/٤)

البحر المديد ج ٤ ، ص : ٩٥

(٩٥/٤)

البحر المديد ج ٤ ، ص : ٩٦

(٩٦/٤)

البحر المديد ج ٤ ، ص : ٩٧

(٩٧/٤)

البحر المديد ج ٤ ، ص : ٩٨

(٩٨/٤)

البحر المديد ج ٤ ، ص : ٩٩

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٠٠

قلت : (و قوم) : منصوب بمضمر يدل عليه (دمرناهم) ، أي : ودمرنا قوم نوح ، و(عادا وثمودا) : عطف على (قوم نوح).

يقول الحق جل جلاله : وَدمرنا أيضا قَوْمَ نُوحٍ ، وذلك أنهم لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ نوحا ، ومن قبله شيثا وإدريس ، أو : لأن تكذيبهم لواحد تكذيب للجميع لاتّفاقهم على التوحيد والإسلام ، أَغْرَقْناهُمْ بالطوفان ، وَجَعَلْناهُمْ أي : وجعلنا إغراقهم أو قصتهم لِلنَّاسِ آيَةً : عبرة يعتبر بها كل من يشاهدها أو يسمعها. وَأَعْتَدْنا هيأنا لِلظَّالِمِينَ أي : لهم. وأظهر فى موضع الإضمار للإيذان بتجاوزهم الحد فى الظلم ، أو لكل ظالم ظلم شرك ، فيدخل كل من شاركهم ، كقريش وغيرهم ، أي : هيأنا عَذاباً أَلِيماً ، أي : النار المؤبدة عليهم.

وَدمرنا أيضا عاداً وَثَمُودَ ، وقد تقدم فى الأعراف «١» ، وهو كيفية تدميرهم. وَأَصْحابَ الرَّسِّ ، هم قوم شعيب قال ابن عباس : أصحاب الرسّ : أصحاب البئر. قال وهب : كانوا أهل بئر ، قعودا عليها ، وأصحاب مواشى ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل اللّه إليهم شعيبا ، فآذوه ، وتمادوا فى طغيانهم ، فبينما هم حول البئر - والبئر فى وسط منازلهم - انهارت بهم وبديارهم ، فهلكوا جميعا. وقال قتادة : الرسّ : قرية بفلح اليمامة ، قتلوا نبيّهم فأهلكهم اللّه. وقيل : هم بقية قوم هود وقوم صالح ، وهم أصحاب البئر ، التي قال : وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ «٢».

وقال سعيد بن جبير وغيره : قوم كان لهم نبى ، يقال له : حنظلة بن صفوان ، وكان بأرضهم جبل ، يقال له :

فتخ ، مصعده فى السماء ميل ، وكانت العنقاء تنتابه ، وهى كأعظم ما يكون من الطير ، وفيها من كل لون - وسموها العنقاء لطول عنقها - وكانت تنقض على الطير فتأكلها ، فجاعت ذات يوم ، فانقضت على صبى فذهبت به ، - وسميت عنقاء مغرب لأنها تغرّب ما تأكله عن أهله ، فتأكله - ثم انقضت على جارية قد ترعرعت ، فأخذتها فطارت بها ، فشكوا إلى نبيهم ، فقال : اللهم خذها واقطع نسلها ، فأصابتها صاعقة ، فاحترقت ، فلم ير لها أثر ، فصارت مثلا عند العرب. ثم إنهم قتلوا نبيهم فأهلكهم اللّه. وقال مقاتل والسدى : هم أصحاب بئر أنطاكية ، وتسمى الرس ، قتلوا فيها حبيبا النجار ، فنسبوا إليها ، وهم الذين ذكروا فى (يس). وقيل : هم أصحاب الأخدود الذين حفروه ، والرسّ فى كلام العرب : كل محفور مثل البئر ، والقبر ، والمعدن ، وغير ذلك ، وجمعها : رساس. وقال عكرمة : هم قوم رسّوا نبيهم فى بئر.

---

(١) راجع تفسير الآيات : ٦٥ – ٧٨ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٤٥ من سورة الحج.

(٤/١٠٠)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٠١

قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «إن أول الناس ممّن يدخل الجنة عبد أسود ، وذلك أن اللّه تعالى بعث نبيا إلى قرية ، فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود ، فحفر أهل القرية بئرا وألقوا فيها نبيهم ، وأطبقوا عليها بحجر ضخم ، فكان العبد يحتطب على ظهره ، ويبيعه ، ويأتيه بطعامه ، فيعينه اللّه تعالى على رفع تلك الصخرة حتى يدليه إليه. فبينما هو يحتطب ذات يوم إذ نام ، فضرب على أذنه سبع سنين ، ثم جاء بطعامه إلى البئر فلم يجده. وكان قومه قد بدا لهم فاستخرجوه وآمنوا به ، ومات ذلك النبي ، فقال – عليه الصلاة والسلام : «إنّ ذلك الأسود لأوّل من يدخل الجنّة» «١» ، يعنى : من قومه. هـ.
وهؤلاء آمنوا فلا يصح حمل الآية عليها ، إلا أن يكونوا أحدثوا شيئا بعد نبيهم ، فدمرهم اللّه.
وقال جعفر بن محمد عن أبيه : أن أصحاب الرسّ : السحّاقات ، قال أنس : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «إنّ من أشراط السّاعة أن يستكفى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء» «٢» ، وذلك السحاق ، ويقال له أيضا : المساحقة ، وهو حرام بالإجماع. وسبب ظهوره : أن قوما أحدثوا فاحشة اللواط ، حتى استغنوا عن النساء ، فبقيت النساء معطلة ، فجاءتهن شيطانة فى صورة امرأة ، وهى الولهات بنت إبليس ، فشهّت إلى النساء ركوب بعضهن بعضا ، وعلمتهن كيف يصنعن ذلك ، فسلط عليهم صاعقة من أول الليل ، وخسفا من آخر الليل ، وصيحة مع الشمس ، فلم يبق منهم بقية. هـ.
وَقُرُوناً أي : دمرنا أهل قرون. والقرن : سبعون سنة ، وقيل : أقل ، وقيل : أكثر ، بَيْنَ ذلِكَ أي : بين ذلك المذكور من الأمم والطوائف ، كَثِيراً ، لا يعلم عددها إلا العليم الخبير ، وَكُلًّا من الأمم المذكورين قد ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ أي : بيّنا له القصص العجيبة ، الزاجرة عماهم عليه من الكفر والمعاصي ، بواسطة الرسل. وقيل : المراد : تبيين ما وقع لهم ، ووصف ما أدى إليه تكذيبهم لأنبيائهم ، من عذاب اللّه وتدميره إياهم ، ليكون عبرة لمن بعدهم ، وَكُلًّا أي : وكل واحد منهم تَبَّرْنا تَتْبِيراً أي : أهلكنا إهلاكا عجيبا. والتتبير :
التفتيت. قال الزجاج : كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته.
ثم بيّن بعض آثار الأمم المتبّرة ، فقال : وَلَقَدْ أَتَوْا يعنى : أهل مكة عَلَى الْقَرْيَةِ ، وهى سدوم ، وهى أعظم قرى قوم لوط ، وكانت خمسا ، أهلك اللّه أربعا ، وبقيت واحدة ، كان أهلها لا يعملون الخبيث ، وأما البواقي فأهلكها بالحجارة ، وإليه أشار بقوله : الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أي : أمطر اللّه عليها

الحجارة. والمعنى : واللّه لقد أتى قريش فى متاجرهم إلى الشام على القرية التي أهلكها اللّه ، وبقي آثارها خاربة ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها

---

(١) أخرجه الطبري فى التفسير (١٩١/ ١٤) عن محمد بن كعب القرطبي ، وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٨).

(٢) أخرجه الطبراني فى المعجم الكبير (١٠/ ٢٨٢ ح ١٠٥٥٦) مطولا من حديث ابن مسعود رضى اللّه عنه وفيه : «يا ابن مسعود إن أعلام الساعة وأشراطها ..» الحديث. قال فى مجمع الزوائد ٧/ ٣٢٣. رواه الطبراني فى الأوسط. وفيه : سيف بن مسكين ، وهو ضعيف.

(٤/١٠١)

فى مرورهم ورجوعهم ، فيتفكرون ويؤمنون ، بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً أي : بل كانوا قوما كفرة بالبعث ، لا يخافون ولا يأملون بعثا ، كما يأمله المؤمنون لطمعهم فى الوصول إلى ثواب أعمالهم. أو : بل كانوا قوما كفرة بالبعث ، منهمكين فى الغفلة ، يرون ما نزل بالأمم أمرا اتفاقيا ، لا بقدرة الباقي ، فطابع الكفر منعهم من التفكر والاعتبار. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للمؤمن العاقل ، المشفق على نفسه ، أن ينظر فيمن هلك من الأمم السالفة ، ويتأمل فى سبب هلاكهم ، فيشديده على الاحتراز مما استوجبوا به الهلاك ، وهو مخالفة الرسل وترك الإيمان فيشديده على متابعة ما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم من الأوامر والنواهي ، ويرغب فيما رغّب فيه ، ويهتدى بهديه ، ويقتدى بسنته ، ويربى إيمانه ، ويجعل البعث والنشر والحشر بين عينيه ، فهذه طريق النجاة. وينبغى للمريد ، إذا رأى فقيرا سقط من درجة الإرادة ويبست أشجاره ، أن يحترز من تلك الزلاقة التي زلق فيها ، فيبحث عن سبب رجوعه ، ويجتنبه جهد استطاعته. ومرجعها إلى ثلاث : خروجه من يد شيخه إلى غيره ، وسقوط تعظيم شيخه من قلبه بسبب اعتراض أو غيره ، واستعمال كثرة الأحوال ، حتى يلحقه الملل. نسأل اللّه الحفظ من الجميع بمنّه وكرمه.

ثم ذكر وبال من لم يعظم الواسطة ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٤١ الى ٤٤]

وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

سَبِيلاً (٤٤)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا رَأَوْكَ أي : مشركو مكة إِنْ ما يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أي : مهزوءا بك ، أو محل هزؤ ، حال كونهم قائلين : أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ، ورسولا : حال من العائد المحذوف ، أي : هذا الذي بعثه اللّه رسولا ، والإشارة للاستحقار فى اعتقادهم وتسليمهم البعث والرسالة ، مع كونهم فى غاية الإنكار لهما على طريق الاستهزاء ، وإلا لقالوا : أبعث اللّه هذا رسولا.

(١٠٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٠٣

إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا أي : ليصرفنا عن عبادتها صرفا كليا ، والعدول إلى الإضلال لغاية ضلالتهم بادعاء أن عبادتها طريق سوى. لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها لصرفنا عنها ، وهو دليل على مجاهدة الرسول صلى اللّه عليه وسلم فى دعوتهم ، وإظهار المعجزات لهم ، حتى شارفوا أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام ، لو لا فرط لجاجهم وتقليدهم.

قال تعالى : وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ الذي يستوجبه كفرهم وعنادهم ، مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ، وأخطأ طريقا. وفيه ما لا يخفى من الوعيد والتنبيه على أنه تعالى يمهل ولا يهمل.

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أي : أطاع هواه فيما يذر ويفعل ، فصار معبوده هواه ، يقول لرسوله صلى اللّه عليه وسلم : هذا الذي لا يرى معبوده إلا هواه ، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى وتهديه إليها؟ يروى أن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر ، فإذا مر بحجر أحسن منه تركه وعبد الثاني. وقال الحسن : هو فى كل متبع هواه. أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا حفيظا تحفظه عن متابعة هواه وعبادة ما يهواه. والفاء لترتيب الإنكار على ما قبله ، كأنه قيل : أبعد ما شاهدت من غلوه فى طاعة الهوى ، وعتوه عن اتباع الهدى ، تقهره على الإيمان ، شاء أو أبى ، وإنما عليك التبليغ فقط.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، «أم» : منقطعة ، بمعنى بل ، أي : بل أتظن أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات حق السماع ، أو يعقلون ما فى تضاعيفها من المواعظ والأنكال؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ أي : ما هم ، فى عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات ، وانتفاء التأثير بما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات ، إلّا كالبهائم ، التي هى غاية فى الغفلة ، ومثل فى الضلالة ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا لأن البهائم تنقاد لصاحبها الذي يعلفها ويتعاهدها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها ، وتهتدى لمراعيها ومشاربها ، وتأوى إلى معاطنها ، وهؤلاء لا ينقادون لخالقهم ورازقهم ، ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان ، الذي هو أعدى عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذي هو أقبح المضار والمعاطب ، ولا

يهتدون إلى الحق ، الذي هو الشرع الهنى ، والمورد العذب الروى ، ولأنها ، إن تعتقد حقا مستتبعا لاكتساب الخير ، لم تعتقد باطلا مستوجبا لاقتراب الشر ، بخلاف هؤلاء حيث مهّدوا قواعد الباطل ، وفرعوا أحكام الشرور ، ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة عليها ، لا تتعدى إلى أحد ، وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفساد ، وصد الناس عن سنن السداد ، وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد ، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال ، لعدم القوى العقلية ، فلا تقصير من قبلها ، ولا ذم ، وهؤلاء متمكنون من القوى العقلية مضيعون الفطرة الأصلية ، مستحقون بذلك أعظم العقاب ، وأشد النكال. هـ. وأصله للبيضاوى.

(١٠٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٠٤

الإشارة : تعظيم الرسول صلى اللّه عليه وسلم وإجلاله وتوقيره من أعظم ما يقرب إلى اللّه ، ويوصل إلى رضوان اللّه ، ويدخل العبد على مولاه لأنه باب اللّه الأعظم ، والواسطة الكبرى بين اللّه وبين عباده ، فمن عظّمه صلى اللّه عليه وسلم وبجلّه وخدمه أتم الخدمة ، أدخله الحضرة ، على التوقير والتعظيم والهيبة والإجلال. ومن حاد عن متابعته فقد أتى البيت من غير بابه كمن دخل حضرة الملك بالتسور ، فيستحق القتل والطرد والبعد. وإدخاله على اللّه : دلالته على من يعرفه بالله ، وقد يوصله بلا واسطة ، لكنه نادر. ومن أهمل هذا الجانب واستصغره طرده اللّه وأبعده ، وانسحب عليه قوله : وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً ، وكان ممن اتخذ إلهه هواه ، وكان كالبهائم ، أو أضل لأن من اتبع الواسطة كان هواه تابعا لما جاء من عند اللّه ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : «لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تبعا لما جئت به».

وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل توحيده ، بعد بيان من غفل عنها وضل ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٤٥ الى ٥٠]

أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً (٤٩)

وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد إِلى رَبِّكَ أي : ألم تنظر إلى بديع صنع ربك ودلائل قدرته

وتوحيده. والتعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - ، لتشريفه وتبجيله ، وللإيذان بأن ما يعقبه من آثار قدرته ورحمته ، كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ أي : بسطه حتى عمّ الأرض ، وذلك من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس ، فى قول الجمهور لأنه ظل ممدود ، لا شمس معه ولا ظلمة ، فهو شبيه بظل الجنة. وقيل : مد ظل الأشياء الشاخصة أول النهار من شجر ، أو مدر ، أو إنسان ، ثم قبضها وردها إلى المشرق.

وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً أي : دائما لا يزول ولا تذهبه الشمس ، أو : لا ينتقص بسيرها. ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ

(١٠٤/٤)

عَلَيْهِ

أي : على الظل دَلِيلًا ، لأنه بالشمس يعرف الظل ، فلو لا طلوعها وظهورها ما عرف الظل ، ولا ظهر له أثر ، فالأشياء تعرف بأضدادها.

ثُمَّ قَبَضْناهُ أي : أخذنا ذلك الظل الممدود إِلَيْنا إلى حيث إرادتنا قَبْضاً يَسِيراً أي : على مهل قليلا قليلا ، حسب ارتفاع دليله ، على حسب مصالح المخلوقات ومرافقها.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً أي : جعل الظلام الساتر كاللباس وَالنَّوْمَ سُباتاً أي : راحة لأبدانكم ، وقطعا لأعمالكم. والسبت : القطع ، والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته ، وقيل السبات : الموت ، والميت مسبوت لأنه مقطوع الحياة ، كقوله : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ «١». ويعضده ذكر النشور فى مقابلته بقوله : وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً أي : ذا نشور ، أي : انبعاث من النوم ، كنشور الميت ، أو : ينشر فيه الخلق للمعاش.

وهذه الآية ، مع دلالتها على قدرته تعالى ، فيها إظهار لنعمته تعالى لأن فى الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية ، وفى النوم واليقظة - المشبهين بالموت والبعث - عبرة للمعتبرين. قال لقمان لابنه : كما تنام فتوقظ ، كذلك تموت فتنشر.

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ ، وعن المكي بالإفراد ، نَشْراً «٢» : جمع نشور ، أي : أرسلها للسحاب حتى تسوقها إلى حيث أراد تعالى أن تمطر ، بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أي : أرسلها قدام المطر ، لأنه ريح ، ثم سحاب ، ثم مطر. وقرأ عاصم بالباء ، أي : مبشرات بالمطر. وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً أي : مطهرا بالغا فى التطهير ، كقوله : لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ «٣» وهو اسم لما يتطهر به ، كالوضوء والوقود ، لما يتوضأ به ويوقد به. وقيل : طهور فى نفسه ، مبالغة فى الطاهرية ، فالطهور فى العربية يكون صفة ، كما تقول : ماء طهور ، واسما ، كما فى قوله صلى اللّه عليه وسلم :

«التراب طهور ، والمؤمن طهور» ، وقد يكون مصدرا بمعنى الطهارة ، كقولك : تطهرت طهورا حسنا ، ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم : «لا صلاة إلا بطهور» «٤». ووصفه تعالى الماء بذلك ليكون أبلغ فى النعمة ، فإن الماء الطهور أنفع وأهنأ مما خالطه ما يزيل طهوريته ، أي : أنزلناه كذلك.

لِنُحْيِيَ بِهِ أي : بالمطر الطهور بَلْدَةً مَيْتاً بالجدب والقحط ، فحييت بالنبات والعشب. والتذكير لأن البلدة بمعنى البلد ، والمراد به : القطعة من الأرض عامرة أو غامرة. وَنُسْقِيَهُ أي : ذلك الماء الطهور ، عند

---

(١) من الآية ٦٠ من سورة الأنعام.

(٢) قرأ عاصم : «بشرا» بالباء ، وقرأ الباقون «بالنون» .. انظر الإتحاف (٢/ ٣٠٩).

(٣) من الآية ١١ من سورة الأنفال.

(٤) أخرجه بطوله مسلم فى (الطهارة ، باب وجوب الطهارة للصلاة ، ١/ ٢٠٤ ، ح ٢٢٤) من حديث ابن عمر. رضي اللّه عنه : (لا تقبل صلاة بغير طهور.) الحديث.

(٤/١٠٥)

جريانه فى الأودية ، أو اجتماعه فى الآبار والحياض ، مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً أي : نسقى ذلك بهائم وناسا كثيرا. والأناسى : جمع أنسيّ ، ككرسى وكراسى. وقيل : جمع إنسان ، وأصله : أناسين ، وأبدلت النون ياء ، وأدغمت التي قبلها فيها. وقدّم إحياء الأرض على سقى الأنعام والأناسى لأن حياتها سبب لحياتهما. وتخصيص الأنعام من بين سائر الحيوان لأن عامة منافع الإنسان متعلقة بها.

وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ أي : هذا القول ، الذي هو إنشاء السحاب وإنزال المطر ، على الوجه الذي مرّ من الغايات الجميلة ، فى القرآن وغيره من الكتب السماوية ، أو : صرفنا المطر عاما بعد عام وفى بلدة دون أخرى. أو : صرفناه بينهم وابلا ، وطلّا ، ورذاذا وديمة. وقيل : التصريف راجع إلى الريح. وقيل : إلى القرآن المتقدم فى قوله : لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ .. «١» ويعضده : وَجاهِدْهُمْ بِهِ «٢». وقوله : بَيْنَهُمْ أي : بين الناس جميعا متقدمين ومتأخرين ، لِيَذَّكَّرُوا ليتفكروا ويعرفوا قدر النعمة فيه ، أو : ليعرفوا بذلك كمال قدرته وسعة رحمته ، فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ ممن سلف وخلف إِلَّا كُفُوراً أي : جحودا لهذه النعمة وقلة اكتراث بها ، وربما نسبوها إلى غير خالقها ، فيقولون : مطرنا بنوء كذا.

وفى البخاري عنه صلى اللّه عليه وسلم يقول اللّه تعالى : «أصبح من عبادى مؤمن بي وكافر ، فأمّا من قال : مطرنا بفضل اللّه ورحمته فذلك مؤمن بي ، كافر بالكواكب. وأما من قال : مطرنا بنوء كذا ، فهو

كافر بي ، مؤمن بالكواكب» «٣». فمن نسب الأمطار إلى الأنواء ، وجحد أن تكون هى والأنواء من خلق اللّه ، فقد كفر ، ومن اعتقد أن اللّه خالقها ، وقد نصب الأنواء أمارات ودلالات عليها ، لم يكفر.

وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «ليس سنة بأمطر من الأخرى ، ولكن اللّه تعالى قسم هذه الأرزاق ، فجعلها فى سماء الدنيا ، فى هذا القطر ، ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم. ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حوّل اللّه ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعا صرف اللّه ذلك إلى الفيافي والبحار» «٤». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الكون كله ، من جهة حسه الظاهر ، ظل آفل ، وضباب حائل ، لا وجود له من ذاته ، وإنما الوجود للمعانى القديمة الأزلية. فنسبة الكائنات ، من بحر المعاني الأزلية ، كنسبة ظلال الأشجار فى البحار ، فظلال

---

(١) الآية ٣٢ من هذه السورة.

(٢) الآية ٥٢.

(٣) أخرجه البخاري فى (الاستسقاء ، باب قول اللّه تعالى : وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ح ١٠٣٨) ومسلم فى (الإيمان ، باب كفر من قال : مطرنا بالنوء ، ١/ ٨٣ ، ح ١٢٥) ، عن زيد بن خالد الجهني.

(٤) ذكره بلفظه البغوي فى تفسيره (٦/ ٨٩) وعزاه لابن إسحاق ، وابن جريج ، ومقاتل ، وبلغوا به ابن مسعود يرفعه. وأخرج الحاكم فى المستدرك (التفسير ٢/ ٤٠٣) ، عن ابن عباس : «ما من عام ، أمطر من عام ، ولكن اللّه قسم ذلك بين عباده على ما يشاء ، وتلا هذه الآية. يعنى : قوله : وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي على شرط الشيخين. [.....]

الأشجار فى البحار لا تمنع السفن من التسيار ، فكذلك ظلال الكائنات لا تمنع سفن الأفكار من الخوض فى بحار المعاني الأزلية الجبروتية ، بل تخرقها ، وتخوض فى بحار الأحدية الجبروتية ، الأولية والآخرية ، والظاهرية والباطنية ، والعلوية والسفلية ، ولا يحجبها عن اللّه ظل شىء من الكائنات ، وإليه الإشارة بقوله : ألم تر ، أيها العارف ، إلى ربك كيف مد الظل ، أي : مد ظل الكائنات ليعرف بها كنز ربوبيته وبطون غيبه ، ثم يرفع ذلك الظل عن عين البصيرة ، التي أراد فتحها ، فتشاهد بطون الأزل

وغيب الغيب ، وتصير عارفة بالله. ولو شاء لجعله ساكنا ، فيقع به الحجاب ، فيحجب العبد بسحب الآثار عن شهود الأنوار. ثم جعلنا شمس العرفان عليه أي : على الأثر ، دليلا ، فيستدل بالله على غيره ، فلا يرى غيره ، ثم قبضناه ، أي : ذلك الظل ، عن قلب السائر أو العارف ، قبضا يسيرا ، فيغيب عنه شيئا فشيئا ، حتى يفنى عن حسه وحس غيره من الكائنات ، فلا يشهد إلا المكوّن لأن ذلك إنما يكون بالتدرج والتدريب ، فإذا تحقق فناؤه رجع إلى شهود الأثر بالله «١» قياما برسم الحكمة ، وأداء لحق العبودية.

وهو الذي جعل ليل القبض لباسا ، أي : سترا ورداء من الهفوات لأن القبض يغلب فيه السكون ، وجانبه مأمون ، والنوم - أي : الزوال - سباتا ، أي : راحة من كد التدبير والاختيار ، وجعل نهار البسط نشورا ، تنتشر فيه العلوم وتنبسط فيه المعارف ، إن قام صاحبه بآدابه ، ولا يقوم به إلا القليل لأنه مزلة أقدام ، ولذلك قال فى الحكم :

«ربما أفادك فى ليل القبض ما لم تستفده فى إشراق نهار البسط ، لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا».

وهو الذي أرسل رياح الواردات الإلهية نشرا بين يدى رحمته ، أي : معرفته إذ لا رحمة أعظم منها ، وأنزلنا من سماء الغيوب ماءا طهورا ، وهو العلم بالله ، الذي تحيا به الأرواح والأسرار ، وتطهر به قلوب الأحرار ، لنحيي به بلدة ميتا ، أي : روحا ميتة بالجهل والغفلة ، ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا لأن ماء المعاني سار فى كل الأواني فماء التوحيد سار فى الأشياء كلها ، جهل هذا من جهله ، وعرفه من عرفه. وأكثر الناس جاحدون لهذا.

ولذلك قال تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ فكل شيء فيه سر من حياة هذا الماء ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا وجحودا له ، ولم ينتفع به إلا خواص أوليائه. وبالله التوفيق.

ثم إن هذا الماء إنما يسقى على أيدى الوسائط. وكان القياس تعددهم كتعدد سحابات الأمطار بتعدد الأقطار ، لكن خولف ذلك فى حق نبينا صلى اللّه عليه وسلم تشريفا لقدره ، وتعظيما لأمره ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٥١ الى ٥٢]

وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (٥١) فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً (٥٢)

---

(١) إذن فهو فناء شهود ، وليس فناء وجود. فتنبه ، أعزك اللّه.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً أي : رسولا ينذر أهلها ، ولقسمنا النذر بينهم كما قسمنا المطر ، فيخف عليك أعباء النبوة ، ولكنا لم نشأ ذلك فحملناك ثقل نذارة جميع القرى ، حسبما نطق به قوله تعالى : لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً «١» لتستوجب بذلك الدرجة القصوى ، وتفضل على سائر الرسل والأنبياء ، فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم. وكما آثرتك على جميع الأنبياء فآثر رضاى على جميع الأهواء ، وكأنه نهى للرسول صلى اللّه عليه وسلم عن المداراة معهم ، والتقصير فى الدعوة لئلا تغلبه الشفقة عن مقابلتهم بصريح الحق.

قال القشيري : فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ أي : كن قائما بحقّنا ، من غير أن يكون منك جنوح إلى غيرنا ، أو مبالاة بسوانا ، فإنّا نعصمك بكل وجه ، ولا نرفع عنك ظلّ عنايتنا بحال. هـ.

وَجاهِدْهُمْ بِهِ أي : بالقرآن بأن تقرأ عليهم ما فيه من الزواجر والقوارع والمواعظ ، وذكر أحوال الأمم الهالكة ، جِهاداً كَبِيراً عظيما موقعه عند اللّه لما يتحمل فيه من المشاق ، فإن دعوة كلّ العالمين ، على الوجه المذكور ، جهاد كبير ، أو : (جاهدهم به) بالشدة والعنف من غير مداداة ولا ملاينة ، فكبر الجهاد هو ملابسته بالشدة والعنف ، كقوله : جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ «٢». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الإنذار والوعظ بالمقال مع الهمة والحال عزيز الوجود ، فقلّ أن يجتمع منهم ، فى العصر الواحد ، ثلاثة أو أربعة فى الإقليم الكبير لأن اللّه تعالى لم يشأ ذلك بحكمته ، قال تعالى : وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً ، وكلما قلّ عددهم ، وعظم الانتفاع بهم ، عظم قدرهم ، فينبغى للمذكّر أن يذكّر كلّا بما يليق به ، فأهل العصيان ينبغى له أن يشدد فى الإنذار ، ولا يداريهم ولا يداهنهم. وأهل الطاعة ينبغى له أن يبشّرهم ويسهل الأمر عليهم ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : «يسّروا ولا تعسّروا ، ويشّروا ولا تنفّروا» «٣» ، فيحتاج المذكّر إلى فطنة وفراسة ، حتى يعطى كل واحد ما يليق به ، ويخاطب كل واحد بما يطيقه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دليلا آخر على كمال قدرته ، فقال :

---

(١) من الآية الأولى من سورة الفرقان.

(٢) من الآية ٧٣ من سورة التوبة ، والآية ٩ من سورة التحريم.

(٣) أخرجه البخاري فى (كتاب العلم ، باب : ما كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يتخولهم بالموعظة ، ح ٦٩) ومسلم فى (الجهاد والسير. باب الأمر بالتيسير وترك التنفير ، ٣/ ١٣٠٩ ، ح ١٧٣٤) من حديث أنس بن مالك - رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٠٩

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٥٣]

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (٥٣)

قلت : أصل المرج : الخلط والإرسال ، ومنه قوله تعالى : فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ «١» ، وقوله صلى اللّه عليه وسلم : «كيف بك يا عبد اللّه إذا كنت فى حثالة من الناس ، قد مرجت عهودهم وأماناتهم ، وصاروا هكذا ، وشبّك بين أصابعه» «٢».

يقال : مرجت دابته وأمرجتها : إذا أرسلتها فى المرعى. ومنه قيل للروضة : مرج.

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ أي : أرسلهما ، وخلّاهما متجاورين متلاصقين غير متمازجين. هذا عَذْبٌ فُراتٌ أي : شديد العذوبة ، قامع للعطش لعذوبته ، أي : برودته ، وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ : بليغ الملوحة ، أو : هذا عذب لا ملوحة فيه ، وهذا ملح لا عذوبة فيه ، مع اتحاد جنسهما ، وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً حائلا بقدرته ، يفصل بينهما ويمنعهما التمازج لئلا يختلطا ، وَحِجْراً مَحْجُوراً أي : وسترا ممنوعا عن الأعين ، كقوله : حِجاباً مَسْتُوراً «٣» ، أي : جعل بينهما حاجزا خفيا لئلا يغلب أحدهما الآخر ، أو : سدا ممنوعا يمنعهما فلا يبغيان ، ولا يفسد الملح العذب ، ولو خلّا اللّه تعالى البحر الملح ، ولم يلجمه بقدرته ، لفاض على الدنيا ، واختلط مع العذب وأفسده.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٥٤ الى ٥٥]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً (٥٥)

ثم ذكر دليلا آخر ، فقال : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ أي : النطفة بَشَراً إنسانا فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً. قسم البشر قسمين : ذوى نسب ، أي : ذكورا ، ينسب إليهم ، فيقال : فلان ابن فلان. وذوات صهر ، أي : إناثا يصاهر بهن ، فهو كقوله : فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى «٤». قال ابن جزى : والنسب : أن يجتمع إنسان مع آخر فى أب أو أمّ ، قرب ذلك أو بعد. والصهر : هو الاختلاط بالتناكح. هـ. وعن على رضي اللّه عنه : النسب ما لا يحل نكاحه ، والصهر : ما يحل نكاحه.
وعن الضحاك ومقاتل : النسب سبعة ، والصهر خمسة ، ثم قرأ هذه الآية : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ «٥». فالسبعة الأولى :

نسب ، والباقي : صهر. هـ. والأصح أن التسعة نسب ، والباقي صهر.

---

(١) من الآية ٥ من سورة ق.

(٢) أخرجه ابن حبان (الإحسان ٧/ ٥٧٥ ح ٥٩٢٠) عن أبى هريرة ، وأخرجه أحمد فى المسند (٢/ ١٦٢) ، وأبو داود فى (الملاحم ، باب الأمر والنهى ، ٤/ ٥١٣ ، ح ٤٣٤٢) وابن ماجه فى (الفتن

، باب التثبت فى الفتنة ، ٢/ ١٣٠٧ ح ٣٩٥٧) ، عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنه.
(٣) من الآية ٤٥ من سورة الإسراء.
(٤) من الآية ٣٩ من سورة القيامة.
(٥) من الآية ٢٣ من سورة النساء.

(١٠٩/٤)

وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً حيث خلق من النطفة الواحدة بشرا ذا نوعين ، ذكرا وأنثى ، أو : حيث خلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة ، وجعله قسمين متقابلين ذكرا وأنثى.
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، بعد هذا البرهان الواضح على توحيده ، ما لا يَنْفَعُهُمْ إن عبدوه ، وَلا يَضُرُّهُمْ إن تركوه ، وهم الأصنام ، أو كل من عبد من دون اللّه إذ المخلوق كله عاجز ، وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ، الذي ذكر آثار قدرته ودلائل ربوبيته ، ظَهِيراً معينا ، يظاهر الشيطان ويعينه على الكفر والعصيان.
والمعنى : أن الكافر بعبادة الصنم ، يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الرحمن. وقال ابن عرفة : أي : مظاهرا لأعداء اللّه على أولياء اللّه ، فتلك إعانته. هـ.
الإشارة : مرج البحرين بحر الشريعة وبحر الحقيقة ، فبحر الشريعة عذب فرات لأنه سهل المدارك ، يناله الخاص والعام ، وبحر الحقيقة ملح أجاج لأنه لا يناله إلا من ذاق مرارة فطام النفس من هواها ، ومجاهدتها فى ترك مناها ، حتى تموت ثم تحيا ، فحينئذ تتلذذ بمشاهدة مولاها ، وتطيب حياتها فى أخراها ودنياها. فبحر الحقيقة صعب المرام ، لا يركبه إلا الشجعان ، وفي ذلك يقول صاحب العينية رضي اللّه عنه :
وإيّاك جزعا «١» لا يهولك أمرها فما نالها إلّا الشّجاع المقارع
والبرزخ الذي جعل بينهما : نور العقل ، يميز بين محل الشرائع ومحل الحقائق ، فيعطى كل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه.
ثم ذكر شأن الواسطة ، التي هى سبب لركوب البحرين ، فقال :
وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً ...
[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٥٦ الى ٥٧]
وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (٥٦) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧)
يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْناكَ يا محمد إِلَّا مُبَشِّراً للمؤمنين وَنَذِيراً للكافرين ، قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ

عَلَيْهِ على تبليغ الرسالة مِنْ أَجْرٍ من جهتكم ، فتقولون : إنما يطلب محمد جمع أموالنا ، إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا أي : لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه طريقا توصله إليه ، بإنفاقه ماله فى سبيل اللّه ، فليفعل وليعطه لغيره. وقيل : الاستثناء متصل ، أي : لا أسألكم عليه أجرا ، إلا فعل من يريد أن يتقرب إليه

---

(١) فى العينية : حزما. انظر الديوان (ص ٧٨).

تعالى ، ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة ، حسبما أدعوكم إليهما. فصوّر ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود الإتيان به ، واستثناه منه قطعا لشائبة الطمع ، وإظهارا لغاية الشفقة عليهم ، حيث جعل ذلك ، مع كون نفعه عائدا إليهم ، عائدا إليه صلى اللّه عليه وسلم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : العلماء بالله خلفاء الرسل ، فما أظهرهم اللّه فى كل زمان إلا ليذكروا الناس ويعظوهم ، ويبشروهم وينذروهم ، من غير عوض ولا طمع ، فإن تعلقت همتهم بشيء من عرض الدنيا من أيدى الناس ، كسف ذلك نورهم ، وانتقص نفعهم ، وقلّ الاهتداء على أيديهم ، وقد تقدم هذا مرارا. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه بالتوكل ، ليغيب عن خيرهم وشرهم ، وعن طلب الأجر منهم ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٥٨ الى ٦٠]

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً (٦٠)

يقول الحق جل جلاله : وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ فى الاستكفاء عن شرورهم ، والاغتناء عن أجورهم ، أي : ثق به فإنه يكفيك عن الطمع فيمن يموت ، فلا تطلب على تبليغك من مخلوق أجرا ، فإن اللّه كافيك. قرأها بعض الصالحين فقال : لا يصح لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق. وَسَبِّحْ أي : ونزهه أن يكل إلى غيره من توكّل عليه ، بِحَمْدِهِ أي : بتوفيقه الذي يوجب الحمد ، أو : قل سبحان اللّه وبحمده ، أو : نزهه عن صفات النقصان ، مثنيا عليه بنعوت الكمال ، طالبا لمزيد الإنعام ، وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً أي : كفى اللّه خبيرا بذنوب عباده ، ما ظهر منها وما بطن ، يعنى : أنه خبير بأحوالهم ، كاف فى جزاء أعمالهم الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ أي : فى مدة

مقدارها [ستة أيام] «١» إذ لم يكن ليل ولا نهار. وعن مجاهد : أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة ، وإنما خلقها فى هذه المدة ، وهو قادر على خلقها فى لحظة ، تعليما لخلقه الرفق والتثبت.
ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ استواء يليق به ، الرَّحْمنُ أي : هو الرحمن ، أو :
فاعل استوى ، أي : استوى الرحمن برحمانيته على العرش وما احتوى عليه. وراجع ما تقدم فى الأعراف. «٢» فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً

---

(١) زيادة ليست فى الأصول.
(٢) راجع : تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف (٢/ ٢٢٣ - ٢٢٥).

أي : سل عنه رجلا عارفا خبيرا به ، يخبرك برحمانيته. وكانوا ينكرون اسم الرحمن ، ويقولون : لا نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة ، يعنون : مسليمة الكذاب ، وكان يقال له : رحمن اليمامة ، غلوّا فيه ، فأمر نبيه أن يسأل من له خبرة وعلم بالكتب المتقدمة عن اسم الرحمن ، فإنه مذكور فى الكتب المتقدمة.
قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن العارف : والظاهر : أن الخبير هو اللّه ، أي : اسأل اللّه الخبير بالأشياء ، الأعلم بخفاياها ، والتقدير : فسل بسؤالك إياه خبيرا. وإنما استظهرنا هذا القول لأن المأمور بالسؤال الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، وتجلّ رتبته عن سؤال غير ربه. والمراد : فسل اللّه الخبير بالرحمن ووصفه. انظر تمام كلامه.
وَإِذا قِيلَ لَهُمُ أي : إذا قال محمد للمشركين : اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ صلّوا له ، أو : اخضعوا ، قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أي : لا نعرف الرحمن فنسجد له ، قالوا ذلك : إما لأنهم ما كانوا يطلقونه على اللّه تعالى ، أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى. أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا أي : للذى تأمرنا بالسجود له ، أو لأمرك بالسجود له من غير علم منا به. وهو منهم عناد لأن معناه فى اللغة : ذو الرحمة التي لا غاية لها لأن فعلان يدل على المبالغة ، وهم من أهل اللغة. وَزادَهُمْ نُفُوراً أي : زادهم الأمر بالسجود للرحمن تباعدا عن الإيمان ونفورا عنه. وباللّه التوفيق.
الإشارة : قد تقدم الكلام على التوكل فى مواضع. وللقشيرى هنا كلام ، وملخصه باختصار : أن التوكل :
تفويض الأمر إلى اللّه سبحانه ، وأصله : علم العبد بأنّ الحادثات كلّها حاصلة من اللّه ، ولا يقدر أحد على إيجاد شيء أو دفعه ، فإذا عرف العبد هذا ، وعلم أن المراد اللّه لا يرتفع ولا يدفع ، حصل له

التوكل. وهذا القدر فرض ، وهو من شرائط الإيمان ، قال اللّه تعالى : وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١» ، وما زاد على هذا القدر من سكون القلب ، وطمأنيته ، وزوال الانزعاج والاضطراب ، فهو من أحوال التوكل ومقاماته.

فالناس فى الاكتفاء والسكون على أقسام ودرجات ، فأول رتبة فيه : أن يكتفى بما فى يده ، ولا يطلب الزيادة عليه ، ويستريح قلبه من طلب الزيادة. وتسمى هذه الحالة : القناعة ، فيقنع بالحاصل ، ولا يستزيد ما ليس بحاصل - يعنى : مع وجود الأسباب - ثم بعد هذا سكون القلب فى حال عدم الأسباب ، وهو مقام التجريد ، وهم متباينون فى الرتبة : واحد يكتفى بوعده لأنه صدّقه فى ضمانه ، فسكن قلبه عند فقد الأسباب ثقة منه بوعد ربه ، وقد قيل : إن التوكل : سكون القلب بضمان الربّ ، ويقال : سكون الجأش فى طلب المعاش ، ويقال : الاكتفاء بوعده عند عدم نقده.

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة المائدة.

(١١٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١١٣

وألطف من هذا أن يكتفى بعلم اللّه ، فيشتغل بمولاه ، ولا يلتفت إلى إنجاز وعد ولا ضمان ، فيكل أمره إلى اللّه ، وهذه حالة التسليم. وفوق هذه : التفويض ، وهو أن يكل أمره إليه ، ولا يختار حالا على حال ، فيشتغل بمولاه ويغيب عن نفسه وعن كل ما سواه ، يعلم أنه مملوك لسيّده ، والسيّد أولى من العبد بنفسه. فإذا ارتقى عن هذه الحالة وجد الراحة فى المنع ، ويستعذب ما يستقبله من الرّدّ ، فهى رتبة الرضا ، ويحصل له فى هذه الحالة ، من فوائد الرضا ومطالعته ، ما لا يحصل لمن دونه من الحلاوة فى وجود المقصود.

وبعد هذا : الموافقة وهو ألا يجد الراحة فى المنع ولا فى العطاء ، وإنما يجد حلاوة نسيم القرب ، وزوائد الأنس بنسيان كل أرب. فكما أن حلاوة الطاعات تتصاغر عند برد الرضا - ويعدّون ذلك حجابا - كذلك أهل الأنس بالله يعدّون الوقوف مع حلاوة الرضا والاشتغال بلطائفه نقصانا وحجابا. ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة ، بما يأخذ العبد عن جملته بالكلية ، فيعبر عن هذه الحالة بالخمود ، والاستهلاك ، والوجود ، والاصطلام ، والفناء ، - وهذا هو عين التوحيد الخاص - فعند ذلك لا أنس ، ولا هيبة ، ولا لذة ، ولا راحة ، ولا وحشة ، ولا آفة. يعنى : تغيب المقامات بلذاتها وراحتها ، عند تحقق الفناء ، ثم قال : هذا بيان ترتيبهم ، فأمّا ما دون ذلك فالإخبار عن أحوال المتوكلين ، على تباين شرفهم ، يختلف على حسب اختلاف حالهم. انتهى بالمعنى.

وقال أيضا : ويقال : التوكل فى الأسباب الدنيوية ينتهى إلى حدّ ، وأما التوكل على اللّه فى إصلاح آخرته : فهو أشدّ غموضا وأكثر خفاء ، فالواجب ، فى الأسباب الدنيوية ، أن يكون السكون عند طلبها غالبا ، والحركة تكون ضرورة ، وأما فى أمر الآخرة وما يتعلق بالطاعة ، فالواجب البدار والجدّ والانكماش ، والخروج عن أوطان الكسل ، وترك الجنوح إلى الفشل. والذي يوصف بالتواني فى العبادات والتباطؤ فى تلافى ما ضيّعه من إرضاء الخصوم ، والقيام بحقّ الواجبات ، ثم يعتقد فى نفسه أنه متوكّل على اللّه ، فهو متمن معلول الحال ، ممكور مستدرج ، بل يجب أن يبذل جهده ، ويستفرغ وسعه ، ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته ، ولا يستند إلى سكونه وحركته ، ويتبرأ من حوله وقوّته ، ثم يحسن الظنّ بربّه. ومع حسن ظنه بربّه لا ينبغى أن يخلو من مخافته ، اللهم إلا أن يغلب على قلبه ما يشغله فى الحال من كشوفات الحقائق عن الفكرة فى العواقب فإن ذلك - إذا حصل - فالوقت غالب ، وهو أحد ما قيل فى قولهم : الوقت سيف. هـ.

ثم ذكر من أوصاف الرحمن ، الذي نفر المشركون عن الخضوع له ، ما يبين عظمته وكبرياءه ، ونفوذ قدرته المستوجبة للخضوع والانقياد له ردا على امتناع الكفرة منه ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٦١ الى ٦٢]

تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (٦٢)

(١١٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١١٤

يقول الحق جل جلاله : تَبارَكَ أي : تعاظم الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وهى البروج الإثنا عشر : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت.

وهى منازل الكواكب السبعة السيارة ، لكل كوكب بيتان ، يقوى حاله فيهما ، وللشمس بيت ، وللقمر بيت ، فالحمل والعقرب بيتا المريخ ، والثور والميزان بيتا الزهرة ، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد ، والسرطان بيت القمر ، والأسد بيت الشمس ، والقوس والحوت بيتا المشترى ، والجدى والدلو بيتا زحل. وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع ليصيب كل واحدة منها ثلاثة بروج ، فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية ، والثور والسنبلة والجدى مثلثة أرضية ، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية ، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية. سميت بالبروج التي هى القصور العالية لأنها ، لهذه الكواكب ، كالمنازل الرفيعة لسكانها. واعتبر بزيادة البحر عند زيادة القمر ونقصه عند نقصه ، فإن بيت القمر -

وهو السرطان – مائى ، وذلك من إمداد الأسماء لا بالطبع. وتذكر : «وبالاسم الذي وضعته على الليل فأظلم ..» إلخ. قاله فى الحاشية.

واشتقاق البروج من التبرج ، الذي هو الظهور لظهورها ، ولذلك قال الحسن وقتادة ومجاهد : البروج : النجوم الكبار لظهورها.

وَجَعَلَ فِيها سِراجاً أي : الشمس ، لقوله تعالى : وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً «١». وقرأ الأخوان : «سرجا». ويراد : النجوم الكبار والشمس ، وَقَمَراً مُنِيراً أي : مضيئا بالليل.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً أي : ذو خلفة يخلف كل واحد منهما الآخر ، بأن يقوم مقامه ، فيما ينبغى أن يعمل فيه ، فمن فاته عمله فى أحدهما قضاه فى الآخر. قال قتادة : فأروا اللّه تعالى من أعمالكم خيرا فى هذا الليل والنهار ، فإنهما مطيتان تقحمان الناس إلى آجالهم ، تقربان كل بعيد ، وتبليان كل جديد ، وتجيئان بكل موعود. وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي اللّه عنه : فاتتنى الصلاة الليلة ، فقال : أدرك ما فاتك من ليلتك فى نهارك ، فإن اللّه تعالى جعل الليل والنهار خلفة لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ. هـ «٢». أي : يتذكر آلاء اللّه – عز وجل – ، ويتفكر فى بدائع صنعه ، [فيعلم] «٣» أنه لا بد له من صانع حكيم. وقرأ حمزة وخلف : «يذكر» أي : يذكر اللّه فى قضاء ما فاته فى أحدهما ، أَوْ أَرادَ شُكُوراً أي : شكر نعمة ربه عليه فيهما ، فيجتهد فى عمارتها بالطاعة شكرا. وباللّه التوفيق.

الإشارة : تبارك الذي جعل فى سماء القلوب أو الأرواح بروجا منازل ينزلها السائر ، ثم يرحل عنها ، وهى مقامات اليقين كالخوف ، والرجاء ، والورع ، والزهد ، والصبر ، والشكر ، والرضا ، والتسليم ، والمحبة ، والمراقبة ،

---

(١) الآية ١٦ من سورة نوح. [.....]

(٢) أخرج الطبري (١٩/ ٣٠) عن شقيق.

(٣) فى الأصول : [فيهم]. والمثبت : من تفسير البيضاوي وأبى السعود.

والمشاهدة ، والمعاينة. وجعل فيها سراجا ، أي : شمس العرفان لأهل الإحسان ، وقمرا منيرا ، وهو توحيد البرهان لأهل الإيمان. وهو الذي جعل ليل القبض ونهار البسط خلفة ، يخلف أحدهما الآخر ، لمن أراد أن يذكر فى ليل القبض ، ويشكر فى نهار البسط. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر أهل الذّكر والشكر ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٦٣ الى ٦٧]
وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً (٦٥) إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (٦٦) وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (٦٧)
قلت : و(عباد) : مبتدأ ، و(الذين) وما بعده : خبر. وقيل : (أولئك يجزون). و(هونا) : حال ، أو : صفة ، أي :
يمشون هينين ، أو : مشيا هونا.
يقول الحق جل جلاله : وَعِبادُ الرَّحْمنِ أي : خواصه الذين يسجدون ويخضعون للرحمن ، الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً أي : بسكينة وتواضع ووقار ، قال الحسن : يمشون حلماء علماء مثل الأنبياء ، لا يؤذون الذر ، فى سكون وتواضع وخشوع ، وهو ضد المختال الفخور المرح ، الذي يختال فى مشيه. وقال ابن الحنفية : أصحاب وقار وعفة ، لا يسفهون ، وإن سفه عليهم حلموا. و«الهون» فى اللغة : الرفق واللين. ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم : «أحبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما. وأبغض بغيضك هونا ما ، عسى أن يكون حبيبك يوما ما» «١».
وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ أي : السفهاء بما يكرهون ، قالُوا سَلاماً سدادا من القول ، يسلمون فيه من الإيذاء والإثم والخنا. أو : سلمنا منكم سلاما ، أو : سلموا عليهم سلاما ، دليله قوله تعالى : وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ «٢» ، ثم

---

(١) أخرجه الترمذي فى (البر والصلة ، باب ما جاء فى الاقتصاد فى الحب والبغض ٤/ ٣١٦ ، ح ١٩٩٧) ، من حديث أبي هريرة ، وأخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (باب الاقتصاد فى النفقة ، ٥/ ٢٦٠ ، ح/ ٦٥٩٣) عن سيدنا عليّ ، موقوفا.
(٢) من الآية ٥٥ من سورة القصص.

قالوا : سَلامٌ عَلَيْكُمْ. قيل : نسختها آية القتال ، وفيه نظر فإن الإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعا ومروءة ، فلا ينسخ.
وكان الحسن إذا تلى الآيتين قال : هذا وصف نهارهم ، ثم قال تعالى : وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً : هذا وصف ليلهم. قال ابن عباس : من صلى لله تعالى ركعتين ، أو أكثر ، بعد العشاء ، فقد

بات لله تعالى ساجدا وقائما. وقيل :

هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء ، والظاهر : أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً هلاكا لازما. ومنه : الغريم لملازمته غريمه ، وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين ، وعقّبه بذكر دعوتهم هنا إيذانا بأنهم ، مع اجتهادهم ، خائفين مبتهلين إلى اللّه فى صرف العذاب عنهم إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً ، أي : إن جهنم قبحت مستقرا ومقاما لهم. و«ساءت» : فى حكم «بئست» ، وفيها ضمير مبهم يفسره مُسْتَقَرًّا. والمخصوص بالذم : محذوف ، أي : ساءت مستقرا ومقاما هى. وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم «إن».

وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا لم يجاوزوا الحد فى النفقة. وعن ابن عباس : لم ينفقوا فى المعاصي. فالإسراف : مجاوزة حد الأمر ، لا مجاوزة القدر. وسمع رجل جلا يقول : لا خير فى الإسراف ، فقال : لا إسراف فى الخير. وقال صلى اللّه عليه وسلم : «من منع حقا فقد قتر ، ومن أعطى فى غير حق فقد أسرف». وَلَمْ يَقْتُرُوا ، القتر والإقتار والتقتير : التضييق. وقرئ بالجميع «١» ، وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً أي : وكان إنفاقهم بين الإسراف والإقتار قواما عدلا بينهما. فالقوام : العدل بين الشيئين. قال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف ، ولم يخلوا به ، لقوله :

وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ ... «٢» الآية. وقال يزيد بن أبى حبيب فى هذه الآية : أولئك أصحاب محمد صلى اللّه عليه وسلم ، كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة. ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدّ عنهم الجوع ، ويقويهم على عبادة ربهم ، ومن الثياب ما يستر عوراتهم ، ويكنّهم من الحرّ والبرد.

وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه : كفى بالمرء سرفا ألا يشتهى شيئا إلا اشتراه فأكله. ومثله فى سنن ابن ماجة مرفوعا «٣». قال القشيري : الإسراف : أن ينفق فى الهوى ونصيب النفس ، ولو فلسا ، وأما ما كان لله فليس فيه إسراف ، ولو ألفا. والإقتار : ما كان ادخارا عن اللّه ، فأما التضييق على النّفس منعا لها عن اتباع الشهوات ، ولتتعود الاجتزاء باليسير ، فليس بالإقتار المذموم. هـ.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٦٨ الى ٧١]

وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (٦٨) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً (٦٩) إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٠) وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً (٧١)

وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ أي : لا يشركون بالله شيئا ، وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قتلها إِلَّا بِالْحَقِّ بقود ، أو رجم ، أو شرك ، أو سعي فى الأرض بالفساد ، وَلا يَزْنُونَ أي : لا يفعلون من

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر : (يقتروا) بضم الياء وكسر التاء من أقتر. وقرأ ابن كثير وأبو عمر

ويعقوب : بفتح الياء وكسر التاء ، كيحمل ، وقرأ الباقون بفتح الياء ، وضم التاء ، كيقتل ... انظر الإتحاف (٢/ ٢١١).

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

(٣) أخرجه ابن ماجة فى (الأطعمة ، باب من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت ، ٢/ ١١١٢ ح ٣٣٥٢) من حديث أنس بن مالك ، بلفظ : «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت».

(١١٦/٤)

هذه العظائم القبيحة التي جمعهن الكفرة شيئا ، حيث كانوا مع إشراكهم به - سبحانه - مداومين على قتل النفوس المحرمة ، التي من جملتها المؤودة ، منكبّين على الزنا ، لا يرعوون عنه أصلا ، فنفى هذه الكبائر عن عباده الصالحين تعريضا بما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيره ، كأنه قيل : والذين طهرهم اللّه مما أنتم عليه. وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه : «قلت : يا رسول اللّه أىّ الذّنب أعظم؟ قال : أن تجعل للّه ندّا وهو خلقك ، قلت : ثمّ أىّ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثمّ اىّ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك». فنزلت الآية تصديقا لذلك «١».

الإشارة : قد تضمنت الآية أربعة أصناف من الناس على سبيل التدلي الأول : الأولياء العارفون بالله ، أهل التربية النبوية ، ومن تعلق بهم من أهل التهذيب والتأديب ، وإليهم أشار بقوله : وَعِبادُ الرَّحْمنِ ... إلخ ، وفيهم قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «رأيت أقواما من أمتى ، ما خلقوا بعد ، وسيكونون فيما بعد اليوم ، أحبهم ويحبوننى ، ويتناصحون ويتباذلون ، يمشون بنور اللّه فى الناس رويدا ، فى خفية وتقى ، يسلمون من الناس ، ويسلم الناس منهم بصبرهم وحملهم ، قلوبهم بذلك إليه يرجعون ، ومساجدهم بصلاتهم يعمرون ، يرحمون ضعيفهم ، ويجلون كبيرهم ، ويتواسون بينهم ، يعود غنيهم على فقيرهم ، وقويهم على ضعيفهم ، يعودون مرضاهم ، ويشهدون جنائزهم ، فقال رجل من القوم : يرفقون برقيقهم؟ فالتفت إليه النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : كلا لا رقيق لهم ، وهم خدام أنفسهم ، هم أكرم على الله تعالى من أن يوسع عليهم لهوان الدنيا عند ربهم. ثم تلى النبي صلى اللّه عليه وسلم : وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ... الآية. رواه أبو برزة الأسلمى ، عنه صلى اللّه عليه وسلم.

الثاني : العباد والزهاد ، أهل الجد والاجتهاد ، أهل الصيام والقيام ، الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، أقامهم الحق تعالى لخدمته ، كما أقام الأولين لمحبته ومعرفته. الثالث : الصالحون والأبرار ، الذين يعبدون اللّه طمعا فى الجنة وخوفا من النار ، ومن كان منهم له مال أنفقه فى سبيل اللّه ، من غير سرف

ولا إقتار. الرابع : عامة الموحّدين من أهل اليمين ، المجتنبون لكبائر الذنوب ، المسارعون بالتوبة إلى علام الغيوب. واللّه تعالى أعلم.

ثم أشار إلى وبال من فعل شيئا من ذلك ولم يتب ، فقال :

وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ...

---

(١) أخرجه البخاري في (التفسير – سورة الفرقان ، باب «والذين لا يدعون مع اللّه إلها آخر» ح ٤٧٦١) ، ومسلم في (الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب ، ١/ ٩٠ ح ١٤١).

(١١٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١١٨

قلت : (يضاعف) و(يخلد) : بدل من (يلق) بدل كل من كل ، عند الأزهرى لأن لقىّ الآثام هى مضاعفة العذاب ، وبدل اشتمال ، عند المرادي. ومن رفعهما : فعلى الاستئناف.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ أي : ما ذكر ، كما هو دأب الكفرة المذكورين ، يَلْقَ فى الآخرة أَثاماً وهو جزاء الآثام ، كالوبال والنكال وزنا ومعنى ، يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أضعافا كثيرة ، كما يضاعف للمومنين جزاء أعمالهم كذلك ، وَيَخْلُدْ فِيهِ أي : فى ذلك العذاب المضاعف ، مُهاناً ذليلا حقيرا ، جامعا للعذاب الجسماني والروحاني.

إِلَّا مَنْ تابَ من الشرك ، وَآمَنَ بمحمد صلى اللّه عليه وسلم ، وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحاً بعد توبته فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ أي : يوفقهم للمحاسن بعد القبائح ، فيوفقهم للإيمان بعد الشرك ، ولقتل الكافر بعد قتل المؤمن ، وللعفة بعد الزنا ، أو : يمحوها بالتوبة ، ويثبت مكانها الحسنات. ولم يرد أن السيئة بعينها تصير حسنة ، ولكن يمحوها ويعوض منها حسنة. وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «ليتمنّينّ أقوام أنهم أكثروا من السيئات ، قيل : من؟ قال : الذين يبدل اللّه سيئاتهم حسنات» «١».

وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً للسيئات ، رَحِيماً يبدّلها حسنات.

وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً أي : ومن تاب ، وحقق التوبة بالعمل الصالح ، فإنه بذلك تائب إلى اللّه متابا مرضيا مكفرا للخطايا. وسبب نزول الآية : أن ناسا من المشركين قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا النبي صلى اللّه عليه وسلم فقالوا : إن الذي تدعو إليه لحسن لو تخبرنا أنّ لما عملناه كفّارة. فنزلت : وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ ... إلى قوله : إِلَّا مَنْ تابَ .. إلخ «٢».

والظاهر أن توبة قاتل النفس بغير حق مقبولة لعموم قوله : إِلَّا مَنْ تابَ ، وهو قول الجمهور. وقيل : إن هذه منسوخة بآية النساء ، وهو ضعيف. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من قنع من نفسه بمجرد الإسلام والإيمان ، ولم تنهضه نفسه إلى التشوف لمقام الإحسان ، لا بد أن يلحقه الندم وضرب من الهوان ، ولو دخل فسيح الجنان لتخلفه عن أهل القرب والوصال ، وفى ذلك يقول الشاعر :

من فاته منك وصل حظّه النّدم ومن تكن همّه تسمو به الهمم

ثم ذكر نوعا من الأبرار ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٧٢ الى ٧٧]

وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (٧٢) وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (٧٤) أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً (٧٥) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (٧٦)

قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً (٧٧)

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٢٥٢) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه بلفظه مسلم فى (الإيمان ، باب : كون الإسلام يهدم ما قبه ، ١/ ١١٣ ح ١٩٣) ، وبنحوه أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الفرقان) من حديث سيدنا عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنه.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ أي : لا يقيمون شهادة الكذب ، أو : لا يحضرون محاضر الكذب فإنّ مشاهدة الباطل مشاركة فيه ، أي : يبعدون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطّائين ، فلا يقربونها ، تنزّها عن مخالطة الشر وأهله. وفى مواعظ عيسى - عليه السّلام - : إياكم ومجالس الخطّائين. وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ أي : بالفحش وكل ما ينبغى أن يلغى ويطرح ، والمعنى : وإذا مروا بأهل اللغو المشتغلين به مَرُّوا كِراماً معرضين عنه ، مكرمين أنفسهم عن التلوث به ، كقوله : وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ «١» ، وعن الباقر : إذا ذكروا الفروج كفوا عنها ، وقال مقاتل : إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا عنه وصفحوا.

وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ أي : قرئ عليهم القرآن ، أو : وعظوا بالقرآن ، لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً ، بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية ، مجلتين لها بعيون راعية. وإنما عبّر عنها بنفي الضد

تعريضا بما يفعله الكفرة والمنافقون.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا ، «من» : للبيان ، كأنه قيل : هب لنا قرة أعين ، ثم بينت القرة وفسرت بقوله : مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا والمعنى : أن يجعلهم اللّه لهم قرة أعين بأن يروا منهم من الطاعة والإحسان ما تقر به العين. أو : للابتداء ، أي : هب لنا من جهتهم ما تقر به العين ، من طاعة أو صلاح. وَهب لنا أيضا من ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ بتوفيقهم للطاعة ، ومبادرتهم للفضائل والكمالات ، فإن المؤمن إذا ساعده أهله فى طاعة اللّه تعالى وشاركوه فيها يسر قلبه ، وتقر عينه بما شاهده من مقاربتهم له فى الدين ، ويكون ذلك سببا فى لحوقهم به فى الجنة ، حسبما وعد به قوله تعالى : أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ «٢».

وإنما قال : «أعين» بلفظ القلة ، دون عيون لأن المراد أعين المتقين ، وهى قليلة بالإضافة إلى أعين غيرهم.

والمعنى : أنهم سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجا وأعقابا ، عمّالا لله ، يسرون بمكانهم ، وتقر بهم عيونهم ، قيل : ليس شىء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله. وعن ابن عباس : (هو الولد إذا رآه يكتب الفقه).

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة القصص.

(٢) من الآية ٢١ من سورة الطور.

وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً أي : أئمة يقتدى بنا فى الدين ، فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ، أو : واجعل كل واحد منا إماما أي : من أولادنا إماما. والظاهر : أن صدور هذا الدعاء منهم كان بطريق الانفراد إذ يتعذر اجتماعهم فى دعاء واحد. وإنما كانت عبارة كل واحد منهم عند الدعاء : واجعلنى للمتقين إماما ، غير أنه حكيت عبارة الكل بصيغة المتكلم مع الغير قصدا إلى الإيجاز ، كقوله تعالى : يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ «١».

وأبقى إماما على حاله من الانفراد. قيل : وفى الآية دليل على أن الرئاسة فى الدين ينبغى أن تطلب ويرغب فيها ، إذا كان القصد نفع عباد اللّه دون حظ نفسانى.

أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ، جنس ، أي : الغرفات ، وهي العلالي فى الجنة. ووحده بقصد الجنس. بِما صَبَرُوا بصبرهم على مشاق الطاعات ، وترك الشهوات ، وتحمل المجاهدات ، وعلى إذاية أهل الإنكار

، وارتكاب الذل والافتقار. وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً أي : تحييهم الملائكة ، ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات. أو : يحيى بعضهم بعضا ، ويسلمون عليهم ، خالِدِينَ فِيها لا يموتون ولا يخرجون ، حَسُنَتْ أي : الغرفة مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً موضع قرار وإقامة ، وهى فى مقابلة : ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً.

قُلْ يا محمد : ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ أي : ما يصنع بكم ربّى ، وأي فائدة فى خلقكم ، لو لا دعاؤكم إلى الإسلام والتوحيد ، أو : لو لا عبادتكم له ، أي : إنما خلقكم لعبادته كقوله : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «٢» فإنما خلق الإنسان لمعرفته وطاعته ، وإلا فهو وسائر البهائم سواء. قال المحشى : والظاهر : أنه خطاب لقريش القائلين : أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا أي : لا يحفل بكم ربى لو لا تضرعكم واستغاثتكم إياه فى الشدائد. هـ.

وقيل : ما يعبأ : بمغفرة ذنوبكم ، ولا هو عنده عظيم ، لو لا دعاؤكم معه الآلهة والشركاء ، كقوله : ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ «٣» ، قاله الضحاك. ثم قال : فظاهره : أن «ما» : استفهامية ، ويحتمل كونها نافية.

انظر بقية كلامه.

وفسّر البخاري الدعاء هنا بالإيمان «٤» ، أي : ما يبالى بكم ربى لو لا إيمانكم المتوقع من بعضكم ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بما جاء به الرسول فتستحقون العقاب ، فَسَوْفَ يَكُونُ العذاب الذي أنتجه تكذيبكم لِزاماً لازما لكم لا تنفكون عنه ، حتى يكبكم فى النار. فالفاء فى قوله : فَقَدْ كَذَّبْتُمْ استئناف وتعليل لكونهم لا يعبأ بهم ، وإنما أضمر العذاب من غير تقدم ذكر للإيذان بغاية ظهوره وتهويل أمره ، وأنه مما لا تفى العبارة به.

---

(١) من الآية ٥١ من سورة المؤمنون.

(٢) من الآية ٥٦ من سورة الذاريات. [.....]

(٣) من الآية ١٤٧ من سورة النساء.

(٤) انظر فتح الباري (كتاب الإيمان ، باب دعاؤكم إيمانكم ١/ ٦٤).

وعن مجاهد : هو القتل يوم بدر ، وأنه لوزم بين القتلى. وفى المشارق : اللزام : الفيصل ، وقد كان يوم بدر. هـ.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قوله تعالى : وَإِذا مَرُّوا بأهل اللغو ، وهم المتكلمون فى حس الأكوان ، مروا كراما مكرمين أنفسهم عن الالتفات إلى خوضهم. والذين إذا سمعوا الوعظ والتذكير أنصتوا بقلوبهم وأرواحهم ، خلاف ما عليه العامة من التصامم والعمى عنه. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا .. إلخ ، قال القشيري : قرة الروح حياتها ، وإنما تكون كذلك إذا كان بحق اللّه قائما. ويقال : قرة العين من كان لطاعة اللّه معانقا ، ولمخالفة أمره مفارقا. هـ. قلت : قرة العين تكون فى الولد الروحاني ، كما تكون فى الولد البشرى فإن الشيخ إذا رأى تلميذه مجدّا صادقا فى الطلب ، حصل له بذلك غاية السرور والطرب ، كما هو معلوم عند أرباب الفن. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم وآله وصحبه وسلّم تسليما.

(٤/١٢١)

(٤/١٢٢)

سورة الشّعراء

مكية ، إلا قوله : وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ فإنها مدنية. وهى مائتان وسبع وعشرون آية. وفى الحديث : «أعطيت طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى» «١» عليه السّلام أي : بدلها ، كما فى حديث آخر. ومناسبتها لما قبلها : أنه لما ذكر تكذيب قريش وأوعدهم بلزوم العذاب ، ذكر تلهف رسوله صلى اللّه عليه وسلم عليهم ، حيث لم يؤمنوا حتى استوجبوا ذلك بقوله : لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ ... الآية ، ثم سلاه بما ذكر من قصص الأنبياء وتكذيب قومهم وإهلاكهم بأنواع العذاب ، ثم افتتح السورة برموز بينه وبين حبيبه ، كما هو شأنه حين يريد أن يقص عليه قصص من قبله ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ (٤)

وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِؤُنَ (٦)

يقول الحق جل جلاله : طسم أي : يا طاهر ، يا سيد ، يا محمد ، أو : أيها الطاهر السيد المجيد. وقال الواحدي : أقسم تعالى بطوله وسنائه وملكه ، والمقسم عليه : إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ ... إلخ. تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ أي : ما نسرده عليك فى هذه السورة وغيرها من الآيات ، هى آيات الكتاب ، أي : القرآن المبين ، أي : الظاهر إعجازه ، وأنه من عند اللّه ، على أنه من أبان ، بمعنى بان ، أو : المبين للأحكام الشرعية والحكم الربانية ، أو : الفاصل بين الحق والباطل. وما فى الإشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلة المشار إليه فى الفخامة ورفعة القدر.

ثم شرع فى تسليته بقوله : لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أي : قاتل نفسك. قال سهل : تهلك نفسك باتباع المراد فى هدايتهم وإيمانهم ، وقد سبق منى الحكم بإيمان المؤمنين وكفر الكافرين ، فلا تبديل ولا تغيير. و«لعل» : للإشفاق ،

---

(١) أخرجه مطولا ، البيهقي فى السنن (١٠/ ٩) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٦٨) عن معقل بن يسار. وفيه «عبد اللّه بن أحمد». قال الذهبي : تركوا حديثه.

(١٢٣/٤)

أي : أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ أي : لعدم إيمانهم بذلك الكتاب المبين ، إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً ، هو تعليل لما قبله من النهى عن التحسر ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به المشيئة ، فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته ، والمفعول محذوف ، أي : إن نشأ إيمانهم ننزل عليهم من السماء آية ملجئة لهم إلى الإيمان ، قاهرة لهم عليه ، فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ منقادين.

والأصل : فظلوا لها خاضعين ، فأقمحت الأعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع ، وترك الخبر على حاله من جمع العقلاء. وقيل : لمّا وصفت الأعناق بصفة العقلاء أجريت مجراهم ، كقوله تعالى : رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ «١». وقيل : المراد بالأعناق : الرؤساء ومقدمو الجماعة ، وقيل : الجماعة ، من قولهم : جاءنا عنق من الناس ، أي : فوج. وقرئ : خاضعة ، على الأصل.

وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ، هذا بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب لصرف رسوله صلى اللّه عليه وسلم عن الحرص على إسلامهم ، وقطع رجائه فيهم على الجملة ، قال القشيري : أي : ما نجدّد لهم شرعا ، أو نرسل رسولا إلا أعرضوا

عما دلّ برهانه عليه ، وقابلوه بالتكذيب ، فلو أنهم أنعموا النظر فى آياتهم ، لا تضح لهم صدقهم ، ولكن المقسوم من الخذلان فى سابق الحكم يمنعهم من الإيمان والتصديق. هـ.

والتعرض لعنوان الرحمة لتغليظ شناعتهم ، وتهويل جنايتهم فإن الإعراض عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الإطلاق شنيع قبيح ، وعماياتيهم بموجب الرحمة ، لمحض منفعتهم ، أشنع وأقبح ، أي : ما يأتيهم من موعظة من المواعظ القرآنية ، أو من طائفة نازلة من القرآن تذكّرهم أكمل تذكير ، وتنبههم من الغفلة أتم تنبيه ، بمقتضى رحمته الواسعة ، إلا جددوا إعراضا عنه على وجه التكذيب والاستهزاء إصرارا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال.

فَقَدْ كَذَّبُوا بالذكر الذي يأتيهم تكذيبا مقارنا للاستهزاء ، فَسَيَأْتِيهِمْ أي : فسيعلمون أَنْبؤُا أي : أخبار ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ، وأنباؤه : ما يحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة ، عبّر عنها بالأنباء إما لكونها مما أنبأ بها القرآن الكريم ، وإما لأنهم ، بمشاهدتها ، يقفون على حقيقة القرآن الكريم ، كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم ، باستماع الأنباء. وفيه تهويل : لأن الأنباء لا تطلق إلا على خبر خطير له وقع كبير ، أي : فسيأتيهم لا محالة مصداق ما كانوا يستهزؤون به ، إما فى الدنيا ، كيوم بدر وغيره من مواطن الحتوف ، أو يوم القيامة. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٤ من سورة يوسف.

(١٢٤/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٢٥

الإشارة : طسم ، الطاء تشير إلى طهارة سره – عليه الصلاة والسلام – ، والسين تشير إلى سيادة قدره ، والميم إلى مجادة أمره ، وهذا بداية الشرف ونهايته. أو : الطاء تشير إلى التنزيه للقلب ، من حيث هو ، والتطهير. والسين تشير إلى تحليته بالسر الكبير ، والميم تشير إلى تصرفه فى الملك والملكوت بإذن العلى الكبير. وهذه بداية السير ونهايتة ، فيكون حيئذ عارفا بالله ، خليفة رسول اللّه فى العودة إلى اللّه ، فإن حرص على هداية الخلق فيقال له :

لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، فلو شاء ربك لهدى الناس جميعا ، ولا يزالون مختلفين ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته على ما ذكر ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٧ الى ٩]

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)
قلت : الهمزة : للإنكار التوبيخي ، والواو : للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي : أفعلوا ما فعلوا من الإعراض والتكذيب ، ولم ينظروا إلى عجائب الأرض .. إلخ. و(كم) : خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية.
يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أي : ينظروا إِلَى عجائب الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ أي : من كل صنف محمود كثير المنفعة ، يأكل منه الناس والأنعام. وتخصيص النبات بالذكر ، دون ماعداه من الأصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معا. ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات نافعها وضارها ، ويكون وصف الكل بالكرم للتنبيه على أنه تعالى ما أنبت شيئا إلا وفيه فائدة ، إما وحده ، أو بانضمامه إلى غيره ، كما نطق به قوله تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً «١» فإن الحكيم لا يكاد يفعل فعلا إلا وفيه حكمة بالغة ، وإن غفل عنه الغافلون ، ولم يتوصل إلى معرفة كنهه العاقلون. وفائدة الجمع بين كلمتى الكثرة والإحاطة ، وهما «كم» و«كلّ» أنّ كلمة «كلّ» تدل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل ، و«كم» تدل على أنّ هذا المحاط متكاثر ، مفرط الكثرة ، وبه نبّه على كمال قدرته.
إِنَّ فِي ذلِكَ الإنبات ، أو : كل صنف من تلك الأصناف لَآيَةً عظيمة دالة على كمال قدرته ، وسعة علمه وحكمته ، ونهاية رحمته الموجبة للإيمان ، الوازعة عن الكفر والطغيان. وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ أي : أكثر قومه - عليه الصلاة والسلام - مُؤْمِنِينَ فى علم اللّه تعالى وقضائه ، حيث علم أنهم سيصرفون عنه ، ولا يتدبرون فى هذه الآيات العظام. وقال سيبويه : «كان» : صلة ، والمعنى : وما أكثرهم مؤمنين ، وهو الأنسب بمقام

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

عتوهم وغلوهم فى المكابرة والعناد ، مع تعاضد موجبات الإيمان من جهته تعالى. وأما نسبة كفرهم إلى علمه تعالى وقضائه فربما يتوهم أنهم معذرون فيه بحسب الظاهر لأن التفريق بين القدرة والحكمة ، اللتين هما محل التحقيق والتشريع ، قد خفى على مهرة العلماء ، فضلا عن غيرهم. فالحكم بزيادة «كان» أقرب كأنه قيل : إن فى ذلك لآية باهرة موجبة للإيمان ، وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك لغاية عتوهم وعنادهم. ونسبة عدم الإيمان إلى أكثرهم لأن منهم من سبق له أنه يؤمن.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب على كل ما يريد من الأمور ، التي من جملتها : الانتقام من هؤلاء ، الرَّحِيمُ المبالغ فى الرحمة ، ولذلك يمهلهم ، ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترءوا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات. وفى التعرض لوصف الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - ، من تشريفه والعدة الحقيّة «١» بالانتقام من الكفرة ما لا يخفى. قاله أبو السعود.

الإشارة : أو لم يروا إلى أرض النفوس الطيبة ، كم أنبتنا فيها من كل صنف من أصناف العلوم الغريبة ، والحكم العجيبة ، بعد أن كانت ميتة بالجهل والغفلة ، إنّ فى ذلك لآية ظاهرة على وجود الخصوصية فيها ، وعلى كمال من عالجها حتى ظهرت عليها. أو : أولم يروا إلى أرض العبودية ، كم أنبتنا فيها من أصناف الآداب المرضية ، والمقامات اليقينية ، والمكاشفات الوهبية ، إن فى ذلك لأية ، وما كان أكثرهم مؤمنين بهذه الخصوصية عند أربابها ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ، يعز من يشاء ، ويرحم بها من يشاء. وبالله التوفيق.

ثم شرع فى قصص الأنبياء تسلية لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، وبدأ بموسى عليه السّلام لشدة معالجته لقومه ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٠ الى ١٧]

وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤)

قالَ كَلاَّ فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ (١٧)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يا محمد إِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أي : وقت ندائه إياه ، وذكّر قومك بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم زجرا لهم ، وتحذيرا من أن يحيق بهم مثل ما حاق بإخوانهم المكذبين.

---

(١) فى تفسير أبى السعود : «الخفية».

أو : واذكر حاله لتتسلى به وبما عالج مع قومه ، حيث أرسله وقال له : أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، أو : بأن ائت القوم الظالمين بالكفر والمعاصي ، أو : باستعباد بنى إسرائيل وذبح أبنائهم. قَوْمَ فِرْعَوْنَ :

عطف بيان ، تسجيل عليهم بالظلم ، ثم فسرهم ، وقل لهم : أَلا يَتَّقُونَ اللّه ، ويتركون ما هم عليه من العتو والطغيان. وقرئ بتاء الخطاب على طريقة الالتفات ، المنبئ عن زيادة الغضب عليهم ، كأنّ ظلمهم أدى إلى مشافهتهم بذلك. وليس هذا نفس ما ناداه به ، بل ما فى سورة طه من قوله : إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. «١» إلخ ، واختصره هنا لمقتضى المقام.

قالَ موسى عليه السّلام متضرعا إلى اللّه عز وجل : رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ من أول الأمر ، وَيَضِيقُ صَدْرِي بتكذيبهم إياى ، وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي بأن تغلبنى الحمية على ما أرى من المحال ، وأسمع من الجدال ، أو : تغلبنى عقدة لسانى ، فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ أخى ، أي : أرسل جبريل إليه ، ليكون نبيا معى ، أتقوّى به على تبليغ الرسالة. وكان هارون بمصر حين بعث موسى بجبل الطور. وليس هذا من التعلل والتوقف فى الأمر ، وإنما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال ، وتمهيد عذره.

ثم قال : وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ أي : تبعة ذنب بقتل القبطىّ ، فحذف المضاف ، أو : سمّى تبعة الذنب ذنبا ، كما يسمّى جزاء السيئة سيئة. وتسميته ذنبا بحسب زعمهم. فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ به قصاصا. وليس هذا تعللا أيضا ، بل استدفاع للبلية المتوقعة ، وخوف من أن يقتل قبل أداء الرسالة ، ولذلك وعده بالكلاءة ، والدفع عنه بكلمة الردع ، وجمع له الاستجابتين معا بقوله :

قالَ كَلَّا فَاذْهَبا لأنه استدفعه بلاءهم ، فوعده بالدفع بردعه عن الخوف ، والتمس منه رسالة أخيه ، فأجابه بقوله : فَاذْهَبا ، أي : جعلته رسولا معك فَاذْهَبا بِآياتِنا أي : مع آياتنا ، وهى اليد والعصا وغير ذلك ، فقوله : فَاذْهَبا : عطف على مضمر ، ينبئ عنه الردع ، كأنه قيل : ارتدع يا موسى عما تظن ، فاذهب أنت ومن استدعيته مصحوبا بآياتنا ، فإنها تدفع ما تخافه.

إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ أي : سامعون ما يقال لك ، وما يجرى بينكما وبينه ، فنظهر كما عليه. شبّه حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة ، فسمع ما يجرى بينهم ، فيمد أولياءه وينصرهم على أعدائهم مبالغة فى الوعد بالإعانة ، فاستعير الاستماع ، الذي هو الإصغاء للسمع ، الذي هو العلم بالحروف والأصوات ، وهو تعليل للردع عن الخوف ، ومزيد تسلية لهما ، بضمان كمال الحفظ والنصر ، كقوله تعالى : إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى «٢».

ْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ

، ليس هذا مجرد تأكيد للأمر بالذهاب لأن معنى هذا :

الوصول إلى المرسل إليه ، والذهاب : مطلق التوجه ، ولم يثنّ الرسول هنا كما ثناه فى سورة طه «٣» لأن الرسول

---

(١) الآية ١٢ من سورة طه.

(٢) الآية ٤٦ من سورة طه.

(٣) فى قوله : إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ، الآية ٤٧.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٢٨
يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة ، فيكون مصدرا ، فجعل ثمّة بمعنى المرسل فثنى ، وجعل هنا بمعنى الرسالة ، فسوّى فى الوصف به الواحد والتثنية والجمع ، كما تقول : رجل عدل ، ورجلان عدل ، ورجال عدل لاتحادهما فى شريعة واحدة ، كأنهما رسول واحد. قلت : والنكتة فى إفراد هذا وتثنية الآخر أن الخطاب فى سورة طه توجه أول القصة إليهما معا بقوله : اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ فجرى فى آخر القصة على ما افتتحت به ، وهنا توجه الخطاب فى أولها إلى موسى وحده ، بقوله : وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، فجرى على ما افتتح به القصة من الإفراد. واللّه تعالى أعلم.
أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ ، «أن» مفسرة لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول ، أي : خلّ بنى إسرائيل تذهب معنا إلى الشام ، وكان مسكنهم بفلسطين منه ، قبل انتقالهم مع يعقوب عليه السّلام إلى مصر ، فى زمن يوسف عليه السّلام. والله تعالى أعلم.
الإشارة : من كان أهلا للوعظ والتذكير لا ينبغى أن يتأخر عنه خوف التكذيب ولا خوف الإذاية ، فإن اللّه معه بالحفظ والرعاية. نعم إن طلب المعين فلا بأس ، فإن أبهة الجماعة ، فى حال الإقبال على من يعظمهم ، أقوى فى إدخال الهيبة والروع فى قلوبهم ، ونور الجماعة أقوى من نور الواحد. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر جواب فرعون ومجادلته ، فقال :
[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٨ الى ٢٩]
قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (١٩) قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ (٢٢)
قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ (٢٣) قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)
قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٢٩

يقول الحق جل جلاله : لما أتى موسى وهارون فرعون وبلّغا الرسالة ، قالَ له : أَلَمْ نُرَبِّكَ .. إلخ ، روى أنهما أتيا بابه فلم يؤذن لهما سنة ، حتى قال البواب : إن هنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين ، فقال : ائذن له ، لعلنا نضحك منه ، فأذن ، فدخل ، فأدى الرسالة ، فعرفه فرعون «١» ، فقال له : أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا فى حجرنا ومنازلنا ، وَلِيداً أي : طفلا. عبّر عنه بذلك لقرب عهده بالولادة. وهذه من فرعون معارضة لقول موسى عليه السّلام : نَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ

، بنسبته تربيته إليه وليدا. ولذلك تجاهل بقوله : وَما رَبُّ الْعالَمِينَ ، وصرح بالجهل بعد ذلك بقوله : لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي ... إلخ ، وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ قيل : لبث فيهم ثلاثين سنة ، ثم خرج إلى مدين ، وأقام به عشر سنين ، ثم عاد يدعوهم إلى اللّه - عز وجل - ثلاثين سنة ، ثم بقي بعد الغرق خمسين ، وقيل : قتل القبطي وهو ابن ثنتى عشرة سنة ، وفرّ منهم على إثر ذلك. واللّه أعلم.

ثم قال له : وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ يعنى : قتل القبطي ، بعد ما عدد عليه نعمته من تربيته ، وتبليغه مبلغ الرجال ، وبّخه بما جرى عليه مع خبازه ، أي : قتلت صاحبى ، وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ بنعمتي ، حيث عمدت إلى قتل رجل من خواصى ، أو : أنت حينئذ ممن تكفر بهم الآن ، أي : كنت على ديننا الذي تسميه كفرا ، وهذا افتراء منه عليه لأنه معصوم ، وكان يعاشرهم بالتقية ، وإلا فأين هو عليه السّلام من مشاركتهم فى الدين.

قالَ فَعَلْتُها إِذاً أي : إذ ذاك وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ أي : من المخطئين لأنه لم يتعمد قتله ، بل أراد تأديبه ، أو :

الذاهلين عما يؤدى إليه الوكز. أو : من الضالين عن النبوة ، ولم يأت عن اللّه فى ذلك شيء ، فليس عليّ توبيخ فى تلك الحالة. والفرض أن المقتول كافر ، فالقتل للكافر لم يكن فيه شرع ، وهذا كله لا ينافى النبوة ، وكذلك التربية لا تنافى النبوة.

فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ إلى ربى ، متوجها إلى مدين لَمَّا خِفْتُكُمْ أن تصيبنى بمضرة ، أو تؤاخذني بما لا أستحقه. فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً أي : حكمة ، أو : نبوة وعلما ، فزال عنى الجهل والضلالة ، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ من جملة رسله ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ أي : تلك التربية نعمة تمنّ بها عليّ ظاهرا ، وهى فى الحقيقة تعبيدك بنى إسرائيل ، وقهرك إياهم ، بذبح أبنائهم ، فإنه السبب فى وقوعي عندك وحصولى فى تربيتك ، ولو تركتهم لربانى أبواى. فكأن فرعون فى الحقيقة امتن على موسى بتعبيد قومه وإخراجه من حجر أبويه. فقال له موسى عليه السّلام : أو تلك نعمة تمنّها عليّ استعبادك لهم ، ليس ذلك بنعمة ، ولا لك فيها عليّ منة ، وتعبيده : تذليلهم واستخدامهم على الدوام. ووحد الضمير فى «تمنّها» و«عبّدت» ، وجمعها فى «منكم» و«خفتكم» لأن الفرار والخوف كان منه ومن ملائه المؤتمرين به ، وأما الامتنان فمنه وحده.

(١) انظر البحر المحيط (٧/ ١٠).

(١٢٩/٤)

وحين انقطعت حجة فرعون وروغانه عن ذكر رب العالمين ، أخذ يستفهم موسى عن الذي ذكر أنه رسول من عنده مكابرة وتجاهلا وتعاميا ، طلبا للرئاسة ، كما قال تعالى : قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ ، أي : أىّ شيء رب العالمين ، الذي ادعيت أنك رسوله ، منكرا لأن يكون للعالمين رب غيره ، حسبما يعرب عنه قوله : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى «١» ، وقوله : ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي «٢». أو : فما صفته ، أو حقيقته؟ قالَ موسى : هو رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا أي : ما بين الجنسين ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ أي : إن كنتم موقنين بالأشياء ، محققين لها ، علمتم ذلك ، أو : إن كنتم موقنين شيئا من الأشياء ، فهذا أولى بالإيقان لظهور دليله وإنارة برهانه.

قالَ فرعون ، عند سماع جوابه عليه السّلام ، خوفا من تأثيره فى قلوبهم ، لِمَنْ حَوْلَهُ من أشراف قومه ، وكانوا خمسمائة مسورة بالأسورة : أَلا تَسْتَمِعُونَ ، أنا أسأله عن الماهية ، وهو يجيبنى بالخاصية. ولما كانت ماهية الربوبية لا تدرك ولا تنال حقيقتها ، أجابه بما يمكن إدراكه من خواص الماهية.

ثم قالَ عليه السّلام : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ أي : هو خالقكم وخالق آبائكم الأولين ، أي : وفرعون من جملة المخلوقين فلا يصلح للربوبية ، وإنما قال : وَرَبُّ آبائِكُمُ لأن فرعون كان يدعى الربوبية على أهل عصره دون من تقدمهم.

قالَ فرعون : إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ حيث يزعم أن فى الوجود إلها غيرى ، أو : حيث لا يطابق جوابه سؤالى لأنى أسأله عن الحقيقة وهو يجيبنى بالخاصية ، قالَ موسى عليه السّلام : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فتستدلون بما أقول حتى تعرفوا ربكم. وهذا غاية الإرشاد ، حيث عمم أولا بخلق السموات والأرض وما بينهما ، ثم خصص من العام أنفسهم وآباءهم لأنّ أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ، ومن ولد منه ، وما شاهد من أحواله ، من وقت ميلاده إلى وفاته ، ثم خصّص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها فى الآخر ، على تقدير مستقيم وحساب مستو ، من أقوى الدلائل على وحدانية الربوبية ، ووجوب وجودها. أو : تقول : لما سأله عن ماهية الربوبية جهلا فأجابه ، بالخاصية ، قال أَلا تَسْتَمِعُونَ؟ فعاد موسى إلى مثل قوله ، فجنّنه فرعون ، زاعما أنه حائد عن الجواب ، فعاد ثالثا مبينا أن الواجب الوجود ، الفرد الصمد ، لا يدرك بالكنه ، إنما يعرف بالصفات ، وما عرفه بالذات إلا خواص الخواص ، فالسؤال عن الذات من

أمثاله جهل وحمق. ولذلك قال : إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ، أي : إن كان لكم عقل علمتم أنه لا يمكن أن تعرفوه إلا بهذا الطريق.

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة النازعات.

(٢) من الآية ٣٨ من سورة القصص.

(١٣٠/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٣١

قال ابن جزىّ : إن قيل : كيف قال أولا : إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، ثم قال آخرا : إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ؟ فالجواب : أنه لاين أولا طمعا فى إيمانهم ، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله : «إن كنتم تعقلون» ، وجعل ذلك فى مقابلة قول فرعون : إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. هـ.

ولما تجبر فرعون وبهت قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ، أي : لأجعلنك واحدا ممن عرفت حالهم فى سجونى ، وكان من عادته أن يأخذ من يرى سجنه ، فيطرحه فى هوّة ذاهبة فى الأرض ، بعيدة العمق ، فردا ، لا ينظر فيها ولا يسمع ، وكان ذلك أشدّ من القتل. ولو قال : لأسجننك ، لم يؤد هذا المعنى ، وإن كان أخصر. قاله النسفي.

الإشارة : التربية لها حق يراعى ويجب شكرها ، ولا فرق بين تربية البشرية والروحانية. قال القشيري : لم يجحد موسى حقّ التربية والإحسان إليه فى الظاهر ، ولكن بيّن أنه إذا أمر اللّه بشىء وجب اتباع أمره ، وإذا كانت تربية المخلوقين توجب حقا ، فتربية اللّه أولى بأن يعظّم العبد قدرها. هـ. فكل من أحسن إلى بشريتك بشىء وجب عليك شكره بالإحسان إليه ، ولو بالدعاء ، وكل من أحسن إلى روحانيتك بالعلم أو بالمعرفة ، وجب عليك خدمته وتعظيمه ، وإنكار ذلك سبب المقت والطرد ، والعياذ بالله.

وقول فرعون : وَما رَبُّ الْعالَمِينَ : سؤال عن حقيقة الذات ، ومعرفة الكنه متعذرة إذ ليس كمثله شىء ، وأقرب ما يجاب به قوله تعالى : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ «١» فهذه الأسماء الأربعة أحاطت بالذات فى الجملة ، ولم تترك منها شيئا ، والإحاطة بالكنه متعذرة ، ولو وقعت الإحاطة لم يبق للعارفين ترق ، مع أن ترقيهم فى كشوفات الذات لا ينقطع أبدا ، فى هذه الدار الفانية ، وفى تلك الدار الباقية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر معجزة العصا وما يتبعها ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٣٠ الى ٣٣]

قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣)

قلت : (لو) : هنا ، ليست امتناعية ، بل إغيائية ، فلا جواب لها ، أي : تفعل بي هذا على كل حال ولو جئتك بشىء مبين.

---

(١) من الآية ٣ من سورة الحديد.

يقول الحق جل جلاله : قالَ موسى عليه السّلام لفرعون ، لمّا هدده بالسجن : أَوَلَوْ أتفعل ما ذكرت من سجنى ولو جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ واضح الدلالة على صدقى ، وتوحيد رب العالمين. يريد به المعجزة فإنها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته ، وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده. والتعبير عنه بالشيء للتهويل. قالَ فرعون : فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فيما قلت من الإتيان بالشيء الواضح على صدق دعواك ، أو : من الصادقين فى دعوى الرسالة.

فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ أي : ظاهر ثعبانيته ، لا أنه تخيل بما يشبهه كشأن الشعوذة والسحر. روى أنها ارتفعت فى السماء قدر ميل ، ثم انحطت مقبلة على فرعون ، تقول : يا موسى مرنى بما شئت ، فيقول فرعون :

أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها ، فأخذها ، فعادت عصا. وَنَزَعَ يَدَهُ أي : أخرجها من تحت إبطه ، فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ أي : بياضا خارجا عن العادة ، بحيث يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة.

روى أن فرعون لما أبصر الآية الأولى قال : هل لك غيرها؟ فأخرج يده ، وقال لفرعون : ما هذه؟ قال : يدك ، فأدخلها تحت إبطه ، ثم نزعها ، ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسدّ الأفق. فسبحان القادر على كل شىء.

الإشارة : النفوس الفرعونية هى التي تتوقف فى الصدق والإيمان على ظهور المعجزة أو الكرامة ، وأما النفوس الزكية فلا تحتاج إلى معجزة ولا كرامة ، بل يخلق اللّه فيها الهداية والتصديق بطريقة الخصوصية ، من غير توقف على شىء. وبالله التوفيق.

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٣٤ الى ٣٧]

قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (٣٥)

قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)
قلت : (حوله) : ظرف وقع موقع الحال ، أي : مستقرين حوله.
يقول الحق جل جلاله : قالَ فرعون ، لمّا رأى ما بهته وحيّره ، لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ ، وهم أشراف قومه : إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ فائق فى فن السحر. ثم أعدى قومه على موسى بقوله : يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ بما صنع مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ تشيرون فى أمره من حبس أو قتل ، وهو من المؤامرة ، أي : المشاورة ، أو : ماذا تأمرون به ، من الأمر ، لما بهره سلطان المعجزة وحيّره ، حط نفسه عن ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده - فى زعمه - والامتثال لأمرهم ، وجعل نفسه مأمورة ، أو : إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم ، بعد ما كان مستقلا فى الرأى والتدبير.

(١٣٢/٤)

قالُوا له : أَرْجِهْ وَأَخاهُ أي : أخّر أمرهما ، ولا تعجل بقتلهما خوفا من الفتنة أو : احبسهما ، وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ أي : شرطا يحشرون السحرة ، يَأْتُوكَ أي : الحاشرون بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ فائق فى فن السحر. وأتوا بصيغة المبالغة ليسكّنوا بعض روعته. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : المشاورة فى الأمور المهمة من شأن أهل السياسة والرأى ، وفى الحديث : «ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار» «١» ، فالمشاورة من الأمر القديم ، وما زالت الأكابر من الأولياء والأمراء يتشاورون فى أمورهم اقتداء برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وبالله التوفيق.
ثم ذكر جمع السحرة ، فقال :
[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٣٨ الى ٤٤]
فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (٤١) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢)
قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (٤٤)
يقول الحق جل جلاله : فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وهو ما عيّنه موسى عليه السّلام بقوله : مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى «٢». والميقات : ما وقت به ، أي : حدّ من زمان أو مكان. ومنه :
مواقيت الحج. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ أي : اجتمعوا. وعبّر بالاستفهام حثا على الاجتماع.

واستبطاء لهم ، والمراد : استعجالهم إليه ، لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ فى دينهم إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ أي : إن غلبوا موسى ، ولا نتبع موسى فى دينه ، وليس غرضهم اتباع السحرة ، وإنما الغرض الكلى ألا يتبعوا موسى ، فساقوا كلامهم مساق الكناية حملا لهم على الاهتمام والجد فى المغالبة لأنهم إذا اتبعوا السحرة لم يكونوا متبعين لموسى ، وهو مرادهم ، ولأن السحرة إذا سمعوا ذلك حملهم التروس على الجد فى المغالبة.

فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً أي : جزاء وافرا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ لموسى؟

قالَ نَعَمْ لكم ذلك ، وَإِنَّكُمْ مع ذلك ، إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ عندى فى المرتبة والحال ، فتكون أول من

---

(١) أخرجه الطبراني فى الأوسط (٦٦٢٧) ، والصغير (٢/ ٧٨) ، والشهاب القضاعي فى مسنده (٧٧٤) ، من حديث أنس. وانظر كشف الخفاء (٢/ ١٨٥). [.....]

(٢) الآية ٥٩ من سورة طه.

(١٣٣/٤)

يدخل علىّ ، وآخر من يخرج عنى. ولما كان قوله : أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً ، فى معنى جزاء الشرط لدلالته عليه ، وكان قوله : وَإِنَّكُمْ إِذاً : معطوفا عليه ، دخلت «إذا» قارة فى مكانها ، الذي تقتضيه من الجواب والجزاء.

قالَ لَهُمْ مُوسى بعد أن قالوا له : إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى «١» : أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ من السحر ، فسوف ترون عاقبته. ولم يرد به الأمر بالسحر والتمويه ، بل الإذن فى تقديم ما هم فاعلوه البتة توسلا به إلى إظهار الحق وإبطال الباطل ، فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ، وكانوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا.

وقيل : كانت الحبال اثنين وسبعين ، وكذا العصىّ. وَقالُوا بعد الإلقاء ، لما رأوها تتحرك وتقبل وتدبر : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ ، قالوا ذلك لفرط اعتقادهم فى أنفسهم ، وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر ، أقسموا بعزته وقوته ، وهو من أيمان الجاهلية. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : السحر على قسمين : سحر القلوب إلى حضرة الحق ، وسحر النفوس إلى عالم الخلق ، أو : إلى عالم الخيال. فالأول : من شأن العارفين باللّه ، الداعين إلى اللّه ، فهم يسحرون قلوب من أتى إليهم إلى حضرة القدس ، ومحل الأنس ، فيقال فى شأنهم : فجمع السحرة بقلوبهم ، إلى ميقات يوم معلوم ، وهو يوم الفتح والتمكين ، أو يوم النفحات ، عند اتفاق جمعهم فى مكان معلوم. وقيل للناس ،

وهو عوام الناس : هل أنتم مجتمعون لتفيقوا من سكرتكم ، وتتيقظوا من نوم غفلتكم ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، ولا شك في غلبتهم ونصرهم لقوله تعالى : وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ «٢».

ثم ذكر إبطال سحرهم ، وإسلامهم ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٤٥ الى ٥١]

فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (٤٦) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (٤٨) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩)

قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)

---

(١) الآية ٦٥ من سورة طه.

(٢) من الآية ٤٠ من سورة الحج.

(١٣٤/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٣٥

يقول الحق جل جلاله : فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ من يده ، فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ أي : تبتلع بسرعة ما يَأْفِكُونَ : ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم ، ويزورونه ، فيخيّلون في حبالهم وعصيّهم أنها حيات تسعى ، فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ لما شاهدوا ذلك من غير تلعثم ولا تردد ، غير متمالكين لأنفسهم لعلمهم بأن ذلك خارج عن حدود السحر ، وأنه أمر إلهي ، يدل على تصديق موسى عليه السّلام. وعبّر عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكلة لقوله : أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ ، فألقى ، فلما خروا سجودا ، قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ ، قال عكرمة : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء. هـ. رَبِّ مُوسى وَهارُونَ : عطف بيان ، أو : بدل من بِرَبِّ الْعالَمِينَ.

فدفع توهم إرادة فرعون لأنه كان يدعى الربوبية ، فأرادوا أن يعزلوه منها. وقيل : إن فرعون لما سمع منهم : آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ ، قال : إياى عنيتم؟ قالوا : رَبِّ مُوسى وَهارُونَ.

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ أي : بغير إذن لكم ، كما في قوله تعالى : قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي «١» ، لان أن الإذن منه ممكن أو متوقع ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فتواطأتم على ما فعلتم مكرا وحيلة.

أراد بذلك التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أنهم آمنوا على بصيرة وظهور حق. ثم هدّدهم بقوله :

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ، يدا من جهة ورجلا من أخرى ، أو : من أجل خلاف ظهر منكم ، وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قيل : إنه فعل ذلك ، وروى عن ابن عباس وغيره ، وقيل : إنه لم يقدر على ذلك ، لقوله تعالى : أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ «٢».

قالُوا أي : السحرة : لا ضَيْرَ أي : لا ضرر علينا فى ذلك ، فحذف خبر «لا» ، إِنَّا إِلى رَبِّنا الذي عرفناه وواليناه مُنْقَلِبُونَ لا إليك ، فيكرم مثوانا ويكفر خطايانا ، أو : لا ضرر علينا فيما توعدتنا به إذ لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بالموت ، فلأن يكون فى ذاته وسبب دينه أولى ، قال الورتجبي : لمّا عاينوا مشاهدة الحق سهل عليهم البلاء ، لا سيما أنهم يطمعون أن يصلوا إليه ، بنعت الرضا والغفران. هـ.

ولذلك قالوا : إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أي : لأن كنا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ من أهل المشهد ، أو : من أتباع فرعون.

الإشارة : من شأن خواص الملك ألا يفعلوا شيئا إلا بإذن من ملكهم ، ولذلك أنكر فرعون على السحرة المبادرة إلى الإيمان قبل إذنه ، وبه أخذت الصوفية الكبار والفقراء مع أشياخهم ، فلا يفعلون فعلا حتى يستأذنوا فيه الحق تعالى والمشايخ ، وللإذن سر كبير ، لا يفهمه إلا من ذاق سره. وتقدم بقية الإشارة فى سورة الأعراف «٣». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٣٥ من سورة القصص.

(٣) راجع إشارة الآيات ١١٧ - ١٢٦ من سورة الأعراف.

ثم ذكر خروج موسى عليه السّلام من مصر وتوجهه إلى البحر ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٥٢ الى ٥٩]

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (٥٦)
فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (٥٩)

قلت : أسرى وسرى : لغتان ، وقرئ بهما.

يقول الحق جل جلاله : وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بقطع الهمزة ووصلها ، أي : سر بِعِبادِي ليلا. وسماهم عباده لإيمانهم بنبيهم ، وذلك بعد إيمان السحرة بسنين ، أقام بين أظهرهم ، يدعوهم إلى

الحق ويظهر لهم الآيات ، ثم أمره بالخروج ، وقال : إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ أي : يتبعكم فرعون وجنوده مصبحين ، فأسر بمن معك حتى لا يدركوكم قبل الوصول إلى البحر ، فيدخلوا مداخلكم ، فأطبقه عليهم فأغرقهم. روى أنه مات فى تلك الليلة فى كل بيت من بيوت القبط ولد ، فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه. وروى أن اللّه أوحى إلى موسى :

أن اجمع بنى إسرائيل ، كلّ أربعة أبيات فى بيت ، ثم اذبحوا أولاد الضأن ، فاضربوا بدمائها على أبوابكم ، فإنى سآمر الملائكة فلا تدخل بيتا فيه دم ، وسآمرها فتقتل أبكار القبط ، واخبزوا فطيرا فإنه أسرع لكم ، ثم أسر بعبادي حتى تنتهى إلى البحر فيأتيك أمرى. «١» هـ. وحكمة لطخ الدم ليتميز بيوت بنى إسرائيل ، فلا تقتل الملائكة فيها أحدا. عاملهم على قدر عقولهم ، وإلا فالملك لا يخفى عليه ما أمر به.

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ حين أخبر بمسيرهم فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ جامعين للعساكر ليتبعهم ، فلما اجتمعوا قال : إِنَّ هؤُلاءِ ، يريد بنى إسرائيل لَشِرْذِمَةٌ طائفة قليلة قَلِيلُونَ ، ذكرهم بالاسم الدالّ على القلة ، ثم جعلهم قليلا بالوصف ، ثم جمع القليل ، فيدل على أن كل حزب منهم قليل. أو : أراد بالقلة : الذلة ، لا قلة العدد ، أي : إنهم لذلتهم ، لا يبالى بهم ، ولا يتوقع غلبتهم. قال ابن عرفة : شرذمة : تقليل لهم باعتبار الكيفية ، وقليلون :

باعتبار الكمية ، وإنما استقلّ قوم موسى - وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا - لكثرة من معه ، فعن الضحاك : كانوا سبعة آلاف ألف ، وروى أنه أرسل فى أثرهم ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسوّر ، مع كل ملك ألف ، وخرج فرعون فى جمع عظيم ، وكانت مقدمته سبعمائة ألف رجل على حصان ، وعلى رأسه بيضة. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : أنه خرج فرعون فى ألف ألف حصان ، من سوى الإناث. هـ «٢».

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٩/ ٧٦) ، والدر المنثور (٥/ ١٥٨) والبغوي (٦/ ١١٣).

(٢) قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٣٦) بعد ذكره لبعض الأقوال فى تعيين عدد الذين خرجوا مع فرعون : والظاهر أن ذلك من مجازفات بنى إسرائيل ، واللّه أعلم. والذي أخبر به القرآن هو النافع ، ولم يعين عدتهم إذ لا فائدة تحته ، لأنهم خرجوا بأجمعهم.

(١٣٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٣٧

وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ أي : فاعلون ما يغيظنا ، وتضيق به صدورنا ، وهو خروجهم من مصر ، وحملهم

حلينا ، وقتلهم أبكارنا ، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ أي : ونحن قوم عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور ، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى إطفاء ثائرته وحسم فساده ، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن العجز. وقرئ : (حذرون) «١» بالمد والقصر ، فالأول دال على تجد الحذر ، والثاني على ثبوته.

قال تعالى : فَأَخْرَجْناهُمْ أي : خلقنا فيهم داعية الخروج وحملناهم عليه ، مِنْ جَنَّاتٍ بساتين وَعُيُونٍ وأنهار جارية ، وَكُنُوزٍ أموال وافرة من ذهب وفضة ، وسماها كنوزا لأنهم لم ينفقوا منها فى طاعة اللّه تعالى شيئا. وَمَقامٍ كَرِيمٍ أي : منزل رفيع بهيّ ، وعن ابن عباس : المنابر.

كَذلِكَ أي : الأمر كذلك ، أو : أخرجناهم مثل ذلك الإخراج العجيب ، فهو خبر ، أو : مصدر تشبيهى لأخرجنا. وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ أي : ملكناها إياهم ، على طريقة تمليك مال الموروث للوارث لأنهم ملكوها من حين خروج أربابها عنها قبل أن يقبضوها. وعن الحسن : لما عبروا النهر رجعوا ، وأخذوا ديارهم وأموالهم. هـ. قال ابن جزى : لم يذكر فى التواريخ ملك بنى إسرائيل لمصر ، وإنما المعروف أنهم ملكوا الشام ، فتأويله على هذا : أورثناهم مثل ذلك بالشام. هـ. قلت : بل التحقيق أنهم ملكوا التصرف فى مصر ، ووصلت حكومتهم إليها ، ولم يرجعوا إليها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا ينتصر نبىّ ولا ولىّ إلا بعد أن يهاجر من وطنه سنّة اللّه التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنّة اللّه تبديلا ، والنصرة مقرونة مع الذلة والقلة وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر معجزة فلق البحر وغرق فرعون ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٦٠ الى ٦٨]

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤)

وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)

---

(١) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي (حاذرون) بألف بعد الحاء. وقرأ الباقون بحذفها. انظر الإتحاف (٢/ ٣١٦).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٣٨

يقول الحق جل جلاله : فَأَتْبَعُوهُمْ أي : فأتبع فرعون وقومه بنى إسرائيل ، أي : لحقوا بهم ، وقرئ بشد التاء ، على الأصل ، مُشْرِقِينَ داخلين فى وقت شروق الشمس ، أي : طلوعها ، فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ أي :

تقابلا ، بحيث يرى كلّ فريق صاحبه ، أي : بنو إسرائيل والقبط ، قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ أي : قرب أن يلحقنا عدونا ، وأمامنا البحر ، قالَ موسى عليه السّلام ثقة بوعد ربه : كَلَّا ارتدعوا عن سوء الظن بالله ، فلن يدرككم أبدا ، إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ أي : سيهدينى طريق النجاة منهم.

روى أن موسى عليه السّلام لما انتهى إلى البحر هاجت الريح ، والبحر يرمى بموج مثل الجبال ، فقال يوشع عليه السّلام : يا كليم اللّه ، أين أمرت ، فقد غشينا فرعون ، والبحر أمامنا؟ قال عليه السّلام : هاهنا ، فخاض يوشع الماء ، وضرب موسى بعصاه البحر ، فكان ما كان ، وقال الذي كان يكتم إيمانه : يا مكلم اللّه أين أمرت؟ قال : هاهنا. فكبح فرسه بلجامه ، ثم أقحمه البحر ، فرسب فى الماء ، وذهب القوم يصنعون مثل ذلك ، فلم يقدروا ، فجعل موسى لا يدرى كيف يصنع؟ فأوحى اللّه إليه : أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ ، فضربه ، فانفلق ، فإذا الرجل واقف على فرسه ، لم يبتلّ لبده ولا سرجه «١».

وقال محمد بن حمزة : لما انتهى موسى إلى البحر ، دعا ، فقال : يا من كان قبل كل شىء ، والمكوّن لكلّ شىء ، والكائن بعد كلّ شىء ، اجعل لنا مخرجا ، فأوحى اللّه إليه : أن اضرب بعصاك البحر «٢» ، وذلك قوله تعالى :

فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ أي : القلزم ، أو النيل ، فَانْفَلَقَ أي : فضرب فانفلق وانشقّ ، فصار اثنى عشر فرقا ، على عدد الأسباط. فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ أي : جزء من الماء كَالطَّوْدِ : كالجبل المنطاد فى السماء الْعَظِيمِ ، وبين تلك الجبال من الماء مسالك ، بأن صار الماء مكفوفا كالجامد ، وما بينها يبس ، فدخل كل سبط فى شعب منها.

وَأَزْلَفْنا أي : قرّبنا ثَمَّ الْآخَرِينَ أي : فرعون وقومه ، حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم ، وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ من الغرق بحفظ البحر على تلك الهيئة ، حتى عبروه ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ بإطباقه عليهم. قال النسفي : وفيه إبطال القول بتأثير الكواكب فى الآجال وغيرها من الحوادث ، فإنهم اجتمعوا فى الهلاك ، على اختلاف طوالعهم. روى أن جبريل عليه السّلام كان بين بنى إسرائيل وبين آل فرعون ، فكان يقول لبنى إسرائيل : ليلحق آخركم بأولكم ، ويستقبل القبط فيقول : رويدكم ، ليلحق آخركم «٣». هـ.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً أي : فى جميع ما فصّل مما صدر عن موسى عليه السّلام ، وما ظهر على يديه من المعجزات القاهرة ، وفيما فعل فرعون وقومه من الأفعال والأقوال ، وما فعل بهم من العذاب والنكال ، لعبرة عظيمة ، لا تكاد توصف ، موجبة لأن يعتبر المعتبرون ، ويقيسوا شأن النبي صلى اللّه عليه وسلم بشأن موسى عليه السّلام ، وحال أنفسهم

(١) أخرجه الطبري (١٩/ ٨٠) عن ابن جريج. وذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ١١٥).
(٢) عزاه ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٣٦) لابن أبى حاتم ، عن عبد اللّه بن سلام.
(٣) عزاه فى الدر المنثور (٥/ ١٦٣ - ٩٦٤) لابن عبد الحكم وعبد بن حميد ، عن مجاهد.

(١٣٨/٤)

بحال أولئك المهلكين ، ويجتنبوا تعاطى ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصي ومخالفة الرسول ، فيؤمنوا بالله تعالى ويطيعوا رسوله ، كى لا يحل بهم ما حلّ بأولئك ، أو : إن فيما فصل من القصة من حيث حكايته عليه السّلام إياها على ما هى عليه ، من غير أن يسمعها من أحد ، لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحى الصادق ، موجبة للإيمان بالله تعالى ، وتصديق من جاء بها وطاعته.
وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أي : وما كان أكثر هؤلاء المكذبين الذين سمعوا قصصهم منه - عليه الصلاة والسلام - مؤمنين ، فلم يقيسوا حاله صلى اللّه عليه وسلم بحال موسى ، وحال أنفسهم بحال أولئك المهلكين ، ولم يتدبروا فى حكايته صلى اللّه عليه وسلم لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد ، مع كونه أميا لا يقرأ ، وكل من الطريقين مما يؤدى إلى الإيمان ، قطعا لانهماكهم فى الغفلة ، فكان على هذا ، زائدة ، كما هو رأى سيبويه ، فيكون كقوله تعالى : وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ «١» وهو إخبار منه تعالى بعدم إيمانهم فى المستقبل ، أو : وما كان أكثر أهل مصر مؤمنين بموسى عليه السّلام ، قال مقاتل : لم يؤمن من أهل مصر غير رجل وامرأتين حزقيل المؤمن من آل فرعون ، وآسية امرأة فرعون ، ومريم بنت ياموشى ، التي دلّت على عظام يوسف. هـ.
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب على كل ما يريد من الأمور ، التي من جملتها : الانتقام من المكذبين ، الرَّحِيمُ البالغ فى الرحمة ، ولذلك أمهلهم ولم يعاجل عقوبتهم ، أو : العزيز بالانتقام من أعدائه ، الرحيم بالانتصار لأوليائه. جعلنا اللّه من خاصتهم بمنّه وكرمه ، آمين.
الإشارة : قوله تعالى : إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ : اعلم أن المعية تختلف باختلاف المقام ، فالمعية ، باعتبار عامة الخلق ، تكون بالإحاطة والقهرية والعلم والاقتدار ، وباعتبار الخاصة تكون بالحفظ والرعاية والنصر والمعونة. فمن تحقق أن اللّه معه بعلمه وحفظه ورعايته اكتفى بعلمه ، وفوض الأمر إلى سيده ، وكلما قوى التفويض والتسليم دلّ على رفع المقام ، ولذلك فضّل ما حكاه الحق تعالى عن حبيبه بقوله : إِنَّ اللَّهَ مَعَنا «٢» ، على ما حكى عن كليمه بزيادة قوله : سَيَهْدِينِ فتأمل. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة إبراهيم عليه السّلام لما فيها من الرد على أهل الشرك تقبيحا لما عليه قريش والعرب ، مع كونهم من ذريته ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٦٩ الى ٨٢]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (٦٩) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (٧٠) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (٧١) قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)

قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قالَ أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)

وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)

وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)

---

(١) من الآية ١٠٣ من سورة يوسف.

(٢) كما جاء في الآية ٤٠ من سورة التوبة. [.....]

يقول الحق جل جلاله : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ أي : على المشركين نَبَأَ إِبْراهِيمَ أي : خبره العظيم الشأن ، ولم يأمر في قصص هذه السورة بتلاوة قصّة إلا في هذه تفخيما لشأنه ، وتعظيما لأمر التوحيد ، الذي دلت عليه. إِذْ قالَ أي : وقت قوله لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ أي : أىّ شيء تعبدون؟ وإبراهيم عليه السّلام يعلم أنهم عبدة الأصنام ، لكنه سألهم ليعلمهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة ، قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً ، وجواب ما تَعْبُدُونَ : هو قولهم : أَصْناماً لأن السؤال وقع عن المعبود لا عن العبادة ، فكان حق الجواب أن يقولوا : أصناما ، كقوله تعالى : وَيَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ «١» ، وكقوله تعالى : ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ «٢». لكنهم أطنبوا فيه بإظهار العامل قصدا إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بعبادتها ، فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ أي : فنقيم على عبادتها طول النهار. وإنما قالوا : فَنَظَلُّ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل. أو :

يراد به الدوام.

قالَ إبراهيم عليه السّلام : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أي : هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم ، على حذف مضاف ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ إن عبدتموها ، أَوْ يَضُرُّونَ أو يضرونكم إن تركتم عبادتها إذ لا بد للعبادة من جلب نفع أو دفع ضر؟ قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ فاقتدينا بهم. اعترفوا بأن أصنامهم

بمعزل عما ذكر من السمع ، والمنفعة ، والمضرة بالمرة. واضطروا إلى إظهار أنهم لا سند لهم سوى التقليد الرديء.

قالَ إبراهيم : أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أي : أنظرتم وأبصرتم وتأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدون أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ حق الإبصار ، أو حق العلم ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي أي : فاعلموا أنهم أعداء لى ، لا أحبهم ولا يحبوننى ، أو : لو عبدتموهم لكانوا أعداء لى يوم القيامة ، كقوله : سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا «٣» ، وقال الفراء : هو من المقلوب ، أي : فإنى عدو لهم ، والعدو يجيء بمعنى الواحد والجماعة لأنه فعول ، كصبور. وفى قوله : عَدُوٌّ لِي ، دون «لكم» زيادة نصح ، لكونه أدعى لهم إلى القبول ، ولو قال : فإنهم عدو لكم ، لم يكن بتلك المثابة ، ولم يقبلوه ، إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ : استثناء منقطع ، أي : لكن رب العالمين ليس كذلك ، بل هو

---

(١) من الآية ٢١٩ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٣ من سورة سبأ.

(٣) من الآية ٨٢ من سورة مريم.

حبيب لى. وأجاز الزّجّاج أن يكون متصلا ، على أن الضمير لكل معبود ، وكان من آبائهم من عبد اللّه تعالى ، وهم أيضا كانوا يعبدون اللّه مع أصنامهم.

ثم وصف الربّ تعالى بقوله : الَّذِي خَلَقَنِي بالتكوين فى القرار المكين ، فَهُوَ يَهْدِينِ وحده إلى كل ما يهمنى ويصلحنى من أمور الدين والدنيا ، هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح ، متجددة على الاستمرار ، كما ينبئ عنه صيغة المضارع. وعبّر بالاستقبال ، مع سبق الهداية فى الأزل لأن المراد ما ينشأ عنها ، وهو الاهتداء لما هو الأهم والأفضل والأتم الأكمل ، أو : والذي خلقنى لأسباب خدمته فهو يهدين إلى آداب خلّته. ولما كان الخلق لا يمكن أن يدعيه أحد لم يؤكد فيه بهو ، بخلاف الهداية والإطعام والسقي ، فإنه يكون على سبيل المجاز من المخلوقين ، ولذلك أكده بهو ليخصه به تعالى.

وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي لا غيره ، أضاف الإطعام إلى مولى الإنعام لأن الركون إلى الأسباب عادة الأنعام.

وَهو أيضا الذي يَسْقِينِ أي : يروينى بمائه. وتكرير الموصول فى المواضع الثلاثة للإيذان بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى ، مستقل فى استيجاب الحكم. وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ : عطف على يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، ونظم معهما فى سلك الصلة بموصول واحد لأن الصحة والمرض من

متبوعات الأكل والشرب فى العادة ، غالبا.

وقال فى الحاشية : ثم ذكر بعد نعمة الخلق والهداية ما تدوم به الحياة وتستمر ، وهو الغذاء والشراب ، ولمّا كان ذلك مبنيا على غلبة إحدى الكيفيات على الأخر ، بزيادة الغذاء أو نقصانه ، فيحدث بعد ذلك مرض ، ذكر نعمته بإزالة ما حدث من السقم. هـ. ونسبة المرض إلى نفسه والشفاء إلى اللّه تعالى ، مع أنهما منه تعالى لمراعاة حسن الأدب ، كما قال الخضر عليه السّلام : فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها «١» ، فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما «٢».

وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، ولم يقل : وإذا مت لأن الإماتة والإحياء من خصائصه تعالى. وأيضا : الموت والإحياء من كمال الكمال لأنه الخروج من سجن الدنيا إلى السرور والهناء ، أو : الخروج من دار البلاء والفناء إلى دار الهناء والبقاء. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي أي : فى مغفرته لى خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ، ذكره عليه السّلام هضما لنفسه ، وتعليما للأمة أن يجتنبوا المعاصي ، ويكونوا على حذر منها ، وطلب مغفرته لما يفرط منهم. وقال أبو عثمان : أخرج سؤاله على حد الأدب ، لم يحكم على ربه بالمغفرة ، ولكنه طمع طمع العبيد فى مواليهم ، وإن لم يكونوا يستحقون عليهم شيئا إذ العبد لا يستحق على مولاه شيئا ، وما يأتيه يأتيه من فضل مولاه. هـ.

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة الكهف.

(٢) من الآية ٨٢ من سورة الكهف.

وقيل : أشار إلى قوله : إِنِّي سَقِيمٌ «١» فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا «٢» وقوله فى سارّة : «هى أختى» حذرا من الجبار.

وفيه نظر لأنها مع كونها معاريض ، لا من قبيل الخطايا المفتقرة إلى الاستغفار ، إنما صدرت عنه عليه السّلام بعد هذه المقالة الجارية بينه وبين قومه فى أول أمره. وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين ، مع كونها إنما تغفر فى الدنيا لأن أثرها إنما يظهر يومئذ ، ولأن فى ذلك تهويلا له ، وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه ، إن لم يغفر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى لك أيها العبد أن تكون إبراهيميا حنيفيا ، فتنبذ جميع الأرباب ، وتعادى كل من يشغلك عن محبة الحبيب ، من العشائر والأصحاب ، وتقول لمن عكف على متابعة هواه ، ولزم الحرص على جمع دنياه ، هو ومن تقدمه : أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب

العالمين ، الذي خلقنى لعبوديته ، فهو يهدين إلى معرفته ، والذي هو يطعمنى طعم الإيمان واليقين والإحسان ، ويسقينى من شراب خمرة العيان ، وإذا مرضت بالذنوب فهو يشفين بالتوبة ، أو : وإذا مرضت بشيء من العيوب فهو يشفين بالتطهير منها. أو :
إذا مرضت برؤية السّوى ، فهو يشفين بالغيبة عنه ، والذي أطمع أن يطهرنى من البقايا ، ويجعلنى من المقربين يوم الدين. وقال ذو النون رضي اللّه عنه : يطعمنى طعام المعرفة ، ويسقينى شراب المحبة ، ثم قال :
شراب المحبّة خير الشّراب وكلّ شراب سواه سراب
وقال الشيخ أبو يزيد البسطامي رضي اللّه عنه : إن للّه شرابا ، يقال له : شراب المحبة ، ادخره لأفاضل عباده ، فإذا شربوا سكروا ، وإذا سكروا طاشوا ، وإذا طاشوا طاروا ، وإذا طاروا وصلوا ، وإذا وصلوا اتصلوا ، فهم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر. هـ. قلت : شراب المحبة هو خمرة الفناء والغيبة فى اللّه ، بدليل قول ابن الفارض رضي اللّه عنه :
فلم تهونى ما لم تكن فىّ فانيا ولم تفن ما لم تجتل فيك صورتى.
وقال الجنيد رضي اللّه عنه : يحشر الناس يوم القيامة عراة ، إلا من لبس ثياب التقوى ، وجياعا إلا من أكل طعام المعرفة ، وعطاشا إلا من شرب شراب المحبة. هـ. وقد يستغنى صاحب طعام المعرفة وشراب المحبة عن الطعام والشراب الحسيين ، كما قال صلى اللّه عليه وسلم ، حين كان يواصل :
«إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقين» «٣».
قال أبو بكر الوراق فى قوله تعالى : الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ أي : يطعمنى بلا طعام ، ويسقينى بلا شراب. قال : ويدل عليه حديث السّقّاء فى عهد النبي صلى اللّه عليه وسلم حيث سمع النبي صلى اللّه عليه وسلم يقرأ ثلاثة أيام : وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها ، فرمى بقربته ، فأتاه آت فى منامه بقدح من شراب الجنة ، فسقاه ، قال أنس :
فعاش بعد ذلك نيفا وعشرين سنة ، لم يأكل ولم يشرب على شهوة. هـ.

---

(١) من الآية ٨٩ من سورة الصافات.

(٢) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.

(٣) أخرجه البخاري فى (الصوم ، باب التنكيل لمن أكثر الوصال ، ح ١٩٦٥) ومسلم فى (الصيام ، باب النهى عن الوصال فى الصوم ، ٢/ ٧٧٤ ، ح ١١٠٣) من حديث أبى هريرة ، بدون لفظ «عند ربى» وجاء هذا اللفظ فى رواية عند الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٢٥٣).

وكان عبد الرحمن بن أبى نعيم لا يأكل فى الشهر إلا مرة ، فأدخله الحجاج بيتا ، وأغلق عليه بابه ، ثم فتحه بعد خمسة عشر يوما ، ولم يشك أنه مات ، فوجده قائما يصلى ، فقال : يا فاسق ، تصلى بغير وضوء؟ فقال : إنما يحتاج الوضوء من يأكل ويشرب ، وأنا على الطهارة التي أدخلتنى عليها. هـ.
ومكث سفيان الثوري بمكة دهرا ، وكان يسفّ من السبت إلى السبت كفا من الرمل. هـ. وهذا من باب الكرامة ، فلا يجب طردها ، وقد تكون بالرياضة ، وطريق المعرفة لا تتوقف على هذا. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر دعاء إبراهيم عليه السّلام ، فقال :
[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٨٣ الى ٨٩]
رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧)
يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)
يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن خليله إبراهيم عليه السّلام : رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً أي : حكمة ، أو حكما بين الناس ، أو نبوة لأن النبي ذو حكم بين عباد اللّه. وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ أي : الأنبياء ، الذين صلحوا لحمل أعباء النبوة والرسالة ، وصلحت سرائرهم للحضرة ، ولقد أجابه بقوله : وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ أي : ثناء حسنا ، وذكرا جميلا فى الأمم التي تجىء بعدي ، فأعطى ذلك ، فكل أهل دين يتولونه ويثنون عليه ، ووضع اللسان موضع القول لأن القول يكون به. أو : واجعلنى على طريق قويم ، وحال مرضى ، يقتدى بي فيهما ، ويحمد أثرى بعد موتى ، كما قيل :
موت التقىّ حياة لا فناء لها قد مات قوم وهم فى الناس أحياء.
وقد تحقق له جميع ذلك ، وخصوصا فى هذه الأمة ، حتى إنه مذكور ومقرون فى كل صلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقال بعضهم : سأل أن يجعله صالحا ، بحيث إذا أثنى عليه من بعده لم يكن كاذبا. وقيل : سأل الإمامة فى التوحيد والدين ، وقد أجيب بقوله : إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً «١» هـ
وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ أي : اجعلنى وارثا من ورثة جنة النعيم ، أي : الباقين فيها ، وَاغْفِرْ لِأَبِي ، أي : اجعله أهلا للمغفرة ، بإعطاء الإسلام إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ : الكافرين ، أو : اغفر له على حاله.

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

وكان قبل النهى. وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ أي : لا تهنّي يوم يبعثون. الضمير للعباد لأنه معلوم ، أو : للضالين ، أي : لا تخزنى فى أبى يوم البعث ، وهذا من جملة الاستغفار لأبيه ، وكان قبل النهى عنه ، أي : لا تهنّى ، يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ ، أي : لا ينفع فيه مال ، وإن كان مصروفا فى وجوه البر ، ولا بنون ، وإن كانوا صلحاء متأهلين للشفاعة ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ من الكفر والنفاق فإنه ينفعه ماله المصروف فى طاعة اللّه ، ويشفع فيه بنوه ، إن تأهلوا للشفاعة ، بأن أدّبهم ودرّجهم إلى اكتساب الكمالات والفضائل.

وقال ابن المسيب : القلب السليم هو قلب المؤمن فإن قلب الكافر والمنافق مريض قال اللّه تعالى : فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ «١». وقال أبو عثمان : هو القلب الخالي من البدعة ، المطمئن على السنة. وقال الحسن بن الفضل : سليم من آفات المال والبنين ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد استعمل إبراهيم عليه السّلام الأدب ، الذي هو عمدة الصوفية ، حيث قدّم الثناء قبل الطلب ، وهو مأخوذ من ترتيب فاتحة الكتاب. وقوله تعالى : رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً : قال القشيري : أي : على نفسى أولا ، فإن من لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره ، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ بالقيام بحقك ، دون الرجوع إلى طلب الاستقلال لنفسى دون حقك. هـ.

ومما اصطلحت عليه الصوفية أن الصالحين : من صلحت ظواهرهم ، وتطهرت قلوبهم من الأمراض. وفوقهم الأولياء ، وهم من كشف عنهم الحجاب ، وأفضوا إلى الشهود والعيان ، وفوقهم درجة النبوة والرسالة ، فقول الخليل وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ، وكذلك قال الصدّيق ، هو تنزل وتواضع ليعرف جلالة قدر الصالحين ، فما بالك بمن فوقهم! فهو كقول نبينا صلى اللّه عليه وسلم : «اللهمّ أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرني فى زمرة المساكين» «٢». أي :

اجعل المساكين هم قرابتى ، المحدقون بي فى المحشر ، فقد عرّف صلى اللّه عليه وسلم بفضيلة المساكين ، وعظّم جاههم ، بطلبه أن يكونوا فى كفالته ، لا أنه فى كفالتهم ، وكذلك الخليل والصدّيق ، عرّفا بفضيلة الصالحين من أهل الإسلام ، لأ أنهما طلبا اللحوق بهم.

وقوله تعالى : وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ كل من أخلص وجهه لله ، وتخلصت سريرته مما سوى اللّه ، وكان إبراهيميا حنيفيا ، جعل اللّه له لسان صدق فيمن يأتى بعده ، وحسن الثناء عليه فى حياته وبعد مماته ، لقوله صلى اللّه عليه وسلم : «إذا أحب اللّه عبدا نادى جبريل : إن اللّه يحب فلانا فأحبّه ، فيحبّه جبريل ، ثم ينادى جبريل

---

(١) من الآية ١٠ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ، ٤/ ٤٩٩ ، ح ٢٣٥٢) ، والبيهقي فى الكبرى (٧/ ١٢) من حديث أنس بن مالك ، وأخرجه ابن ماجة

فى (الزهد ، باب مجالسة الفقراء ، ٢/ ١٣٨١ - ١٣٨٢ ، ح ٤١٢٦) والحاكم فى المستدرك (٤/ ٣٢٢) ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، من حديث أبى سعيد الخدري.

(١٤٤/٤)

فى أهل السموات : إن اللّه يحب فلانا فأحبّوه ، فيحبّه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض» «١». أو كما قال صلى اللّه عليه وسلم.

وقوله تعالى : وَاغْفِرْ لِأَبِي .. إلخ. قال القشيري : هذا عند العلماء : إنما قاله قبل يأسه من إيمانه ، وعن أهل الإشارة : ذكر فى وقت غلبة البسط ، وتجاوز ذلك عنه ، وليس إجابة العبد واجبة عليه فى كل شيء ، وأكثر ما فيه :

أنه لا يجيبه فى ذلك ، ثم لهم أسوة فى ذكر أمثال هذا الخطاب ، وهذا لا يهتدى إليه كلّ أحد. هـ.

قال المحشى : وينظر لما قاله العلماء ، وبه الفتوى ، قوله : فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ «٢» ، وينظر للسان الإشارة شفاعته له يوم القيامة ، وتكلمه فيه بقوله : (و أىّ خزى أعظم من كون أبى فى النار ..) الحديث ، وكذا قوله : وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٣» ، وجاء ذلك من استغراقه فى بحر الرحمة ، على سعة العلم ، ومثله استغفار نبينا صلى اللّه عليه وسلم لابن أبىّ ، وصلاته عليه ، وانظر الطيبي فى آية : وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً «٤». هـ.

وقوله تعالى : إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ، أظهر ما قيل فى القلب السليم : أنه السالم من الشكوك والأوهام ، والخواطر الردية ، ومن الأمراض القلبية ، ولا يتحقق له هذا إلا بصحبة شيخ كامل ، يخرجه من الأوصاف البشرية ، إلى الأوصاف الروحانية ، ويحققه بالحضرة القدسية ، وإلا بقي مريضا ، حتى يلقى اللّه بقلب سقيم. وفي الإحياء : السعادة منوطة بسلامة القلب من عوارض الدنيا ، والجود بالمال من عوارض الدنيا ، فشرط القلب أن يكون سليما بينهما ، أي : لا يكون ملتفتا إلى المال ، ولا يكون حريصا على إمساكه ، ولا حريصا على إنفاقه فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق ، كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك. وكان كمال القلب أن يصفو من الوصفين جميعا. وقال الداراني : القلب السليم هو الذي ليس فيه غير اللّه تعالى. هـ. وقال الجنيد رضي اللّه عنه : السليم فى اللغة : اللديغ ، فمعناه : كاللديغ من خوف اللّه تعالى. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر هول ذلك اليوم ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٩٠ الى ١٠٤]

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ

دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ (٩٤)
وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٩٨) وَما أَضَلَّنا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩)
فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

---

(١) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب المقة «المحبة» من اللّه ح ٦٦٤٠) ومسلم فى (البر والصلة ، باب إذا أحب اللّه عبدا حبّبه إلى عباده ، ٤/ ٢٠٣٠ ، ح ٢٦٣٧) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) من الآية ١١٤ من سورة التوبة.

(٣) من الآية ٣٦ من سورة إبراهيم. [.....]

(٤) من الآية ٧ من سورة غافر.

قلت : (و أزلفت) : عطف على (ينفع) ، وصيغة الماضي فيها وفيما بعدها لتحقق الوقوع.
يقول الحق جل جلاله ، فى شأن اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون : وَأُزْلِفَتِ أي : قربت الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ، أي : تزلف من موقف السعداء ، فينظرون إليها ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ : أظهرت ، حتى يكاد يأخذهم لهبها ، لِلْغاوِينَ : للكافرين ، وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ بدفع العذاب عنكم ، أَوْ يَنْتَصِرُونَ بدفعه عن أنفسهم ، يوبّخون على إشراكهم ، فيقال لهم : أين آلهتكم التي عبدتموها ، هل ينفعونكم اليوم بنصرتهم لكم؟ أو : هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لها؟ كلا ، بل هم وآلهتهم وقود النار ، كما قال تعالى :
فَكُبْكِبُوا فِيها أي : ألقوا فى الجحيم على وجوههم ، مرة بعد أخرى ، إلى أن يستقروا فى قعرها. وفى القاموس : كبّه : قلبه وصرعه ، كأكبه وكبكبه. هـ. أي : صرعوا منكبين فى الجحيم على وجوههم ، هُمْ ، أي :
آلهتهم وَالْغاوُونَ أي : الذين كانوا يعبدونهم.
وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز إلى أنهم مؤخّرون عنها فى الكبكبة ليشاهدوا سوء حالها ، فيزدادوا غما على غم ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أي : يكبكبون معهم أَجْمَعُونَ ، وهم شياطينه الذين كانوا يقوونهم

ويوسوسونهم ، ويسوّلون لهم ما هم عليه من عبادة الأصنام ، وسائر فنون الكفر والمعاصي ، أو : متبعوه من عصاة الجن والإنس ليجتمعوا فى العذاب ، حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه.

قالُوا أي : العبدة وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ أي : قالوا معترفين بخطائهم فى انهماكهم فى الضلالة متحسرين ، والحال : أنهم فى الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم من المذكورين ، فيجوز أن ينطق اللّه الأصنام ، حتى يصح منها التخاصم والتقاول ، ويجوز أن يجرى ذلك بين العصاة والشياطين.

قالوا : تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : إن الشأن كنا فى ضلال واضح ، لا خفاء فيه ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ نعدلكم بِرَبِّ الْعالَمِينَ فنعبدكم معه ، أي : تاللّه لقد كنا فى ضلال فاحش وقت تسويتنا إياكم أيها الأصنام ، فى استحقاق العبادة ، برب العالمين ، الذي أنتم أدنى مخلوقاته ، وأذلهم وأعجزهم ، وَما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ أي :

رؤساؤهم ، الذين أضلوهم ، وإبليس وجنوده ، ومن سنّ الشرك. وليس المراد قصر الإضلال على المجرمين دون من عداهم ، بل قصر ضلالهم على كونه بسبب إضلالهم ، من غير أن يستقلوا به ، وهذا كقولهم : رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا «١». وعن السّدّى : هم الأولون الذين اقتدوا بهم. وأيّا ما كان ففيه التعريض للذين قالوا : بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ.

ثم قالوا : فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء - عليهم السلام - وغيرهم ممن أهّل للشفاعة. وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ كما لهم أصدقاء إذ لا يتصادق فى الآخرة إلا المؤمنون ، وأما الكفار فبينهم التعادي كما يأتى فى الآية. أو : ما لنا من شافعين ، ولا صديق من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون أن أصنامهم تشفع لهم عند اللّه ، وكان لهم أصدقاء من شياطين الإنس ، فلم ينفعهم شيء من ذلك. وجمع الشفعاء ووحّد الصديق لكثرة الشفعاء. وأما الصديق ، وهو الصادق فى ودادك ، الذي يهمه ما أهمك ، ويسره ما أسرك ، فقليل ، وسئل حكيم عن الصديق ، فقال : (اسم لا معنى له) ، أي : لا وجود له ، والبركة لا تنقطع.

قال القشيري : فى الخبر : يجيء يوم القيامة عبد فيحاسب ، فتستوى حسناته وسيئاته ، ويحتاج إلى حسنة واحدة يرضى عنه خصومه ، فيقول اللّه سبحانه له : عبدى بقيت لك حسنة ، إن كانت أدخلناك الجنة ، انظر ، وتطلّب من الناس لعلّ أحدا يهبها لك. فيأتى الصفين ، فيطلب من أبيه ، ثم من أمه ، ثم من أصحابه ، فلا يجيبه أحد إلا بقوله :

أنا اليوم فقير إلى حسنة واحدة ، فيرجع إلى مكانه ، فيسأله الحقّ - سبحانه : ما جئت به؟ فيقول : يا

ربّ لم يعطني أحد حسنة ، فيقول اللّه تعالى : عبدى .. ألم يكن لك صديق؟ فيتذكر العبد ، ويقول : فلان كان صديقا لى فيك ، فيأتيه ويدله الحق عليه ، فيكلّمه ، فيقول : بل لى عبادات كثيرة ، فإن قبلها اللّه منى فقد وهبتها لك ، فيسرّ ويجىء إلى موضعه ، فيخبر بذلك ربّه تعالى ، فيقول : قد قبلتها منه ، ولم أنقص من حقّه شيئا ، وقد غفرت لك وله - فهذا معناه. هـ. ونقل القرطبي عن الحسن قال : ما اجتمع ملأ على ذكر اللّه ، فيهم عبد من أهل الجنة ، إلا شفّعه اللّه فيهم ، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم فى بعض ، وهم عند اللّه شافعون مشفعون. هـ.

ثم قالوا : فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً أي : رجعة إلى الدنيا فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وجواب لو التّمنية : محذوف ، أي : لفعلنا كيت وكيت إذ «لو» ، فى مثل هذا ، للتمنى ، أي : فليت لنا كرة فنكون من المؤمنين.

إِنَّ فِي ذلِكَ أي : فيما ذكر من الأنباء العجيبة كقصة إبراهيم مع قومه ، وما ترتب على ذلك من الوعد والوعيد ، لَآيَةً عظيمة ، موجبة للزجر عن عبادة الأصنام ، لا سيما لأهل مكة ، الذين يدّعون أنهم على ملة

---

(١) من الآية ٦٧ من سورة الأحزاب.

(١٤٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٤٨

إبراهيم عليه السّلام ، أو : إن فى ذكر نبأه ، وتلاوته عليهم ، على ما هو عليه ، من غير أن تسمعه من أحد ، لآية عظيمة دالة على أن مانتلوه عليهم وحي صادق ، نازل من جهته تعالى ، موجبة للإيمان به ، وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أي : وما أكثر هؤلاء ، الذين تتلو عليهم هذه الأنباء ، مؤمنين ، بل هم مصرّون على ما كانوا عليه من الكفر والضلال. ولا يحسن رجوعه لقوم إبراهيم ، على أن كانَ أصلية لأنه لم يؤمن من قومه إلا لوط فقط.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أي : هو القادر على تعجيل العقوبة لقومك ، ولكنه يمهلهم بحلمه ورحمته ليؤمن بعض منهم أو من ذريتهم. وبالله التوفيق.

الإشارة : وأزلفت جنة المعارف للمتقين السّوى ، وبرزت جحيم القطيعة للغاوين ، المتبعين الهوى. وفى الحكم :

«لا يخاف أن تلتبس الطرق عليك ، إنما يخاف من غلبة الهوى عليك» وقيل لأهل الهوى : أين ما كنتم تعبدون من دون اللّه ، من الحاملين لكم على البقاء مع الحظوظ والشهوات ، هل ينصروكم أو ينتصرون؟ فكبكبوا فى الحضيض الأسفل ، هم والغاوون لهم ، الذين منعوهم من الدخول فى حضرة

الأولياء ، وجنود إبليس أجمعون. قالوا - وهم فى غم الحجاب ونار القطيعة يختصمون - : تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين فى المحبة والميل ، وما أضلنا إلا المجرمون ، الذين حكموا بقطع التربية على الدوام ، وسدوا الباب فى وجوه الرجال ، فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم ، يشفع لنا حتى نلتحق بالمقربين. هيهات لا يكون اللحوق بهم إلا بالدخول معهم ، فى مقام المجاهدة فى دار الدنيا ، ثم يتمنون الرجوع ليصدّقوا بهم ، وينخرطوا فى سلكهم ، فلا يجدون له سبيلا. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر قصة نوح عليه السّلام ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٠٥ الى ١٢٢]

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسابُهُمْ إِلاَّ عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤)

إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)

ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)

قلت : اسم الجمع واسم الجنس يذكر ويؤنث ، كقوم ، ورهط ، وشجر.

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ، وهو نوح بن لامك. قيل : ولد فى زمن آدم عليه السّلام ، قاله النسفي ، وإنما قال : الْمُرْسَلِينَ ، والمراد : نوح فقط لأن من كذّب واحدا من الرسل فقد كذب الجميع ، لاتفاقهم فى الدعوة إلى الإيمان لأن كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل. وقد يراد بالجمع : الواحد كقولك : فلان يركب الخيل ، ويلبس البرود ، وما له إلا فرس واحد وبرد واحد. إِذْ قالَ لَهُمْ : ظرف للتكذيب ، أي : كذبوه وقت قوله لهم أَخُوهُمْ نُوحٌ نسبا ، لا دينا ، وقيل : أخوة المجانسة ، كما فى آية : بِلِسانِ قَوْمِهِ «١» : أَلا تَتَّقُونَ خالق الأنام ، فتتركوا عبادة الأصنام ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، كان مشهورا بالأمانة عندهم ، كحال نبينا صلى اللّه عليه وسلم فى قريش ، ما كانوا

يسمونه إلا محمدا الأمين. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ فيما آمركم به وأدعوكم إليه من الإيمان.

وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أي : على ما أنا متصد له من الدعاء والنصح ، مِنْ أَجْرٍ أصلا إِنْ أَجْرِيَ فيما أتولاه إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ لا أطمع فى غيره ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من تنزيهه عليه السّلام عن الطمع ، كما أن نظيرتها السابقة لترتيب ما بعدها على أمانته. والتكرير للتأكيد ، والتنبيه على أن كلا منهما مستقل فى إيجاب التقوى والطاعة ، فكيف إذا اجتمعا؟ كأنه قال : إذا عرفتم رسالتى وأمانتى فاتقوا اللّه وأطيعون.

قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ والحالة أنه قد تبعك الْأَرْذَلُونَ أي : الأرذلون جاها ومالا ، والرذالة : الدناءة والخسة ، وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم ، وقلة نصيبهم من الدنيا ، وقيل : كانوا من أهل الصناعة الدنيئة ، قيل :

كانوا حاكة وأساكفة - جمع إسكاف - وهو الخفّاف - أي : الخراز ، وقيل : النجار. والصناعة لا تزرى بالديانة ، فالغنى غنى القلوب ، والنسب نسب التقوى ، والعز عز العلم بالله لا غير ، ومرادهم بذلك : أنه لا مزية لك فى اتباعهم إذ

---

(١) الآية ٤ من سورة إبراهيم.

ليس لهم رزانة عقل ، ولا إصابة رأى ، وقد كان ذلك منهم في بادى الرأى. وهذا من كمال سخافة عقولهم ، وقصر نظرهم على حطام الدنيا حتى اعتقدوا أن الأشرف من جمعها ، والأرذل من حرمها. وقد جهلوا بأنها لا تزن عند اللّه جناح بعوضة ، وأن النعيم هو نعيم الآخرة ، والأشرف من فاز به ، وسكن فى جوار اللّه ، والأرذل من حرم ذلك.

قال القشيري : ذكر ما لقى من قومه ، وقوله : وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ، وكذلك أتباع الرسل ، إنما هم الأضعفون ، لكنهم - فى حكم اللّه - هم المقدّمون الأكرمون ، قال صلى اللّه عليه وسلم : «نصرت بضعفائكم» «١» ، إلخ كلامه.

قالَ وَما عِلْمِي أي : وأىّ شىء علمى بِما كانُوا يَعْمَلُونَ من الصناعات ، إنما أطلب منهم الإيمان. وقيل : إنهم طعنوا فى إيمانهم ، وقالوا : لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة ، وإنما اتبعوك طمعا فى العدة والمال ، أي : وما وظيفتي إلا اعتبار الظواهر ، دون التنقير على بواطنهم ، والشق عن قلوبهم ، إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي أي :

ما محاسبة أعمالهم والتنقير عن كيفياتها إلا على ربى فإنه المطلع على السرائر ، لَوْ تَشْعُرُونَ بشيء من الأشياء ، أو : لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك ، ولكنكم كالبهائم أو أضل.

وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ أي : ليس من شأنى أن أتبع شهواتكم ، فأطرد المؤمنين طمعا فى إيمانكم ، وهو جواب عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق إيمانهم بذلك ، حيث جعلوا اتباعهم له مانعا عنه ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ وما على إلا أن أنذركم إنذارا بيّنا بالبرهان القاطع ، وأنتم أعلم بشأنكم ، أي : وما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين ، سواء كانوا أعزاء أو أراذل ، فكيف يمكننى طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟. قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ عما تقول لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ من المقتولين بالحجارة. قالوه فى آخر أمره.

قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ تمادوا على تكذيبى ، وأصروا عليه ، بعد ما دعوتهم هذه الأزمنة المتطاولة ، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وليس هذا من قبيل الإخبار لأن اللّه لا يخفى عليه شيء ، وإنما هو تضرع وابتهال ، بدليل قوله : فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً أي : احكم بينى وبينهم بما يستحقه كل واحد منا ، وهذه حكاية إجمالية ، قد فصلت فى سورة نوح وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ من شرهم ، أو من شؤم عملهم.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الجهاد ، باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب ح ٢٨٩٦) ، عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص ، بلفظ : «هل تنصرون إلا بضعفائكم» ، وأخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٨) ، والترمذي فى (الجهاد ، باب الاستفتاح بصعاليك المسلمين ، ٤/ ١٧٩ ، ح ١٧٠٢) ، وأبو داود فى (الجهاد ، باب فى الانتصار برذل الخيل والضعفة ٣/ ٧٣ ، ح ٢٥٩٤) ، من حديث أبى الدرداء ، بلفظ : «ابغوني فى الضعفاء ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم».

قال المنذرى : ومعناه : أن عبادة الضعفاء ودعاءهم أشد إخلاصا لخلو قلوبهم من التعلق بزخرف الدنيا ، وجعلوا همهم واحدا ، فأجيب دعاؤهم ، وربحت أعمالهم.

فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ حسب دعائه فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ المملوء بهم وبما لا بد لهم منه. ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ أي : بعد إنجائهم الْباقِينَ من قومه ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الممتنع القاهر بإهانة من جحد وأصر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال القشيري : أخبر عن كل واحد من الأنبياء بقوله : وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ليعلم الكافة

أنه من عمل له فلا ينبغى أن يطلب الأجر من غيره ، ففى هذا تنبيه للعلماء - الذين هم ورثة الأنبياء - أن يتأدبوا بآدابهم ، وألّا يطلبوا من الناس شيئا فى بثّ علومهم ، ولا يرتفقون منهم بتعليمهم ، والتذكير لهم ، ومن ارتفق من المستمعين فى بث فائدة يذكرها من الدين ، يعظ بها المسلمين ، فلا بارك اللّه للمسلمين فيما يسمعون منه ، ولا للعلماء أيضا بركة فيما منهم يأخذون ، فيبيعون دينهم بعرض يسير ، ثم لا برضكة لهم فيه ، إذ لا يتقربون به إلى اللّه ، ولا ينتفعون به ، ويحصلون على سخط من اللّه. هـ.
قلت : أما ما يأخذه العالم من الأحباس فلا يدخل فى هذا إذ ليس فيه تكلف من أحد ، وكذلك ما يأخذه الواعظ على وجه الزيارة والهدية ، من غير استشراف نفس ولا طمع ولا تكلف. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هود عليه السّلام ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٢٣ الى ١٤٠]

كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٢٧)
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (١٣٢)
أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧)
وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ ، وهى قبيلة ، ولذلك أنّث الفعل ، وفى الأصل : اسم رجل ، هو أبو القبيلة. إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نسبا ، هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، وقد مر تفسيره ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فى تكذيب الرسول الأمين ، وَأَطِيعُونِ فيما آمركم به وأنهاكم عنه ، وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ ، وتصدير القصص بتكذيب الرسل والأمر بالطاعة للدلالة على أن مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحق ، والطاعة فيما يقرب المدعو إلى الثواب ، ويبعده من العقاب ، وأنّ الأنبياء - عليهم السلام - مجمعون على ذلك ، وإن اختلفوا فى فروع الشرائع ، المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار ، وأنهم منزهون عن المطامع الدنيئة ، والأغراض الدنيوية بالكلية.

ثم وبّخهم بقوله : أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ : مكان مرتفع ، ومنه : ريع الأرض لارتفاعها ، وفيه لغتان : كسر الراء وفتحها. آيَةً علما للمارة ، كانوا يصعدونه ويسخرون بمن يمر بهم. وقيل : كانوا يسافرون ولا يهتدون إلا بالنجوم ، فبنوا على الطريق أعلاما ليهتدوا بها عبثا ، وقيل : برج حمام ، دليله : تَعْبَثُونَ أي : تلعبون ببنائها ، أو : بمن يمر بهم على الأول ، وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ ، مآخذ الماء ، أو قصورا مشيدة ، أو حصونا ، وهو جمع مصنع ، والمصنع : كل ما صنع وأتقن فى بنيانه ، لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ أي : راجين الخلود فى الدنيا ، عاملين عمل من يرجو ذلك ، أو كأنكم تخلدون.

وَإِذا بَطَشْتُمْ بسوط أو سيف ، أو أخذتم أحدا لعقوبة بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ مسلطين ، قاسية قلوبكم ، بلا رأفة ولا رقة ، ولا قصد تأديب ، ولا نظرا للعواقب. والجبار الذي يضرب أو يقتل على الغضب. فَاتَّقُوا اللَّهَ فى البطش ، وَأَطِيعُونِ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ من ألوان النعماء وأصناف الآلاء. ثم فصّلها بقوله : أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ فإن التفصيل بعد الإجمال أدخل فى القلب. وقرن البنين بالأنعام لأنهم يعينونهم على حفظها والقيام بها.

وَجَنَّاتٍ بساتين وَعُيُونٍ : أنهار خلال الجنات ، إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إن عصيتمونى ، أو : إن لم تقوموا بشكرها فإن كفران النعم مستتبع للعذاب ، كما أن شكرها مستلزم لزيادتها ، قال تعالى : لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ «١».

---

(١) من الآية ٧ من سورة إبراهيم.

قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ فإنّا لن نرعوى عما نحن عليه ، ولا نقبل كلامك ودعوتك ، وعظت أو سكت. ولم يقل : أم لم تعظ لرؤوس الآي. إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ بضم اللام «١» ، أي :

ما هذا الذي نحن عليه من ألّا بعث ولا حساب ، إلا عادة الأولين وطبيعتهم واعتقادهم ، أو : ما هذا الذي نحن عليه من الموت والحياة إلا عادة قديمة ، لم يزل الناس عليها ، ولا شيء بعدها ، أو : ما هذا الذي أنكرت علينا من البنيان والبطش ، إلا عادة من قبلنا ، فنحن نقتدى بهم ، وما نعذّب على ذلك. وبسكون اللام ، أي : ما هذا الذي خوفتنا به إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ أي : اختلاقهم وكذبهم ، أو : ما خلقنا هذا إلا كخلقهم ، نحيا كما حيوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا حساب ، وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ على ما نحن عليه من الأعمال.

فَكَذَّبُوهُ أي : أصروا على تكذيبه ، فَأَهْلَكْناهُمْ بسبب ذلك بريح صرصر ، تقدم فى الأعراف كيفيته «٢» ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ أي : قوم هود مُؤْمِنِينَ ما أسلم معه ثلاثمائة ألف ... وأهلك باقيهم. قاله المحشى الفاسى. وقيل : وما أكثر قومك بمؤمنين بهذا ، على أن كانَ : صلة. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ العزيز بالانتقام من أعدائه ، الرحيم بالانتصار لأوليائه.

الإشارة : أنكر. هود عليه السّلام على قومه أمرين مذمومين ، وهما من صفة أهل البعد عن اللّه الأول : التطاول فى البنيان ، والزيادة على الحاجة ، وهى ما يكن من البرد ، ويقى من الحر ، من غير تمويه ولا تزويق ، والزيادة على الحاجة فى البنيان من علامة الرغبة فى الدنيا ، وهو من شأن الجهال رعاء الشاه ، كما فى الحديث ، وفى خبر آخر :

«إذا علا العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك : إلى أين يا أفسق الفاسقين؟» «٣».

والثاني : التجبر على عباد اللّه ، والعنف معهم ، من غير رحمة ولا رقة ، وهو من قساوة القلب ، والقلب القاسي بعيد من اللّه ، وفى الخبر عن عيسى عليه السّلام : (لا تكثروا الكلام بغير ذكر اللّه ، فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد من اللّه ، ولكن لا تشعرون). وفى الحديث عن نبينا صلى اللّه عليه وسلم : «لا تنظروا إلى عيوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا إلى عيوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء وسلوا اللّه العافية» «٤». وباللّه التوفيق ،

---

(١) قرأ بالضّمّ : نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، وقرأ «خلق» بفتح الخاء وسكون اللام ، ابن كثير وأبو جعفر وأبو عمرو ، والكسائي.

راجع إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٣١٨).

(٢) راجع تفسير الآية ٧٢ من سورة الأعراف.

(٣) ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (ح ٢٨٠٣) بلفظ : «إذا رفع الرجل بناء فوق سبعة أذرع ، نودى يا أفسق الفاسقين إلى أين»؟

وعزاه لابن أبى الدنيا موقوفا على عمارة بن عامر. وقال المنذرى : ورفعه بعضهم ، ولا يصح. وانظر فتح الباري (١١/ ٩٢).

(٤) هذا بقية الخبر السابق عن سيدنا عيسى عليه السّلام. وأخرجه مالك فى الموطأ (٢/ ٩٨٦) بلاغا. ولم أقف عليه حديثا عن سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٥٤

ثم ذكر قصة صالح عليه السّلام ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٤١ الى ١٥٩]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠)

وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥)

وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نسبا ، صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ اللّه تعالى ، فتوحدونه ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ : مشهور فيكم بالأمانة ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ ، أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ أي : أتطمعون أن تتركوا فيما هاهنا من النعمة والتّرفّه ، آمنين من عقاب اللّه وعذابه ، وأنتم على كفركم وشرككم ، كلا ، واللّه لنختبرنكم ببعث الرسول ، فإن كفرتم عاجلتكم بالعقوبة.

ثم فسّر ما هم فيه من النعمة بقوله : فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ هو داخل فيما قبله ، وخصه بالذكر شرفا له. أو : فى جنات بلا نخل ، طَلْعُها هَضِيمٌ ، والطلع : عنقود التمر فى أول نباته ، باقيا فى غلافه.

والهضيم : اللطيف اللين للطف الثمر ، أو : لأن النخل أنثى وطلع الأنثى ألطف ، أو : لنضجه ، كأنه : قيل : ونخل قد

(١٥٤/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٥٥

أرطب ثمره. قال ابن عباس : إذا أينع فهو هضيم. وقال أيضا : هضيم : طيب ، وقال الزجاج : هو الذي رطبه بغير نوى ، أو : دان من الأرض ، قريب التناول.

وَتَنْحِتُونَ أي : تنقبون مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ حال من الواو ، أي : حاذقين ، أو : ناشطين ، أو :

أقوياء ، وقيل : أشرين بطرين. قيل : كانوا فى زمن الشتاء يسكنون الجبال ، وفى زمن الربيع والصيف ينزلون بمواشيهم إلى الريف ومكان الخصب. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الكافرين المجاوزين الحد فى الكفر والطغيان ، أي : لا تنقادوا لأمرهم ، ولا تتبعوا رأيهم ، وهم الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بالإسراف فى الكفر والمعاصي ، وَلا يُصْلِحُونَ بالإيمان والطاعة. والمعنى : أن فسادهم خالص ، لا يشوبه شيء من الصلاح ، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح.
قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ الذين سحروا ، حتى غلب على عقلهم السحر ، ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعوى الرسالة ، قالَ هذِهِ ناقَةٌ ، قالها بعد ما أخرجها اللّه تعالى من الصخرة بدعائه عليه السّلام ، لَها شِرْبٌ نصيب من الماء ، فلا تزاحموها فيه ، وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ لا تزاحمكم فيه. روى أنهم قالوا : نريد ناقة عشراء ، تخرج من هذه الصخرة ، فتلد سقبا - والسقب : ولد الناقة - فقعد صالح يتفكر ، فقال له جبريل عليه السّلام : صلّ ركعتين ، وسل ربّك الناقة ، ففعل ، فخرجت الناقة ، ونتجت سقبا مثلها فى العظم ، وصدرها ستون ذراعا - أي : طولها - وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ، وإذا كان يوم شربهم لا تشرب فيه.
وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ بضرب ، أو عقر ، أو غير ذلك ، فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، وصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه ، وهو أبلغ من تعظيم العذاب ، فَعَقَرُوها عقرها «قدّار» ، وأسند العقر إلى جميعهم لأنهم راضون به. روى أن عاقرها قال : لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين. وكانوا يدخلون على المرأة فى خدرها ، فيقولون : أترضين بعقر الناقة؟ فتقول : نعم ، وكذلك صبيانهم ، فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ على عقرها خوفا من نزول العذاب بهم ، لا ندم توبة لأنهم طلبوا صالحا ليقتلوه لمّا أيقنوا بالعذاب ، وندموا حين لا ينفع الندم ، وذلك حين معاينة العذاب.
فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ أي : صيحة جبريل ، فتقطعت قلوبهم ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ : ميتين ، صغيرهم وكبيرهم ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. روى أنه أسلم منهم ألفان وثلاثمائة رجل وامرأة. وقيل : كانوا أربعة آلاف ، وقال كعب : كان قوم صالح اثنى عشر ألفا ، من سوى النساء والذرية. ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات. قاله القرطبي. قيل : فى نفى الإيمان عن أكثرهم إيماء إلى أنه لو آمن أكثرهم أو :

(٤/١٥٥)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٥٦
شطرهم لما أخذوا بالعذاب ، وأن قريشا إنما عصموا من تعجيل العذاب ببركة من آمن منهم. وعلى أن (كان) زائدة يكون الضمير لقريش ، كما تقدم. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

الإشارة : قوله : أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ أنكر عليهم ركونهم إلى الدنيا وزخارفها الغرارة ، واطمئنانهم إليها ، وهو غرور وحمق إذ الدنيا كسحابة الصيف ، تظل ساعة ثم ترتحل ، فالدنيا عرض حائل ، وظل آفل ، فالكيّس من أعرض عنها ، وتوجه بكليته إلى مولاه ، صبر قليلا وربح كثيرا ، والأحمق من وقع في شبكتها ، حتى اختطفته منيته ، وفي الحديث :

«الدّنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، لها يجمع من لا عقل له ، وعليها يعادى من لا علم عنده» «١».

ثم ذكر قصة لوط عليه السّلام فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٦٠ الى ١٧٥]

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ (١٦٦) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)

فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ... إلخ ، وهو ظاهر ، ثم قال : أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ ، أراد بالعالمين : الناس ، أي : أتطؤون الناس مع كثرة الإناث ، أو : أتطؤون أنتم من بين سائر العالمين الذكران ، وتختصون بهذه الفاحشة وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ من الإناث. أو : ما خلق لكم لأجل

---

(١) تقدم تخريجه عند إشارة الآية ٧ من سورة الكهف.

استمتاعكم من الفروج ، مِنْ أَزْواجِكُمْ ، فمن للبيان ، إن أريد ب «ما» : جنس الإناث ، وهو الظاهر ، وللتبعيض ، إن أريد بها العضو المباح منهن ، تعريضا بأنهم يفعلون ذلك بنسائهم أيضا ، وفيه دليل تحريم أدبار الزوجات والمملوكات ، ومن أجاز ذلك قد أخطأ خطأ عظيما. بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ أي : متعدون ، والعادي : المتعدى في ظلمه ، المتجاوز فيه الحد ، أي : أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا

بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة ، التي لم يرتكبها أحد قبلكم ، ولو من الحيوانات البهيمية.
قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ عن إنكارك علينا وتقبيح أمرنا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ من بلدنا ، أي : من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا ، وطردناه من بلدنا. ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال.
قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ من المبغضين غاية البغض ، كأنه يقلى الفؤاد والكبد من شدته. والقلى : أشدّ البغض ، وهو أبلغ من أن يقول : لعملكم قال ، فقولك : فلان من العلماء ، أبلغ من قولك : فلان عالم لأنك تشهد بأنه مساهم لهم فى العلم. وفى الآية دليل على قبح معصية اللواط ولذلك أفتى مالك بقتل فاعلها.
ثم قال : رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ من عقوبة عملهم ، فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ يعنى : بناته ، ومن آمن معه ، إِلَّا عَجُوزاً هى امرأته ، وكانت راضية بذلك ، والراضي بالمعصية فى حكم العاصي ، ولو لم يحضر. واستثناؤها من الأهل لأنها داخلة فيه - ولو لم تكن مؤمنة - لاشتراكها فى الأهلية بحق الزواج. بقيت فِي الْغابِرِينَ فى الباقين فى العذاب ، وهى صفة لها. والغابر فى اللغة : الباقي ، كأنه قيل : إلا عجوزا غابرة ، أي : مقدّرا غبورها إذ الغبور لم يكن صفتها وقت نجاتهم.
ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ أي : أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه ، وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً أي : مطرا غير معهود. وعن قتادة : أمطر اللّه على شذّاذ القوم ، أي : الخارجين عن البلد - حجارة من السماء فأهلكهم ، وقلب المدينة بمن فيها. وقيل : لم يرض بالقلب فقط حتى أتبعهم مطرا من حجارة ، فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ أي : قبح مطر المنذرين مطرهم ، فالمخصوص محذوف. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، بل لم يؤمن به إلا بناته وناس قليلون. أو : ما كان أكثر قريش بمؤمنين بهذا ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب ، الرَّحِيمُ حيث لم يعاجل بالعقوبة لمن استحقها.
الإشارة : من شناعة هذه المعصية حذّر الصوفية من مخالطة الشبان ، وكذلك النساء. وما أولع فقير بمخالطتهما فأفلح أبدا ، إن سلم من الفاحشة اتّهم بها ، ولا يحل لا مرئ يؤمن باللّه واليوم الآخر أن يقف مواقف التهم. والنظر إلى محاسن النساء والشبان فتنة ، وهى كالعقارب ، الصغيرة تلدغ ، والكبيرة تلدغ ، فالسلامة البعد عن ساحتهن ، إلا على وجه أباحته الشريعة ، كالتعليم أو التذكير ، مع غضّ البصر ، أو حجاب بينه وبينهن ، وباللّه التوفيق.

(١٥٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٥٨
ثم ذكر قصة شعيب - عليه السّلام - فقال :
[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٧٦ الى ١٩١]

كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥)

وَما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ وهى : الغيضة التي تنبت الشجر ، والمراد بها : غيضة بقرب مدين ، يسكنها طائفة منهم ، وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السّلام ، وكان أجنبيا منهم ، ولذلك قيل :

إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ولم يقل : أخوهم ، بخلاف مدين فإنه منهم ، ولذلك قال : أَخاهُمْ شُعَيْباً «١» ، وقيل :

الأيكة : الشجر الملتف ، وكان شجرهم المقل ، وهو الدوم. قال قتادة : بعث اللّه شعيبا إلى أمتين أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. فأهلك اللّه أصحاب الأيكة بالظلة ، وأما أهل مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا. وقرئ :

«ليكة» «٢» بحذف الهمزة ، وإلقاء حركتها على اللام ، وإنما كتبت هنا وفى «ص» «٣» باللام اتباعا للفظ.

---

(١) كما جاء فى الآية ٨٥ من سورة الأعراف ، والآية ٨٤ من سورة هود ، والآية ٣٦ من سورة العنكبوت.

(٢) قرأ نافع ، وابن كثير وابن عامر ، وأبو جعفر (ليكة) بلام مفتوحة ، بلا ألف وصل قبلها ، ولا همزة بعدها ، وفتح تاء التأنيث. وقرأ الباقون بهمزة وصل وسكون اللام وبعدها همزة مفتوحة. انظر الإتحاف (٢/ ٣١٤).

(٣) فى قوله تعالى : وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ .. الآية ١٣ من سورة «ص».

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٥٩

إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ اللّه ، فتوحدوه ولا تطففوا ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أي : التبليغ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ ، أَوْفُوا الْكَيْلَ أي : أتموه وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ أي : حقوق الناس بالتطفيف ، وَزِنُوا أشياءكم التي تبيعونها بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ السوي. والقسطاس - بضم القاف وكسرها : الميزان ، فإن كان من القسط - وهو العدل ، وجعلت العين مكررة - فوزنه : فعلاس ، وإلا فهو رباعى ، ووزنه : فعلال. وقيل : عجمى.

وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ أي : لا تنقصوا شيئا من حقوقهم ، أىّ حق كان ، يقال : بخسه حقه : إذا انتقصه. وقيل : نهاهم عن نقص الدراهم والدنانير بقطع أطرافها. فالكيل على ثلاثة أقسام : واف ، وزائد وناقص.

فأمر الحق تعالى بالوافي ، ونهى عن الناقص ، وسكت عن الزائد ، فتركه دليل على أنه إن فعله كان أحسن ، وإن تركه فلا عليه. وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ولا تبالغوا فيها بالإفساد ، وذلك نحو قطع الطريق ، والغارة ، وإهلاك الزروع. وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه ، يقال : عثى كفرح ، وعثا يعثو ، كنصر.

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ ، وَخلق الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ أي : الخلق الماضين ، وهم من تقدمهم من الأمم ، قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ، وَما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ، أدخل الواو بين الجملتين هنا لدلالة على أن كلا من التسحير والبشرية مناف للرسالة مبالغة فى التكذيب ، فتكذيبهم أقبح من ثمود ، حيث تركه فدل على معنى واحد ، وهو كونه مسحورا ، وقرره بكونه بشرا. ثم قالوا : وَإِنْ نَظُنُّكَ «إن» : مخففة ، أي : وإنه ، أي : الأمر والشأن لنظنك لَمِنَ الْكاذِبِينَ فيما تدعيه من النبوة.

ثم استعجلوا العذاب بقولهم : فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ أي : قطعا ، جمع كسفة ، وقرئ بالسكون. أي جزأ منه ، والمراد بالسماء : إما السحاب ، أو : السماء المظلة ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعواك الرسالة ، ولم يكن طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب ، وإلا لما أخطروه ببالهم فضلا عن أن يطلبوه.

قالَ شعيب عليه السّلام : رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ من الكفر والمعاصي ، وبما تستحقونه من العذاب ، فينزله عليكم فى وقته المقدر له لا محالة ، فَكَذَّبُوهُ أي : فتمادوا على تكذيبه ، وأصروا عليه فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ حسبما اقترحوه. وذلك بأن سلطعليهم الحر سبعة أيام بلياليها ، فأخذ بأنفاسهم ، فلم ينفعهم ظل ولا ماء ولا شرب ، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية ، فأظلتهم سحابة ، وجدوا بها بردا ونسيما ، فاجتمعوا تحتها ، فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا «١». وقيل : رفع لهم جبل ، فاجتمعوا تحته ، فوقع عليهم ، وهو الظلة. وقيل : لما ساروا إلى

---

(١) أخرجه الطبري فى تفسيره (١٩/ ١١٠) عن ابن عباس رضي اللّه عنه. وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٦ - ٣٤٧). [.....]

السحابة صيح بهم فهلكوا. إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ أي : فى الشدة والهول ، وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ قيل : آمن بشعيب من القسمين - مدين والأيكة - تسعمائة إنسان ، أو : وما أكثر قريش بمؤمنين بهذا ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

هذا آخر القصص السبع التي أوحيت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لصرفه - عليه الصلاة والسلام - عن الحرص على إسلام قومه ودفع تحسر فواته ، تحقيقا لمضمون ما مر فى مطلع السورة الكريمة من قوله : لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ .. «١» ، إلخ ، وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا ... «٢»

الآية ، فإن كل واحدة من هذه القصص ذكر متجدد النزول ، قد أتاهم من جهته تعالى ، بموجب رحمته الواسعة.

وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ بعد ما سمعوها على التفصيل ، قصّة بعد قصة ، ليتدبروا فيها ، ويعتبروا بما فى كل واحدة من الدواعي إلى الإيمان ، والزجر عن الكفر والطغيان ، وبأن يتأملوا فى شأن الآيات الكريمة ، الناطقة بتلك القصص ، على ما هى عليه ، مع علمهم بأنه - عليه الصلاة والسلام - لم يسمع شيئا من ذلك من أحد أصلا ، فلم يفعلوا شيئا من ذلك ، واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال. وباللّه التوفيق.

الإشارة : كما أمر اللّه تعالى بوفاء المكيال ، أمر بالوفاء فى الأعمال ، ووفاؤها : إتقانها وإخلاصها ، وتخليصها من شوائب النقص ، فى الظاهر والباطن. وكما أمر بالعدل فى الميزان الحسى بقوله : وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، أمر بالعدل فى الميزان المعنوي ، وهو وزن الخواطر بالقسطاس الشرعي ، فكل خاطر يخطر بالقلب يريد أن يفعله أو يتكلم به ، لا يخرجه حتى يزنه بميزان الشرع ، فإن كان فيه نفع أخرجه كما كان ، أو غيّره ، وإن كان فيه ضرر بادر إلى محوه من قلبه ، قبل أن يصيرهما أو عزما. فيعسر رده. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر شواهد حقيّة القرآن ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٩٢ الى ٢٠٣]

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤)
بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦)
أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٢٠١)
فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣)

---

(١) الآية ٣ من هذه السورة.

(٢) الآيتان ٥ - ٦.

قلت : «آية» : خبر «كان» ، و«أن يعلمه» : اسمها ، ومن قرأ «آية» بالرفع فآية اسمها ، وإنَّ ... إلخ : خبر. أو :
«كان» : تامة ، و«آية» : فاعل ، و«أن يعلمه» : بدل منه.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّهُ أي : القرآن المشتمل على القصص المتقدمة ، وكأنه تعالى عاد إلى ما افتتح به السورة من إعراض المشركين عما يأتيهم من الذكر ، ليتناسب المفتتح والمختتم ، أي : وإن القرآن الكريم لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ أي : منزل من جهته. ووصفه تعالى بربوبية العالمين للإيذان بأن تنزيله من أحكام ربوبيته للعالمين ورأفته للكل.

نَزَلَ بِهِ أي : أنزله الرُّوحُ الْأَمِينُ أي : جبريل عليه السّلام ، لأنه أمين على الوحى الذي فيه روح القلوب ، ومن قرأ بالتشديد : فالفاعل هو اللّه ، والروح : مفعول به ، أي : جعل اللّه تعالى الروح الأمين نازلا به. والباء للتعدية ، نزل به عَلى قَلْبِكَ ، أي : حفظك وفهمك إياه ، وأثبته فى قلبك إثبات ما لا ينسى ، كقوله : سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى «١».

لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بما فيه من العقوبات الهائلة والمواعظ الزاجرة ، بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ بلغة قريش وجرهم ، فصيح بليغ ، والباء : إما متعلق بمنذرين ، أي : لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم هود وصالح وشعيب وإسماعيل - عليهم السلام - أو : بنزل ، أي : نزله بلسان عربى لتنذر به ، لأنه لو نزل بلسان أعجمى لتجافوا عنه ، ولقالوا : ما نصنع بما لا نفهمه؟ فيتعذر الإنذار به. وهذا أحسن لعمومه أي : لتكون من جملة من أنذر قبلك ، كنوح وإبراهيم وموسى ، وغيرهم من الرسل ، عربيين أو عجمين ،

وأشد الزواجر تأثيرا فى قلوب المشركين : ما أنذره إبراهيم لانتمائهم إليه ، وادعائهم أنهم على ملته.
وَإِنَّهُ أي : القرآن لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ يعنى : أنه مذكور فى سائر الكتب السماوية. وقيل : ثبت فيها معناه ، فإن أحكامه التي لا تحتمل النسخ والتبديل ، بحسب تبدل الأعصار ، من التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات

---

(١) من الآية ٦ من سورة الأعلى.

والصفات مسطورة فيها ، وكذا ما فى تضاعيفه من المواعظ والقصص. قال النسفي : وفيه دليل على أن القرآن إذا ترجم عنه بغير العربية بقي قرآنا ، ففيه دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة. هـ. وهو حنفى المذهب ، وأما مذهب مالك : فلا.
أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أي : أغفلوا ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل رب العالمين حقا ، أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ ، كعبد اللّه بن سلام ، وغيره ، لوجود ذكره فى التوراة. قال تعالى : وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ «١». والمعنى : أو لم يكفهم دليلا على كون القرآن من عند اللّه علم أحبار بنى إسرائيل به ، ومعرفتهم له ، كما يعرفون أبناءهم لموافقته لما عندهم فى كثير من القصص والأخبار ، حتى إن سورة يوسف مذكورة فى التوراة بمعنى واحد ، وترتيب واحد ، وما اختلف مع القرآن فيها إلا فى كلمة واحدة :
«وجاءوا على قميصه بدم كذب» عندهم فى التوراة : وجاءوا على قميصه بدم جدى. وكذا سورة طه : جلّها فى التوراة. وقد تقدم الحديث : «أوتيت طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى» «٢». وقد فسر بعض علماء هذه الأمة القرآن العظيم كله بالكتب المتقدمة ، ينقل فى كل آية ما يوافقها من الكتب السماوية.
ثم قال تعالى : وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ أي : ولو نزلناه كما هو بنظمه الرائق على بعض من لا يفهم العربية ، ولا يقدر على التكلم بها ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ قراءة صحيحة ، خارقد للعادة ، ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء لفرط عنادهم ، وشدة شكيمتهم ، قال النسفي : والمعنى : إنّا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربيّ مبين ، ففهموه ، وعرفوا فصاحته وأنّه معجز ، وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتاب قبله على البشارة بإنزاله ، وصفته فى كتبهم ، وقد تضمّنت معانيه وقصصه ، وصح بذلك أنها من عند اللّه ، وليست بأساطير كما زعموا ، فلم يؤمنوا به ، وسمّوه شعرا

تارة ، وسحرا أخرى. ولو نزلناه على بعض الأعاجم ، الذي لا يحسن العربية ، فضلا أن يقدر على نظم مثله ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ هكذا معجزا ، لكفروا به ، ولتمحّلوا لجحودهم عذرا ، ولسموه : سحرا. هـ.

والأعجمين : جمع الأعجمى ، فإن أفعل ، إذا كان للتفضيل ، يجمع جمع سلامة إذا لم يكن معناه للتفضيل كأحمر. وأصل الأعجمين : الأعجميين ، فحذفت ياؤه ، وقيل : جمع أعجم ، فلا حذف.

كَذلِكَ سَلَكْناهُ أي : أدخلنا التكذيب والكفر ، وهو مدلول قوله : ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ، فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ : الكافرين الذين علمنا منهم اختيار الكفر والإصرار عليه. يعنى : مثل هذا السّلك الغريب سلكناه فى

---

(١) من الآية ٥٣ من سورة القصص.

(٢) راجع صدر تفسير هذه السورة.

قلوبهم وقررناه فيها ، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه ، من التكذيب والإصرار عليه ، وهو حجتنا على المعتزلة فى خلق أفعال العباد خيرها وشرها.

وقوله : لا يُؤْمِنُونَ : توضيح وتقرير لما قبله. ويجوز أن يكون حالا ، أي : سلكناه فيها غير مؤمنين به ، أو :

مثل ذلك السلك البديع سلكناه ، أي : أدخلنا القرآن فى قلوب المجرمين ، ففهموا معانيه ، وعرفوا فصاحته وبلاغته ، وأنه خارج عن القوة البشرية ، من حيث النّظم المعجز والأخبار الغيبية. وقد انضم إليه اتفاق علماء أهل الكتاب على اتفاقه لما فى أيديهم من الكتب السماوية. ومع ذلك لا يُؤْمِنُونَ بِهِ ، ولا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان ، بل يستمرون على ما هم عليه ، حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ الملجئ إلى الإيمان ، حين لا ينفعهم الإيمان ، فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فجأة فى الدنيا والآخرة وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بإتيانه ، فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ مؤخّرون ساعة. قالوه تحسّرا على ما فات من الإيمان ، وتمنيا للإمهال لتلافى ما فرضوه.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا تطهر القلب من الأكدار والأغيار ، وملئ بالمعارف والأسرار ، كان مهبطا لوحى الإلهام ووحي الإعلام ، ومحلا لتنزل الملائكة الكرام ، إذ كل ما أعطى للرسول كان لوارثه الحقيق منه شرب ونصيب ليكون من الواعظين بلسان عربى مبين ، يفصح عن جواهر الحقائق ، ويواقيت العلوم ، وما

ينطق به من العلوم يكون موافقا لما فى زبر الأولين ، وإن كان أميا لأن علوم الأذواق لا تختلف. أو لم يكن لهم آية على ولايته أن يعلمه علماء أهل فنه من المحققين.
وقال الورتجبي على هذه الآية : أخبر اللّه سبحانه أن قلب محمد صلى اللّه عليه وسلّم محل نزول كلامه الأزلى لأنه مصفى من جميع الحدثان ، بتجلى مشاهدة الرحمن ، فكان قلبه - عليه الصلاة والسلام - صدف لالئ خطاب الحق ، يسبح فى بحار الكرم ، فيتلقف كلام الحق من الحق بلا واسطة ، وذلك سر عجيب وعلم غريب لأنه يجمع كلام الحق وما اتصل به ، وكلامه لم ينفصل عنه ، وكيف تفارق الصفات الذات ، لكن أبقى فى قلبه ظاهره وعلمه وسره ، فجبريل - عليه السّلام - فى البين : واسطة لجهة الحرمة ، وذكر ذلك بقوله : نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ ... لأن القلب معدن الإلهام والوحى والكلام والرؤية والعرفان ، به يحفظ الكلام. وفائدة ذلك : الإعلام بسر وجود الإنسان ، وأنه ليس شيء يليق بالخطاب ونزول الأنباء إلا قلبه ، وكل قلب مسدود بعوارض البشرية لا يسمع خطاب الحق ، ولا يرى جمال الحق. قال أبو بكر بن طاهر : ما أنزله على جبريل جعله محلا للإنذار ، لا التحقيق ، والحقيقة هو ما تلقفه من الحق ، فلم يخبر عنه ، ولم يشرف عليه خلق من الجن والإنس والملائكة لأنه ما أطاق ذلك أحد سواه. وما أنزله جبريل جعله للخلق ، فقال : لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بما نزل به جبريل على قلبك المتحقق ،

فإنك متحقق بما كافحناك به ، وخاطبناك على مقام لو شاهدك فيه جبريل لاحترق. هـ. على تصحيف فى النسخة.
وبالله التوفيق.
ثم هددهم بنزول العذاب ، فقال :
[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٢٠٤ الى ٢٠٩]
أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَها مُنْذِرُونَ (٢٠٨)
ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ (٢٠٩)
يقول الحق جل جلاله توبيخا لمن اقترح نزول العذاب ، كقولهم : فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ «١» : أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ مع كونهم لا يطيقونه إذا نزل بهم؟ وتقديم الجار للإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ هو كون المستعجل به عذابه ، مع ما فيه من رعاية الفواصل.

أَفَرَأَيْتَ أي : أخبرني. ولما كانت الرؤية من أقوى أسباب الإخبار بالشيء وأشهرها شاع استعمال «أرأيت» في معنى أخبرني. والخطاب لكل من يسمع ، أي : أخبرني أيها السامع : إِنْ مَتَّعْناهُمْ إن متعنا هؤلاء الكفرة سِنِينَ متطاولة بطول الأعمار وطيب المعاش ، ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ من العذاب ، ما أَغْنى عَنْهُمْ أي : أيّ شيء ، أو أيّ إغناء أغنى عنهم ما كانُوا يُمَتَّعُونَ أي : كونهم متمتعين ذلك التمتع المديد ، أيّ شيء أغنى في دفع العذاب ، و(ما) : مصدرية ، أو : ما كانوا يتمتعون به من متاع الحياة الدنيا ، على أنها موصولة ، حذف عائدها ، وأيا ما كان فالاستفهام للإنكار والنفي. وقيل : (ما) : نافية ، أي : لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول في دفع العذاب. والأول أرجح.

وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ من القرى المهلكة ، إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ قد أنذروا أهلها لتقوم الحجة عليهم ، ذِكْرى أي : تذكرة ، وهو مصدر منذرون لأن أنذر وذكر متقاربان ، كأنه قيل : لها مذكرون تذكرة. أو مفعول له ، أي : ينذرونهم لأجل التذكرة والموعظة ، أو خبر ، أي : هذه ذكرى ، أو يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولا له ، والمعنى : وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة ، بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم ، فلا يعصون مثل عصيانهم ، وَما كُنَّا ظالِمِينَ فنهلك قوما غير ظالمين ، أو قبل

---

(١) من الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

(١٦٤/٤)

إنذارهم. والتعبير عن ذلك بنفي الظالمية مع أن إهلاكهم قبل الإنذار ليس بظلم إذ لا يجب عليه تعالى شيء - كما تقرر من قاعدة أهل السنة - لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك ، وتحقيقا لكمال عدله. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله ، في جانب أهل البطالة والغفلة : أفرأيت إن متعناهم سنين بالأموال والنساء والبنين ، فاشتغلوا بجمع الأموال والدثور ، وبناء الغرف وتشييد القصور ، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون من الموت ، والرحيل من الأوطان ، ومفارقة الأحباب والعشائر والإخوان ، أيّ شيء أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون به ، من لذيذ المآكل والمشارب ، ومفاخر الملابس والمراكب ، هيهات هيهات ، قد انقطعت اللذات ، وفنيت الشهوات ، وما بقي إلا الحسرات ، فتأمل أيها العبد فيما مضى من عمرك ، فما بقي في يدك منه إلا ما كان في طاعة مولاك ، من ذكر ، أو تلاوة ، أو صلاة ، أو صيام ، أو علم نافع ، أو تعليم ، أو فكرة ، أو شهود ، وما سوى ذلك بطالة وخسران ، فالوقت الذي تصرفه في طاعة

مولاك ذخائره موجودة ، وكنوز مذخورة ، والوقت الذي تصرفه فى هوى نفسك ضائع ، تجد حسرته يوم القيامة ، ففى الحديث : «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مضت لهم ، لم يذكروا اللّه تعالى فيها» «١» قال يحيي بن معاذ : أشد الناس عذابا يوم القيامة من اغتر بحياته والتذّ بمراداته ، وسكن إلى مألوفاته ، واللّه تعالى يقول : أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ ... الآية. وعن ميمون بن مهران : أنه لقى الحسن فى الطواف ، وكان يتمنى لقاءه ، فقال له : عظنى ، فلم يزده على تلاوة هذه الآية ، فقال : لقد وعظت فأبلغت. وعن عمر ابن عبد العزيز رضي اللّه عنه : أنه كان يقرؤها عند جلوسه ليحكم بين الناس. هـ. وبالله التوفيق.

ثم تمم قوله : وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ ، بقوله :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٢١٠ الى ٢١٣]

وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (٢١٠) وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣)

يقول الحق جل جلاله : وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ بالقرآن ، الشَّياطِينُ ، ردا لما يزعمه الكفرة من أنه من قبيل ما تلقيه الشياطين على الكهنة ، بعد تحقيق الحق فيه ، ببيان أنه نزل به الروح الأمين. وَما يَنْبَغِي لَهُمْ أي : وما يصح وما يستقيم لهم ذلك ، وَما يَسْتَطِيعُونَ إنزاله أصلا ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ أي : عن استراقة السمع من الملائكة لَمَعْزُولُونَ لممنوعون بالشهب ، أو : لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة فى قبول الاستعداد لفيضان أنوار الحق ، والانتعاش بأنوار العلوم الربانية والمعارفالقدسية لأن نفوس الشياطين خبيثة

---

(١) أخرجه البيهقي فى الشعب (٥١٣) عن معاذ بن جبل ، وعزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٧٧٠١) للطبراني والبيهقي عن معاذ ، وحسّنه.

ظلمانية شريرة ، ليست مستعدة إلا لقبول ما لا خير فيه ، من فنون الشرور ، فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن الكريم ، المنطوى على الحقائق الرائقة الغيبية ، التي لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة الكرام - عليهم السلام؟.

فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ كما هو شأن الأنفس الخبيثة الشيطانية ، فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ، تهديد لغيره على سبيل التعريض ، وتحريك له على زيادة الإخلاص ، وتنبيه لسائر المكلفين على أن الإشراك بلغ من

القبح والسوء ، بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره منه ، فكيف بمن عداه. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : وحي الإلهام الذي يتنزل على القلوب الصافية من الأغيار ، كوحى الأحكام ، ما تتنزل به الشياطين ، وما ينبغى لهم وما يستطيعون لأنه ممنوعون من قلوب العارفين لما احتفت به من الأنوار ، وما صانها من الأسرار ، أعنى أنوار التوحيد وأسرار التفريد. وقال فى لطائف المنن : إذا كان الحق تعالى حرس السماء من الشياطين بالشهب ، فقلوب أوليائه أولى بأن يحرسها من الأغيار. هـ. بالمعنى.
فلا تدع مع اللّه إلها آخر ، وهو ما سوى اللّه ، فتكون من المعذبين بوساوس الشياطين والخواطر والشكوك لأن القلب إذا مال إلى غير اللّه سلط اللّه عليه الشيطان ، فيكون ذلك القلب جرابا للشيطان ، يحشو فيه ما يشاء. والعياذ باللّه.
ثم أمر نبيه بالإنذار والتذكير ، فقال :
[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٢١٤ الى ٢٢٠]
وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)
يقول الحق جل جلاله : وَأَنْذِرْ يا محمد عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، إنما خصهم بالذكر لئلا يتكلوا على النسب ، فيدعوا ما يجب عليهم ، لأن من الواجبات ما لا يشفع فيها ، بقوله فى تارك الزكاة وقد استغاث به : «لا أملك لك من اللّه شيئا» ، وفى الغالّ كذلك. وقيل : إنما خصهم لنفى التهمة إذ الإنسان يساهل قرابته ، وليعلموا أنه لا يغنى عنهم من اللّه شيئا إذ النجاة فى اتباعه ، لا فى قربه منهم.
ولما نزلت صعد النبي صلى اللّه عليه وسلم الصّفا ، ونادى الأقرب فالأقرب ، وقال : «يا بنى عبد المطلب ، يا بنى هاشم ، يا بنى عبد مناف ، يا عباس - عم النبي صلى اللّه عليه وسلم - يا صفيّة - عمّة النبي صلى اللّه عليه وسلم لا أملك لكم من اللّه شيئا» «١». وقال ابن عباس

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (تفسير سورة الشعراء ، باب : وأنذر عشريتك الأقربين ح ٤٧٧١) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب قوله تعالى :
وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، ١/ ١٩٢ ، ح ٣٤٨) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

رضي اللّه عنه : صعد النبي صلى اللّه عليه وسلم الصّفا ، ونادى : «يا صباحاه» : فاجتمع الناس ،

فقال صلى اللّه عليه وسلم : «يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، إن أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم ، صدقتمونى؟ قالوا : نعم. قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. فقال أبو لهب : تبّا لك سائر اليوم ، ما جمعتنا إلا لهذا»؟ فنزلت : تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ «١».

ثم قال : وَاخْفِضْ جَناحَكَ أي : وألن جانبك وتواضع ، وأصله : أن الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه ، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه ، فجعل خفض الجناح مثلا فى التواضع ولين الجانب.

ويكون ذلك التواضع لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ من قرابتك وغيرهم. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ أي : أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك ، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ، ومن أعمالهم من الشرك وغيره.

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ أي : على الذي يقهر أعداءك بعزته ، وينصرك عليهم برحمته ، فإنه يكفيك شر من يعاديك. الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ

للتهجد ، وَيرى تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ فى المصلين.

أتبع كونه رحيما برسوله ما هو من أسباب الرحمة ، وهو ذكر ما كان يفعله فى جوف الليل ، من قيامه للتهجد ، وتقلبه فى تصفح أحوال المتهجّدين ، ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون. وقيل : معناه : ويراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة ، وتقلبك فى الساجدين : تصرفه فيما بينهم ، بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمهم. وعن مقاتل :

أنه سأل أبا حنيفة : هل تجد الصلاة بالجماعة فى القرآن؟ فقال : لا يحضرنى ، فتلا له هذه الآية.

وقيل : تقلبه فى أصلاب الرجال. وروى عنه صلى اللّه عليه وسلم فى الآية أنه قال : «من نبى إلى نبى حتى أخرجتك نبيا» «٢».

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لما تقول ، الْعَلِيمُ بما تنويه وتعمله. هوّن عليه مشاقّ العبادة ، حيث أخبره برؤيته له ، إذ لا مشقّة على من يعلم أنه يعمل بمرأى من مولاه ، وهو كقوله فى الحديث القدسي : «بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلى». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى لمن أهّل للوعظ والتذكير أن يبدأ بالأقرب فالأقرب ، ولو علم أنه لا ينتفع به إلا النزر القليل.

فمن تبعه على مذهبه فليلن له جانبه وليتواضع له ، ومن أعرض عنه واشتغل بهواه فليتبرأ من فعله ، ولا ينساه من نصحه ، ولذلك قال تعالى : فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ، ولم يقل : «منكم» ، وهذا مذهب الجمهور ،

---

(١) أخرجه البخاري فى الموضع السابق ذكره (ح ٤٧٧٠) و(تفسير سورة «تبت يدا أبى لهب وتب»)

، ومسلم فى الموضع السابق ذكره (١/ ١٩٣ - ١٩٤ ح ٣٥٥).
(٢) انظر تفسير الطبري (١٩٠/ ١٢٣ - ١٢٤) وتفسير البغوي (٦/ ١٣٤).

(١٦٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٦٨
وأن الأخ إذا زلّ إنما يبغض عمله فقط. وعن بعض الصحابة - وقد قيل له فى أخيه ، فقال : إنما أبغض عمله ، وإلا فهو أخى ، وذكر مثل ذلك عن أبى الدرداء. وأن الأخ فى اللّه لا يبغض لزلته ، ولا يترك لشىء من الأشياء ، وإنما يبغض عمله ، ووافقه على ذلك سلمان ، وتابعهما عمر ، وخالف فى ذلك أبو ذر ، فقال : إذا وقعت المخالفة ، وانقلب عما كان عليه ، فأبغضه من حيث أحببته.
قال صاحب القوت : وأبو ذر صاحب شدائد وعزائم ، وهذا من عزائمه وشدائده. هـ. وهذا فى المؤمن بدليل قول أبى الدرداء : الأخ فى اللّه لا يبغض لزلة. وأما الكافر فصريح آياته : إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ «١» ، ونحوها. وحديث ابن عمر وتبرئه من نفاة القدر - كما فى مسلم - موجب للبراءة ، وليس لكون حكم الأصول أشد من الفروع. وذكر فى الإحياء تأكيد الإعراض عمن يتعدى أذاه لغيره بظلم ، أو غصب ، أو غيبة ، أو نميمة ، أو شهادة زور لأن المعصية شديدة فيما يرجع لأذى الخلق. هـ من الحاشية.
قوله تعالى : وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ، قيل : التوكل : تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ، ويقدر على نفعه وضره ، وهو اللّه وحده ، والمتوكل من إذا دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية. وقال الجنيد رضي اللّه عنه : التوكل أن تقبل بالكلية على ربك ، وتعرض بالكلية عمن دونه فإنّ حاجتك إنما هى إليه فى الدارين. هـ.
قال القشيري : وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ من أصحابك ، ويقال : تقلبك فى أصلاب آبائك من المسلمين ، الذين عرفوا اللّه ، فسجدوا له ، دون من لم يعرفه. هـ. وفى القوت : قيل : وتقلبك فى أصلاب الأنبياء - عليهم السلام ، يقلبك فى صلب نبى بعد نبى ، حتى أخرجك من ذرية إسماعيل ، وروينا معنى ذلك عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، والحاصل : أنه من ذرية الأنبياء والمؤمنين الساجدين فى الجملة ، ولا يقتضى كل فرد من الأفراد. هـ.
ثم كمل قوله : وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ ، فقال :
[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٢٢١ الى ٢٢٧]
هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥)

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

---

(١) من الآية ٤ من سورة الممتحنة.

(١٦٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٦٩

قلت : «أىّ منقلب» : مفعول مطلق لينقلبون ، والأصل : ينقلبون أىّ انقلاب ، وليست «أيا» : مفعول «يعلم» لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله. وجملة : «ينقلبون» : معلّق عنها العامل ، فهى فى محل نصب على قاعدة التعليق ، فإنه فى اللفظ دون المحل.

يقول الحق جل جلاله : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ أي : أخبركم أيها المشركون عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ ، ودخل حرف الجار على «من» الاستفهامية لأنها ليست للاستفهام بالأصالة. ثم أخبرهم ، فقال : تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ : كثير الإفك ، وهو الكذب ، أَثِيمٍ كثير الإثم ، وهم الكهنة والمتنبئة ، كشق وسطيح ومسيلمة.

وحيث كانت حالة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم منزهة أن يحوم حولها شيء من ذلك ، اتضح استحالة تنزلهم عليه صلى اللّه عليه وسلم.

يُلْقُونَ السَّمْعَ وهم الشياطين ، كانوا ، قبل أن يحجبوا بالرجم ، يلقون أسماعهم إلى الملأ الأعلى ، فيختطفون بعض ما يتكلمون به ، مما اطلعوا عليه من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أوليائهم. وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ فيما يوحون به إليهم لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا. وفى الحديث : «إنهم يخلطون مع ما سمعوا مائة كذبة» «١» ، فلذلك يخطئون ويصيبون ، وقيل : يلقون إلى أوليائهم السمع ، أي : المسموع من الملائكة. وقيل : الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين ، ثم يبلغون ما يسمعون منهم إلى الناس ، وَأَكْثَرُهُمْ أي : الأفّاكون كاذِبُونَ :

مفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم. والأفّاك : الذي يكثر الإفك ، ولا يدلّ على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك ، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قلّ من يصدق منهم فيما يحكيه عن الجنّة.

ولما ذكر الكهنة ذكر الشعراء وحالهم لينبه على بعد كلامهم من كلام القرآن ، فينتفى كونه كهانة وشعرا ، كما قيل فيه ، فقال : وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ : مبتدأ وخبر ، أي : لا يتبعهم على باطلهم إلا الغاوون ، فإنهم يصغون إلى باطلهم وكذبهم ، وتمزيق الأعراض والقدح فى الأنساب ، ومدح من لا يستحق المدح ، وهجاء من لا يستحق الهجو ، ولا يستحسن ذلك منهم إلا الْغاوُونَ ، أي : السفهاء ، أو

الضالون عن طريق الرشد ، الحائرون فيما يفعلون ويذرون ، لا يستمرون على وتيرة واحدة فيما يقولون ويفعلون ، بخلاف غيرهم من أهل الرشد ، المهتدون إلى طريق الحق ، الثابتين عليه.

---

(١) أخرجه البخاري في (الطب ، باب الكهانة ، ح ٥٧٦٢) وفي (التوحيد ، باب قراءة الفاجر والمنافق ، ح ٧٥٦١) ، ومسلم في (السلام ، باب تحريم الكهانة ، ٤/ ١٧٥٠ ، ح ٢٢٢٨) ، عن السيدة عائشة ، ولفظه : «... تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنيّ ، فيقرها في أذن وليّه ، فيخلطون معها مائة كذبة».

(٤/١٦٩)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٧٠

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ أي : الشعراء فِي كُلِّ وادٍ من الكلام يَهِيمُونَ ، أو : في كل فن من الإفك يتحدثون ، أو : في كل لغو وباطل يخوضون. والهائم : الذاهب على وجهه لا مقصد له ، وهو تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول ، وهو استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاوون وتقرير له ، والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية ، للقصد إلى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا تختص به رؤية راء دون الآخر ، أي : ألم تر أن الشعراء في كل واد من أودية القيل والقال ، وفي كل شعب من الوهم والخيال وفي كل مسلك من مسالك الغي والضلال ، يهيمون.

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ من الأفاعيل ، غير مبالين بما يستتبعه من اللوم ، فكيف يتوهم أن ينتظم في سلكهم من تنزهت ساحته عن أن تحوم حوله شائبة الاتصاف بشيء من الأمور المذكورة ، واتصف بمحاسن الصفات الجليلة ، والأخلاق الحميدة ، مستقرا على المنهاج القويم ، مستمرا على الصراط المستقيم ، ناطقا بكل أمر رشيد ، داعيا إلى صراط العزيز الحميد ، مؤيدا بمعجزة قاهرة ، وآيات ظاهرة ، مشحونة بفنون من الحكم الباهرة ، وصنوف المعارف الزاخرة ، مستقل بنظم رائق ، أعجز كل منطيق ماهر ، وبكت كل مفلق ساحر.

هذا وقد قيل في تنزيهه صلى اللّه عليه وسلم عن أن يكون من الشعراء : أن أتباع الشعراء الغاوون ، وأتباع محمد صلى اللّه عليه وسلم ليسوا كذلك ، ولا ريب في أن تعليل عدم كونه صلى اللّه عليه وسلم منهم بكون أتباعه صلى اللّه عليه وسلم غير غاوين مما لا يليق بشأنه العلى. هـ.

قاله أبو السعود.

ثم استثنى الشعراء المؤمنين ، فقال : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كعبد اللّه بن رواحة ، وحسّان ، وكعب بن زهير ، وكعب بن مالك. وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً أي : كان ذكر اللّه وتلاوة القرآن أغلب عليهم من

الشعر ، وإذا قالوا الشعر قالوا فى توحيد اللّه والثناء عليه ، والحكمة والموعظة ، والزهد والأدب ، ومدح الرسول صلى اللّه عليه وسلم والأولياء.
وأحق الخلق بالهجاء من كذّب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهجاه. وعن كعب بن مالك : أن رسول صلى اللّه عليه وسلم قال : «اهجهم ، فو الذي نفسى بيده لهو أشدّ عليهم من رشق النّبل» «١» ، وكان يقول لحسّان : «قل ، وروح القدس معك» «٢».

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فالمسند (٣/ ٤٥٦ ، ٤٦٠) ، والبيهقي فى السنن (١٠/ ٢٣٩) ، وعبد الرزاق فى المصنف (كتاب الجامع ، باب الشعر والرجز ١١/ ٢٦٣) ، وصححه ابن حبّان (موارد الظمآن/ ٤٩٤) ولفظه : أنه قال للنبى صلى اللّه عليه وسلم : إن اللّه قد أنزل فى الشعر ما أنزل ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل» ، وأخرج مسلم فى (فضائل الصحابة ، باب فضل حسان بن ثابت ، ٤/ ١٩٣٥ ، ح ٢٤٩٠) ، من حديث السيدة عائشة : «اهجوا قريشا فإنه أشد عليهم من رشق النبال».
(٢) أخرجه البخاري فى (المغازي ، مرجع النبي محمد من الأحزاب ، ح ٤١٢٣ ، ٤١٢٤). ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب فضائل حسان ابن ثابت رضي اللّه عنه ، ٤/ ١٩٣٣ ، ح ٢٤٨٦). من حديث البراء بن عازب. ولفظه : «اهجهم ، أو هاجهم ، وجبريل معك». [.....]

(١٧٠/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٧١
وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا أي : ردوا على المشركين ، الذين هجوا النبي صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين. وروى أنه لما نزلت الآية : جاء حسان ، وكعب بن مالك ، وعبد اللّه بن رواحة ، يبكون ، فقالوا : يا رسول اللّه : أنزل اللّه تعالى هذه الآية ، وهو يعلم أنا شعراء؟ فقال : «اقرءوا ما بعدها : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا .. هم أنتم وانتصروا ، هم أنتم»».
ومرّ عمر رضي اللّه عنه وحسان رضي اللّه عنه ينشد الشعر فى المسجد ، فلحظ إليه ، فقال : كنت أنشد فيه ، وفيه من هو خير منك ، ثم التفت إلى أبى هريرة ، فقال : أنشدك بالله ، أسمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : «أجب عنى ، اللهم أيّده بروح القدس» قال :
اللهم نعم «١».
وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ أىّ مرجع يرجعون إليه ، وهو تهديد شديد ، ووعيد أكيد لما فى سَيَعْلَمُ من تهويل متعلّقه ، وفى الَّذِينَ ظَلَمُوا من الإطلاق والتعميم. وفى أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ من

الإيهام والتهويل. وتلاها أبو بكر لعمر رضي اللّه عنه حين عهد إليه ، وكان السلف يتواعظون بها.
والمعنى : سيعلم أهل الظلم ما تكون عاقبتهم ، حين يقدمون عليّ ، وأىّ منقلب ينقلبون ، حين يفدون إلىّ. اللهم ثبت أقدامنا على المنهاج القويم ، حتى نلقاك يا أرحم الراحمين.
الإشارة : هل أنبئكم على قلب من تنزّلت الشياطين ، وسكنت فيه ، تنزل على قلب كل أفاك أثيم ، خارب من النور ، محشو بالوسواس والخواطر ، يلقون السمع إلى هرج الدنيا وأخبارها ، وهو سبب فتنتها فإن القلب إذا غاب عن أخبار الدنيا وأهلها ، سكن فيه النور وتأنّس باللّه ، وإذا سكن إلى أخبار الدنيا وأهلها سكنت فيه الظلمة ، وتأنس بالخلق ، وغاب عن الحق. ولذلك قيل : ينبغى للمؤمن أن يكون كالفكرون إذا كان وحده انبسط ، وإذا رأى أحدا أدخل رأسه معه. وأكثر ما يسمع من هرج الدنيا كذب ، وإليه الإشارة بقوله : وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ ، ومن جملة ما يفسد القلب : تولهه بالشعر ، وفى الحديث : «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا» «٢». أو كما قال صلى اللّه عليه وسلم ، إلا من كان شعره فى توحيد اللّه ، أو فى الطريق ، كالزهد فى الدنيا ، والترهيب من الركون إليها ، والزجر عن الاغترار بزخارفها الغرارة ، والافتنان بملاذها الفانية ، وغير ذلك ، أو فى مدح النبي صلى اللّه عليه وسلم ، والمشايخ الموصلين إليه تعالى ، بشرط أن يكون الغالب عليه ذكر اللّه.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الصلاة ، باب الشعر فى المسجد ح ٤٥٣) ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب فضائل حسان ٤/ ١٩٣٢ - ١٩٣٣ ح ٢٤٨٥) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.
(٢) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصدّه عن ذكر اللّه ، والعلم ، والقرآن ح ٦١٥٥) ، ومسلم فى (كتاب الشعر ، ٤/ ١٧٦٩ ، ح ٢٢٥٧) ، من حديث أبى هريرة.

(١٧١/٤)

وقوله تعالى : وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا ، أي : جاروا على نفوسهم بعد ما جارت عليهم ، وقهروها بعد ما قهرتهم. وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ قال ابن عطاء : سيعلم المعرض عنا ما فاته منا. هـ.
وفى الحكم : «ماذا فقد من وجدك ، وما الذي وجد من فقدك؟ لقد خاب من رضى دونك بدلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحوّلا ، كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان ، أم كيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟» «١» وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلى اللّه على

سيدنا محمد وآله.

---

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (المناجاة/ ٤٢).

(١٧٢/٤)

سورة النّمل

مكية. وهى ثلاث وتسعون آية. وقيل : أقل. ومناسبتها لما قبلها : قوله : وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ «١» إلى ما قرره من نفى تنزل الشياطين به ، مع ما افتتح به السورة ، من الإشارة إليه بقوله : تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ. ثم افتتح السورة برموز بينه وبين حبيبه ، على عادته ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ (١) هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥)

يقول الحق جل جلاله : طس أي : يا طاهر يا سيد. قال ابن عباس : «هو اسم من أسماء اللّه تعالى» «٢» ، أقسم به أن هذه السورة آياتها القرآن وكتاب مبين. قلت : ولعلها مختصرة من اسمه «اللطيف والسميع». وقيل : إشارة إلى طهارة سر حبيبه. تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ ، الإشارة إلى نفس السورة ، وما فى معنى الإشارة من معنى البعد ، مع قرب العهد بالمشار إليه ، للإيذان ببعد منزلته فى الفضل والشرف ، أي : تلك السورة الكريمة التي نتلوها عليك هى آيات القرآن ، المعروف بعلو الشأن. وَآياتِ كِتابٍ عظيم الشأن مُبِينٍ مظهر بما فى تضاعيفه من الحكم ، والأحكام ، وأحوال الآخرة ، أو : مبين : مفرق بين الرشد والغي ، والحلال والحرام ، أو : ظاهر الإعجاز ، على أنه من :

أبان ، بمعنى بان ، وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى ، نحو : هذا فعل السخي والجواد.

ونكّر الكتاب ليكون أفخم له. وقيل : إنما نكّر الكتاب وعرّفه فى الحجر «٣» ، وعرّف القرآن ونكره فى الحجر لأن القرآن والكتاب اسمان علمان على المنزّل على محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ووصفان له لأنه يقرأ ويكتب ، فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم ، وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف. قاله النسفي.

(١) الآية ١٩٢ من سورة الشعراء.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٦/ ١٤٣).

(٣) في قوله تعالى : الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ الآية الأولى.

(١٧٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٧٤

وما قيل من أن الكتاب هو اللوح المحفوظ ، وإبانته أنه خطّ فيه ما هو كائن ، لا يساعده إضافة الآيات إليه.

والوصف بالهداية والبشارة في قوله : هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ أي : حال كون تلك الآيات هادية ومبشرة للمؤمنين ، فهما منصوبان على الحال ، من الآيات ، على أنهما مصدران بمعنى الفاعل للمبالغة ، كأنهما نفس الهداية والبشارة ، والعامل فيها ما في «تلك» من معنى الإشارة ، أو : خبر ، أي : هى هدى وبشرى للمؤمنين خاصة إذ لا هداية لغيرهم بها.

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ يديمون على إقامة فرائضها وسننها ، ويحافظون على خشوعها وإتقانها ، وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ أي : يؤدون زكاة أموالهم ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ حق الإيقان. إما من جملة الموصول ، وإما استئناف ، كأنه قيل : هؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة حق الإيقان ، لا من عداهم لأن من تحمل مشاق العبادات ، إنما يكون لخوف العقاب ، ورجاء الثواب ، أولا ، ثم عبودية آخرا ، لمن كمل إخلاصه.

ثم ذكر ضدهم ، فقال : إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أي : لا يصدّقون بها ، وبما فيها من الثواب والعقاب ، زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ الخبيثة ، حيث جعلناها مشتهية للطبع ، محبوبة للنفس ، حتى رأوها حسنة ، كقوله : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً «١» ، فَهُمْ يَعْمَهُونَ يترددون فى ضلالتهم. كما يكون حال الضال عن الطريق.

أُولئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ فى الدنيا بالقتل والأسر يوم بدر ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ أشدّ الناس خسرانا لأنهم لو آمنوا لكانوا من أكرم الناس ، شهداء على جميع الأمم يوم القيامة ، فخسروا ذلك مع خسران ثواب اللّه والنظر إليه. عائذا باللّه من جميع ذلك.

الإشارة : طس : طهر سرك أيها الإنسان ، لتكون من أهل العيان ، طهر سرك من الأغيار لتشاهد سر الأسرار ، وحينئذ تذوق أسرار القرآن والكتاب المبين ، وتصير هداية وبشارة للمؤمنين. فإنّ من قرأ القرآن وعمل به فقد أدرج النبوة بين كتفيه ، كما فى الخبر «٢». ثم ذكر من امتلأ قلبه بالأكدار فقال

: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ .. إلخ ، قال القشيري : أغشيناهم فهم لا يبصرون ، وعمّينا عليهم المسالك ، فهم عن الطريقة المثلى يصدون. أولئك الذين فى ضلالتهم يعمهون ، وفى حيرتهم يترددون. أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ هو أن يجد الألم ولا يجد شهود المبتلى «٣» ، ولو وجدوه تحمل عنهم ثقله ، بخلاف المؤمنين. هـ.

---

(١) من الآية ٨ من سورة فاطر.

(٢) جاء ذلك فيما أخرجه الحاكم ، وصححه ، ووافقه الذهبي (١/ ٥٥٢) عن عبد اللّه بن عمرو - رضى اللّه عنهما - أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه ، غير أنه لا يوحى إليه ..» الحديث.

(٣) فى القشيري : يجد الآلام ولا يجد التسلّى.

(١٧٤/٤)

ثم ذكر الحق تعالى كيفية نزول القرآن ، الذي تقدم ذكره ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦]

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)

قلت : (تلقّى) : مبنى للمفعول. والفاعل هو اللّه لدلالة ما تقدم عليه ، من قوله : وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ.

و(لقى) : يتعدى إلى واحد ، وبالتضعيف إلى اثنين. وكأنه كان غائبا فلقيه ، فالمفعول الأول صار نائبا. و«القرآن» :

مفعول ثان ، أي : وإنك ليلقيك اللّه القرآن.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّكَ يا محمد لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ أي : لتؤتاه بطريق التلقية والتلقين مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ أي : من عند أىّ حكيم وأىّ عليم ، فالتنكير للتفخيم. وفى تفخيمه تفخيم لشأن القرآن. وتنصيص على علو طبقته - عليه الصلاة والسلام - فى معرفته ، والإحاطة بما فيه من العلوم والحكم والأسرار ، فإن من تلقى العلوم والحكم من الحكيم العليم يكون علما فى إتقان العلوم والحكم.

والجمع بينهما مع دخول العلم فى الحكمة لعموم العلم ، ودلالة الحكمة على إتقان الفعل ، والإشعار بأن ما فى القرآن من العلوم ، منها ما هو حكمة ، كالعقائد والشرائع ، ومنها ما ليس كذلك ، كالقصص والأخبار الغيبية. قاله أبو السعود.

قال ابن عطية : فى الآية رد على كفار قريش فى قولهم : القرآن من تلقاء محمد. وقال القرطبي : الآية تمهيد لما يريد أن يسوق من الأقاصيص ، وما فى ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه ، ومن آثار ذلك : قصة موسى إذ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ ... إلخ. هـ.

الإشارة : قال أبو بكر بن طاهر : وإنك لتلقّى القرآن من الحق حقيقية ، وإن كنت تأخذه فى الظاهر عن واسطة جبريل عليه السّلام. قال تعالى : الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ «١» هـ. قلت : العارفون باللّه لا يسمعون القرآن إلا من لدن حكيم عليم ، بلا واسطة ، الواسطة محذوفة فى نظرهم ، فهم يسمعون من اللّه إلى اللّه ، ويقرأون باللّه على اللّه ، كما قال القائل : أنا باللّه أنطق ، ومن اللّه أسمع. ومما يحقق لك حذف الواسطة : قوله تعالى : فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ

«٢» وسمعت شيخى البوزيدى رضي اللّه عنه ، يقول : لا يكون الإنسان من الراسخين فى العلم حتى يقرأ كله وهو مجموع فيه ، أي : يقرأ باللّه ويسمعه من اللّه. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآيتان : ١ - ٢ من سورة الرحمن.

(٢) الآية ٢٨ من سورة القيامة.

ثم شرع فى قصص الأنبياء ، تسلية لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٧ الى ١١]

إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٨) يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١)

يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ زوجته ومن معه ، عند مسيره من مدين إلى مصر : إِنِّي آنَسْتُ أي : أبصرت ناراً ، سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ عن حال الطريق التي ضل عنها. والسين للدلالة على نوع بعد فى المسافة ، وتأكيد الوعد. أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ «١» قَبَسٍ أي : شعلة نار مقبوسة ، أي : مأخوذة. ومن نوّن فبدل ، أو صفة ، وعلى القراءتين فالمراد : تعيين المقصود الذي هو القبس ، الجامع لمنفعتى الضياء والاصطلاء لأن من النار ما ليس بقبس ، كالجمرة. وكلتا العدتين منه عليه السّلام بطريق الظن ، كما يفصح عن ذلك ما فى سورة طه ، من صيغتى الترجي والترديد «٢» لأن الراجي إذا قوى

رجاؤه يقول : سأفعل كذا ، وسيكون كذا ، مع تجويزه التخلف. وأتى بأو لأنه بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه معا لم يعدم واحدة منهما ، إما هداية الطريق ، وإما اقتباس النار ، ولم يدر أنه ظافر بحاجته الكبرى ، وهى عزّ الدنيا والآخرة.

واختلاف الألفاظ فى هاتين السورتين ، والقصة واحدة ، دليل على نقل الحديث بالمعنى ، وجواز النكاح بغير لفظ النكاح والتزويج. قاله النسفي.

لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ تستدفئون بالنار من البرد إذا أصابكم.

فَلَمَّا جاءَها أي : النار التي أبصرها نُودِيَ من جانب الطور أَنْ بُورِكَ ، على أنّ «أن» مفسرة لما فى النداء من معنى القول. أو : بأن بورك ، على أنها مصدرية ، وقيل : مخففة ، ولا ضرر فى فقدان الفصل ب «لا» ،

---

(١) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب ، وخلف (بشهاب) بالتدوين ، على القطع عن الإضافة ، و«قبس» بدل منه ، أو : صفة له ، بمعنى مقتبس ، أو مقبوس. وقرأ الباقون بغير تنوين ، لبيان النوع. أي من قبس ، كخاتم فضة. انظر الإتحاف (٢/ ٣٢٣).

(٢) فى قوله تعالى : .. لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً الآية ١٠ من سورة طه.

(١٧٦/٤)

أو قد ، أو السين ، أو سوف لأن الدعاء يخالف غيره فى كثير من الأحكام ، أي : أنه ، أي : الأمر والشأن بُورِكَ أي : قدّس ، أو : جعل فيه البركة والخير ، مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها أي : من فى مكان النار ، وهم الملائكة ، وَمَنْ حَوْلَها أي : موسى عليه السّلام ، بإنزال الوحى عليه ، الذي فيه خير الدنيا والآخرة.

وقال ابن عباس والحسن : (بورك من فى النار أي : قدّس من فى النار ، وهو اللّه تعالى) «١» أي : نوره وسره ، الذي قامت به الأشياء ، من باب قيام المعاني بالأواني ، أو : من قيام أسرار الذات بالأشياء ، بمعنى أنه نادى موسى منها وسمع كلامه من جهتها ، ثم نزّه - سبحانه - ذاته المقدسة عن الحلول والاتحاد ، فقال : وَسُبْحانَ اللَّهِ أي :

تنزيها له عن الحلول فى شىء ، وهو رَبِّ الْعالَمِينَ.

ثم فسر نداءه ، فقال : يا مُوسى إِنَّهُ أي : الأمر والشأن أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أو : إنه ، أي : مكلمك ، اللّه العزيز الحكيم ، وهو تمهيد لما أراد أن يظهر على يديه من المعجزات. وَأَلْقِ عَصاكَ لتعلم

معجزتها ، فتأنس بها ، وهو عطف على (بورك) أي : نودى أن بورك وأن ألق عصاك. والمعنى : قيل له : بورك من فى النار ، وقيل له : ألق عصاك ، فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ تتحرك يمينا وشمالا ، كَأَنَّها جَانٌّ حية صغيرة وَلَّى موسى مُدْبِراً أي : أدبر عنها ، وجعلها تلى ظهره ، خوفا من وثوب الحية عليه ، وَلَمْ يُعَقِّبْ لم يرجع على عقبيه ، من : عقّب المقاتل : إذا كرّ بعد الفر. والخوف من الشيء المكروه أمر طبيعى ، لا يتخلف ، وليس فى طوق البشر.

قال له تعالى : يا مُوسى لا تَخَفْ من غيرى ، ثقة بي ، أو : لا تخف مطلقا إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ أي : لا يخاف المرسلون عند خطابى إياهم ، فإنهم مستغرقون فى شهود الحق ، لا يخطر ببالهم خوف ولا غيره. وأما فى غير أحوال الوحى فهم أشد الناس خوفا منه سبحانه ، أو : لا يخافون من غيرى ، لأنهم لدىّ فى حفظى ورعايتى. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أي : لكن من ظلم من غيرهم لأن الأنبياء لا يظلمون قط ، فهو استثناء منقطع ، استدرك به ما عسى يختلج فى العقل ، من نفى الخوف عن كلهم ، مع أن منهم من فرطت منه صغيرة مما يجوز صدوره عن الأنبياء - عليهم السلام - كما فرط من آدم ، وموسى ، وداود ، وسليمان - عليهم السلام - فحسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد قصد به التعريض بما وقع من موسى - عليه السّلام - من وكزه القبطىّ.

وسماها ظلما ، كقوله عليه السّلام فى سورة القصص : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ «٢».

---

(١) أخرجه الطبري فى تفسيره (١٩/ ١٣٣). [.....]

(٢) من الآية ١٦ من سورة القصص.

قال فى الحاشية الفاسية : والظاهر فى الاستثناء كونه متصلا ، وأطلق الظلم باعتبار منصب النبوة ، وإشفاقهم مما لا يشفق منه غيرهم ، كما اتفق لموسى فى مدافعة القبطي عن الإسرائيلى ، مع أن إغاثة المظلوم مشروعة عموما ، ولكن لمّا لم يؤذن له خصوصا عد ذلك ظلما وذنبا. وأما ما سرى من القتل فلم يقصده ، وإنما اتفق من غير قصد. هـ.

قوله : ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ أي : أتبع زلته حسنة محلها ، كالتوبة وشبهها ، فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ أقبل توبته ، وأغفر حوبته ، وأرحمه ، فأحقق أمنيّة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : تقدم بعض إشارة الآية فى سورة طه «١». وقوله تعالى : أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ... تقدم قول ابن عباس وغيره : أن المراد بمن فى النار : نور الحق تعالى. قال بعض العلماء : كانت النار نوره تعالى

، وإنما ذكره بلفظ النار لأن موسى حسبه نارا ، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر. هـ. ومنه حديث : «حجابه النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كلّ شيء أدركه بصره» «٢» ، أي : حجابه النور الذي تجلى به فى مظاهر خلقه ، فالأوانى حجب للمعانى ، والمعاني هى أنوار الملكوت ، الساترة لأسرار الجبروت ، السارية فى الأشياء.

وقال سعيد بن جبير : (هى النار بعينها) «٣» ، وهى إحدى حجب اللّه تعالى. ثم استدل بالحديث : «حجابه النار» ومعنى كلامه : أن اللّه تعالى احتجت فى مظاهر تجلياته ، وهى كثيرة ، ومن جملتها النار ، فهى إحدى الحجب التي احتجب الحق تعالى بها ، وإليه أشار ابن وفا بقوله :

هو النور المحيط بكل كون ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء فى الذات ، العارفون باللّه ، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم لما رمزوا إليه ، وإلا وقع الإنكار على أولياء اللّه بالجهل ، والعياذ باللّه.

---

(١) راجع المجلد الثالث ، ص/ ٣٧٩ - ٣٨٠.

(٢) بعض حديث رواه أبو موسى الأشعري رضي اللّه عنه وأخرجه مسلم فى (الإيمان ، باب فى قوله صلى اللّه عليه وسلم : «إن اللّه لا ينام» ، ١/ ١٦١ ، ح ١٧٩) ، وأحمد فى المسند (٤/ ٤١٠) بلفظ «حجابه النار ، وجاء فى رواية عند مسلم ، فى الموضع السابق ، وأحمد فى المسند (٤/ ٤٠٥) وابن ماجه فى (المقدمة ، باب فى ما أنكرت الجهمية ١/ ٧٠ - ٧١ ح ١٩٥ - ١٩٦) بلفظ «حجابه النور» (انظر شرح الحديث فى مسلم بشرح النووي ٣/ ١٤ - ١٦)

(٣) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ١٤٥).

ثم ذكر معجزة اليد ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ١٢ الى ١٤]

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : وَأَدْخِلْ يَدَكَ يا موسى فِي جَيْبِكَ فى جيب قميصك. والجيب : الفتح فى الثوب لرأس الإنسان. قال الثعلبي : إنما أمره بذلك لأنه كان عليه مدرعة صوف ، لا كم لها. تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ من غير آفة ، كبرص ونحوه ، فِي تِسْعِ آياتٍ أي : هاتان الآيتان فى جملة تسع

آيات ، وهى الفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمس ، والجدب فى بواديهم ، والنقصان فى مزارعهم.
ومن عدّ اليد والعصا من التسع عدّ الأخيرين واحدا ، ولم يعد الفلق لأنه لم يبعث به إلى فرعون. وقوله : إِلى فِرْعَوْنَ متعلق بمحذوف ، أي : مرسلا ، أو : ذاهبا إلى فرعون وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ خارجين عن أمر اللّه ، كافرين به.
فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا معجزاتنا ، وظهرت على يد موسى ، حال كونها مُبْصِرَةً بيّنة واضحة ، وهى اسم فاعل ، أطلق على المفعول ، إشعارا بأنها لفرط ظهورها كأنها تبصر نفسها مبالغة فى وضوحها ، وإلا فهى مبصرة لمن ينظر ويتفكر فيها. أو : ذات تبصر لأنها تهدى من يتبصر بها. فلما جاءتهم قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ واضح سحريته.
وَجَحَدُوا بِها أي : كذّبوا بها وَقد اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ أي : علمتها علما يقينا ، فالاستيقان : أبلغ من الإيقان. يعنى : أنهم جحدوا بألسنتهم واستيقنوها فى قلوبهم. ظُلْماً : حال من ضمير (جحدوا) أي : ظالمين فى ذلك ، ولا ظلم أفحش ممن تيقن أنها آيات من عند اللّه ، وسماها سحرا بيّنا ، وَعُلُوًّا تكبرا وترفعا عن الإيمان بموسى عليه السّلام ، وهو أيضا حال ، أو : علة ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وهو الإغراق فى الدنيا ، والإحراق فى الآخرة. نسأل اللّه العافية.
الإشارة : وأدخل يد فكرتك فى جيب قلبك ، تخرج بيضاء شعشعانية ، يستولى شعاعها على وجود بشريتك ، فتنخنس البشرية تحت أنوار المعاني ، ثم يستولى على الوجود بأسره ، فيصير كله نورا ملكوتيا جبروتيا ، متصلا

(١٧٩/٤)

بالنور الأعظم ، والبحر الطام ، بعد قطع مقامات التوبة ، والتقوى ، والاستقامة ، والإخلاص ، والصدق ، والطمأنينة ، والمراقبة والمحبة ، والمشاهدة ، فيكون حينئذ آية مبصرة واضحة ، من آيات اللّه ، يدلّ على اللّه ، ويدعوا إليه على بصيرة منه. فمن جحدها انخرط فى سلك من قال تعالى فى حقه :
وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا ... الآية.
ثم ذكر قصة داود وسليمان - عليهما السلام - فقال :
[سورة النمل (٢٧) : الآيات ١٥ الى ١٦]
وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً أي : أعطينا كل واحد منهما طائفة خاصة به من علم الشرائع والأحكام ، وغير ذلك مما يختص به كل واحد منهما ، كصنعة الدروع ، ومنطق الطير. أو : علما لدنيا. وَقالا أي : كل واحد منهما ، شكرا لما أوتيه من العلم : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا بما آتانا من العلم عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. قال النسفي : وهنا محذوف ، ليصلح عطف الواو عليه ، ولو لا تقدير المحذوف لكان الوجه : الفاء ، كقولك : أعطيته فشكر ، وتقديره : آتيناهما علما ، فعملا به ، وعرفنا حق النعمة فيه ، وقالا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ. والكثير المفضّل عليه : من لم يؤت علما ، أو : من لم يؤت مثل علمهما.

وفيه : أنهما فضلا على كثير ، وفضل عليهما كثير.

وفي الآية دليل على شرف العلم ، وتقدم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم ، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباده ، وما سماهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم فى الشرف والمنزلة لأنهم القوّام بما بعثوا من أجله. وفيها : أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا اللّه تعالى على ما أوتوه ، وأن يعتقد العالم أنه إذا فضّل على كثير فقد فضّل عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر رضي اللّه عنه : (كلّ الناس أفقه من عمر). هـ.

والعلماء على قسمين : علماء باللّه وعلماء بأحكام اللّه. فالعلماء باللّه هم العارفون به ، أهل الشهود والعيان. وهم أهل علم الباطن ، أعنى : علم القلوب ، والعلماء بأحكام اللّه هم علماء الشرائع والنوازل. وحيث انتهت درجة العلماء بأحكام اللّه ابتدئت درجة العلماء باللّه. فنهاية علماء الظاهر بداية علماء الباطن لأن علم أهل الظاهر جله ظنى ،

(١٨٠/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨١

وعلم أهل الباطن عيانى ، ذوقى ، وليس الخبر كالعيان ، مع ما فاقوهم به من المجاهدة ، والمكابدة ، ومقاساة مخالفة النفوس ، وقطع المقامات ، حتى ماتوا موتات ، ثم حييت أرواحهم ، فشاهدوا من الأنوار والأسرار ما تعجز عنه العقول ، وتكلّ عنه النقول.

ثم قال تعالى : وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ ، ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيه ، وكانوا تسعة عشر. ووراثته للنبوة : انتقالها إليه بعد أبيه ، وإلا فالنبوة لا تورث. وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ تشهيرا لنعمة اللّه ، واعترافا بمكانها ، ودعاء للناس إلى تصديقه بذكر المعجزة التي هى علم منطق

الطير.

والمنطق : كل ما يصوّت به من المفرد والمؤلّف ، والمفيد وغير المفيد. وكان سليمان عليه السّلام يفهم عنها كما يفهم بعضها بعضا. يحكى أنه مرّ على بلبل على شجرة ، يحرك رأسه ، ويميل ذنبه ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول؟ قالوا : اللّه ونبيه أعلم ، قال يقول : إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء. وصاحت فاختة «١» ، فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا ، وصاح طاووس ، فقال : يقول : كما تدين تدان ، وصاح هدهد ، فقال : يقول : من لا يرحم لا يرحم ، وصاح صرّد «٢» - وهو طائر ضخم الرأس - فقال : يقول : استغفروا اللّه يا مذنبين ، وصاح طيطوى «٣» ، فقال : يقول : كل حى ميت ، وكل جديد بال. وصاح خطّاف «٤» ، فقال : يقول : قدّموا خيرا تجدوه.

وصاح قمرىّ «٥» ، فأخبر أنه يقول : سبحان ربى الأعلى. وصاحت رخمة «٦» ، فقال : إنها تقول سبحان ربى الأعلى ملء أرضه وسمائه.

وفى رواية : هدرت حمامة ، فقال : إنها تقول : سبحان ربى الأعلى - مثل الرخمة - وقال : الغراب يدعو على العشّار. والحدأة تقول : كل شىء هالك إلا وجهه. والقطاة «٧» تقول : من سكت سلم ، والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه ، والديك يقول : اذكروا اللّه يا غافلين ، والنسر يقول : يا ابن آدم عش ما شئت ، آخرك الموت. والعقاب «٨» يقول :

---

(١) الفاختة : نوع من الحمام المطوّق ، إذا مشى توسع فى مشيه ، وباعد بين جناحيه وإبطيه ، وتمايل. انظر اللسان (٥/ ٣٣٦٠ ، مادة/ فخت).

(٢) الصّرد : طائر أبقع ، نصفه أبيض ، ونصفه أسود ، ضخم الرأس والمنقار ، له مخلب يصطاد به العصافير. انظر النهاية (٣/ ٢١ مادة صرد).

(٣) الطيطوى : ضرب القطا ، وقيل : هو طائر لا يفارق الآجام وكثرة المياه.

(٤) الخطاف : العصفور ، وهو الذي تدعوه العامة : عصفور الجنة. وجمعه : خطاطيف. انظر اللسان (٢/ ١٢٠١).

(٥) القمرىّ : نوع من الحمام ، مطوّق ، حسن الصوت.

(٦) الرّخمة : طائر غزير الريش ، أبيض اللون ، مبقّع بسواد ، له منقار طويل. موصوف بالغدر ، والجمع : رخم ورخم. انظر اللسان (٣/ ١٦١٧ ، مادة رخم).

(٧) القطاة : نوع من اليمام ، يؤثر الحياة فى الصحراء.

(٨) العقاب : طائر من الجوارح ، تسميها العرب بالكاسر ، وقيل : العقاب : سيد الطيور ، والنسر عريفها ، ويكلى الذكر : أبا الهيثم. والأنثى : أم الحوار ، وهى حادة البصر.

فى البعد من الناس أنس. والضفدع تقول : سبحان ربى القدوس. والبازي «١» يقول : سبحان ربى وبحمده ، المذكور فى كل مكان. والدراج «٢» يقول : الرحمن على العرش استوى. والقنب «٣» يقول : إلهى العن مبغض آل محمد ، عليه الصلاة والسلام «٤».

وقيل : إن سليمان كان يفهم صوت الحيوانات كلها ، وإنما خصّ الطير لأنه معظم جنده.

ثم قال : وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أي : ما نحتاج إليه. والمراد به كثرة ما أوتى ، كما تقول : فلان يقصده كل أحد ، ويعلم كل شىء ، كناية عن كثرة علمه. إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ والإحسان من اللّه تعالى الْمُبِينُ أي :

الواضح ، الذي لا يخفى على أحد ، أو : إن هذا الفضل الذي أوتيته هو الفضل المبين. على أنه عليه السّلام قاله على سبيل الشكر والمحمدة. كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر» أي : أقول هذا القول شكرا ، لا فخرا ، والنون فى (علمنا) و(أوتينا) نون الواحد المطاع ، وكان حينئذ ملكا ، فكلم أهل طاعته على الحالة التي كان عليها ، وليس فيه تكبر ولا فخر لعصمة الأنبياء من ذلك. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أشرف العلوم وأعظمها وأعزها العلم باللّه ، على سبيل الذوق والكشف والوجدان ، ولا يكون إلا من طريق التربية على يد شيخ كامل لأنه إذا حصل هذا العلم أغنى عن العلوم كلها ، وصغرت فى جانبه ، حتى إن صاحب العلم باللّه يعد الاشتغال بطلب علم الرسوم بطالة وانحطاطا ، ومثله كمن عنده قناطير من الفضة ، ثم وجد جبلا من الإكسير ، فهل يلتفت صاحب الإكسير إلى الفضة أو الفلوس؟ لأن من كانت أوقاته كلها مشاهدة ونظرا لوجه الملك ، كيف يلتفت إلى شىء سواه. ولذلك قال الجنيد رضي اللّه عنه : لو نعلم تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم ، الذي نتكلم فيه مع أصحابنا ، لسعيت إليه. هـ. وقال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن العارف : كنت أعرف أربعة عشر علما ، فلما أدركت علم الحقيقة ، سرطت ذلك كله ، ولم يبق إلا التفسير والحديث ، نتكلم فيه مع أصحابنا. أو قريبا من هذا الكلام. وقال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن المجذوب رضي اللّه عنه :

أقارئين علم التوحيد هنا البحور إلىّ تنبى

هذا مقام أهل التجريد الواقفين مع ربى

وهذا أمر بيّن عند أهل هذا الفن ، وقال الورتجبي : العلم علمان : علم البيان وعلم العيان. علم البيان ما يكون بالوسائط الشرعية ، وعلم العيان مستفاد من الكشوفات الغيبية. ثم قال : فالعلم البياني معروف بين العموم ، والعلم

---

(١) البازي : ضرب من الصقور ، وهو أشد الجوارح تكبرا ، وأضيقها خلقا ، ويؤخذ للصيد.

(٢) الدرّاج : طائر جميل المنظر ملون الريش. [.....]
(٣) القنبر : صرب من الطبر. انظر اللسان (٥/ ٣٥١٠ ، مادة : قبر).
(٤) ذكر نحوه البغوي فى تفسيره (٦/ ١٤٨) عن كعب. وقال محققه ، فى الحاشية : وهذه التفصيلات فى كلام الطير متلقاة من أهل الكتاب ، كرواية كعب هذه ، ولا يتوقف فهم الآية عليها ، وليس فيها نص صحيح ، مرفوع إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم.

(١٨٢/٤)

العيانى مشهور بين الخصوص ، لم يطلع عليه إلا نبى أو ولىّ ، لأنه صدر من الحق لأهل شهوده ، من المحبين العارفين ، والموحدين والصديقين ، والأنبياء والمرسلين. انظر بقية كلامه.
وقال أيضا فى قوله : عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ : أفهم أن أصوات الطيور والوحوش وحركات الأكوان جميعا هى خطابات من اللّه عز وجل للأنبياء والمرسلين ، والعارفين والصديقين ، يفهمونها من حيث أحوالهم ومقاماتهم.
فللأنبياء والمرسلين علم بمناطقها قطعيا. ويمكن أن يقع ذلك بوحي ، ولكن أكثر فهوم الأنبياء «١» أنهم يفهمون من أصواتها ما يتعلق بحالهم ، بما يقع فى قلوبهم من إلهام اللّه ، لا بأنهم يعرفون لغاتهم بعينها. هـ. قلت : وكذلك الأولياء يفهمون عنها ما يليق بمقاماتهم ، من ألفاظ ، أو أنس ، أو إعلام ، أو غير ذلك. واللّه تعالى أعلم.
ولما أراد سليمان الغزو ، جمع جنوده ، كما قال تعالى :
[سورة النمل (٢٧) : الآيات ١٧ الى ١٩]
وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)
قلت : قالَتْ نَمْلَةٌ : التاء للوحدة ، لا للتأنيث. قال الرضى : تكون التاء للفرق بين المذكور والمؤنث ، وتكون لآحاد الجنس ، كنحلة ونحل ، وثمرة وثمر ، وبطة وبط ، ونملة ونمل ، فيجوز أن تكون النملة مذكرا ، والتاء للوحدة ، وأنث الفعل باعتبار تأنيث اللفظ. هـ. مختصرا. و(لا يحطمنكم) : يحتمل أن يكون جوابا للأمر ، أو : نهيا بدلا من الأمر لتقارب المعنى لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده. والضد ينشأ عنه الحطم ، فلا : ناهية ، ومثله الحديث :

«فليمسك بنصالها ، لا يعقر مسلما» «٢». هـ.

---

(١) عبارة الورتجبي ، كما فى عرائس البيان : (و يمكن أن يقع ذلك لولى ، ولكن أكثر فهوم الأولياء بها ...).
(٢) أخرجه بنحوه البخاري فى (الفتن ، باب قول النبي صلى اللّه عليه وسلم «من حمل علينا السلاح فليس منا» ح ٧٠٧٤) ومسلم فى (البر والصلة ، باب أمر من مرّ بسلاح ، فى مسجد أو سوق أو غيرهما من المواضع الجامعة للناس أن يمسك بنصالها ٤/ ٢٠١٨ - ٢٠١٩ ، ح ٢٦١٤ - ٢٦١٥) من حديث سيدنا جابر رضي اللّه عنه.

(١٨٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨٤
يقول الحق جل جلاله : وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ أي : جمع له جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ بمباشرة مخاطبيه ، فإنهم رؤساء مملكته ، وعظماء دولته ، من الثقلين وغيرهم. وتقديم الجن على الإنس للإيذان بكمال قوه ملكه وعزة سلطانه لأن الجن طائفة عاتية ، وقبيلة طاغية ، ماردة ، بعيدة من الحشر والتسخير ، فَهُمْ يُوزَعُونَ أي : يحبس أوائلهم على أواخرهم ، أي : يوقف سلاف العسكر «١» حتى يلحقهم الثواني ، فيكونوا مجتمعين ، لا يختلف منهم أحد ، وذلك لكثرة العظمة والقهرية.
قال قتادة : فكان لكل صنف منهم وزعة «٢». أو : لترتيب الصفوف ، كما هو المعتاد فى العساكر. والوزع :
المنع ، ومنه قول الحسن البصري ، حين ولى القضاء : (لا بد للحاكم من وزعة) أي : شرط يمنعون الناس من الظلم.
وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر ، دون سوق أواخرهم ، مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضا لأن أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع ، وهذا إن لم يكن سيرهم بتسيير الريح فى الجو. قال محمد بن كعب : كان عسكر سليمان مائة فرسخ ، خمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للإنس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش. وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب ، فيها ثلاثمائة منكوحة ، وسبعمائة سرية. وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب وإبريسم ، فرسخا فى فرسخ ، وكان يوضع منبره فى وسطه ، وهو من ذهب ، فيقعد عليه ، وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة ، فتقعد الأنبياء - عليهم السلام - على كراسى الذهب ، والعلماء على كراسى الفضة ، وحولهم الناس ، وحول الناس الجن والشياطين ، وتظله الطير بأجنحتها ، حتى لا

تقع عليه الشمس ، وترفع ريح الصبا البساط ، فتسير به مسيرة شهر ، من الصباح إلى الرواح.
وروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ، ويأمر الرخاء تسيّره ، فأوحى اللّه تعالى إليه ، وهو يسير بين السماء والأرض : إني زدت فى ملكك أنه لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح فى سمعك. قال وهب : حدثنى أبى : أن سليمان مرّ بحرّاث ، فقال : لقد أوتي آل داود ملكا عظيما ، فالتفت ونزل إلى الحرّاث ، فقال : إني سمعت قولك ، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ، لتسبيحة واحدة يقبلها اللّه منك خير لك مما أوتي آل داود. هـ.
حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ أي : فساروا حتى بلغوا وادي النمل ، وهو واد بالشام ، كثير النمل ، قاله مقاتل. أو : بالطائف ، قاله كعب. وقيل : هو واد يسكنه الجن ، والنمل مراكبهم «٣». وعدى الفعل ب «على» لأن إتيانهم كان من فوق ، فأتى بحرف الاستعلاء. ولعلهم أرادوا أن ينزلوا بأعلى الوادي إذ حينئذ يخافهم من فى

---

(١) سلاف العسكر : متقدموهم.
(٢) ذكره البغوي فى التفسير (٦/ ١٤٩).
(٣) انظر التعليق التالي.

الأرض ، لا عند سيرهم فى الهواء. وجواب (إذ) قوله : قالَتْ نَمْلَةٌ ، وكأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرّت منهم ، فصاحت صيحة ، فنبهت بها ما بحضرتها من النمل.
قال كعب : مرّ سليمان عليه السّلام بوادي السدير ، من أودية الطائف ، فأتى على واد النمل ، فقالت نملة ، وهى تمشى ، وكانت عرجاء تتكاوس ، مثل الذئب فى العظم. قال الضحاك : كان اسم تلك النملة طاحية ، وقيل : منذرة ، وقيل : جرمى. وقال نوف الحميرى : كان نمل وادي سليمان أمثال الذباب «١». وعن قتادة : أنه دخل الكوفة ، فالتف عليه الناس ، فقال : سلونى عما شئتم ، فسأله أبو حنيفة ، وهو شاب ، عن نملة سليمان ، أكان ذكرا أو أنثى؟ فأفحم ، فقال أبو حنيفة : كانت أنثى ، فقيل له : بم عرفت؟ فقال : قوله تعالى : قالَتْ نَمْلَةٌ ولو كان ذكرا لقال : قال نملة. هـ.
قلت : وهو غير صحيح لما تقدم عن الرضى «٢».
قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لم يقل : ادخلن لأنه لمّا جعلها قائلة ، والنمل مقولا لهم ،

كما يكون من العقلاء ، أجرى خطابهن مجرى ذوى العقل ، لا يَحْطِمَنَّكُمْ لا يكسرنّكم. والحطم : الكسر ، وهو فى الظاهر نهى لسليمان عن الحطم ، وفى الحقيقة نهى لهم عن البروز والوقوف على طريقة ، نحو : لا أرينك هاهنا ، أي : لا تتعرضوا فيكسرنكم سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ ، وقيل : أراد : لا يحطمنكم جنود سليمان ، فجاء بما هو أبلغ. وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ لا يعلمون بمكانكم ، أي : لو شعروا ما فعلوا. قالت ذلك على وجه العذر ، واصفة سليمان وجنوده بالعدل ، فحمل الريح قولها إلى سليمان على ثلاثة أميال.

روى أن سليمان قال لها : لم حذرت النمل ، أخفت ظلمى؟ أما علمت أنى نبى عدل ، فلم قلت : لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ؟ فقالت : أما سمعت قولى : وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ، مع أنى لم أرد حطم النفوس ، وإنما أردت حطم القلوب ، خشيت أن يتمنينّ ما أعطيت ، ويشغلن بالنظر إليك عن التسبيح ، فقال لها سليمان : عظينى ، فقالت : هل علمت لم سمى أبوك داود؟ قال : لا ، قالت : لأنه داوى حرجه. هل تدرى لم سميت سليمان؟ قال : لا ، قالت : لأنك سليم ، ما ركنت إلى ما أوتيت ، لسلامة صدرك ، وأنى لك أن تلحق أباك. ثم قالت : أتدري لم سخر اللّه لك الريح؟

قال : لا ، قالت : أخبرك اللّه أن الدنيا كلها ريح. قال ابن عباس : ومن هنا «نهى النبي صلى اللّه عليه وسلم عن قتل أربعة من الدواب : الهدهد ، والصّرد ، والنحلة ، والنملة «٣»».

---

(١) قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٥٩) : من قال من المفسرين : إن هذا الوادي كان بأرض الشام ، أو بغيره ، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين ، كالذباب ، أو غير ذلك من الأقاويل ، فلا حاصل لها. ثم قال : والغرض : أن سليمان عليه السّلام فهم قولها ، وتبسم ضاحكا من ذلك ، وهذا أمر عظيم جدا.

(٢) راجع الصفحة قبل السابقة.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٣٣٢) وأبو داود فى (الأدب ، باب فى قتل الذر ، ٥/ ٤١٨ ح ٥٢٦٧) وابن ماجه فى (الصيد ، باب ما ينهى عن قتله ٢/ ١٠٧٤ ح ٣٢٢٤) والدارمي فى (الأضاحى ، باب النهى عن قتل الضفادع والنحلة ٢/ ١٢١ ، ح ١٩٩٩) من حديث سيدنا عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنه.

فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً ، معجبا مِنْ قَوْلِها ومن حذرها ، واهتدائها لمصالحها ، ونصحها للنمل ، وفرحا بظهور

عدله. والتبسم : ابتداء الضحك ، وأكثر ضحك الأنبياء التبسّم ، أي : فتبسم ابتداء ، ضاحكا انتهاء.
وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ، الإيزاع فى الأصل : الكف ، أي : كفّنى عن كل شيء إلا عن شكر نعمتك ، ويطلق على الإلهام ، أي : ألهمنى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ من النبوة والملك والعلم ، وَعَلى والِدَيَّ لأن الإنعام على الوالدين إنعام على الولد ، وَألهمنى أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ فى بقية عمرى ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ أي : وأدخلنى الجنة برحمتك ، لا بصالح عملى إذ لا يدخل الجنة إلا برحمتك ، كما فى الحديث.
فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ أي : فى جملة أنبيائك المرسلين ، الذين صلحوا لحضرتك. أو : مع عبادك الصالحين.
روى أن النملة أحست بصوت الجنود ، ولم تعلم أنهم فى الهواء ، فأمر سليمان عليه السّلام الريح ، فوقفت لئلا يذعرن ، حتى دخلن مساكنهن ، ثم دعا بالدعوة. قاله النسفي.
الإشارة : من أقبل بكليته على مولاه ، وأطاعه فى كل شيء ، سخرت له الأكوان ، وأطاعته فى كل شيء.
ومن أعرض عن مولاه أعرض عنه كلّ شيء ، وصعب عليه كلّ شيء. «أنت مع الأكون ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك». فإذا سخرت له الأشياء ، وزهد فيها ، وأعرض عنها ، واختار مقام العبودية ، ارتفع قدره ، ولم ينقص منه شيئا ، كحال نبينا - عليه الصلاة والسلام - . ومن سخرت له الأشياء ، ونظر إليها ، انتقص قدره ، وإن كان كريما على اللّه ، ولذلك ورد فى الخبر أن سليمان عليه السّلام : هو آخر من يدخل الجنة من الأنبياء. ذكره فى القوت.
وذكر فيه أيضا : أن سليمان عليه السّلام لبس ذات يوم ثيابا رفيعة ، ثم ركب على سريره ، فحملته الريح ، وسارت به ، فنظر إلى عطفيه نظرة ، فأنزلته إلى الأرض ، فقال لها : لم أنزلتنى ولم آمرك؟ فقالت له : نطيعك إذا أطعت اللّه ، ونعصيك إذا عصيته. فاستغفر وتاب ، فحملته. وهذا مما يعتب على المقربين لكبر مقامهم ، فكل نعيم فى الدنيا ينقص فى الآخرة. واللّه تعالى أعلم.
ثم قال تعالى :
[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٢٠ الى ٢٦]
وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤)
أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)

(١٨٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨٧

يقول الحق جل جلاله : وَتَفَقَّدَ سليمان الطَّيْرَ أي : تعرف أحوال الطير تعرف الملك لمملكته ، حسبما تقتضيه عناية الملك بمملكته ، والاهتمام بكل جزء منها ، أو : تفقده لمعرفته بالماء ، أو : لغير ذلك على ما يأتي. فلما تفقده لم ير الهدهد فيما بينها. والتفقد : طلب ما غاب عنك. فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أساتر ستره؟ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ ، و«أم» : بمعنى «بل» ، كأنه قال : مالى لا أراه؟ ثم بدا له أنه غائب ، فأضرب عنه ، وقال : بل هو من الغائبين.

لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً ، قيل : كان عذابه للطير : نتفه ريشه وتشميسه ، أو : يجعله مع أضداده فى قفص ، أو : بالتفريق بينه وبين إلفه. وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد ، ومفارقة الأحباب. أو : نتفه ، وطرحه بين يدى النحل تلدغه ، أو : النمل تأكله. وحلّ له تعذيب الهدهد لينزجر غيره ، ولما سخرت له الحيوانات - ولا يتم التسخير إلا بالتأديب - حلّ له التأديب.

أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ليعتبر به أبناء جنسه ، أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ بحجة تبين عذره ، والحلف فى الحقيقة على أحد الأمرين ، على تقدير عدم الثالث. قال بعضهم : وسبب طلبته للهدهد ، لإخلاله بالنوبة التي كان ينوبها. وقيل : كانت الطير تظله ، فأصابته لمعة من الشمس ، فنظر ، فرأى موضع الهدهد خاليا ، فتفقده ، وقيل :

احتاج إلى الماء ، وكان علم ذلك إلى الهدهد ، فتفقده ، فلم يجده ، فتوعده.

والسبب فيه : أن سليمان عليه السّلام لمّا فرغ من بناء بيت المقدس ، عزم على الخروج إلى أرض الحرم ، للحج ، فتجهز للمسير ، وخرج بجنوده -كما تقدم - فبلغ الحرم ، وأقام به ، وكان ينحر كل يوم بمكة خمسة آلاف ناقة ، ويذبح خمسة آلاف ثور ، وعشرين ألف شاة ، قربانا. وقال : إن هذا مكان يخرج منه نبى عزيز ، صفته كذا وكذا ، يعطى النصر على جميع من ناوأه ، وتبلغ هيبته مسيرة شهر ، القريب والبعيد فى الحق عنده سواء ، لا تأخذه فى اللّه

(١٨٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨٨

لومة لائم ، دينه دين الحنيفية ، فطوبى لمن أدركه وآمن به ، وبيننا وبين خروجه زهاء ألف عام. ثم قضى نسكه ، وخرج نحو اليمن صباحا ، يؤم سهيلا ، فوافى صنعاء وقت الزوال ، وذلك مسيرة شهر ، فرأى أرضا حسناء ، تزهو خضرتها ، فأحب النزول بها ليصلى ، ويتغذى ، فطلبوا الماء فلم يجدوه ، وكان

الهدهد دليله على الماء ، كان يرى الماء من تحت الأرض ، كما نرى الماء فى الزجاجة ، فينقر الأرض فتجىء الشياطين يستخرجونه. وبحث فيه القشيري بأن الهدهد متعدد فى عسكره ، إذا فقدوا واحدا بقي آخر ، قال : اللهم إلا أن يكون ذلك الواحد مخصوصا بمعرفة ذلك ، واللّه أعلم. هـ.

قال سعيد بن جبير : لما ذكر ابن عباس هذا الحديث : قال له نافع بن الأزرق : كيف ينظر الماء تحت الأرض ، ولا يبصر الفخ حتى يقع فيه؟ قال ابن عباس : ويحك إذا جاء القدر حال دون البصر. هـ.

قلت : ونافع هذا هو رأس الخوارج والمعتزلة.

فلما نزل سليمان ، قال الهدهد : إن سليمان قد اشتغل بالنزول ، فارتفع نحو السماء ، ونظر طول الدنيا وعرضها ، ونظر يمينا وشمالا ، فرأى بستانا لبلقيس فيه هدهد. وكان اسم هدهد سليمان «يعفور» واسم هدهد اليمن «عنفير».

فقال هدهد اليمن لهدهد سليمان : من أين أقبلت وأين تريد؟ قال : أقبلت من الشام ، مع صاحبى سليمان بن داود ، قال :

ومن سليمان؟ قال : ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحوش والرياح ، فمن أين أنت؟ قال من هذه البلد ، ملكها امرأة ، يقال لها «بلقيس» تحت يديها اثنا عشر ألف قائد ، تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل. فانطلق معه ، ونظر إلى بلقيس وملكها ، ورجع إلى سليمان وقت العصر. وكان سليمان قد فقده وقت الصلاة ، فلم يجده ، وكان على غير ماء.

قال ابن عباس : فدعا عريف الطير - وهو النسر - فسأله؟ ، فقال : ما أدرى أين هو ، فغضب سليمان وقال :

(لأعذبنه ...) إلخ ، ثم دعا بالعقاب ، سيد الطير ، فقال : علىّ بالهدهد الساعة ، فرفع العقاب نفسه نحو السماء ، حتى التزق بالهواء ، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم ، فإذا هو بالهدهد مقبلا من نحو اليمن ، فانقضّ نحوه ، فقال له الهدهد : بحق الحق الذي قوّاك إلا ما رحمتنى ، فقال : ويلك ، إن نبى اللّه حلف أن يعذبك ويذبحك. ثم تلقته النسور والطير فى العسكر ، وقالوا له : لقد توعدك نبىّ اللّه. قال : أو ما استثنى؟ قالت : بلى ، قال : أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ. ثم دخل على سليمان ، فرفع رأسه ، وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض ، تواضعا للّه ولسليمان ، فقال سليمان : أين كنت؟ لأعذبنّك ... فلما دنا منه أخذ سليمان برأسه ، فمده إليه ، فقال له الهدهد : يا نبى اللّه اذكر وقوفك بين يدى اللّه تعالى ، بمنزلة وقوفى بين يديك ، فارتعد سليمان وعفا عنه «١». وقال عكرمة : إنما صرف سليمان عن ذبح الهدهد لبره بوالديه ، كان يلتقط الطعام ثم يزقه لهما.

---

(١) هذه الأخبار ذكرها البغوي فى تفسيره (٦/ ١٥٤) وغيره من المفسرين. وهى من الأخبار التي لا سند لها.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨٩
قال تعالى : فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ أي : تفقد مكث سليمان حين تفقد الهدهد ، وأرسل من ورائه غير زمان بعيد ، وهو من الظهر إلى العصر - كما تقدم - أو : فمكث الهدهد فى غيبته غير بعيد ، خوفا من سليمان ، فالضمير إما لسليمان ، أو : للهدهد ، وهو الظاهر ، ويرجحه قراءة : (فتمكث). وفى «مكث» لغتان : الضم والفتح.
ولما قدم من غيبته ، أحضر بين يديه ، على الهيئة المتقدمة ، ثم سأله عن غيبته ، فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ أي : أدركت علما لم تحط به أنت ، ألهم اللّه الهدهد فكافح «١» سليمان بهذا الكلام ، مع ما أوتى من فضل النبوة والعلوم الجمة ، ابتلاء له عليه السّلام فى علمه ، وتنبيها على أن فى أدنى خلقه وأضعفهم من أحاطه اللّه علما بما لم يحط به لتتصاغر إليه نفسه ، ويصغر فى عينه علمه ، فى جانب علم اللّه ، رحمة به ولطفا فى ترك الإعجاب ، الذي هو فتنة العلماء.
ثم قال : وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ - بالصرف - اسما للحيّ ، أو : للأب الأكبر ، وبعدمه اسما للقبيلة. بِنَبَإٍ يَقِينٍ ، والنبأ : الخبر الذي له شأن. وقوله : مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ من محاسن الكلام ، ويسمى البديع. وقد حسن وبرع لفظا ومعنى ، حيث فسر إبهامه بأبدع تفسير ، وأراه أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة. وعبّر عما جاء به بالنبإ ، الذي هو الخبر الخطير والشأن الكبير ، ووصفه بما وصفه به. إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ هو استئناف لبيان ما جاء به من النبأ ، وتفسير له إثر الإجمال. وهى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان. وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها ، ورث الملك من أربعين أبا. وقيل : كان أبوها - اسمه الهدهاد - ملكا عظيم الشأن ، ملك أرض اليمن كلها ، وأبى أن يتزوج منهم ، فزوجوه امرأة من الجن ، يقال لها «ريحانة» فولدت له بلقيس ، ولم يكن له ولد غيرها.
قال أبو هريرة : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم «كان أحد أبوى بلقيس جنيا» «٢» فمات أبوها ، فاختلف قومه فرقتين ، وملّكوا أمرهم رجلا قائما بسيرته ، حتى فجر بحرم رعيته ، فأدركت بلقيس الغيرة ، فعرضت عليه نفسها ، فتزوجته ، فسقته الخمر ، فسكر ، فجزت رأسه ، ونصبته على باب دارها فملكوها «٣».
وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تحتاج إليه الملوك ، من العدة والآلة ، وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ : كبير ، قيل : كان ثلاثين ذراعا فى ثلاثين عرضا ، وقيل : كان ثمانين ذراعا فى ثمانين ، وطوله فى الهواء : ثمانون. وكان من ذهب وفضة ، مرصعا بأنواع الجواهر ، وقوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ، ودرّ ، وزبرجد ، وعليه سبعة أبيات ، فى كل بيت

(١) كافحه مكافحة وكفاحا : واجهه. انظر اللسان (مادة كفح ٥/ ٣٨٩٧)
(٢) أخرجه الطبري فى التفسير (١٩/ ١٦٩) وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٥/ ١٩٨) لأبى الشيخ فى العظمة ، وابن عساكر ، وقال ابن كثير فى البداية والنهاية (٢٠/ ٢١) : هذا حيث غريب ، وفى سنده ضعف.
(٣) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ١٥٦). [.....]

(١٨٩/٤)

باب مغلق. واستصغر الهدهد حالها إلى حال سليمان ، فلذلك عظّم عرشها. وقد أخفى اللّه تعالى ذلك على سليمان لحكمة ، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب ، ليتحقق ضعف العبودية فى جانب علم الربوبية.
وكانت بلقيس مجوسية ، فلذلك قال : وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : يعبدونها متجاوزين عبادة اللّه. وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ التي هى عبادة الشمس ، ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصي ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ عن سبيل الرشد والصواب ، وهو التوحيد فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ إليه.
ولا يبعد من الهدهد التهدّى إلى معرفة اللّه ، ووجوب السجود له ، وحرمة السجود للشمس ، إلهاما من اللّه له ، كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوانات المعارف اللطيفة ، التي لا يكاد العقلاء ، الراجحة العقول ، يهتدون إليها.
وهذا من أسرار الربوبية ، التي سرت فى الأشياء ، فوحّدت اللّه تعالى ، ولهجت بحمده.
أَلَّا يَسْجُدُوا بالتشديد ، أي : فصدّهم عن السبيل لئلا ، فحذف الجار ، أي : لأجل ألا يسجدوا للّه. ويجوز أن تكون «لا» مزيدة ، أي : فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا. وقرئ : هلا يسجدون. ومن قرأ بالتخفيف «١». فالتقدير عنده : ألا يا هؤلاء اسجدوا ، فألا للتنبيه ، والمنادى محذوف ، فمن شدّد لم يقف على يَهْتَدُونَ ، ومن خفف وقف ثم استأنف : ألا يا هؤلاء اسجدوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ الشيء المخبوء المستور فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، قال قتادة : خبء السموات : المطر ، وخبء الأرض : النبات. واللفظ أعم من ذلك ، وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ «٢» عطف على «يخرج» إشارة إلى أنه تعالى يخرج ما فى العالم الإنسانى من الخفايا ، كما يخرج ما فى العالم الكبير من الخبايا.
اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الذي هو أول الأجرام وأعظمهما. ووصف الهدهد عرش اللّه بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض. وفى الخبر : «إن السموات والأرض فى جانب العرش كحلقة فى فلاة» ووصفه عرش بلقيس تعظيم له بالنسبة إلى عروش أبناء جنسها من

الملوك. هذا آخر كلام الهدهد. ثم دلهم على الماء فحفروا وشربوا ، وملأوا الركايا ، واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : هدهد كل إنسان نفسه ، فإذا تفقدها فوجدها غائبة عن اللّه ، فى أودية الغفلة ، هدهد بالعذاب الشديد ، وبذبحها بأنواع المخالفة ، حتى تأتيه بحجة واضحة ، تعذر بها ، فإن لم تأت بحجة عذّبها وذبحها ، بإدخالها فى كل ما تكره ويثقل عليها ، فتمكث غير بعيد ، فتأتيه بالعلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، التي لم يحط بها علما قبل ذلك ، وتجيئه بالخبر اليقين ، فى العلم باللّه ، من عين اليقين ، أو حق اليقين ، فتخبره عن أحوال عامة أهل الحجاب ،

---

(١) قرأ أبو جعفر ، والكسائي : (ألا يسجدوا) بالتخفيف. وقرأ الباقون (ألّا) بالتشديد.
(٢) قرأ حفص ، والكسائي : (ما تخفون وما تعلنون) بالتاء على الخطاب ، وقرأ الآخرون بالياء. انظر الإتحاف (٢/ ٣٢٦).

فتقول : إني وجدت امرأة تملكهم ، وهى نفسهم الأمارة ، وأوتيت من كل شيء تشتهيه وتهواه ، من غير وازع ولا قامع ، ولها عرش عظيم ، وهو سرير الغفلة والانهماك فى حب الدنيا والشهوات. أو : لها تسلط كبير على من ملكته ، وجدتها وقومها يسجدون للسّوى ، ويخضعون للهوى من دون اللّه ، وزيّن لهم الشيطان ذلك ، فصدهم عن طريق الوصول ، فهم لا يهتدون إلى الوصول إلى الحضرة أبدا ما داموا كذلك لأن حضرة ملك الملوك محرمة على من هو لنفسه مملوك. ألا يسجدوا بقلوبهم للّه وحده ، فإنه مطلع على خبايا القلوب والأسرار ، وعلى ما يسرون من الإخلاص ، وما يعلنون من الأعمال ، التي توجب الاختصاص. وباللّه التوفيق.
ولما سمع سليمان كلام الهدهد أرسله بكتابه إلى بلقيس ، كما قال تعالى :
[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٢٧ الى ٣٤]
قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (٢٨) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)
قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (٣٣) قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)

يقول الحق جل جلاله : قالَ سليمان للهدهد : سَنَنْظُرُ أي : نتأمل فيما أخبرت ، فنعلم أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ ، وهو أبلغ من : أكذبت لأنه إذا كان معروفا بالانخراط فى سلك الكاذبين كان كاذبا ، لا محالة ، وإذا كان كاذبا اتّهم فيما أخبر به ، فلا يوثق به ، ثم كتب : من عبد اللّه ، سليمان بن داود ، إلى بلقيس ملكة سبأ بسم اللّه الرحمن الرحيم ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فلا تعلوا عليّ وأتونى مسلمين. قال منصور : كان سليمان أبلغ الناس فى كتابه ، وأقلهم كلاما فيه. ثم قرأ : إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ ... إلخ ، والأنبياء كلهم كذلك ، كانت تكتب جملا ، لا يطيلون ولا يكثرون. وقال ابن جريج : لم يزد سليمان على ما قال اللّه تعالى : إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ ... إلخ. ثم طيّبه بالمسك ، وختمه بخاتمه «١» ، وقال للهدهد : اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ

---

(١) ذكره البغوي فى التفسير (٦/ ١٥٨).

أي : إلى بلقيس وقومها لأنه ذكرهم معها فى قوله : وَجَدْتُها وَقَوْمَها ، وبنى الخطاب على لفظ الجمع لذلك.

ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ أي : تنح عنهم إلى مكان قريب ، بحيث تراهم ولا يرونك ، ليكون ما يقولون بمسمع منك ، فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ أي : ما الذي يردّونه من الجواب ، أو : ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول.

فأخذ الهدهد الكتاب بمنقاره ، ودخل عليها من كوّة ، فطرح الكتاب على نحرها ، وهى راقدة ، وتوارى فى الكوة. وقيل : نقرها ، فانتبهت فزعة ، أو : أتاها والجنود حولها ، فوقف ساعة يرفرف فوق رؤوسهم ، ثم طرح الكتاب فى حجرها ، وكانت قارئة ، فلما رأت الخاتم قالَتْ لأشراف قومها وهى خائفة : يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ ، وصفته بالكرم لكرم مضمونه إذ هو حق ، أو : لأنه من ملك كريم ، أو : لكونه مختوما. قال - عليه الصلاة والسلام - : «كرم الكتاب ختمه» «١» أو : لكونه مصدرا بالتسمية ، أو : لغرابة شأنه ، ووصوله إليها على وجه خرق العادة.

ومضمونه والمكتوب فيه : إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، وهذا تبيين لما ألقى إليها ، كأنها لما قالت : أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ قيل لها : ممن هو وما هو؟ فقالت : إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ ، «إن» : مفسرة ، أي : لا تترفعوا عليّ ولا تتكبروا ، كما يفعل جبابرة الملوك ، وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ : مؤمنين ، أو : منقادين ، وليس فيه الأمر بالإسلام. وقيل : إقامة الحجة على

رسالته لأن إلقاء الكتاب على تلك الصفة معجزة باهرة.
قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ، كررت حكاية قولها إيذانا بغاية اعتنائها بما فى حيزه : أَفْتُونِي فِي أَمْرِي أي : أجيبونى فى أمرى ، الذي حزبنى وذكرته لكم ، وعبّرت عن الجواب بالفتوى ، الذي هو الجواب عن الحوادث المشكلة غالبا تهويلا للأمر ، ورفعا لمحلهم ، بالإشعار بأنهم قادرون على حل المشكلات الملمة. ثم قالت :
ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً من الأمور المتعلقة بالمملكة حَتَّى تَشْهَدُونِ بكسر النون ، ولا يصح الفتح لأنه يحذف للناصب. وأصله : تشهدوننى ، فحذفت الأولى للناصب وبقي نون الوقاية ، أي : تحضروني ، وتشهدوا أنه على صواب ، أي : لا أقطع أمرا إلا بمحضركم. وقيل : كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، كل واحد على عشرة آلاف.
قالُوا فى جوابها : نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ أي : نجدة وشجاعة ، فأرادوا بالقوة : قوة الأجساد والآلات ، وبالبأس : النجدة والبلاء فى الحرب. وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ أي : هو موكل إليك فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ ،

---

(١) رواه الطبراني فى الأوسط (ح ٣٨٧٢) والشهاب القضاعي فى مسنده (ح ٣٩) عن ابن عباس رضي اللّه عنه. وفى سنده السدى الصغير ، متروك. انظر مجمع الزوائد (٨/ ٩٩).

فنحن مطيعون إليك ، فمرينا بأمرك ، نمتثل أمرك ، ولا نخالفك. كأنهم أشاروا عليها بالقتال ، أو أرادوا : نحن من أبناء الحرب ، لا من أبناء الرأى والمشورة ، وأنت ذات الرأى والتدبير ، فانظرى ماذا تأمرين نتبع رأيك.
فلما أحست منهم الميل إلى المحاربة مالت إلى المصالحة ، فزيفت رأيهم ، حيث قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً على منهاج المقاتلة والحرب ، أو عنوة وقهرا أَفْسَدُوها بتخريب عمارتها ، وإتلاف ما فيها من الأموال ، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً بالقتل والأسر والإجلاء ، وغير ذلك من فنون الإهانة ليستقيم لهم ملكهم وحدهم. ثم قالت : وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ أي : وهذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير ، لأنها كانت فى بيت المملكة قديما ، أبا عن أب ، فجربت الأمور ، أو : يكون من قول اللّه تعالى ، تصديقا لقولها ، أي : قال اللّه تعالى : وكذلك شأن الملوك إذا غلبوا وقهروا أفسدوا. وأنشدوا فى هذا المعنى :
إنّ الملوك بلاء حيثما حلّوا فلا يكن بك فى أكنافهم ظلّ

ماذا يؤمّل من قوم إذا غضبوا جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
وإن صدقتهم خالوك تخدعهم واستثقلوك كما يستثقل الكلّ
فاستغن باللّه عن أبوابهم أبدا إنّ الوقوف على أبوابهم ذلّ
ففى صحبة الملوك خطر كبير ، وتعب عظيم ، فمن قوى نوره ، حتى يغلب على ظلمتهم ، بحيث يتصرف فيهم ، ولا يتصرفون فيه ، فلا بأس بمعرفتهم ، إن كان فيه نفع للناس بالشفاعة والنصيحة ، وقد أقيم فى هذا المقام الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، وشيخ شيخنا مولاى العربي الدرقاوى - رضى اللّه عنهما - وكان تلميذاهما الشيخ أبو العباس المرسى ، وشيخنا سيدى محمد البوزيدى الحسنى - رضى اللّه عنهما - يفران من صحبتهم ، أشد الفرار ، وهو أسلم. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : قال صاحب الخصوصية لنفسه : سننظر أصدقت فى الخصوصية أم أنت من الكاذبين ، اذهب بما معك من العلم ، وذكّر به عباد اللّه ، وألقه إليهم ، ثم تولّ عنهم ، وانظر ماذا يرجعون ، فإن تأثروا بوعظك ، وانتقش فيهم قولك ، فأنت صادقة فى ثبوت الخصوصية لديك لأن أهل العلم باللّه إذا تكلموا وقع كلامهم فى قلوب العباد ، فحييت به قلوبهم وأرواحهم. ومن لا خصوصية له صدت كلامه الآذان. قالت حين أراد التذكير : يا أيها الملأ إنى ألقى إلىّ فى قلبى كتاب كريم ، وعلم عظيم ، فلا تعلو علىّ وأتونى مسلمين ، منقادين لما آمركم به ، وقالت - لمّا تطهرت من الأكدار ، وتحررت من الأغيار ، وأحدقت بها جنود الأنوار : يا أيها الملأ - تعنى جنود الأنوار - أفتونى فى

أمرى الذي أريد أن أفعله ، ما كنت قاطعة أمرا من الأمور ، التي تتجلى فى القلب ، حتى تشهدون ، وتشهدوا أنه رشد وحق ، قالوا : نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك ، حيث تطهرت ، فانظرى ماذا تأمرين لأن النفس إذا تزكت وتخلصت وجب تصديقها فيما تهتم به ، قالت : إن الملوك - أي : الواردات الإلهية التي تأتى من حضرة القهار ، إذا دخلوا قرية ، أي : قلب نفس ، أفسدوا ظاهرها بالتخريب والتعذيب ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، أي : أبدلوا عزها ذلا ، وجاهها خمولا ، وغناها من الدنيا فقرا ، وكذلك يفعلون.
وفى الحكم العطائية : «متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد لديك ، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون». فكل وارد نزل بالإنسان ولم يغير عليه عوائده فهو كاذب ، قال فى الحكم : «لا تزكين واردا لم تعلم ثمرته ، فليس المراد من السحابة الأمطار ، وإنما المراد منها وجود الأثمار».

وباللّه التوفيق.

ثم أشارت عليهم بإرسال الهدية لسليمان ، كما قال تعالى :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٣٥ الى ٣٧]

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ (٣٧)

يقول الحق جل جلاله فى حكاية بلقيس - وكانت سيسة ، قد سيست وساست ، فقالت لقومها : وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ سليمان وقومه ، بِهَدِيَّةٍ أصانعه بذلك عن ملكى ، وأختبره ، أملك هو أم نبى؟ فَناظِرَةٌ فمنتظرة بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ بأى شىء يرجعون ، بقبولها أم بردها لأنها عرفت عادة الملوك ، وحسن موقع الهدايا عندهم ، فإن كان ملكا قبلها وانصرف. وإن كان نبيا ردها ، ولم يقبل منا إلا أن نتبعه على دينه ، فبعثت خمسمائة غلام ، عليهم ثياب الجواري وحليهن ، راكبين خيلا ، مغشاة بالديباج ، محلّاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجوهر ، وخمسمائة جارية على رماك «١» فى زى الغلمان ، وألف لبنة من ذهب وفضة ، وتاجا مكللا بالدر والياقوت ، وحقا فيه دره عذراء ، وخرزة جزعية مثقوبة ، معوجّة الثقب ، وأرسلت رسلا ، وأمّرت عليهم المنذر ابن عمرو ، وكتبت كتابا فيه نسخة الهدية. وقالت فيه : إذ كنت نبيا فميّز بين الوصفاء والوصائف ، وأخبر بما فى

---

(١) الرماك : جمع رمكة ، وهى أنثى البغال. راجع اللسان (رمك ٣/ ١٧٣٣).

الحقّ ، واثقب الدرّة ثقبا مستويا ، واسلك فى الخرزة خيطا. ثم قالت للمنذر : إن نظر إليك نظر غضب فهو ملك ، فلا يهولنك منظره ، وإن رأيته لينا لطيفا فهو نبيّ «١».

فأقبل الهدهد ، فأخبر سليمان الخبر كله ، فأمر سليمان الجن فضربوا لبنات الذهب والفضة ، وفرشوها فى الميدان بين يديه ، طوله سبعة فراسخ ، وجعلوا حول الميدان حائطا ، شرفه من الذهب والفضة ، وأمر بأحسن الدواب فى البر والبحر ، فربطوها عن يمين الميدان ويساره ، على اللبنات. وأمر بأولاد الجن - وهم خلق كثير - فأقيموا عن اليمين واليسار ، ثم قعد على سريره ، والكراسي من جانبيه ، واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ ، والإنس صفوفا فراسخ ، والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك ، فلما دنا القوم ، ونظروا ، بهتوا ، ورأوا الدواب تروث على اللبن ، فتقاصرت إليهم أنفسهم ، ورموا بما

معهم من الهدايا.

ولما وقفوا بين يديه ، نظر إليهم سليمان بوجه طلق ، فأعطوه كتاب الملكة ، فنظر فيه ، فقال : أين الحق؟ فأتي به ، فحرّكه ، وأخبره جبريل عليه السّلام بما فيه. فقال لهم : إن فيه كذا وكذا. ثم أمر بالأرضة فأخذت شعرة ، ونفذت فى الدرّة ، فجعل رزقها فى الشجر. وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ، ونفذت فى ثقب الجزعة ، فجعل رزقها فى الفواكه. ودعا بالماء ، وأمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم ، فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فى الأخرى ، ثم تضرب به وجهها ، والغلام كما يأخذ الماء يضرب به وجهه فميزهم بذلك. ثم ردّ الهدية.

ذلك قوله تعالى : فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ أي : جاء رسولها المنذر بن عمرو إليه قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ ، توبيخ وإنكار لإمدادهم إياه بالمال ، مع علو شأنه وسعة سلطانه. والتنكير للتحقير ، والخطاب للرسول ومن معه ، أو للرسول والمرسل تغليب للحاضر. فَما آتانِيَ اللَّهُ من النبوة والملك الذي لا غاية وراءه خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ أي : من المال الذي من جملته ما جئتم به ، فلا حاجة لى إلى هديتكم ، ولا وقع لها عندى ، ولعله عليه السّلام إنما قال لهم هذه المقالة .. إلخ بعد ما جرى بينه وبينهم ما حكى من قصة الحقّ وغيرها ، لا أنه عليه السّلام خاطبهم بها أول ما جاءوه.

ثم قال لهم : بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ. الهدية : اسم للمهدى ، كما أن العطية اسم للمعطى ، فتضاف إلى المهدى والمهدى له. والمعنى : أن ما عندى خير مما عندكم ، وذلك أن اللّه تعالى آتاني الدين والمعرفة به ، التي هى الغنى الأكبر ، والحظ الأوفر ، وأتانى من الدنيا ما لا يستزاد عليه ، فكيف يرضى مثلى بأن يمد بمال من قبلكم؟ بل أنتم قوم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، فلذلك تفرحون بما تزدادون ويهدى إليكم لأنّ ذلك مبلغ همتكم ، وحالى خلاف ذلكم ، فلا أرضى منكم بشيء ، ولا أفرح إلا بالإيمان منكم ، وترك ما أنتم عليه من المجوسية.

والإضراب راجع إلى معنى ما تقدم ، كأنه قيل : أنا لا أفرح بما تمدوننى به بل أنتم.

---

(١) قال العلامة ابن كثير ، بعد ذكره لهذه الروايات : واللّه أعلم أكان ذلك أم لا ، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات. انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٣).

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

ثم قال للرسول : ارْجِعْ إِلَيْهِمْ إلى بلقيس وقومها ، وقل لهم : فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ : لا طاقة لَهُمْ بِها. وحقيقة القبل : المقابلة والمقاومة ، أي : لا يقدرون أن يقابلوهم ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أي : من سبأ أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ : أسارى مهانون. فالذل : أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك ، والصغار : أن يبقوا فى أسر واستعباد. فلما رجع إليها رسولها بالهدايا ، وقصّ عليها القصة ، قالت : هو نبى ، ومالنا به طاقة. ثم تجهزت للقائه ، على ما يأتي إن شاء اللّه.

الإشارة : إذا توجه المريد إلى مولاه ، توجهت إليه نفسه بأجنادها ، وهى الدنيا ، والجاه ، والرئاسة ، والحظوظ ، والشهوات ، فتمده أولا بمال وجاه ، تختبره ، فإن علت همته ، وقويت عزيمته ، أعرض عن ذلك وأنكره ، وقال :

أتمدوننى بمال حقير ، وجاه صغير ، فما آتاني اللّه من معرفته والغنى به خير مما آتاكم. ثم يقول للوارد بذلك : ارجع إليهم - أي : للنفس وجنودها - فلنأتينهم بجنود من الأنوار لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها - أي : قرية القلب - أذلة وهم صاغرون. واللّه تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم ذكر إتيان عرشها قبل إتيانها ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٣٨ الى ٤٤]

قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)

وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٩٧
ولما أرادت بلقيس الخروج إلى سليمان ، جعلت عرشها فى آخر سبعة أبيات ، وغلّقت الأبواب ، وجعلت عليه حراسا يحفظونه ، وبعثت إلى سليمان : إنى قادمة إليك لأنظر ما الذي تدعو إليه ، وشخصت إليه فى اثنى عشر ألف قيل «١» ، تحت كل قيل ألوف ، فلما بلغت على رأس فرسخ من سليمان ، قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ، أراد أن يريها بذلك بعض ما خصه اللّه تعالى به ، من إجراء العجائب على يده ، مع اطلاعها على عظيم قدرة اللّه تعالى ، وعلى ما يشهد لنبوة سليمان. أو : أراد أن يأخذه قبل أن تتحصن بالإسلام ، فلا يحل له ، والأول أليق بمنصب النبوة ، أو : أراد أن يختبرها فى عقلها ، بتغييره ، هل تعرفه أو تنكره.
قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ ، وهو المارد الخبيث ، واسمه «ذكوان» ، أو : «صخر» : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ أي : من مجلسك إلى الحكومة ، وكان يجلس إلى تسع النهار ، وقيل : إلى نصفه. وَإِنِّي عَلَيْهِ على حمله لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ، آتى به على ما هو عليه ، لا أغيّر منه شيئا ولا أبدله ، فقال سليمان عليه السّلام ، أريد أعجل من هذا ، قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ. قيل هو : آصف بن برخيا - وزير سليمان عليه السّلام ، كان عنده اسم اللّه الأعظم ، الذي إذا سئل به أجاب. قيل هو : يا حيّ يا قيوم ، أو : يا ذا الجلال والإكرام ، أو : يا إلهنا وإله كل شىء ، إلها واحدا ، لا إله إلا أنت. وليس الشأن معرفة الاسم ، إنما الشأن أن يكون عين الاسم ، أي : عين مسمى الاسم ، حتى يكون أمره بأمر اللّه. وقيل : هو الخضر ، أو : جبريل ، أو : ملك بيده كتاب المقادير ، أرسله تعالى عند قول العفريت. والأول أشهر «٢». قال : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ أي : ترسل طرفك إلى شىء ، فقبل أن ترده تبصر العرش بين يديك.
روى : أن آصف قال لسليمان : مدّ عينيك حتى ينتهى طرفك ، فمدّ عينيه ، فنظر نحو اليمن ، فدعا آصف ، فغار العرش فى مكانه ، ثم نبع عند مجلس سليمان ، بقدرة اللّه تعالى ، قبل أن يرجع إليه طرفه. فَلَمَّا رَآهُ أي :
العرش مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ثابتا لديه غير مضطرب ، قالَ هذا أي : حصول مرادى ، وهو حضور العرش فى مدة قليلة ، مِنْ فَضْلِ رَبِّي علىّ ، وإحسانه إلىّ ، بلا استحقاق منى ، بل هو فضل خال من العوض ، لِيَبْلُوَنِي : ليختبرنى أَأَشْكُرُ نعمه أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ لأنه يقيد به محصولها ، ويستجلب به مفقودها ، ويحط عن ذمته عناء الواجب ، ويتخلص من وصمة الكفران. وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ أي : ومن كفر بترك الشكر ، فإن ربى غنى عن شكره ، كريم بترك تعجيل العقوبة إليه.
وفى الخبر : «من شكر النعم فقد قيّدها بعقالها ، ومن لم يشكر فقد تعرض لزوالها».

(١) القيل : الملك من ملوك اليمن في الجاهلية ، دون الملك الأعظم. وجمعه : أقيال وقيول. انظر اللسان (٥/ ٣٧٩٨ ، مادة قيل).
(٢) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٩/ ١٦٢ - ١٦٣) وتفسير البغوي (٦/ ١٦٤).

وقال الواسطي : ما كان منّا من الشكر فهو لنا ، وما كان منه من النعمة فهو إلينا ، وله المنة والفضل علينا. هـ.

قالَ سليمان عليه السّلام لأصحابه : نَكِّرُوا لَها عَرْشَها أي : غيّروا هيئته بوجه من الوجوه ، نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي لمعرفته ، أو : للجواب الصواب إذا سئلت عنه ، أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ إلى معرفة عرشها. أو إلى الجواب الصواب.

فَلَمَّا جاءَتْ بلقيس سليمان عليه السّلام ، وقد كان العرش بين يديه ، قِيلَ من جهة سليمان ، أو بواسطة :

أَهكَذا عَرْشُكِ؟ ولم يقل : أهذا عرشك لئلا يكون تلقينا ، فيفوت ما هو المقصود من اختبار عقلها ، وقد قيل لسليمان - لما أراد تزوجها - : إن في عقلها شيئا ، فاختبرها بذلك. قالَتْ - لما رأته - : كَأَنَّهُ هُوَ فأجابت أحسن جواب ، فلم تقل : هو هو ، ولا : ليس به ، وذلك من رجاحة عقلها ، حيث لم تقل : هو هو ، مع علمها بحقيقة الحال ، ولما شبّهوا عليها بقولهم : أهكذا عرشك شبهت عليهم بقولها : كَأَنَّهُ هُوَ مع أنها علمت بعرشها حقيقة ، تلويحا بما اعتراه بالتنكير من نوع مغايرة في الصفات مع اتحاد الذات ، ومراعاة لحسن الأدب في محاورته عليه السّلام.

ولو قالوا : أهذا عرشك؟ لقالت : هو.

ثم قالت : وَأُوتِينَا الْعِلْمَ بقدرة اللّه تعالى ، وبصحة نبوتك مِنْ قَبْلِها من قبل هذا الأمر ، أي : من قبل هذه المعجزة التي شاهدنا الآن ، من أمر الهدهد ، وبما سمعناه من المنذر من الآيات الدالة على ذلك ، وَكُنَّا مُسْلِمِينَ منقادين لك من ذلك الوقت ، وكأنها ظنت أنه أراد عليه السّلام اختبار عقلها ، وإظهار المعجزة ، لتؤمن به ، فأظهرت أنها آمنت به قبل وصولها إليه. أو قال سليمان : وَأُوتِينَا الْعِلْمَ باللّه تعالى وبكمال قدرته من قبل هذه الآية ، وَكُنَّا مُسْلِمِينَ موحدين ، أو : وَأُوتِينَا الْعِلْمَ بإسلامها ومجيئها طائعة مِنْ قَبْلِها مجيئها ، وَكُنَّا مُسْلِمِينَ موحّدين.

وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، هو من كلام سليمان ، أي : وصدها عن العلم بما علمناه - أو :

عن التقدم إلى الإسلام – عبادة الشمس وإقامتها بين ظهرانيّ الكفرة ، أو : من كلام تعالى ، بيانا لما كان يمنعها من إظهار ما ادعته من الإسلام الآن ، أي : صدّها عن ذلك عبادتها القديمة للشمس ، إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ أي : كانت من قوم راسخين في الكفر ، ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها ، وهي بين ظهرانيهم ، حتى دخلت تحت ملكة سليمان عليه السّلام ، أو : وصدها اللّه تعالى ، أو : سليمان ، عما كانت تعبد من دون اللّه ، فحذف الجار وأوصل الفعل.

لَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ

أي : القصر ، أو : صحن الدار ، لَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً

: ماء عظيما ، كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها

. روى أن سليمان عليه السّلام أمر قبل قدومها ، فبنى له على طريقها قصر من زجاج

(١٩٨/٤)

أبيض ، وأجرى من تحته الماء ، وألقى فيه السمك وغيره ، ووضع سريره في صدره ، فجلس عليه ، وعكف عليه الطير والجن والإنس. وإنما فعل ليزيدها استعظاما لأمره ، وتحقيقا لنبوته. وقيل : إن الجن كرهوا أن يتزوجها ، فتفضى إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنّية. وقيل : خافوا أن يولد له منها ولد ، فيجتمع له فطنة الجن والإنس ، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك أشدّ منه ، فقالوا له : إن في عقلها شيئا ، وهي شعراء الساقين ، ورجلها كحافر الحمار ، فاحتبر عقلها بتنكير العرش ، واتخذ الصرح ليتعرف ساقيها ورجلها «١» فكشفت عنهما ، فإذا هي أحسن الناس ساقا وقدما ، إلا أنها شعراء ، وصرف بصره. ثم الَ

لها : نَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ

مملس مستو. ومنه :

الأمرد ، للذى لا شعر في وجهه ، نْ قَوارِيرَ

من الزجاج ، وأراد سليمان تزوجها ، فكره شعرها ، فعملت له الشياطين النورة ، فنكحها سليمان ، وأحبها ، وأقرها على ملكها ، وكان يزورها في الشهر مرة ، فيقيم عندها ثلاثة أيام ، وولدت له ، وانقضى ملكها بانقضاء ملك سليمان عليه السّلام ، فسبحان من لا انقضاء لملكه.

روى أنه ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة. هـ.

ثم ذكر إسلامها ، فقال : الَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

بعبادة الشمس ، أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ

تابعة له ، مقتدية به ، لِّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

. وفيه الالتفات إلى الاسم الجليل ، ووصفه بربوبيته للعالمين لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى ، وتفرده باستحقاق العبادة ، وربوبيته لجميع الموجودين ، التي من جملتها : ما كانت تعبد قبل ذلك من الشمس. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : عرش النفس الذي تستقر عليه هو الدنيا ، فمن أحب الدنيا وركن إلى أهلها ، فقد أجلس نفسه على عرشها ، وصيّرها مالكة له ، متصرفة فيه بما تحب ، ومن أبغض الدنيا وزهد فى أهلها ، فقد هدم لها عرشها ، وصارت خادمة مملوكة له ، يتصرف فيها كيف يشاء. فيقول الداعي إلى اللّه - وهو من أهّله اللّه للتربية - للمريدين :

أيكم يأتينى بعرشها ، ويخرج عنها للّه فى أول بدايته؟ فمنهم من يأتى بها بعد مدة ، ومنهم من يأتى بها أسرع من طرفة ، على قدر القوة والعزم والصدق فى الطلب ، ومن أتى بعرش نفسه ، وخرج عنها للّه ، فهو الذي آتاه اللّه علما

---

(١) الواضح أن سليمان ، عليه السّلام أراد ببناء الصرح : أن يريها عظمة ملكه وسلطانه ، وأن اللّه أعطاه من الملك ما لم يعطها ، فضلا عن النبوة ، التي هى فوق الملك ، وحاشا لسليمان - وهو الذي سأل اللّه أن يعطيه حكما ، يوافق حكمه ، فأوتيه ، أن يحتال لينظر إلى ساقيها ، وهى أجنبية. وما نقل من روايات إنما هو من الإسرائيليات المكذوبة ، لا يصح القول بها.

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : (٣/ ٣٦٦) معقبا على رواية لابن أبى شيبة ، فى هذا الشأن : والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما وجد فى صحفهم - كروايات كعب ووهب - سامحهما اللّه تعالى ، فيما نقلاه إلى هذه الأمة ، من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد ، والغرائب ، والعجائب ، مما كان ، ومما لم يكن ، ومما حرّف ، وبدل ، ونسخ ، وقد أغنانا اللّه سبحانه عن ذلك ، بما هو أصح منه وأنفع وأوضح ، وللّه الحمد والمنة.

(١٩٩/٤)

من الكتاب ، وعرف مدلوله ومقصوده ، لكن من السياسة أن يتدرج المريد فى تركها شيئا فشيئا ، حتى يخرج عنها ، أو يغيب عن شغلها بالكلية ، وإن كانت بيده. فلما خرجوا عن عرش نفوسهم للّه ، وتوجهوا إليه ، ورأى ذلك منهم ، قال : هذا من فضل ربى ، حيث وقعت الهداية على يدى ، ليبلونى ، أشكر أم أكفر .. الآية. قال نكّروا لها عرشها ، أي :

اعرضوا عليها الدنيا ، وأروها عرشها التي كانت عليه ، متغيرا عن حاله الأولى - لأنه كان معشوقا لها ، والآن صار ممقوتا لغناها باللّه - ننظر أتهتدي إليه ، وترجع إلى محبته ، فيكون علامة على عدم وصولها ، أم تكون من الذين لا يهتدون إليه أبدا ، فتكون قد تمكنت من الأنس باللّه ، فلما جاءت وأظهر لها عرشها اختبارا ، قيل : أهكذا عرشك؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم باللّه من قبل هذه الساعة ، وكنا منقادين لمراده ، فلن نرجع إلى ما خرجنا عنه للّه أبدا. وصدّها عن الحضرة ما كانت تعبد من الهوى ، من دون محبة اللّه ، إنها كانت من قوم كافرين ، منكرين للحضرة ، غير عارفين بها. قيل لها حين رحلت عن عرشها : ادخلى دار الحضرة ، فلما رأت بحر الوحدة ، يتموج بتيار الصفات ، دهشت ، وحسبته لجة ، يغرق صاحبه فى بحر الزندقة ، قال لها رئيس البحرية - وهو شيخ التربية : إنه بحر منزه متصل ، لا أول له ، ولا آخر له. ليس مثله شيء ، ولا معه شيء ، محيط بكل شيء ، وماح لكل شيء. ثم اعترفت أنها ظالمة لنفسها ، مشغولة بهواها ، قبل أن تعرف هواه ، فلما عرفته غابت عن غيره ، واستسلمت وانقادت له. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة صالح عليه السّلام فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)

قلت : (و لقد أرسلنا) : عطف على (و لقد آتينا داود ...) إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَاللّه لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ نسبا صالِحاً ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ أي : بأن اعبدوه وحده ، فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ أي : ففاجئوا التفرق والاختصام ، ففريق مؤمن به ،

وفريق كافر ، أو : يختصمون فيه ، فكل فريق يقول : الحق معي. وقد فسر هذا الاختصام قوله تعالى فى الأعراف :

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ، قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ «١». قالَ عليه السّلام للفريق الكافر ، بعد ما شاهد منهم ما شاهد من نهاية العتو والعناد ، حتى استعجلوا العذاب : يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ بالعقوبة السيئة قَبْلَ الْحَسَنَةِ أي : التوبة الصالحة ، فتؤخرونها إلى حين نزولها ،

حيث كانوا – من جهلهم وغوايتهم يقولون : إن وقع العذاب تبنا حينئذ ، وإلا فنحن على ما كنا عليه.
أو : لم تستعجلون بالعذاب قبل الرحمة ، أو : بالمعصية قبل الطاعة ، لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ : هلا تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والإيمان قبل نزوله ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ بالإجابة قبل النزول ، إذ لا قبول بعده ، قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ تشاء منا بك وَبِمَنْ مَعَكَ من المؤمنين لأنهم قحطوا عند مبعثه لكفرهم ، فنسبوه إلى مجيئه. والأصل : تطيرنا. وقرئ به ، فأدغمت التاء فى الطاء ، وزيدت ألف وصل ، للسكون.
قالَ صالح عليه السّلام : طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أي : سببكم الذي به ينالكم ما ينالكم من الخير والشر عند اللّه ، وهو قدره وقضاؤه ، أو : عملكم مكتوب عند اللّه ، فمنه نزل بكم ما نزل ، عقوبة لكم وفتنة.
ومنه : وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ «٢» أي : ألزمناه جزاء عمله ، أو : ما قدر له فى عنقه ، وأصله : أن المسافر كان إذا مرّ بطائر يزجره ، فإن مر إلى جهة اليمين تيمن ، وإن مر إلى ناحية الشمال تشاءم ، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر اللّه وقسمته ، أو : من عمل العبد الذي هو السبب فى الرحمة والنقمة ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ : تختبرون بتعاقب السراء والضراء ، أو : تعذبون ، أو : يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة. قال – عليه الصلاة والسلام – : «لا عدوى ولا طيرة» «٣» وقال أيضا : «إذا تطيرت فلا ترجع» «٤». واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : سير أهل التربية مع أهل زمانهم كسير الأنبياء مع أممهم ، إذا بعثهم اللّه إلى أهل زمانهم اختصموا فيهم ، ففريق يصدق وفريق يكذب ، فيطلبون الكرامة والبرهان ، ويتطيرون بهم وبمن تبعهم ، إن ظهرت بهم قهرية من عند اللّه ، كما رأينا ذلك كله. وباللّه التوفيق.

---

(١) الآيتان : ٧٥ – ٧٦ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ١٣ من سورة الإسراء.

(٣) أخرجه البخاري فى (الطب ، باب الطيرة ، ح ٥٧٥٣) ومسلم فى (السلام ، باب الطيرة والفأل ٤/ ١٧٤٧ ، ح ٢٢٢٥) من حديث عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه.

(٤) قال ابن حجر فى الفتح (١٠/ ٢١٤) : أخرج عبد الرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أمية عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ثلاثة لا يسلم منهن أحد :
الطيرة ، والظن ، والحسد ، فإذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وهذا مرسل أو معضل ، لكن له شاهد من حديث أبى هريرة ، أخرجه البيهقي فى الشعب. هـ.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠٢

ثم ذكر اهتمامهم بقتل صالح وهلاكهم ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٤٨ الى ٥٣]

وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢)

وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)

يقول الحق جل جلاله : وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ مدينة ثمود ، وهى الحجر ، تِسْعَةُ رَهْطٍ أي : أشخاص ، وهو جمع لا واحد له ، فلذا جاز تمييز التسعة به ، فكأنه قيل : تسعة أنفس ، وهو من الثلاثة إلى العشرة ، وكان رئيسهم «قدار بن سالف» وهم الذين سعوا فى عقر الناقة ، وكانوا أبناء أشرافهم ومن عتاتهم ، يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أي : فى المدينة ، إفسادا لا يخالطه شيء من الصلاح أصلا ، وَلا يُصْلِحُونَ يعنى : إن شأنهم الإفساد المحض ، الذي لا صلاح معه. وعن الحسن : يظلمون الناس ، ولا يمنعون الظالمين عن الظلم. وعن ابن عطاء : يتبعون معايب الناس ، ولا يسترون عوراتهم. قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ : استئناف لبيان بعض فسادهم. و(تقاسموا) : إما أمر مقول لقالوا ، أي : تحالفوا أمر بعضهم بعضا بالقسم على قتله. وإما خبر حال ، أي : قالوا متقاسمين. لَنُبَيِّتَنَّهُ : لنقتلنه بياتا ، أي : ليلا ، وَأَهْلَهُ : ولده ونساءه ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ أي : لوليّ دمه : ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ أي : ما حضرنا هلاكهم ، أو : وقت هلاكهم. أو : مكانه فضلا أن نتولى إهلاكهم ، وَإِنَّا لَصادِقُونَ فيما ذكرناه. وهو إما من تمام المقول ، أو : حال ، أي : نقول ما نقول والحال أنا صادقون فى ذلك لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفا. ولأنا ما شهدنا مهلك أهله وحده ، بل مهلكه ومهلككم جميعا ، كقولك : ما رأيت ثمّ رجلا ، أي : بل رجلين. ولعل تحرجهم من الكذب فى الأيمان مع كفرهم لما تعودوا من تعجيل العقوبة للكاذب فى القسامة ، كما كان أهل الشرك مع البيت الحرام فى الجاهلية. وكان تقاسمهم بعد أن أنذرهم بالعذاب ، وبعد قوله : تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ «١».

---

(١) من الآية ٦٥ من سورة هود. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠٣
قال تعالى : وَمَكَرُوا مَكْراً بهذه المواضع ، وَمَكَرْنا مَكْراً أهلكناهم إهلاكا غير معهود ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ أي : من حيث لا يحتسبون ، فمكرهم : هو ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السّلام وأهله.
ومكر اللّه : إهلاكهم من حيث لا يشعرون. فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أي : فتفكر فى أنه كيف كان عاقبة مكرهم. فسره بقوله : أَنَّا دَمَّرْناهُمْ : أهلكناهم بالصيحة وَقَوْمَهُمْ الذين لم يكونوا معهم فى التبييت أَجْمَعِينَ. روى أنه كان لصالح مسجد فى شعب يصلّى فيه. فقالوا : زعم صالح يفرع منا إلى ثلاث ، وقد رأى علامة ذلك ، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث ، فخرجوا إلى الشعب ، وقالوا : إذا جاء يصلى قتلناه ، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم ، فبعث اللّه تعالى صخرة من الهضب التي حيالهم «١» ، فبادروا ، فأطبقت الصخرة عليهم فم الشعب ، فلم يدر قومهم أين هم ، ولم يدروا ما فعل بقومهم ، وعذّب اللّه كلّا فى مكانه ونجى صالحا ومن معه.
وقال ابن عباس : أرسل اللّه الملائكة ليلا ، فامتلأت بهم دار صالح ، فأتى التسعة إلى دار صالح ، شاهرين السيوف ، فقتلتهم الملائكة بالحجارة يرون الحجارة ، ولا يرون راميا «٢» .. هـ. ويمكن الجمع بأن بعضهم مات تحت الصخرة ، وبعضهم أتى إلى دار صالح فقتل.
قال تعالى : فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً ساقطة متهدمة ، من : خوى النجم : إذا سقط. أو : خالية من السكان ، بِما ظَلَمُوا بسبب ظلمهم. إِنَّ فِي ذلِكَ أي : فيما ذكر من التدمير العجيب لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قدرتنا ، فيتعظون.
وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا أي : صالحا ومن معه من المؤمنين ، وَكانُوا يَتَّقُونَ الكفر والمعاصي ، اتقاء مستمرا ، ولذلك نجوا مع صالح. قال مقاتل : لما وقت لهم صالح العذاب إلى ثلاث ، خرج أول يوم على أبدانهم مثل الحمّص أحمر ، ثم اصفر من الغد ، ثم اسود من اليوم الثالث. ثم تفقأت ، وصاح جبريل فى خلال ذلك ، فخمدوا ، وكانت القرية المؤمنة الناجية أربعة آلاف ، خرج بهم صالح إلى حضرموت ، فلما دخلها مات صالح ، فسميت حضرموت. هـ. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : وكان فى مدينة القلب تسع علل ، يفسدون فيها ولا يصلحون ، وهى حب الدنيا ، وحب الرئاسة ، والحسد. والكبر ، والحقد ، والعجب ، والرياء ، والمداهنة ، والبخل ، هم أفسدوا قلوب الناس ، وتقاسموا على هلاكها ، ومكروا بهم حتى زيّنوا لهم سوء عملهم ، ومكر اللّه بهم ، فدفعهم ودمّرهم عن قلوب الصالحين ، فتلك بيوتهم خاوية منها ، أخرجهم منها ، بسبب ظلمهم لها.

---

(١) حياله : إزاءه.

(٢) انظر تفسير البغوي (٦/ ١٧٠).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠٤

وقال القشيري على قوله : وَمَكَرُوا مَكْراً ... الآية : مكر اللّه : جزاؤهم على مكرهم ، بإخفاء ما أراد منهم من العقوبة ، ثم إحلالها بهم بغتة. هـ. وقال الورتجبي : حقيقة المكر : امتناع سر الأزلية عن مطالعة الخليقة ، فإذا كان كذلك من ينجو من مكره ، والحدث لا يطلع على سوابق علمه فى القدم ، فمكره وقهره صفتان من صفاته ، لا تفارقان ذاته ، وذاته أبدية ، انظر تمامه. قلت : ومعنى كلامه : أن مكر اللّه فى الجملة : هو إخفاء السر الأزلى - وهو القضاء والقدر - عن مطالعة الخلق ، فلا يدرى أحد ما سبق له فى العلم القديم ، وإذا كان كذلك فلا ينجوا أحد من مكره إذ الحدث لا يطلع على سوابق العلم القديم ، إلا من اطلع عليه بوحي ، كالأنبياء ، أو بنص صريح منهم ، كالمبشرين بالجنة ، ومع ذلك : العارف لا يقف مع وعد ولا وعيد إذ قد يتوقف على شرط وأسباب خفية ، ولذلك قيل : العارف لا يسكن إلى اللّه. قاله فى لطائف المنن ، أىّ : لا يسكن إلى وعد اللّه ولا وعيده ، فلا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير اللّه قراره.

وقال القشيري - على قوله : فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً .. ، فى الخبر : «لو كان الظلم بيتا فى الجنة لسلط اللّه عليه الخراب». هـ. قلت : فكل من اشتغل بظلم العباد ، فعن قريب ترى دياره بلاقع «١» ، كما هو مجرب. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة لوط - عليه السّلام - فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٥٤ الى ٥٨]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨)

قلت : (و لوطا) : عطف على (صالحا) داخل معه فى القسم ، أي : ولقد أرسلنا صالحا ولوطا. و(إذ قال) : ظرف للإرسال ، أو : منصوب باذكر ، و(إذ قال) : بدل من (لوط).

---

(١) البلقع : الأرض القفر ، التي لا شىء فيها ، والخالي من البرية. انظر اللسان (١/ ٣٤٨ ، مادة : بلقع).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠٥

يقول الحق جل جلاله : وَلقد أرسلنا لُوطاً ، أو : واذكر لوطا إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أي : وقت قوله لهم : أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ أي : الفعلة المتناهية فى الفحش والسماجة ، وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أي : والحالة أنكم تعلمون علما يقينيا أنها فاحشة ، لم تسبقوا إليها. والجملة الحالية تفيد تأكيد الإنكار ، فإنّ تعاطى القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع ، ولذلك ورد فى الخبر : «أشدّ الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه اللّه بعلمه» «١». وقال الفخر :

لا تصدر المعصية من العالم قط وهو عالم ، وحين صدورها منه هو جاهل لأنه رجح المرجوح ، وترجيح المرجوح جهل ، ولذلك قال : بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. هـ. وفى الحديث : «لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن» «٢». إذ لو صدّق باطلاع الحق عليه ما قدر على الزنى ، لكنه جهل ذلك. وتُبْصِرُونَ ، من : بصر القلب. وقيل : يبصر بعضكم بعضا لأنهم كانوا يرتكبونها فى ناديهم ، معلنين بها ، لا يستتر بعضهم من بعض ، مجانة وانهماكا فى المعصية ، أو : تبصرون آثار العصاة قبلكم ، وما نزل بهم.

أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً أي : للشهوة مِنْ دُونِ النِّساءِ أي : إن اللّه تعالى إنما خلق الأنثى للذكر ، ولم يخلق الذكر للذكر ، ولا الأنثى للأنثى ، فهى مضادة للّه تعالى فى حكمته ، فلذلك كانت أشنع المعاصي ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ تفعلون فعل الجاهلين بقبحها ، أو : تجهلون العاقبة. أو : بمعنى السفاهة والمجون ، أي : بل أنتم سفهاء ماجنون. والتاء فيه - مع كونه صفة لقوم لكونهم فى حيز الخطاب. وكذا قوله : بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ «٣» ، غلّب الخطاب على الغيبة. قال ابن عرفة : «بل» : للانتقال ، والانتقال فى باب الذم إنما يكون عن أمر خفيف إلى ما هو أشد منه ، وتقرير الأشدّية هنا : أن المضروب عنه راجع للقوة الحسية العملية ، وهى منقطعة تنقضى بانقضاء ذلك الفعل ، والثاني راجع للقوة العلمية ، وهى دائمة لأن العلم بالشيء دائم ، والعمل به منقطع غير دائم. هـ.

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ حين نهاهم عن تلك الفاحشة ودعاهم إلى اللّه ، إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ أي : لوطا ومتبعيه مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ يتنزهون عن أفعالنا ، أو : عن القاذورات ، ويعدون فعلنا قذرا. وعن ابن عباس : إنه استهزاء ، كقوله : إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ «٤».

---

(١) رواه الطبراني فى المعجم الصغير (١/ ١٨٢ - ١٨٣) والبيهقي فى الشعب (ح ٧٧٧٨) ، من حديث أبى هريرة - رضي اللّه عنه. والحديث ضعّفه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ١٠٥٣).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري فى (المظالم ، باب النّهبى بغير إذن صاحبها ، ح ٢٤٧٥) ومسلم فى (الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ١/ ٧٦ ح ١٠٠) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) من الآية ٤٧ من سورة النمل.

(٤) الآية ٨٧ من سورة هود.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠٦
فَأَنْجَيْناهُ : فخلّصناه من العذاب الواقع بالقوم ، وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها بالتشديد والتخفيف ، أي : قدرنا أنها مِنَ الْغابِرِينَ الباقين فى العذاب. وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً غير معهود حجارة مكتوب عليها اسم صاحبها ، فَساءَ : قبح مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ الذين لم يقبلوا الإنذار. وقد مرّ كيفية ما جرى بهم غير مرة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما أنكر لوط على قومه إلا غلبة الشهوة على قلوبهم ، والانهماك فى غفلتهم ، فرجعت إلى معصية القلوب ، وهى أشد من معصية الجوارح لأن معصية الجوارح إذا صحبتها التوبة والانكسار ، عادت طاعة ، بخلاف معصية القلوب فإنها تنطمس بها أنوار الغيوب ، فلا يزيد صاحبها إلا البعد والطرد ، والعياذ باللّه.

ثم أمر رسوله محمدا صلى اللّه عليه وسلم بالتحميد ، ثم بالسلام على عباده المرسلين توطئة لما يتلوه من الدلالة على وحدانيته تعالى ، وقدرته على كل شيء ، وهو تعليم لكل متكلم فى كل أمر ذى بال ، بأن يبتدئ فى خطبته بحمد اللّه ، والثناء على رسله ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٥٩ الى ٦٠]

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)

يقول الحق جل جلاله لنبيه - عليه الصلاة والسلام - : قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ على ما أنعم به عليك من فنون النعم ، ومن جملتها : اطلاعك على أسرار علم غيوبه ، وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى لرسالته. وقال ابن عباس وسفيان : هم أصحاب محمد صلى اللّه عليه وسلم ، اصطفاهم بصحبته - عليه الصلاة والسلام - وقال الكلبي : هم أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، اصطفاهم اللّه لمعرفته وطاعته. ثم قل لهم إلزاما للحجة : آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ «١» أي : آللّه الذي ذكرت شئونه العظيمة خير ، أم ما تشركونه معه تعالى من الأصنام؟ ومرجع الترديد إلى التعرض بتبكيت الكفرة ، وتسفيه آرائهم الركيكة ، والتهكم بهم إذ من البيّن أن ليس فيما أشركوه به تعالى شائبة خير ، حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من لا خير إلا خيره ، ولا إله غيره.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأها قال : «بل اللّه خير ، وأبقى ، وأجلّ ، وأكرم» «٢».

---

(١) قرأ عاصم ، وأبو عمرو ، ويعقوب : «يشركون» بالياء. وقرأ الباقون : «تشركون» بالخطاب ...

انظر الإتحاف (٢/ ٣٣٢).

(٢) قال الحافظ ابن حجر : كذا ذكره الثعلبي بغير إسناد. انظر الكافي الشاف على هامش الكشاف (٣/ ٣٧٥).

(٢٠٦/٤)

ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع ، الدالة على انفراده بالخيرية ، فقال : أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، «أم» هنا : منقطعة ، بخلاف أَمَّا يُشْرِكُونَ أي : بل أمّن خلق العالم العلوي والسفلى ، وأفاض من كل واحد ما يليق به من الخيرات ، خير ، أم جماد لا يقدر على شى ء؟ فمن : مبتدأ ، وخبرها : محذوف مع «أم» المعادلة للهمزة ، كما قررنا.

وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً. مطرا فَأَنْبَتْنا ، التفت من الغيبة إلى التكلم تأكيدا لمعنى اختصاص الفعل به تعالى ، وإيذانا بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان ، والطعوم والأشكال ، مع بهجتها ، بماء واحد ، لا يقدر عليه غيره ، أي : فأخرجنا بِهِ حَدائِقَ : بساتين ، فالحديقة : بستان عليه حائط ، من : الإحداق ، وهو الإحاطة ، ذاتَ بَهْجَةٍ أي : ذات حسن ورونق ، تبتهج به النظار ، ولم يقل : ذوات لأن المعنى : جماعة حدائق ، كما تقول : النساء ذهبت. ما كانَ لَكُمْ ما صح وما أمكن لكم أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها فضلا عن ثمارها وسائر صفاتها البديعة المبهجة ، أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ؟ أي : أإله كائن مع اللّه ، الذي ذكرت أفعاله ، التي لا يقدر عليها غيره ، حتى يتوهم جعله شريكا له تعالى فى العبادة؟ أو : أإله مع اللّه يفعل ذلك؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ :

بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية ، والانحراف عن الاستقامة فى كل أمر من الأمور ، فلذلك يفعلون ما يفعلون من الإشراك والجرائم ، أو : يعدلون به غيره فيشركونه معه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قل الحمد للّه ، الذي كشف الحجب عن قلوب أوليائه ، وسلام على عباده الذين اصطفاهم لحضرته ، آللّه خير ، أي : أشهود اللّه وحده فى الوجود خير ، أم شهود الغير معه؟ ، فتشركون فى توحيدكم. أمن خلق سموات أرواحكم ، وهيأها لشهود الربوبية ، وخلق أرض نفوسكم ، وهيأها لآداب العبودية ، وأنزل لكم من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية ، فأنبتنا به فى قلوب العارفين بساتين المعرفة ، ذات بهجة ونزهة؟ ما كان لكم ، وفى طوقكم ، أن تنبتوا فى قلوبكم شجر المعرفة ، ولا ثمار المحبة ، أإله مع اللّه يمنّ عليكم بذلك؟ ، بل هم قوم يعدلون عن طريق الوصول إلى هذه البساتين البهية لأنها محفوفة بالمكاره النفسية ، لا يقدر على سلوكها إلا الشجعان ، أهل الهمم العلية. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر نوعا آخر من دلائل توحيده ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦١]

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١)

(٢٠٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠٨

يقول الحق جل جلاله : أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً أي : قارة ثابتة ، ليستقر عليها الإنسان والدواب ، بإظهار بعضها من الماء ، ودحوها وتسويتها ، حسبما يدور عليه منافعهم. وَجَعَلَ خِلالَها أواسطها أَنْهاراً جارية ينتفعون بها ، وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ أي : جبالا ثوابت ، تمنعها أن تميد بأهلها ، ولتتكون فيها المعادن ، وينبع من حضيضها المنابع. وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ أي : العذب والمالح ، أو : خليجى فارس والروم حاجِزاً برزخا مانعا من المعارجة والمخالطة ، أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ فى الوجود ، أو : فى إبداع هذه البدائع؟

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شيئا من الأشياء ، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره.

الإشارة : أم من جعل أرض النفوس قرارا ، لتستقر عليها أحكام العبودية ، وتتصرف فيها أقدار الربوبية ، وجعل خلالها أنهارا من علوم الشرائع ، وما يتعلق بعالم الحكمة من الحكم والأحكام ، وجعل لها جبالا من العقل لتعرف صانعها ومدبرها ، وجعل بين بحر الحقيقة والشريعة حاجزا وبرزخا ، وهو نور العقل؟ فما دام العقل صاحيا ميّز بين الحقيقة والشريعة ، فيلزمه التكليف ، ويعطى كل ذى حق حقه. فإذا سكر وغاب نوره سقط التكليف. وقد تشرق على نور قمر العقل شمس العرفان ، فتغطيه مع وجود صحوه ، فيميز بين الحقائق والشرائع ، وتكون عباداته أدبا وشكرا.

وباللّه التوفيق.

ثم ذكر نوعا آخر ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦٢]

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (٦٢)

قلت : الاضطرار : الافتعال من الضرورة ، وهى الحاجة المحوجة إلى اللجأ ، يقال : اضطره إلى كذا ، واسم الفاعل والمفعول : مضطر ، ويختلف التقدير.

يقول الحق جل جلاله : أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ ، وهو من نزلت به شدة من شدائد الزمان ، ألجأته إلى الدعاء والتضرع ، كمرض ، أو فقر ، أو نازلة من نوازل الدهر ونوائبه ، أو : المذنب إذا استغفر مبتهلا ، أو :
المظلوم إذا دعا ، أو : من رفع يديه ، ولم ير لنفسه حسنة يرجو بها القبول غير التوحيد ، وهو منه على خطر ، فهذه أنواع المضطر. وإجابة دعوته مقيدة بالحديث : «الدّاعى على ثلاث مراتب ، إما أن يعجل له ما طلب ، وإما أن

(٢٠٨/٤)

يدخر له أفضل منه ، وإما أن يدفع عنه من السوء مثله» «١». وأيضا : إذا حصل الاضطرار الحقيقي حصلت الإجابة قطعا ، إما بعين المطلوب ، أو بما هو أتم منه ، وهو الرضا والتأييد. وَيَكْشِفُ السُّوءَ وهو الذي يعترى الإنسان مما يسوؤه ، كضرر أو جور ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أي : خلفاء فيها ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، بالسكنى وغيره ، وراثة عمن كان قبلكم من الأمم ، قرنا بعد قرن. أو : أراد بالخلافة : الملك والتسلط. أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ الذي يفيض على الخلق هذه النعم الجسام ، يمكن أن يعطيكم مثلها؟ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ «٢» أي : تذكرا قليلا ، أو :
زمانا قليلا تتذكرون فيه. و«ما» : مزيدة ، لتأكيد معنى القلة ، التي أريد بها العدم ، أو : ما يجرى مجراه فى الحقارة وعدم الجدوى. وتذييل الكلام بنفي عدم التذكر منهم إيذان بأن وجود التذكر مركوز فى ذهن كل ذكى ، وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : الاضطرار الحقيقي الذي لا تتخلف الإجابة عنه فى الغالب : هو أن يكون العبد فى حال شدته كالغريق فى البحر وحده ، لا يرى لغياثه غير سيده. وقال ذو النون : هو الذي قطع العلائق عما دون اللّه. وقال سهل بن عبد اللّه : هو الذي رفع يديه إلى اللّه تعالى داعيا ، ولم تكن له وسيلة من طاعة قدّمها. هـ. بل يقدم إساءته بين يديه ، ليكون دعاؤه بلا شىء يستحق عليه الإجابة ، إلا من محض الكرم.
قال القشيري : يقال للجناية : سراية ، فمن كان فى الجناية مختارا ، فليس يسلم له دعوى الاضطرار عند سراية جرمه الذي سلف ، وهو فى ذلك مختار ، فأكثر الناس أنهم مضطرون ، وذلك
الاضطرار سراية ما برز منهم فى حال اختيارهم ، ومادام العبد يتوهم من نفسه شيئا من الحول والحيل ، ويرى لنفسه شيئا من الأسباب يعتمد عليه ، ويستند إليه ، فليس بمضطر ، إلا أن يرى نفسه كالغريق فى البحر ، والضّالّ فى المتاهة. والمضطر يرى غياثه بيد سيّده ، وزمامه فى قبضته ، كالميت فى يد غاسله

، ولا يرى لنفسه استحقاقا فى أن يجاب ، بل اعتقاده فى نفسه أنه من أهل السخط ، ولا يقرأ اسمه فى ديوان السعادة ، ولا ينبغى للمضطر أن يستعين بأحد فى أن يدعو له لأن اللّه وعد الإجابة له لا من يدعو له. هـ. وبحث معه المحشى الفاسى فى بعض ألفاظه ، فانظره.

قوله تعالى : وَيَكْشِفُ السُّوءَ. أي : ما يسوء القلب ويحجبه عن مولاه ، من أكدار وأغيار ، وقوله : (و يجعلكم خلفاء الأرض) أي : تتصرفون فى الوجود بأسره ، بهمتكم ، إن زال غم الحجاب عنكم ، وشاهدتم ربكم بعين

---

(١) جاء بلفظ : «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ، ولا قطيعة رحم ، إلا أعطاه اللّه بها إحدى ثلاث إما أن يجعل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها ..» الحديث ، أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ١٨) والحاكم (١/ ٤٩٣) وصححه ، ووافقه الذهبي ، والبزار (كشف الأستار ، ح ٣١٤٣ ، ٣١٤٤) من حديث أبى سعيد الخدري رضي اللّه عنه.

(٢) قرأ حفص ، وحمزة ، والكسائي «تذكرون» بتخفيف الذال. انظر الإتحاف (٢/ ٣٣٢).

(٤/٢٠٩)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢١٠

بصيرتكم وبصركم لأن نور البصيرة إذا استولى على البصر ، بعد فتح البصيرة ، غطى نوره ، فلا يرى البصر إلا ما تراه البصيرة من أسرار الذات الأزلية القديمة. فمن بلغ هذا المقام كان خليفة اللّه فى أرضه ، يملكه الوجود بأسره ، وما ذلك على اللّه بعزيز.

ثم ذكر نوعا آخر من دلائل توحيده ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦٣]

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)

يقول الحق جل جلاله : أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ليلا ، وبعلامات فى الأرض نهارا؟.

أو : أمّن يهديكم إلى سلوك الطريق التي توصلكم إلى مقصدكم ، وأنتم فى ظلمات الليل ، سواء كنتم فى البر أو البحر؟ فلا هادى إلى ذلك إلا اللّه تعالى. وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ ، أو بالإفراد. نَشْراً «١» بالنون - أي : تنشر السحاب إلى الموضع الذي أمر اللّه بإنزال المطر فيه ، أو بُشْراً - بالباء - أي : مبشرة بالمطر ، بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ قدّام المطر ، علامة عليه ، أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ يفعل ذلك؟ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار للإشعار بعلّية الحكم ، أي : تعالى اللّه وتنزّه بذاته المنفردة

بالألوهية ، المقتضية لكون كل المخلوقات مقهورا تحت قدرته ، عن وجود ما يشركونه به تعالى.

الإشارة : أمّن يهديكم إلى حل ما أشكل عليكم ، وأظلمت منه قلوبكم ، من علم بر الشرائع. وبحر الحقائق ، فيهديكم فى الأول إلى كشف الحق والصواب ، وفى الثاني إلى كشف الغطاء ورفع الحجاب ، أو : فى الأول إلى علم البيان ، وفى الثاني إلى عين العيان بالذوق والوجدان. أو : فى الأول إلى علم اليقين ، وفى الثاني إلى عين اليقين وحق اليقين. ومن يرسل رياح الواردات الإلهية ، بشارة بين يدى رحمته بالوصول إلى حضرته ، وهو التوحيد الخاص. ولذلك ختمه بقوله : تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ من رؤية وجود السّوى.

---

(١) قرأ عاصم «الرياح» بالجمع و«بشرا» بالباء المضمومة مع إسكان الشين ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، ويعقوب ، بالجمع ، و«نشرا» بضم النون والشين. وقرأ ابن كثير بإفراد الريح ، وضم النون والشين من «نشرا». راجع الإتحاف (٢/ ٣٣٢).

ثم ذكر نوعا آخر ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٦٤ الى ٦٥]

أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٦٤) قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)

قلت : «من» إما فاعل بيعلم ، و«الغيب» : بدل منه ، و«اللّه» : مفعول ، و«إلا اللّه» : بدل ، على لغة تميم ، أي : إبدال المنقطع ، وإما مفعول بيعلم ، و«الغيب» بدل منه و(اللّه) : فاعل ، والاستثناء : مفرغ.

يقول الحق جل جلاله : أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ أي : ينشىء الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ بعد الموت بالبعث. وإنما قيل لهم : ثُمَّ يُعِيدُهُ وهم منكرون للإعادة لأنهم أزيحت شبهتهم بالتمكن من المعرفة ، والإقرار ، فلم يبق لهم عذر فى الإنكار. وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ بالمطر وَالْأَرْضِ أي : ومن الأرض بالنبات ، أي : يرزقكم بأسباب سماوية وأرضية ، قد رتبها على ترتيب بديع ، تقضيه الحكمة التي عليها بنى أمر التكوين ، أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ يفعل بذلك؟ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ أي : حجتكم ، عقلية أو نقلية ، على إشراككم ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى دعواكم أن مع اللّه إلها آخر.

قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، بعد ما حقق سبحانه انفراده بالألوهية ، ببيان

اختصاصه بالقدرة الكاملة والرحمة الشاملة ، عقّب بذكر ما هو من لوازمه ، وهو اختصاصه بعلم الغيب ، تكميلا لما قبله ، وتمهيدا لما بعده من أمر البعث. قالت عائشة - رضى اللّه عنها - : (من زعم أنّه يعلم ما فى غد ، فقد أعظم على اللّه الفرية ، واللّه تعالى يقول : قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ.

دخل على الحجاج منجّم ، فأخذ الحجاج حصيات ، قد عدّها ، فقال للمنجّم : كم فى يدى؟ فحسب ، فأصاب ، ثم اغتفله الحجاج ، فأخذ حصيات لم يعدها ، فقال للمنجم : كم فى يدى؟ فحسب ، فأخطأ ، فقال : أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها فى يدك ، فقال : ما الفرق بينهما؟ فقال : إن ذلك أحصيته فخرج من حد الغيب ، فحسبت فأصبت ، وإن هذا لم تعرف عدته ، فصار غيبا ، ولا يعلم الغيب إلا اللّه تعالى.

ومن جملة الغيب : قيام الساعة ، ولذلك قال : وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ أي : متى ينتشرون من القبور ، مع كونه مما لا بد لهم منه ، ومن أهم الأمور عندهم. واللّه تعالى أعلم.

(٢١١/٤)

الإشارة : الرزق ثلاثة : رزق الأشباح ، ورزق القلوب ، ورزق الأرواح ، فرزق الأشباح معلوم ، ورزق القلوب :

اليقين والطمأنينة ، ورزق الأرواح : المشاهدة والمكالمة. قل من يرزق قلوبكم وأرواحكم من سماء غيب القدرة وأرض الحكمة؟ فلا رازق سواه ، ولا برهان على وجود ما سواه ، ولا يعلم الغيب إلا اللّه.

أو : من كان وجوده باللّه قد غاب فى نور اللّه ، فشهد الغيب باللّه. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا نفى عنهم علم الغيب ، والشعور بمآلهم ، أضرب عنه ، وبيّن أن ما تناهى فيه أسباب العلم به ، وهو مجىء القيامة ، لم يحصل لهم به يقين ، فضلا عن غيره ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٦٦ الى ٦٨]

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (٦٦) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)

قلت : قرأ الجمهور : «ادّارك» بالمد ، وأصله : تدارك ، فأدغمت التاء فى الدال ، ودخلت همزة وصل. وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر : «ادّرك» ، وأصله : افتعل ، بمعنى تفاعل. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : «أدرك» أفعل.

يقول الحق جل جلاله : بَلِ ادَّارَكَ أي : تدارك وتناهى وتتابع أسباب عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أي :

بالآخرة ، أو : فى شأنها ، بما ذكرنا لهم من البراهين القطعية ، والحجج العقلية ، على كمال قدرتنا. ومع ذلك لم يحصل لهم بها يقين ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها ، والمعنى : أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة لا ريب فيها قد حصلت لهم ، ومكّنوا من معرفته ، بما تتابع لهم من الدلائل. ومع ذلك لم يحصل لهم شىء من علمها ، بل شكّوا. أو : أدرك علمهم ، بمعنى : يدركهم فى الآخرة حين يرون الأمر عيانا ، ولا ينفعهم ذلك. قاله ابن عباس وغيره. بَلْ هُمْ اليوم فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ لا يبصرون دلائلها ، ولا يلتفتون إلى العمل لها.

والإضرابات الثلاثة تنزيل لأحوالهم ، وتأكيد لجهلهم. وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون بوقت البعث ، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة مع تتابع أسباب علمها ، ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية ، ثم بما هو أسوأ حالا ، وهو العمى ، وجعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه ، فلذا عداه ب «من» دون «عن» لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي منعهم عن التفكر والتدبر.

ووجه اتصال مضمون هذه الآية - وهو وصف المشركين - بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة بما قبله ، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب ، وأن العباد لا علم لهم بشىء بذلك : هو أنه لما ذكر أن

العباد لا يعلمون الغيب ، وكان هذا بيانا لعجزهم ، ووصفا لقصور علمهم ، وصل به أن عندهم عجزا أبلغ منه ، وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بد من كونه - وهو وقت بعثهم ، ومجازاتهم على أعمالهم : لا يكون ، مع أن عندهم أسباب معرفة كونه ، لا محالة. هـ. قاله النسفي.

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ أي : أنخرج من القبور أحياء إذا صرنا ترابا وآباؤنا. وتكرير الاستفهام فى «أئذا» و«أإنا» فى قراءة عاصم ، وحمزة وخلف ، إنكار بعد انكار ، وجحود بعد جحود ، ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه. والعامل فى (إذا) : ما دلّ عليه لَمُخْرَجُونَ وهو : نخرج ، لا مخرجون ، لموانع كثيرة. والضمير فى «أإنا» لهم ولآبائهم.

لَقَدْ وُعِدْنا هذا البعث نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْلُ من قبل محمد صلى اللّه عليه وسلم ، قدّم هنا «هذا» على «نحن» وفى المؤمنون «١» قدّم «نحن» ليدل هنا أن المقصود بالذكر هو البعث وثمّ المبعوث لأن هنا تكررت أدلة البعث قبل هذا القول كثيرا ، فاعتنى به ، بخلاف «ثم». ثم قالوا : إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ : ما هذا إلا أحاديثهم وأكاذيبهم. وقد كذبوا ، ورب الكعبة.

الإشارة : العلم بالآخرة يقوى بقوة العلم باللّه ، فكلما قوى اليقين فى جانب اللّه قوى اليقين فى جانب

ما وعد اللّه به من الأمور الغيبية ، فأهل العلم باللّه الحقيقي أمور الآخرة عندهم نصب أعينهم ، واقعة فى نظرهم لقوة يقينهم. وانظر إلى قول حارثة رضي اللّهعنه حين قال له النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ما حقيقة إيمانك؟» فقال : يا رسول اللّه عزفت الدنيا من قلبى ، فاستوى عندى ذهبها ومدرها. ثم قال : وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وأهل النار يتعاوون فيها ، فقال له صلى اللّه عليه وسلم : «قد عرفت فالزم ، عبد نوّر اللّه قلبه». اللهم نوّر قلوبنا بأنوار معرفتك الكاملة ، حتى نلقاك على عين اليقين وحق اليقين. آمين.

ثم أمرهم بالاعتبار بمن قبلهم ، فقال :

قُلْ سِيرُوا ...

---

(١) فى قوله تعالى ، حكاية لقول الذين لا يؤمنون بالآخرة : لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ .. الآية ٨٣.

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٦٩ الى ٧٠]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ بسبب تكذيبهم للرسل - عليهم السلام - فيما دعوهم إليه من الإيمان باللّه - عز وجل - وحده ، واليوم الآخر ، الذي ينكرونه ، فإن فى مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لأولى البصائر. وفى التعبير عن المكذبين بالمجرمين ، لطف بالمسلمين ، بترك الجرائم ، وحث لهم على الفرار منها ، كقوله : فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ «١» ومِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا «٢».

ثم قال لنبيه صلى اللّه عليه وسلم : وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أي : لأجل أنهم لم يتبعوك ، ولم يسلموا فيسلموا. وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ فى حرج صدر مِمَّا يَمْكُرُونَ من مكرهم وكيدهم ، أي : فإن اللّه يعصمك من الناس. يقال : ضاق ضيقا - بالفتح والكسر.

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٧١ الى ٧٣]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣)

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ أي : وعد العذاب التي تعدنا ، إن كنت من الصادقين فى إخبارك بإتيانه على من كذّب. والجملة باعتبار شركة المؤمنين فى الإخبار بذلك. قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ أي : تبعكم ولحقكم. استعجلوا العذاب ، فقيل لهم : عسى أن يكون ردف ، أي : قرب لكم بعضه. وهو عذاب يوم بدر ، واللام زائدة للتأكيد. أو : ضمّن الفعل معنى يتعدّى باللام ، نحو : دنا لكم ، أو : أزف لكم. وعسى ولعل وسوف ، فى وعد الملوك ووعيدهم ، يدل على صدق الأمر ، وجدّه ، وعلى ذلك جرى وعد اللّه ، ووعيده.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ أي : إفضال وإنعام على كافة الناس. ومن جملة إنعامه : تأخير العقوبة عن هؤلاء ، بعد استعجالهم لها ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ أي : أكثرهم لا يعرفون حق النعمة ، ولا يشكرونها ، فيستعجلون بجهلهم وقوع العذاب ، كدأب هؤلاء. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : التفكر والاعتبار من أفضل عبادة الأبرار ، ساعة منه أفضل من عبادة سبعين سنة. ومن أجلّ ما يتفكر فيه الإنسان : ما جرى على أهل الغفلة والبطالة والعصيان ، من تجرع كأس الحمام ، قبل النزوع والإقلاع عن الإجرام ، فندموا حيث لم ينفع الندم ، وقد زلّت بهم القدم ، فلا ما كانوا أمّلوا أدركوا ، ولا إلى ما فاتهم من الأعمال الصالحات رجعوا. فليعتبر الإنسان بحالتهم ، لئلا يجرى عليه ما جرى عليهم ، وليبادر بالتوبة إلى ربه ، وليشديده على أوقات عمره ، قبل أن تنقضى فى البطالة والتقصير ، فيمضى عمره سبهللا. وللّه در القائل :

---

(١) من الآية ١٤ من سورة الشمس. [.....]

(٢) من الآية ٢٥ من سورة نوح.

السّباق السّباق قولا وفعلا حذّر النّفس حسرة المسبوق

قال أبو على الدقاق رضي اللّه عنه : رؤى بعضهم مجتهدا ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ومن أولى منى بالجهد ، وأنا أطمع أن ألحق الأبرار الكبار من السلف. هـ. ويقال للواعظ أو للعارف ، إذا رأى إدبار الناس عن اللّه ، وإقبالهم على الهوى :

وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ .. الآية.

ثم ذكر سعة علمه وحلمه ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٧٤ الى ٧٥]

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (٧٤) وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٧٥)

قول الحق جل جلاله : وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ أي : تخفى صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ أي : يظهرون من القول. وليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم عليه ، ولكن له وقت مقدر ، فيمهلهم إليه. أو : إن ربك ليعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوتك ومكايدهم لك ، وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه ، وقرئ بفتح [التاء] «١» ، من : كننت الشيء : سترته.

وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ أي : من خافية فيهما إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ فى اللوح المحفوظ. يسمى الشيء الذي يخفى ويغيب غائبة وخافية. والتاء فيهما كالتاء فى العاقبة والعافية. ونظائرهما ، وهى أسماء غير صفات. ويجوز أن يكونا صفتين ، وتاؤهما للمبالغة ، كالرواية. كأنه قال : وما من شىء شديد الغيوبة إلا وقد علمه اللّه ، وأحاط به ، وأثبته فى اللوح المحفوظ. ومن جملة ذلك : تعجيل عقوبتهم ، ولكن لكل شىء أجل معلوم ، لا يتأخر عنه ولا يتقدم. ولو لا ذلك لعجّل لهم ما استعجلوه. والمبين : الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة. أو :
مبين لما فيه من تفاصيل المقدورات. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى الآية حث على مراقبة العبد لمولاه ، فى سره وعلانيته ، فلا يفعل ما يخل بالأدب مع العليم الخبير ، ولا يجول بقلبه فيما يستحيى أن يظهره لغيره ، إلا أن يكون خاطرا مارا ، لا ثبات له ، فلا قدرة للعبد على دفعه. وباللّه التوفيق.

---

(١) فى الأصول [الكاف]. قلت : قرأ الجمهور (ما تكن) بضم التاء من : أكن الشيء : أخفاه. وقرأ ابن محيصن وحميد : بفتح التاء وضم الكاف ، من : كن الشيء : ستره. انظر الإتحاف (٢/ ٣٣٤) والبحر المحيط (٧/ ٩٠).

ثم مدح كتابه المشتمل على جلّ العلوم الغيبية ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٧٦ الى ٨١]

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠)

وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ يبين لهم أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من أمر الدين الذي اشتبه عليهم. ومن جملة ما اختلفوا فيه : المسيح ، وتحزّبوا فيه أحزابا ، وركبوا متن العند والغلو فى الإفراط والتفريط ، ووقع بينهم المناكرة فى أشياء ، حتى لعن بعضهم بعضا. وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه ، لو أنصفوا وأخذوا به ، وأسلموا. يريد اليهود والنصارى ، وإن كانت الآية خاصة باليهود. وَإِنَّهُ - أي : القرآن لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ على الإطلاق ، فيدخل فيهم من آمن من بنى إسرائيل دخولا أوليا.
إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ أي : بين بنى إسرائيل ، أو : بين من آمن بالقرآن ومن كفر به ، بِحُكْمِهِ أي : بعدله لأنه لا يحكم إلا بالعدل ، فسمى المحكوم به حكما. أو : بحكمته ، ويدل عليه قراءة من قرأ «بحكمه» : جمع :
حكمة «١» لأن أحكامه تعالى كلها حكم بديعة. وَهُوَ الْعَزِيزُ ، فلا يردّ حكمه وقضاؤه ، الْعَلِيمُ بجميع الأشياء ، ومن جملتها : من يقضى له ومن يقضى عليه. أو : العزيز فى انتقامه من المبطلين ، العليم بالفصل بين المختلفين.
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، الفاء لترتيب ما قبله من ذكر شئونه - عز وجل - فإنها موجبة للتوكل عليه ، داعية إلى الأمر به ، أي : فتوكل على اللّه الذي هذا شأنه. وهذه أوصافه ، فإنه موجب لكل أحد أن يتوكل عليه ، ويفوض جميع أموره إليه. أو : فتوكل على اللّه ولا تبالي بأعداء الدين. إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ، تعليل للأمر بالتوكل بأنه الحق الأبلج ، وهو الدين الواضح الذي لا يتطرقه شك ولا ريب.

---

(١) وهى قراءة جناح بن حبيش ، كما ذكر صاحب البحر المحيط (٧/ ٩١).

وفيه تنبيه على أن صاحب الحق حقيق بالوثوق باللّه فى نصرته. وقد تضمنت الآية من أولها ثناء على القرآن ، بنفي ما رموه من كونه أساطير الأولين. ثم وصفه بكونه هدى ورحمة للمؤمنين. ثم توعد الرامين له بحكمه عليهم بما يستحقونه ، ثم أمره بالتوكل عليه فى كفايته أمرهم ومكرهم.
ثم بيّن سبب طعنهم فى القرآن ، بأنهم ليس فيهم قابلية الإدراك لكونهم موتى صما ، لا حياة لهم ولا سمع استبصار ، قال تعالى : إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى ، شبّهوا بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم من القوارع والزواجر ، وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ أي : الدعوة إلى أمر من الأمور إذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ عنك.

وتقييد النفي بالإدبار لتكميل التنبيه وتأكيد النفي ، فإنهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحق معرضون عن الداعي ، مولون على أدبارهم. ولا ريب أن الأصم لا يسمع الدعاء ، مع كون الداعي بمقابلة صماخه ، قريبا منه ، فكيف إذا كان خلفه بعيدا منه؟.

وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ هداية موصلة إلى المطلوب ، كما فى قوله تعالى : إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ «١» فإن الاهتداء منوط بالبصر فى الحس ، وبالبصيرة فى المعنى. ومن فقد هما لا يتصور منه اهتداء ، و«عن» متعلق بهادي باعتبار تضمنه معنى الصرف ، وإيراد الجملة الاسمية للمبالغة فى نفى الهداية.

إِنْ تُسْمِعُ أي : ما تسمع سماعا يجدى السامع وينفعه إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا أي : من علم اللّه أنهم يؤمنون بآياته. فَهُمْ مُسْلِمُونَ مخلصون ، من قوله : بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ «٢» أي : جعله سالما للّه خالصا. جعلنا اللّه ممن أسلم بكليته إليه. آمين.

الإشارة : إذا وقع الاختلاف فى الأحكام الظاهرة ، وهى ما يتعلق بالجوارح الظاهرة ، رجع فيه إلى الكتاب العزيز ، أو السنّة المحمدية ، أو الإجماع ، أو القياس ، وإن وقع الاختلاف فى الأمور القلبية ، وهى ما يتعلق بالعقائد التوحيدية ، من طريق الأذواق أو العلوم ، يرجع فيه إلى أرباب القلوب الصافية ، فإنه لا يتجلى فيها إلا ما هو حق وصواب. فلا يمكن قلع عروق الشكوك والأوهام ، والوساوس من القلوب المسوسة ، إلا بالرجوع إليهم وصحبتهم ، ومن جمع بين الظاهر والباطن ، رجع إليه فى الأمرين معا.

ذكر ابن الصباغ أن الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه كان يناظر جماعة من المعتزلة ، ليردهم إلى الحق ، فدخل عليه رجل من القراء ، يقال له : أبو مروان ، فسلّم عليه ، فقال له الشيخ : اقرأ علينا آية من كتاب اللّه ، فأجرى اللّه على

---

(١) من الآية ٥٦ من سورة القصص.

(٢) من الآية ١١٢ من سورة البقرة.

لسانه ، من غير قصد ، قوله تعالى : فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ إلى قوله : وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ فتهلل وجه الشيخ ، وقال : ما بعد بيان اللّه من بيان ، فتابوا واهتدوا إلى الحق ، ورجعوا عن مذهبهم ، وشفا اللّه قلوبهم من مرض الاعتزال. فهذا شأن العارفين باللّه ،

جعلهم اللّه شفاء من كل داء ، لكن الأعمى والأصم لا يبصر الداعي ، ولا يسمع المنادى. ولذلك قال تعالى : فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى .. إلخ : قال الورتجبي : الميت : من ليس له استعداد لقبول المعرفة الحقيقية بغير الدلائل ، والأصم : من كان أذن قلبه مسدودة بغواشى القهر ، ومن كان بهذه الصفة لا يقبل إلا ما يليق بطبعه وشهواته. هـ.

ثم ذكر بعض مقدمات الساعة ، التي كانوا يستعجلونها ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : آية ٨٢]

وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (٨٢)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أي : وقع مصداق القول الناطق بمجىء الساعة ، بأن قرب إتيانها ، وظهرت أشراطها ، فأراد بالوقوع : دنوه واقترابه ، كقوله : أَتى أَمْرُ اللَّهِ ... «١» روى أن ذلك حين ينقطع الخير ، ولا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ، ولا يبقى منيب ولا تائب. و«وقع» : عبارة عن الثبوت واللزوم ، وهذا بمنزلة : حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ «٢» أي : وإذا انتجز وعد عذابهم الذي تضمنه القول الأزلى ، وأراد أن ينفذ فى الكافرين سابق علمه لهم من العذاب ، أخرج لهم دابة من الأرض. وفى الحديث : «إن الدابة ، وطلوع الشمس من المغرب ، من أول الأشراط» «٣».

فلا ينبغى لهؤلاء الكفرة ترك الإيمان حيث ينفعهم ، ويتطلبون وقوع الساعة الموعود بها ، التي لا ينفع الإيمان لمن لم يكن آمن ، مع ظهور مقدماتها ، فضلا عنها. فإذا وقع الوعد وسمت الدابة من لم يؤمن بسمة الكفر ، وكان ذلك طبعا وختما ، فلا يقبل منه إيمان ، ويقال له : أيها الكافر لم تؤمن بالآيات غيبا ، فلا يقبل منك بعد رؤيتها عينا.

---

(١) الآية الأولى من سورة النحل.

(٢) من الآية ١٩ من سورة الزمر.

(٣) أخرج مسلم فى (الفتن ، باب خروج الدجال ، ٤/ ٢٢٦٠ ، ح ٢٩٤١) عن عبد اللّه بن عمرو ، قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : «إن أول الآيات خروجا : طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا».

(٢١٨/٤)

وهذا معنى قوله : أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ ، وهى الجساسة ، طولها ستون ذراعا ، لا يدركها طالب ، ولا يفوتها هارب ، لها أربع قوائم ، وزغب ، وريش ، وجناحان «١». وقيل : لها رأس ثور ، وعين

خنزير ، وأذن فيل ، وقرن أيّل ، وعنق نعامة ، وصدر أسد ، ولون نمر ، وخاصرة هرّة ، وذنب كبش ، وخف بعير ، وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعا ، تخرج من الصفا فتكلّمهم بالعربية ، فتقول : أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ أي : بخروجي لأن خروجها من الآيات ، وتقول : ألا لعنة اللّه على الظالمين.

وفى حديث حذيفة رضي اللّه عنه : «تأتى الدابة المؤمن ، فتسلم عليه ، وتأتى الكافر فتخطه - أي تسمه - فى وجهه».

وعن أبى هريرة رضي اللّه عنه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «تخرج الدّابة معها خاتم سليمان ، وعصا موسى ، فتجلوا وجه المؤمن ، وتختم أنف الكافر بالخاتم ، حتّى أنّ أهل الحواء «٢» مجتمعون ، فيقول : هاها يا مؤمن ، ويقول : هاها يا كافر» «٣».

وهى بعد نزول عيسى وطلوع الشمس من مغربها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وإذا وقع القول على قوم بإسدال الحجاب ، وإدامة غلق الباب ، أخرج لهم جاهل باللّه ، يكلمهم بادعاء التربية ، فيأخذون عنه ، ويقتدون به. قال فى المباحث :

واعلم بأن عصبة الجهال بهائم فى صور الرجال

فالجاهل باللّه دابة فى الأرض : أنّ الناس كانوا بآياتنا الدالة علينا - وهم العلماء باللّه ، أهل الشهود والعيان - لا يوقنون بوجودهم ، ولا يعرفون وجود الخصوصية عندهم. فإذا أراد اللّه تعب عبد ، وإبقاءه فى غم الحجاب ، ألقاه إلى شيخ جاهل باللّه ، أو : إلى ميت يتخذه شيخا ، ويفنى فى محبته ، فلا يرجى فلاحه فى طريق الخصوصية ، مادام مقيدا به ، فإن تركه واقتدى بالعارف الحي ، فقد هيأه لرفع الحجاب. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر قيام الساعة ، بعد ذكر بعض أشراطها ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٨٣ الى ٨٦]

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)

---

(١) عزاه المناوى فى الفتح السماوي (٢/ ٨٩١) للثعلبى ، من حديث حذيفة.

(٢) الحواء : جماعة بيوت الناس إذا تدانت ، والجمع : أحوية. انظر اللسان (٢/ ١٠٦٣ ، مادة : حوا).

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٢٩٥) والترمذي وحسنه فى (التفسير ، سورة النمل ، ٥/ ٣١٨ ، ح ٣١٨٧) بلفظ [الخوان] بدل [الحواء]. وأخرجه ابن ماجة فى (الفتن ، باب دابة الأرض ٢/ ١٣٥١ ح ٤٠٦٦). من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٢٠
قلت : «ماذا» تأتى على أوجه أحدها : أن تكون «ما» : استفهاما ، و«ذا» : إشارة ، نحو : ماذا التواني.
الثاني : أن تكون «ما» : استفهاما ، و«ذا» : موصولة ، كقول لبيد :
ألا تسألان المرء ماذا يحاول؟ أنحب فيقضى ، أم ضلال وباطل؟
الثالث : «ماذا» كله : استفهام على التركيب ، كقولك : لما ذا جئت؟. الرابع : أن تكون «ماذا» كله : اسم جنس بمعنى شيء ، أو : بمعنى «الذي» كقوله : دعنى ماذا علمت؟ ، وتكون «ذا» زائدة. انظر القاموس.
يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ، الفوج : الجماعة الكثيرة.
و«من» : للتبعيض ، أي : واذكر يوم نجمع من كل أمة من أمم الأنبياء جماعة كثيرة مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا ، «من» : لبيان الفوج ، أي : فوجا مكذبين بآياتنا ، المنزلة على أنبيائنا ، فَهُمْ يُوزَعُونَ : يحبس أولهم على آخرهم ، حتى يجتمعوا ، حين يساقون إلى موضع الحساب. وهذه عبارة عن كثرة العدد ، وتباعد أطرافهم ، والمراد بهذا الحشر : الحشر للعذاب ، والتوبيخ والمناقشة ، بعد الحشر الكلى ، الشامل لكافة الخلق. وعن ابن عباس : (المراد بهذا الفوج : أبو جهل ، والوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة ، يساقون بين يدى أهل مكة) وهكذا يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار.
حَتَّى إذا جاؤُ إلى موقف السؤال والجواب ، والمناقشة والحساب ، قالَ أي : اللّه عز وجل ، موبخا لهم على التكذيب : أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي المنزلة على رسلى ، الناطقة بلقاء يومكم ، وَالحال أنكم لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أي : أكذبتم بها فى بادئ الرأى ، من غير فكر ، ولا نظر ، يؤدى إلى إحاطة العلم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق حتما. وهذا نص فى أن المراد بالآيات فى الموضعين هى الآيات القرآنية. وقيل : هو عطف على «كذبتم» ، أي : أجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها. أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ؟ حيث لم تتفكروا فيها ، فإنكم لم تخلقوا عبثا. أو : أىّ شيء كنتم تعملون ، استفهام ، على معنى استبعاد الحجج ، أي : إن كانت لكم حجة وعمل فهاتوا ذلك. وخطابهم بهذا تبكيت لهم. ثم يكبون فى النار ، وذلك قوله تعالى : وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أي : حلّ بهم العذاب ، الذي هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله ، بِما ظَلَمُوا : بسبب ظلمهم ، الذي هو تكذيبهم بآيات

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٢١

اللّه فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ لانقطاعهم عن الجواب بالكلية ، وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الأليم ، يشغلهم العذاب عن النطق والاعتذار.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث ، وما ينشأ بعد ذلك ، بقوله : أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ، الرؤية هنا قلبية ، أي : ألم يعلموا أنا جعلنا الليل بما فيه من الإظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار.

وَالنَّهارَ مُبْصِراً أي : يبصروا ، بما فيه من الإضاءة ، طرق التقلب فى أمور المعاش. وبولغ فيه ، حيث جعل الإبصار الذي هو حال الناس ، حالا له ، ووصفا من أوصافه ، بحيث لا ينفك عنها ، ولم يسلك فى الليل هذا المسلك لأن تأثير ظلام الليل فى السكون ليس بمثابة تأثير النهار فى الإبصار. قاله أبو السعود .. قلت : وقد جعله كذلك فى قوله :

وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً «١» فانظره.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ كثيرة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ يصدّقون ، فيعتبرون ، فإنّ من تأمل فى تعاقب الليل والنهار ، واختلافهما على وجوه بديعة ، مبنية على حكم رائقة ، تحار فى فهمها العقول ، وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل ، المحاكية للموت ، بضياء النهار ، المضاهي للحياة ، وعاين فى نفسه غلبة النوم ، الذي هو يضاهى الموت ، وانتباهه منه ، الذي هو يضاهى البعث ، قضى بأن الساعة آتيه لا ريب فيها ، وأن اللّه يبعث من فى القبور.

قال لقمان لابنه : يا بنى إن كنت تشك فى الموت فلا تنم ، فكما أنك تنام قهرا كذلك تموت ، وإن كنت تشك فى البعث فلا تنتبه ، فكما أنك تنتبه بعد نومك كذلك تبعث بعد موتك هـ. وباللّه التوفيق.

الإشارة : يوم نحشر من كل أمة فوجا ينكر على أهل الخصوصية ، ممن يكذب بآياتنا ، وهم العارفون بنا ، الدالون علينا ، المعرّفون بنا ، فهم يوزعون : يجمعون للعتاب ، حتى إذا جاءوا إلينا بقلب سقيم ، قال : أكذّبتم بأوليائى ، الدالين على حضرتى ، بعد التطهير والتهذيب ، ولم تحيطوا بهم علما ، منعكم من ذلك حب الرئاسة والجاه ، أم ماذا كنتم تعملون؟. ووقع القول عليهم بالبقاء مع عامة أهل الحجاب ، فهم لا ينطقون ، ولا يجدون اعتذارا يقبل منهم.

ألم يعلموا أنهم يموتون على ما عاشوا عليه ، ويبعثون على ما ماتوا عليه ، فهلّا صحبوا أهل اليقين الكبير ، - وهو عين اليقين أو حق اليقين ، المستفاد من شهود الذات الأقدس - فيكتسبوا منهم اليقين ، حتى يموتوا على اليقين ويبعثوا على اليقين. وباللّه التوفيق.

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة الأنعام. وقد سار المفسر على قراءة «جاعل».

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٢٢

ثم ذكر النفخ فى الصور ، وما يكون بعده من الأهوال ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٨٧ الى ٩٠]

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل - عليه السّلام - عن أبى هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «لما فرغ اللّه تعالى من خلق السموات والأرض ، خلق الصور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه ، شاخص بصره إلى العرش ، حتى يؤمر ، قال : قلت : كيف هو؟ قال :

عظيم ، والذي نفسى بيده إن عظم دارة فيه كعرض السموات والأرض» وفى حديث آخر : «فيه ثقب بعدد كل روح مخلوقة ، فيؤمر بالنفخ فيه ، فينفخ نفخة ، لا يبقى عندها فى الحياة أحد ، غير من شاء اللّه تعالى وذلك قوله تعالى : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ «١» ، ثم يؤمر بأخرى ، فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت إلا بعث». وفى رواية : «فينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح ، كأنها النحل ، فتملأ ما بين السماء والأرض ، وتأتى كل روح إلى جسدها ، كما تأتى النحل إلى وكرها. وذلك قوله تعالى : ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ «٢»».

قال أبو السعود : والذي يستدعيه النظم الكريم أن المراد بالنفخ هاهنا : النفخة الثانية ، وفى الفزع فى قوله تعالى :

فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ما يعترى الكل عند البعث والنشور ، بمشاهدة الأمور الهائلة ، الخارقة للعادات فى الأنفس والآفاق ، من الرعب والتهيب ، الضروريين ، الجبلين فى كل نفس. وإيراد صيغة الماضي مع كون المعطوف عليه مضارعا للدلالة على تحقق وقوعه. هـ. وظاهره أن النفخ مرتان فقط ، واعتمده القرطبي وغيره ، وصحح ابن عطية أنها ثلاث ، وروى ذلك عن أبى هريرة : نفخة الفزع وهى فزع حياة الدنيا ، وليس بالفزع الأكبر ، ونفخة الصعق ، ونفخة القيام من القبور.

---

(١) ، (٢) من الآية ٦٨ من سورة الزمر.

وقوله : إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ أي : ألا يفزع ، وهو من ثبّت اللّه قلبه ، فإن قلنا : المراد بها النفخة الثانية ، فالمستثنى : هم من سبقت لهم الحسنى ، بدليل قوله : لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ «١» وإن قلنا : هى نفخة الصعق ، فالمستثنى : قيل : هم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ، لكن يموتون بعد صعق الخلق. وقيل : الحور وحملة العرش ، وإن قلنا : المراد نفخة الفزع فى الدنيا ، فالمستثنى : أرواح الأنبياء والأولياء والشهداء والملائكة.

ثم قال تعالى : وَكُلٌّ أَتَوْهُ «٢» بصيغة الماضي ، أي : وكل واحد من المبعوثين عند النفخة حضروه فى موقف الحساب ، بين يدى اللّه جل جلاله ، والسؤال والجواب. أو : وكل حاضروه ، على قراءة اسم الفاعل ، وأصله :

آتيوه ، حال كونهم داخِرِينَ : صاغرين أذلاء.

وَتَرَى الْجِبالَ حال الدنيا تَحْسَبُها جامِدَةً واقفة ممسّكة عن الحركة ، من : جمد فى مكانه : إذا لم يبرح. وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ أي : مرا مثل مر السحاب ، التي تسيرها الرياح ، سيرا حثيثا ، والمعنى : أنك إذا رأيت الجبال وقت النفخة ظننتها ثابتة فى مكان واحد لعظمها ، وهى تسير سيرا سريعا ، كالسحاب إذا ضربته الرياح ، وهكذا الأجرام العظام ، إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها. ومثال ذلك : الشمس لعظم جرمها وبعدها لا تتبين حركتها ، مع كونها أسرع من الريح.

والذي فى حديث أبى هريرة : أنّ تسيير الجبال يكون بعد نفخة الفزع وقبل الصعق. ونص الحديث - بعد كلام تقدم : «فيأمر إسرافيل بالنفخة الأولى ، فيقول : انفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات والأرض ، إلا من شاء اللّه ، فيأمره فيمدها - أي : النفخة - ويطيلها ، فيسير اللّه الجبال ، فتمر مر السحاب ، فتكون سرابا ، وترتج الأرض بأهلها رجا ، فتكون كالسفينة تضربها الأمواج ، وتقلبها الرياح ، وهو قوله : يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ «٣» الآية ، فتميد الأرض بالناس على ظهرها فتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، وتشيب الولدان ، وتطير الشياطين ، هاربة من الفزع ، حتى تأتى الأقطار هاربة ، فتلقاها الملائكة تضرب وجهها وأدبارها ، فترجع ، ويولى الناس مدبرين ، ينادى بعضهم بعضا ، وهو قوله : يَوْمَ التَّنادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ .. الآية «٤» فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض ، من قطر إلى قطر ، فرأوا أمرا عظيما ، لم يروا مثله. ثم قال : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك».

قال أبو هريرة : قلت : يا رسول اللّه فمن استثنى اللّه من الفزع؟ قال : «أولئك الشهداء».

---

(١) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء. [.....]

(٢) قرأ حفص ، وحمزة ، وخلف : «أتوه» بقصر الهمزة ، وفتح التاء ، فعلا ماضيا ، وقرأ الباقون بالمد وضم التاء «آتوه» اسم فاعل ، مضافا للضمير .. انظر الإتحاف (٢/ ٣٣٥).

(٣) الآية السادسة من سورة النازعات.

(٤) من الآية ٣٣ من سورة غافر.

(٢٢٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٢٤

قلت : ومثلهم الأنبياء والأولياء إذ هم أعظم منهم ، وأحياء مثلهم. ثم قال عليه الصلاة والسلام : «وإنما يصل الفزع إلى الأحياء ، وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وقاهم اللّه فزع ذلك اليوم ، وهو عذاب يبعثه اللّه على شرار خلقه». وهو قوله تعالى : يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ إلى قوله : وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

«١» فيمكثون طويلا ، ثم يأمر اللّه تعالى إسرافيل ، فينفخ نفخة الصعق ، فيصعق من فى السموات ، ومن فى الأرض ، إلا من شاء اللّه ، فإذا اجتمعوا فى البرزخ ، جاء ملك الموت إلى الجبار ، فيقول : قد مات أهل السموات والأرض ، إلا من شئت ، فيقول اللّه تعالى ، وهو أعلم : من بقي؟ فيقول : بقيت أنت الحي القيوم ، الذي لا تموت ، وبقيت حملة العرش ، وبقي جبريل وميكائيل ، وإسرافيل ، وبقيت أنا ، فيقول تعالى : فليمت جبريل وميكائيل ، فينطق اللّه العرش ، فيقول : أىّ رب يموت جبريل ، وميكائيل! فيقول : اسكت ، إني كتبت الموت على كل من تحت عرشى ، فيموتان. ثم يأتى ملك الموت الجبار ، فيقول : أي رب قد مات جبريل وميكائيل ، فيقول - وهو أعلم : من بقي؟ بقيت أنت الحي الذي لا تموت ، وبقيت حملة العرش ، وبقي إسرافيل ، وبقيت أنا. فيقول : ليمت حملة العرش ، فيموتون ، فيأمر اللّه العرش فيقبض الصور من إسرافيل ، ثم يقول : ليمت إسرافيل ، فيموت ، ثم يأتى ملك الموت فيقول : يا رب قد مات حملة عرشك ، فيقول ، وهو أعلم : من بقي؟ فيقول : بقيت أنت الحي الذي لا تموت ، وبقيت أنا ، فيقول : أنت خلق من خلقى ، خلقتك لما رأيت ، فمت ، فيموت. فإذا لم يبق إلا اللّه الواحد الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، فكان آخرا ، كما كان أولا ، طوى السماء طى السجل للكتاب ، فيقول : أنا الجبار ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ فلا يجيبه أحد ، ثم يقول تعالى : لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ ثم تبدل الأرض غير الأرض ، والسموات يبسطها بسطا ، ثم يمدها مدّ الأديم العكاظي ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا.

ثم قال : ثم ينزل ماء من تحت العرش ، كمنى الرجل ، ثم يأمر اللّه السحاب أن تمطر أربعين يوما ، حتى يكون فوقهم اثنى عشر ذراعا ، ويأمر اللّه تعالى الأجساد أن تنبت كنبات البقل ، حتى إذا تكاملت أجسادهم ، كما كانت ، قال اللّه تعالى : ليحيي حملة العرش ، فيحيون ، ثم يقول اللّه تعالى : ليحيى جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فيحيون ، ثم يأمر اللّه تعالى إسرافيل ، فيأخذ الصور فيضعه على فيه ، ثم

يدعو اللّه تعالى الأرواح ، فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نورا ، والأخرى ظلمة ، فيقبضها ، ثم يلقيها فى الصور ، ثم يأمر اللّه تعالى إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح ، كأنها النحل ، وقد ملأت ما بين السماء والأرض ، فيقول تعالى : لترجعن كل روح إلى جسدها ، فتدخل الأرواح الخياشيم ، ثم تمشى فى الأجساد ، مشى السم فى اللديغ ، ثم تنشق الأرض عنهم سراعا ، فأنا أول من

---

(١) الآيتان : ١ - ٢ من سورة الحج

(٢٢٤/٤)

تنشق عنه ، فتخرجون منها إلى ربكم تنسلون ، عراة ، حفاة ، غرلا ، مهطعين إلى الداعي ، فيقول الكافر : هذا يوم عسير. نقله الثعلبي «١».

ثم قال تعالى : صُنْعَ اللَّهِ ، هو مصدر مؤكد لمضمون ما قبله ، أي : صنع اللّه ذلك صنعا ، على أنه عبارة عما ذكر من النفخ فى الصور ، وما ترتب عليه جميعا. قصد به التنبيه على عظم شأن تلك الأفاعيل ، وتهويل أمرها ، والإيذان بأنها ليست بطريق الإخلال بنظم العالم ، وإفساد أحوال الكائنات ، من غير أن تدعو إليه داعية ، بل هى من بدائع صنع اللّه تعالى ، المبنية على أساس الحكمة ، المستتبعة للغايات الجليلة ، التي لأجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادئ الإبداع ، على الوجه المتين ، والنهج الرصين ، كما يعرب عنه قوله : الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ أي : أحكم خلقه وسوّاه ، على ما تقتضيه الحكمة.

وقوله تعالى : إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ : تعليل لكون ما ذكر صنعا محكما له تعالى لبيان أن علمه بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها ، مما يدعو إلى إظهارها وبيان كيفياتها ، على ما هى عليه من الحسن والسوء ، وترتيب أجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم.

وقوله تعالى : مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها : بيان لما أشير إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أجزيتها عليها ، أي : من جاء من أولئك الذين أوتوه بالحسنة فله خير منها ، باعتبار أنه أضعفها بعشر ، أو : باعتبار دوامه وانقضائها ، وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : «الحسنة : كلمة الشهادة» «٢» وَهُمْ أي : الذين جاءوا بالحسنات مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ أي : من فزع هائل ، وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب ، بعد تمام المحاسبة ، وظهور الحسنات والسيئات. وهو المراد فى قوله تعالى : لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ «٣».

وقال ابن جريج : حين يذبح الموت وينادى : يا أهل الجنة خلود لا موت ، ويا أهل النار خلود لا

موت.

فيكون هؤلاء مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ، أي : يوم إذ ينفخ فى الصور وما بعده آمِنُونَ لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل ، ولا يلحقهم ضرره أصلا. وأما الفزع الذي يعترى كل من السموات ومن فى الأرض ، غير ما استثناه اللّه تعالى ، فإنما هو التهيب والرعب الحاصل فى ابتداء النفخة ، من معاينة فنون الدواهي والأهوال ، ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة ، وإن كان آمنا من لحوق الضرر. قال جميعه أبو السعود.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/ ١٨٢).

(٢) انظر تفسير الطبري (٢٠/ ٢٢).

(٣) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء.

وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ قيل : هو الشرك. فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ، أي : كبوا فيها على وجوههم منكوسين. ويقال لهم : هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى الدنيا من الشرك والمعاصي. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من أراد أن يكون ممن استثنى اللّه من الفزع والهول ، فليكن قلبه معمورا باللّه ، ليس فيه غير مولاه ، ولا مقصود له فى الدارين إلا اللّه ، وظاهره معمورا بطاعة اللّه ، متمسكا بسنة رسول اللّه ، هواه تابع لما جاء به من عند اللّه ، لا شهوة له إلا ما يقضى عليه مولاه ، فبهذا ينخرط فى سلك أولياء اللّه ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين سبقت لهم الحسنى ، لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون. جعلنا اللّه من خواصهم ، بمنّه وكرمه ، آمين.

وقوله تعالى : وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً ... الآية. كذلك قلوب الراسخين فى العلم باللّه ، لا تؤثر فيهم هواجم الأحوال والواردات الإلهية ، بل تهزهم فى الباطن ، وظواهرهم ساكنة ، كالجبال الراسية ، قيل للجنيد : قد كنت تتواجد عند السماع ، والآن لا يتحرك فيك شى ء؟ فتلى : وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ.

وقوله تعالى : مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ أي : بالخصلة الحسنة ، وهى المعرفة فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وهو دوام النظرة والحبرة ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ هى الجهل باللّه ، فينكس وجهه عن مواجهة المقربين. والعياذ باللّه.

ولما بلّغ الرسول صلى اللّه عليه وسلم ما أمره اللّه من بيان عواقب الأمور ، تبرأ منهم ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٩١ الى ٩٣]
إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)
يقول الحق جل جلاله : قل لكفار قريش ، بعد تبيين أحوال المبعث ، وشرح أحوال القيامة ، بما لا مزيد عليه : إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ أي : مكة ، أي : إنما أمرنى ربى أن أعبده ، واستغرق أوقاتى فى مراقبته ومشاهدته ، غير مبال بكم ، ضللتم أم رشدتم ، وما علىّ إلا البلاغ ، وقد بلغتكم وأنذرتكم. وتخصيص مكة

(٢٢٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٢٧
بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها ، الَّذِي حَرَّمَها أي : جعلها حرما آمنا ، يأمن الملتجأ إليها ، ولا يختلى خلاها ، ولا يعضد شوكها ، ولا ينفّر صيدها. والتعرض لبيان تحريمه إياها تشريف لها بعد تشريف ، وتعظيم إثر تعظيم ، مع ما فيه من الإشعار بعلة الأمر بعبادة ربها ، وأنهم مكلّفون بذلك ، كما فى قوله تعالى : فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ «١». ومن الإشارة إلى غاية شناعة ما فعلوا فيها ، ألا يرى أنهم مع كونها محرمة من أن تنتهك حرمتها ، ويلحد فيها بإثم ، قد استمروا فيها على تعاطى أفجر الفجور ، وأشنع الإلحاد ، حيث تركوا عبادة ربها ، ونصبوا الأوثان ، وعكفوا على عبادتها ، قاتلهم اللّه أنّى يؤفكون. قاله أبو السعود.
ثم قال تعالى : وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ خلقا وملكا وتصرفا ، من غير أن يشاركه أحد فى شىء من ذلك ، تحقيقا للحق ، وتنبيها على أن إفراد مكة بالإضافة لما ذكر من التفخيم والتشريف ، مع عموم الربوبية لجميع الموجودات.
وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ المنقادين له ، الثابتين على ما كنا عليه ، من ملة الإسلام والتوحيد. الذين أسلموا وجوههم له تعالى ، وانقادوا إليه بالكلية.
وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ أي : أواظب على تلاوته ، لتنكشف حقائقه الرائقة ، المخزونة فى تضاغيفه ، شيئا فشيئا.
أو : على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة ، وتثنية الإرشاد ، فيكون ذلك تنبيها على كفايته فى الهداية والإرشاد ، من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى.
فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ أي : فمن اهتدى بالإيمان به ، والعمل بما فيه من الشرائع والأحكام ،

فإنما منافع هدايته عائدة إليه ، لا إلى غيره. وَمَنْ ضَلَّ بالكفر به ، والإعراض عن العمل بما فيه فَقُلْ فى حقه : إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ وقد خرجت من عهدة الإنذار ، فليس عليّ من وبال ضلالته شيء. قال الصفاقسي : جواب «من» : محذوف ، يدل عليه ما قبله ، أي : فوبال ضلاله عليه ، أو : يكون الجواب : «فقل» ، ويقدر ضمير عائد من الجواب إلى الشرط لأنه اسم غير ظرف ، أي : من المنذرين له. هـ.

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ على ما أفاض عليّ من نعمائه ، التي أجلها نعمة النبوة ، المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية ، ووفقني لتحمل أعبائها ، وتبليغ أحكامها إلى كافة الورى ، بالآيات البينة والبراهين النيرة ، سَيُرِيكُمْ آياتِهِ قطعا فى الدنيا ، التي وعدكم بها ، كخروج الدابة وسائر الأشراط ، فَتَعْرِفُونَها أي : فتعرفون أنها آيات

---

(١) الآيتان : ٣ - ٤ من سورة قريش.

اللّه ، حين لا تنفعكم المعرفة ، أو : سيضطركم إلى معرفة آياته ، والإقرار بأنها آيات اللّه حين ظهورها ، وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، بل محيط بعمل المهتدى والضال ، غير غافل ، فيجازى كلا بما يستحقه.

وتخصيص الخطاب أولا به - عليه الصلاة والسلام - وتعميمه ثانيا للكفرة تغليبا ، أي : وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم - أيها الكفرة - من السيئات ، فيجازى كلا بعمله. ومن قرأ بالغيب «١» فهو وعيد محض ، أي : وما ربك بغافل عن أعمالهم ، فسيعذبهم البتة ، فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم ، بل يمهل ولا يهمل. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا فرغ الواعظ من وعظه وتذكيره ، أو : العالم من تدريسه وتعليمه ، أقبل على عبادة ربه ، إما عبادة الجوارح الظاهرة ، من صلاة وذكر وتلاوة ، أو عبادة القلوب ، كتفكر واعتبار ، أو استخراج علوم وحكم ودرر.

وإما عبادة الأرواح ، كنظرة وفكرة وشهود واستبصار. وهذه عبادة الفحول من الرجال ، فمن اهتدى إليها فلنفسه ، ومن ضل عنها فقل إنما أنا من المنذرين. والحمد للّه رب العالمين - وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

---

(١) قرأ حفص ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، ويعقوب (تعملون) بتاء الخطاب. وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف (٢/ ٣٣٧).

(٢٢٨/٤)

سورة القصص

مكية إلا قوله : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ .. الآية «١». وهى ثمان وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها :

قوله : وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ «٢» ، مع قوله : تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ فإنه عين القرآن المتلو. وقيل : وجه المناسبة :

قوله : سَيُرِيكُمْ آياتِهِ «٣» ، مع قوله : تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ فإن تنزيل الكتاب من أعظم الآيات. وافتتح بالرموز التي يستعملها بينه وبين حبيبه ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣)

يقول الحق جل جلاله : طسم ، إما مختصرة من أسماء اللّه تعالى ، أقسم على حقّية كتابه ، وما يتلى فيه ، كأنها مختصرة من طهارته - أي : تنزيهه - وسيادته ، ومجده ، أو : من أسماء رسوله - وهو الأظهر - أي : أيها الطاهر السيد المجيد تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ ، إما من بان ، أو : أبان ، أي : بيّن خيره وبركته ، أو : مبين للحلال والحرام ، والوعد والوعيد ، والإخلاص والتوحيد ، نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ أي : بعض خبرهما العجيب. قال القشيري : كرّر الحقّ قصة موسى تعجيبا بشأنه ، وتعظيما لأمره ، ثم زيادة فى البيان لبلاغة القرآن ، ثم أفاد زوائد من الذكر فى كل موضع يكرره. هـ.

هذا مع الإشارة إلى نصر المستضعفين ، والامتنان عليهم بالظفر والتمكين ، ففيه تسلية لنبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ووعد جميل له ولأمته. وقوله : بِالْحَقِّ : حال من فاعل نَتْلُوا ، أو : من مفعوله ، أو : صفة لمصدر محذوف ، أي :

ملتبسين ، أو : ملتبسا بالحق ، أو : تلاوة ملتبسة بالحق. لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لمن سبق فى علمنا أنه يؤمن لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم ، فهو متعلق بنتلوا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : تقديم هذه الرموز ، قبل سرد القصص ، إشارة إلى أنه لا ينتفع بها كل الانتفاع حتى يتطهر سره ، ويلقى سمعه ، وهو شهيد ، فحينئذ يكون طاهرا سيدا مجيدا ، ينتفع بكل شيء ، ويزيد إلى اللّه

بكل شيء. ولذلك خص تلاوة قصص موسى بأهل الإيمان الحقيقي لأنهم هم أهل الاعتبار والاستبصار. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٨ ونزلت بالجحفة بين مكة والمدينة. انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٢ - ٤٠٣).
(٢) الآية ٩٢ من سورة النمل.
(٣) من الآية الأخيرة من سورة النمل.

(٢٢٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٣٠
ثم شرع فى بيان شأنهما ، فقال :
[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٤ الى ٦]
إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ (٦)
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ ، وهو استئناف بيانى ، وكأن قائلا قال : وكيف كان نبأهما؟ فقال : إنه علا فى الأرض ، أي : تجبّر وطغى فى أرض مصر ، وجاوز الحد فى الظلم والعدوان. أو : علا عن عبادة ربه ، وافتخر بنفسه ، ونسى العبودية. وفى التعبير بالأرض تبكيت عليه ، أي : علا فى محل التذلل والانخفاض ، وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً أي : فرقا وأصنافا فى الخدمة والتسخير ، كلّ قوم من بنى إسرائيل فى شغل مفرد. وقيل : ملك القبط واستعبد بنى إسرائيل. أو : فرقا مختلفة ، يكرم طائفة ويهين أخرى ، فأكرم القبط ، وأهان بنى إسرائيل. يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ وهم بنو إسرائيل ، وهو يرشد إلى كون المراد بقوله : وَجَعَلَ أَهْلَها لا يخصّ ببني إسرائيل. يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ الذكور ، وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ أي : البنات ، يتركهم لخدمته.
وسبب ذبحه للأبناء أن كاهنا قال له : يولد مولود فى بنى إسرائيل ، يذهب ملكك على يده ، وفيه دليل على حمق فرعون ، فإنه إن صدق الكاهن لم ينفعه القتل إذ لا ينفع حذر من قدر ، وإن كذب فلا معنى للقتل. وجملة :
يَسْتَضْعِفُ : حال من الضمير فى جَعَلَ ، أو صفة لشيع ، أو استئناف. إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ، أي : الراسخين فى الإفساد ، ولذلك اجترأ على تلك العزيمة العظيمة ، من قتل المعصومين من أولاد الأنبياء - عليهم السلام.

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ أي : نتفضل عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ على الوجه المذكور بالقتل والتسخير.
وهذه الجملة معطوفة على : إِنَّ فِرْعَوْنَ ، أو : حال من يَسْتَضْعِفُ ، أي : يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمنّ عليهم ، وإرادة اللّه تعالى كائنة لا محالة ، فجعلت كالمقارنة لاستضعافهم ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً أي : قادة يقتدى بهم فى الخير ، أو : دعاة إلى الخير ، أو : ولاة وملوكا ، وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ أي : يرثون فرعون وقومه ، ملكهم وكل ما كان لهم.
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أرض مصر والشام ، يتصرفون فيها كيف شاءوا ، وتكون تحت ملكهم وسلطانهم. وأصل التمكن : أن يجعل له مكانا يقعد عليه ، ثم استعير للتسليط والتصرف فى الأمر.
وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ

(٢٣٠/٤)

وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ
من بنى إسرائيل ، ما كانُوا يَحْذَرُونَ يخافون من ذهاب ملكهم ، وهلاكهم على يد مولود منهم. والحذر : التوقي من الضرر. ومن قرأ (يرى) بالياء «١» ، ففرعون وما بعده فاعل. وباللّه التوفيق.
الإشارة : العلو فى الأرض يورث الذل والهوان. والتواضع والاستضعاف يورث العز والسلطان ، والعيش فى العافية والأمان من تواضع رفعه اللّه ، ومن تكبر قصمه اللّه. وهذه عادة اللّه فى خلقه ، بقدر ما يذلّ فى جانب اللّه يعزه اللّه ، وبقدر ما يفتقر يغنيه اللّه ، وبقدر ما يفقد يجد اللّه. قال الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه : اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر أول نشأة موسى عليه السّلام وما جرى فى تربيته ، فقال :
[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٧ الى ٩]
وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (٨) وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)
يقول الحق جل جلاله : وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى بالإلهام ، أو بالرؤيا ، أو بإخبار ملك كما كان لمريم ، وليس هذا وحي رسالة ، فلا يلزم أن تكون رسولا ، واسمها : يوحانة ، وقيل : يوخابذ بنت يصهر بن لاوى بن يعقوب. وقيل : يارخا. ذكره فى الإتقان. وقلنا : أَنْ أَرْضِعِيهِ «أن» : مفسرة ، أي : أرضعيه ،

أو : مصدرية ، بأن أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه ، فَإذا خِفْتِ عَلَيْهِ من القتل فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ. البحر ، وهو نيل مصر ، وَلا تَخافِي عليه من الغرق والضياع ، وَلا تَحْزَنِي لفراقه ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ بوجه لطيف لتربيه ، وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. وفى هذه الآية : أمران ، ونهيان ، وخبران ، وبشارتان.

والفرق بين الخوف والحزن أن الخوف : غم يلحق الإنسان لتوقّع مكروه ، والحزن : غم يلحق الإنسان لواقع أو ماضى ، وهو الآن فراقه والإخطار به. فنهيت عنهما ، وبشرت برده وجعله من المرسلين. روى أنه ذبح ، فى طلب موسى ، تسعون ألف وليد. وروى أنها حين ضربها الطلق - وكانت بعض القوابل من الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها ، فعالجتها ، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ، ودخل حبه قلبها ، فقالت : ما جئت إلا لأقتل ولدك وأخبر فرعون ، ولكن وجدت لابنك حبا ما وجدت مثله ، فاحفظيه ، فلما خرجت القابلة ، جاءت عيون فرعون

---

(١) قرأ حمزة والكسائي (يرى) بياء مفتوحة ، و«فرعون» بالرفع فاعله ، و«هامان وجنودهما» بالرفع عطفا عليه ، وقرأ الباقون «نرى» بالنون مضمومة ، و«فرعون» بالنصب مفعوله. انظر الإتحاف (٢/ ٣٤٠).

(٢٣١/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٣٢

فلفّته فى خرقة ، ووضعته فى تنور مسجور ، ولم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها ، فطلبوا فلم يجدوا شيئا ، فخرجوا ، وهى لا تدرى مكانه ، فسمعت بكاءه من التنور ، فانطلقت إليه ، وقد جعل اللّه النار عليه بردا وسلاما. فلما ألح فرعون فى طلب الولدان ، أوحى اللّه إليها بإلقائه فى اليمّ ، فألقته فى اليم بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر.

روى أنها لفته فى ثيابه ، وجعلت له تابوتا من خشب ، وقيل : من بردى ، وسدت عليه بقفل ، وأسلمته ثقة بالله وانتظارا لوعده سبحانه. قال ابن مخلص : ألقته فى البحر بالغداة ، فرده إليها قبل الظهر.

حكى أن فرعون كانت له بنت برصاء ، أعيت الأطباء ، فقال الأطباء والسحرة : لا تبرأ إلا من قبل البحر ، يؤخذ منه شبه الإنسان ، فيؤخذ من ريقه وتلطخ به برصها ، فتبرأ ، فقعد فرعون على شفير النيل ، ومعه آسية امرأته ، فإذا بالتابوت يلعب به الموج ، فأخذ له ، ففتحوه ، فلم يطيقوا ، فدنت آسية ، فرأت فى وجه التابوت نورا لم يره غيرها ، للذى أراد اللّه أن يكرمها ، ففتحه ، فإذا الصبى بين عينيه نور ، وقد جعل اللّه رزقه فى إبهامه ، يمصه لبنا ، فأحبته آسية وفرعون ، فلطخت بنت فرعون برصها فبرئت ، فقبّلته وضمته إلى صدرها. فقال بعض القواد من قوم فرعون : نظن هذا المولود الذي نحذر

منه ، فهمّ فرعون بقتله - واللّه غالب على أمره - فقالت : آسية : قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ .. الآية «١».
وهذا معنى قوله : فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ أخذه. قال الزجّاج : وكان فرعون من أهل فارس ، من إصطخر.
والالتقاط : وجدان الشيء من غير طلب ولا إرادة ، ومنه : اللّقطة ، لما وجد ضالا. وقوله : لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً أي : ليصير الأمر إلى ذلك ، لا أنهم أخذوه لهذا ، فاللام للصيرورة كقولهم : لدوا للموت وابنوا للخراب.
وقال صاحب الكشاف : هى لام «كى» التي معناها التعليل ، كقولك : جئت لتكرمنى. ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز لأن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له ، شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله. هـ. وتسمى بالاستعارة التبعية.
وفى «الحزن» لغتان الفتح والضم ، كالعدم والعدم.
إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ ، أي : مذنبين ، فعاقبهم اللّه تعالى بأن ربّى عدوهم ، ومن هو سبب هلاكهم على يديهم. أو : كانوا خاطئين فى كل شيء ، فليس خطؤهم فى تربية عدوهم ببدع منهم.
وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ ، لمّا هم فرعون بقتله - لقول القواد : هو الذي نحذر : هو قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ، فقال فرعون : لك ، لا لى. قال صلى اللّه عليه وسلم : «لو قال مثل ما قالت لهداه اللّه مثل ما هداها» «٢» ، وهذا على سبيل الفرض ، أي : لو كان غير مطبوع عليه الكفر لقال مثل قولها. ثم قالت : لا تَقْتُلُوهُ ، خاطبته خطاب الملوك ، أو خاطبت

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢٠/ ٣٢) والبغوي (٦/ ١٩٢). [.....]
(٢) عزاه المناوى فى الفتح السماوي (٢/ ٨٩٧) للنسائى - فى الكبرى فى التفسير - من حديث ابن عباس - رضى اللّه عنه.

القواد. عَسى أَنْ يَنْفَعَنا فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع ، وذلك لما عاينت من النور وبرء البرصاء.
أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً أو : نتبناه فإنه أهل لأن يكون ولد الملوك. قال تعالى : وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ما يكون من أمره وأمرهم ، أو : لا يشعرون أن هلاكهم على يديه ، أو : لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم فى التقاطه ورجاء النفع منه. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : يقال لمن يعالج تربية مريد : أرضعه من لبن علم الغيوب ، فإذا خفت عليه الوقوف مع

الشرائع «١» ، فألقه في اليم في بحر الحقائق ، ولا تخف ولا تحزن ، إنا رادوه إلى بر الشرائع ، ليكون من الكاملين ، لأن من غرق في بحر الحقيقة ، على يد شيخ كامل ، لا بد أن يخرجه إلى بر الشريعة ، ويسمى البقاء ، وهو القيام برسم الشرائع ، فالبقاء يطلب الفناء ، فمن تحقق بمقام الفناء فلا بد أن يخرج إلى البقاء ، كما يخرج من فصل الشتاء إلى الربيع.

واللّه تعالى أعلم.

وقوله تعالى : لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً ، ما كان التقاط فرعون لموسى إلا للمحبة والفرح ، فخرج له عكسه. ومن هذا كان العارفون لا يسكنون إلى شيء ، ولا يعتمدون على شيء لأن العبد قد يخرج له الضرر من حيث النفع ، وقد يخرج له النفع من حيث يعتقد الضرر ، وقد ينتفع على أيدى الأعداء ، ويضرّ على أيدى الأحبّاء ، فليكن العبد سلما بين يدى سيده ، ينظر ما يفعل به. وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ.

ثم قال تعالى :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ١٠ الى ١١]

وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١)

يقول الحق جل جلاله : وَأَصْبَحَ أي : صار فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى وهمه ، أو : فارغا : خاليا من العقل لما دهمها من الجزع والحيرة ، حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون ، ويؤيده قراءة ابن محيصن : «فزعا» بالزاي بلا ألف ، أو : فارغا من الوحى الذي أوحى إليها أن تلقيه فى اليم ، ناسيا

---

(١) أي : الوقوف الظاهري ، الشكلانى ، دون تحقق القلب والنفس بحقائق الإيمان ولوازمه. فهذا هو الذي يخاف منه ، مثل وقوف الخوارج ، الذين وصفهم الرسول صلى اللّه عليه وسلم بأن إيمانهم لا يجاوز حناجرهم ، وأن قراءتهم لا تجاوز تراقيهم ، وأن صلاتهم لا تجاوز تراقيهم ، أي : أن تعبدهم وتدينهم هو تدين برّانى ، شكلانى ، لا ينبثق من الأعماق ، من الكيان الجواني للإنسان.

للعهد أن يرده إليها ، لما دهمهما من الوجد ، وقال لها الشيطان : يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى وأغرقته أنت. وبلغها أنه وقع فى يد فرعون ، فعظم البلاء ، إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ : لتبوح به وتظهر

شأنه وأنه ولدها.

قيل : لما رأت الأمواج تلعب بالتابوت كادت تصيح وتقول : يا ابناه ، وقيل : لما سمعت أن فرعون أخذ التابوت لم تشك أنه يقتله ، فكادت تقول : يا ابناه شفقة عليه. و«أن» مخففة ، أي : إنها كادت لتظهره لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها. والربط : تقويته بإلهام الصبر والتثبيت ، لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : من المصدقين بوعدنا ، وهو : إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ. وجواب «لو لا» : محذوف ، أي : لأبدته ، أو : فارغا من الهم ، حين سمعت أن فرعون تبناه ، إن كادت لتبدى بأنه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا مما سمعت ، لو لا أنا ربطنا على قلبها وثبتناه لتكون من المؤمنين الواثقين بعهد اللّه ، لا بتبني فرعون. قال يوسف بن الحسن : أمرت أم موسى بشيئين ، ونهيت عن شيئين ، وبشرت ببشارتين ، فلم ينفعها الكل ، حتى تولى اللّه حياطتها ، فربط على قلبها.

وَقالَتْ لِأُخْتِهِ مريم : قُصِّيهِ : اتبعى أثره لتعلمى خبره ، فَبَصُرَتْ بِهِ أي : أبصرته عَنْ جُنُبٍ عن بعد. قال قتادة : جعلت تنظر إليه كأنها لا تريده ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ أنها أخته ، وأنها تقصه.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للعبد ، الطالب لمولاه ، أن يصبح فارغا من كل ما سواه ، ليس فى قلبه سوى حبيبه ، فحينئذ يرفع عنه الحجاب ، ويدخله مع الأحباب ، فعلامة المحبة : جمع الهموم فى هم واحد ، وهو حب الحبيب ، ومشاهدة القريب المجيب ، كما قال الشاعر :

كانت لقلبى أهواء مفرّقة فاستجمعت ، مذ رأتك العين ، أهوائى

فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى

تركت للنّاس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

فرّغ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار. والأغيار : جمع غير ، وهو ما سوى اللّه ، فإن تلاشى الغير عن عين العبد شاهد مولاه فى غيب ملكوته ، وأسرار جبروته ، وفى ذلك يقول القائل :

إن تلاشى الكون عن عين قلبى شاهد السّرّ غيبه فى بيان

فاطرح الكون عن عيانك ، وامح نقطة الغين إن أردت ترانى

(٢٣٤/٤)

فمن شاهد حبيبه كاد أن يبدى به ، ويبوح بسره فرحا واغتباطا به ، لو لا أن اللّه يربط على قلبه ، ليكون من الثابتين الراسخين فى العلم به ، وإن أبدى سر الحبيب سلط عليه سيف الشريعة ، وبالله التوفيق.

ثم ذكر رجوع موسى إلى أمه ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ١٢ الى ١٣]
وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣)
قلت : المراضع : جمع مرضع ، وهى المرأة التي ترضع ، أو : مرضع - بالفتح - : موضع الرضاع ، وهو الثدي.
و(لا تحزن) : معطوف على (تقر).
يقول الحق جل جلاله : وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ أي : تحريم منع ، لا تحريم شرع ، أي : منعناه أن يرضع ثديا غير ثدي أمه. وكان لا يقبل ثدى مرضع حتى أهمهم ذلك. مِنْ قَبْلُ أي : من قبل قصصها أثره ، أو : من قبل أن نرده إلى أمه. فَقالَتْ أخته. وقد دخلت داره بين المراضع ، ورأته لا يقبل ثديا : هَلْ أَدُلُّكُمْ أرشدكم عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ يحفظون موسى لَكُمْ ، وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ لا يقصرون فى إرضاعه وتربيته. والنصح : إخلاص العمل من شائبة الفساد. روى أنها لما قالت : وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ قال هامان : إنها لتعرفه وتعرف أهله ، فخذوها حتى تخبر بقصة هذا الغلام ، فهو الذي نحذر ، فقالت : إنما أردت : وهم للملك ناصحون.
فانطلقت إلى أمها بأمرهم ، فجاءت بها ، والصبى على يد فرعون يعلله شفقة عليه ، وهو يبكى يطلب الرضاع ، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها ، فقال لها فرعون : ومن أنت منه ، فقد أبى كل ثدى إلا ثديك؟
فقالت : إنى امرأة طيبة الريح ، لا أوتى بصبى إلا قبلنى. فدفعه إليها ، وأجرى عليها مؤنة الرضاع. قيل : دينارا فى اليوم ، وذهبت به إلى بيتها ، وأنجز اللّه لها وعده فى الرد ، فعندها ثبت واستقر فى علمها أنه سيكون نبيا. وذلك قوله تعالى : فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها بولدها ، وَلا تَحْزَنَ لفراقه ، وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، أي : وليثبت علمها مشاهدة ، كما ثبت علما.

(٤/٢٣٥)

وأما جزعها وحيرتها فذلك من الطبع البشرى الجبلّىّ ، اللازم لضعف البشرية ، لا ينجو منه إلا خواص الخواص ، وإنما حل لها ما تأخذه من الدينار فى اليوم ، كما قال السدى : لأنه مال حربى ، لا أنه أجرة إرضاع ولدها.
وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ أي : القبط ، أو الناس جملة ، لا يَعْلَمُونَ أن ما وعد اللّه لا بد من إنجازه ، ولو بعد

حين ، وهو داخل تحت علمها ، أي : لتعلم أن وعد اللّه حق ، ولتعلم أن أكثر الناس لا يعلمون فيرتابون فيه. وفيه التعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوع موسى فى يد فرعون ، فجزعت ، وهذا من الطبع البشرى كما تقدم.

وأيضا يجوز أن يكون الوعد منوطا بشروط وأسباب ، قد لا تعرفها ، فلذلك لم ينفك خوفها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وحرمنا على الإنسان المراضع ، من لبان الخمرة الأزلية ، من قبل أن نلقيه بأهلها ، فقالت له العناية السابقة : هل أدلك على أهل بيت الحضرة يكفلونك من رعونات البشرية ، والهفوات القلبية ، وهى الإصرار على المساوئ والذنوب ، ويرضعونك من لبن الخمرة الأزلية. وهم لك ناصحون ، يدلونك على اللّه ولا يدلونك على غيره. فإن من دلّك على اللّه فقد نصحك ، ومن دلّك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلك على الدنيا فقد غشك.

فرددناه إلى أمه ، وهى الحضرة القدسية ، التي خرج منها ، بمتابعة شهوته وغفلته ، كى تقر عين روحه بمشاهدة حبيبها ، ولا تحزن على فوات شىء ، إذ لم تفقد شيئا ، حيث وجدت اللّه تعالى «ماذا فقد من وجدك؟ وما الذي وجد من فقدك؟» «١» ولتعلم أن وعد اللّه بالفتح على من توجه إليه بالواسطة حق ، ولكن أكثر أهل الغفلة لا يعلمون.

ثم ذكر سبب خروج موسى من مصر ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ١٤ الى ١٧]

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧)

قلت : عَلى حِينِ غَفْلَةٍ : حال ، أي : دخل مخفيا.

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا بَلَغَ موسى أَشُدَّهُ أي : نهاية القوة وتمام العقل ، جمع شدّة كنعمة وأنعم. وأول ما قيل فى الأشد : بلوغ النكاح ، وذلك أوله ، وأقصاه : أربع وثلاثون سنة. وَاسْتَوى أي : اعتدل

---

(١) من مناجاة سيدى ابن عطاء اللّه السكنندرى. انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي/ ص ٤٢.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٣٧
عقله وقوته ، وهو أربعون سنة ، ويروى أنه لم يبعث نبى إلا على رأس أربعين سنة. آتَيْناهُ حُكْماً : نبوة ، أو :
حكمة وَعِلْماً : فقها فى الدين ، أو : علما بمصالح الدارين. والحاصل : لما تكامل عقله وبصيرته آتيناه حكما على عبادنا وعلما بنا. وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي : كما فعلنا بموسى وأمه لمّا استسلمت لأمر اللّه ، وألقت ولدها فى البحر ، وصدقت بوعد اللّه ، فرددنا لها ولدها ، ووهبنا له الحكمة والنبوة ، فكذلك نجزى المحسنين فى كل أوان وحين.
قال الزجاج : جعل اللّه تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان لأنهما يؤديان إلى الجنة ، التي هى جزاء المحسنين ، والعالم الحكيم من يعمل بعلمه لأنه تعالى قال : وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ «١» ، فجعلهم جهالا ، إذ لم يعملوا بالعلم. هـ.
وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ أي : مصر ، آتيا من قصر ، فرعون ، وكان خارجا ، وقال السّدّى : مدينة منف من أرض مصر ، وقال مقاتل : قرية «حابين» ، على فرسخين من مصر. عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها ، وهو ما بين العشاءين ، أو : وقت القائلة ، يعنى : انتصاف النهار. قال السدى : لما كبر موسى ركب مراكب فرعون ، ولبس ملابسه ، فكان يدعى موسى بن فرعون ، فركب فرعون يوما وركب موسى خلفه ، فأدركه المقيل بقرب مدينة منف ، فدخلها نصف النهار ، وقد غلقت أسواقها ، وليس فى طرقها أحد ، فوجد موسى رجلين .. إلخ.
قال ابن إسحاق : كان يجتمع إلى موسى طائفة من بنى إسرائيل ويقتدون به ، فرأى مفارقة فرعون ، وتكلم فى ذلك حتى ظهر أمره ، فأخافوه ، فكان لا يدخل قرية إلا مستخفيا ، فدخلها على حين غفلة. وقيل : إن موسى لما شبّ علا فرعون بالعصى ، فقال : هذا عدو لى ، فأخرجه من مصر ، ولم يدخل عليهم إلى أن كبر وبلغ أشده ، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها بخبر موسى ، أي : من بعد نسيانهم خبره «٢» ، فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ يتضاربان ، هذا مِنْ شِيعَتِهِ ممن على دينه من بنى إسرائيل ، وقيل : هو السامري. وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره ، وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ من مخالفيه من القبط ، وهو طباخ فرعون. واسمه : «فليثور» ، وقيل فيهما : «هذا وهذا» ، وإن كانا غائبين على جهة الحكاية ، أي : إذا نظر إليهما الناظر قال : هذا وهذا.
وقال ابن عباس : لما بلغ موسى أشده كان يحمى بنى إسرائيل من الظلم والسخرة ، فبينما هو يمشى نظر رجلين يقتتلان ، أحدهما من القبط والآخر من بنى إسرائيل.

---

(١) من الآية ١٠٢ من سورة البقرة.
(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري فى تفسيره (٢٠/ ٤٣ - ٤٤).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٣٨
فَاسْتَغاثَهُ فاستنصره الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ أي : فسأله أن يغيثه الإعانة. ضمّن استغاث أعان ، فعداه ب «على». روى أنه لما استغاث به ، غضب موسى ، وقال للفرعونى : خله عنك؟ فقال : إنما آخذه ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك ، ثم قال الفرعون لموسى : لقد هممت أن أحمله عليك ، فَوَكَزَهُ مُوسى ضربه بجمع كفه ، أو : بأطراف أصابعه. قال الفراء الوكز : الدفع بأطراف الأصابع. فَقَضى عَلَيْهِ أي : قتله ، ولم يتعمد قتله ، وكان موسى عليه السّلام ذا قوة وبطش ، وإنما فعل ذلك الوكز لأن إغاثة المظلوم والدفع عنه دين فى الملل كلها ، وفرض فى جميع الشرائع. وإنما عدّه ذنبا لأن الأنبياء لا يكفى فى حقهم الإذن العام ، فلذلك قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ أي : القتل الحاصل ، بغير قصد ، من عمل الشيطان ، واستغفر ، وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان ، وسماه ظلما لنفسه ، واستغفر منه لأنه كان مستأمنا فيهم ، أو : لأنه قتله قبل أن يؤذن له فى القتل.
وعن ابن جريج : ليس لنبى أن يقتل ما لم يؤمر ، ولأن الخصوص يعظمون محقرات ما فرط منهم. إِنَّهُ أي :
الشيطان عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ظاهر العداوة.
قالَ رَبِّ أي : يا رب إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي بفعل صار قتلا فَاغْفِرْ لِي زلتى ، فَغَفَرَ لَهُ زلته ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ بإقالة الزلل ، الرَّحِيمُ بإزالة الخجل ، قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ أي : بحق إنعامك علىّ بالمغفرة ولم تعاقبنى فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ أي : لا تجعلنى أعين على خطيئة ، توسل للعصمة بإنعامه عليه.
وقيل : إنه قسم حذف جوابه ، أي : أقسم بإنعامك علىّ بالمغفرة ، إن عصمتنى ، فلن أكون ظهيرا للمجرمين ، وأراد بمظاهرة المجرمين صحبة فرعون ، وانتظامه فى جملته ، وتكثير سواده ، حيث كان يركب معه كالولد مع الوالد.
قال ابن عطية : واحتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية فى منع خدمة أهل الجور ، ومعونتهم فى شىء من أمورهم ، ورأوا أنها تتناول ذلك. هـ. قال الوصافي لعطاء بن أبى رباح : إن لى أخا يأخذ بقلمه ، وإنما يكتب ما يدخل ويخرج ، وله عيال ، ولو ترك لاحتاج وادّان. فقال : من الرأس؟ فقال : خالد بن عبد اللّه ، قال : أما تقرأ قول العبد الصالح : رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ، فإن اللّه عز وجل سيعينه. هـ.
الإشارة : خصوصية الولاية كخصوصية النبوة ، لا تعطى ، غالبا ، إلا بعد بلوغ الأشد وكمال قوة العقل ، وحصول الاستواء ، وهو أن يستوى عنده المدح والذم ، والعز والذل ، والمنع والعطاء ، والفقر والغنى ، وتستوى حاله فى القبض والبسط ، والغضب والرضا ، فإذا استوى فى هذه الأمور آتاه اللّه حكما

وعلما ، وجزاه جزاء المحسنين ، وكتب شيخ شيخنا إلى بعض تلامذته : أمّا بعد ، فإن تورعت فى أقوالك وأفعالك ، وتوسعت فى أخلاقك ، حتى

(٢٣٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٣٩

يستوى عندك من يمدحك ويذمك ، ويعطيك ويمنعك ، ومن يؤذيك وينفعك ، ومن يشدد عليك ويوسع ، فلا أشك فى كمالك. هـ.

فإن قلت : لم ذكر الحق ، جلّ جلاله ، الاستواء فى حق سيدنا موسى ، ولم يذكره فى حق نبيه يوسف - عليهما السلام؟ فالجواب : أن سيدنا يوسف عليه السّلام تربى فى السجن وفى نار الجلال ، وكل محنة تزيد تهذيبا وتدريبا ، فما بلغ الأشد حتى وقع له كمال الاستواء ، بخلاف سيدنا موسى عليه السّلام فإنه تربى فى العز والجمال ، فاحتاج إلى تربية وتهذيب ، بعد كمال الأشد ، فلم يحصل له كمال الأدب إلا بعد الاستواء الذي يليق به ، فلذلك ذكره فى حقه. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ١٨ الى ٢١]

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)

قلت : جملة (يسعى) : حال من (رجل) لأنه وصف بالجار.

يقول الحق جل جلاله : فَأَصْبَحَ موسى فِي الْمَدِينَةِ أي : مصر خائِفاً على نفسه من قتله قودا بالقبطي ، وهذا الخوف أمر طبيعى لا ينافى الخصوصية ، يَتَرَقَّبُ : ينتظر الأخبار عنه ، أو ما يقال فيه ، أو يترصد الاستفادة منه. وقال ابن عطاء : خائفا على نفسه ، يترقب نصرة ربه ، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ : يستغيثه ، مشتق من الصراخ لأنه يقع فى الغالب عند الاستغاثة. والمعنى : أن الإسرائيلى الذي خلصه موسى استغاث به ثانيا من قبطى آخر ، قالَ لَهُ مُوسى أي : للإسرائيلى : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ أي :

خال عن الرشد ، ظاهر الغى ، فقد قاتلت بالأمس رجلا فقتلته بسببك. قال ابن عباس : أتى فرعون ،

فقيل له : إن بنى إسرائيل قد قتلوا منا رجلا ، فالقصاص ، فقال : ابغوني القاتل والشهود ، فبينما هم يطلبون إذ مر موسى من الغد ،

(٢٣٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٤٠

فرأى ذلك الإسرائيلى يقاتل فرعونيا آخر ، يريد أن يسخره ، فاستغاث به الإسرائيلى على الفرعوني ، فوافق موسى نادما على القتل ، فقال للإسرائيلى : إنك لغوى مبين «١».

فَلَمَّا أَنْ أَرادَ موسى أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي بالقبطي الذي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما لموسى وللإسرائيلى لأنه ليس على دينهما ، أو : لأن القبط كانوا أعداء بنى إسرائيل ، أي : فلما مدّ موسى يده ليبطش بالفرعوني ، خشى الإسرائيلى أن يريده ، حين قال : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ، فقال : يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ ، يعنى : القبطي ، أَنْ ما تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً قتالا بالغضب ، فِي الْأَرْضِ أرض مصر ، وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ فى كظم الغيظ.

وقيل : القائل : يا مُوسى أَتُرِيدُ ... إلخ ، هو القبطي ، ولم يعلم أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس ، ولكن لما قصد أن يمنعه من الإسرائيلى استدل على أن الذي قتل صاحب هذا الرجل بالأمس هو موسى ، فلما ذكر ذلك شاع فى أفواه الناس أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس ، فأمسك موسى عنه ، ثم أخبر فرعون بذلك فأمر بقتل موسى.

وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ من آخرها ، واسمه : «حزقيل بن حبورا» ، مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ، يَسْعى : يسرع فى مشيه ، أو : يمشى على رجله ، قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ، أي :

يتشاورون فى قتلك ، ويأمر بعضهم بعضا بذلك. والائتمار : التشاور ، فَاخْرُجْ من المدينة ، إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ، فاللام فى (لك) : للبيان ، وليس بصلة لأن الصلة لا تتقدم على الموصول ، إلا أن يتسامح فى المجرور ، فَخَرَجَ مِنْها من مصر خائِفاً يَتَرَقَّبُ : ينتظر الطلب ويتوقعه ، قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قوم فرعون. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى الآية دليل على أن الخوف عند الدواهي الكبار لا ينافى الخصوصية لأنه أمر جبلّى ، لكنه يخف ويهون أمره ، وفيها دليل على جواز الفرار من مواطن الهلاك ، يفرّ من اللّه إلى اللّه ، ولا ينافى التوكل ، وقد اختفى صلى اللّه عليه وسلم من الكفار بغار ثور ، واختفى الحسن البصري من الحجّاج ، عند تلميذه حبيب العجمي. وفيها أيضا دليل على أن المعصية قد تكون سببا فى نيل الخصوصية ، كأكل آدم من الشجرة ، كان سببا فى نيل الخلافة ، وعمرة الأرض ، وما نشأ من صلبه من الأنبياء

والأولياء وجهابذة العلماء ، وكقتل موسى عليه السّلام نفسا لم يؤمر بقتلها ، كان سببا فى خروجه للتربية عند شعيب عليه السّلام ، وتهيئته للنبوة والرسالة والاصطفائية ، فكل ما يوجب التواضع والانكسار يورث التقريب عند الملك الغفار ، والحاصل : أن من سبقت له العناية ، ونال فى الأزل مقام المحبوبية

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ١٩٨).

(٢٤٠/٤)

صارت مساوئه محاسن ، ومن سبق له العكس صارت محاسنه مساوئ. اللهم اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت. وفى الحديث : «إذا أحب اللّه عبدا لم يضره ذنب» «١».

قال فى القوت : واعلم أن مسامحة ، اللّه عز وجل لأوليائه - يعنى : فى هفواتهم - فى ثلاث مقامات : أن يقيمه مقام حبيب صديق ، لما سبق من قدم صدق ، فلا تنقصه الذنوب لأنه حبيب. المقام الثاني : أن يقيمه مقام الحياء منه ، بإجلال وتعظيم ، فيسمح له ، وتصغر ذنوبه للإجلال والمنزلة ، ولا يمكن كشف هذا المقام ، إلا أنّا روينا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أنه ذكر طائفة فقال : «يدفع عنهم مساوئ أعمالهم بمحاسن أعمالهم». المقام الثالث : أن يقيمه مقام الحزن والانكسار ، والاعتراف بالذنب والإكثار ، فإذا نظر حزنه وهمه ، ورأى اعترافه وغمه ، غفر له حياء منه ورحمة. هـ. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر توجه موسى إلى مدين ، واتصاله بشعيب - عليهما السلام - فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٢٢ الى ٢٤]

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا تَوَجَّهَ موسى تِلْقاءَ مَدْيَنَ نحوها وجهتها. ومدين : قرية شعيب ، سميت بمدين بن إبراهيم ، كما سميت المدائن باسم أخيه مدائن ، ويقال له أيضا : «مدان بن إبراهيم» ، ولم تكن مدين فى سلطان فرعون ، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام ، ولعله إنما لم يتسلط عليها لما وصله من خبر إهلاك أهلها لما طغوا على أنبيائهم ، فخاف على نفسه. قال ابن عباس : خرج موسى ، ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه.

قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ أي : وسطه ونهجه. فلما خرج ، عرض له ثلاث طرق ، فأخذ في أوسطها ، وجاء الطلاب عقبه ، فأخذوا في الآخرين. روى أن ملكا جاءه على فرس بيده عنزة ، فانطلق به إلى

---

(١) أخرجه الديلمي (مسند الفردوس ٢/ ٧٧ ح ٤٢٣٢) من حديث أنس. ولفظه : «التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا أحب اللّه عبدا لم يضره ذنب» وزاد الزبيدي عزوه في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٦٠٩) لابن النجار في تاريخه.

(٤/ ٢٤١)

مدين. وروى أنه خرج بلا زاد ولا درهم ، ولا ظهر ، ولا حذاء - أي : نعل - ، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر ، فما بلغ مدين حتى وقع خفّ قدمه ، وخضرة البقل ترى على بطنه «١».

وَلَمَّا وَرَدَ وصل ماءَ مَدْيَنَ بئرا لهم ، وَجَدَ عَلَيْهِ على جانب البئر أُمَّةً جماعة كثيرة مِنَ النَّاسِ من أناس مختلفين يَسْقُونَ مواشيهم ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ في مكان أسفل من مكانهم امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ : تطردان غنمهما عن الماء ، حتى تصدر مواشى الناس ثم تسقيان لأن على الماء من هو أقوى منهما ، فلا يتمكنان من السقي. أو : لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم. والذود : الطرد والدفع.

قالَ لهما موسى : ما خَطْبُكُما : ما شأنكما لا تسقيان؟ والأصل : ما مخطوبكما ، أي : مطلوبكما ، فسمى المطلوب خطبا ، قالَتا لا نَسْقِي غنمنا حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ ، أي : يصرفوا مواشيهم ، يقال : أصدر عن الماء وصدر ، والمضارع : يصدر ويصدر ، والرعاء : جمع راع ، كقائم وقيام ، والمعنى : لا نستطيع مزاحمة الرجال ، فإذا صدروا سقينا مواشينا ، وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ السن ، لا يمكنه سقى الأغنام ، وهو شعيب بن نويب بن مدين بن إبراهيم - عليهما السلام - وقيل : هو «يثرون» بن أخى شعيب «٢» ، وكان شعيب قد مات بعد ما كفّ بصره ، ودفن بين المقام وزمزم. والأول أصح وأشهر.

فَسَقى لَهُما أي : فسقى غنمهما لأجلهما رغبة في المعروف وإغاثة الملهوف ، روى أنه نحى القوم عن رأس البئر ، وسألهم دلوا ، فأعطوه دلوهم ، وقالوا : استق به ، وكانت لا ينزعها إلا أربعون ، فاستقى بها ، وصبها في الحوض ، ودعا بالبركة. وقيل : كانت آبارهم مغطاة بحجارة كبار ، فعمد إلى بئر ، وكان حجرها لا يرفعه إلا جماعة ، فرفعه وسقى للمرأتين. ووجه مطابقة جوابهما سؤاله : أنه سألهما عن سبب الذود ، فقالتا : السبب في ذلك أنا امرأتان مستورتان ضعيفتان ، لا نقدر على مزاحمة الرجال ، ونستحى من الاختلاط بهم ، فلابد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا. وإنما رضى شعيب عليه السّلام

لابنتيه بسقى الماشية لأن الأمر فى نفسه مباح مع حصول الأمن ، وأما المروءة فعادات الناس فيها متباينة ، وأحوال العرب فيها خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر ، خصوصا إذا كانت الضرورة. قاله النسفي. قلت : وقد كنت أعترض على أهل الجبل رعي النّساء المواشي حتى تذكرت قضية ابنتي شعيب ، لكن السلامة فى زماننا هذا حبس النساء فى الديار لكثرة أهل الفساد.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٣ - ٣٨٤).

(٢) ذكره في تفسيره (٦/ ٢٠٠) عن وهب بن منبه.

(٢٤٢/٤)

ثُمَّ لما سقى لهما تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ظل شجرة. عن عمرو بن ميمون ، عن عبد اللّه قال : أحييت ليلتين على جمل لى ، حتى صبّحت مدين ، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى ، فإذا هى شجرة خضراء ، فأخذ جملى يأكل منها ثم لفظها. هـ «١». وفى الآية دليل على جواز الاستراحة والاستظلال فى الدنيا ، بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة ، وسيأتى فى الإشارة تمامه إن شاء اللّه.

ثم بث شكواه لمولاه فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ قليل أو كثير فَقِيرٌ محتاج. قال ابن عباس : لقد قال ذلك وإن خضراء البقل لتتراءى فى بطنه ، من الهزال. قيل : لم يذق طعاما منذ سبعة أيام ، وقد لصق بظهره بطنه ، وما سأل اللّه تعالى الأكلة. وفى هذا تنبيه على هوان الدنيا على اللّه تعالى.

وقال ابن عطاء :

نظر من العبودية إلى الربوبية ، وتكلم بلسان الافتقار ، لما ورد على سره من الأنوار. هـ.

الإشارة : ولما توجه القلب تلقاء مدين المآرب ، ومنتهى الرغائب - وهى الحضرة القدسية - قال : عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ، أي : وسط الطريق التي توصل إليها ، وهو شيخ التربية. ولمّا ورد مناهله ، ومحل شربه وجد عليه أمة من الناس يسقون قلوبهم من شراب تلك الخمرة ، ويطلبون مثل ما يطلب ، فإن كان قويا فى حاله وصل من كان ضعيفا وسقى له ، ثم نزل إلى ظل المعرفة ، فى نسيم برد الرضا والتسليم ، قائلا ، بلسان التضرع ، سائلا من اللّه المزيد : ربّ إنى لما أنزلت إلىّ من خير الدارين ، وغنى الأبد ، فقير محتاج إلى مزيد الفضل والكرم.

وقال فى لطائف المنن : ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ قصدا لشكر اللّه تعالى على ما ناله من النعمة - يعنى : نعمة الظل الحسى - وجعله أصلا فى استعمال الطيبات ، وتناولها بقصد الشكر ، ومثله فى التنوير.

وفي سنن أبى داود عن عائشة – رضى اللّه عنها – قالت : «كان صلى اللّه عليه وسلم يستعذب له الماء من بيوت السّقيا» «٢» ، قال ابن قتيبة : هى عين ، بينها وبين المدينة يومان. هـ. وكان الشيخ ابن مشيش يقول لأبى الحسن رضي اللّه عنه : (يا أبا الحسن ، برّد الماء فإن النفس إذا شربت الماد البارد حمدت اللّه بجميع الجوارح ، وإذا شربت الماء السخن حمدت اللّه بكزازة).

ثم ذكر اتصاله بشعيب ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٢٥ الى ٢٨]

فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ٥٨) وذكره ابن كثير (٣/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود فى (الأشربة ، باب فى إيكاء الآنية ، ح ٣٧٣٥ ، ٤/ ١١٩) والحاكم (٤/ ١٣٨) وبنحوه ، أحمد فى المسند (٦/ ١٠٠).

والسقيا : منزل بين مكة والمدينة ، على يومين من المدينة. انظر : النهاية فى غريب الحديث (سقا ، ٢/ ٣٨٢).

قلت : (تمشى) : حال من (إحداهما) ، و(على استحياء) : حال من ضمير (تمشى) ، أي : تمشى مستحيية.

و(القصص) : مصدر ، سمّي به المقصوص.

يقول الحق جل جلاله : فَجاءَتْهُ إِحْداهُما وهى التي تزوجها ، وذلك أنه لما سقى لهما رجعا إلى أبيهما بغنمهما بطانا حفّلا ، فقال لهما : ما أعجلكما؟ فقالتا له : وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا أغنامنا ، فقال لإحداهما : أدعيه ، فجاءته تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قد سترت وجهها بكفها ، واستترت بكمّ درعها. وهذا دليل على كمال إيمانها وشرف عنصرها لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها ، ولم تعلم أيجيبه أم لا؟ فقالت : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا ، «ما» مصدرية ، أي : أجر سقياك لنا ،

فتبعها موسى ، فألزقت الريح ثوبها بجسدها ، فوصفته ، فقال لها : امشى خلفى ، وانعتى الطريق ، فإننا بنى «١» يعقوب ، لا ننظر إلى أعجاز النساء.

فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ، أي : قصته وأحواله مع فرعون ، وكيف أراد قتله ، قالَ له : لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

فرعون وقومه إذ لا سلطان له على أرضنا - مدين - ، أو : قبل اللّه دعاءك فى قولك : رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وفيه دليل على العمل بخبر الواحد ، ولو أنثى ، والمشي مع أجنبية على ذلك الاحتياط والتورع. قاله النسفي. وفيه نظر لعصمة الأنبياء - عليهم السلام - ، وأما أخذ الأجر على البر والمعروف فقيل : لا بأس به عند الحاجة ، كما كان لموسى عليه السّلام ، على أنه روى أنه لمّا قالت له : لِيَجْزِيَكَ كره ذلك. وإنما أجابها لئلا يخيب قصدها لأن للقاصد حرمة.

ولما وضع شعيب الطعام بين يديه امتنع ، فقال شعيب : ألست جائعا؟ فقال : بلى ، ولكن أخاف أن يكون عوضا مما سقيت لهما ، وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا ، ولا نأخذ على المعروف شيئا ، فقال شعيب : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا ، فأكل «٢».

---

(١) فى الأصول [بنو].

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٢٣٨) لابن عساكر ، عن أبى حازم.

قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، أي : اتخذه أجيرا لرعى الغنم. روى أن كبراهما كانت تسمى : «صفراء» ، والصغرى : «صفيراء» ، وقيل : «صابورة» و«ليا». وصفراء هى التي ذهبت به ، وطلبت إلى أبيها أن يستأجره ، وهى التي تزوجها. قاله وهب بن منبه وغيره ، فانظره مع ما فى الحديث ، قال صلى اللّه عليه وسلم : «تزوج صغراهما ، وقضى أوفاهما» «١». ويمكن الجمع بأن يكون زوّجه إحداهما ثم نقله إلى الأخرى.

ثم قالت التي طلبت استئجاره : إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ، فقال : ما أعلمك بقوته وأمانته؟ فذكرت نزع الدلو ، أو رفع الحجر عن البئر ، وأمرها بالمشي خلفه. وفى رواية عند الثعلبي : أما قوته : فإنه عمد إلى صخرة لا يرفعها إلا أربعون رجلا ، فرفعها عن فم البئر. ثم ذكرت أمر الطريق. وقولها : إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ .. إلخ : كلام جامع لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان الكفاية والأمانة ، فى القائم بأمرك ، فقد فرغ بالك وتم مرادك. وقيل : القوى فى دينه ، الأمين فى جوارحه. وقد استغنت بهذا

الكلام ، الجاري مجرى المثل ، عن أن تقول : استأجره لقوته وأمانته.

وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب ، وصاحب يوسف في قوله : عَسى أَنْ يَنْفَعَنا «٢» ، وأبو بكر في استخلافه عمر.

قالَ شعيب لموسى - عليهما السلام - : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ : أزوجك إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ ، وقوله : هاتَيْنِ يدل على أن له غيرهما. وهذه مواعدة منه ، لا عقد ، وإلا لقال : أنكحتك. عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي أي : تكون أجيرا لى ، من أجرته : إذا كنت له أجيرا ثَمانِيَ حِجَجٍ سنين ، والحجة : السنة. والتزوج على رعى الغنم جائز في شرعنا ، على خلاف في مذهبنا. فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً أي : عشر حجج فَمِنْ عِنْدِكَ أي :

فذلك تفضل منك ، ليس بواجب عليك ، أو : فإتمامه من عندك ، ولا أحتمه عليك. وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ بإلزام أتم الأجلين. من المشقة ، سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ في حسن المعاملة ، والوفاء بالعهد ، أو مطلقا. وعلق بالمشيئة ، مراعاة لحسن الأدب مع الربوبية.

قالَ موسى عليه السّلام : ذلِكَ العهد وعقد الأجرة بَيْنِي وَبَيْنَكَ أي : ذلك الذي قلته ، وشارطتنى عليه ، قائم بيننا جميعا ، لا يخرج واحد منا عنه. ثم قال : أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ أي : أىّ الأجلين قضيت من

---

(١) أي : تزوج صغرى البنتين ، وقضى أوفى الأجلين ، وهو عشر سنوات. وأما الحديث فقد أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٢/ ١٢٨).

عن أبى ذر. والجزء الثاني من الحديث أخرجه البخاري بلفظ : «قضى أكثرهما وأطيبهما» وانظر تخريجه في الصفحة بعد التالية. [.....]

(٢) كما في الآية ٢١ من سورة يوسف.

الأجلين : العشر أو الثماني ، فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ أي : لا يتعدى علىّ في طلب الزيادة عليه ، قال المبرد : قد علم أنه لا عدوان عليه في إتمامهما ، ولكن جمعهما ليجعل الأقل كالأتم في الوفاء ، وكما أن طلب الزيادة على الأتم عدوان فكذلك طلب الزيادة على الأقل. وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ أي : رقيب وشهيد.

واختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح على قولين ، أحدهما : أنه لا ينعقد إلا بشاهدين ، وبه

قال أبو حنيفة والشافعي ، وقال مالك : ينعقد بدون شهود لأنه عقد معاوضة ، فلا يشترط فيه الإشهاد ، وإنما يشترط فيه الإعلان ، والإظهار بالدف والدخان ليتميز من السفاح ، ويجب عند الدخول.

روى أن شعيبا كانت عنده عصيّ الأنبياء – عليهم السلام – ، فقال لموسى بالليل : أدخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى ، فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ، ولم يزل الأنبياء – عليهم السلام – يتوارثونها ، حتى وقعت إلى شعيب ، فلما أخذها ، قال له شعيب : ردها وخذ غيرها ، فما وقع فى يده إلا هى سبع مرات. – وفى رواية السدى : أمر ابنته أن تأتيه بعصا فجاءته بها ، فلما رأها الشيخ قال : آتيه بغيرها ، فألقتها لتأخذ غيرها ، فلا تصير فى يدها إلا هى ، مرارا ، فرفعتها إليه ، فعلم أن له شأنا. ولما أصبح قال له شعيب : إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك ، فإن الكلأ ، وإن كان بها أكثر ، إلا أن فيها تنينا ، أخشاه عليك وعلى الغنم ، فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها ، فمشى على أثرها ، فإذا عشب وريف لم ير مثله ، فنام ، فإذا التنين قد أقبل ، فحاربته العصا حتى قتلته ، وعادت إلى جنب موسى دامى ، فلما أبصرها دامية ، والتنين مقتولا ارتاح لذلك. ولما رجع إلى شعيب بالغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن ، وأخبره موسى ، فرح ، وعلم أن لموسى شأنا ، وقال له : إني وهبت لك من نتاج غنمى ، هذا العام ، كلّ أدرِع ودرعاء – أي : كل جدى أبلق ، وأنثى بلقاء – فأوحى اللّه تعالى إلى موسى فى المنام : أن اضرب بعصاك الماء الذي تسقى منه الغنم ، فضرب ، ثم سقى الأغنام ، فوضعت كلها بلقاء ، فسلمها شعيب إليه.

وذكر الإمام اللجائى فى كتابه (قطب العارفين) : أن موسى عليه السّلام انتهى ، ذات يوم ، بأغنامه إلى واد كثير الذئاب ، وكان قد بلغ به التعب ، فبقى متحيرا ، إن اشتغل بحفظ الغنم عجز عن ذلك لغلبة النوم عليه والتعب ، وإن هو طلب الراحة ، وثبت الذئاب على الغنم ، فرمى السماء بطرفه ، وقال : إلهى إنه أحاط علمك ، ونفذت إرادتك ، وسبق تقديرك ، ثم وضع رأسه ونام. فلما استيقظ وجد ذئبا واضعا عصاه على عاتقه ، وهو يرعى الغنم ، فتعجب موسى من ذلك ، فأوحى اللّه إليه : يا موسى كن لى كما أريد ، أكن لك كما تريد. قال : فهذه إشارة تدل على أن :

من هرب من اللّه إلى اللّه كفاه اللّه ، عز وجل ، من دونه. هـ. واللّه تعالى أعلم.

(٤/٢٤٦)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٤٧

الإشارة : فجاءته – أي : القلب – إحدى الخصلتين الفناء والبقاء ، تمشى على مهل وقدر فإن الوصول إلى المقامات إنما يكون بتدريج ، على حسب القدر السابق. قالت إحدى الخصلتين : إن ربى يدعوك إلى حضرته ليجزيك أجر ما سقيت ، واستعملت فى جانب الوصول إلينا. فلما جاءه ، أي :

وصل إليه ، وتمكن منه ، وقص عليه القصص ، وهو ما جرى له مع نفسه وجنودها من المجاهدات والمكابدات ، قال : لا تخف اليوم ، حين وصلت إلينا ، نجوت من القوم الظالمين ، قالت إحداهما : يا رب استأجره فى العبودية شكرا ، إن خير من استأجرت القوى الأمين لأن عمله باللّه ، محفوفا برعاية اللّه ، قال : إنى أريد أن أعطيك إحدى الخصلتين ، إما الإقامة فى الفناء المستغرق ، أو الرجوع إلى البقاء المستفيق ، لتقوم بالأدب ، على أن تخدم ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا ، لزيادة التمكين ، فمن عندك ، فأقل خدمة المريد للشيخ ثمانى سنين ، ونهايتها نهاية التمكين. قال الورتجبي : لأن شعيبا ، عليه السّلام رأى بنور النبوة أن موسى عليه السّلام يبلغ درجة الكمال فى ثمانى حجج ، ولا يحتاج إلى التربية بعد ذلك ، ورأى أن كمال الكمال فى عشر حجج لأنه رأى أن بعد العشرة لا يبقى مقام الإرادة ، ويكون بعد ذلك حرا ، ولذلك قال : وما أريد أن أشق عليك. هـ.

ثم ذكر رجوع موسى إلى مصر ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٢٩ الى ٣٢]

فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ ، قال صلى اللّه عليه وسلم : «قضى أبعدهما وأطيبهما» «١» ، وفى رواية : «أبرهما وأوفاهما» ، وَسارَ بِأَهْلِهِ أي : امرأته ، نحو مصر ، قال مجاهد : ثم استأذن موسى أن يزور

---

(١) أخرجه البخاري فى (الشهادات ، باب من أمر بإنجاز الوعد ح ٢٦٨٤) ، عن ابن عباس ، موقوفا. وأخرجه البزّار (كشف الأستار ٣/ ٦٣) ، والحاكم فى (التفسير ٢/ ٤٠٧) ، والطبري (٢٠/ ٦٨) ، عن عكرمة ، عن ابن عباس مرفوعا. وانظر : الفتح السماوي (٢/ ٨٩٣ - ٨٩٤).

أهله بمصر ، فأذن له ، فسار بأهله فى البرّيّة ، فأوى إلى جانب الطور الغربي الأيمن ، فى ليلة مظلمة

شديدة البرد ، وكان أخذ على غير طريق ، يخاف ملوك الشام - قلت : ولعلهم كانوا من تحت يد فرعون - فأخذ امرأته الطّلق ، فقدح زنده ، فلم يور ، فآنس من جانب الطور نارا. هـ.

وقال ابن عطاء : لما تم أجل المحنة ، [ودنت] «١» أيام الزلفة ، وظهرت أنوار النبوة ، سار بأهله ليشتركوا معه فى لطائف صنع ربه. هـ. آنَسَ أي : أبصر مِنْ جانِبِ الطُّورِ أي : من الجهة التي تلو الطور ناراً ، قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ عن الطريق لأنه كان ضل عنها ، أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ أي : قطعة وشعلة منها ، والجذوة - مثلثة الجيم : العود الذي احترق بعضه ، وجمعه : «جذى». لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ تستدفئون بها. والاصطلاء على النار سنّة المتواضعين. وفى بعض الأخبار : «اصطلوا» فإن الجبابرة لا يصطلون».

فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ بالنسبة إلى موسى ، أي : عن يمين موسى ، فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ بتكليم اللّه تعالى فيها ، مِنَ الشَّجَرَةِ بدل من «شاطئ» بدل اشتمال ، أي : من ناحية الشجرة ، وهى العنّاب ، أو العوسج «٢» ، أو : سمرة «٣». وقال وهب : عليقا «٤». أَنْ يا مُوسى . أي : يا موسى ، أو : إنه يا موسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ ، قال البيضاوي : هذا ، وإن خالف ما فى «طه» و«النمل» لفظا ، فهو طبقه فى المقصود. هـ.

قال جعفر الصادق : أبصر نارا ، دلته على الأنوار لأنه رأى النور على هيئة النار ، فلما دنا منها شملته أنوار القدس ، وأحاطت به جلابيب الأنس ، فخاطبه اللّه بألطف خطاب ، واستدعى منه أحسن جواب ، فصار بذلك مكلّما شريفا ، أعطي ما سأل ، وأمن ممن خاف. هـ.

قال القشيري : فكان موسى عند الشجرة ، والنداء من اللّه لا منها ، وقد حصل الإجماع أن موسى ، تلك الليلة ، سمع كلام اللّه ، ولو كان النداء من الشجرة لكانت المتكلمة هى ، فلأجل الإجماع قلنا : لم يكن النداء منها ، وإلا فنحن نجوز أن يخلق اللّه نداء فى الشجرة. هـ. قلت : وسيأتى فى الإشارة ما لأهل التوحيد الخاص ، وما قاله - هو مذهب أهل الظاهر.

---

(١) فى الأصول [ودنا].

(٢) شجر من فصيلة الباذنجيات ، شائك الأغصان واحدته : عوسجة. انظر اللسان (٤/ ٢٩٣٧. مادة عسج).

(٣) السمرة : شجرة من العضاه ، وهى من جيد الخشب ، والجمع سمر وسمرات. انظر اللسان (٣/ ٢٠٩٢. مادة سمر).

(٤) العليق. شجر من شجر الشوك لا يعظم. وإذا نشب فيه شيء لم يكن يتخلص منه من كثرة شوكه. ولذلك سمى عليقا. انظر اللسان (٤/ ٣٠٧٤. مادة علق).

ثم قال تعالى : وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ ، أي : نودى : أن ألق عصاك ، فألقاها ، فقلبها اللّه ثعبانا ، فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ تتحرك كَأَنَّها جَانٌّ حية رقيقة. فإن قيل : كيف قال فى موضع : (كأنها جان) ، وفى أخرى : فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ «١»؟ قلت : هى فى أول أمرها جان ، وفى آخر أمرها ثعبان لأنها كانت تصير حية على قدر العصا ، ثم لا تزال تنتفخ حتى تصير كالثعبان ، أو : يريد فى سرعة الجان وخفته ، وفى قوة الثعبان. فلما رآها كذلك وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ولم يرجع عقبه. فقيل له : يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ، أي :
أمنت من أن ينالك مكروه من الحية.
واسْلُكْ : أدخل يَدَكَ فِي جَيْبِكَ جيب قميصك تَخْرُجْ بَيْضاءَ لها شعاع كشعاع الشمس مِنْ غَيْرِ سُوءٍ برص. وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، أي : الخوف ، فيه لغات : «الرّهب» ، بفتحتين ، وبالفتح والسكون ، وبالضم معه ، وبضمتين. والمعنى : واضمم يدك إلى صدرك يذهب ما لحقك من الخوف لأجل الحية ، وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : (كل خائف ، إذا وضع يده على صدره ، ذهب خوفه) «٢». وقيل :
المراد بضم يده إلى جناحه تجلده ، وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حية ، حتى لا يضطرب ولا يرهب ، استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما.
فَذانِكَ أي : اليد والعصا ، ومن شدد فإحدى النونين عوض من المحذوف ، بُرْهانانِ أي : حجتان نيرتان. وسميت الحجة برهانا لإنارتها ، من قولهم : بره الشيء : إذا ابيض ، والمرأة برهاء وبرهرهة : أي : بيضاء.
مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ أي : أرسلناك إلى فرعون وقومه بهاتين الحجتين ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ : خارجين عن الحق ، كافرين باللّه ورسوله.
الإشارة : قد تقدم فى سورة «طه» «٣» بعض إشارتها. ويؤخذ من الآية أن تزوج المريد ، بعد كمال تربيته ، كمال ، وأما قبل كماله : فإن كان بإذن شيخه فلا يضره. وربما يتربى له اليقين أكثر من غيره.
قوله تعالى : وَسارَ بِأَهْلِهِ قال الورتجبي : افهم أن مواقيت الأنبياء والأولياء وقت سير الأسرار من بدء الإرادة إلى عالم الأنوار. هـ.
وقوله تعالى : آنَسْتُ ناراً قال الورتجبي : الحكمة فى ذلك : أن طبع الإنسانية يميل إلى الأشياء المعهودة ، لذلك تجلى النور فى النار لاستئناسه بلباس [الاستئناس] «٤» ، ولا تخلو النار من الاستئناس ، خاصة فى الشتاء ، وكان شتاء ، فتجلى الحق بالنور فى لباس النار لأنه كان فى طلب النار ، فأخذ الحق مراده ، وتجلى من حيث إرادته ، وهو سنة اللّه تعالى. هـ.

(١) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.
(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٢٠٧).
(٣) راجع المجلد الثالث ، ص : ٣٨٢ - ٣٨٣.
(٤) فى الورتجبي : «الالتباس».

(٤/٢٤٩)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٥٠

وقوله تعالى : مِنَ الشَّجَرَةِ أي : نودى منها حقيقة إذ ليس فى الوجود إلا تجليات الحق ومظاهره ، فيكلم عباده من حيث شاء منها. قال فى العوارف : الصوفي لتجرده ، يشهد التالي كشجرة موسى ، حيث أسمعه اللّه خطابه منها ، بأني أنا اللّه لا إله إلا أنا. هـ. فأهل التوحيد الخاص لا يسمعون إلا من اللّه ، بلا واسطة ، قد سقطت الوسائط فى حقهم ، حين غرقوا فى بحر شهود الذات ، فافهم. وقال فى القوت : كانت الشجرة وجهة موسى عليه السّلام ، كلمه اللّه عز وجل منها ، كما قال بعضهم : إن قوله تعالى : فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ «١» ، أي : بالجبل ، كان الجبل من جهة الحس حجابا لموسى ، كشفه اللّه عنه ، فتجلى به ، كما قال : مِنَ الشَّجَرَةِ فكانت الشجرة وجهة له عليه السّلام هـ ، بإيضاح. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر اعتذار موسى ، وطلبه الإعانة بأخيه ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٣٣ الى ٣٥]

قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : قالَ موسى - لما كلف بالرسالة إلى فرعون : رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ بها ، وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً أي : عونا. يقال : ردأته : أعنته. وقرأ نافع : بالتخفيف ، يُصَدِّقُنِي : جواب الأمر ، ومن رفعه جعله صفة لردء ، أي : ردءا مصدقا لى.

ومعنى تصديقه : إعانته بزيادة البيان ، فى مظان الجدال ، إن احتاج إليه ليثبت دعواه ، لا أن يقول له : صدقت ، ففضل اللسان إنما يحتاج إليه لتقرير البرهان ، وأما قوله : صدقت فسحبان وباقل فيه مستويان. إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ فى دعوى الرسالة.

قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ أي : سنقويك به إذ اليد تشد بشدة العضد لأنه قوام اليد ، فشد العضد

كناية عن التقوية لأن العضد ، إذا اشتد ، قوي على محاولة الأمور ، أي : سنعينك بأخيك ، وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً غلبة وتسلطا وهيبة فى قلوب الأعداء ، فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما ، بِآياتِنا بسبب آياتنا ، القاهرة لهم عن التسلط

---

(١) من الآية ١٠٧ من سورة الأعراف ، ومن الآية ٣٢ من سورة الشعراء.

عليكم ، فالباء تتعلق بيصلون ، أو : بنجعل لكما سلطانا ، أي : تسلطا بآياتنا ، أو : بمحذوف ، أي : اذهبا بآياتنا ، أو : هو بيان لغالبون ، أي : أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ ، أي : المنصورون.

الإشارة : إذا اجتمع فى زمان نبيان ، أو : وليان ، لا تجدهما إلا متخالفين فى القوة والليونة ، أو فى السكر والصحو ، فكان موسى فى غاية القوة ، وأخوه فى غاية الليونة ، وكان موسى عليه السّلام فى أول الرسالة غالبا عليه الجذب ، وأخوه غالبا عليه الصحو ، فلذلك استعان به. قال الورتجبي : افهم أن مقام الفصاحة هو مقام الصحو والتمكين ، الذي يقدر صاحبه أن يخبر عن الحق [وأسراره ، بعبارة لا تكون بشيعة] «١» فى موازين العلم. وهذا حال نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، حيث قال : «أن أفصح العرب» «٢» ، و«بعثت بجوامع الكلم» «٣». وهذه قدرة قادرية اتصف بها العارف المتمكن ، الذي بلغ مشاهدة الخاص ، ومخاطبة الخاص ، وكان موسى عليه السّلام فى محل السكر فى ذلك الوقت ، ولم يطق أن يعبر عن حاله كما كان لأن كلامه ، لو خرج على وزان حاله ، يكون على نعوت الشطح ، عظيما فى آذان الخلق ، وكلام السكران ربما يفتتن به الخلق ، لذلك سأل مقام الصحو والتمكين بقوله : وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي لأن كلامه من بحر المكافحة والمواجهة الخاصة ، التي كان مخصوصا بها عن أخيه. هـ.

ثم ذكر عناد فرعون وتجبره ، قال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٣٦ الى ٣٩]

فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا معجزاتنا التسع بَيِّناتٍ واضحات قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً سحر تعمله أنت ، ثم تفتريه على اللّه ، أو : سحر موصوف بالافتراء ، كسائر أنواع

---

(١) عبارة الورتجبي [وأسراره بعباده لا يكون شفيعة].
(٢) قال فى اللآلئ : معناه صحيح ، ولكن لا أصل له. انظر : كشف الخفاء (١/ ٢٣٢ ، ح ٦٠٩).
(٣) بعض حديث أخرجه البخاري فى (الجهاد ، باب قول النبي/ صلى اللّه عليه وسلم : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، ح ٢٩٧٧). [.....]

السحر ، وليس بمعجزة من عند اللّه ، وَما سَمِعْنا بِهذا ، يعنى : السحر ، أو : ادعاء النبوة ، فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ ، الجار : حال منصوبة بهذا ، أي : ما سمعنا بهذا كائنا فى آبائنا ، أي : ما حدّثنا بكونه فيهم ، ولا موجودا فى آبائهم.

وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ ، فيعلم أني محق ، وأنتم مبطلون. وقرأ ابن كثير : «قال» بغير واو جوابا لمقالتهم. وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ أي : العاقبة المحمودة ، فإن المراد بالدار : الدنيا ، وعاقبتها الأصلية هى الجنة لأن الدنيا خلقت معبرا ومجازا إلى الآخرة ، والمقصود منها ، بالذات ، هو المجازاة على الأعمال فيها من الثواب الدائم ، أو العقاب الأليم ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ لا يفوزون بالهدى فى الدنيا ، وحسن العاقبة فى العقبى.

قال النسفي : قل ربى أعلم منكم بحال من أهّله اللّه للفلاح الأعظم حيث جعله نبيا ، وبعثه بالهدى ، ووعده حسن العقبى ، يعنى نفسه ، ولو كان كما تزعمون ، ساحرا ، مفتريا ، لما أهله لذلك لأنه غنى حكيم ، لا يرسل الكاذبين ، ولا ينبّئ الساحرين ، ولا يفلح عنده الظالمون ، وعاقبة الدار هى العاقبة المحمودة لقوله تعالى : أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ «١». والمراد بالدار : الدنيا ، وعاقبتها : أن تختم للعبد بالرحمة والرضوان ، ويلقى الملائكة بالبشرى والغفران. هـ.

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي ، قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده ، أي : مالكم إله غيرى. قاله تجبرا ومكابرة ، وإلا فهو مقر بالربوبية لقوله تعالى حاكيا عن موسى عليه السّلام : لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ «٢» ، وروى أنه كان إذا جن الليل ، لبس المسوح وتمرغ فى الرماد.

وقال : يا رب إنى كذاب فلا تفضحنى «٣».

ثم أمر ببنيان الصرح زيادة فى الطغيان ، بقوله : فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ أي : اطبخ لى الآجر واتخذه. وإنما لم يقل مكان الطين : آجرّ لأنه أول من عمله ، فهو معلمه الصنعة بهذه العبارة ، فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً أي : قصرا عاليا ، لَعَلِّي أَطَّلِعُ أي : أصعد. فالطلوع والاطلاع : الصعود ، إِلى إِلهِ مُوسى ، حسب

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الرعد.

(٢) من الآية ١٠٢ من سورة الإسراء.

(٣) هذا رواية باطلة ، فأولا : لا سند لها ، فهى لا تصح ، وثانيا : لأنها تناقض سلوك فرعون إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ ومِنَ الْمُفْسِدِينَ وطبع اللّه على قلبه وانظر إلى السطر التالي من كلام الشيخ ابن عجيبة رحمه اللّه.

(٢٥٢/٤)

الجاهل أنه فى مكان مخصوص ، كما كان هو فى مكان ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ أي : موسى مِنَ الْكاذِبِينَ فى دعواه أن له إلها ، وأنه أرسله إلينا رسولا.

وهذا تناقض من المخذول ، فإنه قال أولا : ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي ، ثم أظهر حاجته إلى هامان ، وأثبت لموسى إلها ، وأخبر أنه غير متيقن بكذبه ، وهذا كله تهافت. وكأنه تحصن من عصا موسى فلبّس وقال : لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى . روى أنه لما أمر وزيره هامان ببناء الصرح ، جمع هامان العمال ، خمسين ألف بنّاء ، سوى الأتباع والأجراء - فبنوا ، ورفعوه بحيث لم يبلغه بنيان قط ، منذ خلق اللّه السموات والأرض. أراد اللّه أن يفتنهم فيه ، فصعده فرعون وقومه ، ورموا بنشّابة نحو السماء ، فرجعت ملطّخة بالدم ، فقال : قد قتلنا إله السماء ، فضرب جبريل الصرح بجناحه ، فقطعه ثلاث قطع ، وقعت قطعة على عسكر فرعون ، فقتلت ألف ألف رجل ، وقطعة على البحر ، وقطعة فى الغرب ، ولم يبق أحد من عماله إلا هلك «١». هـ.

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ تعاظم فِي الْأَرْضِ أرض موسى بِغَيْرِ الْحَقِّ بغير استحقاق ، بل بالباطل ، فالاستكبار بالحق هو للّه تعالى ، وهو المتكبر المتعالي ، المبالغ فى كبرياء الشأن ، كما فى الحديث القدسي : «الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما قصمته» «٢» ، أو : ألقيته فى النار ، وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق. وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ بالبعث والنشور. وقرأ نافع وحمزة والكسائي : بالبناء للفاعل. والباقي : للمفعول. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الأرواح كلها برزت من عالم العز والكبرياء ، وهو عالم الجبروت ، فلما هبطت إلى عالم الأشباح ، وكلفت بالعبودية ، وبالخضوع لقهرية الربوبية ، شق عليها ، ونفرت من التواضع والذل ، وبطشت إلى أصلها لأنها من عالم العز ، فبعث اللّه الرسل ومشايخ التربية يدلونها على ما فيه سعادتها ، من الذل والتواضع والخضوع للحق ، حتى تصل إلى الحق ، فمن سبق له الشقاء أنف ، وقال : ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، واستكبر وطغى ، فغرق فى بحر الردى. ومن سبقت له السعادة تواضع ، وذل لعظمة مولاه ، فوصله إلى العز الدائم ، فى حضرة جماله وسناه.

ولذلك قيل : للنفس خاصية ما ظهرت إلا على فرعون ، حيث قال : أنا ربكم الأعلى.

وهذه الخاصية هى أصل نشأتها وبروزها ، حيث برزت من عالم الجبروت قال تعالى : (و نفخت فيه من روحى) ، ولكن لم يفتح لها الباب إلا من جهة العبودية والذل والافتقار ، كما قال الشاعر :

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٢٠٨ - ٢٠٩). وقال القرطبي (٦/ ٥١٤٩) : واللّه أعلم بصحة ذلك.

(٢) أخرجه أبو داود فى (اللباس ، باب ما جاء فى الكبر ، ٤/ ٣٥٠ ، ح ٤٠٩٠) وابن ماجه فى (الزهد ، باب البراءة من الكبر ، ٢/ ١٣٩٧ ، ح ٤١٧٤) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه ، بلفظ : «ألقيته فى النار» وأخرجه مسلم - من حديث أبى سعيد الخدري ، وأبى هريرة فى (البر والصلة ، باب تحريم الكبر ، ٤/ ٢٠٢٣ ، ح ٢٦٢٠) بلفظ : «العز إزاره ، والكبرياء رداؤه - فمن ينازعنى عذبته».

(٢٥٣/٤)

تذلّل لمن تهوى لتكسب عزّة فكم عزّة قد نالها المرء بالذّلّ

إذا كان من تهوى عزيزا ، ولم تكن ذليلا له ، فاقر السّلام على الوصل

ولا يرضى المحبوب من المحب إلا الأدب ، وهو التذلل والخضوع ، كما قال القائل :

أدب العبد تذلّل والعبد لا يدع الأدب

فإذا تكامل ذلّه نال المودّة ، واقترب.

ثم ذكر وبال من تكبر على اللّه ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٤٠ الى ٤٢]

فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى

النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)
يقول الحق جل جلاله : فَأَخَذْناهُ فأخذنا فرعون وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ طرحناهم فِي الْيَمِّ فى بحر القلزم ، كما بيّناه غير مرة. وفى الكلام فخامة تدل على عظمة شأن الأخذ ، شبههم استحقارا لحالهم ، واستقلالا لعددهم ، وإن كانوا الجم الغفير بحصيات أخذهن آخذ بكفه ، فطرحهن فى البحر. فَانْظُرْ يا محمد كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ، وحذّر قومك أن يصيبهم مثل ما أصابهم ، فإنهم ظالمون ، حيث كفروا وأشركوا ، وتحقّق أنك منصور عليهم ، كما نصر موسى على فرعون.
وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً قادة يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، أي : إلى عمل أهل النار من الكفر ، والمعاصي ، قال ابن عطاء : نزع عن أسرارهم التوفيق ، وأنوار التحقيق ، فهم فى ظلمات أنفسهم ، لا يدلون على سبيل الرشاد. وفيه دلالة على خلق أفعال العباد. هـ. وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ بدفع العذاب عنهم ، كما يتناصرون اليوم ، فى دفع الظلم عنهم ، وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً ألزمناهم طردا وإبعادا عن الرحمة. وقيل : هو ما يلحقهم من لعن الناس إياهم بعدهم. وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ المطرودين المعذبين ، أو المهلكين المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون. ويَوْمَ : ظرف للمقبوحين. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : عاقبة من تكبر فى دار العبودية : الذل والهوان ، وعاقبة من تواضع ، وذل فيها : العز والأمان ، وعاقبة من كان إماما فى المساوئ والعيوب : البعد والحجاب ، ومن كان إماما فى محاسن الخلال وكشف الغيوب :

(٢٥٤/٤)

العزّ والاقتراب. قال القشيري على قوله : وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً إلخ : كانوا فى الدنيا مبعدين عن معرفته ، وفى الآخرة مبعدين عن مغفرته ، فانقلبوا من طرد إلى طرد ، ومن هجر إلى بعد ، ومن فراق إلى احتراق. هـ.
ولما أغرق أهل الظلم والعناد ، أنزل الهداية على أهل العناية والوداد ، كما قال تعالى :
[سورة القصص (٢٨) : آية ٤٣]
وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ : التوراة مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى قوم نوح وهود وصالح ولوط - عليهم السلام - ، حال كون الكتاب بَصائِرَ لِلنَّاسِ أنوارا لقلوبهم ، يتبصرون الحقائق ، ويميزون بين الحق والباطل. فالبصيرة : عين القلب ، الذي يبصر بها الحق ، ويهتدى بها إلى الرشد والسعادة. كما أن البصر عين الرأس التي يبصر بها الحسيات ، أي : آتيناه التوراة ، أنوارا

للقلوب التي كانت عميا لا تستبصر ولا تعرف حقا من باطل ، وَهُدىً وإرشادا إلى الشرائع لأنهم كانوا يخبطون فى الضلال.
وَرَحْمَةً لمن اتبعها لأنهم ، إذا عملوا بها ، وصلوا إلى نيل الرحمة ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، أي : ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر والاتعاظ. وباللّه التوفيق.
الإشارة : إنما تطيب المنازل إذا خلت من الأجانب والأراذل. وأطيب عيش الأحباب إذا غابت عنهم الرقباء وأهل العتاب ، فلما أهلك اللّه فرعون وجنوده ، وأورث بنى إسرائيل ديارهم ، ومحى عن جميعها آثارهم ، طاب عيشهم ، وظهرت سعادتهم ، وتمكنوا من إقامة الدين. وكذلك أهل التوجه إلى يوم الدين.
ثم ذكر دلائل نبوته صلى اللّه عليه وسلم ، بعد ذكر قصة موسى لاشتراكهما فى شدة المعالجة ، فقال :
[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٤٤ الى ٤٦]
وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)
يقول الحق جل جلاله : وَما كُنْتَ يا محمد بِجانِبِ المكان الْغَرْبِيِّ من الطور ، وهو الذي كلم اللّه فيه موسى ، وهو الجانب الأيمن. قال السهيلي : إذا استقبلت القبلة ، وأنت بالشام ، كان الجبل يمينا منك ،

غربيا ، غير أنه قال فى قصة موسى : جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ «١» ، وصفه بالصفة المشتقة من اليمن والبركة ، لتكليمه إياه فيه ، وحين نفى عن محمد صلى اللّه عليه وسلم أن يكون بذلك الجانب ، قال : وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ ، والغربي هو الأيمن. والعدول عنه ، فى حالة النفي للاحتراس من توهم نفى اليمن عنه صلى اللّه عليه وسلم ، وكيف ، وهو صلى اللّه عليه وسلم لم يزل بصفة اليمن وآدم بين الماء والطين! فحسن اللفظ أصل فى البلاغة ، ومجانبة الاشتراك الموهم : من فصيح بديع الفصاحة. هـ.
أي : وما كنت حاضرا بذلك الموضع ، إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ ، أي : كلمناه ، وقربناه نجيا ، وأوحينا إليه بالرسالة إلى فرعون ، وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، أي : من جملة الشاهدين فتخبر بذلك ،

ولكن أعلمناك من طريق الوحى ، بعد أن لم يكن لك بذلك شعور ، والمراد : الدلالة على أن إخباره بذلك من قبل الإخبار بالمغيبات التي لا تعرف إلا بالوحى ، ولذلك استدرك عنه بقوله :
وَلكِنَّا أَنْشَأْنا بعد موسى قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ
، أي : طالت أعمارهم ، وفترت النبوة ، وانقطعت الأخبار ، واندرست العلوم ، ووقع التحريف فى كثير منها ، فأرسلناك مجدّدا لتلك الأخبار ، مبينا ما وقع فيها من التحريف ، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء ، وأوقفناك على قصة موسى بتمامها ، فكأنه قال : وما كنت شاهدا لموسى وما جرى عليه ، ولكنا أوحيناه إليك ، فأخبرت به ، بعد اندراسه.
وَما كُنْتَ ثاوِياً مقيما فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ، وهم شعيب والمؤمنون به ، تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا تقرؤها عليهم ، تعلما منهم ، أو : رسولا إليهم تتلوها عليهم بوحينا ، كما تلوتها على هؤلاء ، يريد : الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه ، وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ لك ، فأخبرناك بها ، وعلّمناك إياها ، فأخبرت هؤلاء بها ، وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا موسى ، أن خذ الكتاب بقوة ، أو ناجيناه فى أيام الميقات ، وَلكِنْ علمناك وأرسلناك رَحْمَةً أي : للرحمة مِنْ رَبِّكَ ، لِتُنْذِرَ قَوْماً جاهلية ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ فى زمان الفترة التي بينك وبين عيسى ، وهى خمسمائة وخمسون سنة ، أو : بينك وبين إسماعيل ، على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببني إسرائيل وما حواليهم ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ لعل من أرسلت إليه يتعظ ويتذكر ما هو فيه من الضلال ، فينزع ويرجع. وبالله التوفيق.
الإشارة : المراد من هذه الآيات : تحقيق نبوته صلى اللّه عليه وسلم ومعرفته الخاصة ، وهى سلّم ، ومعراج إلى معرفة اللّه تعالى لأنه الواسطة العظمى ، فمهما عرفته المعرفة الخاصة عرفت اللّه تعالى ، فمنه صلى اللّه عليه وسلم استمدت العلوم كلها علم

---

(١) من الآية ٥٢ من سورة مريم ، والآية ٨٠ من سورة طه.

الربوبية ، من طريق البرهان ، وعلمها من طريق العيان ، وعلم المعاملة الموصلة إلى الرضا والرضوان ، ومعرفة نبوته صلى اللّه عليه وسلم ضرورية لا تحتاج إلى برهان ، ويرحم اللّه القائل :
لو لم تكن فيه آيات مبيّنة «١» لكان منظره ينبيك بالخبر.
وقد تقدم فى الأعراف «٢» التنويه به ، وذكر شرفه ، وشرف أمته ، قبل ظهوره ، وإليه الإشارة هنا بقوله :

وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا ، أي : إذ نادينا بأمرك ، وأخبرنا بنبوتك ، روى عن أبى هريرة أنه نودى يومئذ من السماء : يا أمّة محمّد ، استجبت لكم قبل أن تدعونى ، وغفرت لكم قبل أن تسألونى ، فحينئذ قال موسى - عليه السّلام : اللهم اجعلنى من أمة محمد. هـ «٣».

وقال القشيري : أي : لم تكن حاضرا تتعلم ذلك مشاهدة ، فليس إلا تعريفنا إياك ، واطلاعنا لك على ذلك.

ويقال : إذ نادينا موسى ، وخاطبناه ، وكلمناه فى بابك وباب أمّتك ، وما طلب موسى لأمته جعلناه لأمتك ، فكونى لكم : خير لكم من كونكم لكم ، فلم تقدح فيكم غيبتكم فى الحال ، كما أنشدوا :

كن لى كما كنت لى فى حين لم أكن. هـ.

ويقال : لما خاطب موسى وكلمه ، سأله موسى ، إنه رأى فى التوراة أمة صفتهم كذا وكذا ، من هم؟ فقال : هم أمة محمد. وذكر لموسى أوصافا كثيرة ، فاشتاق إلى لقائهم ، فقال له : ليس اليوم وقت حضورهم ، فإن شئت أسمعناك كلامهم ، فأراد ذلك ، فنادى : يا أمة محمد فأجاب الكل من أصلاب آبائهم ، فسمع موسى كلامهم ، ثم لم يتركهم كذلك ، بل زادهم من الفضائل لأن الغنى إذا دعا فقيرا فأجابه لم يرض أن يذكره من غير إحسانه. هـ.

وقال الطبري : معنى قوله : إِذْ نادَيْنا أي : بقوله : فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ... الآية. هـ. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إرساله. فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٤٧ الى ٥٠]

وَلَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)

---

(١) فى الأصول [لو لم تكن له آية مبينة].

(٢) عند تفسير الآيتين : ١٥٦ - ١٥٧.

(٣) أخرجه ابن جرير فى التفسير (٢٠/ ٨١).

قلت : (لو لا) الأولى : امتناعية ، وجوابها محذوف ، أي : ولو لا أنهم قائلون إذا عوقبوا على ما قدّموا من الشرك ، محتجين علينا : (هلا أرسلت إلينا رسولا ..) إلخ لما أرسلناك.
يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ ، أي : عقوبة فى الدنيا والآخرة ، بِما بسبب ما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ من الكفر والظلم ، ولمّا كانت أكثر الأعمال إنما تناول بالأيدى ، نسب الأعمال إلى الأيدى ، وإن كانت من أعمال القلوب تغليبا للأكثر على الأقل ، فَيَقُولُوا عند نزول العذاب : رَبَّنا لَوْ لا هلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا ينذرنا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فلو لا احتجاجهم بذلك علينا لما أرسلناك ، فسبب الإرسال هو قولهم : هلا أرسلت .. إلخ.
ولما كانت العقوبة سببا للقول جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال ، فدخلت «لو لا» الامتناعية عليها ، فرجع المعنى إلى قولك : ولو لا قولهم هذا ، إذا أصابتهم مصيبة ، لما أرسلناك.
فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا القرآن المعجز ، أو الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، قالُوا أي : كفار مكة اقتراحا وتعنتا : لَوْ لا : هلا أُوتِيَ من المعجزات مِثْلَ ما أُوتِيَ أعطى مُوسى من اليد والعصا ، ومن الكتاب المنزل جملة. قال تعالى : أَوَلَمْ يَكْفُرُوا أي : أبناء جنسهم ، ومن مذهبهم على مذهبهم ، وعنادهم مثل عنادهم ، وهم الكفرة فى زمن موسى عليه السّلام ، قد كفروا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ من قبل القرآن ، قالُوا فى موسى وهارون : سِحْرانِ «١» تَظاهَرا : تعاونا ، أو : فى موسى ومحمد - عليهما السلام - بإظهار تلك الخوارق ، أو بتوافق الكتابين. وقرأ الكوفيون : «سحران» بتقدير مضاف ، أي : ذوا سحر ، أو : جعلوهما سحرين مبالغة فى وصفهما بالسحر. وَقالُوا أي : كفرة موسى وكفرة محمد صلى اللّه عليه وسلم : إِنَّا بِكُلٍّ بكل واحد منهما كافِرُونَ.
وقيل : إن أهل مكة ، لمّا كفروا بمحمد صلى اللّه عليه وسلم وبالقرآن فقد كفروا بموسى وبالتوراة ، وقالوا فى محمد صلى اللّه عليه وسلم وموسى : ساحران تظاهرا ، أو فى التوراة والقرآن : سحران تظاهرا ، أو : ذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي : «سحران» بكسر السين وسكون الحاء ، بلا ألف ، وقرأ الباقون : «ساحران» بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء ... انظر : الإتحاف (٢/ ٣٤٤).

يسألونهم عن محمد ، فأخبروهم أنه فى كتابهم ، فرجع الرهط إلى قريش ، فأخبروهم بقول اليهود ،

فقالوا عند ذلك : «١» سِحْرانِ تَظاهَرا وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ.
قُلْ لهم : فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما مما أنزل على موسى ، ومما أنزل علىّ ، أَتَّبِعْهُ : جواب : فأتوا ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى أنهما ساحران ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى ، فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ الزائغة ، ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ أي : لا أحد أضل ممن اتبع فى الدين هواه بغير هدى ، أي : بغير اتباع شريعة من عند اللّه. وبِغَيْرِ هُدىً : حال ، أي : مخذولا ، مخلّا بينه وبين هواه ، إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى والتقليد. وباللّه التوفيق.
الإشارة : لو لا احتجاج الناس على اللّه يوم القيامة ، حين تصيبهم نقائص عيوبهم ، ما بعث اللّه فى كل زمان نذيرا طبيبا ، فإذا ظهر وتوجه لتربية الناس ، قالوا : لو لا أوتى مثل ما أوتى فلان وفلان من كرامات المتقدمين ، فيقال لهم : قد كان من قبلكم من الأولياء لهم كرامات ، فكذّبوهم ، وأنكروا عليهم ، ورموهم بالسحر والتبدع وغير ذلك ، وبقوا مع هوى أنفسهم. ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من اللّه ، أي : بغير تمسك بمن يهديه إلى حضرة اللّه ، إن اللّه لا يهدى القوم الظالمين إلى معرفته الخاصة.
ثم ذكر حكمة تفريق القرآن ، ردا على من قال : لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى من إنزاله جملة ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : آية ٥١]
وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)
قلت : يقال : وصلت الشيء : جعلته موصولا بعضه ببعض ، ويقال : وصلت إليه الكتاب : أبلغته.
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ أي : لقريش ولغيرهم ، الْقَوْلَ القرآن ، أي : تابعناه موصولا بعضه ببعض فى المواعظ والزواجر ، والدعاء إلى الإسلام. قاله ابن عطية. وقال ابن عرفة اللّغوي : أي :
أنزلناه شيئا بعد شيء ، ليصل بعضه ببعض ، ليكونوا له أوعى. هـ. وتنزيله كذلك ليكون أبلغ فى التذكير ولذلك قال : لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، يعنى : أن القرآن أتاهم متتابعا متواصلا وعدا ، ووعيدا ، وقصصا ، وعبرا ، ومواعظ ليتذكروا فيفلحوا. وقيل : معنى وصلنا : أبلغنا. وهو أقرب لتبادر الفهم ، وفى البخاري : أي : «بيّنا وأتممنا» «٢». وهو عن ابن عباس.
وقال مجاهد : فصّلنا. وقال ابن زيد : وصلنا خير الدنيا بخير الآخرة ، حتى كأنهم عاينوا الآخرة فى الدنيا.

---
(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٢١٢).
(٢) ذكره البخاري فى (التفسير - سورة القصص ، ٨/ ٣٦٥ فتح).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦٠

الإشارة : تفريق المواعظ فى الأيام ، شيئا فشيئا ، أبلغ وأنفع من سردها كلها فى يوم واحد. وفى الحديث :

«كان صلى اللّه عليه وسلم يتخوّلنا بالموعظة ، مخافة السآمة علينا» «١» ، والتخول : التعاهد شيئا فشيئا. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر من آمن به وعرف قدره ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٥٢ الى ٥٥]

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (٥٥)

قلت : (الذين) : مبتدأ ، (و هم به) : خبر.

يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ من قبل القرآن هُمْ بِهِ أي : القرآن يُؤْمِنُونَ ، وهم مؤمنو أهل الكتاب ، أو : النجاشي وقومه ، أو : نصارى نجران ، الذين قدموا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمكة ، وهم عشرون رجلا ، فآمنوا به. قال ابن عطية : ذكر هؤلاء مباهيا بهم قريشا. هـ. أي : فهم الذين يقدرون قدر هذا الكتاب المنزل لما معهم من العلم الذي ميزوا به الحق ، ولذلك قال : وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا لما عرفوا فى كتابهم من نعت النبي صلى اللّه عليه وسلم وكتابه ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ من قبل القرآن ، أو : من قبل محمد صلى اللّه عليه وسلم ، مُسْلِمِينَ كائنين على دين الإسلام ، مومنين بمحمد صلى اللّه عليه وسلم. فقوله : إِنَّهُ : تعليل للإيمان به لأن كونه حقا من عند اللّه حقيق بأن يؤمن به. وقوله : إِنَّا : بيان لقوله : آمَنَّا لأنه يحتمل أن يكون إيمانا قريب العهد أو بعيده ، فأخبروه بأن إيمانهم به متقادم.

أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا بصبرهم على الإيمان بالتوراة ، والإيمان بالقرآن ، أو : بصبرهم على الإيمان بالقرآن ، قبل نزوله وبعده ، أو : بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب. وفى الحديث : «ثلاثة

---

(١) أخرجه البخاري فى (العلم ، باب ما كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يتخولهم بالموعظة .. ح ٦٨)

، ومسلم فى (صفات المنافقين ، باب الاقتصاد فى الموعظة ، ٤/ ٢١٧٢ ، ح ٢٨٢١) من حديث سيدنا عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

(٢٦٠/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦١

يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، ثم آمن بمحمد صلى اللّه عليه وسلم ، ورجل مملوك أدى حق اللّه وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة فأعتقها وتزوجها» «١».

وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ يدفعون الخصلة القبيحة بالخصلة الحسنة ، يدفعون الأذى بالسلم ، والمعصية بالطاعة. وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ يتصدقون ، أو يزكون ، وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ الباطل ، أو الشتم من المشركين ، أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا للاغين : لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ أمان منا عليكم ، لا نقابل لغوكم بمثله ، لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم ، أو : لا نبتغى دين الجاهلين ، أو محاورة الجاهلين وجدالهم ، أو : لا نريد أن نكون جهالا.

وفى السير : أن أصحاب النجاشي لمّا كلمهم جعفر رضي اللّه عنه فى مجمع النجاشي ، بكوا ، ووقر الإسلام فى قلوبهم ، فقدموا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمكة ، فقرأ عليهم القرآن ، فأسلموا ، وقالوا : آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا .. الآية. فلما خرجوا من عنده صلى اللّه عليه وسلم استقبلتهم قريش فسبوهم ، وقالوا : ما رأينا قوما أحمق منكم ، تركتم دينكم لمجلس ساعة مع هذا الرجل ، فقالوا لهم : سَلامٌ عَلَيْكُمْ .. إلخ «٢».

الإشارة : من تحمّل من العلماء مشقة تحمّل العلم الظاهر ، ثم ركب أهوال النفس ومحاربتها فى تحصيل العلم الباطن ، فهو ممن يؤتى أجره مرتين ، وينال عز الدارين ضعفين بسبب صبره على العلمين ، وارتكاب الذل مرتين ، إذا اتصف بما اتصف به أولئك ، بحيث يدرأ بالحسنة السيئة ، وينفق مما رزقه اللّه من الحس والمعنى ، كالعلوم والمواهب ، ويعرض عن اللغو - وهو كل ما يشغل عن شهود اللّه - ويحلم عن الجاهل ، ويرفق بالسائل. وباللّه التوفيق.

ولما حرص صلى اللّه عليه وسلم على إسلام عمه ، نزل :

[سورة القصص (٢٨) : آية ٥٦]

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)

---

(١) أخرجه البخاري فى (العلم ، باب تعليم الرجل أمته وأهله ح ٩٧) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة محمد صلى اللّه عليه وسلم إلى جميع الناس ، ١/ ١٣٤ ، ح ٢٤١) من

حديث أبى موسى الأشعري رضي اللّه عنه. [.....]

(٢) عزاه ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٩٤) لمحمد بن إسحاق فى السيرة.

(٢٦١/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦٢

يقول الحق جل جلاله : إِنَّكَ يا محمد لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، أي : لا تقدر أن تدخل فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل من قومك وغيرهم ، يعنى : أن خاصية الهداية خاصة بالربوبية ، وخاصية الربوبية لا تكون لمخلوق ، ولو كان أكمل الخلق. وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ يخلق الهداية فى قلب من يشاء ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ بمن يختار هدايته ويقبلها.

قال الزجاج : أجمع المفسرون أنها نزلت فى أبى طالب ، وذلك أنه قال عند موته : يا معشر بنى هاشم صدقوا محمدا تفلحوا ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «يا عمّ تأمرهم بالنّصيحة لأنفسهم ، وتدعها لنفسك!» فقال : ما تريد يا ابن أخى؟

فقال : «أريد منك أن تقول : لا إله إلا اللّه ، أشهد لك بها عند اللّه». فقال : يا ابن أخى أنا قد علمت أنك صادق ، ولكن أكره أن يقال جزع عند الموت. هـ. وفى رواية قال : (لو لا أن تعيرنى نساء قريش ، ويقلن : إنه حملنى على ذلك الجزع ، لأقررت بها عينك) «١». وفى لفظ آخر عند البخاري : قال له : «يا عم ، قل : لا إله إلا اللّه ، أحاجّ لك بها عند اللّه». فقال أبو جهل وعبد اللّه بن أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال : بل على ملّة عبد المطلب ، فنزلت الآية «٢».

وفيها دليل على المعتزلة لأنهم يقولون : الهدى هو البيان ، وقد هدى اللّه الناس أجمع ، ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم ، فدلت الآية على أن وراء البيان ما يسمى هداية وهو خلق الاهتداء ، وإعطاء التوفيق والقدرة على الاهتداء. وباللّه التوفيق.

الإشارة : الآية ليست خاصة بالنبي صلى اللّه عليه وسلم ، بل هى عامة لكل من يريد الهداية لأحد من خاصته ، كتب شيخ أشياخنا ، سيدى «أحمد بن عبد اللّه» ، إلى شيخه ، سيدى «أحمد بن سعيد الهبرى» يشكو له ابنه حيث لم ير منه ما تقر به عينه ، فكتب إليه : أخبرنى : ما الذي بنيت فيه؟ دع الدار لبانيها ، إن شاء هدمها وإن شاء بناها. هـ. وفى اللباب - بعد كلام - : قد رضى اللّه على أقوام فى الأزل ، فاستعملهم فى أسباب الرضا من غير سبب ، وسخط على أقوام فى الأزل ، فاستعملهم فى أسباب السّخط بلا سبب. فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ «٣» الآية.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الإيمان ، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ، ١/ ٥٥ ، ح ٤٢)

من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير - سورة القصص ، ح ٤٧٧٢) ، ومسلم فى الموضع السابق ذكره (١ ، ٥٤ ، ح ٣٩) ، من حديث سعيد ابن المسيب رضي اللّه عنه.

(٣) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

(٤/٢٦٢)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦٣

وهذه الآية تخاطب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بقولها : إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، والحكم عام فى كل أحد ، وقد خص رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بأتم الفضائل وأعلى الوسائل ، حتى لم يسبق لفضيلة ، ولم يحتج لوسيلة ، وليس له فى ذلك نظر ، بل سابقة السعادة أيدته ، والخصوصية قرّبته ، ولو كان له فى التقدير نظر ما منع من الشفاعة فى عمه أبى طالب ، ومن الاستغفار لأبيه. ولو كانت الهداية بيد آدم لهدى قابيل ، ولو كانت بيد نوح لهدى ولده كنعان ، أو بيد إبراهيم لهدى أباه آرز ، أو بيد محمد صلى اللّه عليه وسلم لأنقذ عمه أبا طالب ، جذبت العناية سلمان من فارس ، وصاحت على بلال من الحبشة ، وأبو طالب على الباب ممنوع من الدخول. سبحان من أعطى ومنع ، وضر ونفع. هـ.

ولما دعى صلى اللّه عليه وسلم قومه إلى الإسلام ، تعللوا بعلل واهية ، كما قال تعالى :

[سورة القصص (٢٨) : آية ٥٧]

وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧)

قلت : (رزقا) : حال من (الثمرات) لتخصيصه بالإضافة ، أو مصدر لتجبى لأن معناه : نرزق ، أو : مفعول له.

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : كفار قريش إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى وندخل مَعَكَ فى هذا الدين نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أي : تخطفنا العرب وتخرجنا من أرضنا. نزلت فى الحارث بن عثمان بن نوفل ، أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : نحن نعلم أنك على الحق ، ولكنا نخاف ، إن اتبعناك وخالفنا العرب ، وإنما نحن أكلة رأس ، أن يتخطفونا من أرضنا ، فردّ اللّه عليهم بقوله : أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً أو لم نجعل مكانهم حرما ذا أمن بحرمة البيت ، يأمن فيه قطانه ، ومن التجأ إليه من غيرهم؟ فأنّى يستقيم أن نعرضهم للتخطف ، ونسلبهم الأمن ، إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام؟

يُجْبى «١» إِلَيْهِ ، أي : تجمع وتجلب إليه من كل أوب ، ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ أي : كل صنف ونوع. ومعنى

الكلّيّة : الكثرة كقوله : وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ «٢» ، رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا ، ونعمة من عندنا ، وإذا كان هذا حالهم ، وهم عبدة الأصنام ، فكيف إذا أووا إلى كهف الإسلام ، وتدرعوا بلباس التوحيد؟

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر : «تجبى» بالتاء من فوق ، وقرأ الباقون : «يجبى». بالياء من تحت. انظر الإتحاف (٢/ ٣٤٥).

(٢) من الآية ٢٣ من سورة النمل.

وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أي : جهلة ، لا ينفطنون ولا يتفكرون حتى يعلموا أنه لا يهملهم من حفظه ورعايته ، إن أسلموا. وقيل : يتعلق بقوله : مِنْ لَدُنَّا ، أي : قليل منهم يتدبرون ، فيعلمون أن ذلك رزق من عند اللّه ، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ، ولو علموا أنه من عند اللّه لعلموا أن الخوف والأمن من عند اللّه ، ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ترى كثيرا من الناس ، ممن أراد اللّه حرمانه من الخصوصية ، يتعلل بهذه العلل الواهية ، يقول : إن دخلنا فى طريق القوم رفضنا الناس ، وأنكر علينا أقاربنا ، ونخاف الضيعة على أولادنا. يقول تعالى لهم : أو لم أمكّن لأوليائى ، المتوجهين إلى حضرة القدس ، حرما آمنا تجبى لأهلها الأرزاق من كل جانب ، بلا حرص ولا طمع ولا سبب ، ولكن أكثر الناس جهالا بهذا ، وقفوا مع العوائد ، فحرموا الفوائد ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

ثم خوفهم بقوله :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (٥٨) وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَأَهْلُها ظالِمُونَ (٥٩)

قلت : «كم» : منصوب بأهلكنا. والبطر : الطغيان عند النعمة. قال فى القاموس : البطر - محركة : النشاط ، والأشر ، وقلة احتمال النعمة ، والدهش ، والحيرة ، والطغيان بالنعمة ، وكراهة الشيء من غير أن يستحق الكراهية ، فعلى الكل : كفرح. هـ. و(معيشتها) : نصب بحذف الجار واتصال الفعل ، أي : فى معيشتها. وجملة (لم تسكن) :

حال ، والعامل فيها : الإشارة.

يقول الحق جل جلاله : وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ ، أي : كثيرا أهلكنا من أهل قرية ، كانت حالهم كحالهم فى الأمن والدعة ، وخصب العيش ، من وصفها بَطِرَتْ في مَعِيشَتَها ، أي : طغت وتجبرت ولم تشكر ، بل قابلتها بالبطر والطغيان. قال القشيري : لم يعرفوا قدر نعمتهم ، ولم يشكروا سلامة أموالهم ، وانتظام أمورهم ، فهاموا فى أودية الكفران على وجوههم ، وخرّوا فى وهدة الطغيان على أذقانهم ، فدمر اللّه عليهم وخرب ديارهم.

فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ خاوية ، أو : فتلك منازلهم باقية الآثار ، يشاهدونها فى الأسفار كبلاد ثمود ، وقرى لوط ، وقوم شعيب ، وغيرهم ، لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا من السكنى ، أي : لم يسكنها إلا المسافر ، أو مار

بالطريق يوما أو ساعة ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ لتلك المساكن من سكانها ، أي : لا يملك التصرف فيها غيرنا.

وفيه إشارة لوعد النصر لمتبع الهدى ، وأن الوراثة له ، لا أنه يتخطف كما قد قيل ، بل يقع الهلاك على من لم يشكر نعمة اللّه ، ويتبع هواه ، فكيف يخاف من تكون عاقبته الظفر ممن يكون عاقبته الدمار والتبار؟ والحاصل : إنما يلحق الخوف من لم يتبع الهدى ، فإنه الذي جرت سنة اللّه فيه بالهلاك ، وأما متبع الهدى فهو آمن والعاقبة له.

وَما كانَ رَبُّكَ وما كانت عادته مُهْلِكَ الْقُرى بذنب حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها ، أي : القرية التي هى أصلها ومعظمها لأن أهلها يكونون أفطن وأقبل. رَسُولًا لإلزام الحجة وقطع المعذرة ، أو : ما كان فى حكم اللّه وسابق قضائه أن يهلك القرى فى الأرض حتى يبعث فى أمها ، وهى مكة لأن الأرض دحيت من تحتها.

رَسُولًا يعنى : محمدا صلى اللّه عليه وسلم ، يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا القرآن ، وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ ، أي : وما أهلكناهم للانتقام ، إلا وأهلها مستحقون العذاب بظلمهم ، وهو إصرارهم على الكفر والمعاصي ، والعناد ، بعد الإعذار إليهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وكم خرّبنا من قلوب وأخليناها من النور ، حيث طغت وتجبرت فى معيشتها ، وانشغلت بحظوظها وشهواتها ، فتلك أماكنها خاوية من النور ، لم تسكن بالنور إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين لها ، فأعطينا ذلك النور غيرها ، وما فعلنا ذلك حتى بعثنا من يذكرها وينذرها ، وما كنا مهلكى قلوب ومتلفيها إلا وأهلها ظالمون ، بإيثار الغفلة والشهوة على اليقظة والعفة. واللّه تعالى أعلم.

وسبب الهلاك هو حب الدنيا ، ولذلك حقّر اللّه تعالى شأنها ، حيث قال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٠ الى ٦٢]

وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)

قلت : «ما» : شرطية ، وجملة : (فمتاع ..) إلخ : جوابه.

يقول الحق جل جلاله : وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ من زهرة الدنيا فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها أي : أىّ شىء أحببتموه من أسباب الدنيا وملاذها فما هو إلا تمتع وزينة ، أياما قلائل ، وهى مدة الحياة الفانية ، وَما عِنْدَ اللَّهِ من النعيم الدائم فى الدار الباقية ثوابا لأعمالكم خَيْرٌ من ذلك لأنه لذة خالصة فى بهجة كاملة.

(٢٦٥/٤)

وَأَبْقى لأنه دائم لا يفنى ، أَفَلا تَعْقِلُونَ أن الباقي خير من الفاني ، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : (إن اللّه خلق الدنيا ، وجعل أهلها ثلاثة أصناف المؤمن والمنافق والكافر ، فالمؤمن يتزود ، والمنافق يتربى ، والكافر يتمتع. ثم قرأ هذه الآية). وفى الحديث عنه صلى اللّه عليه وسلم : «لو كانت الدنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة ماء» «١». رواه الترمذي.

ثم قرر ذلك بقوله : أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً ، وهو الجنة إذ لا شىء أحسن منها ، حيث اشتملت على النظر لوجه اللّه العظيم ، ولأنها دائمة ، ولذا سميت الحسنى ، فَهُوَ أي : الوعد الحسن لاقِيهِ ومدركه ، لا محالة ، لامتناع الخلف فى وعده تعالى ، كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا الذي هو مشوب بالكدر والمتاعب ، مستعقب بالفناء والانقطاع ، ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ للحساب والعقاب ، أو : من الذين أحضروا النار.

والآية نزلت فى المؤمن والكافر ، أو : فى رسول صلى اللّه عليه وسلم وأبى جهل «٢» - لعنه اللّه - ، ومعنى الفاء الأولى : أنه لمّا ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند اللّه عقّبه بقوله : أَفَمَنْ وَعَدْناهُ أي : أبعد هذا التفاوت الجلى نسوى بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة؟ والفاء الثانية للتسبيب لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد. و«ثم» : لتراخى حال الإحضار عن حال التمتع. ومن قرأ : «ثم هو» بالسكون ، شبّه المنفصل بالمتصل ، كما قيل فى عضد - بسكون الضاد - .

وَاذكر يَوْمَ يُنادِيهِمْ يوم ينادى اللّه الكفار ، نداء توبيخ ، فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ فى زعمهم الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أنهم شركائى ، فحذف المفعول لدلالة الكلام عليه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى الآية تحقير لشأن الدنيا الفانية ، وتعظيم لشأن الآخرة الباقية. وقد اتفق على هذا جميع الأنبياء والرسل والحكماء ، قديما وحديثا ، وقد تقدم آنفا أنها لا تزن عند اللّه جناح بعوضة ، وفى حديث آخر : «ما الدنيا فى جانب الآخرة ، إلا كما يدخل أحدكم يده فى البحر ثم يخرجه ، فانظر ماذا يعلق به» «٣». بالمعنى. فنعيم الدنيا كله ، بالنسبة إلى نعيم الجنان ، كبلل الأصبع ، الذي دخل فى الماء ثم خرج. مع أن نعيمها مكدر ، ممزوج بالأهوال

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء فى هوان الدنيا على اللّه ، ٤/ ٤٨٥ ح ٢٣٢٠) ، وابن ماجه فى (الزهد ، باب مثل الدنيا ، ٢/ ١٣٧٦ ، ح ٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه الطبري (٢٠/ ٩٧) عن مجاهد.

(٣) أخرجه مسلم بنحوه فى (الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب فناء الدنيا ، وبيان الحشر يوم القيامة ، ٤/ ٢١٩٣ ، ح ٢٨٥٨) من حديث المستورد أخى بن فهر رضي اللّه عنه.

والأحزان والمتاعب. وقد كتب على بن أبى طالب إلى سلمان - رضي اللّه عنهما - : «إنما مثل الدنيا كمثل الحية ، لين مسها ، قاتل سمها ، فأعرض عنها ، وعما يعجبك منها ، لقلة ما يصحبك منها ، ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها ، وكن أسرّ ما تكون منها ، أحذر ما تكون منها ، فإن صاحبها ، كلما اطمأن فيها إلى سرور ، أشخص منها إلى مكروه».

وعن عبد اللّه بن عمرو رضي اللّه عنه أنه قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : «إن هذه الدار دار الثوى ، لا دار استواء ، ومنزل ترح ، لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخائها ، ولم يحزن لشقائها - أي : لأنهما لا يدومان - ألا وإن اللّه خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى ، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سببا ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ليعطى ، ويبتلى ليجزى ، وإنها سريعة الثوى - أي : الهلاك - وشيكة الانقلاب ، فاحذروا حلاوة رضاعها ، لمرارة فطامها ، واهجروا لذيذ عاجلها لكريه آجلها ، ولا تسعوا فى عمران دار قد قضى اللّه خرابها ، ولا تواصلوها وقد أراد اللّه منكم اجتنابها ، فتكونوا لسخطه متعرضين ، ولعقوبته مستحقين. هـ. ذكره ابن

وداعة الموصلي.

وذكر أيضا عن ابن عباس رضي اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : «ما سكن حب الدنيا قلب عبد إلا التاط منها بثلاث : شغل لا ينفد عناؤه ، وفقر لا يدرك غناه ، وأمل لا ينال منتهاه ، إن الدنيا والآخرة طالبتان ومطلوبتان ، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا ، حتى يستكمل رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يأخذ الموت بعنقه ، ألا وإن السعيد من اختار باقية يدوم نعيمها ، على فانية لا ينفك عذابها ، وقدّم لما يقدم عليه مما هو الآن في يده ، قبل أن يخلفه لمن يسعد بإنفاقه ، وقد شقى هو بجمعه واحتكاره».

ثم ذكر مآل من اغتر فيها ، قال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٣ الى ٦٧]

قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧)

(٢٦٧/٤)

قلت : «هؤلاء» : مبتدأ. و«الذين» : صفته ، والعائد : محذوف ، و«أغويناهم» : خبر. والكاف في «كما» : صفة لمصدر محذوف ، أي : أغويناهم غيا مثل ما غوينا ، و«لو أنهم» : جوابه محذوف ، أي : لما رأوا العذاب.

يقول الحق جل جلاله : قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ بالعذاب ، وثبت مقتضاه ، وهو قوله تعالى : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ «١» ، وهم الشياطين ، أو : أئمة الكفر : ورؤساء الكفرة : رَبَّنا هؤُلاءِ الكفرة الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ أي : دعوناهم إلى الشرك وسوّلناه لهم ، قد غووا غيا كما مثل ما غَوَيْنا يقولون : إنا لم نغو إلا باختيارنا ، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لأن إغواءنا لم يكن إلا وسوسة وتسويلا ، فلا فرق إذن بين غينا وغيهم ، وإن كان تسويلنا داعيا لهم إلى الكفر فقد كان في مقابلته دعاء اللّه لهم إلى الإيمان ، بما وضع فيهم من أدلة العقل ، وما بعث إليهم من الرسل ، وأنزل إليهم من الكتب ، وهذا كقوله : وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ... إلى قوله : وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ... «٢».

ثم قالوا : تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ منهم فيما اختاروه من الكفر ، ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ ، بل كانوا يعبدون أهواءهم ،

ويطيعون شهواتهم. فتحصّل من كلام هؤلاء الرؤساء أنهم اعترفوا أنهم غرّوا الضعفاء ، وتبرءوا من أن يكونوا آلهتهم ، فلا تناقض. انظر ابن جزى. وإخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقررتين للجملة الأولى.

وَقِيلَ للمشركين : ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ أي : الأصنام «٣» لتخلصكم من العذاب ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، فلم يجيبوهم لعجزهم عن الإجابة والنصرة. وَرَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ لمّا رأوا ذلك العذاب ، وقيل : «لو» للتمنى ، أي : تمنوا أنهم كانوا يهتدون.

وَاذكر يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ الذي أرسلوا إليكم؟ أي : بماذا أجبتموهم؟ وهو أعلم بهم. حكى ، أولا ، ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ، ثم ما تقوله الشياطين ، أو : أئمة الكفر عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين ، أو الرؤساء ، استغووهم ، ثم ما يشبه الشماتة بهم لاستغاثتهم بآلهتهم وعجزهم عن نصرتهم. ، ثم ما يبكّتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل. قال تعالى :

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ خفيت عليهم الحجج أو الأخبار. وقيل : خفى عليهم الجواب ، فلم يدروا بماذا يجيبون إذ لم يكن عندهم جواب.

---

(١) الآية ١١٩ من سورة هود.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

(٣) وكذلك كل ما أشرك مع اللّه.

قال البيضاوي : وأصله : فعموا عن الأنباء ، لكنه عكس مبالغة ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يفيض ويرد عليه من خارج ، فإن أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره ، والمراد بالأنباء : ما أجابوا به الرسل ، أو : ما يعمها وغيرها ، فإذا كانت الرسل يتلعثمون فى الجواب عن مثل ذلك من الهول ، ويفوضون إلى علم اللّه تعالى فما ظنك بالضلال من البهم؟. هـ.

فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة ، أو : عن العذر والحجة ، عسى أن يكون عندهم عذر أو حجة. فَأَمَّا مَنْ تابَ من الشرك وَآمَنَ بربه وبمن جاء من عنده ، وَعَمِلَ صالِحاً أي : جمع بين الإيمان والعمل ، فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ من الفائزين عند اللّه بالنعيم المقيم. و«عسى» ، من الكرام ، تحقيق. وفيه بشارة للمسلمين على الإسلام ، وترغيب للكافرين فى الإيمان.

وباللّه التوفيق.

الإشارة : قال الذين حق عليهم القول بالانحطاط عن درجة المقربين ، والبقاء مع عامة أهل اليمين ، وهم الصادّون الناس عن الدخول فى طريق القوم : ربنا هؤلاء الذين أغوينا زينا لهم البقاء مع الأسباب ، والوقوف مع العوائد ، أغويناهم كما غوينا ، فحيث لم نقو على مقام أهل التجريد ، قوينا سوادنا بهم ، تبرأنا إليك لأنا لم نقهرهم ، ولكن وسوسنا لهم ذلك ، ما كانوا إيانا يعبدون ، ولكن عبدوا هوى أنفسهم. ثم يقال لهم : ادعوا ما كنتم تعبدونه من حظوظ الدنيا وشهواتها ، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ، ورأوا عذاب القطيعة ، لو أنهم كانوا يهتدون إلى اتباع أهل التربية ما وقعوا فى ذلك. ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبتم الداعين ، الذين أرسلتهم فى كل زمان ، يدعون إلى اللّه ، ويرفعون الحجاب بينهم وبين ربهم ، فعميت عليهم الأنباء يومئذ ، فهم لا يتساءلون عن أحوال المقربين ، لغيبتهم عنهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم بيّن اللّه تعالى بعض صفاته الحسنى ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٨ الى ٧٠]

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، لا موجب عليه ، ولا مانع له ، وفيه دلالة على خلق الأفعال. وَيَخْتارُ ما يشاء ، لا اختيار لأحد مع اختياره. قال البيضاوي : وظاهره : نفى الاختيار عنهم رأسا ،

والأمر كذلك عند التحقيق فإنّ اختيار العبد مخلوق للّه ، منوط بدواع لا اختيار لهم فيها ، وقيل : المراد أنه ليس لأحد أن يختار عليه ، فلذلك خلا عن العاطف ، يعنى قوله : ما كانَ .. إلخ ، ويؤيده : ما روى أنه نزل فى قولهم : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «١» هـ. ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ أي : ليس لهم أن يختاروا مع اللّه شيئا ما ، وله الخيرة عليهم. والخيرة : من التخير ، تستعمل مصدرا بمعنى التخير ، وبمعنى المتخيّر ، ومنه : محمد خيرة اللّه من خلقه ، ولم يدخل العاطف فى ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ لأنه مقرر لما قبله ، وقيل : «ما» : موصولة ، مفعول بيختار ، والراجع إليه : محذوف ، أي : ويختار الذي كان لهم منه الخيرة والصلاح.

هـ. وبحث فيه النسفي بأن فيه ميلا إلى الاعتزال ، ويجاب : بأن المعتزلة يقولون ذلك على سبيل الإيجاب ، ونحن نقوله على سبيل التفضل والإحسان.

سُبْحانَ اللَّهِ ، أي : تنزيها له عن أن ينازعه أحد ، أو يزاحم اختياره اختيار. وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، أي : تعاظم عن إشراكهم ، أو : عن مشاركة ما يشركون به.

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ : تضمر صُدُورُهُمْ من عداوة الرسول - عليه الصلاة والسلام - وحسده ، وَما يُعْلِنُونَ من مطاعنهم فيه ، وقولهم : هلّا اختير عليه غيره فى النبوة. وَهُوَ اللَّهُ المستأثر بالألوهية المختص بها ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، تقرير له ، كقولك : الكعبة قبلة ، لا قبلة إلا هى. لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى أي :

فى الدنيا ، وَالْآخِرَةِ لأنه المولى للنعم كلها ، عاجلها وآجلها ، يحمده المؤمنون فى الدنيا ، ويحمدونه فى الآخرة بقولهم : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ «٢» ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ «٣» ، وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «٤» ، والتحميد تم على وجه التلذذ لا الكلفة. وَلَهُ الْحُكْمُ القضاء بين عباده ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بالبعث والنشور. وباللّه التوفيق.

الإشارة : فى الآية تحضيض على ترك التدبير والاختيار ، مع تدبير الواحد القهار ، وهو أصل كبير عند أهل التصوف ، أفرد بالتأليف ، وفى الحكم : «أرح نفسك من التدبير ، فما قام به غيرك عنك لا تقم به أنت عن نفسك».

وقال سهل رضي اللّه عنه : ذروا التدبير والاختيار ، فإنهما يكدران على الناس عيشهم. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه : ذروا التدبير ، وإن كان ولا بد من التدبير ، فدبروا ألا تدبروا. هـ.

والتدبير المذموم : هو ما فيه للنفس حظ ، كتدبير أسباب الدنيا ، وما تحصل بها من شهواتها ، إذا صحبه عزم أو تكرير ، وأمّا ما كان فيما يقرب إلى اللّه تعالى فهو النية الصالحة ، أو لم يصحبه تصميم بأن كان عزمه محلولا ،

---

(١) الآية ٣١ من سورة الزخرف ، وانظر تفسير البغوي (٦/ ٢١٨)

(٢) من الآية ٣٤ من سورة فاطر. [.....]

(٣) من الآية ٧٤ من سورة الزمر.

(٤) الآية ٧٥ من سورة الزمر.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٧١
أو علقه بمشيئة اللّه ، أو كان خاطرا غير ساكن ، فلا بأس به. قال القشيري - بعد كلام فى وجه اختصاص التدبير بالحق تعالى : لأنه لو لم تنفذ مشيئته واختياره لم يكن بوصف العزّ لأن من نفى عن مراده لا يكون إلا ذليلا ، والاختيار للحق نعت عز ، والاختيار للخلق صفة نقص ، ونعت ملام وقصور ، فاختيار العبد عليه غير مبارك له لأنه صفة غير مستحقّ لها ، ومن اتصف بما لا يليق به افتضح ، قال قائلهم :
ومعان إذا ادّعاها سواهم «١» لزمته جناية السّرّاق
والطينة إذا ادّعت صفة للحقّ أظهرت رعونتها ، فما للمختار «٢» والاختيار؟! وما للملموك والملك؟! وما للعبيد فى دست الملوك؟! قال تعالى : ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ. هـ. وقال آخر فى هذا المعنى :
العبد ذو ضجر ، والربّ ذو قدر والدهر ذو دول ، والرزق مقسوم
والخير أجمع : فيما اختار خالقنا وفى اختيار سواه : اللوم والشّوم.
فإذا علمت ، أيها العبد ، أن الحق تعالى هو الذي يخلق ما يشاء ويختار ، لم يبق لك مع اللّه اختيار ، فالحالة التي أقامك فيها هى التي تليق بك ، ولذلك قيل : العارف لا يعارض ما حلّ به ، فقرا كان أو غنى «٣». قال اللجائى فى

---

(١) فى القشيري : ومعان إذا ادعاها سواه ...
(٢) أي : الذي اختاره اللّه ..
(٣) قلت : هذه منزلة ، وهناك منزلة أعلى وأحلى ، نفهمها إذا قرنا أصلا ، وهو : أن حكم اللّه واختياره ، ثلاثة أنواع :
الأول : حكم اللّه الديني ، الشرعي ، واختياره ، ومراده الديني .. وهذا موقفنا منه الخضوع والتسليم ، والرضا والقبول ، والعمل.
الثاني : حكم اللّه الكونى ، القدري ، الذي لا اختيار لنا فيه ، كمصيبة الموت ، وجائحة فى مال ، وإذاية ظالم لا نقدر عليه ، وما أشبه ذلك ، وهذا موقفنا منه التسليم ، والصبر ، وفوقه : الرضا بهذا القضاء ، الذي لا اختيار لنا فيه.
الثالث : حكم اللّه الكونى القدري ، واختياره الكونى القدري - الذي لنا فيه قدرة واختيار ، كمرض يمكن دفعه بالدواء ، وفقر يمكن دفعه بالتكسب وطلب الغنى ، وهزيمة يمكن دفعها بالجهاد والكفاح .. إلخ ، وهذا موقفنا منه : هو المنازعة ، والمبالغة ، والمدافعة ، وانتبه معى لقول سيدنا عبد القادر الجيلاني - الشيخ القدوة ، العارف ، قال ما ملخصه : (الناس إذا ذكر القدر أمسكوا ، إلا أنا ، فقد انفتحت لى فيه روزنة [طاقة - نافذة] فنازعت أقدار الحق ، بالحق ، للحق). فهذا فى النوع الثالث من حكم اللّه واختياره ، ننازعه ، بالحق ، للحق ، والشيخ القدوة ، لم يبتدع ذلك ، وحاشاه ، رحمه اللّه

وقدس روحه - بل هو انتزعه من حديث نبوى شريف ، أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٤٢١) والترمذي فى (الطب ، باب ٢١ ، ٤/ ٣٤٩ ، ح ٢٠٦٥) وابن ماجه فى (الطب ، باب ١ ، ٢/ ١١٣٧ ، ح ٣٤٣٧) من حديث أبى خزامة قال : سئل النبي صلى اللّه عليه وسلم : أرأيت [يعنى : أخبرنا عن] - رقىّ نسترقيها ، وأدوية نتداوى بها : أترد من قدر اللّه؟ قال : «هي من قدر اللّه» اللّه أكبر : فقدر المرض ، ننازعه بقدر العلاج والدواء ، وقدر الفقر المالى ننازعه بقدر الكسب وإصلاح المال ، وقدر الهزيمة ننازعه بقدر الجهاد والاستعداد ، وقدر التخلف الحضارى ننازعه بقدر الفعالية الحضارية ، وقدر انتشار الوباء كالطاعون ، والكوليرا - ننازعه بقدر الاحتماء ، والتطعيم العام .. إلخ ، كما فعل سيدنا عمر : مع طاعون الشام ، فلم يدخل الشام - عند ما سمع بانتشار الطاعون فيها ، وكان ذاهبا إليها ، فقيل له : أتفر من قدر اللّه؟! قال : (نعم ، نفر من قدر اللّه إلى قدر اللّه) فالمؤمن العارف يصول بالحق للحق.

(٤/٢٧١)

كتاب قطب العارفين : الراضي شبه ميت ، لا نفس له ، يختار لها ، فالفقر والغنى حكمان من حكيم واحد ، وهو أعلم سبحانه بعبيده ، وما يصلحون به ، فمنهم من يصلح للفقر ولا يصلح للغنى ، ومنهم من يصلح للغنى ولا يصلح للفقر ، ومنهم من يصلح بالمنع ولا يصلح بالعطاء ، ومنهم من يصلح بالعطاء ولا يصلح بالمنع ، ومنهم من يصلح بالبلاء ولا يصلح بالصحة ، ومنهم من يصلح بالصحة ولا يصلح بالبلاء ، ومنهم من يصلح بالوجهين جميعا ، وهى أعلى رتبة يشار إليها فى غاية هذا الشأن ، وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ .. الآية ، ففى هذه الآية كفاية وتعزية لكل سالك راض عن اللّه تعالى ، لكن لا يعقلها ولا يتلذذ بها إلا مشايخ العارفين. هـ. وباللّه التوفيق.

ثم برهن على انفراده بالخلق والاختيار ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٧١ الى ٧٥]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)

قلت : (سرمدا) : مفعول ثان لجعل ، وهو من السرد ، أي : التتابع ، ومنه قولهم فى الأشهر الحرم :

ثلاثة سرد وواحد فرد ، والميم زائدة ، فوزنه : فعمل.
يقول الحق جل جلاله : قُلْ أَرَأَيْتُمْ أخبرونى إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً دائما بإسكان الشمس تحت الأرض ، أو : بتحريكها حول الأفق الخارج عن كورة الأرض ، أو بإخفاء نورها ، مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ ، وحقه : هل إله غير اللّه ، وعبّر ب «من» على زعمهم أن غيره آلهة ، أي : هل يقدر أحد على هذا؟ أَفَلا تَسْمَعُونَ سماع تدبر واستبصار؟
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ بإسكانها فى وسط السماء ، أو : بتحريكها فوق الأفق فقط ، مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ استراحة من متاعب الأشغال؟ ولم يقل : بنهار

(٤/٢٧٢)

تتصرفون فيه ، كما قال : بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ، بل ذكر الضياء ، وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ، وليس هو التصرف فى المعاش وحده ، والظلام ليس هو بتلك المنزلة ، ومن ثم قرن بالضياء.
أَفَلا تَسْمَعُونَ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر ، من ذكر منافعه ، ووصف فوائده ، وقرن بالليل أَفَلا تُبْصِرُونَ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه.
وَمِنْ رَحْمَتِهِ تعالى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ فى الليل وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بالنهار بأنواع المكاسب. وهو من باب اللف والنشر. وقال الزجاج : يجوز أن يكون معناه : لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من اللّه فيهما ، ويكون المعنى : جعل لكم الزمان ليلا ونهارا لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي : ولكى تعرفوا نعمة اللّه فى ذلك فتشركوه عليها.
ثم قرّعهم على الإشراك ، بعد هذا البيان التام ، بقوله : وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ، وكرر التوبيخ على الشرك ليؤذن ألّا شىء أجلب لغضب اللّه تعالى من الإشراك به ، كما لا شىء أدخل فى مرضاته من توحيده. وقال القرطبي : أعاد هذا لاختلاف الحالين ، ينادون مرة ، فيدعون الأصنام فلا تستجيب لهم ، فيظهر كذبهم. ثم ينادون مرة أخرى فيسكنون ، وهو توبيخ وزيادة خزى.
ثم طرق كون المناداة من اللّه ، أو ممن يأمره بذلك ، لقوله : وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ «١» ، ويحتمل : ولا يكلمهم بعد قوله : اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ «٢» أو : ولا يكلمهم كلام رضا. هـ «٣».
وَنَزَعْنا وأخرجنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ، وهو نبيهم ، يشهد عليهم بما كانوا عليه لأن الأنبياء شهداء على أممهم ، فَقُلْنا للأمم : هاتُوا بُرْهانَكُمْ على صحة ما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول ، فَعَلِمُوا

حينئذ أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ فى الألوهية ، لا يشاركه فيها غيره ، وَضَلَّ عَنْهُمْ غاب غيبة الشيء الضائع ما كانُوا يَفْتَرُونَ من ألوهية غير اللّه وشفاعة أصنامهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : دوام ليل القبض يمحق البشرية ، ودوام نهر البسط يطغى النفس ، وتخالفهما على المريد رحمة ، وإخراجه عنهما عناية ، وفى الحكم : «بسطك كى لا يتركك مع القبض ، وقبضك كى لا يتركك مع البسط ، وأخرجك عنهما كى لا تكون لشيء دونه». وقال فارس رضي اللّه عنه : القبض أولا ، ثم البسط ، ثم لا قبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقعان فى الوجود ، وأما مع الفناء والبقاء فلا. هـ.

---

(١) من الآية ١٧٤ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٠٨ من سورة المؤمنون.

(٣) بتصرف.

ولما قال تعالى : وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا ذكر من متّعه بها وغرته ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٧٦ الى ٧٧]

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)

قلت : «قارون» : غير مصروف للعجمة والتعريف ، ولو كان «فاعولا» من قرنت الشيء ، لا نصرف لخروجه عن العجمة. إِذْ قالَ : ظرف لبغى ، أي : طغى حين وعظ ، ولم يقبل ما وعظ به ، أو : يتعلق بمقدر ، أي : أظهر التفاخر بالمال حين قال له قومه : لا تفرح. و«ما» : موصولة ، و«إنّ مفاتحه» : صلته ، ولذلك كسرت.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى كان إسرائيليا ، ابن عم لموسى وابن خالته ، فهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهث. وكان يسمى «المنور» لحسن صورته «١» ، وكان آمن بموسى ، وكان أحفظ الناس للتوراة ، ولكنه نافق كما نافق السامري.

فَبَغى عَلَيْهِمْ ، من البغي ، أي : الظلم : قيل : ملّكه فرعون على بنى إسرائيل فظلمهم. أو : من البغي ، أي : الكبر ، أي : تكبر عليهم بكثرة ماله وولده ، وزاد عليهم فى الثياب شبرا ، فطلب الفضل عليهم

وأن يكونوا تحت يده.

وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما الذي إِنَّ مَفاتِحَهُ جمع مفتح ، بمعنى المقلد ، أي : إن مقاليده لَتَنُوأُ أي : تثقل بِالْعُصْبَةِ ، الباء للتعدية ، يقال : ناء به الحمل : أثقله حتى أماله. والعصبة : الجماعة الكثيرة ، وكانت مفاتح خزائنه وقر ستين بغلا ، لكل خزانة مفتاح ، ولا يزيد المفتاح على إصبع. وكانت من جلود ، أي : مغاليقها.

وقيل : معنى تنوء : تنهض بتكلّف ، ويكون حينئذ فى الكلام قلب إذ العصبة هى التي تنوء بالمفاتح ، لا العكس ، قيل : وسميت أمواله كنوزا لأنه كان لا يؤدى زكاتها ، وبسبب ذلك عادى موسى أول عداوته.

إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ لا تبطر بكثرة المال فرح إعجاب لأنه يقود إلى الطغيان. أو : لا تفرح بالدنيا إذ لا يفرح بها إلا من لا عقل له ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ : البطرين المفتخرين بالمال ، أو : الفرحين بزخارف الدنيا ، من حيث حصول حظوظهم وشهواتهم فيها. قال البيضاوي : الفرح بالدنيا مذموم مطلقا لأنه نتيجة حبها

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٨ - ٣٩٩).

والرضا بها ، والذهول عن ذهابها ، فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارق لا محالة ، يوجب التوخي «١» لا محالة ، كما قيل :

أشدّ الغمّ عندى فى سرور تيقّن عنه صاحبه انتقالا

وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ من المال والثروة الدَّارَ الْآخِرَةَ بأن تتصدق على الفقراء وتصل الرحم ، وتصرفه فى أنواع الخير ، وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ، وهو أن تأخذ ما يكفيك ويصلحك. وقيل : معناه : واطلب بدنياك آخرتك فإن ذلك حظ المؤمن منها لأنها مزرعة الآخرة ، فيها تكتسب الحسنات وترفع الدرجات ، أي : لا تنس نصيبك منها أن تقدمه للآخرة ، وَأَحْسِنْ إلى عباد اللّه كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ فيما أنعم به عليك ، أو : أحسن بشكرك وطاعتك لخالق الأنام ، كما أحسن إليك بسوابغ الإنعام. وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ بالظلم والبغي وإنفاق المال فى المعاصي إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ لا يرضى فعلهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى الآية زجر عن الفرح بالدنيا والافتخار بها ، بل الفرح بكل ما يفنى : كلّه مذموم. قال فى

الإحياء : الفرح بالدنيا والتنعم بها سمّ قاتل ، يسرى فى العروق ، فيخّرج من القلب الخوف والحزن ، وذكر الموت وأهوال يوم القيامة ، وهذا هو موت القلب ، والعياذ باللّه ، فأولو العزم من أرباب القلوب حزنوا لمواتاة الدنيا ، وعلموا أن النجاة فى الحزن الدائم ، والتباعد من أسباب الفرح والبطر ، فقطعوا النفس عن ملاذها ، وعودوا الصبر عن شهواتها ، حلالها وحرامها ، وعلموا أن حلالها حساب ، وهو نوع عذاب ، ومن نوقش الحساب عذّب ، فخلّصوا أنفسهم من عذابها ، وتوصلوا إلى الحرية والملك فى الدنيا والآخرة ، بالخلاص من أسر الشهوات ورقها ، والأنس بذكر اللّه تعالى والاشتغال بطاعته. هـ.
وقال يمن بن رزق : اعلم أنى لم أجد شيئا أبلغ فى الزهد فى الدنيا من ثبات حزن الآخرة فى القلب ، وعلامة ثبات حزن الآخرة فى القلب : أنس القلب بالوحدة. هـ. قلت : وهذا مذهب العباد والزهاد ، وأما العارفون فقد دخلوا جنة المعارف ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، جعلنا اللّه من خواصهم ، بمنّه وكرمه.

ثم ذكر جواب قارون ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : آية ٧٨]

قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)

---

(١) فى البيضاوي : [الترح] وهو أنسب بالسياق ، . ولعل ما فى أعلى تصحيفا عن : التوقي ، أي : الحذر والتحوط.

يقول الحق جل جلاله : قالَ قارون : إِنَّما أُوتِيتُهُ أي : المال عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أي : على استحقاق منى ، لما فيّ من العلم الذي فضلت به الناس ، وهو علم التوراة ، وكان أعلم الناس به بعد ، موسى وهارون ، وكان من العباد ، ثم كفر بعد ذلك. وذكر القشيري أنه كان منقطعا فى صومعة للعبادة ، فصحبه إبليس على العبادة ، واستمر معه على ذلك ، وهو لا يشعر ، إلى أن ألقى إليه : إن ما هما عليه ، من الانقطاع عن التكسب ، وكون أمرهما على أيدى الناس ، ليس بشيء ، فرده إلى الكسب بتدريج ، إلى أن استحكم فيه حب الدنيا والجمع والمنع ، ثم تركه. هـ. وقيل : المراد به علم الكيمياء ، وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبا. أو : العلم بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة ، أو : العلم بكنوز يوسف «١».

قال تعالى : أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ، أي : أو لم يكن فى علمه ، من جملة العلم الذي عنده ، أن اللّه قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه وأقوى وأغنى ، وأكثر جمعا للمال ، أو أكثر جماعة وعددا ، وهو توبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله ، مع علمه بذلك لأنه قرأه فى التوراة ، وسمعه من حفاظ التواريخ. أو : نفى لعلمه بذلك لأنه لمّا قال : أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي قيل له :

أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه ، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ، ولم يعلم هذا العلم النافع ، الذي هو الاعتبار بمن هلك قبله ، حتى يقى نفسه مصارع الهالكين.

وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ، لعلمه تعالى بعملهم ، بل يدخلهم النار بغتة. أو : يعترفون بها بغير سؤال ، أو : يعرفون بسيماهم فلا يسألون ، أو : لا يسألون سؤال توبيخ ، أو لا يسأل المجرمون من هذه الأمة عن ذنوب الماضين. قال محمد بن كعب : هو كلام متصل بما قبله ، والضمير فى (ذنوبهم) عائد على من أهلك من القرون ، أي : أهلكوا ، ولم يسأل غيرهم بعدهم عن ذنوبهم ، بل كل أحد إنما يعاتب على ما يخصه. هـ. وإذا قلنا هو فى القيامة فقد ورد فى آيات أخر أنهم يسألون ، ويوم القيامة مواطن وطوائف. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا خص اللّه عبدا بخصوصية فلا ينسبها لنفسه ، أو لحوله وقوته ، أو لكسبه ومجاهدته ، بل يشهدها منّة من اللّه عليه ، وسابق عناية منه إليه ، قال سهل رضي اللّه عنه : ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح ، والسعيد من صرف بصره عن أفعاله وأقواله ، وفتح له سبيل رؤية منّة اللّه عليه ، فى جميع الأفعال والأقوال. والشقي منّ زيّن له فى عينه أفعاله وأقواله وأحواله ، ولأفتح له سبيل رؤية منّة اللّه عليه ، فافتخر بها وادعاها لنفسه ، فشؤمه أن يهلكه كما خسف بقارون ، لمّا أدعى لنفسه فضلا. هـ.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٩ - ٤٠٠) وتفسير البغوي (٦/ ٢٢٢).

ثم قال تعالى :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٧٩ الى ٨٢]

فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَلا يُلَقَّاها إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مِنَ

الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (٨٢)

قلت : (فى زينته) : حال ، (ويكأنه) : مذهب الخليل وسيبويه : أن «وى» : حرف تنبيه منفصلة عن كأن ، لكن أضيفت لكثرة الاستعمال. وقال أبو حاتم وجماعة : «ويك» هى «ويلك» حذفت اللام منها لكثرة الاستعمال. وقالت فرقة : «ويكأن» بجملتها : كلمة. قاله الثعلبي ، وقال البيضاوي : ويكأن ، عند البصريين ، مركب من : «وى» للتعجب ، و«كأن» ، للتشبيه. هـ. وقال سيبويه : «وى» : كلمة تنبيه على الخطأ وتندّم ، يستعملها النادم لإظهار ندامته.

يقول الحق جل جلاله : فَخَرَجَ قارون عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، قال جابر : كانت زينته القرمز ، وهو صبغ أحمر معروف. قيل : إنه خرج فى الحمرة والصفرة ، وقيل : خرج يوم السبت على بغلة شهباء ، عليها الأرجوان ، وعليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف على زيه ، وقيل : عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر ، وعن يمينه ثلاثمائة غلام ، وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض ، عليهن الحلىّ والديباج.

قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا ، قيل : كانوا مسلمين ، وإنما تمنوا ، على سبيل الرغبة فى اليسار ، كعادة البشر ، وقيل : كانوا كفارا ، ويرده قوله : لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا .. إلخ. يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ من المال والجاه ، قالوه غبطة. والغابط هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه ، من غير أن تزول عنه ، والحاسد هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له ، دونه. وهو كقوله تعالى : وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ «١» ، وقيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : هل تضر الغبطة؟ فقال : «لا ..» الحديث «٢». إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ من الدنيا ، والحظ : الجدّ ، وهو البخت والدولة.

---

(١) من الآية ٣٢ من سورة النساء.

(٢) لفظ الحديث : سأل صلى اللّه عليه وسلم : هل يضر الغبط؟ قال : «لا ، إلا كما يضر العضاة الخبط ، قال ابن حجر فى الكافي : ذكره ثابت السرقسطي فى الغريب ، هكذا بغير إسناد. انظر الكافي الشاف على هامش الكشاف (٣/ ٤٣٢).

وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ بالثواب والعقاب وفناء الدنيا ، أو : أوتوا العلم باللّه ، فيؤخذ منه : أن متمنى الدنيا جاهل ولو كان أعلم الناس إذ لا يتمناها إلا المحب لها ، وهى رأس الفتنة. فأىّ علم يبقى مع فتنة الدنيا؟! قالوا فى وعظهم لغابطى قارون : وَيْلَكُمْ هلاكا لكم ، فأصل ويلك : الدعاء بالهلاك ، ثم

استعمل في الزجر والردع على ترك ما لا يرضى. وقال في التبيان في إعراب القرآن : هو مفعول بفعل محذوف ، أي : ألزمتكم اللّه ويلكم ، ثَوابُ اللَّهِ في الآخرة ، خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً مما أوتى قارون ، بل من الدنيا وما فيها ، وَلا يُلَقَّاها أي : لا يلقى هذه الكلمة التي تكلم بها العلماء ، وهي ثواب اللّه خير ، إِلَّا الصَّابِرُونَ. أو : لا يلقى هذه القوة والعزيمة في الدين إلا الصابرون على الطاعات وعن الشهوات وزينة الدنيا.

وفي حديث الترمذي : أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «من ترك اللباس - أي : الفاخر - تواضعا للّه تعالى ، وهو يقدر عليه ، دعاه اللّه على رؤوس الخلائق ، حتى يخيّره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها» «١». وفيه أيضا عنه عليه الصلاة والسلام : «ليس لابن آدم حقّ في سوى هذه الخصال بيت يسكنه ، وثوب يوارى عورته ، وجلف الخبز والماء» «٢». أي : ليس معه إدام.

قال تعالى : فَخَسَفْنا بِهِ بقارون وَبِدارِهِ الْأَرْضَ ، كان قارون يؤذى موسى عليه السّلام كل وقت ، وهو يداريه للقرابة التي بينهما ، حتى نزلت الزكاة ، فصالحه : على كل ألف دينار دينار ، وعلى كل ألف درهم درهم ، فحاسبه فاستكثره ، فشحت به نفسه ، فجمع بنى إسرائيل ، وقال له : قد أطعتم موسى في كل شيء ، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم ، فقالوا : أنت كبيرنا فمرنا بما شئت ، قال : نجعل لفلانة البغي جعلا حتى تقذف موسى بنفسها ، فيرفضه بنو إسرائيل ، فجعل لها ألف دينار ، أو : طستا من ذهب ، فلما كان يوم عيد قام موسى خطيبا ، فقال : من سرق قطعنا يده ، ومن افترى جلدناه ثمانين ، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة ، ومن زنى وله امرأة رجمناه ، فقال قارون : وإن كنت أنت؟ قال : وإن كنت أنا ، قال : فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة ، فأحضرت ، فناشدها بالذي خلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق ، فقالت : جعل لي قارون جعلا على أن أقذفك بنفسي ، فخرّ موسى ساجدا يبكى ، وقال : اللهم إن كنت رسولك فاغضب لي ، فأوحى اللّه تعالى إليه : مر الأرض بما شئت فيه ، فإنها مطيعة لك ، فقال : يا بنى إسرائيل : إن اللّه بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون ، فمن كان معه فليلزم

---

(١) أخرجه الترمذي في (صفة القيامة ، باب ٣٩ ، ٤/ ٥٦١ ح ٢٤٨١) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٦١) وصححه ، ووافقه الذهبي ، من حديث معاذ بن أنس. [.....]

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٦٢) ، والترمذي وصححه في (الزهد ، باب ٣٠ ، ٤/ ٤٩٤ ، ح ٢٣٤١) من حديث سيدنا عثمان بن عفان رضي اللّه عنه وقوله صلى اللّه عليه وسلم : «وجلف الخبز» أي : ليس معه إدام. انظر : النهاية في غريب الحديث (١/ ٨٧).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٧٩

مكانه ، ومن كان معى فليعتزل ، فاعتزلوا جميعا غير رجلين. ثم قال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى الأوساط ، ثم قال : خذيهم ، فأخذتهم إلى الأعناق ، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى ، ويناشدونه باللّه وبالرحم ، وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه ، ثم قال : خذيهم ، فانطبقت عليهم. فقال اللّه تعالى : يا موسى استغاث بك مرارا فلم ترحمه ، فوعزتى لو استرحمنى مرة لرحمته «١».

روى أنه يخسف كل يوم قامة ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، فقال بعض بنى إسرائيل : إنما أهلكه ليرث داره وكنوزه ، فدعى اللّه تعالى فخسف بداره وكنوزه ، وأوحى اللّه تعالى إلى موسى : إنى لا أعبّد الأرض أحدا بعدك أبدا ، أي : لا آمرها تطيع أحدا بعدك.

فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ جماعة يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ يمنعونه من عذاب اللّه ، وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ من عذاب اللّه ، أو : من المنتقمين من موسى.

وَأَصْبَحَ أي : وصار الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ أي : منزلته من الدنيا بِالْأَمْسِ : متعلق بتمنوا. ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك ، ولكن الوقت القريب ، استعارة. يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ أي : اعجب مما صنع بقارون ، لأن اللّه يبسط الرزق لمن يشاء ، وهو عنده ممقوت ، وَيَقْدِرُ أي :

يضيقه على من يشاء ، وهو عنده محبوب. لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا بصرف ما كنا نتمناه بالأمس ، لَخَسَفَ بِنا معه ، كما فعل بالرجلين ، وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ أي : اعجب لعدم فلاح الكافرين. قال الرضى : كأن المخاطب كان يدعى أنهم يفلحون ، فقال له : عجبا منك ، فسئل : لم تتعجب منه؟ فقال : إنه لا يفلح الكافرون ، فحذف حرف الجار. وقال ابن عزيز : ويكأن اللّه معناه : ألم تر أن اللّه. واقتصر عليه البخاري «٢». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى الآية ترهيب من التعمق فى زينة الدنيا ، والتكاثر بها. ومن تمنى ما لأربابها من غرور زخرفها ، وترغيب فى الزهد فيها ، وإيثار الفقر على الغنى ، والتبذل والتخشن على ملاذ ملابسها ومطاعمها. قال الشيخ العارف سيدى عبد الرحمن بن يوسف اللجائى فى كتابه : اعلم أن الدنيا إذا عظمت وجلّت فى قلب عبد ، فإن ذلك العبد يعظم قدر من أقبلت عليه الدنيا ، ويتمنى أن ينال منها ما نال ، فإن كل انسان يعظم ما اشتهت نفسه.

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٢٢٤) وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠١).

قلت : وهذه الرواية تجعل سبب الخسف بقارون هو غضب سيدنا موسى لنفسه ، لكن القرآن الكريم ، والأحاديث الصحيحة تبرهن على أن سبب الخسف به هو التكبر على اللّه تعالى ، والتكبر على الناس.

(٢) انظر فتح الباري (كتاب التفسير ، سورة القصص ، باب. إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ٨/ ٣٦٩).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٨٠
وهذه صفة عبيد الدنيا ، وعبيد أهوائهم. وهى صفة من أسكرته الغفلة ، وخرجت عظمة اللّه عز وجل من قلبه ، وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى : قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا .. الآية. فكل محب للدنيا ، مستغرق فى حبها ، فهو لا حق بالذين تمنوا زينة قارون. واعلم أن الدنيا إذا رسخت فى القلب ، واستوطنت ، ظهر ذلك على جوارح العبد ، بتكالبه عليها ، وشدة رغبته فيها ، فيسلبه اللّه تعالى لذة القناعة ، ويمنعه سياسة الزاهدين ، ويبعده عن روح العارفين فإن القلب إذا لم يقنع - لو ملك الدنيا بحذافيرها - لم يشبع. وقال بعض الحكماء : القناعة هى الغنى الأكبر ، ولن تخفى صفة القانعين. هـ.
ومآل الراغبين فى الدنيا هو مآل قارون ، من الفناء والذهاب تحت التراب ، وأنشدوا :
إن كنت تسّموا إلى الدّنيا وزينتها فانظر إلى مالك الأملاك قارون
رمّ الأمور فأعطته مقادتها وسخّر النّاس بالتّشديد واللّين
حتّى إذا ظنّ ألّا شيء غالبه ومكّنت قدماه أىّ تمكين
راحت عليه المنايا روحة تركت ذا الملك والعزّ تحت الماء والطّين
ثم ذكر عاقبة المتواضعين ، فقال :
[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٨٣ الى ٨٤]
تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)
قلت : (تلك) : مبتدأ ، و(نجعلها) : خبر.
يقول الحق جل جلاله : تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ أي : تلك الدار التي سمعت بذكرها ، وبلغك خبرها.
ومعنى البعد فى الإشارة ، لبعد منزلتها وعلو قدرها ، نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ أي : تكبرا وقهرا كحال فرعون ، وَلا فَساداً عملا بالمعاصي ، أو : ظلما على الناس ، كحال قارون ، أو : قتل النفس ، أو :
دعاء إلى عبادة غير اللّه ، ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما ، أدرك ذلك

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٨١

بالفعل أم لا. وعن على رضي اللّه عنه : إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه ، فيدخل تحتها.

وعن الفضيل : أنه قرأها ، ثم قال : ذهبت الأماني هاهنا. وعن عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه أنه كان يرددها حتى قبض. وَالْعاقِبَةُ المحمودة لِلْمُتَّقِينَ ما لا يرضاه اللّه من العلو والفساد وغير ذلك.

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها ذاتا وقدرا ووصفا ، وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ ما لا يرضاه اللّه تعالى ، فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ، أصله : فلا يجزون ، وضع الظاهر موضع المضمر لما فى إسناد السيئات إليهم من تقبيح رأيهم وتسفيه أحلامهم ، وزيادة تبغيض السيئات إلى قلوب السامعين ، إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ إلا جزاء عملهم فقط ، ومن فضله العظيم ألا يجزى السيئة إلا مثلها ، ويجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة.

الإشارة : جعل اللّه الدار الآخرة للمتواضعين ، أهل الذل والانكسار ، والعاقبة المحمودة - وهى الوصول إلى الحضرة - للمتقين الشهرة والاستكبار ، وفى الحكم : «ادفن نفسك فى أرض الخمول فما نبت ممّا لم يدفن لا يتمّ نتاجه». قال فى التنبيه : لا شىء أضر على المريد من الشهرة وانتشار الصيت لأن ذلك من أعظم حظوظه ، التي هو مأمور بتركها ، ومجاهدة النفس فيها ، وقد تسمح نفس المريد بترك ما سوى هذا من الحظوظ. هـ.

وكان شيخ شيخنا يقول : نحب المريد أن يكون قدمه أعظم من صيته ، ولا يكون صيته أعظم من قدمه. هـ.

وقال إبراهيم بن أدهم رضي اللّه عنه : ما صدق اللّه من أحب الشهرة. وقال بعضهم : طريقتنا هذه لا تصلح إلا بأقوام كنست بأرواحهم المزابل. وقال أيوب رضي اللّه عنه : ما صدق عبد إلا سرّه ألا يشعر بمكانه. وقال فى القوت : ومتى ذل العبد نفسه ، واتضع عندها ، فلم يجد لذلته طعما ، ولا لضعته حسما ، فقد صار الذل والتواضع كونه ، فهذا لا يكره الذم من الخلق لوجود النقص فى نفسه ، ولا يحب المدح منهم لفقد القدر والمنزلة فى نفسه. فصارت الذلة والضعة صفة لا تفارقه ، لازمة لزوم الزبالة للزبال ، والكساحة للكساح ، هما صنعتان له كسائر الصنائع. وربما فخروا بهما لعدم النظر إلى نقصهما. فهذه ولاية عظيمة له من ربه ، قد ولّاه على نفسه ، وملّكه عليها ، فقفرها بعزه ، وهذا مقام محبوب ، وبعده المكاشفات بسرائر الغيوب. ثم قال : ومن كان حاله مع اللّه تعالى الذل طلبه واستحلاه ، كما يطلب المتكبر العز ، ويستحليه إذا وجده ، فإن فارق ذلك الذل ساعة تغير قلبه لفراق حاله ، كما أن المتعزز إن فارق العز ساعة تكدر عليه عيشه لأن ذلك عيش نفسه. هـ.

قلت : وهذا مقام من المقامات ، والعارف الكامل لا يتغير قلبه على فقد شىء إذ لم يفقد شيئا بعد أن وجد اللّه ، (ماذا فقد من وجدك). والذي ذكره فى القوت هو حال السائرين الصادقين. وباللّه التوفيق.

«١»

(١) من مناجاة سيدى ابن عطاه اللّه السكندرى ، انظر الحكم بتويب المتقى الهندي/ ٤٢.

(٤/٢٨١)

ثم ذكر عاقبة سيد المتقين ، فقال :

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٨٥ الى ٨٨]

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٨٥) وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ (٨٦) وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

قلت : (و لا يصدنك) : مجزوم بحذف النون ، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين ، حين دخلت نون التوكيد.

يقول الحق جل جلاله ، لرسوله صلى اللّه عليه وسلم : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أي : أوجب عليك تلاوته وتبليغه ، والعمل بما فيه ، لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ عظيم ، وهو المعاد الجسماني لتقوم المقام المحمود ، الذي لا يقوم فيه أحد غيرك ، مع حضور الأكابر من الرسل وغيرهم. أو : لرادك إلى معادك الأول ، وهو مكة ، وكان عليه الصلاة والسلام اشتاق إليها لأنها مولده ومولد آبائه ، وقد ردّه إليها يوم الفتح ، وإنما نكّره لأنه كان فى ذلك اليوم معاد له شأن ، ومرجع له اعتداد لغلبته - عليه الصلاة والسلام - ونصره ، وقهره لأعدائه ، ولظهور عز الإسلام وأهله ، وذل الشرك وحزبه.

والسورة مكية ، ولكن هذه الآية نزلت بالجحفة ، لا بمكة ولا بالمدينة «١» ، وفى الآية وعد بالنصر ، وأن العاقبة الحسنة والخير الجسيم للنبى صلى اللّه عليه وسلم لا يختص بالآخرة ، بل يكون فى الدنيا له ولمتّبعيه ، ولكن بعد الابتلاء والامتحان ، كما فى صدر السورة الآتية بعدها ، وبهذا يقع التناسب بينهما ، فإنها كالتعليل لما قبلها.

ولما وعده بالنصر قال له : قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى أي : يعلم من جاء بالحق ، يعنى : نفسه صلى اللّه عليه وسلم مع ما يستحقه من النصر والثواب ، فى معاده ، وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ وهم المشركون ، مع ما يستحقونه من العقاب فى معادهم.

وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى يوحى إِلَيْكَ الْكِتابُ أي : القرآن ، فكما ألقى إليك الكتاب ، وما كنت ترجوه كذلك يردك إلى معادك الأول ، من غير أن ترجوه ، إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، لكن ألقاه إليك رحمة منه

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٢ – ٤٠٣).

(٤/٢٨٢)

إليك ، ويجوز أن يكون استثناء محمولا على المعنى ، كأنه قال : وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ، فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً معينا لِلْكافِرِينَ على دينهم بمداراتهم والتحمل عنهم ، والإجابة إلى طلبتهم.

وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ أي : لا يمنعك هؤلاء عن العمل بآيات اللّه وتبليغها وإظهارها ، بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ أي : بعد وقت إنزالها ، وإِذْ : مضاف إليه أسماء الزمان ، كقولك : حينئذ ويومئذ. وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إلى توحيده وعبادته ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، نهاه تنفيرا لغيره من الشرك.

وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ ، قال ابن عباس رضي اللّه عنه : الخطاب للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، والمراد به أهل دينه. قال البيضاوي : وهذا وما قبله تهييج ، وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ : استئناف ، مقرر لما قبله ، كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ أي : ذاته ، فالوجه يعبّر به عن الذات ، أي : كل شىء فان مستهلك معدوم ، إلا ذاته المقدسة ، فإنها موجودة باقية. وقال أبو العالية : إلا ما أريد به وجه اللّه ، من علم وعمل ، فإنه لا يفنى. قال عبادة بن الصامت رضي اللّه عنه : يجاء بالدنيا يوم القيامة ، فيقال : ميزوا ما كان للّه تعالى منها ، فيميز ، ثم يؤمر بسائرها فيلقى فى النار. هـ.

وقال الضحاك : كل شىء هالك إلا اللّه والجنة والنار والعرش.

لَهُ الْحُكْمُ القضاء النافذ فى خلقه ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ للجزاء والفصل. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أهل الاشتياق يروّحون أرواحهم بهذه الآية ، فيقولون لها : إن الذي فرض عليك القرآن ، أن تعمل به فى الدنيا ، لرادك إلى معاد جسمانى روحانى ، فتتصل نضرتك ونظرتك إلى وجه الحبيب ، من غير عذول ولا رقيب ، على سبيل الاتصال ، من غير تكدر ولا انفصال ، فإن وقع الإنكار على أهل الخصوصية فيقولون :

رَبِّي أَعْلَمُ الآية .. وما كنت ترجو أن تلقى إليك الخصوصية إلا رحمة من ربك ، فلا تكونن ظهيرا للكافرين المنكرين لها ، معينا لهم على إذاية من انتسب إليها ، ولا يصدنك عن معرفة آيات اللّه الدالة عليه ، بعد إذ أنزلت إليك ، أي : لا يمنعك الناس عن صحبة أولياء اللّه ، الدالين عليه ، وادع إلى ربك ، أي : إلى معرفة ذاته ووحدانيته ، ولا تكونن من المشركين بشهود شىء من السّوى ، فإن كل شىء هالك ، أي : معدم فى الماضي والحال والاستقبال ، إلا وجهه : إلا ذاته ، فلا موجود معها ، وفى ذلك يقول الشاعر :

اللّه قل ، وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتادا بلوغ كمال
فالكلّ ، دون اللّه ، إن حقّقته ، عدم على التّفصيل والإجمال
واعلم بأنّك ، والعوالم كلّها ، لولاه ، فى محو وفى اضمحلال

(٤/٢٨٣)

من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده ، لولاه ، عين
محال فالعارفون فنوا ، ولم يشهدوا شيئا سوى المتكبّر الم
تعال ورأوا سواه على الحقيقة هالكا فى الحال والماضي والاستقبال.
وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلّم.

(٤/٢٨٤)

سورة العنكبوت

مكية ، إلا صدرها العشر الآيات ، فإنها نزلت بالمدينة فى شأن من كان من المسلمين بمكة ، وإلا قوله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا إلى : الْمُنافِقِينَ «١» فإنها نزلت فى المتخلفين عن الهجرة. وهى كالتعليل لخاتمة ما قبلها من البشارة بالنصر لأنه لا يكون فى الغالب إلا بعد الامتحان ، كما قال تعالى :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (٣)

قلت : الحسبان : قوة أحد النقيضين على الآخر ، كالظن ، بخلاف الشك ، فهو الوقوف بينهما.
والعلم : هو القطع بأحدهما ، ولا يصح تعلقهما بمعاني المفردات ، ولكن بمضامين الجمل ، فلا أقول : حسبت زيدا ، وظننت الفرس ، بل حسبت زيدا قائما ، والفرس جوادا. والكلام الدال على المضمون ، الذي يقتضيه الحسبان هنا أن يتركوا مع قوله :
وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ أي : أحسبوا تركهم غير مفتونين لأن يقولوا : آمنا.

يقول الحق جل جلاله : الم الألف : لوحدة أسرار الجبروت ، واللام : لفيضان أنوار الملكوت ، والميم : لاتصال المادة بعالم الملك. فكأنه تعالى أقسم بوحدة جبروته وأنوار ملكوته واتصال مادته بملكه وخليقته ، أنه لا يدع دعوة مدع إلا ويختبره ليظهر صدقه أو كذبه ، وهذا معنى قوله : أَحَسِبَ النَّاسُ أي : أظن الناس أَنْ يُتْرَكُوا غير – مفتونين ومختبرين ، أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ أظنوا أن يدّعوا الإيمان ولا يختبرون عليه ليظهر الصادق من الكاذب ، بل يمتحنهم اللّه بمشاق التكليف من مفارقة الأوطان ، ومجاهدة الأعداء ، ورفض الشهوات ، ووظائف الطاعات ، وبالفقر ، والقحط ، وأنواع المصائب فى الأموال والأنفس ، وإذاية الخلق ليتميز المخلص من المنافق ، والثابت فى الدين من المضطرب فيه ، ولينالوا بالصبر على ذلك عوالى الدرجات ، فإن مجرد الإيمان ، وإن كان عن خلوص قلب ، لا يقتضى غير الخلاص من الخلود فى العذاب ، وما

---

(١) الآيات : ٩ – ١١.

(٢٨٥/٤)

ينال العبد من المكاره يسمو به إلى أعلى الدرجات وأعظم المقامات ، مع ما فى ذلك من تصفية النفس وتهذيبها ، لتتهيأ لإشراق أنوار مقام الإحسان.

روى أنها نزلت فى ناس من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، قد جزعوا من أذى المشركين ، وضاقت صدورهم من ذلك ، وربما استنكر بعضهم أن يمكّن اللّه الكفرة من المؤمنين. فنزلت مسلّية ومعلمة أن هذه هى سيرة اللّه فى عباده اختبارا لهم.

قال تعالى : وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بأنواع المحن فمنهم من كان يوضع المنشار على رأسه ، فيفرق فرقتين ، وما يصرفه ذلك عن دينه ، ومنهم من كان يمشط بأمشاط الحديد ، ومنهم من كان يطرح فى النار ، وما يصده ذلك عن دينه. فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ بذلك الامتحان الَّذِينَ صَدَقُوا فى الإيمان بالثبات ، وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ بالرجوع عنه.

ومعنى علمه تعالى به ، أي : علم ظهور وتمييز. والمعنى : وليميّزنّ الصادق منهم من الكاذب ، فى الدنيا والآخرة. قال ابن عطاء : يتبيّن صدق العبد من كذبه فى أوقات الرخاء والبلاء ، فمن شكر فى أيام الرخاء ، وصبر فى أيام البلاء ، فهو من الصادقين ، ومن بطر فى أيام الدنيا ، وجزع فى أيام البلاء ، فهو من الكاذبين. هـ.

الإشارة : سنّة اللّه تعالى فى أوليائه : أن يمتحنهم فى البدايات ، فإذا تمكنوا من معرفة اللّه ، وكمل

تهذيبهم ، أعزهم ونصرهم ، وأظهرهم لعباده. ومنهم من يتركهم تحت أستار الخمول ، حتى يلقوه على ذلك وهم عرائس الملكوت ، ضنّ بهم أن يظهرهم لخلقه. والامتحان يكون على قدر المقام ، وفى الحديث : «أشدّ الناس بلاء : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلبا ، اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقّة ، ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه من خطيئة» «١».

وقال صلى اللّه عليه وسلم : «أشدّ الناس بلاء فى الدنيا : نبى أو صفى». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «أشدّ الناس بلاء : الأنبياء ، ثم الصالحون. لقد كان أحدهم يبتلى بالفقر ، حتى ما يجد إلا العباءة يحوّيها فيلبسها ، ويبتلى بالقمل حتى يقتله ، ولأحدهم كان أشدّ فرحا بالبلاء من أحدكم بالعطاء» «٢». من الجامع. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء فى الصبر على البلاء ، ٤/ ٥٢٠ ، ح ٣٩٨) ، وابن ماجه فى (الفتن ، باب الصبر على البلاء ، ٢/ ١٣٣٤ ، ح ٤٠٢٣) ، والإمام أحمد فى المسند (١/ ١٧٤) من حديث مصعب بن سعد ، بن أبى وقاص رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجه فى الموضع السابق ذكره. (٤/ ١٣٣٥ ، ح ٤٠٢٤) وابن أبى الدنيا فى (المرض والكفارات/ ١) ، والحاكم (٤/ ٣٠٧) وصححه ، من حديث أبى سعيد الخدري رضي اللّه عنه. وقوله صلى اللّه عليه وسلم : «يحوّيها» فى النهاية : التحوية : أن يدير كساء حول سنام البعير ، ثم يركبه ، والاسم : الحويّة.

انظر النهاية (حوا ١/ ٤٦٥).

(٢٨٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٨٧

ثم ذكر المؤذين لهم ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٤ الى ٧]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٧)

يقول الحق جل جلاله : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أي : الشرك والمعاصي وإذاية المسلمين ، أَنْ يَسْبِقُونا أي : يفوتونا ، بل يلحقهم الجزاء لا محالة. و«أم» : منقطعة ، ومعنى الإضراب فيها : أن

هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول لأن ذلك يظن أنه لا يمتحن لإيمانه ، وهذا يظن أنه لا يجازى بمساوئه ، وشبهته أضعف ، ولذلك عقّبه بقوله : ساءَ ما يَحْكُمُونَ ، أي : بئس ما يحكمون به حكمهم فى صفات اللّه أنه مسبوق ، وهو القادر على كل شيء ، فالمخصوص محذوف.

ثم ذكر الحامل على الصبر عند الامتحان ، وهو رجاء لقاء الحبيب ، فقال : مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ أي :

يأمل ثوابه ، أو يخاف حسابه ، أو ينتظر رؤيته ، فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ المضروب للغاية لَآتٍ لا محالة. وفيه تبشير بأن اللقاء حاصل لأنه لأجل آت ، وكل آت قريب. وكل غاية لها انقضاء ، فليبادر للعمل الصالح الذي يصدق رجاءه ويحقق أمله. وَهُوَ السَّمِيعُ لما يقوله عباده ، الْعَلِيمُ بما يفعلونه ، فلا يفوته شيء.

وَمَنْ جاهَدَ نفسه ، بالصبر على مشاق الطاعات ، ورفض الشهوات ، وإذاية المخلوقات ، وحبس النفس على مراقبة الحق فى الأنفاس واللحظات ، فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ لأن منفعة ذلك لها ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ وعن طاعتهم ومجاهدتهم. وإنما أمر ونهى رحمة لهم ، ومراعاة لصلاحهم.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أي : الشرك والمعاصي بالإيمان والتوبة ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ مع غنانا عنهم ، أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ أي : أحسن جزاء أعمالهم بالفضل والكرم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أم حسب الذين ينكرون على أوليائى ، المنتسبين إلىّ ، أن يسبقونا؟ بل لا بد أن نعاقبهم فى الدنيا والآخرة ، إما فى الظاهر بمصيبة تنزل بهم ، أو فى الباطن ، وهو أقبح ، كقساوة فى قلوبهم ، أو : كسل فى بدنهم ، أو :

شك فى يقينهم ، أو : بعد من ربهم ، فإن من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب. ثم بشّر المتوجهين الذين يؤذون فى جانبه ، بأن لقاءه حاصل لهم إن صبروا ، وهو الوصول إلى حضرته ، والتنعم بقربه ومشاهدته ، جزاء على صبرهم ومجاهدتهم ، وهو الغنى بالإطلاق.

(٢٨٧/٤)

ثم حذّر من طاعة من يرد عن التوحيد والإخلاص ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٨ الى ٩]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)

قلت : «وصى» : حكمه حكم «أمر» ، يقال : وصيت زيدا بأن يفعل خيرا ، كما تقول : أمرته بأن يفعل خيرا ، ومنه :

وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ «١» ، أي : أمرهم بكلمة التوحيد ووصاهم عليها.

يقول الحق جل جلاله : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ أمرناه بإيتاء والديه حُسْناً أي : فعلا ذا حسن ، أو : ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه ، كقوله : وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً «٢» أو : وصينا الإنسان بتعاهد والديه ، وقلنا له : أحسن بهما حسنا ، أو : أولهما حسنا. وَإِنْ جاهَداكَ أي : حملاك بالمجاهدة والجد لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أي : لا علم لك بالإلهية ، والمراد نفي العلم نفى المعلوم ، وكأنه قيل : لتشرك بي شيئا لا يصح أن يكون إلها ، وقيل : ما ليس لك به حجة لأنها طريق العلم ، فهو قوله : لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ «٣» ، بل هو باطل عقلا ونقلا ، فَلا تُطِعْهُما فى ذلك إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ، من آمن منكم ومن أشرك ، فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فأجازيكم حق جزائكم. وفى ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك ، وحث على الثبات والاستقامة فى الدين. روى أن سعد بن أبى وقاص لما أسلم ، نذرت أمه ألا تأكل ولا تشرب حتى يرتد ، فشكى إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية والتي فى لقمان «٤».

وَالَّذِينَ آمَنُوا ثبتوا على الإيمان وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ أي : فى جملتهم ، والصلاح من أبلغ صفة المؤمنين ، وهو متمنى الأنبياء ، فقال سليمان عليه السّلام : وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ «٥». وقال يوسف عليه السّلام : تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ «٦» أو : فى مدخل الصالحين ، وهو الجنة.

---

(١) من الآية ١٣٢ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٨٣ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ١١٧ من سورة المؤمنون.

(٤) أي : قوله تعالى : وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما الآية «١٥» ونزول الآية فى شأن سعد بن أبى وقاص رضي اللّه عنه ، أخرجه مسلم فى (فضائل الصحابة ، باب فى فضل سعد بن أبى وقاص ، ٤/ ١٨٧٧ ح ١٧٤٨) وانظر أسباب النزول للواحدى (ص ٣٥٠ - ٣٥١).

(٥) من الآية ١٩ من سورة النمل.

(٦) من الآية ١٠١ من سورة يوسف. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٨٩

الإشارة : قد وصى اللّه تعالى بطاعة الوالدين فى كل شيء ، إلا فى شأن التوحيد والتخلص من الشرك الجلي والخفي ، فإن ظهر شيخ التربية ومنع الوالدان ولدهما من صحبته ، ليتطهر من شركه ، فلا يطعهما ، وسيأتى فى لقمان دليل ذلك ، إن شاء اللّه. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر شأن من امتحن فافتضح ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١٠ الى ١١]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (١١)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ، فيدخل فى جملة المسلمين ، فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ أي : مسّه أذى من الكفرة بأن عذبوه على الإيمان ، جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ أي : جزع من ذلك كما يجزع من عذاب اللّه ، فيصرف عن الإيمان. وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ فتح أو غنيمة ، لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أي : متابعين لكم فى دينكم ، ثابتين عليه بثباتكم ، فأعطونا نصيبا من المغنم. والمراد بهم : المنافقون ، أو : قوم ضعف إيمانهم فارتدوا. قال تعالى : أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ أي : هو أعلم بما فى صدور العالمين. ومن ذلك ما فى صدور هؤلاء من النفاق ، وما فى صدور المؤمنين من الإخلاص.

الإشارة : منافق أهل الإيمان هو الذي يظهر الإيمان فى الرخاء ويرجع عنه فى الشدة ، ومنافق الصوفية هو الذي يظهر الانتساب فى السعة والجمال ، فإذا وقع البلاء والاختبار بأهل النسبة خرج عنهم ، فإذا أوذى فى اللّه جعل فتنة الناس كعذاب اللّه بالقطيعة والحجاب ، ولئن جاء لأهل النسبة نصر وعز ، ليقولن : إنا كنا معكم. وقد رأينا كثيرا من هذا النوع ، دخلوا فى طريق القوم ، فلما قابلتهم نيران التعرف والامتحان رجعوا القهقرى ، فعند الامتحان يعز المرء أو يهان ، وعند الحملة يتميز الجبان من الشجاع.

قال القشيري : المحن تظهر جواهر الرجال ، وتدلّ على قيمتهم وأقدارهم. ثم من كانت محنته من فوات الدنيا ، أو نقص نصيبه فيها ، أو بموت قريب أو فقد حبيب ، فحقير قدره ، وكثير فى الناس مثله. ومن كانت محنته فى اللّه وللّه ، فعظيم قدره ، وقليل مثله ، فى العدد قليل ، ولكن فى القدر والخطر جليل. هـ. قلت : معنى كلامه : أن

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٩٠

العامة يمتحنهم اللّه ويختبرهم بذهاب حظوظهم وأحبابهم ، فإن جزعوا فقدرهم حقير ، وإن صبروا فأجرهم كبير ، وأما الخاصة فيمتحنهم اللّه بسبب نسبتهم إلى اللّه ، وإقبالهم عليه ، أو الأمر بمعروف أو نهى عن منكر ، فيؤذون فى جانب اللّه ، فمنهم من يسجن ، ومنهم من يضرب ، ومنهم من يجلى من بلده ، فهؤلاء قدرهم عند اللّه كبير. ثم قال :

والمؤمن من يكفّ الأذى ، والولي من يتحمل من الناس الأذى ، من غير شكوى ، ولا إظهار دعوى. هـ.

ولما وقعت الإذاية من الكفار للمسلمين طمعوا فيهم ، كما قال تعالى :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١٢ الى ١٣]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا من صناديد قريش ، لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا الذي نسلكه ، وهو الدخول فى ديننا ، وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ إن كان ذلك خطيئة فى زعمكم. أمروهم باتباع سبيلهم ، وهى طريقتهم التي كانوا عليها ، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم ، فعطف الأمر على الأمر ، وأرادوا ليجتمع هذان الأمران فى الحصول. والمعنى : تعليق الحمل بالاتباع ، أي : إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم. وهذا قول صناديد قريش ، كانوا يقولون لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم ، فإن كان ذلك فإنا نحمل عنكم الإثم.

قال تعالى : وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ أي : ما هم حاملين شيئا من أوزارهم ، إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما ادعوا لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه ، كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفى قلوبهم نية الخلف. وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ أي : أثقال أنفسهم بسبب كفرهم ، وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ أي : أثقالا أخر غير التي ضمنوا للمؤمنين حملها ، وهى أثقال الذين كانوا سببا فى ضلالهم ، كقولهم : لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ «١» ، وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ من الأكاذيب والأباطيل التي أضلوا بها.

الإشارة : كل من عاق الناس عن الدخول فى طريق التصفية والتخليص : تصدق عليه هذه الآية ، فيتقلد بحمل نقائصهم ومساوئهم التي بقيت فيهم ، فيحاسب عليها وعلى مساوئ نفسه. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٢٥ من سورة النحل.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٩١

ثم سلّى رسوله – عليه الصلاة والسلام – ومن أوذى معه ، بما جرى للأنبياء قبله ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١٤ الى ١٥]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ (١٤)
فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (١٥)

يقول الحق جل جلاله : وَاللّه لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً يدعوهم إلى اللّه ، وهم يؤذونه بالشتم والضرب حتى نصر ، فاصبر كما صبر ، فإن العاقبة للمتقين.

روى أنه عاش ألفا وخمسين سنة ، وقيل : إنه ولد فى حياة آدم ، وآدم يومئذ ابن ألف سنة إلا ستين عاما. وقيل :

إلا أربعين. ذكره الفاسى فى الحاشية. والمشهور : أن بينه وبين آدم نحو العشرة آباء. وروى أنه بعث على رأس أربعين ، ولبث فى قومه تسعمائة وخمسين. وعاش بعد الطوفان ستين «١». وعن وهب : أنه عاش فى عمره ألفا وأربعمائة ، وقيل : وستمائة ، فقال له ملك الموت : يا أطول الأنبياء عمرا كيف وجدت الدنيا؟ قال : كدار لها بابان ، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. ولم يقل : تسعمائة وخمسين سنة لأنه ، لو قيل ذلك ، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره ، وهذا التوهم زائل هنا ، وكأنه قيل : تسعمائة وخمسين كاملة وافية العدد. مع أن ما ذكره الحق أسلس وأعذب لفظا ، ولأن القصة سيقت لذكر ما ابتلى به نوح عليه السّلام من أمته ، وما كابده من طول المصابرة تسلية لنبينا – عليه الصلاة والسلام – فكان ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض. وجيء ، أولا : بالسّنة ثم بالعام لأن تكرار لفظ واحد فى كلام واحد حقيق بالاجتناب فى البلاغة.

فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ طوفان الماء ، وهو ما طاف وأحاط ، بكثرة وغلبة ، من سيل ، أو ظلام ليل ، أو نحوها ، وَهُمْ ظالِمُونَ أنفسهم بالكفر والشرك ، فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ ، وكانوا ثمانية وسبعين نفسا ، نصفهم ذكور ، ونصفهم إناث ، أولاد نوح : سام ، وحام ، ويافث ، ونساؤهم ، ومن آمن من غيرهم ، وَجَعَلْناها أي :

السفينة ، أو الحادثة ، أو القصة ، آيَةً عبرة وعظة لِلْعالَمِينَ يتعظون بها.

الإشارة : كل ما سلّى به الأنبياء يسلّى به الأولياء ، فكل من أوذى فى اللّه ، أو لحقته شدة من شدائد الزمان ، فليعتبر بمن سلف قبله من الأكابر ، ويتسلى بهم ، ولينظر إلى لطف اللّه وبره وإحسانه ، فإن لطفه لا ينفعك عن قدره. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه : العارف هو الذي يغرق «٢» إساءته فى إحسان اللّه إليه ، ويغرق «٣» شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من اللّه عليه فاذكروا آلاء اللّه لعلكم تفلحون.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٧).

(٢ ، ٣) فى نسخة (يعرف) والمثبت من النسخة الأم.

(٢٩١/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٩٢

ثم ذكر قصة إبراهيم ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١٦ الى ١٨]

وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨)

قلت : (إبراهيم) : عطف على (نوح) ، أو متعلق باذكر ، و(و إذ قال) : ظرف زمان لأرسلنا ، أو : بدل اشتمال من (إبراهيم) إن نصب باذكر لأن الأحيان تشتمل على ما فيها.

يقول الحق جل جلاله : وَإِبْراهِيمَ أي : وأرسلنا إبراهيم إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أي : أرسلناه حين كمل عقله وتم نظره ، وبلغ من السن والعلم مبلغا صلح فيه لأن يعظ قومه ، ويأمرهم بالعبادة والتقوى. وقرأ النخعي وأبو حنيفة : بالرفع. أي : ومن المرسلين إبراهيم ، قال فى وعظه : اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ مما أنتم عليه من الكفر ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم.

إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً أصناما وَتَخْلُقُونَ : تختلقون وتكذبون ، أو تصنعون أصناما بأيديكم تسمونها آلهة. وقرأ أبو حنيفة والسّلمى : «وتخلّقون» بالكسر والشد. من خلّق للمبالغة. إِفْكاً : وقرئ «أفكا» بفتح الهمزة «١» ، وهو مصدر ، نحو كذب ولعب. واختلاقهم الإفك : تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء للّه.

إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً : لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئا من الرزق ، فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ كلّه فإنه هو الرزاق وحده ، لا يرزق غيره. وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ أي :

متوسلين إلى مطالبكم بعبادته ، مقيدين لما خصكم به من النعم بشكره ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه ، وَإِنْ تُكَذِّبُوا أي : تكذبونى فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ رسلهم ، وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ الذي يزول معه الشك. والمعنى : وإن تكذبونى فلا تضروننى بتكذيبكم فإن الرسل قبلى قد كذبتهم أممهم ، وما ضروهم ، وإنما ضروا أنفسهم ، حيث حلّ بهم العذاب. وأما الرسول فقد أدى ما

(١) فى الأصول [بفتح الفاء]. وانظر : البحر المحيط (٧/ ١٤١). فقد قال أبو حيان : «قرأ ابن الزبير وفضيل بن زرقان. (أفكا) بفتح الهمزة وكسر الفاء ، وهو مصدر مثل الكذب».

(٢٩٢/٤)

عليه حين بلغ البلاغ المبين ، الذي لم يبق معه شك ، حيث اقترن بآيات اللّه ومعجزاته. أو : وإن كنت مكذّبا فيما بينكم ، فلى فى سائر الأنبياء أسوة ، حيث كذّبوا ، وعلى الرسول أن يبلّغ ، وما عليه أن يصدّق ولا يكذّب.

وهذه الآية من قوله : وَإِنْ تُكَذِّبُوا إلى قوله : فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ : يحتمل أن تكون من جملة قول إبراهيم عليه السّلام لقومه ، والمراد بالأمم قبله : قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم ، وأن تكون من كلام اللّه فى شأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وشأن قريش ، معترضة بين أول قصة إبراهيم وآخرها.

فإن قلت : الجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ، فلا تقول : مكة ، وزيد قائم ، خير بلاد اللّه؟ قلت : قد وقع الاتصال ، وبيانه : أن إيراد قصة إبراهيم عليه السّلام إنما هو تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بأن أباه إبراهيم كان مبتلى بنحو ما ابتلى به من شرك قومه ، وعبادتهم الأوثان ، فاعترض بقوله : وَإِنْ تُكَذِّبُوا يا معشر قريش محمدا ، فقد كذب إبراهيم قومه ، وكل أمة كذبت نبيها لأن قوله : فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ لا بد من تناوله لأمة إبراهيم ، وهو كما ترى اعتراض متصل ، ثم سائر الآيات بعدها من توابعها لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله ، وهدم الشرك ، وتوهين قواعده ، وصفة قدرة اللّه وسلطانه ، ووضوح صحته وبرهانه. قاله النسفي.

قال ابن جزى : وَإِنْ تُكَذِّبُوا يحتمل أن يكون وعيدا للكفار وتهديدا لهم ، أو يراد به تسلية النبي عن تكذيب قومه ، بالتأسى بغيره من الأنبياء الذين كذّبهم قومهم. هـ.

الإشارة : قوله تعالى : فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ : قال سهل رضي اللّه عنه : معناه : اطلبوا الرزق فى التوكل ، لا فى الكسب ، فإن طلبه بالكسب سبيل العوام. وقال ابن عطاء اللّه : اطلبوا الرزق فى الطاعة والإقبال على العبادة. وقال القشيري : وقدّم ابتغاء الرزق لتوقف القيام بالعبادة عليه ، ثم أمر بالشكر على الكفاية. هـ.

ثم أمرهم بالاعتبار ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١٩ الى ٢٣]

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا

كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

(٢٩٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٩٤

قلت : يقال : بدأ اللّه الخلق ، وأبداه : بمعنى واحد ، وقد جاءت اللغتان فى هذه السورة. وقوله : (يعيده) : عطف على الجملة ، لا على (يبدئ) لأن رؤية البداءة بالمشاهدة بخلاف الإعادة ، فإنها تعلم بالنظر والاستدلال ، وهم لا يقرونها لعدم النظر. وقد قيل : إنه يريد إعادة النبات وإبداءه ، وعلى هذا تكون (ثم يعيده) : عطفا على (يبدئ).

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أي : كفار قريش كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ أي : يظهره من العدم ، أي : قد رأوا ذلك وعلموه ، ثُمَّ يُعِيدُهُ بالبعث للجزاء بالعذاب والثواب.

قال القشيري : الذي داخلهم فيه الشكّ هو بعث الخلق ، فاحتجّ عليهم بما أراهم من فصول السنة بعد نقضها ، وإعادتها على الوجه الذي كان فى العام الماضي. وكما أن ذلك سائغ فى قدرته ، كذلك بعث الخلق. هـ. ونحوه لابن عطية وغيره. كما هو مشهود فى الثمار ، من كونها تبدأ ، فتجنى ، ثم تفنى ، ثم تعيدها مرة أخرى. وكذلك يبدئ خلق الإنسان ، ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا ، وخلق من الولد ولدا آخر ، وكذا سائر الحيوان. وهذا يرشح صحة عطف «يعيد» على «يبدئ». إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أي : الإعادة بعد الإفناء يسيرة على قدرة اللّه تعالى.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ أي : قل يا محمد ، وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره : وأوحينا إليه أن قل : سيروا فى الأرض ، فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ على كثرتهم ، واختلاف أحوالهم وألسنتهم وألوانهم وطبائعهم ، وتفاوت هيئاتهم ، لتعرفوا عجائب قدرة اللّه بالمشاهدة ، ويقوى إيمانكم بالبعث ، وهو قوله : ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ أي : البعث ، وهذا دليل على أنهما نشأتان : نشأة الاختراع ونشأة الإعادة ، غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء ، والأولى ليست كذلك. والقياس أن يقال : كيف بدأ اللّه الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة ، وإنما عدل عنه لأن الكلام معهم وقع فى الإعادة ، فلما قررهم فى الإبداء ، بأنه من اللّه ، احتج بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، فإذا لم يعجزه الإبداء وجب ألا يعجزه الإعادة ، فكأنه قال : ثم ذلك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشئ النشأة الآخرة ، فللتنبيه على هذا أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ. قاله النسفي.

إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فلا يعجزه شيء. يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ بعدله ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ بفضله ، أو :

يعذب من يشاء بالخذلان ، ويرحم بالهداية للإيمان ، أو : يعذب من يشاء بالحرص ، ويرحم من يشاء بالقناعة ، أو : يعذب بالتدبير والاختيار ، ويرحم بالرضا والتسليم لمجارى الأقدار ، أو : يعذب بالإعراض عنه ، ويرحم

(٢٩٤/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٩٥

بالإقبال عليه ، أو : بالاستتار والتجلي ، أو : بالقبض والبسط ، أو : بالمجاهدة والمشاهدة ، إلى غير ذلك. وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ تردون للحساب والعقاب.

وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ أي : بفائتين ربكم إن هربتم من حكمه وقضائه ، فِي الْأَرْضِ الفسيحة ، وَلا فِي السَّماءِ التي هى أفسح منها وأبسط ، لو كنتم فيها. وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ يتولى أموركم ، وَلا نَصِيرٍ ولا ناصر يمنعكم من عذابه. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ بدلائله على وحدانيته ، أو كتبه ، أو معجزاته ، وَلِقائِهِ وكفروا بلقائه ، أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي جنتى ، وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ موجع. وباللّه التوفيق.

الإشارة : أو لم ير أهل فكرة الاستبصار كيف يظهر الحقّ تجلياته من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، ثم يبطنها ، فيردها لأصلها من اللطافة ، ثم ينشئها النشأة الثانية ، تكون معانيها أظهر من حسها ، وقدرتها أظهر من حكمتها ، فليس عند أهل التوحيد الخاص شيء يفنى ، وإنما يبطن ما ظهر ، ويظهر ما بطن ، ولا زائد على أسرار الذات وأنوار الصفات. وهذا أمر لا يدركه إلا أفراد الرجال بصحبة أكابر الرجال ، وهو لب العلم ، وخالصة طريقة ذكر اللّه ، والتفرغ عن كل ما يشغل عن اللّه ، بعد قتل النفوس وحط الرؤوس وبذل الفلوس.

وباللّه التوفيق.

ثم ذكر جواب قوم إبراهيم ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٢٤ الى ٢٥]

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٥)

قلت : مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ : من نصبها : فله وجهان أحدهما : على التعليل ، أي : لتوادوا بينكم ، والمفعول الثاني محذوف ، أي : اتخذتم أوثانا آلهة. والثاني : على المفعول الثاني لاتخذتم ، كقوله : اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ «١». و(ما) :

كافة ، أي : اتخذتم الأوثان سبب المودّة ، على حذف مضاف ، أو : اتخذتموها مودودة بينكم.
و(بينكم) : نصب على

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة الفرقان.

الظرفية نعت لمودة ، أي : حاصلة بينكم. ومن رفع : فله وجهان إما خبر إن ، و(ما) موصولة ، أو : عن مبتدأ محذوف ، أي : هى مودة بينكم ، و(بينكم) : مضاف إليه ما قبله.

يقول الحق جل جلاله : فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ قوم إبراهيم حين دعاهم إلى اللّه إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ، قاله بعضهم لبعض ، أو : قاله واحد منهم ، وكان الباقون راضين ، فكانوا جميعا فى حكم القائلين. فاتفقوا على تحريقه ، فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ حين قذفوه فيها بأن جعلها بردا وسلاما. وتقدم فى الأنبياء تمام القصة.

إِنَّ فِي ذلِكَ فيما فعلوه به وفعلناه لَآياتٍ دالة على عظم قدرته لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لأنهم المنتفعون بالفحص عنها والتأمل فيها. روى أنه لم ينتفع بها فى تلك الأيام أحد لذهاب حرها لأن كل نار سمعت الخطاب فامتثلت.

وَقالَ إبراهيم لقومه : إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً أصناما آلهة مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا أي : لتوادوا بينكم فى الحياة الدنيا ، وتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها ، واتفاقكم عليها ، كما تنفق الناس على مذهب أو طريق ، فيكون ذلك سبب تحابهم. أو : إنما اتخذتم الأوثان سبب المودة ، أو اتخذتموها مودودة ومحبوبة بينكم ، أو : إن التي اتخذتموها أوثانا تعبدونها هى مودة بينكم فى الدنيا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ أي : تتبرأ الأصنام من عابديها كقوله : يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا «١» ، أو : ينكر بعضكم بعضا ، ويقع بينكم التباغض كقوله : الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ «٢».
وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، فتلعن الأتباع الرؤساء وَمَأْواكُمُ النَّارُ أي : مأوى العابد والمعبود والتابع والمتبوع.
وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ يحصنونكم منها.

الإشارة : الإنكار على أهل الخصوصية سنّة اللّه فى خلقه ، فلا يأنف منها إلا جاهل ، والاجتماع على التودد على غير ذكر اللّه ومحبته وما يقرب إليه ، كله يؤدى إلى التباغض والتلاعن يوم القيامة الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ، وهم المتحابون فى اللّه ، المجتمعون على ذكر اللّه والعلم به.
واللّه تعالى أعلم.

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٢٦ الى ٢٧]
فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)

---

(١) من الآية ٨٢ من سورة مريم.
(٢) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.

(٢٩٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٩٧
يقول الحق جل جلاله : فَآمَنَ لإبراهيم ، أي : انقاد لَهُ لُوطٌ ، وكان ابن أخيه ، وأول من آمن به حين رأى النار لم تحرقه. وَقالَ إبراهيم : إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إلى حيث أمرنى ربى بالهجرة ، وهو الشام ، فخرج من «كوثى» ، وهى من سواد الكوفة ، إلى حرّان ، ثم منها إلى فلسطين «١» ، وهى من برية الشام ، ونزل لوط بسدوم ، ومن ثمّ قالوا : لكل نبى هجرة ، ولإبراهيم هجرتان. وكان معه ، فى هجرته ، لوط وسارة زوجته.
وقيل : القائل : إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي هو لوط ، فأول من هاجر من الأنبياء إبراهيم ولوط. وذكر البيهقي : أن أول من هاجر منا فى الإسلام بأهله : عثمان. ورفع الحديث إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأنه قال : إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط. هـ. يعنى : الهجرة إلى الحبشة. وكانت - فيما ذكر الواقدي - سنة خمس من البعثة ، وأما الهجرة إلى المدينة ففى البخاري عن البراء : أول من قدم المدينة من الصحابة مهاجرا ، مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، ثم جاء عمّار ، وبلال ، وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين ، ثم جاء النبي صلى اللّه عليه وسلم «٢» ، .
إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الذي يمنعنى من أعدائى ، الْحَكِيمُ الذي لا يأمرنى إلا بما هو خير لى.
وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ ولدا ، وَيَعْقُوبَ ولد ولد ، ولم يذكر إسماعيل لشهرته ، أو : لأن إسحاق ولد بعد اليأس من عجوز عاقر ، فعظمت المنة به. وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ أي : فى ذرية إبراهيم ، فإنه شجرة الأنبياء ، وَالْكِتابَ يريد به الجنس ليتناول التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا أي : الثناء الحسن ، والصلاة عليه آخر الدهر ، ومحبة أهل الملل له ، أو : هو بقاء ضيافته عند قبره ، وليس ذلك لغيره ، أو : المال الحلال ، واللفظ عام. وفيه دليل على أن اللّه تعالى قد يعجل لأوليائه بعض الأجر فى الدنيا ، ولا يخل بعلو منصبهم. وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ لحضرتنا ، والسكنى فى جوارنا. أسكننا اللّه معهم فى فسيح الجنان. آمين.

الإشارة : الهجرة سنّة الخواص ، وهى على قسمين : هجرة حسية ، وهجرة معنوية ، فالحسية هى هجرة العبد من وطن تكثر فيه الغفلة والعوائق عن اللّه ، أو الإذاية والإنكار ، إلى وطن يجد فيه اليقظة وقلة العوائق. والهجرة المعنوية : هى هجرة القلب من وطن المعصية إلى وطن التوبة ، ومن وطن الغفلة إلى وطن اليقظة ، ومن وطن الحرص إلى وطن الزهد والقناعة ، ومن وطن الحظوظ والشهوات إلى وطن العفة والحرية ، ومن وطن الشواغل إلى وطن التفرغ ، ومن وطن رؤية الحس إلى رؤية المعاني ، وهذه نهاية الهجرة.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه البخاري فى (مناقب الأنصار ، باب مقدم النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه المدينة ، ح ٣٩٢٥) من حديث البراء بن عازب - رضي اللّه عنه.

قال القشيري : لا تصحّ الهجرة إلى اللّه إلا بالتبرّى بالقلب عن غير اللّه ، والهجرة بالنفس يسيرة بالنسبة إلى الهجرة بالقلب ، وهى هجرة الخواص ، وهى الهجرة عن أوطان التفرقة إلى ساحة الجمع ، والجمع بين التعريج فى أوطان التفرقة والكون فى مشاهدة الجمع متناف. هـ. وقال فى قوله تعالى :

وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ أي :

للدنوّ والقربة والتخصيص بالزلفة. هـ.

ثم ذكر قصة لوط ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٢٨ الى ٣٥]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٢٨) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (٣١) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٢)

وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ أي : الفعلة البالغة فى القبح ، وهى اللواطة ، ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ : جملة مستأنفة مقررة لفحش تلك الفعلة ، كأن قائلا قال : لم كانت فاحشة؟ فقال : لأن أحدا ممن قبلهم لم يقدم عليها ، قالوا : لم ينز ذكر على ذكر قبل قوم لوط.

أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ أي : تتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ المال ، كما هو شأن قطاع الطريق ، وقيل : اعتراضهم السابلة لقصد الفاحشة ، وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ فى مجالسكم الغاصة بأهلها ، ولا يقال

(٢٩٨/٤)

للمجلس : ناد ، إلا مادام فيه أهله ، الْمُنْكَرَ فعلهم الفاحشة بالرجال ، أو : المضارطة ، أو : السباب والفحش فى المزاح ، أو : الحذف بالحصى ، أو : مضغ العلك ، أو الفرقعة.

وعن أم هانئ - رضى اللّه عنها - أنها سألت النبي صلى اللّه عليه وسلم عن قوله : وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ؟ فقال : «كانوا يحذفون من يمّر بهم الطريق ، ويسخرون منهم»»

. وقال معاوية : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «إن قوم لوط كانوا يجلسون فى مجالسهم ، وعند كل رجل قصعة من الحصى ، فإذا مر بهم عابر قذفوه ، فأيهم أصابه كان أولى به» «٢».

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فيما تعدنا من نزول العذاب ، أو فى دعوى النبوة ، المفهومة من التوبيخ ، قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بإنزال العذاب عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ بابتداع الفاحشة وحمل الناس عليها ، وسنّها لمن بعدهم. وصفهم بذلك مبالغة فى استنزال العذاب ، وإشعارا بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب.

وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى ، جاءت الملائكة بالبشارة لإبراهيم بالولد ، والنافلة إسحاق ، ويعقوب ، أي : مروا عليه ، حين كانوا قاصدين قوم لوط ، قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ سدوم ، والإشارة بهذه القرية تشعر بأنها قريبة من موضع إبراهيم عليه السّلام ، قالوا : إنها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم ، قاله النسفي. إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ ، تعليل للإهلاك ، أي : إن الظلم قد استمر منهم فى الأيام السالفة ، وهم عليه مصرّون ، وهو كفرهم وأنواع معاصيهم. قالَ إبراهيم : إِنَّ فِيها لُوطاً أي : أتهلكونهم وفيهم من هو برىء من الظلم ، أو : وفيهم نبى بين أظهرهم؟ قالُوا أي : الملائكة : نَحْنُ أَعْلَمُ منك بِمَنْ فِيها ، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ الباقين فى العذاب.

ثم أخبر عن مسير الملائكة إلى لوط بعد مفارقتهم إبراهيم ، فقال : وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ

بِهِمْ أي : ساءه مجيئهم وغمه ، مخافة أن يقصدهم قومه بسوء. و«أن» : صلة لتأكيد الفعلين ، وترتيب أحدهما على الآخر ، كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان ، كأنه قيل : لمّا أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ترتيب.

وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً أي : ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه وطاقته ، وقد جعلوا ضيق الذرع والذراع عبارة عن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٣٤١) ، والترمذي وحسّنه في (التفسير ، سورة العنكبوت ، ٥/ ٣١٩ ، ح ٣١٩٠) ، وصححه الحاكم (٢/ ٤٠٩) ، ووافقه الذهبي. وأخرجه الطبري (٢٠/ ١٤٥) ، والبغوي في التفسير (٦/ ٢٣٩).

(٢) انظر تفسير البغوي (٦/ ٢٤٠).

(٢٩٩/٤)

فقد الطاقة ، كما قالوا : رحب الذراع ، إذا كان مطيقا للأمور ، والأصل فيه : أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير ، فاستعير للطاقة والقوة وعدمها.

وَقالُوا ، لمّا رأوا فيه أثر الضجر والخوف : لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ على تمكنهم منا ، إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ أي : وننجى أهلك ، فالكاف في محل الجر ، و«أهلك» : نصب بفعل محذوف ، إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ. في الكلام حذف يدل عليه ما في هود «١» ، أي : لا تخف ولا تحزن من أجلنا ، إنهم لن يصلوا إليك ونحن عندك ، بل يهلكون جميعا ، وأما أنت فإنا منجوك .. إلخ لأن خوفه إنما كان عليهم لا على نفسه. أو يقدر : إنا منجوك وأهلك بعد هلاكهم. ثم قالوا : إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً عذابا مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ بسبب فسقهم.

وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها من القرية آيَةً بَيِّنَةً ، هى حكايتها الشائعة ، أو آثار منازلهم الخربة ، وقيل : الماء الأسود على وجه الأرض ، حيث بقيت أنهارهم مسودة ، وقيل : الحجارة المسطورة ، فإنها بقيت بعدهم آية لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يستعملون عقولهم في الاعتبار والاستبصار. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قوله تعالى : وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ قال القشيري : من جملة المنكر : تخلية الفسّاق مع فسقهم ، وترك القبض على أيديهم ، ومن ذلك : ترك الاحتشام للشيوخ والأكابر. هـ. وقال في قوله تعالى : إِنَّ فِيها لُوطاً ، لما أخبروه بمقصدهم من إهلاك قوم لوط ، تكلم في شأن لوط ، إلى أن قالوا : لَنُنَجِّيَنَّهُ .. إلخ ، فدلّ ذلك على أن اللّه تعالى لو أراد إهلاك لوط ، ولو كان بريئا ، لم يكن ظلما ، لو

كان ذلك قبيحا لما كان إبراهيم - مع وفر علمه - يشكل عليه ، حتى كان يجادل عنه ، بل للّه أن يعذّب من يعذّب ويعافى ، من يعافى بلا حجر هـ.

قال شيخ شيوخنا الفاسى فى حاشيته : وما ذكره واضح من حيث العقيدة ، وإن كانت الآية ، وقول إبراهيم يحتمل أن يكون من نوع قوله تعالى : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ «٢». والمعنى الأول معلوم من قوله تعالى :

قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ «٣» الآية. هـ. قلت : ظاهر قوله تعالى : يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ «٤» أن مجادلته كانت عن قومه فقط لغلبة الشفقة عليه ، كما هو شأنه ، ولذلك

---

(١) فى قوله تعالى : قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ .. الآية ٨١.

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

(٣) الآية ١٧ من سورة المائدة. [.....]

(٤) من الآية ٧٤ من سورة هود.

(٤/٣٠٠)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٠١

قال تعالى : إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ... حتى قال له تعالى : يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا «١» لمّا تحتّم عليهم العذاب ، فتأمله.

ثم ذكر قصة شعيب ، فقال

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٣٧)

يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً ، فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده ، وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ أي : خافوه ، واعملوا ما ترجون به الثواب فيه ، وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ قاصدين الفساد ، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ الزلزلة الشديدة ، أو : الصيحة من جبريل عليه السّلام لأن القلوب رجفت بها ، فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ بلدهم وأرضهم ، جاثِمِينَ باركين على الركب ميتين.

الإشارة : العبادة مع الغفلة عن العواقب الغيبية المستقبلة ، لا جدوى لها ، كأنها عادة ، وخوف العواقب ، من غير استعداد لها ، خذلان ، والاجتهاد فى العمل ، مع ارتقاب العواقب الغيبية ، فلاح ،

من شأن أهل البصائر ، كما قال تعالى فى حق من مدحهم من أكابر الرسل : أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ «٢».

ثم ذكر قوم هود وصالح وموسى – عليهم السلام – فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٣٨ الى ٤٠]

وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

---

(١) الآيتان : ٧٥ – ٧٦ من سورة هود.

(٢) الآيتان : ٤٥ – ٤٦ من سورة «ص».

(٣٠١/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٠٢

يقول الحق جل جلاله : وَعاداً وَثَمُودَ أي : اذكر عادا وثمودا ، أو أهلكنا عادا ، وثمودا ، يدل عليه فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ لأنه فى معنى الإهلاك ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ ما وصفنا من إهلاكهم مِنْ مَساكِنِهِمْ الدارسة. أو تبين لكم بعض مساكنهم الخربة إذا مررتم بها خالية. وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ من الكفر والمعاصي ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ عن الطريق الذي أمروا بسلوكه ، وهو الإيمان باللّه ورسوله. وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ متمكنين من النظر والاستبصار وتمييز الحق من الباطل ، ولكنهم لم يفعلوا. أو عارفين الحق من الباطل بظهور دلائله ، لكنهم عاندوا ، حسدا. يقال : استبصر : إذا عرف الشيء على حقيقته. أو : متيقنين أن العذاب لا حق بهم بإخبار الرسول ، لكنهم لجّوا. أو : مستبصرين فى ضلالتهم معجبين بها. وقال الفراء : عقلاء ذوو بصائر ، يعنى : علماء فى أمور الدنيا ، كقوله : يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا ... «١»

الآية. وقال مجاهد : حسبوا أنهم على الحق ، وهم على الباطل. هـ.

وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ ، أي : أهلكناهم ، وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ فائتين ، بل أدركهم أمر اللّه فلم يفوتوه. يقال : سبق طالبه : فاته ، فَكُلًّا أَخَذْنا عاقبناه بِذَنْبِهِ ، فيه رد على من يجوز العقوبة بغير ذنب. قاله النسفي ، وهو جائز عقلا فى حقه تعالى ، لكنه لم يقع لإظهار عدله. فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً أي : ريحا عاصفة فيها حصباء أو : ملكا رماهم بها.

قال ابن جزى : فيحتمل عندى أنه أراد به المعنيين لأن قوم لوط هلكوا بالحجارة ، وعادا هلكوا بالريح. وإن حملناه على المعنى الواحد نقض ذكر الآخر ، وقد أجاز كثير من الناس استعمال اللفظ الواحد فى معنيين ، ويقوى ذلك أن المقصود عموم أصناف الكفار. هـ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ كمدين وثمود ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ كقارون ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا كقوم نوح ، وفرعون وقومه ، وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ فيعاقبهم بغير ذنب إذ ليس ذلك من عادته - عز وجل - ، وإن جاز فى حقه ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بالتعرض للعذاب بالكفر والطغيان ، وباللّه التوفيق.

---

(١) الآية ٧ من سورة الروم.

(٣٠٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٠٣

الإشارة : الاستبصار فى أمور الدنيا ، والتحديق فى تدبير شؤونها ، حمق وبطالة «١» ، وقد وسم به الحق تعالى الكفرة بقوله : وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ، والاستبصار فى أمور اللّه تعالى وما يقرب إليه وما يبعد عنه ، والفحص عن ذلك ، والتفكر فى عواقب الأمور من شأن العقلاء الأكياس ، قال صلى اللّه عليه وسلم «ألا وإن من علامات العقل :

التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزود لسكنى القبور ، والتأهب ليوم النشور» ، وقال أيضا صلى اللّه عليه وسلم :

«الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنّى على اللّه الأماني» «٢» ، وقيل للجنيد رضي اللّه عنه : متى يكون الرجل موصوفا بالعقل؟ فقال : إذا كان للأمور متميزا ، ولها متصفحا ، وعما يوجبه عليه العقل باحثا ، فيتخير بذلك طلب الذي هو أولى ليعمل به ، ويؤثره على ما سواه. ثم قال : فمن كانت هذه صفته ترك العمل بما يفنى وينقضى ، وذلك صفة كل ما حوت عليه الدنيا ، وكذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل ، ويسير حائل ، يصده التشاغل به ، والعمل له ، عن أمور الآخرة ، التي يدوم نعيمها ونفعها ، ويتأبد سرورها ، ويتصل بقاؤها .. إلخ كلامه.

وقد ضرب اللّه مثلا لمن ركن إلى غير اللّه ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٤١ الى ٤٤]

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ

لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)

---

(١) الاستبصار فى أمور الدنيا فرض لازم للأمة .. ينبغى أن تتعاون الأمة لإقامته فى كل أمر من أمور الدنيا ، وشأن من شئونها ، وعلى العاقل – ما لم يكن مغلوبا على عقله – أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شأنه.

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي وحسّنه فى (صفة القيامة والرقائق ، باب ٢٥ ح ٢/ ١٤٢٣ ح ٤٢٦٠) ، وابن ماجة فى (الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له ، ٢/ ١٤٢٣ ح ٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس.

(٣٠٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٠٤

يقول الحق جل جلاله : مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ أصناما يعبدونها ، أي : مثل من أشرك باللّه الأوثان فى الضعف ، وسوء الاختيار ، كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، أي : كمثل العنكبوت فيما تتخذه لنفسها من بيت فإنه لا يدفع الحر والبرد ، ولا يقى ما تقى البيوت ، فكذلك الأوثان ، لا تنفعهم فى الدنيا والآخرة ، بل هى أو هى وأضعف ، فإن لبيت العنكبوت حقيقة وانتفاعا عاما ، وأما الأوثان فتضر ولا تنفع ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ أي : أضعفها لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لا بيت أوهن من بيته إذ أضعف شىء يسقطها. عن عليّ رضي اللّه عنه : «طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت ، فإن تركه يورث الفقر».

والعنكبوت يقع على الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث ، ويجمع على عناكيب وعناكب وعكاب وعكبة وأعكب.

لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ لعلموا أن هذا مثلهم ، وأنّ ما تمسكوا به من الدين أرق من بيت العنكبوت. وقال الزجاج :

تقدير الآية : مثل الدين اتخذوا من دون اللّه أولياء ، لو كانوا يعلمون ، كمثل العنكبوت. وقيل : معنى الآية : مثل المشرك يعبد الوثن ، بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد اللّه ، مثل عنكبوت تتخذ بيتا بالإضافة إلى رجل بنى بيتا بآجرّ وجص ، أو جص وصخور ، فكما أن أوهن البيوت ، إذا استقرأتها بيتا بيتا ، بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان ، إذا تتبعتها دينا دينا ، عبادة الأوثان.

وقال الضحاك : ضرب مثلا لضعف آلهتهم ووهنها ، فلو علموا أن عبادة الأوثان ، فى عدم الغنى ، كما ذكرنا فى المثل ، لما عبدوها ، ولكنهم لا يعلمون ، بل اللّه يعلم ضعف ما تعبدون من دونه وعجزه ، ولذلك قال : إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ «١» مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، أي : يعلم حاله ، وصفته ، وحقيقته ،

وعدم صلاحيته لما تؤملونه منه ، فما :

موصولة ، مفعول «يعلم» ، وهى تامة ، أي : يتعلق علمه بجميع ما يعبدونه من دونه ، أىّ شىء كان. أو ناقصة ، والثاني محذوف ، أي : يعلمه وهيا وباطلا. وقيل : استفهامية معلقة ، وأما كونها نافية فضعيف ، و«من» ، الثانية للبيان ، ومن قرأ بالخطاب فعلى حذف القول ، أي : ويقال للكفرة : إن اللّه يعلم ما تعبدونه من دونه من جميع الأشياء ، أو : أىّ شىء كان.

وَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب الذي لا شريك له ، الْحَكِيمُ فى ترك المعاجلة بالعقوبة ، وفيه تجهيل لهم ، حيث عبدوا جمادا لا علم له ولا قدرة ، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شىء ، الحكيم الذي لا يفعل إلا لحكمة وتدبير.

وَتِلْكَ الْأَمْثالُ الغربية ، أي : هذا المثل ونظائره نَضْرِبُها لِلنَّاسِ نبيّنها لم تقريبا لما بعد عن أفهامهم. كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون : إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، ويضحكون من

---

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب : يدعون بياء الغيب. وقرأ الباقون بالخطاب. انظر : الإتحاف ٢/ ٣٥١.

(٣٠٤/٤)

ذلك ، فلذلك قال تعالى : وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ ، أي : باللّه وصفاته وأسمائه ، وبمواقع كلامه وحكمه ، أي :

لا يعقل صحتها وحسنها ، ولا يفهم حكمتها ، إلا هم لأن الأمثال والتشبيهات إنما هى طرق إلى المعاني المستورة ، حتى يبرزها ويصورها للأفهام ، كما صور هذا التشبيه الذي بيّن فيه حال المشرك وحال المؤمن. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه تلا هذه الآية ، وقال : «العالم : من عقل عن اللّه ، فعمل بطاعته ، واجتنب سخطه» «١» ، ودلّت هذه الآية على فضل العلم وأهله.

خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ أي : محقا ، لم يخلقها عبثا ، كما لم يضرب الأمثال عبثا ، بل خلقها لحكمة ، وهى أن تكون مساكن عباده ، وعبرة للمعتبرين منهم ، ودلائل على عظم قدرته ، بدليل قوله : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ لأنهم هم المنتفعون بها. وقيل : بالحق : العدل ، وقيل : بكلامه وقدرته ، وذلك هو الحق الذي خلق به الأشياء. وخص السموات والأرض لأنها المشهودات. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من اعتمد على غير اللّه ، أو مال بالمحبة إلى شىء سواه ، كان كمن اعتمد على خيط

العنكبوت ، فعن قريب يذهب ويفوت ، يا من تعلق بمن يموت قد تمسّكت بأضعف من خيط العنكبوت.

تنبيه : الأشياء الحسية جعل اللّه فيها القوى والضعيف ، والعزيز والذليل ، والفقير والغنى لحكمة ، وأما أسرار المعاني القائمة بها فكلها قوية عزيزة غنية ، فالأشياء ، بهذا الاعتبار - أعنى : النظر لحسها ومعناها - كلها قوية فى ضعفها ، عزيزة فى ذلها ، غنية فى فقرها. ولذلك تجد الحق تعالى يدفع بأضعف شيء أقوى شيء ، وينصر بأذل شيء على أقوى شيء. روى أنه لما نزل قوله تعالى : وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ شكى العنكبوت إلى اللّه تعالى ، وقال : ربّ خلقتنى ضعيفا ، ووصفتني بالإهانة والضعف ، فأوحى اللّه تعالى إليه : انكسر قلبك من قولنا ، ونحن عند المنكسرة قلوبهم من أجلنا ، وقد صددنا بنسجك الضعيف صناديد قريش ، وأغنينا محمدا عن كل ركن كثيف ، فقال : يا رب حسبى أن خلقت فى ذلى عزتى ، وفى إهانتي قوتى. هـ. ذكره فى اللباب.

ثم أمره بالاشتغال بالتلاوة والصلاة تسلية وغيبة عمن آذاه ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٤٥]

اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (٤٥)

---

(١) قال المناوى فى الفتح السماوي (٢/ ٨٩٦) : «رواه داود بن المحبر فى كتاب العقل ، ومن طريقه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده ، والثعلبي ، والواحدي ، والبغوي - فى التفسير (٦/ ٢٤٣) - من حديث جابر. وأورده ابن الجوزي فى الموضوعات ، وكتاب العقل ، لداود ، كله موضوع ، وانظر أيضا : تنزيه الشريعة ، لابن عراق (١/ ٢١٤).

يقول الحق جل جلاله : اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ تنعّما بشهود أسرار معانيه ، وبشهود المتكلم به ، فتغيب عن كل ما سواه ، واستكشافا لحقائقه ، فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه. وقد كان من السلف من يبقى فى السورة يكررها أياما ، وفى الآية يرددها ليلة وأكثر ، كلما رددها ظهر له معان أخر.

وَأَقِمِ الصَّلاةَ أي : دم على إقامتها ، بإتقانها فعلا وحضورا وخشوعا ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ الفعلة القبيحة كالزنى ، والشرب ، ونحوهما ، وَالْمُنْكَرِ ، وهو ما ينكره الشرع والعقل. ولا شك أن

الصلاة ، إذا صحبها الخشوع والهيبة فى الباطن ، والإتقان فى الظاهر ، نهت صاحبها عن المنكر ، لا محالة ، وإلا فلا.

روى أن فتى من الأنصار كان يصلى مع رسول اللّه الصلوات ، ولا يدع شيئا من الفواحش إلا ركبه ، فوصف حاله له صلى اللّه عليه وسلم فقال : «إن صلاته تنهاه» ، فلم يلبث أن تاب. هـ «١».

وأما من كان يصليها فلم تنهه فهو دليل عدم قبولها ، ففى الحديث : «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من اللّه إلا بعدا» «٢» رواه الطبراني. وقال الحسن : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست بصلاة ، وهى وبال عليه. وقال ابن عوف : إن الصلاة تنهى إذا كنت فيها فأنت فى معروف وطاعة ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر. هـ. فخص النهى بكونه مادام فيها ، وعليه حمله المحلّى.

قال المحشى : يعنى : أن من شأنها ذلك ، وإن لم يحصل ذلك فلا تخرج عن كونها صلاة ، كما أن من شأن الإيمان التوكل ، وإن قدر أن أحدا من المؤمنين لا يتوكل فلا يخرج ذلك عن الإيمان. وقيل : الصلاة الحقيقة : ما تكون لصاحبها ناهية عن ذلك ، وإن لم ينته فالصلاة ناهية على معنى : ورود الزواجر على قلبه ، ولكنه أصر ولم يطع. [ويقال : بل الصلاة الحقيقة ما تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإن كان] «٣» ، وإلا فصورة الصلاة ، لا حقيقتها. انظر القشيري.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف (ص ١٢٨) : «لم أجده» ، وأخرج الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٤٤٧) ، والبزار (كشف الأستار ١/ ٣٤٦) عن أبى هريرة : (جاء رجل إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : إن فلانا يصلى بالليل ، فإذا أصبح سرق ، فقال : «إن صلاته ستنهاه».

(٢) أخرجه الطبري فى التفسير (٢٠/ ١٥٥) عن ابن عباس وابن مسعود موقوفا ، وعزاه فى الدر المنثور (٥/ ٢٧٩) للطبرانى ، وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس مرفوعا. وانظر : الكافي الشاف (ص ١٢٧).

(٣) المثبت بين المعكوفتين من لطائف الإشارات للقشيرى (٣/ ٩٩). وهو ضرورى.

وقال ابن عطية : إذا وقعت على ما ينبغى من الخشوع ، والإخبات لذكر عظمة اللّه ، والوقوف بين يديه ، انتهى عن الفحشاء والمنكر ، وأما من كانت صلاته لا ذكر فيها ولا خشوع ، فتلك تترك صاحبها بمنزلته حيث كان. هـ.

فائدة : ذكر فى اللباب أن أول من صلى الصبح آدم عليه السّلام ، لأنه لم يكن رأى ظلمة قط ، فلما نزل ، وجنّه الليل خرّ مغشيا ، فلما أصبح ورأى النور صلى ركعتين ، شكرا. وأول من صلى الظهر إبراهيم ، لما فدى ولده ، وقد كان نزل به أربعة أهوال ، هم الذبح ، وهم الولد ، وهم والدته ، وهم مرضاة الرب ، فصلى أربع ركعات شكرا للّه تعالى.

وأول من صلى العصر سليمان عليه السّلام ، لمّا رد اللّه عليه ملكه. وأول من صلى المغرب عيسى عليه السّلام ، كفارة عما اعتقد فيه من أنه ثالث ثلاثة. وأول من صلى العشاء يونس عليه السّلام ، ولعله هذا الوقت الذي نبذ فيه بالعراء. وأول من توضأ آدم كفارة لأكله. هـ. مختصرا بزيادة بيان. وجمعها الحق تعالى لهذه الأمة المحمدية لتحوز فضائل تلك الشرائع لأنه صلى اللّه عليه وسلم جامع لما افترق فى غيره.

ثم قال تعالى : وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، أي : ولذكر اللّه ، على الدوام ، أكبر ، فى النهى عن الفحشاء والمنكر ، من الصلاة لأنها فى بعض الأوقات. فالجزء الذي فى الصلاة ينهى عن الفحشاء الظاهرة ، والباقي ينهى عن الفحشاء الباطنة ، وهو أعظم ، ولأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر للّه ، مراقب له ، وثواب ذلك الذكر أن يذكره اللّه تعالى لقوله : فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ «١». ومن ذكره حفظه ورعاه. أو : لذكر اللّه أكبر أجرا ، من الصلاة ، ومن سائر الطاعات ، كما فى الحديث : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا : وما ذلك يا رسول اللّه؟ قال : ذكر اللّه» «٢». وسئل : أىّ الأعمال أفضل؟ قال : «أن تموت ولسانك رطب من ذكر اللّه» «٣».

قيل : المراد بذكر اللّه هو الصلاة نفسها ، أي : وللصلوات أكبر من سائر الطاعات ، وإنما عبّر عنها بذكر اللّه ليشعر بالتعليل ، كأنه قال : والصلاة أكبر لأنها ذكر اللّه. وعن ابن عباس : ولذكر اللّه لكم إياكم ، برحمته ، أكبر من ذكركم إياه بطاعته. وقال ابن عطاء : ذكر اللّه لكم أكبر من ذكركم له لأن ذكره بلا علة ، وذكركم مشوب بالعلل والأمانى ، ولأن ذكره لا يفنى ، وذكركم يفنى. أو : لذكر اللّه أكبر من أن تفهمه أفهامكم وعقولكم. أو : ذكر اللّه أكبر

---

(١) الآية ١٥٢ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذي فى (الدعوات ، باب ٦ ، ٥/ ٤٢٨ ، ح ٣٣٧٧) ، وابن ماجة فى (الأدب ، باب فضل الذك ، ٢/ ١٢٤٥ ، ح ٣٧٩٠) ، والبيهقي فى الشعب (٥١٩) ، والحاكم وصححه فى المستدرك (١/ ٤٩٦) ، وصححه ووافقه الذهبي ، من حديث أبى الدرداء.

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه (٨١٥) ، والبراز (كشف الأستار ح ٣٠٥٩) ، من حديث معاذ بن جبل ، وقال الهيثمي فى المجمع :

(١٠/ ٧٤) : وإسناده حسن. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٠٨
من أن تبقى معه معصية. وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ من الخير والطاعة ، فيثيبكم أحسن الثواب. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر المتعلّقين بالجوارح الظاهرة ، والذكر ينهى عن الفحشاء والمنكر المتعلقين بالعوالم الباطنة ، وهى المساوئ التي تحجب العبد عن حضرة الغيوب ، فإذا أكثر العبد من ذكر اللّه ، على نعت الحضور والتفرغ من الشواغل ، تنور قلبه ، وتطهر سره ولبه ، فاتصف بأوصاف الكمال ، وزالت عنه جميع العلل ، ولذلك جعلته الصوفية معتمدا أعمالهم ، والتزموه مع مرور أوقاتهم وأنفاسهم ، ولم يقتنعوا منه بقليل ولا كثير ، بل قاموا فيه بالجد والتشمير ، فيذكرون أولا بلسانهم وقلوبهم ، ثم بقلوبهم فقط ، ثم بأرواحهم وأسرارهم ، فيغيبون حينئذ فى شهود المذكور عن وجودهم وعن ذكرهم ، وفى هذا المقام ينقطع ذكر اللسان ، ويصير العبد محوا فى وجود العيان ، فتكون عبادتهم كلها فكرة وعبرة ، وشهودا ونظرة ، وهو مقام العيان فى منزل الإحسان ، فيكون ذكر اللسان عندهم بطالة «١» ، وفى ذلك يقول الشاعر :
ما إن ذكرتك إلّا همّ يلعننى سرّى وقلبى وروحى ، عند ذكراك
حتّى كأنّ رقيبا منك يهتف بي : إيّاك ، ويحك ، والتّذكار ، إيّاك
أما ترى الحقّ قد لاحت شواهده؟ وواصل الكلّ ، من معناه ، معناك؟!
قال القشيري : ويقال : ذكر اللّه أكبر من أن يبقى معه ذكر مخلوق أو معلوم للعبد ، فضلا أن يبقى معه للفحشاء والمنكر سلطان. هـ. وقال فى القوت على هذه الآية : الذكر عند الذاكرين : المشاهدة ، فمشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة. هذا أحد الوجهين فى الآية. ثم قال : وروى فى معنى الآية عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : إنما فرضت الصلاة ، وأمر بالحج والطواف ، وأشعرت المناسك ، لإقامة ذكر اللّه - عز وجل - » قال تعالى : وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي «٢» ، أي : لتذكرنى فيها. ثم قال : فإذا لم يكن فى قلبك للمذكور ، الذي هو المقصود والمبتغى ، عظمة ولا هيبة ، ولا إجلال مقام ، ولا حلاوة فهم ، فما قيمة ذكرك فإنما صلاتك كعمل من أعمال دنياك. وقد جعل الرسول صلى اللّه عليه وسلم الصلاة قسما من أقسام الدنيا ، إذا كان المصلى على مقام من الهوى ، فقال : «حبب إليّ من

---

(١) لا يكون ذكر اللسان بطالة. والنبي صلى اللّه عليه وسلم وقال : «لا يزال لسانك رطبا بذكر اللّه ..» واللّه عز وجل يقول : «أنا مع عبدى المؤمن ما ذكرنى وتحركت بي شفتاه» فكيف يكون هذا

بطالة!! مع تحقق السر بالذكر؟.
(٢) من الآية ١٤ من سورة طه.

(٣٠٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٠٩
دنياكم ..» «١» ذكر منها الصلاة ، فهى دنيا لمن كان همه الدنيا ، وهى آخرة لأبناء الآخرة ، وهى صلة ومواصلة لأهل اللّه - عز وجل - ، وإنما سميت الصلاة لأنها صلة بين اللّه وعبده ، ولا تكون المواصلة إلا لتقى ، ولا يكون التقى إلا خاشعا ، فعند هذا لا يعظم عليه طول القيام ، ولا يكبر عليه الانتهاء عن المنكر ، كما قال اللّه : إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ. هـ.
ثم ذكر ما ينتج عن الصلاة الكاملة والذكر الدائم ، وهو الخلق الجميل ، فوصّى به ، حيث قال :
[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٤٦]
وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)
يقول الحق جل جلاله : وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلا بالخصلة التي هى أحسن ، أي : ألطف وأرفق ، وهى مقابلة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم ، والمشاغبة بالنصح ، بأن تدعوه إلى اللّه تعالى برفق ولين ، وتبين له الحجج والآيات ، من غير مغالبة ولا قهر. وأصل المجادلة : فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجج ، وأصله : شدة الفتل ، ومنه قيل للصقر : أجدل لشدة فتل بدنه وقوة خلقه. والآية قيل : منسوخة بآية السيف «٢» ، وقيل : نزلت فى أهل الذمة.
إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، فأفرطوا فى الاعتداء والعناد ، ولم يقبلوا النصح ، ولم ينفع فيهم الرفق ، فاستعملوا معهم الغلظة. وقيل : إلا الذين آذوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أو : إلا الذين أثبتوا الولد والشريك ، وقالوا : يد اللّه مغلولة. أو معناه : ولا تجادلوا الذين دخلوا فى الذمة ، المؤدين للجزية ، إلا بالتي هى أحسن ، إلا الذين ظلموا : فنبذوا الذمة ، ومنعوا الجزية ، فمجادلتهم بالسيف.
والآية تدل على جواز مناظرة الكفرة فى الدين ، وعلى جواز تعلم علم الكلام ،

---

(١) أخرج أحمد فى المسند (٣/ ١٢٨ ، ٢٨٥) والنسائي فى سننه (كتاب عشرة النساء ٧/ ١٦١) والحاكم فى المستدرك (النكاح ٢/ ١٦٠) وصححه على شرط مسلم ، وأقره الذهبي ، وكذلك أخرج أبو يعلى فى مسنده (٦/ ١٩٩ - ٢٠٠ ح ٣٤٨٢) كلهم من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «حبب إلىّ من الدنيا : الطيب والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة» قال

الحافظ ابن حجر : وليس فى شيء من طرقه : لفظ «ثلاث». انظر الفتح السماوي ١/ ٣٧٨ وعليه فالرسول لم يجعل الصلاة من أقسام الدنيا بل هى قرة عينه صلى اللّه عليه وسلم وهذه درجة رفيعة فوق الشيئين اللذين حببا إليه من الدنيا ، وهما الطيب والنساء ، فهذا الشيئان ليس قرة عين له صلى اللّه عليه وسلم ، لأنهما من الدنيا

(٢) قلت : كل ما هو من مكارم الأخلاق ، لا يجرى عليه النسخ ، فتمسك بهذا الأصل ، فحتى لو قاتلنا أهل الكتاب فى جهاد شرعى صحيح ، بشروطه. فتحن مأمورون بالعمل بهذه الآية حين نجادلهم ، إلا من ظلم .. فنعامله بما يستحق حتى يزول ظلمه ، فإن جادلناهم فبالتى هى أحسن أيضا.

(٣٠٩/٤)

الذي به تتحقق المجادلة. قاله النسفي. وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ هذا من حسن المجادلة. قال صلى اللّه عليه وسلم : «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا باللّه وكتبه ورسله ، فإن كان باطلا لم تصدقوهم ، وإن كان حقا لم تكذبوهم» «١». وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ مطيعون له خاصة ، وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّه.

الإشارة : المناظرة بين العلماء ، والمذاكرة بين الفقراء ، ينبغى أن تكون برفق ولين عن قلب سليم ، بقصد إظهار الحق وتبيين الصواب ، أو تنبيه عن الغفلة ، أو ترقية فى المنزلة ، من غير ملاححة ، أو مخاصمة ، ولا قصد مغالبة لأن العلم النافع ، وذكر اللّه الحقيقي ، يهذب الطبع ، ويحسن الأخلاق.

قال فى الحاشية : ثم تذكّر حسن رده صلى اللّه عليه وسلم للقائلين له : السام عليكم ، ورفقه ، وقوله لعائشة : «متى عهدتنى فاحشا»؟ يتبين لك مناسبة الوصية بحسن المجادلة فى الآية مع ما قبلها ، وأن ذلك حال المقيمين للصلاة ، الذاكرين اللّه حقيقة ، وأنهم على خلق جميل وحلم وسمت ، لا يستفزهم شيء من العوارض لما رسخ فى قلوبهم من نور القرب الذي محى الطبع وفحشه. واللّه تعالى أعلم. هـ.

ثم ذكر برهان حقيّة القرآن الذي أنزل إلينا ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٤٧ الى ٤٩]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ (٤٧) وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩)

يقول الحق جل جلاله : وَكَذلِكَ أي : ومثل ذلك الإنزال البديع أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ مصدقا لسائر

الكتب السماوية وشاهدا عليها ، فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ التوراة والإنجيل ، يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وهم عبد اللّه بن سلام ومن آمن معه ، وأصحاب النجاشي ، أو : من تقدم عهد الرسول صلى اللّه عليه وسلم من أهل الكتاب ، وَمِنْ هؤُلاءِ من أهل مكة ، مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، أو : فالذين آتيناهم الكتب قبلك يؤمنون به قبل ظهوره ، ومن هؤلاء

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند (٤/ ١٣٦) ، وأبو داود فى (العلم ، باب رواية حديث أهل الكتاب ٤/ ٥٩ - ٦٠ ح ٣٦٤٤) ، وابن حبان فى صحيحه (موارد ح ١١٠ ص ٥٨) ، والطبراني فى الكبير (٢٢/ ٣٤٩) ، والبيهقي فى الكبرى (٢/ ١٠) ، عن أبى نملة الأنصاري. وأصل الحديث فى صحيح البخاري ، فى (كتاب الاعتصام ، باب قول النبي : لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ح ٧٣٦١). من حديث أبى هريرةرضي اللّه عنه.

(٤/٣١٠)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣١١

الذين أدركوا زمانك من يؤمن به. وإذا قلنا : إنّ السورة كلها مكية ، يكون إخبارا بغيب تحقق وقوعه ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا ، مع ظهورها وزوال الشبهة عنها ، إِلَّا الْكافِرُونَ إلا المتوغلون فى الكفر ، المصممون عليه ، ككعب بن الأشرف وأضرابه ، أو كفار قريش ، إذا قلنا : الآية مكية.

وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ من قبل القرآن مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، بل كنت أميا ، لم تقرأ ولم تكتب ، فظهور هذا الكتاب ، الجامع لأنواع العلوم الشريفة والأخبار السالفة ، على يد أمي لم يعرف بالقراءة والتعلم ، خرق عادة ، قاطعة لبغيته. وذكر اليمين لأن الكتابة ، غالبا ، تكون به ، أي : ما كنت قارئا كتابا من الكتب ، ولا كاتبا إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ أي : لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا : تعلمه ، والتقطه من كتب الأقدمين ، وكتبه بيده. أو : يقول أهل الكتاب : الذي نجده فى كتابنا أمي لا يكتب ولا يقرأ ، وليس به. وسماهم مبطلين ، لإنكارهم النبوة ، أو : لارتيابهم فيها ، مع تواتر حججها ودلائلها.

هذا ، وكونه صلى اللّه عليه وسلم أميا كمال فى حقه صلى اللّه عليه وسلم ، مع كونه أميا أحاط بعلوم الأولين والآخرين ، وأخبر بقصص القرون الخالية والأمم الماضية ، من غير مدارسة ولا مطالعة ، وهو ، مع ذلك ، يخبر بما مضى ، وبما يأتى إلى قيام الساعة ، وسرد علم الأولين والآخرين مما لا يعلم القصة الواحدة منها إلا الفاذ من أحبارهم ، الذي يقطع عمره فى مدارسته وتعلمه ، وهذا كله فى جاهلية جهلاء ، بعد فيها العهد بالأنبياء ، وبدّل الناس ، وغيّروا فى كتب اللّه تعالى بالزيادة والنقصان ، ففضحهم صلى اللّه عليه وسلم وقرر الشرائع الماضية ، فهذا كله كاف فى صحة نبوته ، فكانت أميته

صلى اللّه عليه وسلم وصف كمال فى حقه ، ومعجزة دالة على نبوته لأنه صلى اللّه عليه وسلم ، مع كونه أميا ، ظهر عليه من العلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، ما يعجز عنه العقول ، ولا تحيط به النقول ، مع إحكامه لسياسة الخلق ، ومعالجتهم مع تنوعهم ، وتدبير أمر الحروب ، وإمامته فى كل علم وحكمة.

وأيضا : المقصود من القراءة والكتابة : ما ينتج عنهما من العلم لأنهما آلة ، فإذا حصلت الثمرة استغنى عنهما.

والمشهور أنه صلى اللّه عليه وسلم لم يكتب قط. وقال الباجى وغيره : إنه كتب ، لظاهر حديث الحديبية. وقال مجاهد والشعبي :

مامات النبي صلى اللّه عليه وسلم حتى كتب وقرأ. وهذا كله ضعيف.

قال تعالى : بَلْ هُوَ أي : القرآن آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أي : فى صدور العلماء وحفاظه ، وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز ، وكونه محفوظا فى الصدور ، بخلاف سائر الكتب ، فإنها لم تكن معجزات ، ولم تكن تقرأ إلا بالمصاحف. قال ابن عباس : بَلْ هُوَ أي : محمد ، والعلم بأنه أمي ، آياتٌ بَيِّناتٌ فى صدور أهل العلم من أهل الكتاب ، يجدونه فى كتبهم. هـ «١». و(بل) : للإضراب عن

---

(١) ذكر الطبري القولين (٢١/ ٥ - ٦) ورجح القول الثاني لأن قوله تعالى : بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ بين خبرين من إخبار اللّه عن رسول اللّه سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم. فهو بأن يكون خبرا عنه أولى من أن يكون خبرا عن الكتاب.

محذوف ، ينساق إليه الكلام ، أي : ليس الأمر مما يمكن الارتياب فيه ، بل هو آيات واضحات.

و(فى صدور) : متعلق ببينات ، أو : خبر ثان لهو. وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا الواضحة إِلَّا الظَّالِمُونَ المتوغلون فى الظلم. قال ابن عطية :

الظالمون والمبطلون هم كل مكذب للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، ولكن عظم الإشارة بهما إلى قريش لأنهم الأهم. قاله مجاهد. هـ.

الإشارة : كم من ولىّ يكون أميا ، وتجد عنده من العلوم والحكم والتوحيد ما لا يوجد عند نحارير العلماء.

ما اتخذه اللّه وليا جاهلا إلا علّمه. ولقد سمعت من شيخنا البوزيدى رضي اللّه عنه علوما وأسرارا ، ما رأيتها فى كتاب ، وكان يتكلم فى تفسير آيات من كتاب اللّه على طريق أهل الإشارة ، قلّ أن تجدها عند غيره ، وسمعته يقول : واللّه ما جلست بين يدى عالم قط ، ولا قرأت شيئا من العلم الظاهر. قال القشيري : قلوب الخواص من العلماء باللّه خزائن الغيب ، فيها أودع براهين حقه ، وبينات سرّه ، ودلائل توحيده ، وشواهد ربوبيته ، فقانون الحقائق فى قلوبهم ، وكلّ شىء يطلب من موطنه ومحله ، فالدر يطلب من الصدف لأنه مسكنه ، كذلك المعرفة ، ووصف الحق يطلب من قلوب خواصه «١» لأن ذلك قانون معرفته ، ومنها ترفع نسخة توحيده. هـ.

ثم رد اقتراحهم للآيات ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٥٠ الى ٥٢]

وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٥٢)

---

(١) إنما يرجع إلى وصف اللّه فى قلوب خواصه ، لأنهم عرفوا اللّه بالرجوع إلى وحيه ، (الكتاب والسنة) فلا طريق لمعرفة اللّه ، إلا ما أوحاه اللّه ، ابتداء ، وانتهاء.

ثم اعلم رحمك اللّه : أن معرفة القراءة والكتابة ليست شرطا فى الولاية ، وحفظ كلام اللّه تعالى ، ومعرفة أسرار التوحيد والإيمان ، ، والإسلام .. وهاك مثلا واحدا : وهو سيدنا «حماد بن مسلم الدباس» ، أستاذ الشيخ القدوة ، عارف زمانه ، الإمام عبد القادر الجيلاني ، وهو حماد بن مسلم بن ددّوه ، الشيخ القدم ، علم السالكين ، أبو عبد اللّه الدباس ، الرحبي - نسبة إلى رحبة مالك بن طوق ، «نشأ ببغداد ، وكان من أولياء اللّه ، أولى الكرامات ، انتفع بصحبته خلق ، وكان يتكلم على الأحوال ، وكتبوا من كلامه نحوا من مئة جزء ، وكان أميا ، وكان يتكلم على آفات الأعمال ، والإخلاص ، والورع ، قد جاهد نفسه بأنواع المجاهدات ، وزوال أكثر المهن والصنائع ، فى طلب الحلال ، وكان مكاشفا. فعنه قال : إذا أحب اللّه عبدا أكثر همه فيما فرّط ، وإذا أبغض عبدا أكثر همه فيما قسمه له. وقال : العلم محجة ، فإذا طلبته لغير اللّه ، صار حجة .. مات سنة ٥٢٥ هـ. وكان الشيخ عبد القادر من تلامذته :

«انظر : شمس الدين الذهبي : سير أعلام النبلاء : (١٩/ ٥٩٤ - ٥٩٦) تحقيق وتعليق : شعيب الأرنؤوط ، ط ١١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م. وراجع أيضا فى هذه القضية : الفتوحات الإلهية للشيخ المفسر/ ٢٠١ - ٢٠٤.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣١٣

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : كفار قريش : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ «١» مِنْ رَبِّهِ تدل على صدقه ، مثل ناقة صالح ، وعصا موسى ، ومائدة عيسى ، ونحو ذلك. وقرأ نافع وابن عامر وحفص : بالجمع «آيات» ، كثيرة ، قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ ، ينزل منها ما شاء متى شاء ، ولست أملك منها شيئا ، وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ إنما كلفت بالإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات ، وليس من شأنى أن أقول : أنزل على آية كذا دون آية كذا ، مع علمى أن المراد من الآيات ثبوت الدلالة على نبوتى ، والآيات كلها فى حكم آية واحدة فى ذلك.

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ ، أي : أو لم يكفهم إنزال آية مغنية عن سائر الآيات ، إن كانوا طالبين للحق ، غير متعنتين ، وهو هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم فى كل زمان ومكان ، فلا يزال معهم آية ثابتة ، لا تزول ولا تنقطع ، كما انقطع غيره من الآيات ، وفى ذلك يقول البوصيرى :

دامت لدينا ففاقت كلّ معجزة من النّبيّين إذ جاءت ولم تدم

إِنَّ فِي ذلِكَ أي : فى هذه الآية الموجودة فى كل زمان إلى آخر الدهر ، لَرَحْمَةً لنعمة عظيمة ، وَذِكْرى وتذكرة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ دون المتعنتين. قال يحيى بن جعدة : إن ناسا من المسلمين أتوا النبي صلى اللّه عليه وسلم بكتب قد كتبوها ، فيها بعض ما يقول اليهود ، فألقاها ، وقال : كفى بها حماقة ، أو ضلالة قوم ، أن يرغبوا عما جاء به نبيهم ، فنزل : أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ... إلخ «٢».

قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً أي : شاهدا بصدق ما أدعيه من الرسالة وإنزال القرآن علىّ ، وتكذيبكم ، يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، فهو مطلع على أمرى وأمركم ، وعالم بحقي وباطلكم ، فلا يخفى عليه شىء. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ ، وهو ما يعبد من دون اللّه ، وَكَفَرُوا بِاللَّهِ وبآياته منكم أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ المغبونون فى صفقتهم ، حيث اشتروا الكفر المؤدى إلى النيران ، بالإيمان المؤدى إلى الخلود فى الجنان. روى أن كعب بن الأشرف وأصحابه من اليهود قالوا : من يشهد لك بأنك رسول اللّه؟ فنزل : قُلْ كَفى ... إلخ.

الإشارة : اقتراح الآيات والكرامات كله جهل وحمق إذ ليس بيد النبي أو الولي شىء من ذلك ، وإنما هو مأمور بالوعظ والدلالة على اللّه ، والدعاء إليه ، والكرامة لا تدلّ على كمال صاحبها ، «ربما رزق الكرامة من لم تكمل له

---

(١) قرأ ابن كثير ، وأبو بكر ، وهمزة ، والكسائي «آية» بالتوحيد على إرادة الجنس ، وقرأ الباقون بالجمع. انظر الإتحاف (٢/ ٣٥١).

(٢) أخرجه الدارمي فى (المقدمة ، باب من لم ير كتابة الحديث ١/ ١٣٤ ، ح ٤٧٨) ، وأبو داود فى المراسيل (باب ما جاء فى العلم) ، وابن جرير فى التفسير (٢١/ ٧) من حديث يحيى بن جعدة ، مرسلا.

(٣١٣/٤)

الاستقامة» «١» ، ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه «٢». وقد تظهر الكرامات فى البدايات وتخفى فى النهايات ، والكرامة العظمى هى الاستقامة وكشف الحجاب بين اللّه وعبده حتى يشاهده عيانا ، ويذهب عنه الأوهام والشكوك ، وأما غير هذا فقد يكون استدراجا لمن يقف معه. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا لم تظهر آية كما اقترحوا ، استعجلوا العذاب ، استهزاء ، كما قال تعالى :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٥٣ الى ٥٥]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ، كقولهم : أمطر علينا حجارة من السماء ، وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى المضروب لعذاب كل قوم ، أو : القيامة ، أو : يوم بدر ، أو : وقت فنائهم بأجلهم. والمعنى : ولو لا أجل قد سمّاه اللّه وعيّنه فى اللوح المحفوظ ، لَجاءَهُمُ الْعَذابُ عاجلا. والحكمة تقتضى تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ العذاب فى الأجل المسمى بَغْتَةً : فجأة وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بإتيانه. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ أي : لتحيط بهم ، أو : هى كالمحيطة بهم ، لإحاطة أسبابها بهم من الكفر والمعاصي. واللام للعهد ، على وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على موجب الإحاطة ، وهو الكفر ، أو الجنس ، فيدخل المخاطبون دخولا أوليا. وتكرير استعجالهم لاختلاف ما يترتب على كل واحد ، فرتب على الأول حكمة تأخيره ، وعلى الثاني تهديدهم وزجرهم عنه.

ثم قال تعالى : يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، هذا وقت إحاطتها بهم ، أي : تحيط من جميع جوانبهم ، كقوله : لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ «٣». وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي : باشروا جزاء أعمالكم.

الإشارة : ما قيل فى حق من استعجل العذاب من الأنبياء ، يقال فى حق من استعجله من الأولياء ،

بحيث يؤذيهم ويقول : ليظهروا ما عندهم ، فهذا حمق كبير ، ولا بد أن يلحقه وبال ذلك ، عاجلا ، أو آجلا ، إما ظاهرا

---

(١) حكمة عطائية. انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص ٢٧ ، حكمة ١٧٨).
(٢) انظر الحكم (ص ٢٦ حكمة ١١١).
(٣) من الآية ١٦ من سورة الزمر.

أو باطنا ، وقد لا يشعر ، وقد يسرى ذلك إلى عقبه فيصيبه ذلك الوبال ، كما أصاب أباه ، والعياذ باللّه من التعرض لأوليائه.

ثم أمر بالهجرة من الأرض التي تكثر فيها الإذاية فى الدين ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٥٦ الى ٥٩]

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩)

يقول الحق جل جلاله : يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ

، فإذا لم يتيسر لكم إقامة دينكم فى بلد ، فاخرجوا منها إلى أرض يتهيأ لكم فيها استقامة دينكم ، والبقاع تتفاوت فى ذلك تفاوتا كبيرا ، والناس مختلفون ، فأهل الشرائع يطلبون البقاع التي يتيسر لهم فيها استقامة ظواهرهم ، كالمدن والقرى الكبار ، التي يكثر فيها العلم وأهله. وأهل الحقائق من الصوفية يطلبون البقاع التي تسلم فيها قلوبهم من العلائق والشواغل ، أينما وجدوها عمروها ، إن تهيأ لهم الاجتماع على ربهم. وعن سهل رضي اللّه عنه : إذا ظهرت المعاصي والبدع فى أرض ، فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من فرّ بدينه من أرض ، إلى أرض ، وإن كان شبرا ، استوجب الجنة ، وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام» «١».

فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ

أي : فخصونى بالعبادة. وإياى : مفعول لمحذوف ، ومفعول «اعبدوني» : الياء المحذوفة ، أي : فاعبدوا إياى ، فاعبدونى. والفاء : جواب الشرط ، محذوف ، إذ المعنى : إن أرضى واسعة ، فإن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض ، فاخلصوا لى فى غيرها.

ثم شجّع المهاجرين بقوله : كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ، أي : واجدة مرارته وكربه لأنها إذا تيقنت بالموت سهل عليها مفارقة وطنها. ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ بالموت ، فتجازون على ما أسلفتم. ومن علم أن هذا عاقبته ينبغي أن يجتهد فى الاستعداد له ، فإن لم يتهيأ فى أرض فليهاجر منها.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ لننزلنهم مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً علالى ، عالية ، وقرأ حمزة والكسائي : لنثوينهم لنقيمنهم ، من الثّوى ، وهو الإقامة ، وثوى : غير متعد ، فإذا تعدى بزيادة الهمزة ، لم

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : أخرجه الثعلبي من مرسل الحسن. انظر الكافي الشاف (٣/ ٤٦١).

(٣١٥/٤)

يجاوز مفعولا واحدا. والوجه فى تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف : إما إجراؤه مجرى «لننزلنهم» ، أو :

بحذف الجار ، وإيصال الفعل ، أو : شبه الظرف المؤقت ، بالمبهم ، أي : لنقيمنهم فى غرف تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ أجرهم هذا. وهم الَّذِينَ صَبَرُوا على مفارقة الأوطان وأذى المشركين ، وعلى المحن والمصائب ، ومشاق الطاعات ، وترك المحرمات ، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، أي : لم يتوكلوا فى جميع ذلك إلا على اللّه ، فكفاهم شأنهم. وباللّه التوفيق.

الإشارة : كل من لم يتأتّ له جمع قلبه فى بلده فليهاجر منها إلى غيره ، وليسمع قول سيده : يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ

،

فإن شق عليه مفارقة الأوطان ، فليذكر مفارقته للدنيا فى أقرب زمان. وكان الصدّيق رضي اللّه عنه لمّا هاجر إلى المدينة ، وأصابته الحمى ، يتسلى بذكر الموت ، وينشد :

كلّ امرئ مصبّح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

وقد أكثر الناس فى الوعظ بالموت وهجومه ، نظما ونثرا ، فمن ذلك قول الشاعر :

الموت كأس ، وكلّ الناس شاربه والقبر باب ، وكلّ الناس داخله

وقال آخر :

اعلم بأنّ سهام الموت قاطعة بكلّ مدّرِع فيها ومتّرس

ركوبك النعش ينسيك الرّكوب إلى ما كنت تركب من نعل ومن فرس

ترجو النّجاة ، ولم تسلك طريقتها إنّ السّفينة لا تجرى على يبس

إلى غير ذلك مما يطول.

ولما أمر بالهجرة خافوا العيلة ، فأنزل اللّه تعالى :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٦٠ الى ٦٣]

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣)

يقول الحق جل جلاله : وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ أي : وكم من دابة من دواب الأرض ، عاقلة وغير عاقلة ، لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ، اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ أي : لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا اللّه ، ولا يرزقكم أنتم أيها الأقوياء إلا اللّه ، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها لأنه لو لم يخلق فيكم قدرة على كسبها لكنتم أعجز من الدواب. وعن الحسن : لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا : لا تدخره ، إنما تصبح خماصا «١» ، فيرزقها اللّه. وقيل : لا يدخر من الحيوان قوتا إلا ابن آدم والفأرة والنملة «٢». وَهُوَ السَّمِيعُ لقولكم : نخشى الفقر والعيلة إن هاجرنا ، الْعَلِيمُ بما فى ضمائركم من خوف فوات الرزق.

ثم ذكر دلائل قدرته على الرزق وغيره فقال : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ أي : المشركين وغيرهم مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ على كبرهما وسعتهما ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يجريان فى فلكهما ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ لا يجدون جوابا إلا هذا ، لإقرارهم بوجود الصانع ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ فكيف يصرفون عن توحيد اللّه؟

مع إقرارهم بهذا كله ، إذ لو تعدد الإله لفسد نظام العالم.

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ هاجر أو أقام فى بلده ، وَيَقْدِرُ لَهُ ويضيق عليه ، أقام أو هاجر ، فالضمير فى لَهُ لمن يشاء لأنه مبهم غير معين ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم ، فمنهم من يصلحه الفقر ، ومنهم من يفسده ، ففى الحديث القدسي : «إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك» «٣». ذكره النسفي.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ معترفين بأنه الموجد

للكائنات بأسرها ، أصولها وفروعها ، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذي هو أضعف الأشياء. قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ على إظهار قدرته ، حتى ظهرت لجميع الخلق ، حتى أقرت بها الجاهلية الجهلاء. أو : على ما عصمك مما هم عليه ، أو : على تصديقك وإظهار حجتك ، أو : على إنزاله الماء لإحياء الأرض ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ لا عقول لهم ، فلا يتدبرون فيما يريهم من الآيات ويقيم عليهم من الدلالات. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) «خماصا» جياعا ، جمع خميص. [.....]

(٢) قاله سفيان فيما ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٥٣).

(٣) أخرجه الديلمي (مسند الفردوس ح ٨٠٩٨ ، ٨١٠٠) من حديث عمر ، وأنس - رضى اللّه عنهما.

الإشارة : الرزق مضمون بيد من أمره بين الكاف والنون ، لا يزيد بحرص قوى ، ولا ينقص بعجز ضعيف ، بل قد ينعكس الأمر ، كما قال الشاعر :

كم قوىّ قوىّ فى تقلبه [ترى عنه أمر الرّزق ينحرف] «١»

وكم ضعيف ضعيف فى تصرفه كأنه من خليج البحر يغترف

وقد يبسطه اللّه لأهل الغفلة والبعد ، ويقدره لأهل الولاية والقرب ، كما قال القائل :

اللّه يرزق قوما لا خلاق لهم مثل البهائم فى خلق التّصاوير

لو كان عن قوّة أو عن مغالبة طار البزاة بأرزاق العصافير

وقال عليه الصلاة والسلام - فى بعض خطبه - : «أيها الناس ، إن الرزق مقسوم ، لن يعدو امرؤ ما كتب له ، فاتقوا اللّه ، وأجملوا فى الطلب. وإن الأمر محدود ، لن يجاوز أحد ما قدر له ، فبادروا قبل نفود الأجل ، وإن الأعمال محصاة ، لن يهمل منها صغيرة ولا كبيرة ، فأكثروا من صالح الأعمال ...» الحديث. وقال صلى اللّه عليه وسلم : «لو توكلتم على اللّه حقّ توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» «٢».

ثم حقّر الدنيا وعظّم الآخرة ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٦٤ الى ٦٦]

وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذا رَكِبُوا فِي

الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)

يقول الحق جل جلاله : وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ أي : وما هى لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها ، إلا كما يلعب الصبيان ساعة ، ثم يتفرقون متعبين بلا فائدة. وفيه ازدراء بالدنيا وتحقير لشأنها ، وكيف لا يحقرها وهى لا تزن عنده جناح بعوضة؟ واللهو : ما يتلذذ به الإنسان ، فيلهيه ساعة ، ثم ينقضى. وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ ، أي : الحياة الحقيقية لأنها دائمة. والحيوان : مصدر ، وقياسه : حييان ، فقلب الياء

---

(١) فى الأصول الخطية [ترى أمر الرزق عنه ينحرف].

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٣٠ - ٥٢) والترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء فى التوكل على اللّه ، ٤/ ٤٩٥ ، ح ٢٣٤٤) وقال : حديث حسن صحيح وابن ماجه فى (الزهد ، باب التوكل واليقين ، ٢/ ١٣٩٤ ، ح ٤١٦٤) والحاكم وصححه (٤/ ٣١٨) من حديث سيدنا عمر رضي اللّه عنه.

(٤/٣١٨)

الثانية واوا. ولم يقل : لهى الحياة لما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب. وفى المصباح : الحيوان :

مبالغة فى الحياة ، كما قيل : للموت الكثير : موتان. هـ. لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ حقيقة الدارين لما اختاروا اللهو الفاني على الحيوان الباقي.

فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ، هو مرتب على محذوف ، دل عليه ما وصفهم به قبل ، والتقدير : هم على ما هم عليه من الشرك والعناد ، وإذا ركبوا فى الفلك دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، أي : كائنين فى صورة من يخلص الدين للّه من المؤمنين ، حيث لا يذكرون إلا اللّه ، ولا يدعون معه إلها آخر ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ، وأمنوا من الغرق ، إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ ، أي : عادوا إلى حال الشرك ، لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ من النعمة ، وَلِيَتَمَتَّعُوا باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادهم عليها. واللام فيهما : إما لام كى ، أي : يعودون إلى شركهم ليكونوا به كافرين بنعمة النجاة ، قاصدين التمتع بها والتلذذ ، لا غير ، على خلاف عادة المؤمنين المخلصين ، فإنهم يشكرون نعمة اللّه إذا أنجاهم ، ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى توحيده وطاعته ، لا إلى التلذذ والتمتع. أو : لام الأمر ، على وجه التهديد ، كقوله : فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ «١» ، ويقويه : قراءة من سكّن الثانية «٢» ، أي : ليكفروا وليتمتعوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

تدبيرهم عند تدميرهم.

الإشارة : الدنيا عند أهل الجد والاجتهاد جد ، يتوصلون فيها إلى معرفة الحق ، ويترقون منها إلى أسرار ومعارف لا يحصرها عقل ولا يحيط بها نقل ، لأن فى هذه الدار : عرفه من عرفه ، وجهله من جهله. والترقي عند العارفين فيها أكثر لأنه يسير بين جلاله وجماله ، وهناك ليس إلا الجمال ، والترقي بين الضدين أعظم ، فإذا مات بقي يترقى فى أنوار الجمال على قدر ما أدرك هنا. واللّه أعلم.

فتحصل أن الدنيا فى حق أهل الغفلة لعب ولهو لأنها شغلتهم وغرتهم بزخارفها عن معرفة اللّه والوصول إليه ، ولذلك حذّر منها صلى اللّه عليه وسلم ، فقد قال فى بعض خطبه : «أيها الناس ، لا تكونوا ممن خدعته العاجلة ، وغرته الأمنية ، واستهوته الخدعة ، فركن إلى دار سريعة الزوال ، وشيكة الانتقال إذ لن يبقى من دنياكم هذه فى جنب ما مضى إلا كإناخة راكب ، أو درّ حالب ، فعلام تعرجون؟ وما تنتظرون؟ فكأنكم ، واللّه ، بما قد أصبحتم فيه من الدنيا ، كأن لم يكن ، وما تصيرون إليه من الآخرة ، لم يزل ، فخذوا فى الأهبة لأزوف النقلة ، وأعدوا الزاد لقرب الرحلة ، واعلموا أن كل امرئ على ما قدّم قادم ، وعلى ما خلّف نادم». وفى حق أهل الجد جد وحق لأنها مزرعة للآخرة ، ومتجر من أسواق اللّه ، فيها ربحهم وغنيمتهم. وباللّه التوفيق.

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

(٢) قرأ قالون وابن كثير وحمزة والكسائي (و ليتمتعوا) بسكون اللام ، على أنها للأمر ، وقرأ الباقون بكسرها ، إما للأمر ، أو لام كى ، والأصل فى كل الكسر. انظر الإتحاف (٢/ ٣٥٣) والبحر المحيط (٧/ ١٥٥).

ثم ذكّرهم بما أنعم عليهم ، ليشكروا ، فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٦٧ الى ٦٨]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (٦٨)

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أي : أهل مكة أَنَّا جَعَلْنا بلدهم حَرَماً أي : ممنوعا مصونا من الهبب ، آمِناً يأمن كل من دخله ، أو آمنا أهله من القتل والسبي ، وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أي : يخطف بعضهم بعضا ، قتلا وسبيا ، إذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب ، أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ أبعد

هذه النعمة العظمى يؤمنون بالأصنام ويعبدونها ، أو : الشيطان ، وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ حيث أشركوا به غيره ، أو بمحمد صلى اللّه عليه وسلم إذ هو النعمة المهداة ، أو : الإسلام. وتقديم المعمولين للاهتمام ، أو للاختصاص.

وَمَنْ أَظْلَمُ أي : لا أحد أظلم مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بأن جعل له شريكا ، أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، أو : الكتاب ، لَمَّا جاءَهُ أي : لم يتلعثموا فى تكذيبه لمّا سمعوه ، وفى «لمّا» المقتضية للاتصال ، تسفيه لرأيهم ، حيث لم يتوقفوا ولم يتأملوا قط حين جاءهم ، بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه. أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً مقاما لِلْكافِرِينَ ، وهو تقرير لمثواهم فى جهنم ، لأن همزة الإنكار ، إذا دخلت على النفي ، صار إثباتا ، كقوله :

ألستم خير من ركب المطايا «١» أي : أنتم خير من ركب المطايا ، والتقدير : ألا يستوجبون الثوى فيها؟ وقد افتروا مثل هذه العظيمة ، كذبوا على اللّه وكذّبوا بالحق الذي جاء من عنده ، أو : ألم يصح عندهم أن فى جهنم مثوى للكافرين؟ حين اجترءوا مثل هذه الجرأة ، بل لهم فيها مثوى وإقامة. وهذه الآية فى مقابلة قوله : لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً «٢». لا سيما فى قراءة الثاء. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) هذا شطر بيت .. وبقيته : وأندى العالمين بطون راح؟

(٢) من الآية ٥٨ من سورة العنكبوت.

الإشارة : الحرم الآمن ، فى هذه الدار ، هو التبتل والانقطاع عن الدنيا وأبنائها ، والتجريد من أسبابها ، فمن دخله أمن ظاهرا وباطنا ، ومن هجرها ، وترك الناس حوله يتخطفون ويتهارجون عليها ، وهو يتفرج عليهم ، فالدنيا جيفة والناس كلابها ، فإن خالطتهم ناهشوك ، وإن تركت لهم جيفتهم سلمت منهم ، فمن كذّب بهذا فقد كذّب بالحق وآمن بالباطل ، فلا أحد أظلم منه. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر مآل أهل الجد والاجتهاد ممن تبتل وانقطع إلى اللّه فقال :

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٦٩]

وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا ، أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول من تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين ، أي : جاهدوا نفوسهم فى طلبنا ، أو فى حقنا ، ومن أجلنا ، ولوجهنا ، خالصا ، لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا أي : طرق السير إلينا ، والوصول إلى حضرتنا ، أو

لنسهلنهم فعل الخير حتى يصلوا إلى جنابنا.
وعن الداراني : والذين جاهدوا بأن عملوا بما علموا ، لنهدينهم إلى علم ما لم يعلموا. وقال الفضيل : والذين جاهدوا فى طلب العلم ، أي : للّه ، لنهدينهم سبل العمل. وقال سهل : والذين جاهدوا فى إقامة السنّة ، لنهدينهم سبل الجنة. وقال ابن عطاء : جاهدوا فى إرضائنا لنهدينهم سبل الوصول إلى محل الرضوان. وقال ابن عباس : جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا.
وقال الجنيد : جاهدوا فى التوبة ، لنهدينهم سبل الإخلاص ، أو : جاهدوا فى خدمتنا لنمنحنهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ بالنصر والمعونة فى الدنيا ، وبالثواب والمغفرة فى العقبى. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : المجاهدة ، على قدرها تكون المشاهدة ، فمن لا مجاهدة له لا مشاهدة له. وبالمجاهدة تميزت الخصوص من العموم ، وبها تحقق سير السائرين ، فالعموم وقفوا مع موافقة حظوظهم من الجاه والغنى وغيره ، والخصوص خالفوا نفوسهم ، ورفضوا حظوظهم ، وخرقوا عوائدهم ، فخرقت لهم العوائد ، وانكشفت عنهم الحجب ، وشاهدوا المحبوب. فجاهدوا أولا فى ترك الدنيا ، وتحملوا مرارة الفقر ، حتى تحققوا بمقام التوكل ، ثم جاهدوا فى ترك الجاه والرئاسة ، فتحققوا بالخمول ، وهو أساس الإخلاص ، ثم جاهدوا فى مخالفة النفس ، فحمّلوها كل ما يثقل

عليها ، وأخرجوها من كل ما تهواه ويخف عليها ، وارتكبوا فى ذلك أهوالا وأحوالا صعابا ، حتى ماتت نفوسهم موتات ، فتحقق بذلك حياة أرواحهم ، وأشرفت على البحر الزاخر ، بحر التوحيد الخاص ، فغابت ظلال الأكوان حين أشرقت شمس العيان ، ففنى من لم يكن ، وبقي من لم يزل ، فدخلوا جنة المعارف ، ولم يشتاقوا قط إلى جنة الزخارف لأنها منطوية فيها. ولا بد من صحبة شيخ كامل ، قد سلك هذه المسالك ، يلقيه زمام نفسه ، حتى يوصله إلى ربه ، وإلا أتعب نفسه بلا فائدة.
وقوله تعالى : وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ تهوين وتسهيل على السائرين أمر نفوسهم ومجاهدتها ، إذا علموا أن اللّه معهم ، هان عليهم كل صعب ، وقرب كل بعيد. وباللّه التوفيق. ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم. وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

سورة الرّوم

مكية اتفاقا ، وقيل : إلى قوله : فَسُبْحانَ اللَّهِ .. «١» إلخ. وهى تسع وخمسون ، أو ستون ، آية.

ومناسبتها لما قبلها : أن نتيجة المعية التي ذكرها بقوله : وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ هى النصر والعز الذي بشر به المؤمنين فى صدر السورة بقوله : وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ .. إلخ. قال تعالى :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤)

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (٧)

يقول الحق جل جلاله : بعد التسمية : الم أي : أيها المصطفى ، أو : المرسل ، غُلِبَتِ الرُّومُ أي : غلبت فارس الروم فِي أَدْنَى الْأَرْضِ أي : فى أقرب أرض العرب لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم ، أي : غلبوا فى أدنى أرض العرب منهم ، وهى أطراف الشام. أو : أراد أرضهم ، على إنابة اللام مناب المضاف إليه ، أي : فى أدنى أرضهم إلى عدوّهم. قال ابن عطية : قرأ الجمهور : «غلبت» بضم الغين. وقالوا : معنى الآية : أنه بلغ أهل مكة أن الملك كسرى هزم جيش الروم بأذرعات ، وهى أدنى أرض الروم إلى مكة ، فسر لذلك كفار قريش ، فبشر المؤمنين بأن الروم سيغلبون. هـ. وهذا معنى قوله : وَهُمْ أي : الروم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ ، وقرئ : بسكون اللام كالحلب والحلب ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول ، أي : وهم من بعد غلبة فارس إياهم سَيَغْلِبُونَ فارس ، وتكون الدولة لهم.

---

(١) الآية ١٧ من السورة.

وذلك فِي بِضْعِ سِنِينَ ، وهو ما بين الثلاث إلى العشر. قال النسفي : قيل : احتربت الروم [وفارس] «١» ، بين أذرعات وبصرى ، فغلبت فارس الروم ، والملك بفارس ، يومئذ ، كسرى «أبرويز» ، فبلغ الخبر مكة ، فشقّ ذلك على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين لأنّ فارس مجوس لا كتاب لهم ، والروم أهل كتاب ، وفرح المشركون [وشمتوا] «٢» ، وقالوا : أنتم والنصارى أهل الكتاب ، ونحن

وفارس أمّيّون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ، ولنظهرنّ نحن عليكم ، فنزلت الآية. فقال أبو بكر : واللّه ليظهرنّ الروم على فارس بعد بضع سنين ، فقال له أبيّ بن خلف :

كذبت ، فناحبه - أي : قامره - على عشر قلائص من كل واحد منهما ، وجعل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : «زد في الخطر وأبعد في الأجل» ، فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين ، ومات أبيّ من جرح رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم أحد ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية ، أو : يوم بدر ، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبيّ ، فقال عليه الصلاة والسلام - : «تصدّق به» «٣».

وهذه آية بينة على صحة نبوته ، وأن القرآن من عند اللّه لأنها إنباء عن علم الغيب. وكان ذلك قبل تحريم القمار ، [عن] «٤» قتادة. ومذهب أبي حنيفة ومحمد - رضى اللّه عنهما - : أن العقود الفاسدة كعقد الربا وغيره ، جائز في دار الحرب بين المسلمين والكفار ، واحتجا بهذه القصة. هـ. زاد البيضاوي : وأجيب بأنه كان قبل تحريم القمار. هـ. وقرئ : «غلبت» بالفتح ، و«سيغلبون» بالضم ، ومعناه : أن الروم غلبوا على ريف الشام ، وسيغلبهم المسلمون ، وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة من نزولها ، وفتحوا بعض بلادهم ، وعلى هذا يكون إضافة الغلب إلى الفاعل.

لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ أي : من قبل كل شيء ، ومن بعد كل شيء. أو : من قبل الغلبة وبعدها ، كأنه قيل : من قبل كونهم غالبين - وقبله : هو وقت كونهم مغلوبين - ومن بعد كونهم مغلوبين - وهو وقت كونهم غالبين ، يعنى : أن كونهم مغلوبين أولا ، وغالبين آخرا ، ليس إلا بأمر اللّه وقضائه. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ «٥». وَيَوْمَئِذٍ أي : ويوم تغلب الروم فارس ، ويحل ما وعده اللّه من غلبتهم ، يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ، وتغلب من له كتاب على من لا كتاب له ، وغيظ من شمت بهم من أهل مكة.

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس في الأصول ، وأثبته من تفسير النسفي.

(٢) في الأصول : [شتموا].

(٣) أخرجه بنحوه ابن جرير (٢١/ ١٧ - ١٨) عن عكرمة ، وجاءت القصة بسياقات وروايات متعددة. أخرجها أحمد (١/ ٢٧٦ - ٣٠٤) ، والترمذي في (تفسير سورة الروم ، ٥/ ٣٢١ ح ٣١٩٣ - ٣١٩٤) ، وابن جرير (٢١/ ١٦ - ١٨) ، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٩ ح ١٢٣٧٧) والحاكم (٢/ ٤١٠) ، وانظر الدر المنثور (٥/ ٢٨٩ - ٢٩٢).

(٤) في الأصول [قال] ، والمثبت من تفسير النسفي.

(٥) من الآية ١٤٠ من سورة آل عمران. [.....]

وقيل : نصر اللّه : هو إظهار صدق المؤمنين ، بما أخبروا به المشركين من غلبة الروم. يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ فينصر هؤلاء تارة وهؤلاء أخرى ، وَهُوَ الْعَزِيزُ : الغالب على أعدائه الرَّحِيمُ : العاطف على أوليائه.
وَعْدَ اللَّهِ أي : وعد ذلك وعدا ، فسينجزه لا محالة ، فهو مصدر مؤكّد لما قبله لأن قوله : سَيَغْلِبُونَ وعد ، لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ لامتناع الكذب عليه تعالى ، فلا بد من نصر الروم على فارس. وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ صحة وعده ، وأنه لا يخلف ، أو : لا يعلمون أن الأمور كلها بيد اللّه لجهلهم وعدم تفكرهم. وإنما يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا ما يشاهدونه منها ومن التمتع بزخارفها. وفيه دليل أن للدنيا ظاهرا وباطنا ، فظاهرها : ما يعرفه الجهّال من التمتع بزخارفها. قال بعض الحكماء : إن كنت من أهل الاستبصار فألق ناظرك عن زخارف هذه الدار ، فإنها مجمع الأكدار ، ومنبع المضار ، وسجن الإبرار ، ومجلس الأشرار ، الدنيا كالحية ، تجمع سموم نوائبها ، وتفرغه فى صميم قلوب أبنائها. هـ.
وباطنها : أنها مجاز إلى الآخرة ، يتزودون منها إليها بالأعمال الصالحة وتحقيق المعرفة. وتنكير (ظاهرا) : مفيد أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحدا من جملة ظواهرها. وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ لا تخطر ببالهم ، ولا يتفكرون فى أهوالها وتوائبها. فهم ، الثانية : مبتدأ ، و(غافلون) : خبره ، والجملة : خبر الأولى ، وفيه تنبيه أنهم معدن الغفلة ومقرّها. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : كما تقع الدولة بين الأشباح ، تقع بين النفوس والأرواح. فتارة تغلب النفوس بظلماتها على الأرواح ، فتحجبها عن اللّه ، وتارة تغلب الأرواح بأنوارها على النفوس ، فتستر ظلمة حظوظها ، ويرتفع الحجاب بين اللّه وعبده. الم ، غلبت أنوار الأرواح بظلمة كثائف النفوس ، فى أدنى أرض العبودية ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فتغلب أنوار الأرواح المطهرة ، على ظلمة النفوس الظلمانية ، وذلك فى بضع سنين ، مدة المجاهدة ، والبضع : من ثلاث إلى عشر ، على قدر الجد والاجتهاد ، وعلى قدر تفاوت النفوس والطبع ، فمنهم من يظفر بنفسه فى مدة يسيره ، ومنهم من يظفر بعد مدة طويلة. للّه الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون السائرون بنصر اللّه ، حيث نصرهم على نفوسهم ، فظفروا بها. ينصر من شاء حيث يشاء ، وهو العزيز الرحيم. قال بعضهم : انتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم ، فإن ظفروا بها وصلوا. هـ.
وقال الورتجبي : قوله : غُلِبَتِ الرُّومُ .. الآية ، إشارة إلى أن الأرواح ، وإن كانت مغلوبة من النفوس الأمارة ، والشياطين الكافرة امتحانا من اللّه ، وتربية لها بمباشرة القهريات ، فإنها تغلب على النفوس ، من حين تخرج من مقام الاختيار. انظر تمامه. وقال القشيري : قوله تعالى : يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا : استغراقهم فى الاشتغال بالدنيا ، وانهماكهم بما منعهم عن العلم بالآخرة. وقيمة كل امرئ علمه كما فى الأثر عن عليّ رضي اللّه عنه. قال :
وقيمة كلّ امرئ ما كان يتقنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٢٦
فأهل الدنيا فى غفلة عن الآخرة ، والمشتغلون بعلم الآخرة ، هم بوجودها ، فى غفلة عن اللّه. هـ. قلت : وأهل المعرفة باللّه لم يشغلهم عنه دنيا ولا آخرة. واللّه تعالى أعلم.
ثم أمر بالتفكر ، فقال :
[سورة الروم (٣٠) : آية ٨]
أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (٨)
قلت : «فى أنفسهم» : يحتمل أن يكون ظرفا ، أي : أولم يحدثوا التفكر فيها ، وأن تكون صلة للتفكر ، نحو : تفكر فى الأمر : أجال فيه فكره. والأول أظهر.
يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أي : أولم يثبتوا التفكر فى أنفسهم ، أي : فى قلوبهم الفارغة ، فيتفكروا بها فى مصنوعات اللّه ، حتى يعلموا أنها ما خلقت عبثا ، والتفكر لا يكون إلا فى القلوب ، ولكن زيادة تصوير لحال المتفكرين ، كقوله : اعتقده فى قلبك. أو : أو لم يتفكروا فى أنفسهم ، التي هى أقرب إليهم من غيرها ، وهم أعلم بأحوالها ، فيتدبروا ما أودعها اللّه تعالى ، ظاهرا وباطنا ، من غرائب الحكمة الدالة على التدبير من الحكيم القديم ، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت تجازى فيه ، على الإحسان إحسانا ، وعلى الإساءة مثلها ، حتى يعلموا ، عند ذلك ، أن سائر الخلائق مثلها ، وأنه لا بدّ لهم من الانتهاء إلى ذلك الوقت ، فيعلموا أن ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى أي : ما خلقها باطلا وعبثا من غير حكمة ، ولا لتبقى خالدة ، وإنما خلقها مقرونة بالحق ، مصحوبة بالحكمة البالغة ، وتنتهى إلى أجل مسمى ، وهو قيام الساعة ، ووقت الحساب ، بالثواب والعقاب ، فيخرب هذا العالم ، ويقوم عالم آخر ، لا انتهاء لوجوده.
قال فى الحاشية الفاسية : وبالجملة : فخلق السموات والأرض للدلالة على التوحيد بوجودهما ، وعلى الآخرة بفنائهما ، وانقضاء أجلهما. ثم قال : والحاصل أن خلقه بمقتضى الحكمة يقتضى جزاء أوليائه ، وتعذيب أعدائه. وقد نصب تعالى القلب شاهدا ومنزلا منزلة الآخرة ، والقالب منزلة الدنيا ، وكما أن عمل القالب يعود نفعه ، إذا فعل الطاعة ، على القلب بالتنوير والتقريب لحضرة الربوبية ، ويعود ضرره عليه ، إذا فعل ضد ذلك ، كما يعرفه أهل القلوب ، وأنه مزرعة للقلب ، ولا بقاء له ، وإنما خلق لقضاء ذلك ، فكذلك الدنيا مزرعة للآخرة ، وإنما خلقت لذلك ، كما يعرفه أهل القلوب والبصائر الصافية السالمة ، فاعتبر ذلك. هـ.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٢٧
وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ بالبعث والجزاء لَكافِرُونَ : لجاحدون.
الإشارة : قد تقدم الكلام على فضل التفكر فى آل عمران «١». وقوله تعالى : إِلَّا بِالْحَقِّ أي : ما خلق الكائنات إلا بالحق ، من الحق إلى الحق ، فهى من تجليات الحق ، ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، فالحق عبارة عن عين الذات عند أهل الحق ، فافهم.
ثم قال زيادة فى الأمر بالاعتبار ، أو : تقول : لمّا ذكر علمهم بظاهر الحياة الدنيا ، ذكر أن من قبلهم كانوا أعلم بها ، ولم ينفعهم مع التكذيب ، فقال :
[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٩ الى ١٠]
أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (١٠)
قلت : من رفع «عاقبة الذين أساءوا» فالسوأى : منصوب خبر كان ، ومن نصب «عاقبة» فالسّوأى : مرفوع اسمها ، أو : مصدر لأساءوا. انظر البيضاوي. والسّوأى : تأنيث أسوأ. و(أن كذبوا) : مفعول من أجله ، أو : بدل ، على أن معنى (أساءوا) : كفروا.
يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَسِيرُوا أي : أعموا ولم يسيروا فِي الْأَرْضِ ، ثم قرره بقوله : فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي : فينظروا إلى آثار الذين من قبلهم كيف دمرهم اللّه ، وأخلا بلادهم ، وبقيت دراسة بعدهم ، كعاد وثمود ، وغيرهم من الأمم العاتية ، والجبابرة الطاغية ، كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً حتى كان منهم من يفتل الحديد بيده ، وَأَثارُوا الْأَرْضَ قلبوا وجهها بالحراثة ، واستنباط المياه ، واستخراج المعادن ، وغير ذلك. وَعَمَرُوها أي : عمر المدمّرون الأرض أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها أي : أهل مكة ، فأكثر : صفة لمصدر محذوف. و(ما) : مصدرية ، أي : عمارة هؤلاء ، فإنهم أهل واد غير ذى زرع ، ولا تبسط لهم فى غيرها. وفيه تهكم بهم من حيث إنهم عمروا الأرض ، مغترون بالدنيا ، مفتخرون بها ، وهم أضعف حالا فيها

---

(١) راجع تفسير الآيات : ١٩١ - ١٩٤ من سورة آل عمران ، ص ٤٥١ - ٤٥٢ من المجلد الأول.

إذ مدار أمرها على التبسّط فى البلاد ، والتسلط على العباد ، والتصرف فى أقطار الأرض بأنواع العمارة ، وهم ضعفاء ملجأون إلى واد لا نفع فيه. قال البيضاوي.
وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الواضحات ، فلم يؤمنوا فأهلكوا ، فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ بأن دمرهم بلا سبب ، أو : من غير إعذار ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ حيث ارتكبوا ما أدى إلى تدميرهم.
ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا بالكفر والمعاصي السُّواى أي : العقوبة السوأى ، والأصل : ثم كان عاقبتهم ، فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على ما اقتضى أن تكون تلك عاقبتهم ، وهو إساءتهم. والمعنى : أنهم عوقبوا فى الدنيا بالدمار ، ثم كان عاقبتهم فى الآخرة العقوبة التي هى أسوأ العقوبات ، وهى النار التي أعدت للكافرين. لأجل أَنْ كَذَّبُوا أو : بأن كذّبوا بِآياتِ اللَّهِ الدالة على صدق رسله ، أو : على وحدانيته.
وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ حيث قابلوها بالتكذيب ، أو : غفلوا عن التفكر فيها. أو : ثم كان عاقبة الذين اقترفوا الخطيئة السّوآء أن طبع اللّه على قلوبهم ، حتى كذّبوا بالآيات ، واستهزءوا بها. أو : ثم كان عاقبة الذين فعلوا الفعلة السوأى ، وهو أن كذّبوا واستهزءوا ، أن يلحقهم ما تعجز عنه نطاق العبارة ، فخبر كان ، على هذا : محذوف للتهويل.
و(أن كذبوا) : بيان ، أو : بدل من السوأى. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : السير إلى اللّه على أقسام : سير النفوس : بإقامة عبادة الجوارح لطلب الأجور ، وسير القلوب :
بجولانها فى ميادين الأغيار ، للتبصر والاعتبار طلبا للحضور ، وسير الأرواح : بجولان الفكرة فى ميادين الأنوار طلبا لرفع الستور ودوام الحضور ، وسير الأسرار : الترقي فى أسرار الجبروت ، بعد التمكن من شهود أنوار الملكوت على سبيل الدوام. قال القشيري : سير النفوس فى أوطان الأرض ومناكبها لأداء العبادات ، وسير القلوب بجولان الفكر فى جميع المخلوقات ، وغايته : الظّفر بحقائق العلوم التي توجب ثلج الصدور - ثم تلك العلوم على درجات - وسير الأرواح فى ميادين الغيب : بنعت خرق سرادقات الملكوت. وقصاراه : الوصول إلى ساحل الشهود ، واستيلاء سلطان الحقيقة. وسير الأسرار : بالترقي - أي : الغيبة - عن الحدثان بأسرها ، والتحقق ، أولا ، بالصفات ، ثم بالخمود ، بالكلية ، عمّا سوى الحق. هـ.
وقال فى قوله : ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى : من زرع الشوك لم يحصد الورد ، ومن استنبت الحشيش لم يقطف البهار ، ومن سلك سبيل الغيّ لم يحلل بساحة الرشد. هـ.
ثم ذكر شأن البعث الذي هو عاقبة المسيء والمحسن : فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ١١ الى ١٦]
اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (٥١)
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (١٦)

(٣٢٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٢٩
يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ينشئهم ، ثُمَّ يُعِيدُهُ يحييهم بعد الموت ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ للجزاء بالثواب والعقاب. والالتفات إلى الخطاب للمبالغة فى إثباته. وقرأ أبو عمرو وسهل وروح : بالغيب ، على الأصل. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ : ييأس ويتحير الْمُجْرِمُونَ المشركون يقال : ناظرته فأبلس ، أي : أفحم وأيس من الحجة ، أو : يسكتون متحيرين ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ التي عبدوها من دون اللّه شُفَعاءُ يشفعون لهم ويجيرونهم من النار ، وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ جاحدين لها ، متبرئين من عبادتها ، حين أيسوا من نفعها. أو : كانوا فى الدنيا كافرين بسبب عبادتها.
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ أي : المسلمون والكافرون ، بدليل قوله : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ ، أي : بستان ذى أزهار وأنهار ، وهى الجنة. والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه ، يُحْبَرُونَ : يسرّون ، يقال : حبره ، إذا سرّه سرورا تهلّل به وجهه ، وظهر فيه أثره.
ووجوه المسار كثيرة ، فقيل : يكرمون ، وقيل : يحلّون. وقيل : هو السماع فى الجنة. قاله غير واحد.
قال أبو الدرداء : كان عليه الصلاة والسلام يذكّر الناس بنعيم الجنان فقيل : يا رسول اللّه هل فى الجنة من سماع؟ قال :
«نعم ، إنّ فى الجنة لنهرا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خمصانة ، يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط ، فذلك أفضل نعيم أهل الجنّة.» قال الراوي : فسألت أبا الدرداء : بم يتغنين؟ قال : بالتسبيح إن شاء اللّه «١».
والخمصانة : المرهفة الأعلى ، الضخمة الأسفل. هـ. انظر الثعلبي. وذكر غيره أن هذا السماع يكون فى نزهة تكون لأهل الجنة على شاطئ هذا النهر ، وقد ذكرناها فى شرحنا الكبير على الفاتحة.
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ بالبعث فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ : مقيمون ، لا يغيبون عنه. عائذا باللّه من غضبه.

---

(١) ذكره القرطبي فى التفسير (٦/ ٥٢٤٣) ، وعزاه للثعلبى ، من حديث أبى الدرداء ، وأخرجه ، بنحوه ، البيهقي فى البعث والنشور (٤٢٥) من حديث أبى هريرة موقوفا.

الإشارة : من اعتمد على غير اللّه ، أو ركن إلى شيء سواه ، فهو مجرم عند الخصوص ، وذلك الشيء الذي ركن إليه صنم فى حقه ، يتبرأ منه يوم القيامة ، ويبلس من نفعه ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ : الآية.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فريق هم أهل الوصلة ، وفريق هم أهل القطعة ، فريق فى المنة ، وفريق فى المحنة ، فريق فى السرور ، وفريق فى الثبور ، فريق فى الثواب ، وفريق فى العقاب ، فريق فى الفراق ، وفريق فى التلاق. قاله القشيري. وإذا كان الأمر هكذا ، فجدّ ، أيها المؤمن ، فى طاعة مولاك ، وأكثر من ذكره ، صباحا ومساء ، وليلا ونهارا لتنال ذلك الوعد ، وتنجو من الوعيد ، كما أبان ذلك بقوله :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ١٧ الى ١٩]

فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)

قلت : «فسبحان» : مصدر لمحذوف ، أي : سبحوا سبحان. و(حين) : متعلق بذلك المحذوف ، وجملة : (و له الحمد) : معترضة بين معطوفات الظروف. و(فى السموات) : حال من الحمد ، أي : وله ، على عباده ، الحمد كائنا فى السموات .. إلخ.

يقول الحق جل جلاله : فَسُبْحانَ اللَّهِ أي : فسبّحوا اللّه ونزّهوه تنزيها يليق به فى هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته ، وتجدد فيها نعمه ، وهى حِينَ تُمْسُونَ تدخلون فى السماء ، وَحِينَ تُصْبِحُونَ تدخلون فى الصباح. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : وله ، على المميّزين كلّهم ، من أهل السموات والأرض ، أن يحمدوه ، وَعَشِيًّا أي : وسبحوه عشيا آخر النهار ، وَحِينَ تُظْهِرُونَ تدخلون فى وقت الظهيرة.

قال البيضاوي : وتخصيص التسبيح بالمساء والصباح لأن آثار العظمة والقدرة فيهما أظهر ، وتخصيص الحمد بالعشي - الذي هو آخر النهار ، من عشى العين إذا نقص نورها - والظهيرة - التي هى وسطه لأن تجدد النعم فيها أكثر. ويجوز أن يكون عَشِيًّا معطوفا على حِينَ تُمْسُونَ ، وقوله : وَلَهُ الْحَمْدُ ..

إلخ – اعتراضا. وعن ابن عباس : الآية جامعة للصلوات الخمس ، (تمسون) : صلاتا المغرب والعشاء ، (تصبحون) : صلاة الفجر ، (و عشيا) : صلاة العصر ، (و تظهرون) : صلاة الظهر «١». ولذلك زعم الحسن أنها مدنيّة لأنه كان يقول :

---

(١) أخرجه ابن جرير فى التفسير (٢١/ ٢٩) ، والطبراني فى الكبير (١٠/ ٣٠٤ ح ١٠٥٩٦) ، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٠١) ، وصححه ، ووافقه الذهبي.

(٣٣٠/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٣١

كان الواجب عليه بمكة ركعتين ، فى أي وقت اتفقت ، وإنما فرضت الخمس بالمدينة. والأكثر على أنها فرضت بمكة. هـ.

ثم ذكر وجه استحقاقه للحمد والتنزيه بقوله : يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، الطائر من البيضة ، والإنسان من النطفة ، أو : المؤمن من الكافر ، والعالم من الجاهل. وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، البيضة من الطائر ، والنطفة من الإنسان ، أو : الكافر من المؤمن ، والجاهل من العالم. وَيُحْيِ الْأَرْضَ بالنبات بَعْدَ مَوْتِها بيبسها ، وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ ، والمعنى : أن الإبداء والإعادة متساويان فى قدرة من هو قادر على إخراج الحي من الميت ، وعكسه.

روى عن ابن عباس رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «من قرأ فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ .. إلى الثلاث آيات ، وآخر سورة الصافات : سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ .. إلخ .. دبر كلّ صلاة ، كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء ، وقطر الأمطار ، وورق الأشجار ، وتراب الأرض. فإذا مات أجرى له بكل لفظ عشر حسنات فى قبره» «١» نقله الثعلبي والنسفي. وعنه – عليه الصلاة والسلام : «من قال حين يصبح : فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ .. إلى قوله :

وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ أدرك ما فاته فى يومه ، ومن قاله حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته» «٢». رواه أبو داود.

وقال الضحاك : من قال : فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ .. إلخ كان له كعدل مائتى رقبة من ولد إسماعيل. هـ.

زاد كعب : ولم يفته خير كان فى يومه ، ولا يدركه شر كان فيه. وإن قالها فى المساء فكذلك. وكان إبراهيم الخليل عليه السّلام يقرأها ست مرات فى كل يوم وليلة. هـ.

الإشارة : أما وجه الأمر بالتنزيه حين المساء والصباح فلأنّ المجوس كانوا يسجدون للشمس فى هذين

الوقتين تسليما وتوديعا ، فأمر الحق تعالى المؤمنين أن ينزهوه عمن يستحق العبادة معه ، وأما العشى فلأنه وقت غفلة الناس فى جمع حوائجهم ، وأما وقت الظهيرة فلأن جهنم تشتعل فيه كما فى الحديث ، وأمر بحمده والثناء عليه فى كل وقت لما غمره من النعم الظاهرة والباطنة.

قال القشيري : فمن كان صباحه باللّه بورك له في يومه ، ومن كان مساؤه باللّه بورك له فى ليلته ، وأنشدوا :

وإنّ صباحا نلتقى فى مسائه صباح على قلب الغريب حبيب «٣»

---

(١) انظر : تفسير النسفي (٢/ ٦٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود فى (الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح ، ٥/ ٣١٦ ، ح ٥٠٧٦) ، والطبراني فى الكبير (١٢/ ٢٣٩ ح ١٢٩٩١) ، وابن السّنّي فى عمل اليوم والليلة (ح ٥٥) من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه. قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٢٨) : إسناده جيد.

(٣) البيت : لإبراهيم بن المهدى ، يذكر ابنه. انظر الكامل للمبرد (٢/ ٣١٤) ، وفيه : صباح إلى قلبى ، الغداة ، حبيب.

شتّان بين عبد : صباحه مفتتح بعبادته ، ومساؤه مختتم بطاعته ، وبين عبد : صباحه مفتتح بمشاهدته ، ورواحه مختتم بعزيز رؤيته. قلت : الأول من عامة الأبرار ، والثاني من خاصة العارفين الكبار ، وبقي مقام الغافلين ، وهو :

من كان صباحه مفتتح بهم نفسه ، ومساؤه مختتم برؤية حسه ، ثم ذكر احتمال الصلوات الخمس فى الآية ، كما تقدم - ثم قال : وأراد الحق من أوليائه أن يجددوا العبودية فى اليوم والليلة خمس مرات ، فيقف على بساط المناجاة ، ويستدرك مافاته بين الصلاتين من صوارف الزلات. هـ.

وقوله تعالى : يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ يخرج الذاكر من الغافل ، والغافل من الذاكر ، والعارف من الجاهل ، والجاهل من العارف ، ويحيى أرض النفوس باليقظة والمعرفة ، بعد موتها بالغفلة والجهل ، وكذلك تخرجون من قبوركم على مامتم عليه ، من معرفة أو جهل ، من يقظة أو غفلة ، يموت المرء على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر دلائل البعث والخروج ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٢٠ الى ٢١]

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ آياتِهِ الدالة على قدرته ، الشاملة للبعث وغيره ، أو : ومن علامات ربوبيته : أَنْ خَلَقَكُمْ أي : أباكم مِنْ تُرابٍ لأن أصل الإنشاء منه ، ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ أي : ثم فاجأتم وقت كونكم بشرا منتشرين فى الأرض ، آدم وذريته. وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها لأن حواء خلقت من ضلع آدم ، والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال. أو : من شكل أنفسكم وجنسها ، لا من جنس آخر ، وذلك لما بين الاثنين - إذ كانا من جنس واحد - من الألفة والمودة والسكون ، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر. ويقال سكن إليه : إذا مال إليه. وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً أي : جعل بينكم التوادد والتراحم بسبب الزواج.

وعن الحسن : المودة كناية عن الجماع ، والرحمة هى الولد. وقيل : المودّة للشابة الجميلة ، والرحمة للعجوز ، وقيل : المودة والرحمة من اللّه ، والفرك من الشيطان - أي : البغض من الجانبين. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فيعلمون ما فى ذلك من الحكم ، وأن قوام الدنيا بوجود التناسل.

(٣٣٢/٤)

الإشارة : أصل نشأة البشرية من الطين ، وأصل الروح من نور رب العالين. فإذا غلبت الطينة على الروح جذبتها إلى عالم الطين ، فكان همها الطين ، وهوت إلى أسفل سافلين ، فلا تجد فكرتها وحديثها ، فى الغالب ، إلا فى عالم الحس ، ويكون عملها كله عمل الجوارح ، يفنى بفنائها. وإذا غلبت الروح على الطينة وذلك بدخول مقام الفناء ، حتى تستولى المعاني على الحسيات. وتنخنس البشرية تحت سلطان أنوار الحقيقة ، جذبتها إلى عالم الأنوار والأسرار ، فلا تجد فكرتها إلا فى أنوار التوحيد وأسرار التفريد ، وعملها كله قلبى وسرى ، بين فكرة واعتبار ، وشهود واستبصار ، يبقى مع الروح ببقائها ، يجرى عليها بعد موت البشرية ، ويبعث معها ، كما تقدم فى الحديث : (يموت المرء ...) إلخ.

قال القشيري : يقال : الأصل تربة ، ولكن العبرة بالتربية لا بالتربة. هـ. قلت : إذ بالتربية تغلب الروح على البشرية ، ثم قال : اصطفى الكعبة ، فهى خير من الجنة ، مع أن الجنة جواهر ويواقيت ، والكعبة حجر ومدر ، أي :

كذلك المؤمن الكامل ، وإن كان أصله من الطين ، فهو أفضل من كثير من العوالم اللطيفة. ثم قال فى قوله تعالى :

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً .. الآية : ردّ المثل إلى المثل ، وربط الشكل بالشكل ،

وجعل سكون البعض إلى البعض ، وذلك للأشباح والصّور ، والأرواح صحبت الأشباح كرها لا طوعا ، وأما الأسرار فمعتقة ، لا تساكن الأطلال ، ولا تتدنس بالأغيار. هـ.

قلت : وكأنه يشير إلى أن المودة التي انعقدت بين الزوجين إنما هى نفسية ، لا روحانية ، ولا سرية إذ الروح والسر لا يتصور منهما ميل إلى غير أسرار الذات العلية إذ محبة الحق جذبتها عن الميل إلى شيء من السّوى.

واختلف الصوفية : هل تخلّ هذه المودة التي بين الزوجين بمحبة الحق ، أم لا؟ فقال سهل رضي اللّه عنه : لا تضر الروح لقوله صلى اللّه عليه وسلم : «حبب إليّ من دنياكم ثلاث ..» «١» فذكر النساء ، إذا كان على وجه الشفقة والرحمة ، لا على غلبة الشهوة. وعلامة محبة الشفقة : أنه لا يتغير عند فقدها ، ولا يحزن بفواتها. وهذا هو الصحيح. واللّه تعالى أعلم. «٢»

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٢٢ الى ٢٥]

وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)

---

(١) لفظ «ثلاث» لم يرد - مطلقا فى روايات الحديث الصحيحة. قال الحافظ ابن حجر : وليس فى شيء من طرقه «لفظ ثلاث» وراجع تخريج هذا الحديث الشريف عند إشارة الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٢) انظر : مجمع الأمثال للميدانى ١/ ١٢٩.

قلت : (يريكم البرق) : فيه وجهان ، أحدهما : إضمار «أن» كما فى حرف ابن مسعود ، والثاني : تنزيل الفعل منزلة المصدر ، كما قيل فى قولهم ، فى المثل : «تسمع بالمعيدىّ خير من أن تراه». أي : إن تسمع ، أو : سماعك.

و(خوفا وطعما) : مفعولان له على حذف مضاف ، أي : إرادة خوف ، وإرادة طمع ، أو : على الحال ، أي : خائفين وطامعين. و(إذا دعاكم) : شرطية ، و(إذا) ، الثانية فجائية ، نابت عن الفاء. و(من الأرض) : يتعلق بدعاكم.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ آياتِهِ الدالة على باهر قدرته خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ. قال القشيري : السموات فى علّوها ، والأرض فى دنوّها ، هذه بنجومها وكواكبها ، وهذه بأقطارها ومناكبها ، هذه بشمسها وقمرها ، وهذه بمائها ومدرها ، واختلاف لغات أهلها فى الأرض ، واختلاف تسبيح الملائكة – عليهم السلام – الذين هم سكان السماء. هـ. وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ باختلاف اللغات ، وبأجناس النطق وأشكاله ، وَأَلْوانِكُمْ ، كالسواد والبياض وغيرهما ، حتى لا تكاد تجد شخصين متوافقين إلا وبينهما نوع تخالف فى اللسان واللون ، وباختلاف ذلك وقع التعارف والتمايز ، فلو توافقت وتشاكلت لوقع التجاهل والالتباس ، ولتعطلت المصالح. وفى ذلك آية بينة ، حيث ولدوا من أب واحد ، وهم على كثرتهم متفاوتون. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ بفتح اللام وكسره «١». ويشهد للكسر قوله تعالى : وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ «٢».

قال القشيري : واختصاص كلّ شيء من هذه ببعض جائزات حكمها شاهد عدل ، ودليل صدق ، يناجى أفكار المستيقظين ، وتنادى على أنفسها : أنها ، بأجمعها ، بتقدير العزيز العليم. هـ.

وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، أي : منامكم بالليل ، وابتغاؤكم من فضله بالنهار ، أو : منامكم فى الزمانين ، وابتغاؤكم من فضله فيهما ، وهو حسن لأنه إذا طال النهار يقع النوم فيه ، وإذا طال الليل يقع الابتغاء فيه. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ سماع تدبر ، بآذان واعية. قال القشيري :

غلبة النوم لصاحبه من غير اختيار ، وانتباهه بلا اكتساب ، يدلّ على موته ثم بعثه ، ثم فى حال منامه يرى ما يسرّه وما يضرّه يدل على حاله فى قبره. اللّه أعلم كيف حاله ، فى أمره ، فيما يلقاه من خيره وشره. هـ. «٣»

---

(١) قرأ حفص : بكسر اللام قبل الميم ، جمع «عالم» ، ضد الجاهل ، وقرأ الباقون : بفتح اللام جمع «عالم». انظر الإتحاف (٢/ ٣٥٦).

(٢) من الآية ٤٣ من سورة العنكبوت.

(٣) بالمعنى.

وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً

، أي : خوفا من الصواعق ، وطمعا فى الغيث ، أو : خوفا للمسافر وطمعا للحاضر ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ

ماءً مطرا فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ : يتفكرون بعقولهم.
وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ بغير عمد وَالْأَرْضُ على ماء جماد بِأَمْرِهِ أي : بإقامته ، أو : تدبيره وقدرته. ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ للبعث دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ من قبوركم. وسبك الآية : ومن آياته قيام السماوات والأرض ، واستمساكها بغير عمد ، ثم إذا دعاكم دعوة واحدة ، يا أهل القبور ، خرجتم بسرعة.
وإنما عطف هذا بثم بيانا لعظم ما يكون من ذلك الأمر ، وإظهار اقتداره على مثله ، وهو أن يقول : يا أهل القبور ، قوموا ، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ، كقوله : ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ «١».
تنبيه : عبّر عن مودة الزوجين بيتفكرون لأن المودة قلبية ، لا تدرك إلا بتفكر القلب ، وعبّر عن خلق السموات والأرض واختلاف الألسن والألوان بالعالمين لأن أمر ذلك يدركه كل أحد ، ممن له عقل أو علم ، وعبّر عن النوم واليقظة بيسمعون لأن من كان فى الغفلة لا يسمع أمثال هذه المواعظ ، وإنما يسمعها من كان متيقظا ، وعبّر عن إظهار البرق ، وإنزال المطر ، وإحياء الأرض ، بيعقلون لأن أمر البرق وما معه يبصره كل من له مسكة من عقل سليم ، ويعلم أنه من اللّه بلا واسطة. واللّه تعالى علم.
الإشارة : ما نصبت هذه الكائنات لتراها ، بل لترى فيها مولاها ، فما هذه الأكوان الحسية إلا تجليات من تجليات الحق ، ومظاهر من مظاهره ، وأنوار من أنوار ملكوته ، متدفقة من بحر جبروته. كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان. لكن لا يعرف هذا إلا العارفون باللّه ، وأما غيرهم فحسبهم أن يستدلوا على عظمة خالقها ، وباهر قدرته وحكمته ، فيقوى إيمانهم ويشتد إيقانهم.
قال فى الإحياء : وبحر المعرفة لا ساحل له ، والإحاطة بكنه جلال اللّه محال ، وكلما كثرت المعرفة باللّه سبحانه ، وبأفعال مملكته ، وأسرار مملكته ، وقويت ، كثر النعيم فى الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن. وقال أيضا ، فى كتاب شرح عجائب القلب : ويكون سعة ملك العبد فى الجنة بحسب سعة معرفته باللّه ، وبحسب ما يتجلى له من عظمة اللّه سبحانه ، ومن صفاته وأفعاله. هـ.
ومن آياته خلق سماوت أرواحكم ، وأرض نفوسكم ، لتقوم الأرواح بشهود عظمة الربوبية ، والنفوس بآداب العبودية ، واختلاف ألسنتكم فبعضها لا تتكلم إلا فى الفرق ، وبعضها إلا فى الجمع. وألوانكم بعضها ظهر فيها

---

(١) من الآية ٦٨ من سورة الزمر.

سيما العارفين ، وبهجة المحبين ، وبعضها لم يظهر عليها شيء من ذلك. ومن آياته منامكم فى ليل الغفلة والبطالة ، وقت غفلتكم ، وابتغاؤكم من فضله بزيادة معرفته ، وقت يقظتكم. ومن آياته يريكم البرق ، أي : يلمع عليكم أسرار المعاني ، ثم تخفى عند الاستشراف على بحر الحقيقة ، خوفا من الاصطلام والرجوع ، وطمعا فى الوصول والتمكين. ومن آياته أن تقوم الأشياء به وبأسرار ذاته ، ثم إذا دعاكم دعوة من أرض القطيعة إذا أنتم تخرجون ، فتعرجون بأرواحكم إلى سماء وصلته وتمكن معرفته. واللّه تعالى أعلم.

ثم برهن على كمال ملكه وعظمته ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٢٦ الى ٢٧]

وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)

يقول الحق جل جلاله : وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ملكا وملكا ، كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ أي : مطيعون ، كلّ لما أراد ، لا يستطيع التغير عن ذلك. أو : مقرّون بالعبودية ، أو : قائمون بالشهادة على وحدانيته.

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ أي : ينشئهم ثم يعيدهم للبعث ، وَهُوَ أي : البعث أَهْوَنُ أيسر عَلَيْهِ عندكم لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء ، فلم أنكرتم الإعادة ، مع إقراركم بأن الإنشاء منه تعالى؟ وقال الزجاج وغيره : أهون بمعنى «هيّن» كقوله : وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً «١» ، كما قالوا : أكبر ، بمعنى كبير. والإعادة فى نفسها عظيمة ، ولكنها هوّنت بالقياس إلى الإنشاء إذ هو أهون عند الخلق من الإنشاء لأن قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم نطفا ، ثم علقا ، ثم مضغا ، إلى تكميل خلقهم. قاله النسفي.

وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : الوصف الأعلى ، الذي ليس لغيره ، وقد عرف به ، ووصف فى السموات والأرض ، على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل ، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة ، وغيرهما من المقدورات ، وَهُوَ الْعَزِيزُ أي : القاهر لكل مقدور ، الْحَكِيمُ الذي يجرى كل فعل على قضايا حكمته وعلمه. وعن ابن عباس : المثل الأعلى هو : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «٢».

وعن مجاهد : هو قول : «لا إله إلا اللّه». ومعناه : وله الوصف الأرفع ، وهو اختصاصه بالألوهية فى العالم العلوي والسفلى ، ويعضده : ما بعده من ضرب المثل. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة النساء.

(٢) من الآية ١١ من سورة الشورى. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٣٧

الإشارة : الأشياء كلها ، من عرشها إلى فرشها ، حيها وجامدها ، قانتة وساجدة للّه تعالى ، من حيث حسّها الذي هو مقر العبودية ، وغنية عن السجود من حيث معناها لأنها من أسرار الربوبية. فالعبد ، من حيث فرقه ، عبد خاضع ، ومن حيث جمعه : حر مطاع.

قال القشيري : قوله : وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ أي : فى ظنّكم وتقديركم. وفى الحقيقة السهولة والوعورة على الحق لا تجوز. وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى والصفات العلى فى الوجود بحقّ القدم ، وفى وجوده - أي : للأشياء - بنعت الكرم ، وفى القدرة بوصف الشمول ، وفى النظرة بوصف الكمال ، وفى العلم بعموم التعلق ، وفى الحكم بوجود التحقق ، وفى المشيئة بوصف البلوغ ، وفى القضية بحكم النفوذ ، وفى الجبروت بعين العز والجلال ، وفى الملكوت بنعت الجد والكمال. هـ. قلت : والحاصل أن المثل الأعلى يرجع إلى كمال ذاته ، تعالى ، وصفاته وأفعاله.

ثم ضرب مثلا لقبح الشرك ، بعد بيان علو شأنه ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا لقبح الشرك وبشاعته ، منتزعا مِنْ أَنْفُسِكُمْ التي هى أقرب شيء إليكم ، وهو : هَلْ لَكُمْ ، معاشر الأحرار ، مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ أي : من عبيدكم مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ من الأموال وغيرها. فمن ، الأولى : للابتداء ، والثانية : للتبعيض ، والثالثة : مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي. والمعنى : هل لكم ، من بعض عبيدكم ، شرك فيما رزقناكم ، أي : هل ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم فيما رزقناكم؟ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ فتكونون أنتم وهم ، فيما رزقناكم من الأموال ، سواء يتصرفون فيه كتصرفكم ، ويحكمون فيه كحكمكم ، مع أنهم بشر مثلكم ، حال كونكم تَخافُونَهُمْ أن يستبدوا بالتصرف فيه ، كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ أي : كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض - فيما هو مشترك بينهم - أن يستبد فيه بالتصرف دونه. أو : تخافونهم أن يقاسموكم تلك الأموال ، أو : يرثونها بعدكم ، كما تخافون ذلك من بعضكم ، فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم ، فكيف ترضونه لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد ، أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء فى استحقاق العبادة؟!

كَذلِكَ ، أي : مثل هذا التفصيل البديع ، نُفَصِّلُ الْآياتِ نبينها لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يتدبرون فى ضرب الأمثال ، ويعرفون حكمها وأسرارها ، فلما لم ينزجروا أضرب عنهم ، فقال : بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسهم بالشرك أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أي : تبعوا أهواءهم ، جاهلين ، ولو كان لهم علم لرجى أن يزجرهم ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟ أي : لا هادى له قط ، وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ يمنعونهم من العذاب ، أو : يحفظونهم من الضلالة ، أو : من الإقامة فيها.

الإشارة : ما قيل فى الشرك الجلى يجرى مثله فى الشرك الخفي فإن الحق تعالى غيور ، لا يحب العمل المشترك ، ولا القلب المشترك. العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشترك لا يقبل عليه ، وأنشدوا «١» :

لى محبوب إنما هو غيور يطلّ فى القلب كطير حذور ذا رأى شيئا امتنع أن يزور فكما أنك لا ترضى من عبدك أن يحب غيرك ، ويخضع له ، كذلك الحق تعالى لا يرضى منك أن تميل لغيره. قال القشيري : قوله : بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ : أشدّ الظلم متابعة الهوى لأنه قريب من الشّرك.

قال اللّه تعالى : أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ «٢» ، ومن اتّبع هواه خالف رضا مولاه ، فهو ، بوضع الشيء فى غير موضعه ، صار ظالما ، كما أن العاصي ، بوضع المعصية فى موضع الطاعة ، صار ظالما ، كذلك بمتابعة هواه ، بدلا عن موافقة ومتابعة رضا مولاه ، صار فى الظلم متماديا. هـ.

ثم أمر بالتوحيد الخالص ، المقصود من ضرب المثل ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٣٠ الى ٣٢]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

---

(١) وهو الششترى ، كما ذكر الشيخ المفسر فى إيقاظ الهمم/ ٤٣٧.

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

قلت : (حنيفا) : حال من (الدين) ، أو : من الأمور ، وهو ضمير (أقم) ، و(فطرة) : منصوب على

الإغراء.

يقول الحق جل جلاله ، لنبيه صلى اللّه عليه وسلم ، أو : لكل سامع : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ أي : قوّم وجهك له ، غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا. وهو تمثيل لإقباله على الدين بكلّيته ، واستقامته عليه ، واهتمامه بأسبابه فإنّ من اهتم بالشيء توجه إليه بوجهه ، وسدّد إليه نظره ، حَنِيفاً أي : مائلا عن كل ما سواه من الأديان ، فِطْرَتَ اللَّهِ أي : الزموا فطرة اللّه. والفطرة : الخلقة : ألا ترى إلى قوله : لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ؟ فالأرواح ، حين تركيبها فى الأشباح ، كانت قابلة للتوحيد ، مهيّأة له ، بل عالمة به بدليل إقرارها به فى عالم الذر ، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر ، ومن غوى فإنما غوى منهم بإغواء شياطين الإنس والجن. وفى حديث قدسى : «كلّ عبادى خلقت حنيفا ، فاجتالتهم الشّياطين عن دينهم ، وأمروهم أن يشركوا بي غيرى» «١» ، وفى الصحيح : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه» «٢» قال الزجّاج : معناه : أن اللّه تعالى فطر الخلق على الإيمان به ، على ما جاء فى الحديث : «إن اللّه عز وجل أخرج من صلب آدم ذريته كالذرّ ، وأشهدهم على أنفسهم بأنه خالقهم ، فقالوا : بلى» «٣» ، وكل مولود فهو من تلك الذرية التي شهدت بأن اللّه تعالى ربّها وخالقها. هـ. قال ابن عطية : الذي يعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة : أنها الخلقة والهيئة فى نفس الطفل ، التي هى مهيئة لمعرفة اللّه والإيمان به ، الذي على الإعداد له فطر البشر ، لكن تعرض لهم العوارض على حسب ما جرى به القدر ، ولا يلزم من الإعداد وجعله على حالة قابلة للتوحيد ألا يساعده القدر ، كما فى قوله تعالى : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «٤» ، أي : خلقهم معدين لذلك ، فأمر من ساعده القدر ، وصرف عن ذلك من لم يوفّق لما خلق له. هـ.

فقوله فى الحديث : «كلّ مولود يولد على الفطرة» أي : على القابلية والصلاحية للتوحيد ، ثم منهم من يتمحض لذلك ، كما سبق فى القدر ، ومنهم من لم يوفق لذلك ، بل يخذل ويصرف عنه لما سبق عليه من الشقاء.

وقال فى المشارق : أي : يخلق سالما من الكفر ، متهيئا لقبول الصلاح والهدى ، ثم أبواه يحملانه ، بعد ، على ما سبق له فى الكتاب. هـ. قال ابن عطية : وذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هى كثيرة. ثم قال : وقد فطر اللّه

---

(١) أخرجه بنحوه ، مطولا ، مسلم فى (الجنة وصفه نعيمها ، باب الصفات التي يعرف بها ، فى الدنيا ، أهل الجنة وأهل النار ٤/ ٢١٩٧ ، ح ٢٨٦٥) من حديث عياض المجاشعي. ولفظه : «إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم. الحديث.

(٢) أخرجه البخاري فى (القدر ، باب اللّه أعلم بما كانوا عاملين ح ٦٥٩٩) ، ومسلم فى (القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، ٤/ ٢٠٤٧ ، ح ٢٦٥٨) بزيادة فى آخره ، من حديث أبى هريرة - رضى اللّه عنه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٧٢) وقال في مجمع الزوائد (٧/ ٢٥) : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح.
(٤) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

(٣٣٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٤٠
الخلق على الاعتراف بربوبيته ، ومن لازم ذلك توحيده ، وإن لم يوفّقوا لذلك كلّهم ، بل وحّده بعضهم ، وأشرك بعضهم ، مع اتفاق الكل على ربوبيته ضرورة أن الكلّ يشعر بقاهر له مدبر. قال في الحاشية : والحاصل : أنه تعالى فطر الكل في ابتداء النشأة ، على الاعتراف بربوبيته ، ولكن كتب منهم السعداء موحدين ، وكتب الأشقياء مشركين ، مع اعتراف الجميع بربوبيته ، ولم يوفق الأشقياء لكون الربوبية تستلزم الوحدانية ، فأشركوا ، فناقضوا لازم قولهم. هـ.
وهذا معنى قوله تعالى : الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها ، أي : خلقهم في أصل نشأتهم عليها ، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ أي : ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغير. وقال الزجاج : معناه : لا تبديل لدين اللّه ، ويدل عليه قوله : ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ أي : المستقيم ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ حقيقة ذلك. حال كونكم.
مُنِيبِينَ إِلَيْهِ أي : راجعين إليه ، فهو حال من ضمير : الزموا. وقوله : وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ : عطف على الزموا. أو : على (فأقم) لأن الأمر له - عليه الصلاة والسلام - أمر لأمته ، فكأنه قال : فأقيموا وجوهكم ، منيبين إليه ، وَاتَّقُوهُ أي : خافوا عقوبته ، وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ أي : أتقنوها وأدّوها في وقتها ، وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ممن يشرك به غيره في العبادة.
مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ : بدل من «المشركين» بإعادة الجار ، أي : لا تكونوا من الذين جعلوا دينهم أديانا مختلفة باختلاف ما يعبدونه لاختلاف أهوائهم. وقرأ الأخوان : (فارقوا) أي : تركوا دين الإسلام الذي أمروا به ، وَكانُوا شِيَعاً أي : فرقا ، كل فرقة تشايع إمامها الذي أضلها ، أي : تشيعه ، وتقوى سواده ، كُلُّ حِزْبٍ منهم بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ مسرورون ، ظنا بأنه الحق ، ثم يبدو لهم من اللّه ما لم يكونوا يحتسبون. والعياذ باللّه.
الإشارة : الفطرة التي فطر اللّه الأرواح عليها هي معرفة العيان لأنها كلها كانت عارفة باللّه لصفائها ولطافتها ، فما عاقها عن تلك المعرفة إلا كثافة الأبدان ، والاشتغال بحظوظها وهواها ، حتى نسيت تلك المعرفة. وفي ذلك يقول ابن البنا في مباحثه «١» :
ولم تزل كلّ نفوس الأحيا لامة درّاكة للأشيا
وإنّما تعوقها الأبدان والأنفس النّزّع والشّيطان

فكل من أذاقهم جهاده أظهر للقاعد خرق العادة

---

(١) انظر الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ص ١١١.

قال بعضهم : إنما حجب اللّه عنها تلك العلوم غيرة أن تكشف سر الربوبية فيظهر لغير أهله ، قال القشيري :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ أي : أخلص قصدك إلى اللّه ، واحفظ عهدك معه ، وأفرد عملك ، فى سكناتك وحركاتك وجميع تصرفاتك ، له. حَنِيفاً أي : مستقيما فى دينه ، مائلا عن غيره ، معرضا عن سواه. والزم (فطرة اللّه التي فطر الناس عليها) ، ثم ذكر ما تقدم لنا. ثم قال : مُنِيبِينَ إِلَيْهِ راجعين إلى اللّه بالكلية ، من غير أن تبقى بقية ، متصفين بوفائه ، منحرفين بكل وجه عن خلافه ، متّقين صغير الإثم وكبيره ، وقليله وكثيره ، مقيمين الصلاة بأركانها وسننها وآدابها جهرا ، متحققين بمرعاة فضلها سرا.

وقال فى قوله تعالى : مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ : أقاموا فى دنياهم فى دار الغفلة ، وعناد الجهل والفترة ، فركنوا إلى ظنونهم ، واستوطنوا مركب أوهامهم ، وثملوا بسكر غيّهم ، وظنوا أنهم على شىء ، فإذا انكشف ضباب وقتهم ، وانقشع سحاب هجرهم ، انقلب فرحهم ترحا ، واستيقنوا أنهم كانوا فى ضلالة ، ولم يعرّجوا إلا فى أوطان الجهالة. هـ.

ثم ذكر حال أهل الغفلة ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٣٣ الى ٣٦]

وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)

قلت : (إذا هم) : جواب (إن). و(إذا) الفجائية ، تخلّف الفاء ، لتآخيهما فى التعقيب.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ كمرض ، وفقر ، وشدة ، أو غير ذلك ، دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ راجعين إِلَيْهِ من دعاء غيره. ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً خلاصا من الشدة إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ شركا جليا أو خفيا ، أي : فاجأ بعضهم الإشراك بربهم الذي عافاهم ، لِيَكْفُرُوا إما : لام كى ، أو : لام

الأمر للوعيد والتهديد ، أي : أشركوا كى يكفروا بِما آتَيْناهُمْ من النعم ، التي من جملتها : نجاتهم وخلاصهم من كل شدة ، فَتَمَتَّعُوا بكفركم قليلا أمر تهديد ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ وبال تمتعكم.

(٣٤١/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٤٢
أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً حجّة على عبادة أصنامهم ، فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ، وتكلمه مجاز ، كما تقول : كتابه ناطق بكذا ، وهذا مما نطق به القرآن ، ومعناه : الشهادة ، كأنه قال : يشهد بصحة ما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ، فما :

مصدرية ، أي : بصحة كونهم باللّه يشركون ، أو : موصولة ، أي : بالأمر الذي بسببه يشركون.
وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً أي : نعمة من مطر ، أو : سعة رزق ، أو : صحة ، فَرِحُوا بِها فرح بطر وافتخار وغفلة. وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بلاء من جدب ، أو ضيق ، أو مرض ، بِما بسبب ما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ من المعاصي ، أي : بشؤمها ، إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ ييأسون من رحمة اللّه ، وفرجه بعد عسره. يقال : قنط يقنط ، كفرح يفرح ، وكعلم.
الإشارة : الواجب على المؤمنين أن يتخلقوا بضد ما تخلق به الكافرون فإذا مسهم ضر أو شدة ، توجهوا إلى اللّه ، إما بالتضرع والابتهال عبودية ، منتظرين ما يفعل اللّه ، وإما بالصبر ، والرضا ، والسكون تحت مجارى الاقدار.
فإذا جاء الفرج والنعمة شكروا اللّه وحمدوه ، ونسبوا الفرج إليه وحده ، فإن كان وقع منهم سبب شرعى لم يلتفتوا إليه قط إذ لا تأثير له أصلا ، وإنما الفرج عنده لا به ، فلا يقولوا : فلان ولا فلانة ، وإنما الفاعل هو اللّه الواحد القهار.
وهذا الشرك الخفي مما ابتلى به كثير من الناس ، علماء وصالحين ، وخصوصا منهم من يتعاطى كتب الفلسفة ، كالأطباء وغيرهم ، إذا أصابهم شيء فزعوا ، فإذا فرّج عنهم قالوا : فلان داوانا ، وفلان فرّج عنا ، والدواء الفلاني هو شفانى ، فتعالى اللّه عما يشركون. فليشدّ العبد يده على التوحيد ، ولا يرى فى الوجود إلا الفرد الصمد ، الفعّال لما يريد.
ومن أوصاف أهل الغفلة : أنهم ، إذا أصابتهم نعمة ، فرحوا وافتخروا بها ، وإذا أصابتهم شدة قنطوا وأيسوا من روح اللّه ، والواجب : ألا يفرح بما هو عارض فإن ، ولا ييأس من روح اللّه عند الشدة ، بل ينتظر من اللّه الفرج ، فإنّ مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا. قال تعالى : ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ .. «١» الآية.

وباللّه التوفيق.

ثم برهن على توالى النعم والمحن على العبد ، مادام فى دار الدنيا ، فقال :

---

(١) الآيتان : ٢٢ - ٢٣ من سورة الحديد.

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٣٧ الى ٣٩]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ أي : يضيق على من يشاء ، فينبغى للعبد أن يكون راجيا ما عند اللّه ، غير آيس من روح اللّه إذ دوام حال من قضايا المحال ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فيستدلون بها على كمال قدرته وحكمته ، ولا يقفون مع شىء دونه. قال النسفي : أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه القابض الباسط ، فما لهم يقنطون من رحمته؟ وما لهم لا يرجعون إليه ، تائبين من معاصيهم ، التي عوقبوا بالشدّة من أجلها ، حتى يعيد عليهم رحمته؟

ولما ذكر أنّ السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم ، أتبعه ذكر ما يحب أن يفعل وما يجب أن يترك ، يعنى : عند البسط فقال : فَآتِ ذَا الْقُرْبى أعط قريبك حَقَّهُ من البر والصلة مما بسط عليك. وَأعط الْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ حقهما من الصدقة الواجبة أو التطوعية ، حسبما تقتضيه مكارم الأخلاق. والخطاب لمن بسط عليه ، أو : للنبى - عليه الصلاة والسلام ، وغيره تبع. ذلِكَ أي : إيتاء حقوقهم الواجبة ، والتطوعية ، خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ أي : ذاته المقدسة ، أي : يقصدون ، بمعروفهم ، إياه ، خالصا. وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بكل خير ، قد حصّلوا ، بما بسط لهم ، النعيم المقيم.

وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ أي : وما أعطيتم من مال لتأخذوا من أموال الناس أكثر منه ، كيفيّة أو كمّيّة ، فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ ولا يبارك فيه ، بل يسحته ويمحقه ، ولو بعد حين. وهذه صورة الربا المحرمة إجماعا ، وقيل : وما أعطيتم من هدية لتأخذوا أكثر منها ، فلا يربو عند اللّه ، لأنكم لم تقصدوا به وجه اللّه.

وهذه هدية الثواب ، جائزة ، إلا فى حقه - عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى : وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ «١».

وقرأ ابن كثير : «أتيتم» بالقصر ، بمعنى ما جئتم به من إعطاء ربا. وقرأ نافع «٣» : «لتربوا» بالخطاب ، أي : لتصيروا [ذوى] «٢» ربا ، فتزيدوا فى أموالكم.

---

(١) الآية ٦ من سورة المدثر.

(٢) فى الأصول [ذا].

(٣) وكذا قرأ أبو جعفر ويعقوب. وقرأ الباقون بياء الغيب وفتحها. انظر الإتحاف (٢/ ٣٥٧).

(٣٤٣/٤)

وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ صدقة ، تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ تبتغون به وجهه خالصا ، لا تطلبون به زيادة ، ولا مكافأة ، ولا سمعة ، فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ أي : ذوو الأضعاف من الحسنات ، من سبعمائة فأكثر. ونظير المضعف : المقوي ، والموسر ، لذى القوة واليسار. والالتفات إلى الخطاب فى (أولئك ...) إلخ فى غاية الحسن لما فيه من التعظيم ، كأنه خاطب الملائكة وخواص الخلق تعريفا بحالهم ، وتنويها بقدرهم ، ولأنه يفيد التعميم ، كأنه قيل : من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين المقبول عليهم. ولا بد من ضمير يعود إلى «ما» الموصولة ، أي :
المضعفون به. أو : فمؤتوه أولئك هم المضعفون. وقال الزجاج : أي : فأهلها هم المضعفون ، أي : يضاعف لهم الثواب ، من عشر إلى سبعمائة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : البسط والقبض يتعاقبان على العبد تعاقب الليل والنهار. فالواجب على العبد : الرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء ، فالبسط يشهد فيه المنّة من اللّه ، ومقتضى الحق منك الحمد والشكر.
والقبض يشهده من اللّه امتحانا وتصفية ، ومقتضى الحق منك الصبر والرضا ، وانتظار الفرج من اللّه فإن انتظار الفرج ، مع الصبر ، عبادة. قال القشيري : الإشارة إلى ألا يعلّق العبد قلبه إلا بالله لأنّ ما يسوءهم ليس زواله إلا من اللّه ، وما يسرهم ليس وجوده إلا من اللّه. فالبسط ، الذي يسرهم ويؤنسهم منه ، وجوده ، والقبض ، الذي يسوءهم ويوحشهم منه ، حصوله. فالواجب : لزوم [عهوده بالإسرار] «١» ، وقطع الأفكار عن الأغيار. هـ.

وقال فى قوله : فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ : القرابة على قسمين قرابة النسب وقرابة الدين ، وهى أمسّ ، وبالمواساة أحقّ. وإذا كان الرجل مشتغلا بالعبادة ، غير متفرغ لطلب المعيشة ، فالذى له إيمان بحاله ، وإشراف على وقته ، يجب عليه أن يقوم بشأنه ، بقدر ما يمكنه ، مما يكون له عون على طاعته ، مما يشوش قلبه ، من حديث عياله ، فإن كان اشتغال الرجل بشيء من مراعاة القلب فحقّه آكد ، وتفقّده

أوجب ، ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، والمريد هو الذي يؤثر حقّ اللّه على حظّ نفسه. فإيثار الإخوان ، لمن يريد وجه اللّه ، أتمّ من مراعاة حال نفسه ، فهمّه بالإحسان لذوى القربى والمساكين يتقدم على نظره لنفسه وعيلته ، وما يهمه من نصيبه. هـ.

وقال فى قوله : يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ : لا تستخدم الفقير بما تريده به من رفق ، بل أفضل الصدقة على ذى رحم كاشح ، أي : قاطع حتى يكون إعطاؤه للّه مجردا عن كل نصيب لك. فهؤلاء هم الذين يتضاعف أجرهم بمجاهدتهم [لنفوسهم] «٢» ، حيث يخالفونها ، وفوزهم بالعوض من قبل اللّه. ثم الزكاة هى التطهير ، فتطهير المال

---

(١) فى القشيري [عقوة الأسرار].

(٢) فى الأصول [لنفسهم].

معلوم ببيان الشريعة ، وزكاة البدن وزكاة القلب ، وزكاة السرّ ، كلّ ذلك يجب القيام به. هـ. قلت : فزكاة البدن :

إتعابه فى القيام بوظائف العبودية الظاهرة ، وزكاة القلب : تطهيره من الرذائل وتحليته بالفضائل ، وزكاة السر :

صيانته من الميل إلى شىء من السّوى. واللّه تعالى أعلم.

ثم برهن على وحدانيته ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : آية ٤٠]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)

قلت : (اللّه) : مبتدأ ، و(الذي خلقكم) : خبر.

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ أظهركم ثُمَّ رَزَقَكُمْ ما تقوم به أبدانكم ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عند انقضاء آجالكم ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ عند بعثكم ليجازيكم على فعلكم ، أي : هو المختص بالخلق ، والرزق ، والإماتة ، والإحياء. هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ أصنامكم مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ أي : من الخلق ، والرزق ، والإماتة ، والإحياء ، مِنْ شَيْءٍ أي : شيئا من تلك الأفعال؟ فلم يجيبوا ، عجزا ، فقال استبعادا وتنزيها : سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ. و«من» الأولى ، والثانية ، والثالثة : زوائد لتأكيد عجز شركائهم ،

وتجهيل عبدتهم.

الإشارة : ذكر الحق تعالى أربعة أشياء متناسقة أنه هو فاعلها ، فأقر الناس بثلاثة ، وشكّوا فى الرزق ، وقالوا :

لا يكون إلا بالسبب ، والسبب إنما هو ستر لسر الربوبية. فإذا تحقق وجوده فى حق العامة ارتفع فى حق الخاصة ، فيرزقهم بلا سبب ، لقوله تعالى : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ «١».

قال القشيري : حين قذفك فى بطن أمّك قد كنت غنيا عن الأكل والشراب بقدرته ، أو مفتقرا إليه ، فأجرى رزقه عليك مع الطمث ، على ما قالوا ، وإذا أخرجك من بطن أمك رزقك على الوجه المعهود فى الوقت المعلوم ، فيسر لك أسباب الشرب والأكل من لبن الأم ، ثم من فنون الطعام ، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان ، وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات ، وأرزاق اللسان من الأذكار ، وغير ذلك مما جرى ذكره. ثُمَّ يُمِيتُكُمْ

---

(١) الآيتان : ٢ - ٣ من سورة الطلاق. [.....]

بسقوط شهواتكم ، ويميتكم عن شواهدكم ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ بحياة قلوبكم ، ثم بأن يحييكم بربكم. ويقال : من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق ، ومنها ما هو شهود الرزاق. ويقال : لا مكنة لك فى تبديل خلقك ، فكذلك لا قدرة لك على تغيير رزقك. فالموسّع عليه : رزقه بفضل ربه ، لا [بمناقب] «١» نفسه. والمقترّ عليه رزقه بحكم ربه ، لا بمعايب نفسه. هـ. وبعضه بالمعنى.

وقد يضيق رزقه على العباد لما يظهر فيهم من الفساد ، كما قال تعالى :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢)

يقول الحق جل جلاله : ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، أما الفساد فى البر فالقحط ، وقلة الأمطار ، وعدم الريع فى الزراعات والربح فى التجارات ، ووقوع الموتان فى الناس والدوابّ ، ومحق البركات من كل شىء.

وأما فى البحر فبكثرة الغرق ، وانقطاع صيده. بِما وذلك بسبب ما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ من الكفر

والمعاصي ، ولو استقاموا على الطاعة لدفع اللّه عنهم هذه الآفات. أظهر فيهم ذلك لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا أي : ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا ، قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة ، عن «قنبل ويعقوب» :
بنون التكلم. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَعما هم عليه من المعاصي.
قُلْ لكفار قومك : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ لتعاينوا ما فعلنا بهم بسبب كفرهم ومعاصيهم لأنه كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ فدمرناهم ، وخربنا ديارهم ، فانظروا : كيف كان عاقبتهم ، لعلكم ترجعون عن غيكم.
الإشارة : قال القشيري : الإشارة فى البر إلى النّفس ، وفى البحر إلى القلب ، وفساد البرّ بأكل الحرام وارتكاب المحظورات ، وفساد البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة ، مثل سوء العزم ، والحسد والحقد ، وإرادة الفسوق ، وغير ذلك. وعقد الإصرار على المخالفات من أعظم فساد القلب ، كما أنّ العزم على الخيرات ، قبل فعلها ، من أعظم الخيرات. ومن جملة الفساد : التأويلات بغير حقّ ، والانحطاط إلى الرّخص من غير قيام بحق ، والإغراق فى الدعاوى من غير استحياء. هـ.

---

(١) فى الأصول [بمثاقبة] والمثبت من القشيري

قال الورتجبي : إن اللّه غلب الإنسانية على الكون طاعة ومعصية ، فإذا رزق الإنسان الطاعة صلح الأكوان ببركتها ، وإذا رزق المعصية فسد الحدثان بشؤم معصيته لأن طاعته ومعصيته من تواثير «١» لطفه وقهره ، علا بنعت الاستيلاء على الوجود ، فإذا فسادها يؤثر فى برّ النفوس وبحار القلوب ، ففساد برّ النفوس : فترتها عن العبودية ، وفساد بحر القلب : احتجابه عن مشاهدة أنوار الربوبية. هـ.
قلت : وقد يقال : ظهر الفساد فى بر الشريعة بذهاب حملتها ، ومن يحفظها ، ويذب عنها ، وفى بحر الحقيقة بقلة صدق من يطلبها ، وغربة أهلها ، واختفائها حتى اندرست أعلامها ، وخفى آثارها ، والبركة لا تنقطع. وذلك بسبب ما كسبت أيدى الناس من إيثار الدنيا على اللّه ليذيقهم وبال القطيعة لعلهم يرجعون إليه ، إما بملاطفة الإحسان ، أو بسلاسل الامتحان.
قال فى لطائف المنن : سأل بعض العارفين عن أولياء العدد ، هل ينقصون؟ فقال : لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها ، ولا أنبتت الأرض نباتها ، وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم ، ولا بنقص أمدادهم ، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد اللّه وقوع اختفائهم ، مع وجود بقائهم. فإذا كان أهل

الزمان معرضين عن اللّه ، مؤثرين لما سوى اللّه لا تنجح فيهم الموعظة ، ولا تميلهم التذكرة ، لم يكونوا أهلا لظهور أولياء اللّه تعالى فيهم ، ولذلك قالوا :

أولياء اللّه عرائس ، ولا يرى العرائس المجرمون. هـ.

قال القشيري : (قل سيروا) بالاعتبار ، واطلبوا الحقّ بنعت الافتكار ، وانظروا : كيف كان حال من تقدمكم من الأشكال والأمثال؟ وقيسوا عليها حكمكم فى جميع الأحوال ، (كان أكثرهم مشركين) : كان أكثرهم عددا ، ولكن أقل فى التحقيق وزنا وقدرا. هـ.

ثم أمر بالتأهب ليوم المعاد ، وبه يندفع عن الخلق الفساد ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٤٣ الى ٤٥]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (٤٥)

---

(١) هكذا فى الأصول ، وكذا فى الورتجبي. ولعلها : تآثير ، جمع تأثير.

يقول الحق جل جلاله : فَأَقِمْ وَجْهَكَ أي : قوّمه ووجّهه لِلدِّينِ الْقَيِّمِ البليغ فى الاستقامة ، الذي لا يتأتى فيه عوج ولا خلل. وفيه ، من البديع ، جناس الاشتقاق. والخطاب للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، وأمته تبع ، أو : لكل سامع.

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ وهو البعث ، لا مَرَدَّ لَهُ أي : لا يقدر أحد على رده ، ومِنَ اللَّهِ : متعلّق بيأتي ، أي :

من قبل أن يأتى من اللّه يوم لا يردّه أحد ، أو بمرد لأنه مصدر ، أي : لا مرد له من جهة اللّه ، بعد أن يجىء لتعلق الإرادة به حينئذ. يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ يتصدّعون ، فأدغم التاء فى الصاد. وفى الصحاح : الصدع : الشق ، يقال صدعته فانصدع ، أي : انشق. وتصدّع القوم : تفرقوا. هـ. أي : يتفرقون فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

ثم أشار إلى غناه عنهم ، فقال : مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وبال كفره ، لا يحمله عنه غيره. وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ أي : يسوون لأنفسهم فى قبورهم ، أو : فى الجنة ما يسوى لنفسه الذي يمهد فراشه ويوطئه لئلا يصيبه فى مضجعه ما ينغص عليه مضجعه. وتقديم الظرف فى الموضعين للاختصاص

، أي : فلا يجاوز عمل أحد لغيره.
ثم علل ما أمر به من التأهب ، فقال : لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، أظهر فى موضع الإضمار ، أي : ليجزيهم ليدل على أنه لا ينال هذا الجزاء الجميل إلا المؤمن لصلاح عمله. أثابه ذلك مِنْ فَضْلِهِ أي : بمحض تفضله إذ لا يجب عليه شىء ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ ، بل يبغضهم ويمقتهم ، وفيه إيماء إلى أنه يحب المؤمنين ، وهو كذلك ، ولا سيما المتوجهين.
الإشارة : أمر الحق تعالى بالتوجه إليه ، والتمسك بالطريق التي توصل إليه ، قبل قيام الساعة لأن هذه الدار هى مزرعة لتلك الدار ، فمن سار إليه هنا وعرفه عرفه فى الآخرة ، ومن قعد هنا مع هواه ، حتى مات جاهلا به بعث كذلك ، كما هو معلوم. ولا يمكن التوجه والظفر بالطريق الموصلة إليه تعالى إلا بشيخ كامل ، سلك الطريق وعرفها. ومن رام الوصول بنفسه ، أو بعلمه ، أو بعقله انقطع لا محالة. قال القشيري : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ : أخلص قصدك ، وصدق عزمك ، بالموافقة للدين القيّم ، بالاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع.
ومن لم يتأدب [بمن] «١» هو إمام وقته ، ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته كان خسرانه أتمّ من ربحه ، ونقصانه أعمّ من نفعه. هـ.

---

(١) فى الأصول الخطية [ممن].

(٣٤٨/٤)

البحر المديد ج ٤ ، ص : ٣٤٩
ثم ذكر دلائل القدرة على البعث وغيره ، فقال :
[سورة الروم (٣٠) : آية ٤٦]
وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)
قلت : (و ليذيقكم) : عطف على (مبشرات) على المعنى ، كأنه قيل : لتبشركم وليذيقكم ، أو : على محذوف ، أي : ليغيثكم وليذيقكم.
يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ آياتِهِ الدالة على كمال قدرته : أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ ، وهى الجنوب ، والصّبا ، والشمال ، والدّبور ، فالثلاث : رياح الرحمة ، والدبور : ريح العذاب ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «اللهم اجعلها رياحا ، ولا تجعلها ريحا» «١». وقال : «نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدّبور» «٢» ، وهى الريح العقيم. وقرأ ابن كثير والأخوان : بالإفراد ، على إرادة الجنس.

ثم ذكر فوائد إرسالها بقوله : مُبَشِّراتٍ أي : أرسلها بالبشارة بالغيب وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ولإذاقة الرحمة ، وهى نزول المطر ، وحصول الخصب الذي يتبعه ، والرّوح الذي مع هبوب الريح ، وزكاء الأرض ، أي :

ربوها وزيادتها بالنبات ، وغير ذلك من منافع الرياح والأمطار. قال الحسن : لو أمسك اللّه عن أهل الأرض الريح ساعة لماتوا غمّا.

وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فى البحر عند هبوبها بِأَمْرِهِ بتدبيره ، أو بتكوينه ، لقوله إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً ... «٣» الآية. قيل : إنما زاد بأمره لأنها قد تهب غير مواتية ، فتغرق ، وهى عند أمره أيضا ، فهى على حسب أمره ، ولأن الإسناد وقع للفلك مجازا ، فأخبر أنه بأمره ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، يريد به تجارة البحر ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ هذه النعم فيزيدكم من فضله.

الإشارة : ومن آيات فتحه على أوليائه : أن يرسل رياح الهداية أولا ، ثم رياح التأييد ، ثم رياح الواردات ، تحمل هدايا التّعرّفات ، مبشرات بالفتح الكبير ، والتمكين فى شهود العلى الكبير ، وليذيقكم من رحمته ، وهى حلاوة معرفته ، ولتجري سفن الأفكار فى ميادين بحار توحيده ، ولتبتغوا من فضله هو الترقي فى الكشوفات والعلوم والأسرار ، أبدا سرمدا ، ولعلكم تشكرون بالقيام برسوم الشريعة وآداب العبودية.

---

(١) أخرجه الشافعي فى مسنده (ح ٥٠٢) ، وأبو يعلى فى مسنده (٤/ ٣٤١) ، والطبراني فى الكبير (١١/ ٢١٣ - ٢١٤ ح ١١٥٣٢) ، وابن عدى فى الكامل (٢/ ٧٦٣) من حديث ابن عباس. وانظر : مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٥ - ١٣٦).

(٢) أخرجه البخاري فى (الاستسقاء ، باب : قول النبي صلى اللّه عليه وسلم «نصرت بالصبا» ح ١٠٣٥) ومسلم فى (الاستسقاء باب فى ريح الصبا والدبور ، ٢/ ٦١٧ ، ح ٩٠٠) من حديث ابن عباس رضى اللّه عنه. والصبا : ريح ، ومهبها المستوي أن تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار. والدّبور : الريح التي تقابل الصبا ، وقال النووي : هى الريح الغربية.

(٣) الآية ٨٢ من سورة يس.

قال القشيري : يرسل رياح الرجاء على قلوب العبّاد ، فتكنس قلوبهم من غبار الحسد وغثاء النفس ، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق ، فتحملهم إلى بساط الجهد ، وتكرمهم بقوى النشاط. ويرسل رياح

البسط على أرواح الأولياء فتطهرها من وحشة القبض ، وتنشر فيه لذاذات الوصال ، ويرسل رياح التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء ، فتطهرها من آثار الأغيار ، وتبشرها بدوام الوصال. فذلك ارتياح به ، ولكن بعد اجتناح عنك. هـ. أي : بعد ذهاب عنك وزوال. واللّه تعالى أعلم.

ثم سلّى نبيه بمن قبله ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : آية ٤٧]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)

قلت : (حقا) : خبر «كان» ، و(نصر) : اسمها. أو : (حقا) : خبر «كان» ، واسمها : ضمير الانتقام ، فيوقف عليه ، و(علينا نصر) : مبتدأ وخبر.

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ

بالمعجزات البينات الواضحات ، فكذبوهم انْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا

بالتدمير ، كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

أي :

وكان نصر المؤمنين ، بإنجائهم من العذاب ، حقا واجبا علينا بإنجاز وعدنا إحسانا. أو : وكان الانتقام من المجرمين حقا لا شك فيه ، ثم علينا ، من جهة الإحسان ، نصر المؤمنين. قال البيضاوي : فيه إشعار بأن الانتقام لهم - أي : من عدوهم - إظهار لكرامتهم ، حيث جعلهم مستحقين على اللّه أن ينصرهم. وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه ، إلا كان حقا على اللّه أن يردّ عنه نار جهنم» ، ثم تلا الآية «١». أي : كانَ حَقًّا عَلَيْنا ..

إلخ.

الإشارة : هكذا جرت سنّة اللّه تعالى ، مع خواصه ، أن ينتقم ممن آذاهم ، ولو بعد حين. وقد يكون الانتقام باطنا بنقص الإيمان وقساوة القلب ، وهو أقبح. قال القشيري : فانتقمنا من الذين أجرموا ، وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا ، وشوّشنا عليهم ما أمّلوا ، ونقصنا عليهم ما استطابوا وتنعّموا. كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

، وطئهم

---

(١) أخرجه البغوي فى تفسيره (٦/ ٢٧٦) وأخرجه بنحوه أحمد فى المسند (٦/ ٤٥٠) ، والترمذي فى (البر والصلة ، باب ما جاء فى الذّب عن عرض المسلم ، ٤/ ٢٨٨ ح ١٩٣١) ، وحسنه من حديث أبى الدرداء رضي اللّه عنه. وأخرجه الطبراني فى الكبير (٢٤/ ١٧٥ - ١٧٦ ، ح ٤٤٢) من حديث أسماء بنت يزيد الأنصارية. وانظر الفتح السماوي (٢/ ٩٠٥ - ٩٠٨).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٥١

أعداؤهم بأعقابهم ، فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى رقّيناهم فوق رقابهم ، وخرّبنا أوطانهم ، وهدّمنا بنيانهم ، وأخمدنا نيرانهم ، وعطّلنا عليهم ديارهم ، ومحونا ، بقهر التدمير ، آثارهم ، فظلّت شموسهم كاسفة ، ومكيدة قهرنا لهم ، بأجمعهم ، خاسفة. هـ.

ثم برهن على ذلك ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٤٨ الى ٥٠]

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ الأربع. وقرأ المكي : بالإفراد. فَتُثِيرُ أي : تزعج سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ أي : يجعله منبسطا ، متصلا بعضه ببعض فى سمت السماء ، كقوله : وَفَرْعُها فِي السَّماءِ «١» ، أي : جهته. فيبسطها فى الجو كَيْفَ يَشاءُ سائرا أو واقفا ، مطبقا وغير مطبق ، من ناحية الشمال ، أو الجنوب ، أو الدّبور ، أو الصّبا ، وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً أي : قطعا متفرقة. والحاصل : أنه تارة يبسطه متصلا مطبقا ، وتارة يجعله قطعا متفرقة ، على مشيئته وحكمته. فَتَرَى الْوَدْقَ المطر يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وسطه.

فَإِذا أَصابَ بِهِ بالودق مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، يريد إصابة بلادهم وأراضيهم ، إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ يفرحون بالخصب ، وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ المطر مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ آيسين ، وكرر «من قبله» للتوكيد ، وفائدته : الإعلام بسرعة تقلب قلوب الناس من القنوط إلى الاستبشار ، أو : على أن عهدهم بالمطر قد تطاول فاستحكم يأسهم ، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك.

فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ أي : المطر كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بالنبات وأنواع الثمار بَعْدَ مَوْتِها يبسها ، إِنَّ ذلِكَ أي : القادر عليه لَمُحْيِ الْمَوْتى فكما أحيا الأرض بعد يبسها ، يحيى الأجساد بعد رميمها ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وهذا من جملة مقدوراته تعالى.

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة إبراهيم.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٥٢

الإشارة : اللّه الذي يرسل رياح الواردات الإلهية ، فتنزعج سحاب الآثار عن عين الذات العلية ، فتبقى شمس العرفان ، ليس دونها سحاب ، فيبسطه فى سماء القلوب كيف يشاء ، فيقع الاحتجاب لبعضها ، ويصرفه عمن يشاء فيقع التجلي والظهور ، ويجعله كسفا لأهل الاستشراف ، فتارة ينجلى عنهم سحب الآثار ، فيشاهدون الأنوار ، وتارة تغطيهم سحب الآثار ، فيشاهدون الأغيار ، فترى مطر خمرة الفناء تخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده ، إذا هم يستبشرون بأنوار معرفته وأسرار ذاته. وقد كانوا قبل ذلك مبلسين ، آيسين حين كانت نفوسهم غالبة عليهم. فانظر كيف أحيا أرض قلوبهم بعد موتها بالجهل والغفلة. وهذا مثال من كان منهمكا ثم سقط على شيخ ذى خمرة أزلية ، فسقاه حتى حيي بمعرفة اللّه.

قال القشيري : اللّه الذي يرسل رياح عطفه وجوده ، مبشرات بجوده ووصله ، ثم يمطر جود غيثه على أسرارهم ، ويطوى بساط الحشمة عن مناجاة قربه ، ويضرب قباب الهيبة بمشاهد كشفه ، وينشر عليهم أزهار أنسه ، ثم يتجلّى لهم بحقائق قدسه ، ويسقيهم بيده شراب حبّه. وبعد ما محاهم عن أوصافهم أصحاهم ، لا بهم ، ولكن بنفسه. والعبارات عن ذلك خرس ، والإشارات ، دونه ، طمس.

وقال فى قوله تعالى : فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ .. الآية : يحيى الأرض بأزهارها وأنوارها عند مجىء أمطارها ، ليخرج زرعها وثمارها ، ويحيى النفوس بعد تفريقها ، ويوفقها للخيرات بعد فترتها ، فتعمر أوطان الوفاق بصدق إقدامهم ، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم ، وتحيى القلوب ، بعد غفلتها ، بأنواع المحاضرات ، فتعود إلى استدامة الذكر بحسن المراعاة ، ويهتدى بأنوار أهلها أهل العصر من أهل الإرادات ، ويحيى الأرواح بعد حجبتها بأنوار المشاهدات ، فتطلع شموسها من برج السعادة ، ويتصل ، بمشامّ أسرار الكافة نسيم ما يفيض عليهم من الزيادات ، فلا يبقى صاحب نفس إلا حظى منه بنصيب ، ويحيى الأسرار بأنوار المواجهات. وما كان لها إلا وقفة فى بعض الحالات ، فتنتفى ، بالكلية ، آثار الغيريّة ، ولا يبقى فى الديار ديّار ، ولا من سكانها آثار ، وسطوات الحقائق لا تثبت لها ذرّة من صفات الخلائق هنالك الولاية للّه الحق .. انتهى المراد منه ، مع زيادة بيان.

ثم ذكر الجوائح ، وما ينشأ من أهل الغفلة عند ظهورها ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٥١ الى ٥٣]

وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٥٣

قلت : اجتمع القسم والشرط ، فذكر جواب القسم وأغنى عن جواب الشرط. والضمير فى (رأوه) : يعود على النبات المفهوم مما تقدم من إحياء الأرض ، أو : على السحاب.

يقول الحق جل جلاله : وَاللّه لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً عاصفة على ما نبت فى الأرض من الزروع وسائر الأشجار ، الذي هو أثر رحمة اللّه ، فَرَأَوْهُ أي : ما نبت فى الأرض ، مُصْفَرًّا يابسا لَظَلُّوا أي : ليظلون مِنْ بَعْدِهِ أي : من بعد اصفراره يَكْفُرُونَ ، ويقولون : ما رأينا خيرا قط ، فينسون النعم السابقة بالنقم اللاحقة. وهذه صفة أهل الغفلة ، وأما أهل اليقظة فيشكرون فى أوقات النعم ، ويصبرون ويرضون فى أوقات النقم ، وينتظرون الفرج بعد الشدة ، واليسر بعد العسر ، غير [قانطين] «١» ولا ضجرين.

أو : ولئن أرسلنا ريحا لتعذيبهم ، فرأوا سحابة صفراء ، لأنّ اصفراره علامة على أنه لا مطر فيه ، لظلوا ، أي : للجوا من بعد ذلك على كفرهم وطغيانهم لانهماكم.

قال البيضاوي : وهذه الآية ناعية على الكفار ، لقلة تثبتهم ، وعدم تدبرهم ، وسرعة تزلزلهم لعدم تفكرهم ، وسوء رأيهم ، فإن النظر السوي يقتضى أن يتوكلوا على اللّه ، ويلتجئوا إليه بالاستغفار ، إذا احتبس القطر عنهم ، ولا ييأسوا من رحمته ، وأن يبادروا إلى الشكر واستدامة الطاعة ، إذا أصابهم برحمته ، ولم يبطروا بالاستبشار ، وأن يصبروا على بلائه إذا ضرب زروعهم بالاصفرار ، ولم يكفروا نعمه. هـ.

قال النسفي : ذمّهم اللّه تعالى بأنهم ، إذا حبس عنهم المطر ، قنطوا من رحمته ، وضربوا أذقانهم على صدورهم ، مبلسين ، فإذا أصابهم برحمته ، ورزقهم المطر ، استبشروا ، فإذا أرسل اللّه ريحا فضرب زروعهم بالصفار ضجّوا ، وكفروا بنعمه ، وهم فى جميع هذه الأحوال على صفة مذمومة ، وكان عليهم أن يتوكلوا على اللّه ، فقنطوا ، وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها ، ففرحوا وبطروا ، وأن يصبروا على بلائه ، فكفروا. هـ.

وهذه حال من مات قلبه ، قال تعالى : فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى أي : موتى القلوب ، وهؤلاء فى حكم الموتى فلا تطمع أن يقبلوا منك ، وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ أي : لا تقدر أن تسمع من كان كالأصم دعاءك إلى اللّه ، أو : لا يقدرون أن يسمعوا منك ، إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ، فإن قلت : الأصم لا يسمع مقبلا أو مدبرا ، فما فائدة التخصيص؟ قلت : هو إذا كان مقبلا يفهم بالرمز والإشارة ، فإذا ولّى فلا يفهم ، ولا يسمع ، فيتعذر إسماعه بالكلية. قاله النسفي.

---

(١) فى الأصول المخطوطة [قانتين] والمناسب ما أثبته.

وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ أي : عمي القلوب. وقرأ حمزة : «وما أنت تهدى العمى» ، عَنْ ضَلالَتِهِمْ أي : لا تقدر أن تهدى الأعمى عن طريقه إذا ضلّ عنه ، بالإشارة إليه ، إِنْ ما تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ منقادون لأوامر اللّه ونواهيه.

الإشارة : من أصول طريقة التصوف : الرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء ، فالرجوع فى السراء : بالحمد والشكر ، وفى الضراء : بالرضا والصبر. قال القشيري : فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى .. إلخ : من فقد الحياة الأصلية لم يعش بالرّقى والتمائم ، وإذا كان فى السريرة طرش عن سماء الحقائق ، فسمع الظواهر لا يفيد إلا تأكيد الحجّة ، وكما لم يسمع الصّم الدعاء ، فكذلك لا يمكنه أن يهدى العمى عن ضلالتهم. هـ.

ولما ذكر شيئا من دلائل الأكوان ، ذكر شيئا من دلائل الأنفس ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : آية ٥٤]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)

قلت : «اللّه» : مبتدأ ، والموصول : خبره.

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الذي يستحق أن يعبد وحده هو الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ أي : ابتدأكم ضعفاء ، وجعل الضعف أساس أمركم ، أو : خلقكم من أصل ضعيف ، وهو النطفة كقوله : أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ «١» ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، يعنى : حال الشباب إلى بلوغ الأشد ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ، يعنى : حال الشيخوخة والهرم.

وقد ورد فى الشيب ما يسلى عن روعة هجومه ، فمن ذلك قوله صلى اللّه عليه وسلم : «من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نورا يوم القيامة» «٢» ، ولما رأى إبراهيم عليه السّلام الشيب فى لحيته قال : يا رب ، ما هذا؟ قال : هذا وقار. وأوحى اللّه تعالى إلى داود عليه السّلام : «يا داود ، إنى لأنظر الشيخ الكبير ، مساء وصباحا ، فأقول له : عبدى ، كبر سنّك ، ورق جلدك ، ووهن عظمك ، وحان قدومك علىّ ، فاستحي منى ، فإنى أستحيى أن أعذب شيبة بالنار». ومن المستلحات ،

---

(١) الآية ٢٠ من سورة المرسلات.

(٢) أخرجه الترمذي فى (فضائل الجهاد ، باب ما جاء فى فضل من شاب شيبة فى سبيل اللّه ، ح ١٦٣٥) وأخرجه ، مطولا ، النسائي فى (الجهاد ، باب من رمى بسهم فى سبيل اله عز وجل ٦/ ٢٦) من حديث عمرو بن عبسة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٥٥

مما يسلى عن روع الشيب ، ما أنشد القائل :

لا يروعك الشّيب يا بنت عبد اللّه ، فالشّيب حلة ووقار

إنّما تحسن الرّياض إذا م ا ضحكت فى خلالها الأزهار

ثم قال تعالى : يَخْلُقُ ما يَشاءُ من ضعف ، وقوة ، وشباب ، وشيبة ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بأحوالهم ، الْقَدِيرُ على تدبيرهم فيصيرهم إلى ذلك. والترديد فى الأحوال أبين دليل على وجود الصانع العليم القدير.

وفى «الضعف» : لغتان الفتح والضم «١». وهو أقوى سندا فى القراءة ، كما روى ابن عمر. قال : قرأتها على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من ضعف» ، فأقرأنى : «من ضعف» «٢».

الإشارة : إذا كثف الحجاب على الروح ، وكثرت همومها ، أسرع لها الضعف والهرم ، وإذا رقّ حجابها ، وقلّت همومها قويت ونشطت بعد هرمها ، ولا شك أن توالى الهموم والأحزان يهرم ، وتوالى البسط والفرح ينشط ، ويرد الشباب فى غير إبّانه ، والعارفون : فرحهم باللّه دائم ، وبسطهم لازم إذ لا تنزل بساحتهم الهموم والأحزان ، وإنما تنزل بمن فقد الشهود والعيان كما قال فى الحكم.

قال القشيري «٣» : خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ، أي : ضعف عن حال الخاصة ، ثم جعل من بعد ضعف قوة بالوصول إلى شهود الوجود القديم ، ثم من بعد قوة ضعفا بالرجوع إلى المسكنة ، أي : فى حال البقاء ، قال صلى اللّه عليه وسلم : «اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرني فى زمرة المساكين» «٤» ه «٥».

ثم ذكر أهوال البعث ، فقال :

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٥٥ الى ٥٧]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)

---

(١) قرأ حفص : بالفتح ، عن عاصم. وقرأ الباقون : بضمها ، وهو الذي اختاره حفص ، لحديث ابن عمر. وعن حفص أنه قال : (ما خالفت عاصما إلا فى هذا الحرف). وقد صح عنه الفتح والضم. وقال فى النشر : وبالوجهين قرأت له ، وبهما آخذ. انظر الإتحاف (٢/ ٣٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٨ - ٥٩) ، وأبو داود فى كتاب (الحروف والقراءات ، باب ١ ، ٤/ ٢٨٣ ، ح ٣٩٧٨) ، والترمذي فى (القراءات - سورة الروم ، ٥/ ١٧٤ ، ح ٢٩٣٦) وحسنّه من حديث ابن

عمر رضي اللّه عنه.

(٣) النقل بالمعنى. [.....]

(٤) سبق تخريجه.

(٥) المسكين هو المتواضع لله باطنا وظاهرا ، والخاضع له ، الساكن لأمره ، المطمئن بربه ، وهو المخبت الخاشع لله ، وهذا حال قوة الإيمان ، فاللهم اجعلنا مساكين لك ، أعزة على عدوك.

(٣٥٥/٤)

قلت : «لبثوا» : جواب القسم على المعنى ، وإلا لقيل : ما لبثنا.

يقول الحق جل جلاله : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ، أي : القيامة. وسميت بذلك لأنها تقوم آخر ساعة من ساعات الدنيا ، ولأنها تقوم فى ساعة واحدة ، وصارت علما لها بالغلبة ، كالنجم للثريا ، فإذا قامت يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ يحلف الكافرون : ما لَبِثُوا فى قبورهم ، أو : فى الدنيا ، غَيْرَ ساعَةٍ ، استقلّوا مدّة لبثهم فى القبور ، أو : الدنيا ، لشدة هول المطلع ، أو : لطول مقامهم فى أهوالها ، أو : ينسون ما لبثوا ، أو : يكذبون. كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ ، أي : مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون فى الدنيا عن الصدق والتصديق ، أو : عن الحق حتى يروا الأشياء على غير ما هى عليه ، ويقولون : ما هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ ، أي : حّصلّوا العلم باللّه والإيمان بالبعث ، وهم الملائكة والأنبياء ، والمؤمنون : لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ فى علم اللّه المثبت فى اللوح ، أو : فى حكم اللّه وقضائه ، أو : القرآن ، وهو قوله تعالى : «ومن ورائهم برزخ ..» إلخ ، أي : لقد مكثتم مدّة البرزخ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ ، ردّوا عليهم ما قالوه ، وحلّفوهم عليه ، وأطلعوهم على حقيقة الأمر ، ثم وبّخوهم على إنكار البعث بقولهم : فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ الذي كنتم تنكرونه ، وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ فى الدنيا أنه حق لتفريطكم فى طلب الحق ، واتباعه. والفاء جواب شرط «١» مقدر ، ينساق إليه الكلام ، أي : إن كنتم منكرين للبعث فهذا يومه.

فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ «٢» الَّذِينَ ظَلَمُوا كفروا ، مَعْذِرَتُهُمْ : اعتذارهم ، والمعذرة : تأنيثها مجازى ، فيجوز التذكير والتأنيث ، وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ أي : لا يقال لهم : أرضوا ربّكم بالتوبة ، ولا يدعون إلى استرضائه ، يقال :

استعتبني فلان فأعتبته ، أي : استرضانى فأرضيته.

الإشارة : كل من قصر فى هذه الدار ، وصرف أيام عمره فى البطالة ، يقصر عليه الزمان عند موته ،

ويرجع عنده كأنه يوم واحد ، فحينئذ يستعتب فلا يعتب ، ويطلب الرجعى فلا يجاب ، فلا تسأل عن حسرته وخسارته ، والعياذ باللّه ، وهذا كله مبين فى القرآن ، كما قال تعالى :

---

(١) الفاء ، بذاتها ، ليست جواب شرط مقدر ، وإنما هى واقعة فى جواب شرط مقدر.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي : «ينفع» بالياء. والباقون : بالتاء .. انظر : الإتحاف (٢/ ٣٠٦)

(٣٥٦/٤)

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٥٨ الى ٦٠]

وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ أي : بيّنا لهم فيه من كل مثل ، ينبؤهم عن التوحيد والمعاد ، وصدق الرسل ، وغير ذلك ، مما يحتاجون إلى بيانه ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ من الآيات الدالة على صدقك ، أو : القرآن. لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ مزورون. وإسناد الإبطال إلى الجميع ، مع أن المجيء بالحق واحد مراعاة لمن شايعه معه من المؤمنين ، أو : ولقد وصفنا كلّ صفة ، كأنها مثل فى غرابتها ، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن ، كقصة المبعوثين يوم القيامة ، وما يقولون ، وما يقال لهم ، وما لا ينفع من اعتذارهم ، ولا يسمع من استعتابهم ، ولكنهم لقسوة قلوبهم ، إذا جئتهم بآية من آيات القرآن ، قالوا : جئتنا بزور باطل. كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ، أي : مثل ذلك الطبع - وهو الختم - يطبع اللّه على قلوب الجهلة الذين علم اللّه منهم اختيار الضلال ، حتى سمّوا المحققين مبطلين ، وهم أغرق خلق اللّه فى تلك الصفة.

فَاصْبِرْ على أذاهم وعداوتهم ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بنصرتك ، وإظهار دين الإسلام على كل دى ، ن حَقٌّ لا بد من إنجازه والوفاء به ، وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ لا يحملنّك هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفّة والعجلة فى الرد عليهم ، أو : لا يحملنّك على الخفة والقلق فزعا مما يقولون فإنهم ضلّال ، شاكّون ، لا يستغرب منهم ذلك. وقرأ يعقوب : بسكون النون على أنه نون التوكيد الخفيفة.

الإشارة : قد بيّن اللّه فى القرآن ما يحتاج السائرون إليه ، من علم الشريعة والطريقة والحقيقة ، لمن خاض بحر معانيه وأسراره. ولئن جئتهم بآية ، من غوامض أسراره ليقول أهل الجمود : هذا إلحاد

وباطل. فاصبر إن وعد اللّه بالنصر لأوليائه حق ، ولا يحملنك على العجلة من لا يقين عنده. وباللّه التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم. وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلّم.

(٣٥٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٥٨

(٣٥٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٥٩

سورة لقمان

مكية ، وقيل : إلا قوله : يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ لأن الزكاة فرضت بالمدينة ، وهو ضعيف لأن الحق تعالى يخبر بالشيء قبل وقوعه كما تحقق وقوعه. وآياها : أربع وثلاثون ، أو ثلاث وثلاثون.

ومناسبتها لما قبلها قوله : وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ .. «١» مع قوله : تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ إذ هو القرآن العظيم. وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ «٢» وهنا : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا «٣». قيل : وسبب نزولها أن قريشا سألت عن قصة لقمان مع ابنه ، وعن بر والديه ، فنزلت. قال تعالى :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)

أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

قلت : هُدىً وَرَحْمَةً : حالان من الآيات ، والعامل : معنى الإشارة. ورفعهما حمزة على الخبر لتلك بعد خبر ، أو : خبر عن محذوف ، أي : هو ، أو : هى هدى. والموصول : نعت للمحسنين تفسير لإحسانهم ، و(هم) : مبتدأ ، و(يوقنون) : خبر. وتكرير الضمير للتوكيد ، ولما حيل بينه وبين خبره.

يقول الحق جل جلاله : الم أيها المصطفى المقرب ، تِلْكَ الآيات التي تتلوها هى آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ أي : ذى الحكمة البالغة ، أو : الذي أحكمت آياته وأتقنت ، أو : المحكم الذي لا ينسخه كتاب. أو :

المصون من التغيير والتبديل. حال كونه هُدىً وَرَحْمَةً هاديا لظواهرهم بتبيين الشرائع ، ورحمة لقلوبهم بتبيين حقائق الإيمان ، ولأرواحهم بإظهار حقائق الإحسان. وقد تقدم هذا البيان فى قوله : إِذا مَا اتَّقَوْا

وَآمَنُوا «٤» الآية. ولذلك خصه بقوله : لِلْمُحْسِنِينَ ، فإنما يكون هدى ورحمة لأهل الإحسان لأنهم هم الذي

---

(١) من الآية ٥٨ من سورة الروم.

(٢) من الآية ٥٨ من سورة الروم.

(٣) من الآية السابعة من سورة لقمان.

(٤) من الآية ٩٣ من سورة المائدة.

(٣٥٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٦٠

يغوصون على أسراره ومعانيه. وهم الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ يتقنونها ، وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ على الوجه المشروع ، ويدفعونها لمن يستحقها ، لا جزاء ولا شكورا ، ولا لجلب نفع أو دفع شر ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ، كأنها نصب أعينهم. وخص بالذكر هذه الثلاثة لفضلها فإن الصلاة عماد الدين ، والزكاة قرينتها لأن الأولى عبادة بدنية ، والثانية مالية ، والآخرة هى دار الجزاء ، فلو لا وقوعها لكان وجود هذا الخلق عبثا ، وتعالى اللّه عنه علوا كبيرا.

ثم مدح المتصف بتلك الخصال فقال : أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ أي : راكبون على متن الهداية ، متمكنون منها ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، الفائزون بكل مطلوب.

الإشارة : قال القشيري : الم ، الألف إشارة إلى آلائه ، واللام إلى لطفه ، والميم إلى مجده وسنائه ، فبآلائه دفع الجحد عن قلوب أوليائه ، وبلطف عطائه أثبت المحبة فى أسرار أصفيائه ، وبمجده وسنائه هو مستغن عن جميع خلقه بوصف كبريائه. هـ.

ثم وصف كتابه بأنه هاد للسائرين ، رحمة للواصلين إذ لا تكمل الرحمة إلا بشهود الحبيب ، يكلمك ويناجيك ، وهذه حالة أهل مقام الإحسان. قال القشيري : وشرط المحسن أن يكون محسنا إلى عباد اللّه : دانيهم وقاصيهم ، مطيعهم وعاصيهم. ثم قال : الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ يأتون بشرائطها فى الظاهر - ثم ذكرها - ، وفى الباطن يأتون بشروطها من طهارة السّرّ عن العلائق ، وستر عورة الباطن ، بتنقيته من العيوب لأن ما كان فيه فاللّه يراه.

فإذا أردت ألا يرى اللّه عيوبك فاحذرها حتى لا تكون. والوقوف على مكان طاهر : هو وقوف القلب على الحدّ الذي أذن فيه ، مما لا يكون فيه دعوى بلا تحقيق ، بل رحم اللّه من وقف عند حدّه بالمعرفة بالوقت ، فيعلم وقت التذلّل والاستكانة ، ويميز بينه وبين وقت السرور والبسط ، ويستقبل

القبلة بنفسه ، ويعلق قلبه باللّه ، من غير تخصيص بقطر أو مكان أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وهم الذين اهتدوا فى الدنيا ، وسلموا ونجوا فى العقبى. هـ.

ثم شفع بضدهم ، فقال :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٦ الى ٧]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٧)

(٣٦٠/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٦١

يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ أي : ما يلهى به عما يقرب إلى اللّه كالأحاديث التي لا أصل لها ، والخرافات التي لا حقيقة لها ، والمضاحك ، وفضول الكلام. قيل : نزلت فى النّضر بن الحارث ، كان يخرج إلى فارس للتجارة ، فيشترى أخبار الأعاجم ، ثم يحدث قريشا بها ، ويقول : إن محمدا يحدثكم بأخبار عاد وثمود ، وأنا أحدثكم بحديث رستم ، وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه ولا يسمعون القرآن «١». وقيل :

كان يشترى القيان ، ويحملهن على معاشرة من أراد الإسلام ليصده عنه.

والاشتراء من الشراء ، كما تقدم عن النضر ، ومن البدل ، كقوله : اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ «٢». استبدلوه واختاروه ، أي : يختار حديث الباطل على حديث الحق. وإضافة اللهو إلى الحديث للتبيين بمعنى «من» لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره ، فيبين بالحديث ، والمراد بالحديث : الحديث المكروه ، كما جاء فى الحديث : «الحديث فى المسجد يأكل الحسنات ، كما تأكل البهيمة الحشيش» «٣» ، أو : للتبعيض ، كأنه قيل : ومن الناس من يشترى بعض الحديث الذي فيه اللهو.

وقال مجاهد : يعنى : شراء المغنيات والمغنين ، أي : يشترى ذات لهو ، أو : ذا لهو الحديث.

وقال أبو أمامة : قال عليه الصلاة والسلام : «لا يحل تعليم المغنيات ، ولا بيعهن ، وأثمانهنّ حرام».

وفى مثل هذا نزلت هذه الآية ، ثم قال : «وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث اللّه عليه شيطانين : أحدهما على هذا المنكب ، والآخر على هذا المنكب ، فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يسكت» «٤».

قلت : هذا مقيد بشعر الهوى لأهل الهوى ، وأما أهل الحق الذين يسمعون من الحق ، فلا يتوجه الحديث لهم ، وسيأتى فى الإشارة تحقيقه إن شاء اللّه. ثم قال أبو أمامة رضي اللّه عنه عنه صلى اللّه عليه وسلم : «إن اللّه تعالى بعثني هدى ورحمة للعالمين ، وأمرنى ربى بمحو المعازف والمزامير

والأوثان ، والصلب وأمر الجاهلية ، وحلف ربى بعزته لا يشرب عبد من عبيدى جرعة خمر متعمدا إلا سقيته مثلها من الصديد يوم القيامة ، مغفورا له أو معذبا ، ولا سقاها غيره إلا فعلت به مثل ذلك ، ولا يتركها عبد من مخافتى إلا سقيته من حياض القدس يوم القيامة». انظر الثعلبي.

ثم قال تعالى : لِيُضِلَّ «٥» عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : فعل ذلك ليضل هو عن طريق اللّه ودينه ، أو ليضل غيره عنه ، أو عن القرآن ، بِغَيْرِ عِلْمٍ أي : جهلا منه بما عليه من الوزر. وَيَتَّخِذَها أي : السبيل هُزُواً وسخرية. فمن رفع : استأنف ، ومن نصب ، عطفها على (ليضل) «٦» ، أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ يمينهم ويخزيهم ، و«من» ، لإبهامه ، يقع على الواحد والجمع ، والمراد : النضر ومن تبعه.

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (٢ ٣٥٦) ، والبغوي فى التفسير (٦/ ٢٨٣) عن الكلبي ومقاتل.

(٢) من الآية ١٧٧ من سورة آل عمران.

(٣) قال العراقي فى المغني عن حمل الأسفار (١/ ١٨) : لم أقف له على أصل.

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٥/ ٢٥٢) ، والطبري فى التفسير (٢١/ ٦٠) ، والطبراني فى الكبير (٨/ ٢١٢ ، ٢٥١) ، والبيهقي فى السنن (٦/ ١٥) ، والبغوي فى التفسير (٦/ ٢٨٤) ، والواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٥٧) وذكره ابن الجوزي فى العلل المتناهية (٢/ ١٩٨) وأخرجه مختصرا الترمذي وضعفه فى (التفسير - سورة لقمان ٥/ ٣٢٢ ، ح ٣١٩٥).

(٥) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ليضل) بفتح الياء. والباقون بالضم. انظر الإتحاف (٢/ ٣٦١).

(٦) قرأ حفص وحمزة والكسائي : «ويتخذها» بالنّصب. وقرأ الباقون : «ويتخذها» بالرفع. انظر الإتحاف (٢/ ٣٦٢). [.....]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً أعرض عن تدبرها متكبرا رافعا نفسه عن الإصغاء إلى القرآن ، كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كأنه لم يسمعها ، ولا ذكرت على سمعه. شبّه حاله بحال من لم يسمعها قط ، كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ثقلا وصمما ، فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ أخبره بأن العذاب يوجعه لا محالة. وذكر البشارة على سبيل التهكم. وهذا فى مقابلة مدح المحسنين المقيمين المزكين. فكما قال فى المحسنين : أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، قال فى هؤلاء : أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ ، بعد أن وصفهم بالضلال والإضلال ، فى مقابلة المحسنين بالهداية والفلاح. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لهو الحديث هو كل ما يشغل عن اللّه ، ويصد عن حضرة اللّه ، كائنا ما كان ، سواء كان غناء أو غيره ، وإذا كان الغناء يهيج لذكر اللّه ، ويحرك الروح إلى حضرة اللّه ، كان حقا ، وإذا كان يحرك إلى الهوى النفساني كان باطلا. والحاصل : أن السماع عند الصوفية ركن من أركان الطريقة ، بشروطه الثلاثة : الزمان والمكان والإخوان.

وقد ألف الغزالي تأليفا فى تكفير من أطلق تحريم السماع. وقال فى الإحياء ، فى جملة من احتج به المحرّم للسماع :

احتج بقوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ، وقد قال ابن مسعود والنخعي والحسن : إنه الغناء.

وأجاب ما حاصله : أنه إنما يحرم إذا كان استبدالا بالدين ، وليس كل غناء بدلا عن الدين ، مشترى به ، ومضلا عن سبيل اللّه ، ولو قرأ القرآن ليضل عن سبيل اللّه كان حراما. كما حكى عن بعض المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا بسورة عبس ، لما فيها من العتاب مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فهمّ عمر بقتله. فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم. هـ. وأما إن لم يكن شيء من ذلك ، فلا يحرم.

وقال فى القوت ، فى كتاب المحبة : ولم يزل الحجازيون ، عندنا بمكة ، يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة ، وهى الأيام المعدودات ، التي أمر اللّه عز وجل عباده فيها بذكره ، أيام التشريق ، من وقت عطاء بن أبى رباح ، إلى وقتنا هذا ، ما أنكره عالم ، وكان لعطاء جاريتان تلحّنان ، فكان إخوانه يستمعون إليهما ، ولم يزل أهل المدينة مواظبين لأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا. وأدركنا أبا مروان القاضي ، له جوار يسمعن التلحين ، قد أعدهن للطوافين. فكان يجمعهن لهم ، ويأمرهن بالإنشاد ، وكان فاضلا. وسئل شيخنا أبو الحسن بن سالم ، فقيل له : إنك تنكر السماع ، وقد كان الجنيد وسرى السقطي وذو النون يسمعون؟ فقال : كيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير منى. هـ.

وقال ابن ليون التجيبى فى الإنالة : روى عن مصعب بن الزبير ، قال : حضرت مجلس مالك ، فسأله أبو مصعب عن السماع ، فقال : ما أدرى ، إلا أن أهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك ، ولا يقعدون عنه ، ولا ينكره إلا غبى

جاهل ، أو ناسك عراقى غليظ الطبع. قال التجيبى : وعن أنس كنا عند النبي صلى اللّه عليه وسلم ،

إذ نزل عليه جبريل ، فقال :

يا رسول اللّه فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، وهو نصف يوم ، ففرح فقال : أفيكم من ينشدنا؟

فقال بدوي : نعم ، يا رسول اللّه ، فقال : هات ، هات ، فأنشد البدوي يقول :

قد لسعت حيّة الهوى كبدى فلا طبيب له ولا راقى

إلّا الحبيب الّذى شغفت به فعنده رقيتى وترياقى

فتواجد عليه السّلام ، وتواجد أصحابه معه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فلما خرجوا ، أوى كل واحد إلى مكانه ، فقال معاوية : ما أحسن لعبكم يا رسول اللّه! فقال : مه ، مه ، يا معاوية ، ليس بكريم من لم يهتز عند ذكر الحبيب ، ثم اقتسم رداءه من حضرهم بأربعمائة قطعة. وذكره المقدسي هكذا ، والسهروردي فى عوارفه ، وتكلم الناس فى هذا الحديث «١».

وقد تخلف الحسن البصري ذات يوم عن أصحابه ، وسئل عن تخلفه ، فقال : كان فى جيراننا سماع.

وقال الشبلي : السماع ظاهرة فتنة ، وباطنة عبرة. فمن عرف الإشارة حلّ له سماع العبرة ، وإلا فقد استدعى الفتنة «٢».

هـ. واللّه تعالى أعلم.

قوله تعالى : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ .. إلخ ، هذا مثال لمن لم يقبل الوعظ لقسوة قلبه ، وحكم المشيئة يبعده ، فلا يزيده كثرة الوعظ إلا نفورا ، فسماعه كلا سماع ، ومعالجته عنى وضياع ، كما قال القائل :

إذا أنا عاتبت الملول فإنّما أخط بأفلك على الماء أحرفا

ثم بيّن فلاح المحسنين ، فقال :

---

(١) هذا الكلام كذب صريح ، وإفك قبيح. قال العلامة الآلوسى : لا أصل له بإجماع محدثى أهل السنة ، وما أراه إلا من وضع الزنادقة. راجع تفسير الآلوسى (١١/ ٧٢) ففيه ما يكفى للرد على هذا الافتراء. وقال السيوطي فى الحاوي (١/ ٣٣٦) ما معناه :

إن الحديث باطل ، موضوع ، باتفاق أهل الحديث.

(٢) اختلفت الآراء حول السماع ، فأباحه البعض ، وكرهه البعض ، وحرّمه البعض. راجع فى هذه المسألة : الاعتصام للإمام الشاطبي (١/ ٢٢٠) اللمع للسّراج الطوسي (٣٣٨ - ٣٧٤) - حقائق عن التصوف ، للشيخ عبد القادر عيسى ١٩٧ - ٢٠٩.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٦٤

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٨ الى ٩]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ، قيل : معكوس ، أي : لهم نعيم الجنات ، أو : لهم بساتين ، أو : ديار النعيم. خالِدِينَ فِيها : حال من ضمير «لهم». والعامل : الاستقرار.

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا أي : وعدهم ذلك وعدا ، وثبت لهم حقا مهما ، مصدران مؤكدان ، الأول لنفسه ، والثاني لغيره ، إذ قوله : لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ فى معنى : وعدهم اللّه جنات النعيم. وحَقًّا : يدل على معنى الثبات المفهوم من انجاز الوعد. وَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب ، الذي لا يعارض فى حكمه ، فينفذ وعده لا محالة. الْحَكِيمُ الذي لا يفعل إلا ما استدعته حكمته.

الإشارة : إن الذين آمنوا فى البواطن ، وحققوا ذلك بالعمل الصالح فى الظواهر ، لهم جنات المعارف معجلة ، وجنات الزخارف مؤجلة ، وعدا حقا وقولا صدقا ، فما كمن فى السرائر ظهر فى شهادة الظواهر ، وإلا كان دعوى ونفاقا ، والعياذ باللّه.

ثم ذكر شواهد قدرته على إنجاز وعده ، فقال :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ١٠ الى ١١]

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (١١)

قلت : «بغير عمد» : يتعلق بحال محذوفه ، أي : ممسكة أو مرفوعة بغير عمد ، و(عمد) : اسم جمع على المشهور ، وقيل : جمع عماد أو عامد. وجملة (ترونها) : إما استئنافية ، لا محل لها ، أو صفة لعمد.

يقول الحق جل جلاله : خَلَقَ السَّماواتِ ورفعها بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ، الضمير : إما للسموات ، أي : خلقها ، ظاهرة ، ترونها ، أو لعمد ، أي : بغير عمد مرئية ، بل بعمد خفية ، وهى إمساكها بقدرته تعالى. وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أي : جبالا ثوابت ، كراهة أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ أي : لئلا تضطرب بكم ، وَبَثَّ : نشر فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ ، وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ صنف من أصناف النبات ،

كَرِيمٍ : حسن بهيج ، أو كثير المنفعة. وكأنه استدل بذلك على عزته ، التي هى كمال القدرة ، وحكمته التي هى كمال العلم ، فهى مقررة لقوله : (العزيز الحكيم) ثم أمر بالتفكر فى هذه المصنوعات استدلالا على توحيده بقوله : هذا خَلْقُ اللَّهِ أي : هذا الذي تعاينونه من جملة مخلوقاته ، فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، يعنى : آلهتهم. بكّتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلق اللّه ، فأرونى ماذا خلق آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة؟ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ، أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالظلم والتورط فى ضلال ليس بعده ضلال.

الإشارة : خلق سموات الأرواح - وهو عالم الملكوت - مرفوعا غنيا عن الاحتياج إلى شىء ، وألقى فى أرض النفوس - وهو عالم الأشباح - من العقول الراسخة ، لئلا تميل إلى جهة الانحراف ، إما إلى الحقيقة المحصنة ، أو الشريعة. ونشر فى أرض النفوس دواب الخواطر والوساوس ، وأنبتنا فيها من علوم الحكمة والقدرة ، من كل صنف بهيج. قال القشيري : وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ فى الظاهر : الجبال ، وفى الحقيقة : الأبدال ، الذين هم أوتاد ، بهم يقيهم ، وبهم يصرف عن قريبهم وقاصيهم ، وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً .. المطر من سماء الظاهر فى رياض الخضرة ، ومن سماء الباطن فى رياض أهل الدنوّ والحضرة. هذا خلق اللّه العزيز فى كبريائه ، فأرونى ماذا خلق الذين عبدتم من دونه فى أرضه وسمائه؟. هـ.

ثم ذكر قصة لقمان ، الذي وقع السؤال عنه فنزلت السورة ، فقال :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ١٢ الى ١٣]

وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)

قلت : (يا بنى) فيه ثلاث قراءات كسر الياء ، وفتحها مشدّدة ، وإسكانها «١». وقد تتبعنا توجيهاتها فى كتابنا «الدرر الناثرة فى توجيه القراءات المتواترة».

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ ، وهو لقمان بن باعوراء بن أخت أيوب ، أو ابن خالته ، وقيل : كان من أولاد آزر ، وقيل : أخو شداد بن عاد ، أعطى شداد القوة ، وأعطى لقمان الحكمة ، وعاش ألف

---

(١) قرأ حفص : بفتح الياء.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٦٦
سنة ، وقيل : أكثر ، وسيأتي. وأدرك داود عليه السّلام ، وأخذ منه العلم. وكان يفتى قبل مبعث داود ، فلما بعث قطع الفتوى ، فقيل له فى ذلك؟ فقال : ألا أكتفى إذا كفيت. وقيل : كان خياطا ، وقيل : نجارا ، وقيل : راعيا. وقيل : كان قاضيا فى بنى إسرائيل. وقال عكرمة والشعبي : كان نبيا ، والجمهور على أنه كان حكيما فقط. وقد خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة ، وهى الإصابة فى القول والعمل. وقيل : تتلمذ لألف نبى وتتلمذ له ألف نبى. قاله النسفي.
قال ابن عمر : سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : «لم يكن لقمان نبيا ، ولكن كان عبدا كثير التفكر ، حسن اليقين ، أحب اللّه فأحبه ، فمنّ عليه بالحكمة. كان قائما فجاءه نداء : يا لقمان ، هل لك أن يجعلك اللّه خليفة فى الأرض ، تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت ، فقال : إن خيرنى ربى قبلت العافية ، وإن عزم علىّ فسمعا وطاعة ، فإنى أعلم إن فعل ذلك بي عصمنى وأعاننى. قالت الملائكة بصوت ولا يراهم : لم يا لقمان؟ فقال : لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها ، يغشاه الظلم من كل مكان ، إن يعن ، فالبحرى أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن فى الدنيا ذليلا ، خير من أن يكون شريفا ، ومن يختر الدنيا على الآخرة تفته الدنيا ، ولا يصيب الآخرة. فعجبت الملائكة من حسن منطقه ، فنام نومة فأعطى الحكمة ، فانتبه وتكلم بها «١». هـ.
قال مجاهد : كان لقمان عبدا أسود ، عظيم الشفتين ، مشقق القدمين «٢». زاد فى اللباب : وكانت زوجته من أجمل أهل زمانها. قيل : لم يزل لقمان ، من زمن داود ، مظهرا للحكمة والزهد ، إلى أيام يونس بن متى. وكان قد عمّر عمر سبعة أنس ، فكان آخر نسوره «لبذ». روى أنه أخذ نسرا صغيرا فربّاه ، وكان يصرفه فى حوائجه ، فعاش ذلك النسر ألف سنة ومات ، ثم أخذ نسرا آخر ، فعاش خمسمائة سنة ، ثم أخذ آخر ، فعاش مثل ذلك ، إلى السابع ، عاش خمسمائة سنة ، واسمه لبذ ، فقال له لقمان يوما : يا لبذ انهض إلى كذا ، فأراد النهوض فلم يستطع ، وإذا بوتر لقمان قد اختلج ، وكان لم يألم قط ، فنادى بأهله وعشيرته ، وعلم أن أجله قد قرب ، وقال : إن أجلى قد حضر بموت هذا النسر ، كما أعلمنى ربى ، فإذا مت فلا تدفنونى فى الكهوف والمقابر ، كما [تدفنون] «٣» الجبابرة ، ولكن ادفنوني فى ضريح الأرض ، فدفنوه كما أوصاهم ، فقال ابن ثعلبة :
رأيت الفتى ينسى من الموت حتفه حذورا لريب الدّهر ، والدّهر آكله
فلو عاش ما عاشت بلقمان أنسر لصرف المنايا ، بعد ذلك ، حافله

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٣١١) للحكيم الترمذي فى نوادر الأصول ، عن أبى مسلم الخولاني مرفوعا.
(٢) أخرجه الطبري (٢١/ ٦٧).
(٣) فى الأصول (تدفنوا).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٦٧

قال البيضاوي : والحكمة ، فى عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية ، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحب داود شهورا ، وكان يسرد الدرع ، فلم يسأله عنها ، فلما أتمها لبسها ، فقال : نعم لبوس الحرب أنت ، فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله ، وأن داود قال له يوما : كيف أصبحت؟ فقال : أصبحت فى يدى غيرى. وأنه أمر لقمان بأن يذبح شاة ويأتيه بأطيب مضغتين منها ، فأتى باللسان والقلب ، ثم بعد أيام أمر بأن يأتى بأخبث مضغتين منها ، فأتى بهما أيضا ، فسأله عن ذلك ، فقال : هما أطيب شىء إذا طابا ، وأخبث شىء إذا خبثا. والذي عند الثعلبي : أن الآمر له بإتيان المضغتين سيده ، لا داود عليه السّلام قيل له : بم نلت هذه الحكم ، وقد كنت راعيا؟ فقال : بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يعنينى «١». هـ.

قال صلى اللّه عليه وسلم : «أول ما رؤى من حكمة لقمان : أن مولاه أطال الجلوس فى المخرج ، فناداه لقمان : إن الجلوس على الحاجة ينخلع منه الكبد ، ويورث الباسور ، ويصعد الحرارة إلى الرأس ، فاجلس هوينا ، وقم هوينا.» «٢» وروى أنه قدم من سفر ، فقيل له : مات أبوك ، فقال : الحمد للّه ، ملكت أمرى ، فقيل له : ماتت امرأتك ، فقال : الحمد للّه جدّد فراشى ، فقيل له : ماتت أختك ، فقال : سترت عورتى ، فقيل له : مات أخوك ، فقال : انقطع ظهرى. «٣» هـ.

و«أن» - فى قوله : أَنِ اشْكُرْ : مفسرة لأن إيتاء الحكمة فى معنى القول ، أي : وقلنا له : اشكر للّه على ما أعطاك من الحكمة ، وفيه تنبيه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما ، وعبادة اللّه والشكر له ، حيث فسر الحكمة بالحث على الشكر. وقيل : لا يكون الرجل حكيما حتى يكون حليما فى قوله وفعله ومعاشرته وصحبته.

وقال الجنيد : الشكر : ألا يعصى اللّه بنعمه. وقال أيضا : ألا ترى مع اللّه شريكا فى نعمه. وقيل : هو الإقرار بالعجز عن الشكر. والحاصل : أن شكر القلب : المعرفة ، وشكر اللسان : الحمد ، وشكر الأركان : الطاعة. ورؤية العجز فى الكل دليل القبول. وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ لأن منفعته تعود عليه ، لأنه بريد المزيد ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ غير محتاج إلى شكر أحد ، حَمِيدٌ حقيق بأن يحمد ، وإن لم يحمده أحد. وَاذكر إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ ، واسمه : أنعم ، أو أشكم ، أو ناران ، وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ ، تصغير ابن ، لا تشرك باللّه إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا منه ، ومن لا نعمة منه أصلا. وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى الزهد (ص ٤٩) ، والطبري فى التفسير (٢١/ ٦٧) ، وابن أبى شيبة (١٣/ ٢١٤).
(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٣١١) لابن المنذر ، عن عكرمة ، بدون رفع إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم.
(٣) عزاه فى الدر (٥/ ٣١٧) لعبد اللّه فى زوائده ، عن عبد اللّه بن دينار.

(٣٦٧/٤)

الإشارة : قال القشيري : الحكمة : الإصابة فى [الفعل] «١» والعقد والنطق. ويقال : الحكمة : متابعة الطريق ، من حيث توفيق الحق ، لا من حيث همة النفس. ويقال : الحكمة : ألا يكون تحت سلطان الهوى. ويقال : هى معرفة قدر نفسك حتى لا تمدّ رجليك خارجا عن كسائك. ويقال : ألا تستعصى على من تعلم أنك لا تقاومه. وحقيقة الشكر :
انفتاح عين القلب لشهود ملاطفات الحق. ويقال : الشكر : تحقّقك بعجزك عن شكره. ويقال : ما به يحصل كمال استلذاذ النعمة. ويقال : هو فضلة تظهر على اللسان من امتلاء القلب من السرور ، فينطق بمدح المشكور. ويقال :
الشكر : نعت كلّ غنيّ ، كما أن الكفران وصف كلّ لئيم. ويقال : الشكر : قرع باب الزيادة. هـ. قلت : والأحسن : أنه فرح القلب بإقبال المنعم ، فيسرى ذلك فى الجوارح.
ثم قال فى قوله : لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ : الشرك على ضربين : جليّ وخفيّ ، فالجليّ عبادة الأصنام ، والخفيّ :
حسبان شىء من الحدثان من الأنام - أي : أن تظن شيئا مما يحدث فى الوجود أنه من الأنام - ويقال : الشرك :
إثبات غين مع شهود العين ، ويقال : الشرك ظلم على القلب ، والمعاصي ظلم على النفس ، فظلم النفس معرّض للغفران ، وظلم القلب لا سبيل للغفران إليه. هـ.
ثم أمر ببر الوالدين ، الذي تقدم السؤال عنه فى سبب نزول السورة ، فقال :
[سورة لقمان (٣١) : الآيات ١٤ الى ١٥]
وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)

قلت : الجملتان معترضتان بين أجزاء توصية لقمان لابنه. و(وهنا) : حال من (أمه) ، أي : حملته حال كونها ذات وهن ، أو من الضمير المنصوب ، أي : حملته نطفة ، ثم علقة .. إلخ ، أو مصدر ، أي : تهن وهنا.

يقول الحق جل جلاله : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ أن يبرّهما ويطيعهما ، ثم ذكر الحامل على البر فقال : حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ أي : تضعف ضعفا فوق ضعف ، أي : يتزايد ضعفها ويتضاعف لأن الحمل ، كلما ازداد وعظم ، ازدادت ثقلا. وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أي : فطامه لتمام عامين. وهذا أيضا مما يهيج

---

(١) فى القشيري [العقل].

الولد على بر والديه ، فيتذكر مرقده فى بطن أمه ، وتعبها معه فى مدة حملة ، ثم ما قاست من وجع الطلق عند خروجه ، ثم ما عالجته فى أيام رضاعه من تربيته ، وغسل ثيابه ، وسهر الليل فى بكائه ، إلى غير ذلك.

أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ ، هو تفسير لوصّينا ، أو على حذف الجار ، أي : وصيناه بشكرنا وبشكر والديه. وقوله :

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ .. إلخ : اعتراض بين المفسّر والمفسّر لأنه ، لمّا وصى بالوالدين ، ذكر ما تكابده وتعاينه من المشاق فى حمله وفصاله ، هذه المدة الطويلة تذكيرا لحقها ، مفردا.

وعن ابن عيينة : من صلى الصلوات الخمس فقد شكر اللّه ، ومن دعا للوالدين ، فى أدبار الصلوات الخمس ، فقد شكرهما. هـ. وقال القشيري : والإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما. ثم قال : فشكر الحقّ بالتعظيم والتكبير ، وشكر الوالدين بالإشفاق والتوقير. هـ.

ثم قال تعالى : إِلَيَّ الْمَصِيرُ فأحاسبك على شكرك ، أو كفرك. وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، أراد بنفي العلم به نفيه من أصله ، أي : أن تشرك بي ما ليس بشيء ، أو : ما ليس لك به علم باستحقاقه الإشراك مع اللّه ، بل تقليدا لهما ، فَلا تُطِعْهُما فى ذلك الشرك. وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً أي : صحابا معروفا يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم ، وهو الخلق الجميل ، بحلم ، واحتفال ، وبر ، وصلة. وقد تقدم تفسيره فى الإسراء «١».

وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ أي : اتبع طريق من رجع إلىّ بالتوحيد والإخلاص ، وهو الرسول صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنون ، ولا تتبع سبيلهما ، وإن كنت مأمورا بحسن مصاحبتهما فى الدنيا. وقال ابن

عطاء : اتبع سبيل من ترى عليه أنوار خدمتى. هـ. ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ أي : مرجعك ومرجعهما ، فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فأجازيك على إيمانك وبرّك ، وأجازيهما على كفرهما. واعترض بهاتين الآيتين ، على سبيل الاستطراد تأكيدا لما فى وصية لقمان من النهى عن الشرك ، يعنى : إنما وصيناه بوالديه ، وأمرناه ألا يطيعهما فى الشرك ، وإن جاهدا كل الجهد لقبح الشرك.

وتقدم أن الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، وأنه مضت لأمه ثلاث ليال لم تطعم فيها شيئا ، فشكى لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فنزلت «٢» ، وقيل : من أناب : أبو بكر لأن سعدا أسلم بدعوته «٣». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : بر الوالدين واجب ، لا سيما فى حق الخصوص ، فيطيعهما فى كل شىء ، إلا إذا منعاه من صحبة شيخ التربية ، الذي يطهر من الشرك الخفي ، الذي لا ينجو منه أحد ، فإن الآية تشمله بطريق العموم والإشارة ، أي :

وإن جاهداك على أن تشرك بي متابعة هواك وحظوظك ومحبتهن ، فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ،

---

(١) راجع تفسير الآيتين : ٢٣ - ٢٤ من سورة الإسراء.

(٢) راجع تفسير الآية (٨) من سورة العنكبوت مع حاشية التحقيق.

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٠ - ٢٥٢) وأسباب النزول للواحدى (ص ٣٥٨). وتفسير البغوي (٦/ ٢٨٨).

واتبع سبيل من أناب إلىّ ، هو شيخ التربية فى علم الإشارة. وقد تقدم قول الجنيد : أمرنى أبى بشىء ، وأمرنى السّرى بشىء ، فقدمت أمر السّرى ، فرأيت سرا كبيرا. وكان شيخ شيوخنا الولي الشهير ، سيدى يوسف الفاسى ، يأتيه شاب من أولاد كبراء فاس ، وكان أبوه ينهاه ويزجره عن صحبته ، وربما بلغ لمجلس الشيخ فيؤذيه ، فكان الشيخ يقول للشاب : أطع أباك فى كل شىء إلا فى الإتيان إلينا. هـ. وكان بعض المشايخ يقول : ائتوني ولو بسخط الوالدين إذ لا يضره ذلك ، حيث قصد إصلاح نفسه ودواءها.

وقال الشيخ السنوسى ، فى شرح عقائد الجزائرى ، ما نصه : وحاصل الأمر فى النفس : أنها شبيهة ، فى حالها ، بحال الكافر الحربىّ ، الذي يريد أن تكون كلمة الكفر هى العليا ، وكلمة التوحيد السفلى ،

وكذلك النفس تريد أن تكون كلمة باطلها من الدعاوى للحظوظ العاجلة ، المشغلة عن إخلاص العبودية لمولانا جل وعلا ، وعن القيام بوظائف تكاليفه ، على الوجه الذي أمر به ، هى العليا ، النافذ أمرها ونهيها فى مدن الأجسام وما تعلق بها ، بعد أن نزلت ساحة الأبدان ، واتصلت اتصالا عظيما لا انفكاك له إلا بالموت ، فوجب ، لذلك ، على كل مؤمن يعظّم حرمات اللّه تعالى أن ينهض كل النهوض ، بغاية قواه العلمية والعملية ، لجهادها وقتالها. وفى مثل هذا القتال الذي نزل العدو فيه بساحة الأبدان ، وهو فرض عين على كل مؤمن ، يسقط فيه استئذان الأبوين وغيرهما. هـ. فأنت ترى كيف جعل قيام النفس على العبد ، وحجابها له عن ربه ، كعدو يجب جهاده ولو خالف الوالدين ، وهو كذلك إذ طاعة الوالدين لا تكون فى ترك فرض ، ولا فى ارتكاب معصية ، ومن جملة المعاصي ، عند الخواص ، رؤية النفس والوقوف معها ، وفى ذلك يقول الشاعر :

فقلت : وما ذنبى؟ فقالت مجيبة : وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

وتطهير النفس فرض عين ، ولا طاعة للوالدين فى فرض العين. وقوله تعالى : (و صاحبهما فى الدنيا معروفا) قال الورتجبي : المعروف ، هاهنا ، أن تعرفهما مكان الخطأ والغلط فى الدين عند جهالتهما باللّه. وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ، نهاه عن متابعة المخلّطين ، وحثه على متابعة المنيبين. هـ. وباللّه التوفيق.

ثم قال لقمان فى وصيته :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ١٦ الى ١٩]

يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

(٣٧٠/٤)

قلت : الضمير فى (إنها) : للقصة ، ومن قرأ «مثقال» : بالرفع ففاعل كان التامة ، ومن قرأ بالنصب فخبرها ، والضمير : للخطيئة أو الهيئة. وأنث «المثقال» لإضافته إلى الحبة.

يقول الحق جل جلاله : وقال لقمان لابنه ، حين قال له : يا أبت : إن عملت بالخطيئة ، حين لا يرانى أحد ، كيف يعلمها اللّه؟ فقال : يا بُنَيَّ إِنَّها ، أي : القصة أو الخطيئة إِنْ تَكُ مِثْقالَ «١» حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أي : إن تك المعصية فى الصغر والحقارة ، مثقال حبّة من خردل ، أو : إن تقع مثال حبّه من

المعاصي فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ، أي : فتكن ، مع صغرها ، فى أخفى مكان ، أو فى جبل. وقال ابن عباس : هى صخرة تحت الأرضين السبع ، وهى التي يكتب فيها أعمال الفجار ، وخضرة الماء منها. هـ. قال السدى : خلق اللّه تعالى الأرض على حوت ، والحوت فى الماء ، والماء على ظهر صفاة – أي : صخرة – والصفاة على ظهر ملك ، والملك على صخرة.

وهى الصخرة التي ذكر لقمان. ليست فى السماء ولا فى الأرض ، والصخرة على الريح «٢». هـ.

أي : إن تقع المعصية فى أخفى مكان يَأْتِ بِهَا اللَّهُ يوم القيامة فيحاسب عليها عاملها. إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ : يتوصل علمه إلى كل خفى ، خَبِيرٌ : عالم بكنهه ، أو : لطيف باستخراجها خبير بمستقرها.

يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ : أتقنها ، وحافظ عليها تكميلا لنفسك ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ تكميلا لغيرك ، وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ فى ذات اللّه تعالى ، إذا أمرت بالمعروف ، ونهيت عن المنكر فإن من فعل ذلك تعرض للأذى ، أو : على ما أصابك من الشدائد والمحن فإنها تورث المنح والمنن. إِنَّ ذلِكَ الذي وصيتك به ، مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أي : مما عزمه اللّه من الأمور ، أي : قطعه قطع إيجاب وإلزام ، أي : أمر به أمرا حتما. وهو مصدر بمعنى المفعول ، أي : من معزومات الأمور ، أي : مقطوعاتها ومفروضاتها. وفيه دليل على أن هذه الطاعات كانت مأمورا بها فى سائر الأمم.

وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ أي : تمله عنهم ، ولا تولهم صفحة خدك ، كما يفعله المتكبرون. والتصعير : داء يصيب العير ، فيلوى عنقه منه. والمعنى : أقبل على الناس بوجهك تواضعا ، ولا تولهم شق وجهك وصفحته تكبرا.

(١) قرأ نافع : «مثقال» بالرفع ، على أن «تك» تامة. وقرأ الباقون : بالنصب على أن «تك» ناقصة ، واسمها ضمير يفهم من سياق الكلام ، وتقديره : «هى». انظر : البحر المحيط (٧/ ١٨٢). [.....]

(٢) انظر : تفسير البغوي (٦/ ٢٨٨ – ٢٨٩) ، والبحر المحيط (٧/ ١٨٧). قلت : كل هذه أقوال لا علاقة لها بالآية ، ولا يصح تفسير الآية بها. وعلم الفلك الحديث ، وعلم الفضاء ، وجميع حقائقه القطعية تبرهن على أن الأرض جرم ، وكوكب يسبح فى الفضاء ، وليس على حوت ولا على صخرة. والذي نرجحه : أن هذه الأوهام غير صحيحة السند إلى هؤلاء السادة العلماء.

(٣٧١/٤)

وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً خيلاء متبخترا ، فهو مصدر فى موضع الحال ، أي : مرحا ، أو : تمرح مرحا ، أو : لأجل المرح ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ ، علة النهى. والمختال هو المرح الذي يمشى خيلاء ، والفخور هو المصعّر خدّه تكبرا. وتأخير الفخور ، مع تقدمه لرؤوس الآي.

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ توسط فيه بين الدبيب والإسراع ، فلا تدب دبيب المتماوتين ، ولا تثب وثوب الشطارين ، قال عليه الصلاة والسلام : «إنّ سرعة المشي تذهب ببهاء المؤمن» «١». وأما قول عائشة – رضى اللّه عنها : (كان إذا مشى أسرع) فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب التماوت. وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه : كانوا ينهون عن خبب «٢» اليهود ودبيب النصارى ، ولكن مشيا بين ذلك.

وقيل : وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ : انظر موضع قدميك ، أو : اقصد : توسّط بين العلو والتقصير.

وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ وانقص منه ، أي : اخفض صوتك. كانت العرب تفخر بمجاهرة الصوت ، فنهى اللّه عن خلق الجاهلية ، فذكره لوصية لقمان ، وأنه لو كان شىء يهاب ، لرفع صوته لكان الحمار ، فجعلهم فى المثل سواء. وهو قوله : إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ أوحشها وأقبحها لَصَوْتُ الْحَمِيرِ لأن أوله زفير ، وآخره شهيق ، كصوت أهل النار. وعن الثوري : صياح كل شىء تسبيح إلا الحمار ، فإنه يصيح لرؤية الشيطان ، وقد سماه اللّه منكرا ، وفى تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير تنبيه على أن رفع الصوت فى غاية البشاعة ، ويؤيده : ما روى أنه :

عليه الصلاة والسلام – كان يعجبه أن يكون الرجل خفيض الصوت ، ويكره أن يكون مجهور الصوت.

وقال بعضهم : رفع الصوت محمود فى مواطن منها : الأذان والتلبية. وقال فى الحاشية الفاسية : بل ينبغى الاقتصاد فى ذلك ، كما قال عمر بن عبد العزيز : أذّن أذانا سنّيّا ، وإلا اعتزلنا. هـ. وقال عليه الصلاة والسلام :

«اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا» «٣». وإنما وحّد صوت الحمير ولم يجمع لأنه لم يرد أن يذكر صوت كل واحد من هذا الجنس حتى يجمع ، بل المراد أن كل جنس من الحيوان له صوت ، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس ، فوجب توحيده.

الإشارة : قد اشتملت وصية لقمان على خصال صوفية ، تدل على كمال صاحبها ، منها : استحضار مراقبة الحق ومشاهدته ، فى السر والعلانية ، فى الجلاء والخفاء. وهو قوله : يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ .. إلخ. ومنها :

القيام بوظائف العبودية ، بدنية ولسانية ، وهو قوله : يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ .. إلخ ، ويقاس على الأمر بالمعروف والنهى

---

(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٥/ ٨) ، وأبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٢٩٠) ، من حديث أبى هريرة. وانظر : الفتح السماوي (٢/ ٩١٣ – ٩١٥).

(٢) الخبب : ضرب من العدو. وقيل : الخبب : السرعة. انظر : «اللسان» (خبب ٢/ ١٠٨٥).

(٣) بعض حديث أخرجه البخاري فى (الدعوات ، باب الدعاء إذا علا عقبة ، ح ٦٣٨٤) ، ومسلم فى (الذكر والدعاء ، باب استجاب خفض الصوت بالذكر ٤/ ٢٠٧٦ ح ٢٠٧٤) من حديث أبى موسى الأشعري رضى اللّه عنه. وقوله «اربعوا» أي : ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٧٣

عن المنكر سائر عبادات اللسان ، ومنها : الصبر على النوائب ، سواء كانت من جهة الخلق ، أو من قهرية الحق ، وهو ركن فى الطريق. وتقدم تفصيله فى آخر النحل «١». ومنها : التواضع والليونة ، وهما مصيدة الشرف ، ومن شأن أهل السياسة. ومن تواضع دون قدره رفعه اللّه فوق قدره. وهو قوله : وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً. ومنها : السكينة والوقار والرزانة ، وهى نتيجة عمارة القلب بالهيبة والإجلال. وهو قوله : وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ. ومنها : خفض الصوت فى سائر الكلام ، وهو من علامة وجدان هيبة الحضرة ، والقرب من الحق ، قال تعالى : وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً «٢» ، وهو من آكد الآداب مع الأشياخ والفقراء.

قال القشيري : قوله تعالى : وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ .. ، الأمر بالمعروف يكون بالقول ، وأبلغه : أن تمنع نفسك عما تنهى عنه ، واشتغالك ، واتصاف نفسك ، بما تأمر به غيرك ، ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره.

والمعروف الذي يجب الأمر به : ما يوصّل العبد إلى مولاه ، والمنكر الذي يجب النهى عنه : ما يشغل العبد عن اللّه.

ثم قال : وقوله تعالى : وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ : تنبيه على أنّ من قام للّه بحقّ امتحن فى اللّه ، فسبيله أن يصبر فى اللّه ، فإنّ من صبر للّه لم يخسر على اللّه.

ثم قال : قوله تعالى : وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ لا تتكبر عليهم ، وطالعهم من حيث النسبة ، وتحقق بأنك بمشهد من مولاك. ومن علم أن مولاه ينظر إليه لا يتكبر ولا يتطاول ، بل يتخاضع ويتضاءل. قوله تعالى : وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ .. الآية ، أي : كن فانيا عن شواهدك ، مصطلما عن صولتك ، مأخوذا عن حولك وقوتك ، متشبها بما استولى عليك من كشوفات سرّك. وانظر من الذي يسمع صوتك حتى تستفيق من خمار غفلتك ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ : فى الإشارة : أنه الذي يتكلم بلسان المعرفة بغير إذن من الحق. وقالوا : هو الصوفي يتكلم قبل أوانه. هـ. أي : يتكلم على الناس ، قبل أن يأذن له شيخه فى التذكير. وباللّه التوفيق.

ثم ذكّر بالنعم ، فقال :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٢٠ الى ٢١]

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (٢١)

(١) راجع إشارة الآيات : ١٢٦ - ١٢٨ من سورة النحل.

(٢) الآية ١٠٨ من سورة طه.

(٣٧٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٧٤

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ ، يعنى : الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والسحاب ، والمطر ، وغير ذلك ، وَما فِي الْأَرْضِ ، يعنى : البحار ، والأنهار ، والأشجار ، والثمار ، والدواب ، والمعادن ، وغير ذلك ، وَأَسْبَغَ : أتم عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ، بالجمع ، والإفراد إرادة الجنس. والنعمة : ما يسر به الإنسان ويتلذذ به ، حال كونها ظاهِرَةً ما تدرك بالحس ، وَباطِنَةً ما تدرك بالعلم والوجدان.

فقيل : الظاهرة : السمع ، والبصر ، واللسان ، وسائر الجوارح الظاهرة ، والباطنة : القلب ، والعقل ، والفهم ، وما أشبه ذلك.

أو : الظاهرة : الصحة ، والعافية ، والكفاية والباطنة : الإيمان ، واليقين ، والعلم ، والمعرفة باللّه ، وسيأتى فى الإشارة بقيتها.

روى أن موسى عليه السّلام قال : دلنى على أخفى نعمتك على عبادك ، فقال : أخفى نعمتى عليهم : النّفس. هـ.

قلت : إذ بمجاهدتها تحصل السعادة العظمى ، ولا وصول إليه إلا بمجاهدتها والغيبة عنها. وفى هذا المعنى كان شيخ شيخنا يقول : جزاها اللّه عنا خيرا ما ربحنا إلا منها. هـ. وقيل : الظاهرة : تحسين الخلق ، والباطنة : حسن الخلق.

وقال ابن عباس : الظاهرة : ما سوّى من خلقك ، والباطنة : ما ستر من عيوبك.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بعد هذه النعم المتواترة ، أي : فى توحيده وصفاته ودينه ، بِغَيْرِ عِلْمٍ مستفاد من دليل ولا برهان ، وَلا هُدىً أي : هداية رسول ، وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ أنزله اللّه ، بل بمجرد التقليد الردي. نزلت فى النضر بن الحارث. وقد تقدمت فى الحج «١».

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ على رسوله من التوحيد ، والشرائع ، قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا من عبادة الأصنام. وهو دليل منع التقليد فى الأصول. قاله البيضاوي قلت : والمشهور أن إيمان المقلّد صحيح. وأما من قلّد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم ينظر ، فهو مؤمن ، اتفاقا. قال تعالى : أَوَلَوْ أيتبعونهم ، ولو كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ ، يحتمل أن يكون الضمير لهم ، أي :

أيقلدونهم ، ولو كان يدعوهم بذلك التقليد إلى العذاب ، أو : لآبائهم ، أي : أيتبعون آباءهم ، ولو كان الشيطان فى زمانهم يدعوهم إلى عذاب السعير.

الإشارة : الأكوان كلها خلقت لك أيها الإنسان ، وأنت خلقت للحضرة ، فاعرف قدرك ، ولا تتعدّ طورك ، واشكر النعم التي أسبغ عليك ظاهرة وباطنة. الظاهرة : استقامة الظواهر فى عمل الشرائع ، والباطنة : تصفية البواطن لتتهيأ لأنوار الحقائق ، أو : الظاهرة : المنن ، والباطنة : المحن. قال القشيري : قد تكلموا فى الظاهرة والباطنة وأكثروا.

---

(١) راجع تفسير الآية ٨ من سورة الحج (٣/ ٥١٥).

(٣٧٤/٤)

فالظاهرة : وجود النعمة ، والباطنة : شهود المنعم ، أو : الظاهرة : الدنيوية ، والباطنة : الدينية. أو : الخلق والخلق ، أو :

نفس بلا زلّة ، وقلب بلا غفلة ، أو : عطاء ورضى. أو : الظاهرة : فى الأموال ونمائها ، والباطنة : فى الأحوال وصفائها ، أو : الظاهرة : النعمة ، والباطنة : العصمة ، أو : الظاهرة : توفيق الطاعات ، والباطنة : قبولها ، أو : الظاهرة :

صحبة العارفين ، والباطنة : حفظ حرمتهم وتعظيمهم. أو : الظاهرة : الزهد فى الدنيا ، والباطنة : الاكتفاء باللّه من الدنيا والعقبى. أو : الظاهرة : الزهد ، والباطنة : الوجد. أو : الظاهرة : توفيق المجاهدة ، والباطنة : تحقيق المشاهدة ، أو :

الظاهرة : وظائف النّفس ، والباطنة : لطائف القلب ، أو : الظاهرة : اشتغالك بنفسك عن الخلق ، والباطنة : اشتغالك بربّك عن نفسك ، أو : الظاهرة : طلبه ، والباطنة : وجوده ، أو : الظاهرة : أن تصل إليه ، والباطنة : أن تبقى معه. هـ. ببعض المعنى.

ثم قال القشيري : وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ .. الآية : لم يتخطوا أمثالهم ، ولم يهتدوا إلى تحوّل أحوالهم هـ. يعنى : قلدوا أسلافهم فى الإقامة مع الرسوم والأشكال ، والانهماك فى الحظوظ ، فعاقهم ذلك عن السير والوصول. ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

وأما من خالف أمثاله وأشكاله ، وانقاد بكليته إلى مولاه ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، كما قال تعالى :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٢٢ الى ٢٤]

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ (٢٤)

قلت : قال فى الحاشية : لمّا ذكر حال الكافر المجادل ذكر حال المسلم ، وعدّاه هنا بإلى ، وفى قوله : بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ «١» ، باللام لأنه لمّا كان المجادل غير معين ، ولم يخص له واحدا بعينه ، عقّبه بحال من حصل منه مطلق الاستسلام ، ومدحه يتناول مدح من اتصف بأخص الاستسلام.
أو : فى الآية الأخرى أتى به خاصا ، لما رتب عليه من الثواب الجزيل بقوله : فَلَهُ أَجْرُهُ ... إلخ ، الذي لم يذكر هنا إلا بعضه ، فإن اللام تقتضى الاختصاص والقصد إلى الشيء. و«إلى» : لا تقتضى ذلك.
انظر ابن عرفة.

وقال النسفي : عدّاه هنا بإلي وهناك باللام لأن معناه ، مع اللام : أنه جعل وجهه - وهو ذاته ونفسه - سالما للّه ، أي : خالصا له ، ومعناه ، مع «إلى» : أنه سلّم نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل ، إذا دفع إليه. والمراد : التوكل عليه والتفويض إليه. هـ. أي : فهو أبلغ من اللام ، ومثله البيضاوي.

---

(١) الآية ١١٢ من سورة البقرة.

(٣٧٥/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٧٦

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ أي : ينقد إليه بكليته ، وينقطع إليه بجميع شراشره ، بأن فوض أمره إليه ، وأقبل بكلّيّته عليه ، وَهُوَ مُحْسِنٌ فى أعماله. قال القشيري : من أسلم نفسه ، وأخلص فى اللّه قصده ، فقد استمسك بالعروة الوثقى. هـ. فالاستسلام قد يكون بغير إخلاص ، فلذلك قال : وَهُوَ مُحْسِنٌ. قاله المحشى. وقلت : وفيه نظر فإن الحق تعالى إنما عبّر بالإسلام لا بالاستسلام ، وإنما المعنى : أسلم وجهه فى الباطن ، وهو محسن بالعمل فى الظاهر ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى ، أي : تعلق بأوثق ما يتعلق به فالعروة :
ما يستمسك به. والوثقى : تأنيث الأوثق. مثّل حال المسلم المتوكل بحال من أراد أن يتدلّى من شاهق جبل ، فاحتاط لنفسه ، بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين ، مأمون انقطاعه. قال الهروي : أي : تمسك بالعقد الوثيق. وقال الأزهرى : أصله : من عروة الكلأ ، وهو : ما له أصل ثابت فى الأرض ، من الشيح وغيره من الشجر المستأصل فى الأرض. ضربت مثلا لكل ما يعتصم به ، ويلجأ اليه. هـ.
وهو إشارة لكون التوحيد سببا وأصلا ، والآخذ به ، متصلا باللّه ، لا يخشى انقطاعا ولا هلاكا ،

بخلاف الشرك ، فإنه على الضد ، كما يرشد إليه قوله تعالى : وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ .. «١» الآية. وقوله تعالى :

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ ... الآية «٢».

وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ أي : صائرة إليه ، فيجازى عليها.

وَمَنْ كَفَرَ ولم يسلم وجهه للّه ، فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ فلا يهمك شأنه ، فسيقدم علينا ونجازيه ، إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا ، أي : فنعاقبهم على أعمالهم ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ ، أي : عالم بحقائق الصدور ، وما فيها ، فيجازى على حسبها ، فضلا عما فى الظواهر ، نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ، أي : نمتعهم زمانا قليلا بدنياهم ، ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ نلجئهم إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ شديد. شبّه إلزامهم التعذيب ، وإرهاقهم إليه ، باضطرار المضطر إلى الشيء. والغلظ : مستعار من الأجرام الغليظة ، والمراد : الشدة والثّقل على المعذّب. عائذا باللّه من موجبات غضبه.

الإشارة : ومن ينقد بكليته إلى مولاه ، وغاب عن كل ما سواه ، وهو من أهل مقام الإحسان ، بأن أشرقت عليه شمس العيان ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها أبدا. ومن أمارات الانقياد : ترك التدبير والاختيار ، والرضا والتسليم لكل ما يبرز من عنصر الاقتدار ، وترك الشكوى بأحكام الواحد القهار. وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ فيوصل من يشاء برحمته ، ويقطع من يشاء بعدله. ومن يجحد طريق الخصوص من أهل زمانه فلا يحزنك ، أيها العارف ،

---

(١) الآية ٢٦ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ٣١ من سورة الحج.

فعله ، إلينا إيابهم ، وعلينا حسابهم ، فسنمتّعهم بحظوظهم ، والوقوف مع عوائدهم ، زمانا قليلا ، ثم نضطرهم إلى غم الحجاب وسوء الحساب. والعياذ باللّه.

ثم برهن على توحيد من يجب الاستسلام له ، فقال :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ لوضوح الدليل المانع من

إسناد الخلق إلى غيره ، فيضطرون إلى الإقرار بذلك ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم من شرك الأصنام ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن ذلك يلزمهم إذا نبهوا عليه ، ولم ينتبهوا ، فالإضراب عن كلام محذوف ، أي : فيجب عليهم أن يعبدوا اللّه وحده ، لمّا اعترفوا ، ولكنهم لا يعلمون ، لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ملكا وعبيدا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، أي : الغنى عن حمد الحامدين ، المستحق للحمد وإن لم يحمدوه.

الإشارة : قد اتفقت الملل على وجود الصانع. ثم وقفت العقول فى مقام الحيرة والاستدلال ، وامتدت الأرواح والأسرار بأعناقها إلى معرفة الذات وشهودها ، فمن وجدت عارفا كاملا سلك بها الطريق ، حتى أوقعها على عين التحقيق ، فأشرفت على البحر الزاخر ، فغرقت فى بحر الذات وتيار الصفات ، ثم رجعت إلى بر الشريعة لتدل غيرها على الوصول. وقل الحمد للّه أن وجدت من يعرفك باللّه ، وأكثر الخلق حائدون عن العلم باللّه.

ثم إن العلم باللّه وبصفاته وأسمائه لا نهاية له ، كما قال تعالى :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٢٧ الى ٢٨]

وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)

قلت : (و لو أنما فى الأرض) : مذهب الكوفيين وجماعة : أن ما بعد «لو» : فاعل بفعل محذوف ، أي : ولو ثبت كون ما فى الأرض .. إلخ. ومذهب سيبويه : أنه مبتدأ ، أي : ولو كون ما فى الأرض واقع ، و(البحر) : مبتدأ ، و(يمده) : خبره ، أي : يمد ما ذكر من الأقلام. و(من بعده سبعة أبحر) : مبتدأ وخبر. وحذف التمييز ، أي : (مدادا) ،

يدل عليه (يمده) ، أو (سبعة) : فاعل (يمده) ، أي : يصب فيه سبعة أبحر ، والجملة : حال ، أي : ولو أن الأشجار أقلام ، فى حال كون البحر ممدودا ، ما نفدت .. إلخ. وجملة (يمده) : خبر (البحر). ومن قرأ بالنصب فعطف على اسم «إن» ، وهو (ما).

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ من الأشجار أَقْلامٌ ، والبحر يمد تلك الأقلام ، يصب فى ذلك البحر سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ، وتلك الأقلام كلها تكتب كلمات اللّه الدالة على عظمته وكمالاته ، ما نَفِدَتْ كلماته ، ونفدت الأقلام ، وجفت تلك الأبحر ، وهذا كقوله : قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي»

مع زيادة المبالغة بذكر السبعة أبحر ، يقال : مد الدواة وأمدها : جعل فيها مدادا ، فجعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة ، والأبحر السبعة مدادها ، وفروع الأشجار كلها أقلام تكتب كلماته تعالى ، فلو قدر ذلك لتكسرت الأقلام وجفت الأبحر ، قبل أن تنفد كلماته تعالى لأنها تابعة لعلمه ، وعلمه لا نهاية له.

وإنما وحّد الشجرة لأن المراد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة ، حتى ما يبقى من جنس الشجر ، ولا واحدة إلا وقد بريت أقلاما. وأوثر الكلمات ، وهى من حيز جمع القلة ، على الكلم ، الذي هو جمع الكثرة لأن المعنى : أن كلماته لا يفى بها الأقلام فكيف بكلامه الكثير؟

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يعجزه شيء ، حَكِيمٌ لا يخرج عن علمه وحكمته شيء ، فلا تنفد كلماته وحكمته.

والآية جواب اليهود ، سألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، إن قلنا : الآية مدنية ، أو : أمروا وفد قريش أن يسألوه عن قوله : وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا «٢» ، فقالوا : هل عنيتنا أم قومك؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم : «كلّا قد عنيت» ، فقالوا : أليس فيما قد أوتيت أنّا قد أوتينا التوراة ، فيها علم كل شى ء؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم : «هى فى علم اللّه قليل» ، فأنزل اللّه : وَلَوْ أَنَّ ما ... إلخ «٣».

ولما ذكر شأن كلامه وعلمه ذكر شأن قدرته ، فقال : ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ ، أي : إلا كخلق نفس واحدة ، وبعث نفس واحدة. فحذف ، للعلم به ، أي : القليل والكثير فى قدرة اللّه تعالى سواء ، فلا يشغله شأن عن شأن ، وقدرته عامة التعلق ، تنفذ أسرع من لمح البصر. قال الغزالي فى الإحياء : ومن غريب حكم الآخرة أن الرجل يدعى به إلى اللّه تعالى ، فيحاسب ويوبخ ، وتوزن له حسناته وسيئاته ، وهو فى ذلك كله يظن أن اللّه لم

---

(١) الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

(٣) أخرجه الطبري فى التفسير (٢١/ ٨١) عن ابن عباس. وذكره الواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٥٨) بدون إسناد.

يحاسب إلا هو ، ولعل آلاف ألف مثله فى لحظة واحدة. وكل منهم يظن ظنه ، لا يرى بعضهم بعضا ، ولا يسمعه ، وهو قوله تعالى : ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ. هـ.

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لقول من ينكر البعث من المشركين ، بَصِيرٌ بأعمالهم ، فيجازيهم.

الإشارة : أوصاف الباري سبحانه كلها كاملة ، غير محصورة ولا متناهية من علم ، وقدرة ، وإرادة ، وكلام ، وغيرها. وأوصاف العبد كلها قصيرة متناهية ، وقد يمد الحقّ عبده بصفة من صفاته التي لا تتناهى «١» ، فإذا أمده بصفة الكلام تكلم بكلام تعجز عنه العقول ، لا يقدر على إمساكه ، فلو بقي يتكلم عمره كله ما نفد كلامه ، حتى يسكته الحق تعالى. وقد كان بعض السادات يقول لأصحابه ، حين يتكلم عليهم : إني لأستفيد من نفسى كما تستفيدون أنتم منى ، وذلك حين الفيض الإلهى. وإذا أمده بصفة القدرة ، قدر على كل شيء ، وإذا أمده بصفة السمع سمع كل شيء ، وإذا أمده بصفة البصر ، أبصر كل موجود .. وهكذا. وهذه الأوصاف كامنة فى العبد من حيث معناه ، احتجبت بظهور أضدادها صونا لسّر الربوبية. واللّه تعالى أعلم.

ثم برهن على كمال أوصافه ، فقال :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٢٩ الى ٣٢]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ يدخل ظلمة الليل فى ضوء النهار ، إذا أقبل الليل ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ يدخل ضوء النهار فى ظلمة الليل ، إذا أقبل النهار. أو : بإدخال جزء

---

(١) أي : يمد اللّه عبده المخلص ببعض أنوار صفة من صفاته ، فقد يمده بنور من صفة العلم ، أو بنور من صفة القدرة ، أو بنور من صفة العزة ، أو بنور من صفة الكلام .. إلخ. أما أن يمده بصفة لا متناهية من صفاته اللامتناهية .. فهو أمر غير منصور ، فالرب رب ، والعبد عبد ، واللّه ليس كمثله شيء. [.....]

أحدهما فى الآخر بزيادة الليل أو النهار. وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لمنافع العباد ، كُلٌّ ، أي : كل واحد

من الشمس والقمر يَجْرِي في فلكه ، ويقطعه ، إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى يوم القيامة ، أو : إلى وقت معلوم للشمس ، وهو تمام السنة ، والقمر إلى آخر الشهر. وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ عالم بكنهه ، لا يخفى عليه شيء.

فدل ، بتعاقب الليل والنهار ، أو بزيادتهما ونقصانهما ، وجري النيرين في فلكهما ، على تقدير وحساب معلوم ، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق ، على عظيم قدرته ، وكمال علمه وحكمته.

ذلِكَ شاهد بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وما سواه باطل ، وَأَنَّ ما يَدْعُونَ «١» مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ المعدوم في حد ذاته ، لا حقيقة لوجوده. أو : ذلك الذي وصف بما وصف به ، من عجائب قدرته وباهر حكمته ، التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون ، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون اللّه؟ إنما هو بسبب أنه الحق الثابت الإلهية ، وأن من دونه باطل ألوهيته ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، أي : العلى الشأن ، الكبير السلطان.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ السفن تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ بإحسانه ورحمته ، أو : بالريح ، لأن الريح من نعم اللّه. أو : ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والمتاع ، فالباء ، حينئذ ، للأرزاق ، وهو استشهاد آخر على باهر قدرته ، وكمال حكمته ، وشمول إنعامه. لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ من عجائب قدرته في البحر إذا ركبتموه ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ دالة على وحدانيته وكمال صفاته لِكُلِّ صَبَّارٍ في بلائه ، شَكُورٍ لنعمائه. وهما من صفة المؤمن. فالإيمان نصفان نصف شكر ونصف صبر ، فلا يعتبر بعجائب قدرته إلا من كان هكذا.

وَإِذا غَشِيَهُمْ ، أي : الكفار ، أي : علاهم وغطاهم مَوْجٌ كَالظُّلَلِ ، أي : كشيء يظل من جبل ، أو سحاب ، أو غيرهما ، فالموج الكبير يرتفع فيعود كالظلل جمع ظلة ، وهو ما أظلك من جبل أو سقف. فإذا غشيهم ذلك دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، لا يدعون معه غيره ، لزوال ما ينازع الفطرة بالقهرية. فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ مقيم على الطريق القصد ، باق على الإيمان ، الذي هو التوحيد ، الذي كان منه في حال الشدة ، لم يعد إلى الكفر ، أو : متوسط في الظلم والكفر ، انزجر بعض الانزجار. ، ولم يغل في الكفر والعدوان.

أو : مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر ، يعنى : أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط ، إلا النادر ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا أي : بحقيقتها إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ غدّار. والختر : أقبح الغدر ، كَفُورٍ لنعم ربه. وهذه الكلمات متقابلة لفظا ومعنى ، فختّار : مقابل صبّار ، وكفور : مقابل شكور لأن من غدر لم يصبر ، ومن كفر لم يشكر. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) قرأ أبو عمرو وحفص والكسائي ويعقوب : «ما يدعون» بالغيب .. انظر : الإتحاف (٢/ ٣٦٤).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٨١

الإشارة : ألم تر أن اللّه يولج ليل القبض فى نهار البسط ، ونهار البسط فى ليل القبض ، فهما يتعاقبان على العبد تعاقب الليل والنهار ، فإذا تأدب مع كل واحد منهما زاد بهما معا ، وإلا نقص بهما ، أو بأحدهما. فآداب القبض : الصبر ، والرضا ، والسكون تحت مجارى الأقدار. وآداب البسط : الحمد ، والشكر ، والإمساك عن الفضول فى كل شىء. وسخّر شمس العيان وقمر الإيمان ، كلّ يجرى إلى أجل مسمى فقمر الإيمان يجرى إلى طلوع شمس العرفان ، وشمس العرفان إلى ما لا نهاية له من الأزمان. ذلك بأن اللّه هو الحق ، وما سواه باطل. فإذا جاء الحق ، بطلوع شمس العيان ، زهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا. وإنما أثبته الوهم والجهل. ألم تر أن سفن الأفكار تجرى فى بحار التوحيد ، لترى عجائب الأنوار وغرائب الأسرار ، من أنوار الملكوت وأسرار الجبروت؟ إن فى ذلك لآيات لكل صبّار على مجاهدة النفس ، شكور على نعمة الظّفر بحضرة القدّوس.

وإذا غشيهم ، فى حال استشرافهم على بحر الحقيقة ، موج من أنوار ملكوته ، فكادت تدهشهم ، تضرعوا والتجئوا إلى سفينة الشريعة ، حتى يتمكنوا ، فلما نجاهم إلى بر الشريعة ، فمنهم مقتصد معتدل بين جذب وسلوك ، بين حقيقة وشريعة ، ومنهم : غالب عليه السكر والجذب ، ومنهم : غالب عليه الصحو والسلوك. وكلهم أولياء اللّه ، ما ينكرهم ويجحدهم إلا كل ختّار جاحد. قال القشيري : وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ إذا تلاطمت عليهم أمواج بحار التقدير تمنوا أن تلفظهم تلك البحار إلى سواحل السلامة ، فإذا جاء الحقّ بتحقيق مناهم عادوا إلى رأس خطاياهم.

فكم قد جهلتم ، ثم عدنا بحلمنا ، أحبّاءنا : كم تجهلون ونحلم!

ثم ختم بالوعظ والتذكير ، فقال :

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

قلت : (بأى أرض) قال فى المصباح : الأفصح : استعمال «أي» فى الشرط والاستفهام بلفظ واحد ، للمذكر والمؤنث ، وعليه قوله تعالى : أَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ

«١» ، وقد تطابق فى التذكير والتأنيث ، نحو : أي رجل ، وأي وأية امرأة. وفى الشاذ : بأية أرض تموت. هـ.

(١) من الآية ٨١ من سورة غافر.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٨٢
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية ، بطاعته وترك معصيته. وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ شيئا ، لا يقضى عنه شيئا ، ولا يدفع عنه شيئا. والأصل : لا يجزى فيه ، فحذف. وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً ، وتغيير النظم فى حق الولد ، بأن أكده بالجملة الاسمية ، وبزيادة لفظ (هو) ، وبالتعبير بالمولود للدلالة على حسم أطماعهم فى أن ينفعوا آباءهم الذين ماتوا على الكفر بالشفاعة فى الآخرة. ومعنى التأكيد فى لفظ المولود : أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل منه ، فضلا عن أن يشفع لأجداده لأن الولد يقع على الولد وولد الولد ، بخلاف المولود لإنه لما ولد منك.
كذا فى الكشاف ، قلت : وهذا فى حق الكفار ، وأما المؤمنون فينفع الولد والده ، والوالد ولده بالشفاعة ، كما ورد فى قارئ القرآن والعالم ، وكل من له جاه عند اللّه ، كما تقدم فى سورة مريم «١».
ثم قال تعالى : إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بالبعث والحساب والجزاء ، حَقٌّ لا يمكن خلفه ، فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا بزخارفها الغرارة فإنّ نعمها دانية ، ولذاتها فانية ، فلا تشغلكم عن التأهب للقاء ، بالزهد فيها ، والتفرغ لما يرضى اللّه ، من توحيده وطاعته ، وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ ، أي : لا يعرضنكم لخطر الغرة باللّه وبحمله ، أو : لا يوقعنكم فى الجهل باللّه والغرة به ، الْغَرُورُ أي : الشيطان ، أو : الدنيا ، أو : الأمل. وفى الحديث : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنّى على اللّه الأمانى» «٢». وفى الحديث أيضا : «كفى بخشية اللّه علما ، وبالاغترار به جهلا».
إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ أي : وقت قيامها ، فلا يعلمه غيره ، فتأهبوا لها ، قبل أن تأتيكم بغتة. وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ : عطف على ما يقتضيه الظرف من الفعل ، أي : إن اللّه يثبت عنده علم الساعة ، وينزل الغيث فى وقته ، من غير تقديم ولا تأخير ، وفى محله ، على ما سبق فى التقدير ، ويعلم كم قطرة ينزلها ، وفى أي بقعة يمطرها.
وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ أذكر أم أنثى ، أتام أم ناقص ، وشقى أو سعيد ، وحسن أو قبيح. وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً من خير أو شر ، ووفاق وشقاق ، فربما كانت عازمة على الخير فعملت شرا ، أو على شر فعملت خيرا. وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ أي : أين تموت ، فربما أقامت بأرض ، وضربت أوتادها ، وقالت :
لا أبرحها ، فترمى بها مرامى القدر حتى تموت بمكان لم يخطر ببالها.
روى أن ملك الموت مرّ على سليمان عليه السّلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه ، فقال الرجل : من هذا؟ فقال :

ملك الموت ، فقال : كأنه يريدنى ، فسأل سليمان أن يحمله الريح ويلقيه ببلاد الهند ، ففعل ، ثم قال ملك الموت لسليمان : كان دوام نظرى إليه تعجبا منه ، لأنى أمرت أن أقبض روحه بالهند ، وهو عندك. هـ.

---

(١) راجع إشارة الآية ٨٧ من سورة مريم.

(٢) سبق تخريج الحديث عند إشارة الآيات : ٣٨ - ٤٠ من سورة العنكبوت.

وجعل العلم للّه والدراية للعبد ، لما فى الدراية من معنى التكسب والحيلة ، فهذه الأمور الخمسة قد اختص اللّه بعلمها. وأما المنجم الذي يخبر بوقت الغيث والموت فإنه يقول بالقياس والنظر فى المطالع ، وما يدرك بالدليل لا يكون غيبا ، على أنه مجرد الظن ، والظن غير العلم. وعن ابن عباس : من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب.

وجاءه يهودى منجم ، فقال : إن شئت أنبأتك أنه يحم ابنك ويموت بعد عشرة أيام ، وأنت لا تموت حتى تعمى ، وأنا لا يحول علىّ الحول حتى أموت. قال له : أين موتك؟ قال : لا أدرى ، فقال ابن عباس : صدق اللّه : ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ. ورأى المنصور فى منامه ملك الموت ، وسأله عن مدة عمره ، فأشار بأصابعه الخمس ، فعبرها المعبرون بخمس سنين ، وبخمسة أشهر ، وبخمسة أيام. فقال أبو حنيفة رضي اللّه عنه : هو إشارة إلى هذه الآية ، فإن هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا اللّه. هـ.

وقال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن الفاسي فى حاشيته : قيل : إن اللّه تعالى يعلم الأشياء بالوسم والرسم ، والرسم يتغير ، والوسم لا يتغير ، فقد أخفى اللّه تعالى الساعة ، ولم يخف أمارتها ، كما جاء عن صاحب الشرع. وكذا قد يطلع أولياءه على بعض غيبه ، ولكن لا من كل وجوهه ، فقد يعلم نزول المطر من غير تعين وقته واللحظة التي ينزل فيها ومقداره ، وبالجملة فعلم ما يكون من الخواص ، جملة لا تفصيلى ، وجزئى لا كلى ، ومقيد لا مطلق ، وعرضى لا ذاتى ، بخلاف علمه تعالى. هـ.

قال المحلى : روى البخاري عن ابن عمر حديث مفاتح الغيب خمس : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .. «١»

إلى آخر السورة .. ونقل ابن حجر عن ابن أبى جمرة ، بعد كلام ، ما نصه : والحكمة فى جعلها خمسة : الإشارة إلى حصر العوالم فيها ، ففى قوله : ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ : الإشارة إلى ما يزيد فى

الإنسان وما ينقص. وخص الرحم بالذكر ، لكون الأكثر يعرفونها بالعادة ، ومع ذلك فنفى أن يعرفها أحد بحقيقتها ، فغيرها بطريق الأولى. وفى قوله :
لا يعلم متى يأتى المطر : إشارة إلى أمور العالم العلوي ، وخص المطر مع أن له أسبابا قد تدل بجرى العادة على وقوعه ، لكنه من غير تحقيق. وفى قوله : «لا تدرى نفس بأى أرض تموت» : إشارة إلى أمور العالم السفلى ، مع أن عادة أكثر الناس أن يموت ببلده ، ولكن ليس ذلك حقيقة ، وإن مات ببلده لا يعلم بأى بقعة يدفن فيها ، ولو كان هناك مقبرة لأسلافه ، بل قبر أعده هو له.
وفى قوله : «ولا يعلم ما فى غد إلا اللّه» : إشارة إلى أنواع الزمان ، وما فيها من الحوادث ، وعبّر بلفظ (غد) لكون حقيقته أقرب الأزمنة إليه ، وإذا كان مع قربه لا يعلم حقيقة ما يقع فيه ، مع إمكان الأمارة والعلامة ، فما بعد

---

(١) أخرج حديث مفاتيح الغيب ، البخاري فى (الاستسقاء ، باب لا يدرى متى يجىء المطر إلا اللّه ح ١٠٣٩).

(٣٨٣/٤)

عنه أولى. وفى قوله : «متى تقوم الساعة إلا اللّه» إشارة إلى علوم الآخرة ، فإن يوم القيامة أولها ، وإذا نفى علم الأقرب انتقى علم ما بعد ، فجمعت الآية أنواع الغيوب ، وأزالت جميع الدعاوى الفاسدة.
وقد بيّن فى قوله تعالى :
فى الآية الأخرى ، وهى قوله : فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى .. «١» الآية ، أن الاطلاع على شىء من هذه الأمور لا يكون إلا بتوقيف. هـ ملخصا.
والحاصل : أن العوالم التي اختص اللّه بها خمسة : عالم القيامة وما يقع فيه ، والعالم العلوي وما ينشأ منه ، وعالم الأرض وما يقع فيه ، وعالم الإنسان وما يجرى عليه ، وعالم الزمان وما يقع فيه. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ عليم بالغيوب ، خبير بما كان وبما يكون. وعن الزهري : أكثروا من قراءة سورة لقمان فإن فيها أعاجيب هـ.
الإشارة : يا أيها الناس المتوجهون إلى اللّه ، إنّ وعد اللّه بالفتح ، لمن أنهض همته إليه ، حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا بأشغالها ، عن النهوض إليها ، ولا يغرنكم بكرم اللّه الشيطان الغرور ، فيغركم بكرم اللّه ، ويصرفكم عن المجاهدة والمكابدة إذ لا طريق إلى الوصول إلا منهما ، إن اللّه عنده علم الساعة التي يفتح على العبد فيها ، وينزل غيث المواهب والواردات ، ويعلم ما فى أرحام الإرادة ، من تربية

المعرفة واليقين ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا من زيادة الإيمان ونقصانه ، وما تلقاه من المقادير الغيبية ، فيجب عليها التفويض والاستسلام ، وانتظار ما يفعل اللّه بها فى كل غد ، وما تدرى نفس بأى أرض من العبودية تموت فيها ، إن اللّه عليم خبير.

قال القشيري : فى قوله : يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ : خوّفهم ، تارة ، بأفعاله ، فيقول : اتَّقُوا يَوْماً «٢» ، وتارة بصفاته ، فيقول : أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى «٣» ، وتارة بذاته ، فيقول : وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ «٤». هـ. وباللّه التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله.

---

(١) الآيتان ٢٦ - ٢٧ من سورة الجن.

(٢) جاء فى آيات كثيرة ، منها الآية ٤٨ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ١٤ من سورة العلق.

(٤) من الآية ٢٨ من سورة آل عمران.

(٣٨٤/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٨٥

سورة السّجدة

مكية ، وقيل : إلا قوله : أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً «١» ، نزلت بالمدينة ، وهى ثلاثون آية ، أو : تسع وعشرون. ومناسبتها لما قبلها : قوله : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ ... إلى آخر الآيات ، فإنها كالاستدلال على قيام الساعة ، التي خوّف بها فى ختم السورة بعد تقرير الرسالة. وقيل : المناسبة : هى ما بعد هذه من تبيين الرسالة ، التي هى مستند ما ذكر قبلها من المعاد ودلائل التوحيد. وعن جابر أنه صلى اللّه عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ : الم السجدة. وتَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ، ويقول : «هما مفضلتان على كل سورة من القرآن بسبعين حسنة ، ومن قرأهما كتبت له سبعون حسنة ، ومحى عنه سبعون سيئة».

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)

قلت : (تنزيل) : إما خبر عن (الم) ، إن جعل اسما للسورة ، أو : خبر عن محذوف ، أي : هذا تنزيل. أو : مبتدأ ، خبره : (لا ريب فيه). وعلى الأول (لا ريب) : خبر بعد خبر ، و(من رب العالمين) : خبر

ثالث. أو : خبر عن «تنزيل» ، و(لا ريب فيه) : معترض. والضمير فى (فيه) : راجع إلى مضمون الجملة ، كأنه قيل : لا ريب فى ذلك ، أي : كونه منزلا من رب العالمين ، و«أم» : منقطعة بمعنى : «بل».

يقول الحق جل جلاله : الم أيها المصطفى المقرب ، هذا الذي تتلوه هو تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ ، لأنه معجز للبشر ، ومثله أبعد شيء عن الريب ، وهو مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ لا محالة. أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ، أي : اختلقه محمد من عنده ، وهو إنكار لقولهم ، وتعجيب منه لظهور أمره فى عجزهم عن الإتيان بسورة منه. قال تعالى : بَلْ هُوَ الْحَقُّ الثابت مِنْ رَبِّكَ ، ولم تفتره ، كما زعموا تعنتا وجهلا ، أنزله عليك لِتُنْذِرَ قَوْماً أي : العرب ، ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ، بل طالت عليهم الفترة من زمن إسماعيل وعيسى - عليهما السلام - لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ إلى الصواب من الدين. والترجي مصروف إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، كما كان لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ «٢» مصروفا إلى موسى وهارون.

---

(١) الآية ١٨.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة طه.

(٣٨٥/٤)

الإشارة : (الم) الألف : ألف المحبون قربى ، فلا يصبرون عنى. اللام : لمع نورى لقلوب السائرين ، فزاد شوقهم إلىّ. الميم : ملك الواصلون ملكى وملكوتى ، فلا يغيبون عنى. تنزيل الكتاب ، إذا طال أمد لقاء الأحباب ، فأعزّ شيء على المحبين كتاب الأحباب. أنزلت على أحبابى كتابى ، وحملت إليهم بالرسل خطابى ، ولا عليهم إن قرع أسماعهم عتابى ، فإنهم منى فى أمان من عذابى. أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ، إنكار الأعداء على المحبين سنّة لازمة. فإن ألبس الحق على الأعداء فلا يضركم ، ولا عليكم ، فإنّ [صحبة] «١» الحبيب للحبيب ألذّ ما تكون عند فقد الرقيب. قاله القشيري.

ثم ذكر المقصود بالذات ، وهو الاستدلال على البعث ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ٤ الى ٦]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي مقدار سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوى

عَلَى الْعَرْشِ أي : استولى بقهرية ذاته. وسئل مالك عنه ، فقال : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والسؤال عن هذا بدعة. هـ. ولم تتكلم الصحابة على الاستواء ، بل أمسكوا عنه ، ولذلك قال مالك : السؤال عنه بدعة. وسيأتي شيء في الإشارة. ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ من دون اللّه مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أي : إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم وليا ، أي : ناصرا ينصركم ، ولا شفيعا يشفع لكم ، أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ تتعظون بمواعظ اللّه.

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أي : أمر الدنيا. وما يكون من شؤونه تعالى في ملكه ، فهو كقوله : كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ «٢» ، أي : يبديه لا يبتديه. وهو إشارة إلى القضاء التفصيلي ، الجزئي ، لا الكلي ، فإنه كان دفعة. يكون ذلك التدبير مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ، فيدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية ، نازلة آثارها إلى الأرض. فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ من أيام الدنيا.

---

(١) في الأصول : محبة ، والمثبت هو الذي في القشيري ، وهو المناسب للسياق.
(٢) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن.

(٣٨٦/٤)

قال الأقليشي : جاء في حديث : «إن بعد ما بين السماء والأرض ، وما بين سماء إلى سماء ، مسيرة خمسمائة سنة». وفي حديث آخر : «إن بين ذلك نيّفا وسبعين سنة» ، وإنما وقع الاختلاف في ذلك بالنسبة إلى سير الملائكة.

وان سرعة بعضها أكثر من سرعة بعض. كما يقول القائل : من موضع كذا إلى كذا مسيرة شهر للفارس وشهرين للراجل. وعليه يخرج قوله تعالى : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ. وقال في آية أخرى : خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ «١». وهكذا الوجود من علوه إلى سفله ، من الملائكة من يقطعه في مدة ما ، ويقطعه غيره في أكثر منها أو أقل. هـ. وقيل : المعنى : أنه يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يعرج إليه ذلك الأمر ، فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة ، أو خمسين ألف سنة. فقد قيل : إن مواقف يوم القيامة خمسون موقفا ، كل موقف ألف سنة. وقد حكى هذا ابن عطية ، فقال : يدبر الأمر في مدة الدنيا ، ثم يعرج إليه يوم القيامة. ويوم القيامة : مقداره ألف سنة من عدّنا. وهو على الكفار قدر خمسين ألف سنة لهوله ، حسبما في سورة المعارج. هـ.

قلت : والتحقيق ، في الفرق بين الآيتين ، أن الحق تعالى ، حيث لم يختص بمكان دون مكان ، وكانت الأمكنة في حقه تعالى كلها واحدة ، وهو موجود معها وفيها بعلمه وأسرار ذاته ، كان العروج إنما

هو إليه على كل حال ، بعدت المسافة أو قربت. لكن لما علق العروج بتدبير الأمور وتنفيذها ، قرّب المسافة ليعلم العبد أن القضاء نافذ فيه بسرعة. ولمّا علّق عروج الملائكة والروح إلى مطلق الذات المقدسة بعّد المسافة زيادة فى علو شأنه ورفعة قدره.

وكل هذا العروج فى دار الدنيا. على قول من علّق (فى يوم) بتعرج فى سورة المعارج. فتأمله.

ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ ، أي : ذلك الموصوف بتلك الصفات العظام هو عالم ما غاب عن الأبصار من عجائب أسرار عالم الملكوت ، وما شوهد فى عالم الحس من عجائب عالم الملك. الْعَزِيزُ الغالب أمره وتدبيره ، الرَّحِيمُ البالغ لطفه وتيسيره.

الإشارة : اعلم أن الحق تعالى تجلى بهذه الكائنات ، قطعة من نور ذاته ، على ترتيب وتمهيل. فتجلى بالعرش ، ثم بالماء ، فكان عرشه على الماء ، ثم بالكرسي ، ثم بالأرض ، ثم بالسماوات ، ولما أكمل أمر مملكته تجلى بنور صمدانى رحمانى من بحر جبروته ، استوى به على عرشه لتدبير ملكه ، ثم تجلى بآدم على صورة ذلك التجلي. ولذلك قال صلى اللّه عليه وسلم : «إن اللّه خلق آدم على صورته».

وفى رواية : «على صورة الرحمن». وبذلك التجلي يتجلى يوم القيامة لفصل عباده ، ولرؤيته - باعتبار العامة - ، وهذا التجلي كله ، من جهة معناه ، متصل بسائر التجليات ،

---

(١) الآية ٤ من سورة المعارج. [.....]

جزئى من جهة تشكيله للمعنى الكلى ، والفرق بينه وبين التجليات الظاهرة للحس : أن التجلي المستولى غير مرتد برداء الحس إذ لا عبودية فيه ، ولا قهرية تلحقه. ولأنه لم يظهر للعيان حتى يحتاج إلى رداء ، لأن كنزه ما زال مدفونا ، حيث ارتفع فوق تجليات الأكوان. فتأمل ، وسلّم ، إن لم تفهم ، ولا تبادر بالإنكار حتى تصحب الرجال ، فيخوضون بك بحر الأحدية الحقيقة ، فتفهم أسرار التوحيد. وباللّه التوفيق.

ثم كمل ما بقي من أوصافه ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ٧ الى ١٠]

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (٩) وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (١٠)

قلت : (الذي) : صفة للعزيز ، أو : خبر عن مضمر. ومن قرأ خَلَقَهُ بالفتح «١» فصفة لكل ، ومن سكّنه فبدل منه ، أي : أحسن خلق كل شيء.

يقول الحق جل جلاله فى وصف ذاته : الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ أي : أبدع خلق كل شيء ، أتقنه على وفق حكمته. أو : أتقن كل شيء من مخلوقاته ، فجعلهم فى أحسن صورة. ثم بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ آدم مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ذريته مِنْ سُلالَةٍ أي : نطفة مسلولة من سائر البدن ، مِنْ ماءٍ أي : منّى ، وهو بدل من سلالة ، مَهِينٍ ضعيف حقير. ثُمَّ سَوَّاهُ أي : سوّى صورته فى أحسن تقويم ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، أضافه إلى نفسه ، تشريفا ، إشارة إلى أنه خلق عجيب ، وأن له شأنا ومناسبة إلى حضرة الربوبية ، ولذلك قيل : من عرف نفسه عرف ربه. وقد تقدم فى سورة الإسراء ، فى الكلام على الروح ، وجه المعرفة منه «٢». وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لتسمعوا كلامه ، وتبصروا آثار قدرته وعجائب حكمته ، وتعقلوا ، فتعرفوا صانعكم ومدبر أمركم. قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ أي : تشكرون شكرا قليلا على هذه النعم لقلة التدبر فيها.

---

(١) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي : «خلقه» بفتح اللام ، فعلا ماضيا ، وقرأ الباقون : بسكونها بدل من «كل» بدل اشتمال. انظر :
الإتحاف (٢/ ٣٦٦).
(٢) راجع إشارة الآية ٨٥ من سورة الإسراء. (٣/ ٢٢٨ - ٢٣٠).

(٣٨٨/٤)

وَقالُوا منكرين للبعث : أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ ، أي : صرنا ترابا ، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض ، لا نتميز منه ، كما يضل الماء فى اللبن. أو : غبنا فى الأرض بالدفن فيها ، يقال : ضلل كضرب ، وضلل كفرح. وانتصب الظرف فى (أ إذا) بقوله : أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. أي : أنبعث ، ونجدد ، إذا ضللنا فى الأرض؟. والقائل لهذه المقالة أبيّ بن خلف ، وأسند إليهم لرضاهم بذلك ، بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ جاحدون. لمّا ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ما هو أبلغ ، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون فى العاقبة ، لا بالبعث وحده. وقال المحشى : أي : ليس لهم جحود قدرته تعالى على الإعادة لأنهم يعترفون بقدرته ، ولكنهم اعتقدوا ألّا حساب عليهم ، وأنهم لا يلقون اللّه تعالى ، ولا يصيرون إلى جزائه. هـ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل ما أظهر الحق تعالى : من تجلياته الكونية فهى فى غاية الإبداع والاتفاق فى أصل نشأتها

، كما قال صاحب العينية :

وكلّ قبيح ، إن نسبت لحسنه أتتك معانى الحسن فيه تسارع

يكمّل نقصان القبيح جماله فما ثمّ نقصان ، ولا ثمّ باشع «١»

وأكملها وأعظمها : خلقة الإنسان ، الذي خلق على صورة الرحمن ، حيث جعل فيه أوصافه من قدرة ، وإرادة ، وعلم ، وحياة ، وسمع ، وبصر ، وكلام ، وهيأه لحضرة القدس ومحل الأنس ، وسخّر له جميع الكائنات ، وهيأه لحمل الأمانة ، إلى غير ذلك مما خص به عبده المؤمن. وأما الكافر فهو فى أسفل سافلين. قال الورتجبي : ذكر حسن الأشياء ، ولم يذكر هنا حسن الإنسان غيرة ، لأنه موضع محبته ، واختياره الأزلى ، كقول القائل :

وكم أبصرت من حسن ، ولكن عليك ، من الورى ، وقع اختياري

قال الواسطي : الجسم يستحسن المستحسنات ، والروح واحدية فردانية ، لا تستحسن شيئا. وقال ابن عطاء فى قوله : ثُمَّ سَوَّاهُ ... : قوّمه بفنون الآداب ، ونفخ فيه من روحه الخاص ، الذي ، به ، فضّله على سائر الأرواح ، لما كان له عنده من محل التمكين ، وما كان فيه من تدبير الخلافة ، ومشافهة الخطاب - بعد أن قال الورتجبي - : أخص الخصائص هو ما سقط من حسن تجلّي ذاته فى صورته ، كما ذكر بقوله : وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ. هـ.

ثم ذكر أمر اللقاء الذي أنكروه ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ١١ الى ١٥]

قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥)

---

(١) انظر النادرات العينية (٧٦ - ٧٧).

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ بقبض أرواحكم فتموتون ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ بالبعث للحساب والعقاب. وهذا معنى لقاء اللّه الذي أنكروه. والتوفى : استيفاء الروح ،

أي : أخذها ، من قولك : توفيت حقى من فلان ، إذا أخذته وافيا من غير نقصان. وعن مجاهد : زويت الأرض لملك الموت ، وجعلت مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء «١». وعن مقاتل والكلبي : بلغنا أن اسم ملك الموت «عزرائيل» ، وله أربعة أجنحة : جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ، والخلق بين رجليه ، ورأسه وجسده كما بين السماء والأرض ، وله الدنيا مثل راحة اليد ، فهو يقبض أنفس الخلائق بمشارق الأرض ومغاربها ، وله أعوان من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. وعن معاذ بن جبل : أن لملك الموت حربة ، تبلغ ما بين المشرق والمغرب ، وهو يتصفح وجوه الموتى ، فما من أهل بيت إلا وهو يتصفحهم كل يوم مرتين - وفى حديث آخر ، خمس مرات - فإذا رأى إنسانا قد انقضى أجله ضربه بتلك الحربة. وقال : الآن يزار بك عسكر الأموات «٢».

فإن قيل : ما الجمع بين قوله : تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا «٣» وتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ «٤» وقُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ وقوله : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ «٥»؟ فالجواب : أن توفى الملائكة : القبض والنزع ، وتوفى ملك الموت الدعاء والأمر ، يدعو الأرواح فتجيبه ، ثم يأمر أعوانه بقبضها ، ثم يذهبون بها إلى عليين. وقبض الحق تعالى : خلق الموت فيه. والحاصل : أنّ قبض الملك : المباشرة ، وقبض الحق : الإخراج حقيقة.

قال الورتجبي : قال الحسن : ملك الموت هو الموكل بأرواح بنى آدم ، وملك الفناء موكل بأرواح البهائم. فانظر فيه. وأما حديث ملكى الموت والحياة ، فقال العراقي : لم أجد له أصلا. ويعنى بملك الحياة : كون الأرواح ، أنفاس ملك الحياة كما فى الإحياء. ومذهب أهل السّنة قاطبة : أن ملك الموت هو الذي يقبض جميع الأرواح ، من بني آدم

---

(١) أخرجه الطبري (٢١/ ٩٨).

(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٣٠٢).

(٣) من الآية ٦١ من سورة الأنعام.

(٤) من الآية ٩٧ من سورة النساء.

(٥) من الآية ٤٢ من سورة الزمر.

والبهائم وسائر الحيوانات. وبه قال مالك وأشهب. وذهب قوم إلى أن أرواح البهائم وسائر الحيوانات إنما تقبض أرواحها أعوان ملك الموت. وذهب قوم إلى أن الموت في حق غير بنى آدم ، إنما هو عدم محض ، كيبس الشجر وجفاف الثياب ، فلا قبض لأرواحها ، وهو أعلم من كونها تبعث ، أو : لا بأن

تعاد عن عدم ، بخلاف المكلف ، فإن روحه لا تعدم ، خلافا للملاحدة ، فإنهم جعلوا الموت كله عدما محضا ، كجفاف العود الأخضر ، وهو كفر.

هذا وقد اختلف فى كون الموت ضد الحياة ، فيكون معنى وجوديا ، أو هو عدم الحياة ، فيكون عدما ، وعلى كلا القولين فالأرواح باقية بعد مفارقة الأبدان ، منعّمة أو معذبة.

وَلَوْ تَرى يا محمد إِذِ الْمُجْرِمُونَ وهم الذين قالوا : أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ ... إلخ ، و«لو» و«إذ» للماضى ، وإنما جاز هنا لأن المترقّب محقق الوقوع. و(ترى) ، هنا ، تامة ، لا مفعول لها ، أي : لو وقعت منك رؤية إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ أي : وقت كون المجرمين ناكسى رؤوسهم من الذل والحياء والندم ، عِنْدَ رَبِّهِمْ عند حساب ربهم ، قائلين : رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا أي : صدّقنا الآن وعدك ووعيدك ، وأبصرنا ما حدّثتنا به الرسل ، وسمعنا منك تصديق رسلك ، فَارْجِعْنا إلى الدنيا نَعْمَلْ صالِحاً من الإيمان والطاعة ، إِنَّا مُوقِنُونَ بالبعث والحساب الآن. وجواب «لو» : محذوف ، أي : لرأيت أمرا فظيعا.

وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها أي : ما تهتدى به إلى الإيمان والطاعة ، أي : لو شئنا لأعطيناء فى الدنيا ، كل نفس ما عندنا من اللطف الذي ، لو كان منهم اختيار ذلك ، لاهتدوا. لكن لم نعطهم ذلك اللطف لما علمنا منهم اختيار الكفر وإيثاره. وهو حجة على المعتزلة فإن عندهم : قد شاء اللّه أن يعطى كل نفس ما به اهتدت ، وقد أعطاها ، لكنها لم تهتد ، وأوّلوا الآية بمشيئة الجبر ، وهو فاسد. قال تعالى : وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، أي : ولكن وجب القول منى لأعمرنّ جهنم من الجنّة والناس ، الذين علمت منهم أنهم يختارون الكفر والتكذيب. وفى تخصيص الجن والإنس : إشارة إلى أنه عصم الملائكة من عمل يستوجبون به جهنم. وفى الآية ما يقتضى تخصيص أهل النار بالجن والإنس ، فيرد ما يذكر أنه كان قبل آدم أمم كفروا ، ولا يصح ذلك ، إلا أن يكونوا من الجن.

فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا أي : باشروا وبال ترككم العمل للقاء يومكم هذا ، وهو الإيمان به. إِنَّا نَسِيناكُمْ : تركناكم فى العذاب ، وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ أي : العذاب الدائم الذي لا انقطاع له بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من الكفر والمعاصي.

ثم ذكر ضدهم بقوله : إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا القرآن الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً سجدوا للّه تواضعا وخشوعا ، وشكروا على ما رزقهم من الإسلام ، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أي : نزّهوا اللّه عما لا يليق به ،

وأثنوا عليه حامدين له ، وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ عن الإيمان والسجود له. جعلنا اللّه منهم بمنّه ، آمين.
الإشارة : أهل الفرق من أهل الحجاب ، يتوفاهم ملك الموت ، وأهل الجمع مع اللّه من أهل العيان يتولى قبض أرواحهم ذو الجلال الإكرام كما قيل في الأخفياء من الأولياء الذين اختص اللّه تعالى بعلمهم - أنه يتولى قبض أرواحهم بيده ، فتطيب أجسادهم به ، فلا يعدوا عليها الثرى ، حتى يبعثوا بها ، مشرقة بنور البقاء المجعول فيهم ، بالرجوع إليه من الفناء ، فيكون بقلوبهم بقاء الأبد مع الباقي الأحد عز وجل. وقد ورد في الخبر : «من واظب على قراءة آية الكرسي ، دبر كل صلاة ، كان الذي يتولى قبض روحه ذو الجلال الإكرام». يعنى : من تدبر معناها.
والمراد بذلك خطفتها بالتجلى ، واستغراقها فى الشهود ، وغيبتها عن الغير فى ذلك الوقت الهائل ، فيغيب عن الواسطة فى شهود الموسوط ، مع وجود الواسطة لعموم الآية. واللّه تعالى أعلم.
قال القشيري : لو لا غفلة القلوب لما أحال قبض أرواحهم على ملك الموت لأنّ ملك الموت لا أثر منه فى أحد ، وما يحصل فى التوفّى فمن خصائص قدرة الحق ، ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربّ ، فخاطبهم على قدر أفهامهم ، وعلّق بالأغيار قلوبهم. وكلّ يخاطبه بما يحتمل على قدر قوته وضعفه. هـ. وقال فى قوله : وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ .. الآية : ملكتهم الدهشة وغلبتهم الحجة ، فاعترفوا ، حين لا عذر ، واعترفوا ، حين لا اعتراف. هـ.
قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها ... قال القشيري : لو شاء سهّل سبيل الاستدلال ، وأدام التوفيق لكلّ أحد ، ولكن تعلّقت المشيئة بإغواء قوم ، وأردنا أن يكون للنار قطان ، كما يكون للجنة سكان ، لما علمنا يوم خلقناهما أنه ينزلهما قوم وقوم. فمن المحال أن نريد ارتفاع معلومنا ، إذ لو لم يقع ، ولم يحصل لم يكن علما. فإذا لا أكون إلها. ومن المحال أن أريد ذلك. ويقال : من يتسلّط عليه من يحبه لم يجد فى ملكه ما يكرهه. يا مسكين أفنيت عمرك فى النكد والعناء ، وأمضيت أيامك فى الجهد والرجاء ، غيّرت صفتك ، وأكثرت مجاهدتك ، فما تفعل فيما مضى ، كيف تبدله؟ وما تصنع فى مشيئتى ، وبأى وسع تردّها؟ وأنشدوا :
شكا إليك ما وجد من خانه فيك الجلد
حيران ، لو شئت ، اهتدى ظمآن ، لو شئت ، ورد. «١». هـ.

---

(١) البيتان لأبى هبة اللّه بن المنجم ، كما فى يتيمة الدهر (٣/ ٣٨٩).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٩٣
قوله تعالى : إِنَّما يُؤْمِنُ .... الآية ، خروا سجدا بظواهرهم فى التراب ، وبسرائرهم بالخضوع لهيبة الكريم الوهاب ، فسجود الجبهة وسيلة لسجود القلب ، فإذا سجدت الجبهة وتكبر القلب على عباد اللّه ، كانت وسيلة بلا غاية. وباللّه التوفيق.

ثم وصف أهل الخضوع ، وما أكرمهم به ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ١٦ الى ١٧]

تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)

يقول الحق جل جلاله : تَتَجافى أي : ترتفع وتتنحى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ عن الفرش ومواضع النوم للصلاة والذكر. قال سهل : وهب لقوم هبة ، وهو أن أذن لهم فى مناجاته ، وجعلهم من أهل وسيلته ، ثم مدحهم عليه فقال : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، يَدْعُونَ أي : داعين رَبَّهُمْ خَوْفاً ، أي : لأجل خوفهم من سخطه ، وَطَمَعاً فى رحمته ، وهم المجتهدون أو المتفكرون فى الليل. وسيأتى فى الإشارة.

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم فى تفسيرها : «هو قيام العبد من الليل» «١». وعن ابن عطاء : أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة ، وطلبت بساط القربة ، وعن أنس : كان أناس من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصلّون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة ، فنزلت فيهم «٢».

وقال ابن عمر رضي اللّه عنه : قال صلى اللّه عليه وسلم : «من عقب - أي : أحيا - ما بين المغرب والعشاء بنى له فى الجنة قصران مسيرة عام ، وفيهما من الشجر ما لو نزلهما أهل المشرق والمغرب لأوسعهم فاكهة. وهى صلاة الأوابين ، وغفلة الغافلين. وإن من الدعاء المستجاب الذي لا يرد : الدعاء ما بين المغرب والعشاء» «٣». هـ.

وقيل : هم الذين يصلّون العتمة ، ولا ينامون عنها.

وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ فى طاعة اللّه ، يعنى : أنهم جمعوا بين قيام الليل وسخاوة النفس. فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ أي : لا يعلم أحد ما أعد اللّه لهم من الكرامة ، مما تقرّ به العين من نعيم الأشباح ونعيم الأرواح. وقرأ حمزة ويعقوب : «أخفى» على المضارع. جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ، وعن الحسن : أخفى القوم أعمالهم فى الدنيا فأخفى اللّه لهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر. وفيه دليل على أن المراد الصلاة في جوف الليل ليكون الجزاء وفاقا. قاله النسفي.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٣٤٨) ، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٤١٢) ، والطبري فى تفسيره (٢١/ ١٠٣) ، من حديث معاذ بن جبل رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه الطبري (٢١/ ١٠٠).

(٣) عزاه فى كنز العمال (ح ١٩٤٥٠) لابن مردويه ، عن ابن عمر.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٩٤
وفى حديث أسماء ، عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إذا جمع اللّه الأوّلين والآخرين ، يوم القيامة ، جاء مناد ينادى بصوت يسمعه الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع ، اليوم ، من أولى بالكرم ، ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه ، فيقومون ، وهم قليل. ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانوا يحمدون اللّه فى السراء والضراء ، فيقومون ، وهم قليل ، يسرحون جميعا إلى الجنة. ثم يحاسب سائر الناس» «١». وفى البخاري عن أبى هريرة رضي اللّه عنه قال صلى اللّه عليه وسلم : «يقول اللّه - عز وجل - : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» ، قال أبو هريرة : واقرأوا ، إن شئتم : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ» «٢».
وقال فى «البدور السافرة» : أخرج الترمذي ، عن أبى سعيد الخدري عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «إنّ فى الجنّة مائة درجة ، لو أنّ العالمين اجتمعوا فى إحداهنّ لو سعتهم». «٣». هـ. وقال ابن وهب : أخبرنى عبد الرحمن بن زياد أنه سمع عتبة بن عبيد ، الضبي ، يذكر عمن حدّثه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «إن فى الجنة مائة درجة ، بين كل درجتين ما بين السماء والأرض ، أول درجة منها دورها وبيوتها وأبوابها وسررها ومغاليقها ، من فضة ، والدرجة الثانية :
دورها وبيوتها وسررها ومغاليقها من ذهب ، والدرجة الثالثة : دورها وبيوتها وأبوابها وسررها ومغاليقها من ياقوت ولؤلؤ وزبرجد. وسبع وتسعون درجة ، لا يعلم ما هى إلا اللّه تعالى» «٤». هـ.
وقيل : المراد بقرة الأعين : النظر إلى وجه اللّه العظيم. قلت : قرة عين كل واحد : ما كان بغيته وهمّته فى الدنيا ، فمن كانت همته القصور والحور ، أعطاه ما تقر به عينه من ذلك ، ومن كانت بغيته وهمته النظرة ، أعطاه ما تقر به عينه من ذلك ، على الدوام. قال أبو سليمان : شتان بين من همّه القصور والحور ، ومن همه الحضور ورفع الستور. جعلنا اللّه من خواصهم. آمين.
الإشارة : قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع الحسية إلى العبادة الحسية ، وهم العبّاد والزهاد من الصالحين ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من نعيم القصور ، والحور ، والولدان ، وغير ذلك. وقوم تتجافى قلوبهم عن مضاجع نوم الغفلة إلى حال الانتباه واليقظة ، وعن مضاجع الرغبة إلى حال العفة والحرية ، ثم عن مضاجع الفرق ، إلى حال

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (٣/ ١٦٩ ح ٣٢٤٤).
(٢) أخرجه البخاري فى (بدء الخلق ، باب ما جاء فى صفة الجنة ح ٣٢٤٤) ، ومسلم فى (الجنة

وصفة نعيمها ، ٤/ ٢١٧٤ ، ح ٢٨٢٤). [.....]

(٣) أخرجه الترمذي في (صفة الجنة ، باب فى صفة درجات الجنة ، ٤/ ٥٨٣ ، ح ٢٥٣٢).

(٤) أخرج الطبري نحوه فى التفسير (٢١/ ١٠٥) عن أبى اليمان الهذلي ، والجزء الأول من الحديث أخرجه البخاري فى (الجهاد ، باب درجات المجاهدين فى سبيل اللّه ح ٢٧٩٠) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه بلفظ : «إن فى الجنة مائة درجة أعدها اللّه للمجاهد فى سبيل اللّه ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ...» الحديث.

الجمع ، ثم من الجمع إلى جمع الجمع. فهولاء على صلاتهم دائمون ، وفى حال نومهم عابدون ، وعلى كل حال إلى ربهم سائرون ، وفى معاريج بحر عرفانهم سائحون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهؤلاء من دوام النظرة ، والعكوف فى الحضرة ، واتصال الحبرة. فعبادة هؤلاء قلبية ، سرية خفية عن الكرام الكاتبين ، بين فكرة وشهود وعبرة واستبصار ، الذرة منها تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، وقد ورد : (تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة). هذا تفكر الاعتبار ، وأما تفكر الشهود والاستبصار ، فكل ساعة ، أفضل من ألف سنة ، كما قال الشاعر :

كلّ وقت من حبيبى قدره كألف حجّه

أي : سنة ، ومع هذا لا يخلون أوقاتهم من العبادة الحسية ، شكرا ، وقياما بآداب العبودية ، وهى فى حقهم كمال ، كما قال الجنيد : عبادة العارفين تاج على الرؤوس. هـ. وفى مثل هولاء ورد الخبر : «إن أهل الجنة بينما هم فى نعيمهم ، إذ سطع عليهم نور من فوق ، أضاءت منه منازلهم ، كما تضيء الشمس لأهل الدنيا ، فنظروا إلى رجال من فوقهم ، أهل عليين يرونهم كما يرى الكوكب الدري فى أفق السماء ، وقد فضّلوا عليهم فى الأنوار والنعم ، كما فضل القمر على سائر النجم ، فينظرون إليهم ، يطيرون على نجب ، تسرح بهم فى الهواء ، يزورون ذا الجلال الإكرام ، فينادون هؤلاء : يا إخواننا ، ما أنصفتمونا ، كنا نصلى كما تصلون ، ونصوم كما تصومون ، فما هذا الذي فضلتمونا به؟ فإذا النداء من قبل اللّه تعالى : كانوا يجوعون حين تشبعون ، ويعطشون حين تروون ، ويعرون حين تكسون ، ويذكرون حين تسكتون ، ويبكون حين تضحكون ، ويقومون حين تنامون ، ويخافون حين تأمنون ، فلذلك فضّلوا عليكم اليوم.

فذلك قوله تعالى : «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون». هـ.

قال القشيري : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، فى الظاهر ، عن الفراش ، قياما بحقّ العبادة والجهد

والتهجد ، وفى الباطن : بتباعد قلوبهم عن مضاجعات الأحوال ، ورؤية قدر النفس ، وتوهم المقام لأن ذلك بجملته ، حجاب عن الحقيقة ، وهو للعبد سمّ قاتل ، فلا يساكنون أعمالهم ، ولا يلاحظون أحوالهم ، ويفارقون مآلفهم ، ويهجرون معارفهم. والليل زمان الأحباب ، قال اللّه تعالى : لِتَسْكُنُوا فِيهِ «١» يعنى : عن كلّ شغل وحديث سوى حديث معبودكم ومحبوبكم ، والنهار زمان أهل الدنيا. قال اللّه تعالى : وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً «٢» .. انظر بقية كلامه.

---

(١) من الآية (٧٣) من سورة القصص.

(٢) من الآية (١١) من سورة النبأ.

(٣٩٥/٤)

ثم بيّن أن من كان فى نور الطاعة والإحسان ، ليس كمن كان فى ظلمة الكفر والعصيان ، فقال.

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ١٨ الى ٢٠]

أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً باللّه ورسله كَمَنْ كانَ فاسِقاً خارجا عن الإيمان ، لا يَسْتَوُونَ أبدا عند اللّه تعالى. وأفرد ، أولا مراعاة للفظ «من» ، وجمع ثانيا مراعاة لمعناها. ثم فصّل حالهم بقوله : أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى أي : المسكن الحقيقي ، وأما الدنيا ، فإنها منزل انتقال وارتحال ، لا محالة ، وقيل : المأوى : جنة من الجنان. قال ابن عطية : سميت جنة المأوى لأن أرواح المؤمنين تأوى إليها. هـ. أي : فى الدنيا لأنها فى حواصل طير خضر ، كما ورد فى الشهداء ، وأما الصدّيقون فإنها تشكل على صور أجسادها ، تسرح حيث شاءت. نُزُلًا بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أي : عطاء معجلا بأعمالهم. والنزل :

ما يقدم للنازل ، ثم صار عاما.

وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ أي : هى ملجأهم ومنزلهم ، كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها ، فلا خروج منها ، ولا موت ، وَقِيلَ لهم : ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ، هذا دليل على أن المراد بالفاسق : الكافر إذ التكذيب يقابل الإيمان. قال ابن جزى : فإن قيل : لم وصف ، هنا ، العذاب ، وأعاد عليه الضمير ، ووصف ، فى سبأ ، النار وأعاد عليها الضمير ، فقال : عَذابَ النَّارِ الَّتِي

كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ «١»؟

فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول : أنه خص العذاب فى السجدة بالوصف اعتناء به لمّا تكرر ذكره فى قوله :

لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ .. ، الثاني : أنه تقدم فى السجدة ذكر النار ، فكان الأصل أن يذكرها بعد ذلك بلفظ المضمر ، لكنه جعل الظاهر مكان المضمر ، فكما لا يوصف المضمر لم يوصف ما قام مقامه ، وهو النار ، فوصف العذاب ، ولم يصف النار ، الثالث - وهو الأقوى : أنه امتنع فى السجدة وصف النار ، فوصف

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة سبأ.

(٣٩٦/٤)

العذاب ، وإنما امتنع وصفها لتقدم ذكرها ، فإنك إذا ذكرت شيئا ثم كررت ذكره لم يجز وصفه ، كقولك : رأيت رجلا فأكرمت الرجل. فلا يجوز وصفه لما يوهم أنه غيره. هـ.

الإشارة : أفمن كان مصدقا بطريق الخصوص ، داخلا فيها ، شاربا من خمرتها ، كمن كان فاسقا خارجا عنها ، مشتغلا بنفسه ، غريقا فى هواه ، لا يستوون أبدا. أما الذين آمنوا بها ، وصدقوا أهلها ، ودخلوا فى تربيتهم ، فلهم جنات المعارف ، هى مأواهم ومعشش قلوبهم ، إليها يأوون ، وفيها يسكنون ، وأما الذين فسقوا وخرجوا عن تربيتهم ، فمأواهم نار القطيعة ، وعذاب الحرص ، وغم الحجاب ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها إذ لا خروج منها إلا بصحبة أهلها. وقيل لهم : ذوقوا وبال الإنكار ، وحرمان الخصوصية ، التي كنتم بها تكذبون.

قال القشيري : هذا ما يلقون يوم القيامة ، ثم ذكر ما يعجل لهم فى الدنيا ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى أي : عذاب الدنيا من القتل ، والأسر فى بدر ، أو ما محنوا به من السّنة ، سبع سنين. دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ أي : قبل عذاب الآخرة ، الذي هو أكبر ، وهو الخلود فى النار. وعن الداراني : العذاب الأدنى : الخذلان ، والعذاب الأكبر : الخلود فى النيران. وقيل : الأدنى : عذاب القبر ، والأكبر : النار. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ يتوبون عن الكفر.

وَمَنْ أَظْلَمُ أي : لا أحد أظلم مِمَّنْ ذُكِّرَ أي : وعظ بِآياتِ رَبِّهِ القرآن ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها أي : تولى عنها ، ولم يتدبر فى معناها. و«ثم» للاستبعاد فإن الإعراض عن مثل هذه فى ظهورها ، وإنارتها ، وإرشادها إلى سواء السبيل ، والفوز بالسعادة العظمى ، بعد التذكر بها ، مستبعد فى العقل ، كما تقول لصاحبك : وجدت تلك الفرصة ثم لم تنتهزها - استبعادا لتركه الانتهاز. إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ، ولم يقل : «منه» ، تسجيلا عليه بإعراضه بالإجرام ، ولأنه إذا جعله أظلم من كل ظالم ، ثم توعد المجرمين ، عامة ، بالانتقام ، دلّ على إصابة الأظلم أوفر نصيب من الانتقام ، ولو قال بالضمير لم يفد هذه الفائدة.
الإشارة : ولنذيقن أهل الغفلة والحجاب ، من العذاب الأدنى ، وهو الحرص والطمع والجزع والهلع ، قبل العذاب الأكبر ، وهو غم الحجاب وسوء الحساب. قال القشيري : قوم : الأدنى لهم : محن الدنيا ، والأكبر : عقوبة العقبى.

(٣٩٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٩٨
وقوم : الأدنى لهم : فترة تداخلهم فى عبادتهم ، والأكبر : قسوة تصيبهم فى قلوبهم. وقوم : الأدنى لهم : وقفة مع سلوكهم تمسهم ، والأكبر : حجبة عن مشاهدتهم بسرهم - قلت : الأول فى حق العوام ، والثاني : فى حق الخواص ، وهم العباد والزهاد. والثالث : فى حق أهل التربية من الواصلين - ثم قال : ويقال : الأدنى : الخذلان فى الزلة ، والأكبر : الهجران فى الوصلة. ويقال : الأدنى : تكدّر مشاربهم ، بعد صفوها ، والأكبر : تطاول أيام الحجب ، من غير تبيين آخرها. وأنشدوا :
تطاول بعدنا ، يا قوم ، حتى لقد نسجت عليه العنكبوت «١»
هـ. ببعض المعنى.
أذقناهم ذلك لعلهم يرجعون إلى اللّه ، فى الدنيا بالتوبة واليقظة. فإن جاء من يذكّرهم باللّه من الداعين إلى اللّه ، ثم أعرضوا عنه ، فلا أحد أظلم منهم ، ولا أعظم جرما. إنا من المجرمين منتقمون.
ولمّا قرر الأصول الثلاثة الرسالة ، وبدء الخلق ، والمعاد ، عاد إلى الأصل الذي بدأ به ، وهو الرسالة ، فقال :
[سورة السجده (٣٢) : الآيات ٢٣ الى ٢٥]
وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ التوراة فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ شك مِنْ لِقائِهِ من لقاء موسى

الكتاب ، أو : من لقائك موسى ليلة المعراج ، أو : يوم القيامة ، أو : من لقاء موسى ربّه فى الآخرة ، كذا عن النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ وجعلنا الكتاب المنزّل على موسى عليه السّلام هدى لقومه ، وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ الناس ، ويدعون إلى اللّه وإلى ما فى التوراة من دين اللّه وشرائعه ، بِأَمْرِنا إياهم بذلك ، أو بتوفيقنا وهدايتنا لمن أردنا هدايته على أيديهم ، لَمَّا صَبَرُوا على مشاق تعليم العلم والعمل به. أو : على طاعة اللّه وترك معصيته. وقرأ الأخوان : بكسر اللام ، أي : لصبرهم عن الدنيا والزهد فيها.

وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس والتقدم فى الخير. وَكانُوا بِآياتِنا التوراة يُوقِنُونَ

---

(١) فى القشيري :

تطاول نأينا يا نور حتى كأن نسجت عليه العنكبوت

(٣٩٨/٤)

يعلمون علما لا يخالجه شك ولا وهم لإمعانهم النظر فيها ، أو : هبة من اللّه تعالى. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ يقضى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أي : بين الأنبياء وأممهم ، أو : بين المؤمنين والمشركين ، فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من الدين ، فيظه المحقّ من المبطل.

الإشارة : أئمة الهدى على قسمين : أئمة يهدون إلى شرائع الدين ، وأئمة يهدون إلى التعرف بذات رب العالمين ، أئمة يهدون إلى معرفة البرهان ، وأئمة يهدون إلى معرفة العيان. الأولون : من عامة أهل اليمين ، والآخرون : من خاصة المقربين. الأولون صبروا على حبس النفس على ذل التعلم ، والآخرون صبروا على حبس النفس على الحضور مع الحق على الدوام. صبروا على مجاهدة النفوس ، حتى وردوا حضرة القدّوس. قال القشيري ، فى شأن القسم الثاني : لمّا صبروا على طلبنا سعدوا بوجودنا ، وتعدّى ما نالوا من أفضالنا إلى متّبعيهم ، وانبسط شعاع شموسهم على جميع أهليهم ، فهم للخلق هداة ، وفى الدين عيون ، وللمسترشدين نجوم. هـ.

وفى الإحياء : للإيمان ركنان : أحدهما : اليقين ، والآخر : الصبر. والمراد باليقين : المعارف القطيعة ، الحاصلة بهداية اللّه عبده إلى أصول الدين ، والمراد بالصبر ، العمل بمقتضى اليقين إذ النفس تعرف أن المعصية ضارة والطاعة نافعة. ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر. فيكون الصبر نصف الإيمان لهذا الاعتبار. هـ. وقوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ .. ، قال القشيري : يحكم بينهم ، فيبين المقبول من المردود ، والمهجور من الموصول ، والرّضى من الغوىّ ، والعدو من

الوليّ. فكم من بهجة دامت هناك! وكم من مهجة ذابت كذلك. هـ.

ثم ذكّرهم بمن سلف قبلهم ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : آية ٢٦]

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦)

قلت : فاعل «يهد» : هو اللّه ، بدليل قراءة زيد عن يعقوب «نهد» بالنون ، ولا يجوز أن يكون الفاعل «كم» لأن الاستفهام له صدر الكلام ، فلا يعمل فيه ما قبله.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ أي : يبين لهم اللّه تعالى ما يعتبرون به ، فينظروا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ كعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، يَمْشُونَ يعنى : قريشا ، فِي مَساكِنِهِمْ حين

(٣٩٩/٤)

يمرون على ديارهم ، ومنازلهم ، خاوية ، فى متاجرهم إلى الشام ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ دالة على قدرتنا ، وقهريتنا أَفَلا يَسْمَعُونَ المواعظ ، فيتعظون بها؟.

الإشارة : قال القشيري : لم يعتبروا بمنازل أقوام كانوا فى حبرة ، فصاروا فى عبرة ، كانوا فى سرور ، فآلوا إلى ثبور ، فجميع ديارهم وتراثهم صارت لأغيارهم ، وصنوف أموالهم عادت إلى أشكالهم ، سكنوا فى ظلالهم ، ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم ، وفى مثلهم قيل :

نعم ، كانت على قو م زمانا ، ثم فاتت ،

هكذا النعمة والإح سان قد كانت وكانت. هـ. «١»

ثم ذكّرهم بآثار قدرته ، فقال :

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ٢٧ الى ٣٠]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ : المطر إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ أي : التي جرز نباتها ، أي : قطع ، ولم يبق منه شيء إما لعدم الماء ، أو لأنه رعي. يقال : جرزت الجراد الزرع إذا استأصلته ، وفى القاموس : وأرض جرز : لا تنبت ، أو أكل نباتها ، أو لم يصبها مطر. ثم قال : وأرض جارزة : يابسة غليظة ، وفيه أربع لغات : جرز وجرز وجرز وجرز. ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ : جرز ، بدليل

قوله : فَنُخْرِجُ بِهِ أي : بالماء ، زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أي : الزرع ، أَنْعامُهُمْ كالتبن والورق ، وَأَنْفُسُهُمْ كالحب والتمر ، والمراد بالزرع :
كل ما يزرع ويستنبت ، أَفَلا يُبْصِرُونَ ، فيستدلون به على قدرته على إحياء الموتى؟.

---

(١) ورد البيتان :
نعم ، كانت على قو م زمانا ، ثم بانت ،
هكذا النعمة والإنسان مذ كان وكانت.
وانظر : محاضرات الأدباء ص ٢٥٩.

(٤/٤٠٠)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٠١
وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ أي : النصر ، أو الفصل بالحكومة من قوله : رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا «١». وكان المسلمون يقولون : إن اللّه سيفتح لنا على المشركين ، أو يفتح بيننا وبينهم ، فإذا سمع المشركون ، قالوا : متى هذا الفتح؟ أي : فى أي وقت يكون إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى أنه كائن؟.
قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ أي : يوم القيامة هو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم. أو : يوم نصرهم عليهم. أو : يوم بدر ، أو يوم فتح مكة ، لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ لفوات محله ، الذي هو الإيمان بالغيب ، وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ يمهلون ، وهذا الكلام لم ينطبق جوابا عن سؤالهم ظاهرا ، ولكن لمّا كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح استعجالا منهم ، على وجه التكذيب والاستهزاء ، أجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم من سؤالهم ، فقيل لهم : لا تستعجلوا به ولا تستهزئوا ، فكأنى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم وآمنتم ، فلم ينفعكم الإيمان ، واستنظرتم عند درك العذاب فلم تمهلوا. ومن فسره بيوم بدر أو بيوم الفتح ، فهو يريد المقتولين منهم فإنهم لا ينفعهم إيمانهم فى حال الفعل ، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند درك الغرق. فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ النصر وهلاكهم ، إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ الغلبة عليكم وهلاككم.
قال عليه الصلاة والسلام : «من قرأ الم تَنْزِيلُ فى بيته ، لم يدخل الشيطان به ثلاثة أيام» «٢».
الإشارة : أو لم يروا أنا نسوق الماء الذي تحيا به القلوب على يد المشايخ ، إلى القلوب الميتة بالجهل والغفلة ، فنخرج به ثمار الهداية إلى الجوارح ، تأكل منه ، من لذة حلاوته ، جوارحهم وقلوبهم ، أفلا يبصرون؟. ويقول أهل الإنكار لوجود هذا الماء : متى هذا الفتح ، إن كنتم صادقين فى أنه موجود؟ قال : يوم الفتح الكبير - وهو يوم يرفع اللّه أولياءه فى أعلى عليين - لا ينفع الذين كفروا بالخصوصية ، فى دار الدنيا ، إيمانهم فى الالتحاق بهم ، ولا هم يمهلون حتى يعملوا مثل عملهم ، فأعرض عنهم

اليوم ، واشتغل باللّه ، وانتظر هذا اليوم ، إنهم منتظرون لذلك.

قال القشيري : «أولم يروا ..» الآية. الإشارة فيه : نسقى حدائق [وصلهم] «٣» ، بعد جفاف عودها ، فيعود عودها مورقا بعد ذبوله ، حاكيا حاله حال حصوله ، (و يقولون متى هذا الفتح ..) استبعدوا يوم التلاق ، وجحدوه ، فأخبرهم

---

(١) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٢) قال ابن حجر فى الكافي الشاف (ح ١٩٦) : «لم أجده». وانظر : الفتح السماوي (٢/ ٩٢٦).

(٣) فى الأصول المخطوطة (وصفهم) والمثبت هو الذي فى لطائف الإشارات.

(٤٠١/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٠٢

أنه ليس لهم إلا الحسرة والمحنة إذا شهدوه. قوله تعالى : فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ .. أي : باشتغالك بنا ، وإقبالك علينا ، وانقطاعك إلينا ، وانتظر زوائد وصلنا وعوائد لطفنا ، إنهم منتظرون هواجم مقتنا وخفايا مكرنا. وعن قريب وجد كلّ منتظره محتضرا هـ. وباللّه التوفيق ، وصلى اللّه على سيدنا محمد ، عين الوصول إلى التحقيق ، وعلى آله المبينين سواء الطريق ، وسلم.

(٤٠٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٠٣

سورة الأحزاب

مدنية. وهى ثلاث وسبعون - بتقديم السين - آية. وعن أبيّ أنه قال : كم تعدون سورة الأحزاب؟ قالوا : ثلاثا وسبعين ، قال : فوالذى يحلف به أبيّ إن كانت لتعدل سورة البقرة ، أو أطول ، ولقد قرأنا منها آية الرجم : الشيخ والشيخة ، إذا زنيا ، فارجموهما البتّة نكالا من اللّه ، واللّه عزيز حكيم «١». أراد أبيّ أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن. انظر النسفي. ومناسبتها لما قبلها : أن الفتح إنما يكون مع التقوى ، فأمره بها ، بعد أمره بانتظار نصره ، كأنه قيل : يا أيها النبي اتق اللّه تر الفتح طوع يدك.

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ

مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ أي : المشرّف حالا ، المفخم قدرا ، العلى رتبة لأن النبوة مشتقة من النّبوة ، وهو الارتفاع. أو : يا أيها المخبر عنا ، المأمون على وحينا ، المبلغ خطابنا إلى أحبابنا.

وإنما لم يقل : يا محمد ، كما قال : «يا آدم ، يا موسى» تشريفا وتنويها بفضله ، وتصريحه باسمه فى قوله : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ «٢» ، ونحوه ، ليعلم الناس بأنه رسول اللّه. اتَّقِ اللَّهَ أي : اثبت على تقوى اللّه ، وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ لا تساعدهم على شيء ، واحترس منهم فإنهم أعداء للّه وللمؤمنين.

روى أن أبا سفيان بن حرب ، وعكرمة بن أبى جهل ، وأبا الأعور السّلمى ، نزلوا المدينة على ابن أبىّ ، رأس المنافقين ، بعد أحد ، وقد أعطاهم النبىّ صلى اللّه عليه وسلم الأمان على أن يكلموه ، فقام معهم عبد اللّه بن أبى سرح ، وطعمة بن

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٤١٥) وأخرجه الطبراني فى الأوسط (ح ٤٣٥٢) ، وعزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٣٤٥) لعبد الرزاق فى المصنف ، والطيالسي ، وسعيد بن منصور ، وعبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن منيع ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، والدارقطني فى الأفراد ، وابن مردويه ، عن زر ، عن أبىّ.

(٢) كما جاء فى الآية ٢٩ من سورة الفتح.

أبيرق ، فقالوا للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا اللات ، والعزى ، ومناة ، وقل : إن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها ، وندعك وربّك. فشق على النبي صلى اللّه عليه وسلم قولهم ، فقال عمر : ائذن لنا ، يا رسول اللّه ، فى قتلهم ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «إنى قد أعطيتهم الأمان». فقال عمر : اخرجوا فى لعنة اللّه وغضبه ، فخرجوا من المدينة ، فنزلت «١».

أي : اتق اللّه فى نقض العهد ، ولا تطع الكافرين من أهل مكة ، كأبى سفيان وأصحابه ، والمنافقين من أهل المدينة ، فيما طلبوا ، إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً بخبث أعمالهم ، حَكِيماً بتأخير الأمر بقتالهم.

وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فى الثبات على التقوى ، وترك طاعة الكافرين والمنافقين. أو : كل ما يوحى إليك من ربك ، إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً أي : لم يزل عالما بأعمالهم وأعمالكم. وقيل : إنما جمع لأن المراد بقوله : «اتبع» : هو وأصحابه ، وقرأ بالغيب : أبو عمرو ، أي : بما يعمل

الكافرون والمنافقون ، من كيدهم لكم ومكرهم. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ أسند أمرك إليه ، وكله إلى تدبيره. وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا حافظا موكولا إليه كل أمر. وقال الزجاج : لفظه ، وإن كان لفظ الخبر فالمعنى : اكتف باللّه وكيلا.

الإشارة : أمر بتقوى اللّه ، وبالغيبة عما يشغل عن اللّه ، وبالتوكل على اللّه ، فالتقوى أساس الطريق ، والغيبة عن الشاغل : سبب الوصول إلى عين التحقيق ، والتوكل زاد رفيق. قال القشيري بعد كلام : يا أيها المرقّى إلى أعلى المراتب ، المتلقّى بأسنى القرب والمناقب اتق اللّه أن تلاحظ غيرا معنا ، أو تساكن شيئا دوننا ، أو تثبت شيئا سوانا ، وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ إشفاقا منك عليهم ، وطمعا فى إيمانهم ، بموافقتهم فى شىء مما أرادوه منك. والتقوى رقيب على الأولياء ، تمنعهم ، فى أنفاسهم وسكناتهم وحركاتهم ، أن ينظروا إلى غيره ، أو يثبتوا معه سواه ، إلا منصوبا بقدرته ، مصرّفا بمشيئته ، نافذا فيه حكم قضيته.

التقوى لجام يمنعك عمّا لا يجوز ، زمام يقودك إلى ما تحب ، سوط يسوقك إلى ما أمر به ، حرز يعصمك من توصل عقابه إليك ، عوذة تشفيك من داء الخطايا. التقوى وسيلة إلى ساحة كرمه ، ذريعة يتوصّل بها إلى عفوه وجوده. وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ ... لا تبتدع ، واقتد بما نأمرك ، ولا تقتد ، باختيارك ، غير ما نختار لك ، ولا تعرّج - أي : تقم - فى أوطان الكسل ، ولا تجنح إلى ناحية التواني ، وكن لنا لا لك ، وقم بنا لا بك. «وتوكل» انسلخ عن إهابك لنا ، واصدق فى إيابك إلينا ، وتشاغلك عن حسبانك معنا ، واحذر ذهابك عنا ، ولا تقصّر فى خطابك معنا. ويقال : التوكل : تخلّق ، ثم تخلّق ، ثم توثّق ، ثم تملّق تحقق فى العقيدة ، وتخلق بإقامة الشريعة ، وتوثّق بالمقسوم من القضية ، وتملق بين يديه بحسن العبودية. ويقال : التوكل : استواء القلب فى العدم والوجود. هـ.

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٦٤) ، والبغوي فى تفسيره (٦/ ٣١٥) ، بدون إسناد.

(٤/٤٠٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٠٥

والتقوى محلها القلب ، ولا يحصل منتهاها إلا بانفراد القلب إلى مولاه ، كما أبان ذلك بقوله :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٤ الى ٥]

ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ

وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥)

يقول الحق جل جلاله : ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ فيؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر ، أو : يتقي بأحدهما ويعصى بالآخر ، أو : يقبل على اللّه بأحدهما ويقبل على الدنيا بالآخر ، بل ما للعبد إلا قلب واحد ، إن أقبل به على اللّه أدبر عمن سواه ، وإن أقبل به على الدنيا أدبر عن اللّه. قيل : الآية مثل للمنافقين ، أي : إنه لا يجتمع الكفر والإيمان ، وقيل : لا تستقر التقوى ونقض العهد فى قلب واحد. وقال ابن عطية : يظهر من الآية ، بجملتها ، أنها نفى لأشياء كانت العرب تعتقدها فى ذلك الوقت ، وإعلام بحقيقة الأمر فيها ، فمنها : أن العرب كانت تقول : الإنسان له قلب يأمره وقلب ينهاه ، وكان تضادّ الخواطر يحملها على ذلك .. إلخ كلامه.

قال النسفي : والمعنى : أنه تعالى لم يجعل للإنسان قلبين لأنه لا يخلو : إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب ، فأحدهما فضلة غير محتاج إليه ، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذلك ، فيؤدى إلى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها ، عالما ظانا ، موقنا شاكا ، فى حالة واحدة. هـ.

وكانت العرب تعتقد أيضا أن المرأة المظاهر منها : أمّا ، فردّ ذلك بقوله : وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ أي : ما جمع الزوجية والأمومة فى امرأة واحدة لتضاد أحكامهما لأن الأم مخدومة ، والمرأة خادمة.

وكانت تعتقد أن الدّعى ابن ، فردّ عليهم بقوله : وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ أي : لم يجعل المتبنّى من أولاد الناس ابنا لمن تبناه لأن البنوة أصالة فى النسب ، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية ، لا غير ، ولا يجتمع فى شيء واحد أن يكون أصيلا [و] «١» غير أصيل.

---

(١) زيادة ، ليست فى الأصول. [.....]

ونزل هذا فى «زيد بن حارثة» ، وهو رجل من كلب ، سبى صغيرا ، فاشتراه حكيم بن حزام ، لعمته خديجة ، فلما تزوجها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهبته له ، فطلبه أبوه وعمه ، وجاءا بفدائه ، فخيّر ، فاختار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأعتقه وتبناه. وكانوا يقولون : زيد بن محمد ، فلما تزوج النبيّ صلى اللّه عليه وسلم زينب وكانت تحت زيد - على ما يأتى - قال المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عنه ، فأنزل اللّه هذه الآية.

وقيل : كان المنافقون يقولون : لمحمد قلبان ، قلب معكم ، وقلب مع أصحابه «١». وقيل : كان

«أبو معمر» أحفظ العرب ، فقيل له : ذو القلبين «٢» ، فأكذب اللّه قولهم. والتنكير فى رجل ، وإدخال «من» الاستغراقية على (قلبين) ، وذكر الجوف للتأكيد. و(اللائي) : جمع «التي». وفيها أربع قراءات : «اللاء» بالهمزة مع المد والقصر ، وبالتسهيل ، وبالياء ، بدلا من الهمز. وأصل تُظاهِرُونَ : تتظاهرون ، فأدغم. وقرأ عاصم بالتخفيف من : ظاهر. ومعنى الظهار : أن يقول للزوجة : أنت علىّ كظهر أمي. مأخوذ من الظهر ، وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب لأنه كان طلاقا فى الجاهلية. وهو فى الإسلام يقتضى الحرمة حتى يكفّر ، كما يأتى فى المجادلة. والأدعياء : جمع دعى ، فقيل : بمعنى مفعول ، وهو الذي يدعى ولدا ، وجمعه على أفعلاء : شاذ لأن بابه ما كان منه بمعنى فاعل كتقى وأتقياء ، وشقى وأشقياء. ولا يكون فى ذلك فى نحو رميّ وسمى ، على الشذوذ. وكأنه شبهه بفعيل بمعنى فاعل ، فجمع جمعه.

ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ إذ أن قولكم للزوجة : أما ، والدعىّ : هو ابن ، قول تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له إذ الابن يكون بالولادة ، وكذا الأم. وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ما له حقيقة عينية ، مطابقة له ظاهرا وباطنا. وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ سبيل الحق.

ثم بيّن ذلك الحقّ ، وهدى إلى سبيله ، فقال : ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ انسبوهم إليهم. هُوَ ، أي : الدعاء ، أَقْسَطُ أعدل عِنْدَ اللَّهِ. بيّن أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين فى العدل. وقيل : كان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه ولد الرجل ضمّه إليه ، وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده ، من ميراثه. وكان ينسب إليه ، فيقال : فلان بن فلان. فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ أي : فإن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم ،

---

(١) هذا معنى ما أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٦٨) والترمذى ، وحسنه ، فى (التفسير ، باب : ومن سورة الأحزاب ، ٥/ ٣٢٤ - ٣٢٥ ، ح ٣١٩٩) والطبرى (٢١/ ١١٨) والحاكم (٢/ ٤١٥) عن ابن عباس رضي الله عنه. وصححه الحاكم ، وفيه «قابوس بن أبى ظبيان» قال الذهبى : قابوس ، ضعيف.

(٢) ذكره الواحدى فى أسباب النزول/ ٣٦٥. بدون إسناد.

فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ أي : فهم إخوانكم فى الدين ، وأولياؤكم فيه. فقولوا : هذا أخى ، وهذا مولاى ، ويا أخى ، ويا مولاى ، يريد الأخوة فى الدين والولاية فيه ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ

أي : لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك ، مخطئين جاهلين ، قبل ورود النهى ، أو بعده ، نسيانا. وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ أي : ولكن الإثم فيما تعمّدتموه بعد النهى. أو : لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم : يا بنيّ ، على سبيل الخطأ ، أو : الشفقة ولكن إذا قلتموه متعمدين على وجه الانتساب. وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً لا يؤاخذكم بالخطأ ، ويقبل التوبة من المتعمّد.

الإشارة : العبد إنما له قلب واحد ، إذا أقبل به على مولاه أدبر عن ما سواه ، وملأه اللّه تعالى بأنواع المعارف والأسرار ، وأشرقت عليه الأنوار ، ودخل حضرة الحليم الغفار ، وإذا أقبل به على الدنيا أدبر عن اللّه ، وحشى بالأغيار والأكدار ، وأظلمت عليه الأسرار ، وطبع فيه صور الكائنات ، فحجب عن المكوّن ، وكان مأوى للخواطر والوساوس ، فلم يسو عند اللّه جناح بعوضة. قال القشيري : القلب إذا اشتغل بشيء اشتغل عما سواه ، فالمشتغل بما من العدم منفصل عمن له القدم ، والمتصل بقلبه بمن نعته القدم مشتغل عمّا من العدم ، والليل والنهار لا يجتمعان ، والغيب والغير لا يلتقيان. هـ.

وقوله تعالى : وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ ... الآية ، يمكن أن تكون الإشارة فيها إلى أنّ من ظاهر الدنيا ، وتباعد عنها لا يحل له أن يرجع ، ويتخذها أما فى المحبة والخدمة. وقوله تعالى : وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ .. :

تشير إلى أنه لا يحل أن يدّعى الفقير حالا ، أو مقاما ، ما لم يتحقق به ، وليس هو له ، أو : ينسب حكمة أو علما رفيعا لنفسه ، وهو لغيره ، ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ. وقوله : فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ .. :

إخوان الدين أولى ، وإخوان الطريق أحب وأصفى. قال القشيري : وقرابة الدين ، فى الشكلية ، أولى من قرابة النّسب ، وأنشدوا :

وقالوا : قريب من أب وعمومة فقلت : وإخوان الصّفاء الأقارب

مناسبهم شكلا وعلما وألفة وإن باعدتنا فى الأصول التّناسب «١»

---

(١) فى القشيري : (و إن باعدتهم فى الأصول المناسب) والبيتان لأبى تمام ، يرثى غالب بن السعدي. انظر ديوانه (٤/ ٤١) ونهاية الأرب (٥/ ٢٠٢).

(٤٠٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٠٨

ثم ذكر أبوة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وأمومة أزواجه لجميع أمته ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٦]

النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (٦)

يقول الحق جل جلاله : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ أي : أحق بهم فى كل شيء من أمور الدين والدنيا ، وحكمه أنفذ عليهم مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فإنه لا يأمرهم ، ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم ، فيجب عليهم أن يبذلوها دونه. ويجعلوها فداء منه. وقال ابن عباس وعطاء : يعنى : (إذا دعاهم النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى شيء ، ودعتهم أنفسهم إلى شيء ، كانت طاعة النبي صلى اللّه عليه وسلم أولى) «١». أو : هو أولى بهم ، أي : أرأف ، وأعطف عليهم ، وأنفع لهم ، كقوله : بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ «٢» وفى الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام : «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فأيّما مؤمن هلك ، وترك مالا فلورثته ما كانوا ، ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى ، فإنى أنا مولاه». «٣».

وفى قراءة ابن مسعود «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم». وقال مجاهد : كل نبى أبو أمته ، ولذلك صار المؤمنون إخوة لأن النبي صلى اللّه عليه وسلم أبوهم فى الدين ، وأزواجه أمهاتهم ، فى تحريم نكاحهن ووجوب تعظيمهن ، وهن فيما وراء ذلك - كالإرث وغيره - كالأجنبيات ، ولهذا لم يتعد التحريم إلى بناتهن.

وَأُولُوا الْأَرْحامِ أي : ذوو القرابات بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فى المواريث. وكان المسلمون فى صدر الإسلام يتوارثون بالولاية فى الدين وبالهجرة ، لا بالقرابة ، ثم نسخ ، وجعل التوارث بالقرابة. وذلك فِي كِتابِ اللَّهِ أي : فى حكم اللّه وقضائه ، أو : فى اللوح المحفوظ ، أو : فيما فرض اللّه ، فهم أولى بالميراث ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بحق الولاية فى الدين ، وَمن الْمُهاجِرِينَ بحق الهجرة. وهذا هو الناسخ. قال قتادة : كان المسلمون

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/ ٣١٨).

(٢) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.

(٣) أخرجه البخاري فى (الاستقراض ، باب الصلاة على ترك دينا ، ح ٢٣٩٩) ، ومسلم فى (الفرائض ، باب من ترك مالا فلورثته ، ٣/ ١٢٣٨ ، ح ١٦١٩) ، من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

يتوارثون بالهجرة ، ولا يرث الأعرابى المسلم من المهاجر شيئا ، فنزلت. وقال الكلبي : آخى النبيّ

صلى اللّه عليه وسلم بين الناس ، فكان يواخى بين الرجلين ، فإذا مات أحدهما ورثه الآخر ، دون عصبته ، حتى نزلت : وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ «١» فى حكمه ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ. ويجوز أن يكون مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : بيانا لأولى الأرحام ، أي : وأولو الأرحام ، من هؤلاء ، بعضهم أولى بأن يرث بعضا من الأجانب ، إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً أي : لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفا ، وهو أن توصوا لمن أحببتم من هؤلاء بشيء ، فيكون له ذلك بالوصية ، لا بالميراث فالاستثناء منقطع. وعدّى (تفعلوا) بإلى لأنه فى معنى تسندوا ، والمراد بالأولياء :

المؤمنون ، والمهاجرون : المتقدمون الذين نسخ ميراثهم. كانَ ذلِكَ أي : التوارث بالأرحام فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً أي : اللوح المحفوظ ، أو : القرآن. وقيل : فى التوراة.

الإشارة : متابعته - عليه الصلاة والسلام ، والاقتباس من أنواره ، والاهتداء بهديه ، وإيثار محبته ، وأمره على غيره لا ينقطع عن المريد أبدا ، بداية ونهاية إذ هو الواسطة العظمى ، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأرواحهم وأسرارهم. فكل مدد واصل إلى العبد فهو منه صلى اللّه عليه وسلم ، وعلى يده ، وكل ما تأمر به الأشياخ من فعل وترك فى تربية المريدين ، فهو جزء من الذي جاء به. وهم فى ذلك بحسب النيابة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم لأنهم خلفاء عنه. وكل كرامة تظهر فهى معجزة له صلى اللّه عليه وسلم ، وكل كشف ومشاهدة فمن نوره صلى اللّه عليه وسلم ، قال ابن العربي الحاتمي رضي اللّه عنه : اعلم أن كل ولىّ للّه تعالى إنما يأخذ ما يأخذ بواسطة روحانية النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فمنهم من يعرف ذلك ، ومنهم من لا يعرفه ، ويقول : قال لى اللّه ، وليس إلا تلك الروحانية. هـ. وهو موافق لما أشار إليه الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه ، حيث قال : الولىّ إنما يكاشف بالمثال ، كما يرى مثلا البدر فى الماء بواسطته ، وكذلك الحقائق الغيبية ، والأمور الإشهادية مجلوة وظاهرة فى بصيرة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وله عيانا لا مثالا. والولىّ لقربه منه ومناسبته له لهديه بهديه ، ومتابعته له يكاشف بمثال ذلك فيه ، فظهر الفرق وثبتت مزية النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وانتفى اللبس بين النبوة والولاية. قاله شيخ شيوخنا سيدى «عبد الرحمن العارف».

قال القشيري : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ الإشارة : تقديم سنّته على هواك ، والوقوف عند إشارته دون ما يتعلق به مناك ، وإيثار من تتوسل به نسبا وسببا على أعزّتك ومن والاك ، وَأُولُوا الْأَرْحامِ .. الآية. ليكن

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦٨).

الأجانب منك على جانب ، ولتكن صلتك للأقارب وصلة الرحم ليس لمقاربة الدار وتعاقب المزار ، وليكن بموافقة القلوب ، والمساعدة فى حالتى المكروه والمحبوب.
أرواحنا فى مكان واحد ، وإن كانت أشباحنا بشآم أو خراسان «١». هـ.
ولمّا كان كل نبى أبا لأمته ، أخذ عليهم العهد فى إرشادهم ، ونصحهم ، كما ينصح الأب ابنه ، فقال :
[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٧ الى ٨]
وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (٧) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (٨)
يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ أَخَذْنا حين أخذنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ بتبليغ الرسالة ، والدعاء إلى الدين القيم ، وإرشاد العباد ونصحهم. قيل : أخذه عليهم فى عالم الذر. قال أبىّ بن كعب : لما أخرج اللّه الذرية ، كانت الأنبياء فيهم مثل السرج ، عليهم النور ، فخصوا بميثاق وأخذ الرسالة والنبوة. وقال القشيري : أخذ الميثاق الأول وقت استخراج الذرية من صلب آدم ، عوند بعثة كل رسول ، ونبوّة كل نبىّ ، أخذ ميثاقه ، وذلك على لسان جبريل عليه السّلام ، ومن اختصه بإسماعه كلامه بلا واسطة ملك - كنبينا ليلة المعراج ، وموسى - عليهما السلام - فأخذ الميثاق منهم بلا واسطة ، وكان لنبينا - عليه الصلاة السلام - زيادة حال بأن كان مع سماع الخطاب كشف الرؤية. ثم أخذ المواثيق من العباد بقلوبهم وأسرارهم. هـ.
قال فى الحاشية : والذي يظهر : أن أخذ الميثاق منهم مباشرة لا بوحي ، وذلك فى الغيب ، ولذلك قدّم نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم لأنه النور الأول قبل آدم ، ثم انتقل إلى ظهره ، وحينئذ ، فأخذ الميثاق هنا غيبى ، ولذلك قدّمه. وفى قوله : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ... «٢» فى عالم الظهور ، فلذلك قدّم نوحا ، وثنّى بنبينا لأن نوحا أول أولى العزم ، ونبينا خاتمهم. واللّه أعلم. هـ. والحاصل : أن أخذ الميثاق كان مرتين فى عالم الغيب وفى عالم الشهادة. وهل المراد به هنا الأول أو الثاني؟ قولان.

---

(١) البيت لأبى تمام ، يمدح سليمان بن وهب. انظر ديوان أبى تمام (٣/ ٣٣٥) ، وتاريخ بغداد (١٠/ ٩٧) وفيهما :
أرواحنا فى مكان واحد ، وغدت ... إلخ.
(٢) الآية ١٣ من سورة الشورى.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤١١
وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، قال النسفي : وقدّم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على نوح ومن بعده لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء لأنهم أولو العزم ، وأصحاب الشرائع ، فلمّا كان نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم أفضل هؤلاء قدّم عليهم ، ولو لا ذلك لقدّم من قدّمه زمانه. هـ. وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً وثيقا. وأعاد ذكر الميثاق لانضمام الوصف إليه.
وإنما فعلنا ذلك لِيَسْئَلَ اللّه الصَّادِقِينَ أي : الأنبياء عَنْ صِدْقِهِمْ عما قالوه لقومهم ، وهل بلغوا ما كلفهم به. وفيه تبكيت للكفار ، كقوله : فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ «١» ، أو : ليسأل المصدّقين للأنبياء عن تصديقهم : هل كان بإخلاص أم لا؟ لأن من قال للصادق : صدقت كان صادقا فى قوله. أو : ليسأل الأنبياء : ما الذي أجابتهم أممهم؟ وهو كقوله : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ «٢» ، وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ بالرسل عَذاباً أَلِيماً ، وهو عطف على «أخذنا» لأن المعنى : أن اللّه تعالى أخذ على الأنبياء العهد بالدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين ، وأعدّ للكافرين عذابا أليما. أو : على ما دلّ عليه : لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ ، كأنه قال : فأثاب المؤمنين ، وأعدّ للكافرين عذابا أليما.
الإشارة : كما أخذ اللّه الميثاق على الأنبياء والرسل أخذ الميثاق على العلماء والأولياء. أما العلماء فعلى تبيين الشرائع وتغيير المناكر ، وألا تأخذهم فى اللّه لومة لائم ، وأما أخذه على الأولياء فعلى تذكير العباد وإرشادهم إلى معرفة اللّه ، وتربية من تعلق بهم ، وسياسة الخلق ، ودلالتهم على الحق ، فمن قصر من الفريقين استحق العتاب.
قال القشيري : فلكلّ من الأولياء والأكابر حال ، على ما يؤهلهم له قال صلى اللّه عليه وسلم : «لقد كان فى الأمم محدّثون ، وإن يكن فى أمتى فعمر» ، وغير عمر مشارك لعمر فى خواص كثيرة ، وذلك سر بينهم وبين ربّهم.
ثم قال : قوله تعالى : لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ سؤال تشريف لا تعنيف ، وإيجاب لا عتاب. والصدق : ألا يكون فى أحوالك شوب ، ولا فى اعتقادك ريب ، ولا فى عملك عيب ، ويقال : من أمارات الصدق فى المعاملة : وجود الإخلاص من غير ملاحظة ، وفى الأحوال : تصفيتها [من غير مداخلة الحجاب] «٣» ، وفى القول :
سلامته من المعاريض ، [فيما بينك وبين نفسك] «٤». وفيما بينك وبين الناس : تباعد من التلبيس والتدليس ، وفيما

---

(١) الآية ٦ من سورة الأعراف.
(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري فى (فضائل الصحابة ، باب : مناقب عمر ، ح ٣٦٨٩) ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب : من فضائل عمر ٤/ ١٨٦٤ ، ح ٢٣٩٨).

(٣) فى القشيري [من غير مداخلة إعجاب].

(٤) ما بين المعقوفتين ليس فى الأصول ، وأثبته من القشيري ، وهو ضرورى يقتضيه السياق.

(٤١١/٤)

بينك وبين اللّه : إدامة التبرّى من الحول والقوة ، ومواصلة الاستقامة ، وحفظ العهود معه على الدوام.

وفى التوكل :

عدم الانزعاج عند الفقد ، وزوال البشر [بالوجد] «١» ، وفى الأمر بالمعروف : التحرّز من تخلل المداهنة ، قليلها وكثيرها ، وألّا يترك ذلك لفزع ولا طمع ، ولكن تشرب مما تسقى ، وتتصف بما تأمر ، وتنتهى عما تزجر. ويقال :

الصدق : أن يهتدى إليك كلّ أحد ، ويكون عليك ، فيما تقول وتضمر ، اعتماد. ويقال : الصدق : ألا تجنح إلى التأويلات. انتهى كلام القشيري.

ثم شرع فى غزوة الأحزاب ، التي هى المقصودة من السورة ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٩ الى ١١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (١١)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، أي : ما أنعم اللّه به عليكم يوم الأحزاب ، وهو يوم الخندق ، وكان بعد حرب أحد بسنة. إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ أي : الأحزاب ، وهم : قريش ، وغطفان ، ويهود قريظة والنضير ، وهم السبب فى إتيانهم ، فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً أي : الصّبا ، قال عليه الصلاة والسلام : «نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدّبور» «٢». قيل : كانت هذه الريح معجزة لأن النبي صلى اللّه عليه وسلم والمسلمين كانوا قريبا منها ، ولم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق ، وكانوا فى عافية منها. وَلا شعور لهم بها.

وأرسلنا عليهم جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وهم الملائكة ، وكانوا ألفا ، فقلعت الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور.

وكان سبب غزوة الأحزاب : أن نفرا من اليهود ، منهم ابن أبى الحقيق ، وحيى بن أخطب ، فى نفر من بنى النضير ، لمّا أجلاهم النبيّ صلى اللّه عليه وسلم من بلدهم ، قدموا مكة فحرّضوا قريشا على حرب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ثم خرجوا إلى غطفان ، وأشجع ، وفزارة ، وقبائل من العرب ،

يحرضونهم على ذلك ، على أن يعطوهم نصف تمر خيبر كل

---

(١) فى القشيري [بالوجود]. [.....]

(٢) سبق تخريج الحديث عن تفسير الآية ٤٦ من سورة الروم. فراجعه إن شئت ، أكرمك اللّه.

(٤/٤١٢)

سنة. فخرجت قريش ، وقائدها أبو سفيان ، وخرجت غطفان ، وقائدها عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف فى مرة ، وسعد بن رخيلة «١» فى أشجع ، وعامر بن الطفيل فى هوازن.

فلما سمع النبي صلى اللّه عليه وسلم بهم ، ضرب الخندق على المدينة ، برأى سلمان. وكان أول مشهد شهده مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وهو يومئذ حر. وقال : يا رسول اللّه : إنا كنّا بفارس إذا حوصرنا : خندقنا علينا ، فحفر الخندق ، وباشر الحفر معهم بيده صلى اللّه عليه وسلم. فنزلت قريش بمجتمع الأسيال من الجرف والغابة ، فى عشرة آلاف من أحابيشهم. ونزلت غطفان وأهل نجد بذنب نقمى ، إلى جانب أحد. فخرج النبي صلى اللّه عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع ، فى ثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب هناك عسكره ، والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا فى الآطام «٢».

واشتد الخوف ، فأقام النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وأقام المشركون ، بضعا وعشرين ليلة ، ولم يكن حرب غير الرمي بالنبل والحصى. فلما اشتد البلاء بعث النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف ، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معهما ، وكتبوا الكتاب ولم يقع الإشهاد ، فاستشار النبي صلى اللّه عليه وسلم سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، فقال سعد بن معاذ : أشيء أمرك اللّه به ، لا بدّ لنا من العمل به ، أم شيء تحبه فنصنعه ، أم شيء تصنعه لنا؟

قال : «لا ، بل شيء أصنعه لكم ، أردت أن أكسر عنكم شوكتهم». فقال سعد : يا رسول اللّه لقد كنا مع القوم على شرك وعبادة الأوثان ، لا نعبد اللّه ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة ، إلا قرى ، أو شراء ، أفحين أكرمنا اللّه بالإسلام ، وأعزّنا بك ، نعطيهم أموالنا! لا نعطيهم إلا السيف. فقال - عليه الصلاة والسلام : «فأنت وذاك» ، فمحا سعد ما فى الكتاب ، وقال : ليجهدوا علينا»

.

ثم إن اللّه تعالى بعث عليهم ريحا باردة ، فى ليلة شاتية ، فأحصرتهم ، وأحثت التراب فى وجوههم ، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأكفأت القدور ، وأطفأت النيران ، وجالت الخيل

بعضها فى بعض.
وأرسل اللّه تعالى عليهم الرعب ، وكثر تكبير الملائكة فى جوانب عسكرهم ، حتى كان سيد كل خباء يقول : يا بنى فلان ، هلمّوا ، فإذا اجتمعوا إليه قال : النّجا ، أوتيتم. فانهزموا من غير قتال.
وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً ، أي : بصيرا بعملكم ، من حفر الخندق ، ومعاونة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، والثبات معه ، فيجازيكم عليه. وقرأ أبو عمرو : بالغيب ، أي : بما يعمل الكفار من البغي ، والسعى فى إطفاء نور اللّه ،

---

(١) فى تفسير البغوى [مسعود بن رخيلة].
(٢) الآطام : الحصون. جمع أطم. انظر اللسان (أطم ١/ ٩٣).
(٣) انظر : السيرة لابن هشام (٣/ ٢٢٥).

إِذْ جاؤُكُمْ هو بدل من : (إذ جاءتكم) ، مِنْ فَوْقِكُمْ من أعلى الوادي ، من قبل المشرق. وهم بنو غطفان.
وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ من أسفل الوادي من قبل المغرب ، وهم قريش. وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ مالت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا. أو : مالت إلى عدوها لشدة الخوف ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ رعبا.
والحنجرة : رأس الغلصمة ، وهى منتهى الحلقوم ، الذي هو مدخل الطعام والشراب. قالوا : إذا انتفخت الرئة ، من شدة الفزع والغضب ، ربت ، وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة. وقيل : هو مثل فى اضطراب القلوب ، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة.
روى أن المسلمين قالوا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : هل من شىء نقوله ، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال : «نعم ، قولوا :
اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا» «١».
وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا الأنواع من الظن. والمؤمنون أصناف منهم الأقوياء ، ومنهم الضعفاء ، ومنهم المنافقون. فظن الأقوياء ، المخلصون ، الثبت القلوب أن ينجز اللّه وعده فى إعلاء دينه ، ويمتحنهم ، فخافوا الزلل وضعف الاحتمال ، وأما الآخرون فظنوا ما حكى عنهم ، وهم الذين زاغت أبصارهم ، وبلغت قلوبهم الحناجر ، دون الأقوياء رضى اللّه عنهم ، وقرأ أبو عمرو وحمزة : الظنون بغير ألف ، وهو القياس. وبالألف فيهما : نافع ، والشامي ، وشعبة إجراء للوصل مجرى الوقف. والمكيّ ، وعليّ ،

وحفص : بالألف في الوقف. ومثله : الرَّسُولَا «٢» و(السبيلا) «٣» ، زادوها في الفاصلة ، كما زادوها في القافية ، كقوله :

«أقلّي اللّوم ، عاذل والعتابا» «٤» وهو في الإمام : بالألف.

هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ أي : اختبروا ، فظهر المخلص من المنافق ، والثابت من المنزلزل ، وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً وحركوا ، بالخوف ، تحريكا شديدا.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص اذكروا نعمة اللّه عليكم بالتأييد والنصر ، فحين توجّهتم إليّ ، ودخلتم في طريق ولايتي ، رفضتكم الناس ، ونكرتكم ، ورمتكم عن قوس واحدة ، فجاءتكم جنود الخواطر والوساوس

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣) عن أبى سعيد الخدري رضي اللّه عنه.

(٢) من الآية ٦٦ من سورة الأحزاب.

(٣) من الآية ٦٧ من سورة الأحزاب. وانظر الحجة لأبى على الفارسي (٥/ ٤٦٨ - ٤٦٩).

(٤) صدر بيت لجرير ، وعجزه : وقولي - إن أصبت - لقد أصابا. انظر : معانى القرآن للزجاج (٤/ ٢١٨).

(٤/ ٤١٤)

من كل جانب ، حتى هممتم بالرجوع أو الوقوف. وإذ زاغت الأبصار : مالت عن قصدها بالاهتمام بالرجوع ، وبلغت القلوب الحناجر ، ممن كان ضعيف الإرادة واليقين ، وتظنون باللّه الظنونا ، فمنهم من يظن الاحتكان بعد الامتحان ، فيفرحون بالبلاء ، ومنهم من يظن أنه عقوبة ... إلى غير ذلك ، هنالك ابتلى المؤمنون المتوجهون ليظهر الصادق ، في الطلب ، من الكاذب فيه ، فعند الامتحان يعز المرء أو يهان ، ويظهر الخوّافون من الشجعان ، وزلزلوا زلزالا شديدا ليتخلصوا ويتمحصوا ، كما يتخلص الذهب والفضة من النحاس ، ومن عرف ما قصد هان عليه ما ترك.

قال القشيري : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. يعنى : بمقابلتها بالشكر ، وتذكّر ما سلف من الذي دفع عنك ، يهون عليك مقاساة البلاء في الحال. وبذكرك لما أولاك في الماضي يقرب من الثقة بوصول ما تؤمّله في الاستقبال. فمن جملة ما ذكّرهم قوله : إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ ... الآية : كم بلاء صرفه عن العبد وهو لا يشعر ، وكم شغل كنت بصدده ، فصده عنك ولم تعلم ، وكم أمر صرفه ، والعبد يضج ، وهو - سبحانه - يعلم أن في تيسيره هلاكه ، فيمنعه منه رحمة عليه ، والعبد يتهمه

ويضيق به صدره!. هـ.

ثم ذكر سبحانه نتيجة الابتلاء ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ١٢ الى ١٤]

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلاَّ يَسِيراً (١٤)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : عطف تفسير إذ هو وصف المنافقين ، كقول الشاعر :

إلى الملك القرم ، وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

فابن الهمام هو القرم ، والقرم - بالراء - : السيد. وقيل : الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، هم الذين لا بصيرة بهم فى الدين من المسلمين ، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشّبه عليهم ، قالوا ، عند شدة الخوف : ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً.

روى أن معتّب بن قشير ، المنافق ، حين رأى الأحزاب قال : إن محمدا يعدنا فتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز ، خوفا ، ما هذا إلا وعد غرور. هـ.

وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ من المنافقين ، وهم عبد اللّه بن أبيّ وأصحابه : يا أَهْلَ يَثْرِبَ ، وهم أهل المدينة ، لا مُقامَ لَكُمْ «١» أي : لا قرار لكم هنا ، ولا مكان تقيمون فيه - وقرأ حفص : بضم الميم - اسم مكان ، أو مصدر ، فَارْجِعُوا من عسكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى المدينة هاربين ، أو : إلى الكفر ، فيمكنكم المقام بها ، أو :

لا مقام لكم على دين محمد ، فارجعوا إلى الشرك وأظهروا الإسلام لتسلموا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ أي : بنو حارثة ، يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ : ذات عورة ، أي : خالية غير حصينة ، وهى مما يلى العدو. وأصلها :

الخلل. وقرأ ابن عباس بكسر الواو : (عورة) ، يعنى : قصيرة الجدران ، فيها خلل. تقول العرب : دار فلان عورة إذا لم تكن حصينة ، وعور المكان : إذا بدا فيه خلل يخاف منه العدو والسارق ، ويجوز أن يكون عورة : تخفيف عورة.

اعتذروا أن بيوتهم عرضة للعدو والسارق لأنها غير محصنة ، فاستأذنوا ليحصنوها ثم يرجعوا إليه ، فأكذبهم اللّه تعالى بقوله : وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ ، بل هى حصينة ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً من القتل.
وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مدينتهم ، أو : بيوتهم. من قولك : دخلت على فلان داره. مِنْ أَقْطارِها من جوانبها ، أي : ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة - التي يفرون خوفا منها - مدينتهم ، أو بيوتهم ، من نواحيها كلها ناهبين سارقين ، ثُمَّ سُئِلُوا عند ذلك الفزع ، الْفِتْنَةَ أي : الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين ، أو : القتال فى العصبية ، وهو أحسن لأنهم مسلمون ، لَآتَوْها «٢» لجاءوها وفعلوا. ومن قرأ بالمد فمعناه : لأعطوها من أنفسهم ، وَما تَلَبَّثُوا بِها بإجابتها وإعطائها ، أي : ما احتبسوا عنها إِلَّا يَسِيراً ، أو :
ما لبثوا بالمدينة ، بعد ارتدادهم ، إلا زمانا يسيرا ، ثم يهلكهم اللّه لأن المدينة كالكير تنفى خبثها ، وينصع طيبها ، والمعنى أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم ليفروا عن نصرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، وعن مصافة الأحزاب الذين ملأوهم رعبا ، وهؤلاء الأحزاب كما هم لو سألوهم أن يقاتلوا فتنة وعصبية لأجابوهم ، وما تعللوا بشيء ، وما ذلك إلا لضعف إيمانهم ، والعياذ باللّه.
الإشارة : وإذ قالت طائفة من شيوخ التربية لأهل الفناء : لا مقام تقفون معه إذ قد قطعتم المقامات ، حين تحققتم بمقام الفناء ، فارجعوا إلى البقاء لتقوموا بآداب العبودية ، وتنزلون فى المقامات ثم ترحلون عنها ، كما

---

(١) أثبت المفسر - رحمة اللّه - قراءة (مقام) بفتح الميم ، وهى قراءة الجمهور. وقرأ حفص (مقام) بضم الميم. انظر : الحجة للفارسى (٥/ ٤٧١).
(٢) قرأ نافع وابن كثير : (لأتوها) بالقصر ، وقرأ الباقون : بالمد .. انظر : الإتحاف (٢/ ٣٧٢).

تنزل الشمس فى بروجها ، فكل وقت يبرز فيه ما يقتضى النزول إلى مقامه. فتارة يبرز ما يقتضى التوبة ، وتارة ما يقتضى الخوف والهيبة ، أي : خوف القطيعة ، وتارة ما يقتضى الرجاء والبسط ، وتارة ما يقتضى الشكر ، وتارة الصبر ، وتارة ما يقتضى الرضا والتسليم ، وتارة ما يهيج المحبة أو المراقبة أو المشاهدة. وهكذا ينزل فى المقامات ويرحل عنها ، ولا يقيم فى شيء منها. ويستأذن بعض المريدين فى الرجوع إلى مقامات الإيمان أو الإسلام ، أو شيء من أمور البدايات ، يقولون : إن بيوت تلك المقامات لم نتقنها ، بل فيها عورة وخلل ، وما هى بعورة ، ما يريدون إلا فرارا من ثقل أعباء الحضرة.

ولو دخلت بيوت قلوبهم من أقطارها ، ثم سئلوا الرجوع إلى الدنيا لأتوها لأنها قريبة عهد بتركها ، وما تلبثوا بها إلا زمانا يسيرا ، بل يبغتهم الموت ، ويندمون ، قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى.
وقد كانوا عاهدوا اللّه ألّا يرجعوا إليها ، كما قال تعالى :
[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ١٥ الى ١٧]
وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلاً (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (١٧)
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ أي : قبل غزوة الخندق ، وهو يوم أحد.
والضمير في «كانوا» : لبني حارثة ، عاهدوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم أحد ، حين فشلوا ، ثم تابوا ألا يعودوا لمثله ، وقالوا : لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ منهزمين أبدا ، وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا عن الوفاء به ، مجازى عليه ، أو :
مطلوبا مقتضى حتى يوفي به. قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ، فإنه لا بد لكل شخص من حتف أنفه ، أو : قتل في وقت معين سبق القضاء وجرى به القلم ، وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا أي : إن حضر أجلكم له ينفعكم الفرار ، وإن لم يحضر ، وفررتم ، لن تمتعوا في الدنيا إلا زمانا قليلا ، وهو مدة أعماركم ، وهو قليل بالنسبة إلى ما بعد الموت الذي لا انقضاء له.
قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ أي : يمنعكم مما أراد اللّه إنزاله بكم إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً في أنفسكم من قتل أو غيره ، أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً أي : أراد بكم إطالة عمر في عافية وسلامة. أو : من يمنع اللّه

(٤١٧/٤)

من أن يرحمكم ، إن أراد بكم رحمة ، فحذف بعدا واختصارا ، لما في العصمة من معنى المنع ، أو : من ذا الذي يعصمكم إن أراد بكم سوءا ، أو يصيبكم بسوء ، إن أراد بكم رحمة ، فاختصر الكلام. وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا ينفعهم ، وَلا نَصِيراً يدفع العذاب عنهم.
الإشارة : ولقد كان عاهد اللّه من دخل في طريق القوم ، ألّا يولي الأدبار ، ويرجع إلى الدنيا والاشتغال بها حتى يتفتر عن السير ، وكان عهد اللّه مسئولا ، فيسأله الحق تعالى عن سبب رجوعه عن الإرادة ، ولما ذا حرم نفسه من لذيذ المشاهدة؟ قل - لمن رجع ، ولم يقدر على مجاهدة نفسه : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت لنفوسكم ، أو القتل بمجاهدتها وتجميلها بعكس مرادها ، وتحميلها ما يثقل عليها ، وإذا لا تمتعون إلا قليلا ، ثم ترحلون إلى اللّه ، في غم الحجاب وسوء الحساب. قل : من ذا

الذي يعصمكم من اللّه ، إن أراد بكم سوءا؟ ، وهو البعد والطرد ، أو : من يمنعكم من رحمته ، إن أراد بكم رحمة؟ ، وهى التقريب إلى حضرته ، فلا أحد يعصمكم من إبعاده ، ولا أحد يمنعكم من إحسانه إذ لا ولىّ ولا ناصر سواه. اللهم انصرنا بنصرك المبين ، وارحمنا برحمتك الخاصة ، حتى تقرّبنا إلى حضرتك ، بفضل منك وجودك ، يا أرحم الراحمين.

ثم ذكر نعوت أهل البعد ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ١٨ الى ١٩]

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٩)

يقول الحق جل جلاله : قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ أي : يعلم من يعوّق عن نصرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ويمنع ، وهم المنافقون والمثبطون للناس عن الخروج إلى الغزو ، وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ فى الظاهر من ساكنى المدينة من المسلمين : هَلُمَّ إِلَيْنا تعالوا إلينا ، ودعوا محمدا. ولغة أهل الحجاز فى «هلم» : أنهم يسوون فيه بين الواحد والجماعة. وأما بنو تميم فيقولون : هلم يا رجل ، وهلموا يا رجال .. وهكذا. وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ الحرب

(٤١٨/٤)

إِلَّا قَلِيلًا إلا إتيانا قليلا ، أو يحضرون ساعة رياء ، ويقفون قليلا ، مقدار ما يرى شهودهم ثم ينصرفون. أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ جمع شحيح ، وهو البخيل ، نصب على الحال من ضمير يَأْتُونَ أي : لا يأتون الحرب بخلا عليكم بالمعاونة أو بالنفقة فى سبيل اللّه ، أو : فى الظفر والغنيمة ، أي : عند الظفر وقسم الغنيمة. فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ من قبل العدو ، أو : منه صلى اللّه عليه وسلم ، رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ فى تلك الحالة ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ يمينا وشمالا كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ كما ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخوفا ولواذا بك.

فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ أي : زال ذلك الخوف وأمنوا ، وحيزت الغنائم سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ خاطبوكم مخاطبة شديدة ، وآذوكم بالكلام ، يقال : خطيب سلق : فصيح ، ورجل مسلق وسلّاق : مبالغ فى الكلام. يعنى : بسطوا ألسنتهم فيكم ، وقت قسم الغنيمة ، ويقولون : أعطنا ، أعطنا فإنا قد شهدنا معكم ، وبمكاننا غلبتم عدوكم. أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أي : خاطبوكم أشحة على المال والغنيمة. فهو حال

من فاعل سلقوكم ، فهم أشح القوم عند القسم ، وأجبنهم عند الحرب ، أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فى الحقيقة ، بل بالألسنة فقط ، فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ أبطلها ، بإضمار الكفر مع ما أظهروا من الأعمال الخبيثة ، وَكانَ ذلِكَ الإحباط عَلَى اللَّهِ يَسِيراً هينا.

الإشارة : هذه صفة منافقى الصوفية ، يدخلون معهم على تذبذب ، فإذا رأوا قوما توجهوا لخرق عوائدهم وتخريب ظواهرهم ، أو : أرادوا الخروج عن دنياهم عوّقوهم عن ذلك ، وثبطوهم ، وكذلك إذا توجهوا فى سفر لشقة بعيدة عوقوهم ليستتروا بهم ، وقالوا لإخوانهم فى الطريق : هلم إلينا ، ولا يأتون مكان حرب أنفسهم إلا قليلا. أشحة بأنفسهم عليكم ، فإذا جاء الخوف ، وتجلى لهم الحق تعالى باسمه الجليل بأن نزلت بالفقراء محنة ، رأيتهم ينظرون إليك ، تدور أعينهم ، نظر المغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف ، وجاء النصر والعز سلقوكم بألسنة حداد ، وقالوا : إنا كنا معكم ، أولئك لا نصيب لهم مما للقوم من الخصوصية. واللّه تعالى أعلم.

ثم تمم وصفهم ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٢٠]

يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠)

(٤١٩/٤)

يقول الحق جل جلاله : يَحْسَبُونَ أي : هؤلاء المنافقون الْأَحْزابَ ، يعنى : قريشا وغطفان ، الذين تحزبوا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أي : اجتمعوا ، أنهم لَمْ يَذْهَبُوا ولم ينصرفوا لشدة جبنهم ، مع أنهم انصرفوا. وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ كرة ثانية يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ ، والبادون : جمع باد ، أي : يتمنى المنافقون - لجبنهم - أنهم خارجون من المدينة إلى البادية ، حاصلون بين الأعراب ليأمنوا على أنفسهم ، ويعتزلوا مما فيه الخوف من الحرب ، يَسْئَلُونَ كل قادم منهم من جانب المدينة. وقرئ يساءلون «١» ، بالشد. أي : يتساءلون ، بعضهم بعضا عَنْ أَنْبائِكُمْ عن أخباركم وعما جرى عليكم ، وَلَوْ كانُوا أي :

هؤلاء المنافقون فِيكُمْ أي : حاضرون فى عسكركم ، وحضر قتال ، ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا رياء وسمعة ، ولو كان اللّه لكان كثيرا إذ لا يقل عمل للّه.

الإشارة : الجبان يخاف والناس آمنون ، والشجاع يأمن والناس خائفون ، ولا ينال من طريق القوم شيئا جبان ولا مستحى ولا متكبر. فمن أوصاف الضعفاء : أنهم ، إذا نزلت بالقوم شدة أو محنة - كما

امتحن الجنيد وأصحابه - يتمنون أنهم خارجون عنهم ، وربما خرجوا بالفعل ، وإن ذهبت شوكتهم يحسبون أنهم لم يذهبوا لشدة جزعهم.

ومن أوصافهم : أنهم يكثر سؤالهم عن أخبار القوم ، والبحث عما جرى بهم خوفا وجزعا ولو مضوا معهم لم يغنوا شيئا. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم من أهل القوة ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٢١ الى ٢٤]

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَما زادَهُمْ إِلاَّ إِيماناً وَتَسْلِيماً (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٤)

---

(١) وهى قراءة رويس ، ورويت عن زيد بن على ، وقتادة ، وغيرهما. انظر الإتحاف (٢/ ٣٧٣).

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ محمد صلى اللّه عليه وسلم أُسْوَةٌ «١» حَسَنَةٌ خصلة حسنة ، من حقها أن يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ، ومقاساة الشدائد ، ومباشرة القتال. أو : فى نفسه قدوة يحسن التأسى به. كما تقول : فى البيضة عشرون رطلا من حديد ، أي : هى فى نفسها عشرون. وفيه لغتان : الضم والكسر ، كالعدوة والعدوة ، والرشوة والرشوة. وهى لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ أي : يخاف اللّه ويخاف اليوم الآخر ، أو : لأجل ثواب اللّه ونعيم اليوم الآخر. و«لمن» : قيل : بدل من ضمير «لكم» ، وفيه ضعف إذ لا يبدل من ضمير المخاطب إلا ما دل على الإحاطة. وقيل : يتعلق بحسنة ، أي : أسوة حسنة كائنة لمن آمن ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً أي : فى الخوف والرجاء ، والشدة والرخاء ، فإن المؤتسى بالرسول يكون كذلك.

وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قد أقبلوا عليهم ليستأصلوهم ، وقد وعدهم اللّه أن يسلط عليهم المحن ، ويزلزلوا حتى يستغيثوا ويستنصروا بقوله : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ .. إلى قوله : نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ «٢» ، فلما جاء الأحزاب واضطربوا قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وعلموا أن الجنة والنصرة قد وجبت لهم. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه

أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال لأصحابه : «إنّ الأحزاب سائرون إليكم في آخر تسع ليال ، أو عشر» ، فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد ، قالوا ذلك «٣». وهذا : إشارة إلى الخطب والبلاء ، أي : هذا الخطب الذي وعدنا اللّه ورسوله ، وصدق اللّه ورسوله ، وَما زادَهُمْ ، ما رأوا من اجتماع الأحزاب ومجيئهم ، إِلَّا إيماناً باللّه وبمواعيده ، وَتَسْلِيماً لقضائه وأقداره.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ

أي : صدقوا فيما عاهدوه ، فحذف الجار ، وأوصل المفعول إلى «ما» وذلك أن رجالا من الصحابة نذروا أنهم إذا لقوا حربا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثبتوا ، وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم : عثمان بن عفان ، وطلحة ، وسعيد بن زيد ، وحمزة ، ومصعب ، وأنس بن النضر ، وغيرهم. فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ نذره بأن قاتل حتى استشهد كحمزة ، ومصعب ، وأنس بن النضر. والنّحب : النذر ، واستعير للموت لأن كل حى من المحدثات لا بد له أن يموت ، فكأنه نذر لازم في رقبته ، فإذا مات فقد قضى نحبه ، أي :

نذره. وقال في الصحاح : النحب : النذر ، ثم قال : والنّحب : المدة والوقت. يقال : قضى فلان نحبه إذا مات. هـ. فهو

---

(١) قرأ عاصم (أسوة) بضم الهمزة ، حيث كان ، وهى لغة قيس وتميم ، وقرأ الباقون بكسرها حيث وقعت. وهى لغة الحجاز.

انظر الإتحاف (٢/ ٣٧٣).

(٢) الآية ٢١٤ من سورة البقرة.

(٣) قال الحافظ ابن حجر ، في الكافي الشاف (ص ١٣٣ ، رقم ٢٠٨) : لم أجده. [.....]

لفظ مشترك بين النذر والموت. وصحح ابن عطية أن النحب الذي في الآية ليس من شرطه الموت. بل معناه :

قضى نذره الذي عاهد اللّه عليه من نصرة الدين ، سواء قتل أو بقي حيّا. بدليل قوله - عليه الصلاة والسلام - في طلحة : «هذا ممن قضى نحبه» «١» هـ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ أي : الموت على الشهادة كعثمان وطلحة ، وَما بَدَّلُوا العهد تَبْدِيلًا ولا غيّروه ، لا المستشهد ، ولا من ينتظر الشهادة. وفيه تعريض بمن بدّل من أهل النفاق ، كقوله تعالى فيما مر : وَلَقَدْ

كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ ... «٢». لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ بوفائهم بالعهد ، وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ إذا لم يتوبوا ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إن تابوا إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً بقبول التوبة ، رَحِيماً بعفو الحوبة.

الإشارة : قد تقدم ما يتعلق بالاقتداء بالرسول - عليه الصلاة والسلام - والاهتداء بهديه ، وأنه منهاج الأكابر.

وقوله تعالى : وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ ... الآية. كذلك الأقوياء من هذه الطائفة ، إذا رأوا ما يهولهم ويروعهم زادهم ذلك إيمانا وتسليما ، ويقينا وطمأنينة ، وتحققوا بصحة الطريق إذ هو منهاج السائرين والأولياء الصادقين ، وسنة الأنبياء والمرسلين. قال تعالى : أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ «٣» الآية. وتقدم فى إشاراتها ما يتعلق بهذا المعنى.

قال بعضهم : نحن كالنجوم ، كلما اشتدت الظلمة قوّى نورنا. وقال القشيري : كما أن المنافقين اضطربت عقائدهم عند رؤية الأعداء ، فالمؤمنون وأهل اليقين زادوا ثقة ، وعلى الأعداء جرأة ، ولحكم اللّه استسلاما ، وفى اللّه قوة. ثم قال : قوله تعالى : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا .... الآية ، شكر صنيعهم فى المراس ، ومدح يقينهم عند شهود الناس ، وسماهم رجالا إثباتا لهم بالخصوصية فى الرتبة ، وتمييزا لهم من بين أشكالهم بعلوّ الحالة ، فمنهم من خرج من دنياه على صدقه ، ومنهم من ينتظر حكم اللّه فى الحياة والممات ، وحقيقة الصدق : حفظ العهد وترك مجاوزة الحدّ. ويقال : استواء السّرّ والجهر. ويقال : هو الثبات عند ما يكون الأمر جدّا.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (المناقب ، مناقب طلحة بن عبيد اللّه ٥/ ٦٠٢ ، ح ٣٧٤٠) وابن ماجة فى (المقدمة : باب فى فضائل أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ١/ ٤٦ ، ح ١٢٦). من حديث معاوية رضي اللّه عنه.

(٢) الآية ١٥ من سورة الأحزاب.

(٣) الآية الثانية من سورة العنكبوت.

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

قوله تعالى : .. لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ .. فى الدنيا بالتمكين ، والنصرة على العدو ، وإعلاء الرتبة ، وفى الآخرة بجزيل الثواب ، وجميل المآب ، والخلود فى النعيم المقيم ، والتقدم على الأشكال بالتكريم والتعظيم. وقوله : وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ يقال : إذا لم يجزم بعقوبة المنافق ، وتعلّق القول فيه على الرجاء ، فبالحرىّ ألا يخيّب المؤمن فى رجائه. انتهى كلام القشيري.

ثم ذكر رجوع الأحزاب ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٢٥ الى ٢٧]

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢٧)

يقول الحق جل جلاله : وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : الأحزاب بِغَيْظِهِمْ ملتبسين بغيظهم ، فهو حال كقوله : تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ «١» أي : ردهم غائظين لَمْ يَنالُوا خَيْراً ظفرا ، أي : لم يظفروا بالمسلمين. وسمّاه «خيرا» بزعمهم ، وهو أيضا حال ، أي : غير ظافرين ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ بالريح ، والملائكة ، وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً قادرا غالبا ، فقهرهم بقدرته وغلبهم بقهريته. وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ : عاونوا الأحزاب وجاءوا بهم مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ ، يعنى بنى قريظة ، أنزلهم مِنْ صَياصِيهِمْ من حصونهم. والصيصة :

ما يتحصن به قال الهروي : وكل ما يتحصن به فهو صيصة ، ويقال لقرون البقر والظبى : صياصى لأنها تتحصن بها ، وفى وصف أصحاب الدجال : «شواربهم كالصياصى» ، لطولها ، وفتلها ، فصارت كالقرون. هـ.

روى أن جبريل عليه السّلام أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب ، ورجع المسلمون إلى المدينة - على فرسه الحيزوم ، والغبار على وجه الفرس والسّرج ، فقال : ما هذا يا جبريل؟ فقال : من متابعة قريش. ثم قال : إن اللّه يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة ، وأنا عائد إليهم ، فإن اللّه داقّهم دقّ البيض على الصّفا ، وهم لكم طعمة.

(١) من الآية ٢٠ من سورة المؤمنون.

(٤٢٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٢٤

وفى رواية : لمّا رجع - عليه الصلاة والسلام - ودخل مغتسله ، جاءه جبريل بعمامة من إستبرق ، على بغلة ، عليها قطيفة من ديباج ، فقال : قد وضعت السّلاح ، واللّه ما وضعت الملائكة السلاح ، وما رجعت إلا من طلب القوم ، وإن اللّه يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة. فأذّن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى الناس : أنّ من كان سامعا مطيعا فلا يصلّين العصر إلا فى بنى قريظة. فخرج إليهم ، فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة. فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : تنزلون على حكمى؟ فأبوا ، فقال : تنزلون على حكم سعد بن معاذ؟ فرضوا به. فقال سعد : نحكم فيهم : أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ونساؤهم. فكبّر النبىّ صلى اللّه عليه وسلم وقال : «لقد حكم فيهم بحكم اللّه من فوق سبع أرقعة» «١».

ثم استنزلهم ، وخندق فى سوق المدينة خندقا ، وقدّمهم ، فضرب أعناقهم. وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة.

وقيل : كانوا ستمائة مقاتل ، وسبعمائة أسير ، فقتل المقاتلة ، وقسم الأسارى ، وهم الذراري والنساء. وكان علىّ والزبير - رضى اللّه عنهما - يضربان أعناق بنى قريظة. والنبي صلى اللّه عليه وسلم جالس هناك. والقصة مطولة فى كتب السير «٢».

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ الخوف. وفيه السكون والضم ، فَرِيقاً تَقْتُلُونَ ، وهم الرجال وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وهم النساء والذراري. قالت عائشة رضى اللّه عنهما : لم يقتل صلى اللّه عليه وسلم من نساء بنى قريظة امرأة إلا واحدة ، قتلها بخلاد بن سويد ، كانت شدخت رأسه بحجر من فوق الحصن «٣».

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ كالمواشى والنقود والأمتعة. روى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار ، وقال لهم : «إنكم فى منازلكم». وَأورثكم أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها بعد ، قيل : خيبر ، ولم يكونوا نالوها ، أو : مكة ، أو : فارس والروم ، أو : كل أرض لم تفتح إلى يوم القيامة ، فمكّنهم اللّه من ذلك كله ، وفتح عليهم مشارق الأرض ومغاربها. وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ، فيقدر على جميع ذلك.

الإشارة : هذه عادة اللّه مع خواصه ، أن يخوفهم ثم يؤمنهم ، ويذلهم ثم يعزهم ، ويفقرهم ثم يغنيهم ، ويجعل دائرة السوء على من ناوأهم ، ويكفيهم أمرهم من غير محاربة ولا قتال ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ

الْقِتالَ ... الآية. ثم يكون لهم التصرف فى الوجود بأسره ، أمرهم بأمر اللّه ، وحكمهم بحكمه ، واللّه غالب على أمره.

---

(١) أخرجه الطبري فى التفسير (٢١/ ١٥٣). وأخرجه البخاري ومسلم بلفظ : «لقد حكمت فيهم بحكم الملك» ، انظر صحيح البخاري (المغازي ، باب مرجع النبي صلى اللّه عليه وسلم من الأحزاب. ح ٤١١١٧ ، ٤١١٩) ومسلم (الجهاد ، باب جواز قتال من نقض العهد ، ٣/ ١٣٨٨ - ١٣٨٩ ، ح ٦٤ - ٦٥ - ٦٦).
وقوله صلى اللّه عليه وسلم : «أرقعة» يعنى سبع سموات. وكل سماء يقال لها : (رقيع). انظر النهاية (رقع). ولسان العرب (٣/ ١٧٠٥).
(٢) راجع السيرة لابن هشام (٣/ ٣٣٣ - ٣٤٣).
(٣) أخرجه الطبري (٢١/ ١٥٣ - ١٥٤).

(٤٢٤/٤)

ولمّا نصر اللّه رسوله ، وفرّق عنه الأحزاب ، وفتح عليه قريظة والنضير ، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس أموال اليهود وذخائرهم ، فقعدن حوله : وقلن : يا رسول اللّه بنات كسرى وقيصر فى الحلي والحلل والإماء والخول «١» ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه - عليه الصلاة والسلام - لمطالبتهن له بتوسعة الحال ، وأن يعاملهن به بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم ، فأنزل اللّه تعالى :
[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]
يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (٢٩)
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ ، وكن تسعا خمسا من قريش : عائشة بنت الصدّيق ، وحفصة بنت الفاروق ، وأم حبيبة بنت سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبى أمية ، وصفية بنت حيي الخيبرية ، من بنى إسرائيل ، من ذرية هارون عليه السّلام ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقيّة. أي : فقل لهن إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها أي : التوسعة فى الدنيا وكثرة الأموال والحلل ، فَتَعالَيْنَ أي : أقبلن بإرادتكن واختياركن. وأصل «تعال» أن يقوله من فى المكان المرتفع لمن فى المكان الأدنى ، ثم كثر استعماله فى كل أمر مطلوب. أُمَتِّعْكُنَّ أي : أعطكن متعة الطلاق. وتستحب المتعة لكل مطلقة إلا المفوّضة قبل الوطء مع

أخواتها ، كما فى كتب الفقه. وَأُسَرِّحْكُنَّ أطلقكن سَراحاً جَمِيلًا لا ضرر فيه.
وقيل : سبب نزولها : أنهن سألنه زيادة النفقة ، وقيل : آذينه بغيرة بعضهن من بعض ، فاغتم - عليه الصلاة والسلام - لذلك. وقيل : هجرهن شهرا ، فنزلت. وهى آية التخيير. فبدأ بعائشة - رضى اللّه عنها - وكانت أحبهن إليه ، فخيّرها ، وقرأ عليها القرآن ، فاختارت اللّه ورسوله والدار الآخرة ، فرؤى الفرح فى وجهه صلى اللّه عليه وسلم ، ثم اختارت جميعهنّ اختيارها. وروى أنه قال لعائشة : «إنّى ذاكر لك أمرا ، ولا عليك ألا تعجلى فيه حتّى تستأمرى أبويك» ، ثمّ قرأ عليها الآية ، فقالت : أفي هذا استأمر أبوىّ؟ فإنّى أريد اللّه ورسوله والدّار الآخرة «٢».

---

(١) خول الرّجل : حشمه وأتباعه ، واحدهم : خائل ، وقد يكون واحدا. وهو مأخوذ من التخويل ، أي : التمليك ، وقيل : من الرعاية. انظر النهاية (٢/ ٨٨) واللسان (خول ٢/ ١٢٩٣).
(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة الأحزاب ، ح ٤٧٨٥) ومسلم فى (الطلاق ، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية ٢/ ١١٠٣ ، ح ١٤٧٥) من حديث سيدنا جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه.

(٤/٤٢٥)

وحكم التخيير فى الطلاق : أنه إذا قال لها : اختاري ، فقالت : اخترت نفسى ، أن تقع تطليقة واحدة بائنة ، وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء. قاله النسفي. وقال ابن جزى : وإذا اختارت المرأة الطلاق فمذهب مالك : أنه ثلاث ، وقيل : طلقة بائنة. وقيل : رجعية. ووصف السراح بالجميل يحتمل أن يريد أنه دون الثلاث ، أو : يريد الثلاث ، وجماله : حسن المرعى ، والثناء ، وحفظ العهد. هـ.
وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ ، «من» : للبيان ، أَجْراً عَظِيماً ، فاخترن - رضى اللّه عنهن - ما هو مناسب لحاله - عليه الصلاة والسلام - ، حين خيّر بين أن يكون نبيا عبدا ، أو نبيا ملكا ، فاختار أن يكون نبيا عبدا ، لا ملكا. فاخترن العبودية ، التي اختارها - عليه الصلاة والسلام.
الإشارة : ينبغى لمن قلّده اللّه نساء متعددة أن يخيّرهن ، اقتداء برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذ لا يخلو من حال الغيرة ، فإذا خيّرهن فينبغى أن يغيب عن تشغيبهن ، ولم يصغ بأذنه إلى حديثهن ، ولا ينبغى أن يغتم من أجل الغيرة ، فإنها طبع لازم للبشر ، وليقدّر فى نفسه : أنه إذا تزوجت زوجته غيره ، وهى فى عصمته ، هل يقدر على ذلك أم لا ، فالأمر واحد. واللّه أعلم.

قال القشيري : لم يرد أن يكون قلب واحد من المؤمنين والمؤمنات منه فى شغل ، أو يعود إلى واحد منهم أذى ، أو تعب من الدنيا ، فخيّر صلى اللّه عليه وسلم بأمر ربه نساءه ، ووفق اللّه عائشة ، حتى أخبرت عن صدق قلبها ، وكمال دينها ويقينها ، وما هو المنتظر من أصلها ونيتها. والباقيات جرين على منهاجها ، ونسجن على منوالها. هـ.

ثم هددهن وبشّرهن ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٣٠ الى ٣١]

يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً (٣١)

يقول الحق جل جلاله : يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ بسيئة بليغة فى القبح مُبَيِّنَةٍ ظاهر فحشها ، من : بيّن ، بمعنى : تبيّن. وقرأ المكي وشعبة بفتح الياء ، وهى عصيانهنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ونشوزهن.

قال فى المقدمات : كل فاحشة نعتت فى القرآن بالبينة فهى بالنطق ، والتي لم تنعت بها زنى. هـ.

يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ أي : ضعفى عذاب غيرهنّ من النساء لأن الذنب منهن أقبح فإنّ قبح الذنب يتبع زيادة فضل

(٤٢٦/٤)

المذنب والنعمة عليه ، ولذلك قيل : ليست المعصية فى القرب كالمعصية فى البعد. وليس لأحد من النساء مثل فضل النساء النبي صلى اللّه عليه وسلم ، ولذا كان الذم للعاصى العالم أشدّ منه للعاصى الجاهل لأن المعصية من العالم أقبح ، وفى الحديث : «أشدّ الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه اللّه بعلمه» «١» لقوة الجرأة فى العالم دون غيره. ولهذا أيضا فضل حدّ الأحرار على العبيد ، ولم يرجح الكافر. وَكانَ ذلِكَ أي : تضعيف العذاب عليهن عَلَى اللَّهِ يَسِيراً هينا.

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ أي : يدم على الطاعة لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ أي : مثل ثوابى غيرها ، مرة على الطاعة ، ومرة على طلبهن رضا النبي صلى اللّه عليه وسلم ، بالقناعة ، وحسن المعاشرة. وقرأ حمزة والكسائي بالغيب «٢» على لفظ «من» ، وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً جليل القدر ، وهو الجنة.

الإشارة : من شأن الملك أن يعاتب الوزراء بما لا يعاتب غيرهم ، ويهددهم بما لا يهدد به غيرهم ، ويعطيهم من التقريب والكرامة ما لا يعطى غيرهم ، فإن هفوا وزلّوا عاتبهم ، ثم يردهم إلى مقامهم ،

وربما سمح وأغضى.

والغالب : أن الحق تعالى يعجل عتلت خواصه ، فى الدنيا قبل الآخرة ، بمصائب وأهوال ، تصفية وتطهيرا ، ولا يبعدهم من حضرته بما اقترفوا. قال القشيري : زيادة العقوبة على الجرم من أمارات الفضيلة ، كحدّ الحر والعبد ، وتقليل ذلك من أمارات النقص ، ولمّا كانت منزلتهن فى الشرف تزيد وتربو على منزلة جميع النساء ، تضاعفت عقوبتهن على أجرامهن ، وتضاعف ثوابهن على طاعتهن ، فقال : وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ ... وقال : لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ ... الآية هـ. واللّه تعالى أعلم.

ثم وصّاهن بما يليق بجنابهن المعظم ، فقال :

يا نِساءَ النَّبِيِّ ...

---

(١) رواه الطبراني فى الصغير (١/ ١٨٢) والبيهقي فى الشعب (ح ١٧٧٨) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه ، وقال الهيثمي فى المجمع (١/ ١٨٥) (: رواه الطبراني فى الصغير ، وفيه عثمان البرسي ، ضعّفه أحمد ، والنسائي ، والدارقطني.

(٢) قرأ حمزة والكسائي «يعمل» و«يؤتها» بالياء ، وقرأ الباقون «تعمل» و«نوتها». انظر الحجة للفارسى (٥/ ٤٧٤).

(٤/ ٤٢٧)

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٣٢]

يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ أي : لستن كجماعة من جماعات النساء ، أي : إذا تقصيت أمة النساء ، جماعة جماعة ، لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل ، فكما أنه - عليه الصلاة والسلام - ليس كأحد من الرجال ، كما قال : «إنى لست كأحدكم ...» «١» ، كذلك زوجاته التي شرفن به. وأصل «أحد» : وحد ، بمعنى : واحد ، فوضع فى النفي العامّ ، مستويا فيه المذكّر والمؤنث ، والواحد وما وراءه ، أي :

لستن فى الشرف كأحد من النساء ، إِنِ اتَّقَيْتُنَّ مخالفة اللّه ورضا رسوله ، فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ أي : إذا كلمتن الرجال من وراء الحجاب ، فلا تجئنّ بقولكنّ خاضعا ، أي : لينا خنثا مثل قول المريبات ، فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ريبة ، وفجور ، وهو جواب النهى ، وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً حسنا مع كونه

خشينا.

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً (٣٤)

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ أي : استكن فيه ، والزمن بيوتكن من غير خروج. وقرأ نافع وعاصم بالفتح ، وهو من :

قرر يقرر ، لغة فى قرّ بالمكان ، وأصله : اقررن ، فحذفت الراء ، تخفيفا ، وألقيت فتحتها على ما قبلها. وقيل : من : قار يقار : إذا اجتمع. والباقون بالكسر ، من : قرّ بالمكان يقرّ - بالكسر ، وأصله : اقررن ، فنقلت كسرة الراء إلى القاف ، وحذفت الراء. وقيل : من : وقر يقر وقارا.

وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى أي : لا تتبخترن فى المشي تبختر أهل الجاهلية ، فالتبرج : التبختر فى المشي وإظهار الزينة ، أي : ولا تبرجن تبرجا مثل تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى أي : القديمة ، وهو الزمان الذي ولد فيه إبراهيم عليه السّلام ، فكانت المرأة تتخذ فيه الدرع من اللؤلؤ ، وتعرض نفسها على الرجال ، زمان نمرود الجبار ، والناس كلهم كفار. أو : ما بين آدم ونوح - عليهما السلام - ثمانمائة سنة. وكان نساؤهم أقبح ما يكون ، ورجالهم حسان ، فتريده المرأة على نفسها. أو : زمن داود وسليمان - عليهما السلام - ، وكان للمرأة قميص من الدّر ، غير

---

(١) بعض حديث شريف ، لفظه كاملا : «إنى لست كهيئتكم ، إنى أطعم وأسقى» أخرجه مسلم فى (الصيام ، باب النهى عن الوصال فى الصوم ، ٢/ ٧٧٤ ، ح ١١٠٢) من حديث سيدنا عبد اللّه ابن عمر رضي اللّه عنه.

مخيط الجانبين ، فتظهر صورتها فيه. والجاهلية الأخرى : ما بين عيسى ومحمد - عليهما السلام - أو : الجاهلية الأولى : جاهلية الكفر قبل الإسلام ، والجاهلية الأخرى : جاهلية الفسوق والفجور فى الإسلام.

وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ ، خصهما بالذكر تفضيلا لهما لأن من واظب عليهما جرتاه إلى غيرهما.

وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فى سائر ما أمركن به ، ونهاكن عنه.

إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ أي : يا أهل البيت ، أو : أخص أهل البيت. وفيه دليل على أن نساءه من أهل بيته. قال البيضاوي : وتخصيص أهل البيت بفاطمة وعلى وابنيهما ، لما روى أنه – عليه الصلاة والسلام – خرج ذات غدوة عليه مرط مرحّل «١» من شعر أسود ، فجاءت فاطمة ، فأدخلها ، ثم جاء عليّ ، فأدخله فيه ، ثم جاء الحسن والحسين ، فأدخلهما فيه ، فقال : «إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ...» «٢»

والاحتجاج بذلك على عصمتهم ، وكون اجتماعهم حجة ، ضعيف لأن التخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها ، والحديث يقتضى أنهم من أهل البيت ، لا أنه ليس غيرهم. هـ. وإنما قال : عَنْكُمُ لأنه أريد الرجال والنساء. والرجس : كل ما يدنس ، من ذنب ، أو عيب ، أو غير ذلك ، وقيل : الشيطان.

وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً من نجاسات الآثام والعيوب ، وهو كالتعليل لما قبله ، فإنما أمرهن ، ونهاهن ، ووعظهن لئلا يقارف أهل البيت ما يدنس ، من المآثم ، وليتصونوا عنها بالتقوى. واستعار للذنب الرجس ، وللتقوى الطهر لأن عرض المقترف للمستقبحات يتلوث بها كما يتلوث بدنه بالأرجاس وأما من تحصّن منها فعرضه مصون ، نقى كالثوب الطاهر. وفيه تنفير لأولى الألباب عن كل ما يدنس القلوب من الأكدار ، وترغيب لهم فى كل ما يطهر القلوب والأسرار ، من الطاعات والأذكار.

وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ القرآن وَالْحِكْمَةِ السنّة ، أو : بيان معانى القرآن ، أو : ما يتلى عليكن من الكتاب الجامع بين الأمرين. إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً عالما بغوامض الأشياء. خَبِيراً عالما بحقائقها ، أو : هو عالم بأقوالكن وأفعالكن ، فاحذرن مخالفة أمره ونهيه ، ومعصية رسوله صلى اللّه عليه وسلم.

الإشارة : علّق الحق تعالى شرف نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم وتفضيلهن على سبعة أمور ، ويقاس عليهن غيرهن من سائر النساء ، فمن فعل هذه الأمور حاز شرف الدنيا والآخرة. الأول : تقوى اللّه فى السر والعلانية ، وهى أساس

---

(١) المرط : الكساء ، جمعه : «مرط». انظر : النهاية (مرط ٤/ ٣١٩). والمرحّل : الذي نقش فيه تصاوير رحال الإبل. انظر : النهاية (رحل ٢/ ٢١٠).

(٢) أخرجه مسلم فى (فضائل الصحابة ، باب فضل أهل البيت ٤/ ١٨٨٣ ، ح ٢٤٢٤) من حديث السيدة عائشة – رضى اللّه عنها – . [.....]

الشرف. الثاني : التحصن مما يوجب ميل الرجال إليهن من التخنث فى الكلام وغيره. الثالث : لزوم البيوت والقرار بها. وقد مدح اللّه نساء الجنة بذلك فقال : حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ «١». الرابع : عدم التبرج ، وهو إظهار الزينة حيث يحضر الرجال. الخامس : إقامة الصلاة وإتقانها وإيتاء الصدقة. السادس : طاعة اللّه ورسوله ، ويدخل فيه طاعة الزوج. السابع : لزوم ذكر اللّه ، وتلاوة كتابه لمن تحسن ذلك فى بيتها. فمن فعلت من النساء هذه الأمور أذهب اللّه عنها دنس المعاصي والعيوب ، وطهرها تطهيرا ، وأبدلها بمحاسن الأخلاق والشيم الكريمة.

واللّه تعالى أعلم.

ولما نزل فى نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم ما نزل ، قال نساء المؤمنين : فما نزل فينا؟ فأنزل اللّه تعالى :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٣٥]

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ أي : الداخلين فى الإسلام ، المنقادين لأحكام اللّه قولا وفعلا ، فالمسلم : هو الداخل فى السلم بعد الحرب ، المنقاد الذي لا يعاند ، أو : المفوّض أمره إلى اللّه ، المتوكل عليه ، من : أسلم وجهه إلى اللّه ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ المصدّقين بالله ورسوله ، وبما يجب أن يصدّق به ، وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ المداومين على الطاعة ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ فى النيات ، والأقوال ، والأفعال ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ على الطاعات وترك السيئات ، وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ المتواضعين للّه بالقلوب والجوارح ، أو : الخائفين ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ فرضا ونفلا ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ فرضا ونفلا. وقيل : من تصدق فى أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين ، ومن صام البيض من كل شهر ، فهو من

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الرحمن.

الصائمين ، وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ عما لا يحلّ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ بقلوبهم

وألسنتهم ، بالتسبيح ، والتهليل ، والتكبير ، وتلاوة القرآن ، وغير ذلك من الأذكار ، والاشتغال بالعلم للّه ، ومطالعة الكتب من الذكر. وحذف «كثيرا» فى حق الذاكرات لدلالة ما تقدم عليه.
وقال عطاء : من فوض أمره إلى اللّه فهو داخل فى قوله : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ ، ومن أقرّ بأن اللّه ربه ، وأن محمدا رسوله ، ولم يخالف قلبه لسانه ، فهو من المؤمنين والمؤمنات ، ومن أطاع اللّه فى الفرض ، والرسول فى السنّة ، فهو داخل فى قوله : وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ ، ومن صلى فلم يعرف من عن يمينه وعن شماله ، فهو داخل فى قوله : وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ ، ومن صبر على الطاعة وعن المعصية ، وعلى الذرية ، فهو من الصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ ، ومن تصدّق فى كل أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين والمتصدقات ، ومن صام فى كل شهر أيام البيض ، الثالث عشر وما بعده ، فهو من الصائمين والصائمات ، ومن حفظ فرجه عما لا يحل فهو من الحافظين فروجهم والحافظات ، ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو من الذاكرين اللّه كثيرا والذاكرات «١».
قال ابن عباس : (جاء إسرافيل عليه السّلام إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال يا محمد : سبحان اللّه ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه ، عدد ما علم ، وزنة ما علم ، وملء ما علم. من قالهن كتبت له ست خصال كتب من الذاكرين اللّه كثيرا والذاكرات ، وكان أفضل ممن ذكره فى الليل والنهار ، وكان له عرش فى الجنة ، وتحاتت عنه ذنوبه ، كما تحات ورق الشجر اليابس ، وينظر اللّه إليه ، ومن نظر اليه لم يعذبه). وقال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين اللّه كثيرا والذاكرات حتى يذكر اللّه قائما وقاعدا ومضجعا. هـ. من الثعلبي.
وسئل ابن الصلاح عن القدر الذي يصير به العبد من الذاكرين اللّه كثيرا؟ فقال : إذا واظب على الأذكار المأثورة صباحا ومساء ، وفى الأوقات والأحوال المختلفة ، ليلا ونهارا ، كان من الذاكرين كثيرا. هـ. قلت : وقد تتبعت ذلك فى تأليف مختصر سميته : «الأنوار السنية في الأذكار النبوية».
هذا وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين. وهو ضرورى كقوله : ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً «٢». وعطف الزوجين على الزوجين لتغاير الوصفين ، وليس بضرورى ، ولو قال : «إن المسلمين والمسلمات المؤمنين والمؤمنات» بغير واو لجاز ، كقوله : مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ ... إلخ. وهو من عطف الصفة ، ومعناه : إن الجامعين والجامعات

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٣٥٢).

(٢) من الآية ٥ من سورة التحريم.

لهذه الصفات. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً لما اقترفوا من السيئات ، وَأَجْراً عَظِيماً على طاعتهم. قال البيضاوي : والآية وعد لهن ، ولأمثالهن ، على الطاعة والتدرّع بهذه الخصال. روى أن أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم قلن : ذكر الرجال فى القرآن بخير فما فينا خير ، فنزلت «١». ه.

الإشارة : اعلم أن اصطلاح الصوفية أن ما يتعلق بعمل الجوارح الظاهرة يسمى إسلاما ، وما يتعلق بعمل القلوب الباطنية يسمى إيمانا ، وما يتعلق بعمل الأرواح والأسرار يسمى إحسانا. قال فى البغية :

فالإسلام يشتمل على وظائف الظاهر ، وهى الغالبة عليه ، وذلك من عالم الشهادة ، والإيمان يشتمل على وظائف الباطن ، وهى الغالبة عليه ، وذلك من عالم الغيب ، وهى الأعمال الغيبية ، ولمّا انفتح لها باب من الأعمال الظاهرة للعبادة ، وأشرقت عليها من ذلك أنوار ، وتعلقت همتها بعالم الغيب ، مالت إلى الوفاء بالأعمال الباطنة ، ثم لمّا تمكنت فى الأعمال الباطنة ، واطلعت على عالمها ، وأشرفت على طهارتها ، وتعلقت همتها بعالم الملكوت ، مالت إلى الوفاء بالأسرار الإحسانية ، ومن هناك تدرك غاية طهارتها وتصفيتها ، والاطلاع على معارف الحقائق الإلهية. ثم قال : فإذا تبين هذا ، فالإسلام له معنى يخصه ، وهو انقياد الظاهر بما تكلف به من وظائف الدين ، مع ما لا بد منه من التصديق.

والإيمان له معنى يخصه ، وهو تصديق القلب بجميع ما تضمنه الدين من الأخبار الغيبية ، مع ما لا بد منه من شعبه. والإحسان له معنى يخصه ، وهو تحسين جميع وظائف الدين الإسلامية والإيمانية ، بالإتيان بها على أكمل شروطها ، وأتم وظائفها ، خالصة من جميع شوائب عللها ، سالمة من طوارق آفاتها. ه.

قلت : ولا يكفى فى مقام الإحسان تحسين الوظائف فقط ، بل لا بد فيه من كشف حجاب الكائنات ، حتى يفضى إلى شهود المكوّن ، فيعبد اللّه على العيان. كما فى الحديث : «أن تعبد اللّه كأنك تراه».

فإذا تقرر هذا فالآية مشتملة على تدريج السلوك فأول مقامات المريد : الإسلام ، ثم الإيمان ، كما فى الآية ، ثم يكون من القانتين المداومين على الطاعة ، ثم يكون من الصادقين فى أقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، صادقا فى طلب مولاه ، غائبا عن كل ما سواه ، ثم من الصابرين على مجاهدة النفس ، ومقاساة الأحوال ، وقطع المقامات والمفاوز. وقال القشيري : من الصابرين على الخصال الحميدة وعن الخصال الذميمة ، وعند جريان مفاجآت القضية. ه. ثم من الخاشعين الخاضعين لهيبة الجلال ، مشاهدا لكمال أنوار الجمال. قال القشيري : الخشوع : إطراق السريرة عند بواده الحقيقة. ه.

---

(١) أخرجه ، بنحوه ، أحمد فى المسند (٦/ ٣٠١) والحاكم ، وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٤١٦) ، والطبراني فى الكبير (٢٣/ ٢٦٣ ح ٥٥٤) و(٢٣/ ٢٩٤ ح ٦٥٠) من حديث أم سلمة - رضى اللّه عنها - وأخرجه ابن جرير فى التفسير (٢٢/ ١٠) من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه وأم سلمة - رضى اللّه عنها.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٣٣

ثم يتحقق بأوصاف الكمال كالسخاء والكرم ، فيبذل ما عنده فى مرضات ربه ، فيكون من المتصدقين بأموالهم وأنفسهم ، حتى لا يكون لأحد معهم خصومة فيما أخذوا منهم وقالوا فيهم ، ثم يصوم عن شهود السّوى ، ثم يحفظ فرجه عن وقاع الشهوة والهوى ، فلا ينزل إلى سماء الحقوق ، أو أرض الحظوظ ، إلا بالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين. ثم يكون من المستهترين بذكر اللّه ، أعنى ذكر الروح والسر ، وهو مقام الإحسان ، الذي هو محل العيان ، فيكون ذاكرا باللّه ، مذكورا فى حضرة اللّه ، مشهورا فى ملكوت اللّه. جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه.

ثم ذكر قضية تزويجه - عليه الصلاة والسلام - زينب ، مناسبا للحافظين فروجهم ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٣٦]

وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (٣٦)

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ أي : ما صحّ لرجل مؤمن ، ولا امرأة مؤمنة ، إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً من الأمور أَنْ يَكُونَ «١» لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ أي : أن يختاروا من أحدهم شيئا ، بل الواجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه ، واختيارهم تلوا لاختياره.

نزلت فى زينب بنت جحش ، وأخيها عبد اللّه بن جحش. وكانت زينب بنت أميمة بنت عبد المطلب ، عمة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فخطبها - عليه الصلاة والسلام - لمولاه زيد بن حارثة ، فلما خطبها ، ظنت أنه يخطبها لنفسه ، فرضيت ، فلما علمت أنه خطبها لزيد كرهت وأبت ، وقالت : أنا أم نساء قريش ، وابنة عمتك ، فلم أكن أرضه لنفسى ، وكذلك قال أخوها. وكانت بيضاء جميلة ، وكان فيها بذاذة ، فأنزل اللّه الآية «٢» ، فأعلمهم أنه لا اختيار لهم على ما قضى اللّه ورسوله. فلما نزلت الآية إلى قوله : مُبِيناً قالت : رضيت يا رسول اللّه ، وجعلت أمرها بيد النبي صلى اللّه عليه وسلم

---

(١) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : (يكون) بالياء من تحت. وقرأ الباقون بالتاء وقد أثبت المفسر - رحمه اللّه - قراءة التاء.

انظر الإتحاف (٢/ ٣٧٦).

(٢) أخرجه ابن جرير فى التفسير (٢٢/ ١١).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٣٤

وكذلك أخوها ، فأنكحها صلى اللّه عليه وسلم زيدا ، فدخل بها ، وساق إليها النبي صلى اللّه عليه وسلم عشرة دنانير ، وستين درهما ، وملحفة ، ودرعا ، وإزارا ، وخمسين مدّا من طعام ، وثلاثين صاعا من تمر «١». وقيل نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وكانت من أول من هاجر من النساء ، فوهبت نفسها للنبى صلى اللّه عليه وسلم فقبلها ، وقال : زوجتها من زيد ، فسخطت هى وأخوها ، وقالا : إنما أردنا النبىّ صلى اللّه عليه وسلم ، فنزلت «٢». والأول أصح.

وإنما جمع الضمير فى «لهم» ، وكان من حقه أن يوحّد لأن المذكورين وقعا نكرة فى سياق النفي ، فعمّا كل مؤمن ومؤمنة ، فرجع الضمير إلى المعنى ، لا إلى اللفظ. والخيرة : ما يتخير ، وفيه لغتان : سكون الياء ، وفتحها ، وتؤنث وتذكر باعتبار الفعل لمجاز تأنيثها.

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فيما اختار وقضى فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً بيّن الانحراف عن الصواب. فإن كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر ، وإن كان عصيان فعل ، مع قبول الأمر ، واعتقاد الوجوب ، فهو ضلال فسق.

ثم إن زينب مكثت عند زيد زمانا ، فأتى عليه الصلاة والسلام ذات مرة دار زيد ، لحاجة ، فأبصرها فى درع وخمار ، فوقعت فى نفسه ، وذلك لما سبق فى علم اللّه من كونها له. فقال : «سبحان مقلب القلوب» «٣» ، وكانت نفسه قبل ذلك تنفر منها ، لا تريدها ، فانصرف ، وسمعت زينب بالتسبيحة ، فذكرتها لزيد ، ففطن ، وألقى فى نفسه كراهيتها والرغبة عنها فى الوقت ، وقال : يا رسول اللّه إنى أريد فراق صاحبتى؟ فقال : «مالك ، أرابك منها شى ء؟»

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/ ٣٥٣).

(٢) أخرجه ابن جرير فى التفسير (٢٢/ ١٢) وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٣٨١) لابن أبى حاتم. عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

والحديث معضل.

(٣) قال الحافظ ابن حجر فى الكافي (ص ١٣٤ رقم ٢٢٤) : (ذكره الثعلبي بغير سند ، وأخرج الطبري «٢٢/ ١٣» معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم) قلت : هذه الرواية ، وإن ساقها عدد من المفسرين ، إلا أن العلماء المحققين ردوها فالروايات كلها جاءت من طرق ضعيفة ، ولا يوجد شىء منها فى كتب الحديث المعتمدة ، والذي جاء فى الصحيح يخالف ذلك. ولا يجوز أن يستند إلى روايات ضعيفة فى إثبات خبر فيه نيل من عصمة المعصوم صلى اللّه عليه وسلم. قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : (٣/ ٤٩٠) : (ذكر ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، هاهنا ، آثارا عن بعض السلف ، أحببنا أن نضرب عنها صفحا لعدم صحتها ، فلا نوردها) - ثم إن السيدة «زينب بن جحش» - رضى اللّه

عنها – ابنه عمته ، ويعرفها مذ كانت طفلة حتى كبرت ، وهو الذي زوّجها لمولاه زيد ، وكان بإمكانه أن يتزوجها قبل أن يزوجها زيدا. فغير معقول – والحال كما ذكر – أن يزوجها لغيره ثم يرغب فيها.
والحق فى المسألة ما سيذكره الشيخ ابن عجيبة بعد ، نقلا عن الشيخ عبد الرحمن الفاسى من أن المعنى : وتخفى فى نفسك ما اطلعت عليه من مفارقة زيد لها ، وتزوجك إياها بعده ... إلخ كلامه.
للمزيد راجع : الشفاء للقاضى عياض (٢/ ٨٧٨ – ٨٨٠) روح المعاني للألوسى ، (٢٢/ ٢٤ – ٢٥) الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبى شهبة (٣٢٣ – ٣٢٨).

(٤٣٤/٤)

فقال : لا واللّه ، ما رأيت منها إلا خيرا ، إلا أنها تتعظم علىّ ، لشرفها ، وتؤذيني بلسانها ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «أمسك عليك زوجك واتق اللّه».
[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٣٧ الى ٣٩]
وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩)
وهذا معنى قوله : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بالإسلام الذي هو من أجلّ النعم وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ بالإعتاق والتبني ، فهو متقلب فى نعمة اللّه ونعمة رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، وهو زيد بن حارثة : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ زينب ، وَاتَّقِ اللَّهَ فلا تطلقها ، وهو نهى تنزيه ، أو : اتق اللّه ، فلا تذمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ أي : تخفى فى نفسك نكاحها إن طلقها زيد ، وقد أبداه اللّه وأظهره ، وقيل :
الذي أخفاه فى نفسه : تعلق قلبه بها ، ومودة مفارقة زيد إياها.
قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : والصواب أن المعنى : وتخفى فى نفسك ما اطلعت عليه من مفارقة زيد لها ، وتزوجك إياها بعده ، فإن هذا هو الذي أبداه سبحانه وأظهره بعد ذلك. وأما قوله : وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ ، فإنما يعنى به الحياء من الناس فى أن يقابلهم بما يسوءهم ، وهو إخبار زيد بما أطلعه اللّه عليه من صيرورة زوجته زينب له ، بعد مفارقة زيد لها ، لأنه لم يؤمر بإفشاء ذلك ، وإلا لبلّغ من غير روية ولا حشمة ، سالكا فى ذلك سنّة من خلا قبله من الأنبياء ، الذين

لا يخشون فى التبليغ أحدا إلا اللّه.

وقال القشيري : أي : تخشى عليهم أن يقعوا فى الفتنة فى قصة زيد [والفتنة التي يقعون فيها هى ظنهم أنه عليه الصلاة والسلام عشقها ، وأمره بطلاقها] وكانت تلك الخشية إشفاقا منه عليهم ، ورحمة لهم ألا يطيقوا سماع هذه الحالة ، بأن يخطر ببالهم ما ليس فى وسعهم. وأما قوله : أَمْسِكْ عَلَيْكَ .... الآية – مع علمه بما يؤول إليه الأمر فى العاقبة ، بما أطلعه اللّه عليه من فراقه لها – فإقامة للشريعة. هـ. ملخصا.

وفى الوجيز : وَتَخْشَى النَّاسَ أي : تكره مقالة الناس لو قلت طلّقها ، فيقال : أمر رجلا فطلق امرأته ثم تزوجها. وقد نقل فى نوادر الأصول عن علىّ بن الحسين : أن اللّه أعلم نبيه أنها تكون من أزواجه ، فأخفى ذلك.

فلما جاء زيد يشكوها قال له : اتق اللّه ، وأمسك عليك زوجك «١» ، قال : فعلىّ بن حسين جاء بها من خزانة العلم ، جوهرا من الجواهر ، ودرّا من الدرر ، وأنه إنما عتب اللّه عليه فى أنه قد أعلمه ، ثم قال بعد ذلك لزيد : أمسك ..

---

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ١٣).

رعاية لما يقال ، وتركا لتدبير اللّه ، مع كونه أحق بالرعاية ، وكيف ، وفى ذلك تشريع لئلا يكون على المؤمنين حرج وضيق فيما فرض اللّه له فيما أعلمه. ثم قال : والحاصل أنه – عليه الصلاة والسلام – لم يلمّ بخطيئة ، بدليل أنه لم يؤمر بتوبة ولا استغفار ، وإنما أخبره بما أضمر فى نفسك ، خشية افتتان الغير ، واللّه أحق أن يخشى ، بأن يبتهل إليه ليزيل عنهم ما يخشى فيهم.

قال ابن عرفة : الصواب : أن ما أخفاه فى نفسه هو : أن اللّه أخبره أن سيتزوجها. وما قاله ابن عطية لا يحل أن يقال ، لأنه تنقيص لم يرد فى حديث صحيح. وإنما ذكره المفسرون. هـ. قلت : إنما يكون تنقيصا إذا كان ذلك الواقع فى القلب ثابتا ، وأما إن كان خاطرا مارا فلا نقص إذ ليس فى طوق البشر لأنه من أوصاف العبودية ، بل الكمال فى دفعه ورده بعد هجومه.

ثم قال ابن عرفة ، على قوله : وَتَخْشَى النَّاسَ : هو تمهيد لعذره ، وإن كان لمجرد أمر اللّه له بذلك ، ولا ينبغى حمله على أنه خاف الناس فقط. بل المراد : عتابه على خلط خوفه من اللّه بخوفه من الناس ، وأمره ألا يخاف إلا من اللّه فقط ، خوفا غير مشوب بشيء. هـ. قلت : إذا فسرنا الخشية بالحياء لا

يحتاج إلى هذا التعسف ، مع أن الخوف من الخلق مذموم ، وحده أو مع خوف اللّه ، والنبي صلى اللّه عليه وسلم منزه عن ذلك ، أي : تستحى من الناس أن يقولوا :
نكح امرأة ابنه ، وكان - عليه الصلاة والسلام - أشد الناس حياء من العذراء فى خدرها. والحياء ممدوح عند الخاص والعام. وأما قوله تعالى : وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فتنبيه على أن الحياء فى بعض المواضع تركه أولى ، فهو ترقية له ، وتربية لوقت آخر. أو : وتخشى أن يفتتن الناس بذلك ، واللّه أرحم بهم من غيره ، فاللّه أحق أن تخشى ، فتبتهل إليه فى زوال ذلك عنهم. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : فى الآية الأولى حث على التفويض وترك الاختيار ، مع ما أمر به الواحد القهار. وفى الحكم :
«ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر فى الوقت غير ما أظهر اللّه» «١». فالواجب على العبد أن يكون فى الباطن مستسلما لقهره ، وفى الظاهر متمثلا لأمره ، تابعا لسنّة نبيه صلى اللّه عليه وسلم ، ولما يوجب رضاه ومحبته. وفى الآية الثانية تنبيه على أن خواص الخواص يعاتبون على ما لا يعاتب عليه الخواص. والخواص ، يعاتبون على ما لا يعاتب عليه العوام ، فكلما علا المقام ، واشتد القرب ، اشتدت المطالبة بالأدب ، ووقع العتاب على أدنى ما يخل بشىء من الأدب ، على عادة الوزراء مع الملك. وذلك أمر معلوم ، مذوق عند أهل القلوب. وباللّه التوفيق.

---

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص ٢٠ ، حكمة : ١٧)

(٤٣٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٣٧
ثم ذكر تزوجه - عليه الصلاة والسلام - لزينب بعد مفارقة زيد ، فقال :
فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ ...
يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً حاجة ، بحيث ملّها ولم تبق له فيها حاجة.
والوطر : الحاجة ، فإذا بلغ البالغ حاجته من شىء له فيه همّة ، يقال : قضى منه وطرا ، أي : فلما قضى حاجته منها ، وطلقها ، وانقضت عدّتها ، زَوَّجْناكَها. روى أنها لما اعتدت قال - عليه الصلاة والسلام - لزيد : «ما أجد أحدا أوثق فى نفسى منك ، ايت زينب فاخطبها لى» قال زيد : فأتيتها وولّيتها ظهرى ، إعظاما لأمر النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقلت :
يا زينب إنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم يخطبك ، ففرحت ، وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربّى ، فقامت إلى مسجدها ، فنزل القرآن : فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ ... الآية ، فتزوجها عليه الصلاة والسلام ،

ودخل بها حينئذ ، وما أولم على امرأة ما أولم عليها ، ذبح شاة ، وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار «١».

وقيل : زوجّه اللّه تعالى إياها بلا واسطة عقد ، ويؤيده : أنها كانت تقول لسائر أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم : إن اللّه زوجنى من فوق سبع سموات ، وأنتن زوّجكنّ أولياؤكنّ «٢». وكانت تقول للنبى صلى اللّه عليه وسلم : إنى لأدلّ عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل عليك بهنّ : جدّى وجدّك واحد ، وإياى أنكحك اللّه من السماء ، وإن السفير لى جبريل «٣».

ثم علل تزويجه إياها ، فقال : لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ الذين يتبنونهم إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ، قال الحسن : ظنت العرب أن حرمة المتبنى مشتبكة كاشتباك الرحم ، فبيّن اللّه تعالى الفرق بينهما ، وأن حلائل الأدعياء غير محرمة. وليست كحلائل أبناء الصلب. قال البيضاوي : وفيه دليل على أن حكمه

---

(١) أخرجه ، بنحوه ، مسلم فى (النكاح ، باب : زواج زينب بنت جحش ، ونزول الحجاب ، ٢/ ١٠٤٨ - ١٠٤٩ ح : ١٤٢٨) من حديث أنس رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه البخاري فى (التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء ح ٧٤٢٠) من حديث أنس رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه الطبري فى تفسيره (٢٢/ ١٤) من مرسل الشعبي. [.....]

(٤٣٧/٤)

وحكم الأمة واحد ، إلا ما خصه الدليل. هـ. وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ الذي يريد أن يكونه مَفْعُولًا مكونا لا محالة ، كما كان تزويج زينب.

ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ أي : حلّ له ، أو : قسم له ، من قولهم : فرض له فى الديوان كذا ، وفروض العساكر ، لأرزاقهم. أي : لا حرج على النبي فيما حلّ له وأمر به ، كتزويج زينب ، أو : قسم له من عدد النساء بلا حدّ ، سُنَّةَ اللَّهِ : مصدر مؤكد لما قبله من قوله : ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ أي :

سنّ ذلك سنّة فى الأنبياء الماضين ، وهو : ألا حرج عليهم فى الإقدام على ما أحلّ لهم ووسع عليهم فى باب النكاح وغيره. وكانت تحتهم المهائر «١» والسراري ، وكانت لداود عليه السّلام مائة امرأة ، وثلاثمائة سرّية. فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ أي : فى الأنبياء الذين مضوا من قبله ، وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً

مَقْدُوراً أي : قضاء مقضيا ، وحكما مثبوتا مبرما ، لا مرد له.

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ ، هو صفة ل «لذين خلوا من قبل» ، أو : بدل منه ، أو : مدح لهم منصوب ، أو :

مرفوع ، أي : هم الذين ، أو : أعنى الذين يبلغون رسالات اللّه ، وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ ، ونبينا صلى اللّه عليه وسلم من جملتهم ومن أشرفهم ، وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً للمخاوف ، أو : محاسبا ، فينبغى ألا يخشى إلا منه تعالى.

الإشارة : إذا تمكن العبد مع مولاه وتحققت محبته فيه ، كانت حوائجه مقضية ، وهمته كلها نافذة ، إذا اهتم بشيء ، أو خطر على قلبه شيء ، مكّنه اللّه منه ، وسارع فى قضائه ، كما فعل مع حبيبه ، حين خطر بباله تزوج زينب ، أعلمه أنه زوجه إياها. وأهل مقام الفناء جلهم فى هذا المقام ، إذا اهتموا بشيء كان ، إذا ساعدتهم المقادير ، وإلا فسوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار ، ولذلك قال هنا : وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ، وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً. وصفة أهل الهمم القاطعة : أنهم لا يخافون إلا اللّه ، ولا يخشون أحدا سواه ، لا يخافون فى اللّه لومة لائم ، ذكرهم للّه دائم ، وقلبهم فى الحضرة هائم. وباللّه التوفيق.

ثم ردّ على من قال : إنه - عليه الصلاة والسلام - تزوج امرأة ابنه ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٤٠]

ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠)

---

(١) المهائر : جمع المهيرة ، وهى الحرة ، والمهائر : الحرائر ، ضد السّرارى. انظر اللسان (مهر ٦/ ٤٢٨٧).

يقول الحق جل جلاله : ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ أي : لم يكن أبا رجل منكم حقيقة ، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ، والمراد : من رجالكم البالغين ، وأما أولاده القاسم ، والطيب ، والطاهر ، فماتوا قبل أن يكونوا رجالا ، وأما الحسن والحسين ، فأحفاد ، لا أولاد. وَلكِنْ كان رَسُولَ اللَّهِ ، وكل رسول أبو أمته ، فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم ، ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه ، لا فى سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء. وزيد واحد من رجالكم ، الذين ليسوا بأولاد حقيقة ، فكان حكمه حكمهم. والتبني من باب الاختصاص

والتقريب ، لا غير. وَكانَ أيضا صلى اللّه عليه وسلم خاتَمَ النَّبِيِّينَ أي : آخرهم الذي ختمهم ، أو : ختموا به على قراءة عاصم. بفتح التاء ، بمعنى : الطابع ، كأنه طبع وختم على مقامات النبوة ، كما يختم على الكتاب لئلا يلحقه شيء. فلا نبى بعده. وعيسى ممّن نبأ قبله ، وحين ينزل ينزل عاملا على شريعته صلى اللّه عليه وسلم ، كأنه بعض أمته. ومن قرأ بكسر التاء ، فمعناه : فاعل الختم ، كما قال - عليه الصلاة والسلام - : «أنا خاتم النبيين فلا نبى بعدي» «١». ويصح أن يكون بمعنى الطابع أيضا إذ فيه لغات خاتم - بالفتح والكسر - ، وخاتام ، وخيتام. وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ، فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة ، وكيف ينبغى شأنه.

الإشارة : كان صلى اللّه عليه وسلم أبا الأرواح حقيقة إذ الوجود كله ممتد من نوره ، وأبا الأشباح باعتبار أنه السابق نوره.

فأول ما ظهر نوره - عليه الصلاة والسلام - ، ومنه امتدت الكائنات ، فهو بذرة الوجود. وسيأتى فى قوله : فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ «٢» تتميم ذلك إن شاء اللّه. ولم يكن أبا باعتبار تولد الصلب ، وهو الذي نفاه اللّه تعالى عنه.

ثم حضّ على الذكر إذ هو سبب التهذيب والتأديب ، فيزجر صاحبه عن الخوض فيما لا يعنى ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٤١ الى ٤٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (٤٤)

---

(١) أخرجه مطولا أحمد فى المسند (٥/ ٢٧٨) ، وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٣٨٦) لابن مردويه ، عن ثوبان. وجاء الجزء الأول «أنا خاتم النبيين» في حديث «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ..» الحديث ، أخرج البخاري فى (المناقب ، باب خاتم النبيين ، ح ٣٥٣٥) ومسلم فى (الفضائل ، باب ذكر كونه صلى اللّه عليه وسلم خاتم النبيين ٤/ ١٧٩١) من حديث سيدنا أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) الآية ٨١ من سورة الزخرف.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً قياما ، وقعودا ، وعلى جنوبكم ، قال ابن عباس : (لم يعذر أحد فى ترك ذكر اللّه - عز وجل - إلا من غلب على عقله) «١». وقال :

الذكر الكثير : ألّا تنساه أبدا. وروى أبو سعيد عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «أكثروا ذكر اللّه حتى يقولوا مجنون» «٢».

والذكر أنواع : تهليل ، وتحميد ، وتقديس ، واستغفار ، وتلاوة ، وصلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم. وقيل : المراد : ذكر القلوب ، فإن الذكر الذي يمكن استدامته ، هو ذكر القلب ، وهو استدامة الإيمان والتوحيد. وأمّا ذكر اللسان فإن إدامته كالمتعذر. قاله القشيري. وَسَبِّحُوهُ أي : نزّهوه ، أو : قولوا : سبحان اللّه وبحمده ، بُكْرَةً أول النهار وَأَصِيلًا آخر النهار. وخصّا بالذكر لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما. وعن قتادة : (قولوا :

سبحان اللّه ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه). أو : الفعلان - أي : (اذكروا) و(سبّحوه) - موجهان إلى البكرة والأصيل ، كقولك : صم وصل يوم الجمعة. والتسبيح من جملة الذكر ، وإنما اختص من بين أنواعه إبانة لفضله لأن معناه : تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات. ويجوز أن يراد بالذكر وإكثاره : تكثير الطاعات والعبادات ، فإنها من جملة الذكر ، ثم خصّ من الذكر التسبيح بكرة ، وهى صلاة الفجر ، وأصيلا ، وهى صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، أو : صلاة الفجر والعشاءين.

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ ، لمّا كان من شأن المصلى أن ينعطف فى ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره ، حنوا عليه ، كحنو المرأة على ولدها. ثم كثر ، حتى استعمل فى الرحمة والترؤف ، ومنه قولهم : صلى اللّه عليك ، أي : ترحم عليك وترأف. فإن قلت : صلاة اللّه غير صلاة الملائكة ، فكيف اشتركا فى العطف؟ قلت : لاشتراكهما فى قدر مشترك ، وهو إرادة وصول الخير إليهم ، إلا أنه منه تعالى برحمته ، ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار.

وذكر السدى : أن بنى إسرائيل قالت لموسى عليه السّلام : أيصلى ربنا؟ فكبر هذا الكلام على موسى عليه السّلام ، فأوحى اللّه إليه : أن قل لهم : إنى أصلى ، وإنّ صلاتى رحمتى ، وقد وسعت كل شىء «٣». وفى حديث المعراج : «قلت :

إلهى لمّا لحقنى استيحاش قبل قدومى عليك ، سمعت مناديا ينادى بلغة ، تشبه لغة أبى بكر ، فقال : قف ، إن ربك

---

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ١٧).

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٦٨ ، ٧١) والحاكم (١/ ٤٩٩) وصححه ، من حديث سيدنا أبى سعيد الخدري رضي اللّه عنه.

(٣) عزاه فى الدر المنثور (٥/ ٣٨٩) لعبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن الحسن.

يصلى ، فعجبت من هاتين ، هل سبقنى أبو بكر إلى هذا المقام ، وإن ربى لغنى عن أن يصلّى؟ فقال تعالى : أنا الغنى عن أن أصلّى لأحد ، وإنما أقول : سبحانى ، سبقت رحمتى غضبى. اقرأ يا محمد : هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ... الآية ، فصلاتى رحمة لك ولأمتك. ثم قال. وأما أمر صاحبك ، فخلقت خلقا على صورته ، يناديك بلغته ، ليزول عنك الاستيحاش ، لئلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد منك».

والمراد بصلاة الملائكة : قولهم : اللهم صلّ على المؤمنين. جعلوا - لكون دعائهم بالرحمة مستجابا - كأنهم فاعلون الرحمة. والمعنى : هو الذي يترحم عليكم ويترأف ، حيث يدعوكم إلى الخير ، ويأمركم بإكثار ذكره ، ويأمر ملائكته يترحمون عليكم ، ويستغفرون لكم ، ليقربكم ، ويخصكم بخصائص ليست لغيركم. بدليل : لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ثم من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة ، ثم من ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة ، ثم من ظلمات الحجاب إلى نور العيان. وقيل : يصلّى عليكم : يشيع لكم الذكر الجميل فى عباده.

وَكانَ اللّه بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ، قد اعتنى بصلاح أمرهم ، وإثابة أجرهم ، واستعمل فى خدمتهم ملائكته المقربين ، وهو دليل على أن المراد بالصلاة : الرحمة ، حيث صرّح بكونه رحيما بهم. قال أنس : لمّا نزل قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ قال أبو بكر : يا رسول اللّه ما خصك اللّه بشريف إلا وقد اشتركنا فيه ، فأنزل قوله : هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ... إلخ «١».

تَحِيَّتُهُمْ أي : تحية اللّه لهم ، فهو من إضافة المصدر إلى مفعوله ، يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ عند الموت. قال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن ، قال : ربك يقرئك السلام «٢». أو : يوم الخروج من القبور ، تسلّم عليهم الملائكة وتبشرهم. أو : يوم يرونه فى الجنة ، سَلامٌ ، يقول اللّه تبارك وتعالى : «السلام عليكم يا عبادى ، هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيت ما لم تعط أحدا من العالمين. فيقول لهم : أعطيكم أفضل من ذلك ، أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم أبدا» كما فى البخاري «٣». وفى رواية غيره : يقول تعالى :

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٣٨٩) لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن مجاهد. وذكره البغوي فى التفسير (٦/ ٣٦٠) عن أنس رضي اللّه عنه.

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٣٩٠) للمروزى فى الجنائز ، وابن أبى الدنيا ، وأبى الشيخ.

(٣) سبق تخريج الحديث.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٤٢

«السلام عليكم ، مرحبا بعبادي الذين أرضونى باتباع أمرى» هو إشارة إلى قوله : سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ «١».

وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ، يعنى الجنة وما فيها.

الإشارة : قال القشيري : قوله تعالى : اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً. الإشارة فيه : أحبّوا اللّه لقوله - عليه الصلاة والسلام - «من أحبّ شيئا أكثر من ذكره» «٢» فيحب أن يقول : اللّه ، ولا ينس اللّه بعد ذكر اللّه. هـ. قلت : لأن ذكر اللّه عنوان محبته ، ومنار وصلته ، وهو الباب الأعظم فى الدخول إلى حضرته ، وللّه در القائل :

الذكر عمدة لكل سالك تنورت بنوره المسالك

هو المطية التي لا تنتكب ما بعدها فى سرعة الخطا نجب

به القلوب تطمئن فى اليقين ما بعده على الوصال من معين

به بلوغ السالكين للمنى به بقاء المرء من بعد الفنا

به إليك كل صعب يسهل به البعيد عن قريب يحصل

فهو أقوى سبب لديك وكلّه إليك ، لا عليك

فكل طاعة أتى الفتى بها هو أساسها ، كذاك سقفها

ووحده يفوق كل طاعه كما أتى عن صاحب الشفاعه

كفى بفضله لدا البيان ذهابه بالسهو والنسيان

إذا ذكرت من له الغنى العظيم لديك يصغر الفقير يا نديم

عليه دم حتى إذا تجوهرا بسره الفؤاد كلّ ما ترى

ترى به المذكور دون ستر وقد علا الإدراك درك الفكر

به الحبيب فى الورى تجلى به السّوى عن الحجا تولى

به تمكن المريد فى الفنا حتى يصير قائلا أنا أنا

به رجوعه إلى العبادة به التصرف الذي فى العاده

تاللّه لو جئت بكل قول ما جئتكم بما له من فضل. هـ.

---

(١) من الآية ٧٣ من سورة الزمر.

(٢) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٨٣١٢) للديلمى ، فى الفردوس ، وضعّفه ، من حديث السيدة عائشة - رضي اللّه عنها.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٤٣
وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «سبق المفرّدون ، قيل : من المفرّدون يا رسول اللّه؟ قال : المستهترون بذكر اللّه ، يضع الذّكر عنهم أثقالهم ، فيردون يوم القيامة خفافا» «١» وسئل صلى اللّه عليه وسلم : أيّ المجاهدين أعظم أجرا؟ قال : «أكثرهم للّه تبارك وتعالى ذكرا. وقيل : فأى الصالحين أعظم أجرا؟ قال : أكثرهم للّه تبارك وتعالى ذكرا. ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : «أكثرهم للّه تبارك وتعالى ذكرا». فقال أبو بكر لعمر : يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «أجل» «٢» رواه أحمد والطبراني.
وقوله تعالى : هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ... الآية. قال الورتجبي : صلوات اللّه : اختياره العبد فى الأزل لمعرفته ومحبته ، فإذا خصّه بذلك جعل زلاته مغفورة ، وجعل خواص ملائكة مستغفرين له ، لئلا يحتاج إلى الاستغفار بنفسه عن اشتغاله باللّه ومحبته ، وبتلك الصلاة يخرجهم من ظلمات الطبع إلى نور المشاهدة ، وهذا متولد من اصطفائيته الأزلية ورحمته الكافية القدسية. ألا ترى إلى قوله : وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً أي : قبل وجودهم ، حيث أوجدهم ، وهداهم إلى نفسه ، بلا سبب ولا علة. ثم قال عن ابن عطاء : أعظم عطية للمؤمن فى الجنة : سلام اللّه عليهم من غير واسطة. هـ.
وقوله تعالى : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ قال القشيري : التحية إذا قرنت بالرؤية ، واللقاء إذا قرن بالتحية ، لا يكون إلا بمعنى رؤية البصر ، والتحية : خطاب يفاتح بها الملوك ، أخبر عن علوّ شأنهم ، فهذا السلام يدلّ على علو رتبتهم. هـ.
ولمّا أمر بذكره وتنزيهه ، ذكر شهادته لرسوله ، ليدلّ على اقترانها فى صحة الإيمان وكمال الذكر ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٤٥ الى ٤٨]
يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (٤٧) وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٤٨)

---

(١) أخرجه بلفظه الترمذي فى : (الدعوات ، باب : فى العفو والعافية ٥/ ٥٣٩ ، ح : ٣٥٩٦) ، وبنحوه أخرجه مسلم فى (الذكر والدعاء ، باب الحث على ذكر اللّه تعالى ٤/ ٢٠٦٢ ، ح ٢٦٧٦) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

والمستهترون بذكر اللّه : المولعون بالذكر : المداومون عليه ، لا يبالون ما قيل فيهم ، ولا ما فعل بهم.
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٨) ، وقال الهيثمي فى مجمع الزوائد (١٠/ ٧٤) : رواه أحمد والطبراني ، وفيه : زبان بن فائد ، وهو ضعيف ، وقد وثّق ، وكذلك ابن لهيعة ، وبقية رجال أحمد ثقات.

(٤٤٣/٤)

قلت : «شاهدا» : حال مقدرة ، كمررت برجل معه صقر صائدا به غدا.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً على من بعث إليهم ، على تصديقهم وتكذيبهم ، أي : مقبولا قولك عند اللّه ، لهم وعليهم ، كما يقبل قول الشاهد العدل فى الحكم ، وَمُبَشِّراً للمؤمنين بالنعيم المقيم ، وَنَذِيراً للكافرين بالعذاب الأليم ، وَداعِياً إِلَى اللَّهِ إلى الإقرار بربوبيته ، وتوحيده ، وما يجب الإيمان به ، من صفاته ، ووعده ، ووعيده ، بِإِذْنِهِ بأمره ، أو : بتيسيره. وقيّد به الدعوى إيذانا بأنه أمر صعب ، لا يتأتى إلا بمعونة من جناب قدسه ، وَسِراجاً مُنِيراً يستضاء به فى ظلمة الجهالة ، وتقتبس من نوره أنوار الهداية ، قد جلى به اللّه ظلمات الشرك ، واهتدى به الضالون ، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ، ويهتدى به. وقيل : المراد به القرآن ، فيكون التقدير : وذا سراج. ووصف بالإنارة لأن من السرج من لا يضيء جدا إذا قلّ سليطه ، - أي : زيته - ورقّت فتيلته. أو : شاهدا بوحدانيتنا ، ومبشرا برحمتنا ، ونذيرا بنقمتنا ، وداعيا الى عبادتنا ، وسراجا تنير الطريق إلى حضرتنا.

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً ثوابا عظيما ، يربو على ثواب سائر الأمم. وفى الحديث : «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمن استأجر عمالا إلى آخر اليوم ، فعملت اليهود إلى الظهر ، ثم عجزوا ، ثم عملت النصارى إلى العصر ، فعجزوا ، ثم عملتم إلى آخر النهار ، فاستحققتم أجر الفريقين ، فغضبت اليهود والنصارى ، وقالوا : نحن أكثر عملا ، وأقلّ أجرا ، فقال لهم اللّه تعالى : هل ظلمتكم من حقكم شيئا؟ قالوا : لا ، قال : فذلك فضلى أوتيه من أشاء» «١» وفى رواية : «أنهم عملوا إلى الظهر ، أو العصر ، وقالوا : لا حاجة لنا بأجرك ، فبطل أجر الفريقين». وهذا فى حق من أدرك الإسلام منهم ولم يؤمن. والحديث فى الصحيح. نقلته بالمعنى.

قال البيضاوي : ولعله معطوف على محذوف ، أي : فراقب أمتك وبشّرهم. هـ.

وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ أي : دم على مخالفتهم ، وهو تهييج وتنفير عن حالهم ، وَدَعْ أَذاهُمْ أي : لا تلتفت إليه ، ولا تحتفل بشأنه. وهو من إضافة المصدر إلى الفاعل ، أي : اجعل إيذائهم إياك فى جانب ، وأنت فى جانب ، ولا تبال بهم ، ولا تخف من إيذائهم. أو : إلى المفعول ، أي : دع إيذاءك

إياهم مجازاة ومؤاخذة على كفرهم. ولذلك قيل : إنه منسوخ. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فإنه يكفيكهم ، وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا موكولا عليه ،

---

(١) أخرجه البخاري فى (الإجارة ، باب الإجارة إلى نصف النهار ، ح ٢٢٦٨) من حديث سيدنا عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه. [.....]

(٤٤٤/٤)

ومفوضا إليه الأمر فى الأحوال كلها ، ولعله تعالى لمّا وصفه بخمسة أوصاف ، قابل كلا منها بخطاب مناسب له ، فقابل الشاهد بقوله : وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ لأنه يكون شاهدا على أمته ، وهم يكونون شهداء على سائر الأمم ، وهو الفضل الكبير ، وقابل المبشّر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين لأنه إذا أعرض عنهم أقبل بكليته على المؤمنين ، وهو مناسب للبشارة ، وقابل النذير بدع أذاهم لأنه إذا ترك أذاهم فى العاجل ، والأذى له ، لا بد له من عقاب عاجل أو آجل ، كانوا منذرين به فى المستقبل. وقابل الداعي إلى اللّه بأمره بالتوكل عليه لأن من توكل على اللّه يسّر عليه كل عسير ، فتسهل الدعوة ، ويتيسر أمرها ، وقابل السراج المنير بالاكتفاء به وكيلا لأن من أناره اللّه وجعله برهانا على جميع خلقه كان حقيقا بأن يكتفى به عن جميع خلقه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال الورتجبي : إنا أرسلناك بالحقيقة شاهدا ، أنت شاهدنا ، شاهدناك وشهدت علينا ، فألبستك أنوار ربوبيتى ، فمن شهدك بالحقيقة فقد شهدنا. قلت : لأن نوره صلى اللّه عليه وسلم أول نور ظهر من نور الحق ، فمن شهده شهد الحق.

ثم قال : ومن نظر إليك فقد نظر إلينا. قال صلى اللّه عليه وسلم : «من عرفنى فقد عرف الحق ، ومن رآنى فقد رأى الحق». ثم قال :

وَسِراجاً مُنِيراً ، أسرجت نورك من نورى ، فتنور بنوري عيون عبادى المؤمنين ، فيأتون إلىّ بنورك. ثم أمره بأن يبشر المؤمنين بأنهم يصلون إلى مشاهدته ، بلا حجاب ولا عتاب. هـ.

قال القشيري : يا أيها المشرّف من قبلنا إنّا أرسلناك شاهدا بوحدانيتنا ، ومبشرا ، تبشر عبادنا بنا ، وتحذّرهم مخالفة أمرنا ، وتعلمهم مواضع الخوف منا ، وداعيا الخلق إلينا بنا ، وسراجا منيرا يستضيئون بك ، وشمسا ينبسط شعاعك على جميع من صدّقك وآمن بك ، ولا يصل إلينا إلا من اتّبعك وخدمك وقدّمك ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بفضلنا عليهم ، ونيلهم طولنا عليهم ، وإحساننا إليهم. ومن لم تؤثر فيهم بركة إيمانهم بك فلا قدر لهم عندنا. ولا تطع من أعرضنا عنه وأضللناه ، من أهل الكفر والنفاق ، وأهل

البدع والشقاق ، وتوكل على اللّه بدوام الانقطاع إليه ، وكفى باللّه وكيلا. هـ.

ثم ذكر حكم المطلقة قبل الدخول ، وأنه لا عدّة عليها. مناسب لقوله : فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ ... إلخ ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٤٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (٤٩)

(٤/٤٤٥)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ أي : تزوجتموهن. والنكاح فى الأصل : الوطء ، من : تناكحت الأشجار : إذا التصق بعضها ببعض. وتسمية العقد نكاحا مجاز لملابسته له ، من حيث إنه طريق إليه ، كتسمية الخمر إثما لأنها سببه ، ولم يرد لفظ النكاح فى كتاب اللّه إلا فى معنى العقد لأنه لو استعمل فى الوطء لكان تصريحا به ، ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة ، والمماسة ، والقربان ، والتغشى ، والإتيان ، تعليما للأدب والحياء. وفى تخصيص المؤمنات ، مع أن الكتابيات تساوى المؤمنات فى هذا الحكم ، إشارة إلى أن الأولى للمؤمن أن ينكح المؤمنة ، تخييرا للنطفة. والمعنى : إذا تزوجتم النساء ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ تجامعوهن. والخلوة الصحيحة كالمسّ ، فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها أي : تستوفون عددها ، وتعدونها عليهن ، من : عددته الدراهم فاعتدها ، كقوله : كلته الطعام فاكتاله. والإسناد إلى الرجال للدلالة على أن العدّة تجب على النساء لحق الأزواج ، كما يشعر به ، فَما لَكُمْ. والإتيان ب «ثم» إزاحة ما عسى أن يتوهم أن تراخى الطلاق [ربما يمكن الإصابة فتجب العدة] «١».

فَمَتِّعُوهُنَّ بشىء من المال ، وهذا فى المفوض لها قبل الفرض ، وأما المفروض لها ، أو المسمى صداقها ، فتأخذ نصف مهرها ، ولا متعة لها على المشهور. وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا أي : لا تمسكوهنّ ضرارا ، وأخرجوهن من بيوتكم إذ لا عدة لكم عليهن. قال القشيري : (سراحا جميلا) لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير ، ولا تستردوا منهن شيئا ، ولا تجمعوا عليهن سوء الحال والإضرار من جهة المال. هـ.

الإشارة : أيها المريدون إذا طلقتم نفوسكم ، وغبتم عنها بخمرة قوية ، من قبل أن تمسوهن بمجاهدة ولا مخالفة ، فمتعوها بالشهود ، وسرحوا فكرتها فى ذات المعبود ، سراحا جميلا ، لا حجر فيه ولا حصر ، فمن رزقه اللّه الغيبة عن نفسه ، حتى غاب عن حظوظها وهواها ، فقد كفاه اللّه قتالها ، فيدخل

الحضرة بلا مشقة ولا تعب ، لكنه نادر ، وعلى تقدير وجوده يكون ناقص التربية لأنه يكون كمن طويت له الطرق للحج ، فلا يعرفها كما يعرفها من سافر فيها ، وكابد مشقتها ، وعرف منازلها ومياهها ، ووعرها وسهلها ، ومخوفها ومأمونها ، وكلهم أولياء للّه تعالى ، لكن طريق التربية أن يكون المريد سلك الطريقة ، وقاس شدائد نفسه ، وعالجها ليعالج غيره بما يعالج نفسه ، على يد شيخ عارف بالطريق.
وباللّه التوفيق.

---

(١) العبارة كما فى البيضاوي : [وفائدة «ثم» إزاحة ما عسى أن يتوهم تراخى الطلاق ريثما تمكن الإصابة ، كما يؤثر فى النسب يؤثر فى العدة].

(٤/٤٤٦)

ثم وسّع على نبيه فى باب النكاح ، فقال تعالى :
[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٠]
يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٠)
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ مهورهن إذ المهر أجر البضع ، ولذا قال الكرخي - من الحنفية - : إن النكاح بلفظ الإجارة جائز ، والجواب : أن التأبيد من شرط النكاح ، والتأقيت من شرط الإجارة ، وبينهما منافاة ، وإيتاؤها : إعطاؤها عاجلا ، أو فرضها فى المفوض ، وتسميته فى المسمى. والمراد بالأزواج المحلّلة له - عليه الصلاة والسلام - : نساؤه اللاتي فى عصمته حينئذ ، كعائشة وغيرها ، وكان قد أعطاهن مهورهن ، أو : جميع النساء اللاتي يريد أن يتزوجهن ، فأباح له جميع النساء.
وهذا أوسع.
وَأحللنا لك ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ من السّرارى مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ من الغنائم ، وهى صفية ، أعتقها وتزوجها ، وَبَناتِ عَمِّكَ ، وَبَناتِ عَمَّاتِكَ ، وَبَناتِ خالِكَ ، وَبَناتِ خالاتِكَ ، يعنى قرابتك ، التي من جهة أبيك ، ومن جهة أمك. وكان له - عليه الصلاة والسلام - أعمام وعمات ، أخوة لأبيه ، ولم يكن لأمه صلى اللّه عليه وسلم أخ ولا أخت ، فإنما يعنى بخاله وخالته : عشيرة أمه ، وهم بنو زهرة ، ولذلك كانوا

يقولون : نحن أخوال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فإذا قلنا : المراد بقوله : أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ من كان فى عصمته ، فهذا عطف عليهن ، وإباحة لأن يتزوج قرابته ، زيادة على من كان فى عصمته ، وإذا قلنا : المراد : جميع النساء ، فهذا تحديد لهن ، على وجه التشريف ، بعد دخولهن فى العموم. وقوله : اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ ، قيد فى حلّية قرابته - عليه الصلاة والسلام - . قالت أم

(٤٤٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٤٨

هانئ : خطبنى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فاعتذرت إليه ، فعذرنى ، فأنزل اللّه هذه الآية ، فلم أحلّ له لأنى لم أهاجر معه ، كنت من الطلقاء «١».

و«مع» هنا : ليست للاقتران ، بل لوجود الهجرة فقط ، كقوله : أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ «٢».

وَأحللنا لك امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ من غير مهر ولا عقد ، فهو منصوب بفعل يفسره ما قبله ، أو : عطف على ما سبقه ، ولا يدفعه أن «التي» للاستقبال لأن المعنى بالإحلال : الإعلام بالحلّ ، أي :

أعلمناك حلّ امرأة مؤمنة وهبت لك نفسها ، ولا تطلب مهرا إن اتفق ، ولذلك نكّرها. واختلف فى اتفاق ذلك ، والقائل به ذكر أربعا : ميمونة بنت الحارث ، حين جاءها الخاطب ، قالت : البعير وما عليه لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فتزوجها. وزينب بنت خزيمة الأنصارية ، أم المساكين ، وتوفيت فى حياته صلى اللّه عليه وسلم ، وأم شريك بنت جابر الأسدية ، وقيل : أم شريك العامرية ، قيل : إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تزوجها ، ولم يثبت ذلك. ذكره ابن عبد البر. وخولة بنت حكيم السلمية. ذكر البخاري عن عائشة أنها قالت : كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهن. قال أبو نعيم :

تزوجها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولم يدخل بها. قال السهيلي : فدلّ أنهن كن غير واحدة. واللّه أعلم. هـ. وقال ابن عباس : هو بيان حكم فى المستقبل ، ولم يكن عنده أحد منهن بالهبة ، فانظره «٣».

وقرأ الحسن بفتح «أن» على حذف لام التعليل. وقرأ ابن مسعود رضي اللّه عنه بغير «إن» أي : وأحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها للنبى إن أراد النبي أن يستنكحها ، أي : طلب نكاحها والرغبة فيها. وقيل : نكح واستنكح بمعنى واحد.

والشرط الثاني تقييد للأول ، كأنه قال : أحللنا لك امرأة إن وهبت نفسها ، وأنت تريد أن تستنكحها ،

وإرادته هى :

قبول [الهبة] «٤».

جعلنا ذلك خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، بل يجب عليهم المهر ، تسمية أو فرضا. وفيه إيذان بأنه مما خص به - عليه الصلاة والسلام - لشرف نبوته ، وتقرير لاستحقاقه الكرامة. قال ابن جزى :

وانظر كيف رجع من الغيبة إلى الخطاب ليخص المخاطب وحده. وقيل : إن «خالصة» يرجع إلى كل ما تقدم من النساء المباحات له

---

(١) أخرجه الترمذي فى (التفسير - سورة الأحزاب ٥/ ٣٣١ ، ح ٣٢١٤) ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٤٢٠) ، والبيهقي فى السنن (٧/ ٥٤) وابن جرير فى التفسير (٢٢/ ٢٠) والطبراني فى الكبير (٢٤/ ٤٠٥ ح ٩٨٥) وقال الترمذي : حسن صحيح.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة النمل.

(٣) انظر : تفسير القرطبي (٦/ ٥٤٤٣) والبحر المحيط (٧/ ٢٣٣).

(٤) فى الأصول : الهدية.

صلى اللّه عليه وسلم لأن سائر المؤمنين قصّروا على أربع نسوة ، وأبيح له - عليه الصلاة والسلام - أكثر من ذلك. ومذهب مالك :

أن النكاح بلفظ الهبة لا ينعقد ، خلافا لأبى حنيفة. هـ. قلت : إن قرنه ذكر الصداق جاز ، كما فى المختصر.

و(خالصة) : مصدر مؤكد ، أي : خلص إحلالها ، أو : إحلال ما أحللنا لك على القيود المذكورة خلوصا لك. أو :

حال من الضمير فى (وهبت) ، أو : صفة لمصدر محذوف ، أي : هبة خالصة لك.

قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ أي : ما أوجبنا من المهور على أمتك فى زوجاتهم ، أو : ما أوجبنا عليهم فى أزواجهم من الحقوق ، كالنفقة وحسن المعاشرة ، أو : ما فرضنا عليهم من الاقتصار على الأربع ، أو : ما أوجبنا عليهم من الإشهاد والولي ، وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ بالشراء وغيره من وجوه الملك ، فقد علمنا ما فرضنا عليهم من الإنفاق والرفق ، وألا يكلفوهن ما لا طاقة لهن به ، مع حليّة الوطء ، ولو تعددن. وإنما وسّعنا عليك فى أمر النساء لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ضيق ، وهو راجع

لقوله : خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ.
والجملة من قوله : قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا .. إلخ : اعتراضية للدلالة على أن الفرق بينه وبين المؤمنين فى نحو ذلك ليس لمجرد التوسيع عليه ، بل لمعان تقتضى التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة ، والعكس أخرى ، كنكاح الكتابية والأمة ، فتحرمان عليه صلى اللّه عليه وسلم دون أمته. وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً بالتوسعة على عباده ، أو : غفورا لما يعسر التجرد عنه ، رحيما بالتوسعة فى مظان الحرج.
الإشارة : قد وسّع اللّه على خواصه في باب النكاح ، وأمدهم فى ذلك بالقوة ، وأعطاهم من الباءة ما لم يعط غيرهم ، تشريفا وترغيبا فى هذا الأمر ، لإبقاء النسل الطيب ، ولما فيه من التوسعة فى المعرفة ، وحسن الخلق ، وتعلم السياسة ، فدلّ ذلك أن كثرة النساء لا ينافى الزهد ، ولا يقدح فى كمال المعرفة ، بل يزيد فيها. قال الإمام ابن منصور المقدسي ، فى شرح منازل السائرين - فى باب الزهد - : ومتعلق الزهد ستة أشياء ، لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها ، وهى : المال ، والرئاسة ، والناس ، والنفس ، وكل ما دون اللّه. وليس المراد رفضها عن الملك ، فقد كان داود وسليمان - عليهما السلام - من أزهد أهل زمانهما ، ولهما من الملك والنساء والملك ما لهما. وكان نبينا صلى اللّه عليه وسلم أزهد البشر على الإطلاق ، وله تسع نسوة ، وكان علىّ بن أبى طالب - كرم اللّه وجهه ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ، وعثمان - رضوان اللّه عليهم - من الزهاد ، مع مالهم من الأموال - أي : والنساء - فكان لعلىّ رضي اللّه عنه أربع حرائر ، وسبعة عشر سرية ، ولعبد الرحمن بن عوف والزبير أربع أربع ، ولعثمان كذلك. وتزوج المغيرة بن شعبة تسعا وتسعين امرأة. ثم قال : وكان الحسن بن علىّ - رضى اللّه عنهما - من الزهاد ، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحهن. ثم قال : ومن أحسن ما قيل فى الزهد كلام الحسن وغيره ، قال : ليس الزهد فى الدنيا

بتحريم الحلال ، ولا بإضاعة المال ، وإنما الزهد أن تكون بما فى يد اللّه أوثق منك بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك. انتهى المقصود منه.
ثم وسّع على نبيه فى القسمة ، فقال :
[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥١]
تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (٥١)
يقول الحق جل جلاله لرسوله صلى اللّه عليه وسلم : تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ أي : تؤخرها فى القسمة ،

وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ أي : تضمها إليك ، والمعنى : تترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء ، فقد خيّره اللّه فى القسمة وعدمها. قال أبو رزين : لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلّقن ، فقلن : يا نبيّ اللّه اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ، ودعنا على حالنا «١» ، فكان ممن أرجى منهن : سودة ، وجويرية ، وصفية ، وميمونة ، وأم حبيبة ، فكان يقيم لهن ما يشاء ، وكان ممن آوى إليه عائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، وزينب ، فكان يقسم لهن بالسوية «٢» ، لا يفضل بعضهن على بعض. فآوى أربعا وأرجى خمسا. وقيل : إنه كان صلى اللّه عليه وسلم يسوّى بين الجميع فى القسم ، إلا سودة ، فإنها وهبت ليلتها لعائشة ، حين هم بطلاقها ، وقالت : لا تطلّقنى حتى أحشر فى زمرتك وفى نسائك. والجمهور على أنه صلى اللّه عليه وسلم كان يعدل فى القسمة بين نسائه ، أخذا منه بأفضل الأخلاق ، مع أن اللّه خيّره. وقيل : (ترجى من تشاء) أي : تطلق من تشاء منهن ، وتمسك من تشاء. وقيل : تترك تزوج من شئت من أمتك ، وتتزوج من شئت.

وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ أي : ومن دعوت إلى فراشك ، وطلبت صحبتها ، ممن عزلت عن نفسك بالإرجاء ، فلا ضيق عليك فى ذلك ، أي : ليس إذا عزلتها من القسمة ، أو من العصمة ، لم يجز لك ردّها إلى نفسك ، بل افعل ما شئت ، فلا حرج عليك. ذلِكَ التفويض إلى مشيئتك أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ أي : هو أقرب إلى قرة أعينهن ، وقلة حزنهن ، ورضاهن جميعا لأنه إذا علمن أنّ هذا الحكم من عند اللّه اطمأنت نفوسهنّ ، وذهب التغاير ، وحصل الرضا ، وقرّت العيون.

---

(١) أخرجه بمعناه الطبري (٢٢/ ٢٦) عن أبى رزين. وانظر أسباب النزول للواحدى (ص : ٣٧١).

(٢) عزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي (ص ١٣٥ ح ٢٣٢) لابن أبى شيبة ، وعبد الرزّاق ، عن أبى رزين ، وهذا مرسل.

قلت : والذي يظهر أن من أرجاه صلى اللّه عليه وسلم من النساء إنما كان بوحي ، ومن ضمه كذلك إذ لا يتصرف إلا بإذن من اللّه ، فإذا علم النساء أن الإرجاء والإيواء كان بوحي من اللّه رضين بذلك ، وقرت أعينهن ، وزال تغايرهن ، وأما مطلق التفويض إليه فقط ، فلا يقطع الغيرة فى العادة ، فالإشارة تعود إلى حكم الإرجاء والإيواء فتأمله. و«كلهن» :

تأكيد ضمير «يرضين».

وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ من أمر النساء ، والميل إلى بعضهن ، أو : يعلم ما فى قلوبكم من الرضا بحكم اللّه والتفويض إليه ، ففيه تهديد لمن لم يرض منهن بما دبّر اللّه ، وفوّض إلى رسوله ، وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً بذات الصدور ، حَلِيماً لا يعاجل بالعقوبة ، فهو حقيق بأن يتقى ويحذر.

الإشارة : إذا تحقق فناء العبد وزواله ، وتكملت ولايته ، كان مفوضا إليه فى الأمور ، يفعل ما يشاء ، ويترك ما يشاء ، لم يبق عليه تحجير ، ولم يتوجه إليه عتاب لأن العبد المملوك إذا تحققت محبة سيده له ، كتب له عقد التحرير. وشاهده حديث : «إذا أحبّ اللّه عبدا لم يضره ذنب» «١» ، وحديث البخاري : «لعلّ اللّه اطّلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم» «٢» ، وسببه معلوم.

وفى القوت عن زيد بن أرقم : إن اللّه عز وجل ليحب العبد ، حتى يبلغ من حبه أن يقول له : اصنع ما شئت ، فقد غفرت لك. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه : يبلغ الولي مبلغا يقال له : أصحبناك السلامة ، وأسقطنا عنك الملامة ، فاصنع ما شئت. ومصداقه من كتاب اللّه : قوله تعالى فى حق سليمان عليه السّلام : هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ «٣». وهذا وإن كان للنبى من أجل العصمة ، فلمن كان من الأولياء فى مقام الإمامة قسط منه ،

---

(١) ذكره الغزالي فى الإحياء (كتاب المحبة ٤/ ٣٤٥) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه. وقال العراقي فى المغني : ذكره صاحب الفردوس - الديلمي - ولم يخرجه ولده فى مسنده. هـ. والحديث أخرجه - مطولا - القشيري فى الرسالة (باب التوبة/ ٧٦) عن شيخه «ابن فورك» بسنده عن أنس. وزاد الزبيدي فى إتحاف السادة المتقين (٩/ ٦٠٩) عز والحديث لابن أبى الدنيا ، وابن النجار فى تاريخه.

قلت : معناه : أنه إذا أحب اللّه العبد تاب عليه قبل الموت ، فلم تضره الذنوب الماضية ، ولو كثرت ، كما لا يضر الكفر الماضي قبل الإسلام.

(٢) جزء من حديث ، أخرجه بطوله البخاري فى (الجهاد ، باب الجاسوس ، ح ٣٠٠٧) ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر - رضى اللّه عنهم ٤/ ١٩٤١ - ١٩٤٢ ، ح ٢٤٩٤) عن سيدنا علىّ بن أبى طالب رضي اللّه عنه.

وسبب الحديث : أن حاطب بن أبى بلتعة ، أرسل رسالة مع امرأة إلى قريش ، يخبرهم فيه ببعض أمر رسول صلى اللّه عليه وسلم ، فلما أتى برسالة إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، قال : «يا حاطب! ما هذا؟» قال : لا تعجل علىّ يا رسول اللّه! إنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ، وكان ممن كان معك من المهاجرين ، لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم ، فأحببت إذا فاتنى ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ فيهم يدا ، يحمون بها قرابتى ، ولم أفعل كفرا ولا ارتدادا عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «صدق» فقال عمر : دعنى ، يا رسول اللّه أضرب عنق هذا المنافق فقال

: «إنه قد شهد بدرا ..» الحديث.

(٣) الآية ٣٩ من سورة «ص».

من أجل الحفظة. وقال أيضا رضي اللّه عنه فى بعض أدعيته : وأدرج أسمائى تحت أسمائك ، وصفاتى تحت صفاتك ، وأفعالى تحت أفعالك ، درج السلامة ، وإسقاط الملامة ، وتنزل الكرامة ، وظهور الإمامة. هـ.

فإذا اندرجت أسماء العبد وصفاته وأفعاله تحت أسماء الرب ، وصفاته ، وأفعاله ، لم يبق للعبد وجود أصلا ، وكان الفعل كله باللّه ، ومن اللّه ، وإلى اللّه. وهذا مقام عزيز ، لا يناله إلا الأفراد من أهل الفناء فى اللّه ، والبقاء باللّه ، وقد غطى وصفهم بوصفه ، ونعتهم بنعته ، فغيّبهم عن اسمهم ورسمهم ، فهم باللّه فيما يفعلون ويذرون. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٢]

لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (٥٢)

يقول الحق جل جلاله : لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ أي : من بعد التسع ، اللاتي خيرتهن فاخترنك لأن التسع نصاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، كما أن الأربع نصاب أمته. لمّا اخترن اللّه ورسوله والدار الآخرة قصره اللّه عليهن ، وقيل : هى منسوخة كما يأتى. أو : لا يحلّ لك نساء الأجانب ، وإنما لك نساء قرابتك ، كبنات عمك ، وبنات عماتك ، وبنات خالك ، وبنات خالاتك ، فيحل لك منهن ما شئت ، ولو ثلاثمائة ، أو أكثر. أو : لا يحل لك النساء من غير المسلمات ، كالكتابيات والمشركات.

وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ بالطلاق. والمعنى : ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجا ، بكلهن أو بعضهن ، كرامة لهن ، وجزاء على ما اخترن ورضين. فقصر رسوله صلى اللّه عليه وسلم على التسع اللاتي مات عنهن. وقال أبو هريرة وابن زيد : كانت العرب فى الجاهلية يتبادلون بالأزواج ، يعطى امرأة هذا أياما ويأخذ امرأته ، فأنزل اللّه : وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ بأن تعطي بعض أزواجك وتأخذ بعض أزواجهم ، إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، فلا بأس أن تبادل بجاريتك. و«من» : لتأكيد النفي ليفيد استغراق جنس الأزواج بالتحريم ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ أي : حسن الأزواج المتبدلة. وقيل : هى أسماء بنت عميس ، امرأة جعفر بن أبى طالب ، فإنها ممن أعجبه حسنهنّ.

وعن عائشة وأم سلمة ، (ما مات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. حتى أحلّ اللّه له أن يتزوج من النساء ما شاء) «١» ، يعنى أن الآية نسخت إما بالسنّة ، أو : بقوله : إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ. وترتيب النزول ليس على ترتيب

---

(١) أخرجه ، عن السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، أحمد فى المسند (٤/ ٤١) والترمذي فى (التفسير - سورة الأحزاب ٥/ ٣٣٢ ، ح ٣٢١٦) وقال : حديث حسن صحيح. والنسائي فى (النكاح ، باب ما افترض اللّه عز وجل على رسوله صلى اللّه عليه وسلم وحرمه على خلقه ، ٦/ ٥٦) والدارمي فى (النكاح ، باب قول اللّه تعالى : لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ ٢/ ٢٠٥ ، ح ٢٢٤١) وصححه الحاكم (٢/ ٤٣٧) ووافقه الذهبي.

(٤٥٢/٤)

المصحف. إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ استثناء من النساء لأنه يتناول الأزواج ، وقيل : منقطع ، أي : لكن ما ملكت يمينك ، فيحل لك ما شئت ، وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً حافظا ومطلعا. وهو تحذير عن مجاوزة حدوده.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من نكح أبكار الحقائق العرفانية ودخل بأسرار العلوم اللدنية ، لا يحل له أن ينكح ثيبات نساء العلوم الرسمية ، ولا أن يتبدل بما عنده من المواهب الربانية ، بغيرها من العلوم اللسانية ، ولو أعجبك حسنها وورنقها - على الفرض والتقدير - إذ التنزل إليها بطالة عند المحققين ، إلا ما كنت تملكه قبل علم الحقيقة ، فلا بأس أن تنزل إلى تعليمه وإفادته ، إن توسعت فى علم الباطن ، وصرت من الأغنياء الكبار ، تنفق كيف تشاء ، فلا يضرك حينئذ التنزل إلى علم الظاهر. وقد كان شيخ شيوخنا سيدى يوسف الفاسى رضي اللّه عنه عنده مجلسان مجلس لأهل الظاهر ، ومجلس لأهل الباطن. فإن كان فى مجلس الظاهر ، وجاء إليه أحد من الفقراء ، يقول : اذهب حتى نأتى إلى مجلسكم ، وإن كان فى مجلس أهل الباطن ، وجاء إليه أحد من أهل الظاهر ، قال : اذهب حتى نأتى إليكم. وكان له هذا بعد الرسوخ فى علم الحقيقة. وباللّه التوفيق.

ولمّا أو لم - عليه الصلاة والسلام - على زينب ، جلس قوم فى بيته يتحدثون ، فأنزل اللّه تعالى فى شأنهم :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٥٣ الى ٥٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥٤)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ وكانت تسعا ، إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ أي : إلا وقت أن يؤذن لكم ، أو : إلا مأذونا لكم ، فجملة : (إلا أن يؤذن) : فى موضع الحال ، أو الظرف. و(غير ناظرين) : حال من (لا تدخلوا) ، وقع الاستثناء على الوقت والحال ، كأنه قيل : لا تدخلوا بيوت

(٤٥٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٥٤

النبي إلا وقت الإذن ، ولا تدخلوها إلا غَيْرَ ناظِرِينَ أي : منتظرين إِناهُ أي : إدراكه ونضجه. قال ابن عزيز : إناه : بلوغ وقته ، يقال : أنى يأنى ، وآن يئين : إذا شهى ، بمنزلة : حان يحين. هـ. وقال الهروي : أي :

غير ناظرين نضجه وبلوغ وقته ، مكسور الهمزة مقصور ، فإذا فتحت مددت ، فقلت : الإناء ، أي غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله.

روى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم أو لّم على زينب بتمر وسويق ، وذبح شاة ، وأمر أنسا أن يدعوا الناس ، فترادفوا أفواجا ، يأكل كل فوج ، فيخرج ، ثم يدخل فوج ، إلى أن قال : يا رسول اللّه دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه. فقال : «ارفعوا طعامكم» وتفرق الناس ، وبقي ثلاثة نفر يتحدثون ، فأطالوا ، فقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليخرجوا ، فطاف بالحجرات ، وسلم عليهن ، ودعون له ، ورجع ، فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون. وكان صلى اللّه عليه وسلم شديد الحياء ، فتولى ، فلما رأوه متوليا خرجوا ، فنزلت الآية ، وهى آية الحجاب. قال أنس : فضرب بيني وبينه الحجاب «١».

قال تعالى : وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا : تفرقوا ، وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ أي : ولا تدخلوها حال كونكم مستأنسين لحديث ، أو : غير ناظرين ولا مستأنسين ، فهو منصوب ، أو مجرور ، عطف على «ناظرين» ، نهوا أن يطيلوا الجلوس فى بيته صلى اللّه عليه وسلم مستأنسين بعضهم ببعض ، لأجل حديث يتحدثون به ، إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ من إخراجكم وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، يعنى أن إخراجكم حق ، ما ينبغى أن يستحى منه ، ولا يترك بيانه ، حياء ، أو : لا يأمر

بالحياء في الحق ، ولا يشرع ذلك.

وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ أي : نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم ، بدلالة البيوت عليهن لأن فيها نساءه ، مَتاعاً عارية أو حاجة ، فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ستر ، ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ من خواطر الشيطان وعوارض الفتن. وكانت النساء قبل هذه الآية يبرزن للرجال ، وكان عمر رضي اللّه عنه يحب ضرب الحجاب عليهن ، ويودّ أن ينزل فيه ، وقال : يا رسول اللّه : يدخل عليك البرّ والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فنزلت «٢».

وقيل : إنه عليه الصلاة والسلام ، كان يطعم ومعه بعض أصحابه ، فأصابت يد رجل يد عائشة ، فكره النبيّ صلى اللّه عليه وسلم ذلك فنزلت الآية «٣». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في (التفسير ، سورة الأحزاب ، ح ٤٧٩٣) وفي (الاستئذان) ، ومسلم في (النكاح ، باب زواج زينب بنت جحش ٢/ ١٠٥٢ ، ح ٩٥ من كتاب النكاح) من حديث سيدنا أنس رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه البخاري في (التفسير ، باب : واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، ح ٤٤٨٣). عن أنس رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير (٢٢/ ٣٩) والواحدي في أسباب النزول (ص ٣٧٤) عن مجاهد ، مرسلا. [.....]

(٤/٤٥٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٥٥

الإشارة : العلماء ومشايخ التربية ورثة الأنبياء ، فإذا دعوا إلى طعام فلا يدخل أحد حتى يؤذن له ، فإذا طعموا فلينتشروا ، وإذا سأل أحد حاجته من أهل دار الشيخ فليسأل من وراء الباب ، وليتنح عن مقابلة الباب لئلا يتكشف على عرض شيخه ، فيسيء الأدب معه ، وهو سبب الخسران.

ثم نهى عن تزوج نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقال :

وَما كانَ لَكُمْ ...

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ أي : ما صحّ لكم إيذاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وهو كفر ، وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً تعظيما لحرمته صلى اللّه عليه وسلم ، ولبقاء عصمته عليهن ، ولذلك وجبت نفقتهن بعده ، لقوله : «ما بقي بعد نفقة أهلي صدقة». وكذا السكنى كما قد علم ، وبه قال ابن العربي.

وعطف (و لا أن تنكحوا) على (أن تؤذوا) من عطف الخاص على العام إذ تزوج نسائه من أعظم الإيذاء. إِنَّ ذلِكُمْ أي : الإيذاء أو التزوج كانَ عِنْدَ اللَّهِ ذنبا عَظِيماً.

إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً من أذى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أو نكاح أزواجه ، أَوْ تُخْفُوهُ فى أنفسكم ، فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ، فيعاقبكم عليه. روى أن رجلا من الصحابة قال : لئن قبض النبي صلى اللّه عليه وسلم لأنكحنّ عائشة ، فنزلت ، فحرّمن «١». وفيه نزلت : إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أي : من نكاح عائشة ، أَوْ تُخْفُوهُ ... إلخ. وكان - عليه الصلاة والسلام - ملك قتيبة بنت الأشعث بن قيس ، ولم يبن بها ، فتزوجها عكرمة بن أبى جهل ، بعد ذلك ، فهمّ به أبو بكر ، وشقّ عليه ، حتى قال له عمر : يا خليفة رسول اللّه ، ليست من نسائه ، ولم يخيرها ، ولم يحجبها ، وقد برأها اللّه منه بالردة ، حين ارتدت مع قومها ، فسكن أبو بكر. وقال الزهري : إن العالية بنت ظبيان ، التي طلق النبىّ صلى اللّه عليه وسلم تزوجت رجلا وولدت له قبل أن يحرم أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم «٢».

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٧٤) بدون سند. وعزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٤٠٤) لابن مردويه ، عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه البيهقي فى الكبرى (٧/ ٧٣) عن يونس ، عن ابن شهاب ، بلاغا.

(٤/٤٥٥)

الإشارة : مذهب الصوفية تشديد الأدب مع الأشياخ ، فإذا مات الشيخ ، أو طلّق امرأة بعد الدخول ، فلا يتزوجها أحد من تلامذته أبدا ، تعظيما وأدبا مع الشيخ. وأما تزوج بنت الشيخ فلا بأس ، إن قدر على القيام بالأدب معها ، والصبر على أذاها ، وإلا فالبعد أحسن وأسلم ، واللّه تعالى أعلم.

قال القشيري : قوله تعالى إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً .... الآية : حفظ القلب مع اللّه تعالى ، ومراعاة الأمر - بينه وبين اللّه على الصّحة فى دوام الأوقات لا يقوى عليه إلا الخواصّ ، من أهل الحضور. هـ.

ثم رخّص للأقارب أن يدخلوا على أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٥]

لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَلا نِسائِهِنَّ وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٥٥)

يقول الحق جل جلاله : لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ أن يدخلوا عليهن بلا حجاب. قال ابن عباس : لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء

والأقارب : ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب ، فنزلت : لا جُناحَ ... إلخ ، أي : لا إثم عليهن فى أن لا يحتجبن من هؤلاء. ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقد جاء تسمية العم أبا فى قوله تعالى : نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ .. «١» وإسماعيل عم يعقوب ، فسمّاه أبا. وذكر القاضي إسماعيل ، عن الحسن والحسين : أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين. وقال ابن عباس : إن رؤيتهما لهن تحل ، أي : لأنهما ولدا البعل. قال القاضي : وأحسب أن الحسن والحسين ذهبا فى ذلك إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا فى الآية. وقال فى سورة النور : وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلى قوله : ... أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ «٢» ، فذهب ابن عباس إلى ما فى سورة النور ، وذهب الحسن والحسين إلى ما فى هذه السورة. هـ.

---

(١) الآية ١٣٣ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٣١ من سورة النور.

(٤٥٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٥٧

وَلا نِسائِهِنَّ أي : نساء المؤمنات ، فلا حجاب عليهن ، وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ من العبيد والإماء. وقيل : من الإماء خاصة ، وأما العبيد فهم كالأجانب. وهو المشهور ، وَاتَّقِينَ اللَّهَ فيما أمرتن به من الحجاب ، وما نزل فيه الوحى من الاستتار ، واحتطن فى ذلك. ونقل الكلام فيه من الغيبة إلى الخطاب لشدة التهديد ، ولذا قال : إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً عالما يعلم خطرات القلوب وهواجسها ، فيعاتب عليها.

الإشارة : ما قيل فى أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم يقال فى نساء المشايخ والعلماء ، فتحتجبن من جميع الخلق ، إلا من محارمهن ، ولا يمنعهن من إدخال محارمهن عليهن إلا جامد أو جاهل ، ولا ينبغى لأحد أن يمنع زوجه من لقاء محرمها والدخول عليها إلا لفساد بيّن. وباللّه التوفيق.

ثم أمر بالصلاة على رسوله صلى اللّه عليه وسلم وحضّ عليها ، بعد أن أمر بتعظيمه واحترامه ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٦]

إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه.

وقال صاحب المغني : الصواب عندى : أن الصلاة لغة بمعنى واحد ، وهو العطف ، ثم العطف بالنسبة إلى اللّه تعالى :

الرحمة ، وإلى الملائكة : الاستغفار ، وإلى الآدميين : دعاء. واختاره السّهيلى قبله. والمراد بالرحمة منه تعالى غايتها ، وهو إفاضة الخير والإحسان ، لا رقة القلب ، الذي هو معنى الرحمة حقيقة. يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ أي : قولوا : اللهم صلّ على محمد – أو : صلى اللّه على محمد. وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً أي : قولوا : اللهم سلّم على محمد ، أو : صلّ وسلّم على محمد ، أو : انقادوا لأمره وحكمه ، انقيادا كليا.

وعن كعب بن عجرة : قلنا : يا رسول اللّه ، أما السلام عليك ، فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك؟ قال : «قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلّيت على ابراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهمّ بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد» «١». ومعرفتهم السلام من التشهد. والصلاة على غير الأنبياء

---

(١) أخرجه البخاري فى (التفسير – سورة الأحزاب ، باب : إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ح ٤٧٩٧).

(٤٥٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٥٨

بالتبع جائزة. وأما بالاستقلال فمكروه ، وهو من شعار الروافض. هـ. قال الكواشي : روى أنه قيل يا رسول اللّه : أرأيت قول اللّه تعالى : إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ .. الآية؟ فقال : هذا من العلم المكنون ، ولو لا أنكم سألتمونى عنه ما أخبرتكم ، إن اللّه وكل بي ملكين ، فلا أذكر عند عبد مسلم ، فيصلى علىّ ، إلا قال ذانك الملكان : غفر اللّه لك.

وقال اللّه وملائكته جوابا لذينك الملكين : آمين. ولا أذكر عند عبد مسلم ، فلا يصلى علىّ إلا قال ذانك الملكان :

لا غفر اللّه لك. وقال اللّه جوابا لذينك الملكين : آمين «١». هـ.

والصلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم واجبة. فمنهم من أوجبها عند ذكره كلما ذكر ، وعليه الجمهور ، وهو الاحتياط للحديث المتقدم. ولقوله صلى اللّه عليه وسلم : «من ذكرت عنده فلم يصلّ علىّ دخل النار». ومنهم من أوجبها فى كل مجلس مرة ، وإن تكرر ذكره ، كتشميت العاطس وآية السجدة. ومنهم من أوجبها مرة فى العمر. قالوا : وكذلك الخلاف فى إظهار الشهادتين ، وأما ذكرها فى الصلاة فليست شرطا عند أبى حنيفة ومالك ، خلافا للشافعى ، والاحتياط : الإكثار منها بغير حصر ، ولا يغفل عنها إلا من لا خير فيه. واختلف هل كانت الأمم الماضية متعبدة بالصلاة على أنبيائهم. قال

القسطلاني : إنه لم ينقل إلينا ذلك ، ولا يلزم من عدم النقل عدم الوقوع. هـ.
الإشارة : اعلم أن الصلاة عليه صلى اللّه عليه وسلم سلم ومعراج الوصول إلى اللّه لأن تكثير الصلاة عليه صلى اللّه عليه وسلم توجب محبته ، ومحبته - عليه الصلاة والسلام - توجب محبة اللّه تعالى ، ومحبته تعالى للعبد تجذبه إلى حضرته ، بواسطة وبغيرها. وأيضا : الرسول صلى اللّه عليه وسلم وزير مقرب ، ومن رام دخول حضرة الملوك يخدم الوزير ، ويتقرب إليه ، حتى يدخله على الملك. فهو صلى اللّه عليه وسلم حجاب اللّه الأعظم ، وبابه الأكرم ، فمن رام الدخول من غير بابه طرد وأبعد ، وفى ذلك يقول ابن وفا :
وأنت باب اللّه ، أىّ امرئ وفاه من غيرك لا يدخل.
وقال الشيخ الجزولي رضي اللّه عنه فى دلائل الخيرات : وهى من أهم المهمات لمن يريد القرب من رب الأرباب.
وقال شارحه : ووجه أهميتها من وجوه ، منها : ما فيها من التوسل إلى اللّه سبحانه بحبيبه ومصطفاه. وقد قال تعالى : وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ «٢» ، ولا وسيلة إليه أقرب ، ولا أعظم ، من رسوله الأكرم صلى اللّه عليه وسلم.

---

(١) قال الهيثمي فى المجمع (٧/ ٩٣) : رواه الطبراني ، وفيه الحكم بن عبد اللّه بن خطاف ، وهو كذّاب.
(٢) من الآية ٣٥ من سورة المائدة.

ومنها : أن اللّه تعالى أمر بها ، وحضّنا عليها ، تشريفا له وتكريما ، وتفضيلا لجلاله ، ووعد من استعملها حسن المآب ، وجزيل الثواب ، فهى من أنجح الأعمال ، وأرجح الأقوال ، وأزكى الأحوال ، وأحظى القربات ، وأعم البركات.
وبها يتوصل إلى رضا الرحمن ، وتنال السعادة والرضوان ، وتجاب الدعوات ، ويرتقى إلى أرفع الدرجات. وأوحى اللّه تعالى إلى موسى عليه السّلام : يا موسى أتريد أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك ، ومن وسواس قلبك إلى قلبك ، ومن روحك إلى بدنك ، ومن نور بصرك إلى عينيك؟ قال : نعم يا رب ، قال : فأكثر من الصلاة على محمد صلى اللّه عليه وسلم.
ومنها : أنه صلى اللّه عليه وسلم محبوب للّه عز وجل ، عظيم القدر عنده ، وقد صلّى عليه هو

وملائكته ، فوجبت محبة المحبوب ، والتقرب إلى اللّه تعالى بمحبته ، وتعظيمه ، والاشتغال بحقه ، والصلاة عليه ، والاقتداء بصلاته ، وصلاة ملائكته عليه. قلت : وهذا التشريف أتم وأعظم من تشريف آدم عليه السّلام ، بأمر الملائكة بالسجود له لأنه لا يجوز أن يكون اللّه مع الملائكة فى ذلك التشريف. فتشريف يصدر عنه مع ملائكة أبلغ من تشريف تختص به الملائكة.

ومنها : ما ورد فى فضلها ، ووعد عليها من جزيل الأجر وعظيم القدر ، وفوز مستعملها برضا اللّه ، وقضاء حوائج آخرته ودنياه.

ومنها : ما فيها من شكر الواسطة فى نعم اللّه علينا المأمور ، بشكره ، وما من نعمة للّه علينا ، سابقة ولا لاحقة من نعمة الإيجاد والإمداد ، فى الدنيا والآخرة ، إلا وهو السبب فى وصولها إلينا ، وإجرائها علينا ، فوجب حقه علينا ، ووجب علينا فى شكر نعمته ألا نفتر عن الصلاة عليه ، مع دخول كل نفس وخروجه.

ومنها : ما فيها من القيام برسم العبودية ، بالرجوع لما يقتضى الأصل نفيه ، فهو أبلغ فى الامتثال ، ومن أجل ذلك كانت فضيلة الصلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم على كل عمل. والذي يقتضى الأصل نفيه ، هو كون العبد يتقرب إلى اللّه بالاشتغال بحق غيره لأن قولنا «اللهم صلّ على محمد» هو الاشتغال بحق محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وأصل التعبدات : ألا يتقرب إلى اللّه تعالى إلا بالاشتغال بحقه. ولكن لمّا كان الاشتغال بالصلاة على محمد بإذن من اللّه تعالى ، كان الاشتغال بها أبلغ فى امتثال الأمر ، فهى بمثابة أمر اللّه تعالى للملائكة بالسجود لآدم ، فكان شرفهم فى امتثال أمر اللّه ، وإهانة إبليس فى مخالفة أمره سبحانه.

ومنها : ما جرب من تأثيرها ، والنفع بها فى التنوير ورفع الهمة ، حتى قيل : إنها تكفى عن الشيخ فى الطريق ، وتقوم مقامه ، حسبما نقله الشيخ السنوسى ، والشيخ زروق ، وغيرهما.

(٤٥٩/٤)

ومنها : ما فيها من سير الاعتدال ، الجامع لكمال العبد وتكميله ، ففى الصلاة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذكر اللّه ورسوله ، ولا كذلك عكسه ، فلذلك كانت المثابرة على الأذكار والدوام عليها يحصل به الانحراف ، وتكسب نورانية تحرق الأوصاف ، وتثير وهجا وحرارة فى الطباع ، والصلاة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تذهب وهج الطّباع ، وتقوى النفوس لأنها كالماء البارد ، فكانت تقوم مقام شيخ التربية. انتهى كلامه.

قلت : والحق الذي لا غبار عليه : أن الصلاة عليه صلى اللّه عليه وسلم ، والإكثار منها ، تدلّ صاحبها

على من يأخذ بيده ، وتوصله إلى شيخ التربية ، الذي هو خليفة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، إن كان صادق الطلب ، وأما كونها تقوم مقام الشيخ فى دخول مقام الفناء والبقاء ، حتى تعتدل حقيقته وشريعته فلا إذ لا تنقطع رعونات النفوس إلا بآمر وناه من غيره ، يكون عالما بدسائس النفوس وخدعها ، وغاية ما توصل إليه الصلاة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - إن لم يظفر بالشيخ - الفناء فى الصفات ، وينال مقام الصلاح الأكبر ، ويظهر له كرامات وخوارق ، ويكون من أرباب الأحوال ، وإن وصل إلى مقام الفناء تكون شريعته أكبر من حقيقته.

هذا ما ذقناه ، وشهدناه ، وسمعناه من أشياخنا ، والطريق التي أدركناهم يستعملونها ، وأخذناها منهم ، أنهم يأمرون المريد إن رأوه أهلا للتربية أن يلتزم الاسم المفرد ، ويفنى فيه ، حتى تنهدم به عوالمه ، فإذا تحقق فناؤه وغاب عن نفسه ورسمه ، ردوه إلى مقام البقاء ، وحينئذ يأمرونه بالصلاة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، لتكون صلاته عليه كاملة ، يصلى على روحه وسره بلا حجاب ، ويشاهده فى كل ساعة كما يشاهدونه. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر أهل الغفلة والبعد ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٥٧ الى ٥٨]

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (٥٨)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بارتكابهم ما يكرهانه من الكفر والمعاصي والبدع. وقال ابن عباس : هم اليهود والنصارى والمشركون. فقالت اليهود : يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ «١» ، إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ «٢»

---

(١) كما ذكرت الآية ٦٤ من سورة المائدة.

(٢) كما ذكرت الآية ١٨١ من سورة آل عمران

وقالت النصارى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ «١» ، إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ «٢». وقال المشركون : الملائكة بنات اللّه ، والأصنام شركاؤه. وقيل : يؤذونه : يلحدون فى أسمائه وصفاته. ويؤذون رسول اللّه ، حين شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، وقيل له : هو ساحر وشاعر ومجنون. أو : بترك سنّته ومخالفة شريعته.

ويحتمل أن يكون المراد يؤذون رسول اللّه فقط بالتنقيص ، أو بالتعرض لنسائه. وذكر اسم اللّه

للتشريف. لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ أي : أبعدهم من رحمته فى الدارين وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً يهينهم ويخزيهم فى النار.

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا بغير جناية يستحقون بها الإيذاء ، فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً كذبا وَإِثْماً مُبِيناً ظاهرا ، وإنما أطلق فى إيذاء اللّه ورسوله ، وقيّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات لأن إيذاء اللّه ورسوله لا يكون إلا بغير حق ، وأما إيذاء المؤمنين فمنه ما يكون بحق ، كالحدّ والتعزير ، ومنه باطل. وقيل :

نزلت فى ناس من المنافقين ، كانوا يؤذون عليّا رضي اللّه عنه ، ويسمعونه ، وقيل : فى زناة المدينة ، كانوا يمشون فى طرق المدينة ، ويتبعون النساء إذا تبرزن بالليل لقضاء حوائجهن ، فيغمزون المرأة ، فإن سكتت اتبعوها ، وإن زجرتهم انتهوا «٣». وعن الفضيل : لا يحلّ أن تؤذى كلبا أو خنزيرا بغير حق ، فكيف بالمؤمنين؟. هـ.

الإشارة : إذاية اللّه ورسوله هى إذاية أوليائه ، ونقله الثعلبي عن أهل المعاني ، فقال : فأراد اللّه تعالى المبالغة فى النهى عن أذى أوليائه ، فجعل أذاهم أذاه. هـ. ويؤيده الحديث القدسي : «من آذى لى وليّا فقد بارزني بالمحاربة» «٤» ، أو كما سبحانه. وإذاية المؤمنين كثيرة ، تكون باللسان وبغيره ، وقد قالوا : البر لا يؤذى الذر. ومن أركان التصوف : كف الأذى ، وحمل الجفا ، وشهود الصفا ، ورمى الدنيا بالقفا. وباللّه التوفيق.

ثم أمر بتمييز الحرائر من الإماء فى اللباس ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٩]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٩)

---

(١) كما ذكرت الآية ٣٠ من سورة التوبة.

(٢) كما ذكرت الآية ٧٣ من سورة المائدة.

(٣) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٧٧) والبغوي فى التفسير (٦/ ٣٧٦) عن الضحاك ، والسدى ، والكلبي.

(٤) أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب : التواضع ، ح ٦٥٠٢). من حديث أبى هريرة بلفظ : «من عادى لى وليّا فقد آذنته بالحرب ..»

الحديث وأخرجه الإمام أحمد فى المسند (٦/ ٢٥٦) من حديث السيدة عائشة - رضى اللّه عنها - بلفظ : «من أذل لى وليّا فقد استحل محاربتى ...» الحديث.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٦٢

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ أي : يرخين على وجوههنّ من جلابيبهن فيغطين بها وجوههن. والجلباب : كل ما يستر الكل ، مثل الملحفة ، والمعنى : قل للحرائر يرخين أرديتهن وملاحفهن ويغطين بها وجوههن ورؤوسهن ، ليعلم أنهن حرائر فلا يؤذين. وذلِكَ أَدْنى أي : أقرب وأجدر ، أَنْ يُعْرَفْنَ من الإماء فَلا يُؤْذَيْنَ ، وذلك أن النساء فى أول الإسلام كن على زيهنّ فى الجاهلية متبدّلات ، تبرز المرأة فى درج وخمار ، لا فصل بين الحرّة والأمة. وكان الفتيان يتعرّضون للإماء ، إذا خرجن بالليل لقضاء حاجتهنّ فى النخيل والغيضات «١» ، وكن يخرجن مختلطات مع الحرائر ، فربما تعرضوا للحرّة ، يحسبونها أمة ، فأمرن أن يخالفن بزيهنّ عن زى الإماء بلباس الجلابيب ، وستر الرؤوس والوجوه ، فلا يطمع فيهنّ طامع.

قال ابن عباس رضي اللّه عنه : أمر اللّه تعالى نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب ، ويبدين عينا واحدة. قلت : وقد مرّ فى سورة النور «٢» أن الوجه والكفين ليس بعورة ، إلا لخوف الفتنة ، وأما الإماء فلا تسترن شيئا إلا ما بين السرة والركبة ، كالرجل. قال أنس : مرت جارية متقنعة بعمر بن الخطاب فعلاها بالدرة ، وقال :

يا لكاع أنت تشبهين بالحرائر ، فألق القناع. وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً لما سلف منهن من التفريط ، رَحِيماً بتعليمهن آداب المكارم.

الإشارة : ينبغى لنساء الخواص أن يتميزن من نساء العامة بزيادة الصّون والتحفظ ، وقلة الخروج ، فإذا لزمهنّ الخروج ، فليخرجن فى لباس خشين ، بحيث لا يعرفن ، أو يخرجن ليلا. وثبت أن زوجة الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه لم تخرج من دارها إلا خرجتن خرجة حين زفت إلى زوجها ، وخرجة إلى المقابر. نفعنا اللّه ببركاتهم. آمين.

ثم هدد المنافقين ، حيث كانوا [يؤذوان] «٣» رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٦٠ الى ٦٢]

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢)

---

(١) الغيضة : هى الشجر الملتف ، وجمعه : غياض وغيضات. انظر اللسان (غيض ٥/ ٣٣٢٧).

[.....]

(٢) راجع تفسير الآية ٣١ من سورة النور.

(٣) فى الأصول الخطية [يؤذوا] ..

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٦٣

قلت : (لنغرينك) : جواب القسم المغني عن جواب الشرط. و(ثم لا يجاورنك) : عطف عليه لأنه يصح أن يجاب به القسم لصحة قولك : لئن لم ينتهوا لا يجاورنك ، ولمّا كان الجلاء عن الوطن أعظم من جميع ما أصيبوا به عطف بثم ، لبعد حاله عن حال المعطوف عليه. و(ملعونين) : نصب على الشتم أو الحال ، والاستثناء دخل على الظرف والحال معا ، أي : لا يجاورنك إلا قليلا فى اللعنة والبعد ، ولا يصح نصبه بأخذوا لأن ما بعد حرف الشرط لا يعمل فيما قبله.

يقول الحق جل جلاله : لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ عن نفاقهم وإيذائهم ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فجور ، وهم الزناة من قوله : «فيطمع الذي فى قلبه مرض». وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ، وهم أناس كانوا يرجفون بأخبار السوء فى المدينة ، من سرايا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فيقولون : هزموا وقتلوا ، وجرى عليهم كيت وكيت ، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين. يقال : رجف بكذا : إذا أخبر به على غير حقيقته لكونه خبرا مزلزلا غير ثابت ، من :

الرجفة ، وهى الزلزلة ، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ : لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم ، أو ما يضطرهم إلى طلب الجلاء ، أو :

لنسلطنك عليهم ، ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها فى المدينة إِلَّا زمنا قَلِيلًا.

والمعنى : لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم ، والفسقة عن فجورهم ، والمرجفون عما يلقون من أخبار السوء ، لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوءهم ، بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء من المدينة ، وألّا يساكنوك فيها إلّا زمنا قليلا ، ريثما يرتحلون. فسمّى ذلك إغراء ، وهو التحريش ، على سبيل المجاز. حال كونهم مَلْعُونِينَ أي : لا يجاورونك إلا ملعونين ، مبعدين عن الرحمة أَيْنَما ثُقِفُوا وجدوا ، أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ، والتشديد للتكثير.

سُنَّةَ اللَّهِ أي : سنّ اللّه ذلك سنّة فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ فى المنافقين الذين كانوا ينافقون الأنبياء من قبل ، ويسعون فى وهنهم بالإرجاف ونحوه أن يقتّلوا أينما وجدوا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا أي : لا يبدل اللّه سنّته ولا يقدر أحد أن يبدلها ، بل يجريها مجرى واحدا فى الأمم كلهم.

قال ابن جزى : تضمنت الآية وعيد هؤلاء الأصناف إن لم ينتهوا ، ولم ينفذ الوعيد فيهم. ففى ذلك دليل على بطلان القول بوجوب إنفاذ الوعيد فى الآخرة. وقيل : إنهم انتهوا وستروا أمرهم فكف عنهم إنفاء الوعيد. هـ.

الإشارة : منافقو الصوفية هم الذين ينتسبون إلى الصوفية ، ويدّعون محبة القوم ، وهم يعترضون على

الفقراء ، ويرفعون الميزان عليهم ، وهم الذين فى قلوبهم مرض ، أي : حيرة وضيق من غم الحجاب إذ لو ارتفع عنهم

(٤٦٣/٤)

الحجاب لم يعترضوا على أحد ، وهم المرجفون بأهل النسبة ، إذا سمعوا شيئا يسوؤهم أفشوه ، وأظهروا الفرح. لئن لم ينتهوا عن ذلك ليسلطن اللّه عليهم من يخرجهم من النسبة بالكلية ، ثم لا يبقون فيها إلا قليلا ، ممقوتين عند أهل التحقيق ، أينما وجدوا ، أخذوا بالفعل أو بالقول فيهم. وقد ألّف بعض الفقهاء تأليفا فى الرد على الفقراء ، فسلط اللّه عليه من أهانه ، ووسمه بالبلادة والجمود ، ولا زال مهانا أينما ذكر ، والعياذ باللّه.

ولما ذكر حال المنافقين ، ذكر حال المشركين ، لاشتراكهم فى الكفر ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٦٣ الى ٦٨]

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا (٦٦) وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧)

رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (٦٨)

يقول الحق جل جلاله : يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، كان المشركون يسألون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن وقت الساعة ، استعجالا واستهزاء ، واليهود يسألون امتحانا لأن اللّه تعالى أخفى وقتها فى التوراة وفى كل كتاب ، فأمر رسوله صلى اللّه عليه وسلم أن يجيبهم بأنه علم قد استأثر اللّه به ، ثم بيّن لرسوله عليه الصلاة والسلام - أنها قريبة الوقوع ، تهديدا للمستعجلين ، وإسكاتا للممتحنين فقال :

قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ ، لم يطلع عليها ملكا ولا نبيا.

وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً أي : شيئا قريبا ، أو : فى زمان قريب ، فتنصب على الظرفية ، ويجوز أن يكون التذكير لأن الساعة فى معنى اليوم أو الزمان.

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ أبعدهم عن رحمته ، وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً نارا شديدة التسعير ، أي : الإيقاد ، خالِدِينَ فِيها أَبَداً ، وهذا يرد مذهب الجهمية فى زعمهم أن النار تفنى ، و(خالدين) : حال مقدرة من ضمير «لهم». لا يَجِدُونَ وَلِيًّا يحفظهم ، وَلا نَصِيراً يمنعهم ويدفع العذاب عنهم ، وذلك يَوْمَ تُقَلَّبُ أو : واذكر يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ تطوف من جهة إلى جهة ، كما ترى البضعة «١» من اللحم تدور

(١) البضعة : القطعة. انظر اللسان (بضع ، ١/ ٢٩٦).

(٤٦٤/٤)

فى القدر إذا غلت. وخصّت الوجوه لأنها أكرم موضع على الإنسان من جسده. أو : يكون الوجه كناية عن الجملة.

حال كونهم يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا فى الدنيا ، فنتخلص من هذا العذاب ، فندّموا حيث لم ينفع الندم.

وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا ، والمراد : رؤساء الكفر ، الذين لقنوهم الكفر ، وزيّنوه لهم. وقرأ ابن عامر ويعقوب «ساداتنا» بالجمع ، جمع : سادة ، وسادة : جمع سيد ، فهو جمع الجمع ، فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا أي :

أتلفونا عن طريق الرشد. يقال : ضلّ السبيل وأضله إياه ، وزيادة الألف للإطلاق. رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ أي : مثلى ما آتيتنا منه للضلال والإضلال ، وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً «١» كثير العدد ، تكثيرا لأعداد اللاعنين ، أو : العنهم المرة بعد المرة. وقرأ عاصم بالباء ، أي : لعنا هو أشد اللعن وأعظمه. وهو يدلّ على تعدد الأجزاء والأفراد.

الإشارة : مذهب العباد والزهاد والصالحين : جعل الساعة نصب أعينهم ، لا يغيبون عنها ، فهم يجتهدون فى التأهب لها ليلا ونهارا. ومذهب العارفين الموحّدين : الغيبة عنها ، بالاستغراق فى شهود الحق ، فلا يشغلهم الحق ، دنيا ولا آخرة ، ولا جنة ولا نار لما دخلوا جنة المعارف ، غابوا عن كل شىء ، فانخلعوا عن الكونين بشهود المكوّن ، وجعلوا الوجود وجودا واحدا إذ المتجلى هنا وثم واحد.

وإذا كان كبراء الضلال يضاعف عذابهم ، وكان كبراء الهداية يضاعف ثوابهم ، يأخذون ثواب الاهتداء والإرشاد ، فمن دلّ على هدى كان له أجره وأجر من اتبعه إلى يوم القيامة ، ومن اهتدى على يديه أحد جرى عليه أجره ، وكان فى ميزانه كل من تبعه كذلك ، وفى ذلك يقول القائل :

والمرء فى ميزانه اتباعه فاقدر إذن قدر النبىّ محمد «٢»

ثم رجع إلى النهى عن إذاية الرسول ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٦٩ الى ٧١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَكانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (٦٩) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١)

---

(١) قرأ عاصم «كبيرا» بالباء ، وقرأ الباقون «كثيرا» بالتاء ، من الكثرة. انظر الإتحاف (٢/ ٣٧٨).
(٢) انظر ديوان البوصيرى (ص ١٢٢) ، وفيه :
والمرء فى ميراثه أتباعه فاقدر إذن فضل النبي محمد

(٤٦٥/٤)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى من بنى إسرائيل فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا. وذلك أن بنى إسرائيل كانوا يغتسلون عرايا ، ينظر بعضهم إلى بعض ، وكان موسى عليه السّلام يستتر لشدة حيائه ، فقالوا : ما يمنع موسى من الاغتسال معنا إلا أنه آدر - والأدرة : انتفاخ الأنثيين - أو : به عيب من برص أو غيره ، فذهب يغتسل وحده ، فوضع ثوبه على حجر ، ففرّ الحجر بثوبه ، فلجّ فى أثره يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر! حتى نظروا إلى سوأته ، فقالوا : واللّه ما بموسى من بأس ، فقام الحجر من بعد ما نظروا إليه ، وأخذ ثوبه ، فطفق بالحجر ضربا ، ثلاثا أو أربعا «١».
وقيل : كان أذاهم : ادعاءهم عليه قتل أخيه. قال علىّ رضي اللّه عنه : صعد موسى وهارون الجبل ، فمات هارون ، فقالت بنو إسرائيل : أنت قتلته. وكان أشدّ لنا حبا ، وألين منك ، فآذوه بذلك ، فأمر تعالى الملائكة فحملته ، حتى مرت به على بنى إسرائيل ، وتكلمت الملائكة بمماته ، حتى تحققت بنو إسرائيل أنه قد مات ، فبرأ اللّه موسى من ذلك ، ثم دفنوه. فلم يطلع على قبره إلا الرّخم «٢» من الطير ، وإن اللّه جعله أصم أبكم «٣» ، وقيل : إنه على سرير فى كهف الجبل. وقيل : إن قارون استأجر امرأة مومسة ، لتقذف موسى بنفسها على رأس الملأ ، فعصمها اللّه ، وبرأ موسى ، وأهلك قارون «٤». وقد تقدم.
وَكانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ذا جاه ومنزلة رفيعة ، مستجاب الدعوة. وقرأ ابن مسعود والأعمش «وكان عبدا للّه وجيها».
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ فى ارتكاب ما يكرهه ، فضلا عما يؤذى رسوله ، وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً صدقا وصوابا ، أو : قاصدا إلى الحق. والسداد : القصد إلى الحق والقول بالعدل. والمراد : نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول. والحث على أن يسددوا قولهم فى كل باب لأن حفظ اللسان ، وسداد القول رأس كل خير ، ولذلك قال : يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ أي : يوفقكم لصالح الأعمال ، أو : يقبل طاعتكم ، ويثيبكم عليها ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ أي : يمحها.

(١) أخرجه البخاري فى (الأنبياء – باب ٢٨ ح ٣٤٠٤) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.
(٢) الرّخم : نوع من الطير معروف ، واحدته : «رخمة» ، وهو موصوف بالغدر ، وقيل بالقذر. انظر النهاية (٢/ ٢١٢).
(٣) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ٥٢) والحاكم وصححه () ، وانظر الدر المنثور (٥/ ٤١٩).
(٤) ذكره البغوي فى التفسير (٦/ ٣٧٩) عن أبى العالية.

والمعنى : راقبوا اللّه فى حفظ ألسنتكم ، وتسديد قولكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم ما هو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم ، ومن مغفرة سيئاتكم. وهذه الآية مقررة للتى قبلها ، فدلت تلك على النهى عما يؤذى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وهذه على الأمر باتقاء اللّه فى حفظ اللسان ، ليترادف عليها النهى والأمر ، مع اتباع النهى ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السّلام ، واتباع الأمر الوعد البليغ بتقوى اللّه الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه.
ثم وعدهم بالفوز العظيم بقوله : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فى الأوامر والنواهي فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً ، يعيش فى الدنيا حميدا ، وفى الآخرة سعيدا. جعلنا اللّه منهم ، آمين.
الإشارة : فى الآية تسلية لمن أوذى من الأولياء بالتأسي بالأنبياء. روى أن موسى عليه السّلام قال : يا رب احبس علىّ ألسنة الناس ، فقال له : هذا شيء لم أصنعه لنفسى ، فكيف أفعله بك. وأوحى تبارك وتعالى إلى عزير : إن لم تطب نفسا بأن أجعلك علكا فى أفواه الماضغين ، لم أثبتك عندى من المتواضعين. هـ.
واعلم أن تعظيم الرسول صلى اللّه عليه وسلم هو سبب السعادة والفوز الكبير ، وتعظيم أولياء اللّه وخدمتهم هو سبب الوصول إلى اللّه العلى الكبير ، وتقوى اللّه أساس الطريق ، وحفظ اللسان وتحرى القول السديد هو سبب الوصول إلى عين التحقيق.
قال الشيخ زروق رضي اللّه عنه فى بعض وصاياه – بعد كلام – : ولكن قد تصعب التقوى على النفس لاتساع أمرها ، فتوجّه لترك العظائم والقواعد المقدر عليها ، تعن على ما بعدها ، وأعظم ذلك معصية : الغيبة قولا وسماعا ، فإنها خفيفة على النفوس لإلفها ، مستسهلة لاعتيادها ، مع أنها صاعقة الدين ، وآفة المذنبين ، من اتقاها أفلح فى بقية أمره ، ومن وقع فيها خسر فيما وراءها. قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ... الآية ، فجعل

صلاح العمل متوقفا على سداد القول ، وكذلك ورد : أن الجوارح تصبح تشتكى اللسان ، وتقول : اتق اللّه فينا ، فإنك إن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا. فلا تهمل يا أخى لسانك ، وخصوصا فى هذه الخصلة ، فتورع فيها أكثر ما تورع فى مأكلك ومشربك ، فإذا فعلت طابت حياتك ، وكفيت الشواغب ، ظاهرا وباطنا. هـ.

فإذا تحققت بالتقوى ، وحصّنت لسانك بالقول السديد ، كنت أهلا لحمل الأمانة ، كما قال تعالى :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٧٢ الى ٧٣]

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٣٧)

(٤٦٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٦٨

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ ، الأمانة هنا هى التوحيد فى الباطن ، والقيام بوظائف الدين فى الظاهر ، من الأوامر والنواهي ، فالإيمان أمانة الباطن ، والشريعة بأنواعها كلها أمانة الظاهر ، فمن قام بهاتين الخصلتين كان أمينا ، وإلا كان خائنا. والمعنى : إنا عرضنا هذه الأمانة على هذه الأجرام العظام ، ولها الثواب العظيم ، إن أحسنت القيام بها ، والعقاب الأليم إن خانت ، فأبت وأشفقت واستعفت منها ، مخافة ألا تقدر عليها ، فطلبت السلامة ، ولا ثواب ولا عقاب. وهذا معنى قوله : فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها. فيحتمل أن يكون الإباء بإدراك ، خلقه اللّه فيها ، وقيل : أحياها وأعقلها ، كقوله : ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً «١». ويحتمل أن يكون هذا العرض على أهلها من الملائكة والجن.

وقال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : وقد يقال : الأمانة هى ما أخذ عليهم من عهد التوحيد فى الغيب بعد الإشهاد لربوبيته ، وينظر لذلك قوله : «لن يسعنى أرضى ولا سمائى ووسعني قلب عبدى المؤمن».

وأما حملها على التكاليف فلا يختص بالآدمى لأن الجن أيضا مكلف ، ومناسبة الآية لما قبلها : أن الوفاء بها من جملة التقوى المأمور بها. هـ.

وقيل : لم يقع عرض حقيقة ، وإنما المقصود : تعظيم شأن الطاعة ، وسماها أمانة من حيث إنها واجبة الأداء.

والمعنى : أنها لعظمة شأنها لو عرضت على هذه الأجرام العظام ، وكانت ذا شعور وإدراك ، لأبين أن

يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، مع ضعف بنيته ، ورخاوة قوته ، لا جرم ، فإن الراعي لها ، والقائم بحقوقها ، بخير الدارين. هـ. قاله البيضاوي. والمراد بالإباية : الاستعفاء ، لا الاستكبار ، أي : أشفقن منها فعفا عنهن وأعفاهن.

وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ أي : آدم. قيل : فما تم له يوم من تحملها حتى وقع فى أمر الشجرة ، وقيل : جنس الإنسان ، وهذا يناسب حمل الأمانة على العهد الذي أخذ على الأرواح فى عالم الغيب. إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا حيث تعرض لهذا الخطر الكبير ، ثم إن قام بها ورعاها حق رعايتها خرج من الظلم والجهل ، وكان صالحا أمينا

---

(١) الآية ١١ من سورة فصلت.

عدولا ، وإن خانها ولم يقم بها ، كان ظلوما جهولا ، كلّ على قدر خيانته وظلمه ، فالكفار خانوا أصل الأمانة ، وهى الإيمان فكفروا ، ومن دونهم خانوا بارتكاب المناهي أو ترك الطاعة ، فبعضهم أشد ، وبعضهم أهون ، وكل واحد عقوبته على قدر خيانته.

ثم علل عرضها ، وهو : لتقوم الحجة على عباده ، فقال : لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ حيث لم يقوموا بها ، وخانوا فيها ، فتقوم الحجة عليهم ، ولا يظلم ربك أحدا. وقال أبو حيان : اللام للصيرورة والعاقبة. وقال أبو البقاء : اللام متعلق بحملها ، وحينئذ تكون للعاقبة قطعا.

وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ، حيث حملوا الأمانة ، إلا أن العبد لا يخلو من تفريط ، قال تعالى : كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ «١» وقال :

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ «٢» ولذلك قال : وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ، فالغفران لمن لحقه تفريط وتقصير ، والرحمة لمن اجتهد قدر طاقته ، كالأولياء وكبار الصالحين.

والحاصل : أن العذاب لمن تحملها أولا ، ولم يقم بحقها ثانيا. والغفران لمن تحملها وقام بحقها ، والرحمة لمن تحملها ورعاها حق رعايتها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الأمانة التي عرضها اللّه على السموات والأرض والجبال هى شهود أسرار الربوبية فى الباطن ، والقيام بآداب العبودية فى الظاهر ، أو تقول : هى إشراق أسرار الحقائق فى الباطن ، والقيام بالشرائع فى الظاهر ، مع الاعتدال ، بحيث لا تغلب الحقائق على الشرائع ، ولا الشرائع على الحقائق ، فلا يغلب السكر على الصحو ، ولا الصحو على السكر. وهذا السر خاص بالآدمي لأنه اجتمع فيه

الضدان اللطافة والكثافة ، النور والظلمة ، المعنى والحس ، القدرة والحكمة ، فهو سماوى أرضى ، روحانى بشرى ، معنوى وحسى. ولذلك خصه اللّه تعالى من بين سائر الأكوان بقوله : خَلَقْتُ بِيَدَيَّ «٣» أي : بيد القدرة والحكمة ، فكان جامعا للضدين ، ملكيا ملكوتيا ، حسه حكمة ، ومعناه قدرة.
وليست هذه المزية لغيره من الكائنات ، فالملائكة والجن معناهم غالب على حسهم ، فإذا أشرقت عليهم أنوار الحقائق غلب عليهم السكر والهيمان ، والحيوانات والجمادات حسهم غالب على معناهم ، فلا يظهر عليهم شيء من الأنوار والأسرار.

---

(١) الآية ٢٣ من سورة عبس.
(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر.
(٣) من الآية ٧٥ من سورة (ص).

وهذا السر الذي خص به الآدمي هو كامن فيه ، من حيث هو ، كان كافرا أو مؤمنا ، كما كمن الزبد فى اللبن ، فلا يظهر إلا بعد التربيب والضرب والمخض ، وإلا بقي فيه كامنا ، وكذلك الإنسان ، السر فيه كامن ، وهو نور الولاية الكبرى ، فإذا آمن ووحد اللّه تعالى ، واهتز بذكر اللّه ، وضرب قلبه باسم الجلالة ، ظهر سره ، إن وجد شيخا يخرجه من سجن نفسه وأسر هواه.
وله مثال آخر ، وهو أن كمون السر فيه ككمون الحب فى الغصون قبل ظهوره ، فإذا نزل المطر ، وضربت الرياح أغصان الأشجار ، أزهرت الأغصان وأثمرت ، وإليه أشار فى المباحث الأصلية ، حيث قال :
وهى من النفوس فى كمون كما يكون الحب فى الغصون
حتى إذا أرعدت الرعود وانسكب الماء ولان العود
وجال فى أغصانها الرياح فعندها يرتقب اللقاح
ثم قال :
فهذه فواكه المعارف لم تشر بالتالد أو بالطارف «١»
ما نالها ذو العين والفلوس وإنما تباع بالنفوس
فلا يظهر هذا السر الكامن فى الإنسان إلا بعد إرعاد الرعود فيه ، وهى المجاهدة والمكابدة ، وقتل النفوس ، بخرق عوائدها ، وبعد نزول أمطار النفحات الإلهية ، والخمرة الأزلية ، على يد الأشياخ ،

الذين أهّلهم اللّه لسقى هذا الماء ، وتجول فى أغصان عوالمه رياح الواردات ، وينحط مع أهل الفن ، حتى يسرى فيه أنوارهم ، ويتأدب بآدابهم ، فحينئذ ينتظر لقاح السر فيه ، ويجنى ثمار معارفه ، وإلا بقي السر أبدا كامنا فيه. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله.

---

(١) التالد : المال القديم الأصلى ، الذي ولد عندك ، وطال فى ملكك. انظر اللسان (تلد ، ١/ ٤٣٩) والطارف والطريف : الحادث من المال ، أي : الذي تجدد ملكه ، وهو ضد التالد. انظر (طرف ، ٤/ ٢٦٥٧) وانظر شرح الأبيات فى الفتوحات الإلهية (١١٧ - ١٢٦). [.....]

سورة سبإ

مكية ، إلا قوله : وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. الآية «١» ، فاختلف فيه ، مكى أو مدنى؟ وهى خمس وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ «٢» مع قوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، وكأنه يشير إلى أنه تعالى غنى عمن حمل الأمانة ، ومن لم يحملها ، فمن حملها فلنفسه ، ومن تركها فعليها ، وإن اللّه لغنى عن العالمين ، ولذلك افتتح بالثناء عليه ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)

يقول الحق جل جلاله : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، إن أجرى على المعهود فهو بما حمد به نفسه محمود ، وإن أجرى على الاستغراق فله لكل المحامد الاستحقاق. واللام فى (لله) للتمليك لأنه خالق ناطق الحمد أصلا ، فكان بملكه مالك للحمد ، وللتحميد أهلا ، الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ خلقا ، وملكا ، وقهرا ، فكان حقيقا بأن يحمد سرا وجهرا ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ كما له الحمد فى الدنيا إذ النعم فى الدارين هو موليها والمنعم بها.

غير أن الحمد هنا واجب لأن الدنيا دار التكليف. وثمّ لا لأن الدار دار التعريف ، لا دار التكليف. وإنما يحمد أهل الجنة سروا بالنعيم ، وتلذذا بما نالوا من الفوز العظيم ، كقوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

صَدَقَنا وَعْدَهُ .. «٣» والْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ .. «٤» فأشار إلى استحقاقه الحمد فى الدنيا بقوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وأشار إلى استحقاقه فى الآخرة بقوله : وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ بتدبير ما فى السموات والأرض ، الْخَبِيرُ بضمير من يحمده ليوم الجزاء والعرض.

يَعْلَمُ ما يَلِجُ : ما يدخل فِي الْأَرْضِ من الأموات والدفائن ، وَما يَخْرُجُ مِنْها من النبات وجواهر المعادن ، وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ من الأمطار وأنواع البركات ، وَما يَعْرُجُ يصعد فِيها من الملائكة والدعوات ، وَهُوَ الرَّحِيمُ بإنزال ما يحتاجون إليه ، الْغَفُورُ بما يجترئون عليه. قاله النسفي.

---

(١) الآية ٦ من السورة.

(٢) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

(٣) من الآية ٧٤ من سورة الزمر.

(٤) من الآية ٣٤ من سورة فاطر.

(٤٧١/٤)

الإشارة : المستحق للحمد هو الذي بيده ما فى سماوات الأرواح من الكشوفات وأنواع الترقيات ، إلى ما لا نهاية له ، من عظمة الذات ، وبيده ما فى أرض النفوس من القيام بالطاعات وآداب العبودية وتحسين الحالات ، وما يلحق ذلك من المجاهدات والمكابدات ، وبيده ما يتحفهم به فى الآخرة ، من التعريفات الجمالية ، والفتوحات الربانية ، والترقي فى الكشوفات السرمدية. فله الحمد فى هذه العوالم الثلاثة إذ كلها بيده ، يخص بها من يشاء من عباده ، مع غناه عن الكل ، وإحاطته بالكل ، ورحمته للكل ، يعلم ما يلج فى أرض النفوس من الهواجس والخواطر ، وما يخرج منها من الصغائر والكبائر ، أو من الطاعة والإحسان من ذوى البصائر ، وما ينزل من سماء الملكوت من العلوم والأسرار ، وما يعرج فيها من الطاعات والأذكار ، وهو الرحيم بالتقريب والإقبال ، الغفور لمساوئ الضمائر والأفعال.

ثم ردّ على من أنكر الآخرة ، التي تقدم ذكرها ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٣ الى ٥]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥)

قلت : (و لا أصغر) و(لا أكبر) : عطف على (مثقال) ، أو : مبتدأ ، وخبره : ما بعد الاستثناء.

و(ليجزى) : متعلق بقوله : (لتأتينكم) ، وتجويز ابن جزى تعلقه بيعزب بعيد لأن الإحاطة بعلمه تعالى ذاتية ، والذاتي لا يعلل ، وإنما تعلل الأفعال لجوازها ، ويصح تعلقه بما تعلق به (فى كتاب) أي : أحصى فى كتاب مبين للجزاء.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : منكر والبعث. والناطق بهذه المقالة أبو سفيان بن حرب ، ووافق عليها غيره ، وقد أسلم هو. قالوا : لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، وإنما هى أرحام تدفع ، وأرض تبلع. قبّح اللّه رأيهم ، وأخلى الأرض منهم. قُلْ لهم : بَلى ، أبطل مقالتهم الفاسدة ببلى ، التي للإضراب ، وأوجب ما بعدها ، أي : ليس الأمر إلا إتيانها ، ثم أعيد إيجابه ، مؤكدا بما هو الغاية فى التوكيد والتشديد ، وهو التوكيد باليمين باللّه عز وجل ، فقال : وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ.

(٤٧٢/٤)

ولمّا كان قيام الساعة من الغيوب المستقبلية الحقية أتبعه بقوله : عالِمِ الْغَيْبِ ، وقرأ حمزة والكسائي : «علّام الغيب» ، بالمبالغة ، يعلم ما غاب فى عالم ملكه وملكوته ، لا يَعْزُبُ عَنْهُ : لا يغيب عن علمه مِثْقالُ ذَرَّةٍ : مقدار أصغر نملة فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ، وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ أي : من مثقال ذرة وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ فى اللوح المحفوظ ، أو فى علمه القديم ، وكنّى عنه بالكتاب لأن الكتاب يحصى ما فيه.

قال الغزالي ، فى عقيدة أهل السنة : وأنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجرى من تخوم الأرض إلى أعلى السماوات ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، فى الليلة الظلماء ، ويدرك حركة الذر فى جو السماء ، ويعلم السر وأخفى ، ويطّلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر ، بعلم قديم أزلى ، لم يزل موصوفا به فى أزل الأزل. هـ.

ثم علل إتيان الساعة بقوله : لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لما اقترفوا من العصيان ، وما قصروا فيه من مدراج الإيمان ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ لما صبروا عليه من مناهج الإحسان. وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ بالإبطال وتعويق الناس عنها ، أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ أي : لهم عذاب من أقبح العذاب مؤلم. ورفع «أليم» مكى وحفص ويعقوب ، نعت لعذاب ، وغيرهم بالجر نعت لرجز.

قال قتادة :

الرجز : سوء العذاب «١».

الإشارة : بقدر ما يربو الإيمان فى القلب يعظم الإيمان بالبعث وما بعده ، حتى يكون نصب عين المؤمن ، لا يغيب عنه ساعة ، فإذا دخل مقام العيان ، استغرق فى شهود الذات ، فغاب عن الدارين ، ولم يبق له إلا وجود واحد ، يتلون بهيئة الدنيا والآخرة. وفى الحقيقة ما ثمّ إلا واحد أحد ، الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته.

كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن كما كان ، ويكون فى المآل كما هو الآن. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٦]

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)

---

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ٦١).

(٤٧٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٧٤

قلت : (و يرى) : مرفوع ، استئناف ، أو منصوب ، عطف على (ليجزى). و(الحق) : مفعول ثان ليرى العلمية.

والمفعول الأول : (الذي أنزل) وهو ضمير فصل.

يقول الحق جل جلاله : وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ من الصحابة ، وممن شايعهم من علماء الأمة ومن ضاهاهم ، أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا ، كعبد اللّه بن سلام ، وكعب الأحبار ، أي : يعلمون الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ يعنى القرآن هُوَ الْحَقَّ ، لا يرتابون فى حقيّته لما انطوى عليه من الإعجاز ، وبموافقته للكتب السالفة ، على يد من تحققت أميته. أو : ليجزى المؤمنين ، وليعلم أولو العلم عند مجىء الساعة أنه الحق ، علما لا يزاد عليه فى الإيقان ، لكونه محل العيان ، كما علموه فى الدنيا من طريق البرهان. وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ، وهو دين اللّه ، من التوحيد ، وما يتبعه من الاستقامة.

الإشارة : أول ما يرتفع الحجاب عن العبد بينه وبين كلام سيده ، فيسمع كلامه منه ، لكن من وراء رداء الكبرياء ، وهو رداء الحس والوهم ، فيجد حلاوة الكلام ويتمتع بتلاوته ، فيلزمه الخشوع والبكاء والرقة عد تلاوته.

قال جعفر الصادق : «لقد تجلى الحق تعالى فى كلامه ولكن لا تشعرون». ثم يرتفع الحجاب بينه وبين

الحق تعالى ، فيسمع كلامه بلا واسطة ولا حجاب ، فتغيب حلاوة الكلام فى حلاوة شهود المتكلم ، فينقلب البكاء سرورا ، والقبض بسطا. وعن هذا المعنى عبّر الصدّيق عند رؤيته قوما يبكون عند التلاوة ، فقال : «كذلك كنا ولكن قست القلوب» «١» فعبر عن حال التمكن والتصلب بالقسوة لأن القلب قبل تمكن صاحبه يكون سريع التأثر للواردات ، فإذا تمكن واشتد لم يتأثر بشيء. وصراط العزيز الحميد هو طريق السلوك إلى حضرة ملك الملوك. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى للكفرة ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٧ الى ٩]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)

---

(١) راجع التعليق على إشارة الآية ٥٨ من سورة مريم.

قلت : (إذا) : العامل فيه محذوف ، دلّ عيه : لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. و(ممزّق) : مصدر ، أي : تجددون إذا مزقتم كل تمزيق ، و(جديد) : فعيل بمعنى فاعل ، عند البصريين. تقول : جدّ الثوب فهو جديد ، أو بمعنى مفعول ، كقتيل ، من جد النساج الثوب : قطعه. ولا يجوز فتح (إنكم) للأم فى خبره. و(أفترى) : الهمزة للاستفهام ، وحذفت همزة الوصل للاستغناء عنها.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا من منكرى البعث : هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ ، يعنون محمدا صلى اللّه عليه وسلم ، وإنما نكّروه - مع أنه كان مشهورا علما فى قريش ، وكان إنباؤه بالبعث شائعا عندهم - تجاهلا به وبأمره. وباب التجاهل فى البلاغة معلوم ، دال على سحرها ، يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أي : يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب ، إنكم تبعثون وتنشئون خلقا جديدا ، بعد أن تكونوا رفاتا وترابا ، وتمزق أجسادكم بالبلى ، كل تمزيق ، وتفرقون كل تفريق ، أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أي : أهو مفتر على اللّه كذبا فيما ينسب إليه من ذلك؟ أَمْ بِهِ جِنَّةٌ : جنون توهمه ذلك ، وتلقيه على لسانه. واستدلت المعتزلة بالآية على أن بين الصدق والكذب واسطة ، وهو كل خبر لا يكون عن بصيرة بالمخبر عنه ، وأجيب : بأن الافتراء أخص من الكذب ، لاختصاص الافتراء بالتعمد ، والكذب

أعم. وكأنه قيل : أتعمد الكذب أو لم يتعمد بل به جنون.
قال تعالى : بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ أي : ليس محمد من الافتراء والجنون فى شىء ، وهو منزه عنهما ، بل هؤلاء الكفرة ، المنكرون للبعث ، واقعون فى عذاب النار ، وفيما يؤديهم إليه من الضلال البعيد عن الحق ، بحيث لا يرجى لهم الخلاص منه ، وهم لا يشعرون بذلك ، وذلك أحق بالجنون. جعل وقوعهم فى العذاب رسيلا لوقوعهم فى الضلال ، مبالغة فى استحقاقهم له ، كأنهما كائنان فى وقت واحد لأن الضلال ، لمّا كان العذاب من لوازمه ، جعلا كأنهما مقترنان. ووصف الضلال بالبعيد من الإسناد المجازى لأنّ البعيد فى صفة الضالّ إذا بعد عن الجادة.
أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ، إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ أي : أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض ، وأنهما أينما كانوا ، وحيثما ساروا ، وجدوهما أمامهم وخلفهم ، محيطتان بهم ، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما ، وأن يخرجوا عما هم فيه ، من ملكوت اللّه ، ولم يخافوا أن يخسف اللّه بهم فى الأرض ، أو يسقط عليهم كِسَفاً قطعة ، أو قطعا من السماء بتكذيبهم الآيات ، وكفرهم بما جاء به الرسول ، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة.
وقرأ حمزة والكسائي «يخسف» ، و«يسقط» بالياء «١» لعود الضمير على (اللّه) فى قوله : أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ ، وقرأ حفص : «كسفا» بالتحريك ، جمعا. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً إن فى النظر إلى السماء والأرض والتفكر فيهما ،

---

(١) وكذا قوله : (يشأ). وقرأ الباقون بنون العظمة فى الثلاثة. انظر الإتحاف (٢/ ٣٨٢).

وما يدلان عليه من كمال قدرته تعالى لدلالة ظاهرة على البعث والإنشاء من بعد التفريق ، لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ راجع بقلبه إلى ربه ، مطيع له تعالى ، إذ المنيب لا يخلو من النظر فى آيات اللّه ، فيعتبر ، ويعلم أن من قدر على إنشاء هذه الأجرام العظام ، قادر على إحياء الأموات وبعثها ، وحسابها وعقابها.
الإشارة : يقول شيوخ التربية : بقدر ما يمزق الظاهر بالتخريب والإهمال يحيي الباطن ويعمر بنور اللّه ، وبقدر ما يعمر الظاهر يخرب الباطن ، فيقع الإنكار عليهم ، ويقول الجهلة : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم فى الظاهر كل ممزق ، يجدد الايمان والإحسان فى بواطنكم ، أفترى على اللّه كذبا أم به جنة؟ بل الذي لا يؤمنون بالنشأة الآخرة - وهى حياة الروح بمعرفة اللّه - فى عذاب الحجاب والضلال ، عن معرفة العيان بعيد ، ما داموا على ذلك الاعتقاد ، ثم يهددون بما يهدد به منكر والبعث.

واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر تعالى نعمته على داود وسليمان ، احتجاجا على ما منح محمد - عليه الصلاة والسلام - من الرسالة والوحى ، ردا لقولهم : أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ، ودلالة على قدرته تعالى على البعث وغيره ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ١٠ الى ١١]

وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)

قلت : (يا جبال) : بدل من (فضلا) ، أو يقدر : وقلنا. و(الطير) : عطف على محل الجبال ، ومن رفعه فعلى لفظه.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا أي : مزية خصّ بها على سائر الأنبياء ، وهو ما جمع له من النبوة ، والملك ، والصوت الحسن ، وإلانة الحديد ، وتعلم صنعة الزرد ، وغير ذلك مما خص به ، أو :

فضلا على سائر الناس بما ذكر ، وقلنا : يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ رجّعى معه التسبيح. ومعنى تسبيح الجبال معه :

أن اللّه تعالى يخلق فيها تسبيحا ، فيسمع منها كما يسمع من المسبّح ، معجزة لداود عليه السّلام ، فكان إذا تخلل الجبال وسبح جاوبته الجبال بالتسبيح ، نحو ما سبّح به. وهو من التأويب ، أي : الترجيع ، وقيل : من الإياب بمعنى الرجوع ، أي : ارجعي معه بالتسبيح. وَالطَّيْرَ أي : أوبى معه ، أو : وسخرنا له الطير تؤب معه. قال وهب : فكان داود إذا نادى بالنياحة على نفسه ، من أجل زلته ، أجابته الجبال بصداها ، وعكفت الطير عليه من فوقه ، فصدى الجبال الذي يسمعه الناس منها هو من ذلك اليوم «١».

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/ ٣٨٨).

قال القشيري : يقال أوحى اللّه إلى داود عليه السّلام : كانت تلك الزلة مباركة عليك ، فقال : يا رب وكيف تكون الزلة مباركة؟ فقال : كنت تجىء بأقدار المطيعين ، والآن تجىء بانكسار المذنبين ، يا داود أنين المذنبين أحب إلىّ من صراخ العابدين. هـ. مختصرا. وفى هذا اللفظ من قوله : يا جِبالُ أَوِّبِي

مَعَهُ من الفخامة ما لا يخفى ، حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء الذين إذا أمرهم بالطاعة أطاعوا ، وإذا دعاهم أجابوا ، إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد إلا وهو منقاد لقدرة اللّه تعالى ومشيئته. ولو قال : آتينا داود منا فضلا تأويب الجبال معه والطير لم يكن فيه هذه الفخامة.

وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أي : جعلناه له لينا ، كالطين المعجون ، يصرفه بيده كيف يشاء ، من غير نار ولا ضرب بمطرقة ، قيل : سبب لينه له : أنه لما ملك بنى إسرائيل ، وكان من عادته أن يخرج متنكرا ، ويسأل كل من لقيه : ما يقول الناس فى داود؟ فيثنون خيرا ، فلقى ملكا فى صورة آدمي ، فسأله ، فقال : نعم الرجل ، لو لا خصلة فيه : يأكل ويطعم عياله من بيت المال ، فتنبه ، وسأل اللّه تعالى أن يسبب له سببا يغنيه عن بيت المال ، فألان له الحديد مثل الشمع ، وعلمه صنعة الدروع ، وهو أول من اتخذها. وكانت قبل ذلك صفائح «١».

ويقال : كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف ، فيأكل ويطعم عياله ، ويتصدق على الفقراء والمساكين. وقيل :

كان يلين له ولمن اشتغل معه له ، قلت : ذكر ابن حجر فى شرح الهمزية أن نبينا صلى اللّه عليه وسلم كان إذا وطئ على صخرة أثر فيها قدمه ، وهذا أبلغ من إلانة الحديد لأن لين الحجارة لا يعرف بنار ، ولا بغيرها ، بخلاف الحديد. هـ. وقيل :

لأن لين الحديد فى يد داود عليه السّلام لما أولى من شدة القوة.

وأمرناه أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ أي : دروعا واسعة تامة ، من : السبوغ ، بمعنى الإطالة ، وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ لا تجعل المسامير دقاقا فيقلق ، ولا غلاظا فتنكسر الحلق ، أو تؤذى لابسها. والتقدير : التوسط فى الشيء ، والسرد : صنعة الدروع ، ومنه قيل لصانعه : السراد والزراد. وَاعْمَلُوا صالِحاً شكرا لما أسدى إليكم. والضمير لداود وأهله. والعمل الصالح : ما يصلح للقبول لإخلاصه واتقائه ، إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فأجازيكم عليه.

الإشارة : الفضل الذي أوتيه داود عليه السّلام هو كشف الحجاب بينه وبين الكون ، فلما شهد المكون ، كانت الأكوان معه. «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك». ولا يلزم من كونها معه فى المعنى ، بحيث تتعشق له وتهواه ، أي : تنقاد كلها له فى الحس ، بل ينقاد إليه منها ما يحتاج إليه ، حسبما تقتضيه الحكمة ، وتسبق به المشيئة ، فسوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار. وقوله تعالى : وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ فى الظاهر : الحديد

---

(١) ذكر البغوي (٦/ ٣٨٨) وابن كثير (٣/ ٥٢٧).

الحسى ، وفى الباطن : القلوب الصلبة كالحديد ، فتلين لوعظه بالإيمان والمعرفة. وكذا فى حق كل عارف تلين لوعظه القلوب ، وتقشعر من كلامه الجلود. وهو أعظم نفعا من لين الحديد الحسى. ويقال له : أن اعمل سابغات ، أي : دروعا تامة ، يتحصن بها من الشيطان والهوى ، وهو ذكر اللّه ، يستعمله ويأمر به ، ذكرا متوسطا ، من غير إفراط ممل ، ولا تفريط مخل. فإذا انتعش الناس على يده كبر قدره عند ربه ، فيؤمر بالشكر ، وهو قوله : وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر سليمان عليه السّلام ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ١٢ الى ١٣]

وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (١٣)

قلت : «الريح» : مفعول بمحذوف ، أي : وسخرنا له الريح ، ومن رفعه فمبتدأ تقدم خبره.

يقول الحق جل جلاله : وَسخرنا لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ ، وهى الصبا ، غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ أي : جريها بالغد مسيرة شهر ، إلى نصف النهار ، وجريها بالعشي كذلك. فتسير فى يوم واحد مسيرة شهرين. وكان يغدو من دمشق ، مكان داره ، فيقيل بإصطخر فارس ، وبينهما مسيرة شهر ، ويروح من إصطخر فيبيت بكابل ، وبيهما مسيرة شهر للراكب المسرع. وقيل : كان يتغذّى بالريّ ، ويتعشى بسمرقند. وعن الحسن : لمّا عقر سليمان الخيل ، غضبا للّه تعالى ، أبدله اللّه خيرا منها الريح ، تجرى بأمره حيث شاء ، غدوها شهر ورواحها شهر. هـ «١».

قال ابن زيد : كان لسليمان مركب من خشب ، وكان فيه ألف ركن ، فى كل ركن ألف بيت معه ، فيه الجن والإنس ، تحت كل ركن ألف شيطان ، يرفعون ذلك المركب ، فإذا ارتفع أتت الريح الرخاء فتسير به وبهم. قلت : وقد تقدم أن العاصفة هى التي ترفعه ، والرخاء تسير به ، وهو أصح. ثم قال : فتقيل عند قوم ، وتمسى عند قوم ، وبينهما شهر ، فلا يدرى القوم إلا وقد أظلهم ، معه الجيوش.

---

(١) عزاه فى الدر المنثور (٥/ ٤٢٧) لعبد الرزاق ، وابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن الحسن.

ويروى أن سليمان سار من أرض العراق ، فقال بمدينة مرو ، وصلى العصر بمدينة بلخ ، تحمله الريح ، وتظله الطير ، ثم سار من بلخ متخللا بلاد الترك ، ثم سار به إلى أرض الصين ، ثم عطف يمنة على مطلع الشمس ، على ساحل البحر ، حتى أتى أرض فارس ، فنزلها أياما ، وغدا منها فقال بكسكر ، ثم راح إلى اليمن ، وكان مستقره بها بمدنية تدمر ، وقد كان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق ، فبنوها له بالصفاح ، والعمد ، والرخام الأبيض والأصفر. هـ.
قلت : وذكر أبو السعود فى سورة «ص» أنه غزا بلاد المغرب الأندلسى وطنجة وغيرهما ، واللّه تعالى أعلم.
ووجدت هذه الأبيات منقورة فى صخرة بأرض كسكر ، أنشأها بعض أصحاب سليمان عليه السّلام :
ونحن ولا حول سوي حول ربّنا نروح إلى الأوطان من أرض كسكر
إذ نحن رحنا كان ريث رواحنا مسيرة شهر والغدوّ لآخر
أناس أعزّ اللّه طوعا نفوسهم بنصر ابن داود النبيّ المطهّر
لهم فى معالى الدّين فضل ورفعة وإن نسبوا يوما فمن خير معشر
متى يركب الريح المطيعة أسرعت مبادرة عن شهرها لم تقصّر
تظلّهم طير صفوف عليهم متى رفرفت من فوقهم لم تنفّر «١»
قال القشيري : وفى القصة أنه لا حظ يوما ملكه ، فمال الريح ، فقال له : استو ، فقال له مادمت أنت مستويا بقلبك كنت مستويا لك ، فحيث ملت. هـ.
ثم قال : وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ أي : معدن النحاس. والقطر : النحاس ، وهو الصفر ، ولكنه أذابه له ، وكان يسيل فى الشهر ثلاثة أيام ، كما يسيل الماء. وكان قبل سليمان لا يذوب. قال ابن عباس : كانت تسيل له باليمن عين من نحاس ، يصنع منها ما أحب. وقيل : القطر : النحاس والحديد ، وما جرى مجرى ذلك ، كان يسيل له منه عيون.
وقيل : ألانه له كما ألان الحديد لأبيه ، وإنما ينتفع الناس اليوم بما أجرى اللّه تعالى لسليمان ، كما قيل.
وَسخرنا له مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ما يشاء بِإِذْنِ رَبِّهِ أي : بأمر ربه ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا أي : ومن يعدل منهم عن أمرنا الذي أمرنا به من طاعة سليمان نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ : عذاب الآخرة. وقيل : كان معه ملك بيده سوط من نار ، فمن زاغ عن طاعة سليمان ضربة بذلك ضربة أحرقته.

---

(١) انظر الأبيات فى : تفسير القرطبي (٦/ ٥٥٠٤ - ٥٥٠٥) والبحر المحيط (٧/ ٢٥٤).

يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ أي : مساجد ، أو مساكن وقصور ، والمحراب : مقدم كل مسجد ومجلس وبيت. وَتَماثِيلَ صور الملائكة والأنبياء ، على ما اعتادوا من العبادات ، ليراها الناس ، فيعبدوا نحو عبادتهم.

صنعوا له ذلك فى المساجد ، ليجتهد الناس فى العبادة. أو : صور السباع والطيور ، روى أنهم عملوا له أسدين فى أسفل كرسيه ، ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما. وكان التصوير مباحا. وَجِفانٍ وصحاف ، جمع : جفنة ، وهى القصعة ، كَالْجَوابِ جمع جابية ، وهى الحياض الكبار. قيل : كان يقعد على الجفنة ألف رجل ، يأكلون بين يديه ، وَقُدُورٍ راسِياتٍ ثابتات على الأثافى ، لا تنزل لعظمها ، ولا تعطل لدوام طبخها. وقيل : كان قوائمها من الجبال ، يصعد إليها بالسلالم ، وقيل : باقية باليمن.

وقلنا : اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً أي : اعملوا بطاعة اللّه ، واجهدوا أنفسكم فى عبادته ، شكرا لما أولاكم من نعمه. قال ثابت : كان داود جزأ ساعات الليل والنهار على أهله ، فلم تكن تأتى ساعة من ساعات الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلّى. ه «١».

وقال سعيد بن المسيب : لما فرغ سليمان من بيت المقدس انغلقت أبوابه ، فعالجها ، فلم تنفتح ، حتى قال :

بصلوات آل داود إلا فتحت الأبواب ، ففتحت ، ففرغ له سليمان عشرة آلاف من قراء بنى إسرائيل خمسة آلاف بالليل ، وخمسة آلاف بالنهار ، فلا تأتى ساعة من ليل ولا نهار إلا واللّه عز وجل يعبد فيها. هـ. وعن الفضيل :

(اعملوا آل داود) أي : ارحموا أهل البلاء ، وسلوا ربكم العافية.

و(شكرا) : مفعول له ، أو حال ، أي : شاكرين ، أو مصدر ، أي : اشكروا شكرا لأن «اعملوا» فيه معنى اشكروا ، من حيث إن العمل للنعم شكر ، أو : مفعول به ، أي : إنّا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم ، فاعملوا أنتم شكرا.

وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ ، يحتمل أن يكون من تمام الخطاب لداود عليه السّلام ، أو خطاب لنبينا صلى اللّه عليه وسلم. والشكور :

القائم بحق الشكر ، الباذل وسعه فيه ، قد شغل به بقلبه ولسانه وجوارحه فى أكثر أوقاته ، اعتقادا واعترافا وكدحا. وعن ابن عباس : هو من يشكر على أحواله كلها. وقيل : من شكر على الشكر ، ومن يرى عجزه عن الشكر. قال البيضاوي :

لأن توفيقه للشكر نعمة ، فتقتضى شكرا آخر ، لا إلى نهاية ، ولذلك قيل : الشكور من يرى عجزه عن الشكر. هـ.

الإشارة : وسخرنا لسليمان ريح الهداية ، تهب بين يديه ، يهتدى به مسيرة شهر وأكثر ، وأسلنا لوعظه وتذكيره العيون الجامدة ، فقطرت بالدموع خشوعا وخضوعا. وكل من أقبل على اللّه بكليته سخرت له الكائنات ، جنها وإنسها ، يتصرف بهمته فيها. فحينئذ يقال له ما قيل لآل داود : اعملوا آل داود شكرا. قال الجنيد : الشكر : بذل المجهود بين يدى المعبود. وقال أيضا : الشكر ألا يعصى اللّه بنعمه.

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٤٣٠) لابن أبى شيبة ، وأحمد ، فى الزهد ، وابن أبى حاتم ، والبيهقي فى الشعب ، عن ثابت البناني.

(٤٨٠/٤)

والشكر على ثلاثة أوجه : شكر بالقلب ، وشكر باللسان ، وشكر بسائر الأركان. فشكر القلب : أن يعقد أن النعم كلها من اللّه ، وشكر اللسان : الثناء على اللّه وكثرة المدح له ، وشكر الجوارح : أن يعمل العمل الصالح. وسئل أبو حازم : ما شكر العينين؟ قال : إذا رأيت بهما خيرا أعلنته ، وإذا رأيت بهما شرا سترته ، قيل : فما شكر الأذنين؟

قال : إذا سمعت بهما خيرا وعيته ، وإذا سمعت بهما شرا دفنته ، قيل : فما شكر اليدين؟ قال : ألا تأخذ بهما ما ليس لك ، ولا تمنع حقا هو للّه فيهما ، قيل : فما شكر البطن؟ قال : أن يكون أسفله صبرا ، وأعلاه علما ، قيل : فما شكر الفرج؟

قال : كما قال اللّه تعالى : وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ الآية «١» ، قيل : فما شكر الرجلين؟ قال : إن رأيت شيئا غبطته استعملتهما ، وإن رأيت شيئا مقته كفقتهما. هـ.

والناس فى الشكر درجات : عوام ، وخواص ، وخواص الخواص. فدرجة العوام : الشكر على النّعم ، ودرجة الخواص : الشكر على النّعم والنقم ، وعلى كل حال ، ودرجة خواص الخواص : أن يغيب عن النعم بمشاهدة المنعم.

قال رجل لإبراهيم بن أدهم : إن الفقراء إذا أعطوا شكروا ، وإذا منعوا صبروا ، فقال : هذه أخلاق الكلاب عندنا ، ولكن الفقراء إذا منعوا شكروا ، وإذا أعطوا آثروا. هـ.

وهذان الآخران يصدق عليهما قوله تعالى : «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ ، وخصه القشيري بالقسم

الثالث ، فقال :

فكان الشاكر يشكر على البذل ، والشكور على المنع ، فكيف بالبذل؟ ثم قال : ويقال فى قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ :

قليل من يأخذ النعمة منى ، فلا يحملها على الأسباب ، فيشكر الوسائط ولا يشكرنى. وفى الحكم : «من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها». فالشكر قيد الموجود ، وصيد المفقود. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر موت سليمان عليه السّلام ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : آية ١٤]

فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ على سليمان الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ أي : الجن وآل داود عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ أي : الأرضة ، وهى دويبة تأكل الخشب ، ويقال : لها ، سرفة والقادح. والأرض هنا مصدر : أرضت الخشبة ، بالبناء للمفعول ، أرضا : أكلتها الأرضة. فأضيفت إلى فعلها وهو الأرض ، أي : الأكل.

---

(١) الآية ٥ من سورة المؤمنون.

تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، أي : عصاه ، سميت منسأة لأنها تنسى ، أي : تطرح ويرمى بها. وفيها لغتان الهمز وعدمه ، فقرأ نافع وأبو عمرو بترك الهمز ، وعليه قول الشاعر :

إذا دببت على المنساة من كبر فقد تباعد عنك اللهو والغزل

وقرأ غيرهما بالهمز ، وهو أشهر.

فَلَمَّا خَرَّ سقط سليمان تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أي : تحققت وعلمت علما يقينا ، بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم ، أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا بعد موت سليمان فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ فى العمل الشاق له ، لظنهم حياته ، فلو كانوا يعلمون الغيب كما زعموا لعلموا موته.

وذلك أن داود عليه السّلام أسس بيت المقدس ، فى موضع فسطاط موسى عليه السّلام ، فمات قبل أن يتمه ، فوصّى به إلى سليمان ، فأمر الشياطين بإتمامه. فلما بقي من عمره سنه ، سأل اللّه تعالى أن

يعمّى عليهم موته حتى يفرغوا ، ولتبطل دعواهم علم الغيب. وكان عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة. وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة. فبقى فى ملكه أربعين سنة ، وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه. قال الثعلبي : فبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر ، وعمّره بأساطين المها الصافي ، وسقفه بأنواع الجواهر ، وفضض سقوفه وحيطانه باللئالئ ، وسائر أنواع الجواهر ، وبسط أرضه بألواح الفيروزج ، فلم يكن فى الأرض أبهى ولا أنور من ذلك المسجد.

كان يضيء فى الظلمة كالقمر ليلة البدر «١». ومن أعاجيب ما اتخد فى بيت القدس ، أن بنى بيتا وطيّن حائطه بالخضرة ، وصقله ، فإذا دخله الورع البار استبان فيه خياله أبيض ، وإذا دخله الفاجر استبان فيه خياله أسود ، فارتدع كثير من الناس عن الفجور.

قال صلى اللّه عليه وسلم : «لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثا ، فأعطاه اثنتين ، وأن أرجو أنى يكون قد أعطاه الثالثة ، سأله حكما يصادف حكمه ، فأعطاه إياه ، وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فأعطاه إياه ، وسأله ألا يأتى أحد هذا البيت يصلى فيه ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك» «٢» هـ.

فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان عليه السّلام حتى خرّ به بخت نصر ، وأخذ ما كان فيه من الذهب والفضة واليواقيت ، وحمله إلى دار مملكته من العراق.

ثم قال «٣» : قال المفسرون : كان سليمان ينفرد فى بيت المقدس السنة والسنتين ، والشهر والشهرين ، يدخل فيه طعامه وشرابه ، فدخله فى المرة التي مات فيها. وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت

---

(١) انظر تفسير البغوي (٥/ ٣٩٠). [.....]

(٢) أخرجه ابن ماجه فى (الإقامة ، باب ما جاء فى الصلاة فى مسجد المقدس ١/ ٤٥٢ ، ح ١٤٠٨) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنه.

(٣) أي الثعلبي.

المقدس شجرة ، فيسألها : ما اسمك؟ فتقول الشجرة : اسمى كذا ، فيأمر بها فنقطع ، فإن كانت لغرس غرسها ، وإن كانت لدواء كتبت. فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها : ما اسمك؟ قالت : الخروبة ، قال لها : ولأى شيء نبتّ؟ قالت : لخراب هذا المسجد ، فقال : ما كان

اللّه ليخربه وأنا حيّ ، أنت التي على وجهك هلاكى ، وهلاك بيت المقدس ، فنزعها وغرسها فى حائط ، ثم قال : اللهم أعم عن الجن موتى ، حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب. وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون أشياء من علم الغيب ، ثم دخل المحراب ، وقام يصلى على عصاه ، فمات «١».

وقيل : إن سليمان قال لأصحابه ذات يوم : قد آتاني اللّه ما ترون ، وما مرّ عليّ يوم فى ملكى بحيث صفا لى من الكدر ، وقد أحببت أن يكون لى يوم واحد يصفو لى من الكدر ، فدخل قصره من الغد ، وأمر بغلق أبوابه ، ومنع الناس من الدخول عليه ، ورفع الأخبار إليه. ثم اتكأ على عصاه ينظر فى ممالكه ، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه ، عليه ثياب بيض ، قد خرج عليه من جوانب قصره ، فقال : السلام عليك يا سليمان ، فقال : عليك السلام ، كيف دخلت قصرى؟ فقال : أنا الذي لا يحجبنى حاجب ، ولا يدفعنى بواب ، ولا أهاب الملوك ، ولا أقبل الرشا ، وما كنت لأدخل هذا القصر من غير إذن. فقال سليمان : فمن أذن لك فى دخوله؟ قال : ربه ، فارتعد سليمان ، وعلم أنه ملك الموت ، فقال : يا ملك الموت هذا اليوم الذي أردت أن يصفو لى ، قال : يا سليمان ذلك اليوم لم يخلق فى أيام الدنيا ، فقبض روحه وهو متكىء على عصاه. هـ.

وفى رواية : أنه دعا الشياطين ، فبنوا له صرحا من قوارير ، ليس له باب ، فقام يصلى ، واتكأ على عصاه ، فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه «٢». واللّه تعالى أعلم أىّ ذلك كان. وبقي سليمان ميتا ، وهو قائم على عصاه سنة ، حتى أكلت الأرضة عصاه. ولم يعلموا منذ كم مات ، فوضعوا الأرضة على العصا ، فأكلت منها يوما وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو ، فوجدوه قد مات منذ سنة. سبحان الحي الذي لا يموت ، ولا ينقضى ملكه.

الإشارة : كل دولة فى الدنيا تحول ، وكل عز فيها عن قريب يزول ، فالعاقل من صرف دولته فى طاعته مولاه ، وبذل جهده فى محبته ورضاه ، فإن كانت قسمته فى الأغنياء كان من الشاكرين ، وإن كانت فى الفقراء كان من الصابرين ، والفقير الصابر أحظى من الغنى الشاكر ، ولذلك ورد أن سليمان عليه السّلام آخر من يدخل الجنة من

---

(١) انظر : تفسير الطبري (٢٢/ ٧٥) وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٩).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢/ ٧٥ - ٧٦) عن ابن زيد.

الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، وعبد الرحمن بن عوف آخر من يدخلها من الصحابة - رضوان

اللّه عليهم أجمعين. والغنى الشاكر هو الذي يعطى ولا يبالى ، ويتواضع للكبير والصغير ، والوجيه والحقير ، والفقير الصابر هو الذي يغتبط بفقره ، ويكتمه عن غيره. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر حال من لم يشكر النعم ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ١٥ الى ١٧]

لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧)

قلت : (لسبأ) فيه الصرف ، بتأويل الحي ، وعدمه ، بتأويل القبيلة. و(مسكنهم) ، من قرأ بالإفراد وفتح الكاف على القياس فى الاسم والمصدر ، كمدخل ، ومن كسره فلغة ، والسماع فى المصدر كمسجد. و(جنتان) : بدل من (آية) أو : خبر عن مضمر ، أي : هى جنتان. و(أكل خمط) «١» ، فمن أضافه فإضافة الشيء إلى جنسه ، كثوب خز ، ومن نوّنه قطعه عن الإضافة ، وجعله عطف بيان. أو صفة ، بتأويل خمط ببشيع.

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ ، سئل صلى اللّه عليه وسلم أرجلا كان أو امرأة ، أو أرضا أو جبلا أو واديا ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «هو رجل من العرب ، ولد عشرة من الولد ، فتيامن ستة ، وتشاءم أربعة : فالذين تيامنوا كثرة ، فكندة ، والأشعريون ، والأزد ، ومذحج ، وأنمار ، وحمير ، فقال رجل : من أنمار يا رسول اللّه؟ قال : منهم خثعم وبجيلة. والذي تشاءموا : عاملة ، وجذام ، ولخم ، وغسان» «٢».

قلت : وسبأ هو ابن يشخب بن يعرب بن قحطان. واختلف فى قحطان ، فقيل : هو ابن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح. وقيل : هو أخو هود عليه السّلام. وقيل : هو هود ، بنفسه ، وإن هودا هو ابن عبد اللّه بن رباح ، لا ابن عابر ، على الأصح. فهو على هذا القول ابن أرم بن سام. وقيل : قحطان من ولد إسماعيل ، فهو ابن أيمن بن

---

(١) قرأ نافع ، وابن كثير : «أكل» بسكون الكاف ، وبالتنوين ، وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر : بضم الكاف مع التنوين. وقرأ أبو عمرو : ويعقوب بضم الكاف من غير تنوين. انظر الإتحاف (٢/ ٣٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود فى (الحروف والقراءات ٤/ ٢٨٨ ح ٣٩٨٨) مختصرا ، والترمذي فى (التفسير ، باب ومن سورة سبأ ٥/ ٣٣٦ - ٣٣٧ ، ح ٣٢٢٢) ، وقال : «حديث حسن غريب» والحاكم (٢/ ٢٢٤) عن فروة بن مسيك المرادي.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٨٥
قيذر بن إسماعيل. وقيل : هو ابن الهميسع ابن أيمن. وبأيمن سميت اليمن ، وقيل : لأنها عن يمين الكعبة. هذا والعرب كلها يجمعها أصلان : عدنان وقحطان ، فلا عربى فى الأرض إلا وهو ينتهى إلى أحدهما ، فيقال :
عدنانى أو قحطانى.
ومن جعل العرب كلها من ولد إسماعيل مرّ على أن قحطان من ذرية إسماعيل ، كما تقدم ، واختلف فى خزاعة ، فقيل : قحطانية ، وقيل : عدنانية ، وأن جدهم عمرو بن لحى ، وأما الأوس والخزرج فهما من ذرية سبأ ، نزلت يثرب ، بعد سيل العرم ، كما يأتى.
قال تعالى : لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ «١» أي : فى بلدهم ، أو أرضهم ، التي كانوا مقيمين فيها باليمن ، آيَةٌ دالة على وحدانيته تعالى ، وباهر قدرته ، وإحسانه ، ووجوب شكر نعمه ، وهى : جَنَّتانِ أي : جماعة من البساتين ، عَنْ يَمِينٍ واديهم ، وَشِمالٍ وعن شماله. وكل واحدة من الجماعتين فى تقاربها وتصافها كأنها جنة واحدة ، كما يكون بساتين البلاد العامرة. قيل : كان الناس يتعاطون ذلك على جنبتى الوادي ، مسيرة أربعين يوما ، وكلها تسقى من ذلك الوادي لارتفاع سده. أو : أراد بستانين ، لكل رجل بستان عن يمين داره ، وبستان عن شماله. ومعنى كونهما آية : أن أهلها لمّا أعرضوا عن شكر النعم سلبهم اللّه النعمة ، ليعتبروا ويتعظوا ، فلا يعودوا لما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم ، فلما أثمرت البساتين قلنا لهم - على لسان الرسل المبعوثين إليهم ، أو بلسان الحال ، أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك : كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بالإيمان والعمل الصالح ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ أي : هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة ، وَرَبٌّ غَفُورٌ أي : وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم ربّ غفور لمن شكره.
قال ابن عباس : كانت سبأ على ثلاثة فراسخ من صنعاء ، وكانت أخصب البلاد ، فتخرج المرأة على رأسها المكتل ، وتسير بين تلك الشجر ، فيمتلئ المكتل مما يتساقط فيه من الشجر «٢» ولقد كان الرجل يخرج لزيارة أقاربه ، وعلى رأسه مكتل ، أو قفة ، أو طبق فارغ ، فلا يصل إلى حيث يريد إلا والطبق قد امتلأ فاكهة ، مما تسقطه الرياح ، دون أن يمد يده إلى شيء من ثمرها. ومن طيبها : أنها لم تر فى بلدهم بعوضة قط ، ولا ذباب ، ولا برغوث ، ولا عقرب ، ولا حية. وإذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل والدواب ماتت الدواب والقمل لطيب هواها.

---

(١) قرأ حمزة ، وحفص : (مسكنهم) بسكون السين وفتح الكاف ، بلا ألف على الإفراد. وقرأ الكسائي بالتوحيد وكسر الكاف. وقرأ الباقون «مساكنهم» بفتح السين وألف وكسر الكاف على

الجمع. وقد سار الشيخ المفسر على قراءة الجمع. انظر الإتحاف (٢/ ٣٨٤).
(٢) أخرجه الطبري (٢٢/ ٧٧) عن قتادة.

فَأَعْرَضُوا عن الشكر ، بتكذيب أنبيائهم ، وكفر نعمة اللّه عليهم. وقالوا : ما نعرف للّه علينا من نعمة ، عائذا باللّه.

قال وهب : بعث اللّه إلى سبأ ثلاثة عشر نبيا ، يدعونهم إلى اللّه تعالى ، فكذّبوهم «١» ، فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ أي :

سيل الأمر العرم ، أي : الصعب. من : عرم الرجل فهو عارم ، وعرم : إذا شرس خلقه وصعب ، أي : أرسلنا عليهم سيلا شديدا ، مزّق سدهم ، وغرق بساتينهم. قيل : جمع عرمة ، وهى السد الذي يمسك الماء إلى وقت حاجته.

قال ابن عباس رضي اللّه عنه : كان هذا السد يسقى جنتها ، وبنته بلقيس لأنها لمّا ملكت جعل قومها يقتتلون على ماء مواشيهم ، فنهتهم ، فأبوا ، فنزلت عن ملكها ، فلما كثر الشرّ بينهم أرادوها أن ترجع إلى ملكها ، فأبت ، فقالوا : لترجعى أو لنقتلنك ، فجاءت ، وأمرت بواديهم فسد أعلاه بالعرم ، وهو المسنّاة - بلغة حمير - فسدت ما بين الجبلين بالصخر والنار ، وجعلت له أبوابا ثلاثة ، بعضها فوق بعض ، وبنت من دونه بركة عظيمة ، وجعلت فيها اثنى عشر مخرجا ، على عدة أنهارهم. فلما جاء المطر اجتمع ماء الصخر وأودية اليمن ، فاحتبس السيل من وراء السدّ ، ففتحت الباب الأعلى ، وجرى ماؤه فى البركة ، وألقت البقر فيها ، فخرج بعض البقر أسرع من بعض ، فلم تزل تضيق تلك الأنهار ، وترسل البقر فى الماء ، حتى خرجت جميعا معا ، فكانت تقسمه بينهم على ذلك ، حتى كان من شأنها وشأن سليمان ما كان. فكانوا يسقون من الباب الأعلى ، ثم من الثاني ، ثم من الأسفل ، فلا ينفد حتى يثوب الماء من السنة المقبلة. فلما كفروا وطغوا ، سلط اللّه عليهم جرذا ، يسمى الخلد - وهو الفأر - فنقبه من أسفله ، فغرّق الماء جنتهم ، وخرّب أرضهم. هـ «٢».

قال وهب : وكانوا يزعمون أنهم يجدون فى علمهم وكهانتهم أنه يخرب سدهم فأرة ، فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا عندها هرا ، فلما حان ما أراد اللّه بهم ، أقبلت فأرة حمراء ، إلى بعض تلك الهرر ، فساورتها - أي : حاربتها ، حتى استأخرت عنها - أي : عن تلك الفرجة - الهرة ، فدخلت فى الفرجة التي كات عندها ، ونقبت السد ، حتى أوهنته للسيل ، وهم لا يدرون ، فلما جاء السيل دخل فى تلك الخلل ، حتى بلغ السد ، فخربه ، وفاض على أموالهم ، فغرقتها ، ودفن بيوتهم ، ومزقوا

، حتى صاروا مثلا عند العرب ، فقالوا : تفرقوا أيادى سبأ. هـ «٣».
وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ المذكورتين جَنَّتَيْنِ أخريين. وتسمية المبدلتين جنتين للمشاكلة وازدواج الكلام ، كقوله : وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها «٤». ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ الأكل : الثمر المأكول ، يخفف ويثقل. والخمط ، قال ابن عباس : شجر الأراك «٥» ، وقال أبو عبيد : كل شجر مؤذ مشوّك. وقال الزجاج : كل شجر مر. هـ. وفى القاموس :

---

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ٧٨).
(٢) ذكره الطبري (٢٢/ ٧٩) والبغوي (٦/ ٣٩٤).
(٣) أخرجه الطبري (٢٢/ ٨٠) بنحوه ، عن وهب.
(٤) الآية ٤٠ من سورة الشورى.
(٥) أخرجه الطبري (٢٢/ ٨١).

الخمط : الحامض المر من كل شيء ، وكل نبت أخذ طعما من مرارة وحموضة ، وشجر كالسدر ، وشجر قاتل ، أو كل شجر لا شوك له. هـ. وقرأ البصريان بالإضافة ، من إضافة الشيء إلى جنسه ، كثوب خز لأن المراد بالأكل المأكول ، أي : ذواتى ثمر شجر بشيع. والباقون : بالتنوين ، عطف بيان ، أو صفة ، بتأويل خمط ببشيع ، أي : مأكول بشيع. وَأَثْلٍ هو شجر يشبه الطرفاء ، أعظم منه ، وأجود عودا. وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ. والحاصل أن اللّه تعالى أهلك أشجارهم المثمرة ، وأنبت مكانها الطرفاء والسدر. وإنما قال : السدر ، لأنه أكرم ما بدلوا به لأنه يكون فى الجنان.
ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا
أي : جزيناهم ذلك بكفرهم ، فذلك مفعول مطلق بجزينا ، وهل يجازى «١» هذا الجزاء الكلى إِلَّا الْكَفُورَ أي : لا يجازى بمثل هذا الجزاء إلا من كفر النعمة ولم يشكرها ، أو :
كفر باللّه ، أو هل يعاقب لأن الجزاء وإن كان عامّا يستعمل فى معنى المعاقبة ، [وفى معنى الإثابة] «٢» لكن المراد الخاص ، وهو المعاقبة. قال الواحدي : وذلك لأن المؤمن يكفر عنه سيئاته ، والكافر يجازى بكل سوء عمله. قلت : بل الظاهر المجازاة الدنيوية بسلب النعم ، ولا تسلب إلا للكفور ، دون الشكور. قاله فى الحاشية.
وعن الضحاك : كانوا فى الفترة التي بين عيسى ومحمد - عليهما السلام. هـ. قلت : ولعلهم استمروا

من زمن سليمان إلى أن جاوزوا زمن عيسى عليه السّلام.

الإشارة : لكل مريد وعارف جنتان عن يمين وشمال ، يقطف من ثمارهما ما يشاء جنة العبودية ، وجنة الربوبية ، جنة العبودية للقيام بآداب الشريعة ، وجنة الربوبية للقيام بشهود الحقيقة ، فيتفنن فى جنة العبودية بعلوم الحكمة ، ويتفنن فى جنة الربوبية بعلوم القدرة ، وهى أسرار الذات وأنوار الصفات. كلوا من رزق ربكم حلاوة المعاملة فى جنة العبودية ، وحلاوة المشاهدة فى جنة الربوبية بلدة طيبة هى جنة الربوبية إذ لا أطيب من شهود الحبيب ، ورب غفور لتقصير القيام بآداب العبودية إذ لا يقدر أحد أن يحصيها ، ولا جزءا منها. فأعرض أهل الغفلة عن القيام بحقهما ، ولم يعرفوهما ، فأرسلنا على قلوبهم سيل العرم ، وهو سيل الخواطر والوساوس ، وخوض القلب فى حس الأكوان ، فبدلناهم بجنتيهم جنتين مرارة الحرص والتعب ، والهم والشغب. ذلك جزيناهم بكفرهم بطريق الخصوص من أهل التربية ، وهل يجازى إلا الكفور.

---

(١) قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص ، ويعقوب (و هل نجازى) بنون العظمة وكسر الزاى ، ونصب «الكفور». وقرأ الباقون (يجازى) بالياء المضمومة ، وفتح الزاى ، ورفع الكفور. انظر الإتحاف (٢/ ٣٨٥). [.....]

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة ليست فى الأصول. وأثبته لاقتضاء السياق له.

قال القشيري : وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ .. الآية ، كذلك من الناس من يكون فى رغد من الحال ، واتصال من التوفيق ، وطيب من القلب ، ومساعدة من الوقت ، فيرتكب زلّة ، أو يتبع شهوة ، ولا يعرف قدر ما يفوته فيفتر عليه الحال ، فلا وقت ولا حال ، ولا قرب ولا وصال ، يظلم عليه النهار ، بعد أن كانت لياليه مضيئة. وأنشدوا :

ما زلت أختال فى زمانى حتى أمنت الزمان مكره

طال علينا الصدود حتى لم يبق مما شهدت ذرّه «١»

ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا .. الآية : ما عوقبوا إلا بما استوجبوا ، وما سقوا إلّا ما أفيضوا ، ولا وقعوا إلّا فى الوهدة التي حفروا ، وما قتلوا إلا بالسيف الذي صنعوا. هـ.

ثم ذكر سبب تمزيقهم ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ١٨ الى ١٩]

وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ (١٨) فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)

يقول الحق جل جلاله : وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ أي : بين سبأ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها بالتوسعة على أهلها بالنعم والمياه ، وهى قرى الشام ، قُرىً ظاهِرَةً متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها ، فهى ظاهرة لأعين الناظرين ، أو : ظاهرة للسّابلة ، لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم ، وهى أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة ، من سبأ إلى الشام ، وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ أي : جعلنا هذه القرى على مقدار معلوم ، يقيل المسافر فى قرية ، ويروح إلى أخرى ، إلى أن يبلغ الشام. وقلنا لهم : سِيرُوا فِيها ، ولا قول هناك ، ولكنهم لمّا تمكنوا من السير ، ويسّرت لهم أسبابه ، فكأنهم أمروا بذلك ، فقيل لهم : سيروا فى تلك القرى لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ أي : سيروا فيها إن شئتم بالليل ، وإن شئتم بالنهار ، فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات ، أو : سيروا فيها آمنين لا تخافوا عدوا ، ولا جوعا ، ولا عطشا ، وإن تطاولت مدة سيركم ، وامتدت أياما وليالى. فبطروا النعمة ، وسئموا العافية ، وطلبوا الكدر والتعب.

---

(١) الأبيات بنحوها فى لطائف الإشارات (٣/ ١٨١) ، وجاءت فى شرح أسماء اللّه الحسنى/ ١٧٣ مسبوقة ببيت ، هو :

يا سائلى كيف كنت بعده؟ لقيت ما ساءنى وسره

فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا قالوا : يا ليتها كانت بعيدة ، نسير على نجائبنا ، ونتخذ الزاد ، ونختص بالريح فى تجاراتنا ، أرادوا أن يتطاولوا على الفقراء بالركوب على الرواحل ، ويختصوا بالأرباح. وقرأ يعقوب «ربّنا» بالرفع «باعد» بفتح العين ، فربنا : مبتدأ ، والجملة : خبر ، على أنه شكوى منهم ببعد سفرهم ، إفراطا فى الترفيه وعدم الاعتداد بالنعمة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بشد العين ، من «بعّد» المضعف. والباقون بالألف والتخفيف ، من : باعد ، بمعنى «بعد» المشددة. وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بما قالوا ، وما طلبوا ، ففرّق اللّه شملهم ، كما قال تعالى :

فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ يتحدث الناس بهم ، ويتعجبون من أحوالهم ، ويضرب بهم الأمثال ، يقال : تفرقوا أيادى سبأ ، وأيدى سبأ ، يقال بالوجهين. وفى الصحاح : ذهبوا أيادى سبأ ، أي : متفرقين ، فهو من المركّب تركيب مزج.

وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ أي : فرقناهم كل تفريق ، فتيامن منهم ست قبائل ، وتشاءمت أربعة ، حسبما تقدم فى الحديث. قال الشعبي : أما غسان فلحقوا بالشام ، وأما أنمار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، والأزد بنعمان. هـ. قلت : وفيه مخالفة لظاهر الحديث ، فإن أنمار جد خثعم وبجيلة ، ولم يكونوا فى المدينة.

والذي هو المشهور أن الأوس والخزرج هما اللذان قدّما المدينة ، فوجدوا فيها طائفة من بنى إسرائيل ، بعد قتلهم للعماليق. وسبب نزولهم بها : أن حبرين منهم مرّا بيثرب مع تبع ، فقالا له : نجد فى علمنا أن هذه المدينة مهاجر نبى ، يخرج فى آخر الزمان ، يكون سنه كذا وكذا ، فاستوطناها ، يترصّدان خروجه صلى اللّه عليه وسلم ، فمن نسلهما بقيت اليهود فى المدينة ، والأوس والخزرج هما ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأسد بن الغوث بن بنت مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ. وولد مازن بن الأسد هم غسان ، سموا بماء اليمن ، شربوا منه. ويقال : غسان : ماء بالشمال شربوا منه ، نسبوا إليه. قال حسان :

أما سألت فإنا معشر نجب الأسد نسبتنا والماء غسان

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ عن المعاصي شَكُورٍ للنعم ، أو : لكل مؤمن لأن الإيمان نصفان نصفه صبر ، ونصفه شكر.

الإشارة : وجعلنا بين السائرين وبين منازل الحضرة المقدسة منازل ظاهرة ، ينزلوها ، ويرحلون عنها ، آمنين من الرجوع ، إن صدقوا فى الطلب ، وهى منازل كثيرة ، وأهمها اثنا عشر مقاما : التوبة ، والخوف ، والرجاء ، والزهد ، والصبر ، والشكر ، والتوكل ، والرضا ، والتسليم ، والمراقبة ، والمشاهدة. ومنازل الحضرة هى الفناء ، والبقاء ، وبقاء البقاء ، والترقي فى معاريج الأسرار والكشوفات ، أبدا سرمدا. يقال للسائرين : سيروا فيها ، وأقيموا فى كل منزل منها ، ليالى وأياما ، حتى يتحقق به نازله ، ثم يرحل عنه إلى ما بعده. ثم إن قوما سئموا من السير وادعوا القوة ، فقالوا :

ربّنا باعد بين أسفارنا حتى يظهر عزمنا وقوتنا ، وظلموا أنفسهم بذلك ، ففرقناهم عنا كل تفريق ، وعوّقناهم عن السير كل تعويق ، ليكون ذلك آية وعبرة لمن بعدهم ، فلا يخرجون عن مقام الاستضعاف والمسكنة ، والانكسار والذلة «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى».

وسبب الحرمان هو إبليس ، كما قال تعالى :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٢٠ الى ٢١]

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ صَدَّقَ»

عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ، الضمير فى «عليهم» لكفار سبأ وغيرهم.

وكأن إبليس أضمر فى نفسه حين أقسم : لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ «٢» أنه يسلط عليهم ، وظن أنه يتمكن منهم ، فلما أغواهم وكفروا صدق ظنه فيهم. فمن قرأ بالتخفيف ف «ظنه» : ظرف ، أي : صدق فى ظنه. ومن قرأ بالتشديد فظنه مفعول به ، أي : وجد ظنه صادقا عليهم حين كفروا فَاتَّبَعُوهُ أي : أهل سبأ ومن دان دينهم ، إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، قللهم بالإضافة إلى الكفار ، قال تعالى : وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ «٣» وفى الحديث : «ما أنتم فى أهل الشرك إلا كشعرة بيضاء فى جلد ثور أسود» «٤».

وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ أي : ما كان لإبليس على من صدق ظنه عليهم من تسلط واستيلاء بالوسوسة ، إِلَّا لِنَعْلَمَ موجودا ما علمناه معدوما مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ أي : إلا ليتعلق علمنا بذلك تعلقا تنجيزيا ، يترتب عليه الجزاء ، أو : ليتميز المؤمن من الشاك ، أو : ليؤمن من قدّر إيمانه ، ويشك من قدر ضلاله. وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ محافظ رقيب ، وفعيل ومفاعل أخوان.

الإشارة : كل من لم يصل إلى حضرة العيان صدق عليه بعض ظن الشيطان لأنه لما رأى بشرية آدم مجوفة ، ظن أنه يجرى معه مجرى الدم ، فكل من لم يسد مجاريه بذكر اللّه ، حتى يستولى الذكر على بشريته ، فيصير قطعة من نور ، فلا بد أن يدخل معه بعض وساوسه ، ولا يزال يتسلط على قلب ابن آدم ، حتى يدخل حضرة

---

(١) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي «صدّق» بتشديد الدال. وقرأ الباقون بالتخفيف. انظر الإتحاف (٢/ ٣٨٦).

(٢) من الآية ٨٢ من سورة ص.

(٣) من الآية ١٧ من سورة الأعراف.

(٤) أخرجه مطولا البخاري فى (الرقاق ، باب الحشر ، ح ٦٥٢٨) ومسلم فى (الإيمان ، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة ١/ ٢٠٠ ، ح ٢٢١) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

القدس ، فحيئنذ يحرس منه ، لقوله تعالى : إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ «١». وعباده الحقيقيون

هم الذين تحرروا مما سواه ، فلم يبق لهم فى هذا العالم علقة ، وهم المرادون بقوله تعالى : إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وما سلّطه علهم إلا ليتميز الخواص من العوام ، فلو لا ميادين النفوس ، ومجاهدة إبليس ، ما تحقق سير السائرين ، أي : وما كان له عليهم من تسلط إلا لنعلم علم ظهور من يؤمن بالخصلة الآخرة ، وهى الشهود ، ممن هو منها فى شك ، وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ يحفظ قلوب أوليائه من استيلاء غيره عليها. وباللّه التوفيق.

ولمّا كان تسلط إبليس جله من الشرك ، الذي زيّنه لهم ، رده بقوله :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٢٢ الى ٢٣]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)

قلت : حذف مفعولى زعم ، أي : زعمتموهم آلهة تعبدونهم من دون اللّه ، بدلالة السياق عليهما.

يقول الحق جل جلاله : قُلِ لهم ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : زعمتموهم آلهة ، فعبدتموهم من دون اللّه ، من الأصنام والملائكة ، وسميتموهم باسمه ، فالتجئوا إليهم فيما يعروكم ، كما تلتجئون إليه فى اقتحام الشدائد الكبرى. وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته. وهذا تعجيز وإقامة حجة على بطلان عبادتها. ويروى أنها نزلت عند الجوع الذي أصاب قريشا. ثم ذكر عجزهم فقال : لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ من خير أو شر ، ونفع أو ضر فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ، وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ أي : وما لهم فى هذين العالمين العلوي والسفلى ، من شرك فى الخلق ، ولا فى الملك ، وَما لَهُ تعالى مِنْهُمْ من آلهتهم مِنْ ظَهِيرٍ معين يعنيه على تدبير خلقه. يريد أنه على هذه الصفة من العجز ، فكيف يصحّ أن يدعوا كما يدعى تعالى ، أو يرجوا كما يرجى سبحانه؟

ثم أبطل قولهم : هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ «٢» بقوله : وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ تعالى فى الشفاعة ، ممن له جاه عنده ، كالأنبياء ، والملائكة ، والأولياء ، والعلماء الأتقياء ، وغيرهم ممن له مزية عند اللّه. وقرأ

---

(١) الآية ٤٢ من سورة الحجر.

(٢) من الآية ١٨ من سورة يونس.

أبو عمرو «١» والأخوان بالبناء للمفعول ، أي : إلا من وقع الإذن للشفيع لأجله. ثم ردّ على من زعم من الكفار أن الملائكة تشفع ، قطعا لمكانها من اللّه ، فقال : حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ ، فحتى : غاية لمحذوف ، أي : وكيف تشفع قبل الإذن ، وهى فى غاية الخوف والهيبة من اللّه ، إذا سمعوا الوحى صعقوا ، حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ أي : كشف الفزع عن قلوبهم قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ من الوحى؟

قالُوا الْحَقَّ ، فمن كان هذا وصفه لا يجترىء على الشفاعة إلا بإذن خاص. قال الكواشي : إنه يفزع عن قلوبهم حين سمعوا كلام اللّه لجبريل بالوحى ، قال صلى اللّه عليه وسلم : (إذا أراد اللّه تعالى أن يوحى بالأمر لأهل السماء أخذت السموات منه رجفة - أو قال : رعدة شديدة - خوفا من ذلك ، فإذا سمع أهل السموات صعقوا ، وخرّوا سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه من وحيه بما أراد ، ثم يمرّ على سماء سماء ، إلى أن ينزل بالوحى ، فإذا مرّ على الملائكة سألوه ، ثم قالوا : ماذا قال ربكم؟ فيقول جبريل : قال الحقّ «٢». نصب المفعول بقالوا ، وجمع الضمير تعظيما للّه تعالى.

ثم قال : وفى الحديث : «إذا تكلم اللّه بالوحى سمع أهل السماء صلصلة ، كجر السلسلة على الصفا ، فيصعقون ، حتى يأتيهم جبريل ، فيفزغ عن قلوبهم ، - أي : يكشف - وبخبرهم الخبر ، ثم قال «٣» : وقيل المعنى : أنه لا يشفع أحد إلا بعد الإذن ، ولا يشعر به إلا المقربون لما غشى عليهم من هول ذلك اليوم ، فإذا ذهب الفزع عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربكم فى الشفاعة؟ قالوا الحق ، أي : أذن فيها. هـ. ومثل هذا لابن عطية ، وتبعه ابن جزى ، قال :

الضمير فى «قلوبهم» ، وفى «قالوا» للملائكة. فإن قيل : كيف ذلك ، ولم يتقدم لهم ذكر؟ فالجواب : أنه قد وقعت إليهم إشارة بقوله : وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ لأن بعض العرب كانوا يعبدون الملائكة ، ويقولون :

هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه ، فذكر الشفاعة يقتضى ذكر الشافعين ، فعاد الضمير على الشفعاء ، الذين دلّ عليهم ذكر الشفاعة. هـ.

وقرأ يعقوب وابن عامر «فزع» بفتح الفاء بالبناء للفاعل. والتضعيف للسلب والإزالة ، أي : سلب الفزع وأزاله عن قلوبهم ، مثل : قردت البعير : إذا أزلت قراده ، ومن بناه للمفعول فالجار نائب. وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أي :

المتعالي عن سمة الحدوث ، وإدراك العقول ، الكبير الشأن ، فلا يقدر أحد على شفاعة بلا إذنه.

---

(١) فى الأصول [ابن عمرو].

(٢) أخرجه الطبري (٢٢/ ٩١) والبغوي فى التفسير (٦/ ٣٩٨) والبيهقي فى الأسماء والصفات (١/

٣٢٦) وابن أبى عاصم فى السنّة (١/ ٢٢٧) من حديث النواس بن سمعان.
(٣) أي : الكواشي.

الإشارة : كل من آثر شيئا أو أحبه سوى اللّه ، أو خافه ، يقال له : ادعوا الذين زعمتم أنهم ينفعونكم أو يضرونكم ، من دون اللّه ، لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ... الآية. وأما محبة الأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء فهى محبة اللّه ، لأنهم يوصلون إليه ، فلم يحبهم أحد إلا لأجل اللّه ، فتنفع شفاعتهم بإذن اللّه. وقوله : حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ .. إلخ ، قال الورتجبي : وصف سبحانه أهل الوجد ، من الملائكة المقربين ، وذلك من صولة الخطاب ، فإذا سمعوا كلام الحق ، من نفس العظمة ، وقعوا فى بحار هيبته وإجلاله ، حتى فنوا تحت سلطان كبريائه ، ولم يعرفوا معنى الخطاب فى أول وارد السلطنة. فإذا فاقوا سألوا معنى الخطاب من جبريل عليه السّلام ، فهو من أهل الصحو والتمكين فى المعرفة. هـ.

ثم تتم قوله : لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ أي : لا من رزق ولا غيره ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٢٤ الى ٢٧]

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : بأسباب سماوية وأرضية؟ قُلِ اللَّهُ وحده. أمره أن يقرّرهم ، ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم ، أي : يرزقكم اللّه لا غيره ، وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم ، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به ، لأنهم إن تفوّهوا بأن اللّه رازقهم لزمهم أن يقال لهم : فما لكم لا تعبدون من يرزقكم ، وتؤثرون عليه من لا يقدر على شى ء؟ ثم أمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإحجاج : وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : ما نحن وأنتم على حالة واحدة ، بلى على حالين متضادين ، وأحدنا مهتد ، وهو من اتضحت حجته ، والآخر ضال ، وهو من قامت عليه الحجة. ومعناه : أن أحد الفريقين من الموحدين ومن المشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال.

وهذا من كلام المنصف ، الذي كل من سمعه ، من موال ومعاند ، قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك. وفى ذكره بعد تقديم ما قدّم من التقرير : دلالة واضحة على من هو من الفريقين على الهدى

، ومن هو فى الضلال المبين ، ولكن التعريض أوصل بالمجادل إلى الغرض ، ونحوه قولك لمن تحقق كذبه : إن أحدنا لكاذب ، ويحتمل أن يكون من تجاهل العارف.

(٤٩٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٩٤

قال الكواشي : وهذا من المعاريض ، وقد ثبت أن من اتبع محمدا على الهدى ، ومن لم يتبعه على الضلال. هـ ويحتمل أن يكون من اللف والنشر المرتب. وفيه ضعف. وخولف بين حرفى الجار ، الداخلين على الهدى والضلال لأن صاحب الهدى كأنه مستعل على فرس جواد ، يركضه حيث شاء ، والضال كأنه منغمس فى ظلام ، لا يدرى أين يتوجّه.

قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ أي : ليس القصد بدعائى إياكم خوفا من ضرر كفركم ، وإنما القصد بما أدعوكم إليه الخير لكم ، فلا يسأل أحد عن عمل الآخر ، وإنما يسأل كل واحد عن عمله. وهذا أيضا أدخل فى الإنصاف ، حيث أسند الإجرام إلى أنفسهم ، وهو محظور ، والعمل إلى المخاطبين ، وهو مأمور به مشكور.

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا يوم القيامة ، ثُمَّ يَفْتَحُ أي : يحكم بَيْنَنا بِالْحَقِّ بلا جور ولا ميل ، فيدخل المحقّين الجنة ، والمبطلين النار ، وَهُوَ الْفَتَّاحُ الحاكم الْعَلِيمُ بما ينبغى أن يحكم به.

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ أي : ألحقتموهم بِهِ شُرَكاءَ فى العبادة معه ، بأى صفة ألحقتموهم به شركاء فى استحقاق العبادة ، وهم أعجز شيء. قال القشيري : كانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك لانهماكهم فى ضلالهم ، مع تحققهم بأنها جمادات لا تفقه ولا تعقل ، ولا تسمع ولا تبصر ، ولا شبهة لهم غير تقليد أسلافهم. هـ. ومعنى قوله : (أرونى) مع كونه يراهم : أن يريهم الخطأ العظيم فى إلحاق الشركاء باللّه ، وأن يطلعهم على [حالة] «١» الإشراك به ، ولذلك زجرهم بقوله : كَلَّا أي : ارتدعوا عن هذه المقالة الشنعاء ، وتنبهوا عن ضلالكم. بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ أي : الغالب القاهر ، فلا يشاركه أحد ، و«هو» : ضمير الشأن ، الْحَكِيمُ فى تدبيره وصنعه. والمعنى : بل الوحدانية للّه وحده لأن الكلام إنما وقع فى الشركة ، ولا نزاع فى إثبات اللّه ووجوده ، وإنما النزاع فى وحدانية. أي : بل هو اللّه وحده العزيز الحكيم.

الإشارة : أرزاق الأرواح والأشباح بيد اللّه ، فأهل القلوب من أهل التجريد اشتغلوا بطلب أرزاق الأرواح ، وغابوا عن طلب أرزاق الأشباح ، مع كونهم مفتقرين إليه ، أي : غابوا عن أسبابه. وأهل الظاهر اشتغلوا بطلب أرزاق الأشباح ، وغابوا عن التوجه إلى أرزاق الأرواح ، مع كونهم أحوج الناس إليه. وكل فريق يرجح ما هو فيه ، فأهل الأسباب يعترضون على أهل التجريد ، ويرجحون تعاطى الأسباب ، وأهل

التجريد يرجحون مقام التجريد ، فيقولون لهم : وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين. قل : لا تسألون عما أجرمنا ، بزعمكم ، من ترك الأسباب ، ولا نسأل

---

(١) فى الأصول [إحالة] والمثبت هو الذي فى تفسير النسفي.

عما تعملون. وسيجمع اللّه بيننا ، ويحكم بما هو الحق ، فإن كنتم تعتمدون على الأسباب ، وتركنون إليها ، فهو شرك ، أرونى الذين ألحقتم به شركاء ، كلا ، بل هو اللّه العزيز الحكيم ، يعز أولياءه ، المتوجهين إليه ، الحكيم فى إسقاط من أعرض عنه إلى غيره.

قال القشيري : قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ، أخبر سبحانه أنه يجمع بين عباده ، ثم يعاملهم فى حال اجتماعهم ، بغير ما يعاملهم فى حال افتراقهم ، وللاجتماع أثر كبير فى الشريعة ، وللصلاة فى الجماعة أثر مخصوص. ثم قال :

وللشيوخ فى الاجتماع زوائد ، ويستروحون إلى هذه الآية : قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ ... هـ.

ولمّا ذكر ما منّ به على داود وسليمان ، وذكر وبال من لم يشكر النعم ، ذكر ما منّ به على نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم من عموم الرسالة والدعوة ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٢٨ الى ٣٠]

وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)

قلت : «كافة» : حال من «الناس» ، على قول الفارسي وابن جنى وابن كيسان ، واختاره ابن مالك. وقال الأكثر :

إنه حال من الكاف ، والتاء للمبالغة ، وما قاله ابن مالك أحسن. انظر الأزهرى.

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ أي : جميعا ، إنسهم وجنّهم ، عربيهم وعجميهم ، أحمرهم وأسودهم. وقدّم الحال للاهنمام. قال صلى اللّه عليه وسلم : «أعطيت خمسا لم يعطهنّ أحد قبلى بعثت إلى الأحمر والأسود ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحّل لأحد قبلى ، ونصرت بالرّعب مسيرة شهر ، وأعطت الشفاعة ، فادخرتها لأمتى يوم القيامة ، وهى إن شاء اللّه نائلة من لا يشرك باللّه شيئا» «١».

أو : وما أرسلناك إلا رسالة عامة لهم ، محيطة بهم لأنها إذا عمتهم فقد [كفتهم] «٢» أن يخرج منها

أحد.

وقال الزجاج : معنى الكافة فى اللغة : الإحاطة ، والمعنى : أرسلناك جامعا للناس فى الإنذار والإبلاغ ، على أنه حال

---

(١) أخرجه البخاري فى (التيمم ، باب ١ ح ٣٣٥) ومسلم فى (فاتحة كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١/ ٣٧٠ ، ح ٥٢١) من حديث جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه.

(٢) فى الأصول [كفهم] والمثبت من تفسير أبى السعود. [.....]

(٤/٤٩٥)

من الكاف ، والتاء للمبالغة ، كالراوية والعلّامة. حال كونك بَشِيراً بالفضل العظيم لمن أقر ، وَنَذِيراً بالعذاب لمن أصرّ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ أي : الكفرة ، لا يَعْلَمُونَ ذلك ، فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

وَيَقُولُونَ من فرط جلهم : مَتى هذَا الْوَعْدُ أي : القيامة ، المشار إليها بقوله : قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا «١» ، أو : الوعد بالعذاب الذي أنذرت به. وأطلق الوعد على الموعود به لأنه من متعلقاته ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى إتيانه؟ قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ ، «الميعاد» : ظرف الوعد ، من مكان ، أو زمان. وهو - هنا - الزمان ، بدليل من قرأ «ميعاد يوم» ، فأبدل منه «اليوم». وأما الإضافة فإضافة تبيين ، كما تقول : بعير سائبة ، أي : قد وقت لعذابكم يوما لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ أي : لا يمكنكم التأخر عنه بالإمهال ، ولا التقدم عليه بالاستعجال. ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم : أنهم سألوا عن ذلك ، وهم منكرون به ، تعنتا لا استرشادا ، فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقا للسؤال ، على وجه الإنكار والتعنت ، وأنهم مرصدون له ، يفاجئهم ، فلا يستطيعون تأخرا ، ولا تقدما عليه.

الإشارة : الداعون إلى اللّه على فرقتين : فرقة تدعو إلى معرفة أحكام اللّه ، وهم العلماء ، وفرقة تدعو إلى معرفة ذات اللّه بالعيان ، وهم الأولياء العارفون باللّه ، فالأولون دعوتهم خاصة بمن فى مذهبهم ، والآخرون دعوتهم عامة إذ معرفة اللّه تعالى الذوقية لم يقع فيها اختلاف مذاهب ، فأهل المشرق والمغرب كلهم متفقون عليها ، فشيخ واحد يربى جميع أهل المذاهب ، إن خضعوا له ، وفى ذلك يقول صاحب المباحث :

مذاهب الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف

وقال الشاعر :

عبارتنا شتى وحسنك واحد وكلّ إلى ذاك الجمال يشير

ويقول من استبعد الفتح : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ قل : لكم ميعاد يوم عيّنه للفتح ، لا يتقدم ولا يتأخر.

فالأدب : الخدمة وعدم الاستعجال.

---

(١) الآية ٢٦ من السورة.

ثم ذكر ما يلقون فى ذلك الميعاد على كفرهم ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٣١ الى ٣٣]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

قلت : أتى بالعاطف فى قوله : (و قال) الأخيرة ، وترك فى الأولى لأن قول الرؤساء جواب لقول المستضعفين ، فحسن ترك العاطف ، ثم جىء بكلام آخر للمستضعفين ، فعطفه على كلامهم الأول.

و(مكر الليل) :

الإضافة على معنى «فى» ، وإضافة المكر إلى الليل على الاتساع ، بإجراء الثاني مجرى المفعول به ، وإضافة المكر إليه ، أو : جعل الليل والنهار ماكرين بهم مجازا.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، كأبى جهل وأضرابه : لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أي : ما نزل قبل القرآن ، من كتب اللّه تعالى ، الدالة على البعث. وقيل : إن كفار قريش سألوا أهل الكتب عن الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، فأخبروهم أنهم يجدون نعته فى كتبهم ، فغضبوا ، وقالوا ذلك. وقيل : (الذين بين يديه) :

القيامة والجنة والنار ، فكأنهم جحدوا أن يكون القرآن من عند اللّه ، وأن يكون ما دلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة.

وَلَوْ تَرى يا محمد ، أو من تصح منه الرؤية ، إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ محبوسون عِنْدَ رَبِّهِمْ فى موقف الحساب يَرْجِعُ يردّ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ فى الجدال والمحاورة. أخبر عن عاقبتهم ومآلهم فى الآخرة ، فقال لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، أو للمخاطب : ولو ترى فى الآخرة موقفهم ، وهم يتجاذبون أطراف المحاورة ، ويتراجعونها بينهم ، لرأيت أمرا فظيعا ، فحذف الجواب لأن العبارة لا تفى به. ثم بيّن بعض محاورتهم بقوله :

(٤٩٧/٤)

يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أي : الأتباع السفلة لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أي : الرؤساء المقدّمين : لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ لو لا دعاؤكم إيّانا إلى الكفر لكنا مؤمنين باللّه ورسوله.

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ : رددناكم عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ أي : بل أنتم صددتم باختباركم ، ولم نقهركم على الكفر. أنكروا أنهم كانوا صادّين لهم عن الإيمان ، وأثبتوا أنهم هم الذين صدّوا أنفسهم ، حيث أعرضوا عن الهدى ، وآثروا التقليد عليه. وإنما وقعت «إذ» مضافا إليها ، وإن كانت «إذ» و«إذا» من الظروف اللازمة للظرفية لأنه قد اتّسع فى الزمان ما لم يتّسع فى غيره.

وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أي : بل مكركم بنا بالليل والنهار هو الذي صدنا عن الهدى. أو : مكر بنا الليل والنهار ، وطول السلامة ، حتى ظننا أنكم على حق فقلدناكم. إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً : أشباها ، نعبدها معه. والحاصل : أن المستكبرين لمّا أنكروا أن يكونوا هم السبب فى كفر المستضعفين ، وأثبتوا أن ذلك بسبب اختيارهم ، كرّ عليهم المستضعفون بقولهم : بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم ، كأنهم قالوا : ما كان الإجرام من جهتنا ، بل من جهة مكركم بنا دائما ، ليلا ونهارا ، وحملكم إيّانا على الشرك واتخاذ الأنداد.

ثم حصل الندم حيث لم ينفع ، كما قال تعالى : وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ أي : أضمر الندم كلا الفريقين ، وأخفاه عن رفيقه ، مخافة التعيير ، لمّا رأوا العذاب ، وتحققوا لحوقه بهم ، فندم المستكبرون على إضلالهم وضلالهم ، والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم. وقيل : معنى أسروا : أظهروا ، فهو من الأضداد. وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : فى أعناقهم. فأظهر فى محل الإضمار للدلالة على ما استوجبوا به الأغلال ، وهو كفرهم. هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ أي : لا يفعل بهم إلا ما استوجبته أعمالهم الخبيثة فى الدنيا.

الإشارة : كل من له رئاسة وجاه ، عالما كان أو جاهلا ، وصدّ الناس عن طريق التربية على يد المشايخ

، يقع له هذا الخصام ، مع من صدّهم من ضعفاء الناس ، حيث يرتفع المقربون ، ويسقط الغافلون من تلك المراتب ، فيقع الندم والتحسر ، ويتبرأ الرؤساء من المرءوسين من عامة أهل اليمين. قال القشيري : وهكذا أصحاب الزلات ، الأخلاء فى الفساد - أي : يتبرأ بعضهم من بعض - وكذلك الجوارح والأعضاء ، يشهد بعضها على بعض ، اليد تقول للجملة : أخذت ، العين تقول : أبصرت ، والاختلاف فى الجملة عقوبة. ومن عمل بالمعاصي أخرج اللّه عليه من كان أطوع له ، ولكنهم لا يعلمون ذلك. ولو علموا لاعتذروا ، ولو اعتذروا لتابوا وتوقفوا ، ولكن ليقضى اللّه أمرا كان مفعولا. هـ.

(٤٩٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٩٩

ثم سلّى رسوله ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٣٤ الى ٣٦]

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٣٤) وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦)

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ رسول إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها : متنعّموها ، ورؤساؤها : إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ ، فهذه تسليه لرسول صلى اللّه عليه وسلم مما لقى من رؤساء قومه من التكذيب ، والكفر بما جاء به ، وأنه لم يرسل قطّ إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أهل مكة. وتخصيص المتنعمين بالتكذيب لأن الداعي إلى التكبر ، وعدم الخضوع للغير هو الانهماك فى الشهوات ، والاستهانة بمن لم يحظ بها ، جهلا ، ولذلك افتخروا بالأموال الفانية ، كما قال تعالى :

وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ، رأوا - من فرط جهلهم - أنهم أكرم على اللّه من أن يعذّبهم. نظروا إلى أحوالهم فى الدنيا ، وظنوا أنهم لو لم يكرموا على اللّه لما رزقهم ذلك. ولو لا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم ذلك ، فأبطل اللّه رأيهم الفاسد بقوله : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ أي : يضيقه على من يشاء ، فإن الرزق بيد اللّه ، يقسمه كيف يشاء. فربما وسّع على العاصي ، استدراجا ، وضيّق على المطيع ، تمحيصا وتطهيرا ، فيوسع على المطيع ، ويضيق على العاصي ، وربما وسّع عليهما على حسب مشيئته ، فلا يقاس عليهما أمر الثواب ، ولو كان ذلك لكرامة وهوان يوجبانه لم يكن بمشيئته. وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة عند اللّه. وقد تكون للاستدراج ، وصاحبها لا يشعر.

الإشارة : ما حاز الخصوصية وتبع أهلها إلا ضعفاء المال والجاه ، الذين هم أتباع الرسل ، فهم الذين حطّوا رؤوسهم ، وباعوا نفوسهم وأموالهم للّه ، وبذلوها لمن يعرّفهم به ، فعوّضهم جنة المعارف ، يتبوءون منها حيث شاءوا ، وأما من له جاه أو مال فقلّ من يحط رأسه منهم ، إلا من سبقت له العناية الكبرى. قال القشيري : بعد كلام : ولكنها أقسام سبقت ، وأحكام حقت ، ثم اللّه غالب على أمره. وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلاداً ، وليس هدا بكثرة الأموال والأولاد ، وإنما هى ببصائر مفتوحة لقوم ، ومسدودة لقوم هـ.

(٤٩٩/٤)

ثم قال تعالى :
[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٣٧ الى ٣٨]
وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)
قلت : جمع التكسير يذكّر ويؤنث للعقلاء وغيرهم ، ولذلك قال : «بالتي». و(زلفى) : مفعول مطلق ، أي : وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم ، و(إلا من آمن) : مستثنى من الكاف فى «تقربكم» ، متصل ، وقيل : منقطع.
و(من) : شرط ، جوابه : (فأولئك). وعلى الاتصال ف «من» منصوبة بتقرب.
يقول الحق جل جلاله : وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى أي : قربة ، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ، يعنى أن الأموال لا تقرب أحدا إلا المؤمن الصالح ، الذي ينفقها فى سبيل اللّه.
والأولاد لا تقرب أحدا من اللّه إلا من علّمهم الخير ، وفقّههم فى الدين ، وأرشدهم للصلاح والطاعة ، فإنّ عملهم يجرى عليه بعد موته لقوله صلى اللّه عليه وسلم : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم بثه فى صدور الرجال ، وولد صالح يدعو له بعد موته» «١».
فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ أي : تضاعف لهم حسناتهم ، الواحدة عشرا إلى سبعمائة ، على قدر النية والإخلاص. وهو من إضافة المصدر إلى المفعول. والأصل : يجازون الضعف ، ثم جزاء الضعف ، ثم أضيف. وقرأ يعقوب بالنصب على التمييز ، أي : فأولئك لهم الضعف لأعمالهم جزاء بِما عَمِلُوا أي : بأعمالهم وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ أي : فى غرفات الجنان آمنون من كل هائل وشاغل. وقرأ حمزة : «فى الغرفة» إرادة الجنس.

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا فى إبطالها ، بالرد والطعن مُعاجِزِينَ : مغالبين لأنبيائنا ، أو : سابقين ، ظانين أنهم يفوتوننا ، أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ يحضرونه فيحيط بهم.

الإشارة : الأموال والأولاد لا تقرب العبد ولا تبعده ، إنما يقربه سابق العناية ، ويبدعه سابق الشقاء ، فمن سبقته العناية قربته أمواله ، بإنفاق المال فى سبيل اللّه ، وإرشاد الأولاد إلى طاعة اللّه ، ومن سبق له الشقاء صرف أمواله

---

(١) أخرجه ، بنحوه ، مسلم فى (الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، ٣/ ١٢٥٥ ح ١٦٣١) من حديث ابى هريرة رضي اللّه عنه.

فى الهوى ، وأولاده فى جمع الدنيا. قال القشيري : لا تستحقّ الزّلفى عند اللّه بالمال ، ولا بالأولاد ، ولكن بالأعمال الصالحة الخالصة ، والأحوال الصافية ، والأنفس الزاكية ، بل بالعناية السابقة ، والهداية اللاحقة ، والرعاية الصادقة.

هـ. وقال فى قوله : وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ : هم الذين لا يحترمون الأولياء ، ولا يراعون حقّ اللّه فى السّر ، فهم فى عذاب الاعتراض على أولياء اللّه ، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك فى ارتكاب محارم اللّه ، ثم فى عذاب السقوط من عين اللّه تعالى. هـ.

ثم حضّ على الصدقة ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٣٩]

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، إنما كرره تزهيدا فى المال ، وحضا على إنفاقه فى سبيل اللّه. ولذلك عقبه بقوله : وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، إما عاجلا فى الدنيا إذا شاء ، أو آجلا فى الآخرة ، ما لم يكن إسرافا ، كنزهة لهو ، أو فى بنيان ، أو معصية. وذكر الكواشي هنا أحاديث منها : «كلّ معروف صدقة ، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله صدقه ، وما وقى به الرجل عرضه كتبت له بها صدقة - وهو ما أعطى لشاعر ، أو لذى اللسان المتّقى - وما أنفق المؤمن صدقة فعلى اللّه خلفها ضامنا ، إلا ما كان من نفقة فى بنيان أو معصية» «١».

قلت : يقيد النفقة فى البنيان بما زاد على الحاجة والضرورة ، وإلا فهو مأمور به ، فيؤجر عليه. واللّه

تعالى أعلم.

وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ المطعمين لأن كل من رزق غيره من سلطان ، أو سيّد ، أو زوج ، أو غيره ، فهو من رزق اللّه ، أجراه على يد هؤلاء ، وهو خالق الرزق ، والأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق. وعن بعضهم قال :

الحمد للّه الذي أوجده ، وجعلنى ممن يشتهى ، فكم من مشته لا يجد ، وواجد لا يشتهى!.

الإشارة : فى الآية إشارة إلى منقبة السخاء ، وإطلاق اليد بالعطاء ، وهو من علامة اليقين ، وخروج الدنيا من القلب. وذكر الترمذي الحكيم حديثا طويلا عن الزبير رضي اللّه عنه رأيت أن أذكره لكثرة فوائد مع مناسبة لهذا المعنى.

قال : جئت حتى جلست بين يدى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأخذ بطرف عمامتى من ورائي ، ثم قال : «يا زبير إنى رسول اللّه إليك خاصة ، وإلى الناس عامة. أتدرون ما قال ربكم؟ قلت : اللّه ورسوله أعلم. قال. قال ربكم حين استوى على

---

(١) رواه الدار قطنى فى سننه (٣/ ٢٨) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٠) من حديث جابر رضي اللّه عنه. وصححه الحاكم ، وتعقبه الذهبي.

عرشه ونظر إلى خلقه : عبادى أنتم خلقى وأنا ربكم ، أرزاقكم بيدي ، فلا تتعبوا فيما تكفلت لكم به ، فاطلبوا منى أرزاقكم ، وإلىّ فارفعوا حوائجكم ، انصبوا إلىّ أنفسكم أصبّ عليكم أرزاقكم. أتدرون ما قال ربكم؟ قال اللّه تبارك وتعالى : يا ابن آدم أنفق أنفق عليك ، وأوسع أوسع عليك ، ولا تضيق فأضيق عليك ، ولا تصرّ فأصرّ عليك ، ولا تخزن فأخزن عليك ، إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات ، متواصل إلى العرش ، لا يغلق ليلا ولا نهارا ، ينزل اللّه منه الرزق ، على كل امرئ بقدر نيته ، وعطيته ، وصدقته ، ونفقته ، من أكثر أكثر عليه ، ومن أقل أقل عليه ، ومن أمسك أمسك عليه. يا زبير فكل وأطعم ، ولا توك فيوك عليك «١» ، ولا تحص فيحص عليك ، ولا تقتّر فيقتر عليك ، ولا تعسر فيعسر عليك. يا زبير ، إن اللّه يحب الإنفاق ، ويبعض الإقتار ، وإن السخاء من اليقين ، والبخل من الشك ، فلا يدخل النار من أيقن ، ولا يدخل الجنة من شك. يا زبير إن اللّه يحب السخاوة ، ولو بفلق تمرة ، والشجاعة ، ولو بقتل عقرب أو حية. يا زبير إن اللّه يحب الصبر عند زلزلة الزلازل ، واليقين النافذ عند مجيء الشهوات ، والعقل الكامل عند نزول الشبهات. والورع الصادق عند الحرام

والخبيثات. يا زبير عظّم الإخوان ، وأجلّ الأبرار ، ووقر الأخيار ، وصل الجار ، ولا تماش الفجار ، تدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب ، هذه وصية اللّه إليّ ، ووصيتي إليك».

ثم ذكر توبيخه على الشرك ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٤٠ الى ٤٢]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (٤٢)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ «٢» جَمِيعاً ، العابدين والمعبودين ، ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ؟ هو خطاب للملائكة ، وتقريع للكفرة ، وارد على المثل السائر من قول العامة : الخطاب للسارية وافهمى يا جارية. ونحوه قوله : .. أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي .. الآية «٣». وتخصيص

---

(١) أي : لا تدخر وتشد ما عندك ، وتمنع ما فى يديك ، فتنقطع مادة الرزق عنك. والوكاء : الخيط الذي تشد به الصرّة والكيس وغيرهما. انظر النهاية فى غريب الحديث (وكاء ، ٥/ ٢٢٢ - ٢٢٣).

(٢) قرأ حفص ، ويعقوب : «يحشرهم» بالياء ، وقرأ الباقون «نحشرهم» و«نقول» بالنون. وقد أثبت المفسر قراءة النون. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٣٨٨).

(٣) من الآية ١١٦ من سورة المائدة.

الملائكة لأنهم أشرف شركائهم ، والصالحون للخطاب منهم. قالُوا سُبْحانَكَ تنزيها لك أن يعبد معك غيرك. أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ أنت الذي نواليه من دونهم ، لا موالاة بيننا وبينهم. والموالاة خلاف المعاداة ، وهى مفاعلة من الولي ، وهو القرب. والولىّ يقع على الموالي والموالي جميعا. فبينوا بإثبات موالاة اللّه تعالى ومعاداة الكفار : براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم فإنّ من كان على هذه الصفة ، كانت حاله منافية لذلك.

ثم قالوا : بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أي : الشياطين ، حيث أطاعوهم فى عبادة غير اللّه ، أو : كانوا يدخلون فى أجواف الأصنام ، إذا عبدت ، فيعبدون بعبادتها ، أو : صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن ، وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها. أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ أي : أكثر الإنس ، أو : الكفار ،

بِهِمْ بالجن مُؤْمِنُونَ مصدقون لهم فيما يأمرونهم به. والأكثر هنا بمعنى الكل.

قال تعالى : فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا لأن الأمر فى ذلك اليوم إليه وحده ، لا يملك أحد فيه منفعة ولا مضرة لأحد لأن الدار دار ثواب وعقاب ، والمثيب والمعاقب هو اللّه ، فكانت حالها خلاف حال الدنيا ، التي هى دار تكليف ، والناس فيها مخلىّ بينهم ، يتضارون ، ويتنافعون ، وأما يوم القيامة فلا فعل لأحد قط.

ثم ذكر معاقبة الظالمين بقوله : وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بوضع العبادة فى غير موضعها : ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ فى الدنيا.

الإشارة : ما أحببت شيئا إلا وكنت له عبدا ، ولا يحب أن تكون لغيره عبدا ، فإذا تحققت الحقائق ، التحق كل عابد بمعبوده ، وكل حبيب بمحبوبه ، فيرتفع الحق بأهله ، ويهوى الباطل بأهله. وكل ما سوى اللّه باطل ، فارفع همتك أيها العبد عن هذه الدار وما فيها ، وتعلق بالباقي ، دون الفاني ، ولا تتعلق بشيء سوى المتكبر المتعالي.

قال القشيري : قوله تعالى : فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ .. إلخ ، الإشارة فى هذا : أنّ من علّق قلبه بالأغيار ، وظنّ صلاح حاله فى الاختيار ، والاستعانة بالأمثال والأشكال ، نزع اللّه الرحمة من قلوبهم ، وتركهم ، وتشوش أحوالهم ، فلا لهم من الأشكال والأمثال معونة ، ولا لهم فى عقولهم استبصار ، ولا إلى اللّه رجوع ، فإن رجعوا لا يرحمهم ولا يحبهم ، ويقول : ذوقوا وبال ما به استوجبتم هذه العقوبة.

هـ. قلت : قوله : «فإن رجعوا لا يرحمهم» يعنى أنهم فزعوا أولا إلى المخلوق ، فلما لم ينجح مسعاهم ، رجعوا إلى اللّه ، فلم ينفعهم ، ولو تابوا فى المستقبل لقبل توبتهم.

وقال أيضا : ومن تشديد العقوبة الافتضاح فى السؤال. وفى بعض الأخبار : أن عبيدا يسألهم الحق غدا ، فيقع عليهم من الخجل ما يقولون : يا ربنا لو عذبتنا بما شئت من ألوان العقوبة ، ولا تعذبنا بهذا السؤال. هـ. وباللّه التوفيق.

(٥٠٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٠٤

ثم ذكر حال أهل الغفلة ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٤٣ الى ٤٥]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَقالُوا ما هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ

فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٤٥)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا أي : إذا قرئت عليهم آيات القرآن ، بَيِّناتٍ : واضحات ، قالُوا أي : المشركون : ما هذا؟ يعنون محمدا صلى اللّه عليه وسلم إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ : يصرفكم عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ من الأصنام. وَقالُوا ما هذا أي : القرآن إِلَّا إِفْكٌ : كذب مُفْتَرىً بإضافته إلى اللّه تعالى. وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : وقالوا. والعدول عنه دليل على إنكار عظيم ، وغضب شديد ، حيث سجّل عليهم بالكفر والجحد ، لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ أي : للقرآن ، أو لأمر النبوة كله ، لما عجزوا عن معارضته ، قالوا : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أي : ما هذا إلا سحر ظاهر سحريته. وإنكارهم أولا باعتبار معناه ، وثانيا باعتبار لفظه وإعجازه ، ولذلك سموه سحرا.

قال تعالى : وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها أي : ما أعطينا مشركى مكة كتبا يدرسونها ، فيها برهان على صحة الشرك. وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ أي : ولا أرسلنا إليهم نذيرا ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا ، ويدعوهم إليه ، إذ لا وجه له ، فمن أين وقع لهم هذه الشبهة؟ وهذا فى غاية التجهيل لهم ، والتسفيه لرأيهم.

ثم هددهم بقوله : وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي : وكذّب الذين تقدموا من الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، الرسل ، كما كذّب هؤلاء. وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ أي : وما بلغ أهل مكة عشر ما أوتى الأولون ، من طول الأعمار ، وقوة الأجرام ، وكثرة الأموال والأولاد ، وتوالى النعم ، والظهور فى البلاد. والمعشار : مفعال ، من : العشر ، ولم يأت هذا البناء إلا فى العشرة والأربعة. قالوا : معشار ومرباع. وقال فى القوت : المعشار : عشر العشر.

فَكَذَّبُوا رُسُلِي أي : فكذبت تلك الأمم رسلى ، فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ أي : فانظر كيف كان إنكارى عليهم

(٥٠٤/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٠٥

بالهلاك والتدمير. فالنكير : مصدر ، كالإنكار معنى ، وكالنذير وزنا. و(كيف) للتعظيم ، لا لمجرد الاستفهام ، أي :

فحين كذبوا رسلى جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال ، ولم تغن عنهم تلك الأموال والأولاد ، وما كانوا مستظهرين به من الرئاسة والجاه ، فليحذر هؤلاء أن يحل بهم مثل [ما حل] «١» بأولئك لمشاركتهم لهم فى الكفر والعدوان.

الإشارة : تكذيب الصادقين سنّة ماضية ، وكل من ظهر بخصوصية يجذب الناس إلى اللّه ، ويخرجهم من عوائدهم ، قالوا : ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، فحين كذّبوا أولياء

زمانهم حرموا بركتهم ، فبقوا فى عذاب الحرص والتعب ، والهلع والنصب. قال القشيري : إن الحكماء والأولياء - الذين هم الأئمة فى هذه الطريقة - إذا دلوا الناس على اللّه ، قال إخوانهم من إخوان السوء - وربما كان من الأقارب وأبناء الدنيا :

من ذا الذي يطيق هذا؟ ولا بد من الدنيا مادمت تعيش! .. وأمثال هذا كثير ، حتى يميل ذلك المسكين من قبل النصح ، فيهلك ويضل. هـ. باختصار. وقال فى قوله تعالى : وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها .. ما حاصله : إن أرباب القلوب إذا تكلموا بالحقائق ، على سبيل الإلهام والفيض ، لا يطلب منهم البرهان على ما نطقوا به ، فإذا طالبهم أهل القبلة بذلك ، فسبيلهم السكوت عنهم ، حتى يجيب عنهم الحق تعالى. هـ. وباللّه التوفيق.

ثم أمر بالتفكر والاعتبار ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٤٦]

قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (٤٦)

قلت : «أن تقوموا» : بدل من «واحدة» ، أو خبر عن مضمر.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ بخصلة واحدة ، وهى : أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ أي : لوجه اللّه خالصا ، لا لحمية ، ولا عصبية ، بل لطلب الحق والاسترشاد. فالقيام على هذا معنوى ، وهو القصد والتوجه بالقلب ، وقيل : حسى ، وهو قيامهم وتفرقهم عن مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فيقوم كل واحد منفردا بنفسه ، يتفكر ، أو مع صاحبه. وهذا معنى قوله : مَثْنى وَفُرادى أي : اثنين اثنين ، أو فردا فردا. والمعنى :

أعظكم بواحدة أن تعملوا ما أصبتم الحق ، وتخلصتم من الجهل. وهى أن تقوموا وتنهضوا اللّه ، معرضين عن المراء

---

(١) فى النسخة الأم [ما حق].

والتقليد ، متفرقين اثنين اثنين ، أو واحدا واحدا فإنّ الازدحام يشوّش الخاطر ، ويخلط القول ، ويمنع من الرّوية ، ويقلّ فيه الإنصاف ، ويكثر الاعتساف.

ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا فى أمر محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وما جاء به ، حتى تعلموا أنه حق ، أما الاثنان

فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف ، حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق ، وكذلك المفرد ، يتفكر فى نفسه ويعرض فكره على عقله. فإذا تفكرتم بالانصاف عرفتم أن ما بِصاحِبِكُمْ يعنى محمدا صلى اللّه عليه وسلم مِنْ جِنَّةٍ من جنون ، وهذا كقوله : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ «١».

ومنهم من يقف على «تتفكروا» ثم يستأنف النفي. قال القشيري : يقول : إذا سوّلت لكم أنفسكم تكذيب الرسل ، فأمعنوا النظر ، هل ترون فيهم آثار ما رميتموهم به - هذا محمد صلى اللّه عليه وسلم قلتم ساحر ، فأين آثار السحر فى أحواله وأفعاله وأقواله؟ قلتم : فأىّ قسم من أقسام الشعر كلامه؟ قلتم مجنون ، فأىّ جنون ظهر منه؟ وإذا عجزتم فهلا اعترفتم به أنه صادق؟!. هـ.

إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ أي : قدّام عذاب شديد ، وهو عذاب الآخرة ، وهو كقوله صلى اللّه عليه وسلم : «بعثت بين يدى الساعة» «٢».

الإشارة : فكرة الاعتبار تشد عروة الإيمان ، وفكرة الاستبصار تشد عروة الإحسان ، فأول ما يتفكر فيه الإنسان فى أمره صلى اللّه عليه وسلم ، وما جاء به من العلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، مع ما أخبر به من قصص القرون الماضية ، والشرائع المتباينة ، مع كونه أميا ، لم يقرأ ، ولم يطالع كتابا قط ، وما أخبر به من أمر الغيب ، فوقع كما أخبر ، وما ظهر على يديه من المعجزات ، وما اتصف به عليه الصلاة والسلام من الأخلاق الحسنة ، والشيم الزكية ، وما كان عليه من سياسة الخلق ، مع مشاهدة الحق. وهذا لا يطاق إلا بأمر ربانى ، وتأييد إلهي. فإذا أشرقت على قلبه أنوار النبوة ، ترقى بها إلى أنوار الربوبية ، فيتفكر فى عجائب السموات والأرض ، فيعرف عظمة صانعها ، فإذا سقط على شيخ عارف باللّه أدخله فكرة العيان ، فيغيب عن نظرة الأكوان ، ويبقى المكوّن وحده. كان اللّه ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان.

---

(١) من الآية ١٨٤ من سورة الأعراف.

(٢) بعض حديث ، أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٥٠) وابن أبى شيبة فى مصنفه ، من حديث سيدنا عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه (٥/ ٣١٣) ، وانظر : مجمع الزوائد (٥/ ٢٦٧) ، وجاء معنى الجملة عند البخاري ومسلم بلفظ : «بعثت أنا والساعة كهاتين» أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب : قول النبي صلى اللّه عليه وسلم : «بعثت أنا والساعة كهاتين» ح ٦٥٠٤) ومسلم فى (الفتن ، باب قرب الساعة ، ٤/ ٢٢٦٨ ، ح ٢٩٥١) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٠٧

ثم بيّن أنه لا يطلب أجرا على الإنذار إزاحة للتهمة عنه ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٤٧]

قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ عليه أي : على إنذارى وتبليغ الرسالة مِنْ أَجْرٍ ، إذ لو كنت كذلك لا تهتمونى أنى أطمع فى أموالكم. وما طلبت من ذلك فَهُوَ لَكُمْ ، ومعناه : نفى سؤاله الأجر رأسا. نحو : ما لى فى هذا فهو لك ، وما تعطنى تصدق به على نفسك. إِنْ أَجْرِيَ فى ذلك إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ فيعلم أنى لا أطلب الأجر فى نصيحتكم ، ودعائكم إليه ، إلا منه تعالى.

الإشارة : تقدم مرارا أن الدعاة إلى اللّه ينبغى لهم أن يتنزّهوا عن الطمع فى الناس جهدهم ، ولو اضطروا إلى ذلك إذ لا يقع النفع العام على أيديهم إلا بعد الزهد التام ، والتعفف التام عما فى أيدى الناس ، فإذا تحققوا بهذا الأمر جعلهم اللّه حجة ، يدمغ بهم على الباطل ، كما قال تعالى :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٤٨ الى ٥٠]

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ أي : بالوحى ، فيرمى به على الباطل ، من الكفر وشبهه ، فيدمغه ، أو : يرمى به إلى أقطار الآفاق ، فيكون وعدا بإظهار الإسلام ، أو : يلقيه وينزله إلى أنبيائه.

والقذف : رمى السهم ونحوه بدفع واعتماد ، ويستعار لمطلق الإلقاء ، ومنه : وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ «١». تم وصف الرب بقوله : عَلَّامُ الْغُيُوبِ أي : هو علام الغيوب.

قُلْ جاءَ الْحَقُّ أي : الإسلام ، أو : القرآن ، وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ أي : زال الباطل وهلك ، لأن الإبداء والإعادة من صفات الحي ، فعدمهما عين الهلاك ، والمعنى : جاء الحق وهلك الباطل ، كقوله : جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ «٢» قال الكواشي : المعنى : ذهب الباطل لمجىء الحق ، فلم يبق له بقية حتى يبدئ شيئا أو يعيده. ثم

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ٨١ من سورة الإسراء.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٠٨
قال : وهذا مثل ، يقال : فلان لا يبدئ ولا يعيد ، إذا كان لا يلتفت إليه ولا يعتمد عليه. وقال الهروي : الباطل : إبليس ، ما يبدىء ولا يعيد : لا يخلق ولا يبعث ، واللّه تعالى هو المبدئ المعيد ، ومعناهما : الخالق الباعث. وقال فى الصحاح :
وفلان ما يبدئ وما يعيد ، أي : ما يتكلم ببادية ولا عائدة ، ومثله فى القاموس.
والحاصل : أنه عبارة عن زهوق الباطل ، حتى لا يبقى له ظهور. وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه دخل النبيّ صلى اللّه عليه وسلم مكة يوم الفتح ، وحول الكعبة أصنام ، فجعل يطعنها بعود ، فتقطع لقفاها ، ويقول : «جاء الحقّ وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا. قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد» «١».
ولما قالوا له صلى اللّه عليه وسلم : قد ضللت بترك دين آبائك قال اللّه تعالى : قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ عن الحق فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي فإن وبال ضلالى عليها ، وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي أي : فبتسديده بالوحى إلىّ. وكان قياس المقابلة أن يقال : وإن اهتديت فإنما أهتدى لها ، كقوله : فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها «٢» ، ولكن هما متقابلان معنى لأنّ النفس كلّ ما يضرها فهو بسببها ، وما لها مما ينفعها ، فهو بهداية ربها وتوفيقه ، وهذا حكم عمل لكل مكلّف. وإنما أمر رسوله أن ينسبه إلى نفسه تشريعا لغيره لأنه إذا كان هذا له مع جلالة قدره فما باله بغيره؟. إِنَّهُ سَمِيعٌ لما أقوله لكم ، قَرِيبٌ منى ومنكم ، فيجازينى ويجازيكم على ما أخفيتم وما أعلنتم.
الإشارة : الحق هو العلم باللّه ، والباطل الجهل باللّه ، أو : ما سوى اللّه ، فإذا حصل للعبد العلم باللّه غاب عنه كل ما سواه ، وما بقي فى الوجود إلا اللّه ، وفى ذلك يقول الشاعر :
فلم يبق إلا اللّه لم يبق كائن فما ثم موصول ولا ثم بائن
بذا جاء برهان العيان فما أرى بعيني إلا عينه إذ أعاين
وفى القوت فى تفسير الآية : أي : لما جاء الحق أبطل الباطل وأعاده ، فأظهر حقيقة الأمر بدءا وعودا ، أي :
كشف ما يبدىء الباطل للابتداء ، وما يعيد على العبد من الأحكام ، يعنى : أن نور الحق يكشف حقيقة الباطل وضرر عاقبته ، وقبحه فى ذاته. واللّه أعلم. هـ. ومن رمى بباطل أو بدعة ، وهو محقق بالحق ، متمسك بالسنة النبوية ، فليقل لمن رماه : (إن ضللت فإنما أضل على نفسى ..) الآية.

---

(١) أخرجه البخاري فى (المظلم ، باب : هل تكسر الدنان التي فيها خمر ، ح ٢٤٧٨) ومسلم فى (الجهاد والسير ، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة ٣/ ١٤٠٨. ح ١٧٨١) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.
(٢) الآية ٤١ من سورة الزمر.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٠٩

ثم ذكر حسرة من فاته الإيمان فى إبّانه ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٥١ الى ٥٤]

وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)

قلت : «مريب» : اسم فاعل ، من : أراب ، أي : أتى بريبة ، وأربته : أوقعته فى الريبة. ونسبة الإرابة إلى الشك مجاز. والمراد : وصفه بالشدة والإظلام ، بحيث إنه يوقع فى شك آخر.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ تَرى يا محمد ، أو : يا من تصح منه الرؤية ، الكفرة. إِذْ فَزِعُوا حين فزعوا عند صيحة البعث ، لرأيت أمرا فظيعا هائلا ، فَلا فَوْتَ أي : لا مهرب لهم ، أو : فلا يفوتون اللّه ولا يسبقونه. وَأُخِذُوا إلى النار مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ من المحشر إلى قعر جهنم. أو : ولو ترى إذ فزعوا عند الموت فلا فوت منه ، وأخذوا من ظهر الأرض إلى بطنها ، أو : إذ فزعوا يوم بدر ، وأخذوا من صحراء بدر إلى القليب.

وَقالُوا حين عاينوا العذاب : آمَنَّا بِهِ أي : بمحمد صلى اللّه عليه وسلم لمرور ذكره فى قوله : ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ «١» أو : باللّه ، أو : بالقرآن المذكور فى قوله : فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ أي : التناول. من قرأه بالواو «٢» فوجهه : أنه مصدر : ناش ، ينوش ، نوشا ، أي : تناول ، وهى لغة حجازية ، ومنه : تناوش القوم فى الحرب : إذا تدانوا ، وتناول بعضهم بعضا ، أي : ومن أين لهم تناول التوبة وقد بعدت عنهم ، يعنى أن التوبة كانت منهم قريبة ، تقبل منهم فى الدنيا ، وقد ذهبت الدنيا وبعدت عن الآخرة. وقيل : هو تمثيل لطلبهم ما لا يكون ، وهو أن ينفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت ، كما نفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا ، فمثّلت حالهم بحال من يريد أن يتناول

---

(١) الآية ٤٦ من السورة. [.....]

(٢) قرأ أبو عمرو ، وأبو بكر ، وحمزة ، والكسائي (التناوش) بالهمزة ، وقرأ الباقون (التناوش) بالواو من غير همز.

الشيء من غلوة كما يتناوله الآخر من ألف ذراع. ووجه من قرأه بالهمز : أنه مصدر : تناءش ، بمعنى أبطأ ، أو :

بعد ، يقال : تناءشت الشيء : أخذته من بعد. والنئيش : الشيء البطيء ، كما قال الشاعر :

وجئت نئيشا بعد ما فاتك الخير «١».

أي : جئت بطيئا. وقيل : الهمز بدل الواو ، كالصائم ، والقائم ، وأقتت. والمعنى : ومن أين لهم حصول الإيمان المتعذر بعد حصول البعد عن وقته.

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ حصول العذاب ، أو : قبل الموت فى الدنيا ، وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ ، هو عطف على «كفروا» على حكاية الحال الماضية ، أي : وقد كفروا فى الدنيا ، ورموا بظنونهم فى الأمور المغيبة ، فقالوا : لا بعث ولا حساب ، ولا جنة ولا نار. مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ عن الحق والصواب ، أو : هو قولهم فى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، شاعر ، ساحر ، كذاب ، وهو رجم بالغيب إذ لم يشاهدوا منه سحرا ولا شعرا ولا كذبا. وقد أتوا بهذا الأمر من جهة بعيدة من حاله صلى اللّه عليه وسلم إذ لم يعرفوه إلا بالصدق ، والأمانة ، ورجاحة العقل.

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ من نفع الإيمان يومئذ ، والنجاة به من النيران ، والفوز بنعيم الجنان ، أو بين الرد إلى الدنيا ، كما حكى عنهم بقوله : فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً «٢» كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ أي :

بأشباههم من الكفرة الدارجة من قبلهم ، فإنه قد حيل بينهم وبين ما يشتهون من الإيمان والعمل الصالح بالموت ، وهذه الأفعال كلها تقع فى المستقبل ، عبّر عنها بالماضي لتحقق وقوعها. إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ فى أمر الرسول والبعث ، مُرِيبٍ : موقع للريبة ، أو : ذى ريبة ، نعت به للمبالغة. وفيه رد على من زعم أن اللّه لا يعذّب على الشك ، قاله النسفي.

الإشارة : قوم غفلوا عن تحقيق الإيمان ، وتربيته ، بصحبه أهل الإيقان ، حتى إذا كشف - بعد الموت - عن مقامهم القصير ، ومكانهم البعيد ، قالوا : آمنا وتيقنا ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد. وقوم اشتغلوا بالبطالة والتقصير ، وصرفوا فى الشهوات والحظوظ عمرهم القصير ، وتوغلوا فى أشغال الدنيا وزخارفها ، فذهلوا عن الجد والتشمير ، فإذا انقضت عنهم أيام الدنيا حيل بينهم وبين ما يشتهون ، من اغتنام الأوقات ، وتعمير الساعات ، لنيل المراتب والدرجات ، وهنالك يقع الندم حين لم ينفع ، ويطلب الرجوع فلا يسمع.

---

(١) عجز بيت ، وهو كما فى القرطبي (٦/ ٥٥٥٣) :

قعدت زمانا عن طلابك للعلا وجئت نئيشا بعد ما فاتك الخبر

(٢) من الآية ١٢ من سورة السجدة.

(٤/٥١٠)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥١١

قال القشيري : إذا تابوا – وقد أغلقت الأبواب ، وندموا – وقد تقطعت بهم الأسباب ، فليس إلا الحسرات مع الندم ، ولات حين ندامة! كذلك من استهان بتفاصيل فترته ، ولم يستفق من غفلته فتجاوز حده ، ويعفى عنه كرّه.

فإذا استمكن فى القسوة ، وتجاوز فى سوء الأدب حدّ القلة ، وزاد على مقدار الكثرة ، فيحصل لهم من الحق ردّ ، ويستقبلهم حجاب البعد. فعند ذلك لا يسمع لهم دعاء ، ولا يرحم لهم بكاء ، كما قيل ، وأنشد :

فخلّ سبيل العين بعدك للبكا فليس لأيام الصفاء رجوع. هـ

وقوم شمروا عن سابق الجد والتشمير ، ولم يقنعوا من مولاهم بقليل ولا كثير ، قد انتهزوا فرصة الأعمار ، ولم يشغلهم عن اللّه ربع ولاديار ، عمّروا أوقاتهم بالذكر والتذكار ، وفكرة الاعتبار والاستبصار ، حتى وردوا دار القرار ، أولئك المصطفون الأخيار ، يدفع اللّه تعالى بهم عن أهل الدنيا الأنكاد والأغيار ، ويكشف عن قلوبهم الحجب والأستار. وقوم حققوا مقام الإيمان ، واشتغلوا بتربيته ، بصحبة أهل الإيقان ، حتى أفضوا إلى مقام العيان ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين. جعلنا اللّه من خواصهم بمنّه وكرمه ، وبمحمد نبيه وحبه صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله وصحبه.

(٤/٥١١)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥١٢

(٤/٥١٢)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥١٣

سورة فاطر

مكية. وآيها ست – أو خمس – وأربعون. ومناسبتها لما قبلها : أن صدرها استدلال على عظم ذاته ، وباهر قدرته ، وتحقيق رسالة نبيه ، بجعل الملائكة رسلا إليه ، ففيها إزاحة للشك ، وقلع للريب ، الواقع فى قلوب الكفرة ، الذي ختمت به السورة ، فكأنه تعالى حمد نفسه على إظهار شأنه ، وإن لم

يحمده عتاة خلقه.

[سورة فاطر (٣٥) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)

قلت : (أولى) : اسم جمع ، كذو ، وهو بدل من «رسلا» ، أو نعت له ، ومَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ : نعوت لأجنحة ، وهو غير منصرف لأنه معدول عن اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وهو باعتبار الأشخاص ، أي : منهم من له اثنان ، ومنهم من له ثلاثة ، هذا ظاهر الكشاف.

يقول الحق جل جلاله : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، حمد نفسه تعليما وتعظيما ، فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مبديهما ومبدعهما. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : «ما كنت أدرى معنى فاطر حتى اختصم إلىّ أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي : ابتدأتها». قال البيضاوي : من الفطر ، بمعنى الشق ، كأنه شق العدم بإخراجهما منه. قلت :

وكأنه شق النور الكثيف من النور اللطيف ، فنور السموات والأرض من نوره الأزلى ، وسره الخفي.

جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا إلى عباده ، أي : وسائط بين اللّه وبين أنبيائه والصالحين من عباده ، فيبلغون إليهم رسالاته بالوحى ، والإلهام ، والرؤيا الصادقة. أُولِي أَجْنِحَةٍ متعددة مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ أي : منهم ملائكة لهم اثنان لكل واحد جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، بتفاوت ما لهم من المراتب ، ينزلون بها ، ويعرجون ، أو : يسرعون نحو ما وكلهم اللّه عليه ، يتصرفون فيه على ما أمرهم به ، ولعله تعالى لم يرد الحصر ونفى ما زاد عليها ، لما روى أنه صلى اللّه عليه وسلم رأى جبريل ليلة المعراج ، وله ستمائة جناح «١». وروى أنه طلب منه أن يريه

---

(١) أخرجه البخاري فى (بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم «آمين» ح ٣٢٣٢) ومسلم فى (الإيمان ، باب ذكر سدرة المنتهى ١/ ١٥٨ ، ح ١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه ، لكنه ليس فيه «ليلة المعراج».

(٤/٥١٣)

صورته التي خلقه اللّه عليها ، فلما رآه كذلك خرّ مغشيا عليه. وقال : ما كنت أرى شيئا من الخلق هكذا. فقال له : لو رأيت إسرافيل ، إنّ له لاثنى عشر جناحا بالمشرق ، واثنى عشر جناحا بالمغرب ،

وإنّ العرش لعلى كاهله ، وإنه ليتضاءل لعظمة اللّه تعالى «١» هـ.

يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ أي : يزيد فى خلق الأجنحة وغيره ما يريد. وقيل : هو الوجه الحسن ، والشعر الحسن ، والصوت الحسن ، والحظّ الحسن ، والملاحة فى العينين. والآية مطلقة تتناول كلّ زيادة فى الخلق ، من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام فى الأعضاء ، وقوة فى البطش ، وحصافة العقل ، وجزالة فى الرأى ، وفصاحة فى اللسان ، وحسن خلق فى المعاشرة ، ومحبة فى قلوب المؤمنين وغير ذلك. إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على ما يشاء ، من زيادة فى الخلق ، ونقصان فيها ، على حسب المشيئة السابقة.

الإشارة : الحمد فى القرآن وقع على أربعة أقسام : حمد مطلق ، وهو الواقع على عظمة ذاته ، من غير أن يكون فى مقابلة شىء ، وهو قوله : قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى «٢» ، الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ «٣» ، وحمد وقع فى مقابلة تنزيه ذاته عن النقائص ، وهو قوله : وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ... «٤» الآية. وحمد وقع فى مقابلد نعمة الإيجاد ، وهو قوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ .. «٥» ، وحمد وقع فى مقابلة نعمة الإمداد الحسى ، كقوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ «٦» ، فإن التربية تقتضى وصول ما يحتاج إليه المربّى ، أو الإمداد المعنوي ، وهو إمداد القلوب والأرواح بالهداية ، وهو قوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ «٧» الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا .. «٨» فهذه أربعة : حمد مطلق ، أو مقيد بشأن التنزيه ، أو بنعمة الإيجاد ، أو الإمداد ، وما وقع هنا فى إظهار تجلياته ، من أرضه وسماواته ، ولطائف ملائكته ، فإن ذلك كله من نور جبروته.

وقوله تعالى : يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ قال القشيري : يقال : هو الفهم عن اللّه ، أو السخاء والجود ، أو :

الرضا بالتقدير ، أو : علو الهمة ، أو : التواضع فى الشرف ، أو : العفة فى الفقر ، أو : الظرف - أي : الظرافة - فى الشمائل ، أو : أن يكون محببا فى القلوب ، أو : خفة الروح ، أو : تحرّر القلب عن رقّ الحرمان - أي : بالوقوف مع الأكوان - أو : ألا يطلب لنفسه منزلة فى الدارين - أي : بأن يكون عبد اللّه حقيقة - . هـ. ملخصا.

---

(١) ذكره القرطبي (٦/ ٥٥٥٨) عن الزهري.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة النمل.

(٣) من الآية ٧٥ من سورة النحل.

(٤) الآية ١١١ من سورة الإسراء.

(٥) من الآية الأولى من سورة الأنعام.

(٦) الآية ٣٦ من سورة الجاثية.

(٧) الآية الأولى من سورة الكهف.

(٨) من الآية ٤٣ من سورة الأعراف.

والصواب أن الزيادة تشمل ذلك كله ، وكل من خصه بشيء فإنما ذلك رحمة منه تعالى ، كما قال تعالى :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٢]

ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)

يقول الحق جل جلاله : ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ أي : ما يطلق ويرسل من رحمة ، كنعمة ، ومطر ، وأمن ، وعافية ، ورزق ، وعلم ، ومعرفة ، ونبوة ، وغيرها ، فَلا مُمْسِكَ لَها فلا أحد يقدر على إمساكها وردها ، واستعير الفتح للإطلاق لأنه مسبب عنه. ونكّر الرحمة للإشاعة والإبهام ، كأنه قال : من أىّ رحمة كانت ، فتشمل نعمة الدفع والجلب ، كدفع المحن وجلب المنن. والاعتراف بالمنعم من تمام النعمة ، والأمران مدرجان فى الفتح والإمساك ، وَما يُمْسِكْ أي : يمنع ويحبس من ذلك فَلا مُرْسِلَ لَهُ فلا مطلق له مِنْ بَعْدِهِ من بعد إمساكه. وأنث الضمير الراجع إلى الاسم المتضمّن معنى الشرط على معنى الرحمة ، وذكّره حملا على لفظ المرجوع إليه إذ لا تأنيث فيه لأن الأول فسرّ بالرحمة ، فحسن إتباع الضمير التفسير ، ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير.

وعن معاذ رضي اللّه عنه مرفوعا : «لا تزال يد اللّه مبسوطة على هذه الأمة ما لم يرفق خيارهم بشرارهم ، ويعظّم برّهم فاجرهم ، وتعن قراؤهم على أمراءهم على معصية اللّه. فإذا فعلوا ذلك نزع اللّه يده عنهم» «١» قال ابن عرفه : يؤخذ من قوله تعالى : وَما يُمْسِكْ .. أن العدم السابق الإضافى متعلق للقدرة ، وجعله بعض الأصوليين متعلقا للإرادة أيضا ، وذلك لأن المصحح للتعلق الإمكان. هـ. قال الأبى : لا دليل فى الآية لاحتمال أن يكون التقدير : وما يريد إمساكه ، فيكون من متعلقات الإرادة ، ويحتمل : وما يمسك عن الإرسال بعد وجوده ، كإمساك الماء عن النزول بعد خلقه فى السحاب. هـ.

وَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب ، القادر على الإرسال والإمساك. الْحَكِيمُ الذي يرسل ويمسك ، بما تقتضى الحكمة إرساله ، أو إمساكه.

الإشارة : ما يفتح اللّه لقلوب عباده من نفحات ، وواردات ، وإلهامات ، وعلوم لدنية ، وحكم ربانية ، وتعرفات جمالية وجلالية ، فلا ممسك لها ، بل اللّه يفتح على من يشاء ، ويسد الباب فى وجه من شاء. وسد الباب فى وجه العبد عن معرفته الخاصة ، علامته : عدم إيصاله إلى أوليائه. فكل من وصله

إليهم ، وصحبهم ، وعظّمهم ، وخدمهم ،

---

(١) ذكر نحوه العراقي فى المغني (٢/ ١٦٤) وعزاه لأبى عمرو الداني ، فى كتاب الفتن ، من رواية الحسن ، مرسلا ، بلفظ : (لا تزال هذه الأمة تحت يد اللّه وكنفه ما لم يمالىء قراؤها أمراءها) وقال العراقي. ورواه الديلمي فى مسند الفردوس ، من حديث علىّ ، وابن عمر ، بلفظ : «ما لم يعظم أبرارها فجارها ، ويداهن خيارها شرارها ، وإسنادهما ضعيف.

(٤/٥١٥)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥١٦

فقد فتح اللّه له الباب فى وصوله إليه ، وكل من نكبه عنهم ، ولم يصحبهم ، كما ذكر ، فقد سد الباب فى وجهه عن معرفته العيانية. وفى الحكم : «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه» «١». وما يمسك من ذلك فلا مرسل له من بعده ، ولو صلى وصام ألف عام. قال القشيري : ما يلوح لقلوب العارفين من أنوار التحقيق لا سحاب يستره ، ولا ضباب يقهره. ويقال : ما يلزم قلوب أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا ممسك له ، والذي يمنع من أعدائه - بسبب ما يلقيهم فيه من انغلاق الأمور واستصعابها - فلا ميسّر له من دونه. هـ.

وباللّه التوفيق.

ثم ذكّرهم بالنعم لأن تذكر النعم سبب الفتح ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٣ الى ٤]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤)

قلت : «غير اللّه» : من رفعه فنعت للمحل ، أي : هل خالق غير اللّه ، ومن جره : فنعت للفظ.

و«يرزقكم» : إما استئناف ، أو : صفة ثانية لخالق ، و«لا إله إلا هو» : مستأنفة ، لا محل لها.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ باللسان والقلب ، وهى التي تقدمت ، من بسط الأرض كالمهاد ، ورفع السماء بلا عماد ، وإرسال الرسل للهداية والإرشاد ، والزيادة فى الخلق ، وفتح أبواب الرزق. ثم نبّه على أصل النعم ، وهو توحيد المنعّم ، فقال : هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ بالمطر وَالْأَرْضِ بالنبات ، بل لا خالق يرزق غيره ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ. فمن أىّ وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

ثم سلّى نبيه عن صدف قومه عن شكر المنعم بقوله : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، فلك

فيهم أسوة ، فاصبر كما صبروا. وتنكير «رسل» للتعظيم ، المقتضى لزيادة التسلية ، والحث على المصابرة ، أي : فقد

---

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص/ ١٣ ، حكمة/ ١٥٦). [.....]

(٤/٥١٦)

كذّبت رسل عظام ، ذوو عدد كثير ، وأولو آيات عديدة ، وأهل أعمار طوال ، وأصحاب صبر وعزم.

وتقدير الكلام :

وإن يكذبوك فتأسّ بتكذيب الرسل قبلك لأن الجزاء يعقب الشرط ، ولو أجرى على الظاهر ، لكان الجزاء مقدما على الشرط لأن تكذيب الرسل سابق ، فوضع فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ موضع فتأسّ ، استغناء بالسبب عن المسبب. وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ، وهو كلام مشتمل على الوعد والوعيد ، من رجوع الأمور إلى حكمه ، ومجازاة المكذّب والمكذّب بكل ما يستحقه فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا بالنصر والعز لأهل الحق ، وبالذل والإهانة لأهل التكذيب ، وفى الآخرة معلوم ، فالإطلاق أحسن من التقييد بالآخرة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ذكر النعمة هو أن ينظر العبد ، ويتفكر فى نفسه ، فيجد نفسه مغروقة فى النعم الظاهرة والباطنة. وقد تقدم تعدادها فى لقمان «١». وليتفكر فى حالته الماضية ، فقد كان جاهلا ، فعلّمه اللّه ، ضالا ، فهداه اللّه ، غافلا ، فأيقظه اللّه ، عاصيا ، فوفقه اللّه ، إلى غير ذلك من الأحوال السنية. ولينظر أيضا إلى من تحته من العباد ، فيجد كثيرا من هو أسوأ منه حالا ومقاما ، فيحمد اللّه ويشكره. قال صلى اللّه عليه وسلم : «انظروا إلى من هو تحتكم ولا تنظروا إلى من فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة اللّه عليكم» «٢». وحمله المحققون على العموم فى الدين والدنيا. ذكره ابن عباد فى الرسائل وغيره.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه : تذاكروا النعم فإن ذكرها شكر. هـ. وقال القشيري : من ذكر نعمته فصاحب عبادة ، ونائل زيادة ، ومن ذكر المنعم فصاحب إرادة ، ونائل زيادة ، ولكن فرق بين زيادة وزيادة ، هذا زيادته فى الدارين عطاؤه ، وهذا زيادته لقاؤه ، اليوم سرّا بسرّ ، من حيث المشاهدة ، وغدا جهرا بجهر ، من حيث المعاينة. هـ.

قلت : من تحقق بغاية الشهود لم يبق له فرق بين شهود الدارين إذا المتجلى واحد. ثم قال : والنعمة على قسمين :

ما دفع من المحن ، وما وضع من المنن ، فذكره لما دفع عنه يوجب دوام العصمة ، وذكره لما نفعه به يوجب تمام النعمة ، هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ..؟ فائدة هذا التعريف بوحدانيته ، فإذا عرف أنه لا رازق غيره لم يعلّق قلبه بأحد فى طلب شيء. وتوهم شيء من أمثاله وأشكاله ، ويستريح لشهود تقديره ، ولا محالة يخلص فى توكله وتفويضه. هـ.

---

(١) راجع تفسير الآية ٢٠ من سورة لقمان.

(٢) أخرجه مسلم فى (الزهد والرقائق ٤/ ٢٢٧٥ ، ح ٢٩٦٣) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٥١٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥١٨

ثم قال فى قوله : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ... الآية : وفى هذا إشارة للحكماء ، وأرباب القلوب ، مع العوامّ والأجانب عن هذه الطريقة ، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل ، وأهل الحقائق منهم أبدا فى مقاساة الأذية ، إلا بستر حالهم عنهم ، والعوام أقرب إلى هذه الطريقة من القرّاء المتعمقين ، والعلماء المتجمدين ، الذين هم لهذه الأصول منكرون. هـ.

ثم حذّر من الدنيا لأنها تنسى النّعم والشكر ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٥ الى ٧]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بالبعث والجزاء حَقٌّ ، أي : كائن لا محالة ، فاستعدوا للقائه ، فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا لا تخدعنكم زخارف الدنيا الغرارة ، ولا يذهلنكم التمتع بها ، والتلذذ بملاذها ، والاشتغال بجمعها واحتكارها ، عن التأهب للقاء اللّه ، وطلب ما عنده. وفى الحديث : «فلا تخدعنكم زخارف دنيا دنية ، عن مراتب جنات عليه ، فكأن قد كشف القناع ، وارتفع الارتياب ، ولاقى كل امرئ مستقره ، وعرف مثواه ومنقلبه». وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ أي : الشيطان ، فإنه يمنّيكم الأمانى الكاذبة ، ويقول : إن اللّه غنى عن عبادتك وعن تكذيبك. أو : إن اللّه غفور لمن عصاه.

إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ظاهر العداوة ، فعل بأبيكم ما فعل ، وأنتم تعاملونه معاملة الحبيب الناصح ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا فلا تقبلوا غروره فى عقائدكم وأفعالكم ، وكونوا على حذر منه فى جميع أحوالكم إذ لا

يوجد منه إلا ما يدل على عداوته فى سركم وجهركم.
قال الورتجبي : إنه عدو لأنه من عالم القهر خلق ، ونحن من عالم اللطف خلقنا. والطبعان متخالفان أبدا ، لأن القهر واللطف تسابقا فى الأزل ، فسبق اللطف القهر ، فعداوته من جهة الطبع الأول ، والجهل بالعصمة ، وأنوار التأييد والنصرة ، ومن لا يعرفه بما وصفنا ، كيف يتخذه عدوا؟ وهو لا يعرف مكائده ، ولا يعرف مكائده إلا ولىّ أو صدّيق. هـ.

(٥١٨/٤)

ثم خطّأ من اتبعه بأن غرضه أن يورد شيعته موارد الهلاك ، بقوله : إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ ، فهو تقرير لعداوته ، وبيان لغرضه فى دعوى شيعته إلي اتباع الهوى ، والركون إلى الدنيا ، أي : إنما يدعوهم إلى الهوى ، ليكونوا من أهل النار.
ثم بيّن مآل من اتبعه ومن عاداه ، فقال : الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ أي : فمن أجابه إلى ما دعى فله عذاب شديد لأنه صار من حزبه وأتباعه ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ولم يجيبوه ، ولم يصيروا من حزبه ، بل عادوه ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ لكبر جهاده ودوامه.
الإشارة : وعد اللّه هنا عام ، وكله حق ، واجب الوقوع ، لا يتخلف ، فيصدق بوعد الرزق ، وكفاية من انقطع إليه عن الخلق ، لقوله : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ «١» وتولى من أصلح حاله لقوله : وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ «٢» ، ويصدق بإثابة المطيع ، وعتاب العاصي ، أو : حلمه عنه ، وغير ذلك من المواعد كلها ، فيجب على العبد كفه عن الاهتمام بالرزق ، وخوف الخلق ، والتشمير فى الطاعة ، والفرار من المعصية ، إن كان له ثقة بوعد ربه ، وإلا فالخلل فى إيمانه.
وقوله تعالى : إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ... إلخ ، قوم فهموا من الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان ، فاشتغلوا بعداوته ومحاربته ، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب ، وقوم فهموا من سر الخطاب : إن الشيطان لكم عدو ، وأنا لكم حبيب ، فاشتغلوا بمحبة الحبيب ، فكفاهم عداوة العدو. قيل لبعضهم : كيف صنعك مع الشيطان؟ فقال : نحن قوم صرفنا هممنا إلى اللّه ، فكفانا من دونه. فالشيطان كالكلب إن اشتغلت بدفعه مزّق الثياب ، أو قطع الإهاب ، وإن رفعته إلى مولاه كفاك شره. وكذلك النفس إن اشتغلت بتصفيتها ومجاهدتها على الدوام شغلتك عن ذكر اللّه ، والفناء فيه ، ولكن الدواء هو الغيبة عنها ، والاشتغال باللّه دائما ، فإذا أظهرت رأسها بقيام شهوتها ، دقّه ، بعكس مرادها ، وغب عنها فى ذكر اللّه. ومن حكم شيخنا البوزيدى رضي اللّه عنه : «أنس نفسك باللّه ، واعتمد على فضل اللّه ، وامتثل شيئا ما ، وينوب اللّه». «٣» وفى الحكم العطائية : «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل

عنك ، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده». وقال أيضا : «وحرّك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه».
وقال : «لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساوئك ، ومحو دعاويك ، لم تصل إليه أبدا. ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه ، غطى وصفك بوصفه ، ونعتك بنعته ، فوصلك بما منه إليك ، لا بما منك إليك» «٤».

---

(١) من الآية ٣ من سورة الطلاق.
(٢) من الآية ١٩٦ من سورة الأعراف.
(٣) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص/ ٢٣ ، حكمة/ ٢٣٦).
(٤) (ص/ ٣١ ، حكمة ١٣٠).

(٥١٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٢٠
ومن جملة عداوته تزيين القبائح ، كما قال تعالى :
[سورة فاطر (٣٥) : آية ٨]
أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (٨)
قلت : «أفمن» : مبتدأ حذف خبره ، أي : كمن هداه اللّه ، أو ذهبت نفسك عليه حسرات.
و«حسرات» : مفعول له.
وجمعها لتضاعف اغتمامه ، أو تعدد مساوئهم. و«عليهم» : صلة لتذهب ، كما تقول : هلك عليه حبا ، ومات عليه حزنا. ولا يتعلق بحسرات لأن المصدر لا يتقدّم عليه صلته ، إلا أن يتسامح فى الجار والمجرور.
يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ بأن غلب هواه على عقله ، وجهله على علمه ، حتى انعكس رأيه ، فَرَآهُ حَسَناً فرأى الباطل حقا ، والقبيح حسنا ، كمن هداه اللّه واستبصر ، فرأى الحق حقا ، والباطل باطلا ، فتبع الحق ، وأعرض عن الباطل ، ليس الأمر كذلك ، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ ، فمن أضله رأى الباطل حقا ، فتبعه ، ومن هداه رأى الباطل باطلا ، فاجتنبه ، والحق حقا فاتبعه.
فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ أي : فلا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم وإصرارهم على التكذيب ، فإن أمرهم بيدي ، وأنا أرحم بهم منك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

بِما يَصْنَعُونَ فيجازيهم عليه ، وهو وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

الإشارة : إذا أراد اللّه إبعاد قوم غطى نور بصيرتهم بظلمة الهوى ، فيزيّن فى عينهم القبيح ، ويستقبح المليح ، فيرون القبيح حسنا ، والحسن قبيحا ، كما قال الشاعر :

يغمى على المرء فى أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

قال القشيري : ومعنى التزيين كالكافر يتوهّم أنّ فعله حسن ، وهو عند اللّه من أقبح القبيح ، ثم الراغب فى الدنيا يجمع حلالها وحرامها ، ويحوّش حطامها «١» ، لا يتفكر فى زوالها ، ولا فى ارتحاله عنها من قبل كمالها ، لقد زيّن له سوء عمله ، والذي يتبع الشهوات يبيع مؤبد راحته فى الجنة ، بمتابعة شهوة ساعة ، فلقد زين له سوء عمله ، والذي يؤثر على ربّه شيئا من المخلوقات ، فهو من جملتهم ، والذي يتوهّم أنه إذا وجد النجاة والدرجات فى الجنة

---

(١) أي : يجمعه ويدخره.

فقد اكتفى ، فقد زيّن له سوء عمله ، حيث تغافل عن حلاوة مناجاته. والذي هو فى صحبة حظوظه ، دون إيثار حقوق اللّه ، فقد زين له سوء عمله فرآه حسنا. هـ.

قلت : وكذلك من وقف مع الكرامات والمقامات ، وحلاوة الطاعات ، دون درجة المشاهدة ، فقد زين له سوء عمله. والحاصل : كل من وقف مع شيء ، دون تحقيق الفناء فى الذات ، فهو مزيّن له سوء عمله. وكل من لم يصحب الرجال فهو غالط ، يظن أنه واصل ، وهو منقطع فى أول البدايات. وباللّه التوفيق. وقوله تعالى : فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ ، كذلك يقال للواعظ ، إذا رأى إدبار الخلق ، وعدم تأثير الوعظ فيهم ، فليكتف بعلم اللّه فيهم ، ولا يتأسف على أحد ، فإن التوفيق بيد اللّه.

وربما يحييهم بعد حين ، كما يحيى الأرض بعد موتها ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٩]

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (٩)

قلت : «كذلك» : خبر مقدم ، و«النشور» : مبتدأ.

يقول الحق جل جلاله : وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ ، وفى قراءة بالإفراد ، للجنس «١» ، فَتُثِيرُ سَحاباً أي : تزعجه ، وعبّر بالمضارع على حكاية الحال الماضية استحضارا لتلك الصورة البديعة ، التي تقع فيها

إثارة الرياح السحاب ، الدالة على كمال القدرة وباهر الحكمة. فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ لا نبات فيه ، فَأَحْيَيْنا بِهِ أي : بالمطر النازل منه الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها بعد يبسها. وعدل من الغيبة الى التكلم لأنه أدخل فى الاختصاص لما فيه من مزيد بديع الصنع ، كَذلِكَ النُّشُورُ أي : مثل إحياء الموات نشور الأموات. وقيل : يحيى اللّه الخلق بماء يرسله من تحت العرش ، كمنيّ الرجال ، فتنبت به الأجساد فى قبورها ، ثم يرسل الأرواح فتدخل فى أشباحها «٢». قال أبو رزين : قلت : يا رسول اللّه كيف يحيى اللّه الموتى؟ وما آية ذلك فى خلقه؟ فقال : «هل مررت بواد أهلك محلا؟ - أي : جدبا - قلت : نعم ، قال : فكذلك يحيى اللّه الموتى ، وتلك آية اللّه فى خلقه» «٣».

---

(١) قرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي (الريح) بالتوحيد ، وقرأ الباقون (الرياح) بالجمع. انظر الإتحاف (٢/ ٣٩٢).

(٢) ذكره الطبري (٢٢/ ١١٩).

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٤/ ١١) والطبراني فى الكبير (١٩/ ٢٠٨ ح ٤٧٠) والطيالسي (ص ١٤٧ ح ١٠٨٩) عن أبى رزين العقيلي. قال الهيثمي فى المجمع (١/ ٨٥) : رجاله ثقات.

(٤/٥٢١)

الإشارة : واللّه الذي أرسل رياح الهداية ، فتزعج سحاب الغين عن قلوب أهل الهداية ، فسقناه - أي : ريح الهداية - إلى قلب ميت بالغفلة والجهل باللّه ، فأحيينا بالوارد الناشئ عن ريح الهداية أرض النفوس ، بالنشاط إلى العبادة ، والذكر ، والمعرفة ، بعد موتها بالغفلة والقسوة ، كذلك النشور. وذلك عزها ، كما قال تعالى :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ١٠]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠)

يقول الحق جل جلاله : مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ أي : الشرف والمنعة على الدوام ، فى الدنيا والآخرة ، فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً فليطلبها من عنده ، بالتقوى ، والعلم ، والعمل الصالح ، كالزهد فى الدنيا ، والتبتل إلى اللّه ، أي : فالعزة كلها مختصة باللّه ، عز الدنيا وعز الآخرة. وكان الكفار يتعززون بالأصنام ، كما قال تعالى : وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا «١» ، والمنافقون كانوا يتعززون بالمشركين ، كما قال تعالى : الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً

.. «٢» ، فبيّن أن العزة إنما هى للّه بقوله : «فإن العزة للّه» فليطلبها من أرادها من عنده. فوضع قوله : فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ موضعه ، استغناء به عنه لدلالته لأن الشيء لا يطلب إلا من عند صاحبه ومالكه. ونظيره قولك : من أراد النصيحة فهى عند الأبرار ، أي :
فليطلبها من عندهم. وفى الحديث : «إن ربكم يقول كل يوم : أنا العزيز ، فمن أراد عزّ الدارين فليطع العزيز» «٣».
ثم ذكر ما يطلب به العز ، وهو العمل المقبول ، بقوله : إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ كلمة التوحية : لا إله إلا اللّه ، وما يلحقها من الأذكار ، والدعاء ، والقراءة. وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «هو سبحان اللّه والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر. إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء ، فحيّا بها وجه الرحمن «٤». وكان القياس : الطيبة ، ولكن كل جمع ليس بينه وبين واحدة إلا التاء يذكّر ويؤنّث.
ومعنى الصعود : القبول والرضا ، وكل ما اتصف بالقبول وصف بالرفعة والصعود.

---

(١) الآية ٨١ من سورة مريم.
(٢) الآية ١٣٩ من سورة النساء.
(٣) ذكره ابن الجوزي فى الموضوعات (١/ ١٢٠) عن أنس رضي اللّه عنه. وقال ابن الجوزي : وهذا من تلصيص سعيد بن هبيرة العامري ، قال ابن عدى : كان يحدث الموضوعات.
(٤) أخرجه بنحوه الطبري (٢٢/ ١٢٠) والحاكم - وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٤٢٥) - وأخرجه البيهقي فى الأسماء والصفات (٢/ ٣٤) والبغوي فى التفسير (٦/ ٤١٤ - ٤١٥) من حديث ابن مسعود ، موقوفا. [.....]

(٥٢٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٢٣
وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ كالعبادة الخالصة يَرْفَعُهُ اللّه تعالى ، أي : يقبله. أو : الكلم الطيب ، فالرافع على هذا الكلم الطيب ، والمرفوع العمل الصالح ، أي : والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب لأن العمل متوقف على التوحيد ، المأخوذ من الكلم الطيب وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع ، والكلم الطيب يصعد بنفسه ، ففيه ترجيح الذكر على سائر العمل. وقيل : بالعكس ، أي : والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب ، فإذا لم يكن عمل صالح فلا يقبل منه الكلم الطيب. وقيل : والعمل الصالح يرفع العامل ويشرفه ، أي : من أراد العزّة والرفعة فليعمل العمل الصالح فإنه هو الذي يرفع العبد.
ثم ذكر سبب الذل فى الدارين ، فقال : وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ المكرات السَّيِّئاتِ ، فالسيئات : صفة لمصدر

محذوف لأن «مكر» لا يتعدى بنفسه. والمراد : مكر قريش برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين اجتمعوا فى دار الندوة كما قال تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... «١» الآية. لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ فى الآخرة ، وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ أي : يفسد ويبطل ، دون مكر اللّه بهم ، فالضمير يفيد الاختصاص.

الإشارة : العز على قسمين : عز الظاهر ، وعز الباطن ، فعز الظاهر هو تعظيم الجاه وبعد الصيت ، واحترام الناس لصاحبه ، ولمن تعلق به ، وسببه : التقوى ، والعلم ، والعمل ، ومكارم الأخلاق كالسخاء ، والتواضع ، وحسن الخلق ، والإحسان إلى عباد اللّه. وعز الباطن : هو الغنى باللّه ، وبمعرفته ، والتحرر من رق الطمع ، والتحلي بحلية الورع. وسببه الذل للّه ، يظهر ذلك بين أقرانه ، كما قال الشاعر :

تذلّل لمن تهوى لتكسب عزة فكم عزة قد نالها المرء بالذّل

إذا كان من تهوى عزيزا ولم تكن ذليلا له فاقر السلام على الوصل

وغايته : الوصول إلى معرفة الشهود والعيان. فإذا تعزز القلب باللّه لم يلتفت إلى شىء ، ولم يفتقر إلى شىء ، وكان حرا من كل شىء ، عبدا للّه فى كل شىء. وقد يجتمع للعبد العزان معا ، إذا كان عارفا باللّه عاملا ، وقد ينفرد عز الظاهر فى أهل الظاهر ، وينفرد عز الباطن فى بعض أهل الباطن ، يتركهم تحت أستار الخمول ، حتى يلقوه وهم

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

عرائس الأولياء ، ضنّ بهم الحق تعالى عن خلقه ، فلم يظهرهم لأحد ، حتى قدموا عليه ، وهم الأولياء الأخفياء الأتقياء ، كما ورد مدحهم فى الحديث «١». وكلا العزين للّه ، وبيد اللّه ، فلا يطلب واحد منهما إلا منه سبحانه.

قال القشيري : وقال فى آية أخرى : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ «٢» فأثبت العزة لغيره ، والجمع بينهما :

أن عزّة الربوبية للّه وصفا ، وعزّة الرسول والمؤمنين للّه فضلا ، ومنه لطفا ، فإذا العزة للّه جميعا. والكم الطيب هو الذي يصدر عن عقيدة طيبة ، وقلب طيب ، لا كدر فيه ولا أغيار ، وقيل : ما ليس فيه حظ للعبد ، وقيل : ما يستخرج من العبد ، وهو فيه مفقود ، وقيل : ما ليس فيه حاجة ، ولا يطلب عليه عوض ، وقيل : ما يشهد بصحته الإذن والتوقيف. انظر القشيري.

ويؤخذ من قوله : وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ أن العمل إذا بقي بين عين العبد يلحظه ، وينظر إليه ، فهو علامة على عدم قبوله ، إذ لو قبل لرفع عن نظره ، فلا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ، ويختفى لديك وجوده. والذين يمكرون بالأولياء ، المكرات السيئات ، لهم عذاب شديد ، وهو البعد من اللّه ، ومكر أولئك هو يبور. وأما الأولياء فهم فى حجاب مستور ، من كل مكر وخداع وغرور.
ثم ذكر أصل نشأتهم ليتحققوا ضعفهم ووهنهم ، فقال :
[سورة فاطر (٣٥) : آية ١١]
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)
يقول الحق جل جلاله : وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ أي : أباكم مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ أنشأكم مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً أصنافا ، أو : ذكرانا وإناثا ، وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ إلا معلومة له ، وقتا وكيفية ، وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ أي : وما يمد فى عمر أحد فيكون طويلا. وإنما سمّاه معمّرا لما هو صائر

---

(١) يشير الشيخ المفسر - رحمه اللّه - إلى حديث : «إن لله ضنائن من خلقه ، يغدوهم فى رحمته ، يحييهم فى عافية ، ويميتهم فى عافية ، وإذا توفاهم توفاهم إلى جنته ، أولئك الذي تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم وهم بها فى عافية» ، عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٢٣٧٢) للطبرانى ، وأبى نعيم فى الحلية ، عن ابن عمر رضي اللّه عنه.
(٢) من الآية ٨ من سورة المنافقون.

إليه ، وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ أي : يكون عمره قصيرا إِلَّا فِي كِتابٍ أي : اللوح المحفوظ ، أو : صحيفة الإنسان. وقال ابن جبير : «مكتوب فى أول الكتاب : عمره كذا وكذا ، ثم يكتب أسفل ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان ، ذهب ثلاثة ، حتى ينقطع عمره» «١». ففسر النقص بالذهاب ، ولا يذهب شيء من عمره إلا فى كتاب. ويمكن أن يجرى على ظاهره ، باعتبار المحو والإثبات فى غير أم الكتاب ، كما ورد فى صلة الرحم وقطعها. وانظر عند قوله :
يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ ... «٢» إلخ. إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أي : إحصاء الأعمار ، أو زيادتها ونقصانها ، سهل على علم اللّه وقدرته.
الإشارة : أصل نشأة الأشباح من الصلصال ، وأصل نشأة الأرواح من نور الكبير المتعال ، فمن غلبت

طينته على روحانيته ، وهواه على عقله ، التحق بالبهائم ، ومن غلبت روحانيته على بشريته ، وعقله على هواه ، التحق بالملائكة الكرام.

وقوله تعالى : وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ .. الآية ، طول العمر وقصره عند الحكماء ، ليس هو بكثرة آماده ، وإنما هو بكثرة أمداده. وفى الحكم : «ربّ عمر اتسعت آماده ، وقلّت أمداده ، وربّ عمر قليلة آماده ، كثيرة أمداده».

والأمداد : ما يجد القلب من معارف اللّه ، وعلومه ، وأنواره ، وأسراره. فربّ قلب استمد فى زمان قليل ، من العلوم والمعارف والأسرار ، ما لم يستمده غيره فى أزمنة متطاولة. وقال أيضا : «من بورك له فى عمره ، أدرك فى يسير من الزمان من منن اللّه تعالى ، ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ، ولا تلحقه الإشارة» «٣». والغالب أن هذه الأمداد إنما تنال بصحبة الرجال العارفين باللّه ، فإن المدد الذي يحصل له معهم فى ساعة واحدة لا يحصل فى أزمنة طويلة مع غيرهم ، ولو كثرت صلاتهم وصيامهم.

وقال فى القوت : فإن البركة فى العمر أن تدرك فى عمرك القصير ، بيقظتك ، ما فات غيرك فى عمره الطويل بعد ، فيرتفع لك فى السنة ما لا يرتفع لغيرك فى عشرين سنة. وللخصوص من المقربين فى مقامات القرب عند التجلي بصفات الرب إلحاق برفع الدرجات ، وتدارك بما فات عند أذكارهم ، وأعمال قلوبهم ، اليسيرة ، فى هذه الأوقات. فكل ذرة من تسبيح ، أو تهليل ، أو حمد ، أو تدبر ، أو تبصرة ، أو تفكر وتذكرة ، لمشاهدة قرب ، ووجد برب ، ونظرة إلى حبيب ، ودنو من قريب ، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين ، الذين هم لنفوسهم واجدون ، وللخلق مشاهدون. ومثال العارفين ، فيما ذكرناه من قيامهم بشهادتهم ورعايتهم لأماناتهم وعهدهم ، فى وقت

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٤٦٤) لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبى الشيخ فى العظمة.

(٢) الآية ٤٠ من سورة الرعد.

(٣) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص ٢٨ ، حكمة ٢٥٩ ، ٢٦٠).

قربهم وحضورهم مثل العامل فى ليلة القدر ، العمل فيها ، لمن وافقها ، خير من ألف شهر. وقد قال بعض العلماء :

كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر. هـ. منه.

ثم ذكر دلائل قدرته تتميما لقوله : إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ١٢]

وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)

يقول الحق جل جلاله : وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ فى العذوبة والملوحة ، بل هما مختلفان ، والماء واحد ، هذا عَذْبٌ فُراتٌ أي : شديد العذوبة. وقيل : هو الذي يكسر العطش لشدة برودته ، سائِغٌ شَرابُهُ أي : سهل الانحدار ، مرىء ، لعذوبته ، وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ شديد الملوحة ، وقيل : الذي تحرق ملوحته. وَمِنْ كُلٍّ أي : من كل واحد منهما تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا ، وهو السمك ، وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً وهى اللؤلؤ والمرجان. قيل : من الملح فقط. وقيل : منهما. قال بعضهم : نسب استخراج الحلية إليهما لأنه تكون فى البحر عيون عذبة ، تمتزج بماء الملح ، فيكون اللؤلؤ من ذلك هـ. تَلْبَسُونَها أي : نساؤكم لأن القصد بالتزين هو الرجال.

وَتَرَى الْفُلْكَ السفن ، فِيهِ مَواخِرَ شواقّ للماء بجريها ، يقال : مخرت السفينة الماء : شقّته ، وهى جمع ماخرة ، لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ من فضل اللّه ، ولم يتقدم له ذكر فى الآية ولكن فيما قبلها ، ولو لم يجر له ذكر ، لم يشكل لدلالة المعنى عليه. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ اللّه على ما أولاكم من فضله.

وقيل : هو ضرب مثل للكافر والمؤمن ، فالمؤمن ، يجرى عذب فرات ، والكافر ملح أجاج. ثم ذكر - على سبيل الاستطراد - ما يتعلق بالبحرين من نعم اللّه وعطائه. ويحتمل أن يكون على غير الاستطراد ، وهو أن يشبّه الجنسين ، ثم يفضّل البحر الأجاج على الكافر ، وهو ما خص به من المنافع ، كاستخراج اللؤلؤ ، والمرجان ، والسمك ، وجرى الفلك فيه ، وغير ذلك. والكافر خلوّ من المنافع بالكلية ، فهو على طريقة قوله تعالى : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ ثم قال : وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ .. «١».

---

(١) الآية ٧٤ من سورة البقرة.

الإشارة : بحر الشريعة عذب فرات ، سائغ شرابه ، وبحر الحقيقة ملح أجاج لأنه مرّ على النفس ، يحتاج ركوبه إلى بذل المهج والنفوس ، وحط الرؤوس ، وبذل الأموال ، ورفض الأوطان والدنيا وأهلها. بخلاف الشريعة ، فلا تحتاج إلى هذا كله ، وإن كانت متوقفة على مشاق التعلم والتدريس ، ولكن تنال

مع بقاء عز النفس والمال والجاه ، وغير ذلك. ومن كلّ تأكلون لحما طريا ، فبحر الشريعة ينال منه حلاوة المعاملة الظاهرة ، وبحر الحقيقة يأكل منه حلاوة الشهود والمعرفة. وترى سفن الأفكار في بحار الأحدية ، مواخر ، تجول في عظمة بحر الجبروت والملكوت ، ولتبتغوا من فضله تمام معرفته ، ولتكونوا من الشاكرين ، أي : ممن يعبد شكرا ، لا قهرا.

قال القشيري : وما يستوى الوقتان ، هذا بسط ، وصاحبه في روح ، وهذا قبض ، وصاحبه في نوح. هذا خوف وصاحبه في اجتياح ، وهذا رجاء وصاحبه في ارتياح. قلت : الرجاء عذب ، والخوف ملح ، خلاف ما يقتضى كلامه. ثم قال : هذا فرق ، وصاحبه بوصف العبودية ، وهذا جمع ، وصاحبه بشهود الربوبية.

ثم ذكر دليلا آخر ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١٣ الى ١٤]

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ أي : يدخل من ساعات أحدهما في الآخر ، حتى يصير الزائد منهما خمس عشرة ساعة ، والناقص تسعا. وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ذللها لما يراد منهما ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أي : يوم القيامة ، فينقطع جريهما ، ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، الإشارة إلى فاعل هذه الأشياء ، وهي : مبتدأ ، و«اللّه» وما بعده : أخبار ، لَهُ الْمُلْكُ له التصرف التام. وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ من الأصنام ، أي : تعبدونهم ، ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ وهى القشرة الرقيقة الملتفة على النواة ، كما أن النقير : النقطة في ظهره. وهما كنايتان عن حقارة الشيء وتصغيره.

(٥٢٧/٤)

إِنْ تَدْعُوهُمْ أي : الأصنام لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ لأنهم جماد ، وَلَوْ سَمِعُوا على سبيل الفرض مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ لأنهم لا يدّعون ما تدّعون لهم من الإلهية ، بل يتبرؤون منها. وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ بإشراككم لهم ، وعبادتكم إياهم. ويقولون : ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ «١». وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ أي : ولا يخبرك بالأمر على حقيقته مخبر مثل خبير به ، وهو اللّه تعالىفإنه خبير به على الحقيقة ، دون سائر المخبرين. والمراد : تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ، ونفى ما يدعون لها. أو : ولا يخبرك أيها المفتون بأسباب الغرور ، كما ينبئك اللّه الخبير بخبايا الأمور وتحقيقها ، أي : لا يخبرك بالأمور مخبر

هو خبير عالم به ، يريد أنّ الخبير بالأمور وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة ، دون سائر المخبرين.
والمعنى : أنّ هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لأنه خبير بما أخبرت به. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه : يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل. يولج المعصية فى الطاعة ، ويولج الطاعة فى المعصية. يعمل العبد الطاعة فيعجب بها ، ويعتمد عليها ، ويستصغر من لم يفعلها ، ويطلب من اللّه العوض عليها ، فهذه حسنات أحاطت بها سيئات. ويذنب العبد الذنب ، فيلتجأ إلى اللّه فيه ، ويعتذر منه ، ويستصغر نفسه ، ويعظم من لم يفعله ، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات ، فأيتهما الطاعة ، وأيتهما المعصية؟ هـ.

أو : يولج ليل القبض فى نهار البسط ، وبالعكس ، أو : يولج ليل الحجبة فى نهار الكشف ، ونهار الكشف فى ليل القطيعة ، يتواردان إلى حال طلوع شمس العرفان ، فلا غروب لها ، كما قال الشاعر :

طلعت شمس من أحب بليل واستنارت فما تلاها غروب

إنّ شمس النهار تغرب باللي ل وشمس القلوب ليست تغيب «٢».

قال القشيري : يولج الليل فى النهار ، تغلب النّفس مرة على القلب ، وبالعكس ، وكذلك القبض والبسط ، فقد يستويان ، وقد يغلب أحدهما ، وكذلك الصحو والسكر ، والفناء والبقاء ، وآثار شموس التوحيد ، وأقمار المعرفة على ما يريد من إظهارها على القلوب. هـ. فهذه كلها يولج أحدها فى الآخر.
ولا يعرف هذا إلا من تحقق بفقره إلى اللّه تعالى ، كما قال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١٥ الى ١٧]

يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة يونس.

(٢) البيت من الخفيف ، وهو للحلاج. انظر ديوانه ص ٢٣ ، وصلة تاريخ الطبري ١١/ ٨٧.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ فى دقائق الأمور وجليلها ، فى كل لحظة لا يستغنى أحد عنه طرفة عين ، ولا أقل من ذلك إذ لا قيام للعبد إلا به ، فهو مفتقر إلى اللّه ، إيجادا وإمدادا. قال البيضاوي : وتعريف الفقراء للمبالغة فى فقرهم ، كأنهم لشدة افتقارهم ، وكثرة احتياجهم ،

هم الفقراء دون غيرهم ، وأن افتقار سائر الخلق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به ، ولذلك قال : وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً «١» قلت : ويمكن أن يكون الحصر باعتبار الحق تعالى ، أي : أنتم فقراء دون خالقكم ، بدليل وصله بقوله : وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

وقال ذون النون رضي اللّه عنه : الخلق محتاجون إليه في كل نفس ، وطرفة ، ولحظة ، وكيف لا ، ووجودهم به ، وبقاؤهم به؟ ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ عن الأشياء كلها ، الْحَمِيدُ أي : المجمود بكل لسان. ولم يسمّهم بالفقر للتحقير ، بل للتعظيم لأن العبد إذا أظهر فقره لسيده الغنى أغناه عن أشكاله وأمثاله.

وذكر «الحميد» ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه ، والجواد المنعم عليهم إذ ليس كلّ غنيّ نافعا بغناه ، إلا إذا كان الغنيّ جوادا منعما ، وإذا جاد وأنعم ، حمده المنعم عليهم.

ولمّا ذكر افتقارهم إلى نعمة الإيجاد ، ذكر افتقارهم إلى نعمة الإمداد ، بقوله : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أي : إن يشأ يفنيكم كلكم ، ويردكم إلى العدم فإنّ غناه بذاته ، لا بكم ، وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ يكون أطوع منكم ، أو بعالم آخر غير ما تعرفون. وَما ذلِكَ أي : الإفناء والإنشاء عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ بممتنع. وعن ابن عباس : يخلق بعدكم من يعبده ، لا يشرك به شيئا. قال القشيري : فقر الخلقة عام لكلّ أحد ، في أول حال وجوده ليبديه وينشيه ، وفي ثاني حال بقائه ليديمه ويبقيه. هـ. قلت : وإليه أشار في الحكم بقوله : «نعمتان ما خلا موجود عنهما ، ولا بد لكل موجود منهما : نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، أنعم أولا بالإيجاد ، وثانيا بتوالي الإمداد».

الإشارة : الفقر على أربعة أقسام : فقر من الدين ، وفقر من اليقين ، وفقر من المال ، وفقر مما سوى اللّه.

فالأولان مذمومان ، وصاحبهما موسوم بالإفلاس والهلع ، ومنهما وقع التعوذ في الحديث. والثالث : إن صحبه الرضا فممدوح ، وفيه وردت الأحاديث النبوية ، وإلّا فمذموم ، ويشمله التعوذ في الحديث.

الرابع : هو مطلب القاصدين والعارفين ، وهو الغيبة عما سوى اللّه ، والغنى باللّه ، كما قال الشيخ أبو الحسن : «أسألك الفقر عما سواك ، والغنى بك ، حتى لا نشهد إلا إياك» وهو ينشأ عن التحقق بالفقر ظاهرا وباطنا لأن الفقر من وصف العبد ، والغنى

---

(١) الآية ٢٨ من سورة النساء.

من وصف الرب ، فمن تحقق بوصفه أمده اللّه بوصفه ، «تحقق بوصفك يمدك بوصفه ، تحقق بفقرك

يمدك بغناه ، تحقق بذلك يمدك بعزه» «١».

وقال القشيري - بعد كلام - : والفقراء على أقسام فقير إلى اللّه ، وفقير إلى شيء هو من اللّه معلوم وموسوم.

ومن افتقر إلى شيء استغنى بوجود ذلك الشيء ، فالفقير إلى اللّه هو الغنى باللّه ، فالافتقار إلى اللّه لا يخلو من الاستغناء باللّه. فالفقير إليه مستغن به ، والمستغنى به فقير إليه. ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخشوع ، ومن آفات الغنى امتزاجه بالتكبّر. وشرف العبد وعزه فى فقره ، وذلّه وصغاره فى توهمه الغنى ، وأنشدوا.

وإذا تذلّلت الرقاب [تقرّبا] «٢» منّا إليك فعزّها فى ذلّها

ومن شرط الفقير : ألا يملك شيئا ، ولا يملكه شيء. ومن آداب الفقير الصادق : إظهار التكثر عند وجود التقتر ، والشكر على البلوى ، والبعد عن الشكوى. ويقال : الفقر المحمود : العيش مع اللّه براحة الفراغ على سرمد الوقت ، من غير استكراه شيء منه بكلّ وجه. هـ. ملخصا.

قال الورتجبي : فطرة الإنسانية وقعت من الغيب مضطربة متحركة إلى الأزل ، بنعت الافتقار إليه ، كانجذاب الحديد إلى المغناطيس لأنها وقعت بنعت العشق ، والعاشق مفتقر إلى معشوقه ، انفعالا ، فمن عرفه بالأزلية والأبدية يفتقر إليه افتقارا قطعيا لأن بقاءه لا يكون إلا به. وإذا كان كذلك صار غنيا باللّه ، متصفا بغناه ، غنيا به عن غيره ، مفتقرا إليه. فإذا كان فى محل الصحو يكون مفتقرا إليه ، وإذا كان فى محل السكر بقي فى رؤية غناه عنه ، فصار محجوبا عنه ، ولا يدرى. هـ.

وقال سهل رضي اللّه عنه : لمّا خلق اللّه الخلق حكم لنفسه بالغنى ، ولهم بالفقر ، فمن ادّعى الغنى ، حجب عن اللّه ، ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه. فينبغى للعبد أن يكون مفتقرا بالسرّ إليه ، ومنقطعا عن الغير إليه ، حتى يكون عبوديّته للّه محضة ، فالعبودية هى الذل والخضوع. هـ.

وقال الواسطي : من استغنى باللّه لا يفتقر ، ومن يتعزز باللّه لا يذل. وقال يحيى بن معاذ : الفقر خير للعبد من الغنى لأن الذلة فى الفقر ، والكبر فى الغنى ، والرجوع إلى اللّه بالتواضع والذلّة خير من الرجوع إليه بكثرة الأعمال. وقيل : صفة الأولياء ثلاثة : الثقة باللّه فى كل شيء ، والفقر إليه فى كل شيء ، والرجوع إليه من كل شيء.

---

(١) فى الأصول [بقربها].

(٢) انظر الحكم (ص ٣١ ، حكمة/ ١٧٨).

وكيف يفتقر العبد إلى العبد وهو لا يغنى عنه شيئا؟! قال تعالى :
[سورة فاطر (٣٥) : آية ١٨]
وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨)
قلت : «وازرة» : صفة لمحذوف ، أي : نفس آثمة. و«إن تدع» : شرط ، و«لا يحمل» : جواب ، و«لا» النافية لا تمنع الجواب من الجزم.
يقول الحق جل جلاله : وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أي : ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ، والوزر والوقر أخوان ، ووزر الشيء : حمله. والمعنى : أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته ، فلا تؤخذ نفس بذنب نفس أخرى ، كما تأخذ جبابرة الدنيا الظلمة الجار بجريمة الجار ، والقريب بالقريب ، فذلك ظلم محض.
وأما قوله تعالى : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ «١» ففى الضالّين المضلّين ، فإنهم يحملون أثقال إضلالهم وأثقال ضلالهم ، وكل ذلك أوزارهم ، ليس فيها شىء من أوزار غيرهم. ألا ترى كيف كذّبهم اللّه تعالى فى قوله :
اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ «٢».
قال ابن عطية : من تطرق من الحكام إلى أخذ قريب بقريبه فى جريمة - كفعل [زياد ونحوه] «٣» ، فإن ذلك ، لأن المأخوذ ربما أعان المجرم بمؤازرة ، أو مواصلة ، أو اطلاع على حاله ، أو تقرير له ، فهذا قد أخذ من الجرم بنصيب. وهذا هو المعنى بقوله تعالى : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ ... الآية لأنهم أغروهم ، وهو معنى قوله صلى اللّه عليه وسلم : «من سنّ سنّة حسنة ..» «٤» الحديث ، فراجعه.
قلت : لا يجوز الإقدام على ظلم أحد بمجرد الظن ، فالصواب حسم هذا الباب ، والتصريح بتحريمه لكثرة جور الحكام.
ثم قال تعالى : وَإِنْ تَدْعُ نفس مُثْقَلَةٌ بالذنب أحدا إِلى حِمْلِها أي : إلى حمل ثقل ذنوبها ، ليتحمل عنها بعض ذلك ، لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ المدعو ، المفهوم من قوله : وَإِنْ تَدْعُ ، ذا قُرْبى

---

(١) الآية ١٣ من سورة العنكبوت.
(٢) الآية ١٢ من سورة العنكبوت. [.....]
(٣) فى الأصول [كفعل زاد] والمثبت هو الذى فى تفسير ابن عطية. قلت : قال أبو حيّان فى البحر المحيط ، تعقيبا على كلام ابن عطية : «وكأن ابن عطية تأوّل أفعال زياد ، وما فعل فى الإسلام ، وكانت سيرته قريبة من سيرة الحجّاج»

(٤) الحديث أخرجه كاملا مسلم فى (الزكاة ، باب الحث على الصدقة ، ٢/ ٧٠٥ ، ح ١٠١٧) من حديث جرير بن عبد اللّه.

(٥٣١/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٣٢
ذا قرابة قريبة ، كأب ، وولد ، وأخ. والفرق بين معنى قوله : وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وبين قوله : إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ أنّ الأول دالّ على عدل اللّه فى حكمه ، وأنه لا يؤاخذ نفسا بغير ذنبها ، والثاني : فى بيان أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث ، فمن أثقلته ذنوبه ثم استغاث بأحد لم يغثه ، وهذا غاية الإنذار.
ثم بيّن من ينتفع به بقوله : إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ أي : إنما ينتفع بإنذارك من خشى ربه بِالْغَيْبِ أي : يخشون ربهم غائبين عنه ، أو : يخشون عذابه غائبا عنهم ، فهو حال ، إما من الفاعل أو المفعول المحذوف. أو : يخشون ربهم فى حال الغيب ، حيث لا اطلاع للغير عليهم ، فيتقون اللّه فى السر ، كما يتقون فى العلانية. وَأَقامُوا الصَّلاةَ أتقنوها فى مواقيتها ، وَمَنْ تَزَكَّى أي : تطهر بفعل الطاعات ، وترك المنهيات ، فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ إذا نفعه يعود لها ، وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم ، وإقامتهم الصلاة لأنها من جملة التزكى. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ المرجع ، فيجازيهم على تزكيتهم ، وهو وعد للمتزكّين بالثواب.
الإشارة : وبال الوزر خاص بصاحبه ، إلا إذا كان مقتدى به ، فإنّ عيبه أو نقصه يسرى فى أصحابه ، حتى يطهر منه لأن الصحبة صيرت الجسدين واحدا. وراجع ما تقدم عند قوله : وَاتَّقُوا فِتْنَةً ... «١» الآية. قال القشيري : وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى : كلّ مطالب بعمله ، ومحاسب عن ديوانه. ولكلّ معه شأن ، وله مع كلّ أحد شأن ، ومن العبادات ما تجرى فيها النيابة ، ولكن فى المعارف لا تجرى النيابة ولو أن عبدا عاصيا منهمكا فى غوايته فاتته صلاة مفروضة ، فلو قضى عنه ألف ولىّ ، وألف صفىّ ، تلك الصلاة الواحدة ، عن كل ركعة ألف ركعة لم تقبل. هـ. وقال فى قوله تعالى : إِنَّما تُنْذِرُ ... إلخ : الإنذار هو الإعلام بموضع المخافة. والخشية هى المخافة ، فمعنى الآية : لا ينتفع بالتخويف إلا صاحب الخوف - طير السماء على إلا فها تقع. هـ.
ثم ضرب المثل لمن تزكى ، ومن لم يتزك ، فقال :
[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١٩ الى ٢٤]
وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُماتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ

(٢٣)
إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ (٢٤)

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

(٥٣٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٣٣

يقول الحق جل جلاله : وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أي : لا يستوى الكافر والمؤمن ، أو الجاهل والعالم. وقيل : هما مثلان للصنم وللّه تعالى. وَلَا الظُّلُماتُ كالكفر والجهل ، وَلَا النُّورُ كالإيمان والمعرفة ، وَلَا الظِّلُّ كنعيم الجنان ، وَلَا الْحَرُورُ كأليم النيران. والحرور : الريح الحارّ كالسموم ، إلا أن السموم يكون بالنهار ، والحرور يكون بالليل والنهار. قاله الفرّاء.

وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ ، تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين ، أبلغ من الأول ، ولذلك كرر الفعل ، وقيل : للعلماء والجهال. وزيادة «لا» في الجميع للتأكيد ، وهذه الواوات بعضها ضمت شفعا إلى شفع ، وبعضها وترا إلى وتر. إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ بهدايته وتوفيقه لفهم آياته والاتعاظ بها. وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ، شبّه الكفار بالموتى ، حيث لا ينتفعون بمسموعهم ، مبالغة في تصاممهم ، يعنى أنه تعالى علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيهدى من يشاء هدايته ، وأما أنت فخفى عليك أمرهم ، فلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين ، فإنذار هم كإنذار من في القبور من الموتى.

قال ابن عطية : الآية تمثيل بما يحسّه البشر ، ويعهده جميعنا من أنّ الميت الذي في القبر لا يسمع ، وأما الأرواح فلا نقول : إنها في القبر ، بل تتضمن الأحاديث أن أرواح المؤمنين في شجر عند العرش ، وفي قناديل وغير ذلك «١» ، وأن أرواح الكفرة في سجّين ، ويجوز في بعض الأحيان أن تكون الأرواح عند القبور ، فربما سمعت ، وكذلك أهل قليب بدر ، إنما سمعت أرواحهم ، فلا تعارض بين الآية وحديث القليب. هـ «٢».

ثم قال تعالى : إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ أي : ما عليك إلا التبليغ والإنذار ، فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفعه ، وإن كان من المصريين فلا عليك.

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ أي : محقا ، أو : محقين ، أو : إرسالا مصحوبا بالحق ، فهو حال من الفاعل ، أو المفعول ، أو صفة لمصدر محذوف ، بَشِيراً لمن آمن وَنَذِيراً لمن كفر ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ أي :

ما من أمة من الأمم الماضية ، قبل أمتك ، إلا فيها نذير نبيّ ، أو عالم ، يخوفهم. ويقال لأهل كل

عصر : أمة.

والمراد هنا : أهل العصر. قال ابن عطية : معناه : أن دعوة اللّه تعالى قد عمّت جميع الخلق ، وإن كان فيهم من لم تباشره النّذارة ، فهو ممن بلغته الدعوة ، لأن آدم بعث إلى بنيه ، ثم لم تنقطع النذارة إلى وقت محمد صلى اللّه عليه وسلم. والآية

---

(١) من هذه الأحاديث ما أخرجه الدارمي فى (الجهاد ، باب أرواح الشهداء) عن مسروق ، قال : سألنا عبد اللّه فى أرواح الشهداء ولو لا عبد اللّه لم يحدثنا أحد. قال : أرواح الشهداء عند اللّه يوم القيامة فى حواصل طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح فى أىّ الجنة حيث شاءت ، ثم ترجع إلى قناديلها ، فيشرف عليهم ربهم ، فيقول : ألكم حاجة؟ تريدون شيئا؟ فيقولون : لا ، إلا أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى.

(٢) النقل باختصار.

(٥٣٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٣٤

تتضمن أن قريشا لم يأتهم نذير ، ومعناه : نذير مباشر ، وما ذكر المتكلمون من فرض أصحاب الفترات ونحوهم ، فإنما ذلك بالفرض ، لا أنه توجد أمة لم تعلم أن فى الأرض دعوة إلى عبادة اللّه. هـ.

وذكر فى الإحياء ، فى باب التوبة : أنه يشبه أن يكون من لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد ، وعاشوا [على البله] «١» وعدم المعرفة ، فلم تكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، هم أهل الأعراف لأنه لا وسيلة تقربهم ، ولا جناية تبعدهم ، فما هم من أهل الجنة ، ولا من أهل النار ، ويتركون فى منزلة بين المنزلتين ، ومقام بين المقامين. هـ. وقال ابن مرزوق فى شرح حديث [هرقل] «٢» : الدين الحق هو الإسلام ، وما سواه باطل ، عقلا ونقلا ، فلا عذر لمنتحيله بالإجماع ، كان متأولا مجتهدا ، أو مقلدا جاهلا لأن أدلة الإسلام واضحة قطعية ، ومخالف مقتضاها مخطئ قطعا. هـ.

وقال ابن عطية أيضا ، ما نصه : آدم عليه السّلام فمن بعده ، دعا إلى توحيد اللّه تعالى دعاء عاما ، واستمر ذلك على العالم ، فواجب على الآدمي أن يبحث عن الشرع ، الآمر بتوحيد اللّه تعالى ، وينظر فى الأدلة المنصوبة على ذلك ، بحسب إيجاب الشرع النظر فيها ، ويؤمن ، ولا يعبد غير اللّه ، فمن فرضناه لم يجد سبيلا إلى العلم فأولئك أهل الفترات ، الذين أطلق عليهم أهل العلم أنهم فى الجنة ، وهم بمنزلة الأطفال والمجانين ، ومن قصر فى النظر والبحث ، فعبد صنما أو غيره ، وكفر ، فهذا ترك الواجب عليه ، مستوجب للعقاب بالنار. هـ. وقال أيضا : إنما صاحب الفترة بفرض أنه آدمي ، لم

يصل إليه : أن اللّه بعث رسولا ، ولا دعا إلى دين - وهذا قليل الوجود - إلا إن شذ فى أطراف الأرض ، والمواضع المنقطعة عن العمران. هـ.
والحاصل : أن من بلغه خبر الشرائع السابقة ، والدعاء إلى توحيد اللّه ، لا عذر له ، وإنما بعثت الرسل بعد ذلك تجديدا ، ومبالغة فى إزاحة العذر ، وإكمال البيان. قاله المحشى.
الإشارة : وما يستوى الأعمى ، الذي لا يرى إلا حس الكائنات ، والبصير ، الذي فتحت بصيرته ، فشاهد المكوّن ، ولم يقف مع حس الكون ، ولا الظلمات : المعاصي والغفلة ودائرة الحس ، ونور اليقظة والعفة والمعرفة ، ولا ظل برد الرضا والتسليم ، وحرور التدبير والاختيار ، وما يستوى الأحياء ، وهم العارفون باللّه ، الذاكرون اللّه ، والأموات الجاهلون ، أو الغافلون. قال القشيري : وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ .. الآية ، كذلك لا يستوى الموصول بنا والمشغول عنّا ، والمجذوب إلينا والمحجوب عنّا ، ومن أشهدناه حقّنا ، ومن أغفلنا قلبه عن ذكرنا. هـ.

---

(١) الكلمة مشتبهة فى الأصول ، وأثبتها من إحياء علوم الدين ٤/ ٣٢.
(٢) ما بين المعقوفتين أثبته من النسخة التيمورية ، وهو مطموس فى النسخ الأخرى. قلت : وحديث هرقل أخرجه البخاري فى (بدء الوحى ، باب ٦ ، ح ٧) ومسلم فى (الجهاد ، باب كتاب النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ٣/ ١٣٩٣ - ١٣٩٧ ، ح ١٧٧٣) عن سيدنا عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنه.

(٥٣٤/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٣٥
وقوله تعالى : وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ. النذير على قسمين : نذير من وبال الذنوب ، ونذير من وبال العيوب. فوبال الذنوب : العذاب ، ووبال العيوب : الحجاب ، فمن تطهر من الذنوب استوجب نعيم الجنان ، ومن تطهر من العيوب استوجب لذيذ الشهود والعيان. فالنذير الأول عالم بأحكام اللّه ، والثاني عارف باللّه ، الأول مقتصد ، والثاني سابق ، ولا يخلو الدهر منهما ، حتى يأتى أمر اللّه ، فالشريعة باقية بقيام العلماء ، والطريقة والحقيقة قائمتان بقيام الأولياء العارفين باللّه ، أهل التربية النبوية ، بالاصطلاح ، والهمة ، والحال. ومن قال خلاف هذا فقد قال بالمحال.
ثم سلّى نبيه لأنه لمّا أنذر قومه قابلوه بالتكذيب ، فقال :
[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٢٥ الى ٢٦]
وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ

أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ أي : قومك فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ رسلهم ، حال كونهم قد جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الواضحة ، وَبِالزُّبُرِ وبالصحف وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ أي : التوراة ، والإنجيل ، والزبور. ولمّا كانت هذه الأشياء من جنسهم ، أسند المجيء بها إليهم إسنادا مطلقا ، وإن كان بعضها فى جميعهم ، وهى البينات ، وبعضها فى بعضهم ، وهى الزبر والكتاب. ويجوز أن يراد بالزبر والكتاب واحد ، والعطف لتغاير الوصفين ، فكونها زبر باعتبار ما فيها من المواعظ التي تزير القلوب ، وكونها كتبا منيرة لما فيها من الأحكام والبراهين النيرة. ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : ثم عاقبت الكفرة بأنواع العقاب ، فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ إنكارى عليهم ، وتعذيبى لهم؟ والاستفهام للتهويل.

الإشارة : تكذيب الصادقين سنّة ماضية. فأولياء كل زمان يتسلون بمن سلف قبلهم ، فقد قتل بعضهم ، وسجن بعضهم ، وأجلى بعضهم ، إلى غير ذلك زيادة فى مقامهم وترقية بأسرارهم. واللّه عليم حكيم.

ثم ذكر دلائل قدرته على إهلاك من خالف أمره ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٢٧]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ (٢٧)

(٥٣٥/٤)

قلت : «مختلفا» : نعت «ثمرات». و«مختلف ألوانه» : صفة لمحذوف ، أي : صنف مختلف.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ بالماء ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها أي : أجناسها ، كالرمان ، والتفاح ، والتين ، والعنب ، وغيرها مما لا يحصى ، أو : ألوانها : هيئاتها من الحمرة والصفرة ونحوهما. وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ طرق مختلفة اللون. جمع : جدّة ، كمدّة ومدد. والجدة : الطريقة والخطة ، تكون فى الجبل ، تخالف لون ما يليها. وكل طريقة من سواد أو بياض فهى جدة. قاله الهروي. وهى مبتدأ وخبر ، أي : وطرق بِيضٌ وَحُمْرٌ كائنة من الجبال.

وَغَرابِيبُ سُودٌ أي : ومنها غرابيب سود ، أي : ومن الطرق سود غرابيب جمع : غربيب ، وهى الذي أبعد فى السواد وأغرب ، ومنه : الغراب. قال الهروي : هى الجواد ذوات الصخور السود ، والغربيب : شديدة السواد. هـ.

وفى الصحاح : تقول هذا أسود غربيب ، أي : شديد السواد ، وإذا قلت : غرابيب سود تجعل السود بدلا من غرابيب لأن توكيد الألوان لا يتقدم. هـ. تقول : أصفر فاقع ، وأسود حالك ، ولا يتقدم الوصف

، ونقل الكواشي عن أبي عبيد :
أن في الآية تقديما وتأخيرا ، تقديره : وسود غرابيب. وفائدته : أن يكون المؤكد مضمرا ، والمظهر تفسيرا له ، فيدل على الاعتناء به ، لكونهما معا يدلان على معنى واحد هـ. ولا بد من تقدير حذف مضاف في قوله : وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ أي : من الجبال ذو جدد بيض ، وحمر ، وسود غرابيب حتى يؤول إلى قولك : ومن الجبال مختلف ألوانه ، كما قال : ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها.

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٢٨]

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ ، أي : ومنهم صنف مختلف ألوانه بالحمرة والصفرة والبياض والسواد. كَذلِكَ أي : كاختلاف الثمرات والجبال. قال القشيري : تخصيص الفعل بهيئته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه. فإتقان الفعل وإحكامه شواهد الصنع وإعلامه. وكذلك أيضا الناس والدواب والأنعام ، بل جميع المخلوقات ، متجانس الأعيان ، مختلف الصفات ، وهو دليل ثبوت منشئها بنعت الجلال هـ.

الإشارة : ألم تر أن اللّه أنزل من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية ، فأخرجنا به ثمرات ، وهى العلوم والأذواق والوجدان ، مختلف ألوانها ، فمنها علوم الشرائع ، وتحقيق مسائلها ، ومنها علم العقائد ، وتشييد أدلتها وبراهينها ، ومنها علوم اللسان بإتقان قواعدها ، ومنها علم القلوب وتصفيتها من العيوب ، وهو علم الطريقة ، ومنها علم الأسرار ، وهى أسرار الذات والصفات ، وهو علم الحقيقة. ومن جبال العقل طرق بيض ، وحمر ، وسود ، فالبيض : طرق الكشف والبيان ، وحلاوة الذوق والوجدان ، والحمر : طرق الدليل والبرهان لأنها قد تظهر وتخفى ، والسود الغرابيب : عقول

(٥٣٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٣٧

الفلاسفة والطبائعيين ، أهل الحدس والتخمين ، إذا لم يقتدوا بالكتاب المبين ، وشرع النبي الأمين. أولئك هم الضالون المضلّون.

ولمّا كان النظر فى هذه المصنوعات إنما يكون بالعلم ، ذكر أهله ، فقال :

إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ ...

يقول الحق جل جلاله : إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ أي : يخافه مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ لأنهم هم الذين يتفكرون فى عجائب مصنوعاته ، ودلائل قدرته ، فيعرفون عظمته وكبرياءه ، وجلاله وجماله ، ويتفكرون فيما أعد اللّه

لمن عصاه من العذاب ومناقشة الحساب ، وفيما أعد لمن خافه وأطاعه من الثواب ، وحسن المآب ، فيزدادون خشية ، ورهبة ، ومحبة ، ورغبة فى طاعته ، وموجب رضوانه ، دون من عداهم من الجهال.
وفي الحديث عنه صلى اللّه عليه وسلم :
«أعلمكم باللّه أشدكم له خشية» «١» وقال صلى اللّه عليه وسلم : «رأس الحكمة مخافة اللّه» «٢».
وقال الربيع بن أنس : من لم يخش اللّه فليس بعالم ، وقال ابن عباس فى تفسير الآية : كفى بالزهد علما ، وقال ابن مسعود : كفى بخشية اللّه علما ، وبالاعتذار جهلا. وفي الحكم : «خير علم ما كانت الخشية معه». وقال فى التنوير : اعلم أن العلم حيثما تكرر فى الكتاب والسنّة فإنما المراد به العلم النافع ، الذي تقارنه الخشية ، وتكتنفه المخافة. قال تعالى : إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ. بيّن سبحانه أن الخشية تلازم العلم ، وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية. هـ.
وقال الشيخ ابن عباد رضي اللّه عنه : واعلم أن العلم النافع ، المتفق عليه فيما سلف وخلف ، إنما هو العلم الذي يؤدى بصاحبه إلى الخوف والخشية ، وملازمة التواضع والذلة ، والتخلق بأخلاق الإيمان ، إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها ، وإيثار الآخرة عليها ، ولزوم الأدب بين يدى اللّه تعالى ، إلى غير ذلك من الصفات العلية ، والمناحى السنية. هـ.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : لم أجده هكذا ، وفي الصحيح : «أنا أعلمكم باللّه وأشدكم له خشية». حاشية الكشاف (٣/ ٦١١).
(٢) أخرجه البيهقي فى الشعب (١/ ٤٧١/ ح ٧٤٣ ، ٧٤٤) عن ابن مسعود ، موقوفا ومرفوعا. قال العراقي فى المغني : رواه أبو بكر بن لال الفقيه فى مكارم الأخلاق ، والبيهقي فى الشعب ، وضعّفه من حديث ابن مسعود ، ورواه فى دلائل النبوة ، من حديث عقبة بن عامر ، ولا يصح أيضا.

وقال فى لطائف المنن : شاهد العلم ، الذي هو مطلب اللّه تعالى : الخشية ، وشاهد الخشية : موافقة الأمر ، فأما علم تكون معه الرغبة فى الدنيا ، والتملق لأربابها ، وصرف الهمة لاكتسابها ، والجمع ، والادخار ، والمباهاة ، والاستكثار ، وطول الأمل ، ونسيان الآخرة ، فما أبعد من هذا نعته من أن يكون من ورثة الأنبياء! وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند الموروث عنه. ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كالشمعة ، تضيء على غيرها ، وهى تحرق نفسها. جعل اللّه العلم - الذي علمه من هذا وصفه - حجة عليه ، وسببا فى تكثير العقوبة لديه. هـ.

وتقديم اسم اللّه تعالى ، وتأخير العلماء ، يؤذن أن معناه : إن الذين يخشون اللّه من عباده العلماء دون غيرهم.

ولو عكس ، بأن قال : إنما يخشى العلماء اللّه ، لكان المعنى : أنهم لا يخشون إلا اللّه.

وقرأ أبو حنيفة وعمر بن عبد العزيز : بنصب «العلماء» ورفع «اللّه». والخشية فى هذه القراءة بمعنى التعظيم.

والمعنى : إنما يعظم اللّه من عباده العلماء. وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «يقول اللّه للعلماء يوم القيامة - إذا قعد على كرسيّه ، يفصل قضاء عباده : إنى لم أجعل علمى وحلمى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم ، على ما كان فيكم ، ولا أبالي» «١» ، قال المنذرى : انظر إلى قوله : «علمى وحلمى» يتضح لك بإضافته إليه أنه لم يرد به علم أكثر أهل الزمان المجرّد عن العمل به والإخلاص. وفى رواية : «لم أجعل حكمتى فيكم إلا لخير أريده بكم ، ادخلوا الجنة بما فيكم». وقال - عليه الصلاة والسلام - : «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء ، فيرجع مداد العلماء على دماء الشهداء» «٢».

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ، هو تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة لعزته وغلبته ، وإثابة أهل الطاعة ، والعفو عنهم لعظيم غفرانه ، والمعاقب والمثيب حقه أن يخشى.

الإشارة : العلماء على قسمين علماء بأحكام اللّه ، وعلماء باللّه ، العلماء بالأحكام يخشون غضبه وعقابه ، والعلماء باللّه يخشون إبعاده واحتجابه ، العلماء بالأحكام يتقون مواطن الآثام ، والعلماء باللّه يتقون سوء الأدب فى حضرة الملك العلام. فخشية العلماء باللّه أرق وأشد. العلماء باللّه أخذوا علمهم من اللّه ، والعلماء بالأحكام أخذوا علمهم عن الأموات. قال الشيخ أبو يزيد رضي اللّه عنه : فى علماء أهل الرواية : مساكين أخذوا علمهم ميت عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. هـ.

---

(١) أخرجه للطبرانى فى الكبير (١٣٨١) من حديث ثعلبة بن الحكم الصحابي. قال الهيثمي فى مجمع الزوائد (١/ ١٢٦) : ورجاله موثقون.

(٢) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح/ ١٠٠٢٦) للمرهبى ، عن عمران بن حصين ، وابن عبد البر ، فى العلم ، عن أبى الدرداء ، وابن الجوزي فى العلل ، عن النعمان بن بشير ، وضعّفه.

والفرق بين الخوف والرهبة والخشية : أن الخوف من العقاب ، والرهبة من العتاب ، والخشية من الإبعاد. قال القشيري : والفرق بين الخشية والرهبة : أنّ الرهبة : خوف يوجب هرب صاحبه ، فيجرى

فى تفرقته. والخشية إذا حصلت كبحت صاحبها ، فيبقى مع اللّه. فقدمت الخشية على الرهبة فى الجملة ، والخوف قضية الإيمان ، قال تعالى : وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١». والخشية قضية العلم والهيبة. هـ. ثم قال : العالم يخاف تقصيره فى حقّ ربه ، والعارف يخشى من سوء أدبه وترك احترام ، وانبساط فى غير وقت ، بإطلاق لفظ ، أو ترخيص بترك الأولى. هـ.

قال الورتجبي : الخوف عموم ، والخشية خصوص. وقد قرن سبحانه الخشية بالعلم ، أي : العلم باللّه وجلاله وقدره وربوبيته وعبوديته له. وحقيقة الخشية : وقوع إجلال الحق فى قلوب العارفين ، ممزوجا بسنا التعظيم ، ورؤية الكبرياء والعظمة ، ولا يحصل ذلك إلا لمن شاهد القدم ، والأزل ، والبقاء ، والأبد ، فمن زاد علمه باللّه زاد خشية ، لقوله صلى اللّه عليه وسلم : «أنا أعرفكم باللّه وأخشاكم منه». هـ. وفى الحديث : قيل يا رسول اللّه : أي الأعمال أفضل؟ قال : «العلم» قيل : أىّ العلم؟ قال : «العلم باللّه سبحانه» «٢». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ واللّه إنى لأعلمكم باللّه ، وأشدّكم له خشية» «٣».

ثم قال «٤» : عن جعفر الصادق : العلم أمر ترك الحرمة فى العبادات ، وترك الحرمة فى الحياء من الحق ، وترك الحرمة فى متابعة الرسول ، وترك الحرمة فى خدمة الأولياء الصدّيقين. هـ. ومعى كلامه : أن العلم الحقيقي هو الذي يأمن صاحبه من انتهاك حرمة العبادات ، ومن هتك حرمة الاحتشام من اللّه ورسوله وأوليائه. ومن أراد من العلماء السلامة من الاغترار بالعلم فليطالع شرح ابن عباد ، فى قول الحكم : «العلم إن قارنته الخشية فلك ، وإلا ، فعليك». وباللّه التوفيق.

---

(١) من الآية ١٧٥ من سورة آل عمران.

(٢) ذكره ابن عراق فى تنزيه الشريعة (كتاب العلم ، ١/ ٢٧٨ ، القسم الثالث) وعزاه لابن حبان ، والديلمي عن أنس ، عن طريق عباد ابن عبد الصمد. قال فى تنزيه الشريعة (١/ ٧٠) : «عباد بن عبد الصمد عن أنس ، بنسخة ، أكثرها موضوع. قاله ابن حبان».

قلت : معني الحديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري فى (الاعتصام ، باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو فى الدين والبدع ، ح ٧٣٠١) ، ومسلم فى (الفضائل ، باب علمه صلى اللّه عليه وسلم باللّه وشدة خشيته ، ٤/ ١٨٢٩ ، ح ٢٣٥٦) من حديث السيدة عائشة بلفظ : «... لأنا أعلمهم باللّه ، وأشدهم له خشية». [.....]

(٤) أي : الورتجبي.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٤٠

ولمّا ذكر العلماء ، ذكر حملة القرآن ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٢٩ الى ٣١]

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ أي : يداومون على تلاوة القرآن وَأَقامُوا الصَّلاةَ أتقنوها فى أوقاتها ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ فرضا ونفلا سِرًّا وَعَلانِيَةً مسرّين النفل ، ومعلنين الفرض ، ولم يقنعوا بتلاوته عن العمل به. وخبر «إن» : قوله : يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ لن تكسد ، وهو ثواب أعمالهم ، يعنى : يطلبون تجارة ينتفى عنها الكسد ، وتنفق عند اللّه.

لِيُوَفِّيَهُمْ متعلق ب : «تبور» ، أي : ليوفيهم بإنفاقها عند اللّه أُجُورَهُمْ ثواب أعمالهم وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بتفسيح القبور ، أو : تشفيعهم فى أهلهم ، ومن أحسن إليهم ، أو : تضعيف حسناتهم ، أو : بتحقيق وعد لقائه.

أخرج ابن أبى شيبة عن بريدة ، قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : «إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة ، حين ينشق عنه القبر ، كالرجل الشاحب ، يقول له : هل تعرفنى؟ فيقول : ما أعرفك ، فيقول : أنا صاحبك الذي أظمأتك فى الهواجر ، وأسهرت ليلتك ، فإنّ كل تاجر وراء تجارته. قال : فيعطى الملك بيمينه ، والخلد بشماله ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، ويكسى والداه حلّتين ، لا تقوّم لهما الدنيا ، فيقولان : بم كسينا هذا؟ فيقال لهما : بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال له : اقرأ ، واصعد فى درج الجنة وغرفها ، فهو فى صعود مادام يقرأ» «١».

وذكر فى بعض الأخبار : أن حملة القرآن يحشرون يوم القيامة على كثبان المسك ، وأنوار وجوههم تغشى النظار ، فإذا أتوا إلى الصراط تلقتهم الملائكة الذين وكلوا بحملة القرآن ، فتأخذ بأيديهم ، وتوضع التيجان على

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٣٤٨) ، وأخرجه ، مختصرا ، ابن ماجه فى (الأدب ، باب ثواب القرآن ٢/ ١٢٤٢ ح ٣٧٨١) والدارمي فى (فضائل القرآن ، باب فى فضل سورة البقرة وآل عمران ، ٢/ ٥٤٣ ح ٣٣٩١) والحاكم (١/ ٥٦٨) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي.

رؤوسهم ، والحلل على أجسادهم ، وتقرب إليهم خيل من نور الجنة ، عليها سرج المسك الأذفر ، ألجمتها من اللؤلؤ والياقوت ، فيركبونها ، وتطير بهم على الصراط ، ويجوز فى شفاعة كل واحد منهم مائة ألف ممن استوجب النار ، وينادى مناد : هؤلاء أحباء اللّه ، الذين قرأوا كتاب اللّه ، وعملوا به ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. هـ.

إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ، غفور لهفواتهم ، شكور لأعمالهم ، يعطى الجزيل ، على العمل القليل.

وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ أي : القرآن ، و«من» : للتبيين ، هُوَ الْحَقُّ لا مرية فيه ، مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ لما تقدمه من الكتب ، إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ عالم بالظواهر والبواطن ، فعلمك وأبصر أحوالك ، ورآك أهلا لأن يوحى إليك هذا الكتاب المعجز ، الذي هو عيار على سائر الكتب.

الإشارة : كل ما ورد فى فضل أهل القرآن ، فالمراد به فى حق من عمل به ، وأخلص فى قراءته ، وحافظ على حدوده ، ورعاه حق رعايته. وقد ورد فيمن لم يعمل به ، أو قرأه لغير اللّه ، وعيد كبير ، وورد أنهم أول من يدخل جهنم. قال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن الفاسى ، بعد ذكر الحديثين فى فضل حامل القرآن : وهذا مقيد بالعمل ، أي : فإنّ منزلتك عند آخر آية مما عملت ، لا مما تلوت بلسانك وخالفت بعملك لأنه لو كان كذلك لا نخرقت أصول الدين ، ويؤدى إلى أن من حفظ سرد القرآن اليوم ، يكون أفضل من كثير من الصحابة الأخيار ، والصالحين الأبرار فإن كثيرا من خيارهم مات قبل حفظ جميعه. هـ.

ثم فصّل أحوالهم ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٣٢ الى ٣٥]

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٣٣) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ أي : أوحينا إليك القرآن ، وأورثناه من بعدك ، أي : حكمنا بتوريثه الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ، وهم أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم من الصحابة والتابعين ، وتابعيهم ، ومن بعدهم إلى يوم الدين لأنّ اللّه اصطفاهم على سائر الأمم ، وجعلهم أمة وسطا ليكونوا

شهداء على الناس ، واختصهم بالانتساب إلى أكرم رسله. قال ابن عطية : الكتاب هنا يراد به معانى القرآن وأحكامه وعقائده ، فكأن اللّه تعالى أعطى أمة محمد القرآن ، وهو قد تضمن معانى الكتب المنزلة قبله ، فكأنه ورّث أمة محمد الكتاب الذي كان فى الأمم قبلها. هـ.

ثم رتّبهم مراتب ، فقال : فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ بالتقصير فى العمل به ، وهو المرجأ لأمر اللّه ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وهو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ ، بأن جمع بين علمه والعمل به ، وإرشاد العباد إلى اتباعه. وهذا أوفق بالحديث ، فقد روى عن عمر رضي اللّه عنه أنه قال على المنبر - بعد قراءة هذه الآية :

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له» «١» وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «السابق يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة ، والظالم يحبس ، حتى يظن أنه لن ينجو ، ثم تناله الرحمة ، فيدخل الجنة» رواه [أبو الدرداء] «٢». وقال ابن عباس رضي اللّه عنه : السابق ، المخلص ، والمقتصد : المرائى ، والظالم : الكافر النعمة غير الجاحد له ، لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة. وقال الربيع بن أنس : الظالم : صاحب الكبائر ، والمقتصد : صاحب الصغائر ، والسابق : المجتنب لهما. وقال الحسن : الظالم : من رجحت سيئاته ، والسابق :

من رجحت حسناته ، والمقتصد : من استوت حسناته وسيئاته. وسئل أبو يوسف عن هذه الآية فقال : كلهم مؤمنون.

وأما صفة الكفار فبعد هذا ، وهو قوله : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ «٣». وأما الطبقات الثلاث فهم من الذين اصطفى من عباده لأنه قال : فمنهم ، ومنهم ، ومنهم ، والكل راجع إلى قوله : الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فهم أهل الإيمان ، وعليه الجمهور.

وإنما قدّم الظالم للإيذان بكثرتهم ، وأنّ المقتصد : قليل بالإضافة إليهم ، والسابقون أقل من القليل.

وقال ابن عطاء : إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله. وقيل : إنما قدّمه ليعرّفه أن ذنبه لا يبعده من ربّه. وقيل : لأن أول

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٤٧٣) لسعيد بن منصور ، وابن أبى شيبة ، وابن المنذر ، والبيهقي فى البعث ، موقوفا على سيدنا عمر. وأخرجه البغوي فى تفسيره (٦/ ٤٢١) مرفوعا. وعزى السيوطي المرفوع للعقيلى فى الضعفاء (٣/ ٤٤٣) وبن لال ، وابن مردويه ، والبيهقي.

(٢) فى الأصول : [أبو داود] والصواب ما أثبت ، قلت : والحديث أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٤ ، ١٩٨ و٦/ ٤٤٤) ، قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٦) : «رواه أحمد بأسانيد ، رجال أحدها رجال الصحيح». وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٢٦) والطبري (٢٢/ ١٣٧) والبغوي فى التفسير (٦/ ٤٢١)

كلهم من حديث أبى الدرداء رضي اللّه عنه.
(٣) الآية ٣٦ من سورة فاطر.

(٥٤٢/٤)

الأحوال معصية ، ثم توبة ، ثم استقامة. وقال سهل : السابق : العالم ، والمقتصد : المتعلم ، والظالم : الجاهل. وقال أيضا :
السابق : الذي اشتغل بمعاده ، والمقتصد : الذي اشتغل بمعاشه ومعاده ، والظالم : الذي اشتغل بمعاشه عن معاده.
وقيل : الظالم : الذي يعبده على الغفلة والعادة ، والمقتصد : الذي يعبده على الرغبة والرهبة ، والسابق : الذي يعبده على الهيبة والاستحقاق. وقيل : الظالم : من أخذ الدنيا حلالا وحراما ، والمقتصد : المجتهد ألا يأخذها إلا من حلال ، والسابق : من أعرض عنها جملة.
وقيل : الظالم : طالب الدنيا ، والمقتصد : طالب الآخرة ، والسابق : طالب الحق لا يبغى به بدلا.
جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه. وقال عكرمة والحسن وقتادة : الأقسام الثلاثة فى جميع العباد فالظالم لنفسه : الكافر ، والمقتصد :
المؤمن العاصي ، والسابق : التقى على الإطلاق. وقالوا هذه الآية نظير قوله تعالى : وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً «١» والتحقيق ما تقدم.
وقوله : بِإِذْنِ اللَّهِ أي : بأمره ، أو : بتوفيقه وهدايته ذلِكَ أي : إيراث الكتاب والاصطفائية. أو السبق إلى الخيرات هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ الذي لا أكبر منه ، وهو جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها أي : الفرق الثلاث لأنها ميراث ، والعاق والبار فى الميراث سواء ، إذا كانوا مقرين فى النسب. وقرأ أبو عمرو بالبناء للمفعول.
يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ جمع أسورة ، جمع سوار ، مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً أي : من ذهب مرصّع باللؤلؤ. وقرأ نافع بالنصب «٢» ، عطف على محل أساور ، أي : يحلون أساور ولؤلؤا. وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ لما فيه من اللذة والليونة والزينة.
وَقالُوا بعد دخولهم الجنة : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ خوف النار ، أو : خوف الموت ، أو : الخاتمة ، أو : هم الرزق. والتحقيق : أنه يعم جميع الأحزان والهموم ، دنيوية أو أخروية ، وعن ابن عمر : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ليس على أهل لا إلا اللّه وحشة ، فى قبورهم ، ولا فى محشرهم ، وكأنى بأهل لا إله إلا اللّه يخرجون من قبورهم ، وهم ينفضون التراب عن وجوههم ، فيقولون : الحمد للّه الذي أذهب عنا الحزن» «٣». إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ، يغفر الجنايات ، وإن كثرت

، ويقبل الطاعات ، ويشكر عاملها ، وإن قلّت. الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ

---

(١) الآية ٧ من سورة الواقعة.

(٢) وهى أيضا قراءة عاصم. وقرأ الباقون بالجر عطفا على «ذهب». انظر الإتحاف (٢/ ٣٩٣).

(٣) أخرجه البغوي فى تفسيره (٦/ ٤٢٤) وعزاه الحافظ ابن حجر ، فى الكافي الشاف (ص ١٣٩) لأبى يعلى ، وابن أبى حاتم ، والبيهقي فى أول الشعب ، والطبراني فى الأوسط.

(٥٤٣/٤)

أي : دار الإقامة لا نبرح عنها ولا نفارقها. يقال : أقمت إقامة ومقاما ومقامة ، مِنْ فَضْلِهِ أي : من عطائه وإفضاله ، لا باستحقاق أعمالنا ، لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ تعب ومشقة وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ إعياء وكلل من التعب ، وفترة إذ لا تكليف فيها ولا كد. نفى عنهم أولا التعب والمشقة ، وثانيا ما يتبعه من الإعياء والملل.

وأخرج البيهقي : أن رجلا قال يا رسول اللّه : إن النوم مما يقرّ اللّه به أعيننا ، فهل فى الجنة من نوم؟ فقال : «إن النوم شريك الموت - أو أخو الموت - وإن أهل الجنة لا ينامون - أو : ليس فى الجنة موت». وفى رواية أخرى ، قال : فما راحتهم؟ قال : «ليس فيها لغوب ، كل أمرهم راحة» «١» ، فالنوم ينشأ من نصب الأبدان ، ومن ثقل الطعام ، وكلاهما منتفيان فى الجنة.

قال الضحاك : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، استقبلهم الولدان والخدم ، كأنهم اللؤلؤ المكنون ، فيبعث اللّه ملكا من الملائكة ، معه هدية من رب العالمين ، وكسوة من كسوة الجنة ، فيلبسه ، فيريد أن يدخل الجنة فيقول الملك : كما أنت ، فيقف ، ومعه عشرة خواتم ، فيضعها فى أصابعه ، مكتوب : طبتم فادخلوها خالدين ، وفى الثانية : ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود ، وفى الثالثة : رفعت عنكم الأحزان والهموم ، وفى الرابعة : وزوجناهم بحور عين ، وفى الخامسة : ادخلوها بسلام آمنين ، وفى السادسة : إني جزيتهم اليوم بما صبروا ، وفى السابعة : أنهم هم الفائزون. وفى الثامنة : صرتم آمنين لا تخافون أبدا ، وفى التاسعة : رفقتم النبيين والصديقين والشهداء ، وفى العاشرة : سكنتم فى جوار من لا يؤذى الجيران. فلما دخلوا قالوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ .. إلى : لُغُوبٌ. هـ.

الإشارة : قال الورتجبي : الاصطفائية تقدمت الوراثة لمحبته ومشاهدته ، ثم خاطبهم بما له عندهم وما لهم عنده. وهذا الميراث الذي أورثهم من جهة نسب معرفتهم به ، واصطفائيته إياهم ، وهو محل القرب والانبساط ، لذلك قال : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا ، ثم قسمهم على ثلاثة أقسام : ظالم

، ومقتصد ، وسابق. والحمد للّه الذي جعل الظالم من أهل الاصطفائية. ثم قال : فالظالم عندى - واللّه أعلم - الذي وازى القدم بشرط إرادة حمل وارد جميع الذات والصفات ، وطلب كنه الأزلية بنعت إدراكه ، فأى ظالم أعظم منه؟ إذ طلب شيئا مستحيلا ، ألا ترى كيف وصف سبحانه آدم بهذا الظلم بقوله : وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا «٢» ، وهذا من كمال شوقه إلى حقيقة الحق ، وكمال عشقه ، ومحبة جلاله. هـ.

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٤٧٦) لابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي فى البعث ، عن عبد اللّه بن أبى أوفى رضي اللّه عنه.
(٢) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

(٥٤٤/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٤٥

قلت : وهذا النوع من المتوجهين غلب عليه سكر المحبة ، ودهش العشق ، فادعى قوة الربوبية ، وطلب إدراك الألوهية ، ونسى ضعف عبوديته ، فكان ظالما لنفسه ، من هذا المعنى إذ العبودية لا تطيق إدراك كنه الربوبية. ولو أنه طلب الوصول إليه من جهة فقره ، وضعفه ، لكان مقتصدا ، ولو أنه طلب الوصول إلى اللّه باللّه لكان سابقا.

فالأقسام الثلاثة تجرى فى المتوجهين فالظالم لنفسه : من غلب سكره على صحوه فى بدايته ، والمقتصد من غلب صحوه على سكره فى بداية سيره ، والسابق من اعتدل سكره مع صحوه فى نهايته أو سيره.

أو الظالم : السالك المحض ، والمقتصد : المجذوب المحض ، والسابق : الجامع بينهما إذ هو الذي يصلح للتربية. أو الظالم : الذي ظاهره خير من باطنه ، والمقتصد : الذي استوى ظاهره وباطنه ، والسابق : هو الذي باطنه خير من ظاهره.

وعن عليّ - كرم اللّه وجهه - : الظالم : الآخذ بأقوال النبي صلى اللّه عليه وسلم ، والمقتصد : الآخذ بأقواله وأفعاله ، والسابق :

الآخذ بأقواله وأفعاله وأخلاقه. وقال القشيري : ويقال : الظالم : من غلبت زلّاته ، والمقتصد : من استوت حالاته ، والسابق : من زادت حسناته. أو : الظالم : من زهد فى دنياه ، والمقتصد : من رغب فى عقباه ، والسابق : من آثر على الدارين مولاه. أو : الظالم : من نجم كوكب عقله ، والمقتصد : من طلع بدر علمه ، والسابق : من ذرّت شمس معرفته.

أو : الظالم : من طلبه ، والمقتصد : من وجده ، والسابق : من بقي معه. أو : الظالم : من ترك الزلة ، والمقتصد : من ترك الغفلة ، والسابق : من ترك العلاقة. أو : الظالم : من جاد بنفسه ، والمقتصد : من لم يبخل بقلبه ، والسابق : من جاد بروحه. أو : الظالم : من له علم اليقين ، والمقتصد : من له عين اليقين ، والسابق : من له حق اليقين. أو : الظالم.

بترك الحرام ، والمقتصد : بترك الشّبهة ، والسابق : بترك الفضل فى الجملة.

أو : الظالم : صاحب سخاء ، والمقتصد : صاحب جود ، والسابق : صاحب إيثار. أو : الظالم : صاحب رجاء ، والمقتصد : صاحب بسط ، والسابق : صاحب أنس. أو : الظالم : صاحب خوف ، والمقتصد : صاحب خشية ، والسابق :

صاحب هيبة. أو : الظالم له المغفرة ، والمقتصد : له الرحمة ، والسابق : له القربة ، أو : الظالم : طالب النجاة ، والمقتصد : طالب الدرجات ، والسابق : طالب المناجاة. أو : الظالم : أمن من العقوبة ، والمقتصد : طالب المثوبة ، والسابق : متحقق بالقربة. أو : الظالم : صاحب التوكل ، والمقتصد : صاحب التسليم ، والسابق : صاحب التفويض ، أو :

الظالم : صاحب تواجد ، والمقتصد : صاحب وجد ، والسابق : صاحب وجود - غير محجوب عنه البتة - . أو : الظالم :

مجذوب إلى فعله ، والمقصد مكاشف بوصفه ، والسابق : مستهلك فى حقه ، الذي هو وجوده. أو : الظالم : صاحب

(٥٤٥/٤)

المحاضرة ، والمقتصد : صاحب المكاشفة ، والسابق : صاحب المشاهدة. وبعضهم قال : يراه الظالم فى الآخرة فى كل جمعة ، والمقتصد : فى كل يوم مرة ، والسابق : غير محجوب عنه البتة. هـ. باختصار.

والتحقيق : أن الأقسام الثلاثة تجرى فى كل من العارفين ، والسائرين ، والعلماء ، والعباد ، والزهاد ، والصالحين.

إذ كل فن له بداية ووسط ونهاية. ذلك السبق إلى اللّه هو الفضل الكبير ، جنات المعارف يدخلونها ، يحلّون فيها فيها من أساور من ذهب ، وهى الأحوال ، ولؤلؤا ، وهى المقامات ، ولباسهم فيها حرير ، وهى خالص أعمال الشريعة ولبها. وقالوا : الحمد للّه الذي أذهب عنا الحزن إذ لا حزن مع العيان ، ولا أغيار مع الأنوار ، ولا أكدار مع الأسرار ، ما تجده القلوب من الأحزان فلما منعت من العيان.

ولابن الفارض رضي اللّه عنه فى وصف الخمرة :

وإن خطرت يوما على خاطر امرئ أقامت بها الأفراح وارتحل الهمّ

وقال أيضا :

فما سكنت والهمّ يوما بموضع ، كذلك لم يسكن مع النغم الغمّ «١»

إنّ ربنا لغفور بتغطية العيوب ، شكور بكشف الغيوب ، الذي أحلنا دار المقامة ، هى التمكين فى الحضرة ، بفضله ، لا بحول منا ولا قوة ، لا يمسنا فيها نصب. قال القشيري : إذا أرادوا أن يروا مولاهم لا يحتاجون إلى قطع مسافة ، بل هم فى غرفهم يشاهدون مولاهم ، ويلقون فيها تحية وسلاما ، وإذا رأوه لا يحتاجون إلى تحديق مقلة من جهة ، كما هم يرونه بلا كيفية. هـ.

ثم ذكر أضدادهم ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧)

---

(١) فى الأصول الخطية : [كذلك لا يسكن مع النعم الغم].

قلت : «فيموتوا» : جواب النفي.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ ، يخلدون فيها ، لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا أي : لا يحكم بموت ثان فيستريحوا ، وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها ساعة ، بل كلما خبت زيد إسعارها ، وهذا مثل قوله : لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ «١» ، وذكر عياض انعقاد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ، ولا يثابون عليها. ولا تخفيف عذاب. وقد ورد فى الصحيح سؤال عائشة عن ابن جدعان ، وأنه كان يصل الرحم ، ويطعم المساكين ، فهل ذلك نافعه ، فقال عليه السّلام : «لا ، فإنه لم يقل يوما : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين». ثم قال عياض : ولكن بعضهم يكون أشد عذابا ، بحسب جرائمهم.

وذكر أبو بكر البيهقي : أنه يجوز أن يراد بما ورد فى الآيات والأخبار من بطلان خيرات الكفار : أنهم لا يتخلصون بها من النار ، ولكن يخفف عنهم ما يستوجبونه بجناية سوى الكفر ، ودافعه المازري. قال شارح الصغاني بعد هذا النقل : وعلى ما قاله عياض ، فما ورد فى أبى طالب من النفع بشفاعته صلى

اللّه عليه وسلم ، بسبب ذبّه عنه ونصرته له ، مختص به. هـ. ويرد عليه ما ورد من التخفيف فى حاتم بكرمه ، فالظاهر ما قاله البيهقي. واللّه أعلم.

ومثل ما قاله فى أبى طالب ، قيل فى انتفاع أبى لهب بعتق ثويبة ، كما فى الصحيح «٢».

والحاصل : أن التخفيف يقع فى بعض الكفار ، لبره فى الدنيا ، تفضلا منه تعالى ، لا فى مقابلة عملهم لعدم شرط قبوله. انظر الحاشية.

كَذلِكَ أي : مثل ذلك الجزاء الفظيع ، نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ مبالغ فى الكفران وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها : يستغيثون ، فهو يفتعلون ، من : الصراخ ، وهو الصياح بجهد ومشقة. فاستعمل فى الاستغاثة لجهر صوت المستغيث. يقولون : رَبَّنا أَخْرِجْنا منها ، وردنا إلى الدنيا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، فنؤمن بعد

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة الزخرف.

(٢) كانت السيدة (ثويبة) مولاة لأبى لهب ، عم الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، فأعتقها حين بشرته بمولد النبي صلى اللّه عليه وسلم - على أصح الأقوال - حين قالت لأبى لهب :
أشعرت أن آمنة قد ولدت غلاما لأخيك عبد الله ، فقال لها : اذهبي فأنت حرة. ويؤكد ذلك ما أخرجه الإمام البخاري فى (النكاح ، باب وَأُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ح ٥١٠١) عن عروة بن الزبير «أن ثويبة مولاة أبى لهب ، وكان أبو لهب أعتقها ، فأرضعت النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فلما مات أبو لهب ، أريه بعض أهله بشر حيبة. قال له : ماذا لقيت؟ قال أبو لهب : لم ألق بعدكم [راحة - رخاء] غير أنى سقيت فى هذه بعتقي ثويبة» وأشار إلى النقيرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.
وقد نظم شمس الدين محمد بن ناصر فى هذا المعنى شعرا ، قال فيه :
إذا كان هذا كافرا جاء ذمه وتبت يداه فى الجحيم مخلدا
أتى أنه فى يوم الاثنين دائما يخفف عنه للسرور بأحمدا
فما الظن بالعبد الذي كان عمره بأحمد مسرورا ومات موحدا
انظر : شرح المواهب (١/ ١٣٨ - ١٣٩) وأيضا : الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ١٠٨) وكتاب «أعظم المرسلين» لشيخنا البركة الدكتور «جودة المهدى» (١٧٧ - ٧٩).

(٤/٥٤٧)

الكفر ، ونطيع بعد المعصية. فيجابون بعد قدر عمر الدنيا : أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ أي :

أو لم نعمركم تعميرا يتذكر فيه المتذكر. وهو متناول لكل عمر يتمكن منه المكلّف من إصلاح شأنه ، والتدبر فى آياته ، وإن قصر ، إلا أن التوبيخ فى المتطاول أعظم. وقيل : هو ثمانى عشرة سنة. وقيل : ما بين العشرين إلى الستين ، وقيل : أربعون. وروى أن العبد إذا بلغ أربعين سنة ولم يتب ، مسح الشيطان على وجهه. وقال : وجه لا يفلح أبدا ، وقيل : ستون. وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «العمر الذي أعذر اللّه فيه ابن آدم ستون سنة» «١» ، وفى البخاري عنه عليه السّلام : «أعذر اللّه المرء آخر أجله حتى بلغ ستين سنة» «٢».

وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ أي : الرسول عليه السّلام ، أو : الكتاب ، وقيل : الشيخوخة ، وزوال السن ، وقيل : الشيب. قال ابن عزيز : وليس هذا شيء لأن الحجة تلحق كل بالغ وإن لم يشب. وإن كانت العرب تسمى الشيب النذير. هـ. ولقوله تعالى بعد : فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ، فإنه يتعين كونه الرسول ، وهو عطف على معنى : أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ لأن لفظه استخبار ، كأنه قيل : قد عمرناكم وجاءكم النذير. قال قتادة : احتج عليهم بطول العمر ، وبالرسول ، فانقطعت حجتهم. قال تعالى : فَذُوقُوا العذاب فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ يدفع العذاب عنهم.

الإشارة : الذين كفروا بطريق الخصوصية ، وأنكروا وجود التربية بالاصطلاح ، فبقوا مع نفوسهم ، لهم نار القطيعة ولو دخلوا الجنة الحسية ، لا يقضى عليهم فيموتوا ، ويرجعوا إلى الاستعداد بدخول الحضرة ، ولا يخفف عنهم من عذاب حجاب الغفلة ، بل يزيد الحجاب بتراكم الحظوظ ، ونسج الأكنة على القلوب ، كذلك نجزى كل كفور وجحود لطريق التربية. وهم يصطرخون فيها ، بلسان حالهم ، قائلين : ربنا أخرجنا ، وردّنا إلى دار الفناء ، نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ، حتى ندخل ، كما دخلها أهل العزم واليقظة؟ فيقال لهم : أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ، من ينذركم وبال القطيعة ، ويعرفكم بطريق الحضرة ، فأنكرتموه ، فذوقوا وبال القطيعة ، فما للظالمين من نصير.

ولمّا كان الكفر والإيمان من أعمال القلوب ، قد يخفى على الناس ، أخبر أن اللّه هو مطلع على ما فيها ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٣٨ الى ٣٩]

إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (٣٩)

---

(١) عزاه المناوى فى الفتح السماوي (٣/ ٩٤٧) للبزار ، من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه. وأصله عند البخاري. [.....]

(٢) أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر اللّه إليه فى العمر ، ح ٦٤١٩) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٥٤٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٤٩
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ
أي : ما غاب فيهما عنكم ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ
،
تعليل لما قبله لأنه إذا علم ما فى الصدور ، وهى أخفى ما يكون ، فقد علم كل غيب فى العالم. وذات الصدور : مضمراتها ووساوسها. وهى تأنيث «ذو» ، بمعنى : صاحب الوساوس والخطرات ، تصحب الصدور وتلازمها فى الغالب ، أي : عليم بما فى القلوب ، أو بحقائقها ، على أن «ذات» بمعنى الحقيقة.
هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ أي : جعلكم خلفاء عنه فى التصرف فى الأرض ، قد ملككم مقاليد التصرف فيها ، وسلطكم على ما فيها ، وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة. فَمَنْ كَفَرَ منكم ، وغمط مثل هذه النعمة السنيّة ، فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ فوبال كفره راجع عليه ، وهو مقت اللّه ، وخسران الآخرة ، كما قال تعالى : وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً ، وهو أشد البغض ، وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً : هلاكا وخسرانا.
الإشارة : إن اللّه عالم بما غاب فى سموات الأرواح ، من أسرار العلوم والمكاشفات ، والاطلاع على أسرار الذات ، وأنوار الصفات ، وما غاب فى أرض النفوس من الموافقات أو المخالفات ، إنه عليم بحقائق القلوب ، من صفائها وكدرها ، وما فيها من اليقين والمعرفة ، وضدهما.
قال القشيري : إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ
، بإخلاص المخلصين ، وصدق الصادقين ، ونفاق المنافقين ، وجحد الكافرين ، ومن يريد بالناس شرا ، ومن يحسن باللّه ظنا. هـ.
وقال فى قوله تعالى : هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ : أهلّ كلّ عصر خليفة عصر تقدمهم ، فمن قوم هم أنفسهم جمال ، ومن قوم أراذل وأنذال ، والأفاضل زمانهم لهم محنة ، والأراذل هم لزمانهم محنة.
وحاصل كلامه :
أن قوما عرفوا حق الخلافة ، فقاموا بحقها ، وشكروا اللّه عليها ، بالقيام بطاعته ، فكانوا فى زمانهم جمالا لأنفسهم ، ولأهل عصرهم ، لكنهم لمّا تحملوا مشاق الطاعات ، وترادف الأزمات ، كان زمانهم

لهم محنة. وقوما لم يعرفوا حق الخلافة ، فاشتغلوا بالعصيان ، فانتحس الزمان بهم ، فكانوا محنة لزمانهم.

ثم ردّ على من كفر بالشرك ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٤٠]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (٤٠)

(٥٤٩/٤)

قلت : «أرأيتم» : بمعنى : أخبرونى ، وهى تطلب مفعولين : أحدهما منصوب ، والآخر مشتمل على استفهام ، كقولك : أرأيت زيدا ما فعل ، فالأول : (شركاءكم) والثاني : (ماذا خلقوا). و(أرونى) : اعتراض ، فيها تأكيد للكلام وتشديد. ويحتمل أن يكون من باب التنازع لأنه توارد على (ماذا خلقوا) : (أرأيتم) و(أرونى) ، ويكون قد أعمل الثاني على المختار عند البصريين. قاله أبو حيان. ولابن عطية وابن عرفة غير هذا ، فانظره. و«بعضهم» : بدل من «الظالمين».

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ أي : أخبرونى عن آلهتكم التي أشركتموها فى العبادة مع اللّه ، الَّذِينَ تَدْعُونَ أي : تعبدونهم مِنْ دُونِ اللَّهِ ، ما سندكم فى عبادتهم؟ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أي : جزء من الأرض ، استبدّوا بخلقه حتى استحقوا العبادة بسبب ذلك ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أي : أم لهم مع اللّه شركة فى خلق السموات حتى استحقوا أن يعبدوا؟ بل لا شىء من ذلك ، فبطل استحقاقها للعبادة. أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً أم معهم كتاب من عند اللّه ينطق بأنهم شركاؤه ، فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب؟ قال ابن عرفة : هذا إشارة إلى الدليل السمعي ، والأول إشارة إلى الدليل العقلي ، فهم لم يستندوا فى عبادتهم الأصنام إلى دليل عقلى ولا سمعى ، بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ أي :

ما يعد الظالمون ، وهم الرؤساء بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً باطلا وتمويها ، وهو قولهم : هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ «١». لمّا نفى أنواع الحجج العقلية والسمعية ، أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه ، وهو تقرير الأسلاف الأخلاف ، والرؤساء الأتباع بأنهم شفعاء عند اللّه تقربهم إليه. هذا هو التقليد الردئ ، والعياذ باللّه.

الإشارة : كل من ركن إلى مخلوق ، أو اعتمد عليه ، يتلى عليه : أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ .. الآية. وفى الحكم : «كما لا يقبل العمل المشترك ، لا يحب القلب المشترك. العمل المشترك لا يقبله ، والقلب

المشترك لا يقبل عليه».

ثم ذكر من يستحق العبادة وحده ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٤١]

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١)

---

(١) من الآية ١٨ من سورة يونس.

(٥٥٠/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥١

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا أي : يمنعهما من أن تزولا لأن إمساكهما منع. والمشهور عند المنجمين : أن السموات هى الأفلاك التي تدور دورة بين الليل والنهار. وإنكار ابن يهود على كعب ، كما فى الثعلبي ، تحامل إذ لا يلزم من دورانها عدم إمساكها بالقدرة ، وانظر عند قوله : وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها .. «١» قال القشيري : أمسكهما بقدرته ، وأتقنهما بحكمته ، وزينهما بمشيئته ، وخلق أهلهما على موجب قضيته ، فلا شبيه فى إبقائهما وإمساكهما يساهمه ، ولا شريك فى إيجادهما وإعدامهما يقاسمه. هـ.

وَلَئِنْ زالَتا ، على سبيل الفرض ، إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، من بعد إمساكه. و«من» الأولى : مزيدة ، لتأكيد النفي ، والثانية : ابتدائية ، إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً ، غير معاجل بالعقوبة ، حيث أمسكهما على من يشرك به ويعصيه ، وكانتا جديرتين بأن تهدّ هدّا ، كما قال : تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ .. «٢» الآية.

الإشارة : الوجود قائم بين سماء القدرة وأرض الحكمة ، بين سماء الأرواح وأرض الأشباح ، بين سماء المعاني وأرض الحس ، فلو زال أحدهما لاختل نظام الوجود ، وبطلت حكمة الحكيم العليم. الأول : عالم التعريف ، والثاني :

عالم التكليف. الأول : محل التنزيه ، والثاني : محل التشبيه ، الأول : محل أسرار الذات ، والثاني : محل أنوار الصفات ، مع اتحاد المظهر إذ الصفات لا تفارق الموصوف ، فافهم. وفى بعض الأثر : «إن العبد إذا عصى اللّه استأذنت السماء أن تسقط عليه من فوقه ، والأرض أن تخسف من تحته ، فيمسكهما اللّه تعالى بحلمه وعفوه ، ثم تلى الآية : إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا إلى قوله : كانَ حَلِيماً غَفُوراً» هـ. بالمعنى.

ثم ذكر عناد قريش وعتوهم ، تتميما لقوله : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ .. إلخ ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٤٢ الى ٤٤]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤٢) اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (٤٤)

---

(١) الآية ٣٨ من سورة يس.

(٢) الآية ٩٠ من سورة مريم.

قلت : «جهد» : نصب على المصدر ، أو على الحال. و«استكبار» و«مكر» : مفعول من أجله أو حال.

يقول الحق جل جلاله : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ أي : إقساما وثيقا ، أو : جاهدين فى أيمانهم : لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ رسول لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ المهتدية ، بدليل قوله : (أهدى) وقوله في سورة الأنعام : لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ «١» وذلك أن قريشا قالوا قبل مبعث النبي صلى اللّه عليه وسلم لمّا بلغهم أن أهل الكتاب كذّبوا رسلهم : لعن اللّه اليهود والنصارى ، أتتهم الرسل فكذبوهم ، فو اللّه لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم «٢» ، أي : من الأمة التي يقال فيها : هى أهدى الأمم ، تفضيلا لها على غيرها فى الهدى والاستقامة. كما يقال للداهية العظيمة : هى أهدى الدواهي. فلما بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً أي : ما زادهم مجىء الرسول صلى اللّه عليه وسلم إلا تباعدا عن الحق ، وهو إسناد مجازىّ إذ لا فاعل غيره.

اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ أي : ما زادهم إلا تهورا للاستكبار ومكر السيّء. أو : مستكبرين وماكرين برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، المكر القبيح ، وهو إجماعهم على قتله. عليه الصلاة والسلام ، وإذاية من تبعه.

وأصل قوله : (و مكر السيئ) : وأن مكروا المكر السيّء ، فحذف الموصوف استغناء بوصفه ، ثم أبدل «أن» مع الفعل بالمصدر ، ثم أضيف إلى صفته اتساعا ، كصلاة الأولى ، ومسجد الجامع. وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ أي : لا يحيط وينزل المكر السيّء إلا بمن مكره ، وقد حاق بهم يوم بدر. وفى

المثل : من حفر حفرة وقع فيها.

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ : ما ينتظرون إلا أن ينزل بهم ما نزل بالمكذبين الأولين ، من العذاب المستأصل ، كما هى سنّة اللّه فيمن كذّب الرسل. فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ، بيّن أن سنّته – التي هى الانتقام من مكذّبى الرسل – سنّة ماضية ، لا يبدلها فى ذاتها ، ولا يحوّلها عن وقتها ، وأنّ ذلك مفعول لا محالة.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ممن كذّبوا رسلهم ، كيف أهلكهم اللّه ودمرهم ، كعاد ، وثمود ، وقرى قوم لوط. استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه فى مسايرهم إلى الشام واليمن والعراق ، من آثار الماضين ، وعلامات هلاكهم ودمارهم. وَقد كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً واقتدارا ، فلم يتمكنوا من الفرار ، وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ ليسبقه ويفوته مِنْ شَيْءٍ أىّ شىء كان فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً بأحوالهم قَدِيراً على أخذهم. وباللّه التوفيق.

---

(١) من الآية ١٥٧ من سورة الأنعام.

(٢) قاله الضحاك ، فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٦٢).

(٥٥٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥٣

الإشارة : ترى بعض الناس يقول : لئن ظهر شيخ التربية لنكونن أول من يدخل معه ، فلما ظهر ، عاند واستكبر ، وربما أنكر ومكر. نعوذ باللّه من سابق الخذلان. قال القشيري : ليس لقولهم تحقيق ، ولا لضمانهم توثيق ، وما يعدون من أنفسهم فصريح زور ، وما يوهمون من وفاقهم فصرف غرور. وكذلك المريد فى أول نشاطه ، تمنّيه نفسه ما لا يقدر عليه ، فربما يعاهد اللّه ، ويؤكد فيه عقدا مع اللّه ، فإذا عضّته شهوته ، وأراد الشيطان أن يكذبه ، صرعه بكيده ، وأركسه فى كوة غيّه ، وفتنة نفسه فيسودّ وجهه ، ويذهب ماء وجهه.

ثم قال فى قوله : أَوَلَمْ يَسِيرُوا .. إلخ : ما خاب له ولىّ ، وما ربح له عدو ، ولا تنال الحقيقة بمن انعكس قصده ، وارتد عليه كيده ، دمرّ على أعدائه تدميرا ، وأوسع لأوليائه فضلا كبيرا. هـ.

ثم تمم قوله : إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً بقوله :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٤٥]

وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (٤٥)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا بما اقترفوا من المعاصي ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها على ظهر الأرض لأنه جرى ذكرها فى قوله : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ «١» ، مِنْ دَابَّةٍ من نسمة تدبّ عليها. قيل : أهل المعاصي فقط من الناس ، وقيل : من الجن والإنس.

والمشهور : أنه عام فى كل ما يدب لأن الكل خلق للآدمى. وعن ابن مسعود : (إن الجعل «٢» ليعذب فى جحره بذنب ابن آدم) «٣» ، يعنى ما يصيبه من القحط ، بشؤم معاصيه. وقال أبو هريرة : إن الحبارى «٤» لتموت هزالا فى وكرها بظلم الظالم. هـ.

---

(١) الآية ٤٤ من السورة.

(٢) الجعل : حيوان معروف كالخنفساء. انظر النهاية فى غريب الحديث (جعل ١/ ٢٧٧).

(٣) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٤٨٠) للفريابى ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم ، وصححه.

(٤) الحبارى : طائر معروف ، وهو على شكل الإوزة ، برأسه وبطنه غبرة ، ولون ظهره وجناحيه كلون السمانى غالبا. والجمع حبابير ، وحباريات. انظر اللسان (حبر) مع تعليق محققه.

وقال : ابن الأثير فى النهاية (١/ ٣٢٨) :

وإنما خصها بالذكر لأنها أبعد الطير نجعة ، فربما تذبح بالبصرة ، ويوجد فى حوصلتها الحبة الخضراء ، وبين البصرة وبين منابتها مسيرة أيام.

(٥٥٣/٤)

قال القشيري : لو عجّل لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب ، لم تف أعمارهم القليلة ، وما اتسعت أفهامهم القصيرة له ، فأخّر ذلك ليوم الحشر ، فإنّه طويل ، واللّه على كل شيء قدير ، بأمور عباده بصير ، وإليه المصير هـ وهذا معنى قوله : وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى هو يوم القيامة ، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ أجل جمعهم ، فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً أي : لن يخفى عليه حقيقة أمرهم ، وحكمة حكمهم ، فيجازيهم على قدر أعمالهم.

الإشارة : تعجيل العقوبة فى دار الدنيا للمؤمن إحسان ، وتأخيرها لدار الدوام استدراج وخذلان. فكل من له عناية سابقة عاتبه اللّه فى الدنيا ، بمصيبة فى بدنه ، أو ماله ، أو فى أهله ، ومن لا عناية له أخرت عقوباته كلها لدار الجزاء. نسأل اللّه العصمة بمنّه وكرمه ، وبسيدنا محمد نبيه - صلى اللّه عليه ، وعلى آله وصحبه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥٥

سورة يس

مكية ، وقيل : إلا قوله : وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ «١» ، نزلت فى بنى سلمة ، حين أرادوا الانتقال إلى جوار النبي صلى اللّه عليه وسلم «٢». وآيها : ثلاث وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله : فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ «٣» مع قوله :
إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ فقد حقق هنا نذارته ورسالته بالقسم. وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «يس تدعى المعمة ، تعم صاحبها بخير الدارين ، والدافعة والقاضية - تدفع عنه كل شر ، وتقضى له كل حاجة» «٤». وفى خبر آخر : «يس لما قرئ له» ، وفى حديث آخر : «ما قرأها خائف إلا أمن ، ولا جائع إلا شبع ، ولا عطشان إلا روى ، ولا عريان إلا كسى ، ولا مسجون إلا سرح ، ولا عازب إلا تزوج ، ولا مسافر إلا أعين ، ولا ذو ضالة إلا وجدها». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ يس عند الموت ، أو قرئ عليه ، أنزل اللّه بعدد كل حرف منها عشرة من الملائكة ، يقفون بين يديه ، ويصلون عليه ، ويستغفرون له ، ويشهدون جنازته».

[سورة يس (٣٦) : الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤)

يقول الحق جل جلاله : يس أيها السيد المفخم ، والمجيد المعظم ، وَحق الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ المحكم إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. وفى الحديث : «إن اللّه تعالى سمّانى فى القرآن بسبعة أسماء : محمد ، وأحمد ، وطه ، ويس ، والمزّمّل ، والمدّثر ، وعبد اللّه» ، قيل : ولا تصح الاسمية فى يس لإجماع القراء السبعة على قراءتها ساكنة ، على أنها حروف هجاء محكية ، ولو سمى بها لأعربت غير مصروفة ، كهابيل وقابيل ، ومثلها «طس» و«حم» ، كما قال الشاعر :

لما سمى بها السورة فهلا تلى حميم قبل التكلم.

---

(١) الآية ١٢.

(٢) أخرجه الترمذي فى (التفسير ، باب : ومن سورة يس ، ٥/ ٣٣٩ ، ح ٣٢٢٦) والحاكم ، وصححه ، وأقره الذهبي (٢/ ٤٢٨) ، والواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٧٨ - ٣٧٩) عن أبى سعيد الخدري. وقال الترمذي : «حديث حسن غريب» وقال الحافظ ابن كثير فى التفسير (٣/ ٥٦٦) معلقا على حديث نحوه ، رواه البزار : فيه غرابة.

(٣) من الآية ٤٢ من سورة فاطر.

(٤) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (٢/ ٤٨١ ، ح ٢٤٦٥) وضعّفه ، من حديث أبى بكر الصدّيق رضي اللّه عنه. وذكره بنحوه ، مطولا ، القرطبي فى تفسيره (٦/ ٥٦٠٢) وعزاه للثعلبى ، من حديث السيدة عائشة رضى اللّه عنها. [.....]

(٤/٥٥٥)

فدلّ على أنها حروف حال التلاوة. نعم قد قرئ «يس» بضم النون ، ونصبها ، خارج السبعة ، وعلى ذلك تخرج بأن اللفظ اسم للسورة ، كأنه قال : أتل يس ، على النصب ، وعلى أنها اسم من أسمائه صلى اللّه عليه وسلم ، وتوجه فى قراءة الضم على النداء. هـ. قلت : والظاهر أنها حروف مختصرة من السيد ، على طريق الرمز بين الأحباء ، إخفاء عن الرقباء.

ثم أقسم على رسالته ، ردا على من أنكره بقوله : وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ أي : ذى الحكمة البالغة ، أو : المحكم الذي لا ينسخه كتاب ، أو : ذى كلام حكيم ، فوصف بصفة المتكلم به ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ من أعظمهم وأجلّهم. وهو ردّ على من قال من الكفار : لَسْتَ مُرْسَلًا «١». عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أي : كائنا على طريق مستقيم ، يوصل من سلكه إلى جوار الكريم ، فهو حال من المستكن فى الجار والمجرور. وفائدته : وصف الشرع بالاستقامة صريحا ، وإن دلّ عليه : إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ التزاما ، أو : خبر ثان لإن. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال القشيري : يس ، معناه : يا سيد - رقّاه أشرف المنازل ، وإن لم يسم إليه بطرق التأميل ، سنّة منه سبحانه أنه لا يضع أسراره إلا عند من تقاصرت الأوهام عن استحقاقه ، ولذلك قضوا بالعجب فى استحقاقه ، وقالوا : كيف آثر يتيم أبى طالب من بين البرية ، ولقد كان - صلوات اللّه عليه - فى سابق اختياره تعالى مقدّما على الكافة من أشكاله وأضرابه ، وفى معناه قيل :

هذا وإن أصبح فى أطمار وكان فى فقر من اليسار

آثر عندى من أخى وجارى وصاحب الدرهم والدينار

وصاحب الأمر مع الإكثار «٢». هـ.

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة الرعد.

(٢) وردت الأبيات - كاملة - فى قصة ، ذكرها ابن كثير فى البداية والنهاية (٨/ ٨٩ - ٩٠) ، وملخصها :

كان معاوية بن أبى سفيان على السماط ، فمثل بين يديه شاب من بنى عذرة ، فأنشده شعرا ، مضمونه : التشوق إلى زوجته سعاد.
وقال : يا أمير المؤمنين : إني كنت متزوجا بابنة عم لى ، وكان لى إبل وغنم ، وأنفقت ذلك عليها ، فلما قلّ ما بيدي رغب عنى أبوها ، وشكانى إلى عاملك بالكوفة (ابن أم الحكم) وبلغه جمالها ، فحبسنى ، وحملنى على أن أطلقها ، فلما انقضت عدتها أعطاها عاملك عشرة آلاف درهم ، فزوّجه إياها ، فهل من فرج؟
فكتب معاوية إلى ابن أم الحكم يؤنبه ، وأمره بطلاقها ، فطلقها ، وسيّرها إلى معاوية ، وخيّرها معاوية بين زوجها وابن أم الحكم ، فاختارت زوجها الأول ، وأنشدت الأبيات :
هذا وإن أصبح فى أطمار وكان فى نقص من اليسار
أكبر عندى من أبى وجارى وصاحب الدرهم والدينار
أخشى إذا غدرت حر النار خلى سبيلى ما به عار
لعلنا نرجع للديار وأن عسى نظفر بالأوطار
راجع أيضا : تزيين الأسواق (١/ ٢٤٩) ، ونهاية الأرب (٢/ ١٥٩) ، ولطائف الإشارات (١/ ٤٢ - ٤٣).

(٥٥٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥٧
قال الورتجبي : قيل : الياء تشير إلى يوم الميثاق ، والسين تشير إلى سره مع الأحباب ، فقال : بحق يوم الميثاق ، وسرى مع الأحباب ، وبالقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين يا محمد هـ ..
وجاء : «إن قلب القرآن يس ، وقلبه : سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ» «١». قلت : وهو إشارة إلى سر القربة ، الداعي إليه القرآن ، وعليه مداره ، وحاصله : تسليم اللّه على عباده كفاحا ، لحياتهم به ، وأنسهم بحديثه وسره. وقيل : لأن فيه تقرير أصول الدين. قاله فى الحاشية الفاسية.
ثم فسّر القرآن ، المقسم به ، فقال :
[سورة يس (٣٦) : الآيات ٥ الى ١١]
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩)
وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ

فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)

قلت : «تنزيل» : خبر ، أي : هو تنزيل. ومن نصبه فمصدر ، أي : نزل تنزيل ، أو : اقرأ تنزيل ، وقرئ بالجر ، بدل من القرآن. و«ما أنذر» : نعت لقوم. و«ما» : نفى ، عند الجمهور ، أو : موصولة مفعولا ثانيا لتنذر ، أي : العذاب الذي أنذره آباؤهم ، أو : مصدرية ، أي : لتنذر قوما إنذار مثل إنذار آبائهم.

يقول الحق جل جلاله : هذا ، أو هو تَنْزِيلَ «٢» الْعَزِيزِ أي : الغالب القاهر بفصاحة نظم كتابه أوهام ذوى العناد ، الرَّحِيمِ الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهام ذوى الرشاد. أنزلناه لِتُنْذِرَ به قَوْماً ، أو :

---

(١) وردت الجملة الأولى فى حديث أخرجه الترمذي فى (فضائل القرآن ، باب : ما جاء فى فضل «يس» ٥/ ١٥٠ ، ح ٢٨٨٧) والدرامى فى (فضائل القرآن ، باب فضل يس ، ٢/ ٥٤٨ ، ح ٣٤١٦) وأحمد فى المسند (٥/ ٢٦) عن أنس. بلفظ «إن لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس ..» الحديث ، قال الترمذي : هذا حديث غريب. وهارون أبو محمد شيخ مجهول.

(٢) قرأ ابن عامر ، وحفص ، وحمزة ، والكسائي ، بنصب اللام على المصدر. وقرأ الحسن بالجر ، وقرأ الباقون بالرفع ، خبر لمقدر. وقد سار المفسر على قراءة الرفع. انظر الإتحاف (٢/ ٣٩٧).

(٥٥٧/٤)

أرسلناك لتنذر قوما غافلين ، ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ أي : غير منذر آباؤهم ، كقوله : لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ «١» وقوله : وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ «٢» أو : لتخوف قوما العذاب الذي أنذر به آباؤهم ، لقوله :

ّ◌ِا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً

«٣». أو : لتنذر قوما إنذار آبائهم ، وهو ضعيف إذ لم يتقدم لهم إنذار. فَهُمْ غافِلُونَ ، إن جعلت «ما» نافية فهو متعلق بالنفي ، أي : لم ينذروا فهم غافلون ، وإلا فهو متعلق بقوله : إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ لتنذر قوما ، كقولك : أرسلته إلى فلان لينذره فهو غافل.

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ، يعنى قوله : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ «٤» أي : تعلق بهم هذا القول ، وثبت عليهم ووجب لأنه علم أنهم يموتون على الكفر. قال ابن عرفة : إنذارهم مع إخباره بأنهم لا يؤمنون ليس من تكليف ما لا يطاق عقلا وعادة ، وما لا يطاق من جهة السمع يصح التكليف به ، اعتبارا بظاهر الأمر ، وإلا لزم أن تكون التكاليف كلها لا تطاق ، ولا فائدة فيها لأنّ المكلفين قسمان : فمن علم تعالى أنه لا يؤمن فلا فائدة فى أمره بالايمان إذ لا يطيقه ، ومن

علم أنه يؤمن فلا فائدة فى إنذاره وأمره بالإيمان إذ لا يطيق عدمه. هـ. قلت : الحكمة تقتضى تكليفهم لتقوم الحجة عليهم أو لهم ، والقدرة تقتضى عذرهم. والنظر فى هذه الدار – التي هى دار التكليف – للحكمة لا للقدرة.

ثم مثّل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم ، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين فى أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، وكالحاصلين بين سدّين ، لا ينظرون ما قدّامهم ولا ما خلفهم ، بقوله : إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ ، معناه : فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها ، فَهُمْ مُقْمَحُونَ مرفوعة رؤوسهم إلى فوق ، يقال : قمح البعير فهو قامح إذا روى فرفع رأسه ، وهذا لأنّ طوق الغلّ الذي فى عنق المغلول ، يكون فى ملتقى طرفيه ، تحت الذقن ، حلقة ، فلا [تخليه] «٥» يطأطئ رأسه ، فلا يزال مقمحا. والغل : ما أحاط بالعنق على معنى التثقيف والتعذيب. والأذقان والذقن : مجتمع اللحيين. وقيل : «فهى» أي :

الأيدى. وذلك أن الغل إنما يكون فى العنق مع اليدين. وفى مصحف أبى : «إنا جعلنا فى أيمانهم أغلالا» وفى بعضها : «فى أيديهم فهى إلى الأذقان فهم مقمحون».

وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ، بفتح السين وضمها – قيل : ما كان من عمل الناس فبالفتح ، وما كان من خلق اللّه ، كالجبل ونحوه ، فالبضمّ ، أي : جعلنا الموانع والعوائق محيطة بهم ، فهم محبوسون

---

(١) الآية ٣ من سورة السجدة.

(٢) الآية ٤٤ من سورة سبأ.

(٣) الآية ٣٠، ٤ من سورة النبأ.

(٤) الآية ١٣ من سورة السجدة.

(٥) ما بين المعقوفتين مطموس فى النسخة الأم ، وغير موجود فى غيرها من النسخ المعتمدة فى التحقيق.

فى مطمورة الجهالة ، ممنوعون عن النظر فى الآيات والدلائل ، فَأَغْشَيْناهُمْ أي : فأغشيناهم أبصارهم ، أي :

غطيناها وجعلنا عليها غشاوة ، فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ الحق والرشاد.

وقيل : نزلت فى بنى مخزوم ، وذلك أن أبا جهل حلف : لئن رأى محمدا يصلّى ليرضخنّ رأسه ، فأتاه وهو يصلّى ، ومعه حجر ، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه ، ولزق الحجر بيده ، حتى فكّوه عنها بجهد ، فرجع إلى قومه ، فأخبرهم ، فقال مخزوميّ : أنا أقتله بهذا الحجر ، فذهب ، فأعمى اللّه بصره ، فلم ير النبيّ صلى اللّه عليه وسلم ، وسمع قوله ، فرجع إلى أصحابه ، ولم يرهم حتى نادوه «١». وقيل : هى ذكر حالهم فى الآخرة ، وحين يدخلون النار ، فتكون حقيقة.

فالأغلال فى أعناقهم ، والنار محيطة بهم. والأول أرجح وأنسب لقوله : وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ، أي : الإنذار وتركه فى حقهم سواء إذ لا هادى لمن أضله اللّه.

روى أن عمر بن عبد العزيز قرأ الآية فى غيلان القدريّ ، فقال غيلان : كأنى لم أقرأها قط ، أشهدك أنى تائب عن قولى فى القدر. فقال عمر : اللهم إن صدق فتب عليه ، وإن كذب فسلّط عليه من لا يرحمه ، فأخذه هشام بن عبد الملك من غده ، فقطع يديه ورجليه ، وصلبه على باب دمشق «٢».

ثم ذكر من ينفعه الإنذار ، فقال : إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ أي : إنما ينتفع بإنذارك من تبع القرآن وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وخاف عقاب اللّه قبل أن يراه ، أو : تقول : نزّل وجود الإنذار لمن لم ينتفع به منزلة العدم ، فمن لم يؤمن كأنه لم ينذر ، وإنما الإنذار لمن انتفع به. فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ، وهو العفو عن ذنوبه ، وَأَجْرٍ كَرِيمٍ الجنة وما فيها.

الإشارة : كل من تصدى لوعظ الناس ، وإنذارهم ، على فترة من الأولياء ، يقال له : لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون. ويقال فى حق من سبق له الإبعاد عن طريق أهل الرشاد : لقد حقّ القول على أكثرهم ، فهم لا يؤمنون. إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا تمنعهم من حط رؤوسهم لأولياء زمانهم ، وجعلنا من بين أيديهم سدا : موانع تمنعهم من النهوض إلى اللّه ، ومن خلفهم سدا : علائق تردهم عن حضرة اللّه ، فأغشيناهم : غطّينا أعين بصيرتهم ، فلا يرون خصوصية أحد ممن يدلّ على اللّه ، فهم لا يبصرون داعيا ، ولا يلبون مناديا ، فالإنذار وعدمه فى حقهم سواء ، ومعالجة دائهم عناء. قال الورتجبي : سد ما خلفهم سد قهر الأزل ، وسد ما بين أيديهم شقاوة الأبد ، فبنفسه منعهم من نفسه. لا

---

(١) أخرجه الطبري مختصرا (٢٢/ ١٥٢) عن عكرمة. وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف (١٣٩) لابن إسحاق فى السيرة ، وأبى نعيم فى الدلائل ، عن عكرمة ، عن ابن عباس - رضى اللّه عنهما.

(٢) انظر تفسير النسفي (٣/ ٩٧).

جرم أنهم فى غشاوة القسوة ، لا يبصرونه أبدا. هـ. إنما ينتفع بتذكير الداعين إلى اللّه من خشع قلبه بذكر اللّه ، واشتاقت روحه إلى لقاء اللّه ، فبشّره بمغفرة لذنوبه ، وتغطية لعيوبه ، وأجر كريم ، وهو النظر إلى وجه اللّه العظيم.

ثم ردّ على من أنكر البعث ، ممن سبق له الشقاء ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : آية ١٢]

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (١٢)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى أي : نبعثهم بعد مماتهم ، أو : نخرجهم من الشرك إلى الإيمان. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : لمّا أمر بالتبشير بالمغفرة ، والأجر الكريم ، لمن انتفع بالإنذار ، أعلم بحكم من لم يؤمن ، ولم ينتفع بالإنذار ، وأنه يبعثهم ، وإليه حكمهم ، كما قال : إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ «١» هـ.

وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا ما أسلفوا من الأعمال الصالحات وغيرها ، وَآثارَهُمْ ما تركوه بعدهم من آثار حسنة ، كعلم علّموه ، أو كتاب صنّفوه ، أو حبس حبسوه ، أو رباط أو مسجد صنعوه. أو آثار سيئة ، كبدعة ابتدعوها فى الإسلام. ونحوه قوله تعالى : يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ

«٢» أي : قدّم من عمله وأخّر من آثاره. وفى الحديث : «من سنّ فى الإسلام سنّة حسنة ، فعمل بها من بعده ، كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء. ومن سنّ فى الإسلام سنّة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها ، من غير أن ينقص من أوزارهم شى ء»

«٣» وفى خبر آخر : «سبع تجرى على العبد بعد موته : من غرس غرسا ، أو حفر بئرا ، أو أجرى نهرا ، أو علّم علما ، أو بنى مسجدا ، أو ورّث مصحفا ، أو ولدا صالحا»»

. انظر المنذرى. وهذا كله داخل فى قوله تعالى : وَآثارَهُمْ قيل : آثارهم : خطاهم إلى المساجد ، للجمعة وغيرها.

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ حفظناه ، أو عددناه وبيّناه فِي إِمامٍ كتاب مُبِينٍ اللوح المحفوظ لأنه أصل الكتب وإمامها ، وقيل : صحف الأعمال. والمراد : تهديد العباد بإحصاء ما صنعوه من خير أو شر ، لينزجروا عن معاصى اللّه ، وينهضوا إلى طاعة اللّه.

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ١٣ من سورة القيامة.

(٣) أخرجه مسلم ، فى (الزكاة ، باب : الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ، ٢/ ٧٠٤ - ٧٠٥ ، ح ١٠١٧) من حديث جرير. [.....]

(٤) أخرجه بنحوه البزار (كشف الأستار - ١٤٩) والبيهقي فى الشعب (ح ٣٤٤٩) من حديث أنس

بن مالك. وأخرجه ابن ماجه ، بلفظ مقارب ، فى (المقدمة/ ح ٢٤٢) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٥٦٠/٤)

الإشارة : إنّا نحن نحيى القلوب الميتة بالغفلة والجهل ، فنحييها بالعلم والمعرفة ، ونكتب ما قدّموا من العلوم ، والأسرار والمعارف ، وآثارهم ، أي : الأنوار المتعدية إلى الغير ، ممن اقتبس منهم وأخذ عنهم. قال القشيري : نحيى قلوبا ماتت بالقسوة ، بما نمطر عليها من صنوف الإقبال والزلفة ، ونكتب ما قدموا وَآثارَهُمْ خطاهم إلى المساجد ، ووقوفهم على بساط المناجاة معنا ، وما ترقرق من دموعهم على عرصات خدودهم ، وتصاعد أنفاسهم. هـ.

ثم ضرب مثلا لقريش فى تكذيبهم ، وفيه تسلية للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ١٣ الى ١٩]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧)
قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩)

قلت : «اضرب» : يكون بمعنى : اجعل ، فيتعدى إلى مفعولين ، و«مثلا» : مفعول أول ، وأَصْحابَ : مفعول ثان ، أو : بمعنى «مثل» ، من قولهم : عندى من هذا الضرب كذا ، أي : من هذا المثال.
و«أصحاب» : بدل من «مثلا» ، و«إذ» :
بدل من «أصحاب». و«أئن ذكّرتم» : شرط ، حذف جوابه.

يقول الحق جل جلاله : وَاضْرِبْ لَهُمْ أي : لقريش مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ أي : واضرب لهم مثل أصحاب القرية «أنطاكية» أي : اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية ، إِذْ جاءَهَا أي : حين جاءها الْمُرْسَلُونَ رسل عيسى عليه السّلام «١» ، بعثهم دعاة إلى الحق ، إلى أهل أنطاكية. وكانوا عبدة أوثان.
إِذْ أَرْسَلْنا : بدل من «إذ» الأولى ، أي : إذ بعثنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ، بعثهما عيسى عليه السّلام ، وهما يوحنا وبولس ، أو : صادقا وصدوقا ، أو غيرهما. فلما قربا إلى المدينة ، رأيا شيخا يرعى غنيمات له ، وهو حبيب النجار ، فسأل عن حالهما ، فقالا : نحن رسولا عيسى ، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن؟ فقال : أمعكما آية؟

(١) هذا قول قتادة ، أخرجه الطبري (٢٢/ ١٥٥) والظاهر من (أرسلنا) أنهم أنبياء ، أرسلهم اللّه ، ويدلّ عليه : قول المرسل إليهم : ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وهذه المحاورة لا تكون إلا مع من أرسله اللّه ، ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح - عليه السّلام. راجع تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٩) والبحر المحيط (٧/ ٣١٣).

(٤/٥٦١)

فقالا : نشفى المريض ، ونبرىء الأكمه والأبرص ، وكان له ابن مريض منذ سنين ، فمسحاه ، فقام ، فآمن حبيب ، وفشا الخبر ، فشفى على أيديهما خلق كثير ، فدعاهما الملك ، وقال : ألنا إله سوى آلهتنا؟ فقالا : نعم ، من أوجدك وآلهتك ، فقال : قوما حتى أنظر فى أمركما ، فحبسهما.

ثم بعث عيسى عليه السّلام شمعون ، فدخل متنكرا ، وعاشر حاشية الملك ، حتى استأنسوا به ، ورفعوا خبره إلى الملك ، فاستأنس به. فقال له ذات يوم : بلغني أنك حبست رجلين ، فهل سمعت قولهما؟ قال : لا ، فدعاهما. فقال شمعون : من أرسلكما؟ فقالا : اللّه الذي خلق كل شيء ، ورزق كل حيّ ، وليس له شريك. فقال : صفاه وأوجزا ، فقالا :

يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، قال : وما آيتكما؟ قالا : ما يتمنّى الملك ، فدعا بغلام أكمه ، فدعوا اللّه ، فأبصر الغلام ، فقال شمعون للملك : أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا ، فيكون لك وله الشرف؟ فقال : ليس لى عنك سرّ ، إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ، ولا يضر ، ولا ينفع. فقال : إن قدر إلهاكما على إحياء ميّت آمنا ، فدعوا بغلام مات منذ سبعة أيام ، فقام ، فقال : إنى دخلت فى سبعة أودية من النار لما مت عليه من الشرك ، وأنا أحذّركم ما أنتم عليه! فآمنوا. قال : وفتحت أبواب السماء ، فرأيت شابا حسن الوجه ، يشفع لهؤلاء الثلاثة ، قال الملك : من هم؟ قال : شمعون وهذان ، فتعجّب الملك. فلمّا رأى شمعون أن قوله أثّر فيه ، نصحه وآمن ، وآمن قوم ، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل ، فهلكوا «١». كما سيذكره بقوله : إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ.

وهذا معنى قوله هنا : فَكَذَّبُوهُما أي : فكذّب أصحاب القرية المرسلين ، فَعَزَّزْنا : قويناهما. وقرأ شعبة بالتخفيف ، من : عزّه : غلبه ، أي : فغلبنا وقهرنا بِثالِثٍ ، وهو شمعون ، وترك ذكر المفعول به لأنّ المراد ذكر المعزّز به ، وهو شمعون ، وما لطف به من التدبير حتى عزّ الحق ، وذلّ الباطل. وإذا كان الكلام منصبا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجّهه إليه كأنما سواه مرفوض. فَقالُوا أي : الثلاثة لأهل القرية : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ من عند عيسى ، الذي هو من عند اللّه. وقيل : كانوا أنبياء من

عند اللّه – عز وجل – أرسلهم إلى قرية ، ويرجحه قول الكفرة : ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ، إذ هذه محاورة إنما تقال لمن ادعى الرسالة ، أي : ما أنتم إلا بشر ، ولا مزية لكم علينا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ أي : وحيا ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ فيما تدعون من الرسالة. قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ، أكّد الثاني باللام دون الأول لأن الأول مجرد إخبار ،

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ١١ – ١٢).

والثاني جواب عن إنكار ، فيحتاج إلى زيادة تأكيد. ورَبُّنا يَعْلَمُ جار مجرى القسم فى التأكيد ، وكذلك قولهم : شهد اللّه ، وعلم اللّه. وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أي : التبليغ الظاهر ، المكشوف بالآيات الظاهرة الشاهدة بصحته.

قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ تشاء منا بكم. وذلك أنهم كرهوا دينهم ، ونفرت منه نفوسهم. وعادة الجهال أن يتيمّنوا بكل شيء مالوا إليه ، وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا بما نفروا عنه ، وكرهوه ، فإن أصابهم بلاء ، أو نعمة ، قالوا :

بشؤم هذا ، وبركة ذلك. وقيل : حبس عنهم المطر ، فقالوا ذلك. وقيل : ظهر فيهم الجذام ، وقيل : اختلفت كلماتهم. ثم قالوا لهم : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا عن مقالتكم هذه لَنَرْجُمَنَّكُمْ لنقتلنكم بالحجارة ، أو : لنطردنّكم ، أو : لنشتمنكم ، وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ وليصيبنّكمنا عذاب الحريق ، وهو أشد العذاب.

قالُوا أي : الرسل طائِرُكُمْ سبب شؤمكم مَعَكُمْ وهو الكفر ، أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ أي : وعظتم ، ودعيتم إلى الإسلام تطيرتم ، وقلتم ما قلتم ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ مجاوزون الحد فى العصيان ، فمن ثمّ أتاكم الشؤم ، لا من قبل الرسل. أو : بل أنتم قوم مسرفون فى ضلالكم وغيّكم ، حيث تتشاءمون بمن يجب التبرّك به من رسل اللّه – عليهم الصلاة والسلام.

الإشارة : إذا أرسل اللّه إلى قلب وليّ واردا أولا ، ثم شك فيه ، ودفعه ، ثم أرسل ثانيا ودفعه ، ثم عززه بثالث ، وجب تصديقه والعمل بما يقول ، وإلا وقع فى العنت وسوء الأدب لأن القلب إذا صفى من الأكدار لا يتجلى فيه إلا الحق ، وإلا وجب اتهامه ، حتى يتبين وجهه. وباقى الآية فيه تسلية لمن قوبل بالتكذيب من الأولياء والصالحين. وباللّه التوفيق.

ثم تمم القصة ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٢٠ الى ٢٧]
وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤)
إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)

(٥٦٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٦٤
يقول الحق جل جلاله : وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى ، وهو حبيب النجار «١» ، وكان فى غار من الجبل يعبد اللّه ، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم ، وأظهر دينه. قال القشيري : فى القصة أنه جاء من قرية فسمّاها مدينة ، وقال : من أقصاها ، ولم يكن بينهما تفاوت كثير ، وكذلك أجرى سنّته فى استكثار القليل من فعل عبده ، إذا كان يرضاه ، ويستنزر الكثير من فضله إذا بذله وأعطاه. هـ.
ولما قدم سألهم : أتطلبون على ما تقولون أجرا؟ فقالوا : لا ، قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ، اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً على تبليغ الرسالة وَهُمْ مُهْتَدُونَ على جادة الهداية والنصح وتبليغ الرسالة. فقالوا : وأنت على دين هؤلاء؟ فقال : وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي : خلقنى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، وفيه التفات من التكلم إلى الخطاب ، ومقتضى الظاهر : وإليه أرجع. والتحقيق : أن المراد : مالكم لا تعبدون ، لكن لمّا عبّر عنهم بطريق التكلم تلطف فى الإرشاد ، بإيراده فى معرض المناصحة لنفسه ، وإمحاض النصح ، حيث أراد لهم ما أراد لها ، جرى على ذلك فى قوله : وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، والمراد : تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره.
ثم قال : أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً يعنى الأصنام ، إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ ، وهو شرط جوابه :
لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ من مكروه بالنصر والمظاهرة ، إِنِّي إِذاً أي : إذا اتخذت إلها غيره لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ لفى خطأ بيّن ، لا يخفى على عاقل ، إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ أي : اسمعوا إيمانى ، لتشهدوا به لى يوم القيامة ، فقتله قومه «٢».
ولمّا مات قِيلَ له : ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فدفن فى أنطاكية ، وقبره بها. ولم يقل : قيل له لأن الكلام مسوق لبيان القول ، لا لبيان المقول له لكونه معلوما. وفيه دلالة على أن الجنة مخلوقة الآن. وقال الحسن : لمّا أراد القوم أن يقتلوه رفعه اللّه ، فهو فى الجنة «٣» ، ولا يموت إلا بفناء السماوات والأرض ، فلما دخل الجنة ورأى نعمها ، وما أعد اللّه لأهل الإيمان ، قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي أي :

بالسبب الذي غفر لى ربى به ، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ بالجنة ، وهو الإيمان باللّه ورسله ، أو : بمغفرة ربى وإكرامى ، ف «ما» : موصولة ، حذف عائدها المجرور ، لكونه جرّ بما جرّ به الموصول ، أو : مصدرية ، وقيل : استفهامية. وردّ بعدم حذف ألفها.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ١٥٩) ، وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٤٩١) لعبد بن حميد ، وعبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن قتادة.

(٢) عزاه ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٥٦٨) لابن إسحاق ، فيما بلغه عن ابن عباس - رضى اللّه عنهما ، وكعب ، ووهب.

(٣) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ١٥).

(٥٦٤/٤)

قال الكواشي : تمنى أن يعلم قومه أنّ اللّه قد غفر له ، وأكرمه ، ليرغب قومه فى اتباع الرسل ، فيسلموا ، فنصح قومه حيا وميتا. وكذلك ينبغى أن يكون كل داع إلى اللّه تعالى ، فى المجاهدة والنصيحة لعباد اللّه ، وألّا يحقد عليهم إن آذوه ، وأن يكظم كل غيظ يناله بسببهم. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «سبّاق الأمم ثلاثة : على بن أبى طالب ، وصاحب يس ، ومؤمن آل فرعون» «١». هـ.

قال القشيري : قد أبلغ - حبيب الوعظ ، وصدق النّصح ، ولكن كما قالوا وأنشدوا :

وكم سقت فى آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغة المتنصّح «٢»

فلمّا صدق فى حاله ، وصبر على ما لقى من قومه ، ورجع إلى ربه ، تلقّاه بحسن إقباله ، وآواه إلى كنف إفضاله ، ووجد ما وعده به من لطف نواله ، فتمنّى أن يعلم قومه حاله ، فحقّق مناه ، وأخبر عن حاله ، وأنزل فيه خطابه ، وعرف قومه هـ.

الإشارة : أحبّ الخلق إلى اللّه أنفعهم لعياله وأنصحهم لهم. وفى الحديث : «لئن يهدى اللّه بك رجلا واحدا خير لك من حمر النّعم» «٣» فينبغى لمن أراد الظفر بمحبة الحبيب ، وينال منه الحظوة والتقريب ، أن يتحمل المشاق فى إرشاد عباد اللّه ، ويستعمل الأسفار فى ذلك ، لينال عنده الجاه الكبير ، والقرب العظيم. حققنا اللّه بذلك بمنّه وكرمه.

ثم ذكر هلاك قومه ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]

وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ أي : من بعد قتله ، أو رفعه مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ فيهلكهم ، وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ وما كان يصحّ فى حكمنا فى إهلاك قوم أن ننزل عليهم جندا من

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٤٩٢) بنحوه ، للطبراني ، وابن مردويه ، بسند ضعيف ، عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٢) البيت للعباس بن الفرج الرياشي. انظر : الكامل للمبرد (٢/ ٣٩٢).

(٣) جزء من حديث شريف ، أخرجه البخاري فى (فضائل الصحابة ، باب : مناقب سيدنا على بن أبى طالب ، ح ٣٧٠١) ومسلم فى (فضائل الصحابة باب : من فضائل سيدنا على بن أبى طالب رضي اللّه عنه ، ٤/ ١٨٧٢ ، ح ٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد ، رضي اللّه عنه.

(٥٦٥/٤)

السماء ، كما فعلنا معك يوم بدر والخندق لحظوتك عندنا. وفيه تحقير لإهلاكهم ، وتعظيم لشأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال فى الكشاف : فإن قلت : لم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق ، مع أنه كان يكفى ملك واحد ، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل ، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة؟ قلت : لأن اللّه فضّل محمدا صلى اللّه عليه وسلم بكل شيء ، على كبار الأنبياء وأولى العزم ، فضلا عن حبيب النجار. هـ. ملخصا. إِنْ كانَتْ العقوبة إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ، صاح عليهم جبريل عليه السّلام فَإِذا هُمْ خامِدُونَ ميتون.

الإشارة : كل وعيد ورد فى مكذّبى الرسل يجر ذيله على مكذّبى الأولياء لأنهم خلفاء الأنبياء ، إلا أن عقوبة مؤذى الأولياء ، تارة تكون ظاهرة ، فى الأبدان والأموال ، وتارة باطنة ، فى قسوة القلوب والتعويق عن صالح الأعمال ، وكسف نور الإيمان والإسلام ، والبعد وسوء الختام ، وهى الحسرة العظمى ، كما قال تعالى :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٣٠ الى ٣٢]

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٣٢)

قلت : كَمْ أَهْلَكْنا : معلّقة ليروا عن المفعولين. وأَنَّهُمْ : بدل من كَمْ ، والتقدير : ألم يروا كثرة إهلاكنا

قبلهم من القرون كونهم غير راجعين إليهم. ووَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ : من قرأ «لما» بالتخفيف «١» ، فإن : مخففة ، واللام : فارقة ، و«ما» مزيدة ، أي : وإنه ، أي : الأمر والشأن لجميع محضرون عندنا. ومن قرأها بالتشديد فإن :
نافية ، و«لمّا» : بمعنى إلا ، أي : ما كلهم إلا مجموعون ومحضرون للحساب.
يقول الحق جل جلاله : يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ تعالى ، فهذا أوان حضورك. ثم بيّن لأى شيء كانت الحسرة عليهم ، فقال : ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ من عند اللّه إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ، فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين ، المنوط بنصحهم خير الدارين ، أحقّاء بأن يتحسّروا ، ويتحسّر عليهم المتحسّرون ، ويتلهّف المتلهّفون. أو : هم متحسّر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين.
أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أي : ألم يعلموا كثرة إهلاكنا قبلهم من القرون الماضية ، أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ أي : كونهم غير راجعين إليهم أبدا حتى يلحقوا بهم ، ففيهم عبرة وموعظة لمن يتعظ.
وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ

---

(١) قرأ ، ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة «لمّا» بتشديد الميم. وقرأ الباقون بالتخفيف. انظر الإتحاف (٢/ ٤٠٠).

(٥٦٦/٤)

أي : وإن كلهم مجموعون محضرون للحساب ، أو معذّبون. وإنما أخبر عن «كل» بجميع لأن «كل» تفيد معنى الإحاطة. والجميع : فعيل ، بمعنى مفعول ، ومعناه : الاجتماع ، والمعنى : أن المحشر يجمعهم ، فكلهم مجموعون محضرون للحساب.
الإشارة : يا حسرة على العباد ، ما يأتيهم من داع يدعو إلى اللّه ، على طريق التربية الكاملة ، إلا كانوا به يستهزؤون. ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون ، ماتوا على الغفلة والحجاب ، وكلهم محضرون للعتاب والحساب ، ماتوا محجوبين ، ويبعثون محجوبين لإنكارهم فى الدنيا من يرفع عنهم الحجاب ، ويفتح لهم الباب ، وهم شيوخ التربية ، الموجودون فى كل زمان. أو : يا حسرة على المتوجهين ، ما يأتيهم من وارد على قلوبهم إلا كانوا به يستهزؤون ، ولو فهموا عن اللّه لعملوا بما يرد على قلوبهم الصافية.
ثم ذكر دلائل قدرته على البعث والإحضار ، فقال :
[سورة يس (٣٦) : الآيات ٣٣ الى ٣٦]

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)

قلت : «وآية لهم» : مبتدأ ، وجملة «الأرض الميتة» : خبر.

يقول الحق جل جلاله : وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها أي : وعلامة لهم تدلّ على أن اللّه يبعث الموتى ، ويحضرهم للحساب ، إحياء الأرض اليابسة بالمطر ، فاهتزت وربت بالنبات. وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا جنس الحب ، فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ، هم وأنعامهم. وقدّم الظرف ليدل على أن الحبّ هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ، ويقوم ، بالارتفاق به ، صلاح الإنسان ، إذا قلّ جاء القحط ، ووقع الضرّ ، وإذا فقد حضر الهلاك ، ونزل البلاء.

وَجَعَلْنا فِيها فى الأرض جَنَّاتٍ بساتين مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ ، وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ ، «من» : زائدة عند الأخفش ، وعند غيره : المفعول : محذوف ، أي : ما تتمتعون به من العيون.

(٥٦٧/٤)

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ أي : من ثمر اللّه ، أي : ليأكلوا مما خلق اللّه تعالى من الثمر ، أو : من ثمرة ، يخلقها اللّه من ذلك ، على قراءة الأخوين «١». وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أي : ومما عملته أيديهم من الغرس ، والسقي ، والتلقيح ، وغير ذلك ، مما تتوقف عليه فى عالم الحكمة ، إلى أن يبلغ الثمر منتهاه. يعنى : أن الثمر فى نفسه فعل اللّه ، وفيه آثار من عمل ابن آدم ، حكمة ، وتغطية لأسرار الربوبية. وأصله : من ثمرنا ، كما قال : وَجَعَلْنا وَفَجَّرْنا ، فالتفت إلى الغيبة. ويجوز أن يرجع الضمير إلى النخيل ، ويترك الأعناب غير مرجوع إليها لأنه علم أنها فى حكم النخيل. وقيل : «ما» نافية ، على أن الثمرة خلق اللّه ، ولم تعمله أيدى الناس ، ولا يقدرون عليه. أَفَلا يَشْكُرُونَ اللّه على هذه النعم الجسيمة ، وهو حثّ على الشكر.

سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ الأصناف كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ من النخيل ، والشجر ، والزرع ، والثمار ، كيف جعلها مختلفة فى الطعوم ، والروائح ، والشكل ، والهيئة ، واختلاف أوراق الأشجار ، وفنون أغصانها ، وأصناف نورها وأزهارها ، واختلاف أشكال ثمارها ، فى تفردها واجتماعها ، مع ما بسط فيها من الطبائع الأربع من الحرورة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، وما فيها من المنافع المتنوعة. وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ الأولاد ذكورا وإناثا ، وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ من أصناف لم يطلعهم اللّه عليها ، ولم يتوصّلوا إلى معرفتها ، ففى البحار عجائب لا يعلمها الناس. قال تعالى : وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ «٢». وفائدة التنزيه :

نفى تشبيه الذات بشىء من هذه الأزواج.

واللّه تعالى أعلم.

قال القشيري : والعجب ممّن ينكر أصول الدين ، ويقول : ليس فى الكتاب عليه دليل ، وأكثر ما فى القرآن من الآيات تدل على سبيل الاستدلال ، ولكن يهدى لنوره من يشاء ، ولو أنهم أنصفوا واشتغلوا بأهم شىء لهم ما ضيّعوا أصول الدين ، ورضوا فيها بالتقليد ، وادّعوا فى الفروع رتبة الإمامة والتصدير ، وفى معناها قيل :

يا من تصدّر فى دست «٣» الإمامة من مسائل الفقه إملاء وتدريسا

غفلت عن حجج التوحيد تحكمها شيّدت فرعا وما مهّدت تأسيسا! هـ

قلت : وحاصله : مدح علم الأصول وترك علم أصل الأصل ، وهو علم التوحيد الخاص ، أعنى الشهود والعيان.

وقد قلت فى ذلك ، تذليلا :

---

(١) قرأ حمزة والكسائي (من ثمر) بضم المثلثة والميم. وهى إما جمع «ثمرة» مثل : خشبة وخشب. وإما جمع ثمار ، وثمار جمع ثمرة ، فيكون جمع الجمع. انظر : شرح الهداية للمهدوى (٢/ ٢٨٥) ، وإتحاف فضلاء البشر (٢/ ٢٥).

(٢) من الآية ٨ من سورة النحل.

(٣) الدست : صدر البيت.

يا من تصدّى لعلم الأصل يحكمه قد فاتك الذوق بالوجدان مستأنسا.

الإشارة : وآية لهم النفس الميتة بالجهل أحييناها بالعلم ، وأخرجنا منها علما لدّنيا ، فمنه تتقوت القلوب والأرواح ، وجعلنا فيها جنات المعارف ، من نخيل الحقائق ، وأعناب الشرائع ، وفجّرنا فيها من عيون الحكم ، ليأكلوا من ثمره ، ومما عملته أيديهم ، من المجاهدات والمكابدات ، فإنها تثمر المشاهدات. سبحان الذي خلق الأزواج كلها من الأحوال ، والمقامات ، والعلوم ، والمعارف ، مما يستخرج من النفوس والأرواح ، ومما لا يعلمه إلا اللّه.

ثم ذكر برهانا آخر ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٣٧ الى ٤٠]

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)

يقول الحق جل جلاله : وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ نخرج منه النهار ، إخراجا لا يبقى معه شيء من ضوء النهار. مستعار من : سلخ الجلد عن الشاة ، أو : ننزع عنه الضوء نزع القميص الأبيض ، فيعرى نفس الزمان ، كشخص أسود ، نزع عنه قميص أبيض لأن أصل ما بين السماء والأرض من الهواء : الظلمة ، فاكتسى بعضه ضوء الشمس ، كبيت مظلم أسرج فيه ، فإذا غاب السراج أظلم. فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ داخلون فى الظلام.

وَآية لهم أيضا الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها لحدّ لها مؤقّت ، تنتهى إليه من فلكها فى آخر السنة. شبهت بمستقرّ المسافر إذا انتهى سفره ، أو : لحدّ لها من مسيرها كلّ يوم فى مرائى عيون الناس ، وهو المغرب. وفى الحديث الصحيح - من طريق أبى ذر - : «إنها تسجد كل يوم تحت العرش ، فتستأذن ، فيؤذن لها ، ويوشك أن تستأذن فلا يؤذن لها ، فتطلع من مغربها» ، ذرّ قال صلى اللّه عليه وسلم : «وذلك قوله : وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها» «١».

---

(١) أخرجه البخاري فى (بدء الخلق ، باب صفة الشمس والقمر ، ح ٣١٩٩) ومسلم فى (الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان ، ١/ ١٣٩ ح ٢٥١) من حديث أبى ذر رضي اللّه عنه.
[.....]

وعن ابن عباس : أن الشمس بمنزلة السانية ، تجرى بالنهار فى السماء فى فلكها ، فإذا غربت جرت فى الليل تحت الأرض فى فلكها ، حتى تطلع من مشرقها ، وكذلك القمر. كذا نقل الكواشي عنه. ولعله لا يناقض ما جاء فى الحديث ، من أنها تسجد تحت العرش ، لإحاطة العرش بالجميع ، فهى حيث ما انتهت تحته. ونقل الأقليشى من حديث عكرمة ، عن ابن عباس : (ما طلعت شمس حتى ينخسها سبعون ألف ملك ، فيقولون لها : اطلعى ، فتقول : لا أطلع على قوم يعبدوننى من دون اللّه ، فيأتيها ملك من اللّه ، فيأمرها بالطلوع ، فتستقل بضياء بنى آدم ، فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن الطلوع ، فتطلع بين قرنيه ، فيحرقه اللّه تعالى تحتها ، وما غربت شمس قط إلا خرّت للّه ساجدة ، فيأتيها شيطان ، يريد أن يصدها عن السجود ، فتغرب بين قرنيه ، فيحرقه اللّه تعالى ، وذلك قوله صلى

اللّه عليه وسلم : «ما طلعت شمس إلا بين قرنى الشيطان ، ولا غربت إلا بين قرنى الشيطان» «١».
هـ. على نقل شيخ شيوخنا الفاسى.
وقرأ ابن عباس وابن مسعود : «تجرى لا مستقر لها» ، ومعناها : إنها جارية أبدا ، لا تثبت فى مكان.
وقراءة الجماعة أوفق بالحديث. ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ أي : ذلك الجري على ذلك التقدير البديع ، والحساب الدقيق ، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، العليم بكل معلوم.
وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ ، من نصبه فبفعل مضمر ، ومن رفعه فمبتدأ ، والخبر : قَدَّرْناهُ مَنازِلَ ، وهى ثمانية وعشرون منزلا : فرع الدلو المقدم ، فرع الدلو المؤخر ، بطن الحوت ، النطح ، البطين ، الثّريّا ، الدّبران ، الهقعة ، الهنعة ، الذّراع ، النّثرة ، الصّرفة ، الجبهة ، الطّرفة ، الزّبرة ، العوّاء ، السّماك ، الغفر ، الزّبانى ، الإكليل ، القلب ، الشّولة ، النعائم ، البلدة ، سعد الذّابح ، سعد السّعود ، سعد الأخبية «٢» ، ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاها ، ولا يتقاصر عنها. على تقدير مستو ، يسير فيها من ليلة المستهلّ إلى الثامنة والعشرين ، ثم يستترّ ليلتين ، أو ليلة إذا نقص الشهر. ولا بد فى قَدَّرْناهُ مَنازِلَ من تقدير مضاف أي : قدرّنا سيره ، أو نوره ، فيزيد وينقص ، إذ لا معنى لتقدير القمر منازل ، فيكون «منازل» ظرفا.
فإذا كان فى آخر منازله ، دق وتقوس ، حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ أي : كالشّمراخ ، وهو عنقود التمر إذا يبس واعوج. ووزنه فعلون ، من الانعطاف ، وهو الانعراج ، الْقَدِيمِ العتيق المحول «٣» ، وإذا قدم دقّ ، وانحنى ، واصفرّ ، فشبه القمر به من ثلاثة أوجه.

---

(١) أخرجه ابن عساكر (تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ١٢٤).
(٢) انظر البحر المحيط (٧/ ٣٢٢) وتفسير القرطبي (٦/ ٥٦٣٢ - ٥٦٣٣).
(٣) أي : مرّ عليه حول (عام) فصاعدا.

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها يصحّ ويستقيم لها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ فتجتمع معه فى وقت واحد ، وتداخله فى سلطانه ، فتطمس نوره قبل تمام وقته لأن لكلّ واحد من النيّرين سلطانا عل حياله ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل. وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ولا يسبق الليل النهار ، أي : آية الليل لا تسبق آية النهار ، وهى النيّران. ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن تقوم الساعة ، فيجمع اللّه بين الشمس والقمر ، ويكوران ويرميان فى النار ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ أي : وكلهم فى فلك يسبحون

يسيرون فالتنوين للعوض والضمير للشمس والقمر فإنّ اختلاف الأحوال يوجب تعددا ما فى الذات ، أو : للكواكب فإن ذكر النيرين مشعر بها وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ يقرأ مقلوبا ومرتبا ، ففيه نوع من البديع.
الإشارة : وآية لهم ليل الغفلة نسلخ منه نهار اليقظة ، ونهار اليقظة ، نسلخ منه ليل الغفلة ، فلا يزال العبد بين غفلة ويقظة ، حتى تشرق عليه شمس العرفان ، وتستقر فى قلبه ، فلا غروب لها ، وإليه الإشارة بقوله : وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ، ومستقرها : قلوب العارفين. وقمر الإيمان قدّرناه منازل ، ينقص ويزيد ، بزيادة التفرغ والتوجه ونقصانه ، حتى تطلع عليه شمس العرفان ، فينسخ نوره ، فلا زيادة ولا نقصان. قال القشيري : فشبيه الشمس عارف أبدا فى ضياء معرفته ، صاحب تمكين ، غير متلوّن ، شرف فى بروج سعادته قائما ، لا يأخذه كسوف ، ولا يستره سحاب. وشبيه القمر عبد تلون أحواله فى التنقل ، صاحب تلوين ، له من البسط ما يرقيه إلى حدّ الوصال ، ثم يردّ إلى الفترة ، ويقع فى القبض مما كان فيه من صفاء الحال ، فيتناقص ، ويرجع إلى نقص أمره ، إلى أن يدفع قلبه عن وقته ، ويجود عليه الحقّ سبحانه ، فيوفّقه لرجوعه عن فترته ، وإفاقته من سكرته ، فلا يزال تصفوا أحواله ، إلى أن يقرب من الوصال ، ويرزق صفة الكمال ، ثم بعد ذلك يأخذ فى النقص والزوال ، كذلك حاله إلى أن يحقّ له بالمقسوم ارتحاله ، وأنشدوا :
كلّ يوم تتلون غير هذا بك أجمل. «١» هـ.
ثم ذكر دليلا آخر ، فقال :
[سورة يس (٣٦) : الآيات ٤١ الى ٤٤]
وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (٤٤)

---

(١) غنته جارية فى قصة. انظرها فى الرسالة القشيرية/ ١٥٦. وورد فى الكبريت الأحمر (٢/ ١٤٧) : [غير هذا بك أحسن].

يقول الحق جل جلاله : وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ أولادهم ، الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم ، أو صبيانهم ونسائهم الذين يستصحبونهم فإن الذرّية تقع عليهن لأنهن مزارعها. وتخصيصهم لأن استقرارهم فى السفن أشق ، وتماسكهم فيها أعجب ، أو خصهم لضعفهم عن السفر ، فالنعمة فيهم أظهر. فحملناهم فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ : المملوء ، والظاهر : أن الضمير فى «ذريتهم» للجنس. كأنه

قال : ذريات جنسهم ونوعهم. قال ابن عباس وجماعة : يريد بالذريّات المحمولين : أصحاب نوح فى السفينة ، ويريد بقوله : وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ : السفن الموجودة فى جنس بنى آدم إلى يوم القيامة ، وإياها عنى بقوله : وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ .. إلخ.

وأما إطلاق الذرية على الآباء ، فقال ابن عطية : لا يعرف لغة ، وإنما المراد بالذرية الجنس ، أو حقيقة ما تقدم.

وعليه يكون قوله : وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ يراد به الإبل فإنها سفن العرب.

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ إذا اركبوا سفن البحر ، فَلا صَرِيخَ لَهُمْ فلا مغيث ، أو : لا مستغيث لهم ، وهو أبلغ ، أي : لم تبق لهم قدرة على الاستغاثة. وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ ينجون من الموت ، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ أي : لا ينقذون إلا لرحمة منا ، ولتمتيع بالحياة إلى انقضاء الأجل. فهما مفعولان له. وقال بعضهم : الاستثناء راجع لثلاث جمل : «نغرقهم» ، «فلا صريخ لهم» ، «ولا هم ينقذون».

الإشارة : إذا عامت أفكار العارفين ، فى بحار التوحيد ، وأسرار التفريد ، تلاطمت عليها أمواج الدهش من كبرياء اللّه ، فإن سبق لها سابق عناية الاعتدال أوت إلى سفينة الشريعة ، بعد ركوبها فى فلك الحقيقة ، وإليه الإشارة فى قوله : حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ. وإن لم تسبق له عناية ، غرق فى بحر الزندقة والإلحاد ، كما قال تعالى : وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ من شيخ كامل ، ولا هم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين الكمال ، فيعتدل. قال القشيري : الآية إشارة إلى حمل الخلق فى سفينة السلامة ، فى بحار التقدير ، عند تلاطم أمواجها ، بفنون من التغيير والتأثير ، وكم من عبد غرق فى أشغاله ، فى ليله ونهاره ، لا يستريح لحظة فى كدّ أفعاله ، ومقاساة التعب من أعماله ، وجمع ماله ، بنسيان عاقبته ومآله. ثم قال فى قوله تعالى :

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ : لو لا صفة جوده وفضله لحلّ بهم من البلاء ما حلّ بأمثالهم ، لكنه لحسن إفضاله ، حفظهم فى جميع أحوالهم. هـ.

(٥٧٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٧٣

ثم ذكر كفرهم لهذه النعم ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٧)

قلت : جواب «إذا» محذوف ، أي : أعرضوا ، فدل عليه قوله : «معرضين».
يقول الحق جل جلاله : وَإِذا قِيلَ لَهُمُ أي : كفار قريش : اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ أي : ما تقدّم من ذنوبكم ، وما تأخّر مما أنتم تعملونه بعد ، أو : ما بين أيديكم : ما سلف من مثل الوقائع التي حلّت بالأمم المكذبة قبلكم ، وما خلفكم من أمر الساعة ، أو : ما بين أيديكم من فتنة الدنيا ، وما خلفكم من عذاب الآخرة.
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لتكونوا فى رجاء رحمة اللّه ، فإذا قيل لهم ذلك أعرضوا.
قال تعالى : وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ الدالة على وحدانية تعالى ، وصدق رسوله ، إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ لا يلتفتون إليها ، ولا يرفعون لها رأسا ، ف «من» الأولى لتأكيد النفي ، والثانية للتبعيض ، أي : دأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة.
وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ أي : تصدّقوا على الفقراء ، قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا من مشركى مكة لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ. عن ابن عباس رضي اللّه عنه : كان بمكة زنادقة ، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين ، قالوا : لا واللّه ، أيفقره اللّه ونطعمه نحن؟! «1». قيل : سبب الآية : أن قريشا لمّا أسلم ضعفاؤهم ، قطعوا عنهم صلاتهم ، فندبهم بعض المؤمنين إلى ذلك ، فقالوا تلك المقالة.
وقيل : إن قريشا شحّت - بسبب أزمة نزلت بهم - على المساكين ، مؤمنهم وكافرهم ، فندبهم النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى النفقة على المساكين ، فقالوا على سبيل الجهل : أنطعم قوما أراد اللّه فقرهم وتعذيبهم. ومن أمثالهم : كن مع اللّه على المدبر ، حتى كان الرجل يرعى إبله ، فيجعل السمان فى الخصب ، والمهازيل فى الجدب ، فإذا قيل له فى ذلك ، قال :

---

(1) انظر : البحر المحيط (7/ 325) وتفسير القرطبي (6/ 5641).

أكرم ما أكرم اللّه ، وأهين ما أهان اللّه. ويحتمل أن يكون قولهم ذلك استهزاء ، فكأنهم قالوا : لم لا يرزقهم إلهك الذي تزعم.
قال الكواشي : قد يتمسك بهذه الآية بعض البخلاء ، فيقول : لا أعطى من حرمه اللّه. وليس هذا بصحيح لأن اللّه تعالى أغنى وأفقر ، وجعل للفقير جزءا من مال الغنى كما يشاء. وفى الإحياء : أن المراد بالصدقة وشرعها :

التخلص من رذيلة البخل ، وذلك نفع يعود على المتصدق ، بإخراجه عن حب الدنيا ، وتعلق قلبه بها ، الصادّ عن اللّه ، وهؤلاء لم يفهموا حكمة اللّه ، فقالوا ما قالوا. هـ. ثم قال : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ فى أمركم لنا بالنفقة ، أو فى غير ذلك من دينكم ، أو : يكون من قول اللّه تعالى للكفرة.

الإشارة : وإذا قيل للعامة : اتقوا ما بين أيديكم ، من شدائد الدنيا ، وما خلفكم ، من أهوال الآخرة ، لعلكم ترحمون فيهما فإن التقوى الكاملة تحفظ الرجل فى حياته وبعد مماته ، وربما يسرى الحفظ إلى عقبه ، كما هو مشاهد فى عقب أولياء اللّه. أو : إذا قيل لهم : اتقوا خواطر التدبير فيما بين أيديكم إذ ليس أمره بيدكم ، فجل ما تبنيه من التدبير تهدمه رياح التقدير ، وخواطر التدبير ، فيما سلف قبلكم ، إذ فيه تحصيل الحاصل ، وتعطيل الوقت بلا فائدة. لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ بمقام الرضا ، وسكون القلب وراحته تحت مجارى القضاء ، أعرضوا وانهمكوا فى أودية الغفلة والخواطر. وما تأتيهم من آية دالة على وحدانيته تعالى ، وانفراده بالخلق والتدبير ، إلا كانوا عنها معرضين.

قال القشيري : هذه صفة من سيّبهم فى أودية الخذلان ، ووسمهم بسمة الحرمان ، وأصمّهم عن سماع الرّشد ، وصدّهم بالخذلان عن سلوك القصد ، فلا تأتيهم آية فى الزّجر إلا قابلوها بإعراضهم ، وتجافوا عن الاعتبار بها ، على دوام انقباضهم ، وإذا أمروا بالإنفاق والإطعام عارضوا بأنّ اللّه رازق الأنام ، وإذا شاء نظر إليهم بالإنعام. هـ.

ثم ذكر استعجالهم البعث ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٤٨ الى ٥٤]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٨) ما يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)

يقول الحق جل جلاله : وَيَقُولُونَ - استهزاء - : مَتى هذَا الْوَعْدُ أي : وعد البعث والقيامة إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فيما تقولون. خطاب للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، وأصحابه. قال تعالى : ما يَنْظُرُونَ ينتظرون إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً هى : النفخة الأولى ، تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ يختصمون ، يخصم بعضهم بعضا فى المعاملات ، لا يخطر ببالهم أمرها ، فتأتيهم بغتة. وقرأ حمزة - بسكون الخاء - من : خصمه : إذا

غلبه فى الخصومة. وفتح الباقون ، مع الاختلاس والنقل وعدمهما. فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً فلا يستطيعون أن يوصوا فى أمورهم بشيء ، وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم ، بل يموتون حيث يسمعون الصيحة.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ النفخة الثانية ، بعد خلو الأرض أربعين سنة. والصور : القرن ، أو : جمع صورة. فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ القبور إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ يسرعون فى المشي إلى المحشر.

قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا من أنشرنا مِنْ مَرْقَدِنا مضجعنا؟. قال مجاهد وأبيّ بن كعب : للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا صيح بأهل القبور ، قالوا يا ويلنا من بعثنا؟ وأنكره ابن عطية ، وقال : إنما هو استعارة ، كما تقول فى قتيل : هذا مرقده إلى يوم القيامة. فتقول الملائكة فى جوابهم : هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ، أو يقوله المؤمنون ، أو : الكفار ، يتذكرون ما سمعوه من الرسل ، فيجيبون به أنفسهم ، أو بعضهم بعضا. و«ما» : مصدرية ، أي : هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين ، على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق. أو : موصولة ، أي : هذا الذي وعده الرحمن والذي صدقه المرسلون ، أي : والذي صدق فيه المرسلون.

إِنْ كانَتْ النفخة الأخيرة إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ للحساب ، ثم يقال لهم فى ذلك اليوم : فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من خير أو شر.

الإشارة : إذا كبر يقين العبد صارت عنده الأمور المستقبلة واقعة ، والآجلة عاجلة ، فيستعد لها قبل هجومها ، ويتأهب للقائها قبل وقوعها ، أولئك الأكياس ، الذين نظروا إلى باطن الدنيا ، حين نظر الناس إلى ظاهرها ، واهتموا بآجالها ، حين اغتر الناس بعاجلها ، كما فى الحديث فى صفة أولياء اللّه.

(٥٧٥/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٧٦

ثم بيّن الحق تعالى مآلهم ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٥٥ الى ٥٩]

إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (٥٦) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)

قلت : «سلام» : بدل من «ما» ، أو : خبر عن مضمر ، أو : مبتدأ حذف خبره ، أو : من ذلك سلام ، وهو أظهر ليكون عاما ، أي : ولهم كل ما يتمنون ، كقوله : وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ «١» ومن جملة ذلك : سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ فيوقف على «ما يدّعون». و«قولا» : منصوب على

المصدر المحذوف ، أي : يقال لهم «قولا» ، وقيل :

على الاختصاص.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ - بضم الغين وسكونها «٢» - أي : فى شغل لا يوصف لعظم بهجته وجماله. فالتنكير للتعظيم ، وهو افتضاض الأبكار ، على شط الأنهار ، تحت الأشجار ، أو سماع الأوتار فى ضيافة الجبار. وعن أبى هريرة وابن عباس - رضى اللّه عنهما - قيل : يا رسول اللّه أنفضي إلى نسائنا فى الجنة ، كما نفضى إليهن فى الدنيا؟. قال : «نعم ، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليفضى فى الغداة الواحدة إلى مائة عذراء» «٣» وعن أبى أمامة : سئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : هل يتناكح أهل الجنة؟ فقال : «نعم ، بذكر لا يملّ ، وشهوة لا تنقطع ، دحما دحما» «٤». قال فى القاموس : دحمه - كمنعه : دفعه شديدا. وعن أبى سعيد الخدري قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عادوا أبكارا» «٥» ، وفى رواية أبى الدرداء : «ليس فى الجنة منّى» ، وفى رواية : «بول أهل الجنة عرق يسيل تحت أقدامهم مسكا» «٦» وعن إبراهيم النخعي : جماع ما شئت ، ولا ولد. هـ. فإذا اشتهى الولد كان بلا وجع ، فقد روى الحاكم والبيهقي عنه - عليه الصلاة والسلام - : «إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد ، كما يشتهى ، فيكون حمله وفصاله وشبابه فى ساعة واحدة». انظر البدور السافرة.

---

(١) من الآية ٣١ من سورة فصلت.

(٢) قرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر (شغل) بضم الغين ، وقرأ الباقون بالسكون. انظر الإتحاف (٢/ ١٠٢).

(٣) أخرج حديث أبى هريرة : البزار (كشف الأستار ح ٣٥٢٥). قال الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٤١٦) : (رواه البزار والطبراني ، ورجال هذه الرواية رجال الصحيح ، غير محمد بن ثواب ، وهو ثقة). وحديث ابن عباس عزاه فى المجمع لأبى يعلى.

(٤) عزاه فى المجمع (١٠/ ٤١٦) للطبراني.

(٥) أخرجه البزاز (كشف الأستار ح ٣٥٢٧). وقال الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٤١٧) : رواه البزار ، والطبراني فى الصغير ، وفيه معلى ابن عبد الرحمن ، وهو كذاب.

(٦) عزاه فى المجمع (١٠/ ٤١٦) للطبراني فى الأوسط وفى الكبير ، بنحوه ، عن زيد بن أرقم.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٧٧

قلت : والتحقيق أن شغل أهل الجنة مختلف ، فمنهم من هو مشتغل بنعيم الأشباح ، من حور ، وولدان ، وأطعمة ، وأشربة ، على ما يشتهى ، ومنهم من هو مشتغل بنعيم الأرواح ، كالنظر لوجه اللّه العظيم ، ومشاهدة الحبيب ، ومناجاة ومكالمات ، ومكاشفات ، وترقّيات فى معاريج الأسرار كل ساعة. ومنهم من يجمع له بين النعيمين ، وسيأتى فى الإشارة. وقوله تعالى : فاكِهُونَ أي : متلذذون فى النعمة ، والفاكه والفكه : المتنعم ، ومنه : الفكاهة لأنه مما يتلذّذ به ، وكذا الفاكهة.

ثم قال تعالى : هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ جمع ظل ، وهو : الموضع الذي لا تقع عليه الشمس. وفى قراءة «ظلل» بالضم ، جمع ظلة ، كبرمة وبرام ، وهو ما يسترك عن الشمس ، وظل أهل الجنة لا تنسخه شمس ، قال تعالى : وَظِلٍّ مَمْدُودٍ «١» عَلَى الْأَرائِكِ : جمع أريكة ، وهى السرير فى الحجلة. فالأرائك : السرر المفروشة ، بشرط أن تكون عليها الحجلة ، وإلا فليست بأريكة ، والحجلة : ما يستر السرير من ثوب الحرير. وهم مُتَّكِؤُنَ عليها كالملوك على الأسرة. لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ كثيرة مما يشتهون. وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ أي : كل ما يدعونه يأتيهم فورا ، فوزنه : يفتعلون ، من الدعاء ، أو : ما يتمنون من نعيم الأشباح والأرواح ، من قولهم : ادّع علىّ ما شئت ، أي : تمنّه. وقال الفراء : هو من الدعوى ، ولا يدّعون إلا ما يستحقون.

سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ أي : من أهم ما يدعون : سلام يقال لهم قولا من رب رحيم ، بلا واسطة مبالغة فى تعظيمهم ، وذلك غاية متمناهم ، مضافا لرؤيته ، ومن مقتضى الرحمة : الإبقاء عليهم مع ذلك. قال القشيري : يسمعون كلامه وسلامه بلا واسطة ، وأكّد بقوله : قَوْلًا. وبقوله : مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ليعلم أنه ليس على لسان سفير ، والرحمة فى تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية فى حال التسليم عليهم ، ليكمل لهم النعمة هـ. وفى الحديث عنه صلى اللّه عليه وسلم : «بينا أهل الجنة فى نعيمهم ، إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الربّ قد أشرف عليهم من فوقهم ، فيقول : السلام عليكم يا أهل الجنة ، فينظر إليهم ، وينظرون إليه» «٢».

ثم ذكر أهل البعد والحجاب ، فقال : وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ أي : انفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة ، وذلك حين يحشر المؤمنون ، ويساق بهم إلى الجنة. وقال قتادة : عزلوا عن كل خير. وعن الضحاك : لكل كافر بيت من النار ، يكون فيه ، لا يرى ولا يرى أبدا. هـ.

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الواقعة.

(٢) أخرجه ابن ماجه فى (المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية ١/ ٦٦ ، ح ١٨٤) وزاد السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٥٠١) عزوه لابن أبى الدنيا ، فى صفة الجنة ، والبزار ، وابن أبى حاتم ، والآجرى فى الرؤية ، وابن مردويه ، عن سيدنا جابر رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٧٨

الإشارة : إنّ أصحاب الجنة المعجّلة لأوليائه ، اليوم ، فى شغل كبير ، لا تجدهم إلا مشتغلين باللّه ، بين شهود واستبصار ، وتفكر واعتبار ، فى محل المشاهدة والمكالمة ، والمناجاة والمساررة ، أوقاتهم محفوظة ، وحركاتهم وسكناتهم بالإخلاص ملحوظة ، فهم فى شغل شاغل عن الدنيا وأهلها ، هم ومن تعلق بهم فى ظلال الرضا ، وبرد التسليم يرتادون ، وفى مشاهدة وجه الحبيب يتنعمون. قال القشيري : إن أصحاب الجنة اليوم ، أي : طلابها ، والساعون لها ، والعاملون لنيلها ، ولمثل ذلك فليعمل العاملون ، فهم فى الدنيا فى طلب الجنة عن المنعم بها ، كما جاء فى الحديث : «أكثر أهل الجنة البله» «١» ، ومن كان فى الدنيا عن الدنيا حرّا ، فلا يبعد أن يكون فى الجنة عن الجنة حرا ، «يختص برحمته من يشاء» - قلت : فالبله هم أهل الحجاب ، الذين يعبدون اللّه لطلب الجزاء ، ويقنعون بالنعيم الحسى - ثم قال : ويقال : الحقّ تعالى لا يتعلّق به حقّ ولا باطل ، فلا تنافى بين اشتغالهم بلذاتهم مع أهليهم ، وبين شهودهم مولاهم ، كما أنهم اليوم مستديمون لمعرفته ، بأى حالة كانت. ولا يقدح اشتغالهم باستيفاء حظوظهم ، فى معارفهم. هـ. مختصرا.

قلت : وما فى سورة الواقعة ، من ذكر نعيم السابقين ، يدلّ على أنهم يجتمع لهم نعيم الحور والولدان ، مع نعيم العيان والرضوان لأنهم فى الدنيا جمعوا بين القيام بوظائف الشريعة ، ومعاينة أسرار الحقيقة. واللّه تعالى أعلم.

قوله تعالى : سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ قال ابن عطاء : السلام جليل عظيم الخطر ، وأجلّه خطرا ما كان وقت المشاهدة والمصافحة ، حين يقول : سلام قولا من رب رحيم. قال القشيري : الرحمة فى ذلك الوقت أن يبقهم فى حال سماع السلام ، أو حال اللقاء ، لئلا تصحبهم دهشة ، ولا تلحقهم حيرة. هـ. وقال الورتجبي : سلام اللّه أزلى الأبد ، غير منقطع عن عباده الصالحين ، فى الدنيا والآخرة ، لكن فى الجنة ترفع عن آذانهم جميع الحجب ، فسمعوا كلامه ، ونظروا إلى وجهه كفاحا. هـ. قلت : وقد يرفع فى دار الدنيا ، فيسمع سلام اللّه على عباده ، كما وقع لبعض الأولياء - . قيل : وفى قوله : رَحِيمٍ إشارة إلى عدم حجبهم عن جماله أبدا ، مع الإبقاء عليهم فى حال السلام واللقاء ، فلا تصحبهم دهشة ، كما تقدم. وقيل : الإشارة فى الرحيمية : أن ذلك الوصول ليس باستحقاق ولا سبب من فعل العبد ، وإنما هو بالرحمة ، فيكون للعاصى فيه نفس ومساغ للرجاء. قاله المحشى.

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (٢/ ١٢٠ - ١٢٦ ، ح ١٣٦٦) من حديث جابر رضي اللّه عنه قال البيهقي معقبا : هذا الحديث بهذا الإسناد منكر.

كما أخرجه البيهقي فى الموضع نفسه (ح ١٣٦٧) والديلمي (الفردوس ح ١٤٦٣) ، وعزاه فى الكنز (ح ٣٩٢٨٣) للبزار ، من حديث أنس بن مالك. وقال العراقي فى المغني (٣/ ٢٠) : أخرجه البزار ، من حديث أنس وضعّفه ، وصححه القرطبي فى التذكرة ، وليس كذلك ، فقد قال ابن عدى : إنه منكر. راجع الكامل لابن عدى (٣/ ١١٦٠) والعلل المتناهية (٢/ ٩٣٤).
قلت : قال فى النهاية فى غريب الحديث (١/ ١٥٥) : «البله» هو جمع الأبله. وهو الغافل عن الشر ، المطبوع على الخير ، وقيل : هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس لأنهم أغفلوا أمر دنياهم ، فجهلوا حذق التصرف فيها ، وأقبلوا على آخرتهم ، فشغلوا أنفسهم بها ، فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة. فأما الأبله ، وهو الذي لا عقل له ، فغير مراد فى الحديث.
[.....]

وقوله : وَامْتازُوا الْيَوْمَ إشارة إلى أن غيبة الرقيب من أتم النعمة ، وإبعاد العدوّ من أجلّ العوارف ، فالأولياء فى إيجاب القربة ، والأعداء فى العذاب والحجبة. انظر القشيري.
ثم ذكر توبيخ أعدائه يوم القيامة ، فقال :
[سورة يس (٣٦) : الآيات ٦٠ الى ٦٥]
أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)
الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)
يقول الحق جل جلاله ، فى توبيخ الكفرة يوم القيامة : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، يقال : عهد إليه : إذا وصّاه. وهذا العهد إما على ألسنة الرسل ، أو : يوم «ألست بربكم» ، أو : ما نصبه لهم من الحجج العقلية ، والدلائل السمعية ، الآمرة بعبادته ، الزاجرة عن عبادة غيره. وعبادة الشيطان :
طاعته فيما يوسوس به إليهم ، ويزيّنه لهم. وَأَنِ اعْبُدُونِي : عطف على «ألّا تعبدوا» ، أي : عهدنا إليكم ألّا تطيعوا الشيطان ووحّدونى ، وأطيعونى ، هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ إشارة إلى ما عهد إليهم فيه من معصية الشيطان ، وطاعة الرحمن ، أي : هذا طريق بليغ فى الاستقامة ، لا طريق أقوم منه. وفيه إشارة إلى جنايتهم على أنفسهم بعد النصح التام ، فلا حجة بعد الإعذار ، ولا ظلم بعد التذكير والإنذار.

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا أي : خلقا كَثِيراً - وفيه لغات مذكورة فى كتب القراءات - أي : ولقد أتلف الشيطان عن طريقى المستقيم خلقا كثيرا ، بأن أشركوا معى غيرى ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ، قرّعهم على تركهم الانتفاع بالعقل ، الذي ركّبه فيهم ، حيث استعملوه فيما يضرهم ، من تدبير حظوظهم وهواهم.

هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ بها ، اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أي : ادخلوا واحترقوا فيها ، بكفركم وإنكاركم لها.

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ أي : نمنعهم من الكلام ، وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ. يروى : أنهم يجحدون ، ويخاصمون ، فتشهد عليهم جيرانهم ، وأهاليهم ، وعشائرهم ، فيحلفون : ما كانوا

مشركين ، فحينئذ يختم على أفواههم ، وتتكلم أيديهم وأرجلهم. وفى الحديث : «يقول العبد يوم القيامة : إنى لا أجيز علىّ إلا شاهدا من نفسى ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله ، ثم يخلّى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعدا لكنّ ، وسحقا ، فعنكنّ كنت أناضل» «١».

الإشارة : كل من آثر حظوظه ومناه ، ولم يقدر على مجاهدة هواه ، حتى مات محجوبا عن اللّه ، يلحقه شيء من هذا التقريع. والصراط المستقيم : هو طريق التربية ، التي توّصل إلى الحضرة ، التي قام بيانها الأولياء العارفون باللّه. ولقد أضلّ الشيطان عنها خلقا كثيرا ، حملهم على طلب الدنيا والرئاسة والجاه ، فلم يقدروا على التفرغ لذكر اللّه ، ولم يحطوا رؤوسهم لمن يعرّفهم باللّه ، فيقال لهم : هذه نار القطيعة التي كنتم توعدون ، إن بقيتم مع حظوظهم ورئاستكم ، اصلوها اليوم بكفركم بطريق التربية ، اليوم نختم على أفواههم ، فلا مناجاة بينهم وبين حبيبهم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم - بلسان الحال أو المقال - بما كانوا يكسبون من التقصير.

قال القشيري : قوله : وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ .... إلخ ، فأمّا الكفار فشهادة أعضائهم عليهم مؤبدة ، وأما العصاة من المؤمنين فقد تشهد عليهم أعضاؤهم بالعصيان ، ولكن تشهد عليهم بعض أعضائهم بالإحسان ، وأنشدوا :

بينى وبينك يا ظلوم الموقف والحاكم العدل ، الجواد المنصف.

وفى بعض الأخبار المروية : أن عبدا شهدت أعضاؤه عليه بالزّلّة ، فتطير شعرة من جفن عينه ، فتشهد له بالشهادة. فيقول الحق تعالى : يا شعره جفن عبدى احتجّى عن عبدى ، فتشهد له بالبكاء من خوفه ، فيغفر له ، وينادى مناد : هذا عتيق اللّه بشعرة. هـ.

ثم هددهم فى دار الدنيا ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٦٦ الى ٦٨]

وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨)

---

(١) أخرجه مسلم فى (الزهد ، ٤/ ٢٨٨٠ ، ح ٢٩٦٩) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

(٥٨٠/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٨١

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ اليوم ، أي : أعميناهم وأذهبنا أبصارهم. والطمس : سد شق العين حتى تعود ممسوخة. فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ ، على حذف الجار ، وإيصال الفعل ، أي :
فاستبقوا إلى الطريق الذي اعتادوا سلوكه ، وبادروا إليه لما يلحقهم من الخوف ، فَأَنَّى يُبْصِرُونَ فكيف يبصرون حينئذ من جهة سلوكهم ، فيضلون فى طريقهم عن بلوغ أملهم.
وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ قردة ، وخنازير ، أو حجارة ، عَلى مَكانَتِهِمْ : على منازلهم ، وفى ديارهم ، حيث يأمنون من المكاره. والمكانة والمكان واحد ، كالمقامة والمقام. فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ فلم يقدروا على ذهاب ومجىء ، أو : مضيا أمامهم ، ولا يرجعون خلفهم. والمعنى : أنهم لكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم أحقاء بأن نفعل بهم ذلك ، لكنا لم نفعل لشمول الرحمة لهم ، واقتضاء الحكمة إمهالهم.
وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نطل عمره نُنَكِّسْهُ «١» فِي الْخَلْقِ نقلبه فيه. وقرأ عاصم وحمزة بالتشديد. والنكس والتنكيس : جعل الشيء أعلاه أسفله. والمعنى : من أطلنا عمره نكسنا خلقه ، وهو نوع من المسخ ، فصار بدل القوة ضعفا ، وبدل الشباب هرما ، وذلك أنا خلقناه على ضعف فى جسده ، وخلو من عقل وعلم ، ثم جعلناه يتزايد إلى أن يبلغ أشده ، ويستكمل قوته ، ويعقل ، ويعلم ما له وعليه ، فإذا انتهى نكّسناه فى الخلق ، فجعلناه يتناقص حتى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبىّ ، فى ضعف جسده ، وقلّة عقله ، وخلوّه من العلم ، كما ينكس السهم ، فيجعل أعلاه أسفله. قال تعالى : وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ «٢». قال ابن عباس :
«من قرأ القرآن - أي وعمل به - لم يرد إلى أرذل العمر». أَفَلا يَعْقِلُونَ أنّ من قدر أن ينقلهم من

الشباب إلى الهرم ، ومن القوة إلى الضعف ، ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ، قادر على أن يطمس على أعينهم ، ويمسخهم على مكانتهم ، ويبعثهم بعد الموت.

الإشارة : ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ، فلا يهتدون إلى طريق السلوك ، ولا يسلكونها ، فيبقوا فى الحجاب على الدوام. ولو نشاء لمسخنا قلوبهم على مكانتهم ، من رجاحة العقل والفهم ، فلا يتدبرون إلا فى الأمور الحسية ،

---

(١) قرأ عاصم وحمزة «ننكسه» بضم الأول ، وفتح الثاني ، وتشديد الثالث وكسره ، مضارع : (نكّس) ، للتكثير ، وقرأ الباقون بفتح الأول ، وإسكان الثاني ، وضم الثالث ، وتخفيفه. مضارع «نكسه» كنصره. انظر الإتحاف (٢٠/ ٤٠٤).

(٢) الآية ٧٠ من سورة النحل.

(٥٨١/٤)

فلا يستطيعون مضيا فى بلاد المعاني ، ولا رجوعا عن الحسيات. ومن نعمّره من هؤلاء ننكّسه فى الخلق ، فيلحقه الخرف والضعف ، وأما من اهتدى إلى طريق السير ، وسلك بلاد المعاني ، فلا يزيده طول العمر إلا رجاحة فى العقل ، وقوة فى العلم ، وتمكينا فى المعاني والمعرفة.

قال القشيري : ومن نعمّره ننكّسه فى الخلق : نرده إلى العكس ، فكما كان يزداد فى القوة ، يأخذ فى النقصان ، إلى أن يبلغ أرذل العمر ، فيصير إلى مثل حال الطفولية من الضعف ، ثم لا يبقى بعد النقصان شىء ، كما أنشدوا :

طوى العصران ما نشراه منى فأبلى جدتى نشر وطى

أرانى كلّ يوم فى انتقاص ولا يبقى مع النقصان شئ «١»

وهذا فى الجثة والمباني ، دون الأحوال والمعاني ، فإن الأحوال - فى حق الجثة - فى الزيادة إلى بلوغ حد الخرف ، فيختلّ رأيه وعقله. وأصحاب الحقائق تشيب ذوائبهم ، ولكنّ محابّهم ومعانيهم فى عنفوان شبابها ، وطراوة جدّتها. هـ.

ثم أنكر على من رمى القرآن بكونه شعرا ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٦٩ الى ٧٠]

وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ أي : وما علّمنا نبينا محمدا الشعر ، حتى يقدر أن يقول شعرا ، فيتهم على القرآن ، أو : وما علّمناه بتعلم القرآن الشعر ، على معنى : أن القرآن ليس بشعر ، فإنه غير مقفّى ولا موزون ، وليس معناه ما يتوقاه الشعراء من التخييلات المرغبة والمنفرة ونحوها. فأين الوزن فيه؟ وأين التقفية؟

فلا مناسبة بينه وبين كلام الشعراء ، وَما يَنْبَغِي لَهُ أي : وما يليق بحاله ، ولا يتأتى له لو طلبه ، أي : جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأتّ له ، ولم يسهل ، كما جعلناه أمّيا لم يهتد إلى الخط لتكون الحجة أثبت ، والشبهة أدحض.

---

(١) نسب البيتان إلى محمد بن يعقوب بن إسماعيل ، كما في كتاب الوافي بالوفيات (٥/ ٢٢٢). ونسبا إلى أبى بكر بن أبى الدنيا ، كما فى تاريخ بغداد (١٤/ ٣١١).

(٥٨٢/٤)

وأما قوله - عليه الصلاة والسلام - : «أنا النّبىّ لا كذب ، أنا ابن عبد المطّلب» «١» ، وقوله : «هل أنت إلّا إصبع دميت ، وفى سبيل اللّه ما لقيت» «٢» ، فهو مما اتفق وزنه من غير قصد ، كما يتفق فى خطاب الناس ورسائلهم ومحاوراتهم ، ولا يسمى شعرا إلا ما قصد وزنه.

ولمّا نفى القرآن أن يكون من جنس الشعر ، قال : إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ أي : ما الذي يعلّم ويقوله إلا ذكر من اللّه ، يوعظ به الإنس والجن ، وَقُرْآنٌ أي : كتاب سماوى ، يقرأ فى المحاريب ، ويتلى فى المتعبّدات ، وينال بتلاوته والعمل به أعلا الدرجات. فكم بينه وبين الشعر ، الذي هو من همزات الشيطان؟!.

أنزلناه إليك لِتُنْذِرَ بِهِ «٣» يا محمد ، أو : لينذر القرآن مَنْ كانَ حَيًّا بالإيمان ، أو عاقلا متأملا فإن الغافل كالميت ، أو : من سبق فى علم اللّه أنه يحيى فإن الحياة الأبدية بالإيمان ، وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع به ، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ أي : تجب كلمة العذاب عَلَى الْكافِرِينَ المصرّين على الكفر ، وجعلهم فى مقابلة من كان حيا إشعار بأنهم بكفرهم فى حكم الأموات ، كقوله : وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ «٤».

الإشارة : أما النبي - عليه الصلاة والسلام - فنفى اللّه عنه صنعة الشّعر ، والقوة عليه ، لئلا يتهم فيما يقوله ، وأما الأولياء فكثير منهم تكون له القوة عليه ، ويصرف ذلك فى أمداح الخمرة الأزلية ، والحضرة القدسية ، أو فى الحضرة النبوية ، وينالون بذلك تقريبا ، ورتبة كبيرة ، وأما قوله - عليه

الصلاة والسلام - : «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا يريه خير من أن يمتلئ شعرا» «٥» فالمراد به شعر الهوى ، الذي يشغل عن ذكر اللّه ، أو يصرف القلب عن حضرة اللّه. قيل لعائشة - رضى اللّه عنها - أكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت : لم يتمثل بشيء من الشعر إلا بيت طرفة ، أخى بنى قيس :

ستبدي لك الأيّام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد.

وربما عكسه فقال : «ويأتيك من لم تزود بالأخبار» «٦». وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الجهاد ، باب من قاد دابة غيره فى الحرب ، ح ٢٨٦٤) ومسلم فى (الجهاد ، باب فى غزوة حنين ، ٣/ ١٤٠٠ ، ح ١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب.

(٢) أخرجه البخاري فى (الجهاد ، باب من ينكب فى سبيل اللّه ، ح ٢٨٠٢) وفى (الأدب ، باب ما يجوز من الشعر والرجز) ومسلم فى (الجهاد ، باب لقى النبي صلى اللّه عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين ، ٣/ ١٤٢١ ، ح ١٧٩٦) من حديث جندب بن سفيان.

(٣) قرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، ويعقوب «لتنذر» بالخطاب. وقرأ الباقون «لينذر» بالغيب. انظر الإتحاف (٢/ ٤٠٤).

(٤) من الآية ٢٢ من سورة فاطر.

(٥) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصدّه عن ذكر اللّه ، ح ٦١٥٥) ومسلم فى (كتاب الشعر ، ٤/ ١٧٦٩ ح ٢٢٥٧).

(٦) أخرجه بنحوه ، وبدون ذكر بيت الشعر ، الطبري فى تفسيره (٢٣/ ٢٧) وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٥٠٥) لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم. وانظر : تفسير البغوي (٧/ ٢٧) وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٩).

ثم ذكّرهم بالنعم ، عليهم ينقادوا بملاطفة الإحسان فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٧١ الى ٧٣]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣)

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أي : أعملوا ولم يعلموا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أي :

أظهرته قدرتنا ، ولم يقدر على إحداثه غيرنا. وذكر الأيدى ، وإسناد العمل إليها ، استعارة ، تفيد مبالغة فى الاختصاص والتفرد بالإيجاد ، أَنْعاماً ، خصّها بالذكر لما فيها من بدائع الحكمة والمنافع الجمة.
فَهُمْ لَها مالِكُونَ أي : خلقناها لأجلهم ، فملكناها إياهم ، فهم يتصرفون فيها تصرّف المالك ، مختصّون بالانتفاع بها. أو :
فهم لها حافظون قاهرون.
وَذَلَّلْناها لَهُمْ وصيّرناها منقادة لهم. وإلا فمن كان يقدر عليها لو لا تذليله وتسخيره لها. وبهذا أمر الراكب أن يشكر هذه النعمة ، ويسبح بقوله : سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ «١» فَمِنْها رَكُوبُهُمْ أي : مركوبهم ، وهو ما يركب منها ، وقرىء بضم الراء ، أي : ذو ركوبهم. أو : فمن منافعها ركوبهم. وَمِنْها يَأْكُلُونَ ما يأكلون لحمه ، أي : سخرناها لهم ليركبوا ظهرها ويأكلوا لحمها. وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ من الجلود ، والأوبار ، والأصواف ، وغير ذلك ، وَمَشارِبُ من اللبن ، على تلونه من المضروب وغيره ، وهو جمع : مشرب ، بمعنى : موضع الشرب. أو : المصدر ، أي : الشرب. أَفَلا يَشْكُرُونَ نعم اللّه فى ذلك؟ إذ لو لا إيجاده إيها لها ما أمكن الانتفاع بها.
الإشارة : قوم نظروا إلى ما منّ اللّه إليهم من المبرة والإكرام ، فانقادوا إليه بملاطفة الإحسان ، فعرفوا المنعّم ، وشكروا الواحد المنان ، فسخّر لهم الكون وما فيه ، وقوم لم ينجع فيهم سوابغ النعم ، فسلّط عليهم المصائب والنقم ، فانقادوا إليه قهرا بسلاسل الامتحان ، «عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل» «٢» ، وكل هؤلاء سبقت لهم

---

(١) الآية ١٣ من سورة الزخرف.
(٢) لفظ حديث ، أخرجه البخاري فى (الجهاد ، باب الأسارى فى السلاسل ، ح ٣٠١٠) من حديث سيدنا أبى هريرة رضي اللّه عنه.

من اللّه العناية. وقوم لم ينجح فيهم نعم ولا نقم ، قد سبق لهم الخذلان ، فأصروا على العصيان ، ولم يشكروا اللّه على ما أسدى من سوابغ الإحسان ، وإلى هؤلاء توجه الخطاب بقوله :
[سورة يس (٣٦) : الآيات ٧٤ الى ٧٦]
وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (٧٦)

يقول الحق جل جلاله : وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ، أشركوها معه فى العبادة ، بعد ما رأوا منه تلك القدرة الباهرة ، والنعم المتظاهرة ، وتحققوا أنه المنفرد بها ، فعبدوا الأصنام ، لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ بها إذا حزبهم أمر. والأمر بالعكس ، لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ أبدا ، وَهُمْ لَهُمْ أي : الكفار للأصنام جُنْدٌ أي : أعوان وشيعة مُحْضَرُونَ يخدمونهم ، ويذبّون عنهم ، ويعكفون على عبادتهم. أو : اتخذوهم لينصروهم عند اللّه ، ويشفعوا لهم ، والأمر على خلاف ما توهموا ، فهم يوم القيامة جند معدّون لهم ، محضرون لعذابهم لأنهم يجعلون وقودا للنار ، التي يحترقون بها.

ثم سلّى نبيه مما يسمع بقوله : فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ فلا يهمنّك تكذيبهم ، وأذاهم ، وما تسمع منهم من الإشراك والإلحاد. إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ من عداوتهم وكفرهم ، وَما يُعْلِنُونَ ، فيجازيهم عليه ، فحقّ مثلك أن يتسلّى بهذا الوعيد ، ويستحضر فى نفسه صورة حاله وحالهم فى الآخرة ، حتى ينقشع عنهم الهمّ ، ولا يرهقه حزن. وهو تعليل للنهى على طريق الاستئناف ، ولذلك لو قرئ «أنّا» بالفتح ، على حذف لام التعليل ، لجاز ، خلافا لمن أنكره وأبطل صلاة من قرأ به. انظر النسفي.

الإشارة : كل من ركن إلى شيء دون اللّه ، فهو فى حقه صنم ، كائنا ما كان ، علما ، أو عملا ، أو حالا ، أو غير ذلك. ولذلك قال القطب ابن مشيش لأبى حسن الشاذلى - رضى اللّه عنهما - لمّا قال : بم تلقى اللّه يا أبا الحسن؟

فقال له : بفقري ، قال : إذا تلقاه بالصنم الأعظم ، أي : وإنما يلقى اللّه باللّه ، ويغيب عما سواه.

وقوله تعالى :

فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ فيه تسلية لمن أوذى فى جانب اللّه. قال القشيري : إذا علم العبد أنه بمرأى من الحق ، هان عليه ما يقاسيه ، لا سيما إذا كان فى اللّه. هـ.

(٥٨٥/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٨٦

ثم أبطل دعوى من أنكر البعث ، وهو من جملة قولهم ، الذي أمر نبيه بالتسلى عنه ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٧٧ الى ٨٣]

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١)

إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ (٨٣)

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ مذرة ، خارجة من الإحليل ، الذي هو قناة النجاسة ، فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ بيّن الخصومة ، أي : فهو على مهانة أصله ، ودناءة أوله ، يتصدّى لمخاصمة ربه ، وينكر قدرته على إحياء الميت بعد ما رمّت عظامه. وهى تسلية ثانية له صلى اللّه عليه وسلم ، وتهوين ما يقولونه فى جانب الحشر ، وهو توبيخ بليغ حيث عجّب منه ، وجعله إفراطا فى الخصومة بيّنا فيها.

روى أن أبيّ بن خلف أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم بعظم بال ، ففتّه بيده ، وقال : يا محمد أترى اللّه يحيى هذا بعد ما رمّ؟

فقال صلى اللّه عليه وسلم : «نعم ويبعثك ويدخلك جهنم» «١» فنزلت الآية.

وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا ، أمرا عجيبا ، بأن جعلنا مثل الخلق العاجزين ، فنعجز عما عجزوا عنه من إحياء الموتى ، وَنَسِيَ خَلْقَهُ من المنيّ المهين ، فهو أغرب من إحياء العظم الرميم. و«خلقه» : مصدر مضاف للمفعول ، أي : خلقنا إياه ، قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ بال مفتت ، وهو اسم لما بلي من العظام ، لا صفة ، ولذلك لم يؤنّث. وقد وقع خبرا لمؤنث ، وقيل : صفة بمعنى مفعول ، من : رممته ، فيكون كقتيل وجريح. وفيه

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ٣٠) والواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٧٩) عن قتادة. وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٥٠٨) لسعيد بن منصور ، وابن المنذر ، والبيهقي فى البعث ، عن أبى مالك. وأخرج الحاكم (٢/ ٤٢٩) وصححه ووافقه الذهبي عن ابن عباس : أن الآية نزلت فى العاص بن وائل. والآية عامة ، والألف واللام فى قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ للجنس ، يعم كل منكر للبعث.

(٥٨٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٨٧

دليل على أن العظم تحله الحياة ، فإذا مات صار نجسا ، وهو مذهب مالك والشافعي ، وقال أبو حنيفة : لا تحلّه الحياة ، فهو طاهر كالشعر والعصب.

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها خلقها أَوَّلَ مَرَّةٍ أي : ابتداء ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ مخلوق عَلِيمٌ لا يخفى عليه أجزاؤه ، وإن تفرقت فى البر أو البحر ، فيجمعه ، ويعيده كما كان.

ثم ذكر برهان إحيائه الموتى بقوله : الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ، كالمرخ والعفار ، ناراً ، فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ تقدحون ، ولا تشكون أنها نار خرجت منه ، فمن قدر على إحداث النار من الشجر

الأخضر ، مع ما فيه من المائية ، المضادة للنار ، كان أقدر على إيجاد الحياة والغضاضة فيما غضا ويبس ، وهى الزناد عند العرب ، وأكثرها من المرخ والعفار ، وفى أمثالهم : «فى كلّ شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار» أي :
استكثر فى هذين الصنفين. وكان الرجل يقطع منهما غصنين مثل السواكين ، وهما خضراوان ، يقطر منهما الماء ، فيسحق المرخ - وهو ذكر - على العفار - وهى أنثى ، فينقدح النار بإذن اللّه تعالى.
وعن ابن عباس رضي اللّه عنه :
ليس من الشجر شجرة إلا وفيها نار ، إلا العناب لمصلحة الدقّ للثياب.
والمرخ - ككتف : شجر سريع الورى. قاله فى الصحاح. وهو المسمى عندنا بالكلخ. وفى القاموس : عفار كسحاب : شجر يتخذ منه الزناد. قال ابن عطية : النار موجودة فى كل عود ، غير أنها فى المتحلحل ، المفتوح المسام ، أوجد ، وكذلك هو المرخ والعفار. هـ.
أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ مع كبر جرمهما ، وعظم شأنهما بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ مثل أجسامهم فى الصّغر والحقارة ، بالإضافة إلى السموات والأرض ، أو : أن يعيدهم مثل ما كانوا عليه فى الذات والصفات لأن المعاد مثل المبدأ ، بل أسهل ، بَلى أي : قل : بلى هو قادر على ذلك ، وَهُوَ الْخَلَّاقُ كثير الخلق والاختراع ، الْعَلِيمُ بأحوال خلقه ، أو : كثير المخلوقات والمعلومات.
إِنَّما أَمْرُهُ شأنه إِذا أَرادَ شَيْئاً يكونه أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فيحدث ، أي : فهو كائن موجود ، لا محالة. وهو تمثيل لتأثير قدرته فى الأشياء ، بأمر المطاع للمطيع فى حصول المأمور ، من غير امتناع وتوقف ، من غير أن يحتاج إلى كاف ولا نون ، وإنما هو بيان لسرعة الإيجاد ، كأنه يقول : كما لا يثقل عليكم قول «كن» ، فكذلك لا يصعب على اللّه إنشاؤكم وإعادتكم. قال الكواشي : ثم أومأ إلى كيفية خلقه الأشياء المختلفة فى الزمان المتحد ، وذلك ممتنع على غيره ، فقال : إِنَّما أَمْرُهُ ... الآية ، فيحدث من غير توقف ، فمن رفع «فيكون» ،

(٥٨٧/٤)

فلأنه جملة من مبتدأ وخبر ، أي : فهو يكون. ومن نصب فللعطف على «يقول». والمعنى : أنه ليس ممن يلحقه نصب ولا مشقة ، ولا يتعاظمه أمر ، بل إيجاد المعدومات ، وإعدام الموجودات ، عليه أسرع من لمح البصر هـ.
فَسُبْحانَ تنزيها له مما وصفه به المشركون ، وتعجيب مما قالوا ، الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ أي : ملك كُلِّ شَيْءٍ والتصرف فيه على الإطلاق. وزيادة الواو والتاء للمبالغة ، أي : مالك كلّ شىء ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

بالبعث للجزاء والحساب.

الإشارة : أو لم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة مهينة ، فإذا هو خصيم لنا فى تدبيرنا واختيارنا ، وينازعنا فى مرادنا من خلقنا ، ومرادنا منهم : ما هم عليه. فاستحى أيها الإنسان أن تخاصم اللّه فى حكمه ، أو تنازعه فى تقديره وتدبيره ، وسلّم الأمور لمن بيده الخلق والأمر. بكى بعض الصالحين أربعين سنة على ذنب أذنبه. قيل له : وما هو؟

قال : (قلت لشيء كان : ليته لم يكن). فارض بما يختاره الحق لك ، جلاليا كان أو جماليا ولا تختر من أمرك شيئا ، واللّه يعلم وأنتم لا تعلمون. وكل من اهتم بأمر نفسه ، واشتغل بتدبير شئونها ، فقد ضرب للّه مثلا ، بأن أشرك نفسه معه ، ونسى خلقه ، ولو فكر فى ضعف أصله ، وحاله ، لاستحيا أن يدبّر لنفسه مع ربه ، وفى الإشارات عن اللّه تعالى : أيها العبد لو أذنت لك أن تدبر لنفسك لكنت تستحيى منى أن تدبر لها ، فكيف وقد نهيتك عن الندية!.

وكما قدر على إحياء العظام الرميمة ، يقدر على إحياء القلوب الميتة ، ومن قدر على استخراج النار من محل الماء ، يقدر على استخراج العلم من الجهل ، واليقظة من الغفلة ، ومن كان أمره بين الكاف والنون ، بل أسرع من لحظ العيون ، ينبغى أن يرجع إليه في جميع الشئون. قال القشيري : فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ، فلا يحدث شيء - قلّ أو كثر - إلا بإبداعه وإنشائه ، ولا يبقى منها شيء إلا بإبقائه ، فمنه ظهر ما يحدث ، وإليه يصير ما يخلق. هـ.

قال النسفي : قال صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ يس يريد بها وجه اللّه غفر اللّه له ، وأعطى من الأجر كمن قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة» وباللّه التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا ومولانا محمد ، وآله وصحبه ، وسلم.

سورة الصّافّات

مكية. وهى مائة وإحدى ، أو اثنتان ، وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها : أنها رد على المشركين فى عبادة الأصنام ، وانكارهم البعث ، المختتم بهما السورة قبلها ، فقال فى صدر هذه : إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ ، ثم قال :

وَقالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أَإِذا مِتْنا ... «١» إلخ. قال تعالى :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١ الى ١٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (٢) فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (٣) إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ (٤)
رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (٦) وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (٩)
إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (١٠)

يقول الحق جل جلاله : وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ، فَالزَّاجِراتِ زَجْراً ، فَالتَّالِياتِ ذِكْراً ، أقسم بطوائف الملائكة ، الصافين أقدامهم في مراتب العبادة ، كل على ما أمر به ، فالزجرات السحاب سوقا إلى ما أراد اللّه ، أو :
عن المعاصي بإلهام الخير. أو : الشياطين عن التعرض لهم. (فالتاليات ذكرا) لكلام اللّه تعالى من الكتب المنزلة وغيرها ، قاله ابن عباس وابن مسعود وغيرهما. وفيه رد على ابن الصلاح ، حيث قال في فتاويه : إن الملائكة لا تقرأ القرآن ، وإنما قراءته كرامة أكرم اللّه بها البشر. قال : فقد ورد أن الملائكة لم تعط ذلك ، فهي حريصة لذلك على استماعه من الإنس ، كما نقله عنه في الإتقان ، فانظره.
أو : بنفوس العلماء والعمال ، الصافات أقدامها في التهجد وسائر الصلوات ، فالزاجرات بالمواعظ والنصائح ، فالتاليات آيات اللّه ، والدراسات شرائعه. أو : بنفوس الغزاة في سبيل اللّه ، التي تصف الصفوف ، وتزجر الخيل للجهاد ، وتتلو الذكر مع ذلك ، لا يشغلهم عنه مبارزة العدو. و(صفا) : مصدر مؤكد ، وكذلك (زجرا) ، والفاء تدلّ على الترتيب ، فتفيد فضل المتقدم على المتأخر ، فتفيد الفضل للصف ، ثم للزجر ، ثم للتلاوة ، أو بالعكس.

---

(١) الآية ١٥ من سورة الصافات. [.....]

وجواب القسم : إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ لا شريك معه يستحق أن يعبد ، رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وهو خبر بعد خبر ، أو : خبر عن مضمر ، أي : هو رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ أي : مطالع الشمس ، وهي ثلاث مائة وستون مشرقا ، وكذلك المغارب. تشرق الشمس كلّ يوم في مشرق منها ، وتغرب في مغرب ، ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين. وأما : رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ «١» فإنه أريد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما. وأما : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ «٢» فإنه أريد به الجهة ، فالمشرق جهة ، والمغرب جهة. قال الكواشي : لم يذكر المغارب لأن المشارق تدل عليها.

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا القربى منكم ، تأنيث الأدنى ، بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ بالإضافة ، أي : بأن زينتها الكواكب ومن قرأ بالتنوين والخفض «٣» فبدل ، أي : هى الكواكب ، ومن قرأ بالنصب فعلى إضمار «أعنى» ، أو : بدل من محل «بزينة» ، أي : زيّنا الكواكب ، أو : على إعمال المصدر منونا فى المفعول ، أي : بتزين الكواكب. قال البيضاوي : وركوز الثوابت فى الكوة الثامنة ، وما عدا القمر من السيارات فى الست المتوسطة بينهما وبين سماء الدنيا إن تحقق لم يقدح فى ذلك ، فإن أهل الأرض يرونها بأسرها كجواهر مشرقة ، متلألئة على سطحها الأزرق. هـ.

وَحِفْظاً من الشياطين ، كما قال : وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ «٤» أو : بإضمار فعله ، أي : حفظناها حفظا مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ خارج عن الطاعة ، فيرمى بالشهب. لا يَسَّمَّعُونَ «٥» إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى : استئناف لبيان حالهم ، بعد بيان حفظ السماء منهم ، ولا يجوز وصفه لكل شيطان لأنه يقتضى أن يكون الحفظ من شياطين لا يسمعون. والضمير لكلّ باعتبار المعنى لأنه فى معنى شياطين ، وتعدية (يسمعون) بإلى لتضمنه معنى الإصغاء مبالغة فى نفيه ، وتهويلا لما يمنعهم عنه. ومن قرأ بالتشديد فأصله : «يتسمّعون» فأدغم. والتسمّع : طلب السماع. يقال : تسمّع فسمع أو لم يسمع إذا منعه مانع. والملأ الأعلى هم : الملائكة لأنهم فى السموات العلى ، والإنس والجن هم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض ، وَيُقْذَفُونَ يرمون بالشهب ، مِنْ كُلِّ جانِبٍ من جميع جوانب السماء ، من أىّ جهة صعدوا للاستراق.

---

(١) الآية ١٧ من سورة الرحمن.

(٢) الآية ٩ من سورة المزمل.

(٣) قرأ حفص ، وحمزة ، بتنوين (زينة) وجر (الكواكب). وقرأ أبو بكر بتنوين (زينة) ونصب (الكواكب). والباقون بحذف التنوين ، على إضافة «زينة» للكواكب. انظر الإتحاف (٢/ ٤٠٨).

(٤) الآية ٥ من سورة الملك.

(٥) قرأ حفص ، وحمزة ، والكسائي ، بتشديد السين والميم ، والأصل «يتسمعون» فأدغمت التاء. وقرأ الباقون بالتخفيف.

انظر الإتحاف (٢/ ٤٠٨).

دُحُوراً مفعول له ، أي : ويقذفون للدحور ، وهو الطرد ، أو : مدحورين ، على الحال ، أو : لأن القذف

والطرد متقاربان فى المعنى ، فيكون مصدرا له ، فكأنه قيل : ويقذفون قذفا ، وَلَهُمْ عَذابٌ آخر واصِبٌ دائم ، أو :
شديد ، وهو عذاب الآخرة ، أو : عذاب الدنيا لأنه دائم الوجوب لأنهم فى الدنيا مرجمون بالشهب دائما ، إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ، «من» : بدل من ضمير «يسمعون» ، أي : لا يتسمع الشياطين إلا الشيطان الذي خطف الخطفة ، أي : اختلس شيئا من كلام الملائكة بسرعة ، فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ أي : نجم مضىء يثقبه ، أو يحرقه ، أو يخبله ، ومنه تكون الغيلان. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : أقسم الحق تعالى بصفوف الذاكرين ، الزاجرين للخواطر عن قلوبهم ، فى طلب الحضور ، التالين لذكر ربهم لرفع الستور ، إنه منفرد فى ألوهيته ، متوحد فى ربوبيته إذ هو ربّ كل شىء ، ربّ سموات الأرواح ، وربّ أرض النفوس والأشباح ، وربّ مشارق أنوار العرفان ، وهى قلوب أهل العيان ، ولم يذكر المغارب لأن شمس القلوب إذا طلعت ليس لها مغيب.
قوله تعالى : إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا .. إلخ ، قال القشيري : زيّن السماء بالنجوم ، وزيّن قلوب أوليائه بنجوم المعارف والأحوال. هـ. وقوله تعالى : وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ ، قال القشيري : كذلك حفظ القلوب بأنوار التوحيد ، فإذا قرب منها الشيطان رجمها بنجوم معارفهم ، إلا من خطف الخطفة ، كذلك إذا اغتنم الشيطان من الأولياء أن يلقى شيئا من وساوسه تذكّروا ، فإذا هم مبصرون. هـ.
وقال فى لطائف المنن : إن اللّه تعالى إذ تولى وليّا صان قلبه من الأغيار ، وحرسه بدوام الأنوار ، حتى لقد قال بعض العارفين : إذا كان سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشهب كى لا يسترق السمع منها ، فقلب المؤمن أولى بذلك ، لقول اللّه سبحانه ، فيما يحكيه عنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «لم تسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعني قلب عبدى المؤمن». هـ. والمراد : المؤمن الكامل ، الذي تولى اللّه حفظه ، وهو الولي العارف.
ثم ردّ على من أنكر البعث بعد هذه الدلائل الباهرة ، فقال :
فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ ...

[سورة الصافات (٣٧) : آية ١١]
فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (١١)
يقول الحق جل جلاله : فَاسْتَفْتِهِمْ أي : فاستخبر كفّار مكّة أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أي : أقوى خلقا وأعظم ، أو : أصعب خلقا وأشقه. أَمْ مَنْ خَلَقْنا يعنى ما ذكر من السماء والأرض وما بينهما ، وما يعمرهما من

الملائكة والكواكب ، والشّهب الثواقب؟. وجيء ب «من» تغليبا للعقلاء. ويدلّ عليه قراءة من قرأ : (أم من عددنا) بالتشديد والتخفيف. والقصد : الرد على منكرى البعث ، فإنّ من قدر على خلق هذه العوالم ، على عظمها ، كان على بعثهم أقدر.

ثم ذكر ضعف أصلهم بقوله : إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ لاصق باليد ، أو : لازم. وقرئ به ، أي : يلزم من جاوره ويلصق به. وهذا شاهد عليهم بالضعف لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة. أو :

احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه إنما هو تراب ، فمن أين استنكروا أن نخلق من تراب مثله خلقا آخر؟ حيث قالوا : أَإِذا كُنَّا تُراباً «١» إلخ ، وهذا المعنى يعضده ما يتلوه بعد من ذكر إنكارهم البعث.

[سورة الصافات (٣٧) : آية ١٢]

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢)

بَلْ عَجِبْتَ من تكذيبهم إيّاك ، وإنكارهم البعث ، وَيَسْخَرُونَ هم منك ، ومن تعجبك ، أو : من أمر البعث ، قال الكواشي : ولمّا لم تؤثّر فيهم البراهين ، أمر نبيّه - عليه الصلاة والسلام - بالإضراب عنهم ، والإعجاب منهم ، حيث لم يؤمنوا به وبالبعث ، والمعنى : إنك تعجبت من تكذيبهم ، وهم يسخرون منك ومن تعجبك. هـ. قال قتادة : لمّا نزل القرآن عجب منه النبي صلى اللّه عليه وسلم ، واعتقد أنه لا يسمعه أحد إلا آمن به ، فلما سمعه المشركون ، ولم يؤمنوا ، وسخروا ، تعجّب من ذلك «٢». هـ. وذكر ابن عطية وغيره : أن الآية نزلت فى ركانة ، الذي صرعه صلى اللّه عليه وسلم «٣» ، وذكر ابن عبد البر : أنه أسلم يوم الفتح. هـ.

وقرأ الأخوان «عجبت» بضم التاء ، أي : استعظمت. والعجب : روعة تعترى الإنسان عند استعظام الشيء لخفاء سببه ، وهو فى حقه تعالى محال ، ومعناه : التعجب لغيره ، أي : كل من يرى حالهم يقول : عجبت ، ونحوه : قوله صلى اللّه عليه وسلم : «عجب اللّه من شاب ليست له صبوة» «٤». وهو عبارة عما يظهره اللّه فى جانب المتعجب منه ، من التعظيم أو التحقير ، أو : قل يا محمد : عجبت ويسخرون.

---

(١) الآية ٥ من سورة الرعد.

(٢) أخرجه الطبري (٢٣/ ٤٤).

(٣) حديث صرع النبي صلى اللّه عليه وسلم للركانة ، أخرجه الترمذي فى (اللباس ، باب العمائم على القلانس ٤/ ٢١٧ ح ١٧٨٤) وأبو داود فى (اللباس ، باب فى العمائم ٤/ ٣٤١ ح ٤٠٧٨) عن أبى ركانة.

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١) والطبراني فى الكبير (١٧/ ٣٠٩) من حديث عقبة بن عامر. قال

الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٢٧٠) :
وإسناده حسن.

(٥٩٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٩٣
[سورة الصافات (٣٧) : آية ١٣]
وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣)
وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ أي : ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به.
[سورة الصافات (٣٧) : آية ١٤]
وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤)
وَإِذا رَأَوْا آيَةً معجزة ، كانشقاق القمر ، ونحوه ، يَسْتَسْخِرُونَ يبالغون فى السخرية ، ويقولون : إنه سحر ، ويستدعى بعضهم بعضا أن يسخر منها ،
[سورة الصافات (٣٧) : آية ١٥]
وَقالُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥)
وَقالُوا إِنْ هذا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ظاهر سحريته ،
[سورة الصافات (٣٧) : آية ١٦]
أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦)
أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أي : أنبعث إذا كنا ترابا وعظاما؟
[سورة الصافات (٣٧) : آية ١٧]
أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)
أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ ، فمن فتح الواو عطف على محلّ «إنّ» واسمها ، والهمزة للإنكار ، أي : أو يبعث أيضا آباؤنا الأولون الأقدمون ، على زيادة الاستبعاد ، يعنون أنهم أقدم ، فبعثهم أبعد وأبطل. ومن سكّن «١» فمن عطف أحد الشيئين ، أي : أيبعث واحد منا ، على المبالغة فى الإنكار.
[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٨ الى ٢١]
قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ (١٨) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)
قُلْ نَعَمْ تبعثون وَأَنْتُمْ داخِرُونَ صاغرون.
فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ أي : صيحة واحدة ، وهى النفخة الثانية ، والفاء : جواب شرط مقدر ، أي : إذا

كان كذلك فما هى إلا صيحة واحدة ، وهى مبهمة ، يفسرها خبرها. أو : فإنما البعثة زجرة واحدة.
والزجرة : الصيحة ، من قولك : زجر الراعي الإبل والغنم : إذا صاح عليها ، فَإِذا هُمْ أحياء يَنْظُرُونَ إلى سوء أعمالهم ، أو :
ينظرون ما يحلّ بهم.
وَقالُوا يا وَيْلَنا ، الويل : كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ، هذا يَوْمُ الدِّينِ اليوم الذي يدان فيه العباد ، ويجازون بأعمالهم. هذا يَوْمُ الْفَصْلِ أي : يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلالة ، الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ، يحتمل أن يكون قوله : هذا يَوْمُ الدِّينِ من كلام الكفرة ، بعضهم مع بعض ، وأن يكون من كلام الملائكة لهم ، وأن يكون يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ من كلام الكفرة ، وما بعده كلام الملائكة ، جوابا لهم. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : الإنسان فيه عالمان ، عالم فى غاية الضعف والخسة ، وهى بشريته الطينية ، أصلها من ماء مهين.
وعالم فى غاية القوة والكمال ، وهى روحانيته السماوية النورانية ، فإذا حييت الروح بالعلم بالله ، واستولت على البشرية ، استيلاء النار على الفحمة ، أكسبتها القوة والشرف ، وإذا ماتت الروح بالغفلة والجهل ، واستولت عليه البشرية أكسبتها الضعف والذل ، والعارف الكامل هو الذي ينزل كل شىء فى محله ، فينزل الضعف فى ظاهره ، والقوة فى باطنه ، فظاهره يمتد من الوجود بأسره ، وباطنه يمد الوجود بأسره. فمن نظر إلى أصل ظاهره تواضع وعرف قدره ، ولذلك قال سيدنا على كرم اللّه وجهه : ما لابن آدم والفخر ، وأوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وفيما بينهما يحمل العذرة. هـ.

---

(١) قرأ قالون ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، بإسكان الواو ، وقرأ الباقون بالفتح. انظر الإتحاف (٢/ ٤١٠).

ومن نظر إلى باطنه تاه على الوجود بأسره ، لكن من آداب العبد : ألا يظهر بين يدى سيده إلا ما يناسب العبودية ، من الضعف ، والذل ، والفقر ، فإذا تحقق بوصفه مدّه اللّه بوصفه. وبالله التوفيق.
ثم ذكر مثال أهل الكفر ، فقال :
[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٢٢ الى ٣٤]
احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ

(٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (٢٤) ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)
وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٢٧) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (٣١)
فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤)

يقول الحق جل جلاله للملائكة يوم القيامة : احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا أي : اجمعوا الذين كفروا وَأَزْواجَهُمْ وأشباههم ، فيحشر عابد الصنم مع عبدة الأصنام ، وعابد الكواكب مع عبدتها. أو : نساءهم الكافرات ، أو : قرناءهم من الشياطين. و«الواو» بمعنى «مع» ، أو : عاطفة. وَما كانُوا يَعْبُدُونَ ، مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : الأصنام ، اجمعوها معهم ، فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ أي : دلّوهم على طريقها ، وعرّفوهم بها. وعن الأصمعي : يقال : هديته فى الدين هدى ، وهديته الطريق هداية.
وَقِفُوهُمْ : احبسوهم إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ عن أقوالهم وأفعالهم وعقائدهم ، ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ لا ينصر بعضكم بعضا. وهذا توبيخ لهم بالعجز عن التناصر ، بعد ما كانوا يتناصرون فى الدنيا ، أو : استهزاء بهم.
وقيل : هو جواب لأبى جهل ، حيث قال يوم بدر : نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ «١» ، وجملة النفي : حال ، أي : ما لكم غير متناصرين ، بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ منقادون لما يراد بهم لعجزهم ، وانسداد أبواب الحيل عليهم ، أو : قد أسلم بعضهم بعضا وخذله.
وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ أي : التابع على المتبوع يَتَساءَلُونَ يتخاصمون ، ويسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ وتسخط ، قالُوا أي : الأتباع للمتبوعين : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ أي : تصدوننا عن

---

(١) كما حكت الآية ٤٤ من سورة القمر.

الحق والإيمان ، قاله الحسن. وبيانه : أن العرب كانت تتيمن بالسانح «١» عن اليمين من الطير ، ويناسبه ما ذكره ابن عطية فى جملة التأويلات بقوله : ومنها : أن يريد باليمين اليمن ، أي : تأتوننا من جهة النصائح ، والعمل الذي يتيمن به. هـ. قلت : والأحسن : أن يقدر معلق الجار ، أي : تأتوننا وتصرفوننا عن طريق أهل اليمين.

قالُوا أي : الرؤساء : بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ أي : بل أنتم أبيتم الإيمان ، وأعرضتم عنه مع تمكّنكم منه ، مختارين للكفر ، غير ملجئين إليه ، أو : بل أنتم سبقت منكم الضلالة على إغوائنا ، وإنما نشأ عن إغوائنا دوام كفركم لا استئنافه. وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ
وقهر ، نسلبكم به تمكّنكم واختياركم ، بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ أي : بل كنتم قوما مختارين للطغيان ، فَحَقَّ عَلَيْنا أي : لزمنا جميعا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ ، يعنى : حقت علينا كلمته بأنا ذائقون لعذابه. ولو حكى الوعيد على ما هو لقال : إنكم لذائقون ، لكنه عدل به إلى لفظ المتكلم لأنهم يتكلّمون بذلك عن أنفسهم. ثم قالوا لضعفائهم : فَأَغْوَيْناكُمْ فدعوناكم إلى الغي إِنَّا كُنَّا غاوِينَ فأردنا إغواءكم لتكونوا مثلنا ، فَإِنَّهُمْ أي : الأتباع والمتبوعين جميعا ، يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ كما كانوا مشتركين فى الغواية. إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ المشركين ، أي : مثل ذلك الفعل نفعل بكل مجرم.
الإشارة : ويقال على طريق العكس : احشروا الذين أحسنوا واتقوا ربهم ، وأزواجهم ، ومن انتسب إليهم ، فاهدوهم إلى طريق الجنان ، وقفوهم يشفعوا فيمن تعلّق بهم ، إنهم مسؤولون عن أصحابهم وعشائرهم ، حتى يخلصوهم من ورطة الحساب. ما لكم لا تناصرون ، فينصر بعضكم بعضا فى هذا الموطن الهائل ، بل هم اليوم منقادون لأمر اللّه ، حتى يأذن لهم فى الشفاعة. وفى الحديث : «اتّخذوا يدا عند الفقراء ، فإن لهم دولة يوم القيامة» «٢» ودولتهم :
الشفاعة فيمن أحبهم وأحسن إليهم. والفقراء هم المتوجهون إلى اللّه تعالى ، حتى وصلوا إلى حضرته. ومن صدّ الناس عن طريقه وصحبتهم ، يتعلق به المخذول عنهم ، فيقول له : (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ...) الآية.
ثم ذكر سبب ورودهم العذاب ، فقال :
[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٣٥ الى ٣٩]
إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَما تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)

---

(١) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر ، أو غير ذلك ، والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك. انظر اللسان (سنح ٣/ ٢١١٢).
(٢) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ١٠٤) لأبى نعيم فى الحلية ، عن الحسين بن على رضي اللّه عنه. والحديث ضعفه السيوطي.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّهُمْ أي : المشركين كانُوا إذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ ، هو أعم من إذا قيل لهم : قولوها ، أو : ذكرت بمحضرهم ، يَسْتَكْبِرُونَ أي : يتعاظمون عن قولها ، أي : كانوا فى الدنيا إذا سمعوا كلمة التوحيد استكبروا عنها ، وأبوا إلا الشرك ، وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ ، يعنون نبينا محمدا صلى اللّه عليه وسلم ، بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ لكونه مصدّقا لما بين يديه من الرسل. وهو ردّ عليهم بأن ما جاء به الحق من التوحيد قد قام عليه البرهان ، وتطابق عليه المرسلون.
فقوله تعالى : بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ مقابل لقولهم :
«شاعر» لأن الشاعر فى الغالب كذوب ، وتصديق المرسلين فى مقابلة مجنون لأنه لا يكون إلا من العاقل. قال تعالى لهم : إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ بالإشراك وتكذيب الرسول وَما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إلا مثل ما عملتم بلا زيادة ولا نقصان ، فعذبتم ، على الكفر والتكذيب ، وخلدتم ، على نيتكم الدوام عليه.
الإشارة : ينبغى للمؤمن إذا سمع كلمة التوحيد ، وهى «لا إله إلا اللّه» أن يخشع قلبه ، وتهتز جوارحه ، فرحا بها ، ويخضع لمن جاء بها ، ودلّ عليها ، حتى يدخله فى بحار معانيها ، وهو التوحيد الخاص ، أعنى : توحيد أهل العيان ، وهم خلفاء الرسول صلى اللّه عليه وسلم فى التربية النبوية. قال القشيري :
.. كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ..
إلخ. احتجابهم بقلوبهم أوقعهم فى وهدة عذابهم ، وذلك أنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته ، ولو عرفوا لافتخروا بعبوديته قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ .. «١» وقال : نْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ ..
«٢» ، فمن عرف اللّه فلا لذة له إلا فى طاعته وعبوديته ، قال قائلهم :
ويظهر فى الورى عزّ الموالي فيلزمنى له ذلّ العبيد
ولمّا لم يحتشموا من وصفه - سبحانه - بما لا يليق بجلاله ، لم يبالوا بها أطلقوا من المثالب فى جانب أنبيائه. هـ.
ثم استثنى المخلصين ، فقال :
[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٤٠ الى ٥٠]
إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (٤٤)
يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩)
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٥٠)

(١) من الآية ٢٠٦ من سورة الأعراف. [.....]

(٢) من الآية ١٧٣ من سورة النساء.

(٥٩٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٩٧

يقول الحق جل جلاله : إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ - بفتح اللام ، وكسرها «١» - أي : لكن عباد اللّه المخلصين فى أعمالهم ، أو : الذين أخلصهم اللّه ونجاهم من الشرك ، فليسوا مع أولئك المعذّبين ، بل أُولئِكَ المخلصون لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ، يأتيهم بكرة وعشيا ، كحال المياسير فى الدنيا ، فهو معلوم الوقت لأن النفس إليه أسكن. قال القشيري : قد كان فى وقت الرسول صلى اللّه عليه وسلم من له رزق معلوم ، فهو من جملة المياسير ، وهذه صفة أهل الجنة ، لهم فى الآخرة رزق معلوم لأبشارهم وأسرارهم ، فالأغنياء - اليوم - لهم رزق معلوم لأبشارهم ، والفقراء لهم رزق معلوم لقلوبهم وأسرارهم. هـ.

ثم فسّره بقوله : فَواكِهُ : جمع فاكهة ، وهى كل ما يتلّذذ به ، فليس قوتهم لحفظ الصحة ، بل رزقهم كله فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات لأن أجسامهم نورانية مخلوقة للأبد ، فما يأكلونه إنما هو للتلذذ.

أو : معلوم ، أي : منعوت بخصائص خلق عليها من طيب طعم ، ورائحة ، ولذّة ، وحسن منظر ، وَهُمْ مُكْرَمُونَ :

معظّمون. قال القشيري : من ذلك : ورد الرسل عليهم من قبل اللّه - عزّ وجلّ - فى كل وقت ، وكذلك اليوم الخطاب وارد على قلوب الخواص فى كل وقت بكلّ أمر. هـ.

وقوله : فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، إما ظرف لمكرمون ، أو : حال ، أو : خبر ، أي : فى جنة ليس فيها إلا النعيم المقيم. وكذا عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ : يقابل بعضها بعضا ، إن استوت درجتهم ، فالتقابل أتم للسرور ، وآنس.

يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ إناء من زجاج فيه شراب ، ولا يكون كأسا حتى يكون فيه شراب ، وإلا فهو إناء. وقد تسمّى الخمر كأسا. قال الأخفش : كل كأس فى القرآن فهو خمر. ومثل لابن عباس. مِنْ مَعِينٍ من خمر معين ، أي : جارية فى أنهار ظاهرة للعيون ، وصف بما وصف به الماء لأنه يجرى فى الجنة أنهارا ، كما يجرى الماء ، قال تعالى : وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ «٢». وقوله : بَيْضاءَ صفة للكأس ، أي : صافية فى نهاية اللطافة.

لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ أي : لذيذة للشاربين ، وصفت باللذة ، كأنها نفس اللذة وعينها. أو : ذات لذة. لا فِيها

غَوْلٌ أي : لا تغتال عقولهم فتذهب بها ، كخمر الدنيا ، وهو من : غاله يغوله : إذا أهلكه وأفسده. أو : لا فيها غول : إثم ، أو وجع بطن أو صداع ، وهو وجع الرأس ، أي : لا ينشأ عنها شيء مما ذكر.
وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ يسكرون ، من :
نزف الشارب : إذا ذهب عقله. ويقال للسكران : نزيف ، ومنزوف. ومن قرأ بكسر الزاى «٣» فمعناه : لا ينفد شرابهم ، يقال : أنزف الرجل فهو منزف : إذا فنيت خمرته.

---

(١) قرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر ، «المخلصين» بفتح اللام.
(٢) من الآية ١٥ من سورة سيدنا محمد.
(٣) قرأ بذلك حمزة ، والكسائي. وقرأ الباقون بفتح الزاى .. انظر الإتحاف (٢/ ٤١١).

(٥٩٧/٤)

وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أي : حور قصرت أبصارهنّ على أزواجهن ، لا يمددن طرفا إلى غيرهم عِينٌ : جمع عيناء ، أي : نجلاء ، واسعة العين. يقال : رجل أعين ، وامرأة عيناء ، ورجال ونساء عين. كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ مصون مستور. شبههنّ ببيض النعام المكنون من الريح والغبار ، فى الصفاء والبياض.
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ فى الجنة ، تساؤل راحة وتنعم. والمعنى : أنهم يشربون ويتحادثون على الشرب ، كعادة الشّرب «١». قال الشاعر :
وما بقيت من اللّذّات إلّا أحاديث الكرام على المدام
أو : أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى عليهم فى الدنيا. وجيء به ماضيا على ما عرف فى أخباره المحققة الوقوع.
الإشارة : المخلصين - بالفتح - أبلغ من المخلصين - بالكسر - المخلصين : أخلصهم اللّه واصطفاهم ، والمخلصى : ن طالبين الإخلاص ، مجتهدين فيه ، الأولون مجذوبون ، والآخرون سالكون ، الأولون محبوبون ، والآخرون محبون ، الأولون واصلون ، والآخرون سائرون. قال القشيري :
والإخلاص : إفراد الحقّ - سبحانه - بالعبودية ، فالذى يشوب عمله برياء ليس بمخلص. ويقال : الإخلاص : تصفية العمل ، لا توفيقه ، وفى الخبر :
«يا معاذ : أخلص العمل ، يكفك القليل منه» «٢». ويقال : الإخلاص : فقد رؤية الأشخاص. هـ.
أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ للمخلصين - بالفتح - رزق أرواحهم وأسرارهم ، من النظر إلى وجه الحبيب فى كل ساعة. وللمخلصين ، رزق أشباحهم مما يشتهون. وقد يجتمع لهما ، ويغلب لكل واحد ما كان

الغالب على همته فى الدنيا. وهم مكرمون بالتقريب والمشاهدة ، على قدر سعيهم هنا ، ويشربون كأس المحبة والاصطفاء على قدر شربهم هنا خمرة المعاني ، وشرب خمرة المعاني على قدر الغيبة عن حس الأواني والزهد فى بهجتها.

وقوله تعالى : فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ ، كان من تمام نعيمهم فى الشرب : التحادث عليها بما يناسب حالها ، ومدحها ، كما قال الشاعر :

وإذا جسلت إلى المدام وشربه فاجعل حديثك كله فى الكأس

---

(١) الشّرب : القوم يشربون ، ويجتمعون على الشراب ، جمع شارب ، كركب ورجل. انظر اللسان (شرب ٤/ ٢٢٢).

(٢) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٢٩٨) لابن أبى الدنيا فى الإخلاص ، والحاكم ، عن معاذ.

(٥٩٨/٤)

كذلك العارف إذا جلس مجلس الفكرة ، وغاب فى الشهود والنظرة ، لا يجول إلا فى عظمة الذات ، وأسرارها ، وبهائها ، وجمالها ، لا يخطر على باله غيرها ، فحديث روحه وسره كله فى الخمرة الأزلية. هذه هى الفكرة الصافية ، والنظرة الشافية ، متعنا اللّه بها على الدوام. آمين.

ثم ذكر حال من يعوق عن شرب هذه الخمرة ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٥١ الى ٦١]

قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (٥٥)

قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠)

لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (٦١)

يقول الحق جل جلاله : قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ أي : من أهل الجنة إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ فى الدنيا ، قيل : كان شيطانا ، وقيل : من الإنس ، ففيه التحفظ من قرناء السوء ، وقيل : كانا شريكين بثمانية آلاف دينار ، أحدهما :

قطروس ، وهو الكافر ، والآخر : يهوذا ، المؤمن ، فكان أحدهما مشغولا بعبادة اللّه ، وكان الآخر مقبلا على ماله ، فحلّ الشركة مع المؤمن ، وبقي وحده لتقصير المؤمن فى التجارة ، وجعل الكافر كلما

اشترى شيئا من دار ، أو جارية ، أو بستان ، عرضه على المؤمن ، وفخر عليه ، فيمضى المؤمن ، ويتصدق بنحو ذلك ، ليشترى به من اللّه تعالى فى الجنة. فكان من أمرهما فى الجنة ما قصّه اللّه تعالى فى هذه الآية «١». قال السهيلي : هما المذكوران فى سورة الكهف بقوله : وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ «..

إلخ.

يَقُولُ أي : قرين السوء ، لقرينه المؤمن فى الدنيا : أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ بالبعث؟ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا؟ من : الدين ، وهو الجزاء.

---

(١) ذكر السيوطي القصة بطولها فى الدر (٥/ ٥١٨ - ٥١٩) وعزاها لعبد الرزاق ، وابن المنذر ، عن عطاء الخراسانى ، وأخرجها الطبري (٢٣/ ٥٦) عن فرات بن ثعلبة البهراني. وقد ذكر الشيخ ابن عجيبة - رحمه اللّه تعالى - القصة كاملة عند تفسير الآية ٣٢ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٣٢ وما بعدها من سورة الكهف.

قالَ ذلك القائل لمن معه فى الجنة : هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ معى إلى النار ، لأريكم حال ذلك القرين. قيل : إن فى الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار. قلت : حال الجنة كله خوارق ، فيكشف لهم عن حال أهل النار كيف شاء. وقيل : القائل : هو اللّه ، أو : بعض الملائكة. يقول لهم : هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار ، لأريكم ذلك القرين ، أو : لتعلموا منزلتكم من منزلتهم. قال الكواشي : أو : إن المؤمن يقول لإخوانه من أهل الجنة : هل أنتم ناظرون أخى فى النار؟ ، فيقولون له : أنت أعرف به منا ، فانظر إليه. فَاطَّلَعَ على أهل النار فَرَآهُ أي :

قرينه فِي سَواءِ الْجَحِيمِ فى وسطها.

قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ لتهلكنى بإغوائك. و«إن» مخففة ، واللام : فارقة ، أي : إنه قربت لتهلكنى ، وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي علىّ بالهداية ، والعصمة ، والتوفيق للتمسك بعروة الإسلام ، لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ معك ، أو : من الذين أحضروا العذاب ، كما أحضرته أنت وأمثالك.

أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ، إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ، الفاء للعطف على محذوف ، أي : أنحن مخلّدون فما نحن بميتين ولا معذّبين. وعلى هذا يكون الخطاب لرفقائه فى الجنة ، لما رأى ما نزل بقرينه ، ونظر إلى حاله وحال رفقائه فى الجنة ، تحدّثا بنعمة اللّه. أو : قاله بمرأى من قرينه ومسمع

ليكون توبيخا له ، وزيادة تعذيب ، ويحتمل أن يكون الخطاب لقرينه ، كأنه يقول : أين الذي كنت تقول فى الدنيا من أنّا نموت ، وليس بعد الموت عقاب ولا عذاب؟ كقوله : إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى «١» والتقدير : أكما كنت تزعم هو ما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى ، وما نحن بمعذّبين ، بل الأمر وقع خلافه ، وكان يقال له : نحن نموت ونسأل فى القبر ، ثم نموت ونحيا ، فيقول :
ما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذّبين.
وقوله تعالى : إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .. إلخ ، يحتمل أن يكون من خطاب المؤمن لقرينه ، وأن يكون من خطاب اللّه تعالى لنبيه - عليه الصلاة والسلام ، أي : إن هذا النعيم الذي نحن فيه لهو الفوز العظيم. ثم قال اللّه - عز وجل : لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ أي : لنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون ، لا للحظوظ الدنيوية ، المشوبة بالالآم ، السريعة الانصرام. أو : لمثل هذا فليجتهد المجتهدون ، مادام يمكنهم الاجتهاد ، فإنّ الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ، فبقدر ما يزرع هنا يحصد ثمّ ، وسيندم المفرط إذا حان وقت الحصاد.

---

(١) الآية ٣٥ من سورة الدخان.

الإشارة : تنسحب الآية من طريق الإشارة على من رام النهوض إلى اللّه ، بصحبة الرجال فى طريق التجريد ، فينهاه رفقاؤه ، فيخالفهم ، وينهض إلى اللّه ، فإذا كان يوم القيامة رفع مع المقربين ، فيقول لهم : إنى كان قرين ينكر طريق الخصوص ، وينهانى عن صحبتهم ، فيطلع عليه ، فيراه فى أسفل الجنة ، مع عامة أهل اليمين ، فيحمد اللّه على مخالفته ، ويقول : لو لا نعمة ربى لكنت من المحضرين معك. قال القشيري : فيقول الوليّ له : إن كدتّ لتردين ، لو لا نعمة ربى. نطقوا بالحق ، ولكنهم لم يصرّحوا بعين التوحيد إذ جعلوا الفضل واسطة ، والأولى أن يقول : ولو لا ربى لكنت من المحضرين. ثم يقول : لمثل هذا فليعمل العاملون. ثم قال : فإذا بدت شظية ، من الحقائق ، أو ذرة من نسيم القربة ، فبالحرىّ أن يقول القائل : لمثل هذا الحال تبذل الأرواح ، وأنشدوا :
على مثل ليلى يقتل المرء نفسه وإن بات من ليلى على اليأس طاويا «١». هـ.
ثم قال تعالى :
[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٦٢ الى ٧٤]
أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ

الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١)
وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)
يقول الحق جل جلاله : أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ أي : أنعيم الجنة وما فيها من اللذات ، والطعام ، والشراب ، خير نزلا أم شجرة الزقوم؟ النزل : ما يقدم للنازل من الرزق. و«نزلا» : تمييز ، وفى ذكره : تنبيه على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقدم للنازل ، ولهم من وراء ذلك ما تقصر عنه الأفهام ، وكذلك الزقوم لأهل النار. قال ابن عطية : فى البلاد الجدبة المجاورة للصحارى شجرة ، مرّة ، مسمومة ، لها لبن ، إن مسّ جسم أحد تورّم ومات منه ، فى غالب الأمر ، تسمّى شجرة الزقوم. والتزقم : البلع على شدة وجهد. هـ. وفى

---

(١) البيت لمجنون ليلى. انظر : ديوانه : / ٢٩٦ وتزيين الأسواق/ ١٢٨. وجاء فى لطائف الإشارات : (سلمى) بدل (ليلى).

الحديث : «لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم. فكيف بمن يكون الزقوم طعامه!» «١». وقال ابن عرفه : هذه الشجرة يحتمل أن تكون واحدة بالنوع ، فيكون كل جهة من جهات جهنم فيها شجرة ، أو : تكون واحدة بالشخص. هـ.
إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ محنة وعذابا لهم فى الآخرة ، وابتلاء لهم فى الدنيا. وذلك أنهم قالوا : كيف تكون فى النار شجرة ، والنار تحرق الشجر؟ ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش فى النار ويتلذذ بها - وهو السمندل - «٢» كيف لا يقدر على خلق شجر فى النار ، وحفظه من الإحراق؟
إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ، قيل : منبتها فى قعر جهنم ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها ، وهذا يؤيد أنها واحدة بالشخص.
طَلْعُها أي : حملها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ ، الطلع للنخلة ، فاستعير لما يطلع من شجرة الزقوم من حملها ، وشبه برؤوس الشياطين للدلالة على تناهيه فى الكراهة ، وقبح المنظر لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس لاعتقادهم أنه شرّ محض. وقيل : الشياطين : حيّات هائلة ، قبيحة المنظر ، لها أعراف يقال لها شياطين. وقيل : شبه بما استقر فى النفوس من كراهة رؤوس الشياطين وقبحها ، وإن كانت لا

ترى ، كما شبهوا سنان الرماح بأنياب أغوال ، كما قال امرؤ القيس :

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال «٣»

فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها أي : من طلع تلك الشجرة ، فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ مما يبلغهم من الجوع الشديد ، فيملؤون بطونهم منها مع تناهى بشاعتها ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها على أكلها ، أي : بعد ما شبعوا منها ، وغلبهم العطش ، وطال استقاؤهم ، لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ أي : لشرابا من غساق ، أو : حديد ، مشوبا بماء حار ، يشوى وجوههم ، ويقطع أمعاءهم ، فى مقابلة ما قال فى شراب أهل الجنة : وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ «٤» وأتى ب «ثم» لما فى شرابهم من مزيد البشاعة والكراهة فإنّ الزقوم حار محرق ، وشرابهم أشد حرا وإحراقا.

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه فى (صفة جهنم ، باب ما جاء فى صفة شراب أهل النار ، ٤/ ٦٠٩ ، ح ٢٥٨٥) ، وابن ماجة فى (الزهد ، باب صفة النار ، ٢/ ٤٤٦ ، ح ٤٣٢٥) وابن حبان (ح ٧٤٧٠) والحاكم (٢/ ٢٩٤) وصححه ، من حديث ابن عباس - رضى اللّه عنهما.

(٢) السمندل : طائر إذا انقطع نسله ، وهرم ، ألقى نفسه فى الجمر ، فيعود إلى شبابه. وقيل : هو دابة يدخل النار فلا تحرقه. انظر اللسان (سمندل ، ٣/ ٢١٠٥).

(٣) انظر : ديوان امرئ القيس (ص ٣٣). والكامل (٣/ ٩٦) ..

(٤) الآية ٢٧ من سورة المطففين. [.....]

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ أي : إنهم يخرجون من مقارهم فى الجحيم - وهو الدركات التي أسكنوها - إلى شجرة الزقوم ، فيأكلون منها إلى أن يتملّوا. ويشربون بعد ذلك ، ثم يرجعون إلى دركاتهم ، كما تورد الإبل ، ثم ترد إلى وطنها. ومعنى التراخي فى ذلك ظاهر.

ثم ذكر سبب عذابهم ، فقال : إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ ، فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ ، علّل استحقاقهم للوقوع فى تلك الشدائد بتقليد آبائهم فى الضلال ، وترك اتباع الدليل. والإهراع : الإسراع الشديد. كأنهم يزعجون ويحثّون حثّا. وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى اتباعهم من غير توقف ولا نظر. وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ قبل قومك قريش أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ، يعنى الأمم الماضية ، بالتقليد وترك النظر. وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ أنبياء ، حذّروهم العواقب. فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ الذين أنذروا ، وحذّروا ، فقد أهلكوا جميعا ، إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أي : إلا الذين آمنوا ، وأخلصوا دينهم لله ، أو : أخلصهم اللّه لدينه ،

على القراءتين «١».

الإشارة : إذا قامت القيامة انحاز الجمال كله إلى أهل الإيمان والإحسان ، وانحاز الجلال كله إلى أهل الكفر والعصيان ، فيرى المؤمن من جماله تعالى وبره وإحسانه ما لا تفى به العبارة ، ويرى الكافر من جلاله تعالى وقهره ما لا يكيف. وأما فى دار الدنيا فالجمال والجلال يجريان على كل أحد ، مؤمنا أو كافرا ، كان من الخاصة أو العامة ، غير أن الخاصة يزيدون إلى اللّه تعالى فى الجلال والجمال لمعرفتهم فى الحالتين. وأما العامة فلا يزيدون إلا بالجمال لإنكارهم فى الجلال. والمراد بالجلال : كل ما يقهر النفس ويذلها. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر أول المنذرين من أولى العزم ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٧٥ الى ٨٢]

وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (٧٩)
إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ نادانا أي : دعانا نُوحٌ ، حين أيس من قومه بقوله : أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ «٢» أو : دعانا لننجيه من الغرق ، فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ أي : فأجبناه أحسن الإجابة ، ونصرناه على أعدائه ،

---

(١) فى «المخلصين» ، وقد قرأ بفتح اللام : نافع وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر. وقرأ الباقون بالكسر.

(٢) الآية ١٠ من سورة القمر.

وانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون ، فو اللّه لنعم المجيبون نحن ، فحذف القسم لدلالة اللام عليه. وحذف المخصوص ، والجمع دليل العظمة والكبرياء. وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ ومن آمن به وأولاده المؤمنين مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ، وهو غمّ الغرق ، أو : إذاية قومه ، وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ ، وقد فنى غيرهم. قال قتادة : الناس كلهم من ذرية نوح ، وكان لنوح عليه السّلام ثلاثة أولاد : سام - وهو أبو العرب وفارس والروم ، وحام - وهو أبو السودان ، من المشرق إلى المغرب - ويافث - وهو أبو الترك ويأجوج وماجوج «١». وقد نظمه بعضهم ، فقال :

العرب والروم وفارس اعلمن أولاد سام فيهم الخير كمن
من نسل حام نشا السودان شرقا وغربا ، ذا له برهان
يأجوج مأجوج مع الصقالبة ليافث ، لا خير فيهم قاطبه.
وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ أي : وأبقينا عليه الثناء الحسن فى الأمم الآخرين ، الذين يأتون بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة ، سَلامٌ عَلى نُوحٍ : مبتدأ وخبر ، استئناف ، فِي الْعالَمِينَ ، يعنى : أنهم يسلّمون عليه تسليما ، ويدعون له ، أي : ثبتت هذه التحية فيهم ، ولا يخلو أحد منهم منها ، كأنّ اللّه أثبت التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين ، يسلّمون عليه عن آخرهم. إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، فنكرمهم ونحييهم ، وهو تعليل لما فعل بنوح من التكرمة السنية ، بأنه مجازاة له على إحسانه ، إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ علّل كونه محسنا بأنه كان عبدا مؤمنا ليريك جلالة محلّ الإيمان. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ أي : الكافرين.
ذكر فى كتاب حياة الحيوان ، عن القشيري : أن العقرب والحية أتيا نوحا عليه السّلام فقالتا : احملنا معك ، ونحن نعاهدك ألا نضر أحدا ذكرك ، فحملهما. فمن قرأ ، حين يخاف مضرتهما ، حين يمسى وحين يصبح : سلام على نوح فى العالمين ، ومحمد فى المرسلين ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، ما ضرتاه. هـ. وقال نبينا - عليه الصلاة والسلام : «من قال حين يمسى وحين يصبح : أعوذ بكلمات اللّه التامات من شرّ ما خلق ، لم يضره شى ء» «٢».
الإشارة : إذا تحقق الإيمان والإحسان فى عبد أعطى ثلاث خصال : نفوذ الدعوة ، والثناء الحسن بعده ، والبركة فى الذرية ، كل ذلك مقتبس من قضية نوح عليه السّلام.

---

(١) قاله سعيد بن المسيب ، كما فى تفسير ابن كثير (٤/ ١٣).
(٢) أخرجه ، بنحوه ، مسلم فى : (الذكر والدعاء ، باب فى التعوذ من سوء القضاء ، ٤/ ٢٠٨٠ ، ح ٢٧٠٨ ، ٢٧٠٩) من حديث سعد بن أبى وقاص ، وأبى هريرة - رضى اللّه عنهما.

ثم ذكر خليله إبراهيم عليه السّلام ، فقال :
[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٨٣ الى ٨٧]
وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (٨٣) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٨٧)

قلت : (أ ئفكا) : مفعول له ، و(آلهة) : مفعول «تريدون» ، أي : أتريدون آلهة من دون اللّه إفكا وزورا. وإنما قدّم المفعول به على الفعل للعناية له ، وقدّم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل فى شركهم. ويجوز أن يكون «إفكا» مفعولا به ، أي : أتريدون إفكا. ثم فسّر الإفك بقوله : آلِهَةً دُونَ اللَّهِ على أنها إفك فى نفسها ، أو : حالا ، أي : أتريدون آلهة من دون اللّه آفكين.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ أي : نوح لَإِبْراهِيمَ ، أي : ممن شايعه على أصول الدين ، وإن اختلفا فى الفروع ، أو : شايعه على التصلب فى دين اللّه ، ومصابرة المكذّبين. وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة ، وما كان بينهما إلا نبيّان هود ، وصالح. إِذْ جاءَ رَبَّهُ : متعلق بما فى الشيعة من معنى المشايعة ، أي : وممن شايعه على دينه إبراهيم ، حين جاء ربه بِقَلْبٍ سَلِيمٍ من الشرك ، أو : من آفات القلوب ، ومعنى المجيء بقلبه ربه : أنه أخلص للّه قلبه ، وعلم ذلك منه.

إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ ، «إذ» : بدل من الأولى ، أو : ظرف لجاء ، أو : لسليم ، أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ أتريدون آلهة تعبدونها من دون اللّه إفكا وزورا وباطلا. فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ يفعل بكم إذا لقيتموه ، وقد عبدتم غيره ، فما تقولون ، وكيف بكم فى مقام الخجل الذي بين أيديكم ، وإن كنتم اليوم غائبين عنه؟. أو : أىّ شيء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة لكونه رب العالمين ، حتى تركتم عبادته ، وأشركتم معه غيره ، أو أمنتم عذابه؟.

الإشارة : لا يكون العبد إبراهيميا حنيفيا حتى يقدس قلبه مما سوى اللّه ، ويرفض كلّ ما عبده الناس من دون اللّه ، كحب الدنيا ، والرئاسة ، والجاه ، فيجئ إلى اللّه بقلب سليم ، أي : مقدس من شوائب الطبيعة ، فهو سالم مما دون اللّه لاتصاله باللّه. قال القشيري : «بقلب سليم» لا آفة فيه. ويقال : لديغ من محبة الأغيار ، أو : من الحظوظ ، أو : من الاختيار والمنازعة. واللّه تعالى أعلم.

(٦٠٥/٤)

ثم ذكر كسره الأصنام ، وما ترتب عليه ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٨٨ الى ٩٨]

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (٩٢)

فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ (٩٦) قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧)

فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨)

يقول الحق جل جلاله : فَنَظَرَ إبراهيم نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ، وذلك أن قومه كانوا يتعاطون علم النجوم ، فعاملهم بما يعلمون لئلا ينكروا عليه تخلّفه. وكانو يقولون : إذا طلع سهيل مقابل الزهرة سقم من نظر إليه ، فاعتلّ عليهم لأنه نظر إليه ليتركوه. وذلك أنه كان لهم من الغد عيد ومجمع ، وكانوا يدخلون على أصنامهم ، فيقربون إليها القرابين ، ويضعون بين أيديها الطعام ، قبل خروجهم إلى عيدهم ، لتبارك عليه ، فإذا قدموا أكلوه. فلما نظر إلى النجوم ، قال : إِنِّي سَقِيمٌ إنى مشارف للسقم - وهو الطاعون ، وكان أغلب الأسقام عليهم ، وكانوا يخافون العدوى - ليتفرقوا عنه ، فهربوا منه إلى عيدهم ، وتركوه فى بيت الأصنام ، ليس معه أحد ، ففعل بالأصنام ما فعل. قيل : إن علم النجوم كان حقا ثم نسخ الاشتغال به. والكذب حرام إلا إذا عرّض. والذي قاله إبراهيم عليه السّلام معراض من الكلام ، أي : سأسقم ، أو : من فى عنقه الموت سقيم ، أو : سقيم مما أرى من مخالفتكم وعبادتكم الأصنام. وعلى كل حال لم يلم إبراهيم بشيء من الكذب ، وإنما عرّض. وأيضا : إنما كان لمصلحة ، وقد أبيح لها ، كالجهاد ونحوه. وفى الحديث : «ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ، ما منها واحدة إلا وهو يناضل عن دينه لقوله : إِنِّي سَقِيمٌ ، وقوله : فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ «١» ، وقوله لسارة : هى أختى» «٢».

قال السدى : خرج معهم إلى بعض الطريق ، فوقع فى نفسه كيده آلهتهم ، فقال : إنى سقيم أشتكى رجلى.

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ أعرضوا عنه مولين الأدبار ، فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فمال إليها سرّا ، وكانت اثنتين وسبعين صنما من خشب ، وحديد ، ورصاص ، ونحاس ، وفضة ، وذهب ، وكان كبيرهم من ذهب ، فى عنقه

---

(١) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب : قول اللّه تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا ، ح ٣٣٥٨) ومسلم فى (الفضائل ، باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السّلام ٤/ ١٨٤٠ ح/ ٢٣٧١) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

ياقوتتان ، فَقالَ لها ، استهزاء : أَلا تَأْكُلُونَ من الطعام الذي وضع عندكم ، ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ؟. والجمع بالواو والنون لأنه خاطبها خطاب من يعقل. فَراغَ عَلَيْهِمْ فمال إليهم سرا ، فضربهم ضَرْباً بِالْيَمِينِ أي : ضربا شديدا بالقوة لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّهما ، أو : بالقوة والمتانة ، أو :

بسبب الحلف الذي سبق منه بقوله : وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ «١».
فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ إلى إبراهيم يَزِفُّونَ : يسرعون ، من : الزفيف ، وهو الإسراع. وكان قد رآه بعضهم يكسرها. فأخبرهم ، فلما جاء من لم يره قال لمن رآه : مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا «٢» فأجابوه على سبيل التعريض : سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ «٣» ، ثم قالوا بأجمعهم : نحن نعبدها وأنت تكسرها؟ ، فأجابهم بقوله :
قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ : ما تنجرونه بأيديكم من الأصنام؟ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ أي : وخلق ما تعملونه من الأصنام. أو : «ما» مصدرية ، أي : وخلق أعمالكم. وهو دليلنا فى خلق الأفعال لله تعالى ، أي : اللّه خالقكم وخالق أعمالكم ، فلم تعبدون غيره؟!.
قالُوا ابْنُوا لَهُ أي : لأجله بُنْياناً من الحجر ، طوله ثلاثون ذراعا ، وعرضه عشرون ذراعا ، فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فى النار الشديدة : وقيل : كل نار بعضها فوق بعض فهو جحيم. فبنوه وملؤوه حطبا ، وأضرموه نارا ، فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً بإلقائه فى النار ، فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ المقهورين عند إلقائه ، حين خرج من النار سالما ، فعلاهم بالحجة والنصرة. قيل : ذكر أسفل ، هنا لمناسبة ذكر البناء ، بخلاف سورة الأنبياء «٤».
الإشارة : كلّ عبد مأمور بكسر صنمه ، وهو : ما تركن إليه نفسه من حظ ، أو هوى ، أو علم ، أو عمل ، أو حال ، أو مقام. وفى الإشارات عن اللّه تعالى : لا تركنن لشىء دوننا ، فإنه وبال عليك ، وقاتل لك ، فإن ركنت إلى العلم تتبعناه عليك ، وإن أويت إلى العمل رددناه إليك ، وإن وثقت بالحال وقفناك معه ، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه ، وإن لحظت إلى الخلق وكلناك إليهم ، وإن اعتززت بالمعرفة نكرناها عليك ، فأىّ حيلة لك ، وأىّ قوة معك؟
فارضنا لك ربا حتى نرضاك لنا عبدا. هـ. ولا بأس أن يتعلل لنفسه ، ويحتال عليه بحيل ، كما تعلل الخليل للقعود لكسر الأصنام ، لعلها توافقه على ترك ما تهواه وتركن إليه ، كما قال القائل «٥» :
فاحتل على النفس قربّ حيله أنفع فى النصرة من قبيله.

---

(١) الآية ٥٧ من سورة الأنبياء.
(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنبياء.
(٣) الآية ٦٠ من سورة الأنبياء.
(٤) فى قوله تعالى : وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ الآية ٧٠.
(٥) وهو ابن البنا السرقسطي ، فى المباحث الأصلية (ص ٥٠٥).

ثم ذكر هجرة إبراهيم ، وما امتحن به ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٩٩ الى ١١١]

وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣)

وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨)

سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (١٠٩) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)

قلت : «معه» : يتعلق بمحذوف ، أي : بلغ السعى يسعى معه ، ولا يتعلق ببلغ لأنه يقتضى الاشتراك فى البلوغ ، ولا بالسعي لأن المصدر لا يتقدم عليه معموله ، إلا أن يقال : يتسع فى الظروف ما لا يتسع فى غيرها.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ إبراهيم : إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي إلى موضع أمرنى ربى بالذهاب إليه ، وهو الشام ، أو : إلى مرضاة ربى ، بامتثال أمره بالهجرة ، أو : إلى المكان الذي أتجرد فيه إلى عبادة ربى ، سَيَهْدِينِ أي : سيرشدنى إلى ما فيه صلاح دينى ، أو : إلى مقصدى ، وإنما بتّ القول لسبق وعده لأن اللّه وعده بالهداية ، أو : لفرط توكله ، أو : للبناء على عادته معه. ولم يكن كذلك حال موسى عليه السّلام حيث عبّر بما يقتضى الرجاء «١».

ثم قال : رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ بعض الصالحين ، يعيننى على الدعوة والطاعة ، ويونسى فى الغربة.

يريد الولد لأن لفظ الهبة غلب على الولد. فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ، انطوت البشارة على ثلاث : على أنّ الولد ذكر ، وأنه يبلغ أوان الحلم لأن الصبىّ لا يوصف بالحلم ، وأنه يكون حليما ، وأىّ حليم أعظم من حلمه ، حيث عرض عليه أبوه الذبح وهو مراهق ، فقال : سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ «٢» ، ثم استسلم. وقيل : ما نعت اللّه نبيا بالحلم إلا إبراهيم وابنه لمعزّة وجوده.

---

(١) حيث قال : عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ الآية ٢٢ من سورة القصص.

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الصافات.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٠٩

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ أي : فلما وجد وبلغ أن يسعى مع أبيه فى أشغاله وحوائجه ، أي : الحدّ الذي يقدر على السعى مع ابنه ، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة. وقيل : سبع سنين. قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ أي : قيل له فى المنام : اذبح ابنك ، ورؤيا الأنبياء وحي ، كاليقظة. قال الكواشي : لم ير أنه يذبحه فى النوم ، ولكنه أمر فى النوم بذبحه ، بدليل قوله : افْعَلْ ما تُؤْمَرُ. وقيل : رأى أنه يعالج ذبحه ، ولم ير إراقة الدم.

وقال قتادة : رؤيا الأنبياء حق ، إذا رأوا شيئا فعلوه «١». وفى رؤيا ذلك فى النوم وتحققه إياه حتى عمل بما رأى ، إيذان بأن الأنبياء قد تجوهرت نفوسهم ، فلا مجال للكذب فيما يوحى إليهم ، وفيما يصدر عنهم ، فهم صادقون مصدّقون ، فليس للشيطان عليهم سبيل ، وإيذان بأن من كان فى منامه صادقا كان يقظته أولى بالصدق. هـ.

وإنما لم يقل : «رأيت» لأنه رأى مرة بعد أخرى ، فقد قيل : رأى ليلة التروية كأنّ قائلا يقول له : إن اللّه يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح روّى فى ذلك من الصباح إلى الرواح ليعلم أمن اللّه هذا الحلم ، أم لا ، فسمّى يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من اللّه ، فسمّى يوم عرفة ، ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة ، فهم بنحره ، فسمّى يوم النحر «٢».

واختلف من المخاطب المأمور بذبحه ، فقال أهل الكتابين : هو إسحاق ، وبه قال عمر ، وعليّ ، وابن مسعود ، والعباس ، وابنه عبد اللّه ، وكعب الأحبار ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، ومسروق ، وعكرمة ، والقاسم بن أبى برّة ، وعطاء ، ومقاتل ، والزهري ، والسدى. قال سعيد بن جبير : أرى إبراهيم ذبح إسحاق فى المنام ، فسار به على البراق مسيرة شهر فى غداة واحدة ، حتى أتى المنحر بمنى ، فلما صرف عنه الذبح ، وأمره أن يذبح الكبش ، وذبحه ، سار به مسيرة شهر فى روحة واحدة ، طويت له الأودية والجبال. هـ.

واحتج أهل هذا القول بأنه ليس فى القرآن أن إبراهيم بشّر بولد إلا بإسحاق ، وقال هنا : فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ فتعيّن أنه إسحاق إذ هو المبشّر به فى غير هذه الآية ، وبأن الذي كان يسعى معه فى حوائجه وأشغاله إنما هو إسحاق ، وأما إسماعيل فإنما كان بمكة غائبا عنه ، ولم يثبت فى الصحيح أن إبراهيم قدم مكة إلا ثلاث مرات وإسماعيل متزوج. وبما روى أن موسى عليه السّلام قال : يا رب الناس يقولون : إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فبم ذلك؟

فقال : إن إبراهيم لم يعدل بي شيئا قط إلا اختارني ، وإن إسحاق جاد لى بالذبح ، وهو لى بغير ذلك أجود ، وإن يعقوب كلما زدته بلاء زاد لى حسن ظن «٣». وقال يوسف للملك : أترغب أن تأكل معى ، وأنا - واللّه - يوسف بن

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٥٢٨) لعبد بن حميد. [.....]

(٢) انظر تفسير البغوي (٧/ ٤٨).

(٣) أخرجه الطبري فى تفسيره (٢٣/ ٨٢) وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٥٣٠) لابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، والبيهقي فى الشعب ، عن عبد اللّه بن عمير.

(٤/٦٠٩)

يعقوب ، نبى اللّه ، ابن إسحاق ، ذبيح اللّه ، ابن إبراهيم ، خليل اللّه «١». وبما روى أن نبينا - عليه الصلاة والسلام - سئل : أي النسب أشرف؟ فقال : «يوسف صدّيق اللّه ، ابن يعقوب إسرائيل اللّه ، ابن إسحاق ذبيح اللّه ، ابن إبراهيم خليل اللّه» «٢». وفى الجامع الصغير : «الذبيح إسحاق» رواه الدار قطنى عن ابن مسعود ، والبزار وابن مردويه عن العباس ، وأبى هريرة «٣».

وقال آخرون : هو إسماعيل ، وبه قال عمر ، وأبو الطفيل عامر بن واثلة ، وسعيد من المسيب ، والشعبي ، ويوسف ابن مهران ، ومجاهد ، وابن عباس أيضا ، وغيرهم. واحتجوا بأن البشارة بإسحاق متأخرة عن قصة الذبح. وبقوله عليه السلام : «أنا ابن الذبيحين» «٤» فأحدهما : جده إسماعيل ، والآخر : أبوه ، فإن عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا إن سهل له حفر زمزم ، أو بلغ بنوه عشرا ، فلما سهل ، أقرع بينهم ، فخرج السهم على عبد اللّه ، ففداه بمائة من الإبل ، ولذلك سنت الدية مائة. وبأن ذلك كان بمكة ، وكان قرنا الكبش معلّقين بالكعبة حتى احترقا معها فى أيام ابن الزبير ، ولم يكن إسحاق ثمة. هـ.

وقد يجاب بأن البشارة أولا كانت بولادته ، والثانية بنبوته ، أو : بسلامته. وبأن الثانية تفسير للأولى ، كأنه قال بعد ما فرغ من ذكر المبشر به : وكانت تلك البشارة بإسحاق. قاله الفاسى فى حاشيته. وعن الحديث بأن العم يطلق عليه أبا ، كقوله تعالى : نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ «٥» وكان عمّا له ، وتقدم عن ابن جبير أن إبراهيم سار بابنه على البراق إلى مكة وحيث كان الذبح بها بقي القربان فيها. واللّه تعالى أعلم بغيبه «٦».

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ٨٣) عن أبى ميسرة.

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٥٣١) للطبرانى ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي اللّه عنه.

(٣) حديث رقم (٤٣٤٩) وعبارة السيوطي : « (قط) فى الإفراد ، عن ابن مسعود ، والبزار وابن مردويه ، عن العباس بن عبد المطلب ، وابن مردويه عن أبى هريرة ، والحديث ضعّفه السيوطي.

(٤) أخرج ابن جرير (٢٣/ ٨٥) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٥٤) عن الصّنابحى ، قال : كنا عند

معاوية بن أبى سفيان ، فذكروا الذبيح ، إسماعيل أو إسحاق ، فقال : على الخبير سقطتم ، كنا عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فجاءه رجل ، فقال : يا رسول اللّه عد علىّ مما أفاء اللّه عليك يا ابن الذبيحين ، فضحك عليه الصلاة والسلام ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، وما الذبيحان؟ فقال : إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم ...» إلخ. والحديث ضعفه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٥٢٩).
(٥) من الآية ١٣٣ من سورة البقرة.
(٦) الصواب فى هذه المسألة : أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل عليه السّلام ، وهذا هو المروي عن جمهرة الصحابة والتابعين - كسيدنا علىّ ، وابن عمر ، وسعيد بن المسيب ، والربيع بن أنس ، والشعبي ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم ، واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة ، منها :
أن اللّه تعالى لمّا ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى هذه السورة (الصافات ، الآيات ١٠٠ - ١١١) عطف على ذلك فقال :
وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ فهذه بشارة من اللّه تعالى ، شكرا له على صبره على ما أمر به. وهذا ظاهر جدا فى أن المبشر به غير الأول ، بل هو كالنص فيه ، وغير معقول أن يبشر بإسحاق بعد قصة يكون فيها هو الذبيح.

(٤/٦١٠)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦١١

ولمّا قال له : إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ، فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ به سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ على الذبح. روى أن إبراهيم قال لابنه : انطلق بنا نقرب قربانا لله تعالى ، فأخذ سكينا وحبلا ، ثم انطلق معه ، حتى إذا ذهب بين الجبال ، قال له الغلام : يا أبت أين قربانك؟ فقال : يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ ... الآية ، فقال : يا أبت خذ بناصيتي ، واجلس بين كتفى ، حتى لا أؤذيك إذا أصابتنى الشفرة ، ولا تذبحنى وأنت تنظر لوجهى لئلا ترحمنى ، واجعل وجهى إلى الأرض.
وفى رواية واذبحني وأنا ساجد ، واقرأ على أمي السلام ، وإن رأيت أن تردّ قميصى إلى أمي فافعل ، عسى أن يسليها عنى. قال إبراهيم : نعم العون أنت على أمر اللّه تعالى. فربطه إبراهيم عليه السّلام ثم جعل يقبله ، وهو يبكى ، والابن يبكى ، حتى استنقعت الدموع تحت خده.
فَلَمَّا أَسْلَما أي : انقادا لأمر اللّه وخضعا. وعن قتادة : أسلم هذا ابنه ، وهذا نفسه. وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ صرعه على جنبه ، ووضع السكين على حلقه ، فلم تعمل ، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ، ونودى :

فإن قيل : فالبشارة الثانية وقعت على نبوته ، أي : لمّا صبر الأب على ما أمر به ، وأسلم الولد لأمر اللّه ، جازاه اللّه على ذلك بأن أعطاه النبوة.

قيل : البشارة وقعت على المجموع على ذاته ووجوده ، وأن يكون نبيا ، ولهذا نصب «نبيا» على الحال المقدر ، أي : مقدرا نبوته ، فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل ، ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الغفلة ، هذا محال من الكلام ، بل إذا وقعت البشارة على نبوته ، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى.

أن البشارة بإسحاق وقعت مقرونة بولادة يعقوب ، على ما هو الظاهر من قوله : فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ ، وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ سورة هود/ ٧١ ، ولا يتصور أن يبشر بالولد وولد الولد دفعة ، ثم يؤمر بذبح الولد قبل ولادة ولده.

وأيضا : فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها ، كما جعل السعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار ، تذكيرا لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامة لذكر اللّه ، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحاق وأمه. وكان النحر بمكة من تمام حج البيت ، ولو كان الذبح بالشام - كما يزعم أهل الكتاب - لكانت القرابين والنحر بالشام ، لا بمكة.

وفى هذا الشأن نقل عن الأصمعى أنه قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعى أين عقلك ، ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة ، وهو الذي بنى البيت مع أبيه ، والمنحر بمكة.

أما من نقل من أخبار من أن الذبيح هو إسحاق فهو منقول عن أهل الكتاب ، وحال أهل الكتاب ، لا يخفى عل ذوى الألباب ، ونقل ابن القيم فى زاد المعاد (١/ ٧١) عن الشيخ ابن تيمية - رحمهما اللّه - قوله : هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم ، فإن فيه : إن اللّه أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره ، وفى لفظ : «وحيده» ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده ، والذي غرّ أصحاب هذا القول أن فى التوراة ، التي بأيديهم : اذبح ابنك إسحاق. وقال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم ، لأنها تناقض قوله : (اذبح بكرك ووحيدك) ، ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ، ويختاروه لأنفسهم دون العرب ، ويأبى اللّه إلا أن يجعل فضله لأهله».

للمزيد فى هذه المسألة انظر : مفاتيح الغيب (٣/ ٢٤٧) - تفسير ابن كثير (٤/ ١٧ - ١٩) زاد المعاد لابن القيم (١/ ٧١ - ٧٥) القول الفصيح ، للسيوطى ، ضمن كتاب الحاوي (١/ ٣١٨ - ٣٢٢) - الإسرائيليات والموضوعات ، للدكتور أبى شهبة (٢٥٢ - ٢٦٠).

يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا. روى أنّ ذلك المكان عند الصخرة التي بمنى. وجواب «لما» محذوف ، أي : فلما أسلما رحما وسعدا. وقال بعض الكوفيين : الجواب : (و تله) ، والواو : زائدة. وقال الكسائي : الجواب : (و ناديناه). والواو زائدة. وقال الخليل وسيبويه : الجواب محذوف ، أي : فلما أسلما سلما. وقدّر الراضي : فلما أسلما كان من لطف اللّه مالا يوصف. هـ.
وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا أي : حققت ما أمرناك به فى المنام ، من تسليم الولد للذبح ، وبالعزم والإتيان بالمقدمات ، إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ تعليل لما خوّلهما من الفرج بعد الشدة.
والحاصل : أن الجزاء هو الوقاية من الذبح ، مع إمرار السكين ، ولم تقطع ، جزاء على إحسانهما ، وقد ظهرت الحكمة بصدقهما ، فإن المقصود إخلاء السر من عادة الطبيعة ، لا تحصيل الذبح ، روى أنه لما أمرّ السكين فلم تقطع ، تعجّب ، فنودى : يا إبراهيم كان المقصود من هذا استسلامكما ، لا ذبح ولدك.
إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ الاختبار البيّن ، الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم. أو : المحنة البيّنة الصعبة ، فإنه لا محنة أصعب منها. وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ : ضخم الجثة سمين. قال ابن عباس : هو الكبش الذي قرّبه هابيل فقبل منه ، وكان يرعى فى الجنة حتى فدى به ولد إبراهيم. وعنه : لو تمت تلك الذبيحة لصارت سنّة ، وذبح الناس أولادهم. روى أن الكبش هرب من إبراهيم عند الجمرة ، فرماه سبع حصيات ، حتى أخذه ، فبقيت سنّة فى الرمي. قلت : والجمهور : أن الشيطان تعرض له عند ذهابه لذبح ولده ، ثلاث مرات ، فرماه سبع حصات عند كل مرة ، فبقيت سنّة فى الرمي. وروى أنه لما ذبحه ، قال جبريل : اللّه أكبر ، فقال الذبيح : لا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، فقال إبراهيم : اللّه أكبر ولله الحمد ، فبقيت سنّة صبيحة العيد.
قال البيضاوي : واحتج به من جوز النسخ قبل الفعل ، فإنه عليه السّلام كان مأمورا بالذبح ، لقوله : افْعَلْ ما تُؤْمَرُ ولم يحصل. هـ. قال سيدى عبد الرحمن الفاسي فى الحاشية : ولمّا بذل إبراهيم وسعه ، وفعل ما يفعله الذابح من ضجعه على شقه ، وإمرار الشفرة على حلقه ، لم يكن هذا من النسخ قبل الفعل ، وإن كان ورود النسخ قبل الفعل جائز ، لكن هذه الآية ليست منه فى شىء لأنه عليه السّلام باشر الفعل بقدر الإمكان وبذل المجهود ، ولم يكن منه تقصير ، ولو لم يمنع مانع القدرة الإلهية لتم الذبح المأمور به ، لهذا قال تعالى : صَدَّقْتَ الرُّؤْيا. وإنما احتيج إلى الفداء لتحصيل حقيقة الذبح فيه نيابة عن المفدى شرعا ، وعلامة على غاية القبول والرضا عنهما ، وعوض عن ذلك ما هو كرامة لهما ، ولمن بعدهما إلى غابر الدهر. هـ.
وقيل : إن هذه الآية نسخ بها الأمر بالذبح قبل التمكين من الفعل ، بناء على أن إبراهيم لم يمر الآلة. وعزاه المحلى فى جمع الجوامع لمذهب أهل السنة. وعليه ينزل الفداء ، ثم قال : والحق : أن الآية

من المنسوخ قبل تمام الفعل وكماله ، لا قبل الأخذ فيه ومعالجته. ثم اعترض كلام ابن عطية ، وقال : فيه تدافع ، فانظره.

(٤/٦١٢)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦١٣

وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ أي : الثناء الحسن فى الأمم الآخرين ، سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ ، سبق بيانه فى نوح «١» كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، لم يقل : إنا كذلك ، هنا ، كما فى غيره لأنه قد سبق فى القصة ، فاكتفى هنا عن ذكره. إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ، فيه تنويه بشأن الإيمان لأنه أساس لكل ما يبنى عليه من معرفة وإحسان.

الإشارة : قال إنى ذاهب إلى ربى بالتوجه والعزم ، سيهدين إلى صريح معرفته ، ومكافحة رؤيته ، ودوام شهوده. فالذهاب إليه يفضى إلى الذهاب فيه ، وهو غيبة العبد عن شهود نفسه ، بشهود محبوبه ، وهذه الحالة متبوعة للامتحان إذ امتحان كل عبد على قدر مقامه ، فكلما علا المقام عظم الامتحان. فامتحن الخليل بأربع محن : تسليم بدنه للنيران ، وولده للقربان ، ورمى آخر عند البيت فى يد الرحمن ، «٢» وذهاب زوجه للجبّار ، فوقع اللطف فى الجميع ، واصطفى خليلا للرحمن. وأيضا : الحق غيور ، لا يحب أن يرى فى قلب خليله أو وليّه شيئا سواه ، فأمر بذبح ولده لإخراجه من قلبه ، كما فرّق بين يوسف ووالده ، وامتحن حبيبه صلى اللّه عليه وسلم فى عائشة صدّيقته ، وهذه عادة اللّه مع أصفيائه.

قال القشيري : يقال فى القصة : أنه رآه راكبا على فرس أشهب ، فاستحسنه ، ونظر إليه بقلبه ، فأمر بذبحه ، فلما أخرجه من قلبه ، واستسلم لذبحه ، ظهر الفداء. وقيل له : كان المقصود من هذا فراغ قلبك منه ، لا ذبحه. ويقال فى القصة : أنه أمر أباه أن يشدّ يديه ورجليه لئلا يضطرب إذا مسّه ألم الذبح ، فيعاتب ، ثم لمّا همّ بذبحه قال : افتح القيد عنى ، فإنى لا أتحرك ، فإنى أخشى أن أعاتب ، فيقول : أمشدود اليد جئتنى؟ وأنشدوا :

ولو بيد الحبيب سقيت سمّا لكان السّمّ من يده يطيب

قيل : إن الولد كان أشدّ بلاء ، لأنه وجد الذبح من يد أبيه ، ولم يتعوّد منه إلا التربية بالجميل ، فكان البلاء منها «٣» أشد إذ لم يتوقعه منها. وقيل : بل إبراهيم أشد بلاء لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده ، ويعيش بعده ، ولم يأت الولد بالدعوى ، بل قال : إن شاء اللّه ، فتأدب بلفظ الاستثناء. ثم قال : ويقال : إنّ اللّه ستر عليهما ما علم أنه أريد منهما فى حال البلاء ، وإنما كشف لهما بعد مضيّ وقت المحنة ، لئلا يبطل معنى الابتلاء ، وهو توجع القلب

---

(١) راجع تفسير الآية ٧٩ من هذه السورة.
(٢) هذا على أن الذبيح هو إسحاق ، وقد مر آنفا أن الصحيح أنه سيدنا إسماعيل عليه السّلام.
(٣) أي : من اليد.

بالقهرية ، وكذلك لما ألقى فى النار أخفى عنه المراد منه ، وهو السلامة منها ليحصل معنى الابتلاء. وهكذا يكون الحال فى حال البلاء ، [ينسد عيون التهدى إلى الحال] «١». وكذلك كان حال نبينا صلى اللّه عليه وسلم فى الإفك ، وأيوب عليه السّلام ، وإنما تبين الأمر بعد ظهور أجر المحنة وزوالها ، وإلّا لم تكن حينئذ محنة ، ولكن مع استعجام الحال وانبهامه إذ لو كشف الأمر عن صاحبه لم يكن حينئذ بلاء. هـ. ملخصا.

ثم قال تعالى :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١١٢ الى ١١٣]

وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)

قلت : «نبيا» : حال مقدرة من «إسحاق» ، ولا بد من تقدير مضاف محذوف ، أي : وبشرناه بوجود إسحاق نبيّا ، أي : بأن يوجد مقدرا نبوته ، فالعامل فى الحال : الوجود ، لا فعل البشارة ، قاله الكواشي وغيره.

يقول الحق جل جلاله : وَبَشَّرْناهُ أي : إبراهيم بِإِسْحاقَ بعد امتحانه ، نَبِيًّا أي : يكون نبيا.

قال قتادة : بشّره بنبوة إسحاق بعد ما امتحنه بذبحه. قالوا : ولا يجوز أن يبشّر بنبوته وذبحه معا لأن الامتحان لا يصح مع كونه عالما بأن سيكون نبيا. هـ. قلت : لا يبعد أن يبشّر بهما معا قبل المحنة لأن العارف لا يقف مع وعد ولا وعيد لاتساع علمه ، فإن الوعد قد يكون متوقفا على شروط ، قد لا يلم العبد بها ، وراجع ما تقدم عند قوله : حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا «٢» بالتخفيف ، وعند قوله : وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً «٣». ثم قال قتادة : وهذه حجة لمن يقول : إن الذبيح كان إسحاق. ومن قال : كان إسماعيل الذبيح ، قال : بشّر إبراهيم بولد يكون نبيا بعد القصة لطاعته. هـ. وذكر ابن عطية عن مالك أنه نزع بهذه الآية لكون الذبيح إسماعيل ، انظر بقية كلامه. وتقدم الجواب عنه ، فإنّ الأولى بولادته ، وهذه بنبوته. انظر الحاشية.

وقوله : مِنَ الصَّالِحِينَ : حال ثانية ، وورودها على سبيل الثناء لأن كل نبيّ لا بد أن يكون من

الصالحين.

قال ابن عرفه : الصلاح مقول بالتشكيك ، فصلاح النبي أعظم من صلاح الولي. هـ. وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ أي : أفضنا عليهم بركات الدين والدنيا. وقيل : باركنا على إبراهيم فى أولاده ، وعلى إسحاق بأن أخرجنا

---

(١) عبارة القشيري : (تنسد الوجوه فى الحال).

(٢) الآية ١١٠ من سورة يوسف. [.....]

(٣) الآية ١١ من سورة الأحزاب.

(٦١٤/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦١٥

من صلبه ألف نبيّ ، أولهم يعقوب ، وآخرهم عيسى عليه السّلام. وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما أي : إبراهيم وإسحاق ، وليس لإسماعيل هنا ذكر ، استغناء بذكر ترجمته فى مريم «١» ، مُحْسِنٌ مؤمن وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ بالكفر مُبِينٌ ظاهر كفره. أو : محسن إلى الناس ، وظالم لنفسه بتعديه عن حدود الشرع.

وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجرى أمرهما على العرق والعنصر ، فقد يلد البرّ الفاجر ، والفاجر البرّ.

وهذا مما يهدم الطبائع والعناصر ، وتنبيه على أن الظلم فى أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله ، ويعاقب بما كسبت يداه ، لا على ما وجد من أصله وفرعه. قاله النسفي. قلت : قاعدة «العرق نزاع» أغلبية ، لا كلية. وقيل : هو حديث ، فيكون أغلبيا ، فالشجرة الطيبة لا تنبت فى الغالب إلا الطيب ، إلا لعارض ، والشجرة الخبيثة لا تجد فروعها إلا مثلها ، إلا لسبب. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : البشارة الكبيرة ، والبركة العظيمة ، إنما تقع فى الغالب بعد الامتحان الكبير ، فبقدر الامتحان يكون الامتكان ، وبقدر الجلال يعظم الجمال ، فإنّ مع العسر يسرا. فبقدر الفقر يعقب الغنى ، وبقدر الذل يعقب العز ، إن كان فى جانب اللّه. وقس على هذا .. ويسرى ذلك فى العقب ، كما هو مشاهد فى عقب الصالحين والعلماء والأولياء. وبالله التوفيق.

ثم ذكر موسى وهارون ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١١٤ الى ١٢٢]

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْناهُمْ فَكانُوا

هُمُ الْغالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ مَنَنَّا أنعمنا عَلى مُوسى وَهارُونَ بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية ، وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما بنى إسرائيل ، مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ من الغرق والدهش الذي

---

(١) فى قوله تعالى : وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا ، وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا الآيتان : ٥٤ - ٥٥.

(٦١٥/٤)

أصابهم ، حين طلعت خيل فرعون عليهم ، أو : من سلطان فرعون وقومه وعنتهم. وَنَصَرْناهُمْ أي : موسى وهارون وقومهما ، فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ على فرعون وقومه. وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ البليغ فى بيانه ، وهو التوراة ، وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ صراط أهل الإسلام ، وهو الطريق الذي يوصل إلى الحق ، وَتَرَكْنا عَلَيْهِما الثناء الحسن فِي الْآخِرِينَ الآيتين بعدهما ، سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ ، إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ الكاملين فى الإيمان.

الإشارة : منّ عليهما أولا بالخصوصية ، ثم امتحنهما عليها بالكرب العظيم ، كما هى عادته فى أهل الخصوصية ، ثم منّ عليهم بالفرج والنصر والعز ، ثم هداهما إلى طريق السير إليه ، فى الظاهر والباطن ، بإنزال الكتاب ، وبيان طريق الرشد والصواب ، فالطريق المستقيم هى طريق الوصول إلى الحضرة ، وشهود عين التوحيد الخاص ، ثم ينشر الصيت والذكر الحسن فى الحياة والممات. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر إلياس ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٢٣ الى ١٣٢]

وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧)

إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، وهو إلياس بن ياسين بن العيزار ، من سبط هارون عليه السّلام. قال ابن إسحاق : لمّا قبض اللّه حزقيل النبي ، عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل ، ونسوا

عهد اللّه ، وعبدوا الأوثان ، فبعث اللّه إلياس «١» ، وبنو إسرائيل حينئذ متفرقون فى أرض الشام ، وفيهم ملوك كثيرة. وذلك أن يوشع لمّا فتح الشام بعد موسى عليه السّلام وملكها ، بوأها بنى إسرائيل ، وقسمها بينهم ، وأحلّ سبطا منهم ببعلبك ونواحيها. ومنهم السبط الذي نشأ منهم إلياس. انظر الثعلبي.
وقيل : إلياس هو إدريس. وقرأ ابن مسعود - رضى اللّه عنه - : «وإن إدريس» موضع إلياس.
والمشهور ما تقدم.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ٩٢) عن ابن إسحاق ، عن وهب بن منبه.

(٦١٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦١٧
إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ ألا تخافون اللّه ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا ، هو علم لصنم ، كان من ذهب ، وكان طوله عشرين ذراعا ، وكان له أربعة أوجه ، فافتتنوا به وعظّموه ، حتى أخدموه أربعمائة سادن ، وجعلوهم أنبياءه.
وكان الشيطان يوسوس إليهم شريعة من الضلالة ، وكان موضعهم يسمى «بك» فركب معه وصار «بعلبكّ» ، وهو من بلاد الشام ، قلت : ويسمونه اليوم عكا ، وفيه قبر صالح عليه السّلام ، وقيل : إن إلياس والخضر حيان ، يلتقيان كل سنة بالموسم «١» ، فيأخذ كل واحد من شعر صاحبه. قيل : إن إلياس وكّل بالفيافي ، والخضر وكّل بالبحار. وقيل : إن اللّه قطع عنه لذة المطعم والمشرب ، وألبس الريش ، وطار مع الملائكة ، فصار إنسيا ملكيا ، أرضيا سماويا. فهو مازال حيا. فالله أعلم.
ثم قال : وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ أي : تعبدون صنما جامدا ، وتتركون عبادة اللّه الذي هو أحسن الخالقين.
اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ «٢». من نصب الثلاثة فبدل ، ومن رفعها فمبتدأ وخبر. فَكَذَّبُوهُ فسلط اللّه عليهم ، بعد رفعه ، أو موته ، عدوا ، فقتل ملكهم وكثيرا منهم ، فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ فى النار ، وإنما أطلقه اكتفاء بالقرينة ، أو : لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ من قومه ، فإنهم ناجون من حضور العذاب ، وَتَرَكْنا عَلَيْهِ الثناء الحسن فِي الْآخِرِينَ. سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ «٣» ، وهو إلياس وأهله لأن «ياسين» اسم أبيه. وقرأ أكثر القراء : إلياسين ، بكسر الهمزة ووصل اللام ، أي : إلياس وقومه المؤمنين ، كقولهم : الخبيبون والمهلّبون ، يعنون عبد اللّه بن الزبير وقومه. والمهلّب وأتباعه. إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وقيل : آل ياسين هو نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم وأهله ، والسياق يأباه.

الإشارة : يؤخذ من قوله تعالى : أَلا تَتَّقُونَ ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا .. إلخ ، أن مدار التقوى هو توحيد اللّه ، والانحياش إليه ، والبعد عن كل ما سواه ، والرجوع إلى اللّه فى كل شيء ، والاعتماد عليه فى كل حال. ويؤخذ من قوله : سلام على آل ياسين فى قراءة المد ، أن الرجل الصالح ينتفع به أهله وأقاربه ، وهو كذلك فإن عظم صلاحه تعدت منفعته إلى جيرانه وقبيلته ، فإذا كبر جاهه شفع فى الوجود بأسره.

---

(١) عزاه فى الدر المنثور (٥/ ٥٣٧) لابن عساكر ، عن ابن شوذب ، والحسن.

(٢) قرأ حفص ، وحمزة ، والكسائي بنصب الأسماء الثلاثة ، وقرأ الباقون بالرفع. انظر الحجة للفارسى (٦/ ٦٣).

(٣) قرأ نافع ، وابن عامر ، ويعقوب : (آل ياسين) بفتح الهمزة ، مشبعة ، وكسر اللام ، مفصولة عما بعدها ، والمراد : ولد ياسين وأصحابه ، قرأ الباقون «على إلياسين ، بكسر الهمزة ، وسكون اللام ، موصولة بما بعدها ، كلمة واحدة ، جمع «إلياس». انظر الإتحاف (٢/ ٤١٦).

ثم ذكر لوطا عليه السّلام ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٣٣ الى ١٣٨]

وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧)

وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ نَجَّيْناهُ أي : واذكر إذ نجيناه وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ فى الباقين لأنها شاركتهم فى عصيانهم ، فحقّ عليهم العذاب مثل ما حق عليهم ، ثُمَّ دَمَّرْنَا

: أهلكنا الْآخَرِينَ ،

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ

داخلين فى الصباح ، وَبِاللَّيْلِ

أي : ومساء ، أو : نهارا وليلا. ولعل مدينتهم الخالية كانت قريب منزل ينزل به المسافر ، فيغدوا منه ذهابا ، ويروح إليه إيابا ، فكانت قريش تنزل به وتروح عنه فى متاجرهم إلى الشام ، فتشاهد آثارهم والدارسة ، وديارهم الخالية.

أَفَلا تَعْقِلُونَ

أفما فيكم عقول تعتبرون بها؟ وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام ، كما ختم قصص من قبلهما لأن اللّه تعالى قد سلّم على جميع المرسلين فى آخر السورة ، أو : تفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع ، من أولى العزم.

الإشارة : ينبغى لمن له عقل إذا مرّ بآثار من سلف قبله أن يعتبر ، وينظر كيف كان حالهم ، وإلى ما صار إليه مآلهم ، وأنه عن قريب لا حق بهم ، فيتأهب للسفر ، ويتزود للمسير. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر قصة يونس ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٣٩ الى ١٤٨]

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣)

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (١٤٨)

(٦١٨/٤)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ يُونُسَ

بن متى ، اسم أبيه ، لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

إلى أهل نينوى ، فكذّبوه ، فوعدهم بالعذاب ، فلما رأى أمارات العذاب هرب عنهم ، وهى معنى قوله : إِذْ أَبَقَ

هرب. والإباق : الهرب إلى حيث لا يهتدى إليه الطلب ، فسمى هربه من قومه - بغير إذن ربه - إباقا ، مجازا. روى أنه لمّا فرّ عنهم ، وقف فى مكان ينتظر نزول العذاب بهم ، وكان يحب ذلك لتكذيبهم إياه ، فلما رأوا مخايل العذاب تابوا وخرجوا إلى الصحراء ، يجأرون إلى اللّه تعالى ، فكشف عنهم ، فلما رأى يونس العذاب انكشف عنهم ، كره أن يرجع إليهم ، فركب البحر ، فأوى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

: المملوء بالناس والمتاع ، فلما ركب معهم وقفت السفينة ، فقالوا :

هاهنا عبد آبق من سيده. وفيما يزعم أهل البحر : أن السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر ، فاقترعوا ، فخرجت القرعة على يونس ، فقال : أنا الآبق ، وزجّ بنفسه فى البحر ، فذلك قوله : فَساهَمَ

: فقارعهم مرة - أو ثلاثا - بالسهام ، فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ

الْمغلوبين بالقرعة. فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ فابتلعه وَهُوَ مُلِيمٌ داخل فى الملامة ، أو : آت بما يلام عليه ، ولم يلم فإذا ليم كان مألوما.

فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ من الذاكرين كثيرا بالتسبيح ، أو : من القائلين : لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ «١» أو : من المصلين قبل ذلك قال ابن عباس رضي اللّه عنه : كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة. قال الحسن : ما كان له صلاة فى بطن الحوت ، ولكنه قدّم عملا صالحا فنجّاه ، وإنّ العمل الصالح يرفع صاحبه ، إذا عثر وجد متكئا. هـ «٢». أي : فلو لا طاعته قبل ذلك لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قيل : للبث حيّا إلى يوم البعث.

وعن قتادة : لكان بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة. وقد لبث فى بطنه ثلاثة أيام ، أو : سبعة أو : أربعين يوما.

وعن الشعبي : التقمه ضحوة ، ولفظه عشية. قيل : أوحى اللّه تعالى إل الحوت : إنى جعلت بطنك ليونس سجنا - وفى رواية : مسجدا - ولم أجعله لك طعاما «٣». هـ.

فَنَبَذْناهُ أي : أخرجناه بِالْعَراءِ بالمكان الخالي ، لا شجر فيه ولا نبات. أو : بالفضاء ، وَهُوَ سَقِيمٌ عليل مطبوخ ، مما ناله من بطن الحوت. قيل : إنه عاد بدنه كبدن الصبى حين يولد. وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً أي : أنبتناها فوقه ، مظلة له ، كما يطنّب البيت على الإنسان ، مِنْ يَقْطِينٍ ، الجمهور على أنه القرع ،

---

(١) الآية ٨٧ من سورة الأنبياء.

(٢) انظر : تفسير البغوي (٧/ ٦٠).

(٣) قال الحافظ ابن حجر : «لم أجده». وذكره الزيلعى فى تخريج أحاديث الكشاف (٥٣٥) وعزاه لابن مردويه ، عن ابن مسعود ، فى قصة يونس. وانظر الفتح السماوي (٣/ ٩٥٧).

وفائدته : أن الذباب لا تجتمع عنده ، وأنه أسرع الأشجار نباتا ، وامتدادا ، وارتفاعا ، وأن ورقه باطنها رطبة. وقيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنك لتحب القرع ، فقال : «أجل ، هى شجرة أخى يونس» «١» ، قلت : ولعلها النوع الذي يسمى اليوم «السلاوى» لأنه هو الذي ورقه لينة ، وفيه منافع. روى أن ظبية كانت تختلف إليه ، فيشرب من لبنها بكرة وعشية ، حتى نبت لحمه ، وأرسل اللّه تعالى على اليقطين دابة تقرض ورقها ، فتساقطت حتى أذته الشمس ، فشكاها إلى اللّه تعالى. وفى رواية : فحزن عليها ، فقيل له : أنت الذي لم تخلق ، ولم تسق ، ولم تنبت ، تحزن عليها وأنا الذي خلقت

مائة ألف من الناس أو يزيدون تريد منى أن أستأصلهم فى ساعة واحدة ، وقد تابوا ، وتبت عليهم ، فأين رحمتي يا يونس ، أنا أرحم الراحمين «٢». هـ.

وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ ، المراد به القوم الذين بعث إليهم قبل الالتقام ، فتكون «قد» مضمرة ، أَوْ يَزِيدُونَ فى مرأى الناظر ، أي : إذا رأها الرائي قال : هى مائة ألف أو أكثر. وقال الزجّاج : «أو» بمعنى «بل». وقيل : بمعنى الواو. قال ابن عباس : زادوا على مائة ألف عشرين ألفا. وقال الحسن : بضعا وثلاثين ألفا.

وقال ابن جبير : سبعين ألفا. وقيل : وأرسلناه بعد الالتقام إلى مائة ألف. وقيل : قوما آخرين. فَآمَنُوا به ، وبما أرسل به ، فَمَتَّعْناهُمْ بالحياة إِلى حِينٍ منتهى أجلهم ، ولم يعاجلوا ، حيث تابوا وآمنوا.

الإشارة : فى قصة يونس نكتة صوفية ، ينبغى الاعتناء بها ، وهو أن العبد إذا زلّت قدمه ، وانحط عن منهاج الاستقامة ، لا ييأس ولا يضعف عن التوجه ، بل يلزم قرع الباب ، ويتذكر ما سلف له من صالح الأعمال ، فإن اللّه تعالى يرعى ذمام عبده ، كما يرعى العبد ذمام سيده ، وفى حال البعد والغضب يظهر المحب الصادق من الكذّاب ، وفى ذلك يقول ابن وفا رضي اللّه عنه :

ونحن على العهد نرعى الذمام وعهد المحبين لا ينقضى

صددت فكنت مليح الصدود وأعرضت أفديك من معرض

وفى حالة السخط لا فى الرضا بيان المحب من المبغض.

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٥٤٤) لعبد بن حميد ، وابن جرير ، عن شهر بن حوشب.

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٥٤٤ - ٥٤٦) لعبد الرزاق ، وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد ، عن وهب.

(٤/ ٦٢٠)

وفيها أيضا : الحث على الشفقة على عباد اللّه ، وإن كانوا عصاة. قال القشيري : وفى القصة : أن اللّه تعالى أوحى إلى يونس بعد نجاته : قل لفلان الفخّار : يكسر من الجرات ما عمله فى هذه السنة كلّها ، فقال يونس : يا ربّ ، إنه تعنى مدة فى إنجاز ذلك ، فكيف آمره أن يكسرها كلّها؟ فقال له : يا يونس ، يرقّ قلبك لخزاف يتلف عمل سنة ، وأردت أن أهلك مائة ألف من عبادى؟ لم تخلقهم ، ولو خلقتهم لرحمتهم. هـ.

ثم وبّخ قريشا على قولهم : الملائكة بنات اللّه - بعد ذكر هلاك من كفر من الأمم قبلهم ، تهديدا ،

فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٤٩ الى ١٦٠]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ (١٥٠) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣)
ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨)
سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)

يقول الحق جل جلاله : فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ، أمر رسوله أولا فى أول السورة باستفتاء قريش على وجه إنكار البعث ، بقوله : فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً «١» ، ثم أمره هنا باستفتائهم [عن] «٢» وجه القسمة الضّيزى التي قسموها ، بأن جعلوا لله الإناث ، ولهم الذكور فى قولهم : الملائكة بنات اللّه ، مع كراهتهم لهن ، واستنكافهم من ذكرهن ، وليس من باب العطف النحوي ، خلافا للزمخشرى.

أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ حاضرون حتى تحققوا أنهم إناث. وتخصيص علمهم بالمشاهدة استهزاء بهم ، وتجهيل لهم ، لأنهم كما لم يعلموا ذلك مشاهدة ، لم يعلموه بخلق اللّه علمه فى قلوبهم ، ولا بإخبار صادق ، ولا بطريق استدلال ونظر ، بل بمجرد ظن وتخمين ، وإلقاء الشيطان إليهم. أو : معناه : أنهم يقولون ذلك عن طمأنينة نفس لإفراط جهلهم ، كأنهم شاهدوا خلقهم.

---

(١) الآية ١١ من سورة الصافات.

(٢) فى الأصول [على].

أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فى قولهم. أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ ، الهمزة للاستفهام الإنكارى ، وحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام ، والاصطفاء : أخذ صفوة الشيء ، ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ هذا الحكم الفاسد ، الذي لا يرتضيه عقل ولا نقل ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ فتعرفوا أنه منزّه عن ذلك أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنات اللّه؟ فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ
الذي أنزل عليكم ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

في دعواكم.
وَجَعَلُوا بَيْنَهُ بين اللّه وَبَيْنَ الْجِنَّةِ الملائكة - لاستتارهم ، نَسَباً وهو زعمهم أنهم بنات اللّه.
أو : قالوا : إن اللّه صاهر الجن ، تزوج سرواتهم فولدت له الملائكة «١» ، تعالى اللّه عن قولهم علوا كبيرا. وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ أي : ولقد علمت الملائكة إن الذين قالوا هذا القول لمحضرون فى النار. أو : لقد علمت الملائكة إنهم سيحضرون للحساب من جملة العباد ، فكيف تكون بنات اللّه؟. سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ، نزّه نفسه عما يصفه الكفرة من الولد والصاحبة ، إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ، استثناء منقطع من «المحضرين» ، أي : لكن المخلصون ناجون من النار. و«سبحان اللّه» : اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه ، ويجوز أن يقع الاستثناء من واو «يصفون» ، أي : عما يصفه هؤلاء الكفرة لكن المخلصون برءاء من أن يصفوه بذلك.
الإشارة : الحق تعالى فى عالم القدرة منزه عن الولد والصاحبة ، وتصور الاثنينية ، وإنما سر الازدواج والتولد خاص بعالم الحكمة فى حضرة الأشباح ، فليكن للعارف عينان عين تنظر لعالم القدرة فى حضرة أسرار الذات ، فتوحّد اللّه ، وتنزهه عن الاثنينية ، وعين تنظر لعالم الحكمة ، فتثبت سر الازدواج والتولد فى حضرة الأشباح ، والمظهر واحد ، ولا يفهم هذا إلا الأفراد من البحرية ، الذين خاضوا بحر أحدية الذات وتيار الصفات ، فحطّ رأسك لهم ، إن أردت أن تذوق هذه الأسرار. وإلا فسلم تسلم.
ثم بيّن أنّ الأمور كلها بيد اللّه ، هداية وإضلالا ، فقال :
[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٦١ الى ١٦٣]
فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ (١٦١) ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢٣/ ١٠٨). [.....]

يقول الحق جل جلاله : فَإِنَّكُمْ أيها المشركون وَما تَعْبُدُونَ أي : ومعبوديكم ، ما أَنْتُمْ وهم جميعا عَلَيْهِ على اللّه بِفاتِنِينَ بمضلّين ، إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ أي : إلا من سبق فى علمه أنه من أهل النار.
والمعنى : إنكم لستم تضلّون أحدا إلا أصحاب النار ، الذين سبق فى علمه أنهم يستوجبون بأعمالهم النار ، يقال : فتن فلان على فلان امرأته : أفسدها عليه. وقال الحسن : فإنكم أيها القائلون لهذا القول والذي تعبدونه من الأصنام ، ما أنتم على عبادة الأصنام بمضلّين أحدا ، إلا من أوجبت عليه

الضلال فى السابقة. هـ. وفيها دليل للقدر ، بل هى صريحة فيه. و«ما» فى «أنتم» : نافية ، و«من» : فى موضع النصب بفاتنين ، على الاستثناء المفرغ ، أي : لا تفتنون إلا الذي هو صالى الجحيم.

وحذفت الياء فى الرسم اكتفاء بالكسرة ، وقرأ الحسن : «صال الجحيم» بضم اللام - ووجهه : أنه جمع ، فحذفت النون للإضافة. والواو لالتقاء الساكنين ، و«من» مفرد فى اللفظ ، جمع فى المعنى ، فحمل «هو» على اللفظ ، و«الصالون» على المعنى.

الإشارة : ويقال لمن يرغّب الناس فى الدنيا ، ويدلهم على جمعها ، والاعتناء بها ، بمقاله ، أو بحاله ، ويزهّد فى طريق التجريد والانقطاع إلى اللّه : ما أنتم بفاتنين أحدا عن طريق اللّه ، إلا من سبق أنه يصلى نار القطيعة والبعد ، وأما من سبقت له سابقة الوصال ، فلا يصده عن اللّه فاتن ولا ضال. ولا شك أن من يدلّ الناس على الدنيا فقد غشهم. قال القطب ابن مشيش رضي اللّه عنه : من دلّك على الدنيا فقد غشك ، ومن دلّك على العمل فقد أتبعك ، ومن دلك على اللّه فقد نصحك. هـ. فالدلالة على الدنيا من شأن المغرورين ، ورين الفاتنين ، والدلالة على العمل من شأن الصالحين ، الواقفين مع ظاهر الشريعة وعملها ، والدلالة على اللّه من شأن العارفين أهل التربية ، يدلون على اللّه ، بسقى الكؤوس ، ونسيان النفوس ، ودخول حضرة القدوس ، من باب الكرم والجود. وبالله التوفيق.

ثم رجع إلى الكلام على الملائكة ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٦٤ الى ١٦٦]

وَما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)

يقول الحق جل جلاله : حاكيا عن الملائكة : وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ فى العبادة ، أو : فى السموات ، نعبد اللّه فيه ، أو : فى القرب والمشاهدة لا نتعداه ، ولا نترقى عنه إلى غيره ، ففيه تنبيه واعتراف بافتقارهم لمخصصهم ، القاضي بحدوثهم. وفى اعترافهم بذلك ردّ على زعم الكفار أنهم بنات اللّه ، أو شركاء له ، وتنزيه له تعالى عن ذلك لتنافى العبودية والطاعة التي اعترفوا بها ، والبنوة المدّعاة من الكفار ، تعالى اللّه عن قولهم. وهذا

يجرى أيضا فى القول الذي يقول : إنهم قسم ثالث ، مجردات ، ليسوا بجوهر ولا عرض ، كالأرواح ، فإنها على تقدير كونها كذلك ، جائزة لقبولها التفاوت فى العلوم والمعارف وغير ذلك. وذلك قاض بالافتقار ، والتخصيص لما هى عليه ، المستلزم للحدوث. قاله فى الحاشية.

قلت : القول بأن الملائكة مجردات عن المادة ، هو قول الفلاسفة ، ونحى إليه الغزالي. وهو مناقض

للقرآن والحديث لأن كونهم صفوفا قائمين ، أو ساجدين ، أو سائرين ، يقتضى تشكيلهم وتحييزهم ، فيستلزم المادة إلا أنها نورانية لطيفة ، وكذلك الأرواح ، على ما فى الأحاديث ، فإنها متحيزة على أشكال لطيفة. والله أعلم.

وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ نصفّ أقدامنا فى الصلاة ، أو : نصفّ حول العرش داعين للمؤمنين ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ المنزّهون اللّه تعالى عما نسبته إليه الكفرة ، من الولد ، وغير ذلك من الأباطيل المذكورة. أو :

المشتغلون بالتسبيح على الدوام ، أو : المصلّون. ويحتمل أن يكون هذا وما قبله من قوله : سُبْحانَ اللَّهِ .... إلخ ، من كلام الملائكة ، حتى يتصل بذكرهم «١» ، كأنه قيل : ولقد علم الملائكة أن المشركين محضرون للعذاب على افترائهم على اللّه فيما نسبوا إليه ، وقالوا : سبحان اللّه ، ونزّهوه عن ذلك ، واستثنوا عباد اللّه المخلصين ، وبرّؤوهم من ذلك ، وقالوا للكفرة : وإذا صح ذلك فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على اللّه أحدا من خلقه ، وتضلّوه ، إلّا من كان من أهل النار ، وكيف نكون مناسبين لرب العزة! وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه ، لكلّ منا مقام من الطاعة معلوم ، لا يستطيع أن يزلّ عنه ، ونحن نصفّ أقدامنا لعبادته ، مسبّحين بحمده ، كما يجب على العباد. ولعل قولهم : وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ إشارة إلى تفاوتهم فى درجات القرب ومقامات اليقين. وقولهم : وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ إشارة إلى تفاوتهم فى الطاعات والعبادات ، وهم طبقات منهم هائمون مستغرقون فى الشهود ، ومنهم مستغرقون فى مقام الهيبة والمراقبة ، ومنهم مستغرقون فى الخدمة والعبادة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : مادة الآدمي أكمل من مادة الملائكة ، فإذا اتصل العبد بشيخ كامل ، واعتنى بتصفية روحه وسره ، طوى نوره الوجود بأسره ، ولا يزال يترقى فى معاريج أسرار التوحيد والتفريد ، وتتوارد عليه الكشوفات ، والعلوم ، والأسرار ، فى هذه الدار الفانية ، وفى تلك الدار الباقية ، أبدا سرمدا ، بخلاف الملائكة ، فإنّ لكل واحد مقاما معلوما لايتعداه ، كما أخبر تعالى.

وسرّ ذلك : أن الآدمي فيه بشرية وروحانية ، فكلما جاهد نفسه ، وغاب عن حس بشريته ترقى فى معارج التوحيد ، والمجاهدة لا تنقطع عنه فى هذا الدار لأنها دار أكدار ، فلا ينقطع عنه الترقي فى المشاهدة ، وأما فى تلك

---

(١) فى قوله : وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ.

الدار فالترقى فيها من باب الكرم والإثابة على ما هنا. وأيضا : البشرية للآدمى بمنزلة الطلاء للمرآة ، فالمرآة بلا طلاء لا ترى فيها صور الأشياء ، كذلك الملائكة لا بشرية لهم ، فلا تنكشف لهم الحقائق كما تنكشف للآدمى ، ولو كشف لهم ما انكشف له لذابوا. واللّه أعلم.
قال فى القوت : لعمرى إن سائر الملائكة لا ينتقلون فى المقامات كترقى المؤمنين ، إنما لكلّ مقام معلوم ، لا ينتقل إلى غيره ، إلا أنهم يمدّون من ذلك بمدد لا نهاية له إلى يوم القيامة ، بأكثر ما يزداد جملة البشر هـ.
قلت : ومعنى كلامه : أن الملائكة يمدون فى مقامهم بقوة لا يستطيعها البشر ، فمن كان فى مقام الهيبة دام فيها ، وقوى عليها ، ومن كان فى مقام الخدمة ، دام عليها ، وقوى عليها ، قوة لا يطيقها البشر ، ولا يترقى عنها ، بخلاف الآدمي ، فليست فيه هذه القوة ، لكنه يترقى من مقام إلى مقام ، ويترقى فى المعارف على الدوام.
ثم بسط صاحب القوت فى ذلك الكلام فى فضائل الصلاة ، وأنها جامعة لما فرق على الملائكة من الأعمال والأذكار. قال : وبذلك فضل المؤمنون الملائكة ، وكذلك فضل الموقن أيضا فى مقامات اليقين من أعمال القلوب ، على الأملاك بالتنقيل بأن جمعت فيه ، ورفع فيها مقامات ، والملائكة لا ينقلون ، بل كل ملك موقوف فى مقام معلوم ، لا ينقل منه إلى غيره ، وإنما له المزيد من المقام الواحد على قدر قواه ، وجمع ذلك كله فى قلب المؤمن ، ونقل فيه مقامات. وكان له من كل مقام مشاهدات. هـ.
قال المحشى الفاسى : وفيه نظر ، مع تلقيهم ضروب الوحى الجامع للمقامات ، فكيف لا يمكّنهم تحققا بها على اختلافها؟ ، ولو كان كما قال لكان كل ملك إنما يتلقى من الوحى ما يناسبه ، ويختص بمقامه ، وليس الأمر كذلك ضرورة. هـ. قلت : وفى نظره نظر إذ لا يلزم من تلقيهم للوحى على أنواعه أن يترقوا به إذ ليس الترقي هو مجرد العلم ، بل الترقي إنما هو أذواق ووجدان ، وكشوفات بعد حصول العلم. وقد يتحقق العلم بالمقام ، ولا ينتقل عنه إلى غيره ، بل قد يعلمه ولا يذوقه ، كما هو محقق عند أهل الفن ، ثم قال : والحق ما نبّه عليه البيضاوي. وكلام القوت ينظر لقول الحكماء ، ومثله كلام الإحياء. هـ.
ونص البيضاوي فى قوله تعالى : قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ «١» الآية : إنّ علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة ، والحكماء منعوا ذلك فى الطبقات العليا منهم ، وحملوا عليه قوله تعالى : وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ.
هـ. قلت : ترقى الآدمي هو انتقاله من مقام إلى مقام ، حتى يكاشف بأسرار الذات وأنوار الصفات ، ثم لا يزال يترقى

(١) الآية ٣٣ من سورة البقرة.

(٦٢٥/٤)

فى الأذواق والكشوفات ، يتجدد له فى كل يوم وساعة ، حلاوة وكشف لم تكن عنده قبل ، بخلاف الملائكة ، فإنما يترقى كل واحد فى كشف أسرار مقامه ، ويجد حلاوة فى ذلك المقام لم تكن له قبل ، ولا ينتقل عنه ، فمن كان من أهل الخدمة زاده اللّه حلاوتها. ومن كان من أهل المراقبة فكذلك. ومن كان من أهل المشاهدة غلب عليه السكر و؟؟؟ ان ، ولا يزيد على ذلك. وهم الطبقة العليا ، فلا منافاة بين كلام القوت وكلام البيضاوي لأن الترقي إنما هو فى الأذواق والكشوفات ، لا فى العلوم الغيبية ، ولا فى الكمالات النفسية. فتأمله.

وقال القشيري : الملائكة لا يتخطون مقامهم ، ولا يتعدّون حدّهم ، والأولياء مقامهم مستور بينهم وبين اللّه ، لا يطلع عليه أحد ، والأنبياء - عليهم السّلام - لهم مقام مشهور ، مؤيّد بالمعجزات الظاهرة لأنهم للخلق قدوة ، فأمرهم على الشهرة ، وأمر الأولياء على السّتر. هـ. وقال الورتجبي : أهل البدايات فى مقام الطاعات ، والأوساط فى المقامات ، مثل التوكل والرضا ، والتسليم ، والمحبّون فى مقامات الحالات والمواجيد ، وأهل المعرفة فى مقام معارف ، ينقلون فى المشاهدة من مقام إلى مقام ، ولا يبقى المقام للموحدين ، فإنهم مستغرقون فى بحار الذات والصفات ، فليس لهم مقام معلوم لأن هناك لم يكن لهم وقوف ، حيث أفناهم قهر الجلال ، والجمال ، والعظمة ، والكبرياء ، عن كل ما وجدوا من الحق ، فيبقوا فى الفناء إلى الأبد. هـ. قلت : ما ذكر من الطبقات الثلاث هم العباد ، والزهاد ، وأرباب الأحوال ، وحالهم كحال الملائكة ، يمدّون فى مقامهم ، ولا ينتقلون منه ، فلكل واحدة قوة فى مقامه ، لا يطيقها العارف ، لكنه فاتهم بالترقي عنهم إلى مشاهدة الذات ، والترقي فيها أبدا.

ثم قال الورتجبي فى قوله تعالى : وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ : لمّا كانوا من أهل المقامات المعلومات افتخروا بمقاماتهم فى العبودية ، من الصلاة والتسبيح ، ولو كانوا من أهل الحقائق فى المعرفة لفنوا عن ملاحظة طاعتهم ، من استيلاء أنوار مشاهدة الحق عليهم ، والاستغراق فى بحار من الألوهية. قال بعضهم : لذلك قطعت بهم مقاماتهم عن ملاحظة المنّة ، حتى قالوا بالتفخيم : إِنَّا لَنَحْنُ ، فلما أظهروا سرائرهم عارضوا إظهار أفعال الربوبية بالمعارضة ، حتى قالوا : أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها. هـ. وكلامنا كله مع عامة الملائكة ، وأما المقربون فالأدب الإمساك عنهم - صلوات اللّه وسلامه عليهم.

ثم رجع إلى الكلام مع قريش ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٦٧ الى ١٨٢]
وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩)
فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١)
إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ
فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦)
فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٨٢)

(٤/٦٢٦)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ كانُوا أي : مشركو قريش لَيَقُولُونَ قبل مبعثه صلى اللّه عليه وسلم : لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ أي : كتابا من كتب الأولين ، الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل ، لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أي : لأخلصنا للّه ، وما كذّبنا كما كذّبوا ، ولما خالفنا كما خالفوا ، فلما جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار ، والكتاب الذي هو مهيمن على الكتب ، فكفروا به ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عاقبة تكذيبهم ، وما يحلّ بهم من الانتقام. و«إن» مخففة ، واللام فارقة. وفى ذلك أنهم كانوا يقولون ، مؤكّدين للقول ، جادّين فيه ، ثم نقضوا بأشنع نقض ، فكم بين أول الأمر وآخره!.
ثم بشّر رسوله بالنصر والعز ، فقال : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ أي : وعدناهم بالنصر والغلبة.
والكلمة هى قوله : إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ دون غيرهم ، إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ
،
وإنما سمّاها كلمة ، وهى كلمات لأنها لمّا انتظمت فى معنى واحد كانت فى حكم كلمة مفردة ، والمراد : الوعد بعلوّهم على عدوهم فى مقام الاحتجاج وملاحم القتال فى الدنيا ، وعلوهم عليهم فى الآخرة. وعن الحسن : ما غلب نبىّ فى حرب قط.
وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : إن لم ينتصروا فى الدنيا نصروا فى العقبى. والحاصل : أن قاعدة أمرهم ، وأساسه ، والغالب منه : الظفر والنصر ، وإن وقع فى تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة فنادر ، والعبرة بالغالب.
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ إلى مدة يسيرة. وهى المدة التي أملهوا فيها ، أو : إلى بدر ، أو : إلى فتح مكة

، وَأَبْصِرْهُمْ أي : أبصر ما ينالهم ، والمراد بالأمر : الدلالة على أن ذلك كائن قريب ، فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ما قضينا لك من النصر والتأييد ، والثواب الجزيل فى الآخرة. و«سوف» للوعيد ، لا للتبعيد.

ولمّا نزل : فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ قالوا : متى هو؟ فنزل : أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ قبل وقته؟ فَإِذا نَزَلَ العذاب بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ صباحهم. واللام للجنس لأن «ساء» و«ليس» يقتضيان ذلك. قيل : هو

(٦٢٧/٤)

نزول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم الفتح بمكة. وقيل : نزول العذاب بهم يوم القيامة. شبهه بجيش هجم فأناخ بفنائهم بغتة.

والصباح : مستعار من : صباح الجيش المبيت ، استعير لوقت نزول العذاب. ولمّا كثرت الغارة فى الصباح سموا الغارة صباحا ، وإن وقعت فى غيره.

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ، كرر ليكون تسلية بعد تسلية ، وتأكيدا لوقوع الوعد إلى تأكيد ، وفيه فائدة ، وهو إطلاق الفعلين معا عن التقييد بالمفعول ، بعد التقييد له ، إيذان بأنه يبصر من صنوف المسرة ويبصرون من أنواع المساءة ما لا يفى به نطاق العبارة. وقيل : أريد بأحدهما : عذاب الدنيا ، وبالآخرة : عذاب الآخرة.

سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ ، أضيف الربّ إلى العزة لاختصاصه بها ، أو : يريد : أن ما من عزّة لأحد إلا وهو ربها ومالكها ، لقوله : وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ «١» أي : تنزيها له عما يصفون من الولد والصاحبة والشريك. وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، عمم الرسل بالسلام بعد ما خصص البعض فى السورة لأن فى تخصيص كلّ بالذكر تطويلا.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ على هلاك الأعداء ، ونصرة الأنبياء.

قيل : فى ختم السورة بالتسبيح بعد ما تضمنته السورة من تخليط المشركين وأكاذيبهم ، ونسبتهم إلى جلاله الأقدس ما لا يليق بجنابه الأرفع ، تعليم للمؤمنين ما يختمون به مجالسهم لأنهم لا يخلو إذا جلسوا مجلسا من فلتة أو هفوة ، وكلمات فيها رضى اللّه وسخطه ، فالواجب على المؤمن إذا قام من مجلسه أن يتلو هذه الآية لتكون مكفرة لتلك السقطات ، ويحمد لما وفق من الطيبات ، ومن ثمّ قال صلى اللّه عليه وسلم : «كلمات لا يتكلم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفّر بهن عنه ، ولا يقولهن فى مجلس خير ، ومجلس ذكر ، إلا ختم اللّه بهن ، كما يختم بخاتم على الصحيفة سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد ألا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك» «٢». والمراد هو ختم

المجلس أو الكلام بالتنزيه. وعن عليّ – كرم اللّه وجهه : من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليكن آخر كلامه : سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ «٣» .. إلخ.

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه ، بلفظه ، أبو داود فى (الأدب ، باب فى كفارة المجلس ٥/ ١٨١ ، ح ٤٨٥٧) وابن حبان فى صحيحه (٥٩٢) عن عبد اللّه ابن عمرو بن العاص ، موقوفا. وأخرجه أبو داود فى الموضع نفسه (ح ٤٨٥٨) عن أبى هريرة مرفوعا. ولم يذكر أبو داود نص الرواية ، بل قال – بعد ذكره لرواية عبد اللّه بن عمرو : (عن أبى هريرة ، عن النبي صلى اللّه عليه وسلم مثله) ، وأخرجه بنحوه الترمذي فى (الدعوات باب : ما يقول إذا أقام من المجلس ٥/ ٤٦٠ – ٤٦١ ، ح ٣٤٣٣) من حديث أبى هريرة ، مرفوعا.

(٣) أخرجه البغوي فى تفسيره (٧/ ٦٦) وعبد الرزاق فى المصنف (٢/ ٢٣٧) ، عن سيدنا علىّ ، موقوفا ، وعزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٥٥٤) لابن أبى حاتم ، من رواية الشعبي ، عن النبي صلى اللّه عليه وسلم ، مرسلا.

(٤/٦٢٨)

وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إذا سلمتم على فسلّموا على المرسلين ، فإنما أنا أحدهم» «١».

الإشارة : ترى بعض الناس يقول : لو ظهر شيخ التربية لكنّا من المخلصين ، بصحبته وخدمته ، فلما ظهر كل الظهور جحد وكفر ، وأنف واستكبر ، وقنع بما عنده من العلم ، فإذا رأى ما ينزل بأهل النسبة من أصحابه ، من الامتحان فى أول البادية ، قال : ليس هذه طريق الولاية ، فيقال له : ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، ولمن كان على قدمهم ، إنهم لهم المنصورون ، وإنّ جندنا لهم الغالبون ، فتولّ عن مثل هذا حتى حين ، وهو وقت هجوم الموت عليه ، وأبصر ما يحلّ به من غم الحجاب ، وسوء الحساب ، فسوف يبصرون ما يناله أهل النسبة من الاصطفاء والتقريب ، فإذا طلب الكرامة بالانتصار ممن ظلمهم ، فيقال له : أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ ... الآية. والغالب عليهم الرحمة. فإذا أوذوا قابلوا بالإحسان ، إذ لم يروا الفعل إلا من الرحمن ، فينزهونه بقولهم : سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «٢».

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ١١٦) وزاد السيوطي فى الدر (٥/ ٥٥٣) عزوه لعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن قتادة ، بنحوه. كما عزاه السيوطي لابن مردويه ، وابن سعد ، عن قتادة ، عن أنس.

(٢) إلى هنا ينتهى المجلد الرابع بتجزئة المحقق ، ويتلوه - إن شاء اللّه - المجلد الخامس ، وأوله تفسير سورة «ص». - أسأل اللّه العلى القدير - أن يتقبله بأحسن قبول ، وأن يبلّغ من طالعه كل مأمول. والحمد للّه رب العالمين ، وصلى اللّه على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا. وكان الفراغ من نسخ هذا المجلد وتحقيقه ومراجعته فى الثاني عشر من ربيع الأول ، سنة عشرين وأربعمائة وألف ، على يد/ أحمد عبد اللّه القرشي ، عفا اللّه عنه ، آمين.

(٤/٦٢٩)

[المجلد الخامس]

سورة ص

مكية ، أو : سورة داود. وآيها : ست أو ثمان وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ «١» مع قوله : وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ، فأخبر عنهم أولا أنهم لو نزل عليهم الذكر لأخلصوا فى الإيمان ، فلما نزل كفروا به ، وتعززوا عنه ، قال تعالى :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ (٣)

يقول الحق جل جلاله : ص أي : أيها الصادق المصدوق. وقال القشيري : معناه : مفتاح اسمه الصادق ، والصبور ، والصمد. أقسم بهذه الأسماء ، وبالقرآن ذِي الذِّكْرِ أي : ذى الشرف التام ، الباقي ، المخلد لمن تمسك به ، أو : ذى الوعظ البليغ لمن اتعظ به ، أو : الذكر للأمم والقصص والغيوب. أو : يراد به الجميع.

وجواب القسم : محذوف ، أي : إنه لكلام معجز ، أو : إنه لمن عند اللّه ، أو : إن محمدا لصادق ، أو : ما الأمر كما يزعمون ، أو : إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ وقيل : إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ أو : إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ، وهو بعيد.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا من قريش فِي عِزَّةٍ تكبّر عن الإذعان لذلك ، والاعتراف بالحق ، وَشِقاقٍ خلاف للّه

ولرسوله. والإضراب عن كلام محذوف يدل عليه جواب القسم ، أي : إن كفرهم ليس عليه برهان ، بل هو بسبب العزة ، والعداوة ، والشقاق ، وقصد المخالفة. والتنكير فى «عزة وشقاق» للدلالة على شدتهما وتفاقمهما.

وقرىء «فى غرة» «٢» أي : فى غفلة عما يجب عليهم من النّظر واتباع الحق.

ثم هددهم بقوله : كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ من قبل قومك مِنْ قَرْنٍ من أمّة أو جيل ، فَنادَوْا أي : فدعوا واستغاثوا حين رأوا العذاب : وَلاتَ حِينَ مَناصٍ أي : وليس الوقت وقت خلاص ونجاة وفرار ،

---

(١) الآية ١٦٨ من سورة الصافات.

(٢) هى قراءة حماد بن الزبرقان. انظر مختصر ابن خالويه ص ١٣٠.

والمعنى : أنهم استغاثوا حين لم ينفعهم ذلك. وَلاتَ هى «لا» المشبّهة ب «ليس» ، زيدت عليها تاء التأنيث ، كما زيدت على «ربّ» و«ثمّ» للتوكيد ، وتغيّر بذلك حكمها ، حيث لم تدخل إلا على الأحيان ، ولم يبرز إلا أحد معموليها ، إما الاسم أو الخبر ، وامتنع بروزهما بنفي الأحيان ، وهذا مذهب الخليل وسيبويه ، وعند الأخفش أنها النافية للجنس ، زيدت عليها الهاء ، وخصّت بنفي الأحيان. وقال أبو محمد مكى : الوقف عليها عند سيبويه ، والفراء ، وأبى إسحاق ، وابن كيسان ، بالتاء ، وعليه جماعة القراء ، وبه أتى خط المصحف. وعند المبرد والكسائي بالهاء ، بمنزلة «رب». هـ.

الإشارة : افتتح الحق جل جلاله هذه السورة ، التي ذكر فيها أكابر أصفيائه ، بحرف الصاد ، إشارة إلى مادة الصبر ، والصدق ، والصمدانية ، والصفاء إذ بهذه المقامات ارتفع من ارتفع ، وبالإخلال بها سقط من سقط.

فبالصبر على المجاهدات تتحقق الإمامة والقدوة ، وبالصدق فى الطلب يقع الظفر بكلّ مطلب ، وبالصمدانية تقع الحرية من رقّ الأشياء ، وبالصفاء تحصل المشاهدة والمكالمة ، فكأن الحق تعالى أقسم بهذه الأشياء وبكتابه العزيز إن المتكبرين على أهل الخصوصية ما أنكروا إلا جحودا وعنادا ، وتعززا واستكبارا ، لا لخلل فيهم ، ثم أوعدهم بالهلاك ، كما أهلك من قبلهم ، فاستغاثوا حين لم ينفعهم الغياث.

ثم ذكر تعجبهم من كون المنذر منهم ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٤ الى ٧]
وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (٦) ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧)
يقول الحق جل جلاله : وَعَجِبُوا أي : كفار قريش من أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ رسول من أنفسهم ، استبعدوا أن يكون الرّسول من البشر. قال القشيري : وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، ولم يعجبوا أن يكون المنحوت إلها لهم ، وهذه مناقضة ظاهرة. هـ. يعنى : لأن المستحق للإعجاب إلهية المنحوت من الحجر ، لا وجود منذر من البشر ، وهم عكسوا القضية. وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ أي : ساحر فيما يظهر من المعجزات ، كذّاب فيما يدعيه من الرّسالة. وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالكفر ، وغضبا عليهم ، وإشعارا بأن كفرهم هو الذي جسرهم على هذه المقالة الشنعاء.

ثم قالوا : أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً بأن نفى الألوهية التي كانت لآلهتهم وقصرها على واحد ، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ بليغ فى العجب ، وذلك لأنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم ، الذين أطبقوا على عبادة آلهتهم ، كابرا عن كابر ، فإنّ مدار كلّ ما يأتون ويذرون ، من أمور دينهم ، هو التقليد والاعتياد ، فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجبا من العجاب ، بل محالا ، وأما جعل مدار تعجبهم عدم وفاء علم الواحد ، وقدرته بالأشياء الكثيرة ، فلا وجه له لأنهم لا يدّعون أن لآلهتهم علما وقدرة ومدخلا فى حدوق شىء من الأشياء ، حتى يلزم من ألوهيتهم بقاء الأثر بلا مؤثر ، قاله أبو السعود منتقدا على البيضاوي.
قال القشيري : لم تباشر خلاصة التوحيد قلوبهم ، وبعدوا عن ذلك تجويزا ، فضلا عن أن يكون إثباتا وحكما ، فلا عرفوا أولا معنى الإلهية فإن الإلهية هى القدرة على الاختراع. وتقدير قادرين على ذلك غير صحيح لما يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه ، وذلك يمنع من كمالها ، ولو لم يكونا كاملى الوصف لم يكونا إلهين ، وكلّ من جرّ ثبوته لسقوطه فهو مطرح باطل. هـ.
روى أنه لما أسلم عمر رضي اللّه عنه فرح به المؤمنون ، وشقّ على قريش ، فاجتمع خمسة وعشرون نفسا من صناديدهم ، ومشوا إلى أبى طالب ، وقالوا : أنت كبيرنا ، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء - أي : الذين دخلوا فى الإسلام - وجئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك ، فاستحضر أبو طالب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال : يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السواء ، فلا تمل كلّ الميل على

قومك ، فقال - عليه الصلاة والسّلام - «ما ذا يسألوننى»؟ فقالوا :
ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا ، وندعك وإلهك ، فقال - عليه الصلاة والسّلام : «أعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب ، وتدين لكم العجم» ، قالوا : نعم ، وعشرا «١». قال : «قولوا : لا إله إلا اللّه» فقاموا ، وقالوا : أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً ، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ «٢». قيل : العجب : ما له مثل ، والعجاب : لا مثل له.
وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أي : وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبى طالب ، بعد ما بكّتهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بالجواب ، وشاهدوا تصلبه - عليه الصلاة والسّلام - فى الدين ، وعزيمته على إظهاره ، ويئسوا مما كانوا يرجونه ، بتوسط أبى طالب ، من المصالحة على الوجه المذكور ، قائلين أَنِ امْشُوا و«أن» تفسيرية لأن المنطلقين عن

---

(١) أي : نعطيكها وعشر كلمات معها.
(٢) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند (١/ ٢٢٧ ، ٣٦٢) والترمذي وحسّنه فى (التفسير - سورة ص ، ح ٣٢٣٢) والنّسائى فى الكبرى (التفسير ٤/ ٤٥٦) وابن حبان (الموارد ح ١٧٥٧) والطبري فى التفسير (٢٣/ ١٢٥) والبيهقي فى السنن (٩/ ١٨٨). والواحدي فى الأسباب (ص ٣٨٠) وصحّحه الحاكم (٢/ ٤٣٢) ووافقه الذهبي. عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ، أو يتفاوضوا فيما جرى لهم ، فكان انطلاقهم مضمنا معنى القول ، وقيل :
ليس المراد بالانطلاق المشي ، بل انطلاق ألسنتهم بهذا الكلام ، كما أنه ليس المراد بالمشي المتعارف ، بل الاستمرار على المشي ، يعنى أنه على هذا القول : عبارة عن تفرقهم فى طرق مكة ، وإشاعتهم للكفر. هـ. أي : امشوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ أي : اثبتوا على عبادتها ، متحملين لما تسمعون فى حقها من القدح.
قال القشيري : إذا [تواصى] «١» الكفار فيما بينهم بالصبر على آلهتهم ، فالمأمنون أولى بالصبر على عبادة معبودهم ، والاستقامة فى دينهم. هـ.
إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ أي : هذا الذي شاهدناه من محمد صلّى اللّه عليه وسلم من أمر التوحيد ، وإبطال أمر آلهتنا ، لشيء يراد إمضاؤه وتنفيذه ، من جهته - عليه الصلاة والسّلام - لا محالة ، من غير

صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لا قول يقال من طرف اللسان ، وأمر ترجى فيه المسامحة بشفاعة أو امتنان ، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله عن رأيه ، بواسطة أبى طالب وشفاعته ، وحسبكم ألا تمنعوا من عباده ألهتكم بالكلية ، فاصبروا عليها ، وتحملوا ما تسمعون فى حقها من القدح وسوء المقالة ، أو : إنّ هذا الأمر لشيء يريده اللّه تعالى ، ويحكم بإمضائه ، فلا مرد له ، ولا ينفع فيه إلا الصبر ، أو : إنّ هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر ، يراد بنا ، فلا انفكاك لنا منه ، أو : إن دينكم لشيء يراد ، أي : يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه ، أو : إن هذا الذي يدعيه من التوحيد ، ويقصده من الرّئاسة ، والترفع على العرب والعجم ، لشيء يتمنى ، ويريده كلّ أحد. فتأمل هذه الأقاويل ، واختر منها ما يساعده النّظم الجليل.

ما سَمِعْنا بِهذا الذي يقوله من أمر التوحيد فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ أي : فى ملة عيسى ، التي هى آخر الملل لأن النّصارى مثلثة غير موحدة ، أو : فى ملة قريش التي أدركنا عليها آباءنا ، ويجوز أن يكون الجار والمجرور حالا من «هذا» ، أي : ما سمعنا بهذا من أهل الكتاب ولا الكهان كائنا فى الملة المترقبة. ولقد كذبوا فى ذلك أقبح كذب فإن حديث البعثة والتوحيد ، وإبطال عبادة الأصنام ، كان أشهر الأمور قبل الظهور. إِنْ هذا أي : ما هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ أي : كذب ، اختلقه من تلقاء نفسه.

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٨ الى ١١]

أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (١٠) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (١١)

أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ أي : القرآن : مِنْ بَيْنِنا ونحن رؤساء النّاس وأشرافهم. أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ، وينزل عليه الكتاب من بينهم ، حسدا من عند أنفسهم ، كقولهم : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «٢». وأمثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد ، وقصر النّظر على الحطام الدنيوية ، والعياذ باللّه.

---

(١) فى الأصول [توصوا].

(٢) الآية ٣١ من سورة الزخرف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٩

قال الورتجبي : كانوا منطمسة العيون عما ألبسه الحق من أنوار ربوبيته ، وسنا جلاله وجماله ، لم يروا

إلا الصورة الإنسانية ، التي هى ميراث آدم من ظاهر الخلقة. وهذا كقوله : وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ «١» ، استبعدوا اصطفائيته بالوحى ، ولم يعرفوا أنه أثر اللّه فى العالم ، ومشكاة تجليه ، حتى قالوا مثل ما قالوا : وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، رأوا أنفسهم خالية عن مشاهدة الغيوب ، وإدراك نور صفات الحق ، فقاسوا نفس محمد صلّى اللّه عليه وسلم بأنفسهم ، ولم يعلموا أنه كان نفس النّفوس ، وروح الأرواح ، وأصل الخليقة ، وباكورة من بساتين الرّبوبية. يا ليتهم لو رأوه فى مشاهدة الملكوت ، ومناصب الجبروت ، إذ خاطبه الحق بلولاك ما خلقت الأفلاك. هـ.

الإشارة : هذه عادة اللّه تعالى فى خلقه ، كل من يأمر النّاس بالتجريد ، وخرق العوائد ، وصريح التوحيد ، وترك ما عليه النّاس من جمع الدنيا ، وحب الرّئاسة ، والجاه ، أنكروه ، وسفّهوا رأيه ، وقالوا فيه : ساحر كذّاب. ويقول بعضهم لبعض : امشوا واصبروا على ما أنتم عليه ، من جمع الدنيا ، والخدمة على العيال ، وعلى ما وجدتم عليه أسلافكم ، من الوقوف مع العوائد ، ما سمعنا بهذا الذي يدلّ عليه هذا الرّجل من ترك الأسباب والانقطاع إلى اللّه فى هذا الزمان ، إن هذا الا اختلاق ، أأنزلت عليه الخصوصية من بيننا ، ولم يعلموا أن اللّه يختص برحمته من يشاء ، ويبعث فى كلّ زمان من يجدد الدين بتربية مخصوصة. واللّه تعالى أعلم.

ثم ردّ عليهم بقوله :

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ...

يقول الحق جل جلاله : بَلْ هُمْ أي : كفار قريش فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي من القرآن ، أو الوحى ، لميلهم إلى التقليد ، وإعراضهم عن النّظر فى الأدلة المؤدية إلى علم حقيقته ، بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ أي : بل لما يذوقوا عذابى الموعود فى القرآن ، ولذلك شكّوا فيه ، فإذا ذاقوه زال ما بهم من الشك والحسد حينئذ ، أي : إنهم لا يصدّقون به إلا أن يمسّهم العذاب ، فحينئذ يصدّقون ، ولات حين تصديق.

---

(١) الآية ١٩٨ من سورة الأعراف. [.....]

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أي : ما هم بمالكى خزائن الرّحمة حتى يصيبوا بها من شاءوا ، ويصرفوها عمن شاءوا ، ويختاروا للنبوة بعض صناديدهم ، ويترفّعوا بها عن محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وإنما يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه ، الوهّاب الكثير المواهب ، المصيب بها من يشاء. والمعنى : أن النّبوة عطية من اللّه تعالى ، يتفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين ، لا

مانع له ، فإنه الغالب ، الذي له أن يهب كل ما يشاء لكلّ من يشاء.

وفى إضافة اسم الرّب المنبئ عن التربية والتبليغ إلى الكمال إلى ضميرة - عليه الصلاة والسّلام - من تشريفه واللطف به ما لا يخفى.

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما أي : بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتكلموا فى الأمور الرّبانية ، ويتحكموا فى التدابير الإلهية ، التي اختصّ بها رب العزّة والكبرياء؟ ثم تهكّم بهم غاية التهكم فقال : فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ ، وهو جواب عن شرط مقدر ، أي : إن كان لهم ما ذكر من الملك ، ويملكون التصرف فى قسمة الرّحمة ، فليصعدوا فى المعارج والطرق التي يتوصّل بها إلى السماء ، حتى يدبروا أمر العالم وملكوت اللّه ، فينزلون الوحى إلى من يختارون ويستصوبون.

والسبب ، فى الأصل : ما يتوصل به إلى المطلوب.

ثم وعد نبيه - عليه الصلاة والسّلام - بالنصر عليهم بقوله : جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ أي : هم جند ما من الكفار المتحزبين على الرّسل مَهْزُومٌ مكسور عما قريب ، فلا تبال بما يقولون ، ولا تكترث بما يهذون. و«جند» : خبر ، أو : مبتدأ ، و«مهزوم» : خبره و«ما» : صلة مقوّية للنكرة. أو : للتقليل والتحقير.

و«من الأحزاب» : متعلق بجند ، أو : بمهزوم ، و«هنالك» : إشارة إلى بدر ومصارعهم ، أو : إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم ، من قولهم لمن ينتدب لأمر وليس من أهله : لست هنالك.

الإشارة : يقال فى جانب أهل الغفلة : بل فى شك من حلاوة ذكرى ومعرفتى ، حيث لم يذوقوا. قال إبراهيم ابن أدهم رضي اللّه عنه : (خرج النّاس من الدنيا ولم يذوقوا شيئا ، قيل : ومافاتهم؟ قال : حلاوة المعرفة). بل لمّا يذوقوا عذابى ، هو وبال القطيعة والبعد ، والانحطاط عن درجات المقربين ، وسيذوقونه إذا تحققت الحقائق ، حيث لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى اللّه بقلب سليم. ويقال فى جانب من حسد أهل الخصوصية : أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ... الآية.

ثم هدد كفار قريش بقوله :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ١٢ الى ١٥]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (١٤) وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ

فَواقٍ (١٥)
يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ أي : قبل أهل مكة قَوْمُ نُوحٍ نوحا ، وَعادٌ هودا وَفِرْعَوْنُ موسى ، ذُو الْأَوْتادِ ، قيل : كانت له أربعة أوتاد وحبال يلعب بها أو عليها بين يديه ، وقيل :
كان يوتّد من يعذب بأربعة أوتاد في يديه ورجليه ، ويتركه حتى يموت. وقيل : كان يرسل عليه عقارب وحيات.
وقيل : معناه : ذو الملك الثابت ، من : ثبات البيت المطنّب «١» بأوتاده ، فاستعير لرسوخ السلطنة ، واستقامة الأمر ، كقول الشاعر :
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظلّ ملك ثابت الأوتاد «٢»
وَثَمُودُ وهم قوم صالح ، وَقَوْمُ لُوطٍ كذّبوا لوطا ، وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ أصحاب [الغيضة] «٣» كذّبوا شعيبا عليه السّلام ، أُولئِكَ الْأَحْزابُ : بدل من الطوائف المذكورة. وفيه فضل تأكيد وتمهيد لما يعقبه ، وأراد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هؤلاء الطوائف ، وأنهم الذين وجد منهم التكذيب ، ولذلك قال :
إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ أي : ما كلّ أحد من آحاد أولئك الأحزاب ، أو : ما كلّ حزب منهم إلا كذّب الرسل لأن تكذيب واحد منهم تكذيب لجميعهم لاتفاق الكلّ على الحق ، أو : ما كلّ حزب إلا كذّب رسوله ، على نهج مقابل الجمع بالجمع. وأيّا ما كان فالاستثناء مفرغ من أعم [العلل] في خبر المبتدأ ، أي : ما كلّ أحد منهم محكوم عليه بحكم إلا أنه كذب الرّسل ، فَحَقَّ عِقابِ أي : فوجب لذلك أن أعاقبهم حق العقاب ، التي كانت توجبه جناياتهم من أصناف العقوبات.

---

(١) خباء مطنب ، أي : مشدود بالأطناب ، والأطناب : ما يشد به البيت من الحبال بين الأرض والطرائق ، وقيل : هى الأوتاد ، واحدتها :
طنب. انظر اللسان (٤/ ٢٧٠٨).
(٢) البيت للأسود بن يعفر. انظر غريب القرآن لابن قتيبة (٢/ ١٠٠) ومعانى القرآن للنحاس (٦/ ٨٥).
(٣) فى الأصول الخطية [الغيظة].

وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ أي : وما ينتظر أهل مكة. وفى الإشارة إليهم بهؤلاء تحقير لشأنهم ، وتهوين لأمرهم ،

أي : وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلكة فى الكفر والتكذيب ، إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً وهى النّفخة الثانية لما فيها من الشدة والهول ، فإنها داهية ، يعم هولها جميع الأمم ، برها وفاجرها. والمعنى : أنه ليس بينهم وبين حلول ما أعد اللّه لهم من العقاب إلا نفخة البعث ، أخرت عقوبتهم إلى الآخرة لأن حلولها بهم فى الدنيا يوجب الاستئصال ، وقد قال تعالى : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ «١» ، فأخرت ليوم القيامة.

وأما ما قيل من أنها النّفخة الأولى فمما لا وجه له لأنه لا يشاهد هولها ، ولا يصعق بها إلا من كان حيّا عند وقوعها. قاله أبو السعود.

ما لَها مِنْ فَواقٍ أي : من توقّف مقدار فواق ، هو ما بين حلبتى الحالب ، أي : إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان. وعن ابن عباس : ما لها من رجوع وترداد ، من أفاق المريض : إذا رجع إلى الصحّة ، وفواق الناقة : ساعة يرجع الدرّ إلى ضرعها. يريد : أنها نفخة واحدة ، لا تثنى ، ولا تردد. والفواق بمعنى التأخر ، فيه لغتان : الفتح والضم ، وأما ما بين حلبتى النّاقة ، فبالضم فقط.

الإشارة : ما جرى على مكذبى الرّسل يجرى فى مكذّبى الأولياء ، إلّا أن عذابهم البعد والطرد ، وحرمان معرفة العيان. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر استعجالهم العذاب ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ١٦ الى ٢٠]

وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (١٦) اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ (٢٠)

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : كفار مكة لمّا سمعوا بتأخير عقابهم إلى الآخرة : رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا أي : حظّنا من العذاب الذي وعدتنا به ، قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ ولا تؤخره إلى الصيحة المذكورة. وفى القاموس : القط - بالكسر : النصيب ، والصّك ، وكتاب المحاسبة. هـ. أو : عجّل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها ، أو :

---

(١) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

حظنا من الجنة لأنه صلّى اللّه عليه وسلم ذكر وعد اللّه المؤمنين بالجنة ، فقالوا على سبيل الهزء :

عجّل لنا نصيبنا منها «١».

وتصدير دعائهم بالنداء للإمعان فى الاستهزاء ، كأنهم يدعون ذلك بكمال الرّغبة.

اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ من أمثال هذه المقالات الباطلة. ثم سلّاه بما يقص عليه من خبر الأنبياء – عليهم السّلام – الذين كانت بدايتهم أيام المحن ، ثم جاءتهم أيام المنن ، وبدأ بنبيه داود عليه السّلام ، فقال : وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ، فإنه كان فى أول أمره ضعيفا ، يرعى الغنم ، ثم صار نبيا ملكا ، ذا الأيادى العظام. وقوله : ذَا الْأَيْدِ أي : ذا القوة فى الدين ، والملك ، والنّبوة. يقال : فلان ذو يد وأيد وأياد ، بمعنى القوة ، وأياد كلّ شىء : ما يتقوى به.

إِنَّهُ أَوَّابٌ : رجّاع إلى اللّه فى كلّ شىء ، أو : إلى مرضاة اللّه تعالى. وهو تعليل لكونه ذا الأيد ، ودليل على القوة فى الدين فإنه كان عليه السّلام يصوم يوما ويفطر يوما ، وهو أشدّ الصوم ، ويقوم نصف الليل «٢» ، مع مكابدة سياسة النّبوة والملك والشهود ، فقد أعطى القوة فى الجهتين.

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ أي : ذللناها له ، تسير معه حيث يريد. ولم يقل «له» لأن تسخير الجبال له عليه السّلام لم يكن بطريق التفويض الكلى ، كتسخير الرّياح وغيرها لابنه ، بل بطريق التبعية ، والاقتداء به فى عبادة اللّه تعالى. وقيل : مَعَهُ متعلق ب يُسَبِّحْنَ ، أي : سخرناها تسبّح معه ، إما بلسان المقال ، يخلق اللّه لها صوتا ، أو :

بلسان الحال ، أي : يقدس اللّه تعالى وينزهه عما لا يليق به. والجملة : حال ، أي : مسبّحات ، واختيار الفعل ليدل على حدوث التسبيح من الجبال ، وتجدده شيئا بعد شىء ، وحالا بعد حال ، بِالْعَشِيِّ فى طرفى النّهار ، والعشىّ :

وقت العصر إلى الليل وَالْإِشْراقِ ، وهو حين تشرق الشمس ، أي : تضىء ، وهو وقت الضحى ، وأما شروقها – الثلاثي : فطلوعها ، تقول : شرقت الشمس ولمّا تشرق ، أي : طلعت ولم تضيء. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية «٣». وعنه – عليه الصلاة والسّلام – أنه صلّى عند أم هانىء صلاة الضحى ، وقال :

«هذه صلاة الإشراق» «٤».

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ٧٥).

(٢) أخرج البخاري فى (التهجد ، باب من نام عند السحر ، ح ١١٣١) ومسلم فى (الصيام ، باب النّهى عن صوم الدهر ٢/ ٨١٦ ، ح ١٨٩) عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص ، قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «أحب الصلاة إلى اللّه صلاة داود عليه السّلام وأحبّ الصيام إلى اللّه صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما».

(٣) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٥٦٢) لسعيد بن منصور ، بلفظ : طلبت صلاة الضحى فى القرآن ، فوجدتها بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ. وانظر روايات أخرى تفيد هذا المعنى ذكرها السيوطي فى الدر.

(٤) أخرجه البغوي فى التفسير (٧/ ٧٦) عن ابن عباس بلفظ : قال - أي ابن عباس - : كنت أمرّ بهذه الآية لا أدرى ما هى حتى حدثتنى أم هانى بنت أبى طالب : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ ، ثم صلّى الضحى ، فقال : «يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق».

(٥/١٣)

وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً أي : وسخّرنا الطير مجموعة من كلّ ناحية. عن ابن عباس رضي اللّه عنه : كان إذا سبّح ، جاوبته الجبال بالتسبيح ، واجتمعت إليه الطير ، فسبّحت ، فذلك حشرها. كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ أي : كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيح داود. ووضع الأوّاب موضع المسبّح لأن الأوّاب : الكثير الرّجوع إلى اللّه تعالى ، من عادته أن يكثر ذكر اللّه ، ويدير تسبيحه وتقديسه على لسانه. وقيل : الضمير للّه ، أي : كل من داود والجبال والطير أواب ، أي :

مسبّح للّه تعالى ومرجّع للتسبيح ، وقيل : لداود ، أي : يرجع لأمره.

وَشَدَدْنا مُلْكَهُ أي : قوّيناه بالهيبة والنّصرة وكثرة الجنود. قيل : كان بيت المقدس حول محرابه ثلاثة وثلاثون ألف رجل. قال القشيري : ويقال : وشددنا ملكه بالعدل فى القضية ، وحسن السيرة فى الرّعية ، أو : بدعاء المستضعفين ، أو : بقوم مناصحين ، كانوا يدلونه على ما فيه صلاح ملكه ، أو : بقبوله الحق من كلّ أحد ، أو :

برجوعه إلينا فى عموم الأوقات. هـ. وقال ابن عباس : أن رجلا من بنى إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم إلى داود ، فقال المستعدى : إن هذا غصبنى بقرتي ، فجحد الآخر ، ولم تكن له بينة ، فقال داود : قوما حتى أنظر فى أمركما ، فأوحى اللّه تعالى إلى داود فى منامه : أن اقتل الرّجل الذي استعدى عليه ، فتثبت داود حتى أوحى اللّه إليه ثلاثا أن يقتله ، أو تأتيه العقوبة من اللّه ، فأرسل داود إلى الرّجل : أن اللّه قد أوحى إلىّ أن أقتلك ، فقال : تقتلنى بغير بينة؟ فقال : نعم ، واللّه لأنفذنّ أمر اللّه فيك ، فلما عرف الرّجل أنه قاتله ، فقال : لا تعجل علىّ حتى أخبرك أن اللّه تعالى لم يأخذنى بهذا الذنب ، الذي هو السرقة ، ولكنى كنت قتلت أبا هذا غيلة ، وأخذت البقرة ، فقتله داود ، فقال الناس : إذا أذنب أحد ذنبا أظهره اللّه عليه فقتله ، فهابوه ، وعظمت هيبته فى القلوب هـ. «١».

وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ النبوة ، وكمال العلم ، وإتقان العمل ، والإصابة فى الأمور ، أو : الزبور وعلم الشرائع. وكلّ كلام وافق الحق فهو حكمه. وَفَصْلَ الْخِطابِ علم القضاء وقطع الخصام ، فكان لا يتتعتع فى القضاء بين الناس ، أو : الفصل بين الحق والباطل. والفصل : هو [التمييز] «٢» بين الشيئين ، وقيل : الكلام البيّن ، بحيث يفهمه المخاطب بلا التباس ، فصل بمعنى مفصول ، أو : الكلام البيّن الذي

يبين المراد بسرعة ، فيكون بمعنى فاصل ، والمراد : ما أعطاه اللّه من فصاحة الكلام ، الذي كان يفصل به بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، فى قضاياه

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٣٨ - ١٣٩) والبغوي في التفسير (٧/ ٧٧). وعزاه فى الدر المنثور (٥/ ٥٦٣) لعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس رضي اللّه عنه.
(٢) فى الأصول [التحيز].

وحكوماته ، وتدابير الملك ، والمشورات. وعن علىّ رضي اللّه عنه : «هو البينة على المدّعى ، واليمين على من أنكر» وعن الشعبي : «هو : أما بعد» «١» فهو أول من تكلم بها ، فإنّ من تكلم فى الذي له شأن يفتتح بذكر اللّه وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له الكلام ، فصل بينه وبين ذكر اللّه بقوله : أما بعد.

الإشارة : فاصبر أيها الفقير على ما يقولون فيك ، وتسلّ بمن قبلك من أهل الخصوصية الكبرى والصغرى ، ففيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الوصول إلى اللّه تعالى. وقوله تعالى : إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ ... إلخ. قال القشيري : كل من تحقق بحالة ساعده كلّ شىء. هـ. قلت : وفى الحكم : «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوّن ، فإذا شهدت المكوّن كانت الأكوان معك» وباللّه التوفيق.

ثم ذكر امتحان داود عليه السّلام ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٢١ الى ٢٥]

وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ (٢٢) إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ (٢٣) قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ (٢٤) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)

يقول الحق جل جلاله : وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ استفهام ، معناه التعجب والتشويق إلى استماع ما فى حيزه لأنه من الأنباء البديعة ، والأخبار العجيبة. والخصم - فى الأصل : مصدر ، ولذلك يطلق على الواحد والجمع ، كالضيف والزور. وأريد هنا اثنان ، وإنما جمع الضمير بناء على أن أقل الجمع اثنان.

إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ أي : تصعّدوا سوره ونزلوا إليه. والسور : الحائط المرتفع ، ونظيره : تسنمه : إذا علا سنمه. والمحراب :

---

(١) انظر هذه الأقوال فى تفسير الطبري (٣/ ١٤٠) والبغوي (٧/ ٧٧ - ٧٨) والدر المنثور (٥/ ٥٦٤).

الغرفة ، أو : المسجد ، سمى محرابا لتحارب الشيطان فيه والخواطر الرّدية. و«إذ» : متعلق بمحذوف ، أي : نبأ تحاكم الخصمين ، أو : بالخصم لما فيه من معنى الخصومة ، إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ : بدل مما قبله ، أو : ظرف لتسوروا ، فَفَزِعَ مِنْهُمْ : تروع منهم.

روى أن اللّه تعالى بعث إليه ملكين فى صورة إنسانين ، قيل : جبريل وميكائيل ، فطلبا أن يدخلا عليه ، فوجداه فى عبادته ، فمنعهما الحرس ، فتسوّروا عليه المحراب ، فلم يشعر إلا وهما بين يديه ، جالسان ، ففزع منهم لأنهم دخلوا عليه فى غير يوم القضاء ، ولأنهم نزلوا من فوق ، وفى يوم الاحتجاب ، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه. قال الحسن : جزأ داود عليه السّلام الدهر أربعة أجزاء يوما لنسائه ، ويوما للعبادة ، ويوما للقضاء ، ويوما للمذاكرة مع بنى إسرائيل. فدخلوا عليه يوم عبادته.

فلما فزع قالُوا لا تَخَفْ ، نحن خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ أي : ظلم وتطاول عليه ، فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ لا تجر ، من : الشطط ، وهو مجاوزة الحدّ وتخطى الحق ، وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ وأرشدنا إلى وسط الطريق ومحجته ، والمراد : عين الحق وصريحه.

روى : أن أهل زمان داود عليه السّلام كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته ، فيتزوجها إذا أعجبته ، وكان لهم عادة فى المواساة بذلك. وكان فى أول الإسلام شىء من ذلك بين المهاجرين والأنصار ، فاتفق أنّ عين داود عليه السّلام وقعت عل امرأة أوريا ، وكانت جميلة ، فأحبّها ، فسأله النّزول له عنها ، فاستحيا أن يردّه ، ففعل ، فتزوجها ، وهى أم سليمان فعوتب فى ذلك ، وقيل له : إنك مع عظيم منزلتك ، وكثرة نسائك ، لم يكن ينبغى لك أن تسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة ، كان الواجب عليك مغالبة هواك ، وقهر نفسك ، والصبر على ما امتحنت به. وقيل :

خطبها أوريا ، وخطبها داود ، فآثره أهلها ، فكانت زلته أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه «١». هـ.

ولعلم لم يكن محرما فى شرعهم ، وإنما كان خلاف الأولى.
وقال شيخ شيوخنا فى حاشيته : لا يصح هذا فى حق الأنبياء ، وما يحكى أنه بعث أوريا إلى الغزو مرة بعد مرة ، وأحب أن يقتل ليتزوجها ، فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أبناء النّاس ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء.
وقال علىّ - كرم اللّه وجهه - : من حدثكم بحديث داود عليه السّلام على ما يرويه القصّاص جلدته مائة وستين «٢» ، وهو

---

(١) قال القاضي عياض فى الشفاء (٢/ ٨٢٧) : لا تلتفت إلى ما سطره الأخباريون من أهل الكتاب ، الذين بدّلوا وغيّروا ، ونقله المفسرون ، ولم ينص اللّه تعالى على شيء من ذلك فى كتابه ، ولا ورد فى حديث صحيح ، والذي نصّ اللّه عليه فى قصة داود :
قوله : وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ وليس فى قصة داود وأوريا خبر ثابت.
وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣١) : قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه .... فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يرد علمها إلى اللّه عز وجل ، فإن القرآن حق ، وما تضمن فهو حق أيضا.
وانظر : الإسرائيليات والموضوعات لأبى شهبة (٢٦٤ - ٢٧٠).
(٢) قال الحافظ ابن حجر ، فى الكافي الشاف : (رقم ٣٠٦) : لم أجده.

حدّ الفرية على الأنبياء - يعنى الحدّ مرتين - وروى : أن رجلا حدّث بها عند عمر بن عبد العزيز ، وعنده رجل من أهل الحق ، فكذّب المحدّث ، وقال : إن كانت القصة على ما فى كتاب اللّه ، فما ينبغى أن يلتمس خلافها ، ولا أن يقال غير ذلك ، وإن كانت على ما ذكرت ، وقد سترها اللّه على نبيه ، فما ينبغى إظهارها عليه ، فقال عمر : لسماعى لهذا الكلام أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس «١».
والذي يدلّ عليه المثل الذي ضربه اللّه لقصته عليه السّلام ليس إلا أنه طلب من زوج المرأة أن ينزل عنها فحسب ، فتزوجها ، وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض ، دون التصريح لكونها أبلغ فى التوبيخ ، من قبل أنّ المتأمل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرّض به كان أوقع فى نفسه ، وأشدّ تمكّنا من قلبه ، وأعظم أثرا فيه ، مع مراعاة حسن الأدب ، بترك المجاهرة بالعتاب. قاله النّسفى.
ثم ذكر التعريض بقوله : إِنَّ هذا أَخِي فى الدين ، أو : فى الصداقة ، أو : الشركة. والتعبير به لبيان

كمال قبح ما فعل به صاحبه ، لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً النعجة : الأنثى من الضأن ، وقد يكنى بها عن المرأة ، والكناية والتعريض أبلغ من التصريح «٢». وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ لا أملك غيرها ، فَقالَ أَكْفِلْنِيها أي :

ملّكنيها ، واجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى ، وَعَزَّنِي غلبنى فِي الْخِطابِ فى الخصومة ، أي : كان أقدر منى على الاحتجاج والمجادلة ، أو : غلبنى فى الخطبة ، حيث خطبت وخطب ، فأخذها ، وهذا منهما تعريض وتمثيل ، كأنهما قالا : نحن كخصمين هذه حالهما ، فمثّلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة ، وخليطه له تسع وتسعون ، فأراد صاحبه تتمة المائة ، فطمع فى نعجة خليطه ، وحاجّه فى أخذها ، محاجة حريص على بلوغ مراده. وإنما كان ذلك على وجه التحاكم إليه ، ليحكم بما حكم به من قوله :

قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ ، حتى يكون محجوجا بحكمه. وهو جواب عن قسم محذوف ، قصد به عليه السّلام المبالغة فى إنكار فعل صاحبه به ، وتهجين طمعه فى نعجة من ليس له غيرها ، مع أنّ له قطيعا منها. ولعله عليه السّلام قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه ، أو : بناه على تقدير صدق المدعى ، أي :

إن كنت صدقت فقد ظلمك ، والسؤال : مصدر مضاف إلى المفعول ، وتعديته إلى مفعول آخر لتضمينه معنى الضم.

---

(١) ذكره النّسفى فى تفسيره (٣/ ١٥٠). [.....]

(٢) الظاهر : إبقاء لفظ النّعجة على الحقيقة ، من كونها أنثى الضأن ، ولا يكنى بها عن المرأة ، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك. انظر البحر المحيط (٧/ ٣٧٦).

وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ الشركاء الذين خلطوا أموالهم ، لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ غير مراع لحق الصحبة والشركة ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ منهم ، فإنهم يتحامون عن البغي والعدوان ، وَقَلِيلٌ ما هُمْ أي : وهم قليل. و«ما» : مزيدة للإبهام ، والتعجب من قلتهم. والجملة : اعتراض. وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ ، الظن مستعار للعلم الاستدلالي لما بينهما من المشابهة الظاهرة ، أي : علم بما جرى فى مجلس الحكومة وقيل : لمّا قضى بينهما نظر أحدهما إلى الآخر ، فضحك ، ثم صعدا إلى السماء فعلم عليه السّلام أنه تعالى ابتلاه. والقصر منصّب على الفتنة ، أي : علم أنما فعلناه به فتنة وامتحان.

واختلف فى سبب امتحانه ، قيل : لأنه تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وقال : يا رب أرى الخير كله ذهب به آبائي ، فأوحى إليه : إني ابتليتهم ، فصبروا فابتلى إبراهيم بنمرود وبذبح ولده ، وإسحاق بالذبح «١».

ويعقوب بالحزن على يوسف وذهاب بصره ، وأنت لم تبتل بشيء ، فقال : يا رب ابتلني بمثل ما ابتليتهم به ، فابتلى بالمرأة «٢». وقيل : إنه ادعى القوة ، وقال : إنه لا يخاف من نفسه قط ، فامتحن ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ إثر ما علم أن ما صدر منه ذنب وَخَرَّ راكِعاً أي : ساجدا ، على تسمية السجود ركوعا ، أو : خرّ راكعا مصليا صلاة التوبة ، وَأَنابَ أي : رجع إلى اللّه بالتوبة ، روى : أنه بقي ساجدا أربعين يوما يبكى ، حتى نبت البقل من دموعه ، ولم يشرب ماء إلا وثلثاه دموع ، واشتغل بذلك عن الملك ، حتى وثب ابن له ، يقال له : «إيشا» على ملكه ودعا إلى نفسه ، واجتمع إليه أهل الزيغ من بنى إسرائيل ، فلما غفر له حاربه فهزمه. هـ.

وهذا الموضع فيه سجدة عند مالك ، خلافا للشافعي ، إلا أنه اختلف فى مذهب مالك هل سجد عند قوله :

وَأَنابَ أو عند قوله : وَحُسْنَ مَآبٍ. وروى الترمذي عن أبى سعيد الخدري : أنه رأى فى المنام شجرة تقرأ سورة «ص» ، فلما بلغت : «وأناب» سجدت ، وقالت : اللهم اكتب لى بها أجرا ، وحط عنى بها وزرا ، وارزقني بها شكرا ، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود ، فقال له - عليه الصلاة والسّلام - «وسجدت أنت يا أبا سعيد؟» قلت : لا. قال : «كنت أحق بالسجود من الشجرة» ، ثم تلى نبى اللّه الآيات ، حتى بلغ : وَأَنابَ فسجد ، وقال كما قالت الشجرة «٣».

---

(١) تقدم أن الذبيح هو إسماعيل عليه السّلام ، راجع التعليق على تفسير الآيات : ٩٩ - ١١١ من سورة الصافات.

(٢) انظر تفسير الطبري (٢٣/ ١٤٦) والبغوي (٧/ ٧٨).

(٣) أخرجه ، عن ابن عباس ، الترمذي فى (أبواب السفر ، باب ما يقول فى سجود القرآن ٣/ ٤٧٢ - ٤٧٣ - ح ٥٧٩) ، وابن ماجه فى (إقامة الصلاة والسنة ، باب : سجود القرآن ١/ ٣٣٤ ، ح ١٠٥٣) والحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي ، (١/ ٢١٩ - ٢٢٠) والبغوي فى تفسيره (٧/ ٨٦) قال - أي : ابن عباس - : جاء رجل إلى النّبى صلّى اللّه عليه وسلم فقال : يا رسول اللّه ، إنى رأيتى الليلة وأنا نائم كأنى أصلى خلف شجرة ، فسجدت ، فسجدت الشجرة لسجودى .. إلخ الحديث. قال الترمذي : (و فى الباب عن أبى سعيد) قلت : حديث أبى سعيد الخدري عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٥٧٢) لأبى يعلى.

فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ أي : ما استغفر منه. قال القشيري : ولمّا أوحى اللّه بالمغفرة ، قال : يا رب كيف بحديث الخصم؟ - أي : الرجل الذي ظلمته - فقال : قد استوهبتك منه. هـ. وفى رواية : إنى أعطيه يوم القيامة ما لم تر عيناه ، فاستوهبك منه فيهبك لى ، قال : يا رب الآن قد عرفت أنك غفرت لى «١». هـ. قال تعالى وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى لقربى وكرامة بعد المغفرة ، وَحُسْنَ مَآبٍ مرجع فى الجنة.

الإشارة : إنما عوتب داود عليه السّلام لأنه التفت إلى الجمال الحسى الفرقى ، دون الجمال المعنوي الجمعى ، ولو سبته المعاني بجمالها ما التفت إلى الجمال الفرقى ، فلما نبّهه الحق تعالى استغفر ورجع إلى الجمال المعنوي ، الذي هو جمال الحضرة القدسية ، وعبارة شيخ شيوخنا سيدى عبد الرّحمن الفاسى رضي اللّه عنه : عدّ عليه التفاته عن الجمال المطلق عن الأشكال والصور إلى المقيد بهما ، وهى مقام تفرقة ، لا مقام جمع ، فاستغفر ورجع إلى شهود الفاعل جمعا ، عن شهود فعله فرقا ، فخلع عليه خلعة الخلافة والله أعلم. هـ. قال القشيري : قال داود عليه السّلام : يا رب إنى أجد فى التوراة أنك أعطيت الأنبياء الرّتب العالية ، فأعطينها؟ فقال : إنهم صبروا لمّا ابتليتهم ، فوعد من نفسه الصبر إذا ابتلاه ، طمعا فى مثل تلك الرّتب ، فأخبر أنه يبتليه يوم كذا ، فلما جاء ذلك اليوم دخل خلوته ، وأغلق أبوابه ، ولم يمكنه غلق باب السماء. وقد قال الحكماء : الهارب مما هو كائن فى كف الطالب يتقلب. ثم إنه كان فى البيت كوة ، يدخل منها النّور ، فدخل منها طير صغير ، كأنه من ذهب ، وكان لداود ولد صغير ، فهمّ أن يقبضه لابنه ، فمازال يحاوله ويتبعه حتى وقع بصره على المرأة ، فامتحن بها ، فلم يدع به الاهتمام بولده حتى فعل ما فعل ، وفى ذلك لأولى الأبصار عبرة. هـ.

وقال عند قوله : فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ : التجأ داود عليه السّلام فى أوائل البلاء إلى التوبة ، والبكاء ، والتضرع ، والاستكانة ، فوجد المغفرة والتجاوز. وهكذا من رجع فى أوائل الشدائد إلى اللّه ، فاللّه يكفيه ويتوب عليه ، و[كذلك] «٢» من صبر إلى حين طالت عليه المحنة. ويقال : إن زلة قدّرها عليك ، توصلك إليه بندمك ، أحرى بك من طاعة ، إعجابك بها يقصيك عن ربك. هـ. وفى الحكم : «معصية أورثت ذلا وافتقارا ، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا» وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه : كل سوء أدب يثمر لك حسن أدب فهو أدب. هـ.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ٨٤).

(٢) ما بين المعقوفتين مستدرك من لطائف الإشارات.

ولمّا تحققت إنابته ، جعله اللّه خليفة ، كما قال :
[سورة ص (٣٨) : الآيات ٢٦ الى ٢٨]
يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (٢٦) وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)
يقول الحق جل جلاله : يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ أي : استخلفناك على الملك فيها ، والحكم فيما بين أهلها ، أو : جعلناك خليفة عمّن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق ، وفيه دليل على أن حاله عليه السّلام بعد التوبة ، كما كان قبلها ، لم يتغير قط ، خلاف ما نقله الثعلبي من تغير حاله وصوته ، ومنع الطيور من إجابته ، فانظره.
فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ بحكم اللّه تعالى ، إذ كنت خليفته ، أو : بالعدل ، وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى أي : هوى النفس فى الحكومات ، وغيرها من أمور الدين والدنيا ، بل قف عند ما حدّ لك. وفيه تنبيه على أن أقبح جنايات العبد متابعة هواه ، فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : فيكون الهوى ، أو اتباعه ، سببا لضلالك عن دلائله اللاتي نصبها على الحق ، تكوينا وتشريعا. و«يضلك» : منصوب فى جواب النّهى ، أو : مجزوم ، فتح لالتقاء الساكنين.
إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ عن طريقه الموصلة إليه. وأظهر «سبيل اللّه» فى موضع الإضمار للإيذان بكمال شناعة الضلال عنه ، لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا بسبب نسيانهم يَوْمَ الْحِسابِ فإنّ تذكره وترداده على القلب يقتضى ملازمة الحق ومباعدة الهوى.
وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما من المخلوقات على هذا النّظام البديع باطِلًا أي : خلقا باطلا ، عاريا عن الحكمة ، أو : مبطلين عابثين ، بل لحكم بالغة ، وأسرار باهرة ، حيث خلقنا من بينها نفوسا ، أودعناها العقل لتميز بين الحق والباطل ، والنّافع والضار ، ومكنّاها من التصرفات العلمية والعملية ، فى استجلاب

منافعها ، واستدفاع مضارها ، ونصبنا لها للحق دلائل آفاقية ، ونفسية ، ومنحناها القدرة على الاستشهاد بها ، ثم لم نقتصر على ذلك المقدار من الألطاف ، بل أرسلنا إليها رسلا ، وأنزلنا عليها كتبا

، بيّنا فيها كيفية الأدب معنا ، وهيئة السير إلى حضرة قدسنا ، وقيّضنا لها جهابذة ، غاصوا على جواهر معانيها ، فاستخرجوا منها كيفية المعاملة معنا ، ظاهرا وباطنا ، وأوعدنا فيها بالعقاب لمن أعرض عنها ، ووعدنا بالثواب الجزيل لمن تمسك بها ، ولم نخلق شيئا باطلا.

ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، الإشارة إلى خلق العبث ، والظن بمعنى المظنون ، أي : خلقها عبثا هو مظنون الذين كفروا ، وإنما جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث ، وإن لم يصرحوا بذلك لأنه لمّا كان إنكارهم للبعث ، والثواب ، والحساب ، والعقاب ، التي عليها يدور فلك تكوين العالم ، مؤديا إلى خلقها عبثا ، جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه لأن الجزاء هو الذي سيقت إليه الحكمة فى خلق العالم ، فمن جحده فقد جحده الحكمة فى خلق العالم.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ، الفاء سببية لإفادة ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل ، وأظهر فى موضع الإضمار للإشعار بأن الكفر علة ثبوت الويل لهم ، و«من النّار» : تعليلية ، كما فى قوله : فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ «١» أي : فويل لهم بسبب النّار المترتبة على ظنهم وكفرهم.

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، «أم» : منقطعة ، والاستفهام فيها للإنكار ، والمراد أنه لو بطل الجزاء - كما تقول الكفرة - لا ستوت أحوال أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة ، ومن سوّى بينهما كان سفيها ، ولم يكن حكيما ، أي : بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين فى أقطار الأرض ، كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين فى التمتع فى الحياة الدنيا ، بل الكفرة أوفر حظا فيها من المؤمنين ، مع صبر المؤمنين ، وتعبهم فى مشاق الطاعات ، لكن ذلك الجعل محال ، فتعين البعث والجزاء لرفع الأولين إلى أعلى عليين ، وخفض الآخرين إلى أسفل سافلين.

أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ إنكار للتسوية بين الفريقين المذكورين ، وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لا يساعده المقام ، ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين ، ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين ، هما أدخل فى إنكار التسوية من الوصفين الأولين. وقيل : قالت قريش للمؤمنين : إنا نعطى من الخير يوم القيامة مثل ما تعطون ، فنزلت «٢».

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة البقرة.

(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ٨٧).

الإشارة : قال الورتجبي : ولمّا خرج داود من امتحان الحق وبلائه ، كساه خلعة الرّبوبية ، وألبسه لباس العزة والسلطنة ، كآدم خرج من البلاء ، وجلس فى الأرض على بساط فلك الخلافة ، وذلك بعد كونهما متخلقين بخلق الرحمن ، مصوّرين بصورة الرّوح الأعظم ، فإذا تمكن داود فى العشق ، والمحبة ، والنّبوة ، والرّسالة ، والتخلق ، صار أمره أمر الحق ، ونهيه نهى الحق. هـ. وقال ابن عطية : لا يطلق خليفة اللّه إلا لنبى ، وإطلاقه فى غير الأنبياء تجوّز وغلوّ. هـ. قلت : يطلق عند الأولياء على من تحققت حريته ، ورسخت ولايته ، وظهر تصرفه فى الوجود بالهمة ، حتى يكون أمره بأمر اللّه ، غالبا ، وهو مقام القطبانية ، فالمراتب ثلاث : صلاح ، وولاية ، وخلافة ، فالصلاح لمن صلح ظاهره بالتقوى ، والولاية لمن تحقق شهوده ، مع بقية من نفسه ، بحيث تقل عثراته جدا ، والخلافة لمن تحققت حريته ، وظهرت عصمته بجذب العناية. واللّه تعالى أعلم.

وقوله تعالى : وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى ، الهوى : ما تهواه النّفس ، وتميل إليه ، من الحظوظ الفانية ، قلبية كانت ، كحب الجاه ، والمال ، وكالميل فى الحكم عن صريح الحق ، أو : نفسانية ، كالتأنق فى المآكل ، والمشارب ، والمناكح.

واتباع الهوى : طلبه ، والسعى فى تحصيله ، فإن كان حراما قدح فى الإيمان ، وإن كان مباحا قدح فى نور مقام الإحسان ، فإن تيسّر من غير طلب وتشوف ، وكان موافقا للسان الشرع ، جاز تناول الكفاية منه ، مع الشكر وشهود المنّة. قال عمر بن عبد العزيز : إذا وافق الحقّ الهوى ، كان كالزبد بالبرسام ، أي : الكسر. وفى الحكم : «لا يخاف أن تلتبس الطرق عليك ، إنما يخاف من غلبة الهوى عليك» «١» وغلبة الهوى : قهره وسلطنته ، بحيث لا يملك نفسه عند هيجان شهوتها.

وقوله تعالى : وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا أي : بل خلقناهما لنعرف بهما ، فما نصبت الكائنات لتراها ، بل لترى فيها مولاها. وقد تقدم هذا مرارا.

ولا ينال هذا المقام إلا بعبادة التفكر والتدبر ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة ص (٣٨) : آية ٢٩]

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (٢٩)

قلت : «كتاب» : خبر عن مضمر ، أي : هذا ، و«أنزلناه» : صفة له ، و«مبارك» : خبر ثان ، أو : صفة الكتاب ، و«ليدبروا» : متعلق بأنزلناه.

---

(١) حكمة رقم ١٠٧ ، انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي ص ١٧.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٣

قيل : لمّا نفى التسوية بين الصالح المتّقى ، والمفسد الفاجر ، بيّن ما تحصل به لمتبعيه السعادة الأبدية ، ويحصل به الصلاح التام ، والتقوى الكاملة. وهو كتاب اللّه فقال جل جلاله : هذا كِتابٌ وهو القرآن أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ كثير المنافع الدينية والدنيوية ، أنزلناه لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ أي : ليتفكروا فى آياته ، التي من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع ، فيعرفوا ما فى ظاهرها من المعاني الفائقة ، والتأويلات اللائقة.

وقرىء : لتدبروا على الخطاب «١» ، أي : أنت وعلماء أمتك ، بحذف إحدى التاءين. وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ أي : وليتّعظ به ذوو العقول الصافية ، السليمة من الهوى ، فيقفوا على ما فيه ، ويعملوا به ، فإنّ الكتب الإلهية ما نزلت إلا ليتدبر ما فيها ، ويعمل به. وعن الحسن : قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان ، لا علم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه وضيّعوا حدوده. هـ.

الإشارة : كتاب اللّه العزيز بطاقة من عند الملك ، والمراد من البطاقة فهم ما فيها ، والعمل به ، لا قراءة حروفها ورسومها فقط ، فمن فعل ذلك فهو مقصّر.

وذكر فى الإحياء أن آداب القراءة عشرة ، أي : الآداب الباطنية :

الأول : فهم عظمة الكلام وعلوّه ، وفضل اللّه سبحانه بخلقه ، فى نزوله عن عرش جلاله ، إلى درجة أفهام خلقه ، فلو لا استتار كنّه جلال كلام اللّه تعالى ، بكسوة الحروف ، لما ثبت لكلام اللّه عرش ولا ثرى ، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه ، ولو لا تثبيت اللّه موسى عليه السّلام ما أطاق سماع كلامه ، كما لم يطق الجبل مبادر نوره.

الثاني : تعظيم المتكلم به ، وهو اللّه سبحانه ، فيخطر فى قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر ، وأن فى تلاوة كتابه غاية الخطر ، ولهذا كان عكرمة إذا نشر المصحف غشى عليه.

الثالث : حضور القلب ، وترك حديث النّفس ، فإذا قرأ آية غافلا أعادها.

الرابع : التدبر ، وهو وراء الحضور ، فإنه قد لا يتفكر فى غير القرآن ، ولكنه مقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره. قال علىّ رضي اللّه عنه : لا خير فى عبادة لا فقه فيها ، ولا خير فى قراءة لا تدبّر فيها.

الخامس : التفهم «٢» ، وهو أن يستوضح كلّ آية ما يليق بها إذ القرآن مشتمل على ذكر صفات اللّه تعالى ، وذكر أفعاله ، وذكر أحوال أنبيائه - عليهم السّلام - ، وذكر أحوال المكذّبين ، وكيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره ، وذكر الجنة والنّار ، قال عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه : «من أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن» ، أي : فإنه مشتمل على فعل اللّه ، وصفاته ، وكشف أسرار ذاته ، لمن تأمله حق تأمله.

---

(١) وبذلك قرأ أبو جعفر .. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٤٢١).
(٢) فى الأصول [التفهيم] والمثبت هو الذي في الإحياء.

(٢٣/٥)

السادس : التخلي عن موانع الفهم ، ومعظمها أربعة : أولها : صرف الهمة إلى إخراج الحروف من مخارجها ، وهذا تولى حفظه شيطان وكّل بالقراء. وكذلك الاشتغال بضبط رواياته ، فأنى تنكشف لهذا أسرار المعاني. ثانيها : أن يكون مقيدا بمذهب ، أخذه بالتقليد ، وجمد عليه ، فهذا شخص قيّده معتقده ، فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده ، فلا يتبحر فى معانى القرآن لأنه مقيد بما جمد عليه. ثالثها : أن يكون مصرا على ذنب ، أو متصفا بكبر ، أو : مبتلى بهوى فى الدنيا ، وبهذا ابتلى كثير من النّاس ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :
سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ «١» أي : عن فهم آياتي. رابعها : أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا ، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما يتناوله النّقل عن ابن عباس وغيره ، وأمّا ما وراء ذلك تفسير بالرأى ، فهذا أيضا من أعظم الحجب فإن القرآن العظيم له ظاهر وباطن ، وحدّ ومطّلع ، فالفهم فيه لا ينقطع إلى الأبد ، فهو بحر مبذول ، يغرف منه كلّ واحد على قدر وسعه ، إلى يوم القيامة.
السابع : التخصيص ، وهو أن يعتقد أنه المقصود بكلّ خطاب فى القرآن ، فإن سمع أمرا أو نهيا ، قدر أنه المأمور والمنهي ، وكذلك إن سمع وعدا ووعيدا ، وإن سمع قصص الأولين علم أن المقصود به الاعتبار ، ليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه ، ويتقوى إيمانه ، قال تعالى : وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ «٢» فالقرآن لم ينزل خاصا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، بل هو شفاء ورحمة ونور للعالمين ، فيثبت فؤاد كلّ من يسمعه.
الثامن : التأثير ، وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة ، بحسب اختلاف الآيات ، فيكون له بحسب كلّ فهم حال ووجد ، يتصف به قلبه من الخوف ، والرّجاء ، والقبض ، والبسط ، وغير ذلك.
التاسع : الترقي وهو أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من اللّه سبحانه ، لا من نفسه ، ولا من غيره.
فدرجات القرآن ثلاث : أدناها : أن يقدر العبد كأنه يقرأ على اللّه تعالى ، واقفا بين يديه ، فيكون حاله السؤال والتملق.
ثانيها : أن يشهد بقلبه كأن اللّه تعالى يخاطبه بألفاظه ، ويناجيه بإنعامه وإحسانه ، فمقامه الحياء والتعظيم. الثالثة :

أن يرى في الكلام المتكلّم ، فلا ينظر إلى نفسه ، ولا إلى قراءته ، بل يكون مقصور الهم على المتكلم ، مستغرقا في شهوده ، وهذه درجة المقربين ، وما قبلها درجة أصحاب اليمين ، وما خرج عن هذا فهو درجة الغافلين. وعن الدرجة العليا أخبر جعفر الصادق رضي اللّه عنه بقوله : واللّه لقد تجلى اللّه لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون. هـ. وقال

---

(١) من الآية ١٤٦ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١٢٠ من سورة هود.

بعض الحكماء : كنت أقرأ القرآن ولا أجد حلاوة ، حتى تلوته كأنه أسمعه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يتلوه على أصحابه ، ثم رفعت إلى مقام ، كأنى أسمعه من جبريل ، يلقيه على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ثم جاء اللّه بمنزلة أخرى ، فأنا الآن أسمعه من المتكلّم به ، فعندها وجدت له لذة ونعيما لا أصبر عنه.

العاشر : التبري ، وهو أن يتبرأ من حوله ، وقوته ، والالتفات إلى نفسه بعين الرّضا. انظر بقية كلامه فقد اختصرناه غاية.

ثم ذكر سليمان عليه السّلام ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٣٠ الى ٣٣]

وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (٣١) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (٣٢) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ (٣٣)

يقول الحق جل جلاله : وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ أي : سليمان ، فهو المخصوص ، إِنَّهُ أَوَّابٌ أي : رجّاع إلى اللّه تعالى فى السراء والضراء ، وفى كلّ أموره ، إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ أي : واذكر ما صدر عنه حين عرض عليه بِالْعَشِيِّ وهو ما بين الظهر إلى آخر النّهار ، الصَّافِناتُ الْجِيادُ أي :

الخيل الصافنات ، وهى التي تقوم على طرف سنبك يد أو رجل. وهى من الصفات المحمودة ، لا تكاد توجد إلا فى الخيل العراب ، الخلّص. وقيل : هو الذي يجمع يديه ويستبق بهما ، والجياد : جمع جواد ، أو : جود ، وهو الذي يسرع في جريه ، أو : الذي يجود عند الرّكض ، وقيل : وصفت بالصفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين ، واقفة وجارية ، أي : إذا وقفت كانت ساكنة ، وإذا جرت كانت سراعا خفافا في جريها.

روى أنه عليه السّلام غزا أهل دمشق ونصيبين ، وأصاب ألف فرس ، وقيل : أصابها أبوه من العمالقة ، وورثها منه ، وفيه نظر فإن الأنبياء لا يورثون ، إلا أن يكون تركها حبسا ، فورث النّظر فيها. ويكون عقرها بنية إبدالها. وقيل :

خرجت من البحر لها أجنحة ، فقعد يوما بعد ما صلّى الظهر على كرسيه ، فاستعرضها ، فلم تزل تعرض

عليه حتى غربت الشمس ، وغفل عن العصر ، أو : عن الورد ، كان له من الذكر وقتئذ ، وهو أليق بالعصمة ، فاغتم لما فاته ، فاستردها ، فعقرها ، تقربا إلى اللّه تعالى ، وبقي مائة ، فما فى أيدى النّاس اليوم من الجياد فمن نسلها «١».

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ٨٨). [.....]

(٢٥/٥)

وقيل : لمّا عقرها أبدل اللّه تعالى له خيرا منها ، وهى الرّيح تجرى بأمره ، فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، قاله عليه السّلام عند غروب الشمس ، اعترافا بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة أو الذكر ، وغايته حينئذ : أن الأولى استغراق الأوقات فى ذكر اللّه من الاشتغال بالدنيا ، فترك الأولى ، وتحسر لذلك ، وأمر بالقطع.

وأما حمله على الصلاة والاشتغال بها حتى يفوت الوقت ، فذنب عظيم ، تأباه العصمة. قاله شيخ شيوخنا الفاسي.

وقد يجاب بأنّ تركه كان نسيانا وذهولا ، لا عمدا ، فلا معصية.

وعدّى «أحببت» ب «عن» دون «على» لتضمنه معنى النّيابة ، أي : أنبت حب الخير «١» ، وهو المال الكثير ، والمراد : الخيل التي شغلته عن ذكر ربه ، حَتَّى تَوارَتْ أي : استترت بِالْحِجابِ أي : غربت واحتجبت عن العيون ، و«عن» : متعلق بأحببت ، باعتبار استمرار المحبة ودوامها. حسب استمرار العرض ، أي : أنبت حب الخير عن ذكر ربى ، واستمر ذلك حتى غربت الشمس. وإضمارها من غير تقدم ذكر لدلالة «العشى» عليها.

رُدُّوها عَلَيَّ ، هو من مقالة سليمان ، فَطَفِقَ مَسْحاً ، الفاء فصيحة ، مفصحة عن جملة حذفت ، لدلالة الكلام عليها ، إيذانا بسرعة الامتثال ، أي : فردّوها عليه ، فأخذ يمسح السيف مسحا بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ أي : بسوقها وأعناقها يقطعها ، من قولهم : مسح عنقه بالسيف ، وقيل : جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها ، حبا لها ، وإعجابا بها ، وهو ينافى سياق الكلام «٢».

الإشارة : لم يذكر الحق تعالى لسليمان ترجمة مخصوصة ، كما ذكر لغيره بقوله : وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ، وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ ، بل خرطه فى سلك ترجمة أبيه ، وجعله هبة له تنبيها على أن مقام أهل الجمال الدنيوي ، لا يبلغ مقام أهل الجلال ففيه تنبيه على أن الفقير الصابر أعظم من الغنى الشاكر. قاله فى القوت.

وقوله تعالى : فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ ، فيه : أن من ترك شيئا عوّضه اللّه خيرا منه ، فمن كان فى اللّه تلفه ، كان على اللّه خلفه. وفيه حجة للصوفية على إتلاف كلّ ما شغل القلب عن اللّه ، كما فعل الشبلي من تمزيق الثياب الرفهة «٣». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أي : أنبت حب الخير عن ذكر ربى ووضعته موضعه.

(٢) وقيل معناه : أنه حبسها فى سبيل اللّه ، وكوى سوقها وأعناقها بكىّ الصدقة. وهذا هو الذي رحجه أبو حيان ، لأنه يناسب مناصب الأنبياء ، لا القول الأول فإن فيه ما لا يليق ذكره بالنسبة للأنبياء. انظر البحر المحيط (٧/ ٣٨٠).

(٣) قال القرطبي فى تفسير (٦/ ٥٨٠٦) : وقد استدل الشبلي وغيره من الصوفية فى تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا ، وهو استدلال فاسد ، لأنه لا يجوز أن ينسب إلى نبى معصوم أنه فعل الفساد. والمفسرون اختلفوا فى معنى الآية ... وأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض صحيح ، فإنه لا يجوز .. انظر بقية كلامه.

ثم ذكر امتحانه ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٣٤ الى ٤٠]

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (٣٤) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (٣٦) وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (٣٨)
هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ أي : ابتليناه ، وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ سرير ملكه ، جَسَداً شق ولد ، أو جنيا ، ثُمَّ أَنابَ رجع إلى اللّه تعالى ، وأظهر ما قيل فى فتنته عليه السّلام ما روى مرفوعا : أنه قال : لأطوفنّ الليلة على سبعين - أو تسع وتسعين - امرأة ، تأتى كلّ واحدة منهن بفارس ، يجاهد فى سبيل اللّه ، ولم يقل «إن شاء اللّه» فطاف عليهنّ ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة ، جاءت بشقّ رجل.
قال نبينا عليه الصلاة والسّلام : «والذي نفسى بيده لو قال : إن شاء اللّه ، لجاهدوا فى سبيل اللّه فرسانا أجمعون»»

فالفتنة على هذا : كونه لم يقل : «إن شاء اللّه» والجسد هو شق الإنسان الذي ولد له. وقيل : إنه ولد

له ابن ، فأجمعت الشياطين على قتله ، وقالوا : إن عاش له ولد لم ننفك من خدمته ، فلمّا علم ذلك ، حمله في السحاب ، فما شعر حتى ألقي على كرسيه جسدا ميتا ، فتنبه لخطأه ، حيث لم يتوكل على اللّه.

وقيل : إنه غزا صيدون من الجزائر ، فقتل ملكها ، وأخذ بنتا له تسمى جرادة ، من أحسن النّاس ، فاصطفاها لنفسه ، وأسلمت على جفاء ، وأحبها ، وكان لا يرقأ دمعها ، جزعا على أبيها ، فأمر الشياطين فمثّلوا لها صورته ، فكانت تغدوا عليها وتروح مع ولائدها ، فيسجدن لها ، كعادتهن في ملكه ، فأخبره صاحبه آصف بذلك ، فكسر الصورة ، وعاقب المرأة ، ثم خرج إلى فلاة ، وفرش له الرّماد ، وجلس عليه تائبا إلى اللّه متضرعا. وكانت له أم ولد ، يقال لها : «أمينة» إذا دخل للطهارة ، أو لإصابة امرأة ، يعطيها خاتمه ، وكان فيها ملكه ، فأعطاها يوما ، فتمثل لها بصورته شيطان ، اسمه «صخر» وأخذ الخاتم ، فتختم به ، وجلس على كرسيه ، فاجتمع عليه الخلق ، ونفذ حكمه في كل شيء ، إلا في نسائه ، على المشهور ، وغير سليمان عن هيئته ، فأتى «أمينة» لطلب الخاتم ، فأنكرته وطردته ، فعلم

---

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء ، باب وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ ح ٣٤٢٤) ومسلم في (الأيمان ، باب الاستثناء ٣/ ١٢٧٥ ح ١٦٥٤) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه.

أن الخطيئة قد أدركته ، فكان يطوف على البيوت يتكفف ، وإذا قال : أنا سليمان ، حثوا التراب عليه ، وسبّوه ، ثم عمد إلى السمّاكين ينقل لهم السمك ، فيعطونه كلّ يوم سمكتين ، فمكث على ذلك أربعين صباحا ، عدد ما عبد الوثن في بيته ، فأنكر آصف وعظماء بنى إسرائيل حكم الشيطان ، حتى دخلوا على نسائه ، فقالوا : قد أنكرنا حكمه ، فذهبوا حتى جلسوا بين يديه ، فنشروا التوراة ، فقرؤوها ، فطار من بين أيديهم ، والخاتم معه ، ثم قذفه في البحر ، فابتعلته سمكة ، فوقعت في يد سليمان ، فبقر بطنها ، فإذا هو بالخاتم ، فتختم به ، وخرّ ساجدا للّه ، وعاد إليه ملكه ، وقبض الجنى «صخر» فجعله في وسط صخرة ، وشد عليه بأخرى ، ثم أوثقهما بالحديد والرّصاص ، وقذفه في البحر ، فهو باق فيه. فالجسد على هذا عبارة عن «صخر» سمى به ، وهو جسم لا روح فيه لأنه تمثيل بما لم يكن كذلك ، والخطيئة : تغافله عليه السّلام عن حال أهله لأن اتخاذ التماثيل لم يكن محظورا حينئذ ، والسجود للصورة بغير علم منه لا يضره. وأنكر بعض المحققين هذه القصة. وقال : لا يصح ما نقله

الأخباريون وأهل التفسير فى هذا الموضع ، من تشبه الشيطان بنبيه ، وتسلطه على ملكه ، وتصرفه فى أمته والجور فى حكمه «١».

قال القاضي عياض : الشياطين لا يتسلطون على مثل هذا ، وقد عصم اللّه الأنبياء عن مثله. ومثله لا بن العربي أيضا. وحكى إنكاره عن السمرقندي. وقال الطيبي : أشبه الأقاويل فى إلقاء الجسد هو شق الولد ، كما تقدم. وخالفه ابن حجر ، فقال : قال غير واحد من المفسرين : أن المراد بالجسد المذكور شيطان ، وهو المعتمد ، فاللّه أعلم ، غير أن التنزيه أسلم.

قال شيخ شيوخنا الفاسى فى حاشيته : وليس هذه كقصة أيوب ، فيما يذكر أنه تسلط الشيطان على إتلاف ماله وولده ، وضرره فى جسده لأن ذلك إنما فيه تسلط على محض ضرر دنيوى لا دينى. وقد قال عليه الصلاة والسّلام : «تفلت علىّ البارحة عفريت ...» الحديث «٢». وكذا سحر ، وسمّ وشجّ. والتسلط المذكور فى حق سليمان ، فيه تلبيس فى الدين فلا يصح ، إلا أن يقال : أنه لم يقر ، بل رفع اللبس بعد ذلك ، كما فى آية : فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ «٣» ، واللّه أعلم هـ.

---

(١) قال النّسفى - رحمه اللّه - فى تفسيره (٣/ ١٥٦) : وأما ما يروى من حديث الخاتم ، والشيطان ، وعبادة الوثن فى بيت سليمان عليه السّلام ، فمن أباطيل اليهود. وقال فى البحر المحيط (٧/ ٣٨١) : نقل المفسرون فى هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالا ، يجب براءة الأنبياء منها ، يوقف عليها فى كتبهم ، وهى مما لا يحل نقلها ، وإما هى من أوضاع اليهود والزنادقة. للمزيد انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦) والإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير (٢٧٠ - ٢٧٥).

(٢) ولفظه كاملا : «إن عفريتا من الجن تفلت علىّ البارحة ، ليقطع علىّ الصلاة ، فأمكننى الله منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد ، تنظروا إليه كلكم. فذكرت دعوة أخى سليمان : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي فرددته خاسئا» أخرجه البخاري فى (الأنبياء ، باب قوله تعالى : وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ح ٣٤٢٣) ومسلم فى (المساجد ، باب جواز لعن الشيطان فى أثناء الصلاة والتعوذ منه. ١/ ٣٨٤ ح ٥٤١) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) من الآية ٥٢ من سورة الحج.

(٥/٢٨)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٩

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ، هو بدل من «أناب» ، أي : اغفر لى ما صدر عنى من الزلة ، وَهَبْ لِي مُلْكاً لا

يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، ليكون معجزة لى ، مناسبة لحالى ، فإنه عليه السّلام لمّا نشأ فى بيت الملك والنّبوة ، وورثهما معّا ، استدعى من ربه معجزة جامعة لحكمهما. أو : لا ينبغى لأحد يسلبه منى بعد هذه السلبة ، أو : لا يصح لأحد من بعدي لعظمته وشدته.

قال القشيري : ويقال : لا ينبغى لأحد من بعد أن يسأل الملك ، بل يجب أن يكل أمره إلى اللّه - ومثله للجنيد ، وزاد : فإن الملك شغل عن المالك - أو : يقال : لا ينبغى لأحد من بعدي من الملوك ، لا من الأنبياء ، وإنما سأل الملك لسياسة النّاس ، وإنصاف بعضهم من بعض ، والقيام بحق اللّه ، ولم يسأله لأجل ميله إلى الدنيا. وهو كما قال يوسف عليه السّلام : اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ ... «١». ثم قال : علم أن نبينا عليه الصلاة والسّلام لا يلاحظ الدنيا ، ولا يملكها ، تحقيرا لها فقال : لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي لا لأنه بخل به عليه ، ولكن لعلمه أنه لا ينظر إلى ذلك.

هـ. هذا ، وقد يقال : أن قوله : وَهَبْ لِي مُلْكاً قد جرى على لسانه ، كما هو حال النّطق باللّه من أهل اللّه ، ولذلك كان الأمر كذلك ، ولم يزاحمه أحد ، كقول الخليل» : وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا «٢» ، لما جرى به القضاء أنطقه اللّه بما سيكون. وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين ، جريا على سنن الأنبياء والصالحين ، وكون ذلك أدخل فى الإجابة.

إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ تعليل للدعاء بالهبة والمغفرة معا ، فإن المغفرة من أحكام وصف الوهّابية قطعا ، فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ فذللناها لطاعة ، إجابة لدعوته ، فعاد أمره عليه السّلام إلى ما كان عليه قبل الفتنة ، قيل : فتن سليمان بعد ما ملك عشرين ، وملك بعد الفتنة عشرين ، فسخرت له الرّيح تَجْرِي بِأَمْرِهِ بيان لتسخيرها ، رُخاءً أي : لينة ، من الرّخاوة ، أو : طيبة لا تزعج ، وهذا بعد أن تقلّ السرير من الأرض الإعصار ، فإذا صار فى الهواء حملته الرّخاء الطيبة ، حَيْثُ أَصابَ أي : قصد وشاء ، بلغة حمير. تقول العرب : أصاب الصواب فأخطاء الجواب ، أي : أراد الصواب فأخطأ. قال الشاعر :

أصاب الكلام فلم يستطع فأخطا الجواب لدى المفصل

وَسخرنا له الشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ : بدل من «الشياطين». فكانوا يبنون له ما يشاء ، ويغوصون له فى البحر لاستخراج اللآلئ ، وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر ، أي : وسخّرنا له كلّ بناء

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة يوسف.

(٢) من الآية ١٢٩ من سورة البقرة.

وغواص من الشياطين ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ فكان يقرن مردة الشياطين ، بعضهم مع بعض ، فى القيود والسلاسل ، للتأديب والكف عن العباد.
والصفد : القيد ، وقد يسمى العطاء بالصفد لأنه ارتباط للمنعّم عليه فى يد المنعم. ومنه قول علىّ رضي اللّه عنه : (من برّك فقد أسرك ، ومن جفاك فقد أطلقك) ، ومن هذا كانت الصوفية يهربون من خير النّاس ، أكثر مما يهربون من شرهم. قال الشيخ عبد السّلام بن مشيس لأبى الحسن الشاذلى - رضي اللّه عنهما : يا أبا الحسن اهرب من خير النّاس ، أكثر مما تهرب من شرهم ، فإنّ خيرهم يصيبك فى قلبك ، وشرهم يصيبك فى بدنك ، ولئن تصاب فى بدنك خير من أن تصاب فى قلبك ، ولعدو تصل به إلى ربك خير من حبيب يقطعك عن ربك. هـ.
هذا عَطاؤُنا ، هو حكاية لما خوطب به سليمان من قبل الحق تعالى ، أي : وقلنا له هذا الذي أعطيناك من الملك العظيم ، والسلطنة ، والتسلط على ما لم يسلط عليه غيرك ، هو عطاؤنا الخاص بك ، فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ أي :
أعط من شئت ، وامنع من شئت ، بِغَيْرِ حِسابٍ أي : غير محاسب على منّه ومنعه لتفويض التصرف فيه إليك ، فكان إذا أعطى أجر ، وإذا منع لم يأثم ، بخلاف غيره. قال الحسن : إن اللّه لم يعط أحدا عطية إلا جعل فيها حسابا ، إلا سليمان ، فإن اللّه أعطاه عطاء هينا. وهذا مما خص به سليمان عليه السّلام ، وأما غيره ، فيؤخر على بذله ، ويعاقب على منعه من حقه ، وبِغَيْرِ حِسابٍ : قيل : متعلق بعطاؤنا ، وقيل : حال من المستكن فى الأمر ، أي :
هذا عطاؤنا جما كثيرا ، لا يكاد يقدر على حصره ، أو : هذا التسخير عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين بالإطلاق ، أو : أمسك من شئت منهم فى الوثاق ، لا حساب عليك فى ذلك.
وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى لقربى فى الآخرة ، مع ماله فى الدنيا من الملك العظيم ، وَحُسْنَ مَآبٍ مرجع ، وهى الجنة. وزلفى : اسم إن ، و«له» : خبر ، و«عند» : متعلق بالاستقرار.
روى أن سليمان عليه السّلام لما ورث ملك أبيه ، سار من الشام إلى العراق ، فبلغ خبره كسرى ، فهرب إلى خراسان ، فلم يلبث حتى هلك. ثم سار سليمان عليه السّلام إلى مرو ، ثم إلى بلاد الترك ، فأوغل فيها ، ثم جاز بلاد الصين ، ثم عطف إلى أن وافى بلد فارس ، فنزلها أياما ، ثم عاد إلى الشام ، فأمر ببناء بيت المقدس ، فلما فرغ منه سار إلى تهامة ، ثم إلى صنعاء ، وكان من حديثه مع صاحبتها ما ذكر اللّه ، وغزا بلاد المغرب الأندلس وطنجة وغيرهما.
انظر أبا السعود «١». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٢٨).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣١

الإشارة : ما أعطى اللّه عبدا مكنة إلا بعد محنة ، ولا رفع مقاما إلا بعد ابتلاء ، إما فى البدن والمال ، وإما فى الدين ، إن صحبه رجوع وانكسار. كأنّ اللّه تعالى إذا أراد أن يرفع عبدا أهبطه إلى أرض قهرية العبودية ، ثم يرفعه إلى مشاهدة عظمة الرّبوبية ، ثم يملكه الوجود بأسره ، يتصرف فيه بهمته كيف شاء.

ولذلك قيل فى معصية آدم :

نعمت المعصية أورثت الخلافة. وشاهده حديث : «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى» «١». ومن كان اللّه عنده ، ما ذا يفوته؟

وقوله تعالى : وَهَبْ لِي مُلْكاً .. إلخ ، قال القشيري : لم يطلب الملك الظاهر ، وإنما أراد به أن يملك نفسه ، فإن الملك - على الحقيقة - من ملك نفسه ، فمن ملكها لم يتّبع هواه ، - أي : فيكون حرا ، فيملكه اللّه التصرف فى الوجود. ثم قال : ويقال أراد به كمال حاله فى شهود ربه ، حتى لا يرى معه غيره ، ويقال : سأل القناعة التي لا يبقى معها اختيار. هـ.

وقوله تعالى : هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ ، هو عند الأولياء ليس خاصا بسليمان ، ف كل من تمكّن مع اللّه التمكن الكبير يفوض إليه الأمر ، ويقال : افعل ما شئت ، وشاهده : حديث أهل بدر. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى : رضي اللّه عنه يبلغ الولىّ مبلغا يقال له : أصحبناك السلامة ، وأسقطنا عك الملامة ، فاصنع ما شئت. ثم استشهد بالآية فى حق سليمان ، هذا ، وإن كان للنبى من أجل العصمة ، فلمن كان من الأولياء فى مقام الإمامة قسط منه ، من أجل الحفظة.

ثم ذكر أيوب عليه السّلام ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٤١ الى ٤٤]

وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ (٤٢) وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)

---

(١) سبق تخريج الحديث.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٢

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ ، وهو ابن عيصو ابن إسحاق عليه السّلام ، أي : من ذريته لأنه بعد يوسف ، وامرأته : رحمة بنت إفرائيم بن يوسف. إِذْ نادى رَبَّهُ ، وهو بدل اشتمال من «عبدنا». و«أيوب» :

عطف له ، أَنِّي أي : بأني مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ «١» أي : تعب ، وفيه قراءات بفتحتين ، وبضمتين ، وبضم وسكون ، وبنصب وسكون. وَعَذابٍ أي : ألم ، يريد ما كان يقاسيه من فنون الشدائد ، وهو الضر في قوله : مَسَّنِيَ الضُّرُّ «٢» ، وهو حكاية لكلامه الذي ناداه به ، وإلا لقيل : إنه مسه. وإسناده إلى الشيطان على طريق الأدب في إسناد ما كان فيه كمال إلى اللّه تعالى ، وما كان فيه نقص إلى الشيطان أو غيره ، كقول الخليل : وَإِذا مَرِضْتُ «٣» ولم يقل : أمرضني. وكقول يوشع عليه السّلام : وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ «٤». وفي الحقيقة : كل من عند اللّه. وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه ، من تعظيم ما نزل به من البلاء ، ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى اللّه في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بدفعه ورده بالصبر الجميل.

وروى : أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين ، فارتد أحدهم ، فسأل عنه ، فقيل : ألقى إليه الشيطان : أن اللّه لا يبتلى الأنبياء والصالحين ، فشكا ذلك إلى ربه. وذكر في سبب بلائه أنه ذبح شاة فأكلها ، وجاره جائع ، أو : رأى منكرا فسكت عنه ، أو : استغاثه مظلوم فلم يغثه ، أو : كانت مواشيه في ناحية ملك كافر ، فداهنه ، فلم يغزه ، أو : سؤاله امتحانا لصبره ، أي : هل يصبر أم لا ، أو : ابتلاه لرفع درجاته بلا سبب ، وهو أولى «٥».

ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ، حكاية ما أجيب به أيوب عليه السّلام ، أي : أرسلنا له جبريل عليه السّلام بعد انتهاء مدة مرضه ، فقال له : اركض ، أي : اضرب برجلك الأرض ، وهي أرض موضع بالجابية «٦» ، فضربها ، فنبعت عين ، فقيل : هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ أي : هذا ما تغتسل منه ، وتشرب منه ، فيبرأ ظاهرك وباطنك ، وقيل : نبعت له عينان حارة للاغتسال ، وباردة للشرب ، فاغتسل من إحداهما ، فبرئ ما في ظاهره ، وشرب من الأخرى ، فبرئ ما في باطنه ، بإذن اللّه تعالى. ومدة مرضه قيل : ثمان عشرة سنة ، وقيل : أربعين ، وقيل : سبع سنين ، وسبعة أشهر ، وسبعة أيام ، وسبع ساعات «٧».

---

(١) قرأ أبو جعفر «بنصب» بضم النّون والصاد ، وقرأ يعقوب بفتحهما ، وقرأ الباقون بضم النّون وسكون الصاد. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢١)

(٢) من الآية ٨٣ من سورة الأنبياء.

(٣) من الآية ٨٠ من سورة الشعراء. [.....]

(٤) من الآية ٦٣ من سورة الكهف.

(٥) انظر تفسير النّسفى (٣/ ١٥٧).

(٦) الجابية : موضع بالشام.

(٧) راجع (٣/ ٤٨٧) من هذا الكتاب.

(٥/٣٢)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٣

وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ، قيل : أحياهم اللّه بأعيانهم ، وزاد مثلهم ، وقيل : جمعهم بعد تفرقهم ، وقيل :

أعطاه أمثالهم وزاده ضعفهم. قال القشيري : وكان له سبع بنات ، وثلاثة بنين ، فى مكتب واحد ، فحرك الشيطان الاسطوانة ، فانهدم البيت عليهم. هـ. ولم يذكر كم كان له من الزوجات ، فقد سلمت [منهن] «١» «رحمة» وهلك الباقي.

أعطيناه ذلك رَحْمَةً مِنَّا أي : رحمة عظيمة عليه من قبلنا. وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ أي : ولنذكرهم بذلك ليصبروا على الشدائد ، ويلتجئوا إلى اللّه فيما ينزل بهم لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه ، لصبره ، رغبّهم فى الصبر على البلاء.

ولمّا حلف : ليضربنّ امرأته مائة ضربة ، حيث أبطأت عليه فى حاجتها. وقيل : باعت ذوائبها واشترت به رغيفين ، وكانت متعلق أيوب. وقيل : طمع الشيطان فيها أن يسجد زوجها له فيشفيه ، أمره اللّه تعالى ببر يمينه ، فقال : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً حزمة صغيرة من حشيش أو ريحان ، وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : قبضة من الشجر ، فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ ، وهذه الرّخصة باقية عند الشافعي وأبى حنيفة ، خلافا لمالك لأن الأيمان عنده مبنية على الأعراف. قال تعالى : إِنَّا وَجَدْناهُ علمناه صابِراً على البلاء ، وأما شكواه فليست جزعا ، بل رجوعا إلى مولاه ، على أنه عليه السّلام إنما طلب الشفاء خيفة على قومه ، حيث كان الشيطان يوسوس إليهم ، لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ما ابتلى به ، وإرادة القوة على الطاعة ، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان. قلت :

طلب الشفاء لا ينافى الرّضا لأن العبد ضعيف ، لا قوة له على قهرية الحق. ثم قال تعالى : نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ رجّاع إلى اللّه تعالى. قال القشيري : لم يشغله البلاء عن المبلى. وهو تعليل لمرضه.

الإشارة : كثير من الصوفية اختاروا البلاء على العافية ، وبعضهم اختار العافية ، قال علىّ رضي اللّه عنه : لأن أعطى فأشكر أحب إلىّ من أن أبتلى فأصبر ، أي : لأنه طريق السلامة ، وبه وردت الأحاديث ، والأولى للعبد ألا يختار مع سيده شيئا ، بل يكون مفوضا مستسلما ، يتلقى ما يرد عليه بالترحيب ، أىّ شىء كان. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر إبراهيم وبنيه ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]
وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (٤٧)

---

(١) فى الأصول [منهم].

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ عِبادَنا ، وقرأ المكي «١» : «عبدنا» ، إما على إرادة الخبر ، وإما أن يريد «إبراهيم» وحده لشرفه ، ثم عطف عليه من بعده ، ثم بيّنهم بقوله : إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ أي : أولى القوة فى الطاعة والبصيرة فى الدين ، أو : أولى الأعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة. فعبّر بالأيدى عن الأعمال لأن أكثرها تباشر بها ، وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مبادئها. وفيه تعريض بالجهلة الباطلين ، كأنهم كالزّمنى والعماة ، وتوبيخ على ترك المجاهدة والفكرة مع تمكنهم منهما.
إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ أي : جعلناهم خالصين لنا بخصلة عظيمة الشأن ، لا شوب فيها ، هى ذِكْرَى الدَّارِ أي : تذكر للدار الآخرة على الدوام ، فإنّ خلوصهم فى الطاعة بسبب تذكرهم لها ، وذلك لأن مطمح أنظارهم ، ومسرح أفكارهم ، فى كلّ ما يأتون وما يذرون ، جوار اللّه عز وجل ، والفوز بلقائه ، ولا يتأتى ذلك على الدوام إلا فى الآخرة ، فمطلبهم إنما هو الجوار والرّؤية ، لا مجرد الحضور فى تلك الدار ، كما قال ابن الفارض - رضي اللّه عنه :
ليس سؤلى من الجنان نعيما غير أنّى أريدها لأراك
قال ابن عطية : يحتمل أن يكون معنى الآية : إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بأن خلص لهم التذكير بالدار الآخرة ، ودعاء الناس إليها ، أي : وتزهيدهم فى الدنيا ، كما هو ديدن الأنبياء والرّسل. وهذا قول قتادة ، أو : إنا أخلصناهم بأن خلص لهم ذكرهم للدار الآخرة وخوفهم والعمل بحسب ذلك. وهذا قول مجاهد.
هـ. قلت : مرتبة الرّسل تنافى العمل لحرف ، فإنّ أولياء هذه الأمة تحرروا من العمل للحرف ، بل عبدوا اللّه شكرا ومحبة وعبودية ، لا طمعا فى شىء ، فكيف بأكابر الرّسل. وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار فى الحقيقة ، وإنما الدنيا معبر إليها.
ومن قرأ بالإضافة «٢» ، فمن إضافة الشيء إلى ما بيّنه لأن الخالصة تكون ذكرى وغير ذكرى ، و«ذكرى» :

مصدر مضاف إلى المفعول ، أي : بإخلاصهم ذكرى الدار. وقيل : خالصة بمعنى خلوص ، وهى مضافة إلى الفاعل ، أي : بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بشيء آخر ، إنما همّهم ذكرى الدار الآخرة لجوار الحبيب.

---

(١) وهو ابن كثير الداري ، أحد القراء السبعة.

(٢) أي : «خالصة» بغير تنوين ، مضافا للبيان ، كما فى «بشهاب قبس». وبها قرأ نافع وأبو جعفر. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٢)

(٣٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٥

وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ المختارين من بين أبناء جنسهم الْأَخْيارِ : جمع خير ، أو : خير ، على التخفيف ، كأموات جمع ميّت ، أو : ميت.

الإشارة : أولياء هذه الأمة - أي : العارفون باللّه - يزاحمون الأنبياء والرّسل فى جلّ المراتب ، قال عليه السّلام : «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» «١» أي : العلماء باللّه فإنهم لم يقفوا مع دنيا ولا مع آخرة ، بل حطوا هممهم على اللّه ، ولم يقصدوا شيئا سواه ، خلعوا النّعلين عن الكونين ، وركضوا إلى المكوّن ، وكانت لهم اليد الطولى فى عمل الطاعات عبوديّة ، والبصيرة النّافذة فى مشاهدة الرّبوبية ، هذه طريقهم ، وهذا مذهبهم ، ومن حاد منهم عن هذا لم يعدّوه منهم. جعلنا اللّه ممن خرط فى سلكهم.

ثم ذكر بقية بنيه ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : آية ٤٨]

وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (٤٨)

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ ، فصل ترجمته عن أبيه وأخيه للإشعار بعلو شأنه ، واستقلاله بالشرف والذكر ، ولعراقته فى الصبر ، الذي هو المقصود بالتذكير ، وهو أكبر بنيه. وَاذكر الْيَسَعَ بن خطوب «٢» بن العجوز ، استعمله إلياس على بنى إسرائيل ، ثم استنبئ. و«ال» فيه ، قيل : للتعريف ، وأصله : يسع ، وقيل : زائدة لأنه عجمى علم ، وقيل : هو يوشع ، وَذَا الْكِفْلِ وهو ابن عم اليسع ، أو : بشر بن أيوب. واختلف فى نبوته وسبب لقبه ، فقيل : فرّ إليه مائة نبى من بنى إسرائيل ، خوفا من القتل ، فآواهم وكفلهم ، وقيل : تكفل بعبادة رجل صالح كان فى وقته. وَكُلٌّ أي : وكلهم مِنَ الْأَخْيارِ المشهورين بالخيرة.

الإشارة : إنما كان هؤلاء مصطفين أخيارا بالوفاء بالعهود ، والوقوف مع الحدود ، والصبر على طاعة الملك المعبود ، وتحمل ما يقرب إلى حضرة الشهود. ف كل من اتصف بهذه الخصال كان من المصطفين الأخيار.

ثم ذكر عامة المؤمنين ، أو : ما أعد لمن ذكر آجلا ، بعد ذكرهم الجميل عاجلا ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٤٩ الى ٥٤]

هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (٥٢) هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ (٥٣)

إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (٥٤)

---

(١) قال فى كشف الخفاء (٢/ ٨٣ ، ح ١٧٤٤) : «قال السيوطي فى الدرر : لا أصل له. وقال فى المقاصد : قال شيخنا - يعنى ابن حجر - ومن قبله الدميري والزركشي : إنه لا أصل له. زاد بعضهم : ولا يعرف فى كتاب معتبر». وانظر أيضا العلل المتناهية (ح ٧٠٢).

(٢) فى نسخة [قطوب].

قلت : (جنات) : عطف بيان لحسن مآب ، أو : بدل. و(مفتحة) : حال من (جنات عدن). والعامل فيها :

الاستقرار فى (للمتقين). و(الأبواب) : نائب الفاعل لمفتّحة. والرّابط بين الحال وصاحبها : إما ضمير مقدّر ، كما هو رأى البصريين ، أي : الأبواب منها ، أو : الألف واللام القائم مقامه ، كما هو رأى الكوفيين ، أي : أبوابها. و(متكئين) :

حال من ضمير (لهم) ، والعامل فيه : (مفتحة). و(يدعون) : إما استئناف ، أو : حال مما ذكر ، أو : من ضمير (متكئين).

يقول الحق جل جلاله : هذا أي : هذا الذي ذكر من الآيات النّاطقة بمحاسن الأنبياء والرّسل ، ذِكْرٌ أي : شرف لهم ، وذكر جميل يذكرون به أبدا ، أو : نوع من الذكر ، أي : القرآن. وآي منه مشتمل على أنباء الأنبياء ، أو : تذكير ووعظ لأنه يذكر أحوال الأكابر ليقتدى بهم ، أو : ذكر من مضى الأنبياء ، أو : شرف لك لأنه معجزة لك يدلّ على صدقك ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ أي : جنس المتقين ، أو : من ذكر

من الرّسل ، عبّر عنهم بالمتقين مدحا لهم بالتقوى إذ هى غاية الكمال. لَحُسْنَ مَآبٍ مرجع.
ثم بيّنه بقوله : جَنَّاتِ عَدْنٍ إقامة مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ فإذا جاءوها لا يلحقهم ذلّ الحجاب ، ولا كلفة الاستئذان ، تستقبلهم الملائكة بالتبجيل والترحيب ، مُتَّكِئِينَ فِيها على أرائكهم فى حجالهم ، يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ مما يشتهون وَشَرابٍ كثير كذلك ، حذف اكتفاء بالأول ، والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض [التفكه] «١» والتلذذ ، دون التغذي والحاجة ، فإنه لا تحلل فى الأبدان ولا حاجة.
وَعِنْدَهُمْ حور قاصِراتُ الطَّرْفِ على أزواجهن ، لا ينظرون إلى غيرهم ، أَتْرابٌ لدات ، أسنانهنّ كأسنانهم. قيل : ثلاث وثلاثون سنة لكل واحد ، أو : مستويات فى الحسن والجمال والشكل لأن التحاب بين الأقران أبلغ وأثبت ، وقيل : أتراب بعضهن لبعض ، لا عجوز فيهن ولا صبية. واشتقاقه من التراب ، فإنه [يمسّهن] «٢» فى وقت واحد.

---

(١) فى الأصول [الفاكهة].
(٢) فى الأصول الخطية [يمسهم].

هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ ، قال ابن عرفة : اللام للتوقيت ، أي : عنده ، أو : للتعليل ، فإن الحساب علّة للوصول إلى الجزاء. وقرأ المكي والبصري بياء الغيب ، ليوافق ما قبله ، والالتفات أليق بمقام الامتنان والتكريم. إِنَّ هذا الذي ذكر من ألوان النّعيم والكرامات لَرِزْقُنا أعطيناكموه ، ما لَهُ مِنْ نَفادٍ من انقطاع وتمام أبدا.
الإشارة : كل من توجه إلى اللّه بكليته ، واتصف بمحاسن الأخلاق ، كان له ذكر وشرف فى الدنيا ، وكرامة فى العقبى ، بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.
ثم ذكر أضدادهم بقوله :
[سورة ص (٣٨) : الآيات ٥٥ الى ٦٤]
هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (٥٦) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (٥٨) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (٥٩)
قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (٦٠) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (٦١) وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (٦٢) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ

عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (٦٣) إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)

قلت : (هذا) : خبر ، أي : الأمر هذا ، أو : مبتدأ أي : هذا كما ذكر ، وهو من الاقتضاب «١» الذي يقرب من التخلص «٢» ، كقوله بعد الحمد : أما بعد. قال السعد : هو من فصل الخطاب ، الذي هو أحسن موقعا من التخلص. قال :

وقد يكون الخبر مذكورا كقوله : هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ .. الآية. هـ. قال الطيبي : هو من فصل الخطاب ، على التقدير الأول ، لا الثاني. هـ. أي : إذا كان خبرا عن مضمر ، لا ما إذا ذكر الخبر.

يقول الحق جل جلاله : هذا

أي : الأمر هذا ، وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ مرجع جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها يدخلونها ، حال من جهنم ، فَبِئْسَ الْمِهادُ : الفراش ، شبّه ما تحتهم من النّار بالمهاد الذي يفرش للنائم ، والمخصوص محذوف ، أي : جهنم.

---

(١) الاقتضاب عند البلغاء : الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود من غير مناسبة ، كقولك بعد حمد اللّه : أما بعد فقد فعلت كذا وكذا. انظر محيط المحيط (ص ٧٤٢).

(٢) التخلص عند البلغاء : الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود مع رعاية المناسبة. انظر محيط المحيط (ص ٢٤٨).

هذا فَلْيَذُوقُوهُ أي : ليذوقوا هذا فليذوقوه ، كقوله تعالى : وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ «١» أو : العذاب هذا فليذوقوه ، وهو حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ .. إلخ ، أو : (هذا) : مبتدأ ، و(حميم وغساق) : خبر ، وما بينهما اعتراض ، والغساق :

ما يغسق ، أي : يسيل من صديد أهل النّار ، يقال : غسقت العين إذا سال دمعها. وقيل : الحميم يحرق بحرّه ، والغساق يحرق ببرده. قيل : «لو قطرت منه قطرة بالمشرق لأنتنت أهل المغرب ، ولو قطرت بالمغرب لأنتنت أهل المشرق ، وقيل : الغساق : عذاب لا يعلمه إلا اللّه. وهو بالتخفيف والتشديد ، قرىء بهما «٢».

وَآخَرُ أي : وعذاب آخر ، أو : مذوق آخر ، مِنْ شَكْلِهِ من مثل العذاب المذكور. وقرأ البصري : «أخر» بالجمع ، أي : ومذوقات أخر من شكل هذا العذاب فى الشدّة والفظاعة ، أَزْواجٌ أي : أصناف ، وهو خبر لآخر ، أو : صفة له ، أو : للثلاثة.

هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ، حكاية لما يقوله الخزنة للطاغين إذا دخلوا النّار ، واقتحمها معهم فوج كانوا يتبعونهم فى الكفر والضلالة. والاقتحام : الدخول فى الشيء بشدة ، أو : من كلام الطاغين بعضهم من بعض.

لا مَرْحَباً بِهِمْ ، هو من تمام كلام الخزنة ، على الأول ، أو : من كلام الطاغين ، دعاء منهم على أتباعهم. يقال لمن يدعو له أو يفرح به : مرحبا ، أي : وجدت مكانا رحبا ، لا ضيقا ، ثم تدخل عليه النّفى فى دعاء السوء ، فتقول :

لا مرحبا. و«بهم» : بيان للمدعو عليهم ، إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ أي : داخلوها. وهو تعليل لاستحقاقهم الدعاء عليهم.

وقيل : (هذا فوج ...) إلخ ، من كلام الخزنة لرؤساء الكفرة. و(لا مرحبا بهم ...) إلخ ، من كلام الرّؤساء.

قالُوا أي : الأتباع : بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أي : الدعاء الذي دعوتم به علينا أنتم أحقّ به ، وعللوا ذلك بقوله : أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا أي : إنكم دعوتمونا للكفر ، فتبعناكم ، فقدمتمونا به للعذاب ، فَبِئْسَ الْقَرارُ أي : بئس المقر جهنم ، قصدوا بذمها تغليظ جناية الرّؤساء عليهم. قالُوا أي : الأتباع ، معرضين عن خصومتهم ، متوجهين إلى اللّه : رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً أي : مضاعفا. فِي النَّارِ أو : ذا ضعف ، ومثله قوله : رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً «٣» ، وهو أن يزيد على عذابه مثله.

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة البقرة. [.....]

(٢) قرأ حمزة والكسائي وحفص بالتشديد. وخففها الآخرون. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٣).

(٣) من الآية ٣٨ من سورة الأعراف.

وَقالُوا أي : الرؤساء : ما لَنا لا نَرى رِجالًا ، يعنون : فقراء المسلمين ، كُنَّا نَعُدُّهُمْ فى الدنيا مِنَ الْأَشْرارِ من الأرذال الذين لا خير فيهم ولا جدوى ، حيث كانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم ، أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا ، بهمزة الاستفهام ، سقطت لأجلها همزة الوصل. والجملة : استئنافية ، ومن قرأ بالوصل «١» فقط فالجملة : صفة ثانية لرجال ، أَمْ زاغَتْ مالت عَنْهُمُ الْأَبْصارُ ، والمعنى على الاستفهام : أتخذناهم سخريا وليسوا كذلك ، فلم يدخلوا معنا النّار فهم فى الجنة ، أم دخلوها معنا ، ولكن مالت عنهم أبصارنا ، فلا نراهم معنا؟ وعلى الاستخبار : ما لنا لا نرى رجالا معنا فى النّار ، كانوا عندنا أشرار ، قد

اتخذناهم سخريا نسخر بهم ، ثم أضربوا وقالوا : بل زاغت عنهم الأبصار ، فلا نراهم فيها ، وإن كانوا معنا ، أو : زاغت أبصارنا ، وكلّت أفهامنا عنهم ، حتى خفى علينا مقامهم ، وأنهم على الحق ونحن على الباطل ، وما تبعناهم. ومن قرأ «سخريا» بالضم «٢» فمن :
التسخير والاستخدام. ومن قرأ بالكسر ، فمن السخر ، الذي هو الهزء. وجوز فى القاموس الضم والكسر فيهما معا ، فراجعه.
إِنَّ ذلِكَ الذي حكى من أحوالهم لَحَقٌّ لا بد من وقوعه البتة ، وهو تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ فيها على ما تقدم. ولمّا شبّه تفاوضهم ، وما يجرى بينهم من السؤال والجواب ، بما يجرى بين المتخاصمين ، سمّاه تخاصما ، وبأنّ قول الرّؤساء : لا مَرْحَباً وقول الاتباع : بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ من باب الخصومة لا محالة ، فسمى التقاول كله تخاصما لا شتماله على ذلك.
الإشارة : كل من تعدى وطغى ، ولم يتب ، من المؤمنين ، يرى شيئا من أهوال الكفرة ، فلا يدخل الجنة حتى يتخلص ، وكلّ من سخر بالفقراء يسقط فى الحضيض الأسفل ، ويكون سكناه فى أسفل الجنة ، فيقول : ما لنا لا نرى معنا رجالا كنا نعدّهم من المبتدعة الأشرار ، اتخذناهم سخريا ، وهم كبراء عند اللّه ، رفعوا عنا ، أم هم معنا ولكن زاغت عنهم الأبصار؟ فيجابون : بأنهم رفعوا مع المقربين ، كانوا مشتغلين بنا ، وكنتم منهم تضحكون. إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون بالقرب ومشاهدة طلعتنا ، فى كلّ حين ، وباللّه التوفيق.

---

(١) قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب «اتخذناهم» بوصل الهمزة بما قبلها ، وبكسر الألف عند الابتداء. وقرأ الباقون بقطع الألف وفتحها ، على الاستفهام. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٣).
(٢) قرأ بضم السين نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر. وقرأ الباقون بكسرها.

(٣٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٠
ثم قرر تحقيق الرّسالة والوحدانية ، فقال :
[سورة ص (٣٨) : الآيات ٦٥ الى ٧٠]
قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩)
إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد للمشركين : إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ من جهته تعالى ، أنذركم عذابه ، وَما مِنْ إِلهٍ في الوجود إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الذي لا يقبل الشركة أصلا ، الْقَهَّارُ لكل شيء سواه ، رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا من المخلوقات ، فكيف يتوهم أن يكون له شريك منها ، الْعَزِيزُ الذي لا يغلب الْغَفَّارُ المبالغ في المغفرة لمن يشاء. وفي هذه النّعوت من تقرير التوحيد ، والوعد للموحّدين ، والوعيد للمشركين ، ما لا يخفى. وتثنية ما يشعر بالوعيد من وصف القهر والعزة وتقديمهما على وصف المغفرة لتقوية الإنذار.

قُلْ هُوَ أي : ما نبأتكم به من كوني رسولا ، وأنّ اللّه واحد لا شريك له ، نَبَأٌ عَظِيمٌ وارد من جهته تعالى ، لا يعرض عن مثله إلا غافل منهمك. أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ غافلون ، وعن ابن عباس : النبأ العظيم : القرآن. وعن الحسن : يوم القيامة. وتكرير الأمر للإيذان بأن المقول أمر جليل ، له شأن خطير ، لا بد من الاعتناء به ، أمرا وائتمارا.

ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ، احتجاج على صحة نبوته ، بأن ما ينبئ به عن الملأ الأعلى ، واختصامهم ، أمر غيبي ، لم يكن له به علم قطّ ، ثم علمه وأخبر به ، ولم يسلك الطريق الذي سلكه النّاس في علم ما لم يعلموا ، وهو الأخذ عن أهل العلم ، ودراسة الكتب ، فتحقق أن ذلك لم يحصل له إلا بالوحي من اللّه تعالى. والملأ الأعلى هم الملائكة ، وآدم ، وإبليس لأنهم كانوا في السماء ، وكان اختصامهم : التقاول بينهم ، كقولهم :

أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها ... «١» إلخ ، وكقول إبليس : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ... «٢» إلخ ، ويدل عليه ما يأتي من الآيات. وقيل : اختصامهم في الكفارات وغفران الذنوب ، فإن العبد إذا فعل حسنة اختلفت الملائكة في قدر ثوابه ، حتى يقضي اللّه ما شاء.

---

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٢ من سورة الأعراف ، والآية ٧٦ من سورة «ص».

وروى في هذا حديث ، وهو أنه - عليه الصلاة والسّلام - قال له ربه - عز وجل - في النّوم : «أتدري فيما يختصم الملأ الأعلى؟ قلت : لا ، قال : اختصموا في الكفارات والدرجات ، فأما الكفارات فإسباغ الوضوء على المكاره ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وأما الدرجات فإفشاء السّلام ، وإطعام الطعام ، والصلاة بالليل والنّاس نيام» «١». رواه الترمذي.

و«إذ يختصمون» : متعلق بمحذوف يقتضيه المقام إذ المراد نفى علمه - عليه الصلاة والسّلام - بحالهم لا بذواتهم ، والتقدير : ما كان لى فيما سبق علم بما يوحيه فى شأن الملأ الأعلى وقت اختصامهم. وانظر أبا السعود.

إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أي : ما يوحى إلىّ ما يوحى من الأمور الغيبية ، التي من جملتها حال الملأ الأعلى ، إلا لأنما أنا نذير مبين من جهته تعالى ، فحذف اللام وانتصب بإيصال الفعل إليه ، ويجوز أن يرتفع بالنيابة عن الفاعل ، أي : ما يوحى إلىّ إلا هذا ، وهو أن أنذر وأبلّغ ، ولا أفرط فى ذلك ، أي : ما أومر إلا بهذا الأمر وحده ، وليس إلىّ غير ذلك. وقرىء بكسر «إنما» «٢» على الحكاية ، أي : إلا هذا القول ، وهو : أن أقول لكم : إنما أنا نذير مبين ، ولا ادّعى شيئا آخر.

الإشارة : تربية اليقين تطلب فى ثلاثة أمور فى توحيد الألوهية ، بالتبري من الشرك الجلّى والخفي. وهو مفاد قوله : وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ ... إلخ. وفى تصديق الواسطة ، وهو النّذير المبين ، بتعظيمه واتباع سنته ومنهاجه القويم ، وفى التصديق بما جاء به ، وهو النّبأ العظيم ، على أىّ تفسير كان ، إما القرآن ، باتباعه ، والتدبر فى معانيه ، أو : يوم القيامة ، بالتأهب له ، وجعله نصب العين. وباللّه التوفيق.

ثم فسّر الاختصام المتقدم ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٧١ الى ٨٥]

إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (٧٤) قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (٧٥)

قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)

---

(١) أخرجه الترمذي فى (التفسير - سورة «ص» ح ٣٢٣٤ و٣٢٣٥) من حديث ابن عباس ، ومعاذ بن جبل - رضي اللّه عنهما.

وقال عن حديث ابن عباس : حسن غريب. وعن حديث معاذ : حسن صحيح.

(٢) وهى قراءة أبى جعفر المدني. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢

قلت : (إذ قال) : متعلق بيختصمون ، أو : بدل من (إذ) قبله ، أو : باذكر. و«الحق» : فمن نصبه ، فعلى حذف فعل القسم ، كقولك : اللّه لأفعلن ، أي : أقسم بالحق ، فحذفت الباء ووصل الفعل به ، ومن رفعه فمبتدأ ، أي : الحقّ منى ، أو :

خبر ، أي : أنا الحق. والحق الثاني : مفعول «أقول» ، والجملة : معترضة بين القسم وجوابه ، وهو : (لأملأن).

يقول الحق جل جلاله فى تفسير الاختصام المذكور : إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ حين أراد خلق آدم ، إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ، وقال : إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها «١».

والتعرض لعنوان الرّبوبية ، مع الإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسّلام - لتشريفه صلّى اللّه عليه وسلم ، والإيذان بأنّ وحي هذا النّبأ إليه تربية وتأييد له. والكاف وارد باعتبار حال الآمر ، لكونه أدلّ على كونه وحيا منزلا من عنده تعالى ، كما فى قوله تعالى : ... يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ... «٢» إلخ ، دون حال المأمور ، وإلا لقال : ربى لأنه داخل فى حيز الأمور.

فَإِذا سَوَّيْتُهُ أي : صوّرته بالصورة الإنسانية ، والخلقة البشرية ، أو : سويت أجزاء بدنه ، بتعديل أعضائه ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي الذي خلقته قبل ، وأضافه إليه تخصيصا ، كبيت اللّه ، وناقة اللّه. والرّوح سر من أسرار اللّه ، لطيفة ربانية ، سارية فى كثيفة ظلمانية ، فإذا سرت فيه حيى بإذن اللّه ، أي : فإذا أحييته فَقَعُوا أي : اسقطوا لَهُ ، وهو أمر ، من وقع ، ساجِدِينَ قيل : كان انحناء يدلّ على التواضع ، وقيل : كان سجودا للّه ، أو سجود تحية لآدم وتكريما له.

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٥٤ من سورة الزمر.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٣

فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ، «كل» للإحاطة ، و«أجمعون» للاجتماع ، فأفاد أنهم سجدوا عن آخرهم جميعا ، فى وقت واحد ، غير متفرقين فى أوقات. وظاهر هذه الآية وما فى سورة الحجر «١» : أن الأمر بالسجود كان تعليقيا ، لا تنجيزيا ، فأمرهم بالسجود قبل أن يخلقه ، بل حين أعلمهم بخلقه ، فلما خلقه سجدوا ممتثلين للأمر الأول ، وظاهر ما فى البقرة والأعراف والإسراء والكهف : أن الأمر كان تنجيزيا بعد خلقه ، والجمع بينهما : أنه وقع قبل وبعد ، أو : اكتفى بالتعليقى ، كما يقتضيه

الحديث ، حيث قال له بعد نفخ الرّوح فيه : «اذهب فسلّم على أولئك الملائكة ، فسلّم عليهم ، فردوا عليه وسجدوا له». واللّه تعالى أعلم بغيبه.

إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ أي : تعاظم عن السجود ، والاستثناء متصل إن قلنا : كان منهم ، حيث عبد عبادتهم ، واتصف بصفاتهم ، مع كونه جنيا ، أو : منقطع ، أي : لكن إبليس استكبر ، وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ أي : صار منهم بمخالفته للأمر ، واستكباره عن الطاعة ، أو : كان منهم فى علم اللّه.

قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ أي : عن السجود لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، بلا واسطة أب ولا أم ، امتثالا لأمرى ، وإعظاما لخطابى ، ولمّا كانت الأعمال تباشر فى الغالب باليد ، أطلقت على القدرة. والتثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقه عليه السّلام ، المستدعى لإجلاله وإعظامه ، قصدا إلى تأكيد الإنكار ، وتشديد التوبيخ. وسيأتى فى الإشارة بقية الكلام فى سر التثنية. قال له تعالى : أَسْتَكْبَرْتَ ، بهمزة الاستفهام ، وطرح همزة الوصل ، أي :

أتكبرت من غير استحقاق ، أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ المستحقين للتفوق ، أو : أستكبرت عن السجود ولم تكن قبل ذلك من المتكبرين ، أم كنت قبل ذلك من المتكبرين على ربك؟.

قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، ولا يليق أن يسجد الفاضل للمفضول ، كقوله : لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ «٢» ، وبيّن فضيلته فى زعمه بقوله : خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ، يعنى لو كان مخلوقا من نار لما سجدت له لأنه مخلوق مثلى ، فكيف أسجد لمن هو دونى لأنه طين ، والنّار تغلب الطين وتأكله ، ولقد أخطأ اللعين ، حين خصّ الفضل بما من جهة المادة والعنصر ، وغاب عنه ما من جهة الفاعل ، كما أنبأ عنه قوله تعالى : لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، وما من جهة الصورة كما نبّه عليه قوله تعالى : وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ، وما من جهة الغاية ، وهو ما خصّه به من علوم الحكمة ، التي ظهرت بها مزيته على الملائكة ، حتى أمروا بالسجود ، لما ظهر أنه أعلم منهم بما تدور عليه أمر الخلافة فى الأرض ، وأن له خواص ليست لغيره.

---

(١) فى قوله تعالى : فَإِذاسَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ ، فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ

الآيتان ٢٩ - ٣٠.

(٢) الآية ٣٠ من سورة الحجر.

قالَ فَاخْرُجْ مِنْها من الجنة ، أو : من زمرة الملائكة ، وهو المراد بالأمر بالهبوط ، أو : من السموات ، أو :
من الخلقة التي أنت فيها ، وانسلخ منها ، فإنه كان يفتخر بخلقته ، فغيّر اللّه خلقته ، فاسودّ بعد ما كان أبيض ، وقبح بعد ما كان حسنا ، وأظلم بعد ما كان نورانيا. فَإِنَّكَ رَجِيمٌ أي : مرجوم ، مطرود ، من كل خير وكرامة. أو : شيطان يرجم بالشهب.
وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إبعادى من الرّحمة. وتقييدها هنا ، وإطلاقها فى قوله : وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ «١» لأن لعنة اللاعنين من الثقلين والملائكة أيضا من جهته تعالى ، وأنهم يدعون عليه بلعنة اللّه وإبعاده من الرّحمة ، إِلى يَوْمِ الدِّينِ إلى يوم الجزاء والعقوبة ، ولا يظن أن لعنته غايتها يوم الدين ، ثم تنقطع ، بل فى الدنيا اللعنة وحدها ، ويوم القيامة يقترن بها العذاب ، فيلقى يومئذ من ألوان العذاب ، وأفانين العقاب ، ما ينسى به اللعنة ، وتصير عنده كالزائد. أو : لمّا كان عليه اللعنة فى أوان الرّحمة ، فأولى أن يكون عليه اللعنة فى غير أوانها ، وكيف ينقطع ، وقد قال تعالى : فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ «٢» وهو إمامهم؟.
قالَ إبليس : رَبِّ فَأَنْظِرْنِي أمهلنى وأخّرنى ، أي : إذا جعلتنى رجيما فأمهلنى ولا تمتنى ، إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ أي : آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم. وأراد بذلك فسحته لإغوائهم ، وليأخذ منهم ثأره ، وينجو من الموت بالكلية إذ لا موت بعد البعث ، قالَ تعالى : فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ، وهو وقت النّفخة الأولى ، ومعنى «معلوم» أنه معلوم عند اللّه ، لا يتقدم ولا يتأخر. وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرّض لشمول ما سأله لآخرين ، على وجه يشعر بكون السائل تبعا لهم فى ذلك ، دليل واضح على أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم أزلا ، لا إنشاء لإنظار خاص به ، قد وقع إجابة لدعائه ، أي : إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا ، حسبما تقتضيه حكمة التكوين.
قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، أقسم بعزة اللّه ، وهو سلطانه وقهره على إغواء بنى آدم ، بتزيين المعاصي والكفر ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ، وهم الذين أخلصهم اللّه للإيمان به وطاعته ، وعصمهم من الغواية ، أو : الذين أخلصوا قلوبهم وأعمالهم للّه فى قراءة الكسر «٣».

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة الحجر.
(٢) من الآية ٤٤ من سورة الأعراف. [.....]
(٣) قرأ بكسر اللام فى «المخلصين» ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. اسم فاعل. وقرأ الباقون بفتحها ، اسم مفعول. انظر السبعة ، ٣٤٨ والإتحاف (٢/ ٣٢٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٥

قالَ تعالى : فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ أي : أقسم بالحق ولا أقول إلا الحق ، أو : الحق قسمى «١» وأقول الحق : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ من جنسك ، وهم الشياطين ، وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ من ذرية آدم أَجْمَعِينَ أي : لأعمرنّ جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين ، لا أترك منهم أحدا.

الإشارة : التجلي بهذا الهيكل الآدمي فاق جميع التجليات ، وصورته البديعة فاقت جميع الصور ، ولذلك لم يقل الحق تعالى فى شىء أنه خلقه فى أحسن تقويم إلا الآدمي ، وذلك لأنه اجتمع فيه الضدان ، واعتدل فيه الأمران الظلمة والنّور ، الحس والمعنى ، الروحانية والبشرية ، القدرة والحكمة. ولذلك قال تعالى فيه : لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، ولم يقله فى غيره ، أي : خلقته بيد القدرة ويد الحكمة. فالقدرة كناية عما فى باطنه من أسرار المعاني الإلهية ، والحكمة عبارة عما فى قالبه من عجائب التصوير ، وغرائب التركيب ، ولذلك كانت معرفته أتم ، وترقيه لا ينقطع ، إن كان من أهله ، وراجع ما تقدم فى قوله تعالى وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ «٢».

وقال القشيري بعد كلام : فسبحان اللّه! خلق أعزّ خلقه من أذلّ شىء وأخسّه. ثم قال : ما أودع عند آدم لم يوجد عند غيره ، فيه ظهرت الخصوصية. هـ.

ثم نزّه نبيه عن الطمع فى الأجر على التبليغ والتكلف ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٨٦ الى ٨٨]

قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ على تبليغ ، الوحى أو على القرآن مِنْ أَجْرٍ دنيوى ، حتى يثقل عليكم ، وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ أي : المتصنعين بما ليسوا من أهله ، وما عرفتمونى قط متصنعّا حتى أنتحل النّبوة ، أو أتقول القرآن ، وعنه صلّى اللّه عليه وسلم : «للمتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ، ويتعاطى ما لا ينال ، ويقول ما لا يعلم» «٣».

---

(١) هذا المعنى على قراءة «فالحق» بالرفع ، وهى قراءة عاصم وحمزة. والمعنى الأول على قراءة «فالحق» بالنصب ، على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم ، فانتصب. و«لأملأن» جواب القسم ، وهى قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبى عمرو ، وابن عامر ، والكسائي.
انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٥).

(٢) الآية ٧٠ من سورة الإسراء. (٣/ ٢١٦ - ٢١٨).

(٣) عزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف (رقم ٣١٤) للثعلبى ، عن سلمة بن نفيل ، مرفوعا.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٦

إِنْ هُوَ : ما هو إِلَّا ذِكْرٌ : وعظ من اللّه عز وجل لِلْعالَمِينَ الثقلين كافة ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ نبأ القرآن ، وصحة خبره ، وما فيه من الوعد والوعيد ، وذكر البعث والنّشور ، بَعْدَ حِينٍ بعد الموت ، أو : يوم بدر ، أو : القيامة ، أو : بعد ظهور الإسلام وفشوه. وفيه من التهديد ما لا يخفى. ختم السورة بالذكر كما أفتتحها بالذكر.

الإشارة : تقدم مرارا التحذير من طلب الأجر على التعليم ، أو الوعظ والتذكير ، اقتداء بالرسل عليهم السّلام.

وفى الآية أيضا : النهى عن التكلف والتصنع ، وهو نوع من النّفاق ، وضرب من الرّياء. وعن الزبير بن العوام رضي اللّه عنه نادى منادى النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «اللهم اغفر للذين لا يدعون ، ولا يتكلفون ، ألا إنى برىء من التكلف ، وصالحو أمتى» «١».

وقال سلمان «٢» : «أمرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ألّا نتكلف للضيف ما ليس عندنا!» «٣».

وكان الصحابة رضي اللّه عنهم يقدّمون ما حضر من الكسر اليابسة ، والحشف البالي - أي : الرديء من التمر - ويقولون : لا ندرى أيهما أعظم وزرا ، الذي يحتقر ما قدم إليه ، أو : الذي يحتقر ما عنده فلا يقدمه. هـ. وباللّه التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه.

---

(١) ذكره السيوطي فى الدر (٥/ ٦٠٠) بلفظ : «إنى لا ألى من التكلف وصالحو أمتى» وعزاه للديلمى وابن عساكر ، عن الزبير رضي اللّه عنه.

(٢) فى الأصول (أبو سليمان).

(٣) أخرجه البيهقي فى الشعب (الباب السابع والستون ، ح ٩٦٠١) من حديث سلمان الفارسي - رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٧

سورة الزمر

مكية ، إلا قوله : قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ .. إلى قوله : وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ «١» فإنها نزلت فى وحشيّ ، قاتل حمزة «٢». وهى خمس وسبعون آية فى مصحف البصرة ، واثنان وسبعون فى

مصحف الكوفة. ومناسبتها لما قبلها قوله : إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ «٣» ، فإنه عين التنزيل الذي صدّر به ، حيث قال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (٢)

قلت : تَنْزِيلُ : خبر ، أي : هذا تنزيل ، و«من اللّه» : صلة لتنزيل ، أو : خبر ثان ، أو : حال من التنزيل ، عاملها :

معنى الإشارة.

يقول الحق جل جلاله : هذا الذي تتلوه هو تَنْزِيلُ الْكِتابِ ، نزل مِنَ عند اللَّهِ الْعَزِيزِ فى سلطانه الْحَكِيمِ فى تدبيره. وإيثار الوصفين للإيذان بجريان أثريهما فى الكتاب ، بجريان أحكامه ونفوذ أوامره ونواهيه.

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ : ليس بتكرر لأن الأول كالعنوان للكتاب ، والثاني لبيان ما فى الكتاب.

قال أبو السعود : والمراد بالكتاب : القرآن ، وإظهاره على تقدير كونه هو المراد بالأول لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه. والباء إما متعلقة بالإنزال ، أي : بسبب الحق وإظهاره ، أو : بداعيته واقتضائه ، وإما بمحذوف هو حال من نون العظمة ، أو : من الكتاب ، أي : أنزلناه إليه محققين فى ذلك ، أو : ملتبسا بالحق والصواب ، أي : ما فيه حق لا ريب فيه موجب العمل به حتما. قال القشيري : بالحق ، أي : بالدين الحق والشرع الحق ، وأنا محق فى إنزاله.

---

(١) الآيات : ٥٣ - ٥٥.

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٦٠٢) لابن النّحاس فى تاريخه ، عن ابن عباس - رضي اللّه عنهما.

(٣) الآية : ٨٧ من سورة (ص).

فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أي : فاعبده تعالى مخلصا دينه من شوائب الشرك والرّياء ، حسبما بيّن فى تضاعيف ما أنزل إليه.

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٣ الى ٤]

أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ

بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٤)

أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ أي : هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة لأنه المنفرد بصفات الألوهية ، التي من جملتها : الاطلاع على السرائر والضمائر.

الإشارة : قال القشيري : كتاب عزيز ، نزل من ربّ عزيز ، على عبد عزيز ، بلسان ملك عزيز ، فى شأن أمة عزيزة ، بأمر عزيز. وأنشدوا :

ورد الرّسول من الحبيب الأول بعد البلاء ، وبعد طول الأمل «١»

تنزيل تنزهت قلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها ، فى كتاب الأحباب ، عند قراءة فصولها.

والعجب منها كيف لا تزهو سرورا بوصولها ، وارتياحا بحصولها ، وكتاب موسى فى الألواح ، ومنها كان يقرأ موسى ، وكتاب نبينا صلّى اللّه عليه وسلم نزل به الرّوح ، الأمين ، على قلبك ، وفصل بين من يكون خطاب ربه مكتوبا فى ألواحه ، وبين من يكون خطاب ربه محفوظا فى قلبه ، وكذلك أمته ، بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ «٢» هـ.

وقوله تعالى : فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ، قال القشيري : العبادة : معانقة الطاعات على نعت الخضوع ، وتكون بالنفس وبالقلب وبالروح ، فالتى بالنفس - أي : بالجوارح - الإخلاص فيها : التباعد عن الانتقاص ، والتي بالقلب ، أي : كالفكرة والنّظرة ، الإخلاص فيها : التباعد عن رؤية الأشخاص - أي : الحس من حيث هو - والتي بالروح ، الإخلاص فيها : التنقّى عن رؤية طلب الاختصاص «٣».

قوله تعالى : أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ هو ما يكون جملته للّه ، وما للعبد فيه نصيب فهو عن الإخلاص بعيد ، اللهم إلا أن يكون بأمره ، فإنه إذا أمر العبد أن يحتسب الأجر على طاعته ، فأطاعه ، لا يخرج عن الإخلاص بامتثاله ما أمره به ، ولو لا هذا ما صحّ أن يكون فى العالم مخلص ، يعنى : أن جل النّاس إنما يطيعون لاحتساب الأجر ، إلا الفرد النّادر ، فمن زال عنه الحجاب فإنه يعبد اللّه باللّه ، شكرا ، وإظهارا للأدب ، فإن قصد الاحتساب ، ثم طرأ عليه خواطر بعد تحقق الإخلاص ، فلا يضر ، يدل عليه قوله صلّى اللّه عليه وسلم : «من قاتل لتكون كلمة اللّه هى العليا فهو فى سبيل اللّه» «٤» وهذا فى أصل القصد ، والعوارض غير مضرة ، كما هو صريح حديث آخر. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) البيت غير موجود فى لطائف الإشارات المطبوع.

(٢) الآية ٤٩ من سورة العنكبوت.

(٣) بتصرف.

(٤) بعض حديث ، أخرجه البخاري فى (الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة اللّه هى العليا ، ح ٨١٠) ومسلم فى (الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة اللّه هى العليا ، ٣/ ١٥١٢ ، ح ١٩٠٤) من حديث

أبى موسى الأشعري رضي اللّه عنه. وأول الحديث : (أن أعرابيا أتى النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال : يا رسول اللّه! الرجل يقاتل للمغنم ، والرّجل يقاتل ليذكر ، والرّجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل اللّه؟ ...)

الحديث. [.....]

(٤٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٩

ثم رد على المشركين ، فقال :

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا ...

قلت : «والذين» : مبتدأ ، وما نَعْبُدُهُمْ : محكى بقول محذوف ، حال من واو «اتخذوا» وجملة «إن اللّه» : خبر ، والاستثناء مفرغ من أعم العلل ، و«زلفى» : مصدر.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ أي : لم يخلصوا فى عبادتهم ، بل شاوبوها بعبادة غيره ، كالأصنام ، والملائكة ، وعيسى ، قائلين : ما نَعْبُدُهُمْ لشيء من الأشياء إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى أي : تقريبا ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وبين خصمائهم ، الذين هم المخلصون للدين ، وقد حذف لدلالة الحال عليه ، كقوله : لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ «١» على أحد الوجهين ، أي : بين أحد منهم وبين غيره. قيل :

كان المسلمون إذا قالوا للمشركين : من خلق السماوات والأرض؟ قالوا : اللّه ، فإذا قالوا لهم : فمالكم تعبدون الأصنام؟

قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفى «٢».

إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ يوم القيامة بين المتنازعين من المسلمين والمشركين فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من التوحيد والإشراك ، وادعاء كل واحد صحّة ما انتحله. وحكمه تعالى هو إدخال الموحدين الجنة والمشركين النّار.

وقيل : الموصول واقع على الأصنام ، والعائد محذوف ، أي : والذين اتخذوهم من دونه أولياء ، قائلين : ما نعبدهم ...

إلخ ، إن اللّه يحكم بينهم ، أي : بين العبدة والمعبودين فيما هم فيه يختلفون ، حيث يرجون منها شفاعتها وهى تلعنهم ، وهذا بعيد.

إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي : لا يوفّق للاهتداء مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ أي : راسخ فى الكذب ، مبالغ فى الكفر ، كما يعرب عنه قراءة من قرأ : «كذاب» أو : «كذوب» «٣» ، أي : لا يهديهما اليوم لدينه لسابق الشقاء ،

ولا فى الآخرة

---

(١) من الآية ٢٨٥ من سورة البقرة.

(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ١٠٨) عن قتادة.

(٣) قرأ أنس بن مالك ، والحسن ، والأعرج ، وابن يعمر : «كذّاب» ، وقرأ زيد بن علىّ : «كذّوب» ... انظر البحر المحيط (٧/ ٣٩٩).

لثوابه لأنهما اليوم فاقدان للبصيرة ، غير قابلين للاهتداء لتغييرهما الفطرة الأصلية بالتمرّن فى الضلالة والتمادي فى الغي.

لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً كما يزعم من يقول : الملائكة بنات اللّه ، والمسيح وعزيز ابن اللّه ، تعالى اللّه عن قولهم علوا كبيرا ، لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ أي : لاختار من خلقه ما يشاء ، ممن له مناسبة صمدانية ، كالملائكة ، فإنهم منزهون عن نقائص البشرية ، كالأكل والشرب والنّكاح ، لكن لم يرد ذلك لاستحالته فى حقه تعالى.

قال القشيري : خاطبهم على قدر عقولهم وعقائدهم ، فقال : لو أراد اللّه أن يتخذ ولدا بالتبنّي والكرامة لاختار من الملائكة ، الذين هم مبرءون من الأكل والشرب وأوصاف الخلق ، ثم أخبر عن تقدّسه عن ذلك ، فقال :

سُبْحانَهُ أي : تنزيها له عن اتخاذ الولد على الحقيقة لاستحالة معناه فى نعته ، ولا بالتبني ، لتقدّسه عن الجنسية ، والمحالات تدل على وجه الإبعاد. هـ.

والحاصل : أن الولد فى حقه تعالى إن كان عن طريق التولد فهو محال ، عقلا ونقلا ، وإن كان عن طريق التبني والكرامة فمحال سمعا ، وقيل : وعقلا. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرّحمن الفاسى رضي اللّه عنه : قوله ، أي :

القشيري : لتقدسه عن الجنسية ، يعنى لوحدته وقهره ، كما رمز إلى ذلك بذكر الاسمين ، أي : الواحد القهار ، وهما عاملان فى كل مخلوق ، ومحال تعطيلهما بالتبني المقتضى للجنسية ، المباينة للوحدانية والقهر ، فلا يمكن إلا العبودية ، عقلا ، ونقلا ، وحقيقة ، وهذا أشد من كلام ابن عطية ، فإنه جوّز اتخاذه على جهة التشريف والتبني عقلا ، وإن امتنع شرعا ، لعموم آية : وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً «١» لاتخاذ النّسل المستحيل عقلا ونقلا ، ولاتخاذ الاصطفاء الممتنع شرعا. وهو أيضا أشدّ من

كلام الزمخشري ، حيث قال : معنى الآية : لو أراد اللّه اتخاذ الولد لا متنع ذلك ، ولكنه يصطفى من يشاء من عباده ، على وجه الاختصاص والتقريب ، لا على وجه اتخاذه ولدا. هـ. فأجعل فى الامتناع ، وإن كان المتبادر منه شمول القسمين ، وكذا قرر جواب «لو» ، أي : لامتنع ، وجعل قوله : لَاصْطَفى الذي هو ظاهر فى كونه جوابا غير جواب «بل» على معنى الاستئناف ، وهو خلاف المطروق والمفهوم من جرى الكلام. واللّه أعلم.

وما ذكره الزمخشري أيضا من الامتناع مع الإرادة هو فرض لتعلق الإرادة بالممتنع ، وهى إنما تتعلق بالجائز ، ويحتمل بناؤه على مذهبه الفاسد فى إرادة بعض ما لم يقع ، وهو شنيع مذهبه ، بل ويلزمه عود القهر

---

(١) الآية ٩٢ من سورة مريم.

عليه - تعالى عن ذلك ، وهو اللّه الواحد القهار ، فكيف يريد ويمتنع ما يريده؟! وهل ذلك إلا عين القهر؟ تعالى عن ذلك علوا كبيرا. هـ.

قال تعالى : سُبْحانَهُ أي : تنزّه بالذات عن اتخاذ الولد ، تنزهه الخاص به ، على أن" سبحان" مصدر ، من : سبّح : إذا بعّد. هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ : استئناف مبيّن لتنزهه بحسب الصفات ، إثر بيان تنزهه عنه بحسب الذات ، فإن صفة الألوهية المستتبعة لسائر صفات الكمال ، النافية لسمات النّقصان ، والوحدة الذاتية ، الموجبة لامتناع المماثلة والمشاركة بينه تعالى وبين غيره على الإطلاق ، مما يقتضى تنزهه تعالى عما قالوه ، قضاء متيقنا ، وكذا وصف [القهارية] «١» لأن اتخاذ الولد شأن من يكون تحت ملكوت الغير ، عرضة للفناء ، ليقوم الولد مقامه عند فنائه ، ومن هو مستحيل الفناء ، قهار لكل الكائنات ، كيف يتصور أن يتخذ من الأسماء الفانية من يقوم مقامه؟ قاله أبو السعود.

الإشارة : الحق سبحانه غيور ، لا يرضى لغيره أن يعبد معه غيره ، كان على وجه الواسطة والتقريب ، أو :

على وجه الاستقلال. لذلك حرم السجود لغير اللّه ، وأما الخضوع للأولياء ، العارفين باللّه ، على غير وجه العبادة ، فهو عين الخضوع للّه لأن اللّه تعالى أمر بالخضوع للرسل ، الدالين على اللّه ، وهم ورثتهم فى الدلالة ، لكن لا يكون ذلك على هيئة السجود ، وإنما يكون على وجه تقبيل القدم أو الأرض بين أيديهم ، كما قال الشاعر :

يا من يلوم خمرة المحبه فخذوا عنى هى حلال

ومن يرد يسقى منها عبه خدّ يضع لأقدام الرّجال

رأسى حططت بكلّ شيبه هم الموالي سقونى زلال

وجعل القشيري مناط الرّد على الكفرة حيث فعلوا ذلك ، وقالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه ، بغير إذن اللّه ، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم. فردّ اللّه عليهم. قال : وفى هذا إشارة إلى ما يفعله العبد من القرب ، بنشاط نفسه ، من غير أن يقتضيه حكم الوقت ، وما يعقد بينه وبين اللّه تعالى من عقود لا يفى بها ، وكان ذلك اتباع هوى.

قال اللّه تعالى : فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها «٢». قلت : ولأجل هذا وجب على من أراد الوصول إلى اللّه أن يتخذ شيخا عارفا بأحكام الوقت ، ذا بصيرة بدسائس النّفس ، فيأمره فى كل وقت ، وفى كل زمان ، بما يناسبه ليخرجه من هوى نفسه ، وأسر طبعه ، وإلا بقي فى العنت والبعد عن اللّه ، يعبد اللّه على حرف ، كلما زاد عبادة وقربا - في

---

(١) فى الأصول : القاهرية.

(٢) من الآية ٢٧ من سور الحديد

زعمه - زاد بعدا من ربه ، وهو لا يشعر ، فالنفس إن لم تتصل بمن يرفع عنها الحجاب ، كانت كدود القزّ ، تنسج الحجاب على نفسها بنفسها ، حتى تموت فى وسطه. وفى ذلك يقول الششترى فى نونيته رضي اللّه عنه :

ونحن كدود القزّ يحصرنا الذي صنعنا لدفع الحصر سجنا لنا منّا «١»

وباللّه التوفيق.

ثم ذكر دلائل توحيده تعالى ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٥ الى ٦]

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)

يقول الحق جل جلاله : خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أي : وما بينهما من الموجودات ، ملتبسة بِالْحَقِّ مشتملة على الحكم والمصالح الدينية والدنيوية يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ ، وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ ، التكوير : اللّف واللّى ، يقال : كار العمامة على رأسه وكوّرها. والمعنى : أن كل واحد منهما يغيّب الآخر إذا طرأ عليه ، ويلفه لف اللباس باللابس ، أو : يغيّبه كما يغيب الملفوف باللفافة ، أو : يجعله كارا عليه كرورا متتابعا ، تتابع أكوار العمامة ، وهذا بيان لكيفية تصرفه تعالى فى السموات والأرض بعد بيان خلقهما ، وعبّر بالمضارع للدلالة على التجرد.

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ : جعلهما منقادين لأمره. كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، وهو يوم القيامة ، أو : كل منهما يجرى لمنتهى دورته ، أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الغالب القادر على كل شىء ، ومن جملتها : عقاب العصاة ، الْغَفَّارُ : المبالغ فى المغفرة ، ولذلك لا يعاجل بالعقوبة ، ولا يمنع ما فى هذه الصنائع البديعة من آثار رحمته.

وتصدير الجملة بحرف التنبيه ، لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها.

---

(١) انظر ديوان الششترى (ص ٧٤)

(٥٢/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٣

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ، لمّا ذكر ما يتعلق بالعالم العلوي ، ذكر ما يتعلق بالعالم السفلى ، وترك العاطف للإيذان باستقلاله فى الدلالة على الوحدانية ، وبدأ بالإنسان لأنه المقصود الأهم من هذا العالم ، ولعراقته فى الدلالة على توحيد الحق وباهر قدرته لما فيه من تعاجيب آثار القدرة ، وأسرار الحكمة ، وأصالته فى المعرفة فإن الإنسان بحال نفسه أعرف ، والمراد بالنفس : نفس آدم - عليه السّلام.

ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها : عطف على محذوف ، صفة لنفس ، أي : من نفس خلقها ثم جعل منها زوجها ، أو :

على معنى : واحدة ، أي : نفس وجدت ثم جعل منها زوجها حواء ، وعطفت بثم دلالة على مباينتها له فضلا ومزية ، فهو من التراخي فى الحال والمنزلة ، مع التراخي فى الزمان. وقيل : أخرج ذرية آدم من ظهره كالذّر ، ثم أخرج منه حوّاء ، ففيه ثلاث آيات خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من قصيراه «١» ، ثم تشعيب الخلق الفائت للحصر منهما.

وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ أي : قضى وجعل ، أو : خلقها فى الجنة مع آدم عليه السّلام ، ثم أنزلها ، أو : أحدث لكم بأسباب نازلة من السماء ، كالأمطار ، وأشعة الكواكب ، كما تقول الفلاسفة. ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ

ذكرا وأنثى ، وهى :
الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز. فالزوج اسم لواحد معه آخر ، فإذا انفرد فهو فرد ، ووتر.
يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ : استئناف لبيان كيفية خلقهم ، وأطواهم المختلفة ، الدالة على القدرة القاهرة. وصيغة المضارع للدلالة على التجرد. خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ : مصدر مؤكد ، أي : يخلقكم فيها خلقا كائنا من بعد خلق ، أي : خلقا مدرّجا ، حيوانا سويا ، من بعد عظام مكسوة لحما ، من بعد عظام عارية ، من بعد مضغة مخلّقة ، من بعد مضغة غير مخلّقة ، من بعد علقة ، من بعد نطفة ، فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، أو : ظلمة الصلب ، والبطن ، والرّحم.
ذلِكُمُ : إشارة إلى الحق تعالى ، باعتبار أفعاله المذكورة ، وهو مبتدأ ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته فى العظمة والكبرياء ، أي : ذلكم العظيم الشأن ، الذي عددت أفعاله هو اللَّهُ رَبُّكُمْ أي : مربيكم بنعمة الإيجاد على الأطوار المتقدمة ، وبنعمة الإمداد بعد نفخ الرّوح فيه. لَهُ الْمُلْكُ : التصرف التام على الإطلاق فى الدارين. لا إِلهَ إِلَّا هُوَ : لا متصرف غيره. فَأَنَّى تُصْرَفُونَ : فكيف تصرفون عن عادته تعالى ، مع وفور دواعيها ، وانتفاء الصارف عنها بالكلية ، إلى عبادة غيره ، من غير داع إليها ، مع كثرة الصوارف عنها؟ واللّه تعالى أعلم.

---

(١) «قصيراه» : مثنى القصيرى ، والقصيران : ضلعان تليان الترقوتين والقصيرى : أسفل الأضلاع. وقيل : هى آخر الجنب. انظر اللسان (٥/ ٣٦٤٩ مادة قصر).

الإشارة : خلق سماوات الأرواح ، وأرض النّفوس ، بالحق ، أي : لسبب معرفته ، وعبادته ، فالمعرفة للأرواح ، والعبادة للنفوس ، يكوّر نهار البسط على ليل القبض ، وبالعكس ، وسخّر شمس العيان ، وقمر البرهان ، كل يجرى إلى أجل مسمى ، إلا أن قمر البرهان ينتهى بطلوع شمس العيان ، وشمس العيان لا انتهاء لها. أَلا هُوَ الْعَزِيزُ فيمنع بعزته من الوصول إليه من أراد احتجابه ، الْغَفَّارُ فيغطى بفضله مساوئ من أراد وصلته. خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ من روح واحدة ، هى الرّوح الأعظم ، ثم تفرعت منها الأشياء كلها. وأنزل لكم من الأنعام ما تتصرفون فيه ، وتتقربون به إلى ربكم ، ثم ذكّرهم بنعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، بقوله : يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ ... إلخ ، فنعمة الإيجاد ظاهرة ، ونعمة الإمداد : ما يتغذى به الجنين فى بطن أمه من دم الحيض.
ثم أمرهم بالشكر عليها ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٧]
إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٧)
يقول الحق جل جلاله : إِنْ تَكْفُرُوا به تعالى ، بعد مشاهدة هذه النّعم الجسمية ، وشئونه العظيمة ، الموجبة للإيمان والشكر ، فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ أي : فاعلموا أنه تعالى غنيّ عن إيمانكم وشكركم ، وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ لأن الكفر ليس برضا اللّه ، وإن كان بإرادته ، وعدم رضاه تعالى بالكفر لأجل منفعتهم ، ودفع مضرتهم ، رحمة بهم ، لا لتضرره تعالى به. وَإِنْ تَشْكُرُوا وتؤمنوا يَرْضَهُ لَكُمْ أي : يرضي الشكر لأجلكم ومنفعتكم لأنه سبب الفوز بسعادة الدارين.
وإنما قال : لِعِبادِهِ ولم يقل «لكم» ، لتعميم الحكم ، وتعليله بكونهم عباده تعالى ، والحاصل : أن وقوع الطاعة والإيمان هو بقدرته تعالى ، وإرادته ورضاه ، وأما الكفر والمعاصي فهو بقضائه وإرادته ، ولم يرضها من عبده شرعا ، وإن رضيها تكوينا لتقوم الحجة على العبد ، ويظهر صورة العدل ، ولا يظلم ربك أحدا ، وإن كان الكل منه وإليه.
وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى : بيان لعدم سريان كفر الكافر إلى غيره ، أي : ولا تحمل نفس حاملة لوزرها حمل نفس أخرى ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ بالبعث بعد الموت ، فَيُنَبِّئُكُمْ يخبركم بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

في الدنيا من الإيمان والكفر ، فيجازيكم بها ثوابا وعقابا. إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ : أي : بمضمرات القلوب ، فكيف بالأعمال الظاهرة ، وهو تعليل ل «ينبئكم».
الإشارة : قد تقدم الكلام على الشكر في سورة سبأ «١» قال القشيري : قوله تعالى : وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ إن أطعتنى شكرتك ، وإن ذكرتنى ذكرتك ، وإن خطوت لأجلى خطوة ملأت السموات والأرض من شكرك ، وأنشدوا.
لو علمنا أن الزيارة حق لفرشنا الخدود أرضا لترضى
ثم بيّن حال من يشكر ، فقال :
[سورة الزمر (٣٩) : آية ٨]
وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (٨)
يقول الحق جل جلاله : وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ أي : جنس الإنسان ضُرٌّ من مرض وغيره دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إليه

راجعا إليه مما كان يدعوه فى حالة الرّخاء لعلمه بأنه بمعزل عن القدرة على كشف ضره ، وهذا وصف للجنس ببعض أفراده ، كقوله تعالى : إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ «٢» وقيل : المراد أبو جهل ، أو : كل كافر.

ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ أي : أعطاه نعمة عظيمة من جنابه ، من التخول ، وهو التعهد ، يقال : فلان خائل مال ، إذا كان متعهّدا إليه حسن القيام به. وفى الصحاح : خوّله اللّه الشيء : ملّكه إياه. وفى القاموس : وخوّله اللّه المال :

أعطاه إياه.

قال ابن عطية : خوّله ، أي : ملّكه ، وحكمه فيها ابتداء من اللّه ، لا مجازاة ، ولا يقال فى الجزاء : خوّل. هـ. أو :

من الخول ، وهو الافتخار ، أي : جعله يخول ، أي : يختال ويفتخر بنعمه. نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ أي :

نسى الضر الذي كان يدعو اللّه تعالى كشفه من قبل التخويل ، أو : نسى ربه الذي كان يدعو ويتضرع إليه ، على أن

---

(١) راجع إشارة الآية ١٣ من سورة سبأ

(٢) من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم.

ما بمعنى مِنْ ، كقوله تعالى : وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى «١» ، أو : إيذانا بأن نسيانه بلغ به إلى حيث لا يعرف ما يدعوه ، وهو كقوله تعالى : عَمَّا أَرْضَعَتْ

«٢».

وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً : شركاء فى العبادة لِيُضِلَّ «٣» بذلك عَنْ سَبِيلِهِ الذي هو التوحيد. أي :

ليضل غيره ، أو : ليزداد ضلالا ، أو : يثبت عليه ، على القراءتين ، وإلا فأصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور. واللام للعاقبة ، كما فى قوله : فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً «٤» غير أن هذا أقرب للحقيقة لأن الجاعل هنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الإضلال والضلال ، وإن لم يعرف لجهله أنهما إضلال وضلال ، وأما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العداوة أصلا. قاله أبو السعود.

قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا أي : تمتعا قليلا ، أو : زمانا قليلا فى الدنيا ، وهو تهديد لذلك الضال المضل ، وبيان لحاله ومآله. إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ

أي : من ملازميها ، والمعذّبين فيها على الدوام ، وهو تعليل لقلة التمتع.

وفيه من الإقناط من النّجاة ما لا يخفى ، كأنه قيل : إذا أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة ، فمن حقك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته.

الإشارة : الصفة الممدوحة فى الإنسان : أن يكون إذا مسّه الضر التجأ إلى سيده ، مع الرّضا والتسليم ، فإذا كشف عنه شكر اللّه وحمده ، ودام على شكره ، ونسب التأثير إلى الأسباب والعلل ، وهو صريح الآية. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر حال من شكر ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٩]

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (٩)

يقول الحق جل جلاله : أَمَّنْ «٥» هُوَ قانِتٌ أي : مطيع ، قائم بواجب الطاعات ، دائم على أداء وظائف العبادات ، آناءَ اللَّيْلِ أي : فى ساعات الليل ، حالتى السراء والضراء ، كمن ليس كذلك ، بل إنما يفزع إلى اللّه

---

(١) الآية ٣ من سورة الليل.

(٢) من الآية ٢ من سورة الحج.

(٣) قرأ الجمهور : «ليضل» بضم الياء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : بفتحها. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٧) والبحر المحيط (٧/ ٤٠١).

(٤) الآية ٨ من سورة القصص. [.....]

(٥) قرأ نافع ، وابن كثير ، وحمزة : بتخفيف الميم ، على أنها موصولة ، دخلت عليها همزة الاستفهام التقريرى ، ومقابله محذوف لفهم المعنى ، والتقدير : أمن هو قانت. إلخ كمن جعل للّه أندادا. وقرأ الباقون بالتشديد. والتوجيه ذكره الشيخ المفسر - رحمه اللّه. انظر :

إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٤٢٨).

فى الضراء فقط ، فإذا كشف عنه نسى ما كان يدعو إليه من قبل ، وحذفه لدلالة ما قبله عليه. ومن قرأ بالتشديد ، ف «أم» إما متصلة ، حذف مقابلها ، أي : أنت خير حالا ومآلا أم من هو قائم بوظائف العبادات ، أو : منقطعة ، والإضراب للانتقال من التهديد إلى التبكيت بالجواب الملجئ إلى الاعتراف بما بينهما ، كأنه قيل : أم من هو قانت أفضل ، أم من هو كافر مثلك؟.

حال كون القانت ساجِداً وَقائِماً أي : جامعا بين الوصفين المحمودين. وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل فى معنى العبادة. يَحْذَرُ الْآخِرَةَ أي : عذاب الآخرة ، حال أخرى ، أو : استئناف ، جواب عما نشأ من حكاية حاله من القنوت والسجود ، كأنه قيل : فما باله يفعل ذلك؟ فيقل : يحذر الآخرة ، وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ أي :

الجنة ، فينجو بذلك مما يحذره ، ويفوز بما يرجوه ، كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الرّبوبية ، المنبئة عن التبليغ إلى الكمال ، مع الإضافة إلى ضمير الرّاجى.

ودلت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرّجاء ، يرجو رحمته ، لا عمله ، ويحذر عقابه لتقصيره فى عمله ، ثم الرّجاء إذا جاوز حدّه يكون أمنا. والخوف إذا جاوز حدّه يكون إياسا ، وقد قال تعالى : فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ «١» ، ولا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ «٢» ، فيجب ألا يجاوز أحدهما حدّه بل يكون كالطائر بين جناحيه ، إلا فى حالة المرض ، فيغلب الرّجاء ، ليحسن ظنه باللّه. ومذهب محققى الصوفية : تغليب الرّجاء مطلقا ، لهم ولعباد اللّه لغلبة حسن ظنهم بربهم.

والآية ، قيل : نزلت فى عثمان رضي اللّه عنه كان يحيى الليل ، وقيل : فى عمار وأبى حذيفة «٣» ، وهى عامة لمن سواهم.

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ حقائق الأحوال ، فيعلمون بموجب علمهم ، كالقانت المذكور ، وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ شيئا فيعلمون بمقتضى جهلهم ، كدأب الكافر المتقدم. والاستفهام للتنبيه على أن يكون الأولين فى أعلى معارج الخير ، وكون الآخرين فى أقصى مدارج الشر من الظهور ، بحيث لا يكاد يخفى على أحد.

قال النّسفى : أي : يعلمون ويعملون به ، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم ، وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون - أي : يدخرون - العلوم ، ثم لا يقنتون ، ويتفننون فيها ، ثم يفتنون بالدنيا ، فهم عند اللّه جهلة ، حيث جعل القانتين هم العلماء. أو : يريد به التشبيه ، أي : كما لا يستوى العالم والجاهل ، كذلك لا يستوى المطيع والعاصي. هـ.

---

(١) من الآية ٩٩ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٨٧ من سورة يوسف.

(٣) انظر الدر المنثور (٥/ ٦٠٥) وتفسير البغوي (٧/ ١١) وأسباب النّزول للواحدى (ص ٣٨٢).

(٥/٥٧)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٨

الإشارة : القنوت هو القيام بآداب الخدمة ، ظاهرا وباطنا ، من غير فتور ولا تقصير ، قاله القشيري. وهو على قسمين ، قنوت العارفين ، وهى عبادة القلوب ، كالفكرة والنّظرة ، ساعة منها أفضل من عبادة سبعين سنة ، وثمرتها :

التمكن من شهود الذات الأقدس ، عاجلا وآجلا ، وقنوت الصالحين ، وهى عبادة الجوارح ، كالركوع والسجود والتلاوة ، وغيرها من أعمال الجوارح ، وثمرتها نعيم الجنان بالحور والولدان ، مع الرّضا والرّضوان ، ورؤية وجه الرحمن.

روى عن قبيصة بن سفيان ، قال : رأيت سفيان الثوري فى المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل اللّه بك؟ فأنشأ يقول :

نظرت إلى ربّى عيانا فقال لى هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد

لقد كنت قوّاما إذا الليل قد دجا بعبرة محزون وقلب عميد

فدونك فاختر أىّ قصر تريده وزرني فإني منك غير بعيد

وكان شعبة ومسعر رجلين صالحين ، وكانا من ثقة المحدّثين ، فماتا ، قال أبو أحمد اليزيدي : فرأيتهما فى المنام ، وكنت إلى شعبة أميل منى إلى مسعر ، فقلت لشعبة : يا أبا بسطام ما فعل اللّه بك؟ فقال : يا بنى احفظ ما أقول لك :

حبانى إلهى فى الجنان بقبة لها ألف باب من لجين «١» وجوهرا

وقال لى الجبار : يا شعبة الذي تبحّر فى جمع العلوم وأكثرا

تمتع بقربى ، إننى عنك ذو رضا وعن عبدى القوّام فى الليل مسعرا

كفى مسعرا عزا بأن سيزورنى وأكشف عن وجهى ويدنو لينظروا

وهذا فعالى بالذين تنسكوا ولم يألفوا فى سالف الدهر منكرا.

وقوله تعالى : قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ أي : لا يستوى العالم باللّه مع الجاهل به ، العالم يعبده على العيان ، والجاهل به فى مقام الاستدلال والبرهان. العالم باللّه يستدل باللّه على غيره ، والجاهل يستدل بالأشياء على اللّه ، وشتان بين من يستدل به أو يستدل عليه ، المستدل به عرف الحق لأهله ، وأثبت الأمر

(١) اللّحين : الفضة. انظر اللسان (٥/ ٤٠٠٢ ، مادة لجن).

(٥٨/٥)

من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ، كما فى الحكم «١». العالم باللّه من السابقين المقربين ، والجاهل به من عامة أهل اليمين ، ولو تبحّر فى العلوم الرّسمية غاية التبحر. قال الورتجبي : وصف تعالى أحوال أهل الوجود والكشوفات ، المستأنسين به ، وبلذائذ خطابه ومناجاته ، وتحملوا من لطائف خطابه مكنون أسرار غيبه ، من العلوم الغريبة ، والأنباء العجيبة ، لذلك وصفهم بالعلم الإلهى ، الذي استفادوا من قربه ووصاله ، وكشف جماله بقوله : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ كيف يستوى الشاهد والغائب ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟. هـ.

قال القشيري : العلم المخلوق على ضربين : علم مجلوب بكسب العبد ، وموهوب من قبل الرّبّ .. انظر تمامه.

ثم أمر بالتقوى ، التي هى أصل القنوت ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ١٠]

قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (١٠)

قلت : فِي هذِهِ : متعلق بأحسنوا ، أو : بحسنة ، على أنه بيان لمكانها ، أو : حال من ضميرها فى الظرف.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، أمر رسوله صلّى اللّه عليه وسلم بأن يحثّهم على التقوى ويذكّرهم بها ، بعد تخصيص التذكير بأولى الألباب ، إيذانا بأن أولى الألباب هم أهل التقوى ، وفى إضافتهم إلى ضمير الجلالة بقوله : يا عِبادِ تشريف لهم ، ومزيد اعتناء بشأن المأمور به ، وهو التقوى.

ثم حرّض على الامتثال بقوله : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا أي : اتقوا اللّه وأطاعوه فِي هذِهِ الدُّنْيا الفانية ، التي هى مزرعة الآخرة. حَسَنَةٌ أي : حسنة عظيمة ، لا يكتنه كنهها ، وهى الجنة ونعيمها ، أو : للذين أحسنوا بالطاعة والإخلاص حسنة معجلة فى الدنيا ، وهى الصحة والعافية ، والحياة الطيبة ، أو : للذين أحسنوا ، أي : حصلوا مقام الإحسان - الذي عبّر عنه عليه الصلاة والسّلام بقوله : «أن تعبد اللّه كأنك تراه» - حسنة كبيرة ، وهى لذة الشهود ، والأنس بالملك الودود فى الدارين.

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي/ ٢٧ حكمة ٢٩.

(٥٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٦٠

ولما كان هذا المقام لا يتأتى تحصيله إلا فى بعض البلاد الخالية من الشواغل والموانع ، أمر بالهجرة من الأرض التي لا يتأتى فيها التفرغ ، فقال : وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ ، فمن تعسر عليه التفرغ للتقوى ، والإحسان وعمل القلوب ، فى وطنه ، فليهاجر إلى بلد يتمكن فيه ذلك ، كما هى سنّة الأنبياء والأولياء ، فإنه لا عذر له فى التفريط والبطالة أصلا.

ولمّا كان الخروج من الوطن صعبا على النّفوس ، يحتاج إلى صبر كبير رغّب فى الصبر بقوله : إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ على مفارقة الأوطان ، وتحمل مشاق الطاعات ، وتحقيق الإحسان ، أَجْرَهُمْ فى مقابلة ما كابدوه من الصبر ، بِغَيْرِ حِسابٍ بحيث لا يحصى ولا يحصر بل يصب عليهم الأجر صبا ، فلهم مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : (لا يهدى إليه حساب الحسّاب ، ولا يعرف) ، وفي الحديث : «أنه ينصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصيام والحج ، فيوفّون بها أجورهم ، ولا تنصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صبا ، حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض ، مما يذهب به أهل البلاء من الفضل» «١». وكل ما يشق على النّفس ويتعبها فهو بلاء ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : بالتقوى الكاملة يصير العبد من أولى الألباب ، فبقدر ما تعظم التقوى يعظم إشراق النّور فى القلب ، ويتصفى من الرّذائل ، وقد تقدم الكلام عليها مستوفيا عند قوله تعالى : وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ «٢» فمن أحسن فى تقواه أحسن اللّه عاقبته ومثواه ، وحفظه فى دنياه وأخراه.

فمن تعذرت عليه التقوى فى وطنه ، فليهاجر منه إلى غيره ، والهجرة سنّة نبوية ، وليتجرع الصبر على مفارقة الأوطان ، ومهاجرة العشائر والإخوان ، لينخرط فى سلك أهل الإحسان ، قال تعالى :

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ «٣» الآية.

قال القشيري : الصبر : حبس النّفس على ما تكره ، ويقال : تجرّع كاسات التقدير ، من غير استكراه ولا تعبيس ، ويقال : التهدّف «٤» لسهام البلاء. هـ.

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٦٠٦) لابن مردويه ، من حديث أنس ، وأخرجه الطبراني فى الكبير (١٢/ ١٨٤ ح ١٢٨٢٩) من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه مختصرا
(٢) الآية ١٠٠ من سورة النّساء.
(٣) الآية ١٠٠ من سورة التوبة.
(٤) التهدف : الدنو والاستقبال.

ثم أمر بالإخلاص ، الذي هو شرط فى الجميع ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ١١ الى ١٦]

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (١٦)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ حال كونى مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ من كلّ ما ينافيه من الشرك والرّياء ، وما أمر به صلّى اللّه عليه وسلم يؤمر به أمته بل هم المقصودون. ثم قال : وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ أي : وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم فى الدنيا والآخرة لأن إحراز قصب السبق فى الدين بالإخلاص فيه ، فالإسلام الحقيقي هو المنعوت بالإخلاص ، والتقدير : أمرت بالعبادة والإخلاص فيها ، وأمرت بذلك لأن أكون أول المخلصين.

أو : تكون اللام زائدة ، وهو أظهر ، كقوله تعالى : قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ «١» أي : من قومى ، أو : من أهل زمانى ، أو : أكون أول من دعا غيره إلى ما دعا إليه نفسه ، وهو الإسلام ، وحاصله : أمرت بإخلاص الدين ، وأمرت أن أكون من السابقين فى ذلك زمانا ورتبة لأنه داع إلى الإسلام ، والداعي إلى الشيء ينبغى أن يكون متحليا به ، كما هى سنّة الأنبياء والأولياء ، لا الملوك والمتجبرين.

قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بترك الإخلاص ، والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ هو يوم القيامة. وصف بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهي والأهوال.

قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ لا غيره ، لا استقلالا ولا اشتراكا. وليس بتكرار لأن الأول إخبار عن كونه مأمورا بالإخلاص فى الدين ، وبالسبق إليه ، وهذا إخبار بأنه امتثل الأمر ، وفعل ما أمر به. وقدّم المفعول لأنه

جواب لقول الكفرة : اعبد

---

(١) الآية ١٤ من سورة الأنعام

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٦٢

ما نعبد ، لنعبد ما تعبد ، فهو كقوله : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ «١» أي : لا أعبد إلا اللّه مُخْلِصاً لَهُ دِينِي من كل ما يشوبه من العلل ، فأمر صلّى اللّه عليه وسلم أولا ببيان كونه مأمورا بعبادة اللّه وإخلاص الدين له ، ثم بالإخبار بخوفه من العذاب على تقدير العصيان ، ثم بالإخبار بامتثاله لما أمر به على أبلغ وجه إظهارا لتصلبه فى الدين ، وحسما لمادة أطماعهم الفارغة ، وتمهيدا لتهديدهم بقوله : فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ أن تعبدوه مِنْ دُونِهِ تعالى. وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم مالا يخفى ، كأنهم لمّا لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به ، كى يحيق بهم العذاب.

قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الكاملين فى الخسران ، الذي هو عبارة عن : إضاعة ما يهمه ، وإتلاف ما لا بد منه ، هم الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بتعريضها للعطب ، وَأَهْلِيهِمْ بتعريضهم للتفرق عنهم ، فرقا لا جمع بعده إما فى عذاب الأبد ، إن ماتوا على الكفر معهم ، أو : فى الجنة ، إن آمنوا ، فلا يرونهم أبدا. وقيل : خسروا أهلهم لأنهم لم يدخلوا مدخل الذين لهم أهل فى الجنة ، أو : خسروا أهلهم الذين كانوا يتمتعون بهم ، لو آمنوا. أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ الذي لا خسران أظهر منه. وتصدير الجملة بحرف التنبيه ، والإشارة بذلك إلى بعد منزلة المشار إليه فى الشر. وتوسيط ضمير الفصل ، وتعريف الخسران ، ووصفه بالمبين من الدلالة على كمال هو له وفظاعته ، وأنه لا خسران وراءه ، مالا يخفى.

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ أي : لهم ظلل كثيرة متراكمة بعضها فوق بعض ، كائنة من النّار ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ أيضا ظُلَلٌ أي : أطباق كثيرة ، بعضها تحت بعض ، هى ظلل لآخرين. ذلِكَ العذاب الفظيع هو الذي يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ ويحذّرهم إياه ليجتنبوا ما يوقعهم فيه. يا عِبادِ فَاتَّقُونِ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى. وهذه موعظة من اللّه بالغة ، منطوية على غاية اللطف والرّحمة ، جعلنا اللّه من أهلها بمنّه وكرمه.

الإشارة : الإخلاص سر بين اللّه وبين عبده ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، وهو الغيبة عما سوى اللّه ، فلا يرى فى الدارين إلا اللّه ، ولا يعتمد إلا عليه ، ولا يخاف إلا منه ، ولا يرجو إلا إياه. والإسلام هو :

الانقياد بالجوارح فى الظاهر للأحكام التكليفية ، والاستسلام فى الباطن للأحكام القهرية التعريفية ،

فالإسلام صورة ، والاستسلام روحها ، فالإسلام بلا استسلام جسد بلا روح.

وقوله تعالى : فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ هو تهديد لمن عبد نفسه وهواه ، وهو الخسران المبين. ويقال : الخاسر :

من خسر أيام عمره بالبطالة والتقصير ، وخسر آخرته بعدم التأهب والتشمير ، وخسر مولاه بعدم الوصول إلى

---

(١) الآية ٦ من سورة الكافرون.

مشاهدة حضرة العلى الكبير ، وهى حضرة الذات ، فمن خسر هذا الخسران ، فقد أحاطت به نار القطيعة والحجاب من كل مكان. ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ قال القشيري : إن خفت اليوم كفيت خوف ذلك اليوم ، وإلا فبين يديك عقبة كؤود.

ثم ذكر ضد أهل الخسران ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ١٧ الى ١٨]

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (١٨)

قلت : أَنْ يَعْبُدُوها : بدل اشتمال من «الطاغوت» ، والطاغوت : فعلوت ، من الطغيان ، بتقديم اللام على العين ، وأصله : طغيوت ، ثم طيغوت ، ثم طاغوت.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أي : البالغ [أقصى] «١» غاية الطغيان ، وهو الشيطان أَنْ يَعْبُدُوها أي : اجتنبوا عبادة الطاغوت ، الذي هو الشيطان ، أو : كل ما عبد من دون اللّه ، وكلّ من عبد غير اللّه فإنما عبد الشيطان لأنه هو المزيّن لها ، والحامل عليها. وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ أي : وأقبلوا إليه ، معرضين عما سواه ، إقبالا كليا ، لَهُمُ الْبُشْرى بالنعيم المقيم ، على ألسنة الرّسل والملائكة ، عند حضور الموت ، وحين يحشرون ، وبعد ذلك.

فَبَشِّرْ عِبادِ ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ أي : ما نزل من الوحى فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أرجحه وأكثره ثوابا ، أو : أبينه ، الذي هو ضد المتشابه. وهؤلاء هم الموصوفون باجتناب الطاغوت ، والإنابة إلى ربهم ، لكن وضع موضع ضميرهم الظاهر تشريفا لهم بالإضافة ، ودلالة على أن مدار اتصافهم بالوصفين الجليلين كونهم نقادا فى الدين ، يميّزون الحق من الباطل ، ويؤثرون الأفضل.

أُولئِكَ المنعوتون بتلك المحاسن الجملية هم الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ لدينه ، والإشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من النّعوت الجليلة ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبهم ، وبعد منزلتهم فى الفضل.

---

(١) فى الأصول [فى أقصى].

وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ أي : هم أصحاب العقول الصافية ، السليمة من معارضة الوهم ومنازعة الهوى ، المستحقون للهداية ، لا غيرهم.

وفيه دليل على أن الهداية تحصل بفضل اللّه تعالى ، لقوله : هَداهُمُ اللَّهُ ، وقبول النّفس لها لقوله : هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ الإشارة : مذهب الصوفية : الأخذ بالعزائم ، والأرجح من كل شيء ، عقدا ، وقولا ، وعملا ، فأخذوا من العقائد مقام العيان ، ولم يقنعوا بالدليل والبرهان ، وأخذوا من الأقوال ألينها وأطيبها ، ويجمع ذلك : حسن الخلق مع كل مخلوق ، فآثروا العفو على القصاص ، والصفح على العتاب ، وغير ذلك من عزائم الشريعة على رخصها ، ومن الأذكار : أرجحها وأجمعها ، وهو الاسم المفرد ، الذي هو سلطان الأسماء ، ومن الأعمال : أعظمها وأرجحها ، وهو عمل القلوب ، الذي هو الذرة منه تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، كعبادة الفكرة والنّظرة ، وفى الحديث :

«تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة» «١» ، فأوقاتهم كلها ليلة القدر ، وكالتخلق بمكارم الأخلاق ، كالرضا ، والتسليم ، والحلم ، والسخاء ، والكرم ، وغير ذلك من محاسن الخلل ، الذي هو من عمل القلوب ، فهم الذين تحققت فيهم البشارة بقوله : فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ.

وقال الورتجبي - بعد كلام : ويتبع الكلام الأزلى - الذي هو الخطاب - بالفهم العجيب ، والعلم الغريب ، والإدراك الصافي ، وانفراد الحق عن المخلوق ، فى المحبة ، والشوق ، والمعرفة ، والتوحيد ، والإخلاص ، والعبودية ، والرّبوبية ، والحرية ، فهذا أفضل ورد بالبديهة ، من حيث ظهور الأنباء العجيبة ، والرّوح القدسية ، والإلهامات الربانية .. انظر بقية كلامه. وقال القشيري : الاستماع يكون لكل شيء ، والاتباع يكون للأحسن. ثم قال : من عرف اللّه لا يسمع إلا باللّه. هـ. أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ إلى صريح معرفته العيانية. وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ ، ولب الشيء : قلبه وخالصه ، فقلوبهم خالصة لمولاهم ، وأرواحهم متنعمة بشهود حبيبها ، وأسرارهم متنزهة فى رياض ملكوت سيدها. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ضدهم ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ١٩]

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩)

---

(١) أخرجه أبو الشيخ فى كتاب العظمة (١/ ٣٠٠ ، ح ٤٣) عن أبى هريرة بلفظ : «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة» وأخرجه الديلمي فى الفردوس (٢/ ٧٠ ح ٢٣٩٧) من حديث أنس بلفظ «ثمانين سنة» وانظر الموضوعات لابن الجوزي (٣/ ١٤٤). [.....]

(٥/٦٤)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٦٥

قلت : مَنْ : شرطية ، دخل عليها همزة الإنكار ، والفاء عاطفة على جملة محذوفة ليتعلق الإنكار والنّفى بمضمونهما معا ، أي : أنت مالك أمر النّاس ، فمن حقّ عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ، ثم كررت الهمزة فى الجزاء لتأكيد الإنكار ، وتكريره ، لمّا طال الكلام ، ثم وضع موضع الضمير «من فى النّار» لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد ، والتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع فى النّار ، ويجوز أن يكون الجزاء محذوفا ، دلّ عليه : أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ ... إلخ ، أي : أفمن حقّ عليه العذاب تنقذه أنت.

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ ، وهم عبدة الطاغوت ومتبعو خطواتها ، كما يلوح إليه التعبير عنهم ب «من حق عليه كلمة العذاب» ، فإن المراد بها قوله تعالى لإبليس : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ «١» ، وقوله تعالى : لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ «٢» ، أي : أفمن حقت عليه كلمة الشقاء ، تقدر أن تهديه وتنقذه من الكفر ، الذي هو سبب النّار؟ أو : تقول : المحكوم عليه بالنار بمنزلة الداخل فيها ، فاجتهاده صلّى اللّه عليه وسلم فى دعائهم إلى الإيمان سعى فى إنقاذهم من النّار بعد الدخول فيها ، وهو لا يفيد. فالمراد :

تسكينه صلّى اللّه عليه وسلم وتفريغه من الحرص عليهم.

الإشارة : من سبق له الإبعاد لا يفيده الكد والاجتهاد ، ومن أسدل بينه وبينه الحجاب ، لا يفيده إلا الوقوف بالباب ، حتى يحّن الكريم الوهاب ، فإنّ العواقب فى هذه الدار مبهمة ، والأعمال بالخواتم. قال القشيري : والذين حقت عليهم كلمة العذاب ، فإنهم اليوم اليوم لا يخرجون من حجاب قلوبهم. هـ. وباللّه التوفيق.

ولمّا كان المراد بقوله : أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ هم الذين قيل فى حقهم : لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ

النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ «٣» استدرك عنهم أهل التقى ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٢٠]

لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ (٢٠)

---

(١) الآية ٨٥ من سورة «ص».

(٢) الآية ١٨ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ١٦ من السورة.

(٦٥/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٦٦

يقول الحق جل جلاله : لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ، وهم الذين وصفوا بقوله تعالى : يا عِبادِ فَاتَّقُونِ «١» ، ووصفوا بالاجتناب والإنابة ، وحصل لهم البشرى ، حيث استمعوا وتبعوا أحسن القول ، وهم المخاطبون أيضا بقوله : يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ «٢» ... الآية.

فبيّن هنا أن لهم درجات عالية فى جنات النّعيم ، فى مقابلة ما للكفرة من دركات سافلة فى الجحيم ، فهى فى مقابلة قوله لهم : مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ فى حق الكفار ، أي : لكن أهل التقى لهم علالى ، بعضها فوق بعض مَبْنِيَّةٌ بناء المنازل المؤسسة على الأرض فى الرّصانة والإحكام.

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أي :

من تحت تلك الغرف الْأَنْهارُ من غير تفاوت بين العلو والسفل. وَعْدَ اللَّهِ أي : وعد اللّه ذلك وعدا ، فهو مصدر مؤكد لقوله : لَهُمْ غُرَفٌ فإنه فى قوة الوعد. لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ لاستحالته عليه سبحانه.

الإشارة : من اتقى اللّه فيما أمر ونهى ، كانت له درجات حسية ، مبنية من الذهب والفضة ، يترقى فيها على قدر عمله وتقواه. ومن اتقى ما يشغل عن اللّه من جنس الكائنات ، كانت له درجات ومقامات معنوية ، قربية اصطفائية ، يرتقى فيها بقدر تقواه وسعيه إلى مولاه ، وعد اللّه لا يخلف اللّه الميعاد. قال القشيري : وعد المطيعين الجنة - ولا محالة - لا يخلفه ، ووعد المذنبين المغفرة ، ولا محالة - يغفر لهم ، ووعد المريدين القاصدين بالوصول ، فإذا لم تقع لهم فترة فلا محالة يصدق وعده. هـ.

ثم برهن على ما أوعد ووعد مما يكون بعد البعث من آثار قدرته ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٢١]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ

فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٢١)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ أيها السامع أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً هو المطر ، وقيل : كل ماء فى الأرض فهو من السماء ، ينزل منها إلى الصخرة ، فيقسمه اللّه تعالى بين البقاع. فَسَلَكَهُ : أدخله ونظمه يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ أي : عيونا ومجارى فى الأرض ، كجرى الدماء فى العروق فى الأجساد ، أو : مياها

---

(١) من الآية ١٦ من السورة.

(٢) من الآية ١٠ من سورة الزمر.

(٦٦/٥)

نابعة فى ظهرها ، فإن الينبوع يطلق على المنبع والنّابع. فنصب «ينابيع» على الحال ، على القول الثاني ، وعلى نزع الخافض ، على الأول.

ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ : أصنافه ، من بر وشعير وغيرهما ، أو : كيفياته من الألوان ، كالصفرة والخضرة والحمرة ، والطعوم وغيرهما. وثُمَّ : للتراخي فى الرّتبة والزمان ، وصيغة المضارع : لاستحضار الصورة البديعة ، ثُمَّ يَهِيجُ أي : يتم جفافه ، ويشرف على أن يثور من منابته ، ويستقل على وجه الأرض ، ساترا لها ، فَتَراهُ مُصْفَرًّا من بعد خضرته ونضرته ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً فتاتا متكسرة ، كأن لم يغن بالأمس ، فمن قدر على هذا قدر على إنشاء الخلق بعد فنائهم ومجازاتهم.

وقيل : المراد من الآية : تمثيل الحياة الدنيا ، فى سرعة الزوال ، وقرب الاضمحلال ، بما ذكر من أحوال الزرع ، ترغيبا عن زخارفها وزينتها ، وتحذيرا من الاغترار بمن سرّ بها ، كما فى قوله تعالى : إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ «١» ... الآية ، وقيل : للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية من تحت الغرف ، بما يشاهد من إنزال المياه من السماء ، وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى ، وإحكام حكمته ورحمته.

إِنَّ فِي ذلِكَ أي : ما ذكر تفصيلا من إنزال الماء وما نشأ عنه. لَذِكْرى : لتذكيرا عظيما لِأُولِي الْأَلْبابِ : لأصحاب العقول الخالصة من شوائب الهوى ، فيتذكرون بذلك أن الحياة الدنيا فى سرعة التقضي والانصرام ، كما يشاهدونه من حال الحكام كل عام ، فلا يغترون ببهجتها ، ولا يفتنون بفتنتها. أو : يجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء ، وإجرائه فى ينابيع الأرض ، قادر على إجراء الأنهار من تحت الغرف. وأما ما قيل : من أنه استدلال على وجود الصانع فلا يليق لأن هذه الأفعال الجليلة ذكرت مسندة إلى اللّه تعالى وإنما يليق الاستدلال بها على وجود الصانع لو ذكرت غير مسندة إلى

مؤثر ، فتعيّن أن يكون متعلق التذكير والتنبيه شئونه تعالى وشئون آثاره ، كما بيّن ، لا وجوده تعالى. قاله أبو السعود.

الإشارة : قال القشيري : والإشارة فى هذا أن الإنسان يكون طفلا ، ثم شابا ، ثم كهلا ، ثم شيخا ، ثم يصير إلى أرذل العمر ، ثم إلى آخره يخترم ، ويقال : إن الزرع ما لم يأخذ فى الجفاف لا يؤخذ منه الحبّ ، الذي هو المقصود منه ، كذلك الإنسان مالم [يخل] «٢» من نفسه وحوله لا يكون له قدر ولا قيمة. قلت : يعنى أنه ما لم يمحص نفسه ، وينهكها فى التقرب إلى مولاه ، لا قيمة له.

---

(١) الآية ٢٤ من سورة يونس.

(٢) فى القشيري : [يحصل].

ثم قال : ويقال : إن المؤمن بقوة عقله يوجب [استقلاله بعمله] «١» إلا أن يبرز منه كمال يمكّنه من وفارة بصيرته ، ثم إذا بدت لائحة من سلطان المعارف تصير تلك [الأبواب] «٢» مغمورة ، فإذا بدت أنوار التوحيد استهلكت تلك الجملة كذلك ، وأنشدوا :

فلمّا استبان الصبح أدرج ضوءه بأنواره ضوء الكواكب «٣». هـ.

قلت : استقلال العبد بعمله هو مثل بروز الزرع من منبته ، ووفور بصيرته هو إخراج حبه فى سنبله ، وبدو لائحة من سلطان المعارف هو اصفراره ، وظهور أنوار التوحيد التي تفنى وجوده وتغمره فى وجود الحق هو صيرورتها حطاما ، فتأمل. وهذا كله نتيجة شرح الصدر الذي أشار إليه بقوله :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٢٢]

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٢)

قلت : الهمزة للإنكار ، ومَنْ : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : كمن ليس كذلك.

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ أي : وسّعه وهيّاه لِلْإِسْلامِ حتى قبله وفرح به ، واستضاء بنوره ، فَهُوَ عَلى نُورٍ عظيم مِنْ رَبِّهِ ، وبصيرة فى دينه ، وهذا النّور : هو اللطف الإلهى الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية ، والتوفيق للاهتداء بها ، أو : بمحض الإلهام من الجود والكرم ، فيقذف فى قلبه نور اليقين ، بلا سبب ، أو : بصحبه أهل النّور ، هل يكون هذا كمن قسا قلبه ، وحرج صدره ، واستولى عليه ظلمة الغى والضلالة ، فأعرض عن تلك الآيات بالكلية؟! ولما نزلت هذه

الآية سئل صلّى اللّه عليه وسلم عن الشرح المذكور ، فقال : «نور يقذفه اللّه فى القلب ، فإذا دخل النّور القلب انشرح وانفسح» قيل : وهل لذلك علامة؟ قال : «نعم التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دارالخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله» «٤».

---

(١) فى القشيري : [استفادة له بعلمه]

(٢) فى القشيري (الأنوار).

(٣) أنشده أبو العباس السهارى. كما فى طبقات الأولياء (٣٦٧). وجاء فى طبقات الصوفية للسلمى (٤٤٧) : أنشده أبو العباس السياري ، واسمه : القاسم بن القاسم بن مهدى.

(٤) أخرجه البغوي فى تفسيره (٧/ ١١٤) والحكيم الترمذي فى نوادر الأصول ، فى (الأصل السادس والثمانين) والحاكم فى المستدرك (٤/ ٤١١) وسكت عنه. والبيهقي فى الشعب (ح ١٠٥٥٢) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ : أي الصلبة اليابسة مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أي : من أجل ذكره ، الذي من حقه أن ينشرح له الصدر ، وتلين له النّفس ، ويطمئن به القلب ، وهؤلاء إذا ذكر اللّه عندهم اشمأزوا من أجله ، وازدادت قلوبهم قساوة.

قال الفخر : اعلم أن ذكر اللّه سبب لحصول النّور والهداية ، وزيادة الاطمئنان فى النّفوس الطاهرة الرّوحانية ، وقد يوجب القسوة والبعد عن الحق فى النّفوس الخبيثة الشيطانية ، فإذا عرفت هذا ، فنقول : رأس الأدوية التي تفيد الصحة الرّوحانية ورتبتها : هو ذكر اللّه ، فإذا اتفق لبعض النّفوس أن صار ذكر اللّه سببا لازدياد مرضها ، كان مرض تلك النّفوس مرضا لا يرجى زواله ، ولا يتوقع علاجه ، وكانت فى نهاية الشر والرّداءة ، فلهذا المعنى قال تعالى : فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ وهذا كلام محقق. هـ. وهو كما قيل فى الجعل «١» أنها تتضرر برياح الورد ، أي : وتنتعش بالشين. ف كل من يفر من ذكر اللّه ، ويثقل عليه ، فقلبه جعل.

ذكره فى الحاشية.

أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : أولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب فى ضلال بعيد من الحق ، ظاهر ضلاله لكل أحد. قيل : نزلت الآية فى حمزة وعليّ - رضي اللّه عنهما - وأبى لهب وولده «٢» ، وقيل :

فى عمّار وأبى جهل. والحق : أنها عامة.

الإشارة : من أراد اللّه به السعادة شرح صدره للإسلام ، فقبله وعمل عمله ، ومن أراد به جذب العناية وتحقيق الولاية ، شرح صدره لطريق أهل مقام الإحسان ، فدخل فى طريقهم ، وهيأ نفسه لصحبتهم وخدمتهم ، فما زال يقطعون به مهامه النّفوس حتى يقولون له : ها أنت وربك ، فتلوح له الأنوار ، وتشرق عليه شموس المعارف والأسرار ، حتى يفنى ويبقى باللّه.

قال القشيري : والنّور الذي من قبله تعالى نور اللوائح بتحقق العلم ، ثم نور اللوامع بثبات الفهم ، ثم نور المحاضرة بزوائد اليقين ، ثم نور المكاشفة بتجلى الصفات ، ثم نور المشاهدة بظهور الذات ، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد ، وعند ذلك فلا [وجد ولا فقد] «٣» ، ولا بعد ولا قرب ، كلا ، بل هو اللّه الواحد القهار. هـ. فمن لم يبلغ هذا لا يخلو قلبه من قساوة ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر اللّه ، أولئك فى ضلال مبين.

---

(١) الجعل : دابة سوداء من دواب الأرض ، كالخنفساء. انظر اللسان (جعل ١/ ٦٣٨).

(٢) ذكره الواحدي فى أسباب النّزول (ص ٣٨٣) بدون إسناد.

(٣) فى الأصول [فلا وجه ولا قصة] والمثبت من القشيري. [.....]

ثم ذكر سبب لين القلوب ، وهو كتاب اللّه العزيز ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٢٣]

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٢٣)

قلت : «كتابا» : بدل من «أحسن» ، أو : حال ، لوصفه بقوله : مُتَشابِهاً. و«مثانى» : صفة أخرى لكتاب ، أو :

حال أخرى منه ، أو : تمييز من «متشابها» ، كما تقول : رأيت رجلا حسنا شمائل ، أي : شمائله ، والمعنى : متشابهة مثانيه. وتَقْشَعِرُّ : الأظهر أنه استئناف ، وقيل : صفة لكتاب ، أو : حال منه.

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وهو القرآن إذ لا حديث أحسن منه ، لا تمله القلوب ، وتسأمه الأسماع بل ترداده يزيده تجملا وطراوة وتكثير حلاوة. روى أن أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ملّوا ملة ، فقالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : حديثا ، فنزلت»

.

والمعنى : أن فيه مندوحة عن سائر الأحاديث.

وفى إيقاع اسم الجلالة مبتدأ ، وبناء «نزّل» عليه ، من تفخيم أحسن الحديث ، ورفع محله ، والاستشهاد على حسنه ، وتأكيد إسناده إليه تعالى ، وأنه من عنده ، لا يمكن صدوره من غيره ، والتنبيه على أنه وحي معجز ، مالا يخفى.

حال كونه كِتاباً مُتَشابِهاً أي : يشبه بعضه بعضا فى الإعجاز والبلاغة ، أو : تشابهت معانيه بالصحة ، والإحكام ، والابتناء على الحق والصدق ، واستتباع منافع الخلق فى المعاد والمعاش ، وتناسب ألفاظه وجمله فى الفصاحة والبلاغة ، وتجاوب نظمه فى الإعجاز. مَثانِيَ : جمع مثنى ، أي : مكرر ، ومردد ، لما ثنى من قصصه ، وأنبائه ، وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، ووعظه. وقيل : لأنه يثنّى فى التلاوة ، ويكرر مرة بعد أخرى. قال القشيري : ويشتمل على نوعى الثناء عليه ، بذكر سلطانه وإحسانه ، وصفة الجنة والنّار ، والوعد والوعيد. هـ.

---

(١) أخرجه بنحوه ابن جرير (٢٣/ ٢١١) عن ابن عباس رضي اللّه عنه ، والواحدي فى الأسباب (ص ٣٨٣) عن سعد ، رضي اللّه عنه.

(٧٠/٥)

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ أي : ترتعد وتنقبض ، والاقشعرار : التقبض ، يقال : اقشعرّ الجلد :

إذا انقبض ، ويقال : اقشعر جلده و. وقف شعره : إذا عرض له خوف شديد ، من منكر هائل دهمه بغتة. والمعنى : أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارعه وزواجره ، أصابتهم هيبة وخشية تقشعر منه جلودهم ، وإذا ذكروا رحمة اللّه تعالى تبدلت خشيتهم رجاء ، ورهبتهم رغبة ، وذلك قوله تعالى : ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ أي : ساكنة مطمئنة إلى ذكر اللّه.

ذلِكَ أي : الكتاب الذي شرح أحواله هُدَى اللَّهِ ، يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ أن يهديه ، بصرف مجهوده إلى سبب الاهتداء به ، أو بتأمله فيما فى تضاعيفه من شواهد الحقيقة ، ودلائل كونه من عند اللّه.

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ أي : يخلق فيه الضلالة ، بصرف قدرته إلى مبادئها ، وإعراضه عما يرشد إلى الحق بالكلية ، وعدم تأثره بوعده ووعيده ، أو : من يخذله فَما لَهُ مِنْ هادٍ يخلصه من ورطة الضلال. أو : ذلك الذي ذكر من الخشية والرّجاء هو أثر هدى اللّه ، يهدى لذلك الأثر من يشاء من عباده ، وَمَنْ

يُضْلِلِ أي :

ومن لم يؤثر فيه لطفه وهدايته لقسوة قلبه ، وإصراره على فجوره فَما لَهُ مِنْ هادٍ : من مؤثر فيه بشيء قط.

الإشارة : أول ما يظهر الفتح على قلب العبد فى فهم كتاب اللّه ، والتمتع بحلاوة تلاوته ، ثم ينتقل إلى الاستغراق فى ذكره باللسان ، ثم بالقلب ، ثم إلى الفكرة ، ثم العكوف فى الحضرة ، إن وجد من يربيه وينقله عن هذه المقامات ، وإلا بقي فى مقامه الأول.

وقال الطيبي : من أراد اللّه أن يهديه بالقرآن ، أوقع فى قلبه الخشية ، كقوله : هُدىً لِلْمُتَّقِينَ «١» ثم يتأثر منه ظاهرا ، بأن تأخذه فى بدء الحال قشعريرة لضعفه ، وقوة سطوة الوارد ، فإذا أدمن على سماعه ، وألف أنواره ، يطمئن ويلين ويسكن. هـ. قلت : وعن هذا عبّر الصدّيق بقوله حين رأى قوما يبكون عند سماعه : (كذلك كنا ثم قست القلوب) «٢» أي : صلبت وقويت على حمل الواردات.

وقال الورتجبي : سماع المريدين بإظهار الحال عليهم ، وسماع العارفين بالطمأنينة والسكون. هـ. وقال على قوله : مُتَشابِهاً : إنه أخبر عن كلية الذات والصفات ، التي منبعهما أصل القدم ، وصفاته كذاته ، وذاته كصفاته ،

---

(١) من الآية ٢ من سورة البقرة.

(٢) نقله الحافظ أبو نعيم فى الحلية ١/ ٣٣ - ٣٤ ، وراجع البحر المديد ٣/ ٣٤٦.

وكلّ صفة كصفة أخرى ، من حيث التنزيه والقدس والتقديس ، والكلام بنفسه متشابه المعاني. هـ. يعنى : إنما كان القرآن متشابها لأنه أخبر عن كلية الذات والصفات القديمين ، والذات لها شبه بالصفات من حيث اللطافة ، والصفات تشبه بعضها بعضا فى الدلالة على التنزيه والكمال ، أي : كتابا دالا على كلية الذات المشابهة للصفات.

وهذا حمل بعيد.

ثم ذكر مثال المهتدى والضال ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٢٤ الى ٢٦]

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ

أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)

قلت : وَقِيلَ : عطف على «يتقى» ، أو : حال من ضمير «يتقى» ، بإضمار «قد».

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ الذي هو أشرف أعضائه سُوءَ الْعَذابِ أي : العذاب السيّء الشديد يَوْمَ الْقِيامَةِ كمن ليس كذلك ، بل هو آمن ، لا يعتريه مكروه ، ولا يحتاج إلى اتقاء ، بوجه من الوجوه ، وإنما كان يتقى النّار بوجهه لكون يده التي كان يتقى بها المكاره والمخاوف مغلولة إلى عنقه.

قال القشيري : قيل : إن الكافر يلقى فى النّار ، فيلقاها أولا بوجهه لأنه يرمى فيها منكوسا «١» فأما المؤمن الموقّى ذلك فهو الملقّى بالكرامة ، فوجهه ضاحك مستبشر «٢». هـ.

وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ : يقال لهم من جهة خزنه النّار. وصيغة الماضي للدلالة على التحقق. ووضع المظهر فى مقام المضمر للتسجيل عليهم بالظلم ، والإشعار بعلة الأمر فى قوله : ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ أي : وبال ما كنتم تكسبونه فى الدنيا ، من الظلم بالكفر والمعاصي.

---

(١) أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، قال : «ينطلق به إلى النّار مكتوفا ثم يرمى فيها ، فأول ما تمس وجهه النّار».

(٢) النقل فيه تصرف : انظر لطائف الإشارات.

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من الأمم السالفة ، فَأَتاهُمُ الْعَذابُ المقرر لكل أمة مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ : من الجهة التي لا يحتسبون ، ولا يخطر ببالهم إتيان الشر منها. فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ أي : الذل والصغار فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، كالمسخ ، والخسف ، والقتل ، والأسر ، والإجلاء ، وغير ذلك من فنون النّكال ، وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ المعد لهم أَكْبَرُ لشدته ودوامه لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ أي : لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئا لعلموا ذلك واعتبروا به.

والآية ، يحتمل أن تكون تهديدا لقريش ، فالضمير فى قَبْلِهِمْ يعود إليهم لأن قوله : وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ .. إلخ تعرض بمن أعرض عن كتابه من كفار قريش. وقال أبو السعود : هو استئناف ، مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب ، إثر بيان ما يصيب الكل من العذاب الأخروى. هـ.

الإشارة : الوجه هو أشرف الأعضاء وإمامها ، فإن كانت فى الباطن بهجة المحبة ، أو سيما المعرفة ، ظهرت عليه ، فيتنور ويبتهج ، وإن كانت ظلمة المعاصي ، أو كآبة الحجاب ، ظهرت عليه ، وإن كانت غيبة فى الحق أو سكرة ، كان هو أول ما يغيب من الإنسان ويغرق ، ثم تغيب البشرية فى البحر

المحيط ، وهو بحر الأحدية. وقوله تعالى : فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ، قال القشيري : أشدّ العذاب ما يكون بغتة ، كما أن أتمّ السرور ما يكون فلتة. وفى الهجران والفراق والشدة ما يكون بغتة غير متوقعة ، وهو أنكى للفؤاد ، وأشدّ فى التأثير ، وأوجعه للقلوب ، وفى معناه أنشدوا «١» :

فبتّ «٢» بخير والدّنى مطمئنة فأصبحت يوما والزمان تقلّبا

وأتمّ السرور وأعظمه تأثيرا ما يكون فجأة ، حتى قال بعضهم : أشد السرور غفلة على غفلة ، وأنشدوا :

بينما خاطر المنى بالتلاقى سابح «٣» فى فؤاده وفؤادى

جمع اللّه بيننا فالتقينا هكذا بغتة «٤» بلا ميعاد. هـ «٥»

---

(١) فى القشيري : وفى معناه قلنا.

(٢) فى الأصول : فبتنا.

(٣) فى الأصول : سانح.

(٤) فى القشيري : صدفة.

(٥) انظر لطائف الإشارات ٣/ ٢٧٩.

(٧٣/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٧٤

ولمّا بيّن وبال من أعرض عن أحسن الحديث ، بيّن فضله وشرفه ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٢٧ الى ٢٨]

وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)

قلت : قرآنا : حال مؤكدة من «هذا» على أن مدار التأكيد هو الوصف ، كقولك : جاءنى زيد رجلا صالحا.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ ضَرَبْنا أي : وضحنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ : يحتاج إليه النّاظر فى أمر دينه ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أي : كى يتذكروا به ويتعظوا ، حال كونه قُرْآناً عَرَبِيًّا لتفهموا معانيه بسرعة ، غَيْرَ ذِي عِوَجٍ : لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ، فهو أبلغ من المستقيم ، وأخص بالمعاني.

وقيل : المراد بالعوج : الشك. لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ما يضرهم فى معادهم ومعاشهم.

الإشارة : قد بيّن اللّه فى القرآن ما يحتاج إليه المريد فى سلوكه وجذبه ، وسيره ووصوله ، من بيان الشرائع وإظهار الطرائق ، وتبيين الحقائق. قال تعالى : ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ «١» لكن لا

يغوص على هذا إلا الجهابذة من البحرية الذين غاصوا بأسرارهم فى بحر الأحدية ، وتغلغلوا فى العلوم اللدنية ، ومن لم يبلغ هذا المقام يصحب من يبلغه ، حتى يوصله إلى ربه ، ولا يكون الوصول إلا بلقب مفرد ، غير مشترك ، كما بيّن ذلك بقوله تعالى :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٢٩ الى ٣١]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)

قلت : مَثَلًا : مفعول ثان لضرب ، ورَجُلًا : مفعول أول ، وأخّر للتشويق إليه ، وليصل بما وصف به ، وقيل : بدل من «مثلا» ، وفِيهِ : خبر ، و«شركاء» : مبتدأ ، والجملة : صفة لرجل ، و«مثلا» : تمييز.

يقول الحق جل جلاله : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للمشرك والموحد ، رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ : مختلفون متخاصمون عسيرون ، وهو المشرك ، وَرَجُلًا سَلَماً أي : خالصا لِرَجُلٍ فرد ، ليس لغيره عليه

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

(٧٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٧٥

سبيل. والمعنى : جعل اللّه مثلا للمشرك حسبما يقوده إليه مذهبه ، من ادعاء كل من معبوديه عبوديته ، عبدا يتشارك فيه جماعة ، يتجاذبونه فى مهماته المتباينة فى تحيره وتعبه ، ومثلا آخر للموحّد ، وهو عبد خالص لرجل واحد فإنه يكون عند سيده أحظى ، وبه أرفق.

هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا : إنكار واستبعاد لاستوائهما ، وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور ، بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما ضرورة أن أحدهما فى أعلى عليين ، والآخر فى أسفل سافلين.

وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون سَلَماً بفتحتين ، وهو مصدر ، من : سلم له كذا : إذا خلص ، نعت به للمبالغة ، فالقراءتان «١» متفقتان معنى. والمراد من المثل : تصوير استراحة الموحد وانجماعه على معبوده ، وتعب المشرك وتشتيت باله ، وخصوصا مع فرض التعاكس من الشركاء ، فيصير متحيرا ، وفى عنت كبير من الجمع بين أغراضهم ، بل ربما يتعذر ذلك ويستحيل للتضاد فى الأغراض والتناقض ، مع فرض التخالف والتنازع بينهم ، واعتبر ذلك بحال الوالدين ، إذا اختلفا على الولد ، فإنه يعسر إرضاؤهما إلا بمشقة واحتيال ، وكذلك عابد الأوثان فإنه معذّب الفكر بها ، وبحراسة حاله منها ، ومتى توهم أنه أرضى واحدا فى زعمه تفكر فيما يصنع مع الآخر ، فهو أبدا فى تعب وضلال ، وكذلك هو المصانع للناس ، الممتحن بخدمة الملوك. قاله ابن عطية.

والحاصل : أن إرضاء الواحد أسهل وأيسر من إرضاء الجماعة الْحَمْدُ لِلَّهِ على عدم استوائهما. [قال]
«٢» الطيبي : ثم إذا لزمتهم الحجة قل : الحمد للّه ، شكرا على ما أولاك من النّصرة ، وقهر الأعداء بالحجج الساطعة. وفيه تنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية ، وعلو الرتبة ، بتوفيق اللّه تعالى ، وأنه منّة جليلة ، موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته ، أو : حيث ضرب لهم المثل الأعلى ، وللمشركين المثال السوء ، فهذا صنع جميل ، ولطف تام ، مستوجب لحمده وشكره بَلْ أَكْثَرُهُمْ أي : المشركون لا يَعْلَمُونَ ذلك ، مع كمال ظهوره ، فيقعون في ورطة الشرك والضلال ، وهو انتقال من بيان الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان عدم علمهم ذلك ، مع غاية ظهوره.

---

(١) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ويعقوب : (سالما) بالألف وكسر اللام ، اسم فاعل من سلم ، أي : خالصا من الشركة. وقرأ الباقون :
(سلما) بفتح السين واللام ، بلا ألف ، مصدر وصف به ، مبالغة فى الخلوص من الشركة. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٩) والبحر المحيط (٧/ ٤٠٧).
(٢) زيادة ليست فى الأصول.

ثم ذكر المحل الذي يظهر فيه عدم استوائهما عيانا ، وهو ما بعد الموت ، فقال : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ، فتجتمعون عندنا ، فنحكم بينكم. وقيل : كانوا يتربصون برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم موته ، أي : إنكم جميعا بصدد الموت ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ، فتحتج عليهم بأنك بلّغت الرّسالة ، واجتهدت فى الدعوة ، فتلزمهم الحجة لأنهم قد لجوا فى العناد ، فإذا اعتذروا بتقليد آبائهم لم يقبل عذرهم. وقيل : المراد : الاختصام فيما دار بينهم فى الدنيا. والأول أنسب.
الإشارة : لا يستوى القلب المشترك مع القلب المفرد الخالص للّه ، القلب المشترك تفرقت همومه ، وتشتت أنواره ، بتشتيت شواغله وعلائقه ، وتفرقت محبته ، بتفرق أهوائه وحظوظه ، والقلب المفرد اجتمعت محبته وتوفرت أنواره وأسراره بقدر تفرغه من شواغله وعلائقه. وفى الحكم : «كما لا يحب العمل المشترك ، لا يحب القلب المشترك ، العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشرك لا يقبل عليه».
وقال أيضا : «فرّغ قلبك من الأغيار تملؤه بالمعارف والأسرار».
وقيل للجنيد : كيف السبيل إلى الوصول؟ فقال : بتوبة تزيل الإصرار ، وخوف يقطع التّسويف ، ورجاء يبعث على مسالك العمل ، وبإهانة النّفس ، بقربها من الأجل ، وبعدها من الأمل. قيل له : وبم يتوصل

إلى هذا؟ فقال :

بقلب مفرد ، فيه توحيد مجرد. هـ.

وفى الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم «من جعل الهموم همّا واحدا - أي : وهو اللّه - كفاه اللّه همّ دنياه ، ومن تشعبت به الهموم لم يبال اللّه به فى أىّ أودية الدنيا هلك» «١» وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «من كانت الدنيا همّه فرّق اللّه عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قسم له ، ومن كانت الآخرة نيته ، جمع اللّه عليه أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى صاغرة» «٢». ومن كان اللّه همه بفنائه فيه جمع اللّه عليه سره ، وأغناه به عما سواه ، وخدمه الوجود بأسره ، «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك» «٣».

واللّه تعالى أعلم.

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٤٤٣) «وصحّحه ، ووافقه الذهبي». والبيهقي فى الشعب (١٠٣٤٠) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه. وأخرجه ابن ماجة بسند ضعيف ، فى (المقدمة ، ١/ ٩٥ ، ح ٢٥٧) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه. [.....]

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٨٣) وابن ماجة فى (الزهد ، باب الهم بالدنيا ، ٢/ ١٣٧٥ ، ح ٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت رضي اللّه عنه ، وأخرجه ، من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه ، الترمذي فى (صفة القيامة والرّقائق ، ٤/ ٥٥٤ ، ح ٢٤٦٥).

(٣) حكمة عطائية ، انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي/ ص ٣٣ حكمة ٢٤٨.

ثم بيّن فريقى الاختصام ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٣٢ الى ٣٥]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ بأن أضاف إليه الشريك والولد ، فإنه لا أحد أظلم منه إذ هو أظلم من كلّ ظالم. وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ أي : الأمر الذي هو نفس الصدق وعين الحق ، وهو ما جاء به النّبى صلّى اللّه عليه وسلم من عند اللّه إِذْ جاءَهُ أي : كذّب فى أول مجيئه ، من غير

تأمل فيه ولا تدبر ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ؟ أي : لهؤلاء الذين افتروا على اللّه ، وسارعوا إلى التكذيب بالصدق ، فأظهر موضع الإضمار تسجيلا وإيذانا بعلة الحكم الذي استحقوا به جهنم ، والجمع باعتبار معنى" من" ، كما أن الإفراد فى الضمائر السابقة باعتبار لفظها ، أو : لجنس الكفرة ، وهم داخلون فى الكفر دخولا أولياء.

وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وهو محمد صلّى اللّه عليه وسلم وَصَدَّقَ بِهِ : وهم المؤمنون ، أي : والفوج ، أو : الفريق الذي جاء بالصدق ، والفريق الذي صدّق به. أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ : المنعوتون بالتقى ، [التي] «١» هى أجلّ الرّغائب.

وقرىء «صدق» بالتخفيف «٢» ، أي : صدق به النّاس ، فأدّاه إليهم كما أنزل عليه ، من غير تغيير ، وقيل : صار صادقا بسببه لأن ما جاء به من القرآن معجزة دالة على صدقه صلّى اللّه عليه وسلم.

لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ : هو بيان لما لهم فى الآخرة من حسن المآب ، بعد بيان مالهم فى الدنيا من محاسن الأعمال ، أي : لهم ما يشاءونه من جلب المنافع ودفع المضار ، وتوالى المسار فى الآخرة ، لا فى الجنة فقط

---

(١) فى الأصول [الذي].

(٢) وبه قرأ أبو صالح ، وعكرمة بن سليمان ، ومحمد بن حجازة. انظر : مختصر ابن خالويه (ص ١٣٢) ، والمحتسب (٢/ ٢٣٧).

لأن بعض ما يشاؤون يقع قبل دخول الجنة ، من تكفير السيئات ، والأمن من الفزع الأكبر ، وسائر أهوال القيامة.

ذلِكَ الذي ذكر من حصول كلّ ما يشاءونه جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ أي : الذين أحسنوا أعمالهم فى الدنيا.

لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ، اللام متعلق بقوله : لَهُمْ ما يَشاؤُنَ لأنه فى معنى الوعد ، كأنه قيل : وعد اللّه لهم جميع ما يشاءونه من دفع المضار وحصول المسار ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذي عملوا ، أي : أقبحه وأعظمه ، وأولى أصغره. وقيل : يتعلق بمحذوف ، أي : يسر لهم الصدق والتصديق ليكفر .. إلخ.

وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ فإذا كان فى عملهم حسن وأحسن منه ، جزاهم بجزاء الأحسن على الجميع ، تكرما منه وإحسانا.

والحاصل : أنه سبحانه لكرمه يكفر السيّء والأسوأ بالأحروية ، ويجزى على الحسن بجزاء الأحسن منه والأرجح ، كمن أهدى لملك هديتين صغيرة وكبيرة فكافأه على الصغيرة بقدر ما كافأه على الكبيرة. قال القشيري : وأحسن أعمال المؤمن : الإيمان والمعرفة ، فيكون على أحسن الأعمال أحسن الثواب ، وهو الرّؤية. هـ.

وإظهار اسم الجليل فى موضع الإضمار ، لإبراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام ، والجمع بين الماضي والمستقبل فى صلة الموصول الثاني - أي : الذي كانوا يعملون - دون الأول للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة ، بخلاف السيئة.

الإشارة : كل من ادعى حالا مع اللّه ، وليست متحققة فيه ، فقد كذب على اللّه ، وكلّ من أنكر على أولياء زمانه فقد كذّب بالصدق إذ جاءه. وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ ، وهو من أذن له فى التذكير أو التربية. وَصَدَّقَ بِهِ ، وهو من سمع وتبع ، أولئك هم المتقون ، دون غيرهم ، لهم ما يتمنون عند ربهم فى الدنيا والآخرة ، ذلك جزاء أهل مقام الإحسان ، الذين يعبدونه على العيان ، يغطى وصفهم بوصفه ، ونعتهم بنعته ، فيوصلهم بما منه إليهم ، لا بما منهم إليه ، ثم يكفيهم جميع الشرور ، كما قال تعالى :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (٣٧)

يقول الحق جل جلاله : أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ أي : نبيه صلّى اللّه عليه وسلم. نزلت تقوية لقلبه - عليه السّلام ، وإزالة للخوف الذي كان الكفار يخوفونه ، أو : جنس العبد ، فيشمل الأنبياء كلهم والمؤمنين ، وينتظم فيه النّبى صلّى اللّه عليه وسلم انتظاما أوليا ، ويؤيده قراءة الأخوين «١» بالجمع. وهو إنكار ونفى لعدم كفايته تعالى على أبلغ وجه وآكده ، كأنّ الكفاية بلغت من الظهور ما لا يقدر أحد على أن يتفوه بعدهما ، أو يتلعثم فى الجواب بوجودها ، وإذا علم العبد أن الحق تعالى قائم بكفايته ، سكن قلبه واطمأن ، وأسقط الأحمال والكلف عن ظهره ، فلا جرم أن اللّه يكفيه ما أهمه ، ويؤمّنه مما يخافه ، كما قال تعالى لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم :

وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ أي : الأوثان التي اتخذوها آلهة دونه تعالى ، وهى جوامد ، لا تضر ولا تنفع ، وهذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عما قالت قريش : إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، وتصيبك معرّتها لعيبك إياها. وفى رواية :

قالوا : لتكفنّ عن آلهتنا ، أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون «٢» ، كما قال قوم هود : إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ «٣». وجملة : «ويخوفونك» : استئناف ، أو : حال. وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ حتى غفل عن كفايته وعصمته صلّى اللّه عليه وسلم ، أو : اعتقد أن الأصنام تضر وتنفع فَما لَهُ مِنْ هادٍ يهديه إلى ما يرشده.

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ إلى توحيده وطاعته فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ يصرفه عن رشده ، أو يصيبه سوء يخل بسلوكه إذ لا راد لفعله ، ولا معارض لقضائه ، كما ينطق به قوله تعالى : أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ : غالب لا يغالب ، منيع لا يمانع ولا ينازع ، ذِي انْتِقامٍ من أعدائه لأوليائه ، بإعزاز أوليائه وإذلال أعدائه. وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام ، وتربية المهابة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا علم العبد أن اللّه كاف جميع عباده ، وثق بضمانه ، فاستراح من تعبه ، وأزال الهموم والأكدار عن قلبه ، فيدخل جنة الرّضا والتسليم ، ويهب عليه من روح الوصال وريحان الجمال نسيم ، فيكتفى باللّه ، ويقنع بعلم اللّه ، ويثق بضمانه.

قال فى لطائف المنن : مبنى الوليّ على الاكتفاء باللّه ، والقناعة بعلمه ، والاغتناء بشهوده. قال تعالى : أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وقال تعالى : أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ «٤». هـ. وقال الشيخ

---

(١) قرأ حمزة والكسائي : (عباده) بألف ، على الجمع. وقرأ الباقون : (عبده) بغير ألف. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٩).

(٢) ذكر هذه الرّواية السيوطي فى الدر (٥/ ٦١٥ - ٦١٦) وعزاها لعبد الرّزاق وابن المنذر عن قتادة. وانظر تفسير البغوي (٧/ ١٢٠).

(٣) من الآية ٥٤ من سورة هود.

(٤) من الآية ٥٣ من سورة فصلت.

أبو الحسن صلّى اللّه عليه وسلم : يقول اللّه - عز وجل : عبدى اجعلنى مكان همك أكفك همك ، عبدى ما كنت بك فأنت فى محل البعد ، وما كنت بي فأنت فى محل القرب ، فاختر لنفسك. هـ. أي : ما دمت مهموما بنفسك فأنت فى محل البعد ، وإذا خرجت عنها ، وطرحتها بين يدى خالقها ، أو غبت عن وجودها بالكلية ، فأنت فى محل القرب ، الأول : قرب مراقبة ، والثاني : قرب مشاهدة.

وقوله تعالى : وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ : هو عام فى كلّ ما يخاف منه ، فالعارف لا يخاف من شىء

لعلمه بأن اللّه ليس معه شيء ، ولا يقع فى الوجود إلا قدره وقضاؤه ، ومن يعتقد غير هذا فهو ضال ، ومن يضلل اللّه فلا هادى له. وباللّه التوفيق.

ثم قرر هذا الأمر وحقيقته بقوله :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٣٨]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)

يقول الحق جل جلاله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ أي : من يخوفونك ممن سوى اللّه ، وقلت لهم : مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ لوضوح الدلائل على انفراده بالاختراع. قُلْ تبكيتا لهم : أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ من الأصنام ، إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أي : إذا تحققتم أن خالق العالم العلوي والسفلى هو اللّه وحده ، فأخبرونى عن آلهتكم ، إن أرادنى اللّه بضر هل يقدر أحد منهم على كشف ذلك الضر عنى؟ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ أي : بنفع هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ وصارفتها عنى؟! وقرأ البصري : «كاشفات» و«ممسكات» بالتنوين ، ونصب «ضره» و«رحمته» على المفعول. وتعليق إرادة الضر والرّحمة بنفسه صلّى اللّه عليه وسلم ، للرد فى نحورهم حيث كانوا يخوفونه من معرّة الأوثان ، ولما فيه من الإيذان بإمحاض النصيحة. وإنما قال : «كاشفات» و«ممسكات» على التأنيث ، بعد قوله : وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ لأنهن إناث ، وهن اللات ، والعزّى ، ومناة ، وفيه تهكّم بهم ، وبمعبودهم حيث جعلهم يعبدون الإناث.

(٨٠/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٨١

قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ أي : كافينى فى جميع أمورى من إصابة الخير ودفع الشر. روى أنه صلّى اللّه عليه وسلم لما سألهم سكتوا ، فنزلت «١» : قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ، لا على غيره أصلا لعلمهم بأن كلّ ما سواه تحت قهر ملكوته.

الإشارة : الناس على قسمين : أعداء وأحباب ، فإن نظرت إلى الأعداء وجدتهم لا يقدرون أن ينفعوك بشيء إلا ما قدّر اللّه لك ، وإن نظرت إلى الأعداء وجدتهم لا يقدرون أن يضروك بشيء إلا ما قدّر اللّه عليك ، فارفض الجميع ، وتعلق باللّه يغنك عن غيره ، ويوصل إليك ما قسم لك بالعز والهناء.

ثم توعدهم بالعذاب ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٣٩ الى ٤١]

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٤٠) إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ أي : على حالتكم التي أنتم عليها ، وجهتكم من العداوة التي تمكنتم فيها ، فالمكانة بمعنى المكان ، فاستعيرت من العين للمعنى ، وهى الحال ، كما تستعار «هنا».

و«حيث» للزمان ، وإنما وضعا للمكان. وقرأ أبو بكر وحمّاد : «مكانات» بالجمع. إِنِّي عامِلٌ على مكانتى ، فحذف للاختصار ، والمبالغة فى الوعيد ، والإشعار بأن حاله لا تزال تزداد قوة بنصر اللّه تعالى له ، وتأييده ، ولذلك توعدهم بقوله : فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ فإنّ خزى أعدائه دليل غلبته صلّى اللّه عليه وسلم ونصره فى الدنيا والآخرة. وقد أخزاهم وعذّبهم يوم بدر ، وَسوف تعلمون أيضا من يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ فى الآخرة لأنه مقيم على الدوام.

ثم ذكر الفاصل بين أهل العذاب المقيم ، والنّعيم الدائم ، فقال : إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ أي : لأجلهم ، فمن أعرض عنه فقد استحق العذاب الأليم ، ومن تمسك به استوجب النّعيم المقيم ، حال كونه ملتبسا

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٦/ ٥٨٧١) والبغوي (٧/ ١٢١).

بِالْحَقِّ ناطقا به ، أو : أنزلناه محقين فى إنزاله. فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ ، إنما ينفع به نفسه وَمَنْ ضَلَّ : بأن أعرض عنه ، أو عن العمل به. فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها لأن وبال إضلاله مقصور عليها. وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ حتى تجبرهم على الهدى ، وما وظيفتك إلا التبليغ ، وقد بلغت أىّ بلاغ.

الإشارة : من ذكّر قوما فأعرضوا عنه ، ولم يرفعوا له رأسا ، يقول لهم : يا قوم اعملوا على مكانتكم .. إلخ ، وأىّ عذاب أشد من الحجاب ، والبعد عن حضرة الحبيب؟.

ثم ذكر دلائل البعث الذي يحل فيه العذاب على أهل الإعراض ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٤٢]

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ أي : الأرواح حِينَ مَوْتِها فيقبضها إليه قبضا ، وَيتوفى الأنفس الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فيقبضها ويترك شعاعها فى البدن ، فالتى قضى عليها الموت يتوفاها ظاهرا وباطنا ، والتي لم يقض موتها يتوفاها ظاهرا فقط عند النّوم ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ، لا يردها إلى البدن ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرى أي : النائمة إلى بدنها عند التيقظ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى : هو الوقت المضروب لموتها ، فشبه النّائمين بالموتى ، حيث لا يميزون ولا يتصرفون ، كما أن الموتى كذلك.

قال الإمام «١» : النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحانى ، إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه فى جميع الأعضاء ، وهى الحياة ، ثم إنه فى وقت النّوم ينقطع تعلقه عن ظاهر البدن ، دون باطنه ، وفى وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر البدن وباطنه ، فالموت والنّوم من جنس واحد بهذا الاعتبار ، لكن الموت انقطاع كامل ، والنّوم انقطاع ناقص ، فظهر أن القادر الحكيم دبّر [تعلق جوهر] «٢» النفس بالبدن على ثلاثة أوجه ، أحدها : أنه دبّر أمرها ، بحيث يقع ضوء [الروح] «٣» على جميع أجزاء البدن ، ظاهره وباطنه ، وذلك هو اليقظة.

---

(١) هو الإمام الرّازى ، وانظر كلامه فى مفاتيح الغيب (١٣/ ٤٤٨). والنّقل بتصرف.

(٢) زيارة ليست فى الأصول الخطية. وأثبتها من تفسير الفخر الرّازى.

(٣) فى تفسير الرّازى : النفس.

وثانيها : بحيث يقطع عن الظاهر والباطن ، وهو الموت. وثالثها : بحيث يقطع عن ظاهر البدن دون الباطن ، وهو النّوم ، فثبت أن النّوم والموت يشتركان فى كلّ واحد منهما بتوفى النّفس ، ثم يمتاز أحدهما بخواص معينة.

ومثل هذا التقدير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم. هـ.

وقال سهل : إن اللّه إذا توفى الأنفس أخرج الرّوح النّورى من لطيف نفس الطبيعي الكثيفى ، فالذى يتوفى فى النوم من لطيف نفس الطبع ، لا لطيف نفس الرّوح. فالنائم يتنفس تنفسا لطيفا ، وهو نفس الرّوح ، الذي إذا زال لم يكن للعبد حركة ، وكان ميتا. وقال : حياة النّفس الطبيعي بنور لطيف ، وحياة لطيف نفس الرّوح بذكر اللّه. وقال أيضا : الروح تقوم بلطيفة فى ذاتها بغير نفس الطبع ، ألا ترى أن اللّه تعالى خاطب الكلّ فى الذر بنفس ، وروح ، وفهم ، وعقل ، وعلم لطيف ، بلا حضور طبع كثيف. هـ. قلت : وبهذا الاعتبار يقع لها العذاب فى البرزخ أو النّعيم ، وتذهب وتجىء فى عالم البرزخ.

وقال فى القصد : النفس مع الرّوح كالجسد مع الظل ، والظل يميل ، والأصل لا يميل ، والرّوح سره ، والسر بربه ، وهو شعاع الحقيقة الصغرى ، والسر نور السر الأعلى ، وكلّ هذا مخلوق بقدرة اللّه موثوق ، فلا يستفزك غير هذا فتشقى ، وفى جهنم من نور البعد تلقى. هـ. قلت : السر الأعلى هو معانى أسرار الذات القائمة بالأشياء ، وهو قديم غير مخلوق.

وذكر الثعلبي عن ابن عباس أنه قال : فى ابن آدم نفس وروح ، بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس هى التي بها العقل والتمييز ، والرّوح التي بها التحرك والنّفس فإذا نام العبد قبض اللّه نفسه ولم يقبض روحه. هـ. هذا ، وفى الصحيح : إن اللّه قبض أرواحنا حيث شاء ، وردها حيث شاء. فأطلق القبض على الأرواح. والصواب : أن النّفس والرّوح فى هذا واحد بدليل قوله : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ والحاصل : أن الموت : توف كامل ، بإخراج الرّوح مع شعاعها من البدن ، فتذهب الحياة ، والنّوم : توف ناقص ، بإخراج الرّوح مع بقاء شعاعها فى البدن ، به الحياة والتنفّس.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه أيضا أنه قال : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام ، ويتعارف ما شاء اللّه منها ، فإذا أراد اللّه رجوعها إلى الأجسام ، يمسك اللّه عنده أرواح الأموات ، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها ، فذلك قوله عز وجل : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ .. الآية «١».

---

(١) انظر تفسير النّسفى (٢/ ١٨٣).

(٨٣/٥)

وعبارة «عز الدين بن عبد السّلام» : فى كلّ جسد روحان إحداهما : روح اليقظة ، التي أجرى اللّه العادة أنها إذا كانت فى الجسد كان الإنسان متيقظا ، فإذا خرجت من الجسد نام الإنسان ، ورأت تلك الرّوح المنامات ، والأخرى :

روح الحياة ، التي أجرى اللّه العادة أنها إذا كانت فى الجسد كان حيّا فإذا فارقته مات ، فإذا رجعت إليه حيى ، وهاتان الرّوحان فى بطن الإنسان ، لا يعلم مقرّهما إلا من أطلعه اللّه عليهما ، فهما كجنينين فى بطن امرأة. هـ.

والآية منبهة على كمال قدرته ، وفيها دلالة على البعث ، وأنه كاليقظة سواء ، وهذا معنى قوله : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فى عجائب قدرته ، فيعلمون أن من قدر على إمساك الأرواح فى النّوم ، وردها ، قادر على إماتتها وإحيائها. وفى التوراة : كما تنام تموت ، وكما تستيقظ تبعث.

الإشارة : اللّه يتوفى الأنفس المطهرة إلى حضرة قدسه ، حين موتها من الهوى ، ويقبض الأنفس التي لم

تمت من حظوظها فى سجن الأكوان ، وهيكل ذاتها ، فى حال منام غفلتها ، فيمسك التي قضى عليها الموت فى حضرة قدسه ، فلا يردها إلى شهود حضرة الأشباح ، ويرسل الأخرى تجول فى حضرة الأشباح وأودية الدنيا ، إلى أجل مسمّى ، إما موتها الحسى أو المعنوي ، إن سبقت لها سابقة عناية.

ثم تمم الرّد على من اعتقد أن الأصنام تنفع أو تضر ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)

يقول الحق جل جلاله : أَمِ اتَّخَذُوا أي : قريش مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ ، فيزعمون أن أصنامهم تشفع لهم عند اللّه ، أي : إنهم اتخذوا - على زعمهم - من دون اللّه شفعاء بحكمهم ، لا بتعريف من قبل اللّه وإخبار ، فإن اللّه لا يقبل الشفاعة من أحد إلا بإذن منه ، وإن الذين يقولون ذلك افتراء على اللّه. قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ ، الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه ، والتوبيخ عليه ، أي : قل : أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئا من الأشياء ولا يعقلون شيئا ، فضلا عن أن يملكوا الشفاعة عند اللّه تعالى.

(٨٤/٥)

قُلْ تبكيتا وتجهيلا لهم : لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً أي : هو مالكها ، ولا يقدر أحد أن يتصدى لها ، إلا أن يكون المشفوع له مرتضى ، والشفيع مأذونا ، وكلاهما مفقود فى أصنامهم ، ثم قرر اختصاصه بالشفاعة بقوله :

لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : له التصرف فيهما ، وفيما فيهما من المخلوقات ، لا يملك أحد أن يتكلم فى أمر من أموره بدون إذنه ورضاه ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ يوم القيامة ، لا إلى أحد سواه ، فيفعل يومئذ ما يريد.

قال النّسفى : لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ اليوم ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ يوم القيامة ، فلا يكون الملك فى ذلك اليوم إلّا له ، فله الملك فى الدنيا والآخرة. هـ.

الإشارة : الشفاعة إنما تكون لأهل الجاه عند اللّه ، والجاه يعظم بحسب التوجه ، والتوجه يعظم على قدر المحبة ، والمحبة على حسب العناية السابقة ، يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ فبقدر أنوار التوجه تعظم أنوار المواجهة ، وبقدر أنوار المواجهة تتسع المعرفة ، وبحسب المعرفة يكون الجاه ، وبقدر الجاه تتسع الشفاعة ، حتى إن الواحد من الأولياء يشفع فى وجود بأسره من أهل زمانه ، إما عند موته ، أو عند

الحساب. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر علامة أهل الشرك ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٤٥ الى ٤٦]

وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)

قلت : «وحده» : منصوب عند سيبويه ، على المصدر ، وعند الفراء : على الحال ، والظاهر : أنه أطلق المصدر على اسمه.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ أي : إذا أفرد اللّه بالذكر ، ولم تذكر معه آلهتهم ، فمدار المعنى على قوله : وَحْدَهُ ، اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أي : انقبضت ونفرت ، كقوله :

... وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً

«١» ، وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ يعنى : آلهتهم ، ذكر اللّه معهم ، أو لم يذكر ، إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ لفرط افتتانهم بها ، ونسيانهم ذكر اللّه ، أو : وإذا قيل لهم :

لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، نفروا لأن فيه نفيا لآلهتهم.

---

(١) من الآية ٤٦ من سورة الإسراء. [.....]

وقال الورتجبي : صورة الآية وقعت على الجاحدين والمتكبرين ، الذين ليس فى محبتهم إلا متابعة الأشكال والأمثال ، من حيث التشبيه والخيال لأن قلوبهم خلقت على مشاكلة الأضداد والأنداد ، ولم يكن فى قلوبهم سجية أهل المعرفة باللّه ، فإذا سمعوا ذكر من لا يدخل فى الخيال والمثال انقبضت قلوبهم وصدورهم ، ونفرت ، وإذا سمعوا ذكر غير اللّه من الصور والأشباح ، سكنت نفوسهم إليها من غاية غباوتهم ، وكمال جهالتهم ، فهم مثل الصبيان ، إذ هم يفرحون بالأفراس الطينية والأسد الخشبية ، ولا يطيقون أن ينظروا إلى عدو العاديات ، وإلى الضراغم الباديات .. هـ. مختصرا.

ولقد بالغ فى بيان حالتيهم المتقابلتين حيث ذكر الغاية فيهما ، فإن الاستبشار : هو أن يمتلىء القلب سرورا ، حتى تنبسط له بشرة الوجه وتتهلل ، والاشمئزاز : أن يمتلىء القلب غيظا وغمّا ، حتى ينقبض منه أديم الوجه ، فتظهر عليه الكآبة والحزن. والعامل فى إذا الأولى : «اشمأزت» ، وفى الثانية : ما هو

العامل فى «إذا» الفجائية ، والتقدير : وقت ذكر الذين من دونه فاجأوا وقت الاستبشار.
ثم أمر نبيه بالالتجاء إليه حين إدبارهم ، فقال : قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : يا فاطر ، وليس بوصف ، خلافا للفراء والمبرّد ، أي : اللهم يا مظهر السماوات والأرض ، عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أي : ما غاب من أسرار ذاتك وما ظهر ، أو : السر والعلانية ، أي : التجئ إليه تعالى إذا اغتممت من شدة شكيمتهم فى المكابرة والعناد فإنه القادر على الأشياء بجملتها ، والعالم بالأحوال برمتها. أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ أي : حكما يسلمه كلّ مكابر ومعاند ، ويخضع له كلّ عات ومارد ، فاحكم بينى وبين معاندى ، بالنصر عليهم فى الدنيا والآخرة.
وعن ابن المسيّب «١» : «ما أعرف آية قرئت فدعى عندها إلا أجيب سوى هذه». يعنى أنه صلّى اللّه عليه وسلم دعا اللّه أن يحكم بينه وبين عدوه بالاستئصال ، فأمهل لأنه رحمة. وعن الرّبيع بن خثيم - وكان قليل الكلام - : أنه أخبر بقتل الحسين رضي اللّه عنه ، وقالوا : الآن يتكلم ، فما زاد على أن قال : أو قد فعلوا؟ ، وقرأ : اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ...
الآية ، ثم قال على إثرها : قتل من كان رسول صلّى اللّه عليه وسلم يجلسه فى حجره ، ويقبل فاه «٢». هـ.
الإشارة : ينبغى للمؤمن أن يكون متعاكسا مع المشرك ، إذا سمع كلمة التوحيد «لا إله إلا اللّه» ، فرح وانبسط ، وإذا ذكر اللغو واللعب اشمأز وانقبض ، والعابد أو الزاهد إذا سمع ما يدل على الطاعة والاستعداد للآخرة فرح ونشط ،

---

(١) فى النّسفى : الربيع بن المسيب.
(٢) انظر : تفسير النّسفى (٢/ ١٨٥).

وإذا سمع ما يدلّ على الدنيا والبطالة اشمأز وانقبض ، والمريد السائر ، إذا سمع ما يقرب إلى اللّه فرح وانبسط ، وإذا سمع ما يبعد عنه من ذكره السّوى اشمأز وانقبض ، وأما الواصل الكامل فلا ينقبض من شيء لزيادته إلى اللّه بكلّ شيء لأنه عرف اللّه فى كلّ شيء ، وسمع منه فى كلّ شيء ، فلا يحجبه عن اللّه شيء ، قد فنيت دائرة حسه ، واتسعت دائرة معرفته ، يأخذ النّصيب من كلّ شيء ، ولا يأخذ النّصيب منه شيء.
قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه : فى بعض كتب اللّه المنزلة على أنبيائه ، يقول اللّه

تعالى : من أطاعنى فى كلّ شيء ، بهجرانه لكل شيء ، أطعته فى كلّ شيء ، بأن أتجلى له دون كلّ شيء ، حتى يرانى أقرب إليه من كل شيء. هذه طريق أولى ، وهى طريق السالكين. وطريق أخرى كبرى : من أطاعنى فى كلّ شيء ، بإقباله على كل شيء ، لحسن إرادة مولاه فى كلّ شيء ، أطعته فى كلّ شيء ، بأن أتجلى له فى كلّ شيء ، حتى يرانى كأنى كل شيء. هـ.

ثم ذكر وبال الشرك ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٤٧ الى ٤٨]

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٤٨)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بالشرك ، ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً : من الأموال والذخائر ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ زائد عليه ، لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ أي : شدته ، يَوْمَ الْقِيامَةِ أي : لو أن لهم جميع ما فى الدنيا لجعلوا ذلك فدية لأنفسهم من العذاب الشديد ، وهيهات هيهات ، ولات حين مناص. وهذا كما ترى وعيد شديد لأهل الشرك ، وإقناط كلى لهم. وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ أي : ظهر لهم من فنون العقوبات ما لم يكن فى ظنهم وحسبانهم ، ولم يحدّثوا به نفوسهم. وهذا غاية من الوعيد ، لا غاية وراءها ، ونظيره فى الوعد : قوله تعالى : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ «١».

---

(١) من الآية ١٧ من سورة السجدة.

وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا أي : ظهر لهم سيئات أعمالهم التي كسبوها. أو : سيئات كسبهم حين تعرض عليهم صحائفهم ، وكانت خافية عليهم ، أو : عقاب ذلك. وَحاقَ بِهِمْ أي : نزل بهم وأحاط ، ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أي : جزاء هزئهم بالإسلام ، ومن جاء به ، ومن تبعه.

الإشارة : الآية تجرّ ذيلها على كلّ ظالم لم يتب ، فيتمنى الفداء بجميع ما فى الأرض ، فلا يمكّن منه. وقوله تعالى : وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ، هذه الآية عامة ، لا يفلت منها إلا الفرد النّادر ، الذي وصل إلى غاية المعرفة العيانية ، ومن لم يصل إلى هذا المقام فهو مقصر ، يظن أنه فى عليين ، وهو فى أسفل سافلين ، ولذلك عظم خوف السلف منها ، فقد جزع محمد بن المنكدر عند الموت ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أخشى آية من كتاب اللّه : وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ فأنا

أخشى أن يبدو لى من اللّه ما لم أحتسب «١». وعن سفيان أنه قرأها ، فقال : ويل لأهل الرّياء ، ويل لأهل الرّياء. هـ.

وفي الإحياء : من اعتقد في ذات اللّه وصفاته وأفعاله خلاف الحق ، وخلاف ما هو عليه إما برأيه أو معقوله ونظره ، الذي به يجادل ، وعليه يعول ، وبه يغتر ، وإما بالتقليد ، فمن هذا حاله ربما ينكشف له حال الموت بطلان ما اعتقده جهلا ، فيتطرق له أن كلّ ما اعتقده لا أصل له ، فيكون ذلك سببا فى شكه عند خروج روحه ، فيختم له بسوء الخاتمة ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وبقوله : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا «٢» .. الآية. انظر عبارته فى كتاب الخوف ، وقريبا منه فى القوت ، عصمنا اللّه من سوء القضاء ، وختم لنا بالسعادة التامة بمنّه وكرمه.

ثم ذكر حالة أخرى من قبائح أهل الشرك ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٤٩ الى ٥١]

فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١)

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ١٢٤).

(٢) الآية ١٠٣ من سورة الكهف.

يقول الحق جل جلاله : فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ أي : جنسه ضُرٌّ : فقر أو غيره دَعانا معرضا عما سوانا. والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، من ذكر حالتى أهل الشرك القبيحتين ، وما بينهما اعتراض مؤكد للإنكار عليهم ، أي : إنهم يشمئزّون عن ذكر اللّه وحده ، ويستبشرون بذكر الآلهة ، فإذا مسهم الضر دعوا من اشمأزوا عن ذكره ، دون من استبشروا بذكره ، فناقضوا فعلهم.

فإن قلت : حق الاعتراض أن يؤكّد المعترض بينه وبينه؟ قلت : ما فى الاعتراض من دعاء الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ربه ، بأمر من اللّه ، وقوله : أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ ، ثم ما عقّبه من الوعد العظيم ، تأكيد لإنكار اشمئزازهم ، واستبشارهم ، ورجوعهم إلى اللّه فى الشدائد ، دون آلهتهم ، كأنه قيل : قل : يا ربّ لا يحكم بينى وبين هؤلاء ، الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة ، إلا أنت ، ثم هددهم بقوله : ولو أن لهؤلاء الظلمة ما فى الأرض جميعا لافتدوا به.

انظر النّسفى.

ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا : أعطيناه إياها ، تفضلا فإن التخويل مختص به ، لا يطلق على ما أعطى جزاء ، فإذا أعطيناه ذلك قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ أي : ذلك التخويل أو الإنعام عَلى عِلْمٍ منى بوجوه كسبه ، كما قال قارون : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي «١» أو : على علم منى بأنى سأعطاه ، لما فيّ من فضل واستحقاق ، أو : على علم من اللّه تعالى باستحقاقى لذلك المال ، فتذكير الضمير إما لعوده على التخويل المأخوذ من خَوَّلْناهُ ، أو : بتأويل النّعمة بمعنى الإنعام ، أو : المراد بشيء من النّعمة ، أو : يعود على «ما» إذا قلنا : موصولة ، لا كافة ، أي : إن الذي أوتيته على علم منى.

قال تعالى : بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ أي : ليس ما خوّلناه نعمة بل هى محنة وابتلاء له ليظهر كفره أو شكره. ولما كان الخبر مؤنثا ساغ تأنيث المبتدأ لأجله ، وقرىء : «بل هو فتنة». وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أنّ الأمر كذلك ، وأنّ التخويل إنما كان فتنة ، وفيه دلالة على أن المراد بالإنسان الجنس.

قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي : قد قال هذه المقالة ، وهى : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ من قبلهم ، كقارون وقومه ، قال قارون : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي «٢» وقومه راضون بمقالته ، فكأنهم قالوها معه. ويجوز أن يكون فى الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها. فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ من متاع الدنيا ، وما جمعوا منها شيئا حين ينزل بهم العذاب ، فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا أي : جزاء سيئات ما كسبوا ، وهو العذاب فى الدنيا والآخرة ، أو : سمّى جزاء السيئة سيئة للازدواج ، كقوله : وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها «٣» أي : فأصابهم وبال

---

(١) من الآية ٧٨ من سورة القصص.

(٢) من الآية ٧٨ من سورة القصص.

(٣) من الآية ٤٠ من سورة الشورى.

(٨٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٩٠

ما كسبوا ، وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ : المشركين ، يعنى قريشا ، سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا من الكفر والمعاصي ، كما أصاب أولئك. والسين للتأكيد. وقد أصابهم ذلك ، حيث قحطوا سبع سنين ، وقتل صناديدهم يوم بدر. وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ : بفائتين من عذاب اللّه الإشارة : هذه الخصال الذميمة توجد فى كثير من هذه الأمة ، إذا أصابت العبد شدة أو قهرية رجع إلى اللّه ، فإذا فرج عنه بسبب عادى ، كما هو دأب عالم الحكمة ، أسند الفرج إلى ذلك السبب ، فيقول : فلان فرج عنى ، أو الدواء الفلاني

شفانى ، وهو شرك ، كاد أن يكون جليا. والواجب : النظر إلى فعل اللّه وقدرته ، وإسقاط الوسائط من نظره ، ولو وجدت حكمة ، فالكمال فعلها وجودا ، والغيبة عنها شهودا. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ما جرت به عادته فى خلقه ، من تعاقب العسر واليسر ، والقبض والبسط ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٥٢]

أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أي : أقالوا ذلك ولم يعلموا ، أو : أغفلوا ولم يعلموا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ أي : يوسعه لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ أي : يضيق لمن يشاء بلا سبب ولا علة ، أو : يجعله على قدر القوت من غير زيادة ولا نقصان ، وهو من إتمام النّعمة. وفى الحكم : «من تمام النّعمة عليك أن يعطيك ما يكفيك ، ويمنعك ما يطغيك» «١». إِنَّ فِي ذلِكَ : البسط والقبض لَآياتٍ دالة على أن الحوادث كلها من اللّه بلا واسطة ، لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، إذ هم المستدلون بها على أن القابض والباسط هو اللّه ، دون غيره.

الإشارة : قد يبسط اللّه الرّزق لمن لا خلاق له عنده ، ويقبضه عن أحب الخلق إليه ، وهو الغالب ، فرزق المتقين كفاف ، ورزق المترفين جزاف.

ولما وبّخ المشركين ، وأطنب الكلام فيه ، وأبرق وأرعد ، رغّب فى التوبة للكافة ، استعطافا وترغيبا بعد الترهيب ، فقال :

---

(١) انظر الحكم ، بتبويب المتقى الهندي/ ص ٣٧ حكمة ٢٢٥.

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٥٣ الى ٥٤]

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (٥٤)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أي : أفرطوا فى الجناية عليها ، بالإسراف فى المعاصي ، والغلو فيها ، لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ : لا تيأسوا من مغفرته أولا ، وتفضله بالرحمة ثانيا ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، بالعفو عنها ، إلا الشرك. وفى قراءة النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى» «١» لكنها لم تتواتر عنه.

والمغفرة تصدق بعد التعذيب وقبله ، وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر ، كيف ، وقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لا

يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ «٢» ظاهر فى الإطلاق مما عدا الشرك؟ ولما يدل عليه التعليل بقوله :

إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ على المبالغة ، وإفادة الحصر ، والوعد بالرحمة بعد المغفرة. وما فى عِبادِيَ من الدلالة على الذلة والاختصاص ، المقتضيين للترحم. إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ يستر عظام الذنوب الرَّحِيمُ يكشف فظائع الكروب. والآية ، وإن نزلت فى «وحشي» ، قاتل «حمزة» ، أو فى غيره ، لا تقتضى التخصيص بهم ، فإن أسباب النّزول لا تخصص. وعن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية» «٣».

ولما نزلت فى شأن وحشي ، وأسلم ، قال المسلمون : هذه له خاصة ، أو للمسلمين عامة؟ فقال النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «بل هى للمسلمين عامة» «٤». وقال قتادة : إن ناسا أصابوا ذنوبا عظاما ، فلما جاء الإسلام أشفقوا ألا يتاب عليهم ، فدعاهم اللّه تعالى بهذه الآية «٥». وقال ابن عمر : نزلت هذه الآيات فى عياش بن أبى ربيعة ، والوليد بن الوليد ،

---

(١) أخرجها الترمذي فى (التفسير - باب ومن سورة الزمر ، ح ٣٢٣٧) والبغوي فى شرح السنة (١٤/ ٣٨٤) وفى التفسير (٧/ ١٢٦) من حديث أسماء بنت يزيد ، قال الترمذي : حديث حسن غريب.

(٢) الآية ٤٨ ، ١١٦ من سورة النّساء.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٥) وابن جرير (٢٤/ ١٦) والبيهقي فى شعب الإيمان (باب ٤٧ ح ٧١٣٧) من حديث ثوبان رضي اللّه عنه.

(٤) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٦٢٠) للطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقي فى الشعب ، بسند لين. عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٥) أخرج البخاري فى (التفسير - تفسير سورة الزمر - باب يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ ح ٤٨١٠) عن سعيد جبير ، عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك كانوا قتلوا وأكثروا ، وزنوا وأكثروا ، فأتوا النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، وقالوا : إن الذي تدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزلت هذه الآية. [.....]

ونفر كانوا قد أسلموا ثم فتنوا ، فكنا نقول : لا يقبل اللّه منهم صرفا ولا عدلا ، فنزلت الآية ، وكان

عمر بن الخطاب كاتبا ، فكتبها بيده ، ثم بعث بها إلى عياش بن أبى ربيعة والوليد ، وإلى أولئك النّفر ، فأسلموا ، وهاجروا «١».

قال عليّ رضي اللّه عنه : «ما فى القرآن آية أوسع من هذه الآية.» «٢». فما يقنط النّاس ويشدد عليهم بعد هذه الآية إلا جهول ، أو جامد ، قال زيد بن أسلم : إنّ رجلا كان فى الأمم الماضية مجتهدا فى العبادة ، فيشدد على نفسه ، ويقنط الناس من رحمة اللّه ، فمات ، فقال : أىّ ربّ مالى عندك؟ فقال : النار. فقال : يا رب أين عبادتى؟ فقال : إنك كنت تقنط النّاس من رحمتى فى الدنيا ، فاليوم أقنطك من رحمتى. وعن عليّ - كرم اللّه وجهه - قال : الفقيه كل الفقيه الذي لا يقنط النّاس من رحمة اللّه ، ولا يؤمنهم من عذاب اللّه ، ولا يرخص لهم فى معاصى اللّه. هـ.

ثم حضّ على التوبة لتتحقق المغفرة ، فقال : وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ أي : ارجعوا إليه بالتوبة والإخلاص. فالإنابة أخص من التوبة لأن التوبة : مطلق النّدم على الزلة ، والإنابة : تحقيق التوبة والنّهوض إلى اللّه بإخلاص التوجه. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من السعادة أن يطول عمر الرّجل ويرزقه اللّه الإنابة» «٣». قال القشيري : وقيل الفرق بين الإنابة والتوبة : أن التائب يرجع خوفا من العقوبة ، والمنيب يرجع حياء منه تعالى. هـ.

والأمر بالتوبة لا يدل على تقييد المغفرة فى الآية بها ، كما تقدم إذ ليس المدعى : أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب ، حتى يغنى عن الأمر بها ، وإنما المراد : الإخبار بسعة غفرانه ، سواء كان مع التوبة أم لا. قال ابن عرفة : واعلم أن التوبة من الكفر مقطوع بها ، ومن المعاصي ، قيل : مظنونة ، وقيل :

مقطوع بها ، هذا فى الجملة ، وأما فى التعيين ، كتوبة زيد بن عمرو ، فلا خلاف أنها مظنونة. هـ. قلت : قد اقترن بتوبة زيد من الأخبار ما يقطع بصحتها.

ثم قال : وأما العاصي إذا لم يتب فهو فى المشيئة ، مع تغليب جانب الخوف والعقوبة ، واعتقاد أن العذاب أرجح ، وأما العصيان بالقتل ، ففيه خلاف بين أهل السّنة ، فقيل : يخلد فى النّار ، وقيل : فى المشيئة. هـ. وقال أبو الحجاج الضرير - رحمه اللّه :

وتوبة الكافر تمحو إثمه لا خلاف فيه بين الأمّه

وتوبة العاصي على الإرجاء وقيل كالأول بالسواء

إذ لا يكون دونه فى الحال وهو عندى أحسن الأقوال

دليله : تتابع الظواهر شاملة مسلم وكافر. هـ.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٤/ ١٥) وانظر : أسباب النّزول للواحدى (ص/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٤/ ١٦).

(٣) رواه الحاكم (٤/ ٢٤٠) وصحّحه ، ووافقه الذهبي ، من حديث جابر رضي اللّه عنه.

البحر المديد ج ٥ ، ص : ٩٣
وَأَسْلِمُوا لَهُ أي : اخضعوا له ، وانقادوا لأمره. قال القشيري : أي : أخلصوا فى طاعتكم ، والإسلام - الذي هو الإخلاص بعد الإنابة - : هو أن يعلم نجاته بفضله ، لا بإنابته فبفضله يصل إلى إثابته ، لا بإنابته يصل إلى فضله. هـ. مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب.
قال القشيري : العذاب هنا ، قيل : الفراق ، وقيل : هو أن يفوته وقت الرّجوع بسوء الإياس. هـ. ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ :
لا تمنعون منه أبدا.
الإشارة : لا يعظم عندك الذنب عظمة تصدك عن حسن الظن باللّه ، فإن من استحضر عظمة ربه صغر فى عينه كلّ شيء. وتذكر قضية الرّجل الذي قتل تسعا وتسعين نفسا ، ثم سأل راهبا : هل له توبة؟ فقال : لا ، فكمل به المائة ، ثم سأل عارفا ، فقال له : ومن يحول بينك وبينها؟ لكن اخرج من القرية التي كنت تعصى فيها ، واذهب إلى قوم يعبدون اللّه فى مكان ، فذهب ، فأدركه الموت فى الطريق ، فلما أحس بالموت انحاز بصدره إلى القرية التي قصدها ، ثم مات ، فاختصمت فيه ملائكة العذاب وملائكة الرّحمة ، فقال لهم الحق تعالى «١» : قيسوا من القرية التي خرج منها ، إلى القرية التي قصدها ، فإلى أيهما هو أقرب هو منها؟ فوجدوه أقرب إلى القرية التي قصدها بشبر ، فأخذته ملائكة الرّحمة «٢». إلى غير ذلك من الحكايات التي لا تحصى فى هذا المعنى.
وتأمل قضية الشاب الذي أتى النّبى صلّى اللّه عليه وسلم يبكى ، فقال : ما يبكيك؟ قال : ذنوبى. فقال له عليه السّلام : إن اللّه يغفر ذنوبك ، ولو كانت مثل السماوات السبع ، والأرضين السبع ، والجبال الرّواسى ، فقال : يا رسول اللّه ، ذنب من ذنوبى أعظم من السماوات السبع والأرضين السبع ، فقال له : ذنوبك أعظم أو العرش؟ قال : ذنوبى ، فقال له : ذنوبك أعظم أو الكرسي؟ قال : ذنوبى ، فقال : ذنوبك أعظم أو إلهك؟ فقال : اللّه أعظم ، فقال : فأخبرنى عن ذنبك. قال : إنى أستحيى ، فقال : فأخبرنى ، فقال : إنى كنت نباشا أنبش القبور منذ سبع سنين ، حتى ماتت جارية من بنات الأنصار ، فنبشتها ، وأخرجتها من كفنها ، فمضيت ، ثم غلبنى الشيطان ، فرجعت ، فجامعتها ، فقامت الجارية ، وقالت : الويل لك يا شاب من ديّان يوم الدين ، يوم يضع كرسيه للقضاء ، يأخذ من الظالم للمظلوم ، تركتنى عريانة فى عساكر الموتى ، وأوقفتنى جنبا ين يدى اللّه ، فقام النّبى صلّى اللّه عليه وسلم وهو يضرب فى قفاه ، وهو يقول : يا فاسق ، اخرج ، ما أقربك من النّار ، فخرج الشاب تائبا إلى اللّه تعالى ، حتى أتى عليه ما شاء اللّه ، ثم قال : يا إله محمد وآدم وحواء ، إن كنت

(١) بوحي ، كما تفيده رواية البخاري. وفى رواية مسلم : «فأتاهم ملك فى صورة آدمي فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ..» الحديث.

(٢) أخرج القصة البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب حديث الغار ، ح ٣٤٧٠) ومسلم فى (التوبة ، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ، ٤/ ٢١١٨ ، ح ٢٧٦٦) من حديث أبى سعيد الخدري رضي اللّه عنه.

غفرت لى فأعلم محمدا وأصحابه ، وإلا فأرسل علىّ نارا من السماء فاحرقنى بها ، ونجنى من عذاب الآخرة ، فجاء جبريل ، فقال : السّلام يقرئك السّلام ، فقال : هو السّلام وإليه يعود السّلام ، قال : يقول : أأنت خلقت خلقى؟ قال :

بل هو الذي خلقهم. قال : يقول : ترزقهم؟ قال : بل هو الذي يرزقهم ، قال : يقول : أأنت تتوب عليهم؟ قال : بل هو الذي يتوب عليهم. قال : فتب على عبدى ، فإنى تبت عليه ، فدعا النّبى صلّى اللّه عليه وسلم الشاب ، وتاب عليه ، وقال : إن اللّه هو التواب الرّحيم. هـ. ذكره السمرقندي والثعلبي «١».

ثم أمر باتباع القرآن بعد الإنابة ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٥٥ الى ٥٩]

وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (٥٩)

يقول الحق جل جلاله : وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ أي : القرآن ، فإنه أحسن الحديث ، ولا أحسن منه لفظا ومعنى ، أو : المأمور به دون المنهي ، أو : العزائم دون الرّخص ، كقوله : الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ «٢» ، أو : الناسخ دون المنسوخ ، ولعله ما هو أعم ، فيصدق بكلّ ما يقرب إلى اللّه ، كالإنابة ، والطاعة ، ونحوهما ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً : فجأة ، وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ بمجيئه لتداركوا وتتأهبوا.

أمرتكم بذلك كراهة أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ ، والتنكير للتكثير ، كما فى قوله : عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ «٣» ،

أو :

يراد به بعض الأنفس ، وهى نفس الكافر ، أو : يراد نفس متميزة إما بلجاج فى الكفر شديد أو بعقال عظيم :

---

(١) غفر اللّه لشيخنا ابن عجيبة ، لقد كان فى غنى عن ذكر هذه الرّواية الغريبة.

(٢) من الآية ١٨ من سورة الزمر.

(٣) من الآية ١٤ من سورة التكوير.

يا حَسْرَتى ، بألف بدل من ياء الإضافة لأن العرب تقلب ياء المتكلم ألفا فى الاستغاثة ، فيقولون : يا ويلتا ، يا ندامتا ، فيخرجون ذلك على لفظ الدعاء ، وربما ألحقوا بها الهاء ، فيقال : يا رباه ، يا مولاه ، وربما ألحقوا ياء المتكلم ، جمعا بين العوض والمعوض ، وبذلك قرأ أبو جعفر : «يا حسرتاى» أي : يا ندامتاه ويا حزناه. عَلى ما فَرَّطْتُ قصّرت. و«ما» : مصدرية ، أي : على تقصيرى وتفريطى فِي جَنْبِ اللَّهِ أي : جانبه وحقه وطاعته ، أو : فى ذاته ، أي : معرفة ذاته ، أو فى قربه ، من قوله : وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ «١» ، أو : فى سبيل اللّه ودينه ، والعرب تسمى السبب الموصل إلى الشيء جنبا ، تقول : تجرعت فى جنبك غصصا ، أي : لأجلك ، أو : فى الجانب الذي يؤدى إلى رضوانه ، وهو توحيده والإقرار بنبوة نبيه محمد صلّى اللّه عليه وسلم. وقرىء «فى ذكر اللّه». وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أي : المستهزئين بدين اللّه. قال قتادة : لم يكفه أن ضيّع طاعة اللّه حتى سخر بأهلها. و«إن» : مخففة ، والجملة : حالية ، أي : فرطت وأنا ساخر.

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي : أعطانى الهداية ، لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ : من الذين يتقون الشرك. قال الإمام [أبو منصور] «٢» : هذا الكافر أعرف بهداية اللّه من المعتزلة. وكذلك أولئك الكفرة ، الذين قالوا لأتباعهم :

لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ «٣» يقولون : لو وفقنا اللّه للهداية ، وأعطانا الهدى لدعوناكم إليه ، ولكن علم منا اختيار الضلالة والغواية فخذلنا ولم يوفقنا. والمعتزلة يقولون : بل هداهم وأعطاهم التوفيق لكنهم لهم يهتدوا. انظر النسفي.

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً أي : رجعة للدنيا ، فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ : الموحّدين الطائعين. و«أو» : للدلالة على أنها لا تخلو من هذه الأقوال ، تحيّرا وتحسرا ، وتعليلا بما لا طائل

تحته.

فردّ اللّه عليهم بقوله : بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ أي : قد جاءتك آياتي ، وبيّنت لك الهداية من الغواية ، وسبيل الحق من الباطل ، فتركت ذلك ، وضيعت ، واستكبرت عن قبوله ، وآثرت الضلالة على الهدى ، واشتغلت بضد ما أمرت به ، وإنما جاء التضييع من قبلك ، فلا عذر لك.

و«بلى» : جواب لنفى مقدر ، وهو نتيجة القياس الاستثنائى ، أي : لو أن اللّه هدانى لا هتديت وكنت متقيا ، لكنه لم يهدنى ، وإنما أخّره لأنه لا بد من حكاية أقوال النّفس على ترتيبها ، ثم يذكر الجواب فى الجملة. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٣٦ من سورة النّساء.

(٢) فى الأصول [ابن منصور] والمثبت هو الذي فى النّسفى.

(٣) كما جاء فى الآية ٢١ من سورة إبراهيم.

الإشارة : واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم ، أي : خذوا فى الجد والاجتهاد فى اتباع الأحسن والأرجح ، فى الأفعال ، والأقوال ، والعقائد ، من قبل أن ينزل بكم العذاب. ولا عذاب أشد من الحجاب ، والتخلف عن مقامات الأحباب ، فى وقت لا ينفع التأسف ولا التحسر. قال القشيري : هذا فى أقوام يرون أمثالهم وأشكالهم ، تقدّموا عليهم فى أحوالهم ، فشكوا ما سلف من تقصيرهم ، ويرون ما وفّق أولئك إليه من أعالى الرّتب ، فيعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة. هـ. وفى ذلك قيل وأنشد :

السّباق السّباق قولا وفعلا حذر النّفس حسرة المسبوق

وهو معنى قوله : أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ كانت مقصّرة فى الدنيا : يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ أي : فى السير إلى معرفة ذاته ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ممن يتعاطى ذلك ، ويخرب ظاهره لتعمير باطنه ، فكنت أسخر منه وأضحك عليه ، أو تحتج بالقدر ، فتقول : لو أن اللّه هدانى لسلوك طريقه لكنت من المتقين الكاملين فى التقوى.

ولا ينفع الاحتجاج بالقدر فى دار التكليف مع بيان الطريق. أو تقول حين ترى العذاب ، وهو فراق الأحباب والتخلف عنهم : لو أن لى كرة إلى الدنيا ، فأجهد نفسى حتى أكون من أهل الإحسان ، الذين يعبدون اللّه على العيان ، بلى قد جاءتك آياتي ، وهم الدعاة إلىّ فى كلّ زمان ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ

أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها ، فكذّبت بها ، واستكبرت عن الخضوع لهم ، وكنت من الجاحدين لطريق التربية.

ثم ذكر مآل أهل التكذيب والصدق ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٦٠ الى ٦١]

وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)

يقول الحق جل جلاله : وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ، بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه ، كاتخاذ الولد والشريك ونفى الصفات عنه ، وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ بما ينالهم من الشدة والكآبة. والجملة : حال ، على أن الرّؤية بصرية ، أو : مفعول ثان لها ، إن كانت علمية. أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً أي : مقام لِلْمُتَكَبِّرِينَ عن الإيمان والطاعة ، وهو إشارة إلى قوله : وَاسْتَكْبَرْتَ ، ولا ينافى إشعاره بأن تكبرهم علة لاستحقاقهم النّار أن يكون دخولهم فيها لأجل أن كلمة العذاب حقّت عليهم لأن كبرهم مسبب عنها.

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا الشرك والمعاصي ، أي : من جهنم. بِمَفازَتِهِمْ : بفوزهم ، مصدر ميمى ، يقال : فاز بالمطلوب : ظفر به ، والباء متعلقة بمحذوف ، حال من الموصول ، مفيدة لمقارنة نجاتهم من العذاب بنيل الثواب ، أي : ينجيهم اللّه من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم ، أو : بسبب فوزهم بالإيمان والأعمال الحسنة فى الدنيا ، ولذا قرأ ابن عباس رضي اللّه عنه : «بمفازتهم بالأعمال الحسنة». قال القشيري : كما وقاهم اليوم من المخالفات ، وحماهم ، فكذلك غدا عن العقوبة وقاهم ، فالمتقون فازوا بسعادة الدارين ، اليوم عصمة ، وغدا نعمة ، واليوم عناية ، وغدا كفاية. هـ.

لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ : إما حال أخرى من الموصول ، أو : من مفازتهم وقيل : تفسير للمفازة ، كأنه قيل : وما مفازتهم؟ فقيل : لا يمسهم السوء ، أي : ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم ، فلا يمس أبدانهم سوء ، ولا قلوبهم حزن.

الإشارة : ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على اللّه ، بالدعاوى الباطلة ، من القلوب الخاوية ، ف كل من ادعى حالا ليست فيه ، أو : مرتبة لم يتحققها ، فالآية تجر ذيلها عليه ، واسوداد وجوهم بافتضاحهم. قال القشيري : هؤلاء الذين ادّعوا أحوالا ، ولم يصدقوا فيها ، وأظهروا المحبة للّه ، ولم يتحققوا بها ، وكفى بهم ذلك افتضاحا ، وأنشدوا :

ولما ادّعيت الحبّ قالت : كذبتنى فما لى أرى الأعضاء منك كواسيا؟

فما الحبّ حتى تنزف العين بالبكا وتخرس حتى لا تجيب المناديا «١».

وينجى اللّه الذين اتقوا شهود السّوى من كل مكروه ، بسبب مفازتهم بمعرفة اللّه فى الدنيا ، لا يمسهم السوء ، أي : غم الحجاب ، لرفعه عنهم على الدوام ، ولا هم يحزنون على فوات شيء إذ لم يفتهم شيء حيث فازوا باللّه ، «ما ذا فقد من وجدك»؟ «٢».

---

(١) انظر : ديوان قيس بن الملوح (مجنون ليلى) ص ٢١٣. وقال فى اللمع (٣٢١) : كان أبو الحسن سرىّ السّقّطى - رحمه اللّه - كثيرا. ينشد هذه الأبيات :

ولما ادعيت الحب قالت : كذبتنى فما لى أرى الأعضاء منك كواسيا

فما الحب حتى يلصق الجلد بالحشا وتذبل حتى لا تجيب المناديا

وتنحل حتى لا يبقى لك الهوى سوى مقلة تبكى بها أو تناجيا

(٢) جزء من مناجاة الشيخ أحمد بن عطاء اللّه السكندرى : انظر الحكم بتويب المتقى الهندي ص/ ٤٢.

(٩٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٩٨

قال الورتجبي : بمفازتهم : ما كان لهم فى اللّه فى أزل أزله ، من محبتهم ، وقبولهم بمعرفته ، وحسن وصاله ، ودوام شهود كماله. لا يمسهم السوء : لا يلحقهم ، فلا يلحق بهم فى منازل الامتحان ، تفرقة عن مقام الوصلة ، وحجاب عن جمال المشاهدة ، انظر تمامه. وحاصلة : فازوا بإدراك السعادة الأزلية. وعن جعفر الصادق : بمفازتهم :

بسعادتهم القديمة ، يعنى لقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى «١» ... الآية. قاله المحشى الفاسى.

ثم برهن على البعث الموعود به قبل ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٦٢ الى ٦٦]

اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ : جامد أوحى ، خير أو شر ، إيمان أو كفر ، لا بالجبر ،

بل بمباشرة الكاسب فى عالم الحكمة ، وفيه إثبات القدرة والعلم ، وهما مصححان للبعث والجزاء بالخير والشر ، لمحسن أو مسيء. قال القشيري : ويدخل تحت قوله : كُلِّ شَيْءٍ كسب العباد ، ولا يدخل كلامه لأن المخاطب لا يدخل تحت خطابه ولا صفاته. هـ. والمراد بالكلام : المعاني القديمة ، وأما الألفاظ والحروف فهى مخلوقة ، كما هو مقرر فى محله. وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أي : حافظ يتولى التصرف فيه كيف يشاء.

لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : مفاتح خزائنها ، واحدها «مقليد» ، أو : إقليد «٢» ، أو : لا واحد لها ، وأصلها فارسية ، والمراد : أنه مالكها وحافظها ، وهو من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبّر أمرها هو الذي يملك مقاليدها ، ومنه قولهم : فلان ألقيت إليه مقاليد الملك ، أي : مفاتح التصرف قد سلّمت إليه ، وفيه مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتحها.

---

(١) الآية ١٠١ من سورة الأنبياء. [.....]

(٢) انظر لسان العرب (٥/ ٣٧١٨ ، مادة قلد).

وعن عثمان : أنه سأل النّبى صلّى اللّه عليه وسلم عن المقاليد ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «هى لا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، وسبحان اللّه وبحمده ، أستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، بيده الخير ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير» «١».

ومعناه : أن للّه هذه الكلمات ، يوحّد بها ويمجّد ، وهى مفاتح خير السماوات والأرض ، ومن تكلّم بها أدرك ذلك فى الدنيا أو فى الآخرة ، ومرجعها إلى التحقق بالعبودية فى الظاهر ، ومعرفة الذات فى الباطن ، وهما السبب فى كل خير ، وبهما يدرك العبد التصرف فى الوجود بأسره ، فتأمله.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أي : كفروا به بعد كونه خالق كل شىء ، ومتصرفا فى ملكه كيف يشاء ، بيده مقاليد العالم العلوي والسفلى ، فكفروا بعد هذا بآياته التكوينية ، المنصوبة فى الآفاق وفى الأنفس ، والتنزيلية ، التي من جملتها هذه الآيات النّاطقة بذلك ، أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ خسرانا لا خسر وراءه ، وقيل : هو متصل بقوله :

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وما بينهما اعتراض.

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ به ، وكانوا يقولون له : أسلم لبعض آلهتنا نؤمن بإلهك لفرط

جهالتهم. وغير : منصوب ب «أعبد» ، وتَأْمُرُونِّي : اعتراض ، أي : أتأمروني أعبد غير اللّه بعد هذا البيان التام؟

وحذف نون الوقاية وإثباتها مدغمة وغير مدغمة ، كل قرىء به.

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ : من الأنبياء - عليهم السّلام : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ ، كلام وارد على طريق الفرض ، لتهييج الرّسل ، وإقناط الكفرة ، والإيذان بغاية بشاعة الإشراك وقبحه ، وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره بمن عداه أو : الخطاب له ، والمراد غيره.

وإفراد الخطاب مع كون الموحى إليهم جماعة ، باعتبار خطاب كل واحد فى عصره ، واللام موطئة لقسم محذوف ، والثانية لام الجواب ، وهو سادّ مسدّ جواب الشرط ، وإطلاق الإحباط لاحتمال أن يكون من خصائصهم لأن الإشراك منهم أشد ، وأن يكون مقيدا بالموت ، كما صرح به فى آية البقرة «٢» ، وهو مذهب الشافعي ، وذهب مالك إلى أن الشرك يحبط العمل قبل الرّدة ، مات عليها ، أو رجع إلى الإسلام ، فينتقض وضوؤه وصومه. وما قاله الشافعي أظهر.

---

(١) أخرجه البيهقي فى الأسماء والصفات (باب ذكر الأسماء التي تتبع إثبات الباري ص ١٣) وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (ح ٧٢) والعقيلي فى الضعفاء (ترجمة مخلد أبى هذيل ٤/ ٢٣١) من حديث ابن عمر. وعزاه المناوى فى الفتح السماوي لأبى يعلى فى مسنده. وذكره ابن الجوزي فى الموضوعات (١/ ١٤٤) وقال : «هذا حديث لا يصح». وانظر الفتح السماوي (٣/ ٩٦٨ - ٩٧٠) مع حاشية المحقق.

(٢) فى قوله تعالى : ... وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ .. الآية ٢١٧.

بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ، رد لما أمروه به من عبادة آلهتهم ، كأنه قال : لا تعبد ما أمروك بعبادته بل إذا عبدت فاعبد اللّه ، فحذف الشرط ، وأقيم تقديم المفعول مقامه. وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ على ما أنعم به عليك حيث جعلك رأس الموحدين وسيد المرسلين.

الإشارة : اللّه مظهر كل شىء حيث تجلى بها ، وهو قائم بكلّ شىء. له مفاتيح غيوب السماوات والأرض ، لا يطلع عليها إلا من خضع لأوليائه ، الذين هم آيات من آياته. والذين كفروا بآيات اللّه ،

الدالة على اللّه ، وهم أولياء اللّه ، أولئك هم الخاسرون ، فلا خسران أعظم من خيبة الوصول إذ لا يخلو المفروق عن اللّه من الشرك الخفي ، فإذا أمر المريد بإظهار شيء من سره ، أو مداهنة غيره ، قال : أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ. وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ بأن طالعت غيرى فى سرك ، أو تشوقت أن يعلم النّاس بخصوصيتك لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ ، بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ واكتف به ، واقنع بعلمه ، واغتن بشهوده ، وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ على ما أولاك من سر خصوصيته.

ثم ردّ على أهل الشرك ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٦٧]

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)

يقول الحق جل جلاله : وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أي : ما عظّموه حق تعظيمه حيث جعلوا له شريكا ، أو وصفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة ، أو : حيث دعوك إلى عبادة غيره تعالى ، أو : ما عرفوه حق معرفته ، حيث لم يؤمنوا بقدرة اللّه تعالى. قال ابن عباس : فمن آمن أن اللّه على كل شيء قدير ، فقد قدر اللّه حق قدره.

يقال : قدرت الشيء : إذا حزرته لتعرف مبلغه ، والقدر : المقدار. والضمير ، إما لقريش ، المحدث عنهم ، وقيل : لليهود ، حيث تكلموا فى صفات اللّه تعالى ، فألحدوا وجسّموا.

ثم بيّن لهم شيئا من عظمته تعالى ، فقال : وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ : ف «جميعا» : حال من الأرض لأنه بمعنى الأرضين ، أي : والأرضون جميعا مقبوضة له بقدرته يوم القيامة. وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ أي : بقدرته. والقبضة : المرة من القبض ، والقبضة : المقدار المقبوض بالكف ، والمراد من الكلام : تصوير عظمته تعالى ، والتوقيف على كنه جلاله ، وأن تخريب هذا العالم هو عليه شيء هين ، على طريقة التمثيل والتخييل ، من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ، ولا مجازا ، هكذا قال جمهور المفسرين.

(١٠٠/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٠١

قلت : لا يبعد أن تحمل الآية على ظاهرها ، فإن اللّه تعالى يبدل الأرض ويجمعها بأجمعها ، فتكون كخبزة النقي ، ويطوى السماء كطى الكتاب ، حتى يبرز العرش ، كما فى الحديث ، ففى حديث البخاري ، عن أبى سعيد الخدري ، قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «تكون الأرض يوم القيامة خبزة

واحدة ، يتكفؤها الجبار بيده ، كما يتكفؤ أحدكم خبزته فى السفر ، نزلا لأهل الجنة» «١». وفى حديث أبى هريرة : «إن اللّه يقبض الأرض ، ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول :
أنا الملك ، أين ملوك الأرض» «٢» وقال ابن عمر رأيت النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قائما على المنبر ، وهو يحكى عن ربه تعالى ، فقال : «إن اللّه تعالى إذا كان يوم القيامة ، جمع السماوات والأرضين السبع فى قبضته ، ثم قال هكذا ، وشد قبضته ، ثم بسطها ، ثم يقول : أنا اللّه ، أنا الرحمن ..» الحديث. وفى لفظ آخر : «يطوى اللّه السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون أين المتكبرون؟» «٣». وقال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : «كل ذلك فى يمينه ، وليس فى يده الأخرى شيء ، وإنما يستعين بشماله المشغول بيمينه ، وما السماوات السبع ، والأرضون السبع ، فى يد اللّه تعالى ، إلا كخردلة فى يد أحدكم ، ولهذا قال : مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ : يعنى السماوات والأرضين كلها بيمينه» «٤» قلت : من كحل عين بصيرته بإثمد التوحيد الخاص ، لا تصعب عليه هذه الأمور إذ تجليات الحق لا تنحصر ، فيمكن أن يتجلى من نور جبروته بنور يشاكل الآدمي فى الأعضاء كلها ، فيكون له ذات لها يدان وقدمان ، وبه ورد أن اللّه يضع قدمه على النّار ، فتقول : قط قط ، ويكشف عن ساقه لأهل الموقف ، ويتقدمهم للجنة ، إلى غير ذلك مما ورد فى الحديث. ولا يلزم من ذلك حصر ولا تجسيم ، إنما هى تجليات للذات الكلية المطلقة ، ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء والبقاء من العارفين ، فسلم تسلم.
سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ أي : تنزيها عظيما لمن هذه قدرته وشأنه عما يضاف إليه من الشركاء ، أي : ما أبعد من هذا شأنه عن إشراكهم!

---

(١) أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب يقبض اللّه الأرض يوم القيامة ، ح ٦٥١٩) ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب فى نزل أهل الجنة ، ٤/ ٢١٥١ ، ح ٢٧٩٢).
وقوله صلّى اللّه عليه وسلم (يتكفؤها بيده) أي : يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتستوى لأنها ليست منبسطة كالرقاقة ونحوها. ومعنى هذا الحديث : أن اللّه يجعل الأرض كالرغيف العظيم.
(٢) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الزمر ، باب وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ٥/ ٥٥١) ومسلم فى (صفات المنافقين ، باب صفة القيامة والجنة والنّار ، ٤/ ٢١٤٨ ، ح ٢٧٨٧).
(٣) أخرجه بنحوه مسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : صفة القيامة والجنة والنّار ، ٤/ ٢١٤٨ ، ح ٢٧٨٨) من حديث سيدنا عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه.
(٤) ذكره السيوطي فى الدر (٥/ ٦٢٩) مختصرا ، وعزاه لعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وأبى الشيخ.

الإشارة : ما عرف اللّه حق معرفته من أثبت الكائنات معه ، وهى ممحوة بأحدية ذاته ، لا وجود لها معه على التحقيق ، فالأرض قبضة أسرار ذاته ، والسماوات محيطات أفلاك أنواره ، وبحر الذات مطبق على الجميع ، ماح للكل ، وأنشدوا :

فالكل دون اللّه إن حقيقته عدم على التفصيل والإجمال

واعلم بأنك والعوالم كلّها لولاه فى محو وفى اضمحلال

من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عين محال

وقال آخر :

من أبصر الخلق كالسّراب فقد ترّقى عن الحجاب

إلى وجود تراه رتقا بلا ابتعاد ولا اقتراب

ثم تمم أحوال القيامة ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٦٨ الى ٧٠]

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ النفخة الأولى فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ أي : خرّ ميتا ، أو مغشيا عليه ، إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ قيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، ثم يميتهم اللّه بعد ذلك ، وقيل : حملة العرش ، وقيل : خزنة النّار والجنة «١».

ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى هى النّفخة الثانية. و«أخرى» : فى محل الرّفع صفة لمحذوف ، أي : نفخ نفخة أخرى ، فَإِذا هُمْ قِيامٌ من قبورهم ، حال كونهم إذا فاجأهم خطب يَنْظُرُونَ يقلبون أبصارهم فى الجوانب

---

(١) راجع تفسير الآية ٨٧ من سورة النّمل.

الأربعة ، كالمبهوتين ، أو : ينظرون ما يفعل بهم ، ودلت الآية على أن النّفخة اثنتان للموت ، والبعث ، وقيل : ثلاث للفزع ، والموت ، والبعث.

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ أضاءت بِنُورِ رَبِّها حين يتجلى لفصل عباده ، فتشرق الأرض - أي : عرصات القيامة - بنور وجهه ، ويقال : إن اللّه يخلق فى القيامة نورا يلبسه وجه الأرض ، فتشرق به. قال فى الحاشية الفاسية : وهذا القول هو الذي اختاره محيى السنة ، وانتصر له الطيبي ، بما ورد من الأحاديث المقتضية لرؤيته فى عرصات القيامة ، قال : وما تعسف الزمخشري ، من حمل النّور على العدل ، إلا فرارا من ذلك. هـ. قال القشيري :

هو نور يخلقه فى القيامة ، عند تكوير الشمس ، وانكدار النّجوم ، ويستضيىء به قوم دون قوم ، والكفار يبقون فى الظلمة ، والمؤمنون : يَسْعى نُورُهُمْ ... الآية «١». ويقال : غدا إشراق الأرض ، واليوم إشراق القلب ، غدا أنوار التولي ، واليوم أنوار التجلي. هـ.

وقال السدى : بعدله ، على الاستعارة ، يقال للملك العادل : أشرقت الأرض بعدله ، كما استعيرت الظلمة للظلم.

وفى الحديث : «الظلم ظلمات يوم القيامة» «٢».

وَوُضِعَ الْكِتابُ أي : صحائف الأعمال. اكتفى باسم الجنس ، أو : كتاب المحاسبة والجزاء. وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ ليسألهم ربهم عما أجابتهم به أممهم ، وَالشُّهَداءِ أي : الحفظة ، ليشهدوا على كل إنسان بما عمل ، والذين يشهدون للرسل بتبليغ الرّسالة إذا جحدتهم أممهم ، أو : الذين استشهدوا فى سبيل اللّه. وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ :

بين العباد بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ بنقص ثواب ، أو زيادة عقاب. قال ابن عطية : الضمير فى بَيْنَهُمْ عائد على العالم بأجمعه. هـ. فيقتضى دخول الملائكة ، ويتصور القضاء فى حقهم ، من حيث جعلوا حفظة على العباد ، وأمناء على الوحى والتبليغ ، وغير ذلك من ترتيبهم فى مقاماتهم ، وترقيهم فى علومهم ، وتفاوتهم فى ذلك. وفى وجوه تخصيصاتهم وتصديقهم فى التبليغ ، ورد ما استندوا فيه لظواهر الأمور ، مع علمه تعالى خلافه ، مما لا اطلاع لهم عليه. قاله فى الحاشية.

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ جزاء ما عَمِلَتْ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ فلا يفوته شيء من أفعالهم. ومضمون الآية : تصوير التعرض للقضاء بين العباد على ما هو شأن الملك ، من إحضار الشهود وخواص حضرته ، حين يبرز لذلك ، ويشهده الظالم والمظلوم ، وإن كان كنه معرفته موكولا إليه ، ثم من لوازم ذلك العدل. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ١٢ من سورة الحديد.

(٢) أخرجه البخاري فى (المظالم ، باب الظلم ظلمات يوم القيامة ح ٢٤٤٧) ومسلم فى (البر ، باب تحريم الظلم ، ٤/ ١٩٩٦ ، ح ٢٥٧٩) من حديث سيدنا عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٠٤

الإشارة : فى الآية إشارة للفناء والبقاء ، فيصعق العبد عن رؤية وجوده ، ثم يبقى بربه ، فتشرق أرض البشرية بنور وجود الحق ، ثم يشرق العالم كله. قال الورتجبي : نفخة الصعق قهرية جلالية ، ونفخة البعث ظهور أنوار جماله فى أنوار جلاله ، وبذلك ينتظر وقوع نور الكشف بقوله : وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها فيتجلى للخواص ، ثم تستضيء بأنوارهم أرض المحشر ، للعموم والخصوص ، تعالت صفاته عن أن تقع على الأماكن ، أو أن يكون محلا للحدثان ، يا عاقل ، لا تكون ذرة من العرش إلى الثرى إلا وهى مستغرقة فى أنوار إشراق آزاله وآباده. ثم قال عن بعضهم : (إلا من شاء اللّه) هم أهل التمكين ، مكّن اللّه أسرارهم من تحمل الواردات.

ثم ذكر نتيجة الفصل بين العباد ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٧١ الى ٧٢]

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)

يقول الحق جل جلاله : وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً أي : تسوقهم الزبانية بالعنف والإهانة ، كما تساق الأسارى والخارجين على السلطان ، إذا سيقوا للقتل أو السجن ، فتسوقهم الزبانية إلى جهنم أفواجا متفرقة ، بعضها إثر بعض ، حسب ترتب طبقاتهم فى الضلالة والشرارة ، والزمر : جمع زمرة ، أي : الجماعة ، واشتقاقها من الزمر ، أي : الصوت. والجماعة لا تخلو عنه.

حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها ليدخلوها ، وهى سبعة «١» ، وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها تقريعا وتوبيخا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ من جنسكم. وقرىء : «نذر منكم» ، يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا أي : وقتكم هذا ، وهو وقت دخولهم النّار. وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع ، من حيث إنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرّسل وتبليغ الكتب. قالُوا بَلى قد أتونا وأنذرونا ، وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ أي : ولكن وجبت علينا كلمة اللّه : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ «٢» بسوء أعمالنا حيث كذّبنا ، وقلنا : ما نزّل اللّه

---

(١) كما ذكر فى سورة الحجر ، فى قوله تعالى : لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ الآية ٤٤.

(٢) من الآية ١١٩ من سورة هود.

من شيء ، إن أنتم إلا تكذبون. قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أي : مقدرين الخلود ، فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ، اللام للجنس ، والمخصوص محذوف ، أي : بئس مثوى المتكبرين جهنم ، وتكبرهم مسبب عن استحقاق كلمة العذاب عليهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من تكبّر عن أولياء زمانه - أهل التربية - حتى مات محجوبا عن شهود الحق ، يلحقه التوبيخ بلسان الحال ، فيقال له : ألم يأتكم رسل من أولياء زمانكم ، يعرفون بنا فى كلّ زمان؟ فيقولون : بلى ، ولكن حقت علينا كلمة الحجاب ، فيخلدون فى القطيعة والحجاب ، إلا فى وقت مخصوص. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر أهل الخير ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٧٣ الى ٧٥]

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (٧٣) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٧٥)

يقول الحق جل جلاله : وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ مساق إعزاز وتشريف ، بلا إسراع ولا تكليف ، إلى دار الكرامة والتعريف. قيل : يساقون راكبين مبجّلين ، كما يجيء الوافدون إلى دار الملوك ، يساقون إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً جماعة متفاوتين ، بحسب تفاوت مراتبهم فى الفضل ، وعلو الطبقة ، حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها الثمانية. وقرئ بالتخفيف والتشديد «١». وجواب «إذا» محذوف للإيذان بأن لهم من فنون الكرامة ما لا تحيط به العبارة ، كأنه قيل : حتى إذا جاءوها ، وقد فتحت أبوابها ، كان من الأمر والخبر ما يقصر عنه البيان.

وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ظفرتم ، وتقدستم فى دار التقديس من كل دنس ، وطبتم نفسا ، بما أتيح لكم من النّعيم والأمن ، فَادْخُلُوها خالِدِينَ ، وحذف الواو فى وصف أهل النّار لأن أبواب جهنم لا تفتح

---

(١) قرأ عاصم وحمزة الكسائي (فتحت) ، بتخفيف التاء ، وقرأ الباقون بالتشديد ، على التكثير. انظر الإتحاف (٢/ ٤٣٢).

لهم حتى يصلوا إليها ، وفى وقوفهم قبل فتحها مذلة لهم ، كما هى حال السجون ، بخلاف أهل الجنة ، فإنهم يجدونها مفتوحة ، قال تعالى : مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ «١» ، كما هى حال منازل الأفراح والسرور.

وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ أي : أنجزنا ما وعدنا فى الدنيا من نعيم العقبى. وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ أرض الجنة ، أي : المكان الذي استقروا فيه ، وقد أورثوها وملكوها. وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤون [تشبيها] «٢» بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه ، واتساعه فيها ، نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ أي : يتخذ كل واحد منا جنة لا توصف ، سعة وزيادة على الحاجة ، فيتبوأ أىّ مكان أراده من جنته الواسعة ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ فى الدنيا الجنة.

وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حال كونهم حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ أي : محدقين به. و«من» لابتداء الغاية ، أي : ابتداء حفوفهم من حول العرش إلى حيث شاء اللّه ، أو : زائدة ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أي : يقولون سبحان اللّه ، والحمد للّه ، سبوح قدوس ، رب الملائكة والرّوح. أو : ينزهونه تعالى عما لا يليق به ، ملتبسين بحمده. والمعنى :

ذاكرين اللّه تعالى بوصفى جلاله وإكرامه ، تلذذا ، وفيه إشعار بأن أقصى درجات العليين فى لذائذهم هو الاستغراق فى شهوده عز وجل.

وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ يقوله أهل الجنة شكرا للّه حين دخلوها ، وتم وعد اللّه لهم : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ كما قال : وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «٣».

الإشارة : وسيق الذين اتقوا ربهم حق تقاته إلى جنة المعارف ، زمرا ، متفاوتين فى السير ، على قدر تفاوتهم فى القريحة ، والاعتناء ، والتفرغ من الشواغل والعلائق. حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، بذهاب حجاب الكائنات ، حتى بقي المكوّن وحده ، كما كان وحده ، وجدوا من الأسرار والأنوار مالا يدخل تحت دوائر العبارة ، ولا تحيط به الإشارة. وقال لهم خزنتها ، وهم شيوخ التربية ، العارفون اللّه : سلام عليكم طبتم ، أي : تقدستم من العيوب والأكدار ، فادخلوها خالدين لأن من وصل لا يرجع أبدا ، وما رجع من رجع إلا من الطريق. وقالوا : الحمد للّه الذي صدقنا وعده ، بأن أنجز لنا ما وعدنا من الوصول ، على ألسنة المشايخ. قال فى الحكم : «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه».

---

(١) من الآية ٥٠ من سورة ص. [.....]

(٢) ما بين المعقوفتين ، ليس فى الأصول ، وأثبته لاقتضاء السياق له.

(٣) من الآية ١٠ من سورة يونس.

(١٠٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٠٧

وأورثنا أرض الوجود بأسره ، نتبوأ من جنة المعارف ، فى أقطار الوجود ، بفكرتنا وهمتنا ، حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين. وترى الملائكة حافين من حول العرش ، أي : قلب العارف لأنه بيت الرّب ، ومحل قرار نوره ، فيحفونه بالحفظ والرّعاية من دخول الأغيار ، وينزهون اللّه عن الحلول والاستقرار. وقضى بينهم بالحق ، فعزلت الشياطين عن قلوب الذاكرين ، وتسلطت على قلوب الغافلين ، والحمد للّه رب العالمين ، حيث لم يظلم أحدا من العالمين.

(١٠٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٠٨

(١٠٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٠٩

سورة غافر

«١» مكية «٢». وآيها : خمس - أو ثمان - وثمانون آية «٣» ، ومناسبتها لما قبلها قوله : غافِرِ الذَّنْبِ ... إلخ ، فإنها فذلكة لما تقدم من أحوال المحشر لأن منهم من غفرت ذنوبه ، وقبلت توبته ، فسيق إلى الجنة ، وتطاولت عليه النّعم ، ومنهم من شددّ عقابه ، وردت عليه محاسنه ، فسيق إلى النّار ، قال تعالى :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤)

يقول الحق جل جلاله : حم أي : يا محمد. فاقتصر على بعض الحروف ، سترا عن الوشاة ، كعادة العشاق فى ذكر محبوبهم ، يرمزون إليه ببعض حروفه. وقال ابن عطية : سأل أعرابى النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم عن «حم» ما هو؟

فقال : «بدء أسماء وفواتح سور» «٤» وفى حديث : «إذا بيتّم فقولوا : حم لا ينصرون» قال أبو عبيد : كأن المعنى : اللهم لا ينصرون. قلت : لا يبعد أن يكون توسل بحبيب اللّه على هزم الأعداء. وعن ابن عباس : (أنه اسم اللّه الأعظم).

هـ. وكأنه مختصر من «حى قيوم».

تَنْزِيلُ الْكِتابِ أي : هذا تنزيل القرآن مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ أي : العزيز بسلطانه ، الغالب على أمره ، العليم بمن صدّق به وكذّب. وهو تهديد للمشركين ، وبشارة للمؤمنين. والتعرض لوصفى العزة والعلم للإيذان بظهور أثريهما فى الكتاب لظهوره عزه وعز من تمسك به ، ولاشتماله على علوم الأولين والآخرين.

---

(١) فى الأصول : [سورة المؤمن].

(٢) قال السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٦٤٣) : أخرج ابن الضريس ، والنّحاس والبيهقي فى الدلائل ، عن ابن عباس - رضي اللّه عنهما ، قال : «أنزلت الحواميم السبع بمكة».

(٣) قال الداني فى «البيان فى عد آي القرآن» ص ٢١٨ : «وهى ثمانون وثنتان فى البصري ، وأربع فى المدنيين والمكي ، وخمس فى الكوفي ، وست فى الشامي». هذا ولم أقف على من قال أنها ثمان وثمانون آية.

(٤) ذكره فى المحرر الوجيز (٤/ ٥٤٥) والبحر المحيط (٧/ ٤٢٩).

غافِرِ الذَّنْبِ أي : ساتر ذنب المؤمنين وَقابِلِ التَّوْبِ وقابل توبة الرّاجعين شَدِيدِ الْعِقابِ للمخالفين ، ذِي الطَّوْلِ على العارفين ، أي : الفضل التام على العارفين ، أو : ذى الغنى عن الكل. وعن ابن عباس : (غافر الذنب ، وقابل التوب ، لمن قال : «لا إله إلا اللّه» شديد العقاب لمن لم يقل لا إله إلا اللّه) «١».

والتّوب : مصدر ، كالتوبة. ويقال : تاب وثاب وآب ، أي : رجع ، فإن قلت : كيف اختلفت هذه الصفات تعريفا وتنكيرا ، والموصوف معرفة ، وهو اللّه؟ قلت : أما غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ فمعرفتان لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين حتّى يكون فى تقدير الانفصال ، فتكون إضافتهما غير حقيقة ، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه. وأما شَدِيدِ الْعِقابِ فهو فى تقدير : شديد عقابه ، فيكون نكرة ، فقيل : هو بدل ، وقيل : كلّها أبدال غير أوصاف. وإدخال الواو فى قابِلِ التَّوْبِ لنكتة ، وهى : إفادة الجمع

للمذنب التائب بين رحمتين : بين قبول توبته ، فتكتب له طاعة ، وبين جعلها ماحية للذنوب ، كأن لم يذنب ، كأنه قال : جامع المغفرة والقبول. وفى توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات النعمة دليل سبقها ورجحانها ، «إن رحمتى سبقت غضبى» «٢».
قال القشيري : سنّة اللّه تعالى : إذا خوّف العباد باسم ، أو لفظ ، تدارك قلوبهم بأن يبشّرهم باسمين أو وصفين. هـ. روى : أن عمر رضي اللّه عنه افتقد رجلا ذا بأس شديد ، من أهل الشام ، فقيل له : تابع هذا الشراب ، فقال لكاتبه : اكتب : من عمر إلى فلان ، سلام اللّه عليك ، وأنا أحمد إليك اللّه ، الذي لا إله إلا هو ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم ... إلى قوله : إِلَيْهِ الْمَصِيرُ وختم الكتاب ، وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا ، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة ، فلما أتته الصحيفة ، جعل يقرؤها ، ويقول : قد وعدني اللّه أن يغفر لى ، وحذّرنى من عقابه ، فلم يبرح يردّدها حتى بكى. ثمّ نزع ، فأحسن النّزوع ، وحسنت توبته. فلما بلغ عمر رضي اللّه عنه أمره ، قال : «هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أخاكم قد زلّ فسدّدوه ، وادعو له اللّه أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه» «٣» أي :
بالدعاء عليه هـ.
لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أي : فيجب الإقبال الكلى عليه ، وهو : إما استئناف ، أو : صفة لذى الطّول ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ أي : المرجع ، فيجازى كلا من العاصي والمطيع. قال القشيري : إذا كان إلى اللّه المصير فقد طاب المسير.
ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ أي : ما يخاصم فيها بالطعن فيها ، واستعمال المقدمات الباطلة لإدحاض الحق المشتملة عليه ، إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ، وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة منها ، فضلا عن الطعن فيها ،

---

(١) ذكره البغوي فى التفسير (٧/ ١٣٨).
(٢) جزء من حديث صحيح ، أخرجه البخاري فى (التوحيد ، باب قول اللّه تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ح ٧٥٥٤) ومسلم فى (التوبة ، باب فى سعة رحمة اللّه تعالى ، رقم ٤٧٥١ ، ح ١٥) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.
(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية (٤/ ٩٧).

وأما الجدال فيها لحل مشكلاتها ، وكشف حقائقها ، وتوضيح مناهج الحق منها ، وردّ مذاهب أهل الزيغ بها ، فمن أعظم الجهاد فى سبيل اللّه.
قال الطيبي : وأما اتصال قوله : ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ ... الآية بما قبله ، فهو أنه لمّا قال تعالى : حم تَنْزِيلُ الْكِتابِ من الإله المعبود ، الموصوف بصفات العلم الكامل ، والعز الغالب ، الجامع بين غفران الذنب وقبول التوبة ، المتفرد بالعقاب ، الذي لا يقدّر كنهه ، وبالإفضال الذي لا يبلغ قدره ، قال : ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ أي : ما يجادل فى مثل هذا الكتاب ، المشتمل على الآيات البينات ، المنزل من مثل ذلك الموصوف بنعوت الكمال ، إلا أمثال هؤلاء الكفرة المغرورين ، فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ فإنه استدراج ، فلا يغرر مثلك فى منصب الرّسالة تقلب أولئك تقلب الأنعام ، المنعّمين فى هذا الحطم. وآيات اللّه : مظهر أقيم مقام المضمر للتعظيم والتفخيم. هـ.
والفاء لترتيب النّهى عن الاغترار على ما قبله من التسجيل عليهم بالكفر ، الذي لا شيء أمقت منه عند اللّه ، ولا أجلب لخسران الدنيا والآخرة ، فإنّ من تحقق ذلك لا يكاد يغتر بما لهم من الحظوظ الفانية ، والزخارف الدنيوية ، فإنهم مأخوذون عما قليل ، كما أخذ من قبلهم. ولذلك ذكرهم بقوله : كَذَّبَتْ ... إلخ.
الإشارة : «حم» أي : بحلمي ومجدى تجليت فى كلامى ، المنزل على حبى ، وهو تنزيل الكتاب من اللّه العزيز ، المعزّ لأوليائه ، العليم بما كان وما يكون منهم ، فلا يمنعه علمه عما سلف من قضائه. غافر الذنب لمن أصرّ واجترم ، وقابل التوب لمن تاب واحتشم ، شديد العقاب لمن جحد وكفر ، ذى الطول لمن توجه ووصل ، ويقال : غافر الذنب للغافلين ، وقابل التّوب للمتوجهين ، شديد العقاب للمنكرين ، ذى الطول للعارفين الواصلين. لا إله إلا هو ، فلا موجود معه ، إليه المصير بالسير فى ميادين النّفوس ، حتى يحصل الوصول إلى حضرة القدوس. ما يجادل فى آيات اللّه ، وهم أولياء اللّه ، الدالون على اللّه ، إلا أهل الكفر بوجود الخصوصية. قال القشيري : إذا ظهر البرهان ، واتّضح البيان استسلمت الألباب الصاحية للاستجابة والإيمان. وأمّا أهل الكفر فلهم على الجحود إصرار ، وشؤم شركهم يحول بينهم وبين الإنصاف ، وكذلك من لا يحترم أولياء اللّه ، يصرّون على إنكارهم تخصيص اللّه عباده بالآيات ، ويعترضون عليهم بقلوبهم ، فيجادلون فى جحد الكرامات ، وسيفتضحون ، ولكنهم لا يميزون بين رجحانهم ونقصانهم. هـ.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٥ الى ٦]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (٥) وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (٦)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ نوحا ، وَالْأَحْزابُ أي : الذين تحزّبوا على الرسل ، وناصبوهم العداوة ، مِنْ بَعْدِهِمْ أي : من بعد قوم نوح ، كعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأضرابهم ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ من تلك الأمم الماضية بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ليتمكنوا منه ، فيصيبوا ما أرادوا من تعذيب أو قتل. والأخذ : الأسر. وَجادَلُوا بِالْباطِلِ الذي لا أصل له ، ولا حقيقة لوجوده ، لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ليبطلوا به الحق الذي جاءت به من الإيمان وغيره ، فَأَخَذْتُهُمْ بسبب ذلك أخذا وبيلا ، فَكَيْفَ كانَ عِقابِ الذي عاقبتهم به ، فإنّ آثار ديارهم عرضه للناظرين ، وسآخذ هؤلاء أيضا لاتحادهم فى السيرة ، واشتراكهم فى الجريرة ، كما ينبئ عنه قوله :

وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أي : كما وجب حكم اللّه تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذّبة ، المجترئة على رسلهم ، المجادلة بالباطل لإدحاض الحق ، وجب أيضا عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا بك ، وتحزّبوا عليك ، وهمّوا بما لم ينالوا ، كما ينبئ عنه إضافة اسم الرّب إلى ضميره صلّى اللّه عليه وسلم فإن ذلك للإشعار بأنّ وجوب كلمة العذاب من أحكام التربية ، التي من جملتها : نصرته صلّى اللّه عليه وسلم ، وتعذيب أعدائه ، وذلك إنما يتحقق بكون الموصول عبارة عن كفار قومه ، لا عن الأمم المهلكة.

وقوله تعالى : أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ فى حيز النّصب ، بحذف لام التعليل ، أي : لأنهم مستحقو أشد العقوبات وأفظعها ، الذي هو عذاب النّار ، وملازمتها أبدا ، لكونهم كفارا معاندين ، متحزّبين على الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ، كدأب من قبلهم من الأمم المهلكة ، وقيل : إنه فى محل رفع ، على أنه بدل من «كلمة ربك» والمعنى : ومثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة المهلكة كونهم من أصحاب النّار ، أي : كما وجب إهلاكهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال وجب تعذيبهم فى الآخرة بعذاب النّار ، ومحل الكاف من (كذلك) على التقديرين : النصب ، على أنه نعت لمصدر محذوف.

الإشارة : الأولياء على قدم الرّسل ، فكل ما لحق الرّسل من الإيذاء يلحق الأولياء ، فقد كذّبت ، وتحزّب عليهم أهل عصرهم ، وهمّوا بأخذهم ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا نور اللّه بأفواههم ، واللّه متم نوره ، فأخذهم اللّه بالخذلان والبعد ، والخلود فى نار القطيعة والحجاب ، والعياذ باللّه.

ثم ذكر شرف الإيمان وأهله ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٧ الى ٩]

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)

قلت : (الذين) : مبتدأ ، و(يسبّحون) : خبره ، والجملة : استئناف مسوق لتسلية الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ببيان أن «أشرف» «١» الملائكة - عليهم السّلام - مثابرون على ولاية من معه من المؤمنين ، ونصرتهم ، واستدعاء ما يسعدهم فى الدارين.

يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ على عواتقهم - وهم محمولون أيضا بلطائف القدرة ، وَمَنْ حَوْلَهُ أي : الحافّين حوله ، وهم الكروبيّون ، سادات الملائكة ، وأعلى طبقاتهم. قال ابن عباس : حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام «٢» ، وقيل : أرجلهم فى الأرض السفلى ، ورؤوسهم خرقت العرش ، وهم خشوع ، لا يرفعون طرفهم ، وهم أشد خوفا من سائر الملائكة «٣».

وقال أيضا : لمّا خلق اللّه حملة العرش ، قال لهم : احملوا عرشى فلم يطيقوا ، فخلق اللّه مع كلّ ملك من أعوانهم مثل جنود من فى السموات ومن فى الأرض من الخلق ، فقال لهم : احملوا عرشى ، فلم يطيقوا ، فخلق مع كل واحد منهم مثل جنود سبع سنوات وسبع أرضين ، وما فى الأرض من عدد الحصى والثرى ، فقال : احملوا عرشى ، فلم يطيقوا ، فقال : قولوا : لا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ، فقالوها ، فاستقلوا عرش ربنا ، أي : لمّا حملوه باللّه أطاقوه ،

---

(١) فى الأصول الخطية [أشرف] والمثبت من تفسير أبى السعود.

(٢) عزاه فى الدر المنثور (٥/ ٦٤٨) لعبد ابن حميد ، وابن مردويه ، والبيهقي فى الأسماء والصفات.

(٣) عزاه فى الدر المنثور (٥/ ٦٤٨) لعبد بن حميد ، عن ميسرة.

فلم يحمل عرشه إلا قدرته ، وفى الحديث : «إن اللّه أمر جميع الملائكة أن يغدوا ، ويروحوا بالسلام

على حملة العرش ، تفضيلا لهم على سائر الملائكة». «١»
وقال وهب بن منبه : حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة ، صف خلف صف ، يدورون حول العرش ، يطوفون به ، يقبل هؤلاء ، ويدبر هؤلاء ، فإذا استقبل بعضهم بعضا ، هلّل هؤلاء ، وكبّر هؤلاء ، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام ، أيديهم إلى أعناقهم ، قد وضعوها على عواقتهم ، فإذا سمعوا تكبير هؤلاء وتهليلهم ، رفعوا أصواتهم ، فقالوا : سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلّك ، أنت اللّه لا إله غيرك ، أنت الأكبر ، الخلق كلهم راجون رحمتك ، ومن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة ، قد وضعوا اليمنى على اليسرى ، ليس منهم أحد إلا يسبح اللّه - تعالى - بتسبيح لا يسبحه الآخر ، ما بين جناحى أحدهم مسيرة ثلاثمائة عام ، واحتجب اللّه عز وجل - بينه وبين الملائكة الذين هم حول العرش - بسبعين حجابا من ظلمة ، وسبعين حجابا من نور ، وسبعين حجابا من درّ أبيض ، وسبعين حجابا من ياقوت أحمر ، وسبعين حجابا من زمرد أخضر ، وسبعين حجابا من ثلج ، وسبعين حجابا من ماء ، إلى ما لا يعلمه إلا اللّه تعالى هـ «٢».
قلت : لمّا أظهر اللّه العرش تجلى بنور جبروتى رحموتى ، استوى به على العرش ، كما يتجلى يوم القيامة لفصل القضاء ، ثم ضرب الحجب بين هذا التجلي الخاص وبين الملائكة الحافّين ، ولا يلزم عليه حصر ولا تجسيم إذ تجليات الذات العالية لا تنحصر ، وليست هذه الحجب بين الذات الكلية وبين الخلق إذ لا حجاب بينها وبين سائر المخلوقات إلا حجاب القهر والوهم.
واختلف فى هيئة العرش ، فقيل : إنه مستدير ، والكون كله فى جوفه كخردلة فى الهواء ، حتى قيل : هو الفلك التاسع ، وقيل : هو منبسط كهيئة السرير ، وله سوارى وأعمدة ، وهو ظاهر الأخبار النّبوية.
روى جعفر الصادق عن أبيه عن جده ، أنه قال : إن بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية من خفقان الطير المسرعة قياس ألف عام ، وإن ملكا يقال له : حزقائيل ، له ثمانية عشر ألف جناح ، ما بين الجناح والجناح خمسمائة عام ، فأوحى اللّه إليه : أن طر ، فطار مقدار عشرين ألف سنة ، فلم ينل رأسه قائمة من قوائم العرش ، ثم طار مقدار ثلاثين ألف سنة فلم ينلها ، فأوحى اللّه إليه : لو طرت إلى نفخ الصور لم تبلغ ساق عرشى. هـ. مختصرا.
وفى حديث آخر : «إن بين القائمة والقائمة من قوائم العرش ستين ألف صحراء ، فى كل صحراء ستون ألف عالم ، فى كل عالم قدر الثقلين». ومع هذا كله يسعه قلب العارف حتى يكون فى زاوية منه لأنه محدود ، وعظمة

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : لم أجده. انظر الكافي الشاف (ص ١٤٤ ، ح ٣٣٧).
(٢) انظر تفسير البغوي (٧/ ١٤٠ - ١٤١) وزاد المسير (٧/ ٢٠٨). [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١١٥

الحق غير محدودة ، وقلب العارف قد تجلت فيه عظمة الحق ، فوسعها ، بدليل الحديث : «لن تسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعني قلب عبدى المؤمن» «١» ، أي : الكامل.

ثم أخبر تعالى عن حملة العرش ومن حوله بقوله : يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أي : ينزهونه تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل ، ملتبسين بحمده على نعمائه التي لا تتناهى ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ إيمانا يناسب حالهم. وفائدة ذكره مع علمنا بأن حملة العرش ومن حوله الذين يسبّحون بحمد ربهم مؤمنون إظهار لشرف الإيمان وفضيلته ، وإبراز لشرف أهله ، والترغيب فيه ، كما وصف الأنبياء فى بعض المواضع بالصلاح. وفيه تنبيه على أن الملائكة لم يحصل لهم العيان ، وإنما وصفوا بالإيمان بالغيب ، وهم طبقات : منهم العارفون أهل العيان ، ومنهم أهل الإيمان.

ثم قال تعالى : وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أي : ويستغفرون لمن شاركهم فى حالهم من الإيمان ، وفيه دليل على أن الإشراك يجب أن يكون أدعى شيء إلى النّصيحة والشفقة ، وإن تباعدت الأماكن ، وفى نظم استغفارهم لهم فى سلك وظائفهم المفروضة عليهم ، من تسبيحهم ، وتحميدهم ، وإيمانهم ، إيذان بكمال اعتنائهم به ، وإشعار بوقوعه عند اللّه - تعالى - موقع القبول.

رَبَّنا أي : يقولون : ربنا ، إمّا بيان لاستغفارهم ، أو حال ، وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً أي : وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ، فأزيل الكلام عن أصله ، بأن أسند الفعل إلى صاحب الرّحمة والعلم ، ونصبا على التمييز ، مبالغة فى وصفه - تعالى - بالرحمة والعلم ، وفى عمومهما ، وتقديم الرّحمة لأنها السابقة والمقصودة هنا ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا أي : للذين علمت منهم التوبة ، ليناسب ذكر الرّحمة ، وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ أي :

طريق الهدى التي دعوت إليها. والفاء لترتيب الدعاء على ما قبلها من سعة الرّحمة والعلم ، وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ أي : احفظهم منه ، وهو تصريح بعد إشعار للتأكيد.

رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ إياها ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ أي : صلاحا مصححا لدخول الجنة فى الجملة ، وإن كانوا دون صلاح أصولهم ، و(من) : عطف على ضمير (وعدتهم) ، أي : وأدخل معهم هؤلاء ليتم سرورهم ، ويتضاعف ابتهاجهم. قال سعيد بن جبير : (يدخل الرّجل الجنة ، فيقول :

أين أبى؟ أين أمي؟ أين ولدي؟ أين زوجتى؟ فيقال له : لم يعملوا مثل عملك ، فيقول : كنت أعمل لى ولهم ، فيقال :

أدخلوهم الجنة) «٢». وسبق الوعد بالإدخال والإلحاق لا يستدعى حصول الموعود بلا توسط شفاعة واستغفار ، وعليه بنى قول من قال : فائدة الاستغفار للمنيب الكرامة والثواب. انظر أبا السعود.

---

(١) ذكره الغزالي فى الإحياء (٣/ ١٦) ، قال العراقي فى المغني : «ليس له أصل» وقال القاري فى الأسرار المرفوعة (ص ٣١٠) :
«ليس له إسناد معرووف عن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم». والحديث وجدته بنحوه عند الديلمي فى الفردوس (٣/ ١٧٤ ح ٤٤٦٦) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه لفظه : «لا يسعنى شيء ووسعني قلب عبدى المؤمن اللين الوادع إذا ألبسته لبسة أحبائى ...» الحديث.
(٢) أخرجه ابن جرير (٢٤/ ٤٥).

(١١٥/٥)

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أي : الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور ، وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئا خاليا عن حكمة ، وموجب حكمتك أن تفى بوعدك.
وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ أي : جزاء السيئات ، وهو العذاب ، أو : المعاصي فى الدنيا ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ أي : ومن تقه عقاب السيئات يومئذ فقد رحمته ، أو : ومن تقه المعاصي فى الدنيا فقد رحمته فى الآخرة ، وكأنهم طلبوا لهم السبب بعد ما طلبوا المسبّب ، وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الإشارة إلى الرّحمة المفهومة من رحمته ، أو : إليها وإلى الوقاية ، أي : ذلك التوقي هو الفوز العظيم الذي لا مطمع وراءه لطامع.
الإشارة : العرش وحملته ، والحافّون به محمولون بلطائف القدرة لا حاملون فى الحقيقة ، بل لا وجود لهم مع الحق ، وإنما هم شعاع من أنوار الذات الأقدس وتجلّ من تجلياتها.
وقوله تعالى : يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، قال الورتجبي : يسبّحون اللّه بما يجدونه من القدس والتنزيه ، حمدا لأفضاله ، وبأنه منزه عن النّظير والشبيه ، ويؤمنون به فى كل لحظة ، بما يرون منه من كشوف صفات الأوليات ، وأنوار حقائق الذات ، التي تطمس فى كل لمحة مسالك رسوم العقليات ، وهم يقرون كل لحظة بجهلهم عن كنه معرفة وجوده ، ثم بيّن أنهم أهل الرّأفة ، والرّحمة ، والشفقة على أوليائه ، لأنهم إخوانهم فى نسب المعرفة والمحبة.
انظر تمامه.
والحاصل : أنهم مع تجلى أنوار ذاته ، قاصرون عن كنهه ، وحقيقة ذاته ، وغايتهم الإيمان به. قاله فى الحاشية.
قلت : والتحقيق أن المقربين منهم تحصل لهم المعرفة العيانية ، والرّؤية للذات فى مظاهر التجليات ، كما تحصل لخواص الأولياء فى الدنيا ، ولكن معرفة الآدمي أكمل لاعتدال حقيقته وشريعته ، لمّا

اعتدل فيه الضدان ، وأما معرفة الملائكة فتكون مائلة لجهة الشكر والهيمان للطافة أجسامهم ، فمثلهم كالمرآة بلا طلاء خلفها ، وأمّا ما ورد في بعض الأخبار : أن جبريل لم ير اللّه قط قبل يوم القيامة ، فلا يصح إلا أن يحمل على أنه لم يره من غير مظهر ، وهذا لا يمكن له ولا لغيره ، وأما رؤيتهم اللّه يوم القيامة فهم كسائر المؤمنين ، يرونه على قدر تفاوتهم في المراتب والقرب.

قال إمام أهل السنة ، أبو الحسن الأشعري رضي اللّه عنه ، في كتاب «الإبانة في أصول الديانة» : أفضل اللذات لأهل الجنة رؤية اللّه تعالى ، ثم رؤية نبيه صلّى اللّه عليه وسلم ، فلذلك لم يحرم اللّه أنبياءه المرسلين ، وملائكته المقربين ، وجماعة المؤمنين ، والصدّيقين النّظر إلى وجهه تعالى. هـ. وفي الآية حث على الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب ، والاستغفار لهم ، وهو من شأن الأبدال ، أهل الرّحمة لعباد اللّه ، اقتداء بالملأ الأعلى.

(١١٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١١٧

ثم شفع بضد أهل الإيمان ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٠ الى ١٢]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ يوم القيامة ، من قبل الخزنة - وهم في النّار : لَمَقْتُ اللَّهِ إياكم اليوم ، وإهانته لكم ، أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ في الدنيا ، حيث حرمتموها الإيمان وعرضتموها للهوان ، إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ من قبل الرّسل فَتَكْفُرُونَ ، والحاصل : أنهم مقتوا أنفسهم في الدنيا ، وأهانوها ، حيث لم يؤمنوا ، فإذا دخلوا النّار حصل لهم من المقت والغضب من اللّه أشد وأعظم من ذلك ، ف «إذا» : ظرف للمقت الثاني ، لا الأول ، على المشهور.

قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ أي : إماتتين وإحياءتين ، أو : موتتين وحياتين. قال ابن عباس : كانوا أمواتا في الأصلاب ، ثم أحياهم ، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة ، وهذا كقوله تعالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ ... الآية «١». قال السدى : أميتوا في الدنيا ، ثم أحيوا في قبورهم للسؤال ، ثم أميتوا في قبورهم ، ثم أحيوا في الآخرة.

والحاصل : أنهم أجابوا : بأن الأنبياء دعوهم إلى الإيمان باللّه واليوم الآخر ، وكانوا يعتقدون ما يعتقده الدهرية :

ألّا حياة بعد الموت ، فلم يلتفتوا إلى دعوتهم ، وداموا على الإنكار ، فلمّا رأوا الأمر عيانا ، اعترفوا.
ووجه مطابقة قوله : قالُوا رَبَّنا ... إلخ لما قبله : الإقرار بما كانوا منكرين له من البعث ، الذي أوجب لهم المقت والعذاب طمعا فى الإرضاء له بذلك ليتخلصوا من العذاب ، ولذلك قالوا : فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا ، لمّا رأوا الإماتة والإحياء قد تكرر عليهم ، علموا أن اللّه قادر على الإعادة ، كما هو قادر على الإنشاء ، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة البقرة. وانظر تفسير البغوي (٧/ ١٤٢).

(٥/١١٧)

البعث وما يتبعه من جزائهم. ومقصدهم بهذا الإقرار : التوسل بذلك إلى ما علّقوا به أطماعهم الفارغة من الرّجوع إلى الدنيا ، كما صرحوا به فى قولهم : فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ أي : نوع من الخروج ، سريع أو بطيء ، مِنْ سَبِيلٍ أو : لا سبيل إليه قط. وهذا كلام من غلب عليه اليأس ، وإنما يقولون ذلك تحيّرا ، مع نوع استبعاد واستشعار يأس منه ، ولذلك أجيبوا بقوله :
ذلِكُمْ أي : ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب ، وألّا سبيل إلى الخروج ، بِأَنَّهُ أي : بسبب أن الشأن إذا دُعِيَ اللَّهُ فى الدنيا ، أي : عبد وَحْدَهُ منفردا كَفَرْتُمْ بتوحيده ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا بالإشراك وتسارعوا فيه ، أي : كنتم فى الدنيا تكفرون بالإيمان ، وتسارعون إلى الشرك. قيل : والتعبير بالاستقبال ، إشارة إلى أنهم لو ردوا لعادوا ، وحيث كان حالكم كذلك ، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الذي لا يحكم إلا بالحق ، ولا يقضى إلا بما تقتضيه حكمته ، الْعَلِيِّ شأنه ، فلا يردّ قضاؤه ، أو : فالحكم بعذابكم وتخليدكم فى النّار للّه لا لتلك الأصنام التي عبدتموها معه ، الْكَبِيرِ : العظيم سلطانه ، فلا يحدّ جزاؤه. وقيل : إنّ الحرورية «١» أخذوا قولهم : لا حكم إلا للّه ، من هذه الآية. قال عليّ رضي اللّه عنه لمّا سمع مقالتهم : كلمة حق أريد بها باطل. هـ.
الإشارة : إنّ الذي كفروا بطريق الخصوص ، وأنكروا وجود التربية ، حتى ماتوا محجوبين عن اللّه ، وبعثوا كذلك ، ينادون يوم القيامة بلسان الحال : لمقت اللّه لكم اليوم - حيث سقطتم عن درجات المقربين - أكبر من مقتكم أنفسكم ، حيث حرمتموها معرفة العيان ومقام الإحسان ، حين كنتم تدعون إلى تربية الإيمان ، وتحقيق الإيقان ، على ألسنة شيوخ التربية ، فتكفرون وتقولون : انقطعت التربية منذ زمان ، ثم يطلبون الخروج من عالم الآخرة إلى عالم الدنيا ، ليحصلوا المعرفة التي فاتتهم ، فيقال لهم : هيهات ، قد فات الإبّان «٢» ، «الصيف ضيعت اللبن» «٣».

فامكثوا فى حجابكم ، ذلكم بأنه إذا دعى اللّه وحده ، وأن لا موجود سواه ، كفرتم بإنكاركم سبيله ، وهى طريق التجريد والتربية ، وإن يشرك به بالتعمق فى الأسباب ، والمكث فيها ، تؤمنوا. والحاصل : أنهم كانوا ينكرون طريق التجريد ، ويؤمنون بطريق الأسباب ، فالحكم للّه العلى الكبير ، فيرفع من يشاء ، ويضع من يشاء بعلوه وكبير شأنه.

---

(١) الحرورية : طائفة من الخوارج ، تنسب إلى «حرور» ، اسم قرية بالكوفة. انظر اللسان (حرر ٢/ ٨٣١).

(٢) إبان كل شىء : وقته وحينه الذي يكون فيه. انظر اللسان (ابن ١/ ١٢).

(٣) هذا مثل. والتاء من «ضيعت» مكسورة فى كل حال ، إذا خوطب به المذكر والمؤنث والاثنان والجمع ، لأن المثل فى الأصل خوطبت به امرأة ، وهى دختنوس بنت لقيط بن زرارة ، كانت تحت عمرو بن عمرو بن عدس ، وكان شيخا كبيرا ، ففركته (كرهته) فطلقها ، ثم تزوجها فتى جميل الوجه ، وأجدبت ، فبعثت إلى عمرو تطلب منه حلوبة ، فقال عمرو : «فى الصيف ضيعت اللبن» ، فلما رجع الرّسول ، وقال لها ما قال عمرو ، ضربت يدها على منكب زوجها ، وقالت : «هذا ومذقه خير» تعنى أن هذا الزوج مع عدم اللبن خير من عمرو ، فذهبت كلماتهما مثلا. انظر مجمع الأمثال للميدانى (٢/ ٤٣٤).

ثم برهن على علو شأنه بقوله :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ١٧]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٧)

يقول الحق جل جلاله : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ الدالة على كبريائه ، وكمال قدرته ، من الرّياح ، والسحاب ، والرّعد ، والبرق ، والصواعق ، وغير ذلك ، لتستدلوا على ذلك ، وتعملوا بموجبها ، فتوحدوه تعالى ، وتخصوه بالعبادة ، وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً مطرا لأنه سبب الرّزق. وأفرده بالذكر مع كونه من جملة الآيات لتفرده بكونه من آثار رحمته ، وجلائل نعمه الموجبة للشكر إذ به قوام

الحيوانات بأسرها. وصيغة المضارع فى الفعلين للدلالة على تجدد الإراءة والتنزيل ، واستمرارهما. وَما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ أي : وما يتعظ ويعتبر بهذه الآيات الباهرة ، ويعمل بمقتضاها إلا من يتوب ويرجع عن غيه إلى اللّه تعالى ، فيتفكر فيما أودعه فى تضاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة ، ونعمه الشاملة. وأما المعاند فلا يتعظ ولا يعتبر لسفح الران على قلبه.
وإذا كان الأمر كما ذكرنا ، من اختصاص التذكير بمن ينيب ، فَادْعُوا اللَّهَ ، أو : تقول : لمّا ذكر أحوال المشركين ، وأراد أن يشفع بأضدادهم ، جعل قوله : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ .. إلخ ، توطئة لقوله : فَادْعُوا اللَّهَ أي :
اعبدوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ من الشرك الجلى والخفي ، بموجب إنابتكم إليه تعالى وإيمانكم ، وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ وإن غاظ ذلك أعداءكم ، ممن لم يتب مثلكم ، فإن اللّه يكرم مثواكم ، ويرفع درجاتكم ، فإنه رَفِيعُ الدَّرَجاتِ أي : رافع درجات أوليائه المؤمنين ، الداعين إليه ، المخلصين فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا بالعز والنّصر ، وفى الآخرة بالقرب والاختصاص ، أو : رفيع السموات التي هى مصاعد الملائكة ، ومهابطها ، للسفارة بين

(١١٩/٥)

المرسل والمرسل إليه ، وهو كالمقدمة لقوله : يُلْقِي الرُّوحَ ... إلخ. هذا على أنه اسم فاعل ، مبالغة ، وقيل : هو صفة مشبهة أضيفت إلى فاعلها ، أي : رفيع درجاته بالعلو والقهرية.
ذُو الْعَرْشِ أي : مالكه ، وهما خبران آخران عن هُوَ الَّذِي ... إلخ ، إيذانا بعلو شأنه ، وعظم سلطانه ، الموجبين لتخصيص العبادة به ، وإخلاص الدين له بطريق الاستشهاد بهما عليهما فإنّ ارتفاع الدرجات والاستيلاء على العرش - مع كون العرش محيطا بأكناف العالم العلوي والسفلى ، وهو تحت ملكوته وقبضة قهره مما يقضى بكون علو شأنه وعظيم سلطانه - فى غاية لا غاية ورائها. قاله أبو السعود.
ثم ذكر سبب رفع الدرجات بقوله : يُلْقِي الرُّوحَ أي : ينزل الوحى ، الجاري من القلوب بمنزلة الرّوح من الأجسام ، وكأنه لمّا ذكر رزق الأجسام أتبعه برزق الأرواح ، الذي هو العلم باللّه ، وطريقه الوحى.
والتعبير بالمضارع ، قال الطيبي : يفيد استمرار الوحى من لدن آدم إلى زمن سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، ثم اتصاله إلى قيام يوم التنادى ، بإقامة من يقوم بالدعوة ، على ما روى أبو داود ، عن أبى هريرة ، عن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إنّ اللّه سيبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها» «١» ومعنى التجديد : إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنّة ، والأمر بمقتضاهما. هـ.

قلت : وقد زرت شيخنا البوزيدى رضي اللّه عنه مرة ، فلما وقع بصره عليّ ، قال : واللّه ، حتى يحيى اللّه بك الدين المحمدي. وكتب لى شيخ الجماعة ، وقطب دائرة التربية ، مولاى العربي الدرقاوى رضي اللّه عنه ، فقال فى آخر كتابه :

وأرجو من اللّه ألا تموت حتى تكون داعيا إلى اللّه ، تذكّر أهل المشرق والمغرب. أو ما هذا معناه ، وقد وقع ذلك ، والحمد للّه.

وقوله : مِنْ أَمْرِهِ أي : من قضائه ، أو : بأمره ، فيجوز أن يكون حالا من الرّوح ، أو متعلقا ب (يلقى) أي :

يلقى الرّوح حال كونه ناشئا ، أو : مبتدئا من أمره ، أو : يلقى الوحى بسبب أمره عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وهو الذي اصطفاه لرسالته ، وتبليغ أحكامه إلى عباده ، لِيُنْذِرَ أي : اللّه ، أو : الملقى عليه ، وهو النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، ويؤيده قراءة يعقوب بالخطاب ، أي : لتخوف يَوْمَ التَّلاقِ يوم القيامة لأنه يتلاقى فيه أهل السموات وأهل الأرض ، والأولون والآخرون ، و(يوم) : ظرف للمفعول الثاني ، أي : لينذر النّاس العذاب يوم التلاق ، أو : مفعول ثان لينذر ، فإنه من شدة هوله وفظاعته حقيق بالإنذار.

---

(١) أخرجه أبو داود فى (الملاحم ، باب ما يذكر فى قرن المائة ٤/ ٤٨٠ ، ح ٤٢٩١) والحاكم فى المستدرك (الفتن والملاحم ، ٤/ ٥٢٢) والبيهقي فى المعرفة (١/ ١٢٤) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه ، ورمز له السيوطي فى الجامع الصغير (ح ١٨٤٥) بالصحة.

(١٢٠/٥)

يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ : بدل من «يوم التلاق» أي : خارجون من قبورهم ، أو : ظاهرون ، لا يستترون بشىء من جبل أو أكمة أو بناء لكون الأرض يومئذ قاعا صفصفا ، ولا عليهم ثياب ، إنما هم حفاة عراة ، كما فى الحديث. أو :

بارزة نفوسهم لا يحجبها غواش الأبدان ، أو : بارزة أعمالهم وسرائرهم ، لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ من أعمالهم وأحوالهم ، الجلية والخفية ، السابقة واللاحقة ، وهو استئناف لبيان بروزهم ، وإزاحة لما كان يتوهمه المتوهمون فى الدنيا من الاستتار توهما باطلا ، فإذا برزوا وحشروا ، نادى الحق - جل جلاله : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ فلا يجيبه أحد ، ثم يعود ثلاثا ، فيجيب نفسه بنفسه بقوله : لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ أي : الذي قهر العباد بالموت.

روى أن اللّه تعالى يجمع الخلائق فى صعيد واحد ، فى أرض بيضاء ، كأنها سبيكة فضة ، لم يعص اللّه

عليها قط ، فأول ما يتكلم به أن ينادى مناد : لمن الملك اليوم؟ فيجيب نفسه : «للّه الواحد القهار».
وقيل : المجيب أهل المحشر ، وروى أيضا : أن هذا القول يقوله الحق تعالى عند فناء الخلق وقبل البعث ، ولعله يقال مرتين.
قال تعالى : الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ من النّفوس البرة والفاجرة ، بِما كَسَبَتْ من خير أو شر ، وهذا من تتمة الجواب ، أو : حكاية لما سيقوله تعالى يومئذ عقب السؤال والجواب ، لا ظُلْمَ الْيَوْمَ بنقص ثواب أو زيادة عذاب ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ لأنه لا يشغله شأن عن شأن ، فكما أنه يرزقهم دفعة ، يحاسبهم دفعة ، فيحاسب الخلق قاطبة فى أقرب زمان ، كما نقل عن ابن عباس : أنه تعالى إذا أخذ فى حسابهم لم يقل «١» أهل الجنة إلا فيها ، وأهل النّار إلا فيها. هـ.
قلت : المراد بالحساب : إظهار ما يستحق كل واحد من النّعيم أو العذاب ، وأما ما ورد من طول المكث فى المحشر على الكفار والفجار فإنما ذلك تعذيب بعد فراغ المحاسبة. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : هو الذي يريكم آياته الدالة على توحيده ، وينزل لكم من سماء الغيوب علما ، تتقوت به قلوبكم وأرواحكم ، فتغيبون فى مشاهدة المدلول عن الدليل ، وما يتذكّر بهذا ويهتد إليه إلا من ينيب ، ويصحب أهل الإنابة.
فادعوا اللّه ، أي : اعبدوه وادعوا إلى عبادته وإخلاص العمل ، ولو كره الجاحدون ، فإنّ اللّه رفيع درجات الداعين إليه مع المقربين ، فى مقعد صدق عند ذى العرش المجيد. قال القشيري : يرفع درجات المطيعين بظواهرهم فى الجنة ، ودرجات العارفين بقلوبهم فى الدنيا ، فيرفع درجتهم عن النّظر إلى الكونين ، والمساكنة إليهما ، وأما المحبون فيرفع درجتهم عن أن يطلبوا فى الدنيا والعقبى شيئا غير رضا محبوبهم. هـ.

---

(١) من القيلولة.

يلقى الرّوح من أمره على من يشاء من عباده ، هو وحي أحكام للأنبياء ، ووحي إلهام للأولياء ، فيحيى اللّه بهم الدين فى كلّ زمان ، وقال القشيري : بعد كلام : ويقال : روح النّبوة ، وروح الرّسالة ، وروح الولاية ، وروح المعرفة.
هـ. والمراد بالروح : مطلق الوحى ، لينذر الداعي يوم التلاقي ، فيحصل اللقاء السرمدي مع الحبيب للمقربين ، ويحصل الافتراق والبعد للغافلين ، حين تبرز الخلائق بين يدى اللّه ، لا دعوى لأحد يومئذ

، فيقول الحق تعالى : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ.
قال القشيري : لا يتقيد ملكه بيوم ، ولا يختص بوقت ، ولكنّ دعاوى الخلق - اليوم - لا أصل لها ، ترتفع غدا ، وتنقطع تلك الأوهام. هـ. ومثله فى الإحياء ، وأنه إذا كشف الغطاء شهد الأمر كذلك ، كما كان كل يوم ، لا فى خصوص ذلك اليوم. فإذا حصل للعبد مقام الفناء ، لم ير فى الدارين إلا اللّه ، فيقول : لمن الملك اليوم؟ فيجيب : للّه الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من التقريب أو الإبعاد. قال القشيري : يجازيهم على أعمالهم الجنان ، وعلى أحوالهم الرّضوان ، وعلى أنفاسهم - أي : على حفظ أنفاسهم - القرب ، وعلى محبتهم الرّؤية ، ويجازى المذنبين على توبتهم الغفران ، وعلى بكائهم الضياء والشفاء. هـ. لا ظلم اليوم ، بل كل واحد يرتفع على قدر سعيه اليوم.
وقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ قال القشيري : وسريع الحساب مع أوليائه فى الحال ، يطالبهم بالنقير والقطمير. هـ. قلت : يدقق عليهم الحساب فى الحال ، ويرفع مقدارهم فى المآل. وباللّه التوفيق.
ثم حذّر من هول ذلك اليوم ، فقال :
[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٠]
وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ (١٨) يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)
يقول الحق جل جلاله : وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ أي : القيامة ، سميت بها لأزوفها ، أي : قربها. فالأزوف والازدلاف هو القرب ، غير أن فيه إشعارا بضيق الوقت ، أو الخطة الأزفة ، وهى مشارفة أهل النّار لدخولها ، ثم أبدل من يوم الآزفة قوله : إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ أي : التراقى ، يعنى : ترتفع قلوبهم عن مقارّها ، فتلتصق

بحناجرهم من الرّعب ، فلا هى تخرج فيموتوا فيستريحوا ، ولا ترجع إلى مقارها فيتروّحوا. حال كونهم كاظِمِينَ ممسكين الغيظ بحناجرهم ، أو : ممسكين قلوبهم بحناجرهم ، يرومون ردها لئلا تخرج ، فهو حال من القلوب ، وجمعت جمع السلامة لوصفها بالكظم ، وهو من أوصاف العقلاء ، أو : من أصحاب القلوب إذ الأصل :
قلوبهم ، أو : من ضميرها فى الظرف ، ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ أي : قريب مشفق وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ أي :

ولا شفيع تقبل شفاعته ، فالمراد : نفى الشفاعة والطاعة ، كقول الشاعر :
ولا ترى الضّبّ فيها ينجحر «١» يريد به : نفى الضب وانجحاره. وكقول الآخر :
على لاحب لا يهتدى بمناره «٢» وإن احتمل اللفظ نفى الطاعة دون الشفاعة. فعن الحسن البصري : «واللّه ما يكون لهم شفيع البتة». ووضع «الظالمين» موضع الضمير للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم به.

يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ أي : النظرة الخائنة ، كاستراق النّظر إلى ما لا يحلّ. قيل : فيه تقديم وتأخير ، أي : الأعين الخائنة ، وقيل : مصدر ، كالعافية ، أي : خيانة الأعين. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : هو الرّجل يكون جالسا مع القوم ، فتمر المرأة ، فيسارقهم النّظر إليها «٣». هـ. وقال ابن عطية : متصل بقوله : سَرِيعُ الْحِسابِ ، فيحاسب على خيانة الأعين ، وقالت فرقة : متصل بقوله : لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، وهذا حسن ، يقويه تناسب المعنيين ، ويبعده بعد الآية من الآية ، وكثرة الحائل. والحاصل : أنه متصل بما تقدم من ذكر اللّه ووصفه ، واعترض فى أثناء ذلك بوصف القيامة لما استطرد إليه من قوله : لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ الآية. قاله المحشى. وَيعلم ما تُخْفِي الصُّدُورُ أي : ما تكنّه من خيانة وأمانة. وقيل : هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة ، ثم يتفكر بقلبه فى جمالها ، ولا يعلم بنظرته وفكرته من حضره ، واللّه يعلم ذلك كله.

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ أي : ومن هذه صفاته لا يقضى إلا بالعدل ، فيجازى كلّا بما يستحقه إذ لا يخفى عليه خفىّ ولا جلىّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ يعبدونهم مِنْ دُونِهِ من الآلهة لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ، وهذا

---

(١) عجز بيت ، صدره : لا تفزع الأرنب أهوالها.

(٢) هذا صدر بيت عجزه : [إذا سافه النّباطىّ جرجرا]. وهو من قصيدة لامرئ القيس فى ديوانه (٦٦). وصدر البيت فى لسان العرب (لحف ٥/ ٤٠٠٩). واللحب : الطريق الواسع ، من لحبه : إذا وطئه ومرّ فيه ، والمنار : ما يعلم به الطريق.

والشاهد فى البيت : نفى الاهتداء بالمنار ، والمقصود : نفى المنار ، فلا منار ولا هداية.

(٣) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٦٥٣) لسعيد بن منصور ، وابن أبى شيبة وابن النّذر وابن أبى حاتم.

(١٢٣/٥)

تهكّم بهم لأن الجماد الذي لا يعقل لا يقال فيه : يقضى ولا يقضى ، وقرأ نافع بالخطاب أو : على إضمار «قل» ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ تقرير لقوله : يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ ووعيد

لهم لأنه يسمع ما يقولون ، ويبصر ما يعملون ، وأنه يعاقبهم عليه ، وتعريض بما يدعون من دون اللّه ، بأنها لا تسمع ولا تبصر.

الإشارة : قال القشيري : قيامة الكل مؤجّلة ، وقيامة المحبين معجّلة ، فى كل نفس من العتاب والعذاب ، والبعاد والاقتراب ، ما لم يكن فى حساب ، وشهادة الأعضاء بالدمع تشهد ، وخفقان القلب ينطق ، والنّحول يخبر ، واللون يفضح ، والعبد يستر ، ولكن البلاء يظهر ، قال :

يا من تغيّر صورتى لمّا بدا لجميع ما ظنّوا بنا تحقيق هـ. «١»

وقوله تعالى : إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ، هو فى حق من فاته التأهب والترقي فى هذه الدار ، فتحسّر حين يعاين مقامات الرّجال ، وليس له شفيع يرقيه ، ولا حميم يصافيه. وقوله تعالى : يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ هو فى حق العارفين : النظر إلى السّوى بعين الاستحسان. قال القشيري : خائنة الأعين هى من المحبين استحسانهم شيئا - أي : من السّوى - وأنشدوا :

يا قرّة العين : سل عينى هل اكتحلت بمنظر حسن مذ غبت عن عينى؟

وأنشد أيضا :

وعينى إذا استحسنت غيركم أمرت الدّمع بتأديبها «٢»

قلت : ومثله قول الشاعر :

وناظر فى سوى معناك حقّ له يقتصّ من جفنه بالدّمع وهو دم

والسمع إن حال فيه ما يحدّثه سوى حديثك ، أمسى وقره الصّمم

ثم قال : ومن خائنة الأعين : أن تأخذهم السّنة والسّنات «٣» فى أوقات المناجاة ، وفى قصص داود عليه السّلام :

«كذب من ادّعى محبتى ، فإذا جنّة الليل نام عنى» ومن خائنة أعين العارفين : أن يكون لهم خير ، أي : استحسان يقع لقلوبهم مما تقع عليه أعينهم ، ينظرون ولكن لا يبصرون - أي : ينظرون إلى المستحسنات ، ولكن لا يقفون

---

(١) فى لطائف الإشارات : [لجميع ما ظنوا بنا تصديقا].

(٢) فى القشيري : [أمرت السهاد بتعذيبها]. والبيت منسوب إلى سلم الخاسر ، كما فى نهاية الأرب (٢/ ٥٦) وفيه :

تقول وفى قولها حشمة أتبكي بعين تراني بها

فقلت إذ استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبها با أديبها

(٣) فى القشيري : والسبات. [.....]

معها - ومن خائنة أعين الموحّدين - أي : السائرين للتوحيد - أن يخرج منها قطرة دمع ، تأسفا على مخلوق يفوت من الدنيا والآخرة ، ومن خائنة الأعين : النظر إلى غير المحبوب بأى وجه كان ، ففى الخبر : «حبّك الشيء يعمى ويصمّ» «١» ، أي : يغيبك عن غيره ، فلا ترى إلا محاسن الحبيب ، وجماله فى مظاهر تجلياته ، وإليه يشير قول ابن الفارض رضي اللّه عنه :

عينى لغير جمالكم لا تنظر وسواكم فى خاطرى لا يخطر

وقوله تعالى : وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ قال القشيري : يقضى للأجانب بالبعاد ، ولأهل الوداد بالوصال ، ويقضى يوم القدوم بعدل «٢» عمال الصدود. هـ. أي : يعدل فى أهل الصدود عن حضرته ، فيجازيهم بنعيم الأشباح فقط. ثم قال : وإذا ذبح الموت غدا بين الجنة والنّار على صورة كبش أملح ، فلا غرو أن يذبح الفراق على رأس سكة الأحباب ، فى صورة شخص ، ويصلب على جذوع الغيرة ، لينظر إليه أهل الحضرة. هـ.

ثم أمر بالتفكر - الذي هو طريق النّجاة من كل ضرر - فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (٢١) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢٢)

قلت : (هم أشد) : ضمير فصل ، وحقه أن يقع بين معرفتين ، إلا أنّ (أشد) لمّا ضارع المعرفة فى كونه لا يدخله الألف واللام أجرى مجراها.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي أقطار الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ أي : مآل من قبلهم من الأمم المكذّبة لرسلهم ، كعاد ، وثمود ، وأضرابهم ، كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً أي : قدرة وتمكنا من التصرف ، وَآثاراً فِي الْأَرْضِ وأشد تأثيرا فى الأرض ، ببناء القلاع الحصينة ،

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٤) وأبو داود فى (الأدب ، باب فى الهوى ٥/ ٣٤٦ ح ٥١٣٠) والخطيب فى تاريخ بغداد (٣/ ١١٧) من حديث أبى الدرداء رضي اللّه عنه.

(٢) فى القشيري : [بعزل] ، وهو أنسب.

والمدائن المتينة. وقيل : المعنى : وأكثر آثارا ، أي : ترك آثار فى الأرض ، كالحصون وغيرها. فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ أخذا وبيلا ، وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ أي : لم يكن لهم شيء يقيهم من عذاب اللّه. ذلِكَ الأخذ بِأَنَّهُمْ بسبب أنهم كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الدالة على صدقهم ، أو : بالأحكام الظاهرة الجلية ، فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ ، متمكن مما يريد غاية التمكن ، قادر على كل شيء ، شَدِيدُ الْعِقابِ لا يؤبه عند عقابه بعقاب.

الإشارة : قال القشيري : أولم يسيروا بنفوسهم فى أقطار الأرض ، ويطوفوا مشارقها ومغاربها ، فيعتبروا بها ، فيذهبوا فيها؟ ويسيروا بقلوبهم فى الملكوت بجولان الفكر ، فيشهدوا أنوار التجلي ، فيستبصروا بها؟ ويسيروا بأسرارهم فى ساحات الصمدية ، فيستهلكوا فى سلطان الحقائق ، ويتخلّصوا من جميع المخلوقات قاصيها ودانيها؟

ثم قال : قوله تعالى : ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، إن بغى من أهل السلوك ، قاصد لهم يصل إلى مقصوده ، فليعلم أنّ موجب حجبته اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه ، فى بعض أوقاته ، فإنّ الشيوخ بمحلّ السفير للمريدين. وفى الخبر : «الشيخ فى أهله كالنبيّ فى أمته» «١». هـ.

ثم سلّى نبيه بقصة موسى عليه السّلام ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٢٣ الى ٢٧]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (٢٦) وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (٢٧)

---

(١) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٤٩٦٩ - ٤٩٧٠) للخليلى فى مشيخته ، وابن النّجار ، عن أبى رافع. وابن حبان فى الضعفاء ، والشيرازي فى الألقاب ، عن ابن عمر. والحديث ضعيف. وقال الشوكانى فى الفوائد (٢٨٦) : جزم ابن حجر وغيره بأنه موضوع. وانظر : تنزيه الشريعة (١/ ٢٠٧) الشذرة فى الأحاديث المشتهرة للصالحى (١/ ٣٥٢).

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا معجزاته التسع وَسُلْطانٍ مُبِينٍ أي : حجة قاهرة ، وهى

: إما عين الآيات ، والعطف لتغاير العنوانين ، فكونها آيات من جهة خرق العادة ، وكونها حجة من حيث الدلالة على صدق صاحبها ، وإما أن يريد بالسلطان بعض مشاهيرها ، كالعصا ، أفردت بالذكر مع اندراجها تحت الآيات لعظمها. وقال ابن عرفة : الآيات : المعجزات ، والسلطان المبين ، راجع إلى التحدي بها ، فهو من قبيل الإدعاج «١» ، أو : يكون السلطان راجعا إلى ظهورها إذ ليس من شرطها الظهور ، أو : يرجع إلى نتيجتها ، وهو الغلبة والنّصر. هـ.

أرسل إلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ ، فَقالُوا فيما أظهره ، أو : فيما ادّعاه من الرّسالة : هو ساحِرٌ كَذَّابٌ.

فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا وهو الوحى والرّسالة ، قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أي : صبيانهم الذكور ، وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ للخدمة ، أي : أعيدوا عليهم القتل الذي كنتم تفعلونه أولا ، وكان فرعون قد كفّ عن قتل الولدان لئلا تعطل خدمته ، فلما بعث عليه السّلام ، وأحسّ بأنه قد وقع ما توقع ، أعاده عليهم غيظا ، وحمقا ، وزعما منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرته. وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ فى ضياع وبطلان ، فإنهم باشروا قتلهم أولا ، فما أغنى عنهم ، ونفذ قضاء اللّه بإظهار من خافوه ، فما يغنى عنهم هذا القتل الثاني ، فلم يعلم أن كيده ضائع فى الكرّتين ، واللام : إما للعهد المتقدم ، والإظهار فى موضع الإضمار لذمهم بالكفر ، والإشعار بعلة الحكم ، أو : للجنس ، وهم داخلون فيه دخولا أوليّا. والجملة : اعتراض جىء بها فى تضاعيف ما حكى عنهم من الأباطيل للمسارعة إلى بيان بطلان ما أظهروه من الإبراق والإرعاد الذي لا طائل تحته.

وَقالَ فِرْعَوْنُ لملئه : ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى ، وكان ملؤه إذا همّ بقتله كفّوه ، وقالوا : ليس بالذي تخافه ، وهو أقل من ذلك ، وما هو إلا ساحر ، وإذا قتلته أدخلت شبهة على النّاس ، واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة ، والظاهر من دهاء اللعين ونكارته أنه قد استيقن أنه نبىّ ، وأن ما جاء به آيات باهرة ، وما هو بسحر ، ولكن كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك ، وكان قوله تمويها على قومه ، وإيهاما أنهم هم الكافون عن قتله ، ولو لاهم لقتله ، وما كان يكفه إلا ما فى نفسه من الفزع الهائل.

وقوله : وَلْيَدْعُ رَبَّهُ تجلد منه وإظهار لعدم المبالاة بدعائه ، ولكنه أخوف ما يخافه.

---

(١) هكذا.

ثم قال : إِنِّي أَخافُ إن لم أقتله أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أي : يغير ما أنتم عليه من الدين ، وهو عبادتهم له وللأصنام لتقربهم إليه ، أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ أي : ما يفسد دنياكم من التحارب والتهارج إن

لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية. والحاصل : أنه قال : أخاف أن يفسد عليكم دينكم ، بدعوته إلى دينه ، أو : يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من التقاتل والتهارج ، الذي يذهب معه الأمن ، وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش.

وَقالَ مُوسى لمّا سمع ما أجراه من الحديث فى قتله لقومه : إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ ، صدّر عليه السّلام كلامه بأنّ تأكيدا له ، وإظهارا لمزية الاعتناء بمضمونه ، وفرط الرّغبة.

وخص اسم الرّب المنبئ عن الحفظ والتربية إذ بهما يقع الحفظ.

وفى قوله : وَرَبِّكُمْ حث لهم على أن يقتدوا به ، فيعوذوا باللّه عياذته ، ويعتصموا بالتوكّل اعتصامه ، ولم يسمّ فرعون ، بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة لتعميم الاستعاذة ، والإشعار بعلة القساوة والجرأة على اللّه تعالى ، وهو التكبر. قال ابن عرفة : أشار إلى أن كفره لم يكن لأجل أن موسى لم يأت بدليل ولا معجزة ، ولم يكن أيضا لخفاء تلك المعجزة ، وعدم ظهورها ، بل كان لجحود التعنت والتكبر ، والإباية عن الانحطاط من سلطنة الملك إلى رتبة الاتّباع. هـ. وقال : لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ لأنه إذا اجتمع فى الرّجل التجبر والتكذيب بالجزاء ، وقلة المبالاة بالعاقبة ، فقد استكمل أسباب القوة والجرأة على اللّه وعباده ، والعياذ باللّه.

الإشارة : قال القشيري : كان موسى عليه السّلام أكرم خلقه فى وقته ، وكان فرعون أخسّ خلقه فى وقته إذ لم يقل أحد : ما علمت لكم من إله غيرى ، فأرسل أخصّ عباده إلى أخسّ عباده. ثم إن فرعون سعى فى قتل موسى ، واستعان على ذلك بخيله ورجله ، ولكن كما قال تعالى : وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ ، وإذا حفر أحد لوليّ اللّه حفرة ، ما وقع فيها غير حافرها ، كذلك أجرى الحقّ سنّته. هـ.

ثم ذكر موعظة مؤمن آل فرعون لقومه ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]

وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ ، قيل : كان قبطيا ، ابن عمّ لفرعون ، آمن بموسى سرّا ،

وقيل : كان إسرائيليا موحّدا ، وهو المراد بقوله : وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى «١» ، قال ابن عباس : اسمه حزقيل. وقال ابن إسحاق : جبرل ، وقيل : سمعان. وقيل : حبيب «٢». ومِنْ آلِ فِرْعَوْنَ : صفة ثانية لرجل ، أو :

صلة ليكتم ، أي : يَكْتُمُ إِيمانَهُ من فرعون وملائه : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أي : أتقصدون قتله كراهة أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وحده ، من غير روية ولا تأمل فى أمره؟ وهذا إنكار منه عليهم ، كأنه قال : أترتكبون هذه الفعلة الشنعاء - وهى قتل نفس محرمة - من غير حجة ، غير قوله الحق ، وإقراره بالتوحيد؟ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ أي :

والحال أنه جاءكم بالمعجزات الظاهرة ، التي شاهدتموها وعاهدتموها من ربكم ، يعنى أنه لم يكتف ببينة واحدة ، بل جاء ببينات كثيرة مِنْ عند رَبِّكُمْ ، أضافه إليهم ، استنزالا لهم عن رتبة المكابرة ، واستدراجا للاعتراف.

ثم أخذهم بالاحتجاج فقال : وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، لا يتخطى وبال كذبه إلى غيره ، فيحتاج فى دفعه إلى قتله ، وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ من العذاب ، احتج عليهم بطريق التقسيم لأنه لا يخلو ، إما أن يكون كاذبا أو صادقا ، فإن كان كاذبا فوبال كذبه عليه ، وإن كان صادقا يصبكم قطعا بعض ما يعدكم من العذاب ، ولم يقل : كل الذي يعدكم ، مع أنه وعد من نبيّ صادق ، مداراة لهم وسلوكا لطريق الإنصاف ، فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم له ، فكأنه قال : إن لم يصبكم الجميع يصبكم البعض ، وليس فيه نفى لإصابة الكل ، فكأنه قال : أقلّ ما فيه أن يصيبكم بعض ما يعدكم ، وهو العذاب العاجل ، وفى ذلك هلاككم ، وكان وعدهم عذاب الدنيا والآخرة. وتفسير البضع بالكل مزيّف. إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ، هذا احتجاج آخر ذو وجهين أحدهما : أنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه اللّه إلى النّبوة ، ولما عضده بتلك البينات ، وثانيهما : إن كان كذلك خذله اللّه وأهلكه ، فلا حاجة إلى قتله. وقيل : أوهم أنه يريد بالمسرف موسى ، وهو يعنى به فرعون ، ويحتمل أن يكون من كلام اللّه - تعالى - اعتراضا بين أجزاء وعظه ، إخبارا بما سبق لهم من الشقاء ، فلا ينفع فيهم الوعظ.

---

(١) من الآية ٢٠ من سورة يس.

(٢) انظر هذه الأقوال فى تفسير القرطبي (٧/ ٥٩٢١) والبغوي (٧/ ١٤٦).

ثم قال : يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ حال كونكم ظاهِرِينَ غالبين عالين على بنى إسرائيل فِي الْأَرْضِ أرض مصر ، لا يقاومكم أحد فى هذا الوقت ، فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا يعنى : إن لكم اليوم ملك مصر ، وقد علوتم النّاس ، وقهرتموهم ، فلا تسرفوا على أنفسكم ، ولا تتعرضوا لبأس اللّه ، أي : عذابه فإنه لا طاقة لكم به إن جاءكم ، ولا يمنعكم منه أحد. وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور فى الأرض إليهم خاصة ، ونظم نفسه فيما يسوؤهم ، من مجىء بأس اللّه تعالى ، إمحاضا للنصح ، وإيذانا بأن الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه.
قالَ فِرْعَوْنُ بعد ما سمع نصحه لقومه : ما أُرِيكُمْ أي : ما أشير عليكم إِلَّا ما أَرى وأستصوبه من قتل موسى ، يعنى : لا أستصوب إلا قتله ، وهذا الذي تقولونه غير صواب ، وَما أَهْدِيكُمْ بهذا الرّأى إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ أي : الصواب ، ولا أعلنكم إلا ما أعلم ، ولا أسرّ عنكم شيئا خلاف ما أظهر ، يعنى : أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول ، وقد كذب اللعين ، فقد كان مضمرا للخوف الشديد من جهة موسى عليه السّلام ، ولكنه كان يتجلّد ، ولو لا استشعاره للخوف لم يستشر أحدا فى قتله ، وقد كان سفّاكا جبارا ، فما منعه إلا خوف الهلاك إن مدّ يده إليه. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : قال القشيري : قد نصح وأبلغ مؤمن آل فرعون ، واحتجّ عليهم ، فلم ينجع فيهم قوله ، وأعاد عليهم نصحه فلم يسمعوا ، وكان كما قيل :
وكم سقت فى آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المستنصح «١»
ثم قال تعالى :
[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٣٠ الى ٣٣]
وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (٣١) وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٣)

---

(١) البيت للعباس بن الفرج الرّياشى. انظر الكامل للمبرد (٢/ ٣٩٢) وفيه : وكم صغت فى آثاركم ...

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِي آمَنَ مخاطبا قومه : يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ فى تكذيب موسى ،

والتعرض له بسوء ، مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ أي : مثل أيام الأمم الماضية المتحزبة على رسلها ، يعنى وقائعهم. وجمع الأحزاب مع التفسير أغنى عن جميع اليوم ، أي : بالإضافة ، وفسره بقوله :
مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ كقوم لوط وشعيب ، لم يلبس أنّ كلّ حزب منهم كان له يوم دمار ، فاقتصر على الواحد من الجمع. ودأب هؤلاء : دؤوبهم فى عملهم من الكفر ، والتكذيب ، وسائر المعاصي ، حتى دمّرهم اللّه. ولا بد من حذف مضاف ، أي : مثل جزاء دأبهم - وهو الهلاك.
و(مثل) الثاني :
عطف بيان لمثل الأولى. وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ فلا يعاقبهم بغير ذنب ، أو : يزيد على ما يستحقونه من العذاب ، يعنى أن تدميرهم كان عدلا لأنهم استحقوه بأعمالهم ، وهو أبلغ من قوله : وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ «١» حيث جعل المنفي إرادة الظلم منّكرا ، وإذا بعد عن إرادة ظلم ما لعباده كان عن الظلم أبعد وأبعد. وتفسير المعتزلة :
بأنه لا يريد لهم أن يظلموا ، بعيد لأن أهل اللغة قالوا : إذا قال الرّجل لآخر : لا أريد ظلما لك ، معناه : لا أريد أن أظلمك ، وهذا تخويف بعذاب الدنيا. ثم خوّفهم من عذاب الآخرة بقوله :
وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ أي : يوم القيامة لأنه ينادى فيه بعضهم بعضا للاستغاثة ، ويتصايحون بالويل والثبور ، وينادى أصحاب النّار أصحاب الجنة ، وأصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم ، وعن الضحاك : إذا سمعوا زفير النّار ندّوا هربا ، فلا يأتون قطرا من الأقطار ، إلا وجدوا ملائكة صفوفا ، فيرجعون إلى مكانهم ، فبينهما هم يموج بعضهم فى بعض ، إذ سمعوا مناديا : أقبلوا إلى الحساب. أو : ينادى مناد عند الميزان : ألا إن فلانا بن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، ألا إن فلان بن فلان شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا. قال ابن عطية :
المراد التذكير بكلّ نداء فى القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة ، وذلك كثير. هـ.
ثم أبدل من يوم التناد : قوله : يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ أي : منصرفين عن القوم إلى النّار ، أو : فارّين منها غير معاجزين ، ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ يعصمكم من عذابه ، ولمّا أيس من قبولهم قال : وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ يهديه إلى طريق النّجاة.
الإشارة : ينبغى للواعظ والمذكّر إذا ذكّر العصاة أن يخوفهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، كما فعل مؤمن آل فرعون ، أما عذاب الدنيا فما يلحق العاصي من الذل والهوان عند اللّه ، وعند عباده ، وما يلحقه إن طال عمره من المسخ وأرذل العمر ، فإنّ المعاصي فى زمن الشباب تجر الوبال إلى زمن الهرم ، كما أن الطاعة فى حال الشباب

---

(١) من الآية ٤٦ من سورة فصلت.

تجر الحفظ والرّعاية إلى حال الكبر ، وأما عذاب الآخرة فمعلوم ، ثم يحضّ على التوبة والإقلاع ، فإنّ التائب الناصح ملحق بالطائع ، فلا يلحقه شيء من ذلك. وباللّه التوفيق.

ثم وبّخهم بما تعودوا من تكذيب الرّسل ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٣٤ الى ٣٥]

وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)

قلت : (الذين يجادلون) : بدل من (من هو) ، وإنما جمع لأنه لم يرد مسرفا واحدا ، بل كلّ مسرف.

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا لقول المؤمن : وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ ، هو ابن يعقوب ، وقيل : يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، أقام فيهم نبيا عشرين سنة «١» ، وقال وهب : فرعون موسى هو فرعون يوسف ، عمّر إلى زمنه ، وقيل : هو فرعون آخر لأن كلّ من ملك مصر يقال له فرعون ، وهذا أظهر.

وقول الجلال المحلى :

هو يوسف بن يعقوب فى قول ، عمّر إلى زمنه ، سهو. وإنما قيل ذلك فى فرعون لا فى يوسف.

قلت : والتحقيق : أنه وبّخهم بما فعل أسلافهم لأنهم على منوالهم ، راضون بما فعلوا ، فالمراد بيوسف ، هو الصّدّيق ، فما زالوا مترددين فى رسالته حتى مات ، واستمر خلفهم على ذلك إلى زمن موسى ، وقوله تعالى : مِنْ قَبْلُ أي : من قبل موسى ، أي : جاءكم يوسف بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الواضحة ، كتعبير الرّؤيا ، ودلائل التوحيد ، كقوله : أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ ... «٢» الآية ، وملكه أموالهم ورقابهم فى زمن المسغبة ، وغير ذلك مما دلّ على رسالته. فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ من الدين حَتَّى إِذا هَلَكَ بالموت قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ، حكما ، من عند أنفسكم ، من غير برهان ، أي : أقمتم على كفركم ، وظننتم أن لا يجدّد عليكم إيجاب الحجة.

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٥٩٢٨) عن ابن عباس رضي اللّه عنه. وجاء فى البحر المحيط (٧/ ٤٤٥) والنّسفى (٣/ ٢١٠) «ابراهيم» بدلا من «إفرائيم».

(٢) من الآية ٣٩ من سورة يوسف.

قال القشيري : يقال : إن تكذيبهم وتكذيب سلفهم للأنبياء - عليهم السّلام - كان قديما حتى أهلكهم ، كذلك يفعل بهؤلاء «١». هـ.

كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ أي : مثل ذلك الإضلال الفظيع يضل اللّه من هو مسرف فى عصيانه ، شاكّ فى دينه ، لم يتفكر فيما شهدت البينات بصحته لغلبة الوهم ، والانهماك فى التقليد.

ثم فسّره فقال : الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بالرد والإبطال بِغَيْرِ سُلْطانٍ بغير حجة واضحة ، تصلح للتمسك بها فى الجملة ، أَتاهُمْ : صفة لسلطان ، أي : بغير برهان جاءهم بصحة ذلك ، كَبُرَ مَقْتاً أي : عظم بغضا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وفيه ضرب من التعجب والاستعظام. وفى «كبر» ضمير يعود على «من» وتذكيره باعتبار اللفظ. كَذلِكَ أي : مثل ذلك الطبع الفظيع يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ فيصدر منه أمثال ما ذكر من الإسراف ، والارتياب ، والمجادلة بالباطل. ومن قرأ بالتنوين «٢» فوصف لقلب ، وإنما وصف بالتكّبر والتجبّر لأنه منبعهما ، كما تقول : سمعت الأذن ، كقوله : فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ «٣» وإن كان الإثم للجملة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يقال لأهل كلّ عصر : ولقد جاءكم فلان - لوليّ تقدم قبلهم - بالآيات الدالة على صحّة ولايته ، فما زلتم ، أي : ما زال أسلافكم من أهل عصره - فى شك منه ، حتى إذا مات ظهرت ولايته ، وأقررتم بها ، وقلتم : لن يبعث اللّه من بعده وليّا ، وهذه عادة العامة ، يقرون الأموات من الأولياء ، وينكرون الأحياء. وهى نزعة أهل الكفر والضلال ، كذلك يضل اللّه من هو مسرف مرتاب ، كالذين يخاصمون فى ثبوت الخصوصية عند أربابها ، من غير برهان ، وهو شأن المنكرين ، كذلك يطبع اللّه على كلّ قلب متكبر جبار.

ثم ذكر عتو فرعون وطغيانه ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (٣٦) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبابٍ (٣٧)

---

(١) بالمعنى.

(٢) قرأ أبو عمر (قلب) بالتنوين فى الباء على قطع «قلب» عن الإضافة ، وجعل التكبر والجبروت صفته ، وقرأ الباقون بغير تنوين بإضافة «قلب» إلى ما بعده. واختلف عن ابن عامر. انظر الإتحاف (٢/ ٤٣٧).

(٣) من الآية ٣٨٣ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٣٤

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ فِرْعَوْنُ ، تمويها على قومه ، وجهلا منه : يا هامانُ وزيره ابْنِ لِي صَرْحاً أي : قصرا عاليا ، وقيل : الصرح : البناء الظاهر الذي لا يخفى على النّاظر وإن بعد منه.

يقال : صرح الشيء : إذا ظهر. لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أي : الطرق. ثم أبدل منها تفخيما لشأنها ، وإظهارا أنه يقصد أمرا عظيما :

أَسْبابَ السَّماواتِ أي : طرقها وأبوابها ، وما يؤدّى إليها ، وكلّ ما أدّاك إلى الشيء فهو سبب إليه ، فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى أي : فأنظر إليه وأتحقق وجوده ، قرأه حفص بالنصب ، جواب التمني ، والباقي بالرفع ، عطفا على «أبلغ». قال البيضاوي : ولعله أراد أن يبنى له صرحا فى موضع عال ، يرصد منه أحوال الكواكب ، التي هى أسباب سماوية ، تدلّ على الحوادث الأرضية ، فيرى هل فيها ما يدّل على إرسال اللّه تعالى إياه ، أو أن يرى فساد قوله عليه السّلام فإنّ إخباره عن إله السماء يتوقف على اطلاعه ووصوله إليه ، وذلك لا يتأتى إلا بالصعود للسماء ، وهو مما لا يقوى عليه الإنسان ، وما ذلك إلا لجهله باللّه وكيفية استنبائه. هـ.

قلت : والظاهر أنه كان مجسّما ، يعتقد أن اللّه فى السماء ، وأن اطلاعه إليه إنما كان ليرى هل ثم إله ، وإن قوله :

وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً أي : فى ادّعاء إله غيرى ، بدليل قوله : ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي «١» مع أنّ هذا كله إنما هو تمويه منه على قومه ، وجرأة على اللّه ، لا حقيقة له.

قال تعالى : وَكَذلِكَ أي : ومثل ذلك التزيين المفرط ، والصدّ البليغ ، زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ فانهمك فيه انهماكا لا يرعوى عنه بحال ، وَصُدَّ «٢» عَنِ السَّبِيلِ أي : سبيل الرّشاد ، وقرأ الكوفيون ويعقوب «وصدّ» بالبناء للمفعول ، فالفاعل فى الحقيقة فيهما هو اللّه ، بتوسط الشيطان فى عالم الحكمة ، ومن قرأ «صدّ» بالبناء للفاعل ، فالفاعل : فرعون ، إما صدّ النّاس عن طريق الحق بأمثال هذه التمويهات ، أو : اتصف بالصدّ. وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ أي : خسران وهلاك.

الإشارة : ما ظهر على فرعون هو من طغيان النّفس وعتوها ، فإنّ النّفس إذا اتصلت بها العوافي ، وساعدتها أقدار الجمال فى الظاهر ، ادّعت الرّبوبية ، فإنّ فرعون قيل : إنه عاش أربعمائة سنة ، لم يتوجع فيها قط ، فادعى الربوبية ، ولذا قال بعض الصوفية : فى النّفس خاصية ما ظهرت إلا على فرعون ، حين قال : أنا ربكم الأعلى ، فكان

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة القصص. [.....]

(٢) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : (و صدّ) بضم الصاد. وقرأ الباقون بالفتح. انظر الحجة للفارسى (٦/ ١١٢).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٣٥

نزول الأقدار القهرية والبلايا على العبد ، رحمة عظيمة ، تتحقق بها العبودية ، التي هى شرف العبد ورفعته. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر بقية وعظ المؤمن ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٣٨ الى ٤٠]

وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (٣٨) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (٤٠)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِي آمَنَ أي : مؤمن آل فرعون : يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ فيما دللتكم عليه ، أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ أي : طريقا يوصل صاحبه إلى المقصود. والرّشاد : ضد الغىّ ، وفيه تعريض بأن ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغىّ والضلال.

يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ أي : تمتع يسير لسرعة زوالها ، فالإخلاد إليها أصل الشر ، ومنبع الفتن ، ومنه يتشعب فنون ما يؤدى إلى سخط اللّه. أجمل له أولا ، ثم فسّر ، فاستفتح بذم الدنيا ، وتصغير شأنها ، ثم ثنّى بتعظيم الآخرة ، وبيّن أنها هى الموطن والمستقر بقوله : وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ لخلودها ، ودوامها ، ودوام ما فيها. قال ابن عرفة : التمتع بالدنيا مانع من الزهد ، وكون الآخرة دار مستقر يقتضى وجود الحرص على أسباب الحصول فيها. هـ.

ثم ذكر الأعمال التي تبعد عنها أو تقرب إليها ، فقال : مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فى الدنيا فَلا يُجْزى فى الآخرة إِلَّا مِثْلَها عدلا من اللّه تعالى. قال القشيري : له مثلها فى المقدار ، لا فى الصفة لأن الأولى سيئة ، والمكافأة حسنة ليست بسيئة. هـ. وقال ابن عرفة : فى توفيه مماثلة العذاب الأبدى على كفر ساعة تتصور المماثلة ، إما باعتبار نيته الكفر دواما ، وإما بأن يقال : ليس المراد المماثلة عقلا ، بل المماثلة شرعا. وفى الإحياء : قال الحسن :

إنما خلّد أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النّار ، فى النّار ، بالنية ، وهو - واللّه أعلم - مقتبس من قوله تعالى : أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ «١» هـ. قاله المحشى.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة إبراهيم.

وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ الذين عملوا ذلك يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ أي : بغير تقدير ، وموازنة بالعمل ، بل بأضعاف مضاعفة ، فضلا من اللّه - عز وجل - ورحمة. قال القشيري : أي : مؤبدا مخلدا ، لا يخرجون من الجنة ، ولا مما هم عليه من الحال. هـ.
وجعل العمل عمدة ، والإيمان حالا للإيذان بأنه لا عبرة بالعمل بدونه ، وأنّ ثوابه أعلى من ذلك.
الإشارة : قال الورتجبي : سبيل الرّشاد : طريق المعرفة ، ومعرفة اللّه تعالى : موافقته ومتابعة أنبيائه وأوليائه ، ولا تحصل الموافقة إلا بترك مراد النّفس ، ولذلك قال : يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ.
قال محمد بن على الترمذي : لم تزل الدنيا مذمومة فى الأمم السابقة ، عند العقلاء منهم ، وطالبوها مهانين عند الحكماء الماضية ، وما قام داع فى أمة إلا حذّر متابعة الدنيا وجمعها والحب لها ، ألا ترى مؤمن آل فرعون كيف قال : اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ ، كأنهم قالوا : وما سبيل الرّشاد؟ قال : إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ أي : لن تصل إلى سبيل الرّشاد وفى قلبك محبة الدنيا وطلب لها. هـ.
[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٤١ الى ٤٦]
وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (٤٤) فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (٤٦)
يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن المؤمن : وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ إلى السلامة من النار ، وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ بسلوك أسبابها. كرر نداءهم إيقاظا لهم عن سنة الغفلة ، واعتناء بالمنادى به ، ومبالغة فى توبيخهم ، وفيه أنهم قومه ، وأنه من آل فرعون ، وجيء بالواو فى النّداء الثالث ، دون الثاني لأن الثاني

داخل فى كلام هو بيان للمجمل وتفسير له ، بخلاف الثالث. ومدار التعجب الذي يلوح به الاستفهام هو دعوتهم إياه إلى النّار ، لا دعوته إياهم إلى النّجاة ، كأنه قيل : أخبرونى كيف هذا الحال أدعوكم إلى الخير وتدعوننى إلى الشر؟

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ هو بدل من تَدْعُونَنِي الأول ، وفيه تعليل ، والدعاء يتعدّى باللام وبإلى ، كالهداية ، وَأُشْرِكَ بِهِ وتدعوننى لأشرك به ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ أي : بربوبيته ، والمراد بنفي العلم : نفى المعلوم ، كأنه قال : وأشرك به شيئا ليس بإله ، وما ليس بإله كيف يصحّ أن يعلم إلها؟ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ أي : إلى اللّه الجامع لصفات الألوهية ، من كمال القدرة والغلبة ، وما يتوقف عليه من العلم والإرادة إذ بالقدرة يتمكن من المجازاة بالتعذيب ، أو الإحسان بالغفران.

لا جَرَمَ لا شك ، أو : حقا ، وقال البصريون : «لا» نفى رد لما دعوه إليه ، و«جرم» : فعل ، بمعنى : حقّ ، و«أن» مع «ما» فى حيزه فاعل ، أي : حق ووجب أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ أي : وجب عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها ، والظاهر : أن «جرم» من الجرم ، وأراد به هنا الكذب ، أي : لا كذب فى أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة .. إلخ ، فقد يضمن الفعل معنى المصدر ، وتدخل «لا» النافية للجنس عليه ، والمعنى : أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط ، ومن حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته ، وما تدعوننى إليه لا يدعو هو إلى عبادته ، ولا يدّعى الرّبوبية ، أو : معناه : ليس له استجابة دعوة فى الدنيا والآخرة ، أو : دعوة مستجابة. جعلت الدعوة التي لا استجابة لها ، ولا منفعة ، كلا دعوة. وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ أي : رجوعنا إليه بالموت ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ فى الضلال والطغيان ، كالإشراك وسفك الدماء ، هُمْ أَصْحابُ النَّارِ أي : ملازموها.

فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ من النّصائح عند نزول العذاب ، وَأُفَوِّضُ أسلّم أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، قاله لمّا توعدوه. إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ فيحرس من يلوذ به من المكاره.

فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا شدائد مكرهم ، وما همّوا به من إلحاق أنواع العذاب لمن خالفه ، وقيل : إنه خرج من عندهم هاربا إلى جبل ، فبعث قريبا من ألف فى طلبه ، فمنهم من أكلته السباع ، ومن رجع منهم صلبه فرعون. وقيل : لمّا وصلوا إليه ليأخذوه ، وجدوه يصلّى ، والوحوش حوله ، فرجعوا رعبا ، فقتلهم. وقال مقاتل : لمّا قال المؤمن هذه الكلمات ، قصدوا قتله ، فوقاه اللّه من مكرهم ، أي : بعد تفويض أمره إلى اللّه ، فقيل : إنه نجا مع موسى فى البحر. هـ. وَحاقَ نزل بِآلِ فِرْعَوْنَ أي : بفرعون وقومه. وعدم التصريح به ، للاستغناء بذكرهم عن ذكره ، ضرورة أنه أولى منهم بذلك ، وسُوءُ الْعَذابِ الغرق والقتل والنّار.

(١٣٧/٥)

وقوله تعالى : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا : جملة مستأنفة ، مسوقة لبيان سوء العذاب ، والنّار : خبر عن محذوف ، كأن قائلا قال : ما سوء العذاب؟ فقيل : هو النّار ، أو : بدل من «سوء» ،

و«النار» : مبتدأ ، و«يعرضون» :

خبر ، وعرضهم عليها : إحراقهم ، يقال : عرض الإمام الأسارى على السيف : إذا قتلهم به. وذلك لأرواحهم ، كما روى ابن مسعود : أن أرواحهم فى أجواف طير سود ، تعرض على النّار - أي : تحرق بها - بكرة وعشيا ، إلى يوم القيامة «١». وتخصيص الوقتين إما لأنهم يعذّبون فى غيرهما بجنس آخر ، أو : يخفف عنهم ، أو : يكون غدوا وعشيا عبارة عن الدوام.

هذا فى الدنيا فى عالم البرزخ ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يقال للخزنة : أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ ، من الإدخال الرباعي ، ومن قرأ : ادخلوا «٢» ، ثلاثيا ، فعلى حذف النّداء ، أي : ادخلوا يا آل فرعون أَشَدَّ الْعَذابِ أي : عذاب جهنم ، فإنه أشدّ مما كانوا فيه. أو : أشد عذاب النّار فإنّ عذابها ألوان ، بعضه أشد من بعض ، وهذه الآية دليل على عذاب القبر فى البرزخ ، وهو ثابت فى الأحاديث الصحاح.

الإشارة : النجاة التي دعاهم إليها : هى الزهد فى الدنيا ، وفى التمتع بها مع الاشتغال باللّه. والنّار التي دعوه إليها : هى الاشتغال بمتعة الدنيا مع الغفلة عن اللّه. لا جرم أنّ ما دعوه إليه لا منفعة له فى الدارين ، بل ضرره أقرب من نفعه. وقوله تعالى : وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ قال الورتجبي : [مرد المحبين] «٣» إلى مشاهدته ، ومرد العارفين إلى الوصلة ، ومرد الكلّ إلى قضيات الأزلية.

قال حمدون القصّار : لا أعلم فى القرآن أرجى من قوله : وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ ، فقد حكى عن بعض السلف أنه قال : الكريم إذا قدر عفا ، وإنما يكون مرد العبد إلى ربه إذا أتاه على أمد الإفلاس والفقر ، لا أن يرى لنفسه مقاما فى إحدى الدارين ، وهو أن يكون فى الدنيا خاشعا لمن يذله ، ولا يلتفت إليه ، هاربا ممن يكرمه ويبره ، ويكون فى الآخرة طالبا لفضل اللّه ، مشفقا من حسناته أكثر من إشفاق الكفار عن كفرهم. هـ. قلت : هذا مقام العباد والزهاد ، وأما العارفون فلا يرون إلا اللّه ، فيلقون اللّه باللّه ، غائبون عن إحسانهم وإساءتهم.

وقوله تعالى : فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ هكذا يقول الواعظ إن لم ينفع وعظه ، ويفوض أمره وأمرهم إلى اللّه فإنّ اللّه بصير بهم. وقال بعضهم : وأفوض أمرى فى الدنيا والآخرة إلى اللّه ، فهو بصير بعجزي وضعفى عن

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٦٥٩) لعبد الرّزاق وابن أبى حاتم.

(٢) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر (ادخلوا) بهمزة وصل ، وضم الخاء ، وقرأ الباقون بقطع الهمزة المفتوحة ، وكسر الخاء ، أمر للخزنة. انظر الإتحاف (٢/ ٤٣٨).

(٣) ما بين المعقوفتين غير موجود فى الأصول ، وأثبته من عرائس البيان للشيرازى.

رد القضاء والقدر ، والتفويض : ألا يرى لنفسه ، ولا للخلق جميعا ، قدرة على النّفع والضر ، فيرى اللّه بإيجاد الموجود فى جميع الأنفاس ، بنعت المشاهدة والحال ، لا بنعت العلم والعقل. وقال بعضهم : التفويض : قبل نزول القضاء ، والتسليم : بعد نزول القضاء. وقال ذو النّون حين سئل عنه : متى يكون العبد مفوضا؟ قال : إذا أيس من فعله ونفسه ، والتجأ إلى اللّه فى جميع أحواله ، ولم تكن له علاقة سوى ربه. هـ. أي : لم يكن له تعلق إلا باللّه. فالمقامات ثلاث :
التفويض قبل النّزول ، والرّضا بعده بالمجاهدة ، والتسليم بلا مجاهدة.
وقوله تعالى : فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا هذه نتيجة التفويض ، فكلّ من فوّض أمره إلى اللّه فيما ينزل به ، وقاه اللّه جميع المكاره ، وكلّ ما يخشى إن قطع عن قلبه التعلق بغير اللّه ، كما هو حقيقة التفويض. قال القشيري : أشدّ العذاب على الكفار : يأسهم عن الخروج ، وأما العصاة من المؤمنين فأشدّ عذابهم : إذا علموا أن هذا يوم لقاء المؤمنين. هـ. أي : وهم قد حرموا ذلك.
ثم ذكر احتجاج الكفار فى النّار ، فقال :
[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٤٧ الى ٥٠]
وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (٤٧) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ (٤٨) وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (٤٩) قالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٥٠)
يقول الحق جل جلاله : وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ أي : واذكر لقومك وقت تخاصم الكفار فى النّار ، فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ منهم لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا وهم رؤساؤهم : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، وهو جمع تابع ، كخادم وخدم ، أو : ذوى تبع ، على أنه مصدر ، أو : وصف به للمبالغة ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ أي : فهل أنتم دافعون ، أو : حاملون عنا جزءا من النّار؟ قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها ، التنوين عوض عن المضاف ، أي : كلنا فيها ، لا يغنى أحد عن أحد. وقرىء (كلا) بالنصب «١» على التأكيد ، وهو ضعيف لخلوه من

---

(١) قرأ بذلك ابن السميفع وعيسى بن عمر. انظر القرطبي (٧/ ٥٩٣٧) والبحر المحيط (٧/ ٤٤٨).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٠

الضمير. إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ قضى بينهم ، بأن أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النّار النّار ، لا مرد له ، ولا معقب لحكمه ، فلا يغنى أحد عن أحد شيئا.

قال ابن عرفة : فى الآية لف ونشر ، فقوله تعالى : إِنَّا كُلٌّ فِيها راجع لقوله : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً أي : إنا قد حصلنا جميعا فى النّار ، فجوزى كلّ على قدر علمه ، أنتم على ضلالكم ، ونحن على إضلالنا إياكم. وقوله : إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ راجع لقوله : فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا وبهذا المعنى يتقرر الجواب. هـ.

وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ للقوّام بتعذيب أهلها ، وإنما لم يقل : لخزنتها لأن فى ذكر جهنم تهويلا وتفظيعا ، ويحتمل أنّ جهنم هى أبعد النّار قعرا ، من قولهم : بئر جهّنام ، أي : بعيدة القعر ، وفيها أعتى الكفرة وأطغاهم ، أو : لكون الملائكة الموكّلين بعذاب أهلها أقدر على الشفاعة لمزيد قربهم من اللّه ، فلهذا تعمدوهم بطلب الدعوة ، فقالوا لهم : ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً أي : مقدار يوم من الدنيا مِنَ الْعَذابِ واقتصارهم فى الاستدعاء على ما ذكر فى تخفيف قدر يسير من العذاب فى مقدار قصير من الزمان ، دون رفعه رأسا ، أو :

تخفيف منه فى زمان مديد لأن ذلك عندهم ليس فى حيز الإمكان ، أو لا يكاد يدخل تحت أمانيهم.

قالُوا أي : الخزنة ، توبيخا لهم ، بعد مدة طويلة : أَوَلَمْ تَكُ أي : القصة تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات ، يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ أرادوا بذلك إلزامهم الحجة ، وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء ، وتعطيل أسباب الإجابة ، قالُوا أي : إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم ، فإنّ الدعاء لمن يفعل ذلك مما يستحيل صدوره منا. زاد البيضاوي : إذ لم يؤذن لنا فى الدعاء لأمثالكم ، وبحث معه أبو السعود بأنه يوهم أن المانع هو عدم الإذن ، وأنّ الإذن فى حيز الإمكان ، ولا تجوز الشفاعة فى كافر. انظره.

قال تعالى : وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ فى ضياع وبطلان ، لا يجابون فيه لأنهم دعوا فى غير وقته ، ويحتمل أن يكون من كلام الخزنة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الآية تجر ذيلها على كلّ من له جاه ، فدعا إلى سوء ، بمقاله أو حاله ، فتبعه العامة على ذلك ، فيتحاجون يوم القيامة ، فيقول المستضعفون : إنا كنا لكم تبعا. ف كل من أمر بسوء ، وفعل ، عوقب الآمر والمأمور ، وكلّ من فعل فعلا خارجا عن السنّة ، كالرغبة فى الدنيا ، والتكاثر منها ، فتبعه العامة على ذلك ، عوتب الجميع ، وباللّه التوفيق.

(١٤٠/٥)

البحر المديد، ج ٥، ص: ١٤١
ثم وعد أهل الحق بالنصر، فقال:
[سورة غافر (٤٠): الآيات ٥١ الى ٥٢]
إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢)
يقول الحق جل جلاله: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بالحجّة والظفر، والانتقام لهم من الكفرة، بالاستئصال، والقتل، والسبي، وغير ذلك من العقوبات. ولا يقدح فى ذلك ما يتفق لهم من صورة الغلبة، امتحانا إذ الحكم للغالب، وهذا كقوله تعالى: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا .. «١» الآية، وقوله: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي «٢». والنّصر فى الدنيا إما بالسيف، فى حق من أمر بالجهاد، أو: بالحجة والإهلاك فيمن لم يؤمر به، وبذلك يندفع قول من زعم تخصيص الآية أو تعميمها، وإخراج زكريا ويحيى من الرّسالة، وإن ثبت لهما النبوة لقتلهما، وأن الآية، إنما تضمنت نصر الرّسل دون الأنبياء، فإنه خلاف لما صرّح به الجمهور من ثبوت الرسالة ليحيى، ففى كلام ابن جزى هنا نظر. قاله المحشّى.
وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ أي: وننصرهم يوم القيامة، عبّر عنه بذلك للإشعار بكيفية النّصرة، وأنها تكون حين يجتمع الأولون والآخرون، ويحضره الأشهاد من الملائكة وغيرهم، فيشهدون للأنبياء بالتبليغ، وعلى الكفرة بالتكذيب. قال النّسفى: الأشهاد جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، يريد: الأنبياء والحفظة، فالأنبياء يشهدون عند رب العزة على الكفرة بالتكذيب، والحفظة يشهدون على بنى آدم. هـ.
يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ: هو بدل من يَوْمَ يَقُومُ أي: لا يقبل عذرهم، ومن قرأ بالتأنيث «٣» فباعتبار لفظ المعذرة، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ أي: البعد من الرّحمة، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ أي: سوء دار الآخرة، وهو عذابها.
الإشارة: كما نصرت الرّسل بعد الامتحان، نصرت الأولياء بعد الامتحان والامتكان. قال الشاذلى رضي اللّه عنه:
اللهم إنّ القوم قد حكمت عليهم بالذلّ حتى عزوا .. إلخ. وهم داخلون فى قوله: وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا،

---

(١) من الآية ١٧١ من سورة الصفات.
(٢) من الآية ٢١ من سورة المجادلة.
(٣) قرأ يَوْمَ لا يَنْفَعُ بالتذكير نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وقرأ الباقون يوم لا تنفع بالتاء. انظر الحجة للفارسى (٦/ ١١٥).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٢
ونصرتهم تكون أولا بالظفر بنفوسهم ، ثم بالغيبة عن حس الكائنات ، باتساع دائرة المعاني ، ثم بالتصرف فى الوجود بأسره بهمته. قال القشيري : ويقال : ينصرهم على أعدائهم بلطف خفىّ ، وكيد غير مرئىّ ، من حيث يحتسب أو لا يحتسب ، كما ينصرهم فى الدنيا على تحقيق المعرفة ، واليقين بأنّ الكائنات من اللّه. ثم قال : غاية النصرة أن يقتل النّاصر عدوّ من ينصره ، [فإذا رآه حقق له] «١» أنه لا عدو له فى الحقيقة ، وأنّ الخلق أشباح ، وتجرى عليهم أحكام القدرة ، فالولىّ لا عدوّ له ولا صديق ، ليس له إلا اللّه. قال اللّه تعالى : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا «٢» هـ. والنّصر فى الحقيقة هو التأييد عند التعرفات ، فإذا ابتلى الرّسول أو الولىّ أيّده اللّه باليقين ، ونصره بالمعرفة ، فيلقى ما ينزل عليه بالرضا والتسليم ، وتذكّر مالقى به الشاذلى حين دعا بالسلامة مما ابتلى به الرّسل ، متعللا بأنهم أقوى ، فقيل له : قل : وما أردت من شىء فأيّدنا كما أيدتهم. هـ.
ثم وعد نبيه بالنصر ، كما نصر موسى وغيره ، فقال :
[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٥٣ الى ٥٦]
وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (٥٣) هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى ما يهتدى به من المعجزات ، أو الشرائع والصحف. وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ أي : تركنا فيهم التوراة ، يرثه بعضهم من بعض ، أو : جنس الكتاب ، فيصدق بالتوراة والإنجيل والزبور لأنّ المنزّل عليه منهم. قال الطيبي : فيه إشارة إلى أن ميراث الأنبياء ليس إلا العلم والكتاب الهادي ، الناطق بالحكمة والموعظة. هـ. حال كون الكتاب هُدىً وَذِكْرى أي : هاديا ومذكّرا ، أو : إرشادا وتذكرة لِأُولِي الْأَلْبابِ لأولى العقول الصافية ، العالمين بما فيه ، العاملين به.

---
(١) عبارة القشيري : [فإذا أراد حتفه تحقق].
(٢) من الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٣

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أي : فاصبر على ما يجرّعك قومك من الغصص إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بنصرك وإعلاء دينك ، على ما نطق به قوله تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ «١» ، حَقٌّ لا يحتمل الاختلاف بحال. قال الطيبي : الآية تشير إلى نصره على أعدائه ، كموسى ، وأنه يظهر دينه على الدين كله ، ويورث كتابه ليعتصموا به ، فيكون لهم هدى وذكرى ، وعزا وشرفا. هـ. أي :

ولذلك قدّم ذكر موسى على بشارته بالنصر ليتم التشبيه.

وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ، تشريعا لأمتك فإنّ الاستغفار يمحو الذنوب التي تعوق عن النّصر ، أو : تداركا لما فرط منك من ترك الأولى فى بعض الأحايين ، فإنّ حسنات الأبرار سيئات المقربين. والحاصل : أن كلّ مقام له ذنب يليق به ، وهو التقصير فى القيام به على ما يليق به ، فالنبى صلّى اللّه عليه وسلم كلف بدوام الشهود ولو فى حال التعليم ، فإذا غاب عن الحق لحظة بشغل البال بالتعليم ، كان فى حقه نقصا يوجب الاستغفار. ثم قال : وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ أي : دم على التسبيح ملتبسا بحمده ، أي : قل : سبحان اللّه وبحمده ، أو : صلّ فى هذين الوقتين ، إذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وعشيا ، وقيل : هما صلاة العصر والفجر ، خصصهما لشرفهما.

إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ ويجحدونها بِغَيْرِ سُلْطانٍ برهان أَتاهُمْ من جهته تعالى ، بل عنادا وحسدا. وتعليق المجادلة بذلك ، مع استحالة إتيانه للإيذان بأن التكلم فى أمر الدين لا بد من استناده إلى برهان ، وهذا عام لكلّ مجادل ، محق أو مبطل ، وإن نزل فى مشركى مكة. وقوله : إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ :

خبر «إنّ» ، أي : ما فى قلوبهم إلا تكبر عن الحق ، وتعاظم عنه ، وهو إرادة التقدم والرّئاسة ، وألا يكون أحد فوقهم ، فلذلك عادوك ، ودفعوا آياتك ، خيفة أن تتقدمهم ، ويكونوا تحت قهرك لأن النّبوة تحتها كلّ ملك ورئاسة ، أو : إرادة أن تكون لهم النّبوة دونك ، حسدا وبغيا ، كقولهم : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «٢» ، لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ «٣».

ثم وصف كبرهم بقوله : ما هُمْ بِبالِغِيهِ أي : ما هم ببالغي موجب ذلك الكبر ومقتضاه ، وهو ما أرادوه من التقدم والرّئاسة ، وقيل : نزلت فى اليهود ، وهم المجادلون ، كانوا يقولون : لست صاحبنا المذكور فى التوراة ، بل هو المسيح بن داود ، يعنون الدجال ، يخرج فى آخر الزمان ، فيبلغ سلطانه البر والبحر ، وتسير معه الأنهار ، وهو آية من

---

(١) الآيات : ١٧١ - ١٧٣ من سورة الصافات.

(٢) الآية ٣١ من سورة الزخرف.

(٣) من الآية ١١ من سورة الأحقاف. [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٤

آيات اللّه ، فيرجع إلينا الملك «١» فسمى اللّه تمنيهم بذلك كبرا ، ونفى أن يبلغوا متمناهم. فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ فالتجىء إليه من كيد من يحسدك ، ويبغى عليك ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لما تقول ويقولون ، الْبَصِيرُ بما تعمل ويعملون ، فهو ناصرك عليهم ، وعاصمك من شرهم.

الإشارة : فاصبر أيها المتوجه إلى اللّه ، إنّ وعد اللّه بالفتح حق إن صبرت ، وكابدت ولم تملّ ، واستغفر لذنبك ، وتطهر من عيبك ، لتدخل حضرة ربك. قال الورتجبي : «واستغفر لذنبك» أي : لما جرى على قلبك من الأحكام البشرية ، وأيضا : استغفر لرؤية وجودك فى وجود الحق ، فإنّ كون الحادث فى وجود القديم ذنب فى إفراد القدم من الحدوث. انظر تمامه.

وقوله تعالى : وَسَبِّحْ .. إلخ ، فيه الحث على التوجه إلى اللّه فى هذين الوقتين ، فإن العبرة بالافتتاح والاختتام ، فمن فتح يومه بخير ، وختمه بخير ، حكم على بينهما. وقال فى أهل الإنكار : إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ ... الآية ، فاستعذ باللّه منهم ، وغب عنهم بإقبالك على مولاك. وباللّه التوفيق.

ولمّا كانت مجادلة الكفرة فى آيات اللّه مشتملة على إنكار البعث ، احتج عليهم بقوله :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٥٧ الى ٥٩]

لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (٥٩)

يقول الحق جل جلاله : لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، فمن قدر على اختراع هذه الأجرام مع عظمها كان على اختراع الإنسان بعد موته وبعثه مع مهانته أقدر ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ذلك لأنهم لا يتفكرون لغلبة الغفلة عليهم ، وعمى بصيرتهم.

وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أي : الغافل والمستبصر ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ولا يستوى المحسن والمسيء ، فلا بد أن تكون لهم حال أخرى ، يظهر فيها ما بين الفريقين من التفاوت ، وهى فيما بعد البعث ، فيرتفع المستبصر المحسن فى أعلى عليين ، ويسقط الغافل المسيء فى أسفل سافلين. وزيادة

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٥٩٤١) وقيل فى المراد بالذين يجادلون فى آيات اللّه : هو كلّ من كفر بالنبي صلّى اللّه عليه وسلم وهذا حسن لأنه يعم.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٥
«لا» فى المسيء لتأكيد النّفى لطول الكلام بالصلة. قَلِيلًا ما تَتَذَكَّرُونَ «١» أي : تذكرا قليلا يتذكرون.
وقرىء بالغيبة ، والخطاب ، على الالتفات. إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها لا شك فى مجيئها لوضوح دلائلها ، وإجماع الرّسل على الوعد بوقوعها ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ لا يصدقون بوقوعها لقصور نظرهم على ظواهر ما يحسون.
الإشارة : التفكر فى العوالم العلوية والسفلية ، يوجب فى القلب عظمة الحق جل جلاله ، وباهر قدرته وحكمته ، وإتيان البعث لا محالة لنفوذ القدرة فى الجميع. وكون خلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان ، إنما هو باعتبار الجرم الحسى ، وأما باعتبار المعنى فالإنسان أعظم لاشتماله على العوالم كلها ، كما قال فى المباحث :
اعقل فأنت نسخة الوجود للّه ما أعلاك من موجود
أليس فيك العرش والكرسىّ والعالم العلوىّ والسّفلىّ؟
ثم أمر بعبادته ، أو دعائه ، بعد بيان عظمة قدرته ، ليكون الداعي موقنا بالإجابة ، فقال :
[سورة غافر (٤٠) : آية ٦٠]
وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (٦٠)
يقول الحق جل جلاله : وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أي : اعبدوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ أي : أثبكم ، ويدل على هذا قوله : إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ صاغرين أذلاء ، أو : اسألونى أعطكم ، على ما أريد ، فى الوقت الذي أريد. قال القشيري : والحكمة فى أنه أمر بالسؤال قبل الإجابة ، وبالاستغفار قبل المغفرة ، أنه حكم فى اللوح أن يعطيك ذلك الشيء الذي تسأله وإن لم تسأل ، ولكن أمر بالسؤال ، حتى إذا وجدته تظن أنك وجده بدعائك ، فتفرح به. قلت : السؤال سبب ، والأسباب غطى بها سر قدرته تعالى. ثم قال :
ويقال : إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما من مؤمن يدعو اللّه ، ويسأله شيئا ، إلا أعطاه إياه ، إما فى الدنيا ، وإما فى الآخرة. حيث يقال له : هذا ما طلبته فى الدنيا ، وقد ادخرته لك إلى هذا اليوم ، حتى يتمنى العبد أنه لم يعط شيئا فى الدنيا. هـ.

---

(١) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي «تتذكرون» بتاءين من فوق ، على الخطاب ، وقرأ الباقون بالياء والتاء على الغيب .. انظر الإتحاف (٢/ ٤٣٩).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٦
قلت : فالدعاء كله إذا مستجاب ، بوعد القرآن ، لكن منه ما يعجّل ، ومنه ما يؤجّل ، ومنه ما يصرف عنه به البلاء ، كما فى الأثر ، وإذا فسر الدعاء بالسؤال كان الاستكبار عنه منزلا منزلة الاستكبار عن العبادة للمبالغة فى الحث عليه. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «الدعاء هو العبادة» وقرأ الآية «١» ، وفى رواية : «مخ العبادة» «٢» ، وعن ابن عباس :
«وحّدونى أغفر لكم» ، فسّر الدعاء بالعبادة ، والعبادة بالتوحيد.
الإشارة : اختلف الصوفية أىّ الحالين أفضل؟ هل الدعاء والابتهال ، أو السكوت والرّضا؟ والمختار أن ينظر العبد ما يتجلى فى قلبه ، فإن انشرح للدعاء فهو فى حقه أفضل ، وإن انقبض عنه ، فالسكوت أولى ، والغالب على أهل التحقيق من العارفين ، الغنى باللّه ، والاكتفاء بعلمه ، كحال الخليل عليه السّلام ، فإنهم إبراهيميون.
قال الورتجبي : أي : ادعوني فى زمن الدعاء الذي جعلته خاصا لإجابة الدعوة ، فادعونى فى تلك الأوقات ، استجب لكم فإنّ وقوع الإجابة فيها حقيقة بلا شك ، ومن لم يعرف أوقات الدعاء ، فدعاؤه ترك أدب فإن الدعاء فى وقت الاستغفار من قلة معرفة المقامات ، فإن السلطان إذا كان غضبان لا يسأل منه ، وإذا كان مستبشرا فيكون زمانه زمن العطاء والكرم. - قلت : هذا فى حق الخصوص ، الفاهمين عن اللّه ، وأما العموم ، فما يناسبهم إلا دوام الدعاء فى الرّخاء والشدة ، قال تعالى : فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا «٣» ثم قال عن الوراق : ادعوني على حد الاضطرار والالتجاء ، حيث لا يكون لكم مرجع إلى [سواى] «٤» ، استجب لكم. هـ.
ثم برهن على توحيده ، وأنه لا يصح الرّجوع إلا إليه ، فقال :
[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٦١ الى ٦٥]
اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦٥)

---

(١) أخرجه أبو داود فى (الصلاة ، باب الدعاء ٢/ ١٦١ ، ح ١٤٧٩) والترمذي فى (الدعوات ، باب ما جا فى فضل الدعاء ٥/ ٤٢٦ ، ح ٣٣٧٢) وقال «حسن صحيح» وابن ماجه فى (الدعاء ،

باب فضل الدعاء ٢/ ١٢٥٨ ، ح ٣٨٢٨) والحاكم (١/ ٤٩٠) وصححه ، ووافقه الذهبي ، من حديث النّعمان بن بشير رضي اللّه عنه.

(٢) أخرج هذه الرّواية الترمذي فى (الموضع السابق حديث ٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

(٣) من الآية ٤٣ من سورة الأنعام.

(٤) فى الأصول [سواه] والمثبت هو الذي فى عرائس البيان.

(١٤٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٧

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ بأن خلقه مظلما باردا ، تقلّ فيه الحركات فتستريح فيه الجوارح ، وَجعل النَّهارَ مُبْصِراً أي : مبصرا فيه. فأسند الإبصار إلى النّهار ، مجازا ، والأصل فى الحقيقة لأهل النّهار. وقرن الليل بالمفعول له ، والنّهار بالحال ، ولم يكونا حالين أو مفعولا لهما رعاية لحق المقابلة لأنهما متقابلان معنى لأن الليل مقابل النّهار ، فلما تقابلا معنى تقابلا لفظا ، مع أن كلّ واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر ، ولأنه لو قيل : لتبصروا فيه فاتت الفصاحة التي فى الإسناد مجازى ، ولو قيل : «ساكنا» لم تتميز الحقيقة من المجاز ، إذ الليل يوصف بالسكون على الحقيقة ، ألا ترى إلى قولهم : ليل ساج ، أي : ساكن لا ريح فيه.

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عظيم عَلَى النَّاسِ ، حيث تفضّل عليهم بهذه النّعم الجسيمة ، وإنما لم يقل : المتفضل لأن المراد تكثير الفضل ، وأنه فضله لا يوازيه فضل ، فالتنكير للتعظيم. وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ لجهلهم بالمنعم ، وإغفالهم مواضع النّعم. وتكرير النّاس ، ولم يقل : أكثرهم لتخصيص الكفران بهم ، وأنهم هم الذين من شأنهم الكفران ، كقوله : إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ «١».

ذلِكُمُ اللَّهُ أي : ذلكم المنفرد بالأفعال المقتضية للألوهية ، من خلق الليل والنّهار هو اللّه رَبُّكُمْ لا ربّا غيره ، خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أخبار مترادفة ، أي : الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والرّبوبية ، وإيجاد الأشياء ، والوحدانية ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ أي : فكيف ، ومن أىّ وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان؟! كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ أي : مثل ذلك الإفك العجيب ، الذي لا وجه له ، ولا مصحح له أصلا ، يؤفك كلّ من جحد بآياته تعالى من غير تروّ ولا تأمل.

ثم ذكر فضله المتعلق بالمكان ، بعد بيان فضله المتعلق بالزمان ، فقال : اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً مستقرا تستقرون عليها بأقدامكم ومساكنكم ، وَالسَّماءَ بِناءً سقفا فوقكم ، كالدنيا بيت سقفه السماء ،

(١) من الآية ٦٦ من سورة الحج.

(١٤٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٨
مزّينا بالمصابيح ، وبساطه الأرض ، مشتملة على ما يحتاج إليه أهل البيت. وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، هذا بيان لفضله المتعلق بالأجسام ، أي : صوّركم أحسن تصوير ، حيث جعلكم منتصب القامة ، بادى البشرة ، متناسب الأعضاء والتخطيطات ، متهيئا لمناولة الصنائع واكتساب الكمالات. قيل : لم يخلق اللّه حيوانا أحسن صورة من الإنسان. وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أي : اللذائذ ، ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ أي : ذلكم المنعوت بتلك النّعوت الجليلة.
هو المستحق للربوبية ، فَتَبارَكَ اللَّهُ أي : تعالى بذاته وصفاته رَبُّ الْعالَمِينَ أي : مالكهم ومربيهم ، والكل تحت قدرته مفتقر إليه فى إيجاده وإمداده إذ لو انقطع إمداده لا نهدّ الوجود.
هُوَ الْحَيُّ المنفرد بالحياة الذاتية الحقيقية ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إذ لا موجود يدانيه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فَادْعُوهُ فاعبدوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أي : الطاعة من الشرك والرّياء ، وقولوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ. عن ابن عباس رضي اللّه عنه : من قال «لا إله إلا اللّه» ، فليقل على إثرها : الحمد للّه رب العالمين «١».
الإشارة : اللّه هو الذي جعل ليل القبض لتسكنوا فيه عند اللّه ، ونهار البسط لتبصروا نعم اللّه ، فتشكروا لتبتغوا زيادة فضله ، وجعل أرض النّفوس قرارا لقيام وظائف العبودية ، وسماء الأرواح مرقى لشهود عظمة الرّبوبية. قال القشيري : سكون النّاس بالليل - أي : الحسى - على أقسام : فأهل الغفلة يسكنون مع غفلتهم ، وأهل المحبة يسكنون بحكم وصلتهم ، فشتان بين سكون غفلة ، وسكون وصلة ، وقوم يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم ، وقوم إلى حلاوة أعمالهم ، [وبسطهم ، واستقبالهم] «٢» ، وقوم يعدمون القرار فى ليلهم ونهارهم - أي : لا يسكنون إلى شيء - أولئك أصحاب الاشتياق ، أبدا فى الإحراق هـ.
وقوله تعالى : وَصَوَّرَكُمْ أي : صوّر أشباحكم ، فأحسن صورتها ، حيث بهجها بأنوار معرفته. قال الورتجبي :
فأحسن صوركم بأن ألبستكم أنوار جلالى وجمالى ، واتخاذكم بنفسي ، ونفخت من روحى فيكم ، الذي أحسن الهياكل من حسنه ، ومن عكس جماله ، فإنه مرآة نورى الجلى للأشباح. هـ. قال القشيري : خلق العرش والكرسي والسموات والأرض ، وجميع المخلوقات ، ولم يقل فى شيء منها : فأحسن

صورها ، بل قاله لمّا خلق هذا الإنسان ، وليس الحسن ما يستحسنه النّاس ، ولكن الحسن ما يستحسنه الحبيب ، وأنشدوا :

ما حطّك الواشون عن رتبة عندى ، ولا ضرّك مغتاب

كأنّهم أثنوا ولم يعلموا عليك عندى بالّذى عابوا «٣»

---

(١) أخرجه الطبري (٢٤/ ٨١) والحاكم وصححه (٢/ ٤٣٨) ، والبيهقي فى الأسماء والصفات (١/ ١٧٩) عن ابن عباس رضي اللّه عنه موقوفا.

(٢) فى القشيري : [لبسطهم واستقلالهم].

(٣) البيتان لأبى نواس. انظر ديوانه (١/ ١٠٩) ونهاية الأرب (٢/ ٢٤١) وينسبان أيضا إلى العباس بن الأحنف ، كما جاء فى ديوانه (ص ٦١).

لم يقل للشمس فى علاها ، ولا للأقمار فى ضيائها : فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ولما انتهى إلينا قال : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ «١». ثم قال : وكما أحسن صوركم محى من ديوانكم الزلّات ، وأثبت الحسنات ، قال اللّه تعالى : يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ. «٢» هـ.

قوله تعالى : وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لذيذ المشاهدة ، وأنس الوصلة. وقوله تعالى : هُوَ الْحَيُّ الحياة عند المتكلمين لا تتعلق بشيء ، وعند الصوفية تتعلق بالأشياء إذ لا قيام لها إلا بأسرار معانى ذاته ، ومن تحققت حياته من الأولياء بحياة اللّه ، بحيث كان له نور يمشى به فى النّاس ، كان كلّ من لقيه حييت روحه بمعرفة اللّه ، ولذلك يضم الشيخ المريد إليه ، إن رآه لم ينهض حاله ، ليسرى حاله فيه ، يأخذون ذلك من ضم جبريل للنبى - عليهما السّلام. وباللّه التوفيق.

ولمّا كان صلّى اللّه عليه وسلم بين أظهر المشركين نهى عن أن يتصف بصفاتهم ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٦٦ الى ٦٨]

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ أي : تعبدون مِنْ دُونِ اللَّهِ ولم يكن عبدها

قط ، لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي من الحجج العقلية ، والآيات التنزيلية.
قال الطيبي : معرفة اللّه تعالى ووحدانيته معلومتان بالعقل ، وقد ترد الأدلة العقلية فى مضمون السمعية ، أما وجوب عبادة اللّه ، وتحريم عبادة الأصنام ، فحكم شرعى لقوله : قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أي : حرم علىّ ، وهذا إنما يتحقق بعد البعثة ، خلافا للمعتزلة فى الإيجاب قبل الشرع ، للتحسين والتقبيح ، والمعنى : أن قضية التقليد توجب ما أنتم

---

(١) الآية ٤ من سورة التين.
(٢) من الآية ٣٩ من سورة الرّعد.

عليه ، ولكنى خصصت بأمر دونكم ، كما قال إبراهيم : يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ ... «١» إلخ كلامه ، وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ أن أنقاد وأخلص دينى لِرَبِّ الْعالَمِينَ.
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ أي : أصلكم ، وأنتم فى ضمنه ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ أي : ثم خلقكم خلقا تفصيليا من نطفة تمنى ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا أي : أطفالا ، واقتصر على الواحدة لأن المراد الجنس ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ : متعلق بمحذوف ، أي : ثم يبقيكم لتبلغوا أشدّكم ، وكذلك ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ، وقيل : عطف على محذوف ، علة ليخرجكم ، ف «يخرجكم» من عطف علة على أخرى ، كأنه قيل : ثم يخرجكم طفلا لتكبروا شيئا فشيئا ، ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والعقل ، ثم لتكونوا شيوخا ، بكسر الشين وضمها «٢» جمع شيخ ، وقرىء «شيخا» كقوله : «طفلا».
وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ عبارة تجرى فى الأدراج المذكورة ، فمن النّاس من يموت قبل أن يخرج طفلا ، وآخرون قبل الأشدّ ، وآخرون قبل الشيخوخة. وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى أي : وفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى ، أي : ليبلغ كلّ واحد منكم أجلا مسمى لا يتعداه ، وهو أجل موته ، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ولكى تعقلوا ما فى ذلك من العبر ، والحجج ، وفنون الحكم فإنّ ذلك التدريج البديع يقضى بالقدر السابق ، ونفوذ القدرة القاهرة لبعد ذلك التفاوت ، والاختلاف العظيم ، عن الطبيعة والعلة ، وإنما موجب ذلك سبق الاختيار والمشيئة الأزلية ، ولذلك عقّبه بقوله :
هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ دفعا لما قد يتوهم - من كونه لم يذكر الفاعل فى قوله : وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ - أن ذلك من فساد مزاجه ، أو قتل غيره قبل أجله ، فرفع ذلك الإبهام بقوله : هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ لا غيره ، أي : يحيى الأموات ، ويميت الأحياء ، أو : يفعل الإحياء والإماتة ، فَإِذا قَضى أَمْراً

أي : أراد أمرا من الأمور ، فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ من غير توقف على شيء من الأشياء أصلا ، وهو تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى الأشياء عند تعلق إرادته بها ، وتصوير سرعة ترتب المكونات على تكوينه ، من غير أن يكون هناك أمر ولا مأمور.

الإشارة : إذا دخل المريد مقام التجريد ، طالبا لأسرار التوحيد والتفريد ، وطلبه العامة بالرجوع للأسباب قبل التمكين ، يقول : (إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون اللّه ...) الآية. والبينات التي جاءته من ربه ، هو اليقين

---

(١) الآية ٤٣ من سورة مريم.

(٢) ضم شين «شيوخا» نافع ، وأبو عمرو ، وهشام ، وحفص ، وأبو جعفر ، وقرأ الباقون بكسر الشين. انظر الإتحاف (٢/ ٤٣٩). [.....]

الكبير بأن اللّه يرزق أهل التقوى بغير أسباب ، لقوله تعالى : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ «١». وفى هذا المعنى قال الغزالي رضي اللّه عنه :

تركت للنّاس دينهم ودنياهم شغلا بذكرك يا دينى ودنياى

قال القشيري : قل يا محمد : إنى نهيت وأمرت بالتبرّى مما عبدتم ، والإعراض عما به اشتغلتم ، والاستسلام للذى خلقنى ، وبالنبوة خصّنى. هـ. وكما تتربى النّطفة الإنسانية فى الرّحم ، تتربى نطفة الإرادة - وهى المعرفة العيانية - فى القلب ، فإذا عقد المريد نكاح الصحبة مع الشيخ ، قذف فى قلبه نطفة الإرادة ، فما زال يربيها له حتى يخرج عن حس دائرة الأكوان ، فهى ولادته طفلا ، ثم لا يزال يحاذيه بهمته حتى يبلغ أشده ، وهو كماله ، ثم يكون شيخا مربيا إن أذن له. واللّه تعالى أعلم.

وفيما ذكر الحق تعالى من أطوار البشر ، شواهد ظاهرة ، دالة على إثبات البعث ، وإنكار ذلك والجدال فيه ، جهالة ، كما قال تعالى :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٦٩ الى ٧٦]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣)

مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (٧٤) ذلِكُمْ بِما

كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)

---

(١) من الآيتين : ٢ – ٣ من سورة الطلاق.

(٥/١٥١)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٥٢

قلت : (الذين يجادلون) : بدل من الموصول قبله المجرور ، أو : رفع ، أو : نصب على الذم.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ ، كرر الحق تعالى الجدال فى هذه السورة ثلاث مرات ، فإما أن يكون فى ثلاث طوائف : الأول فى قوم فرعون ، والثاني فى اليهود ، والثالث فى المشركين ، وإما للتأكيد ، أي : انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين فى آيات اللّه الواضحة ، الموجبة للإيمان بها ، الزاجرة عن الجدال فيها ، أَنَّى يُصْرَفُونَ أي : كيف يصرفون عنها ، مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها ، وانتفاء الصوارف عنها بالكلية.

وهذا تعجيب من أحوالهم الرّكيكة ، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكلّ القرآن ، أو بسائر الكتب والشرائع ، كما أبانه بقوله : الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ أي : بالقرآن ، أو : بجنس الكتب السماوية ، وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا من سائر الكتب ، أو : لوحى ، أو : الشرائع ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عاقبة ما فعلوا من الجدال والتكذيب ، عند مشاهدتهم لأنواع العقوبات.

إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ أي : سوف يعلمون حين تكون الأغلال فى أعناقهم. و«إذ» : ظرف للماضى ، والمراد به هنا : الاستقبال لأن الأمور المستقبلة لمّا كانت محققة الوقوع ، مقطوعا بها ، عبّر بما كان ووجد. وَفى أعناقهم أيضا السَّلاسِلُ. وفى تفسير ابن عرفة : ولا يجوز مثل ذلك فى العقوبات الدنيوية ، وقياسه على العقوبات الأخروية خطأ ، وفاعله مخطئ غاية الخطأ ، ولم يذكر الأئمة فى اعتقال المحبوس للقتل إلا أنه يجعل القيد من الحديد فى رجله ، خيفة أن يهرب ، وأما عنقه فلا يجعل فيه شىء. هـ. يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ أي :

يجرّون فى الماء الحارّ ، وهو استئناف بيانى ، كأن قائلا قال : فما ذا يكون حالهم بعد ذلك؟ فقال : يسحبون فى الحميم ، ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ويحرقون ، من : سجر التنّور : إذا ملأه بالوقود ، والمراد : أنهم يعذبون بأنواع العذاب ، وينقلون من لون إلى لون.

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا أي : غابوا ، وهذا قبل أن يقرن بهم آلهتهم ، أو : ضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم ، بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً أي : تبيّن لنا

أنهم لم يكونوا شيئا. أو : يكون إنكارا منهم ، كقولهم : وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ «١». وهذا كله مستقبل عبّر عنه بالماضي

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأنعام.

لتحققه. كَذلِكَ أي : مثل ذلك الضلال الفظيع يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ حيث لا يهتدون إلى شيء ينفعهم فى الآخرة ، أو : كما ضلّ عنهم آلهتهم يضلهم اللّه عن آلهتهم ، حتى لو تطالبوا لم يتصادفوا.

ذلِكُمْ الإضلال بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ أي : تبطرون وتتكبرون بِغَيْرِ الْحَقِّ ، بل بالشرك والطغيان ، وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ تفخرون وتختالون ، أو : تتكبرون وتعجبون. والالتفات إلى الخطاب للمبالغة فى التوبيخ. فيقال لهم : ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ أي : أبوابها السبعة المقسومة عليكم خالِدِينَ فِيها مقدّرا خلودكم فيها ، فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ عن الحق ، والمخصوص محذوف ، أي : جهنّم.

الإشارة : الأولياء العارفون أهل التربية الكاملة ، آية من آيات اللّه فى كلّ زمان ، فيقال فى حق من يخاصم فى وجودهم ، ويتنكب عن صحبتهم : الذين يجادلون فى آيات اللّه أنّى يصرفون؟ وهم الذين كذّبوا بأسرار الكتاب ، وعلوم باطنه ، وبما أرسل به خلفاء الرّسل ، ممن يغوص على تلك الأسرار ، فسوف يعلمون حين تخاطبهم أغلال الوساوس والخواطر ، وسلاسل العلائق والشواغل ، فيقبضهم عن النّهوض إلى قضاء الشهود والعيان ، وجولان الفكرة فى أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، يسحبون فى حرّ التدبير والاختيار ، ثم فى نار القطيعة يسجرون ، ثم قيل لهم إذا ماتوا : أين ما كنتم تشركون فى المحبة والميل من دون اللّه؟ قالوا : ضلوا عنا ، وغاب عنهم كلّ ما تمتعوا به من الحظوظ والشهوات ، فيقال لهم : ذلكم بما كنتم تنبسطون فى الدنيا فى أنواع المآكل ، والمشارب ، والملابس ، والمناكح ، وبما كنتم تفتخرون على النّاس ، فيخلدون فى الحجاب ، إلا فى وقت مخصوص. وباللّه التوفيق.

ثم أمر بالصبر وانتظار الفتح ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٧٧ الى ٧٨]

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٥٤

يقول الحق جل جلاله : فَاصْبِرْ يا محمد على أذى قومك ، وانتظر ما يلاقوا مما أعد لهم. إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بإهلاكم وتعذيبهم حَقٌّ كائن لا محالة ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ من الهلاك ، كالقتل والأسر فى حياتك ، أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قبل هلاكهم بعدك ، فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ لا محالة ، ف «ما» : صلة بعد «إن» ، لتأكيد الشرطية ، والجواب : محذوف ، أي : فإن نرينك بعض ما نعدهم فذاك ، أو نتوفينك قبل ذلك فإلينا يرجعون يوم القيامة ، فننتقم منهم أشد الانتقام.

ثم سلّاه بمن قبله ، فقال : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فأوذوا وصبروا حتى جاءهم نصرنا ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ فى القرآن ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، قيل : عدد الأنبياء - عليهم السّلام - مائة ألف وأربعمائة وعشرون ألفا ، والمذكور قصصهم فى القرآن أفراد معدودة. قال الطيبي : والصحيح ما روينا عن أحمد بن حنبل ، عن أبى ذر ، قلت : يا رسول اللّه ، كم عدد الأنبياء؟ قال : «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا» «١». هـ. وقد تكلم فى الحديث بالضعف والصحة والوضع ، وقيل : عدتهم ثمانية آلاف ، أربعة آلاف نبيّ من بنى إسرائيل ، وأربعة آلاف من سائر النّاس. وعن عليّ - كرم اللّه وجهه : «إن اللّه تعالى بعث نبيا أسود ، فهو ممن لم تذكر قصته فى القرآن» «٢». فقوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ أي : فى القرآن ، فلا ينافى إخباره بمطلق العدد على ما فى حديث أبى ذر.

وَما كانَ أي : ما صحّ ، ولما استقام لِرَسُولٍ منهم أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ مما اقترح عليه قومه ، إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. فإنّ المعجزات على تشعب فنونها ، عطايا من اللّه تعالى ، قسمها بينهم على حسب المشيئة ، المبنية على الحكم البالغة ، وهذا جواب اقتراح قريش على رسول اللّه الآيات عنادا ، يعنى : إنّا قد أرسلنا كثيرا من الرّسل ، وما استقام لأحد منهم أن يأتى بآية إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ومشيئته ، فمن لى بأن آتى باية مما تقترحونه إلّا أن يشاء اللّه ، ويأذن فى الإتيان بها؟ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ بهلاكهم ، أو : بقيام الساعة ، قُضِيَ بِالْحَقِّ أي : بإنجاء المحق وإثابته ، وإهلاك المبطل وتعذيبه ، وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ أي : المعاندون المقترحون للآيات ، أو : المتمسكون بالباطل ، فيدخل المقترحون المعاندون دخولا أوليا.

---

(١) أخرجه مطولا ، أحمد فى المسند (٥/ ٢٦٦) وابن حبان (موارد ، كاب العلم ، باب السؤال للفائدة ح ٩٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٤/ ٨٧) والطبراني فى الأوسط (ح/ ٩٣١٩) ، زاد ابن حجر فى الكافي (رقم ٣٤٤) عزوه لابن مردويه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٥٥
الإشارة : فاصبر أيها المتوجه إلى اللّه على الأذى وحمل الجفاء ، فإما أن ترى ما وعد أهل الإنكار على الأولياء ، من التدمير ، وقطع الدابر ، فى حياتك ، أو يلحقهم بعد موتك. ولقد أوذى من قبلك ، منهم من عرفت ومنهم من لم تعرف ، وما صحّ لأحد منهم أن يظهر كرامة إلا بإذن اللّه ، فإذا جاء أمر اللّه وقامت القيامة ، قضى بالحق ، فيرتفع أهل الصبر من المقربين ، فى أعلى عليين ، وينخفض أهل الإذاية فى أسفل سافلين.
ثم ذكّرهم بالنعم الحسية ، فقال :
[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٧٩ الى ٨١]
اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١)
يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ خلق لَكُمُ الْأَنْعامَ الإبل لِتَرْكَبُوا مِنْها ، وَمِنْها تَأْكُلُونَ أي : لتركبوا بعضها ، وتأكلوا بعضها ، وليس المراد : أن الرّكوب والأكل مختص ببعض معين منها ، بحيث لا يجوز تعلقه بالآخر ، بل على أن بعضا منها صالح لكلّ منهما. وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ أخر غير الرّكوب ، كألبانها وأوبارها وجلودها ، وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً أي : ما تحتاجون إليه من حمل أثقالكم من بلد إلى بلد ، فِي صُدُورِكُمْ فى قلوبكم ، وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ أي : وعليها فى البر ، وعلى الفلك فى البحر تحملون ، ولعل المراد به : حمل النّساء والولدان عليها بالهودج ، وهو السر فى فصله عن الرّكوب. والجمع بينها وبين الفلك فى الحمل لما بينهما من المناسبة ، حتى سميت الإبل : سفائن البر.
وقيل : المراد بالأنعام : الأزواج الثمانية ، على أن المعنى : لتركبوا بعضها ، وهى الإبل ، وتأكلوا بعضها ، وهى الغنم والبقر ، فذكر ما هو الأهم من كلّ ، والمنافع تعم الكل ، وبلوغ الحاجة تعم الإبل والبقر.
وقال الثعلبي : التقدير :
لتركبوا منها بعضا ، ومنها تأكلون ، فحذف «بعضا» للعلم به.
يُرِيكُمْ آياتِهِ
دلائله الدالة على قدرته ووفور رحمته ، أَيَّ آياتِ اللَّهِ
أي : فأىّ آية من تلك الآيات الباهرةتُنْكِرُونَ
؟
فإن كلّا منها من الظهور بحيث لا يكاد يجترىء على إنكارها من له عقل فى الجملة. وإضافة آية إلى الاسم الجليل لتربية المهابة ، وتهويل إنكارها ، و«آيات» نصب بتنكرون ، وتذكير «أىّ» مع

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٥٦
تأنيث المضاف إليه ، هو الشائع المستفيض ، والتأنيث قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الأسماء غير الصفات ، نحو : حمار وحمارة غريب ، وهى فى «أىّ» أغرب لإبهامه.
الإشارة : ما أعظم قدرك أيها الإنسان إن اتقيت اللّه ، وعرفت نعمه ، فقد سلطك على ما فى الكون بأسره ، الحيوانات تخدمك وتنتفع بها ، أكلا ، وركوبا ، وملبسا ، وحملا ، والبحر يحملك ، والأرض تقلك ، والسماء تظلك ، وما قنع لك بالدنيا حتى ادخر لك الآخرة ، التي هى دار الدوام ، فإن شكرت هذه النّعم فأنت أعز ما فى الوجود ، وإن كفرتها فأنت أهون ما فى الوجود. وباللّه التوفيق.
ولا تعرف حقائق النّعم إلا بالتفكر ، ولذلك أمر به إثر ذكرها ، فقال :
[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٨٢ الى ٨٥]
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (٨٥)
يقول الحق جل جلاله : أَفَلَمْ يَسِيرُوا أي : أقعدوا فلم يسيروا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من الأمم المهلكة ، كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ عددا وَأَشَدَّ قُوَّةً فى الأبدان والأموال ، وَأشد آثاراً فِي الْأَرْضِ أي : تركوا آثارا كثيرة بعدهم ، من الأبنية ، والقبور ، والمصانع ، فكانوا أشدّ منهم ، وقيل : هى آثار أقدامهم فى الأرض لعظم أجرامهم ، فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ أي : لم يغن عنهم ذلك شيئا حين نزل بهم العذاب ، أو : أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم؟ على أنّ «ما» استفهام.
فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الواضحة ، فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ يريد علمهم بأمور الدنيا ، ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال : يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ «١» ،

---
(١) الآية ٧ من سورة الرّوم.

فلما جاءتهم الرّسل بعلوم الديانة ، والتأهب ليوم القيامة ، وهى أبعد شىء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا ، والتباعد عن تتبع ملاذها ، لم يلتفتوا إليها ، وصغّروها ، واستهزؤوا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفؤاد من علمهم ، ففرحوا به. أو : علم التنجيم والفلسفة ، والدهريّين فإنهم كانوا إذا سمعوا بالوحى دفعوه ، وصغّروا علم الأنبياء إلى علمهم ، واعتقدوا عندهم علما يستغنون به عن علم الأنبياء - عليهم السّلام - ولما سمع بقراط بموسى عليه السّلام قيل له : لو هاجرت إليه! فقال : نحن قوم مهذّبون ، فلا حاجة إلى من يهذّبنا.

ورأى بعض الصالحين النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم فسأله عن ابن سيرين ، فقال له : «إنه أراد أن يصل إلى اللّه بلا واسطة ، فانقطع عن اللّه» وعلى فرض وقوفهم بالتجريد والرّياضة على انكشاف حضرة القدس ، فلا يظفرون بالعبودية ، ولا بالفناء فى توحيد الرّبوبية ، والتخلص من لوث وجودهم ، والشأن أن تكون عين الاسم ، لا أن تعرف الاسم والعين ، إنما تقتبس من مشكاة مهبط الوحى ، وانصباب أنوار الغيب إنما تفيض بواسطة درة الوجود ، نبينا صلّى اللّه عليه وسلم ، ومظهر سر العيان الأحدى الأحمدى ، فافهم. قاله شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرّحمن الفاسى.

قال تعالى : وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أي : نزل بهم عقوبة استخفافهم بالحق ، وتعظيمهم واغتباطهم بالباطل. فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا شدة عذابنا ، ومنه : بِعَذابٍ بَئِيسٍ «١» ، قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ يعنون الأصنام.

فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا أي : فلم يستقم ، ولم يصح أن ينفعهم إيمانهم عند مجىء العذاب لأن النّافع هو الإيمان الاختياري ، لا الاضطراري ، سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ أي : سنّ اللّه ذلك سنّة ماضية فى عباده ، ألّا يقبل الإيمان إلا قبل نزول العذاب. وهو من المصادر المؤكدة ، نحو : وعد اللّه ، ونحوه.

وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ أي : وقت رؤيتهم البأس. فهنالك : مكان استعير للزمان ، والكافرون خاسرون فى كل أوان ، ولكن يتبيّن خسرانهم إذا عاينوا العذاب.

وفائدة ترادف الفاءات فى هذه الآيات : أن فَما أَغْنى عَنْهُمْ نتيجة قوله : كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وفَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ كالبيان والتفسير لقوله : فَما أَغْنى عَنْهُمْ ، كقولك : رزق زيد المال ، فمنع المعروف ، فلم يحسن إلى الفقراء. وفَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا تابع لقوله : فَلَمَّا جاءَتْهُمْ ، كأنه قال : فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا. وكذلك : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ [تابع لإيمانهم] «٢» لمّا رأوا بأس اللّه ، واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١٦٥ من سورة الأعراف.

(٢) ما بين المعقوفتين ليس فى الأصول ، وأثبته من تفسير النّسفى.

(١٥٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٥٨

الإشارة : قد تقدم مرارا الحث على عبادة التفكر. وقوله تعالى : فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ... الآية ، كذلك من يظهر بعلم التجريد ، ويتكلم فى أسرار التوحيد ، سخر منه أهل زمانه ، ويقنعون بما عندهم من علم الرّسوم الظاهرة ، وهو علم لا يغنى ولا يفنى لأن جله يتعلق بمنافع النّاس ، لا بمنافع القلب ، فلا يغنى القلب ، ولا يفنى الحس ، إنما ينفع لطالب الأجور ، لا لطالب الحضور ورفع الستور ، وما مثال من ظفر بعلم القلوب - وهو أسرار التوحيد الخاص - إلا كمن عنده كنز من الفلوس ، ثم ظفر بالذهب الإبريز ، أو الإكسير ، فكيف يمكن أن يلتفت إلى الفلوس من ظفر بالإكسير؟! ولا يظهر هذا لأهل الظاهر إلا بعد موتهم ، فيؤمنوا به حيث لا ينفعهم. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١٥٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٥٩

سورة فصّلت «١»

وهى ثلاث وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله : وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ «٢» مع قوله : تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، فكانت قريش من جملة المستهزئين بالقرآن ، وتقول : وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ «٣» فبيّن أنه منزل من الرّحمن الرّحيم ، كما قال تعالى :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤)

وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)

قلت : (تنزيل) : خبر عن مضمر ، أي : هذا تنزيل. و(كتاب) : بدل من «تنزيل» ، أو : خبر بعد خبر ، و(تنزيل) :

مبتدأ. و(من الرّحمن) : صفة ، و(كتاب) : خبره ، و(قرآنا) : منصوب على الاختصاص والمدح ، أو : حال ، أي :
فصّلت آياته فى حال كونه قرآنا. و(لقوم) : متعلق بفصّلت ، أو : صفة ، مثل ما قبله وما بعده ، أي : قرآنا عربيا كائنا لقوم يعلمون. و(بشيرا ونذيرا) : صفتان ل «قرآنا».

---

(١) فى الأصول : [سورة حم السجدة] وهى سورة مكية.
(٢) الآية ٨٣ من سورة غافر.
(٣) كما جاء فى الآية ٢٦ من سورة فصلت.

(١٥٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٦٠
يقول الحق جل جلاله : حم يا محمد هذا تَنْزِيلٌ ، قال القشيري : أي : بحقي وحياتى ومجدى فى ذاتى وصفاتى ، هذا تنزيل مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. ونسبة التنزيل إلى الرّحمن الرّحيم للإيذان بأنه نزل للمصالح الدينية والدنيوية ، واقع بمقتضى الرّحمة الرّبانية ، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ «١» ، كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ ميزت وجعلت تفاصيل فى أساليب مختلفة ، ومعان متغايرة من أحكام ، وتوحيد ، وقصص ، ومواعظ ، ووعد ، ووعيد وغير ذلك ، قُرْآناً عَرَبِيًّا أي : أعنى قرآنا بلسان العرب كائنا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ معانيه ، ويتدبرون فى آياته لكونه على لسانهم ، أو : لأهل العلم والنّظر لأنهم المنتفعون به.
بَشِيراً وَنَذِيراً بشيرا لأهل الطاعة ، ونذيرا لأهل المعصية ، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ عن الإيمان به والتدبير فى معاينه ، مع كونه على لغتهم ، فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ سماع تفكر وتأمل ، حتى يفهموا جلالة قدره فيؤمنوا به.
وَقالُوا للرسول - عليه الصلاة والسّلام - عند دعوته إياهم إلى الإيمان والعمل بما فى القرآن : قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ أي : أغطية متكاثفة ، وَفِي آذانِنا وَقْرٌ صمم وثقل يمنعنا من استماع قولك ، وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ غليظ ، وستر مانع يمنعنا من التواصل إليك. و(من) للدلالة على أن الحجاب مبتدى منهم ومنه بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة ، ولم يبق ثمّ فراغ أصلا. وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ، ومج أسماعهم له ، كأنّ بها صمما وثقلا منعهم من موافقتهم لرسول اللّه - صلّى اللّه عليه وسلم - ثم قالوا :
فَاعْمَلْ على دينك وإبطال ديننا ، إِنَّنا عامِلُونَ على ديننا ، لا نفارقه أبدا.
قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ ، هذا تلقين للجواب عنه ، أي : لست من

جنس مباين لكم حتى يكون بينى وبينكم حجاب ، وتباين مصحح لتباين الأعمال والأديان ، كما ينبئ عنه قوله : فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ ، بل إنما أنا بشر مثلكم ، مأمور بما أمرتم به من التوحيد ، حيث أخبرنا جميعا بأن إلهنا واحد ، فالخطاب فى «إلهكم» محكى منتظم للكل ، لا أنه خطاب منه – عليه الصلاة والسّلام – للكفرة. وقيل : لمّا دعاهم إلى الإيمان ، قالوا :

إنا نراك مثلنا ، تأكل وتشرب ، فلو كنت رسولا لاستغنيت عن ذلك ، فأنزل : قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ ... الآية فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ بالتوحيد وإخلاص العبادة ، غير ذاهبين يمينا وشمالا ، ولا ملتفتين إلى ما يسوّل لكم الشيطان من عبادة الأصنام. ، قال تعالى : وَاسْتَغْفِرُوهُ مما كنتم عليه من سوء العقيدة. والفاء لترتيب ما قبلها من إيحاء التوحيد على ما بعدها من الاستقامة ، وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ، وهو ترهيب وتنفير لهم عن الشرك إثر ترغيبهم فى التوحيد.

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

ووصفهم بقوله : الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ أي : لا يؤمنون بوجوب الزكاة ولا يعطونها ، وهو إخبار بما سيقع ، إذ لم تكن الزكاة حينئذ مفروضة ، أو : لا يفعلون ما يكونون به أزكياء ، وهو الإيمان. وفيه تحذير من منع الزكاة ، حيث جعله من أوصاف المشركين. وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ أي : وهم بالبعث والثواب والعقاب كافرون.

والجملة : عطف على (يؤتون) داخل فى الصلة. وإنما جعل منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة لأن أحب شىء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله فى سبيل اللّه فذلك أقوى دليل على استقامته ، وصدق نيته ، وخلوص طويته ، وما ارتدت العرب إلا بمنعها.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ غير مقطوع ، من : مننت الحبل : قطعته ، أو : غير ممنون به عليهم. وقيل : نزلت فى المرضى والهرمى ، إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون «١».

الإشارة : كان الرّسول – عليه الصلاة والسّلام – يدعو إلى الإيمان بالقرآن والعمل به ، وخلفاؤه من مشايخ التربية يدعون إلى تصفية البواطن ، لتتهيأ لفهمه والغوص عن أسراره ، وحضور القلب عند تلاوته ، فأعرض أكثر الناس عن صحبتهم ، وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ .. إلى تمام الآية. فبقيت قلوبهم مغلفة بسبب الهوى ، ألسنتهم تتلوا وقلوبهم تجول فى أودية الدنيا ، فلا حضور ولا تدبر ، فلا

حول ولا قوة إلا باللّه ، فإذا طلبوا من المشايخ - الذين هم أطبة القلوب - الكرامة ، يقولون ما قالت الرّسل : إنما نحن بشر يوحى إلينا وحي إلهام بوحدانية الحق ، وانفراده بالوجود ، فاستقيموا إليه بتصفية بواطنكم ، واستغفروه من سالف زلاتكم ، فإن بقيتم على ما أنتم عليه من الشرك ورؤية السّوى ، فويل للمشركين الذين لا يزكّون أنفسهم ، وهم بالآخرة - حيث لم يتأهبوا لها كلّ التأهب - هم الكافرون.

إن الذين آمنوا إيمان الخصوص ، بصحبة الخصوص ، لهم أجر غير ممنون ، وهو شهود الحق على الدوام.

واللّه تعالى أعلم.

ثم وبّخهم على الكفر بعد بيان بطلانه ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٩ الى ١٢]

قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (١١) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)

---

(١) قاله السدى فيما ذكره القرطبي (٧/ ٥٩٦١).

قلت : (و تجعلون) : عطف على (تكفرون). و(جعل) : عطف على (خلق) داخل فى حيز الصلة ، و(سواء) :

من نصبه فمصدر ، أي : استوت سواء. ومن جرّه فصفة لأيام ، ومن رفعه فخبر هى سواء. و(للسائلين) : متعلق بقدّر ، أو : بمحذوف ، أي : هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الأرض.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وهما الأحد والاثنين ، تعليما للتأنى ، ولو أراد أن يخلقها فى لحظة لفعل. وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً شركاء وأشباها. والحال أنه لا يمكن أن يكون له ند واحد ، فضلا عن التعدد ، وكيف يكون الحادث المعدوم ندا للقديم؟! ذلِكَ الذي خلق ما سبق.

وما فى الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه لبعد منزلته فى العظمة ، أي : ذلك العظيم

الشأن هو رَبُّ الْعالَمِينَ أي : خالق جمع الموجودات ومربّيها ، فكيف يتصور أن يكون أخس الخلق ندا له؟! وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ جبالا ثوابت كائنة مِنْ فَوْقِها ، وإنما اختار إرساءها من فوق الأرض لتكون منافع الجبال معرضة لأهلها ، ويظهر للناظرين ما فيها من مراصد الاعتبار ، ومطارح الأفكار ، فإن الأرض والجبال أثقال على أثقال ، كلها ممسكة بقدرة اللّه عز وجل. وَبارَكَ فِيها أي : قدّر بأن يكثر خيرها بما يخلق فيها من منافع ، ويجعل فيها من المصالح ، وما ينبت فيها من الطيبات والأطعمة وأصناف النّعم. وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها أي : حكم أن يوجد فيها لأهلها ما يحتاجون إليه من الأقوات المختلفة المناسبة لهم على مقدار معين ، تقتضيه الحكمة والمشيئة ، وما يصلح بمعايشهم من الثمار والأنهار والأشجار ، وجعل الأقوات مختلفة فى الطعم والصورة والمقدار ، وقيل : خصابها التي قسمها فى البلاد. جعل ذلك فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ أي : تتمة أربعة أيام ، يومين للخلق ، ويومين لتقدير الأقوات ، كما تقول : سرت إلى البصرة فى عشرة ، وإلى الكوفة فى خمسة عشر ، أي : فى تتمة خمسة عشر ، ولو أجرى الكلام على ظاهرة لكانت ثمانية أيام يومين للخلق ، وأربعة للتقدير ، ويومين لخلق السماء ، وهو مناقض لقوله : فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ «١».

---

(١) كما جاء فى آيات ، منها : الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

وقوله : سَواءً راجع للأربعة ، أي : فى أربعة أيام مستويات تامات ، أو : استوت سواء لِلسَّائِلِينَ أي : قدّر فيها الأقوات للطالبين لها والمحتاجين إليها ، لأن كلا يطلب القوت ويسأله ، أو هذا الحصر فى هذه الأيام لأجل من سأل : فى كم خلقت الأرض وما فيها؟
ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ ، الاستواء مجاز عن إيجاد اللّه تعالى السماء على ما أراد ، تقول العرب : فعل فلان كذا ثم استوى إلى عمل كذا ، يريدون أنه أكمل الأول وابتدأ الثاني ، أو قصد وانتهى. فالاستواء إذا عدى ب «إلى» فهو بمعنى الانتهاء إليه بالذات أو بالتدبير ، وإذا عدّى ب «على» فبمعنى الاستعلاء ، ويفهم منه أن خلق السماء بعد الأرض ، وهو كذلك ، وأما دحو الأرض وتقدير أقواتها فمؤخر عن السماء ، كما صرح فى قوله : وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها «١» ، والترتيب فى الخارج : أنه خلق الأرض ، ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض فى يومين. ف «ثم» للتفاوت بين الخلقين لا للترتيب ، أو : للتفاوت فى المرتبة ، ترقيا من الأدنى إلى الأعلى ، كقول القائل :

إنّ من ساد ثم ساد أبوه ثم ساد بعد ذلك جدّه

وفى بعض الأحاديث : «إن اللّه خلق الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والعمران والخراب ، فتلك أربعة أيام ، وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النّجوم والشمس والقمر والملائكة ، وخلق آدم عليه السّلام فى آخر ساعة من يوم الجمعة» «٢» وهى الساعة التي تقوم فيها الساعة.

قاله النّسفى ، وفى حديث مسلم ما يخالفه «٣».

قال ابن عباس رضي اللّه عنه : أول ما خلق اللّه - أي : بعد العرش - جوهرة طولها وعرضها ألف سنة ، فنظر إليها بالهيبة ، فذابت وصارت ماء ، فكان العرش على الماء ، فاضطرب الماء ، فثار منه دخان ، فارتفع إلى الجو ، واجتمع زبد ، فقام فوق الماء ، فجعل الزبد أرضا ، ثم فتقها سبعا ، والدخان سماء ، فسواهن سبع سموات «٤».

ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان طوعا أو كرها وامتثالهما أنه أراد أن يكوّنهما ، فلم يمتنعا عليه ، ووجدتا كما أراد ، وكانتا فى ذلك كالمأمور والمطيع ، وإنما ذكر الأرض مع السماء فى الأمر بالإتيان ، مع أن الأرض

---

(١) الآية ٣٠ من سورة النازعات. [.....]

(٢) أخرجه مطولا والطبري (٢٤/ ٩٤) والحاكم وصحّحه وتعقبه الذهبي (٢/ ٥٤٣) من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٣) أخرج مسلم فى صحيحه (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب ابتداء الخلق ، ٣/ ٢١٤٩ ، ح ٢٧٨٩) عن أبى هريرة - رضي اللّه عنه - قال : أخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بيدي ، فقال : «خلق اللّه عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السّلام بعد العصر من يوم الجمعة ، فى آخر الخلق ، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل».

(٤) ذكره النسفي فى تفسيره (٣/ ٢٢٨).

مخلوقة قبل السماء بيومين لأن المعنى : ائتيا على ما ينبغى أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ، أي :

ائتى يا أرض مدحوة قرارا ومهادا لأهلك ، وائتى يا سماء [مبنية] «١» سقفا لهم ، ومعنى الإتيان : الحصول والوقوع.

وقوله : طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لبيان تأثير قدرته فيهما ، وأن امتناعهما عن قدرته محال ، كما تقول لمن تحت يدك : لتفعلن هذا شئت أو أبيت ، طوعا أو كرها. وقال ابن عطية : الأمر بالإتيان بعد اختراعهما ، قال : وهنا حذف ، أي : ثم استوى إلى السماء فأوجدها ، وأتقنها ، وأكمل أمرها ، وحينئذ قال لها وللأرض : ائتيا لأمرى وإرادتى فيكما ، والمراد : تنجيزهما لما أراده منهما ، وما قدر من أعمالهما. هـ.

حكى أن بعض الأنبياء «٢» قال : يا رب لو أن السماوات والأرض حين قلت لهما : ائتيا طوعا أو كرها عصتاك ، ما كنت صانعا بهما؟ قال : كنت آمر دابة من دوابى فتبتلعهما ، قال : وأين تلك الدابة؟ قال : فى مرج من مروجى ، قال : وأين ذلك المرج؟ قال : فى علم من علومى.

وانتصاب طَوْعاً أَوْ كَرْهاً على الحال ، أي : طائعين أو مكرهين. ولم يقل «طائعتين» لأن المراد الجنس ، أي : السموات والأرضين ، وجمع جمع العقلاء لوصفهما بالطوع والكره ، اللذين من وصف العقلاء ، وقال : طائعين فى موضع طائعات تغليبا للتذكير لشرفه ، كقوله : ساجِدِينَ «٣».

فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ أي : فأحكم خلقهن ، وأتقن أمرهن سبعا ، حسبما تقتضيه الحكمة ، فالضمير راجع إلى السماء ، لأنه جنس ، يجوز أن يكون الضمير مبهما مفسرا بقوله : سَبْعَ سَماواتٍ ، فينتصب سبع على الأول حالا ، وعلى الثاني تمييزا. حصل ذلك القضاء فِي يَوْمَيْنِ الخميس والجمعة ، أي : فى وقتين قدر يومين ، فكان المجموع ستة أيام ، وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها أي : أوحى إلى ساكنها وعمّارها من الملائكة فى كلّ سماء ما شاء اللّه من الأمور ، التي تليق بهم ، كالخدمة وأنواع العبادة ، وإلى السماء فى نفسها ما شاء اللّه من الأمور التي بها قوامها وصلاحها.

وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ كالشمس والقمر والنجوم ، وهى زينة السماء الدنيا ، سواء كانت فيها أو فيما فوقها لأنها ترى متلألأة عليها كأنها فيها ، والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بأمرها ، وَحِفْظاً أي : حفظناها حفظا من المسترقة ، أو من الآفات ، فهو مصدر لمحذوف ، وقيل : مفعول لأجله على المعنى ، أي :

وجعلنا المصابيح للزينة والحفظ. ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ أي : ذلك الذي ذكر تفصيله تقدير البالغ فى القدرة والعلم ، أو : الغالب العليم بمواقع الأمور.

---

(١) فى النسفي (مقبية).

(٢) هو سيدنا موسى ، كما ذكره القرطبي فى تفسيره (٧/ ٥٩٦٤).

(٣) من الآية ٤ من سورة يوسف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٦٥

الإشارة : خلق الحق - تعالى - أرض النفوس محلا للعبودية ، وأرساها بجبال العقل ، لئلا تميل إلى بحر الهوى ، وبارك فيها ، بأن جعل فيها صالحين وأبرارا ، وعبادا وزهادا ، وعلماء أتقياء ، وقدر لها أقواتها الحسية والمعنوية ، فجعل الحسية سواء للسائلين ، أي : مستوية لا يزيد بالطلب ولا بالتعب ، ولا ينقص ، ففيه تأديب لمن لم يرض بقسمته ، والأرزاق المعنوية : أرزاق القلوب من اليقين والمعرفة ، يزيد بالطلب والتعب ، وينقص بنقصانه ، حكمة من الحكيم العليم ، ثم استوى إلى سماء الأرواح ، أي : قصدها بالدعاء إليه ، وهى لطائف ، فقال لها ولأرض النفوس : ائتيا إلى حضرتى ، طوعا أو كرها ، قالتا : أتينا طائعين ، فقضاهن سبع طبقات ، وهى دوائر الأولياء ، دائرة الغوث ، ثم دائرة الأقطاب ، ثم الأوتاد ، ثم النّقباء ، ثم النجباء ، ثم الأبرار ، ثم الصالحين. وأوحى فى كلّ سماء ، أي :
فى كلّ دائرة ما يليق بها من العبادة ، فمنهم من عبادته الشهود والعيان ، ومنهم من عبادته الفكرة ، ومنهم الركوع والسجود ، ومنهم التلاوة والذكر ... إلى غير ذلك من أنواع الأعمال.

قال القشيري : وجعل نفوس العابدين ، أرضا لطاعته وعبادته ، وجعل قلوبهم فلكا لنجوم علمه ، وشموس معرفته ، فأوتاد النفوس الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة ، وفى قلوب ضياء العرفان ، وشموس التوحيد ، ونجوم العلوم والعقول ، والنفوس والقلوب ، بيده يصرّفها على ما أراد من أحكامه.
وقال فى قوله : وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها : الجبال أوتاد الأرض ، فى الصورة ، والأولياء رواسى الأرض فى الحقيقة ، بهم تنزل البركة والأمطار ، وبهم يدفع البلاء. ثم قال : قوله تعالى : وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وزيّن وجه الأرض بمصابيح ، وهى قلوب الأحباب ، فأهل السماء إذا نظروا إلى قلوب أولياء اللّه بالليل ، فذلك متنزههم ، كما أن أهل الأرض إذا نظروا إلى السماء تأنسوا برؤية الكواكب.
هـ.

ثم هدد أهل الكفر ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ١٣ الى ١٨]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٧)
وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (١٨)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٦٦

قلت : (و أما ثمود) ، قراءة الجماعة بالرفع ، غير مصروف ، إرادة القبيلة ، وقراءة الأعمش ويحيى بن وثاب مصروفا ، إرادة الحي ، وقراءة ابن أبى إسحاق : بالنصب ، من باب الاشتغال ، وأصل الكلام : مهما يكن من شيء فثمود هديناهم ، فحذف الملزوم الذي هو الشرط ، وأقيم مقامه لازمه ، وهو الجزاء ، وأبقيت الفاء المؤذنة بأن ما بعدها لازم لما قبلها ، وإلا فليس هذا موضع الفاء لأن موضعه صدر الجزاء. انظر المطوّل.

يقول الحق جل جلاله : فَإِنْ أَعْرَضُوا عن الإيمان بعد هذا البيان فَقُلْ لهم : أَنْذَرْتُكُمْ خوّفتكم. وعبّر بالماضي للدلالة على تحقق الإنذار المنبئ عن تحقق الوقوع ، صاعِقَةً أي : عذابا شديدا لو وقع كان كأنه صاعقة ، وأصلها : رعد معه نار تحرق. تكون مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ وقد تقدم عذابهما «١».

إِذْ جاءَتْهُمُ : ظرف لمحذوف ، أي : أنزلناها بهم حين جاءتهم الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أي : أتوهم من كل جانب ، وعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا الإعراض ، أو : جاءتهم الرسل قبلهم لأبائهم ، وبعدهم لمن خلفهم ، أي : تواردت عليهم الرسل قديما وحديثا ، والمعهود إنما هو هود وصالح - عليها السلام. وعن الحسن : أنذروهم من وقائع اللّه بمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة ، أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ أي : بأن لا تعبدوا إلا اللّه ، على أنها مصدرية ، أو : لا تعبدوا ، على أنها مفسرة ، وقيل : مخففة ، أي : أنه لا تعبدوا إلا اللّه. قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً أي : لو شاء إرسال الرّسل لأرسل ملائكة ، ولمّا كان إرسالهم بطريق الإنزال عبّر به ، فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ أي : فحيث كنتم بشرا مثلنا ، ولم تكونوا ملائكة ، ولم يكن لكم فضل علينا ، فإنا لا نؤمن بكم ، ولا بما جئتم به ، وقولهم : أُرْسِلْتُمْ بِهِ ليس بإقرار بالإرسال ، وإنما هو على كلام الرسل ، وفيه تهكم ، كما قاله فرعون : إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ «٢» وقولهم : بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء ، الذين دعوا للإيمان.

---

(١) راجع تفسير الآيات ٦٥ - ٧٩ من سورة الأعراف (٢/ ٢٣٠ - ٢٣٤).

(٢) الآية ٢٧ من سورة الشعراء.

روى أن أبا جهل قال فى ملإ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة ، فكلّمه ، ثم أتانا بالبيان من أمره ، فقال عتبة بن ربيعة : واللّه لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علما ما يخفى علىّ ، فأتاه ، فقال : أنت يا محمد خير أم هاشم؟ أنت يا محمد خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد اللّه؟ ، فبم تشتم آلهتنا وتضللنا؟ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء ، فكنت رئيسنا ما بقيت ، وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة من أىّ بنات قريش شئت ، وإن كان بك المال ، جمعنا لك ما تستغنى به أنت وعقبك.

والنّبى صلّى اللّه عليه وسلّم ساكت ، فلما فرغ عتبة ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ .. إلى قوله تعالى : مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ ، فأمسك عتبة على فيه النبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم وناشده بالرحم ، فرجع عتبة إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم ، قالوا : ما نرى عتبة إلا صبأ ، فانطلقوا ، وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد ، أم أنك أعجبك طعامه؟ فغضب ، ثم قال لهم : لقد كلمته فأجابنى بشىء ، واللّه ما هو شعر ، ولا كهانة ، ولا سحر ، ثم تلى عليهم ما سمع منه إلى قوله : مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ فأمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب. هـ «١».

ثم بيّن ما ذكره من صاعقة عاد وثمود ، فقال : فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أي : تعاظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظيم ، وهو القوة ، وعظم الأجرام ، واستولوا على الأرض بغير استحقاق للولاية ، وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، كانوا ذوى أجسام طوال ، وخلق عظيم ، بلغ من قوتهم أن الرجل كان يقلع الصخرة من الجبل بيده ، ويلوى الحديد بيده ، أَوَلَمْ يَرَوْا أي : أولم يعلموا علم عيان أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً؟ أوسع منهم قدرة لأنه قادر على كلّ شىء ، وهم قادرون على بعض الأشياء بإقداره ، وَكانُوا بِآياتِنا المنزلة على رسلهم يَجْحَدُونَ أي : ينكرونها وهم يعرفون حقيتها ، كما يجحد المودع الوديعة. و(هم) : عطف على (فاستكبروا) ، وما بينها اعتراض ، للرد على كلمتهم الشنعاء.

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً أي : باردا تهلك وتحرق لشدة بردها ، من : الصر ، وهو البرد ، الذي يجمع ويقبض ، أو : عاصفة تصوّت فى هبوبها ، من الصرير ، فضوعف ، كما يقال : نهنهت وكفكفت. فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ مشؤومات عليهم ، من : نحس نحسا ، نقيض : سعد سعدا ، وكانت من الأربعاء آخر شوال إلى الأربعاء ،

---

(١) أخرجه البغوي فى تفسيره (٧/ ١٦٧) وعزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٦٧٣ - ٦٧٤) للبيهقى فى الدلائل وابن عساكر. عن جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٦٨

وما عذّب قوم إلا فى الأربعاء. قيل : أمسك اللّه عنهم المطر ثلاث سنين ، ودامت الرّياح عليهم من غير مطر. قيل ، إذا أراد اللّه بقوم خيرا ، أرسل عليهم المطر ، وحبس عنهم كثرة الرّياح ، وإذا أراد اللّه بقوم شرا ، حبس عنهم المطر ، وأرسل عليهم كثرة الرّياح. هـ.

لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، أضاف العذاب إلى الخزي ، وهو الذل ، على أنه وصف للعذاب ، كأنه قال : عذاب خزى ، ويدل عليه قوله : وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى أي : أذل لصاحبه ، وهو فى الحقيقة وصف للمعذّب ، وصف به العذاب للمبالغة ، كقولك : له شعر شاعر. وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ برفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه.

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ دللناهم على الرّشد ، بنصب الآيات التكوينية ، وإرسال الرّسل ، وإنزال الآيات التشريعية ، فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى

أي : اختاروا الضلالة على الهداية ، فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ أي : داهية العذاب الذي يهين صاحبه ويخزيه ، وهى الصيحة والرّجفة ، والهون : الهوان ، وصف به للمبالغة ، بِما كانُوا يَكْسِبُونَ أي : بكسبهم الخبيث من الشرك والمعاصي.

قال الشيخ : أبو منصور : يحتمل قوله : فَهَدَيْناهُمْ : بيّنا لهم ، كما تقدم ، ويحتمل : خلق الهداية فى قلوبهم ، فصاروا مهتدين ، ثم كفروا بعد ذلك ، وعقروا النّاقة ، لأن الهدى المضاف إلى الخالق يكون بمعنى البيان ، ويكون بخلق فعل الاهتداء ، وأما الهدى المضاف إلى الخلق فيكون بمعنى البيان ، لا غير. هـ.

وقال الطيبي : قوله تعالى : فَهَدَيْناهُمْ هو كقوله تعالى : إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ «١». وقوله : فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى هو كقوله : قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا ... الآية «٢». وكذا فى قوله : فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ، فإن الفاء فى «فاستكبروا» فصيحة ، تفصح عن محذوف ، أي : فهديناهم فاستكبروا بدلالة ما قيل فى ثمود. هـ.

وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا أي : اختاروا الهدى على العمى ، من تلك الصاعقة ، وَكانُوا يَتَّقُونَ الضلالة والتقليد.

---

(١) من الآية ١٤ من سورة فصلت.

(٢) من الآية ١٤ من سورة فصلت

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٦٩
الإشارة : كل من أعرض عن الوعظ والتذكار ، ونأى عن صحبة الأبرار فالصعقة لاحقة به ، إما فى الدنيا أو فى الآخرة. وقوله تعالى : فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا ... الآية : أوصاف العبودية أربعة : الضعف ، والذل ، والفقر ، والعجز ، فمن خرج عن واحد منها ، فقد تعدى طوره ، واستحق الهلاك والهوان ، ورمته رياح الأقدار فى مهاوى النيران.
وقوله : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ أي : بيّنا لهم طريق السير إلينا ، على ألسنة الوسائط ، فحادوا عنها ، واستحبوا العمى على الهدى حيث لم يسبق لهم الهداية فى الأزل ، فالسوابق تؤثر فى السوابق ، فكأن جبلة القوم الضلالة ، فمالوا إلى ما جبلوا عليه من قبول الضلالة.
وقوله تعالى : وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا أي : فى الدنيا من الصاعقة ، وفى الآخرة من السقوط فى الهاوية.
قال القشيري : منهم من نجّاهم من غير أن رأوا النار ، عبروا القنطرة ولم يعلموا ، وقوم كالبرق الخاطف ، وهم أعلاهم - قلت : بل أعلاهم كالطرف - ثم قال : وقوم كالرواكض ، وهم أيضا الأكابر ، وقوم على الصراط يسقطون وتردّهم الملائكة على الصراط ، فبعدوا. ثم قال : وقوم بعد ما دخلوا النار ، فمنهم من تأخذه إلى كعبيه ، ثم إلى ركبتيه ، ثم إلى حقويه «١» ، فإذا بلغ القلب قال الحقّ للنار : لا تحرقى قلبه ، فإنه محترق بي. وقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا «٢» فصاروا حمما «٣». ه منه.
ثم ذكر وعيد أهل الشرك ، فقال :
[سورة فصلت (٤١) : الآيات ١٩ الى ٢٤]
وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (٢٣)
فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤)

---

(١) الحقو : الخصر
(٢) امتحش الحر أو النار جلده ، أي : أحرقه وقشره عن اللحم.
(٣) الحمم : الفحم وكل ما احترق من النار [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٧٠

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ «١» من كفار المتقدمين والمتأخرين إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ يضمون ويساقون إلى النار ، ويحبس أولهم على آخرهم ، فيستوقف سوابقهم حتى تلحق بهم تواليهم ، وهى عبارة عن كثرة أهل النار ، وأصله : من وزعته ، أي : كففته. حَتَّى إِذا ما جاؤُها أي : حضروها ، و«حتى» : غاية للحشر ، أو : ليوزعون ، و«ما» : مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور ، فبمجرد حضورهم شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ أي : بشراتهم بِما كانُوا يَعْمَلُونَ فى الدنيا ، من فنون الكفر والمعاصي ، بأن ينطقها اللّه تعالى ، ويظهر عليها آثار ما اقترفوا بها. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : أن المراد بشهادة الجلود : شهادة الفروج ، كقول الشاعر :

أو سالم من قد تثّنى جلده وابيضّ رأسه «٢»

فكنّى بجلده عن فرجه ، وهو الأنسب لتخصيص السؤال بها فى قوله تعالى : وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا ، فإن ما تشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحا ، وأجلب للحزن والعقوبة ، مما تشهد به السمع والأبصار من الجنايات المكتسبة بتوسطها. روى : أن العبد يقول يوم القيامة : يا رب ، أليس قد وعدتني ألا تظلمنى؟ فيقول تعالى :

فإن لك ذلك ، قال : فإنى لا أقبل علىّ شاهدا إلا من نفسى ، قال تعالى : أو ليس كفى بي شهيدا ، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال : فيختم على فيه ، وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول لهن : بعدا لكنّ وسحقا ، عنكنّ كنت أجادل» «٣».

قالُوا فى جوابهم : أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ من الحيوانات ، وأقدرنا على بيان الواقع ، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ، وما كتمناها. أو : ما نطقنا باختيارنا ، بل انتقنا اللّه الذي أنطق كل شىء. وقيل :

سألوها سؤال تعجب ، فالمعنى حينئذ : وليس نطقنا بعجب من قدرة اللّه - تعالى - الذي أنطق كل شىء ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فإنّ من قدر على خلقكم أول مرة ، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه ،

---

(١) قرأ نافع ويعقوب «نحشر» بنون العظمة. و«أعداء» بالنصب ، مفعول به. وقرأ الباقون بياء الغيب مضمومة ، و«أعداء» بالرفع على النيابة. انظر الإتحاف (٢/ ٤٤٣).

(٢) جاء البيت فى تفسير القرطبي (٧/ ٥٩٧٠) مسبوقا ببيت آخر هو :

المرء يسعى للسلا مة والسلامة حسبه

وعزاه القرطبي لعامر بن جؤية.
(٣) أخرجه مسلم فى (الزهد والرقائق ، ٤/ ٢٢٨١ ، ح ٢٩٦٩) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

لا يتعجب من إنطاقه جوارحكم. ولعل صيغة المضارع ، مع أن هذه المحاورة بعد البعث والرجع ، كما أن المراد بالرجوع ليس مجرد الرد إلى الحياة بالبعث ، بل ما يعمه ، وما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند التخاطب ، على تغليب المتوقع على الواقع ، مع ما فيه من مراعاة الفواصل ، فهذا على أنه من تتمة كلام الجلود ، وقيل : هو من كلام الحق - تعالى - لهم ، فيوقف على «شى ء» وهو ضعيف. وكذا قوله :
وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ ، يحتمل أن يكون من كلام الجلود ، أو : من كلام اللّه - عز وجل - وهو الظاهر ، أي : وما كنتم تستترون فى الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم ، ولو خفتم من ذلك ما استترتم بها ، وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ من القبائح الخفية ، فلا يظهرها فى الآخرة.
وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه : كنت مستترا بأستار الكعبة ، فدخل ثلاثة نفر وثقفيان وقرشى ، أو : قرشيان وثقفى ، فقال أحدهم : أترون أن اللّه يسمع ما نقول؟ قال الآخر : سمع جهرنا ولا يسمع ما أخفينا ، فذكر ذلك للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، فأنزل اللّه تعالى : وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ ... الآية «١» ، فالحكم المحكي حينئذ يكون خاصا بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفرة. انظر أبا السعود.
وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ أهلككم ، ف «ذلك» : مبتدأ ، و«ظنكم» : خبر ، و«الذي ظننتم بربكم» : صفة ، و«أرداكم» : خبر ثان ، أو : ظنكم : بدل من «ذلك» و«أرداكم» : خبر ، فَأَصْبَحْتُمْ بسبب الظن السوء مِنَ الْخاسِرِينَ إذ صار ما منحوا لسعادة الدارين سببا لشقاء النشأتين.
فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً مقام لَهُمْ أي : فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر ، ولم ينفكوا به من الثوى فى النار ، وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا أي : يسألوا العتبى وهو الاسترضاء فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ المجابين إليها ، أي : وإن يطلبوا الاسترضاء من اللّه - تعالى - ليرضى عنهم ، فما هم من المرضين لما تحتم عليهم واستوجبوه من السخط ، قال الجوهري : أعتبنى فلان : إذا عاد إلى مسرتى ، راجعا عن الإساءة ، والاسم منه : العتبى ، يقال : استعتبته فأعتبنى ، أي : استرضيته فأرضانى. وقال الهروي : إن يستقيلوا ربهم لم يقلهم ، أي : لم يردهم إلى الدنيا ، أو : إن أقالهم وردهم لم يعملوا بطاعته ، كقوله : وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا

عَنْهُ «٢».

---

(١) أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة حم السجدة ، باب : وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ .. ح ٤٨١٦) ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، ٤/ ٢١٤١ ح ٢٧٧٥).
(٢) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام.

(١٧١/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٧٢
الإشارة : أعداء اللّه هم الجاحدون لوحدانيته ولرسالة رسله ، وهم الذين تشهد عليهم جوارحهم ، وأما المؤمن فلا ، نعم إن مات عاصيا شهدت عليه البقع أو الحفظة ، فإن تاب أنسى اللّه حفظته ومعالمه فى الأرض ذنوبه. قال فى التذكرة : إن العبد إذا صدق فى توبته أنسى اللّه ذنوبه لحافظيه ، وأوحى إلى بقع الأرض وإلى جميع جوارحه :
أن اكتموا مساوئ عبدى ، ولا تظهروها ، فإنه تاب إلىّ توبة صادقة ، بنية مخلصة ، فقبلته وتبت عليه ، وأنا التواب الرحيم.
وفى الآية حث على حسن الظن باللّه ، وفى الحديث : «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن باللّه عز وجل» «١» وقال أيضا : «يقول اللّه - عز وجل : أنا عند ظنّ عبدى بي ...» الحديث «٢» فمن ظن خيرا لقى خيرا ، ومن ظن شرا لقى شرا. وباللّه التوفيق.
ثم إن سبب الغواية أو الهداية هى الصحبة ، كما قال تعالى :
[سورة فصلت (٤١) : آية ٢٥]
وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (٢٥)
يقول الحق جل جلاله : وَقَيَّضْنا أي : سيّرنا ، أو : قدّرنا ، لَهُمْ أي : كفار مكة فى الدنيا قُرَناءَ سوء من الجن والإنس ، أو : سلطنا عليهم نظراء لهم من الشياطين يستولون عليهم ، كقوله : وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ «٣» ، فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ من أمور الدنيا ، واتباع الشهوات ، والتقليد لأسلافهم ، حتى حادوا عن الحق ، وَما خَلْفَهُمْ من أمور الآخرة ، حيث ألقوا إليهم : ألا بعث ولا حساب. أو : ما تقدم من أعمالهم وما هم عازمون عليها ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ أي : ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب ، أو : تحقق موجبها ومصداقها ، وهى قوله تعالى لإبليس : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ «٤» ، حال كونهم فِي جملة أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ أي : قبل أهل

مكة مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ

(١) أخرجه مسلم فى (كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب الأمر بحسن الظن باللّه ، ٤/ ٢٢٠٥ ، ح ٢٨٧٧) عن جابر رضي اللّه عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري فى (كتاب التوحيد ، باب قول اللّه تعالى : وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، ح ٧٤٠٥) ومسلم فى (كتاب الذكر والدعاء ، باب الحث على ذكر اللّه تعالى ، ٤/ ٢٠٦١ ح ٢٦٧٥) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) الآية ٣٦ من سورة الزخرف.

(٤) من الآية ٨٥ من سورة «ص».

كانوا مصرّيين على الكفر العصيان ، إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ حيث آثروا الباطل على الحق ، وهو تعليل لاستحقاقهم العذاب. والضمير لهم وللأمم.

الإشارة : قال القشيري : إذا أراد اللّه بعبده سوء ، قيّض له إخوان سوء وقرناء شر ، هم الأضداد له فيما راموا ، وإذا أراد اللّه بعبد خيرا قيّض له قرناء خير ، يعينونه على الطاعة ، ويحملونه عليها ، ويدعونه إليها ، وإذا كانوا إخوان سوء يحملونه على المخالفات ، ويدعونه إليها ، ومن ذلك الشيطان. ثم قال : وشرّ قرين المرء نفسه ، ثم الشيطان ، ثم شياطين الإنس ، فزيّنوا لهم ما بين أيديهم من طول الأمل ، وما خلفهم من نسيان الزّلل ، والتسويف فى التوبة ، والتقصير فى الطاعة. هـ.

قلت : واللّه ما رأينا الفلاح والخسران إلا من الخلطة. قال بعضهم : واللّه ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح ، ولا سيما صحبة العارفين فساعة معهم تعدل عبادة سنين بالصيام والقيام وأنواع المجاهدة ، وللّه در الجيلاني «١» رضي اللّه عنه حيث قال :

فشمر ولذ بالأولياء فإنّهم لهم من كتاب اللّه تلك الوقائع

هم الذّخر للملهوف والكنز للرّجا ومنهم ينال الصّبّ ما هو طامع

بهم يهتدى للعين من ضلّ فى العمى بهم يجذب العشّاق والرّبع شاسع

هم الناس فالزم إن عرفت جنابهم ففيهم لضرّ العالمين منافع «٢»

ثم ذكر بعض ما زيّنوا لهم ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٢٦ الى ٢٨]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (٢٨)

---

(١) هو الشيخ عبد الكريم الجيلي.

(٢) البيت الأخير جاء فى ديوان الجيلي ص ٨٩ مسبوقا ببيت هو :

هم القصد والمطلوب السّؤل والمنى واسمهم للصب فى الحب شافع

(١٧٣/٥)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا من رؤساء المشركين لأتباعهم ، أو : بعضهم لبعض : لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ إذا قرئ ، أي : لا تنصتوا له لأنه يقلب القلوب ، ويسبى العقول ، وكل من استمع إليه صبا إليه ، وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ أي : عارضوه بكلام غير مفهوم ، أو : بالخرافات من الرّجز والشعر والتصدية ، وارفعوا أصواتكم بها لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ أي : تغلبونه على قراءته ، وشوّشوا عليه فيقع فى الغلط ، أو : لا يسمعه منه أحد.

واللغو : الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته.

فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : فو اللّه لنذيقن هؤلاء اللاغين والقائلين ، أو : جميع الكفار ، وهم داخلون فيهم دخولا أولياء. عَذاباً شَدِيداً لا يقادر قدره ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ أي : أعظم عقوبة على أسوأ أعمالهم ، وهو الكفر ، وقيل : إنه لا يجازيهم بمحاسن أعمالهم ، كإغاثة الملهوفين ، وصلة الأرحام ، وقرى الضيق لأنها محبطة بالكفر ، وإنما يجازيهم على أسوئها. وعن ابن عباس : عَذاباً شَدِيداً : يوم بدر ، وأَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ : ما يجزون فى الآخرة.

ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ أي : ذلك الأسوأ من الجزاء هو جزاء أعداء اللّه ، وهو النار. فالنار : خبر عن مضمر ، أو : عطف بيان للجزاء ، والنار : مبتدأ. ولَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ : خبر ، أي : النار فى نفسها دار الخلد ، كما تقول : لك فى هذه الدار السرور ، وأنت تعنى الدار بعينها ، ويسمى فى علم البلاغة : التجريد ، وهو أن ينتزع من ذى صفة أمرا آخر مثله ، مبالغة ، لكمال فيه. تقول : لقيت من زيد أسدا. وقيل : هى على معناها ، والمراد : أن لهم فى النار المشتملة على الدركات دار مخصوصة ، هم فيها خالدون ، جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ أي : جوزوا بذلك جزاء بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا ويلغون فيها.

الإشارة : الآية تنسحب على من يرفع صوته بمحضر مجلس الوعظ والذكر ، أو العلم النافع ، أو صفوف الصلاة ، فهذه المجالس يجب صونها من اللغو والصخب ، ويجب الاستماع لها ، والإنصات ، والتوقير ، والتعظيم ، لأنها موروثة عن الرسول صلى اللّه عليه وسلم قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى «١» ، ومن فعل شيئا من ذلك فالوعيد بقوله تعالى : فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ... الآية - منه بالمرصاد. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٣ من سورة الحجرات.

(١٧٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٧٥

ثم ذكر مقالتهم بعد دخول النار ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : آية ٢٩]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب : رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، يعنون الفريقين الحاملين على الضلال ، من شياطين الجن والإنس ، بالتسويل والتزيين ، وقيل : هما إبليس وقابيل ، فإنهما سنّا الكفر والقتل ، وقرىء بسكون الرّاء تخفيفا «١» ، كفخذ وفخذ ، وبالاختلاس «٢» ، أي : أبصرناهما ، نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا أي : ندسهما تحت أرجلنا ، انتقاما منهما ، أو : نجعلهما فى الدرك الأسفل لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ذلا ومهانة ، أو : مكانا ، جزاء إضلالهم إيانا.

الإشارة : كل من سقط عن درجة المقربين العارفين ، وتعوّق عن صحبتهم ، بسبب تعويق أحد ، تمنى يوم القيامة أن يكون تحت قدمه ، ليكون أسفل منه ، غيظا وندما ، ولا ينفع التمني والندم فى ذلك اليوم. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر أهل القرب والعناية ، بعد ذكر أهل البعد والغواية ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٣٠ الى ٣٢]

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ أي : نطقوا بالتوحيد واعتقدوا ، ثُمَّ اسْتَقامُوا أي : ثبتوا على الإقرار ومقتضياته من حسن الأعمال ، وعن الصدّيق رضي اللّه عنه : استقاموا فعلا ، كما استقاموا قولا. وعنه : أنه تلاها ثم قال : ما تقولون فيها؟ قالوا : لم يذنبوا ، قال : حملتم الأمر على أشده ، قالوا : فما تقول؟ قال : لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضي اللّه عنه : لم يروغوا روعان الثعالب ، أي : لم ينافقوا. وعن عثمان رضي اللّه عنه : أحكموا العمل ،

---

(١) وبها قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بخلفه ، وأبو بكر ، ويعقوب ، وقرأ الباقون بالكسر. انظر الإتحاف (٢/ ٤٤٣).

(٢) وهي الوجه الثاني لأبى عمرو. [.....]

وعن عليّ رضي اللّه عنه : أدّوا الفرائض. وعن الفضيل : زهدوا فى الفانية ، ورغبوا فى الباقية «١».

قلت : ويجمعها الإقرار بالربوبية ، والقيام بوصائف العبودية.

تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ عند الموت ، وفى القبر ، وعند البعث ، أو : فى الدنيا بإلهام الخير وشرح الصدر ، وإعانتهم على الأمور الدينية ، كما أن الكفرة تقويهم ما قيض لهم فى قرناء السوء. والأظهر : العموم. أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا ف «أن» مخففة ، أو : تفسيرية ، أي : لا تخافوا ما تقدمون عليه ، ولا تحزنوا على ما خلفتم ، فالخوف : غم يلحق لتوقع مكروه ، والحزن : غم يلحق لفوات نافع ، أو حضور ضار. والمعنى : أن اللّه تعالى كتب لكم الأمن من كلّ غم ، فلن تذوقوه أبدا. وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ فى الدنيا على ألسنة الرسل.

وقال محمد بن على الترمذي : تتنزل عليهم ملائكة الرحمة ، عند مفارقة الأرواح الأبدان ، ألا تخافوا سلب الإيمان ، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان ، وأبشروا بدخول الجنان ، التي توعدون فى سالف الأزمان.

نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ

، كما أن الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم ، فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم فى الدارين.

وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ

من فنون الطيبات ، وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ

ما تتمنون ، افتعال من الدعاء ، بمعنى الطلب ، نُزُلًا : حال من مفعول «تدّعون» المحذوف ، أو : من

«ما» ، والنزل : ما يقدم للنزيل ، وفيه تنبيه على أن ما يتمنونه بالنسبة إلى ما يعطون من عظائم النعيم كالنزل للضيف. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إن الذين أقروا بقهرية الربوبية ، وقاموا بوظائف العبودية ، تتنزل عليهم الملائكة بالبشارة الأبدية. قال القشيري : فأما الاستقامة فهى الثبات على شرائط الإيمان بجملتها ، من غير إخلال بشىء من أقسامها.

ثم قال : من كان له أصل الاستقامة ، وهى التوحيد ، أمن من الخلود فى النار ، ومن كان له كمال الاستقامة أمن من الوعيد ، من غير أن يلحقه سوء بحال. ويقال : استقاموا على دوام الشهود ، وانفراد القلب بالمعبود ، أو : استقاموا فى تصفية العقد ، ثم فى توفية العهد ، ثم فى صحّة القصد ، بدوام الوجد ، أو : استقاموا بأقوالهم ، ثم بأعمالهم ، ثم بصفاء أحوالهم ، فى وقتهم وفى مآلهم ، أو : داموا على طاعته ، واستقاموا فى معرفته ، وهاموا فى محبته ، وقاموا بشرائط خدمته. واستقامة العابد : ألا يعود إلى الفترة واتباع الشهوة ، ولا يدخله رياء ولا تصنع ، واستقامة العارف :

ألا يشوب معرفته حظ فى الدارين ، فيحجب به عن مولاه ، واستقامة المحبين : ألا يكون لهم أرب من غير محبوبهم يكتفون من عطائه ببقائه ، ومن مقتضى جوده بدوام عزّه ووجوده. هـ.

---

(١) انظر فى هذه الأقوال تفسير الطبري (٢٤/ ١١٥) والبغوي (٧/ ١٧٢) والبحر المحيط (٧/ ٤٧٥).

(١٧٦/٥)

وقوله تعالى : تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أي : تمدهم بالاهتداء والأنوار ، وتلهمهم العلوم والأسرار ، فى مقابلة تقييض الغافل بالقرناء الأشرار ، فكما أن الغافل يخذل بتسليط الغواة فى الدارين ، كذلك العارف يمد وينصر من قبل الملائكة فى الدارين.

وقوله تعالى : أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا أي : حيث وجدتم اللّه لا تخافوا من شىء ، ولا تحزنوا على فوات شىء ، إذ لم يفتكم شىء ، وما ذا فقد من وجده؟.

قال القشيري : لا تخاوفوا من عزلة الولاية ، ولا تحزنوا على ما أسلفتم من الجناية ، وأبشروا بحسن العناية ، أو : لا تخافوا مما أسلفتم ، ولا تحزنوا على ما خلّفتم ، وأبشروا بالجنة التي وعدتم. أو : لا تخافوا المذلة ، ولا تحزنوا على ما أسلفتم من الزلّة ، وأبشروا بدوام الوصلة. هـ.

ثم قال فى قوله تعالى : نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ

:

الولاية من اللّه – تعالى – بمعنى المحبة ، وتكون بمعنى النّصرة ، وهذا الخطاب بقوله : نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ ، يحتمل أن يكون من قبل الملائكة ، الذين يتنزلون عليهم ، ويحتمل أن يكون ابتداء خطاب من اللّه. تعالى – والنّصرة تصدر من المحبة ، ولو لم تكن المحبة الأزلية لم تكن تحصل النصرة فى الحال. هـ. وكونه من الملائكة أظهر ، كما تقدم. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا ذكر حال أهل الاستقامة ، ذكر حال من دعا إليها ، أو : تقول : لمّا ذكر حال أهل الكمال فقط ، ذكر أهل الكمال والتكميل ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٣٣ الى ٣٦]

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَما يُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ أي : إلى الإقرار بربوبيته ، والاستقامة على عبوديته ، وهو الرسول صلى اللّه عليه وسلم وخلفاؤه من أمته ، الدعاة إلى اللّه فى كلّ عصر ، أي : لا أحد أحسن قولا ممن دعا إلى

(١٧٧/٥)

معرفة اللّه ، وَعَمِلَ صالِحاً فيما بينه وبين ربه ، بأن عمل أولا بما دعا إليه ، وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ تفاخرا بالإسلام ، وابتهاجا بأنه منهم ، واتخاذ الإسلام دينا ، من قولهم : هذا قول فلان ، أي : مذهبه لأنه يتكلم بذلك ، أو : يقوله تواضعا ، أي : من جملة عامة المسلمين وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، هذا بيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد ، إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الرب – عز وجل – ترغيبا للدعاة إلى اللّه فى الصبر على إذاية الخلق ، لأن كلّ من يأمر بالحق يؤذى ، فأمروا بمقابلة الإساءة بالإحسان ، أي : لا تستوى الخصلة الحسنة والخصلة السيئة ، و(لا) : مزيدة ، لتأكيد النفي. ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أي : ادفع السيئة التي اعترضتك من بعض أعدائك بالتي هى أحسن منها ، وهى : أن تحسن إليه فى مقابلة إساءته ، فالحسنة والسيئة متفاوتتان فى أنفسهما ، فخذ بالحسنة التي هى أحسن من أختها ، وادفع بها السيئة ، كما لو أساء إليك رجل ، فالحسنة : أن تعفو عنه ، والتي هى أحسن : أن تحسن إليه مكان إساءته ، مثل أن يذمك فتمدحه ، ويحرمك فتعطيه ، ويقطعك

فتصله. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : التي هى أحسن :

الصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عن الإساءة. «١» هـ.

فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ أي : فإنك إن فعلت ذلك انقلب عدوك المشاقق مثل وليك الحميم الشفيق ، مصافاة لك ، وهذا صعب على النفوس ، ولذلك قال :

وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا أي : ما يلقى هذه الخصلة التي فى مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر ، وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ من اللّه - تعالى - وسبق عنايته بكمال النفس وتهذيبها. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : الحظ العظيم : الثواب ، وعن الحسن : واللّه ما عظم حظ دون الجنة. وقيل : نزلت فى أبى سفيان بن حرب ، كان عدوا مؤذيا للنبى صلى اللّه عليه وسلم فصار وليا مصافيا له «٢» ، وبقيت عامة.

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ ، النزغ : شبه النخس ، والشيطان ينزغ الإنسان ، كأنه ينخسه ، ببعثه على ما لا ينبغى ، وجعل النزغ نازغا مجاز ، كجدّ جدّه ، والمعنى : وإن طرقك الشيطان على ترك ما وصّيت به من الدفع بالتي هى أحسن ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ من شرّه ، وامض على [حلمك] «٣» ولا تطعه ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ١٧٤) وابن كثير (٤/ ١٠١).

(٢) قاله مقاتل بن حيان ، فيما ذكره البغوي فى تفسيره. (٧/ ١٧٤).

(٣) فى الأصول (حكمه) والمثبت من النسفي.

لاستعاذتك ، الْعَلِيمُ بنيتك وتعلقك به ، أو : بنزغ الشيطان ووسوسته. وهو تعليم لأمته صلى اللّه عليه وسلم إذ كان شيطانه أسلم على يده.

الإشارة : قال القشيري : قيل : الداعي إلى اللّه هو الذي يدعو الناس إلى الاكتفاء باللّه ، وترك طلب العوض من اللّه ، بل يكل أمره إلى اللّه ، ويرضى من اللّه بقسمة اللّه. ثم قال : وَعَمِلَ صالِحاً كما يدعو الخلق إلى اللّه يأتى بما يدعوهم إليه ، ويقال : هم الذين عرفوا طريق اللّه ، ثم دعوا - بعد ما عرفوا الطريق إلى اللّه - الخلق إلى اللّه ، وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ لحكمه ، الراضين بقضائه وتدبيره. هـ.

وقال الشاذلى رضي اللّه عنه : عليك برفض الناس جملة ، إلا من يدلك على اللّه ، بإشارة صادقة ، وأعمال ثابتة ، لا ينقضها كتاب ولا سنّة. هـ. وشروط الداعي إلى اللّه على طريق المشيخة أربعة : علم

صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، كما قال زروق رضي اللّه عنه. وقال الشريشى «١» فى رائيته :

وللشيخ آيات إذا لن تكن له فما هو إلا فى ليالى الهوى يسرى

إذا لم يكن علم لديه بظاهر ولا باطن فاضرب به لجج البحر

أما العلم الظاهر فإنما يشترط منه ما يحتاج إليه فى خاصة نفسه ، ويحتاج إليه المريد فى حال سفره إلى ربه ، وهو القدر الذي لا بد منه ، من أحكام الطهارة والصلاة ونحو ذلك ، ولا يشترط التبحر فى علم الشريعة. قال الشيخ أبو يزيد ، رضي اللّه عنه : صحبت أبا على المسندى ، فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه ، وكان يعلمنى التوحيد والحقائق صرفا.

هـ. ومن المعلوم أن الشيخ ابن عباد لم يفتح عليه إلا على يد رجل عامي ، وقد تحققت تربية كثير من الأولياء ، كانوا أميين فى علم الظاهر «٢». وأما علم الباطن فالمطلوب فيه التبحر التام إذ المقصود بالذات فى الشيخ المصطلح عليه عند القوم هو هذا العلم لأن المريد أنما يطلب الشيخ ليسلكه ويعلمه علم الطريقة والحقيقة فيكون عنده علم تام باللّه وصفاته وأسمائه ، ذوقا وكشفا ، وعلم بآفات الطريق ، ومكائد النفس ، والشيطان ، وطرق المواجيد ، وتحقيق المقامات ، كما هو مقرر فى فنه ، وهذا الداعي لا تخلو الأرض منه على الكمال ، خلافا لمن حكم بانقطاعه. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن خلف ، القريشي ، تاج الدين ، الشريشى ، المالكي ، الصوفي. ولد فى سلا - بجوار الرباط سنة ٥٨١ هـ ، ونشأ بمراكش ، وبرع فى علم الكلام وأصول الفقه. وتصوف على يد أبى حفص السهروردي عمر بن محمد ، واستقر بالفيوم بمصر ، وتوفى بها سنة ٦٤١ هـ ، اشتهر بقصيدته الرائية المسماة «أنوار السرائر وسرائر الأنوار». انظر الأعلام للزركلى (١/ ٢١٩).

(٢) انظر الفتوحات الإلهية للإمام المفسر (١٠٢ - ٢٠٤) وراجع التعليق على إشارة الآيات : ٤٧ - ٤٩ من سورة العنكبوت.

(١٧٩/٥)

وفى الإحياء : المقتدى به هو الذي استقام فى نفسه ، واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره ، لا من يظهر خلاف ما هو عليه ليقتدى به ، فإنه ملبّس ، لم ينصح لنفسه ، فكيف بغيره؟. هـ.

قال الورتجبي : ومن أحسن قولا ممن دعا إلى اللّه ، أي : ممن عرف اللّه بعد أن رآه وأحبه واشتاق إليه ، ودعا الخلق إليه ، من حيث هو فيه وصدقه فى حاله ، يدعو الخلق إلى اللّه بلسان الأفعال ، وصدق

المقال ، وحلاوة الأحوال ، ويذكر لهم شمائل القدم وحق الربوبية ، ويعرفهم صفات الحق وجلال ذاته ، ويحبب اللّه في قلوبهم ، وهذا عمله الصالح ، ثم يقول بعد كماله وتمكنه : إنني واحد من المسلمين ، من تواضعه ولطف حاله خلقا وظرافة ، وإن كان إسلامه من قصارى - أي : غاية - أحوال المستقيمين. قال سهل : أي : ممن دلّ على اللّه ، وعلى عبادة اللّه وسنّة رسوله ، واجتناب المناهي ، وإدامة الاستقامة مع اللّه ، ثم قال : وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ بيّن اللّه هنا أن الخلق الحسن ليس كالخلق السيئ ، وأمر بتبديل الأخلاق المذمومة بالأخلاق المحمودة ، وأحسن الأخلاق : الحلم إذ يكون به العدو صديقا ، والبعيد قريبا ، حين دفع غضبه بحلمه ، وظلمه بعفوه ، وسوء جانبه بكرمه ، وفى مظنة الخطاب : أن من كان متخلقا بخلقه ، متصفا بصفاته ، مستقيما فى خدمته ، صادقا فى محبته ، عارفا بذاته وصفاته ، ليس كالمدعى الذي ليس فى دعواه معنى.

ثم قال : وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، بيّن اللّه سبحانه ألا يبلغ أحد درجة الخلق الحسن ، وحسنات الأعمال وسنيّات الأفعال ، إلا من تصبّر فى بلاء اللّه ، وامتحانه ، بالوسائط وغير الوسائط ، ولا يتحمل هذه البليات إلا ذو حظ عظيم من مشاهدته ، وذو نصيب من قربه ووصاله ، صاحب معرفة كاملة ، ومحبة شاملة. وكمال هذا الصبر الاتصاف بصبر اللّه ، ثم الصبر فى مشاهدة الأزل ، فبالصبر الاتصافى ومشاهدة الأبدى ، والحظ الجمالي ، يوازى طوارق صدمات الألوهية ، وغلبات القهّارية. ثم قال : عن الجنيد : ما يوفق لهذا المقام إلا ذو حظ عظيم من عناية الحق فيه. هـ.

ثم بيّن دلائل توحيده ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٣٧ الى ٣٩]

وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ آياتِهِ الدالة على وحدانيته : اللَّيْلُ وَالنَّهارُ فى تعاقبهما على حدّ معلوم ، وتناوبهما على قدر مقسوم ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فى اختصاصهما بسير مقدّر ، ونور مقرّر إذ لا يصدر ذلك إلا من واحد قهار. لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ فإنها مخلوقان مثلكم ، وإن كثرت منافعهما ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ أي : الليل والنهار والشمس والقمر. وحكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى

أو الإناث فى الضمير ، تقول : الأقلام بريتها وبريتهنّ. ولعلّ ناسا من المشركين كانوا يسجدون للشمس والقمر ، تبعا للصّابئين من المجوس فى عبادتهم الكواكب ، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لها السجود للّه – تعالى – فنهوا عن هذه الواسطة ، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه اللّه وحده ، إن كانوا موحدين ، ولذلك قال : إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ فإن السجود أقصى مراتب العبادة ، فلابد من تخصيصه به سبحانه ، وهذا موضع السجدة عند مالك والشافعي ، وعند أبى حنيفة : (لا يسأمون).
فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا عن الامتثال ، فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ من الملائكة يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ أي : دائما ، وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ لا يملّون ولا يفترون ، والمعنى : فإن استكبر هؤلاء وأبوا إلا الواسطة ، فدعهم وشأنهم ، فإن اللّه غنى عنهم ، وقد عمّر سماواته بمن يعبده ، وينزهه بالليل والنهار عن الأنداد.
والعندية عبارة عن الزلفى والكرامة.
وَمِنْ آياتِهِ أيضا أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً يابسة مغبرة. والخشوع : التذلل ، فاستعير للأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها ، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ المطر اهْتَزَّتْ أي : تحركت وَرَبَتْ انتفخت لأن النبات إذا دنا أن يظهر ارتفعت به وانتفخت ، ثم تصدعت عن النبات ، وقيل : تزخرفت وارتفعت بارتفاع نباتها ، إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى بالبعث ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، ومن جملة الأشياء : البعث والحساب.

(١٨١/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٨٢
الإشارة : الليل والنهار والشمس والقمر خلقهن من أجلك ، فعار عليك أن تخضع لما خلق لك ، وتترك المنعم بها عليك. قال القشيري : الحق – سبحانه – يأمرك بصيانة وجهك عن الشمس والقمر مع علوهما ، وأنت لأجل حظّ خسيس تنقل قدمك إلى كلّ أحد ، وتذل وجهك لكل أحد. هـ. وأما الخضوع لمن أمر اللّه بالخضوع له من الدعاة إلى اللّه فهو من الخضوع للّه ، كأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وكأمره بالخضوع للأنبياء والأولياء ، فكان مآل من سجد وخضع التقريب ، ومآل من استكبر وأنف الطرد والبعد ، واللّه تعالى غنى عن الكل ، ولذلك قال : فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ... الآية.
قوله تعالى : وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً ... الآية ، وكذلك أرض النّفوس تراها يابسة بالغفلة والقسوة والجهل ، فإذا أنزل عليها ماء الحياة ، وهى خمرة المحبة ، هاجت وارتفعت ، وحييت بذكر اللّه ومعرفته ، إن الذي أحيا الأرض الحسية قادر على إحياء النفوس الميتة بالغفلة ، وانظر القشيري «١».
ثم ذكر حال من أعرض عن الآيات ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٤٠ الى ٤٢]

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا أي : يميلون عن الحق فى أدلتنا التكوينية ، الدالة على وحدانيتنا ، فلا ينظرون فيها ، أو : يلحدون فى آياتنا التنزيلية ، بالطعن فيها ، وتحريفها ، بحملها على المحامل الباطلة ، لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا ، بل نجازيهم على ذلك. يقال : ألحد الكافر ولحد : إذا مال عن الاستقامة عن الحق.

ثم ذكر جزاءهم فقال : أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ. قيل : نزلت فى أبى جهل وعثمان «٢» ، وهى عامة ، اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ من الأعمال المؤدية إلى ما ذكر من الإبقاء فى النار ، والإتيان آمنا ، وفيه تهديد وتنديد. إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

---

(١) راجع لطائف الإشارات (٣/ ٣٣٤).

(٢) قاله مقاتل ، فيما ذكره أبو حيان ، فى البحر المحيط (٧/ ٤٧٨). وانظر تفسير القرطبي (٧/ ٥٩٨٧).

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ القرآن لَمَّا حين جاءَهُمْ مخلدون فى النار ، أو : هالكون ، أو : معاندون ، فخبر «إن» محذوف ، دلّ عليه ما قبله. وقيل : بدل من قوله : إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا فخبر «إن» هو الخبر السابق ، وقال عمرو بن العلاء : الخبر : أُولئِكَ يُنادَوْنَ «١» ، وردّ بكثرة الفصل.

ثم فسّر الذكر المذكور بقوله : وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ ، منيع ، محميّ بحماية اللّه ، لا تتأتى معارضته بحال ، أو : كثير المنافع ، عديم النّظير ، لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ أي : لا يتطرقه الباطل من جهة من الجهات ، أو : لا يأتيه التبديل والتحريف ، أو : التناقض بوجه من الوجوه ، وأما النّسخ فليس بمبطل للمنسوخ ، بل هو : انتهاء حكم إلى مدة وابتداء حكم آخر ، خلافا لمن احتج بالآية على عدم النّسخ فى القرآن ، انظر

ابن عرفه.

تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ أي : تنزيل من حكيم محمود ، ف «تنزيل» : خبر عن مضمر ، أو : صفة أخرى لكتاب ، مفيدة لفخامته الإضافية ، كما أن الصلتين السابقتين ، مفيدتان لفخامته الذاتية ، كل ذلك لتأكيد بطلان الكفر به وبشاعة قبحه.

الإشارة : إن الذين يلحدون فى آياتنا ، فيطعنون فى أوليائنا ، الدالين علينا ، لا يخفون علينا ، وسيلقون فى نار القطيعة والبعد مع عموم الخوف من هول المطّلع ، أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة؟ اعملوا ما شئتم من التسليم أو الانتقاد ، وكلّ من لا يصحب الرجال لا يخلو خاطره من شك أو وهم فى مواعيد القرآن ، كالرزق وغيره ، ينسحب عليه قوله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ... الآية ، من طريق الإشارة. واللّه تعالى أعلم.

وقوله تعالى : وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ قال الشيخ عبد الرحمن اللجاى فى كتاب «قطب العارفين» : الكتاب عزيز ، وعلم الكتاب أعز ، والعلم عزيز ، والعمل به أعز ، والعمل عزيز ، والذوق أعز ، والذوق عزيز ، والمشاهدة فى الذوق أعز ، والمشاهدة عزيزة ، والموافقة فى المشاهدة أعز ، والموافقة عزيزة ، والأنس فى الموافقة أعز ، والأنس عزيز ، وآداب الأنس أعز. ثم قال : لكن لا يستنشق رائحة هذه المقامات من غلب جهله على علمه ، وهواه على عقله ، وسفهه على حلمه. هـ.

ثم سلّى نبيه من تكذيب قومه ، فقال :

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة فصلت.

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]

ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٤٤)

يقول الحق جل جلاله : ما يُقالُ لَكَ أي : ما يقول لك كفار قومك إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم ، من الكلمات المؤذية ، والمطاعن فى الكتب المنزلة ، فاصبر كما صبروا ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ورحمة لأنبيائه وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ لأعدائهم ، وقد نصر من قبلك من الرسل ، وانتقم من أعدائهم ، وسيفعل مثل ذلك بك وبأعدائك ، أو : (ما يقال لك) من الوحى وتخاطب به من

جهته تعالى ، (إلا ما قد قيل للرسل) وأوحى إليهم ، فلست ببدع منهم (إن ربك لذو مغفرة) لمن صدق وحيه ، (و ذو عقاب أليم) لمن كذب.

وَلَوْ جَعَلْناهُ أي : الذكر قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ أي : هلّا بيّنت بلسان العرب حتى نفهمها ، كانوا يقولون لتعنتهم : هلّا نزل القرآن بلغة العجم! فقيل لهم : لو كان كما تقترحون لقلتم : هلّا بيّنت آياته بلغتنا لنفهمه ، أأعجمى وعربيّ ، بهمزتين «١» ، الأولى للإنكار ، يعنى : لو نزل بلغة العجم لأنكروا وقالوا : أقرآن أعجمى ورسول عربى؟ والأعجمى : الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه ، سواء كان من العجم أو من العرب ، والعجمي :

منسوب إلى أمة العجم ، فصيحا كان أو غير فصيح ، ومن قرأ بهمزة واحدة ، فالمعنى : هلّا فصّلت آياته فيجعل بعضها أعجميا لإفهام العجم ، وبعضها عربيا لإفهام العرب ، فيكون معنى «فصّلت» : نوّعت.

وقرئ «أعجمى» بفتح العين «٢» ، ويتجه على كونهم طعنوا فيه من أجل ما فيه من الكلمة العجمية ، ك سِجِّينٍ «٣» وإِسْتَبْرَقٍ «٤» ، فقالوا : فيه أعجمى وعربى ، مخلط من كلام العرب وكلام العجم ، وأيّا ما كان فالمقصود : أن آيات اللّه - عز وجل - على أىّ طريق جاءتهم وجدوا متعنتا يتعللون به لأنهم غير طالبين للحقّ ، وإنما يتبعون أهواءهم. قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً يهديهم إلى الحق ، وَشِفاءٌ لما فى الصدور من شك وشبهة إذ الشك مرض.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر (أ أعجمي) بهمزتين. وقرأ حفص عن عاصم (آعجمى) ممدودة. وقرأ هشام بهمزة واحدة من غير مد. راجع الغاية فى القراءات العشر (٣٨٦) والإتحاف (٢/ ٤٤٤).

(٢) وهى قراءة عمرو بن ميمون. وهى قراءة شاذة ، ذكرها فى البحر المحيط (٧/ ٤٨٠).

(٣) كما جاء فى الآية السابعة والثامنة من سورة المطففين.

(٤) كما جاء فى الآية ٣١ من سورة الكهف.

وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ به فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ أي : صمم ، فالموصول : مبتدأ ، والجار : خبره ، وقيل : فى موضع الجر ، بدل من (الذين آمنوا) أي : هو للذين آمنوا هدى وللذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، إلا أن فيه عطفا على عاملين ، وهو جائز عند الأخفش. وَهُوَ أي : القرآن عَلَيْهِمْ عَمًى ظلمة وشبة ، أُولئِكَ

البعداء الموصوفون بما ذكر من التعامي عن الحق الذي يسمعونه ، والتعامي عن الآيات الظاهرة التي يشاهدونها ، يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ يعنى : أنهم لعدم قبولهم وانتفاعهم ، كأنهم ينادون إلى الإيمان بالقرآن من حيث لا يسمعون ، لبعد المسافة ، وهو تمثيل لحالهم بحال من ينادى من مسافة بعيدة ، لا يكاد يسمع من مسافتها الأصوات ، وقيل : ينادون فى القيامة من مكان بعيد بأقبح الأسماء.

الإشارة : ما يقال لك أيها المتوجه أو الولىّ ، إلا ما قد قيل لمن قبلك من المنتسبين ، فقد أوذى من قبلك من أهل النسبة بأنواع الإذايات من ضرب وقتل وسجن ، وغير ذلك ، ففيهم أسوة لمن بعدهم ، (إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم). ومما جرت عادة اللّه فى خلقة ألا يسلّموا لأحياء عصرهم ما نطقوا به من حكم ، وأتوا به من علوم ، ولو بلغت من البلاغة ما بلغت ، كما وقع من طعن الكفرة فى القرآن ، على أىّ وجه جاء ، وهى نزعة جاهلية.

وقوله تعالى : قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ ، قال الورتجبى : هدى ، لقلوب العارفين إلى معدنه ، وهو الذات القديم ، وشفاء لقلوب العاشقين ، وأرواح مرضي المحبة وسقمى الصبابة ، فلأنه خطاب حبيبهم ، وكتاب مشوقهم ، يستلذونه من حيث العبارات ، ويعرفونه من حيث الإشارات. هـ. وقوله تعالى : فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ قال ذو النّون : من وقر سمعه وأصم عن نداء الحق فى الأزل ، لا يسمع نداءه عند الإيجاد ، وإن سمعه كان ذلك عليه عمى ، ويكون عن دقائقه بعيدا ، وذلك أنهم نودوا عن بعد ، ولم يكونوا بالقرب. هـ. ف كل من قرأه ذاهلا عن تدبره بوساوس نفسه ، فهو ممن نودى فى الأزل عن بعد. وباللّه التوفيق.

ولما ذكر بيان القرآن أتبعه بذكر التوراة ، تسلية أيضا ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٤٥ الى ٤٦]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ التوراة فَاخْتُلِفَ فِيهِ فقال بعضهم : حق ، وقال بعضهم : كتبه بيده فى الجبل ، كما اختلف قومك فى كتابك القرآن ، فمن مؤمن به وكافر ، وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ فى حق أمتك بتأخير العذاب ، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ لأهلكهم إهلاك استئصال. وقيل : الكلمة السابقة هو العدة بالقيامة لقوله : بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ «١» ، وأن الخصومات تفصل فى ذلك اليوم ، ولو لا ذلك لقضى بينهم فى الدنيا. وَإِنَّهُمْ أي : كفار قومك لَفِي شَكٍّ مِنْهُ من أجل القرآن مُرِيبٍ

موقع الريبة ، وقيل : الضمير فى (بينهم) و(إنهم) لليهود ، وفى (منه) لموسى ، أو : لكتابه ، وهو ضعيف.

مَنْ عَمِلَ صالِحاً بأن آمن بالكتب وعمل بوحيها ، فَلِنَفْسِهِ نفع ، لا غيره ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ضرره ، لا على غيره ، وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ، فيعذب غير المسيئ ، أو ينقص من إحسان المحسن.

الإشارة : الاختلاف على أهل الخصوصية سنّة ماضية ، (و لن تجد لسنة اللّه تبديلا) ، فمن رام الاتفاق على خصوصيته ، فهو كاذب فى دعوى الخصوصية ، وفى الحكم : «استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك» «٢».

ثم ذكر بيان الساعة الموعودة بها فى قوله : وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لأنها محل القضاء بين العباد ، فكأن قائلا قال : متى ذلك؟ فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٤٧ الى ٤٨]

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨)

يقول الحق جل جلاله : إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ أي : إذا سئل عنها يجب أن يقال : اللّه أعلم بوقت مجيئها ، أو : لا يعلمها إلا اللّه ، وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها من أوعيتها ، جمع «كم» بكسر الكاف وهو وعاء الثمرة قبل أن تنشق ، أي : لا يعلم كيفية خروجها ومآلها إلا اللّه. وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى أي : تعلق النطفة فى رحمها ، وما ينشأ عنها من ذكورة وأنوثة وأوصاف الخلقة تامة أو ناقصة ، وَلا تَضَعُ حملها إِلَّا بِعِلْمِهِ

---

(١) الآية ٤٦ من سورة القمر. [.....]

(٢) (حكمة ١٦١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى (ص ١١).

استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي : ما يحدث شيء من خروج ثمرة ، ولا حمل حامل ، ولا وضع واضع ، ملابسا بشيء من الأشياء ، إلا ملابسا بعلمه المحيط.

وَاذكر يَوْمَ يُنادِيهِمْ فيقول : أَيْنَ شُرَكائِي بزعمكم ، أضافهم إليه على زعمهم ، وفيه تهكم بهم وتقريع ، قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ أي : من أحد يشهد لهم بالشركة ، إذ تبرأنا منهم ، لما عاينا حقيقة الحال

، وتفسير «آذن» هنا بالإخبار ، أحسن من تفسيره بالإعلام لأن اللّه – تعالى – كان عالما بذلك ، وإعلام العالم محال أما الإخبار للعالم بالشيء ليتحقق بما علم به فجائز ، إلا أن يكون المعنى : إنك علمت من قلوبنا الآن : أنّا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لأنه إذا علمه من نفوسهم ، فكأنهم أعلموه ، أي : أخبرناك بأنّا ما منا أحد اليوم يشهد بأنّ لك شريكا ، وما منا إلا من هو موحّد. أو : (ما منا من) أحد يشاهدهم ، لأنهم ضلوا عنهم فى ساعة التوبيخ ، وقيل :

هو من كلام الشركاء ، أي : ما منا شهيد يشهد بما أضافوا لنا من الشركة.

وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ يعبدون مِنْ قَبْلُ فى الدنيا وَظَنُّوا وأيقنوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ من مهرب ، والظن معلق عنهم بحرف النّفى عن المفعولين.

الإشارة : إليه تعالى يردّ علم الساعة ، التي يقع الفتح فيها على المتوجه ، بكشف الحجاب بينه وبين حبيبه ، وما تخرج من ثمرات العلوم والحكم من أكمام قلبه ، وما تحمل نفس من اليقين والمعرفة ، إلا بعلمه. ثم ذمّ من مال إلى غيره بالركون والمحبة ، وذكر أنه يتبرأ منه فى حال ضيقه ، فلا ينبغى التعلق إلا به ، ولا ميل القصد والمحبة إلا له – سبحانه – وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ما جبل عليه طبع الإنسان من الجزع والهلع ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٤٩ الى ٥١]

لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (٥١)

(١٨٧/٥)

يقول الحق جل جلاله : لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ أي : جنسه ، أو : الكافر ، بدليل قوله : وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً «١» ، أي : لا يملّ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ من طلب السعة فى المال والنّعمة ، ولا يملّ عن إرادة النّفع والسلامة ، والتقدير : من دعائه الخير ، فحذف الفاعل وأضيف إلى المفعول ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ الفقر والضيق ، فَيَؤُسٌ من الخير قَنُوطٌ من الرّحمة ، أي : لا يرجو زواله لعدم علمه بربه ، وانسداد الطريق على قلبه فى الرّجوع إلى ربه ، بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء فعول ، ومن طريق التكرير لأن اليأس هو القنط ، والقنوط : أن يظهر أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ، ويظهر الجزع ، وهذا صفة الكافر لقوله : إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ «٢». وقال الإمام الفخر : اليأس على أمر الدنيا من

صفة القلب ، والقنوط : إظهار آثاره على الظاهر. هـ.

وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي أي : وإذا فرجنا عنه بصّحة بعد مرض ، أو : سعه بعد ضيق ، قال : هذا لِي أي : هذا قد وصل إلىّ لأنى استوجبته بما عندى من خير ، وفضل ، وأعمال برّ ، أو : هذا لى لا يزول عنى أبدا ، وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً أي : ما أظنها تقوم فيما سيأتى ، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي كما يقول المسلمون ، إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى أي : الحالة الحسنى من الكرامة والنّعمة ، أو : الجنة. قاس أمر الآخرة على أمر الدنيا لأن ما أصابه من نعم الدنيا ، زعم أنه لاستحقاقه إياها ، وأن نعم الآخرة كذلك. وهذا غرور وحمق ، الرجاء ما قارنه عمل ، وإلا فهو أمنية ، «الجاهل من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على اللّه ، والكيّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت» «٣».

فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا أي : فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب ، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ شديد ، لا يفتر عنهم.

وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ ، هذا ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه اللّه بنعمته أبطرته النعمة ، وأعجب بنفسه ، فنسى المنعم ، وأعرض عن شكره ، وَنَأى بِجانِبِهِ وتباعد عن ذكر اللّه ودعائه

---

(١) من الآية ٣٦ من سورة الكهف.

(٢) من الآية ٨٧ من سورة يوسف.

(٣) هذا حديث نبوى شريف. أخرجه ابن ماجه فى (الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له ، ٢/ ١٤٢٣ ، ح ٤٢٦٠) والترمذي فى (صفة القيامة ، باب ٢٥ ، ٤/ ٥٥٠ ح ٢٤٥٩) والحاكم (٤/ ٢٥١) عن شداد بن أوس رضي اللّه عنه. بلفظ : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على اللّه ، قال الترمذي : حديث حسن.

وطاعته ، أو : ذهب بنفسه وتكبر وتعاظم ، والتحقيق : أن المراد بالجانب النّفس ، فكأنه قال : وتباعد بنفسه عن شكر ربه ، وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ الفقر والضر ، فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ أي : تضرع كثير ، أي : أقبل على دوام الدعاء والابتهال. ولا منافاة بين قوله : فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ وبين قوله : فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ لأن الأول فى قوم ، والثاني فى قوم ، أو : قنوط فى البر ، وذو دعاء عريض فى البحر ، أو : قنوط بالقلب ، وذو دعاء باللسان ، أو : قنوط من الصنم ، وذو دعاء لله تعالى.

الإشارة : اللائق بالأدب أن يكون العبد عند الشدة داعيا بلسانه ، راضيا بقلبه ، إن أجابه شكر ، وإن

منعه انتظر وصبر ، ولا ييأس ولا يقنط ، فإنه ضمن الإجابة فيما يريد ، لا فيما تريد ، وفى الوقت الذي يريد ، لا فى الوقت الذي تريد ، وإن فرّج عنك نسبت النّعمة إليه ، دون شيء من الوسائط العادية ، هذا ما يفهم من الآية ، وتقدم الكلام عليها فى سورة هود «١». واللّه التوفيق.

ثم وبّخ من أعرض عن النّظر ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٥٢ الى ٥٤]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ أَرَأَيْتُمْ أخبرونى إِنْ كانَ القرآن مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ جحدتم أنه من عند اللّه ، مع تعاضد موجبات الإيمان به ، مَنْ أَضَلُّ منكم؟ فوضع قوله : مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ موضعه ، شرحا لحالهم ، وتعليلا لمزيد ضلالهم.

سَنُرِيهِمْ آياتِنا الدالة على حقيّته وكونه من عند اللّه ، فِي الْآفاقِ من فتح البلاد ، وما أخبر به النّبى صلّى اللّه عليه وسلم من الحوادث الآتية ، وآثار النّوازل الماضية ، وما يسّر اللّه تعالى له ولخلفائه من الفتوحات ، والظهور على آفاق الدنيا ، والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب ، على وجه خرق العادة ، وَنريهم فِي أَنْفُسِهِمْ ما ظهر من فتح مكة وما حلّ بهم.

---

(١) راجع تفسير الآيات : ٩ - ١١ من سورة هود. (٢/ ٥١٤ - ٥١٥).

وقال ابن عباس : فى الآفاق : منازل الأمم الخالية وآثارهم ، وفى أنفسهم : يوم بدر. وقال مجاهد وغيره : فى الآفاق : ما يفتح اللّه من القرى على نبيه صلّى اللّه عليه وسلم والمسلمين ، وفى أنفسهم : فتح مكة. وقيل : الآفاق : فى أقطار السموات والأرض ، من الشمس ، والقمر ، والنّجوم ، وما يترتب عليها من الليل ، والنّهار ، والأضواء ، والظلال ، والظلمات ، ومن النبات ، والأشجار ، والأنهار ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ : من لطيف الصنعة وبديع الحكمة ، من تكوين النّطفة فى ظلمات الأرحام ، وحدوث الأعضاء العجيبة ، والتركيبات الغريبة ، كقوله تعالى : وَفِي أَنْفُسِكُمْ ... «١».

وعبّر بالسين مع أن إراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك ، بمعنى أن اللّه - تعالى - سيطلعهم على تلك الآيات زمانا فزمانا ، ويزيدهم وقوفا على حقائقها يوما فيوما ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ بذلك أَنَّهُ الْحَقُّ أي :

القرآن ، أو :

الإسلام ، أو : التوحيد ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، توبيخ على ترددهم فى شأن القرآن ، وعنادهم المحوج إلى إراءة الآيات ، وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى. والهمزة للإنكار ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي : ألم يغن ولم يكف ربك. والباء : مزيدة للتأكيد ، ولا تكاد تزاد إلا مع «كفى».

و(أنه ...) إلخ : بدل منه ، أي : ألم يغنهم عن إراءة الآيات المبنية لحقيّة القرآن ولم يكفهم فى ذلك أنه تعالى - شهيد على كلّ شيء ، وقد أخبر أنه من عنده. وقيل : معناه : إن هذا الموعود من إظهار آيات اللّه فى الآفاق وفى أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتيقنون عند ذلك أن القرآن تنزيل من عالم الغيب الذي هو على كلّ شيء شهيد.

أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ شك عظيم مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ فلذلك أنكروا القرآن ، أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ عالم بجميع الأشياء وتفاصيلها ، وظواهرها ، وبواطنها ، فلا يخفى عليه خافية منهم ، وهو مجازيهم على كفرهم وشكهم ، لا محالة.

الإشارة : قد اشتملت الآية على مقام الاستدلال فى مقام الإيمان ، وعلى مقام العيان فى مقام الإحسان ، أي :

سنريهم آياتنا الدالة على وجودنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، أي : فى العوالم المنفصلة والمتصلة ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أي : وجوده حق ، لأن الصنعة قطعا تحتاج إلى صانع ، ثم رقّاهم إلى مقام المراقبة بقوله : أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، ثم زاد إلى المشاهدة بقوله : أَلا إِنَّهُمْ أي : أهل الجهل باللّه ، فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ فى الدنيا ، بحصول الفناء ، فيفنى وجود العبد فى وجود الحق ، ألا إنه بكلّ شيء محيط ، فبحر العظمة أحاط بكلّ شيء ، وأفنى كلّ شيء ، ولم يبق مع وجوده شيء.

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الذاريات. وانظر تفسير البغوي (٧/ ١٧٩) وابن كثير (٤/ ١٠٥).

(٥/١٩٠)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٩١

وفى الحكم : «ما حجبك عن اللّه وجود موجود معه إذ لا شيء معه ، وإنما حجبك توهم موجود معه» «١» وقال أيضا : «الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته» فأحدية الذات محت وجود الأشياء كلها ، ولم يبق إلا القديم الأزلى.

وقال القطب ابن مشيش لأبى الحسن رضي اللّه عنه : يا أبا الحسن ، حدد بصر الإيمان تجد اللّه فى كلّ شيء ، وعند كل شيء ، ومع كلّ شيء ، وقبل كلّ شيء ، وبعد كلّ شيء ، وفوق كلّ شيء ، وتحت كلّ شيء ، وقريبا من كلّ شيء ، ومحيطا بكلّ شيء ، بقرب هو وصفه ، وبحيطة هى نعته ، وعد عن الظرفية والحدود ، وعن الأماكن والجهات ، وعن الصحبة والقرب فى المسافات ، وعن الدور بالمخلوقات ، وأمحق الكلّ بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو هو هو ، كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان. هـ.

وقوله : وعد عن الجهات : جاوز عن اعتقادها إذ لا ظرف ، ولا حد ، ولا مكان ، ولا جهة ، إذ الكلّ عظمة ذاته ، وأنوار وصفاته ، والحد إنما يتصور فى المحدود ، ولا حد لعظمة ذاته ولا نهاية ، ولا يحصرها مكان ، ولا جهة إذ الكلّ منه وإليه وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا ومولانا محمد ، عين بحر التحقيق ، وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليما «٢».

---

(١) (حكمة ١٣٧) انظر الحكم بترتيب المتقى الهندي (ص ٣٤).

(٢) فى آخر المجلد الثالث فى المخطوطة الأم ، والمحفوظة بمكتبة السيد الفريق حسن التهامي مايلى :

كمل الجزء الثالث بحول اللّه وقوته ، ووافق الفراغ من تبييضه يوم الأربعاء ، تاسع رمضان ، عام تسعة عشر ومائتين وألف ، والحمد للّه رب العالمين. انتهى استخراجه من مبيضته بحمد اللّه وتوفيقه عشية الأربعاء ، السادس عشر من رمضان المعظم ، موافقا لتاريخ التبييض من هاك العام ، وعلى نبينا محمد أزكى الصلاة والسّلام.

(١٩١/٥)

(١٩٢/٥)

سورة الشّورى «١»

مكية. وهى خمس وثلاثون آية ، ومناسبتها لما قبلها قوله : سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ إلى قوله :

حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ «٢» أي : إن القرآن حق ، أي : وحي من اللّه ، مع قوله : كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ ، فهى كالتتمة لما قبلها. قال تعالى :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) عسق (٢) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤)

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥)

يقول الحق جل جلاله : حم. عسق يشير - واللّه أعلم - بكلّ حرف إلى وصف يدلّ على تعظيم قدر حبيبه صلّى اللّه عليه وسلم ، فالحاء : أحببناك ، أو : حبيناك ، أي : أعطيناك الملك والملكوت ، والميم : ملكناك ، والعين : علّمناك ما لم تكن تعلم ، أو : عيّناك للرسالة ، والسين : سيّدناك ، والقاف : قرّبناك. كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ أي : كما خصصناك بهذه الخصائص العظام أوحينا إليك وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ، فقد خصصناهم ببعض ذلك ، وأوحينا إليهم ، وفى ابن عطية : عن ابن عباس : أن هذه الحروف بأعيانها نزلت فى كلّ كتب اللّه ، المنزلة على كلّ نبىّ أنزل عليه كتاب ، ولذلك قال تعالى : كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ «٣». وقال القشيري : الحاء : مفتاح اسمه حكيم وحفيظ ، والميم : مفتاح اسمه مالك وماجد ومؤمن ومهيمن ، والعين : مفتاح اسمه عليم وعلىّ ، والسين : مفتاح اسمه سيد وسميع وسريع الحساب ، والقاف : مفتاح اسمه قادر وقاهر وقريب وقدوس ، أقسم اللّه تعالى بهذه الحروف أنه كذلك يوحى إليك يا محمد. هـ.

---

(١) أول المجلد الرّابع فى النّسخة الأم.

(٢) من الآية ٥٣ من سورة فصلت.

(٣) ذكره ابن عطية (٥/ ٢٥) وعزاه للثعلبى ، وانظر : تفسير البغوي (٧/ ١٨٤).

وقال ابن عطية : وإنما فصلت «حم عسق» ، ولم يفعل ذلك ب «كهيعص» لتجرى هذه مجرى الحواميم أخواتها.

هـ. زاد النّسفى : وأيضا : هذه آيتان ، و«كهيعص» آية واحدة. هـ. فانظره.

اللَّهُ أي : يوحى اللّه الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ : فاعل «يوحى» ، وقرأ ابن كثير بالبناء للمفعول «١». و«اللّه» : فاعل بمحذوف ، كأن قائلا قال : من الموحى؟ فقال : اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أي : الغالب بقهره ، الحكيم فى صنعه وتدبيره.

لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وملكا ، وَهُوَ الْعَلِيُّ شأنه الْعَظِيمُ سلطانه وبرهانه.

ثم بيّن عظمته ، فقال : تَكادُ «٢» السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ تتشققن من عظمة اللّه تعالى وعلو شأنه ، يدلّ عليه مجيئه بعد قوله : وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ. وقيل : من دعائهم له ولدا ، كقوله : تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ «٣» إلخ ، ويؤيده : مجىء قوله : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ «٤». وقرأ البصرىّ وشعبة :

«ينفطرن» ، والأول أبلغ. ومعنى : مِنْ فَوْقِهِنَّ أي : يبتدين بالانفطار من جهتهنّ الفوقانية. وتخصيصها على التفسير الأول لأن أعظم الآيات وأدلها على العظمة والجلال من تلك الجهة ، وأيضا : استقرار الملائكة إنما هو من فوق ، فكادت تنشق من كثرة الثقل ، كما فى الحديث : «أطّت السماء ، وحقّ لها أن تئطّ ، ما فيها موضع قدم إلا وفيها ملك راكع أو ساجد» «٥».

وعلى الثاني للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الأولى لأن تلك الكلمة الشنعاء ، الواقعة فى الأرض حين أثرت فى جهة الفوق فلأن تؤثر فى جهة التحت أولى. وقيل : «من فوقهن» : من فوق الأرض ، فالكناية راجعة إلى الأرض ، من قوله : لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لأنه بمعنى الأرضين.

وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ خضوعا لما يرون من عظمته ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أي : للمؤمنين منهم ، خوفا عليهم من سطواته ، ويوحدون اللّه وينزهونه عما لا يليق به من الصفات ، حامدين له على ما أولاهم من ألطافه ، متعجبين لما رأوا من تعرض الكفرة لسخط اللّه تعالى ، ويستغفرون لمؤمنى أهل الأرض ،

---

(١) قرأ ابن كثير - وحده : «يوحى» بفتح الحاء. والنّائب إما «إليك» وإما ضمير يعود إلى «ذلك» أي : مثل ذلك الإيحاء يوحى إليك.

انظر الإتحاف (٢/ ٤٤٨).

(٢) أثبت المفسر - رحمه اللّه - قراءة «يكاد» بالياء ، وهى قراءة نافع والكسائي ، وقرأ الباقون «تكاد» بتاء التأنيث. انظر : الإتحاف ٢/ ٤٤٨.

(٣) من الآية ٩٠ من سورة مريم. [.....]

(٤) من الآية ٦ من السورة نفسها.

(٥) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند (٥/ ١٧٣) والترمذي فى (الزهد ، باب فى قول النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ٤/ ٤٨١ ، ح ٢٣١٢) وابن ماجة فى (الزهد ،

باب الحزن والبكاء ٢/ ١٤٠٢ ح ٤١٩٠) ، وصحّحه الحاكم (٢/ ٥١٠) وأقره الذهبي ، من حديث أبي ذر ، رضي اللّه عنه. وقوله (أطت) : الأطيط : صوت الأقتاب ، وأطيط الإبل : أصواتها وحنينها ، أي : إن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت ، وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة ، وإن لم يكن ثمّ أطيط ، وإنما هو كلام تقريب ، أريد به تقرير عظمة اللّه تعالى.
انظر النّهاية (أطط ، ١/ ٥٤).

(١٩٤/٥)

الذين تبرءوا من تلك الكلمات ، أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ حيث لا يعاجلهم بالعقوبة على ما وصفوه به مما لا يجوز عليه.

الإشارة : حم عسق ، الحاء تشير إلى حمده لأوليائه ، وتنويهه بقدرهم ، والميم إلى تمليكهم التصرف في حس الملك ، وأسرار الملكوت ، والعين إلى علو رتبتهم ، أو إلى علومهم اللدنية ، والسين إلى سيادتهم وسنا نورهم وسرهم ، والقاف إلى قربهم وتقريبهم حتى يمتحق وجودهم فى وجود محبوبهم ، فيمتحى القرب من شدة القرب ، وبذلك صاروا مقربين. والوحي ينقسم إلى أربعة أقسام وحي أحكام ، ووحي منام ، ووحي إلهام ، ووحي إعلام ، فاختصت الأنبياء بالأول ، وشاركتهم الأولياء فى الثلاثة. ووحي إعلام هو اطلاعهم على بعض المغيبات.

وقوله تعالى : تَكادُ «١» السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ أي : يتشققن من هيبته تعالى وكبريائه. وذلك لما لطف حسها أدركت هيبة معاني أسرار الذات ، وكذلك الأرواح إذا لطفت ورقّ حس بشريتها أدركت عظمة الحق وجلاله وجماله ، وإذا كثفت بشريتها ، بمباشرة الحس واتباع الهوى ، غلظ حجابها ، فبعدت عن حضرة الحق فى حال قربها.

وقوله تعالى : وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ، انظر جلالة قدر هذا الآدمي ، حتى سخّر اللّه له الملائكة الكرام يستغفرون له ، ويسعون فى مصالحه ، فاستحى من اللّه أيها العبد ، إن كان لك عقل وتمييز.

ثم ردّ على أهل الشرك ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٦ الى ٩]

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩)

قلت : وَكَذلِكَ : الكاف فى محل النّصب على المصدر ، وقُرْآناً : مفعول «أوحينا».

---

(١) راجع الهامش رقم ٢ فى الصفحة السابقة.

(١٩٥/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٩٦

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ شركاء ، يوالونهم بالعبادة والمحبة اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ : رقيب على أحوالهم وأعمالهم ، فيجازيهم بها ، وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ بموكّل عليهم ، تجبرهم على الإيمان ، ثم نسخ بالجهاد. أو : ما أنت بموكول إليك أمرهم ، وإنما وظيفتك الإنذار بما أوحينا إليك.

وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا أي : ومثل ذلك الإيحاء البديع الواضح أوحينا إليك قرآنا عربيا ، لا لبس فيه عليك ولا على قومك ، لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى أي : أهلها ، وهى مكة لأن الأرض دحيت من تحتها ، أو : لأنها أشرف البقع ، وَتنذر مَنْ حَوْلَها من العرب أو من سائر البلاد. قال القشيري : وجميع العالم محدق بالكعبة لأنها سرّة الأرض. هـ.

وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ يوم القيامة لأنه تجمع فيه الخلائق ، وفيه تجمع الأرواح والأشباح. وحذف المفعول الثاني من «تنذر» الأول للتهويل ، أي : لتنذر النّاس أمرا فظيعا تضيق عنه العبارة ، لا رَيْبَ فِيهِ لا شك فى وقوع ذلك اليوم ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ أي : بعد جمعهم فى الموقف يفترقون ، فريق يصرف إلى الجنة ، وفريق إلى السعير بعد الحساب ، والتقدير : فريق منهم فى الجنة. والجملة : حال ، أي : وتنذر يوم الجمع متفرقين.

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ فى الدنيا أُمَّةً واحِدَةً إما مهتدين كلّهم ، أو ضالين ، وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ أي : ويدخل من يشاء فى عذابه ، يدلّ عليه ما بعده ، ومن ضرورة اختلاف الرّحمة والعذاب : اختلاف الداخلين فيهما ، فلم يشأ جعل الكلّ أمة واحدة ، بل جعلهم فريقين ، فيسّر كلّا لمن خلق له.

وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ والكافرون ما لهم من شافع ولا دافع.

قال أبو السعود : والذي يقتضيه سياق النّظم أن يراد بقوله : أُمَّةً واحِدَةً الاتحاد فى الكفر ، كما فى قوله تعالى :

كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً ... الآية «١» ، على أحد الوجهين ، بأن يراد بهم الذين هم فى فترة إدريس ، أو فترة نوح. ولو شاء لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر ، بأن لا يرسل إليهم رسولا لينذرهم ما ذكر من يوم الجمع ، وما فيه من ألوان الأهوال ، فيبقوا على ما هم عليه من الكفر ، ولكن يدخل من يشاء فى

رحمته إن شاء ذلك ، فيرسل إلى الكلّ من ينذرهم ، فيتأثر بعضهم بالإنذار فيعرفون الحق فيوفقهم اللّه تعالى للإيمان والطاعة ،

---

(١) الآية ٢١٣ من سورة البقرة.

(٥/١٩٦)

ويدخلهم فى رحمته ، ولا يتأثر به الآخرون ، ويتمادون فى غيهم ، وهم الظالمون ، فيبقون فى الدنيا على ما هم عليه ، ويصيرون فى الآخرة إلى السعير ، من غير ولىّ يلى أمرهم ، ولا نصير يخلصهم من العذاب. هـ.

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ، هذه جملة مقررة لما قبلها ، من انتفاء أن يكون للظالمين ولىّ ولا نصير. و«أم» : منقطعة ، وما فيها من الإضراب للانتقال من بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها. والهمزة لإنكار الوقوع ونفيه على أبلغ وجه ، أي : ليس المتخذون أولياء ، ولا ينبغى اتخاذ ولىّ سواه. وقوله : فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ : جواب عن شرط مقدر ، كأنه قيل بعد إبطال ما اتخذوه أولياء من الأصنام : إن أرادوا وليا فى الحقيقة فاللّه هو الولىّ ، لا ولىّ سواه. وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى أي : ومن شأنه إحياء الأموات ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فهو الحقيق بأن يتخذ وليا ، فليخصّوه بالاتخاذ ، دون من لا يقدر على شىء. وباللّه التوفيق.

الإشارة : قال القشيري : كل من تبع هواه ، وترك للّه حدا ، أو نقض له عهدا فهو ممن اتخذ الشيطان وليا ، فاللّه يعلمه ، لا يخفى عليه أمره ، وعلى اللّه حسابه ، ثم إن شاء عذّبه ، وإن شاء غفر له. هـ.

فيقال للواعظ أو الداعي إلى اللّه : لا تأس عليهم إن أدبروا ، اللّه حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل. وكان الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم داعيا إلى اللّه ، ينذر الناس بالقرآن ، فمن تبعه كان من أهل الجنة ، ومن خالفه كان من أهل السعير ، وبقي خلفاؤه من بعده ، العلماء باللّه ، الذين يذكّرون النّاس ، ويدلونهم على اللّه ، فمن صحبهم وتبعهم كان من أهل الجنة جنة المعارف ، أو الزخارف ، أو هما ، ومن انحرف عنهم كان من أهل السعير ، نار القطيعة أو الهاوية.

قال القشيري : كما أنهم اليوم فريقان فريق فى [درجات] «١» الطاعات وحلاوة العبادات [أو المشاهدات] «٢» ، وفريق فى ظلمات الشّرك وعقوبات الجحد ، فكذلك غدا ، فريق هم أهل اللقاء ، وفريق هم أهل الشقاء. وَلَوْ شاءَ اللَّهُ أي : أراد أن يجمعهم كلهم على الرّشاد لم يكن مانع. هـ.

وقوله تعالى : فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ تحويش إلى التوجه إلى اللّه ، ورفض كلّ ما سواه ، كما قال بعضهم :

اتخذ اللّه صاحبا ، ودع النّاس جانبا ، ف كل من والى غير اللّه تعالى خذله ، ومن حبه أبعده.

---

(١) فى القشيري [راحة].

(٢) ما بين المعقوفتين من تدخل المفسر فى النّقل عن القشيري.

(١٩٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٩٨

ثم أمر بالرجوع إليه عند الاختلاف ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ١٠ الى ١٢]

وَما اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

يقول الحق جل جلاله : وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ، حكاية لقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم للمؤمنين ، بدليل قوله : ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي أي : ما خالفكم الكفار فيه من أهل الكتاب والمشركين ، من أمور الدين ، واختلفتم أنتم وهم ، فحكم ذلك المختلف [فيه] «١» راجع إلى اللّه ، ومفوض إليه ، وهو إثابة المحقّين فيه ، ومعاقبة المبطلين. والمختار العموم ، أي : وما اختلفتم فيه أيها النّاس من أمور الدين ، سواء رجع ذلك الاختلاف إلى الأصول أو الفروع ، فحكم ذلك إلى اللّه ، وقد قال فى آية أخرى : فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ «٢».

ف كل ما اختلف فيه يردّ إلى كتاب اللّه ، ثم إلى سنة رسول اللّه ، ثم إلى الإجماع ، ثم القياس ، فهذه هى قواعد الشريعة ، وعليها بنيت الأحكام ، فمن خرج عنها فهو مبطل ، ففى كتاب اللّه ، وسنة رسوله صلّى اللّه عليه وسلم من علم الأصول والفروع ما فيه غنية ، فإن لم يوجد نص فالإجماع أو القياس.

وقيل : وما اختلفتم فيه من العلوم ، التي لا تتصل بتكليفكم ، ولا طريق لكم إلى علمه ، فقولوا : اللّه أعلم.

ثم قال : ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي أي : ذلكم العظيم الشأن اللّه مالكى ومدبر أمرى ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فى جميع أمورى ، لا على غيره ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ أرجع فى كلّ ما يعرض لى ، لا إلى أحد سواه. وحيث كان التوكّل أمرا واحدا مستمرا ، والإنابة متعددة ، متجددة بحسب تجدد مؤداها ، أوثر فى الأول صيغة الماضي ، والثاني صيغة المضارع.

(١) زيادة ليست فى الأصول.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة النّساء.

(١٩٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٩٩

فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ خالقهما ومظهرهما ، وهو خبر ثان لذلكم ، أو عن مضمر ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ من جنسكم أَزْواجاً نساء وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً أي : وجعل للأنعام من جنسها أزواجا ، أو : خلق لكم من الأنعام أصنافا ذكورا وإناثا ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ أي : يكثّركم فيما ذكر من التدبير البديع ، من : الذرء ، وهو البث ، فجعل النّاس والأنعام أزواجا ، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل ، واختير لفظ «فيه» على «به» لأنه جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير. والضمير فى «يذرؤكم» يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلبا فيه المخاطبون العقلاء على غيرهم.

وقال الهروي : يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ أي : يكثّركم بالتزويج ، كأنه قال : يذرؤكم به. هـ. وقال ابن عطية : لفظة «ذرأ» تزيد على لفظة «خلق» معنى آخر ، ليس فى خلق ، وهو توالى طبقاته على مرّ الزمان ، وقوله : «فيه» الضمير عائد على الجعل. وقال القتبى : الضمير للتزويج. هـ.

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ أي : ليس مثله شيء [فى شأن] «١» من الشئون ، التي من جملتها هذا التدبير البديع. قيل :

إن كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفى التماثل لأن زيادة الحرف بمنزلة إعادة الجملة. قال ابن عطية : الكاف مؤكدة للتشبيه ، فنفى التشبيه أوكد ما يكون ، وذلك أنك تقول : زيد كعمرو ، وزيد مثل عمر ، فإذا أردت المبالغة التامة قلت :

زيد كمثل عمرو ، وجرت الآية فى هذا الموضع على عرف كلام العرب ، وعل هذا المعنى شواهد كثيرة. هـ.

قال النّسفى : وقيل : المثل زائد ، والتقدير : ليس كهو شيء ، كقوله تعالى : فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ «٢» ، وهذا لأن المراد نفى المثليّة ، وإذا لم نجعل الكاف أو المثل زيادة كان إثبات المثل. هـ.

والجواب ما تقدم لابن عطية.

وقيل : الآية جرت على طريق الكناية ، كقولهم : مثلك لا يبخل ، وغيرك لا يجود ، أي : أنت لا تبخل لأنه إذا نفى البخل عمن هو مثله كان نفيه عنه أولى.

ثم قال تعالى : وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ سميع لجميع المسموعات بلا آذان ، بصير بجميع المبصرات بلا

أجفان. وذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له ، كما لا مثل له ، وقدّم تنزيهه عن المماثلة على وصفه بالسمع والبصر ليعلمنا أن سمعه وبصره ليس كسمعنا وبصرنا.

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس فى الأصول الخطية ، وأثبته من تفسير أبى السعود – رحمه اللّه.
(٢) الآية ١٣٧ من سورة البقرة.

(١٩٩/٥)

لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مفاتيح خزائنها ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ أي : يوسعه وَيَقْدِرُ أي : يضيق على ما تقتضيه المناسبة المبنية على الحكم البالغة. إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا يخفى عليه شيء ، فيفعل كل ما يفعل على ما ينبغى أن يفعل ، على ما تقتضيه مشيئته وحكمته البالغة.
قال ابن عرفة : تضمنت هذه الآية وصفه تعالى بجميع صفات الكمال ، فالقدرة فى قوله : فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ والوحدانية فى قوله : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ والإرادة فى قوله : يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ لأن تخصيص البعض بالبسط إنما هو بالإرادة. والعلم فى قوله : إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، والكلام فى قوله : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ لأن المراد به الحكم الشرعي ، وهو خطاب اللّه تعالى المعلق بأفعال المكلفين ، وخطابه كلامه. هـ. زاد فى الحاشية الفاسية :
يعنى وكلّ وصف من هذه الأوصاف يستلزم الحياة ، مع أنه قال : يُحْيِ الْمَوْتى والإحياء إنما يكون من الحي. هـ.
الإشارة : قوله تعالى : وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ قال القشيري : ويقال إذا لم تهتدوا إلى شيء وتعرضت منهم الخواطر فدعوا تدبيركم والتجئوا إلى ظلّ شهود تقديره ، [وانتظروا] «١» ما الذي ينبغي لكم أن تفعلوا بحكم تيسيره. ويقال : إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم ، فلا تدرون أبالسعادة جرى حكمكم ، أو بالشقاوة جرى اسمكم ، فكلوا الأمر فيه إلى اللّه ، واشتغلوا فى الوقت بأمر اللّه ، دون التفكّر فيما ليس له سبيل إلى علمه من عواقبكم. هـ.
وقوله : فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : شققهما من أسرار الغيب ، ومتجلّ بهما وسائر الكائنات. جعل لكم فى عالم الحكمة من أنفسكم أزواجا ليقع التناسل ، بعضكم من بعض ، ومن الأنعام أزواجا ليقع التناسل فيها وأما بحر الجبروت فليس كمثله شيء. وقال بعض العارفين : ليت شعرى هل معه شيء حتى يشبهه أو لا يشبهه ، كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان. فقوله تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ أي : ليس معه شيء حتى يشبهه.

وقال الورتجبي عن الواسطي : [أمور] «٢» التوحيد كلها خرجت من هذه الآية لأنه ما عبر عن الحقيقة بشيء إلا والعلة مصحوبة ، والعبارة منقوضة لأن الحق لا ينعت على أقداره لأن كلّ ناعت مشرف على المنعوت ، وجلّ أن يشرف عليه مخلوق. وقال الشبلي : كل ما ميزتموه بأوهامكم ، وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم ، فهو مصروف إليكم ، ومردود عليكم ، محدث مصنوع مثلكم لأن حقيقته عالية عن أن تلحقها عبارة ، أو يدركها وهم ،

---

(١) ما بين المعقوفتين أثبته من القشيري.

(٢) في عرائس البيان : ((رموز)).

أو يحيط بها علم ، كلا ، كيف يحيط به علم ، وقد اتفق فيه الأضداد ، بقوله : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ «١»؟ ، أىّ عبارة تخبر عن حقيقة هذه الألفاظ؟ كلّا ، قصرت عنه العبارة ، وخرست الألسن لقوله :

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ ءٌ. هـ.

ولما عرّف بذاته وصفاته ، ذكر شرائعه لعباده ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ١٣ الى ١٤]

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : شَرَعَ أي : بيّن وأظهر لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً ومن بعده من أرباب الشرائع ، وأولى العزم من مشاهير الأنبياء - عليهم السّلام - وأمرهم به أمرا مؤكدا. وفى بيان نسبته إلى المذكورين تنبيه على كونه دينا قديما ، أجمع عليه الرّسل ، على أن تخصيصهم بالذكر لما ذكر من علو شأنهم ، ولاستمالة قلوب الكفرة إليه لاتفاق الكلّ على نبوة جلهم. قيل : خص نوحا وإبراهيم بالوصية ، ونبينا محمدا صلّى اللّه عليه وسلم بالوحى لأن متعلق الوصية غير الموصى ، بل الموصى [إليه] «٢» به ، ومتعلق الوحى : الموحى إليه بذاته ، ولمّا كان - صلّى اللّه عليه وسلم - آخر الأنبياء جعل الملقى إليه وحيا ، ولمّا كان ما قبله من الأنبياء متبعين له ، ومنذرين بشريعته ، أنه سيظهر آخر الزمان

نبى اسمه «محمد» ، كان ذلك وصية منهم لقومهم على الإيمان به. انظر ابن عرفة.

---

(١) من الآية ٣ من سورة الحديد.

(٢) ما بين المعقوفتين غير موجود فى النّسخة الأم. [.....]

(٢٠١/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٠٢

قلت : والظاهر أنه تفنن «١» ، وفرار من تكرار لفظ الوحى إذ الموحى به هو قوله : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وهو الذي أوحى إلى نبينا - عليه الصلاة والسّلام. وقال أبو السعود : والتعبير عن ذلك عند نسبته صلّى اللّه عليه وسلم ب «الذي» لتفخيم شأنه من تلك الحيثية ، وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع [فى] «٢» الآيات المذكورة - يعنى فى صدر السورة ، من قوله : كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ ... وفى آخرها من قوله : وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ، ولما فى الإيحاء من التصريح برسالته - صلّى اللّه عليه وسلم - القامع لإنكار الكفرة. والالتفات إلى نون العظمة إظهارا لكمال الاعتناء بإيحائه ، وهو السر فى تقديمه [على ما قبله] «٣» مع تقدمه عليه زمانا. وتقديم وصية نوح - عليه السّلام - للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم دينا قديما - أي : فلا ينبغى إنكاره - وتوجيه الخطاب إليه - عليه الصلاة والسّلام - بطريق التلوين للتشريف ، والتنبيه على أنه تعالى شرع لهم على لسانه عليه الصلاة والسّلام. هـ.

ثم فسّر ما وصاهم به فقال : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ أي : دين الإسلام ، الذي هو توحيد اللّه تعالى ، وطاعته ، والإيمان بكتبه ورسله ، وبيوم الجزاء ، وسائر أركان الإيمان. والمراد بإقامته : تعديل أركانه ، وحفظه من أن يقع فيه زيغ ، والمواظبة عليه ، والتشمير فى القيام به. وموضع «أن أقيموا» إما : نصب ، بدل من مفعول «شرع» ، أو : رفع ، خبر جواب عن سؤال مقدر ، كأن قائلا قال : وما ذاك؟ فقال : هو إقامة الدين. وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ولا تختلفوا فى الدين ، فالجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، والمراد : الاختلاف فى الأصول ، دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الأمم باختلاف الأعصار ، كما ينطق به قوله تعالى : لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً «٤».

كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ أي : عظم وشقّ عليهم ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ من التوحيد ، ورفض عبادة الأصنام ، الذي هو إقامة الدين ، اللَّهُ يَجْتَبِي أي : يجلب ويجمع إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ بالتوفيق والتسديد ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ يقبل على طاعته. فالاجتباء يرجع إلى تصديق القلب ، والإنابة إلى توفيق الطاعة فى الظاهر.

---

(١) كتب على هامش النّسخة الأم مايلى : لا يا أستاذ ما هو بتفنن ، بل هو مقصود لحكمة ، ولو كان للتفنن لما كرر الوصية مرتين ، وخص لفظ الوحى بسيد البشر صلّى اللّه عليه وسلم ، ولا بدل «وصينا» الثانية بلفظ الأمر ، كأمرنا وأوجبنا وفرضنا ونحو ذلك. فالحق أنه عبّر فى حق الأنبياء بالوصية دون الوحى للإشارة إلى أنهم مجرد نواب عنه صلّى اللّه عليه وسلم. هـ.

(٢) فى الأصول [من].

(٣) فى تفسير أبى السعود [على ما بعده].

(٤) فى الآية ٤٨ من سورة المائدة.

(٢٠٢/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٠٣

وَما تَفَرَّقُوا أي : أهل الكتاب من بعد أنبيائهم إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ إلا بعد أن علموا أن الفرقة ضلال ، وأمر متوعّد عليه على ألسنة الرّسل ، بَغْياً بَيْنَهُمْ حسدا ، وطلبا للرئاسة ، والاستطالة بغير حق ، أو : ما تفرقوا فى الدين الذي دعوا إليه ، وهو الإسلام ، ولم يؤمنوا كما آمن بعضهم إلا من بعد ما جاءهم العلم بحقيقته لما يشهدونه فى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم والقرآن من دلائل الحقيّة ، حسبما وجدوه فى كتبهم ، أو : العلم بمبعثه صلّى اللّه عليه وسلم.

وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ، وهى العدة بتأخير العقوبة إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى هو يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أي : لوقع القضاء بينهم ، وأهلكوا حين افترقوا لعظم ما اقترفوا. وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ وهم المشركون لَفِي شَكٍّ مِنْهُ أي : القرآن مُرِيبٍ موقع فى الرّيبة. وهو بيان لكيفية كفر المشركين ، بعد بيان كيفية كفر أهل الكتاب ، أي : وإن المشركين الذين أوتوا القرآن من بعدهم ، أي : من بعد ما أورث أهل الكتاب كتابهم ، لفى شك من القرآن مريب. والظاهر : أن التفرق المذكور هنا إنما هو فى شأن الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم لأن سياق النّظم إنما هو لبيان أحوال هذه الأمة ، وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء - عليهم السّلام - لتحقيق أن ما شرع لهؤلاء دين قديم ، أجمع عليه أولئك الأعلام - عليهم الصلاة والسّلام - تأكيدا لوجوب إقامته ، وتشديدا للزجر عن التفرق والاختلاف. فالتعرض لبيان تفرق أممهم عنه ربما يوهم الإخلال بذلك المرام. قاله أبو السعود.

الإشارة : الذي شرع اللّه من الدين لأقوياء عباده ، ووصى به خواص أنبيائه : أن يشاهدوه وحده فى الباطن ، ويقوموا برسم العبودية فى الظاهر ، وهذا هو إقامة الدين ، الذي يجب الاتفاق عليه ، لكن لا ينال هذا إلا بعد موت النفوس ، وحط الرّؤوس ، وبذل الفلوس. ولذلك كبر على أهل الفرق ، قال تعالى : كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، فإذا وفق العبد لفعل ما تقدم ، وسلك طريقه اجتباه ربه

لحضرته ، بعد أن هداه لسلوك طريقته. قال تعالى :
اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ فالاجتباء جذب ، والإنابة سلوك ، الاجتباء للحقيقة ، والإنابة للشريعة والطريقة. وقدّم الاجتباء على الاهتداء اهتماما بأمره لأن الجذب عناية يختص به أهل الولاية ، والإنابة هداية ينالها كلّ من تمسك بالشريعة. وحقيقة الجذب : شهود الخلق بلا خلق ، وحقيقة السلوك المحض : شهود الخلق بلا حق ، وحقيقة الجذب فى السلوك : شهود الحق فى قوالب الخلق ، أو : شهود الخلق فى مظهر الحق.
فالناس ثلاثة : مجذوبون فقط ، سالكون فقط ، مجذبون سالكون ، فالأولان لا يصلحان للتربية ، والثالث هو الذي يصلح للتربية ، وهو الذي يتقدمه السلوك ، ثم يختطف إلى الحضرة فى مقام الفناء ، ثم يرجع إلى السلوك فى مقام البقاء. وما وقع من التفرق والاختلاف فى جانب النّبوة ، يقع فى جانب الولاية ، سنّه ماضية ، فيجب على الداعي إلى اللّه أن يجهد نفسه فى الدعاء إليه ، ولا يبالى باختلافهم ، كما قال تعالى :

(٢٠٣/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٠٤
[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ١٥ الى ١٦]
فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (١٦)
يقول الحق جل جلاله : فَلِذلِكَ فَادْعُ
أي : فلأجل ذلك التفرّق ، ولما حدث بسببه من تشعّب الكفر شعبا ، فادع إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفيّة القيمة ، وَاسْتَقِمْ عليها ، وعلى الدعوة إليها كَما أُمِرْتَ كما أمرك اللّه. أو : لأجل ما شرع لكم من الدين القويم القديم ، الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون ، فادع الناس كافة إلى إقامته ، والعمل بموجبه فإن كلا من تفرقهم وشكّهم ، سبب للدعوة إليه والأمر بها ، أو : فإلى ذلك الدين المشروع فادع ، واستقم عليه ، وعلى الدعوة إليه ، كما أمرت وأوحى إليك.
وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ الباطلة ، وعقائدهم الزائغة ، وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ أىّ كتاب كان من الكتب المنزلة ، لا كالذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وهم أهل الكتاب ، أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا «١» ، وفيه تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول ، وتأليف لقلوب أهل الكتابين ، وتعريض

بهم. وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ فى الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليّ ، أو : في تبليغ الشرائع والأحكام ، لا أخص بعضا دون بعض ، أو :
لأسوى بينى وبينكم ، ولا آمركم بما لا أعمل به ، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه. أو : لا أفرق بين أكابركم وأصاغركم. واللام : إما على حقيقتها ، أي : أمرت بذلك لأعدل ، أو : زائدة ، أي : أمرت أن أعدل بينكم.
اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ خالقنا جميعا ، ومتولى أمورنا ، كلنا عبيده ، لَنا أَعْمالُنا لا يتخطانا ثوابها أو عقابها ، وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا يجاوزكم وبالها إلى غيركم ، أو : لنا ديننا التوحيد ، ولكم دينكم الشرك. لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ أي : لا خصومة لأن الحق قد وضح ، ولم يبق للمحاجّة حاجة ، ولا للفصاحة محل ، سوى المكابرة.

---

(١) من الآية ١٥١ من سورة النّساء.

اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا يوم القيامة وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ المرجع ، فيظهر هناك حالنا وحالكم. وهذه محاجحة ، لا متاركة ، فلا نسخ فيها.
وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ يخاصمون فى دينه مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ من بعد ما استجاب له الناس ، ودخلوا فيه ، ليردّوهم إلى دين الجاهلية ، كقوله : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً ... «١» ، والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه ، أو : من بعد ما استجاب اللّه لرسوله صلّى اللّه عليه وسلم وأيده بنصره ، كيوم بدر ، أو : من بعد ما استجاب له أهل الكتاب ، بأن أقروا بنعوته صلّى اللّه عليه وسلم ، واستفتحوا به قبل مبعثه. وذلك أن اليهود والنّصارى كانوا يقولون للمؤمنين : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، فنحن خير منكم ، فنزلت :
وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ ... الآية. «٢» حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ باطلة ، عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وإذا كانت داحضة من حيث كونه ربّا رءوفا فأحرى من حيث كونه قاهرا منتقما. وسمّاها حجة ، وإن كانت شبهة لزعمهم أنها حجة.
وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ عظيم ، لمكابرتهم الحق بعد ظهوره وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ لا يقادر قدره.
الإشارة : إذا استولت الغفلة على النّاس ، وتفرقت القلوب ، يجب على أهل البصيرة النّافذة أن يتحركوا لوعظ الناس وتذكيرهم ، ولا يلتفتون إلى أهوائهم ، وما هو مشغوفون به من حظوظهم. قال تعالى :
فَلِذلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ فتدعون النّاس إلى التوحيد ، وإقامة الشرائع ،

بامتثال الأوامر ، واجتناب المناكر ، ثم يدسونهم إلى حضرة الحق ، إن رأوا منهم من هو أهله ، فمن فعل هذا كان قدره عند اللّه عظيما ، وجاهه كبيرا. وفى الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «والذي نفس محمد بيده إن شئتم لأقسمنّ لكم : إنّ أحب عباد اللّه إلى اللّه الذين يحببون اللّه إلى عباده ، ويحببون عباد اللّه إلى اللّه ، ويمشون فى الأرض بالنصيحة».

ومن وظيفته أن يقول : آمنت بما أنزل اللّه من كتاب ، وما بعث من نبى وولىّ ، وأمرت لأعدل بينكم فى الوعظ ، والنّصيحة ، وإمداد المدد ، لكن يأخذ كلّ واحد على قدر صدقه وتعظيمه ، ثم يقول : (اللّه ربنا وربكم) ، يخص برحمته من يشاء ، لنا أعمالنا : ما يليق بنا من عبادة القلوب ، ولكم أعمالكم : ما تطيقونه من عبادة الجوارح ، لا خصومة بيننا وبينكم لأن قلوبنا سالمة لكم. اللّه يجمع بيننا وبينكم فى الدنيا بجمع متصل ، وإليه مصير الكل بالموت والفناء. والذين يحاجون فى اللّه ، أي : يخاصمون فى طريق اللّه ، ويقولون : انقطعت التربية ، حجتهم داحضة ، وعليهم غضب البعد ، ولهم عذاب الكدّ والتعب.

---

(١) الآية ١٠٩ من سورة البقرة.

(٢) انظر : تفسير البغوي (٧/ ١٨٨).

ثم حضّ على التمسك بكتابه لأنه جامع لما أنزل اللّه من كتاب ، فقال

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ١٧ الى ١٩]

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ القرآن ، أو : جنس الكتاب ، بِالْحَقِّ ملتبسا بالحق فى أحكامه وأخباره ، أو : بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام ، وَالْمِيزانَ وأنزل العدل والتسوية بين الناس ، أي : أنزله فى كتبه المنزلة ، وأمر به ، أو : الشرع الذي يوزن به الحقوق ، ويساوى بين النّاس. وقيل : هو عين الميزان ، أي : الآلة ، أنزله فى زمن نوح عليه السّلام. وَما يُدْرِيكَ أىّ شىء يجعلك عالما لَعَلَّ السَّاعَةَ التي أخبر بها الكتاب النّاطق بالحق قَرِيبٌ مجيئها. وضمّن الساعة معنى البعث فذكر الخبر ، وقيل : وجه المناسبة فى ذكر الساعة مع إنزال الكتاب : أن الساعة يقع فيها الحساب ووضع الموازين

بالقسط ، فكأنه قيل : أمركم اللّه بالعدل والتسوية ، والعمل بالشرائع ، فاعملوا بالكتاب والعدل قبل أن يفاجئكم يوم حسابكم ، ووزن أعمالكم.
يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بها استعجال إنكار واستهزاء ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ خائفون مِنْها وجلون لهولها ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ الكائن لا محالة ، أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ يجادلون فيها ، من : المرية ، أو : المماراة والملاحاة ، أو : من : مريت النّاقة : إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لأن كلّا من المتجادلين يخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة. لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ عن الحق لأن قيام الساعة أظهر من كلّ ظاهر ، وقد تواترت الشرائع على وقوعها ، والعقول تشهد أنه لا بد من دار الجزاء ، وإلا كان وجود هذا العالم عبثا.
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ أي : برّبهم فى إيصال المنافع ودفع المضار ، أوصل لهم من فنون الألطاف ما لا تكاد تناله أيدى الأفكار والظنون. وقيل : هو من لطف بالغوامض علمه ، وعظم عن الجرائم حلمه ، أو : من ينشر المناقب

(٥/٢٠٦)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٠٧
ويستر المثالب «١» ، أو : يعفو عمّن يهفو ، أو : من يعطى العبد فوق الكفاية ، ويكلّفه من الطاعة دون الطاقة. وقال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرّحمن الفاسي رضي اللّه عنه : الظاهر حمل العباد على من اصطفاه ، بدليل الإضافة المفيدة للتشريف ، وأنه تعالى لطيف بهم رفيق ، ومن ذلك : حمايتهم من الدنيا ، ومما يطغى من الرّزق ، وعليه ينزل قوله : يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ. هـ. أي : يرزق على حسب مشيئته ، المبنية على الحكم البالغة. وفى الحديث : «إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإنّ من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك» «٢».
وأما قوله تعالى : وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها «٣» فهو وعد لجميع الخلق ، وهو مبنى على المشيئة المذكورة هنا ، فلا منافاة بينهما ، خلافا لابن جزى «٤» لأن المشيئة قاضية على ظاهر الوعد ، ولا يقضى ظاهر الوعد عليها «٥». انظر الحاشية.
وَهُوَ الْقَوِيُّ الباهر القدرة ، الغالب على كلّ شىء ، الْعَزِيزُ المنيع الذي لا يغلب.
الإشارة : الميزان هو العقل إذ به تعرف الأشياء ومقاديرها ، نافعها وضارها. فالعقول متفاوتة كالموازين ، فبعض الموازين لرقته لا يوزن فيها إلا الشيء الرّفيع ، كالذهب ، والإكسير ، والفضة ، والطيب الرّفيع ، وبعضها يصلح لوزن الأشياء اللطيفة ، دون الخشينة ، كميزان العطار وشبهه ، وبعضها يصلح للأشياء

الخشينة المتوسطة ، كميزان الغزالين والحاكة ، وبعضها لا يصلح إلا للخشين ، كالفحم وشبه ، وبعضها لا يصلح إلا للخشين الكثير ، كالذى يوزن به القناطير من الشيء الخشين ، فالأول عقول العارفين ، لا يوزن فيها إلا أنوار التوحيد وأسرار التفريد ، لا يصلح لغيرها ، والثاني للعباد ، والزهاد ، والعلماء الصالحين ، والثالث للمتجمدين من العلماء ، والرّابع لعامة المؤمنين ، والخامس للفجار والكفار ، وفيهم نزل : يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها ... الآية ، وما قبله هو قوله :
وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها.

---

(١) فى الأصول [المثاقب] والمثبت من تفسير النّسفى - رحمه اللّه تعالى - .
(٢) أخرجه الديلمي (الفردوس ٥/ ٢٥٠ ح ٨١٠٠) والبيهقي فى الأسماء والصفات (ص ١٢١) ، وأخرجه مطولا البغوي فى التفسير (٧/ ١٩٤ - ١٩٥). وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٧٠٤ - ٧٠٥) لابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء ، والحكيم الترمذي فى نوادر الأصول ، وابن مردويه ، وأبى نعيم فى الحلية (٨/ ٣١٨) ، وابن عساكر فى تاريخه ، عن أنس بن مالك ، رضي اللّه عنه. وانظر كشف الخفاء (١٧٣٧).
(٣) من الآية ٦ من سورة هود.
(٤) قال ابن جزى - رحمه اللّه تعالى : يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ يعنى الرّزق الزائد على المضمون لكلّ حيوان فى قوله : وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها أي : ما تقوم به الحياة ، فإن هذا على العموم لكلّ حيوان طول عمره ، ولزائد خاص بمن شاء اللّه.
(٥) وجدت على هامش النّسخة الأساسية مايلى : «الحق ما قاله ابن جزى ، وأن المشيئة متعلقة بالتوسعة المسماة فى العرف رزقا أيضا ، لا بأصل الرّزق ، ويدل على ذلك قوله تعالى عقب هذا مباشرة : مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ... الآية ، ولا مجملة فهى بمعنى قوله تعالى : اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ... ... فهذا قوله تعالى : وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ فالجمع لا بد منه ، والمشيئة متعلقة بوقت الجمع. انتهى.

(٥/٢٠٧)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٠٨
وقوله تعالى : اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ ، اعلم أن لطفه سبحانه بعباده لا ينحصر ولا ينفك عنه مخلوق ، من ظن انفكاك لطف اللّه عن قدره فذلك لقصور نظره ، فمن لطفه سبحانه بخلقه : أنه أعطاهم فوق الكفاية ، وكلّفهم دون الطاقة. ومن لطفه سبحانه : تسهيله الأرزاق ، وتيسير الارتفاق ، فلو تفكر

الإنسان فى اللقمة التي توضع بين يديه ، ما ذا عمل فيها من العوالم العلوية والسفلية لتحقق بغاية عجزه ، وتيقن بوجود لطفه ، وكذا ما يحتاج إليه من مشروب ، وملبوس ، ومطعوم. ومن لطفه سبحانه : توفيق الطاعات ، وتسهيل العبادات ، وتيسير الموافقات. ومن لطفه سبحانه : حفظ التوحيد فى القلوب ، واطلاعها على مكاشفة الغيوب ، وصيانة العقائد عن الارتياب ، وسلامة القلوب عن الاضطراب. ومن لطفه سبحانه : إبهام العاقبة لئلا يتكلوا أو ييأسوا. ومن لطفه سبحانه بالعبد : إخفاء أجله عليه لئلا يستوحش إن كان قد دنا أجله. ومن لطفه سبحانه بخواصه : ستر عيوبهم ، ومحو ذنوبهم ، حتى وصلهم بما منه إليهم ، لا بما منهم إليه ، فكشف لهم عن أسرار ذاته ، وأنوار صفاته ، فشاهدوه جهرا ، وعبدوه شكرا.

وقوله تعالى : يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ إما رزق الأرواح ، أو رزق الأشباح ، وإلى هذا القسمين أشار قوله :

[سورة الشورى (٤٢) : آية ٢٠]

مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)

يقول الحق جل جلاله : مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ، سمّى ما يعمله العامل مما يبتغى به الفائدة المستقبلة حرثا ، مجازا لأن الحرث : إلقاء البذر فى الأرض لننظر نتاجه ، فأطلقه على العمل ، لجامع حصول النتاج ، أي : من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ نضاعف له ثوابه ، الواحدة بعشر إلى سبعمائة فما فوقها ، أو : نزد له فى توفيقه وإعانته ، وتسهيل سبيل الخيرات والطاعات عليه. وَمَنْ كانَ يُرِيدُ بأعماله حَرْثَ الدُّنْيا وهو متاعها وطيباتها نُؤْتِهِ مِنْها أي : شيئا منها ، حسبما قسمناه له ، لا ما يريده ويبتغيه ، وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ إذا كانت همته مقصورة على الدنيا. ولم يذكر فى عامل الآخرة أن رزقه المقسوم يصل إليه ، للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده ، من زكاء أعماله ، وفوزه فى المآب لأن ما يعطى فى الآخرة يستحقر أن يذكر معه غيره من الدنيا.

الإشارة : قد مرّ مرارا ذم الدنيا وصرف الهمة إليها ، وفى الحديث عن أبى سعيد الخدري : أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول فى بعض خطبه : «أيها النّاس ، أقبلوا على ما كلفتموه من صالح آخرتكم ، وأعرضوا عما ضمن لكم من أمر

(٢٠٨/٥)

دنياكم ، ولا تشغلوا «١» جوارحكم جوارح غذيت بنعمته فى التعرض لخطأ بمعصيته ، واجعلوا شغلكم بالتماس معرفته ، واصرفوا هممكم إلى التقرب بطاعته ، إنه من بدأ بنصيبه من الدنيا فاته نصيبه من

الآخرة ، ولم يدرك منها ما يريد ، ومن بدأ بنصيبه من الآخرة وصل إليه نصيبه من الدنيا ، وأدرك من الآخرة ما يريد» «٢».

قال الورتجبي : حرث الآخرة : مشاهدته ووصاله وقربه ، وهذا للعارفين ، وحرث الدنيا : كرامات الظاهر ، ومن شغلته الكرامات احتجب بها عن الحق. ثم قال : عن بعضهم : من عمل للّه محبة له ، لا طلبا للجزاء ، صغر عنده كل شيء دون اللّه ، فلا يطلب حرث الدنيا ، ولا حرث الآخرة ، بل يطلب اللّه من الدنيا والآخرة. ثم قال : حرث الدنيا : قضاء الوطر منها ، والجمع منها ، والافتخار بها ، ومن كان بهذه الصفة فما له في الآخرة من نصيب. هـ.

وقال بعض الشعراء في هذا المعنى :

يا موثر الدنيا على دينه ومشتر دنياه بالآخرة

بعت الذي يبقى بما ينقضى تبّا لها من صفقة خاسره.

ثم ذكر مقابل قوله : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ، كأنه تعالى لمّا ذكر أنه شرع ما وصى به ، أخذ ينكر ما شرع غيره ، فقال :

أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ ...

[سورة الشورى (٤٢) : آية ٢١]

أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢١)

يقول الحق جل جلاله : أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ، «أم» : منقطعة ، أي : بل ألهم شركاء ، أو : معادلة لمحذوف ، تقديره : أقبلوا ما شرعت لهم من الدين ، أم لهم آلهة شرعوا من الدين ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ أي : لم يأمر به ، وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ أي : القضاء السابق بتأخير الجزاء ، أي : ولو لا العدة بأن الفصل يكون يوم

---

(١) هكذا في جميع الأصول.

(٢) لم أقف عليه ، رغم كثرة البحث. [.....]

القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بين الكفار والمؤمنين. أو : لعجلت لهم العقوبة. وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وإن المشركين لهم عذاب أليم في الآخرة ، وإن أخّر عنهم في دار الدنيا.

[سورة الشورى (٤٢) : آية ٢٢]

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)

تَرَى الظَّالِمِينَ المشركين فى الآخرة مُشْفِقِينَ خائفين مِمَّا كَسَبُوا من جزاء كفرهم ، وَهُوَ واقِعٌ نازل بِهِمْ لا محالة ، أشفقوا أم لم يشفقوا. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ كأنّ روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها ، فالروضات : المواضع المونقة النّضرة ، فهم مستقرون فى أطيب بقعها وأنزهها. لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ أي : ما يشتهون من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم ، ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ الذي لا يقادر قدره ، ولا يبلغ غايته على العمل القليل ، فضلا من الكبير الجليل.

[سورة الشورى (٤٢) : آية ٢٣]

ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)

ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ تعالى ، عِبادَهُ فحذف عائد الموصول. ويقال : بشّر وبشر ، بالتشديد والتخفيف ، وقرئ بهما «١». ثم وصف المبشرين بقوله : الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ دون غيرهم.

الإشارة : كل من ابتدع عملا خارجا عن الكتاب والسنة فقد شرع من الدين ما لم يأذن به اللّه ، فينسحب عليه الوعيد ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» «٢».

وقوله تعالى : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ قال القشيري : فى الدنيا جنة الوصلة ، ولذاذة الطاعة والعبادة ، وطيب الأنس فى أوقات الخلوة ، وفى الآخرة فى روضات الجنات ، إن أرادوا دوام اللطف دام لهم ، وإن أرادوا تمام الكشف كان لهم. هـ.

ولمّا كان من شأن المبشر بالخير أن يلتمس الأجر ، نزّه نبيه عن ذلك ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : آية ٢٣]

ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)

---

(١) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي «يبشر» بفتح الياء ، وسكون الموحدة ، وضم الشين مخففة ، من «بشر» الثلاثي. وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الباء وكسر السين مشددة للتكثير. انظر الإتحاف (٢/ ٤٤٩).

(٢) أخرجه بتمامه مسلم ، فى (الزكاة ، باب الحث على الصدقة ، ٢/ ٧٠٥ ، ح ١٠١٧) من حديث جرير بن عبد اللّه رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢١١

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ على التبليغ أَجْراً. روى أنه اجتمع المشركون فى مجمع لهم ، فقال بعضهم لبعض : أترون أن محمدا يسأل على ما يتعاطاه أجرا؟ فنزلت. أي :
لا أسألكم على التبليغ والبشارة أجرا ، أي : نفعا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى إلا أن تودوا أهل قرابتى ، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا ، أي : لا أسألكم أجرا قط ، ولكن أسألكم أن تودّوا قرابتى الذي هم قرابتكم ، ولا تؤذوهم. ولم يقل : إلا مودّة القربى ، أو : المودة للقربى لأنهم جعلوا مكانا للمودة ، ومقرا لها ، مبالغة ، كقولك : لى فى مال فلان مودة ، ولى فيهم حبّ شديد ، تريد : أحبهم ، وهم مكان حبى ومحله. وليست «فى» بصلة للمودة كاللام ، إذا قلت :
إلا المودة للقربى ، وإنما هى متعلقة بمحذوف ، تعلق الظرف. به والتقدير : إلا المودة ثابتة فى القربى ، ومتمكنة فيها. والقربى : مصدر ، كالزلفى والبشرى ، بمعنى القرابة. والمراد : فى أهل القربى.
روى أنه لما نزلت قيل : يا رسول اللّه! من أهل قرابتك هؤلاء ، الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال : «علىّ وفاطمة وابناهما» «١». وقيل : معناه : إلا أن تودّونى لقرابتى فيكم ، ولا تؤذوني ، إذ لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وبينهم قرابة. وقيل : القربى : التقرب إلى اللّه تعالى ، أي : إلا أن تحبوا اللّه ورسوله فى تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح.
وَمَنْ يَقْتَرِفْ أي : يكتسب حَسَنَةً أىّ حسنة كانت ، فيتناول مودة ذى القربى تناولا أوليا. وعن السدى : أنها المرادة ، قيل : نزلت فى الصدّيق رضي اللّه عنه ومودته فيهم ، والظاهر : العموم ، نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً أي :
نضاعفها له فى الجنة. إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لمن أذنب [بطوله] «٢» شَكُورٌ لمن أطاع بفضله ، بتوفية الثواب والزيادة ، أو : غفور : قابل التوبة ، شكور : حامل عليها.
الإشارة : محبة أهل البيت واجبة على البشر ، حرمة وتعظيما لسيد البشر ، وقد قال : «من أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم» «٣» فمحبة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ركن من أركان الإيمان ، وعقد من عقوده ، لا يتم الإيمان إلا بها ، وكذلك محبة أهل بيته. وفى الحديث صلّى اللّه عليه وسلم : «لا يؤمن أحدكم حتى يحبنى ، ولا يحبنى حتى يحب ذوى قرابتى ، أنا حرب لمن حاربهم ، وسلم لمن سالمهم ، وعدو لمن عاداهم ، ألا من آذى قرابتى فقد آذاني ، ومن آذاني

---

(١) أخرجه الطبراني فى الكبير (١١/ ٤٤٤ ، ح ١٢٢٥٩) وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٧٠١) لابن المنذر وابن أبى حاتم والطبراني وابن مردويه ، بسند ضعيف ، من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس

رضي اللّه عنه.

(٢) فى الأصول : [بعدله] والمناسب ما أثبته ، وهو الذي فى تفسير النّسفى. والطّول : الفضل والغنى والسعة. انظر اللسان (طول ٤/ ٧٢٨).

(٣) ورد «من أحب هؤلاء ، فقد أحبنى ، ومن أبغضهم فقد أبغضنى» يعنى الحسن والحسين وفاطمة وعليا - رضي اللّه عنهم أجمعين.

والحديث ذكره فى كنز العمال ح (١٠٣) وعزاه لابن عساكر عن زيد بن أرقم.

والأحاديث فى محبة أهل البيت كثيرة. اللهم صلّى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

(٥/٢١١)

فقد آذى اللّه تعالى» «١». وقال أيضا - عليه الصلاة والسّلام : «إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا ، كتاب اللّه تعالى وعترتى» «٢» ، فانظر كيف قرنهم بالقرآن فى كون التمسك بهم يمنع الضلال.

وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «من مات على حب آل محمد مات شهيدا ، ألا ومن مات على حب آل محمد بدل اللّه له زوار قبره ملائكة الرّحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب «٣» بين عينيه : آيس من رحمة اللّه» «٤». انظر الثعلبي. زاد بعضهم : ولو عصوا وغيّروا فى المذهب فنكره فعلهم ونحب ذاتهم. قال الشيخ زروق فى نصيحته : وما ينزل بنا من ناحيتهم نعدّه من القضاء النازل. هـ.

وفى همزية البوصيرى - رحمه اللّه :

آل بيت النّبيّ إنّ فؤادى ليس يسليه عنكم التأساء «٥».

وقال آخر :

آل بيت رسول اللّه حبّكم فرض من اللّه فى القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم المجد أنّكم من لم يصلّ عليكم لا صلاة له «٦».

وقوله تعالى : وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً ، الزيادة فى الدنيا بالهداية والتوفيق ، وفى الآخرة بتضعيف الثواب وحسن الرّفيق. قال القشيري : إذا أتانا بالمجاهدة زدناه بفضلنا تحقيق المشاهدة.

ويقال : من يقترف حسنة الوظائف نزد له حسن اللطائف. ويقال : الزيادة ما لا يصل إليه العبد بوسيلة ، مما لا يدخل تحت طوق البشر. هـ.

ثم ردّ على من طعن فى الوحى ، الذي نفى الأجر على تبليغه ، فقال :

(١) أخرج أحمد فى المسند (ح ٩٦٥٩) وابن حبان (موارد ح ٢٢٤٤) وابن أبى شيبة (٢/ ٩٦) والطبراني فى الكبير (٣/ ٣١) عن أبى هريرة ، قال : نظر النّبى صلّى اللّه عليه وسلم إلى على والحسن والحسين وفاطمة فقال : «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم». وأخرجه الترمذي فى المناقب ، باب فضل فاطمة ، ح ٣٨٧٥) عن زيد بن أرقم ، بلفظ «أنا حرب لمن حاربتم ، وسلم لمن سالمتم».

(٢) أخرجه الترمذي وحسّنه فى (المناقب ، باب مناقب أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ٥/ ٦٢١ ، ح ٣٧٨٦) من حديث جابر بن عبد اللّه ، و(ح ٣٧٨٨) من حديث أبى سعيد وزيد بن أرقم - رضي اللّه عنهما.

(٣) هكذا فى الأصول.

(٤) ذكره بنحوه القرطبي (٧/ ٦٠٢٢) ، وذكره الزمخشري فى تفسيره (٤/ ٢٢٠) بأطول من هذا ، وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي للثعلبى ، وقال : «وآثار الوضع عليه لائحة» ..

(٥) انظر ديوان البوصيرى/ ٧٠.

(٦) الأبيات للإمام الشافعي. انظر ديوانه/ ٧٢ ، وفيه : [يكفيكم من عظيم الفخر أنكم].

(٥/٢١٢)

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٢٤ الى ٢٦]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : أَمْ يَقُولُونَ أي : بل أيقولون افْتَرى محمد عَلَى اللَّهِ كَذِباً فى دعوة النّبوة ، أو القرآن؟. والهمزة للإنكار التوبيخي ، كأنه قيل : أيمكن أن ينسبوا مثله - عليه الصلاة والسّلام - للافتراء ، لا سيما لعظم الافتراء ، وهو الافتراء على اللّه ، فإن الافتراء إنما يسام به أبعد خلق اللّه ، ومن هو عرضة للختم والطبع ، فالعجب ممن يفوه به فى جانب أكرم الخلق على اللّه.

فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ ، هذا استبعاد للافتراء على مثله لأنه إنما يجترئ على اللّه من كان مختوما على قلبه ، جاهلا بربه ، أمّا من كان على بصيرة ومعرفة بربه ، فلا ، وكأنه قال : إن يشأ اللّه خذلانك يختم على قلبك لتجترئ بالافتراء عليه ، لكنه لم يفعل فلم تفتر. أو : فإن يشأ اللّه عدم صدور القرآن عنك يختم على قلبك ، فلم تقدر أن تنطق بحرف واحد منه ، وحيث لم يكن كذلك ،

بل تواتر الوحى عليك حينا فحينا تبين أنه من عند اللّه تعالى. وهذا أظهر.
وقال مجاهد : إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم ، وعلى قولهم : افترى على اللّه كذبا لئلا تدخله مشقة بتكذيبهم. هـ.
وَيَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ ، استئناف مقرر لنفى الافتراء ، غير معطوف على «يختم» كما ينبئ عنه إظهار الاسم الجليل ، وإنما سقطت الواو - كما فى بعض المصاحف - لا تباع اللفظ ، كقوله تعالى : وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ ... «١» مع أنها ثابتة فى مصحف نافع. قاله النّسفى. أي : ومن شأنه تعالى أنه يمحق الباطل ، ويثبت الحق بوحيه ، أو بقضائه ، كقوله تعالى : بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ «٢» ، فلو كان افتراء كما زعموا لمحقه ودمغه. أو : يكون عدة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بأنه تعالى يمحو الباطل الذي هم عليه ، ويثبت الحق الذي هو عليه صلّى اللّه عليه وسلم بالقرآن ، أو بقضائه الذي لا مرد له بنصره عليهم ، وقد فعل ذلك ، فمحا باطلهم ، وأظهر

---

(١) من الآية ١١ من سورة الإسراء.
(٢) من الآية ١٨ من سورة الأنبياء.

الإسلام. إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي : عليم بما فى صدرك وصدورهم ، فيجرى الأمر على حسب ذلك من المحو والإثبات.
وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ. يقال : قبلت الشيء منه : إذا أخذته منه ، وجعلته مبدأ قبولك ، وقبلته عنه ، أي : عزلته وأبنته عنه. والتوبة : الرجوع عن القبيح بالندم ، والعزم ألا يعود ، ورد المظالم واجب غير شرط.
قال ابن عباس : لما نزل. قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً .... الآية. قال قوم فى نفوسهم : ما يريد إلا أن يحثنا على أقاربه من بعده ، فأخبر جبريل النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم أنهم قد اتهموه ، وأنزل : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً .. الآية ، فقال القوم يا رسول اللّه فإنا نشهد أنك صادق. فنزل : وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ .... هـ.
قال أبو هريرة ، قال النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «اللّه أفرح بتوبة عبده المؤمن من الضال الواجد ، ومن العقيم الوالد ، ومن الظمآن الوارد ، فمن تاب إلى اللّه توبة نصوحا أنسى اللّه حافظيه ، ولو كانت بقاع الأرض خطاياه وذنوبه» «١».

واختلف العلماء فى حقيقة التوبة وشرائطها ، فقال جابر بن عبد اللّه : دخل أعرابى مسجد النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال : اللهم إنى أستعيذك وأتوب إليك ، سريعا ، وكبّر ، فلما فرغ من صلاته ، قال له علىّ : ما هذا؟ إن سرعة الاستغفار باللسان توبة الكذابين ، وتوبتك تحتاج إلى توبة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وما التوبة؟ قال : اسم يقع على ستة معان : على الماضي من الذنوب النّدامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، وإذابة النّفس فى الطاعة ، كما أذبتها فى المعصية ، وإذاقة النّفس مرارة الطاعة ، كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كلّ ضحك ضحكته.

وعن السدى : هى صدق العزيمة على ترك الذنوب ، والإنابة بالقلب إلى علّام الغيوب. وعن سهل : هى الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة. وعن الجنيد : هى الإعراض عما سوى اللّه.

قال اللّه تعالى : وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وهو ما دون الشرك ، يعفو لمن يشاء بلا توبة ، وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ كائنا ما كان ، من خير أو شر ، حسبما تقتضيه مشيئته.

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أي : يستجيب لهم فحذف اللام كما فى قوله : وَإِذا كالُوهُمْ»

أي : يجيب دعوتهم ، ويثيبهم على طاعتهم ، أو : يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها. قيل لإبراهيم

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ ، وفى الصحيح : «اللّه أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ، ومعه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء اللّه ، قال : أرجع إلى مكانى ، فرجع فنام نومة ، ثم رفع رأسه ، فإذا راحلته عنده ، أخرجه البخاري فى (الدعوات ، باب التوبة ، ح ٦٣٠٨) ومسلم فى (التوبة ، باب فى الحض على التوبة ، ح ٢٧٤٤) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه. [.....]

(٢) من الآية ٣ من سورة المطففين.

ابن أدهم : مالنا ندعو فلا نجاب؟ قال : «لأنه دعاكم فلم تجيبوا». وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ على ما سألوه ، واستحقوه بموجب الوعد. وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بدل ما للمؤمنين من الفضل العظيم والمزيد.

الإشارة : قال الورتجبي : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فيه تقديس كلامه ، وطهارة نبيه صلّى اللّه عليه وسلم عن الافتراء ، وكيف يفترى وهو مصون من طريان الشك والرّيب والوساوس والهواجس على قلبه؟. وقال أيضا : عن الواسطي : إن يشأ اللّه يختم على قلبك [لكن ما يشاء] «١» ، ويمح اللّه

الباطل بنفسه ونعته ، حتى يعلم أنه لا حاجة له إلى أحد من خلقه ، ثم يحقق الحق فى قلوب أنشأها للحقيقة.

قلت : فى الآية تهديد لأهل الدعوى لأنهم إن داموا على دعواهم الخصوصية بلا خصوصية ختم اللّه على قلوبهم بالنفاق ، ثم يمحو اللّه الباطل بأهل الحق والتحقيق ، فتشرق حقائقهم على ما يقابلها من البال فتدمغه بإذن اللّه وقضائه وكلماته.

وقوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ... إلخ ، لكلّ مقام توبة ، ولكلّ رجال سيئات ، فتوبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من العيوب ، وتوبه خواص الخواص من الغيبة عن شهود علام الغيوب. وقوله تعالى :

وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ يشير إلى الحلم بعد العلم.

وقوله تعالى : وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أي : فى كلّ ما يتمنون ، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ النظر إلى وجهه ، ويتفاوتون فيه على قدر توجههم ، ومعرفتهم فى الدنيا. وذكر فى القوت حديثا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى تفسير قوله تعالى : وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ قال : «يشفعهم فى إخوانهم ، فيدخلهم الجنة» «٢». هـ. قال القشيري : ويقال :

لمّا ذكر أن التائبين يقبل توبتهم ، ومن لم يتب يعفو عن زلّته ، والمطيع يدخله الجنة ، فلعله خطر ببال أحد : فهذه النار لمن هى؟ فقال وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ ، ولعله يخطر بالبال أن العصاة لا عذاب لهم ، فقال : (شديد) بدليل الخطاب أنه ليس بشديد «٣» هـ.

ولمّا ذكر أن أهل الإيمان يستجيب لهم ، ويزيدهم من فضله ، يعنى فى الآخرة ، وأما فى الدنيا فإنما يعطيهم الكفاف ، ذكر حكمة ذلك ، فقال :

---

(١) فى الورتجبي [بما يشاء].

(٢) أخرجه ابن جرير ، من طريق قتادة عن أبى إبراهيم اللخمي ، موقوفا.

(٣) اختصر المفسر عبارة القشيري ، وهذا نصها حتى يتضح المراد : فالعصاة من المؤمنين لهم عذاب ، أما الكافرون فلهم عذاب شديد ، لأن دليل الخطاب يقتضى هذا ، وذاك يقتضى أن المؤمنين لهم عذاب ، ولكن ليس بشديد ، وأما عذاب الكافرين فشديد. هـ.

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ أي : لو أغناهم جميعا لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ أي : لتكبروا وأفسدوا فيها ، بطرا ، ولعلا بعضهم على بعض بالاستعلاء والاستيلاء ، لأن الغنى مبطرة مفسدة ، وكفى بحال قارون وفرعون عبرة. وأصل البغي : تجاوز الاقتصاد [عما يجزى] «١» من حيث الكمية أو الكيفية.

وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ أي : بتقدير ما يَشاءُ أن ينزله ، مما تقضيه مشيئته. يقال : قدره وقدّره قدرا وتقديرا إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ محيط بخفايا أمورهم وجلاياها ، فيقدر لكلّ واحد منهم ما يليق بشأنه ، فيفقر ويغنى ، ويعطى ويمنع ، ويقبض ويبسط ، حسبما تقتضيه الحكمة الرّبانية ، ولو أغناهم جميعا لبغوا فى الأرض ، ولو أفقرهم لهلكوا ، وما ترى من البسط على من يبغى ، ومن البغي بدون البسط ، فهو قليل ، ولكن البغي مع الفقر أقلّ ، ومع البسط أكثر وأغلب ، فالحكمة لا تنافى بغى البعض بدفعه بالبعض الآخر ، بخلاف بغى الجميع. وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ ... «٢» الآية.

وقال شقيق بن إبراهيم : لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ أي : لو رزق اللّه العباد من غير كسب لَبَغَوْا طغوا وسعوا فى الأرض بالفساد ، ولكن شغلهم بالكسب والمعاش ، رحمة منه. هـ. أي : لئلا يتفرغوا للفساد ، ومثله فى التنوير.

وقال شيخ شيوخنا الفاسى العارف : والظاهر حمل العباد على الخصوص المصطفين من المؤمنين ، فإنهم يحمون من الطغيان وبسط الرّزق لئلا يبغوا. هـ.

وقال قتادة : كان يقال : خير الرّزق : ما لا يطغيك ، ولا يلهيك ، فذكر لنا أن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قال : «أخوف ما أخاف على أمتى زهرة الدنيا وكثرتها» «٣». هـ.

---

(١) هكذا فى الأصول ، وفى تفسير أبى السعود [فيما يتحرى].

(٢) من الآية : ٤٠ من سورة الحج.

(٣) أخرجه الطبري (٢٥/ ١٩).

روى : أن أهل الصّفة تمنوا الغنى ، فنزلت «١». وقيل : نزلت فى العرب ، كانوا إذا أخصبوا تحاربوا ، وإذا جدبوا انتجعوا. هـ.

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ أي : المطر الذي يغيثهم من الجدب ، ولذا خص بالنافع منه ، فلا يقال للمطر الكثير :
غيث ، مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا : يئسوا منه. وتقييد تنزيله بذلك ، مع نزوله بدونه أيضا لمزيد تذكر كمال النّعمة.
وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ أي : بركات الغيث ومنافعه ، وما يحصل به من الخصب فى كلّ مكان ، من السهل ، والجبل ، والنّبات ، والحيوان. أو : رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر وغيره. وَهُوَ الْوَلِيُّ الذي يتولى عباده بالإحسان ونشر الرحمة ، الْحَمِيدُ المستحق للحمد على ذلك ، لا غيره.
الإشارة : عادته تعالى مع أوليائه أن يعطيهم ما يكفيهم بعد الاضطرار ، ويمنعهم منه فوق الكفاية لئلا يشغلهم بذلك عن حضرته ، وفى الحديث : «إن اللّه يحمى عبده المؤمن - أي : مما يضره الدنيا وغيرها - كما يحمى الرّاعى الشفيق غنمه من مراتع الهلكة» «٢» وفى حديث آخر : «إذا أحب اللّه عبدا حماه الدنيا كما يحمى أحدكم سقيمه الماء» «٣». وروى ابن المبارك ، عن سعيد بن المسيب قال : جاء رجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال : أخبرنى يا رسول اللّه بجلساء اللّه يوم القيامة؟ فقال : «هم الخائفون ، الخاضعون ، المتواضعون ، الذاكرون كثيرا» فقال : يا رسول اللّه فهم أول النّاس يدخلون الجنة؟ قال : «لا» قال : فمن أول النّاس دخولا الجنة؟ قال «الفقراء يسبقون النّاس إلى الجنة ، فيخرج إليهم ملائكة ، فيقولون : ارجعوا إلى الحساب ، فيقولون : علام نحاسب؟ واللّه ما أفيضت علينا الأموال فنفيض فيها ، وما كنا أمراء نعدل ونجور ، ولكنا جاءنا أمره فعبدنا حتى أتانا اليقين». هـ.
قوله : وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ ... الآية ، كما ينزل غيث المطر على الأرض الميتة ، ينزل أمطار الواردات الإلهية على القلوب الميتة ، فتحيا بالذكر والمعرفة ، بعد أن أيست من الخصوصية.
قال القشيري ، بعد كلام : وكذلك العبد إذا ذبل غصن وقته ، وتكدّر صفو ودّه وكسفت شمس أنسه ، وبعد عن الحضرة وساحات القرب عهده ، فربما ينظر إليه الحقّ نظر رحمة ، فينزل على سرّه أمطار الرّحمة ، ويعود عوده طريّا ، وينبت فى مشاهد أنسه وردا جنيا ، وأنشدوا فى المعنى :

---

(١) أخرجه الواحدي فى أسباب النّزول (ص ٣٩٠) عن عمرو بن حريث ، وذكره الهيثمي فى المجمع (٧/ ١٠٤) وعزاه للطبرانى ، ورجاله رجال الصحيح.
(٢) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (ح ١٠٤٥١) من حديث حذيفة رضي اللّه عنه ، والحديث ضعّفه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ١٩٠١).
(٣) أخرجه الترمذي فى (الطب ، باب ما جاء فى الحمية ، ح ٣٠٣٦) والبيهقي فى الشعب (ح ١٤٥٠) من حديث قتادة بن النّعمان رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢١٨

إن راعنى منك الصدود فلعلّ أيامى تعود

ولعل عهدك باللّوى يحيا فقد تحيا العهود

والغصن ييبس تارة وتراه مخضرّا يميد.

وقوله تعالى : وَهُوَ الْوَلِيُّ قال القشيري فى شرح الأسماء : الولي هو المتولى لأحوال عباده ، وقيل معناه :

المناصر ، فأولياء اللّه أنصار دينه ، وأشياع طاعته ، والولىّ فى صفة العبد : هو من يواظب على طاعة ربه. ومن علامات من يكون الحق سبحانه وليّه : أن يصونه ويكفيه فى جميع الأحوال ، ويؤمنه ، فيغار على قلبه أن يتعلق بمخلوق فى دفع شر أو جلب نفع ، بل يكون سبحانه هو القائم على قلبه فى كلّ نفس ، فيحقق آماله عند إشارته ، ويجعل مآربه عند خطراته. ومن أمارات ولايته لعبده : أن يديم توفيقه ، حتى لو أراد سوءا ، أو قصد محظورا ، عصمه من ارتكابه. ثم قال : ومن أمارات ولايته : أن يرزقه مودة فى قلوب أوليائه. هـ. قلت : «جعل مآربه عند خطراته» ليس شرطا لأن هذا من باب الكرامة ، ولا يشترط ظهورها عند المحققين. وروى أنس عن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم عن جبريل ، عن ربه - عز وجل - قال : «من أهان لى وليّا فقد بارزني بالمحاربة ، وإنى لأسرع شىء إلى نصرة أوليائى ، وإنى لأغضب لهم ، كما يغضب الليث الحرد» «١» انظر بقية الحديث فى الثعلبي.

ثم ذكر شواهد قدرته ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : آية ٢٩]

وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ آياتِهِ الدالة على باهر قدرته ووحدانيته خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ على ما هما عليه من تعاجيب الصنعة ، فإنها بذاتها وصفاتها تدل على شؤونه العظيمة ، وَما بَثَّ أي : فرّق فِيهِما مِنْ دابَّةٍ من حى على الإطلاق ، فأطلق الدابة على مطلق الحيوان ، ليدخل الملائكة. أو : ما يدب على الأرض ،

---

(١) أخرجه مطولا ، البغوي فى التفسير (٧/ ١٩٤ - ١٩٥) وعزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٧٠٤) لابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء ، والحكيم الترمذي فى نوادر الأصول ، وأبى نعيم فى الحلية (٨/ ٣١٥) وابن عساكر فى تاريخه.

وقوله : «الحرد» الحرد : الغيظ والغضب. وحرد الرّجل فهو حرد. انظر اللسان (مادة حرد ٢/ ٨٢٤ - ٨٢٥).

(٢١٨/٥)

فإن ما يختص أحد الشيئين المجاورين يصح نسبته إليهما ، كقوله تعالى : يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ «١» وإنما يخرج المرجان من الملح ، ولا يبعد أن يخلق اللّه فى السموات حيوانا يمشون مشى الأناسيّ على الأرض ، أو :

يكون للملائكة مشى مع الطيران ، فوصفوا بالدّبيب لذلك. وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ أي : حشرهم بعد البعث للحساب إِذا يَشاءُ أي : فى الوقت الذي يشاء قَدِيرٌ لا يعجزه شيء الإشارة : من تعرفاته : إظهار السموات والأرض ، وهذه رسوم المعاني ، وما بثّ فيهما من دابة ، وهذه أشكال توضح أسرار المعاني ، فإذا قبضت المعاني محيت الرسوم والأشكال. وقوله تعالى : وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ ، قال القشيري : الإشارة فى هذا : أنّ الحقّ تعالى يغار على أوليائه أن يسكن بعضهم بقلبه إلى بعض ، فأبدا يبدّد شملهم ، ولا يكاد تتفق الجماعة من أهل القلوب إلا نادرا ، وذلك أيضا مدة يسيرة ، كما أنشدوا :

رمى الدهر بالفتيان حتى كأنّهم بأكناف أطراف السماء نجوم «٢»

وقد يتفضّل تعالى باجتماعهم فى الظاهر ، وذلك وقت نظر الحقّ بفضله إلى العالم ، وفى بركات اجتماعهم حياة العالم ، وإذ كان قادرا فهو على جمعهم إذا يشاء قدير. «٣» هـ.

قلت : مما جرت به عادة اللّه تعالى فى أوليائه : أنه لا يجتمع فى موضع واحد منهم اثنان فأكثر إلا قام أحدهما بالآخر ، ويفقد نظامهما ، فلا تكاد تحد أهل النّور القوى إلا متباعدى الأوطان ، لئلا يطفى نور أحداهما نور الآخر ، وقد يجتمعون نادرا فى وقت مخصوص ، وذلك وقت النّفحات. كما تقدم للقشيرى.

ثم ذكر سبب نزول المصائب بعباده ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٣٠ الى ٣١]

وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١)

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الرّحمن.

(٢) البيت منسوب للقشيرى كما فى تبيين كذب المفترى للدمشقى/ ٣٥٦.
(٣) بتصرف. [.....]

(٢١٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٢٠

يقول الحق جل جلاله : وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ غمّ ، أو ألم ، أو مكروه فَبِما «١» كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ أي : بجناية كسبتموها ، عقوبة لكم. ومن قرأ بالفاء ف «ما» شرطية. ومن قرأ بغيرها فموصلة. وتعلق بهذه الآية من يقول بالتناسخ ، ومعناه عندهم : أن أرواح المتقدمين حين تموت أشباحها تنتقل إلى أشباح أخر ، فإن كانت صالحة انتقلت إلى جسم صالح وإن كانت خبيثة انتقلت إلى جسم خبيث ، وهو باطل وكفر. ووجه التعلق : أنه لو لم يكن للأطفال حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة لما تألّموا. ويجاب : بأن تألم الأطفال إما زيارة فى درجات آبائهم إن عاشوا ، أو فى درجاتهم إن ماتوا لأنهم يلحقون بآبائهم فى الدرجة ، ولا عمل لهم إلا هذا التألم. واللّه أعلم.

والآية مخصوصة بالمكلّفين بدليل السياق ، وهو قوله : وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ أي : من الذنوب فلا يعاقب عليها ، أو : عن كثير من النّاس ، فلا يعاجلهم بالعقوبة. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «واللّه أكرم من أن يثنّى عليكم العقوبة فى الآخرة ، وما عفا عنه فاللّه أحلم من أن يعود فيه بعد عفوه» «٢» وقال ابن عطاء : من لم يعلم أنّ ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه ، وأن ما عفا عنه مولاه أكثر ، كان قليل النّظر فى إحسان ربه إليه. وقال محمد بن حامد : العبد ملازم للجنايات فى كلّ أوان ، وجناياته فى طاعته أكثر من جناياته فى معاصيه لأن جناية المعصية من وجه ، وجناية الطاعة من وجوه ، واللّه يطهّر العبد من جناياته بأنواع من المصائب ليخفّف عنه أثقاله فى القيامة ، ولو لا عفوه ورحمته لهلك فى أول خطوة.

وعن علىّ - كرم اللّه وجهه - : هذه أرجى آية للمؤمنين فى القرآن لأنّ الكريم إذا عاقب مرة لا يعاقب ثانيا ، وإذا عفا لا يعود. هـ. وقد تقدم حديثا. قال فى الحاشية الفاسية : قلت : وإنما يعفو فى الدنيا عما يشاء ، ويؤخر عقوبة من شاء إلى الآخرة ، فلا يلزم إبطال وعيد الآخرة. ثم الآية إما خاصة بالحدود ، أو بالمجرم المذنب ، وأما من لا ذنب له فما يصيبه من البلاء اجتباء وتخصيص ، لا تمحيص. هـ.

قلت : لكلّ مقام ذنب ، حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فالتمحيص جار فى كلّ مقام ، وراجع ما تقدم عند قوله : لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ... «٣» وسيأتى عند قوله : وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ .. «٤» ما يبين هذا. واللّه أعلم

---

(١) قرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر (بما) بغير فاء ، على جعل (ما) فى ما أَصابَكُمْ موصولة ، مبتدأ ، و(بما كسبت) خبر ، وعلى جعلها شرطية ، تكون الفاء محذوفة ، نحو قوله تعالى : وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ ... - الآية ١٢١ من سورة الأنعام. وقرأ الباقون (فبما كسبت). ف (ما) شرطية ، أي : فهى بما كسبت ، أو موصولة ، والفاء تدخل فى حيز الموصول إذا أجرى مجرى الشرط. انظر :
الحجة للفارسى ، (٦/ ١٢٩) والإتحاف (٢/ ٤٥٠).
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (١/ ٨٥) والحاكم (٤/ ٣٨٨) وزاد السيوطي عزوه فى الدر المنثور (٥/ ٧٠٥) لابن راهويه ، وابن منيع ، وعبد بن حميد ، والحكيم الترمذي ، وأبى يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، عن سيدنا علىّ - كرم اللّه وجهه - .
(٣) من الآية ١١٧ من سورة التوبة.
(٤) من الآية ١٩ من سورة سيدنا محمد.

(٥/٢٢٠)

وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أي : ما أنتم بفائتين ما قضى عليكم من المصائب ، وإن هجرتم فى أقطارها كل مهرب ، وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ متول يحميكم منها وَلا نَصِيرٍ يدفعها عنكم ، أو يدفع عذابه إن حلّ.
الإشارة : إذا كان العبد عند اللّه فى عين العناية أدّبه فى الدنيا ، ويبقى فى حال قربه ، وإذا كان عنده فى عين الإهمال أمهل عقوبته إلى دار البقاء ، وربما استدرجه بالنعم فى حال إساءته ، والعياذ باللّه من مكره. وإذا علم العبد أن ما يصيبه فى هذه الدار من الأكدار كلها تخليص وتمحيص لم يستوحش منها ، بل يفرح بها إذ هى علامة العناية ، وإذا كانت على أيدى النّاس ، لم يقابلهم بالانتصار ، بل يعفو ويصفح لعلمه أن ذلك زيارة وترقية. وقوله تعالى : وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ. هذا - واللّه أعلم - فى حق العامة ، وأما الخاصة فيشدد عليهم المحاسبة والتأديب ليرفع مقامهم ، ويكرم مثواهم.
ثم ذكر برهانا آخر على قدرته تعالى ، فقال :
[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٣٢ الى ٣٥]
وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥)
يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ آياتِهِ للدلالة على قدرته ووحدانيته الْجَوارِ «١» السفن الجارية فِي الْبَحْرِ

كَالْأَعْلامِ كالجبال إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ «٢» التي تجريها. وقرئ بالإفراد. فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ فيبقين ثوابت على ظهر البحر ، أي : غير جاريات لا غير متحركات أصلا ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ عظيمة فى أنفسها ، كثيرة فى العدد ، دلالة على باهر قدرته لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ لكلّ من حبس نفسه عن الهوى ، وصرف همته إلى النّظر فى آلائه ، أو : لكلّ صبّار على بلائه ، شكور لنعمائه ، أي : لكلّ مؤمن كامل فإن الإيمان نصفان : نصف شكر ، ونصف صبر لأن الإنسان لا يخلو من ضر يمسه ، أو نفع يناله ، فآداب

---

(١) هكذا فى الأصول ، وقد أثبت الياء فى (الجوار) وصلا نافع ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، وفى الحالين ابن كثير ويعقوب. وقرأ الباقون بغير ياء. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٠)

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر «الرياح» بالجمع. وقرأ الجمهور (الريح) إفرادا.

الضر : الصبر ، وآداب النّفع : الشكر ، وأيضا : راكب السفن ملزوم ، إما للمشقة أو السلامة ، فالصبر والشكر لا زمان له.

ولم يعطف إحدى الصفتين على الأخرى لأنهما لموصوف واحد.

أَوْ يُوبِقْهُنَّ أي : يهلكهن ، عطف على قوله : يُسْكِنِ أي : إن يشأ يسكن الرّيح فيركدن ، أو يعصفها فيغرقن [بعصفها] «١» بما كَسَبُوا من الذنوب. وإيقاع الإيباق عليهن مع أنه حال [أهلهن] «٢» للمبالغة والتّهويل ، وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ منها ، فلا يجازى عليها ، وإنما أدخل العفو فى حكم الإيباق ، حيث جزم جزمه لأن المعنى : أو إن يشأ يهلك ناسا وينج ناسا ، على طريق العفو عنهم. وقرئ : «ويعفو» «٣» على الاستئناف. وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا أي : فى إبطالها وردها ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ من مهرب من العذاب. والجملة معلقة بالنفي ، ومن نصب «يعلم» عطفه على علة محذوفة ، أي : لينتقم منهم وليعلم ، كما فى قوله : وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ «٤». وقيل غير ذلك. ومن رفعه «٥» فعلى الاستئناف. وقرئ بالجزم ، عطفا على : «يعف» ، فيكون المعنى :

أو إن يشأ يجمع بين إهلاك قوم وإنجاء آخرين وتحذير قوم.

الإشارة : ومن آياته الأفكار الجارية فى بحر التوحيد ، كالأعلام ، أي : أصحابها كالجبال الرّواسى ، لا يهزهم شىء من الواردات ولا غيرها ، إن يشأ يسكن رياح الواردات عن أسرارهم ، فيبقين رواكد على ظهر بحر الأحدية ، مستغرقين فى شهود الذات العلية ، أو يوبقهن بما كسبوا من سوء الأدب ، فيغرقن

فى الزندقة أو الحلول والاتحاد ، ويعف عن كثير ، ويعلم الذين يطعنون فى آياتنا الدالة علينا ما لهم من مهرب.

ثم زهّد فى الدنيا لأنها العائقة للأفكار ، عن الجري فى بحار الأسرار ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٣٦ الى ٤٣]

فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)

---

(١) فى الأصول [بعضها] والمناسب ما أثبته ، وهو الذي فى تفسير النّسفى وأبى السعود.

(٢) فى الأصول [أهلها].

(٣) قرأ بها الأعمش ، انظر البحر المحيط ٧/ ٤٩٧.

(٤) من الآية ٢١ من سورة مريم.

(٥) وهى قراءة نافع وابن عامر ، وأبى جعفر. وقرأ الجمهور (و يعلم) بالنصب. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٠).

يقول الحق جل جلاله : فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ مما ترجون وتتنافسون فيه فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : فهو متاعها ، تتمتعون به مدة حياتكم ، ثم يفنى ، وَما عِنْدَ اللَّهِ من ثواب الآخرة خَيْرٌ ذاتا لخلوص نفعه ، وَأَبْقى زمانا لدوام بقائه. لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، و«ما» الأولى ضمّنت معنى الشرط ، فدخلت فى جوابها الفاء ، بخلاف الثانية. وعن علىّ رضي اللّه عنه : أن أبا بكر - رضي اللّه عنه - تصدّق بماله كله ، فلامه النّاس ، فنزلت الآية.

ثم قال تعالى : وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ أي : الكبائر من هذا الجنس. وقرأ الأخوان : (كبير الإثم). قال ابن عباس : هو الشرك ، وَيجتنبون الْفَواحِشَ وهى ما عظم قبحها ، كالزنى ونحوه ، وَإِذا ما غَضِبُوا من أمر دنياهم هُمْ يَغْفِرُونَ أي : هم الأخصّاء بالغفران فى حال الغضب ، فيحلمون ، ويتجاوزون.

وفى الحديث : «من كظم غيظه فى الدنيا ردّ اللّه عنه غضبه يوم القيامة» «١».
وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ أتقنوا الصلوات الخمس ، وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ أي : ذو شورى ، يعنى : لا ينفردون برأيهم حتى يجتمعون عليه. وعن الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم. والشورى : مصدر ، كالفتيا ، بمعنى التشاور. وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ يتصدقون.
وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ الظلم هُمْ يَنْتَصِرُونَ ينتقمون ممن ظلمهم ، أي : يقتصرون فى الانتصار على ما حدّ لهم ، ولا يعتدون ، وكانوا يكرهون أن يذلّوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفسّاق ، فإذا قدروا عفوا ، وإنما حمدوا على الانتصار لأن من انتصر ، وأخذ حقه ، ولم يجاوز فى ذلك حدّ اللّه ، فلم يسرف فى القتل ، إن كان وليّ دم ، فهو مطيع للّه. وقال ابن العربي : قوله : وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ ... الآية ، ذكر الانتصار فى معرض

---

(١) أخرج الطبراني فى الأوسط (ح ١٣٢٠) عن أنس رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «من دفع غضبه دفع اللّه عنه عذابه» قال الهيثمي فى مجمع الزوائد (٨/ ٧٠) : فيه عبد السّلام بن هلال ، وهو ضعيف».
وأخرج أبو داود فى (الأدب ، باب فى كظم الغيظ ح ٤٧٧٧) والترمذي وحسّنه فى (البر والصلة ، باب فى كظم الغيظ ، ح ٢٠٢١) وابن ماجه فى (الزهد ، باب الحلم ، ح ٤١٨٦) عن معاذ بن أنس الجهني رضي اللّه عنه عن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قال : «من كظم غيظا هو قادر على أن ينفذه ، دعاه اللّه على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، حتى يخيره فى أىّ الحور شاء».

المدح ، ثم ذكر العفو فى معرض المدح ، فاحتمل أن يكون أحدهما رافعا للآخر ، واحتمل أن يكون ذلك راجعا إلى حالين ، أحدهما : أن يكون الباغي معلنا بالفجور وقحا فى الجمهور ، ومؤذيا للصغير والكبير ، فيكون الانتقام منه أفضل ، وفى مثله قال إبراهيم النّخعى : يكره للمؤمنين أن يذلّوا أنفسهم ، فيجترئ عليهم الفسّاق. وإما أن تكون الفلتة ، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة ، ويسأل المغفرة ، فالعفو هاهنا أفضل ، وفى مثله نزل : وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى «١» ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا الآية «٢». هـ.
ثم بيّن حدّ الانتصار ، فقال : وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها ، فالأولى سيئة حقيقة ، والثانية مجازا للمشاكلة ، وفى تسميتها سيئة نكتة ، وهى الإشارة إلى أن العفو أولى ، والأخذ بالقصاص سيئة بالنسبة إلى العفو ،

ولذلك عقبه بقوله :

فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ بينه وبين خصمه بالتجاوز والإغضاء فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وهى عدة مبهمة لا يقادر قدرها ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ الذين يبدؤون بالظلم ، أو : يتجاوزون حدّ الانتصار. وفى الحديث : «ينادى مناد يوم القيامة : من كان له أجر على اللّه فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا» «٣».

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ أي : أخذ حقه بعد ما ظلم - على إضافة المصدر إلى المفعول - فَأُولئِكَ جمع الإشارة مراعاة لمعنى «من» ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ للمعاقب ولا للمعاتب إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ يبتدئونهم بالظلم ، وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ يتكبرون فيها ، ويعلون ، ويفسدون بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بسبب بغيهم وظلمهم. وفسّر السبيل بالتبعة والحجة.

وَلَمَنْ صَبَرَ على الظلم والأذى ، وَغَفَرَ ولم ينتصر ، أو : ولمن صبر على البلاء من غير شكوى ، وغفر بالتجاوز عن الخصم ، ولا يبقى لنفسه عليه دعوى ، بل يبرى خصمه من جهته من كلّ دعوى فى الدنيا والعقبى ، إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أي : إن ذلك الصبر والغفران منه لمن عزم الأمور ، أي : من الأمور التي ندب إليها ، وعزم على فعلها ، أو : مما ينبغى للعاقل أن يوجبه على نفسه ، ولا يترخّص فى تركه. وحذف الرّاجع - أي : منه - كما حذف فى قولهم : السمن منوان بدرهم. وقال أبو سعيد القرشي : الصبر على المكاره من علامات الانتباه ، فمن صبر على مكروه أصابه ، ولم يجزع ، أورثه اللّه تعالى حال الرّضا ، وهو أصل الأحوال ومن جزع من المصيبات ، وشكى ، وكله إلى نفسه ، ثم لم تنفعه شكواه. هـ. وانظر تحصيل الآية فى الإشارة ، إن شاء اللّه.

قال ابن جزى : ويظهر لى أن هذه الآية إشارة إلى ذكر الخلفاء الرّاشدين - رضي اللّه عنهم - لأنه بدأ أولا بصفات أبى بكر الصدّيق ، ثم صفات عمر ، ثم صفات عثمان ، ثم صفات علىّ بن أبى طالب ، فأما صفات

---

(١) من الآية ٢٧٧ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة النّور. [.....]

(٣) عزاه فى اتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٦١ لابن عساكر فى التاريخ ، من حديث علىّ رضي اللّه عنه.

أبى بكر ، فقوله : الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وإنما جعلنا هذه صفات أبى بكر ، وإن كان جميعهم

متصفا بها ، لأن أبا بكر كانت له مزية فيها لم تكن لغيره ، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان الأمة لرجح» «١» وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «أنا مدينة الإيمان ، وأبو بكر بابها». وقال أبو بكر : «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا». والتوكّل إنما يقوى بقوة الإيمان.

وأما صفات عمر : فقوله وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ لأن ذلك هو التقوى ، وقد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم :

«أنا مدينة التقوى وعمر بابها» وقوله : وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ، وقوله : قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ نزلت فى عمر. وأما صفات عثمان فقوله : وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ لأن عثمان لمّا دعاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إلى الإسلام بادر إليه ، وقوله : وَأَقامُوا الصَّلاةَ لأن عثمان كان كثير الصلاة بالليل ، وفيه نزلت :

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ... الآية. «٢» وروى أنه كان يحيى الليل بركعة ، يقرأ فيها القرآن كله. وقوله : وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ لأن عثمان ولى الخلافة بالشورى ، وقوله : وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ لأن عثمان كان كثير النّفقة فى سبيل اللّه ، ويكفيك أنه جهز جيش العسرة.

وأما صفات علىّ فقوله : وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ لأنه لمّا قاتلته الفئة الباغية قاتلها ، انتصارا للحق ، وانظر كيف سمى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم المقاتلين لعلىّ الفئة الباغية ، حسبما ورد فى الحديث الصحيح ، أنه قال لعمّار : «ويح عمّار ، تقتله الفئة الباغية» «٣» وذلك هو البغي الذي أصابه. وقوله : فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إشارة إلى فعل الحسن بن علىّ ، حين بايع معاوية ، وأسقط حق نفسه ، ليصلح أحوال المسلمين ، ويحقن دماءهم. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى الحسن : «إنّ ابني هذا سيّد ، وسيصلح اللّه به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» «٤».

وقوله : وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إشارة إلى انتصار الحسين بعد موت

---

(١) أخرجه البيهقي فى الشعب (ح ٣٦) وابن أبى شيبة فى الإيمان (١٠٨) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه موقوفا.

وقال فى كشف الخفاء (٢/ ٢٣٤) : (أخرجه ابن عدى والديلمي ، كلاهما عن ابن عمر ، مرفوعا ، بلفظ : «لو وضع إيمان أبى بكر على إيمان هذه الأمة لرجح بها». وفى سنده «عيسى بن عبد اللّه» ضعيف ، لكن يقويه ما أخرجه ابن عدى أيضا من طريق أخرى بلفظ : «لوزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم» وله شاهد أيضا فى السنن عن أبى بكرة ، مرفوعا : أن رجلا قال : رأيت يا رسول اللّه! كأنّ ميزانا نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر ، فرجحت أنت ، ثم وزن أبو بكر بمن بقي فرجح ..» الحديث.

قلت : حديث أبى بكرة ، أخرجه أبو داود فى (السنة ، باب فى الخلفاء ، ح ٤٦٣٤) والترمذي فى

(الرؤيا ، باب ما جاء فى رؤيا النبي صلّى اللّه عليه وسلم الميزان والدلو ، ح ٢٢٨٧) وقال : «حسن صحيح» وعندهما : «ووزن عمر وأبو بكر ، فرجح أبو بكر ...».
(٢) الآية ٩ من سورة الزمر.
(٣) أخرج البخاري فى (الصلاة ، باب التعاون فى بناء المسجد ، ح ٤٤٧) عن أبى سعيد ، قال - وهو يحدث عن بناء المسجد - : كنا نحمل لبنة لبنة ، وعمار لبنتين لبنتين ، فرآه النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فينفض التراب عنه ، ويقول : «ويح عمار ، تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ، ويدعونه إلى النّار» قال : يقول عمار : أعوذ باللّه من الفتن.
(٤) أخرجه البخاري فى (الصلح ، باب قول النّبى صلّى اللّه عليه وسلم للحسن بن علىّ رضي اللّه عنهما : إن هذا سيد ، ح ٢٧٠٤) من حديث أبى بكرة رضي اللّه عنه.

(٢٢٥/٥)

أخيه ، وطلبه للخلافة ، وانتصاره من بنى أمية. وقوله : إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ إشارة إلى بنى أمية ، فإنهم استطالوا على النّاس ، كما فى الحديث : «إنهم جعلوا عباد اللّه خولا ، ومال اللّه دولا ، فيكفيك من ظلمهم أنهم كانوا يلعنون علىّ بن أبى طالب على منابرهم. وقوله : وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إشارة إلى صبر أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه وسلم على ما نالهم من الضر والذل ، طول مدة بنى أمية. «١» هـ.

الإشارة : قوله تعالى : فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : وينقص من درجاتكم فى الآخرة بقدر ما تمتعتم به ، كما فى الخبر ، ولذلك زهّد فيه بقوله : وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى .. الآية ، أي : وما عند اللّه من الثواب الموعود خير من هذا القليل الموجود. وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ هى أمراض القلوب ، كالحسد والكبر والرّياء وغيرها ، وَالْفَواحِشَ هى معاصى الجوارح كالزنا وغيره. وقوله تعالى : وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ لم يقل الحق تعالى : والذين لم يغضبوا لأن الغضب وصف بشرى ، لا ينفك عنه مخلوق ، فالمطلوب المجاهدة فى دفعه ، وردّ ما ينشأ عنه ، لا زواله من أصله ، فعدم وجوده فى البشر أصلا نقص ، ولذلك قال الشافعي رضي اللّه عنه : «من استغضب ولم يغضب فهو حمار» فالشرف هو كظمه بعد ظهوره ، لا زواله بالكلية.

وقوله تعالى : وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ قال القشيري : المستجيب لربه هو الذي لا يبقى له نفس إلا على موافقة رضاه ، ولا يبقى لهم منه بقية ، وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ أي : لا يستبدّ [أحدهم] «٢» برأى ، ويتّهم رأيه وأمره ، ثم إذا أراد القطع توكّل على اللّه. هـ.

وحاصل ما اشتملت عليه الآية فى رد الغضب : أربع مقامات الأول : قوم من شأنهم الغفران مطلقا ، قدروا أو عجزوا ، لا يتحركون فى الانتصار قط ، وهو قوله تعالى : وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ والثاني : قوم قادرون على إنفاذ الغضب ، فتحركوا فى الانتصار ، ثم عفوا بعد الاقتدار ، وهذا قوله : وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ، ثم قال : فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ. والثالث : قوم قدروا وانتصروا ، وأخذوا حقهم ، لكن وقفوا عند ما حدّ لهم ، وهو قوله : وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ .. الآية. والرّابع : قوم ظلموا ، فعفوا ، وزادوا الإحسان إلى من أساء إليهم ، والدعاء له بالمغفرة ، حتى يصير مرحوما بهم ، وهى رتبة الصدّيقية ، أن ينتفع بهم أعداؤهم ، وهو قوله تعالى :
وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ، ولذلك جعل اللّه هذا القسم من عزم الأمور.

---

(١) على هامش النّسخة الأم مايلى : قلت : هذا التفسير الذي نقله عن ابن جزى باطل ، يجل كلام اللّه تعالى عنه ، والأحاديث التي ذكرها كلها موضوعة ، ما عدا : «لو وزن إيمان أبى بكر ..» وما عدا حديث : أنا مدينة العلم ، وعلىّ بابها.
(٢) ما بين المعقوفتين مستدرك من لطائف الإشارات.

(٢٢٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٢٧
وعند الصوفية : ثلاث طبقات : العامة ينتصرون ، والخاصة لا ينتصرون ، لكن يرفعون أمرهم إلى اللّه فى أخذ حقهم من ظالمهم ، وخاصة الخاصة يحسنون لمن أساء إليهم ، كما تقدم. وقال القشيري : وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ وهو الظلم ، ينتصرون لعلمهم أن الظلم أصابهم من قبل أنفسهم ، فينتصرون من الظالم ، وهو النّفس ، ويكبحون عنانها من الرّكض فى ميدان المخالفة. ثم قال : قوله : وَلَمَنِ انْتَصَرَ .. الآية ، علم اللّه أنّ من عباده من لا يجد الحرية من أحكام النّفس ، ولا يستمكن من محاسن الخلق ، فرخّص لهم فى المكافأة على سبيل العدل والقسط ، وإن كان الأولى بهم الصفح والعفو. هـ.
ثم ذكر وبال الظلم وعقوبته ، فقال :
[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٤٤ الى ٤٨]
وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ

يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (٤٨)

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ أي : فما له من أحد يلي هدايته من بعد إضلال اللّه إياه ، ويمنعه من عذابه. وَتَرَى الظَّالِمِينَ يوم القيامة ، وهم الذين أضلهم اللّه ، لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ حين يرون العذاب ، وأتى بصيغة الماضي للدلالة على تحقيق الوقوع ، يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ رجعة إلى الدنيا مِنْ سَبِيلٍ حتى نؤمن ونعمل صالحا.

(٢٢٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٢٨

وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها على النّار ، يدلّ عليها ذكر العذاب. والخطاب لكلّ من يتأتى منه الرّؤية خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ متذللين متضائلين مما دهاهم ، فالخشوع : خفض البصر وإظهار الذل ، يَنْظُرُونَ إلى النار مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ضعيف بمسارقة ، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف عند إرادة قتله. وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ بالتعرض للعذاب الخالد يَوْمَ الْقِيامَةِ ، و«يوم» : متعلق بخسروا. وقول المؤمنين واقع فى الدنيا. ويقال ، أي : يقولونه يوم القيامة ، إذا رأوهم على تلك الصفة : أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ دائم ، وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ برفع العذاب عنهم مِنْ دُونِ اللَّهِ حسبما كانوا يرجون ذلك فى الدنيا ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ إلى النّجاة.

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ إلى ما دعاكم إليه على لسان نبيه ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ أي : يوم القيامة لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ أي : لا يرده اللّه بعد ما حكم بمجيئه ، ف «من» متعلق ب «لا مرد» ، أو : ب «يأتى» أي : من قبل أن يأتى من اللّه يوم لا يقدر أحد على رده ، ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ أي : مفر تلتجئون إليه ، وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ أي : وليس لكم إنكار لما اقترفتموه لأنه مدون فى صحائف أعمالكم ، وتشهد عليكم جوارحكم.

فَإِنْ أَعْرَضُوا عن الإيمان فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً رقيبا ، تحفظ أعمالهم ، وتحاسبهم ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ ما عليك إلا تبليغ الرّسالة ، وقد بلغت ، وليس المانع لهم من الإيمان عدم التبليغ ، وإنما المانع :

الطغيان وبطر النّعمة ، كما قال تعالى : وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً أي : نعمة من الصحة ، والغنى ، والأمن ، فَرِحَ بِها وقابلها بالبطر ، وتوصل بها إلى المخالفة والعصيان. وأريد بالإنسان الجنس ، لقوله تعالى :

وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ، بلاء ، من مرض ، وفقر ، وخوف ، بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ بليغ الكفر ، ينسى النّعمة رأسا ، ويذكر البلية ، ويستعظمها ، بل يزعم أنها أصابته من غير استحقاق.
وأفرد الضمير فى (فرح) مراعاة للفظ ، وجمعه فى «تصبهم» مراعاة للمعنى. وإسناد هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها من خواص الجنس ، لغلبتها فيهم. وتصدير الشرطية الأولى بإذا ، مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة للتنبيه على أن إيصال الرّحمة محقق الوجود ، كثير الوقوع ، وأنه مراد بالذات ، كما أن تصدير الثانية بأن ، وإسناد الإصابة إلى السيئة ، وتعليلها بأعمالهم للإيذان بندرة وقوعها ، وأنها غير مرادة بالذات ، «إن رحمتى سبقت غضبى». ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النّعم. قاله أبو السعود.
الإشارة : من تنكبته العناية السابقة ، وأدركته الغواية اللاحقة ، لم ينفع فيه وعظ ولا تذكير ، وليس له من عذاب اللّه وليّ ولا نصير ، فإذا تحققت الحقائق ، وطلب الرّجوع ، لم يجد له سبيلا ، وبقي فى الهوان خاشعا ذليلا ، فيعيرهم

(٢٢٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٢٩
من سبقت لهم العناية ، من أهل الجد والتشمير ، ويقولون : هؤلاء الذين خسروا أنفسهم ، حيث لم يتعبوها فى مرضاة اللّه ، وأهليهم ، حيث لم يذكّروهم اللّه.
قال القشيري : قوله تعالى : اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ بالوفاء بعهده ، والقيام بحقّه ، والرّجوع من مخالفته إلى موافقته ، والاستسلام فى كلّ وقت لحكمه والطريق اليوم إلى الاستجابة مفتوح ، وعن قريب سيغلق الباب على القلب بغتة ، ويؤخذ فلتة. هـ. ويقال لكلّ واعظ وداع : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ... الآية.
ثم بيّن وجه ما تقدم ، من أن الأمور كلها بيده ، هداية وإضلالا ، وإنعاما وابتلاء ، فقال :
[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٤٩ الى ٥٠]
لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)
يقول الحق جل جلاله : لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : يملك التصرف فيهما ، وفى كلّ ما فيهما ، كيف يشاء ، ومن جملته : أن يقسم النّعمة والبلية ، حسبما يريده. يَخْلُقُ ما يَشاءُ مما يعلمه الخلق ومما لا يعلمونه ، يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً من الأولاد وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ منهم ، من غير أن يكون لأحد فى ذلك مدخل ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ أي : يقرن بين الصنفين ، ويهبهما جميعا ذُكْراناً وَإِناثاً ، بأن تلد

غلاما ثم جارية ، أو تلدهما معا. وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً لا نسل له. والعقيم : الذي لا يولد له ، رجل أو امرأة.

وقدّم الإناث أولا على الذكور لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء ، لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهمّ ، أو : لأن الكلام فى البلاء ، والعرب تعدهن عظيم البلايا ، أو : تطييب قلوب آبائهم ، ولمّا أخّر الذكور - وهم أحقاء بالتقديم - تدارك ذلك بتعريفهم لأن التعريف تنويه وتشريف ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين ما يستحقه من التقديم والتأخير ، فقال : ذُكْراناً وَإِناثاً. وقيل المراد : أحوال الأنبياء - عليهم السّلام - حيث وهب لشعيب ولوط إناثا ، ولإبراهيم ذكورا ، وللنبى صلّى اللّه عليه وسلم ذكورا وإناثا ، وجعل يحيى وعيسى عقيمين.

إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ مبالغ فى العلم والقدرة ، فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة.

الإشارة : يهب لمن يشاء إناثا ، علوما وحسنات ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أذواقا وواردات ، ويجعل من يشاء عقيما ، لا علم ولا ذوق ، وانظر لطائف المنن «١». أو تقول : يهب لمن يشاء إناثا من ورّث علم الرّسوم الظاهر ،

---

(١) للشيخ أحمد بن عطاء السكندرى. باب تبيان معنى آيات كتاب اللّه تعالى ص ١٦٦.

(٢٢٩/٥)

وأقيمت بعده ، ويهب لمن يشاء الذكور من ورّث علم الأذواق والوجدان ، وعمّر رجالا ، أو يزوجهم من ورثهما ، ويجعل من يشاء عقيما لم يترك وارثا ، لا من الظاهر ، ولا من الباطن ، وقد يكون كاملا وهو عقيم ، وقد يكون غير كامل وله أولاد كثيرة ، لكن الغالب على من له أولاد أن يتسع بهم ، بخلاف العقيم. واللّه تعالى أعلم.

ثم قرر عظمة ملكه ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٥١ الى ٥٣]

وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ لِبَشَرٍ أي : ما صحّ لأحد من البشر أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ بوجه من الوجوه إِلَّا

وَحْياً إلهاما ، كقوله عليه الصلاة والسّلام : «ألقى فى روعى» «١» أو : رؤيا فى المنام لقوله صلّى اللّه عليه وسلم :

«رؤيا الأنبياء وحي» «٢» كأمر إبراهيم عليه السّلام بذبح الولد ، وكما أوحى إلى أم موسى ، روى عن مجاهد : «أوحى اللّه الزبور إلى داود عليه السّلام - فى صدره». أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ بأن يسمع كلاما من اللّه ، من غير رؤية السامع من يكلّمه ، كما سمع موسى عليه السّلام من الشجرة ، ومن الفضاء فى جبل الطور ، وليس المراد به حجاب اللّه تعالى على عبده حسا إذ لا حجاب بينه وبين خلقه حسا ، وإنما المراد : المنع من رؤية الذات بلا واسطة.

أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا أو : بأن يرسل ملكا فَيُوحِيَ الملك بِإِذْنِهِ بإذن اللّه تعالى وتيسيره ما يَشاءُ من الوحى. وهذا هو الذي يجرى بينه تعالى وبين أنبيائه فى عامة الأوقات. روى : أن اليهود قالت للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : ألا تلكم اللّه ، وتنظر إليه إن كنت نبيا ، كما كلمه موسى ، ونظر إليه؟ فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «لم ينظر موسى إلى اللّه تعالى» فنزلت «٣».

---

(١) ورد : «إن روح القدس نفث فى روعى أنّ نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ، وتستوعب رزقها ...» الحديث. أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٢٧) من حديث أبى أمامة رضي اللّه عنه. وجاءت كلمة «ألقى فى روعى» بنصها عن أبى سعيد الخدري فى حديث الرّقية بالفاتحة ، ذلك عند ما قال الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم : «وما يدريك أنها رقية»؟ فقال أبو سعيد : ألقى فى روعى». الحديث أخرجه أحمد (٣/ ٥٠).

(٢) أخرجه البخاري فى (الوضوء ، باب التخفيف فى الوضوء ، ١٣٨) عن عبيد بن عمير (تابعي) موقوفا ، وقال الحافظ ابن حجر فى فتح الباري (١/ ٢٨٩) : «رواه مسلم مرفوعا».

(٣) قال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف (ص ١٤٦) : «لم أجده».

والذي عليه جمهور المحققين أن نبينا عليه الصلاة والسّلام رأى ربه ليلة المعراج ، وكلّمه مشافهة ، وعليه حمل البيضاوي قوله تعالى : إِلَّا وَحْياً لأن الوحى هو : الكلام الخفي ، المدرك بسرعة ، أعم من أن يكون مشافهة أو غيرها.

قال الطيبي : وإذا حمل الوحى على ما قاله البيضاوي ، وأنه المشافهة ، المعنى بقوله : فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى

«١» اتجه ترتيب الآية ، وأنه ذكر أولا الكلام بلا واسطة ، بل مشافهة ، وهو حال نبينا صلّى اللّه عليه وسلم ، ثم ذكر ما كان بغير واسطة ، ولكن لا بمشافهة ، بل من وراء الغيب ، ثم ذكر الكلام بواسطة الإرسال «٢». هـ. بالمعنى.

إِنَّهُ عَلِيٌّ متعال عن صفات المخلوقين ، لا يتأتى جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلا بأحد الوجوه المذكورة ، ولا تكون المكافحة إلا بالغيبة عن حس البشرية ، حَكِيمٌ يجرى أفعاله على سنن الحكمة ، فيكلم تارة بواسطة ، وأخرى بدونها ، مكافحة ، أو غيرها.

وَكَذلِكَ أي : ومثل ذلك الإيحاء البديع - كما وصفنا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا وهو القرآن ، الذي هو للقلوب بمنزلة الرّوح للأبدان ، فحييت الحياة الأبدية. ما كُنْتَ تَدْرِي قبل الوحى مَا الْكِتابُ أىّ شيء هو ، وَلَا الْإِيمانُ بما فى تضاعيف الكتاب من الأمور التي لا تهتدى إليها العقول ، لا الإيمان بما يستقل به العقل والنّظر ، فإنّ درايته صلّى اللّه عليه وسلم مما لا ريب فيه قطعا. قال القشيري : ما كنت تدرى قبل هذا ما القرآن ولا الإيمان بتفصيل هذه الشرائع. وقال الشيخ البكري : أي الإيمان على الوجه الأخص ، المرتب على تنزلات الآيات ، وتلاوة البينات ، واستكشاف وجه الحق بأنوار العلم المنزل على قلبه من حضرة ربه. هـ.

وقال ابن المنير : الإيمان برسالة نفسه ، وهو المنفي عنه قبل الوحى لأن حقيقة الإيمان التصديق باللّه وبرسوله. هـ.

وَلكِنْ جَعَلْناهُ أي : الروح الذي أوحيناه إليك نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ هدايته مِنْ عِبادِنا ، وهو الذي يصرف اختياره نحو الاهتداء به. وَإِنَّكَ لَتَهْدِي بذلك النّور من نشاء هدايته ، أو : وإنك لتدعو إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

---

(١) الآية : ١٠ من سورة النّجم.

(٢) على هامش النّسخة الأساسية مايلى :

وعلى كلام البيضاوى يختل نظام القرآن المعجز ببلاغته ، إذ معناه : وما كان لبشر أن يكلمه اللّه إلا كلاما مواجهة أو من وراء حجاب .. إلخ ، وهذا غير معقول صدوره من بلغاء البشر ، فضلا عن كلام اللّه ، فأعجب للطيبى وللمؤلف ، ولكلّ من أمره على هذا المعنى المختل. هـ.

هو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام ، صِراطِ اللَّهِ بدل من الأول ، وإضافته إلى الاسم الجليل ، ثم

وصفه بقوله تعالى : الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لتفخيم شأنه ، وتقرير استقامته ، وتأكيد وجوب سلوكه فإن كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى ، خلقا ، وملكا ، وتصرفا ، مما يوجب ذلك أتم الإيجاب. أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ أي : الأمور قاطبة راجعة إليه ، لا إلى غيره ، فيتصرف فيها على وفق حكمته ومشيئته.

الإشارة : قد تحصل للأولياء المكالمة مع الحق تعالى بواسطة تجلياته ، فيسمعون خطابه تعالى من البشر والحجر ، أو بلا واسطة ، بحيث يسمعون الكلام من الفضاء ، وإليه أشار الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه بقوله : «وهب لنا مشاهدة تصحبها مكالمة» ، ولا تكون هذه الحالة إلا للأكابر من أهل الفناء والبقاء. وأما مكالمة الحق من النّور الأقدس ، بلا واسطة ، فهو خاص نبينا صلّى اللّه عليه وسلم ليلة الإسراء. قال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرّحمن الفاسى رضي اللّه عنه :

والذي عندى أن التكلم على المكافحة والمشافهة إنما يكون بالانخلاع عن البشرية ، ومحوها ، والبقاء بصفات الربوبية ، وذلك إشارة إلى أنه - عليه السّلام - إنما شوفه وكلّم بعد العروج عن أرض الطبيعة إلى سماء الحقيقة ، وكان بالأرض يكلم بالواسطة ، وموسى كلّم بغير واسطة ، ولكن بغير مشافهة ، ولذلك كان كلامه بالأرض ، ولم يعط الرؤية لأنها لا تكون فى الأرض ، أي : فى أرض البشرية بل لا بد من الغيبة عنها. وذهب الورتجبي إلى أن الحصر فيما ذكر فى الآية إنما هو لمن كان فى حجاب البشرية ، فأما من خرج عنها إلى الغيب ، وألبس نور القرب وكحّل عينه بنوره تعالى ، ومدّ سمعه بقوة الرّبوبية ، فإنه يخاطب كفاحا وعيانا. ونقل مثل ذلك عن الواسطي ، فراجع بسطه فيه.

والفرق بينه وبين ما ذكرنا : أن خطاب المكافحة عنده خارجة من الثلاثة المذكورة فى الآية ، وعندنا داخلة فى قوله : إِلَّا وَحْياً لأنه أعم من المشافهة ، واللّه أعلم.

وقوله تعالى : وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أي : طريق الوصول والترقي أبدا ، فيؤخذ منه : أن وساطته صلّى اللّه عليه وسلم لا تنقطع عن المريد أبدا لأن الترقي يكون باستعمال أدب العبودية ، وهى مأخوذه عنه صلّى اللّه عليه وسلم ، وكما أن الترقي لا ينقطع فالأدب - الذي هو سلوك طريقته صلّى اللّه عليه وسلم لا ينقطع. واللّه تعالى أعلم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وسلم.

سورة الزّخرف

مكية. وهى تسع وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله : ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ ... «١» إلخ ، مع قوله :

وَالْكِتابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا ، فإنه تتميم له.

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤)

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (٥)

يقول الحق جل جلاله : حم يا محمد ، وَحق الْكِتابِ الْمُبِينِ أي : المبين لما أنزل عليهم ، لكونه بلغتهم ، وعلى أساليبهم ، أو : الموضّح لطريق الهدى من الضلالة ، أو : المبيّن لكلّ ما تحتاج إليه الأمة فى أبواب الديانة. وجواب القسم : إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا بلغتكم لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أي : جعلنا ذلك الكتاب قرآنا عربيا لكى تفهموه ، وتحيطوا بما فيه من النّظم الرّائق ، والمعنى الفائق ، وتقفوا على ما تضمنه من الشواهد القاطعة بخروجه عن طوق البشر ، وتعرفوا حق النّعمة فى ذلك ، فتنقطع أعذاركم بالكلية.

وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا أي : وإن القرآن العظيم مثبت عند اللّه فى اللوح المحفوظ ، دليله قوله تعالى :

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ «٢». وسمّى أمّ الكتاب لأنه أصل الكتب السماوية ، منه تنقل وتنسخ. وقوله تعالى : لَعَلِيٌّ خبر "إن" أي : إنه رفيع القدر بين الكتب ، شريف المنزلة لكونه معجزا من بينها. أو : فى أعلى طبقات البلاغة. حَكِيمٌ ذو حكمة بالغة ، . أو : محكم ، لا ينسخه كتاب.

وبعد ما بيّن علو شأنه ، وبيّن أنه أنزله بلغتهم ليعلموه ، ويؤمنوا به ، ويعملوا بما فيه ، عقّب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه ، فقال : أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ أي : ننحيه ونبعده. والضرب : مجاز ، من قولهم : ضرب الغرائب

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الشورى. [.....]

(٢) الآيتان : ٢١ - ٢٢ من سورة البروج.

عن الحوض «١». وفيه إشعار باقتضاء الحكمة توجيه الذكر إليهم ، وملازمته لهم ، كأنه يتهافت عليهم ثم يضربه عنهم. والفاء : للعطف على محذوف ، أي : أنهملكم فنضرب عنكم الذكر صَفْحاً أي :

إعراضا ، مصدر ، من :

صفح عنه : إذا أعرض ، منصوب على أنه مفعول له ، على معنى : أفنعزل عنكم إنزال القرآن ، وإلزام الحجة به إعراضا عنكم. ويجوز أن يكون مصدرا مؤكدا لما دلّ عليه «نضرب» لأنه فى معنى الصفح ، كأنه قيل : أفنفصح صفحا أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ ، أي : لأن كنتم منهمكين فى الإسراف ، مصرّين عليه لأن حالكم اقتضى تخيلتكم وشأنكم ، حتى تموتوا على الكفر والضلالة ، فتبقوا فى العذاب الخالد ، لكن بسعة رحمتنا لا نفعل ذلك ، بل نهديكم إلى الحق ، بإرسال الرّسول الأمين ، وإنزال الكتاب المبين.

ومن قرأ بالكسر «٢» فشرط حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه ، وهو من الشرط الذي يصدر عن الجازم بصحة الأمر ، كما يقول الأجير : إن كنت عملت لك فوفّنى حقى ، وهو عالم بذلك. وعبّر ب «أن» إخراجا للمحقق مخرج المشكوك لاستهجالهم «٣» ، كأن الإسراف من حقه ألا يقع.

الإشارة : (حم) أي : حببناك ، ومجدناك ، وملكناك ، وحق الكتاب المبين. ثم استأنف فقال : (إنا جعلناه) أي :

ما شرفناك به أنت وقومك (قرآنا عربيا) يفهمه من يسمعه (لعلكم تعقلون) عن اللّه ، فتشكروا نعمه. (و إنه فى أمّ الكتاب) أي : وإن الذي شرفناكم به فى أمّ الكتاب. قال الورتجبي : أي : إنه صفتى ، كان فى ذاته «٤» منزها عن النقائص والافتراق - أي : منزها عن الحروف والأصوات ، التي من شأنها التغير ، وعن التقديم والتأخير ، وهو افتراق كلماته. إذ هما من صفات الحدث. وأم الكتاب عبارة عن [ذاته القديم ، لأنها] «٥» أصل جميع الصفات ، (لدينا) معناه : ما ذكرنا أنه فى أمّ الكتاب عندنا (لعليّ) علا عن أن يدركه أحد بالحقيقة ، ممتنع من انتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، (حكيم) محكم مبين. وقال جعفر : عليّ عن درك العباد وتوهمهم ، حكيم فيما دبّر وأنشأ وقدّر. هـ.

فانظره ، فإنّ هذه من صفات الحق ، والكلام فى أوصاف القرآن.

وقوله تعالى : أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً ... الآية ، قال القشيري : وفى هذه إشارة لطيفة ، وهو : ألا يقطع الكلام عمّن تمادى فى عصيانه ، وأسرف فى أكثر شأنه ، [فأحرى] «٦» أن من لم يقصّر فى إيمانه ، أو تلطّخ

---

(١) الغرائب : جمع غريبة ، وهى الإبل الغريبة عن إبل صاحب الحوض.

(٢) قرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر «إن كنتم» بكسر الهمزة ، على أنها شرطية. وقرأ الباقون بالفتح على العلة. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٣).

(٣) فى الأصول (لاستهجانهم) والمثبت من تفسير أبى السعود.

(٤) فى الورتجبي [ذاتى].

(٥) فى الورتجبي : [ذات القدم لأنه].
(٦) فى الأصول [أرجو].

(٢٣٤/٥)

بعصيانه ، ولم يدخل خلل فى عرفانه ، فإنه لا يمنع عنه رؤية لطائف غفرانه. هـ. يعنى : أن الحق جل جلاله لم يقطع كلامه عمن تمادى فى ضلاله ، فكيف يقطع إحسانه عمن تمسك بإيمانه ، ولو أكثر من عصيانه. وكذلك أهل النّسبة التصوفية ، إذا اعوجّ أخوهم ، لا يقطعون عنه كلامهم وإحسانهم ، بل يلاطفونه ، حتى يرجع ، وهذا مذهب الجمهور.
ثم سلّى نبيه بمن قبله ، فقال :
[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٦ الى ٨]
وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٧) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨)
يقول الحق جل جلاله : وَكَمْ أَرْسَلْنا أي : كثيرا أرسلنا قبلك مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ فى الأمم الماضية فكذّبوهم واستهزءوا بهم. وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ، فاصبر كما صبروا. ويحتمل أن يكون تقريرا لما قبله لبيان أن إسراف الأمم السابقة لم يمنعه تعالى من إرسال الرّسل إليهم ، وكونها تسلية للرسول صلّى اللّه عليه وسلم أظهر. فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً أي : فأهلكنا من الأمم السالفة من كان أكثر منهم طغيانا وإسرافا ، وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ أي : سلف فى القرآن غير مرة ذكر قصة الأولين ، وهى عدة له صلّى اللّه عليه وسلم ، ووعيد لقومه ، بطريق الأولوية. فمثل ما جرى على الأولين يجرى على هؤلاء لاشتراكهم فى الوصف. وظاهر الآية : أن النبي والرّسول واحد ، والمشهور : أن النّبى أعم ، ف كل رسول نبى ، ولا عكس ، فالنبى مقصور فى الحكم على نفسه ، والرّسول نبىّ مكلف بالتبليغ.
الإشارة : ما سليت به الأنبياء والرّسل يسلّى به الأولياء لأنهم خلفاؤهم ، ف كل من أوذى واستهزئ به يتذكر ما جرى على من كان أفضل منه من الأنبياء وأكابر الأولياء ، فيخف عليه الأذى. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر إقرارهم بوجود الصانع ، فقال :
[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٩ الى ١٤]
وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (١٢)

لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)
وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)

(٢٣٥/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٣٦
يقول الحق جل جلاله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ أي : المشركين مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ أي : ينسبون خلقها إلى من هذا وصفه فى نفس الأمر لا أنهم يعبّرون عنه بهذا العنوان. واختار هذين الوصفين للإيذان بانفراده بالإبداع والاختراع والتدبير لأن العزة تؤذن بالغلبة والاقتدار ، والعلم يؤذن بالتدبر والاختيار ، وليرتب عليه ما يناسبه من الأوصاف ، وهو قوله : الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً «١» أي :
موضع قرار كالمهد المعلق فى الهواء ، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا تسلكونها فى أسفاركم لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ أي : لكى تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم ، أو : بالتدبر فيها إلى توحيد ربكم ، الذي هو المقصد الأصلى.
وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ بمقدار يسلم معه العباد ، وتحتاج إليه البلاد ، على ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ، فَأَنْشَرْنا بِهِ أي : أحيينا بذلك الماء بَلْدَةً مَيْتاً خاليا عنه الماء والنّبات.
وقرئ : «ميّتا» بالتشديد «٢». وتذكيره لأن البلدة بمعنى البلد. والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظيم خطره ، كَذلِكَ تُخْرَجُونَ أي : مثل ذلك الإحياء ، الذي هو فى الحقيقة : إخراج النّبات من الأرض ، تخرجون من قبوركم أحياء. وفى التعبير عن إخراج النّبات بالإنشاء ، الذي هو إحياء الموتى ، وعن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات ، وتهوين لأمر البعث ، لتقويم سنن الاستدلال ، وتوضيح منهاج القياس.
وهذه الجمل ، من قوله الَّذِي جَعَلَ ... : استئناف منه تعالى ، وليست من مقول الكفار لأنهم ينكرون الإخراج من القبور ، بل الآية حجة عليهم فى إنكار البعث ، وكذا قوله : وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها ، أي :
أصناف المخلوقات بحذافيرها ، على اختلاف أنواعها وألوانها. وقيل : الأزواج : ما كان مزدوجا ، كالذكر والأنثى ، والفوق والتحت ، والأبيض والأسود ، والحلو والحامض ، وقيل : كل ما ظهر من الغيب فهو مزدوج. والفرد هو اللّه.

---

(١) أثبت المفسر قراءة : «مهادا» بكسر الميم وفتح الهاء ، وألف بعدها ، وهى قراءة نافع وابن كثير

وأبى عمرو ، وابن عامر. وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : «مهدا» بفتح الميم وسكون الهاء ، مع القصر.

(٢) وبذلك قرأ أبو جعفر .. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٤).

(٥/٢٣٦)

وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ أي : ما تركبونه ، يقال : ركبوا فى الفلك ، وركبوا الأنعام ، فغلب المتعدّى بغير واسطة لقوته [على] «١» المتعدى بواسطة ، فقيل : تركبونه.

لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ : ولتستعلوا على ظهور ما تركبونه من الفلك والأنعام ، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ تذكروها بقلوبكم ، معترفين بها بألسنتكم ، مستعظمين لها ، ثم تحمدوا عليها بألسنتكم ، وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا أي : ذلّل لنا هذا المركوب ، متعجبين من ذلك وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ مطيقين. يقال : أقرن الشيء : إذا أطاقه ، وأصله : وجده قرينه لأن الصعب لا يكون قرينا للضعيف إلا إذا ذللّه اللّه وسهّله ، وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ أي : راجعون. وفيه إيذان بأن حق الرّاكب أن يذكر عند ركوبه مركب الدنيا ، آخر مركبه منها ، وهو : الجنازة فيبنى أموره فى مسيره على تلك الملاحظة ، حتى لا يخطر بباله شيء من زينة الدنيا ، وملاهيها وأشغالها.

وعن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم «أنه كان إذا وضع رجله فى الرّكاب ، قال : «بسم اللّه» فإذا استوى على الدابة قال : الحمد للّه الذى سخر لنا هذا ... إلى : لَمُنْقَلِبُونَ ، ثم كبّر «ثلاثا ، وهلل ثلاثا ، ثم قال : «اللهم اغفر لى ..» «٢» ، وحكى أن قوما ركبوا ، وقالوا : «سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا ... الآية ، وفيهم رجل على ناقة لا تتحرك هزالا ، فقال : إنى مقرن لهذه - أي مطيق - فسقط منها لوثبتها ، واندقت عنقه «٣». وينبغى ألا يكون ركوب العاقل للشهرة والتلذذ ، بل للاعتبار ، فيحمد اللّه ويشكره على ما أولاه من نعمه ، وسخّر له من أنعامه.

الإشارة : قد اتفقت الملل كلها على وجود الصانع ، إلا من لا عبرة به من الفلاسفة ، وإنما كفر من كفر بالإشراك ، أو : بوصف الحق على غير ما هو عليه ، أو : بجحد الرّسول. وقد تواطأت الأدلة العقلية والسمعية على وجود الحق وظهوره ، بظهور آثار قدرته ، والصفة لا تفارق الموصوف ، فدلّ بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه ، على وجود أوصافه ، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته. فأهل السلوك يكشف لهم أولا عن وجود آثاره ، ثم عن أسمائه ، ثم عن صفاته ، ثم عن شهود ذاته. وأهل الجذب يكشف لهم أولا عن ذاته ، ثم عن أوصافه ، ثم عن أسمائه ، ثم عن آثاره ، فربما التقيا فى الطريق ، هذا فى ترقيه ، وهذا فى تدليه ، كما فى الحكم.

(١) فى الأصول (فى) والمثبت من تفسير النّسفى.
(٢) أخرجه ، مطولا ، أبو داود فى (الجهاد ، باب ما يقول الرّجل إذا ركب ٣/ ٧٧ ، ح ٢٦٠٢) والترمذي فى (الدعوات ، باب ما يقول إذا ركب دابة ٥/ ٤٦٧ ح ٣٤٤٦). وقال : [حديث حسن صحيح]. وابن حبان (الأذكار ، باب ما يقول إذا ركب الدابة ح ٢٣٧٠ - ٢٣٨١. ص ٥٩١ موارد) والحاكم (٢/ ٩١) وصحّحه على شرط مسلم. من حديث سيدنا على رضي اللّه عنه وكرم وجهه.
(٣) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٧١٧) لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن سليمان بن يسار.

(٢٣٧/٥)

وقوله تعالى : الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً ... «١» إلخ ، قال القشيري : كما جعلها قرارا لأشباحهم ، جعل الأشباح قرارا لأرواحهم فهى سكّان النّفوس ، كما أن الخلق سكّان الأرض ، فإذا انتهت مدة كون النّفوس ، حكم اللّه بخرابها .. كذلك إذا فارقت الأرواح الأشباح بالكليّة ، قضى اللّه بخرابها.
ثم قال فى قوله : فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً : وكما يحيى الأرض بالمطر يحيى القلوب بحسن النّظر. والذي خلق من الأزواج أصناف الخلق ، كذلك حبس عليكم الأحوال كلها ، فمن رغبة فى الخيرات ، وخوف يحملكم على ترك الزلات ، ورجاء يبعثكم على فعل الطاعات ، طمعا فى المثوبات ، وغير ذلك من فنون الصفات ، وكما سخّر الأنعام ، وأعظم المنّة بذلك ، سخّر للمؤمنين مركب التوفيق ، يحملهم عليه إلى بساط الطاعة ، وسهّل للمريدين مركب الإرادة ، وحملهم عليه إلى عرصات الجود ، وفضاء الشهود ، وسهّل للعارفين مركب الهمّة ، فأناخوا بالحضرة القدسية ، وعند ذلك محط الكافة ثم لا تخرق سرادقات العزة همّة مخلوق ، سواء كان ملكا مقرّبا ، أو نبيّا مرسلا ، أو وليّا مكرّما.
فعند سطوات العزّ يتلاشى كلّ مخلوق ، ويقف وراءها كلّ محدث مسبوق. هـ. ببعض المعنى.
وسرادقات العز :
حجاب الكبرياء ، فلا تحصل الإحاطة بكنه الرّبوبية لأحد من الخلق. ولهذا يبقى الترقي أبدا للعارفين ، فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، ولا يحصل على غاية أسرار الرّبوبية أحد ، ولو بقي يترقى أبدا سرمدا. واللّه تعالى أعلم.
ثم أبطل مذهب أهل الشرك ، فقال :
[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ١٥ الى ١٩]
وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ

(١٦) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (١٩)

يقول الحق جل جلاله : وَجَعَلُوا أي : المشركين لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً حيث قالوا : الملائكة بنات اللّه ، فجعلوهم جزءا له ، وبعضا منه ، كما يكون الولد لوالده جزءا. وهذا متصل بقوله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ... إلخ ، أي :

---

(١) راجع التعليق على هذه القراءة فى موضعها أثناء التفسير.

(٢٣٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٣٩

ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به ، وقد جعلوا له سبحانه بألسنتهم ، واعتقادهم مع ذلك الاعتراف ، من عباده جزءا. وعبّر بالجزء لمزيد استحالته فى حق الواحد الأحد ، من جميع الجهات. وقرأ أبو بكر وحمد بضمتين. إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ لجحود للنعمة ، ظاهر الكفران ، مبالغ فيه لأن نسبة الولد إليه أشنع الكفر. والكفر أصل الكفران كله.

ثم ردّ عليهم بقوله : أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ ، الهمزة للإنكار ، تجهيلا [وتعجيبا] «١» من شأنهم ، حيث ادّعوا أنه اختار لنفسه أخس الأشياء ، ولهم الأعلى ، أي : بل أتخذ لنفسه أخس الصنفين ، واختار لكم أفضلهما؟ على معنى : هبوا أنكم اجترأتم إضافة جنس الولد إليه سبحانه ، مع استحالته وامتناعه ، أما كان لكم شيء من العقل ، ونبذة من الحياء ، حتى اجترأتم على التفوّه بهذه العظيمة ، الخارقة للمعقول ، من ادعاء أنه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفين وأعلاهما ، وترك له شرهما وأدناهما؟. وتنكير «بنات» ، وتعريف «البنين» لما اعتبر فيهما من الحقارة والفخامة.

وجملة : وَأَصْفاكُمْ : إما عطف على اتَّخَذَ ، داخل فى حكم [التعجيب] «٢» والإنكار ، أو : حال من فاعله ، بإضمار قد ، أو : بدونه ، على الخلاف. والالتفات إلى الخطاب لتأكيد الإجرام وتشديد التوبيخ.

ثم قرره بقوله : وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا أي : وإذا أخبر أحدهم بولادة ما جعل مثلا له سبحانه ، وهى الأنثى ، لأنهم جعلوا الملائكة بنات اللّه ، وجزءا منه إذ الولد لا بد أن يجانس الوالد ويشابهه. ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يعنى : أنهم نسبوا إليه هذا الجنس ، ومن حالهم : أن أحدهم إذا قيل له : قد ولدت لك بنت ، اغتم ، واربدّ وجهه غيظا وتأسفا ، وهو مملوء من الكرب. والظلول :

بمعنى الصيرورة ، أي : صار أسود فى الغاية من سوء ما بشر به.

أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا «٣» فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ أي : أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته ، وهو أنه ينشأ فى الحلية ، أي : يتربّى فى الزينة والتخنث ، وإذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ، ومجاراة الرّجال ، كان غير مبين ، ليس عنده بيان ، ولا يأتى ببرهان لضعف عقولهن. قال مقاتل : لا تتكلم المرأة إلا وتأتى بالحجة عليها - أي : فى الغالب - وفيه : أنه جعل النّشأ فى الزينة من المعايب. فعلى الرّجل أن يجتنب ذلك ، له ولأولاده ، ويتزين بلباس التقوى. و«من» منصوب المحل ، أي : أو جعلوا من يربى فى الحلية - يعنى البنات - للّه - عز وجل. وقرأ الأخوان وحفص «ينشأ» ، أي : يربّى.

---

(١) فى الأصول [وتعجبا]. [.....]

(٢) فى الأصول [التعجب].

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائي : «ينشأ» بضم الياء ، وفتح النّون ، وتشديد الشين ، مضارع «نشّأ» معدّى بالتضعيف ، مبنيا للمفعول.

وقرأ الباقون : بفتح الياء ، وسكون النّون : وتخفيف الشين من «نشأ» لازم ، مبنى للفاعل. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٤).

(٢٣٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٤٠

وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ «١» الرَّحْمنِ إِناثاً أي : اعتقدوا الملائكة وسموهم إناثا. وهو بيان لتضمن كفرهم كفرا آخر ، وتقريع لهم بذلك وهو جعلهم أكمل العباد وأكرمهم على اللّه - عز وجل - أنقصهم رأيا. والعندية عندية منزلة ومكانة ، لا مكان. ومن قرأ «عباد» فجمع «عبد» ، وهو ألزم فى الاحتجاج مع أهل العناد لتضاد العبودية والولادة. أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ أي : أحضروا خلقهم ، فشاهدوا اللّه حين خلقهم إناثا حتى يحكموا بأنوثتهم ، فإنّ ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة ، وهو تجهيل لهم ، وتهكم بهم. وقرأ نافع بهمزتين ، أي : أحضروا خلقهم. سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ التي شهدوا بها على الملائكة من أنهم إناث ، فى ديوان أعمالهم. وَيُسْئَلُونَ عنها يوم القيامة ، وقرئ : شهاداتهم وهى قولهم : إن للّه جزءا من خلقه ، وإن للّه بنات ، وأنها الملائكة.

الإشارة : وجعلوا له من عباده جزءا ، أشركوا فى المحبة معه غيره ، والمطلوب : إفراد المحبة للمحبوب ، فلا يجب معه شيئا. إن الإنسان لكفور مبين ، حيث علم أن الحبيب الذي أنعم عليه واحد

، وأنه غيور ، لا يرضى لعبده أن يحب معه غيره.
قال القشيري : جعلوا الملائكة جزءا على التخصيص من جملة مخلوقاته. هـ. أي : جعلوا له جزءا من عين الفرق ، ولو نظروا بعين الجمع لرأوا الأشياء كلها متدفقة من بحر الجبروت. وفى الآية تحذير من كراهية البنات ، حيث جعله من نعت أهل الكفر.
ثم أبطل شبهتهم ، فقال :
[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٢٠ الى ٢٥]
وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)

---

(١) أثبت المفسر قراءة «عند» بالنون الساكنة وفتح الدال بلا ألف ، ظرفا ، وتصديقه إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ .... الأعراف/ ٢٠٦. وهى قراءة ابن كثير ونافع ، وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي «عباد» بالألف. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٤ - ٤٥٥).

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ عدم عبادتنا للملائكة ما عَبَدْناهُمْ ، أرادوا بذلك بيان أن ما فعلوه مرضى عنده تعالى ، ولو لا ذلك ما خلّى بينهم وبينها ، ويجاب : بأنه تعالى قد يخلى بين العبد ومعصيته ، لينفذ فيه ما سبق من درك الوعيد. وتعلقت المعتزلة بظاهر الآية فى أن اللّه تعالى لم يشأ الكفر من الكافر ، وإنما شاء الإيمان ، فإنّ الكفار ادّعوا أن اللّه شاء منهم الكفر ، وما شاء منهم ترك عبادة الأصنام ، حيث قالوا :
لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ أي : لو شاء بنا أن نترك عبادة الأصنام لمنعنا عن عبادتها ، لكنه لم يشأ ذلك. واللّه تعالى ردّ عليهم قولهم ، واعتقادهم ، بقوله : ما لَهُمْ بِذلِكَ القول مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ :
يكذبون ، ومعنى الآية عندنا : أنهم أرادوا بالمشيئة : الرضا ، وقالوا : لو لم يرض بذلك لعجّل عقوبتنا ، ولمنعنا من عبادتها مع قهر واضطرار ، وإذ لم يفعل ذلك فقد رضى بذلك ، فردّ اللّه عليهم بقوله : ما

لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ ... الآية. أو : قالوا هذا القول استهزاء ، لا جدا واعتقادا ، فأكذبهم وجهّلهم حيث لم يقولوه اعتقادا ، كما قالوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ «١». وهذا كلام حق أرادوا به باطلا. انظر النّسفى.

قلت : ما تمسكوا به من قوله : لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ من الاحتجاج بالقدر ، وهو لا ينفع فى هذه الدار ، لأنه من التمسك بالحقيقة الخالية عن الشريعة ، وهى بطالة وزندقة ، ولذلك ردّهم اللّه تعالى إلى التمسك بالشريعة بقوله : أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ من قبل القرآن ، أو : من قبل ادعائهم ذلك ، ينطق بصحة ما يدّعونه ، فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ آخذون.

بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ على دين وقلدناهم. والأمّة فى الأصل : الطريقة التي تؤمّ وتقصد وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ أي : لم يأتوا بحجة نقلية ولا عقلية ، ولا سند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم.

والظرف : صلة لمهتدون ، أو : هما خبران.

وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ من نبىّ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها أي : منعّموها ، وهم الذين أترفتهم النّعمة ، أي : أبطرتهم ، فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ، ويعافون مشاقّ الدين وتكاليفه ، قالوا : إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ ، وفيه تسلية للنبى صلّى اللّه عليه وسلم ، وبيان أن التقليد فيهم ضلال قديم.

وتخصيص المترفين بتلك المقالة للإيذان بأن التنعم بالشهوات ، وحب البطالة ، هو الذي صرفهم عن النظر إلى التقليد.

" قل" «٢» ، هو حكاية لما جرى بين المنذرين وبين أممهم ، عند تعللهم بتقليد آبائهم ، أي : قيل لكلّ نذير وأوحى إليه : أن قل ، وليس خطابا لنبينا - عليه الصلاة والسّلام - بدليل ما بعده من قوله : قالُوا .. إلخ. وقيل :

---

(١) من الآية ٤٧ من سورة يس.

(٢) قرأ ابن عامر ، وحفص «قال» على الخبر ، والباقون «قل» بغير ألف على الأمر. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٥).

خطاب له عليه الصلاة والسّلام ، فتكون الجملة معترضة بين قصة المتقدمين لأن قوله : «قالوا» راجع

للمتقدمين.

وقرأ الشامي وحفص : قالَ أي : النذير : أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ أي : أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم بِأَهْدى بدين أهدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ من الضلالة التي ليست من الهداية فى شى ء؟ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ أي : قالت كلّ أمة لنذيرها : إنا ثابتون على ديننا ، وإن جئتمونا بما هو أهدى وأهدى. وقد أجمل عند الحكاية للإيجاز ، كقوله : يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ «١».

فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فعاقبناهم بما استحقوه على إصرارهم ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ من الأمم المذكورين ، فلا تكترث بتكذيب قومك. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وقالوا : لو شاء الرّحمن ما عبدناهم ، تمسكوا بالحقيقة الظلمانية ، الخالية عن التشريع ، وهو كفر وزندقة ، ولذلك ردّ اللّه عليهم بقوله : أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً ... إلخ ، وترى كثيرا ممن خذله اللّه يقول : لو أراد اللّه هدايتى لهدانى ، ولا ينفع ذلك فى هذه الدار ، التي هى التكليف ، بل يجب عليه النّهوض ، والقصد إلى ما أمر اللّه به ، من حقوق العبودية ، فإن منعته الأقدار فلينظر إلى الواحد القهار ، وإلا فالشقاء لازم له. وقد قالوا : من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق ، ومن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق. فالواجب : النظر إلى تصريف الحقيقة فى الباطن ، والتمسك بالشريعة فى الظاهر. وباللّه التوفيق.

وقوله تعالى : بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ ... الآية ، فيه توبيخ لمن تجمّد على تقليد أسلافه ، وقد ظهر من هو أهدى منهم ، ففيه نزعة جاهلية ، وحمية من حميتهم.

ثم برهن على بطلان التقليد الرّديء ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٢٦ الى ٣٠]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ (٣٠)

---

(١) من الآية ٥١ من سورة المؤمنون.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ أي : واذكر وقت قوله عليه السّلام لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ المنكّبين على التقليد ، كيف تبرأ مما هم فيه بقوله : إِنَّنِي بَراءٌ أي : برىء مِمَّا تَعْبُدُونَ ، وتمسك بالبرهان. وذكر

قصته ليسلكوا مسلكه فى الاستدلال ، أو : ليقلدوه ، إن لم يكن لهم بد من التقليد فإنه أشرف آبائهم. «وبراء» : مصدر ، يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ، والمذكر والمؤنث ، كرجل عدل ، وامرأة عدل ، وقوم عدل. و«ما» : إما مصدرية ، أو : موصولة ، أي : بريء من عبادتكم ومن معبودكم إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي استثناء متصل ، أو : منقطع ، على أن «ما» تعم أولى العلم وغيرهم ، وأنهم كانوا يعبدون اللّه تعالى والأصنام ، أو : صفة ، على أن «ما» موصوفة ، أي : إننى براء من آلهة تعبدونها غير الذي فَطَرَنِي خلقنى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ يثبتنى على الهداية ، أو : سيهدين إلى ما وراء الذي هدانى إليه الآن. والأوجه : أن السين للتأكيد دون التسويف ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

وَجَعَلَها أي : وجعل إبراهيم عليه السّلام كلمة التوحيد التي تكلم بها ، وهى قوله : إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ، كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ أي : فى ذريته ، حيث وصّاهم بها ، كما نطق به قوله تعالى : وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ ... «١» ، فلا يزال فيهم من يوحّد اللّه تعالى ، ويدعوهم إلى توحيده. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أي : جعلها باقية فى ذريته رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحّد.

بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ ، إضراب عن محذوف ، ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل : جعلها كلمة باقية فى عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم ، فلم يحصل ما رجاه ، بل متعت هؤلاء المعاصرين من أهل مكة. وَآباءَهُمْ بالمد فى العمر ، والنّعمة ، والمهلة ، فاغترّوا بالمهلة ، وانهمكوا فى الشهوات ، وشغلوا بها عن كلمة التوحيد ، حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ القرآن وَرَسُولٌ مُبِينٌ ظاهر الرّسالة ، واضحها بالمعجزات الباهرة ، أو : مبين التوحيد بالآيات والحجج القاطعة.

وفى الآية توبيخ لهم فإن التمتع بزيادة النّعم يوجب أن يجعلوه سببا لزيادة الشكر ، والثبات على التوحيد والإيمان ، فجعلوه سببا لزيادة أقصى مراتب الكفر والضلال.

وحاصل معنى الآية : أنه تعالى جعل كلمة التوحيد باقية فى عقب إبراهيم عليه السّلام ليدعو الموحّد المشرك ، نسلا بعد نسل ، فيرجع المشرك عن شركه ، فلم يرجعوا ، بل اغتروا بما متّعوا به ، فاستمروا على الشرك حتى جاءهم

---

(١) من الآية ١٣٢ من سورة البقرة.

الحق ، فكفروا وأصروا ، وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ أي : القرآن ينبههم على ما هم عليه من الغفلة ، ويرشدهم إلى التوحيد ، ازدادوا كفرا وعتوا ، وضموا إلى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به ، حيث قالُوا

هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ فسمّوا القرآن سحرا ، وجحدوه ومن جاء به. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : كان إبراهيم عليه السّلام إمام أهل التوحيد ، لقوله تعالى : إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً «١» ، وجعل الدعوة إليه فى عقبه إلى يوم القيامة ، وهو على قسمين توحيد البرهان ، وتوحيد العيان. وقد جاءت بعده الرّسل بالأمرين معا ، وقام بها خلفاؤهم بعدهم ، فقام بالأول العلماء ، وقام بالثاني خواص الأولياء ، أهل التربية الحقيقية ، ولا ينال من توحيد العيان شيئا من علق قلبه بالشهوات الجسمانية ، والحظوظ الفانية ، كما قال الششترى رضي اللّه عنه :
تركنا حظوظا من حضيض لحوظنا مع المقصد الأقصى إلى المطلب الأسنى
وكلّ من تمتع بذلك ، وانهمك فيه حرم بركة صحبة العارفين إذ يمنعه ذلك من حط رأسه ، ودفع فلسه ، فينخرط فى سلك قوله تعالى : بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ ... الآية. وكلّ زمان له رسول ، خليفة عن الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم يدعو إلى الحق ومعرفته. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر تحكمهم على اللّه ، واستحقارهم لرسوله صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال :
[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٣١ الى ٣٢]
وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)
يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أي : من إحدى القريتين مكة والطائف ، على نهج قوله تعالى : يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ «٢» وعنوا بعظيم مكة : الوليد بن المغيرة ، وبعظيم الطائف : عروة بن مسعود الثقفي. وعن مجاهد : عظيم مكة : [عتبة] «٣» بن ربيعة ، وعظيم الطائف : ابن عبد ياليل «٤». ولم يتفوهوا بهذه العظيمة حسدا ، بل استدلالا على عدم نزوله ، بمعنى : لو كان قرآنا

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٢٢ من سورة الرّحمن.
(٣) فى الأصول [عقبة].
(٤) انظر تفسير الطبري (٢٥/ ٦٥). والدر المنثور للسيوطى (٥/ ٧٢١).

لأنزل على أحد هؤلاء ، بناء على ما زعموا من أن الرّسالة منصب جليل ، لا يليق له إلا من له جلالة من جهة المال والجاه ، ولم يدروا أنها رتبة روحانية ، لا يترقى إليها إلا همم الخواص ، المختصين بالنفوس الزكية ، المؤيّدين بالقوة القدسية ، المتحلين بالفضائل الإنسية ، وأما المتزخرفون بالزخارف الدنيوية ، المتمتعون بالحظوظ الدنية ، فهم من استحقاق تلك الرّتبة بألف معزل.
قال ابن عطية : وإنما قصدوا إلى من عظم ذكره بالسن ، وإلا فرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم كان أعظم هؤلاء إذ كان المسمى عندهم الأمين. هـ. ومرادهم : الشرف الدنيوي ، بحيث يتعرض للأمور ليذكر ويشار إليه ، ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم كان منزها عن ذلك من أول النّشأة ، كما هو حال أهل الآخرة ، والنّفوس فى مهماتها إليهم أميل ، وعليهم تعول ، ولذلك كان أمينا عندهم ، ولا ترضى جل النّفوس أهل الفضول لأماناتها ، ولا تسكن إليها وتطمئن بها ، وإنما تعظمها ظاهرا ، لا حقيقة.
وهذا كاف فى الرّد عليهم فى أنهم لا يرضونهم لأماناتهم ، فكيف يرضون لأمانات الوحى.
اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ «١». قاله فى الحاشية.
وقوله تعالى : أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، إنكار عليهم ، وفيه تجهيل لهم وتعجيب من تحكمهم فى اختيار من يصلح للنبوة. والمراد بالرحمة : النبوة.
نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ ما يعيشون به ، وهو أرزاقهم الحسية فِي الْحَياةِ الدُّنْيا أي : لم نجعل قسمة الأدون إليهم ، وهو رزق الأشباح ، فكيف بالنبوة ، والعلم ، الذي هو رزق الأرواح؟ وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ أي : جعلنا البعض أقوياء وأغنياء وموالى ، والبعض ضعفاء وفقراء وخدماء ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا أي : ليصرف بعضهم بعضا فى حوائجهم ، ويستخدموهم فى مهماتهم ، ويسخروهم فى أشغالهم ، حتى يتعايشوا ، ويصلوا إلى أعمالهم ، هذا بماله ، وهذا ببدنه ، ولو استووا فى الغنى والفقر لبطل جل المصالح ، فسبحان المدبر الحكيم.
قال القشيري : لو كانت المقادير متساوية لتعطلت المعايش ، ولبقى كلّ عند حاله ، فجعل بعضهم مخصوصا بالترفه والمال ، وآخرين بالفقر ورقة الحال ، حتى احتاج الفقير فى حين حاجته أن يعمل للغنيّ ، ليترفق من جهته بأجرته ، فيصلح بذلك أمر الفقير والغنيّ معا. هـ. ولو فوضنا ذلك إلى تدبيرهم لهلكوا. وإذا كانوا فى تدبير خويصة أمرهم ، وما يصلحهم من متاع الدنيا الدنية ، فى غاية العجز ، فما ظنهم فى تدبير أمر الدين والنّبوة؟!.

---
(١) من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٤٦

وقيل : «سخريا» أي : يسخر بعضهم من بعض.

وَرَحْمَتُ رَبِّكَ أي : النبوة ، أو : الدين وما يتبعه من الفوز فى المآب ، خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ أي : مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا الدنية الفانية.

الإشارة : مما جرى فى طبع النّاس أنهم لا يقرون الولاية إلا فيمن عظم جاهه ، وكثر طعامه ، أو كثرت صلاته ، أو كان مجذوبا مصطلما ، أو : سبقت فى أسلافه ، وهذا خطأ ، فإن الولاية سر من أسرار اللّه ، أودعها قلوب أصفيائه ، لا تظهر على جوارحهم ، ولا تكون فى الغالب إلا فى أهل التجريد ، وأهل الخمول ، أخفاها اللّه فى عباده ، فمن ادعاها من غير تجريد ولا تخريب ، فهو مدع ، ولذلك قال أبو المواهب رضي اللّه عنه : من ادعى شهود الجمال ، قبل تأدبه بالجلال ، فارفضه فإنه دجال.

ويقال لمن أنكر على أهلها من أهل التجريد : أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ... الآية ، ورحمة ربك - هى سر الخصوصية - خير مما يجمعون.

وقال القشيري على قوله تعالى : نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ ... إلخ ، بعد كلام : ثم إنه تعالى قسم [لبعض لعباده] «١» النعمة والغنى ، ولقوم الفقر والقلّة ، وجعل لكلّ واحد منهم مسكنا يسكنون إليه ، ويستقلون به ، فللأغنياء وجود الإنعام ، وجزيل الأقسام ، فشكروا واستبشروا ، وللفقراء شهود القسّام ، فحمدوا وافتخروا ، فالأغنياء وجدوا النّعمة فاستغنوا وانشغلوا ، والفقراء سمعوا قوله : «نحن» فاشتغلوا ، وفى الخبر : أنه صلّى اللّه عليه وسلم قال للأنصار : «أما ترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير ، وترجعوا برسول اللّه إلى أهليكم؟ واللّه ما تنقلبون به خير مما ينقلبون» «٢» هـ.

قوله تعالى : نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ ... إلخ ، قد سبقت أقسام الرّزق قبل ظهور الخلق ، فالواجب انتظار القسمة ، والرّضا بما قسم ، كما قال الشاعر :

اقنع بما قسم الرّزّاق من قسم وسلّم الأمر فالرزاق مختار

لا تجزعن ولا تبطر على محن أو منح ، فإنما هى أحكام وأقدار

واقنع بكلّ الذي يجرى الزمان به ولا يكن منك للمغرور انكسار.

---

(١) فى الأصول [لعباده] والمثبت من القشيري ، وهو الأنسب.

(٢) أخرجه مسلم فى (الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم ... ، ٢/ ٧٣٤ ، ح ١٠٥٩) وبنحوه البخاري فى (مناقب الأنصار باب مناقب الأنصار ح ٣٧٧٨) من حديث أنس رضي اللّه عنه. [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٤٧

ثم ذكر إهانة الدنيا ، وخساستها عنده ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٣٣ الى ٣٥]

وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (٣٤) وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً أي : ولو لا كراهة أن يجتمع النّاس على الكفر ، ويطبقوا عليه ، لَجَعَلْنا لأجل حقارة الدنيا عندنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ : بدل «من» سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ أي : متخذة منها ، وَمَعارِجَ أي : ولجعلنا لهم مصاعد ، أي : سلالم من فضة أيضا ، يصعدون عليها إلى السطوح ، عَلَيْها يَظْهَرُونَ أي : يعلون السطوح والعلالي عليها. وَلِبُيُوتِهِمْ أي : وجعلنا لبيوتهم أَبْواباً وَسُرُراً من فضة أيضا ، عَلَيْها أي : السرر يَتَّكِؤُنَ ، ولعل تكرير «بيوتهم» لزيادة التقرير. وَزُخْرُفاً أي : وجعلنا لهم زخرفا ، أي : زينة من كلّ شيء. والزخرف : الذهب والزينة. ويجوز أن يكون الأصل : سقفا من فضة وزخرف ، أي : بعضها من فضة ، وبعضها من ذهب ، فنصب عطفا على محل «من فضة».

وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : وما كلّ ما ذكر من البيوت الموصوفة بما ذكر من الزخارف الغرارة ، إلا شيء يتمتع به فى الحياة الدنيا ، ثم يفنى وتبقى تبعته. وَالْآخِرَةُ أي : ونعيم الآخرة الذي يقصر عنه البيان ، خير عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ الكفر والمعاصي. وبهذا يتبين أن العظيم إنما هو العظيم فى الآخرة ، لا فى الدنيا ، ولذلك لم يجعل للمؤمنين فيها حظا وافرا لأنه تمتع قليل بالنسبة إلى ما لهم فى الآخرة ، ولأنه ربما يشغلهم عن ذكر الرحمن ، كما أشار إليه بقوله : وَمَنْ يَعْشُ ... إلخ.

الإشارة : فى الآية ذم للدنيا ولمن اشتغل بها. وفى الحديث : «لو كانت الدنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء» «١». وعن علقمة عن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال : اضطجع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم على حصير ، فأثّر الحصير فى جنبه ، فلما استيقظ ، جعلت أمسح عنه ، وأقول : يا رسول اللّه ألا آذنتني قبل أن تنام على هذه الحصير ، فأبسط لك عليه شيئا ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «مالي وللدنيا ، وما للدنيا ومالى ، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظلّ فى فىء ، أو ظل

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء فى هوان الدنيا على اللّه ، ح ٢٣٢٠) وقال : «حديث صحيح غريب» ، وابن ماجه فى (الزهد ، باب مثل الدنيا ، ح ٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٤٨

شجرة ، ثم راح وتركها» «١». وروى أن عيسى عليه السّلام أخذ لبنة من طوب ، فجعلها تحت رأسه ، فجاءه جبريل عليه السّلام ، فوكز الطوبة من تحت رأسه ، ونزعها ، وقال : «اترك هذه مع ما تركت».

وأنشدوا فى هذا المعنى :

رضيت من الدنيا بقوت وخرقة وأشرب من كوز حوافيه تكسر

فقل لبنى الدنيا : اعزلوا من أردتم وولوا ، وخلونى على البعد أنظر

وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «الدنيا خراب ، وأخرب منها قلب مشتغل بها» «٢». ومن اشتغل بها غفل عن ذكر الرّحمن ، وسلط عليه الشيطان ، كما قال تعالى :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٣٦ الى ٤٢]

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٠)

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢)

قلت : «من يعش» : شرط وجواب. وحكى أن أبا عبد اللّه بن مرزوق دخل على ابن عرفة ، فحضر مجلسه ، ولم يعرفه أحد ، فوجده يفسر هذه الآية : وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ ، فكان أول ما افتتح به - يعنى ابن مرزوق - أن قال : وهل يصح أن تكون «من» هنا موصولة؟ فقال ابن عرفة : وكيف ، وقد جزمت؟ فقال ابن مرزوق : جزمت تشبيها بالشرطية ، فقال ابن عرفة : إنما يقدم على هذا بنص من إمام ، أو شاهد من كلام العرب ، فقال : أما النّص فقال ابن مالك فى التسهيل : وقد يجزم مسبب عن صلة الذي ، تشبيها بجواب الشرط ، وأما الشاهد فقوله :

فلا تحفرن بئرا تريد أخا بها فإنك فيها أنت من دونه تقع

كذاك الذي يبغى على النّاس ظالما تصبه على رغم عواقب ماصنع

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الموضع السابق (ح ٤١٠٩) والترمذي فى الموضع السابق (باب ٤٤ ، ح ٢٣٧٧) وقال : «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) لم أقف عليه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٤٩
فقال ابن عرفه : فأنت إذا أبو عبد اللّه بن مرزوق؟ فقال : نعم ، فرحّب به. وقال : واللّه ما ظلمناك. هـ.

وقرأ ابن عباس : «يعش» - بفتح الشين ، أي : يعم ، من : عشى يعشى «١». وقرئ : «يعشو» على أن «من» موصولة غير مضمنة معنى الشرط ، وإلا جزمت كما تقدم. قلت : والذي يظهر من كلام التسهيل أن الموصول المضمن معنى الشرط إنما يجزم الجواب لا الشرط ، فتأمله ، مع كلام ابن مرزوق. والشاهد الذي أتى به إنما فيه جزم الجواب لا الشرط ، فلا يصح ما قاله ابن مرزوق باعتبار جزم لفظ الشرط. واللّه تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يَعْشُ أي : يتعام ، أو : يعم. والفرق بين القراءتين «٢» أنه إذا حصلت الآفة فى بصره قيل : عشى يعشى ، وإذا ضعف بصره بلا آفة قيل : عشى يعشو. والمعنى : ومن يعرض عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ وهو القرآن ، لفرط اشتغاله بزهرة الدنيا ، وانهماكه فى الحظوظ الفانية ، فلم يلتفت إليه ، ولم يعرف أنه حق - على قراءة الفتح - أو : عرف أنه حق وتعامى عنه ، تجاهلا ، على قراءة الضم ، نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، قال ابن عباس : نسلطه عليه فهو معه فى الدنيا والآخرة ، لا يفارقه ، ولا يزال يوسوسه ويغويه. وفيه إشارة إلى أن من دام عليه لم يغوه الشيطان. وإضافته إلى «الرحمن» للإيذان بأن نزوله رحمة للعالمين ، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله ، أي : ما ذكره الرّحمن وأوحى به فى كتابه. وقال ابن عطية : ما ذكّر اللّه به عباده من المواعظ. ويحتمل أن يريد مطلق الذكر ، أي : ومن يغفل عن ذكر اللّه نسلط عليه شيطانا ، عقوبة على الغفلة ، فإذا ذكر اللّه تباعد عنه. وَإِنَّهُمْ أي : الشياطين ، الذي قيض كلّ واحد منهم لكلّ واحد ممن يعشو ، لَيَصُدُّونَهُمْ ليمنعون العاشين عَنِ السَّبِيلِ عن سبيل الهدى الذي جاء به القرآن ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ أي : أنفسهم مهتدون ، أو : ويحسب العاشون أن الشياطين مهتدون ، فلذلك قلّدوهم ، فمدار جمع الضمير اعتبار معنى «من» كما أن مدار إفراده فيما سبق اعتبار لفظها. وصيغة المضارع فى الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجديدى ، لقوله : حَتَّى إِذا جاءَنا فإن «حتى» تقتضى أن تكون غاية لأمر ممتد ، أي : يستمر العاشون على ما ذكر من مقارنة الشياطين والصد والحسبان الباطل ، حتى إذا جاءنا كلّ واحد منهم مع قرينه يوم القيامة. ومن قرأ بالتثنية «٣» ، فالمراد العاشى وقرينه. قال مخاطبا لقرينه : يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فى الدنيا بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ

---

(١) فهو أعشى ، وامرأة عشواء.

(٢) أي : قراءة «يعش» بضم الشين و«يعش» بفتحها.

(٣) قرأ نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وأبو بكر ، وأبو جعفر (جاءانا) بألف بعد الهمزة على التثنية وهما العاشى وقرينه. وقرأ الباقون بغير ألف بعد الهمزة. والضمير يعود على العاشى. انظر شرح الهداية (٢/ ٥٠٨) والإتحاف (٢/ ٤٥٦).

(٢٤٩/٥)

أي : بعد المشرق والمغرب ، أي : تباعد كلّ منهما من صاحبه ، فغلب المشرق على المغرب ، كما قيل : القمران والعمران ، وأضيف البعد إليهما ، فَبِئْسَ الْقَرِينُ أنت.

قال تعالى : وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ أي : يوم القيامة إِذْ ظَلَمْتُمْ أي : حين صحّ وتبيّن ظلمكم وكفركم ، ولم تبق لكم ولا لأحد شبهة فى أنكم كنتم ظالمين. و«إذ» : بدل من اليوم. وقوله : أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ :

فاعل ينفع ، أي : لن ينفعكم يوم القيامة اشتراككم فى العذاب ، كما كان فى الدنيا يهون عليكم المصيبة اشتراككم فيها ، لتعاونكم فى تحمل أعبائها وتقسيمكم لعنائها ، ولذلك قيل : المصيبة إذا عمّت هانت ، وإذا خصت هالت ، وفى ذلك تقول الخنساء :

ولو لا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

ولا يبكون مثل أخي ولكن أعزّى النّفس عنه بالتأسّى «١»

أما هؤلاء فلا يؤسّيهم اشتراكهم ، ولا يروّحهم ، لأن بكلّ منهم ما لا تبلغه طاقة ، وقد ورد أنهم يكونون فى توابيت من نار ، لا يرى أحد صاحبه ، بل يظن أنه وحده فيها. وقيل : الفاعل مضمر ، أي : ولن ينفعكم هذا التمني ، أو هذا الاعتذار لأنكم فى العذاب مشتركون لاشتراككم فى سببه ، وهو الكفر ، ويؤيده : قراءة من قرأ : «إنكم» بالكسر.

وكان صلّى اللّه عليه وسلم يبالغ فى المجاهدة فى دعاء قومه ، وهم لا يزيدون إلا غيا وتعاميا عما يشهدونه من شواهد النّبوة ، وتصامما عما يسمعونه من القرآن ، فأنزل اللّه تعالى : أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ، وهو إنكار وتعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم ، وقد تمرنوا فى الكفر ، واستغرقوا فى الضلال ، حيث صار ما بهم من العشى عما مقرونا بالصمم ، أي : أفأنت تقدر أن تسمع من فقد سمع القبول ، أو تهدى من فقد بصر الاستبصار. وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : ومن كان فى علم اللّه أنه يموت على الضلال. ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار فى الضلال المفرط ، بحيث لا ارعواء له منه ، لا توهم القصور من قبل الهادي ، ففيه رمز فى أنه لا يقدر على ذلك إلا اللّه.

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ أي : فإن قبضناك قبل أن ننصرك على أعدائك ، ونشفى صدور لمؤمنين منهم ، فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أشد الانتقام فى الآخرة. أَوْ نُرِيَنَّكَ العذاب الَّذِي وَعَدْناهُمْ بل أن نتوفينك ، كما وقع بهم يوم بدر ، فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ بحيث لا ناصر لهم من حلول نقمتنا وقهرنا. و«إما» : شرط دخلت «ما» على «إن» توكيدا للشرط ، وزاد التوكيد نون الثقيلة.

---

(١) انظر البحر المحيط (٨/ ١٧) تفسير القرطبي (٧/ ٦٠٩٤).

الإشارة : كل من غفل عن ذكر اللّه تسلط الشيطان على قلبه بالوسوسة والخواطر الردية ، وقد ورد فى الحديث :

إن قلب ابن آدم بين ملك وشيطان ، فإذا ذكر اللّه قرب الملك منه وانخنس الشيطان «١» ، وإذا غفل عن ذكر الشيطان قرب منه ، فلا يزال يوسوسه ويمنيه حتى يغفله عن اللّه. ولا شك أن الذكر الذي يصرف الشيطان عن القلب إنما هو الذكر القلبي لا اللساني ، فكم من ذاكر بلسانه وقلبه مشغول بهواه ، فذكر اللسان نتائجه الأجور ، وذكر القلوب نتائجه الحضور ورفع الستور ، وشتان بين من همه الحور والقصور ، ومن همه الحضور ورفع الستور ، هذا من عامة أهل اليمين ، وهذا من خاصة المقربين ، فإن أردت يا أخى ذكر القلوب ، ولمعان أسرار الغيوب ، فاصحب الرجال ، حتى ينقلوك من عالم الطبيعة إلى عالم الروحانية ، وإلا بقيت فى عالم الأشباح.

قال القشيري : من لم يعرف قدر الخلوة مع اللّه ، فحاد عن ذكره ، وأخلد إلى الخواطر الرديّة ، قيّض اللّه له من يشغله عن اللّه - وهذا جزاء من ترك الأدب فى الخلوة. وإذا اشتغل العبد فى خلوته مع ربّه ، وتعرّض له من يشغله عن ربه ، صرفه الحق عنه بأى وجه كان .. ويقال : أصعب الشياطين نفسك ، والعبد إذا لم يعرف قدر فراغ قلبه ، واتّبع شهوته ، وفتح ذلك الباب على نفسه ، بقي فى يد هواه أسيرا ، لا يكاد يتخلص منه إلا بعد مدة. هـ.

[وقال فى الإحياء : للشيطان جندان جند يطير ، وجند يسير ، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار ، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار. ثم قال : فتحقق أن الشيطان من المنظرين ، فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهمومك هم واحد ، وهو اللّه ، فيشتغل قلبك باللّه وحده ، فلا يجد الملعون مجالا فيك ، فعند ذلك تكون من عباد اللّه المخلصين ، الداخلين فى الاستثناء من سلطنته. ولا تظن أن يفرغ منه قلب فارغ من ذكر اللّه ، بل هو سيال يجرى من ابن آدم

مجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء فى القدح ، إن أردت أن يخلو عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو غيره ، فقد طمعت فى غير مطمع ، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه من الهواء لا محالة ، فكذلك القلب المشغول بتفكر مهم فى الدين ، يخلو عن جولان الشيطان ، وإلا فمن غفل عن اللّه ، ولو لحظة ، فليس له فى تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ، ولذلك سبحانه : وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. هـ. المرا منه] «٢».

---

(١) هذا معنى حديث ، ولفظه : «إن الشيطان واضع حطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر اللّه خنس ، وإن نسى التقم قلبه» رواه أبو يعلى فى مسنده (١٧/ ٤٣٠) والبيهقي فى الشعب (٥٤٠) ، قال الهيثمي فى مجمع الزوائد (٧/ ١٤٩) : رواه أبو يعلى : وفيه عدى بن أبى عمارة ، وهو ضعيف.

(٢) ما بين المعكوفتين من هامش النسخة الأم ، وليس فى غيرها.

(٢٥١/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٥٢

وكلّ من عوّق النّاس عن طريق الحق يصدق عليه قوله : وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ، فإذا تحققت الحقائق ، وارتفع الغطاء ، وظهر الصواب من الخطأ ، قال للذى صده عن طريق القوم :

يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ، فيقول الحق جل جلاله : وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ حيث حرمتموها من الوصول إليّ أنكم فى عذاب الحجاب مشتركون. ويقال لمن وعظ ودعا إلى اللّه ، فلم يقبل منه :

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ... الآية. فإما نذهبنّ بك بالموت ، فيقع النّدم عليك ، أو نرينك الذي وعدناهم من العز لك والنّصر ، والانتقام ممن آذى أولياء اللّه ، فإنا عليهم مقتدرون.

ثم أمر بالثبوت فى طريق الحق ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٤٣ الى ٤٥]

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)

يقول الحق جل جلاله : فَاسْتَمْسِكْ أي : تمسك بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ من الآيات والشرائع ، واعمل بذلك ، سواء عجلنا لك الموعود أو أخرناه ، إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ على دين قيم لا عوج فيه ، وهو تعليل للأمر بالاستمساك. وَإِنَّهُ أي : ما أوحى إليك لَذِكْرٌ لشرف عظيم لَكَ وَلِقَوْمِكَ ولأمتك ، أو :

لقومك من قريش ، فمازال العز فيهم ، والشرف لهم ، من زمانه صلّى اللّه عليه وسلم إلى قرب الساعة. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «لا يزال هذا الشأن فى قريش ما بقي منهم اثنان» «١». وفى رواية : «لا يزال هذا الأمر فى قريش ، لا يعاديهم أحد إلا كبّ على وجهه ما أقاموا الدّين» «٢». قال ابن عباس : كان صلّى اللّه عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل بمكة ، ويعدهم الظهور ، فإذا قالوا : لمن الملك بعدك؟ أمسك فلم يجبهم ، حتى نزلت : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ فكان بعد تلك إذا سئل قال : «لقريش» فلا يجيبونه ، فقبلته الأنصار على ذلك «٣».

---

(١) أخرجه البخاري فى (المناقب ، باب مناقب قريش ح ٣٥٠١) ومسلم فى (الإمارة ، باب النّاس تبع لقريش والخلافة لقريش ٣/ ١٤٥٢ ح ١٨٢٠) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري ، فى الموضع السابق (ح ٣٥٠٠) ، من حديث معاوية رضي اللّه عنه.

(٣) عزاه فى الدر المنثور (٥/ ٧٢٥) لابن عدى وابن مردويه ، عن علىّ وابن عباس - رضي اللّه عنهما - قلت : على هامش النّسخة الأم مايلى : هذا غريب جدا ، والمعروف أنه كان يقول : «الملك للّه يضعه حيث يشاء». هـ.

(٥/٢٥٢)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٥٣

أو : وإنه لموعظة لك ولأمتك بأجمعها. وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ يوم القيامة عن شكركم هذه النّعمة ، أو : عما أوحى إليه ، وعن قيامكم بحقوقه ، وعن تعظيمكم له.

وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ، فليس المراد سؤال الرّسل حقيقة ، ولكنه مجاز عن النّظر فى أديانهم والفحص عن مللهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط فى ملة من ملل الأنبياء؟ وكفاه نظرا وفحصا نظره فى كتاب اللّه المعجز ، المصدق لما بين يديه. وإخبار اللّه فيه بأنهم إنما يعبدون من دون اللّه ما لم ينزل به سلطانا. وهذه الآية فى نفسها كافية ، لا حاجة إلى غيرها.

وقيل إنه صلّى اللّه عليه وسلم جمع له الأنبياء - عليهم السّلام - وقيل له : سلهم «١» ، وهو ضعيف. وقيل معناه : سل أمم من أرسلنا ، وهم أهل الكتابين التوراة والإنجيل ، وإنما يخبرونه عن كتب الرّسل ، فإذا سألهم فكأنما سأل الأنبياء ، ومعنى هذا السؤال : التنبيه على بطلان عبادة الأوثان ، والاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد ، وأنه ليس ببدع ابتدعه حتى ينكر ويعادى. وقيل : الخطاب

له ، والمراد غيره ممن يرتاب. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : الاستمساك بالوحى كان حاصلا له صلّى اللّه عليه وسلم ، وإنما المراد الثبوت على ما هو حاصل ، والاسترشاد إلى ما ليس بحاصل ، فالمراد الترقي فى زيادة العلم ، والكشف إلى غير نهاية ، كقوله : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ ، فالترقى لا ينقطع لمن تمسك بالوحى التمسك الحقيقي ، بحيث كشف له عن غوامض أسرار القرآن ، وزال الحجاب بينه وبين اللّه تعالى ، فهو دائما فى زيادة العلم والكشف ، إلى ما لا نهاية له. وهذا هو الشرف العظيم فى الدارين. فمن لم يشكره سئل عنه ، أو سلب منه فى الدنيا. ثم إن التوحيد فى الذات والصفات والأفعال مما أجمعت عليه الملل ، وكل داع إنما يدعو إليه ، وكلّ شيخ مربى إنما يوصل إليه ، ومن لم يوصل إليه أصحابه فهو دجّال. وباللّه التوفيق.
ثم سلّى رسوله بقوله :
[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٤٦ الى ٥٠]
وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (٤٧) وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠)

---

(١) ذكره البغوي (٧/ ٢١٦) والقرطبي (٧/ ٦٠٩٧) عن ابن عباس ، وفيه : قال صلّى اللّه عليه وسلم : «لا أسأل فقد اكتفيت».

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أي : متلبسا بآياتنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ فأجابوه بقولهم : فأتنا بآية إن كنت من الصادقين كما صرح به فى آية أخرى «١». فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ يسخرون منها ، ويهزؤون ، ويسمّونها سحرا. و«إذا» للمفاجأة ، وهو جواب «لمّا» لأن فعل المفاجأة معها مقدّر ، وهو العامل فى «إذا» ، أي : لما جاءهم فاجؤوا وقت ضحكهم منها ، أي :
استهزؤوا بها أول ما رأوها ، ولم يتأملوا فيها.
وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ من الآيات إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها قرينتها ، وصاحبتها التي كانت قبلها ، أي :

ما ظهر لهم آية إلا وهى بالغة أقصى مراتب الإعجاز ، بحيث يجزم كلّ من ينظر إليها أنها أكبر من كلّ ما يقاس بها من الآيات. والمراد : وصف الكلّ بغاية الكبر من غير ملاحظة قصور فى شيء منها ، قال النّسفى : وظاهر النظم يدلّ على أن اللاحقة أعظم من السابقة ، وليس كذلك ، بل المراد بهذا الكلام : أنهن موصوفات بالكبر ، كما يقال : هما أخوان ، كل منهما أكبر من الآخر. هـ. وقال فى الانتصاف : الظاهر : أن كلّ آية إذا أفردت استغرقت عظمتها الفكر وبهرته ، حتى يجزم أنها النّهاية ، وأنّ كلّ آية دونها ، فإذا نقل الفكر إلى الأخرى كانت كذلك.

وحاصله : أنه لا يقدر الفكر أن يجمع بين آيتين ، لتتميز الفاضلة من المفضولة. هـ.

وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ وهو ما قال تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ «٢» ، فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ ... الآية «٣». لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ لكى يرجعوا عما هم عليه من الضلال.

وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ، كانوا يقولون للعالم : إنما هو ساحر لتعظيمهم علم السحر ، أو : نادوه بذلك فى مثل تلك الحالة لغاية عتوهم ونهاية حماقتهم. وقرأ الشامي بضم الهاء «٤» ، لاتباع حركة ما قبلها حين سقطت الألف ، ادْعُ لَنا رَبَّكَ يكشف عنا العذاب بِما عَهِدَ عِنْدَكَ أي : لعهده عندك بأن دعوتك مستجابة ، أو : بما عهد عندك من النّبوة والجاه ، أو : بما عهد من كشف العذاب عمن اهتدى ، إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ مؤمنون إن كشف عنا بدعوتك ، كقوله : لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ «٥» ، فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ بدعوته إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ ينقضون العهد ، أي : فاجؤوا وقت نكث عهدهم بالاهتداء. وقد مرّ تمامه فى الأعراف «٦».

---

(١) فى قوله تعالى : .. إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ الآية ١٠٦ من سورة الأعراف. [.....]

(٢) الآية ١٣٠ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ١٣٣ من سورة الأعراف.

(٤) أي «يا أيّه» وبهذا قرأ ابن عامر.

(٥) من الآية ١٣٤ من سورة الأعراف.

(٦) راجع تفسير الآيات ١٣٣ - ١٣٦ من سورة الأعراف.

الإشارة : قد ظهرت الآيات على الأنبياء والرّسل ، فلم ينتفع بها إلا من سبقت له العناية ، وكذلك

ظهرت الكرامات على أيدى الأولياء الداعين إلى اللّه ، فلم ينتفع بها إلا من سبق له التقريب والاصطفاء. على أن الصادق فى الطلب لا يحتاج إلى ظهور كرامة ، بل إذا أراد اللّه أن يوصله إليه وصله إلى وليّ من أوليائه ، فطوى عنه وجود بشريته ، وأشهده سر خصوصيته ، فخضع له من غير توقف على كرامة ولا آية. وأما من لم يسبق له التقريب إذا رأى ألف آية ضحك منها واستهزأ ، ورماها بالسحر والشعوذة ، والعياذ باللّه من البعد والطرد.

ثم ذكر عتو فرعون وطغيانه ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٥١ الى ٥٦]

وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥)

فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ (٥٦)

يقول الحق جل جلاله : وَنادى فِرْعَوْنُ ، إما بنفسه ، أو : أمر من ينادى ، كقولك : قطع الأمير اللص. والظاهر أنه نادى بنفسه ، فِي قَوْمِهِ فى مجمعهم وفيما بينهم ، بعد أن كشف العذاب عنهم ، مخافة أن يؤمنوا ، قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ أنهار النّيل ، ومعظمها أربعة نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تييس ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِي تحت سريرى لارتفاعه ، أو : بين يدى فى جناتى وبساتينى.

قال عمرو بن العاص رضي اللّه عنه : نيل مصر سيد الأنهار ، سخّر اللّه له كلّ نهر بين المشرق والمغرب ، فإذا أراد اللّه أن يجريه أمر الأنهار فأمدته بمائها ، وفجّر له الأرض عيونا ، فإذا انتهت جريته إلى ما أراد اللّه سبحانه أوحى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره. قاله فى الاكتفاء. ومهبطه من جبل القمر. وقيل : أصله من الجنة ، واللّه تعالى أعلم. وحدّ مصر : من بحر الاسكندرية إلى أسوان ، بطول النّيل. والأنهار المذكورة هى الخلجان الكبار ، الخارجة من النيل.

وعن عبد اللّه بن طاهر : أنه لما ولى مصر خرج إليها ، فلما شارفها ، قال : أهي القرية التي افتخر بها فرعون ، حتى قال : أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ؟ واللّه لهى أقلّ عندى من أن أدخلها ، فثنى عنانه. وعن هارون الرّشيد : أنه لما قرأها ، قال : واللّه لأولينّها أخسّ عبيدى ، فولاها الخصيب ، وكان خادم

وضوئه «١».

وَهذِهِ الْأَنْهارُ : إما عطف على «ملك مصر» ، ف «تجرى» : حال منها ، أو : واو الحال ، ف «هذه» مبتدأ ، و«الأنهار» : صفتها و«تجرى» : خبر ، أَفَلا تُبْصِرُونَ قوتى وسلطانى ، مع ضعف موسى وقلة أتباعه. أراد بذلك استعظام ملكه وترغيب النّاس فى اتباعه.

ثم قال : أَمْ أَنَا خَيْرٌ مع هذه المملكة والبسطة مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ أي : ضعيف حقير ، من : المهانة ، وهى القلة. وَلا يَكادُ يُبِينُ الكلام لما به من اللثة. قاله افتراء عليه عليه السّلام ، وتنقيصا له فى أعين الناس ، باعتبار ما كان فى لسانه عليه السّلام. وقد كانت ذهبت عنه ، لقوله تعالى : قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى «٢». والهمزة للتقرير ، كأنه قال إثر ما عدد من أسباب فضله ، ومبادئ خيريته : أثبت عندكم واستقر لديكم أنى أنا خير ، وهذه حالى ، من هذا. وإما متصلة ، والمعنى : أفلا تبصرون أم تبصرون؟ فوضع قوله : أَمْ أَنَا خَيْرٌ موضع «تبصرون» لأنهم إذا قالوا : أنت خير فهم عنده بصراء. وهذا من باب تنزيل السبب منزلة المسبب. انظر أبا السعود.

فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ «٣» مِنْ ذَهَبٍ أي : فهلا ألقى عليه مقاليد الملك إن كان صادقا ، لأنهم كانوا إذا سوّدوا رجلا سوّروه بسوار ، وطوقوه بطوق من ذهب. أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ مقرونين يمشون معه ، مقترن بعضهم ببعض ، ليكونوا أعضاده وأنصاره ، أو : ليشهدوا له بالنبوة؟ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ أي : فاستفزهم ، وطلب منهم الخفة والسرعة فى مطاوعته. أو : فاستخف أحلامهم واستزلهم ، فَأَطاعُوهُ فيما أمرهم به إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ ، خارجين عن الدين ، فلذلك سارعوا إلى طاعته.

فَلَمَّا آسَفُونا أغضبونا أشد الغضب ، منقول من : أسف : إذ اشتد غضبه ، انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ ، والمعنى : أنهم أفرطوا فى المعاصي فاستوجبوا أن نعجّل لهم العذاب ، وألا نحلم عليهم.

فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً قدوة لمن بعدهم من الكفار ، يسلكون مسلكهم فى استيجاب مثل ما حلّ بهم من العذاب ، ف كل من تفرعن

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٧/ ٦١٠٢) وتفسير النّسفى (٣/ ٢٧٦).

(٢) الآية ٣٦ من سورة طه.

(٣) قرأ حفص ويعقوب «أسورة» بسكون السين بلا ألف ، جمع «سوار» كأخمرة وخمار ، وقرأ الباقون «أساورة» بفتح السين ، وألف ، جمع «أسورة» ، كأسقية وأساقى ، أو جمع «أساور» بمعنى «سوار». وقد أثبت المفسر - رحمه اللّه - قراءة «أساورة». انظر : شرح الهداية (٢/ ٥٠٨) والإتحاف (٢/ ٤٥٧).

وتجبر ففرعون إمامه وقدوته. أو : جعلناهم متقدمين فى الهلاك ، ليتعظ بهم من بعدهم إلى يوم القيامة. والسلف : جمع سالف ، وهو الفارط المتقدم ، وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ أي : عظة لهم ، أو : قصة عجيبة ، تسير مسير الأمثال ، فيقال : مثلكم كقوم فرعون ، كما قال تعالى : كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ «١». وهاهنا قراءات ، قد وجهناها فى كتاب مستقل.

الإشارة : عاقبة التكبر والافتخار الذّل والهوان والدمار ، وعاقبة التواضع والانكسار العز والنّصرة ، انظر إلى فرعون لما تعزز واستكبر هلك مع قومه فى لجة البحار. قال القشيري : ليعلم أن من تعزز بشيء دون اللّه فهلاكه وحتفه فيه ، وفرعون لمّا استصغر موسى وحديثه ، وعابه بالفقر ، سلّطه اللّه عليه ، فكان هلاكه بيده ، وما استصغر أحد أحدا إلا سلط عليه. ثم قال فى قوله تعالى : فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ : طاعة الرهبة لا تكون مخلصة ، وإنما تكون الطاعة صادقة إذا صدرت عن الرّغبة ، فَلَمَّا آسَفُونا أغضبونا ، وإنما أراد : أغضبوا أولياءنا ، وهذا أصل فى باب الجمع ، أضاف إغضابهم أولياءه إلى نفسه. وفى الخبر أنه تعالى يقول : «مرضت فلم تعدنى» «٢» وقال لإبراهيم عليه السّلام : يَأْتُوكَ رِجالًا «٣» وقال لنبينا صلّى اللّه عليه وسلم : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ «٤» هـ.

ثم ذكر شأن عيسى ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٥٧ الى ٦٢]

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)

وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢)

---

(١) من الآية ١١ من سورة آل عمران.

(٢) حديث قدسى صحيح ، أوله : «يا ابن آدم ...» ، أخرجه مسلم فى (البر والصلة ، باب فضل عيادة المريض ، ٤/ ١٩٩٠ ، ح ٥٦) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) من الآية ٢٧ من سورة الحج.

(٤) من الآية ٨٠ من سورة النّساء.

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ، وذلك أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قرأ على قريش : إِنَّكُمْ وما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ... «١» الآية ، فغضبوا ، فقال ابن الزّبعرى : يا محمد! أخاصة لنا ولآلهتنا ، أم لجميع الأمم؟ فقال عليه الصلاة والسّلام : «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» ، فقالوا : ألست تزعم أن عيسى [نبى] ، يثنى عليه وعلى أمّه خيرا ، وقد علمت أنّ النّصارى يعبدونهما؟ وعزير يعبد ، والملائكة يعبدون ، فإن كان هؤلاء فى النّار ، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، ففرحوا ، وضحكوا ، وسكت النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم انتظارا للوحى.
وفى رواية : فقال لهم صلّى اللّه عليه وسلم : «إنما عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك». وقال ابن الزبعرى : «ما أجهلك بلغة قومك ، أما فهمت أن «ما» لما لا يعقل ، فهى خاصة بالأصنام» «٢» ، فأنزل اللّه : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى ... «٣» الآية. ونزلت هذه الآية.
والمعنى : ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا لآلهتهم ، وجادل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بعبادة النّصارى إياه إِذا قَوْمُكَ قريش مِنْهُ أي : من هذا المثل يَصِدُّونَ ترتفع لهم جلبة وضجيج ، فرحا وضحكا ، فهو من : الصديد ، وهو الجلبة ورفع الصوت ، ويؤيده : تعديته بمن ، ولو كان من الصدود لقال : «عنه» ، وقرئ بالكسر والضم ، قيل : هما لغتان ، كيعكفون ويعكفون ويعرشون ويعرشون ، وقيل : بالكسر معناه : الصديد ، أي : الضجيج والضحك ، وبالضم معناه : الإعراض ، فيكون من الصدود ، أي : فهم من أجل هذا المثل يعرضون عن الحق ، أي : يثبتون على ما كانوا عليه من الإعراض ، أو يزدادون.
وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ يعنى أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ، فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا هينا. أو : فإذا كان عيسى فى النّار ، فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها. قال تعالى : ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا أي : ما ضربوا لك ذلك المثل إلا لأجل الجدال والخصام ، لا لطلب الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ أي : لدّا ، شداد الخصومة ، مجبولون على اللجاج ، وذلك أن الآية إنما قصدت الأصنام ، بدليل التعبير ب «ما» ، إلا أن ابن الزبعرى حدا عنه لمّا رأى كلام اللّه تعالى محتملا لفظه للعموم ، مع علمه بأن المراد به أصنامهم ، وجد للحيلة مساغا ، فصرف اللفظ إلى الشمول والإحاطة بكلّ معبود غير اللّه ، على طريق اللجاج والجدال والمكابرة ، وتوقّح فى

ذلك ، فصمت عنه صلّى اللّه عليه وسلم حتى أجاب عنه ربه.

---

(١) الآية ٩٨ من سورة الأنبياء.

(٢) قال الحافظ ابن حجر فى الكافر الشاف (ص ١١١ - ١١٢) : «استقر فى ألسنة كثير من علماء العجم ، وفى كتبهم أن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قال «ما أجهلك بلغة قومك ..» إلخ. وهو شيء لا أصل ولا يوجد لا مسندا ولا غير مسنده. هـ. ووجدت على هامش النّسخة الأم ما يلى :

«هذه الرّواية لا أصل لها ، بل الخبر من أصله لم يورده المؤلف كما هو ، ولبيان ذلك لا يسعه هذا المحل» هـ. [.....]

(٣) الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(٢٥٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٥٩

وقيل : لما سمعوا قوله تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ ... «١» الآية ، قالوا : نحن أهدى من النّصارى ، لأنهم عبدوا آدميا ، ونحن نعبد الملائكة ، فنزلت. فقولهم : آلهتنا خير ، هو حينئذ تفضيل لآلهتهم على عيسى عليه السّلام لأن المراد بهم الملائكة. ومعنى : ما ضَرَبُوهُ .. إلخ : ما قالوا هذا القول إلا للجدال. وقيل : لما نزل : إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ .. الآية ، قالوا : ما يريد محمد إلا أن نعبده كما عبد النّصارى المسيح. ومعنى «يصدون» : يضجون ويسخرون ، والضمير على هذا فى «أم» هو لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وغرضهم ومرادهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم الاستهزاء به صلّى اللّه عليه وسلم ويجوز أن يكون مرادهم التنصّل عما أنكر عليهم من قولهم : الملائكة بنات اللّه ، ومن عبادتهم لهم ، كأنهم قالوا : ما قلنا بدعا من القول ، ولا فعلنا منكرا من الفعل ، فإنّ النّصارى جعلوا المسيح ابن اللّه ، وعبدوه ، فنحن أرشد منهم قولا وفعلا ، حيث نسبنا له الملائكة ، وهم نسبوا إليه الأناسي. فقوله تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ أي : ما عيسى إلا عبد ، كسائر العبيد ، أنعمنا عليه بالنبوة ، وَجَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ ، أي : أمرا عجيبا ، حقيقا بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة ، ففيه تنبيه على بطلان رفعه عن رتبة العبودية ، أي : قصارى أمره أنه ممن أنعمنا عليه بالنبوة ، وخصصناه ببعض الخواص البديعة ، بأن خلقناه على وجه بديع ، وقد خلقنا آدم بوجه أبدع منه ، فأين هو من رتبة الرّبوبية حتى يتوهم أنه رضى بعبادته مع اللّه؟ ومن عبده فإنما عبد الشيطان.

ثم قال تعالى : وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ بدلا منكم ، كذا قال الزجاج ، ف «من» بمعنى البدل يَخْلُفُونَ أي : يخلفونكم فى الأرض ، أي : لو نشاء لذهبنا بكم وجعلنا بدلا منكم ملائكة

يخلفونكم فى الأرض ، فيكونون أطوع منكم للّه تعالى ، وقيل : (و لو نشاء) لقدرتنا على عجائب الأمور (لجعلنا منكم) بطريق التوالد ، وأنتم رجال ، من شأنكم الولادة - (ملائكة) كما خلقناهم بطريق الإبداع (فى الأرض) مستقرين فيها ، كما جعلناهم مستقرين في السماء ، يخلفونكم مثل أولادكم ، ويباشرون الأفاعيل المنوطة بمباشرتكم ، فكيف يستحقون المعبودية مع أنهم أجسام ، متولدون عن أجسام ، والمستحق للعبادة يتعالى عن ذلك؟! وَإِنَّهُ أي : عيسى عليه السّلام لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ أي : مما يعلم به مجيء الساعة عند نزوله. وقرأ ابن عباس «لعلم» بفتح اللام «٢» ، أي : وإن نزوله لعلم للساعة ، أو : وإن وجوده بغير أب ، وإحياءه للموتى ، دليل على صحة البعث ، الذي هو معظم ما ينكره الكفرة.

---

(١) الآية ٥٩ من سورة آل عمران.

(٢) اللام الثانية مع فتح العين(لعلم) وهو الأمارة والعلامة.

(٢٥٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٦٠

وفى الحديث : إن عيسى عليه السّلام ينزل على ثنية بالأرض المقدسة ، يقال لها : أفيق ، وهى عقبة بيت المقدس ، وعليه ممصّرتان «١» ، وشعر رأسه دهين ، وبيده حربة يقتل بها الدجال ، فيأتى بيت المقدس ، والنّاس فى صلاة العصر ، والإمام يؤم بهم ، فيتأخر الإمام ، فيقدمه عيسى ، ويصلى خلفه على شريعة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويخرب البيع والكنائس ، ويقتل النّصارى إلا من آمن به وبمحمد صلّى اللّه عليه وسلم «٢».

وقيل : الضمير للقرآن لأن فيه الإعلام بالساعة ، فَلا تَمْتَرُنَّ بِها فلا تشكنّ فيها ، من المرية ، وهو الشك ، وَاتَّبِعُونِ أي : اتبعوا هداى وشرائعى ، أو : رسولى ، وقيل : هو قول نبينا صلّى اللّه عليه وسلم مأمورا به من جهته تعالى :

هذا أي : الذي أدعوكم إليه صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ موصل إلى الحق. وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ عن اتباعى إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ بيّن العداوة ، حيث أخرج آباءكم من الجنة ، وعرضكم للبلية.

الإشارة : الوعظ والتذكير لا تسرى أنواره فى القلوب إلا مع التسليم والتصديق ، والسكوت والاستماع ، كما كان الصحابة - رضي اللّه عنهم - مع الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم كأنّ على رؤوسهم الطير ، وأما إن دخل معه الجدال واللجاج ذهبت بركته ، ولم تسر أنواره ، ولذلك قيل : مذهب الصوفية مبنى على التسليم والتصديق ، ومذهب الفقهاء مبنى على البحث والتفتيش ، لكن مع الإنصاف ، وخفض

الصوت ، وحسن السؤال من غير ملاججة ولا غضب.

ثم ذكر بعثة عيسى ودعوته إلى اللّه ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٦٣ الى ٦٦]

وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦)

---

(١) ممصرتان : تثنية «ممصّرة». وهى الثياب التي فيها صفرة خفيفة. انظر النّهاية فى غريب الحديث (مصر ٤/ ٣٣٦).

(٢) ذكره بلفظه القرطبي فى تفسيره (٧/ ٦١٠٩) وعزاه للثعلبى ، وأخرجه بلفظ مقارب أبو داود فى (الملاحم ، باب خروج الرّجال ، ٤/ ٤٩٨ ح ٤٣٢٤). عن أبى هريرة. وأصل الحديث فى الصحيحين. انظر البخاري (كتاب الأنبياء ، باب نزول عيسى بن مريم عليهما السّلام ح ٣٤٤٨) ومسلم (الإيمان ، باب نزول عيسى ابن مريم حكما بشريعة نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم ١/ ١٣٥ ح ١٥٥).

(٥/٢٦٠)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٦١

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات أو : بآيات الإنجيل أو : بالشرائع الواضحات قالَ لبنى إسرائيل : قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ بالشريعة ، أو : بالإنجيل المشتمل عليها وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ وهو ما يتعلق بأمور الدين ، وأما ما يتعلق بأمور الدنيا فليس بيانه من وظائف الأنبياء - عليهم السّلام - كما قال صلّى اللّه عليه وسلم : «أنتم أعلم بدنياكم» «١» ، وهو عطف على مقدر ، ينبئ عنه المجيء بالحكمة ، كأنه قيل : جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها ، ولأبيّن لكم ما تختلفون فيه ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فى مخالفتى وَأَطِيعُونِ فيما أبلغكم عن اللّه تعالى :

إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ بيان لما أمرهم به من الطاعة ، وهو اعتقاد التوحيد ، والتعبد بالشرائع ، هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ لا يضل سالكه فهذا تمام كلام عيسى عليه السّلام ، وقيل : قوله : هذا .... إلخ من كلام اللّه تعالى ، مقرر لمقالة عيسى عليه السّلام.

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ أي : الفرق المتحزبة بعد عيسى ، وهم : اليعقوبية والنّسطورية ، والملكانية ،

والشمعونية ، مِنْ بَيْنِهِمْ أي : من بين النّصارى ، أو : من بين من بعث إليهم من اليهود والنّصارى ، أي : اختلافا ناشئا من بينهم ، من غير حجة ولا برهان ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا من المختلفين ، حيث قالوا فى عيسى ما كفروا به ، مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ وهو يوم القيامة هَلْ يَنْظُرُونَ أي : ما ينتظر أولئك الكفرة ، أو قوم عيسى إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ : بدل من «الساعة» أي : هل ينتظرون إلا إتيان الساعة بَغْتَةً فجأة وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ غافلون عن الاستعداد لها ، لاشتغالهم بأمر دنياهم ، أو : منكرون لها ، غير مترقبين وقوعها.

الإشارة : كانت الرّسل - عليهم السّلام - يبينون لأممهم ما يقع فيه الاختلاف من أمر الدين ، سواء تعلق ذلك بالظاهر أو بالباطن ، بما يوحى إليهم من إلهام ، أو بملك مرسل ، فلما ماتوا بقي خلفاؤهم من العلماء والأولياء ، فالعلماء يبينون ما اختلف فيه من الشرائع والعقائد ، بما عندهم من القواعد والبراهين ، والأولياء يبينون الحقائق ، وما يتعلق بالقلوب من الشكوك والخواطر ، وسائر الأمراض ، بما عندهم من الأذواق والكشوفات. فالعلماء يرجعون إلى كتبهم وعلومهم ، والأولياء يرجعون إلى قلوبهم وأذواقهم ، حتى كان فيما سلف من العلماء إذا توقفوا فى مسألة عقلية أو قلبية أخذوا صوفيا أميا فيسألونه ، ويجبرونه على الجواب ، فيجيبهم عن كلّ ما يسألونه ، كقصة أبى الحسن النوري مع القاضي ، وغيره ، وقد كان الشعراني يسأل شيخه الخواص - وهو أمي - عن أمور معضلة ، فيجيب عنها ، حتى إن كتبه كلها مطرزة بكلامه - رضي اللّه عنهم أجمعين.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الفضائل ، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا ، ٤/ ١٨٣٥ ح ٢٣٦٣) عن السيدة عائشة - رضي اللّه عنها - وسيدنا أنس رضي اللّه عنه بلفظ : «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

وأهل الأذواق هم المتقون المتحابون فى اللّه ، الذين أشار إليهم تعالى بقوله :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٦٧ الى ٧٣]

الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (٧٣)

يقول الحق جل جلاله : الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ أي : المتحابون فى الدنيا على الأمور

الذميمة متعادون يوم القيامة ، يبغض بعضهم بعضا ، فتنقطع فى ذلك اليوم كلّ خلة كانت لغير اللّه ، وتنقلب عداوة ومقتا لانقطاع سببها ، وهو الاجتماع على الهوى ، إِلَّا الْمُتَّقِينَ أي : الأخلة المصادقين فى اللّه ، فإنها الخلة الباقية لأن خلتهم فى الدنيا لمّا كانت للّه ، وفى اللّه ، بقيت على حالها لأن ما كان للّه دام واتصل ، وما كان لغير اللّه انقطع وانفصل ، بل تزداد خلتهم بمشاهدة كلّ واحد منهم بركة خلتهم من الثواب ، ورفع الدرجات. وسئل صلّى اللّه عليه وسلم :

من أولياء اللّه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ فقال : «المتحابون فى اللّه» ، وخرّج البزار عن ابن عباس رضي اللّه عنه : قيل : يا رسول اللّه! أىّ جلسائنا خير؟ قال : «من ذكّركم باللّه رؤيته ، وزاد فى عملكم منطقه وذكّركم باللّه علمه» «١».

ومن كلام الشيخ أبى مدين رضي اللّه عنه : دليل تخليطك صحبتك للمخلطين ، ودليل انقطاعك إلى اللّه صحبتك للمنقطعين. هـ. وفى سماع العتبية : قال مالك : لا تصحب فاجرا لئلا تتعلّم من فجوره ، قال ابن رشد : لا ينبغى أن يصحب إلا من يقتدى به فى دينه وخيره لأن قرين السوء يردى ، قال الحكيم :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ف كل قرين بالمقارن مقتد «٢».

---

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٢٤٣٦) عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٢) البيت منسوب إلى عدى بن زيد : انظر : نهاية الأرب (٣/ ٦٥) والعقد الفريد (٢/ ٣١١).

(٢٦٢/٥)

وفى الحديث : «المرء على دين خليله» وسيأتى ، فى الإشارة بقية الكلام على المتحابين فى اللّه.

ويقال لهم حينئذ ، تشريفا لهم ، وتطييبا لقلوبهم : يا عِبادِ «١» لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ، ثم وصفهم أو مدحهم بقوله : الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا صدّقوا بآياتنا التنزيلية ، وَكانُوا مُسْلِمِينَ منقادين لأحكامنا ، مخلصين وجوههم لنا ، وعن مقاتل : «إذا بعث اللّه النّاس ، فزع كلّ أحد ، فينادى مناد : يا عبادى ، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، فيرجوها النّاس كلهم ، فيتبعها الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، فينكّس أهل الأديان الباطلة رؤوسهم» «٢» ، ثم يقول لهم : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ نساؤكم المؤمنات تُحْبَرُونَ تسرّون سرورا يظهر حباره - أي : أثره - على وجوهكم أو : تزينون ، من : الحبرة وهو حسن الهيئة ، أو : تكرمون إكراما بليغا ، وتتنعمون بأنواع النّعيم. والحبرة : المبالغة فيما وصف بجميل وتقدم فى قوله : فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ «٣» أنه السماع.

يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ أي : بعد دخولهم الجنة حسبما أمروا به وَأَكْوابٍ من ذهب حذف لدلالة ما قبله. والصحاف : جمع صحفة ، قيل : هى كالقصعة ، وقيل : أعظم القصاع ، فهى ثلاث : الجفنة ، ثم القصعة ، ثم الصحفة ، والأكواب : جمع كوب ، وهو كوز مستدير لا عروة له.
وفى حديث أبى هريرة ، عنه صلّى اللّه عليه وسلم : قال : «أدنى أهل الجنة من له سبع درجات ، هو على السادسة ، وفوقه السابعة ، وإنّ له ثلاثمائة خادم ، ويغدى عليه ويراح بثلاثمائة صحفة من ذهب ، فى كلّ صحفة لون ليس فى الأخرى مثله ، وإنه ليلذ آخره كما يلذّ أوله ، ويقول : لو أذنت لى يا رب لأطعمت أهل الجنة ، وأسقيتهم ، ولا ينقص مما عندى شىء ، وإنّ له من الحور العين لاثنين وسبعين زوجة ، سوى أزواجه فى الدنيا ، وإن الواحدة منهن ليأخذ مقعدها قدر ميل» «٤». وفى حديث عكرمة : «إن أدنى أهل الجنة منزلة من يفسح له فى بصره مسيرة مائة عام ، فى قصور من ذهب ، وخيام من لؤلؤ ، وليس منها موضع شبر إلا معمور ، يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحفة

---

(١) هكذا (يا عبادى لا خوف) بإثبات الياء ، وإسكانها ، وهى قراءة نافع ، وأبى عمرو ، وابن عامر ، وأبى جعفر ، وصلا ووقفا. والباقون بحذفها فى الحالين. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٨ - ٤٥٩).
(٢) أخرجه الطبري (٢٥/ ٩٥) عن سليمان التيمي.
(٣) الآية ١٥ من سورة الرّوم.
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٧) وقال ابن القيم فى حادى الأرواح (٢٢٣) : «سكين بن عبد العزيز ، ضعّفه النّسائى. وشهر بن حوشب ، ضعفه مشهور. والحديث منكر ، يخالف الأحاديث الصحيحة».

من ذهب ، ليس فيها صحفة إلا وفيها لون ليس فى الأخرى مثله ، شهوته فى آخرها كشهوته فى أولها ، ولو نزل به جميع أهل الدنيا لوسع عليهم مما أعطى ، ولا ينقص ذلك مما أوتى شيئا» «١». ويجمع بينهما بتعدد أهل هذه المنزلة ، وتفاوتهم.
وَفِيها أي : فى الجنة ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ من فنون الملاذ. ومن قرأ بحذف الهاء فلطول الموصول بالفعل والفاعل. وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ أي : تستلذه ، وتقر بمشاهدته ، وهذا حصر لأنواع النّعيم لأنها إما مشتهيات فى القلوب ، أو : مستلذات فى العيون ، ففى الجنة كلّ ما يشتهى العبد من الملابس والمناكح والمراكب.
روى أن رجلا قال : يا رسول اللّه ، إنى أحبّ الخيل ، فهل فى الجنة خيل؟ فقال : «إن يدخلك اللّه الجنة فلا تشاء أن تركب فرسا من ياقوتة حمراء ، يطير بك فى الجنة حيث شئت ، إلا فعلت ، قال

أعرابى : يا رسول اللّه ، إنى أحبّ الإبل ، فهل فى الجنة إبل؟ فقال : يا أعرابى ، إن يدخلك اللّه الجنة ففيها ما اشتهت نفسك ولذت عيناك» «٢». هـ. وقال أبو طيبة السلمى : إن الشرذمة من أهل الجنة لتظلهم سحابة ، فتقول : ما أمطركم؟ فما يدعو داع من القوم بشىء إلا أمطرته ، حتى إن الرّجل منهم يقول : أمطر علينا كواعب أترابا. وقال أبو أمامة : إن الرّجل من أهل الجنة ليشتهى الطائر وهو يطير ، فيقع نضيجا فى كفه كما أراد ، فيأكل منه حتى تشهى نفسه ، ثم يطير كما كان أول مرة ، ويشتهى الشراب ، فيقع الإبريق فى يده ، فيشرب منه ما يريد ، ثم يرفع الإبريق إلى مكانه. هـ. من الثعلبي.

قال القشيري : وفيها ما تشتهيه الأنفس للعباد لأنهم [قاسوا] «٣» فى الدنيا - بحكم المجاهدات - الجوع والعطش ، وتحملوا وجوه المشاقّ ، فيجزون فى الجنة وجوها من الثواب ، وأما أهل المعرفة والمحبّون فلهم ما تلذّ أعينهم من النظر إلى اللّه ، لطول ما قاسوه من فرط الاشتياق بقلوبهم ، وما عالجوه من احتراقهم فيه لشدة غليلهم. هـ.

والحاصل : أن ما تشتهى الأنفس يرجع لنعيم الأشباح ، وتلذ الأعين لنعيم الأرواح من النّظر ، والقرب ، والمناجاة والمكالمة ، والرّضوان الأكبر ، منحنا اللّه من ذلك الحظ الأوفر.

وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ إتمام للنعمة ، وكمال للسرور فإن كلّ نعيم له زواله مكدر بخوف زواله لا محالة.

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ مبتدأ وخبر ، والَّتِي أُورِثْتُمُوها : صفة الجنة ، أو : «الجنة» صفة المبتدأ ، الذي هو الإشارة ، و«التي أورثتموها» : خبره. أو : «التي أورثتموها» صفة المبتدأ ، وبِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ : خبر ، أي : حاصلة ، أو كائنة

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٧٣٢) لعبد بن حميد ، عن عكرمة ، يرفعه.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٣٥٢) والترمذي فى (صفة الجنة ، باب ما جاء فى صفة خيل الجنة ٤/ ٨٨٥/ ح ٢٥٤٣) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٢٢) عن عبد الرّحمن بن سابط مرسلا. وقال الهيثمي (١٠/ ٤١٣) : رواه الطبراني ورجاله ثقات. [.....]

(٣) فى الأصول : [قاموا] وما أثبته هو الذي فى القشيري.

بما كنتم تعملون فى الدنيا ، شبه جزاء العمل بالميراث لبقائه على أهله دائما ، ولا ينافى هذا قوله صلّى اللّه عليه وسلم : «لن يدخل أحدكم الجنة عمله» «١» لأن نفس الدخول بالرحمة ، والتنعم والدرجات بقدر العمل ، أو : تقول : الحديث خرج مخرج الحقيقة ، والآية خرجت مخرج الشريعة ، فالحقيقة

تنفى العمل عن العبد ، وتثبته للّه ، والشريعة تثبته له باعتبار الكسب ، والدين كله وارد بين حقيقة وشريعة فإذا شرع القرآن حققته السّنة ، وإذا شرعت السنة حققه القرآن. واللّه تعالى أعلم.

لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ بحسب الأنواع والأصناف ، لا بحسب الأفراد فقط ، مِنْها تَأْكُلُونَ أي : لا تأكلون إلا بعضها ، وأعقابها باقية فى أشجارها على الدوام ، لا ترى فيها شجرا خلت عن ثمرها لحظة ، فهى مزيّنة بالثمار أبدا ، موقورة بها ، وعن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «لا ينزع رجل فى الجنة من ثمرها إلا نبت فى مكانها مثلاها» «٢».

الإشارة : كل خلة وصحبة تنقطع يوم القيامة ، إلّا خلة المتحابين فى اللّه ، وهم الذين ورد فى الحديث : أنهم يكونون فى ظل العرش ، والنّاس فى حر الشمس ، يغشى نورهم النّاس فى المحشر ، يغبطهم النّبيون والشهداء لمنزلتهم عند اللّه. قيل : يا رسول اللّه ، من هؤلاء؟ صفهم لنا لنعرفهم ، قال : «رجال من قبائل شتى ، يجتمعون على ذكر اللّه» «٣».

وقد ورد فيهم أحاديث ، منها : حديث الموطأ ، عن معاذ ، قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول : «قال اللّه تعالى :

وجبت محبّتى للمتحابّين فىّ ، والمتجالسين فىّ ، والمتباذلين فىّ ، والمتزاورين فىّ» «٤» ، وفى رواية أبى مسلم الخولاني : قال صلّى اللّه عليه وسلم : «المتحابّون فى اللّه على منابر من نور ، فى ظلّ العرش ، يوم لا ظلّ إلا ظلّه» «٥» ، وفى حديث آخر : «ما تحابّ اثنان فى اللّه إلا وضع لهما كرسيّا ، فيجلسان عليه حتى يفرغ من الحساب» «٦» وقال : صلى اللّه عليه وسلم : «إنّ المتحابّين فى اللّه لترى غرفهم فى الجنة كالكوكب الطّالع الشّرقى أو الغربي ، فيقال : من هؤلاء؟ فيقال : هؤلاء المتحابّون فى اللّه عز وجل».

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل ، ح ٦٤٦٧). ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة اللّه تعالى ٤/ ٢١٧١ ، ح ٢٨١٨) من حديث السيدة عائشة - رضي اللّه عنها : وأول الحديث : «سددوا وقاربوا ...».

(٢) أخرجه الطبري (٢٥/ ٩٧) والبزار (كشف الأستار ح ٣٥٣٠) وقال الهيثمي فى مجمع الزوائد (١٠/ ٤١٤) : رواه الطبراني والبزار ، ورجال الطبراني وأحد إسنادى البزار ثقات.

(٣) قال الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٧٧) : رواه الطبراني ، وإسناده حسن.

(٤) رواه مالك فى الموطأ (٢/ ٩٥٣) وأحمد (٥/ ٢٣٣) والحاكم (٤/ ١٦٩) وصحّحه ووافقه الذهبي.

(٥) رواه ابن حبان (٥٧٧) وعبد اللّه بن الإمام أحمد فى زوائد المسند (٥/ ٣٢٩).

(٦) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٧٨٦٨) للطبراني ، عن أبى عبيدة ومعاذ ، وضعّفه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٦٦

وفى رواية : «إنّ فى الجنة غرفا يرى ظواهرها من بواطنها ، وبواطنها من ظواهرها ، أعدّها اللّه للمتحابّين فى اللّه ، والمتزاورين فيه ، والمتباذلين فيه» «١» وفى لفظ آخر : «إنّ فى الجنة لعمدا من ياقوت ، عليها غرف من زبرجد ، لها أبواب مفتّحة تضىء كما يضىء الكوكب الدّرّى ، قلنا : يا رسول اللّه ، من يسكنها؟ قال : المتحابّون فى اللّه والمتباذلون فى اللّه ، والمتلاقون فى اللّه ، مكتوب على وجوههم : هؤلاء المتحابون فى اللّه» «٢» وفى الأثر أيضا : إذا كان يوم القيامة ، نادى مناد : أين المتحابون فى اللّه؟ فيقوم ناس - وهم يسير - فينطلقون إلى الجنّة سراعا ، فتتلقّاهم الملائكة : فيقولون : رأيناكم سراعا إلى الجنة ، فمن أنتم؟ فيقولون : نحن المتحابّون فى اللّه فيقولون : وما كان تحابّكم؟ فيقولون : كنّا نتحابّ فى اللّه ونتزاور فى اللّه ، ونتعاطف فى اللّه ، ونتباذل فى اللّه ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة ، فنعم أجر العاملين. هـ. من البدور السافرة. والتباذل : المواساة بالبذل.

وذكر فى الإحياء شروط المتحابين فى اللّه ، فقال رضي اللّه عنه : اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين ، كعقد النكاح بين الزوجين ، ثم قال : فلأخيك عليك حق فى المال ، وفى النّفس ، وفى اللسان ، وفى القلب. وبالعفو ، وبالدعاء ، وذلك تجمعه ثمانية حقوق :

الحق الأول : فى المال بالمواساة ، وذلك على ثلاثة مراتب أدناها : أن تنزله منزلة عبدك وخادمك ، فتقوم بحاجاته بفضلة مالك ، فإذا سنحت له حاجة ، وعندك فضلة أعطيته ابتداء ، فإذا أحوجته إلى سؤال فهو غاية التقصير. الثانية : أن تنزله منزلة نفسك ، وترضى بمشاركته إياك فى مالك ، فتسمح له فى مشاركته. الثالثة - وهى العليا - : أن تؤثره على نفسك ، وتقدم حاجته على حاجتك ، وهى رتبة الصدّيقين ، ومنتهى درجات المتحابين.

الحق الثاني : الإعانة بالنفس فى قضاء الحاجات ، والقيام بها قبل السؤال ، وهذا أيضا لها درجات كالمواساة ، فأدناها : القيام بالحاجة عند السؤال ، ولكن مع البشاشة والاستبشار ، وإظهار الفرح.

وأوسطها : أن تجعل حاجته كحاجتك ، فتكون متفقدا لحاجته ، غير غافل عن أحواله ، كما لا تغفل عن أحوال نفسك ، وتغنيه عن السؤال.

وأعلاها : أن تؤثره على نفسك ، وتقدم حاجته على حاجتك ، وتؤثره على نفسك ، وأقاربك ، وأولادك.

كان الحسن يقول : إخواننا أحبّ إلينا من أهلينا وأولادنا لأن أهلينا يذكروننا الدنيا ، وإخواننا يذكروننا الآخرة.

---

(١) رواه الطبراني فى الأوسط (ح ٢٩٠٣) ، عن بريدة. قال الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٢٧٨) :

«وفيه إسماعيل بن سيف ، وهو ضعيف».
(٢) رواه البزار (كشف الأستار ، ح ٣٥٩٢) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

الحق الثالث : على اللسان بالسكوت ، فيسكت عن التجسس ، والسؤال عن أحواله ، وإذا رآه فى طريقه فلا يسأله عن غرضه وحاجته ، فربما يثقل عليه ، أو يحتاج إلى أن يكذب ، ويسكت عن أسراره التي بثها إليه ، فلا يبثها إلى غيره ، ولا إلى أخص أصدقائه ، ولا يكشف شيئا منها ولو بعد القطيعة ، وليسكن عن مماراته ومدافعته فى كلامه.

الحق الرّابع : على اللسان بالنطق ، فيتودد إليه بلسانه ، ويتفقده فى أحواله ، كالسؤال عن عارض عرض له ، وأظهر شغل القلب بسببه ، فينبغى أن يظهر له بلسانه كراهتها. والأحوال التي يسرّ بها ، ينبغى أن يظهر له بلسانه مشاركته فى السرور بها. فمعنى الأخوة : المساهمة فى السراء والضراء ، ويدعوه بأحب أسمائه فى حضوره ومغيبه ، ويثنى عليه بما يعرف من محاسن أحواله ، عند من يريد هو الثناء عنده ، وكذا على أولاده وأهله ، حتى على عقله ، وخلقه ، وهيئته ، وخطه ، وشعره ، وتصنيفه ، وجميع ما يفرح به ، من غير كذب ولا إفراط ، ويذب عنه فى غيبته مهما قصد بسوء ، ويعلمه مما علمه اللّه وينصحه.

الحق الخامس : العفو عن الزلات والهفوات ، فإن كانت زلته فى الدين بارتكاب معصية ، فليتلطف فى نصحه ، فإن بقي مصرا ، فقد اختلف الصحابة فى ذلك ، فذهب أبو ذر إلى مقاطعته ، وقال : إذا انقلب أخوك عما كان عليه فابغضه من حيث أحببته. وذهب أبو الدرداء ، وجماعة ، إلى خلاف ذلك ، وقال أبو الدرداء : إذا تغير أخوك عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوجّ مرة ويستقيم أخرى. وهذا ألطف وأفقه ، وذلك لما فى هذه الطريق من الرّفق ، والاستمالة ، والتعطف ، المفضى إلى الرّجوع والتوبة. وأيضا : للأخوة عقد ، ينزل منزلة القرابة ، فإذا انعقدت وجب الوفاء بها ، ومن الوفاء : ألا يهمله أيام حاجته وفقره ، وفقر الدين أشد من فقر المال. ثم قال : والفاجر إذا صحب تقيا وهو ينظر إلى خوفه رجع عن قريب ، ويتخلى من الإصرار ، بل الكسلان يصحب الحريص فى العمل ، فيحرص حياء منه ، وإن كانت زلته فى حقك فلا خلاف أن العفو والاحتمال هو المطلوب. هـ. قلت : ولعل حق القلب يندرج هنا مع المحبة وشهود الصفاء منه.

الحق السادس : الدعاء له فى حياته ومماته بكلّ ما يحب لنفسه وأهله. قلت : ومن ذلك زيارة قبره ، وإيصال النفع له فى ذلك الوقت.

الحق السابع : الوفاء والإخلاص. ومعنى الوفاء : الثبات على الحب ، وإدامته إلى الممات ، معه ومع أولاده وأصدقائه.

(٢٦٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٦٨

الحق الثامن : التخفيف وترك التكليف والتكلف ، فلا تكلف أخاك ما يشق عليه بل تروح سره عن مهماتك وحاجاتك ، وترفهه عن أن تحمّله شيئا من أعبائك ، ولا تكلفه التواضع لك ، والتفقد والقيام بحقوقك ، بل ما تقصد بمحبته إلا اللّه تعالى. هـ. باختصار «١».

وفى وصية القطب ابن مشيش ، لأبى الحسن - رضي اللّه عنهما - : لا تصحب من يؤثر نفسه عليك ، فإنه لئيم ولا من يؤثرك على نفسه ، فإنه قلما يدوم واصحب من إذا ذكر ذكر اللّه ، فاللّه يغنى به إذا شهد ، وينوب عنه إذا فقد ، ذكره نور القلوب ، ومشاهدته مفاتح الغيوب. ومعنى كلام الشيخ : لا تصحب من يبخل عنك بما عنده من العلوم ، ولا من يتكلف لك ، فإنه لا يدوم ، وهذه صحبة الشيخوخة.

وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «مثل الأخوين كمثل اليدين ، يغسل إحداهما الأخرى ، وكمثل البنيان يشدّ بعضه بعضا» «٢». وفى معناه قيل :

إنّ أخاك الحقّ من كان معك ومن يضرّ نفسه لينفعك

ومن إذا رأى زمانا صدّعك شتّت فيك شمله ليجمعك

وهذا فى حق الإخوان ، واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر تعالى أضداد هؤلاء ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٧٤ الى ٨٠]

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (٧٨)

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)

قلت : (خالدون) : خبر «إن» ، و(فى عذاب) : معمول الخبر ، أو : خبر ، و«خالدون» خبر بعد خبر.

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين. (كتاب آداب الألفه والأخوة).
(٢) قال العراقي فى المغني (٢/ ١٧٢) : «رواه السلمى فى آداب الصحبة ، وأبو المنصور الديلمي فى مسند الفردوس ، من حديث أنس.
وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي ، كذاب. وهو من قول سلمان الفارسي فى الأول من الحزبيات».

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الْمُجْرِمِينَ أي : الراسخين فى الإجرام ، وهم الكفار ، كما ينبئ عنه إتيانه فى مقابلة المؤمنين فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ ، لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ لا يخفف عنهم ، من قولهم : فترت عنه الحمى :
سكتت. قال القشيري : هم الكفار والمشركون ، أهل الخلود ، لا يخفف عنهم ، وأما أهل التوحيد فقد يكون قوم منهم فى النار ، ولكن لا يخلدون فيها فيقتضى دليل الخطاب أنه يفتّر عنهم العذاب ، أي : يخفف ، وورد فى الخبر الصحيح :
«أن الحق يميتهم إماتة إلى أن يخرجوا منها» والميت لا يحس ولا يألم ، وذكر فى الآية أنهم مُبْلِسُونَ فيدلّ أن المؤمنين لا إبلاس لهم ، وإن كانوا فى بلائهم فهم على وصف رجائهم ، ويعدون أيامهم. هـ.
وحمل ابن عطية الموت على المقاربة ، لا الموت حقيقة لأن الآخرة لا موت فيها قال : والحديث أراه على التشبيه ، لأنه كالسبات والرّكود والهمود ، فجعله موتا. انظره فى ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى ، «١». وقال عياض فى الإكمال :
عن بعض المتكلمين : يحتمل الحقيقة ، ويحتمل الغيبة عن الإحساس ، كالنوم ، وقد سمى النّوم وفاتا لإعدامه الحس. هـ.
وَهُمْ فِيهِ أي : فى العذاب مُبْلِسُونَ آيسون من الفرج ، متحيّرون ، وَما ظَلَمْناهُمْ بذلك ، حيث أرسلنا الرّسل وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ بتعريض أنفسهم للعذاب الخالد ، بمخالفة الرّسل ، وإيثارهم التقليد على النّظر.
وَنادَوْا وهم فى النّار لمّا أيسوا من الفتور «٢» يا مالِكُ ، وهو خازن النّار. قيل لابن عباس : إن ابن مسعود يقرأ «يا مال» - ورويت عن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم «٣» - فقال «٤» : «ما أشغل أهل النّار عن الترخيم «٥» ، قيل : هو رمز إلى ضعفهم وعجزهم عن تمام اللفظ. لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ أي : ليمتنا حتى نستريح ، من : قضى عليه إذا أماته ، والمعنى : سل ربك أن يقضى علينا بالموت ، وهذا لا

ينافى ما ذكر من إبلاسهم لأنه جؤار ، وتمنى الموت لفرط الشدة. قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ لابثون فى العذاب ، لا تتخلصون منه بموت ولا فتور ، قال الأعمش : أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابتهم ألف عام «٦» ، وفى الحديث : «لو قيل لأهل النّار : إنكم ماكثون فى النّار عدد كلّ حصاة فى الدنيا لفرحوا ولو قيل لأهل الجنة ذلك لحزنوا ، ولكن جعل اللّه لهم الأبد».

---

(١) الآية ١٣ من سورة الأعلى.

(٢) أي : فتور العذاب عنهم.

(٣) نقل القرطبي (٧/ ٦١٢٠) عن أبى بكر الأنبارى قوله فى رفع هذه القراءة إلى النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «لا يعمل على هذا الحديث ، لأنه مقطوع ، لا يقبل مثله فى الرّواية عن الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم. وكتاب اللّه أحق أن يحتاط له ، وينفى عنه الباطل».

قلت : الذي فى الصحيح أن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم كان يقرأ : «ونادوا يا ملك». فقد أخرج البخاري فى (التفسير - سورة الزخرف ، باب وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ الآية ح ٤٨١٩) عن صفوان بن يعلى عن أبيه قال : «سمعت النّبى صلّى اللّه عليه وسلم يقرأ على المنبر : وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ ..» الحديث. [.....]

(٤) أي : سيدنا ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٥) الترخيم : التليين وقيل : هو للحذف : ومنه : ترخيم الاسم فى النّداء ، وهو أن يحذف من آخره حرف أو أكثر ، فتقول فى : «مالك» يا مال ، وفى «حارث» يا حا .. وهكذا. وسمى ترخيما لتليين المنادى صوته بحذف الحرف. انظر اللسان (رخم ٣/ ١٦١٧).

وانظر قول ابن عباس رضي اللّه عنه فى فتح الباري (٨/ ٤٣١) وتفسير النّسفى (٣/ ٢٨٣).

(٦) قول الأعمش ، ذكره الترمذي فى (صفة جهنم ، باب ما جاء فى صفة طعام أهل النّار).

(٥/٢٦٩)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٧٠

لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ فى الدنيا بإرسال الرّسل ، وإنزال الكتب ، وهو خطاب توبيخ وتقريع من جهته - تعالى ، مقرر لجواب مالك ، ومبين لسبب مكثهم ، وقيل : الضمير فى (قال) للّه تعالى ، أي : لقد أعذرنا إليكم بإرسال الرّسل بالحق وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ أىّ حق كان كارِهُونَ لا تسمعونه وتفرون منه لأن مع الباطل الدّعة ، ومع الحق التعب ، هذا فى مطلق الحق ، وأما فى الحق المعهود ، الذي هو التوحيد والقرآن ، فكلهم كارهون مشمئزون منه.

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً : مبتدأ ، ناع على المشركين ما فعلوا من الكيد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، و«أم» منقطعة ، وما فيها من معنى «بل» للانتقال من توبيخ أهل النّار إلى حكاية جناية هؤلاء ، أي : أم أحكم مشركو مكة أمرا من كيدهم ومكرهم برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فَإِنَّا مُبْرِمُونَ كيدنا حقيقة ، كما أبرموا كيدهم صورة ، كقوله تعالى : أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ «١» الآية. وكانوا يتناجون فى أنديتهم ، ويتشاورون فى أمره صلّى اللّه عليه وسلم.

أَمْ يَحْسَبُونَ بل يحسبون أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وهو ما حدّثوا به أنفسهم أو غيرهم فى مكان خال ، وَنَجْواهُمْ أي : ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي ، بَلى نحن نسمعها ونطّلع عليها وَرُسُلُنا الملائكة الذين يحفظون عليهم أعمالهم ، ويلازمونهم أينما كانوا لَدَيْهِمْ أي : عندهم يَكْتُبُونَ كل ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال ، ومن جملتها : ما ذكر من سرهم ونجواهم ، والجملة : إما عطف على ما يترجم عنه «بلى» ، أي : نكتبها ورسلنا كذلك ، أو حال ، أي : نسمعها والحال أن رسلنا يكتبونه.

الإشارة : قوله تعالى : إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ... إلخ .. أما أهل الشرك فقد اتفق المسلمون على خلودهم ، إلا ما انفرد به ابن العربي الحاتمي والجيلي ، فقد نقلا خبرا مأثورا : أن النّار تخرب ، وينبت موضعها الجرجير ، وينتقل زبانيتها إلى خزنة الجنان ، فهذا من جهة الكرم وشمول الرّحمة لا يمنع ، ومن جهة ظواهر النّصوص معارض ، وباطن المشيئة مما اختص اللّه تعالى به. ونقل الجيلي أيضا فى كتابه (الإنسان الكامل) : أن بعض أهل النار أفضل عند اللّه من بعض أهل الجنة يتجلى لهم الحق تعالى فى دار الشقاء. ونقل أيضا : أن بعض أهل النّار تعرض عليهم الجنة فيأنفون منها ، وأن بعض أهل النّار يتلذذون بها كصاحب الجرب. وذكر بعضهم أن أهل النّار يتطبعون بها ، كالسمندل ، فهذه مقالات غريبة ، اللّه أعلم بصحتها. وعلى تقدير وقوعها فى غيب مشيئته تعالى ، فلعلها فى قوم مخصوصين من المسلمين ختم لهم بالشقاء بعد مقاسات شدائد الطاعة ، أو : فى قوم من أهل الفترة لم يكن فيهم

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة الطور.

إذاية ، أو صدر منهم إحسان ، واللّه أعلم بأسرار غيبه ، وأما أهل التوحيد فحالهم فى النّار أرفق من هذا ، بل حالهم فيها أروح من حال الدنيا من وجه.

قال القشيري : ولقد قال الشيوخ ، إن حال المؤمنين فى النّار - من وجه - أروح لقلوبهم من حالهم اليوم فى الدنيا لأن اليوم خوف الهلاك وغدا يقين النّجاة ، وأنشدوا :

عيب السلامة أنّ صاحبها متوقّع لقواصم الظّهر

وفضيلة البلوى ترقّب أهلها عقبى الرّجاء ودورة الدّهر «١»

ثم قال في قوله تعالى : وَنادَوْا يا مالِكُ لو قالوا : يا ملك بدل من يا مالك لكان أقرب إلى الإجابة ، ولكنّ الأجنبية حالت بينهم وبين ذلك. هـ. أي : تعلقهم بالمخلوق دون الخالق. وقوله تعالى : أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً ... إلخ ، هي عادته تعالى مع خواصه كيفما كانوا ، يرد كيد من كادهم في نحره. وقوله تعالى : أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ... إلخ ، قال القشيري : إنما خوّفهم بسماع الملائكة ، وكتابتهم أعمالهم عليهم ، لغفلتهم عن اللّه ، ولو كان لهم خبر عن اللّه لما [خوفهم] «٢» بغير اللّه ، ومن علم أن أعماله تكتب عليه ، ويطالب بمقتضاها ، قلّ إلمامه بما يخاف أن يسأل عنه. هـ.

ثم ردّ على من زعم اتخاذ الولد للّه تعالى ، كعيسى والملائكة ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٨١ الى ٨٦]

قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (٨١) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥)

وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)

---

(١) في القشيري : [عقب الرّجاء مودة الدهر].

(٢) في القشيري [خافوهم].

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ على زعمكم فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ للّه ، كان أو لم يكن ، ويسمى هذا إرخاء العنان ، أي : أنا أول من يخضع للّه ، كان له ولد أو لم يكن ، وقد قام البرهان على نفيه. قال معناه السدى ، أو : وإن كان للرّحمن ولد فأنا أول من يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته ، والانقياد إليه ، كما يعظم ولد الملك ، لتعظيم أبيه وهذا الكلام وارد على سبيل الفرض ، والمراد : نفي الولد ، وذلك أنه علّق العبادة بكينونة الولد ، وهي محال في نفسها ، فكان المعلق بها محالا مثلها ، ونظيره ، قول سعيد بن جبير للحجاج ، - حين قال له : واللّه لأبدلنّك بالدنيا نار تلظى - : لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلها غيرك. أو : إن كان للرّحمن ولد في زعمكم فَأَنَا

أَوَّلُ الْعابِدِينَ أي : الموحّدين للّه ، المكذّبين قولكم ، بإضافة الولد إليه لأن من عبد اللّه ، واعترف بأنه إلهه فقد دفع أن يكون له ولد. أو : إن كان للرّحمن ولد فأنا أول العابدين ، أي : الجاحدين والآنفين من أن يكون له ولد ، من عبد : بكسر الباء : إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد ، ومنه قول الشاعر :

متى ما يشا ذو الودّ يصرم خليله ويعبد عليه لا محالة ظالما «١»

وقول الحريري :

قال ما يجب على عابد الحقّ قال يحلف بالإله الخلق «٢».

أي : على جاحد الحق. وقيل : هي «إن» النافية ، أي : ما كان للرحمن ولد فأنا أول من عبد اللّه ووحّده ، فيوقف على «ولد» على هذا التأويل.

روى : أن النّضر قال : إن الملائكة بنات اللّه ، فنزلت الآية ، فقال النّضر : ألا ترون أنه صدّقنى فقال الوليد : ما صدّقك ، ولكن قال : ما كان للرحمن ولدا ، فأنا أوّل الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له «٣». وسيأتى فى الإشارة قول آخر.

قال القشيري : وفى الآية وأمثالها دليل على جواز حكاية قول المبتدعة فيما أخطأوا فيه فى الاعتقاد ، على وجه الردّ عليهم. هـ. قلت : ولا تجوز مطالعة أقوالهم إلا لمن رسخت قدمه فى المعرفة ، والإعراض عنها أسلم.

ثم نزّه ذاته عن اتخاذ الولد ، فقال : سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ أي : تنزه رب هذه العوالم العظام عن اتخاذ الولد لأن اتخاذ الولد من صفة الأجسام ، ولو كان جسما ما قدر على خلو هذه

---

(١) البيت للمرقش الأصغر. انظر المفضليات (٥٠٢) وروح المعاني للألوسى (٢٥/ ١٠٥).

(٢) هكذا فى الأصول ، وأظنه [الحق] ، ولم أقف على البيت فى غير هذا المكان.

(٣) ذكره النّسفى (٣/ ٢٨٣).

الأجرام ، وفى إضافة اسم الرّب إلى أعظم الأجرام وأقواها ، تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوت ربوبيته كيف يتوهم أن يكون شىء منها جزءا منه. وفى تكرير اسم الرّب تفخيم لشأن العرش.

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا فى باطلهم وَيَلْعَبُوا فى [دنياهم] «١» أي : حيث لم يذعنوا لك ، ولم يرجعوا عن

غيهم ، أعرض عنهم واتركهم فى لهوهم ولعبهم ، حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ، وهو القيامة ، فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا ، وما يفعل بهم ، أو : يوم بدر ، قاله عكرمة وغيره. وهذا دليل على أن ما يقولونه إنما هو خوض ولعب لا حقيقة له.

ثم ذكر انفراده بالألوهية فى العالم العلوي والسفلى ، فقال : وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ أي :

وهو الذي هو معبود فى السماء وفى الأرض ، فضمّن «إله» معنى مألوه ، أي : وهو الذي يستحق أن يعبد فيهما. وقرأ عمر ، وأبى ، وابن مسعود : «وهو الذي فى السماء اللّه وفى الأرض اللّه» كقوله تعالى : وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ «٢» ، وقد مر تحقيقه عبارة وإشارة. والرّاجع إلى الموصول : محذوف لطول الصلة ، كقولهم : ما أنا بالذي قائل لك سوءا ، والتقدير : وهو الذي هو فى السماء إله ، و«إله» : خبر عن مضمر ، ولا يصح أن يكون «إله» مبتدأ ، و«فى السماء» خبره لخلو الصلة حينئذ عن العائد وَهُوَ الْحَكِيمُ فى أقواله وأفعاله الْعَلِيمُ بما كان وما يكون ، أو : الحكيم فى إمهال العصاة ، العليم بما يؤول أمرهم إليه ، وهو كالدليل على ما قبله من التنزيه ، وانفراده بالربوبية.

وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : تقدّس وتعاظم الذي ملك ما استقر فى السموات والأرض وَما بَيْنَهُما إما على الدوام ، كالهواء ، أو فى بعض الأوقات ، كالطير ، وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ أي : العلم بالساعة التي فيها تقوم ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ للجزاء ، والالتفات للتهديد ، فيمن قرأ بالخطاب. وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ أي : لا تملك آلهتهم التي يدعونها مِنْ دُونِهِ أي : من دون اللّه الشَّفاعَةَ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند اللّه إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ الذي هو التوحيد ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص ، وهم خواص المسلمين ، والملائكة. وجمع الضميرين باعتبار معنى (من) كما أن الإفراد أولا باعتبار لفظها. والاستثناء : إما متصل ، والموصل عام لكلّ ما يعبد من دون اللّه ، أو : منقطع ، على أنه خاص بالأصنام.

---

(١) فى الأصول [دينهم] والمثبت من النّسفى وأبى السعود.

(٢) من الآية ٣ من سورة الأنعام.

(٢٧٣/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٧٤

الإشارة : قل يا محمد : إن كان للرحمن ولد ، على زعمكم فى عيسى والملائكة ، فأنا أولى بهذه

النّسبة على تقدير صحتها لأنى أنا أول من عبد اللّه فى سابق الوجود لأن أول ما ظهر نورى ، فعبد اللّه سنين متطاولة ثم تفرعت منه الكائنات ، ومن سبق إلى الطاعة كان أولى بالتقريب ، فلم خصصتم الملائكة وعيسى بهذه النّسبة ، وأنا قد سبقتهم فى العبادة ، بل لا وجود لهم إلا من نورى ، لكن لا ولد له ، فأنا عبد اللّه ورسوله. قال جعفر الصادق : أول ما خلق اللّه نور محمد صلّى اللّه عليه وسلم قبل كلّ شىء ، وأول من وحّد اللّه عز وجل من خلقه ، درة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وأول ما جرى به القلم «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم». هـ. قاله الورتجبي. ففى الآية إشارة إلى سبقيته صلّى اللّه عليه وسلم ، وأنه أول تجل من تجليات الحق ، فمن نوره انشقت أسرار الذات ، وانفلقت أنوار الصفات ، وامتدت من نوره جميع الكائنات.

قوله تعالى فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ... إلخ ، كل من خاض فى بحار التوحيد بغير برهان العيان ، تصدق عليه الآية ، وكذا كلّ من اشتغل بغير اللّه ، وبغير ما يقرب إليه فهو ممن يخوض ويلعب ، وفى الحديث : «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر اللّه ، وما والاه ، أو عالما أو متعلما» «١».

وقوله تعالى : وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ ... إلخ. قال القشيري : وفى الآية دليل على أن جميع المسلمين تكون شفاعتهم غدا مقبولة. هـ. أي : لأنهم فى الدنيا شهدوا بالحق ، وهو التوحيد عن علم وبصيرة ، لكن فى تعميمه نظر لأن الاستثناء ، الأصل فيه الاتصال ، ولأن من شهد بالحق مستثنى من «الذين يدعون من دونه» - وهم الملائكة ، وعيسى ، وعزير ، فهم الذين شهدوا بالحق ممن دعوا من دون اللّه ، وشفاعة من عداهم مأخوذة من أدلة أخرى.

ثم ذكر إقرار المشركين بالربوبية ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٨٧ الى ٨٩]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)

قالت : (قيله) : مصدر مضاف لفاعله ، يقال : قال قولا وقالا وقيلا ومقالا. واختلف فى نصبه «٢». فقيل : عطف على «سرهم» «٣» ، أي : يعلم سرهم ونجواهم وقيله ، وقيل : عطف على محل «الساعة» ، أي : يعلم الساعة ويعلم قيله ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (الزهد ، باب مثل الدنيا ٢/ ١٣٧٧ ، ح ٤١١٢) والترمذي فى (الزهد ، باب ١٤ .. ٣/ ٤٨٦ ، ح ٢٣٢٢) والبيهقي فى الشعب (١٧٠٨) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه. وقال الترمذي : (حديث حسن) والمراد بالدنيا : كل ما يشغل عن اللّه تعالى ، ويبعد عنه.

(٢) قرأ الجمهور «قيله» بنصب اللام ، وضم الهاء. وقرأ عاصم وحمزة بخفض اللام وكسر الهاء.

(٣) من الآية ٨٠ ، وانظر الهداية للمهدوى (٢/ ٥١٠). [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٧٥

ويجوز أن يكون الجر والنّصب على إضمار القسم ، وحذفه ، كقوله تعالى : قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ «١» وجوابه :

إِنَّ هؤُلاءِ ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ أي : المشركين ، أو : العابدين والمعبودين مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ لا الأصنام والملائكة فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره ، مع كون الكل مخلوقا له تعالى.

ولما شق عليه صلّى اللّه عليه وسلم صرفهم عن الإيمان جعل يستغيث ربه فى شأنهم ، حرصا على إيمانهم ، ويقول : يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ أي : قد عالجتهم فلم ينفع فيهم شيء ، فلم يبق إلا الرّجوع إليك ، إما إن تهديهم ، أو تهلكهم ، فأخبر تعالى أنه يسمع سرهم ونجواهم ، وقوله عليه السّلام فى شأنهم ، قال له تعالى : فَاصْفَحْ عَنْهُمْ أي : أعرض عنهم وأمهلهم ، وَقُلْ سَلامٌ أي : أمرى تسلّم منكم ومتاركة ، حتى نأمرك بجهادهم ، فَاصْفَحْ عَنْهُمْ أي : أعرض عنهم وأمهلهم ، وَقُلْ سَلامٌ أي : أمرى تسلّم منكم ومتاركة ، حتى نأمرك بجهادهم ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حالهم قطعا ، وإن تأخر ذلك.

وهو وعيد من اللّه تعالى ، وتسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، أو : فسوف يعلمون حقيقة ما أنكروا من رسالتك. ومن قرأ بالخطاب «٢» ، فهو داخل فى حيز «قل» ، من جملة ما يقال لهم.

الإشارة : العجب كلّ العجب أن يعلم العبد أنه لا خالق له سوى ربه ، ولا محسن له غيره ، وهو يميل بالمحبة أو الركون إلى غيره ، وفى الحكم : «والعجب كلّ العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه ، ويطلب ما لا بقاء له معه ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور.» ويقال لمن دعا إلى اللّه فلم ينجح دعاؤه : فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ ... الآية.

وباللّه التوفيق .. وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله.

---

(١) الآية ٨٤ من سورة ص.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ، بالخطاب على الالتفات ، والباقون بالغيب. انظر : الاتحاف/ ٤٦١.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٧٦

(٢٧٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٧٧

سورة الدّخان

مكية. وهى سبع وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله : فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ على الاحتمال الثاني «١» ، أي :
سوف تعلمون حقيقة ما أنزلنا على محمد ، ثم أقسم أنه أنزل فى ليلة مباركة ، أو لقوله : إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ «٢» أي : بما أنزلت إليّ ، فأقسم اللّه تعالى أنه أنزله من عنده ، أو يرجع لقوله : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ «٣» والحديث شجون ، يجر بعضه بعضا.

[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤)
أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩)

يقول الحق جل جلاله : حم يا محمد وَحق الْكِتابِ الْمُبِينِ ، الواضح البيّن ، وجواب القسم : إِنَّا أَنْزَلْناهُ أي : الكتاب الذي هو القرآن فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ ، ليلة القدر ، أو ليلة النّصف من شعبان ، والجمهور على الأول ، لقوله : إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ «٤» وقوله : شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ «٥» ، وليلة القدر على المشهور فى شهر رمضان ، وسيأتى الجمع بينهما. ثم قيل : أنزله جملة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، ثم نزل به جبريل نجوما ، على حسب الوقائع ، فى ثلاث وعشرين سنة ، وقيل : معنى نزوله فيها : ابتداء نزوله.

---

(١) راجع تفسير الآية الأخيرة من سورة الزخرف.

(٢) الآية ٨٨ من سورة الزخرف.

(٣) الآية ٤٤ من سورة الزخرف.

(٤) الآية الأولى من سورة القدر.

(٥) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

(٢٧٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٧٨

والمباركة : الكثيرة الخير لما ينزل فيها من الخير والبركة ، والمنافع الدينية والدنيوية ، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن لكفى به بركة.

إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ استئناف مبين لما يقتضى الإنزال ، كأنه قيل : إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ استئناف أيضا مبين لسر تخصيص هذه الليلة بالإنزال ، أي : إنما أنزلناه فى هذه الليلة المباركة ، لأنها فيها يفرق كلّ أمر حكيم ، أي : ذى حكمة بالغة ، ومعنى «يفرق» : يفصل ويكتب كلّ أمر من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم ، من هذه الليلة إلى ليلة القدر المستقبلة ، وقيل : الضمير فى «فيها» يرجع لليلة النّصف ، على الخلاف المتقدم.

وروى أبو الشيخ ، بسند صحيح ، عن ابن عباس رضي اللّه عنه فى قوله : يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ قال : «ليلة النصف من شعبان ، يدبر أمر السنة ، فيمحو ما يشاء ويثبت غيره الشقاوة والسعادة ، والموت والحياة». قال السيوطي : سنده صحيح لا غبار عليه ولا مطعن فيه. هـ. وروى عن ابن عباس : قال : إن اللّه يقضى الأقضية كلها ليلة النّصف من شعبان ، ويسلمها إلى أربابها ليلة القدر. وفى رواية : ليلة السابع والعشرين من رمضان ، قيل :

وبذلك يرتفع الخلاف أن الأمر يبتدأ فى ليلة النّصف من شعبان ، ويكمل فى ليلة السابع والعشرين من رمضان «١».

واللّه أعلم.

وقوله تعالى : حَكِيمٍ الحكيم : ذو الحكمة ، وذلك أن تخصيص اللّه كلّ أحد بحالة معينة من الرّزق والأجل ، والسعادة والشقاوة ، فى هذه الليلة ، يدلّ على حكمة بالغة فأسند إلى الليلة لكونها ظرفا ، إسنادا مجازيا.

وقوله : أَمْراً مِنْ عِنْدِنا : منصوب على الاختصاص ، أي : أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا ، على مقتضى حكمتنا ، وهو بيان لفخامته الإضافية ، بعد بيان فخامته الذاتية ، ويجوز أن يكون حالا من كلّ أمر لتخصيصه بالوصف ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ بدل من «إنا كنا منذرين».

ورَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ : مفعول له ، أي : أنزلنا القرآن لأن من عادتنا إرسال الرّسل بالكتب لأجل إفاضة رحمتنا. ووضع الرّب موضع الضمير ، والأصل : رحمة منا للإيذان بأن ذلك من أحكام الرّبوبية

ومقتضياتها ، وإضافته إلى ضميره صلّى اللّه عليه وسلم لتشريفه وفخامته.

---

(١) على هامش النّسخة الأم مايلي : كيف يرتفع ، واللّه تعالى يقول فيها - أي : الليلة المباركة «يفرق كلّ أمر حكيم» وهى ليلة القدر؟
على أنه : أي إشكال لكلام اللّه تعالى مع كلام غيره ، والمرفوع بذلك ضعيف أيضا ، فلا إشكال من كلّ جهة ، واللّه الحمد. هـ.

(٢٧٨/٥)

وقال الطيبي : هذه الجمل كلها واردة على التعليل المتداخل فكأنه لما قيل : إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ قيل :
فلم أنزل؟ فأجيب : لأن من شأننا التحذير والعقاب ، فقيل : لم خص الإنزال فى هذه الليلة؟ فقيل : لأنه من الأمور المحكمة ، ومن شأن هذه الليلة أن يفرق فيها كلّ أمر حكيم ، فقيل : لم كان من الأمور المحكمة؟ فأجيب : لأن ذا الجلال والإكرام أراد إرسال الرّحمة للعالمين ، ومن حق المنزل عليه أن يكون حكيما ، لكونه للعالمين نذيرا ، أو داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ .... الآية ، فقيل : لما ذا رحمهم الرّب بذلك؟ فأجيب : لأنه وحده سميع عليم ، يعلم جريان أحوال عباده ، ويعلم ما يحتاجون إليه دنيا وأخرى. هـ. وهذا معنى قوله : إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لأقوالهم وحده ، الْعَلِيمُ بأحوالهم.
رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما ، من جرّه «١» بدل من «ربك» ، ومن رفعه خبر عن مضمر ، أي : هو رب العوالم العلوية والسفلية ، وما بينها ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ أي : من أهل الإيقان ، ومعنى الشرط : أنهم كانوا يقرون بأن للسموات والأرض ربا وخالقا ، فإن كان إقرارهم عن علم وإيقان فهو الذي أنزل الكتاب وأرسل الرّسل رحمة منه ، وإن كانوا مذبذبين فليعلموا ذلك.
لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، من قصر إفراد لا قصر قلب «٢» لأن المشركين كانوا يثبتون الألوهية للّه - تعالى - ويشركون معه غيره ، فردّ اللّه عليهم بكونه لا يستحق العبادة غيره ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، ثم يبعث للجزاء ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ أي : هو رب الجميع ، ثم ردّ أن يكونوا موقنين بقوله : بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ، وإقرارهم غير صادر عن علم وإيقان ، بل قول مخلوط بهزؤ ولعب. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : (حم) ، قال الورتجبي : الحاء : الوحى الخاص إلى محمد ، والميم : محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وذلك الوحى الخاص بلا واسطة خبر عن سر فى سر ، لا يطلع على ذلك - الذي بين المحب والمحبوب - أحد من خلق اللّه ، ألا ترى كيف قال سبحانه : فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى

«٣»؟ وذلك إشارة إلى وحي السر فى السر ، وجملتها قسم ، أي : بمعنى الوحى السرى والمحبوب ، والقرآن الظاهر الذي ينبئ عن الأسرار ، إنا أنزلناه. هـ. قال القشيري : الحاء تشير إلى حقّه ، والميم إلى محبته ، ومعناه : بحقي ومحبتى لعبادى ، وكتابى العزيز إليهم ، ألا أعذّب أهل محبتى بفرقتى. هـ.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف «رب» بخفض الباء ، بدل من (ربك) أو صفة ، وقرأ الباقون بالرفع ، على إضمار مبتدأ ، أو مبتدأ ، خبره : (لا إله إلا هو). انظر : الإتحاف (١/ ٤٦٢).

(٢) القصر عند أهل البيان : تخصيص شيء بآخر ، ويسمّى الأول مقصورا والثاني مقصورا عليه ، كقولك : ما زيد إلا شاعر ، فإن كان المخاطب يعتقد أنه شاعر وعالم معا ، قيل له : قصر إفراد ، وإن كان يعتقد أنه عالم لا شاعر ، قيل له : قصر قلب ، وإن كان يتردد بين كونه عالما أو شاعرا قيل له : قصر تعيين. انظر محيط المحيط (ص ٧٣٨).

(٣) الآية ١٠ من سورة النّجم

(٥/٢٧٩)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٨٠

والليلة المباركة عند القوم ، هى ليلة الوصال والاتصال ، حين يمتحى وجودهم ، ويتحقق فناؤهم ، وكلّ وقت يجدون فيه قلوبهم ، ويفقدون وجودهم فهو مبارك ، وهو ليلة القدر عندهم ، فإذا دام اتصالهم ، كانت أوقاتهم كلها ليلة القدر ، وكلها مباركة. قال الورتجبي : قوله تعالى : فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ كانت مباركة لتجلى الحق فيها بالأقضية ، والرّحمة غالبة فيها ، ومن جملتها : إنزال القرآن فيها فإنه افتتاح وصلة لأهل القربة. هـ.

قال القشيري : وسمّاها ليلة مباركة لأنها ليلة افتتاح الوصلة ، وأشدّ الليالى بركة ، ليلة يكون العبد فيها حاضرا بقلبه ، مشاهدا لربه ، يتنسم «١» بأنوار الوصلة ، ويجد فيها نسيم القربة ، وأحوال هذه الطائفة فى لياليهم مختلفة ، كما قالوا ، وأنشدوا :

لا أظلم الليل ولا ادّعى أنّ نجوم الليل ليست تغور

ليلى كما شاء فإن لم يزر طال ، وإن زار فليلى قصير. هـ. «٢»

أي : ليلى كما شاء المحبوب ، فإن لم يزرنى طال ليلى ، وإن زارنى قصر. والحاصل : أن أوقات الجمال والبسط كلها قصيرة ، وأوقات الجلال كلها طويلة ، وقوله تعالى : فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أي : فى ليلة الوصال تفرق وتبرز الحكم والمواهب القدسية ، بلا واسطة ، بل أمرا من عندنا ، والغالب أن هذه الحالة لا تكون إلا عند الحيرة والشدة من الفاقة أو غيرها ، وكان بعض العارفين من أشياخنا

يستعدون فيها لكتب المواهب ، ويسمونها ليلة القدر.

وقوله تعالى : إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ هو الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم قال : «أنا الرّحمة المهداة» «٣» ، فرحمة مفعول به ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

. قال القشيري : السميع لأنين المشتاقين ، العليم بحنين المحبين. هـ. لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أي : لا يستحق أن يتأله ويعشق إلا هو ، يُحْيِي وَيُمِيتُ يحيى قلوب قوم بمعرفته ومحبته ، ويميت قلوبا بالجهل والبعد ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد. ثم وصف أهل الجهل والبعد بقوله : بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ، وأما أهل المعرفة والقرب فهم فى حضرة محبوبهم يتنعمون ، ومن روح وصاله يتنسمون. قال القشيري : واللعب يجرى على غير ترتيب ، تشبيها باللعاب الذي يسيل لا على نظام مخصوص ، ووصف الكافر باللعب لتردده وشكّه وتحيّره فى عقيدته. هـ.

---

(١) فى القشيري : يتنعم.

(٢) فى القشيري :

لا أظلم الليل ولا أدعى أن نجوم الليل ليست تزول

ليلى كما شاءت قصير إنا جاءت ، وإن ضنت فليلى طويل

ونسب البيتان فى زهرة الآداب (٣/ ٨٤) إلى علىّ بن خليل.

(٣) أخرجه البراز (٢/ ٢١٧) والطبراني فى الصغير (١/ ٩٥) والحاكم (١/ ٣٥) «وصححه» والقضاعي (١/ ١٨٩ - ١٩٠) عن أبى صالح عن أبى هريرة. وأخرجه عن أبى صالح مرسلا ، الدارمي فى (المقدمة ، باب كيف كان أول شأن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، ح ١٥) والبيهقي فى الشعب (ح ١٤٤٦) والحديث صحّحه الألبانى فى تخريج المشكاة (٣/ ١٦١٥). [.....]

ثم هددهم بقوله :

[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ١٠ الى ١٦]

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤)

إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)

يقول الحق جل جلاله : فَارْتَقِبْ فانتظر يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ ، قال عليّ وابن عباس وابن عمر والحسن - رضي اللّه عنهم - : هو دخان يجىء قبل يوم القيامة ، يصيب المؤمن منه مثل الزكام ، وينضج رؤوس المنافقين والكافرين ، حتى تكون كأنها مصليّة حنيذة «١» ، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه نار ، ليس فيه خصاص «٢» ، ويؤيد هذا حديث حذيفة : «أول الآيات الدخان ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من عدن ، تسوق النّاس إلى المحشر ، تقيل معهم إذا قالوا ...» الحديث «٣» ، انظر الثعلبي.

وأنكر هذا ابن مسعود ، وقال : هذا الدخان قد رأته قريش حين دعا عليهم النّبى صلّى اللّه عليه وسلم بسبع كسبع يوسف ، فكان الرّجل يرى من الجوع دخانا بينه وبين السماء «٤». ويؤيده ما يأتى بعده.

وقوله مُبِينٍ أي : ظاهر لا يشك أحد أنه دخان ، يَغْشَى النَّاسَ أي : يحيط بهم ، حتى كان الرّجل يحدّث الرّجل ، ويسمع كلامه ، ولا يراه من الدخان ، أي : انتظر يوم شدة ومجاعة فإن الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان ، إما لضعف بصره ، أو لأن عام القحط يظلم الهواء لقلة الأمطار ، أو كثرة الغبار ، هذا عَذابٌ أَلِيمٌ أي : قائلين هذا عذاب أليم.

ولما اشتد بهم القحط ، مشى أبو سفيان ، ونفر معه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وناشده اللّه - تعالى - والرّحم ، وواعدوه إن دعا لهم ، وكشف عنهم ، أن يؤمنوا ، وذلك قوله تعالى : رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ أي : سنؤمن إن

---

(١) المصليّة والحنيذة : المشوية.

(٢) الخصاص : الفرج والخرق فى البناء أو الباب ونحوه ، راجع اللسان (خصص ٢/ ١١٧٣) والخبر أخرجه الطبري (٢٥/ ١١٣).

(٣) أخرجه البغوي فى تفسيره (٧/ ٢٣٠) من حديث حذيفة بن اليمان ، وأخرجه الطبري (٢٥/ ١١٤) بذكر كلمة (الدجال) بدل (الدخان).

(٤) معنى ما أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة حم الدخان ، باب أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ح ٤٨٢٣) ومسلم (فى صفات المنافقين ، باب الدخان ح ٢٧٩٨) (٣٩). ولفظه كما عند البخاري : قال عبد اللّه : «إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لما دعا قريشا كذبوه واستعصوا عليه ، فقال : اللهم أعنى عليه بسبع كسبع يوسف. فأصابهم سنة حصت كلّ شىء ، حتى كانوا يأكلون الميتة وكان يقوم أحدهم ، فكان يرى بينه وبين السماء مثل الدخان ، من الجهد والجوع. ثم قرأ : فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ ، يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ حتى بلغ : إِنَّكُمْ عائِدُونَ قال عبد اللّه : أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ قال : والبطشة الكبرى يوم بدر».

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٨٢

كشف عنا العذاب ، قال تعالى : أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى أي : كيف يذّكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ، وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ أي : والحال أنهم يشاهدون من دواعى التذكير وموجبات الاتعاظ ، ما هو أعظم منه ، حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ، بيّن البرهان ، يبين لهم مناهج الحق بإظهار آيات ظاهرة ، ومعجزات قاهرة ، تخرّ لها صمّ الجبال.

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ أي : عن ذلك الرّسول ، بعد ما شاهدوا من العظائم ما يوجب الإقبال عليه ، ولم يقنعوا بالتولى ، بل اقترفوا ما هو أشنع ، وَقالُوا فى حقه عليه السّلام : مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ أي : قالوا تارة معلّم يعلمه غلام أعجمى لبعض ثقيف ، وتارة مجنون ، أو : يقول بعضهم كذا ، وبعضهم كذا ، وكيف يتوقع من قوم هذه صفتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟! قال تعالى : إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا أي : زمنا قليلا ، أو كشفا قليلا ، إِنَّكُمْ عائِدُونَ إلى الكفر ، الذي أنتم فيه ، أو : إلى العذاب بعد صرف الدخان ، على القول الأول ، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى يوم بدر ، أو يوم القيامة ، إِنَّا مُنْتَقِمُونَ أي : ننتقم منهم فى ذلك اليوم. وانتصاب يَوْمَ نَبْطِشُ باذكر أو بما دلّ عليه (إنا منتقمون) ، وهو ننتقم ، لا بمنتقمون ، لأن ما بعد «إن» لا يعمل فيما قبله.

الإشارة : فارتقب أيها العارف يوم تأتى السماء بدخان مبين ، أي : يوم يبرز من سماء الغيوب بدخان الحس ، وظلمة الأسباب تغشى قلوب النّاس ، فتحجبهم عن شمس العرفان ، هذا عذاب أليم موجع للقلوب ، حيث حجبها عن حضرة علام الغيوب. وأما العارف فشمسه ضاحية ، ونهاره مشرق على الدوام ، كما قال شاعرهم :

ليلى بوجهك مشرق وظلامه فى النّاس سار

الناس فى سدف الظّلام ونحن فى ضوء النّهار

وقال آخر :

طلعت شمس من أحب بليل فاستنارت فما تلاها غروب

إن شمس النّهار تغرب بليل وشمس القلوب ليست تغيب «١»

قال القشيري : قيامة هؤلاء - أي الصوفية - معجّلة لهم ، يوم تأتى السماء فيه بدخان مبين ، وهو باب غيبة الأخبار ، وانسداد باب ما كان مفتوحا من الأنس بالأحباب. قلت : وأحسن من عبارته أن تقول : وهو باب غيبة الأنوار ، وانسداد منبع الأسرار. ثم قال : وفى معناه قالوا :

---

(١) البيتان من الخفيف ، وهما للحلاج ، كما فى ديوانه/ ٢٣ تحقيق د/ كامل الشيبى. وصلة تاريخ الطبري ١١/ ٨٧.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٨٣

فلا الشمس شمس تستنير ولا الضحى يطلق ولا ماء الحياة بارد. هـ. «١»

وقوله تعالى : رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ قال القشيري : وقد يستزيد هؤلاء العذاب على العكس من أحوال الخلق ، وفى ذلك أنشدوا :

وكلّ مآربى قد نلت منها سوى ملك ودّ قلبى بالعذاب «٢»

فهم يسألون البلاء بدل ما يستكشفه الخلق ، وأنشدوا :

أنت البلاء فكيف أرجو كشفه إنّ البلاء إذا فقدت بلائي. هـ.

قلت : وأصرح منه : قال الشاعر :

يا من عذابى عذب فى محبّته لا أشتكى منك لا صدّا ولا مللا

وقول الجيلانى «٣» - رضي اللّه عنه :

تلذّ لى الآلام إذ كنت مسقمى وإن تختبرني فهى عندى صنائع

تحكّم بما تهواه فىّ فإننى فقير لسلطان المحبة طائع

قوله تعالى : أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى أي : كيف يتعظ من تنكب عن صحبة الرّجال ، وملأ قلبه بالخواطر والأشغال؟ وقد جاءهم من يدعوهم إلى الكبير المتعال ، فأنكروه ، وقالوا : معلّم مجنون ، إنا كاشفوا العذاب عن قلوبهم من الشكوك والخواطر قليلا ، حين يتوجهون إلينا ، ويفزعون إلى بابنا ، أو يسمعون من بعض أوليائنا ، ثم تكثر عليهم الخواطر ، حين تنقشع عنهم سحابة أمطار الواردات من قلوب أوليائنا ، إنكم عائدون إلى ما كنتم عليه ، يوم نبطش البطشة الكبرى ، هى خطفة الموت ، فلا ينفع فيها ندم ولا رجوع ، بل يورثهم حزنا طويلا ، فلا يجدون فى ظلال انتقامنا مقيلا ، فننتقم ممن أعرض بسريرته عن دوام رؤيتنا.

---

(١) هكذا فى الأصول ، أما فى لطائف الإشارات ، فالشطر الأول فيه : [فما جانب الدنيا بسهل ولا الضحى].

والبيت لأبى تمام ، فى رثاء خالد بن يزيد. انظر ديوان أبى تمام (٤/ ٧٢).

(٢) هكذا فى الأصول ، والشطر الثاني فى القشيري وغيره من المصادر والمذكورة بعد : [سوى ملذوذ وجدى بالعذاب].

هذا ، والبيت جاء منسوبا للحلاج فى ديوانه (قسم أعشار نسبت للحلاج ص ٦٨) وتاريخ بغداد (٨/ ١١٦) ، كما نسب البيت فى الكواكب الدرية (٤٤) والفتوحات المكية (٣/ ١٨٥) لأبى يزيد

البسطامي.
(٣) الشيخ عبد الكريم الجيلي فى عينيته (ص ٥٠ - ٥١).

ثم ذكر وبال من سلك مسلكهم ، فقال :
[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ١٧ الى ٢٤]
وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١)
فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤)
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قبل هؤلاء المشركين ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ أي : امتحناهم بإرسال موسى عليه السّلام ، أو : أوقعناهم فى الفتنة بالإمهال وتوسيع الأرزاق ، أو فعلنا بهم فعل المختبر ليظهر ما كان باطنا ، وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ موسى عليه السّلام ، أي : كريم على اللّه ، أو على المؤمنين ، أو فى نفسه حسيب نسيب ، لأن اللّه - تعالى - لم يبعث نبيا إلا من سادات قومه : أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ أي : بأن أدوا إلىّ ، أي : ادفعوا عباد اللّه ، وهم بنو إسرائيل ، بأن ترسلوهم معى ، فكانت دعوة موسى لفرعون بعد الإقرار بالتوحيد إرسال بنى إسرائيل من يده ، أو : بأن أدوا إلىّ يا عباد اللّه ما يجب عليكم من الإيمان ، وقبول الدعوة ، فالعباد على هذا عام. ف «إن» مفسرة لأن مجىء الرّسل لا يكون إلا بدعوة ، وهى تتضمن القول ، أو مخففة ، أي : جاءهم بأن الشأن أدوا إلىّ ، و«عباد اللّه» على الأول : مفعول به ، وعلى الثاني : منادى ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ تعليل للأمر ، أو لوجوب المأمور ، أي : رسول غير ظنين ، قد ائتمنني اللّه على وحيه ، وصدّقنى بالمعجزات القاهرة.
وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ أي : لا تتكبروا على اللّه بالاستهانة بوحيه وبرسوله أو : لا تتكبروا على نبىّ اللّه ، إِنِّي آتِيكُمْ من جهته تعالى بِسُلْطانٍ مُبِينٍ بحجة واضحة ، لا سبيل إلى إنكارها ، تدل على نبوتى. وفى إيراد الأداء مع الأمين ، والسلطان مع العلو ، من الجزالة ما لا يخفى ، وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أي : التجأت إليه ، وتوكلت عليه ، أَنْ تَرْجُمُونِ ، من أن ترجمون ، أي : تؤذوننى ضربا وشتما ، أو تقتلونى رجما.
قيل : لما قال : وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ توعدوه بالرجم ، فتوكّل على اللّه ، واعتصم به ، ولم يبال بما

توعدوه.
وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ أي : وإن كابرتم ولم تذعنوا لى ، فلا موالاة بينى وبين من لا يؤمن ، فتنحوا عنى ، أو : فخلّونى كفافا لا لى ولا علىّ ، ولا تتعرضوا لى بشرّكم وأذاكم ، فليس ذلك جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلاحكم ، قال أبو السعود : وحمله على قطع الوصلة وعدم الموالاة بينه وبينهم ، يأباه المقام.

(٢٨٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٨٥
فَدَعا رَبَّهُ بعد ما تمادوا على تكذيبه ، شاكيا إلى ربه : أَنَّ هؤُلاءِ أي : بأن هؤلاء ، قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ، وهو تعريض بالدعاء عليهم ، بذكر ما استوجبوه ، ولذلك سمى دعاء ، وقيل : كان دعاؤه :
اللهم عجّل لهم ما يستوجبونه بإجرامهم ، وقيل : هو قوله : أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ «١» وقيل : قوله : لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «٢» ، وقرىء بالكسر «٣» على إضمار القول. قال تعالى له - بعد : فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا ، والفاء تؤذن بشرط محذوف ، أي : إن كان الأمر كما تقول فَأَسْرِ بِعِبادِي بنى إسرائيل لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ أي : دبّر اللّه أن تتقدموا ، ويتبعكم فرعون وجنوده ، فننجّى المتقدمين ، ونغرق الباقين ، وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً ساكنا على حالته بعد ما جاوزته ، ولا تضربه بعصاك لينطبق ، ولا تغيره عن حاله ليدخله القبط ، أراد موسى عليه السّلام لمّا جاوزه أن يضربه بعصا لينطبق ، فأمره أن يتركه ساكنا على هيئته «٤» ، قارا على حالته ، من انتصاب الماء كالطود العظيم ، وكون الطريق يبسا لا يغير منه شيئا ، ليدخله القبط ، فإذا دخلوا فيه أطبقه اللّه عليهم ، فالرهو فى كلام العرب :
السكون ، قال الشاعر :
طير رأت بازيا نضح الدّعاء به وأمّة خرجت رهوا إلى عيد
أي : ساكنة ، وقيل : الرهو : الفرجة الواسعة ، أي : اتركه مفتوحا على حاله منفرجا ، إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ بعد خروجكم من البحر. وقرئ بالفتح ، أي : لأنهم.
الإشارة : كل زمان له فراعين ، يحبسون النّاس عن طريق اللّه ، وعن خدمته ، فيبعث اللّه إليهم من يذكّرهم ، ويأمرهم بتخلية سبيلهم ، أو بأداء الحقوق الواجبة عليهم ، فإذا كذّب الداعي ، قال : وإن لم تؤمنوا فاعتزلون ، فاذا أيس من إقبالهم دعا عليهم ، فيغرقون فى بحر الهوى ، ويهلكون فى أودية الخواطر. وباللّه التوفيق.
ثم حضّ على الاعتبار ، فقال :
[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ٢٥ الى ٣٣]

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (٢٧) كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (٢٨) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)
وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ (٣٣)

---

(١) الآية ١٠ من سورة القمر.
(٢) الآية ٨٥ من سورة يونس.
(٣) قرأ «إن هؤلاء» بالكسر ابن أبى إسحاق وعيسى والحسن فى رواية ، وزيد بن علىّ. انظر مختصر ابن خالويه (ص ١٣٨) والبحر المحيط (٨/ ٣٦).
(٤) قاله قتادة فيما أخرجه ابن جرير (٢٥/ ١٢١).

يقول الحق جل جلاله : كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ أي : كثيرا ما ترك فرعون وجنوده بمصر من بساتين. روى أنها كانت متصلة بضفتي النّيل جميعا ، من رشيد إلى أسوان ، (و عيون) يحتمل أن يريد الخلجان ، شبهها بالعيون ، أو كانت ثمّ عيون وانقضت ، وَزُرُوعٍ أي : مزارع ، وَمَقامٍ كَرِيمٍ ، محافل مزينة ، ومنازل محسّنة ، وسماه كريما لأنه مجلس الملوك ، وقيل : المنابر ، وَنَعْمَةٍ أي : بسطة ولذاذة عيش وتنعّم ، كانُوا فِيها فاكِهِينَ أي : متنعّمين فرحين مسرورين.
وفى المشارق : النعمة - بالفتح : التنعم ، وبالكسر : اسم ما أنعم اللّه به على عباده ، قال ابن عطية : النعمة - بالفتح : غضاوة العيش ، ولذاذة الحياة ، والنّعمة - بالكسر : أعم من هذا كله ، وقد تكون الأمراض والمصائب نعما ، ولا يقال فيها نعمة بالفتح. هـ. فانظره.
كَذلِكَ ، أي : الأمر كذلك ، فالكاف فى محل الرّفع ، على أنه خبر عن مضمر ، أو نصب على أنه مصدر لمحذوف يدل عليه : (تركوا) أي : مثل ذلك السلب سلبناهم إياها ، وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ ليسوا منهم فى شىء فى قرابة ولا دين ، ولا ولاء ، وهم بنو إسرائيل ، بأن تولوا أحكامها والتصرف فيها. وقال الحسن : رجعوا بعد هلاك فرعون إلى مصر ، نظيره : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ... «١» الآية ، ومثله عن القرطبي والبيضاوي ، وكذلك فى نوادر الأصول ، وقد تقدم الكلام عليه فى الشعراء «٢». وفى الآية اعتبار واستبصار ، وتنبيه للعاقل على عدم الاغترار ، وسيأتى فى الإشارة ما فيه كفاية نظما ونثرا.

فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ ، مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم ، والاعتداد بوجودهم ، وفيه تهكم بهم ، وبحالهم المنافية ، بحال من يعظم فقده ، فيقال : بكت عليهم السماء والأرض ، وكانت العرب إذا عظّمت مهلك رجل قالوا : بكته الرّيح والبرق والسماء ، قال الشاعر :

---

(١) من الآية ١٣٧ من سورة الأعراف.

(٢) عند تفسير الآية ٥٩ من سورة الشعراء. [.....]

الرّيح تبكى شجوها والبرق يلمع فى الغمامه «١»

وقال جرير ، يرثى عمر بن عبد العزيز :

فالشّمس طالعة ليست بكاسفة تبكى عليك نجوم اللّيل والقمرا

حمّلت أمرا عظيما فاصطبرت له وقمت فينا بأمر اللّه يا عمرا «٢».

وقيل : البكاء حقيقة ، وأن المؤمن تبكى عليه من الأرض مصلّاه ، ومحل عبادته ، ومن السماء مصعد عمله ، كما فى الحديث «٣» ، وإذا مات العالم بكت عليه حيتان البحر ، ودوابه ، وهوام البر وأنعامه ، والطير فى الهواء ، وهؤلاء لمّا ماتوا كفارا لم يعبأ الوجود بفقدهم ، بل يفرح بهلاكهم. وَما كانُوا لمّا جاء وقت هلاكهم مُنْظَرِينَ ممهلين إلى وقت آخر ، أو إلى الآخرة ، بل عجّل لهم فى الدنيا.

وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ لما فعلنا بفرعون وقومه ما فعلنا مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ ، من استعباد فرعون إياهم ، وقتل أبنائهم ، واستحياء نسائهم ، مِنْ فِرْعَوْنَ ، بدل من العذاب المهين بإعادة الجار ، كأنه فى نفسه كان عذابا مهينا ، لإفراطه فى تعذيبهم وإهانتهم ، أو خبر عن مضمر ، أي : ذلك من فرعون ، وقرئ «من فرعون» «٤» على معنى : هل تعرفونه من هو فى عتوه وتفرعنه؟ وفى إبهام أمره أولا ، وتبيينه بقوله تعالى : إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ ثانيا ، من الإفصاح عن كنه أمره فى الشر والفساد مما لا مزيد عليه ، وقوله تعالى : مِنَ الْمُسْرِفِينَ إما خبر ثان ، أي : كان متكبرا مسرفا ، أو حال من الضمير فى «عاليا» ، أي : كان رفيع الطبقة من بين المسرفين ، فائقا لهم ، بليغا فى الإسراف.

---

(١) هذا البيت من أبيات قالها ابن المفرّغ فى بيعه جارية تسمى «الأراكة» وغلاما يسمى «بردا» ، وكانا أعز عليه من نفسه ، وقد رغمه عباد بن زياد على بيعهما ، ومن أبيات ابن المفرغ هذه :

والعبد يقرع بالعصا والحرّ تكفيه الملامة

والقصة فى خزانة الأدب.

(٢) انظر ديوان جرير/ ٢٣٥. وأمالى المرتضى (١/ ٥٢).

(٣) أخرج ابن جرير فى التفسير (٢٥/ ١٢٤) من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه موقوفا : «ليس أحد من الخلائق إلا له باب فى السماء ، منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله ، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء فقده فبكى عليه ، وإذا فقد مصلاه من الأرض التي كان يصلى فيها ، ويذكر اللّه فيها ، بكت عليه ، وإن آل فرعون لم يكن لهم فى الأرض آثار صالحة ، ولم يكن يصعد إلى اللّه منهم خير ، فلم تبك عليهم السماء والأرض».

وأخرج الترمذي فى (التفسير - سورة الدخان ح ٣٢٥٥) وأبو يعلى فى مسنده (٤/ ١٥٧) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٣٢) والخطيب فى تاريخ بغداد (٨/ ٣٢٧) عن أنس بن مالك مرفوعا : «ما من مؤمن إلا وله بابان ، باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات بكيا عليه ، ذلك قوله عز وجل : فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ ، قال الترمذي : حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه». وانظر مجمع الزوائد ٧/ ١٠٥.

(٤) على الاستفهام. عزاها أبو حيان لابن عباس رضي اللّه عنه ، انظر البحر المحيط ٨/ ٣٨.

(٢٨٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٨٨

وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ أي : بنى إسرائيل عَلى عِلْمٍ أي : عالمين بأنهم أحقاء بالاختيار ، أو عالمين بأنهم يزيغون فى بعض الأوقات ، ويكثر منهم الفرطات ، فلم يؤثر ذلك فى سوابق علمنا ، ليعلم أن الجنايات لا تؤثر فى الرعايات ، عَلَى الْعالَمِينَ أي : عالمى زمانهم ، لما كثر فيهم من الأنبياء ، وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ، كفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وغيرها من عظائم الآيات ، ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ نعمة ظاهرة ، أو :

اختبار ظاهر ، لينظر كيف يعملون ، وقيل : البلاء المبين هو المطالبة بالشكر عند الرّضا ، والصبر عند الكدر والعناء.

الإشارة : كم ترك أهل الغفلة والاغترار ، من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، من قصور وديار ، فارقوها ، أخصب ما كانوا فيها ، وأزعجوا عنها أحوج ما كانوا إليها ، استبدلوا سعة القصور بضيق اللحود والقبور ، ومحاسن الملابس والتيجان بعصائب الخرق والأكفان ، فيا من ركن إلى الدنيا ، انظر كيف تفعل بأهلها ، فرحم اللّه عبدا أخذ من الدنيا الكفاف ، وصاحب فيها العفاف ، وتزود للرحيل ، وتأهب للمسير.

ذكر الطرطوسي فى كتابه «سراج الملوك» : قال أبو عبد اللّه بن حمدون : كنت مع المتوكل ، لما خرج إلى دمشق ، فركب يوما إلى رصافة «هشام بن عبد الملك» فنظر إلى قصورها خاوية ، ثم خرج فنظر إلى دير هناك قديم ، حسن البناء ، بين مزارع وأشجار ، فدخله ، فبينما هو يطوف به ، إذ بصر برقعة قد التصقت بصدره ، فأمر بقلعها ، فإذا فيها مكتوب هذه الأبيات :

أيا منزلا بالدّير أصبح خاليا تلاعب فيه شمأل ودفور

كأنّك لم يسكنك بيض نواعم ولم يتبختر فى قبابك حور

وأبناء أملاك غواشم سادات صغيرهم عند الأنام كبير

إذا لبسوا أدراعهم فعوابس وإن لبسوا تيجانهم فبدور

على أنّهم يوم اللّقاء ضراغم وأنّهم يوم النّوال بحور

ليالى هشام بالرّصافة قاطن وفيك ابنه يا دير وهو أمير.

إلى أن قال :

بلى فسقاك الغيث صوب سحائب عليك بها بعد الرّواح بكور

تذكّرت قومى فيكما فبكيتهم بشجو ومثلى بالبكاء جدير

فعزيت نفسى وهى نفس إذا جرى لها ذكر قومى أنّة وزفير

(٢٨٨/٥)

فلما قرأها المتوكّل ارتاع ، ثم دعا صاحب الدير ، فسأله : من كتبها؟ فقال : لا علم لى ، وانصرف هـ.

ومن هذا القبيل ما وجد مكتوبا على باب «كافور الإخشيدى» بمصر :

انظر إلى عبر الأيّام ما صنعت أفنت أناسا بها كانوا وما فنيت

ديارهم ضحكت أيّام دولتهم فإذا خلت منهم صاحتهم وبكت

ومن هذا أيضا ما وجد على قصر «ذى يزن» مكتوبا :

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرّجال فلم تمنعهم القلل

واستنزلوا من أعالى عز معقلهم فأسكنوا حفرا ، يا بئس ما نزلوا

أين الوجوه التي كانت محجّبة من دونها تضرب الأستار والكلل؟

فأفصح القبر عنهم حين سائلهم تلك الوجوه عليها الدود تقتبل

قد طال ما أكلوا دهرا وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

وحاصل الدنيا ما قال الشاعر :

ألا إنّما الدنيا كأحلام نائم وما خير عيش لا يكون بدائم «١»؟!

تأمّل إذا ما نلت بالأمس لذّة فأفينتها هل أنت إلا كحالم؟!

هذه فكرة اعتبار ، وأما فكرة استبصار ، فما ثمّ إلا تصرفات الحق ، ومظاهر أسرار ذاته ، وأنوار صفاته ، ظهرت فى عالم الحكمة بالأشكال والرّسوم ، وأما فى عالم القدرة فما ثمّ إلا الحي القيوم.

تجلّى حبيبى فى مرائى جماله ففى كلّ مرئيّ للحبيب طلائع

فلمّا تبدّى حسنه متنوّعا تسمّى بأسماء فهن مطالع «٢»

وقوله تعالى : فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ يفهم منه : أن من عظم قدره تبكى على فقده السموات والأرض ومن فيهن ، فى عالم الحس ، الذي هو عالم الأشباح ، وتفرح به أهل السموات السبع فى عالم الأرواح

---

(١) ورد : وكلّ نعيم فيها ليس بدائم.

(٢) البيتان للجيلى. انظر : النادرات العينية/ ٦٩.

(٥/٢٨٩)

لتخلصه إليها ، فيستبشر بقدومه كلّ من هنالك ، وينظر اللّه إلى خلقه بعين الرّحمة ، فيرتحم ببركة قدومه الوجود بأسره. واللّه ذو الفضل العظيم.

وقوله تعالى : وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ قال القشيري : ويقال : على علم بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا ، ويقال : على علم بما نودع عندهم من أسرارنا ، ونكاشفهم به من حقائق حقنا.

وقال الورتجبي : وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ أي : على علم بصفاتنا ، ومعرفة بذاتنا ، ومشاهدة على أسرارنا ، وبيان على معرفة العبودية والرّبوبية ، ودقائق الخطرات والقهريات واللطيفات فى زمان المراقبات. هـ.

وقال الواسطي : اخترناهم على علم منا بجناياتهم ، وما يقترفون من أنواع المخالفات ، فلم يؤثر ذلك فى سوابق علمنا لهم ، ليعلم أن الجنايات لا تؤثر فى الرّعايات. وقال الجرّار : علمنا ما أودعنا فيهم من خصائص سرنا ، فاخترناهم بعلمنا على العالمين. هـ. قلت : والمقصود بالذات : بيان أن اختياره - تعالى - مرتب على سابق علمه الأزلى ، وعلمه - تعالى - لا تغيره الحوادث ، وقد انقطعت دولة بنى إسرائيل ، فما بقي الكلام إلا مع الملة المحمدية.

ثم ردّ على من أنكر البعث ، بعد أن ذكر بعض أشراطه ، كالدخان وغيره ، فقال :

[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ٣٤ الى ٣٩]

إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (٣٨)

ما خَلَقْناهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ هؤُلاءِ يعنى كفار قريش لأن الكلام معهم ، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على مماثلتهم فى الإصرار على الضلالة ، والتحذير من حلول مثل ما حلّ بهم ، لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى أي : ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى ، المزيلة للحياة الدنيوية ، ولا قصد فيه لإثبات موتة أخرى ، كقولك : حج زيد الحجة الأولى ومات ، أو : ما الموتة التي تعقبها حياة إلا الموتة الأولى ، التي تقدمت وجودنا ، كقوله : وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ «١» كأنهم لما قيل لهم : إنكم تموتون موتة تعقبها حياة ، كما تقدمتكم كذلك ، أنكروها ، وقالوا : ما هى إلا موتتنا الأولى ، وأما الثانية فلا حياة تعقبها ، أو : ليست الموتة إلا هذه الموتة ، دون الموتة

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة البقرة.

التي تعقب حياة القبر كما تزعمون ، وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ بمبعوثين ، فَأْتُوا بِآبائِنا ، خطاب لمن كان بعدهم النّشر ، من الرّسول والمؤمنين ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أي : إن صدقتم فيما تقولون ، فعجّلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ، حتى يكون دليلا على أن ما تعدونه من البعث حق.

قيل : كانوا يطلبون أن ينشر لهم قصيّ بن كلاب ، ليشاوروه ، وكان كبيرهم ومفزعهم فى المهمات ، قال تعالى : أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ، ردّ لقولهم وتهديد لهم ، أي : أهم خير فى القوة والمنعة ، اللتين يدفع بهما أسباب الهلاك ، أم قوم تبع الحميرى؟ وكان سار بالجيوش حتى حيّر الحيرة ، وبنى سمرقند ، وقيل : هدمها ، وكان مؤمنا وقومه كافرين ، ولذلك ذمهم اللّه - تعالى - دونه ، وكان يكتب فى عنوان كتابه : بسم اللّه الذي ملك برا وبحرا ومضحا وريحا.

قال القشيري : كان تبع ملك اليمن ، وكان قومه فيهم كثرة ، وكان مسلما ، فأهلك اللّه قومه على كثرة عددهم وكمال قوتهم. هـ. روى عنه عليه السّلام أنه قال : «لا تسبوا تبعا فإنه كان مؤمنا» «١» هـ.

وقيل : كان نبيا ، وفى حديث أبى هريرة عنه صلّى اللّه عليه وسلم قال : «لا أدرى تبعا كان نبيا أو غير

نبى» «٢».
وذكر السهيلي : أن الحديث يؤذن بأنه واحد بعينه ، وهو – واللّه أعلم – أسعد أبو كرب ، الذي كسا الكعبة بعد ما أراد غزوه ، وبعد ما غزا المدينة ، وأراد خرابها ، ثم انصرف عنها ، لما أخبر أنها مهاجر نبى اسمه «أحمد» وقال فيه شعرا ، وأودعه عند أهلها ، فكانوا يتوارثونه كابرا عن كابر ، إلى أن هاجر النّبى صلّى اللّه عليه وسلم فأدوه إليه. ويقال : كان الكتاب والشعر عند أبى أيوب الأنصاري ، حتى نزل عليه النّبى صلّى اللّه عليه وسلم فدفعه إليه ، وفى الكتاب الشعر ، وهو :
شهدت على أحمد «٣» أنه رسول من اللّه بارى النّسم
فلو مدّ عمرى إلى عمره لكنت وزيرا له وابن عم
وألزمت طاعته كلّ من على الأرض ، من عرب وعجم
ولكن قولى له دائما سلام على أحمد فى الأمم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٤٠) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٣٤) وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٥/ ٧٥٠) للطبراني وابن أبى حاتم وابن مردويه ، من حديث سهل بن سعد ، وقال ابن حجر فى الكافي الشاف (ص/ ١٤٨) : «وفيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر ، وهما ضعيفان».
(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٣٦) والبيهقي فى السنن (٨/ ٣٢٩) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٣٥) وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي (ص ١٤٨) للثعلبى ، من حديث أبى هريرة ، رضي اللّه عنه ، والحديث صحّحه الحاكم ووافقه الذهبي.
(٣) كلمة «أحمد» ممنوعة من الصرف هذا ، وصرفت هنا لضرورة الشعر.

وذكر الزجاج وابن أبى الدنيا : أنه حفر قبر بصنعاء فى الإسلام ، فوجد فيه امرأتان ، وعند رؤوسهما لوح من فضة ، مكتوب فيه بالذهب اسمهما ، وأنهما بنتا تبع ، تشهدان ألا إله إلا اللّه ، ولا تشركان به شيئا ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما. هـ «١». ويقال لملوك اليمن : التابعة لأنهم يتبعون ، ويقال لهم : الأقيال لأنهم يتقيلون. هـ.
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ : عطف على «قوم تبع» ، والمراد بهم عاد وثمود ، وأضرابهم من كلّ جبار عنيد ، أولى بأس شديد ، أَهْلَكْناهُمْ بأنواع من العذاب إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ ، تعليل لإهلاكهم ، ليعلم أن أولئك حيث أهلكوا بسبب إجرامهم مع ما كانوا عليه من غاية القوة والشدة ، فكان مهلك هؤلاء – وهم

شركاؤهم فى الإجرام ، مع كونهم أضعف منهم فى الشدة والقوة - أولى.

قال الطيبي : لما أنكر المشركون الحشر ، بقولهم : (إن هى إلا موتتنا الأولى) وبّخهم بقوله : أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ إيذانا بأن هذا الإنكار ليس عن حجة قاطعة ودليل ظاهر ، بل عن مجرد حب العاجلة ، والتمتع بملاذ الدنيا ، والاغترار بالمال والمآل والقوة والمنعة ، أي : كما فعل بمن سلك قبلهم من الفراعنة والتبابعة حتى هلكوا ، كذلك يفعل بهؤلاء إن لم يرتدعوا.

ثم قرر أن الحشر لا بد منه بقوله : وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما أي : بين الجنسين ، لاعِبِينَ لاهين من غير أن يكون فى خلقهما غرض صحيح ، وغاية حميدة ، جلّ جناب الجلال عن ذلك ، ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ أي : ما خلقناهما ملتبسا بشيء من الأشياء إلا ملتبسا بالحق ، أو : ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق ، الذي هو الإيمان والطاعة فى الدنيا ، والبعث والجزاء فى العقبى.

قال الطيبي : وقد سبق مرارا : أنه ما خلقهما إلا ليوحّد ويعبد ، ثم لا بد أن يجزى المطيع والعاصي ، وليست هذه دار الجزاء. وقال ابن عرفه : قوله : إِلَّا بِالْحَقِّ أي : إلا مصاحبين للدلالة على النّشأة الآخرة ، وهى حق. هـ.

وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أنهن خلقن لذلك ، بل عبثا ، تعالى اللّه عن ذلك.

الإشارة : كانت الجاهلية تنكر البعث الحسى ، والجهلة اليوم ينكرون البعث المعنوي ، ويقولون : إن هى إلا موتتنا الأولى ، أي : موت قلوبنا وأرواحنا بالجهل والغفلة ، فكيف يكون الرّجل منهمكا فى المعاصي ، ميت القلب ، ثم ينقذه اللّه ويحييه بمعرفته ، حتى يصير وليا من أوليائه «من استغرب أن ينقذه اللّه من شهوته ، وأن يخرجه من

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٦١٥١).

وجود غفلته ، فقد استعجز قدرة الإلهية ، وكان اللّه على كلّ شيء مقتدرا» «١» أهم خير أم قوم تبع؟ وقد أخرج اللّه من قومه أنصار نبيه صلّى اللّه عليه وسلم ، وكانوا من خواص أحبابه ، حتى قال : «الناس دثار والأنصار شعار ، لو سلك النّاس واديا أو شعبا ، وسلكت الأنصار واديا ، لسلكت وادي الأنصار وشعبهم» «٢». وما خلقنا الأجرام العظام إلا لتدل على كمال قدرتنا ، والسّلام.

ثم ذكر شأن البعث الذي أنكرته الجاهلية ، فقال :

[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ٤٠ الى ٥٠]
إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤١) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعامُ الْأَثِيمِ (٤٤)
كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)
إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠)
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ أي : فصل الحق عن الباطل ، وتمييز المحق من المبطل ، أو فصل الرّجل عن أقاربه وأحبابه ، وهو يوم القيامة ، مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ أي : وقت موعدهم كلهم ، يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً لا يغنى ناصر عن ناصر ، ولا حميم عن حميم ، ولا نسب عن نسيب ، شيئا من الإغناء.
قال قتادة : انقطعت الأسباب يومئذ بابن آدم ، وصار النّاس إلى أعمالهم ، فمن أصاب يومئذ خيرا ، سعد به ، ومن أصاب يومئذ شرا شقى به «٣». هـ. ويَوْمَ : بدل من يوم الفصل ، أو : صفة لميقاتهم ، أو : ظرف لما دلّ عليه الفصل ، أي : يفصل فى هذا اليوم ، وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ يمنعون مما أراد اللّه ، والضمير ل «مولى»

---

(١) حكمة عطائية. انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي ، (ص ١٨ ، حكمة ١٩٧).
(٢) أخرجه مطولا البخاري فى (المغازي ، باب غزوة الطائف ، ح ٤٣٣٠) ومسلم فى (الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام .. رقم ١٠٦١ ح ٩١٣٩ من حديث عبد اللّه بن زيد ، والشعار هو : الثوب الذي يلى الجسد ، والدثار فوقه ، ومعنى الحديث :
الأنصار هم البطانة والخاصة ، وألصق النّاس بي من سائر للناس.
(٣) أخرجه الطبري ، وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٥/ ٧٥١) لعبد بن حميد. [.....]

باعتبار المعنى ، لأنه عام ، وقوله : إِلَّا مَنْ رَحِمَ بدل من الواو فى «ينصرون» ، أي : لا يمنع من العذاب إلا من رحم اللّه ، بالعفو عنه ، أو بقبول الشفاعة فيه ، أو : منصوب على الاستثناء المنقطع ، أو : مرفوع على الابتداء ، أي :
لكن من رحم اللَّهُ فيغنى عنه إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الغالب ، الذي لا ينصر من أراد تعذيبه ، الرَّحِيمُ لمن أراد أن

يرحمه.

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ، هى على صورة شجرة الدنيا ، لكنها من النّار ، والزقوم تمرها وهو كلّ طعام ثقيل.

روى : أنها لما نزلت ، جمع أبو جهل عجوة وزبدا ، وقال لأصحابه : تزقموا ، فهذا هو الزقوم ، وهو طعامى الذي حدّث به محمد «١» ، قصد بذلك المغالطة والتلبيس على الجهلة. أي : إن ثمر شجرة الزقوم هو طَعامُ الْأَثِيمِ أي :

الكثير الإثم ، وهو الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه. وقيل : نزلت فى أبى جهل ، ثم تعم. وكان أبو الدرداء يقرئ رجلا ، فكان أبو الدرداء يقول : طعام الأثيم ، والرّجل يقول : طعام اليتيم ، فكرر عليه ، فلم يفهم منه فقال :

«طعام الفاجر يا هذا «٢»». قال النّسفى : وبهذا يستدل على أن إبدال الكلمة مكان الكلمة جائز ، إذا كانت مؤدّية معناها ، ومنه أجاز أبو حنيفة رضي اللّه عنه القراءة بالفارسية ، بشرط أن يؤدى القارئ المعاني كلها ، من غير أن يخرم منها شيئا «٣». انظر بقيته.

كَالْمُهْلِ ، وهو دردّىّ الزيت «٤» ، أو : ما يمهل فى النّار فيذوب ، من نحاس وغيره ، يَغْلِي فِي الْبُطُونِ من قرأه بالغيب «٥» رده للمهل ، أو للطعام ، ومن قرأه بالتاء رده للشجرة ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ الماء الحار الذي انتهى غليانه ، أي : غليان كغلى الحميم ، فالكاف فى محل نصب ، ثم يقال للزبانية : خُذُوهُ أي :

الأثيم فَاعْتِلُوهُ أي : جروه ، فالعتل : الأخذ بمجامع الشيء والسّوق بالعنف والقهر ، يقال : عتل يعتل بالضم والكسر ، أي : جروه إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ وسطها ومعظمها.

---

(١) أخرج سعيد بن منصور عن أبى مالك قال : «إن أبا جهل كان يأتى بالتمر والزبد ، فيقول : تزقموا بهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد ، فنزلت : إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ» انظر الدر المنثور (٥/ ٧٥٢).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥١) «وصحّحه وأقره الذهبي» والطبري (٢٥/ ١٣١) وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٥/ ٧٥٣) لعبد الرّزاق وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن همام بن الحارث.

(٣) قال أحمد بن المنير الإسكندرى فى الانتصاف : لا دليل فيه لذلك ، وقول أبى الدرداء محمول على إيضاح المعنى ، ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عونا على أن يأتى بالقراءة كما أنزلت ، وعلى هذا حمله القاضي أبو بكر فى الانتصار. (حاشية الكشاف ٤/ ٢٨١). وانظر أيضا : تفسير القرطبي ٧/ ٦١٥٤).

(٤) الدردي : ما رسب أسفل الزيت ونحوه.

(٥) قرأ ابن كثير وحفص : (يغلى) بالياء على التذكير ، والباقون «تغلى» بالتأنيث. انظر : الإتحاف (٢/ ٤٦٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٩٥

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ ، المصبوب هو الحميم ، لا عذابه ، إلا أنه إذا صب عليه الحميم ، فقد صب عليه عذابه وشدته : والأصل : ثم صبوا فوق رأسه عذابا هو الحميم ، ثم أضيف العذاب إلى الحميم للمبالغة ، وزيد «من» للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النّوع ، ويقال له : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ على سبيل الهزؤ والتهكم ، روى أن أبا جهل قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : ما بين جبليها أعز ولا أكرم منى ، فو اللّه لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا «١» ، فتقول له الزبانية هذا على طريق الاستهزاء والتوبيخ. وقرأ الكسائي : «أنك» بالفتح «٢» ، أي : لأنك أنت العزيز فى قومك ، الكريم فى زعمك. إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ تشكّون ، وتمارون فيه ، والجمع باعتبار المعنى لأن المراد جنس الأثيم.

الإشارة : يوم الفصل هو اليوم الذي يقع فيه الانفصال بين درجة المقربين ، ومقام عامة أهل اليمين ، فيرتفع المقربون ، ويسقط الغافلون ، فلا يغنى صاحب عن صاحب شيئا ، ولا هم ينصرون من السقوط عن مراتب الرّجال ، فلا ينفع حينئذ إلا ما سلف من صالح الأعمال ، إلا من رحم اللّه ، ممن تعلق بالمشايخ الكبار ، من المريدين ، فإنهم يرتفعون معهم بشفاعتهم. وشجرة الزقوم هى شجرة المعصية فإنها تغلى فى البطون ، وتعوق عن الوصول ، فقد قالوا : من أكل الحرام عصى اللّه ، أحبّ أم كره ، ومن أكل الحلال أطاع اللّه ، أحبّ أم كره ، فيقال : خذوه فادفعوه إلى سواء الجحيم ، وهى نار القطيعة والبعد ، ثم صبوا فوق رأسه من هموم الدنيا ، وشغب الخوض والخواطر ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ، ولو كنت ذليلا خاملا لنلت العز والكرامة. وباللّه التوفيق.

ثم شفع بضدهم ، فقال :

[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ٥١ الى ٥٩]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (٥٣) كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥)

لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩)

---

(١) أخرجه الطبري (٢٥/ ١٣٤) وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٧٥٣) لعبد الرّزّاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن قتادة.

(٢) على العلة ، وقرأ الباقون بكسرها .. انظر الاتحاف ٢/ ٤٦٤.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٩٦
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ ، بضم الميم «١» : مصدر ، أي : فى إقامة حسنة ، وبالفتح :
اسم مكان ، أي : فى مكان كريم ، وأصل المقام ، بالفتح : موضع القيام ، ثم عمم واستعمل فى جميع الأمكنة ، حتى قيل لموضع القعود : مقام ، وإن لم يقم فيه أصلا ، ويقال : كنا فى مقام فلان ، أي : مجلسه ، فهو من الخاص الذي وقع مستعملا فى معنى العموم ، وقوله : أَمِينٍ : وصف له ، أي : يأمن صاحبه الآفات والانتقال عنه ، وهو من الأمن ضد الخيانة ، وصف به المكان مجازا ، لأن المكان المخيف يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره.
وقوله : ي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
: بدل من «مقام» جىء به دلالة على نزاهته واشتماله على طيبات المآكل والمشارب ، يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ ، وهو ما رقّ من الديباج ، وَإِسْتَبْرَقٍ ما غلظ منه ، وهو معرّب ، والجملة إما حال ، أو استئناف ، حال كونهم مُتَقابِلِينَ فى مجالسهم ، يستأنس بعضهم ببعض ، كَذلِكَ أي :
الأمر كذلك ، قيل : المعنى فيه أنه لم يستوف الوصف ، وأنه بمثابة ما لا يحيط به الوصف ، فكأنه قال : الأمر نحو ذلك وما أشبهه ، وليس بعين الوصف وتحققه.
وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ أي : قرنّاهم وأصحبناهم ، ولذلك عدى بالباء. قال القشيري : وليس فى الجنة عقد نكاح ولا طلاق ، بل تمكن الوليّ من هذه الألطاف بهذه الأوصاف هـ. والحور : جمع حوراء ، وهى الشديدة سواد العين ، والشديدة بياضها ، والعين : جمع عيناء ، وهى الواسعة العين ، واختلف فى أنها نساء الدنيا أو غيرها.
يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ أي : يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه ، لا يختص بزمان ولا مكان ، آمِنِينَ من زواله وانقطاعه ، ومن ضرره عند الإكثار منه ، أو : من كلّ ما يسوءهم ، لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ أصلا ، بل يستمرون على الحياة الأبدية ، إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى سوى الموتة الأولى ، التي ذاقوها ، أو :
لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا ، فالاستثناء منقطع ، أو متصل على أن المراد استحالة ذوق الموت إلا إذا كان يمكن ذوق الموتة الأولى حينئذ ، وهو محال ، على نمط قوله : إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ «٢».
وَوَقاهُمْ ربهم عَذابَ الْجَحِيمِ ، فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ أي : أعطوا ذلك كله عطاء وتفضلا منه - تعالى إذ لا يجب عليه شىء ، فهو مفعول له ، أو مصدر مؤكد لما قبله ، لأن قوله : وَقاهُمْ فى معنى تفضل عليهم

، ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الذي لا فوز وراءه إذ هو خلاص من جميع المكاره ، ونيل لكلّ المطالب.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بضم الميم الأولى فى «مقام» بمعنى الإقامة ، وقرأ الباقون بفتحها ، موضع الإقامة.
(٢) من الآية ٢٢ من سورة النّساء.

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ أي : الكتاب ، وقد جرى ذكره فى أول السورة ، أي : سهّلنا قراءته بِلِسانِكَ ، بلغتك لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أي : كى يفهموه ويتعظوا به ، ويعملوا بموجبه ، فلم يفعلوا ، فَارْتَقِبْ فانظر ما يحلّ بهم ، إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ما يحلّ بك. قال القشيري : فارتقب العواقب ترى العجائب ، إنهم مرتقبون ، ولكن لا يرون إلا ما يكرهون. هـ.

الإشارة : إن المتقين شهود ما سوانا فى مقام العرفان ، وهو مقام المقربين ، وهو محل الأمن والأمان ، فى جنات المعارف ، وعيون العلوم والحكم ، يلبسون من أسرار الحقيقة وأنوار الشريعة ، ما تبتهج به بواطنهم وظواهرهم ، متقابلين فى المقامات ، يجمعهم الفناء والبقاء ، ويتفاوتون فى اتساع المقامات والأسرار ، تفاوت أهل غرف الجنان ، كذلك ، أي : الأمر فوق ما تصف ، وزوجانهم بعرائس المعرفة ، لا يذوقون فى جنات المعارف - إذا دخلوها - الموت أبدا إلا الموتة الأولى ، وهى موت نفوسهم ، فحييت أرواحهم حياة أبدية ، وأما الموت الحسى فإنما هو انتقال من عالم إلى عالم ، ومن مقام إلى مقام ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ، فضلا منه وإحسانا ، خلق فيهم المجاهدة ، ومنّ عليهم بالمشاهدة.

وقال الورتجبي بعد كلام : إذا أحضرهم - تعالى - فى ساحة كبريائه ، ويتجلى لهم بالبديهة من غير الجبّارية والقهّارية يكونون فى محل الفناء ، وفى فناء الفناء ، وغلبات سطوات ألوهيته ، فإذا صاروا فانين ، ألبسهم اللّه لباس بقائه ، فيبقون ببقائه أبد الآبدين ، فإذا الاستثناء وقع على التحقيق ، لا على التأويل ، فيارب موت هناك ، ويا ربّ حياة هناك لأن الحدث لا يستقيم عند بروز حقائق بواطن القدم ، ألا ترى إلى إشارة النّبى صلّى اللّه عليه وسلم كيف قال : «حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» «١» أي : فيتلاشى الخلق ويبقى الحق.

قيل للجنيد : أهل الجنة باقون ببقاء الحق؟ فقال : لا ، ولكنهم مبقون ببقاء الحق ، والباقي على الحقيقة من لم يزل ، ولا يزال باقيا. هـ.

والحاصل : أنه لا عدم بعد وجودهم باللّه ، ولا يكون إلا بعد الفناء عن أوصاف الخليقة ، ووجود البشرية ، بالاندراج فى وجود الحق ، ثم الحياة بحياته ، والبقاء ببقائه أبدا ، قاله فى الحاشية الفاسية.
والفرق بين الباقي والمبقى فى كلام الجنيد : أن الباقي يدلّ على ثبوت بقائه مستقلا ، بخلاف المبقى ، لا وجود لبقائه ، بل مبقى ببقاء غيره.

---

(١) سبق تخريج الحديث الشريف ، انظر (٤/ ١٧٨).

(٥/٢٩٧)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٩٨
وقال فى قطب العارفين ، لمّا تكلم على التقوى : التقوى مطرد فى وجوه كثيرة ، تقوى الشرك ، ثم تقوى المعصية ، ثم تقوى فضل المباح ، ثم تقوى كلّ ما يسترق القلوب عن اللّه تعالى ، وإلى هذا الصنف الإشارة بسر قوله تعالى إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ... الآية. هـ. وعنه صلّى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» «١» ذكره فى الجامع ، وفى فضلها أحاديث ، تركتها.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (فضائل القرآن ، باب ما جاء فى فضل «حم الدخان» ح ٢٨٨٨) وقال : «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وعمر بن أبى خثعم يضعف». وأخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (باب ما يستحب أن يقرأ فى اليوم والليلة) والبيهقي فى الشعب (الباب التاسع عشر ، فصل فى فضائل السور ، ح ٢٤٧٥) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٣٨) وابن عدى فى الكامل (٥/ ٢٧٢٠) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٥/٢٩٨)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٩٩
سورة الجاثية
مكية ، وقيل : إلا قوله : قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا .. إلخ. وهى سبع وثلاثون آية. ووجه مناسبتها : قوله : فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ «١» مع قوله : تَنْزِيلُ الْكِتابِ أي : فالذى يسرناه بلسانك هو منزل من اللّه ، الغالب على أمره.

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ١ الى ٦]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)
وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)
قلت : (و اختلاف الليل والنّهار ...) الآية فيها العطف على عاملين ، . سواء نصبت «آيات» أو رفعتها ، فالعاملان إذا نصبت «إن» و«فى» أقيمت الواو مقامهما ، فعملت الجر فى (و اختلاف) والنّصب فى (آيات) ، وإذا رفعت فالعاملان الابتداء ، وحرف «فى» عملت الواو الرّفع فى «آيات» والجرّ فى «واختلاف» وهذا مذهب الأخفش ، فإنه يجوّز العطف على عاملين ، وأما سيبويه فلا يجيزه ، وتخريج الآية عنده : أن يكون على إضمار «فى» ، والذي حسّنه : تقديم ذكر «فى» فى الآيتين قبله ، ويؤيده : قراءة ابن مسعود رضي اللّه عنه : (و فى اختلاف الليل والنّهار) وفيها أوجه أخر.
يقول الحق جل جلاله : حم يا حبيب يا مجيد هذا تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، فكونه من اللّه عز وجل دلّ أنه حق وصدق وصواب ، وكونه من العزيز دلّ أنه معجز ، يغلب ولا يغلب ، وكونه من الحكيم دلّ أنه مشتمل على الحكم البالغة ، وأنه محكم فى نفسه ، ينسخ ولا ينسخ.
ثم برهن على عزته ، وباهر حكمته ، فقال : إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إما فى نفس السموات والأرض فإن فى شكلهما من بدائع وفنون الحكم ما يقصر عنه البيان ، وإما فى خلقهما وإظهارهما ، كما فى قوله تعالى : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ «٢» ، لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ لدلالات على وحدانيته تعالى لأهل الإيمان ،

---

(١) الآية ٥٨ من سورة الدخان.
(٢) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران.

وهو الأوفق بقوله : وَفِي خَلْقِكُمْ أي : من نطفة ثم من علقة متقلبة من أطوار مختلفة إلى تمام الخلق ، وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ : عطف على المضاف دون المضاف إليه ، أي : وفى خلق ما يبث ، أي : ينشر ويصرّف من دابة آياتٌ ظاهرة على باهر قدرته وحكمته ، لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أي : من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء

على ما هى عليه ، ويعرفوا فيها صانعها ، وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أي : تعاقبهما بالذهاب والمجيء ، أو : تفاوتهما طولا ، وقصرا ، وَفِي ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ مطر لأنه بسبب الرّزق ، فعبّر عن السبب بالمسبب لأنه نتيجته ، تنبيها على كونه آية من جهة القدرة والرّحمة ، فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بأن أخرج أصناف الزرع والثمرات والنّبات بَعْدَ مَوْتِها أي : خلوها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها ، وخلو أشجارها عن الثمار والأزهار.

وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ أي : هبوبها من جهة إلى أخرى ، ومن حال إلى حال ، وتأخيره عن نزول المطر مع تقدمه عليه فى الوجود ، إما للإيذان بأنه آية مستقلة ، ولو روعى الترتيب الوجودي لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح ونزول المطر آية واحدة ، أو : لأن كون التصريف آية ليس مجرد كونه مبتدأ لإنشاء المطر ، بل له ولسائر المنافع ، التي من جملتها : سوق السفن فى البحار ، وإلقاح الأشجار ، آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يتدبرون بعقولهم ، فيصلون إلى صريح التوحيد. وفى تقديم الإيمان على الإيقان ، وتأخير تدبر العقل لأن العباد إذا نظروا فى السموات والأرض نظرا صحيحا علموا أنها مصنوعة ، وأنه لا بدّ لها من صانع ، فآمنوا باللّه ، وإذا نظروا فى خلق أنفسهم ، وتنقلها من حال إلى حال ، وفى خلق ما ظهر على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيمانا وأيقنوا ، فإذا نظروا فى سائر الحوادث التي تتجدد فى كلّ وقت ، كتعاقب الليل والنّهار ، ونزول الأمطار ، وحياة الأرض بعد موتها ، وتصريف الرّياح ، جنوبا وشمالا ، ودبورا وصبا ، عقلوا ، واستحكم فى عقولهم ، وخلص يقينهم ، فكانوا من ذوى الألباب.

تِلْكَ آياتُ اللَّهِ مبتدأ وخبر ، ونَتْلُوها عَلَيْكَ حال ، والعامل : معنى الإشارة ، أي : تلك الآيات المتقدمة هى آيات اللّه الدالة على وجوب وجوده واتصافه بأوصاف الكمال ، حال كونها متلوة عليك ، ملتبسة بِالْحَقِّ أو : نتلوها محقين فى ذلك ، فالجار والمجرور : حال من المفعول أو الفاعل. فَبِأَيِّ حَدِيثٍ من الأحاديث بَعْدَ اللَّهِ وَآياتِهِ أي : بعد آيات اللّه ، كقولك : أعجبنى زيد وكرمه ، أي : أعجبنى كرم زيد ، أو : بعد حديث اللّه ، الذي هو القرآن ، وآياته العامة فى كلّ شيء ، فيكون على حذف مضاف ، أو : يراد بها القرآن أيضا ، والعطف للتغاير العنواني ، فالأول من جهة كونه حديثا حسنا ، والثاني باعتبار كونه معجزا ، أي : فبأى حديث بعد أحسن الحديث وأبهر الآيات يُؤْمِنُونَ يصدّقون؟! ومن قرأ بالخطاب «١» يقدر : قل يا محمد.

---

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب «يؤمنون» بالتاء ، وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف (٢/ ٤٦٦). [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٠١

الإشارة : قال القشيري : الحاء تدل على حياته ، والميم تدل على مودته ، كأنه قال : بحق حياتى ومودتى لأوليائى ، لا شىء أعز على أحبائى من لقائى ، العزيز فى جلاله ، الحكيم فى فعاله ، العزيز فى أزله ، الحكيم فى لطفه بالعبد بوصف إقباله.

قوله تعالى : إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ .. الآية شواهد الرّبوبية لائحة ، وأدلة الإلهية واضحة ، فمن صحا فكره عن سكر الغفلة ، ووضع سرّه فى محل العبرة ، حظى - لا محالة - بحقائق الوصلة. هـ.

قلت : إنما يحظى بالوصله إذا نفذت بصيرته إلى شهود المكوّن ، ولم يقف مع شىء من حس الكائنات ، بل نفذ إلى ما فيها من أسرار المعاني ، فعرف فيها مولاها ، وشاهد فيها المتجلى بها ، وإلا بقي مسجونا محصورا فى ذاته.

قوله تعالى : وَفِي خَلْقِكُمْ ... الآية ، قال القشيري : إذا أنعم العبد النّظر فى استواء قدّه وقامته ، واستكمال خلقه «١» ، وتمام تمييزه ، وما هو مخصوص به من جوارحه وحوائجه ، ثم فكّر فيما عداه من الدواب ، وأجزائها وأعضائها ، ووقف على اختصاصه ، وامتياز بنى آدم من بين البريّة من الحيوانات ، فى الفهم والعقل والتمييز والعلم ، ثم فى الإيمان والعرفان ، ووجوه خصائص أهل الصفوة من هذه الطائفة من فنون الإحسان عرف تخصيصهم بمناقبهم ، وانفرادهم بفضلهم ، فاستيقن أن اللّه أكرمهم ، وعلى كثير من المخلوقات قدّمهم.

ثم قال فى قوله : وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ... الآية. جعل اللّه العلوم الدينية كسبية مصحّحة بالدلائل ، محتفة بالشواهد ، فمن لم يستبصر لها زلّت قدمه عن الصراط المستقيم ، ووقع فى عذاب الجحيم ، فاليوم فى ظلمة الحيرة والتقليد ، وفى الآخرة فى التخليد فى الوعيد. هـ. قلت : النظر فى دلائل الكائنات من غير تنوير ، ولا صحبة أهل التنوير ، لا تزيد إلا حيرة ، ولذلك قال بعضهم : إيمان أهل علم الكلام كالخيط فى الهواء ، يميل مع كل ريح ، فالتقليد حينئذ أسلم ، والتمسك بظاهر الكتاب والسنة أتم ، ومن سقط على العارفين باللّه ، لم يحتج إلى دليل ولا شاهد ، وأغناه شهود الشهيد عن كلّ شاهد.

عجبت لمن يبغى عليك شهادة وأنت الذي أشهدته كلّ شاهد.

كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟! تنزه الحق تعالى أن يفتقر إلى دليل يدلّ عليه ، بل به يستدل على غيره ، فلا يجد غيره. تلك آيات شواهد نتلوها عليك لترانا فيها ، لا لتراها مفروقة عنا ، ولذلك قال تعالى : (بالحق) ، أي : ملتبسة بنور الحق ، اللّه نور السماوات والأرض.

---

(١) فى القشيري : عقله.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٠٢

قوله تعالى : فَبِأَيِّ حَدِيثٍ ... الآية ، قال القشيري : فمن لا يؤمن بها فبأى حديث يؤمن؟ ومن أي أصل ينشأ بعده «١»؟ ومن أي بحر فى التحقيق يغترف؟ هيهات ما بقي للإشكال فى هذا مجال. هـ.

ثم ذكر حال من أعرض عنها ، فقال

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٧ الى ١١]

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠) هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١)

يقول الحق جل جلاله : وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ كذّاب أَثِيمٍ كثير الآثام ، يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ التنزيلية تُتْلى عَلَيْهِ ، وجملة «يسمع» صفة أخرى لأفّاك ، أو استئناف ، أو حال من ضمير «أثيم» ، و«تتلى» : حال من «آيات اللّه» ، ثُمَّ يُصِرُّ أي : يقيم على كفره ، حال كونه مُسْتَكْبِراً عن الإيمان بالآيات ، والإذعان لما تنطق به من الحق ، مزدريا بها ، معجبا بما عنده من الأباطيل. قيل : نزلت فى النّضر بن الحارث ، وكان يشترى من أحاديث الأعاجم ، ويشغل بها النّاس عن سماع القرآن «٢» ، والآية عامة فى كلّ من كان مضارا لدين اللّه وجيء بثمّ لأن الإصرار على الضلالة ، والاستكبار عن الإيمان عند سماع آيات القرآن ، مستبعد فى العقول. ثم قال :

كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها أي : كأنه لم يسمعها ، فأن مخففة ، ومحل الجملة النّصب على الحال ، أي : يصر شبيها بغير السامع ، فَبَشِّرْهُ على إصراره واستكباره بِعَذابٍ أَلِيمٍ أي : أخبره خبر يظهر أثره على البشرة ، تهكما به.

وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً أي : إذا بلغه من آياتنا شيئا يمكن أن يتشبث بها المعاند ، ويجد له محملا فاسدا يتوسل به إلى الطعن والمغمزة ، اتَّخَذَها أي : مهزوءا بها ، لا ما يسمعه فقط ، وإنما لم يقل : اتخذه للإشعار بأنه إذا أحسّ بشيء من الكلام فيه شيء بزعمه الرّكيك لم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه ، بل يستهزئ بالجميع ، ويجوز أن يرجع الضمير (لشى ء) لأنه فى معنى الآية. أُولئِكَ لَهُمْ بسبب جناياتهم المذكورة عَذابٌ مُهِينٌ ، وصف العذاب بالإهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم بآيات اللّه تعالى ، وجمع الإشارة باعتبار

---

(١) فى القشيري : [يستمد بعده] وهو أنسب.

(٢) ذكره فى البحر المحيط (٨/ ٤٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٠٣
ما في لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ من الشمول ، كما في قوله تعالى : كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ «١» ، وأفرد فيما سبق من الضمائر باعتبار كلّ واحد واحد. مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ أي : من قدّامهم ، لأنهم متوجهون إلى ما أعدّ لهم ، أو :
من خلفهم لأنهم معرضون عن ذلك ، مقبلون على الدنيا ، فإن الوراء : اسم للجهة التي يواريها الشخص من قدّام وخلف ، وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ لا يدفع عنهم ما كَسَبُوا من الأموال والأولاد شَيْئاً من عذاب اللّه تعالى ، وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ أي : الأصنام ، و«ما» مصدرية ، أو موصولة ، وتوسيط حرف النفي بين المعطوفين ينبئ أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعا ، مبنى على زعمهم الفاسد ، حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ لا يقادر قدره.
هذا أي : القرآن هُدىً في غاية الكمال من الهداية ، كأنه نفس الهدى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ أي : القرآن ، وإنما وضع موضع ضميره الآيات لزيادة تشنيع كفرهم وتفظيع حالهم ، لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ من أشد العذاب أَلِيمٌ مؤلم ، بالرفع «٢» صفة «عذاب» ، وبالجر صفة «رجز» ، وتنوين عذاب في المواضع الثلاثة للتفخيم.
الإشارة : من لم يضبط لسانه وجوارحه ، وتصاممت آذان قلبه عن تدبر القرآن ، فالويل حاصل له ، ويبشّر بالخيبة والخسران من مراتب أهل العرفان ، ومن ضبط أمور ظاهره بالتقوى ، وفتحت آذان قلبه لسماع كلام المولى ، فقد فار بعز الدارين. قال القشيري : فمن استمع بسمع الفهم ، واستبصر بنور التوحيد ، فاز بذخر الدارين ، وتصدّى لعز المنزلتين ، ومن تصامم بحكم الغفلة ، وقع في وهدة الجهل ، ووسم بكى الهجر. هـ.
قوله تعالى : إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً. قال القشيري : وقد يكاشف العبد من مواطن القلب بتعريفات لا يداخله فيها ريب ، ولا يتخللّه فيها شك فيما هو فيه من حاله ، فإذا استهان بها وقع في ذلّ الحجبة ، وحجاب الفرقة وهوانها. هـ. فإذا صفا القلب صار مرسى لتجلى الواردات الإلهية ، وهى آية من آياته ، فإذا تجلى فيه شيء بأمر أو نهى فاستهان به وخالفه أدبه الحق على ذلك ، إما في ظاهره ، وهو أخف ، أو في باطنه بالحجبة أو الفرقة ، ولقد سمعت شيخ شيوخنا ، مولاى العربي الدرقاوى رضي اللّه عنه يقول : لى ثلاثون سنة ما خالفت قلبى في شيء إلا أدبنى الحق تعالى عليه. هـ. أي : في ظاهره ، وذلك لغاية صفائه.

---

(١) من الآية ٥٣ من سورة المؤمنون.

(٢) قرأ «أليم» برفع الميم ، ابن كثير وحفص ويعقوب ، وقرأ الباقون بالجر. انظر الإتحاف (٢/ ٤٦٦).

(٣٠٣/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٠٤

قوله تعالى : مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ .. الآية ، لا عذاب أشد من الحجب بعد الإظهار ، والفرقة بعد الوصال. وأنشدوا :

فخلّ سبيل العين بعدك للبكا فليس لأيّام الصّفاء رجوع

انظر القشيري.

ولمّا ذكر ما منّ به عليهم من النّعم الباطنة ، وهى دلائل التوحيد ، ذكر ما منّ به عليهم من النّعم الظاهرة ، فقال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ١٢ الى ١٣]

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ أي : ذللّه ، بأن جعله أملس السطح ، يطفو عليه ما فوقه ، ولا يمنع الغوص فيه ، لميعانه ، لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ بإذنه ، وأنتم راكبوها ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بالتجارة ، والغوص لابتغاء الحلية ، كاللؤلؤ والمرجان ، وكالصيد وغيرها ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ولكى تشكروا النّعم المترتبة على ذلك ، وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ من الموجودات ، بأن جعلها مدارا لمنافعهم.

قال القشيري : إذ ما من شيء من الأعيان الظاهرة ، إلا وللإنسان به انتفاع من وجوه ، فالسماء لهم بناء ، والأرض لهم مهاد ، وليتأمل العبد فى كلّ شيء [لو لم يكن ، أىّ خلل يرجع إلى الخلق؟] «١» ، لو لا الشمس كيف كانوا يتصرفون بالنهار ، ؟ ولو لا الليل ، كيف كانوا يسكنون؟ ولو لا القمر هل كانوا يهتدون للحساب والآجال؟

وكذلك جميع المخلوقات. هـ. وقوله : جَمِيعاً مِنْهُ : حال ، وليس من التوكيد لعدم الضمير ، ولو كان توكيدا لقال : جميعه ، ثم التوكيد بجميع قليل ، فلا يحمل التنزيل عليه ، قاله فى المغني. والمنفي كونه توكيدا اصطلاحيا ، فلا ينافى كونه حالا مؤكدة فى المعنى. إِنَّ فِي ذلِكَ أي : فيما ذكر من الأمور العظام لَآياتٍ عظيمة الشأن ، كثيرة العدد ، لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فى بدائع صنعه تعالى ، فإنهم يقفون بذلك على جلائل نعمه تعالى ودقائقها ، ويوفقون لشكرها.

الإشارة : اللّه الذي سخّر لكم بحر التوحيد الخاص ، وهو تجلى عظمة الذات ، لتجرى فلك الأفكار فى تيار بحر الذات ونور الصفات ، فتراها تعوم تارة فى أسرار الجبروت الأعلى ، وتارة فى أنوار الملكوت الأدنى ، ولتبتغوا من

---

(١) العبارة فى القشيري : كيف إن كان خلل فى شىء منها ما ذا يمكن أن يكون؟.

فضل معرفته ، وزيادة الترقي فى كشف الأسرار ، وهذا لمن اتسع عليه فضاء الشهود ، وزاحت عنه حجب الكائنات ، وأما من بقي مسجونا فيها ، السماء تظله ، والأرض تقله ، فلا يطمع أن تسرح فكرته فى هذه البحار ، وحسبه أن يكون حمارا يسافر فى البر ، تعبه كثير ، وربحه قليل ، والغناء به بعيد ، وسبب بقائه فى تعب البر عدم صحبته للرجال البحرية ، الذين هم ريّاس البحر ، وشيوخ ركّب البر. وباللّه التوفيق.

قال القشيري : اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ تركبونه ، فربما تسلم السفينة ، وربما تغرق ، كذلك العبد فى فلك الاعتصام فى بحار التقدير ، تمشى بهم رياح العناية ، وترفع لهم شراع التوكل ، تجرى فى البحر لتجر اليقين ، فإن هبت رياح السلامة نجت السفينة ، وإن هبت نكباء الفتنة لم يبق بيد الملاح شىء ، فعند ذلك المقادير غالبة ، وبلغت قلوب أهل السفينة الحناجر. هـ. قلت : من ركب مع رائس ماهر الغالب عليه السلامة.

قوله تعالى : وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ، فى بعض الأثر : يقول اللّه تعالى :

«يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقتك من أجلى ، فلا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك لأجله» «١» أي : لا تنشغل بخدمة الكون عن خدمة المكوّن ، فما أفلح من انشغل بدنياه ، وآثر هواه على خدمة مولاه ، كان حرا والأشياء كلها عبيد له ، فصار عبدا لعبيده ، بحبه للأشياء وتعشقه لها ، كانت الأشياء تعشقه وتخدمه ، ثم صار يخدم الأشياء ويعشقها ، أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوّن ، فإذا شهدت المكوّن كانت الأكوان معك ، فاعرف قدرك أيها الإنسان ، وارفع همتك عن الأكوان ، وعلّق قلبك بالملك الديان ، يعطك الحق تعالى من العرش إلى الفرش ، تتصرف فيه بهمتك كيف شئت ، وما ذلك على اللّه بعزيز.

ثم بيّن الطريق الموصل إلى هذا ، وهو حسن الخلق مع كلّ مخلوق ، فقال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ١٤ الى ١٥]
قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)
قلت : (يغفروا) ، قيل : جواب الأمر المذكور ، أي : إن تقل يغفروا ، وقيل : لأمر محذوف ، أي : قل لهم اغفروا يغفروا ، وقيل : حذف لام الأمر ، أي : ليغفروا ، وقرأ أبو جعفر : (ليجزى قوما) بالبناء للمفعول ، ونصب (قوما) إما

---

(١) رواه الشيخ محى الدين ابن عربى فى «مشكاة الأنوار فيما روى عن اللّه سبحانه من الأخبار ، ح ٥٨» وقال : «رويته من جزء الرّبعى».

على نيابة المصدر ، أي : ليجزى الجزاء قوما ، أو ليجزى الخير قوما ، فأضمر الخير لدلالة الكلام عليه ، أو ناب الجار مع وجود المفعول به ، وهو قليل.
يقول الحق جل جلاله : قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ أي : يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقعون نقمه ووقائعه بأعدائه ، من قولهم : «أيام العرب» ، لوقائعها ، أو : لا يؤمّلون الأوقات التي وقّتها اللّه تعالى لثواب المؤمنين ، ووعدهم بالفوز فيها ، قيل : نزلت قبل آية القتال ثم نسخت. قال ابن عطية : ينبغي إن يقال :
إن الأمور العظام ، كالقتل والكفر مجاهدة ونحو ذلك ، قد نسخ غفرانه آية السيف والجزية ، وإن الأمور الحقيرة ، كالجفاء فى القول ونحو ذلك ، يحتمل أن تبقى محكمة ، وأن يكون العفو عنها أقرب للتقوى. هـ.
قيل : نزلت فى عمر رضي اللّه عنه حين شتمه رجل من غفار ، فهمّ أن يبطش به ، فنزلت «١». وقيل : نزلت فى ناس من أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه وسلم كانوا فى أذىّ شديد من المشركين ، قبل أن يؤمروا بالقتال ، فشكوا ذلك إلى النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فنزلت «٢» ، وعلى هذا تكون الآية مكية. وقال ابن عباس : لما نزل : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً «٣» قال فنحاص : افتقر ربّ محمد ، فلما بلغ ذلك عمر ، طلبه بالسيف ليقتله ، فنزلت ، فوضع السيف ، وقال : والذي بعثك بالحق لا يرى الغضب فى وجهى «٤». وقيل : فى شأن أبىّ بن سلول ، رأس المنافقين ، لمّا قال فى غزوة المريسيع : ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعنى المهاجرين - إلا كما قيل : سمّن كلبك يأكلك ، فبلغ

ذلك عمر ، فاشتمل السيف ، يريد التوجه إليه ، فنزلت «٥». وعلى هذا تكون مدنية.
لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ أي : إنما أمروا أن يغفروا ليوفيهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. وتنكير (قوم) مدح لهم ، كأنه قيل : ليجزى قوما - أيّما قوم ، أو قوما مخصوصين - بالصبر بسبب ما كسبوا فى الدنيا من الأعمال الحسنة ، التي من جملتها الصبر على إذاية الكفار ، والإغضاء عنهم ، بكظم الغيظ ، واحتمال المكروه ، ما يقصر عنه البيان من الثواب العظيم ، ويجوز أن يراد بالقوم : الكفرة ، وبما كانوا يكسبون : سيئاتهم ، التي من جملتها ما كانوا يؤذون به المسلمين.
مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها أي : لها الثواب وعليها العقاب ، لا يكاد يسرى عمل إلى غير عامله ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ فيجازيكم على أعمالكم ، خيرا كان أو شرا.

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٦١٦٢) وعزاه للنحاس والمهدوى ، عن الضحاك عن ابن عباس.
(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ٢٤٣). عن القرظي والسدى.
(٣) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة.
(٤) أخرجه الواحدي فى أسباب النّزول (ص ٢٩٣ - ٢٩٤) عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي اللّه عنه ، بسند ضعيف.
(٥) ذكره الواحدي فى أسباب النّزول (٢٩٣) والقرطبي (٧/ ٦١٦٧) عن ابن عباس فى رواية عطاء.

(٥/٣٠٦)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٠٧
الإشارة : مذهب الصوفية : العفو عمن ظلمهم ، والإحسان إلى من أساء إليهم لأنهم رحمة للعباد ، ومقصدهم بذلك رضا اللّه ، لأن الخلق عيال اللّه ، وأحب الخلق إلى اللّه أنفعهم لعياله. قال اللجائى رضي اللّه عنه فى شمائل الخصوص :
قصد السادات بالعفو عمن ظلمهم ، ابتغاء مرضاة اللّه ، لا ابتغاء الثواب ، فإنه تعالى يحب العفو ، وتسمّى به.
ومقصدهم بالعفو أيضا : قطع العداوة والحقد عن الظالم ، وترك الانتصار منه ، بيد أو لسان ، استعدادا منهم لسلامة الصدور. ومقصدهم أيضا : زوال الذّلة عن الظالم فى موقف الحساب ، من أجل ما يطالب به من الحقوق ، وهو ضرب من الشفقة على العبيد ، وهو مقام محمود ، فشأنهم رضا اللّه عنهم إذا حلّ بالعباد فى الموقف بلاء ، أرادوا أن يكونوا للخلق فداء ، فهذا أدنى مقام فى العفو. هـ.
وفى الحديث : «إذا جمع اللّه الخلائق يوم القيامة ، نادى مناد : أين أهل الفضل ، فيقوم ناس ، وهم

يسير ، فينطلقون إلى الجنة سراعا ، فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون : إنّا نراكم سراعا؟ فيقولون : نحن أهل الفضل ، فيقولون : وما فضلكم؟ فيقولون : كنا إذا ظلمنا صبرنا ، وإذا جهل علينا حلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة : فنعم أجر العاملين» «١».

قال القشيري بعد كلام : فمن أراد أن يعرف كيف يحفظ أولياءه ، وكيف يدمّر أعداءه ، فليصبر على أيام قلائل ، ليعلم كيف صارت عواقبهم ، من عمل صالحا فله مهناه ، ومن ارتكب سيئة قاسى بلواه ، ثم مرجعه إلى مولاه. هـ.

ثم ذكر ما منّ به على بنى إسرائيل ، بعد ما ذكر ما منّ به على عباده جملة ، فقال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ١٦ الى ١٧]

وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (١٦) وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ أي : الفصل بين العباد ، لأن الملك لم يزل فيهم حتى غيّروا ، أو : الحكمة النّظرية والعملية والفقه فى الدين ، وَالنُّبُوَّةَ حيث كثر فيهم الأنبياء ما لم

---

(١) رواه الأصبهانى فى الترغيب (٢٣٧٤) عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده.

(٣٠٧/٥)

يكثر فى غيرهم. وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ما أحلّ اللّه لهم من اللذائذ ، كالمن والسلوى ، وغيره من الأرزاق ، وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ على عالمى زمانهم.

وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ دلائل ظاهرة من أمر الدين ، ومعجزات قاهرة. قال ابن عباس : هو العلم بمبعث النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، وما بيّن لهم من أمره ، وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب ، ويكون أنصاره أهل يثرب ، فَمَا اخْتَلَفُوا فى ذلك الأمر إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بحقيقته وحقيّته ، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا له ، بَغْياً بَيْنَهُمْ أي : عداوة وحسدا ، حدث بينهم ، لا شك وقع لهم فيه ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ بالمؤاخذة والجزاء فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من أمر الدين.

الإشارة : كانت بنو إسرائيل فى أول أمرها متمسكة بكتاب ربها ، عاملة بما شرعت لها أنبياؤها ، فرفع اللّه بذلك قدرها ، حتى تحاسدوا ، وتهاجروا على الدنيا والرّئاسة ، فأعقبهم اللّه ذل الأبد ، فهذه سنّة

اللّه تعالى فى عباده ، من تمسك بالكتاب والسنة ، وزهد فى الدنيا ، وتواضع لعبّاد اللّه ، رفعه اللّه وأعزه ، فإذا خرج عن هذا الوصف انعكس حاله إلى أسفل ، والعياذ باللّه.

ولما ذكر شريعة موسى أعقبه بشريعة نبينا - صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين ، فقال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ١٨ الى ٢٠]

ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ جَعَلْناكَ يا محمد بعد اختلاف أهل الكتاب ، عَلى شَرِيعَةٍ على طريقة عظيمة الشأن ، ومنهاج واضح مِنَ الْأَمْرِ الدين ، وأصل الشريعة فى اللغة : مورد الماء ، أي : الطريق الموصلة إليه ، ثم جعل للطريق الموصلة إلى حياة القلوب والأرواح لأن الماء به حياة الأشباح ، فَاتَّبِعْها بإجراء أحكامها فى نفسك وفى غيرك ، من غير إخلال بشيء منها. قال ابن عرفه : الخطاب له عليه السّلام ، والمراد غيره لأنه معلوم الاتباع التام ، أو : دم على اتباعها. هـ.

وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ أي : لا تتبع آراء الجهلة واعتقاداتهم الزائغة التابعة للشهوات ، وهم رؤساء قريش ، كانوا يقولون له صلّى اللّه عليه وسلم : ارجع إلى دين آبائك. إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً مما أراد بك إن اتبعتهم ، أي : لن ينفعونك بدفع ما ينزل بك بدلا من اللّه شيئا إن اتبعت أهواءهم ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ

(٣٠٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٠٩

بَعْضٍ

فلا يواليهم ولا تتبع أهواءهم إلا من كان ظالما مثلهم ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ أي : ناصر المتقين ، الذين أنت قدوتهم ، فدم على ما أنت عليه من توليته خاصة ، والإعراض عما سواه بالكلية.

هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ أي : هذا القرآن واتباع الشريعة بصائر لقلوب النّاس ، كما جعل روحا وحياة لها ، فإنّ من تمسك بالكتاب والسنة ، وأمعن فيها النّظر ، وعمل بمقتضاهما ، فتحت بصيرته ، وحيى قلبه ، وَهُدىً من الضلالة وَرَحْمَةٌ من العذاب ، لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ لمن كمل إيمانه وإيقانه بالأمور الغيبية.

الإشارة : الشريعة لها ظاهر وباطن ، وهو لبها وخالصها ، فالعامة أخذوا بظاهرها ، فأخذوا بكلّ ما يبيحه ظاهر الشريعة من الرّخص والسهولة ، ولا نظر عندهم لقلوبهم من النّقص والزيادة ، والخاصة أخذوا بباطنها ، فأخذوا منها بالمهم ، وتركوا كلّ ما يفتنهم أو ينقص من نور إيقانهم ، فوصلوا بذلك إلى

حضرة ربهم ، فيقال للمريد : ثم جعلناك على طريقة واضحة من أمر الخاصة ، فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ما يزيد في قلوبهم وما ينقص. إنهم لن يغنوا عنك من اللّه شيئا إن أبعدك بميلك إليهم واتباع أغراضهم.

قال القشيري : إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إن أراد بك نعمة ، فلا يمنعها أحد ، وأن أراد بك فتنة فلا يصرفها عنك أحد ، فلا تعلّق بمخلوق فكرك ، ولا توجه ضميرك إلى شيء ، وثق به ، وتوكّل عليه. هـ. وأهل الغفلة بعضهم أولياء بعض ، يتوالون على حظوظ الدنيا وشهواتها ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ الذين اتقوا كلّ ما يشغل عن اللّه ، هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ أي : سبب فتح بصائرهم ، وَهُدىً أي : إشارة لطريق الوصول ، ورحمة للأرواح والقلوب ، لقوم يوقنون ، أي : لأهل اليقين الكبير.

قال القشيري : هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ ، أنوار البصيرة إذا تلألأت انكشفت دونها تهمة التجويز ، ونظر النّاس على مراتب ، من نظر بنور نجومه ، فهو صاحب عقل ، ومن نظر بنور فراسته فهو صاحب ظن ، يقوّيه لوح ، ولكنه من وراء ستر ، ومن نظر بيقين فهو على تحكم برهان ، ومن نظر بعين إيمان فهو بوصف اتباع ، ومن نظر بنور بصيرة ، فهو على نهار ، وشمسه طالعة ، وشمسه عن السحاب مصحية. هـ.

ثم بيّن حال من لا يرجو أيام اللّه ومن يرجوه ، فقال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢)

(٥/٣٠٩)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣١٠

قلت (أم) : منقطعة ، والهمزة لانكار الحسبان ، من قرأ «سواء» بالرفع «١» فخبر مقدم ، (و محياهم) : مبتدأ ، ومن قرأ بالنصب فحال من ضمير الظرف ، أي : كائنين كالذين آمنوا ، حال كونهم مستويا محياهم ومماتهم ، و«محياهم» - حينئذ - : فاعل بسواء ، وقرأ الأعمش : «ومماتهم» بالنصب على الظرفية.

يقول الحق جل جلاله : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا

اكتسبوا السَّيِّئاتِ

من الكفر والمعاصي ، وسميت الأعضاء جوارح لاكتسابها الخير والشر ، ويقال : فلان جارحة أهله أي

: كاسبهم ، أي : أظنوا أن نصيّرهم كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ

، وهم فيما هم فيه من محاسن الأعمال ، ونعاملهم معاملتهم فى رفع الدرجات ، أي : حتى يكونوا سَواءً

فى مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ

،

كلّا ، بل نجعل أهل الإيمان فى محياهم ومماتهم متنعمين بطاعة مولاهم ، مطمئنين به ، يحيون حياة طيبة ، ويموتون موتة حسنة ، وفى مماتهم مكرمين بلقاء مولاهم ، فى روح وريحان ، وجنات نعيم ، ونجعل أهل الكفر والعصيان فى محياهم فى ذلّ المعصية ، وكد الحرص وكدر العيش ، وفى الممات فى ضيق العذاب الخالد ، ساءَ ما يَحْكُمُونَ

أي : ساء حكمهم هذا ، أو : بئس شيئا حكموا به.

قال النّسفى : والمعنى إنكار أن يستوى المسيئون والمحسنون محيا ومماتا لافتراق أحوالهم أحياء ، حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات ، وأولئك على اقتراف السيئات ، ومماتا ، حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والكرامة ، وأولئك على اليأس من الرّحمة والنّدامة. وقيل : معناه : إنكار أن يستووا فى [الممات ، كما استووا فى] «٢» الحياة فى الرّزق والصحة. ساء ما يحكمون ، فليس من أقعد على بساط الموافقة ، كمن أبعد فى مقام المخالفة ، بل تفرّق بينهم ، فنعلى المؤمنين ، ونخزى الكافرين. هـ.

وسبب نزول الآية : افتخار وقع للكفار على المؤمنين ، قالوا : لئن كانت آخرة كما تزعمون لنفضلن فيها كما فضلنا فى الدنيا ، فردّ اللّه عليهم ، وأبطل أمنيتهم «٣».

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ لتدل على قدرته على البعث وغيره ، قال البيضاوي : كأنه دليل على الحكم السابق ، من حيث إن خلق ذلك بالحق المقتضى للعدل ، يقتضى انتصار المظلوم من الظالم ، والتفاوت بين المحسن والمسيء ، إذا لم يكن فى المحيا كان بعد الممات. هـ. وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ : عطف

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر برفع «سواء» وقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بالنصب. انظر الإتحاف ٢/ ٤٦٧. [.....]

(٢) ما بين المعقوفتين من تفسير النّسفى ، وأثبته لاقتضاء السياق ذلك.

(٣) ذكره البغوي فى التفسير (٧/ ٢٤٤).

على هذه العلة المحذوفة ، أي : لتدل ولتجزى ، أو على «بالحق» لأن فيه معنى التعليل إذ معناه : خلقها مقرونة بالحكمة والصواب ، دون العبث ولتجزى ... إلخ ، أو : ليعدل وتجزى كلّ نفس بما كسبت ، وَهُمْ أي : النفوس ، المدلول عليها بكلّ نفس لا يُظْلَمُونَ بنقص الثواب أو زيادة عقاب.
الإشارة : أم حسب الذين ماتوا على دنس الإصرار ، أن نجعلهم كالمطهرين الأبرار ، أم حسب الذين عاشوا فى البطالة والتقصير أن نجعلهم كالذين عاشوا فى الجد والتشمير؟ «أم حسب الذين عاشوا فى غم الحجاب ، وصاروا إلى سوء الحساب ، أن نجعلهم كالذين تهذبوا حتى ارتفع عنهم الحجاب ، وصاروا إلى غاية الكرامة والاقتراب؟
لا استواء بينهم فى المحيا ولا فى الممات ، الأولون عاشوا معيشة ضنكا ، وصاروا بعد الموت إلى النّدامة والحسرة ، والآخرون عاشوا عيشة راضية ، وماتوا موتة طيبة ، وصاروا إلى كرامة أبدية ، ولهذا بكت الأكابر عند قراءتها ، فروى عن تميم الداري : أنه كان يصلى ليلة عند المقام ، فبلغ هذه الآية ، فجعل يبكي ويرددها إلى الصباح. وعن الفضيل : أنه بلغها ، فجعل يبكى ، ويقول : يا فضيل! ليت شعرى من أىّ الفريقين أنت؟. وعن الرّبيع بن خيثم : أنه قام يصلى ليلة ، فمر بهذه الآية ، فمكث ليلة حتى أصبح يبكى بكاء شديدا ، وكانت تسمى مبكاة العابدين.
وسبب تسوية العاصي مع المطيع الانهماك فى الهوى ، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله :
[سورة الجاثية (٤٥) : آية ٢٣]
أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣)
يقول الحق جل جلاله : أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أي : أباح لنفسه كلّ ما تهواه ، سواء كان مباحا أو غير مباح ، فكأنه يعبده كما يعبد الرّجل إلهه ، وإليه أشار فى المباحث بقوله :
ومن أباح النّفس ما تهواه فإنما معبوده هواه
فالآية وإن نزلت فى هوبالكفر فهى متناولة لكلّ هوى النّفس الأمّارة ، قال ابن جبير : نزلت فى قريش والعرب ، كانوا يعبدون الحجارة والذهب والفضة ، فإذا وجدوا شيئا أحسن ألقوه وعبدوا غيره «١».
هـ. ومتابعة الهوى كلها مذمومة ، فإن كان ما هوته محرّما أفضى بصاحبه إلى العقاب ، وإن كان مباحا بقي صاحبه فى غم الحجاب وسوء الحساب ، وأسر نفسه وكدّ طبعه. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «ما عبد تحت السماء أبغض إلى اللّه تعالى من

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٦١٧٣) والبغوي (٧/ ٢٤٥).

هوى» «١» ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «ثلاث مهلكات شحّ مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه» «٢» وقال أيضا : «الكيّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنّى على اللّه» «٣» ، وسيأتى فى الإشارة تمامه.

ثم قال تعالى : وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ أي : خذله على علم منه ، باختياره الضلالة ، أي : عالما بضلاله ، وتبديله لفطرة اللّه التي فطر النّاس عليها. وقيل : نزلت فى أمية بن أبى الصلت ، وكان عنده علم بالكتب المتقدمة ، فكان ينتظر بعثة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ، فلما ظهر ، قال : ما كنت لأومن لرسول ليس من ثقيف ، وأشعاره محشوة بالتوحيد ، ولكن سبق له الشقاء ، فلم يؤمن ، وختم على سمعه فلا يقبل وعظا وقلبه ، فلا يعتقد حقّا ، أي : لا يتأثر بالمواعظ ، ولا يتفكر فى الآيات والنّذر. وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً أي : ظلمة مانعة من الاعتبار والاستبصار ، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ من بعد إضلال اللّه إياه؟ أَفَلا تَذَكَّرُونَ أفلا تتعظون ، فتسلمون الأمور إلى مولاها ، يضل من يشاء ويهدى من يشاء.

الإشارة : حقيقة الهوى كلّ ما تعشقه النّفس ، وتميل إليه من الحظوظ العاجلة ، ويجرى ذلك فى المآكل ، والمشارب ، والملابس ، والمناكح ، والجاه ، ورفع المنزلة ، فليجاهد العبد نفسه فى ترك ذلك كله ، حتى لا تحب إلا ما هو طاعة يقرب إلى اللّه ، كما قال صلّى اللّه عليه وسلم : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تابعا لما جئت به» «٤» فإن كان فى طريق الإرادة والتربية ترك كلّ ما تميل إليه نفسه وتسكن إليه ، ولو كان طاعة ، كما قال البوصيرى رضي اللّه عنه :

وراعها وهى فى الأعمال سائمة وإن هى استحلت المرعى فلا تسم

فإنّ حلاوة الطاعة سموم قاتلة ، يمنع الوقوف معها من الترقي إلى حلاوة الشهود ولذة المعرفة ، وكذلك الركون إلى الكرامات ، والوقوف مع المقامات ، كلها أهوية تمنع مما هو أعلى منها من مقام العيان ، فلا يزل المريد يجاهد نفسه ، ويرحلها عن هذه الحظوظ ، حتى تتمحض محبتها فى الحق تعالى ، فلا يشتهى إلا شهود ذاته الأقدس ، أو ما يقضيه عليه ، فإذا ظهر بهذا المقام لم تبق له مجاهدة ولا رياضة ، وكان ملكا حرا ، فيقال له حينئذ :

---

(١) الحديث ذكره القرطبي فى تفسيره (٧/ ٦١٧٣) عن أبى أمامة.

(٢) أخرجه مطولا البزار (كشف الأستار/ ٨١) ، وأبو نعيم فى الحلية (٢/ ٣٤٣) من حديث أنس رضي اللّه عنه. وأخرجه الطبراني فى الأوسط (ح ٥٧٥٤) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤) وابن ماجه فى (الزهد ، بات ذكر الموت والاستعداد له ، ح ٤٢٦٠) والترمذي ، وحسّنه فى (صفة القيامة والرّقائق ، ح ٢٤٥٩) والحاكم (٤/ ٢٥١) «وصحّحه وأقره

الذهبي» والطبراني فى الكبير (٧/ ٣٣٨ ، ح ٧١٤١) وابن المبارك فى الزهد (٥٦ ح ٢٥) من حديث شداد بن أوس.

(٤) أخرجه البغوي فى شرح السنة (٢١٣) والبغدادي فى تاريخ بغداد (٤/ ٣٦٩) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص. وقد بسط الكلام على هذا الحديث الحافظ ابن رجب فى «جامع العلوم والحكم» فراجعه إن شئت.

لك الدهر طوع ، والأنام عبيد فعش ، كل يوم من أيامك «١» عيد.

وطريق السير فى هذا أن يساس نفسه شيئا فشيئا ، يمنعها من المكروهات ، ثم من المباحات شيئا فشيئا ، حتى تستأنس ، يترك شهوة ثم أخرى ، وهكذا ، وأما لو منعها الكلّ دفعة واحدة فربما تمل وتسقط ، وقد قال عليه الصلاة والسّلام : «لا يكن أحدكم كالمنبت ، لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى» «٢». وإلى هذا أشار فى المباحث ، حيث قال :

واحتل على النّفس فرّب حيله أنفع فى النّصرة من قبيله

وأعظم الحظوظ حب الجاه والتقدم ، فلا يسامحها المريد فى شىء من ذلك قط ، ولينزل بها إلى الخمول والسفليات ، وأما شهوة البطن والفرج فما تشوفت إليه النّفس من ذلك فليمنعها منها كليا ، وما أتاها من غير حرص ولا تشوف فليأخذ منه قدر الحاجة ، مع الشكر عليه ، هكذا يسير حتى يتحقق وصوله ، ويتمكن من معرفة الحق ، وحينئذ فلا كلام معه ، كما تقدم ، ولا بد من صحبة شيخ عارف كامل ، يلقيه زمام نفسه ، فيحمله بهمته ، وإلا فلا طاقة على مجاهدتها أصلا ، وجرّب ففى التجريب علم الحقائق.

قال القشيري : من لم يسلك سبيل الاتباع ، ولم يستوف أحكام الرّياضة ، ولم ينسلخ عن هواه بالكلية ، ولم يؤدبه إمام مقتدى به ، فهو ينحرف فى كلّ وهدة ، ويهيم فى كلّ ضلالة ، ويضلّ فى كلّ فجّ ، خسرانه أكثر من ربحه ، ونقصانه أوفر من رجحانه ، أولئك فى ضلال بعيد ، زمامهم بيد هواهم ، أولئك أهل المكر ، استدرجوا وما يشعرون. هـ. وفى الحكم : «لا يخاف أن تلتبس الطرق عليك ، وإنما يخاف من غلبة الهوى عليك» «٣». فمن غلبه الهوى غلبه الوجود بأسره ، وتصرف فيه ، أحب أم كره ، ومن غلب هواه غلب الوجود بأسره ، وتصرف فيه بهمته كيف شاء.

حكى عن أبى عمران الواسطي ، قال : انكسرت بنا السفينة ، فبقيت أنا وامرأتى على ألواح ، وقد ولدت فى تلك الليلة صبية ، فصاحت بي ، وقالت : يقتلنى العطش ، فقلت : هو ذا يرى حالنا ،

فرفعت رأسى ، فإذا رجل جالس فى يده سلسلة من ذهب ، فيها كوز من ياقوت أحمر ، فقال : هاك اشربا ، فأخذت الكوز ، فشربنا ، فإذا هو أطيب من

---

(١) هكذا ، وأرى – أنها «زمانك» ليستقيم الوزن.
(٢) أخرجه البيهقي السنن (٣/ ١٨) والبزار (٧٤) والحاكم فى معرفة علوم الحديث (ص ٩٦) والشهاب القضاعي فى مسنده (ح ١١٤٧ ، وح ١١٤٨) عن جابر مرفوعا ، بلفظ «إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإنّ المنبت ..» إلخ الحديث ، وزاد القضاعي بعد «فأوغل فيه برفق» : «ولا تبغض إلى نفسك عبادة اللّه» وأخرجه بنحوه البيهقي فى الشعب (ح ٣٨٨٥) عن السيدة عائشة رضي اللّه عنها ، و(ح ٣٨٨٦) عن عمرو بن العاص رضي اللّه عنه.
وانظر الشذرة فى الأحاديث المشتهرة (ح ٨٩٣) وكشف الخفاء (٢٣٣٩).
(٣) حكمة رقم (١٠٧) انظر تبويب الحكم ص ١٧.

المسك ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، فقلت : من أنت؟ فقال : أنا عبد لمولاك ، فقلت : بم وصلت إلى هذا؟
فقال : تركت هواى لمرضاته ، فأجلسنى فى الهواء ، ثم غاب ولم أره. هـ. وقال سهل رضي اللّه عنه : هواك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك ، وقال وهب : إذا عرض لك أمران ، وشككت فى خيرهما ، فانظر أبعدهما من هواك فأته. هـ. ومثله فى الحكم : «إذا التبس عليك أمران ، فانظر أثقلهما على النّفس ، فاتبعه ، فإنه لا يثقل عليها الا ما كان حقا». فالعز كله فى مخالفة الهوى ، والذل والهوان كله فى متابعة الهوى ، فنون الهوان سرقت من الهوى ، كما قال الشاعر :
لون الهوان من الهوى مسروقة أسير كلّ هوى أسير هوان.
وقال آخر :
إن الهوى لهو الهوان بعينه فإذا هويت فقد لقيت هوانا
وإذا هويت فقد تعبّدك الهوى فاخضع لحبّك كائنا من كانا
وقال ابن المبارك :
ومن البلاء للبلاء علامة ألا يرى لك عن هواك نزوع
العبد أعنى النّفس فى شهواتها والحرّ يشبع تارة ويجوع. «١»

ولابن دريد :

إذا طالبتك النّفس يوما بشهوة وكان إليها للخلاف طريق

فدعها وخالف ما هويت فإنما هواك عدو والخلاف صديق

وقال أبو عبيد الطوسي :

والنّفس إن أعطيتها مناها فاغرة نحو هواها فاها

هذا ، وللآية إشارة آخري ، رويت عن بعض مشايخنا ، قال : يمكن أن تكون الآية مدحا ، يقول تعالى : أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ ، وهو اللّه تعالى ، ومحبوبه وهواه ، لا يهوى معه غيره ، وأضله اللّه ، فى محبته ، على علم منه باللّه ، وختم على سمعه وقلبه بمحبته ، فلا يسمع إلا منه ، ولا يحب غيره ، وجعل على بصره غشاوة ، فلا يرى سواه ، فمن

---

(١) انظر ديوان ابن المبارك (ص ٨٢) والبيت فيه : [والعبد عبد النّفس] كما جاء البيتان فى ديوان سيدنا عليّ بن أبى طالب رضي اللّه عنه ، (ص ١٢٢) ومعهما بيت ثالث ، هو :

وكفاك من عبر الحوادث أنه يبلى الجديد ويحصد المزروع

(٣١٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣١٥

يهديه هذه الهداية العظمى من بعد اللّه ، «١» وهذا يسلّم فى طريق الإشارة ، لأنها خارجة عن سياق العبارة ، وللقرآن أسرار باطنة ، يعرفها أهل الباطن فقط ، فسلّم تسلم.

ثم ذكر مقالة أهل الأهواء والضلال ، فقال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٢٤ الى ٢٥]

وَقالُوا ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٥)

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا من غاية غيهم وضلالهم : ما هِيَ أي : ما الحياة لأنهم وعدوا حياة ثانية ، إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا التي نحن فيها ، نَمُوتُ وَنَحْيا أي : يصيبنا الموت والحياة فيها ، وليس وراء ذلك حياة ، أو : نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا ، أو : يموت بعض ويحيا بعض ، أو : نكون مواتا نطفا فى الأصلاب ، ونحيا بعد ذلك. وقيل : هذا كلام من يقول بالتناسخ ، فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان ، أي : يموت الرّجل ، ثم تجعل روحه فى شبح آخر ، فيحيا به ، وهو باطل عند أهل الإسلام. ثم قالوا :

وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ إلا مرور الزمان وهو فى الأصل : مدة بقاء العالم ، من : دهره : إذا غلبه ، وكانوا يزعمون أن مرور الزمان بالليالي والأيام هو المؤثّر فى هلاك الأنفس ، وينكرون ملك الموت ، وقبضه الأرواح بأمر اللّه تعالى ، وكانوا يضيفون كلّ حادثة تحدث إلى الدهر والزمان ، كما قال شاعرهم :

أشاب الصغير وأفنى الكبير كرّ الغداة ومرّ العشيّ.

ومنه قول تبع الأكبر ، أو غيره :

منع البقاء تغرّب الشمس وطلوعها من حيث لا تمسى

وطلوعها بيضاء صافية وغروبها صفراء كالورس «٢»

تجرى على كبد السماء كما يجرى حمام الموت بالنفس

اليوم أعلم ما يجىء به ومضى بفصل قضائه أمس

---

(١) فى هذا الكلام نظر.

(٢) الورس : نبات كالسمسم أصفر يزرع باليمن ويصبغ به ، ويتخذ منه الغمرة للوجه. وقيل صنف من الكمكم ، وقيل : يشبهه. انظر اللسان (ورس ٦/ ٤٨١٢) ومحيط المحيط (ص ٩٦٥).

(٣١٥/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣١٦

فإن كان تبّعا المتقدم فنسبة الفعل إلى الدهر مجاز ، كما سيأتى ، وعقيدة الموحدين ألّا فاعل إلا اللّه ، فالدهر مسخّر بأمر اللّه وقدرته ، بل هو من أسرار اللّه وأنوار صفاته ، ولذلك قال صلّى اللّه عليه وسلم : «لا تسبّوا الدهر ، فإن اللّه هو الدهر» «١» وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «قال اللّه تعالى : يؤذينى ابن آدم ، يسبّ الدّهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلّب الليل والنّهار» «٢» فالأمور كلها بيد اللّه ، والدهر إنما هو مظهر لعجائب القدرة ، كما قال أبو على الثقفي رضي اللّه عنه :

يا عاتب الدهر إذا نابه «٣» لا تلم الدهر على غدره

الدهر مأمور له آمر قد انتهى الدهر إلى أمره

كم كافر أمواله جمّة تزاد أضعافا على كفره؟

ومؤمن ليس له درهم يزداد إيمانا على فقره؟

وقد ينسب أهل التوحيد الفعل إلى الدهر مجازا ، تغزلا ، فى أشعارهم ، كما قال عبد الملك بن مروان ، حين ضعف حاله :

فاستأثر الدهر الغداة بهم والدهر يرمينى وما أرمى

يا دهر قد أكثرت فجعتنا بسراتنا وقرت فى العظم

وتركتنا لحمّا على وضم «٤» لو كنت تستبقى من اللحم!!

وسلبتنا ما لست تعقبنا يا دهر ما أنصفت فى الحكم!!.

قال تعالى : وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ أي : ليس لهم بما ذكر من اقتصار الحياة على ما فى الدنيا ، وإسناد التأثير إلى الدهر ، (من علم) يستند إلى عقل ولا نقل ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد ، هذا معتقدهم الفاسد فى أنفسهم.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الألفاظ من الأدب ، باب النّهى عن سب الدهر ، رقم ٢٢٤٦ ، ح ٥) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه. قال الخطابي : معناه أنا صاحب الدهر ، ومدبر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سبه إلى ربه الذي هو فاعلها. انظر فتح الباري (٨/ ٤٣٨). [.....]

(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير - تفسير سورة الجاثية ، باب وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ ح ٦٢٨٤) وفى (الأدب ، باب لا تسبوا الدهر) ومسلم فى (الموضع السابق ، ح ٢) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) فى الأصول : [يا عالما بعجب من دهره] والمثبت من تفسير القرطبي.

(٤) الوضم : خشبة الجزار يقطع عليها اللحم ، وكلّ ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب وحصير. يجمع على أوضام وأوضمة.

وتركهم لحما على وضم ، أي أوقع بهم فذلّلهم وأوجعهم. انظر اللسان (وضم ٦/ ٤٨٦١).

(٣١٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣١٧

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا الناطقة بالحق ، الذي من جملته البعث ، بَيِّناتٍ واضحات الدلالة على ما نطقت به ، أو مبينات له ، ما كانَ حُجَّتَهُمْ ما كان متمسكا لهم شيء من الأشياء ، إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى أنّا نبعث بعد الموت ، أي : لا شبهة لهم إلا هذا القول الباطل ، الذي يستحيل أن يكون من قبيل الحجة ، أي : ليس لهم حجة إلا العناد والاستبعاد. وتسميته حجة إما لسوقهم إياه مساق الحجة فى زعمهم ، أو تهكما بهم ، كقول القائل : «تحية بينهم ضرب وجيع». قال ابن عرفة : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ ... الآية ، أي : إنهم مع كونهم ظانين فهم بحيث لو استدل لهم لما ازدادوا إلا ضلالا ، وقد تقرر فى علم الجدل أن المصمم على الشيء يصعب نقله عنه ، بخلاف الظان والشاك ،

فأتت هذه الآية نفيا لما يتوهم فى هؤلاء أنهم حيث لا يقين عندهم يسهل رجوعهم ، حين تظهر الحجة. هـ. ومن نصب «حجتهم» فخبر كان ، ومن رفعه فاسمها «١».

الإشارة : قال القشيري : وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا ... الآية ، اغتروا بما وجدوا عليه خلفهم ، وأرخوا فى البهيمية عنانهم وعمرهم ، وأغفوا عن ذكر الفكرة قلوبهم ، فلا بالعلم استبصروا ، ولا من الحقائق استمدوا ، رأس ما لهم الظن ، وهم غافلون ، وإذا تتلى عليهم الآيات طلبوا إحياء موتاهم ، وسوف يرون ما استبعدوا. هـ.

ثم قرر البعث الذي أنكروه ، فقال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٢٦ الى ٣٢]

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠)

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (٣١) وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢)

---

(١) قرأ الجمهور «حجتهم» بالنصب ، وعن الحسن وغيره «حجتهم» بالرفع ، اسم كان ، و«إلا أن قالوا» الخبر ، وهى قراءة شاذة. انظر :

الإتحاف (٢/ ٤٦٧) وإعراب القراءات الشاذة للعكبرى (٢/ ٤٧١).

قلت : (و يوم) : منصوب بيخسر ، و«يومئذ» بدل منه ، و«كل أمة تدعى» : مبتدأ وخبر ، ومن نصب «١» فبدل من «كل أمة» ، (و الساعة لا ريب فيها) من رفعها فمبتدأ «٢» ، ومن نصبها فعطف على (وعد اللّه).

يقول الحق جل جلاله : قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ فى الدنيا ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عند انقضاء أعماركم ، لا كما تزعمون من أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر ، ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ بعد الموت إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ للجزاء ، لا رَيْبَ فِيهِ أي : فى جمعكم فإنّ من قدر على البدء قدر على الإعادة ، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة ،

وتأخيره ليوم معلوم ، والرّدّ لأبائهم كما اقترحوا ، حيث كان مزاحما للحكمة التشريعية ، امتنع إيقاعه لرفع الإيمان بالغيب حينئذ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ قدرة اللّه على البعث ، وحكمة إمهاله ، لإعراضهم عن التفكر بالانهماك فى الغفلة ، وهو استدراك من قوله : (لا ريب) ، إما من تمام الكلام المأمور به ، أو مستأنف من جهته تعالى ، تحقيقا للحق ، وتنبيها على أن ارتيابهم إنما هو لجهلهم وتقصيرهم فى التفكر والنّظر ، لا لأن فيه شائبة ريب ما.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : له التصرف فيهما وفيما بينهما ، وهو بيان لاختصاص الملك المطلق باللّه ، إثر بيان تصرفه تعالى فى النّاس بالإحياء والإماتة ، والبعث والجمع والجزاء ، وكأنه دليل لما قبله ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ الداخلون فى الباطل ، وهو الكفر ، وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ من الأمم المجموعة جاثِيَةً باركة على الرّكب ، مستوفزة من هول ذلك اليوم ، يقال : جثا فلان يجثو : إذا جلس على ركبتيه ، قال سلمان رضي اللّه عنه : فى القيامة ساعة هى عشر سنين ، يخرّ النّاس فيها جثاة على ركبهم ، حتى إن إبراهيم ينادى : نفسى نفسى «٣». هـ. وروى : أن جهنم حين يؤمر بها أن تساق إلى الموقف ، تنفلت من أيدى الزبانية ، حتى تهم أن تأتى على أهل الموقف جميعا ، وتزفر زفرة تذهب بحاسة الآذان ، فيجثوا الكلّ على الرّكب ، حتى المرسلين ، وكلّ واحد يقول : نفسى نفسى ، لا أسألك اليوم غيرها ، ونبينا عليه الصلاة والسّلام يقول : «أمتى أمتى». نقله الغزالي ، وعن ابن عباس : جاثية : مجتمعة ، وقيل : جماعات ، من : الجثوة ، وهى الجماعة.

كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا صحيفة أعمالها ، والمراد الجنس ، أي : صحائف أعمالها ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى الدنيا ، ثم يقال لهم : هذا كِتابُنا ، أضيف الكتاب إليهم أولا لملابسته إياهم ، لأن أعمالهم مثبتة فيه ، وإلى اللّه ثانيا لأنه مالكه ، والآمر للملائكة بكتبه ، وأضيف لنون العظمة تفخيما لشأنه ، وتهويلا

---

(١) قرأ يعقوب بنصب «كل» وقرأ الباقون برفعها.

(٢) قرأ حمزة «والساعة» بالنصب ، وقرأ الباقون بالرفع.

(٣) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ٢٤٦) والقرطبي (٧/ ٦١٨٠).

لأمره ، يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ يشهد عليكم ملتبسا بالحق ، من غير زيادة ولا نقصان ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ أي : نستكتب ونطلب نسخ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى الدنيا ، من الأعمال ، حسنة أو سيئة ، وقال ابن عزيز

: نستنسخ :

نثبت ، ويقال : نستنسخ : نأخذ نسخته ، وذلك أن الملكين يرفعان عمل الإنسان ، صغيره وكبيره ، فيثبت اللّه منه ما كان له ثواب أو عقاب ، ويطرح منه اللغو ، وروى عن ابن عباس وغيره حديثا : «أن اللّه يأمر بعرض أعمال العباد كلّ يوم خميس ، فينقل من الصحف التي ترفع الحفظة ، كل ما هو معدّ أن يكون له ثواب وعقاب ، ويلقى الباقي ، فهذا هو النّسخ من أصل.

وقيل : المراد بكتابنا : اللوح المحفوظ. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «أول ما خلق اللّه القلم من نور مسيرة خمسمائة عام ، واللوح من نور مسيرة خمسمائة عام ، فقال للقلم : أجر ، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل ، برها وفاجرها ، ورطبها ويابسها ، ثم قرأ : هذا كِتابُنا يَنْطِقُ .. الآية» ، فيروى «أن الملائكة تصعد كلّ يوم إلى الملك الموكل باللوح ، فيقولون : أعطنا ما يعمل صاحبنا اليوم ، فينسخ من اللوح عمله ذلك اليوم ، ويعطيه إياهم ، فإذا انقضى أجله ، قال لهم : لا نجد لصاحبكم عملا بقي له ، فيعلمون أنه انقضى أجله».

ثم فصّل أحوال أهل الموقف ، فقال : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، أي : جنته ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ الظاهر ، الذي لا فوز وراءه ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فيقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ : أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ أي : ألم تكن تأتيكم رسلى فلم تكن آياتي تتلى عليكم ، فحذف المعطوف عليه ، ثقة ، بقرينة الكلام ، فَاسْتَكْبَرْتُمْ عن الإيمان بها ، وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ أي : قوما عادتكم الإجرام.

وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ أي : وكنتم إذا قيل لكم : إن وعد اللّه بالجزاء حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها أي : فى وقوعها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ أىّ شيء هى الساعة ، استهزاء بها ، إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ، أصله : نظن ظنا ، ومعناه : إثبات الظن ، فحسب ، فأدخل حرف النّفى والاستثناء ليفيد إثبات الظن مع نفى ما سواه. وقال المبرد : أصله : إن نحن إلا نظن ظنا ، وإنما أوّله لأنه لا يصح التفريع فى المصدر المؤكد ، لعدم حصول الفائدة ، إذ لا معنى لقولك : لا نضرب إلا ضربا ، وجوابه : إن المصدر نوعى لا مؤكد ، أي : ظنا حقيرا ضعيفا. وفى الآية اللف والنّشر المعكوس «١». فقوله : قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ راجع لقوله : وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها ، وقوله : إِنْ نَظُنُّ إِلَّا

---

(١) اللف والنّشر : هو أن يذكر متعدد ثم يذكر ما لكلّ من أفراده ، شائعا من غير تعيين ، اعتمادا على تصرف السامع فى رده إليه ، وهو إما أن يكون النّشر فيه على ترتيب اللف ، نحو : وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وإما أن يكون على خلاف ترتيبه ، نحو فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ.

انظر التعريفات (٢٤٤) ومحيط المحيط (ص ٥٦١).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٢٠
ظَنًّا راجع لقوله : إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وكذا قوله : وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ أي : لا يقين عندنا ، وهو راجع لقوله إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. قاله ابن عرفة. ولعل هؤلاء غير القائلين : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا. واللّه أعلم.
الإشارة : قل اللّه يحييكم الحياة الفانية ، ثم يميتكم عن حظوظكم ، وعن شهود وجودكم ، ثم يجمعكم به إلى يوم القيامة ، لا يعزلكم عن رؤيته أبدا ، ولكن أكثر النّاس لا يعلمون أن هذا يقع فى الدنيا ، مع أن الملك للّه يتصرف فيه كيف شاء ، يوصّل من أراد ، ويبعد من شاء. ويوم تقوم الساعة يخسر الباطلون والمبطلون ، ويفوز المجتهدون والواصلون. وترى كلّ أمة جاثية من هيبة المتجلى باسمه القهار ، وهذه القهرية - نعم - لا ينجو منها خاص ولا عام لأن الطبع البشرى يثبت عند صدمات الجلال. وقوله تعالى : كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا هو أيضا عام ، فيستبشر المجتهدون ، ويحزن البطالون ، ولا يظلم ربك أحدا ، فاليوم يوم عمل ، وغدا يوم جزاء ، فأهل الإيقان يفوزون بغاية النّعيم والرّضوان ، وأهل الشك يخلدون فى الخسران ، فيظهر لهم ما لم يكونوا يحتسبون ، كما قال :
[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٣٣ الى ٣٧]
وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٣٤) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)
يقول الحق جل جلاله : وَبَدا لَهُمْ أي : ظهر لهؤلاء الكفرة سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا قبائح أعمالهم على ما هى عليه من الصورة المنكرة الهائلة ، وعاينوا وخامة عاقبتها ، أو : جزاؤها ، فإن جزاء السيئة سيئة مثلها ، وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أي : نزل بهم جزاء استهزائهم من العقاب العظيم ، وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ نتركركم ترك المنسى ، كَما نَسِيتُمْ فى الدنيا لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا أي : كما تركتم الاستعداد له ، ولم تبالوا به. وإضافة اللقاء إلى اليوم إضافة المصدر إلى ظرفه ، أي : لقاء اللّه فى يومكم هذا ، أو لقاء جزائه ، وَمَأْواكُمُ النَّارُ أي : منزلكم ، وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ لا أحد يمنعكم أو يخلصكم منها.
ذلِكُمْ العذاب بِأَنَّكُمُ بسبب أنكم اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ المنزّلة هُزُواً مهزوا بها ، ولم ترفعوا لها رأسا ، وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وألهتكم زخارف الدنيا ، فحسبتم ألّا حياة بعدها ، فَالْيَوْمَ

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٢١

لا يُخْرَجُونَ مِنْها

أي : من النّار ، والالتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب ، استهانة بهم. وقرأ الأخوان بالخطاب «١». وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ أي : لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم ، أي : يرضوه بعمل صالح لفوات إبانه ، وإن طلبوا الرّجوع لم يقبل منهم.

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ خاصة ، رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ ، فلا يستحق الحمد أحد سواه ، أي : فاحمدوا اللّه الذي هو ربكم ورب كلّ شيء ، فإن مثل هذه الرّبوبية العامة ، توجب الحمد والثناء على كلّ مربوب ، وتكرير الرّب للتأكيد والإيذان بأن ربوبيته تعالى لكلّ منهما بطريق الأصالة. وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : وكبّروه ، فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته فى السموات والأرض ، وإظهارهما فى موضع الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الذي لا يغلب ، الْحَكِيمُ فى كلّ ما قضى وقدّر ، فاحمدوه وكبّروه ، وأطيعوه ، فصاحب هذه الصفات العظام مستحق لذلك.

الإشارة : وقيل اليوم ننساكم من شهود قربى ، كما نسيتم لقاء يومكم هذا ، فلو ذكرتمونى على الدوام لقربتكم على الدوام ، ولو ذكرتمونى على الانفراد لأشهدتكم ذاتى على التماد ، ولكنكم اتخذتم آيات اللّه الدالة على وجودى من الكائنات ، والدالة على شهودى من الأولياء ، هزوا ، وغرتكم الحياة الدنيا ، فاليوم لا يخرجون من غم الحجاب ، ولا يمنعون من انسداله ، ولا هم يرضون ربهم ، فيرضى عنهم ، فللّه الحمد على غناه عن الكل ، وله الكبرياء فى السموات والأرض ، أي : رداء الكبرياء منشور على أسرار ذاته فى السموات والأرض ، وهو ما ظهر من حسها ، كما هو منشور على وجهه فى جنة عدن ، كما فى الحديث.

وقال الورتجبي : نفى الحق الكبرياء عن الحدثان لأنه هو المستحق للكبرياء ، وكبرياؤه ظاهر فى كلّ ذرة ، من العرش إلى الثرى ، إذ هى كلها مستغرقة مقهورة فى أنوار كبريائه ، يعز بعزه الأولياء ، ويقهر بقهره الأعداء ، حكيم فى إبداع الخلق وإلزامهم عبوديته ، التي هى شرائعه المحكمة بحكمه ، وقال سهل رضي اللّه عنه : وله الكبرياء : العلو والقدرة والعظمة ، والحول والقوة فى جميع الملك ، فمن اعتصم به أيّده بحوله وقوته ، ومن اعتمد على نفسه وكله اللّه إليها. هـ. وباللّه التوفيق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي : «لا تخرجون» بفتح الياء وضم الرّاء. وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الرّاء. انظر الإتحاف (٢/ ٤٦٨).

سورة الأحقاف

مكية : وقيل : إلا قوله : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ «١» الآية ، وقوله : فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ «٢». وهى خمس وثلاثون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله : ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً «٣» أي : حيث قلتم : إن محمدا اختلقها ، مع قوله : تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ ، فهى رد عليهم.

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣)

يقول الحق جل جلاله : حم يا محمد ، أو : الوحى إلى محمد ، تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ أي : هذا تنزيل القرآن ، وهو من اللّه الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، فمن حفظه ، وعرف ما فيه ، وعمل بمضمنه كان عزيزا على اللّه ، حكيما فيما يبدئ ويعيد. ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما من المخلوقات إِلَّا بِالْحَقِّ أي :

إلا ملتبسا بالحق الذي تقتضيه الحكمة التكوينية والتشريعية ، فالاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل ، أو من أعم الأحوال ، أي : ما خلقناهما فى حال من الأحوال إلا حال ملابستنا بالحق ، وفيه من الدلالة على وجود الصانع ، وصفات كماله ، وابتناء أفعاله على حكمة بالغة ، ما لا يخفى ، وَأَجَلٍ مُسَمًّى تنتهى إليه ، وهو يوم القيامة ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات. وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا به من هول ذلك اليوم ، الذي لا بد لكل مخلوق من الانتهاء إليه ، مُعْرِضُونَ لا يؤمنون به ، ولا يهتمون بالاستعداد له ، ويجوز أن تكون «ما» مصدرية ، أي : عن إنذارهم ذلك اليوم معرضون.

وحاصل افتتاح السورة : أنّ الوحى الخاص إلى محمد هو منزل من اللّه العزيز ، الذي عزّ عن الافتراء عليه ، وأعزّ بالوحى من تمسك به ، الحكيم فى تنزيله وحيه ، مرشدا لعباده لما فيه صلاحهم وهداهم ، ومن حكمته : أنّ

---

(١) الآية ١٠ من السورة.

(٢) الآية الأخيرة.

(٣) من الآية ٣٥ من سورة الجاثية.

(٣٢٣/٥)

خلق السموات والأرض دالا بذلك على توحيده ، وكماله فى أوصافه وتدابيره ، المقتضية لترتب دار الجزاء على دار العمل ، بحيث لا يسوّى بين مبطل ومحق ، فأرشد بخلق الأشياء إلى حكمته دلالة ، ثم بإنزال الوحى بذلك قالة ، ومع وضوح الأمر فى دلالتهما أعرض الذين كفروا من غير دليل عقلى ولا نقلى متواتر ولا آحاد ، على أنّ ما اقتضاه الوحى إلى محمد من التوحيد ، والجزاء المرتب على الإخلاص له ، والصدق فى عبودية اللّه ، والدعاء إلى محاسن الأخلاق ، مما اجتمعت عليه الرّسل قبله ، فليس بمبدع من عنده. هـ. من الحاشية.

الإشارة : حم يا حبيب ممجد ، قد مجدناك بإنزال كتابتا ، وعززناك برسالتنا ، ما خلقنا الكائنات إلا ملتبسة بأسرار الحق ، وأهل الغفلة معرضون عن هذا.

قال القشيري : حميت قلوب أهل عنايتى ، فصرفت عنها خواطر التجويز ، ورميتها فى مشاهد اليقين بنور التحقيق ، فيها شواهد برهانهم ، أي : برهان العيان - فأضفنا إليها لطائف إحساننا ، فكملت منالها من عين الوصلة.

وغديناهم بنسيم الأنس فى ساحات القربة. (العزيز) المعز للمؤمنين بإنزال الكتب ، (الحكيم) لكتابه عن التبديل والتحويل. هـ. وخواطر التجويز هى خواطر الشك فى المقدور ، يجوز الوقوع وعدمه بسبب ضعف اليقين ، فإذا انتفى عن القلب خواطر التجويز ، دخله السكون والطمأنية ، وارتاح فى ظل برد الرّضا والتسليم. واللّه تعالى أعلم.

ثم وبّخهم على الشرك بعد ظهور بطلانه ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٤ الى ٦]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ (٥) وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ (٦)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد ، توبيخا وتبكيتا لهم : أَرَأَيْتُمْ أخبرونى ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، ما

تعبدون من الأصنام من دون اللّه ، أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أىّ شيء خلقوا فى الأرض إن كانوا آلهة؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أي : أم لهم شركة مع اللّه فى خلق السموات ، حتى يتوهم

(٣٢٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٢٥
أن تكون لهم شائبة استحقاق للعبادة؟ فإنّ من لا مدخل له فى شيء من الأشياء ، بوجه من الوجوه ، بمعزل من ذلك الاستحقاق بأسره ، وإن كان من الأحياء العقلاء ، فما ظنك بالجماد؟ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أي : من قبل القرآن ، يعنى : أن هذا الكتاب ناطق بالتوحيد ، وإبطال الشرك ، وما من كتاب أنزل من قبله من كتب اللّه إلا وهو ناطق بمثل ذلك ، فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله ، شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير اللّه ، أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ أو بقية من علم بقيت عندكم من علوم الأقدمين ، شاهدة باستحقاق الأصنام للعبادة ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى أن اللّه أمركم بعبادة الأوثان ، فإن الدعوى لا تصح ما لم يقم عليها برهان عقلى ، ولا سلطان نقلى ، وحيث لم يقم عليها شيء ، بل قامت على خلافها أدلة العقل والنّقل تبين بطلانها.
وَمَنْ أَضَلُّ أي : لا أحد أشد ضلالا مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، غاية لنفى الإجابة ، وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ ، لأنهم جمادات لا يسمعون.
وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ عند قيام الساعة كانُوا لَهُمْ أَعْداءً أي : الأصنام لعبدتها ، وَكانُوا أي : الأصنام بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ ، جاحدين ، يقولون : ما دعوناهم إلى عبادتنا ، والحاصل : أنهم فى الدنيا لا ينفعونهم ، وفى الآخرة يتبرءون منهم ، ويكونون عليهم ضدا ، ولمّا أسند إليهم ما يسند إلى العقلاء من الاستجابة والغفلة عبّر عنهم ب «من» و«هم» ، ووصفهم بترك الاستجابة تهكما بها وبعبدتها. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : يقال لأهل الغفلة : أرأيتم ما تركنون إليه من الخلق ، هل لهم قوة على نفعكم أو ضركم؟ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ... الآية. فلا أحد أضل ممن يرجو الضعيف مثله ، الذي لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهو غافل عن إجابته فى الحال والمآل ، وإذا أحبه على هوى الدنيا صارت يوم القيامة عدواة ومقتا.
ثم ذكر كفرهم بالتنزيل المتقدم ، فقال :
[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٧ الى ٨]
وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ

قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨)

(٥/٣٢٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٢٦

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ، واضحات ، أو : مبينات ، جمع بيّنة ، وهى الحجة والشاهد ، قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ أي : لأجله وفى شأنه ، والمراد بالحق : الآيات المتلوة ، وبالذين كفروا :

المتلوّ عليهم ، فوضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بالكفر والمتلو بالحق ، والأصل : قالوا فى شأن الآيات ، التي هى حق لَمَّا جاءَهُمْ أي : بادهوا الحق بالجحود ساعة أتاهم ، وأول ما سمعوه ، من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر : هذا سِحْرٌ مُبِينٌ ظاهر كونه سحر.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ، إضراب وانتقال من حكاية شناعتهم السابقة - وهى تسميتهم الآيات سحرا ، إلى حكاية ما هو أشنع منها ، وهو كون الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم افْتَراهُ أي : اختلقه ، وأضافه إلى اللّه كذبا ، والضمير للحق ، والمراد به الآيات. قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أي : إن افتريته على سبيل الفرض لعاجلنى اللّه بعقوبة الافتراء ، فلا تقدرون على كفه عن معاجلتى ، ولا تملكون لى شيئا من دفعه ، فكيف أفتريه وأتعرض لعقابه الذي لا مناص منه؟! هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ من القدح فى وحي اللّه - تعالى - والطعن فى آياته ، وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى. كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ حيث يشهد لى بالصدق والبلاغ ، وعليكم بالكذب والجحود ، وهو وعيد بجزاء إفاضتهم ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ لمن تاب وآمن ، وهو وعد لمن آمن بالمغفرة والرّحمة ، وترغيب فى الإسلام.

الإشارة : رمى أهل الخصوصية بالسحر عادة مستمرة ، وسنّة ماضية ، ولقد سمعنا هذا فينا وفى أشياخنا مرارا ، فيقول أهل الخصوصية : إن افترينا على اللّه كذبا عاجلنا بالعقوبة ، فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ... الآية.

ثم أمر نبيه بالجواب عما رموه به ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٩ الى ١٠]

قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً أي : بديعا ، كخف وخفيف ، ونصب ونصيب ، فالبدع

والبديع من الأشياء : ما لم يتقدم مثله ، أي : لست بأول مرسل فتنكر نبوتى ، بل تقدمت الرّسل قبلى ، واقترحت عليهم المعجزات ، فلم يقدروا على الإتيان بشيء إلا ما أظهره اللّه على أيديهم ، فى الوقت الذي يريد. قيل : كانت

(٣٢٦/٥)

قريش تقترح على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم آيات تظهر لهم ، ويسألونه عن الغيبيات ، عنادا ومكابرة ، فأمر صلّى اللّه عليه وسلم بأن يقول لهم : ما كنت بدعا من الرّسل ، قادرا على ما لم يقدروا عليه ، حتى آتيكم بكلّ ما تقترحونه ، وأخبركم بكلّ ما تسألون عنه من الغيوب ، فإنّ من قبلى من الرّسل - عليهم السّلام - ما كانوا يأتون إلا بما آتاهم اللّه - تعالى - من الآيات ، ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم ، وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ أي : لا أدرى ما يصيبنا فيما يستقبل من الزمان من أفعاله تعالى ، وما ذا يبرز لنا من قضاياه. وعن الحسن : ما أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : ما يفعل بي ولا بكم فى الآخرة.

وقال : إنه منسوخ بقوله : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ. «١» قال شيخ شيوخنا الفاسى : وهو بعيد ، ولا يصح النّسخ لأنه لا يكون فى الأخبار ، ولأنه لم يزل يعلم أن المؤمن فى الجنة ، والكافر فى النّار ، من أول ما بعثه اللّه ، لكن محمل قول ابن عباس وغيره على أنه لم تكشف له الخاتمة ، فقال : لا أدرى ، وأما من وافى على الإيمان ، فقد أعلم بنجاته من أول الرّسالة ، وإلا فكان للكفار أن يقولوا : وكيف تدعونا إلى ما لا تدرى له عاقبة؟ قاله ابن عطية. هـ. وقال أبو السعود : والأوفق بما ذكر من سبب النّزول : أن «ما» عبارة عما علمه ليس من وظائف النبوة ، من الحوادث الواقعات الدنيوية ، دون ما سيقع فى الآخرة ، فإنّ العلم بذلك من وظائف النّبوة ، وقد ورد به الوحى ، الناطق بتفاصيل الفعل بالجانبين. هذا ، وقد روى عن الكلبي : «أن أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قالوا له صلّى اللّه عليه وسلم وقد ضجروا من إذاية المشركين : متى نكون على هذا؟ فقال : ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ أأترك بمكة أو أومر بالخروج إلى أرض ذات نخيل وشجر ، قد رفعت إلىّ ورأيتها. هـ. «٢». وسيأتى فى الإشارة تحقيق المسألة - إن شاء اللّه تعالى.

ثم قال : إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ أي : ما أفعل إلا الاتباع ، على معنى : قصر أفعاله صلّى اللّه عليه وسلم على اتباع الوحى ، لا قصر اتباعه على الوحى ، كما هو المتبادر ، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار بالغيوب ، أو عن استعجال المسلمين أن يتخلصوا من إذاية المشركين ، والأول هو الأوفق بقوله : وَما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ أنذركم عقاب اللّه - تعالى - حسبما يوحى إلىّ من الإنذار بالمعجزات

الباهرة.

---

(١) الآية الثانية من سورة الفتح.

(٢) ذكر الواحدي في أسباب النّزول (ص ٣٩٥) عن الكلبي ، عن أبى صالح ، عن سيدنا ابن عباس : لمّا اشتد البلاء بأصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، رأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصّها على أصحابه ، فاستبشروا بذلك ، ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذى المشركين ، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك ، فقالوا : يا رسول اللّه! متى نهاجر إلى الأرض التي رأيت؟ فسكت النبي صلّى اللّه عليه وسلم فأنزل اللّه تعالى : وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ.
ومعلوم أن الكلبي لم يسمع من أبى صالح ، وأبا صالح لم يسمع ابن عباس رضي اللّه عنه. [.....]

(٣٢٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٢٨

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ ما يوحى إليّ من القرآن مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لا بسحر ولا مفترى ، كما تزعمون وَقد كَفَرْتُمْ بِهِ ، وَشَهِدَ شاهِدٌ عظيم مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ الواقفين على شئون اللّه وأسرار الوحى ، بما أتوا من التوراة.
والشاهد : عبد اللّه بن سلام ، عند الجمهور ، ولهذا قيل : إن الآية مدنية ، لأن إسلام «عبد اللّه بن سلام» بالمدينة. قلت : لمّا علم اللّه ما يكون من ابن سلام من الإسلام أخبر به قبل وقوعه ، وجعل شهادته المستقبلة كالواقعة ، فالآية مكية.
وقوله : عَلى مِثْلِهِ أي : مثل القرآن من المعاني المنطوية فى التوراة ، المطابقة لما فى القرآن من الوعد والوعيد وغير ذلك ، فإنّ ما فيه عين ما فيها فى الحقيقة ، كايعرب عنه قوله تعالى : وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ «١» والمثلية باعتبار كونه من عند اللّه. وقيل : المثل : صلة.
فَآمَنَ ذلك الشاهد لمّا تحقق برسالته. روى أنه لما قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم نظر إلى وجهه ، فعلم أنه ليس بوجه كذاب ، وقال له : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبىّ : ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر النّاس من المشرق إلى المغرب ، وأول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإذا سبق ماء الرّجل نزعه ، وإن سبق ماء المرأة نزعته ، فقال : أشهد أنك رسول اللّه حقا ، فأسلم «٢».
وَاسْتَكْبَرْتُمْ عن الإيمان به ، وجواب الشرط محذوف ، والمعنى : أخبرونى إن كان من عند اللّه ، وشهد بذلك أعلم بنى إسرائيل ، فآمن به من غير تلعثم ، واستكبرتم عن الإيمان به بعد هذه البينة ، فمن أضل

منكم؟ بدليل قوله تعالى : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ ... الآية «٣» أو : إن كان القرآن من عند اللّه وكفرتم به ألستم ظالمين؟ ويدل عليه قوله : إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، والتقديران صحيحان ، لأن عدم الهداية مستلزم الضلال ، ووصفهم بالظلم للإشعار بعلة الحكم ، فإن تركه - تعالى - لهدايتهم إنما هو لظلمهم. وقال الواحدي :
معنى : إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ : إن اللّه جعل جزاء المعاندين للإيمان بعد الوضوح والبيان أن يمدهم في ضلالتهم ، ويحرمهم الهداية. هـ.

---

(١) الآية ١٩٦ من سورة الشعراء
(٢) أخرجه البخاري في (تفسير سورة البقرة ، باب من كان عدوا لجبريل ح ٤٤٨٠) مطولا ، عن أنس رضي اللّه عنه ، وكذا أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٠٨) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٢٨ - ٥٢٩).
(٣) الآية ٥٢ من سورة فصلت

الإشارة : قل ما كنت بدعا من الرّسل ، وكذلك الوليّ يقول : ما كنت بدعا من الأولياء ، مع العصمة والحفظ وصريح الوعد بالنجاة ، لا تساع معرفتهم وعلمهم باللّه لأنهم لا يقفون مع وعد ولا وعيد لأن غيب المشيئة لا يعلم حقيقته إلا اللّه ، وقد يكون الوعد معلقا بشروط أخفاها اللّه عنهم ، ليتحقق اختصاصه بحقيقة العلم ، وفي الحديث : «لا تأمن مكرى وإن أمّنتك» ، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير اللّه قراره ، وعلى ذلك الششترى في نونيته ، حيث قال :
وأي وصال في القضيّة يدّعى وأكمل من الخلق لم يدّع الأمنا؟
هذا ، وقد قال تعالى في حق رسوله صلّى اللّه عليه وسلم : وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى «١» وقال : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ «٢» ، ومع ذلك كله لم يقف مع ظاهر الوعد ، لغيب المشيئة ، فقال في حديث ابن مظعون : «واللّه لا أدرى - وأنا رسول - ما يفعل بي» وحديث ابن مظعون بالمدينة بعد الهجرة «٣» ، فتبيّن أنّ الأمن الحقيقي لا يحصل لأحد قبل الختام ، وإن كان الغالب والطرف الرّاجح أن من وعد بخير أو بشّر به ينجز له بفضل اللّه وكرمه ، والكريم إذا وعد لا يخلف ، لكن المشيئة وقهرية الرّبوبية لا تزال فوق رأس العبد حتى يلقاه. واللّه تعالى أعلم.
قال القشيري : وفي الآية دليل على فساد قول أهل البدع ، حيث لم يجوزوا إيلام البريء عقلا لأنه لو

لم يجز ذلك لكان يقول : أعلم قطعا أني معصوم ، فلا محالة يغفر لى ، ولكنه قال هذا ليعلم أن الأمر أمره ، والحكم حكمه ، له أن يفعل بعباده ما يريد. هـ.

وقال الورتجبي : لا أدرى أين استغرق فى بحار وصال جماله الأبدى ، وهناك لجحات تغيب فى ذرة منها جميع الأرواح العاشقة ، والأسرار الوالهة ، والقلوب الحائرة. هـ. والحاصل : أنه لا يدرى نهاية مناله من اللّه ، لنفى الغاية فى حقه تعالى والنّهاية ، وهو صريح استبعاد الششترى دعوى الوصال ، واللّه أعلم. هـ من الحاشية.

---

(١) الآيتان : ٤ - ٥ سورة الضحى

(٢) الآية الثانية من سورة الفتح.

(٣) حديث عثمان بن مظعون - رضي اللّه عنه - أخرجه البخاري في (الجنائز ، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج فى أكفانه ، ح ١٢٤٣) ولفظه : عن خارجة بن زيد بن ثابت : أن أم العلاء - امرأة من الأنصار ، بايعت النبى صلّى اللّه عليه وسلم - أخبرته أنه اقتسم المهاجرون قرعة فطار لنا عثمان بن مظعون فأنزلناه فى أبياتنا ، فوجع وجعه الذي توفى فيه ، فلما توفى وغسّل ، وكفن فى أثوابه ، دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فقلت : رحمة اللّه عليك أبا السائب ، فشهادتى عليك لقد أكرمك اللّه ، فقال النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «وما يدريك أن اللّه قد أكرمه؟» فقلت : بأبى أنت يا رسول اللّه ، فمن يكرمه اللّه؟ فقال : «أما هو فقد جاءه اليقين ، واللّه إنى لأرجو له الخير ، واللّه ما أدرى ، وأنا رسول اللّه ، ما يفعل بي ، فو اللّه لا أزكى أحدا بعده أبدا.

(٣٢٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٣٠

ثم حكى مقالة أخرى للكفار من مقالاتهم الباطلة ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ١١ الى ١٢]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أي : لأجلهم ، وهو كلام كفار مكة ، قالوا : إنّ عامة من يتبع محمد السّقاط ، يعنون الفقراء ، كعمار وصهيب وبلال وابن مسعود - رضي اللّه عنهم - قالوا : لَوْ كانَ ما جاء به محمد من القرآن والدين خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ ، فإن معالى الأمور لا تنالها أيدى

الأراذل ، فإنّ عامتهم فقراء وموال ورعاة ، قالوه زعما منهم أن الرّئاسة الدينية مما تنال بأسباب دنيوية ، كما قالوا : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «١» ، وضلّ عنهم أنها منوطة بكمالات نفسانية ، وملكات روحانية ، مبناها : الإعراض عن زخارف الدنيا ، والإقبال على اللّه بالكلية ، وأنّ من فاز بها حازها بحذافيرها ، ومن حرمها فما له عند اللّه من خلاق. والحاصل : أن هذه المقالة سببها الرّضا عن النّفس ، وهو أصل كلّ معصية وغفلة. ثم قال تعالى : وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ، العامل فى الظرف محذوف لدلالة الكلام عليه ، أي : وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم ، وقالوا ما قالوا. فَسَيَقُولُونَ غير مكتفين بنفي خيريته : هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ أي : كذب متقادم ، كقوله : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ «٢».

وقال القشيري : إنه تكذيب للرسل فيما بيّن لهم ، فيما أنزل عليهم من بعثة محمد رسولا ، يعنى : فيكون كقوله تعالى : إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ «٣». وقيل لابن عباس : أين نجد فى القرآن «من كره شيئا عاداه» ، فقرأ هذه الآية : وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا .. إلخ.

وَمِنْ قَبْلِهِ أي : من قبل القرآن كِتابُ مُوسى أي : التوراة ، فكتاب : مبتدأ ، و«من قبله» : خبر ، والاستقرار هو العامل فى قوله : إِماماً وَرَحْمَةً على أنهما حالان من الكتاب ، أي : قدوة يؤتم به فى دين اللّه

---

(١) من الآية ٣١ من سورة الزخرف.

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الأنعام.

(٣) من الآية ٤٨ من سورة القصص ، وكذا من الآية ٣٠ من سورة الزخرف.

وشرائعه ، ورحمة من اللّه - تعالى - لمن آمن به. وَهذا القرآن ، الذي يقولون فى حقه ما يقولون ، هو كِتابُ عظيم الشأن مُصَدِّقٌ لكتاب موسى ، الذي هو إماما ورحمة ، أو : لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية. قال ابن عرفة : وجه مناسبتها لما قبلها : أنه لما تضمن قوله : فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ تقبيحهم إياه بأنه إما كذب فى نفسه ، أو شبيه بما قبله من الأكاذيب والافتراءات ، عقبه ببيان أنه إما صدق فى نفسه ، أو شبيه بما قبله من الكتب الصادقة. هـ.

حال كون الكتاب لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا : متعلق بمصدّق ، أو بأنزل ، محذوفا ، وفيه ضمير الكتاب ، أو : اللّه - تعالى ، أو : الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، ويؤيده : قراءة الخطاب «١» ، وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ فى حيز النّصب ، عطف على محل «لينذر» لأنه مفعول له ، أي : للإنذار والبشرى

، أو : وهو بشرى للمحسنين ، للمؤمنين المطيعين.

الإشارة : قال فى الحكم : «أصل كلّ معصية وغفلة وشهوة : الرضا عن النّفس ، وأصل كلّ طاعة ويقظة وعفة :

عدم الرّضا منك عنها ، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه ، خير من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه ، فأىّ علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأىّ جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟» «٢» ، وعلامة الرّضا عن النّفس : تغطية مساوئها ، وإظهار محاسنها ، كما قال الشاعر :

وعين الرّضا عن كلّ عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

وإذا نقصها له أحد انتقم منه وغضب ، وإذا مدحها له فرح واستبشر ، ويرى أنه أهل لكلّ خير ، وأولى من غيره ، فيقول إذا رأى من حاز خيرا أو رئاسة ، كما قال الكفار : لو كان خيرا ما سبقونا إليه ، وعلامة عدم الرّضا عنها : إظهار مساوئها ، واتهامها فى كلّ حال.

وقال أبو حفص الحداد : من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم يجرها إلى مكروهها فى سائر أيامه ، كان مغرورا ، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شىء منها فقد أهلكها ، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه؟! والكريم ابن الكريم ابن الكريم يقول : وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي «٣» هـ.

---

(١) قرأ «لتنذر» بالخطاب ، نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر بخلفه ، ويعقوب ، وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف (٢/ ٤٦٩ - ٤٧٠).

(٢) حكمة رقم/ ٣٥ ، انظر تبويب الحكم ص/ ١٧.

(٣) من الآية ٣٥ من سورة يوسف.

فإذا لم يرض عن نفسه ، وهذبها ، استقامت أحواله ، وكان من المحسنين ، الذين قال اللّه - تعالى - فى شأنهم :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ١٣ الى ١٤]

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا أي : جمعوا بين التوحيد ، الذي هو خاصة العلم ، والاستقامة فى الظاهر ، التي هى منتهى العمل ، فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من لحوق مكروه ، وَلا هُمْ

يَحْزَنُونَ على فوات مرغوب ، و«ثم» للدلالة على تراخى رتبة العمل ، وتوقف الاعتداد به على التوحيد. ودخلت الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط ، والتعبير بالمضارع للدلالة على دوام نفى الحزن عنهم ، أُولئِكَ الموصوفون بما ذكر من الاسمين الجليلين ، أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها : حال من أصحاب الجنة ، والعامل :
معنى الإشارة ، جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ من الأعمال الصالحة ، و«جزاء» مصدر لمحذوف ، أي : جوزوا جزاء ، أو بمعنى ما تقدم ، فإن قوله : أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ فى معنى : جزيناهم.
الإشارة : مضى تفسير الاستقامة ، وأنّ من درج على الإيمان والاستقامة حظى بكلّ كرامة ، ووصل إلى جزيل السلامة ، وقيل : السين فى الاستقامة سين الطلب ، وأنّ المستقيم يتوسل إلى اللّه - تعالى - فى أن يقيمه على الحق ، ويثبته على الصدق. هـ.
قال الورتجبي : ما قال القوم هذا القول - أي : «ربنا اللّه» - حتى شاهدوه بقلوبهم ، وعقولهم ، وأرواحهم ، وأسرارهم ، مشاهدة الحق سبحانه ، فإذا رأوه يقولون : هذا الهلال ، وصاحوا ، وضحكوا ، فهذا القول منهم بعد كشف مشاهده الحق لهم ، فلما رأوه أحبوه وعرفوه ، وشربوا من بحار وصاله ، حتى تمكنوا ، فاستقاموا بقوتها فى موازاة رؤية أنوار الأزل والآباد ، واستقاموا فى مراد اللّه منهم ، وأداء حقوق عبوديته ، فلا يبقى عليهم خوف الحجاب ، ولا حزن العتاب ، قال اللّه تعالى : فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. هـ.
ثم وصّى بالربوبية الصغرى بعد الكبرى ، فقال :

(٣٣٢/٥)

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ١٥ الى ١٦]
وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (١٦)
يقول الحق جل جلاله : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بأن يحسن بِوالِدَيْهِ حُسْناً»
وقرأ أهل الكوفة إِحْساناً وهما مصدران ، وقرىء : «حسنا» بفتح الحاء والسين ، أي : يفعل بهما فعلا حسنا ، أو : وصينا إيصاء حسنا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً أي : حملته بكره ومشقة ، ووضعته كذلك ، وذكره للحث على الإحسان والبرور بها ، فإن الإحسان إليها أوجب ، وأحق من الأب.

ونصبهما على الحال ، أي : حملته كارهة ، أو : ذات كره ، وفيه لغتان الفتح والضم ، وقيل : بالفتح مصدر ، وبالضم اسمه. وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ أي : ومدة حمله وفصاله ، وهو الفطام. وقرأ يعقوب : «وفصله» وهما لغتان كالفطم والفطام ، ثَلاثُونَ شَهْراً لأن فى هذه المدة عظّم مشقة التربية ، وفيه دليل على أن أقل مدة ستة أشهر لأنه إذ حط منه للفطام حولان ، لقوله تعالى : حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ «٢» يبقى للحمل ستة ، قيل : ولعل تعيين أقل مدة الحمل ، وأكثر مدة الرّضاع لانضباطهما ، وارتباط النّسب والرّضاع بهما.

حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ أي : اكتهل ، واستحكم عقله وقوته ، وانتهت قامته وشبابه ، وهى ما بين ثمانى عشرة سنة إلى أربعين ، وقال زيد بن أسلم : الحلم ، وقال قتادة : ستة وثلاثون سنة ، وهو الرّاجح ، وقال الحسن : قيام الحجة عليه. وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وهو نهاية الأشدّ ، وتمام العقل ، وكمال الاستواء. قيل : لم يبعث نبىّ إلا بعد الأربعين ، قال ابن عطية : وإنما ذكر - تعالى - الأربعين ، لأنها حدّ الإنسان فى فلاحه ونجاته ، وفى الحديث. «إن الشيطان يمدّ يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب ، فيقول : بأبى وجه لا يفلح» «٣». هـ. ومن حديث أنس قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من بلغ أربعين سنة أمّنه اللّه من البلايا الثلاث الجنون والجذام

---

(١) أثبت المفسر - رحمه اللّه - قراءة «حسنا» بضم الحاء وسكون السين ، بلا همز ولا ألف ، مفعولا به ، وهى قراءة ابن كثير ، ونافع ، وأبى عمرو ، وابن عامر. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف «إحسانا» على أنها مصدر. انظر السبعة/ ٥٩٦ والإتحاف ٢/ ٤٧٠.

(٢) من الآية ٢٣٣ من سورة البقرة. [.....]

(٣) ذكره ابن عطية ، (١٣/ ٣٤٨) وأبو حيان فى البحر المحيط (٨/ ٦١) بلفظ : «ان الشيطان يجر يده ..». ولم أقف على هذا الحديث عند غيرهما.

والبرص ، فإذا بلغ الخمسين خفف اللّه عنه الحساب ، فإذا بلغ ستين سنة رزقه اللّه الإنابة كما يحب ، فإذا بلغ سبعين سنة غفر اللّه ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفع فى أهل بيته ، وناداه مناد من السماء : هذا أسير اللّه فى أرضه».

وهذا فى العبد المقبل على اللّه. واللّه تعالى أعلم. وقرئ : «حتى إذا استوى وبلغ أشدّه».

قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أي : ألهمنى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ من الهداية والتوحيد ، والاستقامة على

الدين ، وَعَلى والِدَيَّ كذلك ، وجمع بين شكر النّعمة عليه وعلى والديه لأن النّعمة عليهما نعمة عليه ، وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ ، التنكير للتفخيم والتكثير ، قيل : هو الصلوات الخمس ، والعموم أحسن ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي أي : واجعل الصلاح ساريا فى ذريتى راسخا فيهم ، أو : اجعل ذريتى موقعا للصلاح دائما فيهم ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ من كلّ ذنب ، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ الذين أخلصوا لك أنفسهم ، وانقادوا إليك بكليتهم. «١»

قال عليّ رضي اللّه عنه : نزلت فى أبى بكر - رضي اللّه عنه ، ولم تجتمع لأحد من أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه وسلم من المهاجرين من أسلم أبواه غيره ، وأوصاه اللّه بهما. هـ. فاجتمع لأبى بكر إسلام أبى قحافة وأمه «أم الخير» وأولاده ، عبد الرّحمن ، وابنه عتيق ، فاستجاب اللّه دعاءه فى نفسه وفى ذريته ، فإنه آمن بالنبي صلّى اللّه عليه وسلم وهو ابن ثمان وثلاثين سنة ، ودعا لهم وهو ابن أربعين سنة. قال ابن عباس : أعتق أبو بكر تسعة من المؤمنين ، منهم : بلال ، وعامر بن فهيرة ، ولم يرد شيئا من الخير إلا أعانه اللّه عليه. «٢» هـ.

قال ابن عطية : معنى الآية : هكذا ينبغى للإنسان أن يكون ، فهى وصية اللّه - تعالى - للإنسان فى كلّ الشرائع ، وقول من قال : إنها فى أبى بكر وأبويه ضعيف ، لأن هذه نزلت فى مكة بلا خلاف ، وأبو قحافة أسلم يوم الفتح. هـ. قلت : كثيرا ما يقع فى التنزيل تنزيل المستقبل منزلة الماضي ، فيخبر عنه كأنه واقع ، ومنه : وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ «٣» ووَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ «٤» ، وهذه الآية فى إسلام أبى قحافة.

واللّه تعالى أعلم.

أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا «٥» من الطاعات ، فإن المباح لا يثاب عليه إلا بنية صالحة ، فإنه ينقلب حينئذ طاعة ، وضمّن «يتقبل» معنى يتجاوز ، فعدّاه بعن إذ لا عمل يستوجب القبول ، لو لا عفو

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٦٢٠١).

(٢) انظر تفسير البغوي (٧/ ٢٥٨) وزاد المسير (٧/ ٣٧٨).

(٣) الآية ١٠ من سورة الأحقاف.

(٤) الآيتان ٦ - ٧ من سورة فصلت.

(٥) قرأة حمزة والكسائي وحفص (نتقبل ، ونتجاوز) بالنون المفتوحة و«أحسن» بالنصب ، وقرأ الباقون (يتقبل - يتجاوز) بالياء المضمومة ، ورفع «أحسن» .. انظر الإتحاف (٢/ ٤٧١).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٣٥
اللّه وتجاوزه عن عامله ، إذ لا يخلو عمل من خلل أو نقص ، فإذا تجاوز الحق عن عبده قبله منه على نقصه ، فلو لا حلمه - تعالى - ورأفته ما كان عمل أهلا للقبول. وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فيغفرها لهم ، فِي جملة أَصْحابِ الْجَنَّةِ ، كقولك : أكرمنى الأمير فى ناس من أصحابه ، أي : أكرمنى فى جملة من أكرمهم ، ونظمنى فى سلكهم ، ومحله : نصب على الحال ، أي : كائنين فى أصحاب الجنة ، ومعدودين فيهم ، وَعْدَ الصِّدْقِ أي :

وعدهم وعدا صدقا ، فهو مصدر مؤكد ، لأن قوله : نَتَقَبَّلُ ونَتَجاوَزُ وعد من اللّه - تعالى لهم بالتقبل والتجاوز ، الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ فى الدنيا على ألسنة الرّسل - عليهم السّلام.

الإشارة : لمّا كانت تربية الأبوين مظهرا لنعمة الإمداد بعد ظهور نعمة الإيجاد ، وصىّ اللّه - تعالى - بالإحسان إليهما ، وفى الحقيقة : ما ثمّ إلا تربية الحق ، ظهرت فى تجلى الوالدين ، قذف الرّأفة فى قلوبهما ، حتى قاما بتربية الولد ، فالإحسان إليها إحسان إلى اللّه - تعالى - فى الحقيقة. وقال الورتجبي : وصى الإنسان بالإحسان إلى أبويه ، لأنهما أسباب وجوده ، ومصادر أفعال الحق بدا منهما بدائع قدرته ، وأنوار ربوبيته ، فحرمتهما حرمة الأصل ، ومن صبر فى طاعتهما رزقه اللّه حسن المعاشرة على بساط حرمته وقربته.

قال بعضهم : أوصى اللّه العوام ببر الوالدين لما لهما عليه من نعمة التربية والحفظ ، فمن حفظ وصية اللّه فى الأبوين ، وفّقه بركة ذلك ، لحفظ حرمات اللّه ، وكذلك رعاية الأوامر والمحافظة عليها توصل بركتها بصاحبها إلى محل الرّضا والأنس. هـ.

قال القشيري : وشر خصال الولد : التبرم بطول حياتهما ، والتأذى بما يجب من حقهما ، وعن قريب يموت الأصل ، وقد يبقى النّسل ، ولا بد أن يتبع الأصل. هـ. أي : فيعق إن عق أصله ، ويبر إن بر ، وفى الحديث : «برّوا آباءكم تبرّكم أبناؤكم» «١». ثم قال : ولقد قالوا فى هذا المعنى وأنشدوا :

رويدك إنّ الدّهر فيه كفاية لتفريق ذات البين فارتقب الدّهرا «٢». هـ.

قلت : وقد تقدم أن حرمة الشيخ أوكد من حرمة الوالدين ، فيقدم أمره على أمرهما ، كما تقدم عن الجنيد فى سورة النّساء «٣». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) رواه الطبراني فى الأوسط (ح/ ١٠٠٢) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه. قال الهيثمي فى مجمع الزوائد (٨/ ١٣٨) : ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني.

(٢) منسوب إلى أبى على الثقفي ، كما فى طبقات السلمى/ ٣٦٤ وطبقات الشافعية الكبرى (٣/ ١٩٥) ، ونسب إلى عبيد اللّه بن عبد اللّه طاهر ، فى زهر الآداب (٢/ ٦٠٤) وأمالى المرتضى (١/ ١١٩).

(٣) راجع إشارة الآية ٣٦ من سورة النّساء.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٣٦

ثم ذكر وبال عقوقهما ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ١٧ الى ١٩]

وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٩)

قلت : وَالَّذِي قالَ : مبتدأ ، وخبره : أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ، والمراد ب «الذي قال» الجنس ، ولذلك جمع الخبر.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ عند دعوتهما إلى الإيمان : أُفٍّ لَكُما ، وهو صوت يصدر عن المرء عند تضجره وقنطه ، واللام لبيان المؤفف ، كما فى «هيت لك» وفيه أربعون لغة ، مبسوطة فى محلها ، أي : هذا التأفيف لكما خاصة ، أو لأجلكما دون غيركما.

وعن الحسن : نزلت فى الكافر العاقّ لوالديه ، المكذّب بالبعث ، وقيل : نزلت فى عبد الرّحمن بن أبى بكر رضي اللّه عنه ، قبل إسلامه. وأنكرت عائشة - رضي اللّه عنها - ذلك ، وقالت : واللّه ما نزال فى آل أبى بكر شيئا من القرآن ، سوى براءتي «١» ، ويبطل ذلك «٢» قطعا : قوله تعالى : أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ، لأنّ عبد الرّحمن بن أبى بكر أسلم ، وكان من فضلاء الصحابة ، وحضر فتوح الشام ، وكان له هناك غناء عظيم ، وكان يسرد الصيام. قال السدى :

ما رأيت أعبد منه. هـ. وقال ابن عباس : نزلت فى ابن لأبى بكر ، ولم يسمه ، ويرده ما تقدم عن عائشة ، ويدل على العموم : قوله تعالى : أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ، ولو أراد واحدا لقال : حق عليه القول.

ثم قال لهما : أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ أي : أبعث وأخرج من الأرض ، وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ولم يبعث أحد منهم ، وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ ، يسألانه أن يغيثه ويوفقه للإيمان ، أو يقولان : الغياث باللّه منك ، ومن قولك ، وهو استعظام لقوله ، ويقولان له : وَيْلَكَ دعاء عليه بالثبور والهلاك ، والمراد به : الحث والتحريض

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري فى (التفسير - سورة الأحقاف ، باب وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما .. ح

.(٤٨٢٧

(٢) أي : القول بأن الآية نزلت فى سيدنا عبد الرّحمن بن أبى بكر رضي اللّه عنه.

(٣٣٦/٥)

على الإيمان ، لا حقيقة الهلاك ، آمِنْ باللّه وبالبعث إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بالبعث والحساب حَقٌّ لا مرية فيه ، وأضاف الوعد إليه - تعالى - تحقيقا للحق ، وتنبيها على خطئه ، فَيَقُولُ مكذّبا لهما : ما هذا الذي تسميانه وعد اللّه إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، أباطيلهم التي سطروها فى كتبهم ، من غير أن يكون له حقيقة.

أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ، وهو قوله تعالى لإبليس : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ «١» كما ينبئ عنه قوله تعالى - : فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أي : فى جملة أمم قد مضت ، إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ حيث ضيّعوا فطرتهم الأصلية ، الجارية مجرى رؤوس أموالهم ، باتباعهم الشيطان ، وتقليدا بآبائهم الضالين.

وَلِكُلٍّ من الفريقين المذكورين ، الأبرار والفجار ، دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا أي : منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر ، ويقال فى جانب الجنة : درجات ، وفى جانب النّار : دركات ، فغلب هنا جانب الخير.

قال الطيبي : ولكلّ من الجنسين المذكورين درجات ، والظاهر أن أحد الجنسين ما دلّ عليه قوله : إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا «٢» ، والآخر قوله : وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما ، ثم غلب الدرجات على الدركات ، لأنه لمّا ذكر الفريق الأول ، ووصفهم بثبات فى القول ، واستقامة فى الفعل ، وعقّب ذلك بذكر فريق الكافرين ، ووصفهم بعقوق الوالدين ، وبإنكارهم البعث ، وجعل العقوق أصلا فى الاعتبار ، وكرر فى القسم الأول الجزاء ، وهو ذكر الجنة مرارا ثلاثا ، وأفرد ذكر النّار ، وأخّره ، وذكر ما يجمعهما ، وهو قوله : وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ غلّب الدرجات على الدركات لذلك ، وفيه ألا شىء أعظم من التوحيد والثبات عليه ، وبر الوالدين والإحسان إليهما ، ولا شيء أفحش من عقوق الوالدين ، وإنكار الحشر ، وفى إيقاع إنكار الحشر مقابلا لإثبات التوحيد الدلالة على أن المنكر معطل مبطل لحكمة اللّه فى إيجاد العالم. هـ.

وَلِيُوَفِّيَهُمْ «٣» أَعْمالَهُمْ ، وقرأ المكي والبصري بالغيب ، أي : وليوفيهم اللّه جزاء أعمالهم ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ بنقص ثواب الأولين ، وزيادة عقاب الآخرين ، واللام متعلقة بمحذوف ، أي : وليوفيهم أعمالهم ، ولا يظلمهم حقوقهم ، فعل ما فعل من ترتيب الدرجات أو الدركات.

---

(١) الآية ١٨ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١٣ من السورة نفسها.

(٣) أثبت المفسر – رحمه اللّه – قراءة «ولنوفيهم» بنون العظمة ، وهى قراءة نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم : «وليوفيهم» بالياء. انظر : السبعة لابن مجاهد/ ٥٩٨. [.....]

(٣٣٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٣٨

الإشارة : عقوق الأساتيذ «١» أقبح من عقوق الوالدين ، كما أن برهما أوكد لأن الشيخ أخرجك من ظلمة الجهل إلى نور المعرفة باللّه ، والوالدان أخرجاك إلى دار التعب ، معرض لأمرين ، إما السلامة أو العطب ، والمراد بالشيخ هنا شيخ التربية ، لا شيخ التعليم ، فلا يقدّم حقه على حق الوالدين ، هذا ومن يسّر اللّه عليه الجمع بين بر الوالدين والشيخ فهو كمال الكمال. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر جزاء العاقّ المنكر للبعث ، فقال.

[سورة الأحقاف (٤٦) : آية ٢٠]

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)

قلت : «ويوم» : منصوب بقول مقدّر قبل «أذهبتم» أي : يقال لهم : أذهبتم طيباتكم يوم عرضكم ، أو بالذكر ، وهو أحسن.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أي : يعذّبون بها ، من قولهم : عرض بنو فلان على السيف ، إذا قتلوا به ، وقيل : المراد : عرض النّار عليهم ، من قولهم : عرضت النّاقة على الحوض ، يريدون : عرض الحوض عليها ، فقلبوا. وإذا عرضوا عليها يقال لهم : أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ أي :

أخذتم ما كتب لكم من حظوظ الدنيا ولذائذها فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا فقد قدمتم حظكم من النّعيم فى الدر الفانية.

قال ابن عرفة : قيل : المراد بالطيبات المستلذات ، والظاهر : أن المراد أسباب المستلذات ، أي : الأسباب التي تتوصلون بها إلى نيل المستلذات فى الدر الآخرة ، إذ نسيتموها فى الدنيا ، أي : تركتموها ولم تفعلوها. هـ. قلت :

يبعده قوله : وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها أي : فلم يبق ذلك لكم شيئا منها ، بل قدمتم جنتكم فى دنياكم.

وعن عمر – رضي اللّه عنه : لو شئت كنت أطيبكم طعاما ، وألينكم لباسا ، ولكنى أستبقى طيباتى.
ولما قدم الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله ، قال : هذا لنا ، فما للفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ قال خالد :
لهم الجنة ، فاغرورقت عينا عمر وبكى ، وقال : لئن كان حظنا من الحطام ، وذهبوا بالجنة ، لقد باينونا بونا بعيدا «٢».

---

(١) أساتيذ جمع أستاذ. ويجمع أيضا على أساتذة وأستاذين ، وهو فارسى معرّب ، والأستاذ : المعلم والمقرئ والعالم ، وأستاذ الصناعة :
رئيسها. انظر محيط المحيط (ص ٩ ، مادة الأستاذ).
(٢) انظر هذه الأخبار وغيرها فى كتاب «مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» لابن الجوزي/ ١٥٣ - ١٦٧.

(٣٣٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٣٩
وقال أبو هريرة رضي اللّه عنه : إنما كان طعامنا مع النّبى صلّى اللّه عليه وسلم الماء والتمر ، واللّه ما كان نرى سمراءكم هذه ، وقال أبو موسى : ما كان لباسنا مع النّبى صلّى اللّه عليه وسلم إلا الصوف.
وروى : أن النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم دخل على أهل الصّفة ، وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ، ما يجدون لها رقاعا ، فقال : «أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم فى حلة ، ويروح فى أخرى ، ويغدا عليه بجفنة «١» ويراح بأخرى ، ويستر بيته كما تستر الكعبة»؟ قالوا : نحن يومئذ خير ، فقال لهم : «بل أنتم اليوم خير» «٢».
وقال عمرو بن العاص «٣» : كنت أتغدى عند عمر الخبز والزيت ، والخبز والخل ، والخبز واللبن ، والخبز والقديد ، وأجلّ ذلك اللحم الغريض «٤» ، وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق ، فإنه كله طعام ، ثم قال عمر رضي اللّه عنه : واللّه الذي لا إله إلا هو ، لو لا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركتهم فى العيش! ولكنى سمعت اللّه يقول لقوم : أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها. هـ «٥».
فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ أي : الهوان ، وقرىء به ، بِما كُنْتُمْ فى الدنيا تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، بغير استحقاق لذلك ، وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ، وتخرجون عن طاعة اللّه عز وجل ، أي : بسبب استكباركم وفسقكم.

الإشارة : مازالت الأكابر من الأولياء تتنكب الحظوظ والشهوات ، مجاهدة لنفوسهم ، وتصفية لقلوبهم ، فإنّ تتبع الشهوات يقسى القلب ، ويكسف نور العقل ، كما قال الشاعر :

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصى الهوى يزداد تنويرا.

هذا فى حال سيرهم ، فإذا تحقق وصولهم فلا كلام عليهم لأنهم يأخذون من اللّه ، ويتصرفون به فى أمورهم كلها ، فلا حرج عليهم فى نيل ما أنعم اللّه به عليهم ، حيث أمنوا ضرره ، ومن ذلك : ما روى عن إبراهيم بن أدهم ،

---

(١) الجفنة : قصعة الطعام ، والجمع جفان وجفنات.

(٢) عزاه فى كنز العمال (ح ٦٢٢٧) لهناد وأبى نعيم فى الحلية عن الحسن مرسلا. كما ذكره بنحوه (ح ٦٢٢٦) وعزاه للطبرانى والبيهقي ، عن عبد اللّه بن يزيد الخطمي.

(٣) فى القرطبي : حفص بن أبى العاص.

(٤) الغريض : الطري. انظر اللسان (غرض ، ٥/ ٣٢٤١).

(٥) ذكره بأطول من هنا : القرطبي فى تفسيره (٧/ ٦٢٠٨) ثم قال : «والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد ، طيبا كان أو قفارا ، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ، وقد كان النّبى صلّى اللّه عليه وسلم يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر له ، ولا يعتمده أصلا ، ولا يجعله دينا ، ومعيشة النّبى صلّى اللّه عليه وسلم وسلم معلومة ...» انظر بقيته.

أنه أصلح ذات يوم طعاما كثيرا ، ودعا نفرا يسيرا ، منهم الأوزاعى والثوري ، فقال له الثوري : أما تخاف أن يكون هذا إسرافا؟ فقال : ليس فى الطعام إسراف ، إنما الإسراف فى الثياب والأثاث ، ودفع أيضا إلى بعض إخوانه دراهم ، فقال : خذ لنا بهذه زبدا وعسلا وخبزا حوارى «١» ، فقال : يا أبا إسحاق : هذا كله؟ قال : ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرّجال ، وإن معروفا الكرخي كأن يهدى له طيبات الطعام ، فيأكل ، فيقال له : إن أخاك بشرا كان لا يأكل من هذا ، فيقول : أخى بشر قبضه الورع ، وأنا بسطتنى المعرفة ، وإنما أنا ضيف فى دار مولاى ، إذا أطعمنى أكلت ، وإذا جوّعنى صبرت ، مالى وللاعتراض والتمييز. هـ.

والحاصل : أن النّاس أقسام ثلاثة : عوام ، لا همة لهم فى السير ، وإنما قنعوا أن يكونوا من عامة أهل

اليمين.

فهؤلاء يأخذون كلّ ما أباحته الشريعة ، إذ لا سير لهم حتى يخافوا من تخلفهم ، وخواص ، نهضت همتهم إلى اللّه ، وراموا الوصول إليه ، وهم فى السير لم يتحقق وصولهم ، أو من العبّاد والزهاد ، يخافون إن تناولوا المستلذات تفترّت عزائمهم ، فهؤلاء يتأكد فى حقهم ترك الحظوظ والشهوات ، والقسم الثالث : خواص الخواص ، قد تحقق وصولهم ، ورسخت أقدامهم فى المعرفة ، فهؤلاء لا كلام معهم ، ولا ميزان عليهم.

قال فى الإحياء ، بعد كلام : وأكل الشهوات لا يسلّم إلا لمن نظر من مشكاة الولاية والنّبوة ، فيكون بينه وبين اللّه علامة فى استرساله وانقباضه ، ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النّفس من طاعه الهوى والعادة بالكلية ، حتى يكون أكله إذا أكل بنية ، كما يكون إمساكه بنية ، فيكون عاملا له فى إفطاره وإمساكه. ثم قال : وينبغي أن يتعلم الحزم من عمر ، فإنه كان يرى النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلم يحب العسل ويأكله ، ثم لم يقس نفسه عليه ، بل لمّا عرض عليه ماء مبّرد بالعسل جعل يدير الإناء فى كفه ، ويقول : أشربها فتذهب حلاوتها وتبقى تباعتها ، اعزلوا عنى حسابها ، وتركها ، رضي اللّه عنه «٢».

ثم ذكر وبال من تمتع بدنياه ، وأعرض عن أخراه ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٢١ الى ٢٥]

وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاَّ مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)

---

(١) الحوارى هو الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه. انظر اللسان (حور ٢/ ١٠٤٤).

(٢) ذكره بنحوه ابن الجوزي فى مناقب أمير المؤمنين (ص ١٦٤) عن ثابت.

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ أَخا عادٍ وهو هود عليه السّلام إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ : بدل اشتمال أي : وقت إنذاره قومه بِالْأَحْقافِ : جمع حقّف ، وهو رمل مستطيل فيه انحناء ، من : احقوقف الشيء إذا اعوجّ ،

وكان عاد أصحاب عمد ، يسكنون بين رمال مشرفة على البحر ، بأرض يقال لها : «الشّحر» بأرض اليمن. وعن ابن عباس :

الأحقاف : وادّ بين عمان ومهرة ، وقال مقاتل : كانت منازل عاد باليمن ، فى حضرموت ، بموضع يقال له : مهرة ، وإليه تنسب الإبل المهرية ، ويقال لها : المهارى ، وكانوا أهل عمد سيارة فى الرّبيع ، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وكانوا من قبيلة إرم «١» ، والمشهور : أن الأحقاف اسم جبل ذا رمل مستطيل ، كانت منازل عاد حوله.

وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ : جمع نذير ، بمعنى المنذر ، أي : مضت الرّسل ، مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أي : من قبل هود ومن بعده ، وقوله : وَقَدْ خَلَتِ .. إلخ : جملة معترضة بين إنذار قومه وبين قوله : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ مؤكدة لوجوب العمل بموجب الإنذار ، وإيذانا باشتراكهم فى العبادة المذكورة ، والمعنى : واذكر لقومك إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم ، وقد أنذر من تقدمه من الرّسل ، ومن تأخر عنه قومهم قبل ذلك. إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ إن عصيتمونى عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ يوم القيامة.

قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا لتصرفنا عَنْ آلِهَتِنا ، عن عبادتها ، فَأْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب العظيم إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى وعدك بنزوله بنا ، قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ بوقت نزوله ، أو بجميع الأشياء التي من جملتها ذلك ، عِنْدَ اللَّهِ وحده ، لا علم لى بوقت نزوله ، ولا دخل لى فى إتيانه وحلوله ، وإنما علم ذلك عند اللّه ، فيأتيكم به فى وقته المقدّر له. وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ من التخويف والإنذار من غير وقف على تعيين وقت نزول العذاب ، وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ حيث تقترحون علىّ ما ليس من وظائف الرّسل ، من الإتيان بالعذاب وتعيين وقته.

---

(١) انظر تفسير البغوي ٧/ ٢٦٢.

(٣٤١/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٤٢

روى : أنهم قحطوا سنين ، ففزعوا إلى الكعبة ، وقد كانت بنتها العمالقة ، ثم خربت ، فطافوا بها ، واستغاثوا ، فعرضت لهم ثلاث سحابات سوداء وحمراء وبيضاء ، وقيل لهم : اختاروا واحدة ، فاختاروا السوداء ، فمرت إلى بلادهم ، فلما رأوها مستقبلة أوديتهم ، فرحوا واستبشروا ، وهذا معنى قوله ، تعالى : فَلَمَّا رَأَوْهُ أي : العذاب الذي استعجلوه بقولهم : فَأْتِنا بِما تَعِدُنا ، وقيل : الضمير مبهم ، يفسره قوله : عارِضاً على أنه تمييز ، أي : رأوا عارضا ، والعارض : السحاب ، سمى به لأنه يعرض السحاب فى أفق السماء. قال المفسرون : ساق اللّه السحابة السوداء التي اختاروها بما فيها من النّقمة ،

فخرجت عليهم من واد يقال له : «مغيث» ، فلما رأوها مستقبلة أوديتهم ، أي : متوجهة إليها ، فرحوا ، وقالوا : هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا أي : ممطر إيانا ، لأنه صفة النّكرة ، فيقدر انفصاله.

قال اللّه تعالى : بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ من العذاب ، وقيل : القائل هود عليه السّلام ، رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ ، فجعلت تحمل الفساطيط ، وتحمل الظعينة فترفعها فى الجو ، فترى كأنها جرادة.

قال ابن عباس : لما دنا العارض ، قاموا فنظروا ، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من ديارهم من حالهم ومواشيهم ، تطير بهم الرّيح بين السماء والأرض ، مثل الرّيش ، فدخلوا بيوتهم ، وأغلقوا أبوابهم ، فألقت الرّيح أبوابهم ، وصرعتهم ، وأمر اللّه تعالى الرّيح فأمالت عليهم الرّمال ، فكانوا تحت الرّمل سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، لهم أنين ، ثم أمر اللّه تعالى الرّيح ، فكشفت عنهم الرّمال ، فاحتملتهم ، فرمت منهم فى البحر ، وشدخت الباقي بالحجارة «١».

وقيل : أول من أبصر العذاب امرأة منهم ، قالت : رأيت ريحا فيها كشهب النّار ، وهو معنى قوله : تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ أي : تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير ، فعبّر عن الكثرة بالكلية. بِأَمْرِ رَبِّها أي : رب الرّيح ، وفى ذكر الأمر والرّب ، والإضافة إلى الرّيح ، من الدلالة على عظيم شأنه - تعالى - ما لا يخفى ، فَأَصْبَحُوا لا يُرى «٢» إِلَّا مَساكِنُهُمْ أي : فجاءت الرّيح فدمرتهم ، فصاروا بحيث لا يرى شيء إلا مساكنهم خاوية ، ومن قرأ بتاء الخطاب ، فهو لكلّ من يتأتى منه الرّؤية ، تنبيها على أن حالهم صار بحيث لو نظر كلّ أحد بلادهم لا يرى فيها إلا مساكنهم.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ٢٦٣).

(٢) قرأ عاصم وحمزة ويعقوب «يرى» بضم الياء ، و«مساكنهم» برفع النّون ، نائب فاعل ، وقرأ الباقون «ترى» بالتاء وفتحها ، و«مساكنهم» بالنصب ، مفعولا به. انظر الإتحاف (٢/ ٤٧٢ - ٤٧٣).

(٣٤٢/٥)

كَذلِكَ أي : مثل ذلك الجزاء الفظيع نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ وننجى المؤمنين. روى أن هود عليه السّلام ومن معه من المؤمنين فى حظيرته ، ما يصيبهم من الرّيح إلا ماتلين على الجلود ، وتلذه الأنفس ، وإنها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة. سبحان الحكيم القدير ، اللطيف الخبير.

الإشارة : إنما جاءت النّذر من عهد آدم عليه السّلام إلى قيام الساعة ، تأمر بعبادة اللّه ، ورفض كلّ ما

سواه ، فمن تمسك بذلك نجى ، ومن عبد غير اللّه ، أو مال إلى سواه ، عاجلته العقوبة فى الظاهر أو الباطن. واللّه تعالى أعلم.

ثم خوّف هذه الأمة بما جرى على عاد ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٢٦ الى ٢٨]

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

قلت : فِيما : موصولة ، أو موصوفة ، ومفعول اتَّخَذُوا الأول : محذوف ، وآلِهَةً : مفعول ثان ، أي : اتخذوهم آلهة ، وقُرْباناً : حال ، ولا يصح أن يكون مفعولا ثانيا ل «اتخذوا» ، و«آلهة» : بدل ، لفساد المعنى ، وأجازه ابن عطية ، ووجه فساده : أن اتخاذهم آلهة مناف لاتخاذهم قربانا لأن القربان مقصود لغيره ، والآلهة مقصودة بنفسها ، فتأمله ، و«إن» نافية ، والأصل : فيما ما مكنكم فيه ، ولمّا كان التكرار مستثقلا جىء بأن ، كما قالوا فى مهما ، والأصل : ما ما ، فلبشاعة التكرار قلبوا الألف هاء ، وقيل : «إن» صلة ، أي : فى مثل ما مكنكم فيه ، والأول أحسن.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ أي : قررنا عاد ومكناهم فى التصرف فِيما أي : فى الذي ، أو فى شىء ما مَكَّنَّاكُمْ يا معشر قريش فِيهِ من السعة والبسطة ، وطول الأعمار ، وسائر مبادئ التصرفات ، فما أغنى عنهم شىء من ذلك ، حين نزل بهم الهلاك ، وهذا كقوله تعالى : كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ، «١» أو : ولقد مكنهم فى مثل ما مكنكم فيه ، فما جرى عليهم يجرى

---

(١) من الآية ٦ من سورة الأنعام.

عليكم ، حيث خالفتم نبيكم ، والأول أوفق بقوله : كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ «١» وقوله : هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً «٢».

وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً أي : آلات الإدراك والفهم ، ليعرفوا بكلّ واحدة منها ما خلقت له ، وما نيطت به معرفته ، من فنون النّعم ، ويستدلوا بها شئون منعمها ، ويداوموا على شكرها ، ويوحدوا

خالقها ، فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ حيث لم يستعملوه فى استماع الوحى ومواعظ الرّسل ، وَلا أَبْصارُهُمْ حيث لم يبصروا ما نصب من الآيات الدالة على وحدانيته - تعالى - ووجوب وجوده ، وَلا أَفْئِدَتُهُمْ حيث لم يتفكروا بها فى عظمة اللّه - تعالى - وأسباب معرفته ، فما أغنت عنهم مِنْ شَيْءٍ أي : شيئا من الإغناء. ومِنْ : زائدة للتأكيد ، وقوله : إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ : ظرف لقوله : فَما أَغْنى جار مجرى التعليل ، لاستواء مؤدّى التعليل والظرف فى قولك : ضربته إذ أساء ، أو : لإساءته ، لأنك إذا ضربته وقت إساءته فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه ، وكذلك الحال فى «حيث» دون سائر الظروف غالبا ، أي : فما أغنت عنهم آلات الإدراك لأجل جحودهم بآيات اللّه. وَحاقَ أي : نزل بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء ، ويقولون : فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى يا أهل مكة ، كحجر ثمود ، وقرى لوط ، والمراد : أهل القرى ، ولذلك قال : وَصَرَّفْنَا الْآياتِ ، كرّرناه ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أي : كرّرنا عليهم الحجج وأنواع العبر لعلهم يرجعون من الطغيان إلى الإيمان ، فلم يرجعوا ، فأنزلنا عليهم العذاب.

فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً أي : فهلا منعهم وخلصهم من العذاب الأصنام الذين اتخذوهم آلهة من دون اللّه ، حال كونها متقربا بها إلى اللّه ، حيث كانوا يقولون : ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى «٣» ، وهؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ «٤» بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ أي : غابوا عن نصرتهم ، وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ ، الإشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم وضلالهم ، أي : وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذها آلهة ، وثمرة شركهم ، وافترائهم على اللّه الكذب.

---

(١) الآية ٢١ من سورة غافر. [.....]

(٢) من الآية ٧٤ من سورة مريم.

(٣) من الآية ٣ من سورة الزمر.

(٤) من الآية ١٨ من سورة يونس.

وقرأ ابن عباس وابن الزبير : إِفْكُهُمْ «١» أي : صرفهم عن التوحيد. وقرئ : بتشديد الفاء ، للتكثير «٢».

الإشارة : التمكن من كثرة الحس لا يزيد إلا ضعفا فى المعنى ، وبعدا من الحق ، ولذلك يقول الصوفية

: كل ما زاد فى الحس نقص فى المعنى ، وكلّ ما نقص من الحس زاد فى المعنى ، والمراد بالمعنى : كشف أسرار الذات وأنوار الصفات ، وما مكّن اللّه - تعالى - عبده من الحواس الخمس إلا ليستعملها فيما يقربه إليه ، ويوصله إلى معرفته ، فإذا صرفها فى غير ذلك ، عوقب عليها. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر حال من أغنى عنه سمعه ونفعه ، حيث استعمله فيما وصله إلى ربه ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٢٩ الى ٣٢]

وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٢)

قلت : «النفر» بالفتح : الجماعة من ثلاثة إلى عشرة ، وقيل : إلى سبعة ، ولا يقال نفر فيما زاد على عشرة ، والرّهط والقوم والعشيرة والمعشر معناهم الجمع ، ولا واحد لهم من لفظه ، وهو للرجال دون النّساء. قاله فى المصباح. ومِنَ الْجِنِّ : نعت للنفر ، وكذا يَسْتَمِعُونَ.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ أي : أملناهم إليك ، وأقبلنا بهم نحوك ، وهم جن نصيبين ، أو جن نينوى ، قال فى القاموس : «نينوى» بكسر أوله ، موضع بالكوفة ، وقرية بالموصل

---

(١) انظر مختصر ابن خالويه (ص ١٤٠) والبحر المحيط (٨/ ٦٦).

(٢) «أفكهم» وبذلك قرأ أبو عياض ، كما فى مختصر ابن خالويه/ ١٤٠ والمحتسب (٢/ ٢٦٧)

وزاد فى البحر المحيط (٨/ ٦٦) :

وعكرمة.

ليونس عليه السّلام. هـ. يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ

منه عليه السّلام فَلَمَّا حَضَرُوهُ أي : الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، أو القرآن ، أي : كانوا منه حيث يسمعونه ، قالُوا أي : قال بعضهم لبعض : أَنْصِتُوا اسكتوا مستمعين ، فَلَمَّا قُضِيَ ، تمّ وفرغ من تلاوته

، وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ، مقدّرين إنذارهم عند رجوعهم إليهم.

روى : أن الجنّ كانت تسترق السمع ، فلما حرست السماء ، ورموا بالشهب ، قالوا : ما هذا إلا لأمر حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، لتعرفوا ما هذا ، فنهض سبعة أو تسعة من أشراف جن نصيبين أو نينوى ، منهم : «زوبعة» فمضوا نحو تهامة ، ثم انتهوا إلى وادي نخلة ، فوافقوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وهو قائم يصلى صلاة الفجر ، فاستمعوا القرآن ، وذلك عند منصرفه من الطائف ، حين ذهب يدعوهم إلى اللّه ، فكذّبوه ، وردوا عليه ، وأغروا به سفاءهم ، فمضى على وجهه ، حتى وصل إلى نخلة ، فصلى بها الغداة ، فوافاه نفر الجن يصلى ، فاستمعوا لقراءته ، ولم يشعر بهم ، فأخبره اللّه تعالى باستماعهم «١».

وقيل : أمره اللّه - تعالى - أن ينذر الجن ، ويقرأ عليهم ، فصرف اللّه إليه نفرا منهم ، وجمعهم له ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم :

إنى أمرت أن أقرأ على الجن ، فمن يتبعنى؟ قالها ثلاثا ، فأطرقوا إلا عبد اللّه مسعود ، قال : فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة ، فى شعب الحجون ، فخطّ خطا ، فقال : لا تخرج عنه حتى أعود إليك ، ثم افتتح القرآن ، وسمعت لغطا شديدا ، حتى خفت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فجعلت أرى أمثال النّسور تهوى وتمشى ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه ، حتى ما أسمع صوته ، ثم تتقطع كقطع؟؟؟ ، ففرغ صلّى اللّه عليه وسلم مع الفجر ، فقال : أنمت؟ فقلت : لا واللّه ، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك ، تقول : أجلسوا ، فقال : لو خرجت لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم ، ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «هل رأيت شيئا؟» قلت : نعم ، رجالا سودا ، فى ثياب بيض ، قال : «أولئك جن نصيبن» «٢» وكانوا اثنى عشر ألفا ، والسورة التي قرأ عليهم : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ.

فلمّا رجعوا إلى قومهم قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى ، قيل : قالوا ذلك لأنهم كانوا على اليهودية ، وعن ابن عباس : إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السّلام وهو بعيد. حال كون الكتاب مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ من العقائد الصحيحة ، أو إلى اللّه ، وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يوصل إلى اللّه ، وهو الشرائع والأعمال الصالحة.

---

(١) أخرجه بمعناه البخاري فى (الأذان ، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر ح ٧٧٣) وكذا أخرجه فى (التفسير ، سورة الجن) من حديث عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنه.

(٢) انظر تفسير البغوي ٧/ ٢٦٧.

يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وهو محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وَآمِنُوا بِهِ أي : بالرسول أو القرآن. وصفوه بالدعوة إلى اللّه - تعالى - بعد ما وصفوه بالهداية إلى الحق والطريق المستقيم لتلازمهما ، دعوهم إلى ذلك بعد بيان حقيقته واستقامته ، ترغيبا فى الإجابة ، ثم أكدوه بقولهم : يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ أي : بعض ذنوبكم ، وهو ما كان فى حق خالص للّه - تعالى - فإنّ حقوق العباد لا تغفر بالإيمان ، وقيل : تغفر. وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ موجع.

واختلف فى مؤمنى الجن ، هل يثابون على الطاعة ، ويدخلون الجنة ، أو يجارون من النّار فقط؟ قال الفخر :

والصحيح أنهم فى حكم بنى آدم ، يستحقون الثواب على الطاعة ، والعقاب على المعصية ، وهو قول مالك ، وابن أبى ليلى ، وقال الضحاك : يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون. هـ. ويؤيده قوله تعالى : وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا كما تقدم فى الأنعام «١».

وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ أي : لا ينجى منه مهرب ، وإظهار «داعى اللّه» من غير اكتفاء بضميره ، للمبالغة فى الإيجاب ، بزيادة المهابة والتقرير وتربيته ، وإدخال الرّوعة. وتقييد الإعجاز بكونه فى الأرض لتوسيع الدائرة ، أي : فليس بمعجز له - تعالى - وإن هرب فى أقطار الأرض ودخل فى أعماقها.

وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ ينصرونه من عذاب اللّه ، وهو بيان لاستحالة نجاته بواسطة ، إثر بيان استحالة نجاته بنفسه ، وجمع «الأولياء» مبالغة ، إذا كان لا ينفعه أولياء ، فأولى واحد. أُولئِكَ الموصوفون بعدم إجابة داعى اللّه فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : ظاهر ، بحيث لا تخفى ضلالته على أحد ، حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه ، وجمع الإشارة باعتبار معنى «من» ، وأفرد أولا باعتبار لفظها.

الإشارة : قد استعملت الجن الأدب بين يديه صلّى اللّه عليه وسلم حيث قالوا : أنصتوا ، فالجلوس مع الأكابر يحتاج إلى أدب كبير ، كالصمت ، والوقار ، والهيبة ، والخضوع ، كما كانت حالة الصحابة - رضي اللّه عنهم - مع الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم إذا تكلم أنصتوا كأنما على رؤوسهم الطير. قال الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه : «إذا جالست الكبراء فدع ما تعرف إلى مالا تعرف ، لتفوز بالسر المكنون» فإذا انقضى مجلس التذكير رجع كلّ واحد منذرا وداعيا إلى اللّه كلّ من لقيه ، وقد كان صلّى اللّه عليه وسلم يقول لأصحابه : «ليبلغ الشاهد الغائب» «٢» فمن بلغه ذلك واستجاب ربح وغنم ، ومن لا يجب داعى اللّه

---

(١) راجع تفسير الآية ١٣٢ من سورة الأنعام. وانظر فى حكم مؤمنى الجن : تفسير القرطبي (٧/ ٦٢٢٤) و«آكام المرجان فى أحكام الجان» للشبلى النّعمانى.

(٢) جزء من حديث خطبة الرّسول فى حجة الوداع ، أخرجه البخاري فى (الحج ، باب الخطبة أيام

منى ح ١٧٤١) ، ومسلم فى (القسامة ، باب تعليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال رقم ١٦٧٩ ، ح ٢٩ ، ٣٠) عن أبى بكرة رضي اللّه عنه.

خاب وخسر ، والاستجابة أقسام ، قال القشيري : فمستجيب بنفسه ، ومستجيب بقلبه ، ومستجيب بروحه ، ومستجيب بسرّه ، ومن توقف عند دعاء الداعي إليه ، ولم يبادر إلى الاستجابة هجر فيما كان يخاطب به. هـ.

قلت : المستجيب بنفسه هو المستجيب بالقيام بوظائف الإسلام ، والمستجيب بقلبه القائم بوظائف الإيمان ، والمستجيب بروحه القائم بوظائف الإحسان ، والمستجيب بسره هو المتمكن من دوام الشهود والعيان ، وقول : هجر فيما يخاطب به ، أي : كان يخاطب بملاحظة الإحسان ، فإذا لم يبادر قيد بسلاسل الامتحان. واللّه تعالى أعلم.

ثم برهن على قوله ، فليس بمعجزه فى الأرض ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)

قلت : وَلَمْ يَعْيَ : حال من فاعل «خلق» ، يقال : عى ، كرضى ، وعى بالإدغام ، وهو أكثر. قاله فى الصحاح.

وفى القاموس : عيّ بالأمر وعيى كرضى ، وتعايا واستعيا وتعيّا : لم يهتد لوجه مراده ، أو عجز عنه ولم يطق إحكامه. هـ. وبِقادِرٍ : خبر «أن» ، ودخلت الباء لاشتمال النّفى الذي فى صدر الآية على «أنّ» وما فى حيزّها ، قال الزجاج : لوقلت : ما ظنت أنّ زيدا بقائم ، جاز.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أي : ألم يتفكروا ولم يعلموا علما جازما أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، ابتداء من غير مثال يحتويه ، ولا قانون يحتذيه ، وَالحال أنه لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ أي : لم يتعب ولم ينصب بذلك أصلا ، ولم يعجز عنه ، أليس من فعل ذلك بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى :

جواب النّفى ، أي : بلى هو قادر على ذلك ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تقرير للقدرة على وجه عام ، ليكون كالبرهان على المقصود.

ثم ذكر عقاب من أنكر البعث المبرهن عليه ، فقال : وَاذكر يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ فيقال لهم : أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ ، فالإشارة إلى ما يشاهدونه من فظيع العذاب ، وفيه تهكم بهم ، وتوبيخ لهم ، على استهزائهم بوعد اللّه تعالى ووعيده ، ونفيه بقولهم : «وما نحن بمعذبين» ، قالُوا فى جواب الملائكة : بَلى

(٣٤٨/٥)

وَرَبِّنا

إنه لحق ، أكدوا جوابهم بالقسم كأنهم يطمعون فى الخلاص بالاعتراف بحقيقتهما كما فى الدنيا ، وأنّى لهم ذلك؟ قالَ تعالى لهم : فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ بها فى الدنيا ، ومعنى الأمر : الإهانة بهم والتوبيخ لهم ، نعوذ باللّه من موارد الهوان.

الإشارة : تربية اليقين تطلب فى أمرين ، حتى يكونا كرأى العين : وجود الحق أو شهوده ، وإتيان الساعة وقربها ، حتى تكون نصب العين ، وتقدم حديث حارثة شاهدا على إيمانه ، حيث قال : «وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون ...» الحديث.

ثم أمر بالصبر على ما يسمع من الكفرة ، فى إمكان البعث وغيره ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : آية ٣٥]

فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (٣٥)

قلت : لَهُمْ : متعلق بتستعجل ، وأما تعليقه ببلاغ فضعيف ، لا يليق بإعجاز التنزيل ، خلافا لوقف الهبطى ، وبَلاغٌ : خبر عن مضمر ، أي : هذا بلاغ.

يقول الحق جل جلاله : فَاصْبِرْ يا محمد على ما يصيبك من جهة الكفرة كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ أي : الثبات والحزم مِنَ الرُّسُلِ ، فإنك من جملتهم ، بل من أكملهم وأفضلهم ، و«من» للتبعيض ، واختلف فى تعيينهم ، فقيل : هم المذكورون فى الأحزاب وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ «١» وهم أهل الشرائع ، الذي اجتهدوا فى تأسيسها وتقريرها ، وصبروا على تحمل مشاقها ، وسياسة من تمسك بها ، ومعاداة الطاعنين فيها. وقيل : هم الصابرون على بلاء اللّه تعالى ، كنوح صبر على إذاية قومه ، كانوا يضربونه حتى يغشى عليه ، وإبراهيم صبر على النّار ، وذبح ولده ، ومفارقة وطنه ، وترك ولده ببلد خالية من العمران ، ويعقوب على فقد ولده ، وذهاب بصره ، ويوسف على الجب والسجن ، وأيوب على الضر ، وموسى قال له قومه : إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي

رَبِّي سَيَهْدِينِ «٢» وعلى مكابدة التيه مع قومه ، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة ، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة.

---

(١) الآية ٧ من سورة الأحزاب.

(٢) الآيتان ٦١ ، ٦٢ من سورة الشعراء.

(٣٤٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٥٠

وقيل : هم اثنا عشر نبيا ، أرسلوا إلى بنى إسرائيل ، فعصوهم ، فأوحى اللّه إلى الأنبياء : إنى مرسل عذابى على عصاة بنى إسرائيل ، فشقّ عليهم ، فأوحى اللّه إليهم : أن اختاروا لأنفسكم ، إن شئتم أنزلت بكم العذاب ، وأنجيت بنى إسرائيل ، وإن شئتم أنجبتكم وأنزلت ببني إسرائيل ، فتشاوروا بينهم ، فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب وينجى بنى إسرائيل ، فسلّط عليهم ملوك الأرض ، فمنهم من نشر بالمناشير ، ومنهم من سلخ جلدة رأسه ووجهه ، ومنهم من رفع على الخشب ، ومنهم من أحرق بالنار. نسأل اللّه العافية ، فإنهم أقوياء ونحن ضعفاء.

وقيل : «من» للتبيين ، كقولك : اشتريت ثيابا من الخز ، فكلهم أولو العزم ، وقيل : إلا يونس ، لقوله : وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ «١» وآدم لقوله : وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً «٢».

ثم قال تعالى : وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ أي : لكفار مكة نزول العذاب ، فإنه نازل بهم ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ من العذاب لَمْ يَلْبَثُوا فى الدنيا إِلَّا ساعَةً يسيرة مِنْ نَهارٍ لما يشاهدونه من شدة العذاب وطول مدته. قال الثعالبي : وإذا علمت أيها الأخ أن الدنيا أضغاث أحلام ، كان من الحزم اشتغالك الآن بتحصيل الزاد للمعاد ، وحفظ الحواس ، ومراعاة الأنفاس ، ومراقبة مولاك ، فاتخذه صاحبا ، ودع النّاس جانبا ، ثم نقل عن الغزالي ما يهيج النّفس إلى النّهوض إلى اللّه ، والفرار مما سواه ، فانظره.

هذا بَلاغٌ أي : هذا الذي وعظتم به كفاية فى الموعظة ، أو تبليغ من الرّسول ، أو منى إليك ، ومنك إلى العالمين. فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ أي : ما يهلك إلا الخارجون عن هذا الاتعاظ ، أو عن هذه المواعظ ، أو عن الطاعة ، أو : فلا يهلك مع هذه المواعظ البالغة ، والأدلة القاطعة إلا من هلك عن بينة ، أو : فلا يهلك مع رحمة اللّه وتفضله إلا الهالكون ، ونظير ما ختم به هنا ما ختم به سورة الأنبياء : إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ الآية «٣».

فائدة : قال ابن عباس : إذا عسر على المرأة ولدها ، فليكتب هاتين الآتين الكريمتين فى صحيفة ، ثم تغسل وجهها منها ، وتسقى منها : بسم اللّه الرّحمن الرّحيم ، لا إله إلا اللّه ، العظيم الحليم ، سبحان

اللّه رب السموات والأرض ، ورب العرش العظيم ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ. صدق اللّه العظيم. هـ.

---

(١) الآية ٤٨ من سورة القلم.

(٢) الآية ١١٥ من سورة طه.

(٣) الآية ١٠٦ من سورة الأنبياء. [.....]

الإشارة : أولو العزم من الأولياء هم أولو الجد والتشمير ، قد خلّصهم البلاء وشحّرهم ، فهم جلاليون الظاهر ، جماليون الباطن ، قد أسسوا منار الطريق ، وأظهروا معالم التحقيق ، قاسوا شدائد المجاهدة ، وأفضوا إلى دوام المشاهدة ، عالجوا سياسة الخلق ، حتى هدى اللّه على أيديهم الجم الغفير ، فهم خلفاء الرّسل فى تجديد الشرائع ، وإحياء الدين - جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه. فيقال لكلّ ولىّ من أولى العزم : فاصبر كما صبر أولو العزم من الأولياء قبلك.

قال القشيري : والصبر هو الوقوف لحكم اللّه تعالى ، والثبات من غير بثّ الاستكراه. هـ. أي : من غير إظهار الشكوى والتذكرة. قلت : وأعظم مواطن الصبر عند ورود الفاقات ، وتوالى الأزمات ، وصيانة الوجه عن ذل المخلوقات ، وللّه در القائل.

ارض بأدنى العيش واشكر عليه شكر من القلّ كثير لديه

وجانب الحرص الّذى لم يزل يحطّ قدر المتراقى إليه

وحام عن عرضك واستبقه كما يحامى اللّيث عن لبدتيه

واصبر على ماناب من نوب صبر أولى العزم ، واغمض عليه

ولبدتى الأسد : جانبا كتفيه.

ويقال لأولى العزم ، حين يؤذون من جهة الخلق : وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ... الآية. وقوله تعالى : كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ... الآية ، قال القشيري : مدة الخلق من مبتدأ خلقتهم إلى منتهى آجالهم ، بالإضافة إلى الأزلية ، كلحظة ، بل هى أقلّ ، إذ الأول لا ابتداء له ولا انتهاء ، وأىّ خطر لما حصل فى لحظة .. خيرا كان أو شرا؟. هـ.

قال الورتجبي ، ثم بيّن أن عند معاينة سطوات القهريات ، لا يهلك فيها إلا الخارجون من نعوت استعداد معرفتى ، حين يحتجبون بظلمات نعوتهم «١» بقوله : فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ

الخارجون بالدعاوى الباطلة. هـ. وباللّه التوفيق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) فى الورتجبي : ظنونهم.

(٥/٣٥١)

(٥/٣٥٢)

سورة محمّد «١»

مدنية. وهى ثمان وثلاثون آية ، ومناسبتها لما قبلها : قوله : (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) ، فإنهم الكفرة الذين أشار إليهم بقوله :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ (٢) ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ (٣)

قلت : (الذين) : مبتدأ ، و(أضل) : خبر ، و(من ربهم) : حال من ضمير الحق ، وجملة (و هو ...) إلخ : اعتراضية بين المبتدأ والخبر ، و(ذلك) : مبتدأ ، و(بأن) : خبر.

يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : أعرضوا وامتنعوا عن الدخول فى الإسلام ، أو صدوا غيرهم عنه. قال الجوهري : صدّ عنه ، يصدّ ، صدودا : أعرض ، وصدّه عن الأمر صدا : منعه ، وصرفه عنه. هـ. وهم المطعمون يوم بدر «٢» ، أو : أهل الكتاب ، كانوا يصدون من أراد الدخول فى الإسلام ، منهم ومن غيرهم ، أو عام فى كل من كفر وصدّ. فهؤلاء أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ أي : أحبطها وأبطلها ، أي : جعلها ضالة ضائعة ، ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها ، كضالة الإبل. وليس المعنى أنه أبطلها بعد أن لم تكن كذلك ، بل بمعنى :

أنه حكم ببطلانها وضياعها ، فإنّ ما كانوا يعملونه من أعمال البر ، كصلة الأرحام ، وقرى الضيف ، وفك الأسارى ، وغيرها من المكارم ، ليس لها أثر من أصلها لعدم الإيمان ، أو : أبطل ما عملوا من

الكيد برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، والصد عن سبيله ، بنصر رسوله ، وإظهار دينه على الدين كله ، وهو الأوفق بقوله : فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ «٣».

---

(١) فى الأصول : «سورة محمد أو القتال».
(٢) قاله ابن عباس رضي اللّه عنه - فيما ذكره القرطبي فى تفسيره (٧/ ٦٢٣٠). «وهم اثنا عشر رجلا ، وذكر القرطبي أسماءهم.
(٣) الآية ٨ من نفس السورة.

(٣٥٣/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٥٤
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قيل : هم ناس من قريش ، وقيل : من الأنصار ، وقيل : من آمن من أهل الكتاب ، والمختار أنه عام ، وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ صلى اللّه عليه وسلم ، وهو القرآن ، وخص بالذكر من بين ما يجب الإيمان به تنويها بشأنه ، وتنبيها على سمو مكانه من بين ما يجب الإيمان به ، وأنه الأصل فى الكل ولذلك أكّده بقوله : وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ أي : القرآن ، لكونه ناسخا لغيره من الكتب ، وقيل : دين محمد - صلّى اللّه عليه وسلم إذ لا يرد عليه النّسخ ، وهو ناسخ لسائر الأديان ، كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أي : ستر بالإيمان والعمل الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها بالتوبة وَأَصْلَحَ بالَهُمْ أي : حالهم وشأنهم ، بالتوفيق لأمور الدين ، وبالتسليط على الدنيا ، بما أعطاهم اللّه من النّصرة والعزة والتمكين فى البلاد.
ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ أي : ذلك الأمر ، وهو إضلال أعمال أهل الكفر ، وتكفير سيئات أهل الإيمان ، وإصلاح شأنهم كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهو الشيطان ، حيث فعلوا ما فعلوا من الكفر والصد ، واتباع هؤلاء الحق ، وهو القرآن ، أو ما جاء به صلّى اللّه عليه وسلم ، أو يراد بالباطل : الزائل الذاهب من الدّين الفاسد ، وبالحق : الدين الثابت ، أو يراد بالباطل : نفس الكفر والصد ، وبالحق : نفس الإيمان والأعمال الصالحة.
كَذلِكَ أي : مثل الضرب البديع يَضْرِبُ اللَّهُ أي : يبين لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ أي : أحوال الفريقين ، وأوصافهما ، الجارية فى الغرابة مجرى الأمثال ، وهو اتباع الأولين الباطل ، وخيبتهم وخسرانهم ، واتباع الآخرين الحقّ ، وفوزهم وفلاحهم ، والضمير راجع إلى النّاس ، أو إلى المذكورين من الفريقين ، على معنى : أنه يضرب أمثالهم لأجل النّاس ليعتبروا بهم ، وقد جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكافرين ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين ، أو جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلا لفوز الأبرار.

الإشارة : الذين كفروا بوجود الخصوصية ، وصدوا النّاس عنها أبطل سيرهم إليه ، فكلما ساروا رجعوا ، والذين آمنوا الإيمان الكامل واتبعوا السنة النّبوية ، ستر مساوئهم ، وأصلح شأنهم ، حتى صلحوا لحضرته. قال القشيري :

الذين كفروا : امتنعوا ، وصدوا : منعوا «١» ، فلا متناعهم عن اللّه استوجبوا العقوبة ، ولمنعهم الخلق عن اللّه استوجبوا الحجبة. ثم قال فى قوله : وَأَصْلَحَ بالَهُمْ : فالكفر للأعمال محبط ، والإيمان للخلود مسقط ، ويقال : الذين اشتغلوا بطاعة اللّه ، ولم يعملوا شيئا مما خالف اللّه - فلا محالة - يقوم اللّه بكفاية أشغالهم. هـ.

---

(١) فى القشيري : وصدوا فمنعوا.

وقوله تعالى : ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ ... الآية ، قال الورتجبي : اتبع الكفرة ما وقع فى مخايلهم ، من هواجس النّفس ، ووساوس الشيطان ، ولا يقبلون طرائق الرّشد من حيث الوحي والإلهام ، وأنّ الذين صدقوا فى دين اللّه ، وشاهدوا اللّه باللّه ، اتبعوا سنة رسوله وخطابه ، وما يقع فى أسرارهم من النّور والبيان ، والإلهام والكلام ، بنعت الإخلاص فى طاعته ، والأدب فى خدمته والإعراض عن غيره. قال ابن عطاء : اتباع الباطل :

ارتكاب الشهوات وأمالي النّفس ، واتباع الحق : اتباع الأوامر والسنن. هـ. قال القشيري : اتباع الحق بموافقة السنة ، ومتابعة الجد فى رعاية الحق وإيثار رضاه ، والقيام بالطاعة ، واتباع الباطل : الابتداع والعمل بالهوى ، وإيثار الحظوظ وارتكاب المعصية. هـ.

ثم أقرّ بجهاد من كفر وصدّ ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ٤ الى ٩]

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (٨) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٩)

قلت : (فضرب) : مصدر ، نائب عن فعله ، مضاف إلى مفعوله ، و(منّا) و(فداء) : مصدران لمحذوف

، و(الذين كفروا) : مبتدأ حذف خبره ، وهو العامل فى المصدر ، أي : والذين كفروا فأتعسهم تعسا ، و(أضل أعمالهم) : عطف على الخبر المحذوف.

يقول الحق جل جلاله : فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فى المحاربة فَضَرْبَ الرِّقابِ ، أصله : فاضربوا الرقاب ضربا ، فحذف الفعل وناب عن مصدره للاختصار ، مع إعطاء معنى التوكيد ، لدلالة نصبه على مؤكده ، وضرب الرّقاب عبارة عن مطلق القتل ، والتعبير به عن القتل تصوير له بأشنع صورة وتهويل لأمره ، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون ، حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ أكثرتم فيه القتل ، وأغلظتموه ، من : الشيء الثخين ، وهو الغليظ ،

(٣٥٥/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٥٦

أو : أثقلتموهم بالجراح وهزمتموهم ، فَشُدُّوا الْوَثاقَ أي : فأسروهم ، وشدوا وثاقهم ، لئلا يتفلتوا ، والوثاق بالفتح والكسر : ما يشد به. فإذا أسرتموهم فتخيروا فيهم فَإِمَّا مَنًّا أي : فإما أن تمنوا منا بعد الأسر ، وَإِمَّا فِداءً :

أن تفدوا فداء ، والمعنى : التخير بين الأمرين بعد الأسر ، بين أن يمنّوا عليهم فيطلقوهم ، وبين أن يفادوهم ، ومذهب مالك : أن الإمام مخيّر فى الأسارى بين خمسة ، وهى : المنّ ، والفداء ، والقتل ، والاسترقاق ، وضرب الجزية ، وقيل :

لا يجوز المن ولا الفداء لأن الآية منسوخة بقوله : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «١» فيتعين قتلهم ، والصحيح أنها محكمة. ومذهب الشافعي : أن الإمام مخير بين أربعة : القتل ، والاسترقاق ، والفداء بأسارى المسلمين ، والمنّ. ولعل لجزية عنده خاصة بأهل الكتاب.

ومذهب أبى حنيفة : التخيير بين القتل والاسترقاق فقط ، قال : والآية منسوخة لأن سورة براءة آخر ما نزل.

وعن مجاهد : ليس اليوم منّ ولا فداء ، والمراد بالمنّ فى الآية أن يمنّ عليهم بترك القتل ، فيسترقوا ، أو يمنّ عليهم بإعطاء الجزية. هـ.

والمشهور : مذهب مالك لأن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قتل عقبة بن أبى معيط ، والنّضر بن الحارث ، يوم بدر صبرا ، وفادى سائر الأسارى ، ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفي ، وهو أسير ، واسترق نساء بنى قريظة ، فباعهم ، وضرب الجزية على نصارى نجران ومجوس هاجر.

ثم ذكر غاية الحرب فقال : حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها أي : اضربوا رقابهم حتى تضع الحرب أثقالها ، وآلاتها ، التي لا تقوم إلا بها ، كالسلاح والكراع ، وذلك حيث لم يبق حرب ، بأن تضع أهل الحرب

عدتها. وقيل :

(أوزارها) : آثامها ، يعنى : حتى يترك أهل الحرب المشركين شركهم ، بأن يسلموا جميعا. والمختار : أن المعنى :

أثخنوا المشركين بالقتل والأسر حتى يظهر الإسلام على سائر الأديان ، ويؤمن أهل الكتاب ، طوعا أو كرها ، ويكون الدين كله للّه ، فلا يحتاج إلى قتال. وقال الحسن : معناه : حتى لا يعبد إلا اللّه. وقال ابن عطية : ظاهر اللفظ : أنها استعارة ، يراد بها التزام الأمر كذلك أبدا ، كما تقول : أنا أفعل ذلك إلى يوم القيامة. هـ. فالغاية ب «حتى» ، راجعة إلى الضرب والشد ، وما ترتب عليه من المنّ والفداء.

ذلِكَ الأمر ذلك ، أو افعلوا ذلك ، وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ لانتقم مِنْهُمْ بغير قتال بأن ينزل بهم أسباب الهلاك والاستئصال ، كالخسف أو الرّجف أو غير ذلك ، وَلكِنْ أمركم بالقتال لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ

---

(١) الآية ٥ من سورة التوبة.

(٥/٣٥٦)

أي : المؤمنين بالكافرين ، فأمرهم بالجهاد ليستوجبوا الثواب العظيم ، وليسلم من سبق إسلامه من الكافرين. وَالَّذِينَ قُتِلُوا «١» فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعلاء كلمة التوحيد ، لا لغرض آخر ، فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ فلن يضيعها.

سَيَهْدِيهِمْ فى الدنيا إلى طريق الرّشد والصواب ، وفى الآخرة إلى جزيل الثواب ، وقيل : يهديهم إلى جواب منكر ونكير ، وَيُصْلِحُ بالَهُمْ بأن يقبل أعمالهم ويرضى خصماءهم ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ. قال مجاهد : عرفهم مساكنهم فيها حتى لا يحتاجوا إلى دليل لها «٢» ، أو : طيّبها ، من : العرف ، وهو طيب الرّائحة ، ويمكن الجمع : بأن عرف المحل يهدى صاحبه الى جنته ومحله.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ بنصر دينه وإظهار شريعه نبيه يَنْصُرْكُمْ على عدوكم ، ويفتح لكم ، وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ فى مواطن الحرب ومواقفها ، أو على محجة الإسلام ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ أي : فيقال : تعسا لهم ، والتعس : الهلاك ، أو السقوط والانحطاط ، أو العثار ، أو البعد. وقال ابن السكيت : التعس : أن يجر على وجهه. هـ أي : أتعسهم اللّه تعسا ، أي : أهلكهم وأبعدهم. وقال ابن عباس : «فى الدنيا بالقتل والأسر ، وفى الآخرة بالتردي فى النّار». والمراد بالذين كفروا عام ، وقيل : المراد من يضاد الذين ينصرون دين اللّه ، كأنه قيل :

إن تنصروا اللّه ينصركم ويثبت أقدامكم ، ومن لم ينصره فتعسا له ، فوضع «الذين كفروا» موضع من لم

ينصره تغليظا ، فهو وفق لأسلوب السورة من التقابل المعنوي ، فهو عطف جملة على جملة شرطية مثلها ، ولذلك دخلت الفاء فى خبر الموصول ، كما قرره الزجاج. انظر الطيّبى. هـ من الحاشية. وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ أي : أحبطها وأبطلها.

ذلِكَ التعس والإضلال بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ من القرآن لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام ، المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمّارة بالسوء ، فَأَحْبَطَ لأجل ذلك أَعْمالَهُمْ التي كانوا عملوها ، من صلة الأرحام وغيرها.

الإشارة : نهاية الجهاد الأصغر : وضع الحرب أوزارها بالإسلام أو السّلم ، ونهاية الجهاد الأكبر : استسلام النّفس وانقيادها لما يراد منها ، أو موتها بالغيبة عنها بالكلية. قال بعض العارفين : انتهى سير السائرين إلى الظفر

---

(١) قرأ أبو عمرو وحفص (قتلوا) بضم القاف ، وقرأ الباقون (قاتلوا) بفتح القاف ، وتخفيف التاء ، وألف بينهما. انظر : السبعة لابن مجاهد/ ٦٠٠ والإتحاف ٢/ ٤٧٥ - ٤٧٦.

(٢) هذا معنى ما قاله مجاهد وأكثر المفسرين. وقول مجاهد أخرجه الطبري ، وفى الصحيح ما يدل على صحة هذا القول ، فقد أخرج البخاري فى (الرقاق ، باب القصاص يوم القيامة ح ٦٥٣٥) عن أبى سعيد الخدري قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «يخلص المؤمنون من النّار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنّار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذّبوا ونقّوا أذن لهم فى دخول الجنة ، فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا».

بنفوسهم ، فإن ظفروا بها وصلوا. هـ. فالإشارة بقوله : (إذا لقيتم الذين كفروا ...) إلخ إلى قتل الهوى والشيطان وسائر القواطع ، حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا وثاقهم ، ولا تأمنوا غائلتهم.

قال القشيري ، بعد كلام : وكذلك العبد إذا ظفر بنفسه فلا ينبغى أن يبقى بعد انتقاش شوكها بقية ، ولا فى قلع شجرها مستطاعا وميسورا فالحيّة إن بقيت منها بقية من الحياة من وضع عليها إصبعه بثّت سمّها فيه. هـ. فإذا تمكنتم من معرفة اللّه ، فإما أن تمنوا عليها بترك جهادها الأكبر ، وإما أن تفدوها بالغيبة عنها فى حلاوة الشهود ، حتى تضع الحرب أوزارها بالموت ، ولو شاء اللّه لخلّصكم منها من غير جهاد ، فالقدرة صالحة ، ولكن ليختبركم ، فيظهر السائرون من القاعدين مع حظوظهم «لولا

ميادين النّفوس ما تحقق سير السائرين» «١». والذين قاتلوا نفوسهم فى سبيل اللّه وطلب معرفته ، فلن يضلّ أعمالهم ، سيهديهم إلى معرفته ، ويصلح بالهم بالاستغراق فى شهوده ، ويدخلهم جنة المعارف ، قد عرّفها لهم ، وبيّنها على أيدى الوسائط من الشيوخ العارفين ، أو طيّبها لهم ، فيهتدون بنسيم واردات التوجه ، إلى أنوار المواجهة. وقد أشار تعالى بقوله : وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إلى طلب الإخلاص ، فلا يوصل الجهاد الأصغر ولا الأكبر إلى رضوان اللّه ، أو معرفته ، إلا بتحقق الإخلاص ، من غير التفات لغرض نفسانى ، لا عاجلا ولا آجلا.

ذكر الشيخ أبو نعيم الحافظ : أن ميسرة الخادم ، قال : غزونا فى بعض الغزوات ، فإذا بفتى «٢» جانبى ، وهو مقنع بالحديد ، فحمل على الميمنة ، ثم الميسرة ، ثم على القلب ، ثم أنشأ يقول :

أحسن بمولاك سعيد ظنّا هذا الذي كنت تمنّى «٣»

تنح يا حور الجنان عنّا ما فيك قاتلنا ولا قتلنا

لكن إلى سيدكنّ اشتقنا قد علم السر وما أعلنّا

قال : فحمل فقاتل ، فقتل منهم عددا ، ثم رجع إلى موقفه ، فتكالب عليه العدو ، فحمل ، وأنشأ يقول :

قد كنت أرجو ورجائى لم يخب ألّا يضيع اليوم كدىّ والطّلب

يا من ملأ تلك القصور باللعب لولاك ما طابت ولا طاب الطّرب

---

(١) حكمة عطائية رقم (٢٤٤) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي ص ١٨.

(٢) اسمه «سعيد» كما هو واضح من البيت الأول ، وترجم له أبو نعيم ب «سعيد الشهيد ، المقنع فى الحديد ، المشتاق إلى رؤية المنعم المجيد».

(٣) هكذا فى الأصول ، وفى الحلية : [هذا الذي كنت له تمنى].

ثم حمل فقاتل ، فقتل عددا كثيرا ، ثم رجع إلى مصافه ، فتكالب عليه العدو ، فحمل ثالثة ، وأنشأ يقول :

يا لعبة الخلد قفى ثمّ اسمعي مالك قاتلنا فكفّى وارجعي

ثمّ ارجعي إلى الجنان وأسرعى لا تطمعى لا تطمعى لا تطمعى

فقاتل رضي اللّه عنه حتى قتل - رحمه اللّه. هـ «١».

قوله تعالى : إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ

، فيه ترغيب وتنشيط لأهل الوعظ والتذكير ، الداعين إلى اللّه ، الذين يسعون فى إظهار الدين ، وإرشاد عباد اللّه إلى محبة اللّه وطاعته. وفى الحديث عنه - صلّى اللّه عليه وسلم :

«والذي نفس محمد بيده ، لئن شئتم لأقسمن لكم ، إن أحب عباد اللّه إلى اللّه الذين يحببون اللّه إلى عباده ، ويحببون عباد اللّه إلى اللّه ، ويمشون فى الأرض بالنصيحة». وقال أيضا : «الخلق عيال اللّه ، وأحب الخلق إلى اللّه أنفعهم لعياله» «٢» وأعظم النّفع : إرشادهم إلى اللّه ، الذي هو سبب سعادتهم السرمدية.

وقال الورتجبي : نصرة العبد للّه : أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه ، فإنهم أعداؤه ، فإذا خاصمها يقويه اللّه وينصره عليهم ، بأن يدفع شرهم عنه ، ويجعله مستقيما فى طاعة اللّه ، ويجازيه بكشف جماله ، حتى يثبت فى مقام العبودية ، وانكشاف أنوار الرّبوبية. هـ.

قال القشيري : ونصرة اللّه للعبد بإعلاء كلمته ، وقمع أعدائه. ثم قال فى قوله تعالى : وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ هو إدامة التوفيق ، لئلا ينهزم من صولة أعداء الدين ، ولا يضعف قلبه فى معاداتهم ، ولا ينكسر باطنه ثقة باللّه فى إعزاز دينه. هـ. ثم ذكر تعالى أضداد الداعين إلى اللّه ، الناصرين لدينه ، وهم المنتقدون عليهم ، فقال : وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ أي : خيبة لهم ، وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ ، فلا يتوصلون بها إلى معرفته ، لكونها معلولة.

ثم أمر بالتفكر والنّظر لأنه أقرب الطرق إلى التخلص من غوائل الأعداء ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ١٠ الى ١٢]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (١٠) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (١٢)

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ١٦٥ - ١٦٦).

(٢) أخرجه البيهقي فى الشعب (ح ٧٤٤٥) والطبراني فى الكبير (ح ١٠٠٣٣) وأبو يعلى فى مسنده (٦/ رقم ٣٣١٥ و٣٣٧٠) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه ، وأخرجه البيهقي فى الشعب (ح ٧٤٤٨) وأبو نعيم فى الحلية (٢/ ١٠٢) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

يقول الحق جل جلاله : أَفَلَمْ يَسِيرُوا أي : أقعدوا فلم يسيروا فِي الْأَرْضِ ، يعنى كفار مكة ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من الأمم المكذبة؟ فإنّ آثار ديارهم تنبئ عن أخبارهم ، فقد دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، فالجملة : استئناف مبنى على سؤال ، كأنه قيل : كيف كان عاقبتهم؟ فقيل : استأصل اللّه عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، يقال : دمّره أهلكه ، ودمّر عليه : أهلك عليه ما يختص به ، قاله أبو السعود. وفى الصحاح : الدمار : الهلاك ، دمّره تدميرا ، ودمّر عليه ، بمعنى. هـ. فظاهره : أن معناهما واحد ، وفسره فى الأساس بالهلاك المستأصل ، وقال الطيبي : فى دمّر عليهم تضمين معنى أطبق ، فعدى بعلى ، ولذلك استأصل. هـ.

وَلِلْكافِرِينَ أي : ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم أَمْثالُها أي : أمثال تلك الهلكة المفهومة من التدمير ، أو أمثال عواقبهم أو عقوباتهم ، لكن لا على أنّ لهؤلاء أمثال ما لأولئك وأضعافه بل مثله ، وإنما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة ، حسبما تعدّد الأمم المعذّبة ، ويجوز أن يكون عذابهم أشدّ من عذاب الأولين فقد قتلوا وأسروا بأيدى من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم ، والقتل بيد المثل أشد ألما من الهلاك بسبب عام. وقيل :

دمّر اللّه عليهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة أمثالها.

ذلِكَ أي : نصر المؤمنين وهلاك الكافرين فى الحال أو المال بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا أي : ناصرهم ومعزّهم وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ فيدفع عنهم ما حلّ بهم من العقوبة ، ولا يخالف هذا قوله : ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ «١» لأن المولى هناك بمعنى المالك.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، وهذا بيان لحكم ولاية اللّه لهم وثمرتها الأخروية ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ فى الدنيا بمتاعها أياما قلائل ، وَيَأْكُلُونَ غافلين عن عواقبهم ، غير متفكرين فيها كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ فى مسارحها ، غافلة عما هى بصدده من النّحر والذبح ، فالتشبيه بالأنعام صادق بالغفلة عن تدبير العاقبة ، وعن شكر المنعم ، وبعدم التمييز للمضرّ من غيره ، كأكل الحرام وعدم توقيه ، وكذا كونه غير مقصور على الحاجة ، ولا على وقتها ، وسيأتى فى الإشارة إن شاء اللّه. وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ أي :

منزل ثواه وإقامته ، والجملة إما حال مقدرة من واو (يأكلون) ، أو استئناف.

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة الأنعام. [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٦١

الإشارة : تفكر الاعتبار يكون فى أربعة ، الأول : فى سرعة ذهاب الدنيا وانقراضها ، كأضغاث أحلام ، وكيف غرّت من انتشب بها ، وأخذته فى شبكتها ، حتى قدم على اللّه بلا زاد ، وكيف دمّر اللّه على أهل الطغيان ، واستأصل شأفتهم ، فينتج ذلك التشمير والتأهب ليوم الجزاء. الثاني : فى دوام دار البقاء ، ودوام نعيمها ، فينتهز الفرصة فى العمل الصالح. الثالث : فى النّعم التي أنعم اللّه بها على عباده ، الدنيوية والأخروية ، الحسية والمعنوية ، قال تعالى : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها «١» فينتج ذلك الشكر ، لتدوم عليه. الرابع : فى نصب هذه العوالم ، على ما هى عليه من الإبداع والإتقان ، فيثمر ذلك معرفة الصانع ، وباهر قدرته وحكمته.

وقوله تعالى : ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ... إلخ ، قال القشيري : المولى : المحب ، فهو محب الذين آمنوا ، والكافرين لا يحبهم ، ويصح أن يقال : أرجى آية فى القرآن هذه الآية ، لم يقل مولى الزهّاد والعباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد بل قال : مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، والمؤمن وإن كان عاصيا فهو من جملتهم. هـ - والمحبة تتفاوت بقدر زيادة الإيمان والإيقان حتى يصير محبوبا مقربا.

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ ، وكذلك الغافل ، فالأنعام تأكل بلا تمييز ، من أي موضع وجدت ، كذلك الجاهل ، لا تمييز له من الحلال أو من الحرام ، والأنعام ليس لها وقت لأكلها ، بل تأكل فى كل وقت ، وكذلك الغافل والكافر. فقد ورد «أن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء ، والمؤمن يجتزئ بما تيسر» «٢» ، كما فى الخبر : «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن» «٣». والأنعام تأكل على الغفلة ، فمن كان فى أكله ناسيا لربه ، فأكله كأكل الأنعام. انظر القشيري.

ولما أمرهم بالنظر فلم يفعلوا ، هددهم بالهلاك ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ١٣ الى ١٤]

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (١٤)

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم.

(٢) ورد بلفظ «إن المؤمن يأكل فى معىّ واحد ، وإن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء» ، الحديث أخرجه البخاري فى (الأطعمة ، باب المؤمن يأكل فى معى واحد ، ح ٥٣٩٣) ومسلم فى (الأشربة باب المؤمن يأكل فى معى واحد رقم ٢٠٦١ ، ح ١٨٤) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه.

(٣) بعض حديث أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ، ح ٢٣٨٠) وقال : «حديث صحيح» وابن ماجه فى (الأطعمة ، باب الاقتصاد فى الأكل وكراهة الشبع ، ح ٣٣٤٩) والنّسائى فى الكبرى (آداب الأكل ، باب ذكر القدر الذي يستحب للإنسان من الأكل ح ٦٧٦٨) والحاكم (٤/ ١٢١) «وصحّحه الذهبي» من حديث مقدام بن معدى كرب.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٦٢

قلت : (كأيّن) : كلمة مركبة من الكاف و«أىّ» ، بمعنى كم الخبرية ، ومحلها : الرفع بالابتداء ، وقوله : (هى أشد) : نعت لقرية ، و(أهلكناهم) : خبر ، وحذف المضاف ، أي : أهل قرية ، بدليل «أهلكناهم».

يقول الحق جل جلاله : وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أي : كثير من أهل قرية هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ مكة ، الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أي : تسببوا فى خروجك ، أي : وكم من قوم هم أشدّ قوة من قومك الذين أخرجوك ، أَهْلَكْناهُمْ بأنواع العذاب ، فَلا ناصِرَ لَهُمْ فلم يكن لهم من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم ، فأنتم يا معشر قريش أهون منهم ، وأولى بنزول ما حجل بهم.

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ أي : حجة واضحة ، وبرهان قاطع ، وهو القرآن المعجز ، وسائر المعجزات ، يعنى : رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ، وهم أهل مكة ، زين الشيطان شركهم وعداوتهم للّه ولرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ الزائغة ، وانهمكوا فى فنون الضلالات ، من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحة ما هم عليه ، فضلا عن حجة تدل عليها.

وقيل : المراد بمن كان على بينة : المؤمنون فقط ، المتمسكون بأدلة الدين.

قال أبو السعود : وجعلها عبارة عن النّبى عليه السّلام وعن المؤمنين ، لا يساعده النّظم الكريم ، على أن الموازاة بينه صلّى اللّه عليه وسلم ، وبين من زيّن له سوء عمله مما يأباه منصبه الجليل. والتقدير : أليس الأمر كما ذكر؟ فمن كان مستقرا على حجة ظاهرة ، وبرهان نيّر من مالك أمره ومربّيه ، وهو القرآن ، وسائر الحجج العقلية ، كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ من الشرك وسائر المعاصي ، مع كونه فى نفسه أقبح القبائح. هـ.

الإشارة : فى الآية تهديد لمن يؤذى أولياء اللّه ، ويخرجهم من مواطنهم بالهلاك العاجل أو الآجل.

وقوله تعالى : أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ تقدم فى سورة هود الكلام عليها «١». وقال القشيري هنا ، فى تفسير البينة :

هى الضياء والحجة والاستبصار بواضح المحجة ، فالعلماء فى ضياء برهانهم ، والعارفون فى ضياء بيانهم ، فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يبصرون ، وهؤلاء بحكم الإلهام والوصول يستبصرون. هـ.

ثم عرّف بالجنة ، التي تقدمت فى قوله : عَرَّفَها لَهُمْ ، فقال :

---

(١) راجع إشارة الآية ١٧ من سورة هود.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٦٣

[سورة محمد (٤٧) : آية ١٥]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (١٥)

قلت : (مثل) : مبتدأ حذف خبره ، أي : صفة الجنة ما تسمعون ، وقدّره سيبويه : فيما يتلى عليكم مثل الجنة ، وقيل : المثل زائد ، أي : الجنة فيها أنهار ... إلخ ، و(كمن هو خالد) : خبر لمحذوف ، أي : أمن هو خالد فى هذه الجنة ، كمن هو خالد فى النّار؟.

يقول الحق جل جلاله : مَثَلُ الْجَنَّةِ أي : صفتها العجيبة ، العظيمة الشأن الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ الشرك والمعاصي ، هو ما نذكره لكم ، فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ غير متغير الطعم واللون والرّائحة ، يقال : أسن الماء :

إذا تغير ، سواء أنتن أم لا ، فهو آسن وأسن ، وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ كما تتغير ألبان الدنيا بالحموضة وغيرها ، وانظر إذا تمنّاه كذلك مربّيا أو مضروبا. والظاهر : أنه يعطاه كذلك ، إذ فيها ما تشتهيه الأنفس. وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ أي : لذيذة ، ليس فيها كراهة طعم وريح ، ولا غائلة سكر ، وإنما هى تلذذ محض. و«لذة» :

إما تأنيث «لذّ» ، بمعنى لذيذ ، أو : مصدر نعت به للمبالغة.

وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى لم يخرج من بطون النّحل فيخالطه شمع أو غيره ، وفى حديث الترمذي : «إنّ فى الجنة بحر الماء ، وبحر اللبن ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقّق الأنهار بعد» «١» قال : حسن صحيح. وعن كعب : نهر دجلة من نهر ماء الجنة ، والفرات نهر من لبنها ، والنيل من نهر خمرها ، وسيحان من نهر عسلها ، والكل يخرج من الكوثر «٢». قلت : ولعل الثلاثة لمّا خرجوا إلى الدنيا تغير حالهم ، ليبقى الإيمان بالغيب. واللّه تعالى أعلم.

قيل : بدئ من هذه الأنهار بالماء لأنه لا يستغنى عنه قط ، ثم باللبن لأنه يجرى مجرى المطعوم والمشروب فى كثير من الأوقات ، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الرّيّ والمطعوم تشوقت النّفس إلى ما يلتذ به ، ثم بالعسل لأنه فيه الشفاء فى الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر فى الرّتبة.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (صفة الجنة ، باب ما جاء فى صفة أنهار الجنة ح ٢٥٧١) والدارمي فى (الرقائق ، باب فى أنهار الجنة ح ٢٨٣٦) وأحمد فى المسند (٥/ ٥) عن حكيم بن معاوية عن أبيه ،

قال الترمذي : «حديث حسن صحيح».
(٢) ذكره بلفظه القرطبي (٧/ ٦٢٤٤) والبغوي في التفسير (٧/ ٢٨٢) وذكره بلفظ مقارب السيوطي في الدر (٦/ ٢٥) وعزاه للحرث بن أبى أسامة في مسنده ، عن كعب.
هذا ، وقد وجدت على هامش النّسخة الأم ما يلي : هذا من خرافات كعب ، التي كثر بهما القصاص والوعاظ مسائل العلم ، بدون طائل ولا جدوى ، والحديث الصحيح إنما فيه أنها من الجنة ، فإما أن ذلك حقيقة على ظاهره ، وإما أن يكون خرج مخرج التشبيه ، كما هو قول طائفة».
قلت : حديث أنها من أنهار الجنة أخرجه مسلم في (الجنة ، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة ، ح ٢٨٣٩) عن أبى هريرة ، ولفظه :
«سيحان وجيحان والنّيل والفرات كلّ من أنهار الجنة».

(٣٦٣/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٦٤
وَلَهُمْ فِيها مع ما ذكر من فنون الأنعام مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ أي : صنف من كلّ الثمرات. وَلهم مَغْفِرَةٌ عظيمة مِنْ رَبِّهِمْ أي : كائنة من ربهم ، فهو متعلق بمحذوف ، صفة لمغفرة ، مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ، أي : مغفرة عظيمة من ربهم. وعبّر بعنوان المغفرة دون الرّحمة إشعارا بأن الميل إلى نعيم الأشباح نقص في الدارين يستوجب المغفرة.
أيكون هذا كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ؟ أو : مثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد في النّار؟ وهو كلام في صورة الإثبات ، ومعناه : النفي ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار ، ودخوله في حيّزه ، وهو قوله :
أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ «١» ، وفائدة حذف حرف الإنكار : زيادة تصوير لمكابرة من يسوّى بين المتمسك بالبيّنة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة ، التي يجرى فيها تلك الأنهار ، وبين النّار ، التي يسقى أهلها الحميم الحار ، المشار إليه بقوله : وَسُقُوا ماءً حَمِيماً حارا في النّهاية ، إذا دنا منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رؤوسهم فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ مصارينهم ، التي هي مكان تلك الأشربة. نسأل اللّه العافية.
الإشارة : مثل جنة المعارف ، التي وعدها المتقون كلّ ما يشغل عن اللّه ، فيها أنهار من ماء علوم الحقيقة ، غير متغير صفاؤها ، ولا متكدرة أنوارها ، وأنهار من لبن علوم الشريعة المؤيّدة بالكتاب والسنة ، لم تتغير حلاوة معاملتها ، ولا لذة مناجاتها ، وأنهار من خمرة الشهود ، لذة للشاربين لها ، تذهل حلاوتها العقول ، وتفوت عن مدارك النقول ، وأنهار من عسل حلاوة المكالمة والمساررة

والمناجاة ، صافيات الأوقات ، محفوظة من المكدرات ، ولهم فيها من طرف الحكم ، وفواكه العلوم ، ما لا تحصيه الطروس ، ولا تدركه محافل الدروس.

قال القشيري : (مثل الجنة) ، أي : صفتها كذا ، وللأولياء اليوم ، لهم شراب الوفاء ، ثم شراب الصفاء ، ثم شراب الولاء ، ثم شراب فى حال اللقاء ، ولكلّ من هذه الأشربة عمل ، ولصاحبه سكر وصحو ، فمن تحسى شراب الوفاء لم ينظر إلى أحد من الخلق فى أيام غيبته عن إحساسه ، وأنشدوا :

وما سرّ صدرى منذ شطّت بك النّوى أنيس ولا كأس ولا متطرف «٢»

---

(١) الآية ١٤ من سورة محمد.

(٢) ورد :

وما سر قلبى منذ شط به النّوى نعيم ولا كأس ولا متصرف

ونسب إلى عبد اللّه بن أحمد بن مصروف. انظر يتيمة الدهر ٣/ ١٠٨.

ومن شرب بكأس الصفا خلص له عن كلّ شوب بلا كدورة فى عهده ، فهو فى كلّ وقت ظامئ عن نفسه ، خال عن مطالباته ، قائم به ، بلا شغل فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ومن شرب كأس الولاء عدم فيه القرار ، ولم يغب سيره لحظة ، ليلا ولا نهارا ، ومن شرب فى حال اللقاء أنس على الدوام ببقائه فلم يطلب مع بقائه شيئا آخر ، لا من عطائه ولا من لقائه لاستهلاكه فى علائه عند سطوات كبريائه. هـ.

قلت : أما شراب الوفاء فهو عقد الإرادة مع الشيخ ، أو عقد المحبة والخدمة مع الحق ، فيجب الوفاء بكلّ منهما ، وهو كشرب العطشان من الماء العذب ، وأما شراب الصفاء فهو صفاء العلم باللّه ، وهو كاللبن تتغذى به الأرواح فى حال ترقيها إلى الحضرة ، وأما شراب الولاء فهو شراب أهل التمكين من الولاية الكبرى ، فيشربون من الخمرة الأزلية ، فيسكرون ، ثم يصحون ، وفيها يقول الششترى رضي اللّه عنه :

لا شراب الدوالي ، إنها أرضيه خمرها دون خمرى ، خمرتى أزليه «١»

وأما شراب حال اللقاء فالمراد به : أوقات رجوعهم إلى البقاء ، فيتفننون فى علوم الحكمة وحلاوة المعاملة.

واللّه تعالى أعلم.

ثم شفع بأضدادهم ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ١٦ الى ١٨]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (١٨)

قلت : (آنفا) : قال الزمخشري ومن تبعه : ظرف ، أي : الساعة ، وقال أبو حيان : لا أعلم أحدا عدّه من الظروف ، وجوّز «مكيّ» فيه الظرف والحالية ، . قال الهروي : «آنفا» مأخوذة من : ائتنفت الشيء : إذا ابتدأته ، وروضة أنف : إذا لم ترع. المعنى : ما ذا قال فى وقت يقرب من وقتنا؟. و(أن تأتيهم) : بدل اشتمال من الساعة.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، وهم المنافقون ، كانوا يحضرون مجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ويسمعون كلامه ولا يعونه ، ولا يراعونه حق رعايته ، تهاونا منهم ، حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

---

(١) انظر الديوان ص ٣١٠. والدوالى : العنب

من الصحابة - رضي اللّه عنهم - : ما ذا قالَ آنِفاً ما الذي قال الساعة؟ على طريقة الاستهزاء ، أو : ما القول الذي ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه؟.

وقال مقاتل : كان النّبى صلّى اللّه عليه وسلم يخطب ، ويعيب المنافقين ، فسمع المنافقون قوله ، فلما خرجوا من المسجد ، سألوا ابن مسعود عما قال النّبى صلّى اللّه عليه وسلم استهزاء «١». وقال ابن عباس : «أنا من الذين أتوا العلم ، وقد سئلت فيمن سئل» «٢».

ويقال : الناس ثلاثة : سامع عامل ، وسامع غافل ، وسامع تارك.

أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ لعدم توجهها إلى الخير أصلا ، وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ الباطلة ، فلذلك فعلوا ما فعلوا ، مما لا خير فيه ، وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا إلى طريق الحق زادَهُمْ اللّه بذلك هُدىً علما وبصيرة ، أو شرح صدر بالتوفيق والإلهام ، أو : زادهم ما سمعوا من الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم هداية على ما عندهم ، وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ أعانهم عليها ، أو : آتاهم جزاء تقواهم ، أو : بيّن لهم ما يتقون.

فَهَلْ يَنْظُرُونَ أي : ما ينتظرون إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً أي : تباغتهم بغتة ، وهى الفجاءة ، والمعنى :

أنهم لا يتذكرون بأحوال الأمم الخالية ، ولا بالإخبار بإتيان الساعة ، وما فيها من عظائم الأهوال ، وما ينظرون إلا إتيان نفس الساعة بغتة ، فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها علاماتها ، جمع : شرط بالتحريك ، بمعنى : العلامة ، وهى مبعث محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وانشقاق القمر ، والدخان ، على قول. وقيل : قطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثر اللئام ، فقوله تعالى : فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها تعليل لمفاجأتها ، لا لمطلق إتيانها ، على معنى : أنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكير أمر مترقب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة ، إذ قد جاء أشراطها ، فلم يرفعوا لها رأسا ، ولم يعدوها من مبادئ إتيانها فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة.

فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ ، قال الأخفش : التقدير : فأنّى لهم ذكراهم إذا جاءتهم ، أي : فمن أين لهم التذكير والاتعاظ إذا جاءتهم الساعة؟ ف «ذكراهم» : مبتدأ ، و«أنّى» : خبر مقدم ، و«إذا جاءتهم» : اعتراض ، وسط بينهما ، رمز إلى غاية سرعة مجيئها ، والمقصود : عدم نفع التذكير عند مجيئها ، كقوله تعالى : يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى «٣».

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ٢٨٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٦/ ٥١) والحاكم (التفسير ٢/ ٤٥٧) بلفظ : «كنت فيمن يسئل» والحديث صحّحه الحاكم ، من طريق سعيد بن جبير ، ووافقه الذهبي.

(٣) من الآية ٢٣ من سورة الفجر.

(٣٦٦/٥)

الإشارة : مجلس الوعظ والتذكير ، إن كان المذكّر من أهل التنوير ، نهض المستمع له إلى اللّه قطعا ، لكن ذلك يتفاوت على قدر سريان النّور فيه قطعا ، فمنهم من يصل النّور إلى ظاهر قلبه ، ومنهم من يصل إلى داخل القلب ، ومنهم من يصل إلى روحه ، ومنهم من يصل إلى سره ، وذلك على قدر التفرع والاستعداد ، فمن وصل النّور إلى ظاهر قلبه نهض إلى العمل الظاهر ، وكان بين حب الدنيا والآخرة ، ومن وصل إلى قلبه نهض بقلبه إلى اللّه ، ورفض الدنيا وراءه ، ومن وصل إلى روحه انكشف عنه الحجاب ، ومن وصل إلى سره تمكن من شهود الحق.

وفى الحكم : «تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ، فحيثما سار التنوير وصل التعبير» «١» ، وهذا إن حضر مستفيدا ، وأما إن حضر منتقدا ، فهو قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ .. الآية ، والذين اهتدوا لدخول طريق التربية زادهم هدى ، فلا يزالون يزيدون تربية وترقية إلى أن يصلوا إلى مقام التمكين من

الشهود. قال القشيري : والذين اهتدوا بأنواع المجاهدات زادهم هدى لأنوار المشاهدات ، واهتدوا بتأمل البرهان ، فزادهم هدى بروح البيان ، أو اهتدوا بعلم اليقين ، فزادهم هدى بحق اليقين. هـ.

ثم ذكر سبب الهداية وأساسها ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : آية ١٩]

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ (١٩)

يقول الحق جل جلاله : فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ أي : إذا علمت أن مدار السعادة ، والفوز بالنعيم فى دار البقاء هو التوحيد والطاعة ، ومناط الشقاء والخسران فى دار الهوان هو الإشراك والعصيان ، فاثبت على ما أنت عليه من التوحيد ، واعلم أنه لا إله فى الوجود إلا اللّه ، فلا يستحق العبادة غيره ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وهو ما قد يصدر منه صلّى اللّه عليه وسلم من خلاف الأولى ، عبّر عنه بالذنب نظرا إلى منصبه الجليل ، كيف لا ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين؟ فكل مقام له آداب ، فإذا أخلّ بشيء من آدابه أمر بالاستغفار ، فلمقام الرّسالة آداب ، ولمقام الولاية آداب ، ولمقام الصلاح آداب ، وضعف العبودية لا يقوم بجميع حقوق الرّبوبية ، قال تعالى : وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ «٢».

وبالجملة ، فالقيام بالآداب مع اللّه - تعالى - على ما يستحقه - سبحانه - حتى يحيط العبد بجميع الآداب مع عظمة

---

(١) حكمة (رقم ١٨٢) انظر تبويب الحكم للمتقى الهندي (ص ٣٦).

(٢) من الآية ٦٧ من سورة الزمر. [.....]

(٣٦٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٦٨

الربوبية محال عادة ، قال صلّى اللّه عليه وسلم مع جلالة منصبه : «لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» «١» فكل ما قرب العبد من الحضرة شدد عليه فى طلب الأدب ، فإذا أخذته سنة أمر بالاستغفار ، ولذلك كان صلّى اللّه عليه وسلم يستغفر فى المجلس سبعين مرة ، أو مائة ، على ما فى الأثر «٢».

وقال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرّحمن الفاسى ، بعد كلام : والحق أن استغفاره صلّى اللّه عليه وسلم طلب ثبات المغفرة والستر من الوقوع ، لا طلب العفو بعد الوقوع ، وقد أخبره تعالى بأنه فعل. وقد يقال : استغفار تعبد لا غير. قال : والذي يظهر لى أن أمره بالاستغفار مع وعد اللّه بأنه مغفور له إشارة إلى الوقوف مع غيب المشيئة ، لا مع الوعد ، وذلك حقيقة ، والوقوف مع الوعد شريعة. وقال الطيبي

: إذا تيقنت أن الساعة آتية ، وقد جاء أشراطها ، فخذ بالأهم فالأهم ، والأولى فالأولى ، فتمسك بالتوحيد ، ونزّه اللّه عما لا ينبغي ، ثم طهّر نفسك بالاستغفار عما لا يليق بك ، من ترك الأولى ، فإذا صرت كاملا فى نفسك فكن مكملا لغيرك ، فاستغفر لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ. هـ. أي : استغفر لذنوبهم ، بالدعاء لهم ، وترغيبهم فيما يستدعى غفران ذنوبهم.

وفى إعادة الجار تنبيه على اختلاف متعلّقيه إذ ليس موجب استغفاره صلّى اللّه عليه وسلم كموجب استغفارهم ، فسيئاته - عليه السّلام - فرضا - حسناتهم. وفى حذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه - أي : ولذنب المؤمنين - إشعار بعراقتهم فى الذنوب ، وفرط افتقارهم إلى الاستغفار.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ أي : يعلم متقلبكم فى الدنيا ، فإنها مراحل لا بد من قطعها ، ويعلم مثواكم فى العقبى فإنها مواطن إقامتكم ، فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم فيهما ، فبادروا إلى الامتثال لما أمركم به ، فإنه المهم لكم ، أو : يعلم متقلبكم : فى معايشكم ومتاجركم ، ومثواكم : حيث تستقرون فى منازلكم ، أو متقلبكم : فى حياتكم ، ومثواكم : فى القبور ، أو : متقلبكم : فى أعمالكم الحسنة أو السيئة ، ومثواكم : من الجنة أو النّار ، أو : يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه شىء منها ، فمثله حقيق بأن يخشى ويتقى ويستغفر.

الإشارة : قال القشيري : قال تعالى لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم : فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ ، وكان عالما ، ولكن أمره باستدامة العلم واستزادته ، وذلك فى الثاني من حاله فى ابتداء العلم ، لأن العلم أمر ، ولا يجوز البقاء على الأمر الواحد ، ف كل لحظة يأتى فيها علم. ويقال : كان له علم اليقين ، فأمر بعين اليقين ، أو : كان له عين اليقين ، فأمر

---

(١) بعض حديث صحيح ، أخرجه مسلم فى (الصلاة ، باب ما يقال فى الرّكوع والسجود ح ٤٨٦) من حديث السيدة عائشة - رضي اللّه عنها.

(٢) أخرج مسلم فى (الذكر والدعاء والتوبة ، باب الاستغفار واستحباب الاستغفار والاستكثار منه ح ٢٧٠٢) عن الأغر المزني ، قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر اللّه فى كلّ يوم مائة مرة».

بحق اليقين. ويقال : قال صلّى اللّه عليه وسلم : «أنا أعملكم باللّه وأخشاكم له» فنزلت الآية «١» ، أي : أمر بالتواضع. وهنا سؤال :

كيف قال : «فاعلم» ولم يقل صلّى اللّه عليه وسلم بعد : علمت ، كما قال إبراهيم حين قال له : أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ «٢» ويجاب :

بأن اللّه تعالى أخبر عنه بقوله : آمَنَ الرَّسُولُ «٣» والإيمان هو العلم ، فإخبار الحق - تعالى - عنه أتم من إخباره عن نفسه بقوله : علمته.

ويقال : إبراهيم عليه السّلام لما قال : أَسْلَمْتُ ابتلى ، ونبينا صلّى اللّه عليه وسلم لم يقل علمت ، فعوفى ، ويقال : فرق بن موسى ، لمّا احتاج إلى زيادة العلم أحيل على الخضر ، ونبينا صلّى اللّه عليه وسلم قال له : قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً «٤» فكم بين من أحيل فى استزاده العلم على عبد ، وبين من أمر باستزادة العلم من الحق. ويقال : إنما أمره بقوله : فَاعْلَمْ بالانقطاع إليه من الحظوظ من الخلق ، ثم بالانقطاع منه إليه ، وإذا قال العبد هذه الكلمة على العادة ، والغفلة عن الحقيقة ، [وهى نصف البيان] «٥» فليس لهذا القول كبير قيمة ، وهذا إذا تعجب من شيء فذكر هذه الكلمة ، فليس له قدر ، وإذا قاله مخلصا ذاكرا لمعناها ، متحققا بحقيقتها ، فإن قاله بنفسه فهو فى وطن التفرقة ، وعندهم هذا من الشّرك الخفىّ ، وإن قاله بالحق فهو إخلاص ، والعبد أولا يعلم ربه بدليل وحجة ، فعلمه بنفسه ضرورى ، وهو أصل الأصول ، وعليه ينبنى كلّ علم استدلالى ، ثم تزداد قوة علمه بزيادة البيان ، وزيادة الحجج ، ويتناقض علمه بنفسه لغلبة ذكر اللّه بقلبه عليه ، فإذا انتهى لحال المشاهدة ، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه ، صار علمه فى تلك الحالة ضروريا ، ويقل إحساسه بنفسه ، حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلال ، وكأنه غافل عن نفسه ، أو ناس لنفسه ، ويقال : الذي فى البحر غلب عليه ما يأخذه من الرّؤية عن ذكر نفسه ، فإذا ركب البحر فرّ من هذه الحالة ، فإذا غرق فى البحر فلا إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه مستهلك. هـ.

قلت : لا مدخل للحجج هنا ، وإنما هو أذواق وكشوفات ، فالصواب أن يقول : ثم تزداد قوة علمه ، بزيادة الكشف والذوق ، حتى يغيب عن وجوده ، بشهود معبوده ، فيتناقض علمه ، فيصير علمه باللّه ضروريا ، وعلمه بعدم وجوده ضروريا ، واللّه تعالى أعلم.

---

(١) نزول الآية فى هذا لم أقف عليه ، أما الحديث فصحيح ، فقد ترجم البخاري فى صحيحه (كتاب الإيمان ، باب قول النّبى صلّى اللّه عليه وسلم «أنا أعلمكم باللّه» ح ٢٠) وأورد حديث السيدة عائشة - رضي اللّه عنها - قالت : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون ، قالا : إنا لسنا كهيئتك يا رسول اللّه ، إن اللّه قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فيغضب صلّى اللّه عليه وسلم ، حتى يعرف الغضب فى وجهه ، ثم يقول : «إن أتقاكم وأعلمكم باللّه أنا». وأخرج البخاري أيضا فى (الأدب ، باب من لم يواجه النّاس بالعتاب ح ٦١٠١) عن السيدة عائشة - رضى عنها - قالت : صنع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم شيئا ، فترخص فيه ، فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فخطب فحمد اللّه ، ثم قال : «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ،

فاللّه إنى لأعلمهم باللّه عز وجل ، وأشدهم له خشية».

(٢) من الآية ١٣١ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٢٨٥ سورة البقرة.

(٤) من الآية ١١٤ من سورة طه.

(٥) فى القشيري : [أي كان بصفة النّسيان] وهو أنسب.

(٣٦٩/٥)

وقوله تعالى : وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ قال الورتجبي عن الجنيد : إي : اعلم حقيقة أنك بنا ولنا وبنا ، علمتنا ، وإياك أن ترى نفسك فى ذلك ، فإن خطر بك خاطر غير ، فاستغفر من خاطرك ، فلا ذنب ولا خطب أعظم ممن رجع عنا إلى سوانا ، ولو فى خطرة ونفس. ثم قال عن الأستاذ القشيري : إذا علمت أنك علمته فاستغفر لذنبك من هذا فإن الحق علا جلال قدره أن يعلمه غيره. هـ. قلت : وحاصله : أنّ استغفاره صلّى اللّه عليه وسلم ما عسى أن يخطر بباله رؤية وجوده ، كما قال الشاعر :

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب فلا وجود للغير معه أصلا ، فهو الذي عرف نفسه بنفسه ، ووحّد نفسه بنفسه ، وقدّس نفسه بنفسه ، وعظّم نفسه بنفسه ، كما قال الهروي رضي اللّه عنه حين سئل عن التوحيد الخاص :

ما وحّد الواحد من واحد إذ كلّ من وحّده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلها الواحد

توحيده إيّاه توحيده ونعت من ينعته لاحد «١»

ثم ذكر حال المؤمنين والمنافقين عند نزول الوحى ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ٢٠ الى ٢٤]

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (٢٠) طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (٢٢) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ (٢٣) أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (٢٤)

يقول الحق جل جلاله : وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فيها ذكر الجهاد ، وذلك أنّ المؤمنين كان حرصهم على الجهاد يبعثهم على تمنى ظهور الإسلام ، وتمنى قتال العدو ، فكانوا يأنسون بالوحى ،

(١) راجع التعليق على هذه الأبيات عند إشارة الآيات : ٢ - ٤ من سورة الفاتحة.

(٣٧٠/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٧١

ويستوحشون إذا أبطأ ، وكان المنافقون على العكس من ذلك ، فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فى معنى الجهاد مُحْكَمَةٌ أي : مبيّنة غير متشابهة ، لا تحتمل وجها إلا وجوب الجهاد. وعن قتادة : كل سورة فيها ذكر القتال فهى محكمة «١» لأن النّسخ لا يرد عليها لأن القتال نسخ ما كان قبل من الصلح والمهادنة ، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة. هـ.

وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ أي : أمر فيها بالجهاد رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ نفاق ، أي : رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها ، يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ أي : تشخص أبصارهم جبنا وجزعا كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت.

قال القشيري : كان المسلمون تضيق صدورهم لتأخر الوحى ، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحى بسرعة ، والمنافقون إذا ذكر القتال يكرهون ذلك لما كان يشق عليهم القتال ، فكانوا بذلك يفتضحون وينظرون إليه نظر المغشىّ عليه من الموت أي : بغاية الكراهة لذلك ، فَأَوْلى لَهُمْ تهديد ، أي : الوعيد لهم. هـ.

وقيل : المعنى :

فويل لهم ، وهو أفعل ، من : الولي ، وهو القرب ، والمعنى : الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ، ويقرب من ساحتهم ، وقيل : أصله : أويل ، فقلب ، فوزنه : أفلع ، قال الثعلبي : يقال لمن همّ بالعطب ثم أفلت : أولى لك ، أي : قاربت العطب.

وقوله تعالى : طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ : استئناف ، أي : طاعة للّه وللرسول ، وقول معروف حسن خير لهم ، أو : يكون حكاية قول المنافقين ، أي : قالوا : أمرنا طاعة وقول معروف ، قالوه نفاقا ، فيكون خبرا عن مضمر ، وقيل :

«أولى» : مبتدأ ، و«طاعة» : خبره ، وهذا أحسن ، وهو المشهور من استعمال «أولى» بمعنى : أحق وأصوب ، أي :

فالطاعة والقول المعروف أولى لهم وأصوب.

فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ أي : فإذا جدّ الأمر ولزمهم القتال فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ فى الإيمان والطاعة لَكانَ الصدق خَيْراً لَهُمْ من كراهة الجهاد ، وقيل : جواب «إذا» وهو العامل فيها - محذوف ، أي : فإذا عزم الأمر خالفوا أو تخلفوا ، أو نافقوا ، أو كرهوا.

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ أي : فلعلكّم إن أعرضتم عن دين اللّه وسنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية من الإفساد فى الأرض ، بالتغاور والتناهب ، وقطع الأرحام ، بمقاتلة بعض الأقارب بعضا ، أو : فهل عسيتم إن توليتم أمور النّاس وتأمّرتم عليهم أن تفسدوا فى الأرض ، تفاخرا على الملك ، وتهالكا على الدنيا ، فإن أحوالكم شاهدة بذلك من خراب الدين ، والحرص على الدنيا. قال فى

---

(١) أخرج قول قتادة ، الطبري (٢٦/ ٥٤).

الحاشية الفاسية : والأشهر أنه من الولاية ، أي : إن وليتم الحكم ، وقد جاء حديث أنهم قريش أخذ اللّه عليهم إن ولوا أمر النّاس ألا يفسدوا ، ولا يقطعوا الأرحام ، قاله ابن حجر «١». هـ.

وخبر «عسى» : «أن تفسدوا» ، والشرط اعتراض بين الاسم والخبر ، والتقدير : فهل عسيتم أن تفسدوا فى الأرض إن توليتم. تقول : عسى يا فلان إن فعلت كذا أن يكون كذا ، فهل عسيت أنت ذلك ، أي : فهل توقعت ذلك؟

أُولئِكَ المذكورون ، فالإشارة إلى المخاطبين ، إيذانا بأن ذكر مساوئهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب ، وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم ، وهو مبتدأ ، وخبره : الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ أبعدهم عن رحمته ، فَأَصَمَّهُمْ عن استماع الحق والموعظة لتصاممهم عنه بسوء اختيارهم ، وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق.

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ فيعرفون ما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات ، أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها فلا يصل إليها وعظ أصلا ، و«أم» منقطعة ، وما فيها من معنى «بل» للانتقال من التوبيخ على عدم التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة ، لا تقبل التدبر والتفكر ، والهمزة للتقرير.

وتنكير «قلوب» ، إما لتهويل حالها ، وتفظيع شأنها ، بإبهام أمرها فى الفساد والجهالة ، كأنه قيل : قلوب منكرة لا يعرف حالها ، ولا يقادر قدرها فى القسوة ، وإما لأنّ المراد بها قلوب بعض منهم ، وهم المنافقون ، وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أنها مخصوصة بها ، مناسبة لها ، غير مجانسة لسائر الأفعال المعهودة.

قال القشيري : إذا تدبروا القرآن أفضى بهم إلى حس العرفان ، وأزاحهم عن ظلمة التحيّر أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها أقفل الحقّ على قلوب الكفار ، فلا يدخلها زواجر التنبيه ، ولا تنبسط عليها شعاع العلم

، ولا يحصل فيهم الخطاب ، والباب إذا كان مقفلا ، فكما لا يدخل فيه شيء لا يخرج ما فيه ، كذلك هى قلوب الكفار مقفلة فلا الكفر الذي فيها يخرج ، ولا الإيمان الذي يدعون إليه يدخل فى قلوبهم. هـ.

وقال ابن عطية : هو الرّان الذي منعهم من الإيمان ، ثم ذكر حكاية الشاب ، وذلك أن وفد اليمن قدم على النّبىّ صلى اللّه عليه وسلم وفيهم شاب ، فقرأ عليهم النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم هذه الآية ، فقال الشابّ : عليها أقفالها حتى يفتحها اللّه ويفرجها ، قال عمر :

---

(١) فى فتح الباري (التفسير ، سورة سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم ٨/ ٤٤٥) وعزى ابن حجر الحديث المشار إليه للطبرى فى تهذيبه ، من حديث عبد اللّه بن مغفل. ونصه : «سمعت النّبى صلّى اللّه عليه وسلم يقول : فَهَلْ ، عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قال : هم هذا الحي من قريش ، أخذ اللّه عليهم إن ولوا النّاس أن لا يفسدوا فى الأرض ولا يقطعوا أرحامهم».

فعظم فى عينى ، فما زالت فى نفس عمر رضي اللّه عنه - حتى ولّى الخلافة ، فاستعان بذلك الفتى «١». هـ. وفى الحديث :

«إذا أراد اللّه بعبد خيرا فتح له قفل قلبه ، وجعل فيه اليقين» «٢».

الإشارة : أهل التوجه والرّياضة يفرحون بما ينزل بهم ، مما يثقل على نفوسهم ، كالفاقات والأزمات ، وتسليط الخلق عليهم ، وغير ذلك من النّوائب لتموت نفوسهم فتحيا قلوبهم وأرواحهم بمعرفة اللّه ، والذين فى قلوبهم مرض كالوساوس والخواطر يفرون من ذلك ، وينظرون - حين يرون أمارات ذلك - نظر المغشى عليه من الموت ، فالأولى لهم الخضوع تحت مجارى الأقدار ، والرّضا والتسليم لأحكام الواحد القهار ، فإذا عزم الأمر بالتوجه إلى جهاد النّفس ، أو بالسفر إلى من يداويها ، فلو صدقوا فى الطلب ، وتوجهوا للطبيب ، لكان خيرا لهم. فهل عسيتم إن توليتم وأعرضتم عن ذلك ، ولم تسافروا إلى الطبيب ، أن تفسدوا فى الأرض بالمعاصي والغفلة ، وتقطعوا أرحامكم ، إذ لا يصل رحمه حقيقة إلا من صفا قلبه ، ودخله الخوف والهيبة ، أولئك الذين أبعدهم اللّه عن حضرته ، فأصمّهم عن سماع الداعي إلى اللّه ، وأعمى أبصارهم عن رؤية خصوصيته ، وأنوار معرفته ، أفلا يتدبرون القرآن ، فإنّ فيه علوم الظاهر والباطن ، لكن إذا زالت عن القلوب الأقفال ، وحاصلها أربعة : حب الدنيا ، وحب الرّئاسة ، والانهماك فى الحظوظ والشهوات ، وكثرة العلائق والشواغل ، فإن سلم من هذه صفا قلبه ،

وتجلت فيه أسرار معانى الذات والصفات ، فيتدبر القرآن ، ويغوص فى بحر أسراره ، ويستخرج يواقيته ودرره. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر من رجع بعد التوجه ، فقال :

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا ...

---

(١) أخرجه الطبري (٢٦/ ٥٨) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٨٧) وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٦/ ٥٢) لإسحاق بن راهويه ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن عروة.

(٢) ذكره فى كنز العمال (ح ٣٠٧٦٨) وعزاه لأبى الشيخ عن أبى ذر. وقال المناوى فى الفيض (١/ ٢٦٠) : «وفيه سعيد بن إبراهيم ، قال الذهبي : مجهول». وبقية الحديث : «جعل فيه اليقين والصدق ، وجعل قلبه واعيا لما سلك فيه ، وجعل قلبه سليما ، ولسانه صادقا ، وخليقته مستقيمة ، وجعل أذنه سميعة ، وعينه بصيرة».

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ٢٥ الى ٢٨]

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ (٢٥) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ (٢٧) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٢٨)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ أي : رجعوا إلى الكفر ، وهم المنافقون ، الذين وصفوا قبل بمرض القلوب ، وغيره ، من قبائح الأفعال والأحوال ، فإنهم كفروا به صلّى اللّه عليه وسلم مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى بالدلائل الظاهرة ، والمعجزات القاهرة. وقيل : اليهود ، وقيل : أهل الكتابين جميعا ، كفروا به صلّى اللّه عليه وسلم بعد ما وجدوا نعته فى كتابهم ، وعرفوا أنه المنعوت بذلك ، وقوله تعالى : الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ ، الجملة : خبر «إن» أي :

الشيطان زيّن لهم ذلك ، أو : سهّل لهم ركوب العظائم ، من : السّول ، وهو الاسترخاء ، أي : أرخى العنان لهم ، حتى جرّهم إلى مراده ، وَأَمْلى لَهُمْ ومدّ لهم فى الآمال والأمانى ، وقرأ البصري : «وأملى» بالبناء للمفعول ، أي :

أملهوا ومدّ فى عمرهم.

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ الإشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم ، لا إلى الإملاء ، ولا إلى التسويل - كما قيل - إذ ليس شيئا منهما سببا في القول الآتي أي : ذلك الارتداد بسبب أنهم - أي المنافقون - قالوا لليهود الذين كرهوا ما نزّل اللّه من القرآن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بعد ما علموا أنه من عند اللّه حسدا وطمعا في نزوله عليهم : سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ أي : عداوة محمد [والقعود عن] «١» نصر دينه ، أو : في نصرهم والدفع عنهم إن نزل بهم شيء ، من قبله عليه السّلام ، وهو الذي حكاه عنهم بقوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ ... الآية «٢» وهم بنو قريظة والنّضير ، الذين كانوا يوالونهم ويوادونهم ، وإنما كانوا يقولون لهم ذلك سرا ، كما ينبئ عنه قوله تعالى : وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ «٣» أي : جميع أسرارهم التي من جملتها : قولهم هذا ، وقرأ الأخوان وحفص بكسر الهمزة مصدر ، أي : إخفاءهم لما يقولون لليهود.

فَكَيْفَ تكون حيلتهم وما يصنعون إذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ حال كونهم يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ ، وهو تصوير لحال توفيهم على أهول الوجوه وأفظعها. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : «لا يتوفى أحد على

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس في الأصول ، وأثبته لاقتضاء السياق له.

(٢) الآية ١١ من سورة الحشر. [.....]

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائي «إسرارهم» بكسر الهمزة ، مصدر «أسرّ» ، وقرأ الباقون «بالهمزة المفتوحة» جمع : سرّ.

انظر الهداية للمهدوى (٢/ ٥١٦) والإتحاف ٢/ ٤٧٨.

معصية إلا تضرب الملائكة وجهه ودبره» «١». ذلِكَ التوفى الهائل بِأَنَّهُمُ ، بسبب أنهم اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ من الكفر والمعاصي ومعاونة الكفرة ، وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ من الطاعة والإيمان ونصر المؤمنين ، فَأَحْبَطَ لأجل ذلك أَعْمالَهُمْ التي عملوها حال الإيمان وبعد الارتداد ، من أعمال البر.

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ٢٩ الى ٣٠]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (٣٠)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشنيعة ، أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ أحقادهم ، ف «أم» منقطعة ، وأ «ن» مخففة ، واسمها : ضمير الشأن ، أي : أظن المنافقون

الذين فى قلوبهم حقد وعداوة أنه لن يخرج اللّه حقادهم ، ولن يبرزها لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، فيبقى أمورهم مستورة؟ بل لا يكاد يدخل ذلك تحت الاحتمال.
وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ ودللناك عليهم بأمارات ، حتى تعرفهم بأعينهم ، معرفة مزاحمة للرؤية. والالتفات لنون العظمة لإبراز العناية بالإرادة ، وفى مسند أحمد ، عن ابن مسعود : خطبنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فحمد اللّه ، وأثنى عليه ، ثم قال : «إن منكم منافقين ، فمن سميت فليقم ، ثم قال : قم يا فلان ، حتى سمى ستة وثلاثين» «٢» انظر الطيبي. فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ بعلامتهم التي نسمهم بها ، وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : ما خفى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ، ولقد كنا فى بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين ، يشكرهم النّاس «٣» فناموا ، فأصبح على وجه كلّ واحد منهم مكتوب : هذا منافق» «٤» قال ابن زيد : قصد اللّه إظهارهم ، وأمرهم أن يخرجوا من المسجد ، فأبوا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا اللّه ، فحقنت دمائهم ، ونكحوا ونكح منهم بها.
وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ أي : واللّه لتعرفنهم فِي لَحْنِ الْقَوْلِ أي : مجراه وأسلوبه وإمالته عن الاعتدال لما فيه من التذويق والتشديق ، وقد كانت ألسنتهم حادة ، وقلوبهم خاربة ، كما قال تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ ...
الآية «٥» ، من فى قلبه شيء لا بد أن يظهر على لسانه ، كما قيل : «ما كمن فيك ظهر على فيك». وهذه الجمل كلها داخلة تحت «لو» معلقة بالمشيئة ، واللحن يطلق على وجهين : صواب وخطأ ، فالفعل من الصواب : لحن يلحن لحنا ،

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٦٢٥٧) بنحوه.
(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٢٧٣) والطبراني فى الكبير (١٧/ ٢٤٦ ح ٦٨٧).
(٣) فى القرطبي : يشك فيهم النّاس.
(٤) على هامش النّسخة الأم مايلى : «هذا غريب جدا ، بل باطل عن ابن عباس». قلت : والخبر ذكره القرطبي فى التفسير (٧/ ٦٢٥٩) عن أنس.
(٥) الآية ٢٠٤ من سورة البقرة.

كفرح ، فهو لحن ، إذا فطن للشيء ، ومنه قوله صلّى اللّه عليه وسلم : «ولعل بعضكم أن يكون ألحن

بحجته من بعض» «١» أي : لقوته على تصريف الكلام. والفعل من الخطأ : لحن يلحن لحنا ، كجعل ، فهو لاحن إذا أخطأ ، والأصل فيه : إزالة الكلام عن جهته ، مأخوذ من : اللحن ، وهو ضد الإعراب ، وهو الذهاب عن الصواب فى الكلام «٢». وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ فيجازيكم بحسب قصدكم إذ الأعمال بالنيات ، وهذا وعد للمؤمنين ، وإيذان بأن حالهم بخلاف حال المنافقين ، أو : يعلم جميع أعمال العباد ، فيميز خيرها من شرها.

الإشارة : إن الذين ارتدوا على أدبارهم ، أي : رجعوا عن صحبة المشايخ ، بعد ما ظهر لهم أسرار خصوصيتهم الشيطان سول لهم وأملى لهم ، وتقدم عن القشيري : أنه يتخلف عنهم يوم القيامة ، ولا يلحق بالمقربين ، ولو يشفع فيه ألف عارف ، بل من كمال المكر به أن يلقى شبهه فى الآخرة على غيره ، حتى يتوهم عارفوه من أهل المعرفة أنه هو ، فلا يشفع أحد فيه لظنهم أنه معهم ، فإذا ارتفعوا إلى عليين محيت صورته ، ورفع إلى مقام العامة ، انظر معناه فى آل عمران «٣».

وقال هنا : الذي طلع فجر قلبه وتلألأ نور التوحيد فيه ، ثم ارتد قبل طلوع نهار إيمانه انكسف شمس يومه ، وأظلم نهار عرفانه ، ودجا ليل شكّه ، وغابت نجوم عقله ، فحدّث عن ظلماتهم ولا حرج. هـ.

ولا سيما إذا تحزّب مع العامة فى الإذاية ، وقال للذين كرهوا ما نزّل اللّه على أهل الخصوصية من الأسرار : سنطيعكم فى بعض الأمر من إذايتهم ، واللّه يعلم إسرارهم ، وباقى الوعيد الذي فى الآية ربما يشملهم. وقوله تعالى : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أي : عداوة لأولياء اللّه أن لن يخرج اللّه أضغانهم؟ بل يخرجها ويظهر وبالها ، ويفتضحون ولو بعد حين ، وقوله تعالى : وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ فى قوة الخطاب ، ومفهوم الكلام لأن الأسرة تدلّ على السريرة ، وما خامر القلوب فعلى الوجوه يلوح ، وأنشدوا فى المعنى :

لست «٤» من ليس يدرى ما هوان من كرامه إنّ للحبّ وللبغض على الوجه علامه

المؤمن ينظر بنور الفراسة ، والعارف ينظر بعين التحقيق ، والموحّد ينظر باللّه ، ولا يستتر عليه شىء. هـ من القشيري.

---

(١) بعض حديث أخرجه البخاري فى (الشهادات ، باب من أقام البينة بعد اليمين ح ٢٦٨٠) ومسلم فى (الأقضية ، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ح ١٧١٣). من حديث أم سلمة - رضي اللّه عنها.

(٢) انظر اللسان (لحن ٥/ ٤٠١٣ - ٤٠١٤).

(٣) راجع إشارة الآية ٩٠ من سورة آل عمران. (١/ ٣٧٩).

(٤) هكذا فى الأصول ، وأظنه : لست ممن.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٧٧

ثم ذكر اختباره لأهل الصدق ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ٣١ الى ٣٢]

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ أي : واللّه لنختبرنّكم بالأمر بالجهاد ، ونحوه من التكاليف الشاقة ، أي : نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ فى إظهار العدل ، حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ على مشاق الجهاد والتكاليف ، علما ظاهرا ، يتعلق به الجزاء بعد تعلق العلم به فى الأزل ، وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ أي : ونختبر أسراركم بإظهار ما فيها من خير أو شر ، بالنهوض أو التخلف ، وقيل : أراد بأخباركم : أعمالكم ، عبّر بالأخبار عن الأعمال على سبيل الكناية لأن الإخبار تابع لوجود المخبر عنه ، إن كان الخبر حسنا كان المخبر عنه - وهو العمل - حسنا ، وإن كان الخبر قبيحا فالمخبر عنه قبيح. هـ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا الناس عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ أي : عادوه مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى بما شاهدوا من نعته فى التوراة ، وبما ظهر على يديه من المعجزات ، ونزل من الآيات ، وهم بنوا قريظة والنّضير ، أو : المطعمون يوم بدر من رؤساء قريش ، لَنْ يَضُرُّوا بكفرهم وصدهم اللَّهَ شَيْئاً من الأشياء ، أو :

شيئا من الصد ، أو : لن يضروا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بمشاقته ، وقد حذف المضاف لتعظيم شأنه وتعظيم مشاقته.

وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ أي : مكائدهم التي نصبوها فى إبطال دينه تعالى ، ومشاقة رسوله صلّى اللّه عليه وسلم ، فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل ، ولا يثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم.

الإشارة : قال القشيري : فى الابتلاء والامتحان يتبين جواهر الرّجال ، فيظهر المخلص ، ويفتضح الممارق «١» ، وينكشف المنافق. هـ. وكان الفضيل إذا قرأ هذه الآية بكى ، وقال : اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا. هـ. وينبغى أن يزيد : وإن بلوتنا فأيّدنا ، وباللّه التوفيق. إن الذين جحدوا وصدوا النّاس عن طريق الوصول ، وخرجوا عن منهاج السنة ، لن يضروا اللّه شيئا فإن للّه رجالا يقومون بالدعوة ، لا يضرهم من عاداهم ، حتى يأتى أمر اللّه ، وسيحبط أعمال الصادّين المعوّقين ، فلا ينهضون إلى اللّه نهوض الرّجال ، بشؤم انتقادهم. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) فى القشيري : المماذق.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٧٨

ولمّا ذمّ الذين كرهوا الجهاد ، أمر المؤمنين بالطاعة فيه ، وألّا يكونوا أمثال أولئك ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ٣٣ الى ٣٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (٣٧)

ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ (٣٨)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ فيما يأمركم به من الجهاد وغيره وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فيما سنّه لكم ، وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنّفاق ، وغير ذلك من مفسدات الأعمال ، كالعجب والرّياء ، والمن والأذى ، وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر ، خلافا للمعتزلة ، أو : لا تبطلوا أعمالكم بأن تقطعوها قبل تمامها. وبها احتج الفقهاء على وجوب إتمام العمل فأوجبوا على من شرع فى نافلة إتمامها ، وأخذه عن الآية ضعيف لأن السياق إنما هو فى إحباط العمل بالكفر ، لقوله قبل : وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ ثم قال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تكونوا كهؤلاء الذين أحبط اللّه أعمالهم بكفرهم وصدهم عن سبيل اللّه ، ومشاقتهم الرّسول ، ويؤيده أيضا : قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، هذا عام فى كلّ من مات على الكفر ، وإن صح نزوله فى أهل القليب «١».

فَلا تَهِنُوا لا تضعفوا عن الجهاد وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ، أي : لا تدعوا الكفار إلى الصلح والمسالمة فإن ذلك إعطاء الدنيّة - أي : الذلة - فى الدين ، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار «أن» فى جواب النّهى أي : لا تهنوا مع

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ٢٩٠) والقرطبي (٧/ ٦٢٦٢).

إعطاء السلم ، وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ : الأغلبون ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ بالنصر والمعونة ، ومن كان غالبا ومنصورا واللّه معه ، لا يتصور منه إظهار الذلة والضراعة لعدوه ، وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ لن يضيعها ، من : وترت الرّجل : إذا قتلت له قتيلا ، من ولد أو أخ أو حميم ، فأفردته منه ، حتى صار وترا ، عبّر عن ترك الإثابة فى مقابلة العمل بالوتر ، الذي هو إضاعة شيء معتد به من الأنفس والأموال ، مع أن الأعمال غير موجبة للثواب على قاعدة أهل السنّة ، إبرازا لغاية اللطف ، بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق ، وتنزيل ترك الإثابة منزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها ، سبحانه من رب رحيم!.
إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ لا ثبات لها ، ولا اعتداد بها ، فلا تؤثروا حياتها الفانية على الحياة الأبدية بالموت فى الجهاد الأصغر أو الأكبر ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ أي : ثواب إيمانكم وأعمالكم من الباقيات الصالحات ، التي فيها يتنافس المتنافسون ، وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ بحيث يخل أداؤها بمعايشكم ، وإنما سألكم نزرا يسيرا هو ربع العشر ، تؤدونه إلى فقرائكم.
إِنْ يَسْئَلْكُمُوها أي : جميع أموالكم فَيُحْفِكُمْ أي : يجهدكم بطلب الكل ، فالإحفاء والإلحاف : المبالغة فى السؤال ، وبلوغ الغاية ، يقال : أحفاه فى المسألة : إذا لم يترك شيئا من الإلحاح ، وأحفى شاربه : استأصله ، أي : إن يسألكم جميعها تَبْخَلُوا فلا تعطوا شيئا ، وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ أي : أحقادكم لأن عند سؤال المال يظهر الصادق من الكاذب ، وضمير «لا يسألكم» وما بعدها للّه أو لرسوله. وضمير «يخرج» للّه تعالى ، ويؤيده القراءة بنون العظمة «١» ، أو البخل لأنه سبب الأضغان.
ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ أي : يا هؤلاء ، وقيل : (ها) : للتنبيه ، و(هؤلاء) : موصول بمعنى «الذين» ، وصلته : تُدْعَوْنَ أي : أنتم الذين تدعون لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ هى النّفقة فى الغزو والزكاة ، كأنه قيل : الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر ، فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ أي : فمنكم ناس يبخلون به ، وَمَنْ يَبْخَلْ بالصدقة وأداء الفريضة فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ فإنّ كلّا من نفع الإنفاق وضرر البخل عائد إليه ، وفى حديث الترمذي : «السخي قريب من اللّه ، قريب من الجنة ، قريب من النّاس ، بعيد من النّار ، والبخيل بعيد من اللّه ، بعيد من الجنة ، بعيد من النّاس ، قريب من النّار ، ولجاهل سخى أحبّ إلى اللّه من عابد بخيل» «٢» وفى رواية : «من عالم بخيل» والبخل يتعدى ب «عن» ، و«على» ، لتضمنه معنى : الإمساك والتعدي.

---

(١) وبها قرأ يعقوب الحضرمي ، انظر البحر المحيط (٨/ ٨٥).
(٢) أخرجه الترمذي فى (البر والصلة ، باب ما جاء فى السخاء ، ح ١٩٦١) والبغوي فى التفسير (٢/ ١٠٤ - ١٠٥) والطبراني فى الأوسط (ح ٢٣٦٣) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه قال الترمذي : «هذا حديث غريب». [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٨٠
وَاللَّهُ الْغَنِيُّ عن كلّ ما سواه ، ويفتقر إليه كلّ ما عداه ، وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ أي : إنه - تعالى - لا يأمر بذلك لحاجته إليه لأنه الغنيّ عن الحاجات ، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا أي : وإن تعرضوا أيها العرب عن طاعته ، وطاعة رسوله ، والإنفاق فى سبيله يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ، يخلف قوما خيرا منكم وأطوع ، ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ فى الطاعة ، بل أطوع ، راغبين فيما يقرب إلى اللّه ورسوله ، وهم فارس ، وسئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عن هؤلاء القوم - وكان سلمان إلى جنبه ، فضرب على فخذه ، فقال : «هذا وقومه ، والذي نفسى بيده لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من فارس» «١».

قلت : صدق الصادق المصدوق ، فكم خرج منهم من جهابذة العلماء ، وأكابر الأولياء ، كالجنيد ، إمام الصوفية ، والغزالي ، حبر هذه الأمة ، وأضرابهما. وقيل : الملائكة ، وقيل : الأنصار ، وقيل : كندة ، وقيل : الروم ، والأول أشهر.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرّسول ، أو خليفته ، وهو الداعي إلى اللّه على بصيرة العيان ، ولا تبطلوا أعمالكم ، برجوعكم عن السير ، بترك المجاهدة قبل المشاهدة. إنّ الذين كفروا بوجود خصوصية التربية ، وصدوا النّاس عنها ، ثم ماتوا على ذلك ، لن يستر اللّه مساوئهم ، ولا يغيّبهم عن شهود نفوسهم التي حجبتهم عن اللّه. فلا تهنوا : لا تضعفوا ، أيها المترفهون ، عن مجاهدة نفوسكم ، فينقطع سيركم ، وذلك بالرجوع إلى الدنيا ، ولا تدعوا إلى السلم والمصالحة بينكم وبين نفوسكم ، وأنتم الأعلون ، قد أشرفتم على الظفر بها ، واللّه معكم لقوله :
وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ «٢» ، ولن ينقصكم شيئا من أعمالكم ، بل يريكم ثمرتها ، عاجلا وآجلا ، ولا يفترنّكم عن المجاهدة طول الأمل.

إنما الحياة الدنيا لعب ولهو أي : ساعة من نهار ، وإن تؤمنوا بكلّ ما وعد اللّه ، وتتقوا كلّ ما يشغل عن اللّه ، يؤتكم أجوركم عاجلا وآجلا ، ولا يسألكم الداعي إليه جميع أموالكم ، إنما يسألكم ما يخف عليكم ، تقدموه بين يدى نجواكم ، ولو سألكم جميع أموالكم لبخلتم ، ويخرج أضغانكم ، وهذا فى حق عامة المريدين ، وأما الخاصة الأقوياء ، فلو سئلوا أرواحهم لبذلوها ، واستحقروها فى جنب ما نالوا من الخصوصية ، وأما أموالهم فأهون عندهم من أن يبخلوا بشيء منها ، ويقال لعامة الطالبين للوصول : ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ ... الآية.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (التفسير - سورة سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم ح ٣٢٦٠ ، ٣٢٦١)

وقال «هذا حديث غريب» والحاكم (٢/ ٤٥٨) «وصححه ، وسكت عنه الذهبي». والطبري فى (٢٦/ ٦٦ - ٦٧) وعبد الرّزاق فى المصنف (١١/ ٦٦) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٩٢) وفى شرح السنة (١٤/ ٢٠٠) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه وزاد السيوطي فى الدر (٦/ ٥٥) عزوه لعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، والطبراني فى الأوسط ، (ح ٨٨٣٨) والبيهقي فى الدلائل (٦/ ٣٣٤).
(٢) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

قال القشيري : واللّه الغنى لذاته بذاته ، ومن غنائه : تمكنه من تنفيذ مراده ، واستغناؤه عما سواه ، وأنتم الفقراء إلى اللّه ، فى نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، فى الابتداء ليخلقكم ، وفى الوسط ليربيكم ، وفى الانتهاء يفنيكم عن أنانيتكم ، ويبقيكم بهويته ، فاللّه غنى عنكم من الأزل إلى الأبد ، وأنتم الفقراء محتاجون إليه من الأزل إلى الأبد «١». هـ.
وإن تتولوا عن السير ، وتركنوا إلى الرّخص والشهوات قبل التمكين ، يستبدل قوما غيركم ، يكونوا أحزم منكم ، وأشد مجاهدة ، صادقين فى الطلب ، ثابتين القدم فى آداب العبودية ، قد أدركتهم جذبات العناية ، وهبّت عليهم ريح الهداية ، ثم لا يكونوا أمثالكم فى التولي والضعف ، حتى يصلوا إلى مولاهم. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

---
(١) بالمعنى.

سورة الفتح

مدنية. وهى تسع وعشرون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ «١» فإنه بشارة بالفتح الذي أشار إليه سبحانه بقوله :

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا فَتَحْنا لَكَ ، الفتح عبارة عن الظفر بالبلدة عنوة أو صلحا ، بحرب أو بدون ، فإنه ما لم يقع الظفر منغلق ، مأخوذ من : فتح باب الدار. وإسناده إلى نون العظمة لإسناد الفعل إلى اللّه تعالى خلقا وإيجادا. قيل : المراد به فتح مكة ، وهو المروي عن أنس رضي اللّه عنه ، بشّر به صلّى اللّه عليه وسلم عند انصرافه من الحديبية.

والتعبير عنه بصيغة الماضي على سنن الأخبار الإلهية المحققة الوقوع ، للإيذان بتحققه ، تأكيدا للتبشير ، وتصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك ، وفيه من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر به - وهو الفتح - ما لا يخفى. وقيل :

هو فتح الحديبية ، وهو الذي عند البخاري عن أنس «٢» ، وهو الصحيح عند ابن عطية ، وعليه الجمهور. وفيها أخذت البيعة على الجهاد ، وهو كان سبب إظهار الإسلام وفشوه ، وذلك أنّ المشركين كانوا ممنوعين من مخالطة أهل الإسلام ، للحرب التي كانت بينهم ، فلما وقع الصلح اختلط النّاس بعضهم مع بعض ، وجعل الكفار يرون أنوار الإسلام ، ويسمعون القرآن ، فأسلم حينئذ بشر كثير قبل فتح مكة.

وقد ورد عنه صلّى اللّه عليه وسلم حين بلغه أن رجلا قال : ما هذا بفتح ، لقد صدّونا عن البيت ، ومنعونا ، قال : «بل هو أعظم الفتوح ، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح ، ويسألوكم القضية ، ويرغبوا إليكم فى الأمان ، وقد رأوا منكم

---

(١) الآية ٣٥ من سورة «محمد» صلى اللّه عليه وسلم.

(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير - سورة الفتح ، باب إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ح ٤ ٤٨٣).

ما يكرهون» «١». وعن الشعبي أنه قال : نزلت سورة الفتح بالحديبية ، وأصاب رسول اللّه صلّى اللّه

عليه وسلم فى تلك الغزوة ما لم يصب فى غزوة ، حيث بويع بيعة الرّضوان ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبلغ الهدى محلّه ، وبشروا بخيبر ، وظهرت الرّوم على فارس ، ففرح به المسلمون ، وكان فى فتح الحديبية آية عظيمة ، وهى أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة ، فتمضمض رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ثم مجّه فيها ، فدرّت بالماء ، حتى شرب جميع من كان معه «٢» ، وقيل : جاش بالماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد «٣». وقيل : هو جميع ما فتح له صلّى اللّه عليه وسلم ، من الإسلام ، والدعوة ، والنّبوة ، والحجة ، والسيف ، ولا فتح أبين منه وأعظم ، وهو رأس الفتوح كافة إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا هو شعبة من شعبه ، وفرع من فروعه. وقيل : الفتح : بمعنى القضاء ، والمعنى : قضينا لك على أهل مكة أن تدخلها من قابل ، وأيّا ما كان فحذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل ، والإيذان بأنّ مناط التبشير هو نفس الفتح الصادر عنه سبحانه ، لا خصوصية المفتوح. قاله أبو السعود.

فَتْحاً مُبِيناً ظاهر الأمر ، مكشوف الحال ، فارقا بين الحق والباطل. وقوله تعالى : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ غاية للفتح ، من حيث إنه مترتب على سعيه صلّى اللّه عليه وسلم فى إعلاء كلمة اللّه ، بمكابدة مشاق الحروب ، واقتحام موارد الخطوب ، أي : جعلنا الفتح على يديك ، وبسبب سعيك ، ليكون سببا لغفران اللّه لك ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ أي : جميع ما فرط منك من ترك الأولى ، وما سيقع ، وتسميته ذنبا بالنظر إلى منصبه الجليل ، وتقدم قريبا تحقيقه «٤». وقول الجلال «٥» : «اللام للعلة الغائية فمدخولها مسبب لا سبب» ، لا يريد التعليل على حقيقته العقلية ، فإنه عليه تعالى محال ، وإنما يريد صورة التعليل ، الذي هو حكمة الشيء ، وفائدته العائدة على خلقه ، فضلا وإحسانا ، فالحكم والمصالح غاية لأفعاله تعالى ، ومنافع راجعة إلى المخلوقات ، وليس شيء منها غرضا وعلة غائية لفعله ، بحيث يكون سببا لإقدامه على الفعل ، وعلة غائية للفعل لغناه تعالى ، وكماله فى ذاته عن الاستكمال

---

(١) ذكره السيوطي مطولا فى الدر (٦/ ٥٨) وعزاه للبيهقى.

(٢) أخرج البخاري فى (المغازي ، باب غزوة الحديبية ح ٤١٥٠) عن البراء قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرّضوان ، يوم الحديبية ، كنا مع النّبى صلّى اللّه عليه وسلم أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر ، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فأتانا ، فجلس على شفيرها ، ثم دعا بإناء من ماء فتوضا ، ثم مضمض ودعا ، ثم صبّه فيها ، فتركناها غير بعيد ، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا».

وقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «أصدرتنا» أي : رجعتنا ، يعنى : أنهم رجعوا عنها وقد رووا.

(٣) على هامش النّسخة الأم ما يلى : قلت : هذه القصة تكررت منه صلّى اللّه عليه وسلم فى عدة مرات ، وفى مواطن متعددة ، فلا خصوصية للحديبية بذلك. هـ.

(٤) عند الآية ١٩ من سورة «محمد» صلى اللّه عليه وسلم.

(٥) أي : جلال الدين المحلى فى تفسير الجلالين (٥١١). وقد فسر المحلى من أول سورة الكهف الى آخر سورة النّاس.

(٣٨٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٨٥

بفعل من الأفعال ، وما ورد فى الآيات والأحاديث مما يوهم الغرض والعلة فإنه يحمل على الغايات المترتبة والحكمة ، فاحتفظ بذلك. قاله صاحب الحاشية الفاسية. واللائق أن المعنى : إنا فتحنا لك وقضينا لك بأمر عاقبته أن جمع اللّه لك بين سعادة الدنيا والآخرة ، بأن غفر لك ، وأتم نعمته عليك وهداك ، ونصرك. فاللام لام العاقبة لا لام العلة فإن إفضال اللّه على رسوله لا يعلل ولا يوازى بعمل. هـ.

وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ بإعلاء الدين ، وضم الملك إلى النّبوة ، وغيرها مما أفاض عليه من النّعم الدينية والدنيوية ، وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً أي : يثبتك على الطريق القويم ، والدين المستقيم ، والاستقامة وإن كانت حاصلة قبل الفتح ، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق ، واستقامة مناهجه ، ما لم يكن حاصلا قبل.

وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ أي : يظهر دينك ، ويعزّك ، فإظهار الاسم الجليل لكونه خاتمة الغايات ، ولإظهار كمال العناية بشأن النّصر ، كما يعرب عنه تأكيده بقوله : نَصْراً عَزِيزاً أي : نصرا فيه عزة ومنعة ، أو : قويا منيعا ، على وصف المصدر بوصف صاحبه ، مجازا ، للمبالغة ، أو : عزيزا صاحبه.

الإشارة : إنّا فتحنا لك فتحا مبينا ، بأن كشفنا لك عن أسرار ذاتنا ، وأنوار صفاتنا ، وجمال أفعالنا ، فشاهدتنا بنا ، ليغفر لك اللّه ، أي : ليغيبك عن وجودك فى شعور محبوبك ، ويستر عنك حسك ورسمك ، حتى تكون بنا فى كل شيء ، قديما وحديثا ، قال القشيري : وذنب الوجود هو الشرك فى الوجود ، وغفره : ستره بنور الوحدة ، لمحو ظلمة الاثنينية هـ. ويتم نعمته عليك بالجمع بين شهود الرّبوبية ، والقيام بآداب العبودية ، ودلالة الخلق على شهود قيام الديمومية ، ويهديك طريقا مستقيما توصل إلى حضرتنا ، فتسلكها وتبينها لمن يكون على قدمك ، وينصرك اللّه نصرا عزيزا ، بالتمكن فى شهود ذاتنا ، والعكوف فى حضرتنا ، محفوفا بالنصرة والعناية ، محمولا فى محفّة الرّعاية.

ولمّا نزل قوله : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ قال المؤمنون : هذا لك يا رسول اللّه ، فمالنا؟ فأنزل اللّه «١» :

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٤ الى ٧]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها

وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (٧) ________________

(١) أخرجه البخاري فى (المغازي ، باب غزوة الحديبية ح ٤١٧٢) من حديث أنس ، وفيه : «فنزلت عليه لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ... الآية».

يقول الحق جل جلاله : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ أي : السكون والطمأنينة ، فعلة ، من : السكون ، كالبهيتة من البهتان ، فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ حتى لم يتضعضعوا من الشروط التي عقدها صلّى اللّه عليه وسلم مع المشركين ، من ردّ من أسلم منهم ، وعدم ردهم من رجع إليهم ، ومن دخول مكة قابلا بلا سلاح ، وغير ذلك مما فعله صلّى اللّه عليه وسلم معهم بالوحى ، وما صدر عن عمر رضي اللّه عنه فلشدة قوته وصلابته ، وما زال يعتق ويفعل أمورا كفارة لذلك. وقيل : (السكينة) :

الصبر على ما أمر به اللّه من الشرائع والثقة بوعد اللّه ، والتعظيم لأمر اللّه ، لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ أي :

يقينا إلى يقينهم ، أو : إيمانا بالشرائع مع إيمانهم بالعقائد.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه قال : بعث اللّه نبيه بشهادة «ألا إله إلا اللّه» فلما صدّقوه فيها ، زادهم الصلاة ، فلما صدّقوه ، زادهم الزكاة ، فلما صدّقوه ، زادهم الحج ، فلما صدّقوا زادهم الجهاد ، ثم أكمل لهم دينهم «١» ، فذلك قوله :

لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يدبرها كما يريد ، يسلط بعضها على بعض تارة ، ويوقع الصلح بينهما أخرى ، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ، وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً مبالغا فى العلم بجميع الأمور ، حَكِيماً فى تدبيره وتقديره.

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ، اللام متعلق بما يدل عليه ما ذكر من قوله : وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من معنى التصرف ، أي : دبّر ما دبّر من تسليط المؤمنين ، ليعرفوا نعمة اللّه ويشكروها ، فيدخلهم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ، وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أي : يغطّى عنهم مساوئهم ، فلا يظهرها لهم ولا لغيرهم.

وتقديم الإدخال على التكفير ، مع أن الترتيب فى الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى.

وَكانَ ذلِكَ أي : ما ذكر من الإدخال والتكفير عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً لا يقادر قدره لأنه منتهى

---

(١) أخرجه الطبري (٢٦/ ٧٢) وزاد السيوطي فى الدر المنثور (٦/ ٦٢) عزوه لابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي فى الدلائل.
هذا ، وعلى هامش النّسخة الأم ما يلى : قلت : هذا يقتضى أن الحج فرض قبل الجهاد ، وليس كذلك ، بل الجهاد فرض قبل الزكاة ، فينبغى أن لا يكون هذا صحيحا. هـ.

ما امتدت إليه أعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضر. و«عند اللّه» : حال من «فوزا عظيما» لأنه صفته فى الأصل ، فلما قدّم عليه صار حالا ، أي : كائنا عند اللّه فى علمه وقضائه. والجملة : اعتراض مقرّر لما قبله.

وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ لما أغاظهم من ذلك وكرهوه ، وهو عطف على «يدخل» ، وفى تقديم المنافقين على المشركين ما لا يخفى من الدلالة على أنهم أحق منهم بالعذاب. الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ أي : ظن الأمر السّوء ، وهو ألا ينصر اللّه رسوله والمؤمنين ، ولا يرجعهم إلى مكة ، فالسّوء عبارة عن رداءة الشيء وفساده ، يقال : فعل سوء ، أي : مسخوط فاسد. عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ أي : ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين ، وهو دائر عليهم وحائق بهم. وفيه لغتان : فتح السين وضمها ، كالكره والكره ، والضّعف والضّعف ، غير أن المفتوح غلب عليه أن يضاف إليه ما يراد ذمّه من كلّ شىء ، وأما السوء فجار مجرى الشيء الذي هو نقيض الخير ، أي : الدائرة التي يذمونها ويسخطونها دائرة عليهم ، ولا حقة بهم ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً لهم ، وهو عطف لما استوجبوه فى الآخرة على ما استوجبوه فى الدنيا ، وعطف «ولعنهم» وما بعده بالواو ، مع أن حقهما الفاء المفيدة للسببية إيذانا باستقلال كلّ واحد منهما بالوعيد ، وأصالته ، من غير اعتبار استتباع بعضها لبعض.

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، إعادة لما سبق ، وفائدتها : التنبيه على أن للّه جنود الرّحمة وجنود العذاب ، كما ينبئ عنه التعرض لوصف العزة فى قوله : وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً أي : غالبا ، فلا يردّ بأسه حَكِيماً فلا يعترض صنعه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : هو الذي أنزل السكينة فى قلوب المتوجهين ، حتى سكنوا لصدمات تجلى الجلال ، وأنوار الجمال ، وسكنوا تحت مجارى الأقدار ، كيفما برزت ، بمرارة أو حلاوة. قال القشيري : والسكينة :

ما يسكن إليه القلب من أنوار الإيمان والإيقان ، أو العرفان بمشاهدة العيان ، بل الاستغراق فى بحر العين بلا أين. هـ. «١» ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، فيترقوا من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان ، ومن مقام الإيمان إلى مقام الإحسان ، أو من علم اليقين إلى عين اليقين ، ومن عين اليقين إلى حق اليقين ، أو من المراقبة إلى المشاهدة ، أو من رؤية الأسباب إلى مسبب الأسباب.

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وهى الجنود التي يمد اللّه بها الرّوح فى محاربتها للنفس ، حتى تغلبها وتستولى عليها ، وهى اليقين ، والعلم ، والذكر ، والفكر ، والواردات الإلهية ، التي تأتى من حضرة القهار ، فتدمغ

---

(١) لم أقف على النّص فى مظانه فى تفسير القشيري.

(٣٨٧/٥)

كل ما تصادمه من الأغيار والأكدار ، وكان اللّه عليما بمن يستحق هذه الواردات ، حكيما فى ترتيبها وتدبيرها ، ليدخل من تأيد بها جنات المعارف ، تجرى من تحتها أنهار العلوم والحكم ، ويغطى عنهم مساوئهم حتى يصلوا إليه ، بما منه إليهم ، لا بما منهم إليه وهذا هو الفوز العظيم ، يفوز صاحبه بالنعيم المقيم ، فى جوار الكريم. ويعذب أهل النفاق المنتقدين على أولياء اللّه ، المتوجهين إليه ، الظانين باللّه ظن السوء ، وهو أن خصوصية التربية انقطعت. وللّه جنود السموات والأرض ، أي : جنود الحجاب ، وهو جند النّفس ، من الهوى والشيطان ، والدنيا والنّاس ، يسلطها على من يشاء من عباده ، إن يبقى فى ظلمة الحجاب ، واللّه غالب على أمره.

ثم شهد لرسوله بالرسالة ، بعد بشارته بالفتح والعصمة ، فقال :

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٨ الى ١٠]

إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً تشهد على أمتك يوم القيامة ، كقوله : وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً «١» وهو حال مقدّرة ، وَمُبَشِّراً لأهل الطاعة بالجنة ، وَنَذِيراً لأهل المعصية بالنار ، لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، والخطاب للرسول والأمة ، وَتُعَزِّرُوهُ تقوّوه بنصر دينه ، وَتُوَقِّرُوهُ أي : تعظّموه بتعظيم رسوله وسائر حرماته ، وَتُسَبِّحُوهُ تنزهوه ، أو تصلوا له ، من : السبحة ، بُكْرَةً وَأَصِيلًا

غدوة وعشية ، قيل : غدوة : صلاة الفجر ، وعشية : الظهر والعصر والمغرب والعشاء. والضمائر للّه تعالى. ومن فرّق فجعل الأولين للنبى صلّى اللّه عليه وسلم والأخير للّه تعالى ، فقد أبعد. وقرأ المكي والبصري بالغيب فى الأربعة ، والضمائر للناس ، وقرأ ابن السميفع «٢» : «وتعززوه» بزائين «٣» ، أي : تنصروه وتعزوا دينه.

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة. [.....]

(٢) فى الأصول : «السميقع».

(٣) وهى قراءة شاذة. انظر المحتسب ٢/ ٢٧٥.

(٣٨٨/٥)

إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ على الجهاد ، بيعة الرّضوان إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ لأنه خليفة عنه ، فعقد البيعة معه صلى اللّه عليه وسلم كعقدها مع اللّه من غير تفاوت بينهما ، كقوله : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ «١» ثم أكد ذلك بقوله : يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ يعنى : أن يد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الذي تعلو أيدى المبايعين هى يد اللّه ، من باب مبالغة التشبيه ، فَمَنْ نَكَثَ نقض البيعة ، ولم يف بها فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه ، قال جابر رضي اللّه عنه : «بايعنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم تحت الشجرة على الموت ، وعلى ألّا نفرّ ، فما نكث أحد منا البيعة ، إلا جدّ بن قيس المنافق ، اختبأ تحت إبط بعيره ، ولم يسر مع القوم «٢». وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ ، يقال : وفيت بالعهد وأوفيت. وقرأ حفص بضم الهاء من «عليه» توسلا لتفخيم لام الجلالة ، وقيل : هو الأصل ، وإنما كسر لمناسبة الياء. أي : ومن وفّى بعهده بالبيعة فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً الجنة وما فيها.

الإشارة : لكلّ جيل من النّاس يبعث اللّه من يذكّرهم ، ويدعوهم إلى اللّه ، بمعرفته ، أو بإقامة دينه ، ليدوم الإيمان باللّه ورسوله ، ويحصل النّصر والتعظيم للدين إلى يوم الدين ، ولولا هؤلاء الخلفاء لضاع الدين. وقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ الآية ، قال الورتجبي : ثم صرّح بأنه عليه السّلام مرآة لظهور ذاته وصفاته ، وهو مقام الاتصاف بأنوار الذات والصفات فى نور الفعل ، فصار هو هو ، إذ غاب الفعل فى الصفة ، وغابت الصفة فى الذات.

فقال : إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ ... الآية. وإلى ذلك يشير الحلّاج وغيره. وقال فى القوت : هذه أمدح آية فى كتاب اللّه عز وجل ، وأبلغ فضيلة فيه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لأنه جعله فى اللفظ بدلا عنه ، وفى الحكم مقامه ، ولم يدخل فيه كاف التشبيه ، فيقول : كأنما ، ولا لام الملك ، فيقول : للّه ،

وليس هذا من الرّبوبية للخلق سوى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم. هـ.
وقال الحسن بن منصور الحلاج : لم يظهر الحق تعالى مقام الجمع على أحد بالتصريح إلا على أخص نسمه وأشرفه ، فقال : إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ. هـ.
قال القشيري : وفى هذه الآية تصريح بعين الجمع ، كما قال : وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ «٣» وقال فى مختصره :
يشير إلى كمال فنائه وجوده عليه السّلام فى اللّه وبقائه باللّه. هـ. فالآية تشير إلى مقام الجمع ، المنبه عليه فى الحديث :
«فإذا أحببته كنت سمعه ، وبصره ، ويده» «٤» وسائر قواه ، الذي هو سر الخلافة والبقاء باللّه ، وهذا الأمر حاصل

---

(١) من الآية ٨٠ من سورة النّساء.
(٢) أخرجه مسلم فى (الإمارة ، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ، رقم ١٨٥٦ ، ح ٦٨ ، ٦٩).
(٣) من الآية ١٧ من سورة الأنفال.
(٤) سبق تخريج الحديث.

لخلفائه صلّى اللّه عليه وسلم من العارفين باللّه ، أهل الفناء والبقاء ، وهم أهل التربية النّبوية فى كلّ زمان ، فمن بايعهم فقد بايع اللّه ، ومن نظر إليهم فقد نظر إلى اللّه ، فمن نكث العهد بعد عقده معهم فإنما ينكثه على نفسه ، فتيبس شجرة إرادته ، ويطمس نور بصيرته ، فيرجع إلى مقام عامة أهل اليمين ومن أوفى بما عاهد عليه اللّه فسيؤتيه أجرا عظيما شهود ذاته المقدسة على الدوام ، والظفر بمقام المقربين ، ثبتنا اللّه على منهاجه القويم ، من غير انتكاص ولا رجوع ، آمين.
ثم ذكر من تخلّف عن البيعة ، فقال :
[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ١١ الى ١٤]
سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ

ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٤)

يقول الحق جل جلاله : سَيَقُولُ لَكَ يا محمد إذا رجعت من الحديبية الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ وهم الذين تخلفوا عن الحديبية ، وهم أعراب غفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأسلم ، وأشجع ، والديل ، وذلك أنه صلّى اللّه عليه وسلم حين أراد المسير إلى مكة ، عام الحديبية ، معتمرا ، استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ، ليخرجوا معه ، حذرا من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت ، وأحرم صلّى اللّه عليه وسلم وساق معه الهدى ليعلم أنه لا يريد حربا ، فتثاقل كثير من الأعراب ، وقالوا : نذهب إلى قوم غزوه في داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه ، فنقاتلهم ، وظنوا أنه لا ينقلب إلى المدينة ، فأوحى اللّه تعالى إليه ما قالوا «١» ، حيث تعللوا وقالوا : شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ٣٠٠).

ولم يكن تخلفنا عنك اختيارا ، بل عن اضطرار ، فَاسْتَغْفِرْ لَنا ، فأكذبهم اللّه بقوله : يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فليس تخلفهم لأجل ذلك ، وإنما تخلفوا شكا ونفاقا ، وطلبهم الاستغفار أيضا ليس بصادر عن حقيقة.

قُلْ لهم : فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً فمن يمنعكم من مشيئة اللّه وقضائه إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أي : ما يضركم من هلاك الأهل والمال وضياعها ، حتى تخلفتم عن الخروج لحفظها ، أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً أي : من يقدر على ضرركم إن أراد بكم نزول ما ينفعكم ، من حفظ أموالكم وأهليكم ، فأىّ حاجة إلى التخلف لأجل القيام بحفظهما والأمر كله بيد اللّه؟ بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً ، إضراب عما قالوه ، وبيان لكذبه بعد بيان فساده على تقدير صدقه ، أي : ليس الأمر كما يقولون ، بل كان اللّه خبيرا بجميع الأعمال ، التي من جملتها تخلفكم وما هو سببه ، فلا ينفعكم الكذب مع علم اللّه بجميع أسراركم.

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً بأن يستأصلهم المشركون بالموت ، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ذلك ، فتخلفتم لأجل ذلك ، لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة ، وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ زيّنه الشيطان وقبلتموه ، واشتغلتم بشأن أنفسكم ، غير مبالين بهم ، وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ، والمراد به الظن الأول ، والتكرير لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء ، أو ما يعمه وغيره من الظنون

الفاسدة ، كعلو الكفر ، وظهور الفساد ، وعدم صحة رسالته صلّى اللّه عليه وسلم ، فإن الجازم بصحتها لا يحول حول فكره هذه الظنون الباطلة ، وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً هالكين عند اللّه ، مستوجبين لسخطه وعقابه ، جمع : بائر ، كعائذ وعوذ ، من بار الشيء : هلك وفسد ، أي : كنتم قوما فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونيّاتكم.

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا أعددنا لِلْكافِرِينَ أي : لهم ، فأقيم الظاهر مقام المضمر للإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمان باللّه وبرسوله فهو كافر مستوجب السعير. ونكّر سَعِيراً لأنها نار مخصوصة ، كما نكّر ناراً تَلَظَّى «١». وهذا كلام وارد من قبله تعالى ، غير داخل في الكلام المتقدم ، مقرر لبوارهم ، ومبيّن لكيفيته ، أي : ومن لم يؤمن كهؤلاء المتخلفين ، فإنا أعتدنا له سعيرا يحترق بها.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يدبره تدبير قادر حكيم ، ويتصرف فيهما وفيما بينهما كيف يشاء ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ بقدرته وحكمته ، من غير دخل لأحد في شيء ، ومن حكمته : مغفرته

---

(١) الآية ١٤ من سورة الليل.

للمؤمنين وتعذيبه للكافرين. وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ، مبالغا في المغفرة والرّحمة لمن يشاء ، أي : لمن تقتضى الحكمة مغفرته ممن يؤمن به وبرسوله ، وأما من عداه من الكفر فبمعزل من ذلك قطعا.

الإشارة : هذه الآية تجر ذيلها على من تخلف من المريدين عن زيارة المشايخ من غير عذر بيّن ، واعتذر بأعذار كاذبة ، يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، وما زالت الأشياخ تقول : كل شيء يسمح فيه إلا القدوم «١» إذ به تحصل التربية والترقية ، وتقول أيضا : من جلس عنا لعذر صحيح عذرناه ، وربما يصل إليه المدد في موضعه ، ومن جلس لغير عذر لا نسامح له ، بل يحرم من زيادة الإمداد ، ومن الترقي في المقامات والأسرار ، وما قطع الناس عن اللّه إلا أموالهم وأهلوهم اشتغلوا بهم ، وحرموا السير والوصول ، ف كل مريد شغله عن زيارة شيخه أهله وماله لا يأتى منه شيء. قل : فمن يملك لكم من اللّه شيئا إن أراد بكم ضرا ، بأن قطعكم عنه بعلة الأهل والمال ، أو :

أراد بكم نفعا ، بأن وصلكم إليه ، وغيّب عنكم أهلكم ومالكم ، بل كان اللّه بما تعملون خبيرا ، يعلم من تخلف لعذر صحيح ، أو لعذر باطل. وباللّه التوفيق.

ثم قال :

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ١٥ الى ١٦]

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٦)

يقول الحق جل جلاله : سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ المذكورون آنفا إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ أي : مغانم خيبر تَأْخُذُونَها حسبما وعدكم اللّه بها ، وخصّكم بها ، عوض ما فاتكم من مغانم مكة. و(إذا) : ظرف لما قبله ، لا شرط لما بعده ، أي : سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانم خيبر : ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ إلى خيبر ، ونشهد معكم قتال أهلها يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ الذي وعد به أهل الحديبية بأن يخصّهم بغنائم خيبر ولا يشاركهم فيها أحد ، فأراد المخلّفون أن يشاركوهم ويبدلوا وعد اللّه. وكانت وقعة الحديبية فى ذى الحجة سنة ست ، فلما رجع إلى

---

(١) أي : القدوم على مشايخ التربية وزيارتهم.

المدينة أقام بها بقية ذى الحجة ، ثم غزا فى أول السابعة خيبر ، ففتحها ، وغنم أموالا كثيرة ، فخصصها بأهل الحديبية ، بأمره تعالى ، قُلْ لهم إقناطا لهم : لَنْ تَتَّبِعُونا إلى خيبر ، وهو نفى بمعنى النّهى ، للمبالغة ، أي :

لا تتبعونا ، أو : نفى محض ، إخبار من اللّه تعالى بعدم اتباعهم وألا يبدّل القول لديه.

كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ أي : من قبل انصرافهم إلى الغنيمة ، وأنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية فقط ، فَسَيَقُولُونَ للمؤمنين عند سماع هذا النّهى : بَلْ تَحْسُدُونَنا أي : ليس ذلك النّهى من عند اللّه ، بل تحسدوننا أن نشارككم فى الغنائم ، بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ كلام اللّه إِلَّا قَلِيلًا شيئا قليلا ، يعنى : مجرد اللفظ ، أو : لا يفهمون إلا فهما قليلا وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون الدين ، وهو ردّ لقولهم الباطل ، ووصف لهم بسوء الفهم والجهل المفرط. والفرق بين الإضرابين : أن الأول ردّ أنّ يكون حكم اللّه ألا يتبعوهم وإثبات الحسد ، والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أعظم منه ، وهو الجهل وقلة الفقه.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ وهم الذين تخلفوا عن الحديبية : سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ يعنى : بنى حنيفة ، قوم مسليمة الكذاب ، وأهل الرّدة الذين حاربهم أبو بكر رضي اللّه عنه ، لأن المشركين

وأهل الرّدة هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف. واستدل بالآية على حقيّة خلافة أبى بكر ، وأخذها من القرآن بقوله :

سَتُدْعَوْنَ فكان الداعي لهؤلاء الأعراب إلى قتال بنى حنيفة ، وكانوا أولى بأس شديد ، هو أبو بكر ، بلا خلاف ، قاتلوهم ليسلموا لا ليعطوا الجزية بأمر الصدّيق. وقيل : هم فارس ، والداعي لقتالهم «عمر» ، فدلت على صحة إمامته ، وهو يدل على صحة إمامة أبى بكر. تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ أي : يكون أحد الأمرين ، إما المقاتلة أو الإسلام ، ومعنى «يسلمون» على هذا التأويل : ينقادون لأن فارس مجوس ، تقبل منهم الجزية ، فَإِنْ تُطِيعُوا من دعاكم إلى قتالهم يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً هو الغنيمة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا عن الدعوة ، كما توليتم من قبل فى الحديبية ، يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً لتضاعف جرمكم. وقد تضمنت الآية إيجاب طاعة الأمراء بالوعد بالثواب عليها ، والوعيد بالعقاب على التولي ، وقد تقدم فى النّساء «١».

الإشارة : سيقول المخلفون عن السير بترك مجاهدة النّفوس ، التي بها يتحقق سير السائرين : ذرونا نتبعكم فى السير إلى اللّه من غير مجاهدة ولا تجريد ، يريدون أن يبدلوا كلام اللّه ، وهو قوله : وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا «٢» ، فخص الهداية إلى الوصول بالمجاهدة ، لا بالبقاء مع حظوظ النّفوس ، قل : لن تتبعونا فى

---

(١) راجع تفسير الآية ٥٩ من سورة النّساء ، (١/ ٥١٩).

(٢) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

السير ، ولو فعلتم ما فعلتم بلا مجاهدة ، كذلك حكم الحكيم العليم ، فإن قالوا : حسدتمونا ، حيث لم تسيرونا على ما نحن عليه ، فقد دلّ ذلك على جهلهم ، وعدم فهمهم ، قل للمخلفين على السير ، بالبقاء مع حظوظهم : ستدعون إلى مجاهدة قوم أولى بأس شديد ، وهو النّفس ، بتحميلها ما يثقل عليها ، كالذل ، والفقر ، والهوى بمخالفته ، والدنيا بالزهد فيها ورميها وراء الظهر ، والنّاس بالفرار منهم جملة ، إلا من يدلّ على اللّه ، تقاتلوهم ، أو يسلمون ، بأن ينقادوا لكم ، ويصيروا طوع أيديكم ، فإن تطيعوا يؤتكم اللّه أجرا حسنا ، وهو لذة الشهوة ، ورؤية الملك الودود ، عاجلا وآجلا ، وإن تتولوا كما توليتم فى زمان البطالة ، وبقيتم مع هوى نفوسكم ، يعذّبكم عذابا أليما ، بغم الحجاب وسوء العقاب.

قال القشيري : قوله تعالى : فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً دلت الآية على أنه يجوز أن تكون للعبد بداية غير مرضية ، ثم تتغير للصلاح ، وأنشدوا :

إذا فسد الإنسان بعد صلاحه فرجّ له بعد الفساد صلاحا «١»

قلت : وجه الاستدلال : أن طاعتهم كانت بعد التخلف والعصيان ، فقبلت منهم.

ثم استثنى أهل الأعذار الصحيحة ، فقال :

[سورة الفتح (٤٨) : آية ١٧]

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (١٧)

يقول الحق جل جلاله : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ فى التخلف عن الغزو وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الْمَرِيضِ الذي لا يقدر على الحرب حَرَجٌ لأن الجهاد منوط بالاستطاعة ونفى الحرج ، وهؤلاء أعذارهم ظاهرة صحيحة ، فلا حرج عليهم فى التخلف. وفى التصريح بنفي الحرج مع كلّ طائفة مزيد اعتناء بأمرهم ، وتوسيع لدائرة الرّخصة. وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فيما ذكر من الأوامر والنّواهى ، يُدْخِلْهُ «٢» جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ. وَمَنْ يَتَوَلَّ يعرض عن الطاعة يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً لا يقادر قدره. وقرأ نافع والشامي بنون العظمة ، والباقي بياء الغيبة.

---

(١) فى القشيري [فرجّ له عود الصلاح لعلّه].

(٢) أثبت المفسر - رحمه اللّه - قراءة «ندخله» و«نعذبه» بنون العظمة ، وهى قراءة نافع ، وابن عامر ، وأبى جعفر ، وقرأ الباقون «يدخله» و«يعذبه» بالياء. انظر الإتحاف (٢/ ٤٨٢).

(٥/٣٩٤)

الإشارة : أصحاب هذه الأعذار إن صحبوا الرّجال ، وحطوا رؤوسهم لهم ، وبذلوا نفوسهم وفلوسهم ، سقط عنهم السفر إلى صحبة أشياخهم ، ووصلت الواردات والأمداد إليهم فى أماكنهم ، ونالوا مراتب الرّجال ، حيث حبسهم العذر من العمى والعرج والمرض المزمن ، واللّه يرزق العبد على قدر نيته وهمته.

ثم ذكر شأن بيعة الرّضوان ، فقال :

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ١٨ الى ٢١]

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ

وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (١٨) وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٢٠) وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢١)

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ، وهم الذين ذكر شأن مبايعتهم بقوله : إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ ... الآية ، وبهذه الآية سميت بيعة الرّضوان ، و«إذ» منصوب ب «رضى» ، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة ، و(تحت الشجرة) : متعلق به ، أو : بمحذوف ، حال من مفعوله ، أي : رضى عنهم وقت مبايعتهم لك تَحْتَ الشَّجَرَةِ أو : حاصلا تحتها.

روى : أنه صلّى اللّه عليه وسلم ، لمّا نزل الحديبية ، بعث خراش بن أمية الخزاعي ، رسولا إلى أهل مكة ، فهمّوا به ، وأنزلوه عن بعيره ، فمنعته الأحابيش ، فلما رجع دعا بعمر ليبعثه ، فقال : يا رسول اللّه إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى أحد يمنعنى ، ولكن عثمان أعز بمكة منى ، فبعث عثمان إلى أبى سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم أنه صلّى اللّه عليه وسلم جاء زائرا إلى البيت ، معظّما لحرمته ، ولم يرد حربا ، فوقروه ، وقالوا : إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل ، فقال : ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فاحتبس عندهم ، فأرّجف بأنهم قتلوه ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا النّاس إلى البيعة ، فبايعوه تحت الشجرة - وكانت سمرة «١» وقيل : سدرة - على أن يقاتلوا قريشا ، ولا يفروا ، «٢» وأول من بايع «أبو سنان الأسدى» ، واسمه : وهب بن عبد اللّه بن محصن ، ابن

---

(١) السمرة : واحده السّمر ، كرجل : شجرة الطلح. انظر النّهاية (سمر ٢/ ٣٩٩). [.....]

(٢) أخرجه البخاري فى (الجهاد والسير باب البيعة فى الحرب أن لا يفروا ح ٢٩٥٨) عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه ، وأخرجه مسلم فى (الإمارة ، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ح ١٨٥٦) من حديث جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه.

أخى عكاشة بن محصن. وقيل : بايعوه على الموت عنده «١» ، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «أنتم اليوم خير أهل الأرض» «٢» وقال أيضا : «لا يدخل النّار أحد ممن بايع تحت الشجرة» «٣». وكانوا ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين ، وقيل : ألفا وأربعمائة. والحديبية بتخفيف الياء ، قاله فى المصباح ، وهى على عشرة أميال من مكة.

فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ من الإخلاص ، وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه. وقال القشيري : علم ما فى قلوبهم من الاضطراب والتشكيك. وذلك أنه صلّى اللّه عليه وسلم رأى فى منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، فبشّر أصحابه ، فلما صدوا خامر قلوبهم شك «٤» ، فَأَنْزَلَ اللّه السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ أي : اليقين والطمأنينة ، فذهب عنهم. ثم قال :

وفى الآية دليل على أنه قد يخطر ببال الإنسان خواطر مشكّكة ، وفى الرّيب موقعة ، ثم لا عبرة ، فإن اللّه تعالى إذا أراد بعبده خيرا ألزم التوحيد قلبه ، وقارن التحقيق سرّه ، فلا يضرّه كيد الشيطان. قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ... الآية «٥».

فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ أي : الطمأنينة والأمن ، وسكون النّفس ، بالربط على قلوبهم ، وَأَثابَهُمْ أي : جازاهم فَتْحاً قَرِيباً وهو فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية كما تقدم. وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وهى مغانم خيبر ، وكانت أرضا ذات عقار وأموال ، فقسمها بينهم ، وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً منيعا فلا يغالب ، حَكِيماً فيما يحكم به فلا يعارض.

---

(١) أخرجه البخاري فى (المغازي ، باب غزوة الحديبية ح ٤١٦٩) ومسلم فى (الإمارة باب البيعة فى الحرب أن لا يفروا ح ١٨٦٠) عن سلمة بن الأكوع.

وقد بيّن العلماء أنه لا تنافى بين من قال : إنهم بايعوا النّبى صلّى اللّه عليه وسلم يومئذ على الموت ، وبين من قال : إنهم بايعوه على عدم الفرار.

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/ ٥١٥ : فحاصل الجمع أنّ من أطلق أن البيعة كانت على الموت أراد لازمها ، لأنه إذا بايع أنه لا يفر لزم من ذلك أن يثبت ، والذي يثبت إما أن يغلب وإما أن يؤسر ، والذي يؤسر إما أن ينجو وإما أن يموت ، ولمّا كان الموت لا يؤمن فى مثل ذلك أطلقه الرّاوى.

وحاصله : أن أحدهما حكى صورة البيعة ، والآخر حكى ما تئول إليه ، وجمع الترمذي بأن بعضا بايع على الموت ، وبعضا بايع على أن لا يفر. هـ.

(٢) أخرجه البخاري فى (المغازي ، باب غزوة الحديبية ، ح ٤١٥٤) ومسلم فى (الإمارة ، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ، رقم ١٨٥٦ ، ح ٧١) من حديث جابر عبد اللّه رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٣٥٠). وأبو داود فى (السنة ، باب فى الخلفاء ح ٤٦٥٣) والترمذي فى (المناقب ، باب ما جاء فى فضل من بايع تحت الشجرة ح ٣٨٦٠) وقال : حديث حسن صحيح.

وأخرج مسلم فى (فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة ح ٢٤٩٦) من حديث جابر ، عن أم مبشّر ، أنها سمعت النبي صلّى اللّه عليه وسلم يقول عند حفصة : «لا يدخل النّار - إن شاء اللّه - من أصحاب الشجرة أحد ، الذين بايعوه تحتها».

(٤) فى القشيري : شىء.
(٥) الآية ٢٠١ من سورة الأعراف.

(٣٩٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٩٧
وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها هو ما فتح على المؤمنين ، وغنموه مع النّبى صلّى اللّه عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة. والالتفات إلى الخطاب لتشريفهم فى مقام الامتنان. فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ المغانم ، يعنى مغانم خيبر ، وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ أي : أيدى أهل خيبر وحلفاءهم من أسد وغطفان حين جاءوا لنصرتهم ، فقذف اللّه فى قلوبهم الرّعب فانصرفوا ، وقيل : أيدى أهل مكة بالصلح ، وَلِتَكُونَ هذه الكفّة آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وعبرة يعرفون أنهم من اللّه بمكان ، وأنه ضامن لنصرتهم والفتح عليهم ، أو : لتكون آية يعرفون بها صدق الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم من وعده إياهم عند رجوعه من الحديبية بما ذكر من المغانم ، ودخول مكة ، ودخول المسجد الحرام آمنين. واللام إما متعلقة بمحذوف مؤخر ، أي : وليكون آية لهم فعل ما فعل من التعجيل والكف ، وإما يتعلق بعلة أخرى محذوفة من أحد الفعلين ، أي : فعجّل لكم هذه وكفّ أيدى النّاس عنكم لتغنموها ولتكون ... إلخ ، وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً أي : يزيدكم بصيرة ويقينا وثقة بوعد اللّه حتى تثقوا فى أموركم كلها بوعد اللّه تعالى.
قال الثعلبي ، ولمّا فتح النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم حصون خيبر سمع أهل فدك ما صنع - عليه السلام - بأهل خيبر ، فأرسلوا له يسألونه أن يسيرهم ويحقن دماءهم ، ويخلوا له الأموال ، ففعل ، ثم صالح أهل خيبر ، على أن يعملوا فى أموالهم على النصف ، على أنه إن شاء أجلاهم متى شاء «١» ، ففعلوا ، فكانت خيبر فيئا للمسلمين ، وكانت فدك خالصة له صلّى اللّه عليه وسلم ، إذ لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، ولما اطمأن صلّى اللّه عليه وسلم بعد فتح خيبر أهدت له زينب الحارث اليهودية شاة مصليّة مسمومة ، أكثرت فى ذراعها السم ، فأخذ صلّى اللّه عليه وسلم الذراع ، فأكل منه ، ثم كلمه ، فأمسك ، وأكل معه بشر بن البراء بن معرور ، فمات من ساعته ، وسلم صلّى اللّه عليه وسلم حتى قام عليه بعد سنتين ، فمات به ، فجمع له بين الشهادة والنّبوة «٢».
ثم قال تعالى : وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها أي : وعجّل لكم مغانم أخرى ، وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين. ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة. قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها قدر عليها واستولى ، وأظهركم عليها ، وهى صفة أخرى ل «أخرى» مفيدة لسهولة بأسها بالنسبة إلى قدرته تعالى ، بعد بيان صعوبة منالها بالنظر إلى حذرهم. ويجوز فى «أخرى» النصب بفعل مضمر ، يفسره قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها ، أي : وقضى اللّه أخرى ، ولا ريب فى أن الإخبار بقضاء إياها بعد اندراجها فى جملة الغنائم الموعودة

بقوله : وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً فيه مزيد فائدة ، وإنما الفائدة فى بيان تعجيلها وتأخير هذه.

---

(١) حديث مصالحة النّبى صلّى اللّه عليه وسلم لأهل خيبر ، أخرجه البخاري فى (فرض الخمس ، باب ما كان النّبى ، صلى اللّه عليه وسلم يعطى المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه ح ٣١٥٢) ومسلم فى (المساقاة ، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع ، ح ١٥٥١) عن ابن عمر رضي اللّه عنه.

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/ ٣٣٧ - ٣٣٨) وتفسير البغوي (٧/ ٣١١). وحديث أكلة خيبر أخرجه البخاري فى (الهبة ، باب قبول الهدية من المشركين ، ح ٢٦١٧) ومسلم فى (السّلام ، باب السم ، ح ٢١٩٠) عن أنس رضي اللّه عنه.

(٣٩٧/٥)

وقال ابن عباس والحسن ومقاتل : وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها هى فارس والرّوم. وقال مجاهد : ما فتحوا حتى اليوم «١». هـ. قلت : بل إلى يوم القيامة وهذا أظهر الأقوال. أي : لم تقدروا على أخذها الآن وستأخذونها ، وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً لأن قدرته تعالى عامة التعلق ، لا تختص بشيء دون شيء.
قال ابن عرفة : مذهبنا أن المستحيل لا يصدق عليه شيء ، فيبقى النّظر : هل يطلق على الواجب شيء ، لقوله تعالى : قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ «٢» أم لا يطلق عليه شى ء؟ فإن قلنا : يصلح الإطلاق وجب التخصيص فى الآية ، فيكون عاما مخصوصا ، وإن قلنا بعدم صحته ، فيبقى النّظر : هل المراد بالقدرة الإحداث أو الصلاحية ، فإن أريد الإحداث فهى مخصوصة ، وإن أريد الصلاحية فهو عام غير مخصوص. هـ.
الإشارة : مشايخ التربية خلفاء الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم فحين بايعهم على عقد الإرادة فكأنما بايع الرّسول ، فيقال على طريق الإشارة : لقد رضي اللّه عن المؤمنين المتوجهين ، إذ يبايعونك أيها العارف تحت الشجرة ، تحت ظل شجرة همتك ، فعلم ما فى قلوبهم من الصدق ، فأنزل السكينة عليهم ، حتى سكنوا تحت مشاق التربية والرّياضة ، وأثابهم فتحا قريبا ، وهو الوصول إلى حضرة العيان ، ومغانم كثيرة فتوحات ومكاشفات ، وأسرار ، وترقيات كثيرة ، إلى ما لا نهاية له ، يأخذونها. ووعدكم اللّه مغانم كثيرة تأخذونها بعد الفتح ، من الرّجوع إلى البقاء وبقاء البقاء ، والتوسع فى المقامات ، والترقي فى معارج المكاشفات ، فعجّل لكم هذه ، هو مقام الفناء ، وكفّ أيدى القواطع عنكم ، لتتوجهوا إلى مولاكم ، لتكون عبرة للمؤمنين المتخلفين عن السير ، يهتدون بهديكم ، ويهديكم صراطا مستقيما :

طريق الوصول إلى حضرة القدس ، ومحل الأنس ، وأخرى لم تقدروا عليها فى الدنيا ، ادخرها لكم يوم القيامة ، هو المقام فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وقال الورتجبي : لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ أي : رضى عنهم فى الأزل ، وسابق علم القدم ، ويبقى رضاه إلى الأبد لأن رضاه صفة الأزلية الباقية الأبدية ، لا تتغير بتغير الحدثان ، ولا بالوقت والزمان ، ولا بالطاعة والعصيان ، فإذا هم فى اصطفائيته باقون إلى الأبد ، لا يسقطون من درجاتهم بالزلات ولا بالبشرية ، ولا بالشهوات ، لأن أهل الرّضا محروسون برعايته ، لا تجرى عليهم نعوت أهل البعد ، وصاروا متصفين بوصف رضاه ، فرضوا عنه كما رضى عنهم ، قال تعالى : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ «٣» ، وهذا بعد قذف نور الأنس فى قلوبهم بقوله : فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ فسكنت قلوبهم إليه ، واطمأنت به لتنزّل اليقين. هـ.

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ٣١٢).

(٢) من الآية ١٩ من سورة الأنعام.

(٣) من الآية ١١٩ من سورة المائدة.

(٣٩٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٩٩

قلت : هذا لمن تحققت محبوبيته ممن رسخت قدمه فى شهود الحق ، واطمأن به ، وأما قبل هذا فالأمر مبهم.

قال اللجائى ، فى كتابه «قطب العارفين» : وإياك أن تعتقد أنّ فى النّاس شرا منك ، وإن كان عاصيا وأنت مطيع ، فإنّ الأمر يحدث بعد الأمر ، وسر اللّه تعالى فى خلقه غامض ، لا يدرى من يبوء بالشقاوة ، ولا من يفوز بالسعادة ، وقد يتلقى العبد رضا اللّه تعالى بحسنة واحدة ، ويتلقى سخطه بذنب واحد ، فإنّ أمر اللّه خفى فى غموض المشيئة ... إلخ.

ثم بشّرهم بالنصر ، فقال :

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٢٢ الى ٢٤]

وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٢٤)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا من أهل مكة ولم يصالحوا ، أو من خلفاء خيبر ،

الذين جاءوا لنصرهم لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ منهزمين ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا يلى أمرهم ، وَلا نَصِيراً ينصرهم. سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ : مصدر مؤكد ، أي : سنّ اللّه غلبة أنبيائه سنة ماضية ، وهو قوله :
لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي «١» وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا تغيرا.
وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ أي : أيدى كفار أهل مكة وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ عن أهل مكة بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ أي : أقدركم وسلّطكم عليهم ، يعنى : قضى بينهم وبينكم المكافّة والمحاجزة بعد ما خوّلكم الظفر عليهم والغلبة ، وذلك أن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خمسمائة إلى الحديبية ، يطلب غرة بالمسلمين ، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم خالد بن الوليد على جند ، فهزمهم ، حتى أدخلهم حيطان مكة ، ثم عاد ثانيا

---

(١) من الآية ٢١ من سورة المجادلة.

(٣٩٩/٥)

فهزمه ، ثم عاد فهزمه «١» ، هكذا نقله الثعلبي وغيره. فانظره مع ما فى الاكتفاء للكلاعى : أن خالدا كان مع المشركين فى الحديبية ، وإنما أسلم بعد الحديبية قبل الفتح ، وكان فى السنة الثامنة ، والحديبية فى السادسة ، والذي ذكر النّسفى أنه عليه السّلام بعث من هزمهم ، ولم يسمه ، وهزم خالد لبعض قريش إنما كان فى الفتح ، لا فى الحديبية ، فلعل الرّاوى غلط. وقال أنس : إن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النّبى صلّى اللّه عليه وسلم وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الفجر ، عام الحديبية ، ليقاتلوا المسلمين ، فأخذهم النّبى صلّى اللّه عليه وسلم سلما ، فأعتقهم ، فنزلت الآية «٢».
ووجه المنّة فى كفّ أيدى المؤمنين عن الكافرين : ما ذكر بعد من قوله : وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ ... الآية ، أو : ما تطرق بسببه من الصلح وانقيادهم إليه ، فإنهم لما رأوا أصحابهم انهزموا أذعنوا للصلح ، وقال القشيري : بعد أن اضطرهم المسلمون إلى بيوتهم ، أنزل اللّه هذه الآية يمنّ عليهم ، حيث كفّ أيدى بعضهم عن بعض ، عن قدرة من المسلمين ، لا عن عجز ، فأما الكفار فكفّوا أيديهم رعبا وخوفا ، وأما المسلمون فنهيا من قبل اللّه ، لما فى أصلابهم من المؤمنين. هـ. وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ من مقاتلتهم وهزمهم أولا ، والكفّ عنهم ثانيا ، لتعظيم بيته الحرام ، وقرأ البصري بياء الغيب ، أي : بما يعمل المشركون بَصِيراً فيجازى كلّا بما يستحقه.
[سورة الفتح (٤٨) : آية ٢٥]

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (٢٥)

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَصدوا الْهَدْيَ حال كونه مَعْكُوفاً أي : محبوسا عن أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ أي : مكانه الذي يحلّ به نحره ، وهو منى وكان صلّى اللّه عليه وسلم ساق سبعين بدنة ، فلما صدّ ، نحرها بموضعه ، وبه استدل من قال : أنّ المحصر ينحر هداياه بموضعه ، وروى أن خيامه صلّى اللّه عليه وسلم كانت فى الحل ، ومصلّاه فى الحرم ، وهناك نحرت هداياه صلّى اللّه عليه وسلم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يقال لمن سبقت لهم العناية ، وحفّت بهم الرّعاية : لو قاتلكم الذين كفروا من النّفس الأمارة ، والشيطان ، والهوى ، وسائر القواطع ، لولّوا الأدبار ، ثم لا يجدون تسلطا عليكم أبدا ، سنّة اللّه التي قد خلت فيمن توجه إليه بصدق الطلب ، ودخل تحت تربية الرّجال ، فإن همتهم دائرة عليه ، ولن تجد لسنة اللّه تبديلا. وهو الذي كفّ أيدى الأعداء من القواطع عنكم ، وكفّ أيديكم عنهم ، من بعد أن أظفركم عليهم ، فإنّ النّفس إذا تعذبت واطمأنت وجب الكفّ عن مجاهدتها ، ووجب البرور بها ، وتصديقها فيما تحدثه ، وكذا سائر القواطع تجب الغيبة عنها ، وعدم

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/ ٩٥) وانظر الكافي الشاف (ح ٤٢٤) فقد قال الحافظ ابن حجر معقبا : «فى صحته نظر لأن خالدا لم يكن أسلم فى الحديبية. وظاهر السياق أن هذه القصة كانت فى الحديبية». وسيذكر الشيخ بعد قليل حديث أنس. وهو أصح لوروده فى الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم فى (الجهاد ، باب قول اللّه تعالى : وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ح ١٨٠٨) من حديث أنس رضي اللّه عنه. [.....]

الالتفات إليها غيبة فى اللّه واشتغالا بشهوده. وقيل لبعضهم : متى ينتهى سير الطالبين؟ قال : «الظفر بنفوسهم ، فإن ظفروا بها وصلوا». وأيض : الا تجتمع المجاهدة مع المشاهد ، فإذا تحققت المشاهدة فلا مجاهدة. هم الذين كفروا من النّفوس المتمردة ، والهوى ، وصدوكم عن مسجد الحضرة ، والهدى معكوفا ، وحبسوكم عن التقرب إلى اللّه بالنفس والمال أن يبلغ محله ، بأن تمنعكم من إعطائه ، أو تشيبه بما يفسده من الرّياء والعجب ، لئلا تبلغ محل الإخلاص.

ثم ذكر حكمة منعهم من دخول مكة عام الحديبية ، فقال :

قلت : (أن تطؤوهم) : بدل اشتمال من رجال ونساء ، ومن ضمير «تعلموهم» وبغير متعلق بتطؤهم ، وجواب «لولا» محذوف ، أغنى عنه جواب «لو» أي : لما كف أيديكم عنهم.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ بمكة ، ضعفوا عن الهجرة لَمْ تَعْلَمُوهُمْ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم مع المشركين ، أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ أي : غير عالمين بهم فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ أي : مشقة ومكروه. وفى تفسير المحلى «المعرة» بالإثم نظر ، مع فرض عدم العلم ، إلا أن يحمل على صورة الإثم ، وهو الخطأ ، وفيه الكفارة. والمعرة : مفعلة من : عراه : إذا دهاه ما يكرهه وشقّ عليه ، وهو هنا الكفارة إذا قتله خطأ ، وسوء مقالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز ، والإثم إذا قصد قتله. والوطء عبارة عن الإيقاع والإبادة.

والحاصل أنه كان بمكة قوم مسلمون مختلطون بالمشركين ، غير متميّزين منهم ، فقيل : ولولا كراهة أن تهلكوا ناسا من المؤمنين بين ظهرانى المشركين وأنتم غير عارفين بهم ، فتصيبكم بإهلاكهم مشقة ومكروه ، ولما كففنا أيديكم عنهم ، ولسلطانكم عليهم.

وكان ذلك الكفّ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ أي : فى توفيقه لزيادة الخير والطاعة لمؤمنيهم ، أو : ليدخلهم فى الإسلام من رغب فيه من مشركيهم مَنْ يَشاءُ زيادته أو هدايته ، فاللام متعلقة بمحذوف ، تعليل لما دلت عليه الآية ، وسيقت له ، من كفّ الأيدى عن أهل مكة ، والمنع من قتلهم ، صونا لما بين أظهرهم من المؤمنين.

لَوْ تَزَيَّلُوا أي : تفرقوا وتميز المسلمون من الكافرين ، لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً بقتل

مقاتلتهم ، وسبى ذراريهم. ويجوز أن يكون : «لو تزيلوا» كالتكرير ل «لولا ..» لمرجعهما لمعنى واحد ، ويكون (لعذّبنا ...) إلخ ، هو جواب «لولا» والتقدير : ولولا أن تطئوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات من غير علم ، ولو كانوا متميزين لعذبناهم بالسيف.

الإشارة : إذا اختلط أهل الانتقاد مع أهل الاعتقاد ، لا يعم البلاء المعدّ لأهل الانتقاد ، ولو تزيلوا لعذبنا المنكرين عذابا أليما ، وكذلك إذا اختلط الفجار مع الأبرار ، وغلب جمع الأبرار ، لا يعم البلاء ، ويصرف عن الجميع ، فلو تزيل الفجار لعذبوا عذابا أليما.

قال القشيري : قد تكون فى النّفس أوصاف مستحسنة ، تليق بالفيض الإلهى ، مع أوصاف مذمومة ، فلو سلطناكم على إهلاكها بالمرة ، لفاتكم ما فيها من الأوصاف الحسنة ، فتصيبكم معرة ، ليدخل اللّه

فى رحمته بالوصول إلى حضرته من يشاء من النّفوس ، بتصفية ما فيها من الرّذائل. لو تزيلوا تميز ما يصلح قلعه ، كالكبر ، والشر ، والحرص والحقد ، أو ما يصلح تبديله ، كالبخل بالسخاء ، والحرص بالقناعة ، والغضب بالحلم ، والجبن بالشجاعة ، والشهوة بالعفة ، لعذّبنا النّفوس المتمردة عذابا أليما ، بإهلاكها بالكلية. بالمعنى.

ثم وصف أهل الكفر المتقدمين الآن بالحمية ، فقال :

[سورة الفتح (٤٨) : آية ٢٦]

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا من قريش أي : ألقوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ أي : الأنفة والتكبر ، أو : صيّروا الحمية راسخة فى قلوبهم حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ : بدل ، أي : حميّة الملة الجاهلية ، أو الحميّة النّاشئة من الجاهلية ، ووضع الموصول موضع ضميرهم ، إذ تقدم ذكرهم ، لذمّهم بما فى حيز الصلة ، وتعليل الحكم به. والجعل بمعنى الإلقاء ، فلا يتعدى إلى مفعولين ، أو : بمعنى التصيير ، فالمفعول الثاني محذوف ، كما تقدم. و«الذين» : فاعل ، على كلّ حال. فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ أي : أنزل فى قلوبهم الطمأنينة والوقار ، فلم يتضعضعوا من الشروط التي شرطت قريش.

(٤٠٢/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٠٣

روى : أن رسول اللّه لمّا نزل الحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزّى ، ومكرز بن حفص ، على أن يعرضوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك ، على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ، ففعل ذلك ، وكتب بينهم كتابا ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم لعليّ رضي اللّه عنه : «اكتب «بسم اللّه الرّحمن الرّحيم» فقال سهيل وأصحابه : ما نعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، ثم قال : «اكتب : هذا ما صالح عليه رسول اللّه أهل مكة» فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول اللّه ما صددناك عن البيت وما قاتلناك ، ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّه أهل مكة ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «اكتب ما يريدون ، فأنا أشهد أنّى رسول ، وأنا محمد بن عبد اللّه» فهمّ المسلمون أن يأبوا ذلك ، ويبطشوا بهم ، فأنزل اللّه السكينة عليهم ، فتوقّروا وحلموا «١». وفى رواية البخاري : فكتب عليّ رضي اللّه عنه : «هذا ما قضى عليه محمد رسول اللّه» فلما أبوا ذلك ، قال صلّى اللّه عليه وسلم لعليّ : «امح رسول اللّه ، واكتب : محمد بن

عبد اللّه» ، فقال : وللّه لا أمحوك أبدا ، فأخذ صلّى اللّه عليه وسلم الصحيفة وكتب ما أرادوا. قيل : كتب بيده معجزة ، وقيل : أمر من كتب ، وهو الأصح.
وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى ، شهادة «لا إله إلا اللّه» «٢» ، وقيل : «بسم اللّه الرّحمن الرّحيم ، وقيل : محمد رسول اللّه ، وقيل : الوفاء بالعهد ، والثبات عليه. وإضافتها إلى التقوى لأنها سببها وأساسها ، وقيل : كلمة أهل التقوى.
وَكانُوا أَحَقَّ بِها أي : متصفين بمزيد استحقاق بها ، على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقا ، أو : أحق بها من غيرهم من سائر الأمم وَكانوا أيضا أَهْلَها المتأهلون لها بتأهيل اللّه إياهم. قال القشيري : كلمة التقوى هى التوحيد عن قلب صادق ، وأن يكون مع الكلمة الاتقاء من الشرك ، وكانوا أحق بها فى سابق حكمه ، وقديم علمه ، وهذا إلزام إكرام ولطف ، لا إلزام إكراه وعنف ، وإلزام بر ، لا إلزام جبر. هـ. وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً فيجرى الأمور على مساقها ، فيسوق كلّا إلى ما يستحقه.
الإشارة : لا يصل العبد إلى مولاه حتى تكون نفسه أرضية ، وروحه سماوية ، يدور مع الحق أينما دار ، ويخضع للحق أينما ظهر ، ولأهله أينما ظهروا ، لم تبق فيه حميّة ولا أنفه ، بل يكون كالأرض يطأها البار والفاجر ، ولا تميز بينهما ، وأما من فيه حمية الجاهلية ، فهو من أهل الخذلان ، وأما أهل العناية ، فأشار إليهم بقوله : فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النّبوة (باب سياق قصة الحديبية ٤/ ١٠٥) من حديث عروة بن الزبير ، مرسلا ، والقصة هى الصحيح ، فقد أخرجها البخارى فى (الصلح ، باب كيف يكتب : هذا ما صالح فلان بن فلان ، ح ٢٦٩٨) كما أخرجها مطولة فى (الشروط ، باب الشروط فى الجهاد ، ٥/ ٣٢٩ - ٣٣٣) من حديث عروة بن الزبير ، عن المسور بن مخرمة ومروان ، وأخرجها مسلم فى (الجهاد ، باب صلح الحديبية ح ١٧٨٣) من حديث البراء بن عازب - رضي اللّه عن الصحابة أجمعين.
(٢) هذا هو التفسير المروى عن الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم. وأخرجه الترمذى فى (التفسير - سورة الفتح ح ٣٢٦٥) وأحمد فى المسند (٥/ ١٣٨ ، ح ٢١١٥١) والحاكم (٢/ ٤٦١) «وصحّحه ووافقه الذهبى» والطبرانى فى الكبير (١/ ١٦٨) من حديث علىّ رضي اللّه عنه. وأخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات (ص ١٠٩) من حديث الطفيل بن أبىّ ، عن أبيه.

فكان متواضعا سهلا لينا ، كما قال تعالى : وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ «١» وعلى المؤمنين ، فأخبر عنهم

بقوله : أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ «٢» الآية ، «وألزمهم كلمة التقوى» ، «لا إله إلا اللّه» لأنها تهذب الأخلاق ، وتخرج ما فى القلب من الأمراض والنّفاق لأن النّفى : تنزيه وتخلية ، والإثبات : نور وتحلية ، فلا يزال النّفى يخرج من القلب ما فيه هى الظلمة والمساوئ ، حتى يتطهر ويتصف بكمال المحاسن.

قال فى نوادر الأصول ، لمّا تكلم على وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى : هو «لا إله إلا اللّه» ، وجه تسميتها بذلك : أنه اتقى بها ونفى ما أحدث م ... ن الشرك ، حمية للتوحيد وعصبية وغيرة ، اقتضاها نور التوحيد والمحبة ، فنفى القلب كلّ رب ادعى العباد ربوبيته ، وولهت قلوبهم إليه ، فابتدأ هذا القلب - الذي وصفنا - بالنفي لأرباب الأرض ، ثم سما عاليا حتى انتهى إلى الرّب الأعلى ، فوقف عنده ، وتذلل وخشع له ، واطمأن ووله إليه. وقال لنبيه : سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى «٣» أي : إن هذه أرباب متفرقون ، والرّب اللّه الواحد القهار ، فهداه إلى الرّب الأعلى ، وقال : وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى «٤». ثم قال : ألزم قلوبهم هذه الكلمة بنور المحبة ، كما قال : حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ «٥» ، فبحلاوة الحب ، وزينة البهاء ، صارت الكلمة لازمة لقلوبهم.

وأما قوله : وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها فإنما صاروا كذلك لأن اللّه كان ولا شىء ، فخلق المقادير ، وخلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النّور اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فقد علم من يخطئه ممن يصيبه. ثم ذكر أحاديث ، من ذلك : حديث [ابن عمرو] «٦» : «إن اللّه خلق خلقه ، ثم جعلهم فى ظلمة ، ثم أخذ من نوره ما شاء ، فألقاه عليهم ، فأصاب النّور من شاء أن يصيبه ، وأخطأ من شاء أن يخطئه ...» الحديث «٧». ثم قال بعد كلام طويل : ثم لمّا نفخ الرّوح فى آدم أخرج نسم بنيه ، أهل اليمين ، من كتفه الأيمن فى صفاء وتلألؤ ، وأصحاب الشمال [كالحمّة] «٨» سود من كتفه الأيسر ، والسابقون أمام الفريقين ، المقربون ، وهم الرّسل والأنبياء والأولياء ،

---

(١) الآية ٤ من سورة القلم.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٣) الآية الأولى من سورة الأعلى.

(٤) من الآية ٤٢ من سورة النّجم.

(٥) من الآية ٧ من سورة الحجرات.

(٦) فى الأصول [ابن عمر] والمثبت هو الصحيح ، فالحديث مروى عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص.

(٧) أخرجه بنحوه الترمذي وحسّنه فى (الإيمان ، باب افتراق هذه الأمة ، ح ٢٦٤٢) وأحمد فى المسند (ح ٦٨٥٤) ومطولا (ح ٦٦٤٤) والحاكم (١/ ٣٠ - ٣١) «وصحّحه ووافقه الذهبي» وكذا صحّحه ابن حبان (ص ٤٤٩) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص ، وقال الهيثمي فى المجمع (٧/ ١٩٣ - ١٩٤) : «رواه أحمد بإسنادين ، والبزار والطبراني ، ورجال أحد إسنادى أحمد ثقات».

(٨) فى الأصول [كالحمية] والمثبت من نوادر الأصول ، وهو الصحيح.
والحم : الأسود من كلّ شيء ، والاسم : الحمّة. انظر اللسان (حمم ٢/ ١٠٠٩).

فقرّبهم «١» كلهم ، وأخذ عليهم الميثاق على الإقرار بالعبودية ، وأشهدهم على أنفسهم ، وشهد عليهم بذلك ، ثم ردهم إلى الأصلاب ليخرجهم تناسلا إلى الأرحام «٢». هـ.

وقال الجنيد رضي اللّه عنه فى قوله : وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها : من أدركه عناية السبق فى الأزل جرى عليه عنوان المواصلة ، وهو أحق بها ، لما سبق إليه من كرامة الأزل. هـ. والحاصل : أنهم أحق بها بالسبق بالاصطفائية ، وبقيت نعوتها وأنوارها فى قلوبهم ، دون الذين حجبهم اللّه عن رؤية نورها. قاله فى الحاشية.

ثم بشّرهم بفتح مكة ، وصدق الرّؤيا التي رآها النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال :

[سورة الفتح (٤٨) : آية ٢٧]

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (٢٧)

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا أي : صدقه فى رؤياه ولم يكذبه - تعالى اللّه عن الكذب - فحذف الجارّ وأوصل الفعل كقوله : صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ «٣» يقال : صدقه الحديث : إذا حققه وبيّنه له ، أو : أخبره بصدق ، روى أنه صلّى اللّه عليه وسلم رأى فى النّوم ، قبل خروجه إلى الحديبية ، كأنّه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين ، وقد حلقوا وقصّروا ، فقص الرّؤيا على أصحابه ، ففرحوا ، وحسبوا أنهم داخلوها ، وقالوا : إن رؤيا رسول اللّه حق. واللّه تعالى قد أبهم الأمر عليهم لينفرد بالعلم الحقيقي ، فلما صدوا ، قال عبد اللّه بن أبيّ وغيره من المنافقين : واللّه ما حلقنا ولا قصّرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام ، فنزلت «٤» : لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ فيما أراه ، وما كذب عليه ، ولكن فى الوقت الذي يريد.

وقوله : بِالْحَقِّ ، إما صفة لمصدر محذوف ، أي : صدقا ملتبسا بالحق ، أي : بالغرض الصحيح ، والحكمة البالغة التي تميز بين الرّاسخ فى الإيمان والمتزلزل فيه ، أو : حال من الرّؤيا ، أي : ملتبسة بالحق ليست من قبيل

---

(١) فى نوادر الأصول : [فقربهم].

(٢) النقل بتصرف.

(٣) من الآية ٢٣ من سورة الأحزاب.

(٤) أخرجه البيهقي فى دلائل النّبوة (باب نزول الفتح مرجع الحديبية ٤/ ٣٦٤) وابن جرير فى التفسير (٢٦/ ١٠٧) عن مجاهد ، مرسلا. [.....]

(٥/٤٠٥)

أضغاث الأحلام ، ويجوز أن يكون قسما ، أي : أقسم بالحق لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ ، وعلى الأول : جواب القسم محذوف ، أي : واللّه لتدخلن المسجد الحرام ، والجملة القسمية : استئناف بيانى ، كأن قائلا قال : ففيم صدقه؟ فقال :

(لتدخلن المسجد إن شاء اللّه). وهو تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد. قال ثعلب : استثنى اللّه فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون. وقال فى القوت : استثنى اللّه معلما لعباده ورادا لهم إلى مشيئته ، وهو أصدق القائلين ، وأعلم العالمين. هـ. أو : للإشعار بأن بعضهم لا يدخلونه ، لموت ، أو : غيبة ، أو غير ذلك ، أو : هو حكاية لما قاله ملك الرّؤيا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، أو لما قاله صلّى اللّه عليه وسلم لأصحابه ، حين قصّ عليهم ، أي : واللّه لتدخلنها آمِنِينَ من غائلة العدو ، فهو حال من فاعل «لتدخلن» والشرط معترض. مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ أي : محلقا بعضكم ، ومقصرا آخرون ، لا تَخافُونَ بعد ذلك أبدا ، فهو حال أيضا ، أو استئناف ، فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا من الحكمة فى تأخير فتح مكة إلى العام القابل ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فتح مكة فَتْحاً قَرِيباً وهو فتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين ، إلى أن يتيسر الفتح الموعود. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : العارف الكامل لا يركن إلى شىء دون اللّه تعالى ، فلا يطمئن إلى وعد ، ولا يخاف من وعيد ، بل هو عبد بين يدى سيده ، ينظر ما يبرز من زمن عنصر قدرته ، فإن بشّر بشىء فى النّوم أو اليقظة ، لا يركن إليه ، ولا يقف معه لأن غيب المشيئة غامض ، وإن خوّف بشىء فى النّوم أو غيره ، لا يفزع ولا يجزع لأن الغنى باللّه والأنس به غيّبه عن كلّ شىء ، وفى اللّه خلف من كلّ تلف «ما ذا فقد من وجدك؟ «١»» واللّه يتولى الصالحين ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً .. الآية «٢».

قال فى الإبريز «٣» : الرؤيا المحزّنة إنما هى اختبار من اللّه للعبد ، هل يبقى مع ربه أو ينقطع عنه ، فإن كان العبد متعلقا به تعالى ، ورأى الرّؤيا المحزنة ، لم يلتفت إليها ، ولما يبال بها لعلمه بأنه منسوب إلى من بيده تصاريف الأمور ، وأنّ ما اختاره تعالى سبقت به المشيئة ، فلا يهوله أمر الرّؤيا ، ولا يلقى إليها بالا ، وهذه لا تضره بإذن اللّه تعالى : وإذا كان العبد غير متعلق بربه ، ورأى رؤيا محزنة ، جعلها

نصب عينيه ، وعمّر بها باطنه ، وانقطع بها عن ربه ، ويقدّر أنها لا محالة نازلة به ، فهذا هو الذي تضره لأنّ من خاف من شيء سلّطه عليه. هـ.

---

(١) من مناجاة الشيخ ابن عطاء السكندرى. انظر تبويب الحكم للمتّقى الهندي (ص ٤٢).
(٢) الآية ٢ من سورة الطلاق.
(٣) لسيدى عبد العزيز الدبّاغ - رحمه اللّه تعالى.

(٤٠٦/٥)

وسئل سهل التستري رضي اللّه عنه عن الاستثناء فى هذه الآية ، فقال : تأكيدا فى الافتقار إليه ، وتأديبا لعباده فى كل حال ووقت. هـ. أي : أدّبهم لئلا يقفوا مع شيء دونه.
ثم ردّ حميّة الجاهلية فى عدم إقرارهم برسالته صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال :
[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]
هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٢٩)
يقول الحق جل جلاله : هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى بالتوحيد ، أي : ملتبسا به ، أو : بسببه ، أو : لأجله ، وَدِينِ الْحَقِّ وبدين الإسلام ، وبيان الإيمان والإحسان. وقال الورتجبي : ودين الحق : هو بيان معرفته والأدب بين يديه. هـ. لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ليعليه على جنس الدين ، يريد الأديان كلها من أديان المشركين وأهل الكتاب ، وقد حقق ذلك سبحانه ، فإنك لا ترى دينا قط إلا والإسلام فوقه بالعزة والغلبة ، إلا ما كان من النّصارى بالجزيرة «١» ، حيث فرّط أهل الإسلام ، وقيل : هو عند نزول عيسى عليه السّلام حين لا يبقى على وجه الأرض كافر. وقيل : هو إظهاره بالحجج والآيات. وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً على أن ما وعده كائن. وعن الحسن :
شهد على نفسه أنه سيظهر دينه ، أو : كفى به شهيدا على نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلم وهو تمييز ، أو حال.
مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ أي : ذلك المرسل بالهدى ودين الحق هو محمد رسول اللّه ، فهو خبر عن مضمر ،

و«رسول» : نعت ، أو : بدل ، أو : بيان ، أو : «محمد» : مبتدأ و«رسول» : خبر ، وَالَّذِينَ مَعَهُ : مبتدأ ، خبره : أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ

---

(١) يعنى الأندلس.

(٤٠٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٠٨

أو : «الذين» : عطف على «محمد» ، و«أشداء» : خبر الجميع ، أي : غلاظ شداد على الكفار فى حربهم ، رحماء متعاطفون بينهم ، يعنى : أنهم كانوا يظهرون لمن خالف دينهم الشّدة والصلابة ، ولمن وافق دينهم الرّأفة والرّحمة ، وهذا كقوله تعالى : أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ «١» ، وبلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثياب الكفار ، ومن أبدانهم أن تمسّ أبدانهم ، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم : أنهم كانوا لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه.

وهذا الوصف الذي مدح اللّه به الصحابة - رضي اللّه عنهم - مطلوب من جميع المؤمنين ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى» «٢». رواه البخاري ، وقال أيضا : «نظر الرّجل إلى أخيه شوقا خير من اعتكاف سنة فى مسجدى هذا» ، «٣» ذكره فى الجامع.

تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً أي : تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين لمواظبتهم على الصلوات ، أو : على قيام الليل ، كما قال من شاهد حالهم : رهبان بالليل أسدّ بالنهار ، وهو استئناف ، أو : خبر ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً أي : ثوابا ورضا وتقريبا سِيماهُمْ علاماتهم فِي وُجُوهِهِمْ فى جباههم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ أي : من التأثير الذي يؤثّره كثرة السجود. وما روى عنه عليه السّلام : «لا تعلموا صوركم» «٤» أي : لا تسموها ، إنما هو فيمن يتعمد ذلك باعتماد جبهته على الأرض ، ليحدث ذلك فيها ، وذلك رياء ونفاق ، وأما إن حدث بغير تعمد ، فلا ينهى عنه ، وقد ظهر على كثير من السلف الصالح غرة فى جباههم مع تحقق إخلاصهم.

وقال منصور : سألت مجاهدا عن قوله : سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ أهو الأثر يكون بين عينى الرّجل؟ قال : لا ربما يكون بين عينى الرّجل مثل ركبة البعير ، وهو أقسى قلبا من الحجارة ، ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع.

وقال ابن جريج : هو الوقار والبهاء ، وقيل : صفرة الوجوه ، وأثر السهر. وقال الحسن : إذا رأيتهم حسبتهم مرضى ، وما هم مرضى. وقال سفيان وعطاء : استنارت وجوههم من طول ما صلّوا بالليل ،

لقوله عليه السّلام : «من كثرت صلاته

---

(١) من الآية ٥٤ من سورة المائدة.
(٢) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب رحمة النّاس والبهائم ، ح ٦٠١١) ومسلم فى (البر والصلة باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ، ح ٢٥٨٦) من حديث النّعمان بن بشير رضي اللّه عنه.
(٣) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٩٢٦٦) للحكيم عن ابن عمرو ، وضعّفه.
(٤) على هامش النّسخة الأم : «هذا حديث لا أصل له».

(٥/٤٠٨)

بالليل حسن وجهه بالنّهار» «١» وقال ابن عطية : إنه من قول شريك «٢» لا حديث ، فانظره ، وقال ابن جبير : فى وجوههم يوم القيامة يعرفون به أنهم سجدوا فى الدنيا للّه تعالى. هـ.
ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ ، الإشارة إلى ما ذكر من نعوتهم الجليلة ، وما فيها من معنى البعد مع قرب العهد للإيذان بعلو شأنه ، وبعد منزلته فى الفضل ، أي : ذلك وصفهم العجيب الجاري فى الغرابة مجرى الأمثال ، هو نعتهم فى التوراة ، أي : كونهم أشدّاء على الكفار ، رحماء بينهم ، سيماهم فى وجوههم.
ثم ذكر وصفهم فى الإنجيل فقال : وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ .. إلخ ، وقيل : عطف على ما قبله ، بزيادة «مثل» ، أي : ذلك مثلهم فى التوراة والإنجيل ، ثم بيّن المثل فقال : هم كزرع أَخْرَجَ شَطْأَهُ فراخه ، يقال : أشطأ الزرع : أفرخ ، فهو مشطىء ، وفيه لغات : شطأه بالسكون والفتح ، وحذف الهمزة ، كقضاة. و«شطه» ، بالقصر.
فَآزَرَهُ فقوّاه ، من : المؤازرة ، وهى الإعانة ، فَاسْتَغْلَظَ فصار من الرّقة إلى الغلظ ، فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ فاستوى على قصبه ، جمع : ساق ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ يتعجبون من قوّته ، وكثافته ، وغلظه ، وحسن نباته ومنظره. وهو مثل ضربه اللّه لأصحابه صلّى اللّه عليه وسلم فى بدء الإسلام ، ثم كثروا واستحكموا ، بترقى أمرهم يوما بيوم ، بحيث أعجب النّاس أمرهم ، فكان الإسلام يتقوى كما تقوى الطاقة من الزرع ، بما يحتفّ بها مما يتولّد منها.
وقيل : مكتوب فى الإنجيل : سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر «٣». وعن عكرمة : أخرج شطأه بأبى بكر ، فآزره بعمر ، فاستغلظ بعثمان ، فاستوى على سوقه بعلي. «٤». وحكى النّقاش عن ابن عباس ، أنه قال : الزرع النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فآزره علىّ بن أبى

طالب ، فاستغلظ بأبى بكر ، فاستوى على سوقه بعمر. هـ.

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى (إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء فى قيام الليل ، ح ١٣٣٣) قال : «حدثنا إسماعيل بن محمد الطلحي ، ثنا ثابت بن موسى أبو يزيد ، عن شريك ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر رضي اللّه عنه الحديث» ورفعه ..

(٢) «شريك» أحد رواة الحديث. قال السندي :
معنى الحديث ثابت بموافقة القرآن ، وشهادة التجربة ، لكن الحفّاظ على أن الحديث بهذا اللفظ غير ثابت. وأخرج البيهقي فى الشعب ، عن محمد بن عبد الرّحمن بن كامل قال : قلت لمحمد بن عبد اللّه بن نمير : ما تقول فى ثابت بن موسى؟ قال : شيخ له فضل وإسلام ودين وصلاح وعبادة ، قلت : ما تقول فى هذا الحديث؟ قال : غلط من الشيخ ، وأما غير ذلك فلا يتوهم عليه. وقد تواردت أقوال الأئمة على عدّ هذا الحديث فى الموضوع ، على سبيل الغلط ، لا العمد ، وخالفهم القضاعي فى مسند الشهاب ، فمال فى الحديث إلى ثبوته. انظر حاشية سنن ابن ماجة (١/ ٤٢٣). وانظر أيضا - تفسير القرطبي (٧/ ٦٣٠٢).

(٣) أخرجه الطبري (٢٦/ ١١٤) عن قتادة.

(٤) انظر هذه الأقوال فى تفسير البغوي (٧/ ٣٢٥).

واختار ابن عطية : أن المثل شامل للنبى صلّى اللّه عليه وسلم وللصحابة ، فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه وسلم بعث وحده ، فهو الزرع ، حبّة واحدة ، ثم كثر المسلمون ، فهم كالشطء ، تقوّى بهم صلّى اللّه عليه وسلم.

لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ تعليل لما يعرب عنه الكلام من تشبيههم بالزرع فى ذكائه واستحكامه ، أي : جعلهم كذلك ليغيظ بهم من كفر باللّه.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً استئناف مبيّن لما خصّهم به من الكرامة فى الآخرة ، بعد بيان ما خصّهم به فى الدنيا ، ويجوز أن يرجع لقوله : (ليغيظ بهم ...) إلخ : أي : ليغيظ بهم وعدهم بالمغفرة والأجر العظيم لأن الكفار إذا سمعوا ما أعدّ لهم فى الآخرة مع ما خصّهم فى الدنيا من العزة والنّصر غاظهم ذلك أشد الغيظ ، و«من» فى «منهم» للبيان ، كقوله : فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ «١» ، أي : وعد اللّه الذين آمنوا من هؤلاء.

الإشارة : هو الذي أرسل رسوله بالهدى : بيان الشرائع ، ودين الحق : بيان الحقائق ، فمن جمع بينهما من أمته ظهر دينه وطريقته ، وهذا هو الوليّ المحمدي ، أعنى : ظاهره شريعة ، وباطنه حقيقة ، وما وصف به سبحانه أصحاب الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم هو وصف الصوفية ، أهل التربية النّبوية ، خصوصا طريق الشاذلية ، حتى قال بعضهم : من حلف أن طريق الشاذلية عليها كانت بواطن الصحابة ما حنث. وقوله تعالى : يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً قال الورتجبي : أي : يطلبون مزيد كشف فى الذات والدنو والوصال والبقاء مع بقائه بلا عتاب ولا حجاب ، وهذا محل الرضوان الأكبر. هـ.

وقوله تعالى : سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ أي : نورهم فى وجوههم ، لتوجههم نحو الحق ، فإنّ من قرب من نور الحق ظهرت عليه أنوار المعرفة ، وجمالها وبهاؤها ، ولو كان زنجيا أو حبشيا ، وفى ذلك قيل :

وعلى العارفين أيضا بهاء وعليهم من المحبّة نور

ويقال : السيما للعارفين ، والبهجة للمحبين ، فالسيما هى الطمأنينة ، والرّزانة ، والهيبة والوقار ، كل من رآهم بديهة هابهم ، ومن خالطهم معرفة أحبهم ، والبهجة : حسن السمت والهدى ، وغلبة الشوق ، والعشق ، واللهج بالذكر اللساني. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الحج.

وروى السلمى عن عبد العزيز المكي : ليس السيما النّحولة والصفرة ، ولكنه نور يظهر على وجوه العابدين ، يبدو من باطنهم على ظاهرهم ، يتبين ذلك للمؤمنين ، ولو كان ذلك فى زنجى أو حبشي. وعن بعضهم : ترى على وجوههم هيئة لقرب عهدهم بمناجاة سيدهم. وقال ابن عطاء : ترى عليهم طلع الأنوار لائحة. وقال الورتجبي :

المؤمن وجه للّه بلا قفا ، مقبلا عليه ، غير معرض عنه ، وذلك سيما المؤمن. هـ. وباللّه التوفيق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤١٣

سورة الحجرات

مدنية. وهى ثمانى عشرة آية. ومناسبتها لما قبلها : أنه تعالى لمّا مدح الصحابة ، وبشّرهم بالمغفرة علّمهم الأدب لأنه من أعظم أسباب المغفرة والقرب ، فقال :

[سورة الحجرات (٤٩) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، تصدير الخطاب بالنداء ، تنبيه المخاطبين على أنّ ما فى حيّزه أمر خطير يستدعى اعتنائهم بشأنه ، وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم ، والإيذان بأنه داع إلى المحافظة عليه ووازع عن الإخلال به ، لا تُقَدِّمُوا أي : لا تفعلوا التقديم ، على ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل من غير اعتبار تعلقه بأمر من الأمور ، على طريقة قولهم : فلان يعطى ويمنع ، أو :

لا تقدّموا أمورا من الأمور ، على حذف المفعول ، للعموم ، أو : يكون التقديم بمعنى التقدم ، من «قدّم» اللازم ، ومنه :

مقدمة الجيش ، للجماعة المتقدّمة ، ويؤيده قراءة من قرأ : (لا تقدّموا) «١» بحذف إحدى التاءين ، أي : لا تتقدموا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، أي : لا تقطعوا أمرا قبل أن يحكما به ، وحقيقة قولك : جلست بين يدى فلان : أن تجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريبا منه ، فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما ، توسعا ، كما يسمّى الشيء باسم غيره إذا جاوره.

---

(١) وهى قراءة يعقوب ، أحد القراء العشرة. انظر الإتحاف (٢/ ٤٨٥). [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤١٤

وفى هذه العبارة ضرب من المجاز الذي يسمى تمثيلا ، وفيه فائدة جليلة ، وهى : تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. ويجوز أن يجرى مجرى قولك :

سرّنى زيد وحسن ماله ، فكذلك هنا المعنى : لا تقدّموا بين يدى رسول اللّه - صلّى اللّه عليه وسلم. وفائدة هذا الأسلوب : الدلالة على قوة الاختصاص ، ولمّا كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من اللّه بالمكان الذي لا يخفى سلك به هذا المسلك ، وفى هذا تمهيد لما نقم منهم من رفع أصواتهم فوق صوته لأن من فضّله اللّه بهذه الأثرة ، واختصه بهذا الاختصاص ، كان أدنى ما يجب له من التهيّب والإجلال : أن لا يرفع صوت بين يديه ، ولا يقطع أمر دونه ، فالتقدم عليه تقدم على اللّه لأنه لا ينطق عن الهوى ، فينبغى الاقتداء بالملائكة حيث قيل فيهم : لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ... إلخ «١».

قال عبد اللّه بن الزبير : قدم وفد من تميم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم. فقال أبو بكر : لو أمّرت عليهم القعقاع بن معبد ، وقال عمر : يا رسول اللّه بل أمّر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى ، وقال عمر : ما أردت خلافك ، وارتفعت أصواتهما ، فنزلت «٢». فعلى هذا يكون المعنى : لا تقدّموا ولاة ، والعموم أحسن كما تقدم. وعبارة البخاري : «وقال مجاهد : (لا تقدموا) لا تفتاتوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم حتى يقضى اللّه - عز وجل - على لسانه» «٣».

وعن الحسن : أن ناسا ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة ، فنزلت ، فأمرهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن يعيدوا «٤» ، وعن عائشة :

أنها نزلت فى النّهى عن صوم يوم الشك «٥».

وَاتَّقُوا اللَّهَ فى كلّ ما تأتون وتذرون من الأحوال والأفعال ، التي من جملتها ما نحن فيه ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لأقوالكم عَلِيمٌ بأفعالكم ، فمن حقّه أن يتّقى ويراقب.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، شروع فى النّهى عن التجاوز فى كيفية القول عند النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، بعد النّهى عن التجاوز فى نفس القول والفعل ، وإعادة النّداء مع قرب العهد للمبالغة فى الإيقاظ والتنبيه ، والإشعار باستقلال كلّ من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه أي : لا تبلغوا بأصواتكم وراء حدّ يبلغه

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة الأنبياء.

(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير ، باب إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ح ٤٨٤٧).

(٣) ذكره البخاري فى (التفسير ، سورة الحجرات). وأخرجه الطبري (٢٦/ ١١٦).

(٤) أخرجه الطبري (٢٦/ ١١٧). وعزاه السيوطي فى الدر (٦/ ٨٦) لابن أبى الدنيا فى الأضاحى.

(٥) عزاه السيوطي فى الدر (٦/ ٨٦) لابن النّجار فى تاريخه ، والطبراني فى الأوسط ، وابن مردويه.
هذا ، وما ذكره المفسر عن السيدة عائشة والحسن إنما هو داخل فى عموم الآية ، لا أنه سبب النّزول
لأن ما ذكر عن السيدة عائشة والحسن مخالف للرواية الصحيحة الواردة فى سبب النّزول ، والتي
أخرجها البخاري.

(٥/٤١٤)

صوته صلّى اللّه عليه وسلم ، بل يكون كلامه عاليا لكلامكم ، وجهره باهرا لجهركم ، حتى تكون مزيّته
عليكم لائحة ، وسابقته لديكم واضحة.
وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ إذا كلمتموه كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أي : جهرا كائنا كالجهر الجاري فيما بينكم ،
بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته ، واختاروا فى مخاطبته القول اللين القريب من الهمس ، كما هو
الدأب فى مخاطبة المهاب المعظّم ، وحافظوا على مراعاة هيبة النّبوة وجلالة مقدارها. وقيل : معنى :
لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ : لا تقولوا : يا محمد ، يا أحمد ، بل : يا رسول اللّه. يا نبى
اللّه ، ولمّا نزلت هذه الآية ما كلم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أبو بكر إلا كأخى السّرار «١».
وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : أنها نزلت فى ثبات بن قيس بن شماس ، وكان فى أذنيه وقر ، وكان
جهوريّ الصوت ، وكان إذا تكلم رفع صوته ، وربما كان يكلّم النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلم فيتأذى من
صوته. هـ. والصحيح ما تقدم. وفى الآية أنهم [لم] «٢» ينهوا عن الجهر مطلقا ، وإنما نهوا عن جهر
مخصوص ، أي : الجهر المنعوت بمماثلة ما اعتادوه فيما بينهم ، وهو الخلوّ عن مراعاة هيبة النّبوة ،
وجلالة مقدارها.
وقوله : أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ مفعول من أجله ، أي : لا تجهروا خشية أن تحبط أعمالكم ، وَأَنْتُمْ لا
تَشْعُرُونَ فإنّ سوء الأدب ربما يؤدى بصاحبه إلى العطب وهو لا يشعر. ولمّا نزلت الآية جلس ثابت بن
قيس فى بيته ولم يخرج ، فتفقّده صلّى اللّه عليه وسلم ، فدعاه فسأله ، فقال : يا رسول اللّه لقد
أنزلت عليك هذه الآية ، وإنى رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون عملى قد حبط ، فقال له صلّى
اللّه عليه وسلم : «لست هناك ، تعيش بخير ، وتموت بخير ، وإنك من أهل الجنة» «٣».
وأما ما يروى عن الحسن : أنها نزلت فى المنافقين ، الذي كانوا يرفعون أصواتهم فوق صوته صلّى اللّه
عليه وسلم فقد قيل :
محمله : أنّ نهيهم مندرج تحت نهى المؤمنين بدليل النّص.
إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أي : يخفضون أصواتهم فى مجلسه ، تعظيما له ، وانتهاء

عما نهوا عنه ، أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى أي : أخلصها وصفّاها ، من قولهم : امتحن الذهب وفتنه : إذا أذابه ، وفى القاموس : محنه ، كمنعه : اختبره ، كامتحنه ، ثم قال : وامتحن القول : نظر فيه ودبّره ، واللّه قلوبهم : شرحها ووسّعها ، وفى الأساس : ومن المجاز : محن الأديم : مدّده حتى وسعه ، وبه فسّر قوله تعالى :

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٦٢) «وصحّحه على شرط مسلم ، وأقره الذهبي» ، والبيهقي فى الشعب (رقم ١٥٢٠ و١٥٢١) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) فى الأصول : [لن].

(٣) أخرجه بمعناه البخاري فى (المناقب ، باب علامات النّبوة فى الإسلام ح ٣٦١٣) ومسلم فى (الإيمان ، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله ، رقم ١٨٧ ح ١١٩) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

(٤١٥/٥)

امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى أي : شرحها ووسعها ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ أي : مغفرة لذنوبهم ، وأجر عظيم : نعيم الجنان.

الإشارة : على هذه الآية والتي بعدها اعتمد الصوفية فيما دوّنوه من آداب المريد مع الشيخ ، وهى كثيرة أفردت بالتأليف ، وقد جمع شيخنا البوزيدى الحسنى رضي اللّه عنه كتابا جليلا جمع فيه من الآداب ما لم يوجد فى غيره ، فيجب على كلّ مريد طالب للوصول مطالعته والعمل بما فيه.

والذي يؤخذ من الآية : أنه لا يتقدم بين يدى شيخه بالكلام ، لا سيما إذا سأله أحد ، فمن الفضول القبيح أن يسبق شيخه بالجواب ، فإنّ السائل لا يرضى بجواب غير الشيخ ، مع ما فيه من إظهار علمه ، وإشهار شأنه ، والتقدم على شيخه. ومن ذلك أيضا : ألّا يقطع أمرا دون مشورته ، ما دام تحت الحجرية ، وألّا يتقدم أمامه فى المشي إلا بإذنه ، وأن يغضّ صوته عند حضوره ، بل لا يتكلم إلا أن يأذن له فى الكلام ، ويكون بخفض صوت وتعظيم.

قلت : وما زالت أشياخنا تأمرنا بالتكلم عند المذاكرة إذ بالكلام تعرف أحوال الرّجال ، وسمعت شيخ شيخنا ، مولاى العربي الدرقاوى الحسنى رضي اللّه عنه يقول : حكّونا فى المذاكرة ليظهر العلم ، وكونوا معنا كما قال القائل : حك لى نربل لك ، لا كما قال القائل : سفّج لى نعسل لك. هـ. لكن يكون بحثه مع الشيخ على وجه الاسترشاد والاستعلام ، من غير معارضة ولا جدال ، وإلا فالسكوت

أسلم.

قال القشيري : لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ : لا تعملوا فى أمر الدين من ذات أنفسكم شيئا ، وقّفوا حيثما وقفتم ، وافعلوا ما به أمرتم ، أي : اعملوا بالشرع لا بالطبع فى طلب الحق ، وكونوا من أصحاب الاقتداء والاتباع ، لا من أرباب الابتداء أو الابتداع.

وقال فى قوله تعالى : لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ ... الآية ، يشير إلى أنه من شرط المؤمن : ألا يرى رأيه وعقله واختياره فوق رأى النّبى والشيخ ، ويكون مستسلما لرأيه ، ويحفظ الأدب فى خدمته وصحبته ، وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أي : لا تخاطبوه كخطاب بعضكم لبعض ، بل خاطبوه بالتعظيم والتبجيل ، ولا تنظروا إليه بالعين التي تنظرون إلى أمثالكم ، وإنه لحسن خلقه قد يلاعبكم ، فلا تنبسطوا معه ، متجاسرين عليه بما يعاشركم من خلقه ، ولا تبدأوه بحديث حتى يفاتحكم ، أن تحبط أعمالكم بسوء أدبكم ، وأنتم لا تشعرون. إنّ الذين يغضون أصواتهم عند رسول اللّه وعند شيخه أولئك الذين امتحن اللّه قلوبهم للتقوى ، أي :

انتزع عنها حبّ الشهوات ، وصفّاها من دنس سوء الأخلاق ، وتخلقت بمكارم الأخلاق ، حتى انسلخت من عادات البشرية «١». هـ.

---

(١) بالمعنى

(٥/٤١٦)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤١٧

وقال فى القوت : الوقاية مقرونة بالنصرة فإذا تولّاه نصره على أعدائه ، وأعدى عدوه نفسه ، فإذا نصره عليها ، أخرج الشهوة منها ، فامتحن قلبه للتقوى ، ومحّض نفسه ، فخلّصها من الهوى .. هـ.

ثم ذكر من لم يستعمل الأدب مع الحضرة النّبوية ، فقال :

[سورة الحجرات (٤٩) : الآيات ٤ الى ٥]

إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ من خارجها ، أو : من خلفها ، أو : من أمامها ، فالوراء : الجهة التي توارى عنك الشخص تظلّله من خلف أو من قدّام ، و«من» لابتداء الغاية ، وأنّ المناداة نشأت من ذلك المكان ، والحجرة : الرقعة من الأرض ، المحجورة بحائط يحوط عليها ، فعلة ، بمعنى مفعولة ، كالقبضة ، والجمع : حجرات ، بضمتين ، وبفتح الجيم ، والمراد :

حجرات النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، وكان لكلّ امرأة حجرة.

نزلت فى وفد بنى تميم ، وكانوا سبعين ، وفيهم عينية بن حصن الفزاري ، والأقرع بن حابس ، وفدوا على النبي صلّى اللّه عليه وسلم وقت الظهيرة ، وهو راقد ، فنادوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من وراء حجراته ، وقالوا : اخرج إلينا يا محمد فإنّ مدحنا زين ، وذمّنا شين ، فاستيقظ ، وخرج عليه السّلام وهو يقول : «ذلكم اللّه الذي مدحه زين ، وذمّه شين» ، فقالوا : نحن قوم من بنى تميم ، جئنا بشاعرنا وخطيبنا ، لنشاعرك ، ونفاخرك ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «ما بالشعر بعثت ، ولا بالفخار أمرت» ، ثم أمر صلّى اللّه عليه وسلم خطيبهم فتكلّم ، ثم قال لثابت بن قيس بن شماس - وكانخطيب النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : قم ، فقام ، فخطب ، فأقحم خطيبهم ، ثم قام شاب منهم ، فأنشأ يقول :

نحن الكرام فلا حيّ يعادلنا فينا الرّؤوس وفينا يقسم الرّبع

ونطعم النّاس عند القحط كلّهم إنّا كذلك عند الفخر نرتفع «١»

---

(١) هكذا جاء فى الأصول ، أما فى البحر المحيط (٨/ ١٠٦ - ١٠٧) وأسباب النّزول للواحدى (ص ٤٠٥) وغيرهما من المصادر ، فذكروا بعد البيت الأول :

ونطعم النّاس عند القحط كلهم من السديف إذا لم يؤنس الفزع

إذا أبينا فلا يأبى لنا أحد إنا كذلك عند الفخر نرتفع.

(٥/٤١٧)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤١٨

فقال صلّى اللّه عليه وسلم لحسّان : قم فأجبه ، فقال :

إنّ الذوائب من فهر وإخوتهم قد شرّعوا سنّة للناس تتبع

يرضى بها كلّ من كانت سريرته تقوى الإله وكلّ الفخر يصطنع «١»

ثم قال الأقرع شعرا افتخر به ، فقال عليه السّلام - لحسّان ، قم فأجبه ، فقال حسّان :

بنى دارم ، لا تفخروا ، إنّ فخركم يعود وبالا عند ذكر المكارم

هبلتم ، علينا تفخرون وأنتم لنا خول من بين ظئر وخادم «٢»

فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «لقد كنت غنيا عن هذا يا أخا بنى دارم أن يذكر منك ما قد ظننت أن النّاس قد نسوه» ، ثم قال الأقرع : تكلم خطيبنا ، فكان خطيبهم أحسن قيلا ، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر. هـ «٣».

هذا ومناداتهم من وراء الحجرات إما لأنهم أتوها حجرة حجرة ، فنادوه صلّى اللّه عليه وسلم من ورائها ، أو : بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له صلّى اللّه عليه وسلم ، أو : نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها ، ولكنها جمعت إجلالا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم. وقيل :
الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع ، وإنما أسند إلى جميعهم لأنهم راضون بذلك وأمروا به. أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ، إذ لو كان لهم عقل لما تجاسروا على هذه العظيمة من سوء الأدب.
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا أي : ولو تحقق صبرهم وانتظارهم ، فمحل (أنهم صبروا) رفع على الفاعلية لأنّ «أن» تسبك بالمصدر ، لكنها تفيد التحقق والثبوت ، للفرق بين قولك : بلغني قيامك ، وبلغني أنك قائم ، و«حتى» تفيد أن الصبر ينبغي أن يكون مغيّا بخروجه عليه السّلام ، فإنها مختصة بالغايات. والصبر : حبس النّفس على أن تنازع إلى هواها ، وقيل : «الصبر مرّ ، لا يتجرعه إلا حرّ». أي : لو تأنوا حتى تخرج إليهم بلا مناداة لكان الصبر خيرا لهم من الاستعجال ، لما فيه من رعاية حسن الأدب ، وتعظيم الرّسول ، الموجبتين للثناء والثواب ، والإسعاف بالمسئول إذ روى أنهم وفدوا شافعين فى أسارى بنى العنبر ، وذلك أنه صلّى اللّه عليه وسلم بعث سرية إلى حى بنى العنبر ، وأمّر عليهم عيينة

---

(١) انظر ديوان حسان بشرح البرقوقى ص ٣٠١. وفيه :
إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كلّ من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
(٢) انظر ديوان حسان ص ٤٣٧.
(٣) أخرجه الواحدي فى أسباب النّزول ص (٤٠٤ - ٤٠٦) عن جابر بن عبد اللّه. وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف (ص ١٥٥ - ١٥٦ رقم ١٥) للثعلبى. وأخرج الجزء الأول من القصة ، الترمذي فى (التفسير ، باب ومن سورة الحجرات ، ح ٣٢٦٧) عن البراء بن عازب رضي اللّه عنه.

ابن حصن ، فهربوا وتركوا عيالهم ، فسباهم عيينة ، ثم قدم رجالهم يفدون الذراري ، فلما رأتهم الذراريّ أجهشوا إلى آبائهم يبكون ، فعجلوا أن يخرج إليهم النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فنادوه حتى أيقظوه من نومه ، فخرج إليهم ، فأطلق النّصف وفادى النصف «١» ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ بليغ المغفرة والرّحمة واسعهما ، فلن يضيق ساحتهما عن هؤلاء إن تابوا وأصلحوا.
الإشارة : من آداب المريد ألّا يوقظ شيخه من نومه ، ولو بقي ألف سنة ينتظره ، وألّا يطلب خروجه إليه

حتى يخرج بنفسه ، وألّا يقف قبالة باب حجرته لئلا يرى بعض محارمه. ومن آدابه أيضا : ألا يبيت معه فى مسكن واحد ، وألّا يأكل معه ، إلا أن يعزم عليه ، وألّا يجلس على فراشه أو سجّادته إلا بأمره ، وإذا تعارض الأمر والأدب ، فهل يقدّم الأمر أو الأدب؟ خلاف ، وقد تقدم فى صلح الحديبية : أن سيدنا عليا - كرم اللّه وجهه - قدّم الأدب على الأمر ، حين قال له صلّى اللّه عليه وسلم : «امح اسم رسول اللّه من الصحيفة» «٢» ، فأبى ، وقال : «واللّه لا أمحوك أبدا».

واللّه تعالى أعلم.

ومن جملة الأدب : التأنى فى الأمور وعدم العجلة ، كما أبان ذلك بقوله تعالى :

[سورة الحجرات (٤٩) : الآيات ٦ الى ٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ. نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وكان من فضلاء الصحابة - رضي اللّه عنه - بعثه النّبى صلّى اللّه عليه وسلم إلى بنى المصطلق ، بعد الوقعة مصدّقا ، وكان بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية ، فخرجوا يتلقّونه ، تعظيما لأمر النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فظن أنهم مقاتلوه فرجع ، وقال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : قد ارتدوا ومنعوا الزكاة ، فهمّ صلّى اللّه عليه وسلم أن يغزوهم ، ثم أتوا النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم وأخبروه أنهم إنما خرجوا يتلقّونه تكرمة

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ٣٣٧). [.....]

(٢) راجع تفسير الآية ٢٦ من سورة الفتح.

فاتهمهم النّبى صلّى اللّه عليه وسلم وبعث إليهم «خالد بن الوليد» خفية مع عسكر ، وأمره أن يخفى عليهم قدومه ، ويتطلع عليهم ، فإن رأى ما يدلّ على إيمانهم أخذ زكاتهم ورجع ، وإن رأى غير ذلك استعمل فيهم ما يستعمل فى الكفار ، فسمع خالد فيهم آذان صلاتى المغرب والعشاء ، فأخذ صدقاتهم ، ولم ير منهم إلا الطاعة ، فنزلت الآية «١».

وسمّى الوليد فاسقا لعدم تثبّته فخرج بذلك عن كمال الطاعة ، وفى تسميته بذلك زجر لغيره ، وترغيب له فى التوبة ، واللّه تعالى أعلم بغيبه ، حتى قال بعضهم : إنها من المتشابه ، لما ثبت من تحقق إيمان الوليد. وقال أبو عمر فى الاستيعاب : لا يصح أن الآية نزلت فى قضية الوليد لأنه كان فى زمن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم من «٢» ثمانية أعوام ، أو من عشرة ، فكيف يبعثه رسولا؟! «٣» هـ. قلت : لا غرابة فيه ، وقد كان صلّى اللّه عليه وسلم يؤمّر أسامة بن زيد على جيش ، فيه أبو بكر وعمر ، مع حداثة سنّه ، كما فى البخاري وغيره.

وفى تنكير (فاسق) و(نبأ) شياع فى الفسّاق والأنباء ، أي : إذا جاءكم فاسق أىّ فاسق كان ، بأيّ خبر فَتَبَيَّنُوا أي : فتوقفوا فيه ، وتطلّبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا قول من لا يتحرى الصدق ، ولا يتحامى الكذب ، الذي هو نوع من الفسوق.

وفى الآية دليل على قبول خبر الواحد العدل لأنا لو توقفنا فى خبره لسوّينا بينه وبين الفاسق ، ولخلا التخصيص به عن الفائدة. وقرأ الأخوان : «فتثبتوا» والتثبّت والتبيّن متقاربان ، وهما : طلب الثبات والبيان والتعرّف.

أَنْ تُصِيبُوا أي : لئلا تصيبوا قَوْماً بِجَهالَةٍ : حال ، أي : جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة.

فَتُصْبِحُوا فتصيروا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ مغتمين على ما فعلتم ، متمنين أنه لم يقع ، والنّدم : ضرب من الغم وهو أن يغتم على ما وقع ، يتمنى أنه لم يقع ، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام فى الجملة.

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ فلا تكذبوا ، فإن اللّه يخبره ، فيهتك سر الكاذب ، أو : فارجعوا إليه واطلبوا رأيه ، ثم استأنف بقوله : لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ لوقعتم فى العنت وهو الجهد والهلاك.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٤/ ٢٧٩) والطبراني فى الكبير (٣/ ٤٠١) والطبري (٢٦/ ١٢٣) وعبد الرّزاق فى التفسير (٢/ ٢٣١) وقال الهيثمي فى المجمع (٧/ ١١١) : «رواه الطبراني ، وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ، وانظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٦ - ٢١٠) والفتح السماوي مع حاشية المحقق (٣/ ١٠٠١).

(٢) هكذا فى الأصول ، وأظنه : «ابن»

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ ، ولا على معناه ، وإنما وجدت ما يفيد ترجيح ابن عبد البر بأن الوليد لم يكن غلاما فى هذا الوقت. راجع الاستيعاب (٤/ ١١٤). وهذا أيضا ما رجحه ابن حجر فى الإصابة (٣/ ٦٠١) حيث قال : قلت : ومما يؤيد أنه كان رجلا : أنه كان قدم فى فداء ابن عم أبيه «الحارث بن أبى وجزة بن أبى عمرو بن أمية» ، وكان أسر يوم بدر ، فافتداه بأربعة آلاف. حكاه أصحاب المغازي. هـ.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢١
والتعبير بالمضارع للدلالة على أنّ عنتهم إنما يلزم فى استمرار طاعته لهم فى كلّ ما يعرض من الأمور ، وأما طاعته فى بعض الأمور استئلافا لهم ، فلا. انظر أبا السعود. وهذا يدل على أنّ بعض المؤمنين زيّن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الإيقاع ببني المصطلق تصديقا لقول الوليد ، وأنّ بعضهم كانوا يتصوّنون ويتحرّجون الوقوع بهم تأنيا وتثبتا فى الأمر ، وهم الذين استثناهم اللّه بقوله :
وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ ، وأسنده إلى الكلّ تنبيها على أن أكثرهم تحرّجوا الوقوع بهم وتأنّوا ، وقيل : هم الذين امتحن اللّه قلوبهم للتقوى ، وهو تجديد للخطاب وتوجيه إلى بعضهم بطريق الاستدراك ، بيانا لبراءتهم عن أوصاف الأولين وإحمادا لأفعالهم ، أي : ولكنه - تعالى - جعل الإيمان محبوبا لديكم وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ حتى رسخ فيها ، ولذلك صدر منكم ما يليق به من التثبت والتحرّج ، وحاصل الآية على هذا : واعلموا أنّ فيكم رسول اللّه ، فلا تقرّون معه على خطأ ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتّم ، ولكنّ اللّه حبّب إلى بعضكم الإيمان ، فلا يأمر إلا بما هو صواب من التأنّي وعدم العجلة.
قلت : والأحسن فى معنى الاستدراك : أنّ التقدير : لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتّم ، ولكن اللّه لا يقره على طاعتكم بل ينزل عليه الوحى بما فيه صلاحكم وراحتكم لأنّ اللّه حبّب إليكم الإيمان وزيّنه فى قلوبكم ، فلا يسلك بكم إلى ما يليق بشأنكم من الحفظ والعصمة.
ثم قال : وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ ولذلك تحرجتم عمّا لا يليق مما لا يخير فيه مما يؤدى إلى عنتكم ، قال ابن عرفة : العطف فى هذه الآية تدلى فالكفر أشدّها ، والفسوق دونه ، والعصيان أخفّ لصدقه على ترك المندوبات ، حسبما نقل ذلك البغداديون وحملوا عليه ، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى أبا القاسم. هـ.
أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ أي : أولئك المستثنون ، أو : المتصفون بالإيمان ، المزيّن فى قلوبهم ، هم السالكون على طريق السّوى ، الموصل إلى الحق ، أي : أصابوا طريق الحق ، ولم يميلوا عن الاستقامة. والرّشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلّب فيه ، من : الرشادة ، وهى الصخرة الصماء.
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً أي : إفضالا من اللّه وإنعاما عليهم مفعول من أجله ، أي : حبّب وكرّه للفضل والنّعمة عليهم وَاللَّهُ عَلِيمٌ مبالغ فى العلم ، فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ، حَكِيمٌ يفعل ما يفعل لحكمة بالغة.
الإشارة : إن جاءكم خاطر سوء بنبإ سوء فتبينوا وتثبتوا ، ولا تبادروا بإظهاره ، خشية أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتظنوا بهم السوء ، وتقعوا فى الغيبة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، فالمنافق قلبه على

طرف لسانه ، إذا خطر فيه شيء نطق به ، فهذا هالك ، والمؤمن لسانه من وراء قلبه ، إذا خطر شيء نظر فيه ، ووزنه بميزان الشرع ، فإن كان

(٤٢١/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢٢

فيه مصلحة نطق به ، وإلا ردّه وكتمه ، فالواجب : وزن الخواطر بالقسطاس المستقيم ، فلا يظهر منها إلا ما يعود عليه منفعته.

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، قد بيّن لكم ما تفعلون وما تذرون ، ظاهرا وباطنا ، ومن اتصل بخليفة الرّسول ، وهو الشيخ حكّمه على نفسه ، فإن خطر فى قلبه شيء يهمّ أمره عرضه عليه ، والشيخ ينظر بعين البصيرة ، لو يطيعكم فى كثير من أمركم التي تعزمون عليها لعنتّم ، ولكنّ اللّه حبب إليكم الإيمان ، وزيّنه فى قلوبكم ، فتستمعون لما يأمركم به ، وتمتثلون أمره ، وكرّه إليكم الكفر والفسوق الخروج عن أمره ونهيه ، والعصيان لما يأمركم به ، فلا ترون إلا ما يسرّكم ، ويفضى بكم إلى السهولة والرّاحة ، فضلا من اللّه ونعمة ، فإنّ السقوط على الشيخ إنما هو محض فضل وكرم ، فللّه الحمد وله الشكر دائما سرمدا.

وللقشيرى إشارة أخرى ، قال : إن جاءكم فاسق بنبإ يشير إلى تسويلات النّفوس الأمّارة بالسوء ، ومجيئها كل ساعة بنبإ شهوة من شهوات الدنيا فتبينوا ربحها من خسرانها ، من قبل أن تصيبوا قوما من القلوب وصفائها بجهالة ، فإنّ ما فيه شفاء النّفوس وحياتها فيه مرض القلوب ومماتها فتصبحوا صباح القيامة على ما فعلتم نادمين ، واعلموا أن فيكم رسول اللّه ، يشير إلى رسول الإلهام فى أنفسكم ، يلهمكم فجور نفوسكم وتقواها ، لو يطيعكم فى كثير من أمر النّفس الأمّارة ، لعنتم لوقعتم فى الهلاك ، ولكنّ اللّه حبّب إليكم الإيمان بالإلهامات الرّبانية ، وزيّنه فى قلوبكم بقلم الكرم ، وكرّه بنور نظر العناية إليكم الكفر ، والفسوق : هو ستر الحق والخروج إلى الباطل ، والعصيان ، وهو الإعراض عن طلب الحق ، أولئك هم الرّاشدون إلى الحق بإرشاد الحق ، فضلا من اللّه ونعمة منه ، ينعم به على من شاء من عباده ، واللّه عليم حكيم «١». هـ.

ثم أمر الرّاشدين المتقدمين بالإصلاح بين النّاس ، إذ لا ينجح فى الغالب إلا على أيديهم ، فقال :

[سورة الحجرات (٤٩) : الآيات ٩ الى ١٠]

وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

(١) لم أقف على هذا النّص فى محله من لطائف الإشارات.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا أي : تقاتلوا. والجمع باعتبار المعنى لأن كل طائفة جمع كقوله : هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا «١» ، فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بالنصح والدعاء إلى حكم اللّه تعالى ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى ولم تتأثر بالنصيحة فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ ترجع إِلى أَمْرِ اللَّهِ إلى حكمه ، أو : إلى ما أمر به من الصلح وزوال الشحناء ، والفيء : الرجوع ، وقد يسمى به الظل والغنيمة ، لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس ، والغنيمة ترجع من أيدى الكفار إلى المسلمين.

وحكم الفئة الباغية : وجوب قتالها ، فإذا كفّت عن القتال أيديها تركت. قال ابن جزى : وأمر اللّه فى هذه الآية بقتال الفئة الباغية وذلك إذا تبيّن أنها باغية ، فأما الفتن التي تقع بين المسلمين فاختلف العلماء فيها على قولين ، أحدهما : أنه لا يجوز النّهوض ، فى شىء منها ولا القتال ، وهذا مذهب سعد بن أبي وقاص ، وأبي ذر ، وجماعة من الصحابة ، وحجتهم حديث : «قتال المسلم كفر» «٢» ، وحديث : الأمر بكسر السيوف فى الفتن ، والقول الثاني :

النهوض فيها واجب ، لتكف الفئة الباغية ، وهذا مذهب علىّ ، وعائشة ، وطلحة ، وأكثر الصحابة ، وهو مذهب مالك وغيره من الفقهاء ، وحجتهم هذه الآية. فإذا فرّعنا على القول الأول ، فإن دخل داخل على من اعتزل الفرقتين منزله يريد نفسه أو ماله فعليه دفعه ، وإن أدّى ذلك إلى قتله لحديث : «من قتل دون نفسه وماله فهو شهيد» «٣».

وإذا فرّعنا على الثاني ، فاختلف مع من يكون النّهوض من الفئتين؟ فقيل : مع السواد الأعظم ، وقيل : مع العلماء ، وقيل : مع من يرى أنّ الحق معه. هـ.

قلت : إذا وقعت الحرب بين القبائل فمن تعدّت تربتها إلى تربة غيرها فهى باغية ، يجب كفّها ، وإذا وقعت بين الحدود فالمشهور : النهوض ، ثم يقع السؤال عن السبب فمن ظهر ظلمه وجب كفّه ، فإن أشكل الأمر ، فالإمساك عن القتال أسلم. واللّه تعالى أعلم.

فَإِنْ فاءَتْ عن البغي ، وأقلعت عن القتال فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ بفصل ما بينهما على حكم اللّه تعالى ، ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما لئلا يكون بينهما قتال فى وقت آخر ، وتقييد الإصلاح بالعدل لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة ، وقد أكد ذلك بقوله : وَأَقْسِطُوا أي : واعدلوا فى كلّ ما تأتون وما تذرون ،

(١) من الآية ١٩ من سورة الحج.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ، (١/ ١٧٨) والترمذي فى (الإيمان ، باب سباب المؤمن فسوق ، ح ٢٦٣٤) والنّسائى فى (تحريم الدم ، باب قتال المسلم) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه البخاري فى (المظالم ، باب من قاتل دون ماله ح ٢٤٨٠) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص ، بلفظ : «من قتل دون ماله فهو شهيد». وأخرجه أبو داود فى (السنة ، باب فى قتال اللصوص ح ٤٧٧٢) والترمذي فى (الديات ، باب من قاتل دون ماله ح ١٤٢١) وكذا ابن ماجة والنّسائى ، من حديث سعيد بن زيد ، بلفظ : «من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد».

(٥/٤٢٣)

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ العادلين ، فيجازيهم أحسن الجزاء ، والقسط بالفتح : الجور ، وبالكسر : العدل ، والفعل من الأول : قسط فهو قاسط : جار ، ومن الثاني : أقسط فهو مقسط : عدل ، وهمزته للسلب ، أي : أزال القسط ، أي : الجور.

والآية نزلت فى قتال حدث بين الأوس والخزرج ، وذلك أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ذهب يعود سعد بن عبادة ، فمرّ بمجلس من الأنصار ، فيه أخلاط من المسلمين والمنافقين ، فوقف صلّى اللّه عليه وسلم على المجلس ، ووعظ وذكّر ، فقال عبد اللّه ابن أبى : يا هذا ، لا تؤذنا فى مجالسنا ، واجلس فى موضعك ، فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد اللّه بن رواحة : بل أغثنا يا رسول اللّه وذكّرنا ، فارتفعت أصواتهما ، وتضاربوا بالنعال ، فنزلت الآية ، وقيل غير ذلك «١».

وفى الآية دليل على أنّ الباغي لا يخرج ببغيه عن الإيمان ، وأنه يجب نصرة المظلوم ، وعلى فضيلة الإصلاح بين النّاس.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ أي : منتسبون إلى أصل واحد ، وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ، فيجب الاجتهاد فى التآلف بينهما لتحقق الأخوة. والفاء فى قوله : فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ للإيذان بأنّ الأخوة الدينية موجبة للإصلاح. ووضع المظهر مقام المضمر مضافا إلى المأمورين للمبالغة فى تأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض عليه ، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولى لتضاعف الفتنة والفساد فيه. وقيل : المراد بالأخوين : الأوس والخزرج. وقرأ يعقوب : «إخوتكم» بالجمع. وَاتَّقُوا اللَّهَ فيما تأتون وتذرون ، التي من جملتها : الإصلاح بين النّاس لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ راجين أن ترحموا على تقواكم ، لأن التقوى تحملكم على التواصل والائتلاف ، وهو سبب نزول الرّحمة.

الإشارة : النفس الطبيعية والرّوح متقابلان ، والحرب بينهما سجال ، فالنفس تريد السقوط إلى أرض الحظوظ والبقاء مع عوائدها ، والرّوح تريد العروج إلى سماء المعارف وحضرة الأسرار ، وبينما اتصال والتصاق ، فإن غلبت النفس هبطت بالروح إلى الحضيض الأسفل ، ومنعتها من العلوم اللدنية والأسرار الرّبانية ، وإن غلبت الرّوح ، عرجت بالنفس إلى أعلى عليين ، بعد تزكيتها وتصفيتها ، فتكسوها حلة الرّوحانية ، وينكشف لها من العلوم والأسرار ما كان للروح ، ولكلّ جند تقابل به ، فيقال من طريق الإشارة : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، بأن تؤخذ

---

(١) والذي فى الصحيح : ما أخرجه البخاري فى (الصلح ، باب ما جاء فى الإصلاح بين النّاس ، ح ٢٦٩١) ومسلم فى (الجهاد والسير ، باب فى دعاء النّبى صلّى اللّه عليه وسلم وصبره على أذى المنافقين ح ١٧٩٩) عن أنس بن مالك قال : قيل للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : لو أتيت عبد اللّه بن أبيّ؟ قال : فانطلق إليه ، وركب حمارا ، وانطلق المسلمون ، وهى أرض سبخة ، فلما أتاه النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قال : إليك عنى ، فو اللّه لقد آذاني نتن حمارك. فقال رجل من الأنصار : واللّه لحمار رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أطيب ريحا منك ، قال : فغضب لعبد اللّه رجل من قومه. قال : فغضب لكلّ واحد منهما أصحابه ، قال : فكان بينهم ضرب بالجريد وبالأيدى وبالنعال ، قال : فبلغت أنها نزلت فيهم :

وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما.

(٤٢٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢٥

النفس بالسياسة شيئا فشيئا ، ينقص من حظوظها شيئا فشيئا ، حتى تتزكى وتعالج الرّوح لدخول الحضرة ، وعكوف الهم فى الذكر شيئا فشيئا ، حتى تدخل الحضرة وهى لا تشعر ، ثم تشعر ويقع الاستغراق. وأما إن قطعت النّفس عن جميع مألوفاتها مرة واحدة ، أو كلفت الرّوح الحضور فى الذكر على الدوام مرة واحدة ، أفسدتهما ، لقوله : صلى اللّه عليه وسلم :

«ادخلوا فى هذا الدين برفق ، فما شاد أحدكم الدين إلا غلبه» «١» وقال أيضا : «لا يكن أحدكم كالمنبت ، لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى» «٢» فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى ، بأن تردع النّفس إن طغت ، وتأخذ لجام الروح إن هاجت ، حتى تفيء إلى أمر اللّه ، وهو الاعتدال ، فيعطى

كلّ ذى حق حقه ، ويوفى كلّ ذى قسط قسطه.

وقوله تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ قال الورتجبي : افهم أيها العاقل أن اللّه سبحانه خلق الأرواح المقدسة من عالم الملكوت ، وألبسها أنوار الجبروت فمواردها من قربه مختلفة ، لكن عينها واحدة ، وخلق هياكلها وأشباحها من تربة الأرض التي أخلصها من جملتها ، وزيّنها بنور قدرته ، ونفخ فيها تلك الأرواح ، [وجعل من الأرواح والأجسام النفوس] «٣» الأمّارة التي ليست من قبيل الأرواح ، ولا من قبيل الأجسام ، وجعلها مخالفة للأرواح ومساكنها ، فأرسل اللّه عليها جند العقول ، يدفع بها شرّها ، فإذا امتحن اللّه عباده المؤمنين هيّج نفوسهم الأمّارة ليظهر حقائق درجاتهم من الإيمان ، فأمرهم أن يعينوا العقل والرّوح والقلب على النّفس حتى تنهزم لأن المؤمنين كالبنيان يشد بعضهم بعضا.

ثم بيّن أنّ فى الإصلاح بين الإخوان الفلاح والنّجاة ، إذا كان مقرونا بالتقوى التي تقدس البواطن من البغي والحسد بقوله : (و اتقوا اللّه لعلكم ترحمون) فإذا فهمت ما ذكرت علمت أنّ حقيقة الأخوة مصدر الاتحاد ، فإنهم كنفس واحدة لأن مصادرهم مصدر واحد ، [وهو] «٤» آدم ، ومصدر روح آدم نور الملكوت ، ومصدر جسمه تربة الجنة فى بعض الأقوال. لذلك يصعد الرّوح إلى الملكوت ، والجسم إلى الجنة ، كما قال صلّى اللّه عليه وسلم : «كل شيء يرجع إلى أصل «٥»». هـ. قلت : صعود الرّوح إلى الملكوت هو شهود معانى الأسرار فى دار الجنة ، ونزول الجسم إلى الجنة هو تمتعه بنعيم حسها فى عالم الأشباح ، وكلّ ذلك بعد الموت ، وأحسن العبارة أن يقال : لأن مصادرهم مصدر واحد ، وهو بحر الجبروت ، المتدفق بأنوار الملكوت ، والوجود بأسره موجة من بحر الجبروت.

---

(١) يريد الشيخ حديث : «إن الدين يسر ، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه ...» الحديث أخرجه البخاري فى (الإيمان ، باب الدين يسر ، ح ٣٩) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية ٢٣ من سورة الجاثية

(٣) عبارة الورتجبي : [وجعل بين الأرواح والأجسام والنّفوس].

(٤) فى الأصول : [بنوا] والمثبت من الورتجبي.

(٥) على هامش النّسخة الأم مايلى : لعله يريد : «كل ميسر لما خلق له» أما بهذا اللفظ فلا نراه وارد. واللّه أعلم. هـ. [.....]

(٤٢٥/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢٦

ثم قال الورتجبي : قال أبو بكر النّقاش : سألت الجنيد عن الأخ الحقيقي؟ فقال : هو أنت فى الحقيقة

، غير أنه غيرك فى الهيكل. قلت : يعنى أن النّاس فى الحقيقة ذات واحدة ، وما افترقوا إلا فى الهياكل ، فكلهم أخوة. وقال أبو عثمان الحيرى : أخوة الدين أثبت من أخوة النّسب ، فإن أخوة النّسب تقطع بمخالفة الدين ، وأخوة الدين لا تقطع بمخالفة النّسب. هـ. وتقدم لنا شروط الأخوة فى قوله تعالى : الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ ... الآية «١».

وقال القشيري هنا : ومن حق الأخوة ألا تلجأه إلى الاعتذار ، بل تبسط عذره ، أي : تذكر عذره قبل أن يعتذر ، فإن أشكل عليك وجهه عدت بالملامة على نفسك فى خفاء عذره عليك ، وتتوب عليه إذا أذنب ، وتعوده إذا مرض ، وإذا أشار عليك بشىء فلا تطالبه بالدليل وإيراد الحجة ، كما أنشدوا :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأيّة حرب أم لأىّ مكان «٢». هـ.

ومن أوكد شروطها «٣» : التعظيم ، كما أبان ذلك بقوله تعالى :

[سورة الحجرات (٤٩) : آية ١١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ أي : عسى أن يكون المسخور منهم خيرا عند اللّه – تعالى – من الساخرين لأن النّاس لا يطّلعون إلا على الظواهر ، وهو تعليل للنهى ، والقوم خاص بالرجال لأنهم القوامون على النّساء ، وهو فى الأصل : جمع قائم ، كصوم وزور ، فى جمع صائم وزائر ، واختصاص القوم بالرجال صريح فى الآية إذ لو كانت النّساء داخلة فى الرّجال ، لم يقل :

وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ ، وحقق ذلك زهير فى قوله :

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء؟ «٤»

وأمّا قولهم فى قوم فرعون ، وقوم عاد : هم الذكور والإناث ، فليس لفظ القوم شاملا لهم ، ولكن قصد ذكر الذكور ، والإناث تبع لهم.

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.

(٢) البيت ينسب إلى وداك بن ثميل المازني. كما فى العقد الفريد (٥/ ٢٠٢) ، ونهاية الأرب (٣/ ٢٢٩).

(٣) أي : الأخوة.

(٤) حيث أراد بالقوم الرّجال دون النّساء. والبيت من الوافر. انظر ديوان زهير (١٢) والمغني (١/ ٤١).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢٧

وَلا يسخر نِساءٌ مؤمنات مِنْ نِساءٍ منهن عَسى أَنْ يَكُنَّ أي : المسخور منهن خَيْراً مِنْهُنَّ أي : الساخرات ، فإنّ مناط الخيرية فى الفريقين ليس ما يظهر من الصور والأشكال ، والأوضاع والأطوار ، التي عليها يدور أمر السخرية ، وإنما هى الأمور الكامنة فى القلوب ، من تحقيق الإيمان ، وكمال الإيقان ، وموارد العرفان ، وهى خفيّة ، فقد يصغّر العبد من عظّم اللّه ، ويتحقر من وقّره اللّه ، فيسقط من عين اللّه ، فينبغى ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بأحد إذا رآه رثّ الحال ، أو ذا عاهة فى بدنه ، ولو فى دينه ، فلعله يتوب ويبتلى بما ابتلى به. وفى الحديث : «لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه اللّه ويبتليك» «١». وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه : البلاء موكّل بالقول ، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبا. هـ.

وتنكير القوم والنّساء إما لإرادة البعض ، أي : لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض ، وإما لإرادة الشيوع ، وأن يصير كلّ جماعة منهم منهية عن السخرية ، وإنما لم يقل : رجل من رجل ، ولا امرأة من امرأة إعلاما بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية ، واستفظاعا للشأن الذي كانوا عليه.

وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ولا يعيب بعضكم بعضا بالطعن فى نسبه أو دينه ، واللمز : الطعن والضرب باللسان ، والمؤمنون كنفس واحدة ، فإذا عاب المؤمن المؤمن فقد عاب نفسه. وقيل : معناه : لا تفعلوا ما تلمزون به أنفسكم بالتعرض للكلام لأن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة. وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ أي : لا يدع بعضكم بعضا بلقب السوء ، فالتنابز بالألقاب : التداعي بها. والتلقيب المنهي عنه ما يدخل على المدعوّ به كراهية ، لكونه تقصيرا به وذمّا له ، فأمّا ما يحبه فلا بأس به ، وكذا ما يقع به التمييز ، كقول المحدّثين : حدثنا الأعمش والأحدب والأعور.

روى أن قوما من بنى تميم استهزأوا ببلال وخبّاب وعمّار وصهيب ، فنزلت «٢». وعن عائشة - رضي اللّه عنها - أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة ، وكانت قصيرة. وعن أنس : عيّرت نساء النّبى صلّى اللّه عليه وسلم أمّ سلمة بالقصر ، فنزلت «٣». وروى : أنها نزلت فى ثابت بن قيس ، وكان به وقر - أي : صمم - فكانوا يوسّعون له فى مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأتى قوما وهو يقول : تفسّحوا ، حتى انتهى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال لرجل : تنحّ فلم يفعل ، فقال : من هذا؟

فقال : أنا فلان ، فقال : فلان بن فلانة - يريد أمّا كان يعير بها فى الجاهلية ، فخجل الرّجل ، فنزلت ، فقال ثابت : واللّه لا أفخر على أحد بعد هذا أبدا «٤».

(١) أخرجه الترمذي فى (صفة القيامة والرّقائق ، باب ٥٤ ، ح ٢٥٠٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي اللّه عنه. وقال الترمذي : «حديث حسن غريب».

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٦/ ٩٦ - ٩٧) لابن أبى حاتم ، عن مقاتل.

(٣) ذكره الواحدي فى أسباب النّزول (ص ٤٠٩).

(٤) ذكره البغوي فى تفسيره ٧٠/ ٣٤٢ - ٣٤٣) عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٤٢٧/٥)

وقال ابن زيد : معنى وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ لا يقل أحد : يا يهودى ، بعد إسلامه ، ولا يا فاسق ، بعد توبته.

بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ يعنى : أن اللقب بئس الاسم هو ، وهو ارتكاب الفسق بعد الإيمان ، وهو استهجان للتنابز بالألقاب ، وارتكاب هذه الجريمة بعد الدخول فى الإسلام ، أو : بئس قول الرّجل لأخيه : يا فاسق ، بعد توبته ، أو : يا يهودى ، بعد إيمانه ، أي : بئس الرّمى بالفسوق بعد الإيمان.

روى : أنّ الآية نزلت فى صفية بنت حيى ، أتت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقالت : إن النّساء يقلن لى : يا يهودية بنت يهوديّين ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «هلّا قلت : إن أبى هارون ، وعمى موسى ، وزوجى محمد صلّى اللّه عليه وسلم» «١» ، أو : يراد بالاسم هنا : الذكر ، من قولهم : طار اسمه فى النّاس بالكرم أو اللؤم ، كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائم أن يذكروا بالفسق.

وقوله : بَعْدَ الْإِيمانِ ، استقباح للجمع بين الإيمان والفسق الذي يحظره الإيمان ، كما تقول : بئس الشأن بعد الكبرة الصّبوة. وَمَنْ لَمْ يَتُبْ عما نهى عنه فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ بوضع المخالفة موضع الطاعة ، فإن تاب واستغفر خرج من الظلم.

وعن حذيفة رضي اللّه عنه : شكوت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ذرب لسانى ، فقال : «أين أنت من الاستغفار؟ إنى لأستغفر اللّه كل يوم مائة مرة» «٢» ، والذرب - بفتح الذال والرّاء : الفحش ، وفى حديث ابن عمر : كنا نعدّ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى المجلس الواحد مائة مرة : «رب اغفر لى ، وتب علىّ ، إنك أنت التواب الرّحيم» «٣».

الإشارة : مذهب الصوفية التعظيم والإجلال لكل ما خلق اللّه ، كائنا من كان لنفوذ بصيرتهم إلى شهود

الصانع والمتجلّى ، دون الوقوف مع حس الصنعة الظاهرة ، وقالوا : «شروط التصوف أربعة : كف الأذى ، وحمل الجفا ، وشهود الصفا ، ورمى الدنيا بالقفا». فشهود الصفا يجرى فى الأشياء كلها ، فإياك يا أخى أن تحقر أحدا من خلق اللّه فتطرد عن بابه ، وأنت لا تشعر ، وللّه در القائل :

---

(١) أخرج الترمذي فى (المناقب ، باب فضل أزواج النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ح ٣٨٩٤) والنّسائى فى الكبرى (عشرة النّساء ٣٣) من حديث أنس رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩٤ و٣٩٦ ، ح ٢٣٢٣٣ و٢٣٢٥٥) وابن أبى شيبة (كتاب الدعاء ٦/ ٥٧ ، ح ٢٩٤٣٢) والحاكم (٢/ ٤٥٧) «وصحّحه وأقره الذهبي» والبيهقي فى الشعب (٦٧٨٦).

(٣) أخرجه أبو داود فى (الصلاة ، باب فى الاستغفار ، ح ١٥١٦) والترمذي فى (الدعوات ، باب ما يقول إذا قام من مجلسه ، ح ٣٤٣٤) وقال : «حديث حسن صحيح غريب» وابن ماجة فى (الأدب ، باب الاستغفار ، ح ٣٨١٤) والنّسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ١٤٨) وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٦/ ٤٨) لابن أبى شيبة وابن مردويه ، والبيهقي فى الأسماء والصفات.

(٥/٤٢٨)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢٩

للّه فى الخلق أسرار وأنوار ويصطفى اللّه من يرضى ويختار

لا تحقرنّ فقيرا إن مررت به فقد يكون له حظّ ومقدار

والمرء بالنّفس لا باللّبس تعرفه قد يخلق الغمد والهندىّ بتّار

والتّبر فى التّرب قد تخفى مكانته حتّى يخلّصه بالسّبك مسبار

وربّ أشعث ذى طمرين مجتهد له على اللّه فى الإقسام إبّرار

وعن أبى سعيد الخراز ، قال : دخلت المسجد الجامع ، فرأيت فقيرا ، عليه خرقتان ، فقلت فى نفسى : هذا وأشباهه كل على النّاس ، فنادانى ، وتلا : وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ «١» فاستغفرت اللّه فى سرى ، فنادانى وقال : وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ «٢» ثم غاب عنى فلم أره. هـ.

وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة ، فيقال لأحدهم : هلّم ، فيجىء بغمه وكربه ، فإذا جاء أغلق دونه ، ثم يفعل به هكذا مرارا ، من باب إلى باب ، حتى يأتيه الإياس» «٣». بالمعنى من البدور السافرة.

ثم نهى عن الظن ، فقال :

[سورة الحجرات (٤٩) : آية ١٢]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ أي : كونوا فى جانب منه ، يقال : جنّبه الشرّ إذا أبعده عنه ، أي : جعله فى جانب منه ، و«جنّب» يتعدى إلى مفعولين ، قال تعالى : وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ «٤» ، ومطاوعه : اجتنب ، ينقص مفعولا ، وإبهام «الكثير» لإيجاب التأمل فى كل ظن ، حتى يعلم من

---

(١) من الآية ٢٣٥ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٢٥ من سورة الشورى.
(٣) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (ح ٦٧٥٧) عن الحسن ، مرسلا. [.....]
(٤) من الآية ٣٥ من سورة إبراهيم.

(٥/٤٢٩)

أىّ قبيل هو ، فإنّ من الظن ما يجب اتباعه كالظن فيما لا قاطع فيه من العمليات ، وحسن الظن باللّه تعالى ، ومنه ما يحرم ، وهو ما يوجب نقصا بالإلهيات والنّبوات ، وحيث يخالفه قاطع ، وظن السوء بالمؤمنين ، ومنه ما يباح ، كأمور المعاش.

إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، تعليل للأمر بالاجتناب ، قال الزجاج : هو ظنّك بأهل الخير سوءا ، فأما أهل الفسق فلنا أن نظنّ بهم مثل الذي ظهر عليهم ، وقيل المعنى : اجتنبوا اجتنابا كثيرا من الظن ، وتحرّزوا منه ، إن بعض الظن إثم ، وأولى كثيره ، والإثم : الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «إياكم والظن ، فإن الظنّ أكذب الحديث» «١» ، فالواجب ألّا يعتمد على مجرد الظن ، فيعمل به ، أو يتكلم بحسبه.

قال ابن عطية : وما زال أولو العزم يحترسون من سوء الظن ، ويجتنبون ذرائعه. قال النّووى : واعلم أن سوء الظن حرام مثل القول ، فكما يحرم أن تحدّث غيرك بمساوئ إنسان يحرم أن تحدّث نفسك بذلك ، وتسىء الظن به ، والمراد : عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ، فأما الخواطر ، وحديث النّفس ، إذا لم يستقر ويستمر عليه صاحبه ، فمعفوّ عنه باتفاق لأنه لا اختيار له فى وقوعه ، ولا طريق له إلى الانفكاك عنه. هـ.

وقال في التمهيد : وقد ثبت عن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «حرّم اللّه من المؤمن : دمه وماله وعرضه ، وألا يظنّ به إلا الخير» «٢». هـ. ونقل أيضا أن عمر بن عبد العزيز كان إذا ذكر عنده رجل بفضل أو صلاح ، قال : كيف هو إذا ذكر عنده إخوانه؟ فإن قالوا : ينتقص منهم ، وينال منهم ، قال عمر : ليس هو كما تقولون ، وإن قالوا : إنه يذكر منهم جميلا ، ويحسن الثناء عليهم ، قال : هو كما تقولون إن شاء اللّه. هـ. وفي الحديث أيضا : «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير ، حسن الظنّ باللّه ، وحسن الظن بعباد اللّه. وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر ، سوء الظن باللّه ، وسوء الظن بعباد اللّه».

وَلا تَجَسَّسُوا لا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم ، يقال : تجسس الأمر : إذا تطلبه وبحث عنه ، تفعل من : الجسّ. وعن مجاهد : خذوا ما ظهر ودعوا ما ستر اللّه. وقال سهل : لا تبحثوا عن طلب ما ستر اللّه على

---

(١) أخرجه بطوله البخاري في (الأدب ، باب يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ ح ٦٠٦٦) ومسلم في (البر والصلة ، باب تحريم الظن ، ح ٢٥٦٣).

(٢) انظر التمهيد (٢٠/ ١٥٧) ، وأخرج الطبراني في الكبير (١١٠/ ٣٧ ح ١٠٩٦٦) عن ابن عباس - رضي اللّه عنهما - قال : نظر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إلى الكعبة فقال : «لا إله إلا اللّه» ما أطيبك وأطيب ريحك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة منك ، إن اللّه عز وجل جعلك حراما ، وحرّم من المؤمن ماله ودمه وعرضه وأن يظن به ظنا سيئا».

عباده ، وفي الحديث : «لا تتبعوا عورات المسلمين فإنّ من تتبع عورات المسلمين تتبع اللّه عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته» «١».

قال ابن عرفة : من هو مستور الحال فلا يحلّ التجسس عليه ، ومن اشتهر بشرب خمر ونحوه فالتجسس عليه مطلوب أو واجب. هـ. قلت : معناه : التجسس عليه بالشم ونحوه ليقام عليه الحد ، لا دخول داره لينظر ما فيها من الخمر ونحوه ، فإنه منهى عنه ، وأمّا فعل عمر - رضي اللّه عنه - فحال غالبة ، يقتصر عليها في محلها. وانظر الثعلبي ، فقد ذكر عن عمر رضي اللّه عنه أنه فعل من ذلك أمورا ، ومجملها ما ذكرنا.

وقرئ بالحاء «٢» ، من «الحس» الذي هو أثر الجس وغايته ، وقيل : التجسس - بالجيم - يكون

بالسؤال ، وبالحاء يكون بالاطلاع والنّظر ، وفى الإحياء : التجسس – أي : بالجيم – فى تطلع الأخبار ، والتحسس بالمراقبة بالعين. هـ.

وقال بعضهم : التجسس – بالجيم – فى الشر ، وبالحاء فى الخير ، وقد يتداخلان.

والحاصل : أنه يجب ترك البحث عن أخبار النّاس ، والتماس المعاذر ، حتى يحسن الظن بالجميع ، فإنّ التجسس هو السبب فى الوقوع فى الغيبة ، ولذلك قدّمه الحق – تعالى – على النّهى عن الغيبة ، حيث قال : وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أي : لا يذكر بعضكم بعضا بسوء. فالغيبة : الذكر بالعيب فى ظهر الغيب ، من الاغتياب ، كالغيلة من الاغتيال. وسئل صلّى اللّه عليه وسلم عن الغيبة ، فقال : «ذكرك أخاك بما يكره ، فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه» «٣».

وعن معاذ : كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فذكر القوم رجلا ، فقالوا : لا يأكل إلا إذا أطعم ، ولا يرحل إلا إذا رحّل ، فما أضعفه! فقال عليه السّلام : «اغتبتم أخاكم» ، فقالوا : يا رسول اللّه ، أو غيبة أن يحدّث بما فيه؟ قال : «فحسبكم غيبة أن تحدّثوا عن أخيكم بما فيه» «٤». قال أبو هريرة : قام رجل من عند النّبى صلّى اللّه عليه وسلم فرأوا فى قيامه عجزا ، فقالوا : يا رسول اللّه ، ما أعجز فلانا! فقال عليه السّلام : «أكلتم لحم أخيكم واغتبتموه»»

.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (البر والصلة ، باب ما جاء فى تعظيم المؤمن ح ٢٠٣٢) وابن حبان (موارد ص ٣٥٩) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه. وأخرجه أبو داود فى (الأدب ، باب فى الغيبة ، ح ٤٨٨٠) من حديث أبى برزة الأسلمى.

(٢) نسبها فى البحر المحيط (٨/ ١١٣) للحسن وأبى رجاء وابن سيرين.

(٣) أخرجه مسلم فى (البر والصلة ، باب تحريم الغيبة ح ٣٥٨٩) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٤) رواه الأصبهانى فى الترغيب (٢٢٠٨) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. ولم أقف عليه من حديث معاذ رضي اللّه عنه.

(٥) عزاه المنذرى فى الترغيب والترهيب (ح ٤١٧٠) لأبى يعلى فى مسنده (٦١٥١) والطبراني – واللفظ له – عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٣٢

قال النّووى : الغيبة : كل ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم عاقل ، وهو حرام. هـ. قوله : ما أفهمت ... إلخ ، يتناول اللفظ الصريح والكناية والرّمز والتعريض والإشارة بالعين والرّأس ، والتحكية بأن يفعل مثله ، كالتعارج ، أو يحكى كلامه على هيئته ليضحك غيره ، فهذا كله حرام ، إن فهم المخاطب تعيين الشخص المغتاب ، وإلا فلا بأس ، واللّه تعالى أعلم. ولا فرق بين غيبة الحي والميت ، لما ورد : «من شتم ميتا أو اغتابه فكأنما شتم ألف نبى ، ومن اغتابه فكأنما اغتاب ألف ملك ، وأحبط اللّه له عمل سبعين سنة ، ووضع على قدمه سبعين كية من نار» «١».

والسامع للغيبة كالمغتاب ، إلّا أن يغير أو يقوم ، وورد عن الشيخ أبى المواهب التونسى الشاذلى أن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قال له : «فإن كان ولا بد من سماعك غيبة النّاس - أي : وقع منك - فاقرأ سورة الإخلاص والمعوذتين ، واهد ثوابها للمغتاب فإن اللّه يرضيه عنك بذلك». هـ.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : الغيبة إدام كلاب النّاس. هـ. وتشبيههم بالكلاب فى التمزيق والتخريق ، فهم يمزقون أعراض النّاس ، كالكلاب على الجيفة ، لا يطيب لهم مجلس إلا بذكر عيوب النّاس. وفى الحديث : «رأيت ليلة أسرى بي رجالا لهم أظفار من نحاس ، يخمشون وجوههم ولحومهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل؟ فقال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم النّاس ويقعون فى أعراضهم» «٢».

أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ، هذا تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه. وفيه مبالغات ، منها : الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها : فعل ما هو الغاية فى الكراهة موصولا بالمحبة ، ومنها : إسناد الفعل إلى أَحَدُكُمْ إشعارا بأنّ أحدا من الأحدين لا يحبّ ذلك ، ومنها : أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم مطلق الإنسان ، بل جعله أخا للآكل ، ومنها : أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتا. وعن قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة مدوّدة أن تأكل منها كذلك فاكره لحم أخيك. هـ.

ولمّا قررهم بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقّب ذلك بقوله : فَكَرِهْتُمُوهُ أي : وحيث كان الأمر كما ذكر فقد كرهتموه ، فكما تحققت كراهتكم له باستقامة العقل فاكرهوا ما هو نظيره باستقامة الدين.

وَاتَّقُوا اللَّهَ فى ترك ما أمرتم باجتنابه ، والنّدم على ما صدر منكم منه ، فإنكم إن اتقيتم وتبتم تقبّل اللّه توبتكم ، وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ مبالغ فى قبول التوبة ، وإفاضة الرّحمة ، حيث جعل التائب كمن لا ذنب له ، ولم يخص تائبا دون تائب ، بل يعم الجميع ، وإن كثرت ذنوبه.

---

(١) على هامش النّسخة الأم : يا أستاذ هذا الحديث كذب موضوع ، ظاهر من لفظه. هـ.

(٢) أخرجه أبو داود فى (الأدب ، باب فى الغيبة ، ح ٤٨٧٨) وأحمد (٣/ ٢٢٤) من حديث أنس رضي اللّه عنه.

(٤٣٢/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٣٣

روى أنّ سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ، ويصلح طعامهما ، فنام عن شأنه يوما ، فبعثاه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : «ما عندى شى ء» فأخبرهما سلمان ، فقالا : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. فلما جاءا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لهما : «مالى أرى حمرة اللّحم فى أفواهكما؟» فقالا : ما تناولنا لحما ، فقال : «إنكما قد اغتبتما ، من اغتاب مسلما فقد أكل لحمه» ، ثم قرأ الآية «١».

وقيل : غيبة الخلق إنما تكون بالغيبة عن الحق. هـ. قاله النّسفى. قال بعضهم : والغيبة صاعقة الدين ، فمن أراد أن يفرّق حسناته يمينا وشمالا فليغتب النّاس. وقيل : مثل صاحب الغيبة مثل من نصب منجنيقا فهو يرمى به حسناته يمينا وشمالا ، شرقا وغربا. هـ. والأحاديث والحكايات فى ذم الغيبة كثيرة ، نجانا اللّه منها بحفظه ورعايته.

وهل هى من الكبائر أو من الصغائر؟ خلاف ، رجّح بعض أنها من الصغائر لعموم البلوى بها ، قال بعضهم : هى فاكهة القراء ، ومراتع النّساء ، وبساتين الملوك ، ومزبلة المتقين ، وإدام كلاب النّاس. هـ «٢».

الإشارة : من نظر النّاس بعين الجمع عذرهم فيما يصدر منهم ، وحسّن الظن فيما لم يصدر منهم ، وعظّم الجميع ، ومن نظرهم بعين الفرق طال خصمه معهم فيما فعلوا ، وساء ظنّه بهم فيما لم يفعلوا ، وصغّرهم حيث لم ير منهم ما لا يعجبه ، فالسلامة : النظر إليهم بعين الجمع ، وإقامة الحقوق عليهم فى مقام الفرق ، قياما بالحكمة فى عين القدرة. وفى الحديث : «ثلاثة دبت لهذه الأمة الظن ، والطيرة ، والحسد» قيل : فما النّجاة؟ قال :

«إذا ظننت فلا تحقّق ، وإذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ» «٣» أو كما - قال عليه السّلام.

قال القشيري : النفس لا تصدّق ، والقلب لا يكذّب ، والتمييز بينهما مشكل ، ومن بقيت عليه من حظوظه بقية - وإن قلّت - فليس له أن يدّعى بيان القلب - أي : استفتاءه - بل يتهم نفسه ما دام عليه شيء من نفسه ، ويجب أن يتهم نفسه فى كل ما يقع له من نقصان غيره ، هذا أمير المؤمنين عمر قال وهو يخطب النّاس : «كل النّاس أفقه من عمر حتى النّساء» «٤». هـ.

---

(١) قال المناوى فى الفتح السماوي (٣/ ١٠٠٤) : «ذكره الثعلبي بغير إسناد ، وروى معناه الأصبهانى فى الترغيب عن عبد الرّحمن ابن أبى ليلى».
(٢) على هامش النّسخة الأم مايلى : غريب هذا الترجيح ، وأغرب منه دليله ، فالأحاديث الكثيرة الصحيحة تفيد أن الغيبة من الكبائر ، بل من أكبرها ، بل من أربى الرّبا ، وأشد من ست وثلاثين زنية ، والزنا والرّبا من الكبائر ، وأيضا : هى من حقوق الخلق ، التي لا تكفّر إلا بالاستحلال ، فكيف تكون من الصغائر أ. هـ.
(٣) ذكره ابن عبد البر فى التمهيد (٦/ ١٢٥) بلفظ (ثلاث لا يسلم منهن أحد ..) الحديث ، وعزاه لعبد الرّزاق ، عن إسماعيل بن أمية. وذكره الهيثمي فى المجمع (٨/ ٨١) وابن كثير فى التفسير (٤/ ١٣) بلفظ «ثلاث لازمات لأمتى ..» الحديث ، وفيه : «وإذا حسدت فاستغفر اللّه» وعزاه كل منهما للطبرانى عن حارثة بن النّعمان. وقال الهيثمي : «وفيه إسماعيل بن قيس الأنصاري ، وهو ضعيف».
(٤) قاله رضي اللّه عنه بعد أن خطب ناهيا عن المغالاة فى مهور النّساء ، وأن لا يزدن عن أربعمائة درهم ، فقالت له امرأة من قريش : أما سمعت اللّه يقول : وَآتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً [النساء/ ٢٠]. ذكره فى كنز العمال (رقم ٤٥٧٩٨) وعزاه لسعيد بن منصور ، وأبى يعلى فى مسنده ، والمحاملي فى أماليه ، عن مسروق. وانظر : الشذرة فى الأحاديث المشتهرة (رقم ٦٩٧). [.....]

(٤٣٣/٥)

قوله تعالى : وَلا تَجَسَّسُوا .. إلخ ، التجسس عن أخبار النّاس من علامة الإفلاس ، قال القشيري : العارف لا يتفرغ من شهود الحقّ إلى شهود الخلق ، فكيف يتفرغ إلى التجسس عن أحوالهم؟! لأن من اشتغل بنفسه لا يتفرغ إلى الخلق ، ومن اشتغل بالحق لا يتفرغ لنفسه ، فكيف إلى غيره؟! هـ.
قوله تعالى : وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، ليست الغيبة خاصة باللسان فى حق الخاصة ، بل تكون أيضا بالقلب ، وحديث النّفس ، فيعاتبون عليها كما تعاتب العامة على غيبة اللسان ، وتذكّر قضية الجنيد مع الفقير الذي رآه يسأل ، وهى مشهورة ، وتقدمت حكاية أبى سعيد الخراز ، ونقل الكواشي عن أبى عثمان : أنّ من وجد فى قلبه غيبة لأخيه ، ولم يعمل فى صرف ذلك عن قلبه بالدعاء له خاصة ، والتضرع إلى اللّه بأن يخلّصه منه أخاف أن يبتليه اللّه فى نفسه بتلك المعايب. هـ. قال القشيري : وعزيز رؤية من لا يغتاب أحدا بين يديك. هـ. وقد أبيحت الغيبة فى أمور معلومة ، منها : التحرز منه لئلا يقع الاغترار بكلامه أو صحبته ، والترك أسلم وأنجى.
ثم نهى عن الافتخار بالأنساب ، فقال :

[سورة الحجرات (٤٩) : آية ١٣]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى آدم وحوّاء ، أو : كل واحد منكم من أب وأم فما منكم من أحد إلا وهو يدلى بما يدلى به الآخر ، سواء بسواء ، فلا معنى للتفاخر والتفاضل بالنسب. وفى الحديث : «لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقى» «١». وقال أيضا : «ثلاثة من أمر الجاهلية الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والدعاء بدعاء الجاهلية» «٢» أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلم.

وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ ، الشعوب : رؤوس القبائل ، مثل ربيعة ومضر ، والأوس والخزرج ، واحدها : شعب - بفتح الشين ، سمّوا بذلك لتشعبهم كتشعب أغصان الشجرة ، والقبائل : دون الشعوب ، واحدها : قبيلة ، كبكر من ربيعة ، وتميم من مضر. ودون القبائل : العمائر ، جمع عمارة بفتح العين ، وهم كشيبان من بكر ، ودارم من تميم ،

---

(١) أخرجه مطولا : البيهقي فى الشعب (ح ٥١٣٧) من حديث جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه.

(٢) ذكره الهيثمي فى المجمع (٣/ ١٦) بنحوه ، وعزاه للطبراني فى الكبير. عن سلمان مرفوعا ، وقال : «فيه عبد الغفور أبو الصباح ، وهو ضعيف».

(٥/٤٣٤)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٣٥

ودون العمائر : البطون ، واحدها : بطن ، وهى كبنى غالب ولؤى من قريش ، ودون البطون : الأفخاذ ، واحدها : فخذ ، كهاشم وأمية من بنى لؤى ، ثم الفصائل والعشائر ، واحدها : فصيلة وعشيرة ، فالشعب تجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن يجمع الأفخاذ ، والفخذ يجمع الفصائل «١». وقيل : الشعوب من العجم ، والقبائل من العرب ، والأسباط من بنى إسرائيل. لِتَعارَفُوا أي : إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم نسب بعض ، فلا يتعدى إلى غير آبائه ، لا لتتفاخروا بالأجداد والأنساب.

ثم ذكر الخصلة التي يفضل بها الإنسان ، ويكتسب الشرف والكرم عند اللّه ، فقال : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ أي : لا أنسبكم ، فإنّ مدار كمال النّفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوى ، فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بالتقوى ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من سره أن يكون أكرم النّاس فليتق اللّه»

«٢» وروى أنه صلّى اللّه عليه وسلم طاف يوم فتح مكة ، ثم حمد اللّه ، وأثنى عليه ، وقال : «الحمد للّه الذي أذهب [عبيّة] «٣» الجاهلية وتكبّرها يا أيها النّاس إنما النّاس رجلان رجل مؤمن تقيّ كريم على اللّه ، ورجل فاجر شقى هيّن على اللّه» ثم قرأ الآية «٤».

وعن ابن عباس - رضي اللّه عنهما : كرم الدنيا الغنى ، وكرم الآخرة التقى. وقال قتادة : أكرم الكرم التقى ، وألأم اللؤم الفجور ، وسئل عليه السّلام عن خير النّاس؟ فقال : «آمركم بالمعروف ، وأنهاكم عن المنكر ، وأوصلكم للرحم» وقال عمر رضي اللّه عنه : «كرم الرّجل : دينه وتقواه ، وأصله : عقله ، ومروءته : خلقه ، وحسبه : ماله» «٥».

وعن يزيد بن شجرة : مرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى سوق المدينة ، فرأى غلاما أسود ، قائما ينادى عليه من يزيد فى ثمنه ، وكان الغلام يقول : من اشترانى فعلى شرط ألّا يمنعنى من الصلوات الخمس خلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فاشتراه

---

(١) وقد نظمها بعض الأدباء ، فقال :

اقصد الشعب فهو أكثر حى عددا فى الحواء ثم القبيلة

ثم تتلوها العمارة ثم ال بطن والفخذ بعدها والفصيلة

ثم من بعدها العشيرة لكن هى فى جنب ما ذكرناه قليله

(٢) أخرجهالحاكم (٤/ ٢٧٠) والطبراني فى الكبير (١٠/ ٣٨٩) وأبو نعيم فى الحلية (٣/ ٢١٨) عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٣) فى الأصول [غيبة] أما عن معناها ، فقال ابن الأثير : يعنى الكبر ، وتضم عينها وتكسر ، وهى فعّولة أو فعّيلة ، فإن كانت «فعّولة» فهى من التّعبية ، لأن المتكبر ذو تكلف وتعبية ، خلاف من يسترسل على سجيته ، وإن كانت «فعّلية» فهى من عباب الماء ، وهو أوله وارتفاعه. انظر النّهاية (عبب ٣/ ١٦٩) ..

(٤) أخرجه بطوله الترمذي فى (التفسير سورة الحجرات ، ح ٣٢٧٠) ، والبغوي فى تفسيره (٧/ ٣٤٨) وفى شرح السنة (١٣/ ١٢٤) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه.

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٥٢٠) والبيهقي فى السنن (١٩٥/ ١٠) من قول سيدنا عمر ، موقوفا ، بلفظ «حسب الرّجل دينه ، ومروءته خلقه ، وأصله عقله ، وأخرج الإمام مالك فى الموطأ (ص ٤٦٣) عن سيدنا عمر موقوفا : «الكرم التقوى ، والحسب والمال ...» ، وأخرج أحمد (٢/ ٣٦٥) والحاكم (١/ ١٢٣) والبيهقي فى السنن (٧/ ١٣٦) وابن حبان (إحسان - ٤٨٣) والقضاعي فى مسند الشهاب (١٩٠) عن أبى هريرة ، مرفوعا : «كرم المرء دينه ، ومروءته عقله ، وحسبه خلقه» قال الحاكم : «صحيح على شرط مسلم».

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٣٦

بعضهم ، فعاده رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ثم توفى ، فتولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم غسله وتكفينه ودفنه ، فقالت المهاجرون : هاجرنا ديارنا وأموالنا وأهلينا ، فما نرى أحدا منا لقى فى حياته ولا موته ما لقى هذا الغلام ، وقالت الأنصار : آويناه ونصرناه وواسيناه بأموالنا ، فآثر علينا عبدا حبشيا ، فنزلت «١».

وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «إنّ اللّه لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، وإنما أنتم بنو آدم ، أكرمكم عند اللّه أتقاكم ، وأنتم تقولون : فلان بن فلان ، وأنا اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم ، أين المتقون» «٢». وقيل :

يا رسول اللّه ، من أكرم النّاس؟ قال : «أتقاهم» «٣». هـ وأنشدوا :

ما يصنع العبد بعزّ الغنى والعز كل العزّ للمتّقى

من عرف اللّه فلم تغنه معرفة اللّه فذاك الشّقى

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ، عليم بكرم القلوب وتقواها ، خبير بهمم النّفوس فى هواها.

الإشارة : كان سيدنا علىّ رضي اللّه عنه يقول : «ما لابن آدم والفخر ، أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وفيما بينهما يحمل العذرة» وكان ينشد :

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حوّاء

ومن يرم منهم فخرا بذي نسب فإن أصلهم الطّين والماء

ما الفخر إلا لأهل العلم إنّهم على الهدى لمن اهتدى أدلّاء

وقدر كل امرئ ما كان يتقنه والجاهلون لأهل العلم أعداء «٤»

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النّزول (ص ٤١١ - ٤١٢) بدون إسناد.

(٢) أخرجه إلى قوله : «وأعمالكم» مسلم فى (البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله ، رقم ٢٥٦٤ ، ح ٣٤) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه. والجزء الثاني جاء فى حديث ، لفظه : «إذا كان يوم القيامة أمر اللّه مناديا ينادى : ألا إنى جعلت نسبا وجعلتم نسبا ، فجعلت أكرمكم أتقاكم ، فأبيتم إلا أن تقولوا : فلان بن فلان خير من فلان بن فلان ، فاليوم أرفع نسبى وأضع نسبكم ، أين المتقون؟» الحديث أخرجه الطبراني فى الأوسط (ح ٤٥١١) والصغير (٦٣٤) وبنحوه البيهقي فى الشعب (ح ٥١٣٩) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) بعض حديث أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة يوسف ، باب : لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ

آياتٌ لِلسَّائِلِينَ ح ٤٦٨٩) ومسلم في (الفضائل ، باب من فضائل يوسف عليه السّلام رقم ٢٣٧٨) عن أبي هريرة رضي اللّه عنه. ولفظ البخاري : سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : أي النّاس أكرم؟ قال : «أكرمهم عند اللّه أتقاهم» ولفظ مسلم نحوه.

(٤) هكذا في الأصول ، وانظر ديوان «الإمام عليّ» جمع وضبط «نعيم زرزور» (ص ٥ - ٦) وتفسير القرطبي (٧/ ٦٣٤٧) وإتحاف السادة المتقين (١/ ٨٨) فقد جاءت الأبيات فيها بأتم من هنا مع اختلاف.

(٤٣٦/٥)

وقوله : مالفخر إلا لأهل العلم .. إلخ ، يعنى : لو كان الفخر مباحا ما أبيح إلّا لهم ، وإلا فهم أولى بالتواضع ، اقتداء برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وقد قال : «من تواضع دون قدره رفعه اللّه فوق قدره» «١» فما رفع اللّه قدر العلماء إلا بتواضعهم حتى ينالهم الشريف والوضيع ، والصغير والكبير ، والقوى والضعيف ، فمن لم يكن هكذا فليس بعالم لأنّ الخشية تحمل على التواضع ، ومن لم يخش فليس بعالم حقيقة. قال تعالى : إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ «٢».

وقوله تعالى : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ ، اعلم أنّ نصيب كلّ عبد من اللّه تعالى على قدر تقواه ، وتقواه على قدر توجهه إلى اللّه ، وتوجهه على قدر تفرغه من الشواغل ، وتفرغه على قدر زهده ، وزهده على قدر محبته ومحبته على قدر علمه باللّه ، وعلمه على قدر يقينه ، ويقينه على قدر كشف الحجاب عنه ، وكشف الحجاب على قدر جذب العناية ، وجذب العناية على قدر السابقة ، وهى سر القدر الذي لم يكشف في هذه الدار. وسقوط العبد من عين اللّه على قدر قلة تقواه ، وقلة تقواه على قدر ضعف توجهه ، وضعف توجهه على قدر تشعب همومه ، وتشعب همومه على قدر حرصه ورغبته في الدنيا ، ورغبته في الدنيا على قدر ضعف محبته في اللّه ، وضعف محبته على قدر جهله به ، وجهله على قدر ضعف يقينه ، وضعف اليقين من كثافة الحجاب ، وكثافة الحجاب من عدم جذب العناية ، وعدم جذب العناية من علامة الخذلان السابق ، الذي هو سر القدر. واللّه تعالى أعلم.

ثم إنّ أساس التقوى : الإيمان الصادق دون الكاذب ، الذي أشار إليه بقوله :

[سورة الحجرات (٤٩) : الآيات ١٤ الى ١٥]

قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)

يقول الحق جل جلاله : قالَتِ الْأَعْرابُ أي : بعض الأعراب آمَنَّا ، نزلت فى نفر من بنى أسد ، قدموا المدينة فى سنة جدبة ، فأظهروا الإسلام ، ولم يؤمنوا فى السر ، وأفسدوا طرق المدنية بالعذرات ، وأغلوا

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ ، وأخرج أحمد فى المسند (٣/ ٣٦) وابن ماجه فى (الزهد ٣/ ٢/ ١٣٩٨ ، ح ٤١٧٦) عن أبى سعيد الخدري ، قال : قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من يتواضع للّه سبحانه درجة يرفعه اللّه به درجة ، ومن يتكبر على اللّه درجة ، يضعه اللّه به درجة ، حتى يجعله فى أسفل سافلين».

(٢) الآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٤٣٧/٥)

أسعارها ، وكانوا يقولون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، وهم يريدون الصدقة ، ويقولون : أعطنا ، ويمنّون بإسلامهم «١».

قُلْ لهم : لَمْ تُؤْمِنُوا لم تصدّقوا بقلوبكم وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا ، فالإيمان هو التصديق بالقلب مع الإذعان به ، والإسلام هو الدخول فى السّلم ، والخروج من أن يكون حربا للمؤمنين بإظهار الشهادتين ألا ترى إلى قوله : وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ فهو يدل على أنّ مجرد النّطق بالشهادتين ليس بإيمان ، فتحصّل أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة للقلب فهو إسلام ، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان ، وهذا من حيث اللغة ، وأما فى الشرع فهما متلازمان ، فلا إسلام إلا بعد إيمان ، ولا إيمان إلا بعد النّطق بالشهادة إلا لعذر.

والتعبير ب «لمّا» يدل على أن الإيمان متوقّع من بعضهم وقد وقع. فإن قلت : مقتضى نظم الكلام أن يقول : قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا ، أو : قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم؟ قلت : أفاد هذا النّظم تكذيب دعواهم أولا ، فقيل : قل لم تؤمنوا ، مع حسن أدب ، فلم يقل : كذبتم صريحا ، ووضع «لم تؤمنوا» الذي هو نفس ما ادّعوا إثباته موضعه ، واستغنى بقوله : لَمْ تُؤْمِنُوا عن أن يقال : لا تقولوا آمنا لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النّهى عن القول بالإيمان ، ولم يقل : ولكن أسلمتم ليكون قولهم خارجا مخرج الزعم والدعوى ، كما كان قولهم : «آمنا» كذلك ، ولو قيل : ولكن أسلمتم لكان كالتسليم ، والاعتداد بقولهم ، وهو غير معتدّ به.

وليس قوله : وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ تكريرا لمعنى قوله : لَمْ تُؤْمِنُوا فإنّ فائدة قوله : لَمْ تُؤْمِنُوا

تكذيب دعواهم ، وقوله : وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم : ولكن قولوا أسلمنا حين لم يثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير فى «قولوا». قاله النّسفى.

وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ بالإخلاص وترك النّفاق لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً من أجورها. يقال : ألت يألت «٢» ، وألات يليت ، ولات يليت ، بمعنى ، وهو النّقص ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لما فرط من الذنوب ، رَحِيمٌ يستر العيوب.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا لم يشكّوا ، من : ارتاب ، مضارع رابه : إذا أوقعه فى الشك والتهمة ، والمعنى : أنهم آمنوا ثم لم يقع فى إيمانهم شك فيما آمنوا ، ولا اتهام لمن صدّقوه ، ولمّا كان الإيقان

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النّزول (ص ٤١٢) والبغوي فى التفسير (٧/ ٣٤٩) بدون إسناد ، وعزاه ابن كثير فى التفسير (٤/ ٢١٩ - ٢٢) للبزار ، عن ابن عباس رضي اللّه عنه. [.....]

(٢) بضم اللام وكسرها ، انظر البحر المحيط (٨/ ١٠٤).

وزوال الرّيب ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان ، تنبيها على علو مكانه ، وعطف على الإيمان بثمّ إشعارا باستقراره فى الأزمنة المتراخية المتطاولة غضّا جديدا. وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي :

جاهدوا ما ينبغى جهاده من الكفار والأنفس والهوى ، بالإعانة بأموالهم ، والمباشرة بأنفسهم فى طلب رضا اللّه.

أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ أي : الذين صدقوا فى قولهم : آمنا ، لم يكذّبوا كما كذّب أعراب بنى أسد بل إيمانهم إيمان صدق وحق. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : مذهب الصوفية : أن العمل إذا كان حدّه الجوارح الظاهرة يسمى مقام الإسلام ، وإذا انتقل لتصفية البواطن بالرياضة والمجاهدة يسمى مقام الإيمان ، وإذا فتح على العبد بأسرار الحقيقة يسمى مقام الإحسان ، وقد جعل الساحلى مقام الإسلام مركّبا من ثلاثة التوبة والتقوى والاستقامة ، والإيمان مركبا من الإخلاص والصدق والطمأنينة ، والإحسان مركّبا من المراقبة والمشاهدة والمعرفة ، ولكلّ زمان ورجال تربية واصطلاح فى السير ، والمقصد واحد ، وهو المعرفة العيانية.

قال القشيري : الإيمان هو حياة القلوب ، والقلوب لا تحيا إلا بعد ذبح النّفوس ، والنّفوس لا تموت ، ولكنها تغيب. هـ. أي : المقصود بقتل النّفوس هو الغيبة عنها فى نور التجلي ، فإذا وقع الفناء فى شهود الحق عن شهود الخلق فلا مجاهدة. وقال القشيري فى مختصره : قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا ... إلخ ، يشير إلى أنّ حقيقة الإيمان ليست مما يتناول باللسان ، بل هو نور يدخل القلوب ، إذا شرح اللّه صدر العبد للإسلام كما قال تعالى : فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ «١» ، وقال عليه السّلام فى صفة ذلك النّور : «إنّ النّور إذا وقع فى القلب انفسح له واتسع» ، قالوا : يا رسول اللّه هل لذلك النّور من علامة؟ قال : «بلى التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله» «٢». لهذا قال تعالى : وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ أي : نور الإيمان. هـ.

(و إن تطيعوا اللّه ورسوله) فى الأوامر والنّواهى بعد ذبح النّفوس بسيف الصدق (لا يلتكم عن أعمالكم شيئا) بل كل ما تتقربون به إلى اللّه من مجاهدة النّفوس ترون جزاءه عاجلا ، من كشف غطاء ، وحلاوة شهود ، إن اللّه غفور

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الزمر.

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣١١) والبيهقي فى الشعب (ح ١٠٥٥٢) وابن أبى شيبة فى مصنفه (الزهد ، باب ٦ ، ح ١٤) والبغوي فى التفسير (٧/ ١١٤ - ١١٥) وابن جرير (٨/ ٢٧) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه ، «والحديث سكت عند الحاكم ، وتعقبه الذهبي» ورواه البيهقي فى الأسماء (ص ١٥٦) وقال : «هذا منقطع» وابن المبارك فى الزهد (رقم ٣١٥ ، ص ١٠٦) عن أبى جعفر المدائني ، مرسلا ، ورواه بنحوه الحكيم الترمذي فى النّوادر (الأصل السادس والثمانين) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه. وقد ذكر ابن كثير (٢/ ١٧٦) لهذا الحديث طرقا كثيرة ، متصلة ومرسلة ، ومال إلى تقويته لتعدد طرقه.

لمن وقع له فتور ، رحيم بمن وقع منه نهوض ، (إنما المؤمنون الذين آمنوا باللّه) وشاهدوا أنواره وأسراره ، (و رسوله) حيث عرفوا حقيقته النّورانية الأولية ، (ثم لم يرتابوا) لم يخطر على بالهم خواطر سوء ، ولا شكوك فيما وعد اللّه من الرّزق وغيره لأنّ حجاب نفوسهم قد زال عنهم ، فصار الغيب شهادة ، والخبر عيانا ، والتعبير ب «ثم» يقتضى تأخر تربية اليقين شيئا فشيئا حتى يحصل التمكين فى مقامات اليقين ، مع التمكين فى مقام الشهود والعيان.

ثم ذكر سبب إزاحة الشكوك عنهم بقوله : (و جاهدوا بأموالهم) حيث بذلوها للّه (و أنفسهم) حيث جاهدوها فى طلب اللّه (أولئك هم الصادقون) فى طلب الحق ، فظفروا بما أمّلوا ، وربحوا فيما به تجروا. جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه.

ثم ردّ على من منّ على اللّه بدينه ، فقال :

[سورة الحجرات (٤٩) : الآيات ١٦ الى ١٨]

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٨)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ أي : أتخبرونه بذلك بقولكم آمنّا؟ روى أنه لمّا نزل قوله : قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا جاؤوا يحلفون إنهم لصادقون فأكذبهم اللّه بقوله : قُلْ أَتُعَلِّمُونَ .. «١» إلخ. والتعبير عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم ، كأنهم وصفوه تعالى بالجهل. قال الهروي : و«علّمت» و«أعلمت» فى اللغة بمعنى واحد ، وفى القاموس : وعلّمه العلم تعليما ، وأعلمه إياه فتعلمه. هـ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ فلا يحتاج إلى إعلام أحد ، وهو حال مؤكدة لتشنيعهم ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أي : مبالغ فى العلم بجميع الأشياء ، التي من جملتها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان.

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا أي : يعدون إسلامهم منّة عليك ، ف «أن» نصب على نزع الخافض ، والمنّ : ذكر النعمة على وجه الافتخار. وقال النّسفى : هو ذكر الأيادى تعريضا للشكر ، و[نهينا] «٢» عنه. هـ. فانظره.

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٧/ ٦٣٥٤).

(٢) فى الأصول : «ونهيا».

قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ أي : لا تعدوا إسلامكم منة علىّ ، فإنّ نفعه قاصر عليكم إن صح ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أي : المنة إنما هى للّه عليكم أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ أي : لأن هداكم ، أو : بأن هداكم للإيمان على زعمكم إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى ادّعاء الإيمان ، إلّا أنكم تزعمون وتدعون ما اللّه عليم بخلافه. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي : إن كنتم صادقين فى ادعائكم الإيمان فللّه

المنّة عليكم.

وفى سياق النّظم الكريم من اللطف ما لا يخفى فإنهم لمّا سموا ما فى صدورهم إيمانا ، ومنّوا به ، نفى تعالى كونه إيمانا ، وسمّاه إسلاما ، كأنه قيل : يمنون عليك بما هو فى الحقيقة إسلام وليس بإيمان ، بل لو صح ادّعاؤهم للإيمان فللّه المنّة عليهم بالهداية إليه لا لهم.

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : ما غاب فيهما ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ فى سركم وعلانيتكم ، وهذا بيان لكونهم غير صادقين فى دعواهم ، يعنى : اللّه تعالى يعلم كلّ مستتر فى العالم ، ويبصر كل عمل تعملونه فى سركم وعلانيتكم ، لا يخفى عليه منه شيء ، فكيف يخفى عليه ما فى ضمائركم. قال الورتجبي :

ليس للّه غيب ، إذ الغيب شيء مستور ، وجميع الغيوب عيان للّه - تعالى - وكيف يغيب عنه وهو موجده؟! يبصر ببصره القديم ما كان وما لم يكن ، وهناك العلم والبصر واحد. هـ. قوله : «العلم والبصر واحد» هذا على مذهب الصوفية فى أن بصره يتعلق بالمعدوم ، كما يتعلق به العلم ، ومذهب علماء الكلام : أن متعلق البصر خاص بالموجودات ، فمتعلق العلم أوسع. وانظر حاشية الفاسى على الصغرى.

الإشارة : كل من تمنى أن يعلم النّاس ما عنده من العلم والسر يقال له : أتعلّمون اللّه بدينكم ، واللّه يعلم ما فى سموات القلوب والأرواح من السر واليقين ، وما فى أرض النّفوس من عدم القناعة بعلم اللّه ، واللّه بكلّ شيء عليم.

وفى الحكم : «استشرافك أن يعلم النّاس بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك» «١».

وكلّ من غلب عليه الجهل حتى منّ على شيخه بصحبته له ، أو بما أعطاه ، يقال فى حقه : يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا .. الآية.

وقوله تعالى : وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ قال القشيري : فمن لاحظ شيئا من أعماله وأحواله فإن رآها من نفسه كان شركا ، وإن رآها لنفسه كان مكرا ، وإن رآها من ربه بربه كان توحيدا. وفقنا اللّه لذلك بمنّه وجوده. هـ.

وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

---

(١) حكمة رقم ١٦١ انظر تبويب الحكم للمتقى الهندي (ص ١١).

(٥/٤٤١)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٤٣

سورة ق

مكية. وهى خمس وأربعون آية. ووجه مناسبتها : أن السورة قبلها واردة فى الترغيب فى الأدب ، والترهيب من سوء الأدب ، ولا يتحقق ذلك إلا لمن صحت عنده رسالة الرّسول ونبوته ، فأقسم فى هذه السورة على تحقيق رسالته وإنذاره بقوله :

[سورة ق (٥٠) : الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ (٤)
بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩)
وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (١١)

يقول الحق جل جلاله : ق أيها القريب المقرب من حضرتنا وَحق الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ إنك لرسول مجيد ، أو : ق أي : وحق القويّ القريب ، والقادر القاهر. وقال مجاهد : هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء ، وعليه طغى الماء ، وخضرة السماء منه ، والسماء مقبّبة عليه ، وما أصاب النّاس من زمرد فمما تساقط من ذلك الجبل. وروى أن ذا القرنين وصل إليه ، فخاطبه «١» ، وقال : يا قاف أخبرنى بشيء من عظمة اللّه ، قال : إن

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٢٢) : «وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا : «ق» جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له : جبل قاف ، وكأن هذا - واللّه أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التي أخذها عنهم بعض النّاس ، لما رأوا من جواز الرّواية عنهم ، مما لا يصدّق ولا يكذب ، وعندى : أن هذا وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على النّاس أمر دينهم».

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٤٤
شأن ربنا لعظيم ، وإن ورائي أرضا ميسرة خمسمائة عام ، فى عرض خمسمائة عام ، من ثلج يحطم بعضه بعضا ، لولا ذلك الثلج لاحترقت من نار جهنم. هـ.

وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أي : ذى المجد والشرف على سائر الكتب ، أو : لأنه كلام مجيد ، من علم معانيه وعمل بما فيه مجد عند اللّه وعند النّاس. وجواب القسم محذوف ، أي : إنك لرسول نذير ، أو : لتبعثن ، بدليل قوله : أَإِذا مِتْنا .. إلخ ، أو : إنا أنزلناه إليك لتنذر به فلم يؤمنوا ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ أي : لأن جاءهم مُنْذِرٌ مِنْهُمْ من جنسهم ، لا من جنس الملائكة ، أو : من جلدتهم ، وهو إنكار لتعجّبهم مما ليس بعجب ، وهو أن يخوفهم من غضب اللّه رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته ، ومن كان كذلك لم يكن إلا ناصحا لقومه ، خائفا أن ينالهم مكروه وإذا علم أن مخوفا أظلهم لزمه أن ينذرهم ، فكيف بما هو غاية المخاوف؟ أو إنكار لتعجّبهم مما أنذرهم به من البعث مع علمهم بقدرة اللّه تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما ، وإقرارهم بالنشأة الأولى ، مع شهادة العقل بأنه لا بدّ من الجزاء ، وإلا كان إنشاء الخلق عبثا. ثم بيّن تعجبهم بقوله : فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ أي : هذا الذي يقوله محمد من البعث بعد الموت شىء عجيب ، أو : كون محمد منذرا بالقرآن شىء يتعجب منه. ووضع «الكافرون» موضع الضمير للدلالة على أنهم فى قولهم هذا مقدمون على كفر عظيم.

ثم قالوا : أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً أي : أنبعث حين نموت ونصير ترابا كما يقوله هذا النّذير؟ ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ أي : ذلك البعث بعد هذه الحالة رجوع مستبعد ، منكر ، بعيد من الوهم والعادة. فالعامل فى «إذا» محذوف مفهوم من الكلام كما قدرنا. قال تعالى : قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وهو ردّ لاستبعادهم فإنّ من عمّ علمه ولطفه حتى ينتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى ، وتأكل من لحومهم وعظمهم ، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا؟! عن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذّنب ، ومنه خلق ، وفيه يركّب» «١» وهو العصعص ، وقال فى المصباح : العجب «٢» - كفلس - من كلّ دابة : ما انضم عليه الورك من أصل الذّنب. هـ. وهو عظم صغير قدر الحمصة ، لا تأكله الأرض ، كما لا تأكل أجساد الأنبياء والأولياء والشهداء.

قال ابن عطية : حفظ ما تنقص الأرض إنما هو ليعود بعينه يوم القيامة ، وهذا هو الحق. وذهب بعض الأصوليين إلى أن الأجساد المبعوثة يجوز أن تكون غير هذه ، هذا عندى خلاف ظاهر كتاب اللّه ، ولو كانت غيرها كيف كانت تشهد الجلود والأيدى والأرجل على الكفرة؟ إلى غير ذلك مما يقتضى أن أجساد الدنيا هى التي تعود. هـ.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الفتن ، باب ما بين النّفختين ح ٢٩٥٥) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه ،

وأخرجه البخاري مطولا وبنحوه فى (التفسير - سورة الزمر ، باب وَنُفِخَ فِي الصُّورِ .. ح ٤٨١٤).
(٢) بسكون الجيم.

(٥/٤٤٤)

وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ لتفاصيل الأشياء ، أو : محفوظ من التغيير ، وهو اللوح المحفوظ ، أو : حافظا لما أودعه وكتب فيه ، أو : يريد علمه تعالى ، فيكون تمثيلا لعلمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها ، بعلم من عنده كتاب حفيظ يتلقى منه كلّ شيء.
بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ، إضراب وانتقال من بيان شناعتهم السابقة ، وتكذيب البعث ، الى ما هو أشنع منه وأفظع ، وهو تكذيبهم للنبوة الثابتة بالمعجزات الباهرة ، لَمَّا جاءَهُمْ من غير تأمل وتفكر ، وقيل : الحق : القرآن ، أو : الإخبار بالبعث ، فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ مضطرب ، لا قرار له ، يقال : مرج الخاتم فى إصبعه إذا اضطرب من سعته ، فيقولون تارة : مجنون ، وطورا : ساحر ، ومرة : كاهن ، ولا يثبتون على قول. أو : مختلط ، يقال : مرج أمر الناس : اختلط. أو : ملبس ، قال قتادة : من ترك الحق مرج عليه أمره ، وألبس عليه دينه.
أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ بحيث يشاهدونها كلّ وقت كَيْفَ بَنَيْناها رفعناها بغير عمد وَزَيَّنَّاها بما فيها من الكواكب المترتبة على نظام عجيب ، وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ من فنوق لملاستها وسلامتها من كلّ عيب وخلل ، وَالْأَرْضَ مَدَدْناها بسطناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ جبالا ثوابت ، من : رسى الشيء ثبت ، والتعبير عنها بهذا الوصف للإيذان بأن إلقاءها إنما هو للإرساء ، وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ صنف بَهِيجٍ حسن. تَبْصِرَةً وَذِكْرى علتان للأفعال المذكورة ، أي : فعلنا ما فعلنا تبصرا وتذكيرا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ أي : راجع إلى ربه ، متفكر فى بدائع صنائعه.
وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً كثير المنافع فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ بساتين كثيرة وَحَبَّ الْحَصِيدِ أي :
حب الزرع الذي شأنه أن يحصد من البرّ والشعير وأمثالهما ، وتخصيص حب الحصيد بالذكر لأنه المقصود بالذات إذ به جل القوام.
وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ طوالا فى السماء ، أو : حوامل ، من : بسقت الشاة : إذا حملت. وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فى «جنات» لبيان فضلها على سائر الأشجار ، لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ منضود ، بعضه فوق بعض ، والمراد :
تراكم الطلع ، أو : كثرة ما فيه من الثمر ، رِزْقاً لِلْعِبادِ أي : لرزق أشباحهم ، كما أن قوله : تَبْصِرَةً وَذِكْرى لرزق أرواحهم. وفيه تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بما ذكر من حيث التذكر

والتبصر الذي هو رزق الرّوح أهم وأقدم من تمتعه من حيث الرّزق الحسى ، وَأَحْيَيْنا بِهِ بذلك الماء بَلْدَةً مَيْتاً أرضا جدبة ، لا نماء فيها أصلا ، فلما أنزلنا عليها الماء ربت واهتزت بالنبات والأزهار ، بعد ما كانت جامدة. وضمّن البلدة معنى

(٤٤٥/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٤٦

البلد فذكّر الوصف. كَذلِكَ الْخُرُوجُ من القبور ، فكما حييت هذه البلدة الميتة كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم ، لأن إحياء الموات كإحياء الأموات. وقدّم الخبر للقصد إلى القصر. والإشارة فى «كذلك» إلى الحياة المستفادة من الإحياء ، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد رتبها ، أي : مثل ذلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور ، لا شىء مخالف لها. وفى التعبير عن إخراج النّبات من الأرض بالإحياء ، وعن حياة الأموات بالخروج تفخيم لشأن النّبات ، وتهوين لأمر البعث ، وتحقيق للمماثلة لتوضيح منهاج القياس ، وتقريبه إلى أفهام النّاس.

الإشارة : ق أيها القريب المقرب ، وحق القرآن المجيد ، إنك لحبيب مجيد ، رسول من عند الملك المجيد ، وإن كنت بشرا فنسبتك من البشر كياقوتة بين الحجر ، فالبشرية لا تنافى الخصوصية ، بل تجامعها منّة منه تعالى وفضلا ، على من شاء من عباده ، فاستبعاد الكفار مجامعة الخصوصية للبشرية كاستبعاد إبليس تفضيل آدم لكونه بشرا من طين ، وذلك قياس فاسد ، مضاد للنص ، وكما استبعدت الكفرة وجود خصوصية النّبوة فى البشر ، استبعدت الجهلة خصوصية التربية بالاصطلاح فى البشر ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، يدل على اللّه ، ويبين الطريق إليه ، قالوا : هذا شىء عجيب ، أئذا متنا بأن ماتت قلوبنا بالغفلة ، وكنا ترابا أرضيين بشريين ، تحيى أرواحنا بمعرفة العيان؟! ذلك رجع بعيد.

قال تعالى : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أرض النّفوس من أرواحهم ، وتهوى بها إلى الحضيض الأسفل ، فيجذبها إلى أعلى عليين ، إن سبقت عنايتنا ، وعندنا كتاب حفيظ يحفظ المراتب والمقامات ، فيلتحق كل واحد بما سبق له. بل كذّبوا بالحق ، وهو الداعي إلى الحق ، لمّا جاءهم فى كلّ زمان ، فهم فى أمر مريج ، تارة يقرون وجود التربية بالهمة والحال ، وينكرون الاصطلاح ، وتارة يقرون بالجميع ، وينكرون تعيينه ، أفلم ينظروا إلى سماء القلوب والأرواح ، كيف بنيناها ، أي : رفعنا قدرها بالعلوم والمعارف ، وزيّناها بأنوار الإيمان والإحسان ، وليس فيها خلل ، وأرض النّفوس مددناها : جعلناها بساطا للعبودية ، وألقينا فيها رواسى أرسيناها بالعقول الصافية الثابتة ، لئلا تضطرب عند زلزلات الامتحان ، وأنبتنا فيها من كلّ صنف بهيج ، من فنون علم الحكمة والتشريع ، تبصرة وتذكيرا لكلّ عبد منيب ، راجع إلى مولاه ، قاصد لمعرفته.

قال القشيري : تبصرة وذكرى لمن رجع إلينا فى شهود أفعالنا الى رؤية صفاتنا ، ومن شهود صفاتنا إلى شهود ذاتنا. هـ. ونزّلنا من السماء ماء العلوم اللدنية ، كثير البركة والنّفع ، فأنبتنا به جنات المعارف وحب الحصيد ، وهو حب المحبة لأنه يحصد من القلب محبة ما سوى اللّه. والنّخل باسقات ، أي : شجرة المعرفة الكاملة لها طلع نضيد :

ثمرة المعرفة وحلاوة الشهود ، رزقا لأرواح العباد ، وأحيينا به نفسا ميتة بالغفلة والجهل ، كذلك الخروج من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، أي : مثل هذا الخروج البديع يكون الخروج ، وإلا فلا.
ثم هدّدهم بما جرى على من قبلهم ، فقال
[سورة ق (٥٠) : الآيات ١٢ الى ١٥]
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)
يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ أي : قبل قريش قَوْمُ نُوحٍ نوحا ، حيث أنذرهم بالبعث ، وَأَصْحابُ الرَّسِّ ، قيل : هم من بعث إليهم شعيب عليه السّلام كما مرّ فى سورة الفرقان بيانه «١» وقيل : قوم باليمامة ، وقيل : أصحاب الأخدود. والرّس : بئر لم تطو ، وَثَمُودُ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ، أراد بفرعون قومه ليلائم ما قبله لأن المعطوف عليه جماعات ، وَإِخْوانُ لُوطٍ ، قيل : كان قومه من أصهاره عليه السّلام ، فسماهم إخوانه ، وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ هم ممن بعث إليهم شعيب عليه السّلام غير أهل مدين ، وَقَوْمُ تُبَّعٍ هو ملك باليمن ، دعا قومه إلى الإسلام وهم حمير ، فكذّبوه ، وسمّى تبعا لكثرة تبعه.
قال ابن إسحاق : كان تبع الآخر هو أسعد بن كرب ، حين أقبل من المشرق ، ومرّ على المدينة ، ولم يهج أهلها ، وخلف عندهم ابنا له ، فقتل غيلة ، فجاء مجمعا على حربهم ، وخراب المدينة ، فأجمع هذا الحي من الأنصار على قتاله ، وسيدهم عمرو بن طلحة ، أخو بنى النجار ، فتزعم الأنصار : أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ، ويقرونه بالليل ، فيعجبه ذلك ، ويقول : إن قومنا هؤلاء لكرام ، فبينما هو كذلك إذ جاءه حبران من أحبار بنى قريظة ، من علماء أهل زمانهما ، فقالا : أيها الملك لا تقاتلهم ، فإنا لا نأمن عليك العقوبة لأنها مهاجر نبيّ يخرج من هذا الحي ، من قريش ، فى آخر الزمان ، هى داره وقراره ، فكفّ عنهم ، ثم دعواه إلى دينهما ، فاتبعهما ، ثم رجع إلى اليمن ، فقالت له حمير : لا

تدخلها وقد فارقت ديننا ، فحاكمنا إلى النار ، وقد كانت باليمن نار أسفل جبل يتحاكمون إليها ، فتأكل الظالم ولا تضر المظلوم ، فخرجوا بأصنامهم ، وخرج الحبران بمصاحفهما ، فأكلت النار الأوثان ، وما قرّبوا معها ، ومن دخل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما ، يتلوان التوراة ، ولم تضرهما ، فأطبق

---

(١) راجع تفسير الآية ٣٨ من سورة الفرقان.

(٤٤٧/٥)

أهل حمير على دين الحبرين ، فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن. قال الرياشي : كان أبو كرب أسعد الحميرى من التابعة ، آمن بالنبي صلّى اللّه عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة. وتقدم شعره فى الدخان «١».

كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فيما أرسلوا به من الشرائع ، التي من جملتها : البعث الذي أجمعوا عليه قاطبة ، أي : كل قوم من الأقوام المذكورين كذّبوا رسولهم فَحَقَّ وَعِيدِ أي : فوجب وحلّ عليهم وعيدى ، وهى كلمة العذاب.

وفيه تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وتهديد لهم.

أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، استئناف مقرر لصحة البعث ، الذي حكيت أحوال المنكرين له من الأمم المهلكة.

والعيّ بالأمر : العجز عنه ، يقال : عيى بالأمر : إذا لم يهتد لوجه عمله. والهمزة للإنكار ، والفاء : عطف على مقدر ، ينبئ عنه المقام ، كأنه قيل : أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة؟ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ أي : بل هم فى لبس وخلط وشبهة ، قد لبس عليهم الشيطان وحيّرهم ، حيث سوّل لهم أن إحياء الموتى خارج عن العادة ، فتركوا لذلك الاستدلال الصحيح ، وهو : أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر.

وهو معطوف على مقدر يدل عليه ما قبله ، كأنه قيل : هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول ، بل هم فى خلط وشبهة من خلق مستأنف جديد. وتنكير «خلق» لتفخيم شأنه ، والإشعار بخروجه عن حدود العادة ، والإيذان بأنه حقيق بأن يبحث عنه ويهتم بمعرفته.

الإشارة : قال القشيري : الإشارة فى الآية إلى أنّ الغالب فى كلّ زمان غلبة الهوى والطبيعة الحيوانية واستيلاء الحس على النّاس ، نفوسهم متمردة ، بعيدة من الحق ، قريبة من الباطل ، كلما جاء إليهم

رسول كذّبوه ، وعلى ما جاء به قاتلوه ، فحقّ عليهم عذاب ربهم ، لمّا كفروا نعمه ، فما أعياه إهلاكهم. هـ. قلت : وكذلك جرى فى كل زمان ، كل من أمر النّاس بإخراجهم عن عوائدهم ، ومخالفة أهوائهم ، رفضوه وعادوه ، فقلّ بسبب ذلك المخلصون ، وكثر المخلطون ، فإذا قالوا : لا يمكن الإخراج عن العوائد ، قلنا : القدرة صالحة ، قال تعالى : أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ، وهو إحياء القلب الميت ، فيجدّد إيمانه ، وتحيا روحه حياة سرمدية.

وباللّه التوفيق.

ثم إنّ عادته تعالى فى التنزيل : أنه مهما ذكر دلائل قدرته ذكر بإثره شأن علمه ، أو بالعكس ، إشارة إلى إسناد كل المقدورات إليه تعالى ، ردا على الطبائعيين لأنّ الفاعل بالطبيعة لا يتوقف على العلم ، ولذلك قال تعالى :

---

(١) راجع تفسير الآيات : ٣٤ - ٣٩.

[سورة ق (٥٠) : الآيات ١٦ الى ٢٢]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (١٧) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠)
وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ أي : ما تحدّثه نفسه ويهجس فى ضميره من خير وشر. والوسوسة : الصوت الخفي ، ووسوسة النّفس : ما يخطر بالبال. والضمير فى «به» ل «ما» إن جعلتها موصولة ، والباء كما فى : صوّت بكذا ، أو : للإنسان ، إن جعلتها مصدرية. والباء حينئذ للتعدية.

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ أي : أعلم بحاله مما كان أقرب إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. والحبل : العرق ، وإضافته بيانية والوريدان : عرقان مكتفان بصفحتى العنق فى مقدمه متصلان بالوتين ، والوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه. قاله فى القاموس ، يردان من الرّأس إليه ، وقيل : سمى وريد لأن الماء يرده.

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ أي : الملكان الحافظان لأعمال العبد. والظرف : منصوب بما فى «أقرب» من

معنى الفعل ، أي : يتقرب إذ يتلقى. والمعنى : أنه تعالى لطيف يتوصل علمه إلى ما لا شيء أخفى منه ، وهو أقرب للإنسان من كل قريب ، حين يتلقى الحافظان ما يتلفظ به ، وفيه إيذان بأنه تعالى غنيّ عن استحفاظها لإحاطة علمه بما يخفى عليهم ، وإنما ذلك لمافى كتبهما وحفظهما لأعمال العباد ، وعرض صحائفها يوم يقوم الأشهاد ، وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطته بتفاصيل أحواله من زيادة لطف به فى الكف عن السيئات ، والرّغبة فى الحسنات. ثم ذكر مكانهما بقوله : عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ أي : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، وحذف الأول للدلالة الثاني عليه.

وقعيد : بمعنى مقاعد ، كالجليس بمعنى المجالس ، أو : بمعنى قاعد ، كالسميع والعليم. وعنه صلّى اللّه عليه وسلم : «إن مقعد ملكيك على ثنّيتيك ، ولسانك قلمهما ، وريقك مدادهما ، وأنت تجرى فيما لا يعنيك لا تستحيي من اللّه ولا منهما!» «١» وقال الضحاك : مجلسهما تحت الثغر من الحنك ، ورواه عن الحسن «٢» ، وكان يعجبه أن ينظف عنفقته «٣».

---

(١) ذكره بلفظه القرطبي فى التفسير (٧/ ٦٣٦٥) عن سيدنا عليّ رضي اللّه عنه ، مرفوعا ، وقال السيوطي فى الدر المنثور (٦/ ١١٨) : أخرج أبو نعيم والديلمي ، عن معاذ بن جبل رضي اللّه عنه. مرفوعا : إن اللّه لطّف الملكين الحافظين حتى أجلسهما على النّاجذين ، وجعل لسانه قلمهما ، وريقه مدادهما».

(٢) العبارة فى القرطبي : ورواه عوف عن الحسن قال : وكان يعجبه. إلخ.

(٣) العنفقة : شعيرات بين الشفة السفلى والذقن. انظر : النهاية (عنفق ٣/ ٣٠٩). [.....]

(٥/٤٤٩)

ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ أي : ما يتكلم به وما يرمى به من فيه إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ حافظ عَتِيدٌ حاضر لازم ، أو معد مهيأ لكتابة ما أمر به من الخير والشر. وقال أبو أمامه عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «كاتب الحسنات عن يمين الرجل وكاتب السيئات عن يساره ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات ، لعله يسبّح أو يستغفر» «١».

قال الحسن : إنّ الملكين يجتنبان العبد عند غائطه ، وعند جماعه ، ويكتبان عليه كل شيء ، حتى أنينه فى مرضه. وقال عكرمة : لا يكتبان عليه إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر «٢». وعنه عليه السّلام : «ما من حافظين يرفعان إلى اللّه ما حفظا ، فيرى اللّه تعالى فى أول الصحيفة خيرا وفى أخرها خيرا ، إلا

قال للملائكة : اشهدوا أني قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة» «٣». والحفظه أربعة ، اثنان بالليل ، واثنان بالنهار ، فإذا مات العبد قاموا على قبره يكبران ويهللان ويكتب ذلك للعبد المؤمن.
ولمّا ذكر إنكارهم للبعث ، واحتج عليهم بعموم قدرته وعلمه ، أعلمهم أن ما أنكروه هم لا قوة بعد الموت ، ونبّه على اقتراب ذلك بأن عبّر عنه بلفظ الماضي فقال : وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ .. إلخ. وقال ابن عطية : هو عندى عطف على «إذ يتلقى» والتقدير : وإذ تجيء سكرة الموت ، يعنى فهو كقوله : وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ الآية «٤» هـ. وحاصل الآية حينئذ : ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ظاهره وباطنه ، ونحن أقرب إليه فى جميع أحواله ، فى حياته ، ووقت مجيء سكرة الموت ، أي : شدته الذاهبة بالعقل ، ملتبسة بِالْحَقِّ أي : بحقيقة الأمر ، وجلاء الحال ، من سعادة الميت أو شقاوته ، ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ أي : تنفر وتهرب وتميل عنه طبعا. والإشارة إلى الموت.
والخطاب للإنسان فى قوله : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ على طريقة الالتفات.
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ نفخة البعث ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ أي : وقت ذلك النفخ هو يوم الوعيد ، أي : يوم إنجاز الوعد ووقوع الوعيد. وتخصيص الوعيد بالذكر لتهويله ، ولذلك بدأ ببيان حال الكفرة بقوله : وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ من النفوس البرة والفاجرة مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ أي : ملكان ، أحدهما يسوقه إلى المحشر ، والآخر يشهد

---

(١) أخرجه البغوي فى التفسير (٧/ ٣٥٩) والبيهقي فى الشعب (الباب السابع والأربعون ، ح ٧٠٤٩) والطبراني فى الكبير (٨/ ٢٢٥ ، ح ٧٧٨٧) وأيضا (٨/ ٢٩٥ - ٢٩٦ ، ح ٧٩٧١) وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ١٢٤) من حديث أبى أمامة رضي اللّه عنه ، وقال الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٢٠٨) : «رواه الطبراني بأسانيد ، ورجال أحدها وثقوا».
(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٦/ ١١٩) لابن المنذر.
(٣) ذكره القرطبي (٧/ ٦٣٦٦) عن أبى هريرة وأنس - رضى اللّه عنهما.
(٤) الآية ٨٥ من سورة الواقعة.

عليه بعمله. قيل : السائق : كاتب الحسنات ، والشاهد : كاتب السيئات ، ويقال لها : (لقد كنت فى غفلة من هذا) النازل بك اليوم ، فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فأزلنا غفلتك ، وهو الوقوف مع المحسوسات والإلف ، والانهماك فى الحظوظ ، وقصر النظر عليها ، فشاهدت اليوم ما كنت غافلا عنه فَبَصَرُكَ

الْيَوْمَ حَدِيدٌ نافذ لزوال المانع. جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده ، أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئا ، فإذا كان يوم القيامة سقط ، وزالت عنه الغفلة ، وكشف غطاؤه ، فبصر ما يبصره من الحق ، ورجع بصره الكليل حديدا ، لتيقظه حين لم ينفع التى قظ.

وباللّه التوفيق.

الإشارة : هذه الآية وأشباهها أصل فى مقام المراقبة القلبية ، فينبغى للعبد أن يستحيى من اللّه أن يحدّث فى نفسه بشىء يستحيى أن يظهره ، يعنى الاسترسال معه ، وإلا فالخواطر العارضة لا قدرة على دفعها. قال القشيري :

(ما توسوس به نفسه) من شهوة تطلب استيفاءها ، أو تصنّع مع الخلق ، أو سوء خلق ، أو اعتقاد فاسد ، أو غير ذلك من أوصاف النّفس ، توسوس بذلك لتشّوش عليه قلبه ووقته ، وكيف لا نعلم ذلك وكلّ ذلك مما خلقناه وقدرناه. هـ.

وقوله تعالى : وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ أي : أنا أقرب إلى كلّ أحد من عروق قلبه ، وهذا لأن قيام الفعل بالصفات ، والصفات لا تفارق الذات ، فالقرب بالعلم والقدرة ، وتستلزم القرب بالذات ، وقرب الحق من خلقه هو قرب المعاني من الأواني ، إذ هى كليتها وقائمة بها ، فافهم. قال القشيري : وفى هذه الآية هيبة وفزع لقوم ، وروح وأنس وسكون قلب لقوم. هـ. وقوله تعالى : إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ .. إلخ ، كأنه تعالى يقول : من لم يعرف قدر قربى منه ، بأن يعده وهمه وجهله ، فإنى أوكّل عليه رقيبين يحفظان أعماله لعله ينزجز.

وقوله تعالى : ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ .. إلخ ، وأما عمل القلوب فاختص اللّه تعالى بعلمها ، وهى محض الإخلاص. قال بعضهم : الإخلاص : إخفاء العمل بحيث لم يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، فالعارفون جلّ أعمالهم قلبية ، نظرة أو فكرة. روى أن بعض العارفين قال له حفظته : يا سيدى أظهر لنا شيئا من أعمالك نفرح به عند اللّه ، فقال لهم : يكفيكم الصلوات الخمس. هـ. قال القشيري : وفيه أيضا إشارة إلى كمال عنايته فى حق عباده ، إذ جعل على كلّ واحد رقيبين من الملائكة ليحفظوه بالليل والنهار ، إذا كان قاعدا فواحد عن يمينه وواحد عن شماله ، وإذا قام فواحد عند رأسه ، وواحد عند قدمه ، وإذا كان ماشيا فواحد بين يديه وواحد خلفه. انظر بقيته. هـ. وهذان غير الملكين الموكلين بحفظ الأعمال. واللّه أعلم.

وقال فى قوله : وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ : إذا أشرفت النفس على الخروج من الدنيا ، فأحوالهم تختلف ، فمنهم من يزداد فى ذلك الوقت خوفه ، ولا يتبيّن حاله إلا عند ذهاب الروح ، ومنهم من يكاشف قبل خروجه

فتسكن روحه «١» ، ويحفظ عليه عقله ، ويتم له حضوره وتمييزه ، فسلّم الروح على مهل من غير استكراه وعبوس منهم. وفى معناه يقول بعضهم :
أنا إن متّ فالهوى حشو قلبى وبداء الهوى تموت الكرام «٢».
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ لكلّ نفس ما وعدها اللّه ، بحسب سيرها من أول العمر إلى يوم البعث ، (و جاءت كلّ نفس معها سائق) وهو الذي ساقها فى مبدأ الوجود ، إما سوقا باللطف ، أو سوقا بالعنف عند قوله :
«هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى وهؤلاء الى النار ولا أبالى» «٣» ، وشهيد يشهد عليها بما جرى لها من الأحكام الأزلية (لقد كنت فى غفلة من هذا) قال القشيري : يشير إلى أن الإنسان ، وإن خلق من عالم الغيب والشهادة ، فالغالب عليه فى البداية الشهادة ، وهو العالم الحسى ، فيرى بالحواس الظاهرة العالم المحسوس مع اختلاف أجناسه ، وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب ، فمن الناس يكشف له غطاؤه عن بصر بصيرته ، فيجعل حديدا ، يبصر رشده ، ويحذر شره ، وهم المؤمنون من أهل السعادة ، ومنهم من يكشف له غطاء عن بصر بصيرته يوم القيامة يوم لا ينفع نفسا إيمانها ..
الآية «٤» ، وهم الكفار من أهل الشقاوة. هـ.
ثم ذكر أحوالهم بعد البعث ، فقال
[سورة ق (٥٠) : الآيات ٢٣ الى ٢٩]
وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٢٧)
قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩)

---

(١) فى القشيري : فيسكن روعه.
(٢) فى الرسالة القشيرية (٣٠٨) : قال على المزين : كنت بمكة ، فخرجت أريد المدينة المنورة ، وإذا أنا بشاب ينزع ، فقلت له : قل «لا إلا إلا اللّه» ففتح عينيه وأنشأ يقول : [.....] البيت. فشهق شهقة ، ثم مات.
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٦) وابن سعد فى الطبقات (١/ ٣٠) و(٧/ ٤١٧) وابن حبان فى صحيحه (١٨٠٦) والحاكم (١/ ٣١) «وصحّحه وأقره الذهبي» عن عبد الرحمن بن قتادة السلمى - وكان من أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه وسلم - مرفوعا : «إن اللّه - عز وجل - خلق آدم ، ثم أخذ الخلق من ظهره ، وقال : هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى. فقال قائل : يا رسول اللّه! فعلى ما ذا نعمل؟ قال صلّى اللّه عليه وسلم : «على مواقع القدر». قال الزبيدي فى اتحاف السادة المتقين

(٩/ ٢٠٧) عن العراقي : «رجاله ثقات» والحديث صحّحه الألبانى (سلسلة الأحاديث الصحيحة ح ٤٨).

(٤) نص الآية .. يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً .. الآية ١٥٨ من سورة الأنعام.

(٤٥٢/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٥٣

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ قَرِينُهُ أي : الشيطان المقيض له ، أو : الملك الكاتب الشاهد عليه : هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ أي : هذا ما عندى وفى ملكى عتيد لجهنم ، قد هيأته بإغوائى وإضلالى ، أو : هذا ديوان عمله عندى عتيد مهيأ للعرض ، ف «ما» موصولة ، إما بدل من «هذا» أو صفة ، و«عتيد» : خبر ، أو : خبر ، و«عتيد» : خبر آخر ، أو :

موصوفة خبر «هذا» ، و«لدىّ» : صفته ، وكذا «عتيد» أي : هذا شيء ثابت لدىّ عتيد.

ثم يقول اللّه تعالى للسائق والشهيد : أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ ، أو : لملكين من خزنة جهنم ، أو : يكون الخطاب لواحد ، وكان الأصل : ألق ألق ، فناب «ألقيا» عن التكرار لأن الفاعل كالجزء من الفعل ، فكان تثنية الفاعل نائبا عن تكرار الفعل ، أو : أصله : ألقين ، والألف بدل من نون التوكيد ، إجراء للموصول مجرى الوقف ، دليله : قراءة الحسن :

(ألقين) «١» والأحسن : أن يراد جنس قرينه ، فيصدق بالسائق والشهيد ، فيقال لهما : أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ بالنعم والمنعم عَنِيدٍ : مجانب للحق ، معاد لأهله ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ كثير المنع للمال عن حقوقه ، أو : منّاع لجنس الخير أن يصل إلى أهله ، أو : يراد بالخير الإسلام ، لأن الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة ، لمّا منع بنى أخيه من الإسلام. مُعْتَدٍ ظالم متخطّ للحق مُرِيبٍ : شاك فى اللّه تعالى وفى دينه.

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ : بدل من «كل كفّار» ولا يجوز أن يكون صفة لأن النكرة لا توصف بالموصول ، خلافا لابن عطية ، أو : مبتدأ مضمن معنى الشرط ، خبره : فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ ، وعلى الأول يكون «فألقياه» تكريرا للتوكيد ، أو مفعولا بمضمر ، يفسره «فألقياه» أي : ألق الذي جعل مع اللّه إلها آخر ألقياه.

قالَ قَرِينُهُ أي : شيطانه الذي قرن به ، وهذا يؤيد أن المراد بالمتقدم جنس القرين ، وإنما أخليت هذه الجملة من الواو دون الأولى لأن الأولى واجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها فى الحصول ، أي :

مجيء كلّ نفس مع ملكين ، وقول قرينه ما قال له ، وأما هذه فهى مستأنفة ، كما تستأنف الجمل

الواقعة فى حكاية التقاول ، كما فى مقاولة موسى وفرعون فى قوله : وَما رَبُّ الْعالَمِينَ قالَ ... إلى آخر الآيات «٢» ، فكأن الكافر قال : هو أطغانى ، فأجابه قرينه بتكذيبه فقال : رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ عن الحق ، أي : ما أوقعته فى الطغيان بالقهر ، ولكن طغى واختار الضلالة على الهدى ، وهذا كقوله : وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ «٣» ، فالوسوسة والتزيين حاصل منه ، والاختيار من الكافر ، والفعل للّه ، لا يسأل عما يفعل.

قالَ تعالى : لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ أي : فى موقف الحساب والجزاء ، إذ لا فائدة فى ذلك ، والجملة استئناف جواب عن سؤال ، كأن قائلا قال : فما ذا قال اللّه تعالى لهم؟ قال : لا تختصموا عندى وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ

---

(١) بنون التوكيد الخفيفة ، نحو قوله : «لنسفعا». وانظر مختصر ابن خالويه/ ص ١٤٥ والمحتسب (٢/ ٢٨٤) وإعراب شواذ القراآت للعكبرى (٢/ ٥٠٧) والقرطبى (٧/ ٦٣٧١).

(٢) الآيات : ٢٣ - ٣١ من سورة الشعراء.

(٣) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

فى دار الكسب على ألسنة رسلى ، فلا تطمعوا فى الخلاص منه بما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة.

والجملة فيها تعليل للنهى ، على معنى : لا تختصموا وقد صح عندكم أنى قدمت إليكم بالوعيد حيث قلت : «لأملان جهنم ..» إلخ ، فاتبعتموه معرضين عن الحق ، فلا وجه للاختصام فى هذا الوقت.

والباء إما مزيدة كما فى قوله :

وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ «١» أو معدية على أن «قدّم» مضارع تقدم.

ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ أي : لا تطمعوا أن يبدل قولى ووعيدي بإدخال الكفار فى النار ، وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ فلا أعذب عبدا بغير ذنب من قبله ، بل بما صدر منه من الجنايات ، حسبما أشير إليه آنفا. والتعبير عنه بالظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة ، فضلا عن كونه ظلما مفرطا لتأكيد هذا المعنى ، بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم ، وقيل : هو لرعاية جمعية العبيد ، من قولهم : فلان ظالم لعبده وظلّام لعبيده ، وقيل : ظلّام بمعنى : ذى ظلم ، كلبّان لذى اللبن. والله تعالى أعلم.

الإشارة : قرين الإنسان نفسه الأمّارة وروحه المطمئنة ، فإذا غلبت النفس على الروح وصرّفت صاحبها فى الهوى ، تقول يوم القيامة : هذا ما لدىّ عتيد ، مهيأ للعتاب ، فيقال لهما : ألقيا فى نار القطيعة كلّ كفّار للنعم ، جحود لوجود الطبيب ، منّاع للخير ، فلم يصرفه فيما يخلصه من نفسه ، معتد على اللّه بتكبره ، وعدم حط رأسه للداعى إلى اللّه ، مريب ، قد لعبت به الشكوك والأوهام والخواطر ، أو : شاك فى وجود الطبيب ، الذي جعل مع اللّه إلها آخر ، يحبه ويخضع له ، من الهوى والدنيا ، وكلّ ما أشركه مع اللّه فى المحبة ، فألقياه فى العذاب الشديد : الحجب عن اللّه ، وعدم اللحوق بأولياء اللّه ، أو العذاب الحسى. قال قرينه - روحه التي كانت سماوية ، فصيرها أرضية ، بمتابعة هواه : ربنا ما أطغيته ، فإنه ليس الإغواء والإطغاء من شأنى ، ولكن كان فى ضلال بعيد ، حيث أطاع نفسه وهواه ، ورمانى فى مزابل الشهوات والغفلة ، قال تعالى : (لا تختصموا لدىّ) اليوم ، قد قدمت إليكم بالوعيد ، حيث قلت :

إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ «٢» قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها «٣» وقلت فى شأن من جاهد نفسه ، وردها لأصلها : يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ «٤» الآية ، ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ فإنى وعدت أهل المجاهدة بالوصول إلى حضرتى ، والتنعم برؤيتى بقولي : وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا ... «٥» الآية ، وأهل الغفلة بالحجاب ، بقولي : كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ ، كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ «٦» ، وما ظلمت أحدا قط ، لأن الظلم ليس من شأنى ، ولا يليق بملكي.

---

(١) من الآية ١٩٥ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٥٣ من سورة يوسف.

(٣) الآيتان ٩ - ١٠ من سورة الشمس. [.....]

(٤) من الآية ٢٧ من سورة الفجر.

(٥) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

(٦) الآيتان ١٤ - ١٥ من سورة المطففين.

ثم ذكر اليوم الذي يظهر الوعد والوعيد ، فقال

[سورة ق (٥٠) : الآيات ٣٠ الى ٣٥]

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هذا ما

تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤)

لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : واذكر يَوْمَ نَقُولُ «١» لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ؟ وقرأ غير نافع وشعبة : بنون العظمة.

فالعامل فى الظرف : اذكر أو : «بظلّام» أو محذوف مؤخر ، أي : يكون من الأحوال والأهوال ما يقصر عنه المقال ، وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ أي : من زيادة ، مصدر كالمجيد ، أو : مفعول ، كالمنيع ، أي : هل بقي ما يزاد ، يعنى : أنها مع اتساعها وتباعد أقطارها يطرح فيها النّاس والجنة فوجا بعد فوج حتى تملأ وَتَقُولُ بعد امتلائها : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ أي : هل بقي فىّ موضع لم يمتلى ء؟! يعنى : قد امتلأت. أو : أنها من السعة يدخل من يدخلها ولم تمتلىء فتطلب المزيد ، وهذا أولى «٢».

قال ابن جزى : واختلف هل تتكلم جهنم حقيقة ، أو مجازا بلسان الحال ، والأظهر : أنه حقيقة ، وذلك على اللّه يسير ، ومعنى قولها : هل من مزيد : أنها تطلب الزيادة ، وكانت لم تمتلئ ، وقيل : معناه : لا مزيد ، أي : ليس عندى موضع للزيادة ، فهى على هذا قد امتلأت ، والأول أرجح ، لما ورد فى الحديث : «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد؟ حتى يضع الجبار فيها قدمه ، فتنزوى ، وتقول : قط قط» «٣» وفى هذا الحديث كلام ليس هذا موضعه. هـ.

قال فى الحاشية : ووضع القدم مثل للردع والقمع ، أي : يأتيها أمر يكفها عن طلب المزيد وقال ابن حجر :

واختلف فى المراد بالقدم ، فطريق السلف فى هذا وغيره مشهورة. ثم قال : وقال كثير من أهل العلم بتأويل ذلك ،

---

(١) هكذا بالياء ، وهى قراءة نافع ، وقرأ الباقون «نقول» بالنون. انظر الإتحاف (٢/ ٤٨٩).

(٢) على هامش النّسخة الأم ما يلى : بل هذا هو الواجب ، وما قبله باطل بداهة ونصا عن الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ، فكان الواجب عدم ذكر القول الباطل المقطوع ببطلانه ، لا سيما مع عدم رده والمبالغة فى إبطاله ، ففى الحديث الصحيح : «أنها لا تزال تطلب المزيد حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول : قط قط». هـ.

(٣) أخرجه البخاري فى (الأيمان والنّذور ، باب الحلف بعزة اللّه ، ح ٦٦٦١) ومسلم فى (الجنة ، باب النّار يدخلها الجبارون ، ح ٢٨٤٨) من حديث أنس بن مالك. رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٥٦
فقيل : المراد إذلال جهنم ، فإنها إذا بلغت فى الطغيان ، وطلبت المزيد ، أذلها اللّه ، كوضعها تحت القدم ، وليس المراد حقيقة القدم ، والعرب تستعمل ألفاظ الأعضاء ظرفا للأمثال ، ولا تريد أعيانها ، كقولهم : رغم أنفه ، وسقط فى يده. هـ. قلت : من دخل بحار الأحدية لم يصعب عليه حلّ أمثال هذه الشّبه ، فإن تجليات الحق لا تنحصر ، فيتجلى سبحانه كيف شاء ، وبما شاء ، ولا حصر ولا تحييز ، ولا يفهم هذه إلا أهل الفناء والبقاء بصحبة الرّجال.
ثم قال تعالى : وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وهو شروع فى بيان أحوال المؤمنين بعد النّفخ ومجىء النّفوس إلى موقف الحساب. وتقديم الكفرة فى أمثال هذا إما لتقديم الترهيب على الترغيب ، أو لكثرة أهل الكفر ، فإن المؤمنين بينهم كالشعرة البيضاء فى جلد أسود «١» ، أي : قربت الجنة للمتقين الكفر والمعاصي ، بحيث يشاهدونها من الموقف ، ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن ، فيبتهجون بأنهم محشورون إليها ، فائزون بها ، ويأتى فى الإشارة بقية بيان ، إن شاء اللّه. وقوله : غَيْرَ بَعِيدٍ تأكيد للإزلاف ، أي : مكانا غير بعيد ، ويجوز أن يكون التذكير لكونه على زنة المصدر ، الذي يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث ، أو لتأوّل الجنة بالبستان.
هذا ما تُوعَدُونَ أي : هذا الثواب ، أو الإزلاف ، ما كنتم توعدون به فى الدنيا ، وهو حاصل لِكُلِّ أَوَّابٍ أي : رجّاع إلى اللّه تعالى حَفِيظٍ لأوامر اللّه ، أو لما استودعه اللّه من حقوقه ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ :
بدل من «أواب» أو مبتدأ ، خبره : أدخلوها ، على تقدير : يقال لهم : ادخلوها لأن «من» فى معنى الجمع ، والخشية :
انزعاج القلب عند ذكر الخطيئة أو التقصير أو الهيبة. وقوله تعالى : (بالغيب) حال من فاعل «خشى» ، أو من مفعوله ، أو صفة لمصدره ، أي : خشية ملتبسة بالغيب ، حيث خشى عقابه وهو غائب عنه ، وخشى الرّحمن وهو غائب عن الأعين فى رداء الكبرياء ، لا تراه الأعين الحسية الحادثة. والتعرض لعنوان الرّحمن للثناء البليغ على الخاشى ، حيث خشيه مع علمه بسعة رحمته ، فلم يصدهم علمهم بسعة رحمته عن خوفه تعالى ، أو : للإشعار بأنهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته. وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ راجع إلى اللّه ، أو سريرة مرضية ، وعقيدة صحيحة.
يقال لهم : ادْخُلُوها بِسَلامٍ أي : سالمين من زوال النّعم وحلول النّقم ، أو : ملتبسين بسلام من اللّه تعالى وملائكته عليكم ، ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ، الإشارة إلى الزمان الممتد الواقع فى بعض منه ما ذكر من الأحوال ، أي :

---

(١) كما جاء فى الصحيح ، فقد أخرج البخاري فى مواضع منها (الرقاق باب كيف الحشر ، ح ٦٥٢٨) ومسلم فى (الإيمان ، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة رقم ٣٧٦ ، ح ٢٢١) عن عبد

اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال : كنا مع النّبى صلّى اللّه عليه وسلم فى قبة ، فقال : «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة» قلنا : نعم ، قال «أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة» قلنا : نعم ، قال : «أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة» قلنا : نعم ، قال : «والذي نفسى محمد بيده ، إنى لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة ، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة ، وما أنتم فى أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء فى جلد الثور الأحمر».

(٤٥٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٥٧

نهاية ذلك اليوم هو يوم الخلود ، الذي لا انتهاء له ، لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها من فنون المطالب ومنتهى الرّغائب وَلَدَيْنا مَزِيدٌ هو النّظر إلى وجهه الكريم ، على قدر حضورهم اليوم ، أو : هو ما لا يخطر ببالهم ، ولا يندرج تحت مشيئتهم من الكرامات ، التي لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر. وقيل : إن السحاب تمر بأهل الجنة فتمطر عليهم الحور ، فتقول ، نحن المزيد الذي قال تعالى : وَلَدَيْنا مَزِيدٌ قلت : مزيد كلّ واحد على قدر همته وشهوته. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يوم يقول لجهنم : هل امتلأت؟ وتقول : هل من مزيد ، كذلك النّفس ، نار شهواتها مشتعلة كلما أعطيتها شيئا من حظوظها طلبت المزيد ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب اللّه على من تاب ، وفى الحديث : «اثنان لا يشبعان ، طالب الدنيا وطالب علم ، طالب الدنيا يزداد من اللّه بعدا ، وطالب العلم يزداد من اللّه رضا وقربا» أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلم «١».

واعلم أن الرّوح إذا عشقت شيئا فإن كان من الدنيا يسمى حرصا ، وإن كان فى جانب الحق سمى محبة وشوقا ، وفى الحقيقة ما هى إلا محبة واحدة ، إلا أنها لما تاهت انقلبت محبتها للفروقات الحسية ، وغابت عن المعاني الأزلية ، وكلما زاد فى الحرص نقص من المحبة ، وما نقص من الحرص زاد فى المحبة. ويقال : كلما زادت محبة الحس نقصت المعنى ، وبالعكس ، وإذا اشتعلت نار المحبة فلا تسكن بما يلقى فيها من الأمور الحسية ، كانت حظوظا أو حقوقا ، بل كلما ألقى فيها تقول : هل من مزيد ، حتى يضع الجبار قدمه ، وهو قذف نور معرفته فى القلب ، فحينئذ يحصل الفناء وتقول : قط قط.

ثم أخبر عن حال المؤمنين بقوله : (و أزلفت الجنة للمتقين) أي : قربت جنة المعارف إلى قلوب خواص المتقين ، الذين اتقوا ما سوى اللّه ، فقربت منهم ، ودخلوها فى الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قربت إليهم الجنة الحسية فى المحشر ، فيركبون فى قصورها وغرفها ، وتطير بهم إلى الجنة ، فلا يحسون بالصراط ولا بالنار ، وفيهم قال تعالى : لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها الآية «٢». والنّاس على ثلاثة

أصناف قوم يحشرون إلى الجنة مشاة ، وهم الذين قال اللّه فيهم : وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً «٣» وهم عوام المؤمنين ، وقوم يحشرون إلى الجنة ركبانا

---

(١) أخرجه الدارمي في (المقدمة ، باب في فضل العلم والعالم ، ح ٣٣٢) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه. ولفظه : «منهومان لا يشبعان : صاحب العلم وصاحب الدنيا ، ولا يستويان ، أما صاحب العلم فيزداد رضي الرّحمن ، وأما صاحب الدنيا ، فيتمادى في الطغيان ، ثم قرأ عبد اللّه. كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى قال : وقال الآخر : إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ. وسند الحديث فيه انقطاع. انظر المشكاة (١/ ٨٧).

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الأنبياء.

(٣) الآية ٧٣ من سورة الزمر.

(٤٥٧/٥)

على طاعتهم ، المصورة لهم على صورة المراكب ، وهؤلاء الخواص من العباد والزهاد والعلماء والصالحين ، وأما خواص الخواص ، وهم العارفون ومن تعلق بهم ، فهم الذين قال اللّه فيهم : وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ تقرب منهم ، فيركبون فيها ، ويسرحون إلى الجنة. انظر القشيري.

وقوله تعالى : هذا ما تُوعَدُونَ الإشارة إلى مقعد صدق ، ولو كان إلى الجنة لقال «هذه». قاله القشيري.

ثم وصف أهل هذا المقام بقوله : لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ أي : راجع إلى اللّه في جميع أموره ، لا يعرف غيره ، ولا يلتجىء إلا إليه ، حفيظ لأنفاسه مع اللّه ، لا يصرفها إلا في طلب اللّه ، من خشى الرّحمن بالغيب ، أي : بنور الغيب يشاهد شواهد الحق ، فيخشى بعده أو حجبه. قال القشيري : والخشية تكون مقرونة بالأنس ، ولذلك لم يقل : من خشى الجبار. ثم قال : والخشية من الرّحمن خشية الفراق ، ويقال : هو مقتضى علمه بأنه يفعل ما يشاء ، لا يسأل عما يفعل ، ويقال : الخشية ألطف من الخوف ، فكأنها قريبة من الهيبة. هـ. (و جاء بقلب منيب) مقبل على اللّه بكليته ، معرض عما سواه ، (ادخلوها) جنة المعارف (بسلام) من العيوب ، آمنين من السلب والرّجوع ، وهذا قوله (ذلك يوم الخلود) فيها ، لهم ما يشاءون من فنون المكاشفات ، ولذيذ المشاهدات ، ولدينا مزيد ، زيادة ترقى أبدا سرمدا ، جعلنا اللّه من هذا القبيل في الرّعيل الأول ، آمين.

ثم رجع إلى تهديد الكفرة ، فقال

[سورة ق (٥٠) : الآيات ٣٦ الى ٣٨]

وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)

يقول الحق جل جلاله : وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ قبل قومك مِنْ قَرْنٍ من القرون الذين كذّبوا رسلهم هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ من قومك بَطْشاً قوة وسطوة ، فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ أي : خرّبوا وطافوا وتصرفوا فى أقطارها ، وجالوا فى أكناف الأرض كلّ مجال حذار من الموت هَلْ وجدوا مِنْ مَحِيصٍ أي : مهرب منها؟

بل لحقتهم ودقت أعناقهم ، أو : هل وجدوا من مهرب من أمر اللّه وقضائه؟ وأصل التنقيب والنّقب : البحث والطلب ، قال امرؤ القيس :

لقد نقّبت فى الآفاق حتّى رضيت من الغنيمة بالإياب «١»

---

(١) فى الديوان : [وقد طوّفت فى الآفاق حتى ...] انظر الديوان (٧٢).

ودخلت الفاء للتسبب عن قوله : (هم أشد منهم بطشا) أي : شدة بطشهم ، أي : قدرتهم على التنقيب فى البلاد ، ويجوز أن يعود الضمير إلى أهل مكة ، أي : ساروا فى أسفارهم ومسايرهم فى بلد القرون ، فهل رأوا لهم محيصا حتى يؤملوا مثله أنفسهم؟ ويؤيده قراءة من قرأ (فنقّبوا) على صيغة الأمر. إِنَّ فِي ذلِكَ أي : فيما ذكر من قصصهم ، أو : فيما ذكر فى السورة لَذِكْرى لتذكرة وعظة لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ سليم واع يدرك كنه ما يشاهده من الأمور ، ويتفكر فيها ، ليعلم أن مدار دمارهم هو الكفر ، فيرتدع عنه بمجرد مشاهدة الآثار من غير تذكير ، أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ أي : أصغى بقلبه إلى ما يتلى عليه من الوحى النّاطق بما جرى عليهم ، فإن من فعله يقف على كنه الأمر ، فينزجر عما يؤدى إليه من الكفر والمعاصي ، يقال : ألق إليّ سمعك ، أي : استمع ، ف «أو» لمنع الخلو ، لا لمنع الجمع ، فإن إلقاء السمع لا يجدى بدون سلامة القلب عما ذكر من الصفات ، للإيذان بأن من عرى قلبه عنهما كمن لا قلب له أصلا : وقوله تعالى : وَهُوَ شَهِيدٌ : حال ، أي :

والحال أنه حاضر القلب لا يغفل أو : شاهد على ما يقرأ من كتاب اللّه.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما من أصناف المخلوقات ، وهذا أيضا احتجاج على القدرة على البعث بما هو أكبر ، كقوله : لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ «١» وقوله تعالى : فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ إنما خلقها فى تلك المدة تعليما لخلقه التؤدة ، وإلا فهو قادر على أن يخلقها فى لمحة ،

وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ «٢» ، ويحتمل أن هذا فى عالم الأمر ، وأما عالم الخلق فاقتضت الحكمة خلقه بالتدريج ، وله الخلق والأمر ، ثم قال تعالى : وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ من إعياء ولا تعب فى الجملة ، وهذا رد على جهلة اليهود ، أنه تعالى بدأ العالم يوم الأحد ، وفرغ منه يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش «٣» ، تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

الإشارة : كثيرا ما أهلك اللّه من النّفوس المتمردة فى القرون الماضية ، زجرا لمن يأتى بعدهم ، ففى ذلك ذكرى لمن كان له قلب سليم من تعلقات الكونين. قال القشيري : فالقلوب أربعة قلب فاسد وهو الكافر ، وقلب مقفول ، وهو قلب المنافق ، وقلب مطمئن ، وهو قلب المؤمن ، وقلب سليم ، وهو قلب المحبين والمحبوبين ، الذين هو مرآة صفات جمال اللّه وجلاله ، كما قال تعالى : «لا يسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعني قلب عبدى المؤمن» «٤». هـ.

---

(١) الآية ٥٧ من سورة غافر.

(٢) الآية ٥٠ من سورة القمر.

(٣) نزول الآية ردّا على اليهود ، أخرجه الطبري (٢٦/ ١٧٨) والواحدي فى الأسباب (ص ٤١٣).

[.....]

(٤) سبق.

(٥/٤٥٩)

وقال الشبلي : لمن كان له قلب حاضر مع اللّه ، لا يغفل عنه طرفة عين. وقال يحيي بن معاذ : القلب قلبان قلب احتشى بأشغال الدنيا ، حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع ، وقلب احتشى باللّه وشهوده ، فإذا حضر أمر من أمور الكونين لم يدر ما يصنع ، غائب من الكونين بشهود المكوّن. وقال القتاد : لمن كان له قلب لا يتقلب عن اللّه فى السراء والضراء. هـ. (أو ألقى السمع وهو شهيد) أي : يشهد ما من اللّه إلى اللّه ، أو : يشهد أسرار الذات. قال القشيري : يعنى من لم يكن له قلب بهذه الصفة يكون له سمع يسمع اللّه وهو حاضر مع اللّه ، فيعتبر بما يشير إليه اللّه فى إظهار اللطف أو القهر. هـ. (و لقد خلقنا السموات) أي : سماوات الأرواح ، وأرض الأشباح ، وما بينهما من النّفوس والقلوب والأسرار ، وسر الأسرار ، فى ستة أيام ، أي : ستة أنواع من المخلوقات ، وهى محصورة فيما ذكرناه من الأرواح ، والأشباح ، والنّفوس ، والقلوب ، والأسرار ، وسر الأسرار ، فلا مخلوق إلا وهو داخل فى جملتها ، لا يخرج عنها ، وما مسّنا من لغوب لأن أمرنا بين الكاف والنّون.

ثم أمر نبيه بالصبر على ما يسمع فى جانبه تعالى ، أو فى نفسه ، فقال

[سورة ق (٥٠) : الآيات ٣٩ الى ٤٥]

فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣)

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ (٤٥)

يقول الحق جل جلاله : فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ أي : ما يقوله المشركون فى شأن البعث من الأباطيل ، فإنّ اللّه قادر على بعثهم والانتقام منهم ، أو : يقولونه فى جانبك من النّقص والتكذيب ، أو : ما تقوله اليهود من مقالات الكفر والتشبيه ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أي : اصبر على ما تسمع واشتغل باللّه عنهم ، فسبّح ، أي : نزّه ربك عن العجز عما يمكن ، وعن وصفه تعالى بما يوجب التشبيه ، حامدا له تعالى على ما أنعم به عليك من إصابة الحق والرّشاد ، قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ، وهما وقت الفجر والعصر ، وفضلهما مشهور.

(٥/٤٦٠)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٦١

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ أي : وسبّحه فى بعض الليل وَأَدْبارَ السُّجُودِ أي : أعقاب الصلوات ، جمع : دبر ، ومن قرأ بالكسر «١» ، فمصدر ، من : أدبرت الصلاة : انقضت ، ومعناه : وقت انقضاء الصلاة ، وقيل : المراد بالتسبيح :

الصلوات الخمس ، فالمراد بما قبل الطلوع : صلاة الفجر ، وبما قبل الغروب : الظهر والعصر ، وبما من الليل : المغرب والعشاء والتهجد ، وبأدبار السجود : النوافل بعد المكتوبات.

وَاسْتَمِعْ أي : لما يوحى إليك من أحوال القيامة ، وفيه تهويل وتفظيع للمخبر به ، يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ «٢» أي : إسرافيل عليه السّلام ، فيقول : أيتها العظام البالية ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة إن اللّه يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ، وقيل : إسرافيل ينفخ ، وجبريل ينادى بالمحشر ، مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ بحيث يصل نداؤه إلى الكل ، على سواء ، وقيل : من حجرة بيت المقدس ، وهو أقرب مكان من الأرض إلى السماء ، باثنى عشر ميلا ، وهى وسط الأرض ، وقيل : من تحت أقدامهم ، وقيل : من منابت شعورهم ، فيسمع من كلّ شعرة. «ويوم» منصوب بما دلّ عليه «يوم الخروج» أي : يوم يناد المناد يخرجون من القبور ، فيوقف على «واستمع» وقيل : تقديره : واستمع حديث يوم يناد المنادى.

ويَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ : بدل من «يوم يناد» أي : واستمع يوم يناد المنادى ، وذلك اليوم هو يوم يسمعون الصيحة ، وهى النّفخة الثانية. وبِالْحَقِّ : متعلق بالصيحة ، أو : حال ، أي : ملتبسة بالحق ، وهو البعث والحشر للجزاء ، ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ من القبور.
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي
الخلق وَنُمِيتُ أي : نميتهم فى الدنيا من غير أن يشاركنا فى ذلك أحد ، وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ أي : مصيرهم إلينا لا إلى غيرنا. وذلك يَوْمَ تَشَقَّقُ أصله : تتشقق ، فأدغم ، وقرأ الكوفيون والبصري «٣» بالتخفيف ، بحذف إحدى التاءين ، أي تتصدع ، الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً فيخرج المؤمنون من صدوعها مسرعين ، ذلِكَ حَشْرٌ أي : بعث عَلَيْنا يَسِيرٌ هيّن ، وهو معادل لقول الكفرة : (ذلك رجع بعيد) ، وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليسر به تعالى.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وحمزة وأبو جعفر وخلف «وإدبار» بكسر الهمزة ، وقرأ الباقون بفتحها ، جمع «دبر». انظر الإتحاف ٢/ ٤٨٩.
(٢) أثبت المفسر - رحمة اللّه - قراءة «المنادى» بإثبات الياء ، وهى قراءة نافع وأبى عمرو وصلا ، وفى الحالين ابن كثير ويعقوب ، وقرأ الباقون بغير ياء وصلا ووقفا.
(٣) قرأ «تشقق» بتخفيف الشين ، أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «تشقّق» بتشديد الشين.
انظر السبعة/ ٦٠٧.

(٥/ ٤٦١)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ من نفى البعث وتكذيب الآيات ، وغير ذلك مما لا خير فيه ، وهو تهديد لهم ، وتسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ أي : ما أنت بمسلط عليهم ، إنما أنت داع ، كقوله : لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ «١» من : جبره على الأمر : قهره ، أي : ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان ، وهذا قبل الأمر بالقتال ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ ، لأنه هو الذي يتأثر بالوعظ ، كقوله : إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها «٢» وأما من عداهم ، فنحن نفعل بهم ما توجبه أقوالهم ، وتستدعيه أعمالهم من أنواع العقاب وفنون العذاب.
الإشارة : فاصبر أيها المتوجّه على ما تسمع من الأذى ، وغب عن ذلك بذكر ربك قبل طلوع شمس البسط ، وقبل غروبها ، أي : اشتغل باللّه فى القبض والبسط ، أو : قبل طلوع شمس المعرفة ، فى

حال السير ، وقبل الغروب حين تطلع ، ومن ليل القبض أو القطيعة فسبّح حتى يطلع نهار البسط أو المعرفة ، وأدبار السجود ، أي : عقب سجود القلب فى الحضرة ، فلا يرفع رأسه أبدا ، واستمع يوم يناد المنادى ، وهى الهواتف الغيبية ، والواردات الإلهية ، والإلهامات الصادقة ، من مكان قريب ، هو القلب ، يوم يسمعون الصيحة ، أي : تسمع النّفوس صيحة الداعي إلى الحق بالحق ، فتجيب وتخضع إن سبقت لها العناية ، ذلك يوم الخروج ، خروج العوائد والشهوات من القلب ، فتحيى الروح ، وتبعث بعد موتها بالغفلة والجهل ، بإذن اللّه ، إنا نحن نحيي نفوسا بمعرفتنا ، ونميت نفوسا بقهريتنا ، وإلينا المصير ، أي : الرجوع إنما هو إلينا ، فمن رجع إلينا اختيارا أكرمناه ونعّمناه ، وفى حضرة القدس أسكناه ، ومن رجع قهرا بالموت عاتبناه أو سامحناه ، وفى مقام البعد أقمناه.

يوم تشقق الأرض عنهم : أرض الحشر فى حق العامة ، وأرض الوجود فى حق الخاصة ، أي : يذهب حس الكائنات ، وتضمحل الرّسوم ، وتبدل الأرض والسموات ، ذلك حشر علينا يسير ، أي : جمعكم إلينا ، بإفناء وجودكم ، وإبقائكم بوجودنا ، يسير على قدرتنا ، وجذب عنايتنا. ويقال لكلّ داع إلى اللّه ، فى كلّ زمان ، حين يدبر النّاس عنه ، وينالون منه : نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبّار ، إنما أنت داع : خليفة الرّسول ، فذكّر بالقرآن ، وادع إلى اللّه من يخاف وعيد إذ هو الذي يتأثر بالوعظ والتذكير ، وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلم ،

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الغاشية.

(٢) الآية ٤٥ من سورة النّازعات.

سورة الذّاريات

مكية. وهى ستون آية. ومناسبتها لما قبلها ما ختمت به من قوله تعالى : ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ «١» ، فأقسم سبحانه فى صدر هذه السورة إنه لواقع ، حيث قال :

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِياتِ ذَرْواً (١) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (٢) فَالْجارِياتِ يُسْراً (٣) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (٤)

إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ (٦)

يقول الحق جل جلاله : وَالذَّارِياتِ الرياح الذاريات لأنها تذرو التراب والحشيش وغير ذلك ، يقال : ذرت الرّياح تذرو ذروا ، وأذرت تذرى ، وذَرْواً : مصدر ، والعامل فيه اسم الفاعل. فَالْحامِلاتِ وِقْراً ، أي :

السحاب الحاملة للأمطار ، أو : الرياح الحاملة للسحاب الموقورة بالماء. وقال ابن عباس : السفن الموقورة بالناس ، ف «وقرا» : مفعول بالحاملات ، فَالْجارِياتِ يُسْراً أي : السفن الجارية فى البحر والرّياح الجارية فى مهابها ، أو السحاب الجارية فى الجو تسوق الرّياح ، أو : الكواكب السيارة الجارية فى مجاريها ومنازلها بسهولة ، (يسرا) : نعت لمصدر محذوف ، أي : جريا ذا يسر.

فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً أي : الملائكة التي تقسم الأمور الغيبية من الأمطار والأرزاق والآجال ، والخلق فى الأرحام ، وأمر الرّياح ، وغير ذلك لأن هذا كله إنما هو بملائكة تخدمه ، ف «أمرا» هنا جنس ، وأنّث «المقسّمات» لأن المراد الجماعات ، ويجوز أن يراد الرّياح فى الكل ، فإنها تنشئ السحاب ، وتقلّه ، وتصرّفه ، وتجرى به فى الجو جريا سهلا ، وتقسّم الأمطار بتصريف السحاب فى الأقطار. ومعنى الفاء على الأول : أنه تعالى أقسم بالرياح ، فبالسحاب التي تسوقه ، فبالفلك الجارية بهبوبها ، فبالملائكة التي تقسم الأرزاق ، وعلى الثاني : أنها تبتدئ بالهبوب ، فتذرو التراب والحصباء ، فتقل السحاب ، فتجرى فى الجو باسطة له ، فتقسّم المطر.

وقال أبو السعود : فإن حملت الأمور المقسم بها على ذوات مختلفة ، فالفاء لترتيب الإقسام باعتبار ما بينها فى التفاوت فى الدلالة على كمال القوة ، وإلا فهى لترتيب ما صدر عن الرّيح من الأفاعيل ، فإنها تذرو الأبخرة إلى الجو حتى تنعقد سحابا ، فتجرى به باسطة له إلى ما أمرت به ، فتقسم المطر. هـ.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة «ق».

والمقسم عليه قوله : إِنَّ ما تُوعَدُونَ من البعث والجزاء ، لَصادِقٌ لوعد صادق ، وَإِنَّ الدِّينَ أي : الجزاء على الأعمال لَواقِعٌ لكائن لا محاله. وتخصيص الأمور المذكورة بالإقسام بها رمزا إلى شهادتها بتحقيق مضمون الجملة المقسم عليها ، من حيث إنها أمور بديعة ، مخالفة لمقتضى الطبيعة ، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود ، و«ما» موصولة ، أو مصدرية ، ووصف الوعد بالصدق كوصف العيشة بالرضا.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : والذاريات : رياح الواردات الإلهية ، التي ترد على القلوب ، فتذرو منها الأمراض والشكوك والأوهام والخواطر لأنها تأتي من حضرة قهّار ، لا تصادم شيئا إلا دفعته ، فالحاملات وقرا فالأنفس المطهرة ، الحاملة للعلوم والحكم والمواهب ، وقرا : حملا لا حدّ له ، فالجاريات يسرا : فالأفكار الجارية في بحار الأحدية ، من الجبروت إلى الملكوت ، ثم تنزل إلى عالم الملك ، تتفنن في علوم الحكمة ، في جريا يسرا شيئا فشيئا ، فالمقسّمات أمرا :

فالأرواح أو الأسرار الكاملة ، التي تقسم الأرزاق المعنوية والحسية ، حيث جعل اللّه لها ذلك بفضله عند كمالها ، وهذه أرواح أهل التصرف من الأولياء. إنما توعدون من الوصول إلينا لصادق لمن صدق في الطلب ، وإنّ الجزاء على المجاهدة بالمشاهدة لواقع. قال القشيري : إن اللّه تعالى وعد المطيعين بالجنة ، والتائبين بالمحبة ، والأولياء بالقربة ، والعارفين بالوصلة ، والطالبين بالوجدان. ولعلّ مراده بالأولياء عموم الصالحين.

ثم جدّد قسما آخر ، فقال : -

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٧ الى ١٤]

وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ (١١)

يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ ذات الطرق الحسيّة ، مثل ما يظهر على الماء والرّمال من هبوب الرّياح ، وكذلك الطرق التي في الأكسية من الحرير وغيره ، يقال لها : حبك جمع حبيكة ، كطريقة وطرق ، أو : جمع حباك ، قال الرّاجز :

كأنما جلّاها «١» الحوّاك طنفسة في وشيها حباك «٢»

---

(١) هكذا في الأصول. وفي تفسير الطبري وابن عطية وغيرهما : (جلّلها) وهو الصواب.

(٢) يصف الرّاجز ظهر أتان من حمر الوحش بأن فيه خطوطا وطرائق ، وجللها : ألبسها وكساها ، والطنفسة : البساط أو النّمرقة فوق الرحل ، والوشي : الزخرف والنّقش ، والحباك : الطريقة.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٦٥

والحوّاك : صانع الحياكة ، والمراد : إما الطريق المحسوسة ، التي هى مسير الكواكب ، أو : المعنوية ، التي يسلكها النظار فى النّجوم ، فإن لها طرائق. قال البيضاوي : النكتة فى هذا القسم : تشبيه أقوالهم فى اختلافها ، وتباين أغراضها ، بطرائق السماوات فى تباعدها ، واختلاف غاياتها ، وقال ابن عباس وغيره : ذات الخلق المستوي ، وعن الحسن : حبكها نجومها. وقال ابن زيد : ذات أشدة ، لقوله تعالى : سَبْعاً شِداداً «١».

إِنَّكُمْ يا أهل مكة لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ متخالف متناقض ، وهو قولهم فى حقه صلّى اللّه عليه وسلم تارة : شاعر ، وأخرى ساحر ، وفى شأن القرآن ، تارة : شعر ، وأخرى أساطير الأولين. يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ يصرف عن القرآن ، أو عن الرّسول ، من ثبت له الصرف الحقيقي ، الذي لا صرف أفظع وأشد منه ، فكأنّ لا صرف حقيقة إلا لهذا الصرف ، أي : يصرف عن الإيمان من صرف عن كلّ سعادة وخير ، أو : يصرف عن الإيمان من صرف فى سابق الأزل.

قلت : والأظهر أن يرجع لما قبله ، أي : يصرف عن هذا القول المختلف من صرف فى علم اللّه تعالى ، وسبقت له العناية ، يقال : أفكه عن كذا : صرفه عنه ، وإن كان الغالب استعماله فى الصرف عن الخير إلى الشر ، لكنه عرفى ، لا لغوى. واللّه تعالى أعلم.

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ، دعاء عليهم ، كقوله : قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ «٢» ، وأصله : الدعاء بالقتل والهلاك ، ثم جرى مجرى «لعن» ، والخرّاصون : الكذابون المقدّرون ما لا صحة له ، وهم أصحاب القول المختلف ، كأنه قيل : لعن هؤلاء الخراصون الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ فى جهل يغمرهم ، ساهُونَ غافلون عما أمروا به ، يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ أي : متى وقوع يوم الجزاء ، لكن لا بطريق الاستعلام حقيقة ، بل بطريق الاستعجال ، استهزاء ، فإنّ «أيّان» ظرف للوقوع المقدّر لأن «أيّان» إنما يقع ظرفا للحدثان.

ثم أجابهم بقوله : يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ أي : يقع يوم هم على النّار يحرقون ويعذّبون ، ويجوز أن يكون خبرا عن مضمر ، أي : هو يوم هم ، وبنى لإضافته إلى مضمر ، ويؤيده أنه قرئ بالرفع «٣».

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ أي :

وتقول لهم خزنة النّار : ذوقوا عذابكم وإحراقكم بالنار ، هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ أي : هذا العذاب هو الذي

---

(١) من الآية ١٢ من سورة النّبإ ، وانظر فى هذه الأقوال تفسير البغوي ٧/ ٣٧١ - ٣٧٢ والقرطبي (٧/ ٦٣٨٧ - ٦٣٨٨).

(٢) الآية ١٧ من سورة عبس.

(٣) «يوم» بالرفع ، وهى قراءة ابن أبى عبلة والزعفراني. انظر مختصر ابن خالويه فى شواذ القراءات (ص/ ١٤٦) والبحر المحيط (٨/ ١٣٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٦٦
كنتم تستعجلونه فى الدنيا ، بقولكم : فَأْتِنا بِما تَعِدُنا «١» ، ف «هذا» : مبتدأ ، و«الذي ..» إلخ : خبر ، ويجوز أن يكون «هذا» بدلا من فتنتكم ، و«الذي» : صفته.
الإشارة : أقسم اللّه تعالى بسماء الحقائق ، وتسمى سماء الأرواح لأن أهل الحقائق روحانيون سماويون ، ترقّوا من أرض الأشباح إلى سماء الأرواح ، حيث غلبت روحانيتهم ، على بشريتهم ، كما أن أهل الشرائع اليابسة أرضيين بشريين ، حيث غلبت بشريتهم الطينية على روحانيتهم السماوية ، ولكلّ واحدة طرق ، فطرق سماء الحقائق هى المسالك التي توصل إليها ، وهى قطع المقامات والمنازل ، وخرق الحجب النّفسانية ، حتى يفضوا إلى مقام العيان «فى مقعد صدق عند مليك مقتدر» وطرق أرض الشرائع هى المذاهب التي سلكها الأولون ، واقتدى بهم الآخرون ، يفضوا أهلها إلى رضا اللّه ونعيمه.
وكان الشيخ الشاذلى رضي اللّه عنه يقول فى تلميذه المرسى : إن أبا العباس أعرف بطرق السماء منه بطرق الأرض ، أي : أعرف بمسالك الحقائق منه بمذاهب الشرائع ، وهذا إشارة قوله : ذاتِ الْحُبُكِ أي :
الطرق. إن أهل الجهل باللّه لفى قول مختلف مضطرب ، لا تجد قلوبهم تأتلف على شىء ، قلوبهم متشعبة ، ونياتهم مختلفة ، وهممهم دنية ، وأقوالهم مضطربة ، بخلاف أهل الحقائق العارفين باللّه ، قلوبهم مجتمعة على محبة واحدة ، وقصد واحد ، وهو اللّه ، بدايتهم فى السلوك مختلفة ، ونهايتهم متفقة ، وهو الوصول إلى حضرة العيان ، وللّه در ابن البنا ، حيث قال :
مذاهب النّاس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف
وقال الشاعر :
عباراتهم شتى وحسنك واحد وكلّ إلى ذاك الجمال يشير
يؤفك عن هذا الاختلاف من صرف فى سابق العناية ، أو من صرف من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح.
قتل الخراصون المعتمدون على ظنهم وحدسهم ، فعلومهم جلها مظنونة ، وإيمانهم غيبى ، وتوحيدهم دليلى من وراء الحجاب ، لا يسلم من طوارق الاضطراب ، الذين هم فى غمرة أي : فى غفلة وجهل وضلالة - ساهون عما أمروا به من جهاد النّفوس ، والسير إلى حضرة القدوس ، أو ساهون غائبون عن مراتب الرّجال ، لا يعرفون أين ساروا ، وفى أىّ بحار سبحوا وغاصوا ، كما قال شاعرهم :
تركنا البحور الزاخرات وراءنا فمن أين يدرى النّاس أين توجهنا؟

---

(١) من الآية ٧٠ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٦٧
يسألون أيّان يوم الدين لطول أملهم ، أو يسألون أيّان يوم الجزاء على المجاهدة. قال تعالى : هو (يوم هم) أي :
أهل الغفلة - على نار القطيعة أو الشهوة يفتنون بالدنيا وأهوالها ، والعارفون منزّهون فى جنات المعارف. ويقال للغافلين : ذوقوا وبال فتنتكم ، وهو الحجاب وسوء الحساب ، هذا الذي كنتم به تستعجلون ، بإنكاركم على أهل الدعوة الربانيين ، فتستعجلون الفتح من غير مفتاح ، تطلبون مقام المشاهدة من غير مجاهدة ، وهو محال فى عالم الحكمة «١». وباللّه التوفيق.
ثم ذكر أضدادهم ، فقال :
[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ١٥ الى ١٩]
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ عظيمة ، لا يبلغ كنهها ، ولا يقادر قدرها ، ولعل المراد بها الأنهار الجارية ، بحيث يرونها ، ويقع عليها أبصارهم ، لا أنهم فيها ، آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ أي :
نائلين ما أعطاهم راضين به ، بمعنى أنّ كلّ ما يأتهم حسن مرضى ، يتلقى بحسن القبول ، إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ فى الدنيا مُحْسِنِينَ
متقنين لأعمالهم الصالحة ، آتين بها على ما ينبغى ، فلذلك نالوا ما نالوا من الفوز العظيم ، ومعنى الإحسان ما فسره به عليه الصلاة والسّلام : «أن تعبد اللّه كأنك تراه» الحديث «٢». ومن جملته ما أشار إليه بقوله :
كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ أي : كانوا يهجعون ، أي : ينامون فى طائفة قليلة من الليل ، على أن «قليلا» ظرف أو كانوا يهجعون هجوعا قليلا ، على أنه صفة لمصدر ، و«ما» مزيدة فى الوجهين ، ويجوز أن تكون مصدرية مرتفعة ب «قليلا» على الفاعل ، أي : كانوا قليلا من الليل هجوعهم. وقال النسفي : يرتفع هجوعهم على البدل من الواو فى «كانوا» لا بقليلا لأنه صار موصوفا بقوله : مِنَ اللَّيْلِ فبعد من شبه الفعل وعمله ، ولا يجوز أن

---

(١) على هامش النّسخة الأساسية مايلى : ليس بمحال ، وكم من واحد جذبته العناية الإلهية وانتشلته

.... الغفلة والظلمات فأصبح على بساط القرب والمشاهدة دون أدنى مجاهدة ، بل نص العارفون على أن طريق المجاهدة انقطعت ، ولم يبق إلا طريق المحبة بعد جذب العناية الإلهية. هـ. [.....]

(٢) جزء من حديث سؤال سيدنا جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان ، وهو حديث مشهور. أخرجه البخاري فى (الإيمان باب سؤال جبريل النّبى عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ، ح ٥٠) ومسلم فى (الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان رقم ٩ ، ح ٥) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٤٦٧/٥)

تكون «ما» نافية على معنى : أنهم لا يهجعون من الليل قليلا ويحيونه كله. هـ. أو كانوا ناسا قليلا ما يهجعون من اللّه لأن «ما» النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، ولأن المحسنين وهم السابقون كانوا كثيرا فى الصدر الأول ، وموجودون فى كلّ زمان ومكان ، فلا معنى لقلتهم ، خلافا لوقف الهبطى ، وأيضا : فمدحهم بإحياء الليل كله مخالف لحالته صلّى اللّه عليه وسلم ، وما كان يأمر به.

وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ، وصفهم بأنهم يحيون جل الليل متهجدين ، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار من رؤية أعمالهم. والسحر : السدس الأخير من الليل ، وفى بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار ، كأنهم المختصون به ، لاستدامتهم له ، وإطنابهم فيه.

وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ أي : نصيب وافر ، يوجبونه على أنفسهم ، تقربا إلى اللّه تعالى ، وإشفاقا على النّاس ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ أي : لمن يصرح بالسؤال لحاجة ، وللمتعفف الذي يتعرّض ولا يسأل حياء وتعففا ، يحسبه الناس غنيا فيحرم نفسه من الصدقة. وقد تكلم فى نوادر الأصول «١» على من سأل باللّه ، أي : قال : أعطنى لوجه اللّه ، هل يجب إعطاؤه أم لا؟ ، وفى الحديث : «من سألكم باللّه فأعطوه» «٢». قال : وهو مقيد بما إذا سأل بحق ، أي :

لحاجة ، وأما إذا سأل بباطل - أي : لغير حاجة - فإنما سأل بالشيطان لأن وجه اللّه حق. ثم ذكر كلام علىّ شاهدا ، «٣» ثم حديث معاذ : «من سألكم باللّه فأعطوه ، فإن شئتم فدعوه» ، قال معاذ : وذلك أن تعرف أنه غير مستحق ، وإذا عرفتم أنه مستحق ، وسأل فلم تعطوه فأنتم ظلمة. وألحق بغير المستحق من اشتبه حاله لتعليق الظلم على معرفة الاستحقاق خاصة.

وقال النّووى فى الأذكار : يكره منع من سأل باللّه ، وتشفع به لحديث : «من سأل باللّه فأعطوه» قال : ويكره أن يسأل بوجه اللّه غير الجنة. هـ. وفى حديث المنذرى : «ملعون من سأل بوجه اللّه ، وملعون من سأل بوجه اللّه ، ثم منع سائله ما لم يسأل هجرا» «٤». وقال فى كتابه «الأخبار» على قوله عليه

الصلاة والسّلام : «من سألكم باللّه فأعطوه» إجلالا للّه تعالى ، وتعظيما ، وإيجابا لحقه. ثم قال : إذ ليس يجب إعطاء السائل إذا كان فى معصية أو

---

(١) الأصل التاسع عشر والمائتان (فى الاستعاذة باللّه تعالى ، ٢/ ١٨٧ - ١٨٨).
(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٦٨) وأبو داود فى (الزكاة ، باب عطية من سأل باللّه ، ح ١٦٧٢) والحاكم فى المستدرك (١/ ٤١٢) «وصحّحه وأقره الذهبي» من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه وكذا أخرجه الطبراني فى الكبير (١٢/ ٣٩٧) والبيهقي (٤/ ١٩٩). وفى أوله : «من استعاذ باللّه فأعيذوه ...» الحديث.
(٣) قال الحكيم الترمذي : «سأل رجل علىّ بن أبى طالب رضي اللّه عنه شيئا ، فلم يعطه فقال : أسألك بوجه اللّه تعالى ، فقال له : كذبت ، ليس بوجه اللّه سألتى ، إنما وجه اللّه الحق ، ولكن سألت بوجهك الخلق».
(٤) ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (ح ١٢٤٦) وعزاه للطبرانى ، من حديث أبى موسى الأشعري. قال الهيثمي فى مجمع الزوائد (٣/ ١٠٣) : «رواه الطبراني فى الكبير ، وإسناده حسن ، على ضعف فى بعضه مع توثيق».
وقوله «هجرا» بضم الهاء وسكون الجيم : أي : ما لم يسأل أمرا قبيحا لا يليق ، ويحتمل أنه أراد : ما لم يسأل سؤالا قبيحا بكلام قبيح.

(٤٦٨/٥)

فضول ، فمن سأل باللّه فيما ليس عليه ولا عليك فرضه ، فإعطاؤك إياه لإجلال حق اللّه وتعظيمه ، وليس عليك بفرض ولا حتم. انظر تمامه فى الحاشية الفاسية.
الإشارة : إنّ المتقين ما سوى اللّه فى جنات المعارف ، وعيون العلوم والأسرار. قال القشيري : فى عاجلهم فى جنة الوصل ، وفى آجلهم فى جنة الفضل ، فغدا نجاة ودرجات ، واليوم قربات ومناجاة. هـ. (آخذين ما آتاهم ربهم) من فنون المواهب والأسرار ، وغدا من فنون التقريب والإبرار ، راضين بالقسمة ، قليلة أو كثيرة. إنهم كانوا قبل ذلك : قبل الإعطاء ، محسنين ، يعبدون اللّه على الإخلاص ، يأخذون من اللّه ، ويدفعون به ، وله ، ولا يردون ما أعطاهم ، ولو كان أمثال الجبال ، ولا يسألون ما لم يعطهم ، اكتفاء بعلم ربهم.
قال القشيري : كانوا قبل وجودهم محسنين ، وإحسانهم : كانوا يحبون اللّه باللّه ، يحبهم ويحبونه وهم

فى العدم ، ولمّا حصلوا فى الوجود ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، كأنّ نومهم عبادة ، لقوله عليه الصلاة والسّلام : «نوم العالم عبادة» «١» ، فمن يكون فى العبادة لا يكون نائما ، وهجوع القلب : غفلته ، وقلوبهم فى الحضرة ، ناموا أو استيقظوا ، فغفلتهم بالنسبة إلى حضورهم قليلة. وقال سهل رضي اللّه عنه : أي : كانوا لا يغفلون عن الذكر فى حال ، يعنى هجروا النّوم لوجود الأنس فى الذكر ، والمراد بالنوم : نوم القلب بالغفلة.

(و بالأسحار هم يستغفرون) ، قال القشيري : أخبر عن تهجدهم ، وقلة دعاويهم ، وتنزلهم بالأسحار ، منزلة العاصين ، تصغيرا لقدرهم ، واحتقارا لفعلهم. ثم قال : والسهر لهم فى ليالهم دائم ، إما لفرط لهف ، أو شدة أسف ، وإما لاشتياق ، أو للفراق ، كما قالوا :

كم ليلة فيك لا صباح لها أفنيتها قابضا على كبدى

قد غصّت العين بالدموع وقد وضعت خدى على بنان يدى «٢»

وإما لكمال أنس ، وطيب روح ، كما قالوا :

سقى اللّه عيشا قصيرا مضى زمان الهوى فى الصبا والمجون «٣»

لياليه تحكى انسداد لحاظ لعينيّ عند ارتداد الجفون. هـ. «٤»

---

(١) أخرجه الديلمي (مسند الفردوس ح ٦٧٣١) عن عبد اللّه بن أبى أوفى ، بزيادة «ونفسه تسبيح» وعمله مضاعف ، ودعاؤه مستجاب ، وذنبه مغفور» وأخرجه الديلمي (ح ٦٧٣٤) والبيهقي فى الشعب (ح ٣٩٣٧) بلفظ «الصائم» بدل «العالم». وانظر كشف الخفاء ٢/ ٤٤٥ ، والأسرار المرفوعة ص ٣٧٤.

(٢) القائل هو أحمد بن يوسف ، صاحب ديوان الرّسائل فى عهد المأمون. انظر الأغانى (٢٢/ ٥٧٠).

(٣) فى الأصول : السجون.

(٤) البيت فى الأصول : [لياليه تحكى إنشاء اللحاظ .. للعين عند ارتداء الجفون] والمثبت هو الذي فى لطائف الإشارات.

وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ أي : هم يواسون من قصدهم بالحس والمعنى ، فيبذلون ما خوّلهم اللّه من الأموال ، للسائل والمتعفف ، وما خوّلهم اللّه من العلوم ، للطالب والمعرض ، وهو المحروم ،

فيقصدونه بالدواء بما أمكن فإنهم أطباء ، والطبيب يقصد المريض أينما وجده ، شفقة ورحمة ، ونصحا للعباد. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته على ما أقسم عليه من البعث ، فقال :

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٢٠ الى ٢٣]

وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)

يقول الحق جل جلاله : وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ دالة على كمال قدرته على البعث وغيره ، من حيث إنها مدحوة كالبساط الممهد ، وفيها مسالك وفجاج للمتقلبين فى أقطارها ، والسالكين فى مناكبها ، وفيها سهل وجبل ، وبحر وبر ، وقطع متجاورات ، وعيون متفجرات ، ومعادن مقنية ، ودواب منبثة ، مختلفة الصور والأشكال ، متباينة الهيئات والأفعال ، وهى مع كبر شكلها مبسوطة على الماء ، المرفوع فوق الهواء ، فالقدرة فيها ظاهرة ، والحكمة فها باهرة ، ففى ذلك عبرة لِلْمُوقِنِينَ الموحّدين ، الذين ينظرون بعين الاعتبار ، ويشاهدون صانعها ببصيرة الاستبصار.

وَفِي أَنْفُسِكُمْ آيات وعجائب القدرة إذ ليس شىء فى العالم إلا وفى الأنفس له نظير ، مع ما فيه من الهيئات النّابعة والمصادر البهية ، والترتيبات العجيبة ، خلقه نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم فصلها إلى العظم والعصب والعروق ، فالعظام عمود الجسد ، ضم بعضها إلى بعض بمفاصل وأقفال ربطت بها ، ولم تكن عظما واحدا لأنه إذ ذاك يكون كالخشبة ، لا يقوم ولا يجلس ، ولا يركع ولا يسجد لخالقه ، ثم خلق تعالى المخ فى العظام فى غاية الرّطوبة ليرطب يبس العظام ، ويتقوى به ، ثم خلق سبحانه اللحم وعباه على العظام ، وسدّ به خلل الجسد ، واعتدلت هيئته ، ثم خلق سبحانه العروق فى جميع الجسد جداول ، يجرى الغذاء منها إلى أركان الجسد ، لكلّ موضع من الجسد عدد معلوم ، ثم أجرى الدم فى العروق سيالا خاثرا ، ولو كان يابسا ، أو اكتف مما هو فيه ، لم يجر فى العروق ، ثم كسى سبحانه اللحم بالجلد كالوعاء له ، ولولا ذلك لكان قشرا أحمر ، وفى ذلك هلاكه ، ثم كساه الشعر وقاية وزينة ، وليّن أصوله ، ولم تكن يابسة مثل رؤوس الإبر ، وإلا لم يهنه عيش ، وجعل الحواجب والأشفار وقاية للعين ، ولولا ذلك لأهلكهما الغبار والسقط ، وجعلها سبحانه طوع يده ، يتمكن من رفعها عند قصد النّظر ، ومن إرخائها على جميع العين عند إرادة إمساك النّظر عما يضر دينا ودنيا ، وجعل شعرها صفا واحدا لينظر من خللها ،

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٧١

ثم خلق سبحانه شفتين ينطبقان على الفم يصونان الحلق والفم من الرّياح والغبار ، ولما فيهما من كمال الزينة ، ثم خلق اللّه سبحانه الأسنان ليتمكن من قطع مأكوله وطحنه ، ولم تكن له فى أول خلقته لئلا يؤذى أمه ، وجعلها ثلاثة أصناف : قسم يصلح للكسر ، كالأنياب ، وقسم يصلح للقطع ، كالرباعية ، وقسم يصلح للطحن ، كالأضراس ...

إلى غير ذلك مما فى الإنسان من عجائب الصنع وبدائع التركيب.

أَفَلا تُبْصِرُونَ أي : تنظرون نظر من يعتبر ، وما قيل : إن التقدير : أفلا تبصرون فى أنفسكم ، فضعيف لأنه يفضى إلى تقديم ما فى حيّز الاستفهام عليه.

وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وهو المطر. وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه رزقكم إلا أنكم تحرمونه بخطاياكم «١» ، أو : فى سماء الغيب تقدير رزقكم ، فهو مضمون عند اللّه فى سماء غيبه ، ستر ذلك بسر الحكمة ، وهو الأسباب ، وَما تُوعَدُونَ أي : وفى السماء ما توعدون من الثواب لأن الجنة فى السماء السابعة ، سقفها العرش ، أو : أراد : إنما توعدونه من الرّزق فى الدنيا وما توعدونه فى العقبى كله مقدّر ومكتوب فى السماء ، وقيل : إنه مبتدأ وخبره : فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ أي : ما توعدون من البعث وما بعده ، أو : ما توعدونه من الرّزق المقسوم ، فوربّ العالم العلوي والسفلى إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ : أي : مثل نطقكم ، شبّه ما وعد به من الرّزق وغيره بتحقق نطق الآدمي لأنه ضرورى ، يعرفه من نفسه كلّ أحد.

قال الطيبي : وإنما خص النّطق دون سائر الأعمال الضرورية ، لكونه أبقى وأظهر ، ومن الاحتمال أبعد ، فإنّ النطق يفصح عن كلّ شيء ، ويجلى كلّ شبهة. هـ. فضمان الرّزق وإنجاز وعده ضرورى ، كنطق النّاطق. روى عن الأصمعى أنه قال : أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابى على قعود ، فقال : من الرّجل؟ فقلت : من بنى أصمع ، فقال : من أين أقبلت؟ فقلت : من موضع يتلى فيه كلام اللّه ، قال : اتل علىّ ، فتلوت : وَالذَّارِياتِ ...

فلما بلغت قوله : وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ قال : حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ، ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسّرهما ، وولّى ، فلما حججت مع الرّشيد ، وطفت ، فإذا أنا بصوت رقيق يهتف بي ، فالتفتّ ، فإذا أنا بالأعرابى قد نحل واصفرّ ، فسلّم علىّ ، واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية ، صاح ، وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هذا؟ فقرأت : فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ فقال : سبحان اللّه! من الذي أغضب الجليل حتى حلف؟ لم يصدقوه بقوله حتى حلف ، قالها ثلاثا ، وخرجت معها نفسه هـ. من النّسفى «٢».

قلت : وقد سمعت حكاية أخرى ، فيها عبرة ، وذلك أن رجلا سمع قارئا يقرأ هذه الآية ، فدخل بيته ، ولزم زاوية منه يذكر فيها ، ويتبتل ، فجاءت امرأته تنقم عليه ، وتأمره بالخدمة ، فقال لها : قال تعالى : وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ

(١) ذكره القرطبى (٧/ ٦٣٩٩).
(٢) وذكره القرطبى (٧/ ٦٣٩٩).

(٤٧١/٥)

، فلما أيست منه ذهبت تحفر شيئا ، فوجدت آنية مملوءة دنانير ، فجاءت إليه ، وقالت : قد أتانا رزقنا ، قم تحفره معى ، هو فى موضع كذا ، فقال : إنما قال تعالى : (فى السماء) ولم يقل فى الأرض ، فامتنع ، فذهبت إلى أخ لها تستعين به ، فلما فتحتها وجدتها مملوءة عقارب ، فقالت : واللّه لأطرحنها عليه لنستريح منه ، ففتحت كوة من السقف ، وطرحتها عليه ، فسقطت دنانير ، فقال : الآن نعم ، قد آتاني من حيث قال ربى : وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ. هـ.

وذكر فى التنوير : أن الملائكة لمّا نزلت هذه الآية ضجت فى السماء ، وقالت : ما أضعف بنى آدم حتى أحوجوا ربهم إلى الحلف.

الإشارة : وفى أرض نفوس العارفين آيات ، منها : أن الأرض تحمل كلّ شيء ، ولا تستثقل شيئا ، فكذلك نفس العارف ، تحمل كلّ كلّ وثقيل ، ومن استثقل حملا ، أو تبرم من أحد ، أو من شيء ، ساقته القدرة إليه ، فلغيبته عن الحق ، ومطالعته الخلق بعين التفرقة ، وأهل الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة. ومنها : أنها يلقى عليها كلّ قذارة وقمامة فتنبت كلّ زهر ونور وورد ، فكذلك العارف يلقى عليه كلّ جفاء ، ولا يظهر منه إلا الصفاء. ومنها : أن الأرض الطيبة تنبت الطيب ، وينصع نباتها ، والأرض السبخة لا تنبت شيئا ، كذلك القلوب الطيبة تنبت كلّ ما يلقى فيها من الخير ، والقلوب الخبيثة لا تعى شيئا ، ولا ينبت فيها إلا الخبيث.

وقوله تعالى : وَفِي أَنْفُسِكُمْ .. قال القشيري : يشير إلى أن النّفس مرآة جميع صفات الحق ، لهذا قال عليه الصلاة والسّلام : «من عرف نفسه فقد عرف ربه» «١» فلا يعرف أحد نفسه إلا بعد كمالها ، وكمالها : أن تصير مرآة كاملة تامة مصقولة ، قابلة لتجلى صفات الحق لها ، فيعرف نفسه بالمرءاتية ، ويعرف ربه بالتجلى فيها ، كما قال تعالى : سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ... الآية «٢». هـ.

قلت : حديث «من عرف نفسه» أنكره النّووى ، وقال إنه من كلام يحيى بن معاذ «٣» وقد اشتهر عند الصوفية حديثا ، ومعناه حق فإنّ من عرف حقيقة نفسه ، وأنها مظهر من مظاهر الحق ، وغاب عن حس وجوده الوهم ، فقد عرف ربه وشهده ، فاطلب المعرفة فى نفسك ، ولا تطلبها فى غيرك ، فليس الأمر عنك خارجا ، وللّه در الششترى فى بعض أزجاله ، حيث قال :

وإليك هو السّير «٤» وأنت معنى الخير

وما دونك غير

---

(١) قال السخاوي فى المقاصد (ص ١٩٨) : «لا يعرف مرفوعا ، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرّازى من قوله» ، وقال السيوطي فى القول الأشبه (٢/ ٣٥١) من الحاوي للفتاوى : «هذا الحديث ليس بصحيح».

(٢) الآية ٥٣ من سورة فصلت.

(٣) على هامش النّسخة الأم ما يلى : قلت : كذا قالوا لأنهم وجدوه مرويا عنه ، فظنوه من كلامه ، وهو إنما رواه من التوراة ، ففيها :

«قال اللّه تعالى : يا ابن آدم اعرف نفسك تعرف ربك» فمن هنا أخذ يحيى بن معاذ الرّازى. هـ.

[.....]

(٤) فى الديوان (ص ١١٤) : [وإليك السير].

(٤٧٢/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٧٣

وقال أيضا :

يا قاصدا عين الخبر غطّاه أينك «١»

إرجع لذاتك واعتبر ما ثمّ غيرك

الخير منك والخبر والسر عندك

وقوله تعالى : وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ قال الورتجبي : وفى سماء صفاتى رزق أرواحكم ، من مشاهدة النّور ، وغذاء العلم الرّبانى ، وما توعدون من مشاهدة الذات وكشف عيانه. هـ.

قلت : هذا قوت الأرواح ، أمّا قوت الأشباح فتجب الغيبة عنه ، ثقة باللّه ، وتوكلا عليه. قال فى قطب العارفين :

اعلم أنه عز وجل قسّم الأرزاق فى الأزل ، وجزّأه على عمر العبد ، ووقّت أوقاته ، وحدّ للعبد ما يأتيه منه فى السنة ، والشهر ، واليوم ، والساعة ، ف كل ما حدّ لك أن تناله من رزقك عند صلاة العصر ، مثلا ، لا تناله عند صلاة الصبح ، ولو طلبته بكلّ حيلة فى السموات والأرض ، فإن الطلب لا يجمع ، والتوكّل لا يمنع. هـ. وقال فيه أيضا : العارف يجد فى نفسه الاعتماد على اللّه ، وإن كانت السماء لا تمطر ، والأرض لا تنبت ... ، إلخ كلامه ، ومثله قول ذى النون : لو كانت السماء من زجاج ، والأرض

من نحاس لا تنبت شيئا ، ومصر كلها عيالى ، ما اهتممت لهم برزق لأنّ من خلقهم هو الذي تكفل برزقهم. هـ. وقال فى القطب أيضا : ومن علامة جهل قلب العالم : خوف شدائد السنيين الآتيات ، والاستعداد لها قبل مجيئها ، بمصاحبة الاضطراب ، وفقد الطمأنينة بالقسمة السابقة ، فمن اتصف بهذه الصفة فقد نازع الرّبوبية ، وانسلخ من العبودية. هـ.

ثم سرد قصص الأمم السالفة ، وما جرى عليها لأنّ فيها آيات ، فتنخرط فى سلك الآيات المتقدمة ، فقال :

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٢٤ الى ٣٧]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨)

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣)

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٣٧)

---

(١) فى الديوان : (ص ٢٦٧) غطاه غينك رضي اللّه عنه.

يقول الحق جل جلاله : هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ ، استفتح بالاستفهام التشويقى ، تفخيما لشأن الحديث ، وتنبيها على أنه ليس مما علمه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بغير طريق الوحى. والضيف فى الأصل : مصدر : كالزور ، والصوع ، يصدق بالواحد والجماعة ، قيل : كانوا اثنى عشر ملكا ، وقيل : تسعة عاشرهم جبريل. وجعلهم ضيفا لأنهم فى صورة الضيف ، حيث أضافهم إبراهيم ، أو لأنهم كانوا فى حسبانه كذلك. وقوله الْمُكْرَمِينَ أي : عند اللّه ، لأنهم عباد مكرمون ، أو عند إبراهيم ، حيث خدمهم بنفسه ، وأخدمهم امرأته ، وعجّل لهم القرى.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ : ظرف للحديث ، أو لما فى الضيف من معنى الفعل ، أو بالمكرمين ، إن فسر بإكرام إبراهيم لهم ، فَقالُوا سَلاماً أي : نسلّم عليك سلاما ، قالَ إبراهيم : سَلامٌ أي : عليكم سلام. عدل به

إلى الرّفع بالابتداء للقصد إلى الثبوت والدوام حتى تكون تحيته عليه السّلام أحسن من تحيتهم ، وهذا أيضا من إكرامه ، قَوْمٌ مُنْكَرُونَ أي : أنتم قوم منكرون ، لا نعرفكم ، فعرّفونى من أنتم. قيل : إنما أنكرهم لأنهم ليسوا ممن عهدهم من النّاس ، أو : لأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه النّاس ، وقيل : إنما قال ذلك سرا ولم يخاطبهم به ، وإلا لعرّفوه بأنفسهم.

فَراغَ إِلى أَهْلِهِ أي : ذهب إليهم فى خفية من ضيوفه ، فالروغان : الذهاب بسرعة ، وقيل : فى خفية. ومن آداب المضيف أن يبادر الضيف : بالقرى ، وأن يخفى أمره من غير أن يشعر به الضيف ، حذرا من أن يكفّه ، وكان عامة مال إبراهيم البقر. فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ، الفاء فصيحة تفصح عن جمل حذفت لدلالة الحال عليها ، وإيذانا بكمال سرعة المجيء ، أي : فذبح عجلا فحنذه «١» ، فجاء به ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ، بأن وضعه بين أيديهم ، حسبما هو المعتاد ، فلم يأكلوا ، ف قالَ أَلا تَأْكُلُونَ ، أنكر عليهم ترك الأكل ، أو : حثّهم عليه ، فَأَوْجَسَ أضمر مِنْهُمْ خِيفَةً خوفا ، لتوهم أنهم جاءوا للشر لأن من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك. عن ابن عباس رضي اللّه عنه : وقع فى نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب ، قالُوا لا تَخَفْ إنّا رسل اللّه. قيل : مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه «٢» ، فعرفهم وأمن منهم ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ أي : يبلغ ويكون عالما ، وهو إسحاق عليه السّلام.

---

(١) أي : شواه ، انظر اللسان (حنذ ٢/ ١٠٢١).

(٢) رواه عون بن أبى شداد ، فيما ذكره القرطبي (٧/ ٦٤٠٢).

(٤٧٤/٥)

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ سارة لمّا سمعت بشارتهم إلى بيتها ، وكانت فى زاوية منه تنظر إليهم ، فِي صَرَّةٍ صيحة ، من الصرير ، وهو الصوت ، ومنه : صرير الباب وصرير الأقلام. قال الزجّاج : الصرّة : شدّة الصياح. وفى القاموس الصرّة : - بالكسر : أشد الصياح ، وبالفتح : الشدة من الكرب والحزن والحر والعطفة والجماعة وتغضيب الوجه. هـ. ومحله النّصب على الحال ، أي : فجاءت صارة ، وقيل : صرتها : قولها : يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ... «١»

أو : فجاءت مغضّبة الوجه ، كما هو شأن من يخبر بشيء غريب ، استبعادا له ، فَصَكَّتْ وَجْهَها لطمته ببسط يدها ، وقيل : ضربت بأطراف أصابعها جبهتها ، فعل المتعجب ، وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ أي : إنها عجوز عاقر ، فكيف ألد؟!.

قالُوا كَذلِكَ أي : مثل ما قلنا وأخبرناك به قالَ رَبُّكِ أي : إنما نخبرك عن اللّه تعالى ، واللّه قادر على ما

يستعبد ، إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ فى فعله ، الْعَلِيمُ فلا يخفى عليه شيء ، فيكون قوله حقا ، وفعله متقنا لا محالة.

روى أن جبريل عليه السّلام قال لها حين استبعدت : انظري إلى بيتك ، فنظرت ، فإذا جذوعه مورقة مثمرة ، ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط ، بل هى وإبراهيم عليه السّلام حاضر ، حسبما شرح فى سورة الحجر «٢» ، وإنما لم يذكرها اكتفاء بما ذكر هناك ، كما أنه لم يذكر هناك سارة ، اكتفاء بما ذكر هنا وفى سورة هود «٣».

ولمّا تحقق أنهم ملائكة ، ولم ينزلوا إلا لأمر ، قالَ فَما خَطْبُكُمْ أي : فما شأنكم وما طلبتكم وفيم أرسلتم؟

أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ، هل أرسلتم بالبشارة خاصة ، أو لأمر آخر ، أو لهما؟ قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ أي :

قوم لوط ، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ أي : طين متحجر ، هو السجّيل ، وهو طين طبخ ، كما يطبخ الآجر ، حتى صار فى صلابة الحجارة ، مُسَوَّمَةً معلّمة ، على كلّ واحد اسم من يهلك بها ، من السّومة وهى العلامة ، أو : مرسلة ، من أسمت الماشية : أرسلتها ، ومر تفصيله فى هود «٤» عِنْدَ رَبِّكَ أي : فى ملكه وسلطانه لِلْمُسْرِفِينَ المجاوزين الحدّ فى الفجور.

فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها ، الفاء فصيحة ، مفصحة عن جمل قد حذفت ، ثقة بذكرها فى مواضع أخر ، كأنه قيل : فباشروا ما أمروا به ، فذهبوا إلى لوط ، وكان من قصتهم ما ذكر فى موضع آخر ، فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها أي : من قرى قوم لوط مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يعنى لوطا ومن آمن معه. قيل : كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة

---

(١) كما جاء فى الآية ٧٢ من سورة هود.

(٢) عند قوله تعالى : بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ. قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ الآيتان ٥٥ - ٥٦.

(٣) فى قوله تعالى : وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ الآية ٧١.

(٤) عند تفسير الآيات ٨١ - ٨٢.

عشر. فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ أي : غير أهل بيت مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وفيه دليل على أن الإسلام

والإيمان واحد ، أي : باعتبار الشرع ، وأما فى اللغة فمختلف ، والإسلام محله الظاهر ، والإيمان محله الباطن. وَتَرَكْنا فِيها أي : فى قراهم آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ أي : من شأنهم أن يخافوا لسلامة فطرتهم ، ورقة قلوبهم ، وأما من عداهم من ذوى القلوب القاسية ، فإنهم لا يعتبرون بها ، ولا يعدونها آية.

الإشارة : الإشارة بإبراهيم إلى القلب ، وأضيافه : تجليات الحق ، فنقول حينئذ : هل بلغك حديث إبراهيم القلب ، حين يدخل عليه أنوار التجليات ، مسلّمة عليه ، فينكرها أول مرة ، حيث لم يألف إلا رؤية حس الكائنات ، فراغ إلى أهله : عوالمه ، فجاء بعجل سمين النفس أو السّوى ، فقرّبه إليهم ، بذلا لها فى مرضاة اللّه ، فقال : ألا تأكلون منها ، لتذهب عنى شوكتها إذ لا تثبت أنوار الشهود إلا بعد محق النّفس وموتها ، فأوجس منهم خيفة لأن صدمات التجلي تدهش الألباب ، إلا من ثبته اللّه ، قالوا : لا تخف ، أي : لا تكن خوّافا ، إذ لا ينال هذا السر إلا الشجعان ، كما قال الجيلاني «١» :

وإيّاك حزما لا يهولك أمرها فما نالها إلا الشّجاع المقارع

وبشّروه بغلام عليم ، وهو نتيجة المعرفة ، من اليقين الكبير ، والطمأنينة العظمى ، فأقبلت النّفس تصيح ، وتقول :

أألد هذا الغلام ، من هذا القلب ، وقد كبر على ضعف اليقين ، وأنا عجوز ، شخت فى العوائد ، عقيم من علوم الأسرار؟! ، فتقول القدرة : كذلك قال ربك ، هو علىّ هيّن ، أتعجبين من قدرة اللّه ، «من استغرب أن ينقذه اللّه من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته. فقد استعجز القدرة الإلهية ، وكان اللّه على كلّ شىء مقتدرا» «٢» إنه هو الحكيم فى ترتيب الفتح على كسب المجاهدة ، العليم بوقت الفتح ، وبمن يستحقه. قال إبراهيم القلب أو الرّوح : فما خطبكم أيها التجليات ، أو الواردات الإلهية ، قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، وهم جند النّفس ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين ، وهم الأذكار والأوراد والمجاهدات والرّياضات والمعاملات المهلكة للنفس وأوصافها ، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، سالمين من الهلاك ، وهو ما كان لها من الأوصاف الحميدة ، والعلوم الرّسمية ، إذ لا تخرج المجاهدة إلا من كان مذموما ، فما وجدنا فيها من ذلك إلا النّذر القليل إذ معاملة النّفس جلها مدخولة ، وتركنا فيها آية من تزكية النّفس ، وتهذيب أخلاقها ، للذين يخافون العذاب الأليم ، فيشتغلون بتزكيتها لئلا يلحقهم ذلك العذاب.

---

(١) الشيخ عبد الكريم الجيلي فى عينيته (ص ٧٨).

(٢) حكمة عطائية رقم (١٩٧) انظر تبويب الحكم (ص ١٨).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٧٧

ثم ذكر آيات أخرى فى بقية الأمم ، فقال :

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٣٨ الى ٤٩]

وَفِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَما كانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (٤٦)

وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)

وَالْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)

قلت : (و فى موسى) : عطف على (و فى الأرض) ، أو على قوله : (و تركنا فيها آية) على معنى : وجعلنا فى موسى آية ، كقوله :

علفتها تبنا وماءا باردا «١».

و(إذ أرسلناه) : منصوب بآيات ، أو : بمحذوف ، أي : كائنة وقت إرسالنا ، أو بتركنا.

يقول الحق جل جلاله : وَفِي مُوسى آية ظاهرة حاصلة إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ بحجة واضحة ، وهى ما ظهر على يديه من المعجزات الباهرة ، فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ فأعرض عن الإيمان وازورّ عنه «٢» بِرُكْنِهِ بما يتقوى به من جنوده وملكه ، والرّكن : ما يركن إليه الإنسان من عزّ وجند ، وَقالَ فى موسى : هو ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ، كأنه نسب ما ظهر على يديه عليه السّلام من الخوارق العجيبة إلى الجن ، وتردد هل ذلك باختياره وسعيه ، أو بغيرهما.أَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِ

، وفيه من الدلالة على عظم شأن القدرة الربانية ، ونهاية حماقة فرعون ما لا يخفى ، هُوَ مُلِيمٌ

، آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان.

---

(١) شطر بيت ، تمامه : حتى شتت همالة عيناها.

(٢) أي : مال عنه.

وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ، وصفت بالعقيم لأنها أهلكتهم ، وقطعت دابرهم ، أو : لأنها

لم تتضمن خيرا ما ، من إنشاء مطر ، أو إلقاح شجر ، وهى الدّبور ، على المشهور ، لقوله عليه السّلام : «نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدّبور» «١» ، ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ أي : مرت عليه إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ وهو كلّ ما رمّ ، أي : بلى وتفتت ، من عظم ، أو نبات ، أو غير ، والمعنى : ما تركت شيئا هبت عليه من أنفسهم وأموالهم إلا أهلكته.

وَفِي ثَمُودَ آية أيضا إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ، تفسيره قوله تعالى : تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ «٢» ، روى أن صالحا قال لهم : تصبح وجوهكم غدا مصفرة ، وبعد غد محمرة ، وفى الثالث مسودة ، ثم يصحبكم العذاب ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ استكبروا عن الامتثال ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ العذاب ، وكلّ عذاب مهلك صاعقة. قيل : لما رأوا العلامات من اصفرار الوجوه ، واحمرارها ، واسودادها ، التي بينت لهم ، عمدوا إلى قتله عليه السّلام فنجّاه اللّه تعالى إلى أرض فلسطين ، وتقدم فى النّمل «٣» ، ولمّا كان ضحوة اليوم الرّابع تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع ، فأتتهم الصيحة ، فهلكوا ، كبيرهم وصغيرهم وهم ينظرون إليها ، ويعاينونها جهرا ، فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ من هرب ، أو هو من قولهم : ما يقوم بهذا الأمر : إذا عجز عن دفعه. وَما كانُوا مُنْتَصِرِينَ ممتنعين من العذاب بغيرهم ، كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

وَقَوْمَ نُوحٍ أي : وأهلكنا قوم نوح لأن ما قبله يدل عليه ، أو : واذكر قوم نوح ، ومن قرأ بالجر «٤» فعطف على ثمود ، أي : وفى قوم نوح آية ، ويؤيده قراءة عبد اللّه «وفى قوم نوح» مِنْ قَبْلُ أي : قبل هؤلاء المذكورين ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ خارجين عن الحدود بما كانوا فيه من الكفر والمعاصي وإذاية نوح عليه السّلام.

وَالسَّماءَ بَنَيْناها من باب الاشتغال ، أي : بنينا السماء ، بنيناها بِأَيْدٍ بقوة ، والأيد : القوة ، وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ لقادرين ، من الوسع ، وهو الطاقة ، والموسع : القوىّ على الإنفاق ، أو : لموسعون بين السماء والأرض ، أو : لموسعون الأرزاق على من نشاء ، وهو تتميم كما تمم ما بعده بقوله : (فنعم الماهدون) لزيادة الامتنان.

وَالْأَرْضَ فَرَشْناها بسطناها ومهّدناها لتستقروا عليها ، فَنِعْمَ الْماهِدُونَ نحن. وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ نوعين ذكر وأنثى ، وقيل : متقابلين ، السماء والأرض ، والليل والنّهار ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ،

---

(١) متفق عليه ، وسبق تخريجه عند تفسير الآية ٤٦ من سورة الرّوم (٤/ ٣٤٩).

(٢) من الآية ٦٥ من سورة هود. [.....]

(٣) راجع تفسير الآيات ٤٨ - ٥٣ من سورة النّمل ، فى المجلد الرّابع (ص ٢٠٢ - ٢٠٣).

(٤) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف (و قوم) بجر الميم ، وقرأ الباقون بنصبها. راجع الإتحاف ٢/ ٤٩٣.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٧٩

الموت والحياة. قال الحسن : كل شيء زوج ، واللّه فرد لا مثل له. لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أي : جعلنا ذلك كله ، من بناء السماء ، وفرش الأرض ، وخلق الأزواج ، لتذكّروا ، وتعرفوا أنه خالق الكلّ ورازقهم ، وأنه المستحق للعبادة ، وأنه قادر على إعادة الجميع ، وتعملوا بمقتضاه. وباللّه التوفيق.

الإشارة : وفى موسى القلب إذ أرسلناه إلى فرعون النّفس ، بسلطان ، أي : بتسلط وحجة ظاهرة ، لتتأدب وتتهذب ، فتولى فرعون النّفس بركنه ، وقوة هواه ، وقال لموسى القلب : ساحر أو مجنون ، حيث يأمرنى بالخضوع والذل ، الذي يفرّ منه كلّ عاقل ، طبعا ، فأخذناه وجنوده من الهوى والجهل والغفلة ، فنبذناهم فى اليمّ فى بحر الوحدة ، فلما غرقت فى بحر العظمة ، ذابت وتلاشت ، ولم يبق لها ولا لجنودها أثر ، وهو - أي : فرعون النّفس - مليم :

فعل ما يلام عليه من الميل إلى ما سوى اللّه قبل إلقائه فى اليم.

وفى عاد ، وهى جند النّفس وأوصاف البشرية ، من التكبر ، والحسد ، والحرص ، وغير ذلك ، إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ريح المجاهدة والمكابدة. أو : ريح الواردات القهرية ، ما تذر من شيء من الأوصاف المذمومة إلا أهلكته ، وجعلته كالرميم. وفى ثمود ، وهم أهل الغفلة ، إذ قيل لهم : تمتعوا بدنياكم إلى حين زمان قليل مدة عمركم القصير ، فعتوا : تكبروا عن أمر ربهم ، وهو الزهد فى الدنيا ، والخضوع لمن يدعوهم إلى اللّه ، فأخذتهم صاعقة الموت على الغفلة والبطالة ، وهم لا ينظرون إلى ارتحالهم عما جمعوا ، فما استطاعوا من قيام ، حتى يدفعوا ما نزل بهم ، ولو افتدوا بالدنيا وما فيها ، وما كانوا ممتنعين من قهرية الموت ، فرحلوا بغير زاد ولا استعداد. وقوم نوح من قبل ، وهو من سلف من الأمم الغافلة ، إنهم كانوا قوما فاسقين خارجين عن حضرتنا.

والسماء ، أي : سماء الأرواح ، بنيناها ورفعناها بأيد ، ورفعنا إليها من أحببنا من عبادنا ، وإنا لموسعون على المتوجهين إلينا فى المعارف والأنوار ، والعلوم والأسرار ، والأرض وأرض النّفوس ، فرشناها للعبودية ، والقيام بآداب الربوبية ، فنعم الماهدون ، مهدنا الطريق لذوى التحقيق ، ومن كلّ شيء من تجليات الحق ، خلقنا ، أي : أظهرنا زوجين ، الحس والمعنى ، الحكمة والقدرة ، الشريعة والحقيقة ، الفرق والجمع ، الملك والملكوت ، الأشباح والأرواح ، الذات والصفات ، فتجلى الحق جل جلاله بين هذين الضدين ليبقى الكنز مدفونا ، والسر مصونا ، ولو تجلى بضد واحد لبطلت الحكمة ، وتعطلت أسرار الرّبوبية ، فمن لم يعرف اللّه تعالى فى هذين الضدين ، لم يعرفه أبدا ، ومن لم يفرق بين هذين الضدين ، فى هذه الأشياء المذكورة ، لم تنسج فكرته ، فصفاء الغزول هو التمييز بين هذين

الضدين ، ذوقا ، وبينهما تنسج الفكرة ، وبالغيبة عن الأول فى شهود الثاني يحصل القرب إلى اللّه تعالى ، كما أبان ذلك فى قوله :

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٥٠ الى ٥٥]

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤)
وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)

يقول الحق جل جلاله : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي : إذا كان الأمر كما ذكر من شئونه تعالى فى إهلاك من تعدى الحدود ، ففروا إلى اللّه بالإيمان والطاعة ، كى تنجو من غضبه ، وتفوزوا بثوابه ، أو : ففروا من الكفر إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة ، أو : من طاعة الشيطان إلى طاعة الرّحمن ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى ، فإنّ كونه صلّى اللّه عليه وسلم منذرا منه تعالى ، لا من تلقاء نفسه ، موجب للفرار ، وفيه وعد كريم بنجاتهم من المهروب ، وفوزهم بالمطلوب ، وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ هو نهى موجب للفرار من سبب العقاب ، بعد الأمر بالفرار من نفس العقاب ، كما يشعر به قوله تعالى : إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ أي :
من الجعل المنهي عنه نَذِيرٌ مُبِينٌ كأنه قيل : ففروا إلى اللّه من عقابه ، ومن سببه ، وهو جعلكم مع اللّه إلها آخر.

كَذلِكَ أي : الأمر ما ذكر من تكذيبهم الرّسول ، وتسميتهم له ساحرا أو مجنونا ، ثم فسر ما أجمل بقوله ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من قبل قومك مِنْ رَسُولٍ من رسل اللّه إِلَّا قالُوا فى حقه : هو ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ، فرموهم بالسحر والجنون لجهلهم ، أَتَواصَوْا بِهِ ، الضمير للقول ، أي : أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول ، حتى قالوه جميعا متفقين عليه ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ أي : لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا فى زمان واحد ، بل جمعتهم العلة الواحدة ، وهى الطغيان ، فَتَوَلَّ عَنْهُمْ أي : أعرض عن الذين كرّرت عليهم الدعوة ، فلم يجيبوا عنادا ، فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ فلا لوم عليك فى إعراضك بعد ما بلّغت الرّسالة ، وبذلت مجهودك فى البلاغ والدعوة. وَذَكِّرْ وعظ بالقرآن فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ الذين قدّر اللّه سبحانه وتعالى إيمانهم ، أو آمنوا بالفعل ، فإنها تزيدهم بصيرة وقوة فى اليقين والعلم. وباللّه التوفيق.

الإشارة : الفرار إلى اللّه يكون من خمسة أشياء : من الكفر إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة بالتوبة ، ومن الغفلة إلى اليقظة بدوام الذكر ، ومن المقام مع العوائد والحظوظ إلى الزهد بالمجاهدة وخرق العوائد ، ومن شهود الحس إلى شهود المعنى ، وهو مقام الشهود. وفى القوت : وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ الفرد ، (ففروا إلى اللّه) أي : من الأشكال والأضداد إلى الواحد الفرد. وفى البخاري : «معناه : من اللّه إليه» «١».

---

(١) ذكره البخاري فى (التفسير - سورة الذاريات).

(٥/٤٨٠)

قال القشيري : ارجعوا إلى اللّه ، والإشارة إلى حالتين ، إما رغبة فى شىء ، أو رهبة من شىء ، أو حالى خوف ورجاء ، أو طلب نفع أو دفع ضر ، وينبغى أن يفر من الجهل إلى العلم ، ومن الهوى إلى التقوى ، ومن الشك إلى اليقين ، ومن الشيطان إلى اللّه ، ومن فعله الذي هو بلاؤه إلى فعله الذي هو كفايته ، ومن وصفه الذي هو سخطه ، إلى وصفه الذي هو رحمته ، ومن نفسه ، حيث قال : وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ «١» إلى نفسه ، حيث قال : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ. هـ. ونقل الورتجبي عن الخراز «٢» ، فقال : أظهر معنى الرّبوبية والوحدانية ، بأن خلق الأزواج «٣» فتخلص له الفردانية ، فلما تبين أن أشكال الأشياء تواقع «٤» علة الفناء دعا العباد إلى نفسه لأنه الباقي ، وغيره فان ، بقوله :
فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ أي : ففروا من وجودكم ، ومن الأشياء كلها ، إلى اللّه بنعت الشوق والمحبة والتجريد عما سواه. هـ.

ولمّا أمرهم بالفرار إليه ، أعلم أنه ما خلقهم إلا لذلك ، فقال :

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٥٦ الى ٦٠]

وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)

يقول الحق جل جلاله : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ أي : إلا لنأمرهم بالعبادة والخضوع لربوبيتى ، لا لنستعين بهم على شأن من شئونى ، كما هى عادة السادات فى كسب العبيد ، ليستعينوا بهم على أمر الرزق والمعاش ، ويدلّ على هذا التأويل : قوله تعالى ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ... إلخ ، قال ابن المنير : إلا لأمرهم بعبادته ، لا لطلب رزق لأنفسهم ، ولا إطعام لى ، كما هو حال السادات من

الخلق مع عبيدهم ، بل اللّه هو الذي يرزق ، وإنما على عباده العبادة له لأنهم مكلفون ، ابتلاء وامتحانا ، أما الإرادة فكما تعلقت بالعبادة تعلقت بما يخالفها ، لقوله :

وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ «٥». هـ. وقيل المعنى : ما خلقهم إلا مستعدين للعبادة ، متمكنين منها أتم استعداد ، وأكمل تمكن ، فمنهم من أطاع ، ومنهم من كفر ، وهو كقولهم : البقر مخلوقة للحرث ، أي : قابلة لذلك ، وقد يكون فيها من لا يحرث. والحاصل : أنه لا يلزم من كون الشيء معدّا لشيء أن يقع منه جميع ذلك.

أو : ما خلقتهم إلا ليتذللوا لى ، ولقدرتى ، وإن لم يكن ذلك على قواعد شرع ، وهذا عام فى الكل ، طوعا أو كرها إذ كلّ ما خلق منقاد لقدرته وقهريته ، عابد له بهذا المعنى. وفى البخاري : وما خلقت أهل السعادة من

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة آل عمران.

(٢) فى الورتجبي : الحراز.

(٣) فى الورتجبي : الأرواح.

(٤) فى الورتجبي : مواضع.

(٥) من الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.

الفريقين إلا ليوحّدون. وقال بعضهم : خلقهم ليفعلوا ، ففعل بعض وترك بعض. وليس فيه حجة لأهل القدر. هـ.

منه «١». والمراد بأهل القدر : المعتزلة ، القائلون بأن اللّه تعالى لم يرد الكفر والمعاصي ، وهو باطل ، وسيأتى فى الإشارة بقية تحقيق إن شاء اللّه.

ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ أي : ما خلقتهم ليرزقوا أنفسهم ، أو واحدا من عبادى ، وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ، قال ثعلب : أن يطعموا عبادى ، وهو إضافة تخصيص ، كقوله عليه السّلام : «من أكرم مؤمنا فقد أكرمنى ومن آذى مؤمنا فقد آذاني» «٢» ، والحاصل : أنه تعالى بيّن أن شأنه مع عباده متعاليا عن أن يكون كشأن السادات مع عبيدهم ، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم ، وتهيئة أرزاقهم ، أي : ما أريد أن أصرفهم فى تحصيل رزقى ولا رزقهم ، بل أتفضل عليهم برزقهم ، وبما يصلحهم ويعيشهم من عندى ، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى.

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ أي : يرزق كلّ من يفتقر إلى الرّزق ، وفيه تلويح بأنه غنى عنه ، ذُو الْقُوَّةِ ذو الاقتدار ، الْمَتِينُ أي : الشديد الصلب. وقرأ الأعمش «المتين» بالجر «٣» ، نعت للقوة ، أي : ذو القوة المتينة ، وإنما ذكّره لتأول القوة بالاقتدار.

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسهم ، بتعريضها للعذاب ، حيث كذّبوا الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ، أو : وضعوا التكذيب مكان التصديق ، وهم أهل مكة ، ذَنُوباً أي : نصيبا وافرا من العذاب ، مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ مثل عذاب نظائرهم من الأمم المحكية. قال الزجاج : الذنوب فى اللغة : النصيب ، مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب ، وهو الدلو العظيم المملوء. فَلا يَسْتَعْجِلُونِ ذلك النّصيب ، فإنه لاحق بهم ، وهذا جواب النّضر وأصحابه حين استعجلوا العذاب.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، وضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالكفر ، أي : فويل لهم مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ، أي : من يوم القيامة ، أو يوم بدر ، والأول أنسب لما فى صدر السورة الآتية.

الإشارة : اعلم أن الحق - جل جلاله - إنما بعث الرّسل بإظهار الشرائع ، ليحوّشوا العباد إلى اللّه ، ويدعوهم إليه كافة ، ويأمروهم بالتبتل والانقطاع ، من غير التفات لمن سبق له السعادة أو الشقاء لأن ذلك من سر القدر ، وغيب المشيئة لا يجوز كشفه فى حالة الدعوة ، فقوله تعالى : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ هذا ما يمكن

---

(١) ذكره البخاري فى (التفسير ، سورة «والذاريات»)

(٢) أخرجه الديلمي (مسند الفردوس ح ٥٨٠٦) والطبراني فى الأوسط (ح ٨٦٤٥) من حديث جابر رضي اللّه عنه بلفظ : «من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم اللّه عز وجل». وليس فيه الجزء الأخير.

(٣) انظر «المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات» لابن جنى (٢/ ٢٨٩).

الأمر به فى ظاهر الأمر ، ويؤمر بإظهاره فى حالة الدعوة ، وكون الحق تبارك وتعالى أراد من قوم الكفر والمعاصي من غيب المشيئة ، وسر القدر لا يقدح فى عموم الدعوة التي تعلقت بالظواهر لأنه من قبيل الحقيقة ، وما جاءت الرّسل إلا بالشريعة ، فالدعاة إلى اللّه يعممون الدعوة ، ويحرّضون على التبتل والانقطاع إلى اللّه ، وينظرون إلى ما يبرز من غيب المشيئة. وقال الورتجبي : عن جعفر الصادق وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ أي :

ليعرفونى. هـ. ومداره قوله صلّى اللّه عليه وسلم فيما يحكيه عن رب العزة : «كنت كنزا مخفيا لم

أعرف ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لأعرف» «١» أي : ما أظهرت الخلق إلا لأعرف بهم ، فتجليت بهم فى قوالب العبودية ، لتظهر ربوبيتى فى قوالب العبودية ، فتظهر قدرتى وحكمتى ، فسبحان الحكيم العليم.

قال أبو السعود : ولعل السر فى التعبير عن المعرفة بالعبادة للتنبيه على أن المعتبر هى المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى ، لا ما يحصل بغيرها ، كمعرفة الفلاسفة. هـ. قلت : وكلّ معرفة وحقيقة لا تصحبها شريعة لا عبرة بها ، بل هى زندقة أو دعوى «٢». وباللّه التوفيق.

وقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ، هذه الآية وأمثالها هى التي غسلت الأمراض والشكوك من قلوب الصدّيقين ، حتى حصل لهم اليقين الكبير ، فسكنت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم ، فهم فى روح وريحان. والأحاديث فى ضمان الرّزق كثيرة ، وأقوال السلف كذلك ، وفى حديث أبى سعيد الخدري عنه صلّى اللّه عليه وسلم قال : «لو فرّ أحدكم من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت» «٣» وقال أيضا عن اللّه عز وجل : «يقول : يا ابن آدم تفرغ لعبادتى ، أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت يدك شغلا» «٤» ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «من كانت الآخرة همّه ، جعل اللّه غناه فى قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهى صاغرة ، ومن كانت الدنيا همه جعل اللّه فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له» «٥».

---

(١) قال ابن تيمية : إنه ليس من كلام النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف» وتبعه الزركشي وابن حجر. انظر : الشذرة (ح ٧١٧) وأسنى المطالب (١١١٠) وتنزيه الشريعة (١/ ١٤٨).

(٢) صدقت يا شيخنا رضي اللّه عنك.

(٣) أخرجه الطبراني فى الصغير (١/ ٢٢٠) والأوسط (ح ٤٤٤٤) وقال الهيثمي فى مجمع الزوائد (٤/ ٧٢) : «رواه الطبراني فى الأوسط والصغير ، وفيه عطية العوفى ، وهو ضعيف وقد وثّق».
[.....]

(٤) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٣٥٨) والترمذي فى (صفة القيامة ٤/ ٥٥٤ ، ح ٢٤٦٦) وابن ماجة فى (الزهد ، باب الهم بالدنيا ، ح ٤١٠٧) والحاكم (٢/ ٤٤٣) «وصحّحه وافقه الذهبي» من حديث أبى هريرة.

(٥) أخرجه الترمذي فى الموضع السابق (ح ٢٤٦٥) من حديث أنس ، وبنحوه أخرجه ابن ماجة فى الموضع السابق (ح ٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت رضي اللّه عنه.

وقال المحاسبى : قلت لشيخنا : من أين وقع الاضطراب فى القلوب ، وقد جاء الضمان من اللّه عز وجل؟ قال :
من وجهين من قلة المعرفة وقلة حسن الظن. ثم قال : قلت : شىء غيره؟ قال : نعم ، إن اللّه عز وجل وعد الأرزاق وضمنها ، وغيّب الأوقات ، ليختبر أهل العقول ، ولولا ذلك لكان كلّ المؤمنين راضين ، صابرين ، متوكلين ، لكن اللّه - عز وجل - أعلمهم أنه رازقهم ، وحلف لهم ، وغيّب عنهم أوقات العطاء ، فمن هنا عرف الخاص من العام ، وتفاوت العباد ، فمنهم ساكن ، ومنهم متحرك ، ومنهم ساخط ، ومنهم جازع ، فعلى قدر ما تفاوتوا فى المعرفة تفاوتوا فى اليقين. هـ. مختصرا. وباللّه التوفيق.
وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(٤٨٤/٥)

سورة الطّور
مكية. وهى سبع وأربعون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله : فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ «١» وهو يوم القيامة ، وهو الذي أقسم عليه بقوله :
[سورة الطور (٥٢) : الآيات ١ الى ٨]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَالطُّورِ (١) وَكِتابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤)
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (٧) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (٨)
يقول الحق جل جلاله : وَالطُّورِ ، هو الجبل الذي كلّم اللّه عليه موسى بمدين ، وَكِتابٍ مَسْطُورٍ وهو القرآن العظيم ، ونكّر لأنه كتاب مخصوص من بين سائر الكتب ، أو : اللوح المحفوظ ، أو : التوراة ، كتبه اللّه لموسى ، وهو يسمع صرير القلم ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ، الرق : الجلد الذي يكتب فيه ، والمراد : الصحيفة ، وتنكيره للتفخيم والإشعار بأنها ليست مما يتعارفه النّاس ، والمنشور : المفتوح لا ختم عليه ، أو : الظاهر للناس ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وهو بيت فى السماء السابعة ، حيال الكعبة ، ويقال له : الضراح «٢» ، وعمرانه بكثرة زواره من الملائكة ، روى : أنه يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ، يطوفون به ، ويخرجون ، ومن دخله لا يعود إليه أبدا «٣» ، وخازنه ملك يقال له : «رزين». وقيل : الكعبة ، وعمارته بالحجاج والعمّار والمجاورين.
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ أي : السماء ، أو : العرش ، وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ أي : المملوء ، وهو البحر المحيط ،

أو الموقد ، من قوله تعالى : وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ «٤» ، والمراد الجنس ، روى «أن اللّه تعالى يجعل البحار يوم القيامة

---

(١) الآية الأخيرة من سورة الذاريات.

(٢) روى ذلك عن ابن عباس ، مرفوعا ، فيما ذكره السيوطي فى الدر (٦/ ١٤٤) وعزاه للطبرانى وابن مردويه ، بسند ضعيف.

وأخرجه ابن جرير ، عن سيدنا علىّ رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه مسلم فى (الإيمان) باب الإسراء برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ح رقم ٥٩ ، ح ١٦٢) عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه فى حديث الإسراء ، وفيه :

«فإذا أنا بإبراهيم عليه السّلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه ...» الحديث.

(٤) الآية ٦ من سورة التكوير.

نارا ، تسجر بها نار جهنم ، كما يسجر التنور بالحطب» وعن ابن عباس : المسجور : المحبوس «١» ، أي : الملجم بالقدرة.

والواو الأولى للقسم ، والتوالي للعطف ، والمقسم عليه : إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ لنازل حتما ، ما لَهُ مِنْ دافِعٍ أي : لا يمنعه مانع ، والجملة : صفة لواقع ، أي : وقع غير مدفوع. و«من» مزيدة للتأكيد ، وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها لأنها أمور عظام ، تنبئ عن عظم قدرة اللّه تعالى ، وكما علمه ، وحكمته الدالة على إحاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد ، وضبطها ، الشاهدة بصدق أخباره ، التي من جملتها : الجملة المقسم عليها.

الإشارة : أقسم اللّه تعالى بجبل العقل ، الذي أرسى به النّفس أن تميل إلى ما فيه هلاكها ، وبما كتب فى قلوب أوليائه من اليقين ، والعلوم ، والأسرار ، قال تعالى : أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ» وذلك حين رقّت وصفت من الأغيار ، ثم أقسم أيضا بذلك القلب ، وهو البيت المعمور لأن القلب بيت الرّب ، «يا داوود طهّر بيتا أسكنه ...»

الحديث «٣» ، وهو معمور بالمعارف والأنوار ، وأقسم بسماء الأرواح المرفوعة عن خوض عالم الأشباح ، وهو سقف بيت القلب ، وبحر الأحدية الذي عمر كلّ شيء ، وأحاط بكلّ شيء ، وأفنى كلّ شيء ، فالوجود كله بحر متصل ، أوله وآخره ، وظاهره وباطنه. إنّ عذاب ربك لأهل العذاب ، وهم أهل الحجاب ، لواقع ، وأعظم العذاب : غم الحجاب وسوء الحساب. ومن دعاء السرى السقطي : اللهم مهما عذبتنى فلا تعذبنى بذل الحجاب. هـ. ما له من دافع لا يدفعه أحد من الخلق ، إلا من رحم اللّه ، أو : من أهلّه اللّه لذلك من أهل التربية النّبوية.

ثم ذكر وقت ما أقسم عليه ، فقال :

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٩ الى ١٦]

يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (٩) وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)

هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)

يقول الحق جل جلاله : واذكر يَوْمَ تَمُورُ أو : لواقع يوم تمور السَّماءُ أي : تدور كالرحى مضطربة مَوْراً عظيما تتكفأ بأهلها كالسفينة ، وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً أي : تزول عن وجه الأرض ، فتصير فى الهواء

---

(١) أخرجه الطبري.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

(٣) ذكره ابن القيسراني فى تذكرة الموضوعات (٥٣٦).

(٤٨٦/٥)

كالهباء. وتأكيد الفعل بمصدريهما للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة ، أي : مورا عجيبا وسيرا بديعا ، لا يدرك كنههما. فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ إذا وقع ذلك ، أو : إذا كان الأمر كما ذكر ، فويل لهم إذا وقع ذلك ، الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ أي : فى اندفاع عجيب فى الأباطيل والأكاذيب يَلْعَبُونَ : يلهون ، فالخوض غلب بإطلاقه فى الاندفاع فى الباطل والكذب ، ومنه قوله : وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ «١». يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا أي : يدفعون إليها دفعا عنيفا شديدا ، بأن تغلّ أيديهم إلى أعناقهم ، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ، فيدفعون إلى النّار على وجوههم ، ويقال لهم : هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ فى الدنيا.

أَفَسِحْرٌ هذا ، توبيخ وتقريع لهم ، حيث كانوا يسمون الوحى النّاطق بذلك العذاب سحرا ، كأنه قيل : كنتم تقولون للقرآن النّاطق بهذا سحرا ، أفهذا أيضا سحر؟. وتقديم الخبر لأنه محط الإنكار ومدار التوبيخ. أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ أم أنتم عمى عن المخبر عنه ، كما كنتم عميا عن الخبر؟ وهذا تقريع وتهكم ، اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا أي : ادخلوها وقاسوا شدائدها فافعلوا ما شئتم من الصبر وعدمه ، سَواءٌ عَلَيْكُمْ الأمران الصبر وعدمه ، ف «سواء» : مبتدأ حذف خبره. وعلل استواء الصبر وعدمه بقوله : إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من الكفر والمعاصي ، فالصبر إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير ، وأما الصبر على العذاب ، الذي هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزيّة له على الجزع. نعوذ باللّه من موارد الهوان.

الإشارة : يوم تمور سماء الأرواح ، أي : تتحرك الأرواح وتهيج بالواردات الإلهية ، شوقا إلى اللقاء ، فإذا حصل اللقاء وقع لها السكون والطمأنينة ، ولذلك قيل : «المحبة أولها جنون ، ووسطها فنون ، وآخرها سكون». وسبب هذا الاضطراب الذي يظهر على المريد فى أول بدايته : أنّ جند الأنوار إذا أراد أن يدخل على جند الأغيار ، ويخرجه من وطنه – الذي هو باطن العبد – وقع بينهما تجارب

وتضارب ، فجند الأنوار يريد أن يقلع جند الأغيار من باطن العبد ، ويسكن هو ، وجند الأغيار يريد المقام فى وطنه ، فلا يزال القتال بينهما ، حتى يغلب واحد منهما ، فإذا غلب جند الأنوار سكن فى الباطن ، وسكن الظاهر ، ولم تقع فكرة العبد إلا فى التوحيد ، أو ما يقرب إلى الحق تعالى ، وإذا غلب جند الأغيار ، ولم يترك جند الأنوار يدخل إلى الباطن ، سكن الظاهر أيضا ، ويبقى باطن العبد محشوا بالخواطر والوساوس الدنيوية كما كان ، ورجع العبد إلى مقام العمومية.

وقوله تعالى : وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً أي : تزول جبال وجود العبد عند إشراق أنوار الحقائق ، فويل يومئذ للمكذّبين ، أي : بعد لأهل الإنكار عن حضرة الأسرار ، حين ظفر الطالب بالمطلوب ، ووصل المحب إلى المحبوب ،

---

(١) الآية ٤٥ من سورة المدثر.

الذين هم فى خوض الدنيا وشهواتها وزخارفها يلعبون ، لا حديث لهم إلا عليها ، ولا فكرة إلا فيها. يوم يدعّون إلى النار القطيعة والبعد ، دعّا ، لا خلاص منها ، ولا رجوع ، فتناديهم عزة الحق تعالى : هذه النّار التي كنتم بها تكذّبون ، وتقولون : لا يقطعنا عن اللّه شيء من الدنيا ، وترمون أهل التربية بالسحر ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون حقائق هذه المعاني؟ أصلوا نار القطيعة ، فاصبروا على غم الحجاب ، أو لا تصبروا ، إذ لم تصبروا على مخالفة النفوس حين ينفعكم الصبر ، سواء عليكم أجزعتم أم صبرتم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون فى الدنيا ، من إيثار الهوى والحظوظ ، على مجاهدة النّفوس.

ثم ذكر أضدادهم ، فقال :

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ١٧ الى ٢٣]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)

وَأَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ (٢٣)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الْمُتَّقِينَ الشرك والمعاصي فِي جَنَّاتٍ عظيمة وَنَعِيمٍ أىّ نعيم ، فالتنكير للتفخيم ، أو : للتنوع ، أي : جنات مخصوصة بهم ، ونعيم مخصوص ، فاكِهِينَ ناعمين متلذذين بما

آتاهُمْ رَبُّهُمْ بما أتحفهم ، وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ ، عطف على «آتاهم» على أن «ما» مصدرية ، أي :

فاكهين بإتيانهم وبوقايتهم ، أو : على «فى جنات النّعيم» أي : استقروا فى جنات ووقاهم ، أو : حال ، إما من المستكن فى الخبر ، أو : من فاعل «آتى» ، أو : مفعوله بإضمار «قد». وإظهار الرّب فى موضع الإضمار مضافا إلى ضمير (هم) لتشريفهم ، ويقال لهم : كُلُوا وَاشْرَبُوا ما شئتم هَنِيئاً أي : أكلا وشربا هنيئا ، أو : طعاما وشرابا هنيئا ، لا تنغيص فيه بخوف انقطاعه أو فواته ، بِما كُنْتُمْ أي : عوض ما كنتم تَعْمَلُونَ فى الدنيا من الخير ، أو جزاءه.

مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ مصطفة ، وهو حال من الضمير فى «كلوا واشربوا» ، وَزَوَّجْناهُمْ أي : قرنّاهم بِحُورٍ جمع حوراء عِينٍ : جمع عيناء ، أي : عظام الأعين حسانها. وفى الكشّاف : وإنما دخلت

(٤٨٨/٥)

الباء فى (بحور) لتضمن معنى زوجناهم قرناهم. هـ. وقال الهروي : (زوّجناهم) أي : قرناهم ، والأزواج : الأشكال والقرناء ، وليس فى الجنة تزويج. هـ. والمنفي : تحمل مؤنة التزويج والمعاقدة ، وإنما يقع التمليك والإقران.

وَالَّذِينَ آمَنُوا : مبتدأ ، وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ : عطف على (آمنوا) ، وبِإِيمانٍ متعلق بالاتباع ، والخبر : أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ «١» أي : تلحق الأولاد بدرجات الآباء إذ شاركوهم فى الإيمان ، وإن قصرت أعمال الذرية عن أعمال الآباء ، وكذلك الآباء تلحق بدرجة الأبناء لتقرّ بذلك أعينهم ، فيلحق بعضهم ببعض ، إذا اجتمعوا فى الإيمان من غير أن ينقص أجر من هو أحسن عملا شيئا ، بزيادته فى درجة الأنقص ، ولا فرق بين من بلغ من الذرية ، أو لم يبلغ ، إذا كان الآباء مؤمنين. انظر الثعلبي.

وفى حديث ابن عباس : «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يسأل الرّجل عن أبويه ، وزوجته ، وولده ، فيقال : إنهم لم يدركوا ما أدركت ، فيقول : لقد عملت لى ولهم أجمعين ، فيؤمر بإلحاقهم به» «٢». قال القشيري : ليكمل عليهم سرورهم بذلك فإنّ الانفراد بالنعمة والقلب مشتغل بالأهل والذرية ينغص العيش ، وكذلك كلّ من يلاحظ قلبا من صديق وقريب وولىّ وخادم ، قال تعالى فى قصة يوسف : وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ «٣». هـ.

قال فى الحاشية : وربما يستأنس بما ذكر فى الجملة بقوله : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ... الآية «٤» ، وما قيل فى سبب نزولها «٥» ، وكذلك حديث : «المرء مع من أحب» «٦» ، وحال الجنة مما لا يخطر على بال ، فيجوز أن يكون الأدنى مع الأعلى بمنازلته معه ،

مع مباينته له بحقيقته ، كما أنّ حيطة الحق تعالى شاملة للكل ، وكلّ يتعرف له على قدره ، فالكلّ معه بمطلق التعرف ، مع تحقق التفاوت ، وأهل الجنة فيها على حكم الأرواح ، وأحكامها لا تكيف ، واعتبر بالفروع مع الأصول ، مع تفاوتها. واللّه أعلم. هـ.

---

(١) أثبت المفسر - رحمه اللّه - قراءة «ذرياتهم» بالجمع ، وهى قراءة نافع وأبى جعفر ، فى الثاني دون الأول ، وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف : «ذريتهم» بالتوحيد فى الأول والثاني ، وقرأ ابن عامر ويعقوب «ذرياتهم» بالجمع فى الأول والثاني.
انظر الإتحاف ٢/ ٤٩٥ - ٤٩٦.
(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٦/ ١٤٨) للطبراني وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي اللّه عنه مرفوعا ..
(٣) من الآية ٩٣ من سورة يوسف.
(٤) الآية ٦٩ من سورة النّساء. [.....]
(٥) راجع سبب نزول الآية فى (١/ ٥٢٥).
(٦) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب علامة الحب فى اللّه ، ح ٦١٦٩ وح ٦١٧٠) عن ابن مسعود ، وأبى موسى - رضي اللّه عنهما ، ومسلم فى (البر والصلة ، باب المرء مع من أحب ، ح ٢٦٤٠) عن ابن مسعود.

(٥/٤٨٩)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٩٠
والحاصل : أنهم يلحقون بهم فى الطبقة ، ويتفاوتون فى نعيم الأرواح والأشباح ، وفى الرّؤية والزيادة «١». واللّه تعالى أعلم.
وَما أَلَتْناهُمْ أي : ما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق مِنْ عَمَلِهِمْ من ثواب عملهم مِنْ شَيْءٍ بأن أعطينا بعض مثوباتهم لأبنائهم ، فتنقص مثوبتهم ، وتنحط درجتهم ، وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضل والإحسان. والألت : البخس. وقرأ المكي : (ألتناهم) بكسر اللام ، من : ألت يألت ، كعلم يعلم «٢» ، و«من» الأولى متعلقة ب «ألتناهم» ، والثانية زائدة لتأكيد النّفى. كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ أي : كل امرئ مرهون عند اللّه تعالى بعمله ، فإن كان صالحا فله ، وإلا أهلكه. والجملة : استئناف بيانى ، كأنه لمّا قال : ما نقصناهم من عملهم شيئا نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم على سبيل التفضل ، قيل : لم كان الإلحاق تفضلا؟ قال : لأن كلّ امرئ بما كسب رهين ، وهؤلاء لم يكن لهم عمل يلحقوا بسببه بهم ، فألحقوا تفضلا.

وَأَمْدَدْناهُمْ أي : وزودناهم فى وقت بعد وقت بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ من فنون النّعماء وألوان اللآلئ ، وإن لم يطلبوا ذلك. يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً أي : يتعاطون ويتعاورون «٣» هم وجلساؤهم من أقربائهم كأسا فيها خمر ، يتناول هذا الكأس من يد هذا ، وهذا من يد هذا ، بكمال رغبة واشتياق ، لا لَغْوٌ فِيها أي : فى شربها ، فلا يتكلمون فى أثناء الشراب إلا بكلام طيب ، فلا يجرى بينهم باطل ، وَلا تَأْثِيمٌ أي : لا يفعلون ما يوجب إثما لصاحبه لو فعله فى دار التكليف ، كما هو شأن المنادمين فى الدنيا ، وإنما يتكلمون بالحكم وأحاسن الكلام ، ويفعلون ما يفعله الكرام.

قال القشيري : لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ لا يجرى بينهم باطل ولا ما فيه لوم ، كما يجرى من الشّرب «٤» اليوم فى الدنيا ، ولا تذهب عقولهم ، فيجرى بينهم ما يخرج عن حدّ الأدب والاستقامة ، وكيف لا يكون مجلسهم بهذه الصفة ، وعلى المعلوم من يسقيهم بمشهد من مجلوسهم ، وعلى رؤية من شربهم ، والقوم عن الدار وعن ما فيها مختطفون باستيلاء ما يستغرقهم ، فالشراب يؤنسهم ، ولكن لا يمر بحاستهم. هـ.

وقرأ المكي والبصري بالفتح «٥» فيها على إعمال «لا» النافية للجنس.

---

(١) على هامش النّسخة الأم ما يلى : هذا تحكم على الآية ، وعلى كرم اللّه تعالى ، فإن الآية مطلقة فى الإلحاق ، فلا يقيدها إلا آية ، أو حديث صحيح. هـ.

(٢) والأول (ألتناهم) بفتح اللام ، من : ألت يألت ، كضرب يضرب.

(٣) تعوروا الشيء وتعاوروه : تداولوه فيما بينهم. انظر اللسان (عور ٤/ ٣١٦٨).

(٤) الشّرب : جمع شارب ، كراكب ، وركب. وهم القوم يشربون ويجتمعون للشراب ، انظر اللسان (شرب ، ٤/ ٢٢٢٢).

(٥) فى «لا لغو فيها ولا تأثيم» وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالفتح بلا تنوين ، وقرأ الباقون بالرفع والتنوين. انظر الإتحاف ١/ ٤٩٦.

الإشارة : إنّ المتقين ما سوى اللّه فى جنات المعارف عاجلا ، وجنات الزخارف والمعارف آجلا ، ونعيم المشاهدات والمكاشفات والمناجاة ، فاكهين ، معجبين ، متلذذين بما آتاهم ربهم من أصناف ألطافه ، وتقريبه ، ووقاهم ربّهم عذاب الجحيم ، أي : نار شهوة نفوسهم ، فبردت عنهم ، وسلموا منها ، كلوا من طعام المشاهدات ، واشربوا من أمداد الزيادات والترقيات ، هنيئا بما كنتم تعملون من

المجاهدات والمكابدات ، متكئين على سرر المقامات ، والدرجات ، مصفوفة فى منازل العبودية ، وزوجناهم بحور عين من أبكار الحقائق ، وثيبات العلوم ، والذين آمنوا بهذه الطريق وسلكوها ، واتبعتهم ذريتهم ومن تعلق بهم من طلاب الحق ، ألحقنا بهم ذريتهم ومن تعلق بهم ، وإن لم يبلغوا صفاء مشربهم من الوصال والاتصال ، فيكونون معهم فى الدرجة ، مع تفاوتهم فى نعيم المشاهدة ، وما ألتناهم من عملهم من شيء ، بل ألحقناهم بهم فضلا وكرما ، مع توفر ثواب عمل الملحق بهم. كل امرئ بما كسب رهين ، لا يزيد نعيم روحه على سعيه فى الدنيا ومجاهدته ، وإن تساوى فى الدرجة مع غيره. وأمددناهم بفاكهة من حلاوة المعاملة ، ولحم مما يشتهون من لذائذ المشاهدة ، يتنازعون فيها فى جنة المعارف ، كأس خمرة المحبة والفناء ، فيفنون عن وجودهم فى شهود محبوبهم. يتناولون ذلك من أشياخهم واحدا بعد واحد ، وقد يجتمعون فى كأس واحدة ، لا لغو فيها ، أي : لا حديث للنفس فى حال شربها ، بل الهم كله مجموع فيها ، كما قال القائل :

وإذا جلست إلى المدام وشربه فاجعل حديثك كلّه فى الكأس

فالخمرة التي يشوبها شيء من حديث النّفس ليست بصافية من الأكدار. ولا تأثيم بنزوع الرّوح إلى طبع النفس ، إذا نزلت إلى سماء الحقوق ، أو أرض الحظوظ ، بل تكون فى ذلك باللّه ، ومن اللّه ، وإلى اللّه ، تنزل بالإذن والتمكين ، والرّسوخ فى اليقين ، جعلنا اللّه من ذلك القبيل بمنّه وكرمه.

وقال الورتجبي : يَتَنازَعُونَ ... الآية ، وصفهم اللّه فى شربهم كاسات شراب الوصلة بالمسارعة والشوق إلى مزيد القربة ، ثم وصف شرابهم أنه يورثهم التمكين والاستقامة فى السكر ، لا يزول حالهم إلى الشطح والعربدة ، وما يتكلم به سكارى المعرفة فى الدنيا عند الخلق ، ولا يشابه حال أهل الحضرة حال أهل الدنيا من جميع المعاني. هـ.

ثم قال تعالى :

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٢٤ الى ٢٨]

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٢٥) قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)

يقول الحق جل جلاله : وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ أي : بالكأس أو : فى شأن الخدمة كلها غِلْمانٌ لَهُمْ أي : مماليك مخصصون بهم ، قيل : أولاد الكفار الذين ماتوا صغارا ، وقيل : توجدهم القدرة من الغيب ،

وفى الحديث : «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه ، فيجيبه ألف ، كلهم يناديه : لبيك لبيك» «١». قلت : هذا فى مقام أهل اليمين ، ولما المقربون فإذا اهتموا بشىء حضر ، بغلام أو بغير غلام ، من غير احتياج إلى نداء. وقال ابن عمر رضي اللّه عنه : (ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام ، كل غلام على عمل ما عليه صاحبه) «٢».

كَأَنَّهُمْ من بياضهم وصفائهم لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ مصون فى الصدف لأنه حينئذ يكون أصفى وأبهى ، أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمن الغالي القيمة. قيل لقتادة : هذا الخادم فكيف المخدوم؟ ، فقال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم :

«والذي نفسى بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر النّجوم» «٣».

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ يسأل بعضهم بعضا عن أحواله وأعماله ، وما استحق به نيل ما عند اللّه ، ف كل بعض سائل ومسئول. قالُوا أي : المسئولون فى جوابهم ، وهم كلّ واحد منهم فى الحقيقة : إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا أي : فى الدنيا مُشْفِقِينَ أرقّاء القلوب من خشية اللّه ، أو : خائفين من نزع الإيمان وفوت الأمان ، أو : من ردّ الحسنات والأخذ بالسيئات ، أو : واجلين من العاقبة ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا بالمغفرة والرّحمة وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ وهى الرّيح الحارة ، التي تدخل المسامّ ، فسمّيت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة. إِنَّا كُنَّا قَبْلُ أي : من قبل لقاء اللّه والمصير إليه - يعنون : فى الدنيا ، نَدْعُوهُ نعبده ولا نعبد غيره ، أو نسأله الوقاية ، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ المحسن الرَّحِيمُ الكثير الرّحمة ، الذي إذا عبد أثاب ، وإذا سئل أجاب ، وقرأ نافع والكسائي بالفتح «٤» ، أي : لأنه ، أو بأنه.

الإشارة : ويطوف على قلوبهم علوم وهبية ، وحكم غيبية ، تزهو على اليواقيت المكنونة. وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون : كيف سلكوا طريق الوصول ، وكيف كانت مجاهدة كلّ واحد ومسيره إلى اللّه ، إما تحدثا بالنعم ، أو :

للاقتداء بهم ، وفى الحكم : «عبارتهم إما لفيضان وجد ، أو : لهداية مريد» «٥». إنّا كنا قبل الوصول فى أهلنا ، أي : فى عالم الإنسانية مشفقين من الانقطاع والرّجوع ، خائفين من سموم صفات البهيمية والشيطانية ، والشهوات الدنيوية ، فإنها تهب بسموم قهر الحق ، قهر بها جلّ عباده فانقطعوا عنه ، فمنّ اللّه علينا ، ووصلنا بما منه إلينا ، لا بما منا إليه ،

---

(١) عزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف (ص ١٦٠) للثعلبى ، عن وكيع عن هشام عن أبيه ، عن السيدة عائشة - رضي اللّه عنها.

(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ٣٩٠).

(٣) أخرجه عبد الرّزّاق فى التفسير (٢/ ٢٤٨) والطبري (٢٧/ ٢٩) عن قتادة ، مرسلا.

(٤) فى «ندعوه أنه» على التعليل ، وقرأ الباقون «إنه» بالكسر على الاستئناف. انظر الإتحاف (٢/

(٤٩٧.

(٥) حكمة رقم ١٨٦ انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص/ ٣٦).

(٤٩٢/٥)

ووقانا عذاب السموم ، وهو الحرص والجزع ، والانقطاع عن الحبيب ، ولو لا فضله ما تخلصنا منه ، إنّا كنا من قبل الوصول ندعوه أن يأخذ بأيدينا ، ويجذبنا إلى حضرته ، ويرحمنا بالوصول ، ويبرّ بنا ، إنه هو البر بمزيده ، الرحيم بمن ينيب إليه.

ثم أمر نبيّه باستمراره على ما أمره به من التذكير فيما سلف ، فقال :

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٢٩ الى ٤٣]

فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣)

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (٣٨)

أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)

يقول الحق جل جلاله : فَذَكِّرْ أي : فاثبت على ما أنت عليه من تذكير النّاس وموعظتهم ، فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ أي : بحمده وإنعامه عليك بالنبوة ورجاحة العقل بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ كما زعموا ، قاتلهم اللّه أنّى يؤفكون ، أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ أي : حوادث الدهر ، أي : ننتظر به نوائب الزمان حتى يهلك كما هلك الشعراء من قبله ، زهير والنّابغة. و«أم» فى هذه الآي منقطعة بمعنى «بل».

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أتربّص هلاككم ، كما تتربصون هلاكى. وفيه عدة كريمة بإهلاكهم.

وقد جرب أنّ من تربص موت أحد لينال رئاسته ، أو ما عنده ، لا يموت إلا قبله.

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ أي : عقولهم بِهذا التناقض فى المقالات ، فإنّ الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر فى

الأمور ، والمجنون مغطى عقله ، مختل فكره ، والشاعر يقول ما لا يفعل ، فكيف يجتمع أوصاف هؤلاء فى

(٤٩٣/٥)

واحد؟ وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنّهى ، فكذبهم ما صدر منهم من هذه المقالات المضطربة ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ يجاوزون الحدود فى المكابرة والعناد ، ولا يحومون حول الرّشد والسداد. وإسناد الأمر إلى الأحلام مجاز.

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ اختلقته من تلقاء نفسه ، بَلْ لا يُؤْمِنُونَ ، ردّ عليهم ، أي : ليس الأمر كما زعموا ، بل لكفرهم وعنادهم يقذفون بهذه الأباطيل ، التي لا يخفى بطلانها على أحد ، فكيف يقدر البشر أن يأتى بما عجز عنه كافة الأمم من العرب والعجم ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ أي : مثل القرآن فى البلاغة والإعجاز إِنْ كانُوا صادِقِينَ فى أن محمدا تقوّله من تلقاء نفسه لأنه بلغاتهم ، وهم فصحاء ، مشاركون له صلّى اللّه عليه وسلم فى العربية والبلاغة ، مع ما لهم من طول الممارسة للخطب والأشعار ، وكثرة المقاولة للنظم والنّثر ، والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام ، ولا ريب فى أنّ القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به مع دواعى الأمر بذلك من تعجيزهم وإفحامهم وطلب معارضتهم.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أي : أم أحدثوا وقدّروا هذا التقدير البديع ، الذي عليه فطرتهم ، من غير محدث ومقدّر. أو : أم خلقوا من غير شىء من الحكمة ، بأن خلقوا عبثا ، فلا يتوجه عليهم حساب ولا عقاب؟ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ الموجدون لأنفسهم؟ فيلزم عليه الدور ، وهو تقدم الشيء على نفسه وتأخره عنها ، أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فلا يعبدون خالقهما بَلْ لا يُوقِنُونَ لا يتدبرون فى الآيات ، فيعلمون خالقهم ، وخالق السموات والأرض ، فيفردونه بالعبادة.

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ من النّبوة والرّزق وغيرهما ، فيخصّوا بما شاءوا من شاءوا ، أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ أي : الأرباب الغالبون ، المسلّطون على الأمور يدبرونها كيف شاءوا ، حتى يدبروا أمر الرّبوبية ، ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم. وقرأ المكي والشامي بالسين على الأصل.

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ منصوب يرتقون به إلى السماء ، يَسْتَمِعُونَ فِيهِ كلام الملائكة ، وما يوحى إليهم من علم الغيب ، حتى يعلموا أن ما هم عليه حق ، وما عليه غيرهم باطل ، أو ما هو كائن من الأمور التي يتفوّهون بها رجما بالغيب ، ويعلّقون بها أطماعهم الفارغة من هلاكه صلّى اللّه عليه وسلم قبلهم ، وانفرادهم بالرئاسة. و«فى» : سببية ، أي :

يستمعون بسبب حصولهم فيه ، أو : ضمّن «يستمعون» يعرجون. وقال الزجاج : (يستمعون فيه) أي : عليه ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ بحجة واضحة ، تصدق استماع مستمعهم.

(٤٩٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٩٥
ثم سفّه أحلامهم بقوله : أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ، حيث اختاروا للّه ما يكرهون ، وهم حكماء فى زعمهم ، أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً على التبليغ والإنذار فَهُمْ لأجل ذلك مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أي : من التزام غرامة فادحة محمّلون الثقل ، فلذلك لا يتبعونك. والمغرم : أن يلزم الإنسان ما ليس عليه. أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ أي : اللوح المحفوظ ، المكتوب فيه الغيوب ، فَهُمْ يَكْتُبُونَ ما فيه ، حتى يتكلموا فى ذلك بنفي أو إثبات.

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً هو كيدهم برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى دار النّدوة ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا وهم المذكورون ، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر ، أي : ف هُمُ الْمَكِيدُونَ الذين يحيق بهم كيدهم ، ويعود عليهم وباله ، لا من أرادوا أن يكيدوه وهو ما أصابهم يوم بدر وغيره. أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يمنعهم من عذابه ، سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ أي : تنزيها له عن إشراكهم ، أو : عن شركة ما يشركونه به. وحاصل ما ذكر الحق وتعالى من الإضرابات : أحد عشر ، ثمانية طعنوا بها فى جانب النّبوة ، وثلاثة فى جانب الرّبوبية ، وهو قوله : أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ، أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ ذكرها الحق تعالى تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أي : كما طعنوا فى جنابك طعنوا فى جانبى ، فاصبر حتى نأخذهم.

الإشارة : فذكّر أيها الخليفة للرسول ، فما أنت بحمد اللّه بكاهن ولا مجنون ، وإن رموك بشيء من ذلك. قال القشيري : قد علموا أنه صلّى اللّه عليه وسلم برىء من الكهانة والجنون ، ولكنهم قالوه على جهة الاشتفاء ، كالسفيه إذا بسط لسانه فيمن يشنأه «١» بما يعلم أنه برىء مما يقوله. هـ. وكلّ ما قيل فى جانب النّبوة يقال مثله فى جانب الولاية ، سنّة ماضية. قال القشيري : طبع الإنسان متنفرة من حقيقة الدين ، مجبولة على حب الدنيا والحظوظ ، لا يمكن الخروج منها إلا بجهد جهيد ، على قانون الشريعة ، ومتابعة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم وخلفائه ، وهم العلماء الرّبانيون ، الراسخون فى العلم باللّه ، من المشايخ المسلّكين فى كلّ زمان ، والخلق مع دعوى إسلامهم ينكرون على سيرهم فى الأغلب ، ويستبعدون ترك الدنيا والعزلة ، والانقطاع عن الخلق ، والتبتل إلى اللّه ، وطلب الأمن. كتب اللّه فى قلوبهم الإيمان ، وأيّدهم بروح منه ، وهو الصدق فى الطلب ، وحسن الإرادة المنتجة من بذر يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء. هـ مختصرا.

وقوله تعالى : قُلْ تَرَبَّصُوا ... الآية ، قال القشيري : ولا ينبغى لأحد أن يتمنى نفاق سوقه بموت أحد ، لتنتهى النوبة إليه ، قلّ ما تكون هذه صفتة إلا سبقته منيته ، ولا يدرك ما تمناه. هـ. وقال فى مختصرة : الآية تشير إلى التصبر فى الأمور ، ودعوة الخلق إلى اللّه ، والتوكّل على اللّه فيما يجرى على يد عباده ، والتسليم لأحكامه في

---

(١) أي : يبغضه.

المقبولين والمردودين. هـ. وقوله : أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا ... إلى قوله : عَمَّا يُشْرِكُونَ هذه صفة أهل الانتقاد على أهل الخصوصية فى كلّ زمان ، وهى تدلّ على غاية حمقهم وسفههم ، نجانا اللّه من جميع ذلك.

ثم هددهم بعد تبيين عنادهم ، فقال :

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٤٤ الى ٤٧]

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٧)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً قطعة مِنَ السَّماءِ ساقِطاً عليهم لتعذيبهم ، يَقُولُوا من فرط طغيانهم وعنادهم : هذا سَحابٌ مَرْكُومٌ أي : تراكم بعضها على بعض لمطرنا ، ولم يصدقوا أنه ساقط عليهم لعذابهم ، يعنى : أنهم بلغوا من الطغيان بحيث لو أسقطناه عليهم حسبما قالوا : أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً «١» لعاندوا وقالوا سحاب مركوم. فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ «٢» ، وهو اليوم الذي صعقوا فيه بالقتل يوم بدر ، لا عند النّفخة الأولى ، كما قيل إذ لا يصعق بها إلا من كان حيّا حينئذ «٣». وقرأ عاصم والشامي بضم الياء ، يقال : صعقه ، فصعق ، أو : من أصعقه.

يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً من الإغناء ، بدل من «يومهم» ولا يخفى أن التعرض لبيان عدم نفع كيدهم يستدعى استعمالهم له فى الانتفاع به ، وليس ذلك إلا ما دبّروه فى أمره صلّى اللّه عليه وسلم من الكيد يوم بدر ، من

---

(١) من الآية ٩٢ من سورة الإسراء. [.....]

(٢) قرأ عاصم وابن عامر «يصعقون» بضم الياء ، مبنيا للمفعول. وقرأ الباقون بفتحها ، مبنيا للفاعل. انظر الإتحاف (٢/ ٤٩٨).

(٣) على هامش النّسخة الأم مايلي :

هذا باطل بداهة ، بل المراد به عند النّفخة ، كما فى آية المعارج : ... حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ، يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ ... الآية : ٤٢ - ٤٣. وقوله : لا يصعق بها إلا من كان حيا حينئذ ، أبطل من الذي قبله ، فإن اللّه تعالى يقول : فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ... ومن فى الأرض عام ، بدليل الحديث المخرّج فى الصحيح : «يصعق النّاس فأكون أول من أفاق ، فإذا موسى باطش بالعرش ، فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى اللّه ، فصرح صلّى اللّه عليه وسلم النبي بأن جميع الخلق يصعقون ، فمن أين جاء هذا الوهم فى تخصيص ذلك بالأحياء ، بل قوله تعالى : فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ نص فى ذلك أيضا لأن الضمير عائد على من فى السموات ومن فى الأرض. وأيضا : فإن يوم بدر لم يكن فيه صعق ، وإنما كان فيه قتل ، وليس هو بصعق. ثم إن اللّه يخاطب كفار قريش كلهم ، ولم يمت منهم يوم بدر إلا سبعون ... هـ.

قلت : حديث الصعق الذي ذكره المحشى ، أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب نفخ الصعق ح ٦٥١٧) ومسلم فى (الفضائل ، باب من فضائل موسى ، رقم ٢٣٧٣ ، ح ١٦٠) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٥/٤٩٦)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٩٧

مناشبتهم القتال ، وقصد قتله خفية ، وليس يجرى فى نفخة الصعق شىء من الكيد والحيل ، فلا يليق حمله عليه «١».

وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ من جهة الغير فى دفع العذاب عنهم.

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أي : لهم ، ووضع الموصول موضع الضمير تسجيلا عليهم بالظلم ، أي : وإنّ لهؤلاء الظلمة عَذاباً آخر دُونَ ذلِكَ دون ما لا قوة من القتل ، أي : قبله ، وهو القحط الذي أصابهم ، حتى أكلوا الجلود والميتة. أو : وإنّ لهم عذابا دون ذلك ، أي : وراءه ، وهو عذاب القبر وما بعده من فنون عذاب الآخرة ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن الأمر كما ذكر ، وفيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك ، وإنما يصر على ذلك عنادا أو : لا يعلمون شيئا أصلا إذ هم جاهلية جهلاء.

الإشارة : أهل الحسد والعناد لا ينفعهم ما يرونه من المعجزات والكرامات ، أو الحسد يغطى نور

البصيرة ، فذرهم فى غفلتهم وحيرتهم ، وكثافة حجابهم ، حتى يصعقوا بالموت فيعرفون الحق ، حين لا تنفع المعرفة فيقع النّدم والتحسّر. وإنّ لهم عذابا دون ذلك ، وهو عيشهم فى الدنيا عيش ضنك فى هم وغم وجزع وهلع ، ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ذلك لأنهم لا يرون إلا من هو مثلهم. ومن توسعت دائرة معرفته ، فعاش فى روح وريحان ، فهو غائب عنهم ، لا يعرفون مقامه ، ولا منزلته.

ثم أمر بالصبر ، الذي هو عنوان الظفر بكلّ مطلوب ، فقال :

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبارَ النُّجُومِ (٤٩)

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم ولمن كان على قدمه : وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ بإمهالهم إلى اليوم الموعود مع مقاساتك آذاهم ، أو : واصبر لما حكم به عليك من شدائد الوقت ، وإذاية الخلق ، فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا أي :

حفظنا وحمايتنا ، بحيث نراقبك ونكلؤك. والمراد بالحكم : القضاء السابق ، أي : لما قضى به عليك ، وفى إضافة الحكم إلى عنوان الرّبوبية تهييج على الصبر ، وحمل عليه ، أي : إنما هو حكم سيدك الذي يربيك ويقوم بأمورك وحفظك ، فما فيه إلا نفعك ورفعة قدرك. وجمع العين والضمير للإيذان بغاية الاعتناء بالحفظ والرّعاية. وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أي : نزّهه ملتبسا بحمده على نعمائه الفائتة للحصر ، حِينَ تَقُومُ أي : من أىّ مكان قمت ، أو : من

---

(١) بل يليق حمله على نفخة الصعق ، على أن يكون المراد بكيدهم : ما كادوا به فى الدنيا.

منامك. وقال سعيد بن جبير : حين تقوم من مجلسك تقول : سبحانك اللهم وبحمدك. وقال الضحاك والرّبيع : إذا قمت إلى الصلاة فقل : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك ، وتعالى جدّك ، ولا إله غيرك «١». هـ. وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ أي : فى بعض الليل وأفراده لأن العبادة فيه أشق على النّفس ، وأبعد من الرّياء ، كما يلوح به تقديمه على الفعل ، والمراد إما الصلاة فى الليل ، أو التسبيح باللسان سبحان اللّه وبحمده ، وَإِدْبارَ النُّجُومِ أي : وقت إدبارها ، أي : غيبتها بضوء الصبح ، والمراد : آخر الليل ، وقيل : التسبيح من الليل : صلاة العشاء ، وإدبار النّجوم :

صلاة الفجر. وقرأ زيد عن يعقوب بفتح الهمز «٢» ، أي : أعقابها إذا غربت.

الإشارة : فى هذه تسلية لأهل البلاء والجلال ، فإنّ من علم أن ما أصابه إنما هو حكم ربه ، الذي يقوم به ويحفظه ، وهو بمرئ منه ومسمع ، لا يهوله ما نزل ، بل يزيده غبطة وسرورا لعلمه بأنه ما أنزله به إلا لرفعة قدره ، وتشحير «٣» ذهب نفسه ، وقطع البقايا منه ، فهو فى الحقيقة نعمة لا نقمة ، وفى الحكم : «من ظن انفكاك لطف اللّه عن قدره فذلك لقصور نظره». «٤»

قال القشيري : أي : اصبر لما حكم به فى الأزل ، فإنه لا يتغير حكمنا الأول إن صبرت وإن لم تصبر ، لكن إن صبرت على قضائى جزيت ثواب الصابرين بغير حساب. وفيه إشارة آخري ، أي : اصبر فإنك بأعيننا نعينك على الصبر لأحكامنا الأزلية ، كما قال تعالى : وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ «٥». هـ. وقيل المعنى : فإنك من جملة أعيننا ، وأعيان الحق الكمل من الأنبياء ، والرّسل ، والملائكة ، وأكابر أوليائه ، فإنهم أعيان تجلياته ، ولذلك الإشارة بقول عمر رضي اللّه عنه فى شأن علىّ - كرم اللّه وجهه ، حين ضرب شخصا فشكاه : «أصابته عين من عيون اللّه» ، وذلك لما تمكنوا من سر الحقيقة ، صاروا عين العين. ومن ذلك قولهم : ليس الشأن أن تعرف الاسم ، إنما الشأن أن تكون عين الاسم ، أي : عين المسمّى ، وهو سر التصرف بالهوية عند التمكين فيها ، وتمكن غيبة الشهود فى الملك المعبود ، وقوله تعالى : وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ... إلخ ، فيه إشارة إلى مداومة الذكر ، والاستغراق فيه ، ودوام التّنزيه للّه تعالى عن رؤية شىء معه. وباللّه التوفيق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٧/ ٣٨) وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٦/ ١٥١) لسعيد بن منصور ، وابن أبى شيبة ، وابن المنذر ، عن الضحاك.

(٢) وقرأ بها أيضا الأعمش ، كما فى مختصر ابن خالويه (ص ١٤٧) وسالم بن أبى الجعد ، ومحمد بن السميفع ، كما فى القرطبي (٧/ ٦٤٣٨).

(٣) أي : تنقية وتصفية.

(٤) حكمة رقم (١٠٦) انظر تبويب الحكم (ص/ ٢١).

(٥) من الآية ١٢٧ من سورة النّحل.

سورة النّجم

مكية. وهى اثنتان وستون آية. وهى أول سورة أعلن بها النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم. ومناسبتها لما قبلها

: قوله : أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ «١» فأقسم هنا أنه ما ينطق عن الهوى ، فقال :

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ١ الى ١٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذا هَوى (١) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى (٢) وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى (٤)

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى (٧) ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (٨) فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى (٩)

فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى (١٠) ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (١١) أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى (١٤)

عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى (١٦) ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى (١٧) لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى (١٨)

يقول الحق جل جلاله : وَالنَّجْمِ أي : الثريا ، أو : جنس النّجم إذا هَوى إذا غرب ، أو : انتثر يوم القيامة ، أو طلع ، يقال : هوى هويا ، بوزن «فيول» إذا غرب ، وهوى هويا ، بوزن دخول : إذا طلع «٢». والعامل فى (إذا) فعل القسم ، أي : أقسم بالنجم وقت غروبه أو طلوعه. وجواب القسم : ما ضَلَّ عن قصد الحق صاحِبُكُمْ أي : محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، والخطاب لقريش. وَما غَوى فى اتباع الباطل ، أو : ما اعتقد باطلا قط ، أي : هو فى غاية الهدى والرّشد ، وليس مما تتوهموه من الضلالة والغواية فى شيء. فالضلال نقيض الهدى ، والغي نقيض الرّشد ، ومرجعهما لشيء واحد ، وهو عدم اتباع طريق الحق.

---

(١) الآية سورة الطور ٣٣.

(٢) راجع لسان العرب (مادة هوا ٦/ ٤٧٢٧).

وقال الفخر : أكثر المفسرين لم يفرقوا بين الغي والضلال ، والفرق بينهما : أنّ الغي فى مقابلة الرّشد ، والضلال أعم منه ، والاسم من الغي : الغواية - بالفتح - والحاصل : أنّ الغي أقبح من الضلال ، إذ لا يرجى فلاحه. وإيراده صلّى اللّه عليه وسلم بعنوان صاحبهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم خبرا ببراءته - عليه الصلاة والسّلام - مما نفى عنه بالكلية ، وباتصافه - عليه

الصلاة والسّلام - بغاية الهدى والرّشد فإنّ كون صحبتهم له صلّى اللّه عليه وسلم ، ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتما. وتقييد القسم بوقت الهوى لأن النّجم لا يهتدى به الساري إلا عند هبوطه أو صعوده ، وأما ما دام فى وسط السماء فلا يهتدى به ، ولا يعرف المشرق من المغرب ، ولا الشمال من الجنوب.

ثم قال : وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى أي : وما يصدر نطقه بالقرآن أو غيره عن هواه ورأيه أصلا ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ من اللّه تعالى يُوحى إليه ، وهى صفة مؤكدة لوحى ، لرفع المجاز ، مفيدة لاستمرار التجدد للوحى ، واحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء - عليهم السّلام - ويجاب بأن اللّه تعالى إذا سوّغ لهم الاجتهاد وقررهم عليه كان كالوحى ، لا نطقا عن الهوى.

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى أي : ملك شديد قواه ، وهو جبريل عليه السّلام ، فإنه الواسطة فى إيراد الوحى إلى الأنبياء ، ومن قوته أنه خلع قرى قوم لوط من الماء الأسود الذي تحت الثرى ، وحملها على جناحه ، ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح صيحة بثمود ، فأصبحوا جاثمين ، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده أسرع من لحظة.

ذُو مِرَّةٍ أي : ذو خصابة «١» فى عقله ، ورزانة ومتانة فى دينه. وأصل المرة : الشدّة ، من مراير الحبل ، وهو فتله فتلا شديدا ، أو : ذو حسن فى منظره ، فَاسْتَوى : عطف على «علّمه» بطريق التفسير ، فإنه إلى قوله :

(ما أوحى) بيان لكيفية التعليم ، أو : فاستقام على صورته التي خلقه اللّه عليها ، دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى ، وذلك أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أحب أن يراه فى الصورة التي خلقه اللّه عليها ، وكان صلّى اللّه عليه وسلم بحراء ، فطلع له جبريل من المشرق ، وسدّ الأرض من المغرب ، وملأ الأفق ، فخرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فنزل فى صورة الآدمي ، فضمه إلى نفسه ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه. قيل : ما رآه أحد من الأنبياء فى صورته الأصلية إلا النّبى صلى اللّه عليه وسلم فإنه رآه فيها مرتين مرة فى الأرض ، ومرة فى السماء ، وقيل : استوى بقوته على ما جعل له [من الأمر] «٢».

---

(١) فى تفسير أبى السعود [خصافة].

(٢) زيادة من تفسير أبى السعود.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠١
وَهُوَ أي : جبريل بِالْأُفُقِ الْأَعْلى أفق الشمس ، أي : مطلعها ، ثُمَّ دَنا جبريل من النّبى صلّى اللّه عليه وسلم فَتَدَلَّى أي : زاد فى القرب ، أو : استرسل من الأفق مع تعلق به. يقال : تدلت الشجرة ، ودلّى رجله من السرير ، وأدلى دلوه ، والدوالي : الثمر المعلّق. فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أي : مقدار قوسين عربيين. والقاب : المقدار. قال قتادة وغيره : معناه : من طرف العود إلى طرفه الآخر. وقال مجاهد والحسن : من الوتر إلى العود فى وسط القوس ، أي :
فكان بين جبريل والنّبى صلّى اللّه عليه وسلم مقدار قوسين ، أَوْ أَدْنى فى تقديركم ، كقوله : أَوْ يَزِيدُونَ «١» وهذا لأنهم خوطبوا على لغتهم وفهمهم ، وهم يقولون : هذا مقدار قوسين أو أدنى.
فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى
أي : فأوحى اللّه تعالى إلى عبده بواسطة تجلى جبريل (ما أوحى) من الأمور العظيمة التي لا تفى بها العبارة ، وقيل : أوحى إليه : «أنّ الجنة محرّمة على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك» ويمكن حمل الآية على قصة المعراج ، أي : (علّمه شديد القوى) وهو اللّه تعالى ، (ذو مرة) أي : شدة ومتانة ، ومنه : اسمه «المتين» ، (فاستوى) بنوره أي : تجلى بنور ذاته من ناحية الأفق ، أي : العلو (فتدلى) ذلك النّور (فكان قاب قوسين أو أدنى) وفى البخاري : «فدنا ربّ العزة دنو يليق بجلاله ومجده» ويرجع لتجليه لنبيه ، وتنزله له ، وتعرّفه له ، وفى حديث الإسراء عنه - عليه الصلاة والسّلام : «سمع النّداء من العلي الأعلى : أدن يا خير البرية ، أدن يا محمد ، فأدنانى ربى حتى كنت كما قال تعالى : ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى ». قال القشيري : ويقال : كان بينه وبين ربه قدر قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى.
ما كَذَبَ الْفُؤادُ أي : فؤاد محمد عليه السّلام ما رَأى أي : ما رآه ببصره من صورة جبريل على تلك الكيفية ، أو :
من نور الحق تعالى الذي تجلى له ، أي : ما قال فؤاده لمّا رآه : لم أعرفك ، ولو قال ذلك لكان كاذبا لأنه عرفه بقلبه ، كما عرفه ببصره ، وقيل : على إسقاط الخافض ، أي : ما كذب القلب فيما رآه البصر ، بل ما رآه ببصره حققه ، وفى الحديث : سئل صلّى اللّه عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال : «رأيت ربى بفؤادى مرتين» «٢» ، حديث آخر : «جعل نور بصرى فى فؤادى ، فنظرت إليه بفؤادى» «٣» ، يعنى أنه انعكس نور البصر إلى نور البصيرة فرأى ببصره ما رأته البصيرة ، وجاء

---

(١) من الآية ١٤٧ من سورة الصافات.

(٢) أخرجه الطبري ، وعزاه السيوطي فى الدر (٦/ ١٦٠) لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن بعض أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه وسلم. وأخرج مسلم فى (الإيمان ، باب معنى قول اللّه عز وجل : وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى .. رقم ٢٨٤ ح ١٧٦) عن ابن عباس ،

قال : «رآه بفؤاده مرتين». [.....]
(٣) أخرجه بطوله ، الطبري ، عن ابن عباس ، في رواية لحديث «اختصام الملأ الأعلى في الدرجات والكفارات». قال ابن كثير في التفسير (٤/ ٢٥١) : «إسناده ضعيف».

(٥/٥٠١)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠٢
أيضا : أنه لما انتهى إلى العرش صار كله بصرا ، وبهذا يرتفع الخلاف ، وأنه رآه ببصر رأسه وقوله صلّى اللّه عليه وسلم ، حين سأله أبو ذر : هل رأيت ربك؟ فقال : «نورانى أراه» «١» وفي رواية : «نور أنّى أراه»؟ «٢» بالاستفهام ، وفي طريق آخر :
«رأيت نورا» «٣» وحاصلها : أنه رأى ذات الحق متجلية بنور من نور جبروته إذ لا يمكن أن ترى الذات إلا بواسطة التجليات ، كما هو مقرر عند محققى الصوفية ، كما قال الشاعر :
وليست تنال الذات من غير مظهر ولو هتك الإنسان من شدة الحرص
وقال كعب لابن عباس : إنّ اللّه قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى ، فكلّم موسى مرتين ، ورآه محمد مرتين «٤». وقيل لابن عباس : ألم يقل اللّه : لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ «٥» ، قال : ذلك إذا تجلى بنوره «٦». الذي هو نوره الأصلى ، يعنى أن اللّه تعالى يتجلىلخلقه على ما يطيقون ، ولو تجلى بنوره الأصلى لتلاشى الخلق ، كما قال في الحديث : «حجابه النّور ، لو كشفه لأحرقت تجليات وجهه ما أدركه من بصره» «٧».
أَفَتُمارُونَهُ أي : أفتجادلونه ، من : المراء ، وهو المجادلة ، واشتقاقه من : مرى النّاقة ، وهو استخراج لبنها ، كأنّ كلّ واحد من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه ، أي : يستخرجه. وقرىء في التواتر : «أفتمرونه» «٨» أي :
أفتغلبونه. ولما فيه من معنى الغلبة ، قال تعالى : عَلى ما يَرى فعدّى بعلى ، كما تقول : غلبته على كذا ، وقيل :
أفتمرونه : أفتجحدونه ، يقال : مريته حقّه : جحدته ، وتعديته ب «على» على مذهب التضمين ، والمعنى : أفتخاصمونه على ما يرى معاينة ، وحققه باطنا.

---

(١) ذكر هذه الرّواية بنصها السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٦٠) وعزاها لمسلم والترمذي وابن مردويه ، عن أبي ذر ، ولم أقف عليها في مسلم والترمذي. وقال الإمام النّووى في شرح صحيح مسلم (٣/ ١٢) : قال الإمام المازري : وروى : «نورانى أراه» بفتح الرّاء وكسر النّون وتشديد الياء ، ويحتمل

أن يكون معناه راجعا إلى ما قلنا ، أي : خالق النّور المانع من رؤيته ، فيكون من صفات الأفعال.

وقال القاضي عياض - رحمه اللّه : هذه الرّواية لم تقع إلينا ، ولا رأيتها فى شيء من الأصول. هـ.

(٢) أخرجه مسلم فى (الإيمان ، باب فى قوله صلّى اللّه عليه وسلم : نور أنى أراه ، رقم ٢٩١ ، ح ١٧٨).

(٣) أخرجه مسلم فى الموضع السابق (رقم ٢٩٢).

(٤) أخرجه بطوله الترمذي فى (التفسير ، باب ومن سورة النّجم ، ح ٣٧٢٨).

(٥) من الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

(٦) أخرجه البيهقي فى الأسماء والصفات (ص ٤١٠) وضعّفه ، عن عكرمة عن ابن عباس ، بلفظ : «قال : يا لا أم لك ، ذلك نوره الذي هو نوره ، إذا تجلى بنوره لا يدركه شى ء».

(٧) جزء من حديث صحيح أخرجه مسلم فى (الإيمان ، باب فى قوله عليه السّلام : «إن اللّه لا ينام ، رقم ٢٩٣ ح ١٧٩) عن أبى موسى رضي اللّه عنه.

(٨) «أفتمرونه» بفتح التاء وسكون الميم بلا ألف. وبها قرأ حمزة والكسائي ويعقوب ، وخلف. وقرأ الجمهور «أفتمارونه» بضم التاء وفتح الميم وألف بعدها. انظر الإتحاف (٢/ ٥٠١).

(٥/ ٥٠٢)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠٣

وَلَقَدْ رَآهُ أي : رأى محمد جبريل على صورته الأصلية ، أو : رأى ربه على تجل خاص وتعرف تام ، نَزْلَةً أُخْرى مرّة أخرى ، والحاصل : أنه عليه السّلام رأى ربه بتجل خاص جبروتى مرتين ، عند خرق الحجب العلوية فوق العرش ، عند السدرة ، وأما رؤيته عليه السّلام للّه تعالى فى مظاهر الكائنات ففى كلّ حين ، لا يغيب عنه طرفة عين.

والنّزلة : فعلة من النّزول ، نصب نصب الظرف الذي هو «مرّة». عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى ، الجمهور : أنها شجرة النّبق فى السماء السابعة ، عن يمين العرش ، وتسميتها المنتهى إما لأنها فى منتهى الجنة وآخرها ، أو : لأنها لم يجاوزها أحد ، وإليها ينتهى علم الخلائق ، ولا يعلم أحد ما وراءها ، أو : إليها ينتهى أرواح الخلائق ، أو : أرواح الشهداء ، وفى الحديث : «أنها شجرة يسير الرّاكب فى ظلها ألف عام ، لا يقطعها ، والورقة منها تظل الأمّة ، وتمرها كالقلال الكبار». «١»

عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى أي : الجنة التي يصير إليها المتقون ويأوون إليها ، أو : تأوى إليها أرواح الشهداء والصدّيقين والأنبياء. قال ابن جزى : يعنى أن الجنة التي وعد اللّه بها عباده هى عند سدرة المنتهى ، وقيل : هى جنة أخرى ، والأول أظهر وأشهر. هـ. ويؤيده ما فى الحديث : «إن النّيل والفرات يخرجان

من أصلها» وهما من الجنة ، كما فى الصحيح «٢». إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى ، ظرف للرؤية ، أي : لقد رآه عند السدرة وقت ما غشيها ما غشيها ، مما لا يكتنهه الوصف ، ولا يفى به البيان ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ، استحضارا لصورتها البديعة ، أو للإيذان باستمرار الغشيان وتجدده ، وقيل : يغشاها الجمّ الغفير من الملائكة ، يعبدون اللّه تعالى عندها ، وقيل : يزورونها متبركين بها ، كما يزور النّاس الكعبة ، وقيل : يغشاها فراش من ذهب ، والفراش - بفتح الفاء - ما يطير ويضطرب. ما زاغَ الْبَصَرُ أي : بصر محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، أي : ما عدل عن رؤية العجائب التي مكّن من رؤيتها ، وَما طَغى وما جاوز ما أمر برؤيته ، لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى أي : واللّه لقد رآى من عجائب الملكوت وأسرار الجبروت وما لا يفى به نطاق العبارة ، وقد دونت هنا كتب فى عجائب ما رآه صلّى اللّه عليه وسلم ليلة المعراج.

الإشارة : أقسم اللّه تعالى بنجم العلم إذا طلع فى أفق سماء القلوب الصاحية ، إنّ هذا القلب الذي طلع فيه نجم العلم باللّه ، وأشرقت عليه شمس الحقائق ، لا يضل صاحبه ولا يغوى ، وما ينطق عن الهوى لأنه مستغرق فى شهود الحق ، لا يتجلى فيه إلا الحق ، (إن هو) أي : ما يتجلى فيه إلا وحي يوحى من قبل الإلهام الإلهي ، علّمه شديد القوى ، وهو الوارد الرّباني ، ذو مرة وشدة لأنه من حضرة قهّار ، ولا يصادم شيئا إلا دفعه ، فاستوى وهو بالأفق

---

(١) جزء من حديث الإسراء الطويل ، وأخرجه البخاري فى (بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، ح ٣٢٠٧) ومسلم فى (الإيمان ، باب الإسراء رقم ٢٦٤ ، ح ١٦٤) عن أنس ، عن مالك بن صعصعة ، وفيه : «ورفعت لى سدرة المنتهى ، فإذا نبقها كأنه قلال هجر ، وورقها كأنه آذان الفيول ، فى أصلها أربعة أنهار ، نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فسألت جبريل ، فقال : «أما الباطنان ففى الجنة ، وأما الظاهران النّيل والفرات ..» الحديث.

(٢) قوله : «هما فى الجنة كما فى الصحيح» يشير الشيخ - رحمه اللّه - إلى ما أخرجه مسلم فى (الجنة ، باب ما فى الدنيا من أنهار الجنة ح ٢٨٣٩) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «سيحان وجيحان والنّيل والفرات كلّ من أنهار الجنة».

(٥٠٣/٥)

الأعلى من سماء الغيوب ، ثم دنا من القلب فتدلى ، فكان من القلب قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى اللّه تعالى بواسطة ذلك الوارد إلى عبده ما أوحى من علوم الحقائق والأسرار ، ومن مكاشفات غيوب

الأقدار ، ما كذب الفؤاد فيما رأى لأنه حق ، لكن قهرية العبودية غيّبت عنه تعيين وقت وقوعه. ولقد رآه ، أي : رأى القلب أسرار ذات الحق ، نزلة أخرى فى عالم الجبروت ، الخارج عن دائرة التجليات الكونية ، وهى الأسرار اللطيفة ، المحيطة فى الأنوار الملكوتية والملكية ، عند سدرة المنتهى ، وهى شجرة القبضة المحمدية ، التي انتهى إليها علم العلماء ، وأرواح الشهداء ، إذ لا يخرج عن دائرتها أفكار العارفين. عندها جنة المأوى التي يأوى إليها أفكار العارفين وأسرار الرّاسخين ، إذ يغشى السدرة – أي : شجرة الكون – ما يغشى من الفناء والتلاشى عند سطوع شمس الحقائق ، ما زاغ بصر البصيرة عن شهود تلك الأسرار ، وما حجبه عنها أرض ، ولا سماء ، ولا عرش ، ولا كرسى لتلطف تلك العوالم فى نظر العارف ، وما طغى : وما جاوز العبودية حتى يطمع فى الإحاطة بعظمة كنه الرّبوبية ، فإنّ الإحاطة لا تمكن ، لا فى هذه الدار ، ولا فى تلك الدار ، بل يبقى الترقي فى الكشوفات ، والمزيد من حلاوة الشهود أبدا سرمدا ، لقد رأى هذا القلب الصافي من عجائب ربه الكبرى ، حيث وسع من لم تسعه أرضه ولا سماؤه.

وقال الورتجبي : بعد كلام : فى هذه الآية بيان كمال شرف حبيبه ، إذ رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، ظن صلى اللّه عليه وسلم أنّ ما رآه فى الأول لا يكون فى الكون – أي : فى مظهر الكون – لكمال علمه بتنزيه الحق ، فلما رآه ثانيا علم أنه لا يحجبه شيء من الحدثان ، وعادة الكبراء إذا زارهم أحد يأتون معه إلى باب الدار إذا كان عليهم كريما ، فهذا منه سبحانه إظهار كمال حبه لحبيبه. وحقيقة الإشارة : أنه سبحانه أراد أن يعرف حبيبه مقام الالتباس ، فلبس [الأمر] «١» ، وظهر المكر ، وبان الحقّ من شجرة سدرة المنتهى ، كما بان من شجرة العناب لموسى ، ليعرفه حبيبه بكمال المعرفة ، إذ ليس بعارف من لم يعرف حبيبه فى لباس مختلفة ، وبيان ذلك فى قوله : (إذ يغشى السدرة ما يغشى) وأبهم ما غشيه لأن العقول لا تدرك حقائق ما يغشاها ، وكيف يغشاها ، والقدم منزّه عن الحلول فى الأماكن؟! كان ولا شجرة ، وكانت الشجرة مرآة لظهوره سبحانه ، ما ألطف ظهوره ، لا يعلم تأويله إلا اللّه ، والرّاسخون فى العلم يؤمنون به بعد عرفانهم به. هـ.

ولمّا فرغ من ذكر عظمة اللّه وكبريائه ، ذكر حقارة من عبد من دونه ، ترهيبا وترغيبا ، فقال

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ١٩ الى ٢٥]

أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى (٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى (٢٣)
أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى (٢٥)

---

(١) زيادة أثبتها من الورتجبي.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠٥
يقول الحق جل جلاله : أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى أي : أخبرونى عن هذه الأشياء التي تعبدونها من دون اللّه ، هل لها من القدرة والعظمة التي وصف بها ربّ العزة فى الآي السابقة حتى استحقت العبادة ، أم لا؟ واللات وما بعدها : أصنام كانت لهم ، فاللات كانت لثقيف بالطائف ، وقيل : كانت بنخلة تعبدها قريش ، وهى فعلة ، من : لوى لأنهم كانوا يلوون عليها ويطوفون بها. وقرأ ابن عباس ومجاهد ورويس بتشديد التاء ، على أنه اسم فاعل ، اشتهر به رجلا كان يلتّ السّويق بالزيت ، ويطعمه الحاجّ ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه «١». (و العزى) كانت لغطفان ، وهى شجرة كانوا يعبدونها ، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها ، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها ، واضعة يدها على رأسها ، وهو تولول ، فجعل خالد يضربها بالسيف حتى قتلها ، فأخبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال : «تلك العزى ، لن تعبد بعد اليوم أبدا» «٢».
(و مناة) : صخرة على ساحل البحر لهذيل وخزاعة ، وقيل : بيت بالمشلّل يعبده بنو كعب ، وسميت مناة لأن دماء النّسائك تمنى ، أي : تراق عندها لأنهم كانوا يذبحون عندها. وقرأ ابن كثير بالهمزة بعد الألف ، مشتق من النوء لأنهم كانوا يستمطرون بالأنواء عندها ، تبركا بها ، وقيل : سموا هذه الأصنام بأسماء اللّه ، وأنّثوها ، كأنها بنات اللّه فى زعمهم الفاسد ، فاللات من «اللّه» ، كما قالوا : عمر وعمرة ، وعباس وعباسة ، فالتاء للتأنيث. والعزّى : تأنيث العزيز ، ومناة : تأنيث منان ، فغيّر تخفيفا ، ويؤيد هذا قوله تعالى ردا عليهم : أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى .
والْأُخْرى : صفة ذمّ لها ، وهى المتأخرة الوضيعة القدر ، كقوله : قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ «٣» أي : وضعاؤهم لرؤسائهم ، وقيل : وصفها بالوصفين لأنهم كانوا يعظّمونها أكثر من اللات والعزى ، والفاء فى قوله : (أ فرأيتم) للعطف على محذوف ، وهى لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي : عقب ما سمعتم من كمال عظمته تعالى فى ملكه وملكوته ، وأحكام قدرته ، ونفوذ أمره فى الملأ الأعلى وما تحت الثرى وما بينهما ، رأيتم هذه الأصنام مع حقارتها بنات اللّه ، مع وأدكم البنات ، وكراهتكم لهنّ؟.

---

(١) أخرج البخاري المقطع الأول : «كان اللات رجلا يلت سويق الحاج» فى (التفسير ، سورة النّجم ، باب أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى رقم ٤٨٥٩).
(٢) عزاه المناوى فى الفتح السماوي ٣/ ٩٠٧ لابن مردويه ، من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه.
[.....]
(٣) من الآية ٣٨ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠٦

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى أي : أتحبون لكم الذكر وتنسبون له الأنثى كهذه الأصنام والملائكة؟ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى أي : جائرة ، من : ضازه يضيزه : إذا ظلمه ، وصرح فى القاموس بأنه مثلث الضاد ضيزى وضوزى وضازى ، وهو هنا فعلى بالضم ، من الضيز ، لكنه كسر فاؤه لتسلم الياء ، كما فعل فى «بيض» ، فإن «فعلى» بالكسر لم تأت وصفا ، وإنما هى من بناء الأسماء ، كالشّعرى والدفلى. وقال ابن هشام : فإن كانت فعلى صفة محضة وجب قلب الضمة كسرة ، ولم يسمع من ذلك إلا «قسمة ضيزى» «ومشية حيكى» ، أي : يتحرك فيها المنكبان. هـ.

وقرأ المكيّ بالهمز «١» ، من : ضأزه : ظلمه ، فهو مصدر نعت به.

إِنْ هِيَ أي : هذه الأصنام إِلَّا أَسْماءٌ وليس تحتها فى الحقيقة مسميات لأنكم تدّعون لها الألوهية ، وهى أبعد شىء منها ، سَمَّيْتُمُوها آلهة ، أو : سميتم بها هذه الأصنام ، واعتقدتم أنها آلهة ، بمقتضى أهوائكم الباطلة ، أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ، ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها بعبادتها مِنْ سُلْطانٍ من حجة. إِنْ يَتَّبِعُونَ فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها إِلَّا الظَّنَّ : إلا توهم أنّ ما هم عليه حق ، توهما باطلا ، وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ أي : ما تشتهيه أنفسهم الأمّارة ، وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى الرسول والكتاب فتركوه.

أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى. «أم» : منقطعة ، والهمزة للإنكار ، أي : ليس للإنسان كلّ ما يتمناه وتشتهيه نفسه من الأمور التي من جملتها أطماعهم الفارغة فى شفاعة الآلهة ونظائرها ، كقول بعضهم : وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى «٢» ، وكتمنّى بعضهم أن يكون هو النّبى ، فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى أي : الدنيا والآخرة ، هو مالكهما والحاكم فيهما ، يعطى الشفاعة والنّبوة من شاء ، لا من تمناهما بمجرد الهوى ، وهو تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما تمنّى ، فإنّ اختصاص أمور الآخرة والأولى به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون للإنسان شىء مما تمنى إلا أن يشاء ويرضى.

الإشارة : هذه الأصنام موجودة فى كلّ إنسان ، فاللات : حب اللذات والشهوات الجسمانية الفانية ، فمن كان حريصا عليها ، جامعا لأسبابها ، فهو عابد لها ، والعزى : حب العز والجاه والرّئاسة وسائر الشهوات القلبية ، فمن طلبها فهو عبد لها ، ومناة : تمنى البقاء فى الدنيا الدنية الحقيرة ، وطول الأمل فيها ، وكراهية الموت ، فمن كان هذا وصفه فهو عبد الدنيا ، كاره لقاء اللّه ، فيكره اللّه لقاءه ، فتوجه لهؤلاء العتاب بقوله تعالى : أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى ، أَلَكُمُ الذَّكَرُ حيث تحبون ما هو كمال لأنفسكم ، وَلَهُ الْأُنْثى ؟ حيث جعلتم هذه الأشياء الحقيرة

---

(١) «ضئزى» بهمزة ساكنة ، وبها قرأ ابن كثير المكي. انظر الإتحاف (١/ ٥٠١).
(٢) الآية ٥٠ من سورة فصلت.

(٥/٥٠٦)

شريكة للّه فى استحقاق العبادة والمحبة ، تلك إذا قسمة ضيزى جائرة ، ما هى إلا أسماء ليس تحتها طائل ، تفنى ويبقى عليها العذاب والعتاب ، سميتموها واعتنيتم بشأنها والانكباب عليها ، أنتم وآباؤكم ، ما أنزل اللّه بمتابعتها والحرص على تحصيلها من سلطان ولا برهان ، إن يتبعون فى اتباعها والحرص عليها إلا الظن ، ظنوا أنها حيث كانت مباحة فى ظاهر الشرع لا تضر القلب ولا تحجبه عن شهود الرّب ، وهو رأى فاسد إذ ليس للقلب إلا وجهة واحدة ، إن توجه لطلب الحظوظ أعرض عن اللّه قطعا ، وإن توجه للّه أعرض عما سواه ، وراجع ما تقدم فى قوله :
أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ الآية «١». ويتبعون أيضا ما تهوى الأنفس الأمّارة لأنها لا تهوى إلا ما فيه حظها وهواها ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، أي : من يهدى إلى طريق السلوك ، بقطع العلائق النّفسانية والقلبية ، وهم خلفاء الرّسول عليه السّلام ، الدعوان إلى اللّه ، من شيوخ التربية فى كلّ زمان ، أم للإنسان ما تمنى ، ليس له ما يتمنى إلا بسابق العناية ، فلا يدرك العبد من الدنيا والآخرة ، ومن اللّه تعالى ، إلا ما سبق به القدر ، كما قال الشاعر :
ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرّياح بما لا تشتهى السفن
فللّه الآخرة والأولى ، قال القشيري : يشير إلى قهرمانية الحق تعالى على العالم كله ، ملكه وملكوته ، الأخروى والدنيوي ، فلا يملك الإنسان من أمر الدارين شيئا ، بل ملك الآخرة تحت تصرف يده اليمنى ، المقتضية لموجبات حصول الآخرة من الأعمال الصالحة والأفعال الحسنة ، يهبه باسمه الواهب لمن شاء أن يكون مظهرا للطفه وجماله ، وملك الدنيا تحت تصرف يده اليسرى ، المقتضية لأسباب حصول الدنيا ، من حب الدنيا الدنية ، المنتجة للخطيئة ومتابعة النّفس الخبيثة ، وموافقة الطبيعة اللئيمة ، باسمه المقسط ، لمن شاء أن يكون مظهر قهره وجلاله ، وليس ذلك يزيد فى ملكه ، ولا هذا ينقص من ملكه ، وكلتا يديه ملأى سحّاء ، أي : فياضة. هـ.
ثم نفى الشفاعة عمّن يستحقها من الملائكة الكرام ، فضلا عمن لا يستحقها من الأصنام اللئام ، فقال :

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ٢٦ الى ٣٠]
وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى (٢٦)

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى (٢٧) وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا (٢٩) ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى (٣٠)

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الأحقاف.

(٥٠٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠٨

قلت : (كم) : خبرية ، تفيد التكثير ، ومحلها : رفع بالابتداء ، والجملة المنفية : خبر ، وجمع الضمير فى (شفاعتهم) لأن النّكرة المنفية تعم.

يقول الحق جل جلاله : وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ أي : كثير من الملائكة لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ عند اللّه تعالى شَيْئاً من الإغناء فى وقت من الأوقات ، إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لهم فى الشفاعة لِمَنْ يَشاءُ أن يشفعوا له ، وَيَرْضى ويراه أهلا للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان ، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم عن إذن اللّه بمعزل ، وعن الشفاعة بألف معزل ، فإذا كان حال الملائكة فى باب الشفاعة كما ذكر ، فما ظنهم بحال الأصنام؟! ثم شنّع عليهم فى اعتقادهم الفاسد فى الملائكة ، فقال : إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وما فيها من العقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصي لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ المنزّهين عن سمات النّقص تَسْمِيَةَ الْأُنْثى ، فإن قولهم : الملائكة بنات اللّه ، قول منهم بأن كلا منهم بنته - سبحانه ، وهى التسمية بالأنثى ، وفى تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنهم فى الشناعة واستتباع العقوبة بحيث لا يجترىء عليها إلا من لا يؤمن رأسا.

وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ أي : بما يقولون. وقرئ «بها» أي : بالتسمية ، أو بالملائكة. إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وهو تقليد الآباء ، وَإِنَّ الظَّنَّ أي : جنس الظن ، ولذلك أظهر فى موضع الإضمار ، لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً من الإغناء لأن الحق عبارة عن حقيقة الشيء ، وهو لا يدرك إلا بالعلم ، والظن لا اعتداد به فى باب المعارف الحقيقية ، وإنما يعتد به فى العمليات وما يؤدى إليها.

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا أي : عنهم ، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتوصل إلى وصفهم بما فى حيز الصلة من الأوصاف القبيحة ، ولتعليل الحكم ، أي : فأعرض عمن تولى عن ذكرنا المفيد للعلم اليقيني ، وهو القرآن المنطوى على علوم الأولين والآخرين ، المذكّر بالأمور الآخرة ، أو : عن ذكرنا كما ينبغى ، فإن ذلك يستتبع ذكر الآخرة وما فيها من الأمور المرغوب فيها والمرهوب عنها ،

قال الطيبي : أعرض عن دعوة من تدعوه إلى لقاء ربه والدار الآخرة ، وهو يقول : ما هى إلا حياتنا الدنيا ... إلخ ، وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا وزخارفها ، قاصرا

(٥٠٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠٩

نظره إليها ، والمراد بالإعراض عنه : إهماله والغيبة عنه ، فإنّ من أعرض عن الذكر ، وانهمك فى الدنيا ، بحيث كانت هى منتهى همته ، وقصارى سعيه ، لا تزيده الدعوة إلى خلافها إلا عنادا ، وإصرارا على الباطل.

ذلِكَ أي : ما هم فيه من التولّى ، وقصر الإرادة على الحياة الدنيا هو مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أي : منتهى علمهم ، لا يكادون يجاوزونه إلى غيره ، فلا تجدى فيهم الدعوة والإرشاد شيئا. وجمع الضمير بعد أن أفرده باعتبار معنى «من» ولفظها ، والمراد بالعلم : مطلق الإدراك الشامل للظن الفاسد. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى أي : هو أعلم بالضال والمهتدى ومجازاتهما ، وهو تعليل الأمر بالإعراض ، وتكرير «هو أعلم» لزيادة التقرير ، وللإيذان بكمال تباين المعلومين ، أي : هو المبالغ فى العلم بمن لا يرعوى عن الضلال ، ومن يقبل الاهتداء فى الجملة ، فلا تتعب نفسك فى دعوتهم ، فإنهم من القبيل الأول.

الإشارة : شفاعة كلّ أحد على قدر جاهه وتمكنه من اللّه ، فقد يشفع الولىّ فى أهل زمانه ، كما تقدم فى مريم «١». والاعتقاد فى الملائكة : أنهم أنوار لطيفة من تجليات الحق ، اللطافة فيهم أغلب ، لا يتصفون بذكورة ولا أنوثة ، يتشكلون كيف شاءوا. وقوله تعالى : فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا ... الآية ، فيه تحذير من مخالطة الغافلين والصحبة لهم ، فإنّ صحبتهم سم قاتل ، والجلوس معهم تضييع وبطالة ، إلا أن يستولى نور من يصحبهم على ظلمتهم ، فيجرّهم إلى اللّه ، فهذا جلوسه معهم كمال.

وقال بعضهم : الوحدة أفضل من الجلوس مع العامة ، والجلوس مع الخاصة أفضل من العزلة ، إلا من تحقق كماله ، فلا كلام معه.

إشارة أخرى : وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ .... إلخ ، أي : كثير من الأرواح الصافية السماوية لا تغنى شفاعتها فى الأنفس الظلمانية الطبيعية ، لتنقلها من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، إلا من بعد أنّ يأذن اللّه لمن يشاء انتقاله وعروجه إلى سماء الأرواح ، ويرضى أن يسكنه فى الحضرة القدسية. إن الذين لا يؤمنون بالحالة الآخرة ، وهى الانتقال من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، وينكرون على من يوصل إليها ، ليسمون الخواطر القلبية بتسمية الخواطر النّفسانية ، أي : لا يميّزون بينهما ، لجهلهم بأحوال القلوب ، ما لهم به - أي : بهذا التمييز - من علم ، إن يتبعون فى جلّ اعتقاداتهم إلا الظن القوى ، وإنّ الظن

لا يغنى عن الحق شيئا ، فلا ينفع فى مقام الإيمان إلا الجزم عن دليل وبرهان ، ولا فى مقام الإحسان إلا شهود الحق بالعيان ، فمن لم يحصل هذا فهو غافل عن ذكر اللّه الحقيقي ، يجب الإعراض عنه ، قال تعالى : فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا وزخارفها ، ذلك مبلغهم

---

(١) راجع إشارة الآية ٨٧ من سورة مريم.

(٥٠٩/٥)

من العلم ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون. وقال اللجائى ، فى قطبه : وإياك أن تكون دنياك إرادة قلبك تبعا لشهوات نفسك ، أو تكون دنياك أحب إليك من آخرتك ، وقلبك من ذكر مولاك خاليا معرضا ، فإنها صفة الهالكين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا ... الآية. وقيل لأبى الحسن الشاذلي : يا سيدى ، بم فقت أهل عصرك ، ولم نر لك كبير عمل؟ فقال : بخصلة ، أمر اللّه بها نبيه صلّى اللّه عليه وسلم ، وتمسكت بها أنا ، وهى الإعراض عنكم وعن دنياكم. هـ. إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن طريق الوصول إليه ، وهو أعلم بمن اهتدى إليها ، فيعينه ، ويجذبه إلى حضرته ، فإن الأمر كله بيده ، كما قال :

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ٣١ الى ٣٢]

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ خلقا وملكا ، لا لغيره ، لا استقلالا ولا اشتراكا ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا بعقاب ما عملوا من السوء ، أو : بسبب ما عملوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى بالمثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، والمعنى : أن اللّه تعالى إنما خلق هذا العالم العلوي والسفلى ، وتصرف فيه بقدرته بين جلاله وجماله ، ليجزى المحسن من المكلّفين ، والمسيء منهم إذ من شأن الملك أن ينصر أولياءه ويكرمهم ، ويقهر أعداءه ويهينهم.

وقال الطيبي : «ليجزى» راجع لقوله : هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ .. الآية ، والمعنى : إنّ ربك هو أعلم بمن ضل وبمن اهتدى ليجزى كلّ واحد بما يستحقه ، يعنى : أنه عالم ، كامل العلم ، قادر ، تام القدرة ، يعلم أحوال المكلّفين فيجازيهم ، لا يمنعه أحد مما يريده لأنّ كلّ شىء من السموات والأرض ملكه ، وتحت قهره وسلطانه ، فقوله : وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ : جملة معترضة ، توكيد للاقتدار

وعدم المعارض. هـ.
الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ : بدل من الموصول الثاني ، أو : رفع على المدح ، أي : هم الذين يجتنبون. والتعبير بالمضارع للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره. وكبائر الإثم : ما يكبر عقابه من الذنوب ، وهو ما رتّب

(٥١٠/٥)

عليه الوعيد بخصوصه. قال ابن عطية : وتحرير القول فى الكبائر : أنها كلّ معصية يوجد فيها حدّ فى الدنيا ، أو توعّد عليها بنار فى الآخرة ، أو بلعنة ونحوها. وقرأ الأخوان : (كبير الإثم) على إرادة الجنس ، أو الشرك ، وَيجتنبون الْفَواحِشَ وهو ما فحش من الكبائر ، كأنه قيل : يجتنبون الكبائر وما فحش منها خصوصا ، فيحتمل أن يريد بالكبائر : ما فيه حق اللّه وحده ، والفواحش منها : ما فيه حق اللّه وحق عباده ، إِلَّا اللَّمَمَ أي : إلا ما قلّ وصغر ، فإنه مغفور لمن يجتنب الكبائر ، وقيل : هى النّظرة والغمزة والقبلة ، وقيل : الخطرة من الذنب ، وقيل : كل ذنب لم يجعل اللّه فيه حدّا ولا عذابا.
والاستثناء منقطع لأنه ليس من الكبائر ولا من الفواحش.
إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، أو : حيث يغفر ما يشاء من الذنوب من غير توبة ، وهذا أحسن ، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ فى ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السّلام مِنَ الْأَرْضِ إنشاء إجماليا ، حسبما مرّ تحقيقه مرارا ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ أي : يعلم وقت كونكم أجنة فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ على أطوار مختلفة ، لا يخفى عليه حال من أحوالكم ، ولا عمل من أعمالكم.
فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ فلا تنسبوها إلى زكاء الأعمال ، وزيادة الخير والطاعات ، أو : إلى الزكاة والطهارة من المساوئ ، ولا تثنوا عليها ، واهضموها ، فقد علم اللّه الزكيّ منكم والتقيّ ، قبل أن يخرجكم من صلب آدم ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم. وقيل : كان ناس يعملون أعمالا حسنة ، ثم يقولون : صلاتنا وصيامنا وحجّنا ، فنزلت.
وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرّياء ، لا على سبيل الاعتراف بالنعمة ، والتحدث بها ، فإنه جائز لأن المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكرها. والأحسن فى إيراد الاعتراف والشكر أن يقدم ذكر نقصه ، فيقول مثلا : كنا جهالا فعلّمنا اللّه ، وكنا ضلّالا فهدانا اللّه ، وكنا غافلين فأيقظنا اللّه ، وهكذا فنحن اليوم كذا وكذا.
قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون نهيا عن أن يزكّى بعض النّاس بعضا ، وإذا كان هذا ، فإنما ينهى عن تزكية السّمع «١» ، أو القطع بالتزكية ، ومن ذلك الحديث فى «عثمان بن مظعون» عند موته «٢» ،

وأما تزكية القدوة أو الإمام ، أو أحدا ، ليؤتم به أو ليتهمّم النّاس بالخير ، فجائز ، وقد زكّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أبا بكر وغيره ، وكذلك تزكية الشهود فى الحقوق جائزة للضرورة إليها ، وأصل التزكية : التقوى ، واللّه تعالى أعلم بتقوى النّاس منكم. هـ «٣».

---

(١) فى ابن عطية : السمعة والمدح للدنيا.

(٢) حديث عثمان بن مطعون رضي اللّه عنه – سبق ذكره وتخريجه عند التعليق على إشارة الآية ٩ من سورة الأحقاف ، فراجعه إن شئت.

(٣) ببعض المعنى

وقال فى القوت : هذه الذنوب تدخل على النّفوس من معانى صفاتها ، وغرائز جبلاتها ، وأول إنشائها من نبات الأرض ، وتركيب الأطوار فى الأرحام ، خلق من بعد خلق ، ومن اختلاط الأمشاج بعضها مع بعض ، ولذلك عقبه بقوله : هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ ... الآية. هـ.

ثم قال تعالى : هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى ، فاكتفوا بعلمه عن علم النّاس ، وبجزائه عن ثناء النّاس. وباللّه التوفيق.

الإشارة : وللّه ما فى سموات الأرواح من أنوار الشهود ، وما فى أرض النّفوس من آداب العبودية ، رتّب ذلك ليجزى الذين أساءوا بوقوفهم مع أرض النّفوس فى العالم المحسوس ، ويجزى الذين آمنوا بترقيهم إلى مقام الإحسان ، بالحسنى ، وهى المعرفة ، حيث ترقّوا من أرض الأشباح إلى عالم سماء الأرواح ، وهم الذين يجتنبون كبائر الإثم ، وهو شهود وجودهم مع وجود الحق محبوبهم ، ووقوفهم مع عالم الحس ، والفواحش ، وهو اعتراضهم على اللّه فيما يبرز من عنصر قدرته ، وتصغيرهم شيئا مما عظّم اللّه ، إلا اللمم خواطر تخطر ولا تثبت.

قال القشيري : كبائر الإثم ثلاث محبة النّفس الأمّارة ، ومحبة الهوى النّافخ فى نيران النّفس ، ومحبة الدنيا ، التي هى رأس كلّ خطيئة ، ولكلّ واحدة من هذه الثلاث فاحشة لازمة لها ، أما فاحشة محبة النّفس : فموافقة الطبيعة ومخالفة الشريعة ، وأما فاحشة محبة الهوى : فحب الدنيا وشهواتها ، وأما فاحشة محبة الدنيا فالإعراض عن اللّه ، والإقبال على ما سواه. وقوله إِلَّا اللَّمَمَ أي : الميل اليسير إلى الهوى والنّفس والدنيا ، بحسب ضرورته البشرية من استراحة البدن ، ونيل قليل من حظوظ الدنيا ، بحسب الحقوق ، لا بحسب الحظوظ ، فإنّ مباشر الحقوق مغفور ، ومباشر الحظوظ مغرور. هـ.

إنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ يستر العيوب ، ويوصل إلى حضرة الغيوب. هو أعلم بكم إذ أنشأكم من أرض البشرية ، ورقّاكم إلى عالم الرّوحانية ، وإذ أنتم أجنة فى أول بدايتكم فى بطون أمهاتكم ، فى بطون الهوى والغفلة ، ودائرة الكون ، فأخرجكم منها بمحض فضله ، فلا تزكّوا أنفسكم ، فتنظروا إليها بعين الرّضا ، أو تنسبوا إليها شيئا من الكمالات قبل صفائها. قال القشيري : تزكية المرء نفسه علامة كونه محجوبا لأنّ المجذوب عن بقائه ، المستغرق فى شهود ربّه ، لا يزكّى نفسه. هـ. قلت : هذا مادام فى السير ، وأما إن حصل له الوصول فلا نفس له ، وإنما يزكّى ربه إذا زكّاها ، هو أعلم بمن اتقى ما سواه.

(٥/٥١٢)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥١٣

ثم ذكر وبال من زكى نفسه ، فقال :

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ٣٣ الى ٤١]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطى قَلِيلاً وَأَكْدى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى (٣٦) وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧)

أَلاَّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى (٤٠) ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى (٤١)

يقول الحق جل جلاله : أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى أعرض عن الإيمان وَأَعْطى قَلِيلًا وَأَكْدى أي : قطع عطيته وأمسك ، وأصله : إكداء الحافر ، وهو أن تلقاه كدية - وهى صلابة ، كالصخرة - فيمسك عن الحفر. [قال] «١» ابن عباس : «هو فيمن كفر بعد الإيمان» ، وقيل : فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتّبع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فعيّره بعض الكافرين ، وقال : تركت دين الأشياخ ، وزعمت أنهم فى النّار؟ قال : إنى خشيت عذاب اللّه ، فضمن له إن أعطاه شيئا من ماله ، ورجع إلى شركه ، أن يتحمّل عنه عذاب اللّه ، ففعل ذلك المغرور ، وأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل به ومنعه «٢». أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى أي : يعلم هذا المغرور أنّ ما ضمنه له حق؟

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ يخبر بِما فِي صُحُفِ مُوسى أي : التوراة ، وَإِبْراهِيمَ أي : وما فى صحف إبراهيم الَّذِي وَفَّى أي : أكمل وأتم ما ابتلى به من الكلمات ، أو : ما أمر به ، أو بالغ فى الوفاء بما عاهد اللّه عليه.

وعن الحسن : ما أمره اللّه بشىء إلا وفّى به. وعن عطاء بن السائب : عهد ألّا يسأل مخلوقا ، فلما قذف فى النّار قال له جبريل : ألك حاجة؟ فقال : أما إليك فلا. وقال الشيخ المرسى : وفّى بمقتضى قوله : (حسبى اللّه) وعن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم :

«وفّى عمله كلّ يوم بأربع ركعات فى صدر النّهار» «٣» وهى صلاة الضحى. وروى : «ألا أخبركم لم

سمّى خليله «الذي وفّى» كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى : «فسبحان اللّه حين تمسون ...» إلى «تظهرون»» «٤» وقيل : وفّى سهام

---

(١) زيادة ليست فى الأصول.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٧/ ٧٠) عن ابن زياد ، بدون تعيين من نزلت فيه.

(٣) أخرجه الطبري (٢٧/ ٧٣) وعزاه السيوطي فى الدر (٦/ ١٦٨) لسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والشيرازي فى الألقاب ، والديلمي ، بسند ضعيف ، عن أبى أمامة رضي اللّه عنه.

(٤) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٤٣٩) عن سهل بن سعد الساعدي عن أبيه ، وقال الهيثمي (١٠/ ١١٧) : «فيه ضعفاء وثقوا».

وأخرجه الطبري (٢٧/ ٧٣) عن أنس عن أبيه.

(٥/٥١٣)

الإسلام ، وهى ثلاثون ، عشرة فى التوبة : التَّائِبُونَ ... «١» إلخ ، وعشرة فى الأحزاب : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ ... «٢»

وعشرة فى المؤمنين : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. وقيل : وفىّ حيث أسلم بدنه للنيران ، وولده للقربان ، وطعامه للضيفان.

وروى : أنه كان يوم يضيف ضيفا ، فإن وافقه أكرمه ، وإلّا نوى الصوم «٣». وتقديم موسى لأنّ صحفه وهى التوراة أكثر وأشهر.

ثم فسّر ما فى تلك الصحف فقال : أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أي : أنه لا تحمل نفس وازرة وزر نفس أخرى ، بل كلّ نفس تستقل بحمل وزرها ، يقال : وزر يزر إذا اكتسب وزرا ، و«أن» مخففة ، وكأنّ قائلا قال : ما فى صحف موسى وإبراهيم؟ فقال : ألّا تحمل نفس مثقلة بوزرها وزر نفس أخرى.

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى هو أيضا مما فى صحف موسى وإبراهيم ، وهو بيان لعدم انتفاع الإنسان بعمل غيره ، إثر بيان عدم انتفاعه من حيث رفع الضرر عنه به ، وأما ما صح من الأخبار فى الصدقة عن الميت والحج عنه ، فلأنه لمّا نواه عنه كان كالوكيل عنه ، فهو نائب عنه.

قال ابن عطية : الجمهور أنّ قوله : وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى محكم لا نسخ فيه ، وهو لفظ عام مخصّص. هـ. يعنى : أن المراد : الكافر ، وهكذا استقرئ من لفظ «الإنسان» فى القرآن ، وأما المؤمن

فجاءت نصوص تقتضى انتفاعه بعمل غيره ، إذا وهب له من صدقة ودعاء وشفاعة واستغفار ، ونحو ذلك ، وإلّا لم يكن فائدة لمشروعية ذلك ، فيتصور التخصيص فى لفظ «الإنسان» وفى السعى ، بأن يخص الإنسان بالكافر ، أو السعى بالصلاة ، ونحو ذلك مما لا يقبل النّيابة مثلا. والحاصل : أن الإيمان سعى يستتبع الانتفاع بسعى الغير ، بخلاف من ليس له الإيمان. هـ. قاله الفاسى : وكان عز الدين يحتج بهذه الآية فى عدم وصول ثواب القراءة للميت ، فلما مات رؤى فى النّوم ، فقال : وجدنا الأمر خلاف ذلك.

قلت : أما فى الأجور فيحصل الانتفاع بسعى الغير ، إن نواه له ، وأما فى رفع الستور ، وكشف الحجب ، والترقي إلى مقام المقربين ، فالآية صريحة فيه ، لا تخصيص فيها إذ ليس للإنسان من حلاوة المشاهدة والقرب إلا بقدر ما سعى من المجاهدة. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ١١٢ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٣٥ من سورة الأحزاب. [.....]

(٣) قال أبو حيان فى البحر المحيط ٨/ ١٦٤ : وللمفسرين أقوال غير هذه ، وينبغى أن تكون هذه الأقوال أمثلة لما وفّى ، لا على سبيل التعيين. هـ.

(٥١٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥١٥

ثم قال : وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى أي : يعرض عليه ، ويكشف له يوم القيامة فى صحيفته وميزانه ، ثُمَّ يُجْزاهُ أي : يجزى العبد سعيه ، يقال : جزاه اللّه عمله ، وجزاه عليه ، بحذف الجار وإيصال الفعل ، ويجوز أن يكون الضمير للجزاء ، ثم فسّره بقوله : الْجَزاءَ الْأَوْفى أو : أبدله منه ، أي : الجزاء الأكمل بحيث يزيده ولا ينقصه.

الإشارة : أفرأيت الذي تولى عن طريق السلوك ، بعد أن أعطى نفسه وفلسه ، وتوجه إلى حضرة مولاه ، ثم منّته نفسه ، وغرّته أنه يصل بلا عطاء ولا مجاهدة ، فقطع ذلك واشتغل بنفسه ، أو غرّه أحد حتى ردّه ، وضمن له الوصول ، بلا ذلك ، أعنده علم الغيب حتى علم أنه يصل بلا واسطة ولا مجاهدة؟ فهو يرى عاقبة ما هو سائر إليه.

وتصدق الإشارة بمن صحب شيخا ، وأعطاه بعض ماله أو نفسه ، ثم رجع ومال إلى غيره ، فلا يأتى منه شىء ، أعنده علم الغيب ، وأنّ فتحه على يد ذلك الشخص ، فهو يرى ما فيه صلاحه وفساده؟ وهذا إن كان شيخه أهلا للتربية ، وإلّا فلا. أم لم ينبأ هذا المنقطع بما فى صحف موسى وإبراهيم ، أنه لا

يتحمل أحد عن أحد مجاهدة النفوس ورياضتها؟ وأن ليس للإنسان من لذة الشهود والعيان إلا ما سعى فيه بالمجاهدة ، وبذل النّفس والفلس ، وأنّ سعيه سوف يرى؟ أي : يظهر أثره من الأخلاق الحسنة ، والرّزانة والطمأنينة ، وبهجة المحبين ، وسيما العارفين.

وقسّم القشيري السعى على أربعة أقسام الأول : السعى فى تزكية النّفس وتطهيرها ، ونتيجته : النهوض للعمل الصالح ، الذي يستوجب صاحبه نعيم الجنان. الثاني : السعى فى تصفية القلب من صداء ظلمات البشرية ، وغطاء عورات الطبيعية ، ونتيجته : صحته من الأمراض القلبية ، كحب الدنيا والرّئاسة والحسد ، وغير ذلك ، ليتهيأ لدخول الواردات الإلهية. الثالث : السعى فى تزكية الرّوح ، بمنعها من طلب الحظوظ الرّوحانية ، كطلب الكرامات ، والوقوف مع المقامات ، وحلاوة المعاملات ، لتتهيأ بذلك للاستشراف على مقام المشاهدات ، وحمل أعباء أسرار الذات. الرابع : السعى فى تزكية السر بتحليته بالصفات الإلهية ، والأخلاق الرّبانية ، ليتحقق بمقام الفناء والبقاء ، وهو منتهى السعى وكماله. هـ. بالمعنى.

وإلى هذا الانتهاء أشار تعالى بقوله :

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ٤٢ الى ٦٢]

وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى (٤٦)

وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى (٥٠) وَثَمُودَ فَما أَبْقى (٥١)

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى (٥٣) فَغَشَّاها ما غَشَّى (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى (٥٥) هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى (٥٦)

أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سامِدُونَ (٦١)

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)

(٥١٥/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥١٦

يقول الحق جل جلاله فى بقية ذكر ما فى الصحف الأولى : وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى أي : الانتهاء ، أي : ينتهى إليه الخلق ويرجعون ، إليه كقوله : وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ «١» أو : ينتهى علم العلماء إليه ثم يقفون ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلم :

«لا فكرة فى الرّب» «٢» أي : كنه الذات ، وسيأتى فى الإشارة. وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى أي : خلق الضحك والبكاء ، أو : خلق الفرح والحزن ، أو : أضحك المؤمنين فى الآخرة ، وأبكى الكافرين ، أو : أضحك المؤمنين فى العقبى بالمواهب وأبكاهم فى الدنيا بالنوائب ، وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا أي : أمات الآباء وأحيا الأبناء ، أو : أمات بالكفر وأحيا بالإيمان.

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى ، مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى : إذ تدفق وتدفع فى الرّحم. يقال : منى وأمنى ، وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى الإحياء بعد الموت ، وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى أي : صيّر الفقير غنيا وَأَقْنى أي : أعطى القنية ، وهو المال الذي تأثّلته «٣» ، وعزمت ألّا تخرجه من يدك. وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى ، وهو كوكب يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ، وكانت خزاعة تعبدها. سنّ لهم ذلك «ابن أبى كبشة» رجل من أشرافهم ، قال :

لأن النّجوم تقطع السماء عرضا ، والشعرى طولا ، ويقال لها : شعرى العبور. انظر الثعلبي. وكانت قريش تقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ابن أبى كبشة ، تشبيها له صلّى اللّه عليه وسلم به ، لمخالفته إياهم فى دينهم ، فأخبر تعالى أنه ربّ معبودهم ، فهو أحق بالعبادة وحده.

---

(١) من الآية ٤٨ من سورة الحج.

(٢) أخرجه البغوي فى التفسير (٧/ ٤١٧) وزاده السيوطي عزوه فى الدر (٦/ ١٧٠) للدارقطنى فى الأفراد ، عن أبى بن كعب.

وهذا مثل ما روى عن ابن عباس مرفوعا : «تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق ، فإنكم لن تقدروا» عزاه السيوطي فى الدر (٦/ ١٧٠) لأبى الشيخ فى العظمة. وانظر : كشف الخفاء ٨/ ٣٧١ ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى ٤/ ٣٩٧.

(٣) المتأثل : الجامع. والتأثل اتخاذ أصل مال ، وكلّ شىء له أصل قديم ، أو جمع حتى يصير له أصل ، فهو مؤثّل.

انظر اللسان (أثل ١/ ٢٨).

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى ، وهم قوم هود ، وعاد الأخرى : عاد إرم ، وقيل : معنى الأولى [العدمي] «١» لأنهم أولى الأمم هلاكا بعد قوم نوح ، وقال الطبري وغيره : سميت «أولى» لأن ثمّ عادا آخرة ، وهى قبيلة كانت بمكة مع العماليق ، وهم بنوا لقيم بن هزّال. واللّه أعلم. هـ «٢». قلت : والتحقيق :

أن عادا الأولى هى عاد إرم ، وهى قبيلة هود التي هلكت بالريح ، ثم بقيت منهم بقايا ، فكثروا وعمّروا بعدهم ، فقيل لهم عاد الأخيرة ، وأنظر أبا السعود فى سورة الفجر. «٣» وهاهنا قراءات ، وجّهناها فى كتاب الدرر «٤».

وَثَمُودَ «٥» أي : وأهلك ثمودا ، وهم قوم صالح ، فَما أَبْقى أحدا منهم ، وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ، إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى من عاد وثمود لأنهم كانوا يضربونه حتى لا يكون به حراك ، وينفرون منه حتى كانوا يحذّرون صبيانهم أن يسمعوا منه ، وَالْمُؤْتَفِكَةَ أي : والقرى التي ائتفكت ، أي : انقلبت بأهلها ، وهم قوم لوط. يقال : أفكه فائتفك ، أي : قلبه فانقلب ، (و المؤتفكة) منصوب ب أَهْوى أي : رفعها إلى السماء على جناح جبريل ، ثم أهواها إلى الأرض ، أي : أسقطها ، فَغَشَّاها ألبسها من فنون العذاب ما غَشَّى ، وفيه تهويل لما صبّ عليها من العذاب ، وأمطر عليها من الصخر المنضود.

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ أيها المخاطب تَتَمارى أي : تتشكك؟ ، أي : فبأى نعم من نعم مولاك تحجد ولا تشكر؟ فكم أولاك من النّعم ، ودفع عنك من النّقم ، وتسمية الأمور المتعددة قبل نعما مع أن بعضها نقم لأنها أيضا نعم من حيث إنها نصرة الأنبياء والمرسلين ، وعظة وعبرة للمعتبرين. هذا نَذِيرٌ أي : محمد منذر مِنَ النُّذُرِ الْأُولى من المنذرين الأولين ، وقال : «الأولى» على تأويل الجماعة ، أو : هذا القرآن نذير من النّذر الأولى ، أي : إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم.

---

(١) فى تفسير أبى السعود [القدماء].

(٢) العبارة بالمعنى ، ونصها كما فى تفسير الطبري (٢٧/ ٧٨) : «وإنما مثل لعاد بن إرم : عاد الأولى ، لأن بنى لقيم بن هزال بن هزيل بن عبيل بن ضد بن عاد الأكبر ، كانوا أيام أرسل اللّه تعالى على عاد الأكبر عذابه ، سكانا بمكة مع إخوانهم من العمالقة».

(٣) عند تفسير الآية السادسة من سورة الفجر ، وانظر تفسير أبى السعود ٩/ ١٥٤.

(٤) للشيخ ابن عجيبة - رحمه اللّه تعالى - مؤلف فى القراءات ، سماه «الدرر المتناثرة فى توجيه القراءات المتواترة» وهو كما يقول ابن عجيبة فى الفهرسة : تأليف يشتمل على آداب القراءة والتعريف بالشيوخ العشرة ، ورواتهم ، وتوجيه قراءة كلّ واحد منهم ، وفيه عشرون كراسة. انظر الفهرسة/ ٣٨.

(٥) أثبت المفسر قراءة «ثمودا» بالتنوين ، وقرأ عاصم وحمزة ويعقوب بغير تنوين. والباقون بالتنوين. انظر الإتحاف (٢/ ٥٠٣).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥١٨

أَزِفَتِ الْآزِفَةُ أي : قربت الساعة الموصوفة بالقرب فى قوله : اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ «١» ، وفى ذكرها بعد إنذارهم إشعار بأنّ تعذيبهم مؤخر إلى يوم القيامة ، لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ أي : ليس لها نفس مبيّنة وقت قيامها إلّا اللّه تعالى ، وهذا كقوله : لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ «٢» أو : ليس لها نفس قادرة على كشف أهوالها إذا وقعت إلا اللّه تعالى ، فيكشفها عمن شاء ، ويعذّب بها من شاء.

ولمّا استهزؤوا بالقرآن ، الناطق بأهوال القيامة ، نزل قوله تعالى : أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ إنكارا ، وَتَضْحَكُونَ استهزاء ، وَلا تَبْكُونَ خشوعا ، وَأَنْتُمْ سامِدُونَ غافلون ، أو : لاهون لاعبون ، وكانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء ليشغلوا النّاس عن استماعه ، فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ولا تعبدوا معه غيره ، من اللات والعزى ومناة الشعرى ، وغيرها من الأصنام ، أي : اعبدوا رب الأرباب ، وسارعوا له ، رجاء فى رحمته. والفاء لترتيب الأمر بالسجود على بطلان مقابلة القرآن بالإنكار والاستهزاء ، ووجوب تلقيه بالإيمان والخضوع والخشوع ، أي : إذا كان الأمر كذلك فاسجدوا للّه الذي أنزله واعبدوه.

الإشارة : وأنّ إلى ربك المنتهى ، انتهى سير السائرين إلى الوصول إلى اللّه ، والعكوف فى حضرته. ومعنى الوصول إلى اللّه : العلم بأحدية وجوده ، فيمتحي وجود العبد فى وجود الرّب ، وتضمحل الكائنات فى وجود المكوّن ، فتسقط شفعية الأثر ، وتثبت وترية المؤثّر ، كما قال القائل :

وبروح وراح عاد شفعي وترى

وقال آخر : فلم يبق إلا اللّه لم يبق كائن فما ثمّ موصول ولا ثم بائن

بذا جاء برهان العيان ، فما أرى بعينيّ إلا عينه إذ أعاين

إلى غير ذلك مما غنّوا به من أذواقهم ووجدانهم.

ثم قال تعالى : (و أنه هو أضحك وأبكى) أي : قبض وبسط ، أو : أنه أضحك أرواحا بكشف الحجاب ، وأبكى نفوسا بذل الحجاب ، أو : أضحك إذا تجلى بصفة الجمال ، وأبكى إذا تجلى بصفة الجلال ، وأنه هو أمات قلوبا بالجهل والغفلة ، بمقتضى اسمه القهّار ، وأحيا قلوبا بالعلم والمعرفة ، بمقتضى اسمه الغفار ، أو : أمات نفوسا عن شهواتها الفانية ، وأحيا بسبب ذلك أرواحا بكمال المعرفة ، فاتصفت بالأوصاف الرّبانية ، أو : أمات أرواحا بغلبة ظلمة النّفس واستيلائها عليها ، وأحيا نفوسا باستيلاء الأرواح عليها ، وغلبة نورها ، فحييت وانقلبت روحا. وأنه خلق الزوجين ، أي : الصنفين الذكر والأنثى ، الحس والمعنى ، الحقيقية والشريعة ، القدرة والحكمة ، كما تقدم. وقال القشيري : الروح

---

(١) الآية الأولى من سورة القمر.

(٢) من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥١٩
كأنها ذكر موصوفة بصفة الفاعلية ، والنّفس أنثى موصوفة بصفة القابلية ، لتحصل نتيجة القلب ، بحصول المطالب الدنيوية والأخروية. هـ. مختصرا. وقال بعضهم : والشيطان كالذكر ، والنّفس كالأنثى ، يتولد بينهما المعصية. هـ.
وأنّ عليه النّشأة الأخرى ، وهو بعث الأرواح من موت الغفلة ، وحشرها إلى موقف المراقبة والمحاسبة ، ثم إدخالها جنة المعارف ، فلا تتشاق إلى جنة الزخارف أبدا ، أو : النشأة الأخرى : الجذب بعد السلوك ، والفناء بعد البقاء ، ثم البقاء بعد الفناء ، البقاء الأول بوجود النّفس ، والثاني باللّه. وأنه هو أغنى به بوصول العبد إلى مشاهدته ، وأفنى بأن مكّنه منه فزاد غناه. وطبّل على ماله ، وأنه هو ربّ الشّعرى ، وهو كلّ ما عبد من الهوى والدنيا ، فكيف يعبد المربوب اللئيم ، ويترك الرّب الكريم؟! وأنه أهلك عادا الأولى النفوس المتفرعنة ، والأهوية المغوية ، أرسل عليهم ريح الهداية القوية ، حتى اضمحلت وخضعت لمولاها ، وثمود الخواطر ، فما أبقى منها إلا خواطر الخير ، التي تأمر بالخير ، وقوم نوح من القواطع الأربعة النفس ، والشيطان ، والنّاس ، والدنيا ، فطعنهم عن المتوجه من قبل ، أي : من قبل أن يتوجه إلينا ، لما سبق فى علمنا أنهم كانوا هم أظلم وأطغى من بقية العلائق ، والنّفس المؤتفكة ، أي :
المنقلبة عن التوجه ، أهوى بها فى أسفل سافلين ، باعتبار أهل عليين ، فغشّاها من الدنيا ومن الخواطر والهموم والغموم ، ما غشّى.
فإذا سلمت أيها العبد من هؤلاء القواطع والعلائق ، وتوجهت إلى مولاك ، فبأى آلاء ربك تتمارى؟ بل الواجب عليك أن تشكر اللّه آناء الليل والنّهار. هذا الذي أخذ بيدك نذير من النّذر الأولى ، المتقدمين الداعين إلى اللّه فى كل زمان ، أزفت الآزفة ، أي : قربت ساعة الفتح حين توجهت وانقطعت عنك العلائق ، ووجدت من يدخلك بحر الحقائق ، ليس لها من دون اللّه كاشفة ، لا يشكف لك هذه الحقائق إلا الذي منّ عليك بصحبة من يدلك عليه. قال القشيري : أزفت الآزفة : قربت الحقيقة الموصوفة بالقرب والدنو ، وأنت أيها السالك في عينها ، وما لك بها شعور ، لفنائك فى أوصافك النّفسانية «١». هـ. مختصرا. أفمن هذا الحديث العجيب ، والغزل الرّقيق الغريب ، تعجبون ، إنكارا ، وتضحكون استهزاء؟ قلت : وقد رأيت كثيرا ممن ينكر الإشارة ، ويستهزئ بها ، ويتنكب مطالعتها ، وقد قيل :
من كره شيئا عاداه. ولا تبكون على أنفسكم ، حيث حرمت من هذه المواهب ، وأنتم سامدون غافلون لاهون ، للدنيا طالبون ، فاسجدوا للّه واعبدوا ، وتضرعوا إليه ، حتى يخرجكم من سجن هواكم

ونفوسكم.

وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) لم أقف على هذا النّص أو على معناه فى لطائف الإشارات.

سورة القمر

مكية كلها عند الجمهور ، وقيل : إلّا قوله : سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ... إلخ. وهى خمسون آية ، ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : أَزِفَتِ الْآزِفَةُ «١» وهى التي أخبر عنها بقوله :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤)

حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)

يقول الحق جل جلاله : اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ قربت القيامة ، قال القشيري : ومعنى قربها : أنّ ما بقي من الزمان إلى القيامة قليل بالإضافة إلى ما مضى. هـ. قال ابن عطية : وأمرها مجهول التحديد ، وكلّ ما يروى من التحديد فى عمر الدنيا فضعيف. هـ. وَانْشَقَّ الْقَمَرُ نصفين ، وقرىء : و«قد انشقّ القمر» ، أي : اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أنّ القمر قد انشقّ ، كما تقول : أقبل الأمير ، وقد جاء البشير بقدومه.

قال ابن مسعود رضي اللّه عنه : انشق القمر على عهد النّبى صلّى اللّه عليه وسلم فرقتين ، فكانت إحداهما فوق الجبل ، والأخرى أسفل من الجبل ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «اشهدوا» «٢». قال ابن عباس : إنّ المشركين قالوا للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : إن كنت صادقا فشق لنا القمر فلقتين ،

فقال : «إن فعلت أتؤمنون؟» فقالوا : نعم ، وكانت ليلة بدر ، فسأل صلّى اللّه عليه وسلم ربه فانشق فرقتين ، نصف على أبى قبيس ، ونصف على قعيقعان «٣». وقيل : سألوا آية مجملة ، فأراهم انشقاق القمر «٤». قال ابن عطية : وعليه الجمهور ، يعنى عدم التعيين.

---

(١) الآية ٥٧ من سورة النّجم.

(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير ، تفسير سورة القمر ، باب وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب انشقاق القمر ، ح ٢٨٠٠). [.....]

(٣) ذكره القرطبي فى تفسيره (٧/ ٦٤٨٣). وقعيقعان : جبل بمكة. انظر اللسان (قعع ٥/ ٣٦٩٦).

(٤) أخرجه البخاري فى (مناقب الأنصار ، باب انشقاق القمر ح ٣٨٦٨) عن أنس بن مالك.

(٥/٥٢١)

وفى صحيح مسلم : أنه انشق مرتين «١» ، وصرح فى شرح المواقف بأن انشقاقه متواتر. هـ. وقيل : معناه انشق ، أي : ينشق يوم القيامة ، وهو ضعيف ، ولا يقال : لو انشقّ لما خفى على أهل الأقطار ، ولو ظهر عندهم لنقل متواترا لأن الطباع جبلت على نشر العجائب ، لأنه يجوز أن يحجبه اللّه عنهم بغيم أو غيره ، مع أنه كان ليلا ، وجلّ النّاس نائمون ، وأيضا : عادة اللّه - تعالى - فى معجزاته أنه لا يراها إلّا من ظهرت لأجله فى الغالب.

تنبيه : قال القسطلاني فى المواهب اللدنية : ما يذكره بعض القصاص أن القمر دخل فى جيب النّبى صلّى اللّه عليه وسلم وخرج من كمه ، ليس له أصل ، كما حكاه الزركشي عن شيخه العماد ابن كثير. هـ.

وَإِنْ يَرَوْا أي : أهل مكة آيَةً تدل على صدق رسوله صلّى اللّه عليه وسلم يُعْرِضُوا عن الإيمان وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ محكم شديد قوىّ ، من : المرّة ، وهى القوة ، أو : دائم مطّرد. روى : أنه لما انشق قالوا : هذا سحر ابن أبى كبشة؟ فسلوا السّفار ، فلما قدموا سألوهم ، فقالوا : إنهم قد رأينه ، فقالوا : قد استمر سحره فى البلاد ، فنزلت «٢». قال البيضاوي : دل قوله : (مستمر) على أنهم رأوا قبله آيات أخرى مترادفة ، ومعجزات سابقة. هـ. أو : مستمر ذاهب ومارّ ، يزول ولا يبقى ، من : مرّ الشيء واستمر : ذهب.

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ الباطلة ، وما زيّن لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره ، حتى قالوا : سحر القمر ، أو : سحر أعيننا ، وَكُلُّ أَمْرٍ وعدهم اللّه به مُسْتَقِرٌّ كائن فى وقته ، أو : كل أمر قدر واقع لا

محالة يستقر فى وقته ، أو : كل أمر من الخير والشر يقع بأهله من الثواب والعقاب ، وقرىء «مستقر» بالجر «٣» ، فيعطف على «الساعة» ، أي : اقتربت الساعة وكلّ أمر مستقر ، يعنى : أشراطها.
وَلَقَدْ جاءَهُمْ أي : أهل مكة فى القرآن مِنَ الْأَنْباءِ من أخبار القرون الماضية ، وكيف أهلكوا بالتكذيب ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ أي : ازدجار عن الكفر والعناد ، يقول : زجرته وازدجرته ، أي : منعته ، وأصله : ازتجر ، افتعل ، من الزجر ، ولكن التاء إذا وقعت بعد زاى ساكنة أبدلت دالا لأن التاء حرف مهموس ، والزاى حرف مجهور.
فأبدل من التاء حرف مجهور ، وهو الدال ليناسب الميم.

---

(١) أخرجه مسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب انشقاق القمر ح ٢٨٠٢) عن قتادة.
(٢) أخرجه الطبري (٢٧/ ٨٥) وعزاه السيوطي فى الدر (٦/ ١٧٦) لابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبى نعيم ، والبيهقي ، كلاهما فى الدلائل ، عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.
(٣) قرأ أبو جعفر «مستقر» بخفض الرّاء ، صفة ، ورفع (كل) حينئذ بالعطف على «الساعة» ، وقيل : بالابتداء والخبر ، أي : وكلّ أمر مستقر لهم فى القدر بالغوه. وقرأ الباقون بالرفع ، خبر «كل». انظر الإتحاف (٢/ ٥٠٥).

(٥/٥٢٢)

حِكْمَةٌ بالِغَةٌ : بدل من «ما» ، أو : خبر ، أي : هو حكمة بالغة ناهية فى الرّشد والصواب ، أو : بالغة من اللّه إليهم. قال القشيري : والحكمة البالغة الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن فكّر فيها. هـ. قال المحلى : وصفت بالبلاغة لأنها تبلغ من مقصد الوعظ والبيان ما لا يبلغ غيرها هـ. فَما تُغْنِ النُّذُرُ شيئا ، حيث سبق القدر بكفرهم ، و«ما» نافية ، أو استفهامية منصوبة ب «تغن» ، أي : فأىّ إغناء تغنى النّذر مع سابق القدر؟ والنّذر : جمع نذير ، وهم الرّسل ، أو : المنذر به ، أو : مصدر بمعنى الإنذار ، والتعبير بالمضارع للدلالة على تجدد عدم الإغناء ، واستمراره حسب تجدد مجىء الزواجر واستمرارها.
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ لعلمك بأنّ الإنذار لا يغنى فيهم شيئا ، واذكر يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ «١» وهو إسرافيل عليه السّلام إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ أي : منكر فظيع ، تنكره النّفوس ، لعدم العهد بمثله ، وهو هول القيامة. خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ ، ف «خشعا» : حال من فاعل «يخرجون» ، أي : يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ أذلة أبصارهم من شدة الهول لأن ذلة الذليل وعزة العزيز يظهرن فى أعينهما ، ومن قرأ : «خاشعا» «٢» فوجهه : أنه أسند إلى ظاهر ، فيجب تجريده كالفعل ، وأما من قرأ بالجمع ، فهو على لغة : «أكلونى

البراغيث» ، كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ فى الكثرة والتموّج والتفرق فى الأقطار. قال ابن عطية : فى الحديث : أن مريم دعت للجراد فقالت : اللهم أعشها بغير رضاع ، وتتابع بينها بغير شباع. هـ.
ثم وصف خروجهم من القبور ، فقال : مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ مسرعين مادى أعناقهم إليه ، أو ناظرين إليه ، يَقُولُ الْكافِرُونَ استئناف بيانى ، وقع جوابا عما نشأ من وصف اليوم بالأهوال ، وأهله بسوء الحال ، كأنّ قائلا قال : فما ذا يكون حينئذ؟ فقال : يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ صعب شديد. وفى إسناد هذا القول إلى الكفار تلويح بأنّ المؤمنين ليسوا فى تلك المرتبة. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : اقتربت ساعة الفتح لمن جدّ فى السير ، ولازم صحبة أهل القرب ، قال القشيري : الساعة ساعتان كبرى ، وهى عامة ، وصغرى ، وهى خاصة بالنسبة إلى السالك إلى اللّه ، برفع الأوصاف البشرية ، وقطع العلائق الطبيعية. ثم قال : وإليه الإشارة بقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «من مات فقد قامت قيامته» «٣» راجعة إلى الساعة الصغرى. هـ. أي :

---

(١) أثبت المصنف الياء فى «الداع إلى» وهى قراءة ورش وأبى عمرو وأبى جعفر ، وصلا ، والبزي ويعقوب فى الحالين. وقرأ الباقون بغير ياء وصلا ووقفا. انظر السبعة/ ٦١٧ والإتحاف ٢/ ٥٠٥.
(٢) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب «خاشعا» بفتح الخاء وألف بعدها وكسر الشين مخففة ، بالإفراد. وقرأ الباقون «خشعا» بضم الخاء وفتح الشين وتشديدها بلا ألف. انظر الإتحاف (٢/ ٥٠٦).
(٣) قال العراقي فى المغني ٤/ ٦٧ : «أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت ، من حديث أنس ، بسند ضعيف» وكذا قال الشوكانى فى الفوائد المجموعة (ص ٢٦٧) وزاد : «وهو من قول الفضيل بن عياض رحمه اللّه تعالى» وأخرجه الديلمي ، الفردوس بمأثور الخطاب (ح ١١١٧) عن أنس بلفظ : «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته ...» الحديث. وانظر كشف الخفاء (ح/ ٢٦١٨).

من مات عن رؤية نفسه قامت قيامته بلقاء ربه وشهوده. وقوله تعالى : وَانْشَقَّ الْقَمَرُ أي : قمر الإيمان فإنه إذا أشرقت عليه شمس العيان ، لم يبق لنوره أثر ، ليس الخبر كالعيان ، وإن يروا - أي : أهل الغفلة والحجاب - آية تدل على طلوع شمس العيان على العبد المخصوص ، يعرضوا منكرين ، وَيَقُولُوا : هذا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ .. الآية ، وكلّ أمر قدّره الحق - تعالى فى الأزل ، من أوقات الفتح أو غيره ، مستقر ، يستقر ويقع فى وقته ، لا يتقدم ولا يتأخر ، فلا ينبغى للمريد أن يستعجل الفتح قبل إبانه ،

فربما عوقب بحرمانه ، ولقد جاءهم من الأخبار عن منكرى أهل الخصوصية ، وما لحق أهل الانتقاد من الهلاك أو الطرد والبعد ما فيه مزدجر ، كما فعل بابن البراء وأمثاله ، حكمة من اللّه بالغة ، وسنة ماضية ، يقول : «من آذى لى وليّا فقد آذن بالحرب» فما تغن النّذر إذا سبق الخذلان ، فتولّ أيها السالك عنهم ، وعن خوضهم ، واشتغل باللّه عنهم فسيكفيكهم اللّه وهو السميع العليم ، واذكر الموت وما بعده ، فإنه حينئذ يظهر عز الأولياء ، وذل الأغبياء ، يقولون : هذا يوم عسر على من طغى وتجبر.

ثم سرد قصص الأنبياء ، تسلية لرسوله صلّى اللّه عليه وسلم - وتفسيرا لقوله : وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ فقال :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٩ الى ١٧]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ (١٣)

تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ أي : قبل أهل مكة قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا نوحا عليه السّلام. ومعنى تكرار التكذيب : أنهم كذّبوا تكذيبا عقب تكذيب ، كلما خلا منهم قرن مكذّب ، جاء عقبه قرن آخر مكذّب مثله ، وقيل : كذبت قوم نوح الرّسل ، (فكذّبوا عبدنا) لأنه من جملتهم. وفى ذكره عليه السّلام بعنوان العبودية مع إضافته لنون العظمة تفخيم له عليه السّلام ورفع لمحله ، وزيادة تشنيع لمكذّبيه ، وَقالُوا مَجْنُونٌ أي : لم يقتصروا على مجرد التكذيب ، بل نسبوه للجنون ، وَازْدُجِرَ أي : زجر عن أداء الرّسالة بالشتم ، وهدّد بالقتل ، أو : هو من جملة قولهم ، أي : قالوا : هو مجنون وقد ازدجرته الجن ، أي : تخبّطته وذهبت بلبه.

فَدَعا رَبَّهُ حين أيس منهم أَنِّي مَغْلُوبٌ أي : بأنى مغلوب من جهة قومى ، بتسليطهم علىّ ، فلم يسمعونى ، واستحكم اليأس من إجابتهم. قال القشيري : مغلوب بالتسلط لا بالحجة ، إذ الحجة كانت له. هـ.

وهذا جار فيمن لم يستجب لك ، تقول : غلبنى. ثم دعا عليهم بقوله : فَانْتَصِرْ فانتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم ، وذلك بعد تحقق يأسه منهم وعظم إذايتهم. فقد روى أن الواحد منهم كان يلقاه فيضربه حتى يغشى عليه ، فيقول :

اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون.

فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ منصب بكثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوما ، قال يمان : حتى طبق بين السماء والأرض «١» ، وقيل : كانوا يطلبون المطر سنين ، فأهلكوا بمطلوبهم. وفتح الأبواب كناية عن كثرة الأمطار ، وشدة أنصابها ، وقيل : كان فى السماء يومئذ أبواب حقيقة.

وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر ، وهو أبلغ من قولك : وفجرنا عيون الأرض ، ومثله : وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً «٢» فى إفادة العموم والشمول ، فَالْتَقَى الْماءُ أي : مياه السماء ومياه الأرض ، وقرىء : «الماءان» «٣» ، أي : النوعان من الماء السمائى والأرضى. عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ أي : قضى فى أم الكتاب ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ، أو : قدر أنّ الماءين يكون مقدارهما واحدا من غير تفاوت. قيل : كان ماء السماء باردا كالثلج ، وماء الأرض مثل الحميم ، ويقال : إنّ الماء الذي نبع من الأرض نضب ، والذي نزل من السماء بقي حارا.

وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ أي : أخشاب عريضة ، والمراد : السفينة ، وهى من الصفات التي تقوم مقام موصوفها كالشرح له ، وهو من فصيح الكلام ومن بديعه ، وَدُسُرٍ ومسامير ، جمع : دسار ، وهو المسمار ، فعال من : دسره : إذا دفعه لأنه يدسر به منفذه. تَجْرِي بِأَعْيُنِنا أي. بمرأىّ منا ، أو : بحفظنا ، وهو حال من فاعل «تجرى» ، أي : تجرى محفوظة جَزاءً مفعول له ، أي : فعلنا ذلك جزاء لِمَنْ كانَ كُفِرَ وهو نوح عليه السّلام ، وجعله مكفورا لأن النّبى نعمة من اللّه ورحمة ، فكان نوح نعمة مكفورة. وقرأ مجاهد بفتح الكاف ، أي : عقابا لمن كفر باللّه. قيل : ما نجا من الغرق إلّا عوج بن عنق ، كان الماء إلى حجزته «٤» ، وسبب نجاته : أنّ نوحا احتاج إلى

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره ٧/ ٤٢٨.

(٢) من الآية ٤ من سورة مريم.

(٣) عزاها فى مختصر ابن خالويه ، وزاد فى البحر المحيط (٨/ ١٧٥) علىّ والحسن ومحمد بن كعب.

(٤) الحجزة : موضع التكة من السروال.

خشب الساج للسفينة ، فلم يمكنه نقلها ، فحمل عوج تلك الخشب إليه من الشام ، فشكر اللّه له ذلك ، ونجّاه من الغرق.

قاله الثعلبي «١». قلت : وقد تقدم إبطاله فى سورة العقود «٢» ، وأنه من وضع الزنادقة. ذكره القسطلاني.

وَلَقَدْ تَرَكْناها أي : السفينة ، أو : الفعلة ، أي : جعلناها آيَةً يعتبر بها من يقف على خبرها. وعن قتادة : أبقاها اللّه بأرض الجزيرة ، وقيل : على الجودىّ ، حتى رآها أوائل هذه الأمة «٣». فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ من متعظ يتعظ ويعتبر ، وأصله : مذتكر ، فأبدلت التاء دالا مهملة ، وأدغمت الذال فيها لقرب المخرج ، فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ؟! استفهام تعظيم وتعجيب ، أي : كان عذابى وإنذارى لهم على هيئة هائلة ، لا يحيط بها الوصف ، والنّذر :

جمع نذير ، بمعنى الإنذار.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ أي : سهّلناه للادّكار والاتعاظ بأن شحنّاه بأنواع المواعظ والعبر ، وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد ما فيه شفاء وكفاية. فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟ إنكار ونفى للمتعظ على أبلغ وجه ، أي : فهل من متعظ يقبل الاتعاظ ، وقيل : ولقد سهّلناه للحفظ ، وأعنّا من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه؟ قال القشيري : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ يسّر قراءته على ألسنة قوم ، وعلمه على قوم ، وفهمه على قلوب قوم ، وحفظه على قلوب قوم ، وكلهم أهل القرآن ، وكلهم أهل اللّه وخاصته. ويقال : كاشف الأرواح من قوم قبل إدخالها فى الأجساد ، فهل من مدكر يذكر العهد الذي جرى لنا معه؟. هـ.

ويروى : أن كتب أهل الأديان من التوراة فى الإنجيل والزبور لا يتلوها أهلها إلا نظرا ، ولا يحفظونها ظاهرا كالقرآن ، وفى القوت : مما خصّ اللّه به هذه الأمة ثلاثة أشياء : حفظ كتابنا هذا ، إلا ما ألهم اللّه عزيزا من التوراة بعد أن كان بختنصّر أحرق جميعها ، ومنها : تبقية الإسناد فيهم ، يأثره خلف عن سلف ، متصلا إلى نبينا صلّى اللّه عليه وسلم ، وإنما كانوا يستنسخون الصحف ، كلما خلقت صحيفة جددت ، فكان ذلك أثرة العلم فيهم ، والثالثة : أن كان مؤمن من هذه الأمة يسئل عن علم الإيمان ، ويسمع قوله مع حداثة سنه ، ولم يكن مما مضى يسمعون العلم إلا من الأحبار والقسيسين والرّهبان. وزاد رابعة : وهى ثبات الإيمان فى قلوبهم ، لا يعتوره شك ، ولا يختلجه شرك ، مع تقليب الجوارح فى المعاصي. وقد قال قوم موسى : اجْعَلْ لَنا إِلهاً «٤» بعد أن رأوا الآيات العظيمة ، من انفلاق البحر وغيره. هـ. قال أبو السعود : وحمل تيسيره على حفظه لا يساعده المقام. هـ.

---

(١) وذكره القرطبي فى تفسيره (٧/ ٦٤٨٩).

(٢) لم يذكر الشيخ شيئا عن عوج بن عنق فى تفسير سورة المائدة. وقد ولع بعض المفسرين بذكر قصة عوج عند تفسير قوله تعالى :

قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها المائدة/ ٢٢. وقد بين العلماء زيف ما نقل فى هذه القصة. راجع فى هذا ، الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبى شهبة/

١٨٦. [.....]
(٣) أخرجه ابن جرير (٢٧/ ٩٥) وعزاه السيوطي فى الدر (٦/ ١٨٠) لعبد الرّزّاق وعبد بن حميد وابن المنذر.
(٤) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.

(٥/٥٢٦)

الإشارة : فى الآية تسلية لمن أوذى من الأولياء ، وإجابة الدعاء على الظالم ، لهم إن [أذن] «١» لهم فى ذلك بإلهام أو هاتف ، وإلّا فالصبر أولى ، وجعل القشيري نوحا إشارة إلى القلب ، وقومه جنود النّفس ، من الهوى والدنيا وسائر العلائق ، فيكون التقدير : كذبت النّفس وجنودها القلب ، فيما يرد عليه من تجليات الحق ، وكشوفات الغيب ، وقالوا : إنما هو مجنون فيما يخبر به ، فزجرته ، ومنعته من تلك الواردات الإلهية بظلمات شهواتها ، فدعا ربه وقال :
أني مغلوب فى يد النّفس وجنودها ، فانتصر لى حتى تغيبنى عنهم ، ففتحنا أبواب سماء الغيب بأمطار الواردات الإلهية القهّارية ، لتمحق تلك الظلمات النّفسانية ، وفجرنا أرض البشرية بعلوم آداب العبودية ، فالتقى ماء الواردات ، التي هى من حضرة الرّبوبية ، مع ماء علوم العبودية ، على أمر قد قدر أنه ينصر القلب ، ويرقيه إلى حضرة القدس ، وحملناه على سفينة الجذب والعناية ، تجرى بحفظنا ، جزاء لنعمة القلب التي كفرت به النّفس وجنودها ، ولقد تركنا هذه الفعلة آية يعتبر بها السائرون إلينا ، والطالبون لنا ، فهل من مدكر؟ فكيف كان عذابى لمن استولت عليه النّفس وجنودها؟ وكيف كان إنذارى من غم الحجاب ، وسوء الحساب ، ولقد يسّرنا القرآن للذكر للاتعاظ ، فهل من مدكر ، فينهض من غفلته إلى مولاه؟.
ثم ذكر قصة عاد ، فقال :
[سورة القمر (٥٤) : الآيات ١٨ الى ٢٢]
كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢)
يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ عادٌ هودا عليه السّلام ، فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ؟! أي : وإنذارى لهم بالعذاب قبل نزوله ، والاستفهام لتوجيه قلوب السامعين للإصغاء إلى ما يلقى إليهم قبل ذكره لتهويله وتعظيمه ، وتعجيبهم من حاله قبل بيانه ، كما قبله وما بعده ، كأنه قيل : كذبت عاد فهل سمعتم ما حلّ

بهم؟ أو : فاسمعوا ، فكيف كان عذابى وإنذارى لهم.
ثم بيّن ما أجمل فقال : إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً باردة أو : شديدة الصوت فِي يَوْمِ نَحْسٍ شؤم مُسْتَمِرٍّ شؤمه عليهم إلى أن أهلكهم ، وكان فى أربعاء آخر شوال ، تَنْزِعُ النَّاسَ أي : تقلعهم ، وجاء بالظاهر

---

(١) فى الأصول [أوذن].

(٥٢٧/٥)

مكان المضمر ليشمل ذكورهم وإناثهم ، صغيرهم وكبيرهم. روى : أنهم كانوا يتداخلون الشّعاب ، ويحفرون الحفر ، ويندسون فيها ، ويمسك بعضهم ببعض فتزعجهم الرّيح ، وتصرعهم موتى.
قال ابن إسحاق : ولمّا هاجت عليهم الرّيح ، قام سبعة نفر من عاد [فأولجوا]«
العيال فى شعب بين جبلين ، ثم اصطفوا على باب الشعب ، ليردوا الرّيح عنهم ، فجعلت الرّيح تجعفهم «٢» رجلا رجلا. هـ. ثم صاروا بعد موتهم كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ أي : أصول نخل منقلع من مغارسه ، وشبهوا بأعجاز النّخلة ، وهى أصولها التي قطعت رؤوسها لأنّ الرّيح كانت تقطع رؤوسهم ، فتبقى أجسادا بلا رؤوس ، فيتساقطون على الأرض أمواتا ، وهم جثث طوال. وتذكير صفة النّخل بالنظر إلى اللفظ ، كما أن تأنيثه فى قوله تعالى : أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ «٣» بالنظر للمعنى. فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ؟! تهويل وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما ، فليس فيه شائبة تكرار ، وما قيل :
من أن الأول لما حاق بهم فى الدنيا ، والثاني لما يحيق بهم فى الآخرة ، يرده ترتيب الثاني على العذاب الدنيوي.
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟! وفى تكريره بعد كلّ قصة تنبيه على أن إيراد قصص الأمم إنما هو للوعظ والتذكار ، وللانزجار عن مثل فعلهم ، لا لمجرد السماع والتلذذ بأخبارهم ، كما هى عادة القصاص.
الإشارة : من شأن النّفوس العاتية المتجبرة العادية تكذيب أهل الخصوصية كيفما كانوا ، ولا ترضى بحط رأسها لمن يدعوها إلى ربها ، فيرسل اللّه عليهم ريح الهوى والخذلان ، فتصرعهم فى محل الذل والهوان ، وتتركهم عبيدا لنفوسهم الخسيسة ، وللدنيا الدنية ، فكيف كان عذابى لهؤلاء وإنذارى لهم؟!.
ولقد يسرنا القرآن للذكر ، وبيّنا فيه ما فعلنا بأهل التكبر والعناد من الإهانة والطرد والإبعاد ، فهل من مدكر ، يتيقظ من سنة غفلته ، ويرحل من دنياه لآخرته ، ومن نفسه إلى ربه؟.

ثم ذكر قصة ثمود ، فقال :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٢٣ الى ٣٢]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقالُوا أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧)

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢)

---

(١) فى الأصول : [فألجوا].

(٢) تجعفهم : تصرعهم.

(٣) من الآية ٧ من سورة الحاقة.

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ بصالح عليه السّلام لأنّ من كذّب واحدا فقد كذّب الجميع لاتفاقهم فى الشرائع ، أو : كذّبوا بالإنذارات والمواعظ التي يسمعونها من صالح ، فَقالُوا أَبَشَراً مِنَّا أي : كائنا من جنسنا ، وانتصابه بفعل يفسره «نتبعه» أي : أنتبع بشرا منا واحِداً منفردا لا تباعة له؟ أو : واحدا من النّاس لا شرف له نَتَّبِعُهُ وندع ديننا؟ إِنَّا إِذاً أي : على تقدير اتباعنا له ، وهو مفرد ونحن أمة جمة لَفِي ضَلالٍ عن الصواب وَسُعُرٍ نيران تحرق ، جمع «سعير». كان صالح يقول لهم : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق ، وصرتم إلى سعير ، ونيران تحرق ، فعكسوا عليه ، لغاية عتوهم ، وقالوا : إن اتبعناك كنا كما تقول.

وقيل : المراد بالسعر : الجنون ، لأنها تشوه صاحبها ، أنكروا أن يكون الرّسول بشرا ، وطلبوا أن يكون من الملائكة ، وأنكروا أن تتبع أمة واحدا ، أو : رجلا لا شرف له فى زعمهم ، حيث لم يتعاط معهم أسباب الدنيا. ويؤيد التأويل الثاني قولهم : أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ أي : الوحى عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ أي. بطر متكبر ، حمله بطره وطلبه التعظيم علينا على ادعائه ذلك. قال تعالى : سَيَعْلَمُونَ غَداً أي : عن قريب ، وهو عند نزول العذاب بهم ، أو يوم القيامة ، مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ أصالح أم من كذّبه؟ وقرأ الشامي وحمزة بتاء الخطاب ، على حكاية ما قاله صالح مجيبا لهم. إِنَّا

مُرْسِلُوا النَّاقَةِ باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا ، فِتْنَةً لَهُمْ ابتلاء وامتحانا لهم ، مفعول له ، أو : حال ، فَارْتَقِبْهُمْ فانتظرهم وتبصّر ما هم صانعون وَاصْطَبِرْ على أذاهم ، ولا تعجل حتى يأتيك أمرى.

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ مقسوم بينهم ، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم ، وقال : «بينهم» تغليبا للعقلاء.

كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ محضور ، يحضر القوم الشرب يوما ، وتحضر النّاقة يوما ، فَنادَوْا صاحِبَهُمْ قدار بن سالف ، حمير ثمود ، فَتَعاطى فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم ، غير مكترث به ، فَعَقَرَ الناقة ، ، أو : فتعاطى النّاقة فعقرها ، أو : تعاطى السيف فقتلها ، والتعاطي : تناول الشيء بتكلف. وقال أبو حيان : هو مضارع عاطا ، وكأنّ هذه الفعلة تدافعها النّاس بعضهم بعضا ، فتعاطاها قدار وتناول العقر بيده. هـ.

(٥٢٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٣٠

فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ ، إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ فى اليوم الرّابع من عقرها ، صَيْحَةً واحِدَةً صاح بهم جبريل عليه السّلام فَكانُوا فصاروا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ كالشجر اليابس الذي يجده من يعمل الحظيرة ، فالهشيم :

الشجر اليابس المتكسر ، الذي يبس من طول الزمان ، وتتوطّؤه البهائم فيتحطّم ويتهشّم ، والمحتظر : الذي يعمل الحظيرة. قال ابن عباس : «هو الرّجل يجعل لغنمه حظيرة من الشجر والشوك ، فما يسقط من ذلك ودرسته الغنم فهو هشيم» «١» شبههم فى تبددهم ، وتفرق أو صالهم ، بالشوك الساقط على الأرض ، وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ فيتعظ بما يسمع من هذه القصص.

الإشارة : سبب إنكار النّاس على أهل الخصوصية ظهور وصف البشرية عليهم ، ولا يلزم من وجود الخصوصية عدم وصف البشرية ، ووصف البشرية على قسمين :

قسم لازم ، لا تنفك العبودية عنه ، كالأكل والشرب والنّوم والنّكاح ، وغيرها من الأوصاف الضرورية ، وهذه هى التي تجامع الخصوصية وبها سترت ، واحتجبت حتى أنكرت ، فوجودها فى العبد كمال لأنها صوان لسر الخصوصية. قال فى الحكم : «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية ، وظهر بعظمة الرّبوبية فى إظهار العبودية». وقسم عارض يمكن زواله وهى الأوصاف المذمومة ، كالكبر والحسد والحقد ، وحب الدنيا والرّياسة ، وغير ذلك ، فهذا لا تجامعه الخصوصية ، ولا بد من التطهير منه فى وجودها.

وللقشيرى إشارة أخرى ، وحاصلها : كذبت ثمود النفس الأمّارة وجنودها صالح القلب حين دعاها إلى الخروج عن عوائدها ، والتطهر من أوصافها المذمومة ، فقالت النّفس وجنودها : أنتبع واحدا منا ، لأنه

مخلوق مثلنا ، ونحن عصبة؟ إنا إذا لفى ضلال وسعر ، أألقي الذكر الإلهامى عليه من بيننا؟ بل هو كذّاب أشر ، سيعلمون غدا ، حين يقع لهم الرّحيل من عالمهم ، من الكذاب الأشر ، أثمود النّفس وجنودها ، أم صالح القلب؟ إنّا مرسل ناقة النّفس فتنة لهم ، ابتلاء ليظهر الخصوص من العموم ، فارتقبهم ، لعلهم يرجعون إلى أصلهم من النّزاهة والطهارة ، واصطبر فى مجاهدتهم ، ونبئهم أنّ ماء الحياة - وهى الخمرة الأزلية - قسمة بينهم ، من شرب منها صفا ، ومن تنكب عنها أظلم ، كل شرب يحضره من يتأهل له. فنادوا صاحبهم - وهو الهوى - فتعاطى ناقة النّفس ، التي أرادت العروج إلى وطن الرّوح ، فعقرها وردها إلى وطنها الخسيس ، فكيف كان عذابى لها ، وإنذارى إياها؟ إنّا أرسلنا عليهم صيحة القهر ، فسقطوا إلى الحضيض الأسفل ، فكانوا كهشيم المحتظر صاروا أرضيين بعد أن كانوا سماويين. هـ بالمعنى مع تخالف له.

---

(١) انظر تفسير البغوي ٧/ ٤٣١.

ثم قال القشيري : اعلم أن النّفس حقيقة واحدة ، غير متعددة ، لكن بحسب توارد الصفات المتباينة تعددت أسماؤها ، فإذا توجهت إلى الحق توجها كليّا سميت مطمئنة ، وإذا توجهت إلى الطبيعة البشرية توجها كليا سميت أمّارة ، وإذا توجهت إلى الحق تارة ، وإلى الطبيعة أخرى سميت لوّامة. هـ مختصرا.

ثم ذكر قصة لوط ، فقال :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٣٣ الى ٤٠]

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (٣٧)

وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ، وقد تقدم ، إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ أي : على قوم لوط حاصِباً أي : ريحا تحصبهم ، أي : ترميهم بالحصباء ، إِلَّا آلَ لُوطٍ ابنتيه ومن آمن معه ، نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ ملتبسين بسحر من الأسحار ، ولذا صرفه ، وهو آخر الليل ، أو : السدس الأخير منه ، وقيل : هما سحران ، فالسحر الأعلى : قبل انصداع الفجر ، والآخر : عند انصداعه ، نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا أي :

إنعاما منا ، وهو علة لنجّينا ، كَذلِكَ أي : مثل ذلك الجزاء العجيب نَجْزِي مَنْ شَكَرَ نعمتنا بالإيمان والطاعة.

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ لوط بَطْشَتَنا أخذتنا الشديدة بالعذاب ، فَتَمارَوْا فكذّبوا بِالنُّذُرِ بإنذاره متشاكّين فيه ، وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ قصدوا الفجور بأضيافه ، فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فمسخناها وسويناها كسائر الوجه ، أي : صارت وجوههم صفيحة واحدة لا ثقب فيها.

روى أنهم لمّا قصدوا دار لوط ، وعالجوا بابها ليدخلوا ، قالت الرّسل للوط : خلّ بينهم وبين الدخول ، فإنّا رسل ربك ، لن يصلوا إليك. وفى رواية : لمّا منعوا من الباب تسوروا الحائط ، فدخلوا ، فصفعهم جبريل بجناحه فتركهم عميا يترددون ، ولا يهتدون إلى الباب ، فأخرجهم لوط عميا. وقلنا لهم على ألسنة الرّسل ، أو بلسان الحال :

فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ أي : وبال إنذارى ، والمراد به : الطمس فإنه من جملة ما أنذروا به.

وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً أول النّهار عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ لا يفارقهم حتى يسلمهم إلى النّار ، وفى وصفه بالاستقرار إيماء إلى أنّ عذاب الطمس ينتهى إليه ، فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ ، حكاية لما قيل لهم حينئذ من جهته - تعالى - تشديدا للعتاب.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ، قال النّسفى : وفائدة تكرير هذه الآية أن يجدّدوا عند سماع كلّ نبأ من أنباء الأولين ادّكارا واتعاظا إذا سمعوا الحث على ذلك ، وأن يستأنفوا تنبّها واستيقاظا إذا سمعوا الحثّ على ذلك ، وهكذا حكم التكرير فى قوله ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ «١» عند كلّ نعمة عدّها ، وقوله : وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ «٢» عند كلّ آية أوردها ، وكذا تكرير القصص فى أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب ، مصوّرة فى الأذهان ، [مذكّرة] «٣» غير منسيّة فى كلّ أوان. هـ.

الإشارة : قال القشيري : يشير إلى أنّ كلّ من غلبته الشهوة البهيمية - شهوه الجماع - يجب عليه أن يقهر تلك الصفة ، ويكسرها بأحجار ذكر «لا إله إلا اللّه» ، ويعالج تلك الصفة بضدها ، وهو العفة. هـ. فالإشارة بقوم لوط إلى الشهوات الجسمانية ، فقد كذّبت الرّوح حين دعتها إلى مقام الصفا ، ودعتها النّفس بالميل إليها إلى الحضيض الأسفل ، فإذا أراد اللّه نصر عبده أرسل عليها حاصب الواردات والمجاهدات ، فمحت أوصافها الذميمة ، ونقلتها إلى مقام الرّوحانية ، قال تعالى : إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ يعنى الأوصاف المحمودة ، نجيناهم فى آخر ليل القطيعة ، أو : الروح وأوصافها الحميدة ، نجيناها فى وقت النّفحات من التدنس بأوصاف النّفس الأمّارة ، نعمة من عندنا ،

لا بمجاهدة ولا سبب ، كذلك نجزى من شكر نعمة العناية ، وشكر من جاءت على يديه الهداية ، وهم الوسائط من شيوخ التربية. ولقد أنذر الرّوح النّفس وهواها وجنودها بطشتنا : قهرنا ، بوارد قهرى ، من خوف مزعج ، أو شوق مقلق ، حتى يخرجها من وطنها ، فتماروا بالنذر ، وقالوا : لم يبق من يخرجنا من وطننا ، فقد انقطعت التربية ، ولا يمكن إخراجنا بغيرها ، ولقد راودوه عن ضيفه ، راودوا الرّوح عن نور معرفته ويقينه ، بالميل إلى شهوات النّفس فطمسنا أعينهم ، فلم يتمكنوا من رد الرّوح إذا سبقت لها العناية ، فيقال للنفس وجنودها : ذوقوا عذابى ونذرى بالبقاء مع الخواطر والهموم ، ولقد صبّحهم أول نهار المعرفة حين أشرقت شموس العيان عذاب مستقر ، وهو محق أوصاف النّفس ، والغيبة عنها أبدا سرمدا. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) كررت هذه الآية فى سورة الرّحمن إحدى وثلاثين مرة ، المرة الأولى جاءت فى الآية ١٣.
(٢) الآية ١٥ من سورة المرسلات.
(٣) فى النّسفى [مذكورة].

(٥٣٢/٥)

ثم ذكر قوم فرعون ، تعالى :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ موسى وهارون ، جمعهما لغاية ما عالجا فى إنذارهم ، أو : بمعنى الإنذار ، وصدّر قصتهم بالتوكيد القسمي لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات ، وكثرتها ، وهول ما لا قوة من العذاب ، واكتفى بذكر آل فرعون للعلم بأنّ نفسه أولى بذلك ، كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها وهى التسع فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ لا يغالب مُقْتَدِرٍ لا يعجزه شىء.

الإشارة : النفوس الفراعنة ، التي حكمت المشيئة بشقائها ، لا ينفع فيها وعظ ولا تذكير لأنّ الكبرياء من صفة الحق ، فمن نازع اللّه فيها قصمه اللّه وأبعده.

ثم هدد قريشا بما نزل على من قبلهم ، فقال :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٤٣ الى ٤٨]

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ

وَسُعُرٍ (٤٧)
يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)
يقول الحق جل جلاله : أَكُفَّارُكُمْ يا معشر العرب ، أو : يا أهل مكة خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ الكفار المعدودين في السورة قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون ، والمعنى : أنه أصابهم ما أصابهم مع ظهور خيريتهم منكم قوّة وآلة ومكانة في الدنيا ، أو : كانوا أقلّ منكم كفرا وعنادا ، فهل تطمعون ألّا يصيبكم مثل ما أصابهم ، وأنتم شر منهم مكانة ، وأسوأ حالا؟ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ أم نزلت عليكم يا أهل مكة براءة في الكتب المتقدمة : أنّ من كفر منكم وكذّب الرّسول كان آمنا من عذاب اللّه ، فأمنتم بتلك البراءة؟
أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ أي : جماعة أمرنا جميع مُنْتَصِرٌ ممتنع لا نرام ولا نضام ، والالتفات للإيذان باقتضاء حالهم الإعراض عنهم ، وإسقاطهم عن رتبة الخطاب ، وحكاية قبائحهم لغيرهم ، أي : أيقولون واثقين

بشوكتهم : نحن أولوا حزم ورأى ، أمرنا مجتمع لا يقدر علينا ، أو : منتصرون من الأعداء ، لا نغلب ، أو :
متناصرون ، ينصر بعضنا بعضا. والإفراد باعتبار لفظ «جميع».
سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ جمع أهل مكة ، وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ الأدبار. والتوحيد لإرادة الجنس ، أو : إرادة أنّ كل منهم يولّي دبره ، وقد كان كذلك يوم بدر. قال عمر رضي اللّه عنه : لما نزلت : سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ كنت لا أدرى أي جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يلبس الدرع ، ويقول : سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ فعرفت تأويلها «١» ، فالآية مكية على الصحيح. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ أي : ليس هذا تمام عقوبتهم ، بل الساعة موعد أصل عذابهم ، وهذا طلائعه ، وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ أي : أقصى غاية من الفظاعة والمرارة من عذاب الدنيا.
والداهية : الأمر الفظيع الذي لا يهتدى إلى الخلاص منه ، وإظهار الساعة في موضع إضمارها تربية لهولها.
إِنَّ الْمُجْرِمِينَ من الأولين والآخرين فِي ضَلالٍ عن الحق في الدنيا وَسُعُرٍ ونيران تحرق في الآخرة ، أو : لفي هلاك ونيران مسعرة ، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ يجرّون فيها عَلى وُجُوهِهِمْ ويقال لهم :
ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ أي : قيسوا حرها وألمها ، كقولك : وجد مسّ الحمّى ، وذاق طعم الضرب لأن النّار

إذا أصابتهم بحرّها فكأنها تمسهم مسّا بذلك ، و«سقر» غير مصروف للعلمية والتعريف لأنها علم لجهنم ، من : سقرته النّار :

إذا لوّحته.

الإشارة : ما قيل فى منكرى خصوصية النّبوة ، يقال فى منكرى خصوصية الولاية إذا اشتغل بأذاهم ، يعنى : أنّ من أنكر على الأولياء المتقدمين قد أصابهم ما أصابهم ، إما ذل فى الظاهر ، أو طرد فى الباطن ، وأنتم أيها المنكرون على أهل زمانكم مثلهم. أمنتقدكم خير من أولئكم أم لكم براءة من العذاب فى كتب اللّه تعالى؟ أم يقولون : نحن جميع ، أي : مجتمعون على الدين ، لا يصيبنا ما أصاب الكفار ، فيقال لهم : سيهزم جمعكم ، ويتفرق شملكم ، وتفضوا إلى ما أسلفتم ، نادمين على ما فعلتم ، ولن ينفع النّدم حين تزل القدم ، فتبقون فى حسرة البعد على الدوام ، فالكفار حرموا من جنة الزخارف ، وأنتم تحرمون من جنة المعارف ، مع غم الحجاب وذل البعد عن الحضرة القدسية ، إن المجرمين - وهم أهل الطعن والانتقاد - فى ضلال عن طريق الوصول إلى اللّه ، ونيران القطيعة ، يوم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٢٩) والطبري (٢٧/ ١٠٨). وزاد المناوى فى الفتح السماوي (٣/ ١٠١٨ - ١٠١٩) عزوه لعبد الرّزاق وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، فى تفاسيرهم ، من مرسل عكرمة.

يسحبون على وجوههم ، فينهكمون فى الدنيا فى الحظوظ والشهوات ، وفى الآخرة فى نار البعد والقطيعة ، على دوام الأوقات ، ويقال لهم : ذوقوا مرارة الحجاب وسوء الحساب ، وكلّ هذا بقدر وقضاء سابق ، كما قال تعالى :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٤٩ الى ٥٥]

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَما أَمْرُنا إِلاَّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ أي : بتقدير سابق فى اللوح قبل وقوعه ، قد علمنا حاله وزمانه قبل ظهوره ، أو : خلقناه كلّ شىء مقدّرا محكما مرتبا على حسب ما اقتضته الحكمة ، و«كل» : منصوب بفعل يفسره الظاهر. وقرىء بالرفع شاذا ، والنّصب أولى لأنه لو رفع لأمكن أن يكون «خلقنا» صفة لشىء ، ويكون الخبر مقدرا ، أي : إنا كلّ شىء مخلوق لنا حاصل بقدر ، فيكون

حجة للمعتزلة ، باعتبار المفهوم ، وأن أفعال العباد غير مخلوقة للّه. فلم يسبق لها قدر ، تعالى اللّه عن قولهم ، ويجوز أن يكون الخبر : «خلقناه» ، فلا حجة فيه ، ولا يجوز فى النّصب أن يكون «خلقنا» صفة لشيء لأنه يفسر النّاصب ، والصفة لا تعمل فى الموصوف ، وما لا يعمل لا يفسر عاملا. قال أبو هريرة : جاء مشركو قريش إلى النّبى صلّى اللّه عليه وسلم يخاصمونه فى القدر ، فنزلت الآية «١» ، وكان عمر يحلف أنها نزلت فى القدرية ، أي : على طريق الإخبار بالغيب.

وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ أي : كلمة واحدة ، سريعة التكوين ، وهو قوله تعالى : كُنْ أي : وما أمرنا لشيء نريد تكوينه إلّا أن نقول له : كن ، فيكون ، أو : إلّا فعلة واحدة ، وهو الإيجاد بلا معالجة ، كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ فى السرعة ، أي : على قد ما يلمح أحد ببصره ، وقيل : المراد سرعة القيامة ، لقوله تعالى : وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ «٢».

وَلَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ أي : أشباهكم فى الكفر من الأمم ، وقيل : أتباعكم ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ من متعظ بذلك وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ من الكفر والمعاصي مكتوب على التفصيل فِي الزُّبُرِ فى ديوان الحفظة ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ من الأعمال ، ومن كلّ ما هو كائن مُسْتَطَرٌ مسطور فى اللوح بتفاصيله.

---

(١) أخرجه مسلم فى (القدر ، باب كلّ شيء بقدر ، ح ٢٦٥٦).

(٢) الآية ٧٧ من سورة النّحل.

ولمّا بيّن سوء حال الكفرة بقوله : إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ... إلخ ، بيّن حسن حال المؤمنين ، جمعا بين الترهيب والترغيب فقال : إِنَّ الْمُتَّقِينَ أي : الكفر والمعاصي فِي جَنَّاتٍ عظيمة وَنَهَرٍ أي : أنهار كذلك. والإفراد للاكتفاء بذكر الجنس ، مراعاة للفواصل ، وقرىء : «ونهر» «١» جمع «نهر» ، كأسد وأسد. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ فى مكان مرضى ، وقرئ «فيمقاعد صدق» «٢» ، عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ أي : مقربين عند مليك قادر لا يقادر قدر ملكه وسلطانه ، فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته ، سبحانه ، ما أعظم شأنه. والعندية : عندية منزلة وكرامة وزلفى ، لا مسافة ولا محاسّة.

الإشارة : هذه الآية وأشباهها هى التي غسلت القلوب من الأحزان والأغيار ، وأراحت العبد من كدّ التدبير والاختيار لأنّ العاقل إذا علم علم يقين أنّ شئونه وأحواله ، وكلّ ما ينزل به ، قد عمه القدر ، لا يتقدم شيء عن وقته ولا يتأخر ، فوّض أمره إلى اللّه ، واستسلم لأحكام مولاه ، وتلقى ما ينزل به من النّوازل بالرضا والقبول ، خيرا كان أو شرا ، كما قال الشاعر :

إذا كانت الأقدار من مالك الملك فسيّان عندى ما يسر وما يبكى

وقال آخر :

تسلّ عن الهموم تسل «٣» فما الدنيا سوى ثوب يعار

وسلّم للمهيمن فى قضاه ولا تختر فليس لك اختيار

فما تدرى إذا ما الليل ولّى بأيّ غريبة يأتى النّهار

وقوله تعالى : وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ .. إلخ ، هذا فى عالم الأمر ، ويسمى عالم القدرة ، وأما فى عالم الخلق ، ويسمى عالم الحكمة ، فجلّه بالتدريج والترتيب ، سترا لأسرار الرّبوبية ، وصونا لسر القدرة الإلهية ، ليبقى الإيمان بالغيب ، فتظهر مزية المؤمن ، ويقال لأهل العناد المتجبرة : ولقد أهلكنا أشياعكم إما بالهلاك الحسى ، أو المعنوي ، كالطرد والبعد ، فهل من متعظ ، يرجع عن عناده؟ وكلّ شيء فعلوه فى ديوان صحائفهم ، وكلّ صغير وكبير من

---

(١) عزاها فى مختصر ابن خالويه/ ١٤٩ للأعرج. وزاد فى البحر المحيط (٨/ ١٨٢) الأعمش وأبا مجلز واليماني وأبا نهيك وزهير العرقبى. [.....]

(٢) عزاها فى مختصر ابن خالويه/ ١٤٩ وفى البحر المحيط (٨/ ١٨٢) لعثمان البتى.

(٣) كذا ، والشطرة غير مستقيمة الوزن ، وقد تكون : «تسل عن الهموم به تسل».

(٥٣٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٣٧

أعمال العباد مسطورة فى العلم القديم. إنّ المتقين ما سوى اللّه ، فى جنات المعارف ، وأنهار العلوم والحكم ، فى مقعد صدق ، هو حضرة القدس ، ومحل الأنس ، عند مليك مقتدر. قال الورتجبي : مقامات العندية جنانها زفارف الأنس ، وأنهارها أنوار القدس ، أجلسهم اللّه فى بساط الزلفة والمداناة ، التي لا يتغير صاحبها بعلة القهر ، ولا يزول عنها بالتستر والحجاب لذلك سماه «مقعد صدق» أي : محل كرامة دائمة ، ومزية قائمة ، ومواصلة سرمدية ، واللّه مقدّر قادر. انظر تمام كلامه.

وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم «١».

---

(١) إلى هنا ينتهى المجلد الخامس بتجزئة المحقق. ويتلوه - إن شاء اللّه - المجلد السادس ، وأوله تفسير سورة «الرحمن» ، أسأل اللّه تعالى أن ينفعنى وجميع المسلمين به ، وأن يبلغنا بهذا الكتاب أسمى الدرجات ، وأن يوفقنا لما يقربنا إليه فى كلّ الأوقات ، وألا يجعلنا من المفتونين. اللهم اغفر لنا

وارحمنا ويسر لنا كلّ عسير. آمين.

أحمد عبد اللّه القرشي

(٥٣٧/٥)

(٥٣٨/٥)

فهرس المجلد الخامس

(٥٣٩/٥)

تنبيه :

نظرا لعدم اكتمال هذه النسخة فقد تم الاعتماد من أول سورة الرحمن : آخر سورة الناس على دار الكتب العلمية . بيروت

عدد الأجزاء / ٨

الطبعة الثانية / ٢٠٠٢ م . ١٤٢٣ ه

تنبيه آخر

أولا : الترقيم داخل الصفحات

ثانيا : الترقيم لذيل الصفحات وليس لأولها

(٢٦٤/٧)

سورة الرحمن

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٦٥

يقول الحق جلّ جلاله : {الرحمنُ علَّمَ القرآنَ} عدّد في هذه الصورة الكريمة ما أفاض على كافة الأنام من فنون نِعمه الدينية والدنيوية ، الأنفسية والآفاقية ، وأنكر عليهم إثر كل منها إخلالهم بموجب شكرها ، وبدأ بتعليم القرآن ؛ لأنه أعظمها شأناً ، وأرفعها مكاناً ، كيف لا وهو مدار السعادة الدينية والدنيوية ؟ وإسناد تعليم القرآن إلى اسم " الرَّحْمَان " للإيذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها.

ثم ثنَّى بنعمة الإيمان ، فقال : {خَلَقَ الإنسانَ} أي : جنس الإنسان ، أو آدم ، أو محمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد بخلقه : إنشاؤه على ما هو عليه من القُوى الظاهرة والباطنة. {علَّمه البيانَ} وهو المنطق الفصيح ، المُعْرِب عما في الضمير ، وليس المراد بتعليمه : تمكينه من بيان ما في نفسه ، بل منه ومِن فهم بيان غيره ، إذ هو الذي يدور عليه التعليم. وأَخَّر ذِكر خلق الإنسان عن تعليم القرآن ؛ ليعلم إنما خلقه للدين ، وليُحيط علماً بوحي الله وكُتبه ، ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان ، وهو البيان والإفصاح عما في الضمير. والجمل الثلاث أخبار مترادفة للرحمن ، وإخلاء الأخيرتين عن العاطف لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزّك بعد ذلك ، كثَّرك بعد قِلَّة ، فعل بك ما لم يفعل أحدٌ بأحدٍ ، فما تُنكر إحسانه ؟ .

٢٦٦

ثم ذكر النِعَم الآفاقية ، فقال : {الشمسُ والقمرُ بحُسْبَانٍ} أي : يجريان بحساب معلوم ، وتقدير سويّ ، في بُروجهما ومنازلهما ، بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية ، وتختلف الفصول والأوقات ، ويُعلم منها عدد السنين والحساب ، ولو كان الدهر كله نهاراً أو ليلاً لبطلت هذه الحكمة ، ولم يَدْر أحدٌ كيف يحسب شيئاً ، ولاختلّ نظام العالم بالكلية ، وقال مجاهد : (بحُسْبان) كحسبان الرحا ، يدوران في مثل قطب الرحا ، وهو مُؤَيِّدٌ لأهل التنجيم. قال بعضهم : إنَّ الشمس قدر الدنيا مائة وعشرون مرة ، لأجل ذلك أن الإنسان يجدها قبالته حيث صار. وقال في شرح الوغليسية : إنَّ الشمس قدر الدنيا بمائة ونيف وستين مرة ، والقمر قدر الدنيا ثمان مرات ، ويُحيط بهما بصر أقل من حبة السمسم ، الله أكبر وأعز وأعلا. هـ. ويقال : مكتوب في وجه الشمس : " لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خلق الشمس بقدرته ، وأجراها بأمره " وفي وجه القمر مكتوب : " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، خالق الخير والشر بقدرته ، يبتلي بهما مَن يشاء مِن خلقه ، فطُوبى لمَن أجرى اللّهُ الخير على يديه ، والويل لمَن أجرى اللّهُ الشر على يديه ".

}

والنجمُ والشجرُ يسجدان} النجم : النبات الذي ينجم ، أي : يطلع من الأرض ولا ساق له ، كالبقول ، والشجر : الذي له ساق. وقيل : {النجم} : نجوم السماء وسجودهما : انقيادهما لما يُراد منهما ، شُبّها بالساجدين من المكلّفين في انقيادهما ، واتصلت هاتان الجملتان بالرحمن بالوصل المعنويّ ، لِما علم أنَّ الحُسبان حسبانه ، والسجود له لا لغيره ، كأنه قيل : الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له ، ولم يذكر العاطف في الجُمل الأُولِ وجِيء به بعدُ ؛ لأنّ الأُولَ وردت على سبيل التعديد كما تقدّم ، ثم ردَّ الكلام إلى منهاجه في وصل ما يجب وصله ؛ للتناسب والتقارب بالعطف وبيان والتناسب : أنَّ الشمس والقمر سماويان ، والنجم والشجر أرضيان ، فعطف أحد المتقابلين على الآخر ، وأيضاً : حُسبان الشمس والقمر نوع من الانقياد لأمر الله ، فهو مناسب لسجود النجم والشجر. ثم قال تعالى : {والسماءَ رفَعها} أي : خَلَقها مسموكةً مرفوعةً ، حيث جعلها منشأ أحكامه ، ومسكن ملائكته الذي يهبطون بالوحي على أنبيائه ، ونبّه بذلك على كبرياء شأنه ، ومُلكه وسلطانه ، {وَوَضَعَ الميزانَ} أي : كل ما يُوزن به الأشياء ويعرف مقاديرها ، من ميزان ، وقَرَسْطون ، ومكيال ، ومعيار ، والقرسطون - بفتحتين : العدلة التي توزن بها الفضة ، أي : خَلَقه موضعاً على الأرض من حيث علّق به أحكام العباد على التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم. وقيل : معنى الميزان ، العدل ، أي : شرع العدل وأمر به حتى يوفّى كل ذي حق حقه ، حتى انتظم أمر العالم واستقام ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " بالعدل قامت السماوات والأرض " ، والعدل : ما حكمت به الشريعةُ المحمدية ، من كتاب ، وسُنة ، وإجماع ، وقياس. وأمر بذلك {ألاَّ تَطْغَوْا في الميزانِ} أي : لئلا تجوروا في الميزان بعد

الإنصاف في حقوق العباد ، فـ " أن " ناصبة ، أو مُفَسِّرة ، أو ناهية ، {وأَقيموا الوزنَ بالقِسْطِ} وأقيموا أوزانكم بالعدل {ولا تُخْسِرُوا الميزانَ} ولا تنقصوه بالتطفيف ، نهى عن الطغيان ، الذي هو اعتداء وزيادة ، وعن الخسران ، الذي هو تطفيف ونقصان ، وكرّر لفظ " الميزان " تشديداً للوصية ، وتقويةً للأمر باستعماله الحثّ عليه.

ولمّا ذكر نعمة الإمداد المعنوي ، وهو مدد الأرواح ، ذكر مددَ الأشباح ، فقال : {والأرضَ وضعها} خفضها مدحوّة على الماء {للأنام} للخلق ، وهو ما على وجه الأرض من دابة. وعن الحسن : الجن والإنس ، فهي كالمهاد ، يتصرفن فوقها. {فيها فاكهةٌ} ضروب مما يُتفكّه به ، {والنخلُ ذاتُ الأكمام} وهي أوعية الثمر ، واحدها : كِمٌّ ، بكسر الكاف ، أو : كلّ ما يَكُم ، أي : يُغطّى ، من ليفه وسعفه وكُفُرَّاه ، والكُفرّ : وعاء الطَّلْعِ ، وكله مُنتفع به ، كما يُنتفع بالمكموم من ثمره وجُمّاره وجّذوعه.
}

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٦٦

والحبُّ ذو العَصْفِ} هو ورق الزرع ، أو التبن ، {والريحانُ} أي : الرزق وهو اللبّ ، أي : فيها ما يتلذذ به ، والجامع بين التلذُّذ والتغذّي ، وهو تمر النخل ، وما يتغذّى به فقط ، وهو الحب المشتمل على علق الدواب ورزق العباد. وقرأ الأخَوان : (والريحانِ) بالجر ، عطفاً على " العصف " والباقون بالرفع عطفاً على " الحب " على حذف مضاف ، أي : وذو الريحان ، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه. وقيل : معناه : وفيه الريحان الذي يُشم. وقرأ الشامي بنصب الجميع ، أي : خلق الحب والريحان.

{فَبأيّ آلاءِ رِّبكما} أي : نِعَمَه التي عَدَّدها من أول السورة ، {تُكَذِّبان} والخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى : {للأنام} وينطق به قوله : {أيه الثقلان} والفاء لترتيب الإنكار والتوبيخ على ما فصّل من فنون النعماء ، وصنوف الآلاء ، الموجبة للإيمان والشكر ، والتعرُّض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية ، مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ. ومعنى تكذيبهم آلائه تعالى : كفرهم بها ، وإمّا بإنكار كونه نعمة في نفسه ، كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية ، وإمّا بإنكاره كونه من الله تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه ، كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى ، اشتراكاً أو استقلالاً ، صريحاً أو دلالة ، فإنَّ إشراكهم لآلهتهم معه تعالى في العبادة من دواعي إشراكهم لها به تعالى. انظر أبا السعود. أي : إذا كان الأمر كما فصّل فبأيّ فرد من أفارد نعمه تعالى تُكذِّبان ، مع أنّ كُلاًّ منها ناطق بالحق ، شاهد بالصدق ؟ والله تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أنَّ " الرحمن " من الأسماء الخاصة بالذات العلية ، لا يُوصف به غيره تعالى ، لا حقيقة ولا مجازاً ؛ لأنها مقتضية لنعمة الإيجاد ، ولا يصح مِن غيره ، بخلاف

٢٦٨

" الرحيم " فإنه مقتضٍ لنعمة الإمداد ، وقد يصح من غيره تعالى مجازاً ، فلذلك يجوز أن يُوصف العبد بالرحيم ، ولا يوصف بالرحمن ، ثم إنَّ الرحمة المشتمل عليها الرحمن على قسمين : رحمة ذاتية لا تُفارق الذات ، ورحمة صفاتية يقع بها الإمداد للخلق ، فيرحَم بها مَنْ يشاء من عباده ، وتسمى الرحمة الذاتية رحمانية ، ولمَّا كانت لا تُفارق الذات وقع التعبير بها في الاستواء ، فقال تعالى : {الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىا} [طه : ٥] ، {ثُمَّ اسْتَوَىا عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ} [الفرقان : ٥٩] ، وإليه أشار في الحِكَم بقوله : يا مَن استوى برحمانيته على عرشه ، فصار العرش غيباً في رحمانيته... الخ.

وأما الرحمة الصفاتية ، وهي التي يقع بها الإمداد ، فتتنوع بتنوُّع الأسماء الحسنى ، وهي تسعة وتسعون. أمّا الأسماء الجمالية فالرحمة فيها ظاهرة ، وأمّا الأسماء الجلالية فالرحمة فيها : عدم انفكاك لطف الله عن قدره ، والرحمة الذاتية هي المُوفية مائة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " إنّ اللّهَ تعالى خَلَقَ مائةَ رحمة ، أَمسك عنده تسعةً وتسعين ، وأنزل واحدةً إلى الدنيا ، بها يتراحم الخلقُ " الحديث ، أو كما قال عليه السلام. ولمَّا كان القرآن من أجلّ النِعَم عبّر عن تعليمه بالرحمانية ، التي هي من الصفات الخاصة ؛ لأنّ القرآن مُظهر لأوصاف الذات وأسرارها وأفعالها ، وكاشف لحقائقها ، عند مَن فُتحت بصيرته.
وقوله تعالى : {خَلَقَ الإِنسانَ} أي : أظهره من سر اللطافة إلى مظهر الكثافة جاهلاً به من جهة الجسمانية ، ثم {علَّمه البيان} أي : بيان السير إلى معرفته ، بأن ركّب فيه العقل المميز ، ونَصَبَ له مظاهر يتعرّف بها ، وبعث له دالاًّ يدله ، ويُعلمه أسرار الربوبية وآداب العبودية ، فلا يزال يُحاذيه ، ويسير به حتى يستنير قمر توحيده ، وتُشرق شمس عرفانه ، وإليه الإشارة بقوله : {الشمس والقمر بُحسبان} أي : يجريان بحسب معلوم ، في زيادة نور التوحيد ونقصانه ، على حسب استعداد العبد وتوجهه. قال القشيري بعد كلام : وكذلك شموس المعارف ، وأقمار العلوم – في طلوعها في أوْج القلوبِ والأسرار – في حكم الله تعالى وتقديره حسابٌ معلومٌ ، يُجْريهما على ما سبق به الحُكْمُ. هـ.
والنجم والشجر يسجدان ، أي : ونجم نور العقل الطبيعي ، وشجر الفكر الاعتباري يخضعان ويضمحلان عند سطوع شمس نهار العرفان ، وأمَا نور العقل الوهبي ، والفكر الاستبصاري ، فيطويان الكونَ طيّاً ؛ لانَّ نورهما مستمد من العقل الأكبر ، وهو أول الفيض الإلهي ، المتدفق من بحر الجبروت ، وسماء الأرواح ، رَفَعَا عن لوث عالم الأشباح ، وهو محل شهود أسرار الذات وأنوار الصفات ، وتجليات الأنبياء والرسل ، فمَن ترقّى إليه لا تغيب عنه أرواح الأنبياء وذواتهم ، فالمتجلي واحد. ووضع الميزان على النفوس الظلمانية ، ألاَّ تَطْغَوا في الميزان ، بتعديّ حدود الرياضة والمجاهدة ، وأقيموا عليها الوزن بالقسط ، ولا تُخسروا
٢٦٩
الميزان بإهمالها في هواها وحظوظها. والأرض ، أي : أرض البشرية وضعها لقيام وظائف العبودية ، اليت رتّبها للأنام ، فيها فاكهة العلوم الوهبية إن صفت ، ونَخْل علوم الشريعة ذات الأكمام ، وهي البراهين التي تستخرج بها مسائلها ، فمَن وقف مع قشر الأكمام كان مقلِّداً. ومَن نفذ إلى لُبها كان مجتهداً مِن نِحريراً.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٦٦
وقال القشيري : {والنخلُ ذات الأكمام} من فواكه الوحدانيات المستورة عن الأغيار ، المستورة عن غير أهلها. ثم قال : {والحب ذو العصف} من حبة المحبة الذاتية ، غير القابلة للتغيُّر والاستبدلال ، المشتملة على الأرزاق المكتنفة بالمعارف والحاقئق والحِكِم. هـ. والريحان هو قوت الأرواح من اليقين ، أو نسيم الأذواق والوجدان ، {فبأي آلاء ربكما تُكذّبان} أيها الثقلان ، أو أيها النفس والروح ؛ إذ كل منهما فاز بأمنيته ، ووصل إلى نهاية ما اشتهاه ، إذا عمل بما تقدّم ، وأصغى بأُذن قلبه إلى ما عددناه. وبالله التوفيق.

(٢٦٩/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٦٦
يقول الحق جلّ جلاله : {خَلَقَ الإنسانَ} آدم {من صلصالٍ} من طين يابس ، له صلصلة ، أي : صوت {كالفَخَّار} كالطين المطبوخ بالنار وهو الخزف. ولا تخالف بين هذا وبين قوله : {مِّنْ حَمإٍ مَّسْنُونٍ} [الحجر : ٢٦] و {مِّن طِينٍ لأَّزِب} [الصافات : ١١] لاتفاقهما معنىً ، لأنَّ المعنى : أنَّ أصل خلقه من تراب ، ثم جعله طيناً ، ثم حمأً مسنوناً ، ثم صلصالاً. {وخَلَقَ الجانَّ} أي : الجن ، او أبا الجن إبليس ، {من مَارجٍ من نار} والمارج هو اللهب الصافي ، الذي لا دخان فيه ، وقيل : المختلط بسواد النار ، من : مَرِجَ الشي : إذا اضطرب أو اختلط ، و " مِن " : بيانية ، كأ ، هـ قيل : مِن صاف النار ، أو مختلط من النار ، أو أراد : من نار مخصوصة.
{فبأي آلاءِ ربكما تُكَذِّبان} مما أفاض عليكما في تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم. قال القشيري : وكرّر سبحانه هذه الآية في غير موضع ، على جهة التقرير بالنعمة على التفاصيل. نعمة بعد نعمة ، ووجه النعمة في خلق آدم من طين : أنه رقّاه إلى رتبةٍ
٢٧٠
بعد أن خلقه من طين ، وكذلك القول في {مارج من نار}.هـ. يعني : أنَّ آدم رقّاه إلى رتبة الروحانية والخلافة ، والجن إلى رتبة التصرُّف الباطني في الآدمي وغيره.
{ربُّ المشْرِقَين وربُّ المغربين} أي : مشرقي الشمس في الصيف والشتاء ، ومَغْرِبيها. قال ابن الحشا : المشرق الشتوي : هو النقطة التي تطلع فيها الشمس فيها في الأفق في نصف دجنبر ، أقصر ما يكون النهار من أيام السنة ، والمشرق الصيفي : هو النقطة التي تطلع فيها الشمس في نصف يونية ، أطول ما يكون من أيام السنة. والمغربان : حيث تغرب في هذين اليومين ، ومشارق الشمس ومغاربها في سائر

أيام السنة ليس هذين المشرقين والمغربين.هـ. وقوله : في نصف دجنبر ونصف يونية ، هذا في زمانه ، وأمّا اليوم فهي على ثمانية أيام ونحوها ، لزيادة حركة الإقبال. قال ابن عطية : متى وقع ذكر المشرق والمغرب فهو إشارة إلى الناحيتين ، أي : مشرق الصيف والشتاء ومغربهما. ومتى وقع ذكر الشارق والمغارب فيهو إشارة إلى تفصيل مشرق كل يوم ومغربه ، ومتى ذكر المشرقان فهو إشارة إلى نهايتي المشارق والمغارب ؛ لأنّ ذكر نهايتي الشيء ذكر لجميعه. هـ.
}

(٢٧٠/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٠
فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} قال القشيري : ووجه النعمة في مشرق الشمس ومغربها : جريانه على ترتيب بديع ؛ ليكمل انتفاع الخلق بذلك. هـ.
{مَرَجَ البحرين يلتقيان} أي : أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين ، لا فصل بين الماءين بإسماك أحدهما عن الآخر في مرأى العين. قال في الحاشية : ويُقرب ما ذكره ما هو مشهود في الريف مع الماء ، فاعتبر به ، وبالأبيض من البيضة مع الأصفر منها ، وقيل : أرسل بحري فارس والروم يلتقيان في المحيط ؛ لانهما خلجان يتشعبان منه ، {بينهما برزخٌ} حاجز من قدرة ا لله تعالى ، {لا يَبغِيان} لا يتجاوزان حدّيهما ، ولا يبغي أحدُهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية ، أو : لا يتجاوزان حدّيهما بإغراق ما بينهما ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} وليس شيء منها يقبل التكذيب.
{يَخْرُجُ منهما اللؤلؤُ والمَرجانُ} اللؤلؤ : الدرّ ، والمَرجان : الخرزُ الأحمر المشهور. قلت : هو شجر ينبت في الحجر في وسط البحر ، وهو موجود في بحر المغرب ، ما بين طنجة وسبتة. وقال الطرطوشي : هو عروق حُمر يطلع من البحر كأصابع الكف ، وشاهدناه بأرض المغرب مراراً. هـ. وقيل : اللؤلؤ : كِبار الدر ، والمرجان : صِغاره. وإنما قال : " منهما " وهما إنما يخرجان من الملح ؛ لأنهما لمّا التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يُقال : يخرجان منهما. ونقل الأخفش عن قوم : أنهما يخرجان من المالح والعذب ، وليس لِمن ردّه حجة قاطعة ، ومَن أثبت أَولى ممن نفى. هـ. قال أبو حيان : والظاهر خروجهما منهما ، وحكاه الأخفش عن قوم. هـ. {فبأي آلاء ربكما تُكَذّبان} مع ظهور هذه النعمة.
{وله الجوارِ} أي : السفن ، جمع : جارية ، {المُنشَئاتُ} المرفوعات الشُرَّع ، وقرأ حمزة ويحيى بكسر الشين ، أي : الرافعات الشُروع ، أي القلاع ، أو : اللاتي يُنشئن الأمواج

بمَخْرهن {في البحر كالأعلام} كالجبال الشاهقة ، جمع عَلَم ، وهو الجبل الطويل ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} مِن خلق مواد السفن والإرشاد إلى أخذها ، وكيفية تركيبها ، وإجرائها في البحر ، بأسباب لا يَقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه.

{كُلُّ مَن عليها} على الأرض {فانٍ ويبقى وجهُ ربك} أي : ذاته ، قال القشيري : وفي بقائه سبحانه خَلَفُ من كلِّ تلفٍ ، وتسليةٌ للمؤمنين عما يُصيبهم من المصائب ، ويفوتهم من المواهب. هـ. {ذو الجلال} ذو العظمة والسلطان ، {والإكرام} أي : الفضل التام بالتجاوز والإحسان. وهذه الصفة من عظم صفات الله تعالى ، وفي الحديث : " ألظوا - أي : تعلقوا - بيا ذا الجلال والإكرام " يعني : نادوه به ، يُقال : ألظ بالمكان : إذا أدام به ، وألظ بالدعاء : إذا لزمه ، وروي أنه صلى الله عليه وسلم مرّ برجل يُصلِّي ، ويقول : يا ذا الجلال والإكرام ، فقال : " قد استُجيب لك " {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} فإنَّ إفناءهم وإخراجهم من ضيق هذه الدار الدنية ، وإحياءهم وإبقاءهم في الدار الباقية في النعيم السرمدي من عظائم النِعم.

(٢٧١/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٠

الإشارة : اختص مظهَر الإنسان عن سائر المظاهر باعتدال خلقته ، لطافةً وكثافةً ، معنىً وحسّاً ، روحانيّاً وبشريةً ، فلذلك فاقت معرفته إذا عرف سائر المخلوقات ، بخلاف الجن والملائكة ، اللطافةُ غالبة عليهم ، فمَن كان منهم عارفاً لا تجده إلا متحرفاً ، غالباً عليه الهيمان والسُكْر ، وأمّا الآدمي فمَن غلبت رَوحانيتُه على صلصاليته ، ومعناه على حسه ، كان كالملائكة أو أفضل ، ومَن غلبت طينتُه على روحانيته ، وحسُّه على معناه ، كان كالبهائم أو أضل.

وقوله تعالى : {رَبُّ المشرقين وربُّ المغربين} أي : رب مشرق شمس العرفان وقمر الإيمان ، ومغربهما عند غين الأنوار والأغيار. وقال القشيري : يُشير مشرق الروح والقلب ، ومغرب النفس والهوى. هـ.

فإذا أشرق نور الروح والقلب غابت ظلمة النفس والهوى ، وإذا استولت ظلمة النفس والهوى على الروح والقلب غربت شمسهما ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} مع ما في ذلك في اللطائف الغامضة ، والغوامض الخفية ، من عدم سكون الروح والقلب إلى التجلِّي الجمالي ، وعدم اضطراب النفس والهوى بالتجلِّي القهري الجلالي ؛ لأنَّ الكامل من هذه الطائفة هو الذي يُشاهد الجمالَ في الجلال ، والجلالَ في الجمال ، فلا يسكن إلى شيء ، ولا يقف مع شيء.

وقوله تعالى : {مَرَجَ البحرين يلتقيان} يُشير إلى بحر علم الشريعة ، وبحر علم الحقيقة ، يلتقيان في الإنسان الكامل ، {بينهما برزخ} وهو العقل ، فإنه يحجز الشريعةَ أن

تعدو محلها ، والحقيقة أن تُجاوز محلها ، فالشريعة محلها الظواهر ، والحقيقة محلها البواطن ، والعقل برزخ بينهما ، يقوم بحُكم كل واحدة منهما ، فمَن خفَّ عقله غلبت إحداهما عليه ، إمّا الشريعة ، فيكون يابساً جامداً لا يخلو من فسوق ، وإمّا الحقيقة ، فيكون إما سكراناً أو زنديقاً. {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان ؟ } حيث هَدى العبدَ إلى القيام بحقهما ، وإنزال كل واحدة في محلها ، {يَخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} فيخرج من بحر الحقيقة جواهرَ الحِكم ويواقيت العلوم ، ومن بحر الشريعة مَرجان تحرير النقول ، وتحقيق مبانيها ، والإتيان بها من معادنها ، {فبأي آلاء ربكما تُكذَّبان} حيث وفَّق غوّاص بحر الحقيقة إلى استخراج أسرارها ، وغوّاص بحر الشريعة إلى إظهار أنوارها. {وله الجوارِ} ، أي : سفن استخراج أسرارها ، وغوّاص بحر الشريعة إلى أظهار أنوارها. {المنشأت} في بحر الذات ، مع رسوخ عقلها ، كالجبل الراسي ، فتعوم سفنُ أفكار العارفين في بحر الجبروت وأنوار الملكوت ، ثم ترسي في مرساة العبودية ، للقيام بآداب الربوبية ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} مع عظيم هذا اللطف الكبير ، والمنَّة الكريمة ، حيث يتلاطم عليهم أمَوَاجُ بحر الذات ، فيكونوا من المغرقين في الزندقة ، أو ذهاب العقل بالكلية ، لكن مَنْ صَحبَ رئيسا عارفاً لا يخاف من الغرق إن شاء الله.
}

(٢٧٢/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٠
كلُّ مَن عليها فانٍ} كل مَنْ على بساط المملكة فَانٍ متلاشٍ ، {ويبقى وجه ربك} أي : ذاته المقدسة ، فلا موجود معها على الحقيقة ، كما قال الشاعر :
فَالْكُلُّ دُونَ اللَّه إنْ حَقَّقْتَه
عَدمٌ عَلَى التَّفْصِيل والإجمال
وهذا معلوم عند أرباب الأذواق ، مُقرر عند أهل الفناء والبقاء ، فلا يجحده إلاَّ جهول ، كما قال تعالى : {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان} ؟ .

(٢٧٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٠
يقول الحق جلّ جلاله : {يَسْألُه مَن في السماوات والأرض} مِن ملَكٍ وإنسٍ وجن وغيرهم ، لا غنى

لأحد منهم عنه سبحانه ، كل منهم يسأل حاجته ، إما بلسان مقاله ، أو بلسان حاله ، أهل السموات يسأله قوت أرواحهم ، وأهل الأرض قوتَ أشباحهم

٢٧٣

وأرواحهم. وقال أبو السعود : فإنهم كافة ، من حيث حقائقهم الممكِنة ، بمعزلٍ من استحقاق الوجود ، وما يتفرّع عليه من الكمالات بأسره ، بحيث لو انقطع ما بينهم وبين العناية الإلهية من العلاقة لم يشمُّوا رائحة الوجود أصلاً ، فهم في كل أمر مستمدون على الاستدعاء والسؤال. هـ.

ويُوقف على قوله : {والأرض} ثم يبتدأ بقوله : {كُلَّ يومٍ} فهو ظرف لقوله : {هو في شأن} أي : هو كائن كل وقت وحين في شأنٍ من شؤون خلقه ، التي من جملتها : إعطاؤهم ما سألوا ، فإنه تعالى لا يزال يُنشئ أشخاصاً ، ويُفني آخرين ، ويأتي بأحوالٍ ويذهب بأحوالٍ ، حسبما تقتضيه مشيئته ، المبنية على الحِكَم البالغة ، وسمعتُ شيخنا الفقيه العلاّمة ، سيدي " التاودي بن سودة " – رحمه الله – يقول في تفسيرها : إنَّ من شؤونه تعالى أنه كل يوم يُجهّز ثلاثة جيوش : جيشاً إلى الأرحام ، وجيشاً إلى الدنيا ، وجيشاً إلى المقابر. هـ. وعن ابن عيينة : الدهر عند الله يومان ، أحدهما : اليوم الذي هو مدة الدنيا ، فشأنه فيه : الأمر والنهي ، والإحياء والإماتة ، والإعطاء والمنع ، والآخر : يوم القيامة ، فشأنه فيه : الجزاء والحساب.

ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه تلاها ، فقيل له : ما هذا الشأن ؟ فقال : " من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرّج كرباً ، ويرفع قوماً ويضع آخرين " وقيل : نزلت في اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضي يوم السبت شأناً ، فردّ الله عليهم ؛ والمراد بهذه الشؤون : أمور يُبديها ولا يبتديها ، فقد جفّ القلم بما هو كائن إلى ما لا نهاية له. ومنه : ما جاء في القضاء على الولد في الرحم ، بسعادةٍ أو غيرها ، ليس ذلك القضاء إنشاء وابتداء ، وإنما هو إبداء وإظهار للملائكة ما سبق به قضاؤه وقدره ، وهو مسطور في اللوح ، ولذلك جاء : " إنه يُقال للملك : انطلق إلى أم الكتاب ، فينطلق ، فيجد قصة ذلك فيه... " الحديث. وقيل : شأنه تعالى : سَوْق المقادير إلى المواقيت.

(٢٧٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٣

قال النسفي : قيل : إنَّ عبد الله بن طاهر دعا الحسينَ بن الفضل ، وقال له : أشكلت عليّ ثلاث آيات ، دعوتك لتكشفها لي ، قوله تعالى : {فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} [المائدة : ٣١] وقد صحّ : أن الندم توبة ، وقوله : {كل يوم هو في شأنٍ} وقد صحّ أن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وقوله : {وَأَن لَّيْسَ للإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى} [النجم : ٣٩] فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز ألاَّ يكون

الندم توبة في تلك الآية. وقيل : إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ، ولكن على حمله وتكلفه مشقته ، وقوله : {وأن ليس للإِنسان إلا ما سعى} مخصوص بقوم إبراهيم وموسى – عليهما السلام– ، وأمَّا قوله : {كل يوم هو في شأن} فإنها شؤون يُبديها لا يبتديها ، فقال عبدُ الله فقبَّل رأسه ووسّع خراجه. هـ.

٢٧٤

{فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} مع مشاهدتكم لما ذكر من شؤون إحسانه تعالى.

{سَنَفْرُغ لكم أيه الثقلانِ} سنتجرّد لحسابكم وجزائكم ، مستعار من قول الرجل لمَن يتهدّده : سأفرغ لك ، أي : سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنك ، ويجوز أن يُراد : ستنتهي الدنيا ويبلغ آخرها ، وينتهي عند ذلك شؤون الخلق ، التي أرادها بقوله : {كل يوم هو في شأن} فلا يبقى إلاَّ شأن واحد ، وهو جزاؤكم ، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل ، و " الثقلان " : الجن والإنس ، سُمّيا بذلك ؛ لثقلهما على الأرض ، أو : لرزانة آرائهما ، أو : لأنهما مُثقلان بالتكليف ، {فبأي آلاء ربكما} التي من جملتها : التنبيه على ما يلقونه يوم القيامة ، للتحذير عما يؤدي إلى سوء الحساب ، {تُكذِّبان} بأقوالكما أو بأعمالكما.

{يا معشرَ الجنِّ والإِنس} هو كالترجمة لقوله : " أيه الثقلان " {إِن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرضِ} بأن تهربوا من قضائي ، وتخرجوا من ملكوتي ، ومن أقطار سماواتي وأرضي ، {فانفذوا} وخلِّصوا أنفسكم من عقابي ، {لا تنفُذون} لا تقدرون على النفوذ {إِلاَّ بسلطانٍ} إلاّ بقوةٍ وقهرٍ ، وأنتم من ذلك بمعزل بعيد. قيل : يُقال لهم هذا يوم القيامة ، حين تُحدق بهم الملائكة ، فإذا رآهم الجن والإنس هربوا ، فلا يأتون وجهاً إلاّ وجدوا الملائكة أحاطت به. {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} التي من جملتها : التنبيه والتحذير ؛ ليقع التأهُّب لتلك الأهوال.

{يُرْسَلُ عليكم شُواظ من نارٍ} أي : لهب خالص منها. وفيه لغتان : ضم الشين وكسرها ، {ونُحاسٌ} أي : دخان ، مَن رفعه عطفه على " شواظ " ومَن جرّه فعلى " نار " ، والمعنى ، إذا خرجتم من قبوركم يُرسل عليكم لهب خالص من النار ، ودخان يسوقكم إلى المحشر ، {فلا تنتصرانِ} فلا تمنعان منهما ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} فإنَّ بيان العواقب لُطفٌ ونعمةٌ لمَن ينتبه.

}

(٢٧٥/٧)

فإذا انشقت السماءُ} أي : انصدعت يوم القيامة {فكانت وَرْدَةً} فصارت كلون الورد الأحمر

{كالدِّهان} كدهن الزيت ، كما قال : {كَالْمُهْلِ} [المعارج : ٨] وهو دُردِيّ الزيت ، وهو جمع دهن ، وقيل : الدهان : الأديم الأحمر. وجواب " إذا " محذوف ، أي : يكون من الأهوال والأحوال ما لا يحيط به دائرة المقال.

قلت : وهذا الانشقاق يحصل للسموات والناسُ في المحشر ، ثم تدنو الشمس من الخلائق ، فيعظم الخطب والهول ، إلاّ ما استثني في حديث السبعة. وقيل : يحصل قبل

٢٧٥

البعث ، كما في البدور السافرة. والله أعلم بحقيقة الأمر.

{فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} مع عِظم شأنها ، {فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جانٌّ} لأنهم يُعرفون بسيماهم وذلك أول ما يخرجون من القبور ، ويُحشرون إلى الموقف أفواجاً على اختلاف مراتبهم ، وأمّا قوله تعالى : {فوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر : ٩٢] ونحوه ؛ ففي موقف المناقشة والحساب ، فيوم القيامة يوم طويل ، وفيه مواطن ، يُسألون في موطن ، ولا يُسألون في آخر. وقال قتادة : قد كانت مسألة ، ثم ختم على أفواه القوم. وقيل : لا يُسأل ليَعلم من جهته ، ولكن يُسأل للتوبيخ. وضمير {ذنبه} للإنس لتقدُّمه رتبة ، وإفراده لأنّ المراد فرد من الإنس ، والمراد بالجان الجن ، فوضع الجان - الذي هو أبو الجن موضع الجن ، كأنه قيل : لا يُسأل عن ذنبه أنسي ولا جني ، {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان} مع كثر منافعها ؛ فإنَّ الإخبار بما ذكر يزجركم عن الشر المؤدي إليه.

الإشارة : يسأله مَن في سماوات الأرواح ما يليق بروحانيته ، من كشف الأسرار ، وتوالي الأنوار ، فهو دائم سائل مفتقر ، لا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير الله قراره ، وسؤاله إما بلسان حاله أو مقاله ، ويسأله مَن في أرض البشرية ممن لم يترقّ إلى عالم الروحانية ما يليق بضعف بشريته ، من القوت الحسي ، وما يلائمه من ضرورية البشرية ، أو يكون سبب نجاته ونعيمه يوم القيامة ، من الاستقامة الظاهرة.

وأشار بقوله : {كل يوم هو في شأن} إلى اختلاف تجلياته في كل لحظة ، فيتجلّى في ساعة واحدة بقبض قوم وبسط آخرين ، ورفع قوم وذلّ آخرين ، وإعطاء قوم ومنع آخرين ، وترقية قوم وخفض آخرين ، إلى ما لا نهاية له ، ولذلك تختلف الواردات على قلوب العارفين ، ينسخ بعضها بعضاً ، ولذلك أيضاً تجد العارفين لا يسكنون إلى شيء ، ولا يقفون مع شيء ولا يُعولون على شيء ، بل ينظرون ما يبرز من عنصر القدرة ، فيسيرون معه ، إذا أصبحوا نظروا ما يفعل الله بهم ، وإذا أمسوا كذلك ، قد هدمت المعرفة أركانَ عزائمهم ، وحلّت عقدهم ، فهم في عموم أوقاتهم لا يُريدون ولا يختارون ولا يُدبّرون ؛ لِعلمهم أن الأمر بيد غيرهم ، ليس لهم من الأمر شيء.

وقوله تعالى : {سنفرغ لكم أيه الثقلان} فسّر القشيري الثقلين بالروح وصفاتها الحميدة ، وبالنفس وصفاتها الذميمة ، أي : سنفرغ لإكرامكم ، ورفع أقداركم يا معشر الأرواح المطهرة ، بأن أتجلّى لكم ، فتُشاهدوني في كل وقت وحين ، وسنفرغ لكم أيتها النفوس الظلمانية بأنواع الامتحان بصُنوف المحن ، فلا تدخلوا جنتي حتى تتهذبوا وتصفوا من كدرات الأغيار ، ولا أتجلّى لكم إلاّ في وقت الاحتياج والاضطرار. والحاصل : أنَّ المدار كله على هذه الدار ، فمَن صفا هنا صُفي له ثَمّ ، ومَن كدر هنا كدر عليه هناك. ويُقال لأهل النفوس الظلمانية : {يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض} بفكرة بصائركم فانفذوا ، ولا قدرة لكم على ذلك ؛ لسجن أرواحكم
٢٧٦
في هياكل ذواتكم ، وإحاطة دائرة الكون بكم ، لا تنفذون إلاّ بسلطانٍ : إلاّ بقوة سلطان أرواحكم على نفوسكم ، فتجذبها إلى عالم الروحانية ، بصحبة طبيب ماهر ، فحيئذ تنفذ بصيرتكم عن دائرة الأكوان ، وتُفضوا إلى فضاء العيان ، وإذا كان يوم القيامة خرقت أرواحُهم بأشباحهم محيطاتِ الأكوان ، وأَفضوا في الهوى إلى سعة الجنان ، قال تعالى : {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الشعراء : ٩٠] ، وقد تقدّم معناه. {يُرسل عليكم شُواظ من نار ونُحاس...} الخ ، قال القشيري : يُخاطب معشر جن النفس بإرسال لهب البُعد والقطيعة عليهم ، بواسطة انغماسهم وانهماكهم في استيفاء اللذات الجسمانية ، والشهوات الحيوانية ، على الدوام والاستمرار ، ويُخاطب معشر إنس الروح بصب الصُفر المذاب على رؤوسهم ، بسبب انحطاطهم من المقام الروحي العلوي ، إلى المقام النفس السفلي بالتراجع ، ولا يقدر أحدهما على نصرة الآخر. {فبأي آلاء ربكما تُكذّبان} فإنَّ تعذيب مستحق العذاب ، وتنعيم متسحق النعيم ، والتمييز بين جن النفس العاصي ، وبين إنس الروح ، من الآلاء العظيمة. هـ. فإذا انشقت السماء الحسية ، أي : ذابت وتلاشت بذكر اسم الله عليها من العارف ، فكانت وردةً يهب بنسيم المعاني من أكنافها ، كالدهان : كالزيت المُذاب ، حين تذوب بالفكرة الصافية ، والحاصل : أنَّ سائر الكائنات ، تذوب وتتلطّف حين تستولي عليها المعاني القائمة بها ، {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان} مع ظهور هذه النعمة العظيمة ، التي خَفِيَتْ عن جُلّ الناس ، {فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان} ممن بلغ منهم إلى هذه المرتبة العظيمة ، فأهل العيان لم يبقَ في حقهم طاعة ولا عصيان ، فلا يتوجه إليهم سؤال ولا عتاب ، وفي مناجاة الحق لسيدنا موسى عليه السلام : لا يا موسى إنما يُطيعني ويعصيني أهل الحجاب ، وأما مَن لا حجاب بيني وبينه فلا طاعة في حقه ولا معصية. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : يبلغ الوليّ مبلغاً يُقال له : افعل ما شئت ، أصحبناك السلام ، وأسقطنا عنك الملامة. هـ. وهذا بعد محق أوصاف النفس ، وبعد التحقق بالفناء والبقاء. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جلّ جلاله : {يُعْرَفُ المجرمون} أي : الكفرة {بسيماهم} بسواد وجوههم ، وزُرقة عيونهم ، أو : بما يعلوهم من الكآبة والحزن. قيل : هو تعليل لقوله : {فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان} أي : لا يُسألون لأنهم معروفون ، {فيُؤخذُ بالنواصي والأقدام} أي : يُجمع بين نواصيهم وأقدامهم في سلسلة من وراء ظهورهم ،

٢٧٧

وقيل : تسحبهم الملائكةُ ، تارة يُأخذ بالنواصي ، وتارة بالأقدام ، فالجار نائب الفاعل ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} فإنَّ التخويف من هذه الأهوال قبل وقوعها من أجلّ النعم ؛ ليقع الزجر عما يُؤدي إليها. {هذه جهنمُ التي يُكذِّب بها المجرمون} أي : يُقال لهم : هذه جهنم التي كذبتم بها ، توبيخاً وعقاباً ، {يطوف بينهما وبين حميمٍ آنٍ} أي : بالغ من الحرارة أقصاها ، فالحميم : المار الحار ، " والآنِ " : البالغ في الحرارة ، فهم يُعذّبون بين الحرق بالنار وشرب الحميم الحار. قال كَعْب : إن وادياً من أودية جهنم ، يجتمع فيه صديد أهل النار ، ينغمسون بأغلالهم فيه ، حتى يخلع أوصالهم ، ثم يُخرجون منها ، وقد أحدث اللّهخ لهم خلقاً جديداً ، فيُلقون في النار ، فذلك قوله تعالى : {يطوفون بينها وبين حميمٍ آنٍ} ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} ، وقد تقدّم تفسير كون هذا نِعماً مراراً.

الإشارة : فسَّر القشيري " المجرمون " هنا بطائفتين ، الأولى : المتشدقون من علماء الكلام ، الذي يتكلمون في ذاته وصفاته وأفعاله بما ليس لهم به علم ، ويُجادلون أربابَ الكشف والشهود بسبب علومهم الجدلية ، ويفوهون بقوة الجبهة وصلابة الناصية ، فلا شك أنهم يُجرون على ناصيتهم في نار البُعد والطرد عن مراتب أهل العرفان. الطائفة الثانية : المتصوفة الجاهلة ، المنقطعون عن الطريق المستقيم ، والمنهج القويم ، بسبب دخولهم في هذه الطريق بالتقليد ، من غير إذن شيخ كامل ، واصِلٍ مُوصِل ، فلا شك أنهم يخرجون بأقدامهم المُعْوَجة عن سلوك طريق الحق إلى نار البُعد والقطيعة. هـ. بالمعنى. والسيما التي يُعرفون بها ، إما علو النفس ، وغِلظة الطبع ، وطلب الجاه ، وإما قلقة اللسان ، وإظهار العلوم ، فالعارف الكامل بعكس هذا كله ، متواضع ، سهل ، لَيِّن ، الخفاء أحب إليه من الظهور ، لسان حاله أفصح من مقاله. ثم قال تعالى : {هذه جهنم التي يُكذِّب بها المجرمون} المتقدمون ، لأنهم ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا. وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً ، {يطوفون بينها} أي : بين نار القطيعة وحميم التدبير والاختيار ، مِن هَمّ الرز ، وخوف الخلق ، وغم الحجاب : نسأل الله العصمة بمنّه وكرمه.

يقول الحق جلّ جلاله : {ولِمَنْ خافَ مقامَ ربه} أي : قيامه بين يديه للحساب {يوم يقوم الناس لرب العالمين} أو : قيامه تعالى على أحواله ، من : قام عليه ، إذا راقبه ، كقوله : {أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [الرعد : ٣٣]. قال مجاهد : هو الرجل يهم بالمعصية ، فيذكر الله تعالى ، فيدعها من خوفه. قال السدي : شيئا ، مفقودان : الخوف المزعج ، والشوق المقلق. هـ. أي : للخائف {جنتانِ} أي : بستانان من الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر ، مسيرة كل بستان : مائة سنة. وقال صلى الله عليه وسلم : " هل تدرون ما هاتان الجنتان ؟ هما بستانان في بستانين ، قرارهما لابث ، وفرعهما ثابت ، وشجرهما نابت " ، أَكْرَم بهما المؤمن ليتكامل سروره بالتنقُّل لمن جنة إلى جنة ، وقيل : جنة لخوفه وجنة لتركه شهوته ، أو : جنة لعقيدته وجنة لعمله ، أو : جنة لفعل الطاعة وجنة لتركه المعصية ، أو : جنة يُثاب بها وجنة يُتفضل عليه بها ، أو : روحانية وجسمانية ، أو : جنة للسابقين وجنة لأهل اليمين ، أو : جنة للإنس وجنة للجن ؛ لأنّ الخطاب للثقلين ، كأنه قيل : لكل خائف منكما جنتان. والأول أرجح ، وسيأتي في الإشارة بقيته ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان}.

ثم وصف تلك الجنتين بقوله : {ذَوَاتا أفَنانٍ} أغصان ، جمع " فَنن " ، وخصّ الأفنان لأنها هي التي تُورق ، ومنها تُجنى الثمار ، وتعقد الظلال ، أو جمع فَنّ ، بمعنى النوع ، أي : ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ، مما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ، {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان} وليس فيها شيء يقبل التكذيب.

}

فيهما} أي : في الجنتين {عينانِ تجريان} حيث شاؤوا إلى الأعالي والأسافل. وعن الحسن : تجريان بالماء الزلال ، إحداهما : التسنيم ، والأخرى : السلسبيل ، وقيل : بالماء والخمر ، {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان} ، {فيهما من كل فاكهةٍ زوجان} صنفان ، صنف معروف وصنف غريب ، أو رطب ويابس. {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان}.

{متكئينَ} نصب على المدح للخائفين ، أو : حال منهم ؛ لأنّ مَن خاف في معنى الجمع ، {على فُرُش بطائنُها من إستبرقٍ} من ديباج ثخين ، وحيث كانت بطائنها كذلك فما ظنك بظاهرها ؟ وقيل : ظاهرها سُندس ، وقيل : من نور ، وقيل : لا يعلمها إلاّ الله. والبطائن : جمع بطانة ، وهو : ما يلي الأرض ،

والإستبرق معرَّب ، {وجَنَى الجنتين دانٍ} أي : ما يجتنى من أشجارها من الثمار قريب ، يناله القائم والقاعد والمضطجع. قال ابن عباس رضي الله عنه : تدنو الشجيرة حتى يجنيها وليُّ الله ، إن شاء قائماً ، وإن شاء قاعداً ، وإن شاء مضطجعاً.

قال القشيري : وفي الخبر المسند : " مَن قال سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ،

٢٧٩

والله أكبر ، غرس له بها ألف شجرة في الجنة ، أصلها الذهب ، وفرعها الدر ، وطلعها كثدي الأبكار ، ألين من الزبد ، وأحلى من العسل ، كلما أُخذ منها شيء عاد كما كان ، وذاك قوله تعالى : {وجَنَى الجنتين دانٍ} إذا أرادوه أتى إلى أفواههم ، حتى يتناولون من غير مشقة ، ويقال : ينالها القائم والقاعد والنائم. هـ. {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} ، {فيهن} أي : الجنتين ؛ لاشتمالها على أماكن وقصور ومجالس ، أو : في هذه الآلاء المعدودة ، من الجنتين والعينين والفاكهة والغرس والجَنْي ، {قاصراتُ الطَّرْفِ} جَوار قَصَرْنَ أبصارَهنّ على أزواجهن ، لا ينظرن إلى غيرهم ، {لم يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قبلهم ولا جانٌّ} أي : لم يمس الإنسيات أحدٌ من الإنس ، لا الجنيات أحدٌ من الجن. والطمث : الجماع بالتدمية. وفي الآية دليل على أنّ الجن يطمثون كما يطمث الإنس. {فبأي آلاء رَبكما تُكذِّبان كأنهنَّ} أي : تلك الجوار {الياقوتُ} صفاءً {والمَرْجانُ} بياضاً ، على أنَّ المرجان صغار الدر ، أو : في الصفاء وحُمرة الوجه. قيل : إنَّ الجواري تلبس سبعين حلة ، فيُرى مُخ ساقها من ورائها ، كام يرى الشراب الأحمر في الزجاجة. {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان}.

{هل جزاءُ الإحسان إلاَّ الإحسانُ} هو استئناف مقرر لما فصّل قبله ، أي : ما جزاء الإحسانِ في العمل إلاّ الإحسانُ في الثواب ، قال أنس : قرأها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قال : هل جزاءُ مَن أنعمتُ عليه بالتوحيد إلاّ الجنة " وفي لفظ آخر : " هل جزاء مَن أنعمت عليه بتوحيدي ومعرفتي إلاّ أن أُسكنه جنتي وحظيرة قدسي برحمتي " أو : هل جزاء مَن قال " لا إله إلا الله " إلاَّ الجنة. قال السدي : هل جزاء الذين أطاعوا في الدنيا إلاّ الكرامة في الآخرة. وقال جعفر الصادق : هل جزاء مَن أحسنتُ إليه في الأزل إلاَّ حفظ الإحسان عليه في الأبد. قال الحسن : هي مسجلة – أي مطلقة – للبر والفاجر ، للفاجر في دنياه ، وللبَر في عُقباه. هـ. {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان}.

(٢٨٠/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٨

الإشارة : {ولمن خاف مَقام ربه} فرَاقَبه ، ثم شاهَده ، {جنتان} جنة المعارف مُعجّلة ، وجنة الزخارف

معها مُؤجلة ، أو : جنة المعارف لأرواحهم ، وجنة الزخارف لأشباحهم. قال القشيري : جنتان : جنة مُعَجَّلة من حلاوة الطاعة ورَوْح القرب ، ومؤجَّلة في الآخرة ، وهي جنة الثواب ، وهم مختلفون في جنان الدنيا على قدر تفاوت مقادير أحوالهم ، كما يختلفون في الآخرة في درجاتهم. هـ. فجنة حلاوة الطاعة لأهل اليمين ، وجنة روح القرب للمقربين. قال الورتجبي : جنتان : جنة المشاهدة وجنة المكالمة ، جنة

المحبة وجنة المكاشفة ، جنة المعرفة وجنة التوحيد ، جنة المقامات وجنة الحالات ، جنة القلب وجنة الروح ، جنة الكرامات وجنة المداناة. هـ. أو : جنة الوصال وجنة الكمال ، أو : جنة الكمال وجنة التكميل ، أو جنة الفناء وجنة البقاء ، أو جنة البقاء وجنة الترقِّي إلى غير انتهاء.

وقوله تعالى : {ذواتا أفنان} يُشير إلى ما في هاتين الجنتين من فنون العلوم والأذواق ، والأسرار والأنوار ، وتفنُّن الأفكار في بحار الأسرار ، فيهما لكل واحدٍ عينان تجريان ، إحداهما بعلوم الشريعة والمعاملة وآداب العبودية ، وأخرى بعلوم الحقيقة والطريقة والتوحيد الخاص ، فيهما من كل فاكهةٍ من فواكه الأذواق صنفان : صنف حاصل ، وصنف يتجدّد بتجدُّد الأنفاس ، أو : صنف لعالم الحكمة ، وصنف لعالم القدرة ، أو : صنف للذات وصنف للصفات ، أو : صنف لحلاوة المشاهدة وصنف لآداب المعاملة. متكئين على فُرش الأُنس ، بطائنها من استبرق الروح والفَرح ودوام البِسط ، وجنا الجنتين دانٍ لمَن تمكّن من الشهود ؛ لأنّ ثمار المعارف من حلاوة الشهود والأُنس صارت طوع يده ، فشُهوده دائم ، وقُربه للحبيب لازم ، فمهما أجال فكرته غاصت في بحار الأحدية ، واستخرجت من يواقيت الحِكَم ، وجواهر العلوم ، ما لا يُحيط به المفهوم ، بخلاف غير المتمكن ، تعب الفكرة ينقص له من لذة الشهود. قال القشيري : إذ لا لذة في أوائل المشاهدة ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم ارزقني لذةَ النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك ، في غير ضرّاء مضرة... " الحديث. هـ. فِيهن قاصرات الطرف ، أي : أبكار الحقائق خاصة بهم لا تنكشف لغيرهم. لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ؛ لم يمس تلك الحقائق غيرهم ، لأنها خاصة بأهل الأذواق ، وكل واحد يمس من الحقائق ما لا يمس غيره ، وينكشف له ما لا ينكشف لغيره ، لأنها على حسب الاستعداد. كأنهن – أي : تلك الحقائق – الياقوتُ في صفاء معناها ، والمرجان في حسن مبناها ، هذا جزاء أهل مقام الإحسان.

}

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٨

هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان} أي : هل جزاء أهل مقام الإحسان إلاَّ الإحسان والتقريب والتخصيص بهذه العلوم والحقائق ، أو : هل جزاء الإحسان معنا إلا الإحسان بكشف ذاتنا ، أو : هل جزاء الإحسان إلى عبادي إلاّ الإحسانُ بقربي وولايتي. قال ابن جزي : ويحتمل أن يكون الإحسان هنا هو الذي سأل عنه جبريل عليه السلام " أن تعبد الله كأنك تراه " فجعل جزاء ذلك الإحسان بهاتين الجنتين ، ويُقوي ذلك : انه جعل هاتين

٢٨١

الجنتين الموصوفتين هنا لأهل المقام العَلي ؛ وجعل جنتين وجعل جنتين دونهما لمَن كان دون ذلك ، فالجنتان المذكورتان أولاً للسابقين ، والمذكورتان بعد ذلك لأصحاب اليمين ، حسبما ورد في الواقعة. انظر تمامه.

(٢٨٢/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٨

يقول الحق جلّ جلاله : {ومِن دونهما جنتانِ} أي : ومن دون تَيْنِك الجنتين الموعودتين للمقربين {جنتان} أخريان لِمن دونهم من أصحاب اليمين ، ويؤيده حديث أبي موسى ، قال في هذه الآية. {ولمن خاف مقام ربه} قال : " جنتان من ذهب للسابقين ، وجنتان من وَرِق لأصحاب اليمين " ورَفَعه ، ولا شك أنَّ الذهب أرفع من الوَرِق ، فلا يلتفت إلى الفضة مَن له الذهب ، خلافاً لمن قال : يلزم حرمان أهل الطبقة الأولى – وهم السابقون – ما ذكر في الحديث من الفضة ، واختار في نوادر الأصول أنَّ قوله : {ومن دونهما} أي : في القُرب إلى العرش ، وأنَّ هذه أعلى وَصْفاً مما ذكر قبلُ ، إلى العرش ، وبَسَطَ القول في ذلك ، ومثله ذكره ابن عطية عن ابن عباس ، واحتج لذلك ، ولكن الأكثرعلى خلاف ذلك ، وسيأتي بيانه إن شاء الله.

{فبأي آلاء ربكما تُكّذِبان مُدْهامَّتان} خضراوان تميلان إلى السواد ، من شدة الخضرة ، وفيه إشعار بأنَّ الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض ، وعلى الأُوليين الأشجار والفواكه ، ومَن اشتهى فيها شيئاً يُعطاه ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} كرر التوبيخ مع ذكر الموصوف ومع صفته تنبيهاً على أنّ تكذيب كل من الموصوف والصفة حقيق بالإنكار ، {فيهما عينان نَضَّاختان} فوّارتان بالماء ، والنضخ أكثر من النضح – بالمهملة – وهو الرش ، {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان}.

{فيهما فاكهةُ ونخلٌ ورمانٌ} عطف الأخيرين على الفاكهة عطف خاص على عام ؛ لفضلهما ، فإنَّ ثمر النخل فاكهة وغذاء ، والرمان فاكهة ودواء. قال أبو حنيفة : مَن حَلَفَ لا يأكل فاكهة فأكل رُماناً أو

رطباً لم يحنث ، وقوفاً مع ظاهر العطف ، وعندنا الأَيمان مبنية
٢٨٢
على الأعراف ، وهي تختلف باختلاف الأقطار. {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} ولا شيء منها يقبل الإنكار.
}

(٢٨٣/٧)

فيهنَّ خَيْراتٌ حِسَانٌ} أي : في الجنتين المشتملتين على قصور ومساكن نساء {خيرات} أي : فاضلات الخُلُق ، حِسان الخَلْق ، وهو مخفف من " خير " بالتشديد ، وقرئ (خيِّرات) على الأصل ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان}. {حُورٌ} بدل من " خيرات " {مَقصوراتٌ في الخيام} قُصِرن في خدورهن. يقال : امرأة قصيرة وقَصُورة ، ومقصورة ، أي مخدّرة ، أو : مقصورات الطرف على أزواجهن ساكنة في الخيام. قال القشيري : قصرن أنفسَهن وقلوبَهن وأبصارَهن على أزواجهن. هـ. يقلن : نحن الناعماتُ فلا نبأس ، الخالداتُ فلا نَبيدُ ، الراضيات فلا نَسْخَط. وفي خبر : أن عائشة قالت : " إنَّ المؤمنات أجَبْنَهُنَّ ، نحن المُصلِّياتُ وما صلَّيْتُنَّ ، نحن الصائمات وما صُمتُنَّ ، نحن المتصدِّقاتُ وما تصدَّقْتنَّ ، قالت عائشة : فغلبنهن ". والخيام من الدر المجوف ، {فبأي آلاء ربكنما تُكَذِّبان}. {لم يَطْمِثْهُن إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان}.
{متكئين} نصب على الاختصاص ، {على رَفْرَفٍ} هو كل ثوب عريض ، وقيل : هو الوسائد ، والأظهر من الحديث أنه سرير مفروش بثياب خُضر ، يركب فيه أهل الجنة ، ويسير بهم حيث شاؤوا ، وقوله : {خُضْرٍ} ، وصف لرفرف ؛ لأنه مُحلّى بثيابٍ خُضر ، والرفرف : إما اسم جنس ، أو اسم جمع ، واحده : رفرفة. {وعبقريٍّ حِسَانٍ} أي : طنافس ، وهي جياد البُسط ، كالزرابي وشبهها. والعبقري : منسوب إلى عبقر ، تزعم العرب أنه اسم بلد الجن ، يسبون إليه كل شيء عجيب. وقال أبو عبيد : هو منسوب إلى أرض يُعمل فيها الوَشي ، فينسب إليها كل مبالغ في الوصف ، وقال الخليل : كل جليل فاضل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم عند العرب عبْقري ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في عمر : " فلم أرَ عَبْقرِيّاً من الناس يَفْرِي فَرْيَه " والمراد به الجنس ، ولذلك وصفه بالجمع ، {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان}
قال النسفي : وإنما تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين حتى قيل : [ومن دونهما] لأنَّ {مدهامتان} دون {ذواتا أفنان} ، و {نضّاختان} دون {تجريان} ، و {فاكهة} دون {من كل فاكهة زوجان} ، وكذلك صفة الحور والمتّكأ. هـ.

{تبارك اسمُ ربك} أي : تنزّه وتقدّس ، أو تكاثر خيره. وفيه تقرير لما ذكر في السورة الكريمة من آلائه الفائضة على الأنام ، {ذي الجلال} ذي العظمة. وقرأ الشامي بالرفع ، صفة لاسم ، {والإكرام} لأوليائه بالإنعام.

٢٨٣

قيل : لمَّ ختم تعالى نِعم الدنيا بقوله : {ويبقى وجهُ ربك ذي الجلال والإِكرام} ختم نِعم الآخرة بقوله : {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} وناسب هذا ذكر البقاء والديمومية له تعالى ، إذ ذكر فناء العالم ، وناسب هنا ذكر ما امتنّ به من البركة ، وهي الخير والزيادة ، إذ جاء ذلك عقب ما امتنّ به على المؤمنين ، وما آتاهم في دار كرامته من الخير وزيادته وديمومته.

(٢٨٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٢

روَى جابر أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة الرحمن ، فقال : " ما لي أراكم سكوتاً ، لَلْجِنُّ كانوا أحسن منكم ردّاً ، ما أتيتُ على قول الله : {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان} إلاَّ قالوا : ولا شيء من نعمك ربنا نكذِّب ، فلك الحمد ولك الشكر ". وكررت هذه الآية في هذه السورة إحد وثلاثين مرة ، ذُكرت ثمانية منها عقب آيات فيها عجائب خلق الله ، وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم ، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، على عدد أبوب جهنم ، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلها ، على عدد أبوب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما ، فمَن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها فُتحت له أبواب الجنة وغُلقت أبواب جهنم. قاله النسفي.

الإشارة : ومن دون جنتي أهل المقربين جنتا أهل اليمين ، وهما جنة حلاوة الطاعة وكمال الاستقامة ، أو حلاوة المعاملات وظهور الكرامات ، أو حلاوة المناجاة وحصول المداناة ، أو : جنة مُعجَّلة في البرزخ لأرواحهم ، وأخرى بعد البعث لأشباحهم ، وهذا يجري أيضاً في حق المقربين. وقوله : {مُدْهامتان} شديدة خضرتها ؛ لانَّ النظر إلى الخضرة أمْيَلُ ، وكذلك أهل العبادة الظاهرية حين يجدون حلاوتها ، ويقفون معها ، ترمُقهم أبصار العامة بالتعظيم والتكريم ، فربما يجنون بعض جزاء أعمالهم ، بخلاف أهل الباطن ، أهل الفناء والبقاء ، لا ترى منهم إلاّ النيران ؛ لفرارهم من الخلق ، ولخفاء عبادتهم بين فكرة ونظرة ، فيهما عينان نضاختان فوارتان بالعلوم الظاهرة التي أثمرتها التقوى ، لقوله تعالى : {وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ} [البقرة : ٢٨٢] ، وكثرة العلوم كمال عند أهل الظاهر ، ولا يعتبره أهل الباطن ؛ إذ المدار عندهم على الأذواق والوجدان ، وتحقيق عين العيان. وفي كتاب شيخ شيوخنا ، سيدي " عليّ العمراني " رضي الله عنه قال : علم الحرب وما جرى بينهم إنما يوجد عند المستشرف

على المعركة ، وأمّا المباشِر للحرب فهو في شغل شاغل عنه.
٢٨٤
فيها فاكهة ، أي : تفنُّن في تحقيق المسائل ، ونخل ؛ تضلُّع من علم الحديث ، ورُمان ؛ تغلغل في التفسير ، أو : فيهما فاكهة تحقيق علم المعاملة ، ونخل تحقيق علم الاعتقادات المجازية ، ورمان تمسك بعلم التصوُّف ، الذي هو دواء القلوب ، فيهن خيرات حسان في تلك الجنان أخلاق حسان ، وهي ثمرة العلم النافع ، حور مقصورات في الخيام ، أي : تلك الأخلاق الطيبة مقصورة على قلوب أهل الصفا ، لا تظهر إلا لهم ، أو : في تلك الجنان الذي هي القلوب ، علوم غريبة ، لم تكشف لغيرهم ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ؛ لم يفك انغلاقها أحد قبلهم. وفي التسهيل : وإذا كانت العلوم مِنحاً إلهية ، ومواهب اختصاصية ، فغير مستبعد أن يدخر لكثير من المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين. هـ. متكئين على رَفرفٍ ، أي : بساط فكرة الاعتبار ، يستخرج بها جواهر العلوم ، ووصفه بالخضرة لظهور أثر فكرهة الاعتبار بما تجليه من العلوم ، وفي الحديث : " ساعة من العالِم يتفكر في علمه خير من عبادة الجاهل ألف سنة " أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، وكذلك وصفه بالعبقرية والجَودة ؛ لكماله في محله. {تبارك اسم ربك} أي : تعاظم قدره {ذي الجلال والإكرام} حيث مَنَّ بهذه النعم الجِسام على الفريقين ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ، وصلّى على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلّم.
٢٨٥

(٢٨٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٢
سورة الواقعة

(٢٨٦/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٥
قال ابن عطية : رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَن دوام على قراءة سورة الواقعة لم يفتقر أبداً " ، ودعا عثمانُ عبدَ الله بنَ مسعود إلى عطائه ، فأبى أن يأخذ ، فقيل له : خُذ للعيال ، فقال : إنهم يقرؤون سورة الواقعة ، وسمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول : " مَن قرأها لم يفتقر أبداً " قال ابن عطية : فيها ذكر القيامة ، وحظوظ الناس في الآخرة ، وفَهْمُ ذلك غِنىً لا فقر معه ، ومَن

فهِمه شُغل بالاستعداد. هـ. وقال مسروق : مَن أراد أن يعلم نبأ الأولين ، ونبأ أهل الجنة ، ونبأ أهل النار ، ونبأ الدنيا والآخرة ؛ فليقرأ سورة الواقعة. هـ.

يقول الحق جلّ جلاله : {إِذا وَقَعت الواقعةُ} إذا قامت القيامة ، وذلك عند النفخة الثانية ، ووُصفت بالوقوع لأنها تقع لا محالة ، فكأنها واقعة في نفسها ، كأنه قيل : أذا وقعت التي لا بُدّ من وقوعها.

ووقوع الأمر : نزوله ، يقال : وقع ما كنت أتوقعه ، وانتصاب {إذا} بمضمر يُنبئ عن الهول والفظاعة ، كأنه قيل : إذا وقعت الواقعة يكون من الأهوال ما لا يَفِي به المقال ، أو : بالنفي المفهوم من قوله : {ليس لِوقعتها كاذبةٌ} أي : لا كذب وقت وقوعها ، أو : باذكر ، أو : بمضمون السورة قبلها ، أي : يكون ما ذكر من نعِيم

٢٨٦

الفريقين إذا وقعت الواقعة ، ثم استأنف بقوله : {يس لوقعتها كاذبةٌ} أي : لا يكون عند وقوعها نَفْسٌ تَكذب على الله ، أو : تكذب في نفسها كما تكذب اليوم ، لأنَّ كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدّقة ، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذّبات ، واللام مثلها في قوله : {قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر : ٢٤] ، أي : ظرفية ، أي : ليس عند وقوعها كذب ، أو : تعليلية ، قال الفراء : {كاذبة} : مصدر ، كالعاقبة والعالية ، وقيل : صفة لمحذوف ، كما تقدّم.

}

(٢٨٧/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٦

خافضةٌ رافعةٌ} أي : هي خافضة لأقوام ، رافعة لآخرين ، وهو تقرير لِعظمها وتهويل لأمرها ، فإنَّ الوقائع العِظام شأنها كذلك ، أو : بيان لِما يكون يومئذ من حَطّ الأشقياء إلى الدركات ، ورفع السعداء إلى الدرجات ، ومن زلزلة الأشياء وإزالة الأجرام عن مقارها ، بنثر الكواكب وتسيير الجبال ، كما أبان ذلك بقوله : {إِذا رُجَّتِ الأرضُ رجّاً} : حُرِّكت تحريكاً شديداً حتى تهدِم كلَّ شيء فوقها ، من جبل وبناء ، وهو متعلق بخافضه ، أي : تخفض وترفع وقت رج الأرض ، أي : عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ، ويرتفع ما هو منخفض ، أو : بدل من : {إذا وقعت} ، وجواب الشرط : {فأصحاب الميمنة} ، والمعنى : إذا كان كذا فأصحاب الميمنة ما أسعدهم ، وما أعظم ما يُجازون به ، وما أعظم رتبتهم عند الله في ذلك الوقت الشديد الصعب على العالم. وتقديم الخفض الملتّت ، من : بسَّ السويق : إذا لتّه ، أو : سِيقت وسُيّرت عن أماكنها ، من : بسّ الغنم : إذا ساقها ، كقوله تعالى : {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ} [النبأ : ٢٠]. {فكانت} أي : فصارت بسبب ذلك ؛ {هباءً} غباراً {مُنبثاً} منتشراً متفرقاً في الهواء ،

والهباء : ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ، ولا يكاد يُرى إلاّ في الشمس إذا دخلت في كُوة ، {وكنتم} معاشر الخلق ، أو : أيتها الأُمة {أزواجاً} أصنافاً {ثلاثة} صنفان في الجنة ، وصنف النار ، قال قتادة : هي منازل الناس يوم القيامة.

ثم فسّر تلك الأزواج ، فقال : {فأصحابُ الميمنة} وهم الذي يؤتون صحائفهم بأيمانهم {ما أصحابُ الميمنة} ، تعظيم لشأنهم ، و " ما " : استفهام تعجب مبتدأ ، و " أصحاب " : خبر ، والجملة : خبر المتبدأ الأول ، والأصل : فأصحاب الميمنة ما هم ؟ أي : أيّ شيء هم في حالهم وصفتهم ؟ فوضع الظاهر موضع المضمر زيادة في التعظيم ، ومثله : {الْحَآقَّةُ مَا الْحَآقَّةُ} [الحاقة : ١ ، ٢] ونظائرها.

{وأصحابُ المشئمةِ} أي : الذين يُؤتون صحائفهم بشمالهم {ما أصحابُ المشئمة} أي : أيّ شيء هم ؟ ! تعجيب من حالهم الفظيع ، أو : فأصحاب المنزلة السنية ؛ وأصحاب المنزلة الدنية الخسيسة ، من قولك : فلان مِني باليمين ، وفلان مِني بالشمال ؛ إذا وصفتهما عندك بالرفعة والوضعة ، وذلك لتيمُّنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل ، وقيل : يُؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين ، وبأل النار ذات الشمال. وقال القشيري : أصحاب الميمنة : هم الذين

في جانب اليمين من آدم وقت ذرَّ الذرية من صُلبه ، وأصحاب المشئمة الذين كانوا في جانب شماله. هـ. قلت : وكذلك رآهم النبي - عليه الصلاة والسلام - ليلة المعراج.

}

والسابقون السابقون} مبتدأ وخبر ، على معنى تعظيم الأمر وتفخيمه ؛ لأنّ المبتدأ إذا أُعيد بنفسه خبراً دلَّ على التفخيم ، كقوله الشاعر :

أنا أبو النَّجْمِ وشِعْري شِعْري

والمعنى : والسابقون هم الذين اشتهرت أحوالُهم ، وعُرفت محاسنهم ، أو : والسابقون إلى الخيرات هم السابقون إلى الجنات ، وقال أبو السعود : الذي تقتضيه جزالة النظم أنَّ " أصحاب الميمنة " : خبر مبتدأ محذوف ، وكذا قوله تعالى : {والسابقون} فإنَّ المترقب عند بيان انقسام الناس إلى الأقسام الثلاثة بيان أنفس الأقسام ، وأمّا أوصافها وأحوالها فحقها أن تُبين بعد ذلك بإسنادها إليه ، والتقدير : فأحدها أصحاب الميمنة ، والآخر أصحاب المشئمة ، والثالث السابقون. ثم أطال الكلام في ذلك ، فانظره.

واختُلف في تعيينهم ، فقيل : هم الذين سبقوا إلى الإيمان ، وإيضاحه ، عند ظهور الحق من غير تلعثم ولا توان ، وقيل : الذين سبقوا في حيازات الفضائل والكمالات ، وقيل : هم الذي صلُّوا إلى القبلتين ، كما قال تعالى : {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ} [التوبة : ١٠٠] وقيل : السابقون إلى الصلوات الخمس ، وقيل : المسارعون في الخيرات. والتحقيق : أنهم السابقون إلى الله بالمجاهدة والمكابدة ، حتى أفضوا إلى مقام المشاهدة ، وهو مقام الإحسان.

{أولئك المقرَّبون} أشار إليهم بإشارة البُعد مع قُرب العهد ؛ للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل والشرف ، أي : أولئك السابقون إلى الله هم المقربون إلى الله في الكرامة والتعظيم ، الذي تلي درجاتهم درجات الأنبياء ، وهم {في جنات النعيم} أي : ذات التنعُّم ، فتَصْدق بالفردوس ، التي هي مسكن المقربين ، وإنما أخَّر ذكر السابقين مع كونهم أحق بالتقدُّم في الذكر ؛ ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم ، ويتخلّص إلى ذكر نعيمهم الآتي ، على أنّ إيرادهم بعنوان المسبق مطلقاً مُعْرِبٌ عن إحرازهم لقصب السبق من جميع الأمور. الإشارة : إذا وقعت الحقيقة المتوقعة للمتوجهين ؛ كان من العلوم والأسرار ما لا تُحيط به عامة الأفكار ، ووقوع الحقيقة : برزوها معهم ، وإشراق أنوارها على قلوبهم ،

٢٨٨

فتفنى الكائنات وتضمحل الرسوم والإشارات ، ويبقى الحيّ القيوم وحده ، كما كان وحده ، ليس لوقعتها كاذبة ؛ لا كذب في وقوعها ، ولا شك في إظهارها على مَن توجه إليها ، وصَحِبَ أهلها ، وحطّ رأسه لأربابها ، وامتثل كل ما يأمرونه به ، خافضة لمن توجه إليها ، وَوَصَلَ لأنوارها ، وتحقق بأسرارها. يعني : هكذا شأنها في الجملة ، تخفض قوماً وترفع آخرين ، وإنما تقع لمَن توجه إليها إذا رُجت أرض النفوس منه رجّاً ، أي : تحركت واضطربت ، بمنازلة الأحوال ، وارتكاب الشدائد والأهوال ، وتوالي الأذكار ، والاضطراب في الأسفار ، فإنَّ كُمون سرها في الإنسان كَكمُون الزبد في اللبن ، فلا بد من مخضه لاستخراج زُبده. وبُست جبال العقل منه بسّاً ، فكانت هباءً مُنبثاً ؛ لأنّ نور العقل يتغطّى بنور شمس العرفان ، ويضمحل كما يضمحل نور القمر إذا طلعت الشمس ، وكنتم أيها الطالبون المتوجهون أصنافاً ثلاثة : قومٌ توجهوا إليها ، ثم قنعوا بما برز لهم من شعاع أنوارها ، وهم عامة المتوجهين. وقوم استشرفوا عليها فلم يطيقوا أنوارها ، فرجعوا القهقرى ، وهم أهل الحرمان ، من أهل المشأمه. وقوم أدركوها ، وتحققوا بها ذوقاً وكشفاً ، ففنوا وبقوا ، سَكروا وصحوا ، وهم السابقون المقربون في جنات المعارف ، ونعيم الشهود ، أبداً سرمداً ، جعلنا من خواصهم آمين ، وسيأتي إن شاء الله في آخر السورة تحقيق الفرق بين المقربين وأصحاب اليمين.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٦

يقول الحق جلّ جلاله : {ثُلّةٌ} أي : هم ثلة ، أي : جماعة كثيرة {من الأولين} والثُلة : الأمة الكثيرة من الناس ، {وقليل من الآخِرين} ممن يتأخر من هذه الأمة ، والمعنى : أن السابقين في أول الأمة المحمدية كثير ، وفي آخرها قليل ، وذلك أنَّ صدر هذه الأمة كَثُر فيها خير ، وظهرت فيها أنوار وأسرار ، وخرج منها جهابذة من العلماء والأولياء ، بخلاف آخرها ، السابقون فيها قليلون بالنسبة إلى عامة أهل اليمين ، ويُؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم : " خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم " ، وصرّح في حديث

٢٨٩

آخر أنهم جميعاً من أمته ، فقال : " الفرقتان من أمتي " ، فسابق أول الأمة ثلة ، وسابق سائرها إلى يوم القيامة قليل. هـ. من الثعالبي. وقيل : المراد بالأولين : الأمم الماضية ، والآخرين : الأمة المحمدية ، وهو بعيد أو فاسدٌ ، واقتصر في نوادر الأصول على أنَّ الثلة الأنبياء ، وخُتموا بمحمد صلى الله عليه وسلم ومِنْ بعده الأولياء ، وعددهم قليل في كل زمان. هـ. وفي المَحلِّي هنا تخليط. انظر الحاشية.

{على سُرُرٍ} جمع سرير ، {موضونةٍ} قال ابن عباس : " مرمولة " ، أي : منسوجة بقضبان الذهب ، وقضبان اللؤلؤ الرطب ، طولُ السرير : ثلاثمائة ذراع ، فإذا أراد الجلوس تواضع ، فإذا استوى عليه ارتفع ، {متكئين عليها} حال من الضمير في الظرف ، وهو العامل فيه ، أي : استقروا على سُرر متكئين عليها اتكاء الملوك على الأَسِرة ، {متقابلين} ينظر بعضهم في وجوه بعض ، ولا ينظر بعضهم من أقفاء بعض. وُصفوا بحسن العِشْرة ، وتهذيب الأخلاق ، وصفاء المودة. وهو أيضاً حال.

{يطوف عليهم} يَخدمهم {وِلدانٌ} غلمان ، جمع وليدٍ ، {مُخلَّدون} مُبْقَّوْنَ أبداً على شكل الولدان ، لا يتحولون عنه إلى الكِبَر ، وقيل : مقرَّطون ، والخِلَدَةُ : القُرْط ، وهو ما يلقى في الأذن من الأخراص وغيرها. قيل : هم أطفال أهل الدنيا ، لم يكن لهم حسنات يُثابون عليها ، ولا سيئات يعاقبون عليها. وفي الحديث : " أولاد الكفار خُدّام أهل الجنة " وهذا هو الصحيح. {بأكوابٍ} جمع كوب ، وهو آنية لا عروة لها ولا خرطوم ، {وأباريقَ} جمع إبريق ، وهو ما له خرطوم وعروة ، {وكأسٍ} أي : قدح فيه شراب ، فإن لم يكن فيه شراب فلا يُسمى كأساً ، {من مَعينٍ} من خمر ، يجري من العيون ، {لا يُصَدَّعون عنها} أي : بسببها ، أي : لا يصدر عنها صُداع ، وهو وجع الرأس ، {ولا يُنزَفُونَ} ولا يسكرون ، يقال : نزَف الرجل : ذهب عقله بالسُكر ، فهو نزيف ومنزوف. وقرأ أهل الكوفة بضم الياء وكسر الزاي ، أي : لا ينفذ شرابهم ، يقال : أُنزف القوم : إذا نفد شرابهم. وفي الحديث : " زَمزمُ لا تُنْزَفُ ولا تُذَمّ " أي : لا ينفذ ماؤها.

}

وفاكهةٍ مما يتَخيَّرون} أي : يختارونه ويأخذون خيره وأفضله ، يجنونه بأيديهم ، وهو أشد نعيماً وسروراً من أخذه مجنياً ، {ولحم طيرٍ مما يشتهون} مما يتمنون مشوياً أو مطبوخاً ، {وحُورٌ عِينٌ} أي : وفيها حور عين ، أو : لهم حور عين ، ويجوز أن يعطف

على " ولدان " أي : وتخدمهم حُور عين ، زيادة في التعظيم ، ومَن قرأ بالخفض عطفه على " جنات النعيم " كأنه قيل : هم في جنات النعيم وفاكهة ولحم طير وحور {كأماثلِ اللؤلؤ المكنونِ} في الصفاء والنقاء. والمكنون : المصون في صَدفه. وقال الزجاج : كأمثال الدُرِّ حين يخرج من صدفه ، لم يُغيّره الزمان واختلاف الأيدي عليه ، {جزاء بما كانوا يعملون} مفعول له ، أي : يفعل بهم ذلك لجزاء أعمالهم الصالحة أو : مصدر ، أي : يُجزَون جزاء ، فنفس الدخول للجنة بمحض الرحمة ، وكثرة النعيم والغُرف بالعمل ، والترقي باليقين والمعرفة – والله تعالى أعلم – فلا تعارض.
{لا يَسْمَعون فيها} في الجنة {لَغواً} باطلاً {ولا تأثيماً} هذياناً ، أو : ما يُؤهم صاحبه لو كف ، {إلاَّ قِيلا} أي : قولاً {سلاماً سلاماً} أي : ذا سلامة. والاستثناء منقطع ، و " سلاماً " بدل من " قيلاً " أو : مفعول به لـ " قيلاً " ، أي : لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاماً سلاماً ، والمعنى : أنهم يُفشون السلام فيُسَلِّمون سلاماً بعد سلام ، أو : لا يسمع كلٌّ من المسلِّم والمسلَّم عليه إلا سلام الآخر بدءاً ورداً.
والله تعالى أعلم.
الإشارة : أخبر تعالى أنّ المقربين في الصدر الأول أكثر من الزمان الأخير ، وهو كذلك من جهة الكمية ، وأما من جهة الكيفية فالمقربون في آخر الزمان أعظم رتبةً ، وأوسع علماً وتحقيقاً ؛ لأنهم نهضوا في زمان الغفلة ، وجدُّوا في زمان الفترة ، لم يجدوا من أهل الجدّ إلا قليلاً ، ولا من أهل الحق إلا نذراً يسيراً ، فحيث نهضوا وحدهم عوّضهم الله مرتبة لم يعطها لغيرهم ، ويشهد لهذا قوله عليه السلام : " اشتقت إلى إخواني " قال أصحابه ، نحن إخوانك يا رسول الله ؟ قال : " أنتم أصحابي ، إخواني قوم يأتون بعدي ، مِن نعتهم كذا وكذا " ثم قال : " يعدل عمل واحد منهم سبعين منكم " قالوا : يا رسول الله منهم ؟ قال : " منكم " قيل : بماذا يا رسول الله ؟ قال : " إنكم وجدتم على الخير أعواناً ، وهم لم يجدوا عليه أعواناً " وفي حديث آخر ، رواته ثقات : قالوا : يا رسول الله ؛ هل أحد خير منا ؟ قال : " قوم يجيئون بعدكم ، فيجدون كتاباً بين لوحين ، يؤمنون بما فيه ، ويؤمنون بي ، ولم يروني ، ويُصَدِّقون بما جئتُ به ، ويعملون به ، فهم خير منكم " ، ولا يلزم من تفضيلهم مِن جهةٍ تفضيلهم مطلقاً.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٩

ثم وصف المقرّبين بكونهم على سُرر الهداية ، منسوجة بالعِز والعناية ، محفوفة بالنصر والرعاية ، متكئين عليها ، راسخين فيها ، متقابلين في المقامات والأخلاق ، أي : يواجه بعضهم بعضاً بقلوبهم وأسرارهم ، لا تَباغض بينهم ولا تحاسد ، تطوف عليهم الأكوان وتخدمهم ، " أنت مع الأكوان ما لم تشهد المُكوّن ، فإذا شهدت المُكوِّن كانت الأكوان معك " : يُسقون بأكوابٍ وأباريق من علم الطريق ، وكأس من خمر الحقيقة ، فلا

٢٩١

يتصدّعون من أجلها ؛ إذ ليست كخمر الدوالي ، ولا يُنزفون : لا يسكرون سُكْر اصطلام ، وإنما يسكرون سُكراً مشوباً بصَحْوٍ ، إذا كان الساقي عارفاً ماهراً. وفاكهة ؛ حلاوة الشهود ، مما يتخيرون ، إن شاؤوا بالفكرة والنظرة ، وإن شاؤوا بالذِكر والمذاكرة ، وكان بعض أشياخنا يقول : خمرة الناس في الحضرة ، وخمرتنا في الهدرة ، أي : المذاكرة. ولحم طير من علوم الطريقة والشريعة ، مما يشتهون منها ، وحُورق عِين من أبكار الحقائق ، مصونة عن غير أهلها ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء على مجاهدتهم ومكابدتهم. لا يسمعون في جنة المعارف لغواً ولا تأثيماً ؛ لتهذيب أخلاق أهلها ، كما قال ابن الفارض رضي الله عنه :

تُهذّبُ أخلاقَ النّدامى ، فيَهْتدي

بها لطريقه العزم مَن لا له عَزْم

ويكرُمُ مَن لا يَعْرف الجودَ كَفّه

ويحلُمُ عند الغيظ مَن لا له حِلم

فلا تسمع من الصوفية إلا قيلاً سلاماً سلاماً ، كما قيل في حقيقة التصوُّف : أخلاقٌ كرام ، ظهرت من قوم كرام ، في زمن كريم.هـ.

(٢٩٢/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٩

يقول الحق جلّ جلاله : {وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين} استفهام تعجيب ، تفخيماً لحالهم ، وتعظيماً لشأنهم ، ثم ذكر نعيمهم فقال : {في سِدْرٍ مَّخْضُودٍ} والسدر : شجر النبق ، والمخضود : الذي لا شوك له ، كأنه خُضِد شوكه ، أي : قُطع ، أي : ليس هو كسِدر الدنيا ، وقيل : مخضود ، أي : ثنى إغصانه من كثرة حمله ، من خَضَدَ الغصن : إذا ثناه وهو رطب. قال ابن جُبَيْر : ثمرها أعظم من القلال ، وثمار الجنة كلها بادية ، ليس شيء منها في غلاف. رُوي أنَّ المسلمين نظروا إلى وادٍ بالطائف

مخصب ، فأعجبهم سِدرها ، وقالوا : يا ليت لنا مثله في الجنة ، فنزلت ، وقال أمية بن أبي الصلت في وصف الجنة :

إنَّ الحَدائِقَ في الجِنان ظَلِيلةٌ

فيها الكواعِبُ ، سِدْرُهَا مَخْضُودُ

{وطَلْحٍ مَّنضُودٍ} الطلح : شجرة الموز ، والنضود : الذي نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه ، فليست له ساق بارزة ، وفي جامع العُتْبية عن مالك ، قال : بلغني أنّ الطلح المنضود ، المذكور في الآية ، هو الموز ، وهو مما يشبه ثمار الجنة ، لقوله تعالى :

٢٩٢

{أُكُلُهَا دَآئِمٌ} [الرعد : ٣٥] ، والموز يؤكل في الشتاء والصيف.هـ.

{وظِلّ ممدودٍ} منبسط ، لا يتقلص ولا ينقطع ، كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. {وماءٍ مسكوبٍ} جارٍ بلا أُخدود ، يُسْكَب لهم أين شاؤوا ، وكيف شاؤوا ، بلا تعب. {وفاكهةٍ كثيرةٍ} بحسب الأنواع والأجناس ، {لا مقطوعةٍ} لا تنقطع في بعض الأوقات ، كفواكه الدنيا ، بل هي دائمة ، {ولا ممنوعةٍ} عن تناولها بوجه من الوجوه ، أو : لا يحظر عليها ، كبساتين الدنيا ، أو : لا مقطوعة بالأزمان ، ولا ممنوعة بالأثمان.

{وفُرُشٍ مرفوعةٍ} رفيعة القدر ، أو : مرفوعة على الأسرَّة ، وارتفاع السرير خمسمائة سنة ، وقيل : كنّى بالفُرُش عن النساء ؛ لأنَّ المرأة يُكنّى عنها بالفراش ، مرفوعة على الأرائك ، قال تعالى : {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظَلاَلٍ عَلَى الأَرَآئِكِ مُتَّكِئُونَ} [يس : ٦٥] ، ويؤيده قوله : {إِنَّا أنشأناهن إنشاءً} أي : ابتدأنا خلقهن ابتداءً من غير ولادة. فإما أن يُراد : اللاتي ابتدئ إنشاؤهن ، وهن الحور ، أو : اللاتي أُعيد إنشاؤن ، وهن نساء الدنيا ، وعلى غير هذا التأويل أضمر لهنّ ؛ لأنّ ذكر الفُرش ، وهي المضاجع ، دلَّ عليه. {فجعلناهن أبكاراً} أي : عذارى ، كلما أتاهنَ أزواجهنَ وجدوهنَ أبكاراً. {عُرُباً} جمع عَرُوب ، وهي المحبّبة لزوجها ، الحسنة التبعُّل ، {أترابا} : مستويات في السنّ ، بنات ثلاثٍ وثلاثين ، وأزواجهنّ كذلك. {لأصحاب} أي : أنشأناهن أصحاب {اليمين}.

}

ثُلةٌ} أي : أصحاب اليمين ثلة : جماعة كثيرة {من الأولين} ، {وثُلة} وجماعة كثيرة {من الآخرين} فالسابقون كثيرون من الأولين وقليل من الآخرين ، وأصحاب اليمين كثيرون من الأولين والآخرين. هذا

المتعين في تفسير الآية. والله تعالى أعلم.

الإشارة : أصحاب اليمين هم أهل الحجاب ، المحصورون في سجن الأكوان ، المحيط بهم دوائر حسهم ، من العُبّاد والزُّهّاد ، والعُلماء بالشرائع ، والصالحين الأبرار ، وعامة المسلمين. هم في سدر مخضود ؛ كثرة الأعمال المخضودة من شوك الرياء والعجب ، المنزهة من الفتور والقصور ، وطلح منضود ؛ حلاوة الطاعات ، وتحقيق المقامات ، وظِلٍّ ممدود ؛ ظل راحة القناعة لمَن أُعطيها ، وروح الرضا والتسليم لمَن منحه. وماء مسكوب ؛ عِلْم التوحيد البرهاني أو الإلهامي ، وفاكهة كثيرة : حلاوة المناجاة ، وظهور الكرامات ، ولذة التفنُّن في العلوم الرسمية ، لا مقطوعة ولا ممنوعة لمَن رسخ فيها. وفُرش مرفوعة ؛ تفاوت درجاتهم على حسب أعمالهم : إنّا أنشأناهن إنشاءً ، لكل فريق مما تقدم ، زيادة في عمله ، أو علمه ، أو زهده ، على ما يليق بحاله ، فكل صنفٍ له تَرَقٍّ في فنه وزيادة في محله. فجعلناهن أبكاراً ؛ لأن كل زيادة تكون جديدة لم يعهدها

٢٩٣

صاحبها ، عُرباً يعشقها وتعشقه ، أتراباً ، تكون على قدر حاله وفهمه وذوقه. هذا لعامة أصحاب اليمين ، وهم كثيرون ، سَلفاً وخَلفاً.

(٢٩٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٢

يقول الحق جلّ جلاله : {وأصحابُ الشمال ما أصحابُ الشمال} تفظيع لشأنهم ، والشمال والمشأمة واحد. {في سَمُوم} في حرّ نار تنفذ في المسامّ ، {وحميم} وماء حارّ ، تناهي في الحرارة ، {وظِلٍّ من يَحْمُوم} من دخان أسود بهيم ، {لا باردٍ} كسائر الظلال ، {ولا كريم} فيه خير مّا في الجملة ، سمّاه ظلاًّ ، ثم نفى عنه برد الظل ورَوْحَه ونفعَه لمَن يأوي إليه من أذى الحر ، وذلك كرمه – ليمحي عنه ما في مدلول الظل من الاسترواح إليه ، والمعنى : أنه ظلٌّ حار ضارّ.

{إنهم كانوا قبل ذلك} أي : في الدنيا {مُتْرَفِينَ} منعّمين بأنواع النِعَم ، من المآكل والمشارب ، والمساكن الطيبة ، والمقامات الكريمة ، منهمكين في الشهوات ، فمَنَعَهم ذلك من الانزجار ، وشَغَلَهم عن الاعتبار. وهو تعليل لابتلائهم بما ذكر من العذاب ، {وكانوا يُصِرُّون} يُداومون {على الحِنْثِ العظيم} أي : على الذنب العظيم ، وهو الشرك ؛ لأنه نقض عهد الميثاق ، وخروج عن طاعة الملك إلى نصر غيره. والحنث : نقض العهد الموثّق باليمين ، أو : الكفر بالبعث ، لقوله : {وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ} [النحل : ٣٨] ، ثم صار يُطلق على مطلق الذنب ، ومنه : بلغ الغلامُ الحنث ، أي : وقت الحلم ووقت المؤاخذة بالذنب.

{وكانوا يقولون} لغاية عتوهم : {أئِذا مِتْنَا وكنا تراباً وعظاماً} أي : إذا صارت أجزاؤنا من الجلد والعظم واللحم ، بعضها تراباً ، وبعضها عظاماً نخرة ، نُبعث بعد ذلك ؟ وتقديم التراب لعراقته في الاستبعاد وانقلابها حيواناً. والعامل في " إذا " ما دلّ عليه قوله : {أئنا لمبعوثون} أي : أنْبعث إذا صرنا في هذه الحالة ؟ ولا يعمل فيه لفظه ؛ لأنّ " إنّ " والاستفهام لا يعمل ما بعدها فيما قبلهما ، {أَوَ آباؤنا الأولون} يُبعثون أيضاً ؟ دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف ، وحسن العطف على المضمر في {لمبعوثون} من

غير توكيدٍ بـ " نحن " للفاصل الذي هو الهمزة ، يعنون بذلك : أن بعث آبائهم أبعد في الوقوع من بعثهم. وقرئ في السبع بأو العاطفة.

ثم ردّ عليهم بقوله : {قل إنّ الأولين والآخِرين} أي : إنّ الأولين من الأمم المتقدمين ، الذين من جملتهم آباؤكم ، والآخرين ، الذين من جملتهم أنتم. وفي تقديم " الأولين " مبالغة في الرد ، حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشد مع مراعاة الترتيب ، {لمجموعون} بالبعث {إلى ميقاتِ يومٍ معلوم} أي : إلى ما وقتت به الدنيا باعتبار فنائها من يوم معلوم ، وهو يوم البعث والحساب ، والإضافة بمعنى " من " كخاتم فضة.

{ثم إنكم أيها الضالون} عن الهدى {المكذِّبون} بالبعث ، والخطاب لأهل مكة وأضرابهم ، {لآكلون} بعد البعث والجمع ودخول جهنم {مِن شجرٍ مِن زقوم} " مِن " الأولى : لابتداء الغاية ، والثانية : لبيان الشجر. {فمالئُون منها البطونَ} أي : بطونكم من شدة الجوع ، {فشاربون عليه} عقب ذلك بلا ريث {من الحميم} الماء الحار. أنّث ضمير الشجر على المعنى ، وذكّره على اللفظ في " منها " و " عليه ". {فشاربون شُرْبَ الهِيم} وهي الإبل التي بها الهُيَام ، وهو داء يُصيبها فتشرب ولا تروَى ، أي : لا يكون شربكم شراباً معتاداً ، بل يكون مثل شرب الإبل الهيم ، واحدها : " هيماء وأَهْيَم " وحاصل الآية : أنه يُسلط عليهم من الجوع ما يضطرون إلى شرب الحميم ، الذي يُقَطِّع أمعاءهم ، فيشربونه شرب الهِيم ، وإنما صحّ عطف الشاربين على الشاربين ، وهما لذوات متّفقة ، لأنَّ كونهم شاربين الحميم مع ما هو عليه من تناهي الحرارة ، وقطع الأمعاء ، أمر عجيب ، وشربهم له على ذلك كشرب الهِيم الماء أمر عجيب أيضاً ، فكانت صفتين مختلفتين.

{هذا نُزلُهم} النُزل : هو الرزق الذي يُعدّ للنازل تكرمةً له ، {يَوْمَ الدِّينِ} يوم الجزاء ، فإذا كان نُزلهم

هذا ، فما ظنك بعدما استقر بهم القرار ، واطمأنت بهم الدار في النار ؟ وفيه من التهكُّم ما لا يخفى.
{نحن خلَقناكم فلولا} فلاّ {تُصَدِّقُونَ} تحضيض على التصديق ، إمَّا بالخَلق ؛ لأنهم وإن كانوا مصدّقين به إلاّ أنه لمّا كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنهم مكذّبون به ، وإمّا بالعبث ؛ لأنّ مَن خلَق أولاً لم يمتنع عليه أن يَخلق ثانياً.

(٢٩٦/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٤

الإشارة : أصحاب الشمال هم أهل الخذلان من العصاة والجُهال ، في سَموم الجهل والبُعْد ، ينفذ في مسام أرواحهم وقلوبهم ، وحميم الحرص والتعب ، والجزع والهلع ، وظِلٍّ من يحموم ، وهو التدبير والاختيار ، لا بارد ولا كريم ، أي : ليس كظل الرضا وبرد التسليم ، بل هو ظل مشؤوم ، حاجب عن شمس العيان ، مُوقع في ظل الذل والطمع والهوان. إنهم كانوا قبل ذلك ؛ قبل وقت وصول العارفين مُترفين متنعمين في الحظوظ ، منهمكين في الشهوات ، وكانوا يُصِرُّون على الحنث العظيم ، وهو حب الدنيا ، الذي هو

٢٩٥

رأس كل خطيئة ، وكانوا يُنكرون بعث الأرواح من الجهل إلى العرفان ، ويقولون : {أئذا متنا وكنا تراباً} ، أي : أرضيين بشريين ، وعظاماً يابسين بالقسوة والبُعد ، {أئنا لمبعوثون} من هذه الموتة إلى حياة أرواحنا بالعلم والمعرفة ؟ والحاصل : أنهم كانوا ينكرون وجود أهل التربية ؛ الذي يُحيي اللّهُ بهم القلوبَ والأرواحَ الميتة بالجهل والغفلة. قل إنَّ الأولين منكم الذين كانوا على هذا الوصف ، والآخرين إلى يوم القيامة ، لمجموعون إلى الحضرة ، إذا صَحِبوا أهل التربية ، فيفتح الله عليهم إلى ميقات يوم معلوم ، وهو الحد الذي سبق لفتحهم. ثم إنكم أيها الضالون المكذّبون المنكِّرون لوجود الطبيب ، الذي يُحيي الأرواح الميتة والقلوب ، {لآكلون من شجر من زقوم} وهي شجرة الجهل وتوارد الشكوك والخواطر على قلوبكم ، فمالئون منها بطونكم ، بحيث لا يبقى في بواطنكم متسع لأنوار اليقين والمعرفة ، فشاربون على ذلك من الحميم ، وهو الغضب والتدبير والاختيار ، {فشاربون شُرب الهيم} ، لا يملُّون منه ليلاً ولا نهاراً ، كذا يَظلُّون يَبنون ويَهدمون ، وهو عين البطالة والتضييع. {هذا نُزلهم يوم الدين} ، أي : يوم يُجازِي الحقُّ المتوجهين إليه بالوصال وراحة الاتصال. {نحن خلقناكم} : أنشأناكم من العدم ، فلولا تُصدِّقون في إحياء أرواحكم بالعلم والمعرفة بعد موتها ، فإنّ القادر على إنشاء الأشباح قادر على إحياء الأرواح. والله تعالى أعلم.

(٢٩٧/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٤
يقول الحق جلّ جلاله : {أفرأيتم ما تُمْنُون} أي : تقذفونه في الأرحام من النُطف ، {أأنتم تخلقونه} تُقدِّرونه وتُصورونه وتجعلونه بشراً سويّاً {أم نحن الخالقون} من غير علة ولا علاج " ؟ قال الطيبي : وجه الاستدلال بهذه الآية على البعث أن يُقال : إنّ المَني إنما يحصل من فضلة الهضم ، وهو كالطل المنبث في أطراف الأعضاء ، وبهذا تشترك الأعضاء بالتذاذ الوقاع لحصول الانحلال عنها كلها ، ثم إنّ الله سبحانه وتعالى يُسلط قوة الشهوة على البنية ، حتى إنها تجمع تلك الأجزاء الطلّية ، والحاصل أن تلك الأجزاء كانت مفْترقة جدّاً أولاً في أطراف العالم ، ثم إنه تعالى جمعها في بدن ذلك الحيوان ، فتفرّقت في
٢٩٦
أطراف بدنه ، ثم جمعها الله في أوعية المَني ، فأخرجها ماءً دافقاً إلى قرار الرحم ، فإذا كان قادراً على جمع هذه الأجزاء المتفرقة ، وتكوين الحيوان منها ، فإذا افترقت بالموت مرة أُخرى ؛ لم يمتنع عليها جمعها وتكوينها مرة أخرى. هـ. وذَكَرَ عند قوله تعالى : {يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَرَآئِبِ} [الطارق : ٧] أنَّ المني يتولد من فضلة الهضم الرابع ، وينفصل من جميع أجزاء البدن ، فيأخذ من كل عضو طبيعته وخاصيته ، ومعظمُهُ يتولد من الدماغ ، وهو أعظم الأعضاء معنويةً فيه. انظر بقيته في الحاشية.
}

(٢٩٨/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٦
نحن قدَّرنا بينكم الموتَ} أي : قسمناه ووقّتنا موت كل أحد بوقت معين ، حسبما تقتضيه قسمتنا ، المبنية على الحِكَم البالغة. قال القشيري : فيكون في الوقت الذي نريده ، منكم مَنْ يموت طفلاً ، ومنكم مَن يموت شابّاً ، وكهلاً وشيخاً ، وبعللٍ مختلفة ، وبأسباب متفاوتة ، وأوقاتٍ مختلفة. هـ. {وما نحن بمسبوقين} بعاجزين {على أن نُبَدِّلَ أمثالَكم} بل نحن قادرون على ذلك ، لا تسبقونني ولا تغلبونني على أن نُذهبكم ، ونأتي مكانكم بأشباهكم من الخلق ، والتبديل يكون بالذات أو بالصفات ، {ونُنشِئَكم فيما لا تعلمون} ونخلقكم بعد التبديل في صورة لا تعهدونها. قال الحسن : نجعلكم قردةً وخنازير ، يعني : إنَّا نقدر على الأمرين جميعاً ، أي : خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم فكيف نعجز عن إعادتكم. و {أمثال} إمّا جمع " مِثْل " بالسكون – وهو التبديل بالذات ، أو : " مَثَل " بالفتح ، وهو التبديل في الصفات ، أي : على أن نُبدّل ونُغيّر صفاتكم التي أنتم عليها ، وننشِئَكم في صفات لا

تعلمونها. {ولقد علمتم النشأةَ الأولى} أي : فطرة آدم عليه السلام : أو : خلقتهم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة... الخ ، {فلولا تَذَكَّرُون} فهلاَّ تذكرون أنْ مَن قدر عليها قدر على النشأة الأخرى.

ولمّا ذكّرهم بنعمة الإيجاد ، ذكّرهم بنعمة الإمداد ، فقال : {أفرأيتم ما تحرثون} أي : ما تبذرون حبه وتقلِبون الأرض عليه ، {أأنتم تزرعونه} أن : تُنبتونه وتُخرجونه من الأرض نباتاً {أم نحن الزارعون} المُنبِتون له ؟ وفي الحديث : " لا يقل أحدكم ، زرعت ، وليقل : حرثت " {لو نشاء لجعلناه حُطاماً} هشيماً منكسِراً قبل إدراكه ، {فَظَلْتم} بسبب ذلك {تَفَكَّهُون} تتعجَّبُون من سوء حاله إثر ما شهدتموه على أحسن ما يكون ، أو : تندمون على تعبكم فيه وإنفاقكم عليه ، أو : على ما اقترفتم من المعاصي التي أُصبتم لذلك من أجلها ، و " تفكه " من أفعال الإزالة ، كتخرّج ، وتأثّم ، أي : أزال الفُكَاهة ، وهي المسرة ، فتحصل الندامة ، {إِنَّا لمُغْرَمُونَ} أي : قائلين : إنّا لملزمون غرامةَ ما أنفقنا فيها ، أو : لمهلَكون لِهلاك قوتنا ، من : الغرام ، وهو الهلاك ، {بل نحن محرومون} حُرمنا ما رزقنا بشؤم تفريطنا ، فالمحروم هو الممنوع الرزق. قال ابن عباس : " هو المحارَف " الذي انحرف عنه رزقه.

٢٩٧

{أفرأيتم الماءَ الذي تشربون} أي : الماء العذب الصالح للشرب ، {أأنتم أنزلتموه من المُزنِ} السحاب الأبيض ، وهو أعذب ماءٍ ، أو مطلق السحاب ، واحدها " مزنة " ، {أم نحن المنزلون} بقدرتنا ، فأسكناه في الأرض ، ثم أخرجناه عيوناً وأنهاراً ؟ {لو نشاء جعلناه أُجَاجاً} أي : ملحاً ، أو مُرّاً لا يُقْدَر على شربه ، {فلولا} فهلاَّ {تشكرون} تحضيض على شكر الكل ، وحذف اللام هنا مع إثباتها في الشرطية الأولى ؛ لأنّ هذه اللام تُفيد معنى التأكيد ، فأُدخلت في آية المطعوم دون المشروب ؛ للدلالة على أن أمر المطعوم متقدم على أمر المشروب ، وأنْ الوعيد بفقده أشد وأصعب ، مِن قِبَل أنّ المشروب إنما يُحتاج إليه تبعاً للمطعوم ، ولهذا قُدِّمت آية المطعوم على آية المشروب ، وقيل غير ذلك في حكمة إدخالها.

}

(٢٩٩/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٦

أفرأيتم النارَ التي تُورون} أي : تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، والعرب كانت تقدح بعودين ، تحك أحدهما على الآخر ، ويُسمون الأعلى : الزند ، والسفلى : الزندة ، شبّهوهما بالفحل والطروقة. {أأنتم أنشأتم شجرتَهَا} التي بها الزناد ، وهي المرْخ والعَفَار ، {أم نحن المنشئون} الخالقون لها ابتداءً بقدرتنا ؟ والتعبير عن خلقها بالنشأ ، المنبئ عن بديع الصنع ، المُعْرِب عن كمال القدرة والحكمة ؛ لِما

فيه من الغرابة الفارقة بينهما وبين سائر الأشجار ، التي لا تخلو عن النار ، حتى قيل : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعَفَار ، كما أنّ التعبير عن نفخ الروح بالإنشاء في قوله : {ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً ءَاخَرَ} [المؤمنون : ١٤] كذلك.

ثم بيَّن منافعها ، فقال : {نحن جعلناها تذكرةً} تذكيراً لنار جهنم ، لينظروا إليها ، ويذكروا ما وُعدوا به من نار جهنم ، أو : تذكرة وأنموذجاً ، لما رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " نارُكم هذه التي يُوقدها بنو آدم هي جزءٌ من سبعين جزءاً من حَرِّ جهنم " وقيل : تبصرة في أمر البعث ؛ فإنه ليس أبدع من إخراج النار من الشيء الرطب ، {ومتاعاً للمُقْوين} منفعة للمقوين المسافرين الذي ينزلون القِواء ، وهو القفر. وفي القاموس : القِيُّ : فقر الأرض ، كالقِواء – بالكسر والمد : القفر. هـ.

وتخصيصهم بذلك ؛ لأنهم أحوج إليها ؛ فإنّ المقيمين والنازلين بقرب منازلهم ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزناد ، أو : للذين خلت بطونهم ومزاودهم من الطعام ، من قولهم : أَقْوت الدار : إذا خلت من ساكنها. والأول أحسن.

بدأ أولاً بنعمة الإيجاد ، ثم بإمداد الطعام ، ثم بالشراب ، وما يُعجن به من الطعام ، ثم بما يطبخ به ؛ فلا يؤكل الطعام إلاّ بعد هذه الثلاث ، ولا يستغني عنه الجسد ما دام حيّاً في حكم العادة.

٢٩٨

ولمَّا ذكر دلائل توحيده وقدرته ، أمر بتنزيهه عمَّا لا يليق بحاله ؛ لأنّ العقل إذا أدرك الصانع سما إلى درك كنهه ، فربما يقع في التشبيه أو التجسيم أو التعطيل ، فقال : {فَسَبِّح باسم ربك} أي : فنزّه ربك عما لا يليق به أيها المستمع المستدل ، فأراد بالاسم المسمى ، والباء صلة ، أي : نزّه ربك {العظيم} أو : نزّه ربك ملتبساً بذكر اسمه. والعظيم : صفة للرب ، أو للاسم ، لأن المراد به المسمى. والله تعالى أعلم.

الإشارة : أفرأيتم أيها المشايخ ما تُمْنون من نُطف الإرادة في قلوب المريدين ، أأنتم تخلقونه في قلوبهم حتى تنبت فيها بذرة الإرادة ، وتهيج شجرة المحبة ، فتُثمر بالمعرفة ، أم نحن الخالقون ؟ نحن قدّرنا بينكم الموت ، فمنكم مَن يموت الموت الحسي أو المعنوي قبل الوصول ، ومنكم مَن يموت بعد الوصول ، والموت المعنوي : هو الرجوع عن السير ، ولا يكون إلاَّ قبل الوصول ، وما نحن بمسبوقين على أن نُبدل أمثالكم ، ونُغيّر صفاتكم ، فإنّ القلوب بيد الله ، وننشئكم فيما لا تعلمون من الجهل والبُعد. ولقد علمتم النشأة الأولى ، التي كنتم عليها حال الغفلة والبطالة قبل ملاقاة الرجال ، أفلا تذكرون فتشكرون على نعمة اليقظة والمعرفة.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٦

أفرأيتم ما تحرثون من الأعمال والأحوال والمجاهدات والرياضات ، أأنتم تزرعونه ، أي : تُنبتونه حتى يُقبل منكم ، وتجنون ثماره ، أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لأبطلناه ورددناه فنجعله هباءً منثوراً ، فظلتم تندمون على ما فات منكم من المشاق ، حيث لم تجنوا ثمرتها ، تقولون : إنّا لمغرمون ، حيث افتقرنا ودفعنا أموالنا في حال الجذبة الأولى ، بل نحن محرمون من ثمار مجاهدتنا وطاعتنا ، أفرأيتم الماء الذي تشربون ، وهو ماء الحياة الذي تحيا به القلوب ، تشربونه بوسائط المشايخ ، يزقّه الشيخُ لروح المريد ، كما يزق الطيرُ أفراخه ، وبذلك تحيا روحه ، فتغيب عن عوالم حسها ، أأنتم أنزلتموه من سحاب الهداية والعناية ، أم نحن المنزِلون ؟ لو نشاء جعلناه أُجاجاً فَتَمجه الروحُ بعد شربها ، أو تمتنع من شربه ، فالأول للداخلين إذا لم تسعفهم رياح المقادير ، فتنكسر سفينة سيرهم بعد الركوب ، والثاني للطالبين المحرومين من أرزاق المعرفة. فلولا تشكرون هذه النعم ، حيث وفقكم لشرب الخمر ، ودمتم حتى سكرتم وصحوتم ، وحييت بها أرواحكم وأشباحكم. أفرأيتم النار نار الشهوة التي تُورون ؛ تقدحونها في نفوسكم ، أأنتم أنشأتم شجرتها ، وهي النفس الطبيعية ، أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ، أي : إيقاظاً توقظ صاحبها ليتلجئ إلى مولاه ، وفي الحِكَم : " وحرَّك عليك النفس ليُديم إقبالك عليه " : وجعلناها متاعاً للسائرين ؛ إذ بجهادها يتحقق سيرهم ، وبتصفيتها يتحقق كمالهم ، وبفنائها يتحقق وصولهم ، وكان شيخ شيخنا حين يشتكي له أحد له بنفسه ، يقول : أما أنا فجزاها علي خيراً ، ما ربحت إلاّ منها. وقال القشيري : {أفرأيتم النار...} الخ ، يشير إلى نار المحبة المشتعلة الموقدة ،

٢٩٩

بمقدح الطلب في حراقة قلب المحب الصادق في سلوكه وشجرتها هي العناية الإلهية ، يدل على هذا قول العارف أبي الحسن المنصور – قدّس الله سره – حين سُئل عن حقيقة المحبة ، فقال : هي العناية الإلهية السرميدة ، لولاها ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، فنحن جلعناها تذكرة لأرباب النفوس البشرية ، ليهدتوا بها إلى سلوك طريق الحق ، ومتاعاً للمُوقين ، أي غذاء أرواح المحبين ، الطاوين أياماً وليالي من الطعام والشراب ، كا رُوي عن سهل التستري : أنه كان يطوي ثلاثين يوماً ، وعن أبي عقيل المغربي : أنه ما أكل ستين سنة وهو مجاور بمكة ، وعن كثيرين من السالكين المرتاضين. هـ.

وقوله تعالى : {فسبِّح باسم ربك العظيم} قال الورتجبي : أَمَرَه أن ينزهه لا بنفسه بل بربه ، ثم قال : والاسم والمسمى واحد ، أي : قدسني بي فإني أعظم من أن تُقدسني بنفسك ، أو بشيء دوني ، ألا ترى إشارة قوله : {العظيم} أي : عظم جلاله أن يبلغ إلى أن تمدحه الخليقة ، وأن تصِفة البرية. هـ.

قلت : " فلا " : صلة ، كقوله : {فَلاَ وَرَبِّكَ...} [النساء : ٦٥]. ومَن قرأ باللام فهي لام الابتداء ، دخلت على مبتدأ محذوف ، أي : فلأنا أُقسم ، ولا يصح أن تكون للقسم ؛ لأنها لا بد أن تقرن بنون التوكيد.

يقول الحق جلّ جلاله : {فلا أُقسِمُ بمواقعِ النجومِ} بمساقطها ومغاربها. وقرأ الأخَوان " بموقع " على الإفراد ، وتخصيصها بالقَسَم لِمَا في غروبها من زوال أثرها ، والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير ، أو : لأنّ ذلك وقت قيام المجتهدين والمبتهلين إليه تعالى ، وأوان نزول الرحمة والرضوان عليها ، واستعظم ذلك بقوله : {وإنه لقَسَم لو تعلمون عظيمٌ} وهو اعتراض في اعتراض ، لأنه اعتراض بين القسم والمقسَم عليه بقوله : {إنه لقرآن كريمٌ} أي : حسن مرضيّ ، أو نفّاع جمّ المنافع ؛ لاشتماله على أصول العلوم المهمة في صلاح المعاش والمعاد ، أو : كريم على الله تعالى ، واعترض بين الموصوف وصفته بـ {لو تعلمون} وجواب " لو " متروك ، أريد به نفي علمهم ، أو : محذوف ، ثقةً ، والتقدير : وإنه لقسم لو تعلمون ذلك ، لكن لا تعلمون كُنه ذلك ، أو : لو تعلمون ذلك لعظمتموه ، أو : لعملتم بموجبه ، {في كتابٍ مكنون} مَصون من غير المقربين من

الملائكة ، لا يطلع عليه مَن سواهم ، وهو اللوح المحفوظ.

{لا يَمسُّه إلاَّ المُطَهَّرون} أي : الملائكة المنزّهون عن الكدرات الجسمانية ، وأوضار الذنوب. هذا إن جعلته صفة لكتاب مكنون ، وهو اللوح ، وإن جعلته صفة للقرآن ؛ فالمعنى : لا ينبغي أن يمسّه إلاَّ مَن هو على الطهارة مِن الناس ، والمراد : المكتوب منه. قال ابن جزي : فإن قلنا إنَّ الكتاب المكنون هو الصحف التي بأيدي الملائكة ، فالمطهَّرون يُراد به الملائكة ؛ لأنهم مُطهَّرون من الذنوب والعيوب ، وإن قلنا أنَّ الكتاب المكنون هو الصحف التي بأيدي الناس ؛ فيحتمل أن يريد بالمطهرين : المسلمين ؛ لأنهم مُطَهرون من الكفر ، أو يريد : المطهرين من الحدث الأكبر ، وهو الجنابة والحيض ، فالطهارة على هذا : الاغتسال. أو : المطهرين من الحدث الأصغر ، فالطهارة على هذا : الوضوء ، ويحتمل أن يكون قوله : {لا يمسُّه} خبراً أو نهياً ، على أنه قد أنكر بعضهم أن يكون نهياً ، وقال : لو كان نهياً لكان بفتح السين. والتحقيق : أن النهي يصح مع ضم السين ؛ لأن الفعل المضاعف إذا كان مجزوماً واتصل به ضمير المفرد المذكر ضُم عند التقاء الساكنين ، اتباعاً لحركة الضمير ، وإذا جعلته خبر ؛ فيحتمل أن يُراد به مجرد الإخبار ، أو : يكون خبراً بمعنى النهي ، وإذا كان لمجرد الإخبار ، فالمعنى : لا ينبغي أن يمسه إلاَّ المطهرون ، أي : هذا حقه ، وإن وقع خلاف ذلك.

واختلف الفقهاء فيمن يجوز له مَسّ المصحف على حسب الاحتمالات في الآية ، فأجمعوا على أنه لا يمسه كافر ، واختلفوا فيما سواه على أقوال ؛ فقال بعضهم : لا يجوز أن يمسه الجُنب ولا الحائض ولا المحدِث الحدثَ الأصغر ، وهذا قول مالك وأصحابه ، ومَنعوا أيضاً أن يحمله بعلاقة أو وسادة ، وحجتهم : الآية ، على أن يُراد بالمطهرين الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر ، وقد احتج مالك في الموطأ بالآية ، ومن حجتهم أيضاً : كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عَمرو بن حزم ألاَّ يمسَّ القرآن إلا طاهرٌ. القول الثاني : أنه يجوز مسه للجنب والحائض والمحدِث حدثاً أصغر ، وهو مذهب أحمد بن حنبل والظاهرية ، وحملوا " المطهرين " على أنهم المسلمون أو الملائكة. والقول الثالث : أنه يجوز مسه بالحدث الأصغر دون الأكبر ، وحمل صاحب هذا القول " المطهرين " على أن يُراد من الحدث : الأكبر ، ورخَّص مالك في مسِّه على غير وضوء لمُعلِّم الصبيان ؛ لأجل المشقة.
واختلفوا في قراءة الجنب للقرآن ، فمنعه الشافعي وأبو حنيفة مطلقاً ، وأجازه الظاهرية مطلقاً ، وأجاز مالك قراءة الآيات اليسيرة ، أي : لتعوُّذ ونحوه. واختلفوا في قراءة الحائض والنفساء للقرآن عن ظاهر قلب ، فعن مالك روايتان ، وفرّق بعضهم بين الكثير

واليسير. هـ. قلت : المشهور في الحائض والنفساء جواز القراءة مطلقاً. وقال الكواشي عن ابن عطاء : لا يفهم إشارات القراءة إلاَّ مَن طَهَّر سره من الأكوان. هـ. وفي آخر البخاري ؛ " لا يمسه " : لا يجد طعمه ونَفْعَه إلاَّ مَن آمن بالقرآن ، ولا يحمله بحقه إلاَّ المؤمنُ لقوله : {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ} [الجمعة : ٥]. هـ.
{تنزيلٌ من رب العالمين} : صفة رابعة للقرآن ، أي : نزل من رب العالمين ، وُصف بالمصدر ؛ لأنه نزل منجّماً من بين سائر الكتب ، فكأنه في نفسه تنزيل ، {أفبهذا الحديثِ} أي : القرآن {أنتم مُّدْهِنون} متهاونون به ، كمَن يُدهن في بعض الأمر ، أي : يلين جانبه ، فلا يتصلّب فيه تهاوناً به. قال ابن عطية : قال ابن عباس : المداهنة هي المهاودة فيما لا يحل ، والمداراة : المهادوة فيما يحل. هـ.
{وتجعلون رزقَكم أنكم تُكذِّبون} أي : وتجعلون شكر رزقكم التكذيب ، أي : وضعتم التكذيب موضع الشكر. وفي قراءة عليّ رضي الله عنه ، وهي مروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : {وتجعلون شكركم أنكم تكذِّبون} أي : وتجعلون شكركم لنعمة القرآن التكذيب. وقيل : نزلت في الأنواء ونسبة الأمطار إليها ، أي : وتجعلون شكر ما رزقكم الله من الغيث أنكم تكذّبون كونَه من الله ، حيث تنسبونه إلى النجوم ، وتقولون : مُطرنا بنوء كذا ، والمنهي إنما هو اعتقاد التأثير للنجوم ، لا من بابا العلامة وقيل : مطلقاً ، سدّاً للذريعة ، وهو مقتضى كلام ابن رشد ، وعزاه لسحنون. والمسألة خلافية ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إذا ذُكرت النجوم فأمْسِكوا " ، ومنهم مَن فصّل في المسألة ، فقال : يجوز إضافة الأفعال السيئة إليها لقوله صلى الله عليه وسلم : " تعوّذوا بالله من شر هذا ، فإنه الغاسق

إذا وقب " وأشار إلى القمر. وأما الحسنة فالشكر يقتضي إضافتها إلى الله ، وكذا الأدب. والله تعالى أعلم.

(٣٠٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٠

الإشارة : مواقع النجوم هي أسرار العارفين ؛ لأنه يغرق في بحارها كل ما سوى الله ، وتغيب فيها نجوم العلم العقلي والنقلي ، وأقمار التوحيد البرهاني ؛ لأنه إذا أشرقت في قلوبهم شمس العرفان ، لم يبقَ لنور النجوم والقمر أثر ، وقد قلت في قصيدتي العينية :

تبدّت لنا شمسُ النهارِ وأشرقتْ

فلم يَبق ضوءُ النجمِ والشمسُ طالعُ

قال شيخ شيوخنا ، سيدي عبد الرحمن الفاسي : كنتُ أعرف أربعة عشر علماً ، فلما تعلمتُ علم الحقيقة شرطت ذلك كله. هـ. يعني : وقع الاستغناء عنها ، فالكنز الذي ظفر به من العلم بالله ، على نعت العيان ، فلم يبقَ للروح التفات إلى شيء قط. " ماذا فقد من وجدك " ؟ وليس المراد أنها ذهبت معرفتها عنه ، بل لو رجع إليها لوجدها تشحرت واتسعت أمدادها ، ولكن ظفر بعلم يُعد الاشتغال بغيره بطالة ، كما قال الغزالي لابن العربي

٣٠٢

المعافري : كنتَ الصاحِبَ في زمن البطالة ، يعني : قبل ملاقاته بالشيخ. وإنما كان القسم به عظيماً ؛ لأنه ليس عند الله أعظم من قلوب الواصلين وأسرار العارفين ، لأنها وسعت الرب تعالى علماً وتجلياً ، " لم يسعني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن ". فالقَسم عظيم ، والمُقسَم به أعظم ، والمُقسَم عليه أعظم ، وهو القرآن الكريم ، {لا يسمّه إلاّ المطهرون} قال الجنيد : لا يمسّه إلاّ العارفون بالله ، المطهرون سرهم عما سوى الله. هـ. أي : لا يمس أبكار حقائقه ودقائق إشارته إلاّ القلوب المطهَرة من الأكدار والأغيار ، وهي قلوب العارفين : {تنزيل من رب العالمين} على سيد المرسلين ، ثم غرفت أسرارَه قلوبُ خلفائه العارفين. أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. قال القشيري : أي : أنتم تتهاونون في قبول مثل هذا الكلام الحق ، وتعجبون من مثل هذه الحقيقيات والتدقيقات. هـ. والعتاب لمَن يتهاون بعلم الإشارة ويُنكرها. ويتنكّب مطالعتها. وتجعلون شكر رزقكم إياها – حيث استخرجها بواسطة قلوب العارفين – التكذيب بها والإنكار على أربابها.

(٣٠٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٠

يقول الحق جلّ جلاله لمَّا وبَّخهم على تكذيبهم بالقرآن الناطق بقوله : {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ} [الواقعة : ٧٥] ، ثم أوقفهم على أنهم تحت قهر ملكوته ، من حيث طعامهم وشرابهم وسائر أسباب معاشهم ، عجزهم بقهرية الموت ، فقال : {فلولا} أي : هلاَّ {إِذا بلغتْ} الروح عند الموت {الحلقومَ} وهو ممرّ الطعام والشراب ، وتداعت للخروج {وأنتم حينئذٍ} أيها الحاضرون حول صاحبها {تنظرون} إلى ما هو فيه من الغمرات ، {ونحن أقربُ إِليه} علماً وقدرة وإحاطة {منكم} حيث لا تعرفون من حاله إلاَّ ما تُشاهدون من أثر الشدة ، من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها وأسبابها ، ولا أن تقدروا على دفع أدنى شيء منها ، ونحن المتولون لتفاصيل أحواله ، {ولكن لا تُبصرون} لا تدركون ذلك لجهلكم بشؤوننا ، {فلولا إِن كنتم غير مَدِينينَ} غير مربوبين مقهورين ، من : دان السلطان رعيته : إذا ساسهم واستعبدهم ، والمحضَض عليه قوله : {ترجعونها}

٣٠٣

تردون الروح إلى الجسد بعد بلوغ الحلقوم {إِن كنتم صادقين} أنكم غير مربوبين مقهورين.

وترتيب الآية : فلولا إذا بلغت الروحُ الحلقومَ ، وأنتم تنظرون إليه ، يُعالج سكرات الموت ، ترجعونها إلى الجسد إن كنتم غير مربوبين ، ف " لولا " الثانية مكررة للأولى ؛ للتأكيد ، والمعنى : إنكم في عموم جحودكم إن أنزلت عليكم كتاباً قلتم : سحرٌ وافتراءٌ ، وإن أرسلتُ إليكم رسولاً صادقاً قلتم : ساحرٌ كذابٌ ، وإن رزقتكم مطراً يُحييكم قلتم : صدق نوء كذا ، على مذهب التعطيل ، فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن إذا بلغ الحلقوم ، إن كنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمُحيي المبيت ، المبدئ المعيد ، وأنكم غير مربوبين مقهورين ؟ !.

(٣٠٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٣

ثم ذكر أحوال الأرواح عبد الموت في البرزخ ، فقال : {فأمّا إِن كان} المتوفى {من المقرَّبين} من السابقين ، من الأزواج الثلاثة المذكورة أول السورة ، عبّر عنهم هنا بأجلّ أوصافهم ، وهو شدة القرب ، بعد أن عبّر عنهم أولاً بالسبق ، فالسابقون هم المقربون ، وهم العارفون بالله معرفة العيان ، أهل الفناء في الذات ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " سبق المُفَرِّدون " ، قيل : ومَن المُفَرِّدون يا رسول الله ؟ قال : " المسْتَهترون بذكر الله " الحديث. فالسابقون هم المولعون بذكر الله ، حتى امتزج مع لحمهم ودمهم ، فحصل لهم القرب من الحق.

{فَرَوْحٌ} أي : فلهم روح ، أي : راحة للروح لأرواحهم من هموم الدنيا وغمومها ، ومن ضيق عالم

الأشباح إلى خالص عالم الأرواح ، مع أن هذا حاصل لهم قبل الموت ، لكن يتسع ميدانه بعد الموت ، أو : رحمة تخصهم ، أو : نسيم يهب عليهم. وفي القاموس : الرَّوح – بالفتح : الراحة والرحمة ونعيم الريح. هـ. وقرئ بالضم ، وهي مروية عنه صلى الله عليه وسلم ، أي : الحياة والبقاء ، أو : فله حياة طيبة دائمة لا موت فيها {وريحانٌ} أي : رزق ، بلغة حِمْير ، والمراد : رزق أرواحهم من العلوم والأسرار ، أو : أشباحهم ، فإنّ أرواحهم تتطور على شكر صاحبها ، فتأكل من ثمار الجنة ، وتشرب من أنهارها. كما في حديث الشهداء ، والصديقون أعظم منهم ، أو : جنة ، أو : هو الريحان الذي يُشمّ. قال أبو العالية : " لا يُفارق أحدٌ من المقربين الدنيا حتى يؤتى ببعض من ريحان الجنة فيشمه ، فتفيض روحه " ، {وجنةُ نعيم} تتنعّم فيها روحه في عالم البرزخ ، ثم جسمه وروحه بعد البعث ، وهذا يقتضي أنّ الأرواح تدخل الجنة قبل البعث ، وهو خاص بالشهداء والصدِّيقين.

{وأمّا إن كان مِن أصحاب اليمين فسلامٌ لك من أصحاب اليمين} أي : فسلام لك

٣٠٤

يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين ، أي : يسلّمون عليك ؛ فإنّ الروح إذا سُئلت في القبر عُرِج بها إلى أرواح أهلها ، فيتلقونه ويُسلّمون عليه ، ويهنُّونه بالخروج من سجن الدنيا ، أو : سلامة لك يا محمد من أصحاب اليمين ، فلا ترى فيهم إلاَّ السلامة.

{وأمّا إن كان من المكذّبين الضالين} هم الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة ، وهم الذين قيل لهم : {ثم إنكم إيها الضالون المكذِّبون}... الخ ، {فَنُزُلٌ من حَميم} أي : فله نُزل من حميم يشربه ، {وتَصْلِيةُ جحيمٍ} إدخال في النار ، ومقاساة ألوانِ عذابها. وهذا يدل على أنّ الكافر بمجرد موته يدخل النار. وقيل : معنى ذلك : ما يجده في القبر من سموم النار ودخانها. ويحتمل : أن الآية لا تختص بعالم البرزخ ، بل تعم البرزخ وما بعده.

(٣٠٦/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٣

وقد تكلم الناسُ عن الأرواح في عالم البرزخ ، وحاصل ما ظهر لنا من الأحاديث والأخبار : أنّ أرواح الصدّيقين ، وهم المقربون ، تتشكل على صورة أجسامهم ، وتذهب حيث شاءت في الجنان وغيرها. وأرواح الشهداء تدخل في حواصل طيور خُضر ، تسرح في الجنة حيث شاءت ، لمّا كانت أرواحهم في الدنيا مسجونة في هيكل ذاتهم ، سُجنت في حواصل الطيور ، بخلاف العارفين لّمَا سرحت أفكارهم في الملكوت والجبروت ؛ أُطلقت أرواحهم بعد الموت ، وأرواح الصالحين الأبرار وعامة المؤمنين ، ممن لم ينفذ فيه الوعيد ؛ متفرقة في البرزخ ، فمنهم في ظل شجرة المنتهَى ، ومنهم في السموات ،

على قدر سعيهم في الدنيا. وكل صنف يُجمع مع صنفه جماعةً ، فالعلماء مع صنفهم ، والقراء كذلك ، والصالحون كذلك ، والأولياء كذلك ، والمنهمكون في الدنيا إذا سلموا من العذاب تكون أرواحهم كالنائم المستغرق ، لا يشعر بمرور الأيام ، حتى يستيقظ بنفخة البعث ، وأما مَن نفذ فيهم الوعيد ، فهم يُعذبون بأنواع من العذاب ، وتذكَّر حديث البخاري في الرؤيا التي رآها صلى الله عليه وسلم في شأن الزناة وأكل الربا ، وغيرهم. وفي ابن حجر : أن أرواح المؤمنين في عليين ، وأرواح الكافر في سجين ، ولكل روح بجسدها اتصال معنوي ، لا يُشبه الاتصال في الحيلة الدنيا ، بل أشبه شيء به حال النائم ، وإن كان هو أشد من حال النائم اتصالاً قال : وبهذا يُجمع بين ما ورد أن مقرها في عليين أو سجين ، وبين ما نقل ابن عبد البر عن الجمهور : أنها عند أَفْنية قبورها. قال : ومع ذلك فهي مأذون لها في التصرُّف ، وتأوي إلى محلها من عليين أو سجين ، وإذا نقل الميت من قبر إلى قبر ، فالاتصال المذكور متصل ، وكذا إذا تفرقت الأجزاء. هـ.

وفي الأصل الرابع والخمسين من نوادر الأصول : إذا قَدِمَ المؤمنُ على ربه لقاه رَوحاً وريحاناً وبشرى على ألسنة الرسل ، وهو قوله : {إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ} [فصلت : ٣٠] ، ثم يأمر له في قبره بكسوة من فِراش ودِثار ورياحين ، وهو قوله : {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} {الروم : ٤٤] ، ويُنور له

٣٠٥

في مضجعه ، ويُؤنسه بملائكته الكرام ، إلى أن يلقاه عرصة القيامة ، فيبعثه إلى الموطن الذي هيأ له نزلاً. هـ. وقال في الأصل السبعين : إنّ الشهداء يُعجّل لهم تعالى اللقاء ، ويحييهم قبل نفخة الصور ، ويكلمهم كِفاحاً ، كما لأهل الجنة ، وليس لمَن دونهم من الأموات هذه الدرجة إلاّ للصدّيقين ، فهم أجدر بذلك ؛ لبذلهم نفوسهم لله تعالى مدة أعمارهم ، والشهداء بذلوها في طاعة الله ساعة ، فظهر أن للشهيد حياة خاصة على مَن دونه ، وأحرى منه الصدّيق. هـ.

(٣٠٧/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٣

وبالجملة : فالأرواح منها في البرزخ تجول وتُبصر أحوال أهل الدنيا ، ومنها تحت العرش ، ومنها طيّارة في الجنان وإلى حيث شاءت ، على أقدارهم من السعي إلى الله أيام الحياة ، ومنها ما تسرح وتتردد إلى جثتها تزورها ، ومنها ما يلقى أرواح المقبوضين. وعن سَلمان : إنّ الأرواح المؤمنين – أي : الكُمل – تذهب في برازخ من الأرض حيث شاءت ، بين السماء والأرض ، حتى يردها الله إلى جسدها ، فإذا ترددت هذه الأرواح علمت بأحوال الأحياء ، وإذا ورد عليهم من الأحياء ميت ، التقُوا وتساءلوا عن

الأخبار. هـ. قلت : وهذه أرواح العارفين دون غيرهم. والله تعالى أعلم. وفي بعض الأثر : إذا مات العارف قبل لروحه : جُل حيث شئتِ.

{إنَّ هذا} أي : الذي ذكر في السورة الكريمة {لهو حقُّ اليقين} أي : الحق الثابت من اليقين ، أو : حق الخبر اليقين ، {فسبِّح باسم ربك العظيم} الفاء لترتيب التسبيح ، أو الأمر به على ما قبلها ، فإنّ حقيّة ما فصل في تضاعيف السورة الكريمة مما يوجب تنزيهه تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل ؛ من الأمور التي من جملتها الإشراك والتكذيب بآياته الناطقة بالحق.

الإشارة : فأمّا إن كان من المقربين ؛ فرَوْح الوصال ، وريحان الجمال ، ومِنّة الكمال ، أو : فرَوْح الفضاء ، وريحان العطاء ، وجنة البقاء ، أو : فروح الفناء ، وريحان البقاء ، وجنة الترقي أبداً سرمداً ، أو : فرَوْح الأنس لقلبه ، وريحان القدس لروحه ، وجنة الفردوس لنفسه ، {وأمّا إن كان مِن أصحاب اليمين فسلامٌ لك} أي : فسلام عليك يا محمد {من أَصحاب اليمين} فهم يسلمون عليك ، ويشتاقون إلى لقائك ، ويرتاحون للقدوم عليك وصحبتك. والحاصل : أنَّ المقرَّب راحته ونعيمه في وصاله بربه ، وصاحب اليمين اشتياقه لرسوله ، وراحته ونعيمه في حصبته وجواره ، فالمُقرَّب فانٍ في ذات الحق ، وصاحب اليمين فانٍ في رسوله صلى الله عليه وسلم سيد الخلق ، فأهل الفناء في الذات هم المقربون ، وأهل الفناء في النبي صلى الله عليه وسلم هم أصحاب اليمين ، فحاصل الآية : {فأمّا إن كان مِن المقربين} فهو لي ، وأُجازيه برَوْح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فمُسلم لك ، وهو من أصحاب اليمين ، هذا حاصل ما حرره شيخ شيوخنا الفاسي في حاشيته.

وفي الإحياء ما حاصله : أنَّ المقرَّب له الوصال إلى سعادة الملك ، وصاحب اليمين

٣٠٦

له النجاة ، وهو سالك ، والمقرَّب واصل ، والمعرِض عن الله له الجحيم. والخبر عن ذلك كله حق يقين عند العارف بالله ؛ لأنه أدرك ذلك كله مشاهدةً. وفي القوت بعد كلام : وأيضاً للمقربين من كل هولٍ رَوح به لشهادتهم القريب ، وفي كل كربٍ ريحان لقرب الحبيب ، كما لأهل اليمين من كل ذلك سلامة. هـ.

(٣٠٨/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٣

قال النسفي : رُوي أنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل على ابن مسعود رضي الله عنه في مرض موته ، فقال : ما تشتكي ؟ فقال : ذنوبي ، فقال : ما تشتهي ؟ فقال : رحمة ربي – وفي رواية : ما يقضي ربي – فقال : أفلا تدعوا الطبيب ؟ فقال : الطبيب أمرضني ، فقال : ألا نأمر لك بعطاء ؟ فقال : لا

حاجة لي فيه ، قال : ندفعه إلى بناتك ، قال : لا حاجة لهن فيه ، قد أمرتهنّ بأن يقرأن سورة الواقعة ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " مَن قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تُصبه فاقة أبداً " وليس في هذه السور الثلاث ذكر لفظ " الله " (اقتربت ، والرحمن ، والواقعة). هـ. وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلّى الله على سيدنا محمد وصحبه وسلّم.
٣٠٧

(٣٠٩/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٣
سورة الحديد

(٣١٠/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٧
قلت : وقعت مادة التسبيح في القرآن بلفظ الماضي والمضارع والأمر والمصدر ؛ استيفاء لهذه المادة ، فقال هنا : {سَبَّحَ} وفي الجمعة : {يُسَبِّحُ} [الجمعة : ١] و {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى} [الأعلى : ١] و {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى} [الإسراء : ١]. وهذا الفعل قد عُدّي باللام تارة ، وبنفسه أخرى في قوله : {وَسَبِّحُوهُ} [الأحزاب : ٤٢] ، وأصله : التعدي بنفسه ؛ لأنّ معنى سبَّحته : بعّدته من السوء ، من : سَبَح : إذا ذهب وبَعُد ، فاللام إما أن تكون مثل اللام في : نصحته ونصحت له ، وإما أن يراد بـ " سبَّح لله " : اكتسب التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصاً. قاله النسفي.
يقول الحق جلّ جلاله : {سَبَّح لله} أي : نَزَّه اللّهَ عما لا يليق بجلاله ، اعتقاداً ، أو قولاً وعملاً ، مَن استقر {في السماوات والأرض} مِن الملائكة والجن والإنس
٣٠٨
والجمادات ، بلسان الحال والمقال ، فإنَّ كل فرد من أفراد الموجودات يدلّ بإمكانه وحدوثه على الصانع القديم ، الواجب الوجود ، المتصف بالكمال ، المنزَّه عن النقائص ، وهو المراد بقوله تعالى : {وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} [الإسراء : ٤٤] قيل : إنما استغنى عن إعادة الموصل في خصوص هذه السورة لتكرر ذكر الأرض هنا في أربعة مواضع. هـ. {وهو العزيزُ} المنتقِم ممن لم يُسبِّح له عناداً ، {الحكيمُ} في مجازاة مَن سبَّح له انقياداً.
{وله مُلك السماواتِ والأرض} أي : التصرُّف الكلي فيهما وفيما فيهما من الموجودات ، مِن نعت

الإيجاد والإعدام وسائر التصرفات. قال الورتجبي : ذكر الله سبحانه ملكه على قدر أفهام الخليقة ، وإلاّ فأين السموات والأرض من ملكه ، والسموات والأرضون في ميادين مملكته أقل من خردلة! لمّا علم عجز خلقه عن إدراك ما فوق رؤيتهم ، ذكر أنَّ مُلك السموات والأرض مِلكُ قدرته الواسعة ، التي إذا أراد الله إيجاد شيء يقول كن فيكون بقدرته ، وليس لقدرته نهاية ، ولا لإرادته منتهى. هـ. {يُحيي ويميت} استئناف مُبيِّن لبعض أحكام المُلك ، أي : هو يُحيي الموتى ويُميت الأحياء ، {وهو على كل شيءٍ} من الأشياء ، التي من جملتها الإحياء والإماتة {قدير} لا يعجزه شيء.
}

(٣١١/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٨

وهو الأولُ} القديم قبل كل شيء ، {والآخرُ} الذي يَبقى بعد فناء كل شيء ، {والظاهرُ} الذي ظهر بكل شيء ، {والباطنُ} الذي اختفى بعد ظهوره في كل شيء ، وقد جاء في الحديث : " اللهم أنت الأول ، فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر ، فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن ، فليس دونك شيء " قال الطيبي : فالمعنيّ بالظاهر على التفسير النبوي : الغالب الذي يَغلب ولا يُغلب ، فيتصرف في المكونات على سبيل الغلبة والاستيلاء ؛ إذ ليس فوقه أحدٌ يمنعه ، وبالباطن ألاّ ملجأ ولا منجا دونه ، يُنجي ملتجئاً له. هـ. وسيأتي في الإشارة تحقيقه إن شاء الله. {وهو بكل شيءٍ عليم} لا يعزب عن علمه شيء من الظاهر والخفيِّ. {هو الذي خلق السماوات والأرضَ في ستة أيام} من أيام الدنيا ، ولو أراد أن يخلقها في طرفة عين لفعل ، ولكن جعل الست أصلاً ليكون عليها المدار ، وتعليماً للتأني ، {ثم استوى} أي : استولى {على العرش} حتى صار العرش وما احتوى عليه غيباً في عظمة أسرار ذاته ، {يعلم ما يَلِجُ في الأرض} ما يدخل فيها ، من البذر ، والقطر ، والكنوز ، والأمطار ، {وما يعرجُ فيها} من الملائكة والأموات والأعمال ، {وهو معكم أينما كنتم} بالعلم والقدرة والإحاطة الذاتية ، وما ادعاه ابنُ عطية من الإجماع أنه بالعلم ، فإن كان مراده من أهل الظاهر فمسلّم ، وأمّا أهل الباطن فمجمِعون على خلافه ، انظر الإشارة.

٣٠٩

{والله بما تعملون بصير} فيُجازي كلاًّ بعمله.

{له مُلك السماوات والأرضِ} تكرير للتأكيد ، وتمهيد لقوله : {وإلى الله تُرجع الأمورُ} أي : إليه وحده لا إلى غيره استقلالاً واشتراكاً ترجع جميع الأمور ، {يُولج الليلَ في النهار} يُدخل الليل في النهار ، بأن ينقص من الليل ويزيد في النهار ، {ويُولج النهارَ في الليل} بأن ينقص من النهار ويزيد الليل ، {وهو

عليم بذات الصدور} أي : بمكنونها اللازمة لها من الهواجس والخواطر ، بيان لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه من نياتهم وخواطرهم ، بعد بيان إحاطته بأعمالهم التي يظهرونها على جوارحهم ، أو بحقائق الصدور من صلاحها وفسادها ، كَنّى بها عن القلوب. والله تعالى أعلم.
الإشارة : التسبيح مأخوذ من السبْح ، وهو العوم ، فأفكار العارفين تعوم في قلزوم بحر الذات وتيار الصفات ، وترجع إلى ساحل البر لتقوم بوظائف العبودية والعبادات ، وقد سبَح في بحر الذات وغرق فيه أهلُ السموات والأرض ، شعروا أم لم يشعروا ، بل كل الكائنات غريقة في بحر الذات ، ممحوة بأحديتها. قال القشيري : تنزيهاً لله تعالى من حيث الاسم الجامع لجميع الأسماء والصفات الجلالية والجمالية ما في السموات الذات من الأسماء الذاتية ، المتجلية في المظاهر الكلية ، وما في أرض الصفات من الأسماء الصفاتية ، المتجلية في المظاهر الجزئية. اعلم أن فَلَك الذات سماء الصفات ، وفلك الصفات أرض الذات ، وكذلك فلك الصفات سماء الأسماء ، وفلك الأسماء أرض الصفات ، وهذه السموات والأرضون كلها مظاهر اسم الله الأعظم ، وهو المسبَّح – بالفتح – في مقام التفصيل ، والمسبِّح – بالكسر – في مقام الجمع ، كما ذكرنا. هـ.

(٣١٢/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٨
قلت : ومعنى قوله : " فلك الذات سماء الصفات "... الخ ، أنَّ أسرار الذات اللطيفة الأصلية سقف لأنوار الصفات ، المتجلّي بها ، وأنوار الصفات ، أرض لتلك الأسرار ، وكذلك أنوار الصفات سقف لأرض الأسماء ، والأسماء أرض لسماء الصفات ، وبقي عليه أن يقول : وفلك الأسماء سماء للأثر ، والأثر أرض لسماء الأسماء ، فكل مقام سماء لما تحته ، وأرض لما فوقه ، فالأثار أرض لسماء الأسماء ، والأسماء أرض للصفات ، والصفات أرض للذات ، دلّ بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه على وجود صفاته ، وبوجود صفاته على وجود ذاته ، وهذا مقام الترقي ، ومقام التدلي بالعكس ، انظر الحِكَم ، وهو العزيز أن يُدرك كنه ربوبيته ، الحكيم في اختفائه بعد ظهوره. له ملك سموات الأرواح وأرض الأشباح ، أو : ملك سموات أفلاك الذات والصفات والأسماء ، وفلك أرضها ، على ما تقدّم. يُحيي قلوب أوليائه بمعرفته ، ويُميت قلوب أعدائه بالجهل به ، أو يُحيي القلوب بالعلم به ، ويُميت النفوس بالفناء عنها ، وهو على كل شيء قدير من الأحياء والإماتة وغيرهما. هو الأول بلا بداية والآخر بل نهاية ، وهو الظاهر ، فلا ظاهر معه ، وهو الباطن في حال ظهوره. أو : هو الظاهر بتجلياته ، والباطن

بما نشر عليها من رداء كبريائه ، أو : الظاهر بقدرته ، والباطن بحكمته ، أو : الظاهر بالتعريف ، والباطن باعتبار التكييف. والحاصل : أنه ظاهر في بطونه ، باطن في ظهوره ، ما ظهر به هو الذي بطن فيه ، وما بطن فيه هو الذي ظهر به ، اسمه الظاهر يقتضي بطون الأشياء واستهلاكها وتلاشيها ؛ إذ لا ظاهر معه ، واسمه الباطن يقتضي ظهور حسها ، ليكون باطناً فيها. وفي الحِكَم قال : " أظهر كل شيء بأنه الباطن ، وطوى وجود كل شيء بأنه الظاهر ". ولا يفهم هذا إلاّ أهل الأذواق.

قال القشيري : هو الأول في عين آخريته ، والآخر في عين أوليته ، والظاهر في عين باطنيته ، والباطن في عين ظاهريته ، من حيثية واحدة ، واعتبار واحد ، في آنٍ واحد ؛ لأنها ذاته المطلقة عن هذه الاعتبارات المختلفة ، والحيثيات المتنافرة ؛ لإحاطته بالكل ، واستغنائه عن الكل. قيل لأبي سعيد الخراز : بِمَ عرفت الله ؟ قال : بجمعه بين الأضداد ، ثم تلا هذه الآية : {هو الأول والآخر...} الخ ، ولا يتصور الجمع بين الأضداد إلاَّ مِن حيثية واحدة ، واعتبار واحد ، في آنٍ واحد. هـ.

{هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام} قال القشيري : يُشير إلى مراتب الصفات الستة ، وهي : الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، أي : هو الذي تجلّى للأشياء كلها بذاته الموصوفة بالصفاة بالصفات الستة. انظر بقيته فيه. وتقدم الكلام على الاستواء في سورة الأعراف والسجدة. يعلم ما يلج في أرض البشرية من المساوئ ، وما يخرج منها بالتخلية والمجاهدة ، وما ينزل من سماء الغيوب على القلوب المطهرة ، من العلوم والأسرار ، وما يعرج فيها من حلاوة الشهود ، وهو معكم أينما كنتم بذاته وصفاته ، على ما يليق بجلال قدسه وكمال كبريائه ؛ إذ الصفة لا تُفارق الموصوف فإذا كانت المعية بالعلم لَزِمَ أن تكون بالذات ، فافهم ، وسلِّم إن لم تذق.

(٣١٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٨

حدثني شيخي ، الفقيه المحرر " الجنوي " : أنَّ علماء مصر اجتمعوا للمناظرة في صفة المعية ، فانفصل مجلسهم على أنها بالذات ، على ما يليق به. وسمعتُه أيضاً يقول : إنَّ الفقيه العلامة " سيدي أحمد بن مبارك " لقي الرجل الصالح سيدي " أحمد الصقلي " ، فقال له : كيف تعتقد : {وهو معكم أين ما كنتم} ؟ فقال : بالذات ، فقال له : أشهد أنك من العارفين. هـ. قلت : فبحر الذات متصل ، لا يتصور فيه انفصال ، ولا يخلو منه مكان ولا زمان ، كان ولا زمان ولا مكان ، وهو الآن على ما عليه كان.

وقال الورتجبي : للعارفين في هذا مقامان : مقام عين الجمع ، ومقام إفراد القديم من الحدوث. فمِن حيث الوحدة والقِدم تتصاغر الأكوان في عزة الرحمن ، وسطوات عظمته ،

حتى لا يبقى أثرها. ثم قال : ومِن حيث الجمع باشر نورُ الصفة نورَ العقل ، ونورُ الصفة قائم بالذات ، فيتجلّى بنوره لفعله من ذاته وصفاته ، ثم يتجلّى من الفعل ، فترى جميعَ الوجوه مرآةَ وجوده ، وهو ظاهر لكل شيء ، من كل شيء للعموم بالفعل ، وللخصوص بالاسم والنعت ، ولخصوص الخصوص بالصفة ، وللقائمين بمشاهدة ذاته بالذات ، فهو تعالى منزّه عن البينونة والحلول والافتراق والاجتماع ، وإنما هو ذوق العشق ، ولا يعلم تأويله إلاّ العاشقون. هـ. وحاصل كلامه : أنك إن نظرت للوحدة لم يبقَ مَن تحصل معه المعية ؛ إذ لا شيء معه ، وإن نظرت من حيث الجمع والفرق أثبتَ الفرق في عين الجمع فتحصل المعية منه له جمعاً ، ومنه لأثره فرقاً ، ولا فرق حقيقة ، فافهم ، ولا يفهم هذا إلاّ أهل العشق الكامل ، وهم أهل الفناء ، كما قال ابن الفارض :

فلم تَهْوَني ما لم تكن فيَّ فانياً

ولم تَفْنَ ما لم تجْتَل فيك صورتي

(٣١٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٨

يقول الحق جلّ جلاله : {آمِنوا بالله ورسوله} أي : دُوموا على إيمانكم ، إن كان خطاباً للمؤمنين ، فيكون توطئة لدعائهم إلى ما بعده من الإنفاق وغيره ؛ لأنهم أهل لهذه الرُتب الرفيعة ، أو : أَحْدِثوا الإيمان ، إن كان خطاباً للكفار ، {وأَنفِقوا} أي : تصدّقوا ، فيشمل الزكاة وغيرها ، {مما جعلكم مستخلفين فيه} أي : جعلكم خلفاء في التصرُّف فيه من غير أن تملكوه حقيقةً ، وما أنتم فيه إلاّ بمنزلة الوكلاء والنُواب ، فأنفِقوا منها في حقوق الله تعالى ، وَلْيَهُنْ عليكم الإنفاق منها ، كما يهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أَذِنَ له ، أو : جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما كان في أيديهم بتوريثكم إياه ، وسينقله منكم إلى غيركم ، فاعتبِروا بحالهم ولا تبخلوا به ، {فالذين آمنوا} بالله ورسوله {منكم وأنفَقوا لهم أجرٌ كبير} لا يُقادر قدره.

٣١٢

{وما لكم لا تؤمنون بالله} هو حال ، أي : أيّ شيء حصل لكم غير مؤمنين ، وهو توبيخ على ترك الإيمان حسبما أُمروا به ، بإنكار أن يكون لهم عذر مّا في الجملة ، {والرسولُ يدعوكم} ويُنبهكم عليه ، ويُقيم لكم الحجج على ذلك ، {لتؤمنوا بربكم وقد أخذ} قبل ذلك عليكم ميثاقه في عالم الذر ، على الإقرار بالربوبية ، والتصديق بالداعي ، بعد أن رَكّب فيكم العقول ، فلم يبق لكم عذر في ترك الإيمان ، أو : أخذ ميثاقه بنصب الأدلة والتمكين من النظر ، فانظروا واعتبروا وآمنوا ، {إن كنتم

مؤمنين} بأخذ هذا الميثاق ، أو : بموجبٍ ما ، فإنَّ هذا موجب لا موجب وراءه.
}

(٣١٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٢
هو الذي يُنَزِّلُ على عبده} محمد صلى الله عليه وسلم {آيات بيناتٍ} واضحاتٍ ، يعني القرآن ، {ليُخرجَكم} أي : الله تعالى ، أو العبد {من الظلمات} أي : من ظلمات الكفر والمعاصي والغفلة ، إلى نور الإيمان والتوبة واليقظة ، {وإنَّ الله بكم لرؤوف رحيم} حيث يهديكم إلى سعادة الدارين ، بإرسال الرسول ، وتنزيل الآيات ، بعد نصب الحُجج العقلية.
ثم وبَّخهم على ترك الإنفاق ، بعد توبيخهم على ترك الإيمان ، على ترتيب قوله : {آمِنوا} و {إنفِقوا} فقال : {وما لكم ألاَّ تُنفقوا في سبيل الله} أي : أيّ شيء حصل لكم في ألاّ تنفقوا فيما هو قُربة إلى الله تعالى ، وهو له حقيقة ، وإنما أنتم خلفاؤه في صرفه إلى ما عيّنه من المصارف ؟ {ولله ميراثُ
السماوات والأرض} يرث كل شيء فيهما ، لا يبقى لأحد شيء من ذلك ، وإذا كان كذلك فأيّ عذر لكم في ترك إنفاقه {في سبيل الله} والله مُهلككم ، فوارث أموالكم ؟ فتقديمها لله أولى ، وهي أبلغ آية في الحث على الصدقة. وإظهار اسم الجليل في موضع الإضمار في " لله " لزيادة التقرير ، وتربية المهابة.
ثم بيّن التفاوت بين المنفِقين منهم باعتبار الزمان ، فقال : {لا يستوي منكم مَن أنفق مِن قبل الفتح وقاتلَ} مع مَن أنفق بعد الفتح وقاتل ، حذفه لدلالة ما بعده عليه من قوله : {أولئك أعظم درجة... } الخ ، والمراد : فتح مكة ، أي : لا يستوي مَن أنفق قبل عز الإسلام وظهوره ، مع مَن أنفق بعد لك ، {أولئك} الذين أنفقوا قبل الفتح وقاتلوا ، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : " لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ، ولا نِصفه " ، فهم {أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلَوا} لأنّ مَن أنفق وقت الحاجة والاضطرار ، أعظم ممن أنفق في حال السعة والبسط ، {وكُلاًّ} أي : كل واحد من الفريقين {وَعَدَ اللّهُ الحسنى} وهي الجنة مع تفاوت الدرجات. وقرأ الشامي بالرفع ، مبتدأ ، أي : وعده الله الحسنى ، {والله بما تعملون خبير} فيُجازيكم على قدر أعمالكم.
{من ذا الذي يُقْرِضُ اللّهَ قرضاً حسناً} هو ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق في
٣١٣
سبيله ، بعد الأمر به ، والتوبيخ على تركه ، وبيان درجات المنفقين ، أي : مَن ذا الذي يُنفق ماله في

سبيل الله رجاء أن يعوضه مثل ذلك وأكثر ، فإنه كمن يُقرضه. وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه ، وتحري أكرم المال ، وأفضل الجهات ، {فيُضاعِفه له} أي : يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً أضعافاً كثيرة من فضله ، {وله أجرٌ كريمٌ} وذلك الأجر المضموم إليه الأَضعاف كريمٌ في نفسه ، حقيقٌ بأن يُتنافس فيه وإن لم يُضاعف ، فكيف وقد ضُوعف أضعافاً كثيرة! ومن نصب فعلى جواب الاستفهام.

الإشارة : أَمَرَ الحقُّ تعالى مشايخَ التربية ، والعلماءَ الأتقيا ، أن يؤمنوا إيمان شهود وعيان ، أو إيمان تحقيق وبرهان ، فالأول للأولياء ، والثاني للعلماء ، ثم قال : {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه} من العلوم الوهبية ، أو الرسمية ، فالذين آمنوا منكم كما تقدّم ، مما عندهم سعة العلوم الوهبية ، أو مِن ضيق العلوم الرسمية ، لهم أجر كبير : سكنى الحضرة ، في مقعد صدق ، أو بُحْبُوحة الجنة في نعيم الأشباح. وما لكم لا تؤمنون بالله ، أي : تُجددوا إيمانكم كل ساعة ، بفكرة الاستبصار والاعتبار ، والرسولُ يدعوكم لتُجددوا إيمانكم ، وقد أخذ ميثاقكم في عالم الذر ، ثم جدّده ببعث الرسل وخلفائهم من شيوخ التربية ، الداعين إلى الله ، إن كنتم مؤمنين بهذا الميثاق. هو الذي يُنزِّل على عبده آيات بينات ، وهو القرآن ، يَنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ليُخرجكم من الظلمات إلى النور ، من ظلمة المعاصي إلى نور التوبة والاستقامة ، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة ، ومن ظلمة الهوى والحظوظ إلى نور الزهد والعِفة ، ومن ظلمة الحس إلى نور المعنى ، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم بالله.

وما لكم ألاَّ تنفقوا مُهجكم وأرواحكم في سبيل الله ، ببذلها في مرضاة الله ، ولله ميراث السموات والأرض ، فيرثكم بأشباحكم وأرواحكم ، فمَن بذلها عوّضه دوام الشهود ، ومَن بخل بها عقبه حسرة الحجاب ، لا يستوي منكم مَن أنفق نفسه وقاتلها قبل ظهور الطريق ، مع مَن أنفق وجاهد بعد ظهورها ، فالسابقون لم يجدوا أعواناً ، والمتأخرون وجدوا أعواناً ، وكُلاًّ وعد الله الحسنى الجنة الحسية ، وزاد السابقين الجنة المعنوية ، جنةَ المعارف. والله بما تعملون خبير ، لا يخفى عليه مَن تقدم ممن تأخر. {من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً} ، قال القشيري : هو أن يُقرض وينقطع عن قلبه حُبّ الدارين ، ففي الخبر : " خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً ". هـ. فيضاعفه له بالترفي إلى ما لا نهاية له ، وله أجر كريم ، وهو مقعد صدق عند مليك مقتدر.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٢

يقول الحق جلّ جلاله : واذكر {يومَ ترى} أو : لهم أجر كبير {يومَ ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهم} وهو نور الإيمان في الدنيا ، يكون هناك حسيّاً يسعى {بين أيديهم وبأَيمانهم} وقيل : هو القرآن ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم مَن يؤتى نوره كالنخلة ، ومنهك كالرجل القائم ، وأدناهم نوراً مَنْ نوره على إبهام رجله ، يطفأ تارة ويلمع تارة.

قلت : ومنهم مَن نُوره كالقمر ليلة البدر ، ومنهم مَن نوره كالشمس الضاحية ، يُضيء خمسمائة عام ، كما في أحاديث أخرى ، وذلك على قدر إيمانهم وعرفانهم. قال الحسن : يستضيئون به على الصراط ، وهم متفاوتون في السرعة ، قال أبو نصر الهمداني : أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سبعة أنواع : الصدِّيقون ، والعلماء ، والبُدلاء ، والشهداء ، والحُجاج ، والمطيعون ، والعاصون ، فالصدِّيقون يمرُّون كالبرق ، والعلماء ، أي : العاملون ، كالريح العاصف ، والبدلاء كالطير في ساعة ، والشهداء كالجواد المسرع ، يمرُّون في نصف يوم ، والحجاج يمرُّون يومٍ كامل ، والمطيعون في شهر ، والعاصون يضعون أقدامهم على الصراط ، وأوزارهم على ظهرهم ، فيعثرون ، فتقصد جهنم أن تحرقهم ، فترى نور الإيمان في قلوبهم ، فتقول : جز يا مؤمن ، فإنَّ نورك قد أطفا لهبي. هـ. قلت : الصدِّيقون على قسمين ، أما أهل الاقتداء ، الدالُّون على الله ، المسلِّكون ، فتقرب الغُرف لهم ، فيركبونها ، ويمرُّون ، وأما الأفراد فيطيرون كالبرق. والله تعالى أعلم.

(٣١٨/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٥

وقال مقاتل : يكون هذا النور لهم دليلاً إلى الجنة ، وتخصيص الجهتين لأنّ السعداء يُؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين {من بين أيديهم وعن إيمانهم} كما أنَّ الأشقياء يؤتون صحائفهم من شمائلهم ووراء ظهورهم ، فجَعَل النور في الجهتين إشعاراً لهم بأنهم بحسناتهم وبصحائفهم البيض أفلحوا.

وتقول لهم الملائكة : {بُشراكم اليومَ جناتٌ} أي : دخول جنات ؛ لأنّ البشارة تقع بالإجداث دون الجُثث ، {تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم}. {يومَ} بدل من " يوم ترى " {يقول المنافقون والمنافقاتُ للذين آمنوا انُظرونا} أي :

٣١٥

انتظرونا ؛ لأنه يُسرَع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف ، ويبقى المنافقون في ظلمة ، فيقولون للمؤمنين :

قفوا في سيركم لنستضيء بنوركم. وقرأ حمزة : " أَنظِرونا " ، من الإنظار ، وهو التأخير ، أي : أَمهِلوا علينا. وقال الفراء : تقول العرب : أنظرني ، أي : انتظرني ، فتتفق القراءتان. وقيل : من النظر ، أي : التفتوا إلينا وأَبْصِرونا {نَقتبس مِن نوركم} لأنَّ نورهم بين أيديهم ، فيُقال طرداً لهم وتهكُّماً بهم من جهة المؤمنين أو الملائكة : {ارجعوا وراءكم} أي : إلى الموقف ، إلى حيث أُعطينا هذا النور {فالتمِسوا نوراً} فإنّا هناك اقتبسناه ، أو : التفتوا وراءكم ، فيلتفتون فيُحال بينهم ، {فضُرِبَ} حينئذ {بينهم} بين الفريقين {بسُورٍ} بحائطٍ حائل بين شق الجنة وشق النار ، {له باب} يلي المنافقين ، ليروا ما فيه من المؤمنون من الأنوار والرحمة ، فيزدادون حسرة ، {باطِنُه} أي : باطن ذلك السور ، وهو الجهة التي تلي المؤمنين {فيه الرحمةُ وظاهرهُ} الذي يلي المنافقين {مِن قِبَلِه العذابُ} أي : العذاب حاصل من قِبَلِه. فالعذاب : مبتدأ ، و {مِن قِبَلِه} : خبر ، أي : ظاهر السور تليه جهنم أو الظلمة ، فيقابله العذاب ، فهم بين النار والسور.

{يُنادونهم} أي : ينادي المنافقون المؤمنين : {ألم نكن معكم} في الدنيا ؟ يريدون موافقتهم لهم في الظاهر ، {قالوا} أي : المؤمنون : {بلى} كنتم معنا في الظاهر {ولكنكم فتنتم أنفسَكم} أي : محنتموها وأهلكتموها بالنفاق والكفر ، {وتربصتم} بالمؤمنين الدوائر ، {وارتبتم} في أمر الدين {وغرتكم الأمانيُّ} الفارغة ، التي من جملتها أطماعكم في انتكاس الإسلام ، أو : طول الأمل وامتداد الأعمار {حتى جاء أمرُ الله} ؛ الموت ، {وغرَّكم بالله} الكريم {الغَرُورُ} أي : الشيطان بأنَّ الله غفور كريم لا يعذبكم ، أو : بأنه لا بعث ولا حساب.

}

(٣١٩/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٥

فاليومَ لا يُؤخذ منكم فديةٌ} فداء {ولا من الذين كفروا} جهراً ، {مأواكم النارُ} أي : مرجعكم ، لا تبرحون عنها أبداً {هي مولاكم} أي : المتصرفة فيكم تصرُّف المولى في ملكه ، أو : هي أولى بكم ، وحقيقة مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم ، أو : ناصركم ، على طريق :

تحيةٌ بينهم ضَرْبٌ وجِيعُ

فيكون تهكُّماً بهم ، {وبئس المصيرُ} أي : النار.

الإشارة : يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ، الكاملين في الإيمان ، الطالبين الوصول ،

٣١٦

يسعى نورُهم ، وهو نور التوجُّه بين أيديهم وبأيمانهم ، فيهتدون إلى أنوار المواجهة ، وهي المشاهدة ،

فيقال لهم : بُشراكم اليوم جنات المعارف ، تجري من تحتها أنهار العلوم ، خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم. قال القشيري : قوله تعالى : {يسعى نورهم...} الخ ؛ كما أنَّ لهم في العرصة هذا النور ؛ فاليومَ لهم نورٌ في قلوبهم وبواطنهم ، يمشون في نورهم ، ويهتدون به في جميع أحوالهم ، قال صلى الله عليه وسلم : {المؤمن ينظر بنور الله} ، وقال تعالى : {فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ} [الزمر : ٢٢]. وربما سقط ذلك النورُ على مَنْ يَقْرُبُ إليهم ، وربما يقع من ذلك على القلوب ، فلا محالة لأوليائه هذه الخصوصية. هـ. قال الورتجبي : ونورُ الحق الذي ألبس العارف تخضع له الأكوان ومَن فيها ، ومثله لسهل. فانظره مسْتوفٍ.

يوم يقول المنافقون والمنافقات ، وهم الذين اعتنوا بتزيين الظواهر ، وغفلوا عن البواطن ، فصارت خراباً من النور ، يقولون في الدنيا : انظُرونا والتفتوا إلينا ، نقتبس من نوركم ، قيل : ارجعوا وراءكم ، إلى دنياكم وحظوظكم ، فاتلمسوا نوراً ، تهكُّماً بهم ، فضُرب بينهم بسورٍ معنوي ، وهو خرق العوائد ، وتخريب الظواهر ؛ إذ لا يقدرون على ارتكابه ، له باب ليدخل معهم مَن أراد نورهم ، باطن ذلك السور فيه الرحمة ، وهي الراحة ، والطمأنينة ، والبسط ، وبهجة المعارف ، وظاهره الذي يلي العامة من قِبَلِه العذاب ، وهو ما هم فيه من الحرص ، والتعب ، والجزع ، والهلع ، والقبض. ينادونهم : ألم نكن معكم في عالم الحس ؟ وهو عالم الأشباح ، قالوا : بلى ، ولكنكم لم ترتقوا إلى عالم المعاني ، وهو عالم الأرواح ، الذي هو محل الراحة والهنا والسرور ، بل فَتنتم أنفسكم بأشغال الدنيا ، واشتغلتم بطلب حظوظها وجاهها ، ورئاستها وطيب مأكلها ، ومشربها وملبسها ، وتربصتم بأهل التوجه الدوائر ، أو الرجوع إلى ما أنتم فيه ، وارتبتم في وجود خصوصية التربية ، وغَرَّتكم الأماني : المطامع الكاذبة ، وأنكم تنالون الخصوصية بغير صحبة ولا مجاهدة ، وغرّكم طولُ الأمل والتسويف ، عن التوبة والتوجُّه ، وغرّك بحلمه الغرور ، فزيَّن لكم القعود والتخلُّف عن مقامات الرجال ، فاليوم ، أي : حين ظهرت مقامات الرجال في الدنيا والآخرة ، لا يؤخذ منكم فدية في التخلُّص من غم الحجاب ، ولا من الذين كفروا ، مأواكم نار القطيعة ، هي مولاكم ومنسحبة عليكم ، وبئس المصير.

(٧/٣٢٠)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٥

٣١٧

قلت : {ألم يأن} : مجزوم بحذف الياء ، من : أَنَى يأنِي ، كمَضَى يمضي : إذا حان وقرب. و {أن تخشع} : فاعل. و {لا يكونوا} : عطف على " تخشع " ، وقرأ رويس عن يعقوب بالخطاب ، فيكون التفاتاً ؛ للاعتناء بالتحذير ، أو نهياً.

يقول الحق جلّ جلاله : {ألم يَأْنِ} ألم يحضر ، أو يقرب {للذين آمنوا أن تخشع قُلوبُهم لذكر الله} أو : ألم يجيء وقت خشوع قلوب المؤمنين لذكر الله تعالى ، وتطمئن به ، ويسارعون إلى طاعته ، بالامثال لأوامره والاجتناب لنواهيه. قيل : كانوا مجدبين بمكة ، فلما هاجروا وأصابوا الرزق والنعمة ، ففتروا عما كانوا عليه ، فنزلت. وبه تعلم أنَّ الشدة هي عين الرخاء ، وأنَّ الجلال هو الجمال ، وأين هو حبيبك ثَمَّ هو عدوك. وعن ابن مسعود رضي الله عنه : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربعُ سنين. وعن ابن عباس رضي الله عنه : استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن.

وعن أبي بكر رضي الله عنه : إنَّ هذه الآية قُرئت بين يديه ، وعنده قوم من أهل اليمامة ، فبكوا بكاءً شديداً ، فنظر إليهم فقال : " هكذا كنا حتى قست قلوبنا ". قلت : مراده بالقسوة : التصلُّب والتثبُّت للورادات ، وذلك أنَّ القلب في البدايات يكون رطباً مغلوباً للأحوال والواردات ، يتأثر بأدنى شيء ، فإذا استمر مع الأنوار والواردات ؛ استأنس بها وتصلّب واشتد ، فلا تؤثر فيه الواردات ، فيكون مالكاً للأحوال ، لا مملوكاً ، وهذا أمر ذَوْقي ، يرتفع البكاء عن العارفين ، ويظهر على الصالحين والطالبين.

وهذه الآية أيضاً كانت سبب توبة الفُضيل ، كان صاعداً لجارية ، فسمع قارئاً يقرأها ، فقال : قد آن الخشوع والرجوع ، فتاب.

والمراد بذكر الله ذكر اسمه تعالى على أي لفظ كان ، كقوله : {إِنَّمَا الْمُؤمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ...} [الأنفال : ٢] الآية ، أو : القرآن ، فيكون قوله : {وما نَزَلَ من الحق} عطف تفسير ، أو لتغاير العنوانين ، فإنه ذِكْرٌ وموعظة ، كما أنه حقٌّ نازل من السماء. والمراد بالخشوع : الإنابة والخضوع ، ومتابعة الأمر والنهي. {ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتاب من قبلُ} أي : اليهود والنصارى ، {فطال عليهم الأمدُ} الزمن بينهم وبين أنبيائهم ، {فقست قلوبُهم} باتباع الشهوات ، وذلك أنَّ بني إسرائيل كان الحقُّ يحول بينهم وبين شهواتهم ، وإذا سمِعوا التوراة خشعوا له ، ورقَّت قلوبهم ، فلما طال عليهم الزمان غلب عليهم الجفاء والقسوة ، واختلفوا.

(٣٢١/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٧

قال ابن مسعود : إن بني إسرائيل لمّا طال عليهم الأمد قست قلوبُهم ، فاخترعوا كتاباً

٣١٨

من عند أنفسهم ، استحلته أنفُسِهم ، وكان الحق يحول بينهم وبين كثيرٍ من شهواتهم ، حتى نبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون ، ثم قالوا : اعْرِضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل ، فإن تابعوكم

فاتركوهم ، وإلاَّ فاقتلوهم. ثم اتفقوا أن يرسلوه إلى عالمٍ من علمائهم ، [وقالوا] : إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد ، وإلاَّ قتلتموه ، فلا يختلف علينا بعده أحد ، فأرسلوا إليه ، فكتب كتاب الله في ورقة ، وجعلها في قرن ، وعلقها في عنقه ، ثم لبس عليه ثيابه ، وأتاهم ، فعرضوا عليه كتابهم ، وقالوا : أتؤمن بهذا ؟ فأومئ إلى صدره ، وقال : آمنتُ بهذا - يعني المعلَّق على صدره - فافترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين ملة. هـ.

قال تعالى : {وكثيرُ منهم فاسقون} خارجون عن دينهم ، رافضون لما في الكتابين ، أي : وقليل منهم مؤمنون ، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا مثلهم. وقال ابن عطية : الإشارة بقوله : {أوتوا الكتاب} إلى بني إسرائيل المعاصرين لموسى عليه السلام ، ولذلك قال : {من قبل} ، وإنما شبّه أهل عصر نبي بأهل عصر نبي ، وقوله : {فطال عليهم الأمدُ} قيل : أمد الحياة ، وقيل : أمد انتظار القيامة. هـ. وقال مقاتل : {الأمد} هنا : الأمل ، أي : لما طالت آمالهم لا جرم قست قلوبهم. هـ. قيل : إن الصحابة ملُّوا ملالة ، فقالوا : حدِّثنا ، فنزل : {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} [يوسف : ٣] ، وبعد مدة قالوا : لو ذَكَّرتَنا ، فنزلت هذه السورة.

وهذه الآية {اعلموا أنَّ الله يُحيي الأرضَ بعد موتها} قيل : هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب ، وأنه يُحييها كما يُحيي الغيثُ الأرض ، وفيه إرشاد إلى أنَّ طريق زوال القسوة ليس إلاَّ الالتجاء إلى الله ، ونفى الحول والقوة ؛ لأنه تعالى القادر وحده على ذلك ، كما أنه وحده يُحيي الأرض ، {قد بيّنا لكم الآيات} التي من جملتها هذه الآية ، {لعلكم تعقلون} كي تعقلوا ما فيها ، وتعملوا بموجبها ، فتفوزوا بسعادة الدارين. والله تعالى أعلم.

الإشارة : خشوع القلب لذكر الله هو ذهوله وغيبته عند سطوع أنوار المذكور ، فيغيب الذاكر في المذكور ، وهو الفناء ، والخشوع لسماع ما نزل من الحق : أن يسمعه من الحق ، لا من الخلق ، وهو أقصى درجات المقربين. ثم نهى تعالى الخواص أن يتشبّهوا بأهل العلوم الرسمية اللسانية ؛ لأنه طال بهم الأمل ، وتنافسوا في الرئاسة ، وتهالكوا في الحظوظ العاجلة ، حتى قست قلوبهم ، وخرجوا عن الإرادة بالكلية ، قال القشيري : وقسوة القلب إنما تحصل من اتباع الشهوة ؛ فإن الشهوة والصفوة لا يجتمعان ، وموجِبُ القسوة : انحرافُ القلب عن مراقبة الربِّ ، ويقال : موجب القسوة أوله خطرة ، فإنْ لم تتدارَكْ صارت فكرة ، وإن لم تتدارَكْ صارت عزيمة ، فإن لم تتدارَكْ صارت مخالفة ، فإن لم تتلافَ صارت قسوةً ، وبعد ذلك طبع ودين. هـ. وحينئذ لا ينفع الوعظ والتذكير ، كما قال :

٣١٩

إذا قسا القلبُ لم تنفعه موعظةٌ

كالأرض إن سبختْ لم ينفع المطرُ

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٧

اعلموا أن الله يُحيي أرض القلوب بالعلم والمعرفة ، بعد موتها بالغفلة والجهل ، قد بيَّنَّا الآيات لمَن يتدبّر ويعقل.

(٣٢٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٧

قلت : {المصدقين} مَن قرأ بالتشديد فيهما فاسم فاعل ، من : تصدّق ، أدغمت التاء في الصاد ، ومَن قرأ بتخفيف الصاد فاسم فاعل صدّق. و {أقرضوا} : عطف على الصلة ، أي : إن الذين تصدّقوا وأقرضوا.

يقول الحق جلّ جلاله : {إِنَّ المصدِّقين والمصدِّقات} أي : المتصدقين بأموالهم والمتصدقات أو : المصدقين بالله ورسوله والمصدقات ، {وأقرضوا اللّهَ قرضاً حسناً} وهو أن تتصدّق من كسبٍ طيبٍ ، بقلب طيب ، {يُضاعف لهم} بأضعاف كثيرة إلى سبعمائة ، {ولهم أجرٌ كريمٌ} الجنة وما فيها.

وقد ورد في الصدقات أحاديث ، منها : أنها تدفع سبعين باباً من السوء ، وتزيد البركة في العمر. رُوي أن شابّاً وشابة دخلا على سليمان عليه السلام فعقد لهما النكاح ، وخرجا من عنده مسرورين ، وحضر ملك الموت ، فقال : لا تعجب من سرورهما ، فقد أُمرت أن أقبض روح هذا الشاب بعد خمسة أيام ، فجعل سليمانُ يراعي حالَ الشاب ، حتى ذهبت ستة أيام ، ثم خمسة أشهر ، فعجب من ذلك ، فدخل عليه ملك الموت ، فسأله عن ذلك ، فقال : إني أُمرت أن أقبض روحه كما ذكرتُ لك ، فلما خرج من عندك لقيه سائل ، فدفع له درهماً ، فدعا له بالبقاء ، فأُمرت بتأخير الأمر عنه ببركة صدقته. هـ. وانظر عند قوله : {يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ} [الرعد : ٣٨] ، ومثله قضية الرجل الذي آذى جيرانَه ، فدعا موسى عليه السلام عليه ، ثم تصدَّق صبيحة اليوم برغيف ، فنزل الثعبان ، فلقيته الصدقة فسقط ميتاً على حزمة حطبه.

{والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون} المبالغون في التصديق ، أو الصدق ، وهو أولى ؛ لأنّ وزن المبالغة لا يساغ من غير الثلاثي في الأكثر إلا نادراً ،

٣٢٠

كمسّيك من أمسك. {و} هم أيضاً {الشهداءُ عند ربهم} وظاهره : أن كل مَن آمن بالله ورسله ينال درجة الصدّيقين ، الذين درجتهم دون درجة الأنبياء ، وفوق درجة الخواص ، وأنَّ كل مَن آمن ينال درجة الشهداء ، وليس كذلك ، فينبغي حمل قوله : {آمَنوا} على خصوص إيمان وكماله ، وهم الذين

لم يشكّوا في الرسل حين أخبَروهم ، ولم يتوقفوا ساعة ، أي : سبقوا إلى الإيمان ، واستشهدوا في سبيل الله. وسيأتي في الإشارة حقيقة الصدّيق. وقيل : كل مَن آمن بالله ورسله مطلق الإيمان فهو صدّيق وشهيد ، أي : ملحق بهما ، وإن لم يتساووا في النعيم ، كقوله : {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ...} [النساء : ٦٩].

(٣٢٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٠

والحاصل على هذه العبارة : الترغيب في الإيمان والحث عليه ، وهو وارد في كلام العرب في مبالغة التشبيه ، تقول : فلان هو حاتم بعينه ، إذا شابهه في الجود ، ويؤيد هذا حديث البراء بن عازب : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مؤمنو أمتي شهداء " قال مجاهد : (كل مؤمن صدّيق وشهيد) ، أي : على ما تقدّم ، وإنما خصّ النبي صلى الله عليه وسلم ذكرَ الشهداء السبعة تشريفاً على رتب الشهداء غيرهم ، ألا ترى أنَّ المقتول في سبيل الله مخصوص أيضاً بتشريف ينفرد به ، وقال بعضهم : معنى الشهداء هنا : أنهم يشهدون على الأمم. قال ابن عباس ومسروق والضحاك : الكلام تام في قوله : " الصدّيقون " ، وقوله : " الشهداء " استئناف كلام ، أي : والشهداء حاضرون عند ربهم ، أو : والشهداء {لهم أجرهم ونورهم} عند ربهم ، قال أبو حيان : والظاهر : أن " الشهداء " مبتدأ ، خبره ما بعده. هـ.

قلت : الظاهر : أنَّ الآية متصلة ، فكل مؤمن حقيقي صدّيق وشهيد ، أي : يلحق بهم ، وقوله : {لهم أجرهم ونورهم} أي : لهم أجر الصدّيقين ونورهم ، على التشبيه ، ولا يبلغ المشبَّه درجة المشبَّه به.

وإذا قيّدنا الإيمان بالسبق ، فالمعنى لهم أجرهم كامل ونورهم تام ، ويؤيد عدم التقييد : ذكر ضده عقبه ، كما هو عادة التنزيل ، بقوله : {والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم}.

الإشارة : إنَّ المصدّقين والمصدّقات ، وهم الذين بذلوا مهجهم وأرواحهم في مرضاة الله – ومَن كان في الله تلفه كان على الله خَلَفَه – وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، أي : قطعوا قلوبهم عن محبة ما سواه ، وحصروه في حضرة الله ، يُضاعف لهم أنوارهم وأسرارهم ،

٣٢١

ولهم أجر كريم ، شهود الذات الأقدس ، وهؤلاء هم الصدّيقون المشار إليهم بقوله : {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون} فهذا الإيمان عند الصوفية مقيد ، قال الورتجبي : هم الذين شاهدوا الله بالله بنعت المعرفة والمحبة ، وتبعوا رسولَه بنعت المحبة والمعرفة بشرفه وفضله ، والانقياد بين يدي أمره ونهيه ، فأولئك هم الصدّيقون ؛ لأنهم معادن الإخلاص واليقين ، وتصديق الله في قوله بعد أن

شاهدوه مشاهدة الصديقية ، التي لا اضطراب فيها من جهة معارضة النفس والشيطان ، وهم شهداء الله المقتولون بسيوف محبته ، مطروحون في بحر وصلته ، يَحْيون بجماله ، يَشهدون على وجودهم بفنائه في الله ، وبفناء الكون في عظمة الله ، وهم قوم يستشرفون على هموم الخلائق بنور الله ، يشهدون لهم وعليهم ؛ لِصدق الفراسة ؛ لأنهم أمناء الله ، خصَّهم الله بالصديقية والسعادة والولاية والخلافة.هـ.

(٣٢٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٠

وقال القشيري : الصدّيق مَن استوى ظاهرُه وباطنُه ، ويقال : هو الذي يحمل الأمرَ على الأشَق ، لا يَنْزلُ إلى الرُّخَصِ ، ولا يجنح إلى التأويلات ، والشهداء : الذين يشهدون بقلوبهم مواطن الوصلة ، ويعتكفون بأسرارهم في أوطان القُربة ، ونُورهم : ما كحل الحق به بصائرهم من أنوار التوحيد. هـ.

(٣٢٦/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٠

يقول الحق جلّ جلاله : {اعْلَموا أنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ} كلعب الصبيان ، {وَلَهْوٌ} كلهو الفتيان ، {وزِينَةٌ} كزينة النسوان ، {وتفاخر بينكم} كتفاخر الأقران ، {وتكاثرٌ} كتكاثر الدهقان – أي الفلاحين – {في الأموال والأولاد} أي : مباهاة بهما. والتكاثر : الاستكثار ، والحاصل : أنها من محقرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء ، فضلاً عن الاطمئنان بها ، وأنها مع ذلك سريعة الزوال ، وشيكة الاضمحلال ، ولذلك قال : {كَمَثَل غيثٍ أعجَبَ الكفَّارَ} أي : الحُرّاث ، من : كَفَرَ الحبَ : ستره ، ويقال : كفرت الغمامُ النجومَ : سترتها ، أي : أعجب الزراع {نباتُه} أي : النبات الحاصل منه ، {ثم يَهيجُ} أي : يجف بعد خضرته ونضارته ، {فتراه مُصْفراً} بعد ما رأيته ناضراً مونِعاً ، وإنما لم يقل : ثم تراه ؛ إيذاناً بأنّ اصفراره مقارن لجفافه. {ثم يكون حُطاماً} متفتتاً متكسراً ، شبَّه حالَ الدنيا وسرعة تقضّيها مع قلة جدواها بنباتٍ أنبته الغيث ، فاستوى وقوي ، وأعجب به حُرّاثه ، أو :

٣٢٢

الكفار الجاحدون لنعمة الله تعالى فيما رزقهم من الغيث والنبات ، فبعث عليه العاهة ، فهاج ، واصفرّ وصار حطاماً.

وهذا المثل هو لمَن اشتغل بالدنيا ، والجري عليها ، وأمّا ما كان منها في طاعة الله ، أو في الضرورات التي تُقيم الأولاد ، وتُعين الطاعات ، فلا يدخل في هذا المثل ، وهذا مثال للإنسان ينشأ شابّاً قويّاً ،

حَسن المنظر والهيئة ، ثم يأخذ في النقص والهرم ، ثم يموت ، ويضمحل أمره ، وتصير الأموال لغيره.
قال القشيري : الدنيا حقيرة ، وأحقرُ منها قَدْراً : طالبُها ، وأقلُّ منها خَطَراً : المُزاحِم فيها ، فما هي إلاّ جيفة ، وطلاب الجيفةِ ليس لهم خطر ، وأخسُّهم مَن يبخل بها. وهذه الدنيا المذمومة هي ما شَغَل العبد عن الآخرة ، فكل ما شغله عن الآخرة فهي الدنيا. هـ.
}

(٣٢٧/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٢
وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ} لمَن أعرض عن الله ، {ومغفرةٌ من الله ورضوانٌ} لمَن أقبل على الله ، وزهد فيما سواه. والحاصل : أنّ الدنيا ليست إلاَّ محقراتٍ من الأمور ، وهي اللعب ، واللهو ، والزينة ، والتفاخر ، والتكاثر ، وأمّا الآخرة ؛ فما هي إلا أمورٌ عِظام ، وهي العذاب الشديد ، والمغفرة ، والرضوان من الله الحميد. والكاف في "كَمَثَلِ " في محل رفع ، خبر بعد خبر ، {وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغُرور} لمَن ركن إليها ، واعتمد عليها ، ومتاع الغرور : هو الذي يظهر ما حسن منه ، ويبطن ما قبح ، يفعله مَن يغر الناس ويغشهم ، وكذلك الدنيا تُظهر لطلابها حلاوةً ووَلُوعاً ، وتزداد عليهم شيئاً فشيئاً ، فينهمكون في حلاوة شهواتها وبهجتها ، ويغفلون عن الاستعداد ، والعمر يفنى من يدهم في البطالة ، فهي تغرهم وتخدعهم حتى تسوقهم إلى الموت مفلسين. قال ذو النون : يا معشر المريدين ؛ لا تطلبوا الدنيا ، وإن طلبتموها فلا تحبوها ، فإنّ الزاد منها ، والمَقيل في غيرها.
ولمَّا حقَّر الدنيا ، وصغّ أمرها ، وعظّم أمر الآخرة ، حَثَّ عبادَه على المسارعة إلى نيل ما وَعَد من ذلك ، وهي المغفرة والرضوان ، فقال : {سابِقوا} بالأعمال الصالحة {إلى مغفرة من ربكم} أو : سارِعوا مسارعة السابقين لأقرانهم في المضمار ، {وجنةٍ عرضها كعرض السماء والأرض} أي : كعرض سبع سموات ، وسبع أرضين ، إذا مدت إحداها حَذْو الأخرى ، وذَكَر العرض دون الطول ؛ لأنّ كل ما له عرض وطول فعَرضه أقلّ من طوله ، فإذا وصف عَرضه بالبسط عُرف أن طوله أبسط ، وهذا تقريب لأفهام العرب ، وإلاَّ فالجنة أعظم من ذلك مراراً ، كيف لا والمؤمن الواحد يُعطي قدر الدنيا عشر مرات! {أُعِدَّتْ} تلك الجنة {للذين آمنوا بالله ورسله} وهو دليل أنها مخلوقة ، {ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء} وهم المؤمنون ، وفيه دليل أنه " لا يدخل الجنة أحدٌ بعمله " كما في
٣٢٣
الحديث : {والله ذو الفضل العظيم} وبذلك يؤتي من شاء ذلك الفضل ، الذي لا غاية وراءه.
الإشارة : قد شبّه بعضُ الحكماء الدنيا بسبعة أشياء ، شبّهها بالماء المالح ، يغرق ولا يروي ، ويضر ولا

ينفع ، وشبهها بظل الغمام ، يغر ويخذل ، وشببها بالبرق الخاطف في سرعة الذهاب والإضرار ، وبسحاب الصيف ، يضر ولا ينفع ، وبزهر الربيع ، يغر بزهرته ، ثم يصفر فتراه هَشيماً ، بأحلام النائم ، يرى السرورَ في منامه ، فإذا استيقظ لم يجد في يديه شيئاً إلاّ الحسرة ، وبالعسل المشوب بالسم الرعاف ، يغر ويقتل. هـ. قال حفيده : فتأملت هذه الحروف سبعين سنة ، ثم زِدتُ فيها حرفاً واحداً فشبهتها بالغول التي تهلك مَن أجابها ، وتترك مَن أعرض عنها. هـ. وفي كتاب قطب العارفين ، لسيدي عبد الرحمن اللجائي ، قال : فأول درجة الذاهبين إلى الله تعالى : بغض الدنيا ، التي هي ظلمة القلوب ، وحجاب لوائح الغيوب ، والحاجزة بين المحب والمحبوب ، فبقدر رفضها يستعد للسفر ، ويصح للقلوب النظر ، فإن كانت الدنيا من قلب العبد مرفوضة ، حتى لا تعدل عنده جناح بعوضة ، فقد وضع قدمه في أول درجة من درجات المريدين ، فينظر العبد بعد ذلك ما قدّمت دنياه ، ويقبل على أخراه. هـ.

(٣٢٨/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٢

وذكر القشيري في إشارة الآية : أنها إشارة إلى أطوار النفس والقلب والروح والسر ، فقال بعد كلام : وأيضاً يُشير إلى تعب صِبا النفس الأمّارة بملاعب المخالفات الشرعية ، والموافقات الطبيعية ، وإلى لهو شاب القلب بالصفات القلبية ، مثل الزهد ، والورع ، والتوكُّل والتقيُّد بها ، وإلى زينة كهل السر بالأحوال السرية ، والمنازلات الغيبية ، مثل الكشوفات والمشاهدات والمعاينات ، وإلى تفاخر شيخ الروح بإنبات التجليات والتنزلات ، وإلى تكاثر سر السر بالفناء عن ناسوتيته ، والبقاء بلاهوتيته الجامع. هـ. إلاّ أنه قدّم السر على الروح ، والمعهود العكس ، فانظره.

قوله : {سابِقوا...} الآية ، فيه إغراء على النهوض إلى الله ، وسرعة السير إلى الحق تعالى ، التنافس في السبق ، كما قال الشاعر :

السباقَ السباقَ قولاً وفعلاً

حَذِّر النفسَ حسرةَ المسبوق

حُكي عن أبي خالد القيرواني ، وكان من العُبّاد ، المجتهدين : أنه رأى خيلاً يسابقَ بها ، فتقدمها فَرَسان ، ثم تقدم أحدهما الآخر ، ثم جدّ الثاني حتى سبق الأول ، فتخلّل أبو خالد ، حتى وصلَ إلى الفرس السابق ، فجعل يُقبّله ، ويقول : بارك الله فيك ، صبرت فظفرت ، ثم سقط مغشيّاً. هـ. قال الورتجبي : دعا المريدين إلى مغفرته بنعت الإسراع ، يعني في قوله : {سارِعوا} ودعا المشتاقين إلى جماله بنعت الاشتياق ، وقد دخل الكل في مظنة الخطاب ؛ لأنّ الكل قد وقعوا في بحار الذنوب ،

حين لم يعرفوه حقّ معرفته ، فدعاهم إلى التطهير برحمته من الغرور بأنهم عرفوه. هـ. أي : دعاهم إلى التطهير من

٣٢٤

الاغترار بمعرفته ، وهي لم تحصل. والله تعالى أعلم.

(٣٢٩/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٢

قلت : {في الأرض} : نعت لمصيبة ، أي : كائنة في الأرض ، و(في كتاب) : حال.

يقول الحق جلّ جلاله : {ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض} من الجدب وآفات الزروع والفواكه ، {ولا في أنفُسِكُم} من الأمراض والأوصاب وموت الأولاد {إلاَّ} مكتوب {في كتابٍ} اللوح {من قبل أن نبرأها} أي : مِن قبل أن تخلق الأنفس أو المصائب ، {إنّ ذلك على الله يسير} أي : إن إثباتها في اللوح سهل على قدرته كلحظة ، وكما كُتبت المصائب ، كُتبت المسرات والمواهب ، وقد يدلّ عليها قوله تعالى : {لِكَيْلا تأسَوا} أي : أخبرناكم بذلك لِكيلا تحزنوا {على ما فاتكم} من الدنيا حزناً يقنطكم ، {ولا تفرحوا} فرح المختال الفخور {بما آتاكم} من الدنيا وسعتها ، ومن العافية وصحتها ، فإنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ الكل مقدر ، يفوت ما قدر فواته ، ويأتي ما قدّر إتيانه ، لا محالة ، لا يعظم جزعه على ما فات ، ولا فرحه بما هو آت ، ومع هذا كل ما ينزل بالنفس من المصائب زيادة في درجاته ، وتطهير من سيئاته ، ففي صحيح مسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما يُصيب المسلم من وَصَبٍ ، ولا نَصَب ، ولا سقم ، ولا حَزَنٍ ، حتى الهمَ يَهُمُّه ، إلاَّ كفّر به من سيئاته " وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : " عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن : إن قضى له بالسراء رضي وكان خيراً ، وإن قضى له بالضراء ورضي كان خيراً له " ، وقال أيضاً : " ما من مسلم يُشاكُ بشوكةٍ فما فوقها ، إلاَّ كُتبتْ له درجةٌ ، ومُحيتْ عنه بها خَطيئةٌ ". وليس أحد إلاَّ وهو يفرح بمنفعةٍ تُصيبه ، ويحزن عند مضرةٍ تنزل به ، لأنه طبع بشري ، ولذلك كان عمر رضي الله عنه إذا أوتي بغنيمة أو خير يقول : (اللهم إنا لا نستطيع إلاَّ أن نفرح بما آتيتنا) ، ولكن ينبغي أن يكون الفرح شكراً ، والحزن صبراً ، وإنما يُذم مِن الحزن الجزع المنافي للصبر ، ومن الفرح الأشر المُطغي المُلهي عن الشكر ، والمؤدّي إلى الفخر ، {واللّهُ لا يُحب كلَّ مختال فخور} فإنَّ مَن فرح بحظوظ الدنيا ،

٣٢٥

وعظمت في نفسه ، اختال وافتخر بها ، لا محالة. وفي تخصيص التنزيل الذم بالفرح المذكور إيذان بأنه أقبح من الأسى.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٥

ثم أبدل من " كل مختال " تفسيراً له فقال : {الذين يبخلون ويأمرون الناسَ بالبخل} أي : لا يُحب الذين يفرحون الفرحَ المُطغي إذا رُزقوا مالاً أو حظّاً من الدنيا ، فلأجل فرحهم به عزّ في نفوسهم ، فبخلوا به ، وأَمروا غيرهم بإمساكه ، ويحضُّونهم على البخل والادخار ، {ومَن يتولَ} يُعرض عن الإنفاق ، أو عن أوامر الله تعالى ونواهيه ، ولم ينتهِ عما نهى عنه من الأسى على الفائت ، والفرح بالآتي ، {فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميدُ} أي : غني عنه وعن أنفاقه ، محمودٌ في ذاته ، لا يضره إعراضُ مَن أعرض عن شكره ، بالتقرُّب إليه بشيء من نعمه. وفيه تهديد وإشعار بأنَّ الأمر بالإنفاق إنما هلو لمصحلة المنفق فقط. وقرأ المدنيان وابن عامر بغير " هو " الذي يفيد الحصر ، اكتفاء عنها بتعريف الجُزأين ، مع تأكيد " إنّ " ، وقرأ الباقون بزيادتها ؛ للتنصيص على الحصر والتأكيد ، وهو ضمير فصل عن البصريين ، أي : الفرق ؛ لأنه يفرق بين الخبر والصفة ، وعماد عند الكوفيين ، ورابطة عند المنطقيين.

الإشارة : ما أصاب من مصيبة في أرض البشرية ، من غلبة الطبع ، والميل إلى الحظوظ النفسانية ، ولا في أنفسكم ؛ ولا في باطن أنفسكم ، مما يُصيب القلبَ من الأمراض ، كالعجب والرياء والكبر والحسد ، وغيرها ، وما يُصيب الروح من الوقوف مع المقامات ، أو الكرامات ، أو الكشوفات ، إلاَّ في كتاب سابق ، وهو العلم القديم ، والقضاء المحتوم ، فمَن وافقته رياح القضاء نهض رغماً عن أنفه ، ومَن انتكبته نكس على عقبيه ، أو وقف عن سيره ، فالرجوع إلى الله واجب في الحالتين ، عبودية وأدباً ، فعلنا ذلك لكيلا تأسَوا على ما فاتكم. فمَن تحقّق بالعبودية لا يفوته شيء ، ولا تفرحوا بما آتاكم مما شأنه يزول. قال القشيري : هذه صفة المتحررين من رقِّ النفس ، وقيمة الرجال إنما تتبين بتغيُّرهم ، فمَن لم يتغير بما يَرِدُ عليه مما لا يريده من جفاءٍ أو مكروهٍ أو محبةٍ فهو كامل ، ومَن لم يتغير بالمضار ، ولا يَسُرُّه الوجد ، كما لا يُحْزِنْه العَدَم ، فهو سَيِّد وقته. هـ. قلت : وهذه كانت سيرة الصحابة رضي الله عنهم كما قال كعب بن زهير في وصفهم :

لا يَفرحونَ إذا نالت رِماحُهُمُ

قَوْماً وليسوا مجازيعاً إذا نِيلوا

ثم قال : ويُقال : إذا أردْتَ أن تعرفَ الرجلَ فاطلبْه عند الموارد ، والتغيراتُ من علامات بقاء النفْس بأيّ وجهٍ كان. هـ. وقال الورتجبي عن الواسطي : العارف مستهلك في كُنه المعروف ، فإذا حصل بمقام المعرفة لا يبقى عليه قصد فرح ولا أسى ، قال الله تعالى : {لِكَيلا تأسوا...} الآية. هـ. قلت : وإليه أشار في الحِكَم بقوله : " ما تجده

القلوب من الأحزان فلِما منعت من الشهود والعيان " ، وقال ابن الفارض ، في شان الخمرة إذا دخلت القلب :

(٣٣١/٧)

وإن خطرتْ يوماً على خاطر امرىءٍ

أقامتْ به الأفراحُ وارتحلَ الهمّ

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : " يا داود ، قُل للصدِّيقين : بي فليفرحوا ، وبذكري فليتنعموا "

واحتجّ الغزالي بهذه الآية على أن الرزق لا يزيد بالطلب ، ولا ينقص بتركه ، ولو كان يزيد بالطلب وينقص بالترك لكان للأسى والفرح موضع ، إذ هو قصَّر وتوانى حتى فاته ، وشمَّر وجدّ حتى حصَّله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم للسائل : " ما لك ، لو لم تأتها لأتتك " ، ثم أورد كون الثواب والعقاب مكتوبيْن ، ويزيد بالطلب وينقص بتركه ، ثم فرّق بأنّ المكتوب قسمان : قسم مكتوب مطلقاً ، من غير شرط وتعليقٍ بفعل العبد ، وهو الأرزاق والآجال ، وقسم معلّق بفعل العبد ، وهو الثواب والعقاب. هـ.

قلت : في تفريقه نظر ، والحق : التفصيل في النظر ، فمَن نظر لعالم الحكمة ، وهو عالم التشريع ، وجدهما معاً مقيدين بفعل العبد ، أمّا الرزق الحسي فيأتي بسبب الفعل ، إن توجه للأسباب ونقص من التقوى ، وبغير سبب إن تجرّد من الأسباب ، وحصل مقام التقوى ؛ لقوله تعالى : {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً...} [الطلاق : ٢] الآية ، فالمُتَّقِي المنقطع إلى الله ناب اللّهُ عنه في الفعل ، ومَن نظر لعالم القدرة ، وهو عالم الحقيقة ، وجد الفعل كله من الله بلا واسطة {لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون}

وكذلك أمر الرزق المعنوي ، وهو الطاعة واليقين ، التي يترتب عليهما الثواب والعقاب ، فمَن نظر لعالَم الحكمة وجده مقيداً بسبب العبد واجتهاده ، وبها جاءت الشريعة ، ومَن نظر لعالَم القدرة امتحى العبد ووجوده ، فضلاً عن فعله وتسبُّبه ، فتأمّله.

قوله تعالى : {والله لا يُحب كل مختال فخور} قال القشيري : لأنّ الاختيال من بقاء النفس ، والفخر رؤية خطر ما به يفتخر. هـ. {الذين يبخلون} بما عندهم من الأرزاق الحسية والمعنوية ، والبخل بها علامة الفرح بها ، والوقوف معها ، وأمّا مَن وصل إلى شهود مُعطيهما ومُجريها فلا يبخل بشيء ؛ لغناه بالله عن كل شيء ، ومَن يتولّ عن هذا كله ، فإنَّ الله الغني عنه وعن جميع الخلق ، المحمود قبل وجود الخلق. والله تعالى أعلم.

(٣٣٢/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٥

يقول الحق جلّ جلاله : {لقد أرسلنا رسلنا} من البشر {بالبينات} الحُجج والمعجزات ، أو : لقد أرسلنا الملائكة إلى الإنبياء ، والأنبياء إلى الأمم ، ويؤيده قوله تعالى : {وأنزلنا معهم الكتابَ} أي : جنس الكتاب الشامل للكل ؛ لأنّ الكتاب من شأنه أن ينزل مع الملائكة ، ويُجاب : بأن التقدير : وأنزلنا عليه الكتاب مصحوباً معهم لا تُفارقهم أحكامه ، {و} أنزلنا {الميزانَ} أي : الشرع ؛ لأنه عِيار الأحكام الصحيحة والفاسدة ، {ليقوم الناسُ بالقسط} أي : العدل ، وقيل المراد : الميزان الحسي.

رُوي أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان ، فدفعه إلى نوح عليه السلام ، وقال : " مُرْ قومَك يَزِنوا به ".

{وأنزلنا الحديدَ} قال ابن عباس : " نزل آدم من الجنة ومعه آلة الحدادين ، خمسة أشياء : السندان ، والكَلْبتانِ ، والمِيقَعَةُ ، والمِطرقة ، والإبرة ". أو : {أنزلنا الحديد} أخرجناه من المعادن ، والمعادن تتكون من الماء النازل في الأرض ، فينعقد في عروق المعادن ، وقيل : المراد به السلاح.

وحاصل مضمن الآية : أرسلنا الرسلَ وأنزلنا الكتابَ ، فمَن تبع طوعاً نجا ، ومَن أعرض فقد أنزلنا الحديد يُحارب به حتى يستقيم كرهاً. {فيه بأس شديد} أي : قوة وشدة يتمنّع بها ويحارب ، {ومنافعُ للناس} يستعملونه في أدواتهم ، فلا تجد صنعة تستغني عن الحديد ، {وليعلم اللّهُ} علم ظهور {مَن ينصُرُه ورسُلَه} باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين ، {بالغيبِ} غائباً عنهم في مقام الإيمان بالغيب ، {إنَّ الله قويٌّ عزيزٌ} فيدفع بقوته مَن يُعرض عن ملته ، وينصر بعزته مَن ينصر دينه ، فيقوى جأشه على الثبوت في مداحض الحرب.

(٣٣٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٧

قال النسفي : والمناسبة بين هذه الأشياء الثلاثة : أنّ الكتاب قانون الشريعة ، ودستور الأحكام الدينية ، يُبين سبيل المراشد والعهود ، ويتضمن جوامع الأحكام والحدود ، ويأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن البغي والطغيان ، والاجتناب عن الظلم إنما يقع بآلة بها يقع التعامل ، ويحصل بها التساوي والتعادل ، وهي الميزان. ومن المعلوم : أنَّ الكتاب الجامع للأوامر الإلهية ، والآلة الموضوعة للتعامل بالتسوية ، إنما يُحافظ العوامّ على اتباعها

٣٢٨

بالسيف ، الذي هو حجة الله على مَن جحد وعَنَد ، ونزع من صفقة الجماعة اليد ، وهو الحديد ، الذي وصف بالبأس الشديد. هـ.

{ولقد أرسلنا نوحاً وإِبراهيم} خُصّا بالذكر لأنهما أبوان للأنبياء عليهم السلام {وجعلنا في ذريتهما}

أولادهما {النبوةَ} الوحي {والكتابَ} جنس الكتاب. وعن ابن عباس : " الخطّ بالقلم ". يقال : كتب كتاباً وكتابة. {فمنهم} من الذرية ، أو : مِن المرسَل إليهم ، المدلول عليه من الإرسال ، {مُهتدٍ} إلى الحق ، {وكثيرٌ منهم فاسقون} خارجون عن الطريق المستقيم ، والعدول عن سبيل المقابلة للمبالغة في الذم ، والإيذان بكثرة الضلاّل والفسّاق.

{ثم قَفَّينا على آثارهم} أي : نوح وإبراهيم ، ومَن مضى من الأنبياء ، أو : مَن عاصروهم من الرسل ، {برسلنا وقَفّينا بعيسى ابن مريم} أي : أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم. والتقفية : من القفا ، كأنّ كل واحد جاء في قفا صاحبه من ورائه ، {وآتيناه} أي : عيسى {الإنجيلَ} وفيه لغتان كسر الهمزة وفتحه ، وهو عجمي لا يلزم فيه أبنية العرب ، {وجعلنا في قلوب الذين ابتَعوه} وهم النصارى {رأفةً} مودةً وليناً ، {ورحمةً} تعطُّفاً على إخوانهم ، وهذا ظاهر في النصارى دون اليهود ، فأتباع عيسى أولاً كانوا الحواريين ، وطائفة من اليهود ، وكفرت به الطائفة الباقية ، فالنصارى أشياع الحواريين ، فما زالت الرحمة فيهم ، وأما اليهود فقلوبهم أقسى من الحجر. {ورهبانيةً ابتدعوها} من باب الاشتغال ، أي : وابتدعوا رهبانية ابتدعوها من عند أنفسهم. أو : معطوفة على ما قبلها ، أي : وجعلنا في قلوبهم رهبانيةً مبتدَعةً مِن عندهم ، أي : وقفيناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهابنية واستحداثها ، وهي : المبالغة في الرهبة بالعبادة ، والانقطاع عن الناس ، وهي منسوبة إلى الرَهْبان ، وهو الخائف ، فعلان من : رَهَبَ ، كخشيان ، من خشي. وقرئ بضم الراء ، نسبة إلى الرُّهْبان جمع راهب ، كراكب وركبان. وسبب ابتداعهم إياها : أنَّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى عليه السلام ، فقاتلوهم ثلاث مرات ، فقُتل المؤمنون حتى لم يبقَ منهم إلاَّ القليل ، فخافوا أن يفتونهم في دينهم ، فاختاروا الرهبانية في قُلَل الجبال ، فارين بدينهم ، مختلِّصين أنفسهم. انظر الثعلبي فقد نقله حديثاً.

}

(٣٣٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٧

ما كتبناها عليهم} أي : لم نفرضها عليهم ، ولكن نذروها على أنفسهم. ما فعلوا ذلك {إلاَّ ابتغاءَ رِضْوانِ الله} عليهم ، قيل : الاستثناء منقطع ، أي : ما كتبناها عليهم لكن فعلوها ابتغاء رضوان الله ، وقيل : متصل من أعم الأحوال ، أي : ما كتبناها عليهم في حال من الأحوال إلاّ ابتغاء الرضوان ، {فما رَعَوْها حقَّ رعايتها} كما يجب على الناذر رعاية نذره ؛ لأنه عهد مع الله ، لا يحلّ نكثه ، وقيل : في حق مَن أدرك البعثة فلم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم أي : فما رَعَوا تلك الرهبانية حقها ، حيث لم

يؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده قوله تعالى : {فآتينا الذين آمنوا منهم} إيماناً صحيحاً ، وهو الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم {أجرَهم} ما

٣٢٩

يخصهم من الأجر ، {وكثيرٌ منهم فاسقون} خارجون عن حد الاتباع ، كافرون بالله ورسوله.

الإشارة : كل زمان يبعث اللّهُ رُسلاً يدعون إلى الله ، وهم الأولياء العارفون ، خلفاء الرسل ، بالبينات الواضحة على ولايتهم ، لمَن سبقت له العناية ، وأنزلنا معهم الكتاب ، أي : الواردات الإلهية ، والميزان ، وهو إلهام اصطلاح التربية المناسبة لذلك الزمان ، فيزن بها أحوالَ المريدين ، ويعطي كل واحد ما يناسبه من الأوراد ، والأعمال ، والأحوال ، ليقوم الناس في أنفسهم بالقسط ، من غير إفراط ولا تفريط ، وأنزلنا الحديد ، إشارة إلى الجذب ، الذي في قلوب العارفين ، فيه بأس شديد ، يذهب العقول ، ومنافع للناس ، لأنه هو النور الذي يمشي به الوليّ في الناس ، إذ بذلك الجذب يجذب قلوبَ المريدين ، ومَن لم يكن له ذلك الجذب ، فلا يصلح للتربية ؛ لأنه ظاهري محض ، ولا بُد لهذا الجذب أن يصحبه سلوك في الظاهر ، وإلاَّ فلا يصلح أيضاً للتربية كالمصطلمين. خصّ هذا النور بأوليائه لِيعلم مَن ينصُر دينَه وسنةَ رسوله منهم ، بالغيب ، أي : مع غيب المشيئة عنهم ، فهم يجتهدون في نصر الدين ، وينظرون ما يفعل الله ، وما سبق به القدر ، وأمّا أمر الربوبية فهم في مقام العيان منها ، إنَّ الله قوي ، يُقوي قلوب المتوجهين ، عزيز يُعز من يجتهد في نصر الدين.

ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم ، خصّ هذين الرسولين ؛ لأنّ نوحاً عليه السلام كان في غاية القوة والشدة ، وإبراهيم كان في غاية الليونة ، وهكذا أولياء كل زمان ، بعضهم يميل للقوة جدّاً ، وبعضهم يميل للرطوبة ، فإذا أراد الله أن يُظهر طريقةً أ مِلةً جعل فيها هذين الضدين ، من الأولياء مَنْ يميل لليونة ومَنْ يميل للقوة ، ليعتدل الأمر في الوجود ، فإن انفرد صاحبُ القوة احترق الوجود ، أو غرق ، كما جرى في زمان نوح عليه السلام ، حين انفرد بالقوة ، وإن انفرد صاحب الليونة وقعت برودة في الدين ، كما وقع في زمن إبراهيم عليه السلام إذ لم تكن أمته كثيرة ، ولمّا اجتمعا في زمان موسى كثرت أتباعه ؛ لأنَّ موسى عليه السلام كان قوياً ، وهارون كان ليناً ، فكثرت أتباعه. وعظمت هذه المة المحمدية لدوام اجتماعهما في أمته ، فكان عليه الصلاة والسلام سهلاً ليناً ، وكان في مقابلته عمر من وزرائه قوياً صلباً في دين الله ، ثم استخلف أبو بكر على قدم الرسول صلى الله عليه وسلم فقابله عمر رضي الله عنه ، فلما استخلف عمر ولان ؛ قابله عليّ رضي الله عنه ، وهكذا كل طائفة كثرت أتباعها تجد فيها هذين الضدين. سبحان المدبِّر الحكيم ، الجامع للأضداد.

(٣٣٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٧

وقوله تعالى : {وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً} هي صفة المريدين المتوجهين ، ورهبانيةُ هذه الأمة : المساجد والزوايا ، كما في الحديث. وليس من شأن

٣٣٠

العارفين الانفراد في الجبال والفيافي ، إنما شأنهم خلط الناس وإرشادهم. قال الورتجبي : وصف الله تعالى هنا أهل السنة وأهل البدعة ، أهل السنة : أهل الرحمة والرأفة ، وأهل البدعة : أهل الرهبانية المبتدعة من أنفسهم. وصف الله قلوب المتمسكين بسنّة الأنبياء بالمودة والشفقة في دينه ومتابعة رسله ، فتلك المودة من مودة الله إياهم ، وتلك الرحمة من رحمة الله عليهم ، حيث اختارهم في الأزل ؛ لأنهم خلفاء الأنبياء ، وقادة الأمة ، ووصف المتكلفين الذي ابتدعوا رهبانية من أنفسهم ، مثل ترك أكل اللحم ، والجلوس في الزوايا للأربعين ، عن الإتيان إلى الجمعة والجماعات ، لأجل قبول العامة ، فإنهم ليسوا على الطريق المستقيم ، بل هم يتبعون شياطينهم ، الذي غوتهم في دينهم ، بل زيّنوا في قلوبهم المحالات والمزخافات ، وما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، ورضوان الله هو في الشريعة والطريقة الأحمدية صلى الله عليه وسلم. هـ. وقوله : " الأربعين "كان العبّاد ينذرون خُلوة أربعين يوماً ، فيتخلّفون عن الجمعة والجماعة ، والأمر كما قيل : إذا ثبت عدالة المرء فليترك وما فعل ، فهو أسلم. والله تعالى أعلم.

(٣٣٦/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٧

يقول الحق جلّ جلاله : {يأيها الذين آمنوا} بالرسل المتقدمة {اتقوا اللهَ} أي : خافوه {وآمِنوا برسوله} محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، المذكور في كتابكم ، {يُؤتِكم كِفْلَين} نصيبين {من رحمته} لإيمانكم بالرسول صلى الله عليه وسلم وبمَن قبله ، لكن لا بمعنى أن شريعتهم باقية بعد البعثة ، بل على أنها كانت حقاً قبل النسخ ، وإنما أعطى مَن آمن بنبينا كفلين مع بطلان شريعته ، لصعوبة الخروج عن الإلف والعادة ، {ويجعل لكم نوراً تمشون به} يوم القيامة ، كما سبق للمؤمنين في قوله : {يَسْعَى نُورُهُم...} [الحديد : ١٢] الخ ، {ويغفرْ لكم} ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ، {واللهُ غفور رحيم} ويؤيد هذا التأويل وأنَّ الخطاب لأهل الكتاب : قوله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي... " الحديث. وقيل : الخطاب للمؤمنين ، أي : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله فيما نهاكم عنه ، ودُوموا على إيمانكم ، يؤتكم كفلين...الخ ، ويؤيد هذا حديث الصحيحين : " مَثَلُ أهل الكتاب قبلنا كمثل رجل استأجر أُجراء يعملون إلى الليل على قيراط قيراط ،

فعملت اليهود
٣٣١
إلى نصف النهار ، ثم عجزوا ، ثم عملت النصارى إلى العصر ، فعجزوا ، ثم عملتم إلى الليل ، فاستوفيتم أجر الفريقين ، فقيل : ما شأن هؤلاء أقل عملاً وأعظم أجراً ؟ فقال : هي ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : ذلك فضلي أوتيه مَن أشاء ". قيل : لمّا نزل قوله : {أولئك يُؤتون أجرهم مرتين بما صبروا} افتخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنزل. {يا أيها الذين آمنوا...} الخ. ولمّا نزلت هذه الآية الكريمة في هذا الوعد الكريم للمؤمنين حسدتهم اليهود ، فأنزل الله : {لئلا يعلم أهل الكتاب ألاَّ يقدرون على شيء...} الخ ، أي : إنما خصصت المسلمين بذلك ليعلم أهل الكتاب أنه ، أي : الأمر والشأن لا يملكون فضل الله ، ولا يدخل تحت قدرتهم ، فـ " إن " مخففة ، واسمها : ضمير الشأن ، و(لا) مزيدة ، أي : ليعلم أهل الكتاب أنه لا يقدرون {على شيءٍ من فضل الله} ولا يملكونه ، حتى يخصوا به مَن شاؤوا ، {و} ليعلموا أيضاً {أنَّ الفضلَ بيد الله} في ملكه وتصرفه ، {يُؤتيه من يشاء} من عباده {واللّهُ ذو الفضل العظيم} لا نهاية لفضله. وعلى أنَّ الخطاب لأهل الكتاب يكون قوله : {لئلا يعلم أهل الكتاب} أي : مَن لم يؤمن منهم ، فيكون راجعاً لمضمون الجملة الطلبية ، المتضمنة لمعنى الشرط ، أي : {يا أيها الذين آمنوا} بموسى وعيسى {اتقوا الله وآمنوا برسوله} فإن فعلتم ذلك {يُؤتكم كفلين من رحمته...} الخ ، وإنما جَعلتُ هذا لمَن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا به أنهم لا يملكون من فضل الله شيئاً ، وأنَّ الفضل بيد الله... الخ.

(٣٣٧/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣١

الإشارة : تنسحب هذه الآية من طريق الإشارة على مَن كانت في أسلافه خصوصية ولاية ، أو صلاح ، أو شرف علم أو رئاسة مَّا ، ثم ظهرت التربية الحقيقية في غير أسلافه ، فإن حطّ رأسه وصَدّق بالخصوصية لغيره أعطي أجره مرتين ، وعظم قدره في مقام الولاية ، وإنما كانت تنتقل دولة الولاية ؛ ليعلم أهلُ الخصوصية المتقدمة أنّ الفضل بيد الله ، يُؤتيه مَن يشاء ، والله ذو الفضل العظيم. والله الموفق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلّى الله على سيدنا محمد ، وآله وصحبه ، وسلّم.
٣٣٢

(٣٣٨/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣١
سورة المجادلة

(٣٣٩/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٢
يقول الحق جلّ جلاله : {قد سَمِعَ اللّهُ قولَ التي تُجادِلُك} وهي خولة ، {في زوجها} أوس ، أي : تُراجعك الكلام في شانه ، وفيما صدر منه صدر منه في حقها مِن الظِّهار ، أو تسألك وتستفيتك. وقال الكواشي : " قد سمع " أي : عَلِمَ وأجاب قولها ، أي : دعاءها. وفي " قد " هنا معنى التوقُّ ؛ لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمرأة كانا يتوقعان أن يُنزل اللّهُ في مجادلتهما ما يفرج الله به عنهما. هـ. وقال الفخر : هذه الواقعة تدل على أنّ مَن انقطع رجاؤه من الخلق ، ولم يبقَ له في مُهمه أحدٌ إلاَّ الخالق ، كفاه الله ذلك المُهم. وقال القشيري : لمّا صدقت في شكواها إلى الله ، وأيِسَتْ مِن كشف ضُرِّها من غير الله ، أنزل الله
٣٣٣
في شأنها : {قد سمع الله...} ويقال : صارت قصتها فرجةً ورحمةً للمؤمنين إلى يوم القيامة ، في قضية الظهار ، ليعلم العالمون أنه لا يخسر على الله أحد. هـ.
ولمّا نزلت السورة بإثر الشكوى ، قالت عائشة رضي الله عنها : " ما أسمع الله " تعجُّباً من سرعة نزولها.
{وتشتكي إلى اللهِ} أي : تتضرع إليه ، وتُظهر ما بها من الكرب ، {واللّهُ يسمع تحاوَرَكما} مراجعتكما الكلام ، من : حاور إذا رجع. وصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع ، حسب استمرار التحاور وتجدُّده ، وفي نظمها في سلك الخطاب تشريفٌ لها. والجملة استئناف ، جار مجرى التعليل لِمَا قبله ، فإنّ إلحافَها في المسألة ، ومبالغتها في التضرُّع إلى الله تعالى ، ومدافعته صلى الله عليه وسلم إياها ، منبئٌ عن التوقف وترقُّب الوحي ، وعلمه تعالى بحالهما من دواعي الإجابة ، أي : قد سمع قول المرأة وأجاب طلبتها ؛ لأنه يسمع تحاوركما. وقيل : هو حال ، وهو بعيد. {إنَّ الله سميع بصير} تعليل لِما قبله ، أي : مُبالغ في العلم بالمسموعات والمبصرات ، ومِن قضيته : أن يسمع تحاوركما ، ويرى ما يقارنه من الهيئات ، التي مِن جملتها : رفع رأسها إلى السماء ، وإثارة التضرُّع ، وإظهار الاسم الجليل في الموضعين لتربية المهابة ، وتعليل الحكم بوصف الألوهية ، وتأكيد الجملتين.
الإشارة : قد سمع الله قولَ الروح ، التي تُجادل في شأن القلب ؛ لأنه مقرها ومسكنها ، إن صلح

صلحت ، وإن فسد بحب الدنيا ومتابعة الهوى ، فسدت ، فهي تُجادل رسولَ الإلهام وتشتكي إلى الله من القلب الفاسد ، والله يسمع تحاورهما وتضرعَها إن صدقت في طلب الحق ، فيُجيب دعاءها ، ويُقيض لها طبيباً يُعالجه ، حتى ترجع لأصلها منه ، إنّ الله سميعٌ بصير.

(٣٤٠/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٣

يقول الحق جلّ جلاله : {وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ} وأصله : يتظهرون ، فأدمغت التاء في الظاء ، وقرأ عاصم : بضم الياء وتخفيف الظاء ، مضارع ظاهر ؛ لأنّ كل واحد يباعد

صاحبه ، وقرأ ابن عامر والأخوان وأبو جعفر وخلف بفتح الياء وشد الظاء بالمد ، مضارع " تظاهر " ، والحاصل في فعل الظهار ثلاث لغات : ظاهر وتظاهر وتظهر ، مأخذة من الظهر ؛ لأنه يُشَبِّه امرأته بظهر أُمه ، ولا مفهوم للظهر ، بل كل جزء منها مثل الظهر. وفي قوله : {منكم} توبيخ للعرب ، لأنه كان من أيْمان الجاهلية خاصة ، دون سائر الأمم ، {مِن نسائهم} من زوجاتهم ، {ما هن أمهاتِهم} : خبر الموصول ، أي : ليسوا بأمهاتهم حقيقة ، فهو كذب محض ، {إِنْ أمهاتُهم} حقيقة {إلاّ اللائي وَلَدنَهُمْ} مِن بطونهن ، فلا تشبّه بهن في الحرمة إلاّ مَن ألحقها الشرع بهن من المرضعات وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فيدخلن بذلك في حكم الأمهات ، وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة.
{وزُوراً} كذباً باطلاً ، منحرفاً عن الحق ، {وإنّ الله لعفوٌّ غفور} لما سلف منهم.
ثم ذَكَر الحُكم بعد بيان إنكاره ، فقال : {والذين يَظَّهرون مِن نسائهم ثم يعودون لِما قالوا} أي : والذين يقولون ذلك القول المُنكَر ، ثم يعودون إلى ما قالوا بالتدارك والتلافي ورفع التضرُّر ، أو : لِنقيض ما قالوا : قال ابن جزي : في معنى العود ستة أقوال : الأول : إيقاع الظِّهار في الإسلام ، فالمعنى أنهم كانوا يُظاهرون في الجاهلية ، فإذا فعلوه في الإسلام فذلك عود إليه ، هذا قول ابن قتيبة ، فتجب الكفارة عنده بنفس الظِّهار ، بخلاف أقوال غيره ، فإنَّ الكفارة لا تجب إلاّ بالظهار والعود معاً. القول الثاني : إنّ العود هو وطء الزوجة ، رُوي ذلك عن مالك ، فلا تجب الكفارة على هذا حتى يطأ ، فإذا وطئها وجبت عليه الكفارة ، أمسك الزوجةَ أو طلّقها ، أو ماتت. الثالث : إنَّ العَوْد هو العزم على الوطء ، ورُوي هذا أيضاً عن مالك ، فإذا عزم على الوطء وجبت الكفارة ، أمسك ، أو طلَّق ، أو ماتت. الرابع : إن العود هو العزم على الوطء والإمساك ، وهذا أصح الروايات عن مالك. الخامس : إنه العزم على الإمساك خاصة ، وهذا مذهب الشافعي ، فإذا ظاهر ولم يُطَلِّقها بعد الظِّهار لزمته الكفارة. السادس : إنه تكرار الظهار مرة أخرى ، وهذا مذهب الظاهرية ، وهو ضعيف ، لأنهم لا يرون

الظِّهار موجباً حكماً في أول مرة ، وإنما يُوجبه في الثانية ، وإنما نزلت فيما ظاهر أول مرة ، فذلك يرد عليهم ، ويختلف معنى " لِما قالوه " باختلاف هذه الأقوال ، فالمعنى : يعودون للوطء الذي حرَّموه ، أو للعزم عليه ، أو للإمساك الذي تركوه ، أو للعزم عليه. هـ.
}

(٣٤١/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٢
فتحريرُ رقبةٍ} أي : فتداركه ، أو فعليه ، أو فالواجب تحرير رقبة. واشترط مالك والشافعي أن تكون مؤمنة ، حملاً للمُطْلَق على المقيد ؛ لأنه قيّدها في القتل بالإيمان ، والفاء للسببية ، ومِن فوائدها : الدلالة على تكرُّر وجوب التحرير بتكرُّر الظهار. {مِن قبل أن يتماسا} أي : المظاهِر والمظاهَر منها ، ومذهب مالك والجمهور : أن المسّ هنا يُراد به الوطء ، وما دونه من اللمس والقُبلة ، فلا يجوز للمظاهِر أن يفعل شيئاً من ذلك حتى
٣٣٥
يُكفِّر ، فإن فعل شيئاً من ذلك تاب ولا يعود. وقال الحسن والثوري : أراد الوطء خاصة ، فأباحا ما دونه من قبل الكفارة. {ذلكم} الحُكم {تُوعظون به} لأنَّ الحُكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية ، فيجب أن تتعظوا بهذا الحُكم حتى لا تعودوا إلى الظهار ، وتخافوا عقابَ الله عليه ، {واللهُ بما تعملون خبيرٌ} مُطَّلِع على ما ظهر مِن أعمالكم ، التي مِن جملتها الظاهر.
{فمن لم يجد} الرقبة {فصيامُ شهرين} أي : فعليه صيام شهرين {مُتتابعين مِن قبل أن يتماسا} فإنْ أفسده باختياره من أوله باتفاق ، وإن أفسده بعذر ، كمرض أو نسيان ، فقال مالك : يبني على ما كان معه ، في رواية عنه ، وقال أبو حنيفة : يبتدئ ، ورُوي القولان عن الشافعي. {فمَن لا يستطعْ} الصيام {فإِطعام ستين مسكيناً} بمُدّ هشام على مذهب مالك. واختلف في قدره ، فقيل : إنه مدان غير ثلث بمُد النبي صلى الله عليه وسلم وقيل : إنه مُد وثلث ، وقيل : إنه مُدان ، وبه قال أبو حنيفة ، وقال الشافعي وابن القصار : يُطعم مُدّاً بمُد النبي صلى الله عليه وسلم لكل مسكين ، ولا يجزئه إلاّ كمالُ الستين ، فإنْ أطعم مسكيناً واحداً ستين يوماً لم يجزه عند مالك والشافعي ، خلافاً لأبي حنيفة ، وكذلك إن أطعم ثلاثين مرتين ، والطعام يكون من غالب قوت البلد.
وذكر الحق جلّ جلاله : {من قبل أن يتماسا} في العتق والصوم ، ولم يذكره في الإطعام ، فاختلف العلماءُ في ذلك ، فَحَمل مالك الإطعامَ على ما قبله ، ورأى أنه لا يكون إلاّ قبل المسيس ، وجعل ذلك مِن المُطْلَق الذي يُحمل على المقَيد. وقال ابو حنيفة : يجوز للمظاهِر إذا كان من أهل الإطعام أن يطأ

قبل الكفارة ؛ لأن الله لم ينص في الإطعام أنه قبل المسيس ، وقال الشافعي : يجب تقديمه على المسيس ، لكن لا يستانف إن مسّ في حال الإطعام. وجعل الأطعام. وجعل الحق جلّ جلاله كفارة الظهار مُرتّبة ، فلا ينتقل عن الأول حتى يعجز عنه ، ومثلها كفارة القتل والتمتُّع ، وقد نظم بعضهم أنواع الكفارات ، ما فيه الترتيب وما فيه التخيير ، فقال :

(٣٤٢/٧)

خيِّرْ بصوم ثم صيد وأذى

وقل لكل خصلةٍ يا حبذا

ورتّب الظهار والتمتعا

والقتل ثم في اليمين اجتمعا

{ذلك لتؤمنوا} الإشارة إلى ما مرّ من البيان والتعليم للأحكام ، ومحله رفع أو نصب ، أي : ذلك واقع ، أو فصّلنا ذلك لتؤمنوا {بالله ورسولِه} وتعملوا بشرائعه التي شرعها لكم ، وترفُضوا ما كنتم عليه في جاهليتكم ، {وتلك} أي : الأحكام التي وصفنا في الظِهار والكفارة ، {حدودُ الله} التي لا يجوز تعدّيها ، {وللكافرين} أي : الذين لا يعملون بها {عذابٌ أليم} عبّر عنه بالكفر تغليظاً على طريق : {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران : ٩٧].

٣٣٦

الإشارة : الذين يباعدون من أنفسهم ، فيُحرِّمون عليها التمتُّع بما أحلّ الله من الطيبات ، تضييقاً وتشديداً عليها ، مفْرطين في ذلك ، محتجين لذلك بأنهم كانوا في بطن الشهوات ، فقد ملكتهم ملك الأم لولدها ، قال تعالى : " ما هن أمهاتِهم إنْ أُمهاتهم إلاّ اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون مُنكراً من القول وزوراً " حيث حرّموا ما أحلّ الله ، والمراد بذلك الإفراط المؤدي إلى التلف. قال القشيري : لأنّ النفس مطية الروح ، فلا تسلك طريق السير إلاّ بها ، وهي مددها ومعونتها ، كما قال عليه السلام : " إنّ لنفسك عليك حقاً " فلا بد للروح من مسامحة النفس ومداراتها في بضع الأوقات ، لتميل النفس إلى تصرفها وحكمها فيها ، وإلاّ ضعفت وَكَلَّت عن موافقتها ، فتنقطع الروح عن السلوك إلى الله.هـ.

قلت : وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يكن أحدكم كالمنبت ، لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى " {وإن الله لعفو غفور} لمَن وقع له شيء من هذا ورجع.

والذين يُظاهرون من نسائهم ، يُباعدون من أنفسهم ، ثم يعودون إلى الترفُّق بها والاستمتاع بما أحلّ الله لها ، فكفارته تحرير رقبةً مِن ملك الشهوة ، فلا يتناول شيئاً من المباحات الطيبة ، إلاّ بنية التقرُّب إلى

الله والشكر ، لا بنية مجرد الاستمتاع ، ولا يتناول من الشهوات التي شرهت إليها النفس ، وحرصت على تحصيلها قبل حصولها ، شيئاً قط ، فإن لم يقدر عليها على هذا النمط ، فعليه صيام شهرين أو أكثر ، مجاهدةً ورياضةً ، حتى تقف على حد الضرورة ، فإن لم يتسطع فإطعام ستين مسكيناً أو أكثر ، بكل ما يدخل عليه من الحظوظ. وقال القشيري : وإن لم يقدر على تحرير رقبته على هذا الارتباط ؛ فيجب على الروح أن تصوم شهرين متتابين ، يعني يمسك نفسَه عن الالتفات إلى الكونين على الدوام والاستمرار ، من غير تخلُّل التفات ، وإن لم يتمكن مِن قطع هذا الالتفات ، لبقية من بقايا أنانيته ، فيجب عليه إطعام ستين مسكيناً من مساكين القوى الروحانية ، المستهلك لسلطنة النفس وصفاتها ، ليقيمهم على التخلُّق بالأخلاق الإلهية ، والتحقق بالصفات الروحانية ، هـ. ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله الإيمان الكامل ، وتلك حدود الله لا يجوز تعدِّيها بالأهوية والبدع ، وللكافرين لهذه الحِكم عذاب البُعد ونار القطيعة ، المؤلم للروح والقلب ، بغم الحجاب وسوء الحساب.

(٣٤٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٢

يقول الحق جلّ جلاله : {إنَّ الذين يُحادون اللّهَ ورسولَه} أي : يُعادونهما ويُشاقونهما ؛ فإنَّ كُلاًّ من المتعادين في عدوةٍ وشِقٍّ غير الآخر ، وكذلك يكون كُلُّ واحدٍ منهما في حدّ غير حدّ الآخر ، غير أنَّ لذكر المُحادَّة هنا لمّا ذكر حدود الله مِن حسن الموقع ما لا غاية وراءه. ثم أخبر عنهم فقال : {كُبِتُوا} أي : أُخذوا وأُهلكوا ، أو : لُعنوا {كما كُبِتَ الذين من قبلهم} من كُفار الأمم الماضية المعادين للرسل عليهم السلام. وقال القشيري : يُحادّون : يُخالفون أمر الله ، ويتركون طاعة رسول الله ، أذِلُّوا وأُخْزوا كما أُذِلَّ مَنْ قبلهم من الكفار والعصاة. نزلت في المستهزئين يوم ا لخندق ، إذ الله أجرى سُنته بالانتقام من أهل الإجرام ، ومَن ضيَّعَ لرسول الله سُنةً واحدة في دينه ببدعة انخرط في سلك هذا الخزي ، ووقع في هذا الذُّل. هـ. وقال ابن عطية : الآية نزلت في المنافقين واليهود ، وكانوا يتربصون بالرسول والمؤمنين الدوائر ، ويتمنون فيهم المكروه ، ويتناجون بذلك. هـ.

{وقد أنزلنا آياتٍ بيناتٍ} : حال من ضمير "كُبتوا " أي : كُبتوا بمحادتهم ، والحال أنَّا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حاد الله ورسولَه ، ممن قبلهم من الأمم وفيما فعلنا بهم ، أو : آيات على صدق الرسول وصحة ما جاء به ، {وللكافرين} بهذه الآيات ، أو : بكل ما يجب الإيمان به ، فيدخل فيه تلك الآيات دخولاً أوليّاً ، {عذابٌ مهين} يذهب بعزّهم وكِبْرهم.

واذكر {يومَ يبعثهم اللهُ جميعاً} أو : لهم ذلك العذاب {يومَ يبعثهم اللهُ جميعاً} أي : لا يترك أحداً منهم ، أو مجتمعين في حال واحد وصعيدٍ واحد ، {فيُنَبئهم بما عمِلوا} من القبائح ، تخجيلاً لهم ، وتشهيراً

لحالهم ، وتشديداً لعذابهم ، فيتمنون حينئذ المسارعة إلى النار ، لِما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ، {أحصاه اللهُ} أحاط به عدداً ، لم يفته منه شيء ، والجملة استئناف بياني ، كأنه قيل : كيف ينبئهم بما عملوا ، وهي أعراض مُنقضية متلاشية ، فقيل : {أحصاه اللهُ ونَسُوه} أي : قد نسوه لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه وإنما تحفظ معظّمات الأمور. وهو حال أيضاً. {واللهُ على كل شيءٍ شهيدٌ} لا يغيب عنه شيء. والجملة اعتراض تذييلي ، مقرِّرة لإحصائه تعالى.

(٣٤٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٧

ثم استشهد على شمول شهادته تعالى ، فقال : {ألم تَرَ أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض} فهو كقوله تعالى : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ} [البقرة : ٢٥٨] ، {أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ} [الشعراء : ٢٢٥] أي : ألم تعلم علماً مزاحماً

٣٣٨

للمشاهدة أنَّ الله يعلم ما استقر في السماوات وما في الأرض من الموجودات ، {ما يكونُ من نجْوَى ثلاثةٍ} : استئناف مُقَرِّر لِما قبله مِن سعة علمه تعالى ، ومُبَيّن لكيفيته ، و "كان" تامة ، أي : ما يقع من تناجي ثلاثة نفر في مسارّتهم {إلاَّ هو} أي : الله تعالى {رابعُهم} أي : جاعلهم أربعة من حيث إنه تعالى يُشاركهم في الاطلاع عليها ، {ولا خمسةٍ} أي : ولا نجوى خمسة {إلاّ هو سادسُهم ولا أدنَى} ولا أقل {من ذلك ولا أكثرَ إلاّ هو معهم} يعلم ما يتناجون به ، فلا يخفى عليهم ما هم فيه. وتخصيص العددين إما لخصوص الواقعة ، فإنّ الآية نزلت في المنافقين ، وكانوا يتناجون مغايظةً للمؤمنين على هذين العددين ، وقيل : المعنى : ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة ولا أدنى من عددهم ولا أكثر ، إلا والله معهم ، يسمع ما يقولون ، ولأنّ أهل التناجي في العادة طائفة من أهل الرأي والتجارب ، وأول عَدَدهم الاثنان فصاعداً ، إلى خمسة ، إلى ستة ، إلى ما اقتضته الحال ، فذكر عزَ وجل الثلاثة والخمسة ، وقال : {ولا أدنى من ذلك} فدلّ على الاثنين والأربعة ، وقال : {ولا أكثرَ} فدلّ على ما فوق هذا العدد. قاله النسفي.

{ثم يُنبِّئُهم} يُخبرهم {بما عَمِلوا} تفضيحاً وإظهاراً لِما يوجب عذابهم. {إنّ الله بكل شيء عليم} لأنَّ نسبة ذاته المقتضية للعلم إلى الكل سواء ، فلا يخلو منه زمان ولا مكان.

الإشارة : في الحديث : " مَن عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب " فمَن حادّ أولياءَ الله فقد حادّ الله ورسولَه ، فيُكبت كما كُبِتَ مَن قبله ممن اشتغل بإذايتهم ، وقد أنزلنا آيات واضحات على ثبوت الولاية في كل زمان ، قال تعالى : {مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَا} [البقرة : ١٠٦] ،

وللكافرين الجاحدين لخصوصيتهم عذاب مهين ، وهو البُعد والطرد وغم الحجاب وسوء الحساب. يوم يبعثهم الله جميعاً ، أي : أهل الإنكار ، فيُنبئهم بما عملوا من الانتقاد والإذاية ، أحصاه اللّهُ ونسوه ، لأنهم يعتقدون أنهم في ذلك على صواب ؛ لجهلهم المُرَكَّب ، فإذا تناجوا في شأنهم بما يسؤوهم فيقال في حقهم : {ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلاّ هو رابعهم...} الآية. قال القشيري : {إنّ الذين يُحادون الله ورسولَه} ، يعني : يُحادون مظاهر الله ، وهم الأولياء المحققون ، العارفون القائمون بأسرار الحقائق ، ومظاهر رسول الله ، وهم العلماء العاملون ، القائمون بأحكام الشرائع ، كُبتوا : أُفحموا بالحُجج وإظهار البراهين من الكرامات الظاهرة ، وخرق العادات الباهرة ، أو نشر العلوم الشريعة ، ونشر الأحكام الفرعية ، وقد أنزلنا بصحة ولايتهم ، وقوة وراثتهم ، علامات ظاهرة ، ودلالات زاهرة ، من المشاهدات والمعاينات ، أو الحجج القاطعة

٣٣٩

والبراهين الساطعة ، ومن ستر أنوار ولايتهم ، وآثارَ وراثتهم ، بساتر إنكاره ، فله عذاب القطيعة والفضيحة مع إهانة من غير إبانة هـ. ببعض البيان.

(٣٤٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٧

قال الورتجبي : قوله تعالى : {إلا هو معهم} المعية بالعلم عموم ، وبالقرب خصوص ، والقرب بالعلم عموم ، وبظهور التجلِّي خصوص ، وذلك دنو {دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى} ، فإذا ارتفع الأين والبين والمكان والجهات ، واتصل أنوارُ كشوف الذات والصفات بالعارف ، فذلك حقيقة المعية ، إذ هو سبحانه مُنزّه عن الانفصال والاتصال بالحدث. ولو ترى أهل النجوى ، الذين مجالستهم لله وفي الله ، لترَى من وجوههم أنوار المعية ، أين أنت من العلم الظاهر ، الذي يدل على الرسوم. ألم تعلم أنَّ علمه تعالى أزلي ، وبالعلم يتجلّى للمعلومات ، فالصفات شاملة على الأفعال ، ظاهرة من مشاهد الملعومات ، فإذا كان الذرات لا تخلو من قرب الصفات ، كيف تخلو عن قرب الذات الأرواحُ العالية المقدّسة العاشقة المستغرقة في بحر وُجوده ، لا تظن في حقي أني جاهل بأنّ القديم لا يكون محل للحوادث ، فإنه حديث المُحدَثين ، أعبرْ من هذا البحر حتى لا تجد الحدثان ولا الإنسان في مشاهدة الرحمان هـ.

قلت : وحاصل كلامه : أنَّ المعيّة بالعلم تستلزم المعية بالذات ، إذا الصفة لا تفارق الموصوف ، وإنَّ بحر الذات اللطيف محيط بالكثيف منه من غير انفصال ، وأما كون القديم لا يكون محل الحوادث فصحيح ، لكن الحوادث عندنا فانية متلاشية ، إذ ما ثَمَّ إلا تلوينات الخمرة الأزلية ، وقد قال الجنيد :

" إذا قرن الحادث بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم " ، فاعبُرْ عن عالَم الحس إلى بحر المعاني ، حتى لا تجد إلاَّ القديم الأزلي ، فافهم وسلِّم.

إن لم ترَ الهلالَ فسَلِّم

لأناس رأوه بالأبصار

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٧

يقول الحق جلّ جلاله : {ألم تَرَ إِلى الذين نُهوا عن النجوى ثم يعودون لنما نُهوا عنه} نزلت في اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون فيما بينهم ، ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين ، يريدون أن يغيظوهم ، فنهاهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فعادوا لمثل فعلهم. والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. والهمزة للتعجيب مِن حالهم ، وصيغة المضارع للدلالة على تكرير عودهم وتجدُّده ، واستحضار صورته العجيبة. وفي السِّيَر : أنه أمر بإخراجهم من المسجد ،

٣٤٠

فأُخرجوا مجرورين ، كما في الاكتفاء. {ويتناجون بالإِثم والعُدوان} أي : بما هو إثم في نفسه وعدوان للمؤمنين ، {ومعصيتِ الرسول} أي : وتواصٍ بمعصية الرسول. وذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهيْن إليه عليه السّلام لزيادة تشنُّعهم واستعظام معصيتهم ، {وإِذا جاؤوا حَيَّوكَ} أي : سلَّموا عليك {بما لم يُحَيِّك به اللهُ} بما لا يُسلم عليك الله تعالى ، فكانوا يقولون في تحيتهم : السام عليك يا محمد. والسام : الموت ، والله تعالى يقول في سلامه على رسوله : {وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} [النمل : ٢٩] {وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} [الصفات : ١٨١]. {ويقولون في أنفسِهم} أي : فيما بينهم ، أو في ضمائرهم ، {لولا يُعذبُنا اللّهُ بما نقول} هلاّ يُعذبنا الله بذلك ، فلو كان نبيّاً لعاقبنا بالهلاك ، قال تعالى : {حَسْبُهم} عذاباً {جهنمُ يصلونها} يدخلونها فيحترقون فيها ، {فبئس المصيرُ} المرجع جهنم.

الإشارة : ألم ترَ إلى الذين نُهوا عن الوقوع في أهل الخصوصية ، والتناجي بما يسؤوهم ثم يعودون لما نُهوا عنه ، ويتناجون بالإثم والعدوان ، وما فيه فساد البين وتشتيت القلوب ، ومعصية الرسول بمخالفة سنته ، وإذا جاؤوك أيها العارف ، الخليفة للرسول ، حيَّوك بما لم يُحيك به الله ، أي : خاطبوك بما لم يأمر الله أن تُخاطَب به من التعظيم ، ويقولون في أنفسهم ، لولا يُعذبنا الله بن نفعل من تصغيرهم ، حسبهم نار القطيعة والبُعد ، مُخلّدون فيها ، فبئس المصير.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٠

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم} في أنديتكم وفي خلواتكم {فلا تتناجَوا بالإثم والعدوانِ ومعصيتِ الرسول} كفعل هؤلاء المنافقين ، {وتناجَوا بالبِرِّ والتقوى} أي : بما تضمن خير المؤمنين ، والاتقاء عن معصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو : بأداء الفرائض وترك المعاصي ، {واتقوا اللهَ الذي إليه تحشرون} فيُجازيكم بما تتناجون به من خير أو شر ، {إنما النجوى} المعهودة التي هي التناجي بالإثم والعدوان ، {من الشيطان} لا من غيره ، فإنه المزيِّن لها والحامل عليها {لِيَحْزُنَ} بها {الذين آمنوا} بتوهيمه أنها في نكبةٍ أصابتهم ، أو أصابت إخوانهم ، او في الاشتغال بثلْمهم وتنقيصهم. ولهذا نهى الشارع أن يتناجى اثنان دون الثالث ، لئلا يتوهم أنهم يتكلمون فهي. قال تعالى {وليس بضارَّهم} أن يتناجى اثنان دون الثالث ، لئلا يتوهم أنهم يتكلمون فهي. قال تعالى {وليس بضارِّهم} أي : وليس الشيطان أو الحزن بضارهم {شيئاً} من الأشياء ، أو شيئاً من الضرر {إلاّ بإذن الله} بمشيئته ، {وعلى الله فلتوكل المؤمنون} فلا تُبالوا بنجواهم ، فإنَّ الله تعالى يعصمهم

٣٤١

من شره وضرره ، فيلكلوا أمرَهم إلى الله ، ويتعوّذوا من شر الشيطان ، فإنَّ كيده ضعيف.

قال القشيري : إنما قَبُحَ التناجي منهم ، وعَظُمَ خطره ؛ لأنه تضمَّن فسادَ ذات البيْن ، وخيرُ الأمور ما عاد بإصلاح ذات البيْن ، وبعكسه يكون الأمر بالضد ، يعني : فيعظم خطر التناجي بالبر والتقوى ، وبما يقرب إلى الله. ثم قال : إذا كانت المشاهدة غالبةً ، والقلوب حاضرةً ، والتوكل صحيحاً ، والنظرُ في موضعه صائباً ، فلا تأثير لهذه الحالات ، أي : لحزن الشيطان وتوهيمه وإضراره ، وإنما هذا للضعفاء. هـ.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم مع قلوبكم وأسراركم فلا تتناجوا بالإثم ، وهو تدبير أمر الدنيا وشؤونها ، بل غيبوا عنها يأتيكم نصيبكم منها ، مع الفوز بالحضور مع الله ، ولا تتناجوا بالعدوان ، وهو شغل القلب بأمر الخلق ، دفعاً وجلباً ، ضرّاً ونفعاً ، إذ ليس بيدهم شيء ، ومعصية الرسول ، وهو إضمار ترك السُنة ، أو مخالفة أمر المشايخ ، وتَناجَوا بالبر ، وهو الفكرة في عظمة الله ، والتقوى ، وهو الغيبة عما سوى الله بِحَصر القلب عن الخروج من الحضرة ، واتقوا الله بترك ما سواه ، الذي إليه تُحشرون فيُدخلكم في مقعد صدق عند مليك مقتدر. إنما النجوى ، أي : الفكرة في الدنيا ، من الشيطان ؛ لأنّ له بيتاً في القلب لجهة الشمال ، إذا ذكر الله انخنس ، وإذا غفل القلب وسوس بهموم الدنيا ، لِيَحْزُن الذين آمنوا ؛ ليكدر عليهم وقتهم ، وليس بضارِّهم شيئاً إذا قَوِيَ نور الإيمان إلاّ بإذن الله ومشيئته ، فلا تسليط له من نفسه. وليس بضارِّهم شيئاً إذا قَوِيَ نور الإيمان إلاّ بإذن الله ومشيئته ، فلا تسليط له من نفسه. وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، فإذا صحّ توكلهم حَفِظَهم منه ، لقوله تعالى :

{إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل : ٩٩] ، وقد تقدّم عن القشيري : أنّ الأقوياء لا يلحقهم شيء من حزنه وإضراره. وبالله التوفيق.

(٣٤٨/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤١

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذينَ آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجلس} [المجادلة : ١١] أي : توسَعوا فيه ، وقيل : " في المجلس " متعلق بقيل ، أي : إذا قيل لكم في المجلس تفسّحوا فافسحوا ، والمراد : مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يتضامُّون فيه تنافساً فيه صلى الله عليه وسلم وحرصاً على استماع كلامه. وقرأ عاصم " مجالس " أي : في مجالس الرسول التي تجلسونها. وقيل : المراد : مجالس القتال ، وهي مراكز الغزاة ، كقوله تعالى : {مَقَاعِدَ

٣٤٢

لِلْقِتَالِ} [آل عمران : ١٢١] قيل : كان الرجل يأتي الصف ، فيقول : تفَفسَّحوا ، فيأبَوا ، لحرصهم. والأول أنسب بذكر النجوى أولاً وثانياً. فإن امتثلتم وتفسحتم {يَفْسَحِ اللهُ لكم} في كل ما تريدون التفسُّح فيه ، من الرزق ، والدار ، والصدر ، والقبر ، والجنة ، والعلم ، والمعرفة. {وإذا قيل انشُزُوا} أي : ارتفعوا من مجلسه ، وانهضوا للصلاة ، أو الجهاد ، أو غيرهما من أعمال البر ، أو : انشزوا للتوسعة في المجلس على المقبِلين ، {فانشُزُوا} أي : فانهضوا ولا تُبطِئوا ، وقيل : كانوا يُطيلون الجلوس معه صلى الله عليه وسلم وربما جلس قوم حتى يؤمروا بالقيام ، فأُمروا بالقيام وعدم التثقيل. وفي مضارع " نشز " لغتان الضم والكسر ، والأمر تابع له.

{يَرْفَعِ اللّهُ الذين آمنوا منكم} بامتثال أوامره وأَمْرِ رسوله ، بالنصر وحسن الذكر في الدنيا ، والإيواء إلى غرف الجنان في الآخرة. {و} يرفع {الذين أُوتوا العلمَ} خصوصاً {درجاتٍ} عالية ، بما جمعوا من أثريْ العلم والعمل ، فإنّ العلم مع علو رتبته يزيد مع العمل رفعةً لا يُدرك شأوها ، بخلاف العلم العاري عن العمل ، وإن كان له شرف في الجملة ، ولذلك يُقتدى بالعالِم في أفعاله فقط. وفي هذه الدرجات قولان ، أحدهما : في الدنيا ، في الرتبة والشرف والتعظيم ، والآخر : في الآخرة ، وهو أرجح. وعن ابن عباس رضي الله عنهما : " يرفع العالم فوق المؤمن سبعمائة درجة ، بين كل درجة كما بين السماء والأرض " ، ومثل هذا لا يُقال بالرأي. وتقدير الآية : يرفع الله الذي آمنوا منكم درجةً ، والذين أُوتوا العلم درجات ، وقيل : " درجات " يرجع لهما معاً ، وتفضيل أهل العلم يؤخذ من خارج.

(٣٤٩/٧)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه كان إذا قرأها قال : " يا أيها الناي افهموا هذه الآية ، ولترغبكم في العلم ". وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدرعلى سائر الكواكب " ، وعنه صلى الله عليه وسلم : " عبادة العالم يوماً واحداً تعدل عبادة العابد أربعين سنة " يعني الجاهل ، وعنه صلى الله عليه وسلم : " يشفعُ يومَ القيامة ثلاثةٌ : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء " ، فأَعْظِم بمرتبةٍ هي واسطة بين النبوة والشهادة ، بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشمل الحديث العلماء بالله وبأحكام الله ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : خُيِّر سليمان عليه السلام بين العلم والمال والمُلك ، فاختر العلم ، فأعطى المالَ والمُلكَ معه. وقال صلى الله عليه وسلم : " أوحى اللّهُ إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم إني عليم ، أُحب كل عليم

" وعن بعض الحكماء : ليت شعري أيّ شيءٍ أدرك مَن فاته العلم ؟ وأيّ شيءٍ فات مَن أدرك العلم ؟ والعلوم أنواع ، وشرفها باعتبار المعلوم ، فأفضل العلوم : العلم بالذات العلية ، على نعت الكشف والعيان ، ثم العلم بالصفات والأسماء ، ثم العلم بالأحكام ، ثم العلم بالآلات الموصلة إليه.
{واللهُ بما تعملون خبير} تهديد لمَن لم يمتثل الأمر. والله تعالى أعلم.
الإشارة : ما قيل في مجلس العِلم يُقال في مجلس الوعظ ، بل هو عينه ؛ لأنه العلم النافع ، فإذا قَدِمَ واحدٌ من الفقراء أو غيرهم لمجلس الشيخ ، فوجد فُرجة جلس فيها ، وإلاّ جلس خلف الحلقة ، ولو مع النعال ، فلا يُزاحم ولا يُقم أحداً ليجلس ، إلاّ أن يأمره الشيخ بالتقدُّم لمنفعة فيه في إعانة الشيخ ، فليتقدّم برفق ولطافة وأدب. وإذا قيل لأهل المجلس : تفسَّحوا فليتفسَّحوا ، يفسح الله لهم في العلم والعرفان ، والأخلاق والوجدان ، والمقامات ، وسائر ما يطلب التوسُّع فيه. وإذا قيل : انشُزُوا لصلاة أو خدمة أو ملاقاة ، فانشُزُوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم ، وليس فيهم أهلية لصريح المعرفة درجةً عن العامة ، حيث صَحِبُوا العارفين للتبرُّك والحُرمة. ويرفع الذين أُتوا العلم بالذات ، على سبيل الكشف والعيان ، درجات ، سبعمائة درجة ، على العالم صاحب الدليل والبرهان ، فيرفع العالِم فوق الجاهل سبعمائة درجة ، ويرفع العارف فوق العالِم سبعمائة. فالناس أربع طبقات : الطبعة العيا الأولياء والعارفون بالله ، ثم العلماء ، ثم الصالحون ، ثم عامة المؤمنين. والمراد بالأولياء مَن منَّ اللّهُ عليه بملاقاة شيخ التربية ، حتى دخل مقام الفناء والبقاء ، زاح عنه حجاب الكائنات ، وأفضى إلى شهود المكوِّن ، فهؤلاء هم المقرَّبون الصدِّيقون ، والمراد بالعلماء العاملون المخلِصون.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٢

قال في " لطائف المنن " : وحيثما وقع العِلم في كتاب الله عزّ وجل ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما المراد به النافع ، المخمِد للهوى ، القامع للنفس ، الذي تكتنفه الخشية ، وتكون معه الإنابة ، قال الله تعالى : {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاؤُاْ} [فاطر : ٢٨] ، فلم يجعل عِلم مَن لم يخشَ من العلماء علماً ، فشاهد العلم الذي هو مطلوب الله : الخشية ، وشاهد الخشية : موافقة الأمر ، وأمّا عِلم مَن يكوم معه الرغبة في الدنيا ، والتملُّق لأربابها ، وصرف الهمة لاكتسابها ، والجمع والإدخار ، والمباهاة والاستكثار ، وطول الأمل ونسيان الآخرة ، فما أبعد مَن هذا وصفه من أن يكون من ورثة الأنبياء عليهم السلام ، وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلاّ بالصفة التي كان بها عند الموروث ، ومثَلُ من هذه الأوصاف وصفُه كمَثَل الشمعة تُشيء على غيرها وهي تحرق نفسها ، جعل الله عِلمَ مَن هذا وصفه حجة عليه ، وسبباً في تكثير العقوبة لديه ، ولا يغرنك أن يكون به انتفاع للبادي والحاضر ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ الله يؤيدُ هذا الدين بالرجل الفاجر " ، ومثَلُ مَن

٣٤٤

تعلّم العلم لاكتساب الدنيا ، وتحصيل الرفعة بها ، كمثل مَن رفع العذرة بملعقة من ياقوت ، فما أشرف الوسيلة ، وما أخس المتوسل إليه! ومثَلُ مَن قطع الأوقات في طلب العلم ، فمكث أربعين سنة يتعلّم العلم ولا يعمل به ، كمثل مَن قعد هذه المدة يتطهّر ويُجدد الطهارة ، ولم يُصلِّ صلاةً واحدة ، إذ مقصود العلم العمل ، كما أنَّ المقصود بالطهارة وجود الصلاة ، ولقد سأل رجلٌ الحسنَ البصري عن مسألة ، فأفتاه فيها ، فقال الرجل للحسن : قد خالفك الفقهاءُ ، فزجره الحسن ، وقال : ويحك ، وهل رأيت فقيهاً ، إنما الفقيه مَن فقه عن الله أمْرَه ونهيه. وسمعتُ شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول : الفقيه مَن انفقأ الحجاب عن عينيْ قلبه ، فشاهد ملكوت ربه. انتهى كلامه.

فالعلماء المخلِصون الذين عرفوا الله من طريق البرهان ، تلي درجتهم درجةَ الأولياء الذين هم أهل الشهود والعيان ، ثم الصالحون الأبرار ، ثم عامة المؤمنين ، ومَن قال خلاف هذا فهو جاهل بمرتبة الولاية ، قال صلى الله عليه وسلم : " عامة أهل الجنة البُله " وعِلّيُون لذوي الألباب ، وذووا الألباب هم أهل البصائر ، الذين فتح الله بصيرتَهم ، وتطهّرت سريرتهم بالمجاهدة والرياضة ، حتى شاهدوا الحق وعرفوه ، وقال تعالى : {فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَائِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَائِكَ هُمْ أُوْلُو الأَلْبَابِ} [الزمر : ١٧ ، ١٨] ، وراجع ما تقدّم في تفسيرها ، وكل مَن كان محجوباً عن الله ، يتسدل بغيره عليه ، فهو من البُله ، إلاّ أنّ صاحب الاستدلال أربع من المقلّد ، أي : سَلِمَ من الوسواس ، وإلاّ فالمقلِّد أحسن منه.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٢

ولمّا تكلم في الإحياء على درجات التوحيد ، قال : " والدرجة العليا في ذلك للأنبياء ، ثم للأولياء العارفين ، ثم للعلماء الراسخين ، ثم الصالحين " ، فقدَّم الأولياء على العلماء. وقال الأستاذ القشيري في أول رسالته : فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضَّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه. هـ. سُئل ابن رشد – رحمه الله – عن قول الغزالي والقشيري بتفضيل الأولياء على العلماء ، فقال : أمّا تفضيل العارفين بالله على العارفين بأحكام الله ؛ فقول الأستاذ أبي حامد متفق عليه ، ولا يشك عاقل أنّ العارفين بما يجب لله من أوصاف الجلال ونعوت الكمال أفضل من العارفين بالأحكام ، بل العارفون بالله أفضل من أهل الأصول والفروع ؛ لأنّ العلم يشرف بشرف المعلوم. ثم أطال الكلام في الاستدلال على ذلك ، فانظر. ذكره في المعيار.

وقال بعضهم في تفضيل العارف على العالِم : إنّ العارف فوق ما يقول ، والعالِم دون ما يقول ، يعني : أن العارف إذا تكلم في مقام من مقامات اليقين ، كان قَدَمُه فوق ما

٣٤٥

وصف ، لأنه يسلكه دوماً ثم يصفه ، والعالم إنما يصفه بالنعت ، وأيضاً : العالِم يدلك على العمل ، والعارف يُخرجك عن شهود العمل ، العالِم يحملك حِمل التكليف ، والعارف يروحك بشهود التعريف ، العالِم يَدُلك على علم الرسوم ، والعارف يُعرّفك بذات الحي القيوم ، العالِمَ يَدُلك على الأسباب ، والعارف يدلك على مُسبِّب الأسباب ، العالِم يَدُلك على شهود الوسائط ، والعارف يَدُلك على محرك الوسائط ، العالِم يُحذّرك من الوقوف مع الأغيار ، والعارف يُحذّرك من الوقوف مع الأنوار ، ويزج بك في حضرة الأسرار ، العالِم يُحذّرك من الشرك الجلي ، والعارف يُخلِّصك من الشرك الخفي ، إلى غير من الفروقات بين العارف والعالم. ومن اصطلاحات الصوفية ، أنَّ العالِم بالأحكام يسمى عالماً ، والعالِم بالذات عياناً وكشفاً يسمى عارفاً ، كما في القوت. وبالله التوفيق.

(٣٥٢/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٢

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسولَ} أي : إذا أردتم مناجاته في بعض شؤونكم المهمة ، {فقدِّموا بين يدي نجواكم} أي : قبل نجواكم {صدقة} وهي استعارة ممن له يدان ، كقول عمر رضي الله عنه : " من أفضل ما أوتيت العرب الشِعر ، يقدّمه الرجل أما حاجته ، فيستمطر به الكريم ، ويستنزل به اللئيم " يريد : قبل حاجته. وفي هذا الأمر تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانتفاع الفقراء ، والزجر عن الإفراط في مناجاته وسؤاله عليه الصلاة والسلام ، والتمييز بين المخلِص

والمنافق ، وبين مُحب الآخرة ومُحب الدنيا ، وهل الأمر للندب ، أو للوجوب لكنه نسخ بقوله : {أأشفقتم..} الخ ؟ وعن عليّ رضي الله عنه : " إنَّ في كتاب الله آية ما عمل بها أحدٌ غيري ، كان لي دينار فصرّفته فكنت إذا ناجيته صلى الله عليه وسلم تصدّقت به ". وقال أيضاً : " أنا كنت سبب الرخصة والتخفيف عن المسلمين " ، قال رضي الله عنه : فَهِم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنّ هذه العبادة قد شقّت على الناس ، فقال : " يا عليّ كم ترى حدّ هذه الصدقة ؟ أتراه ديناراً ؟ " قلت : لا ، قال : " فنصف دينار " ؟ قلت : لا ، قال : " فكم " ؟ قلت : حبة من شعير ، قال : " إنك لزهيد " فأنزل الله الرخصة ". قال الفخر : قوله صلى الله عليه وسلم لعليّ : " إنك لزهيد " معناه : إنك قليل المال ،

فقدّرتَ على حسب حالك. وفي رواية : " شعيرة من ذهب " ، فقال : إنك لزهيد " ، أي : مُصغِّر مقلِّل للدنيا. قاله في القوت.

{ذلك} التقديم للصدقة {خير لكم} في دينكم {وأطهرُ} لنفوسكم من رذيلة البُخل ، ولأنَّ الصدقة طُهرة. {فإن لم تجدوا} ما تتصدقون به {فإنَّ الله غفور رحيم} في ترخيص المناجاة من غير صدقة. قيل : كان ذلك عشر ليال ، ثم نُسِخَ ، وقيل : ما كان إلاَّ ساعة من نهار. وعن عليّ -كرّم الله وجهه- أنه قال : سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن عشر مسائل ، فأجابني عنها ، ثم نزل نسخ الصدقة ، قلت : يا رسول الله ؛ ما الوفاء ؟ قال : " التوحيد وشهادة أن لا إله إلاّ الله " قلت : وما الفساد ؟ قال : " الكفر والشرك بالله " قلت : وما الحق ؟ قال : " الإسلام ، والقرآن والولاية إذا انتهات إليك " قلت : وما الحيلة ؟ قال : " ترك الحيلة " ، قلت : وما عَلَيَّ ؟ قال : " طاعة الله وطاعة رسوله " ، قلت : وكيف أدعو الله تعالى ؟ قال : " بالصدق واليقين " قلت : وماذا سأل الله ؟ قال : " العافية " قلت : وما أصنع لنجاة نفسي ؟ قال : " كلْ حلالاً ، وقل صدقاً " قلت : وما السرور ؟ قال : " الجنة " قلت : وما الراحة ؟ قال : " لقاء الله " فلما فرغت منها نزل نسخ الصدقة.

}

(٣٥٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٦

أأشفقتم أن تُقَدِّموا بين يَدَيْ نجواكم صدقاتٍ} أي : أَخِفْتُم الفقرَ مِن تقديم الصدقات ، أو : أَخِفْتُم من هذا الأمر لِما فيه من الإنفاق الذي تكرهه النفوس ، {فإذ لم تفعلوا} ما أُمرتم به وشقّ عليكم ، {وتاب اللهُ عليكم} أي : خفّف عنكم ، وأزال عنكم المؤاخذة بترك تقديم الصدقة على المناجاة ، كما أزال

المؤاخذة بالذنب عن التائب عنه ، {فأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ} أي : فإذا فرَّطتم فيما أُمرتم به من تقديم الصدقات ، فتداركوه بالمثابرة على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، {وأطيعوا اللهَ ورسولَه} في سائر الأوامر ، فإنَّ القيام بها كالجابر لِما وقع في ذلك من التفريط ، {واللهُ خبير بما تعملون} ظاهراً وباطناً ، وهو وعدٌ ووعيد.

الإشارة : إذا أردتم مناجاة المشايخ في زيارتكم ، فقدِّموا بين يدي نجواكم صدقة ، تُدفع للشيخ ، أو لأهل داره ، فإنها مفتاح لفيض المواهب ، مثالها كالدلو ، لا يمكن رفع الماء إلاَّ به ، ذلك خير لكم ، وأطهر لقلوبكم من رذيلة من البخل ، فإن لم تجدوا شيئاً فإن الله غفور رحيم. أأشفقتم أن تُقدِّموا بين يدي نجواكم صدقات ؛ لِثَقَلِ ذلك على النفس ؟ فإذ لم تفعلوا وزُرتم بلا صدقة ، وقد تاب الله عليكم من هذا التفريط ، فأقيموا صلاة القلوب ، وهو التعظيم ، ودوام العكوف في حضرة علاّم الغيوب ، وآتوا زكاة أبدانكم ، بإجهادها في خدمة المشايخ والإخوان ، وأطيعوا الله ورسوله وخلفاءه فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه ، {والله خبير بما تعملون}.

٣٤٧

(٣٥٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٦

يقول الحق جلّ جلاله : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِين تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم} وهم اليهود ، لقوله : {مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ} [المائدة : ٦٠]. والغضب في حقه تعالى : إرادة الانتقام. كان المنافقون يتولّون اليهود ، وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ، ففضحهم الله. ثم قال تعالى : {ما هم منكم} يا معشر المسلمين {ولا منهم} أي : من اليهود ، بل كانوا {مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لآَ إِلَى هَؤُلأَءِ إِلَى هَؤُلآَءِ} [النساء : ١٤٣]. {ويحلفون على الكذب} أي : يقولون : والله إنّ لمسلمون لا منافقون ، {وهم يعلمون} أنهم كاذبون منافقون ، {أعدَّ اللهُ لهم عذاباً شديداً} نوعاً من العذاب متفاقماً ، {إنهم ساء ما كانوا يعملون} فيما مضى من الزمان ، كانوا مُصرِّين على سوء العمل ، وتمرّنوا عليه ، أو : هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة.

{اتخَذُوا أَيمانهم} الكاذبة {جُنَّةً} وقايةً دون أموالهم ودمائهم ، {فصَدُّوا} الناسَ في خلال أمنهم وسلامتهم ، أو : فصدُّوا بأنفسهم {عن سبيل الله} عن طاعته والإيمان به ، {فلهم عذابٌ مُهين} يُهينهم ويُخزيهم ، وأعدّ لهم العذاب المخزي لكفرهم وصدهم ، كقوله : {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الَعَذَابِ} [النحل : ٨٨]. {لن تُغني عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من الله} من عذاب الله {شيئاً} قليلاً من الإغناء ، أي : ما يخافون عليه من الأموال والأولاد فيحلفون لأجله ، لا ينفعهم

عند الله. رُوي أنَّ رجلاً منهم قال : لنُنصرنّ يوم القيامة بأموالنا وأنفسنا وأولادنا. فنزلت. {أولئك} الموصوفون بما ذكر من القبائح {أصحابُ النار} ملازموها {هم فيها خالدون}.
}

(٣٥٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٨
يومَ يبعثهم اللهُ جميعاً فيحلِفون له} أي : لله تعالى في الآخرة أنهم كانوا مُخلِصين غير منافقين ، {كما يحلفون لكم} في الدنيا على ذلك ، {ويَحْسَبون أنهم} في الدنيا {على شيءٍ} من النفع ، أو : يحسبون في الآخرة أنهم على شيءٍ من النفع ، مِن جلب منفعة أو دفع مضرة ، كما كانوا في الدنيا ، حيث كانوا يدفعون بها عن أزواجهم وأموالهم ، {ألا إنهم هم الكاذبون} البالغون في الكذب إلى غايةٍ لا مطمح وراءها ، حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علاّم الغيوب.
{استحوذَ عليهم الشيطانُ} استولى عليهم ومَلَكَهم ، {فأنساهم ذكرَ الله} بحيث لم
٣٤٨
يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم ، {أولئك حزبُ الشيطان} أي : جنوده وأتباعه ، {ألا إنّ حزبَ الشيطان هم الخاسرون} أي : الموصوفون بالخسران الذي لا غاية وراءه ، حيث فوّتوا على أنفسهم النعيم المقيم ، وأخذوا بدله العذاب الأليم ، وفي تصدير الجمة بحرفي التنبيه والتحقيق ، وإظهار الشيطان معاً في موضع الإضمارِ ، وتوسيط ضمير الفصل ، من فنون التأكيد ما لا يخفى.
الإشارة : منافقون الصوفية هم الذين يُقرُّون أهلَ الظاهر وينصرونهم ، ويُنكرون على أهل الباطن ، فإذا لقوهم أظهروا لهم المودّة والوفاق ، وادَّعوا أنهم منهم ، فهم مذبذبون بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ، ليسوا من أهل الظاهر المحض ، ولا من أهل الباطن ، لعدم تحققهم به ، تجر الآية ذيلَها عليهم. والعذاب المعدّ لهم غم الحجاب ، وتخلُّفهم عن درجات المقربين. قوله تعالى : {اتخذوا أَيمانهم جُنة} قال القشيري : مَن استتر بحُجة طاعته لأجل دنياه ؛ انكشف لسهام التقدير من حيث لا يشعر ، ثم لا دينُه يبقى ، ولا دنياه تَسْلَم. قال تعالى : {لن تُغني عنهم أموالُهم ولا أولادهم من الله شيئاً} الآية. هـ. يوم يبعثهم الله جميعاً فيتحاشون إلى المقربين ، ويحلفون بلسان حالهم : أنهم كانوا منهم ، كما يحلفون اليوم ، ويظنون أنهم من أهل الباطن ، ويحسبون أنهم على شيء ، فيبدوا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، وذلك لعدم صُحبتهم للعارفين المخلِصين ، حصل لهم الغلط ، فوقفوا مع حُسبانهم الضال ، ولو دامت صُحبتُهم لأهل التوحيد الخاص لتنبّهوا لغلطهم. استحوذ عليهم الشيطانُ ، فزيّن لهم الوقوفَ مع ما هم فيه ، فأنساهم ذكرَ العيان ، فكانوا من حزب الشيطان في الجملة ،

بالنسبة إلى مَن فوقهم. قال شاة الكرماني : علامة استحواذ الشيطان على العبد : أن يشغله بعمارة ظاهره ، من المأكل والملبس ، ويشغل قلبه عن التفكُّر في آلاء الله ونعمائه ، والقيام بشكرها ، ويشغل لسانه عن ذكر ربه ، بالكذب والغيبة والبهتان ، ويشغل قلبه عن التفكُّر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها. هـ.

(٣٥٦/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٨

يقول الحق جلّ جلاله : {إنّ الذين يُحادون اللهَ ورسولَه} أي : يخالفونهما ، ويجعلون بينهم وبينهما حدّاً ، وهم حزب الشيطان المتقدم ، {أولئك في} جملة {الأذَلِّينَ} لا ترى أحداً أذلّ منهم من الأولين والآخرين ؛ لأنّ ذِلة أحد المتخاصمين على قدر عزة الآخر ، وحيث كانت عزة الله غير متناهية كانت ذلة مَن يُحاده كذلك. {كتب اللهُ} في اللوح وقضاه ، وحيث جرى مجرى القسم أجيب بما يُجاب به ، فقال : {لأغْلِبنَّ أنا ورسلي} بالحجة والسيف ، أو بأحدهما ، وهو تعليل لِما قبله من كون مَن حاد الله في

٣٤٩

الأَذلِّين. {إنَّ الله قويٌّ} على نُصرة أوليائه ، {عزيزٌ} لا يمتنع عليه ما يريد.

الإشارة : كل مَن يُعادي أهلَ الله مخذول ، عاقبته الذل في الدنيا والآخرة ، {كتب الله لأغْلِبَنَّ أنا ورسلي} وخلفاؤهم من أولئك ، {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج : ٤٠] ، إلاَّ مَن تعدّى منهم طورَه ، كمَن تعرّض للظهور ، وهو من أهل الباطن ، فإنَّ القدرة تخدمه وتؤدبه ؛ لأنّ الباطن لا ينقلب ظاهراً ، ولا عكسه. والله تعالى أعلم.

٣٥٠

(٣٥٧/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٩

(٣٥٨/٧)

سورة الحشر

يقول الحق جلّ جلاله : {سَبَّح لله ما في السماوات وما في الأرض} أي : نزّهه أهلُ السماوات السبع ، وأهلُ الأرضين السبع. وكرر الموصول هنا لزيادة التقرير ، والتنبيه على استقلال كل مِن الفريقين بالتسبيح. قال الكواشي : فيه إيماء إلى قدرة الله تعالى ، وأنه أهل لأن يُسبَّح لمنّه على المؤمنين بنصرهم على أعدائهم ، {وهو العزيزُ الحكيم} ، قال ابن عطية : صفتان مناسبتان لِمَا يأتي بعدُ ، من قصة العدو الذي أخرجهم مِن ديارهم. هـ.

رُوِيَ أنَّ هذه السورة بأسرها نزلت في بني النضير ، وهو رهط من اليهود ، من ذرية هارون عليه السلام ، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل لبعثته صلى الله عليه وسلم ، وقيل : هم بقية الحبرْين اللذين كانا مع تُبع ، فنزلا المدينة انتظاراً له صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم حين قَدِمَ المدينة صالحهم على ألاّ يكونوا عليه ولا له ، فلما ظَهَرَ يوم بدر ، قالوا : هو النبيّ الذي نعتُه في التوراة : لا تُردُّ له رايةٌ ، فلما كان يوم أُحُد ما كان ، ارتابوا ونكثوا ، فخرج

٣

كعبُ بن الأشرف في أربعين راكباً ، فحالف أبا سفيان عند الكعبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر عليه السلام محمدَ بن مسلمة الأنصاري في فتية ، فقتل كعباً غيلة ، وكان أخاه من الرضاعة ، وقد كان عليه السلام اطلع منهم على خائنةٍ ونقض عهدٍ ، حين أتاهم ومعه أبو بكر وعمر وعليّ ، ليستعينهم في دية الرجلين اللذَين قتلهما عَمرو بنُ أمية الضمري ، غلطاً ، فأجابوه على ذلك ، وأجسلوه تحت الحِصن ، وأمروا رجلاً منهم أن يطرح على النبي صلى الله عليه وسلم رَحىً ، فنزل جبريلُ فأخذ بيده وأقامه ، فرجع إلى المدينة ، وأمر المسلمين بالخروج إلى بني النضير ، وهم بقريةٍ يقال لها : زهرة ، فأمرهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالخروج من المدينة ، فاستمهلوه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فدسّ إليهم عبدُ الله بن أُبي وأصحابهُمن المنافقين : لا تخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ، لا نخذلكم ، ولئن خرجتم لَنَخْرُجنَّ معكم ، فحصّنوا أسوارَهم ، فحاصرهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم إحدى وعشرين ليلة ، وأمر بقطع نخلهم ، فلما قذف اللهُ في قلوبهم الرعب ، وأيسوا من نصر المنافقين ، طلبوا الصُلح ، فأبى عليهم إلاّ الجلاء ، على أن يَحْمِل كلُّ ثلاثة أبياتٍ على بعيرٍ ما شاؤوا من متاعهم ، وللنبي صلى الله عليه وسلم ما بقي ، فخرجوا إلى الشام ، وإلى أذرعات وأريحا ، إلاّ بيتين ؛ آل أبي الحقيق ، وآل حُيَي بن أخطب ، فإنهم لحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة بالحيرة ، وذلك قوله تعالى :

}

هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب مِن ديارهم} بالمدينة ، أي : هو الذي تولّى إخراجهم ، لا بسبب فيه لأحد غيره. واللام في قوله : {لأول الحشر} متعلق بأخْرَج ، وهو اللام في قوله : {قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر : ٢٤] أي : أخرجهم عند أول الحشر ، وكونه أول الحشر ؛ لأنّ هذا أول حشرهم إلى الشام ، وكانوا مِن سبط لم يُصبهم جلاء قط ، وهم أول مَن أُخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام ، وآخر حشرهم : إجلاء عُمر إياهم من خيبر إلى الشام ، أو : آخر حشرهم : حشر يوم القيامة ، قال ابن عباس رضي الله عنه : " مَن شك أنَّ المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية " فهم الحشر الأول ، وسائر الناس الحشر الثاني. وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا خرجوا : " امضوا ، فإنكم أول الحشر ونحن على الأثر " {ما ظننتم أن يخرجوا} ، لشدة بأسهم ، ومَنعَتهم ، ووثاقه حصونهم ، وكثرة عَددهم وعُدتهم ، {وظنوا أنهم مانعتهم حُصُونُهم من الله} أي : ظنوا أنّ حصونهم تمنعهم من بأس الله. والفريق بين هذا التركيب والنظم الذي جاء عليه التنزيل : أنّ في تقديم الخبر على المبتدأ دليلاً على فرط وُثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم ، وفي مصير ضميرهم اسماً لـ " أن " ، وإسناد الجملة إليه ، دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة ، لا يُبالَى معها

٤

بأحد يتعرض لهم ، أو يطمع في مغازيهم ، وليس ذلك في قولك : وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم. {فأتاهم اللهُ} أي : أمره وعقابه {من حيث لم يحتسبوا} ؛ من حيث لم يظنوا ، ولم يخطر ببالهم ، حتى قُتل " كعب " رئيسهم على يد أخيه رضاعاً.

{وقَذَفَ في قلوبهم الرُّعْبَ} ؛ الخوف والجزع ، {يُخْربون بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين} ، فكانوا يُخربون بواطنَها ، والمسلمون ظواهرَها ، لِمَا أراد الله مِن استئصال شأفتهم ، وألاَّ تبقى لهم بالمدينة دار ، ولا منهم دَيَّار. والذي دعاهم إلى التخريب حاجتهم إلى الخشب والحجارة ، ليسدُّوا بها أفواه الأزقَّة ولئلا يبقى بعد جلائهم مساكن للمسلمين ، وأن ينقلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جيّد الخشب والساج ، وأمّا المؤمنون فدعاهم إلى التخريب إزالة مُتحصّنهم ، وأن تتسع لهم مجال الحرب. ومعنى تخريبهم إياها بأيدي المؤمنين : أنهم لما عرّضوهم بنكث العهد لذلك ، وكان السبب فيه ؛ فكأنهم أمروهم به ، وكلّفوهم إياه. {فاعتبِروا يا أُولي الأبصارِ} أي : فاتعِظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجهٍ لا تهتدي إليه الأفكار ، أو : فتأملوا فيما نزل بهؤلاء ، والسبب الذي استحقوا به ذلك ، فاحذروا أن تفعلوا مثَل فعلهم ، فتُعاقَبوا مثل عقوبتهم. قال البيضاوي : اتعِظوا بحالهم ، فلا تغدروا ، ولا تعتمدوا على غير الله. هـ. وهذا دليل على جواز القياس.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣

ولولا أن كتب اللهُ عليهم الجلاء} ؛ الخروج من الوطن ، على ذلك الوجه الفظيع {لعذَّبهم في الدنيا} بالقتل والسبي ، كما فعل ببني قريظة ، {ولهم في الآخرة عذابُ النار} الذي لا أشد منه ، {ذلك بأنهم} أي : إنما أصابهم ذلك بسبب أنهم {شاقُّوا اللهَ} ؛ خالَفوه {ورسوله} وفعلوا ما فعلوا ، مما حكي عنهم من القبائح ، {ومَن يُشاقِّ اللهَ} ، وقرئ : " يشاقِق " على الأصل. والاقتصار على مشاققته لتضمنها مشاققته عليه السلام ، وليوافق قوله تعالى : {فإنَّ الله شديدُ العقاب} ، والجملة : إما نفس الجزاء على حذف العائد ، أي : شديد العقاب له ، أو : تعليل للجزاء المحذوف ، أي : يُعاقبه لأنّ الله شديد العقاب.

الإشارة : " سبِّح لله " نزَّه الله تعالى مَن وجود الغيرية والإثنينية ما في سموات الأرواح من علوم الأحدية ، ونزّهه ما في أرض النفوس والعقول من البراهين القطعية عن الشبيه والنظير. والعارف الكامل هو الذي يجمع بين التنزيه والتشبيه في ذات واحدة ، في دفعة واحدة ، فالتنزيه من حيث ذات المعاني ، والتشبيه من حيث الأواني ، أو التنزيه من حيث الجمع ، والتشبيه من حيث الفرق ، أو التنزيه من حيث اسمه الباطن ، والتشبيه من حيث اسمه الظاهر. وانظر القشيري في مختصر الإشارات ، ولعل هذا المنزع هو الذي رام الجيلاني ، حيث قال في عينيته :

وإياكَ والتنزيهَ فهو مُقيّدٌ

وإياك والتشبيهَ فهو مُخَادِعُ

٥

أي : لا تقف مع واحدٍ منهما ، فأطلق عنان المعاني في كل ما ترى ، ولا تشبه المعاني بشيء ، إذ ليس مثلها ولا معها فإياك أن تنزّه المعاني عن شيء ، فتقيّد عن الشهود فيه ، وإياك أن تشببها بشيء ؛ إذ ليس مثلها شيء في الوجود. والله تعالى أعلم. ولا يعلم هذا إلا أهل الذوق الكبير.

ثم قال تعالى : {هو الذي أخرج} الخواطر الردية ، والخبائث اليهودية ، من ديار القلوب ، عند أول حشرها إلى الحضرة ، ما ظننتم أن يخرجوا ، لتمكنها من النفس ، وتمرُّنها معها ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونُهم من الله ، حيث تحصّنوا بتمكن العوائد ورسوخها في النفس ، ومخالطة الأحباب والعشائر ، والرئاسة والجاه والمال ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسِبوا ، حيث قيَّض لها شيخاً عارفاً ، وقذف في القلب خوفاً مزعجاً ، أو شوقاً مقلقاً ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فخرجت تلك الخبائث قهراً ، يُخربون بيوتهم ، أي : بيوت ظواهرهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، أي : بإعانة المشايخ والإخوان ، فطهَّروا بواطنهم من الخبائث ، وخرّبوا ظواهرهم من زينة الحس ، فحينئذ تعمّرت بواطنُهم بأسرار العلوم

والمعارف ، فاعتبروا يا أولي الأبصار ، وافعلوا مثل فعلهم ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء من القلوب ؛ لعذّبهم في الدنيا بالحرص والجزع والطمع ، ولهم في الآخرة عذاب نار القطيعة ، بعد إسدال الحجاب في الدنيا ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ؛ إذ كل مخالفة إنما هي من النفس وجنودها في عالم الحكمة.

{ما قطعتم من لِّينَةٍ} ، قال القشيري : هو نوع من النخل ما عَدا العجوة والبَرْنِيّ ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطعها من مال بني النضير ، فقطع بعضها ، فقالت اليهود : أي فائدة في هذا ؟ فبقي المسلمون في الجواب ، فأنزل الله هذه الآية. هـ. وأصلها : لونة ، من الألوان ، فقلبت ياء ، وقيل : اللينة : النخلة الكريمة ، كأنهم اشتقوها من اللين ، أي : أيّ شيء قطعتم من لِينة {أو تركتموها قائمةً على أصولها} من غير أن تتعرضوا لها بشيء {فبإذن الله} ؛ فقطعها وتركها بإذن الله ، {وليُخزي الفاسقين} أي : وليذل اليهود ويغيظهم أذِنَ في قطعها وقلعها وفي تركها ، وأمر المؤمنين أن يحتكموا في أموالهم كيف شاؤوا. واستُدل به على جواز هدم ديار الكفرة ، وقطع أشجارهم ، وحرق زروعهم ، إذا لم يُرج وكان فيه إنكاء للعدو. وتخصيص اللينة بالقطع ليكون غيظهم أشد.
الإشارة : قَطْعُ شجرة حب الدنيا من القلب واجب على المريد في بدايته ، ولو أدّى إلى إفساد المال لإصلاح قلبه ، ارتكاباً لأخف الضررين ، ومنه : قضية الشبلي في إحراق
٦
ثوب وقلنسوته ، في حكاية التلميذ ، فإذا تمكن من المعرفة خُيِّر ، وله يقال : {ما قطعتم من لينة أو تركتموها...} الآية. وقال القشيري بعد تفسير الظاهر : وفيه دليل على أن الشرع غير مُعَلل ، فإذا جاء الأمر الشرعي بَطَلَ طلب التعليل ، وسكتَت الألسن عن المطالبة بـ " لِمَ " وخُطورُ الاعتراض والاستقباحِ بالبال خروج عن حدّ العرفان ، والشيوخ قالوا : مَن قال لأستاذه : " لِمَ " لا يفلح ، وكل مريدٍ يكون لأمثال هذه الخواطر جولان في قلبه لا يجيءُ منه شيء ، ومَن لم يتجرّد قلبُه عن طلب الإعلال ، ولم يباشِرْ حُسْنَ الرضا بكل ما يجري ، واستحسانَ ، كل ما يبدو من الغيب من الله سرّه وقلبَه فليس من الله في شيء. هـ. ومثله قول الحِكَم : " ما ترك مِن الجهل شيئاً مَن أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله فيه ".

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦

قلت : جملة {وما أفاء} : شرطية معطوفة على مثلها ، وهو : {ما قطعتم..} الآية ، وكلتاهما إخبار وإعلام ، أي : اعلموا أن ذلك القطع والترك كان بإذن الله ، وذلك الفيء كان بتسليط الله لا بسعيكم ، لكنه لم يُعلم منه كيفية القسمة ، فبيّنها بعدُ بقوله : {وما أفاء الله على رسوله...} الخ ، وقيل : غير ذلك على ما سيأتي.

يقول الحق جلّ جلاله : {وما أفاء الله على رسوله منهم} أي : ما أعاده الله من مالهم ، وفيه إشعار بأنه كان حقيقاً بأن يكون له صلى الله عليه وسلم ، وإنما وقع في أيديهم بغير حق ، فردّه الله تعالى إلى مستحقه ، لأنه تعالى خلق الناس لعبادته ، وخَلَقَ ما خَلَقَ ليتوسَلوا به إلى طاعته ، فهو جديرٌ بأن يكون للمؤمنين. {فما أوجفتمْ عليه} أي : فما أجريتم على تحصيله وتغنيمه ، من : الوجيف ، وهو : سرعة السير ، و " مِن " في قوله : {مِن خَيْلَ ولا رِكابٍ} زائدة لتأكيد النفي ، أي : فما أجريتم على تحصيله خيلاً ولا ركاباً ، وهو ما يركب من الإبل خاصة ، كما أنَّ الراكب عندهم راكبها لا غير ، وأمّا راكب الفرس فإنما يُسمونه فارساً ، ولا واحد لها من لفظها ، وإنما الواحد منها : راحلة. والمعنى : ما قطعتم لها شقةً بعيدة ، ولا لقيتم مشقة شديدة ، وذلك لأن قُراهم كانت على ميلين من المدينة ، فمشوا إليها مشياً ، وما كان فيهم إلاَّ النبي صلى الله عليه وسلم فَفَتَحَها صُلحاً ، كأنه قيل : ما أفاء الله على رسوله فما حصَّلتموه بكد اليمين ولا بعرق الجبين ، {ولكنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رسلَه على مَن

٧

يشاء} أي : ولكن جرت سنّة الله أن يُسلّط رسلَه على مَن يشاء من أعدائهم ، وقد سلّط رسولَه صلى الله عليه وسلم تسليطاً غير معتاد ، من غير أن تقتحموا الخطوب ، وتُقاسموا شدائد الحروب ، فلا حقّ لكم في أموالهم. {واللهُ على كل شيء قدير} يفعل ما يشاء ، تارة على الوجوه المعهودة ، وأخرى على غيرها.

(٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧

ثم بيّن قسمة الفيء ، فقال : {ما أفاء اللهُ على رسوله من أهل القُرى} ، فلم يدخل العاطف ؛ لأنَّ الجملة بيان للأولى ، وقيل : الأولى نزلت في أموال بني النضير ، وقد جعلها الله لرسوله خاصة ، فقسمها على المهاجرين ، ولم يُعط الأنصارَ منها ، إلاّ لثلاثة ، لفقرهم ، أبو دُجانة ، وسهل بن حنيف ، والحارث بن الصمة ، والثانية : نزلت في كل قريةٍ فُتحت عنوة ، وهو الظاهر ، فقال في بيان مصرف الفيء : {فللّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل}. واختلف في قسمته ، فقيل :

يُسدس لظاهر الآية ، ويُصرف سهم الله إلى عمارة الكعبة وسائر المساجد ، وقيل : يُخمس ، وذكر الله للتعظيم ، ويُصرف سهم الرسول للإمام على قولٍ ، وإلى العساكر والثغور على قولٍ ، وإلى مصالح المسلمين على قولٍ. وقد تقدّم في سورة الأنفال تحقيقه. وإنما بيّنا قسمته ، {كي لا يكون دُولَةَ} أي : كي لا يكون الفيء الذي حقه أن يكون للفقراء يعيشون به {دُولة بين الأغنياء منكم} أي : يتداوله الأغنياء بينهم ، ويختصُّون به. والدولة : ما يدول للإنسان ، أي : ما يدور له من الغنى والجدّ والغلبة وغيرها ، وقيل : الدولة – بالفتح – من المُلك ، وبالضم من المِلك – بالكسر–.

{وما آتاكم الرسولُ} أي : ما أعطاكموه من الفيء أو من الأمر ، {فَخُذوه} فاقبلوه ، أو : افعلوه ، فإنه واجب ، {وما نهاكم عنه} أي : عن أخذه ، أو عن تعاطيه {فانتهوا} عنه ، ولا تطلبوه ، أو : لا تفعلوه ، لَمَّا خصّ عليه السلام المهاجرين بفيء بني النضير وما حولها من القرى ، قالت الأنصار : لنا معهم سهم ، فنزلت {واتقوا الله} في مخالفته عليه السلام ، {إنَّ الله شديدُ العقاب} لمَن خالف رسولَه صلى الله عليه وسلم ، والأحسن : أن يكون عاماً في كل ما جاء به الرسول ، والفيء داخل في العموم.

الإشارة : العلم على قسمين ؛ علم وهبي إلهي ، يفيض على رسول القلب ، بمحض الفضل والجود ، وهو ما يختص بأسرار الربوبية فهذا يختص به صاحبه ، ولا يبذله لغيره إلاّ مَن بذل نفسه له ، وإليه تُشير الآية الأولى. وعلم كسبي ، يُكتسب بالجد والتشمير في تعلُّمه وأخذه ، فهذا يجب بذله لعامة الناس وخاصتهم ، وإليه تشير الآية الثانية. وإنما اختص علم السر بأهله كي لا يكون دُولة بين الأغنياء من أهل الظاهر ، فيُبتذل ويُشتهر ، وهو فساد نظام العالم. وقوله تعالى : {وما آتاكم الرسولُ فخُذوه} قال القشيري : هذا

٨

أصل في وجوب متابعة الرسول ، ولزوم طريقته وسنته ، على ما في العلم تفصيله. والواجبُ على العبد عَرْضُ ما وقع له من الخواطر ، ويُكاشَفُ به من الأحوالِ ، على العلم ، فما لم يقبله الكتاب والسنّة فهو ضلال. هـ.

(٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧

قلت : " للفقراء " يتعلق بمحذوف ، أي : يعطي ، أو : اعْجَبوا ، على أنه استئناف ، وقيل : بدل من " ذي القربى ". و " وتبوؤوا الدارَ والإيمان " أي : وأَلِفوا الإيمان ، ولا يصح العطف ؛ لئلا يلزم أنّ الإيمان متبوأ ، وإنما يُتبوأ المنزل ؛ إذ التبوء : التهيؤ ، يقال : بوأت له منزلاً ، أي : هيأته له ، وفي إعراب الحوفي في سورة آل عمران : يقال تبوأ فلان الدار إذا لزمها. هـ. فعلى هذا يصح العطف ، ولا

يحتاج إلى تقدير عاملٍ آخر. قال ابن هشام : ولا يجوز كون الإيمان مفعولاً معه ؛ لعدم الفائدة في تقييد الأنصار المعطوفين على المهاجرين بمصاحبة الإيمان ، إذ هو أمر معلوم. هـ. وانظر ابن جزي ، فإنه هو الوجه المستحسن عنده في توجيه الآية ، والمعنى : أنهم جمعوا بين الحالتين قبل المهاجرين ؛ لأن المهاجرين إنما سبقوهم بالإيمان ، لا بنزول الدار ، قال : فيكون الإيمان على هذا مفعولاً معه ، وأصله لابن عطية ، وبهذا الاقتراح يصح معنى قوله : {مِن قبلهم} فتأمله. انظر الحاشية.

يقول الحق جلّ جلاله : {للفقراءِ} أي : يعطى الفيء للفقراء {المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالِهم} حيث اضطرهم كفارُ مكة إلى الخروجِ من مكة ، وكانوا مائة رجل. وفيه دليل على أنّ الكفار يملكون ما استولوا عليه من أموال المسلمين ؛ لأنّ الله تعالى سمّاهم فقراء ، مع أنهم كانت لهم ديار وأموال بمكة ، فخرجوا {يبتغون فضلاً من الله ورضواناً} أي : طالبين منه تعالى رزقاً في الدنيا ، ورضا في الآخرة ، أو : يطلبون الجنة ورضوان الله أو : زيادة في الإيمان والرضوان ، {وينصرون اللهَ ورسولَه} أي : ناوين نصرة دين الله وإعانة رسوله ، {أولئك} الموصوفون بما فصّل من الصفات الحميدة {هُم الصادقون} ؛ الراسخون في الصدق ، حيث ظهر ذلك عليهم ؛ بما فعلوا من مفارقة الأوطان والأهل والولدان.

٩

{والذين تبوؤوا الدارَ والإيمانَ} ، هذا استئناف مسوق لمدح الأنصار بخصال حميدة ، من جملتها : محبتهم للمهاجرين ، ورضاهم باختصاصهم بالفيء أكمل رضا ، أي : اتخذوا المدينة والإيمان مباءة وسكناً وتمكّنوا فيهما أشد تمكين ، {مِن قبلهم} أي : من قبل هجرة المهاجرين ، أو تبوؤوا الدار ولزموا الإيمان ، ولزومه : إخلاصه وظهور شعائره وأحكامه ، ولا ريب في تقدُّم الأنصار في ذلك على المهاجرين ؛ لأنّ المهاجرين لم يتأتَّ لهم أظهاره قبل الهجرة ، فتقدمهم في إظهاره فقط ، لا في إخلاصه ؛ إذ لا يتصور تقدمهم عليهم في ذلك.

}

يُحبون مَنْ هاجر إليهم} حتى شاطروهم أموالهم ، وأنزلوهم منازلهم ، ونزل مَن كانت له امرأتان عن إحداهما ليتزوجها المهاجري ، ومحبتهم للمهاجرين من حيث هجرتهم لنصرة الدين لشدة محبتهم للإيمان ، {ولا يجدون في صُدورهم} ؛ في نفوسهم {حاجةً} أي : شيئاً محتاجاً إليه ، يقال : خذ منه حاجتك ، أي : ما تحتاج إليه ، يعني : أنّ نفوسهم لم تتبع ما أوتوا من الفيء ، ولم تطمح إلى شيء منه

تحتاج إليه ، وقيل : حاجة : حسداً أو كزازة ، مما أُعطي المهاجرون من الفيء ، حيث خصّهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم به. {ويُؤثرون على أنفسهم} أي : يُقدمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من أسباب المعاش ، {ولو كان بهم خصاصةٌ} أي : حاجة وخلّة ، وأصلها : خُصاص البيت ، أي : فروجه. والجملة : حال ، أي : يُؤثرون في حال خصاصتهم. قال ابن عباس : لما ظفر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بأموال بني النضير ، قال للأنصار : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم ، وشاركتموهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ، ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة ، فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ، ونؤثرهم بالغنيمة ، ولا نُشاركهم فيها ، فنزلت.

وهذا صريح في أنَّ قوله تعالى : {والذين تبوؤوا الدار} استئناف غير معطوف على الفقراء المهاجرين ، نعم يجوز عطفه عليهم باعتبار شركة الأنصار للمهاجرين في الصدق ، دون الفيء ، فيكون قوله تعالى : {يُحبون} وما عطف عليه استئنافاً مقرراً لصدقهم ، أو حال. قاله أبو السعود.

قلت : إذا جعلنا قولَه تعالى : {ما أفاء اللهُ على رسوله مِن أهل القُرى} استئنافاً غير مُبيّنٍ لِما قبله ، بل في كل فيء يأتي بعد بني النضير ، صحّ عطف الأنصار على فقراء المهاجرين في كل شيء ، وكذا قوله : {والذين جاؤوا مِن بعدهم} عطف عليهم ، فيكون المعنى : يقسم الفيء للفقراء المهاجرين ، وللذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم ، وللذين جاؤوا مِن بعدهم. ويؤيد هذا ما رُوي أنّ عمر رضي الله عنه لمّا قرأ هذه الآية إلى آخرها قال : هذه الآية استوعبت المسلمين ، ما على وجه الأرض مسلم إلاَّ وله في هذا الفيء حق ، إلا ما ملكت أيْمَانهم. هـ.

وقيل : نزلت في ضيفٍ نزل بالنبي صلى الله عليه وسلم فلم يجد عنده شيئاً ، فقال صلى الله عليه وسلم : " مَن يُضيف

١٠

هذا ؟ " فقال : رجلٌ من الأنصار – قيل : أبو طلحة ، أنا يا رسول الله ، فلم يجد من الطعام إلاّ ما يكفي الصبية ، فقال لامرأته : نوّمي الصبيان ، وأطِفِئي السراج ، وقرّبي الطعام ، فنظهر للضيف أنَّا نأكل معه ، ونمضغ ألسنتنا ليأكل ، فأكل الضيف وحده ، فلما أصبح قال صلى الله عليه وسلم للرجل : " إنَّ الله ضحك مِن فعلكما " عن أنس : أُهدي لبعضهم رأس مشويّ ، وهو مجهود ، فَوَجَّهه إلى جارِه ، وجارُه وَجَّهَه إلى جارِه ، فتداولته تسعةُ أنْفُس ، حتى عاد إلى الأول.

}

ومَن يُوق شُحَّ نفسه} أي : مَن يقيه الله شحَّ نفسه حتى يغالبها فيما يغلب عليها ، مِن حب المال وبُغضَ الإنفاق ، {فأولئك هم المفلحون} ؛ الفائزون بكل مطلوب ، والناجون من كل مرهوب. والشح – بالضم والكسر – : اللُّؤم ، وأن تكون نفس الرجل كزّةً حريصة على المنع. وإضافته إلى النفس لأنه غريزة فيها ، وأما البخل فهم المنع نفسه ، وقيل : الشُح : أكل مال أخيك ظلماً ، والبخل : منع مالك ، وقيل : الشُح : منع ما عندك والطمع في غيرك ، والبُخل : منع مالك من غير طمع ، فالشُح أقبح من البخل. والجملة : اعتراض وارد لمدح الأنصار بالسخاء ، بعد مدحهم بالإيثار. وجميع الإشارة باعتبار " مَن " لأنها واقعة على الجمع.

ثم ذكر التابعين ، فقال : {والذين جاؤوا مِن بعدهم} هم التابعون بإحسان إلى يوم القيامة ، وقيل : هم الذين هاجروا بعدما قوي الإسلام ، {يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} ، وصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم ، وعن عائشة رضي الله عنها : " أُمِرُوا بأن يستغفروا لهم ، فسبُّوهم " {ولا تجعل في قلوبنا غِلاًّ} أي : حقداً وعداوة {للذين آمنوا} على الإطلاق ، {ربنا إنك رؤوف رحيم} ؛ مبالغ في الرأفة والرحمة ، فأنت حقيق بأن تجيب دعاءنا برأفتك ورحمتك.

الإشارة : الذين يستحقون المواهب ، والفيض الإلهي والاصطفاء ، ثلاث أصناف ، الأول : الفقراء الذين هاجروا أوطانهم ، وتركوا ديارهم وعشائرهم ؛ طلباً لصلاح قلوبهم وأسرارهم ، والثاني : القوم الذين نزلوا بهم إذا آووهم وآثروهم بأموالهم وأنفسهم ، الثالث : مَن جاء بعدهم طلباً لذلك ، على الوصف الذي ذكره الحق {يقولون ربنا اغفر لنا...} الخ. قال الورتجبي : قوله تعالى : {والذين تبوؤوا الدارَ والإيمان...} الخ ، أثنى الله سبحانه على الفقراء ، ووصَفَهم بأحسن الوصف ، إذ كانوا صادقين في فقرهم ، ثم أثنى على الأغنياء لِصدقهم في غناهم ، ووصَفَهم بالإيمان والمعرفة بالله من قبلهم ولزومهم مواضع قربه ، وخفضِهم جناحهم لإخوانهم من الفقراء ، ومحبتهم ، وتقديسهم من الحسد والشح والبُغض وحب الدنيا ، ثم وَصَفَهم بالسخاء والإيثار ، فلم يبقَ في قلوبهم من حب

١١

الدنيا وجاهها ذرة. ومَنْ سجيتُه مقدسة مِن حرص نفسه أفلح وظفر برؤية ربه. هـ. قلت : كأنه يشير إلى أنَّ قوله تعالى : {للفقراء المهاجرين} هم أهل السير من المريدين ، وقوله تعالى : {والذين تبوؤوا الدار...} هو الواصلون العارفون ، أي : تبوؤوا دارَ المعرفة ، حيث سكنوها ، ورسخوا فيها ، وأَلِفوا الإيمان وذاقوا حلاوته.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩
وقوله تعالى : {ويُؤثرون على أنفسهم...} الخ ، بعد أن وَصَفَهم بقطع الطمع والحرص ، والزهد فيما لم يملكوا بقوله : {ولا يجدون في صدورهم حاجة} وَصَفَهم بالإيثار فيما ملكوا ، وبذلك يتم تحقيق خروج الدنيا من قلوبهم ، بحيث لا يتعلق القلب بما فات منها ، ولا يُمسك ما وجد منها ، بل يُؤثر به مع الحاجة إليه ، فالآية تشير إلى سلامة الصدور ، وسخاوة الأنفس ، وهذا كان وصف الصحابة – رضي الله عنهم – وبهذين الخصلتين فاقوا جميعَ الناس ، وهي أخلاق الصوفية – رضي الله عنهم – قال الشيخ أبو يزيد : ما غلبني أحد غير شاب من بَلْخ ، قَدِمَ حاجًّا ، فقال : يا أبا يزيد ، ما الزهد عندكم ؟ فقلت : إذا وجدنا أكلنا ، وإذا فقدنا صبرنا ، فقال : هكذا عندنا الكلاب ببلخ ، فقلت : وما الزهد عندكم ؟ فقال : إذا وجدنا آثرنا ، وإذا فقدنا شكرنا. هـ. وسُئل ذو النون : ما حد الزاهد المشروح صدره ؟ فقال : ثلاثة ؛ تفريق المجموع ، وترك طلب المفقود ، والإيثار عند القوت. هـ.

(١٢/٨)

يقول الحق جلّ جلاله : {ألم تَرَ إلى الذين نافقوا} أي : ألم ترَ يا محمد ، أو : يا مَن يسمع ، إلى عبد الله بن أُبيّ وأشياعه ؟ حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين ، من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة ، بعد حكاية محاسن أقوال المؤمنين ، وأحوالهم الحميدة ، على اختلاف طبقاتهم. وقوله تعالى : {يقولون} استئناف لبيان المتعجب منه ، وصيغة المضارع للدلالة على استمرار قولهم ، أو : لاستحضار صورته. واللام في قوله : {لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب} للتبليغ ، والمراد بالأخوة : أخوة الكفر ، واللام في قوله : {لئن أُخرجتم} موطئة للقسم ، و {لَنَخَرُجَنَّ} جوابه ، أي : والله لئن أُخرجتم من دياركم
١٢
{لَنَخْرُجَنَّ معكم} ، رُوي أن ابن أُبي وأصحابه دسُّوا إلى بني النضير ، حين حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم : لا تخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ، لا نخذلكم ، ولئن أُخرجتم لنخرُجن معكم ، {ولا نُطيعُ فيكم} ؛ في قتالكم {أحداً أبداً} ، يعني رسول الله والمسلمين ، أو : لا نُطيع في خذلانكم وإخلاف ما وعدناكم من النصرة أحداً ، وإن طال الزمان ، {وإن قُوتلتم لننصرنكم} ، قال تعالى في تكذيبهم : {واللهُ يشهد إنهم لكاذبون} في مواعدهم المؤكدة بأيمانهم الفاجرة.
{لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قُوتلوا لا ينصرونهم} ، وكان الأمر كذلك ، فلم يقدر أحد أن يرفع رأسه لنصرتهم ، ففيه معجزة واضحة ، {ولئن نصروهم} على الفرض والتقدير ، {لَيُوَلُّنَّ الأدبارَ} فراراً

{ثم لا يُنصرون} أبداً ، إما المنافقون أو اليهود ، أي : لا تكون لهم شوكة أبداً. وإنما قال : {ولئن نصروهم} بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم ، أي : على الفرض والتقدير كقوله : {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر : ٦٥] ، والحق تعالى كما يعلم ما يكون ، يعلم ما لا يكون أن لو كان كيف يكون.
}

لأنتم أشدُّ رهبةً} أي : أشد مرهوبية ، مصدر : رُهِبَ ، المبني للمفعول ، أي : أنتم أشد خوفاً {في صُدورهم من الله} دلالة على نفاقهم ، يعني : إنهم يُظهرون لكم في العلانية خوفَ الله ، وأنتم أهيب في صدورهم من الله ، {ذلك} أي : ما ذكر من كون رهبتهم منكم أشد من رهبة الله {بأنهم قوم لا يفقهون} شيئاً حتى يعلموا عظمة الله تعالى ، فيخشوه حق خشيته.

{لا يُقاتلونكم} أي : اليهود والمنافقون ، أي : لا يقدرون على قتالكم {جميعاً} ؛ مجتمعين متفقين في موطن من المواطن ، {إلاّ في قُرىً محصنةٍ} ، بالدُّروب والخنادق ، {أو مِن وراء جُدُر} دون أن يصحروا ويبارزوكم ؛ لفرط رهبتهم. وقرأ المكي : " جدار " بالإفراد. {بأسُهم بينهم شديدٌ} ، بيان لِما ذكر من أنَّ رهبتهم ليس لضعفهم وجُبنهم في أنفسهم ، فإنّ بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد ، وإنما ضعفُهم وجبنهُم بالنسبة إليكم ، بما قذف الله تعالى في قلوبهم من الرعب.

{تَحْسَبُهم} أي : المنافقين واليهود {جميعاً} أي : مجتمعين ذوي أُلفة واتحاد ، {وقلوبُهم شَتَّى} ؛ متفرقة لا أُلفة بينها. قال ابن عطية : وهذه حالة الجماعة المتخاذلة. هـ. يعني : أنّ بينهم إحناً وعداوات ، فلا يتعاضدون حقَّ التناصر ولا ينصرون أبداً. قال القشيري : اجتماع النفوس مع تنافر القلوب أصلِ كل فساد ، وموجب كل تخاذل ، واتفاق القلوب ، والاشتراك في الهمّة ، والتساوي في القصد ، يُوجب كلِّ ظفرٍ وسعادة. هـ. وما وصف به الحق تعالى المنافقين واليهود كله تجسير للمؤمنين ، وتشجيع لقلوبهم على قتالهم. {ذلك} التفرُّق {بأنهم قوم لا يعقلون} شيئاً ، حتى يعرفوا الحق ويتبعوه ، وتطئمن به قلوبهم ، وتتحد كلمتهم ، ويَرمُوا عن قوس واحدة ، لكن لّمَّا جهلوا الحق

تشتتت طُرُقهم ، وتشتتت القلوب حسب تشتُّت الطُرق ، وأما ما قيل من أنّ المعنى : لا يعقلون أنّ تشتيت القلوب مما يُوهن قلوبهم ، فبعيد.

الإشارة : إذا حاصر المريدُ قريةَ القلب ليُخرج منها الأوصاف المذمومة لتتهيأ لسكنى سلطان المعرفة ، تقول الحظوظ والأهوية المنافقة للنفس ، وأوصافها اليهودية : لا تخرجوا ، فنحن نُعاونكم ، وفي

نصرتكم ، لئن أُخرجتم لنخرجنَّ معكم ، ولا نُطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم بالمجاهدة والرياضة ؛ لننصرنكم بالتخاذل والتثُّبط ، والله يشهد أنهم لكاذبون ؛ إذ لا قدرة لشيء إلاّ بإذن الله. {لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم...} الآية. لا يقاتلونكم جميعاً ، أي : لا يجتمع جند الهوى النفس على قتالكم ، إلاّ في قلوب غافلة ، شديدة العلائق والمساوىء محصنة من دخول النور بأسوار الشواغل والعلائق ، أو : تُوَسْوِس من وراء جُدُر الإيمان ، وأما القلوب الفارغة من الشواغل ، المطهرة من المساوئ ، فإنما يقاتلها البعض الباقي فيها. بأسهم بينهم شديد ، أي : الحرب بينهم سجال ، إذا غلب جند النفس استولت ظلماتها على الروح ، وإذا غلب جند القلب والروح استولى النورُ على ظلمة النفس ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، أي : تظنون أنَّ مهاوي الهوى ومهاوي النفس واحدة ، وقلوبهم شتى ، فالأهواء مختلفة ، والحظوظ متفاوتة ، والمساوىء متفرقة ، فلكل شخص حظ ، ولكل نفس هوى غير ما يشتهي الآخر ، وذلك بأنهم قوم لا يعقلون ، ولو عقلوا لاتفقت أهواؤهم في محبة الله ورسوله ، قال صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تابعاً لما جئتُ به ".

(١٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٢

يقول الحق جلّ جلاله : مَثَلهم ، أي : مثل اليهود في حلول البأس بهم {كَمَثَلِ الذين مِن قبلهم} وهم أهل بدر {قريبًا} أي : استقر مِن قبلهم زمنًا قريبًا ، فكانت غزوة بني النضير على رأس ستة أشهر من بدر ، كما صدر به البخاري عن الزهري. ثم قال : وجعله ابن إسحاق بعد بئر معونة وأُحد. هـ. قلت : وهو الموافق لِما تقدم في صدر السورة ، وهو المشهور ، {ذاقوا وبالَ أمرِهم} أي : ذاقوا سوء عاقبة أمرهم وعداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القتل في الدنيا ، {ولهم} مع ذلك في الآخرة {عذابٌ أليمٌ}.

ومَثَل المنافقين {كَمَثَلِ الشيطانِ إذ قال للإنسان اكْفُرْ فلما كفر قال إني بريء منك

١٤

إني أخاف اللهَ ربَّ العالمين} أي : مثل المنافقين في أغوائهم اليهود على القتال ، ووعدهم إياهم النصر ، ثم مشاركتهم لهم وخذلانهم كمثل الشيطان إذ استغوى الإنسان بكيده ، ثم تبرّأ منه في العاقبة. وقيل : المراد : استغواؤه قريشًا يوم بدر ، وقوله : {لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ} [الأنفال : ٤٨] إلى قوله : {إِنِّي بَرِياءٌ مِّنْكُمْ} [الأنفال : ٤٨]. قال أبو السعود : وقد أجمل في النظم الكريم ، حيث أسند كُلاًّ من الخبرين إلى المقدّر المضاف إلى ضمير الفريقين من غير تعيين ما أسند إليه بخصوصه ، ثقةً بأنّ السامع يَرُد كُلاًّ مِن المثالين إلى ما يُماثله ، كأنه قيل : مَثَل اليهود في حلول

العذاب ، كمَثَل الذين من قبلهم... الخ ، ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال حسبما تقدّم عنهم كمثل الشيطان...الخ. هـ. {فكان عَاقِبتهما} أي : عاقبة الإنسان الكافر والشيطان ، {أنهما في النار خالِدَيْن فيها} ، فـ " عاقبتهما " : خبر كان ، و " أنهما " اسمها ، و " خالِدَين " : حال. {وذلك جزاءُ الظالمين} أي : الخلود في النار جزاء كل ظالم. وذكر الثعلبي هنا قصة برصيصا الراهب الطويلة ، فانظرها فيه ، ففيها عبرة ، وقيل : فيه نزلت الآية.

(١٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤

الإشارة : مثل الأوصاف المذمومة حيث ترد عليها أنوار الشهود ؛ كمثل كفار قريش حين استولت عليها الأنصار والمهاجرون ، وأمدّهم الله بملائكة السماء ، فهزموهم وقتلوهم ، ودفنوهم في القليب ، ومثل النفوس الأمّارة وجنودها ، كمثل الشيطان يوسوس بالمعاصي ، ثم يرجع ، فكان عاقبتهما إذا أطاعه الإنسان أنهما في النار القطيعة خالدَين فيها ، وذلك جزاء الظالمين لنفوسهم ، حيث حرموها الوصول. والله تعالى أعلم.

(١٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤

يقول الحقّ جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله} في كل ما تأتون وتذرون ، {ولتنظرْ نَفْس ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ} أي : أيّ شيء قدمت من الأعمال الصالحة ليوم القيامة. سمّاه باليوم الذي يلي يومك تقريبًا له ، أو عبّر عن الآخرة بالغد ، كأنّ الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد ، وتنكيره لتفخيمه وتهويله ، كأنه قيل : لغد لا يعرف كنهه لغاية عِظمه. وعن مالك بن دينار : مكتوب على باب الجنة : وجدنا ما عملنا ، ربحنا ما قدّمنا ، خسرنا ما خلفنا. {واتقوا اللهَ} ، كرر تأكيدًا للأمر بالتقوى ، أو الأول في أداء الواجبات ، كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل ، وهذا في ترك المعاصي ، كما يؤذن به الوعيد في قوله : {إنَّ الله خبير بما تعملون} أي : من المعاصي.

{ولا تكونوا كالذين نَسُوا اللهَ} أي : نسوا حقوقه تعالى أو : تركوا ذكره ، {فأنساهم أنفسهم} ؛

١٥

فأهملهم ولم يذكرهم بتوفيقٍ ولا هداية ، أو : جعلهم ناسين لها حتى لم يسمعوا ما ينفعها ، ولم يفعلوا ما يخلصها ، أو : أراهم يوم القيامة من الأهوال ما أنساهم أنفسهم ، {أولئك هم الفاسقون} ؛ الكاملون

في الفسق.

{لا يستوي أصحابُ النار} الذي نسوا الله فاستحقُّوا الخلود في النار {وأصحابُ الجنة} الذين اتقوا الله ، فاستحقُّوا الخلود في الجنة ، {أصحابُ الجنة هم الفائزون} ، وهذا تنبيه وإيقاظ وإيذان بأن غفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة ، وتهالكهم ، على إيثار العاجلة واتباع الشهوات ، كأنهم لايعرفون الفرق بين الجنة والنار ، والبَوْن العظيم بين أصحابها ، وأنَّ الفوز العظيم لأصحاب الجنة ، والعذاب الأليم لأصحاب النار ، فمِن حقهم أن يعلموا وينتبهوا له ، كما تقول لمَن يعق أباه : هو أبوك ، تجعله بمنزلة مَن لا يعرفه ؛ لتنبهه بذلك على حق الأبوة الذي يقتضي البر والتعطُّف. واستدل بالآية على أنّ المسلم لا يُقتل بالكافر ، وأنَّ الكفار لا يملكون أموال المسلمين ، ورُدَّ بأنَّ عدم الاستواء إنما هو في الأحوال الأخروية ، لا الدنيوية. والله تعالى أعلم.

(١٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥

الإشارة : {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله} ، أن تشهدوا معه سواه {ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ} من المعرفة ، فإنّ الشهود يوم القيامة على قدر المعرفة هنا ، " واتقوا الله " فلا تؤثروا عليه سواه ، {ولا تكونوا كالذين نسوا الله} أي : ذكره والتوجه إليه ، " فأنساهم أنفسهم " أي : غيّبهم عن إصلاحها وعلاجها ، حتى ماتت في أودية الخواطر والشكوك ، " أولئك هم الفاسقون " الخارجون عن الحضرة المقدسة. " لا يستوي أصحاب النار " أي : نار القطيعة والحجاب " وأصحاب الجنة " أي : جنة المعارف ، " أصحاب الجنة هم الفائزون " بكل مطلوب ، الناجون من كل مرهوب.

(١٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥

يقول الحقّ جلّ جلاله : {لو أنزلنا هذا القرآن} العظيم الشأن ، المنطوي على فنون القوارع ، {على جبلٍ} من الجبال ، مع كونه علَماً في القسوة وعدم التأثير بما يُصادمه ، {لَرَأيته خاشعًا} ؛ خاضعًا متصدِّعًا متشققًا {من خشية الله} أي : من شأن القرآن وعظمته أنه لو جُعل في الجبل تمييز ، ونزل عليه ، لخضع وتطأطأ وتشقق من خشية الله ، وهذا تمثيل وتخييل لعلو شأن القرآن ، وقوة تأثير ما فيه من المواعظ ، كما ينطق به قوله تعالى : {وتلك الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ، وهي إشارة إلى هذا المثل ، وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل. والمراد : توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وقلة

تخشُّعه عند تلاوة

١٦

القرآن ، وتدبُّر قوارعه وزواجره.

الإشارة : قال ابن عطاء : أشار إلى فضله على أوليائه وأهل معرفته ، أنَّ شيئًا من الأشياء لا يقوم لصفاته ، ولا يبقى مع تجلّيه ، إلاّ مَن قوّاه الله على ذلك ، وهو قلوب العارفين. هـ. قلت : وهذا في تجلِّي الصفات ، فما بالك بتجلِّي الذات ؟ ! فلا يطيقه إلاّ قلوب الراسخين المقربين ، وقال العارف الورتجبي : لو كانت الجبالُ مقامَ الإنسان في الخطاب لتدكدكت الجبال ، وتذرّرت ، وانفلتت الصخور الصم ، وانهدمت الشامخات العاليات ، في سطوات أنواره ، وهجوم سنا أقداره ، وذلك بأنها عرفت حقيقةً ، وأقرت بالعجز عن حمل هذا الخطاب العظيم حيث قال سبحانه : {فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا} [الأحزاب : ٧٢]. قلت : وكأنه يُشير إلى أن تجلي صفة كلامه من جملة الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال ، فأبيْنَ أن يحملنها ، وهذه الأمانة هي تجلِّي الذات وتجلِّي الصفات ، فلم يطق حملها إلاَّ الإنسان الكامل ، وهو العارف الحقيقي ، أما عن تجلِّي الذات فقد أشفقت مِن حمله السمواتُ والأرضُ والجبالُ ، حسبما تقدّم. أما تجلِّي الصفات ؛ فذكر هنا أنه لو تجلّت للجبل لخضع وتشقّق ولم يطق حملها ، فلو زالت حُجب الغفلة عن القلوب لذابت من هيبة تجلِّي صفة كلامه وخطابه تعالى ، إلاَّ أنَّ الله تعالى قَوَّى قلوب أوليائه حتى أطاقوا شهود ذاته ، وسماع خطابه ، بعد انقشاع الحُجب عن قلوبهم. ثم قال الورتجبي : ولا تخض يا أخي في بحر كلام المتكلمين أنَّ الجبال ليس لها عقل ، فإنَّ هناك أرواحًا وعقولاً لا يعلمها إلا الله {يَآجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ} [سبأ : ١٠] ولو لا هناك ما يقبل الخطاب لما خاطبها ، فإنَّ ببعض الخطاب ومباشرة الأمر تهبط من خشية الله ، قال الله تعالى : {وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [البقرة : ٧٤] والخشية : مكان العلم بالله وبخطابه. هـ. قلت : أسرار المعاني القائمة بالأواني سارية في الجمادات وغيرها ، فهي عاقلة عالمة في باطن الأمر.

والله تعالى أعلم.

(١٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٦

يقول الحق جلّ جلاله : {هو اللهُ الذي لا إله إلاّ هو} وحده {عَالِمُ الغيبِ والشهادة} أي : ما غاب عن الحس من الأسرار القديمة ، وما حضر له من الأجرام الحسية. قال الورتجبي : أي : عالم بالمعلومات الغيبية قبل وجودها ، وبعد وجودها ، لا يزيد علمه بالغيب علمه بالعلانية ، لا علمه بالعلانية علمه بالغيب. هـ. وتقديم الغيب على

الشهادة لتقدُّمه في الوجود ، وتعلُّق العلم القديم به ، أو : المراد بالغيب : المعدوم ، وبالشهادة : الموجود ، أو السر والعلانية ، {هو الرحمنُ الرحيم} أي : الرحمن بجلائل النِعم ، والرحيم بدقائقها ، أو : الرحمن بنعمة الإيجاد ، والرحيم بنعمة الإمداد.

{هو اللهُ الذي لا إله إلاّ هو} ، كرر لإبراز الاعتناء بأمر التوحيد ، {الملكُ} ؛ المتصرف بالإطلاق ، الذي لا يزول مُلكه أبدًا ، {القدوسُ} ؛ البليغ في النزاهة عما لا يليق به. وقُرِىء بالفتح ، وهي لغة فيه ، {السلام} ذو السلامة من كل نقص ، أو : الذي يَسلم الخلق من ظلمه ، أو : ذو السلام على أوليائه يوم القيامة ، {المؤمنُ} ؛ واهب الأمْن ، أو : المؤمن مِن عذابه مَن أطاعه ، أو المصدِّق لعباده إذا وحّدوه ، أو : المصدِّق للرسل بالمعجزات ، {المهيمِنُ} ؛ الرقيب الحافظ لكل شيء مُفَيْعِل ، من : الأمن ، بقلب همزته هاء ، {العزيزُ} ، الغالب الذي لا يُغلب ، {الجبَّارُ} الذي جَبَرَ خلقه على ما أراد ، أو : جبر أحوالهم ، أي : أصلحها ، {المتكبّر} الذي تكبّر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصًا ، أو : البليغ الكبرياء والعظمة. {سبحان الله عما يشركون} ، نزَّه ذاته عما يصفه به المشركون إثر تعداد صفاته التي لا يمكن أن يُشارَك في شيءٍ منها أصلاً.

{هو اللهُ الخالقُ} ؛ المقدّر للأشياء على مقتضى حكمته ، {البارىء} ؛ الموجد لها بريةً من التفاوت ؛ وقيل : المميِز بعضها من بعض بالأشكال المختلفة ، {المُصَوِّر} ؛ الموجد لصورها وكيفيتها كما أراد. قال الغزالي : الخالق من حيث إنه مُقدِّر ، البارىء من حيث إنه مُوجد ، المصوِّر ، مِن حيث أنه مُصَوِّر صور المخترعات أحسن ترتيب ، ومُزيّنها أحسن تزيين. هـ. قلت : وحاصل كلامه : أن الخالق يرجع للإرادة ، والبارىء للقدرة ، والمُصَوِّر للحكمة ، والأحسن : أن يُقال : إنّ الخالق : المخترع للأشياء من غير أصل ، البارىء : المهيىء كلَّ ممكن لقبول صورته ، فهو من معنى الإرادة ؛ إذ متعلّقه التخصيص ، المُصَوِّر : المُعطي كل مخلوق ما هيىء له من صورة وجوده بحكمته ، فهو معاني اسمه " الحكيم ".

}

له الأسماءُ الحسنى} لدلالتها على المعاني الحسنة ، وتقدم عدها في آخر الإسراء. {يُسبح له ما في السمواتِ والإرض} ؛ ينطق بتنزيهه عن جميع النقائص تنزيهًا ظاهرًا ، {وهو العزيزُ} لا يُغلب ، {الحكيمُ} الذي لايمكن الاعتراض عليه في شيء من تقديراته. ختم السورة بما بدأ به من التسبيح. عن

أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : سألت حبيبي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم ؟ فقال : " عليك بآخر الحشر ، فأَكْثِر قراءته " ، فأعدتُ عليه ، فأعاد عليّ فأعدت عليه ، فأعاد عليّ ، وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَن قال حين يُصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع

١٨

العليم ، من الشيطان الرجيم ، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وكّلَ اللهُ سبعين ألف ملك يُصلُّون عليه حتى يُمسي ، فإذا مات في ذلك اليوم مات شهيدًا ، ومَن قالها حين يُمسي كان بتلك المنزلة " رواه الترمذي. وأسند ابن جزي حديثًا إلى عبد الله بن مسعود : أنه قال : قرأتُ على النبي صلى الله عليه وسلم فلما انتهيت إلى آخر الحشر ، قال : " ضع يدك على رأسك " قلت : ولِمَ ذلك يا رسول الله ؟ قال : " أقرأني جبريلُ القرآنَ ، فلما انتهيت إلى آخر الحشر ، قال : ضع يدك على رأسك يا محمد ، قلت : ولمَ ذاك ؟ قال : إن الله تبارك وتعالى افتتح القرآن فضرب فيه ، فلما انتهى إلى آخر الحشر ، أمر الملائكة أن تضع يدها على رؤوسها ، فقالت : يا ربنا ولِمَ ذلك ؟ قال : لأنه شفاء من كل داء إلا السام " وسمعتُ من شيخنا الفقيه الجنوي أنه حديث ضعيب ، يعمل به الإنسان وحده ، فإذا كان مع الناس تركه ، لئلا تعتقد العامة أنه مندوب أو واجب. هـ.

الإشارة : قد ذكرنا في تفسير الفاتحة الكبير كيفية التعلُّق والتخلُّق والتحقُّق بهذه الأسماء. وقال الورتجبي : بيّن بقوله : " الأسماء " أنَّ لذاته النعوت والأسامي القديمة المقدسة عن الإشراك والإدراك ، فلما ظهر بهذه الأوصاف أظهر أنوار صفاته في الآيات ، وألبس أرواح نوره الأرواح والأشباح والأعصار والأدهار والشواهد والحوادث ، فسبّحه الكلُّ بألسنة نورية غيبية صفاتية ، لقوله : {يُسبح له...} الآية ، قلت : أرواح نوره هي أسرار ذاته اللطيفة السارية في الأشباح والأرواح والجمادات وجميع الموجودات ، التي بها قامت. قال : ثم بيّن أنه منزّه بتنزيهه عن تنزيههم وإدراكهم وعلمهم بقوله : {وهو العزيز الحكيم} العزيز عن الإدراك ، الحكيم في إنشاء الأقدار. تعالى الله عما أشار إليه الواصف الحدثاني واللسان الإنساني. هـ.

١٩

(٢١/٨)

سورة الممتحنة

(٢٢/٨)

يقول الحقّ جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوّكم أولياء} أي : أصدقاء ، نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، وذلك أنه لمّا تجهز رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لغزوة الفتح ، كتب إلى أهل مكة ، إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرديكم ، فخُذوا حِذركم. وفي رواية : كتب : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يسير إليكم بجيشٍ كالليل ، يسيل كالسيل ، فالحذرَ الحذرَ ، وأرسله مع " ساره " مولاة بني المطلب ، وقيل : كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط ، فنزل جبريلُ عليه السلام بالخبر ، فبعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليًّا وعمّاراً ، وطلحة ، والزبير ، والمقداد ، وأبا مرثد ، وقال : " انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإنّ بها ظعينة ، معها كتاب إلى أهل مكة ، فخذوه منها ، وخلُوها ، فإن أبتْ فاضربوا عنقها " فأدركوها ثمة ، فجحدت ، فسلّ عليٌّ سيفه ، فأخرجته من عِقاصِها. زاد النسفي : أنه عليه السلام أمَّن يوم الفتح جميعَ الناس إلاّ أربعة ، هي أحدهم ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً ، وقال : " ما حملك على

هذا " ؟ فقال : يا رسول الله! ما كفرتُ منذ أسلمتُ ، ولا غششتُ منذ نصحتُ ، ولكني كنتُ امرءاً مُلْصَقًا في قريش ، ليس لي فيهم مَن يحمي أهلي ، فأردتُ أن أتخذ عندهم يداً ، وعملتُ أن كتابي لا يُغني شيئاً ، فصدّقه صلى الله عليه وسلم ، وقَبِلَ عُذره ، فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه سلم : " وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم " ففاضت عينا عمر رضي الله عنه ، أي : من بكاء الفرح. والعَدُو : فَعُول ، من : عدا ، ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد. وفي الآية دليل على أنّ الكبيرة لا تسلب الإيمان.

(٢٣/٨)

وقوله : {تُلْقُونَ إليهم بالمودةِ} : حال ، أي : لا تتخذوهم أولياء مُلقين إليهم ، أو : استئناف ، أو : صفة لأولياء ، أي : توصلون إليهم المودة ، على أن الباء زائدة ، كقوله : {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة : ١٩٥] ، أو : تُلقون إليهم أخبارَ النبي صلى الله عليه وسلم بسبب المودة التي بينكم وبينهم ، فتكون أصلية. {وقد كفروا بما جاءكم من الحق} : حال من فاعل " تتخذوا " أو " تُلقون " ، أي : لا تتولوهم ، أو : لا تودوهم وهذه حالتهم يكفرون {بما جاءكم من الحق} ؛ الإسلام ، أو : القرآن ، جعلوا ما هو سبب الإيمان سبب الكفر. {يُخرجون الرسولَ وإياكم} من مكة ،

وهواستئناف مُبيِّن لكفرهم وعتوهم ، أو حال من "كفروا ". وصيغة المضارع لاستحضار الصورة. وقوله : {أن تؤمنوا بالله ربِّكم} تعليل للإخراج ، أي : يُخرجونكم لإيمانكم ، {إن كنتم خرجتمْ جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي} ، هو متعلق بـ " لاتتخذوا "كأنه قيل : لا تودُّوا أعدائي إن كنتم أوليائي.

{تُسِرُّون إليهم بالمودةِ} أي : تُفضون إليهم بمودتكم سرًّا ، أو تُسِرُّون إليهم أسرارَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بسبب المودة ، وهو استئناف وارد على نهج العتاب والتوبيخ. {وأنا أعلمُ} أي : والحال أني أعلم منكم {بما أخفيتم وما أعلنتم} ومُطلِع رسولي على ما تُسِرُّون ، فإني طائل لكم في الإسرار ، وقيل : الباء زائدة ، و " أعلم " مضارع و " ما " موصولة ، أو مصدرية. {ومَن يَفْعله منكم} أي : الاتخاذ {فقد ضَلَّ سواء السبيل} ؛ فقد أخطأ طريق الحق والصواب.

{إن يَثْقفوكم} أي : يظفروا بكم {يكونوا لكم أعداءً} أي : يُظهروا ما في قلوبهم من العداوة ، ويُرتبوا عليها أحكامها ، {ويبسُطُوا إليكم أيديَهم وألسنتهم بالسوء} ؛ بما يسوؤكم من القتل والأسر. {ووَدُّوا لو تكفرون} أي : تمنُّوا ارتدادكم. وصيغة الماضي لتحقُّق ودادهم قبل أن يثقفوكم.

{لن تنفَعَكُم أرحامُكُم} ؛ قراباتكم {ولا أولادُكم} الذين تُوالون المشركين لأجلهم ، وتتقرّبون إليهم محاماةً عليهم ، {يومَ القِيامة يَفْصِلُ بينكم} وبين أقاربكم

٢١

وأولادكم ، بما اعتراكم من أهوال ذلك اليوم ، حسبما نطق به قوله تعالى : {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ...} [عبس : ٣٤-٣٦] الآيات ، ويحتمل أن يكون ظرفًا لـ " تنفعكم " ، أي : لا تنفعكم أقاربكم يوم القيامة ، ثم استأنف بقوله : {يفصل بينكم} لبيان عدم نفعهم. وهنا قراءات بيّنّاها في غير هذا.

{والله بما تعملون بصير} فيجازيكم على أعمالكم.

(٢٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠

الإشارة : أعدى الأعادي إليك نفسك ، فهي عدوة لله ولرسوله ولأوليائه ؛ لأنها أمّارة بالسوء ، ويُضاف إليها جنودها ، فيقال {يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء} ، من النفس وجنودها ، تُلقون إليهم بالمودّة والموافقة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق من طريق المجاهدة ، يُخرجون الرسول : الوارد الحقيقي ، أو الإيمان العياني ، من قلوبكم ، ويُخرجونكم من الحضرة كراهةَ أن تُؤمنوا بالله ربكم إيماناً حقيقيًّا ، إن كنتم خرجتم عن هواكم جهادًا في سبيلي ، وابتغاء مرضاتي ومعرفتي ، تُسِرُّون إليه بالمودة والموافقة ، وأنا أعلم بما أخفيتم من الميل إلى حظوظها ، وما أعلنتم ، ومَن يفعله ـ أي : الميل عن طريق المجاهدة ـ فقد ضلّ سواء السبيل ؛ طريق الوصول ، فقد قيل : " مَن رأيته يتبع الرُخص

والشهوات ، فاعلم أنه لا يأتي منه شيء ". لن تنفعكم أقاربكم ولا حظوظكم ، بدلاً من الله شيئًا " ماذا وجَدَ من فقدك " ، فالحظوظ الفانية تفنى وتبقى الحسرة والندامة. يوم القيامة يفصلُ بينكم وبينها ؛ لفنائها ، أو بينكم وبين ما تشتهون من دوام النظرة ، والله بما تعملون بصير ، فيُجازي على قدر الكدّ والتعب.

(٢٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠

يقول الحق جلّ جلاله : {قد كانت لكم أُسوةٌ} أي : قدوة {حسنةٌ} أو : خصلة حميدة ، حقيقة بأن يُرتقى بها ويُقتدى ، كائنة {في إبراهيمَ والذين معه} من أصحابه المؤمنين ، أو : الأنبياء المعاصرين له ، وقريبًا من عصره ، ورجّحه الطبري وغيره ؛ لأنه لم يروا لإبراهيم أتباع مؤمنون وقت مكافحته نمرودًا. وقد قال لسارة ، حين رحل بها إلى الشام : " ليس على وجه الأرض مَن يعبد الله غيري وغيرك ". {إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ} ، جمْع بريء ، كظريف وظرفاء ، أي : نتبرأ منكم {ومما تعبدون من دون الله} من الأصنام ، {كَفَرنا بكم} أي : بدينكم ، أو : معبودكم ، أو : بكم وبأصنامكم ، فلا نعتد
٢٢
بشأنكم وبآلهتكم ، {وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبداً} أي : هذا دأبنا أبداً {حتى تُؤمنوا بالله وَحْدَه} وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك ، فتنقلب العداوة حينئذ ولاية ، والبغضاء محبة.
وحاصل الآية : أنّ الحق تعالى يقول : إن كانت عداوة الكفار لكم إنما هي لأجل إيمانكم بالحق ، فعادوهم أنتم ، وكافحوهم بالعداوة ، وأَظْهِروا البغضاء لهم والمقت ، وصَرِّحوا أنّ سبب العداوة ليس إلاّ كفركم بالله ، وما دام هذا السبب قائمًا كانت العداوة ، حتى إن أزلتموه انقلبت العداوةُ مولاةً ، وأنتم مقتدون في ذلك بالخليل عليه السلام وسائر الأنبياء ، حيث كافحوا الكفارَ بالعداوة ، وتوكّلوا على الله.
قال ابن عطية : هذه الأسوة مقيّدة بالتبرِّي من المشركين وإشراكهم ، وهو مطرد في كل ملة ، وفي نبينا صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة على الإطلاق ، في العقائد وفي أحكام الشرع. هـ.

(٢٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢

فلكم أسوة فيمن تقدّم. {إلاَّ قولَ إبراهيمَ لأبيه لأَستغفرنَّ لك} ، وذلك لموعدةٍ وعدها إياه ، أي : اقتدوا به في كل شيء ، ولا تقتدوا به في استغفاره لأبيه الكافر. واستغفاره عليه السلام لأبيه الكافر

جائز عقلاً وشرعاً قبل النهي ، لوقوعه قبل تبيُّن أنه من أصحاب الجحيم ، لكنه ليس مما ينبغي أن يُؤتسى به أصلاً. {وما أَمْلِكُ لك من الله من شيءٍ} أي : من هداية ومغفرة وتوفيق. وهذه الجملة من تمام قول المستثنى ، كأنه قال : أستغفرُ لك وما في طاقتي إلاّ الاستغفار ، إظهاراً للعجز وتفويضاً للأمر. {ربنا عليك توكلنا وإليك أَنَبْنا} أي : أَقبلنا ، {وإليك المصيرُ} ؛ المرجع ، وهو من تمام ما نقل عن إبراهيم عليه السلام ومَن معه مِن الأسوة الحسنة ، وهو راجع لِما قبل الاستثناء ، قالوه بعد المهاجرة ونشر البغضاء ، التجاء إلى الله تعالى في جميع أمورهم ، لا سيما في موافقة الكفرة ، وكفاية شرورهم ، وقيل : معناه : قولوا ، فيكون أبتداء كلام خطاباً لهذه الأمة ، وضعّفه أبو السعود. وتقديم المعمول لقصر التوكُّل والإنابة والمصير عليه تعالى.

{ربنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا} بأن تُسلطهم علينا ، فيفتنونا بعذاب لا نُطيقه ، {واغفر لنا} ما فرط منا ، {ربنا إنك أنت العزيزُ} الذي لا يذلّ مَن التجأ إليه ، ولا يخيب رجاء مَن توكل عليه ، {الحكيمُ} الذي لا يفعل إلاَّ ما فيه حكمة بالغة. وتكرير النداء للمبالغة في التضرُّع والالتجاء.

{لقد كان لكم فيهم} ؛ في إبراهيم ومَن معه {أُسوةٌ حسنةً} ، تكرير للمبالغة في الحث على الاقتداء به ، ولذلك صدّره بالقسم. وقوله : {لِمَن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخر} بدل من " لكم " ، وحكمته : الإيذان بأن مَن يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم ، وأنّ تركه مخلّ بالإيمان بهما ، كما ينبىء عنه قوله تعالى : {ومَن يتولَّ فإنَّ اللهَ هو الغنيُّ الحميدُ} ، فإنه إنما يُوعَد بأمثاله الكفرة ، أي : هو الغني عن الخلق ، الحميد المستحق للحمد وحده.

٢٣

الإشارة : ينبغي للمريد أن يكون إبراهيميًّا ، يتبرأ من كل ما يشغله عن الله ، أيًّا مَن كان ، ويظهر العداوة والبغضاء لكل مَن يقطعه عن مولاه ، حتى يوافقه على طريقه وسيرته ، إلاّ على وجه النصيحة والدعاء إلى الله ، إن كان أهلاً لذلك ، فيُذَكِّر مَن خالفه في طريقه ، فإن أيس منه استغفر له ، ودعا له بالهداية ، مُقرًّا بالعجز عن هدايته وتوفيقه ، ثم يلتجىء إلى مولاه في جميع أموره ، ويتحصّن بالله من فتنة أهل الظلم والغفلة. والله غالب على أمره.

(٢٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢

يقول الحق جلّ جلاله : {عسى اللهُ أن يجعلَ بينكم وبين الذين عادَيْتم منهم} ؛ من أقاربكم المشركين ، {مودةً} بأن يُوافقوكم في الدين. وَعَدهم بذلك لما رأى منهم من التصلُّب في الدين ، والتشديد في معاداة أقربائهم ، تطييباً لقلوبهم ، ولقد أنجز وَعْدَه الكريم ، فأسْلَم كثير منهم يوم فتح مكة ، فتصافوا ،

وتوادوا ، وصاروا أولياء وإخواناً ، وخالَطوهم وناكَحوهم. و " عسى " من الله واجبة الوقوع. {واللهُ قديرٌ} أي : مبالغ في القدرة على تغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة ، {واللهُ غفور رحيم} ، فيغفر لمَن أسلم من المؤمنين ويرحمهم ، أو : غفور لما فَرَط منكم من مولاتهم قبلُ ، وما بقي في قلوبكم من ميل الطبع إلى الرحم بعدُ ، رحيم لمَن لم تبقَ فيه بقية.

الإشارة : عسى الله أن يجعل بينكم وبين نفوسكم ، التي عاديتموها وخالفتموها ، وقطعتم مواد هواها ، مودةً ، حين تتهذّب وتتأدّب وترتاض بالمجاهدة ، فالواجب حينئذ البرور بها ، والإحسان إليها ، لأنها انقلبت روحانية ، تصطاد بها العلوم اللدنية ، والمعارف الربانية ، وفيها يقول شيخ شيوخنا ، سيدي عبد الرحمن المجذوب رضي الله عنه :

سايس من النفس جهدك

صبّح ومس عليها

لعلها تدخل في يدك

تعود تصطاد بها

فالآية تسلية وترجية لأهل المجاهدة من السائرين دون الواصلين ؛ فإنّ المجاهدة لا تكون إلاّ قبل المشاهدة ، أو : تكون تسلية لهم عند مقاطعة أقاربهم وعشائرهم ، حين فرُّوا عنهم لله ، بأن يهديهم الله ، حتى يوافقوهم على طريقهم. وبالله التوفيق.

(٢٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٣

يقول الحق جلّ جلاله : {لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تَبروهم} أي : لا ينهاكم عن البر بهؤلاء ، فـ " أن تبروهم " : بدل من الموصول ، {وتُقْسِطوا إليهم} أي : تقضوا إليهم بالقسط ، أي : بالعدل ، ولا تظلموهم ، وإذا نهى عن الظلم في حق المشرك ، فكيف في حق المسلم ؟ {إن اللهَ يُحب المُقسِطين} ؛ الحاكمين بالعدل ، رُوِي أن " قُتَيلةَ بنت عبد العزى " قَدِمَتْ مشركة على بنتها " أسماء بنت أبي بكر " رضي الله عنه ، بهدايا ، فلم تقبلها ، ولم تأذن لها بالدخول فنزلت ، وأمرها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن تقبل منها ، وتُكرمها ، وتُحسن إليها. وقيل : المراد بهم خزاعة ، وكانوا صالحوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ألاّ يقاتلوه ، ولا يُعينوا عليه. قال المحلي : وهذا قبل الأمر بجهادهم. ومثله لابن عطية ، فإنه نقل الخلاف ، ثم قال : وعلى أنها في الكفار فالآية منسوخة بالقتال. هـ.

قال الكواشي : نزلت رخصة في صلة الذين لم يُعادوا المؤمنين ولم يُقاتلوهم. ثم قال : وفي هذه الآية

دلالة على جواز صلة الكفار ، الذين لم ينصبوا لحرب المسلمين ، وبِرهم ، وإن انقطعت الموالاة بينهم. هـ. قال القشيري : مَن كان فيهم حُسن خُلق ، أو للمسلمين منهم رِفْق ، أُمروا بالملاينة معهم ، شاهد هذه الجملة : " إنَّ الله يُحب الرِّفق في الأمر كله ". هـ. المحشي. وهذا : فيما لا ضرر فيه للمسلمين ، وفي المدارك : حكى الدارقطني أنَّ عبدَ وزيرِ المعتضد دخل على القاضي إسماعيل ، وكان نصرانيّاً ، فقام له ورحّب به ، فرأى إنكار مَن عنده ، فقال : علمت إنكاركم ، وقد قال تعالى : {لا ينهاكم الله...} الآية ، وهذا رجل يقضي حوائج المسلمين ، وهو سفير بيننا وبين المعتضد ، وهذا مَن البر ، فسكت الجماعةُ عند ذلك. هـ. قال البرزلي : ولعله رأى ذلك ضرورة ، وتأنّس بظاهر الآية ، وخاف مِن أذاه إن لم يفعل ذلك. هـ.

(٢٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤

وفي حديث الجامع : " بُعثتُ بمداراة الناس " ، قيل : والفرق بينها وبين المداهنة : أنَّ المداهنة : إظهار الرضا بفعل الفاسق من غير إنكار عليه ، والمداراة : هي الرفق في تعليم الجاهل ، والملاطفة في نهي الفاسق عن فعله ، وقد قال تعالى : {فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا} [طه : ٤٤] ، وقيل : المداهنة : ترك الدين بالدنيا ، والمداراة : بيع الدنيا بحفظ الدين.

وقد عَدّ السهروردي في " الآداب " مِن رُخص الصوفية : التكلُّف مع أبناء الدنيا

٢٥

والرؤساء والسلاطين ، والقيام لهم ، وحسن الإقبال عليهم ، والأدب في ذلك : إلاّ يكون طمعاً في دنياهم ، ولا اتخاذ جاه عندهم كان صلى الله عليه وسلم يدخل عليه سادات قريش فيُكرمهم ، ويُجلهم ، ويُحسن مجالستهم ، وقال : " إذا أتاكم كريم قوم فأكرِموه " هـ. وانظر الأصل الرابع والثمانين في إنزال الناس منازلهم ، فقد ذكر فيه : أن العاقل عن الله يُعاشر الناس على ما دبَّر الله لهم ، فالغَنِيّ قد أكرمه الله كرامةَ ابتلاء ، كما ذكر في تنزيله ، فإذا لم تُنزله المنزلةَ التي أنزله الله فيها ، فاستهنت به ، وحقّرته من غير جرم استحق بذلك الجفاء ، فقد تركتَ موافقة الله في تدبيره ، وأفسدت عليه دينه وأثمتَه ، وكذلك معاملة الملوك والوُلاة على هذا السبيل ، فإذا عاملت الملوك والسلاطين بمعاملة الرعية ، فقد استخففت بحق السلطان ، وكيف يجوز أن تستخف بحقه ، والسلطان ظل الله في الأرض ؟ به تسكن النفوس ، وتجمع الأمور ، والناظر إلى ظل الله عليهم في الشغل عن الالتفات إلى أعمالهم.

ثم ذكر أنّ ضد ما ذكر مِن ضعف المعرفة واليقين ، وعدم التخلُّص من النفس ، فلم تكن لقوتِهم مطالعة ما ذكر ، فخافوا على نفوسهم من مخالطتهم أن يجدوا حلاوة بِرهم ، فتخلط قلوبُهم بقلوبهم ،

فجانبوهم ، والآخرون نظروا إليهم بغير الجمع ، فشغلوا بما ألبسَهم مِن ظله عن جميع ما هم فيه ، فلم يضرهم اختلاطهم بهم. وبهذه القوة كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقون الأمراء ، الذين قد ظهر جَوْرهم ، ويقبلون جوائزهم ، فكان ابن دينار ومحمد بن واسع ، ومَن قبلهم ، والحسن البصري ، يلقون الأمراء ويَقبلُون منهم ، فكانوا يلقونهم بما ذكر من رؤية ظل الله عليهم ، ويُظهرون العطف عليهم والنصيحة لهم.

ثم وَجَّه حديثَ ابن عباس : " ملعون مَن أكرم بالغنى وأهان بالفقر " فإنَّ معناه : مَن عظَّم الدنيا وعظَّم أهلها ، فأمّا مَن دقت الدنيا في عينه ، يرى أهلَها مُبْتَلون بها ، بما تقتضيه من القيام بالشكر ، ثم غرقه في حِسَابه ، فيرحمه كما يرحم الذي ذهب به السيل ، ويكرمه ، ويبره بما عَوّده الله ، وأبقاه على دينه ، لئلا يَفسد ، فذلك فعل الأنبياء والأولياء ، وبذلك وصَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه " فهو إنما يُكرم لله ويهين لله ، لا للدنيا ، ومن فعل ذلك للدنيا كان ملعونًا ، ثم ذكر حديث : " مَن أُعطي حظه من الرفق أُعطي حظَّه من خير الدنيا والآخرة ، من حُرمه حُرم كذلك " ، ثم ذكر قصة نسْطُور

٢٦

صاحب ابن مريم عليه السلام ورفقه وتلطُّفه مع ذلك الملك الذي سجن صاحبيْه ، حتى استخلصهما منه برفق ، وأعلم الملكَ وجميعَ الناس في قضية عجيبة ، فعليك بها.

}

(٣٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤

إِنما ينهاكم اللهُ عن} موالاة {الذي قاتلوكم في الدين وأَخْرَجوكم من دياركم} ، وهم عتاة أهل مكة ، {وظاهَرُوا} أي : عاوَنُوا {على إِخراجكم} وهم سائر أهلها ، {أن تَوَلَّوْهم} : بدل اشتمال من الموصول ، والمعنى : لا ينهاكم عن مبرة مَن لم يتعرّض لكم ، إنما ينهاكم عمّن أذاكم {أن تَولَّوهُم ومَن يتولهمْ فأولئك هم الظالمون} حيث وضعوا التولي في غير موضعه. الإشارة : لا ينهاكم الله عن النفوس المطيعة ، التي لم تصدكم عن السير إلى الحضرة ، أن تبرُّوا بها ، وترفقوا بها ، إنما ينهاكم عن النفوس الفاجرة ، التي قاتلتكم ، وصدّتكم عن الحضرة ، وأخرجتكم عن دائرة الولاية ، باتباع هواها أن تولوها ، وتسعوا في حظوظها وهواها ، ومَن يتولها ، وبقي في رِقِّها ؛ فقد ظلم نفسه وبخسها ، حيث حرمها نعيمَ الحضرة. أو : لا ينهاكم الله عن بعض العامة ، التي لا مضرة فيهم ، أن تبرهم بالوعظ والتذكير ، وتُقسطوا إليهم بقول الإحسان ، إنما ينهاكم عن أهل الإنكار المخالفين لكم ، من الجبابرة الغافلين ،

والقراء المداهنين ، والعلماء المتجبرين ، والفقراء الجاهلين ، أن تولوهم ؛ فإنَّ مخالطتهم سم قاتل للمريد ، ومَن يتولهم لا يُفلح أبدًا.

قلت : {إذا جاءكم المؤمناتُ} إنما حُذفت تاء التأنيث للفصل بالمفعول ، ورُدّ بأنّ الحذف مع الفصل بغير " إلاّ " مرجوح ، والصواب : أنه على حذف الموصوف ، أي : النساء المؤمنات ، وهو اسم جمع ، يجوز في الأمران ، كقوله تعالى : {وَقَالَ نِسْوَةٌ...} [يوسف : ٣٠].

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمناتُ} أي : مُشْرِفات على الإيمان ونَطَقْن بالشهادة ، وإنما ظهر بعد الامتحان ، {مُهاجراتٍ} من بين الكفار ، {فامْتَحِنُوهن} ؛ فاختبروهن بما يغلب على ظنكم موافقة قلوبهن للسانهن. كان صلى الله عليه وسلم

٢٧

يستحلفهن : ما خرجن من بُغض زوْج ، ولا رغبة من أرض إلى أرض ، ولا التماسَ دُنيا ، ولا عشقًا لرجل منا بل حبًّا لله ورسوله. وقد كان صلى الله عليه وسلم صالح أهلَ مكة على أنَّ مَنْ أسلم منهم يَرُده إليهم ، فجاءت " سُبيْعَةُ بنت الحارث " مُسْلِمةً بعد الفراغ من الكتاب ، فقال زوجها : اردد عليّ امرأتي ، فنزلت ، فاستحلفها صلى الله عليه وسلم بما تقدّم ، فحلفت ، فلم يردها عليه ، وأعطى مهرها زوجَها ، فتزوجها عمرُ ، فكان صلى الله عليه وسلم يَرُد مَن جاء من الرجال ، ولا يَرُد النساء. وعن ابن عباس : امتحانها : أن تقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمدًا رسول الله.

{اللهُ أعلم بإيمانهن} ، لأنه المُطّلع على قلوبهن. وفيه إشارة إلى التخفيف في الامتحان ، وأنه ليس المطلوب غايته لتصلوا إلى العلم ، بل ما يحصل به الظن القوي ، وأما العلم فخاص بالله تعالى. {فإن عَلِمْتُموهن مؤمناتٍ} ، العلم الذي تبلغه طاقتكم ، وهو الظن القوي ، بظهور الأمارات. وتسمية الظن علمًا يُؤذن بأنَّ الظن الغالب ، وما يفضي إليه القياس ، جارٍ مجرى العلم ، وصاحبه غير داخل في قوله : {وَلآ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء : ٣٦]. قاله النسفي. {فلا تَرْجِعُوهنَّ إلى الكفار} أي : إلى أزواجهن الكفرة ، {لا هُنَّ حِلٌّ لهم ، ولا هم يَحِلُّونَ لهن} ، تعليل للنهي ، أي : حيث خرجت مسلمة حَرُمت على المشرك. والتكرير إما لتأكيد الحرمة ، أو الأول : لبيان زوال النكاح الأول ، والثاني : لبيان امتناع النكاح الجديد ، ما دام مشركاً ، فإنْ أسلم في عِدتها كان أولى بها.

}

وآتوهم ما أنفقوا} أي : أعطوا أزواجَهن مثلَ ما دفعوا من المهور ، {ولا جُناحَ عليكم أن تَنكحوهن} ، فإنَّ إسلامهن حالَ بينهن وبين أزواجهن الكفار ، {إِذا آتيتموهن أُجورهنَّ} ؛ مهورهن ؛ لأنّ المهر أجر البُضْع ، وبه احتجّ أبو حنيفة على ألاّ عِدَّة على المهاجِرة. قال الكواشي : أباح تعالى نكاحهن وإن كان لهن أزواج في دار الحرب ؛ لأنَّ الإسلام فرّق بينهن وبين أزواجهن بعد انقضاء العدة ، فإن أسلم الزوج قبل انقضاء العدة فهي امرأته عند مالك والشافعي وأحمد ، خلافاً لأبي حنيفة في غير الحامل. هـ. {ولا تُمسكوا بِعِصَم الكوافرِ} ، العصمة : ما يعتصم به من عقدٍ وسبب. والكوافر : جمع كافرة ، وهي التي بقيت في دار الحرب ، أو : لحقت بدار الحرب مرتدةً ، أي : لا يكن بينكم وبين النساء الكوافر عصمة ولا عُلقة زوجية. قال ابن عباس رضي الله عنه : مَن كانت له امراة كافرة بمكة فلا يعتَدنَّ بها من نسائه ؛ لأنَّ اختلاف الدارين قطع عصمتها منه. ولمّا نزلت الآية طلَّق عمرُ رضي الله عنه امرأتين كانتا له بمكة ، قُرَيْبَة بنت أبي أمية ، وأم كلثوم الخزاعية.

{واسألوا ما أنفقتم} من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار ، أي : اطلبوه من الكفرة ، {وَلْيَسْألوا ما أنفقوا} من مهور نسائهم المهاجرات ممن تزوجها منا. {ذلكم حُكْمُ الله} أي : جميع ما ذكر في هذا الآية. وقوله : {يحكم بينكم} : كلام مستأنف أو : حال من " حُكم الله " على حذف الضمير ، أي : يحكمه الله ، وجعل الحُكْم حاكماً على

المبالغة وقال : " يحكم " مستقبلاً ، مع أن الحكم ماضٍ باعتبار ظهور متعلقة ، {واللهُ عليم حكيمٌ} يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة.

رُوي أنه لمّا نزلت الآية أدّى المؤمنون ما أُمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهن من المشركين ، وأبى المشركون أن يردُّوا شيئًا من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين ، فنزل قوله تعالى : {وإن فاتكم} أي : سبقكم وانفلت منكم {شيءٌ من أزواجكم إلى الكفار} أي : أحَدٌ من أزواجكم ، وقرىء به. وإيقاع " شيء " موقعه للتحقير والتعميم ، {فعاقبتم} ، من المعاقبة ، لا من العقوبة ، أي : صرتم منهم إلى الحال التي صاروا إليها منكم ، وذلك بأن يفوت إليكم شيء من أزواجهم ، شبّه ما حكم به على المسلمين والكافرين ، من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة ، وأداء هؤلاء مهور نساء هؤلاء أخرى ، بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره. {فآتوا الذين ذهبتْ أزواجُهم} منكم إلى الكفار {مثلَ ما أنفقوا} ، تُعطوه من مهر المهاجرة التي تزوجتموها ، ولا تؤتوا زوجها الكافر شيئًا ، أي : ما كنتم تُعطونه للكفار من مهور أزواجهم المهاجرات أعطوه لمَن فاتت زوجته ولحقت بالكفار ، فأزال الله دفعها إليهم ، حين لم يرضوا بحُكمه ، على أنّ هذا حكم قد نُسخ. قال ابن عطية : وهذه الآية كلها قد

ارتفع حكمها. هـ. وذكر الكواشي الخلاف في النسخ وعدمه ، وأنَّ رد المال مستمر ، وذكر الخلاف في أنَّ الإنفاق كان على الوجوب أو الندب. هـ.

(٣٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧

وقيل : معنى " فعاقبتم " من العقوبة ، أي : فأصبتموهم في القتال ، حتى غنمتم ، فأعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم ، ولحقْن بدار الحرب مهورَ زوجاتهم من هذه الغنيمة. قال ابن عباس : خمس نسوة رجعن عن الإسلام ، ولحقن بالمشركين ، من نساء المهاجرين : أم الحكم بنت أبي سفيان ، وكانت عند عياض بن شداد ، وفاطمة بنت أبي أمية ، أخت أم سلمة ، وكانت تحت عمر بن الخطاب ، وعزةُ بنت عبد العزى ، كانت تحت هشام بن العاص ، وأم كلثوم بنت جرول ، كانت تحت عمر أيضًا ، فأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة. هـ. {واتقوا اللهَ الذي أنتم به مؤمنون} أي : احذروا أن تتعدُّوا ما أُمرتم به ؛ فإن الإيمان يقتضي فعل ما أمر به صاحبه.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص ، وهم المشايخ العارفون ؛ إذا جاءكم النفوس المؤمنه بطريقكم ، وأرادوا الانخراط في سلككم ، فامتحنوهن ، هل هي صادقة الطلب ، أو تريد حرفًا من حروف الهوى ، فإن علمتم صدقهن ، فلا تردجعوهن إلى أهل الغفلة ، سيما أهل الإنكار ؛ إذ لا يحل مخالطتهم في طريق الخصوص ، وآتوهم من العلوم والمعارف عِوض ما أنفقوا من أنفسهم وأموالهم ، ولاجناح عليكم أن تعقدوا عليهم عقدة الإرادة ، التي هي كعقدة النكاح إذا آتيتموهن أجورهن ، وهو أن تبذلوا لهم ما عندكم من

٢٩

السر ، قدر ما يطيقون ، ومن نقض العهد ورجع عن الإرادة فلا تُمسكوا بعصمته ، وأطلقوه مع نفسه ، فإن سألكم شيئًا مما كان بذل فسلوه عوض ما بذلتم له من العلم ، وإن رجع أحد منكم إلى أهل الإنكار ، ثم جاء أحد منهم إليكم فآتوه من العلم ما آتيتم مَن فرّ منكم ، واتقوا الله الذي توجهتم إليه ، فلا تُعطوا السر مَن لا يستحقه ، ولا تمنعوه من مستحقه. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

(٣٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها النبي إذا جاءك المؤمناتُ} حال كونهن {يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ

بِاللهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أوْلادَهُن} ، يريد : وأد البنات ، {وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ} ، كانت المرأة تلتقط المولود ، فتقول لزوجها : هو ولدي منك. كنَّى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً ؛ لأنّ بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذي تلد منه بين الرِجلْين. {ولا يَعْصِينَكَ في معروفٍ} أي : فيما تأمرهن من معروف ، وتنهاهن عن منكر. والتعبير بالمعروف مع أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلاّ به ؛ للتنبيه على أنه لا تجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق. وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر في حقهن ؛ لكثرة وقوعها فيهن.
{فبايِعْهُنَّ} على ما ذكر وما لم يذكر ؛ لوضوح أمره ، {واسْتَغفِرْ لهنَّ اللهَ} فيما مضى ، {إِنَّ الله غفور رحيمٌ} أي : مبالغ في المغفرة والرحمة ، فيغفر لهن ويرحمهن إذا وَفَّيْن بما بايعن عليه.
رُوي : أنه صلى الله عليه وسلم لمّا فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال ، أخذ في بيعة النساء ، وهو على الصفا ، وعُمرُ قاعد أسفل منه ، يُبايعهنّ عنه بأمره ، وهند بنت عتبة . امراة أبي سفيان . متقنّعه متنكّرة مع النساء ، خوفًا من النبي صلى الله عليه سلم أن يعرفها ، فقال صلى الله عليه وسلم : " أبايعكن على ألا تُشركن بالله شيئًا " فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا شيئًا ما رأيتك أخذته على الرجال . لأنه عليه السلام بايع الرجال على الإسلام والجهاد فقط . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ولا تسرقن "
فقالت هند : إنّ أبا سفيان رجل شحيح ، وإني أصَبتُ منم ماله هَنَاتٍ ، فقال أبو سفيان : هو لك حلال ، فقال : " ولا تزنين " فقالت هند : أَوَتزني الحُرّة ؟ فقال : " ولا تقتلن أولادكنّ " ، فقالت هند : رَبيناهم صغارًا وقتلتموهم كبارًا ، وكان ابنها قُتل يوم بدر ، فقال : " ولا تأتين ببهتان... " الخ ، فقالت هند : والله إنّ البهتان لقبيح ، وما تأمرنا إلاّ بالرشد ومكارم الأخلاق! فقال : " ولا تعصين في معروف " فقالت : وما جلسنا في مجلسنا

هذا وفي أنفسان أن نعصيك في شيء ، فأقرّ النسوةُ بما أخذ عليهن.

وقالت أميمة : يا رسول الله ، صافحْنا ؟ فقال : " إني لا أُصافح النساء ، إنما قَوْلي لامرأة كقولي لمائة امرأة " ، قالت عائشة : ما مست يدُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يدَ امرأةٍ قط ، إنما بايعهن كلامًا ، وقيل : لفّ على يده ثوبًا ، وقيل : غمس يده في قدح ، فغمسْن أيديهن فيه. والله تعالى أعلم.

الإشارة : الشيخ في قومه كالنبي في أمته ، فيُقال له : إذا جاءك النفوسُ المؤمنةُ يُبايعنك على ألا ترى

مع الله شيئاً ، ولا تميل إلى الدنيا ، ولا إلى الهوى ، ولا تهمل ما تنتج أفكارُها من الواردات ، ولا تأتي ببهتان تفتريه ؛ بأن تنسب فعلاً إلى غير الله ، أو بأن تكذب في أحوالها وأقوالها ، ولا تعصي فيما تأمرها وتنهاها ، فإن جاءت على ما ذكر فبايعها واستغفِر لها الله فيما فرّطت فيه ، إنّ الله غفور رحيم.
٣١

(٣٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠
سورة الصف

(٣٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١
يقول الحق جلّ جلاله : {سَبَّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيزُ الحكيم}. ولمَّا قال بعضُ الصحابة : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لبذلنا في أموالنا ، فنزلت أية الجهاد ، فتباطأ بعضُهم ، فنزلت : {يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون}. وقيل : لمَّا أخبر الله بثواب شهداء بدر ، فقالوا : والله لئن شَهِدنا قتالاً لنُفْرِغَنَّ فيه وُسْعَنا ، ففرُّوا يوم أُحُد ، فنزلت. وقيل : نزلت فيمن يمدح كذباً ، حيث كان يقول : قتلتُ ، ولم يقتل ، وطعنتُ ، ولم يطعن ، وقيل : كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر ونكأ فيهم ، فقتله صُهيب ، وانتحل قتله آخر ، فنزلت في المنتحِل. أي : لأيّ شيء تقولونه من الخير والمعروف ، على أنّ مدار التوبيخ إنما هو عدم فعلهم ، وإنما وجّه إلى قولهم تنبيهاً على تضاعيف معصيتهم ، لبيان أنَّ المنكَر ليس ترك الخير الموعود فقط ، بل الوعد به أيضاً ، وقد كانوا يحسبونه معروفاً ، ولو قيل : لِمَ لا تفعلون ما تقولون ، لفُهِم منه أنّ المنكَر إنما هو ترك المفعول.
{كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون} ، هو بيان لغاية قُبح ما فعلوا ، وفرط سماحته ، و " كَبُرَ " جارية مجرى نعم ، بزيادة معنى التعجُّب ، ومعنى التعجُّب : تعظيم الأمر في قلوب السامعين ؛ لأنّ التعجُّب لا يكون إلاّ مِن شيءٍ خارج عن نظائره ، وفي " كَبُرَ " ضمير مبهَم مفسَّر بالنكرة بعده ، و " أن تقولوا " هو المخصوص بالذم ، وقيل : قصد فيه التعجُّب من غير لفظه ، وأُسند إلى " إن تقولوا " ، ونصب " مقتاً " على تفسيره ، دلالةً على أنّ
٣٣
قولهم ما لا يفعلون مقتٌ خالص لا شوب فيه ، كأنه قيل : ما أكبر مقتاً قولهم بلا عمل.

ثم بيَّن ما هو مَرْضِي عنده ، بعد بيان ما هو ممقوت بقوله : {إِنَّ اللهَ يُحب الذين يُقاتِلون في سبيله} ، وهو المقصود بالذات من السورة ؛ وقوله : {صفًّا} أي : صافِّين أنفسهم ، أو مصفوفين ، مصدر وقع موقع الحال ، {كأنهم بُنيان مرصُوص} ؛ لاصق بعضه ببعض ، وقيل : أريد : استواء نيّاتهم في حرب عدوّهم ، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان الذي رُصَّ بعضه إلى بعض ، وهو حالٌ أيضاً ، أي : مشبّهين بالبنيان الملاصق. قال ابن عرفة : التشبيه في الثبات وعدم الفرار كثبوت البناء ولزومه. هـ.

(٣٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣

الإشارة : {سَبَّحَ لله} ، قال الورتجبي : لمَّا عاينوا آيات الله طلبوا فيها مشاهدة الله ، فوجدوا في نفوسهم تأثير مباشرة نور قدرة الله ، فقدَّسُوه أنه باين بوجوده من الحدثان. هـ. قوله تعالى : {كَبُرَ مقتًا}... الخ ، قال القشيري : خُلفُ الوعد مع كلِّ أحدٍ قبيحٌ ، ومع الله أقبح ، ويُقال : إظهارُ التجلُّدِ من غير شهودِ مواضعَ الفقر إلى الحقِّ في كل نَفَسٍ يؤذِنُ بالبقاء مع ما حصل به الدعوى ، واللهُ يحب التبرِّي من الحول والقوة. ويقال : لم يتوعَّد على زَلَّةٍ بمثْلِ ما توعَّد على هذا ، بقوله : {كَبُرَ مقتًا عند الله}. هـ. ولذا فرّ كثير من العلماء عن الوعظ والتذكير ، وآثروا السكوت ، كما قال بعضهم :

لو كان ينفعني وعظي وعظتُكم

أنا الغريق فما خوفي مِن البلل

قال أبو زيد الثعالبي : وهذا إن وَجد مَن يكفيه ويقوم عنه في الوعظ ، وإلاّ فلا ينبغي السكوت. قال الباجي في سنن الصالحين ، عن الأصمعي : بلغني أنَّ بعض الحُكماء كان يقول : إني لأعظكم ، وإني لكبير الذنوب ، ولو أنَّ أحداً لا يعظ أخاه حتى يُحْكِم أمرَ نفسه لتُرك الأمر بالخير ، واقتُصر على الشر ، ولكن محادثة الإخوان حياة القلوب وجلاء النفوس ، وتذكير مِن النسيان. وقال أبو حازم : إني لأعظ الناسَ ، وما أنا بموضع الوعظ ، ولكن أُريد به نفسي. هـ. قلت : وكان شيخ شيوخنا سيدي على الجمل العمراني رضي الله عنه يقول حين يُذَكِّر : نحْن ما ننبَحُ إلاّ على نفوسنا. هـ.

ثم قال : وقال الحسن لِمطرف : عِظ أصحابك ، فقال : أخاف أنْ أقولَ ما لا أفعل ، فقال : يرحمك الله ، وأيّنا يفعل ما يقول ، ودّ الشيطانُ لو ظفر منكم بهذه ، فلم يأمر أحدٌ منكم بمعروف ولم ينهَ عن منكر. هـ. وفي حديث الجامع : " مُروا بالمعروف وإنْ لم تَفعلُوه ، وانْهَوْا عن المنكرِ وإن لم تَتجنبُوه " وقال الغزالي : مَن ترك العمل خوف الآفة والرياء ، فإنَّ ذلك منتهى بغية الشيطان منه ، إذ المراد منه ألاَّ يفوته الإخلاص ، ومهما ترك العمل فقد ضيَّع العمل والإخلاص. هـ. قلت : ولا شك أنَّ الوعظ مِن المخلصين وأهل

القلوب ، أشد تأثيراً من غيرهم ، فإنَّ الكلامَ إذا خرج من القلب وقع في القلب ، وإذا خرج من اللسان حدّه الآذان ، وفي الحِكَم : " تسبق أنوارُ الحكماء أقوالَهم ، فحيث ما صار التنوير وصل التعبير ". فأهل النور تسري أنوارُهم في الجالسين قبل أن يتكلموا ، وربما انتفع الناسُ بصمتهم ، كما ينتفعون بكلامهم ، وأمّا أهل الظُلمة . وهو مَن في قلبه حُب الدنيا . فكلامهم قليل الجدوى ، تسبق ظلمةُ قلوبهم إلى قلوب السامعين ، فلا ينتفع إلاّ القليل.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣

يقول الحقّ جلّ جلاله : واذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين عن الجهاد قول موسى لبنى إسرائيل ، حين ندبهم إلى قتل الجبابرة ، بقوله : {يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ} [المائدة : ٢١] الآية ، فلم يمتثلوا أمره ، وعصوه أشد عِصيان ، حيث قالوا : {يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ...} [المائدة : ٢٢] الآية ، إلى أن قالوا : {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ...} [المائدة : ٢٤] الآية. وآذوه عليه السلام كل الإذاية فقال : {يا قوم لِمَ تُؤذونني وقد تعلمون أني رسولُ الله إليكم} ، فالجملة : حال ، والحال أنكم تعلمون عِلماً قطعياً ، مستمراً ، بمشاهدة ما ترون من المعجزات الباهرة ، أني رسولُ الله إليكم ، لأُرشدكم إلى خير الدنيا والأخرة ، ومِن قضية عِلْمكم أن تُبالغوا في تعظيمي ، وتُسارعوا إلى طاعتي ، {فلما زاغوا} أي : أصرُّوا على الزيغ عن الحق الذي جاءهم به ، واستمروا عليه {أزاغ اللهُ قلوبَهم} ؛ صرفها عن قبول الحق ، والميل إلى الصواب ، لصرف اختيارهم نحو الغيّ والإضلال ، {واللهُ لا يهدي القوم الفاسقين} أي : لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق ، المصرِّين على الغواية ، هدايةً موصّلَة إلى الطاعة وحسن الأدب ، والمراد بهم المذكورون خاصة ، والإظهار في موضع الإضمار لذمِّهم بالفسق وتعليل عدم الهداية ، أو جنس الفاسقين ، وهم داخلون في حكمهم دخولاً أوليًّا ، وأَيًّا ما كان فوصفهم بالفسق نظر إلى ما في قوله تعالى : {فافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة : ٢٥] ، هذا الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم ،

٣٥

ويرتضيه الذوق السليم. انظر أبا السعود.

}

وإِذ قال عيسى ابنُ مريم يا بني إِسرائيلَ} ، لم يقل : يا قوم ، كما قال موسى ، لأنه لا نسب له فيهم من جهة الأب ، حتى يكونوا مِن قومه : {إِني رسولُ الله إِليكم} ، كان رسولاً لهم ولمَن دخل معهم ، كالنصارى ، {مُصَدِّقًا لما بين يديَّ مِن التوراة} ، وهو من إحدى الدواعي إلى تصديقهم إياه ، {ومُبشِّرًا برسولٍ يأتي من بعدي} ، وهو من الدواعي أيضاً إلى تصديقه ؛ لأنَّ بشارته به عليه السلام واقعة في التوراة ، أي : أُرسلت إليكم في حال تصديقي للتوراة ، وفي حال بشارتي برسول يأتي من بعدي ، يعني : أنَّ ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه ، مَن تقدّم ومَن تأخّر ، وهذا الرسول {اسمُه أحمدُ} وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

قال القشيري : كل نبيَّ بشّر قومَه بنبيِّنا صلى الله وعليه وسلم ، وأفرد اللهُ عيسى بالذِّكْرِ في هذا الموضع لأنه أخِرُ نبيٍّ قبل نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، فبيّن أنّ البشارة به عَمَّتْ جميعَ الأنبياء واحداً بعد واحدٍ حتى انتهى إلى عيسى عليه السلام. هـ. قال الكواشي : و " أحمد " بناء مبالغة ، والمعنى : أنَّ الأنبياء كلهم حمّادون الله ، وهو أكثر حمداً مِن غيره ، وكلهم محمودون لِما فيهم جميل الأخلاق ، وهو أكثرهم خِلالاً حميدة. ثم قال : وعن كعب : قال الحواريون : يا روح الله ؛ هل بعدنا من أمة ؟ قال : نعم ، أمة أحمد ، حكماء ، علماء ، أبراراً ، أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى باليسير من العمل. هـ. وقال السهيلي : في اسمه " أحمد ومحمد " إشارة إلى كونه خاتماً ؛ لأنَّ الحمد مشروع عند انقضاء الأمور واختتامها وتمامها.هـ.

{فلما جاءَهم} أيك عيسى ، أو محمد . عليهما السلام . {بالبيناتِ} ؛ المعجزات الظاهرة ، {قالوا هذا سِحرٌ مبين} ؛ ظاهر سحريته ، وقرأ الإخوان " ساحر " وصف للرسول.

{ومَن أظلمُ ممن افترى على الله الكذبَ وهو يُدْعَى إِلى الإِسلام} أي : أيّ الناس أشد ظلماً ممن يُدْعى إلى سعادة الدارين ، فيضع موضع الإجابة الافتراءَ على الله عزّ وجل ، بقوله لكلامه الذي دعا عباده إلى الحق : هذا سحر ؟ أي : هو أظلم من كل ظالم ، {واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين} أي : لا يُرشدهم إلى ما فيه صلاحهم ؛ لعدم توجههم إليه. {يُريدون لِيُطفئوا نورَ الله بإفواههم} أي : دينه أو : كتابه ، أو حجته النيِّرة ، واللام مزيدة ، أي : يُريدون إطفاءَ نور الله ، أو للتعليل والمفعول محذوف ، أي : يريدون الكذب ليُطفئوا نورَ الله ، وهو تهكُّم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام ، بقولهم في القرآن : هذا سحر ، مُثِّلت حالهم بحال مَن ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه ، {واللهُ مُتِم نُوره} أي : مبلغه إلى غاية يُنشره في الآفاق ، ويُعليه على الأديان {ولو كَرِه الكافرون}.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥

هو الذي أرسل رسولَه بالهُدى} ؛ بالقرآن ، أو بالمعجزات ، أو بالهداية {ودين الحق} ؛ الملة الحنيفية {ليُظهره على الدين كلِّه} أي : ليعليه على جميع الأديان المخالفة

٣٦

له ، ولقد أنجز الله ـ عزّ وعلا ـ وعده ، حيث جعله بحيث لم يبقَ دين من الأديان إلاَّ وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام. وعن مجاهد : إذا نزل عيسى لم يكن إلا دين الإسلام. هـ. {ولو كَرِه المشركون} ذلك ، قال الطيبي : قوله تعالى : {ومَن أظلم...} الخ ، حذَّر تعالى مما لقي قوم موسى من إزاغة القلوب ، والحرمان من التوفيق ، بسبب الأذى ، وما ارتكب قوم عيسى بعد مجيئه بالبينات من تكذيبه وقولهم فيه : " هذا سحر مبين " ، ألاَ ترى كيف جمع الكل في قوله : {ومن أظلم...} الآية ، قال : وقضية الدعوة إلى الإسلام توقير مَن يدعو إليه ، وإجابة دعوته. ثم قال : وأمّا قوله : {والله لا يهدي القوم الظالمين} هو تذييل لقوله : {ومَن أظلم ممن أفترى...} الآية ؛ لأنّ الظلم هو : وضع الشيء في غير محله ، وأيُّ ظلم أعظم من جعل إجابة الداعي إلى الله مفترياً ؟ ! والكفر : التغطية ومحاولة إطفاء النور إخفاء وتغطية ، ودين الحق هو التوحيد ، والشركُ يقابله ، ولذلك قال : {ولو كره المشركون}. هـ.

الإشارة : سوء الأدب مع الأكابر ، وإذايتهم ، سبب كل طرد وبُعد ، وسبب كلّ ذُل وهوان ، وحسن الأدب معهم وتعظيمهم ، سبب كُلِّ تقريب واصطفاء ، وسبب كُلِّ عز ونصر ، ولذلك قال الصوفية : " اجعل عَمَلك مِلحًا ، وأدبك دقيقًا ". ألآ ترى بنى إسرائيل حين أساؤوا الأدب مع نبي الله موسى بقولهم : {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلآ...} [المائدة : ٢٤] الخ كيف أذلَّهم الله وأخزاهم إلى يوم القيامة ، وانظر أصحابَ نبينا صلى الله عليه وسلم حيث تأدّبوا غاية الأدب ، وقالوا يوم بدر : " لا نقول كما قالت بنو إسرائيل : اذهب أنت وربك ، ولكن اذهب أنت وربك ونحن معك ، والله لو خُضت بنا ضحضاح البحر لخضناه معك " كيف أعزَّهم الله ونصرهم على سائر الأديان ، ببركة حُسن أدبهم ـ رضي الله عنهم وأرضاهم.

(٤٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا هل أَدُلُّكُمْ على تجارةٍ تُنجِيكم من عذابٍ أليم} ، وكأنهم قالوا : وما هذه التجارة ، أو : ماذا نصنع ؟ فقال : {تؤمنون بالله ورسوله وتُجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفُسِكم} ، وهو خبر بمعنى الأمر ، أي :

٣٧

وجاهِدوا ، وجيء به بصيغة الخبر للإيذان بوجوب الامتثال ، فكأنه قد وقع ، فأخبر بوقوعه ، وقرىء " تؤمنوا " و " تجاهدوا " على إضمار لام الأمر. {ذلكم خير لكم} ، الإشارة إلى الإيمان والجهاد بقِسْميه ، أي : هو خير لكم من أموالكم وأنفسكم {إن كنتم تعلمون} أنه خير لكم ، وقد قلتم : لو نعلم أيّ الأعمال أحب إلى الله لسارعنا ، فهذا هو أحب الأعمال إلى الله ، أو : إن كنتم من أهل العلم ؛ فإنَّ الجهلة لا يعتد بأفعالهم.

{يَغفر لكم ذنوبكم} : جواب للأمر المدلول بلفظ الخبر ، على قول ، أو شرط مقدّر ، أي : إن تُؤمنوا وتُجاهدوا يغفر لكم ذنوبكم {ويُدْخِلْكم جناتٍ تجري مِن تحتها الأنهارُ ومساكنَ طيبةً} ولا تطيب إلاّ بشهود الحبيب {في جناتِ عَدْن} أي : إقامة لا انتقال عنها. وجنة عدن هي مدينة الجنة ووسطها ، يسكنها الصالحون الأبرار من العلماء والشهداء ، وفوقها الفردوس ، هي مسكن الأنبياء والصدِّيقين من المقربين ، هذا هو المشهور ، كما في الصحيح ، {ذلك الفوزُ العظيمُ} أي : ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنة الموصوفة بما ذكر من الأوصاف الجليلة هو الفوز الذي لا فوز وراءه.

}

وأُخرى} أي : ولكم إلى هذه النعمة العظيمة نعمةٌ أخرى عاجلة {تُحبونها} وترغبون فيها ، وفيه شيء من التوبيخ على محبة العاجل. ثم فسَّرها بقوله : {نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ} أي : عاجِل ، وهو فتح مكة ، والنصر على قريش ، أو فتح فارس والروم ، أو : هل أَدُلكم على تجارةٍ تُنجيكم ، وعلى تجارةٍ تُحبونها ، وهي نصر وفتح قريب ، {وبَشِّر المؤمنين} : عطف على " تؤمنوا " لأنه في معنى الأمر ، كأنه قيل لهم : آمنوا وجاهِدوا يُثبكم الله وينصركم ، وبشر أيها الرسول بذلك المؤمنين.

{يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصارَ الله} أي : أنصار دينه {كما قال عيسى ابنُ مريمَ للحواريين مَنْ أنصاري إلى الله} ؟ أي : مَن يكون مِن جندي ومختصاً بي ، متوجهاً إلى الله. ظاهره تشبيه كونهم أنصاراً بقول عيسى : {مَن أنصاري إلى الله} ولكنه محمول على المعنى ، أي : كونوا أنصارَ الله ، كما كان الحواريون أنصارَ عيسى ، حينما قال لهم : مَن أنصاري إلى الله ؟ {قال الحواريون نحن أنصارُ الله} أي : نحن الذين ينصرون دينه ، والحواريون : أصفياؤه ، وهم أول مَن آمن به من بني إسرائيل ، قاله ابن عباس ، وقيل : كانوا اثني عشر رجلاً. وحواري الرجل : صفوته وخاصته ، من الحَور ، وهو البياض الخالص ، وقيل : كانوا قصّارين يُحوِّرون الثياب ، أي : يُبيِّضونها ، وقيل : إنما سُمُّوا حواريين لأنهم كانوا يُطهرون النفوس بإقامتهم الدين والعلم ، ولمَّا كفرت اليهود بعيسى عليه السلام ، وهَمُّوا بقتله ، فرَّ

مع الحواريين إلى النصارى بقرية يُقال لها : نصرى ، فنصوره ، فقاتل اليهودَ بهم مع الحواريين ، وهذا معنى قوله تعالى : {فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طائفةٌ} به ، فقاتلوهم {فإيَّدنا الذين آمنوا} بعيسى عليه السلام {على عدوهم} أي : قوّيناهم {فأصبحوا ظاهِرين} ؛ غالبين عليهم.
٣٨
الإشارة : هل أدلُّكم على تجارةٍ ، وهي سلوك طريق التربية ، على أيدي الرجال ، تُنجيكم من عذاب أليم ، وهو غم الحجاب على الدوام ؛ تؤمنون بالله ورسوله أولاً ، وتجاهدون هواكم وسائرَ العلائق بأموالكم وأنفسكم ثانياً ، فالأموال تدفعونها لمن يدلكم على ربكم ، والأنفس تُقدمونها لمَن يُربيكم ، يَتحكم فيها بما يشاء {في سبيل الله} في الطريق الموصلة إلى حضرته ، {ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} أي : إن كان لكم علم وعقل ، فهذا خير لكم ، يغفر لكم ذنوبكم ، أي : يُغطي مساوئكم ، فيُغطي وصفكم بصوفه ، ونعتكم بنعته ، فيُوصلكم بما منه إليكم ، لا بما منكم إليه ، ويُدخلكم جنات المعارف ، تجري من تحتها أنهار العلوم ، ومساكن طيبة ، هي السكنى والأطمئنان في مقامات اليقين ، مع شهود رب العالمين ، أو روح الرضا وريحان التسليم ، أو الإقامة في حضرة القدس ، مع التنزُّه في المقامات ، في جنات عدن ، وهي الرسوخ والإقامة في جنات المعارف ذلك الفوز العظيم.
}

(٤٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٧
وأُخرى تحبونها} عاجلة ، {نصر من الله} : عِزٌّ دائم ، {وفتح قريب} هو دخول بلاد المعاني. وقال القشيري : الفتح القريب : الرؤية والزلفة ، ويقال : الشهود ، ويقال : الوجود أبد الأبد. هـ. {وبَشِّر} بأنهم ظافرون بهذا ، إن فعلوا ما أُمروا به. وقال الورتجبي : نصر الله : تأييده الأزلي ، الذي سبق للعارفين والموحِّدين ، والفتح القريب : كشف نقابه وفتح أبواب وِصاله ، بنصره ظهروا على نفوسهم ، فقهروها ، وبفتحه أبواب الغيب شاهَدوا كل مغيب مستور من أحكام الربوبية وأنوار الألوهية. هـ. وباقي الآية يُرغب في القيام في نصر الدين ، وإرشاد العباد إلى الله ، حتى تظهر أنوار الدين ، وتخمد ظلمة المعاصي والبِدَع من أقطار البلاد ، وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم.
٣٩

(٤٥/٨)

(٤٦/٨)

يقول الحق جلّ جلاله : {يُسَبِّحُ لله ما في السموات وما في الأرض} ، وهذا التسبيح إمّا أن يكون : تسبيح خِلقة ، يعني : أنك إذا نظرت إلى شيء دلتك خِلقتُه على وحدانيته تعالى ، وتنزيهِه عما لا يليق به ، وإمّا أن يكون تسبيح معرفة ؛ بأن يخلق في كل شيء ما يعرفه به تعالى وينزّهه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : {وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِحُ بحَمدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُون تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء : ٤٤] ، أو : تسبيح ضرورة ، بأن يُجري اللهُ التسبيحَ على كل جوهر ، من غير معرفةٍ له بذلك. قاله النسفي.

{الملكِ القُدُّسِ} أي : المنزَّه عما لا يليق به من الكمالات. ولا يُقال : المنزّه عن النقائص ؛ إذ لا يصح اتصافه بها حتى تُنفى عنه ، وربما يكون نقصاً في حقه ، كما يُقال : الملِك ليس بجزار. {العزيزِ الحكيمِ} ، وقرئت هذه الصفات الأربع بالرفع على المدح.

{هو الذي بَعَثَ في الأميين رسولاً منهم} أي : بعث رجلاً أُميًّا في قوم أميين ، وقيل : {منهم} : من أنفسهم ، يعلمون نَسَبه وأحواله وصِدْقَه. والأُمي : منسوب إلى أميّة العرب ؛ لأنهم لايقرؤون ولا يكتبون من بين الأمم. قيل. بُدئت الكتابة في العرب بالطائف ، وهم أخذوها من أهل الحيرة ، وأهل الحيرة من أهل الأنبار. {يتلو عليهم آياته} ؛

٤٠

القرآن {ويُزَكِّيهم} ؛ يطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية ، {ويُعَلّمهم الكتابَ} ؛ القرآن {والحكمةَ} ؛ السُنَّة ، أو الفقه في الدين ، أو إتقان العلم والعمل ، {وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبين} ؛ كفر وجهالة. و " إن " مخففة ، أي : وإن الشأن كانوا في ضلال فظيع ، وهو بيان لشدة افتقارهم لمَن يرشدهم ، وإزاحة لِمَا عسى أن يتوهم مِن تعلُّمه صلى الله عليه وسلم مِن الغير ؛ إذ كلهم كانوا مغروقين في الجهل والضلال ، ليس فيهم مَن يعلم شيئاً.

{وآخرين منهم} : عطف على " الأميين " أي : بعث في الأميين ، الذين في عصره ، وفي آخرين من الأميين {لَمَّا يلحقوا بهم} أي : لم يلحقوا بهم بعدُ ، وسيلحقون ، وهم الذين يأتون بعد الصحابة إلى يوم القيامة ، وقيل : هم العجم ، أي : وآخرين من جنسهم ، وقيل : عطف على " يُعلّمهم " أي : يُعلّم أخرين منهم ، وعلى كلِّ فدعوته صلى الله عليه وسلم عامة. {وهو العزيزُ الحكيم} ؛ المبالغ في العزة

والحكمة ، ولذلك مكَّن رجلاً أميًّا من ذلك الأمر العظيم ، واصطفاه من بين كافة البشر.
}

(٤٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٠
ذلك} الذي امتاز به محمد صلى الله عليه وسلم من بين سائر البشر {فضلُ الله} وإحسانه ، أو : ذلك التوفيق حتى يؤمنوا من فضل الله ، لا باستحقاق ، أو الاعتناء بالبعث وعدم الإهمال ، مع ما حصل منه من النتائج المذكورة ، فضل من الله ، وقطع الأسباب في الجملة في استحقاق الفضل ؛ إذ علقه بالمشيئة في قوله : {يؤتيه مَن يشاء} تفضُّلاً وعطية ، {والله ذو الفضل العظيم} الذي يُستحقر دونه نِعم الدنيا والآخرة. الإشارة : كل مَن لم يعرف الله معرفةَ العيان ، فهو من الأميين ، فكما مَنَّ الله تعالى على عباده ببعثه الرسول ، بعد أن كانوا في ضلالٍ مبين ، كذلك مَنَّ على أمته بعده ، فبَعَثَ مشايخَ التربية يتلو عليهم آياته الدالة على شهوده وظهوره ، ويزكيهم من الرذائل التي تحجبهم عن الله ، ويُعلّمهم أسرارَ الكتاب ، وأسرارَ الحكمة ، وهي الشريعة ، إذ لا يوقف على أسرارهما إلاّ بعد تطهير القلوب ، وتزكية النفوس ، وإن كانوا من قبل ملاقاة المشايخ لفي ضلال مبين ، حائدين عن طريق الشهود ، وبعث أيضاً في آخرين منهم من يُذكِّرهم ويُعرفهم بالله ، وهكذا لا ينقطع الداعي إلى يوم القيامة ، لكن لا يصل إليه إلاّ مَن أراد الله أن يوصله إليه ، ولذلك قال : {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء...} الآية.

(٤٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٠
يقول الحقّ جلّ جلاله : {مَثَلُ} اليهود {الذين حُمِّلُوا التوراةَ} أي : كُلِّفوا علمها ، والعمل بما فيها ، {ثم لم يحملوها} ؛ لم يعملوا بما فيها ، فكأنهم لم يحملوها ، {كَمَثَلِ الحمارِ يحمل أسفاراً} جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير ، شَبّه اليهودَ بالحمار ، فإنهم حملة التوراة وقُرّاؤها وحُفّاظ ما فيها ، ثمّ لم يعملوا بها ، ولم ينتفعوا بآياتها ، وذلك : أنَّ فيها بعث رسولِ الله صلى الله عليه وسلم والبشارة به ، فلم يؤمنوا ، فهم أشبه شيء بحمار حمل كُتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يشمي بها ، ولا يدري منها إلاَّ ما يلحقه من الكدّ والتعب. وفي التلخيص : وَجْهُ الشَبَه : حرمان الانتفاع بأبلغ نافع ، مع تحمُّل التعب في استصحابه ، وكل مَن عَلِمَ ولم يعمل بعلمه فهذا مثلُه. قال الطيبي : لمّا تمسكت اليهود بقوله : " في الأميين " ؛ لأنه خاص بالعرب ، أتبعه بضرب المثل لمَن تمسّك بهذه الشبهة ، وترك الدلائل الواضحة

المسطورة بعموم البعثة ، وأنه كالحمار يحمل أسفاراً ، ولا يدري ما حمل ، ولا ما فيه. هـ. وجملة " يحمل " حال ، والعامل فيها ، معنى المثل ، أو : صفة للحمار ؛ إذ ليس المراد به معيناً ، فهو كقوله :
ولقد أَمُرُّ على اللئيم يَسُبُّني...
{بئس مثلُ القومِ الذين كذّبوا بآيات الله} أي : بئس مثلاً مثل القوم الذين كذّبوا ، أو بئس مثل القوم المكذِّبين مثلهم ، وهم اليهود الذين كذّبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، {والله لا يهدي القوم الظالمين} وقت اختيارهم الظلمَ ، أو : لا يهدي مَن سبق في علمه أنه يكون ظالماً ، أو الظالمين لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد.
}

(٤٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤١
قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياءُ لله من دون الناس فتَمَنَّوا الموتَ إن كنتم صادقين} ، كانوا يقولون : {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [المائدة : ١٨] ، أي : إن كان قولكم حقًّا ، وكنتم على ثقة ، فتمنُّوا على الله أن يُميتكم ويبعثكم سريعاً إلى دار كرامته ، التي أعدّها لأوليائه ، فإنّ الحبيب يُحب لقاء حبيبه ، وينتقل من دار الأكدار ، إلى دار السرور والهناء ، قال تعالى : {ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم} من الكفر والمعاصي الموجبة للنار. والباء متعلقة بما يدل عليه النفي ، أي : يأبون ذلك بسبب ما قدمت أيديهم ،
٤٢
{والله عليم بالظالمين} أي : بهم. وإيثار الإظهار في موضع الإضمار لذمهم والتسجيل عليهم بالظلم في كل ما يأتون وما يذرون من الأمور ، التي من جملتها ادعاء ما هم عنه بمعزل من ولاية الله.
ثم إنهم لم يجسر أحدٌ منهم أن يتمناها ، بل فرُّوا منها ، كما قال تعالى : {قل إِنَّ الموت الذي تفرون منه} ولم تجسروا أن تتمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم ، {فإنه مُلاقيكم} لا محالة ، من خير صارف يلويه ، ولا عاطف يُثنيه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " لو تَمَنَّوه لماتوا من ساعتهم " ، وهذه إحدى المعجزات. ودخلت الباء في خبر " إن " مع أنه لا يجوز : إن زيداً فمنطلق ؛ لأنَّ " الذي " قد عُرِف فيه معنى الشرط والجزاء ، كأنه قيل : إن فررتم من أي موت كان ؛ من قتال أو غيره ، فإنه ملاقيكم ، {ثم تُرَدُّون إلى عالم الغيب والشهادة} الذي لاتخفى عليه خافية ، {فيُنبئكم بما كنتم تعملون} من الكفر والمعاصي ، بأن يجازيكم عليها. قال الكواشي : أكذب اللهُ اليهودَ في ثلاث ، افتخروا بأنهم أولياء الله فكذبهم بقوله : {فتَمنَّواالموتَ} وبأنهم أهل الكتاب ، والعرب لا كتاب لهم ،

فشُبِّهوا بالحمار يحمل أسفاراً ، وبالسبت ، وأنه ليس للمسلمين مثله ، فجعل الله لهم الجمعة. هـ.
ولذلك ذكرها بإثر تكذيبهم.
الإشارة : مَثَلُ الذي يقرأ القرآن ويتلوه ولا يتدبّر معانيه ، أو يقرأ العلم ولا يعمل به ، كمثل الحمار..الخ. وعُروض الموت على النفس ، أو العمل أو الحال ، ميزان صحيح ، فكل حال وعمل ، أو شخص هزمه الموت فهو معلول ، وحب البقاء للترقِّي والتوسعة في المعرفة محمود ، وغيره مذموم ، وقد تقدّم في البقرة تفصيل ذلك ، فراجعه إن شئت.
وأمّا تمني الموت فقد نُهي عنه ، إلاّ لخوف الفتنة ، فقد قال ابن عباس لعمر رضي الله عنهما : ما لك تُكثر الدعاء بالموت ؟ وما الذي مَلِلت من العيش ؟ أما تُقوّم فاسداً وتعين صالحاً ؟ فقال عمر : يا بن عباس! كيف لا أتمنى الموت ، وأطلب القدوم على الله ، ولست أرى في الناس إلاّ فاتحاً فاه لِلعدة من الدنيا إمّا بحق لا يثق به ، أو بباطل لا يناله ، ولولا أن يسألني ربي عن الناس لفررت منهم ، وتصبح الأرض مني بلاقع. هـ.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤١
وقيل لسفيان الثوري : لِمَ تتمنَّ الموت ، وقد نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عنه ؟ فقال : إن سألني ربي عن ذلك أقول : لثقتي بك يا رب ، وخوفي من الناس ، ثم أنشد :
قد قلتُ لمّا مَدَحوا الحياة وأسرفوا
في الموت ألف فضيلة لا تُعرف
فيها أمان لقائه بلقائه
وفراق كل معاشرٍ لا يُنصِف
وقال طاوس : لا يحرز المرء إلاَّ حفرته ، وأنشدوا :
يبكي الرجالُ على الحياة وقد
أفنى دموعي شوقي إلى الأجل
٤٣
أموت من قبل أن يفر مني
دَهْري فإني منه على وجل

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤١
يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة} ، والإمام على المنبر ، و " مِن " بيان لـ " إذا " أو تفسير لها ، وقيل : " مِن " بمعنى " في " كقوله : {مَاذَا خَلَقُواْ مِن ألأَرْضِ} [فاطر : ٤٠ و الأحقاف : ٤] أي : في الأرض. وإنما سُمي جُمعة لاجتماع الناس فيه للصلاة ، وقيل : أول مَن سمّاها جمعة : كعب بن لؤي ، وكان يُسمى العروبة ، وقيل : إنَّ الأنصار قالوا قبل الهجرة : لليهود يومٌ يجتمعون فيه في كل سبعة أيام ، وللنصارى مثل ذلك ، فهلُموا نجعل يوماً نجتمع فيه ، فنذكر الله نُصلّي ، فقالوا : يوم السبت لليهود ، ويوم الأحد للنصارى ، فاجعلوه يوم الجمعة ، فاجتعوا إلى سعد بن زُرارة ، فصلَّى بهم ركعتين ، وذكَّرهم ، فسموه يومَ الجمعة ، لاجتماعهم فيه ، فأنزل الله آية الجمعة . أي : بعد ذلك . تقريراً لفعلهم ، فهي أول جمعة كانت في الإسلام. وأما أول جمعة جمعها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فهي لمَا قَدِم المدينةَ مهاجراً ، نزل قباء ، على بني عَمرو بن عوف ، وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء الأربعاء والخميس ، وأسّس مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة عامداً إلى المدينة ، فأدركته الصلاة في بني سالم بن عوف ، في بطن وادٍ لهم ، وقد بنوا هناك مسجداً ، فخطب ، وصلّى الجمعة فيه. انظر الثعلبي.
ويم الجمعة سيد الأيام ، وفي الحديث : " مَن مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ، ووُقي فتنة القبر ". فإذا نُودي للصلاة {فاسْعَوا إلى ذكر الله} أي : امشوا واحضروا الخطبة والصلاة {وذَرُوا البيع} أي : اتركوا المعاملة كلها ، وإنما خص البيع ؛ لأنّ يوم الجمعة كان سوقًا يتكاثر فيه البيع والشراء عند الزوال ، فقيل لهم : بادِروا إلى تجارة الآخرة ، واتركوا تجارة الدنيا ، {واسْعَوا إلى ذكر الله} الذي لا شيء أنفع منه ، {ذلكم} أي : السعي إلى ذكر الله {خيرٌ لكم} من البيع والشراء {إن كنتم تعلمون} الخير والشر الحقيقيين ، أو : إن كنتم
٤٤
من أهل العلم.
}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٤
فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ} أي : أُدّيت وفرغ منها {فانتشِرُوا في الأرض} ، أمْرُ إباحة ، أي : اخرجوا لإقامة مصالحكم ، {وابتغوا من فضل الله} ؛ الرزق ، قال ابن عباس : " إنما هي عيادة المريض ، وحضور الجنائز ، وزيارة أخ في الله " ومثله في الحديث ، وعن الحسن : طلب العلم ، وقيل : صلاة التطوُّع.

{واذكروا اللهَ كثيراً} ، أي : ذكراً كثيراً ، أو زمناً كثيراً ، ولا تخصُّوا ذكره بالصلاة ، {لعلكم تُفلحون} أي : كي تفوزوا بخير الدارين.

{وإِذا رأَوْا تجارةً أو لهواً انفَضُّوا إِليها} ، رُوي أنّ أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد ، فقَدِم دِحْيَة بن خَليفةَ ، بتجارة من زيت الشام ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فقاموا إليها ؛ خشية أن يُسبقوا إليه ، فما بقي معه عليه السلام إلاّ ثمانية ، أو اثنا عشر ؛ العشرة المبشَّرون بالجنة ، وبلال وابن مسعود ، وقيل : أربعون ، وهذا مبنى الخلاف في عدد الجماعة التي تنعقد بهم وتجب عليهم ، فقال مالك : تنعقد باثني عشر غير الإمام ، وتجب على قرية يُمكنهم الإقامة والدفع عن أنفسهم في الغالب ، وقال الشافعي : أربعون رجلاً وقال أبو حنيفة : لا بد من المصر الجامع ، والسلطان القاهر ، وتصح الصلاة عنده بأربعة. ولمّا انفضُّوا قال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفس محمد بيده لو قاموا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً " وفي مراسيل أبي داود : إنّ الخطبة كانت بعد الصلاة ، فتأّولوا ـ رضي الله عنهم ـ أنهم قد قضوا ما عليهم ، فحولت الخطبة بعد ذلك قبل الصلاة. هـ.

وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق ، وهو المراد باللهو. وتخصيص التجارة برجْع الضمير إليها ؛ لأنها المقصودة ، أو لأن الانفضاض إذا كان للتجارة مع الحاجة إليها مذموماً ، فما ظنك بالانفضاض إلى اللهو ، فهو مذموم في نفسه ، وقيل : التقدير : إذا رأوا تجارة انفضُّوا إليها ، أو لهواً انفضُّوا إليه ، فحذف الثاني لدلالة الأول عليه. وقال أبو حيان : وإنما قال : " إليها " ، ولم يقل : إليهما ، لأن العطف بـ " أو " لا يثنى فيه الضمير ، بل يفرد ، وقال الطيبي : الضمير راجع إلى اللهو ، باعتبار المعنى ، والسر فيه : أنَّ التجارة إذا شغلت المكلّف عن الذكر عُدت لهواً ، وتعد فضلاً إن لم تشغله ، كما ذكر قبل ذلك ، فراجعه.

{وتَرَكُوك قائمًا} على المنبر ، وفيه ندليل على طلب القيام في الخطبة إلاَّ لعذر. {قل ما عند الله} من الثواب {خير من اللهو ومن التجارة} فإنَّ في ذلك نفع محقق دائم ، بخلاف ما فيهما من النفع المتوهم. {واللهُ خيرُ الرازقين} فإليه اسعوا ، ومنه اطلبوا الرزق ، أي : لا يفوتهم رزق الله بترك البيع ، فهو خير الرازقين.

٤٥

الإشارة : إذا نُودي لصلاة القلوب في مقام الجمع ، من ناحية الداعي إليها ، وهم المشايخ العارفون ، فاسعوا إلى ذكر الله ، ودُوموا عليه باللسان والقلب ، ثم بالقلب فقط ، ثم بالروح ، ثم بالسر ، فإنَّ الذكر منشور الولاية ، ولا بد منه في البداية والنهاية ، قال الورتجبي بعد كلام : الساعي إلى الذكر مقام المريدين ، والمحقق في المعرفة غلب عليه ذكر الله إياه بنعت تجلِّي نفسه لقلبه. هـ.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٤

وذَرُوا البيع} أي : اتركوا كلَّ ما يشغل عن الله ، فلا تتجلى الحقائق إلاّ بعد ترك العلائق ، ذلكم ، أي : ترك كل شاغل ، خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ، أي : إن كنتم من أهل العلم بالله فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض... الخ ، أي : إذا حصل لكم البقاء بعد الفناء ؛ فانتشِروا في أرض العبودية ، واتسعوا في ميادين البشرية ، بالاستمتاع بالشهوات المباحة بالإذن والتمكين ، والرسوخ في اليقين ، وابتغوا من فضل الله ، بالتجارات الرابحة ، وهي إرشاد العباد إلى الله ، {واذكروا الله كثيراً} أي : في كل شيء وعند كل شيء ، برؤية الحق في كل شيء ، وإليه تُشير وصيته صلى الله عليه وسلم لمُعاذ بقوله : " واذكر الله عند كل حَجر وشجر ". وقوله تعالى : {وإِذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضُّوا إليها} ، قال القشيري : يشير إلى السالكين المحرومين من الجذبة . وهو السالك الأبتر . إذا رأوا تجارة ، أي : طاعة تُوجب ثواب الآخرة ، يقومون إليها ، ويَثبون عليها ، نظراً إلى ثواب الآخرة ، كما قال عليه السلام : " لا تكونوا كالأجير السوء ، إن أُعطي عمل ، وإن لم يُعطَ لم يعمل " ، أو لهواً أطرب النفس برؤية الطاعة واستِلْذَاذها بنظر الخلق إليها ، انفضُّوا إليها وتركوك . أيها السالك الحقيقي . قائماً بعبودية الحق ، ومشاهدة قيوميته ، قل : ما عند الله من المواهب العالية ، والعطايا السنية ، خيرٌ من لهو النفس برؤية الغير ، ومن التجارات بثواب الآخرة ، لقوله تعالى : {فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلآ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِهِ أَحَداً} [الكهف : ١١٠] أو : ما عند الله نَقْداً للعارفين من واردات القلوب ، وبواده الحقيقية ، خير مما يؤمل من الدنيا والآخرة للغافلين ، والله خير الرازقين ، لإعطائه رزق النفس ، وهو الطاعة على المنهاج والشرع ، ورزق القلب ، وهو الأعمال القلبية ، كالزهد والورع والرضا والتسليم والمراقبة ، والبسط والقبض ، والأُنس والهيبة ، ورزق الروح

بالتجليات والمشاهدات ، والمعاينات والتنزُّلات ، ورزق السر برفع رؤية الغير والغيرية ، ورزق الخفاء بالفناء في الله والبقاء به. هـ. قال الورتجبي : فيه تأديب المريدين حين اشتغلوا عن صحبة المشايخ ، بخلواتهم وعباداتهم ، لطلب الكرامة ، ولم يعلموا أنَّ ما يجدون في خلواتهم بالإضافة إلى ما يجدون في صحبة مشايخهم لَهْوٌ. هـ. وهو حق. وبالله التوفيق. وصلّى الله على سيدنا محمد ، عين عيان التحقيق ، وعلى آله وصحبه وسلّم.

٤٦

(٥٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٦

يقول الحق جلّ جلاله : {إذا جاءك} أيها الرسول {المنافقون} أي : حضروا مجلسك ، {قالوا نشهدُ إِنك لَرسولُ الله} ، أكدوا بإنَّ واللام ؛ للإيذان بأنَّ شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلبهم ، وخلوص اعتقادهم ، ووفور رغبتهم ونشاطهم ، قال تعالى : {واللهُ يعلم إنك لَرسوله} حقيقةً ، كما يدل عليه ظاهر كلامهم. والجملة معترضة بين شهادتهم وتكذيبهم بقوله : {واللهُ يشهدُ إِنَّ المنافقين لكاذبون} ، وحكمته : أنه لو لم يذكره لتوهم أنَّ قوله : {واللهُ يشهد إِنَّ المنافقين لكاذبون} إبطال للرسالة ، فوسطه بين حكاية قول المنافقين وبين تكذيبهم ؛ ليزيل هذا الوهم ، ويُحقق الرسالة. وقوله : " لكاذبون " أي : في ادعائهم أنهم قالوا ذلك عن اعتقاد وصميم قلب ، كما يُشير إليه ظاهر قولهم. قال القشيري : كذَّبهم فيما قالوا : إنّا نشهد عن بصيرة ، ونعتقد تصديقك ، فلم يكذبهم في الشهادة ، ولكن كذَّبهم في قولهم : إنّا مخلصون مصدِّقون بك. هـ.

{اتخَذوا أيمانَهم} الفاجرة {جُنَّةً} ؛ وقاية عما يتوجه إليهم من المؤاخذة بالقتل والسبي ، وغير ذلك ، واتخاذها جُنَّةً عبارة عن إعدادهم وتهيئهم لها إلى وقت الحاجة ، ليحلفوا بها ، ويتخلّصوا عن المؤاخذة ، {فصَدُّوا} بأنفسهم {عن سبيل الله} وضلُّوا عن طريق الحق ، أو : فصّدُّوا مَن أراد الدخول في الإسلام بإلقاء الشُبه ، وصدُّوا مَن أراد الإنفاق في سبيل الله بالنهي عنه ، كما سيجيء عنهم ، ولا ريب أنّ هذا الصدّ منهم متقدم على حلفهم بالفعل ، ولذلك عبّر بالاتخاذ. {إِنهم ساء ما كانوا يعملون} من النفاق

٤٧

والصدّ. وفي " ساء " معنى التعجب وتعظيم أمرهم للسامعين.

{ذلك} أي : ما تقدّم من قولهم ، الناعي عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً ، أو : ما وصف مِن حالهم في النفاق والكذب والاستتار بالأيمان الفاجرة. {بأنهم} ؛ بسبب أنهم {أمنوا} ؛ نطقوا بكلمة الشهادة ، كسائر مَن دخل في الإسلام {ثم كفروا} أي : ظهر كفرهم بما شُوهد منهم من شواهد الكفر ودلائله ، أو : نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، ونطقوا بالكفر عند شياطينهم ، {فطُبِعَ على قلوبهم} ؛ ختم عليها ، حتى لا يدخلها الإيمان ، جزاء على نفاقهم ، فتمرّنوا على الكفر ، واطمأنوا به ، {فهم لا يفقهون} شيئًا ، لا يعرفون حقيَّة الإيمان ولا حقيقته أصلاً.

(٨/٥٦)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٧

الإشارة : قد يأتي إلى مشايخ التربية مَن يُنافقهم ، طمعًا في الدنيا ، فيقول : نشهد إنك لَمن العارفين ، أو مِن أهل التربية ، مثلاً ، فَتَجُر الآيةُ ذيلَها عليه ، وقد يكون مذبذباً ، تارة تلوح له أنوارُ الولاية ، وتارة تَستر عنه ، فيُصدّق ثم يرجع ، ثم يُطبع على قلبه. قال القشيري : {ذلك بأنهم آمنوا} : استضاؤوا بنور الإجابة ، فلم يَنْبَسِطْ عليهم شعاعُ نور السعادة ، فانطفأ نورُهم بقَهْرِ الحرمان ، وبَقوا في ظلمة القسمة السابقة بحكم الشقاوة. هـ. وهنا إشارة أخرى للقشيري ، وهو : إذا جاءك أيها الروح الصافية منافق الهوى والنفس الأمّارة ، قالوا : نشهد إنك لَرسول الله ، أي : كاملة صافية ، يُريدون بذلك توقفها عن الترقي باستحسان ما أدركت ، والوقوف معه ، والله يعلم إنك لَرسوله ، حين تصفى ، فتكون محل العِلم الرباني ، والوحي الإلهامي ، والله يشهد إنهم لكاذبون في ادعاء الشهادة بلا حقيقة ، اتخذوا أيمانهم جُنَّة ، لئلا تكرّ عليهم بأنوارها ، فتُخرجهم عن عوائدهم وشهواتهم ، فصُدُّوا عن سبيل الله ، حيث بقوا مع عوائدهم ، أو : فصدُّوا الروح إن صدقتهم وطاوعتهم ، ذلك بأنهم أمنوا ، حيث ترد عليهم أنوار الواردات ، ثم كفروا ؛ رجعوا إلى وطنهم ، من الحظوظ ، حيث تخمد أنوار الواردات عنهم ، فطُبع على قلوبهم ، حيث وقفوا مع عوائدهم فهم لا يفقهون : لا يعرفون سر إيجادهم ، ولا لماذا خُلقوا. هـ. بالمعنى.

(٨/٥٧)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٧

يقول الحقّ جلّ جلاله : {وإذا رأيتهم تُعْجِبُكَ أجسامُهم} لضخامتها ، ويروقك منظرُهم ؛ لصباحة وجوههم ، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو : لكل سامع ، {وإن يقولوا تسمعْ لِقَولهم} لفصاحتهم ، وذلاقة ألسنتهم ، وحلاوة كلامهم ، وكان ابن أُبي رجلاً جسيماً صبيحاً ، وقوم من المنافقين في مثل صفته ، فكانوا يحضرون مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويستندون فيه ، ولهم جهارة المناظرة ، وفصاحة الألسن ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم ومَن معه يُعجبون

٤٨

بهم ، ويسمعون إلى كلامهم. {كأنهم خُشُب مُسَنَّدةٌ} أي : هم كخشب مُسَنَّدة ، شُبِّهوا في جلوسهم في مجلس الرسول صلى الله عليهم وسلم مستندين فيها بخُشب منظومة ، مسندة إلى الحائط ، في كونهم أشباحاً خاليه من العلم والخير ؛ لأنّ الخشب إذا انتُفع بها كانت في سَقفٍ ، أو جدارٍ ، أو غير

ذلك من مظان الانتفاع ، وما دام متروكاً غير منتفع به ، أُسند إلى الحائط فشُبِّهوا به في عدم الانتفاع. أو : لأنهم أشباح بلا أرواح ، وأجرام بلا أحلام. و " خُشُب " بضمتين ، جمع خَشبة ، كَثمرة وثُمُر ، ويسكن ، كبَدنة وبُدن.

{يحسبون كلَّ صيحةٍ} واقعة {عليهم} ، ف "كل " : مفعول أول ، و " عليهم " : مفعول ثان ، أي : يظنون كلَّ صيحة واقعة عليهم لاستقرار الرعب في قلوبهم ، فإذا نادى منادٍ في العسكر ، أو انفلتت دابة ، أو نُشِدت ضالّة ؛ ظنوه إيقاعاً بهم. {هم العدوُّ} أي : الكاملون في العداوة ، الراسخون فيها ، فإنّ أعدى الأعادي المكاشِر ، الذي يُكاشر وتحت ضلوعه الداء. فالألف واللام للجنس ، أو : للعهد ، أي : العدو الذي يشهد لك ، ويعتقد خلاف ما يشهد ، {فاحْذرهم} ولا تغتر بحلاوة منطقهم ، {قاتلهم اللهُ} ، دعاء عليهم ، أو : تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم ، {أنى يُؤفكون} أي : كيف يعدلون عن الحق بعد وضوحه ، تعجُّباً من جهلهم وضلالتهم.

الإشارة : لا عبرة بالأجسام العريضة ، ولا بالألسن الفصيحة ، إنما العبرة بالقلوب المطهرة ، والسرائر المنورة ، " إن الله لا ينظر إلى صوركم... " الحديث ، و " رُبَّ أشعثَ أغبر ، مدفوعٍ بالأبواب ، لو أقسمَ على الله لأبَرَّه في قسمه " قال القشيري : قوله تعالى : {وإذا رأيتهم..} الخ ، أي : هم أشباح وقوالب ، ليس وراءهم ألبابُ وحقائق ، والجوزُ الفارغ يؤنق ظاهره ، ولكن للعب الصبيان. هـ. وقال الشاعر :

وما الحسنُ في وجه الفتى شرفاً له

إذا لم يكن في فعله والخلائق

وقالت العامة : لا يتكلم إلاَّ الجوز الفارغ ، ذمًّا لشقشقة اللسان ، وفي الحديث أيضاً ذمهم والتحذير منهم. أما قوله صلى الله عليه وسلم : " التمسوا حوائجكم عن حِسَان الوُجُوه " فإنما المراد : ما يظهر على الوجه من البهجة والنور ، والخفة والملاحة ، مما خامر الباطن من بشاشة الإيمان ونور المعرفة. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جلّ جلاله : {وإذا قيل لهم} عند ظهور نفاقهم : {تعالَوا يستغفر لكم رسولُ الله لَووا رؤوسَهم} أي : عطفوا استكباراً. وقرأ غير نافع بالتشديد للمبالغة. {ورأيتهم يصُدُّون} أي : يُعرضون عن القائل ، أوعن الاستغفار ، {وهم مستكبرون} عن الاعتذار والاستغفار.
رُوي أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين لقي بني المصطلق على المُرَيْسيع ـ وهوماءٌ لهم ـ وهزمهم ، وقتلهم ، ازدحم على الماء " جهجاه " أجير لعُمر ـ مع سِنانٍ ـ حليف لعبد الله بن أُبيّ المنافق ـ فصرخ جهجاه : يا للمهاجرين! وصرخ سنان : يا للأنصار! فأعان جَهْجَاهاً جُعال من فقراء المهاجرين ، ولطم سناناً ، فقال ابنُ أُبيّ : أُوَقد فعلوها ، وقال : وما صحبنا محمداً إلا لنُلطَم! وما مثلنا ومثلهم إلاَّ كما قائل القائل : سمِّن كلبك يَأكُلْكَ! والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ. ثم قال لقومه : كُفوا طعامكم عن هذا الرجل ، ولا تُنفقوا على مَن عنده حتى ينفضُّوا ويتركوه ، فسمع ذلك زيدُ بن أرقم ، وكان حدثاً ، فقال : أنت ـ والله ـ الذليلُ ، المبَغَّضُ في قومك ، ومحمد على رأسه تاج المعراج ، في عزّ من الرحمن ، وقوةٍ من المسلمين ، فقال عبدالله : اسكت ، فإنما كنتُ ألعب ، فأخبر زيدٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر رضي الله عنه : دعني أضرب عنقَ المنافق! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " إذن تُرْعَدُ أنوفٌ كثيرة بيثرب " قال : فإن كرهت أن يقتله مُهاجريّ ، فمُر به أنصاريًّا ، فقال : " فكيف إذا تحدّث الناسُ أنّ محمداً يقتل أصحابه ؟ " فأرسل صلى الله عليه وسلم له ، فأتى ، فقال : " أنت صاحب الكلام الذي بلغني " ؟ فقال : والذي أنزل عليك الكتاب ما قلتُ شيئاً من ذلك ، وإنّ زيداً لكاذب ، وهو قوله : {اتخَذوا أيمانهم جُنَّة} فقال الحاضرون : يا رسول الله! شيخُنا وكبيرُنا ، لا تُصدق عليه كلام غلام ، عسى أن يكون قد وَهم ، قال زيد : فوجدتُ في نفسي ، ولآمَنِي الناسُ ، فلزمتُ بيتي ، فلما نزلت الآية ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لزيد : " يا غلام إنَّ الله قد صَدَّقك وكذّب المنافقين " ، فلما بان كذب عبدالله ؛ قيل له : قد نزلت فيك آيٌ شِدادٌ ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك ، فلوى رأسه ، وقال : أمرتموني أن أومن
فآمنتُ ، وأمرتموني أن أزكي مَالي ، فزكّيتُ ، ما بقي لي إلاّ أن أسجد لمحمد ، فنزل : {وإذا قيل لهم تعالوا...} الآية ، وما بقي إلاّ أياماً حتى اشتكى ومات.
٥٠
قاله النسفي ، فانظره ، مع أنّ سورة براءة متأخرة عن هذه ، وفيها : {وَلآ تُصَلِ عَلَى أَحَدٍ مّنْهُم...} [التوبة : ٨٤] التي نزلت فيه.

قالت تعالى : {سواءٌ عليهم أَسْتغفَرتَ لهم أم لم تستغفرْ لهم} ، أي : لا مساغ للنصح فيهم ، {لن يغفر اللهُ لهم} أي : ما داموا على النفاق. والمعنى : سواء عليهم الاستغفار وعدمه ؛ لأنهم لا يلتفتون إليه ، ولا يعتدون به ؛ لكفرهم ، أو لأنّ الله لا يغفر لهم أبداً ، {إِنَّ اللهَ لا يهدي القوم الفاسقين} ؛ لإصرارهم على الفسق ، ورسوخهم في الكفر والنفاق. والمراد : إما هم بأعيانهم ، والإظهار في موضع الإضمار لبيان غلوهم في الفسق ، أو : الجنس ، وهم داخلون في زمرتهم دخولاً أولياً.
{هم الذين يقولون} للأنصار : {لا تُنفقوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضوا} ؛ يتفرقوا ، وهذه المقالة كانت السبب في استدعائه إلى الاستغفار ، كما تقدّم ، فحقها التقديم قبل قوله : {وإِذا قيل لهم تعالوا} وإنما أُخرت ليتوجه العتاب إليه مرتين ، كما تقدّم في سورة البقرة.
ثم قال تعالى ، في الرد على الخبيث : {ولله خزائنُ السموات والأرض} ، فهو رد وإبطال لما زعموا من أنَّ عدم إنفاقهم يؤدي إلى انفضاض الفقراء من حوله صلى الله عليه وسلم ببيان أنَّ خزائن الأرزاق بيد الله تعالى خاصة ، يُعطي مَن يشاء ، ويمنع مَن يشاء ، فيرزق منها المهاجرين ، وإن أمسك أهلُ المدينة عنهم ، {ولكنَّ المنافقين لا يفقهون} ؛ ولكن عبد الله وأضرابه لايفقهون ذلك فيهتدون ، بما يُزيِّن لهم الشيطان.
{يقولون لئن رجعنا} من غزوة بني الصطلق {إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منها} يعني : نفسه ـ لعنه الله ـ {الأذلَّ} يعني : جانب المؤمنين ، وإسناد القول بذلك إلى المنافقين ؛ لرضاهم به ، فردّ تعالى عليهم ذلك بقوله : {ولله العِزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين} أي : ولله الغلبة والعزّة ، ولِمن أعزّه من رسوله والمؤمنين ، لا لغيرهم ، كما أنَّ المَذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين. وعن بعض الصالحات ، وكانت في هيئة رثّة من الفقر : ألستُ على الإسلام ، وهو العزّ الذي لا ذُلّ معه ، والغنى الذي لا فقر معه ؟ وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنه : أنّ رجلاً قال له : إنَّ فيك تيهاً ؟ قال : ليس بتيه ، ولكنه عزّة ، وتلا هذه الآية. هـ.
{ولكنَّ المنافقينَ لا يعلمون} ذلك ؛ لفرط جهلهم وغرورهم ، فيهذون ما يهذون. رُوي أنَّ ولد عبدالله بن أُبيّ ، واسمه عبدالله ، وكان رجلاً صالحاً ، لَمَّا سمع الآية جاء إلى أبيه ، فقال له : أنت والله يا أبت الذليل ، ورسول الله العزيز ، ووقف على باب السكة التي يسلكها أبوه ، وجرّد السيف ، ومنعه الدخول ، وقال : والله لا دخلتَ منزلك إلاَّ أن يأذن في ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله في أذل حال ، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليه : " أن خَلِّه يمضي إلى منزله ، وجزاه خيراً " فقال : الآن فنعم. هـ.
٥١
الإشارة : مَن تكبّر عن حط رأسه للأكابر ففيه خصلة من النفاق ، والمراد بالأكابر : الأولياء العارفون بالله ، مَن تكبّر عنهم مات ، وفيه بقية مِن النفاق ، إذ لا يخلو منه إلاّ بالتطهير الكبير على أيدي

المشايخ ، وكذلك مَن منع الناس مِن الإنفاق على أهل النسبة ، كائناً ما كانوا ، فشُؤمه الحرمان من نسيم أهل الوصلة ، {ولِلّه خزائن السماوات والأرض} أي : خزائن الأرزاق الحسية والمعنوية ، فقد يُعطي أحدهما دون الآخر ، وقد يعطيهما معاً ، أو : يمنعهما معاً ، على حسب المشيئة ، قال رجل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : {ولِلّه خزائن السماوات والأرض} وقال الجنيد : خزائن السماوات : الغيوب ، وخزائن الأرض : القلوب ، وهو علاّم الغيوب ، ومُقلِّب القلوب. وكان الشبلي يقرأ : {ولِلّه خزائن السماوات والأرض} ويقول : فأين تذهبون. هـ. أي : حين تهتمون بالرزق بعد هذه الآية.

}

(٦١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٠

ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين} ، قال بعضهم : عزة الله : قهره ، وعزته لرسوله : إظهاره ، وعزتُه للمؤمنين : نصره إياهم على مَن آذاهم. وقيل : عزة الله : الولاية {هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} [الكهف : ٤٤] ، وعزة الرسول : الكفاية والعناية ، وعزة المؤمنين : الرفعة والرعاية ، وقيل : عزة الله : الربوبية ، وعزة الرسول : النبوة ، وعزة المؤمنين : العبودية ، فإذا أردتَ أيها العبد أن تكون عزيزاً فارفع همتك عن الخلق ، وسُد باب الطمع ، وتحلَّ بحلية الورع. قال بعضهم : والله ما رأيتُ العزّ إلاَّ في رفع الهمة عن الخلق ، وقال آخر : ما قُدِّر لماضغيك أن يمضغاه فلا بدّ أن يمضغاه ، فامضغه . ويحك . بعز ، ولا تمضغه بذل. هـ.

(٦٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٠

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالكُم} أي : لايشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها ، والاعتناء بمصالِحها ، والتمتُّع بها ، {ولا أولادُكم} أي : سروركم بهم ، وشفقتكم عليهم ، والاستغراق في الأسباب ، للنفقة عليهم {عن ذكر الله} أي : عن الاشتغال بذكره عزّ وجل ، من الصلاة ، والذكر ، وسائر العبادات ، والمراد : نهيهم عن التلهي بها ، وتوجيه النهي لهم للمبالغة ، كقوله تعالى : {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَآنُ قَوْمٍ} [المائدة : ٢] ، {ومن يفعل ذلك} أي : التلهي بالدنيا عن الدين {فأولئك هم الخاسرون} ؛ الكاملون في الخسران ، حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني.

{وأَنفِقوا مِن مَّا رزقناكم} أي : بعض ما رزقناكم ، تفضُّلاً ، من غير أن يكون

حصوله من جهتكم ادخاراً للآخرة ، وهو عام في المفروض والمندوب ، {مِن قبل أن يأتي أحدَكُم الموتُ} بأن يُشاهد دلائله ، ويُعاين أمارته ومخايله. وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام بما قدّم ، والتشويق لِما أخّر ، {فيقولَ} حين تَيَقُّنِه بحلوله : {لولا أخَّرتني} ؛ أمهلتني {إلى أجلٍ قريب} ؛ أمدٍ قصيرٍ ، {فأصَّدَّقَ} بالنصب ، جواب التمني ، {وأكن من الصالحين} بالجزم ، عطفاً على محل {فأصَّدق} أو : على توهُّم إسقاط الفاء ، كأنه قيل : إن أخرتني أصَّدَّق وأكن ، وقرأ أبو عمرو بالنصب عطفاً على اللفظ.
{ولن يُؤخر اللهُ نفساً} ؛ لن يمهلها {إذا جاء أجَلُهَا} ؛ آخر عُمْرِها المكتوب في اللوح. {واللهُ خبير بما تعملون} فيُجَازيكم عليه ، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر ، فسارعوا إلى الخيرات ، واستعِدوا لما هو آت. قال ابن عباس : ما قصَّر أحد في الزكاة والحجِّ إلاَّ سأل الرجعة عند الموت. هـ. والظاهر : أنَّ كل مَن قصَّر في الاجتهاد ، وتعمير الأوقات ، كله يطلب الرجعة ، وكل مَن أدركته المنية قبل الوصول إلى الله مغبون ، ولذلك ذكر التغابن بعدها ، وفي الحديث : " ما مِن أحدٍ إلاَّ سيندم عند الموت ، إن كان عاصياً أن لو تاب ، وإن كان طائعاً أن لو زاد " أو كما قال صلى الله عليه وسلم. قال في غريب المنتقى : إنّ العبد يقول عند كشف الغطاء : يا ملك الموت أَخِّرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي ، وأتوب وأتزوّد صالحاً لنفسي ، فيقول المَلك : فَنيت الأيامُ ، فلا يوم ، فيقول : أخِّرني ساعة ، فيقول : فَنِيَت الساعات فلا ساعة. هـ.

(٦٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٢
قيل : لمَّا كانت سورة المنافقين رأس ثلاث وستين سورة ، أُشير فيها إلى وفاته صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : {ولن يُؤخر اللهُ نفساً إذا جاء أجلها} فإنه صلى الله عليه وسلم مات على رأس ثلاث وستين سنة ، وعقبها بالتغابن ، ليظهر التغابن في فقده صلى الله عليه وسلم. هـ.
الإشارة : قد نهى الله تعالى عن الاشتغال عن ذكره بالأموال والأولاد ، ويُقاس عليه سائر القواطع ، فلا عذر للعبد في تركه في وقت من الأوقات ، فما مِن وقت من الأوقات إلاَّ وله حق جديد ، وأمر أكيد ، لا يُقضى في غيره ، فحقوق الأوقات لا تقضى ، بخلاف الحقوق التي لها أوقات محدودة ، فإنها تُقضى في غيرها ، ولمّا كان الذِكر يُطهِّر القلب ، ويُخرج ما فيه من حب الدنيا وغيرها ، أمر بالإنفاق بعد الأمر به ؛ ليسهل الإنفاقَ على العبد. قال بعض الحكماء في مدح الذكر والترغيب فيه : الذكر

منشور الولاية ، ولا بُد منه في البداية والنهاية ، وهو يُثمر أحوالاً شريفة ، وماقامات عالية منيفة ، وعلوماً لطيفة ، ويحيي عوالم طالما كانت قَبْلُ مواتاً ، ويُلبِسُ النفسَ وجنودَها ذلة وسُبَاتاً ، ونظيره إذا وصل للقلب : كدخول الماء في الأسراب ، فإنه يُخرج ما فيها من الحشرات والدواب ، فكذلك الذكر ، إذا صدم القلب ، ودخل سُويداءه ، فإنه يُخلصه مِن مساكنة صلصال النفس ، ويُزيل

٥٣

عن ناظره الغشاوة واللبس ، ولهذا كان أفضل الأعمال ، وأزكى الأحوال ، وفُضّل على جهاد السيف والقتال. هـ. وأنفِقوا مما رزقناكم من العلوم والمعارف ، لمَن يطلبها وكان أهلاً لها ، بعد إنفاق ما عنده من الحس ، وإلاَّ فلا خير في فقير شحيح ، فإنه مِن أقبح كل قبيح. فانتهزوا الفرصة ، وبادِروا نفوذ الأجل ، فالترقي إنما تهو في هذه الدار. قال القشيري : لا تَغْتَرُّوا بسلامةِ أوقاتِكم ، وتَرَقَّبوا بغَتَات آجالكم ، وتأهَّبوا لِما بين أيديكم من الرحيل ، ولا تعرجوا في أوطان التسويف. هـ. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلّم.

٥٤

(٦٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٢

سورة التغابن

(٦٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٤

يقول الحق جلّ جلاله : {يُسبِّح لله ما في السماوات وما في الأرض} أي : يُنزّهه سبحانه جميعُ ما فيهما من المخلوقات عما لا يليق بجناب كبريائه ، قال القشيري : المخلوقات بجملتها مُسَبِّحةٌ لله ، ولكن لا يَسْمَعُ تسبيحَها مَن فيه طَرَشُ النكرة. هـ. {له الملكُ وله الحمدُ} لا لغيره ؛ إذ هو المبدىء لكلّ شيء ، وهو القائم به ، والمهيمن عليه ، وهو المُولي لأصول النِعم وفروعها ، وأمّا ملك غيره فاسترعاء من جنابه ، وحمد غيره اعتداد بأنّ نعمة الله جرت على يديه. فتقديم الظرفين للاختصاص. {وهو على كل شيءٍ قديرٌ} ؛ لأنّ نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى كل سواء.

{هو الذي خَلَقَكُم} خلقاً بديعاً ، حائزاً لجميع الكمالات العلمية والعملية ، ومع ذلك {فمنكم كافرٌ} أي : فبعض منكم مختار للكفر كاسباً له ، على خلاف ما تستدعيه خِلقته ، {ومنكم مؤمن} مختار

للإيمان ، كاسباً له ، على حسب ما تقتضيه خِلقته ، وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان ، شاكرين لنِعم الخلق والإيجاد ، وما يتفرّع عليهما من سائر النِعم ، فما فعلتُم ذلك مع تمام تمكُّنكم منه ، بل تشعّبتم شعباً ، وتفرقتم فِرَقاً. وتقديم الكفر لأنه الأغلب والأنسب للتوبيخ. قال القشيري : {فمنكم كافر ومنكم مؤمن} أي : في سابق علمه سمَّاه كافراً ، لعلمه أنه يكفر ، وكذلك المؤمن. هـ.

٥٥

قال أبو السعود : حَمْله على ذلك مما لا يليق بالمقام ، فانظره. {واللهُ بما تعملون بصير} فيُجازيكم بذلك ، فاختاروا منه ما ينفعكم من الإيمان والطاعة ، وإياكم وما يرديكم من الكفر والعصيان.

{خَلَقَ السماوات والأرضَ بالحق} ؛ بالحكمة البالغة ، المتضمنة للمصالح الدينية والدنيوية ، حيث جعلها مقرًّا للمكلّفين ليعملوا فيُجازيهم ، {وصوَّركم فأّحْسَن صُوَركم} حيث أنشأكم في أحسن تقويم ، وأودع فيكم من القُوى والمشاعر الظاهرة والباطنة ، ما نيط بها جميع الكمالات البارزة والكامنة ، وخصَّكم بخلاصة خَصائص مُبدعاته ، وجعلكم أنموذجَ جميع مخلوقاته ، فالكائنات كلها منطوية في هذه النشأة.

(٨/٦٦)

قال النسفي : أي : خلقكم أحسن الحيوان كلّه ، وأبهاه ، بدليل : أنّ الإنسان لا يتمنّى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور ، ومِن حُسن صورته : أنه خلق منتصباً غير منكبٍّ ، ومَن كان دميماً ، مشوّه الصورة ، سمج الخلقة ، فلا سماجة ثمَّ ، ولكن الحسن على طبقات ، فلانحطاطها عمّا فوقها لا تستملح ، ولكنها غير خارجة عن حدّ الحُسن. وقال الحكماء : شيئان لا غاية لهما : الجمال والبيان. هـ. قلت : وما أشار إليه هو الذي نظمه الجيلاني في عينيته ، حيث قال :

وكُلُّ قبيحٍ إن نَسَبْتِ لحُسْنِه

أتتك معاني الحُسْنِ فيه تُسارعُ

يُكَمِّل نُقصانَ القبيحِ جَمَالُه

فما ثَمَّ نُقصانٌ. ولا ثَمَّ بَاشِعُ

{وإليه المصيرُ} في النشأة الأخرى ، لا إلى غيره ، فأحسِنوا سرائركم ، باستعمال تلك القوى والمشاعر فيما خُلقن له.

{يعلمُ ما في السماوات والأرض ويعلم ما تُسِرُّون وما تُعلنون} أي : ما تُسرونه فيما بينكم ، وما تُظهرونه

من الأمور ، والتصريح به مع اندراجه فيما سبق قبله ؛ لأنه الذي يدور عليه الجزاء ، ففيه تأكيد للوعد والوعيد ، وتشديد لهما. وقوله تعالى : {واللهُ عليم بذاتِ الصُدور} : تذييل لِما قبله ، ومُقَرِّر له ، من شمول علمه تعالى لسِرِّهم وعلنهم ، أي : هو محيط بجميع المضمرات المستكنة في صدور الناس ، بحيث لا يُفارقها أصلاً ، فكيف يخفى عليه ما يُسرونه وما يُعلنونه ، فحق أن يُتقى ويُحذر. وإظهار الجلالة للإشعار بعلية الحكم ، وتأكيد استقلال الجملة. قيل : وتقدّم تقرير القدرة على تقرير العلم ؛ لأنّ دلالة المخلوقات على قدرته تعالى بالذات ، وعلى علمه بما فيها من الإتقان والاختصاص ببعض الأوصاف ، وكل ما ذكره بعد قوله : {فمنكم كافر ومنكم مؤمن} في معنى الوعيد على الكفر ، وإنكار أن يُعصى الخالق ولا تُشكر نِعَمه.

قال الطيبي : الفاء في " فمنكم " تفصيلية ، والآية كلها واردة لبيان عظمة الله في مُلكِه وملكوته ، وذلك أنه تعالى لمّا أثبت لذاته الأقدس التنزيه ، وأنّ كل شيء ينزهه ويُقدّسه عما

٥٦

لا يَليق بجلاله ، ثم خصّ أنه لوصفه بالمالكية على الإطلاق ، وكل كمال وجمال ونعمةٍ وإفضال منه ، وهو خالق كل مهتدٍ وضال ، ونظم دليل الآفاق مع ليل الأنفس ، وبيّن أنَّ إليه المصير ، ختم ذلك بإثبات العلم الشامل للكليات والجزئيات ، وكرره تكريراً ، وأكّده توكيداً ، وكأنَّ ذكر العلم في قوله : {والله بما تعملون بصير} استطراد لذكر الخلق وتفصيله ، ولإثبات القضاء والقدر ، ولمّا فرغ من بيان العظمة جاء بالتهديد والوعيد ، وقال : {ألم يأتكم...} الآية. هـ.

(٦٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٥

الإشارة : هو الذي خلقكم ، فمنكم كافر بطريق الخصوص ، ومنكم مؤمن بها ، داخل فيها ، أي : فمنكم عام ومنكم خاص. قال القشيري : فمنكم كافرٌ ، أي : سائر للحق بالخلق ، ومنكم مؤمن ، أي : مُصدِّقٌ بظهور الحق في الخلق. ثم قسَّم الناسَ على ثلاثة : مَن لا يرى إلاّ الخلق ، وهم أهل الفرق ، ومَن لا يرى إلاّ الحق ، وهم أهل الجمع ، ومَن يرى الحق في الخلق ، والخلق في الحق ، لا يحجبه أحدُهما عن الآخر ، فهم أهل جمع الجمع.

خَلَقَ سماواتِ الأرواح ليُعرف بها ، وأرض الأشباح ليُعبد بها ، وهو الواحد الأحد ، وصوَّركم فأحسن صُورَكم ، حيث جعلها جامعة للعوالم العلوية والسفلية ؛ لأنَّ الله تعالى خلق آدم على صورته ، وذاته المقدسة جامعة لمظاهر الصفات والأسماء ، وتلك المظاهر كلها مجموعة في الصور الآدمية ، بخلاف سائر الكائنات ، فما في صورتها إلاَّ بعض الأسماء والصفات ، فتأمّله. وإليه المصير ، أي : وإلى ذاته

ترجع جميع الصور والأشكال ، فما خرج شيء عن إحاطة الذات والصفات ، يعلم ما تُسرُّون من العقائد الصحيحة ، وما تُعلنون من العبادات الخالصة ، أو : ما تُسرُّون من الكشوفات الذوقية ، وما تُعلنون من العبودية الاختيارية ، هذا في خاصة أهل الظاهر وأهل الباطن ، أو : ما تُسرُّون من العقائد الفاسدة ، وما تُعلنون من الأعمال الخبيثة ، أو : ما تُسرُّون من الاتحاد أو الحلول ، وما تعلنون من العمل والمعلول ، وهذا في طالحي الفريقين.

(٦٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٥

٥٧

يقول الحق جلّ جلاله : لكفار مكة {ألم يأتكم نبأُ الذين كفروا من قبلُ} ؟ كقوم نوح ، ومَن بعدهم من الأمم المُصرَّة على الكفر ، {فذاقوا وبالَ أمرهم} أي : شؤم كفرهم في الدنيا من الهلاك والاستئصال. والوبالُ : الثقل والشدة ، وأمرهم : كفرهم ، عبّر عنه بالأمر إيذاناً بأنه أمر هائلٌ ، وجناية عظيمة ، و " ذاقوا " عطف على " كفروا " أي : ألم يأتكم خبر الذين كفروا فذاقوا من غير مهلة ما يسْتتبعُهُ كفرهم في الدنيا ؟ {ولهم في الآخرة عذابٌ أليم} لا يُقادَر قدره.

{ذلك} أي : ما ذكر من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا ، وما سيذوقونه في الآخرة {بأنه} ؛ بسبب أن الشأن {كانت تأتيهم رُسُلهم بالبينات} ؛ بالمعجزات الظاهرة ، {فقالوا أَبَشَرٌ يهدوننا} أي : قال كلُّ قوم من المذكورين في حق رسولهم الذي أتاهم بالمعجزات منكرين كون الرسول من البشر ، متعجبين من ذلك {أَبَشرٌ} مِن جنس البشر {يهدوننا} ، أنكروا رسالة البشر ، ولم ينكروا عبادةَ الحجر ، {فكفروا} بالرسل {وتَوَلَّوا} عن التدبُّر فيما أتوا به من البينات ، أو : عن الإيمان بهم ، {واستغنى اللهُ} أي : أظهر استغناءه عن إيمانهم وطاعتهم ، حيث أهلكهم وقطع دابرهم ، ولولا استغناؤه تعالى عنها ما فعل ذلك ، {والله غنيٌّ} عن العالمين ، فضلاً عن إيمانهم وطاعتهم ، {حميدٌ} يحمده كلُّ مخلوقٍ بلسان الحال والمقال ، أو : مستحق للحمد بذاته ، وإن لم يحمده حامد.

ثم ذكر كفرهم بالبعث ، فقال : {زَعَمَ الذين كفروا أن لن يُبعثوا} ، الزعم : ادّعاء العلم ، فيتعدّى إلى مفعولين ، سدّ مسدهما " أن " المخففة ، أي : أدّعى أهل مكة أنّ الشأن لن يُبعثوا بعد موتهم ، {قل بلى وربي لَتُبعثن} ، ردًّا لزعمهم وإبطالاً لِما نفوه مؤكَّداً بالقسم ، فإن قلْتَ : ما معنى اليمين على شيء أنكروه ؟ قلتُ : هو جائز ؛ لأنّ التهديد به أعظم موقعاً في القلب ، فكأنه قيل : ما تنكرونه والله إنه لواقع لا محالة ، {ثم لَتُنبَّؤنَّ بما عَمِلتم} أي : لتُحاسبن وتُجزون بأعمالكم ، {وذلك} أي : ما ذكر من البعث والحساب {على الله يسيرٌ} هيّن ، لتحقق القدرة التامة ، وقبول المادة للإعادة.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٧

الإشارة : ألم يأتكم يا معشر المنكِرين على أولياء زمانكم ، خبر مَن أنكر قبلكم ، ذاقوا وبالَ أمرهم حيث ماتوا محجوبين عن شهوده ، مطرودين عن ساحة قربه ، ذاقوا وبال أمرهم في الدنيا ؛ الجزع والهلع وتسليط الخواطر والشكوك ، ولهم في الآخرة عذاب البُعد والحِجاب ، وسبب ذلك : إنكار الخصوصية عند بشر مثلهم ، فكفروا به ، وتولَّوا عنه ، والله غني عنهم ، وعن توجههم ، وعن جميع الخلق ، زعم الذين كفروا ؛ ستروا الحق بالخلق ، أي : احتجبوا بالخلق عن شهود الحق ، أن لن يُبعثوا على معتقدهم ، قل : بلى وربي لتُبعثن ، كما عشتم محجوبين عن رؤية الحق إلاّ نادراً ؛ لأنَّ العبد يموت على ما عاش ، ويُبعث على ما مات ، من معرفةٍ أو نكران ، ثم لتُحاسبن على أعمالكم ، لا يغادَر منها صغيرة ولا كبيرة ، بخلاف العارفين ، لا يُرفع لهم ميزان ، ولا يتوجه لهم حساب ، حيث

٥٨

فَنوا عن أنفسهم ، وبقوا بالله ، وهم من السبعين ألفاً. وبالله التوفيق.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٧

قلت : الفاء في قوله {فأمِنوا} فصيحة ، مفصحة عن شرط مقدّر ، أي : إذا كان الأمر كما ذكرنا من وقوع البعث لا محالة فآمِنوا وتأهّبوا له.

يقول الحق جلّ جلاله : {فآمِنوا بالله ورسوله} محمد صلى الله عليه وسلم ، {والنورِ الذي أنزلنا} وهو القرآن ، فإنه بيّن حقائق الأشياء ، فيهتَدي به كما يهتدى بالنور. والالتفات في " أنزلنا " لكمال العناية بالإنزال ، {والله بما تعملون} من الامتثال وعدمه {خبير} ، فيجازيكم عليه. وإظهار اسم الجليل لتربية المهابة ، وتأكيد استقلال الجملة.

واذكر {يومَ يجمعكم} أو : لَتنبؤنَّ ، أو خبير {يوم يجمعكم ليوم الجمع} وهو يوم يُجمع فيه الأولون والآخرون للحساب والجزاء ، {ذلك يوم التغَابُنِ} ، مستعار من : تغابن القومُ في التجارة ، وهو أن يُغبن بعضُهم بعضاً ، لنزول السعداء منازلَ الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء لو كانوا أشقياء ، كما ورد في الحديث. وقد يتغابن الناسُ في ذلك اليوم بتفاوت الدرجات ، وذلك هو التغابن الحقيقي ، لا التغابن في أمور الدنيا ، {ومَن يؤمن بالله ويعمل صالحاً نُكَفِّرْ} بنون العظمة لنافع والشامي ، وبياء الغيبة ، أي : يُكَفِّر الله {عنه سيئاتِه ونُدْخِلْه جنات} أو : يُدخله الله

{جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك} أي : ما ذكر من تكفير السيئات وإدخال الجنات {الفوزُ العظيم} الذي لا فوز وراءه ؛ لانطوائه على النجاة من أعظم الهلكات ، والظفر بأجل الطلبات.

{والذين كفروا وكَذَّبوا بآياتنا أولئك أصحابُ النار خالدين فيها وبئس المصير} ؛ المرجع ، كأنّ هاتين الآيتين الكريمتين بيان لكيفية التغابن. والله تعالى أعلم.

الإشارة : فأمِنوا بالله ورسوله إيمان العيان ، لا إيمان البرهان ، أي : قدِّموا إيمان البرهان ، ثم سيروا إلى مقام العيان ، وآمِنوا بالقرآن ، وصَفُّوا مرآة قلوبكم حتى تسمعوه منا بلا واسطة ، واذكروا يومَ يجمعكم ليوم الجمع الدائم لأهل الجمع في الدنيا ، ذلك يوم

التغابن ، يغبن الذاكرون الغافلين ، والمجتهدون المقصّرين ، والعارفون بالله والمحجوبين عنه ، وهذا هو الغبن الكبير ، ومَن يُؤمن بالله ، ثم يَجْهد في شهود الله ، ويعمل عملاً صالحاً ، وهو العمل بالله ، نُكفِّر عنه سيئاته ، أي رؤية أعماله ووجوده ، أي : نُغَطِّي وصفَه بوصفي ، ونعتَه بنعتي ، ونُدخله جنات المعارف ، تجري من تحتها أنهار العلوم والحِكم ، وذلك هو الفوز العظيم ، أي : خَلْع الوجود المجازي عنه ، وإلباس الوجود الحقيقي هو الفوز العظيم. والذين كفروا بطريق الخصوص ، وكذَّبوا بآياتنا ، وهم العارفون الدالون على الله ، أولئك أصحاب النار ، أي : نار الحجاب وجحيم الاحتجاب ، خالدين فيها ، وبئس المصير الحجاب والاحتجاب.

(٧١/٨)

يقول الحق جلّ جلاله : {ما أصاب من مُصيبةٍ} دنيوية أو أخروية {إلاّ بإذن الله} أي : بتقديره وإرادته ، كأنها بذاتها متوجهة إلى الإنسان ، متوقفة على إذنه تعالى ، {ومَن يُؤمن بالله} أي : يُصدِّق بأنّ المقادير كلها بيد الله {يَهْدِ قلبه} للرضا والتسليم ، أو الاسترجاع ، فيقول : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، أو : يَهْدِ قلبه حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن لِيُصيبه ، وعن مجاهد : إن ابتلي صبر ، وإن أعطي شكر ، وإن ظُلم غفر. ونقل ابن عطية عن المفسرين : أنّ المراد : مَن اعترف بالقدر هانت عليه المصيبة ، وسلَّم لأمر الله تعالى. {واللهُ بكل شيءٍ عليمٌ} فيعلم ما في القلوب من برد الرضا أو حرارة التدبير.

{وأطيعوا اللهَ} فيما أمركم به ، ومن جملته : الرضا بقضائه عن المصائب ، {وأطيعوا الرسولَ} فيما سنَّ لكم من الأخلاق الطيبة ، وكرر الأمر للتأكيد والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية ، {فإن توليتم}

عن طاعتهما {فإنما على رسولنا البلاغُ المبين} ، وهو تعليل للجواب المحذوف ، أي : فإن تُعرضوا فلا بأس عليه ؛ إذ ما عليه إلاّ البلاغ ، وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه. وإظهار الرسول مضافاً إلى نون العظمة في مقام إضماره لتشريفه صلى الله عليه وسلم والإشعار بأنّ مدار الحكم ، الذين هو وظيفته عليه السلام هو محض التبليغ ، ولتشنيع التولِّي عنه.

{اللهُ لا إله إلاّ هو} لا يستحق العبادة غيره ، ف " الله " : مبتدأ ، و " لا إله إلا هو " : خبره ، {وعلى الله} دون غيره {فليتوكل المؤمنون} ، حَثّ رسولَه صلى الله عليه وسلم على التوكُّل عليه حتى ينصره الله ، وهي عامة لغيره ، وإظهار الجلالة في موضع الإضمار للإشعار بعليّة

٦٠

التوكُّل والأمر به ، فإنّ الألوهية مقتضية للتبتُل إليه تعالى بالكلية ، وقطع التوكُّل عما سواه بالمرة.

الإشارة : ما من نَفَس تُبديه ، إلاّ وله قَدَر فيك يُمضيه. ما أصاب من مصيبة قلبية أو نفسية ، ظاهرة أو باطنة ، إلاّ بإذن الله وقَدَرِه ، وكذلك ما أصاب من مسرةٍ أو زيادة إلاّ بإذنه تعالى. قال القشيري : أي : أيّ خصلة حَصَلَت فمن قِبَله ، خَلْقاً ، وبعلمه وإرادته حُكماً ، ومَن يؤمن بالله يهدِ قلبه ، حتى يهتدي إلى الله في السراء والضراء في الدنيا ، وفي الآخرة يهديه إلى الجنة ، وقيل : يهديه للأخلاق السنية ، وقيل : لاتباع السنّة ، واجتنابِ البدعة. هـ. وقال أبو بكر الورّاق : ومَن يؤمن بالله عند النعمة والرخاء فيعلم أنها من فضل الله يهدِ قلبه للشكر ، ومَن يؤمن بالله عن الشدة والبلاء ، فيعلم أنها من الله يَهْد قلبه للصبر والرضا. هـ.

(٧٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٠

قال في الحاشية الفاسية : والظاهر والمتبادر : أنّ قوله : {ما أصاب...} الآية جمعٌ على الله ، ورَدٌّ من الأسباب ، والوقوف معها ، إلى الوقوف مع قضائه ، وإنما يجد ذلك المؤمن بالله ، وأمّا غيره فصَدْره ضَيق حرج عن قبول المعرفة ، ولذلك قال : {ومَن يؤمن بالله يَهْد قلبه} لمعرفته والأطمئنان به ، أي : ومَن لم يؤمن يَصْلى نار القطيعة والبُعد ، وحرارة التدبير ، ففيه ترغيب في الإيمان وتحذير من الكفر ، وأنّ الإيمان تعقبه جنة الرضا والتسليم ، عاجلاً ، والكفر بضد ذلك ، فبَعد أن ذكر الجزاء في الآخرة أشار إلى الجزاء المعجّل من اليقين والرضا للمؤمن ، وضده للكافر. والله أعلم. هـ.

وأطيعوا اللهَ في الفرائض ، والرسول في السنن ، وقد بقي بعد الرسول خلفاؤه ، يسنون السننَ الخاصة ، فمَن أعرض عنهم ، يقال له : {فإن توليتم...} الآية ، وتقدّم في آل عمران وغيرها الكلام على التوكُّل. وبالله التوفيق.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٠

٦١

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا إنّ مِن أزواجكم وأولادِكم عدواً لكم} يشغلونكم عن طاعة الله تعالى ، ويُخاصمونكم في أمور الدنيا ، أي : إنَّ من الأزواج أزواجاً يُعادين بعولتهنّ ويخاصمنَهم ، ومن الأولاد أولاداً يُعادون آباءهم ويعقّونهم ، {فاحذروهم} ؛ كونوا على حذر منهم إن شغلوكم عن الله ، فالضمير للعدو ، فإنه يُطلق على الجمع ، كقوله تعالى : {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي} [الشعراء : ٧٧] ، أو : للأزواج والأولاد جميعاً ، فالمأمور به على الأول : الحذر عن الكل ، وعلى الثاني : الحذر من البعض ، لأنّ منهم مَن ليس بعدو ، وإمّا الحذر عن عموم الفريقين ، لاشتمالهما على العدو. {وإن تَعفوا} عن ذنوبهم القابلة للعفو ، بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا ، أو بأمور الدين لكن مع التوبة ، أو : تعفوا إذا اطّلعتم منهم على عداوة ، {وتصفحوا} ؛ تُعرضوا عن التوبيخ ، {وتغفروا} ؛ تستروا ذنوبهم ، {فإنَّ الله غفور رحيم} يغفر لكم ذنوبكم ، ويعاملكم مثل ما عاملتم.

رُوي أنّ ناساً من أهل مكة أرادوا الهجرة ، فتعلّق بهم نساؤهم وأولادهم ، وقالوا : تنطلقون وتُضيعوننا ، فرقُّوا لهم ، ووقفوا ، فلما هاجروا بعد ذلك ، ورأوا الذين سبقوهم قد فَقِهُوا في الدين ، وحازوا رئاسةَ التقدُّم ، أرادوا أن يُعاقبوا أزواجهم وأولادهم ، فرغّبهم في العفو.

{إنما أموالُكم وأولادُكم فتنةٌ} ؛ بلاءٌ ومحنةٌ ، يوقعون في الإثم والعقوبة ، أو : امتحان واختبار ، يختبر بهما عبادَه ، هل يصدونهم عن الخير أم لا ، فيعرف القويّ في دينه من الضعيف. قال الحسن : أدخل " مِن " للتبعيض في الأزواج والأولاد ؛ لأنَّ كلهم ليسوا بأعداء ، ولم يذكر " مِن " في فتنة الأموال والأولاد ؛ لأنها لا تخلو من فتنة واشتغال قلب بها. كان لابن مسعود بَنون كالبُدور ، فقيل له - وهم بين يديه : أيسرُّونك ؟ فقال : لا ، إنما يسرُّني لو نفضت يدي من التراب عند دفنهم ، فنفوز بأجورهم ، قيل له : إنَّ لك الأجر في تربيتهم ، فقال : كل ما يشغل عن الله مشؤوم. هـ. من اللباب. وعن ابن مسعود : لا يقل أحدكم : اللهم اعصمني من الفتنة ؛ إذ لا يخلو منها أحد ، ولكن ليقل : اللهم إنني أعوذ بك من مضلاَّت الفتن. قال أبو بريدة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فجاءه الحسن والحسين ، عليهما قميصان أحمران ، يجرانهما ، يعثران ، ويقومان ، فنزل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن المنبر ، حتى أخذهما ، ثم قرأ : {إنما أموالكم وأولادكم فتنة}...الآية ، ثم قال " إني رأيت هذين فلم أصبر " ثم أخذ في خطبته.

}

واللهُ عنده أجرٌ عظيم} لمَن آثر محبةَ الله وطاعتَه على محبة الأموال والأولاد ،

والسعي في تدبير مصالحهم ، وليس في الآية ترهيب من مخالطة الأزواج والأولاد ، إنما المراد النهي عن الاشتغال بهم عن ذكر الله وطاعته ، فإذا تيسّر ذلك معهم فالمخالطة أولى ، فَعَن أنس رضي الله عنه : قلت : يا رسول الله ؛ الجلوس مع العيال أحب إليك أم في المسجد ؟ قال : " جلوس ساعة مع العيال أحب إليَّ من الاعتكاف في مسجدي هذا ، ودرهم تُنفقه على العيال أفضل من أن تنفقه في سبيل الله " انظر السمرقندي.
{فاتقوا اللهَ ما استطعتم} أي : ابذلوا جهدَكم وطاقتكم في تقواه ، قال ابن عطية : تقدّم الخلاف هل هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : {اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران : ١٠٢] أو : مُبيّنة لها ، والمعنى : اتقوا الله حق تقاته فيما استطعتم ، وهذا هو الصحيح. هـ. {واسمَعُوا} ما تُوعظون به ، {وأطيعوا} فيما تُؤمرون به {وأَنفِقوا} مما رزقناكم في الوجوه التي أُمرتم ، فالإنفاق فيها خالصاً لوجهه {خيراً لأنفسِكم} أي : وائتوا خيراً لأنفسكم ، {ومَن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون} الفائزون بكل خير.
{إن تُقرضوا اللهَ} بصرف أموالكم إلى المصارف التي عيّنها {قرضاً حسناً} مقروناً بالإخلاص {يُضاعِفْهُ لكم} بالواحدة عشراً إلى سبعمائة أو أكثر ، {ويغفرْ لكم} ببركة الإنفاق ما فرط منكم ، {واللهُ شكورٌ} يُعطي الجزيل في مقابلة القليل ، {حليمٌ} لا يُعاجِل بالعقوبة ، {عالمُ الغيب والشهادة} لا تخفى عليه خافية ، {العزيزُ الحكيمُ} مبالغ في القدرة والحكمة. والله تعالى أعلم.
الإشارة : كل ما يشغلك عن السير إلى الحضرة ، أو عن الترقِّي في معاريج الوصلة ، فهو عدو لك ، فاحذره ، بالفرار من موافقته والوقوف معه ، فكن إبراهيميًّا ، حيث رمَى أهلَه وولَده في وادٍ غير ذي زرع ، وتركهم في كنف الله وحِفْظِه ، فانظر كيف حَفِظَهم غايةَ الحفظ ، وتولاهم غاية التولي ، وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم من كل جانب ، وانصبّت عليهم الأرزاق من كل ناحية ، فهذه عادته تعالى مع أهل التوكُّل والانقطاع إليه. ومِن الأزواج والأولاد مَن يزيد بالرجل ويُعينه على ربه ، فهؤلاء ليسوا بأعداء. قال سهل : مَن دعاك مِن أهلك وولدك للميل للدنيا فهو عدو ، ومَن واخاك على القناعة والتوكُّل فليس بعدو. هـ. قال القشيري : إنَّ من أزواجكم : نفوسكم الأمَارة ، وأولادكم : صفاتها ومُناها وأخلاقها الشهوانية ، عدوًّا لكم ، يمنعكم عن الهجرة إلى مدينة القلب ، الذي هو بيت الرب ، فاحذروا متابعتَهم بالكلية ، وإن تعفوا عن هفواتكم الواقعة في بعض الأوقات ، لكونهم مطية لكم ، وتصفحوا عن التوبيخ

، وتغفروا : تستروا ظلمتهم بنور إيمانكم وشعاع قلوبكم ، فإنّ اللهَ غفور سائر لكم بستر لطفه ، رحيم بإفاضة رحمته عليكم. هـ. ببعض المعنى.

(٧٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦١

إنما أموالكم وأولادكم فتنة اختبار من الحق ، ليعلم مَن يقف معها ، أو ينفذ عنها ، فأهل العناية لم يشغلهم عن الله شيء ، فحين توجّهوا إليه كفاهم أمْرَهم ، أو : بالغيبة عنها

٦٣

بالخمرة القوية. قال القشيري : أموالكم : أعمالكم المشوبة ، وأولادكم : أخلاقكم المكدرة ، فكدورة الطبع فتنة توجب افتتانكم بالإعراض عن الحق ، والإقبال على الدنيا ، وحب الجاه عند الناس ، والتفاتهم إليكم بحسن الاعتقاد ، والله عنده أجر عظيم بالفناء عن الكل والبقاء بالحق. هـ.

{فاتقوا الله ما استطعتم} أي : غِيبوا عما سوى الله طاقة جهدكم ، وتقدّم أنَّ قوله تعالى : {اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران : ١٠٢] خطاب لأهل التجريد ، وهذا خطاب لأهل الأسباب ، والله تعالى أعلم. وقال ابن عطاء : الاستطاعة على الظواهر والأعمال ، وحق تقاته على القلوب والأحوال. هـ. أي : اتقوا الله حق تقاته بتوجيه القلوب إليه بلا التفات ، واتقوا الله ما استطعتم بعمل الجوارح قدر الطاقات. قال القشيري : ما أنتم في الجملة مستطيعين ، ويتوجه إليكم التكليف ، فاتقوا الله ، والتقوى عن شهود التقوى ، بعد ألاّ يكونَ تقصيرٌ في التقوى غايةُ التقوى. هـ. واسمعوا منا بلا واسطة ، وأطيعوا فيما نأمركم به مما يُقرب إلينا ، وننهاكم عنه مما يُبعد عنا. قال القشيري : أطيعوا بالنفس لأحكام الشريعة ، وبالقلب لآداب الطريقة ، وبالروح بطلوع الحقيقة. هـ. وأنفِقوا من أموالكم وعلومكم وأسراركم ، على الطالبين والسالكين والواصلين ، يكن خيراً لأنفسكم ، لأنّ الناس نفس واحدة ، فإنفاقك على غيرك إنفاق على نفسك ، لانتفاء الغيرية في الأحدية. ومن يُوق شُحَّ نفسه بإنفاقها في مرضاة الله ، بأن يُقدمها للمَتالف والمتاعب في طلب الوصول ، فأولئك هم المفلحون الظافرون بشهود الحق. قال القشيري : ومَن يُوق شُحَّ نفسه حتى يرتفع عن قلبه الأخطار ، ويتحرَّر من رِقِّ المكونات ، فأولئك هم المفلحون. هـ. وعن بعضهم : مَن أنفق بكُرهٍ فهو شح ، ومَن أَنفق بطوعٍ فهو الفرض ، ومَن عُوفي من بلاء الجمع والمنع ، والرغبة والحرص ، فقد دخل في ميدان الفلاح. هـ.

إن تُقرضوا الله بإعطاء وجودكم قرضاً حسناً ، من غير اعتبار الغرض والعوض ، بالفناء عن شهود القَرْض والحس ، يُضاعفه لكم بالوجود الحق ، المشتمل على جميع الموجودات الإضافية ، ويغفر لكم : يستر

عنكم مساوئكم وحسّ وجودكم قبل فنائكم في الله وبقائكم به. والله شكور يقبل مَن توجه إليه بلا شيء ، حليم يُغيّب العبد عن شهود مساوئه ، بإغراقه في إحسانه. عالم الغيب : بواطن الأرواح ، والشهادة : شهادة ظواهر الأشباح ، العزيز : المعزّ لأوليائه ومكل مَن انتسب إليه ، الحكيم في قسمه المراتب على حسب التوجُّه. وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.
٦٤

(٧٦/٨)

سورة الطلاق

(٧٧/٨)

{يأيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ الْعِدَّةَ وَاتَّقُواْ اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَي عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...}.

(٧٨/٨)

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها النبيُّ إذا طلقتم النساءَ} ، خصَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالنداء ، وعمَّ بالخطاب ؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم إمام أمته وقدوتهم ، كما يُقال لرئيس القوم : يا فلان افعلوا كذا وكذا ؛ إظهاراً لتقدُّمه ، واعتباراً لترؤسه ، وأنه قدوة قومه ، فكان هو وحده في حكم كلّهم ، وسادًّا مسدَّ جميعهم. ومعنى " إذا طلقتم " : إذا أردتم تطليقهن ، كقوله : {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ} [المائدة : ٦] ، تنزيلاً للمقبل على الشيء المشارِف له منزلةَ الشارع فيه ، كقوله صلى الله عليه وسلم : " مَن قتل قتيلاً فله سلبه " ، ومنه : كان الماشي إلى الصلاة والمنتظر لها في حكم المُصَلِّي.
{فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} أي : مستقبلات لِعِدَّتهن ، شارعة فيها ، بمجرد الطلاق ، من غير أن تكون في

حيض أو نِفاس ، فإنَّ المرأة إذا طلقت في طُهر تعتد بذلك الطُهر من أقرائها ، فتخرج من العدّة برؤية الحيض الثالث ، بخلاف إذا طُلقت في غير طُهر ، فتنتظر الطُهر منه ، فلا تخرج إلاّ برؤية الحيض الرابع. والمراد أن يُطلِّق في طُهر لم يمس فيه ، وهذا هو طلاق السُنَّة. قال ابن جزي : واختلف في الطلاق : هل هو مباح أو مكروه ، وأمّا إن كان على غير وجه السُنة فهو ممنوع. هـ. وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

٦٥

" فطلِّقوهن في قُبل عِدّتهن ". قال ابن جزي : واختلف في النهي عن الطلاق في الحيض ، هل هو معلَّل بتطويل العدة ، أو تعبُّد ، والصحيح : أنه معلَّل بذلك ، وينبني على هذا الخلاف فروع ، منها : هل يجوز إذا رضيت به المرأةُ أم لا ؟ ومنها : هل يجوز طلاقها في الحيض وهي حامل أم لا ؟ ومنها : هل يجوز طلاقها قبل الدخول وهي حائض أم لا ؟ فالتعليل بتطويل العدة يقتضي جواز هذه الفروع ، والتعبُّد يقتضي المنع ، ومَن طَلَّق في الحيض لزمه الطلاق ، ثم أُمر بالرجعة على وجه الإجبار عند مالك ، ودون إجبار عند الشافعي حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء طلَّق وإن شاء أمسك ، حسبما ورد في حديث ابن عمر ، حيث طلّق امرأته ، فأمره صلى الله عليه وسلم برجعتها هـ.

{وأَحْصُوا العِدَّةَ} ؛ اضبطوها ، وأكمِلُوها ثلاثة أقراء كوامل ، لِما ينبني عليها من الأحكام ، كالرجعة والسكنى والميراث وغير ذلك ، {واتقوا اللهَ ربكم} في تطويل العدة عليهن والإضرار بهن. وفي التعبير بعنوان الربوبية تأكيد لِما أمر ، ومبالغة في إيجاب الاتقاء.

}

(٧٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٥

لا تُخرجوهن من بيوتهن} ؛ من مساكنهن عند الفراق إلى أن تنقضي عدتهن ، وإضافتها إليهن مع أنها للأزواج لتأكيد النهي ببيان كمال استحقاقهن لسكانها ، كأنها أملاكهن. {ولا يَخْرُجْنَ} ولو بالإذن منكم ، فإنَّ الإذن في الخروج في حكم الإخراج ، وقيل : لا يخرجن باستبدادهن ، أمّا إذا اتفقا على الخروج جاز ، وهو خلاف مذهب مالك ، فلا يجوز لها في مذهبه المَبيت عن بيتها ، ولا أن تغيب عنه ، إلاّ لضرورة التصرُّف ، وذلك لحفظ النسب ، وصيانة المرأة ، فإن كان المسكن ملكًا للزوج ، أو مكترىً عنده لزمه إسكانها فيه ، وإن كان المسكن لها فعليه كِراؤه مدة العدة ، وإن كان قد استمتعته فيه مدة الزوجية ؛ ففي لزوم خِراج العدة له قولان في المذهب ، والصحيح لزومه ؛ لأنّ الاستمتاع قد انقطع بالطلاق.

{إلاَّ أن يأتين بفاحشةٍ مبيِّنة} ، قيل : الزنا ، فيخرجن لإقامة الحد ، قاله الليثي والثعلبي ، وقيل : سوء الكلام وإظهار الفحش مع الأصْهار ، فتخرج ويسقط حقها من السكنى ، وتلزمها الإقامة في مسكن تتخذه حفظاً للنسب. قاله ابن عباس ، ويؤيده : قراءة أُبي : " إلاَّ أن يفحشن عليكم " ، وقيل : جميع المعاصي من القذف والسرقة وغير ذلك. قاله ابن عباس أيضاً. ومال إليه الطبري. وقيل : الخروج من بيتها خروجَ انتقال ، متى فعلت ذلك سقط حقها. قاله ابن الفرس ، وإلى هذا ذهب مالك في المرأة إذا نشزت في

٦٦

العدة ، وقيل : هو النشوز قبل الطلاق ، فإذا طلّقها بسبب نشوزها فلا سكنى على زوجها قاله قتادة. {وتلك حدودُ الله} أي : تلك الأحكام المذكورة هي حدود الله التي عيّنها لعباده ، {ومَن يَتَعَدَّ حدودَ الله} المذكورة ، بأن يُخلّ بشيء منها ، على أنَّ الإظهار في محل الإضمار لتهويل أمر التعدي ، والإشعار بعلة الحكم ، {فقد ظَلَمَ نفسه} ؛ أضرَّ بها ، إذ لعله يندم. والتفسير بتعريضها للعذاب يأباه قوله : {لا تدري لعل اللهَ يُحدِثُ بعد ذلك أمراً} فإنه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية ، وقد قالوا : إنَّ الأمر الذي يُحدثه اللهُ تعالى : هو أن ينقلب قلبه بُغضها إلى محبتها ، أو : من الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ويندم ، فلا بد أن يكون الظُلم عبارة عن ضرر دنيوي يلحقه بسبب تعدِّيه ، وهو الندم إن كان طلَّق ثلاثاً ، فيمنع من الرجعة ، أو : الحياء ، إن كان إخراجها من المسكن بلا سبب ، أو : فقد ظَلَمَ نفسَه بتعريضها للعذاب الشامل ؛ الدنيوي والأخروي ، حيث خالف ما أمره سيده. {لاتدري} أيها المخاطب {لعل اللهُ يُحِدثُ بعد ذلك أمراً} وهو الرجعة ، والمعنى : أحصوا العِدَّة وامتثلوا ما أُمرتم به ، لعل الله يُحدث الرجعة لنسائكم.

}

(٨٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٥

فإذا بَلَغْنَ أجلَهن} أي : قاربن آخر العِدَّة {فأمْسِكُوهنَّ} ؛ راجعوهن {بمعروفٍ} بحُسن معاشرة وإنفاقٍ لائق ، {أو فارِقوهنَّ بمعروفٍ} بإعطاء الصداق والإمتاع حين الطلاق ، والوفاء بالشروط. والمعنى : فأنتم بالخيار ؛ إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف ، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة واتّقاء الضرر ، وهو أن يُراجعها في آخر عدتها ثم يُطلِّقها ، تطويلاً لِعدتها وتعذيباً لها ، {وأَشْهِدوا} عند الرجعة والمفارقة {ذَوَيْ عَدْلٍ منكم} من المسلمين ، وهذا الإشهاد مندوب على المشهور لئلا يقع بينهما التجاحد. وفي قوله : {ذوي عدل} دلالة على أنهم ذكور ، فلا تجوز شهادة النساء في النكاح ولا في

الطلاق عند الجمهور. {وأقيموا الشهادةَ للهِ} أيها الشهود عند الحاجة إليها ، خالصاً لوجهه تعالى. {ذلكم} إشارة إلى الحث على الإشهاد في الرجعة ، أو : إلى جميع ما ذكر ، {يُوعظ به مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر} إذ هو المنتفِع به ، والمقصود بتذكيره.

الإشارة : إذا طلقتم الدنيا وحظوظَ نفوسكم ؛ فليكن ذلك إلى أجل معلوم ، وهو الرسوخ والتمكين بعد الوصول ، وأَحْصُوا العدّة : اضبطوا أيام سيركم لئلا تضيع في البطالة أو الفضول ، واتقوا ما سوى ربكم أن تلتفتوا إليه ، لا تُخرجوا نفوسكم من أشباحها بشِدة مجاهدتها ، فإنها مَغرفة السر ، ومطيّة السير ، نَبَرُّ بها فيما تقوم بها من مآكل وملبس ونُخالف هواها ، ولا يَخرجن ، إي : ولا تتركوها أن تخرج من عش التربية قبل الترشيد ، إلاّ أن تطغى وتفحش ، فبالِغ في مجاهدتها بما يقارب موتها ، وتلك حدود الله التي حَدّها للسائر ، ومَن يتعدَّ شيئاً منها فقد ظلم نفسه ، إمّا بتفريط أو إفراط ، فصاحب التفريط لا يصل ، وصاحب الإفراط لا يدوم ، لا تدري أيها السائر لعل اللهَ يُحدث بعد ذلك انقياداً

٦٧

وتسهيلاً ، فإذا بلغ أجل الوصول ، وحل التمكين ، فلا ميزان على النفس ، إن شاء أمسك عليها إبقاء ، وإن شاء غاب عنهما فناء ، وأشهِدوا ذَوّيْ عدل منكم ، وهم أهل الفن ، فلا يخرج مِن ربقة المجاهدة وعش الإرادة ، حتى يشهد له الشيخ أو أهل الفن. والله تعالى أعلم.

ثم حَضَّ على التقوى التي هي مجمع الخير ، فقال :

{... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً}.

(٨١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٥

يقول الحق جلّ جلاله : {ومَن يَتّقِ اللهَ} بأن طلَّق للسُنَّة ، ولم يُضار بالمعتدّة ، ولم يُخرجها من مسكنها ، واحتاط في الإشهاد ، وغير ذلك ، {يجعل له مخرجاً} مما عسى يقع في شأن الأزواج من الغموم والمضائق ، ويُفرِّج عنه ما يعتريه من الكروب. رُوي عن ابن عباس أنه قال لمَن طَلَّق ثلاثاً : " إنك لم تتق الله ، فبانت منك امرأتك ". والمختار : أنَّ الآية عامة ، أي : ومَن يتق الله في أقواله وأفعاله وأحواله يجعل له مخرجاً من كرب الدنيا والأخرة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأها ، فقال : " مخرجاً من شُبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة " ، قال ابن جزي : وهذا ـ أي العموم ـ أرجح من خمسة أوجه ، الأول : حمل اللفظ على عمومه ، فيدخل فيه الطلاق وغيره. والثاني : رُوي : أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي ، وذلك أنه أُسر ولده ، وضُيِّق عليه رزقه ، فشكا ذلك

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره بالتقوى ، وقال له : " أَكْثِرْ من : لاحَول ولا قوة إلاّ بالله " فلم يلبث إلاَّ يسيراً ، وانطلق ولده ، ووسع عليه زرقه. والثالث : أنه رُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إني لأَعْلمُ آية لو أخذ الناسُ بها لكفتهُم {ومَن يتق الله يجعل له مخرجاً} " فما زال يكررها ، انظر بقيته.

{ويَرْزُقه من حيثُ لا يحتسب} أي : من وجوه لاتخطر بباله ولا بحسبه ، {ومَن يتوكل على الله} أي : يكل أمرَه إليه من غير تعلُّق بغير ، ولا تدبير نفس ، {فهو حَسْبُه} ؛ كافيه في جميع أموره ، {إِنَّ اللهَ بالغُ أَمْرِهِ} ، بالإضافة في قراءة حفص ، أي : منفذاً أمره ، وبالتنوين والنصب عند غيره ، أي : مبلغ ما يريد ، لا يفوته مُراد ، ولا يعجزه مطلوب. {قد جعل اللهُ لكل شيءٍ قَدْراً} ؛ تقديراً ، أو توقيتاً ، أو مقداراً معلوماً ووقتاً محدوداً ، لا يتقدمه ولا يتأخر عنه ، وهذا حث على التوكل وترغيب فيه ، لأنَّ العبد إذا عَلِمَ أنَّ الأمور

٦٨

كلها بيد الله ، من الرزق وغيره وأنَّ لها وقتاً محدوداً لا يُجاوزه ، توكل عليه ، وانجمع بكليته عليه ، ولم يبقَ له إلاّ التسليم للقدَر السابق. قال ابن عطية : في الآية حض على التوكل ، أي : لا بد من نفوذ أمر الله تعالى ، توكلتَ أيها المرء أم لم تتوكل ، فإنْ توكلتَ على الله كفاك ، وتعجّلت الراحة والبركة ، وإن لم تتوكل وَكَلَك إلى جحدك وتسخُّطك ، وأمره نافذ في الوجهين. هـ.

(٨٢/٨)

الإشارة : ومَن يتق الله التقوى الكاملة ، يجعل له من كمل مُشْكل وشُبهة ومتشابه مَخرجاً ، فيَنحلّ له كل ما أشكل على الناس في أمر الدين والدنيا ، ويرزقه من العلوم والأسرار والمعارف ، ما لا يخطر على بال ، من حيث لا يحتسب ، من غير تعلُّم ولا مدارسة ، وقال القشيري : إذا صَدَقَ العبدُ في تقواه أخرجه من أشغاله ، كالشعرة من العجين ، لا يتعلق بها شيء ، يضرب على المتقِي سرادقات عنايته ، ويُدخله في كنف الإيواء ويصرف الأشغال ، عن قلبه ، ويُخرجه عن تدبيره ، ويُجرده عن كل شغل ، ويكفيه كل أمر ، وينقله إلى شهود قضاء تقديره. هـ.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في هذه التقوى : أن تكون ظاهرة وباطنة ، ظاهرة من المعاصي ، وباطنة من المساوىء والدعاوى ، أمّا مَن طهَّر ظاهره من المعاصي ، وسَدّ الأُفق بالدعاوى وإضافة التدبير والاختيار لنفسه ، فلا يقوم خيره بِشَرِّه ، أي : فلا يدخل في الآية. ثم قال : إلاّ مَن وَطَّن نفسه على الأرياح إلى أيّ وجهة تقلب ، أي : دار مع رياح الأقدار حيث دارت ، ولم يسكن إلى شيء

، وكان ممن قال اللهُ فيه : {تَتَجَافَا جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} [السجدة : ١٦] ، أتراه منع جنوبَهم من مضاجع النوم ، وترك قلوبهم مضجعة وساكنة لغيره ، بل رفع قلوبهم عن كل شيء ، ولا يضاجِعُون أسرارهم شيئاً ، فافهم هذا المعنى ، تتجافى جُنوبهم عن مضاجعة الاختيار ومنازعة الأقدار ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، فالخوف قَطَعَهم عن غيره ، وبالشوق إليه أطمعهم فيه ، ومما رزقناهنم ينفقون. هـ. مختصراً.

وقوله تعالى : {ويَرْزُقه من حيثُ لا يحتسبُ} قال في الحاشية الفاسية : أي : يرزقه المقدَّر في الأزل من حيث لا مشقة عليه في وصوله إليه ، فيأكل ويلبس من غير انتظار ، ولا استشراف نفس ، ولا تعب ، فيخرج له من الغيب بالبديهة ما يكفيه عن السؤال ، ومَن عَرَف اللهَ عَرَفه بكمال قدرته وإحاطة علمه بكل ذرة ، فيلقي زمام الاختيار إليه ، فيكفيه كل مؤنه في الدنيا والآخرة ، وهو السميع العليم ، وقد قال سهل : التقوى : التبري من الحول والقوة. هـ.

وقوله تعالى : {ومَن يتوكل على الله فهو حَسْبه} قال القشيري : فالله حاسبه ، أي : كافيه. {إِنَّ اللهَ بالغُ أَمْرِه} ، إذا سَبَقَ له شيءٌ من التقدير ، فلا محالةَ يكون ، وفي التوكل لا يتغير المقدور ولا يتأخر ، ولكنَّ المتوكل تكون ثقته بقلبه ، غير كارهٍ لما يرد عليه ، وهذا

٦٩

من أجَلِّ النعم. ثم قال في موضع آخر : التوكل : شهود نَفْسِك خارجاً من المِنَّة ، جارياً عليك أحكام التقدير من غير تدبيرٍ منك ولا اطلاع لك على حُكمه ، فسبيلُ العبد : الخمودُ والرضا دونَ استعلام الأمر. وفي الخبر : " أعوذ بالله من علم لا ينفع " ومن جملته : أن يكون قد وقع لك شُغْلٌ ، واستقبلك مُهِمٌ ، وقد اشتبه عليك وجهُ التدبير فيه ، وتكون مُطالباً بالسُكون ، فيطلبك العلم ، وتتمنى أن تعرف متى يصلح هذا الأمر ، وبأي سببٍ ؟ وعلى أي وجهٍ ؟ وعلى يد مَن ؟ فهذا كله تخليطٌ ، وغير مُسلَّم شيءٌ من ذلك للأكابر ، وهو مِن العلم الذي يجب التعوُّذ منه ، فيجب عليك السكون والرضا ، فإذا جاء وقتُ الكَشْف ، فسترى صورة الحال وتعرفه ، وربما ينظر العبدُ في هذه الحالة تعريفاً في المنام ، أوينظر في فال من الجامع - اي : ككتاب وشبهه - أو يرجو بيان حاله ، بأن يجري على لسان مستنطق في الوقت ، كلُّ هذا تركُ للأدب ، واللهُ لا يَرْضى بذلك من أوليائه ، بل الواجبُ السكون. هـ.

(٨٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٥

وقال في القوت : والحسب إلى الحسيب يجعلُه ما شاء كيف شاء ، فقد قيل : {فهو حَسْبُه} أي : التوكل حَسْبُه من سائر المقامات ، ثم قال معرباً باللطافة ، مسلياً للجماعة : {إِنَّ الله بالغ أمره} أي :

منفذ حكمه فيمن توكل ، ومَن لا يتوكل ، إلاَّ أنّ مَن توكّل عليه يكون الله - عزّ وجل - حَسبه ، أي : يكفيه أيضاً مُهِم الدنيا والآخرة ، ولا يزيد مَن لم يتوكل عليه جناح بعوضة في قسْمه ، كما لا ينقص عليه ذرة من رزقه ، لكن يزيد مَن توكل عليه هُدىً إلى هداه ، ويرفعه مقاماً في اليقين قدر تقواه ، ويُعزّه بعزّه ، وينقص مَن لم يتوكل عليه من اليقين ، ويزيده من التعب والهم ، ويُشتت قلبَه ، ويشغل فكرَه ، فالمتوكل عليه يُجب له تكفير السيئات ، ويُلقي عليه رضاه ومحبته في المقامات ، أمّا الكفاية فقد ضَمِنها تعالى لِمن صدق في توكله عليه ، والوقاية قد وهبها لمَن أحسن تفويضه إليه ، إلاّ أنّ الاختيار وعلم الاستتار إليه في الكفاية والوقاية ، يجعل ذلك ما يشاء كيف شاء ، وأين شاء ، من أمور الدنيا وأمور الآخرة ، من حيث يعلم العبد ، ومن حيث لا يعلم ؛ لأنَّ العبد تجري عليه الأحكام في الدارين ، وفقير محتاج إلى الرحمة واللطف في المكانين. هـ.

(٨٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٥

يقول الحق جلّ جلاله : {واللائي يَئِسْنَ من المحيض من نسائكم} لكبرهن ، وقدّروه بستين ، أو : بخمس وخمسين. رُوي أنَّ ناساً قالوا : قد عرفنا عِدة الأقراء ، فما

٧٠

عدة التي لم تحض ؟ فنزلت. وقوله : {إن ارتبتمْ} أي : إن أشكل عليكم حكمهنّ كيف يعتددن ، {فعِدَّتهُنَّ ثلاثةُ أشهرٍ} أو : إن ارتبتم في حيضها ، هل انقطع أو لم ينقطع ، فعِدَّتها بالأشهر ، وهي المرتابة التي غابت حيضتُها ، وهي في سن مَن يحيض ، واختلف فيها ، فقيل : ثلاثة أشهر على ظاهر الآية ، وقيل : تسعة ، وتستبرىء بثلاثة ، وهو المشهور في مذهب مالك ، وقدوته في ذلك عُمر بن الخطاب ، لأنّ مذهبه عُمري ، وقيل : تعتد بالأقراء ، ولو بلغت ثلاثين سنة ، حتى تبلغ سن مَن لا يحيض ، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة. {واللائي لم يَحِضْنَ} من صغر ، فعدتهنّ ثلاثة أشهر ، حذف لدلالة ما قبله ، {وأُولات الأحوالِ أجَلُهُنَّ} أي : عِدّتهن {أن يضعن حَملَهن} سواء كن مطلقات ، أو متوفًّى عنهن أزواجهن ، عند مالك والشافعي وأبي حنيفة وسائر العلماء. وقال عليّ وابن عباس رضي الله عنهما : إنما هذا في المطلقات الحوامل ، وأما المتوفَّى عنهن فعدّتهنَ أقصى الأجلين ، إما الوضع ، أو انقضاء أربعة أشهر وعشر ، وحُجة الجمهور : حديث سُبَيْعة ، أنها لما مات زوجها ، ووضعت ، أَمَرَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالتزوُّج ، وقد رُوي أن ابن عباس رجع إليه ، ولو بلغ عليًّا لرجع ، فهذه الآية مخصَّصة لِما في سورة البقرة من قوله تعالى : {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ...} [البقرة : ٢٣٤].

تنبيه : وَضْعُ الحمل إنما يُبرىء الرحم إذا كان من نكاح صحيح ، وأمّا من الزنى فلا يُبرئ ، باتفاقٍ ، فمَن حملت مِن زنى وهي متزوجة فلا تحل للهارب الذي حملت منه إذا طُلّقت بوضع حملها منه ، بل لا بد من ثلاثة قروء بعد الوضع ، نَعَم مَن لا زوج لها من حُرةٍ أو أَمةٍ إذا حملت من زنى تمَّ استبراؤها بوضع حملها.
}

(٨٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٠
ومَن يتقِ اللّهَ} في شأن أحكام العدة ومراعاة حقوقها {يجعل له من أمره يُسراً} أي : يُسهل عليه أمره. ويتحلّل عليه ما تعقّد ببركة التقوى ، {ذلك} أي : ما علَّمكم من الأحكام {أمرُ الله أَنزله إِليكم} لتعملوا به. وإفراد الكاف مع أنّ المُشار إليهم جماعة ؛ لأنها لتعيين الفرق بين البُعد والقرب ، لا لتعيين خصوصية المخاطبين {ومَن يتق الله} بالمحافظة على أحكامه {يُكفِّر عنه سيئاتِه} فإنَّ الحسنات يُذهبن السيئات ، {ويُعْظِمْ له أجراً} بالمضاعفة والتكثير.
الإشارة : والنفوس التي يئسن من المساوىء والميل إلى الدنيا ، ثم شككتم في تحقق طهارتها ، تنتظر ثلاثة أشهر ، فإذا مضت هذه المدة ولم يظهر منها ميل ، فالغالب طهارتها ، وكذلك النفوس الزكية ، الباقية على الفطرة ، التي لم يظهر منها خَلل ، تنتظر هذه المدة ، فإن ظهرت سلامتها فلا مجاهدة عليها ، والنفوس الحوامل بكثرة الأشغال عِدَّة تمام فتحها أن تضع كل ما يثقل عليها ويمنعها من السير ، ولقد سمعتُ شيخنا البوزيدي رضي الله عنه
٧١
يقول : إن شئتم أن أُقسم لكم ؛ إنه لا يدخل أحد عالَم الملكوت وفي قلبه علقة. هـ. {ومَن يتق الله} أي : يعزم على البر والتقوى يجعل له تعالى من أمره يُسراً ، يُسهّل عليه طريق السلوك ، ويكفيه كلَّ ما يُثقله ويشغله عنه ، إما بإزالة ذلك له ، أو بغيبته عن شؤونه ، ومَن يتق الله بالفعل يُكَفِّر عنه سيئاتِه ، أي : يُغطّي عنه أوصافه الذميمة بأوصافه الحميدة ، ويُعظم له أجراً بأن يفتح له باب مشاهدته. والله تعالى أعلم.

(٨٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٠

يقول الحق جّل جلاله : {أَسْكِنُوهُنَّ} أي : المطلَقات {من حيثُ سَكَنتم} أي : مكاناً من حيث سكنتم ، ف " من " للتبعيض ، أي : بعض مكانِ سكناكم. قال قتادة : لو لم يكن له إلاّ بيت واحد سكنها في بعض جوانبه. {من وُجْدِكُم} أي : وُسْعِكم ، أي : ما تطيقونه ، فهو عطف بيان ، أو بدل. قال أبو حيان : لا يُعرف عطف بيان يعاد فيه العامل ، إنما هذا طريقة البدل مع حرف الجر ، ولذلك أعربه أبو البقاء بدلاً. هـ. والوجد ، يجوز فيه الضم . وهو أشهر . والفتح والكسر.

قال ابن جزي : فأمّا المطلقات غير المبتوتة فيجب لها على زوجها السُكْنَى والنفقة اتفاقاً ، وأمّا المبتوتة ففيها ثلاثة أقوال ، أحدها : أنها يجب لها السكنى دون الفقة ، وهو مذهب مالك والشافعي ، والثاني : أنها يجب لها السكنى والنفقة ، وهو مذهب أبي حنيفة ، والثالث : أنها ليس لها سُكنى ولا نفقة ، وهو قول محمد ، وثابت البناني ، وأُبي بن كعب. فحُجة مالك : حديث فاطمة بنت قيس ، وهو أنَّ زوجها طلَّقها البتَّةَ ، فقال لها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " ليس لك عليه نفقة " ، فيوخذ منه : أنَّ لها السُكْنى ، وحُجة مَن أوجب لها السكنى والنفقة : قول عمر بن الخطاب : لا ندع آيةً من كتاب الله ربنا لقول امرأة ، فإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لها السُكْنَى والنفقة " ، وحجة مَن لم يجعل لها سكنى ولا نفقة : أنَّ في بعض الروايات عنها . أي : فاطمة بنت قيس . أنها قالت : " لم يجعل لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نفقة ولا سُكْنَى ".

{ولا تُضارُّوهُنَّ} في السُّكْنَى {لِتُضيِّقُوا عليهن} ويُلجأن إلى الخروج ، {وإِن كن}

٧٢

أي : المطلقات {أُولات حملٍ فأَنفِقوا عليهن حتى يضعنَ حَملَهن} فيخرجن من العِدّة. قال ابن جزي : اتفق العلماء على وجوب النفقة في العِدّة للمطلقة ، عملاً بالآية ، سواء كان الطلاق رجعيًّا أو بائناً. واتفقوا أنَّ للمطلقة غير الحامل النفقة والسُكْنى في العِدّة إذا كان الطلاق رجعيًّا ، فإن كان بائناً فاختلفوا في نفقتها حسبما ذكرناه ، وأمّا المتوفَّى عنها إذا كانت حاملاً فلا نفقة لها عند مالك والجمهور ، لأنهم رأوا أنَّ هذه الآية إنما هي في المطلقات. وقال قوم : لها النفقة في التركة. هـ.

}

(٨٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٢

فإنْ أرضعنَ لكم} هؤلاء المطلقات أولادَكم {فآتوهن أجورَهُنَّ} أي : أجرة الرضاع ، وهي النفقة وسائر المؤن المُفصل في كتب الفقه. {وأْتَمِرُوا بينكم بمعروفٍ} ، خطاب للرجال والنساء ، أي : يأمر كلُّ

واحد منكم صاحبَه بخيرٍ ؛ من المسامحة والرفق والإحسان ، ولا يكن من الأب مماكسة ، ومن الأم معاسرة ، أو : تشاوروا بينكم على التراضي في الأجرة ، ومنه : {إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ} [القصص : ٢٠]. {وإِن تعاسَرتمْ} ؛ تضايقتم ، فلم ترضَ الأمّ بما ترضع به الأجنبية ، {فستُرضِعُ له أخرى} ؛ فستُوجد مرضعةٌ أخرى ، غير متعاسرة ، وفيه معاتبة للأم على المعاسرة. والمعنى : إن تشططت الأمّ على الأب في أجرة الرضاع ، وطلبت منه كثيراً ، فللأب أن يسترضع لولده امرأة أخرى بما هو أرفق إلاّ ألاَّ يَقبل الولدُ غيرها ، فتُجبر على رضاعة بأجرة المثل.

{ليُنفق ذو سَعَةٍ من سَعته ومَن قُدِرَ عليه رزقُه فليُنفق مما آتاه اللهُ} أي : لِينفق كُلٌّ واحد من المعسر والموسر بما يبلغه وسعه ، يعني : ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات ، {ومن قَدِرَ} أي : ضُيِّق {عليه رزقُه فلينفقْ} عليها {مما آتاه اللهُ} فيَفرض الحاكمُ عليه ما يطيقه ، {لا يُكلِّف اللهُ نفساً إلاَّ ما آتاها} ؛ أعطاها من الرزق ، وفيه تطييب قلب المعسر ، وترغيب له في بذل مجهوده ، وقد أكد ذلك بالوعد ، حيث قال : {سيجعل اللهُ بعد عُسر يُسراً} أي : بعد ضيق في المعيشة سعة فيها ، فإنّ عادته تعالى أن يُعقب العسر باليسر ، كما قال تعالى : {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً} [الشرح : ٥] ، وكرره مرتين ، فلن يغلب عسر يسريْن.

الإشارة : أسكِنوا نفوسَكم من حيث سكنتم بها قبل التوجه ، فينبغي للمريد أن يسايس نفسه شيئاً فشيئاً ، حتى يغيب عنها في شهود الحق ، من غير تشديدٍ في إخراجها عن طبعها بالكلية ، فإنها حينئذٍ تَملّ وتكِلّ ، فقد قيل : مَن سار إلى الله بموافقة طبعه كان الوصول إليه أقرب إليه من طبعه ، ومَن سار إلى الله بمخالفة طبعه كان الوصول إليه على قدر بُعده عن طبعه ، وفيه مشقة وحرج. ولذا قال تعالى : {ولا تُضاروهن لتُضيقوا عليهن} لئلا تمل وترجع من حيث جاءت ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " لا يكن أحدكم كالمُنْبَت ، فلا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى " ، نعم مخالفة طبعها في حب الظهور والجاه ، أو حب الدنيا ،

٧٣

واجب حتماً لا رخصة فيه ، وهذه سيرة أشياخنا رضي الله عنهم لا يُضيقون على المريد في جوع ولا عطش ، ولا كثرة رياضة ، وإنما يأمرونه بالخمول وتخريب الظاهر والزهد التام ، والورع الكامل ، فقد سمعت شيخ شيخنا مولاي العربي الدرقاوي الحسني رضي الله عنه يقول : سُدُّوا باب الطمع ، وافتحوا باب الورع ، واللهِ إن فعلتم ذلك حتى يستولي باطنكم على ظاهركم. هـ. أي : تستولي المعاني على الحس ، فيتحقق الشهود الكامل. وكان أيضاً يقول : نحن لسنا مع جوعٍ ولا مع شبعة ، نحن مع الله. هـ. أي : غائبون عن الجوع والشبع في ذكر الله وشهوده.

(٨٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٢
وإن كن أُولات حَمل ، أي : ثقل من كثرة العلائق ، فأنْفِقوا عليهن من الواردات الإلهية بصُحبة الرجال ، حتى تصادم تلك العلائق ، فتهدمها ، فتضع الحمل عنها ، فإن أرْضَعْن لكم ، بإن تهذبت ورجعت روحانيةً تأتيك بالعلوم التي يرتضع منها القلب باليقين والمعرفة ، فأتوهن أجورهن من البرّ بها والرفق ، وائتمروا بينكم بمعروف ، فتُؤمر أنت بالإحسان إليها ، وتُؤمر هي بالطاعة لك ، وإن تعاسرتم ، بأن ضعفت هِمتكم ، وقلّت أمدادكم ، بعدم صحبة أهل الإمداد ، فستُرضع له نفس أخرى ، أي : فليتخذ شيخاً كاملاً يُرضع له نفسه من ثدي أسرار العلوم والمعارف ، ولذلك قيل : مَن لا شيخ له فالشيطان شيخه ، لِيُنفق ذو سعة من سعته ، وهم الواصلون العارفون ، يُنفقون من سعة علومهم وأسرارهم ، على المريدين الذي استرضعوهم ، ومَن قُدر عليه رزقه من المريدين السائرين فليُنفق مما آتاه الله على مَن تعلقَ به من المريدين ، لا يُكلف الله نفساً إلاّ ما آتاها ، سيجعل الله بعد عُسرٍ وضيقٍ في العلوم والأسرار يُسراً ، فتتسع عليه العلوم والأسرار بعد التمكين. والله تعالى أعلم.

(٨٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٢
يقول الحق جلّ جلاله : {وكَأَيِّن من قريةٍ} أي : كثير من أهل قرية {عَتَتْ} ؛ أعرضت {عن أمر ربها ورُسلِهِ} أي : عن طاعتهما على وجه العتوّ والعناد ، {فحاسبناها حِساباً شديداً} بالاستقصاء والتنقير والمباحثة في كل نقير وقطمير ، {وعذَّبناها عذاباً نُكراً} ؛ منكراً فظيعاً ، والمراد : إمّا عذاب الآخرة ، والتعبير بالماضي لتحقُّق وقوعه ، أو عذاب الدنيا ، وهو أرجح ؛ لأنه سيذكر عذاب الآخرة بعدُ بقوله : {أعدّ اللهُ لهم عذاباً شديداً...} الخ ،
٧٤
{فذاقت وَبَالَ أمرِها} أي : وخامة شأنها ، وعقوبة فعلها. قال في الصحاح : والوَبَلَة ـ بالتحريك : الثِقَلُ والوخَامةُ ، وقد وَبُل المرتعُ بالضم وَبْلاً ووَبَالاً ، فهو وَبيلٌ ، أي : وخِيمٌ. هـ. وفي القاموس : وبُلَ ككَرُمَ وبَالةً ووبالاً ووبُولاً ، وأرض وَبِيلَةٌ : وخيمةُ المرتَعِ. هـ. {وكان عاقبةُ أمرها خُسراً} أي : خساراً وهلاكاً. {أعدَّ اللهُ لهم} في الآخرة {عذاباً شديداً} ، وعلى أنَّ الكل في الآخرة يكون هذا تكريراً للوعيد وبياناً لكونه مترقباً ، كأنه قال : أعدّ الله لهم هذا العذاب الشديد ، {فاتقوا اللهَ يا أُولي الألبابِ} في مخالفة أمره ، واحذروا ما حلّ بمَن طغى وعتا. وأولو الألباب هم أهل العقول الصافية ، ثم فسَّرهم بقوله : {الذين آمنوا} إيماناً خالصاً من شوائب الشرك والشك ، فالموصول عطف بيان لأولي الألباب ، أو نعت ، أو منصوب بأعِني ، {قد أنزل اللهُ إليكم ذكراً} أي : القرآن.

وانتصب {رسولاً} بفعل مضمر ، أي : وأرسل رسولاً ، أو : هو بدل من " ذِكْراً " كأنه في نفسه ذكر ، أو : على تقدير حذف مضاف ، قد أنزل ذا ذكر رسولاً ، وأريد بالذكر : الشرف ، كقوله : {وَإِنَهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} [الزخرف : ٤٤] أي : ذو شرف ومجدٍ عند الله ، أو : للمنزَل عليه ، أو : لقارئه ، وبالرسول : جبريل ، أو محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ {يتلوا} أي : الرسول ، أو الله ـ عزّ وجل ـ {عليكم آياتِ الله مُبينات} أي : واضحاتٍ ، قد بيَّنها اللهُ تعالى لقوله : {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الأَيَات} [آل عمران : ١١٨والحديد : ١٧] وقرىء بكسر الياء ، أي : تُبين ما تحتاجون إليه من الأحكام ، {لِيُخرج الذين آمنوا وَعمِلوا الصالحاتِ من الظلمات إِلى النور} متعلق بـ " يتلو " ، أو : بـ " أنزل " ، وفاعل " يُخرج " إما الله ، أو الرسول ، أي : ليحصّل لهم الله أو الرسول ما هم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح ، أو : ليخرج من عَلِمَ وقدّر أنه سيؤمن ، {ومَن يؤمن بالله ويعمل صالحاً} حسبما بُيّن في تضاعيف ما أنزل من الآيات المبينات {يُدخله جنات تجري من تحتها الأنهارُ} ، وقرأ نافع والشامي بنون العظمة {خالدين فيها أبداً} ، والجمع باعتبار معنى " من " كما أنَّ الإفراد في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها ، {قد أحسن اللهُ له رزقاً} في الدنيا والآخرة. قال القشيري : الرزقُ الحَسَنُ : ما كان على حَدِّ الكفاية ، لا نقصان فيه ، ليضعف عن كفاية صاحبه ، ولا زيادةَ فيه تَشْغَلهُ عن ربهم. هـ. بالمعنى. وسيأتي في الإشارة بقيته.

الإشارة : وكأيّن من قريةٍ من قرى القلوب عتت عن أمر ربها ؛ عن تحمُّل أعباء العبودية ؛ لأنّ القلب لا يحب إلا العلو والغنى والراحة ، فإذا أراد العبد أن ينزل إلى الخمول والذل والفقر والتعب عَتَا وتَكَبَّر ، وقد حكم اللهُ تعالى بالطبع على القلب المتكبّر ، بقوله : {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِرٍ جَبَّارٍ} [غافر : ٣٥] في قراءة الإضافة ، والمراد بالرسل : الواردات القهرية ، فالقلب أيضاً شأنه الفرار منها ؛ لأنها تهدم عليه عوائده ، وحسابه تعالى لها إحصاؤه لخواطرها ، وعتابه عليها ، وتعذيبه بالجزع

والهلع ، والحرص والطمع ، وغم الحجاب وسوء الحساب ، فهذا وبال القلوب المتكبِّرة على الله ، وعلى أولياء الله ، وعاقبتها حرمان نعيم الحضرة ، ونسيم القربة. فاتقوا الله يا أولي الألباب : القلوب الصافية ، أي : دُوموا على تقواكم ، واحْذروا مما حلّ بالقلوب الخاربة ، الذين آمنوا إيمان الخصوص ، قد أنزل الله إليكم ذكراً ، أي : مذكِّراً ، رسولاً بعثه الله خليفةَ رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وهو الشيخ الداعي إلى الله ، يتلو عليكم آياته ، أي : شواهده الموصِّلة إليه ، ليُخرج الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات ، وهي آداب العبودية ، من ظلمات الجهل والغفلة ، وحس الكائنات إلى نور

العيان ، ومَن يُؤمن بالله ، ويثق به في جميع أموره ، (ويعمل صالحاً) يُعرض عما سوى الله ، يُدخله جنات المعارف ، يخلد فيها ، قد أحسن اللهُ له رزقاً لقلبه وروحه وسره ، من العلوم والمعارف والأسرار.
قال القشيري بعد كلام : وكذلك أرزاقُ القلوب . أي : تكون على حد الكفاية ، من غير زيادة ولا نقصان . ثم قال : وحسنها : أن يكون له من الأحوال ما يشتغلُ به في الوقت من غير نقصان يجعله يتعذّب بتعطُّشه ، ولا تكون بزيادة ، فيكون على خَطَرٍ من مغاليط لا يَخْرُجُ منها إلاّ بتأييدٍ من الله سماويٍّ.هـ.
٧٦

(٩١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٤
سورة التحريم

(٩٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٦
يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ ما أحلَّ اللهُ}. في سبب نزول هذه السورة روايتان ؛ إحداهما : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء يوماً إلى بيت زوجه حفصة ، فوجدها ذهبت لزيارة أبيها ، فبعث إلى جاريته مارية ، فقال معها في البيت ، فجاءت حفصة ، فقالت : يا رسول الله ؛ أما كان في نسائك أهون مني ، أتفعل هذا في بيتي ، وعلى فراشي ؟ فقال لها عليه الصلاة والسلام : " أيُرضيك أن أُحَرِّمها " ؟ فقالت : نعم ، فقال : " إني قد حَرّمتها " زاد ابن عباس : وقال مع ذلك : " والله لا أطؤها أبداً " ، ثم قال لها : " لاتُخبري بهذا أحداً ، وأُبشرك أنَّ أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي " ثم إنَّ حفصة قرعت الجدار الذي بينها وبين عائشة ، وأخبرتها ، وكانتا مصادقتين ، ولم ترَ في إفشائها حَرَجاً ، واستكتمتها ، فأوحى الله إلى نبيه بذلك. ورُوي أنه عليه السلام طلَّق حفصة ، واعتزل نساءه ، فمكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية ، فنزل جبريلُ ، وأمره برَدِّها ، وقال له : إنها صوّامة قوّامة ، وإنها من نسائك في الجنة ، فردَّها.
والرواية الثانية : أنه عليه الصلاة والسلام كان يدخل على زوجه زينب بنت جحش ، فتسقيه عسلاً ، فاتفقت عائشةُ وحفصة وسودة على أن تقول له مَن دنا منهن : أكلتَ مغافير ، وهو ضمغ العُرفُط ، وهو حلو كريه الريح ، ففعل ذلك ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " لا ، ولكني شربتُ عسلاً "

، فقُلن له : جَرَست نحلُه العُرفُط ، أي : أكلت ، ويقال للنحل : جراس ، فقال صلى الله عليه وسلم : " لا أشربه أبداً " ، وكان يكره أن توجد منه رائحة كريهة ، فدخل بعد ذلك على زينب ، فقالت : ألاَ أسقيك من ذلك العسل ؟ فقال : " لا حاجة لي به " فنزلت الآية عتاباً له على أن ضيَّق على نفسه تحريم الجارية والعسل. والرواية الأولى أشهر عند

المفسرين والثانية خرّجها البخاري في صحيحه.

فإن قلتَ : لِمَ عاتبه اللهُ على هذا التحريم ، ولم يعاتب يعقوبَ على تحريم لحوم الإبل على ما ذكر في سورة آل عمران ؟ قلتُ : رتبة نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أرفع في المحبة والاعتناء ، فلم يرضَ منه أن يُضيّق على نفسه ، أرأيت إن كان لك ولد تُحبه ، ووسعتَ عليه ، ثم أراد أن يُضيّق على نفسه ، فإنك لا ترضى له ذلك ، محبةً فيه ، وشفقة عليه. وانظر تفسير ابن عرفة.

قال ابن جزي : ولنتكلم على فقه التحريم : فأمّا تحريم الطعام والمال وسائر الاشياء ما عدا النساء فلا يلزم ، ولا شيء عليه فيه عند مالك ، وأوجب عليه أبو حنيفة كفارة اليمين ، وأمّا تحريم الأَمة فإن نوى به العتق لزم ، وإن لم ينو به ذلك لم يلزم ، وكان حكمه ما ذكرناه في الطعام ، وأمَا تحريم الزوجة ، فاختلف الناس فيه على أقوال كثيرة ، فقال أبو بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وغيرهم : إنما يلزم فيه كفارة يمين. هـ. قلت : وظاهره : سواء قال لها : أنتِ حرام ، أو حلف بالحرام واحداً أو ثلاثاً ، وسواء كان منجّزاً أومعلّقاً ، كما إذا قال : كل امرأة تزوجتُها عليكِ فهي حرام ، مثلاً ، فلا يلزم من ذلك شيء على قول هؤلاء السادات رضي الله عنهم. ثم قال : وقال مالك في المشهور عنه : هي ثلاث تطليقات في المدخول بها وينوي في غيرها ، وقال ابن الماجشون : هي ثلاث في الوجهين ، ورُوِي عن مالك : أنها طلقة بائنة ـ قلتُ : وبهذا جرى العمل اليوم ـ وقيل : رجعية. هـ.

{تبتغي مَرْضَاتَ أزواجِك} : حال ، أو استئناف مُبيّن للحال الداعي ، أي : تطلب رضا أزواجك بالتضييق على نفسك ، والمراد : رضا حفصة ، وهذا يُؤيد أنها نزلت في تحريم الجارية ، وأمّا تحريم العسل فلم يقصد به رضا أزواجه ، وإنما تركه لرائحته. {واللهُ غفور} أي : غفور لك ما كان تركه أولى من الصدع بالحق من غير مبالاة بأحدٍ ، ولا تُضيّق على نفسك ، {رحيم} بك ، حيث وسّع عليك ، ولم يرضَ لك أن تُضيق على نفسك. قال القشيري : ظاهرُ هذا الخطاب عتابٌ على كونه حَرَّمَ على نفسه ما أحلّه اللهُ لمراعاة قلب امرأته ، والإشارة فيه : وجوب تقديم حق الله على كل شيء في كل وقت. ثم قال

تعالى ، عنايةً بأمره : {قد فرض اللهُ لكم تَحِلَّةَ أيمانكم} وتجاوزاً عنه بما كان تركه أولى. هـ.

والحاصل : أنه تعالى غفر له ميله للسِّوى سهواً ، والسهو قهرية الحق تعالى ، قهر بها عبادَه ليتميّز ضعف العبودية من قوة الربوبية ، وهو ليس بنقصٍ في حق البشر ، لكنه لمّا

٨٠

كان في الغالب لا يحصل إلاَّ مع عدم العزم عُدَّ تفريطاً وهفوة ، كما قال تعالى في حق آدم : {فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً} [طه : ١١٥] ، فالمغفرة في الحقيقة ، وطلب التوبة من السهو ، إنما هو لقلة العزم وعدم الحزم ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولا تصغ بأذنك إلى ما قاله الزمخشري ومَن تبعه من كون ما فعله عليه السلام زلة ، حيث حرّم ما أحلّ الله ، فإنه تجاسر على منصب النبوة ، وقلة أدب.

وقوله تعالى : {ما أحلّ الله لك} زيادة " لك " تَرُدّ ما زعمه الزمخشري ، ولو كان كما قال لقال له : لِم تحرم ما أحلّ الله.

(٩٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٩

ثم قال تعالى : {قد فَرَضَ اللهُ لكم تَحِلَّةَ أَيمانكم} أي : شرع لكم تحليلها ، وهو حل ما عقده بالكفَّارة ، أو بالاستثناء متصلاً ، والأول هو المراد هنا ، وهل كفَّر عليه الصلاة والسلام ؟ قال مقاتل : أعتق رقبةً ، وقال الحسن : لم يُكفِّر ؛ لأنه مغفور له. قال بعضهم : هذه التحلة إنما هي لليمين المقرونة بالتحريم ، وقال بعضهم : بل هي لنفس التحريم ، وبه تمسّك أبو حنيفة في تحريم الحلال ، فأوجب كفارةَ اليمين. {واللهُ مولاكم} أي : سيدكم ومتولي أموركم ، فلا يُحب ما ضيّق عليكم. قال في الحاشية الفاسية : ومَن تأمّل هذه السورة لاح له منزلةَ حبيب الله عند الله ، وحقق معنى قول عائشة : " يا رسول الله ؛ ما أرى ربك إلاّ يُسارِع في هواك " الحديث متفق على صحته هـ {وهو العليمُ} بما يُصلحكم ، فيشرعه لكم ، {الحكيمُ} المتقن في أفعاله وأحكامه ، فلا يأمركم ولا ينهاكم ألاَّ بما تقتضيه الحكمة البالغة.

الإشارة : هذا العتاب يتوجه لكل مَن سبقت له عند الله عناية وزلفى ، إذا ضَيّق على نفسه فيما أحلّ اللّهُ له ، فلا يرضى منه ذلك ، محبةً فيه ، وقد صدر مني مثل هذا زمان الوباء ، فحلفت لبعض أزواجي : أني لا أتزوج عليها ، وسبب ذلك أنها كانت مصارِمة لي ، في غاية الغضب والقطيعة ، وقد كان غلب على ظني الموت ، لِما رأيتُ من الازدحام عليه ، فخفتُ أن نموت متقاطعَين ، فلمّا حلفتُ لها رأى بعض الفقراء من أصحابنا : أنه يقرأ عليّ أو معي : {يا أيها النبي لِمَ تُحرم...} الخ السورة ، ففهمت الإشارة على أنّ اليمين لا تلزم ، والله أعلم ، لأنّ بساط اليمين كان غلبة ظن الموت ، فلما تخلّف

انحل اليمين ، كقضية الرجل الذي وجد الزحام على اللحم ، فحلف لا يشتري لحماً أبداً ، ثم وجد الفراغ ، فقال مالك : لا يلزمه شيء. هـ.
وقال الورتجبي : أدب نبيه عليه الصلاة والسلام ألاَّ يستبد برأيه ، ويبتع ما يُوحى إليه. هـ. وجعل القشيري النبيَّ إشارة إلى القلب ، أي : يا أيها القلب المتوجِّه لِمَ تُحرم ما أحلّ الله من حلاوة الشهود ، تبتغي مرضاة نفسك وحظوظها ، فتتبع هواها ، وتترخّص في مباحات الشريعة ، وهي تحجب عن أسرار الحقيقة ، أو : لِمَ تُحرِّم ما أحلّ الله من
٨١
الاستغراق في سُكر بحر الحقيقة ، تبتغي مرضاة بقاء نفسك ، والشعور بوجودها. وكان صلى الله عليه وسلم يقول : " لي وقت لا يَسعني فيه غير ربي " وكان يقول لعائشة حين يغلب عليه السُكْر والاضمحلال في الحق : "كلميني حركيني يا حميراء " وكذلك القلب إذا غلب عليه الوجد ، وخاف من الاصطلام ، أو مِن مَحق البشرية ، يطلب مَن يبرد عليه مِن نفسه أو مِن غيره ، وقد سَمِعْتُ مِن شيخ شيخنا رضي الله عنه أنه قال : كان يغلب عَلَيَّ الوجد والسكر ، فكنت أذهبُ إلى مجالسة العوام ليبُرد عليّ الحال ، خوفاً من الاصطلام أو المحق ، وذلك بعد وفاة شيخه.

(٩٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٩
وقوله تعالى : {والله غفور رحيم} أي : فلا يؤاخذ العبدَ بهذا الميل اليسير إلى الحس ، دواء لنفسه ، قد فرض اللهُ لكم تحلةَ أيمانكم ، أي : الميل اليسير إلى الرفق بالنفس ؛ لأنها مطية القلب ، بمجاهدتها يصل إلى كعبة الوصول ، وهي حضرة الرب. وبالله التوفيق.

(٩٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٩
يقول الحق جلّ جلاله : {وإذ أَسَرَّ} أي : واذكر أيها السامع حين أَسَرَّ {النبيُّ إلى بعض أزواجه} يعني حفصة {حديثاً} ؛ حديث تحريم مارية ، أو العسل ، أو إمامة الشيخين ، {فلما نَبَّأَتْ به} أي : أخبرت حفصةُ عائشةَ بالحديث وأفشته ، فحذف المفعول ، وهو عائشة ، {وأظْهَرَه اللهُ عليه} أي : أطلع اللهُ تعالى نبيَّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على إفشاء حفصة على لسان جبريل عليه السلام ، أو : أظهر الله عليه الحديث ، من الظهور ، {عَرَّفَ بعضَه} أي : عرَّف النبيُّ صلى الله عليه وسلم حفصةَ بعض

الحديث الذي أفشته ، قيل : هو حديث الإمامة ، رُوي أنه عليه الصلاة والسلام قال لها : " ألم أقل لك اكتمي عليّ " ؟ قالت : " والذي بعثك بالحق ما ملكتُ نفسي " فرحاً بالكرامة التي خَصَّ اللّهُ تعالى بها أباها.

{وأَعْرَضَ عن بعضٍ} فلم يُخبرها تكرُّماً. قال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام ، وقال الحسن : ما استقصى كريم قط. وقرأ الكسائي : " عَرَف " بالتخفيف ، أي :

جازى عليه ، من قولك للمسيء : لأعْرِفَنَّ لك ما فعلت ، أي : لأجازينَّك عليه ، فاجازاها عليه السلام بأن طلَّقها ، وآلى من نسائه شهراً ، وقعد في مشربة مارية حتى نزلت آية التخيير ، وقيل : هَمَّ بطلاقها ، فقال له جبريل : لا تُطلِّقها ، فإنها صوّامة قوّامة. هـ. قيل : المعرّف : حديث الإمامة ، والمعرَض عنه : حديث مارية. {فلما نَبَّأها به} أي : أخبر صلى الله عليه وسلم حفصةَ بما عرفه من الحديث ، قالت حفصة للنبي عليه السلام : {مَن أنبأكَ هذا قال نبأنيَ العليمُ الخبيرُ} الذي لا تخفى عليه خافية.

{إن تتوبا إلى الله} ، الخطاب لحفصة وعائشة ، على الالتفات للمبالغة في العتاب ، {فقد صَغَتْ قُلوبُكما} ؛ مالت عن الواجب في مخالصة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مِن حُب ما يُحبه ، وكراهة ما يكرهه ، وكان عليه الصلاة والسلام شقَّ عليه تحريم مارية وكَرِهَه ، وهما فرحا بذلك. وجواب الشرط : محذوف ، أي : إن تتوبا إلى الله فهو الواجب ، فقد زالت قلوبكما عن الحق ، أو : تُقبلْ توبتكما ، أو هو : " فقد صغت " أي : إن تتوبا زاغب قلوبكما فاستوجبتما التوبة ، أو : فقد كان منكما ما يقضي أن يُتاب منه. قال ابن عطية : وهذا الجواب للشرط ، وهو متقدم في المعنى ، وإنما نزلت جواباً في اللفظ. هـ. وقُرىء " زاغت " من الزيغ.

{

وإن تَظَاهرا عليه} أي : تتعاونا عليه بما يسوؤه ، من الإفراط في الغيرة ، وإفشاء سرّه ، والفرح بتحريم مارية ، {فإِنَّ اللّهَ هو مولاه} ؛ وليُّه وناصره ، وزيادة " هو " إيذان : أنّه يتولّى ذلك بذاته بلا واسطة ، {وجبريلُ} أيضاً وليّه ، الذي هو رئيس الملائكة المقرّبين ، {وصالحُ المؤمنين} أي : ومَن صلح مِن المؤمنين ، أي : كل مَن آمن وعمل صالحاً ، وقيل : مَن برىء مِن النفاق ، وقيل : الصحابة جملة ، وقال ابن عباس : أبو بكر وعمر ، ورُوي مرفوعاً ، وبه قال عكرمة ومقاتل ، وهو اللائق ؛ لتوسيطه بين جبريل والملائكة عليهم السلام ، فإنه جمع بين التظاهر المعنوي والتظاهر الحسي ، فجبريل ظاهَره

عليه السلام بالتأييدات الإلهية ، وهما وزيراه وظهيراه في أمور الرسالة ، وتمشية أحكامها الظاهرة ، ولأنَّ تظاهرهما له صلى الله عليه وسلم أشد تأثيراً في قلوب ينتيْهما ، وتوهيناً في حقهما ، فكانا حقيقا بالذكر ، بخلاف ما إذا أريد به جنس الصالحين ، كما هو المشهور. قاله أبو السعود.

{والملائكةُ} مع تكاثر عددهم وامتلاء السموات من جموعهم {بعد ذلك} أي : بعد نصرةِ الله عزّ وجل ، وناموسه الأعظم ، وصالح المؤمنين ، {ظهيراً} أي : فوْج ظهير مُعاون له ، كأنهم يد واحدة على مَن يعاديه ، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على مَنْ هؤلاء ظُهراؤه ؟ ولمّا كانت مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله ، قال : {بعد ذلك} تعظيماً لنصرتهم ومظاهرتهم.

{عسى ربُّه إِن طَلَّقكُنَّ أن يُبْدِلَه} بالتخفيف ، والتشديد للتكثير ، أي : يعطيه اللهُ

تعالى بدلكن {أزواجاً خيراً منكن} ، قال النسفي : فإن قلتَ : كيف تكون المبدّلات خيراً منهنَ ، ولم يكن على وجه الأرض نساء خيراً من أمهات المؤمنين ؟ قلتُ : إذا طلّقهنّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لإيذائهنّ إياه لم يبقين على تلك الصفة ، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف خيراً منهن. هـ. وأجاب أبو السعود : بأنّ ما عُلّق بما لم يقع لا يجب وقوعه. هـ. وليس فيه ما يدلّ على أنه صلى الله عليه وسلم لم يُطلِّق حفصة ، فإنّ تعليق طلاق الكل لا ينافي تطليق واحدة.

ثم وصف المبدَلات بقوله : {مُسلماتٍ مؤمناتٍ} أي : مُقرّات مخلصات ، أو : منقادات مصدّقات ، {قانتاتٍ} ؛ طائعات ، فالقنوت : هو القيام بطاعة الله ، وطاعة الله في طاعة رسوله ، {تائباتٍ} من الذنوب {عابداتٍ} ؛ متعبدات متذللات ، {سائحاتٍ} ؛ صائمات ، وقيل للصائم : سائح ؛ لأنَّ السائح لا زاد معه ، فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد من يُطعمه ، فشبّه به الصائم في إمساكه إلى وقت إفطاره ، أو : مهاجرات. قال زيد بن أسلم : لم يكن في هذه الأمة سياحة إلاَّ الهجرة ، {ثيباتٍ وأبكاراً} ، إنما وسط العاطف بين الثيبات والأبكار ، دون سائر الصفات ؛ لأنهما صفتان متباينتان ، وعَطْف الأبكار على الثيبات من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، كقوله تعالى : {وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لاَ كَبِيرَةً...} [التوبة : ١٢١]. والله تعالى أعلم.

(٩٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٢

الإشارة : توجه العتاب له صلى الله عليه وسلم مرتين في تحريم الجارية ، وفي إخفائه لذلك ، إذ فيه بعض مراقبة الخلق ، والعارف لا يُراقب إلاّ الحق ، فهذا قريب من قوله تعالى : {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ} [الأحزاب : ٣٧] ، ففيه من التصوُّف : أنَّ العارف يكون الناس عنده كالموتى ، أو

كالهباء في الهواء ، وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون الناس عنده كالأباعر " إذا ليس بيدهم نفع ولا ضر.

وإشارة الآية على ما قال القشيري : وإذ أَسَرَّ القلبُ إلى بعض أزواجه ، وهي النفس والهوى ، حديث المخالفة ، على طريق " شاوروهنّ وخالِفوهنّ " فلما نبأت النفسُ الهوَى لتفعلا ذلك ، وأظهره الله عليه بوحي الإلهام ، عَرَّف بعضَه وأعرض عن بعض ، أي : عاتبهما على البعض ، وسامحهما في الآخر ، فلما نبأ القلبُ النفسَ بما أفشت للهوى ، قالت : مَن أنبأك هذا.. الخ ، إن تتوبا إلى الله ، وتنقادا لحكمه فقد وقع منكما ما يوجب التوبة ، وإن تظاهرا على القلب بتزيين المخالفة وتتبع الحظوظ والشهوات ، فإنَّ الله هو مولاه ، ينصره بالأجناد السماوية والأرضية ، من التأييدات والواردات ، عسى ربه إن طلقكن

٨٤

وغاب عنكن أن يُبدله أخلاقاً طيبة ، ونفوساً مطمئنة ، مسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ ، عابداتٍ سائحاتٍ بأفكارها في ميادين الغيوب ، وبحار التوحيد ، ثيبات ، أي : تأتي بعلوم الرسميات وأبكار الحقائق.

(٩٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٢

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا قُو أنفسَكم} أي : نَجُّوها من النار ، بترك المعاصي وفعل الطاعات ، {وأهليكم} بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم ، أو بان تُعلِّموهم وتُرشدوهم. قال القشيري : أظهِروا من أنفسكم الطاعات ليتعلموا منكم ويقتادوا بأفعالكم. هـ. وفي الحديث : " رحِم الله امرءاً قال : يا أهلاه ، صلاتَكم صيامَكم مسْكينَكم ، يتيمَكم " أي : الزموا ما ينفعكم ، فمَن له أهل وأهملهم من التعلُّم والإرشاد عُوتب عليهم ، أي : احملوهم على الطاعة ، لتَقُوهُمْ {ناراً وقُودُهَا الناسُ والحجارةُ} أي : نوعاً من النار لا تتّقد إلاّ بالناس والحجارةن كما تتّقد غيرها بالحطب. قال ابن عباس : هي حجارة الكبريت ، فهي أشد الأشياء حرًّا. {عليها ملائكةٌ} تلي أمرها والتعذيبَ بها ، وهي الزبانية ، {غِلاظٌ شِدادٌ} ؛ غلاظُ الأقوال ، شِدادُ الأحوال ، أو : غلاظُ الخلْق ، شِداد الخُلُق ، أقوياءُ على الأفعال الشديدة ، لم يخلق اللهُ فيهم رحمة ، {لا يَعْصُون اللهَ ما أَمَرَهم} أي : لا يعصون أمره ، فهو بدل اشتمال من " الله " أو : فيما أمرهم ، على نزع الخافض ، {ويفعلون ما يؤمرون} من غير تراخ ولاتثاقل ، وليست الجملتان في معنى واحد ؛ إذ معنى الأولى : أنهم يمتثلون أمره ويلتزمونها ، ومعنى الثانية : أنهم يُؤدون ما يُؤمرون به ، ولا يتثاقلون عنه ولا يتوَانون فيه.

ويُقال للكفرة يوم القيامة عند دخولهم النار : {يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليومَ} إذ لا ينفعكم عذركم ؛ حيث فرَّطتم في الدنيا ، {إنما تُجْزَون} اليوم {ما كنتم تعملون} في الدنيا من الكفر والمعاصي ، بعدما نُهيتُم عنها ، وأُمرتم بالإيمان والطاعة ، فلا عُذر لكم قطعاً.

الإشارة : قُوا أنفسكم نارَ الحجبة والقطيعة ، بتخليتها من الرذائل ، وتحليتها بالفضائل ، ليلحقوا بكم في درجاتكم. ونار القطيعة وقودها الناس ، أي : عامة الناس والقلوب القاسية ، عليها ملائكة غِلاظ شِداد ، وهم القواطع القهرية ، فمَن كفر بطريق الخصوصية لا ينفعه يوم القيامة اعتذاره ، حين يسقط عن درجة المقرَّبين الأبرار وبالله التوفيق.

٨٥

(١٠٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٥

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا تُوبوا إلى الله توبةً نَصوحاً} أي : بالغة في النصح ، وُصفت بذلك مجازاً ، وهي وصف للتائبين ، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسَهم ، فيأتوا بها على طريقتها ، وذلك أن يتوبوا عن القبائح ، لقبْحها ، نادمين عليها ، مغتمِّين أشد الاغتمام لارتكابها ، عازمين على أنهم لا يعودون إلى قبيح من القبائح ، وقيل : نصوحاً : صادقة ، وقيل : خالصة ، يُقال : عسل ناصح : إذا خلص من شمعه ، وقيل : مِن نصاحة الثوب ، أي : ترقيعه ، لأنها ترقع خروقك في دينك وترمّ خللك ، وقيل : توبة تنصح الناس ، أي : تدعوهم إلى مثلها ؛ لظهور آثارها في صاحبها ، باستعمال الجد والعزيمة في العمل على مقتضياتها ، ومَن قرأ بضم النون فمصدر ، أي : ذات نصوح ، أو تنصح نصوحاً. وفي الحديث : " التوبة النصوح أن يتوب ، ثم لا يعود إلى الذنب إلى أن يعود اللبن في الضرع " وعن حذيفة : " بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه " وعن ابن عباس رضي الله عنه : " هي الاستغفار باللسان ، والندم بالجنان ، والإقلاع بالأركان ". {عسى ربُّكم أن يُكَفِّرَ عنكم سيئاتِكم} ، هذا على ما جرى به عادة الملوك من الإجابة بعسى ولعل ، ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت. وقيل : عبّر بـ " عسى " للإشعار أنّ المغفرة تفضل وإحسان ، وأنّ التوبة غير موجبة لها ، ولِيَبقى العبد بين خوف ورجاء ولو عمل ما عمل. {ويُدْخِلَكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ يومَ لا يُخزي اللهُ النبيَّ}. هو ظرف لـ " يدخلكم " {والذين آمنوا معه} : عطف على " النبي " ، و " معه " : ظرف لآمنوا ، وفيه تعريض بمَن أخزاهم الله من الكفرة. {نُورُهُمْ} : مبتدأ ، و {يسعى} خبره ، أي : يُضيء {بين أيديهم وبأَيمانهم} أي : على الصراط وفي مواطن القيامة ، {يقولون} حال ، أي : قائلين حين ينطفىء نور المنافقين : {ربنا أتمم لنا نورنا واغفرْ لنا إنك على كل شيءٍ قديرٌ} ، وقيل : يدعون بذلك تقرُّباً إلى

الله مع تمام نورهم ، وقيل : تتفاوت أنوارهم
بحسب أعمالهم ، فيسألون إتمامه تفضُّلاً ، وقيل : السابقون إلى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط ، وبعضهم كالريح ، وبعضهم كأجاود الخيل ، وبعضهم حبواً ، وزحفاً ، وهم
٨٦
الذين يقولون : {ربنا أَتمم لنا نورنا}. وقد تقدّم : أنَّ مِن المقربين مَن تُقرّب لهم غُرف الجنات ، فيركبون فيها ، ويسرحون إلى الجنة ، ومنهم مَن يطير في الهواء إلى باب الجنة ، فيقول الخزنة : مَن أنتم ؟ فيقولون : وحن المتحابُّون في الله ، فيقول : اذهبوا فنِعْمَ أجر العاملين ، ويقول بعضهم لبعض : أين الصراط الذي وُعدنه ، فيُقال لهم : جزتموه ولم تشعروا. والله تعالى أعلم.

(١٠١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٦
الإشارة : توبةُ العامة من الذنوب ، وتوبةُ الخاصة من العيوب ، وتوبة خاصة الخاصة من الغيبة عن حضرة علاّم الغيوب ، فهؤلاء أشد الناس افتقاراً إلى التوبة ؛ إذ لا بُد للعبد من سهوٍ وسِنةٍ حتى يجول بقلبه في الأكوان ، أو يميل عن الاعتدال ، فيجب في حقهم الاستغفار منها ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يستغفر في المجلس الواحد سبعين أو مائة مرة. وقد تكلم السّلفُ عن التوبة النصوح دون ما تقدّم ، فقال ابن جبير : هي التوبة المقبولة ، ولا تُقبل إلا بثلاثة شروط : خوف ألاَّ تُقبل منه ، ورجاء أن تُقبل ، وإدمان الطاعة. وقال ابن المسيب : توبة تنصحون بها أنفسكم ، وقال القرظي : يجمعها أربعة : الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيىء الخلان. وقال الثوري : علامتها أربعة : القِلة ، والعِلة ، والذلة ، والغربة. وقال الفضيل : هو أن يكون الذنب نصب عينيه. وقال الواسطي : تكون لا لعرض دنيوي ولا أخروي. وقال أبو بكر الورّاق : هي أن تضيق عليك الدنيا بما رَحُبتْ ، كحالة الذين خُلِّفوا. وقال رُويم : أن تكون لله وجهاً بلا قفا ، كما كنت عند المعصية قفا بلا وجه ، وقالت رابعة : توبة لا ارتياب فيها ، وقال السري : لا تصلح التوبة النصوح إلاّ بنصيحة النفس والمؤمنين ؛ لأنَّ مَن صحّت توبته أَحبَّ أن يكون الناس مثله ، وقال الجنيد : هي أن تنسى الذنب فلا تذكره أبداً ؛ لأنَّ مَن أحب اللهَ نسي ما دونه. هـ.

(١٠٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٦

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها النبيُّ جاهِدِ الكفارَ} بالسيف {والمنافقين} بالحجة ، أو : بالقول الغليظ والوعظ البليغ ، أو : بإقامة الحدود ، ولم يؤمر بقتالهم لِتَسَتُّر ظاهرهم بالإسلام ، " أُمرت أن أحكم بالظواهر ، والله يتولى السرائر " ، {واغْلُظْ

٨٧

عليهم} ؛ واستعمل الخشونة على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمخاصمة باللسان. {ومأوَاهم جهنمُ} يُباشرون فيها عذاباً غليظاً ، {وبئس المصيرُ} جهنم ، أو مصيرهم.

الإشارة : كُلُّ إنسان مأمور بجهاد أعدائه ، من النفس ، والهوى ، والشيطان ، وسائر القواطع ، وبالغلاظ عليهم ، حتى يُسلموا وينقادوا لحُكمه أو تقل شوكتهم ، وهذا هو الجهاد الأكبر ، لدوامه واتصاله ، فمَن دام عليه حتى ظفر بعدوه ، أو لقي ربه ، كان مِن الصدّيقين ، الذين درجتهم فوق درجة الشهداء ، تلي درجة المرسَلين. وبالله التوفيق.

(١٠٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٧

قلت : " مثلاً " : مفعول ثان لضرب ، أي : جعل ، و " امرأةَ " : مفعول أول ، أي : جعل امرأة نوح وامرأة لوط مثلاً مضروباً للذين كفروا.

يقول الحق جلّ جلاله : {ضَرَبَ اللهُ مثلاً للذين كفروا} ، ضَرْبُ المثل في أمثال هذه المواقع عبارة عن : إيراد حالة غريبة ليُعرف بها حالة أخرى ، مشاكِلة لها في الغرابة ، أي : ضرب الله مثلاً لحال الذين كفروا حيث يُعاقَبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين ، ولا ينفعهم ما كان بينهم وبين المؤمنين من النسب والمصاهرة بهاتين المرأتين ، {امرأتَ نوحٍ وامرأتَ لوطٍ} قيل : اسم الأولى : واهلة ، والثانية : راعلة ، {كانتا تحت عبدين من عبادنا صَالِحَينِ} أي : كانتا في عصمة نبييْن عظيميْن ، متمكنين من تحصيل خير الدنيا والأخرة ، وحيازة سعادتهما ، {فخانتاهما} بإفشاء سرهما ، أو بالكفر والنفاق ، {فلم يُغنيا عنهما من الله شيئاً} أي : فلم يُغن الرسولان عن المرأتين بحق ما بينهما من الزواج شيئاً من الإغناء من عذاب الله تعالى ، {وقيل} لهما عند موتهما ، أو يومَ القيامة : {ادخلا النارَ مع الداخلين} أي : مع سائر الداخلين من الكفرة ، الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء.

٨٨

قال القشيري : لما سبقتَ للمرأتين الفُرْقةُ يوم القِسْمة ، لم تنفعهما القرابةُ يومَ العقوبة. هـ. قال ابن عطية : وقول مَن قال : إنَّ في المثلَين عبرة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم بعيد. هـ. قلت : لا بُعد

فيه لذكره إثر تأديب المرأتين ، وليس فيه غض لجانبهنّ المعظم ، إنما فيه إيقاظ وإرشاد لما يزيدهم شرفاً وقُرباً من تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته ، وصيانة سِره ، والمسارعة إلى ما فيه محبتُه ورضاه ، وكل مَن نصحك فقد أحبّك ، وكل مَن أهملك فقد مقتك.
}

(١٠٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٨
وضَرَبَ اللهُ مثلاً للذين آمنوا} في أنهم ينفعهم إيمانهم ، ولو كانوا تحت قهرية الكفرة ، حيث لم يميلوا عنه ، {امرأة فرعونَ} ، وهي أسية بنت مزاحم ، وهي عمة موسى عليه السلام ، آمنت به فعذّبها بالأوتاد الأربعة ، وتَدَ يديها ورجليها وألقاها في الشمس على ظهرها ، وألقى عليها صخرةً عظيمة ، فأبصرت بيتَها في الجنة ، من دُرة ، وانتزع اللهُ روحَها ، فلقيتها الصخرة بلا روح ، فلم تجد ألماً ، وقال سَلْمَان : كانت امرأة فرعون تُعذَّب بالشمس ، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة ، وفيه بيان أنها لم تمِل عن الإيمان مع شدة ما قاست من العذاب ، وكذا فليكن صوالح النساء ، وأمر عائشة وحفصة أن يكونا كآسية هذه. هـ. من الثعلبي.
{إذ قالتْ} : ظرف لمحذوف ، أي : ضرب مثلاً لحالها حين قالت : {رَبِّ ابْنِ لي عندكَ} أي : قريباً من رضوانك {بيتاً في الجنة} أو : في أعلى درجات المقربين ، رُوي : أنها لَمّا قالت ذلك أُريت بيتها في الجنة. {ونجِّني من فرعونَ وعملِهِ} أي : من نفسه الخبيثة وعمله السيىء {ونجني من القوم الظالمين} أي : من القبط التابعين له في الظلم قال الحسن وابن كيسان : نجاها الله أكرمَ نجاةٍ ، ورفعها إلى الجنة ، فهي فيها تأكل وتشرب. هـ.
{ومريمَ ابنة عمرانَ} : عطف على " امرأة فرعون " أي : وضرب اللهُ مثلاً للذين آمنوا حالَها وما أُتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين ، مع كون قومها كفاراً ، {التي أحْصَنَتْ فَرْجَها} ؛ حفظته {فنفخنا في مِن روحنا} المخلوقة لنا ، أو : من روحٍ خَلقتُه بلا واسطة ، {وصدَّقتْ بكلماتِ ربها} ؛ بصُحفه المنزلة ، أو : بما أوحى اللهُ إلى أنبيائه ، {وكتابه} أي : جنس الكتاب الشامل للكل ، وقرأ البصري وحفص بالجمع ، أي : كُتبه الأربعة ، وقُرىء : " بكلمة الله وكتابه " أي : بعيسى وبالكتاب المنزَّل عليه الإنجيل ، {وكانت من القانِتين} أي : من عدة المواظبين على الطاعة ، والتذكير للتغليب ، والإشعار بأنَّ طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال ، حتى عُدت من جملتهم ، أو كانت من نسل القانتين ؛ لأنها من أعقاب هارون ، أخي موسى عليهما السلام. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : "كَمُل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت

خويلد ، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ، وفضل عائشة على النساء كفضل

الثريد على سائر الطعام ". قال النسفي : وفي طيِّ هذين التمثيلين تعريض بأمَّيِّ المؤمنين المذكورتين في أوّل السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كَرِهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه ، وإشارة إلى أنّ مِن حقهما أن تكونا في الأخلاق كهاتين المؤمنتين ، وألاّ تتكلا على أنهما زوجا رسول الله صلى الله عليه وسلم. هـ. وفي الثعلبي : وقال ابن عباس وجماعة : قطع اللهُ بهذه الآية طمَعَ مَن ركب المعصية ، ورجا أن ينفعه صلاح غيره ، وأخبر أنّ معصية غيره لا تضره إذا كان مطيعاً. هـ.

(١٠٥/٨)

الإشارة : قال القشيري : المرأتان الكافرتان إشارة إلى النفس الأمّارة والهوى المتَّبع ، أي : كانتا تحت القلب والروح ، فخانتاهما ، حيث غلبتا القلبَ والروحَ ، وجذبتاهما إليهما ، فمال القلب إلى الحظوظ الجسمانية ، ومالت الروحُ إلى الحروف الظلمانية ، كحب الجاه والرئاسة والكرامة ، فلم تُغنيا عنهما من الله شيئاً ، حيث فاتهما اليقين والمعرفة العيانية ، والمرأتان المؤمنتان إشارة إلى النفس المطمئنة والقلب المطمئن ، حيث غلبا النفس الأمّارة والهوى ، لم يضرهما صحبتهما ، فقالت النفس المطمئنة : ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، والقلب لمّا حَفِظَ نفسه من دخول العلل ، نفخ الحقُّ فيه من روحه ، فأحياه به ، وأشْهَده أنوار قدسه ، فصدّق بكلمات الله الدالة على ذاته ، ثم ترقَّى إلى شهود المتكلِم ، وكان من القانتين ، فجمع بين شهود عظمة الربوبية وآداب العبودية. قال الورتجبي : {فنفخنا فيه...} الآية ، أي : ظهر فيه نور الفعل ، ثم ظهر في نور الفعل نور الصفة ، فظهر في نور الصفة نور الذات ، فكان بنور الذات والصفات حيًّا موصوفاً بصفاته ، ناظراً إلى مشاهدة نور ذاته ، لم تنقطع عنه أنوار الذات والصفات والفعل أبداً. وهذه خاصية لمَن له أثر من روحه. قال بعضهم : نفخ من نوره في روح عبده ، ليحيي بذلك الروح ، ويحيى به ، ويطلب النورَ ولا يغفل عن طلب المُنوِّر ، فيعيش في الدنيا حميداً ، ويُبعث في الآخرة شهيداً ، فلمّا وجدت رَوحُ روحِ الله صدّقت بظهوره في العالم ، وشبيه قلوب العالمين بأنه يكون مرآة الحق للخلق ، وذلك قوله :
{وصَدَّقت بكلمات ربها} ولمّا باشر أنوار القدس وروح الأنس كادت نفسها أن تميل إلى السكر في الأنانية ، فسبق لها العناية ، وأبقاها في درجة العبودية ، حتى لا تسقط بالسُكر عن مقام الصحو ، ألآ ترى كيف قال : {وكانت من القانتين} أي : من المستقيمين في معرفتها بربها ، ومعرفتها بقيمة نفسها

أنها مُسَخَّرة عاجزة لربها. هـ. وبالله

التوفيق. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

٩٠

(١٠٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٨

سورة الملك

(١٠٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٠

يقول الحق جلّ جلاله : {تباركَ} أي : تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين فالبركة : السمو والزيادة ، حسية أو عقلية ، وكثرة الخير ودوامه ، والمعنى الأول أنسب للمقام ، باعتبار تعاليه عزّ وجل عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله ، وصيغة التفاعل للمبالغة في ذلك ؛ فإنَّ ما لا يصح نسبته إليه تعالى من الصيغ ، كالتكثُّر ونحوه ، إنما يُنسب إليه تعالى باعتبار غاياتها. وعلى الثاني باعتبار كثرة ما يفيض منه تعالى على مخلوقاته من فنون الخيرات ، أي : تعالى بالذات عن كل ما سواه. {الذي بيده المُلك} أي : بيده التصرُّف التام والاستيلا ء على كل موجود ، وهو مالك المُلك ، يُؤتيه مَن يشاء ، وينزعه عمن يشاء ، واليد : مجاز عن القدرة التامة ، والاستيلاء الكامل. {وهو على كل شيءٍ} من المقدورات ، أو من الإنعام والانتقام {قديرٌ} ؛ مبالغ في القدرة يتصرف فيه على حسب ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحِكم البالغة.

والجملة : معطوفة على الصلة ، مقرِّرة لمضمونها ، مفيدة لجريان أحكام مُلكه تعالى في جلائل الأمور ودقائقها ، دالة على العموم والشمول في أنه متصرف في أحوال المُلك

٩١

في إيجاد أعيان الأشياء ؛ المتصرّف فيها وفي إيجاد عوارضها الذاتية. ولو اقتصر على قوله : {بيده الملك} لأوهم قصوره على تغيُّر أحوال المُلك فقط.

ثم أحال على ما هو مُشاهد من التصرُّف بقوله : {الذي خلق الموتَ والحياةَ} أي : موتكم وحياتكم أيها المكلّفون. ومعنى خلق الموت والحياة : إيجاد ما يصحح الإحساس وإعدامه. والموت عند أهل السنة : صفة وجودية مضادة للحياة ، وأمّا ما رُوي عن ابن عباس : أنه تعالى خلق الموتَ في صورة

كبش أملح ، لا يمر بشيء ويجد ريحه إلاّ مات ، وخلق الحياة في صورة فرس ، لا يَمر والا يجد رائحتها شيء إلاّ حيى " فوارد على منهاج التمثيل والتصوير ، ويجوز أن يكون حقيقة ، إذ القدرة صالحة. وتقديم الموت لأنه أدعى لأحسن العمل ، الذي هو حكمة خلق الموت والحياة ، المشار إليه بقوله : {ليبلوكم أَيُّكم أحسنُ عملاً} أي : خلق موتكم الذي يعمّ الأمير والأسير ، والحياة التي لا تبقى لعليل ولا طبيب ، ليُعاملكم معالمة مَن يختبركم أيكم أحسن عملاً ؛ فيُجازيكم على مراتب متفاوتة ، حسب طبقات علومكم وأعمالكم ؛ فإنَّ العمل غير مختص بالجوارح ، ولذلك فسَّره صلى الله عليه وسلم بقوله : " أيكم أحسن عقلاً ، وأردع عن محارم الله ، وأسرع في طاعة الله " ، وفي رواية : " أيكم أحسن عقلاً ، وأشدكم له خوفاً ، وأحسنكم في أمره ونهيه نظراً ، ون كانوا أقلّكم تطوُّعاً " وقال ابن عباس وغيره : أيكم أزهد في الدنيا.

(١٠٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩١

قال القشيري : كيف تكونوا في الصبر في المحنة ، والشكر عند المنّة. وقال النسفي : {أيكم أحسن عملاً} : أخلصه وأصوبه ، فالخالص : أن يكون لوجه الله ، والصواب أن يكون على السُنَّة ، والمراد : أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل ، وسلّط عليكم الموت ، الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح ، فما وراءه إلاّ البعث والجزاء ، الذي لا بدّ منه ، ولمّا قدّم الموت . الذي هو أثر صفة القهر . على الحياة . التي هي أثر صفة اللطف . قدّم صفة القهر على صفة اللطف بقوله : {وهو العزيزُ} : الغالب ، الذي لا يُعجزه مَن أساء العمل ، {الغفور} ؛ الستور ، الذي لاييأس منه أهل الإساءة والزلل. هـ.

ثم استشهد على تمام قدرته بقوله : {الذي خلق سبعَ سمواتٍ طِباقاً} أي : متطابقة بعضها فوق بعض ، من طباق النعلَ : أذا خصفها طبقاً على طبق ، وهو مصدر وصف به ، أو : ذات طباق ، أو : طوبقت طباقاً. وقوله تعالى : {ما ترى في خَلْقِ الرحمنِ من تفاوتٍ} صفة أخرى لسبع سموات ، وضع فيها " خَلْق الرحمن " موضع الضمير للتعظيم ، والإشعار بعلة الحكم ، وبأنه تعالى خلقها بقدرته ، رحمةً وتفضُّلاٍ ، ولأنَّ في إبداعها نعماً جليلة. أو : استئناف. والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو لكل أحدٍ يصلح للخطاب ، و " مِن " لتأكيد

٩٢

النفي ، أي : ما ترى فيه شيئاً من تفاوت ، أي : اختلاف وعدم تناسب أو اضطراب. وعن السدي : من عيْبٍ. وحقيقة التفاوت : عدم التناسب ، كأنّ بعضاً يفوت بعضاً. وقرأ الأخوان : " تَفَوُّت " كالتعاهد

والتعهّد ، والبناء لواحد. {فارجع البصرَ} أي : ردَّه إلى السماء ، حتى يصحَّ عندك ما أُخْبِرْت به معاينةً ، حتى لا يبقى شُبهة. {هل ترى من فطورٍ} ؛ صدروع وشقوق ، جمع : فَطَر ، وهو الشقّ ، يقال : فطره فانفطر.

{ثم ارجع البصرَ كرتينِ} أي : كرّره رجعتين مع الأُولى ، فتكون ثلاثاً ، أو : بالأُولى ، وقيل : لَمَ يُرِد الاقتصار على مرتين ، بل أراد به التكرير بكثرةٍ ، أي : كرر نظرك ودقّقه مراراً ، هل ترى خللاً أو عيباً في السموات ؟ وجواب الأمر : {ينقلبْ} ؛ يرجع {إليك البصرُ خاسئاً} ؛ ذليلاً ، أو : بعيداً مما تريد ، وهو حال من البصر ، {وهو حَسِيرٌ} أي : كليل لطول المعاودة ، وكثرة المراجعة ، ولم يحصل ما قصد.

ثم بيَّن حُسنها وبهجتها ، فقال : {ولقد زيَّنا السماءَ الدنيا} أي : القُربى منكم {بمصابيحَ} أي : بكواكب مضيئة بالليل إضاءة السراج فيه ، زينةً لسقف هذه الدار ، من السيارة والثوابت ، تتراءى كأنها كلها مركوزة فيها ، مع أنَّ بعضها في سائر السموات ، وما ذلك إلاَّ لأنَّ كل واحدة منها مخلوقة على نمط رائق ، تحار في فهمه الأفكار ، وطراز فائق تهيم في دركه الأنظار. قال الفخر : وليس في هذه الآية ما يدل على أنَّ الكواكب مركوزة في سماء الدنيا ، وذلك لأنَّ السموات إذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت في سماء الدنيا ، أو في سماء أخرى فوقها ، فهي لا بد أن تظهر في سماء الدنيا ، وتلوح فيها ، فعلى كِلا التقديرين فالسماء الدنيا مُزَيّنة بها. هـ.

}

(١٠٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩١

وجعلناها رُجوماً للشياطين} أي : وجعلنا فيها فائدة أخرى ، هي : رجم أعدائكم الذي يُخرجونكم من النور إلى الظلمات ، بانقضاض الشُهب المقتَبسة منها ، فيأخذ المَلك شعلة من نار الكوكب ، ويضرب بها الجني ، فيقتله ، أو يخبِّله ، فيرجع غُولاً يُفزع الناسَ ، وأمّا الكواكب فلا تزول عن أماكنها ؛ لأنها قارّة في الفلك. قال قتادة : خلق الله النجوم لثلاث : زينة السماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمَن تأوّل فيها غير ذلك ، فقد تكلّف ما لا علم له به. {وأعتدنا لهم} ؛ للشياطين {عذابَ السعير} بعد الإحراق في الدنيا بالشُهب. والله تعالى أعلم.

الإشارة : تبارك الذي بيده المُلك ، الملْك الظاهري والمُلك الباطني ، يُعطيهما مَن يشاء ، ويمنعهما مَن يشاء ، فالمُلك الظاهري عز يفنى والملك الباطني عز يبقى ، وهما ضدان لا يجتمعان في شخص واحد ، ولا يتفقان ، بل أحدهما يغير من الآخر ، والمراد بالملك الباطني : معرفة الشهود والعيان ، فلا

يناسبها إلاّ الخمول ، ولا تقوم إلاّ به ، ومهما ظهرت أخذ صاحبها وصدمته الحوافر. الذي خلق الموتَ في بعض القلوب والأرواح ، فكانت ميتة جاهلة ذليلة حقيرة ، والحياةَ في بعضها ، فكانت حيّة عارفة مالكة عزيزة ، فعل

٩٣

ذلك ليبلوكم أيك أحسنُ عملاً بالإقبال على الله ، والتوجُّه بكليته إليه ، أو بالإدبار عنه ، والإعراض عن الداعي إليه. وقيل : أحسن العمل : نيسان العمل ورؤية الفضل. هـ. والمراد : أنه يجتهد في العمل ، ويغيب عنه ، ومَن جعل الموتَ نُصب عينيه لا محالة يجتهد ، ولله در القائل :

وَفِي ذِكْرِ هولِ الموتِ والقَبْرِ والبلاَ

عَن الشغْل باللذَّاتِ للمرء زَاجِر

أَبَعْدَ اقْتِرابِ الأَربَعينَ تَربُّص

وشَيْب فَذاك مُنْذِرٌ لك ذَاعِر

فَكَمْ في بُطون الأرضِ بعد ظُهورها

مَحَاسِنهم فيها بوَالٍ دَوَاثِر

وأنت على الدنيا مُكب مُنَافِس

لِحُطَامِها فيها حَريص مُكاثر

علَى خطرٍ تُمسي وتُصبح لاَهِياً

أتَدْرِي بماذا لَوْ عقلت تُخاطِر

وَإنْ أحد يَسعى لدُنياه جَاهداً

ويَذْهلُ عن أخراه لآ شَكَّ خاسِر

فَجدّ ولا تَغفَل ، فَعَيشك زائِل

وأَنْتِ إلى دارِ الْمَنِيَّةِ صَائِر

وهو العزيز يُعز مَن أقبل عليه ، والغفور لمَن رجع بعد الإعراض إليه. الذي خلق سبعَ سموات الأرواح ، وتقدّم قريباً تفسيرها ، وعالم الأوراح في غاية الإتقان ، ليس فيه خلل ولا تفاوت ، ولقد زيَّنا السماء الدنيا. قال القشيري : أراد بسماء الدنيا سماء القلب ، لدنوه من سماء الروح ، أي : زيّنا ونوّرنا سماء القلب بمصابيح العلم وأنوار الواردات القلبية ، وسبحات الإلهامات الربانية ، وجعلناها رجوماً للشياطين ؛ الخواطر النفاسية ، والهواجس الظلمانية الشيطانية ، وأعتدنا لتلك الخواطر عذابَ السعير ، فيحترق بالخواطر الملكية والرحمانية. هـ.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩١
يقول الحق جلّ جلاله : {وللذين كفروا بربهم} أي : ولكل مَن كفر بالله مِن الشياطين وغيرهم {عَذابُ جهنم} يُعذّبون بها جميعاً ، {وبئس المصيرُ} ، المرجع جهنم. {إِذا أُلقوا فيها} ؛ طُرحوا في جهنم ، كما يُطرح الحطب في النار ، {سَمِعُوا لها} ؛ لجهنم {شهيقاً} ؛ صوتاً منكراً ، كصوت الحمير. شبّه حسيسها المنكر الفظيع بالشهيق. {وهي تفور} ؛ تغلي بهم كغليان المِرْجَل بما فيه.
٩٤
{تكاد تميَّزُ} أي : تتميّز ، يعني : تتقطّع وتتفرّق وينفصل بعضها من بعض {من الغيظ} وذلك حين تمد عنقها إليهم ، لتستولي عليهم. وغيظها حقيقة بالإدراك الذي خلقه الله فيها. {كلما أُلْقِي فيها فوجٌ} ؛ جماعة من الكفار {سألهم خزنتُها} مالك وأعوانه من الزبانية توبيخاً لهم : {ألم يأتكم نذير} ؛ رسولٌ يُخوفكم من هذا العذاب الفظيع ؟ {قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ} ، اعترفوا بعدل الله ، وأنَّ الله أزاح عذرهم ببعث الرسل ، وإنذارهم ما وقعوا فيه ، تحسُّراً على ما فاتهم من السعادة ، وتمهيداً لِما وقع منهم من التفريط تندُّماً اغتماماً على ذلك ، {فكذَّبنا} ذلك النذير في كونه نذيراً من جهته تعالى : {وقلنا ما نزَّل اللهُ من شيءٍ} مما يقولون من وعد ووعيد ، وغير ذلك ، {إِن أنتم إلاَّ في ضلالٍ كبير} أي : قال الكفار للمنذِّرين : ما أنتم إلاّ في خطأ عظيم ، بعيد عن الصواب.
وجمع ضمير الخطاب مع أنَّ مخاطب كل فوج نذيرُه ؛ لتغليبه على أمثاله ، مبالغةً في التكذيب ، وتمادياً في التضليل ، كما ينبىء عنه تعميم المنزل مع ترك ذكر المنزل عليه ، فإنه مُلوح لعمومه حتماً ، أو : إقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل. ويجوز أن يكون قوله : {إن أنتم إلا في ضلال كبير} من كلام الخزنة للكفار ، على إرادة القول ، ومرادهم بالضلال : الهلاك ، أو : سمُّوا جزاء الضلال باسمه ، كقوله : {وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [الشورى : ٤٠] مشاكلة ، أو : يكون من كلام الرسل ، حكوه للخزنة ، اي : قالوا لنا هذا فلم نهتبله.
}

(١١١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٤
وقالوا} أيضاً معترفين بتفريطهم : {لو كنا نسمعُ} الإنذار سماع طالب الحقّ {أو نعقلُ} شيئاً {ما كنا في أصحاب السعير} في عِددهم ، ومن أتباعهم ، من الشياطين وغيرهم ، وفيه دليل على أنَّ مدار التكليف على أدلة السمع والعقل ، وأنهما حجتان. {فاعترَفوا بذنبهم} ، الذي هو كفرهم وتكذيبهم الرسل في وقت لا ينفعهم ، {فسُحقاً لأصحابِ السعير} أي : أبعدهم من رحمته وكرامته ، وهو مصدر

مؤكد لعامله ، أي : فسُحقوا سحقاً ، أو : فأسحقهم الله سحقاً ، بحذف الزوائد. وفيه معنى الدعاء.
الإشارة : وللذين كفروا بشهود ربهم في الدنيا عذابُ جهنم ، وهو البُعد والحجاب ، وبئس المرجع ، حين يرجع المقربون إلى مقعد صدق ، عند مليك مقتدر ، إذا أُلقوا في الحُجبة والقطيعة سمعوا لها شهيقاً غيظاً عليهم ، وسخطة بهم ، وبصفاتهم المضلة ، وهي تفور من قُبح أعمالهم. تكاد تميّز من الغيظ عليهم ، كلما أُلقي فيها فوج من أهل الغفلة ، قال لهم خزنتها وهم صور أعمالهم وهيئة أخلاقهم الردية : ألم يأتكم نذير ؛ داع يدعوكم إلى الله ، من العارفين بالله ؟ فاعترفوا بأنهم أنكروهم وجحدوا خصوصيتهم ، فماتوا محجوبين عن الله ، والعياذ بالله.
٩٥

(١١٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٤
يقول الحق جلّ جلاله : {إنَّ الذين يخشَون ربهم بالغيب} أي : يخافون عذابه غائباً عنهم ، أو : عن أعين الناس ، أو : بالقلب ؛ لأنّ القلب أمر غيبي ، أو : يخشون ربهم ولم يروه معاينة ، {لهم مغفرة} لذنوبهم {وأجر كبير} لا يقادر قدره ، الجنة وما فيها.
{وأسِرُّوا قولكم أو اجهروا به} ، ظاهره : الأمر بأحد الأمرين ؛ الإسرار والإجهار ومعناه : ليستوِ عندكم إسراركم وإجهاركم ، فإنه في عِلْم الله سواء. كقوله : {سَوَآءٌ مِنكُم مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ} [الرعد : ١٠] ، وكأنه تعالى لمّا قال : {يخشون ربهم بالغيب} ربما يتوهم أن الله تعالى يغيب عنه شيء ، رفع ذلك. وقيل : إنَّ المشركين كانوا ينالون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيُخبره جبريلُ عليه السلام بما قالوا فيه ونالوا منه ، فقالوا فيما بينهم : أسِروا قولكم لئلا يسمع رب محمد فيخبره ، فنزلت.
وتقديم السر على الجهر للإيذان بافتضاحهم ، ووقوع ما يحذرونه ، وللمبالغة في شمول علمه تعالى ، المحيط بجميع المعلومات ، كأنَّ عِلْمَه تعالى بما يُسرونه أقدم منه بما يجهرونه ، مع كونهما في الحقيقة على السواء ، ولأنَّ مرتبة السر أقدم وجوداً ؛ لأنّ ما يقع به الجهر يتقدّم التحدُّث به في النفس.
وقوله تعالى : {إنه عليم بذات الصدور} تعليل لِما قبله ، أي : عليم بضمائر الصدور قبل أن تترجم الألسنة ، فكيف لا يعلم ما تتكلم به. وفي صيغة " فعيل " ، وتحلية " الصدور " بلام الاستغراق ، ووصف الضمائر بصاحبتها من الجزالة ما لا غاية وراءه ، كأنه قيل : إنه مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية ، المستكنة في صدروهم ، فكيف يخفى عليه ما يُبدونه ؟ ويجوز أن يراد بـ {ذات الصدور} : القلوب التي في الصدور ، أي : عليم بالقلوب وأحوالها ، فلا يخفى عليه من أسرارها ، {ألا يعلم من خلق} " مَنْ " فاعل بيعلم ، {وهو اللطيفُ الخبيرُ} أنكر أن يكون مَن خلق

الأشياء وأوجدها غير عالم بباطنها وظاهرها ، وصفته أنه اللطيف ، أي : العالِم بدقائق الأشياء الخبير ؛ العالم بحقائقها. ويجوز أن يكون (مَن) مفعولاً ، أي : ألاَ يعلم اللهُ مَن خلقه.
وفيه على الأول دليل على خلق أفعال العباد ، وهو مذهب أهل السنة ، ووجه الدليل : أنه تعالى لمّا قرر أنه عالم بالسر والجهر ، وبكل ما في الصدور ، قال بعده : {ألا يعلم مَن خَلَقَ} ، وهذا الكلام إنما يتصل بما قبله إذا كان تعالى خالقاً لكل ما يفعلونه في السر والجهر ، وفي القلوب والصدور ، فأنه لو لم يكن خالقاً لها لم يكن قوله : {ألا يعلم مَن خلق} مقتضياً كونَه تعالى عالماً بتلك الأشياء ، وهو خالق الأشياء وأحوالها ، وعالم
٩٦
بجميع ذلك ، ولذلك عقَّب ذلك بقوله : {وهو اللطيف الخبير}.

(١١٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٦
الإشارة : إنَّ الذين يخشون ربهم بالغيب ، فراقَبوه وعبدوه ، حتى عرفوه ، فصار الغيب عندهم شهادة.
قال الورتجبي : وصف الله معرفة العارفين به ، قبل رؤيتهم مشاهدته ، فإذا عاينوه استفادوا من رؤيته علم المعاينة ، وهو المعرفة بالحقيقة ، خشوا منه في غيبة منه ، وهو خشية القلب ، فلما رأوه على الخشية الإجلال ، وهو علم الروح والسر. هـ.
وقوله تعالى : {وهو اللطيفُ الخبير} ، قال بعضهم : الحق تعالى منزّه عن الأين والجهة ، والكيف ، والمادة ، والصورة ، ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان ، ولا كم ، ولا كيف ، ولا جسم ، ولا جوهر ، ولا عرض ؛ لأنه للطفه سارٍ في كل شيء ، ولنوريته ظاهر في كل شيء ، ولإطلاقه وإحاطته متكيّف بكل كيف ، غير متقيد بذلك ، ومَن لم يذق هذا ، أو لم يشهده ، فهو أعمى البصيرة ، محروم عن مشاهدة الحق. هـ. وقال الغزالي : إنما يستحق هذا الاسم - يعني اللطيف - مَن يطلع على غوامض الأشياء ، وما دقّ منها وما لطف ، ثم سلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العُنف ، والخبير هو الذي لا يعزب عنه الأخبار الباطنة ، فلا يجري في المُلك والملكوت شيء ، ولا يتحرك ذرة ولا تسكن ، ولا تضطرب نفس ولا تطمئن ، إلاّ ويكون عنده خبرها. وهو بمعنى العلم ، لكن العلم إذا أُضيف إلى الخفايا الباطنة يسمى خِبرة ، ويسمى صاحبها خبيراً. هـ.

(١١٤/٨)

يقول الحق جلّ جلاله : {هو الذي جعل لكم الأرضَ ذلولا} ؛ مذلّلة ليّنة يسهل عليكم سلوكها. وتقديم (لكم) على مفعول الجعل ؛ للاهتمام والتشويق ، {فامشُوا في مناكبها} ؛ جوانبها ، وهو تمثيل لفرط التذلُّل ، فإنَّ منكب البعير أرقّ أعضائه وأصعبها على أن يطأها الراكب بقدميه ، فإذا جعل الأرض في الذل بحيث يتأتى المشي في مناكبها لم يبقَ منها شد لم يتذلّل ، {وكُلوا من رزقه} أي : والتمسوا من رزق الله في سلوكها ، أو إذا تعذّر العيس في أرضٍ فامشوا في مناكبها إلى أرض أخرى ، كما قال الشاعر :

يا نفس مالكِ تهوي الإقامةَ في

أرض تعيش بين من ناواكِ بها

أما سمعتِ وعجز المرء منقصَةٌ

في محكم الوحي : فامشوا في مناكبها

٩٧

أو : كُلوا من رزق الله الخارج منها ، {وإليه النُشورُ} أي : الرجوع بالبعث ، فتُسألون عن شكر هذه النعم.

ثم هدَّد مَن لم يشكر فقال : {أأمِنْتُم مَن في السماء} من ملكوته وأسرار ذاته ، وعبّر بها ؛ لأنها منزل قضاياه ، وتدبيراته ووحيه ، ومسكن ملائكته وأوامره ونواهيه ، فكل ما يظهر في الأرض إنما يقضي به في السماء ، وحينئذ يبرز ، فكأنه قال : أأمِنتم خالق السموات ؟ وقال اللجائي : كل شيء علا فهو سماء ، وسماء البيت : سقفه ، وليس المقصود في الآية سماء الدنيا ؛ ولا غيرها من السبع الطباق ، وإنما المعنى : أأمِنتم مَن في العلو ، وهو علو الجلال ، وليس كون الله في سماء الحوادث من صفات الكمال ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً. هـ. وسيأتي في الإشارة تحقيقة عند أهل التوحيد. أي : أأمِنتم مَن في السماء أسرار ذاته {أن يخسف بكم الأرضَ} كما خسف بقارون بعد ما جَعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها ، وتأكلون من رزقه فيها ، بحيث كفرتم تلك النعمة ، فقلبها لكم {فإذا هي تمورُ} ؛ تضطرب وتتحرّك.

{أم أَمِنْتُم مَن في السماء أن يُرسل عليكم حاصباً} ؛ حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ، أو : ريحاً فيها حجارة. و " أن " : بدل اشتمال في الموضعين. {فستعلمون} عن قريب {كيف نذيرٍ} أي : إنذاري عن مشاهدتكم للمنذَر به ، ولكن لا ينفعكم العلم حينئذٍ.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٧

ولقد كذَّب الذين مِن قبلهم} ؛ من قبل كفار مكة ، من كفار الأمم السابقة ، كقوم نوح وعاد وأضرابهم ، والالتفات إلى الغيبة ؛ لإبراز كمال الإعراض عنهم ، {فكيف كان نكير} ؛ إنكاري عليهم ، بإنزال العذاب ، أي : كان على غاية الهول والفظاعة ، وهذا هو مورد التأكيد القسمي لا تكذيبهم فقط ، وفيه من المبالغة في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتشديد التهويل ما لا يخفى. والله تعالى أعلم.

الإشارة : هو الذي جعل لكم أرض البشرية مذلّلة للعبودية ، والقيام بآداب الربوبية ، فامشوا في مناكبها ؛ فسيحوا بقلوبكم في جوانبها ، تفكُّراً واعتباراً لِما فيهم من عجائب الإتقان ، وبدائع الحِكم ، فقد جمعت أسرار الوجود بأسره ، وكُلوا من رزقه مما اكتسبه القلب بالنظر والتفكُّر ، من قوة الإيمان ، وهو قوت القلوب ، وشهود الحق فيها ، وهو قوت الأرواح والأسرار ، وإليه النُشور ببعث الأرواح من موت الغفلة والجهل ، إلى حياة اليقظة والمعرفة ، أأمِنتم مَن في السماء أن يخسف بكم الأرض ، أي : إذا أسأتم معه الأدب. واعلم أن ذات الحق ـ جلّ جلاله ـ عمّت الوجود ، فليست محصورة في مكان ولا زمان ، {فأينما تُولوا فَثَمّ وجه الله} ، فأسرار ذاته ـ تعالى ـ سارية في كل شيء ، قائمة بكل شيء ، كما تقدّم ، فهو موجود في كل شيء ، لا يخلو منه شيء ، أسرار المعاني قائمة

٩٨

بالأواني ، وإنما خصّ الحق ـ تعالى ـ السماء بالذكر ؛ لأنها مرتفعة معظّمة ، فناسب ذكر العظيم فيها ، وعلى هذا تُحمل الأحاديث والآيات الواردة على هذا المنوال. وليس هنا حلول ولا اتحاد ؛ إذ ليس في الوجود إلاّ تجليات الحق ومظاهر ذاته وصفاته ، كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما كان عليه ، فما مثال الكون إلا كجبريل حين يتطوّر على صورة دحية ، غير أنَّ رداء الكبرياء منشور على وجه ذاته وأسرار معانيه ، وهو ما ظهر من حسن الكائنات ، وما تلوّنت به الخمرة من أوصاف العبوية. ولا يفهم هذا إلاَّ أهل الذوق السليم. وبالله التوفيق.

(١١٦/٨)

يقول الحق جلّ جلاله : {أَوَلَمْ يَرَوْا} أي : أَغَفلُوا ولم ينظروا {إلى الطيرِ} ؛ جمع طائر {فوقهم} في الهواء {صافاتٍ} ؛ باسطاتٍ أجنحتها في الجو عند طيرانها {ويقبِضْنَ} ؛ ويضممنها إذا ضربن بها حيناً فحيناً ، للاستظهار به على التحرُّك ، وهو السر في إيثار (ويقبضن) الدال على تجدُّد القبض تارة بعد تارة على " قابضات " ، ف " يقبضن " : معطوف على اسم الفاعل حملاً على المعنى ، أي : يصففن ويقبضن ، أو : صافات وقابضات. والطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والهواء للطائر كالماء

للسابح ، والأصل في السباحة : مدّ الأطراف وبسطها ، وأمّا القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرُّك. {ما يُمسِكُهُنَّ} في الجو عند البسط والقبض على خلاف مقتضى الطبع {إلاَّ الرحمنُ} الواسع رحمته كل شيء ، ومن جملتها : إمساكه الطير في الهواء بقدرته ، وإلا فالثقيل يسفل طبعاً ولا يطفو ، وكذلك لو أمسك حِفظَه وتدبيره للعالم لتهافت وتلاشى. {إنه بكل شيءٍ بصيرٌ} يعلم كيفية إبداع المبدعات ، وتدبير المصنوعات ، ومن مبدعاته : أنَّ الطير على أشكال وخصائص هيّأهن للجري في الهواء.

{أمَّنْ هذا الذي هو جندٌ لكم ينصركم من دون الرحمن} ، هو تبكيت لهم ينفي أن يكون لهم ناصر من عذابه غير الله ، أي : لا ناصر لكم إلاّ الرحمن برحمته. " أم " منقطعة مقدرة ببل ؛ للانتقال من توبيخهم على ترك التأمُّل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المنبئة عن تعاجيب قدرة الله تعالى إلى التبكيت بما ذكر من نفي نصرة غيره تعالى ، والالتفات

للتشديد في ذلك ، و(من) : مبتدأ و(هذا) : خبره ، و(الذي) وما بعده : صفتهن وإيثار " هذا " تحقيراً له ، و(ينصركم) : صفة لجُند ، باعتبار لفظه ، و(من دون) : إما حال من فاعل " ينصركم " أو لمصدر محذوف ، أي : نصراً حاصلاً من دون الرحمن ، أو : متعلق بينصركم ، كقوله : {مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ} [هود : ٣٠] ، والمعنى : بل مَن هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم ينصركم نصراً كائناً من دون نصرة الرحمن ؟ ! {إِنِ الكافرون إلاّ في غرورٍ} أي : ما هم في زعمهم أنهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم ، لا بحفظه تعالى فقط ، إلاّ في غرور عظيم ، وضلال فاحش من الشيطان. والالتفات إلى الغيبة ؛ للإيذان بافتضاح حالهم ، والإعراض عنهم ، وإظهار قبائحهم ، والإظهار في موضع الإضمار لذمّهم بالكفر ، وتعليل غرورهم به.

}

أمّنْ هذا الذي يرزقكم إنْ أمسك} اللهُ عزّ وجل {رزقَه} بإمساك المطر وسائر مبادئه ، أي : مَن هذا الحقير الذي يقدر على إتيان رزقكم من آلهتكم إن أمسكه الله ؟ {بل لَجُوا في عَتُوٍّ ونفورٍ} ، إضراب عن مُقدّر يستدعيه المقام ، كأنه قيل بعد تمام التبكيت والتعجيز : لم يتأثروا بشيء من ذلك ، ولم يذعنوا للحق ، {بل لجُوا} أي : تمادوا {في عتوٍّ} أي : استكبار وطغيان {ونفورٍ} ؛ وشُرود عن الحق لِثقله عليهم. ثم ضرب مثلاً للمشرِك والموحِّد ، فقال : {أفمن يمشي مُكبًّا على وجهه} أي : ساقطاً

على وجهه {أهْدى} ، والفاء لترتيب ذلك على ما ظهر من سواء حالهم ، وسقوطهم في مهاوي الغرور ، وركوبهم متن عشواء العتو والنفور. والمُكب : الساقط على وجهه ، والمعنى : أفمن يمشي وهو يعثر في كل ساعة ، ويخرّ على وجهه في كل خطوة أهدى إلى المقصود {أَمَّنْ يمشي سَوِياً} أي : قائماً سالماً من الخبط والعِثار {على صراط مستقيم} مستوي الأجزاء لا عوج فيه ، ولا انحراف ؟ و " من " الثانية : معطوفة على الأُلى عطف المفرد. وقيل : المراد بالمكب : الأعمى ، وبالسوي : البصير. وقيل : مَن يمشي مُكباً هو الذي يُحشر على وجهه إلى النار ، ومَن يمشي سويًّا : الذي يُحشر على قدميه إلى الجنة.

{قل هو الذي أنشأكم} إنشاءً بديعاً ، {وجعل لكم السمعَ} لتسمعوا آيات الله ، وتمتثلوا ما فيها من الأوامر والنواهي ، وتتعظوا بمواعظها ، {والأبصارَ} لتنظروا بها إلى الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله تعالى ، {والأفئدةَ} لتتفكروا بها فيما تسمعونه وتشاهدونه من الآيات التنزيلية والتكوينية ؛ لتترقوا في معاريج الإيمان والمعرفة ، {قليلاً ما تشكرون} باستعمالها فيما خُلقت له. و " قليلاً " : إما نعت لمحذوف ، أو : ظرف ، و(ما) : صلة لمحذوف ، أي : شكراً قليلاً ، أو : زمناً قليلاً. وقيل : القلة عبارة عن العدم. {قل هو الذي ذرأكم في الأرض} أي : خلقكم وكثَّركم فيها {وإليه تُحشرون} للجزاء لا إلى غيره ، فتهيؤوا للقائه.

الإشارة : أَوَلَم يَرَوا إلى طيور أفكار العارفين فوقهم منزلةً ورفعة ، صافاتٍ ، تجول

في ميادين الغيوب ، ويقبضن عنانهن ، عكوفاً في الحضرة ، وسكوناً في النظرة ، ما يُمسِكُهن فيها إلاَّ الرحمن الذي مَنَّ عليهم برحمته ، فأسكنهم فيها ، إنه بكل شيء بصير ، فيُبصر مَن توجه إليه ومَن لا ، أمَّنْ هذا الذي هو جند لكم ينصركم على طريق السلوك ، ويُبلغكم إلى حضرة مالك المَلوك ، من دون الرحمن ؟ إنِ الكافرون بهذا إلاّ في غرور ، حيث حسبوا أنَّ وصولهم بحسب جهادهم وطاعتهم ، أمَّن هذا الذي يرزقكم إمداد قلوبكم من العلوم والمعارف واليقين الكبير ، إن أمسك رزقه فلم يتوجه إليكم إلاَّ القليل ، بل لجُوا في عُتو ونفور ، أفمن يمشي مُكبًّا على وجهه ، حيث رام سلوك الطريق بلا شيخ ولا دليل عارف ، أهدى أمَّنْ يمشي سويًّا سالماً من الانحراف ، على صراط مستقيم ، تُوصله إلى حضرة العيان ، وهو مَن سلك الطريق على يد الخبير ، بل مَن سلكه على يد الخبير أهدى وأصوب ، قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم دلائل السلوك إلى معرفته ، لتستدلوا عليه بالأدلة السمعية والعقلية ، ثم تَتَرَقون إلى صريح معرفته ، بسلوك الطريق على يد الخبير ، قل هو الذي ذرأكم في أرض العبودية ، وإليه تُحشرون بشهود عظمة الربوبية.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٩

يقول الحق جلّ جلاله : {ويقولون} مِن فرط عتوهم وعنادهم استهزاءً : {متى هذا الوعدُ} أي : الحشر الموعود {إن كنتم صادقين} فيما تعدونه من مجيء الساعة ؟ والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين المشاركين له عليه السلام في الوعد ، وتلاوة الآيات المتضمنة له ، وجواب الشرط : محذوف ، أي : إن صدقتم فيه فبيِّنوا وقته ؟ {قل إنما العلمُ} أي : العلم بوقته {عند الله} تعالى ، لا يطلع عليه غيره {وإنما أنا نذير مبينٌ} أُنذركم وقوع الموعود لا محالة ، وأمّا العلم بوقت وقوعه فليس من وظائف الإنذار.

{فلما رَأَوه} أي : العذاب الموعود. والفاء فصيحة مُعربة عن تقدير جملة ، كأنه قيل : قد أتاهم الموعود فلما رأوه... الخ ، نزّل ما سيقع بمنزلة الواقع لتحقق وقوعه ، و {زُلفةً} : حال من مفعول " رَأَوه " أي : قريباً منهم ، وهو مصدر ، أي : ذا زلفة ، {سِيئَتْ} أي : تغيرت {وجوهُ الذين كفروا} بأن غشيها الكآبة ورهقها القَترُ والذلة. ووضع الموصول موضع ضميرهم ؛ لذمهم بالكفر ، وتعليل المساءة به. {وقيل} توبيخاً لهم ، وتشديداً لعذابهم : {هذا الذي كنتم به تَدَّعون} ؛ تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه

١٠١

إنكاراً واستهزاءً ، وهو " تفتعلون " من الدعاء ، وقيل : من الدعوى ، أي : تدعون ألاَّ بعث ولا حشر. ورُوي عن مجاهد : أنَّ الموعود يوم بدر ، وهو بعيد.

{قل أرأيتم} أي : أخبروني {إن أهلكنيَ اللهُ} أي : أماتني. والتعبير عنه بالهلاك لِما كانوا يدعون عليه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك ، {ومَن معيَ} مِن المؤمنين {أو رَحِمَنا} باخير آجالنا ، فنحن في جوار رحمته متربصون إحدى الحسنيين {فمَن يُجير الكافرين من عذاب أليم} أي : لا يُنجيكم منه أحد ، متنا أو بَقينا. ووضع " الكافرين " موضع ضميرهم ؛ للتسجيل عليهم بالكفر ، وتعليل نفي الإنجاء به ، أي : لا بد من لحوق العذاب لكفركم ، مُتنا أو بقينا ، فلا فائدة في دعائكم علينا.

}

(١١٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠١

قل هو} أي : الذي أدعوكم إليه {الرحمن} مولى النعم كلها ، {آمَنَّا به} وحده ؛ لعِلْمنا ألاَّ راحم سواه ، {وعليه توكلنا} وحده ؛ لعِلْمنا أنَّ ما عداه كائناً ما كان بمعزل عن النفع والضر. {فستعلمون} عن قريب

{مَن هو في ضلالٍ مبينٍ} منا ومنكم ، {قل أرأيتم} ؛ أخبروني {إن أصبحَ ماؤُكم غوراً} ؛ غائراً في الأرض بالكلية ، أو : لا تناله الدلاء {فمَن يأتيكم بماءٍ معين} ؛ جارٍ أو ظاهر سهل المأخذ ، يصل إليه مَن وصله ؟ . وفي القاموس : ماء معيون ومعين : ظاهر. هـ. وقال مكي : ويجوز أن يكون معين " فعيل " من مَعَن الماء : كثر ، ويجوز أن يكون مفعولاً من العَين ، وأصله : معيون ، ثم أعل ، أي : فمَن يأتيكم بماء يُرى بالعين. هـ. مختصراً.

وقرئت الآية عند مُلحدٍ ، فقال : يأتي بالمعول والفؤوس ، فذهبت عيناه تلك الليلة وَعمِيَ ، وقيل : إنه محمد بن زكريا المتطبب ، أعاذنا الله من سوء الأدب مع كتابه. قال ابن عرفة : ذكر ابن عطية في فضل السورة أربعة أحاديث ، وقد تقرّر أنَّ أحاديث الفضائل لم تصح إلاَّ أحاديث قليلة ، ليس هذا منها. هـ. وفي الموطأ : إنها تُجادل عن صاحبها.

الإشارة : ويقولون . أي : أهل الإنكار على المريدين . : متى هذا الوعد بالفتح إن كنتم صادقين في الوعد بالفتح على أهل التوجه ؟ قل أيها العارف الداعي إلى الله : إنما العلمُ عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، أُنذر البقاء في غم الحجاب وسوء الحساب ، فلما رأوه . أي رأوا أثر الفتح على المتوجهين ، بظهور سيما العارفين على وجوههم ، ونبع الحِكَم من قلوبهم على ألسنتهم . زلفةً ، أي : قريباً ، سيئت وجوه الذين كفروا بطريق الخصوص ، وأنكروها . أي ساءهم ذلك حسداً أو ندماً ، وقيل هذا الذي كنتم به تَدَّعون ، أي : تدَّعون أنه لا يكون ، وأنه قد انقضى زمانه ، وأهل الإنكار لا محالة يتمنون هلاكَ أهل النِسبة ، فيُقال لهم : أرأيتم إن أهلكنا الله بالموت ، أو رَحِمَنا بالحياة ، فمَن يُجيركم أنتم من

عذاب القطيعة والبُعد ، أي : هو لا حق لكم لا محالة ، متنا أو عشنا ، قل هو ، أي : الذي توجهنا إليه ، الرحمن وضمّنا إليه ، آمنّا به وعليه توكلنا في كفاية شروركم ، فستعلمون حين يُرفع المقربون في أعلى عليين ، ويسقط أهل الحجاب في الحضيض الأسفل من الجنة ، مَن هو اليوم في ضلال مبين ، قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم . ماء حياة قلوبكم من الإيمان والتوحيد ، غَوْراً ، فمَن يأتيكم بماء معين ؟ أي : فمَن يُظهره لكم ، ما يأتي به إلاَّ أهل العلم بالله.

(١٢٠/٨)

والله تعالى أعلم. وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

(١٢١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠١

سورة القلم

(١٢٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠٣

يقول الحق جلّ جلاله : {نا} ، هو من جملة الرموز ، كـ {ص} و {ق} ، وكأنه ـ والله أعلم ـ يُشير إلى ما خصّ به نبيَّه من أسرار النبوة والخلافة ، أي : نبأناك ونبَّهناك ونوّبناك خليفة عنا ، أو نوّهنا بك في مُلكنا وملكوتنا ، أو : أيها النبي المفخّم ، والرسول المعظّم ، وحق نون والقلم ما أنت بمجنون. وقيل : مختصر من نور وناصر ونصير ، وقيل : من الرحمن ، لكن ورد في الحديث : " أول ما خلق اللهُ القلم ، ثم خَلَقَ النون " ، وهو الدواة ، وذلك قوله : {ن والقلم} فإن صَحّ الحديث فهو أولى في تفسير الآية ، وقد رُوي عن ابن عباس وغيره ، في تفسير الآية : أنه الدواة والقلم الذي بأيدي الناس ، ورُوي عن ابن عباس أيضاً : أنه الحوت الأعظم ، الذي عليه الأرضون السبع.

قال الكلبي ومقاتل : اسمه يهموت ـ بالياء ـ وقيل : لِيُوثا ، وقيل : باهوتا. رُوي : أنّ الله تعالى لمّا خلق الأرض وفَتَقَها ، بعث مِن تحت العرش ملكاً ، فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع ، فوضعها على عاتقه ، إحدى يديه بالمشرق ، والأخرى بالمغرب ، باسطتين ، قابضتين على الأرضين السبع ، فلم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الله من الفردوس ثوراً ، له أربعون ألف قرنٍ ، وأربعون ألف قائمة ، وجعل قرار قدم الملك على سنامه فلم تستقر قدماه ، فأهبط الله ياقوتة خضراء من أعلى درجة في الفردوس ، غلظها خمسمائة عام ، فوضعها على سنام الثور إلى أذنه ، فاستقرت قدما المَلك عليه ، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض ، ومنخاره في البحر ، فهو يتنفس كل يوم

١٠٤

نفساً ، فإذا تنفّس مدَّ البحرُ ، وإذا هدأ نَفَسُه جزرَ البحر ، فلم يكن لقوائم الثور موضع قرار ، فخلق الله صخرة خضراء ، كغلظ سبع سموات وسبع أرضين ، فاستقرت قوائم الثور عليها ، وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه : {فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ} [لقمان : ١٦] الآية ، فلم تستقر الصخرة ، فخلق الله نوناً ـ وهو الحوت العظيم ـ فوضع الصخرة على ظهره ، وسائر جسده عارٍ ، والحوت على البحر ، والبحر على متن الريح ، والريح على القدرة الأزلية ، يُقلُّ الدنيا بما فيها حرفان "كن فيكون ". هـ. من الثعلبي

، وهذا من باب عالَم الحكمة ، وإلاّ فما ثَمَّ إلا تجليات الحق وأسرار الذات ، والصفات الأزلية.
وتفسير {ن} بهذا الحوت ضعيف.

(١٢٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠٤
قال ابن جزي : ويُبطل قول مَن قال : إنه الحوت أو الدواة ، بأنه لو كان كذلك لكان مُعرباً ، ولَكَان في آخره تنوين ، فكونه موقوفاً دليل على أنه حرف هجاء ، نحو : {الام} وغيره. هـ.
ثم أقسم بالقلم ، فقال : {والقلم وما يسطرون} ، قيل : هو القلم الذي كتب اللوح المحفوظ ، فالضمير في {يسطرون} للملائكة ، وقيل : القلم المعروف عند الناس ، أقسم له بِما فيه من المنافع والحِكم. قال ابن الهيثم : من جلالة القلم أنه لم يكتب الله كتاباً إلا به ، ولذلك أقسم به. الأقلام مطايا الفِطن ورسل الكرام ، وقيل : البيان اثنان : بيان لسان ، وبيان بَنَان ، ومِن فضل بيان البنان أنَّ ما تبيَّنته الأقلام باق على الأيام ، وبيان اللسان تدْرُسه الأعوام ، ولبعض الحكماء : قِوام أمور الدين والدنيا : القلم ، والسيف تحت القلم. وأنشد بعضهم في هذا المعنى :
قَلَمٌ مِنَ القَصَبِ الضَّعيف الأجْوفِ
أَمضَى من الرُّمْح الطويل الأهيَفِ
ومِن النِّصال إذا انْبَرَتْ لِقسِيِّها
ومِن المُهَنَّد في الصِّقال المُرْهَفِ
وأَشَدُّ إِقدَاماً من اللَيْثِ الذي
يَكْوِي القُلوبَ إذا بدا في الموقِفِ
وقال آخر :
قَوْمٌ إذا عَرَفوا عَداوةَ حَاسِدٍ
سَفَكُوا الدِّمَا بأَسِنَّةِ الأَقْلامِ
ولَضَرْبَةٌ مِن كاتبٍ بِبَنَانِهِ
أَمْضَى وأَبْلَغُ من رقيق حُسَامِ
فالضمير في {يَسْطُرون} على هذا لبني آدم ، فالضمير يعود على الكتبة المفهومة من القلم اللازمة له.
ثم ذكر المقسَم عليه ، فقال : {ما أنت بنعمةِ ربك بمجنونٍ} أي : ليس بك جنون كما يزعمه الكفرة ، ف(بنعمة ربك) : اعتراض بين " ما " وخبرها ، كما تقول : أنت بحمد الله فاضل ، وقيل : المجرور في موضع الحال ، والعامل فيه معنى النفي ، كأنه قيل : أنت بريء

من الجنون ، ملتبساً بنعمة ربك ، التي هي النبوة والرسالة. والتعبير بعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى معاريج الكمال ، مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم لتشريفه عليه السلام والإيذان بأنه تعالى يُتم نعمته عليه ، ويُبلغه من العلو إلى غاية لا غاية وراءه ، والمراد : تنزيهه عليه السلام عما كانوا ينسبونه من الجنون حسداً وعداوة ومكابرة ، مع جزمهم بأنه صلى الله عليه وسلم في غاية الغايات القاصية ، ونهاية النهايات الثابتة من حصافة العقل ، ورزانة الرأي. {وإِنَّ لك} في مقابلةِ مقاساتك ألوان الشدائد من جهتهم ، وتحمُّلك لأعباء الرسالة {لأجراً} عظيماً لا يُقادَر قدره {غيرَ ممنونٍ} ؛ غير مقطوع ، أو : غير ممنون به عليك من جهة الناس ، بأن أعطاه تعالى لك بلا واسطة.
}

(١٢٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠٤

وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم} لا يُدْرِك شأوَه أحدٌ مِن الخلق ، ولذلك تَحْتَمِل من جهتهم ما لا يحتمله أحد من البشر. وسُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلقة صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان خُلقه القرأن ، ألست تقرأ القرآن : {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ...} [المؤمنون : ١] الآية. وقيل : المراد : التأدُّب بآداب القرآن ، بامتثال أمره واجتناب نهيه.

قال ابن جُزي : وتفصيل ذلك : أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جمع كل فضيلة ، وحاز كل خصلة جميلة ، فمن ذلك : شرف النسب ، ووفور العقل ، وكثرة العلم والعبادة ، وشدة الحياء ، والسخاء ، والصدْق ، والشجاعة ، والصبر ، والشكر ، والمروءة ، والتوءدة ، والاقتصاد ، والزهد ، والتواضع ، والشفقة ، والعدل ، والعفو ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، وحُسن المعاشرة ، وحسن التدبير ، وفصاحة اللسان ، وقوة الحواس ، وحسن الصورة ، وغير ذلك ، حسبما ورد في أخباره وسِيرَه صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال : " بُعثت لأتمم مكارمَ الأخلاق " ، قال الجنيد : سُمي خُلقه عظيماً ؛ لأنه لم تكن له همة سوى الله عزّ وجل. هـ. والخُلق : السجية والطبع. قال في القاموس : الخُلْق بالضم وبضمتين : السجية ، والطبع ، والمروءة والدين. هـ.

وعرَّف بعضهم حقيقة الخُلق ، فقال : مَلَكة للنفس ، تصدر عنها الأفعال بسهولة ، من غير فكر ولا رَوية ، فخرج الصبر ؛ لأنه بصُعوبة ، والفكرة ؛ لأنها تكون بروية ، ثم ينظر في تلك الأفعال الصادرة عن تلك المَلَكة ؛ فإن كانت سيئة ، كالغضب ، والعَجَلة ، والكِبر ، والفظاظة ، والغلظة ، والقسوة ، والبُخل ، والجُبن ، وغير ذلك من القبائح ، سُمي خُلقاً سيئاً ، وإن كانت تلك الأفعال حسنة ، كالعفو ،

والحلم ، والجود ، والصبر ، والرحمة ، ولين الجانب ، وتحمل الأذى ، سُمي خلقاً حسناً ، الذي اتصف به صلى الله عليه سلم على أكمل الوجوه ، ومَدَحه بقوله : " ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق ، وإن صاحب حسن

١٠٦

الخلق يبلغ درجة الصائم القائم " وبقوله : " أفضل ما أُعطي المرء الخلق الحسن " في أحاديث كثيرة. وبالله التوفيق.

الإشارة : قد يُقال : أشار بقوله : {ن} إلى سرعة إنفاذ أمره بين الكاف والنون ، ثم أقسم بالقلم على تنزيه نبيه من الجنون ، ويُقال مثل ذلك لخلفائه ، إذا رُمُوا بالجنون أو السحر أو سخافة العقل ، ويُقال لهم في إرشاد الناس وتذكيرهم ما قيل لنبيّهم : {وإِنَّ لك لأجراً غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم} ، فحُسن الخلق دليل على ثبوت الخصوصية ، وعدمه دليل على عدم وجودها ؛ لأنّ الخمرة إذا دخلت القلب والروح هَذّبت أخلاقهما ، وطهّرت أكدارهما ، وما تُبقي إلاَّ الذهب الإبريز.

(١٢٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠٤

وقال شيخ شيوخنا ، سيدي عبد الرحمن العارف : كان صلى الله عليه وسلم على خُلقٍ عظيم ؛ لشرح صدره بالنور ، كما قال تعالى : {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح : ١] ، ولحديث شرح صدره وشقه وتطهيره ، ونزع حظ الشيطان منه ، ثم إفراغ الحكمة والنور فيه ، حتى مُلىء بذلك ، فكان شيئاً محضاً لله تعالى ، لا تعلُّق له بغيره ، فناسب القرآن ، وصار خُلقاً له ، منقوشاَ فيه ، من غير روية ، ولا تكسب في ذلك ، بل طُبع على ذلك ، وسرى فيه أمر الوحي ، وجرى على مقتضاه في جميع أحواله ، ولذلك تجد السُنة مشرعة من القرآن ، وخارجة منه خروج اللبن من الضرع ، والزبد من اللبن ، فصار متخلّقاً بالقرآن ، وفي الحقيقة متخلّقا بخُلق الله ، ومظهرَ أوصافه ، ومجلاة سره وشأنه ، {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} [الفتح : ١٠] الآية ، ومَن رآه فقد رأى الحق. والله أعلم. هـ. فعائشة رضي الله عنها احتشمت وسترت حيث عبّرت بالقرآن ، ولم تقل كان خلقه خلق الرحمن.

(١٢٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠٤

يقول الحق جلّ جلاله : {فسَتُبْصِرُ} يا محمد {ويُبصرون} أي : كفارُ قريش عاقبة أمرك

وأمرهم ، أو : مَن هو المجنون منكم. قال ابن عباس رضي الله عنه : فستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتبيّن الحق من الباطل. هـ. وقيل : في الدنيا بظهور عاقبة أمرك بظهور الإسلام ، واستيلائك عليهم بالقتل والنهب ، ويبصرونك مُهاباً معظّماً في قلوب العالمين ، وكونهم أذلةً صاغرين. قال مقاتل : هذا وعيد بعذاب يوم بدر.

والباء في قوله : {بأيِّكم المفتونُ} قيل : زائدة ، أي : تُبصرون أيكم المفتون ، أي : المجنون ، وقيل : غير زائدة ، أي : بأيكم الفتنة ، فالمفتون مصدر ، كقولهم : ما لك معقول ، أي : عقل ، وقيل : الباء بمعنى " في " ، أي : في أي فريق منكم المفتون ، هل في فريق المؤمنين أم المشركين ؟ والآية تعريض بأبي جهل ، والوليد بن المغيرة ، وأضرابهما ، وتهديد ، كقوله تعالى : {سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ(٢٦)} [القمر : ٢٦].

{إنَّ ربك هو أعلمُ بمَن ضلَّ عن سبيله} تعليل لمضمون ما قبله ، من ظهور جنونهم ، بحيث لا يخفى على أحد ، وتأكيد لِما فيه من الوعد والوعيد ، أي : هو أعلم بمَن ضلّ عن طريقه الموصلة إلى سعادة الدارين ، وبمن هو في تيه الضلال ، متوجهاً إلى ما يسوقه إلى الشقاوة الأبدية ، وهذا هو المجنون الذي لا يُفرّق بين الضرر والنفع ، بل يحسب الضررَ نفعاً فيؤثره ، والنفعَ ضرراً فيهجره ، {وهو أعلمُ بالمهتدين} إلى سبيله ، الفائزين بكل مطلوب ، الناجين من كل مرهوب ، وهم العقلاء المراجيح ، فيجزي كُلاًّ من الفريقين حسبما يستحقه من العقاب والثواب. وإعادة {هو أعلم} لزيادة التقرير.

وإذا تقرّر أنك على الهدى ، ومُكَذِبوك على الضلال {فلا تُطع المكذِّبين} ، فالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي : دُم على ما أنت عليه ، من عدم طاعتهم ، وتَصَلّبْ في ذلك. وهذا تهييج للتصميم على عصيانهم ، وقد أرادوه على أن يعبدوا الله مدة ، ويعبد آلهتهم مدة ، ويكفُّوا عنه غوائلهم ، فنهاه عن ذلك ، أو : نُهي عن مداهنتهم ومداراتهم ، بإظهار خلاف ما في ضميره صلى الله عليه وسلم ؛ استجلاباً لقلوبهم. {وَدُّوا لو تُدْهِنُ} ؛ لو تلين لهم {فيُدْهِنُون} ؛ فيلينون لك ، ولم ينصب بإضمار " أن " مع أنه جواب التمني ؛ لأنه عدل به إلى طريق آخر ، وهو أن جعله خبر مبتدأ محذوف ، أي : فهم مدهنون ، أي : فهم الآن يُدهنون لطمعهم في إدهانك ، فليس داخلاً في حيّز تمنيهم ؛ بل هو حاصل لهم ، وفي بعض المصاحف : {فيدهنوا} على أنه جواب التمني.

}

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

ولا تُطعْ كلَّ حلاّفٍ} ؛ كثير الحلف في الحق والباطل ، وكفى به زجراً لمَن يُكثر الحلف ، {مَهِينٍ} ؛ حقير في الرأي والتدبير ، من المهانة ، وهي القلة والحقارة ، أو : كذَّاب ؛ لأنه صغير عند الناس ، {هَمَّازٍ} ؛ عيّابٍ طعَّان مغتاب {مشَّاء بنميم} ؛ نقّال للحديث من قوم إلى قوم ، على وجه السِّعاية والفساد بينهم ، فالنميم والنميمة : السعاية في إفساد ذات البيْن ، {مناعٍ للخير} ؛ بخيل ، والخير : المال ، أو : منّاع أهلَه من الخير ، وهو الإسلام ، والمراد : الوليد بن المغيرة ، عند الجمهور ، وكان يقول لبنيه العشرة : مَن أسلم منكم منعته رفدي. هـ {مُعْتَدٍ} ؛ مجاوز في الظلم حدّه ، {أثيمٍ} ؛ كثير الإثم ، {عُتُلّ} ؛ غليظ جافٍ ، مِن عتله : إذا قاده بعنف وغلظةٍ ، {بعد ذلك} ؛ بعدما عدّ له من المثالب

{زنيمٍ} ؛ دَعِيّ ، أي : ولد زنا ، وكان الوليد دَعِياً في قريش ، ليس من سِنْخهم ، ادّعاه أبوه المغيرة بعد ثماني عشرة سنة من مولده ، وقيل : بغَت أمه ولم يعرف حتى فضحته الآية : والنطفة إذا خبثت خبث الناشيء عنها. رُوي : أنه دخل على أمه ، وقال لها : إنَّ محمداً وصفني بشعرة أوصاف ، وجدت تسعة فِيّ ، فأما الزنيم فلا علم لي به ، فإن أخبرتني بحقيقته ، وإلاّ ضربت عنقك ، فقالت : إنَّ أباك عنّين ، وخفتُ أن يموت ، فيصل المال إلى غير ولده ، فدعوت راعياً ، فأنت من ذلك الراعي. هـ. وقيل : هو الأخنس بن شريق ، أصله من ثقيف ، وعِدادُه في بني زهرة.

{أن كان ذا مالٍ وبنينَ} : متعلق بقوله : {لا تُطع} أي : لاتُطع مَن هذه مثالبه لأن كان صاحب مال وبنينَ مستظهراً بهم ، فإنه حظه من الدنيا ، وقيل : متعلق بما بعده ، أي : لأن كان ذا مال وبنين كذّب بآياتنا ، يدل عليه قوله تعالى : {إذا تُتلى عليه آياتُنا} أي : القرآن {قال أساطيرُ الأولين} أي : أكاذيب المتقدمين ، ولا يعمل فيه " قال " ؛ لأنّ ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله. ومَن قرأ بكسر " إن " فشرط حُذف جوابه ، أي : إن كان ذا مال فلا تُطعه ، والمعنى : لا تُطع كل حلاّف شارطاً يَسَارَه. قيل : لمّا عاب الوليدُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كاذباً بأمر واحد ، وهو الجنون ، سمّاه اللهُ تعالى صادقاً بعشرة أسماء ، فإذا كان مِن عدله أن يجزي المسيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشر ، كان من فضله أن يجزي المُصلِّي عليه أو المادح له بعشر فأكثر.

{سَنَسِمُه على الخرطوم} ؛ سنعلِّمه على أنفه بالكي بالنار إهانةً له ، وتخصيص الأنف بالذكر ؛ لأنَّ الوسم عليه أبشع ، وقيل : خطم بالسيف يوم بدر ، فبقيت سمة على خرطومه ، وفيه نظر إذا قلنا هو الوليد ، فإنه مات قبل بدر ، لأنه من المستنصرين الخمسة ، وقد ماتوا كلهم قبل وقعة بدر ، وقيل : سنعلمه يوم القيامة بعلامة يُشوه بها من بين سائر الكفرة.

(١٢٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠٧

الإشارة : فستُبصر أيها العارف ، والمتوجّه إلى الله ، ويُبصر أهل الانتقاد من أهل الغفلة ، أيكم المفتون ، هل أنتم حين اجتمعت قلوبكم بالله ، وجعلتم الهموم هَمًّا واحداً ، فكفاكم الله همّ دنياكم ، أو : هُم الذين تفرّقت قلوبهم ، وتشعّبت همومهم ، حتى ماتوا في أودية الفتن ، فلم يُبالِ الله بهم في أيّ أودية الدنيا هلكوا ، كما في الأثر. إن ربك هو أعلم بمَن ضَلّ عن طريقه الموصلة إليه ، وهو أعلم بالمهتدين إليها ، السائرين فيها ، حتى وصلوا إلى حضرة قدسه ، فلا تُطع أيها المتوجّه المكذّبين لهذه الطريق ، ودُّوا لو تلينون إليهم ، وتشاركونهم فيما هم فيه من الحظوظ ، فيميلون إليكم ، طمعاً فيكم أن يصرفوكم

١٠٩

عن طريق الجد والاجتهاد ، ولا تُطع كل حلاّف مهين ، قال القشيري : مّهين : هو الذي سقط من عيننا ، فأقمناه بالبُعد عنا ، همّاز مشاء بنميم ، مُعذَّب بالوقيعة في أوليائنا. هـ.

قال بعضهم : بُحث عن النمَّام فلم يوجد إلا ابن الزنا ، واستدل بالآية في قوله : {بعد ذلك زنيم}.

وقوله تعالى : {منَّاعٍ للخير} ، وضده من أخلاق الصوفية ، وهو أن يكون وصّالاً للخير لعباد الله ، حسًّا ومعنىً ، {معتد أثيم} وضده : كثير الإحسان والطاعة ، {عُتل} وضده : سهل لين ، {بعد ذلك زنيم} أي : لقيط ، لا أب له ، وكل مَن لا شيخ له يصلح للتربية فهو لقيط ، لا أب له ، فلا يصلح للاقتداء كما لا يؤم الناسَ ابنُ الزنا ، وقوله تعالى : {أن كان ذا مال وبنين إذا تُتلى عليه آياتنا قال...} الخ. أي : إنما حمله على التكذيب طغيانه بالمال ، وهذه عادته تعالى : أنَّ المترفين لا ينالون من طريق السابقين شيئاً إلاَّ النادر. والله تعالى أعلم.

(١٢٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠٧

يقول الحق جلّ جلاله : {إِنَّا بلوناهم} ؛ أهل مكة ، أي : امتحنّاهم بالقحط والجوع ، حتى أكلوا الجِيفَ الرِّمَمَ ، بدعاء النبي صلى الله عليه سلم حيث قال : " اللهم اشدُدْ وطأتَك على مُضَرَ ، واجعلها عليهم سِنينَ كسِني يوسفَ " {كما بلونا أصحابَ الجنةِ} ، وهم قوم من أهل الصلاة ، قيل : كانوا مؤمنين ، أهل كتاب ، بعد رفع عيسى عليه السلام وكانوا بـ " ضرْوان " على فراسخ من صنعاء اليمن. قال ابن جزي : كانوا من بني إسرائيل. هـ. والجنة ، قال ابن عباس : هو بستان ، يقال له : الضّروان ، دون صنعاء بفرسخين ، يطؤه أهل الطريق ، كان غَرَسه رجل من أهل الصلاح ، فورثه ثلاثة بنين ، فإذا أصرموه كان للمساكين كل ما تعدّاه المنجل والقِطاف ، فإذا طرح من فوق النخل إلى البساط ، فكل شيء سقط عن البساط ؛ فهو للمساكين ، فكان أبوهم يتصدّق منها على المساكين ، فكان يعيش من ذلك

١١٠

في حياة أبيهم اليتامى والأرامل والمساكين ، وفي رواية : كان يأخذ قوت سنة ، ويتصدّق بالباقي ، وكان ينادي على الفقراء وقت الصرام ، فلما مات أبوهم ؛ قالوا : لقد قلَّ المال ، وكثر العيال ، فتحالفوا بينهم ليغدوا غدوة قبل خروج الناس ، ويصرمونه ، ولا يشعر المساكين ، وهو قوله تعالى :

{إِذْ أقسَموا} ؛ حلفوا {لَيَصْرِمُنَّهَا مصبحين} ؛ ليقطفنّها داخلين في الصباح ، قبل انتشار الفقراء ، {ولا يستثنون} ؛ لا يقولون إن شاء الله ، وسمي استثناء ، وإن كان شرطاً صورةً ؛ لأنه يؤدي مؤدّى الاستثناء ؛ لأنّ قولك : لأخرجنّ إن شاء الله ، و : لا أخرج إلاّ أن يشاء الله ، واحدٌ ، أو : لا يستثنون ؛ حصة المساكين ، كما كان يفعل أبوهم.

}

(١٣٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١١٠

فطاف عليها} أي : على الجنة {طائف من ربك} أي : نزل عليها بلاء من جهته تعالى ، قيل : أنزل الله عليها ناراً فأحرقتها ، وقيل : طاف بها جبريل ، لأنه الموكل بالخسف ، فاقتلعها ، وطاف بها حول البيت ، ثم وضعها بالطائف ، وليس بمكة وما قرب منها بستان غيرها ، وهي مدينة الطائف. انظر اللباب. {وهم نائمون} أي : في حال نومهم ، أو : غافلون عما جرت به المقادير ، {فأصبحتْ} أي : فصارت الجنة {كالصَّرِيم} ؛ كالبستان الذي صرمت ثماره ، بحيث لم يبقَ فيها شيء ، وقيل : كالليل المُظلم ، احترقت فاسودّت ، أو : كالصبح ، أي : صارت أرضاً بيضاء بلا شجر. وفي القاموس :

الصريم : الأرض المحصود زرعها ، والصبح والليل. هـ.

{فَتَنَادَوا} أي : نادى بعضُهم بعضاً {مصبحين} ؛ داخلين في الصباح : {أَنِ اغْدوا} أي : اخرجوا غدوه {على حَرْثِكم} ؛ بستانكم وضيعتكم ، وتعدية الغدو بـ " على " لتضمنه معنى الإقبال والاستيلاء ، {إن كنتم صارمين} ؛ قاصدين الصرم. {فانطلقوا وهم يتخافتون} ؛ يتساررون فيما بينهم بطريق المخافتة ، لئلا يسمع المساكين {أن لا يدخلنَّها} أي : الجنة ، و " أن " مفسرة ، أي : قائلين في تلك المخافتة : لايدخلنها {اليومَ عليكم مسكين} ، والنهي عن دخول المساكين نهي عن التمكين على وجه المبالغة ، أي : لا تُمكنوهم من الدخول. {وغَدَوا على حَرْدٍ} ؛ على جِدٍّ في المنع {قادرين} عند أنفسهم على المنع ، كذا عن نفطوية ، من قولهم : حردت الإبل إذا قلَّت ألبانها فمنعتها ، و " حاردت السنة " إذا كانت شهباء ، من قلة مطرها ، أو : الحرد : القصد والسرعة ، يقال : حَرَدَ حَرْده ، أي : قصد قصده ، قال الشاعر :

١١١

أقْبَلَ سَيْلٌ جاء من أَمْرِ الله

يَحْرِدُ حَرْدَ الجَنةِ المُغِلَّهْ

أي : يقْصد قصدها ، أي : وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة قادرين على صِرامها عند أنفسهم ، وقيل : معنى الحرد : الغضب ، يقال : حَرِدَ الرجل حَرْداً : غضب ، أي : غدوا على غضبٍ على المسكين قادرين على المنع ، أو على صِرامها في زعمهم ، وقيل : الحرد : اسم للجنة ، أي : غدوا على تلك الجنة قادرين على صِرامها عند أنفسهم.

{فلما رَأَوها} أي : جنتهم محترقة {قالوا إنَّا لضالون} أي : ضللنا جنتنا ، وما هي بها ، لِما رأوا من هلاكها ، فلما تأمّلوا وعرفوا أنها هي ، قالوا : {بل نحن محرومون} ؛ حُرمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا ، {قال أوسطُهم} أي : أعدلُهم وخيرُهم رأياً ، أو : أكبرهم سنًّا : {ألم أقل لكم لولا تُسبِّحون} ؟ تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نياتكم ، وقد كان قال لهم حين عزموا على ذلك : اذكروا الله ، وتوبوا إليه من هذه الجريمة الخبيثة من فوركم ، وسارِعوا إلى حَسْم شرها قبل حلول النقمة ، فَعَصوه. وقيل : المراد بالتسبيح : الاستثناء ؛ لأنه تعظيم لله تعالى في الجملة ؛ لأنَّ الاستثناء تفويض إليه ، والتسبيح تنزيه ، وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم ، والأول أنسب بقوله : {قالوا سبحان ربنا إنَّا كنا ظالمين} فيما عزمنا عليه من المنع ، أو : في عدم الاستثناء ، فتكلّموا بعد نزول العذاب بما كان يدعوهم إلى التكلُّم به قبل نزوله.

}

فأقبل بعضُهم على بعض يتلاومون} أي : يلوم بعضُهم بعضاً بما فعلوا من الهرب من المساكين ، ويُحيل كلُّ واحد منهم اللائمة على الآخر ، ثم اعترفوا جميعاً بأنهم تجاوزوا الحد بقوله : {قالوا يا ويلنا إنَّا كنا ظالمين} ؛ متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء حقهم ، وتَرْكِ الاستثناء ، {عسى ربُّنا أن يُبْدلنا خيراً منها} أي : يعطينا خيراً من جنتنا ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة ، {إنَّا إلى ربنا راغبون} ؛ طالبون منه الخير ، راجون العفو منه. وعن مجاهد : ثابوا فأُبدلوا خيراً منها ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : بلغني أنهم أخلصوا ، فأبدلهم الله جنة تُسمى الحيوان ، فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً ، وعن أبي خالد اليماني أنه رآها ، ورأى كل عنقود منها كالرجُل الأسود القائم ، وقد تقدّم أنهم مؤمنون ، إمّا من بني إسرائيل أو غيرهم ، فلا معنى لمَن توقف في قولهم : {إنَّا إلى ربنا راغبون} هل يكون إسلاماً أم لا ؟ نعم ، قد قيل : إنهم كانوا كفاراً ، فيحتمل أن يكون قولهم هذا إسلاماً ، أو يكون على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم شدة. قال تعالى : {كذلك العذابُ} أي : مثل ذلك العذاب الذي ذكرناه في حق أصحاب الجنة هو عذاب الدنيا لمَن تخالف أمرنا ، ولم يشكر نِعمنا ، {ولَعذابُ الآخرة أكبرُ} ؛ أعظم منه وأشد ، {لو كانوا يعلمون} أنه أكبر لا حترزوا عما يؤديهم إليه.

قال الطيبي : قال الإمام ـ أي الفخر ـ : المقصود من القصة أنه تعالى قال : {أن كان ذا مال وبنين إذا تُتلى عليه آياتنا قال...} الخ ؛ أي : لأجل أن أعطاه الله المال والبنين كفر

بالله ، إنما أعطاه ذلك للابتلاء ، فإذا صرفه إلى الكفر دمّر الله عليه ؛ لأنّ أصحاب الجنة لَمَّا أَتوا بهذا القدر اليسير من المعصية ، دمَّر الله على جنتهم ، فكيف حال مَن عاند الرسولَ ، وأصرّ على الكفر والمعصية ؟ أو : لأنَّ أصحاب الجنة خرجوا لينتفعوا بالجنة ، ويمنعوا الفقراء منها ، فقلب الله عليهم القضية ، فكذا أهل ممكة ، حَردُوا إلى بدر أرادوا الكيد بمحمد وأصحابه ـ صلوات الله عليه ـ فأخلف الله ظنّهم ، فقُتلوا وأُسروا. هـ.

الإشارة : مَن كان يفعل الإحسان ، ويُوسع في العطاء ، ثم قبض يده ، فإنَّ الله يقبض فيضه عنه ، كما قبض هو إحسانه عن عباده ، فما دام يُوسّع فإنَّ الله يُوسّع عليه ، فإذا قبض قبض الله عنه ، {سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ} [الأنعام : ١٣٩] ، وكذلك مَن خالف عادة أسلافه في العطاء وشدّ يده ؛ فإنَّ الله يُخالف عنه ما كان يفعل مع أسلافه ، من فَيْض الأرزاق الحسية أو المعنوية ، فإن تاب ورجع إلى فعل ما كان عليه أسلافه ؛ أعاد الله عليه إحسانه ، كما فعل بأصحاب الجنة حين تابوا ، وهذا صريح الآية ، وتَصْدق أيضاً بمَن كان يُنفق من سعة علومه ومواهبه ، ثم قبض ذلك من غير عذر ، فإنَّ الله تعالى يقبض عنه زيادة المواهب ، وربما يطوف على باطنه طائف من الله ، فيُصبح خالياً من ثمار المواهب ، حتى يتوب ويرجع إلى ما كان عليه ، وبالله التوفيق.

(١٣٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١١٠

يقول الحق جلّ جلاله : {إنَّ للمتقين عند ربهم} في الآخرة ، أو : في جوار القدس {جناتِ النعيم} أي : جنات ليس فيها إلاَّ التنعُّم الخالص عن شائبة ما ينقصه من المكدّرات ، وخوف الزوال ، بخلاف جنات الدنيا ونعيمها ، وقال بعضهم : لهم جنات النعيم ، مِن صفتها : أنَّ العبد فيها مُقيم ، والنبي فيها نديم ، والمضيف فيها الكريم ، والثواب فيها عظيم ، والعطاء فيها جسيم ، والحزن فيها عديم. هـ.

{أفنجعلُ المسلمين كالمجرمين} ، تقرير لِما قبله من فوز المتقين بجنات النعيم ، ورَدٌّ لما يقوله الكفرة عند سماعهم لحديث الآخرة ، وما أعدّ للمسلمين ، فإنهم كانوا يقولون : إن صحّ أنَّا نُبعث كما يزعم محمد ومَن معه ، لم يكن حالنا وحالهم إلاَّ مثل ما هي في الدنيا ، لم يزيدوا علينا ، ولم يفضلونا ، فرَدّ الله عليهم. والهمزة للإنكار ، والعطف على مُقدّر يقتضيه المقام ، أي : أنحِيفُ في الحُكم ، فنجعل المسلمين الذين كابدوا مشاقَ

١١٣

الطاعات ، وترك المخالفات ، كالكافرين الذين عُجِّلت طيباتهم في الحياة الدنيا ، ثم قيل لهم بطريق الالتفات ؛ لتأكيد الرد والتشديد : {ما لكم كيف تحكمون} هذا الحُكم الأعوج ، وهو التسوية بين المطيع والعاصي ، كأنَّ أمر الجزاء مُفوض إليكم ، تحكمون فيه كيف شئتم! وهو تعجيب واستبعاد وإيذان بأنه لا يصدر عن عاقل. {أم لكم كتاب} نازل من السماء {فيه تدرُسُون} ؛ تقرؤون في ذلك الكتاب ، {إنَّ لكم فيه} أي : في ذلك الكتاب {لَمَا تخيَّرون} أي : إن ما تختارونه وتشتهونه حاصل لكم! والأصل : تدرسون أنَّ لكم ما تتخيرون ، بفتح " أنّ " لأنه مدروس ، لوقوع الدرس عليه ، وإنما كسرت لمجيء اللام في خبره ، ويجوز أن يكون حكاية للمدروس بلفظه ، كقوله : {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الأَخِرِينَ سَلَام عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِين} [الصافات : ٧٨ ، ٧٩] أي : تركنا عليه السلام على قولٍ. وتخيّر الشيء واختاره : أخذ خيره.

}

(١٣٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١١٣

أم لكم أَيْمَانٌ علينا} أي : عهود مؤكدة بالأيمان {بالغةٌ} ؛ متناهية في التوكيد {إلى يوم القيامة} متعلق بالمقدّر في {لكم} أي : ثابتة لكم إلى يوم القيامة ، أو : بـ " بالغة " ، أي : تبلغ ذلك اليوم وتنتهي إليه

، وافرة لم تبطل منها يمين ، إلى أن يحصل المقسَم عليه من التحكيم ، {إِنَّ لكم لَمَا تحكمون} به لأنفسكم ، وهو جواب القسم ، لأنَّ معنى {أم لكم أَيمان علينا} : أم أقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد وقلنا والله إنَّ لكم لَمَا تحكمون {سَلْهُمْ} أي : المشركين ، وهو تلوين للخطاب ، وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاطهم عن رتبة الخطاب ، أي : سَلْهم مبكتاً لهم : {أَيُّهُم بذلك} الحكم {زعيمٌ} ؛ كفيل بأنه لا بد أن يكون ذلك.

{أم لهم شركاءُ} أي : ناس يُشاركونهم في هذا القو ، ويذهبون مذهبهم فيه ؟ {فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} في دعواهم ، إذ لا أقل من التقليد فيه ، يعني : أنَّ أحداً لا يسلّم لهم هذا ، ولا يساعدهم عليه ، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به ، ولا عهد لهم بعد عند الله ، ولا زعيم لهم يضمن لهم من الله هذا ، وإنما هو اختلاق وأماني من أنفسهم. وقيل : المراد بالشركاء : الأصنام ، أي : أم لهم أصنام يعبدونها تضمن لهم ذلك ؟ فليحضروها حتى يسمعوا منهم ذلك ، وهو تهكُّم به.

واذكر {يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ} ، وجمهور المفسرين على أن الكشف عن ساق عبارة عن شدة الأمر ، وصعوبة الخطب ، أي : يوم يشتد الأمر ويصعب ، وقيل : ساق الشيء : أصله الذي به قوامه ، كساق الشجرة وساق الإنسان ، أي : يوم يُكشف عن أصل الأمر ، فتظهر حقائق الأمور وأصولها ، بحيث تصير عياناً. وتنكيره للتهويل العظيم. قال النسفي : ولا كشف ثمَّ ولا ساق ، ولكن كنّى به عن شدة الأمر ؛ لأنهم إذا ابتلوا بالشدّة كَشفوا عن الساق ، وقال : كشفت الحرب عن ساقها ، وهذا كما تقول للشحيح : يده مغلولة ، ولا يد ثَمَّ ولا غل ، وإنما هو كناية عن البخل ، وأمّا مَن شبّه فلِضيق عِطفه وقلّة نظره في علم

١١٤

البيان ، ولو كان الأمر كما زعم المشبّه ؛ لكان من حقِّ الساق أن يُعرَّف ؛ لأنها ساق معهودة عنده. هـ.

قلت : انظر الثعلبي ، فقد نقل أحاديث الحشر ، وكلها تدل على أنَّ كشف الساق حقيقة ، وذكر حديث أبي موسى أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : " {يوم يُكشف عن ساق} قال : عن نور عظيم ، يخرُّون له سجداً " ، ثم ذكر حديث الحشر بتمامه ، ومَن كحّل عينيه بإثمد التوحيد الخاص لم يصعب عليه أمثال هذه المتشابهات ؛ إذ الحق جلّ جلاله غير محصور ، بل يتجلّى كيف شاء ، وقد ورد أنه يتجلّى لفصل عباده ، فيجلس على كرسيه ، وورد أيضاً في حديث كشف الساق : أنه يتقدّم أمامهم بعد كشف الساق وسجود المؤمنين له ، ثم ينطلق بهم إلى الجنة. ذكر الحديث المنذري وغيره ، ونقله المحشي الفاسي في سورة البقرة ، عند قوله : {هَلْ يَنظُرُونَ إِلآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ} [البقرة : ٢١٠] الآية ، وليس هذا تجسيم ولا حصر ؛ إذا ما في الوجود إلاّ تجليات الحق ، ومظاهر ذاته.

ثم قال تعالى : {ويُدْعَون إلى السجود} توبيخاً وتعنيفاً على تركهم له في الدنيا ، وتحسُّراً لهم على تفريطهم في ذلك ، لا تكليفاً ، إذ ليست دار تكليف ، {فلا يستطيعون} ذلك ؛ لأنَّ ظهورهم تصير كصياصي البقر ، وفيه دلالة على أنهم يقصدون السجود فلا يتأتى منهم ذلك. وعن ابن مسعود رضي الله عنه : تَفقُم أصلابهم ، أي : تُرد عظماً بلا مفاصل ، لا تثنى عند الرفع والخفض. وفي الحديث الصحيح : " يخرُّون لله سُجداً أجمعون ، ولا يبقى أحد كان يسجد لله رياء وسمعة ونفاقاً إلاَّ صار ظهره طبقاً واحداً ، كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه ". {خاشعةً أبصارُهم} أي : ذليلة ، حال من الضمير في " يُدْعَون " ، أي : يُدعون في حال خشوع أبصارهم ، ونسبة الخشوع إلى الأبصار ؛ لظهور أثره فيها ، {تَرْهَقهم} أي : تلحقهم وتغشاهم {ذلَّةٌ} شديدة ، {وقد كانوا} في الدنيا {يُدْعَون} على ألسنة الرسل {إلى السجود} ، والأصل : إليه ، وإنما أظهر لزيادة التقرير ، أو : لأنَّ المراد به الصلاة بما فيها من السجود ، والدعوة دعوة تكليف ، {وهم سالِمون} متمكنون منه أقوى تمكُّن ، فلا يُجيبون إليه ويأبونه ، وإنما لم يذكره معه لظهوره.

الإشارة : إنَّ للمتقين ما سوى الله عند ربهم ؛ في حضرة قدسه ، جناتِ النعيم ، وهي جنات المعارف في نعيم دوام الشهود والرؤية ، أفنجعل المسلمين المنقادين لأحكامنا القهرية والتكليفية ، كالمجرمين العاصين ، ثم وبَّخ مَن سوَّى بينهم وطالبه بالحجة. وقوله تعالى : {يوم يُكشف عن ساق} أي : يوم يتجلّى لعباده بنور من نور ذاته ، على صورة آدم ، تشريفاً لهذا الآدمي ، وفي الحديث : " إن الله خلق آدم على صورته " أي : على

١١٥

صورته التي يتجلّى بها لعباده في المحشر وفي الجنة ، ولا يفهم هذا إلاَّ الغواصون في بحر الأحدية ، وحسْب مَن لم يبلغ مقامهم التسليم ونفي التشبيه ، فالعارفون يعرفون الله في جميع تجلياته ، ولا ينكرونه في شيء منها ، وأمّا ما ورد في حديث التجلِّي الأول لأهل المحشر فيُنكرونه ، ويقولون : " حتى يأتينا ربنا " ، فإنما يقول ذلك علماء الظاهر ، أهل الدليل ، وأما العارفون فقد عرفوه وأقرُّوه ، وسكتوا ستراً للسر الذي عرّفهم به ، ولذلك كتب ابن العربي الحاتمي إلى الفخر الرازي فقال : تعال نعرِّفك بالله اليوم ، قبل أن يتجلّى لك يوم القيامة ، فتُنكره فيمن يُنكره. هـ.

وقال الورتجبي : أخبر الله سبحانه أنه يكشف يوم الشهود لعشاقه وأحبابه ومُشتاقيه وعُرفائه عن بعض صفاته الخاصة ، ويتجلّى منها لهم ، وهو كشف في ستر الغَيرة عن أسرار القِدَم ، فيُشاهدونها ، فيُدعَون إلى السجود من حيث غشيتهم أنوار العظمة ، حتى لا يحرقوا في كَشفِ سر الصفة ؛ فإنها موضع العظمة والكبرياء ، وبُدُوّ لطائف أنوار أسرار الذات تظهر في لباس الالتباس ، حتى لا يفنيهم فناء لا بقاء بعده ، والمقصود منه زوائد المحبة ، والنظر إلى وجود العظمة. هـ. قلت : وحاصل كلامه : أنّ الحق تعالى إنما تجلّى لعباده في الصورة الآدمية ، حتى كشف عن ساقه غِيرةَ على سر الربوبية أن يظهر

، وهو المراد بقوله : يكشف لعشاقه عن بعض صفاته ، ويتجلى منها . أي : من تلك الصورة . لهم ، وهو كشف في ستر الغيرة. وأيضاً : لو كشف لهم عن أسرار جبروته بلا واسطة لاحترقوا ، لكن تجلّى بأنوار صفاته ليطيقوا رؤيته ، يظهر لهم في لباس الالتباس ، وهو إظهار الصورة الآدمية ، ليبقوا بين فناء وبقاء ، بين سكر وصحو ، ولو تجلّى بأسرار ذاته الأصلية لاحترقوا ، أو سكروا بلا صحو ، وفنوا بلا بقاء. والله تعالى أعلم.

(١٣٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١١٣

يقول الحق جلّ جلاله : {فَذَرْنِي ومَن يُكذِّب بهذا الحديث} أي : القرآن ، والمعنى : كِلْ أمره لي ، وخلِّ بيني وبينه ، فإني أكفيك أمره ؛ لأني عليم بما يستحق من العذاب ، ومطيق له. والفاء لترتيب الأمر على ما قبلها من أحوالهم المحكية ، أي : إذا كان حالهم في الآخرة كذلك فذرْني ومَن يُكَذِّب بالقرآن ، وتوكل عليّ في الانتقام منه ،

١١٦

{سنستدرجُهم} ؛ سنُدْنيهم من العذاب درجة درجة ، يقال : استدرجه إلى كذا ، أي : استنزله إليه درجة بدرجة حتى يورطه فيه ، واستدراجه تعالى للعصاة أن يرزقهم الصحة والنعمة ، فيجعلون رزقَ الله ذريعة إلى معاصيه. والجملة استئناف مسوق لبيان التعذيب المستفاد من الأمر إجمالاً في قوله : {فذرني} والضمير لـ " من " ، والجمع باعتبار معناها ، كما أنَّ الإفراد في " يُكذِّب " باعتبار لفظها ، أي : سنسوقهم إلى العذاب {من حيث لا يعلمون} أي : من الجهة التي لا يشعرون أنه استدراج ، قيل : كلما جدّدوا معصيةً جدّدنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها. قال صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيت الله تعالى يُنعم على عبد ، وهو مقيم على معصية ، فاعلم أنه مُستدرج " ثم تلا هذه الآية.

{وأُمْلِي لهم} ؛ وأمهلهم ليزدادوا إثماً ، وهم يظنون أنه لإرادة الخير بهم ، {إنَّ كيدي متينٌ} ؛ قوي شديد ، لا يوقف عليه ، فسمّى إحسانه وتمكينه كيداً كما سمّاه استدراجاً ؛ لكونه في صورة الكيد ، حيث كان سبباً للهلاك. والحاصل : أن معنى الكيد والمكر والاستدراج ، هو الأخذ من جهة الأمن ، ولا يجوز أن يُسمى الله كائداً وماكراً ومُسْتَدْرِجاً ؛ لعدم التوقيف ، وأسماؤه تعالى توقيفيه.

{أم تسألهم} على تبليغ الرسالة {أجراً} دنيوياً {فهم من مِغْرَمٍ} أي : من أجل غرامة {مثقَلُون} ؛ مكلفون حملاً ثقيلاً ، فيعرضون عنك لأجل ما تكلفهم به ؟ والاستفهام بمعنى النهي. {أم عندهم الغيب} أي : اللوح المحفوظ ، أو علم المغيبات ، {فهم يكتبون} منه ما يحكمون به ، فيستغنون عن

علمه ؟
}

(١٣٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١١٦
فاصبرْ لحُكم ربك} أي : ما حكم به ، وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم ؛ لأنهم وإن أُمهلوا لم يُهمَلوا ، {ولا تكن كصاحِب الحوت} ؛ يونس عليه السلام في العَجَلة والغضب على القوم حتى ابتلي ببلائه ، {إذ نادَى} في بطن الحوت {وهو مكظوم} مملوء غيظاً. والجملة حال من ضمير " نادى " وعليه يدور النهي ، لا على النداءِ ؛ فإنه أمر مستحسن ، ولذلك لم يذكر المنادَى ، و " إذ " منصوب بمضاف محذوف ، أي : لا يكن حالك كحاله وقت ندائه ، أي : لا يوجد منك ما وُجد منه من الضجر والمغاضبة فتُبتلى ببلائه ، {لولا أن تدارَكه نعمةٌ} ؛ رحمة {من ربه} أي : لولا أنَّ الله أنعم عليه بإجابة دعائه ، وقبول عذره ، أو : لتوفيقه للتوبة وقبولها منه ، {لنُبذ بالعراءِ} ؛ بالأرض الخالية من الأشجار {وهو مذموم} ؛ معاتَب بعجلته ، لكنه رُحم ، فنُبذ غير مذموم ، بل مَرْضِي مقبول. {فاجتباه ربُّه} ؛ اصطفاه لرسالته ببركة دعائه وتسبيحه ، فأعاد إليه الوحي ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون ، وقيل : استنبأه ، وكان لم يُنبأ قبل هذه الواقعة ، {فجعله من الصالحين} ؛ من الكاملين في الصلاح ، أو : من الأنبياء والمرسَلين. والوجه هو الأول ؛ لأنه كان نبياً مرسَلاً قبل ، لقوله تعالى : {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلىَ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}
١١٧
[الصافات : ١٣٩ ، ١٤٠] الخُ. رُوي أنها نزلت بأُحد ، حين هَمّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو على المنهزمين من المؤمنين ، وهو ضعيف ؛ لأنَّ السورة كلها مكية. والله تعالى أعلم.
الإشارة : ذَرني ومَن يُكذِّب بهذا الحديث ؛ حديث أهل الخصوصية ، وهو الكلام في علم أسرار التوحيد ، الذي هو مدار علم الباطن ، فمَن يُنكره أو يُنكر وجودَ أهله فهو مستدرَج مغرور ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، أي : ندرجهم إلى مقام البُعد درجة درجة ، من حيث لا يشعرون ، فهم يحسبون أنهم يصعدون ، وهم يسقطون ، يظنون أنهم يُرقِّقون الحجاب بينهم وبين الله ، وهم يغلظونه. قيل : حقيقة الاستدراج هو السكون إلى اللذات ، والتنعُّم بالنعمة ، ونسيان ما تحت النِعم من النقم. هـ. وهذا حال مَن يُنكر وجود التربية ، أو دخل فيها ولم يمتثل ما يُشير به عليه شيخُه. ويقال لمَن يدعو الناس إلى الله ، وهم يفرُّون : أم تسألهم أجراً فهم من مَغرم مُثقلون ، وإنما يثقل العطاء على مَن لم يذق ، وأمّا مَن ذاق فلا يثقل عليه الوجود بأسره ، بل يبذل مُهجته ورُوحه وماله ، ويستصغره في

جانب ما نال من أسرار المعرفة. ويقال له أيضاً حين يُؤذَى : فاصبر لحُكم ربك ، ولا تستعجل حتى يجتبيك ربُّك ، فتكون من الصالحين لحضرته ، قال الواسطي : الاجتبائية أورثت الصلاح ، لا الصلاح أورث الاجتبائية. هـ.

(١٣٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١١٦
يقول الحق جلّ جلاله : {وإن يكادُ الذين كفروا لَيُزْلِقُونك بأبصارهم} ، يقال : زَلَقه زَلَقاً ، وأزلقه إزلاقاً : أزاله عن مكانه ، و " إن " مخففة ، أي : وإن الشأن يقرب الذي كفروا من شدّة عداوتهم ، ونظرهم إليك شزراً بعيون العداوة أن يزيلوك عن مكانك ، ويزلقوا قدمك عن مكانه ، أو : يهلكوك لشدة حنقهم عليك ، وكانت في بني أسد عيانون ، فكان الرجل منهم يجوع ثلاثة أيام ، فلا يمر به شيء فيقول فيه : لم أرَ كاليوم مثله ؛ إلاّ هلك ، فأراد بعضُهم أن يَعين رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فعصمه الله من ذلك ، فنزلت. وفي الحديث : " العين حق ، وإن العين لَتُدْخِل الجمل القِدر ، والرجلَ القبر " ، وهي من خصائص بعض النفوس. وعن الحسن : دواء الإصابة بالعين أن يقرأ هذه الآية. هـ.
و {لمَّا سمعوا} : ظرف ليُزلقونك ، أي : يهلكونك وقت سماعهم {الذكرَ} أي : القرآن ، أي : لاشتداد بغضهم وحسدهم وقت سماعه ، {ويقولون} لغاية حيرتهم في
١١٨
أمره صلى الله عليه وسلم ، ونهاية جهلهم لِما في تضاعيف القرآن من عجائب الحِكَم وبدائع العلوم المحجوبة عن العقول : {إنه لمجنونٌ} أي : إنَّ محمداً لمجنون ، حيرةً في أمره ، وتنفيراً للناس عنه ، {وما هو} أي : القرآن {إلاَّ ذكر للعالمين} أي : وعظ وتذكير للجن والإنس ، والجملة : حال ، أي : يقولون ذلك ، والحال أنه تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، فإنَّ مَن أنزل ذلك ، وهو مطَّلع على أسراره طرًّا ، ومحيط بحقائقه خُبراً ، عليم بما قالوه. وقيل : معناه : شرف وفضل ، كقوله : {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} [الزخرف : ٤٤] وقيل : الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكونه مُذكِّراً وشرفاً للعالمين لا ريب فيه.

الإشارة : ما قيل للرسول صلى الله عليه وسلم ، مع الكفرة من إرادة إزلاقه ببصرهم حسداً ، ورميهم له بالجنون ، يُقال في أهل الإنكار على الأولياء معهم ، فهي سنّة ماضيه ، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه في حزبه الكبير : ونعوذ بك من شر الحُسَّاد على ما أنعمت. وبالله التوفيق ، وصلّى الله

على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.
١١٩

(١٣٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١١٨
سورة الحاقة

(١٣٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١١٩
قلت : {الحاقة} : مبتدأ ، وجملة الاستفهام خبر ، والأصل : الحاقة ما هي ؟ فوضع الظاهر موضع المضمر ؛ تفخيماً لشأنها ، وتهويلاً لأمرها ، و " أدْرَى " يتعدى إلى مفعولين ، علق عن الثاني بالاستفهام.
يقول الحق جلّ جلاله : {الحاقةُ} أي : الساعة الواجبة الوقوع ، الثابتة المجيء ، التي هي آتيةٌ لا ريب فيها ، من : حقّ يحِقُّ : وجب ، أو : التي يحق فيها الحقوق من الثواب والعقاب ، أو : التي تحق فيها الحقائق وتُعرف ، من : حقه : إذا عرف حقيقته ، جعل الفعل لها مجازاً ، وهو لِما فيها من الأمور ، {ما الحاقةُ} أي : ما هي الحاقة ، فهي من الأمور التي يُستفهم عنها ؛ لغرابتها وهول مطلعها ، وأكد كذلك بقوله : {وما أدراك} وأيّ شيءٍ أعلمك {ما} هي {الحاقة} ، يعني : أنك لا علم لك بكنهها ؛ لخروجها عن دائرة علوم المخلوقات ، على معنى : أن عظم شأنها ، ومدى هولها وشدتها ، بحيث لا يكاد يبلغه درايةُ أحد ولا وهمُه ، وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك.
ثم ذكر وبال مَن كذّب بها ، فقال : {كذبت ثمودُ وعادٌ بالقارعة} أي : بالحاقة. فوضعت القارعة موضعها لأنها من أسماء القيامة ، كالحاقة. وسميت بذلك ؛ لأنها تقرع الناسَ بفنون الأفزاع والأهوال ، وتقرع السماءَ بالانشقاق والانفطار ، والأرض والجبال
١٢٠
بالدك والنسف ، والنجوم بالطمس والانكدار. قال أبو السعود : والجملة استئناف مسوق لإعلام بعض أحوال الحاقة له صلى الله عليه وسلم إثر تقرير أنه ما أدراه بها أحد كما في قوله تعالى : {وَمَآ أَدْرَاكَ مَاهِيَة نَارٌ حَامِيَةٌ} [القارعة : ١٠ ، ١١] ونظائره ، خلا أن المبَّين هناك نفس المسؤول عنها ، وها هنا حال من أحوالها ، كما في قوله تعالى : {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيّلَةٌ الْقَدْرِ لَيّلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}

[القدر : ٢ ، ٣] ، كما أن المبيَّن هناك ليس نفس ليلة القدر ، بل فضلها وشرفها ، كذلك المبيّن هاهنا هولُ الحاقة وعظم شأنها ، وكونها بحيث يحق إهلاك مَن يُكَذِّب بها ، كأنه قيل : وما أدراك ما الحاقة كذّب بها عاد وثمود فأُهلكوا. هـ.
}

(١٤٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٢٠

فأمّا ثمودُ فأُهلكوا بالطَّاغية} ؛ بالوقعة المتجاوزة للحدّ في الشدة ، وهي الصيحة أو الرجفة ، وقيل : هي مصدر كالعاقبة ، من المعاقبة ، أي : بسبب طغيانهم وعصيانهم ، والأول أنسب بقوله : {وأمّا عادٌ فأُهلكوا بريحٍ صَرْصَرٍ} أي : شديدة الصوت ، لها صرصرة ، أو شديدة البرد ، تحرق ببردها ، من الصِّر ، كرّر بردها حتى أحرقهم ، {عَاتيةٍ} ؛ شديدة الغضب ، كأنها عتت على خُزّانها فلم يضبطوها بإذن الله ، غضباً على أعداء الله. قال صلى الله عليه وسلم : " ما أرسل الله نسفة من ريح إلاّ بمكيال ، ولا قطرة من ماء إلاّ بمكيال ، إلاّ يوم عاد ويوم نوح ، فإنَّ الماء طغى على الخُزان ، وكذلك الريح ، طغت على خُزانها " ثم قرأ الآية. أو طغت على عاد فلم يقدروا على ردها. {سَخَّرَها عليهم} أي : سلَّطها عليهم ، وهو استئناف جيء به لبيان كيفية إهلاكهم بها ، {سَبْعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حُسوماً} أي : متتابعات ، جمع حاسم ، كشهود وشاهد ، تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكيّ كرة بعد أخرى حتى ينحسم الداء ، أو : محسمات ، حسمت كل خير واستأصلته ، أو قاطعات قطعت دابرهم ، وهو حال ، ويجوز أن يكون مصدراً ، أي : تحسمه حسوماً ، أي : تستأصلهم استئصالاْ ، ويؤيده قراءة الفتح ، وكانت العرب تُسمي هذه الأيام أيام العجوز ، من صبيحة الأربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر ، وإنما سميت بذلك ؛ لأنّ عجوزاً من عاد توارت في سِرب ، فانتزعَتها الريحُ في اليوم الثامن ، فأهلكتها. وقيل : سميت عجوزاً لأنها في عَجُز الشتاء ، أي : آخره. وأسماؤها : الصِنُّ ، والصنْبَرِ ، والوَبْر ، والآمر ، والمُؤْتمر والمُعلِّل ، ومُطْفِىء الجمْر ، واليوم الثامن مكفي الظُّعن.

{فترى القومَ} إن كنت حاضراً حينئذ {فيها} أي : في تلك الليالي والأيام ، أو في مهابِّها ، أو في ديارهم {صَرْعَى} ؛ موتى هلكى ، جمع صريع ، {كأنهم أعجازُ نخلٍ} أي : أصول نخل ، جمع نخلة ، {خاويةٍ}. ساقطة ، أو بالية متآكلة الأجواف ، وكانت أجسامهم طوالاً ، تبلغ مائة ذراع ، أو مائتين ، ولذلك شُبّهوا بالنخل ، {فهل ترى لهم من باقية} أي : بقاء ، فيكون مصدراً ، كالطاغية ، أو مِن نفس باقية. والله تعالى أعلم.

الإشارة : الحاقة هي تجلِّي الحقيقة الأحدية ، وظهور الخمرة الأزلية ، لقلوب العارفين ؛ لأنها تُحق الحق وتُزهق الباطل ، تظهر بها حقائق الأشياء على ما هي عليه في الأصل. قال الورتجبي : الحاقة يوم تحق حقائق الأمور عياناً ، لا يبقى فيها ريب أهل الظنون ، ينكشف الحق لأهل الحق ، ولا معارضة للنفس فيها ، ويتبين للجاهلين أعلام ولاية العارفين. هـ. ثم عظَّمها وهوَّل أمرها ، فقال : {ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة} لا يدريها إلاّ الشجعان من الرجال الأقوياء ، والكمَّال ، كما قال الجيلاني رضي الله عنه :

(١٤١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٢٠

وإيَّاكَ جَزعاً لا يَهُولُكَ أمْرُها

فَمَا نَالَها إلاَّ الشُّجَاعُ المُقَارِعُ

ثم ذكر أنَّ مَن أنكرها أو كذّب بوجودها من النفوس العادية ، والقلوب القاسية ، يهلك في مهاوي الفروقات ، برجفة الوساوس والخواطر ، أو رياح الفتن الباطنة والظاهرة ، سخّرها عليهم سبع ليالٍ على عدد الجوارح السبعة ، وثمانية أيام. قال القشيري : أي : أيام كاشفات لسبع صفات الطبيعية ، وهي : الغضب ، والشهوة ، والحقد ، والحسد ، والبُخل ، والجُبن ، والعجب ، والشره ، حُسوماً ، أي : تحسم ، وتقطع أمور الحق وأحكامه من الخيرات والمبرّات. هـ.

(١٤٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٢٠

يقول الحق جلّ جلاله : {وجاء فرعونُ ومَنْ قبله} أي : ومَن تقدمه. وقرأ البصري والكسائي : (ومَن قِبَلَهُ) بكسر القاف ، أي : ومَن عنده من أتباعه وجنوده ، ويؤيده أنه قُرىء " ومن معه ".

{والمؤتفكاتُ} وهي قُرى قوم لوط ؛ لأنها ائتفَكت ، أي : انقلبت بهم ، أي : وجاء أهل المؤتفكات {بالخاطئة} ؛ بالخطأ ، أو بالفعلة ، أو الأفعال الخاطئة ، أي : ذات الخطأ ، التي من جملتها : تكذيب البعث والقيامة. {فعَصَوا رسولَ ربهم} أي : عصت كل أمة رسولها ، حيث نهوهم عما كانوا يتعاطونه من القبائح ، {فأخَذَهم} أي : الله عزّ وجل {أخذةً رابيةً} أي : زائدة في الشدة ، كما زادت قبائحهم في القُبح ، من : ربا الشيء إذا زاد.

{إنَّا لَمَّا طغى الماءُ} ؛ ارتفع وقت الطوفان ، على أعلى جبل في الدنيا ، خمسة عشر ذراعاً ، بسبب

إصرار قوم نوح على فنون المعاصي ، ومبالغتهم في تكذيبه عليه السلام وما أوحي إليه من الأحكام ، التي من جملتها أحوال الحاقة ، {حملناكم} أي : في أصلاب آبائكم ، محمولين {في الجارية} ؛ في سفينة نوح عليه السلام ، والمراد : حملهم فيها أيام الطوفان ، فالجار متعلق بمحذوف حال ، لا صلة لحملنا ، أي : رفعناكم فوق الماء ، حال كونكم محمولين في السفينة بأمرنا وحفظنا. وفيه تنبيه على أنَّ مدار

حفظهم محض عصمته تعالى ، وإنما السفينة سبب صوري.

{لِنجعلَها} أي : الفعلة التي هي عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين {لكم تذكرةً} ؛ عِبرة ودلالة على كمال قدرته تعالى وحكمته ، وقوة قهره ، وسعة رحمته {وتَعِيَها} أي : تحفظها. والوعي : أن تحفظ الشيء في نفسك ، والإيعاء : أن تحفظه في غيرك ، {أُذنٌ واعيةٌ} أي : أُذن مِن شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه ، بتذكيره وإشاعته والتفكُّر فيه ، ولا تضيعة بترك العمل به. والتنكير لدلالة قلتها. قال قتادة : الأذن الواعية هي التي عقلت عن الله ، وانتفعت بما سمعت. وعن عليّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سألتُ الله تعالى أن يجعلها أذنَك يا علي " قال : فما سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ونسيته قط.

(١٤٣/٨)

الإشارة : وجاء فرعون النفس ، ومَن تقدمه من شواغل الدنيا ، ووساوس الشيطان ، أو مَن قِبَلَهُ من هامان الهوى ، وقارون الحظوظ ، والمؤتفكات : القلوب المُنَكَّسَةِ عن قبول الحق ، أتت بالخاطئة ، وهي الإصرار على الوقوف مع العوائد والحظوظ ، فعَصَوا رسولَ ربهم ، وهو مَن يدعوهم إلى الله ، بالخروج عن عوائدهم ، فأخذهم بالهلاك ، والبُعد والطرد عن ساحة الحضرة ، أخذةً رابية زائدة على قُبح فعلهم ، لتأبُّدهم في غمِّ الحجاب. إنّا لما طغا الماء ، وهو طوفان حب الدنيا ، عَمَّ الناسَ وأغرقهم في بحر الهوى ، حملناكم ـ يا معشر أهل النسبة ، الذين أجابوا الداعي ، ودخلوا في حصن تربيته في سفينة النجاة ، ليَعْتبر بكم مَن تقدّم عنكم ومَن تأخر ، أو : لمّا طغى الماء الغيبي وظهر ، وانطبق بحر الأحدية عليكم ، حملناكم في سفينة الشريعة ؛ لئلا تصطلموا ، أو : حملناكم في سفينة الأفكار الجارية في بحار الملكوت وأسرار الجبروت ، لنجلعها لكم تذكرة وترقية ، وتعيها أُذن واعية راسخة في علم الربوبية ، فتدونَها في الكتب ؛ لينتفع بها مَن يروم العوم في تلك البحار ، وهذا شأن مَن غنَّى بتلك الأسرار ، كالششتري وغيره ، أو ألَّف فيها كابن عطاء الله وأمثاله ، نفع الله ببركاتهم.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٢٢
يقول الحق جلّ جلاله : {فإذا نُفخ في الصُّور نفخةٌ واحدةٌ} ، وهي النفخة الأولى ، وتموت عندها الخلائق ، والثانية يحيون عندها ، {وحُمِلتِ الأرضُ والجبالُ} أي : قلعت
١٢٣
ورفعت عن أماكنها ، بمجرد القدرة الإلهية ، أو بتوسُّط الزلزلة ، أو الريح العاصفة ، {فدُكَّتا دَكَّةً واحدةً} أي : دقّتا وكسرتا ، أي : ضُرب بعضها ببعض حتى تندق وترجع كثيباً مهيلاً وهباءً منثوراً ، {فيومئذٍ} ، فحينئذ {وقعت الواقعةُ} أي : قامت القيامة بعدها ، {وانشقتِ السماءُ} أي : فُتحت أبواباً لنزول الملائكة ، {فهي} أي : السماء {يومئذٍ واهيةٌ} ؛ ضعيفة مسترخية ، كالصوف أو القطن ، بعدها كانت مُحْكَمة ، {والمَلَكُ} أي : جنس المَلك ، وهو بمعنى الجمع ، فهو أعمّ من الملائكة ، {على أرجائها} ؛ جوانبها ، جمع رَجاً ، مقصور ، أي : تنشق السماءِ ، التي هي مسكنهم ، فيلتجئون إلى أكنافها وأطرافها ، {ويحملُ عرشَ ربك فوقهم} أي : فوق الملَك الذين هم على الأرجاء ، {يومئذٍ ثمانيةٌ} من الملائكة ، واليوم تحمله أربعة ، وزيدت أربعة أخرى يوم القيامة إمداداً لتلك الأربعة.
رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " هم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة قوّاهم الله تعالى بأربعة أخرى " ، وقال ابن عباس : هي ثمانية صفوف من الملائكة ، لا يعلم أحدٌ عِدتهم. وقال ابن زيدٍ : هم ثمانية أملاك ، على هيئة الوعول. الوَعِلَ : تيسُ الجبل ، وقيل : على هيئة الناس ، أرجلهم تحت الأرض السابعة ، وكواهلهم فوق السماء السابعة ، والعرش فوق رؤوسهم ، وهم مطرقون. وفي بعض الأخبار : أنَّ الأربعة التي تحمل العرش اليوم ؛ أحدهم على صورة الإنسان ، يطلب الرزق للأرض ، والآخر على صورة الثور ، يطلب الرزق للبهائم ، والآخر على صورة النسر ، يطلب الرزق للطيور ، والآخر على صورة الأسد ، يطلب الرزق للوحوش ، وقيل : المراد بالآية : تمثيل لعظمة الله تعالى بما يُشاهَد من أحوال السلاطين ، يوم خروجهم على الناس للقضاء العام ، لكونها أقصى ما يتصور من العظمة والجلال ، وإلاّ فشؤونه تعالى أجلَّ من كل ما يُحيط به فلك العبارة والإشارة.
}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٢٣
يومئذٍ تُعرضون} للسؤال والحساب ، شبّه ذلك بعرض السلطان الجيشَ ؛ ليعرف أحواله ، رُوي " أن في

القيامة ثلاث عَرْضَاتٍ ، فأمّا عَرْضَتَان : فاعتذار واحتجاج ، وأما الثالثة : ففيها تُنشر الكتب ، فيأخذ الفائز كتابه بيمينه ، والهالك بشماله " ، وهذا وإن كان بعد النفحة الثانية لكن لمّا كان اليوم اسماً لزمان متسع يقع فيه النفحتان ، والصعقة والنشور والحساب ، وإدخال أهل الجنةِ الجنةَ ، وأهل النارِ النارَ ، صحّ جعله ظرفاً للكل ، وظاهر نظم الآية أنَّ نشر الموتى من القبور لا يكون إلاَّ بعد دك الأرض ، وتسيير الجبال ، فلا يقع النشر إلاّ على الأرض المستوية ، لا ترى فيها عِوجاً ولا أمتاً ، وأمّا انشقاق السماء فمؤخّر ، يكون . والله أعلم . والناس في الموقف على ما في بعض أخبار الآخرة.

١٢٤

ثم قال تعالى : {لا تخفى منكم خافيةٌ} أي : سريرةٌ ولا حالٌ كانت تخفى في الدنيا. والجملة : حال من ضمير " تُعرضون " أي : تُعرضون غير خافٍ عليه تعالى السرائر ، وقرأ أهل الكوفة غير عاصم بالياء ؛ لأن تأنيثها مجازي.

الإشارة : فإذا نُفخ في صور القلب الغافل ، الخالي من الحياة الأبدية ، نفخة واحدة ، من همّة شيخ كامل ، إما بوارد شوق مُقلق ، أو خوف مُزعج ، وحُملت أرض بشريته ، وجبال عقله ، فدُكتا دكةً واحدة ، فغاب حس البشرية وانخنس ، وغاب نور العقل عند سطوع أنوار شمس العرفان ، فيومئذ وقعت الواقعة ، أي : ظهرت الحقيقة العيانية ، وبدلت الأرض غير الأرض ، والسموات ، فصار الجميع نوراً ملكوتياً ، أو سرًّا جبروتيًّا ، وانشقت سماء الأرواح ، فظهرت أسرار المعاني خلف رداء الأواني ، فهي . أي : الأواني الحسية . يومئذ واهية ضعيفة متلاشية ، لا وجود لها من ذاتها ، والمَلك ، اي : الواردات الإلهية ، والخواطر الملكية ، على أرجائها : على أطراف سماء الأرواح ، يُلهمها العلوم اللدنية ، والأعمال الصافية ، ويحمل عرش ربك ، أي : عرش معرفة الرب ، وهو القلب ، فهو سرير سلطان المعرفة ، ومحل التجليات الذاتية ، ثمانية : الصبر ، والشكر ، والورع ، والزهد ، والتوكل ، والتسليم ، والمحبة ، والمراقبة ، وهو عرش المعرفة ، يومئذ تُعرض الخواطر على القلب ، لا يخفى عليه منها شيء ، فيقبل الحسَن ، ويرفع القبيح. والله تعالى أعلم. وذكر في الحاشية الفاسية ما فوق العرش الحسي ، وما تحت الأرض السفلى ، فقال ما نصُّه : وفي حديث " فوق السماء السابعة بحرٌ ، بين أعلاه وأسفله ، كما بين السماء والسماء ، وفوفق ذلك ثمانية أَوْعَالٍ ، بين أظلافهِنَّ ورُكبهنَّ ما بين سماءٍ إلى سماء ، وفوق ظهورهن العرش ، بين أسفله وأعلاه ما بين سماء إلى السماء ، والله تبارك وتعالى فوق ذلك " ، وفي حديث آخر : " عدد الأرضين سبع ، بين كل واحدة والآخرى خمسمائة سنة ، والذي نفس محمد بيده ؛ لو أنكم دلّيتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله " ، ثم قرأ صلى الله عليه وسلم : {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} [الحديد : ٣]. هـ.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٢٣

فتحصل من حديث سيد العارفين ، وقدوة الواصلين ، أنَّ الحق ـ جلّ جلاله ـ محيط بكل شيء ، فأسرار ذاته العلية أحاطت بالوجود بأسره. فما فوق العرش هو عين ما تحت الثرى ، فلو صعد أحد إلى ما فوق العرش لوجد الله ، ولو هبط إلى ما تحت الأرض السفلى لوجد الله ؛ إذ عظمته أحاطته بكل شيء ، ومحت وجود كل شيء. واعلم أن الحق جلّ جلاله منفرد بالوجود ، لا شيء معه ، غير أنَّ عظمة الذات الخارجة عن دائرة قبضة

١٢٥

التكوين باقية على أصلها من اللطافة والكنزية ، والعظمةَ الداخلة في القبضة حين دخلها التكثيف ، وتحسّست ليقع بها التجلِّي ، استترت وتردّت برداء الكبرياء ، فظهر فيها الضدان ؛ العبودية والربوبية ، والحس والمعنى ، والقدرة والحكمة ، فاستترت الربوبية برداء الكبرياء ، فكان من اصطلاح الوحي التنزيلي أن يُخبر عن العظمة الأصلية ، وينعت أوصافها ، ويسكت عن العظمة الفرعية ، التي وقع بها التجلِّي ، ستراً لسر الربوبية أن يظهر ، إذ لو ظهر لفسد نظام عالم الحكمة ، ولذلك قال سهل رضي الله عنه : للألوهية سر لو انكشف لبطلت النبوات ، وللنبوات سر لو انكشف لبطل العِلم ، وللعلم سر لو انكشف لبطلت الأحكام. هـ.

فَسِرُّ الألوهية هو قيامها بالأشياء ، وظهورها بها ، بل لا وجود للأشياء معها ، فلو انكشف هذا السر لجميع الناس لاستغنوا عن العبادة والعبودية ، ولبطلت أحكام النبوة ، إذ النبوة إنما هي لبيان العبادة وآداب العبودية ، وعند ظهور هذا السر يقع الاستغناء عن تلقي الوحي. وأيضاً ، ليست القلوب كلها تقدر على حمل هذا السر ، فلو تجلّى للقلوب الضعيفة لوقع لها الدهش والحيرة ، وربما أدّاها إلى التلف. وسر النبوات هو سدل الحجاب بين الله وعباده ، حتى يفتقر الناس إلى تلقي العلم بواسطة النبوة ، فلو انكشف هذا الحجاب لوقع الاستغناء عن النبوة ، لتلقِّيه حينئذ كشفاً بدونها من غير تكلُّف ، وسر العلم هو إبهام العواقب ، فلو انكشف هذا السر وعرف كل واحد مآله للجنة أو النار ؛ لبطلت الأحكام ؛ إذ مَن عرف أنه للجنة قطعاً استغنى عن العبادة ، ومَن عرف أنه للنار قطعاً انهمك في المعاصي ، فأخفى الله هذا السر ليعمل كل واحد على الرجاء والخوف. والله تعالى أعلم.

(١٤٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٢٣

يقول الحق جلّ جلاله : {فأمّا مَن أُوتي كتابه بيمينه فيقول} تبجُّحاً وابتهاجاً وسروراً ، لِما يرى فيه من الخيرات خطاباً لجماعته : {هاؤُمُ} : اسم فعل ، بمعنى خُذوا ،

وفيه لغات ، أجودهن المطابقة تقول : هاء يا رجل ، وهاءِ يا امرأة ، بهمزة مكسورة من غير ياء ، وهاؤما يا رجلان وامرأتان ، وهاؤم يا رجال وهاؤنّ يا نساء. {اقرؤوا كتابيَهْ} ، والأصل : هاؤم كتابي اقرأوا كتابيهْ ، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ، والعامل في "كتابيه " اقرأوا ، عند البصريين ؛ لأنهم يُعملون الأقرب ، والهاء في "كتابيه " ، و " حسابيه " ، و " ماليه " ، و " سلطانيه " للسكت ، وحقها أن تثبت في الوقف ، وتسقط في الوصل ، وقد استُحبّ إيثار الوقف إيثاراً لثباتها ؛ لثبوتها في المصحف. {إِني ظننتُ أني ملاقٍ حسابيهْ} أي : علمت وتيقنت أني سألقى حسابي ، ولعل التعبير بالظن للإشعار بأنه لا يقدح في الاعتقاد ما يهجس في النفس من الخطرات التي لا تنفك عنها العلوم النظرية. قاله أبو السعود ، وقد تقدّم سره في البقرة.

{فهو في عيشةٍ راضيةٍ} أي : ذات رضا يرضى بها صاحبها. جعل الفعل لها مجازاً ، وهو لصاحبها ؛ لكونها صافية من الشوائب ، دائمة ، مقرونة بالتعظيم ، {في جنةٍ عاليةٍ} ؛ مرتفعة المكان ؛ لأنها في السماء السابعة ، أو : رفيعة الدرجات ، أو المباني والأشجار والقصور ، وهو خبر بعد خبر ، {قُطوفها دانيةٌ} ؛ ثمارها قريبة من مريدها ، ينالها القاعد والمضطجع كالقائم. قال ابن عرفة : هذه الجملة احتراس ؛ لأنه تعالى وصفها بالعلو ، وشأن المكان العالي أن تكون ثماره كذلك ، فأزال ذلك بأنها مع علو ثمارها قريبة التناول ، سهلة المأخذ. هـ. والقطوف جمع قطف ، وهو ما يحثي بسرعة.

(١٤٨/٨)

ويقال لهم : {كُلُوا واشربوا هنيئاً} أي : أكلاً وشُرباً هنيئاً ، لا مكروه فيهما ولا أذىً ، أو : هنئتم هنيئاً {بما أسلفتم} أي : بمقابلة ما قدّمتم من الأعمال الصالحة ، {في الأيام الخاليةِ} أي : الماضية في الدنيا ، وعن مجاهد : أيام الصيام ، وقال ابن عباس : هي في الصائمين ، أي : كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله تعالى.

رُوي أن الله تعالى يقول : " يا أوليائي ، طالما نظرتُ إليكم في الدنيا ، وقد قلَصَتْ شفاهكم عن الأشربة ، وغارت أعينكم ، وخمصت بطونكم ، فكونوا اليوم في نعيمكم ، وكلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية " ولا تقصر الآية على الصوم ، بل كل ما أسلف الإنسانُ من الأعمال الصالحة داخل في الآية ، بدليل قوله تعالى : {كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور : ١٩ والمراسلات : ٤٣].

وهذه الآية وأمثالها هزّت قلوب المجتهدين ، حتى عمَّروا أوقاتهم ، وحافظوا على أنفاسهم ؛ لئلا تضيع

، وكان عمر رضي الله عنه يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبُوا ، فإنه أهون ، أو أيسر لحسابكم ، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا وتجهّزوا للعرض الأكبر ،

١٢٧

يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية. هـ.

{وأمَّا مَن أُوتي كتابه بشِماله} ، ورأى ما فيه من قبائح الأعمال ، {فيقول يا ليتني لم أُوتَ كتابيهْ} أي : لم أُعطَ كتابي ، {ولم أَدْرِ ما حسابيهْ} أي : يا ليتني لم أعلم حسابي ، ولم أقف عليه ، لِمَا شاهد من سوء العاقبة ، {يا ليتها} : يا ليت الموتة التي متُّها {كانت القاضيةَ} أي : القاطعة لأمري ، ولم أُبعث بعدها ، ولم ألقَ ما لقيت ، فضمير " ليتها " للموتة ، ويجوز أن يكون لِما شاهده من الحالة ، أي : يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قُضيت عليَّ ؛ لأنه وجدها أَمَرّ من الموت ، فتمناه عندها ، وقد جوّز أن يكون للحياة الدنيا ، أي : يا ليت الحياة الدنيا كانت الموتة ولم أُخْلَق حيًّا. {ما أغنى عن مالِيَهْ} أي : ما نفعني ما جمعتُ من الأموال شيئاً ، فـ " ما " نافية ، أو استفهامية للإنكار ، أي : أيُّ شيء أغنى عني ما كان لي من اليسار ؟ {هلك عني سلطانيهْ} أي : مُلكي وعزي ، وتسلُّطي على الناس ، وبقيتُ فقيراً ذليلاً ، أو : حُجتي التي كنت أحتجّ بها في الدنيا.

فيقول الله تعالى لخزنة جهنّم : {خُذوه فغُلُّوه} أي : فشُدُّوه بالأغلال ، بأن تجمع يده إلى عنقه ، {ثم الجحيم صَلُّوه} أي : أدخلوه ، أي : لا تصلّوه إلاّ للجحيم ، وهي النار العظيمة ؛ ليكون الجزاء على وفق المعصية ، حيث كان يتعاظم على الناس ، {ثم في سلسلة ذَرْعُها} أي : طُولها {سبعون ذراعاً} بذراع الملَك ، وقيل : لا يعرف قدرها إلاّ الله ، {فاسْلُكُوه} أي : فأدْخِلوه فيها ، وقيل : تدخل من دبره وتخرج من منخريه ، وقيل : تدخل من قُبله وتخرج من دبره.

}

(١٤٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٢٦

أِنه كان لا يُؤمن بالله العظيم} ، تعليل لاستحقاق العذاب ، ووصفه تعالى بالعظيم ؛ للإيذان بأنه المستحق للعظمة وحده ، فمَن نَسَبَها لنفسه استحقّ أعظم العقوبات ، {ولا يَحُضُّ على طعام المسكين} أي : لا يحث على بذل طعام غيره ، فضلاً عن أن يبذل ماله ، وقيل : ذكر الحض للتنبيه على أنَّ تارك الحضّ إذا كان بهذه المنزلة ، فما ظنك بتاركه ؟ وفيه دلالة على أنَّ الكفار مخاطبون بالفروع ، وأنَّ أقبح العقائد الكفر ، وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب ، وفيه أيضاً إشارة إلى أنه كان لا يؤمن بالبعث ، لأنَّ إطعام المساكين إنما يرجى جزاؤه يوم القيامة ، فإذا لم يؤمن بالبعث لم يكن له ما

يحمله على إطعامهم ، وفيه دليل على عِظم جُرم حرمان المساكين ؛ لأنّه عطفه على الكفر ، وجعله دليلاً عليه وقرينَه.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يحضّ امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، ويقول : خلَعْنا نصفَ السلسلة بالإيمان ، فلنخلع نصفها بهذا ، أي : الصدقة.

قال النسفي : وهذه الآية ناطقة بأنَّ المؤمنين يُرحمون جميعاً ، والكافرون لا يُرحمون ؛ لأنه تعالى قسّم الخلق صنفين ، فجعل صنفاً منهم أهل اليمين ، ووصفهم بالإيمان بقوله : {إني ظننتُ إني ملاقٍ حسابيه} ، وصنفاً منهم أهل الشمال ، ووصفهم

بالكفر بقوله : {إنه كان لا يؤمن بالله العظيم... } الخ ، وجاز أنَّ الذي يُعاقَب من المؤمنين إنما يعاقَب قبل أن يؤتَى كتابه بيمينه. هـ.

قال ابن عطية : والذين يُعطون كتابهم بأيْمانهم هم المخلَّدون في الجنة من أهل الإيمان ، واختلف العلماء في الفرقة التي ينفذ فيها الوعيد من أهل المعاصي ، متى تأخذ كتبها ؟ فقال بعضهم : الأظهر أنها تأخذها مع الناس ، وذلك يُؤنسُها مدة العذاب ، قال الحسن : فإذا أعطي كتابه بيمينه لم يقرأه حتى يأذن الله له ، فإذا أَذِنَ له قال : {هاؤم اقرأوا كتابيه} ، وقال آخرون : الأظهر أنها إذا خرجوا من النار ، والإيمان يؤنسُهم وقت العذاب ، قال : وهذا هو ظاهر الآية ؛ لأنَّ مَن يسير إلى النار كيف يقول : {هاؤم اقرأوا كتابيه}. ثم قال : والمخلَّدون في النار من أهل الكفر هم الذين يُؤتون كتابهم بشمالهم ، وقال في آية الانشقاق : مَن ينفذ فيه الوعيد من العصاة ، يُعطى كتابه عند خروجه من النار ، وقد جَوّز قومٌ أن يُعطاه أولاً قبل دخوله النار ، وهذه الآية ترد عليه. هـ. يعني قوله : {وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً} [الانشقاق : ٩].

(١٥٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٢٦

قلت : والذي يظهر من الأحاديث التي في أخبار البعث : أنَّ الصحف تُنشر دفعة واحدة للطائع والعاصي ، والمؤمن والكافر ، فالمؤمن يأخذ كتابه بيمينه ، فيُسرّ ، فإن كان كاملاً فسُروره ظاهر ، وإن كان عاصياً فرح أن مآله للجنة ، ويجوز أن يُبهم الأمر عليه حينئذ ، فيفرح لظنه النجاة ، فإن مرَّ على الصراط زلّت قدمه لمكان معاصيه ، فينفذ فيه الوعيد ، ثم يخرج ، وأمّا بعد خروجه من النار وحسابه حينئذٍ فبعيد جدًّا ، لم يرد به نص.

قال الشيخ ابن أبي جمرة رضي الله عنه : عادته تعالى في التنزيل أن يذكر الكامل في الطاعة ، والكامل

في العصيان . أي : الكفر. ويسكت عن المخلط ، فدلَّ على أنه يرى من هذا ويرى من هذا. هـ. بالمعنى. فالذي يقول : {هاؤم اقرأوا كتابيه} هو الكامل ، أو الذي حوسب وعُفي عنه ، وأمّا العاصي الذي ينفذ فيه الوعيد ، فلعله يسكت. والله تعالى أعلم ، وسَتَرِد وتعلم.

ثم قال تعالى : {فليس له اليومَ هاهنا حميمٌ} أي : قريب يحميه ويدفع عنه ؛ لأنَّ أولياءه الذين يتحامونه يفرُّون منه ، {ولا طعامٌ إلاَّ من غِسْلِينٍ} وهو غسالة أهل النار وصديدُهم ، فِعْلِين ، من الغَسْلِ ، والنون زائدة ، والمراد : ما يسيل من جلودهم من الصديد والدم. وقال ابن عزيز : غِسْلين : غسالة أجواف أهل النار ، وكل جرح أو دبر غسلته ، فخرج منه شيء ، فهو غِسلين. هـ. {لا يأكُله إلاّ الخاطئون} ؛ الكافرون ، أصحاب الخطايا العظام. من خَطِىء الرجل : إذا تعمَّد الذنب. أو من الخطأ ، المقابل للصواب ، وهو هنا : مَن أخطأ طريقَ التوحيد ، وعن ابن عباس : هم المشركون. الإشارة : أهل اليمين مَن سبق لهم اليُمن في الأزل ، وأهل الشمال مَن سبق لهم الشؤم كذلك. وفي الحديث : " إن الله قبض قبضة فقال : هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي ، ثم

قبض أخرى ، وقال : هؤلاء إلى النار ولا أبالي " أي : لا أُبالي بما يعملون. وقال القشيري : في إشارة الآية ما نصه : يشير إلى قوله عليه السلام في أثناء حديث طويل : " قبض قبضة ، فإذا فيها آدم وبنوه ، فمسح بيده اليُمنى الجمالية اللطيفة على ظهره الأيمن الجمالي ، فأخرج منها ذراريه ، كالقبضة البيضاء ، باليد الجمالية أصحاب اليمين ، ثم مسح بيده اليسى الجلالية القهرية ، على ظهره الأيسر الجلالي ، فأخرج منه ذريته كالحمصة السوداء ، باليد الجلالية ، أصحاب الشمال " أول ما في معناه. وقوله : (كتابيه) يُشير إلى الكتاب الاستعدادي ، المكتوب في الأزل ، على لوح جبين كل واحد ، بما يعمل إلى الأبد. هـ. فالكتاب الذي يُعطى يوم القيامة نسخة مما سُطِّر على لوح الجبين ، الموافق للأزل ، فحكمته قيام الحُجة في الظاهر ، فمَنْ سبق له سهم العناية تبجّح به ، ويقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ، إني تحققت في الدنيا أني ملاقٍ حسابيهْ. وعبَّر بالظن ستراً لأهل الظنون والخواطر ، وتوسعة عليهم ، فهم في الدارين في عيشة راضية ، في الدنيا في روح الرضا ونسيم التسليم وجنة العرفان ، وفي الآخرة في مقعد صِدق في جوار الرحمن ، في جنة عالية ، رفيعة القدر حسًّا ومعنىً ، قُطوفها دانية. أمّا جنة المعارف فقطوفها ما يتجتنى من ثمار العلوم ، وفواكه الحِكم ، وتزايد الفهوم ، وأمّا في الآخرة فزيادة الترقي والكشف أبداً سرمداً ، ويُقال لهم : كُلوا من قوت أرواحكم وأشباحكم ، واشربوا من خمرة قلوبكم وأسراركم ، من كأس المحبة ، والاجتباء ، هنيئاً لا كدر فيه ولا تعب ، بما أسلفتم في أيام مجاهدتكم الماضية ، ومَن سبق لهم سهم الشقاء يقول : يا ليته لم يكن شيئاً ، ويتمنى بقاءه في حيز العدم ، ثم يَلقى من أنواع العذاب الجسماني والروحاني ، من البُعد والطرد ما ذكره الحق تعالى في بقية الآية ، نعوذ بالله من سوء القضاء ، ومن السلب بعد العطاء.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٢٦

يقول الحق جلّ جلاله : {فلا أُقسم} أي : أُقسم ، على أن " لا " مزيدة للتأكيد ، كقوله : {فَلاَ وَرَبِكَ} [النساء : ٦٥] أي : احلف {بما تُبصرون} في عالم الشهادة ، {وما لا تُبصرون} مما هو في عالم الغيب ، أو بما تُبصرون من الأرض والسماء ، والأجسام والأجرام ، وما لا تُبصرون من الملائكة والأرواح ، أو : ما تُبصرون من النعم الظاهرة ، وما لا تُبصرون من النِعَم الباطنة. والتحقيق : أنه أقسم بالكل {إِنه} أي : القرآن {لقولُ رسولٍ كريم}

١٣٠

على الله ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، أو جبريل عليه السلام ، أي : يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله عزّ وجل ، {وما هو بقولِ شاعرٍ} كما تزعمون تارة ، {قليلاً ما تؤمنون} أي : إيماناً قليلاً تؤمنون ، {ولا بقول كاهنٍ} كما تزعمون ذلك تارة أخرى ، والكاهن هو الذي يُخبر عن بعض المضمرات ، فيُصيب بعضها ويخطىء أكثرها ، ويزعم أنَّ الجن تُخبره بذلك ، ويدخل فيه : مَن يُخبر عن المغيبات من جهة النجوم أو الحساب ، {قليلاً ما تذكّرون} ، والقلة في معنى العدم ، يقال : هذه أرض قلما تُنبت ؛ أي : لا تنبت أصلاً ، والمعنى : لا تؤمنون ولا تذكرون ألبتّة.

وقال ابن عطية : يحتمل أن تكون (ما) نافية ؛ فينتفي إيمانهم ألبتة ، ويحتمل أن تكون مصدرية ، فيتصف إيمانهم بالقلة ، ويكون إيماناً لغوياً ؛ لأنهم صدّقوا بأشياء يسيرة ، لا تغني شيئاً. هـ. فتحصل في (ما) ثلاثة أقوال ؛ المشهور : أنها زائدة لتأكيد القلة. قال أبو السعود : قيل : ذكر الإيمان مع نفي الشاعرية ؛ لأنّ عدم مشابهة القرآن للشِعر أمر بيِّن ، لا يُنكره إلاَّ معاند ، بخلاف مباينته للكهانة ؛ فإنه يتوقف على تذكُّر أحواله صلى الله عليه وسلم ومعاني القرآن المنافية لطريقة الكهنة ، ومعاني أقوالهم ، وأنت خبير بأنَّ ذلك أيضاً مما لا يتوقف على تأمُّل قطعاً. وقُرىء بالياء فيهما. هـ.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٣٠

تنزيلٌ من رَبِّ العالمين} أي : هو تنزيل ، وهو تقرير لكنه قول رسول كريم ، نزل عليه من رب العالمين ، أنزله على لسان جبريل صلى الله عليه وسلم ، {ولو تقوَّل علينا} محمد {بعضَ الأقاويل} أي : ولو ادّعى علينا شيئاً لم نَقُلْهُ افتراء علينا. سَمَّى الافتراء تقوُّلاً ؛ لأنه قول متكلّف ، والأقوال المفتراة أقاويل

، تحقيراً لها ، كأنها جمع أفعولة ، من القوْل ، كالأضاحيك ، {لأخذنا منه باليمين} أي : لقتلناه صبراً ، كما تفعل الملوك بمَن يَكذب عليهم ، مُعاجلةً بالسخط والانتقام ، فصوّر قتل الصبر بصورته ؛ ليكون أهْول ، وهو أن يأخذ بيده ، وتصرب رقبته ، وخصَّ اليمين ؛ لأنَّ القتَّال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه في جيده ، وهو أن يكفحه بالسيف . وهو أشد على المصبور ؛ لنظره إلى السيف . أخذه بيمينه ، ومعنى {لأخذنا منه باليمين} : لأخذنا بيمينه ، {ثم لقطعنا منه الوتينَ} أي : لقطعنا وتينه ، وهو نياط القلب ، إذا قطع مات صاحبه. {فما منكم} ، الخطاب للناس ، أو المسلمين ، {مِن أحدٍ} " من " زائدة ، {عنه} أي : عن القتل أو المقتول ، {حاجزين} ؛ دافعين ، وجمعَه ، وإن كان وصفاً لـ " أحد " ؛ لأنه في معنى الجماعة ؛ لأنَّ النكرة بعد النفي تعم.

{وإِنه} أي : القرآن {لتذكرةٌ} ؛ لَعِظةٌ {للمتقين} لأنهم المنتفعون به ، {وإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُكَذِّبِينَ} فنُجازيهم على تكذيبهم ، {وإِنه لحسرةٌ على الكافرين} عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين له ، {وإِنه لَحقُّ اليقين} أي : محض اليقين الذي لا يحوم حوله ريب ما ، وحق اليقين فوق عين اليقين على ما يأتي.

{فسَبِّحْ باسم ربك العظيمِ} أي : فَسبِّح بذكر

١٣١

اسمه العظيم ، تنزيهاً عن التقوُّل عليه ، شكراً على ما أوحي إليك ، أي : قل سبحان الله العظيم شكراً لنعمة الوحي والاصطفاء.

الإشارة : أقسم تعالى بذاته المقدسة ، ما وقع به التجلِّي وما لم يقع ، أي : ما ظهر منها في عالَم الشهادة ، وما لم يظهر ، على حقيّة القرآن ، وأنه خرج من حضرة الحق ، إلى الرسول الحق ، ناطقاً بالحق ، على لسان السفير الحق ، متجلِّياً من ذات الحق ، واصلاً من الحق إلى الحق ، مشتملاً على علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، فعلم اليقين : ما أدراك من جهة البرهان ، وعين اليقين : ما أدراك بالكشف والبيان ، وحق اليقين : ما أدراك بالشمول والبيان ، ومثال ذلك تقريباً ، وجود مكة مثلاً ، فمَن لم يرها فقد حصل له بالإخبار علم اليقين ، ومَن رآها ، ولم يدخلها ، فقد حصل له عين اليقين ، ومَن دخلها وعرف أماكنها وأزقتها ، فقد حصل له حق اليقين ، وكذلك شهود الحق تعالى ، فمَن تحقق بوجوده من جهة الدليل فعنده علم اليقين ، ومَن كشف له عن حس الكائنات ، وشاهد أسرار الذات ، لكنه لم يتمكن من دوام شهودها ، فعنده عين اليقين ، ومَن تمكن مِن شهودها ورسخ في المعرفة ، فعنده حق اليقين. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم.

١٣٢

يقول الحق جلّ جلاله : {سأل سائل} ، قرأ نافع والشاميّ بغير همز ، إمّا من السؤال ، على لغة قريش ، فإنهم يُسهّلون الهمز ، أو مِن السّيلان ، ويُؤيده أنه قُرىء " سَال سَيْل " أي : سال وادٍ {بعذابٍ واقعٍ للكافرين} يوم القيامة ، والتعبير بالماضي لتحقُّق وقوعه ، أو في الدنيا ، وهو عذاب يوم بدر ، وقرأ الباقون بالهمز ، من السؤال ، أي : طَلَبَ طالب ، وهو النضر بن الحارث ، حيث قال استهزاءً : {إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَآءِ} [الأنفال : ٣٢] وقيل : أبو جهل ، حيث قال : {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَآءِ} [الشعراء : ١٨٧] ، وقيل : هو الحارث بن النعمان الفهري ، وذلك أنه لمّا بلغه قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في عَلِيّ : " مَن كنتُ مولاه فَعَلِيٌّ مولاه " ، قال : اللهم إن كان ما يقول محمد حقًّا فأَمْطِر علينا حجارةً من السماء ، فما لبث حتى رماه الله بحَجَر ، فوقع على دماغه ، فخرج من أسفله ، فهلك من ساعته.

١٣٣

وقوله تعالى : {بعذاب} إذا كان " سال " من السيلان ، فالباء على بابها ، أي : سال واد بعذاب للكافرين ، وإذا كان من السؤال فالباء بمعنى " عن " كقوله تعالى : {فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً} [الفرقان : ٥٩] أي : سأل عن عذاب ، أو ضَمَّن " سأل " معنى دعا ، فعدّى تعديته ، مِن قولك : دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه ، ومنه قوله تعالى : {يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ} [الدخان : ٥٥] أي : دعا داع بعذابٍ واقع لا محالة ، إما في الدنيا أو الآخرة ، و " للكافرين " : صفة ثانية لعذاب ، أي : بعذاب واقع حاصل للكافرين ، أو متعلق بسَأل ، أي : دعا للكافرين بعذاب واقع ، {ليس له} أي : لذلك العذاب {دافع} ؛ راد {من الله} : متصل بواقع ، أي : واقع من عند الله ، أو بدافع ، أي : ليس له دافع من جهته تعالى إذا جاء وقته ، والجملة : صفة أخرى لعذاب ، أو حال منه أو استئناف. {ذي المعارج} أي : ذي المصاعد ، التي تصعد فيها الملائكة بالأوامر والنواهي ، وهي السموات المترتبة بعضها فوق بعض ، أو : ذي الفواضل العالية ، أو معالي الدرجات ، أو الدرجات التي يصعد فيها الكلم الطيب والعمل الصالح ، أو : يرقى فيها المؤمنون في سلوكهم.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٣٣

تعرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ} أي : جبريل عليه السلام ، أُفرد بالذكر لتميُّزه وفضله ، أو الروح : خلقٌ من الملائكة هم حفظة على الملائكة ، كما أنَّ الملائكة حفظةٌ علينا ، أو : أرواح المؤمنين عند الموت ، فإنها تعرج إلى سدرة المنتهى ، فتُحاسَب ، ثم تدخل الجنة لترى مقعدها ، ثم ترجع للسؤال في القبر ، وقوله تعالى : {إليه} أي : إلى عرشه ومهبط أمره {في يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنةٍ} مما يعده الناس ، وهو بيان لغاية ارتفاع تلك المعارج وبُعد مداها ، على منهاج التمثيل والتخييل. والمعنى : أنها من الارتفاع بحيث لو قدر قطعها في زمان ؛ لكان ذلك الزمان مقدار خمسين ألف سنة من سِنيِّ الدنيا ، وقيل : معناه : تعرج الملائكة والروح إلى عرشه تعالى في كل يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، أي : يقطعون في يوم ما يقطعه الإنسان في خمسين ألف سنة.

وقد تقدّم الجواب في سورة السجدة عن المعارضة بين ما هنا وبين قوله هناك : {كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ} [السجدة : ٥] ، وحاصله : أنَّ الحق تعالى موجود في كل زمان ومكان ، فلا يخلو منه مكان ولا زمان ، فحيث علّق العروج بتدبير الأمر قرَّب المسافة ، وحيث علّقه بذاته ، بحيث جعل العروج إليها ، بعَّدها ؛ تنبيهاً على علو شأنه وارتفاع عظمته. وقيل : هو من [صلة] قوله : {واقع} أي : يقع ذلك العذاب في يوم طويل ، مقداره خمسون ألف سنة ، وهو يوم القيامة ، فإمّا أن يكون استطالته كناية عن شدته على الكفار ، أو لأنه يطول حقيقة ، فقد قيل : فيه خمسون موطناً ، كل موطن ألف سنة ، وما قدْر ذلك على المؤمن إلاَّ كما بين الظهر والعصر أو أقل ، على قدر التخفيف اليوم ، وفي حديث أبي سعيد الخدري : قيل : يا رسول الله ، ما أطول هذا اليوم ؟ فقال عليه السلام :

١٣٤

" إنه ليخف على المؤمن ، حتى يكون أخف من صلاة مكتوبة يُصلّيها في الدنيا ". وقال عبد الحق في العاقبة : إنَّ طول اليوم ذلك المقدار ، ولكن مِن الناس مَن يطول قيامه وحبسه إلى آخر اليوم ، ومنهم مَن ينفصل في مقدار يوم من أيام الدنيا ، وفي ساعة من ساعته ، وفي أقل من ذلك ، يكون رائحاً في ظل كسبه ، وعرش ربه ، ومنهم مَن يؤمر به للجنة من غير حساب ولا عذاب ، كما أنَّ منهم مَن يُؤمر به إلى النار في أول الأمر ، من غير وقوف ولا انتظار ، أو بعد يسير من ذلك. هـ. وقال القشيري ما معناه : يحاسب الخلق في يوم قصير ووقت يسير ، ما لو كان الناس يشتغلون به لكان ذلك خمسين ألف سنة ، والله يُجري ذلك ويُمْضِيه في يوم واحد. هـ. بعيد.

}

فاصبرْ} يا محمد {صبراً جميلاً} ، وهو متعلق بـ " سأل سائل " لأنَّ استعجال النضر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب بالوحي ، وكان ذلك مما يؤذي الرسولَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأُمر بالصبر عليه. والصبر الجميل : ألاَّ يصحبه جزع ولا شكوى. قال بعضهم : الأمر بالصبر الجميل مُحْكم في كل حال ، فلا نسخ فيه ، وقيل : نسخ بالقتال. {إنهم} أي : الكفار {يَرَوْنه} أي : العذاب ، أو يوم القيامة {بعيداً} ؛ مستحيلاً ، {ونراه قريباً} ؛ كائناً لا محالة ، فالمراد بالبعيد : البعيد من الإمكان ، وبالقريب : القريب منه ، أي : ونعلمه هيّناً في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذّر. ثم بيَّن وقته بقوله : {يومَ تكونُ السماءُ كالمُهْل} ، فهو متعلق بـ " قريباً " أي : يمكن ويقع في ذلك اليوم. قال أبو السعود : ولعل الأقرب أن قوله تعالى : {سأل سائل} حكاية لسؤالهم المعهود ، على طريقة قوله تعالى : {يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ} [الأعراف : ١٨٧والنازعات : ٤٢] وقوله تعالى : {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} [يونس : ٤٨] ونحوه ، إذ هو المعهود بالوقوع على الكافرين ، لا ما دعا به النضر أو أبو جهل أو الفهري ، فالسؤال بمعناه ، والباء بمعنى " عن " ، وقوله تعالى : {ليس له دافع ، من الله} : استئناف مسوق لبيان وقوع المسؤول عنه لا محالة ، وقوله تعالى : {فاصبرْ صبراً جميلا} مترتب عليه ، أي : فاصبر فإنه يقع لا محالة. وقوله تعالى : {إنهم يرونه بعيداً...} الخ تعليل للأمر بالصبر. وقوله تعالى : {يوم تكون} : متعلق بـ " ليس له دافع " أو : بما يدل عليه ، أي : يقع يوم تكون السماء كالمُهل ، وهو ما أذيب على مَهَل من النحاس والقار ، وقيل : كدرديِّ الزيت. هـ. {وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ} ؛ كالصوف المصبوغ ألواناً ؛ لأن الجبال {جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ} [فاطر : ٢٧] ، فإذا بُسّت ، وطُيِّرَتْ في الجو أشبهت العهن المنفوش
إذا أطارته الريح ، {ولا يَسألُ حميمٌ حميماً} أي : لا يسأل قريب عن قريبه لاشتغاله بنفسه ، ومَن قرأ بضم الياء فمعناه : لا يُسأل عنه ، بل كلّ واحد يُسألُ عن نفسه ، فلا يُطالب أحد بذنب أحد.

١٣٥

{يُبَصَّرُونَهم} أي : يبصر الأحماءُ قرباءهم ، فلا يخفون عنهم ، وما يمنعهم من السؤال إلا اشتغالهم بحال أنفسهم. والجملة صفة لحميم ، أي : حميماً مبصَّرين ، أو : استئناف بياني ، كأنه قيل : لعله لا يبصّر به ، فقيل : يبصّرونهم ولكن لتشاغلهم لم يتمكنوا من التساؤل عنهم ، وإنما جمع الضميران ، وهما للحميمين لعموم الحميم ، ولأن فعيلاً يقع على الجمع. {يَودُّ المجرمُ} أي : يتمنى الكافر ، وقيل : كل مذنب ، {لو يفتدي من عذابِ يومئذٍ} أي : العذاب الذي ابتلي به يومئذ. وقرأ نافع والكسائي بفتح الميم على البناء لإضافته إلى غير متمكّن ، {ببنيهِ وصاحبتهِ} أي : زوجته {وأخيه} ، والجملة استئنافية ، لبيان أنَّ اشتغال كل واحد منهم بنفسه بلغ إلى حيث يتمنى أن يفتدى بأقرب الناس إليه ، و " لو " تمنية ، أو مصدرية ، أي : يود فداء ببنيه.. الخ {وفَصِيلَتِه} أي : عشيرته الأدنين ، التي انفصل عنها ، {التي تُؤويه} أي : تضمه في النسب ، أو عند الشدائد ، {ومَن في الأرض جميعاً} من الخلائقن

يتمنى الافتداء بهم ، {ثم يُنجيه} الافتداء ، وهو عطف على " يفتدي " أي : يود لوم يفتدي ثم لو ينجيه الافتداء ، و " ثم " لاستبعاد الإنجاء ، يعني : يتمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده ، وبذلهم في فداء نفسه ، ثم ينجيه ذلك ، وهيهات.
}

(١٥٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٣٣
كلاَّ} ، ردع للمجرم عن الودادة ، وتصريح بامتناع الافتداء ، {إنها} أي : النار ، المدلول عليها بالعذاب ، أو ضمير مبهم ، ترجم عنه الخبر ، أو ضمير القصّة ، {لَظَى} علم للنار ، منقول من اللظى ـ بمعنى اللهب ، {نزاعة لِلشَّوَى} ؛ خبر بعد خبر ، ومَن نصب فعلى الحال المؤكدة ، أو على الاختصاص للتهويل. والشَّوى : أطراف الإنسان ، كاليدين والرجلين ، أو : جمع شواة ، وهي جلدة الرأس ، تنزعها النارُ نزعاً ، فتفرّقها ، ثم تعود إلى ما كانت. {تَدعو} أي : تجذبُ ، وتخطف ، أو : تدعوهم بأسمائهم : يا كافر يا منافق إليَّ ، وقيل : تدعو المنافقين بلسان فصيح ، ثم تلتقطهم التقاط الحب ، أو : تُهْلِك ، من قولهم : دعاك الله ، أي : أهلكك ، أو : لمّا كان مصيره إليها جُعلت كأنها دعته. وقيل : تدعو زبانيتها ، ومفعول تدعو : {مَنْ أدبرَ} عن الحق {وتولَّى} ؛ أعرض عن الطاعة ، {وجمع} المال {فأوْعى} ؛ جعله في وعاء ، وكَنَزَه ولم يؤدِّ حق الله فيه ، أو تشاغل به عن الدين ، وزهى باقتنائه حرصاً وتأميلاً ، عائذاً بالله من ذلك.
الإشارة : سال إلى قلوب أهل الغفلة والإنكار سايل من بحر الهوى ، بعذاب واقع نازل بقلوبهم من الجزع والهلع والشكوك والخواطر ، أو : سأ سائل عن عذاب واقع لأهل الإنكار ، وهو غم الحجاب ، وسوء الحساب ، ليس له دافع من جهته تعالى ؛ لأنه حكم به على أهل البُعد والإنكار. وهو تعالى ذو المعارج ، أي : ذو المراقي ، تترقى إليه الأرواح والأسرار ، من مقام إلى مقام ، من مقام الإسلام إلى الإيمان ، ومن الإيمان إلى الإحسان ، أو : من عالَمٍ إلى عالَمٍ ، من عالَم المُلك إلى الملكوت ، ومن عالَم الملكوت
١٣٦
إلى الجبروت ، ومن عالَم الجبروت إلى الرحموت. تعرج الملائكة والروح إليه ، أمّا الملائكة فتنتهي إلى الدهش والهيمان ، وأما الروح الصافية فتنتهي إلى شهود الذات بالصحو والتمكين ، وهذا مقام خاصة الخاصة من النبيين والصدِّيقين ، تنتهي إلى هذا المقام في زمن يسير ، إن سبقت العناية واتصل صاحبها

بالخبير ، وفي زمن طويل إن لم يتصل بالخبير ، ولذلك قال تعالى : {في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} أي : يقطع ذلك في يوم كان مقداره لو صار بنفسه خمسن ألف سنة.

(١٥٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٣٣

واعلم أنَّ الحق تعالى لا يتصف بقُرب ولا بُعد ، هو أقرب إلى كل شيء من كل شيء ، وإنما بعّد النفوسَ جهلُها به تعالى ووهْمُها وغفلتها ، فإذا ارتفع الجهل والوهم ، وَجَدت الحقّ كان قريباً وهي لا تشعر. قال الورتجبي : ليس للحق مكان ومنتهى ، حتى أن الخلق يعرجون إليه ، بل إنَّ ظهور عزته وجلاله في كل ذرة عيانٌ ، فإذا رَفَعْتَ القربَ والبُعدَ من حيث المسافة ، وأدرجت الأوهام والأفهام ؛ لم يكن بين الحق والروح فصل ، وصول الحق لأهل الحق بأقل طرفة ، فإنَّ الوصل منه ، وهو قريب غير بعيد. هـ. فاصبر أيها السائر صبراً جميلاً ؛ لتظفر بالوصل الدائم ، إنهم ـ أي أهل الغفلة ـ يرونه بعيداً ، ونراه قريباً لمن قربتُه عليه ، يوم تكون السماء كالمُهل ، أي : وقت الوصول هو حين تتلطّف العوالم وتذوب الكائنات ، فيتصل بحر الأزل بما لم يزل ، فلم يبقَ إلاَّ الأزل ، قال بعض المحققين : حقيقة المشاهدة : تكثيف اللطيف ، وحقيقة المعاينة : تلطيف الكثيف ، فافهم. ولا يسأل حميمٌ حميماً ، أي : لا مودة بين أهل البُعد وأهل القرب ، ولو كان مِن أقرب الناس إليه نسباً ، وهذا مثل قوله : {لاَّ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ ألآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللهَ وَرَسُولَهُ...} [المجادلة : ٢٢] الآية. يَوَدُّ المجرمُ ، حين يرى ما خص اللهُ به أولياءه من العز والقُرب ، لو يفتدي بجميع مَا يملك ، بل بجميع أهل الأرض مما نزل به من عذابِ القطيعة والبُعد ، كلاّ إنها ، أي : نار القطيعة ، لَظَى ، نزاعةً لرِفْعَةِ الرؤوس ، بل تحطها عن مراتب المقربين ، تدعوا مَن أدبر عن المجاهدة والتربية ، وجَمَعَ الدنيا فأوعاها.

(١٥٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٣٣

١٣٧

يقول الحق جلّ جلاله : {إنَّ الإنسانَ خُلق هلوعاً} ، قال ابن عباس : الهلوع : الحريص على ما لا يجده ، وعن الضحاك : هو الذي لا يشبع. وأصل الهلع : أشد الحرص وأسوأ الجزع ، قال صلى الله عليه وسلم : " شر ما أعطي العبدُ شحٌّ هالع ، وجُبن خالعٌ " ، وأحسن تفاسيره : ما فسّره به الحق تعالى بقوله : {إذا مسّه الشرُّ جَزوعاً} ؛ مبالغ في الجزع ، {وإذا مسه الخيرُ} أي : السعة والعافية {مَنوعاً} ؛

مبالغاً في المنع والإمساك ، وسُئل ثعلب عن الهلوع ، فقال : قد فسّره اللهُ تعالى ، ولا يكون تفسيرٌ أبين من تفسيره ، وهو الذي إذا ناله شرٌّ أظهر شدّة الجزع ، وإذا ناله خيرٌ بخل ومنع ، وهذا طبعه ، وهو مأمور بمخالفة طبعه ، وموافقة شرعه. والشرُّ : الضرُّ والفقر ، والخير : السعة والغنى.
ثم استثنى مِن الإنسان ؛ لأنَّ المراد به الجنس ، فقال : {إلاَّ المُصَلِّين الذين هم على صلاتهم دائمون} لا يشغلهم عنها شاغل ؛ لاستغراقهم في طاعة الخالق ، واتصافهم بالإشفاق على الخلق ، والإيمان بالجزاء ، والخوف من العقوبة ، وكسر الشهوة ، وإيثار الآجل على العاجل ، على خلاف القبائح المذكورة ، التي طبع عليه البشر. قال ابن جُزي : لأنَّ صلاتهم تحملهم على قلة الاكتراث بالدنيا ، فلا يجزعون مِن شرها ، ولا يبخلون بخيرها. هـ. وسيأتي في الإشارة تحقيقها إن شاء اللهُ. {والذين في أموالهم حقٌّ معلومٌ} يعني الزكاة ؛ لأنها مقدّرةٌ معلومةٌ ، أو صدقةٌ يوظفها الرجلُ على نفسه ، يؤديها في أوقات معلومة ، {للسائلِ} الذي يسأله ، {والمحرومِ} الذي لا يسأله تعففاً ، فيظن أنه غني ، فيُحرم.
}

(١٦٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٣٧
والذين يُصَدِّقُونَ بيوم الدين} أي : يوم الجزاء والحساب ، فيتعبون أنفسَهم في الطاعات البدنية والمالية ؛ طمعاً في المثوبة الأخروية ، فيستدل بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء. {والذين هم من عذاب ربهم مشفقون} ؛ خائفون على أنفسهم مع ما لهم من الأعمال الفاضلة ، استقصاراً لها ، واستعظاماً لجانبه عزّ وجل ، كقوله : {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ...} [المؤمنون : ٦٠] ، الخ {إنَّ عذابَ ربهم غيرُ مأمونٍ} ، هو اعتراض مؤذن بأنه لا ينبغي لأحدٍ أن يأمنَ مِن عذابه تعالى ، ولو بلغ في الطاعة ما بلغ ، بل ينبغي أن يكون بين خوف ورجاء كجناحي الطائر.
{والذين هم لفروجهم حافظون إلاَّ على أزواجهم} ؛ نسائهم ، {أو ما ملكتْ أيمانُهم} أي : إيمائهم {فإنهم غيرُ ملومين} على ترك الحفظ ، {فمَن ابتغَى} أي : طلب منكحاً {وراءَ ذلك} غير الزوجات والمملوكات {فأولئك هم العادُون} ؛ المتعدُّون لحدود الله ، المتجاوزون عن الحلال إلى الحرام. وهذه الآية تدل على حرمة المتعة ووطء
١٣٨
الذكران والبهائم ، والاستمناء بالكف ، لكنه أخف من الزنا واللواط.
{والذين هم لأماناتهم} وهي تتناول أمانات الشرع ، وهي التكاليف الشرعية ، وأمانات العباد ، {وعهدِهم} أي : عهودهم ، ويدخل فيه عهود الخلق ، والنذور والأيمان ، {راعون} ؛ حافظون ، غير

خائنين ، ولا ناقضين ، وقيل : الأمانات : ما تدل عليه العقول ، والعهد : ما أتى به الرسولُ. {والذين هم بشهادتهم قائمون} يقيمونها عند الحُكّام بالعدل ، بلا ميل إلى قريب وشريف ، ولا ترجيح للقوي على الضعيف ، وإظهار للصلابة في الدين ، وإحياء لحقوق المسلمين ، وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات ؛ لإبانة فضلها.

{والذين هم على صلاتهم يُحافظون} ؛ يُراعون شرائطها ، ويُكملون فرائضها وسننها ومستحباتها ، وكرر ذكرها لبيان أنها أهمّ ، أو : لأن إحداهما للفرائض ، والأخرى للنوافل. وقيل : الدوام عليها : الاستكثار مِن تكررها ، والمحافظة عليها : ألاّ تضيع عن أوقاتها ، أو : الدوام عليها : أداؤها في أوقاتها ، والمحافظة عليها : إتقانها وحفظ القلب في حضورها ، أو : المراد بالأولى : صلاة القلوب ، وهي دوام الحضور مع الحق ، وبالثانية : صلاة الجوارح. وتكرير الموصولات تنزيلٌ لاختلاف الصفات منزلةَ اختلاف الذوات ، إيذاناً بأن كل واحد من الصفات المذكورة نعت جليل على حِياله له شأن خطير ، حقيق بان يفرد له موصوف مستقل ، ولا يجعل شيء منها تتمة للآخر.

}

(١٦١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٣٧

أولئك} أي : أصحاب هذه الصفات الجليلة. وما فيه من معنى البُعد مع قُرب العهد بالمُشار إليه للإيذان بعلو شأنهم وبُعد منزلتهم في الفضل ، {في جناتٍ مُكرَمون} أي : مستقرُّون في جناتٍ لا يُقادَر قدرها ، ولا يدرك كنهها ، معظَّمون فيها ، منعَّمون ، وهما خبران للإشارة ، أو : : في جنات " متعلق بمكرَمون.

الإشارة : طبعُ الإنسان من حيث هو : الجزع والهَلع ، لخراب الباطن من النور ، إلاّ أهل التوجه ، وهم مَن مَنَّ اللهُ عليهم بصُحبة أهل الغنى بالله ، وهم الذين ذَكَرَ اللهُ بقوله : {على صلاتهم دائمون} أي : صلاة القلوب ، وهي دوام الحضور مع الحق ، باستغراق أفكارهم في أسرار التوحيد ، وهو مقام الفناء في الذات ، فهم الذين تطهَّروا من الهلع لِما باشر قلوبَهم من صفاء اليقين ، فمَن لم يبلغ هذا لا ينفك طبعه عن الهلع والطمع ، ولو بلغ ما بلغ. قيل لبعضهم : هل للقلوب صلاة ؟ قال : نعم إذا سجد لا يرفع رأسه أبداً. هـ. أي : إذا واجهته أنوارُ المواجهة خضع لها على الدوام ، {والذين في أموالهم} أي : فيما منحهم اللهُ من العلوم والأسرار ، حق معلوم للسائل ، وهو طالب الوصول ، والمحروم ، وهو طالب التبرُّك ، لكثرة علائقه ، أو : لضعف همته ، أو : للسائل ، وهو مَن دخل تحت تصرفهم ، والمحروم : مَن لم يدخل في تربيتهم ، فله حق ، بإرشاده إلى ما يصلحه مما يقدر عليه وينفعه. والذين

يُصدِّقون بيوم الدين ، فيجعلونه نُصب أعينهم ، فيجتهدون في الاستعداد له.

١٣٩

{والذين هم من عذاب ربهم} وهو عذاب القطيعة {مُشفقون إنّ عذاب ربهم غير مأمون} ولو بلغ العبد من التمكين ما بلغ ؛ لأنَّ الله مُقَلِّب القلوب ولا يأمن مكرَ الله إلاَّ القوم الخاسرون. {والذين هم لفروجهم حافظون إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم} فإنهم ينزلون إلى القيام بحقهن بالإذن والتمكين ، والرسوخ في اليقين ، فمَن ابتغى وراء ذلك ؛ بأن قصد شهوة المتعة ، فأولئك هم العادون ، تجب عليهم التوبة ، والذين هم لأماناتهم ، وهي أنفاس عمرهم ، وساعات أوقاتهم ، أو : الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال ، {وعهدهم} الذي أخذ عليهم في عالم الذر ، وهو الإقرار بالربوبية ، والقيام بوظائف العبودية ، {راعون} ، فهم يراعون أنفاسهم وساعاتِهم ، ويُحافظون عليها من التضييع ، ويُراعون عهودَهم السابقة واللاحقة ، أي مع الله ، ومع عباده ، فيُوفون بها ما استطاعوا ، والمراد نية الوفاء ، لا الوفاء بالفعل ، فمَن عقد عهداً ونيته الوفاء ، ثم منعته الأقدار ، فهو وافٍ به. والذين هم بشهادتهم لأنوار الربوبية قائمون بالأدب معها. والذين هم على صلاتهم الواجبة يحافظون ، شكراً وأدباً. أولئك في جنات المعارف ، مُكرَمون في الدنيا والآخرة.

(١٦٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٣٧

يقول الحق جلّ جلاله : {فَمَالِ الذين كفروا} ، وكُتب مفصولاً اتباعاً للمصحف ، أي : أيُّ شيء حصل لهم حتى كانوا {قِبلك} أي : حولَك {مُهطِعينَ} مُسرعين ، مادّين أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك ، {عن اليمين وعن الشمال} أي : عن يمينك وشمالك {عِزينَ} ؛ متفرقين فرقاً شتّى. جمع : عِزَة ، وأصلها : عِزوة ، من العزو ، فعُوِّضت التاء من الواو ، كأنّ كل فرقة تُعزى إلى غير مَن تُعزى إليه الأخرى. والعزة : الفرقة القليلة ، ثلاثة أو أربعة. كان المشركون إذا رأوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يصلي في الكعبة يقومون من مجالسهم مسرعين إليه ، ويُحلِّقون حوله حِلقاً حِلقاً ، وفِرقاً فِرقاً ، يستمعون ويستهزئون بكلامه صلى الله عليه وسلم ويقولون : شاعر ، كاهن ، مفتر ، ثم يقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد ، فلندخلنها قبلهم ، فنزلت : {أيَطْمَعُ كلُّ امرىءٍ منهم أن يُدخَلَ جنةَ نعيم} بلا أيمان.

١٤٠

{كلاَّ} ، ردع لهم عن ذلك الطمع الفارغ ، وهو دخولهم الجنة بلا إيمان {إنَّا خلقناهم مما يعلمون} ، تعليل للردع ، أي : إنَّا خلقناهم من نطفةٍ مَذِرة ، فلا يستأهل الكرامة إلاَّ مَن تحلّى بالإيمان والطاعة ،

وكسا لوث بشريته بنور إيمانه ، وحلّها بالتقوى ، التي بها العز والشرف والارتفاع في أوج القُربى والكرامة التي محلها الجنة ، إنما تكون بمخالفة الطبيعة ، وغلبة الروح على الطينة الأرضية ، والفرض لعدم ذلك منهم ، فلا يطمعون في كرامات الروحانية ، مع تمحُّض الطينة الجسمانية ، فإنه محال بمقتضى الحكمة. قال أبو السعود : وقيل معناه : إنّا خلقناهم من نطفة مذرة ، فمن أين يتشرّفون ويدّعون التقدُّم ، ويقولون : لَندخلن الجنةّ قبلهم ؟ والفرض أنهم مخلوقون من نطفة قذرة ، لا تُناسب عالم القدس ، فمَن لم يستكمل الإيمان والطاعة ، ولم يتخلّق بأخلاق الملائكة ، لم يتأهّل لدخولها. ثم قال : ولا يخفى ما في الكل من التمحُّل ، والأقرب : أنه كلام مستأنف ، سيق تمهيداً لِما بعده مِن بيان قدرته تعالى ، على أن يهلكهم ، لكفرهم بالبعث والجزاء ، واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبما نزل عليه من الوحي ، وادعائهم دخول الجنة بطريقة السخرية ، وينشىء بدلهم قوماً آخرين ، فإنَّ قدرته على ما يعلمون من النشأة الأولى حجة بيّنة على قدرته تعالى على ذلك ، كما يُفصح عنه الفاء الفصيحة في قوله تعالى : {فلا أُقسم بربِّ المشارِق والمغاربِ} ، والمعنى : إذا كان الأمر كما ذكرنا من أنّا خلقناهم مما يعلمون فأُقسم برب المشارق والمغارب {إنَّا لقادِرون على أن نُبدِّل خيراً منهم} أي : نُهلكهم بالمرة ، حسبما تقتضيه جنايتهم ، ونأتي بدلهم بخلقٍ آخرين ليسوا على صفتهم. هـ. {وما نحن بمسبوقين} ؛ بعاجزين ، أو بمغلوبين إن أردنا ذلك ، لكن مشيئتَنا المبنية على الحِكمة البالغة اقتضت تأخير عقوبتهم.

}

(١٦٣/٨)

فَذَرْهم} ؛ فدع المكذِّبين {يخوضوا} في باطلهم ، التي من جملتها ما حكي عنهم ، {ويلعبوا} في دنياهم {حتى يُلاقوا يومَهم الذي يوعدون} ، وهو يوم البعث عند النفخة الثانية ، يدل عليه قوله تعالى : {يوم يَخرجون من الأجدَاثِ} ؛ القبور {سِراعاً} ؛ جمع سريع ، وهو حال من ضمير " يَخرجون " أي : مسرعين إلى الداعي {كأنهم إلى نُصُبٍ} ، وهو كل ما نُصب وعُبد من دون الله ، وفيه السكون والفتح. {يُوفضون} ؛ يُسرعون ، {خاشعةً أبصارُهم} ، ذليلة ، لا يرفعونها خوفاً وذِلة ، {ترهقهم ذِلةٌ} : يغشاهم هوان شديد ، {ذلك} أي : الذي ذكر ما سيقع فيه من الأحوال الهائلة هو {اليومُ الذي كانوا يُوعَدون} في الدنيا ، وهم يكذّبون به.

الإشارة : فما لأهل الإنكار والغفلة قِبَلك أيها الداعي مسرعين ، يُحبون الخصوصية بلا مجاهدة ، أيطمع كل امرىءٍ منهم أن يُدخل جنةَ نعيم الأرواح ، وهي جنة المعارف ، كلاً ، إنّا خلقناهم مما يعلمون

من الطينة الأرضية ، فلا يطمع أحدٌ في الخصوصية ، حتى تستولي روحانيتُه على بشريته ، ومعناه على حسه ، وتخنس الطينية الطبيعية تحت أنوار

١٤١

الحقيقة القدسية. قال الورتجبي : امتنَّ اللهُ على أوليائه الصادقين أنه يلبغهم إلى جواره ؛ لأنهم خُلقوا من تربة الجنة ، وخُلقت أرواحهم من نور الملكوت ، وإلى مواضعها ترجع ، وللقائه خَلَقَهم ، ومن نوره أوجدهم ، وإنَّ أهل الخذلان خُلقوا من عالم الشهواني والشيطاني ، ومنبعُهما النار ، فيدخلون مواضعهم ؛ لأنهم ليسوا من أهل جواره ، ونحن لا ننظر إلى ما خلقنا منه من النطفة والطين ، ولا نعتبر بهما ، نحن نعتبر بالاصطفائية والخاصية في المعرفة ، فإنَّ بهما نصل إلى جوار الله تعالى. هـ.

قلت : والتحقيق أنّ البشرية كلها من الطين ، والروح كلها من النور الملكوتي ، فمَن غلب منهما فالحُكم له ، فإنْ غلبت الروحُ تنوّرت البشرية بأنوار الهداية ، وأشرق الباطن بأسرار المعارف ، وإن غلبت البشرية تظلّمت الروح ، فتارة يبقى لها شعاع الإيمان ، وهو مقام أهل اليمين ، وتارة ينطمس عنها ، وهو مقام الكفر ، والعياذ بالله. وقوله : لأنهم خُلقوا من تربة الجنة ، أي : من التربة التي رش عليها من ماء الجنة ، حتى أضيفت إليها ، وقد تقدّم عن القشيري. والله تعالى أعلم. ثم أقسم تعالى على أنه قادر على تبديل الأشباح فيبدل الخبيث إلى الطيب ، وبالعكس ، على حسب مشيئته ، ثم قال : فذر أهل الغفلة يخوضوا في بواطنهم مع الخواطر ، ويلعبوا في ظواهرهم في أمور دنياهم ، حتى يُلاقوا ما يُوعدون ، فيقع الندم حيث لا ينفع. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد ، وآله.

١٤٢

(١٦٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٠

سورة نوح

(١٦٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٢

يقول الحق جلّ جلاله : {إنَّا أرسلنا نوحاً} وهو أول أُلي العزم. قيل : معناه بالسريانية : الساكن ، وقيل : سمي له لكثرة نوحه شوقاً إلى ربه ، {أنْ أَنْذِر قَوْمَكَ} أي : بأن أنذر ، فحذف الجار وأوصل الفعل ، ومحله عند الخليل : الجر : وعند غيره : نصب ، أو : " أنْ " مفسرة ؛ لأنَّ الإرسال فيه معنى القول ،

فلا يكون للجملة محل ، وقُرِىء : " أنذر " بغير " أنْ " ، أي : خوّف قومك {مِن قبل أن يأتيهم عذابٌ أليم} ؛ عذاب الآخرة ، أو الطوفان ، لئلا يبقى لهم عذر أصلاً.

{قال يا قوم} ، أضافهم إلى نفسه إظهاراً للشفقة {إني لكم نذير مبينٌ} ؛ مُنذِر موضّح لحقيقة الأمر ، أُبين لكم رسالة ربي بِلُغةٍ تعرفونها ، {أنِ اعبدُوا اللّهَ} أي : وحّدوه ، و " أنْ " هذه نحو " أن أنذر " على الوجهين ، {واتقوه} ؛ واحذروا عصيانه ، {وأطيعونِ} فيما آمركم به وأنهاكم عنه ، وإنما أضافه إلى نفسه ؛ لأنَّ الطاعة تكون لغير الله بخلاف العبادة ، وطاعته هي طاعة الله.

{يغفرْ لكم من ذنوبكم} أي : بعض ذنوبكم ، وهو ما سلف في الجاهلية ، فإنَّ الإسلام يَجُبُّه ، إلاّ حقوق العباد ؛ فإنه يؤديها ، وقيل : " مَن " لبيان الجنس ، كقوله : {فَاجْتَنِبُواْ الرِجْسَ مَنَ الأَوْثَانِ} [الحج : ٣٠]. قال ابن عطية : وكونها للتبعيض أبين ؛ لكونه لو قال : يغفر لكم ذنوبكم ؛ لعَمّ هذا اللفظ ما تقدّم به من الذنوب وما تأخر عن إيمانهم ، والإسلام إنما يَجُب ما قبله. هـ. قال القشيري : ولأنه لو أخبرهم بغفران ما تقدّم وما تأخّر لكان إغراءً لهم ، وذلك لا يجوز. هـ. {ويُؤخِّرْكُم إلى أَجَلٍ مُسَمَّى} وهو وقت

موتكم ، فتموتون عند انقضاء آجالكم الذي تعرفونه من غير غرق ولا هلاك استئصال ، فإن لم تؤمنوا عاجَلَكم بالعذاب ، فيكون هو آجالكم ، ولمّا كان ربما يتوهم أنَّ الأجل قد يتقدّم ، رَفَعَه بقوله : {إنَّ أَجَلَ اللهِ} وهو الموت عند تمام الأجل {إذا جاء لا يُؤخَّرُ لو كنتم تعلمون} أي : لو كنتم تعلمون لسارعتم إلى الإيمان قبل مجيئه ، فلا حُجة فيه للمعتزلة. وانظر ابن جزي.

(١٦٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٣

الإشارة : قال القشيري : إنَّا أرسلنا الروح إلى قومه ، وهم : النفس والهوى وصفاتهم الظلمانية الطبيعية ؛ أن أنذرهم عن المخالفة الشرعية ، مِن قبل أن يأتيهم عذاب القطيعة ، قال : يا قوم إني لكم نذير بيِّن الإنذار ، أن اعبُدوا الله ، بأن تُحبوه وحده ، ولا تُحبُّوا معه غيره ، من الدنيا ، وشهواتها وزخارفها ، واتقوا بأن لا تروا معه سواه ، وأطيعوني في أقوالي وأفعالي وأخلاقي وصفاتي ، يغفر لكم ذنوب وجودكم ، فيُعْطيه بنور وجوده ، ويُؤخركم إلى أجلٍ مسمى ، بتسْمية الأزل ، إنَّ أجل الله بالموت الحسي والمعنوي ، لا يُؤخَّر ، لو كنتم تعلمون ، لكن انهماككم في حب الدنيا بعّد عنكم الأجل. هـ. بالمعنى.

(١٦٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٣
يقول الحق جلّ جلاله : {قال} نوح شاكياً إلى الله تعالى : {رَبِّ إني دعوتُ قومي} إلى الإيمان والطاعة {ليلاً ونهاراً} دائماً بلا فتور ولا توان ، {فلم يَزِدْهُم دعائي إلاَّ فِراراً} مما دعوتهم إليه ، ونسب ذلك إلى دعائه لحصوله عنده ، وإن لم يكن في الحقيقة سبباً للفرار ، وهو كقوله : {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا} [التوبة : ١٢٥] ، والقرآن لا يكون سبباً لزيادة الرجس ، لكن لمّا حصل عنده نُسب إليه ، وكان الرجل منهم يذهب بابنه إلى نوح عليه السلام ويقول له : احذر هذا ، فلا يعرنّك ، فإنّ أبي قد أوصاني بهذا. هـ.
{وإني كلما دعوتُهم} إلى الإيمان بك {لتغفرَ لهم} أي : ليؤمنوا فتغفر لهم ، فاكتفى بذكر المسبَّب ، {جعلوا أصابعَهم في آذانهم} أي : سدُّوا مسامعهم لئلا يسمعوا كلامي ، {واستَغْشوا ثيابَهُم} أي : وتغطُّوا بثيابهم لئلا يُبصروني ، كراهة النظر إلى وجه مَن
١٤٤
ينصحهم في دين الله ، {وأصَرُّوا} ؛ أقاموا على كفرهم {واسْتَكْبَروا استكباراً} أي : تعاظموا عن إجابتي تعاظماً كبيراً. وذِكْرُ المصدر دليل على فرط استكبارهم.
{ثم إني دَعَوتهم جِهاراً} أي : مجاهراً ، فيكون حالاً ، أو : مصدر " دعوت " ، كقعد القرفصاء ؛ لأنّ الجهار أحد نوعَي الدعاء. يعني : أظهرت الدعوة في المحافل والمجالس. {ثم إني أعلنتُ لهم وأَسررتُ لهم إسراراً} أي : جَمَعْتُ لهم بين دعاء العلانية والسر ، فكنتُ أدعو كل مَن لقيت ، فرداً وجماعة. والحاصل : أنه دعاهم ليلاً ونهاراً في السر ، ثم دعاهم جِهاراً ، ثم دعاهم في السر والعلن ، وهكذا يفعل المذكِّر في الأمر بالمعروف ، يبتدىء بالأهون فالأشد ، افتتح بالمناصحة بالسر ، فلما لم يُطيعوا ثنّى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلّث بالجمع بين الإسرار والإعلان. و " ثم " تدل على تباعد الأحوال ؛ لأنَّ الجِهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما.
}

(١٦٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٤
فقلتُ استغفِروا ربكم} بالتوبة من الكفر والمعاصي ، فالاستغفار : طلب المغفرة ، فإن كان المستغفِر كافراً فهو من الكفر ، وإن كان مؤمناً فهو من الذنوب ، {إنه كان غفَّاراً} لم يزل غَفَّار الذنوب لمَن يُنيب إليه ، {يُرسل السماءَ} بالمطر {عليكم مِدراراً} ؛ كثير الدُّرور ، أي : البروز ، و " مِفعال " يستوي فيه المذكر والمؤنث ، {ويُمددكم بأموال وبنينَ} أي : يزدكم أمولاً وبنين على ما عندكم ، {ويجعل لكم

جنات} ؛ بساتين {ويجعل لكم أنهاراً} جارية لمزارعكم وبساتينكم. وكانوا يُحبون الأموال والأولاد ، فحرّكوا بهذا على الإيمان ، وقيل : لمّا كذّبوه بعد طول تكرار الدعوة حبس الله عنهم القطر ، وأعقم نساءهم أربعين سنة ، أو سبعين ، فوعدهم نوح أنهم إن آمنوا رزقهم الله الخِصب ، ورفع عنهم ما كانوا فيه. وعن عمر رضي الله عنه : أنه خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار ، فمُطر ، فقيل له : ما رأيناك استسقيت ؟ فقال : لقد استقيت بمجاديح السماء التي لا تخطىء ، ثم قرأ الآية. وفي القاموس : ومجاديح السماء : أنواؤها. هـ. وشكى رجلٌ إلى الحسن الجدوبة ، فقال له : استغفِر الله ، وشكى إليه آخر الفقر ، وآخر قلة النسل ، وآخر قلة غلة أرضه ، فأمرهم كلّهم بالاستغفار ، فقيل له في ذلك ، فقال : ما قلت من عندي شيئاً ، ثم تلا الآية.

{ما لكم لا ترجون لله وَقَاراً} أي : لا تخافون لله عظمةً. قال الأخفش : الرجاء هنا : الخوف ؛ لأنّ مع الرجاء طرفاً من الخوف واليأس. والوقار : العظمة. وقال أبو السعود : الرجاء هنا بمعنى الاعتقاد.

وجملة (ترجون) : حال من ضمير المخاطبين ، و " لله " متعلق بمضمر ، حال من (وقارا) ، ولو تأخر لكان صفة له ، أي : أيُّ سبب حصل لكم حال كونكم غير معتقدين لله تعالى عظمة موجبة للتعظيم بالإيمان والطاعة. هـ. أو : لا تأملون له توقيراً ، أي : تعظيماً ، والمعنى : ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيه تعظيم الله إياكم في دار الثواب ، {وقد خَلَقَكم أطواراً} في موضع الحال ، أي : ما لكم لا تؤمنون بالله ، والحال أنكم على حال منافية لِما أنتم عليه بالكلية ، وهي أنكم تعلمون أنه

١٤٥

خلقكم أطواراً ، أي : أحوالاً مختلفة ، خَلَقَكم أولاً نُطفاً ، ثم خلقكم علقاً ، ثم مُضغاً ، ثم عظاماً ولحماً ، ثم إنساناً ، ثم خلقاً آخر ، وبعد ظهوره إلى هذا العالم يكون شباباً ، ثم كهلاً ، ثم شيخاً ، بالتقصير في توقير مَن هذه شؤونه من القدرة القاهرة والإحسان التام ، مع العلم بها ، مما لا يكاد يصدر عن العاقل. والله تعالى أعلم.

(١٦٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٤

الإشارة : ينبغي للداعي أن يكون على قدم أولي العزم ، لا يمل من التذكير والدعاء إلى الله ، ويكرر ذلك ليلاً ونهاراًن ولو قُوبل بالرد والإنكار ، فلأن يهدي الله به رجلاً واحداً خير له مما طلعت عليه الشمس. وقوله تعالى : {وأصَرُّوا واستكبروا} ، قال القشيري : ويقال : لَمَّا دام إصرارهُم تَولَّدَ منه استكبارُهم ، قال تعالى : {فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ} [الحديد : ١٦]. وقال الورتجبي : مَن أصرَّ على المعصية أورثه التمادي على الضلالة ، حتى يرى قبيح أفعاله مستحسناً ، فإذا رآه مستحسناً

يستكبر ، ويعلو على أولياء الله ، ولا يقبل بعد ذلك نصحتهم. قال سهل : الإصرار على الذنب يورث الاستكبار ، والاستكبار يورث الجهل ، والجهل يورث التخطي في الباطل ، وذلك يورث قساوة القلب ، وهي تورث النفاق ، والنفاق يورث الكفر. هـ.

وقوله تعالى : {استغفِروا ربكم} قال القشيري : ليعلم العاملون أنَّ الاستغفار قَرْعُ أبوابِ النعمة ، ومَن وقعت له إلى الله حاجة فلا يَصِل إلى مرادِه إلاّ بتقديم الاستغفار. ويقال : مَن أراد التفضُّل فعليه بالعُذْر والتنصُّل. هـ. وقوله : {ما لكم لا ترجون لله وقاراً} أي : ما لكم لا تعتقدون لله تعظيماً وإجلالاً ، فلا تراقبونه ، ولا تخافون سطوته ، فإنَّ المشاهدة على قدر المراقبة ، فمَن لم يُحْكِم أمر المراقبة لم يظفر بغاية المشاهدة. وقد خلقكم أطواراً ، أي : درّج بشريتكم في أطوار مُختلفة ، وهي سبعة : النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ثم الجنين ، ثم الطفولية ، ثم الكهولة ، ثم الشيخوخة ، ثم يرتحل إلى دار الدوام ، وكذلك الروح لها سبعة أطوار : التوبة ثم الورع ، ثم الزهد ، ثم التوكُّل ، ثم الرضاء والتسليم ، ثم المراقبة ، ثم المشاهدة. والله تعالى أعلم.

(١٧٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٤

يقول الحق جلّ جلاله : {ألم تَرَوْا كيف خلق اللهُ سبعَ سمواتٍ طباقاً} أي : متطابقة بعضها فوق بعض ، والرؤية هنا علمية ؛ إذ لا يُرى بالبصر إلاَّ واحدة ، وعُلِّقت بالاستفهام ، وعلمهم بذلك من جهة الوحي السابق ، أو كانوا منجّمين ، {وجعلَ القمرَ فيهن نوراً} أي :

١٤٦

يُنور وجه الأرض في ظلمة الليل ، ونسبتُه إلى الكل مع أنه في سماء الدنيا ؛ لأنَّ بين السموات ملابسة ، من حيث إنها طباق ، فجاز أن يقال : فيهن ، وإن لم يكن في جميعهن ، كما يُقال : في المدينة كذا ، وهو في بعض جوانبها. وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم : إن الشمس والقمر وجوههما مما يلي السموات ، وظهورهما مما يلي الأرض. فيكون نور القمر سارياً في جميع السموات ؛ لأنها لطيفة لاتحجب نوره. {وجعل الشمسَ سِراجاً} ؛ مصباحاً يزيل ظلمة الليل ، ويُبصر أهلُ الدنيا في ضوئها وجه الأرض ، ويُشاهدون الآفاق ، كما يُبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره ، وليس القمر بهذه المثابة ، إنما هو نور في الجملة ، فنور الشمس أقوى ، ومنه يستمد نور القمر ، وأجمعوا أنَّ الشمس في السماء الرابعة.

{واللهُ أنبتكم من الأرض نباتاً} أي : أنشأكم منها ، فاستغير الإنبات للإنشاء ؛ لكونه أدل على الحدوث والتكوُّن من الأرض. و " نباتاً " إمّا مصدر مؤكد لأنبتكم ، بحذف الزوائد ، ويسمى اسم

مصدر ، وحكمة إجراء اللفظ فيه على غير فعله : التنبيه على تحتُّم القدرة وسرعة نفوذ حكمها ، حتى كأنَّ إنبات الله تعالى نفس النبات ، فقرَن أحدهما بالآخر ، ونحوه قوله تعالى : {أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ} [الأعراف : ١٦] أي : فضرب فانبجست ، فجعل الانبجاس مسبباً عن الايحاء ، للدلالة على سرعة نفوذ حكم القدرة ، أو : لفعل مترتب عليه ، أي : أَنبتكم فنبتم نباتاً ، {ثُم يُعيدكم فيها} بعد الموت {ويُخرجكم} يوم القيامة بالبعث والحشر {إِخراجاً} محققاً لا ريب فيه ، ولذا أكّده بالمصدر.

{واللهُ جعل لكم الأرضَ بِساطاً} تتقلبون عليها تقلُّبكم على بُسُطكم في بيوتكم. قال ابن عطية : وظاهر الآية أنَّ الأرض بسيطة غير كُروية ، واعتقاد أحد الأمرين غير قادح في الشرع ، إلاّ أن يترتب على القول بالكوريّة قول فاسدٌ ، وأما اعتقاد كونها بسيطة فهو ظاهر في كتاب الله ، وهو الذي لا يلحق عنه فساد البتةَ ، واستدل ابن مجاهد على ذلك بماء البحر المحيط بالمعمور ، قال : لو كانت الأرض كروية لما استقر الماء عليها. هـ. المحشيّ الفاسي : وهو بعيد ؛ لأنَّ أهل الهيئة يرون أنها مستقرة فيه . اي : في البحر . لا العكس ، ولذلك أُرسيت بالجبال لتستقر ، كما عُلم من الشرع. هـ. قلت : وإنما حَكَمَ الحقُّ تعالى ببساطتها باعتبار ما يظهر للعين في ظاهر الأمر. والله تعالى أعلم.

(١٧١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٦

وتوسيط (لكم) بين الجعل ومفعوليه ، مع أنَّ حقه التأخير ، للاهتمام بشأن كون المجعول من منافعهم ، وللتشويق إلى المؤخّر ، فإنَّ النفس عند تأخُّر ما حقه التقديم تبقى متشوقة مترقبة ، فيتمكن عند ورودها له فضل تمكُّن ، أي : بسطها لكم في مرأى العين {لتسلكوا منها سُبلاً فِجاجاً} أي : طُرقاً واسعة ، جمع فج ، وهو الطريق الواسع ، وقيل : هو المسلك بين الجبلين ، و " منها " متعلق بـ " تسلُكوا " لِما فيه من معنى الاتخاذ ، أو :

١٤٧

بمضمر هو حال من " سُبلاً " أي : كائنة منها ، ولو تأخر لكان صفة لهما. الإشارة : تقدّم تفسير سبع سموات الأرواح ، والقمر قمر التوحيد البرهاني ، والشمس : شمس المعرفة ، والله أنبت بشريتكم من الأرض نباتاً ، ثم يُعيدكم فيها بالبقاء بعد الفناء ؛ لتقوموا برسم العبودية ، ثم يُخرجكم منها إلى صعود عرش الحضرة ، والله جعل لكم أرض العبودية بِساطاً ؛ لتسلكوا منها إلى الله في طرق واسعة ، قررها أئمة الطريق من الكتاب والسنّة وإلهام العارفين ومواجيد العاشقين. وبالله التوفيق.

(١٧٢/٨)

يقول الحق جلّ جلاله : {قال نوحٌ ربِّ} أي : يارب {إنهم عَصَوْني} أي : داموا على عصياني فيما أمرتهم ، مع ما بلغت في إرشادهم بالعظة والتذكير ، ولمّا كان عصيانهم مستبعداً لكونه منكراً فظيعاً ؛ لأنَّ طاعة الرسول واجبة ، فأصرُّوا على عصيانه ، وعاملوه بأقبح الأحوال والأفعال ، أكّد الجملة بإنَّ ، {واتَّبعوا} أي : اتبع فقراؤهم {مَن لم يزده مالُه وولدُه إلاَّ خساراً} ، وهم رؤساؤهم ، أي : استمروا على اتباع رؤسائهم ، الذين أبطرتهم أموالُهم ، وغرّتهم أولادُهم ، وصار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة ، فصاروا أسوة لهم في الخسران. وفي وصفهم بذلك إشعار بأنهم إنما ابتعوهم لوجَاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد ، لِما شاهدوا فيهم من شبهة مصحِّحة للاتباع في الجملة. ومَن قرأ بسكون اللام فجمع ولد ، كأسَد ، وأُسْد.

{ومَكَروا} : عطف على صلة " مَنْ " ، والجمع باعتبار معناه ، كما أنَّ الإفراد في الضمائر الأُوَل باعتبار لفظها ، والماكرون هم الرؤساء ، ومكرهم : احتيالهم في الدين ، وكيدهم لنوح ، وتحريش الناس على أذاه ، وصد الناس عن الميل إليه ، {مكراً كُبّاراً} ؛ عظيماً في الغاية ، وهو أكبر من " الكُبَار " بالتخفيف ، وقُرىء به ، والكُبَّار : أكبر من الكبير ، وقُرىء شاذًّا بالكسر جمع كبير. {وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم} أي : لا تتركوا عبادتها على العموم إلى عبادة رب نوح ، {ولا تَذَرُنَّ وَدًّا} بفتح الواو ، وضمها لغتان : صنم على صورة رجل ، {ولا سُوَاعاً} ؛ صنم على صورة امرأة ، {ولا يَغُوثَ} ؛ صنم على صورة أسد ،

١٤٨

{وَيَعُوقَ} ؛ صنم على صورة فرس ، وهما لا ينصرفان للتعريف ووزن الفعل إن كانا عربيين ، والتعريف والعُجمة إن كانا عجميين ، {ونَسْراً} ؛ صنم على صورة النسر ، وخصُّوا بالذكر مع اندراجهم فيما سبق ؛ لأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم ، وقد انتقلت هذه الأصنام عنهم إلى العرب ، فكان وَدّ لكلب ، وسُواع لهمدان ، ويغوث لمَذْحِج ، ويَعُوق لمُراد ، ونَسْر لحمير. وقيل : هي أسماء رجال صالحين ، كان الناس يقتدون بهم ، بين آدم ونوح عليهما السلام ، وقيل : أولاد آدم ، فلما ماتوا ، قال إبليس لمَن بعدهم : لو صوّرتم صورهم ، فكنتم تنظرون إليهم ، وتتبرّكون بهم ، ففعلوا ، فلمّا مات أولئك ، قال لمَن بعدهم : إنهم كانوا يعبدونهم ، فعبدوهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنه : أول ما عُبِدَ من الأصنام في زمن مَهْلائِل بن غَيْنَان بن أنوش بن شيت بن آدم عليه السلام ، وذلك لمّا مات آدم جعله بنو شيت في مغارة بأرض الهند ، في جبل سرنديب ، لموضع يسمى نوره ، وهو أخصب جبل في الأرض ، ثم كانوا يزورونه ، ويترحّمون عليه ، ويُعظمونه ، فلما قَتَل قابيلُ أخاه هابيل نفوه من الأرض ، فكان بمعزل عنهم هو وبنوه ، فجاء الشيطانُ في صورة رجل ناصح ، فقال لهم : إنَّ بني شيت يتبرّكون بآدم ، وأنتم لا تلحقونه ، فانحتوا صورته ، وتبرَّكوا بها ، ففعلوا ، ثم كان لشيت ولد صالح ، اسمه يغوث ، فتُوفي ، فكانوا يتبرّكون بقبره ، فنحتَ أولادُ قابيل على صورة يغوث صورة أخرى ، ثم يعوق ، ثم ود ، ثم سواع ، ثم نسر ، كلهم من أولاد شيت قوم صالحون ، كانوا يتبرّكون بهم في المحْيا والممات ، ولم يكن لأولاد قابيل سبيل إليهم ، فنحتوا صورهم ، وصاروا يُعظِّمونها ، ويتبرّكون بها مثلهم ، فلما طال بهم الزمان صاروا يعبدونهم دون الله ، إلى أن بعث الله نوح عليه السلام فنهاهم عنها ، فلم ينتهوا ، فلما أهلك الله الأرض ومَن عليها بالطوفان ، قذف الطوفانُ تلك الأصنام إلى أرض جُدة وما والاها من مكة ، وأخفتها الرمال هناك. قال الكلبي : وكان عَمرو بن لُحي كاهناً ، يُكنّى أبا تمامة ، وكان يتراءى له الجن ، فتراءى له يوماً جنِّي ، وقال له : عَجِّل أبا تمامة بالسعد والسلامة إلى صف جدة ، واستخرج ما فيها من الأصنام ، وأوردها ماء تهامة ، ولا تسأم ولا تهب ، وادْعِ العرب إلى عبادتها تُجَب ، فأتى عمرُو بن لُحي ساحلَ جدة ، حيث وصف له الجني ، واستخرج الأصنام في خِفية عنهم ، وأورودها ماء تهامة ، فلما حضر الحج ، واجتمع الناس إلى الموسم ، دعا الناس إلى عبادتها ، فأجابته العرب قاطبة ، وأول مَ أجابته بنو عوف بن عُزرة ، فدفع لهم ودًّا ، فنصبوه بواد القرى بدومة الجندل ، ولم يزل عندهم إلى الإسلام ، فكسره خالد بن الوليد ، لَمَّا بعثه الرسولُ صلى الله عليه وسلم في غزوة
تبوك لهدم دومة الجندل ، فحالت بينه وبينها العرب ، فقاتلهم وكسَّر صنمهم. قال : الكلبي : قلت لمالك بن الحارث : صف

١٤٩

لي ودًّا ، وكان قد رآها مراراً ، قال : تمثال رجل أعظم ما يكون من الرجال ، مؤتزر بحُلة ، مرتدٍ بأخرى ، مقلَّداً سيفاً ، راكباً فرساً ، وفي يده حربة فيها لواء ، ومعه قوس ، ونبل في جعبة. هـ. ثم دفع عمرو لمُضر سُواعاً ، فعكفت على عبادته مع هُذيل ، ثم فرّق تلك الأصنام على القبائل على حسب ما تقدّم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيتُ عمْرو بن لُحي ليلة أُسري بي رجلاً أحمر ، قصيراً أزرق ، وهو يَجُرُّ قُصْبَهُ في النار ، لأنه أول مَن بَحَّرَ البَحيرة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحام ، وغيّر دين إسماعيل " ، وهو من خزاعة ، كان يسكن مكة ، فولد بها أولاداً فكثروا ، فنفوا مَن كان منها من العماليق. انظر اللباب.
ثم قال تعالى : {وقدْ أَضلوا} أي : الرؤساء ، أو : الأصنام ، كقوله : {إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ} [إبراهيم : ٣٦] {كثيراً} أي : خلقاً كثيراً ، {ولا تزد الظالمين إلاَّ ضلالاً} ، قال المحشي : وقد يقال : إن هذه الجملة مسببة عما قبلها فحقها الفاء ، لكن تُركت لمكان الاستئناف ، أي : البياني ، كأنه قال : فما تريد بهذا القول ؟ فقال : ولا تزد الظالمين. هـ. ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بالظلم المفرط ، وتعليل الدعاء عليهم به. والمراد بالضلال : الهلاك ، كقوله : {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ} [القمر : ٤٧].
{مما خطيئاتِهِم} أي : من أجل خطيئاتهم. " وما " مزيدة للتوكيد والتفخيم ، {أُغرقوا} بالطوفان. وتقديم " مما " لبيان أن إغراقهم ودخولهم النار ، إنما كان لأجل خطاياهم ، لا لسبب آخر ، {فأُدْخِلوا ناراً} عظيمة ، والمراد : إمّا عذاب القبر ؛ لأنه عقب الإغراق ، أو حين كانوا في الماء ، فقد رُوي أنهم كانوا يغرقون من جانب ، ويُحرقون من جانب. أو : عذاب جهنم ، والتعقيب لقربه باعتبار تحقُّق وقوعه. وتنكير " النار " إما لتعظيمها وتهويلها ، أو لأنه تعالى أعدّ لهم نوعاً من العذاب على حسب خطيئاته ، {فلم يجدوا لهم من دون اللهِ أنصاراً} ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله ، وفيه تعريض بعدم نفع آلهتهم ، وعدم قدرتهم على نصرهم. قيل : كان قوم نوح أهل وُسع في الزرق ، فطَغوا ، وكانوا يؤذون نوحاً ، ويحرشون عليه ويضربونه ، حتى ربما يغشى عليه ، فإذا أفاق قال : " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ". كما في الحديث.
{وقال نوحٌ رَبِّ لا تَذّرْ على الأرض من الكافرين ديَّاراً} أي : أحداً يدور في الأرض ، وهو " فَيْعَالٌ " من الدّورِ ، وهو من الأسماء المستعلمة في النفي العام ، يقالك ما بالديار ديَّار وديّور ، كقيّام وقيوم ، أي : أحد ، وأصله : دّيْوار ، ففعل به ما فعل بسَيِّد. {إنك إن تَذَرْهُم} ولا تهلكهم {يُضلُّوا عبادك} عن طريق الحق ، يدعوهم إلى الضلال ، {ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفاراً} أي : إلاّ مَن إذا بلغ جحد وكفر ، وإنما قال ذلك ؛ لاستحكام علمه بما يكون منهم
١٥٠
ومن أعقابهم ، بعدما خبرهم واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة ، أو : يكون بعد إخباره تعالى له بقوله : {أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ ءَامَنَ} [هود : ٣٦].
}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٨
رَبِّ اغفر لي ولوالدي} وكانا مسلمَين ، واسم أبيه : لَمَك بن مُتَوشْلح ، واسم أمه : شمخاء بنت أنوش ، وقيل : المراد : آدم وحواء. قال ابن عباس : لم يكفر بنوح والد بينه وبين آدم عليه السلام ، وقُرِىء : " ولولديّ " يريد ساماً وحاماً ، {ولِمَنْ دَخَلَ بيتي} أي : منزلي ، أو مسجدي ، أو سفينتي {مؤمناً} ، ولعله قد علم أنَّ مَن دخل بيته مؤمناً لا يعد إلى الكفر ، وبهذا القيد خرجت امرأته وابنه كنعان ، ولم يجزم عليه السلام بخروجه إلاَّ بعدما قيل له : {إِنَّهُ لِيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} [هود : ٤٦] ، {وللمؤمنين والمؤمنات} إلى يوم القيامة. خصَّ أولاً مَن يتصل به ؛ لأنهم أولى وأحق بدعائه ، ثم عمَّم ، {ولا تزد الظالمين} أي : الكافرين {إلاَّ تباراً} ؛ إهلاكاً. قال ابن عباس رضي الله عنه : دعا نوح عليه السلام بدعوتين ، إحداهما : للمؤمنين بالمغفرة ، وأخرى على الكفارين بالتبار ، فاستجيب على الكافرين ، فاستحال ألاَّ تُجاب دعوته في حق المؤمنين. واختلف في صبيانهم : هل أُغرقوا ؟ فقيل : أعقم اللهُ أرحامَ نسائهم قبل الطوفان بأربعين سنة ، فلم يكن منهم صبي حين أُغرقوا ، وقيل : أهلك أطفالهم بغير عذاب ، ثم أغرق كبارهم ، وقيل : غرقوا معهم كما غرق سائر الحيوانات ، وهو المشهور ؛ لأنّ المصيبة تعم ، ثم يُبعثون على نياتهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : وقال نوحُ الروح ، أي : شكت الروح إلى ربها ، وقالت : إنَّ النفس وجنودها عَصَوني ، واتبعوا حال المنهمكين في الدنيا ، الفانين في أموالهم وأولادهم ، فلم يزدهم ذلك إلاّ خساراً ، ومكروا بي ، حيث راموا مني الميل إليهم ، مكراً كُبَّاراً ، وقالوا : لا تَذَرُنَّ آلهتكم من الدنانير والدراهم ، ولا تَذَرُنَّ ود الدنيا ومحبتها ، ولا سُواع الهوى والحظوظ ، ولا يغوث الرياسة والجاه ، ولا يَعوق العلائق والشواغل ، ولا طيور الهواجس والخواطر ، يعني : لا تستعملوا ما يُخرجكم عن هذه الأشياء ، مِن خرق العوائد ، والزهد ، والورع ، بل أقيموا على تنمية دنياكم ، وتوفير هواكم ، وقد أضلُّوا كثيراً ممن يقتدي بهم.

وقالت أيضاً : لا تزد الظالمين من هؤلاء إلاّ ضلالاً ؛ هلاكها وانقطاعاً. مما خطيئاتهم أُغرقوا في بحر الدنيا ، فأُدخلوا نار القطيعة ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ، وقال نوح الروح أيضاً : لا تَذرْ على أرض البشرية من الكافرين من القواطع التي تقطعني عن السير بظلمتها ديّاراً ممن يدور بها ، ويُقوي حسها ، إنك إن تذرهم يدورون بها ويقطعونها عن السير ، ويُضلوا عبادك عن الوصول إليك ، ولا يلدوا منها إلاَّ خاطراً فاجراً كفّاراً. رَبِّ اغفر لي ، خطابٌ من الروح ودعاء ، ولوالدي من العقل الكلي ، والنفس الكلي ، وهو الروح الأعظم ، ولِمن دخل بيتي ، أي : تمسّك بطريقتي ، ودخل في زمرتي ، ولأرواح المؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالين الخارجين عن طريقتي إلاَّ تباراً. وبالله التوفيق ، وهو

الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلّم.
١٥١

(١٧٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٨
سورة الجن

(١٧٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥١
قلت : قد أجمعوا على فتح (أنه) ؛ لأنه نائب فاعل " أوحى " ، و {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُواْ} [الجن : ١٦] و {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ} [الجن : ١٨] للعطف على {أنه استمع} فـ " أن " مخففة ، و {أَن قَدْ أَبْلَغُواْ} [الجن : ٢٨] لتعدّي " يعلم " إليها ، وكسر ما بعد فاء الجزاء ، وبعد القول ، نحو : {فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ} [الجن : ٢٣] و {قالوا إنّا سمعنا} ؛ لأنه مبتدأ محكي بعد القول. واختلفوا في فتح الهمزة وكسرها من {أنه تعالى جَدُّ ربنا} إلى : {وأنَّا منا المسلمون} ، ففتحها الشامي والكوفيّ [غير] أبي بكر ؛ عطفاً على {أنه استمع} ، أو على محلّ الجار والمجرور في {آمنا به} تقديره : صدّقناه وصدّقنا أنه تعالى جدّ ربنا {وأنه كان يقول سفيهنا...} إلى آخره ، وكسرها غيرُهم عطفاً على {إنّا سمعنا} ، وهم يقفون على آخر الآيات.
يقول الحق جلّ جلاله : {قل} يا محمد لأمتك : {أُوحي إليَّ أنه استمع} أي : الأمر والشأن استمع للقرآن {نفر من الجن} ، وهم جن نصيبين ، كما تقدّم في
١٥٢
الأحقاف ، وكانوا متمسكين باليهودية. والنفر ما بين الثلاثة والعشرة. والجن عاقلة خفية ، يغلب عليهم الناري والهوائية ، وقيل : روح من الأرواح المجرّدة. وفيه دلالة على أنه صلى الله عليه وسلم لم يشعر بهم وباستماعهم ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته ، فسمعوها ، فأخبره الله تعالى بذلك ، فهذه غير الحكاية التي حضر معهم ، ودعاهم ، وقرأ عليهم سورة الرحمن ، كما في حديث ابن مسعود. {فقالوا} أي : المستمِعون حين رجعوا إلى قومهم : {إِنَّا سمعنا قرآناً} ؛ كتاباً {عجباً} ؛ بديعاً ، مبايناً لكلام الناس في حُسن النظم ورقّة المعنى. والعجب : ما يكون خارجاً عن

العادة ، وهو مصدر وصف به للمبالغة.

}

(١٧٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥٢

يهدي إلى الرُّشْد} ؛ إلى الحق والصواب ، {فآمنّا به} أي : بذلك القرآن ، ولمَّا كان الإيمان به إيماناً بالله وتوحيده ، وبراءةً من الشرك ، قالوا : {ولن نُشْرِكَ بربنا أحداً} من خلقه ، حسبما نطق به ما فيه من دلائل التوحيد ، ويجوز أن يكون الضمير في " به " لله تعالى ؛ لأنَّ قوله : (بربنا) يُفسّره.

{وأنه تعالى جَدُّ ربِّنا} أي : ارتفع أو تنَزّه عظمة ربنا ، أو سلطانه ، أو غناه ، يُقال : جَدّ فلان في عيني إذا عَظُم ، ومنه قول عمر : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ في عيننا ، أي : عظم في عيوننا ، {ما اتخذَ صاحبةً} ؛ زوجة {ولا ولداً} كما يقول كفار الجن والإنس ، والمعنى : وصفوه بالاستغناء عن الصاحبة والولد ؛ لعظمته وسلطانه ، أو لغناه ، وقُرىء " جَدًّا " على التمييز ، أي : أنه تعالى ربنا جَداً ، وقُرىء بكسر الجيم ، أي : تنزّه صِدق ربوبيته ، وحق إلهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد ، وذلك أنهم لمَّا سمعوا القرآن ، واهتدوا للتوحيد والإيمان ، تنبّهوا للخطأ فيما اعتقده كفرة الجن من تشبيهه تعالى بخلقه في اتخاذ الصاحبة والولد ، فاستعظموه ونزّهوه تعالى عنه. {وأنه كان يقول سفيهُنا} أي : جاهلنا من مردة الجن ، أو إبليس ؛ إذ ليس فوقه سفيه ، {على الله شططاً} أي : قولاً ذا شطط ، أي : بُعدٍ وجورٍ ، وهو الكفر ؛ لبُعده عن الصواب ، من : شطت الدار : بَعُدت ، أو : قولاً مجاوزاً للحدّ ، بعيداً عن القصد ، أو هو شطط في نفسه ؛ لفرط بُعده عن الحق ، وهو نسبة الصاحبة والولد لله تعالى.

والشطط : مجاوزة الحدِّ في الظلم وغيره. {وأنَّا ظننا أن لن تقول الإنسُ والجنُّ على الله كذباً} أي : قولاً كذباً أو مكذوباً فيه ، أي : كان في ظننا أنَّ أحداً لن يكذب على الله بنسبة الصاحبة والولد ، فكنا نصدقهم فيما أضافوا إليه حتى تبيّن لنا بالقرآن كذبهم.

{وأنه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجالٍ من الجن} ، كان الرجل من العرب إذا نزل بوادٍ قفرٍ وخافَ على نفسه ، يقول : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ، يريد

١٥٣

الجن وكبيرهم ، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا : سُدنا الإنس والجنّ ، وذلك قوله تعالى : {فزادوهم} ؛ زاد الإنسُ والجنَّ باستعاذتهم بهم {رَهَقاً} : طغياناً وسفهاً وتكبُّراً وعتواً ، أو : فزاد الجنُّ والإنسَ رهقاً : إثماً وغيًّا ؛ بأن أضلوهم ، حتى استعاذوا بهم. {وأنهم} أي : الجن {ظنوا كما ظننتم} يا أهل مكة {أن لن يبعثَ اللهُ أحداً} بعد الموت ، أي : إنَّ الجن كانوا يُنكرون البعث كإنكاركم يا معشر

الكفرة ، ثم بسماع القرآن اهتدوا ، وأقرُّوا بالبعث ، فهلاّ أقررتم كما أقرُّوا ؟ ! أو : ظنوا ألن يبعث اللهُ رسولاً من الإنس. وبالله التوفيق.

الإشارة : كما كانت تسمع الجنُّ من الرسول صلى الله عليه وسلم وتأخذ عنه ، كذلك تسمع من خلفائه من الأولياء والعلماء الأتقياء ، فهي تحضر مجالسَ الذكر والتذكير والعلم ، على حسب ما يطلب كلُّ واحد منهم ، وقد حدثني بعضُ أصحابنا أنه بات في موضع خالٍ ، فأتاه رجلان من الجن وتحدّثا معه ، وأخبره أنهما من الجن نازلان مع قومهما في ذلك الموضع ، وقالا له : إنا لنحضر مجلس شيخكما. أي : مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنه. ونسمع منه. هـ. ففيهم الأولياء ، والعلماء ، والقُراء ، وسائر الطرائق ، كما يأتي في قوله : {طرائق قِدداً}. وقال الورتجبي : خلق اللهُ بعض أوليائه من الجن ، لهم أرواح ملكوتية ، وأجسام روحانية ، وهم إخواننا في المعرفة ، يُطيعون اللهَ ورسوله ، ويُحبون أولياءه ، ويستنُّون بسنّة نبينا صلى الله عليه وسلم ، ويسمعون القرآن ، ويفهمون معناه ، وبعضهم شاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم وسمعوا كلام الحق منه شِفاهاً ، وخضعوا له إذعاناً ، واستبشروا برَوح الله ، ورَوح قضائه استبشاراً. هـ. قلتُ : ومعرفة الآدمي أكمل ؛ لاعتدال بشريته وروحانيته ، والجن الغالب عليه الانحراف للطافة بشريته واحتراقها.

وقوله تعالى : {يهدي إلى الرُشد} ، قال الجنيد : يهدي إلى الوصول إلى الله ، وهو الرشد. هـ. وقال الورتجبي : يهدي إلى معدن الرشد ، وهو الذات القديم. هـ. وقوله تعالى : {وأنه تعالى جَدُّ ربنا...} الخ ، أي : تنزهت عظمة ربنا الأزلية ، عن اتخاذ الصاحبة والولد ، إنما اتخاذ الصاحبة والولد من شأن عالم الحكمة ، ستراً لأسرار القدرة ، فافهم. وقال الجنيد : ارتفع شأنه عن أن يتخذ صاحبة أو ولداً. هـ.

والشطط الذي يقوله السفيه الجاهل هو وجود السوي مع الحق تعالى ، وهو أيضاً الكذب الذين ظنّت الجن أن لن يُقال على الله ، ولذلك قال الشاعر :

مُذْ عَرِفْتُ الإِلَهَ لَمْ أَرَ غَيْراً

وَكَذّا الْغَيْرُ عندنا مَمنوعُ

وقال بعض العارفين : لو كُلفت أن أشهد غيره لم أستطيع ، فإنه لا شيء معه حتى أشهده. هـ. وكل مَن استعاذ بغير الله فهو ضال مضل ، وكل مَن أنكر النشأة الأخرى فهو تالف ملحد.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥٢
يقول الحق جلّ جلاله ، حاكياً عن الجن : {وأنَّا لمسنا السماءَ} أي : طلبنا بلوغ السماء ، واستماع كلام أهلها ، واللمس ، : المسُ ، استعير للطلب لأن الماسّ طالب متعرّف ، {فوجدناها مُلِئتْ حَرَساً} أي : حُراساً ، اسم جمع ، كخدم ، مفرد اللفظ ، ولذلك قيل : {شديداً} أي : قوياً ، أي : وجدنا جمعاً أقوياء من الملائكة يحرسونها ، {و} ملئت أيضاً {شُهباً} : جمع شهاب ، وهي الشعلة المقتبسة من نار الكواكب ، {وأنَّا كنا نقعُدُ منه} أي : من السماء ، قبل هذا الوقت ، {مقاعِدَ للسمعِ} ، لاستماع أخبار السماء ، يعني : كنَّا نجد بعض السماء خالية من الحرس والشُهب قبل المبعث ، فنقعد نسترق ، وقد فسّر في الحديث صفة قعود الجن ، وأنهم كانوا واحداً فوق واحد ، فمتى احترق الأعلى طلع الذي تحته مكانه ، فكانوا يسترقون الكلمة ، فيُلقونها إلى الكُهان ، ويزيدون معها ، ثم يزيد الكُهانُ للكلمة مائة كذبة.

هذا قبل المبعث ، وأمّا بعده فأشار إليه بقوله : {فمَن يستمعِ} ؛ يريد الاستماع {الآنَ} بعد المبعث {يجدْ له شِهَاباً رصداً} أي : شهاباً راصداً له ولأجله ، يصده عن الاستماع ، أو هو اسم جمع لراصد ، على معنى : ذوي شهاب راصدين بالرجم ، وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشُهب ، ويمنعونهم من الاستماع ، والجمهور على أن ذلك لم يكون قبل مبعث نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقيل : كان الرجم في الجاهلية ، ولكن الشياطين كانت تسترق في بعض الأوقات ، فمُنعوا من الاستراق أصلاً بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم. قلت : وهذا هو الظاهر ، وأنّ الرمي كان موجوداً قبل البعثة ، إلاَّ أنه قليل ، وأشعار الجاهلية محشوة بذلك. انظر الثعلبي. ورُوي في بعض الأخبار : أنّ إبليس كان يسترق السمع من السموات ، فلما وُلد عيسى عليه السلام وبُعث ، حُجبت الشياطين عن ثلاث سموات ، فلما وُلد محمد صلى الله عليه وسلم حُجبت عن السموات كلها ، وقُذفت بالنجوم ، هـ.

(١٨١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥٥
وذكر أبو جعفر العقيلي ، بإسناد له إلى لهب بن مالك ، قال : حضرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عنده الكهانة ، فقلت : بأبي أنت وأمي ؛ نحن أول مَن عرف حراسة السماء ، ورصد الشياطين ، ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم ، وذلك أنا جئنا إلى كاهن لنا ، يُقال له " خطل " ، وكان شيخاً كبيراً ، قد أتت عليه مائتا سنة وثمانون سننة ، فقلنا : يا خطل ؛ هل عندك علم بهذا النجوم التي يُرمى بها ، فإنّا قد فزعنا منها ، وخفنا سوءَ عاقبتها ، فقال : ائتوني بسَحَر أُخبركم

الخبر ، أَلِخَيْر أم ضرر ، أم لأمن أو حذر ،

١٥٥

فأتيناه غداً عند السحَر ، فإذا هو قائم على قدميه ، شَاخص إلى السماء بعينيه ، فناديناه : يا خطل ، فأومأ إلينا : أن أمسكوا ، فأنقضّ نجم عظيم من السماء ، وصرخ الكاهن رافعاً صوته : أصابه إصابة ، خامره عقابه ، عاجله عذابه ، أحرقه شهابه ، ثم قال : يا معشر قحطان ، أخبركم بالحق والبيان ، أُقسم بالكعبة والأركان ، لمُنع السمع عُتَاةٌ الجان ، لِمولود عظيم الشأن ، يُبعث بالتنزيل والقرآن ، وبالهدى وفاصل الفرقان ، يَمنع من عبادة الأوثان. فقلنا : ما ترى لقومك ؟ فقال : أرى لقومي ما أرى لنفسي ، أن يتبعوا خير نبي الإنس ، برهانه مثل شعاع الشمس ، يُبعث من مكة دارَ الحُمْس ، يحكم بالتنزيل غير اللبس ، فقلنا : وممَّن هو ؟ فقال : والحياة والعيش ، إنه لمن قريش ، ما في حلمه طيش ، ولا في خَلقه هيش ، يكون في جيش ، وأيّ جيش!! فقلنا : بَيِّن لنا مِن أي قريش هو ؟ فقال : والبيت ذي الدعائم ، والديار والحمائم ، إنه لمن نجل هاشم ، من معشرٍ أكارم ، يُبعث بالملاحم ، وقتلِ كل ظالم ، هذا البيان ، أخبرني به رئيس الجان ، ثم قال : الله أكبر ، جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبر. هـ.

{وأنَّا لا ندري أَشَرٌّ أُريد بمَن في الأرض} بحراسة السماء ، {أم أراد بهم ربُّهم رشداً} ؛ خيراً ورحمة ، ونسبة الخير إلى الله تعالى دون الشر من الآداب الشريفة القرآنية ، كقوله تعالى : {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء : ٨٠] وقوله : {مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [النساء : ٧٩] بعد أن ذكر ما في نفس الأمر بقوله : {قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللهِ} [النساء : ٧٨].

الإشارة : إذا كان اللهُ تعالى قد حفظ السماء من استراق السمع ، فقلوب أوليائه أولى بأن يحفظها من خواطر السوء ، فإذا تَوَلَّى عبداً حَفِظ قلبه من طوارق الشك ، وخواطر التدبير ، وسوء الأدب مع الربوبية ، فيملؤه باليقين والطمأنينة ، ويهبُّ عليه برد الرضا ونسيم التسليم ، فيخرج عن مراد نفسه إلى مراد مولاه ، في كل وجهة وعلى كل حال. جعلنا الله مِن أهل هذا القبيل ، بمنّه وكرمه.

(١٨٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥٥

يقول الحق جلّ جلاله ، في مقالة الجن : {وأنَّا منا الصالحون} أي : الموصوفون بصلاح الحال ، في شأن أنفسهم مع ربهم ، وفي معاملتهم مع غيرهم ، {ومنا دونَ ذلك}

١٥٦

أي : ومنا قوم دون ذلك ، وهم المقتصدون في الصلاح ، غير الكاملين فيه على الوجه المذكور ، لا

في الإيمان والتقوى ، كما يتوهم ، فإن هذا بيان لحالهم قبل استماع القرآن ، كما يُعرب عنه قوله تعالى : {كنا طرائِقَ قِدداً} أي : مذاهب متفرقة ، وأدياناً مختلفة ، وأما حالهم بعد استماعهم ، فسيحكي بقوله تعالى : {وأنا لَمَّا سمعنا الهدى...} الخ ، أي : كنا قبل هذا ذوي طرائق ، أي : مذاهب {قِدَداً} أي : متفرقة مختلفة ، جمع قِدّة ، من : قَدَّ إذا شقّ ، كقِطعة من قطع. قاله أبو السعود.
وقال الثعلبي : {وأنَّا منا الصالحون} السبعة الذين استمعوا القرآن ، {ومنا دون ذلك} دون الصالحين ، {كنا طرائق قددا} أهواء مختلفة ، وفِرقاً شتى ، كأهواء الإنس ، قيل : وقوله : {وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك} ، يعنون بعد استماع القرآن ، أي : منا بررة أتقياء ، ومنا دون البررة ، وهم مسلمون ، وقيل : معناه : مسلمون وغير مسلمين ، قال المسيب : كانوا مسلمين ويهوداً ونصارى ، وقال السدي : {طرائق قددا} قال : في الجن مثلكم ، قدرية ، ومرجئة ، ورافضة ، وشيعة. هـ. والحاصل : أن " دون " صفة لمحذوف ، وهي إمّا أن تكون بمعنى الأدون ، فيكون الجميع مسلمين ، لكنهم متفاوتون ، أو بمعنى " غير " فيكون المعنى : منا المسلمون ومنا غير المسلمين ، كنا مذاهب متفرقة ؛ نصارى ويهود ومجوس كالإنس ، والظاهر : أنه قبل استماع القرآن ، بدليل ما يأتي في قوله : {وأنَّا لمَّا سمعنا الهُدى...} الخ.
{وأنَّا ظننا} أي : تيقَّنَّا {أن لن نُّعْجِزَ اللهَ} أي : أن الشأن لن نفوت الله ونسبقه ، و {في الأرض} : حال ، أي : لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها ، {ولن نُّعجِزَه هَرَباً} : مصدر في موضع الحال ، هاربين منها إلى السماء ، أي : فلا مهرب منه تعالى إن طلبنا ، لا في أرضه ولا في سمائه. {وأنَّا لمَّا سمعنا الهُدى} ؛ القرآن {آمنا به} ؛ بالقرآن ، أو بالله تعالى ، {فمَن يؤمن بربه فلا يخافُ} أي : فهو لا يخاف {بَخْساً} ؛ نقصاً {ولا رَهَقَا} أي : ولا ترهقه ذلة ، كقوله : {وَلآ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلآ ذِلَّةٌ} [يونس : ٢٦] ، وفيه دليل على أنَّ العمل ليس من الإيمان ، وأنَّ المؤمن لا يخلد في النار.
}

(١٨٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥٦
وأنَّا منا المسلمون} ؛ المؤمنون ، {ومنّا القاسِطون} ؛ الجائرون عن طريق الحق ، الذي هو الإيمان والطاعة ، وهم الكفرة {فمَن أسلم فأولئك تَحَروا رَشَداً} ؛ طلبوا هدى. والتحرّي : طلب الأحرى ، أي الأَولى ، وجمع الإشارة باعتبار معنى " مَن " ، {وأمَّا القاسطون} ؛ الحائدون عن الإسلام ، {فكانوا} في علم الله {لِجهنم حَطَباً} ؛ وقوداً ، وفيه دليل على أنَّ الجنِّي الكافر يُعذّب في النار وإن كان منها ، والله أعلم بكيفية عذابه ، وقد تقدّم أنّ المشهور أنهم يُثابون على طاعتهم بالجنة ، قال ابن عطية : في

قوله تعالى : {فمَن أسلم.. } الخ ، الوجه فيه : أن تكون مخاطبة مِن الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده ما بعده من الآيات. هـ.

١٥٧

{وأن لو استقاموا} أي : القاسطون {على الطريقة} ؛ طريقة الإسلام {لأسْقيناهم} المطر {ماءً غَدَقاً} أي : كثيراً ، والمعنى : لوسّعنا عليهم الرزق. وذكر الماء الغَدَق ؛ لأنه سبب سعة الرزق ، {لِنفتنَهم فيه} ؛ لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خُوِّلوا منه. وفي الحديث القدسي يقول الله عزّ وجل : " لَوْ أنَّ عِبادِي أطاعوني لأسْقَيتُهم المطرَ باللَّيْل ، وأَطْلَعتُ عليهمُ الشمس بالنهار ، ولم أَسمِعهم صوت الرعد " ، وهذا كقوله تعالى : {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ} [الأعراف : ٩٦] ، وقيل : المعنى : وأن لو استقاموا على طريقة الكفر لأسقيناهم ماءً غدقاً ، استدراجاً ، {لِنفتنَهم فيه} فإذا لم يشكروا أهلكناهم ، وهذا كقوله تعالى : {وَلَوْلآ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةَ وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا...} [الزخرف : ٣٣] الخ. والأول أظهر ، بدليل قوله : {ومَن يُعرض عن ذكر ربه} ؛ القرآن أو التوحيد أو العبادة ، {نسلكه} ؛ ندخله ، أو يدخله الله {عذاباً صعداً} ؛ شاقًّا صعباً ، يعلو المعذّب ويغلبه ويصعد عليه ، ومنه قول عمر رضي الله عنه : ما تصَعَّدني شيءٌ ما تصعّدتني خِطبة النكاح ، أي : ما شقَّ عليّ. وهو مصدر وصف به ، مبالغة ، فعلى قول ابن عطية أنَّ قوله تعالى : {فمَن أسلم} من مخاطبة الله لنبيه عليه السلام ، فيكون قوله : {وأن لو استقاموا} من تتمة الخطاب ، فلا تقدير ، وإذا قلنا : هو من قول الجن ، فالتقدير : وأوحي إليَّ أن لو استقاموا... الخ.

(١٨٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥٦

الإشارة : تقدّم أنَّ الجن فيهم الصالحون والعارفون ، إلاّ أنَّ معرفة الآدمي أكمل ؛ لاعتداله ، وأما دوائر الأولياء من الأقطاب ، والأوتاد ، والنقباء ، والنجباء ، وغير ذلك ، فلا تكون إلاّ من الإنس ؛ لشرفهم.
قوله تعالى : {وأنا ظننا ألن نُعجز اللهَ في الأرض...} الخ ، أي : تيقّنا ألاّ مهرب منه ، فرجعنا إليه اختباراً ، فنحن ممن انقاد إليه بملاطفة الإحسان ، لا بسلاسل الامتحان ، {وأنَّا لمّا سمعنا الهُدى آمنا} أي : أجبنا الداعي بلا تلَعْثم ولا تردد ، وكذا في كل داعٍ بعد الداعي الأكبر ، فيكون السابقون في كل زمان ، وهؤلاء سابِقو الجن ومقربوهم ، فمَن يؤمن بربه ، ويتوجه إليه ، فلا يخاف نقصاً ولا ذُلاًّ ، بل كمالاً وعِزًّا ، من أي فريق كان ، وأنّا منا المسلمون المنقادون لأحكامه تعالى ، التكليفية والتعريفية ، وهي الأحكام القهرية ، فمَن استسلم ورَضِي فقد تحرّى رشداً ، ومَن قنط وسخط كان لجهنم حطباً ، وأن لو استقاموا على الطريقة المرضية بالرضا والتسليم ، وترك الاختيار ؛ لأسقيناهم من خمرة الأزل ،

ومن ماء الحياة ، ماءً غدقاً ، تحيا به قلوبهم وأرواحهم ، فيتنعّمون في شهود الذات الأقدس في الحياة وبعد الممات. قال القشيري : الاستقامة تقتضي إكمالَ النعمةِ ، وإكساب الراحة ، والإعراضُ عن الله يُجب تَنَقُّصَ النعمة ودوام العقوبة. هـ.

١٥٨

وقوله : {لِنفتنهم} ؛ لنختبرهم ، مَن يعرف قدرها فيشكر ، أو لا يعرف قدرها فيُنكر ، فيُسلب من حيث لا يشعر. والله تعالى أعلم.

{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللَّهِ أَحَداً وَأَنَّهُ لَّمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاَتِهِ...}

يقول الحق جلّ جلاله : {وأنَّ المساجدَ لله} أي : ومن جملة ما أُوحي إليَّ : أنَّ المساجد ، أي : البيوت المبنية للصلاة فيها هي لله ، وقيل : معناه : ولأنّ المساجد لله {فلا تدعوا} ، على أنَّ اللام متعلّقة بـ " تدعوا " ، أي : فلا تدعوا {مع الله أحداً} في المساجد ؛ لأنها خالصة لله ولعبادته ، فلا تعبدوا فيها غيره تعالى ، ولا تفعلوا فيها إلا ما هو عبادة. وقيل : المراد : المسجد الحرام ، والجمع ؛ لأن كل ناحية منه مسجد له قبلة مخصوصة ، أو لأنه قبلة المساجد ، وقيل : الأرض كلها ؛ لأن جُعلت للنبي صلى الله عليه وسلم مسجداً وطهوراً ، وقيل : أعضاء السجود السبعة التي يسجد عليها العبد ، وهي : القدمان ، والركبتان ، واليدان ، والوجه ، يقول : هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك ، فلا تسجد عليها لغيره ، فتجحد نِعَمه ، ولا تذلها لغير خالقها. فإن جعلت المساجد المواضع ، فواحدها مسجِد بكسر الجيم ، وإن جعلت الأعضاء ، فبفتح الجيم.

}

وأنه} أي : ومما أوحي إليّ أن الشأن {لمَّا قام عبدُ الله} ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم {يدعوه} ؛ يعبده في الصلاة ، ويقرأ القرآن في صلاة الفجر ، كما تقدم في الأحقاف ، ولم يقل : نبي الله ، أو

رسول الله ؛ لأنَّ العبودية من أشرف الخصال ، أو : لأنه لمّا كان واقعاً في كلامه صلى الله عليه وسلم عن نفسِه جيء به على ما يقتضيه التواضع ، أو : لأنَّ عبادة عبد الله ليست بأمر مستبعد حتّى يجتمعوا عليه ، كما قال : {كادوا} أي : كاد الجن {يكونون عليه لِبداً} ؛ جماعات متراكبين من ازدحامهم عليه ، تعجُّباً مما رأوا من عبادته ، واقتداء أصحابه به ، أو إعجاباً مما تلي من القرآن ؛ لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا ما لم يسمعوا بنظيره. وقيل : معناه : لمَّا قام عليه السلام يعبد اللهَ وحدَه مخالفاً للمشركين ، كادوا يزدحمون عليه متراكبين. واللبدّ : جمع لبدة ، وهي ما تلبّد بعضه على بعض. وعن قتادة : تلبّدت الإنس والجن على أن يُطفئوا نوره ، فأبى اللهُ إلاَّ أن يُظهره على مَن ناوأه. قال ابن

عطية : قوله تعالى : (وأنه...) الخ ، يحتمل أن يكون خطاباً من الله تعالى ، وأن يكون إخباراً عن الجن. {قال إنما أدعو} أي أعبد {ربي ولا أُشرك به} في عبادتي {أحداً} ، فليس ذلك ببدع ولا بمستنكر يوجب التعجُّب أو الإطباق على عداوتي ، وقرأ عاصم وحمزه " قل " بالأمر ، ثم تبرّأ من مِلك الضر والنفع لأحد ولا لنفسه ، وأنَّ ذلك لله وحده ، فلا يُعبد إلاَّ إياه ، فقال : {قل إني لا أملك لكم ضرًّا ولا رَشَداً} ، والأصل : لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً ، ولا غيًّا ولا رشداً ، فترك من كلا المتقابلين ما ذكر في الآخر ، أو أراد بالضر : الغي ، أي : لا أستطيع أن أضركم ولا أنفعكم ؛ إذ ليس من وظيفتي إلاَّ الإنذار. {قل إني لن يُجيرني من الله أحدٌ} أي : لن يدفع عني عذابه إن عصيته ، كقول صالح عليه السلام : {فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ} [هود : ٦٣] ، {ولن أجد من دونه مُلتحداً} ؛ مُلتجئاً {إلا بلاغاً من الله} ، استثناء من {لا أملك} أي : لا أملك لكم شيئاً إلا تبليغ الرسالة ، و {قل إني لن يجيرني} : اعتراض لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه ، وبيان عجزه ، وقيل : {بلاغاً} : بدل من {ملتحداً} ، أي : لن أجد من دونه ملجأ إلاّ أن أُبلّغ عنه ما أرسلني به ، أي : لا ينجيني إلاَّ أن أُبلغ عن الله ما أُرسلت به فإنه ينجيني ، وقوله : {ورسالاته} : عطف على " بلاغاً " ، كأنه قيل : لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات ، أي : إلاّ أن أُبلغ عن الله ، فأقول قال الله كذا ، ناسباً قوله إليه ، وأن أُبلّغ رسالاته التي أرسلني بها ، بلا زيادة ولا نقصان و(مِن) ليست صلة للتبليغ ، إنما هي بمنزلة (مِن) في قوله : {بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ} [التوبة : ١] أي : بلاغاً كائناً من الله وتبليغ رسالاته ، قاله النسفي. والله تعالى أعلم.

(١٨٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥٩

الإشارة : وأنَّ مساجد الحضرة لله ، والحضرة : شهود الذات الأقدس وحدها ، فلا تدعوا مع الله أحداً

، أي : لا تَروا معه غيره ، فتخرجوا من حضرته ، وأنه لمّا قام عبدُ الله ، وهو الداعي إلى الله في كل زمان يدعوه ، ويدعو إليه ، كادوا يكونون عليه لِبداً ، إمّا متعجبين منه ، أو مقتبسين من أنواره ، قال : إنما أدعو ربي ولا أُشرك به شيئاً ، قل يا أيها الداعي لتلك اللبد ، لا أملك لكم من الله غيًّا ولا رشداً ، إلاَّ بلاغاً ، أي إنذاراً وتبليغ ما كُلفت به ، فإنما أنا أدعو ، والله يهدي على يدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم ، قل يا أيها الداعي : إني لن يُجيرني من الله أحد إن قَصّرت في الدعوة أو أسأت الأدب ، ولن أجد من دونه ملتجأ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وبال مَن ردّ الرسالة ، فقال :

{...وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً حَتَّا إِذَا

١٦٠

رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً قُلْ إِنْ أَدْرِيا أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّيا أَمَداً عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىا غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىا مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىا كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً}. يقول الحق جلّ جلاله : {ومَ يعص اللهَ ورسولَه} في رد رسالته ، وعدم قبول ما جاء به الرسول ، {فإنَّ له نارَ جهنمَ} ، وقُرِىء بفتح الهمزة ، أي : فحقه ، أو فجزاؤه أنّ له نار جهنم ، {خالدين فيها} أي : في النار {أبداً} ، وحّد في قوله " له " وجمع في " خالدين " للفظ (من) ومعناه. {حتى إذا رَأَوا ما يوعدون} ، متعلق بمحذوف ، يدل عليه الحال من استضعاف الكفار لأمره صلى الله عليه وسلم ، واستقلالهم لعدده ، كأنه قيل : لا يزالون على ما هم عليه ، {حتى إّذا رَأَوا ما يُوعدون} من فنون العذاب في الآخرة {فسيعلمون} عند حلول العذاب بهم {مَن أَضْعَفُ ناصراً وأقلُّ عدداً} أهم أم المؤمنون ؟ بل الكفار لا ناصر لهم يؤمئذ ، والمؤمنون ينصرهم الله ويُعزّهم. وحُمل {ما يوعدون} على ما رأوه يوم بدر ، ويُبعده قوله تعالى : {قل إن أدرِي أقريب ما تُوعَدُون} من العذاب ، {أم يجعل له ربي أمداً} ؛ غاية بعيدة ، يعني : أنكم معذَّبون قطعاً ، ولكن لا أدري أهو حالّ أم مؤجّل ؟

}

(١٨٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥٩

عالِمُ الغيبِ} أي : هو عالم الغيب ، {فلا يُظْهِر} ؛ فلا يُطلع {على غيبه أحداً إلاّ مَن ارتضى من رسولٍ} أي : إلاَّ رسولاً قد ارتضاه لِعلْمِ بعض الغيب ؛ ليكون إخباره عن الغيب معجزةً له ، والولي إذا أخبر بشيء فظهر فهو غير جازم به ، وإنما أخبر به بناءً على رؤيا ، أو بالفراسة ، أو بتجلّ قلبي ، على

أنّ كل كرامة لوليّ فهي معجزة لنبيه. قال بعضهم : وفي هذه الآية دلالة على تكذيب المنجّمة ، وليس كذلك ، فإنَّ فيهم مَن يَصدق خبره ، وكذلك المتطببة ، فإنهم يعرفون طبائع النبات ، وذا لا يُعرف بالتأمُّل ، فعلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسول انقطع أثره ، وبقي علمه في الخلق. قاله النسفي.
فتحصّل : أنّ إطلاع النبي على الغيب قطعي ، وغيره ظني.
وقال أبو السعود : وليس في الآية ما يدلّ على نفي كرامات الأولياء المتعلقة بالكشف ، فإنّ اختصاص الغاية القاصية من مراتب الكشف بالرسل لا يستلزم عدم حصول مرتبةٍ ما من تلك المراتب لغيرهم أصلاًن ولا يدعي أحدٌ لأحدٍ من الأولياء ما في رتبة الرسل عليهم السلام من الكشف الكامل الحاصل بالوحي الصريح. هـ. وفيه تعريض بالزمخشري ، فإنه استدل بالآية على نفي كرامات الأولياء ، قال : لأنَّ الله خصّ الاطلاع على الغيب بالرسل دون غيرهم. قال بعض العلماء : ولا غرابة في إنكار معظم المعتزلة لكرامات الأولياء ؛ إذ هم لم يُشاهدوا في جماعتهم الضالة المضلة ولياً لله تعالى قط ، فكيف يعرفون الكرامة ؟ !!. هـ.
١٦١
{فإنه يَسْلُكُ} ؛ يدخل {مِن بين يديه} أي : الرسول ، {ومِن خلفه} عند إظهاره على غيبه ، {رَصَداً} ؛ حفظة وحَرَساً من الملائكة يحفظونه من تعرُّض الشيطان ، لما أظهره عليه من الغيوب ، ويعصمونه من وساوسهم ، وتخاليطهم حتى يُبلغ الوحي ، {ليعلم} اللهُ عِلْمَ شهادة {أن قد أَبلغوا} أي : الرسل {رسالات ربهم} كاملة ، بلا زيادة ولا نقصان ، إلى المرسَل إليهم ، أي : ليعلم ذلك على ظهور ، وقد كان يعلم ذلك قبل وجوده. ووحّد الضمير في " يديه وخلفه " ؛ مراعاة للفظ (مَن) ، وجمع في (أَبلَغوا) لمعناه ، و " أن " مخففة من الثقيلة ، واسمها : ضمير الشأن ، والجملة خبرها ، {وأحاط} الله تعالى {بما لديهم} أي : بما عند الرسل من العلم {وأحْصَى كُلَّ شيءٍ عَدَداً} ، من القطر ، والرمل ، وورق الأشجار ، وزبد البحر ، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه ؟ ! و " عدداً " : حال ، أي : علم كلّ شيءٍ معدوداً محصوراً ، أو مصدر ، أي : أحصاه إحصاءً.

(١٨٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥٩
الإشارة : ومَن يعص اللهَ ورسولَه ، أو خليفته الداعي إلى الله بطريق التربية النبوية ، فإنَّ له نار القطيعة ، خالدين فيها أبداً ، وقد كانوا في حال حياتهم يستظهرون عليه بالدعاوى الفارغة ، وكثرة الأتباع ، حتى إذا رأوا ما يُوعدون من أمارات الموت ، فسيعلمون مَن أضعف ناصراً وأقل عدداً ، قل : إن أدري أقريب ما تُوعدون من الموت ، أم يجعل له ربي أمداً ، ولا بد أن ينتهي ، ويقع الرحيل إلى دار تنكشف فيها

السرائر ، ويُفضح فيها الموعود. عالم الغيب ، أي : يعلم ما غاب عن الحس من أسرار ذاته وأنوار ملكوته ، أي : يعلم أسرار المعاني القائمة بالأواني ، فلا يظهر على غيبه أحداً ، أي : لا يكشف عن اسرار ذاته في دار الدنيا إلاّ لمَن ارتضى من رسول ، أو نائبه ، وهو العارف الحقيقي ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رَصَداً ، أي : يحفظه من جميع القواطع ، من كل جهاته ، حتى يوصله إلى حضرة أسرار ذاته ، ليظهر أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ودعوا الناس إلى معرفة ذاته ، وقد أحاط تعالى بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

١٦٢

(١٩٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥٩

سورة المزمل

(١٩١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٦٢

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها المزَّمِّلُ} أي : المتزمّل ، وهو الذي تزمّل في ثيابه ، أي : التفّ بها ، بإدغام التاء في الزاي. قال السهيلي : المزمّل : اسم مشتق من الحال التي كان عليها صلى الله عليه وسلم حين الخطاب ، وكذلك المُدَّثِر. وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان : إحداهما الملاطفة ؛ فإنّ العرب إذا قصدت ملاطفةَ المخاطَب ، وتَرْكَ عتابه ، سَمَّوه باسم مشتق من حالته ، كقوله صلى الله عليه وسلم لعليّ حين غاضب فاطمة : " قم أبا تراب " إشعاراً له أنه غير عاتب عليه ، وملاطفةَ له.
والفائدة الثانية : التنبيه لكل متزمّل ، راقد ليله ، لينتبه إلى قيام الليل وذكرِ الله فيه ؛ لأنّ الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه المخاطَب ، وكل مَن عمل بذلك العمل ، واتصف بتلك الصفة. هـ.
وكان صلى الله عليه وسلم ذات ليلة متزمِّلاً في ثيابه نائماً ، فنزل جبريل يأمره بقيام الليل بقوله : {قُمْ الليلَ} أي : قُم للصلاة بالليل ، ف " الليل " نصب على الظرفية ، و {إلاَّ قليلاً} : استثناء من الليل ، و {نِصْفَه} : بدل من " الليل " الباقي بعد الثنيا ، بدل الكل ، أي : قُم نصفه ، أو : مِن " قليلاً " ، والتعبير عن النصف المخرج بالقليل لإظهار كمال الاعتداد بشأن الجزء المقارن للقيام ، والإيذان بفضله ، وكون القيام فيه بمنزلة القيام في أكثره في كثرة الثواب.

١٦٣

{أو انقُصْ منه} ؛ من النصف نقصاً {قليلاً} إلى الثلث ، {أو زِدْ عليه} ، على النصف إلى الثلثين ، فالمعنى : تخييره صلى الله عليه وسلم بين أن يقوم نصفَه أو أقلّ منه أو أكثر. وقيل : " نصفه " بدل من " الليل " ، و " إلاّ قليلاً " مستثنى من النصف ، فالضمير في " منه " و " عليه " للنصف ، والمعنى : التخيير بين أمرين ، بين أن يقوم أقل من نصف على البت ، وبين أن يختار أحد الأمرين ، وهما النقصان من النصف ، والزيادة عليه ، والذي يليق بجزالة التنزيل هو الأول. أنظر أبا السعود.

(١٩٢/٨)

والجمهور : أن الأمر هنا للندب ، وقيل : كان فرضاً وقت نزول الآية ، وقيل : كان فرضاً على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وبقي كذلك حتى تُوفي.

{وَرَتِّلِ القرآن} في أثناء قيامك بالليل ، أي : اقرأه على تُؤدة وتبيين حروفٍ ترتيلاً بليغاً بحيث يتمكن السامع مِن عَدِّها ، من قولهم : ثغر رَتَل : إذا كان مفلّجاً. وترتيلُ القرأن واجب ، فمَن لم يرتِّله فهو آثم إذا أخلَّ بشيء من أداء التجويد ، كترك الإشباع أو غيره. والمقصود من الترتيل : تدبُّر المعاني ، وإجالة الفكر في أسرار القرآن. قال في الإحياء : واعلم أنّ الترتيل أشد تأثيراً في القلب من الهذرمة والاستعجال ، والمقصود من القرآن : التفكُّر ، والترتيلُ مُعين عليه. وسيأتي في الإشارة تمامه إن شاء الله.

{إِنَّا سنُلْقِي} أي : سنُنزل {عليك قولاً ثقيلاً} وهو القرآن العظيم ، المنطوي على تكاليف شاقة ثقيلة على المكلّفين ، أو : ثقيلاً على المنافقين ، أو : ثقيلاً لرزانة لفظه ، ومتانة معناه ، أو : ثقيلاً على المتأمِّل ؛ لافتقاره إلى مزيد تأمُّل وتفرُّغ للسر ، وتجريدٍ للنظر ، أو ثقيلاً في الميزان ، أو ثقيلاً تلقيه من جبريل ، فقد كان عليه السلام ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البردِ ، فَيَفْصِم عنه ، وإنّ جبينه لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً.

{إن ناشئةَ الليلِ} أي : قيام الليل ، مصدر من " نشأ " إذا قام ونهض ، على وزن فاعلة ، كالعافية العاقبة ، أو : إنَّ النفس التي تنشأ مِن مضجعها إلى العبادة ، أي : تنهض ، أو : إن العبادة التي تنشأ بالليل ، أي : تحدث ، أو : ساعات الليل ؛ لأنها تنشأ ساعة فساعة ، وكان زين العابدين يُصلّي بين العشاءين ويقول : هذه ناشئة الليل. قلت : وهذا وقت كان السلف يحرصون على عمارته بأنواع العبادات ؛ لأنه يمحوا ظلمة النهار التي تُكتسب من شغل الدنيا. {هي أشَدُّ وَطْأً} أي : موافقة للقلب. وقرأ البصري والشامي (وِطاء) أي : وِفاقاً ، أي : يوافق فيها القلبُ اللسانَ ، وعن الحسن : أشدّ موافقة بين السر والعلانية ؛ لانقطاع رؤية الخلائق وغيرها ، أو : أشدّ ثباتَ قَدَم وكلفة ، أي : أثقل على

المصلي من صلاة النهار ؛ لطرد النوم في وقته ، من قوله عليه السلام : " اللهم اشْدُدْ وطْأَتَك على مُضَرَ " {وأقْوَمُ قِيلاً} أي : أصْوب مقالاً ، وبه قرأ أنس ، فقيل له : إنما هو

أقوم فقال : أقوم وأصوب واحد ، وإنما كانت قراءة الليل أصوب قولاً ؛ لقلة خطأ اللسان فيها ؛ لتفرُّغه من ثقل الطعام ، وقيل : المعنى : أثبت قراءةً ؛ لحضور القلب ؛ لهدوّ الأصوات ، وانقطاع الحركات.
}

(١٩٣/٨)

إنّ لك في النهار سَبْحاً طويلاً} أي : تصرُّفاً وتقلُّباً في مهمّاتك ، واشتغالاً بتعليم أمتك ، فتفرّغ بالليل لعبادة ربك. {واذكر أسْمَ ربك} أي : دُم على ذكره في الليل والنهار ، على أي وجهٍ ، من تسبيح وتهليل وتكبير ، وقراءة قرآن ، وتدريس علم. {وتبتلْ إليه} أي : انقطع إلى عبادته عن كل شيءٍ ، بمجامع الهمة ، واستغراق العزيمة. والتبتُّل : الانقطاع إلى الله تعالى بتأميل الخير منه دون غيره ، وقيل : رفض الدنيا وما فيها ، والتماس ما عند الله. وأكّده بقوله : {تبتيلا} زيادةً في التحريض ، مع ما فيه من رعاية الفواصل.

{ربُّ المشرقِ والمعربِ} أي : هو رب ، أو : مبتدأ خبره : {لا إله إلاّ هو} ، ومَن قرأه بالجر فبدل من " ربك " ، وقيل : على إضمار القسم ، وجوابه : لا إله إلاّ هو ، أي : وربِّ المشرق لا إله إلا هو ، كقولك : والله لا أحد في الدار. {فاتَّخِذْه وَكِيلا} أي : وليًّا وكفيلاً بما وعدك من النصر والعز. والفاء لترتيب ما قبله ، أي : إذا علمت أنه ملك المشرق والمغرب ، وأن لا إله إلا هو ، فاتخذه كفيلاً لأمورك. {واصبرْ على ما يقولون} في جانبي من الصاحِبة والولد ، وفيك مِن الساحر والشاعر ، {واهجرهم هَجْراً جميلاً} بأن تُجانبهم وتداريَهم ولا تجافهم ، بل كِلْ أمرهم إلى ربهم ، كما يُعرب عنه ما بعده ، أون : جانبهم بقلبك ، وخالِطهم بجسمك مع حسن المخالطة وترك المكافأة ، وقيل : هو منسوخ بآية القتال.

الإشارة : يا أيها المتزمّل بالعلوم والمعارف والأسرار ، قُم الليل شكراً لِما أُسدي إليك من النعم الغزار ، ولذلك لمّا امتثل هذا الأمر بغاية جهده حتى تفطّرت قدماه ، قال : " أفلا أكون عبداً شكوراً " ، وقيام الليل لا يخص بالصلاة ، بل لكل مقام مقال ، فقيام العُبَّاد والزُهَّاد للتهجد والتلاوة والأذكار والاستغفار بالأسحار ، وقيام العارفين لفكرة الشهود والاستبصار ، وهي صلاة القلوب الدائمة.

وقوله تعالى : {ورتِّل القرآنَ ترتيلا} خطاب لأهل التهجُّد ، وهم ألوان مختلفة ، فمنهم مَن يقطع الليل

في سورة أو آية يُرددها ، وهم أهل الخوف المزعِج ، أو الشوق المقلِق ، ومنهم مَن يختم القرآن في مدة قليلة ، فمنهم مَن كان يختمه في كل ليلة في ركعة ، ومنهم مَن كان يختمه في ليلة مرتين ، ومنهم مَن كان يختمه بين الظهر والعصر ، أو بين المغرب والعشاء. وكان أبو حنيفة والشافعي يختمانه في رمضان ستين مرة ، وابن القاسم صاحب مالك تسعين مرة ، وابن عباس مائة مرة ، وكان سليمان بن عمير يختمه

١٦٥

ثلاث ختمات في كل ليلة ، ويجامع أهله بعد كل ختمة. وكان رجل بالمشرق ، يُقال له " أبو عيسى التلمساني " ، يختم القرآن بين اليوم والليلة اثنتي عشرة ألف مرة ، فذكر ذلك بمدينة سبتة ، بحضور الفقيه العزفي ، فقال الفقيه : لون كان يقول : القرآن القرآن ما أتمّ اثنتي عشر ألف مرة ، فاغتاظ الرجل الذي نقل ذلك ، فخرج إلى المشرق ، فأتى ببينةٍ مُصحِّحة من قاض إلى قاض بصحة ذلك.

(١٩٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٦٣

قلت : وهذا من باب الخوارق التي تكون للصالحين ، تطوي لهم مسافة الكلام كما تُطوى لهم مسافة الزمان والمكان ، وقد كان داود عليه السلام تُسرج له دابته ، فيقرأ الزبور قبل أن تُسرج ، كما في الصحيح ، وذكر الفرغاني في شرح التائية : أنَّ رجلاً كان يختم القرآن بين الحِجر إلى الركن اليماني ، فأنكر بعضٌ ذلك عليه ، فأخذ بأذنه وقرأ فيها من الفاتحة إلى الختم ، وهو يسمع حرفاً حرفاً ، فسبحان القادر على كل شيء ؟ !.

وقوله تعالى : {إِنَّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلا} ، قال القشيري : (ثقيلاً) أي : له خطْر ، ويقال : لا يقوى عليه إلاَّ مَن أيّد بقوة سماوية ، ورُبّي في حجر التقريب. هـ. قال الورتجبي : وكيف لا يثقل قولهُ سبحانه وهو قديم ، وأجدر أن تذوب تحت سطوات عزيته الأرواح والأشباح والأكوان والحدثان ، بل هو بذاته يحمل صفاته لا غير ، وكان عليه السلام مؤيداً بالاتصاف بالحق ، فكان يحمل الحق بالحق. هـ. المراد منه. (إنَّ ناشئة الليل) أي : نشأة الفكرة في الليل هي أشد وطأً ، أي : موافقة ، وغرقاً في بحر الذات ، وتيار الصفات ؛ لتفرغ القلب حينئذ من شواغل الحس. وكان الشيخ " أبو يزيد " يخرج كل ليلة إلى الصحراء ، ويبيت واقفاً على أطراف قدميه ، شاخصاً ببصره إلى السماء ، فقال لمَن رآه كذلك : دَوَّرَني الحق تعالى في الفلك العلوي والسفلي ، وأطلعني على عجائب ملكوته... الخ كلامه ، وما كانت إلاَّ فكرته غاصت في بحر الذات ، ودارت مع التجليات العلوية والسفلية ، ووقوفه في ذلك لغلبة الحال ، ولله رجال في زماننا هذا يقلبون الوجود ، ويَدُورون معه ، وهم على فُرشهم ، لتمكُّنهم من الشهود بلا

تعب.
وقوله تعالى : {إن لك في النهار سَبْحاً طويلا} السَبح هو العوم ، أي : إنَّ لك في النهار عوماً طويلاً في بحار الأحدية ، فاستغرق ليلك ونهارك في ذلك ، واذكر اسم ربك بقلبك وروحك وسرك ، وهو عين السَبْح المتقدم ، وتبتّل إليه تبتيلاً في الظاهر والباطن ، فبالتبتُّل يحصل الوصول ، وبذكر الاسم باللسان يحصل الذكر للجنان ، ثم يسبح في بحر العيان. رب المشرق والمغرب ، أي : مشرق العيان ومغرب قمر الإيمان ، بسطوع شمس العيان. لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ، وثِقْ به كفيلاً يعطك عطاءً جزيلاً ، ويمنحك فخراً جليلاً ، واصبر على ما يقولون في جانبك ، فإنَّ الداخل على الله منكور ، والراجع إلى الناس مبرور. {واهجرهم هجراً جميلاً} ، قال القشيري : أي : عاشِرهم بظاهرك ، وبايِنْهم بسرِّك وقلبك ، ويُقال : الهجرُ الجميل : ما يكون بحق ربك ، لا بحظِّ نفسك. هـ.
١٦٦

(١٩٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٦٣
يقول الحق جلّ جلاله : {وَذَرْنِي والمكذِّبينَ} أي : دعني وإيّاهم ، وكِلْ أمرَهم إليّ ، فإني أكفيكهم ، والمراد رؤساء قريش ، و " المكذِّبين " : مفعول معه ، أو : عطف على الياء. {أُولِي النَّعْمَةِ} أي : أرباب التنعُّم ، وهم صناديد الكفرة ، فالنَّعمة بالفتح : التنعُّم ، وبالكسر : ما يتنعّم به ، وبالضم : المسرة. {ومَهِّلْهُمْ قليلاً} أي : إمهالاً قليلاً ، أو زمناً قليلاً إلى يوم بدر ، أو يوم القيامة.
{إنَّ لَدَيْنا} للكافرين يوم القيامة ، {أنكالاً} ؛ قيوداً ثِقالاً ، جمع نِكْل ، {وجَحيماً} ؛ ناراً محرقة {وطعاماً ذا غُصَّةٍ} الذي ينشب في الحلوق فلا يُساغ ، يعني : الضريع والزقوم. {وعذاباً أليماً} ؛ مؤلماً يخلص وجعه إلى القلب. رُوي أنه صلى الله عليه وسلم قرأ الآية فصعق ، وعن الحسن : أنه أمْسى صائماً ، فأُتي بطعام ، فعرضت له هذه الآية ، فقال : ارفعه ، ووُضع عنده الليلة الثانية فعرضت له ، فقال : ارفعه ، وكذلك الليلة الثالثة ، فأخبر ثابت البناني وغيره ، فجاؤوا ، فلم يزالوا به ، حتّى شرب شربةً من سَّوِيق.

(١٩٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٦٧
وهذا العذاب واقع {يَوْمَ ترجُف الأرضُ والجبالُ} أي : تتحرّك حركةً شديدة مع صلابتها وارتفاعها ،

فالظرف منصوب بما في " لدينا " من معنى الفعل ، أي : استقر للكفار كذا وكذا يوم ترجف...الخ.
{وكانت الجبالُ كَثِيباً} ؛ رملاً مجتمعاً. من : كثب الشيء إذ جمعه ، كأنه فعيل بمعنى مفعول. {مَّهِيلاً} ؛ سائلاً بعد اجتماعه.

{إنَّا أرسلنا إليكم} يا أهل مكة {رسولاً} وهو محمد صلى الله عليه وسلم {شاهداً عليكم} ؛ يشهد يوم القيامة بما صدر منكم من الكفر والعصيان ، {كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً} وهو موسى عليه السلام ، {فعصى فرعونُ الرسولَ} الذي أرسلنا إليه ، أي : عصى ذلك الرسول ؛ لأنَّ النكرة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأولى. ومحل الكاف النصب على أنها صفة لمصدر محذوف ، أي : أرسلنا إليكم رسولاً فعصيتموه ، كما يُعرب عنه قوله تعالى : {شاهداً} إرسالاً كائناً كإرسال موسى لفرعون ، فعصاه ، {فأخذناه أخذاً وَبِيلاً} ؛ شديداً غليظاً. وإنما خص موسى وفرعون ؛ لأنَّ خبرهما كان منتشراً بين أهل مكة ؛ لأنهم كانوا جيران اليهود.

١٦٧

{فكيف تتقون إِن كفرتم} أي : بقيتم على كفركم {يوماً} أي : عذاب يوم {يجعلُ الوِلْدان} من شدة هوله ، وفظاعة ما فيه من الدواهي {شِيباً} جمع أشيب ، أي : شيوخاً ، إمّا حقيقة ، أو تمثيلاً ، وذلك أنَّ الهموم والأحزان إذا تفاقمت على المرء ضعفت قواه وأسرع فيه الشيب ، فإذا قلنا : هو من باب التمثيل ، يكون كقولهم في اليوم الشديد : يوم تشيب فيه نواصي الأطفال ، وإذا قلنا حقيقة ، فلعله ممن بلغ الحلم ، وصَحِبه تفريط ، وهذا الوقت الذي يُشيب الولدان هو حين يُقال لآدم عليه السلام : " أخْرِج بعثَ النار من ذريتك... " الحديث ، ف " يوماً " مفعول بكفرتم ، أي : جحدتم ، أو : ب " تتقون " ، أي : كيف تتقون عذاب يوم كذا إن كفرتم بالله ، أو : ظرف ، أي : فكيف لكم التقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا ، و " يجعل " صفة ليوم ، والعائد محذوف ، أي : فيه. {السماءُ مُنفَطِر به} أي : السماء على عِظمها وإحكامها منفطر به ، أي : متشققة مِن هوله ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ؟ والتذكير لتأويل السماء بالسقف ، أو : لإجرائه على موصوف مذكّر ، أي : شيء منفطر ، وعبّر عنها بذلك ؛ للتنبيه على أنها تبدّلت ، حقيقتها ، وزال عنها اسمها ورَسمها ، ولم يبقَ منها إلا ما يُعبر عنه بشيء. والباء في " به " للآله ، يعني : أنها تتفطّر لشِدّة ذلك اليوم وهوله ، كما ينفطر الشيء بما يفطر به. {كان وعدُه} بالبعث {مفعولا} لا شك فيه ، فالضمير لله عزّ وجل ، والمصدر مضاف إلى فاعله أول إلى مفعوله ، وهو اليوم ، والفاعل هو الله عزّ وجل. {إنَّ هذه تذكرةٌ} أي : إنَّ هذه الآيات المنطوية على القوارع المذكورة موعظة ، {فمَن شاء اتَّخَذ إلى ربه سبيلا} أي : فَمن شاء اتعظ بها ، واتخذ طريقاً إلى الله تعالى بالإيمان والطاعة ، فإنه المنهاج الموصَّل إلى مرضاته.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٦٧
الإشارة : قال القشيري : فذرني والمكذّبين ، القائلين بكثرة الوجود وتعدده. هـ. أي : مع أنه متحد ، كما قال الشاعر :
هَذّا الوُجودُ وإن تَعَدَّدَ ظَاهِراً
وحَيَاتِكُم ما فِيه إلا أَنْتُمُ
أُولي النّعمة : الترفُّه ، فطلبُ اللذات والتنعُّم شَغَلهم عن التبتُّل ، حتى افترقت قلوبُهم وأرواحهم ، وأشركوا مع الله غيره ، و " مَهِّلْهُم قليلاً " أي : زمن عمرهم ؛ لأنه قليل وإن طالت مدته ؛ إذ لا فائدة فيه. إنَّ لدينا أنكالاً ، أي : قيوداً من العلائق والعوائق تعلقهم وتعوقهم عن الوصول إلى أسرار التوحيد ، وطعاماً ذا غُصةٍ يغص الروح عن شراب الحمرة ؛ لضيق مسلكه بوجود العوائق ، وعذاباً أليماً : البُعد والطرد عن باب حضرتنا وجناب كبريائنا. يوم ترجف أرض البشرية بهزها بذكر الله ، وجبال العقل بتجلِّي أنوار الذات ، فيصير هباءً منثوراً. {إنَّا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم} ، وهو الداعي إلى
١٦٨
هذه الأسرار التفريدية ، كما أرسلنا إلى فراعين كل زمان رسولاً يدعوهم إلى الله ، فعصى فرعونُ كل زمان رسولَه ، وهو الخليفة عن الله ورسولِه صلى الله عليه وسلم ، فأخذناه أخذاً وبيلاً ، فاختطفته المنية من سعة القصور إلى ضيق القبور ، فكيف تتقون الله حق تقاته ، إن كفرتم يوم وقوفكم بين يدي الواحد القهار ؟ يوم تشيب فيه الولدان خجلاً من الملك الديّان. السماءُ منفطر مِن هوله ، حين يُحال بين المرء وعملِه ، إذ ليس محلّ العمل ، وإنما هو محل إظهار كرامات العمل ، وحِيل بينهم وبين ما يشتهون ، إنَّ هذه تذكرة بالغة ، فمَن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً يوصله إليه اليوم ، قبل أن يُحال بينه وبينه بسور الموت. وبالله التوفيق.
١٦٩

(١٩٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٦٧
سورة المدثر

(١٩٩/٨)

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها المدَّثِّر} أي : المتدثر ، أُدغمت التاء في الدال ، أي : المتلفّف في ثيابه ، من الدِّثار ، وهو كلُّ ما كان من الثياب فوق الشعار ، والشعار : الثوب الذي يلي الجسد. قيل : هي أول سورة نزلت ، والصحيح : أن أول ما نزل : {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِكَ...} [العلق : ١] إلى قوله {...عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق : ٥] ثم فتر الوحي نحو سنتين ، فحزن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، حتى جعل يأتي شواهق الجبال ، فيريد أن يتردَّى منها ، فأتاه جبريلُ عليه السلام ، وقال : إنك نبي الله ، فرجع إلى خديجة ، فقال : دثِّروني وصُبوا عليَّ ماءً بارداً ، فنزل : {يا أيها المُدَّثر} ، وقيل : سمع من قريش ما كرهه ، فاغتم ، فتغطّى بثوبه متفكراً ، كما يفعل المغتم ، فأمر ألاّ يدع إنذارهم وإن آذوه ، فقال : {قُمْ} أي : من مضجعك ، أو قيام عزم وتصميم ، {فأنذِرْ} أي : فَحذِّر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، أو فافعل الإنذار من غير تخصيص ، كما يُنبىء عنه قوله تعالى : {وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً} [سبأ : ٢٨].

{وربَّك فَكَبِّرْ} أي : خُص ربك بالتكبير ، وهو التعظيم قولاً واعتقاداً ، فلا يَكْبُرُ في عينك إلاّ الله ، وقل عندما يعروك من غيره : الله أكبر. رُوي أنه لمّا نزل ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر " فكبَّرت خديجة وفرحت ، وأيقنت أنه الوحي. وقد يُحمل على تكبير الصلاة ، والفاء بمعنى الشرط ، كأنه قيل : أيّ شيء حدث فلا تدع تكبيره.

١٧٢

{وثيابَك فطهِّرْ} مما ليس بطاهر ، فإنه واجب في الصلاة ، فلا تصح إلاّ بها ، ووَصْفُ كمالٍ في غيرها ، وذلك بصيانتها عن النجاسات ، وغسلها بعد إصابتها ، أو قَصِّرْها مخالفةً للعرب في تطويلهم الثياب ، وجرهم الذيول كِبراً ، فإنَّ طولها يؤدي إلى جرها على القاذورات ، وهو أول ما أُمر به صلى الله عليه وسلم من ترك العادات المذمومة ، وقيل : المراد تطهير النفس مما يُستقبح من الأفعال ، ويُستهجن من الأحوال ، يُقال : فلان طاهر الذيل والرداء ، إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق ، ولأنَّ مَن طهر باطنه ظاهره غالباً. قال ابن العربي في أحكامه : والذي يقول : إنها الثياب المَجازية أكثر. هـ. ومَن قال : إنها الحسية استدل بها على وجوب غسل النجاسة للصلاة ، وبه قال الشافعي ، ومالك ، في أحدى الروايات عنه.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٧٢

والرُّجزَ فاهجرْ} أي : دم على هجرانها ، قاله الزهري وغيره. وقال ابن عباس : أي : اترك المآثم التي توجب الرجز ، وهو العذاب ، وفيه لغتان : كسر الراء ، وضمها ، وقُرىء بهما معاً. قال الكسائي : الرُّجز . بالضم : الوثن ، وبالكسر : العذاب. {ولا تمننْ تستكثرُ} أي : ولا تعطِ مُتكثِّراً ، أي : رائياً لما تعطيه كثيراً ، أو طالباً للكثير على ما أعطيت ، فإنك مأمور بأجلّ الأخلاق ، وأشرف الآداب ، وهو من المنّ بمعنى الإنعام ، يُقال : مَنَّ عليه إذا أعطاه وأنعم عليه ، " وتستكثر " : حال ، أي : لا تُعطِ حال كونك تُعد ما أعطيت كثيراً ، أو طالباً أكثر مما أعطى. وقرأ الحسن بالجزم جواب النهي. {ولربك فاصبِرْ} أي : لوجه الله استعمل الصبر على أوامره ونواهيه ، وعلى تحمُّل مشاق أعباء التبليغ وأذى المشركين.

{فإذا نُقِرَ في الناقور} أي : نُفخ في الصور ، وهو فَاعُول من النقر ، بمعنى التصويت ، وأصله : القرع ، الذي هو سبب الصوت ، والفاء سببية ، كأنه قيل : اصبر على أذاهم ، فبين أيديهم يوم هائل ، يلْقون فيه عاقبة أذاهم ، وتلقى عاقبة صبرك ، والعامل في " إذا " قوله : {فذلك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ} ، فإنَّ معناه : عسر الأمر على الكافرين إذا نُقر في الناقور ، و " ذلك " إشارة إلى وقت النقر ، وهو مبتدأ ، و {يومئذ} : مرفوع المحل بدل منه ، و {يوم عسير} : خبر ، كأنه قيل : يوم النقر يوم عسير {على الكافرين} ، وأكّده بقوله : {غيرُ يسير} ؛ ليؤذن بأنه يَسيرٌ على المؤمنين ، أو عسيرٌ لا يُرجى أن يرجع يسيراً ، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا. واختُلف في أن المراد به : يوم النفخة الأولى أو الثانية ، والحق إنها الثانية ؛ إذ هي التي يختص عسرها بالكافرين ، وأما النفخة الأولى ، فحكمها . الذي هو الإصعاق . يعم البر والفاجر ، على أنها مختصة بمَن كان حيًّا عند وقوعها ، وقد جاء في الأخبار : أن في الصور ثُقْباً بعدد الأرواح ، وأنها تجمع في تلك الثُقب في النفخة الثانية ، فتخرج عند النفخ من كل ثقبة روح ، فترجع إلى الجسد الذي نزعت منه ، فيعود الجسد كما كان حيًّا ، بإذن الله تعالى.

١٧٣

الإشارة : يا أيها المتدثر بالعلوم والأسرار والمعارف ؛ قُم فأنذر الناسَ ، والخطاب للداعي الأكبر صلى الله عليه وسلم ، ويتوجه لخليفته في كل زمان ، وهو مَن وجَّهه الله لتذكير العباد ليحيي به الدين في أول كل عصر ، كما في الأثر.

قال الورتجبي : يا أيها المدثر ، أي : يا أيها الغريق في قَلزوم القِدم ، قُم لدعوى محبتي ، وأنذر أحبائي عن الاشتغال بغيري ، وأَظْهِر جواهر حقائب بحر غيبي للمقبلين إلينا. ثم قال على قوله : (وربك فَكَبِّر) ، عن الحُسيْن : عَظِّم قدره عن احتياجه إليك في الدعوة إليه ، فإنَّ إجابة دعوتك ممن سبقت له الهداية مني. هـ. قال القشيري : كبِّر ربك عن احتياجه إلى تكبير أحد ، فإنَّ كبرياءه ذاتيٌّ له ، قائم بنفسه ، لا بغيره من المكبِّرين. هـ. والمتبادر أنه أمَرَ الداعي بتعظيم الله وإجلاله دون غيره من سائر المنذرين ، فلا تمنعه جلالة أحد من العظماء والمتكبرين عن التصدَّي لإنذاره وتذكيره.

(٢٠١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٧٢

وقوله تعالى : {وثيابك فطهِّر} أي : نَزّه ثياب إيمانك وعرفانك عن لوث الطمع في الخلق ، وخصوصاً عند الدعوة ، فلا تسأل عليه أجراً ، ولا تؤمّل في جانبه عوضاً ، فتُحرم بركة إنذارك ، ويقلّ الانتفاع به. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : رأيت النبيَّ صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال : يا علي ، طَهِّر ثيابك من الدنس ، تَحْظَ بمدد الله في كل نَفَس ، فقلتُ : وما ثيابي يا رسول الله ؟ فقال : إنَّ الله كساك حُلة المعرفة ، ثم حُلة المحبة ، ثم حُلة التوحيد ، ثم حُلة الإيمان ، ثم حُلة الإسلام ، فمَن عرف الله صَغُر لديه كل شيء ، ومَن أحبّ الله هان عليه كل شيء ، ومَن وحّد الله لم يشرك به شيئاً ، ومَن آمن بالله أَمِن من كل شيء ، ومَن أسلم لله قلّما يعصيه ، وإن عصاه اعتذر إليه ، وإذا اعتذر إليه قَبِل عُذره. قال : ففهمتُ حينئذ قوله تعالى : {وثيابك فَطَهِّر}. هـ. والرُّجز : كلُّ ما يشغل عن الله ، فيُهجر اشتغالاً بالله ، ولا تمنن ببذل مُهجتك على ربك ، مستكثراً لذلك ، فإنَّ قيمة وجودك لا تُساوي عُشر العشر من عظمة وجوده ، الذي يمنحك بدلاً من وجودك الذي أعطيته ، أو : ولا تمنن عليه بوجودك تطلب وجوده ، فإنَّ وجوده إنما يُنال بكرمه ، لا بشيء من العلل ، ولربك فاصبر ، أي : ولأجل الوصول إلى ربك فاصبر على مشاق السير ، أو : ولربك فاصبر على إذاية الخلق في حال الدعوة. قال الورتجبي : ولربك فاصبر في بذل وجودك في جريان تقديره ، أو مع ربك ، وفي ربك ، حين انكشف لك أنوار أسراره ، وخاصيتُكَ في النظر إلى جلاله وجماله ، ولا تنزعج ، فتسقط عن درجة التمكين. وقال القاسم : ولربك فاصبر تحت القضاء والقدر. هـ. فإذا نُقر في الناقور : نُفخ في صور الفناء ، فتندك السموات والأرض ، بإظهار ما فيها من الأسرار ، فتُطوى عن نظر العارف ، فيفنى مَن لم يكن ، ويبقى مَن لم يزل ، فذلك يوم عسير على الكافرين بطريق الخصوص ؛ إذ لا تنهدم

١٧٤

العوالم لعين البصيرة إلاَّ لمَن هدم عوائد نفسه ، وخالف هواه. وبالله التوفيق.

(٢٠٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٧٢

يقول الحق جلّ جلاله : {ذَرْنِي ومَنْ خلقتُ} أي : كِلْ أمره إليَّ فأنا أكفيك أمره ، وهو الوليد بن المغيرة ، وقوله : {وحيداً} : حال من عائد الموصول ، أي : خلقته منفرداً ، لا مال له ولا ولداً ، أو من الياء ، أي : ذرني وحدي معه ، فأنا أكفيكه ، أو من التاء ، اي : خلقته وحدي ولم يشاركني في خلقه

أحد ، والأول أنسب بقوله : {وجعلتُ له مالاً ممدوداً} ؛ مبسوطاً كثيراً ، أو ممدوداً بالنماء ، وكان له الزرع والضرع والتجارة ، وعن مجاهد : له مائة ألف دينار ، وكان له أرض بالطائف ، لا تنقطع ثمارها صيفاً وشتاءً ، {وبنينَ شُهوداً} ؛ حضوراً معه بمكة لغناهم ، يتمتع بشهودهم ، لا يفارقونه لعمل ، لكونهم مكْفيين ، أو حضوراً في الأندية والمحامل لوجاهتهم ، واعتيادهم ، وكانوا عشرة ، وقيل : ثلاثة عشر ، وقيل : سبعة ، كلهم رجال ، الوليد بن الوليد ، وخالد ، وعمار ة ، وهشام ، والعاصي ، وقيس ، وعبد شمس ، أسلم منهم خالد وهشام وعمارة ، وجعل السهيلي بدل عمارة الوليدَ بن الوليد ، وهو الصحيح ، وفيه قال عليه السلام : " اللهم أنج الوليد بن الوليد " حين كان يُعذّب بمكة على الإسلام ، والوليد هذا كان سبب إسلام أخيه خالد ، وكان خالد فارًّا منه صلى الله عليه وسلم ، فسمع الوليدُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول : " لو أتانا لأأكرمناه " ، فكتب إليه ، فوقع الإسلام في قلبه ، وسمّاه سيفاً من سيوف الله ، به فتح الله كثيراً من البلدان ، وأما عُمارة فذكر غيرُ واحد أنه مات مشركاً عند النجاشي ، ويروى أنَّ النجاشي قتله بسبب اختلافه إلى زوجته ، ووشى به عَمْرُو بن العاص ، كما ذكره الطيبي. انظر المحشي.

{ومَهَّدتُ له تمهيداً} أي : بسطت له الجاه العريض ، والرياسة ، حتى كان يُلقَّب ريحانة قريش ، فأتممت عليه نعمتَي الجاه والمال ، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا ، {ثم يطمعُ أن أزيدَ} على ما أوتيه من المال والولد والجاه من غير شكر ، وهور استبعاد واستنكارٌ لطمعه وحرصه. وعن الحسن : يطمع أن أزيده الجنة ، فأعطيه فيها مالاً وولداً ، كما قال العاصي : {لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا} [مريم : ٧٧] ، وكان من فرط جهله يقول : إن كان محمد صادقاً فما خُلقت الجنة إلاَّ ليَ.

}

(٢٠٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٧٥

كلاَّ} : ردع وزجر عن طمعه الفارغ ، وقطع لرجائه الخائب ، أي : لا نجمع له بعد

١٧٥

اليوم بين الكفر والمزيد من النِّعم ، فلم يزل بعد نزول الآية في نقصان من المال والجاه ، وانتكاس ، حتى هلك ، {إنه كان لآياتنا} ؛ القرآن {عنيداً} ؛ معانداً جاحداً ، وهو تعليل للردع على وجه الاستئناف ، كأنّ قائلاً قال : لِمَ لا يُزاد ؟ فقال : إنه عاند آيات المنعِم ، مع وضوحها ، وكَفَرَ نعمته مع سُبُوغها ، وهو مما يوجب حرمانها بالكلية ، مع أن ما أوتيه إنما هو استدراج يوجب مزيد العذاب ، كما قال تعالى : {سأُرهقه صَعوداً} ؛ سأُغشيه بدل ما يطمعه من الجنة عقبة شاقة المصْعد ، وهو مثل لِما

يلقى من العذاب الصعب الذي لا يُطاق ، وفي الحديث : " الصعود : جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ، ثم يهوي فيه كذلك أبداً ". ثم علّل استحقاقه لهذا العذاب بقوله : {إنه فَكَّر} ما يقول في شأن القرآن ، {وقَدَّر} في نفسه ما يقوله وهياه ، كأنه تعالى عاجله بالفقر والذل بعد الغنى والعز ، لعناده ، ويُعاقبه في الآخرة بأشد العذاب ، لبلوغه بالعناد غايته ، حيث قال في كلامه تعالى المعجِز : سحراً ، وفي رسوله عليه السلام : ساحراً ، {فقُتل} أي : لُعن {كيف قَدَّر ثم قُتل كيف قَدَّر} ؟ كرّر للتأكيد ، و " ثم " للإشعار بأنَّ الدعاء الثاني أبلغ ، وقيل : هو تعجيب من تقديره وإصابته فيه الغرض الذي كان ينتحيه قريش ، قاتلهم الله ، كما يقال : قاتله الله ما أشجعه ، وأخزاه الله ما أشعره! رُوي أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ " حم " غافر ، أو فُصلت ، ثم رجع إلى بني مخزوم ، فقال : والله لقد سمعتُ من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإنَّ له لحلاوة ، وإنَّ عليه لَطلاوة ، وإنَّ أعلاه لمُثمر ، وإنَّ أسفله لمُغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه ، فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، لَتَصْبُوَنّ قريش كلها ، فقال ابن أخيه أو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق إليه حزيناً ، فقال له : ما لي أراك حزيناً ؟ فقال : وما لي لا أحزن ، وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كِبر سنك ، يزعمون أنك زيّنت كلام محمد ، تدخل على ابن أبي كبشة وأبي قحافة ، لِتنال من طعامهم ، فغضب الوليد ، وقصدهم ، وقال : تزعمون أنَّ محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يُخْنِقُ قط ؟ قالوا : لا ، قال : تزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالو : لا ، قال : تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه يتكهّن قط ؟ قالوا : لا ، قال : تزعمون أنه كذّاب ، فهل جريتم عليه من الكذب قط ؟ قالوا : اللهم لا ، ثم قالوا له : فما هو ؟ ففكَّر فقال : ما هو إلاَّ ساحر ، أمّا رأيتموه يُفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ وما الذي يقوله إلاّ سحر يأثره عن أهل بابل ، فارتجّ النادي فرحاً ، وتفرّقوا معْجبين بقوله متعجبين منه ، وهذا معنى قوله : {إنه فكَّر...} الخ.
١٧٦
}

ثم نَظَرَ} أي : في القرآن مرة بعد مرة ، أو نظر بأي شيء يَرُدُّ الحقَّ ، أو فيما قدّر ، {ثم عَبَسَ} ؛ قطَّب وجهه لمَّا لم يجد فيه مطعناً ، ولم يدرِ ماذا يقول ، وقيل : نظر في وجوه الناس ، ثم قطَّب وجه ، {وبَسَرَ} ؛ زاد في العبوسة والكلوح ، {ثم أدبرَ} عن الحق ، أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، {واستكبر} عن اتباعه ، و {ثم نظر} : عطف على (قَدَّر) ، والدعاء اعتراض ، وإيراد " ثم " في

المعطوفات لبيان أنَّ بين الأفعال والمعطوفة تراخياً أو تفاوتاً ، {فقال إِنْ هذا إِلاّ سِحْر يُؤثَرُ} أي : يُروى ويُتعلم ، والفاء للدلالة على أنَّ هذه الكلمة لمّا خطرت بباله تفوَّه بها من غير تَلعثم ولا تلبُّث ، وقوله : {إِنْ هذا إِلاَّ قولُ البشرِ} تأكيد لِما قبله ، ولذلك أخلى عن العاطف. قال تعالى : {سأُصليه} ؛ سأُدخله {سَقَر} ، وهو بدل من {سأُرهقه صَعُوداً} وسقر : علم لجهنم ، ولم ينصرف للتعريف والتأنيث ، {وما أدراك ما سَقَرُ} ، تهويل لشأنها ، {لا تُبقي ولا تَذرُ} ، بيان لحالها ، أي : لا تُبقي شيئاً يُلقى فيها إلاَّ أهلكته ، وإذا هلك لم تذره هالكاً حتى يُعاد ، أو : لا تُبقي لحماً ، ولا تّذرُ عظماً ، أو : لا تُبقي لحماً إلاّ أكلته ، ولا تدع أن تعود عليه أشد ما كانت ، وقال الضحاك : إذا أخذت فيهم لم تُبق منهم شيئاً ، وإذا أُعيدوا لم تذرهم حتى تفنيهم ، ولكل شيء فترة ومَلالة إلاّ جهنم. هـ.

{لوَّاحةٌ للبَشرِ} أي : مغيّرة للجلود حتى تُسوّدها ، تقول العرب : لاحته الشمس ولوَّحته ، أي : غيَّرته ، قيل : تلفح الجلد لفحة ، فتدعه أشد سواداً من الليل ، وقال الحسن : تلوح لهم جهنم حتى يرونها عياناً ، نظيره : {وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ} [الشعراء : ٩١] والبشر : اسم ، جمع بشرة ، وهي ظاهر جلد الإنسان ، ويجمع أيضاً على أبشار ، {عليها تسعةَ عشرَ} أي : على أمرها تسعة عشر ملكاً ، خزنتُها ، وقيل : تسعة عشر صِنفاً من الملائكة ، وقيل : صفًّا ، وقيل : نقيباً. قيل : الحكمة في تخصيص هذا العدد لخزنة جهنم ؛ أن ذكرهم الذي يتقوَّون به البسملة ، وذلك عدد حروفها. هـ. والله تعالى أعلم.

(٢٠٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٧٥

الإشارة : هذه الآية تَجُر ذيلها على كل مَن آتاه الله المالَ والجاه البنين ، ثم جعل ينتقد على أولياء الله ، ويحتقر أهل النسبة ، بل على كل مَن يُطلق لسانه في أهل النسبة يناله ما نال الوليد ؛ لأنه كان لآيات الله ـ وهم خاصة أوليائه ـ عنيداً جاحد القلب ، وحاسداً ، سأُرهقه صَعُوداً ، أي : عذاباً متعباً له ، في الدنيا بالحرص والطمع ، وفقر القلب ، وكذا العيش في الآخرة بسدل الحجاب ، والطرد عن ساحة المقربين ، إنه فَكَّر فيما يكيد به أولياءه ، وقَدّر ذلك ، فلُعن كيف قَدّر ، ثم نظر إليهم فعبس وبسر. قلت : وقد رأيتُ بعض المتفقهة المتجمدين ، إذا رأوا أحداً من أهل التجريد ، عبسوا وقطَّبوا وجوههم ، ولووا رؤوسهم ، لشدة حَنقهم على هذه الطائفة ، نعوذ بالله من الحرمان. وكل ما رُمي به صلى الله عليه وسلم من السحر وغيره قد رُمي به خلفاؤه ، فيُقال لمَن رماهم وعابهم : سأُصليه سقر ، نار القطيعة والبُعد ، لا تُبقي له رتبة ، ولا تذر له مقاماً ولا جاهاً عند الله ، تُزيل عنه سيما العارفين

ومهجة المحبين وتغير بشريته بالكآبة والحسرة ، والتأسُّف عن التخلُّف عن مقام المقربين ، عليها ، أي : على النار المحيطة بهم ، تسعة عشر حجاباً ؛ حجاب المعاصي القلبية والقالبية ، ثم حجاب الغفلة ، ثم حُب الدنيا ، ثم حب الهوى ، ثم الحسد ، ثم الكفر ، ثم الحقد ، ثم الغضب ، ثم حب الظهور ، ثم حب الجاه ، ثم الطمع ، ثم الحرص ، ثم خوف الفقر ، ثم هَم الزرق ، ثم خوف الخلق ، ثم التدبير والاختيار ، ثم العَجَلة ، ثم الرعونة ، ثم حجاب الحسد والوهم. والله تعالى أعلم.

(٢٠٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٧٥

يقول الحق جلّ جلاله : {وما جعلنا أصحابَ النار} أي : خزنتها ، المدبّرين لها ، القائمين بتعذيب أهلها ، {إلاَّ ملائكةً} لأنهم خلاف جنس المعذّبين ، فلا تأخذهم الرأفة والرقّة ، ولأنهم أشد الخلقِ بأساً ، فللواحد منهم قوة الثقلين ، ونَعَتهم صلى الله عليه وسلم فقال : " كَأَنَّ أعْيُنَهُمُ البَرقُ ، وكأنَّ أفْواهَهم الصَّيَاصِي ، يَجرُّون أشعَارَهم ، لأحدِهم قوةُ الثَّقَلَيْنِ ، يَسوقُ أحدُهُم الأُمَّةَ ، وعَلَى رَقَبَتِهِ جَبَلٌ ، فَيَرْمِيهم في النَّارِ ، ويَرْمي الجبلَ عَلَيْهم " وفي رواية : " بيد كُلّ واحدٍ منهم مِرْزَبَّة مِن حَديدٍ " وفي رواية عن كعب : " مَعَ كُلِّ واحد مِنْهم عَمودٌ وشعبتَان يَدْفع به الدَّفَع يصرع به في النَّارِ سَبعمَائَة أَلْفٍ ، وبَيْن مِنْكَبَي الخازِنِ مِن خزَنَتِها مسيرةُ مَائةِ سَنَة " وفي حديث آخر : " ما بَيْن منكبي أَحَدهِم كما بَيْن المشرقِ والمغرب ، وليس في قلوبِهِمْ رَحْمَةٌ ، يَضْربُ أحدُهم الرجلَ ضَربةً ، فيتْركه طَحيناً من لَدُن قَرْنِه إلى قَدَمِهِ " وعن كعب : " يؤمر بالرجل إلى النار ، فيبتدره مائة ألف ملك " قال القرطبي : المراد بقوله : {عليها تسعة عشر} رؤساؤهم ، وأما جملة الخزنة فلا يعلم عددهم إلا الله تعالى. انظر البدور السافرة.

رُوي أنه لمّا نزل قوله تعالى : {عليها تسعة عشر} قال أبو جهل : أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ، وأنتم ألدَّهم ، أي : الشجعان ؟ فقال أبو الأشد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش : أنا أكفيكم سبعة عشر ، اكفوني أنتم اثنين ، فنزلت الآية ، أي : وما جعلناهم رجالاً من جنسكم يُطاقون.

١٧٨

{وما جعلنا عِدَّتهم} تسعة عشر {إلا فتنةً} أي : ابتلاء واختباراً {للذين كفروا} حتى قال أبو جهل ما قال ، أي : وما جعلنا هذا العدد إلاّ سبب افتتانهم ، فعبّر بالأثر عن المؤثّر ، وليس المراد جعل ذلك العدد في نفس الأمر فتنة ؛ بل جعله في القرآن أيضاً كذلك ، وهو الحُكم بانّ عليها تسعة عشر ، إذ بذلك يتحقق افتتانهم ، وعليه يدور ما سيأتي من استيقان أهل الكتاب ، وازدياد المؤمنين إيماناً. انظر

أبا السعود. وقالوا في تخصيص الخزنة بهذا العدد . مع أنّه لا يطلب في الأعداد العلل : أنّ ستة منهم يقودون الكفرة إلى النار ، وستة منهم يسوقونهم ، وستة يضربونهم بمقامع من الحديد ، والآخر خازن جهنّم ، وهو مالك ، وهو الأكبر. وقيل : في النار تسعة عشر دركاً ، قد سلّط على كل درك مَلك ، وقيل يُعذبون فيها بتسعة عشر لوناً من العذاب ، وعلى كل لون ملك موكّل ، وقيل غير ذلك.
}

(٢٠٧/٨)

لِيستيقنَ الذين أُوتوا الكتاب} ، لأنَّ عدتهم تسعة عشر في الكتابَيْن ، فإذا سمعوا مثلها في القرآن تيقّنوا أنه مُنزَّل من عند الله ، وهو متعلق بالجعل المذكور ، أي : جعلناهم كذلك ليكتسبوا اليقين بنبوته صلى الله عليه وسلم ، وصِدْقِ القرآن ، لموافقته لِما في كتبهم ، {ويزداد الذين آمنوا} بمحمد صلى الله عليه وسلم {إيماناً} لتصديقهم بذلك ، كما صدّقوا بسائر ما أُنزل ، فيزيدون إيماناً مع إيمانهم الحاصل ، أو : يزداد إيمانهم تيقُّناً ؛ لما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم ، {ولا يرتابَ الذي أوتوا الكتاب والمؤمنون} ، تأكيد لِما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان ، ونفي لما قد يعتري المستيقن من شُبهة ما ، وإنما لم ينظم المؤمنين في سلك أهل الكتاب في الارتياب ، حيث لم يقل : ولا يرتابوا ؛ للتنبيه على تباين النفيين حالاً ، فإنَّ انتفاء الارتياب عن أهل الكتاب مما ينافيه لِما فيه من الجحود ، وعن المؤمنين لما يقتضيه من الإيمان ، وكم بينهما ؟ والتعبير عنهم باسم الفاعل بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المُنبئة عن الحدث ؛ للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخهم في ذلك. قاله أبو السعود.

وعطف على {يستيقن} ايضاً قولَه : {ولِيقولَ الذين في قلوبهم مرض} ؛ شك ؛ لأنَّ أهل مكة كان أكثرهم شاكين ، أو : نِفاق ، فيكون إخباراً بما سيكون بالمدينة بعد الهجرة ، {والكافرون} ؛ المشركون بمكة ، المُصرُّون على الكفر : {ماذا أراد اللهُ بهذا مثلاً} ؟ أي : أيُّ شيءٍ أراد بهذا العدد المستغرَب استغراب المثل ؟ وقيل : لمّا استبعدوه حسبوا أنه مَثَل مكذوب ، أو : أيُّ حكمة في جعل الملائكة تسعة عشر ، لا أكثر أو أقل ؟ وإيراد قولهم هذا بالتعليل ، مع كونه من باب فتنتهم ؛ للإشعار باستقلاله بالبشاعة. و " مثلاً " : تمييز ، أو حال ، كقوله : {هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ ءَايَةً} [الأعراف : ٧٣]. {كذلك يُضل اللهُ مَن يشاء ويهدي مَن يشاء} أي : مثل ذلك الضلال وتلك الهداية يُضل الله مَن يشاء إضلاله ، بصرف اختياره إلى جانب الضلال عند مشاهدته لآيات الله الناطقة بالحق ،

ويهدي مَن يشاء هدايته بصرف اختياره عند مشاهدته تلك الآيات إلى جانب الهُدى ، فمحل الكاف النصب على أنها صفة لمصدر محذوف ، أي : يُضل مَن يشاء ويهدي مَن يشاء ، إضلالاً وهدايةً كائنين مثل ما ذكر من الإضلال والهداية.

{وما يعلمُ جنودَ ربك} أي : جموع خلقه ، التي من جملتها الملائكة المذكورون ، {إلاّ هو} ، إذ لا سبيل لأحد إلى حصر مخلوقاته ، والوقوف على حقائقها وصفتها ، ولو إجمالاً ، فضلاً عن الاطلاع على تفاصيل أحوالها ، من كَم وكيف ونسبة ، فلا يَعِز عليه جعلُ الخزنة أكثر مما هو عليه ، ولكن في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها ، {وما هي إلاّ ذِكرَى للبشر} هذا متصل بوصف سقر ، أي : ما سقر وصفتها إلاّ تذكرة للبشر ؛ لينزجروا عن القبائح.

}

(٢٠٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٧٨

كَلاَّ} ؛ ردع لمَن أنكرها ، أو نفي لأن يكون لهم تذكُّر ، بعد أن جعلها ذِكرى ، أي : لا يتذكرون لسبق الشقاء لهم ، {والقمرِ} ، أقسم به لِعظم منافعه ، {والليلِ إِذْ أدبرَ} أي : ذهب ، يقال : أدبر الليل ودبر : إذا ولّى ، ومنه قولهم : صاروا كأمس الدابر ، وقيل : أدبر : ولّى ، ودَبَر جاء بعد النهار ، {والصُبحِ إذا أسفر} ؛ أضاء وانكشف ، وجواب القسم : {إنها} أي : سقر {لإِحدَى الكُبَرِ} جمع كبرى ، أي : لإحدى الدواهي أو البلايا الكُبْر ، ومعنى كونها إحداهن : أنها من بينهن واحدة في العِظم لا نظيرة لها ، كما تقول : هو أحد الرجال ، وهي إحدى النساء. {نذيراً للبشر} : تمميز لإحدى ، أي : إنها لإحدى الدواهي إنذاراً ، كقولك : هي إحدى النساء جمالاً ، أو حال مما دلّت عليه الجملة ، أي : عظمت منذرة ، {لمَن شاء منكم أن يتقدَّم أو يتأخّر} : بدل من " البشر " ، بإعادة الجار ، أي : نذيراً لمَن شاء منكم أن يسبق إلى الخير أو يتأخر عنه ، وعن الزجاج : أن يتقدّم إلى ما أمر به ، ويتأخر عما نهى عنه ، وقيل : " لمَن شاء " : خبر ، و " أن يتقدّم " : مبتدأ ، فيكون كقوله تعالى : {فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف : ٢٩]. قال المحَشي : وحاصله : أنّ العبد متمكن من كسب الخير وضده ، ولذلك كلّفه ؛ لأنه علّق ذلك على مشيئته ، وليس حجة ؛ لكونه مستقلاً غير مجبور ؛ لأنَّ مشيئته مُعلقة على مشيئة الله ، {وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ} [الإنسان : ٣٠] {كَلاَّ إِنَهُ تَذْكِرَةُ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ} [المدثر : ٥٤-٥٦] ، وما نبهت عليه من التمكُّن والاختيار في الظاهر هو فائدة بدل " لمَن شاء " من البشر. هـ.

الإشارة : من أسمائه تعالى الجليل والجميل ، فوَكَّل بتنفيذ اسمه الجليل جنوداً يَجرُّون الناسَ إلى أسباب

جلاله ، من الكفر والعصيان ، ووكَّل بتنفيذ اسمه الجميل جنوداً يَجرّون الناسَ إلى أسباب جماله من الهدى والطاعة ، وما جعل ذلك إلاّ اختباراً وابتلاءً ، لمن يُدبر عنه أو يُقبل عليه ، وما جعلنا أصحابَ نار القطيعة إلاّ ملائكة ، وهم حُراس الحضرة يملكون النفس ، ويقذفونها في هاوية الهوى ، وما جعلنا عدتهم تسعة عشر

١٨٠

حجاباً كما تقدّم ، إلاّ فتنة لأهل الغفلة ، الكافرين بوجود الخصوصية ، اختباراً لمَن يقف معها ، فتحجبه عن ربه ، ولمَن يتخلّص منها ، فينفذ إلى ربه ، ليستيقن أهل العلم بالله حين يطَّهروا منها ، ويزداد السائرون إيماناً بمجاهدتهم في التخلُّص منها ، ولا يبقى في القلب ريب ولا وَهْم ، وليقول الذين في قلوبهم مرض من ضعف اليقين : ماذا أراد الله بخلق هذه الأمراض في قلوب العباد ؟ فيُقال : أراد بذلك إضلال قوم عن حضرته ، بالوقوف مع تلك الحُجب ، وهداية قوم ، بالنفوذ عنها ، وما يعلم جنود ربك القاطعة عنه بقهره تعالى ، والموصلة إليه برحمته ، إلا هو. وقال الورتجبي : جنوده : عظمته وكبرياؤه وسلطانه وقهره ، الذي صدرت منه جنود السموات والأرض ، وله جنود قلوب العارفين ، وأرواح الموحّدين ، وأنفاس المحبين ، التي يستهلك بها كل جبّار عنيد ، وكل قهّار عتيد. قيل : قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم : إنكم لا تقفون على المخلوقات ، فكيف تقفون على الأسامي والصفات ؟ !. هـ.

(٨/٢٠٩)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٧٨

ثم حذَّر من سَقَر الحظوظ ، والسقوط في مهاوي اللحوظ ، وأقسم أنها من الدواهي الكُبَر لِمن ابتُلي بها ، حتى سقط في الحضيض الأسفل من الناس ، فمَن شاء فليتقدّم إلينا بالهروب منها ، ومَن شاء فليتأخر بالسقوط فيها ، والغرق في بحرها. والعياذ بالله.

(٨/٢١٠)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٧٨

يقول الحق جلّ جلاله : {كلُّ نفس بما كسبتْ رهينةٌ} أي : مرهونة ، محبوسة عند الله تعالى بكسبها. ورهينة : فعلية ، بمعنى مفعولة ، وإنما دخلتها التاء ، مع أن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث ، تقول : رجل جريح ، وامرأة جريح ؛ لأنها هنا لم تتبع موصوفاً اصطلاحياً ، ومَن قال : إنَّ

الخبر في معنى الصفة فهي تابعة له ، جعل " رهينة " اسماً بمعنى الرهن ، كالشتيمة بمعنى الشتم ، وقيل : إنَّ التاء في رهينة للنقل مع الوصفية للاسمية ، لا للتأنيث ، كما في نصيحة وذبيحة. هـ. فكل واحد مرهون بذنبه.

{إلاَّ أصحابَ اليمين} فإنهم فاكُّون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم ، كما يفك

١٨١

الراهن رهنه بأداء الدَّين ، وقيل : هم أطفال المسلمين ؛ لأنهم لا أعمال لهم يُرهنون بها ، وقيل : هم الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، {في جنات} ، لا يُكتَنَهُ كُنهها ، ولا يُدرك وصفها ، أي : هم في جناتٍ ، والجملة استئناف بياني ، كأنه قيل : ما بالهم ؟ فقال : هم {في جناتٍ يتساءلون} ؛ يسأَل بعضهم بعضاً {عن} أحوال {المجرمين} ، فيقول بعضهم لبعض : قد سألناهم فقلنا له : {ما سلككم في سقرٍ} ؟ فـ {قالوا لم نك من المصلين...} الخ. قاله النسفي ، ورده أبو السعود ، فقال : وليس المراد بتساؤلهم أن يسأل بعضُهم بعضاً ، على أن يكون كل واحد منهم سائلاً ومسؤولاً معاً ، بل صدور السؤال عنهم مجرداً عن وقوعه عليهم ، فإنَّ صيغة التفاعل وإن وضعت في الأصل للدلالة على صدور الفعل عن المتعدد ، ووقوعه عليه معاً ، بحيث يصير كل واحد فاعلاً ومفعولاً معاً ، كما في قولك : تراءى القوم ، أي : رأى كُلُّ واحد منهم الآخر ، لكنها قد تجرد عن المعنى الثاني ، ويقصد بها الدلالة على الأول فقط ، فيُذكر للفعل حينئذ مفعول ، كما في قولك : تراءوا الهلال ، فمعنى {يتساءلون عن المجرمين} : يسألونهم عن أحوالهم ، وقد حذف المسؤول لكونه عيَّن المسؤول عنه ، أي : يسألون المجرمين عن أحوالهم ، وقوله تعالى : {ما سلككم في سقر} : مقول لقول هو حال من فاعل " يتساءلون " أي : يسألونهم قائلين : أيُّ شيء أدخلكم في سقر ؟ فتأمل ودع عنك ما يتكلّف المتكلفون. هـ.

}

قالوا} أي : المجرمين مجيبين للسائلين : {لم نكُ من المصلِّين} للصلوات الواجبة ، {ولم نك نُطعم المسكين} كما يُطعم المسلمون ، وفيه دلالة على أنّ الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخذة ، {وكنا نخوض مع الخائضين} أي : نشرع في الباطل مع الشارعين فيه ، فنقول الباطل والزور في آيات الله ، {وكنا نُكذِّب بيوم الدين} ؛ بيوم الجزاء والحساب. وتأخير ذكر جنايتهم هذه مع كونها أعظم من الكل ؛ لتفخيمها ، كأنهم قالوا : وكنا بعد ذلك مكذِّبين بيوم الدين ، ولبيان كون تكذيبهم به مقارناً

لسائر جناياتهم المعدودة مستمراً إلى آخر عمرهم ، حسبما نطق به قوله تعالى : {حتى أتانا اليقينُ} ؛ الموت ومقدماته ، {فما تنفعهم شفاعةُ الشافعين} من الملائكة والنبيين والأولياء والصالحين ، لأنها خاصة بالمؤمنين ، وفيه دلالة على ثبوت الشفاعة للمؤمنين ، وفي الحديث : " إن من أمتي مَن يدخل الجنة بشفاعته أكثر من ربيعة ومضر ". {فما لهم عن الذكرةِ} ؛ عن التذكير والوعظ بالقرآن {معرِضين} ؛ مولّين ، والفاء لترتيب ما قبلها من موجبات الإقبال عليه ، والاتعاظ به من سوء حال المعرضين ، و " معرضين " : حال من الضمير الواقع خبراً لـ " ما " الاستفهامية ، كقولك : ما لك قائماً ؟ أي : فإذا كان حال المكذّبين به على ما ذكر من سوء الحال. فإيُّ شيء حصل لكم حال كونكم معرضين عن القرآن ، مع تعاضد الدواعي إلى الإيمان ؟ {كأنهم حُمُرٌ} ؛ أي حُمر الوحش

١٨٢

{مُستنفِرَةٌ} ؛ شديدة النفار ، كأنها تطلب النفار من نفوسها. وقرأ نافع والشامي بفتح الفاء ، أي : استنفرها غيرُها ، وجملة التشبيه حال من ضمير " معرضين " أي : مشبّهين بحُمر نافرة {فرّتْ من قسورة} أي : من أسد ، فَعْولة من القَسر ، وهو القهر ، وقيل : هي جماعة الرماة الذين يصطادونها ، شُبِّهوا في إعراضهم عن القرآن ، واستماع ما فيه من المواعظ ، وشرودهم عنه بحُمر حدث في نفارها ما أفزعها. وفيه مِن ذمهم وتهجين حالهم من تشبيههم بالحُمر ما لا يخفى.

{بل يُريد كل امرىءٍ منهم أن يُؤتَى صُحفاً مُنَشَّرةً} : عطف على مُقدّر يقتضيه الكلام ، كأنه قيل : لم يكتفوا بتلك التذكرة ، ولم يَرضوا بها ، بل يُريد كل امرىء منهم أن يُؤتى {صُحفاً مُنشَّرة} ؛ قراطيس تُنشر وتُقرأ ، وذلك أنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : لن نتبعك حتى تأتي كلَّ واحدٍ منا بكتاب من السماء ، عنوانها : من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، يؤمر فيها باتباعك ، وهذا كقوله : {وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ} [الإسراء : ٩٣]. وقيل : قالوا : إن كان محمد صادقاً فليصبح عند رأس كل واحد منا صحيفة ، فيها براءته وأمنه من النار.

}

(٢١٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٨١

كَلاَّ} ، ردع لهم عن تلك الجرأة ، وزجر عن اقتراح الآيات ، {بل لا يخافون الآخرة} فلذلك يُعرضون عن التذكرة ، لاَ لامتناع إيتاء الصُحف. {كَلاَّ إنه تذكرةٌ} زجَرهم عن إعراضهم عن التذكرة ، وقال : إن القرآن تذكرة بليغة كافية ، {فمَن شاءَ ذكرَه} أي : فمَن شاء أن يذكره ذكره ، وحاز سعادة الدارين ، {وما يَذْكُرُون} بمنجرد مشيئتهم {إلاّ أن يشاء اللهُ} هدايتهم فيذكرون ، والاستثناء مفرغ من أعم

الأحوال ، أي : وما يذكرون لِعلةٍ من العلل ، وفي حال من الأحوال ، إلاَّ أن يشاء الله ذلك ، وهو تصريح بأنَّ أفعال العباد كلها بمشيئة الله تعالى ، وقرأ نافع ويعقوب بتاء الخطاب للكفرة. {هو أهلُ التقوى} أي : حقيق با ، يُتقى عقابه ، ويؤمن به ويُطاع ، {وأهلُ المغفرةِ} ؛ حقيق بأن يَغفر لمَن آمن به وأطاعه ، وعنه عليه السلام في تفسيرها : " هو أهل أن يُتّقى ، وأهل أن يغفر لمن اتقاه ". وفي رواية ابن ماجه والترمذي : " قال الله تعالى : أنا أهل أن أُتَّقَى ، فلا يُجعل معي إله آخر ، فمَن اتقى ذلك فأنا أهل أن أغْفر له " قال ذلك عليه السلام لَمّا قرأ الآية. هـ.

الإشارة : قال الورتجبي : قوله تعالى : {كل نفس بما كسبت رهينة...} الخ ، كلُّ واقفٍ مع حال ، وملاحظ لمقام ، فهو مرتهن ، إلاّ مَن تجرّد مما دون الله ، وهم أصحاب يمين مشاهدة الحق ، فإنهم في جنان قُربه ووصاله. هـ. أي : كل نفس واقفة مع حالها أو مقامها مرتهنة معه ، إلاّ مَن ينفذ إلى شهود الحق ، إنه يكون من قبضة اليمين الذين اختارهم

١٨٣

الله بمحض الفضل ، فهم في جنات المعارف يتساءلون عن الغافلين : ما سلككم في سقر السقوط من درجة القُرب والوصال ؟ قالوا : لم نك من المُصلِّين الصلاة الدائمة ، ولم نك نُطعم المسكين ، بل كنا بُخلاء بأموالنا وأنفسنا ، وكنا نخوض في أودية الدنيا مع الخائفين ، وكنا نُكذّب بيوم الدين ؛ لأنَّ أفعالهم كانت فعل مَن لا يُصدّق بيوم الحساب ، حتى أتانا اليقين بعد الموت ، فندمنا ، فلم ينفع الندم وقد زلّت القَدَم ، فما تنفع فيهم شفاعة الشافعين ، حيث ماتوا غافلين ؛ لأنَّ الشفاعة لا تقع في مقام القُرب والاصطفاء ، فمَن مات بعيداً بسبب الغفلة لا يصير قريباً ، ولو شفع فيه ألف نبي وألف وَلِيّ ، إذ القُرب على قدر الكشف ، وكشف الحجاب عن الروح إنما يحصل في هذه الدار ، لقوله عليه السلام : " يموت المرء على ما عاش عليه ، ويُبعث على ما مات عليه " وإنما تقع الشفاعة في النجاة ، أو في الدرجة الحسية ، والله تعالى أعلم. فما لهم ، أي : لأهل الإعراض عن المذكِّر ، عن التذكرة منه مُعرضين ، كأنهم حُمر الوحش فرّت من قسورة ، وتشبيههم بالحُمر في البلادة والجهل ، وكل مَن طلب الكرامة من الأولياء فهو كاذب في الطلب ، إذ لو صدق في الطلب لأراه الله الكرامات على أيديهم كالسحاب ، كلاَّ بل لا يخافون الآخرة ، ولو خافوها وجعلوها نُصب أعينهم لما توقّفوا على كرامة ولا معجزة ، والأمر كله بيد الله ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة. وبالله التوفيق ، وصلّى الله سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

١٨٤

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٨١
سورة القيامة

(٢١٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٨٤
يقول الحق جلّ جلاله : {لا أُقسم} أي : أُقسم. وإدخال " لا " النافية على فعل القسم شائع ، كإدخاله على المقسم به في " لا وربك " و " لا والله " ، وفائدتها : توكيد القسم ، وقيل : صلة ، كقوله : {لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ} [الحديد : ٢٥] وقيل : هي نفي وَرَدَ لكلام معهود قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث ، فقيل : لا ، أي : ليس الأمر كذلك ، ثم قال : أُقسم {بيوم القيامة} إنَّ البعث لواقع. وأيًّا ما كان ففي الإقسام على تحقيق البعث بيوم القيامة من الجزالة ما لا يخفى. وقيل : أصله : لأُقسم ، كقراءة ابن كثير ، على أنَّ اللام للابتداء ، و " أُقسم " : خبر مبتدأ مضمر ، أي : لأنا أُقسم ، ويُقويه أنه في الإمام بغير ألف ثم أشبع فجاء الألف.
{ولا أُقسم بالنفس اللوّامة} ، الجمهور على أنه قسم آخر ، وقال الحسن : الثانية نفي ، أي : أُقسم بيوم القيامة لا بالنفس اللوّامة ، فيكون ذمًّا لها ، وعلى أنه قسم يكون مدحاً لها ، أي : أقسم بالنفس المتقية ، التي تلوم صاحبها على التقصير ، وإن اجتهدت في الطاعة. أو : بالنفس المطمئنة اللائمة للنفس الأمّارة ، وقيل : المراد الجنس ، لِما رُوي أنه عليه السلام قال : " مَا مِنْ نَفْسٍ بَرَّةٍ ولا فَاجِرَةٍ إلاَّ وتلُومُ نفسها يوم القِيامَة ، إنْ عَملت خَيْراً ، قالت : كيف لم أزدْ ؟ ! وإنْ عملت شرًّا ، قالت : ليتني كُنتُ قصرتُ " وذكره
١٨٥
الثعلبي من كلام البراء : قال أبو السعود : ولا يخفى ضعفه ؛ لأنّ هذا القدر من اللوم لا يكون مداراً للإعظام بالإقسام ، وإن صدَر عن النفس المؤمنة المحسنة ، فكيف من الكافرة المندرجة تحت الجنس ، وقيل : بنفس آدم عليه السلام ، فإنها لا تزال تتلوَّم على فعلها الذي خرجت به من الجنة.

(٢١٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٨٥
وجواب القسم : لتُبعثنّ ، دليله : {أيَحْسَبُ الإنسانُ} أي : الكافر المنكرِ للبعث {ألَّن نجمعَ عِظامه} بعد تفرّقها ورجوعها عظاماً رفاتاً مختلطاً بالتراب ، أو : نسفَتْها الرياح وطيَّرتها في أقطار الأرض ، أو :

ألقتها في البحار. وقيل : إنَّ عَدِيّ بن ربيعة ، خَتَنَ الأخنس بن شريق ، وهما اللذان قال فيهما النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم اكفني جارَيْ السوء ، عَدياً والأخنس " قال . عَدِيّ . : يا محمد ، حدِّثنا عن يوم القيامة متى يكون ، وكيف أمرها وحالها ؟ فأخبره عليه السلام ، فقال : يا محمد ؛ لو عاينتُ ذلك لم أصدقك ، ولم أُومِنْ بك ، أَوَيجمعُ الله هذه العظام ؟ فنزلت. {بلى} أي : نجمعها حال كوننا {قادرين على أن نُسَوّي بنانه} أي : أصابعه كما كانت في الدنيا بلا انفصال ولا تفاوت مع صغرها ، فكيف بكبار العِظام ؟ ! {بل يريد الإنسانُ لِيَفجُر أمامه} : عطف على {أيحسب} إمّا على أنه استفهام توبيخي ، أضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا ، أو : على أنه إيجاب انتقل إليه عن الاستفهام ، أي : بل يريد ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات ، وما يستقبله من الزمان ، لا يرعوي عنه.
قال القشيري : {لِيفجُر أمامه} أي : يعزم على أنه يستكثر من معاصيه في مستأنف وقته ، ولا يحلّ عقدةَ الإصرار من قلبه ، فلا تصحّ توبتُه ؛ لأنّ التوبة من شرطها : العزم على أن لا يعودَ إلى مثل ما عَمِل ، فإذا كان استحلى الزلّة في قلبه ، وتفكّر في الرجوع إلى مثله فلا تصح ندامتُه. هـ. وقيل : {ليفجُرَ أَمامَه} أي : يكفر بما قُدامه ، ويدل على هذا قوله : {يسأل أيَّانَ يومُ القيامةِ} أي : متى يكون ؟ استبعاداً واستهزاءً.
{فإذا بَرِقَ البصرُ} أي : تحيَّر ، من : برق الرجل : إذا نظر إلى البرق فدهش بصره ، وقرأ نافع بفتح الراء ، وهي لغة ، أو من البريق ، بمعنى لمع من شدة شخوصه ، {وخَسَفَ القمرُ} ؛ ذهب ضوؤه أو غاب ، من قوله : {فَخَسَفْنَا بِهِ} [القصص : ٨١] وقرىء : خُسف ، بضم الخاء. {وجُمعَ الشمسُ والقمرُ} أي : جُمع بينهما ، ثم يُكوّران ويُقذفان في النار ، أو يُجمعان أسودين مكورين ، كأنهما ثوران عقِيران. وفي قراءة عبد الله : " وجمع بين الشمس والقمر ". وقال عطاء بن يسار : يجمع بينهما يوم القيامة ، ثم يقذفان في البحر ، فيكونان نار الله الكبرى ، أو : جمع بينهما في الطلوع من المغرب.
{يقول الإنسانُ يومَئذٍ} أي : حين تقع هذه الأمور العظام : {أين المفَرُّ} أي : الفرار من النار ، يائساً منه ، والمراد بالإنسان : الكافر ، أو : الجنس ، لشدة الهول. قال القشيري : وذلك حين تُقاد جهنم بسبعين ألف سلسلة ، كل سلسلة بيد سبعين ألف مَلَك ، فيقول الإنسان : أين المفر ؟ فيقال :

لا مهرب من قضاء الله ، " إلى ربك يومئذ المستقر " ، أي : لا محيد عن حكمه. هـ. والمفر : مصدر ، وقرأ الحسن بكسر الفاء ، فيحتمل المكان أو المصدر.
}

كلاَّ} ؛ ردعٌ عن طلب المفرّ وتمنِّيه ، {لا وَزرَ} ؛ لا ملجأ ولا حصن ، وأصل الوَزر : الجبل الذي يمتنع فيه. قال السدي : كانوا إذا فزعوا تحصَّنوا في الجبال ، فقال تعالى : لا جبل يعصمكم يومئذ مني ، {إلى ربك يومئذ المستقَرُّ} أي : إليه خاصة استقرار العباد ، ومنتهى سيرهم ، أو : إلى حُكمه استقرار أمرهم ، أو : إلى مشيئته موضع قرارهم ، يُدخل مَن يشاء الجَنة ومَن يشاء النار ، {يُنبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ} أي : يُخبر كل امرىء ، برًّا كان أو فاجراً ، عند وزن الأعمال {بما قَدَّم} من عمله خيراً كان أو شرًّا ، فيُثاب على الأول ، ويُعَاقب على الثاني ، {وما أخَّرَ} أي : لم يعمله خيراً كان أو شرًّا ، فيُعاقب بالأول ويثاب على الثاني ، أو : بما قدّم من حسنة أو سيئة قبل موته ، وبما أَخَّرَ من حسنة أو سيئة سَنَّها فعُمل بها بعد موته ، أو : بما قدّم في أول عمره ، وأخَّرَ عمله في آخر عمره ، أو : بما قَدَّم من أمواله أمامه ، وأخَّرَ آخره لورثته ، نظيره. {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ} [الانفطار : ٥].

{بل الإنسانُ على نفسِهِ بصيرةٌ} أي : شاهِدٌ بما صدر عنه من الأعمال السيئة ، كما يُعرب عنه التعبير بـ " على " وما سيأتي من الجملة الحالية ، والتاء للمبالغة ، كعلاّمة ، أو : أنّثه لأنه أراد به جوارحه ؛ إذ هي التي تشهد عليه ، أو : هو حُجّة على نفسه ، والبصيرة : الحُجة ، قال الله تعالى : {قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ} [الأنعام : ١٠٤] وتقول لغيرك : أنت حُجّة على نفسك. ومعنى " بل " : الترقي ، أي : يُنبأ الإنسان بأعماله ، بل هو يومئذ عالم بتفاصيل أحواله ، شاهد على نفسه ، لأنّ جوارحه تنطق بذلك. و " بصيرة " : مبتدأ ، و " على نفسه " : خبر مقدّم ، والجملة : خبر " الإنسان " ، {ولو أَلْقَى معاذِيرَه} : حال من الضمير في " بصيرة " ، أو : من مرفوع (ينبأ) أي : ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه أي : هو بصيرة على نفسه ، تشهد عليه جوارحُه ، ويُعمل بشهادتها ، ولو اعتذر بكل معذرة ، أو يُنبأ بأعماله ولو اعتذر..الخ. والمعاذير : اسم جمع للمعذرة ، كالمناكير اسم جمع للمنكَر ، لا جمع ؛ لأنّ جمعها معاذِر بالقصر ، وقيل : جمع " مِعْذار " وهو : الستر ، أي : ولو أرخى ستوره. وقيل : الجملة استئنافية ، أي : لو ألقى معاذيره ما قُبلت منه ، لأنَّ عليه مَن يُكذِّب عُذره ، وهي جوارحه. والله تعالى أعلم.

الإشارة : قد قرن الله تعالى قسَمَه بالنفس اللوّامة بِقسَمِه بيوم القيامة ، لمشاركتها له في التعظيم ، بل النفس اللوَّامة أعظم رتبة عند الله ، لأنها تكون لوّامة تلوم صاحبها على القبائح ، ثم تكون لهَّامة تُلهمه الخيرات والعلوم اللدنية ، ثم تكون مطمئنة ، حين تطمئن بشهود الحق بلا واسطة ، بل تستدل بالله على غيره ، فلا ترى سواه ، فحينئذ ترجع إلى أصلها ، وتُرجع الأشياء كلها إلى أصولها ، وهو القِدَم والأبد ، فيتلاشى الحادث ويبقى

القديم وحده ، كما كان وحده. فالنفوس أربعة : أمّارة ، ولوّامة ، ولهّامة ، ومطمئنة ، وهي في الحقيقة

نفس واحدة ، تتطور وتتقلب من حال إلى حال ، باعتبار التخلية والتحلية ، والترقية والتردية ، فأصلها الروح ، فلما تظلّمت سميت نفساً أمّارة ، ثم لوّامة ، ثم لهّامة ، ثم مطمئنة.

(٢١٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٨٥

قال القشيري : أيحسب الإنسان ، أي : الإنسان المحجوب بنفسه وهواه ، ألَّن نجمع عِظامه ؛ أعماله الحسنة والسيئة ، بلى قادرين على أن نُسَوِّي بنانه ، أي : صغار أفعاله الحسنة والسيئة ، بل يُريد الإنسان المحجوب لِيَفْجُرَ أمامه ، بحسب الاعتقاد والنية ، قبل الإتيان بالفعل ، أي : يعزم على المعاصي في المستقبل قبل أن يفعل ، يسأل أيَّان يوم القيامة ؟ لطول أمله ، ونسيان آخرته ، ولو فُتحت بصيرتُه لَشَاهد القيامة في كل ساعة ولحظة ، بتعاقب تجلي الإفناء والإبقاء. فإذا بَرِقَ البصرُ : تحيّر من سطوات أشعة سبحات التجلِّي الأحدي الجمعي ، وخسَف القمر ، أي : ستر نور قمر القلب بنور شمس الروح ، وجُمع الشمس والقمر ، أي : جُمع شمس الروح وقمر القلب ، بالتجلِّي الأحدي الجمعي ، يعني : فيغيب نور قمر الإيمان في شعاع شمس العرفان ، يقول الإنسان يومئذ : أين المفر ؟ من خوف الاضمحلال والاستهلاك ، وليس عنده حينئذ قوة التمكين فيخاف من الاصطلام ، إلى ربك يومئذ المستقر بالرسوخ والتمكين ، بعد الفرار إلى الله ، قال تعالى : {فَفِرُّوا إِلَى اللهِ} [الذاريات : ٥٠]. هـ. بالمعنى.

يُنبأ الإنسانُ يومئذٍ بما قَدَّم من المجاهدة ، حيث يرى ثمرتها ، وما أَخَّرَ ، حيث يرى شؤم تفريطه فيها ، فالمشاهدة على قدر المجاهدة ، فبقدر ما يُقَدِّم منها تعظم مشاهدته ، وبقدر ما يُؤَخِّر منها تَقِلّ. بل الإنسان على نفسه بصيرة ، يرى ما ينقص من قلبه وما يزيد فيه ، ويشعر بضعفه وقوته ، إن صحّت بصيرته ، وطهرت سريرته ، فإذا فرط في حال سيره لا يقبل عذره ، ولو ألقى معاذيره. وبالله التوفيق.

(٢١٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٨٥

قلت : اختلف المفسرون في وجه المناسبة في هذه الآية ، فقال بعضهم : ما تضمنه من الاقتدار على حفظه وإبقائه في قلبه ، بإخراجه عن كسبه وإمساكه وحفظه ، فالقادر على

١٨٨

ذلك قادر على إحياء الموتى وجمع عظامها ، وتسوية بنانها. ونَقَل الطيبي عن الإمام الفخر : أنه تعالى

لمّا أخبر عن الكفار أنهم يُحبون العاجلة ، وذلك قوله : {بل يُريد الإنسان لِيفجُر أَمامه} بيَّن أنَّ العَجَلة مذمومة ، ولو فيما هو أهم الأمور وأصل الدين ، بقوله : {لا تُحرِّكْ به لسانَك} فاعترض به ، ليؤكد التوبيخ على حب العاجلة بالطريق الأولى. هـ. وقيل : اعترض نزولُها في وسطِ السورة قبل أن تكمل ، فوُضعت في ذلك المحل ، كمَن كان يسرد كتاباً ثم جاء سائل يسأل عن نازلةٍ ، فيطوي الكتابَ حتى يُجيبه ، ثم يرجع إلى تمام سرده. انظر الإتقان.

يقول الحق جلّ جلاله : {لا تُحرِّكْ به} ؛ بالقرآن {لسانَكَ لِتعجَلَ به} ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يأخذ في القراءة قبل فراغ جبريل ، كراهة أن يتفلّت منه ، فقيل له : لا تُحرك لسانك بقراءة الوحي ، ما دام جبريل يقرأ ، {لِتعجَلَ به} ؛ لتأخذه على عجلة ، لئلا يتفلّت منك ، ثم ضَمِنَه له بقوله : {إِنَّ علينا جَمْعَه} في صدرك ، {وقرآنه} ؛ وإثبات قراءته في لسانك ، فالمراد بالقرآن هنا : القراءة ، وهذا كقوله : {وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ} [طه : ١١٤] ، {فإذا قرأناه} على لسان جبريل {فاتَّبِعْ قرآنه} أي : قراءته ، {ثم إِنَّ علينا بيانَهُ} إذا أشكل عليك شيء مِن معانيه وأحكامه.

الإشارة : لا تُحرِّكْ بالواردات الإلهية لسانك لِتَعْجَل به حين الإلقاء ، بل تمهّل في إلقائه ليُفهم عنك ، إنَّ علينا جمعه وقرآنه ، أي : حفظه وقراءته ، فإذا قرأناه على لسانك في حال الفيض فاتبع قرآنه ، ثم إنَّ علينا بيانه. وفي الحِكم : " الحقائق ترد في حال التجلي جملة ، وبعد الوعي يكون البيان ، {فإذا قرأناه فاتبعْ قرآنه إنَّ علينا بيانه} ". ولا شك أنَّ الواردات في حال الفيض تبرز مجملةً ، لا يقدر على حصرها ولا تَفَهُّمِها ، فإذا فَرَغَ منها قولاً وكتابة فتَدَبرها وجدها صحيحةَ المعنى ، واضحةَ المبنى ، لا نقص فيها ولا خلل ، لأنها من وحي الإلهام ، وكان بعض المشايخ يقول لأصحابه : إني لأستفيد مني كما تستفيدون أنتم ، وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه إذا فاض بالمواهب يقول : هلاَّ مَن يكتب عنا هذه الأسرار. إلى غير ذلك مما هو مُدوَّن عند أهل الفن. والله تعالى أعلم.

(٢١٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٨٨

١٨٩

يقول الحق جلّ جلاله : {كلاَّ} أي : انزجروا عما أنتم عليه من إنكار البعث والفجور ، {بل تُّحبون العاجلةَ وتَذَرون الآخرة} أي : بل أنتم يا بني آدم لما خلقتم من عجل ، وجُبلتم عليه ، تَعْجلون في كل شيء ، ولذلك تُحبون العاجلة مع فنائها وسرعة ذهابها ، {وتذرون الآخرة} مع بقائها ودوام نعيمها. قال بعضهم : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من طين يبقى ، لكان العاقل يختار ما يبقى على ما يفنى ، لا سيما والعكس ، الآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من طين يفنى. ومَن قرأ بالغيب فالكلام مع

الكفرة.

{وجوه يومئذٍ ناضرةٌ} أي : وجوه كثيرة ، وهي وجوه المؤمنين المخلصين ، يوم إذ تقوم القيامة ، بهية متهللة ، يشاهَدُ عليها نَضْرة النعيم ، {إلى ربها ناظرةٌ} أي : مستغرِقة في مشاهدة جماله ، فتغيب عما سواه. ورؤيته تعالى يوم القيامة متفاوتة ، يتجلّى لكل واحد على قدر ما يطيق من نور ذاته على حسب استعداده في دار الدنيا ، فيتنعّم كل واحد في النظرة على قدر حضوره هنا ، ومعرفته.

ورؤيته تعالى جائزة في الدنيا والآخرة ، واقعة في الدارين عند العارفين ، وهذه الآية شاهدة لذلك ، وهي مخصَّصة لقوله : {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} [الأنعام : ١٠٣] أي : لا تراه ، على قولٍ. قال بعضُهم : هي واقعة للمؤمنين قبل دخول الجنة وبعده ، حسبما ورد في الصحيح. وقوله في الحديث : " فيأتيهم الله في الصورة التي لا يعرفونها " ، المراد بالصورة : الصفة ، والمعنى : أنهم يرونه ثانياً على ما يعرفونه من صفاته العلية ، وأهل المعرفة لا ينكرونه في حال من الأحوال.

(٨/٢٢٠)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٨٩

والمقصود من الآية : تقبيح رأي حب العاجلة بذكر حسن عاقبة حب الآجلة ، أي : كيف يذر العاقل مثل تلك المسرّة ، التي ليس فوقها شيء ، بدلاً من هذه اللذة الخسيسة الدنية ، أم كيف يغتر بعروض هذا السرور وعاقبته الهلاك والثبور ؟ انظر الطيبي. وحَمْل النظرعلى الانتظار لأمر ربها ، أو لثوابها ، لا يصح خلافاً للمعتزلة ؛ لأنَّ الانتظار لا يُسْند إلى الوجه ، وأيضاً : المستعمل بمعنى الانتظار لا يتعدّى بـ " إلى " ، مع أنه لا يليق الانتظار في دار القرار.

{ووجوه يومئذٍ باسرةٌ} أيك كالحة ، شديدة العبوسة ، وهي وجوه الكفار. {تظن} أي : يتوقع أربابُها {أن يُفعل بها فاقِرة} أي : داهية عظيمة ، تقصم فقار الظهر. {كلاَّ} ، ردع عن إيثار العاجلة على الآخرة ، أي : ارتدعوا عن ذلك وتنبّهوا لِما بين أيديكم من الموت ، الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم ، وتنتقلون إلى الآجلة التي تبقون فيها مخلّدين ، وذلك {إذا بلغتِ} الروح {التراقيَ} ، ولم يتقدّم للروح ذكر ؛ إلاَّ أنَّ السياق يدل عليها ، والتراقي : العظام المكتنفة لحفرة النحر عن يمين وشمال ، جمع : ترقوة ، أي : إذا بلغت

١٩٠

أعالي الصدور ، {وقيلَ مَن راقٍ} أي : قال مَن حضر المحتضر : مَن يرقيه وينجيه مما هو فيه من الموت ؟ وهو من الرُقية ، وقيل : هو من كلام ملائكة الموت ، أي : أيكم يَرْقَى بروحه ، ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ؟ من الترقِّي. {وظنَّ أنه الفِراقُ} أي : تيقّن المحتضرُ أنَّ ما نزل به هو الفِراق

من دار الدنيا ونعيمها التي كان يحبها {والتفَّتِ الساقُ بالساقِ} أي : التوت ساقاه بعضها على بعض عند موته. وعن سعيد بن المسيِّب : هما ساقاه حين تُلفّان في أكفانه ، وقيل : شدّة فراق الدنيا بشدّة إقبال الآخرة ، على أنَّ الساق مَثَلٌ في الشدة. وعن ابن عباس رضي الله عنه : هَمَّان : هَمٌّ الولد ، وهَمُّ القدوم على الواحد الصمد. {إلى ربك يومئذٍ المساقُ} أي : إلى الله وإلى حكمه يُساق ، لا إلى غيره ، إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار ، وهو مصدر : ساقه مساقاً.

{فلا صدَّق} ما يجب به التصديق ، من الرسول والقرآن الذي نزل عليه ، أو : فلا صدّق ماله زكاه ، {ولا صَلَّى} مافُرض عليه ، والضمير فيها للإنسان المذكور في قوله : {أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ} [القيامة : ٣] ، أو : إلى المحتضر المفهوم من قوله : {إذا بلغت التراقي} ، وهو أقرب.

{ولكن كذَّب} بما ذكر من الرسول والقرآن {وَتولَّى} عن الإيمان والطاعة ، {ثم ذهب إلى أهله يَتَمطَّى} ؛ يبختر بذلك ، وأصله : يتمطط ، أي : يتمدّد ؛ لأنّ المتبختر يَمُدُّ خطاه ، فأبدلت الطاءُ ياءً ؛ لاجتماع ثلاثة أحرف متماثلة ، قال في النهاية : مِشْيةٌ مُطيْطاء ، بالقصر والمد ، أي : فيها تَبخْتُرن ويقال : مَطَوْتُ ومَطَطْتُ بمعنى مدَدْتُ ، وهي من المُصَغَّراتِ التي لم يُستعمل لها مُكَبَّرٌ. هـ. أو : من المطا ، وهو الظَّهْر فإنه يلويه.

}

(٢٢١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٨٩

أَوْلَى لك فأَوْلَى} أي : ويل لك ، وأصله : أولاك الله ما تكره ، واللام مزيدة ، كما في قوله : {رَدِفَ لَكُم} [النمل : ٧٢] أو : أولى الهلاك لك فأولى ، وقيل : هو مقلوب من الويل ، وقيل : أولى بالعذاب وأحق به ، وقيل : من الوَلي ، وهو القرب ، أي : قاربه ما يهلكه. {ثم أَوْلَى لك فأَوْلَى} ، كرر للتأكيد ، كأنه قيل : ويل لك فويل لك ثم ويل لك فويل لك ، وقيل : التكرير فيه ، لأنه أراد بالأول : الهلاك الدنيوي وفي القبر والبرزخ ، ثم في القيامة ، ثم في النار. {أيَحْسَبُ الإنسانُ أن يُترك سُدىً} ؛ أيظن الكافرُ أن يُترك مُهْمَلاً ، لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يُبعث ولا يُجازَى ، {ألم يكُ نطفة مِن مَنِيٍّ تُمنى} ؟ أي : تُراق في الأرحام ، {ثم كان علقةً} أي : صار المَنِي قطعة دم جامد ، بعد أربعين يوماً {فخَلَقَ فسَوّى} أي : فخلق الله منها بشراً سويًّا ؟ {فجعل منه} ؛ من الإنسان ، أو : من المَنِي {الزوجين} ؛ الصنفين {الذكرَ والأُنثى} لحكمه بقاء النسل ، {أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيي الموتى} وهو أهون من البدء في قياس العقول ؟ كان عليه السلام إذا قرأها يقول : " سبحانك! بلى ".

الإشارة : قال في الإحياء : اعلم أنَّ رأس الخطايا والمهلكة هو حب الدنيا ، ورأس أسباب النجاة هو : التجافي بالقلب عن دار الغرور. ثم قال : واعلم أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلاَّ بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا ، ولا تحصل المحبة إلاَّ بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلاَّ بدوام الفكر ، ولا يحصل الأنس إلاَّ بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسَّر المواظبة على الذكر إلاَّ بإقلاع حب الدنيا من القلب ، ولا يقع ذلك إلاّ بترك لذات الدنيا وشهواتها ، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات ، ولا تنقمع الشهوات بشيءٍ كما تنقمع بنار الخوف المحرقة للشهوات. هـ. على نقل صاحب الجواهر.

ومَن أسعده الله بلقاء شيخ التربية هان عليه معالجة النفس من غير تعب ، في أقرب وقت ، بحيث يُغيّبه عنها ، ويزُجه في الحضرة ، في أقرب زمان ، فيدخل في قوله تعالى : {وجوده يومئذ ناضرةٌ إلى ربها ناظرةٌ} فتحصل له النضرة والنظرة في الدنيا والآخرة ، فيفنى عن نظره حسُّ الكائنات ، وتظهر أسرار الذات الأزلية للعيان بادية ، فيستدل بالله على غيره ، فلا يرى سواه ، وينشد ما قال الشاعر :

فَلم يَبْق إلاّ الله لم يبقَ كائن

فما ثَمَّ موصولٌ ولا ثَمَّ بائِنُ

(٢٢٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٨٩

بِذَا جاء بُرهانُ العَيانِ فما أرى

بِعَيني إلاَّ عينَه إذْ أُعايِنُ

قال القشيري : قوله تعالى : {وجوه يومئذٍ ناضرةٌ...} الخ ، يُقال : هذه الآية دليل على أنهم بصفة الصحو ، ولا يداخلهم حيرة ولا دهش ، لأنَّ النضرة من أمارات البسط ، والبقاء في حال اللقاء أتم من اللقاء ، والرؤية عند أهل التحقيق تقتضي بقاء الرائي.. الخ كلامه. {ووجوه يومئذ باسِرة} وهي وجوه أهل الغفلة ، المحجوبين في الدنيا عن شهود الحق ، تظن أن يُفعل بها داهية فاقرة ، لِما فرّطت في جنبه ـ تعالى ـ من عدم التوجه إليه ، كلاَّ ، فلترتدع اليوم ، ولتنهض قبل فوات الإبان ، وهو إذا بلغت الروحُ التراقي ، وقيل : مَن راقٍ ؟ والتفت الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ المساق ، فيحصل الندم ، وقد زلّت القدم ، فلا صدّق بوجود الخصوصية عند أربابها ، فيصحبهم ليزول عنه الغين والمرض ، أي : غين الحجاب ومرض الخواطر والشكوك ، ولا صلَّى صلاةَ القلوب ، ولكن كذَّب بوجود الطبيب ، وتولِّى عنه مع ظهوره ، ثم ذهب إلى هواه ودنياه يتمطى ، أَوْلَى لك فأَوْلى ، أي : أبعدك الله وطردك ، ثم أَوْلَى لك فأوْلى ، أيحسب الإنسانُ أن يتركه الحقُ سدىً ، من غير أن يُرسل له داعياً يدعوه إلى

الحق ؟ ألم يك نطفة مهينة ، ثم صوَّره ونفخ فيه من روحه ، أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيي الموتى ؟ أي : القلوب والأرواح الميتة ، بالعلم والمعرفة ، بلى وعزة ربنا إنه لَقادر ، " مَن استغرب أن يُنقذه الله من شهوته ، وأن يُخرجه من وجود غفلته ، فقد استعجز القدرة الإلهية ، وكان الله على كل شيء مقتدراً " وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد ، وآله.
١٩٢

(٢٢٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٨٩
سورة الإنسان

(٢٢٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٩٢
يقول الحق جلّ جلاله : {هل أتى على الإنسان} ، والاستفهام للتقرير والتعريف ، أو بمعنى " قد " ، أي : قد مضى على الإنسان قبل زمانٍ قريبٍ {حِينٌ من الدهر} أي : طائفة محدودة كائنة من الزمن الممتد {لم يكن شيئاً مذكوراً} بل كان شيئاً منسياً غير مذكور بالإنسانية أصلاً ، كالعنصر والنطفة وغير ذلك. والجملة المنفية : حال من الإنسان ، أي : مضى عليه زمان غير مذكور ، أو صفة لـ " حين " على حذف العائد ، أي : لم يكن فيه شيئاً ، والمراد بالإنسان : الجنس.
والإظهار في قوله : {إنَّا خلقنا الإنسانَ} لزيادة التقرير ، أو : يراد آدم عليه السلام ، وهو المروي عن ابن عباس وقتادة ، فقد أتى عليه حين من الدهر ، وهو أربعون سنة مصوَّراً قبل نفخ الروح ، وهو ملقى بين مكة والطائف ، وفي رواية الضحاك عنه : أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة ، ثم من حمأ مسنون ، فأقام أربعين سنة ، ثم من صلصال ، فأقام أربعين ، ثم خلقه بعد مائة وعشرين سنة. هـ. قلت : جمهور المؤرخين أنَّ آدم صُوِّر في السماء ، ويقال : كان على باب الجنة ، تمر به الملائكة وتتعجب منه ، ويمكن أن يكون صُوّر في الأرض ، ثم رُفع إلى السماء ، القدرة صالحة. والله تعالى أعلم بما كان.
وقال بعضهم : المراد بالإنسان الأول : آدم عليه السلام ، وبالثاني : أولاده ، أي : خلقنا نسل الإنسان {من نُطفةٍ أمشاجٍ} أي : أخلاط ، من : مشجت الشيء : إذا خلطته ومزجته ، وصف به النطفة ؛ لأنها مختلطة من ماء الرجل وماء المرأة ، ولكل منهما أوصاف مختلفة ، من اللون ، والرقّة ، والغلظ ، وخواص متباينة ، فإنَّ ماء الرجل أبيض غليظ ، فيه

قوة العصب ، وماء المرأة أصفر رقيق ، فيه قوة الانعقاد ، وتخلّق منهما الولد ، فما كان من عصب وعظم وقوة فمن ماء الرجل ، وما كان من لحم ودم وشعر فمِن ماء المرأة. قال القرطبي : وقد رُوي هذا مرفوعاً. وقيل : إذا علا ماءُ الرجل أشبهه الولد ، وإذا علا ماء المرأة أشبهها. وقيل : إذا سبق أحدهما فالشبه له. وقيل : " أمشاج " مفرد غير جمع ، كَبَرْمة أعشار ، وثوب أخلاق. وقيل : أمشاج : ألوان وأطوار ، فإنَّ النطفة تصير علقة ثم مضغة إلى تمام الخلقة. وقال ابن السكيت : الأمشاج : الأخلاط ؛ لأنها ممتزجة من أنواع الأغذية من نبات الأرض ، فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة. هـ.
}

(٢٢٥/٨)

نبتليهِ} حال ، أي : خلقناه مبتلين له ، أي : مريدين ابتلاءه بالأمر والنهي في المستقبل ، {فجعلناه سميعاً بصيراً} ليتمكن من سماع الآيات التنزيلية ، ومشاهدة الآيات التكوينية ، فهو كالمسبب عن الابتلاء ، فلذلك عطف على الخلق بالفاء ، ورتّب عليه قوله : {إنَّا هديناه السبيلَ} ؛ بيَّنَّا له الطريق ، بإنزال الآيات ، ونصب الأدلة العقلية والسمعية ، {إمَّا شاكراً وإمَّا كفوراً} : حال من مفعول {هديناه} ، أي : مكّنّاه وأقدرناه على سلوك الطريق الموصل إلى البُغية ، في حالتي الشكر والكفر ، أي : إن شكر أو كفر فقد هديناه السبيل في الحالين ، فإن شكر نفع نفسه ، وإن كفر رجع وبال كفره عليه ، أو : حال من " السبيل " ، أي : عرفناه السبيل ، إمّا سبيلاً شاكراً ، وإمّا سبيلاً كفوراً. ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز ، والمراد : سالكه.
الإشارة : قد أتى على الإنسان حين من الدهر ، وهو قبل وقوع التجلِّي به ، لم يكن شيئاً مذكوراً ، بل كان شيئاً معلوماً موجوداً في المعنى دون الحس ، غير مذكور في الحس ، فلمّا وقع به التجلِّي صار شيئاً مذكوراً ، يذكر بالخطاب والتكليف ، ويمكن أن يكون الاستفهام إنكارياً ، أي : هل أتى عليه زمان لم نذكره فيه ، بل لم يأتِ عليه وقت إلاَّ وكان مذكوراً لي. ويُقال : هل غفلتُ ساعة عن حفظك ؟ هل ألقيتُ ساعة حبلك على غاربك ؟ هل أخليتك ساعة من رعاية جديدة ، وحماية مزيدة. هـ. من الحاشية.
ثم بيَّن كيفية التجلِّي به فقال : {إنَّا خلقنا الإنسان} أي : بشريته {من نُطفة أمشاج} أي : من نطفة من أخلاط الأرض ، فلذلك كانت تنزع إلى أصلها ، وتخلد إلى أرض الحظوظ والهوى ، نبتليه بذلك ، ليظهر الصادق في طلب الحق بمجاهدة نفسه في إخراجها عن طبعها الأصلي ، والمُعرض عن الطلب باسترساله مع طبعها البشري ، ويقال : خلقته من أمشاج النطفتين فينزع طبعُ الولد إلى الإغلب منهما ،

فإن غَلَبَ ماء الرجل نزع إلى طبع أبيه ، خيراً كان أو شرًّا ، وإن غلب ماء المرأة ، نزع إلى طبع أمه كذلك ، ابتلاء من الله وقهرية ، فلا بد أن يغلب الطبع ، ولو جاهد جهده ، ولذلك قال عليه ا لسلام : " إذا سمعتم أنَّ الجبال انتقلت فصَدِّقوا ، وإذا سمعتم أنَّ الطباع انتقلت فلا تُصَدِّقوا " وفائدة الصُحبة

١٩٤

والمجاهدة : خمود الطبع وقهر صولته ، لا نزعه بكليته ، فيقع الرجوع إلى الله من الطبع الدنيء ، ولا يقدح في خصوصيته إن رجع إلى الله في الحين ، ولذلك تلونت أحوال الأولياء بعد مجاهدتهم ورياضتهم. والله تعالى أعلم. فجعلناه سميعاً بصيراً ، ونفخنا فيه روحاً سماوية وقدسية ، تحن دائماً إلى أصلها ، فمنها مَن غلبت عليه النطفةُ الطينية ، فأخلدت بها إلى الأرض ، فبقيت مسجونة في هيكلها ، محجوبة عن ربها ، ومنها : مَن غلبت روحانيتها على الطينية ، فعرجت بها إلى الحضرة القدسية ، حتى رجعت إلى أصلها وإلى هذا أشار بقوله : {إنا هديناه السبيل} أي : بيَّنَّا له الطريق الموصل إلى الحضرة ، فصار إمّا شاكراً بسلوكها أو كافراً بالإعراض عنها ، وعدم الدخول تحت تربية العارف بها.

(٢٢٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٩٣

يقول الحق جلّ جلاله : {إنَّا أعتدْنا} ؛ أعددنا {للكافرين سلاسلاً} يُقادون بها إلى النار {وأغلالاً} يُقيَّدون بها {وسعيراً} يُحرقون بها. و " سلاسل " لا ينصرف ؛ لصيغة منتهى الجموع ، ومَن صرفه فليناسب أغلالاً ، إذ يجوز صرف غير المنصرف للتناسب. وتقديم وعيد الكفرة مع تأخرهم في الجمع على طريق اللف والنشر المعكوس ، كقوله : {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ...} [آل عمران : ١٠٦] الآية ليتخلّص إلى الكلام على الفريق الأول بطريق الإطناب ، فقال :

{إنَّ الأبرارَ} جمع بر وبار ، كرب وأرباب ، وشاهد وأشهاد ، وهو مَن يبر خالقه ، أي : يُطيعه ، وقيل : الأبرار هم الصادقون في الإيمان ، أو : الذين لا يؤذون الذر ، ولا يعمدون الشر. {يشربون من كأس} وهو الزجاجة إذا كان فيها خمر ، ويُطلق على نفس الخمر ، ف " مِن " على الأول ابتدائية ، وعلى الثاني تبعيضية ، {كان مِزاجُها} أي : ما تمزج به {كافوراً} أي : ماءٌ كافورٌ ، وهو عين في الجنة ، ماؤها في بياض الكافور ورائحتِه وبردِه. وفي القاموس : الكافور : نبت طيب ، نَوره كنَور الأُقحوان ، وطِيب معروف ، يكون

١٩٥

من شجر بجبال بحر الهند والصين ، يُظل خلقاً كثيراً ، وتألفه النمور ، وخشبه أبيض هش ، ويوجد في

أجوافه الكافور ، وهو أنواع ، ولونها أحمر ، وإنما يبيّض بالتصعيد ، والتصعيد : الإذابة. هـ. وقوله تعالى : {عيناً} : بدل من " كافور " ، وعن قتادة : تمزج لهم بالكافور ، وتختم لهم بالمسك ، وقيل : يخلق فيها رائحة الكافور وبياضه ويرده ، فكأنها مزجت بالكافور ، وهذا أنسب بأحوال الجنة ، ف " عيناً " على هذين القولين : بدل من محل (من كأس) على حذف مضاف ، أي : يشربون خمر عين ، أو : نصب على الاختصاص ، وقوله تعالى : {يشرب بها عبادُ الله} : صفة لعين ، أي : يشربون منها ، أو : الباء زائدة ، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة : " يشربها " ، أو : هو محمول على المعنى ، أي : يتلذذون بها ، أو يروون بها ، وإنما عبّر أولاً بحرف " من " وثانياً بحرف الباء ؛ لأنَّ الكأس مبتدأ شرابهم وأول غايته ، وأمّا العين فيها يمزجون شرابهم. قاله النسفي. وقيل : الضمير للكأس ، أي : يشربون العين بتلك الكأس ، {يُفجِّرُونها تفجيراً} أي : يُجْرُونَها حيث شاؤوا من منازلهم إجراءاً سهلاً ، لا يمتنع عليهم ، بل يجري جرياً بقوة واندفاع.

}

(٢٢٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٩٥

يُوفُون بالنَّذْرِ} بما أوجبوا على أنفسهم من الطاعات ، وهو استئناف مسوق لبيان ما لأجله رُزقوا ما ذكر من النعيم ، كأنه قيل : ماذا كانوا يفعلون حتى نالوا تلك الرتبة العالية ؟ فقال : يُوفون بما أوجبوا على أنفسهم ، فكيف بما أوجبه اللهُ عليهم ؟ {ويخافون يوماً كان شَرُّه} ؛ شدائده أو عذابه {مُسْتَطِيراً} ؛ منتشراً فاشياً في أقطار الأرض غاية الانتشار ، من : استطار الفجر : انتشر. {ويُطعِمون الطعامَ على حُبه} أي : كائنين على حب الطعام والحاجة إليه ، كقوله تعالى : {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران : ٩٢] أو : على حب الإطعام ، بأن يكون ذلك بطيب النفس ، أو : على حب الله ، وهو الأنسب بقوله : {لوجه الله} ، {مسكيناً} ؛ فقيراً عاجزاً عن الاكتساب ، أسكنه الفقرُ في بيته ، {ويتيماً} ؛ صغيراً لا أب له ، {وأسيراً} أي : مأسوراً كافراً. كان عليه السلام يؤتى بالأسير ، فيدفعه إلى بعض المسلمين ، فيقول له : " أحسِن إليه " أو : أسيراً مؤمناً ، فيدخل فيه المملوك والمسجون ، وقد سمى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الغريم أسيراً فقال : " غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك ". ثم علّلوا إطعامهم فقالوا : {إنما نُطعمكم لوجه الله} أي : لطلب ثوابه ، أو : هو بيان من الله تعالى عما في ضمائرهم من الإخلاص ، لأنَّ الله تعالى عَلِمه منهم ، فأثنى عليهم وإن لم يقولوا شيئاً ، وفيه نظر ؛ إذ لو كان كذلك لقال : " يطعمهم " بضمير الغيب ، فالجملة على الأول محكية بقول محذوف ، حال من فاعل " يُطعمون " أي : قائلين بلسان الحال أو المقال ؛ لإزاحة توهم المنّ المبطل

للصدقة ، وتوقع المكافآت المنقصة للأجر : {إنما نُطعمكم...} الخ. وعن الصدّيقة ـ رضي الله عنها ـ كانت تبعث بالصدقة ، ثم تسأل الرسولَ ما قالوا ، فإذا ذكر دعاءهم دعت لهم بمثله ، ليبقى لها ثواب الصدقة خالصاً. {لا

١٩٦

نُريد منكم جزاءً ولا شُكوراً} أي : لا نطلب على طعامنا مكافأة هدية ولاثناءً ، وهو مصدر : شكر شكراً وشُكوراً.

{إنَّا نخافُ من ربنا} أي : إنا لا نُريد منكم المكافأة لخوف عذاب الله على طلب المكافأة في الصدقة ، أو : إنا نخاف من ربنا فنتصدّق لوجهه حتى نأمن من ذلك الخوف ، {يوماً عَبُوساً قمْطريراً} ، وصف اليوم بصفة أهله ، نحو : نهاره صائم. والقمطرير : الشديد العبوس ، الذي يجمع ما بين عينيه ، أي : نخاف عذاب يوم تعبس فيه الوجوه أشد العبوسة.

}

(٢٢٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٩٥

فوقاهم اللهُ شَرَّ ذلك اليوم} ؛ صانهم من شدائده ، لسبب خوفهم وتحفُّظهم منه ، {ولَّقاهم} أي : أعطاهم بدل عبوس الفجار {نضرةً} ؛ حُسناً في الوجوه {وسُروراً} في القلب ، {وجزاهم بما صبروا} ؛ بصبرهم على مشاق الطاعات ، ومهاجرة المحرمات ، وإيثار الغير بالعطاء في الأزمات ، {جنةً} ؛ بستاناً يأكلون منه ما يشاؤون {وحَرِيراً} يلبسونه ويتزينون به.

وعن ابن عباس رضي الله عنه : أنّ الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ مَرِضا فعادهما النبيُّ صلى الله عليه وسلم في أنّاس معه ، فقالوا لعليّ رضي الله عنه : لو نذرت على ولدك ، فنذر عليّ وفاطمةُ وجاريتهما ـ يقال لها : فِضة ـ إن برئا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام ، فشُفيا ، فاستقرض عليّ من يهودي ثلاث أصُوع من الشعير ، فطحنت ـ رضي الله عنها ـ صاعاً ، واختبزت خمسة أقراص على عددهم ، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا ، فوقف عليهم سائل ، فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، مسكين من مساكين المسلمين ، أطعموني ، أطعمكم اللهُ من موائد الجنة ، فآثروه ، وباتوا لم يذوقوا إلا الماء ، وأصبحوا صياماً ، فلما أمسوا وضعوا الطعام بين أيديهم ، فوقف عليهم يتيم ، فأثروه ، ثم وقف عليهم في الثالثة أسير ، ففعلوا مثل ذلك ، فلما أصبحوا أخذ بيد الحسن والحسين ، وأقبلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أبصرهم وهم يرتعشون ، كالفراخ من شدة الجوع ، قال عليه السلام : " ما أشد ما يسوؤني مما أرى بكم " ، وقام فانطلق معهم ، فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها ،

وغارت عيناها ، فساءه ذلك ، فنزل جبريل عليه السلام وقال : يا محمد هنّاك الله في بيتك ، فأقرأه السورة. هكذا ذكر القصة الزمخشري وجمهور المفسرين ، وأنكر ذلك الترمذي الحكيم في نوادره ، وجزم بعدم صحتها لمخالفتها لأصول الشريعة ، وعدم جريه على ما تقتضيه من إنفاق العفو ، وكذا " ابْدَأ بمَن تَعُولُ " و " كفى بالمرء إثماً أن يَضيّع مَن يقوت " ، وغير ذلك. هـ.

١٩٧

قلت : ويُجاب بأنَّ هذا من باب الأحوال ، وللصحابة في الإيثار أحوال خاصة بهم ؛ لشدة يقينهم رضي الله عنهم ، وقد خرج الصدّيق رضي الله عنه عن ماله مِراراً ، وقال : (تركت لأهلي الله ورسوله) ، وكذلك فعل الصحابي الذي قال لامرأته : نوِّمِي صبيانك ليتعشّى ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نزل فيه ، {وَيُؤْثِرُون عَلَى أَنفُسِهِمْ...} [الحشر : ٩] الآية ، وصاحب الأحوال معذور ، غير أنه لا يُقتدى به في مثل تلك الحال ، فإنكار الترمذي بما ذَكَر غير صحيح.

}

(٢٢٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٩٥

متكئين فيها} ؛ في الجنة ، حال من " جزاهم " ، والعامل جزاء ، {على الأرائك} ؛ على الأسِرة في الحجال ، {لا يَرَون فيها شمساً ولا زمهريراً} لأنه لا شمس فيها ولا زمهرير . أي : بردٌ . فظِلها دائم ؛ وهواها معتدل ، لا حرَّ شمس يحمي ، ولا شدّة بردٍ يؤذي ، فالزمهرير : البرد الشديد ، وقيل : القمر ، في لغة طيء ، أي : الجنة مضيئة لا يُحتاج فيها إلى شمس ولا قمر. وجملة النفي إمّا حال ثانية ، أو : من المستكن في (متكئين).

{ودانيةً} : عطف على (جنة) ، أي : وجنة أخرى دانية {عليهم ظِلالها} ؛ قريبة منهم ظلال أشجارها ؛ قال الطيبي : إنما قال : (دانية عليهم) ولم يقل " منهم " ؛ لأنَّ الظلال عالية عليهم. هـ. فظلالها فاعل بدانية ، كأنهم وُعدوا جنتين ؛ لأنهم وُصفوا بالخوف ، وقد قال تعالى : {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن : ٤٦] ، {وذّللت قُطوفُها تذليلا} أي : سُخَّرت ثمارها للقائم والقاعد ، والمتكيء ، وهو حال من " دانية " أي : تدنو عليهم ظلالها في حال تذليل قطوفها. وقال في الحاشية : جملة فعلية معطوفة على جملة ابتدائية ؛ وفيه لطيفة : أنَّ استدامة الظل مطلوبة هناك ، وأمّا الذليل للقطْف فهو على التجدُّد شيئاً بعد شيء ، كلما أرادوا أن يقطعوا شيئاً منها ذل لهم ، ودنا لهم ، قعداً كانوا أو مضطجعين. هـ. وظاهر كلامه : أنَّ " ظلالها " مبتدأ ، و " عليهم " خبر ، وظاهر كلام الطيبي : أنه فاعل. والقطوف : جمع قِطْف ، وهو ما يجتنى من ثمارها.

{ويُطاف عليهم بآنيةٍ من فضةٍ} أي : يدير عليهم خَدَمُهم كؤوس الشراب ، وكأنه تعالى لَمَّا وصف لباسهم ، وهيئة جلوسهم ، وطعامهم ، ذكر شرابهم ، ثم يذكر خدمهم ، وما هيأ لهم من المُلك الكبير ، و(آنية) : جمع إناء ، وهو : وعاء الماء ، {وأكواب} أي : مِن فضة ، جمع كوب ، وهو الكوز العظيم الذي لا أُذن له ولاعروة ، {كانت قواريراً} " كان " تامة ، أي : كُونت فكانت قوارير بتكوين الله.
و(قواريرَ) : حال ، أو : ناقصة ، أي : كانت في علم الله قوارير ، {قواريرا من فِضةٍ} : بدل من الأول ، أي : مخلوقة من فضة ، قال ابن عطية : يقتضي أنها من زجاج ومن فضة ، وذلك ممكن ؛ لكونه من زجاج في شفوفه ، ومن فضة في جوهره ، وكذلك فضة الجنة شفافة. هـ. فهي جامعة لبياض الفضة وحُسنها ، وصفاء القوارير وشفيفها ، حتى يُرى ما فيها من الشراب من خارجها. قال ابن عباس : قوارير كل أرض من تربتها ، وأرض الجنة فضة. هـ. و " قوارير " ممنوع من
١٩٨
الصرف ، ومَن نَوّنه فلتناسب الآي المتقدّمة والمتأخّرة ، {قدَّروها تقديراً} ؛ صفة للقوارير ، يعني : أنَّ أهل الجنة قدَّروها في أنفسهم ، وتمنوها ، وأرادوا أن تكون على مقادير وأشكال معينة ، موافقة لشهواتهم ، فجاءت حسبما قدَّروها ، تكرمةً لهم ، أو : السُّقاة جعلوها على قَدْر ريّ شاربها ؛ لتكون ألذّ لهم وأخف عليهم. وعن مجاهد : لا تُفيض ولا تَغيض ، أو : قَدَّروها بأعمالهم الصالحة ، فجاءت على حسبها.
}

(٢٣٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٩٥
ويُسقون فيها كأساً} ؛ خمراً {كان مِزَاجُهَا زَنجبِيلاً} أي : ما يشبه الزنجبيل في الطعم والرائحة. وفي القاموس : الزنجبيل : الخمر ، وعُروق تسري في الأرض ، ونباته كالقصب والبرد ، له قوة سخنة هاضمة ملينة.. الخ. قلت : وهو السكنجبير ـ بالراء ـ ولعل العرب كانت تمزج شرابها به للرائحة والتداوي. وقوله تعالى : {عيناً} : بدل من " زنجبيلا " ، {فيها} أي : في الجنة {تُسمى سلسبيلا} ، سُميت العين زنجبيلاً ؛ لأنَّ ماءها فيه رائحة الزنجبيل ، والعرب تستلذه وتستطيبه ، وسميت سلسبيلاً لسلاسة انحدارها ، وسهولة مساغها ، قال أبو عُبيدة : ماء سلسبيل ، أي : عذب طيب. هـ. ويقال : شراب سلسبيل وسَلسَال وسلَسيل ، ولذلك حُكم بزيادة الباء ، والمراد : بيان أنها في طعم الزنجبيل ، وليس فيها مرارة ولا زعقة ، بل فيها سهولة وسلاسة. والله تعالى أعلم.
الإشارة : إنَّا أعتدنا للكافرين بطريق الخصوص ، وهم أهل الحجاب سلاسل الأشغال والعلائق ، وأغلال

الحظوظ والعوائق ، فلا يرحلون إلى الله وهم مكبّلون بشهواتهم ، مغلولون بعوائقهم. وأعتدنا لهم سعير القطيعة والطرد. إنَّ الأبرارَ ، وهم المطهرون من درن العيوب ، المتجرَّدون من علائق القلوب ، يشربون من كأس خمر المحبة كان مزاجها كافورَ بردِ اليقين ، عيناً يشرب منها عبادُ الله المخلصون ، يُفجِّرونها على قلوبهم وأرواحهم وأسرارهم تفجيراً ، فتمتلىء محبةً ويقيناً ، يُوفون بما عقدوا على أنفسهم من المجاهدة والمكابدة إلى وضوع أنوار المشاهدة ، ويخافون يوماً كان شرُّه مستطيراً ، إذ فيه يفتضح المدّعون ، ويظهر المخلصون ، ويُطعِمون طعام الأرواح والأسرار من العلوم والمعارف ، على حُبه ، إذ لا شيء أعز منه عندهم ، إذ هو الإكسير الأكبر ، والغنى الأوفر ، مسكيناً ، أي : ضعيفاً من اليقين ، ويتيماً لا شيخ له ، وأسيراً في أيدي العلائق والحظوظ ، وإنما نفعل ذلك لوجه الله ، لا يريدون بذلك جزاء ، أي : عِوضاً دنيوياً ولا أخروياً ، ولا شكوراً ؛ مدحاً أو ثناءً ؛ إذ قد استوى عندهم المدح والذم ، والمنع والعطاء ، قائلين : إنا نخاف من ربنا ، إن طلبنا عوضاً ، أو قَصَّرنا في الدعاء إلى الله ، يوماً شديداً تُعبّس فيه وجوه الجاهلين ، وتُشرق وتتهلّل وجوه العارفين. فوقاهم اللهُ شرَّ ذلك اليوم ، فصبروا قليلاً ، واستراحوا كثيراً ، ولقَّاهم نضرةً ؛ بهجة في أجسادهم ، وسُروراً دائماً في قلوبهم وأسرارهم. وجزاهم بما صبروا في أيام سيرهم جنة المعارف والزخارف ، متكئين فيها على الأرائك ؛ على أَسِرة القبول ، وفُرُش الرضا وبلوغ المأمول ، لا يَرون فيها حَرّ التدبير

والاختيار ولا زمهرير الضعف والانكسار ؛ لأنَّ العارف باطنه قوي على الدوام ، لأنَّ مَن عنده الكنز قلبه سخين به دائماً.

وقال القشيري : لا يؤذيهم شمس المشاهدة ؛ لأنَّ سطوة الشهود ربما تفني صاحبها بالكلية ، فيغلب عليه السُكْر ، فلا يتنعّم بلذة الشهود ، ولا زمهرير الحجاب والاستتار. هـ. باختصار. ودانية ، أي : وجنة أخرى دانية ، وهي جنة البقاء ، والأُولى جنة الفناء ، عليهم ظلالها ، وهي روح الرضا ونسيم التسليم ، وذُللت قُطوفها من الحِكَم والمواهب ، تذليلاً ، فمهما احتاجوا إلى علم أو حكمة أجالوا أفكارهم ، فتأتيهم بطرائف العلوم وغرائب الحِكَم ، ويُطاف عليهم بأواني الخمرة الأزلية ، فيشربون منها في كل وقت وحين ، كيف شاؤوا وحيث شاؤوا. جعلنا الله مِن حزبهم ، آمين.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٩٥
يقول الحق جلّ جلاله : {ويطوفُ عليه ولدان} أي : غلمان ينشئهم اللهُ لخدمة المؤمنين. أو : ولدان الكفرة يجعلهم الله تعالى خدماً لأهل الجنة. {مخلَّدون} لا يموتون ، أو : دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء ، {إذا رأيتهم حَسِبْتَهُم لؤلؤاً منثوراً} لحُسْنهم ، وصفاء ألوانهم ، وإشراق وجوههم ، وانبثاثِهم في مجالسهم ومنازلهم. وتخصيص المنثور لأنه أزين في المنظر من المنظوم.
{وإذا رأيتَ ثَمَّ} أي : وإذا وقعت منك رؤية هناك ، ف " رأيت " هنا : لازم ، ليس له مفعول لا ملفوظ ولا مُقدّر ، بل معناه : أنَّ بصرك أينما وقع في الجنة {رأيتَ نعيماً} عظيماً {ومُلكاً كبيراً} أي : هنيئاً واسعاً. وفي الحديث : " أَدْنَى أهل الجنةِ منزلاً مَن ينظرُ في مُلكه مَسيرة ألف عام ، ويَرَى أقصاهُ كما يرى أدناه " ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : " إنَّ أدنى أهل الجنة منزلاً الذي يركبُ في ألف ألف من خَدَمه من الولدان ، على خيل من ياقوت أحمر ، لها أجنحة من ذهب " ، ثم قرأ عليه السلام : {وإذا رأيت ثَمَّ...} إلخ. وقيل : مُلكاً لا يعقبه زوال ، وقال الترمذي : مُلك التكوين ، إذا أرادوا شيئاً كان هـ. وقيل : تستأذن عليهم الملائكة استئذان الملوك. رُوي : إنَّ الملائكة تأتيهم بالتُحف ، فتستأذن عليهم ، حاجباً بعد حاجب ، حتى يأذن لهم الآخر ، فيدخلون عليهم من كل باب بالتُحف والتحية والتهنئة. هـ.
٢٠٠
ثم وصف لباس أهل الجنة فقال : {عَالِيَهُم ثِيَابُ سُندُسٍ} فمَن نصبه جعله حالاً من الضمير في " يطوف عليهم " أي : يطوف عليهم ولدان عالياً للمطوف عليهم ثيابُ سندس ، ومَن قرأه بالسكون فمبتدأ ، و " ثياب " خبر ، أي : الذي يعلوهم من لباسهم ثياب سندس ، وهو رقيق الديباج ، {خُضْرٌ} ؛ جمع أخضر ، {وإستَبرقٌ} ؛ غليظ الديباج ، فمَن رفعهما حملهما على الثياب ، ومَن جَرَّهما فعلى سندس. {وحُلُّوا أساوِرَ من فضةٍ} وفي سورة الملائكة : {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً} [فاطر : ٣٣] ، والجمع بينهما : بأنه يجمع في التحلية بينهما. قال ابن المسيب : (لا أحدٌ من أهل الجنة إلاّ وفي يده ثلاثة أسْوِرة ، واحد من فضة ، وآخر من ذهب ، وآخر من لؤلؤ) أو : يختلف ذلك باختلاف الأعمال ، فبعضهم يُحلّى بالفضة ، وبعضهم بالذهب ، وبعضهم باللؤلؤ.
}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠٠
وسقاهم ربُّهم} ، أضيف إليه تعالى للتشريف والتخصيص ، وقيل : إنَّ الملائكة يعرضون عليهم الشراب

، فيأبون قبولَه منهم ويقولون : قد طال أخْذُنا مِن الوسائط ، فإذا هم بكاساتٍ تُلاقِي أفواههم بغير أكفٍّ من غيبٍ إلى عَبْدٍ. هـ. قلت : ولعل هؤلاء كانوا محجوبين في الدنيا ، وأمّا العارفون فالوسائط محذوفة في نظرهم مع وجودنا. فيسقيهم {شراباً طهوراً} أي : ليس برجْسٍ كخمر الدنيا ، لأنَّ كونها رجساً بالشرع لا بالعقل ، أو : لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضِرة ، وتدوسه الأرجل الوسخة ، والوضر : الوسخ. قال البيضاوي : يريد به نوعاً آخر ، يفوق النوعين المتقدمين ، ولذلك أسند سقيه إلى الله ، ووصفه بالطهورية ، فإنه يطهر شاربه عن الميل إلى اللذات الحسية ، والركون إلى ما سوى الحق ، فيتجرّد لمطالعة جماله ، ملتذًّا بلقائه ، باقياً ببقائه ، وهو منتهى درجات الصدِّيقين ، ولذلك خُتِم به ثواب الأبرار. هـ. ويُقال لأهل الجنة : {إنَّ هذا} أي : الذي ذكر من فنون الكرامات {كان لكم جزاء} في مقابلة أعمالكم الحسنة ، {وكان سعيُكم مشكوراً} ؛ مرضياً مقبولاً عندنا ، حيث قلتم للمسكين واليتيم والأسير : لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً.

الإشارة : ويطوف على قلوبهم وأسرارهم جواهر العلوم ، ويواقيت الحِكَم كأنها اللآلىء المنثورة ، وإذا رأيتَ ثَمَّ إذا جالت فكرتك ، وعامت في بحار الأحدية ، رأيت ببصيرتك نعيماً من نعيم الأرواح ، وهي لذة الشهود والفرح برؤية الملك الودود ، ومُلكاً كبيراً ، وهي عظمة الذات الأولية والآخرية ، والظاهرة والباطنة. وإذا رأيتَ ذلك كان الوجود كله تابعاً لك ، ينبسط ببسطك ، وينقبض بقبضك ، وحكمه حكمك ، وأمره عند أمرك ، تتصرف بهمتك على وفق إرادة مولاك ، عاليَهم ثياب العز والبهاء ، وثياب الهيبة والجلال ؛ وحُلُّوا أساورَ من مقامات اليقين ، وسقاهم ربُّهم شراباً طهوراً ، وهو شراب الخمرة ، فإنها تطهر القلوب والأسرار من البقايا والأكدار.

(٢٣٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠٠

وقال القشيري : ويقال : يُطهرهم من محبة الأغيار ، ويقال : من الغل والغِشِّ

٢٠١

والدعوى. ثم قال ويقال : مَن سقاه اليوم شرابَ محبَّتِه لا يستوحِش في وقته من شيء ، ومن مقتضى شُرْبه بكأسِ محبته أن يجودَ على كل أحدٍ بالكونين من غير تمييز ، لا يَبْقَى على قلبه أثرٌ للأخطار ، ومَن آثر شربه بذل كله لكل أحدٍ لأجل محبوبه ؛ فيكون لأصغرِ الخَدم تُرَابَ القَدَم ، لا يتحرك فيه للتكبُّر عرقٌ ، وقد يكون من مقتضى ذلك الشراب أيضاً في بعض الأحيان أن يَتِيه على أهل الدارين ، وأن يَمْلِكَه سرورٌ ، ولا يَتَمَالَكُ معه عن خَلْع العذارِ ، وإلقاء قناع الحياء وإظهار ما به من المواجيد. ومن موجبات ذلك السُكْر : سقوطَ الحشمة ، فيتكلم بمقتضى البسط ، أو بموجب لطف السكون بما

لا يستخرج منه في حال صَحْوه شُبهة بالمناقيش ، ، وعلى هذا قول موسى : {رَبِّ أَرِنيا أَنظُرْ إِلَيْكَ} [الأعراف : ١٤٣] قالوا : سَكِرَ مِن سماع كلامه ، فَنَطَقَ بذلك لسانُه ، وأمّا حين يسقيهم شرابَ التوحيد فينتفي عنهم شهود كلِّ غَيْرٍ ، فيهيمون في أودية العِزِّ ، ويتيهون في مفاوزِ الكبرياء ، وتتلاشى جملتُهم في هوى الفردانية ، فلا عقلَ ولا تمييز ، ولا فهمَ ولا إدراك. والعبد يكون في ابتداء الكشفِ مستوعباً ، ثم يصير مستغرقاً ، ثم يصير مُسْتَهلَكاً {وَأَنَّ إِلَىا رَبِّكَ الْمُنتَهَىا} [النجم : ٤٢]. هـ. وقال الورتجبي : فتلك الكائنات المروقات عن علل الحجاب والعتاب دارت عليها في الدنيا حتى ترجع إلى معادنها من الغيب. ثم قال : فإذا شَرِبوا تلين جلودُهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، سقاهم ذلك في الدنيا ، في ميدان ذكره ، بكأس محبته ، على منابر أُنسه بمخاطبة الإيمان ، وسقاهم في الآخرة ، في ميدان قربه ، بكأس رؤيته ، على منابر مِن نورٍ بمخاطبة العيان. هـ. قلت : تفريقه بين الدنيا والآخرة غير لائق بمقام المحقِّقين من العارفين ، فالعارف لم تبقَ له دنيا ولا آخرة ، لم يبقَ له إلاّ الله ، تتلوّن تجلياته ، فما هناك هو حاصل اليوم ، لولا تكثيف الحجاب. ثم يُقال لأهل التمكين : إنَّ هذا
كان لكم جزاء على مجاهدتكم وصبركم ، وكان سعيكم مشكوراً ، وحضكم منه موفوراً. وبالله التوفيق.

(٢٣٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠٠
٢٠٢
يقول الحق جلّ جلاله : {إِنَّا نحن نزَّلنا عليك القرآن تنزيلا} أي : مفرّقاً منجماً ، شيئاً فشيئاً ، لحِكَم بالغة مقتضية لتفريقه ، لا غيرنا ، كما يُعرب عنه تكرير الضمير مع " إن " ، فهو تأكيد لاسم إن ، أو : ضمير فصل لا محل له {فاصبر لِحُكم ربك} في تأخير نصرك ، فإنّ له عاقبة حميدة ، أو : اصبر لتبليغ الرسالة ، وتحمل الأذى ؛ فإن العاقبة لك ، {ولا تُطِعْ منهم آثماً أو كفوراً} أي : لا تُطع الآثم في إثمه ، ولا الكافر في كفره ، أي : لا تُطع كل واحد من مرتكب الإثم الداعي لك إليه ، أو من الغَالي في الكفر الداعي إليه ، و " أو " للدلالة على أنهما سيان في استحقاق العصيان والاستقلال به ، باعتبار ما يدعون إليه ، فإنَّ ترتيب الوصف على الوصفين مشعر بعليتهما ، فلا بد أن يكون النهي عن الإطاعة في الإثم والكفر ، لا فيما ليس بإثم ولا كفر.
وقيل : الآثم : عُتبة ، فإنه كان ركّاباً متعاطياً لأنواع الفسوق ، والكفور : الوليد ، فإنه كان غالياً في الكفر ، شديد الشكيمة في العتو. والظاهر : أنّ المراد كل آثم وكافر ، اي : لا تُطع أحدهما ، وإذا نهى عن طاعة أحدهما لا بعينه ، فقد نهى عن طاعتهما معاً ، ولو كان بالواو لجاز أن يُطيع أحدهما ؛ لأن الواو للجمع ، فيكون منهياً عن طاعتهما ، لا عن طاعة أحدهما.

{واذكر اسمَ ربك بُكرةً وأصيلا} اي : دُم على ذكره في جميع الأوقات. وتخصيص الوقتين لشرفهما. قيل : لمّا نهى حبيبه عن طاعة الآثم والكفور ، وحَثه على الصبر على آذاهم وإفراطهم في العداوة ؛ عقّب ذلك بالأمر باستغراق أوقاته في ذكره وعبادته ، فهو كقوله تعالى : {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ...} [الحجر : ٩٧ ، ٩٨] الآية ، وفي إقباله راحة له من وحشته ؛ لجهلهم بأنسه بربه ، وقرّة عينه به. وفي ذلك أمْره بالإفراد لربه بطاعته ، دون مَن يدعوه ، لخلاف ذلك من ألإثم والكفور. هـ. من الحاشية. أو : بكرة : صلاة الفجر ، وأصيلاً : الظهر والعصر ، {ومن الليل فاسجدْ له} ؛ وبعض الليل فصلِّ صلاة العشاءين ، {وسبِّحه ليلاً طويلاً} أي : تهجّد له قِطْعاً من الليل طويلاً ؛ ثلثه أو نصفه أو ثلثيه. وتقديم الظرف في (مِن الليل) لِما في صلاة الليل من مزيد كلفة وخلوص.
}

(٢٣٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠٢
إنّ هؤلاء} الكفرة {يُحبون العاجلةَ} وينهمكون في لذاتها الفانية ، ويؤثرونها على الآخرة ، فلا يلتفتون إلى ذكرٍ ولا صلاة ، {ويذرون وراءهم} ؛ قدّامهم ، فلا يستعدُّون له ، أو : ينبذونه وراء ظهورهم ، {يوماً ثقيلاً} ؛ شديداً لا يعبؤون به ، وهو يوم القيامة ؛ لأنّ شدائده تثقل على الكفار. ووصفه بالثقل لتشبيه شدته وهوله بثقل شيء فادح ، وهو كالتعليل لِما أمر به ونَهَى عنه.
{نحن خلقناهم} لا غيرنا ، {وشَدَدْنا أسْرَهُم} أي : قوّينا خِلقتهم حتى صاروا أقوياء ، يُقال : رجل حسن الأسر : الخلق ، وفرس شديد الأسر ، أي : الخلقة ، ومنه
٢٠٣
قوله لبيد :
ساهِمُ الوجه شديدٌ أسْرُهُ
مُشرِفُ الحاركِ محبوكُ الكَتَدْ
أو : أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب ، أو : أخذنا ميثاقهم على الإقرار ، {وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً} أي : إذا شئنا إهلاكهم أهلكناهم وبدّلنا أمثالهم في الخلقة ممن يطيع ولا يعصي. أو : بدلنا أمثالهم تبديلاً بديعاً لا ريب فيه ، وهو البعث كما ينبيء عنه كلمة (إذا) لدلالتها على تحقُّق القدرة وقوة الداعية.
{إنَّ هذه تَذْكِرةُ} ، الإشارة إلى السورة ، أو الآيات القريبة ، أي : هذه موعظة بليغة ، {فمَن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً} بالتقرُّب إليه بالطاعة واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ، {وما تشاؤون} اتخاذَ السبيل

إلى الله ، أو : مايشاء الكفرة {إلاّ أن يشاء الله} ، وهو تحقيق للحق ، ببيان أنَّ مجرد مشيئَتهم غير كافية في اتخاذ السبيل ، ولا يقدرون على تحصيله في وقت من الأوقات ، إلاَّ وقت مشيئته في تحصيله لهم ، إذ لا دخل لمشيئة العبد إلاّ في الكسب ، وإنما التأثير لمشيئة الله تعالى ، {إِنَّ الله كان عليماً حكيماً} ؛ عليماً بما يكون منهم من الأحوال ، حكيماً مصيباً في الأقوال والأفعال ، وهو بيان لكون مشيئته تعالى مبنية على أساس العلم والحكمة ، أي : هو تعالى مبالغ في العلم والحكمة ، فيعلم ما يستأهله كل أحد ، فلا يشاء لهم إلاّ ما يستدعيه علمه وتقضيه حكمته.

وقوله تعالى : {يُدخل من يشاء في رحمته} ، بيان لأحكام مشيئته ، المترتبة على علمه وحكمته ، أي : يُدخل في رحمته مَن يشاء أن يدخله فيها ، وهو الذي يصرف مشيئته نحو اتخاذ سبيل الله تعالى ، حيث يوفقه لما يؤدي إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة. {والظالمين} وهم الذين صرفوا مشيئَتهم إلى خلاف ما ذكر {أعدَّ لهم عذاباً أليماً} متناهياً في الإيلام ، و " الظالمين " منصوب بمضمر يُفسره معنى ما بعده ، أي : أهان الظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً.

(٢٣٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠٢

الإشارة : إنّا أنزلنا عليك أيها الخليفة القرآن ، أي : الجمع على ربك في قلبك وسرك ، تنزيلاً مترتباً شيئاً فشيئاً على حسب التهذيب والتدريب ، فاصبرْ لحُكم ربك ، أي : ما حَكَم به عليك من قهرية الجلال ، وارتكاب الأهوال ، ومقاسات الأحوال ، فإنَّ العاقبةَ

٢٠٤

شهودُ الكبير المتعالي ، وبذلُ المُهج والأرواح قليل في حقه ، ولا تُطع في حال سيرك آثماً يريد أن يميلك عن قصد السبيل ، أو كفوراً بطريق الخصوص يريد أن يصرفك عنها ، واذكر اسم ربك ، أي : استغرق أنفاسك في ذكر اسمه الأعظم ، وهو الاسم المفرد ؛ الله الله ، فتكثر منه بكرة وأصيلاً ، وآناء الليل والنهار ، ومن الليل فاسجدْ له وسبَّحه ليلاً طويلاً ، أي : ومن أجل ليل القطيعة اخضع وتضرَّع وسَبِّح في الأسحار ، خوفاً من أن يقطعك عنه ، فيظلم عليك ليل وجودك ، فتحجب به عن ربك ، إنَّ هؤلاء المحجوبين بوجودهم وحظوظِ نفوسهم ، يُحبون العاجلة ، فيؤثرون هواهم على محبة مولاهم ، ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ، يوم يُساق أهل التخفيف من المريدين إلى مقعد صدق زُمراً ، ويتخلّف أهل النفوس في موقف الحساب. إنَّ هذه تذكرة لِمَن فتحت بصيرته وأبصر الحق وأهله ، فمَن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ، بإيثار صحبته أهل الحق والتحقيق ، حتى يردون به حضرة التحقُّق ، لكن الأمر كله بيد الله ، وما تشاؤون إلاَّ أن يشاء الله ، فمَن شاء عنايته أدخله في رحمة هدايته ، ومَن شاء خذلانه سلك به

مسلك الضلالة ، والعياذ بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

٢٠٥

(٢٣٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠٢

سورة المرسلات

(٢٣٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠٥

يقول الحق جلّ جلاله : {والمُرسلاتِ} أي : والملائكة المرسلات {عُرْفاً} أي : بالمعروف من الأمر والنهي ، وانتصابه بإسقاط الخافض ، أو : فضلاً وإنعاماً ، فيكون نقيض المنكر ، وانتصابه على العلة ، أي : أرسلهن للإنعام والإحسان ، أو : متتابعة ، وانتصابه على الحال ، أي : يتلو بعضها بعضاً ، وفي القاموس : عُرفاً ، أي : بعضٌ خلف بعض. هـ. {فالعاصفاتِ عَصْفاً} أي : تعصفن في مُضِيهنّ عصف الرياح ، {والناشراتِ} أجنحتها في الجو {نَشْراً} عند انحطاطها بالوحي ، أو : الناشرات للشرائع نشراً في الأقطار ، أون : الناشرات للنفوس الميتة بالكفر والجهل بما أوحين من الإيمان والعلم.

{فالفارقات} بين الحق والباطل {فرقاً} ، {فالملقيات} ، إلى الأنبياء {ذِكْراً عُذْراً} للمحقّين {أو نُذْراً} للمبطلين ، ولعل تقديم النشر على الإلقاء ؛ للإيذان بكونه غاية للإلقاء ، فهو حقيق بالاعتناء به.

أو : والرياح المرسلات متتابعة ، فتعصف عصفاً ، وتنشر السحاب في الجو نشراً ، وتفرّق السحاب فرقاً على المواضع التي أراد الله إن يُمطر عليها ، فيلقين ذكراً ، أي : موعظة وخوفاً عند مشاهدة آثار قدرته تعالى ، إمّا عذراً للمعتذرين إلى الله تعالى برهبتهم وتوبتهم ، وإمّا نُذراً للذين يكفرونها وينسبونها إلى الأنواء. أو يكون تعالى أقسم بآيات القرآن المرسلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعصفن سائر الكتب بالنسخ ، ونشرن آثار الهدى في مشارق الأرض ومغاربها ، وفرقن بين الحق والباطل ، فألقين الحق في أكناف العالمين ، عذراً للمؤمنين ، ونُذراً للكافرين. قال ابن جزي : والأظهر في المرسلات والعاصفات : أنها الرياح ؛ لأنَّ وصف الريح بالعصف حقيقة ، والأظهر في الناشرات والفارقات :

٢٠٦

أنها الملائكة ؛ لأنَّ الوصف بالفارقات أليق بهم ، ولذلك عطف المتجانسين بالفاء ، ثم عطف ما ليس من جنسهما بالواو. هـ مختصراً.
ثم ذكر المُقْسَم عليه ، فقال : {إِنَّ ما تُوعدون} أي : إن الذي تُوعدونه من مجيء يوم القيامة ونزول العذاب بكم {لواقع} لا محالة.
الإشارة : أقسم تعالى بنفوس العارفين ، المرسَلة إلى كل عصر ، بما يُعرف ويُستحس شرعاً وطبعاً ، من التطهير من الرذائل والتحلية بالفضائل ، فعصفت البدعَ والغفلة من أقطار الأرض عصفاً ، ونشرت الهداية في أقطار البلاد ، وحييت بهم العباد ، ففرقت بين الحق والباطل ، وبين أهل الغفلة واليقظة ، وبين أهل الحجاب وأهل العيان ، فألقت في قلوب مَن صَحبها ذكراً حتى سرى في جميع أركانها ، فأظهرت عُذراً للمنتسبين الذاكرين ، ونُذراً للمنكرين ، الغافلين. قال البيضاوي : أو أقسم بالنفوس الكاملة المرسلة إلى الأبدان لاستكمالها ، فعصفن ما سوى الحق ، ونشرن أثر ذلك في جميع الأعضاء ، وفرقن بين الحق بذاته ، والباطل في نفسه ، فرأوا كل شيء هالكاً إلاّ وجهه ، وألقين ذكراً ، بحيث لا يكون في القلوب والألسنة إلاّ ذكر الله تعالى. هـ.

(٢٤٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠٦
يقول الحق جلّ جلاله : {فإِذا النجومُ طُمِستْ} ؛ مُحيت ومُحقت ، أو ذُهب بنورها. وجواب " إذا " محذوف ، وهو العامل فيها ، أي : وقع الفصل ونحوه ، أو : وقع ما وُعدتم به. و " النجوم " : فاعل بمحذوف يُفسره ما بعده ، {وإِذا السماءُ فُرِجَتْ} ؛ فُتحت ، فكانت أبواباً لنزول الملائكة ، {وإِذا الجبال نُسِفَتْ} ؛ قُطعت من أماكنها ، وأُخذت من مقارها بسرعة ، فكانت هباءً منبثاً ، {وإِذا الرُسل أُقِتَتْ} أي : وُقتت وعُين لهم الوقت الذي يحضرون للشهادة على أممهم ، فَفَجَأن ذلك الوقت ، وجُمعت للشهادة على أممهم ، أي : وإذا الرسل عاينت الوقت الذي كانت تنتظره ، {لأيِّ يوم أُجِّلَتْ} أي : ليوم عظيم أخّرت وأُمهلت ، وفيه تعظيم لليوم ، وتعجيب من هوله. والتأجيل من الأجل ، كالتوقيت من الوقت.
ثم بيّن ذلك اليوم ، فقال : {ليوم الفصْلِ} أي : أُجّلت ليوم يفصل فيه بين الخلائق ، وقال ابن عطاء : هو اليوم الذي يفصل فيه بين المرء وقرنائه وإخوانه وخِلاّنه ، إلاّ ما كان منها للّه وفي الله. هـ. وهو داخل في الفصل بين الخلائق ، وجزء من جزئياته ، {وما أدراك ما يومُ الفصل} أي : أيّ شيء جعلك دارياً ما هو يوم الفصل ، فوضع الظاهر موضع

الضمير ، تهويل وتفظيع لشأنه ، {ويل يومئذٍ للمكذِّبين} بذلك اليوم ، أي : ويل لهم في ذلك اليوم الهائل ، و " ويل " أصله : مصدر منصوب بفعل سدّ مسده ، لكن عدل به إلى الرفع على الابتداء ، للدلالة على ثبات الهلاك ودوامه للمدعوّ عليه ، و " يومئذ " ظرف له ، و " للمكذِّبين " خبره ، أي : الويل في ذلك اليوم حاصل لهم. قال ابن عطية : وأمّا تكرير قوله تعالى : {ويل يومئذ للمكذِّبين} في هذه السورة ، فقيل : لمعنى التأكيد فقط ، وقيل : بل في كل آية منها ما يقتضي التصديق ، فجاء الوعيد على التكذيب بذلك. هـ. وهذا الآخر هو الصواب ، وسيأتي التنبيه عليه في كل آية.

الإشارة : إذا أشرقت شموس العرفان ، وبدت أسرارُ الذات للعيان ، انطمس نور نجوم علم الفروقات الكونية ، والفروعات الوهمية ، ولم يبقَ إلاّ علم الوحدة الذاتية ومعنى انطماسها : الغيبة عنها والفناء عنها بما هو أمتع وأحلى منها ، من شهود الذات الأقدس ، والاستغراق في شهود أنوارها وأسرارها. وإذا السماء ، أي : سماء الأرواح فُرجت عنها ظُلمة الحس ، فظهرت للعيان. واعلم أنَّ أرض الأشباح وسماء الأرواح محلهما واحد ، وإنما تختلف باختلاف النظرة ، فَمَن نَظَر الأشياءَ بعين الفرق في محل الحدوث تُسمى في حقه عالم الأشباح ، ومَن رآها بعين الجمع في مقام القِدَم ، تسمى في حقه عالم الأرواح ، والمظهر واحد. وإذا الجبال ؛ جبال الوهم والخيالات ، أو : جبال العقل الأصغر ، نُسفت ، أي : تلاشت وذهبت ، وإذا الرسل أي : الدعاة إلى الله من أهل التربية ، أُقتت : عُين لها وقت وقوع ذلك ، وهو يوم الفتح الأكبر بالاستشراف على الفناء في الذات ، وأي يوم ذلك ، وهو يوم لقاء العبد ربه في دار الدنيا ، وهو يوم الفصل ، يفصل فيه بين الخصوص والعموم ، بين المقربين وأهل اليمين ، بين أهل الشهود والعيان ، وأهل الدليل والبرهان ، وويل يومئذ للمكذِّبين بطريق هذا السر العظيم.

(٢٤١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠٧

يقول الحق جلّ جلاله : {ألم نُهلِكِ الأولينَ} كقوم نوح وعاد وثمود ، لتكذيبهم بذلك اليوم ، وقُرِىءَ بفتح النون ، من : هلكه بمعنى أهلكه ، {ثم نُتبِعُهم الآخِرين} أي : ثم نفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بهم ، لأنهم كذّبوا مثل تكذيبهم. و " ثم " وما بعده : استئناف ، تهديد لأهل مكة ، وقُرِىءَ بالجزم عطف على " نُهلك " فيكون المراد بالآخرين المتأخرين هلاكاً من المذكورين ، كقوم لوط وشعيب وموسى عليه السلام ،

٢٠٨

{كذلك} أي : مثل ذلك الفعل الفظيع {نفعل بالمجرمين} أي : بكل مَن أجرم من كل أمة ، {ويل يومئذٍ} أي : يوم وقوع الهلاك بهم {للمكذِّبين} بما أوعدنا.

{ألم نَخْلُقْكُمْ من ماءٍ مهينٍ} ؛ حقير ، وهو النطفة ، {فجعلناه في قرارٍ مكينٍ} أي : مقرّ يتمكّن فيه ، وهو الرحم ، {إلى قَدَرٍ معلوم} ؛ إلى مقدار معلوم من الوقت ، قدّره اللهُ تعالى في أزله ، لا يتقدّم عليه ولا يتأخر عنه ، وهو تسعة أشهر في الغالب ، أو أكثر أو أقل على حسب المشيئة ، {فقدّرنا} ذلك تقديراً لا يتبدل ، أو : فَقَدرْنا على ذلك {فَنِعْمَ القادرون} أي : المقدِّرون له نحن ، أو : فنعم القادرون على أمثال ذلك ، {ويل يومئذ للمُكذِّبين} لقدرتنا على ذلك ، أو : على الإعادة ، أو : بنعمة الفطرة من النشأة الدالة على صدق الوعيد بالبعث.

{ألم نجعل الأرضَ كِفَاتاً} ؛ ... وجامعة ، والكِفَات : اسم ما يَجمع ويضم ، من : كَفَتَ شعره : إذا ضمه بخرقة ، كالضمام والجماع لما يَضُمّ ويجمع ، أي : ألم نجعلها كفاتاً تكفت {أحياءً} كثيرة في ظهرها {وأمواتاً} غير محصورة في بطنها. ونظر الشعبي إلى الجبانة فقال : هذه كِفَاتُ الموتى ، ثم نظر إلى البيوت فقال : هذه كِفَات الأحياء. هـ. ولمّا كان القبر كفاتاً كالبيت قُطع مَن سَرق منه. و " أحياء وأمواتاً " منصوبان بـ " كِفاتاً " لأنه في معنى اسم الفاعل ، أي : كافتة أحياء وأمواتاً ، أو : بفعل محذوف ، أي : تكفت على الحال ، أي : تكفتهم في حال حياتهم ومماتهم.

}

(٢٤٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠٨

وجعلنا فيها رواسيَ} ، أي : جبالاً ثوابت {شامخاتٍ} ؛ طوالاً شواهق ، ووصْفُ جمع المذكر بجمع المؤنث في غير العقلاء مطرد ، وتنكيرها للتفخيم ، وللإشعار بأنَّ فيها ما لم يُعرف ، {وأسقيانكم ماءً} بأن خلقنا فيها أنهاراً ومنابع {فُراتاً} ؛ عذباً صافياً {ويل يومئذ للمُكذِّبين} بأمثال هذه النِعم العظيمة.

الإشارة : ألم نُهلك الجبابرة الأولين ، المتكبرين على الضعفاء والمساكين ، ثم نُتبعهم الآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين في كل زمان ، أو : ألم نُهلك الغافلين المتقدمين والمتأخرين ، بموت قلوبهم وأرواحهم ، بالانهماك في الشهوات ، كذلك نفعل بالطغاة المتكبرين ، ويل يومئذ للمكذِّبين الشاكّين في وقوع هذا الوعيد. ألم نخلقكم من ماء مهين حقير ؟ فكيف تتكبّرون وأصلكم حقير ، وآخركم لحم منتن عقير ؟ ولعليّ كرّم الله وجهه : ما لابن آدم والفخر ، وأوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو فيما بينهما يحمل العذرة. هـ. هذا في الصورة البشرية ، وأمّا الروح السارية فيها ، فأصلها عز وشرف ، فمَن غلبت روحُه على بشريته ، وعقله على هواه ، التحق بالملائكة الكرام في الشرف والنزاهة ، ومَن غلبت بشريتُه على روحانيته ، وهواه على عقله ، التحق بالبهائم في الخسة والدناءة.

٢٠٩

ألم نجعل أرض البشرية جامعة للقلوب والأرواح والأحياء بالعلم والمعرفة ، حين غلبت الروح والعقل على البشرية والهوى ، وللنفوس والقلوب الميتة ، حين غلب الهوى. وجعلنا فيها رواسي من العقول الثابتة ، لتميز بين النافع الضار ، وأسقيانكم من ماء العلوم التي تحيا به القلوب والأرواح ، ماءً عذباً لمَن وفّقه اللهُ لشُربه على أيدي الرجال. ويل يومئذ للمكذِّبين بها ، فإنه يعيش ظمآناً ، ويموت عطشاناً ، والعياذ بالله.

(٢٤٣/٨)

يقول الحق جلّ جلاله للكفرة المكذِّبين : {انطلِقوا} أي : سيروا {إلى ما كنتم به تُكَذِّبون} من النار المؤبَدة عليكم ، {انطلقوا إلى ظِلٍّ} ؛ دخان جهنم {ذي ثَلاثٍ شُعَبٍ} ، يتشعّب لِعظَمه ثلاث شعب ، كما هو شأن الدخال العظيم ، تراه يتفرّق ذوائب ، وقيل : يخرج لسان من النار يحيط بالكفار كالسرداق ، ويتشعّب من دخانها ثلاث شُعب ، فتُظلم حتى يفرغ من حسابهم ، والمؤمنون في ظل العرش. قيل : الحكمة في خصوصية الثلاث : أن حجاب النفس عن أنوار القدس ثلاث ، الحس والخيال والوهم ، وقيل : إنّ المؤدِّي إلى هذا العذاب هو القوة الوهمية الشيطانية ، الحالة في الدماغ ، والقوة الغضبية التي عن يمين القلب ، والقوة الشهوانية البهيمية التي عن يساره ، ولذلك قيل : تقف شُعبة فوق الكافر ، وشُعبة عن يمينه ، وشُعبة عن يساره.

ثم وصف ذلك الظل بقوله : {لا ظليلٍ} أي : لا مُظِلّ من حرّ ذلك اليوم أو من حرّ النار ، {ولا يُغنِي من اللهب} أي : وغير مغنٍ عن حر اللهب شيئاً لعدم البرودة فيه ، وهذا كقوله : {وَظِلٍ مِن يَحْمُومٍ لاَّ بَارِدٍ ولآ كَرِيمٍ} [الواقعة : ٤٣ ، ٤٤] ، {إنها ترمي بشَرَرٍ} وهو ما تطاير من النار {كالقَصْرِ} في العِظم ، أي : كل شررة كقصر من القصور في العِظم. وقيل : هو الغليظ من الشجر ، الواحدة : قَصْرةٌ ، كجمْر وجمرة ، {كأنه جمالاتٌ} جمع جَمَلَ. وقرأ أهل الكوفة ، غير شعبة " جِمَالةٌ " وهو أيضاً جمع جَمَل ، وجمالات جمع الجمع. {صُفرٌ} فإنَّ الشرار لِما فيه من النار يكون أصفر ، وقيل : سود ؛ لأنَّ سواد الإبل يضرب إلى الصفرة ، والأول تشبيه لها في العِظم ، وهذا في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط. وقيل : الضمير في " إنه " يعود إلى القصر ، فيذهب به إلى تصوير عجيب وتطوير غريب. شبهت الشرارة حين تنقض من النار في العظم بالقصر ، ثم شبّه القصر

المشبّه به ، حين يأخذ في الارتفاع والانبساط ، بأن ينشق عن أعداد لا نهاية لها بالجمالات المتكاثرة ، فيتصوّر فيها حينئذٍ العِظَم أولاً ، والانشقاق مع الكثرة والصُفرة والحركة ثانياً ، فيبلغ بالتشبيه إلى

الذروة العليا. هـ. من الحاشية.
}

(٢٤٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢١٠
ويل يومئذٍ للمكذّبين} بنارٍ هذه صفتها مع شواهد القدرة على ذلك وعلى أكبر منه ، {هذا يومُ لا ينطقون} ، الإشارة إلى وقت دخولهم النار ، أي : هذا يوم لاينطقون فيه بشيءٍ ، إمَّا لأنَّ السؤال والجواب والحساب قد انقضت قبل ذلك ، ويوم القيامة طويل ، له مواطن ومواقيت ، فينطقون في وقتٍ دون وقتٍ ، فعبّر عن كل وقت بيوم ، أو : لا ينطقون بشيءٍ ينفعهم ، فإنَّ ذلك كلا نُطق. وقُرِىءَ بنصب اليوم ، أي : هذا الذي ذكروا وقع يومَ لا ينطقون ، {ولا يُؤذَنُ لهم} في الاعتذار {فيعتذِرُون} : عطف على " يُؤذَن " منخرط في سلك النفي ، أي : لا يكون لهم إذن ولا اعتذار يتعقب له ، وليس الإذن سبباً للأعتذار وإلاّ لنصب. قال الطيبي عن صاحب الكشف : التقدير : هذا يوم لا ينطقون بمنطق ينفعهم ، ولا يعتذرون بعذرٍ يدفع عنهم ، فـ " يعتذرن " داخل في النفي ، ولو حملناه على الظاهر لتَنَاقض ؛ لأنه يصير : هذا يوم لا ينطقون فيعتذرون ؛ لأن الاعتذار نُطق أيضاً. هـ. {ويل يومئذٍ للمكذِّبين} بالبعث وما بعده.
{هذا يومُ الفَصْلِ} بين الحق والباطل ، أو : بين المُحق والمُبطل ، {جمعناكم} فيه ، والخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم {والأولينَ} من الأمم ، فيقع الفصل بين الخلائق ، {فإن كان لكم كَيْدٌ} هنا كما كان في الدنيا {فكِيدُونِ} فإنَّ جميع مَن كنتم تُقلدون وتقتدُون بهم حاضرون معكم. وهذا تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا ، وإظهار لعجزهم هناك ، {ويل يومئذٍ للمكذِّبين} بهذا ، حيث أظهر ألاَّ حِيلة لهم في الخلاص من العذاب.
الإشارة : انطلِقوا إلى ضد ما كنتم به تُكذِّبونَ مِن رفع درجات المجتهدين المقربين وسقوط درجة البطالين ، فانحطوا إلى نار البُعد والحجاب. وتكذيبهم بذلك هو من حيث لم يعملوا بمقتضاه. انطلقوا إلى ظل الحجاب ، ذي ثلاث شُعب ، تشعب عليه الحجاب ، وانسدل عليه ثلاث مرات ، ظِل حجاب الغفلة ، وظِل حجاب الهوى ، وظِل حجاب حس الكائنات. لا ظليل ؛ ليس فيه نسيم القُرب ، ولا برد الرضا والتسليم ، ولا يُغني من لهب حر القطيعة والبُعد ، أو حرّ التدبير والاختيار ، إنها ترمي بشررٍ ، مَن كان باطنه في نار القطيعة رمَى بشررها على ظاهره ، فيظهر منه الغضب والقسوة والغِلظة والفظاظة. قال القشيري : يُشير إلى ما يترتب على هذه الشُعب من الأوصاف البهيمية والسبُعية والشيطانية ، وأنَّ كل صفة منها بحسب الغلظة والشدة ، كالقصور المرتفعة ، والبروج المشيّدة ، كأنه جمالات عظيمة

الهيكل ، طويلة الأثر ، صُفر من شدة قوة النارية في ذلك الشرر ، وهي القوة الغضبية. ويل يومئذ للمكذِّبين بهذه التشبيهات اللطيفة والإشعارات الظريفة ، المنبئة عن الحقائق والدقائق. هـ.
٢١١
هذا يوم لا ينطقون من شدة تحيرهم ، وقوة دهشهم ، ولا يُؤذن لهم فيعتذرون عن بطالتهم وتقصيرهم وقلة استعدادهم لهذا اليوم. {ويل يومئذ للمكذِّبين} قال القشيري : لأنهم أفسدوا الاستعداد ، بالركون إلى الدنيا وشهواتها ، والميل عن الآخرة ودرجاتها. هـ. هذا يوم الفصل بين أهل الجد والاجتهاد ، وأهل البطالة والفساد ، أو بين أهل القرب والوصال ، وبين أهل البُعد والانفصال ، أو بين أهل الشهود والعيان وأهل الدليل والبرهان ، أو : بين المقربين وعامة أهل اليمين ، جمعناكم والأولين ، فيقع التمييز بين الفريقين من المتقدمين والمتأخرين ، فإن كان لكم كيد وحيلة ترتفعون بها إلى درجات المقربين ، فكيدونن ولا قُدرة على ذلك ، حيث فاتهم ذلك في الدنيا. ويل يومئذ للمكذَّبين بهذا الفصل والتمييز.

(٢٤٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢١٠
يقول الحق جلّ جلاله : {إِنَّ المتقين} الكفرَ والتكذيب {في ظلالٍ} ممدودة {وعيون} جارية {وفواكهَ مما يشتهون} ؛ مما يستلذون من فنون الترفُّه وأنواع التنعُّم. يقال لهم : {كُلوا واشربوا} ، فالجملة : حال من الضمير المستقر في الظرف ، أي : هم يستقرُّون في ظلالٍ مقولاً لهم : {كلوا واشربوا هنيئاً} لا تباعة عليه ولا عتاب ، {بما كنتم تعملون} في الدنيا من الأعمال الصالحة ، {إنَّا كذلك} أي : مثل هذا الجزاء العظيم {نجزي المحسنينَ} في عقائدهم وأعمالهم ، فأحسِنوا تنالوا مثل هذا أو أعظم.
{ويل يومئذ للمكذبين} بهذا ، حيث نال المؤمنون هذا الجزاء الجزيل ، وبقوا هم في العذاب المخلَّد الوبيل.
ويُقال لهم في الدنيا على وجه التحذير : {كُلوا وتمتعوا} كقوله : {اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ} [فصلت : ٤٠] أو : في الآخرة ، أي : الويل ثابت لهم ، مقولاً لهم ذلك ، تذكيراً لهم بحالهم في الدنيا ، بما جَنوا على أنفسهم من إيثارهم المتاع الفاني عن قريب على التمتُّع الخالد ، أي : تمتّعوا زمناً {قليلاً} أو متاعاً قليلاً ، لأنَّ متاع الدنيا كله قليل ، {إِنكم مجرمون} أي : كافرون ، أي : إنَّ كلّ مجرم يأكل ويتمتّع أياماً قلائل ، ثم يبقى في الهلاك الدائم. {ويل يومئذ للمكذِّبين} ، زيادة توبيخ وتقريع ، أو : ويل يومئذ للمكذِّبين الذين كذَّبوا.
{وإِذا قيل لهم اركعوا} أي : أطيعوا الله واخشعوا وتواضعوا للّه ، بقبول وحيه واتباع رسوله ، وارفضوا هذا الاستكبار والنخوة ، {لا يركعون} ؛ لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ،

ويُصرون على ماهم عليه من الاستكبار. وقيل : وإذا أُمروا بالصلاة لا يفعلون ، إذ رُوي أنها نزلت حين أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثقيفاً بالصلاة ، فقالوا : لا ننحني ، فإنها خسّة علينا ، فقال صلى الله عليه وسلم : " لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود " وقيل : هو يوم القيامة ، حين يُدْعَوْن إلى السجود فلا يستطيعون.

}

(٢٤٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢١٢

ويل يومئذ للمكذِّبين} بأمره ونهيه. وفيه دلالة على أنَّ الكفار مخاطبون بالفروع. {فبأيِّ حديث بعده} أي : بعد القرآن الناطق بأحاديث الدارين ، وأخبار النشأتين ، على نمط بديع ، ولفظ بليغ مُعجِز ، مؤسس على حُجج قاطعة ، وأنوار ساطعة ، فإذا لم يؤمنوا به {فبأي حديثٍ بعده يؤمنون} أي : إن لم يؤمنوا بالقرآن ، مع أنه آية مبصرة ، ومعجزة باهرة ، من بين الكتب السماوية ، فبأي كتاب بعده يؤمنون ؟ فينبغي للقارىء أن يقول : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

الإشارة : إنَّ المتقين ما سوى الله في ظلال التقريب ، وبرد التسليم ، ونسيم الوصال ، فما أطيب نسيمهم ، وما ألذ مشربهم ، كما قال الشاعر :

يا نسيمَ القُرب ما أطيبكا

ذاق طعم الأُنس مَن حَلَّ بكا

أيُّ عيشٍ لأناس قُرِّبوا

قد سُقوا بالقدس من مشربكا

{وعيون} أي : مناهل الشرب من رحيق الوجدان ، وفواكه النظر ، مما يشتهون ، أي : وقت يشتهون ، كُلوا من رزق أرواحكم وأسراركم ، وهو الترقي في معاريج العرفان ، وأشربوا من رحيق أذواقكم ، هنيئاً بما كنتم تعملون أيام مجاهدتكم ، إنَّا كذلك نجزي المحسنين المتقين علومَهم وأعمالَهم. ويل يومئذ للمكذِّبين بطريق هذا المقام الرفيع ، يُقال لهم : كُلوا وتمتّعوا وانهمكوا في الشهوات أياماً قلائل ، إنكم مجرمون ، وسيندم المفرّط إذا حان وقت الحصاد. وإذا قيل لهم : اخضعوا لمَن يُربيكم ويُرقيكم إلى تلك المراتب العلية المتقدمة للمتقين ، لا يخضعون ، فالويل لهم على تكذيبهم ، فبأي حديث وأيّ طريق بعد هذا يؤمنون ، وأيّ طريق يسلكون ، وبأيّ كتاب يهتدون ؟ إن حادوا عن طريق السلوك على

أيدي الرجال ، فماذا بعد الحق إلاّ الضلال. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلّم.
٢١٣

(٢٤٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢١٢
سورة النبأ

(٢٤٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢١٣
يقول الحق جلّ جلاله : {عَمّ يتساءلون} ، وأصله : " عمّا " فحذفت الألف ، كما قال في الألفية :
وما في الاسْتِفهامِ إن جُرَّت حُذِفْ
أَلِفهَا وأَوْلهَا الها إنْ تَقْفِ
وحذفها إمّا للفرق بين الاستفهامية والموصولة ، أو للتخفيف ، لكثرة الاستعمال ، وقُرىء بالألف على الأصل ، أي : عن شيءٍ يتساءلون. والضمير لأهل مكة ، وكانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم ، يسأل بعضُهم بعضاً ، ويخوضون فيه إنكاراً واستهزاءً ، وليس السؤال عن حقيقته ، بل عن وقوعه ، الذي هو حال من أحواله ، ووصف من أوصافه ، فإنَّ " ما " كما يُسأل بها عن الحقيقة يُسأل بها عن الصفة ، فتقول : ما زيد ؟ فيقال : عالم أو طبيب.
وقيل : النبأ العظيم هو القرآن ، عجب من تساؤلهم واختلافهم وتجادلهم فيه. والاستفهام للتفخيم والتهويل والتعجيب من الجدال فيه ، مع وضوح حقه وإعجازه الدالّ على صدق ما جاء به ، وأنه من عند الله ، فكان ينبغي ألاّ يجادل فيه ، ولا يتساءل عنه ، بل يقطع به ولا يشك فيه ، وقد قال تعالى : {قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمُ} [صا : ٦٧] الآية. وقال الورتجبي : النبأ العظيم : كلامه القديم ، عظيم بعظم الله القديم ، لا يَنال بركته إلاّ أهل الله وخاصته. هـ. وقيل : كانوا يسألون المؤمنين ، فالتفاعل قد يكون من واحد متعدد ، كما في قولك : تراؤوا الهلال. انظر أبا السعود.
٢١٤
وقوله : {عن النبأ العظيم} يتعلق بمحذوف ، دلّ عليه ما قبله ، فيوقف على " يتساءلون " ثم ليستأنف " عن النبأ... " الخ ، أي : يتساءلون عن الخبر العظيم ، وهو البعث وما بعده ، أو القرآن ، فتكون

المناسبة بين السورتين قوله : {فَبِأَيْ حَدِيث بَعْدَهُ يُؤْمِنُون} [المرسلات : ٥٠] مع قوله : {عن النبأ العظيم} ، والأحسن : أنه كل ماجاءت به الشريعة من البعث والتوحيد والجزاء وغير ذلك.
قال ابو السعود : هو بيان لشأن المسؤول عنه ، إثر تفخيمه بإبهام أمره ، وتوجيه أذهان السامعين نحوه ، وتنزيلهم منزلة المستفهمين ، لإيراده على طريقة الاستفهام من علاّم الغيوب ، للتنبيه على أنه لعدم نظيره خارج عن دائرة علم الخلق ، حقيق بأن يُعتنى بمعرفته ويُسأل عنه ، كأنه قيل : عن أي شيء يتساءلون ، هل أُخبركم به ، ثم قيل بطريق الجواب : عن النبأ العظيم ، على منهاج قوله تعالى : {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر : ١٦] ف " عن " متعلقة بما يدل عليه المذكور ، وحقه أن يُقَدَّر مؤخراً ، مسارعة إلى البيان ، هذا هو الحقيق بالجزالة التنزيلية ، وقد قيل : هي متعلقة بالمذكور ، و " عَمَّ " متعلق بمضمر مفسَّر به ، وأيّد ذلك بأنه قُرِىء " عمَّه " ، والأظهر : أنه مبني على إجراء الوصل مجرى الوقف ، وقيل : " عن " الأولى للتعليل ، كأنه قيل : لِمَ يتساءلون عن النبأ العظيم ؟ والنبأ : الخبر الذي له شأن وخطر. هـ.
}

الذين هم فيه مختلفون} ، فمنهم مَن يقطع بإنكاره ، ومنهم مَن يشك ، فمنهم مَن يقول : {مَاهِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} [الجاثية : ٢٤] ومنهم مَن يقول : {مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ} [الجاثية : ٣٢] ومنهم مَن يُنكر المعادين معاً ، كهؤلاء ، ومنهم مَن يُنكر المعاد الجسماني ، كبعض أهل الكتاب. أو : في القرآن ، فمنهم مَن يقول : سحر ، ومنهم مَن يقول : كهانة ، ومنهم مَن يقر بحقيّته ، ويُنكره حسداً وتكبُّراً.
والضمير في " هم فيه " للتأكيد ، وفيه معنى الاختصاص ، ولم يكن لقريش اختصاص بالاختلاف ، لكن لمّا كان خوضهم فيه أكثر ، وتعقبهم له أظهر ، جعلوا كأنهم مخصوصون به. هـ. قاله الطيبي. ف " فيه " متعلق بـ " مختلفون " ، قُدِّم اهتماماً به ورعاية للفواصل ، وجعل الصلة جملة اسمية للدلالة على الثبات ، أي : هم راسخون في الاختلاف ، وقيل : المراد بالاختلاف : مخالفتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في إثباته ، حيث أنكروه ، فيحمل الاختلاف على صدور الفعل من متعدد ، لا علَى مخالفة بعضهم لبعض من الجانبين ، لأنَّ الكل وإن استحق الردع والوعيد ، لكن استحقاق كل جانب لهما ليس لمخالفته للجانب الآخر ، إذ لا حقيّة في شيء منهما حتى يستحق مَن يخالفه المؤاخذة ، بل لمخالفته له صلى الله عليه وسلم في إثباته. هـ. انظر أبا السعود.
{كلاَّ} ، ردع عن الاختلاف والتساؤل بالمعنى المتقدم ، {سيعلمون} عن قريبٍ حقيقة الحال إذا حلّ

بهم العذاب والنكال ، {ثمَّ كلاَّ سيعلمون} ، تكرير للردع والوعيد للمبالغة في التأكيد والتشديد.
والسين للتقريب والتأكيد. و " ثم " للدلالة على أنَّ الوعيد
٢١٥
الثاني أبلغ وأشد ، وقيل : الأول عند النزع ، والثاني عند القيامة ، وقيل : الأول للبعث ، والثاني للجزاء. وقُرىء " ستعلمون " بالخطاب على نهج الالتفات ، تشديداً للردع والوعيد ، لا على تقدير : قل لهم ؛ للإخلال بجزالة النظم الكريم.
الإشارة : إن ظهرت أنوار الطريق ، ولاحت أسرار أهل التحقيق ، كثر الكلام بين الناس فيها ، والتساؤل عنها ، فيُقال في شأنهم ، عمَّ يتساؤلون عن النبأ العظيم ، الذي هو ظهور الحق وشهوده ، الذي هم فيه مختلفون ، فمنهم مَن يُنكره رأساً ، ومنهم مَن يُقره في الجملة ، ويقول : هم لقوم أخفياء لا يعرفهم أحد ، كلاَّ سيعلمون يوم تحق الحقائق وتبطل الدعاوى ، ويندم المفرط ، حيث لا ينفع الندم وقد زلّت به القدم.

(٢٥٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢١٤
يقول الحق جلّ جلاله : {ألم نجعل الأرضَ مِهاداً} أي : بساطاً وفراشاً ، فرشناها لكم حتى سكنتموها. وقُرِىء " مَهْداً " تشبيهاً لها بمهد الصبي ، وهو ما يمهّد له لينام عليه ، تسمية للممهود بالمصدر. ولمّا أنكروا البعث قيل لهم : ألم يَخلُق مَن أضيف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة ، فلِمَ تُنكرون قدرته على البعث ؟ وما هو إلا اختراع مثل هذه الاختراعات ، أو : قيل لهم : لِمَ فعل هذه الأشياء ، والحكيم لا يفعل شيئاً عبثاً ، وإنكارُ البعث يؤدّي إلى أنه عابث في كل ما فعل ؟ ومن هنا يتضح أنَّ الذي وقع عنه التساؤل هو البعث ، لا القرآن أو نبوة النبي صلى الله عليه وسلم كما قيل. والهمزة للتقرير. والالتفات إلى الخطاب على القراءة المشهورة للمبالغة في الإلزام والتبكيت.
{والجبالَ أوتاداً} للأرض ، لئلا تميد بكم ، فأرساها بها كما يُرسى البيت بالأوتاد ، {وخلقناكم أزواجاً} ذكراً وأنثى ، ليسكن كل من الصنفين إلى الآخر ، وينتظم أمر المعاشرة والمعاش ، ويتيسر التناسل.
وقيل : خلقناكم أصنافاً وأنواعاً في ألوانكم وصوركم وألسنتكم ، وهو عطف على المضارع المنفي ، داخل في حكم التقرير ، فإنه في قوة : إنما جعلنا الأرض.. الخ.
{وجعلنا نَومكم سُباتاً} أي : راحة لكم ، أو : قطعاً للأعمال والتصرُّف ، فتريحون أبدانكم به من التعب. والسبْت : القطع. أو : موتاً ؛ لِما بينهما من المشاكلة التامة في انقطاع أحكام الحياة ، وعليه قوله تعالى : {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِالَّيْلِ} [الأنعام : ٦٠] وقوله : {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي

لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} [الزمر : ٤٢].
٢١٦
{وجعلنا الليلَ لباساً} يستركم بظلامه ، كما يستركم اللباس ، شبّهه بالثياب التي تلبس ، لأنه يستر عن العيون ، وقيل : المراد به ما يستتر به عند النوم من اللحاف ونحوه. {وجلعنا النهارَ معاشاً} أي : وقت حياة تتمعشون فيه من نومكم ، الذي هو أخو الموت ، كقوله : {وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً} [الفرقان : ٤٧] أي : تنتشرون فيه من نومكم ، أو تطلبون فيه معاشكم ، وتتقلبون في حوائجكم ، على حذف مضاف ، أي : ذا معاش.
}

(٢٥١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢١٦
وبنينا فوقكم سَبْعاً شِداداً} أي : سبع سموات ، قوية الخلق ، محكمة البناء ، لا يؤثّر فيها مرّ الدهور ، ولا المرور والكرور. والتعبير عنها بالبناء مبني على تنزيلها منزلة القبة المضروبة على الخلق ، وهو يؤيد كونها الأفلاك المحيطة. {وجعلنا} فيها {سِراجاً وهَّاجاً} أي : مضيئاً وقّاداً ، أي : جامعاً للنور والحرارة ، وهو الشمس ، والوهَّاج : الوقّاد المتلألىء ، من : وهجت النار إذا أضاءت ، أو البالغ في الحرارة ، من : الوهج ، وهو الحر. والتعبير عنها بالسراج مناسب للتعبير عن السموات بالبناء ، فالدنيا بيت وسراجه الشمس بالنهار والقمر والنجوم بالليل. والجعل هنا بمعنى الإنشاء والإبداع ، كالخلق ، غير أنَّ الجعل مختص بالإنشاء التكويني ، وفيه معنى التقدير والتسوية.
{وأنزلنا من المُعْصِرات} أي : السحاب إذا أعصرت ، أي : شارفت أن يعصرها الرياح فتمطر ، ومنه : أعصرت الجارية : إذا دنت أن تحيض ، والرياح : إذا حان لها أن تعصر السحاب ، وقد جاء : أنَّ الله تعالى يبعث الرياح ، فتحمل الماء إلى السحاب فتعصره كما يعصر الماء من الجفافة ، أي : أنزلنا من السحاب {ماءً ثَجَّاجاً} أي : منصباً بكثرة ، يقال : ثج الدم ، أي : أساله ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " أفضل الحج العجّ والثج " أي : رفع الصوت بالتلبية ، وصب دم الهَدْي.
{لنُخرج به} ؛ بذلك الماء {حباً} يُقتات به ، كالحنطة والشعير ، ونحوهما {ونباتاً} يُعلف ، كالتبن والحشيش. قال الطيبي : النبات أريد به النابت. وتقديم الحب مع تأخره في الإخراج لشرفه ؛ لأنَّ غالبة قوت الإنسان. {وجناتٍ} ؛ بساتين ، من : جنّة إذا ستره ، فالجنة تطلق على ما فيه النخل والشجر المتكاثف ، لأنه يستر الأرض بظل أشجاره ، وقال الفراء : الجنة ما فيه النخل ، والفردوس مافيه الكرم. و {ألفافاً} صفة ، أي : ملتفّةَ الأشجار ، واحدها : " لِفّ " ككِن وأكنان ، أو : لَفيف ،

كشريف وأشراف ، أو : لا واحد له ، كأوْزاع وأضياف ، أو جمع الجمع ، فألفاف جمع " لُفّ " بالضم ، و " لُفّ " . جمع " لَفَّاء " كخُضر وخضراء ، واللِّفُّ : الشجر الملتف.

قال أبو السعود : اعلم أنَّ فيما ذكر تعالى من أفعاله . عزّ وجل . دلالة على صحة البعث من ثلاثة أوجه :

الأول : باعتبار قدرته تعالى ، فإنَّ مَن قَدَر على إنشاء هذه الأفعال البديعة ، من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه ، كان على الإعادة أقدر وأقوى.

الثاني : باعتبار علمه وحكمته ، فإنَّ مَن أبدع هذه المصنوعات على نمط رائع ، مستتبع لغايات جليلة ، ومنافع جميلة ، عائدة إلى الخلق ، يستحيل أن يخليها من الحكمة بالكلية ، ولا يجعل لها عاقبة باقية.

(٢٥٢/٨)

والثالث : باعتبار نفس الفعل ، فإنَّ في اليقظة بعد النوم أنموذجاً للبعث بعد الموت ، يشاهدونها كل يوم ، وكذا إخراج الحب والنبات من الأرض الميتة ، يعاينونه كل حين ، شاهد على إخراج الموتى من القبور بعد الفناء والدثور ، كأنه قيل : ألم يفعل هذه الأفعال الآفاقية والأنفسية ، الدالة بفنون الدلالات على حقيّة البعث ، الموجبة للإيمان به ، فما لكم تخوضون فيه إنكاراً ، وتتساؤلون عنه استهزاءً ؟ هـ.

الإشارة : ألم نجعل أرضَ البشرية مِهاداً للعبودية والقيام بآداب الربوبية ، وجبالَ العقل أوتاداً ، يسكنونها لئلا يميلها الهوى عن الاعتدال في الاستقامة وخلقناكم أزواجاً أصنافاً ؛ عارفين وعلماء ، وعُبَّاداً وزُهَّاداً ، وصالحين وجاهلين ، وعصاة وكافرين ، وجعلنا نومَكم ، اي : سِنَتكم عن الشهود ، بالميل إلى شيء من الحس في بعض الأوقات ، سُباتاً ، أي : راحة للقلوب ، لأنَّ دوام التجلِّي يمحقُ البشرية ، وفي الأثر : " رَوِّحوا قلوبكم بشيءٍ من المباحات " أو كما قال عليه الصلاة والسلام. أو : نومَكم الحسي راحة للأبدان ، لتنشط للعبادة ، وجعلنا ليل القطيعة لباساً ساتراً عن الشهود ، وجعلنا نهارَ العيان معاشاً ؛ حياة للأرواح والأسرار ، وبنينا فوقكم سبعَ مقامات شِداداً صعاباً ، فإذا قطعتموها وترقيتم عنها أفضيتم إلى فضاء الشهود ، وهي التوبة النصوح ، والورع ، والزهد ، والصبر على مجاهدة النفس ، وخرق عوائدها ، والتوكُّل ، والرضا ، والتسليم ، وجعلنا في قلوبكم بعد هذه المقامات سِراجاً وهّاجاً ، وهي شمس العرفان لا تغرب أبداً ، وأنزلنا من سماء الغيوب ماء ثجّاجاً ، تحيي به الأوراح والأسرار ، وهو ماء الواردات الإلهية ، والعلوم اللدنية ، لنُخرج به حبًّا ؛ حِكماً لقوت الأرواح ، ونباتاً ؛ علوماً لقوت النفوس ، وجنات : بساتين التوحيد ، مشتملة على أشجار ثمار الأذواق وظلال التقريب.

(٢٥٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢١٦

يقول الحق جلّ جلاله : {إِنَّ يومَ الفَصْلِ} بين الخلائق ، فيتميز المحسن من المسيء ، والمحقّ من المبطل ، {كان} في علم الله تعالى وتقديره {ميقاتاً} ؛ وقتاً محدوداً ، ومُنتهى معلوماً لوقوع الجزاء ، أو : ميعاداً لجمع الأولين والآخرين ، وما يترتب عليه من الجزاء ثواباً وعقاباً ، لا يكاد يتخطاه بالتقدُّم ولا بالتأخُّر ، وهو {يوم ينفخ في الصور} نفخة ثانية ، ف " يوم " بدل من " يوم الفصل " ، أو عطف بيان له ، مفيد لزيادة تخفيمه وتهويله في تأخير الفصل ، فإنه زمان ممتد ، في مبدئه النفحة ، وفي بقيته الفصل وآثاره. والصُور : القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لمّا خلق الله السموات والأرض خلق الصور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضع له على فيه ، شاخص ببصره إلى العرش ، حتى يؤمر بالنفخ فيه ، فيؤمر به ، فينفخ نفخةً لا يبقى عندها في الحياة غير ما شاء الله ، وذلك قوله تعالى : {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّماواتِ...} [الزمر : ٦٨] الآية ، ثم يؤمر بأخرى ، فينفخ نفخه لا يبقى معها ميت إلاَّ بُعث وقام ، وذلك قوله تعالى : {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ} [الزمر : ٦٨]. " والفاء في قوله تعالى : {فتأتون} فصيحة تفصح عن جملة حُذفت ثقةً بدلالة الحال عليها ، وإيذاناً بغاية سرعة الإتيان ، كما في قوله تعالى : {أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ} [الشعراء : ٦٣] أي : فتبعثون من قبوركم فتأتون عقب ذلك من غير لبث {أفواجاً} ؛ جماعات مختلفة الأحوال ، متباينة ، الأوضاع ، حسب اختلاف أعمالكم وتباينها ، مِن راكب ، وطائر ، وماش خفيف وثقيل ، ومكب على وجهه ، وغير ذلك من الأحوال العظيمة ، أو : أمماً ، كل أمة مع رسولها ، كما في قوله تعالى : {يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِ بِإِمَامِهْم} [الكهف : ٤٧].

}

(٢٥٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢١٨

وفُتِحت السماءُ} أي : تشققت لنزول الملائكة ، وصيغة الماضي لتحقُّق وقوعه ، {فكانت أبواباً} ؛ فصارت ذات أبواب وطرق وفروج ، وما لها اليومَ من فُروج. {وسُيِّرت الجبالُ} في الجو على هيئتها بعد قلعها من مقارها ، {فكانت سَرَاباً} ؛ هباءً ، تخيل الشمس أنها سراب ، وهَل هذا التسيير قبل البعث ، فلا يقع إلاَّ على أرض قاع صفصف ، وهو ما تقتضيه ظواهر الآيات ، كقوله : {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ

وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ} [الكهف : ٤٧] وقوله : {وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} [الحاقة : ١٤ ، ١٥] والفاء تقتضي الترتيب ، أو لا يقع إلاّ بعد البعث ، وهو ظاهر الآية هنا وسورة القارعة. وهو الذي اقتصر عليه أبو السعود ، قال : يُبدل اللهُ الأرض ، ويُغيّر

٢١٩

هيئاتها ، ويُسَيّر الجبال على تلك الهيئة الهائلة عند حشر الخلائق بعد النفخة الثانية ليشاهدوها. هـ. والله أعلم بحقيقة الأمر.

ثم شرع في تفصيل أحكام الفصل بعد بيان هوله ، وقدَّم بيان حال الكفرة ترهيباً ، فقال : {إنَّ جهنم كانت مِرْصَاداً} أي : موضع الرصد ، وهو الارتقاب والانتظار ، أي : تنتظر الكفار وترتقبهم ليدخلوا فيها ، أو طريقاً يمر عليه الخلق ، فالمؤمن يمر عليها ، والكافر يقع فيها ، أي : كانت في علم الله وقضائه موضع رصد يرصد فيه الخزنةُ الكفارَ ليعذبوهم فيها ، {للطاغين مآباً} : نعت لمرصاد ، أي : كائناً للطاغين مرجعاً يرجعون إليه لا محالة ، {لابثين فيها} ، ماكثين فيها ، وهو حال مُقدَّرة من المستكن في الطاغين. وقرأ حمزة (لبثين) ، وهو أبلغ من " لابثين " لأنَّ اللابث مَن يقع منه مطلق اللَّبْث ، واللَّبِث مَن شأنه اللبث والمقام ، و {أحقاباً} : طرف للبثهم ، جمع حُقب ، كقُفْل وأقفال ، وهو الدهر ، ولم يرد به عدداً محصوراً ، بل كلما مضى حُقب تبعه حقب ، إلى غير نهاية ، ولا يستعمل الحُقب إلاّ حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها. وقيل : الحقب ثمانون سنة ، ورُوي عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه ثلاثون ألف سنة. وقال الحسن : ليس للأحقاب عدة إلاّ الخلود.

{لا يَذُوقون فيها بَرْداً ولا شَراباً} : حال من ضمير " لابثين " أي : غير ذائقين فيها {برداً} أي : نسيماً بارداً ، بل لهباً حاراً ، {ولا شراباً} بارداً ، {إلاَّ حميماً} ؛ ماءً حاراً ، استثناء منقطع ، أي : لا يذوقون في جهنم ، أو في الأحقاب ، برداً ، ولا ينفس عنهم غم حر النهار ، أو : نوماً ، فإنَّ النوم يطلق عليه البرد ، لأنه يبرد سَوْرة العطش ، ولا شراباً يُسكن عطشهم ، لكن يذوقون فيها ماءً حاراً ، يحرق ما يأتي عليه ، {وغسَّاقاً} أي : صديداً يسيل من أجسادهم. وفي القاموس : وغَساق كسَحاب وشدّاد : البادرُ المنتن. وقال الهروي عن الليث : (وغساقاً) أي : مُنتناً ، ودلّ عليه قوله صلى الله عليه وسلم : " لو أنَّ دلواً من غساق يُهرَاقُ في الدنيا ، لأنتَنَ أهلُ الدنيا " ، وقيل : ما يسيل من أعينهم من دموعهم يسقون به مع الحميم ، يقال : غسقت عينه تغْسَق ، إذا سالت. ثم قال : ومَن قرأ بالتخفيف ، فهو البارد الذي يُحرق ببرده. هـ.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢١٨

جزاءً وِفاقاً} أي : جُوزوا بذلك جزاءً موافقاً لأعمالهم الخبيثة ، مصدر بمعنى الصفة ، أو : ذا وفاق. {إنهم كانوا لا يرجون حِساباً} أي : لا يخافون محاسبة الله إياهم ، أو : لا يؤمنون بالبعث فيرجعوا حسابه ، {وكذّبوا بآياتنا} الناطقة بذلك {كِذَّاباً} أي : تكذيباً مفرطاً ، ولذلك كانوا مصرِّين على الكفر وفنون المعاصي. و " فعّال " في باب فعّل فاش. {وكلَّ شيءٍ} من الأشياء ، ومِن جملتها أعمالهم الخبيثة ، {أحصيناه} أي : حفظناه وضبطناه {كِتاباً} ، مصدر مؤكد لأحصينا ؛ لأنَّ الإحصاء والكتابة من وادٍ واحد ،

٢٢٠

أو : حال بمعنى مكتوب في اللوح المحفوظ ، أو في صحف الحفظة ، والجملة اعتراض ، وقولة تعالى : {فذُوقوا فلن نزيدكم إلاَّ عذاباً} مسبب عن كفرهم بالحساب ، وتكذيبهم بالآيات ، أي : فذوقوا جزاء تكذيبكم والالتفات شاهد على شدّة الغضب. روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنَّ هذه الآية أشدُّ ما في القرآن على أهل النار ". الإشارة : إنَّ يوم الفصل بين العمومية والخصوصية ، أو تقول : بين الانتقال من مقام أهل اليمين إلى مقام المقربين ، كان في علم الله ميقاتاً ، أي : مؤقتاً ، وهو يوم انتقاله من شهود الأكوان إلى شهود المكوِّن ، أو من مقام البرهان إلى مقام العيان. يوم يُنفخ في صور الأرواح التي سبقت لها العناية ، فيُزعجها شوق مقلق أو خوف مزعج ، فتأتون إلى حضرة القدس ، تسيرون إليها على يد الخبير أفواجاً ، وفُتحت سماء الأرواح ليقع العروج إليها من تلك الأرواح السائرة ، فكانت أبواباً ، وسُيرت جبال العقل حين سطوع أنوار الحقائق ، فكانت سراباً ، فلا يبقى من نور العقل إلاّ ما يميز به بين الحس والمعنى ، وبين الشريعة والحقيقة. إنَّ جهنم البُعد كانت مِرصاداً ، للطاغين المتكبرين عن حط رؤوسهم للخبير ، الباقين مع عامة أهل اليمين ، مآباً لا يبرحون عنها ، لابثين فيها أحقاباً مدة عمرهم وما بعد موتهم ، لا يذوقون فيها برد الرضا ، ولا شراب نسيم التسليم ، إلاَّ حميماً : حر التدبير والاختيار ، وغساقاً : نتن حب الدنيا وهمومها ، جزاءً موافقاً لميلهم إلى الحظوظ والهوى ، إنهم كانوا لا يرجون حِساباً ، فلم يحاسبوا نفوسهم ، ولا التفتوا إلى إخلاصها ، وكذّبوا بأهل الخصوصية ، وهم الأولياء الدالون على الله ، ثم يقال لهم : ذّوقوا وبال القطيعة ، فلن نزيدكم إلاّ تعباً وحرصاً وجزعاً.عائذاً بالله من سوء القضاء ، وشماتة الأعداء.

(٢٥٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢١٨

يقول الحق جلّ جلاله : {إنَّ للمتقين مفازاً} أي : فوزاً ونجاة من كل مكروه ، وظفراً بكل محبوب ،

وهو مَفْعَلٌ من الفوز ، يصلح أن يكون مصدراً ومكاناً ، وهو الجنة ، ثم أبدل البعض من الكل ، فقال : {حدائقَ} ؛ بساتين فيها أنواع الشجر المثمر ، جمع حديقة ، وأبدل من المفرد ، لأنَّ المصدر لا يجمع ، بل يصلح للقليل والكثير ، {وأعناباً} ، كرر لشرفه ، لأنه يخرج منه أصناف مِن النِعم ، {وكواعبَ} ؛ نساء نواهِد ، وهي مَن لم تسقط ثديها لصغرٍ ، {أتراباً} أي : لَدَاتٍ مستوياتٍ في السنّ ، {وكأساً دِهاقاً} ؛ مملوءة.

٢٢١

{لا يسمعون فيها} ؛ في الجنة ، حال من ضمير خبر " إن " ، {لَغْواً} ؛ باطلاً ، {ولا كِذَّاباً} أي : لا يكذّب بعضهم بعضاً ، وقرأ الكسائي بالتخفيف ، من المكاذبة ، أي : لا يُكاذبه أحد ، {جزاءً من ربك} : مصدر مؤكد منصوب ، بمعنى : إنَّ للمتقين مفازاً ، فإنه في قوة أن يقال : جازى المتقين بمفاز جزاء كائناً من ربك. والتعرُّض لعنوان الربوبية ، المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم مزيد تشريف له عليه الصلاة والسلام ، {عَطاءً} أي : تفضُّلاً منه تعالى وإحساناً ، إذ لا يجب عليه شيء ، وهو بدل مِن " جزاء " ، {حِساباً} أي : مُحسِباً ، أي : كافياً ، على أنه مصدر أقيم مقام الوصف ، أو بولغ فيه ، من : أحسبه إذا كفاه حتى قال حسبي ، أو : على حسب أعمالهم.

{ربِّ السماواتِ والأرضِ وما بينهما} بدل من " ربك " ، {الرحمن} : صفة له ، أو للأول ، فمَن جَرَّهما فبدل من " ربك ". ومَن رفعهما ف " رب " خبر متبدأ محذوف ، أو متبدأ خبره " الرحمن " ، أو " الرحمن " صفة ، و " لا يملكون " خبر ، أو هما خبران ، وأيًّا ما كان ففي ذكر ربوبيته تعالى للكل ورحمته الواسعة إشعار بمدار الجزاء المذكور ، {لا يملكون} أي : أهل السماوات والأرض {منه خِطاباً} ؛ معذرة أو شفاعة أو غيرهما إلاَّ بإذنه ، وهو استئناف مقرر لما أفادته الربوبية العامة ، من غاية العظمة والكبرياء ، واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء ، من غير أن يكون لأحد قدرة عليه ، والتنكير في للتقليل والنوعية. قال القشيري : كيف يكون للمكوَّن المخلوق المسكين مُكْنةٌ أن يملك منه خِطاباً ، أو يتنفَّسَ بدونه نفساً ؟ كلاَّ ، بل هو الله الواحدُ الجبّار. ثم قال : إنما تظهر الهيبةُ على العموم لأهل الجمع في ذلك اليوم. وأمّا الخصوص فهم أبداً بمشهدِ العز بنعت الهيبة. هـ.

}

(٢٥٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢١

يومَ يقومَ الرُّوحُ} ؛ جبريل عليه السلام عند الجمهور ، وقيل : مَلكٌ عظيم ، ما خلق الله تعالى بعد

العرش أعظم منه ، يكون وحده صفًّا ، {والملائكةُ صفاً} : حال ، أي : مصطفين {لا يتكلمون} أي : الخلائق خوفاً ، {إلاَّ مَن أَذِنَ له الرحمنُ} في الكلام أو الشفاعة ، {وقال صَواباً} أي : حقًّا. قال الطيبي عن الإمام : فإن قيل : لَمَّا أذن له الرحمن في التكلم عَلِمَ أنه حق وصواب ، فما الفائدة في قوله : {وقا صواباً} ؟ فالجواب من وجهين ، أحدهما : أنَّ التقدير : لا ينطقون إلاَّ بعد ورود الإذن والصواب ، ثم يجتهدون في ألاَّ ينطقوا إلاَّ بالحق والصواب ، وهذا مبالغة في وصفهم بالطاعة. وثانيهما : أنَّ التقدير : لا يتكلمون إلاَّ في محضر إذن الرحمن في شفاعته والمشفوع له ممن قال صواباً ، وهو قول لا إله إلاّ الله. هـ. قلت : والمعنى : أن يُراد بالصواب : استعمال الأدب في الخطاب ، بمراعاة التعظيم ، كما هو شأن الكلام مع الملوك.

ثم قال تعالى : {ذلك اليومُ الحق} أي : الثابت المحقَّق لا محالة ، من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه. والإشارة إلى يوم قيامهم على الوجه المذكور ، وما فيه من معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار أليه للإيذان بعلو درجته ، وبُعد منزلته في الهول والفخامة.

٢٢٢

وهو مبتدأ ، و " اليوم " خبره ، أي : ذلك اليوم العظيم الذي يقوم الروح والملائكة مصطفين ، غير قادرين على التكلم عنهم ولا عن غيرهم من الهيبة والجلال ، هو اليوم الحق ، {فمَن شاء اتخذ إَلى ربه مآباً} ؛ مرجعاً بالعمل الصالح. والفاء فصيحة تفصح عن شرط محذوف ، أي : إذا كان الأمر كذلك من تحقُّق اليوم المذكور لا محالة ، فمَن شاء أن يتخذ إلى ربه مرجعاً ، أي : إلى ثواب ربه الذي ذكر شأنه العظيم ، فليفعل ذلك بالإيمان والطاعة ، و " إلى ربه " يتعلق بـ " مآب " قُدّم اهتماماً وللفواصل.

{إنَّا أنذرناكم} بما ذكر في السورة من الآيات الناطقة بالبعث وما بعده من الدواعي ، أو بسائر القوارع الواردة في القرآن ، أي : خوفناكم {عذاباً قريباً} هو عذاب الآخرة ، وقُربه لتحقُّق وقوعه ، وكل آتٍ قريب ، {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [النازعات : ٤٦] ، وعن قتادة هو قتل قريش يوم بدر ويأباه قوله تعالى : {يوم ينظر المرء ما قدمت يداه} فإنه بدل من " عذاب " أو ظرف لمُضمر هو صفة له ، أي : عذاباً كائناً يوم ينظر المرء ، أي : يُشاهد ما قدَّمه من خير وشر. و " ما " موصولة ، والعائد محذوف ، أو استفهامية ، أي : ينظر الذي قدمته يداه ، أو : أي شيء قدمت يداه وقيل : المراد بالمرء : الكافر.

(٢٥٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢١

وقوله : {ويقول الكافرُ يا ليتني كنتُ تراباً} ، وضع الظاهرَ موضع الضمير ، لزيادة الذّم ، أي : يا ليتني

كنتُ تراباً لم أُخلق ولم أُكلّف ، أو : ليتني كنت تراباً في هذا اليوم فلم أُبعث. وقيل : يحشر اللّهُ تعالى الحيوان حتى يقتص للجماء من القرناء ، ثم يرده تراباً ، فيود الكافرُ أن يكون تراباً مثله ، وقيل : الكافر : إبليس يرى آدم وولده وثوابهم ، فيتمنى أن يكون من الشيء الذي احتقره حين قال : {خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [الأعراف : ١٢ و صا : ٧٦]. قال الطيبي : والعموم في المرء هو الذي يساعده النظم. ثم قال عن الإمام : فإن قلتَ : لِمَ خصّ بعد العموم قول الكافر دون المؤمن ؟ قلت : دلّ قول الكافر على غاية التحسُّر ، ودلّ حذف قول المؤمن على غاية التبجُّح ونهاية الفرح بما لا يَحصُره الوصف. هـ. قال المحشي : والظاهر أنه اقتصر على قول الكافر بعد العموم في المرء ، لأنه المناسب للنذارة التي اقتضاها المقام. هـ. قلتُ : ولو ذكر قول المؤمن لقال : ويقول المؤمن هاؤم اقرؤوا كتابيه ، تبجُّحاً وفرحاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة : إنَّ للمتقين الله حق تقاته مفازاً ، وهو التخلُّص من رؤية الأكوان ، والإفضاء إلى رؤية الشهود والعيان ، وهو دخول حدائق العرفان ، واقتطاف ثمار الوجدان ، ونكاح أبكار الحقائق ، وهنّ أتراب ، لاستوائها غالباً في لذة الشهود لمَن تمكن منها. ويشربون كأس الخمرة الأزلية ، لا يسمعون في حضرة القدس لغواً ولا كِذاباً ، لغاية أدبهم ، جزاء من ربك على مكابدتهم في أيام سيرهم ، عطاءً كافياً مغنياً من الرحمن ، لا يملكون منه خِطاباً ، لغاية هيبتهم ، وهذا لقوم أقامهم مقام الهيبة ، وثَمَّ آخرون أقامهم مقام البسط والإدلال ،

٢٢٣

وهم المتمكنون في معرفته ، ينبسطون معه ، ويشفعون في عباده في الدارين. قال الورتجبي : مَن كان كلامه في الدنيا من حيث الكشف والمعاينة ، فهو مأذون في الدنيا والآخرة ، يتكلم مع الحق على بساط الحرمة والهيبة ، يُنقذ الله به الخلائق من ورطة الهلاك. هـ.

يوم يقوم الروح ، أي : جنس الروح ، وهي الأرواح الصافية ، التي التحقت بالملائكة ، فتقوم معهم صفاً في مقام العبودية التي شرفت بها ، لا يتكلمون هيبةً لمقام الحضرة ، إلاَّ مَن أّذِنَ له الرحمنُ في الشفاعة ، على قدر مقامه ، وقال صواباً ، أي : استعمل الأدب في مخاطبته فإذا استعمل الأدب شفع ، ولو قصر مقامه عن عدد المشفوع فيه. حُكي أنّ بعض الأولياء قال عند موته : يا رب شفِّعني في أهل زماني ، فقال له الهاتف من قِبل الله تعالى : لم يبلغ مقامك هذا ، فقال : يا رب إذا كان ذلك بعملي واجتهادي فلعَمري إنه لم يبلغ ذلك ، وإذا كان ذلك بكرمك وَجُودك ، فهو أعظم من ذلك ، فشَفَّعه الحقُّ تعالى في الوجود. هكذا سمعتُ الحكاية من شيخنا الفقيه العالم ، سيدي " التاودي بن سودة " رحمه الله ، فحُسن خطاب هذا الرجل بلّغه ما لم يبلغه قدره.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢١

ذلك اليوم الحق ، تحِق فيه الحقائق ، وتبطل فيه الدعاوى ، ويفتضح أهلها ، فمَن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ، يرجع به إلى ربه ، وهو حُسن التوجه إليه ، برفض كل ما سواه. {إنَّا أنذرناكم عذاباً قريباً} قال القشيري : أي : عذاب الالتفات إلى النفس والدنيا والهوى ، يوم ينظر المرءُ ما قدَّمت يداه من الإساءة والإحسان هـ. ويقول الكافر الجاحد لطريق الخصوصية ، حتى مات محجوباً : يا ليتني كنتُ تُراباً ، تحسُّراً على ما فاته من مقام المقربين. وبالله التوفيق. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.
٢٢٤

(٨/٢٦٠)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢١

سورة النازعات

(٨/٢٦١)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢٤

فإنَّ جواب القسم : لتُبعثن ثم لتعذّبن.

يقول الحق جلّ جلاله : {والنازعاتِ} أي : والملائكة التي تنزع الأرواح من أجسادها ، كما قال ابن عباس ، أو أرواح الكفرة ، كما قاله هو أيضاً وابن مسعود ، {غَرْقاً} أي : إغراقاً ، من : أَغرق في الشيء : بالغ فيه غايةً ، فإنها تُبالغ في نزعها فتخرجها من أقاصي الجسد. قال ابن مسعود : تنزع روح الكافر مِن جسده من تحت كل شعرة ، ومِن تحت الأظافر ، ومن أصول القدمين ، ثم تفرقها في جسده ، ثم تنزعها حتى إذا كادت تخرج تردها في جسده ، فهذا عملها بالكفار دون المؤمنين. أو : تُغرقها في جهنم ، فهو مصدر مؤكد.

{والناشطاتِ نشطاً} أي : ينشطونها ويخرجونها من الجسد ، من : نَشط الدلو من البئر : أخرجها.

{والسابحاتِ سَبْحاً} أي : يسبحون بها في الهوى إلى سدرة المنتهى. شبّه سرعة سيرهم بسبح الهوام ، أو يسبحون في إخراجها سبح الغواص الذي يخرج من البحر ما يخرج ، {فالسابقاتِ سبقًا} فيسبقون بأرواح الكفرة إلى النار ، وبأرواح المؤمنين إلى الجنة ، {فالمُدبراتِ أَمْراً} تُدبر أمر عقَابها وثوابها ، بأن تهيئها لإدراك ما أعدّ لها من الآلام والثواب ، أو السابحات التي تسبح في مضيها ، فتسبق إلى ما أمروا

به ، فتدبر أمراً من أمور العباد ، مما يصلحهم في دينهم ودنياهم كما رُسم لهم.
٢٢٥
أو : يكون تعالى أَقْسَم بالنجوم التي تنزع من المشرق إلى المغرب ، غرقاً في النزع ، بأن تقطع الفلك حتى تنحطّ في أقصى المغرب ، وتنشط من برج إلى برج ، أي : تخرج ، من : نَشط الثور : إذا خرج من بلد إلى بلد ، وتَسْبح في الفلك ، فتسبق بعضها بعضاً ، فتُدبر أمراً نِيط بها ، كاختلاف الفصول ، وتقدير الأزمنة ، وتدبير مواقيت العبادة ، وحيث كانت حركاتها من المشرق إلى المغرب قسرية - أي : قهرية - وحركاتها من برج إلى برج ملائمةً ، عبَّر عن الأولى بالنزع ، وعن الثانية بالنشط.

(٢٦٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢٥
أو : بأنفس الغُزاة ، أو : بأيديهم التي تنزع القِسي ، بإغراق السهام ، وينشطون بالسهم إلى الرمي ، ويَسْبحون في البر والبحر ، فيسبقون إلى حرب العدو ، فيُدبرون أمرها ، أو : بصفات خيلهم ، فإنها تنزع في أعنّتها نزعاً تغرق فيه الأعنّة لطول أعناقها ، لأنها عراب ، وتخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب ، وتَسْبح في جريها ، فتسبق إلى العدو ، فتدبر أمر الظفر والغلبة. وسيأتي في الإشارة أحسن هذه الأقوال إن شاء الله.
وانتصاب " نشطاً " و " سَبْحاً " و " سبقاً " على المصدرية ، وأما " أمراً " فمفعول به ، وتنكيره للتهويل والتفخيم. والعطف مع اتحاد الكل لتنزيل التغاير العنواني منزلة المتغاير الذاتي ؛ للإشعار بأنَّ كل واحدٍ من الأوصاف المعدودة من معظّمات الأمور ، حقيق بأن يكون حياله مناطاً لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام بالإقسام من غير انضمام أوصاف الآخر إليه. والفاء في الأخيرين للدلالة على ترتيبهما على ما قبلهما بلا مهلة. والمقسم عليه محذوف ، تعويلاً على إشارة ما قبله من المقسم به إليه ، ودلالة ما بعد من أحوال القيامة عليه ، فإنَّ الإقسام بمَن يتولى نزع الأرواح ، ويقوم بتدبيرها ، يلُوح بكون المقسم عليه مِن قبل تلك الأمور لا محالة ، ففيه من الجزالة ما لا يخفى.
أي : لتُبعثن {يومَ ترجُفُ الراجِفةُ} ، فالعامل في الظرف هو الجواب المحذوف. والرجف : شدة الحركة. والراجفة : النفخة الأولى ، وُصفت بما حدث عندها لأنها تضطرب لها الأرض حتى يموت مَن عليها ، وتزلزل الجبال وتندك الأرض دكاً ، ثم {تتبعها الرادِفةُ} ؛ النفخة الثانية ، لأنها تردف الأولى ، وبينهما أربعون سنة ، والأولى تُميت الخلق والثانية تُحْييهم.
{قلوبٌ يومئذٍ} ، وهي قلوب منكري البعث ، {واجفةٌ} ؛ مضطربة ، من : الوجيف ، وهو الاضطراب ، {أبصارُها} أي : أبصار أصحابها {خاشعةٌ} ؛ ذليلة لهول ما ترى ، {يقولون} أي : منكرو البعث في

الدنيا استهزاءً وإنكاراً للبعث : {أئنا لمردودون في الحافرة} ، استفهام بمعنى الإنكار ، أي : أنُرَدّ بعد موتنا إلى أول الأمر ، فنعود أحياءً كما كنا ؟ والحافرة : الحالة الأولى ، يُقال لمَن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه : رجع إلى حافرته ، أي : إلى حالته الأولى ، يُقال : لمَن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه : رجع إلى حافرته ، أي : إلى حالته الأولى ، ويُقال : رجع في حافرته ، أي : طريقته التي جاء فيها ، فحفر فيها ، أي : أثر فيها بمشيه ، وتسميتها حافرة مع أنها محفورة ، كقوله : {عيشة
٢٢٦
راضية} [الحاقة : ٢١] على تسمية القابل بالفاعل.

(٢٦٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢٥

أنكروا البعث ثم زادوا استبعاداً فقالوا : {أئذا كنا عظاماً نخرةً} ؛ بالية. ونخرة أبلغ من ناخرة ؛ لأنَّ " فَعِلٌ " أبلغ من فاعل ، يقال : نَخِرَ العظم فهو نَخِرٌ وناخر : بِلَي ، فالنَخِر هو البالي الأجوف الذي تمر به الريح فيسمع له نخير ، أي : أنُرد إلى البعث بعد أن صرنا عظاماً بالية ؟ . و " إذا " منصوب بمحذوف ، وهو : أنُبعث إذا كنا عظاماً بالية مع كونها أبعد شيء في الحياة.

{قالوا} أي : منكروا البعث ، وهو حكاية لكفر آخر ، متفرع على كفرهم السابق ، ولعل توسيط " قالوا " بينهما للإيذان بأنّ صدور هذا الكفر عنه ليس بطريق الاطراد والاستمرار ، مثل كفرهم الأول المستمر صدوره عنهم في كافة أوقاتهم ، حسبما يُنبيء عنه حكايته بصيغة المضارع ، أي : قالوا بطريق الاستهزاء ، مُشيرين إلى ما أنكروه من الرد في الحافرة ، مشعرين بغاية بُعدها من الوقوع : {تلك إذاً كرةٌ خاسرةٌ} أي : رجفة ذات خسران ، أو خاسر أصحابها ، والمعنى : أنها إن صحّت وبُعثنا فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا بها ، وهذا استهزاءٌ منهم.

قال تعالى في إبطال ما أنكروه : {فإنما هي زجرةٌ واحدة} أي : لا تحسبوا تلك الكرّة صعبة على الله ، بل هي أسهل شيء ، فما هي إلاّ صيحة واحدة ، يُريد النفخة الثانية ، من قولهم : زَجَر البعير : إذا صاح عليه. {فإذا هم بالسَّاهرة} أي : فإذا هم أحياء على وجه الأرض ، بعدما كانوا أمواتاً في جوفها. والساهرة : الأرض البيضاء المستوية ، سُميت بذلك ، لأنَّ السراب يجري فيها ، من قولهم : عين ساهرة جارية ، وفي ضدها : عين نائمة ، وقيل : إنَّ سالكها لا ينام خوف الهلكة ، وقيل : أرض بعينها بالشام إلى جنب بيت المقدس ، وقيل : أرض مكة. وقيل : اسم لجهنّم. وعن ابن عباس : أنَّ الساهرة : أرض مِن فضة ، لم يُعص اللهَ تعالى عليها قط ، خلقها حينئذ. وقيل : أرض يُجددها الله تعالى يوم

القيامة. وقيل : الأرض السابعة ، يأتي الله بها يوم القيامة فيُحاسب عليها الخلائق ، وذلك حين تُبدل الأرض غير الأرض ، وقيل : الساهرة : أرض صحراء على شفير جهنم. والله تعالى أعلم.

(٨/٢٦٤)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢٥

الإشارة : والأرواح النازعات عن ملاحظة السِّوى غرقاً في بحار الأحدية. والناشطات من علائق الدنيا ومتابعة الهوى نشطاً ، والسابحات بأفكارها في بحر أنوار الملكوت ، وأسرار الجبروت ، سبحاً ، فالسابقات إلى حضرة القدس سبقاً ، فالمدبرات أمر الكون ، بالتصرُّف فيه بالنيابة عن الحق ، وهو مقام القطبانية ، أو النازعات عن الحظوظ والشهوات غرقاً في التجرُّد إلى العبادات بأنواع الطاعات. وهذه أنفس العُبّاد ، والناشطات عن الدنيا ، وأهلها فراراً إلى الله نشطاً ، وهي أنفس الزُهّاد ، والسابحات بعقولها في أسرار العلوم ، فتستخرج من الكتاب والسنة درراً ويواقيت ، يقع النفع بها إلى يوم الدين ، وهي

٢٢٧

أنفس العلماء الجهابذة ، فالسابقات إلى الله بأنواع المجاهدات والسير في المقامات ، حتى أفضت إلى شهود الحق عياناً ، سبقاً ، وهي أنفس الأولياء العارفين ، فالمُدبرات أمر الخلائق بقسم أرزاقها وأقواتها ورتبها ، وهي أنفس الأقطاب والغوث. وقال البيضاوي : هذه صفات النفوس ، وحال سلوكها ، فإنها تنزع من الشهوات ، وتنشط إلى عالم القدس ، فتسْبَح في مراتب الارتقاء ، فتسبق إلى الكمالات ، حتى تصير من المكمِّلات ، زاد الإمام : فتُدبْر أمر الدعوة إلى الله. وقال الورتجبي : إشارة النازعات إلى صولات صدمات تجلي العظمة ، فتنزع الأرواح العاشقة عن معادن الحدوثية. ثم قال : والناشطات : الأرواح الشائقة تخرج من أشباحها بالنشاط ، حين عاينت جمال الحق بالبديهة وقت الكشف. ثم قال : والسابحات تسْبَح في بحار ملكوته وقاموس كبرياء جبروته ، تطلب فيها أسرار الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية ، فالسابقات في مصاعدها عالم الملكوت ، وجنات الجبروت ، تُسابق كل همة ، فالمدبِّرات هي العقول القدسية تُدَبّر أمور العبودية بشرائط إلهام الحقيقة. هـ.

والمقسَم عليه : ليبعَثن اللهُ الأرواحَ الميتة بالجهل والغفلة ، حين تنتبه إلى السير بالذكر والمجاهدة ، فإذا حييت بمعرفة الله كانت حياة أبدية. وذلك يوم ترجف النفس الراجفة ، وذلك حين تتقدّم لخرق عوائدها ومخالفة هواها ، تتبعها الرادفة ، وهي ظهور أنوار المشاهدة ، فحينئذ تُبعث من موتها ، وتحيا حياة لا موت بعدها ، وأمّا الموت الحسي فإنما هو انتقال من مقام إلى مقام. قلوب يومئذ ـ أي : يوم المجاهدة والمكابدة ـ واجفة ، لا تسكن حتى تُشاهد الحبيب ، أبصارُها في حال السير خاشعة ، لا

يُخلع عليها خلعُ العز حتى تصل. يقول أهل الإنكار لهذه الطريق : أئِنا لمردودون إلى الحالة الأولى ، التي كانت الأرواح عليها في الأزل ، بعد أن كنا ميتين بالجهالة ، مُرْمى بنا في مزابل الغفلة ، كعِظام الموتى ، قالوا : تلك كرة خاسرة ، لزعمهم أنهم إذا صاروا إلى هذا المقام لم يبقَ لهم تمتُّع بشيء أصلاً ، مع أنَّ العارف إذا تحقق وصوله تمتع بالنعيمين ؛ نعيم الأشباح ونعيم الأرواح. قال تعالى في رد ما استحالوه : فإنما هي زجرة واحدة من همة عارف ، أو نظرة وليّ كامل ، فإذا هم في أرض الحضرة القدسية. قال الشيخ أو العباس : والله ما بيني وبين الرجل إلاَّ أن أنظر إليه وقد أغنيته. قلت : والله لقد بقي في زماننا هذا مَن يفوق أبا العباس والشاذلي وأضرابهما في الإغناء بالنظرة والملاحظة ، والحمد لله.

(٢٦٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢٥

يقول الحق جلّ جلاله : {هل أتاك حديثُ موسى} ، تشويقاً لما يُلقى إليه مِن خبره ، أي : هل أتاك حديثه ، أنا أُخبرك به ، إن كان هذا أول ما أتاه من حديثه. وإن كان تقدّم قبل هذا حديثه ، وهو المتبادر ، فالمعنى : أليس قد آتاك حديثه. وقوله : {إِذْ ناداه رَبُّه} : ظرف للحديث لا للإتيان ، لاختلاف وقتهما ، أي : هل وصلك حديثه ناداه ربه {بالوادِ المقدّس} ؛ المبارك المطهّر ، اسمه : {طُوى} بالصرف وعدمه. فقال في ندائه له : {اذهبْ إلى فرعون إنه طَغَى} ؛ تجاوز الحدّ في الكفر والطغيان ، {فقلْ} له بعد أن تأتيه : {هل لك إلى أن تزكَّى} أي : هل لك رغبة وتَوَجُّه إلى التزكية والتطهير من دنس الكفر والطغيان بالطاعة والإيمان. قال ابن عطية : " هل " هو استدعاء حسن. قال الكواشي : يقال : هل لك في كذا ؟ وهل لك إلى كذا ؟ كقولك : هل ترغب في كذا ، وهل ترغب إلى كذا. قال : وأخبر تعالى أنه أمر موسى بإبلاغ الرسالة إلى فرعون بصيغة الاستفهام والعرض ، ليكون أصغى لأذنه ، وأوعى لقلبه ، لِما له عليه من حق التربية. هـ. وأصله : " تتزكى " ، فحذف إحدى التاءين ، أو : أدغمت ، فيمن شدّد الزاي.

{وأهْدِيَكَ إلى ربك} ؛ وأهديك إلى معرفته ، بذكر دلائل توحيده وصفات ذاته ، {فتخشَى} ، لأنَّ الخشية لا تكون إلاَّ مع المعرفة ، قال تعالى : {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاؤُاْ} [فاطر : ٢٨] أي : العلماء بالله. وقال بعض الحكماء : اعرفوا الله ، فمَن عرف الله لم يقدر أن يعصيه طرفةَ عين.

فالخشية ملاك الأمر ، فمَن خشي الله أتى منه كل خير ، ومَن أَمِنَ اجترأ على كل شر. ومنه الحديث : " مَن خشي أدلج ، ومَن أدلج بلغ المنزل " قال النسفي : بدأ مخاطبته بالاستفهام ، الذي معناه العرض ، كما يقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل بنا ؟ وأردفه الكلامَ الرقيق ، ليستدعيه باللطف في القول ،

ويستنزله بالمداراة من عتوّه ، كما أمر بذلك في قوله : {فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِ◌ِّناً} [طه : ٤٤] هـ.
}

(٢٦٦/٨)

فأراه الآيةَ الكبرى} ، الفاء : فصيحة تفصح عن جملة قد طويت تعويلاً على تفصيلها في السور الأخرى ، فإنه عليه السلام ما أراه إياها عقب هذا الأمر ، بل بعدما جرى بينه وبينه من المحاورات إلى أن قال : {إِن كُنتَ جِئْتَ بِئَايَةٍ فَأْتِ} [الأعراف : ١٠٦]. والآية الكبرى : العصا ، أو : هي واليد ، لأنهما في حكم آية واحدة. ونسبتُها إليه عليه السلام بالنسبة إلى الظاهر ، كما أنّ نسبتها إلى نون العظمة في قوله تعالى : {وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا} [طه : ٥٦] بالنظر إلى الحقيقة {فكذَّب وعَصَى} أي : كذَّب موسى عليه السلام. وسمَّى معجزته سحراً ، وعصى اللهَ عزّ وجل بالتمرُّد ، بعدما عَلِمَ صحة

الأمر ووجوب الطاعة ، أشد العصيان وأقبحه ، حيث اجترأ على إنكار وجود رب العالمين رأساً. وكان اللعين وقومه مأمورين بعبادته عزّ وجل ، وترك القولة العظيمة التي يدّعيها الطاغية ، ويقبلها منه الفئة الباغية ، لا بإرسال بني إسرائيل من الأسر فقط. قاله أبو السعود.
{ثم أّدْبَرَ} أي : تولَّى عن الطاعة ، أو : انصرف عن المجلس {يسعَى} في معارضة الآية ، أو : أدبر هارباً من الثعبان ، فإنه رُوِي أنه عليه السلام لمّا ألقى العصا انقلب ثعباناً أشعر ، فاغراً فاه ، بين لحييه ثمانون ذرعاً ، فوضع لحيه الأسفل على الأرض ، والأعلى على القصر ، فتوجه نحو فرعون ، فهرب وأحدث ، وانهزم الناس مزدحمين ، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه وقيل : إنها ارتفعت في السماء قدر ميل ، ثم انحطت مقبلة نحو فرعون ، وجعلت تقول : يا موسى مُرني بما شئت ، وجعل فرعون يقول : بالذي أرسلك إلاّ أخذته ، فأخذه فعاد عصا..
{فحشَرَ} أي : فجمع السحرة ، كقوله : {فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ} [الشعراء : ٥٣] أو : جمع الناس ، {فنادَى} في المقام الذي اجتمعوا فيه ، قيل : قام خطيباً ، {فقال أنا ربكم الأعلَى} لا رب فوقي ، وكان لهم أصنام يعبدونها. وهذه العظيمة لم يجترىء عليها أحد قبله. قال ابن عطية : وذلك نهاية في المخارقة ، ونحوُها باقٍ في ملوك مصر وأتباعهم. هـ. قيل : إنما قال ذلك ابنُ عطية لأنَّ ملك مصر في زمانه كان إسماعيليًّا ، وهو مذهب يعتقدون فيه إلهية ملوكهم. وكان أول مَن ملكها منهم : المعتز بن المنصور بن القاسم بن المهدي عبيد الله ، وآخرهم العاضد. وقد طهَّر الله مصر من هذا المذهب ، بظهور الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذا رحمه الله وجزاه عن

الإسلام خيراً. هـ. من الحاشية.
}

(٨/٢٦٧)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢٨

فأخَذَه اللهُ نكال الآخرةِ والأُولى} بالإغراق ، فالنكال : مصدر بمعنى التنكيل ، كالسلام بمعنى التسليم ، وهو التعذيب الذي ينكل مَن رآه أو سمعه ، ويمنعه من تعاطي ما يُفضي إليه. وهو منصوب على أنه مصدر مؤكد ، كوعْدَ الله وصبغةَ الله ، وقيل : مصدر لـ " أخذ " ، أي : أخذه الله أخذ نكال الآخرة ، وقيل : مفعول من أجله ، أي : أخذه الله لأجل نكال الآخرة. وإضافته إلى الدارين باعتبار وقوع بعض الأخذ فيهما ، لا باعتبار أنَّ ما فيه من المنع والزجر يكون فيهما ، فإنَّ ذلك لا يتصور في الآخرة ، بل في الدنيا ، فإنَّ العقوبة الأخروية تنكل مَن يسمعها ، وتمنعه من تعاطي ما يؤدي إليها لا محالة. وقيل : المراد بالآخرة والأولى : قوله : {أنا ربكم الأعلى} وقوله : {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلَاهٍ غَيْرِى} [القصص : ٣٨]. قيل : كان بين الكلمتين أربعون سنة ، فالإضافة إضافة المسبب إلى السبب.

{إِنَّ في ذلك} أي : فيما ذكره من قصة فرعون وما فعل به {لَعِبرةً} عظيمة {لِمن} شأنه أن {يَخْشَى} وهو مَن عرف الله تعالى وسطوته.

٢٣٠

الإشارة : جعل القشيري موسى إشارة إلى القلب ، وفرعون إشارة إلى النفس ، فيُقال : هل أتاك حديث القلب حين ناداه ربه بالحضرة المقدسة ، بعد طي الأكوان عن مرآة نظره ، فقال له : اذهب إلى فرعون النفس إنه طغى. وطغيانها : إرادتها العلو والاستظهار ، فقل له : هل لك إلى أن تَزَكَّى وتتطهر من الخبائث ، لتدخل الحضرة ، فأَهديك إلى معرفة ربك فتخشى ، فإنما يخشى اللهَ مَن عرفه. فأراه الآية الكبرى مِن خرق العوائد ومخالفة الهوى ، فكَذَّب وعصى ، حين رأى عزم القلب على مجاهدته ، فحشر جنوده مِن حب الدنيا والرئاسة ، وإقبال الناس والحظوظ والشهوات ، فنادى ، فقال : أنا ربكم الأعلى ، فلا تعبدوا غيري. هذا قول فرعون النفس ، فأخذه اللهُ نكال الآخرة والأولى ، أي : استولى جند القلب عليه ، فأغرقه في قلزوم بحر الفناء والبقاء. إنَّ في ذلك لعبرة لمَن يخشى ، ويسلك طريق التزكية ، فإنه يصل إلى بحر الأحدية. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

(٨/٢٦٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢٨

يقول الحق جلّ جلاله : مخاطباً أهلَ مكة ، المنكرين للبعث ، بناء على صعوبته في زعمهم ، وتوبيخاً وتبكيتاً ، بعدما بيّن سهولته على قدرته بقوله : {فَإِنَّمَا هِي زَجْرَةٌ وَاحدَةٌ} {أأنتم أشدُّ خَلْقاً} أي : أَخَلْقُكم بعد موتكم أشق وأصعب في تقديركم {أم السماءُ} أي : أم خلق السماء على عِظمها وانطوائها على تعاجيب البدائع التي تحار العقول عن ملاحظة أدناها ، وهذا كقوله : {أَوَلَيْسَ الَذِي خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىا أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى} [يَس : ٨١]. ثم بيَّن كيفية خلقها فقال : {بناها} أي : الله ، وفي عدم ذكر الفاعل ، فيه وفيما عطف عليه ، من التنبيه على تعينه وتفخيم شأنه عزّ وجل ما لا يخفى.

{رَفَعَ سَمْكَها} أي : أعلى سقفها من الأرض ، وذهب بها إلى سمت العلوّ مدًّا رفيعاً مسيرة خمسمائة عام {فسوّاها} أي : فعدّلها مستوية ملساء ، ليس فيها تفاوت ولا فطور ، أو : تممها بما جعل فيها من الكواكب والدراري ، وغيرها مما لا يعلمه إلاَّ الخلاَّق العليم ، من قولهم : سوَّى فلان أمره : إذا أصلحه.

{وأغْطشَ ليلها} أي : أظلمه ، ويُقال : غطش الليل وأغطشه الله ، كما يُقال : ظلُم وأظلمه الله.

{وأخرج ضحاها} أي : أبرز نهارها ، عبّر عنه بالضُحى ، لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، فكان أحق بالذكر في مقام الامتنان. ويجوز أن يكون أضاف الضحى إليها

٢٣١

بواسطة الشمس ، أي : أبرز ضوء شمسها. والتعبير بالضُحى لأنه وقت قيام سلطانها وكما إشراقها.

{والأرضَ بعد ذلك دحاها} أي : بسطها ومهّدها لسكْنى أهلها وتقلُّبهم في أقطارها ، وكانت حين خُلقت كورة غير مدحوةٍ ، فدحيت من تحت مكة بعد خلق السماء بألفي عام. ثم فسّر الدحو فقال : {أخرج منها ماءها} بتفجير عيونها وإجراء أنهارها ، {ومرعاها} ؛ كلأها ، وهو ما ترعاه البهائم ، وهو في الأصل : موضع الرعي ، أو : مصدر ميمي بمعنى المفعول ، وتجريد الجملة من العاطف إمّا لأنها تفسير لدحاها ، أو تكملة له ، فإنَّ السكنى لا تتأتى لمجرد البسط ، بل لا بد من تهيئة أمر المعاش من المأكل والمشرب حتماً ، أو : لأنها حال بإضمار " قد " عند الجمهور ، أو بدونه عند الكوفيين.

}

(٢٦٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٣١

والجبالَ أرساها} أي : أثبتها وأثبت بها الأرض أن تميد بأهلها ، وإرساء الجبال لها من باب الحكمة ،

وإلاَّ فالقدرة هي الحاملة للكل. وانتصاب الأرض والجبال بفعل يُفسره ما بعده. ولعل تقديم إخراج الماء والمرعى ذكراً مع تقديم الإرساء عليه وجوداً ؛ لإبراز كمال الاعتناء بأمر المأكل والمشرب. وهذا كما ترى يدل بظاهره على تأخر دحو الأرض عن خلق السماء وما فيها ، كما يروى عن الحسن : من أنه تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس ، كهيئة الفِهْر ، عليه دخان ملزق بها ، ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات ، وأمسك الفِهْرَ في موضعها وبسط منها الأرض ، وذلك قوله تعالى : {كَانَتَا رَتْقاً...} [الأنبياء : ٣٠]. وفي القاموس : الفِهْرُ بالكسر : الحَجَرُ قَدْرَ ما يدق به الجَوْزُ ، أو ما يملأ الكفَّ. هـ.

والتحقيق في المسألة : أنَّ أول ما خلق اللهُ العرش من القبضة النورانية المحمدية ، ثم خلق ياقوتة صفراء ، فذابت من هيبته تعالى فصارت ماء ، ثم اضطرب الماء فعلته زبدة ، فخلق منها الأرض ، ثم علا منه دخان فخلق منه السماء ، ثم دحا الأرض وهيّأ فيها أقواتها للناس والأنعام وغيرهما ، كما قال تعالى : {متاعاً لكم ولأنعامكم} أي : فجعل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم ، فهو مفعول لأجله ؛ لأنَّ فائدة البسط والتمهيد وإخراج الماء والمرعى واصلة للإنسان والأنعام ، أو : مصدر من غير لفظه ، فإنَّ قوله تعالى : {أخرج منها ماءها ومرعاها} في معنى : متّعكم بذلك.

{فإذا جاءت الطامةُ الكبرى} أي : الداهية العُظمى التي تطمّ على سائر الدواهي ، أي : تعلوها وتغلبها ، من قولك : طمّ الأمر : إذا علا وغلب ، وهي القيامة ، أو النفخة الثانية ، أو : الساعة التي يُساق فيها الخلائق إلى محشرهم ، أو : التي يُساق فيها أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، {يوم يتذكَّرُ الإنسانُ ما سعَى} أي : يتذكر فيه كل واحد ما عمله من خير وشر ، بأن يُشاهده مدوناً في صحيفته ، وقد كان نسيه مِن فرط الغفلة ، وطول الأمل ، كقوله تعالى : {أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ} [المجادلة : ٦]. و " يوم " : بدل من " إذا "

والأحسن : أنه مفعول بفعل محذوف ، أي : أعني. {وبُرّزَت الجحيمُ} أي : أظهرت إظهاراً بيناً لا يخفى على أحد {لمن يرى} كائناً مَن كان ، فلا تتوقف رؤيتها إلاّ على وجود حاسة البصر ، ولا مانع من الرؤية ولا حاجب. يُروى أنه يُكشف عنها فتلتظي نيرانها كل ذي بصر.

{فأمَّا مَن طَغَى} أي : جاوز الحدّ في العصيان {وآثر الحياةَ الدنيا} الفانية ، فانهمك فيما متع به فيها ، ولم يستعد للحياة الآخرة الأبدية بالإيمان والطاعة ، {فإنَّ الجحيم} التي ذكر شأنها {هي المأوى} أي : مأواه. فاللام سادّة مسد الإضافة للعلم بأنَّ صاحب المأوى هو الطاغي ، وجملة " فأمّا " : جواب " إذا " على طريقة : {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّى هُدىً فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ...} [البقرة : ٣٨] ، وقيل : جواب " إذا " محذوف ، وهي تفصيل له ، أي : إذا جاءت انقسم الناس على قسمين ، فأمّا مَن طغى.. الخ ، والذي يستدعيه فخامة التنزُّل ، ويقتضيه مقام التهويل ؛ أنَّ الجواب المحذوف تقديره : يكون من عظائم

الشؤون ما لم تُشاهده العيون ، ثم فصَّل أحوال الناس بقوله : فأمّا.. الخ.
}

(٢٧٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٣١
وأمّا مَن خاف مَقامَ ربه} أي : مُقامه بين يدي مالك أمره يوم الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسانُ ما سعى. {ونهى النفسَ عن الهوى} المُرْدِيِّ ، أي : زجرها عن اتّباع الشهوات الفانية ، ولم يعتد بمتاع الحياة الدنيا وزهرتها ، ولم يغتر بزخارفها وزينتها ، علماً منه بوَخَامة عاقبتها ، وقيل : هو الرجل يهم بالمعصية فيتذكّر مقامه للحساب فيتركها. والهوى : ميل النفس إلى ما تهوى من غير تقييد بالشريعة ، {فإِنَّ الجنة هي المأوى} له لا لغيره ، وسيأتي تحقيقه في الإشارة.
الإشارة : فإذا جاءت الطامة ، وهو التجلِّي الجلالي الذي لايعرفه فيه إلاّ الرجال ، يومئذ يتذكر الإنسان ما سعى فيه من علم التوحيد ، فمَن كان عارفاً بالله في جميع الأشياء عرفه في جميع التجليات ، كيفما تلوّنت ، ومَن كان قاصراً في المعرفة في البعض وأنكره في البعض ، كما في حديث القيامة ، حيث يتجلّى لبعض عباده في صورة لا يعرفونها ، فيُنكرونه ، ويقولون ، هذا موضعنا حتى يأتينا ربنا ، ثم يتجلّى لهم في صورة يعرفونها ، فيُقرونه ، وهذا لقصورهم في المعرفة ، ولو عرفوا الله في جميع تجلياته ما أنكروه في شيء منها ، وبُرِزت الجحيم لمَن يرى ، أي : وبُرّزت حينئذ نار القطيعة لمَن يرى. قال القشيري : أي : ظهرت جحيم الحجاب لمَن يراه غيرَ الأشياء ، فإنه عين الأشياء في جميع التجليات ، الجمالية والجلالية ، العلوية والسفلية ، الصورية والمعنوية. هـ.
فأمَّا مَن طغى وتبع هواه ، وآثر الحياة الدنيا ، والاشتغال بها عن الإقبال على الله ، فإنَّ الجحيم هي المأوى ، أي : جحيم الحرمان عن مشاهدة الرحمن ، وأمّا مَن خاف مقام ربه ، أي : قيام ربه بالأشياء ، أو على الأشياء ، واطلاعه عليها ، أو قيامه بين يدي الله غداً للحساب ، فالأول لأهل المشاهدة ، والثاني لأهل المراقبة ، والثالث لأهل المحاسبة ، ونهى
٢٣٣
النفسَ عن الهوى ، عن كل ما يشغل عن الله ، ويُقسي القلبَ عن ذكر مولاه ، مما تهواه النفوس ، فإنّ الجنة هي المأوى ، جنة المعارف لمَن ترك ما تهوى نفسُه من المباحات ، وجنة الزخارف لمَن ترك ما تهواه من المحرّمات.

(٢٧١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٣١
قال الورتجبي : خاطب تعالى العبادَ بهذه الآية في أوائل مقاماتهم ، حين وجب عليهم ترك النفوس ، وشرَه هواها ، والميل إلى حظوظها ، لأنهم في وقت قصودهم إلى الله لا يجوز لهم الرخص والرفاهية ، فقد وجب عليهم الإعراض عن حظوظ أنفسهم ، خوفاً من الاحتجاب عن الوصول إلى الله تعالى ، ولعلمهم بأنه محيط بحركات شهوات نفوسهم الخفية ، حين تميل بخفاياها إلى مرادها دون الله ، فإذا جادوها وقهروها بتأييد الله أوصلهم الله مقامَ مشاهدته ، وهي جنة العارفين ، فإذا ترقَّوا إلى درجات المعرفة لم يحتاجوا إلى قهر النفس عن الهوى ، فإنّ نفوسهم وأجسامهم وشياطينهم صارت روحانية ، فجانست الأرواح الملكوتية ، فشهوات نفوسهم هناك من تواثير حلاوة أرواحهم في مشاهدة الحق ، فتشتهي الأنفسُ ما تشتهي الأرواحُ في الغيوب والعقول والقلوب ، فيضطرهم هناك إلى كل شيء يكون للنفوس والأرواح ، جنات تظهر فيها أنوار شهود الحق ، وأين الكافر والمعطِّل والمدّعِي من هذا المقام ؟ وهم خلقوا من الجهالة ، فيموتون في الضلالة ، وأصحاب القلوب والمعارف عيش أرواحهم عيش الربانيين ، وعيش نفوسهم عيش الجنّانيين . أي أهل الجنة الحسية . والله قادر بذلك يختص برحمته مَن يشاء ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " أسلم شيطاني " وقال : " نحن معاشر الأنبياء أجسادنا روح " ثم قال عن سهل : لا يَسلم من الهوى إلاَّ الأنبياء وبعض الصدّيقين ، ليس كلهم ، وإنما يسلم من الهوى مَن ألزم نفسه الأدب. هـ. قلت : الذي يُلزم نفسه الأدب هو الذي ينزل إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ بالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين ، وقليل ما هم.

(٢٧٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٣١
يقول الحق جلّ جلاله : {يسألونك عن الساعةِ أيّان مُرْسَاها} أي : متى إرساؤها ، أي : إقامتها ، يُريدون : متى يُقيمها الله تعالى ويكوّنها ، وقيل : إيّان منتهاها ومستقرها ، كما أنّ مرسى السفينة المحل التي تنتهي إليه وتستقر فيه ، {فِيمَ أنتَ مِن ذِكراها} أيّ : في أي شيء أنت مِن أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم به ؟ أي : ما أنت من ذكراها وتبيين وقتها لهم في شيءٍ حتى يسألونك بيانها ، إنما أنت نذير بها ، كقولك : ليس فلان من العلم في شيءٍ وهو إنكار ورد لسؤال المشركين عنها ، لأنَّ علمها مما استأثر به علاّم الغيوب
٢٣٤
وقيل : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت ، فكفّ ، فهو على هذا تعجيب من كثرة ذكره لها ، أي : أنت في شُغل وأي شغل أنت من الاهتمام بالسؤال عنها.

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة كثيراً ، فما نزلت هذه الآية انتهى عن ذلك. ولا يرده قوله : {كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} [الأعراف : ١٨٧] أي : إنهم يزعمون أنك مُبالغ في السؤال عنها حتى علمتها ولست كما يزعمون ، لأنّا نقول هذه الآية نزلت قبل تلك ، وأنه كان أولاً يسأل عنها حتى نُهي بهذه الآية فانتهى ، كما ذكر في الحديث المذكور ، فنزلت تلك مخبرة عن حاله بعد انتهائه. والله أعلم. قال القشيري : من أين لك علمها ولم نعلمك بذلك ، وقيل : يوقف على قوله : " فِيمَ " أي : هذا السؤال الذي يسألونك فيم ، أي : في أي شيء هو ، فيكون إنكاراً لسؤالهم ، ثم ابتدأ : " مِن ذكراها " أي : إن ظهورك وبعثك وأنت خاتم النبيين من جملة ذكراها ، أي : أشراطها وعلامتها ، ومؤذن بقيامها ، فلا حاجة لسؤالهم عنها ، ويرده : عدم الإتيان بهاء السكت ، ويجاب : بأنه ليس بلازم ، وإنما تَلزمُ فيما جرّ بإضافة اسم ، لبقائه على حرف واحد ، كما هو مقرر في محله ، مع عدم ثبوته في المصحف.

ثم أومأ تعالى إلى أنه مختص بحقيقة علمها ، فقال : {إلى ربك منتهاها} ؛ منتهى علمها متى يكون ، لا يعلمها غيره ، {إنما أنت منذرُ من يخشاها} أي : لم تُبعث لتُعلمهم وقت الساعة ، وإنما بُعثت لتُخوّف مِن أهوالها مَن يخاف شدائدها ، {كأنهم يوم يرونها} أي : الساعة {لم يَلبثوا} في الدنيا {إلاَّ عشيةً أو ضُحاها} أي : ضحى العشية ، استقلُّوا مدّة لبثهم في الدنيا لما عاينوا من الهول ، كقوله : {لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ} [الأحقاف : ٣٥] وإنما صحّ إضافة الضحى إلى العشية للملابسة ، لاجتماعهما في نهارٍ واحد ، والمراد : أن مدة لبثهم لم تبلغ يوماً كاملاً ، ولكن أحد طرفي النهار عشية يومٍ واحدٍ أوضحاه.

(٢٧٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٣٤

وقال أبو السعود : الآية إما تقرير وتأكيد لما يُنبيء عنه الإنذار من سرعة مجيء المنذَر به ، أي : كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الإنذار إلاّ عشية يوم واحد أو ضحاه ، فلما ترك اليوم أضيف ضحاه إلى عشيته. وإمّا رد لما أدمجوه في سؤالهم ، فإنهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستهزاء مسعجلين لها ، فالمعنى : كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الوعيد بها إلاّ عشية أو ضُحاها ، واعتبار كون اللبث في القبور أو في الدنيا لا يقتضيه المقام ، وإنما الذي يقتضيه اعتبار كونه بعد الإنذار ، أو بعد الوعيد ، تحقيقاً للإنذار ، وردًّا لاستبطائهم. والجملة على الأول : حال من الموصول ، فإنه على تقدير الإضافة وعلى عدمها مفعول لمُنذر ، كما أنَّ قوله تعالى : {كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ} [يونس : ٤٥] حال من الضمير في " نحشرهم " أي : نحشرهم مشبّهين بمَن لم يلبث في الدنيا إلاّ ساعة من النهار ، خلا

أن التشبيه هناك في الأحوال الظاهرة من الزي والهيئة ، وفيما نحن فيه من الاعتقاد ، كأنه قيل :
٢٣٥

عِدْهم مشبهين يوم يرونها في الاعتقاد بمَن لم يلبث بعد الإنذار بها إلاّ تلك المدة اليسيرة ، وعلى الثاني : مستأنفة ، لا محل لها من الإعراب. هـ.
الإشارة : يسألونك أيها العارف عن الساعة التي يفتح الله فيها على المتوجِّه بالدخول في مقام الفناء في الذات ، أيَّان مُرْساها ، إنما أنت منذر مَن يخشى فواتها ، أي : إنما أنت مُبَيّن الطريق التي توصل إليها ، وتُخوِّف من العوائق التي تعوق عنها ، وليس مِن وظيفتك الإعلام بوقتها ، لأنها موهبة من الكريم الوهّاب ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشية أو ضحاها ، أي : يستصغرون مدة مجاهدتهم وسيرهم في جانب عظمها. وبالله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلّم.
٢٣٦

(٨/٢٧٤)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٣٤
سورة عبس

(٨/٢٧٥)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٣٦
يقول الحق جلّ جلاله : {عَبَسَ} أي : كلح {وتَوَلَّى} ؛ أعرض {أن جاءه} أي : لأن جاءه {الأعمَى} ، وهو عبدالله ابن أمِّ مكتوم ، وأمُّ مكتوم : أمُّ أبيه ، وأبوه : شريح بن مالك بن ربيعة الفهري ، وذلك أنه أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش ، عُتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، يدعوهم إلى الإسلام ، رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرُهم ، فقال : يا رسول الله ، علِّمني مما علمك الله ، وكرر ذلك ، وهو لا يعلم تشاغله صلى الله عليه وسلم بالقوم ، فَكَرِهِ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه ، فنزلت ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكرمه ، ويقول إذا رأه : " مرحباً بمَن عاتبني فيه ربي " ، ويقول : " هل لك من حاجة " ، واستخلفه على المدينة مرتين.
ولم يُواجهه ـ تعالى ـ بالخطاب ، فلم يقل : عبستَ وتوليتَ ؛ رفقاً به وملاطفة ؛ لأنَّ مواجهة العتاب من

رب الأرباب من أصعب الصعاب ، خلافاً للزمخشري وابن عطية ومَن وافقهما. و " أن جاءه " : علة لـ " تولّى " ، أو " عبس " ، على اختلاف المذهبين في التنازع ، والتعرُّض لعنوان عماه إمّا لتمهيد عذره في الإقدام على قطع كلامه عليه السلام بالقوم ،

٢٣٧

والإيذان باستحقاقه بالرفق والرأفة ، وإمّا لزيادة الإنكار ، كأنه تولّى عنه لكونه أعمى. قاله أبو السعود.

{وما يُدْرِيك} أي : أيّ شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى حتى تُعرض عنه {لعله يَزَّكَّى} ؛ لعل الأعمى يتطهّر بما سمع منك من دنس الجهل ، وأصله : يتزكّى ، فأدغم. وكلمة الترجي مع تحقق الوقوع وارد على سنن الكبرياء ، أو : على أنّ الترجّي بالنسبة إليه عليه السلام للتنبيه على أنَّ الإعراض عنه عند كونه مرجواً للتزكّي مما لا ينبغي ، فكيف إذا كان مقطوعاً بالتزكّي ، وفيه إشارة إلى أنَّ مَن تصدّى لتزكيتهم من الكفرة لا يرجى لهم التزكّي والتذكُّر أصلاً. وقوله تعالى : {أو يذَّكَّرُ} : عطف على " يزّكى " ، داخل في حكم الترجي ، قوله : {فتَنفَعه الذِكرَى} : عطف على " يذَّكَّر " ، ومَن نصبه فجواب الترجي ، أي : أو يتذكر فتنفعه موعظتك إن لم يبلغ درجة التزكي التام ، أي : إنك لا تدري ما هو مترقَب منه مِن تزكٍّ أو تذكُّر ، ولو دريت لَمَا فرط ذلك منك.

}

(٢٧٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٣٧

أمَّا مَن استغنى} أي : مَن كان غنياً بالمال ، أو : استغنى عن الإيمان ، أو عما عندك من العلوم والمعارف التي انطوى عليه القرآن {فأنت له تَصَدّى} ؛ تتصدى وتتعرض له بالإقبال عليه ، والاهتمام بإرشاده واستصلاحه. وفيه مزيد تنفير له صلى الله عليه وسلم عن مصاحبتهم ، فإنّ الإقبال على المدبِر ليس من شأن الكرام ، أهل الغنى بالله. {وما عليك ألاَّ يزَّكّى} أي : وليس عليك بأس في ألاَّ يزَّكّى بالإسلام حتى تهتم بأمره ، وتُعرض عمن أسلم وأقبل إليك ، وقيل : " ما " استفهامية ، أي : أيُّ شيء عليك في ألاّ يزكّى هذا الكافر.

{وأمّا مَن جاءك يسعى} أي : حال كونه مسرعاً طالباً لِما عندك من أحكام الرشد ، وخصال الخير ، {وهو يخشى} الله تعالى أو الكفار ، أي : أذاهم في إتيانك ، أو : الكبوة ، أي : السقطة ، كعادة العميان ، {فأنت عنه تَلَهَّى} ؛ تتشاغل ، وأصله : تتلهى. رُوي : أنه صلى الله عليه وسلم ما عبس بعدها في وجه فقير قط ، ولا تصدَّى لغَني بعدُ.

{كلاَّ} أي : لا تَعُدْ إلى مثلها. وحاصل العتاب : ترجيح الإقبال على مَن فيه القبول والأهلية للانتفاع ،

دون مَن ليس كذلك ممن فيه استغناء ، وإن كان قصده عليه السلام صالحاً ، ولكن نبَّهه اللّهُ ـ تعالى ـ على طريق الأولى في سلوك الدعوة إليه ، وأنّ مظنة ذلك الفُقراء ؛ لتواضعهم ، بخلاف الأغنياء ، لتكبُّرهم وتعاظمهم. ولذلك لم يتعرض صلى الله عليه وسلم لغَنِي بعدها ، ولم يُعرض عن فقير ، وكذلك ينبغي لفضلاء أمته من العلماء الدعاة إلى الله ، وقد كان الفقراء في مجلس الثوري أُمراء. ثم قال تعالى : {إنها تذكرةٌ} ؛ موعظة يجب أن يُتعظ بها ، ويُعمل بموجبها ، وهو تعليل للردع عما ذكر ببيان رتبة القرآن العظيم الذي استغنى عنه مَن تصدّى له ، {فمَن شاء ذَكَرَه} أي : فمَن شاء اللّهُ أن يذكره ذكره. أي : ألهمه الله الاتعاظ به ، أو : مَن شاء حفظه واتعظ به ، ومَن رغب عنها ، كما فعله المستغني ، فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره.

٢٣٨

وذكّر الضمير ؛ لأنَّ التذكرة في معنى الذكر والوعظ. وقال أبو السعود : الضميران للقرآن ، وتأنيث الأول لتأنيث خبره ، وقيل : الأول للسورة ، أو للآيات السابقة ، والثاني للتذكرة ؛ لأنها في معنى الذكر والوعظ ، وليس بذلك ؛ فإنَّ السورة والآيات وإن كانت متصفة بما سيأتي من الصفات الشريفة ، لكنها ليست مما ألقي على المستغنى عنه ، واستحق بسبب ذلك ما سيأتي من الدعاء عليه ، والتعجب مِن كفره المفرط ، لنزولها بعد الحادثة ، وأمّا مَن جَوْز رجوعهما إلى العتاب المذكور ، فقد أخطأ وأساء الأدب ، وخبط خبطاً يقضي منه العجب ، فتأمّل. هـ.

(٢٧٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٣٧

وحاصِلُ المعنى : أنَّ هذه الآيات ـ أي آيات القرآن ـ تذكرة ، فمَن شاء فليتعظ بها ، حاصلة {في صُحُفٍ} منتسخة من اللوح ، {مُكَرَّمةٍ} عند الله عزّ وجل ، {مرفوعةٍ} في السماء السابعة ، أو : مرفوعة المقدار والمنزِلة ، {مُطَهَّرةٍ} عن مساس أيدي الشياطين ، أو : عما ليس من كلام الله تعالى أو : مِن خللٍ في اللفظ أو المعنى ، {بأيدي سَفَرَةٍ} أي : كَتَبَة من الملائكة ، يستنسخون الكتبَ من اللوح ، على أنه جمع : " سافِرٍ " ، من السَّفْر ، وهو الكتب ، وقيل : بأيدي رسل من الملائكة يَسْفِرون بالوحي ، بينه تعالى وبين أنبيائه ، على أنه جمع " سفير " من السِفارة ، وحَمْل " السَفَرة " على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أو على القُراء ، لأنهم يقرؤون الأسفار ، أو على الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بعيد ؛ لأنَّ هذه اللفظة مختصة بالملائكة ، لا تكاد تُطلق على غيرهم ، وقال القرطبي : " المراد بقوله تعالى في الواقعة : {لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة : ٧٩] هؤلاء السَفَرة ". {كِرام} عند الله تعالى ، أو : متعطفين على المؤمنين يكلؤونهم ويستغفرون لهم ، {بررةٍ} ؛ أتقياء ، أو : مطيعين لله تعالى ، من قولهم : فلان

يبر خالقه ، أي : يُطيعه ، أو : صادقين ، من قولهم : برّ في يمينه : صدق. والله تعالى أعلم.
الإشارة : ينبغي للداعي إلى الله أن ينبسط عند الضعفاء ، ويُقبل عليهم بكليته ويواجههم بالبشاشة والفرح ، سواء كانوا ضعفاء الأموال ، أو ضعفاء الأبدان ، كالعُميان والمحبوسين والمرضى ، أو : ضعفاء اليقين ، إن أقبلوا إليه ، فقد كان الشيخ أبو العباس المرسي يحتفل بملاقاة أهل العصيان والجبابرة أكثر مِن غيرهم ، فقيل له في ذلك ، فقال : هؤلاء يأتونا فقراء منكسرين ، بخلاف غيرهم من العلماء والصالحين. قلت : وكذلك رأيتُ حال أشياخنا ـ رضي الله عنهم ـ يَبرون بالجبابرة وأهل العصيان ، ليجرُّوهم بذلك إلى الله تعالى ، قالوا : يأتينا الرجل سَبُع فنهلس عليه فيرجع ذئباً ، ثم نهلس عليه فيرجع قِطاً ، ثم نجعل السلسلة في عنقه ونقوده إلى ربه. نَعَم إن تزاحم حق الفقراء وحق الجبابرة في وقت واحدٍ قدّم حقَّ الفقراء ؛ لشرفهم عند الله ، إلاّ إن كانوا راسخين ، فيُقَدِّم عليهم غيرهم ؛ لأنهم حينئذ يحبون الإيثار عليهم.
قال الورتجبي : بيَّن الله تعالى هنا ـ يعني في هذه الآية ـ درجةَ الفقر ، وتعظيم أهله ،
٢٣٩
وخِسّة الدنيا ، وتحقير أهلها ، وأنَّ الفقير إذا كان بنعت الصدق والمعرفة والمحبة كان شرفاً له ، وهو من أهل الصُحبة ، ولا يجوز الاشتغال بصُحبة الأغنياء ، ودعوتهم إلى طريق الفقراء ، إذا كان سجيتهم لم تكن بسجية أهل المعرفة ، فإذا كان حالهم كذلك لا يأتون إلى طريق الحق بنعت التجريد ، فالصُحبة معهم ضائعة ، إلا ترى كيف عاتب الله نبيَّه بهذه الآية بقوله : {أمّا مَن استغنى..} الآية ، كيف يتزكّى مَن خُلق على جبِلة حب الدنيا والعمى عن الآخرة والعُقبى. هـ.

(٢٧٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٣٧
يقول الحق جلّ جلاله : {قُتِلَ الإنسانُ} أي : لُعن ، والمراد : إمّا مَن استغنى عن القرآن الكريم الذي ذكرت نُعُوته الجليلة ، الموجبة للإقبال عليه ، والإيمان به ، وإمّا الجنس باعتبار انتظامه له ولأمثاله من أفراده ، وقيل : المراد : أُميّة أو : عُتبة بن ربيعة. {ما أكْفَرَه} ، ما أشد كفره! تعجبٌ من إفراطه في الكفران ، وبيانٌ لاستحقاقه الدعاء عليه ، وقيل : " ما " استفهامية ، توبيخي ، أي : أيُّ شيء حَمَلَه على الكفر ؟ ! {من أي شيءٍ خَلَقهُ} أي : من أيِّ شيءٍ حقيرٍ خلَقَه ؟ ثم بيّنه بقوله : {من نطفةٍ خَلَقَه} أي : مِن نطفة مذرة ابتداء خلقه ، {فقدَّره} ؛ فهيّأه لِما يصلح له ، ويليق به من الأعضاء والأشكال ، أو : فقدّره أطوراً إلى أن تَم خلقه.
{ثم السبيلَ يَسَّرهُ} أي : يَسّر له سبيل الخروج من بطن أمه ، بأن فتح له فم الرحم ، وألهمه أن يتنكّس

ليسهل خروجه. وتعريف " السبيل " باللام للإشعار بالعموم ، أو : يَسْر له سبيل الخير أو الشر ، على ماسبق له ، أو يَسْر له سبيل النظر السديد ، المؤدِّي إلى الإيمان ، وهو منصوب بفعل يُفسره ما بعده.
{ثم أماته فأقْبَرَه} أي : جعله ذا قبرٍ يُوارَى فيه تكرمةً ، ولم يجعله مطروداً على وجه الأرض تأكله السباع والطير ، كسائر الحيوان. يُقال : قبرتَ الميت : إذا دفنته ، وأقبرته : أمرت بدفنه. وعدّ الإماتة من النِعم ؛ لأنها وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم ، ولأنها سبب وصول الحبيب إلى حبيبه. {ثم إِذا شاء أنْشَرَهُ} أي : إذا شاء نَشْرَه ، على القاعدة المستمرة مِن حذف مفعول المشيئة ، أي : ثم ينشره في الوقت الذي شاء ، وهو يوم القيامة ، وفي تعلُّق الإنشار بمشيئته ـ تعالى ـ إيذان بأنّ وقته غير متعين ، قال ابن عرفة : تعليق المعاد بالمشيئة جائز ، جارٍ على مذهب أهل السنة ؛ لأنهم يقولون : إنه جائز
٢٤٠
عقلاً ، واجب شرعاً ، وأمّا المعتزلة فيقولون بوجوبه ، بناء على قاعدة التحسين والتقبيح العقليين. هـ.
}

(٢٧٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤٠
كلاَّ} ، ردع للإنسان عما هو عليه ، ثم بيَّن سبب الردع فقال : {لمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ} أي : لم يقضِ العبد جميع ما أمَرَه اللّهُ به ؛ إذ لا يخلوا العبد من تقصيرٍ ما ، فإن قلت : " لَمَّا " تقتضي توقع منفيها ، وهو هنا متعذر كما قلتَ ؟ . قلتُ : الأمر الذي أمر الله به عبادَه في الجملة : هو الوصول إلى حضرة الشهود والعيان ، وهو ممكن عادة ، متوقع في الجملة ، وقد وصل إليه كثير من أوليائه تعالى ، فمَن وصل إليه فلا تقصير في حقه ، وإن كانت المعرفة غير متناهية ، ومَن لم يصل إليه فهومُقصِّر ، غير أنَّ عقابه هو احتجابه عن ربه. والله تعالى أعلم.
ثم أَمَرَ بالتفكُّر في نِعم الله ، ليكون سبباً للشكر ، الذي هو : صرف كلية العبد في طاعة مولاه ، فلعله يقضي ما أَمَرَه فقال : {فلينظر الإنسانُ إِلى طعامه} أي : فلينظر إلى طعامه الذي هو قِوام بدنه ، وعليه يدور أمر معاشه ، كيف صيَّرناه ، {أَنَّا صَبَبْنَا الماءَ} أي : الغيث {صَبًّا} عجيباً ، فمَن قرأ بالفتح فبدل اشتمال من الطعام ، وبالكسر استئناف. {ثم شققنا الأرضَ} بإخراج النبات ، أو : بالحرث ، وهو فعل الله في الحقيقة ؛ إذ لا فاعل سواه ، {شَقًّا} بديعاً لائقاً بما يشقها من النبات ، صِغراً أو كِبراً ، وشكلاً وهيئة ، أو : شقاً بليغاً ؛ إذ لا ينبت بمطلق الشق ، وإذا نبت لا يتم عادة. و " ثم " للتراخي التي بين الصبّ والشق عادة ، سواء قلنا بالنبات أو بالكَراب ، وهو الحراثة.

{فأنبتنا فيها حَبًّا} كالبُر والشعير وغيرهما مما يتغذّى به. قال ابن عطية : الحب : جمع حبة . بفتح الحاء ، وهو : كل ما يتخذه الناس ويُرَبونه ، والحِبة . بكسر الحاء : كل ما ينبت من البذور ولا يُحْفل به ولا هو بمتخَذ. هـ. {وعِنباً} أي : ثمرة الكَرْم ، وهذا يؤيد أن المراد بالشق : حفر الأرض بالحرث أو غيره ، لأنَّ العنب لا يشق الأرض في نباته ، وإنما يغرس عوداً. وقال أبو السعود : وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيّد به المعطوف عليه ، فلا ضرر في خُلُو نبات العنب عن شق الأرض. هـ. {وقَضْباً} وهو كل ما يقضب ، أي : يُقطع ليُؤكل رطباً من النبات ، كالبقول والهِلْيَوْن ونحوه مما يُؤكل غضاً ، وهو جملة النِعَم التي أنعم الله بها ، ولا ذكر له في هذه الآية إلاّ في هذه اللفظة. قاله ابن عطية. والهِلْيَوْن . بكسر الهاء وسكون اللام : جمع هليونة ، وهو الهِنْدَبا. قاله ابن عرفة اللغوي ، وقيل : هو الفِصْفَصَة ، وهو ضعيف ؛ لأنها للبهائم ، وهي داخلة في الأَبْ.

}

(٢٨٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤٠

وزيتوناً ونخلا} ، الكلام فيهما كما تقدّم في العنب ، {وحدائقَ} ؛ بساتين {غُلْباً} : جمع غلباء ، أي : غلاظ الأشجار مع نعومتها ، وصفَ به الحدائق لتكاثفها وكثرة أشجارها ، {وفاكهةً} أي : ما تتفكهون به من فواكه الصيف والخريف ، {وأبًّا} أي :

٢٤١

مرعَى لدوابكم ، من : أبَّه : إذا أمَّه ، أي قصده ، لأنه يُؤم وينتجع ، اي : يُقصد ، أو : من أب لكذا : إذا تهيأ له ؛ لأنه مُتهيأ للرعي ، أو : فاكهة يابسة تُؤب للشتاء.

وعن الصِّدِّيق رضي الله عنه أنه سُئل عن الأب ، فقال : أيُّ سماء تُظلني ، وأيّ أرض تُقلني إذا قلتُ في كتاب الله ما لا علم لي به. وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ، فقال : كل هذا قد عرفناه ، فما الأبُّ ؟ ثم رفع عصاً كانت بيده ، فقال : هذا لعَمْرُ الله التكلُّف ، وما عليك يا ابن أمر عمر ، ألاَّ تدري ما الأبُّ ؟ ثم قال : اتبعوا ما تبين لكم وما لا فلتَدَعُوه. هـ. وهذه اللفظة من لغات البادية ، فلذلك خفيت على الحواضر. {متاعاً لكم ولأنعامكم} أي : جعل ذلك تمتيعاً لكم ولمواشيكم ، فإنّ بعض هذه المذكورات طعام لهم ، وبعضها علف لدوابهم ، و {متاعاً} : مفعول لأجله ، أو : مصدر مؤكد لفعله المضمر بحذف الزوائد ، أي : متّعكم بذلك متاعاً ، والالتفات لتكميل الامتنان ، والله تعالى أعلم.

الإشارة : قُتل الإنسان ؛ لُعن الغافل عن ذكر الله ، لقوله عليه السلام : " الدنيا مَلعونَةٌ ، ملعونٌ ما فيها

، إلاَّ ذِكْرُ الله وما وَالاهُ ، وعالماً ومُتَعلِّماً " ، فلم يخرج من اللعنة إلاّ الذاكر والعالِم والمتعلم إذا أخلصا ، ثم عجب تعالى من شِدة كفره لِنعمه ، حيث لم يُشاهد المُنعِّم في النِعم ، فيقبض منه ، ويدفع إليه ، ثم ذكر أول نشأته ومنتهاه ، وما تقوم به بِنْيته فيما بينهما ؛ ليحضه على الشكر. قال القشيري : {من أيّ شيء خلقه..} الخ ، يعني : ما كان له ليكفر ، لأنّا خلقناه من نطفة الوجود المطلق وهيأناه لمظهرية ذاتنا وصفاتنا ، وأسمائنا. هـ.

ثم قال : {ثم السبيل يَسَّره} أي : سهلنا عليه سبيل الظهور لِمَظاهر الأسماء الجلالية والجمالية ، ثم أماته عن أنانيته ، فأقبره في قبر الفناء عن رؤية الفناء ، ثم إذا شاء أنشره بالبقاء بعد الفناء. كلاَّ لِيرتدع عن كفرانه لِنعمنا ، وليستغرق أحواله في شهود ذاتنا ، ليكون شاكراً لأنعُمنا ، لمَّا يقضِ ما اَمَرَه ، وهو الوصول إلى حضرة العيان. فكل مَن وصل إلى حضرة الشهود بالفناء والبقاء فقد قضى ما أَمَرَه به مولاه ، وكل مَن لم يصل إليها فهو مُقَصِّر ، ولو أعطي عبادة الثقلين. قال القشيري : ويُقال : لم يقضِ الله له أمره به ، ولو قضى له ما أمره به لَمَا عصاه. هـ. وقال الورتجبي : لم يفِ بالعهد الأول ، حين خاطبه الحق بقوله : {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى} [الأعراف : ١٧٢] ولم يأتِ بمراد الله منه ، وهو العبودية الخالصة. هـ. قلت : يعني مع انضمام شهود عظمة الربوبية الصافية.

(٢٨١/٨)

وقوله تعالى : {فلينظر الإنسانُ إلى طعامه} أي : الحسي والمعنوي ، وهو قوت القلوب والأرواح ، أنَّا صببنا الماء صبًّا ، أي : صببنا ماء العلوم والواردات على القلوب

٢٤٢

الميتة فحييت. قال القشيري : صَبَبْنا ماءَ الرحمة على القلوب القاسية فَلاَنتْ للتوبة ، وماء التعريف على القلوب الصافية فنبتت فيها أزهار التوحيد وأنوارُ التجريد. هـ. ثم شققنا أرض البشرية بأنواع العبادات والعبودية ، شقًّا ، فأنبتنا فيها : في قلبها حَبَّ المحبة ، وكَرْمَ الخمرة الأزلية ، وقَضْب الزهد في زهرة الدنيا وشهواتها ، وزيتوناً يشتعل بزيتها مصابيح العلوم ، ونخلاً يجنى منها ثمار حلاوة المعاملة ، وحدائق ، أي : بساتين المعارف متكاثفة التجليات ، وأبًّا ، أي : مرعى لأرواحكم ، بالفكرة والنظرة في أنوار التجليات الجلالية والجمالية ، فيأخذ النصيب من كل شيء ، ويعرف الله في كل شيء ، كما قال شيخ شيوخنا ، سيدي عبد الرحمن المجذوب رضي الله عنه :

الخلقُ نوار ، وأنا رعيت فيهم

هم الحجب الأكبر والمدخل فيهم

متاعاً لكم ، أي : لقلوبكم وأرواحكم ، بتقوية العرفان في مقام الإحسان ، ولأنعامكم أي : نفوسكم بتقوية اليقين في مقام الإيمان. والله تعالى أعلم.

(٢٨٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤٠

يقول الحق جلّ جلاله : {فإذا جاءت الصَّاخةُ} أي : صيحة القيامة ، وهي في الأصل : الداهية العظيمة ، وسُميت بذلك لأنَّ الخلائق يَصخون لها ، اي : يُصيخون لها ، مِن : صَخَّ لحديثه : إذا أصاخ له واستمع ، وُصفت بها النفخة الثانية لأنَّ الناس يصخون لها ، وقيل : هي الصيحة التي تصخ الآذان ، أي : تصمها ، لشدة وقعها. وجواب (إذا) : محذوف أي : كان من أمر الله ما لا يدخل تحت نطاق العبارة ، يدل عليه قوله : {يومَ يفرُّ المرءُ من أخيه} ، فالظرف متعلق بذلك الجواب ، وقيل : منصوب بأعني ، وقيل : بدل من " إذا " أي : يهرب من أخيه لاشتغاله بنفسه ، فلا يلتفت إليه ولا يسأل عنه ، {و} يفرُّ أيضاً من {أُمهِ وأبيهِ} مع شدة محبتهم فيه في الدنيا ، {وصاحبتهِ} أي : زوجته {وبنيهِ} ، بدأ بالأخ ثم بالأبوين ؛ لأنهما أقرب منه ، ثم بالصاحبة والبنين ؛ لأنهم أحبُّ ، فالآية من باب الترقي. وقيل : أول مَن يفرُّ من أخيه : هابيل ، ومن أبويه : إبراهيم ، ومن صاحبته : نوح ولوط ، ومن ابنه : نوح. {لكل امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغْنيه} أي : لكل واحد من المذكورين شغل شاغل ، وخطب هائل ، يكفيه في الاهتمام به ، ويشغله عن غيره.

ثم بيَّن أحوال المذكورين وانقسامهم إلى السعداء والأشقياء ، بعد ذكر وقوعهم في داهية دهياء ، فقال : {وجوه يومئذٍ مُسْفِرةٌ} أي : مضيئة متهللة ، من : أسفر الصبح : إذا

٢٤٣

أضاء ، قيل : ذلك مِن قيام الليل ، وقيل : مِن إشراق أنوار الإيمان في قلوبهم ، {ضاحكةٌ مستبشرةٌ} بما تُشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة. {ووجوه يومئذٍ عليها غبرةٌ} أي : غبار وكدور ، {تَرهقها} أي : تعلوها وتغشاها {قَتَرَةٌ} أي : سواد وظُلمة {أولئك هم الكفرةُ} ، الإشارة إلى أصحاب تلك الوجوه. وما فيه من معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتهم في السوء ، أي : أولئك الموصوفون بسواد الوجوه وغبرتها هم الكفرة {الفجرةُ} أي : الجامعون بين الكفر والفجور ، ولذلك جمع الله لهم بين السواد والغبرة. نسأل الله السلامة والعافية.

(٢٨٣/٨)

الإشارة : فإذا جاءت الصاخة ، أي : النفحة الإلهية التي تجذب القلوب إلى الحضرة القدسية ، فتأنّست القلوب بالله ، وفرتْ مما سواه فترى الرجل حين تهب عليه هذه النفحة ، بواسطة أو بغير واسطة ، يفر من الخلق ، الأقارب والأجانب ، أُنساً بالله وشُغلاً بذكره ، لا يزال هكذا حتى يصل إلى مولاه ، ويتمكن من شهوده أيَّ تمكُّن ، فحينئذ يخالط الناسَ بجسمه ، ويفارقهم بقلبه ، كما قالت رابعة العدوية رضي الله عنها :

إنِّي جَعلتُكَ في الفُؤَادِ مُحَدّثي

وأَبَحْتُ جسمي مَنْ أراد جُلوسي

فَالْجِسْمُ مني لِلْجَلِيس مُؤَانِس

وحبيبُ قَلْبي في الفُؤادِ أنِيسي

قال القشيري : قالوا : الاستقامة أن تشهد الوقت قيامة ، فَما مِن وَلِيَّ وعارفٍ إلاّ وهو اليومَ يَفرُّ بقلبه من الجميع ؛ لأنّ لكل شأناً يُغنيه ، فالعارفُ مع الخَلْق لا بقلبه ، ثم ذكر شعر رابعةُ. وقال الورتجبي : أكّد الله أمر نصيحته لعباده ألاّ يعتمدوا إلى مَن سواه في الدنيا والآخرة ، وأنَّ ما سواه لا ينقذه مِن قبض الله حتى يفرّ مما دون الله إلى الله. هـ. وقال في قوله تعالى : {لكل امرىء منهم يومئذ شأن يُغنيه} : لكل واحدٍ منهم شأن يشغله ، وللعارف شأن مع الله في مشاهدته ، يُغنيه عما سوى الله. هـ.

قوله تعالى : {وجوه يومئذ مُسْفِرة ضاحكة مستبشِرة} كل مَن أَسفر عن ليل وجوده ضياءُ نهار معرفته ، فوجهه يوم القيامة مُسْفِر بنور الحبيب ، ضاحك لشهوده ، مستبشر بدوام إقباله ورضوانه. وقال أبو طاهر : كشف عنها سُتور الغفلة ، فضحكت بالدنو من الحق ، واستبشرت بمشاهدته. وقال ابن عطاء : أسفر تلك الوجوه نظرُها إلى مولاها ، وأضحكها رضاه عنها. هـ. قال القشيري : ضاحكة مستبشرة بأسبابٍ مختلفة ، فمنهم مَن استبشر بوصوله إلى حبيبه ، ومنهم بوصوله إلى الحور ، ومنهم ، ومنهم ، وبعضهم لأنه نظر إلى ربّه فرأه ، ووجوه عليها غبرة الفراقُ ، يرهقها ذُلُّ الحجاب والبعاد. هـ.

قال الورتجبي : {وجوه يومئذ مُسْفِرة} ، وجوه العارفين مُسْفرة بطلوع إسفار صبح تجلِّي جمال الحق فيها ، ضاحِكة مِن الفرح بوصولها إلى مشاهدة حبيبها ، مستبشرة بخطابه

ووجدان رضاه ، والعلم ببقائها مع بقاء الله. ثم وصف وجوه الأعداء والمدّعين فقال : {ووجوه يومئذٍ عليه غبرةُ} الفراقِ يوم التلاق ، وعليها قَتر ذل الحجاب ، وظلمة العذاب . نعوذ بالله من العتاب . قال السري : ظاهر عليها حزن البعاد ؛ لأنها صارت محجوبة ، عن الباب مطرودة ، وقال سَهْلٌ : غلب عليها إعراض الله عنها ، ومقته إياها ، فهي تزداد في كل يوم ظلمة وقترة. هـ.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤٣

اللهم أسفر وجوهنا بنور ذاتك ، وأضحكنا وبَشِّرنا بين أوليائك في الدنيا والآخرة ، إنك على كل شيء قدير ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً.

٢٤٥

(٢٨٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤٣

سورة التكوير

(٢٨٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤٥

يقول الحق جلّ جلاله : {إِذا الشمسُ كُوِّرتْ} أي : ذُهب بضوئها ، من كوَّرت العمامة : إذا لففتها ، أي : يُلفّ ضوؤها لفًّا ، فيذهب انبساطه وانتشاره ، أو : ألقيت عن فلكها ، كما وصفت النجوم بالانكدار ، من : طعنَة فكوّره : إذا ألقاه على الأرض. وعن أبي صالح : كُوِّرت : نُكّست ، وعن ابن عباس رضي الله عنه : تكويرها : إدخالها في العرش. {وإِذا النجومُ انكَدرَتْ} أي : انقضّت وتساقطت ، فلا يبقى يومئذٍ نجمٌ إلاّ سقط على الأرض. قال ابن عباس رضي الله عنه : النجوم قناديل معلّقة بسلاسل من نور بين السماء والأرض ، بأيدي ملائكة من نور ، فإذا مات مَن في السموات ومَن في الأرض قطعت من أيديهم ، وقيل : انكدارها : انطماس نورها ، ويُروى : أن الشمس والنجوم تُطرح في جهنم ، ليراها مَن عبدها ، كما قال : {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [الأنبياء : ٩٨]. {وإِذا الجبال سُيِّرتْ} عن أماكنها بالرجعة الحاصلة ، فتسير عن وجه الأرض حتى تبقى قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عِوجاً ولا أمتاً. {وإِذا العِشَار} جمع : عُشَرَاء ، وهي الناقة التي مرّ على حملها عشرة أشهر ، وهو اسمها إلى أن تضع لتمام سنة ، وهي أنْفس ما يكون عند أهلها ، وأعزّها عليهم ، {عُطِّلَتْ} ؛ تُركت مهملة ؛ لاشتغال أهلها بأنفسهم ، وكانوا يحبسونها إذا بلغت هذا الحال ، فتركوها أحبّ ما تكون إليهم ، لشدة الهول ، فيحتمل أن يكون ذلك حقيقة ، تُبعث كذلك فيغيبون عنها لشدة الهول ، ويحتمل : إن يكون كناية عن

٢٤٦

شدة الأمر. {وإذا الوحوشُ حُشِرت} أي : جُمعت من كل جانب ، وقيل : بُعثت للقصاص ، قال قتادة : يُحشر كلُّ شيءٍ حتى الذباب للقصاص ، فإذا قضى بينها رُدّت تراباً ، فلا يبقى منها إلاّ ما فيه سرور لبني آدم ، كالطاووس ونحوه. {وإذا البحار سُجّرتْ} أي : أُحميت ، أو مُلئت وفُجر بعضها إلى بعض ، حتى تصير بحراً واحداً ، كما قال تعالى : {وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ} [الأنفطار : ٣] ، من سَجر التنّور : إذا ملأه بالحطب ، وقيل : يُقذف بالكواكب فيها ، ثم تُضرم فتصير نيراناً ، فمعنى " سُجِّرتْ " حينئذ : قُذف بها في النار ، وقد ورد أنّ في النار بحاراً من نار.

}

(٢٨٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤٦

وإذا النفوس زُوِّجتْ} أي : قُرنت بأجسادها ، أو : قرنت بشكلها ، الصالح مع الصالح في الجنة ، والطالح مع الطالح في النار ، أو : بكتابها ، أو بعملها ، أو : نفوس المؤمنين بالحُور ، ونفوس الكافرين بالشياطين. {وإذا الموؤدةُ} أي : المدفونة حية ، وكانت العرب تئد البنات مخافة الإملاق ، أو لخوف العار بهم من أجلهن ، وقيل : كان الرجل إذا وُلد له بنت ألبسها جبة من صوف أو شعر ، حتى إذا بلغت ست سنين ذهب بها إلى الصحراء ، وقد حفر لها حفرة ، فيلقيها فيها ، ويهيل عليها التراب. وقيل : كانت الحامل إذا اقترتب ، حفرت حفرة ، فتمتخض عليها ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها ، وإذا ولدت ابناً ضَمّته ، فإذا كان يوم القيامة {سُئِلَتْ بأيّ ذنبٍ قُتلتْ} ، وتوجيه السؤال لها لتسليتها ، وإظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها ، وإسقاطه عن درجة الخطاب ، والمبالغة في تبكيته. وفيه دليل على أنَّ أطفال المشركين لا يُعذّبون ، وأنَّ التعذيب لا يكون بغير ذنب.

{وإذا الصُحفُ نُشِرَتْ} أي : صُحف الأعمال ، فإنها تُطوى عند الموت وتُنشر عند الحساب ، قال صلى الله عليه وسلم : " يُحشرُ الناس يوم القيامةِ حُفَاةً عراة " فقالت أمُ سلمة : فكيف بالنساء ؟ ! فقال : " شُغِل الناسُ يا أم سلمة " فقالت : وما شغلهم ؟ فقال : " نَشْرُ الصُّحُفِ ، فيها مثاقيلُ الذرِّ ، ومثاقيلِ الخَرْدل " وقيل : نُشرت : فُرقت على أصحابها ، وعن مرثد بن وَداعة : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصُحف من تحت العرش ، فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية ، وتقع صحيفة الكافرين في يده في سموم وحميم ، أي : مكتوب فيها ذلك ، وهذه صحف غير الأعمال.

{وإذا السماءُ كُشِطَتْ} ، قُطعت وأزيلت ، كما يُكشط الجلد عن الذبيحة ، والغطاء عن الشيء المستور ، {وإذا الجحيمُ سُعِّرتْ} أي : أوقدت إيقاداً شديداً ، غضباً على العصاة ، {وإذا الجنة أُزْلِفَتْ} أي : قُربت من المتقين ، كقوله تعالى : {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ} [قَ : ٣١].

عن ابن عباس رضي الله عنه : إن هذه ثِنتا عشرة خصلة ، ستٌّ في الدنيا ، فيما بين

النفختين ، وهن من أول السورة إلى قوله تعالى : {وإذا البحار سُجرتْ} على أنَّ المراد بحشر الوحوش : جمعها من كل ناحية ، لا حشرها للقصاص ، وستٌّ في الآخرة ، أي : بعد النفخة الثانية. والمشهور من أخبار البعث : أنَّ تلك الخصال كلها بعد البعث ، فإنَّ الشمس تدنو من الناس في الحشر ، فإذا فرغ من الحساب كُوِّرت ، والنجوم إنما تسقط بعد انشقاق السماء وطيها ، وأمّا الجبال ففيها اختلاف حسبما تقدّم ، وأمّا العِشار فلا يتصور إهمالها إلاَّ بعد بعث أهلها.

(٢٨٨/٨)

وقوله تعالى : {علمتْ نفس ما أحضرت} : جواب " إذا " ، على أنَّ المراد زمان واحد ممتد ، يسع ما في سياقها وسياق ما عطف عليها من الخصال ، مبدؤه ، النفخة الأولى ، ومنتهاه : فصل القضاء بين الخلائق ، أي : تيقنت كلُّ نفس ما أحضرت من أعمال الخير والشر ، والمراد بحضورها : إمّا حضور صحائفها ، كما يُعرب عنه نشرُها ، وإمّا حضور أنفسها ، على أنها تُشكّل بصورة مناسبة لها في الحُسن والقُبح ، وعلى ذلك حمل قوله تعالى : {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [التوبة : ٤٩ ، العنكبوت : ٥٤] ، وقوله تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى...} [النساء : ١٠] ، الآية ، وقوله عليه السلام في حق مَن يشرب في آنية الذهب : " إنما يُجَرْجِرُ في بطنه نار جهنم " ولا بُعد في ذلك ، ألا ترى أنَّ العِلم يظهر في عالم الخيال على صورة اللبن ، كما لا يخفى على مَن له خبرة بأحوال الحضرات الخمس ، وقد رُوي عن عباس رضي الله عنه أنه قال : " يُؤتى بالأعمال الصالحة على صورة حسنة ، وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة ، فتوضع في الميزان " ، وأيًّا ما كان فإسناد إحضارها إلى النفس مع أنها تحضر بأمر الله عزّ وجل ، كما نطق به قوله تعالى : {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً..} [آل عمران : ٣٠] الآية ؛ لأنها لمّا عملتها في الدنيا فكأنها أحضرتها في الموقف ، ومعنى علمها بها حنيئذ : أنها تُشاهد جزاءها ، خيراً كان أو شرًّا.

الإشارة : اعلم أنَّ النفس والروح والسر أسماء لمسمًّى واحد ، وهو اللطيفة اللاهوتية السارية في الأبدان ، فما دامت تميل إلى المخالفة والهوى سُميت نفساً ، فإذا تطهرت بالتقوى الكاملة سُميت روحاً فإذا تزكّت وأشرقت عليها أسرار الذات سُميت سرًّا ، فالإشارة في قوله : {إذا الشمس كُورت} إلى تكوير النفس وطيها ، حين انتقلت إلى مرتبة الروح ، وإذا النجوم : نجوم علم الرسوم ، انكدرت حين أشرقت عليها شمس العرفان ، فلم يبقَ منها للعارف إلاّ ما يحتاج إليه من إقامة رسم العبودية ،

يعني يقع الاستغناء عنها ، فإذا تنزل إليها حققها أكثر من غيره ، إذا الجبال ؛ جبال العقل ، سُيرت ؛ لأنّ نوره ضعيف كنور القمر مع طلوع الشمس ، وإذا العِشارُ عُطلتْ ، أي : النفوس الحاملة أثقال الأعمال والأحوال ، وأعباء التدبير والاختيار ، فيقع الغيبة عنها بأثقالها ، وإذا الوحوش ، أي :
٢٤٨
الخواطر الردية حُشرتْ وغرقتْ في بحر الأحدية ، وإذا البحارُ بحار الأحدية سُجرتْ ، أي : فُجرت وانطبقت على الوجود ، فصارت بحراً واحداً متصلاً أوله بآخره ، وظاهره بباطنه ، وإذا النفوس ، أي : الأرواح ، زُوجتْ بعرائس المعرفة في البقاء بعد الفناء ، على سُرر التقريب والاجتباء. وقال سهل : تآلفت نفس الطبع مع نفس الروح ، ففرحت في نعيم الجنة ، كما كانتا متآلفتين في الدنيا على إدامة الذكر. هـ.

(٢٨٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤٦
وإذا الموؤودة سُئِلَتْ بأيّ ذنبٍ قُتلتْ ، أي : فكرة القلوب التي عطلت وأُميتت بحب الدنيا والفناء فيها ، حتى انصرفت إلى التفكُّر في خوضها ، وتدبير شؤونها ، فتُسأل بأي ذنب قُتلت ، حتى تعطّلت فكرتها في أسرار التوحيد ؟ وقال القشيري : هي الأعمال المشوبة بالرياء ، المخلوطة بالسمعة والهوى. هـ. وإذا الصُحف ؛ الواردات الإلهية نُشرتْ على القلوب القدسية ، فظهرت أنوارُها على الألسنة بالعلوم اللدنية ، وعلى الجوارح بالأخلاق السنية ، وإذا السماءُ كُشطتْ ، إي سماء الحس تكشطت عن أسرار المعاني ، وإذا الجحيم ، نار القطيعة ، سُعّرتْ لأهل الفرق ، وإذا الجنة جنة المعارف ، أُزلفت لأهل الجمع والوصال ، علمت نفس ما أحضرت من المجاهدة عند كشف أنوار المشاهدة. وبالله التوفيق.

(٢٩٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤٦
يقول الحق جلّ جلاله : {فلا أُقسم} ، " لا " صلة ، أي : أُقسم {بالخُنَّس} أي : بالكواكب الرواجع ، مِن : خَنَس إذا تأخر ، وهي ما عدا النيرين من الدراريّ الخمسة ، وهي : بهرام [المريخ] ، وزحل ، وعطارد ، والزُّهرة ، والمشتري ، فترى النجم في آخر البرج إذا كرَّ راجعاً إلى أوله ، {الجَوَارِ} أي : السيّارة {الكُنَّس} أي : المستترة ، جمع كانس وكانسة ، وذلك أنَّ هذه النجوم تجري مع الشمس والقمر ، وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس ، فخنوسها : رجوعها ، وكنوسها : اختفاؤها تحت

ضوئها ، من كُنس الوحش : إذا دخل كناسه ، أي : بيته الذي يتخذه من أغصان الشجر ، وقيل : هي جميع الكواكب ، تختنس بالنهار ، فتغيب عن العيون ، وتكنس بالليل ، أي : تطلع في أماكنها.

{والليلِ إذا عسعس} ؛ أقبل بظلامه ، أو : أدبر ، فهو من الأضداد ، وقال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعس : أدبر ، تقول العرب : عسعس الليل وسَعْسع : إذا

أدبر ولم يبقَ منه إلاّ اليسير ، قال الشاعر :

حَتَّى إذا الصُّبحُ لها تَنَفَّسَا

وانجابَ عنها ليلُها وعَسْعسا

والحاصل : أنهما يرجعان إلى شيء واحد ، وهو ابتداء الظلام في أوله وإدباره في آخره ، {والصبح إذّا تنفس} ؛ امتدّ ضوؤه وارتفع حتى يصير نهاراً ، ولمّا كان إقبال النهار يلازمه الروح والنسيم جعل ذلك نفساً له مجازاً ، فقيل : تنفس الصبح.

وجواب القسم : {إنه} أي : القرآن {لقولُ رسولٍ كريم} على ربه ، وهو جبريل عليه السلام . قاله عن الله . عزّ وجل ، وإنما أضيف القرآن إليه ؛ لأنه هو الذي نزل به.

{ذي قوةٍ} ؛ ذي قدرة على ما كلف به ، لا يعجز عنه ولا يضعف ، {عند ذي العرش مكينٍ} أي : عند الله ذا مكانة رفيعة ورتبة عالية ، ولمّا كانت المكانة على حسب حال الممكن قال : {عند ذي العرش} ليدل على عظم منزلته ومكانته ، والعندية : عندية تشريف وإكرام ، لا عندية مكان. {مطاعٍ ثَمَّ} أي : في السموات يُطيعه مَن فيها ، أو عند ذي العرش تُطيعه ملائكتُه المقربون ، يصدون عن أمره ، ويرجعون إليه ، وقال بعضهم : ومن طاعتهم له : فتحوا أبواب السموات ليلة المعراج باستفتاحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفتح خزنةُ الجنة الجنةَ لمحمدٍ حتى دخلها ، وكذا النار حتى نظر إليها. هـ. {أمين} على الوحي.

}

وما صاحِبُكم} هو الرسول صلى الله عليه وسلم {بمجنونٍ} كما تزعم الكفرة ، وهو عطف على جواب القسم ، مدخول في المقسَم عليه ، {ولقد رآه} أي : رآى محمدٌ صلى الله عليه وسلم جبريلَ على صورته التي خلقه اللهُ عليها ، {بالأُفق المبين} أي : بمطلع الشمس الأعلى ، وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل : " إني أُحب أن أراك في الصورة التي تكون عليها في السماء " قال

: أتقدر على ذلك ؟ قال : " بلى " قال : فأين تشاء ؟ قال : " بالأبطح " ، قال : لا يسعني ، قال : " بمِنىً " ، قال : لا يسعني ، قال : " فبعرفات " قال : ذلك بالحري أن يسعني ، فواعده ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم للوقت ، فإذا هو قد أقبل من جبال عرفات بخشخشة وكلكلة ، قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ، ورأسه في السماء ، ورجلاه في الأرض ، فلما رآه النبيُّ صلى الله عليه وسلم خرّ مغشيًّا عليه ، فتحوّل جبريلُ في صورته ، فضمّه إلى صدره ، وقال : لا تخف ، فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ، ورجلاه في التخوم السابعة ، وإنَّ العرش لعلى كاهله ، وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله تعالى حتى يصير مثل الوصع أي : العصفور. حتى ما يحمل عرش ربك إلاّ عظمته. هـ.

أو : ولقد رأى جبريلَ عليه السلام ليلة المعراج. أو : لقد رآى ربه ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم بالأُفق الأعلى.

{وما هو على الغيبِ} أي : وما محمد على الوحي ، وما يخبر به من الغيوب

٢٥٠

{بضنين} ؛ ببخيل ، على قراءة الضاد ، من : ضنَّ بكذا : بخل به ، أي : لا يبخل بالوحي كما يبخل الكهان رغبة في الحُلْوان ، بل يُعلّمه لكل مَن يطلبه ولا يكتم شيئاً منه ، أو : بمتهم على قراءة : المشالة ، من الظنة وهي التهمة ، أي : لا ينقص شيئاً مما أوحى إليه أو يزيد فيه ، {وماهو بقول شيطان رجيم} ؛ طريد ، وهو كقوله : {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ} [الشعراء : ٢١٠] أي : ليس هو بقول المسترقة للسمع ، وهو نفي لقولهم : إنه كهانة أو سحر.

{فأين تذهبون} وتتركون الحقَّ الواضح ؟ وهو استضلال لهم ، كما يقال لتارك الجادة وذهب في التيه : أين تذهب ، مُثّلت حالهم في تركهم الحقّ ، وعدولهم عنه إلى الباطل ، بمَن ترك طريق الجادة ، وسلك في غير طريق. وقال الزجاج : معناه : فأيُّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بيَّنْتُ لكم ؟ وقال الجنيد : فأين تذهبون عنا ، وإن من شيء إلاَّ عندنا : هـ. والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي : لظهور أنه وحي مبين ، وليس مما يقولون في شيء فأين تذهبون عنه ؟ {إن هو إلاّ ذِكْرٌ للعالَمين} أي : موعظة وتذكير للخلق {لمَن شاء منكم} : بدل من العالمين بإعادة الجار ، {إن يستقيم} : مفعول " شاء " أي : القرآن تذكير وموعظة لمَن شاء الاستقامة ، يعني : إن الذي شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر ، فكأنه لم يوعظ به غيرهم ، {وما تشاؤون} الاستقامة {إلاّ أن يشاء الله}.

(٢٩٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤٩

ولمّا نزل قوله تعالى : {لمَن شاء منكم أن يستقيم} قال أبو جهل : الأمر إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن

شئنا لم نستقم ، فأنزل الله تعالى : {وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله رب العالمين} أي : مالك الخلق ومربيهم أجمعين ، قال ابن منبه : قرأت بضعاً وثمانين كتاباً مما أنزل الله ، فوجدتُ فيها : مَن جعل لنفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر. وقال الواسطي : أعجزك في جميع أوصافك ، فلا تشاء إلاّ بمشيئته ، ولا تعمل إلاّ بقوته ، ولا تطيع إلاّ بفضله ، ولا تعصي إلاّ بخذلانه ، فماذا يبقى لك ، وبماذا تفتخر من أفعالك ، وليس لك منها شيء ؟ . هـ.

وقال الطيبي عن الإمام : إنَّ مشيئة الاستقامة موقوفة على مشيئة الله ؛ لأن مشيئة العبد محدثة ، فلا بد لحدوثها من مشيئة أخرى ، ثم قال : وقول المعتزلة : إن هذه المشيئة مخصوصة بمشيئة القهر والإلجاء ضغيف ؛ لأنَّا بيَّنَّا أنّ المشيئة الاختيارية حادثة ، ولا بد من محدث يحدثها. هـ.

الإشارة : فلا أُقسم بالخُنَّس ؛ الحواس الخمس ، وهي : السمع والبصر والشم والذوق والوجدان الباطني ، فإنها تخنس ، أي : تتأخر عند سطوع حلاوة الشهود ، وهي الجوار الكُنَّس ؛ لأنها تجري في تحصيل هواها عند الغفلة أو الفترة ، وتستتر عند الذكر أو اليقظة ، والليل إذا عسعس ، أي : ليل القطيعة إذا أظلم على العبد برؤية وجوده ووقوفه مع

عوائده ، والصُبح ، أي : صُبح الاستشراف على نهار المعرفة ، إذا تنفَّس ثم تطلع شمسه شيئاً فشيئاً ، إنه ، أي : الوحي الإلهامي لَقَولُ رسول كريم وارِاد رباني ، ذي قوة ؛ لأنه يأتي من حضرة قهّار قوي متين ، فلا يُصادم شيئاً من المساوىء إلاّ دمغه ، عند ذي العرش مكين ، ولذلك تَمَكَّن صاحبه مع الحق ، واكتسب مكانة عنده ، حيث كان من المقرَّبين السابقين ؛ مطاع ثَمَّ أمين ؛ لأنّ الوارد الإلهي تجب طاعته ؛ لأنه يتجلّى من حضرة الحق ، وهو أمين على ما يأتي به من العلوم ، وما صاحبكم بمجنون ، يعني العارف صاحب الواردات الألهية ، ولقد رآه ، أي : رأى ربه بعين البصيرة والبصر ، بالأُفق المبين ، وهو على الأسرار والمعاني ، حيث عرج بروحه من عالم الحس إلى عالم المعنى ، أو : من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، وماه هو على الغيب بضنين ، أي : ليس العارف الذي يُخبر عن أسرار التوحيد الخاص بمُتَّهَم ، ولا بخيل ، بل يجود به على مَن يستحقه ، وما هو بقول شيطان رجيم ، إذ لم يبقَ لهم شيطان حتى يخلط وسوسته بواردات قلوبهم ، فأين تذهبون عن اتباع طريقة الموصلة إلى حضرة الحق ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، أي : ما جعله الله في كل زمان إلاّ ليُذَكِّر أهل زمانه ، لمَن شاء أن يستقيم على طريق العبودية ويفضي إلى مشاهدة الربوبية ، ولكن الأمر كله بيد الله ، وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله رب العالمين. اللهم شِئنا بفضلك ، واقصدنا بعنايتك ، وخصنا برعايتك ، واجعلنا ممن سبقت لهم العناية الكبرى ، آمين.

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

(٨/٢٩٣)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤٩

سورة الانفطار

(٨/٢٩٤)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٢

يقول الحق جلّ جلاله : {إِذا السماءُ انفطرتْ} أي : انشقت لنزول الملائكة ، كقوله : {وَفُتِحَتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً} [النبأ : ١٩] ، {وإِذا الكواكبُ انتثرتْ} أي : تساقطت متفرقة ، {وإِذا البحار فُجِّرتْ} ؛ فُتح بعضها إلى بعض ، فاختلط العذب بالأُجاج ، وزال ما بينها من البرزخ والحاجز ، وصارت البحار بحراً واحداً. رُوي : أنَّ الأرض تنشق ، فتغور تلك البحار ، وتسقط في جهنم ، فتصير نيراناً ، وهو معنى التسجير المتقدم عند الحسن. {وإِذا القبورُ بُعْثِرتْ} أي : قُلب ترابها ، وأُخرج موتاها ، يقال : بعثرت الحوض وبحثرته : إذا جعلت أسفله أعلاه ، وجواب " إذا " : {عَلِمَتْ نفسٌ ما قدّمتْ وأخَّرَتْ} أي : إذا كانت هذه الأشياء قرأ كلُّ إنسان كتابه ، وجُوزي بعمله ، لأنَّ المراد بها زمان واحد ، مبدأه : النفخة الأولى ، ومنتهاه : الفصل بين الخلائق ونشر الصُحف ، لا أزمنة متعددة حسب تعددها ، وإنما كررت لتهويل ما في حيّزها من الدواهي ، ومعنى " ما قَدَّم وأخَّر " : ما سلف مِن عملٍ ؛ خير أو شر ، من سَنّ سُنة حسنة أو سيئة يُعمل بها بعده ، قاله ابن عباس وابن مسعود. وعن ابن عباس أيضاً : ما قدّم من معصية وأخّر من طاعة ، وقيل : ما قدَّم من أمواله لنفسه ، وما أخَّر لورثته ، وقيل : ما قدَّم من فرض ، وأخّر منه عن وقته ، وقيل : ما قدمتْ من الأسقاط والأفراط ، وأخّرت من الأولاد. والله تعالى أعلم.

الإشارة : إذا سماء المعاني انفطرت ، أي : تشققت وظهرت من أصداف الأواني ، وإذا نجوم على الرسوم انتثرت عند طلوع شمس العيان ، وإذا بحار الأحدية فُجِّرتْ وانطبقت على الكائنات فأفنتها ، وإذا القلوب الميتة بُعثت وحييت بالمعرفة ، عَلِمَتْ نفسٌ ما

٢٥٣

قدّمت من المجاهدة ، وما أخَّرت منها ؛ إذ بقدر المجاهدة في خرق العوائد تكون المشاهدة ، وبقدر الشكر يكون الصحو ، وبقدر الشُرب يكون الرّي ، فعند النهاية يظهر قدر البداية ، البدايات مجلاة النهايات " فمَن أشرقت بدايته ، أشرقت نهايته ". وبالله التوفيق.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٣
يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الإِنسانُ ما غرّكَ بربك الكريم} ؛ أيّ شيءٍ خدعك وجرّأك على عصيانه ، وقد علمتَ ما بين يديك من الدواهي التامة ، والعواطب الطَامّة ، وما سيكون حينئذ من مشاهدة ما قَدَّمتَ من أعمالِك ، وما أخّرت ؟ والتعرُّض لعنوان كرمه تعالى للإيذان بأنه مما لا يصلح أن يكون مداراً للاغترار ، حسبما يغويه الشيطان ، ويقول : افعل ما شئتَ فإنَّ ربك كريم ، قد تفضّل عليك في الدنيا ، وسيفعل مثله في الآخرة ، فإنه قياس عقيم ، وتمنية باطلة ، بل هو مما يُوجب الإقبال على الإيمان والطاعة ، والاجتناب عن الكفر والعصيان ، كأنه قيل : ما حملك على عصيان ربك ، الموصوف بالصفات الزاجرة عنه ، الداعية إلى خلافه.
رُوي أنه صلى الله عليه وسلم لمّا قرأها قال : " غرَّه جهلُه " وعن عمر رضي الله عنه : غرّه حُمقه ، وقال قتادة : غرّه عدوه المسلّط عليه. يعني الشيطان. وقيل للفضيل : لو أقامك اللهُ تعالى يوم القيامة بين يديه فقال لك : {ما غرَّك بربك الكريم} ماذا كنتَ تقول ؟ قال : أقول : ستُورك المرخاة ، لأنَّ الكريم هو الستّار وأنشدوا :
يا كاتِمَ الذنْب أمَا تَسْتَحِي
واللّهُ في الخلوة رَائِيكَا
غَرَّكَ مِنْ رَبِّك إمْهَالُه
وسترُه طولَ مسَاوِيكا
وقال مقاتل : غرّه عفو الله حين لم يعجل عليه العقوبة ، وقال السدي : غرّه رفق الله به ، وقال يحيى بن معاذ : لو أقامني بين يديه ، فقال لي : ما غرّك بي ؟ لقلتُ : غرّني بك بِرّك سالفاً وآنفاً ، وقال آخر : أقول : غرّني حلمك ، وقال أبو بكر الورّاق : لو قال لي : ما غرَّك بي ؟ لقلتُ : غرّني بك كرم الكريم. وهذا السر في التعبير بالكريم ، دون سائر الصفات ، كأنه لقَّنه الإجابة حتى يقول : غرّني كرم الكريم ، وهكذا قال أبو الفضل العابد :
٢٥٤
غرّني تقييد تهديدك بالكريم ، وقال منصور بن عمّار : لو قيل لي : ما غرّك ؟ قلت : ما غرّني إلا ما علمتُه من فضلك على عبادك ، وصفحك عنهم. هـ.
}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٤

الذي خَلَقك فَسَوَّاكَ} أي : جعلك مستوي الخلْقِ ، سالم الأعضاء مُعَدّة لمنافعها ، {فعدلك} ؛ فصيّرك معتدلاً متناسب الخَلق ، غير متفاوت فيه ، ولم يجعل إحدى اليدين أطول ، ولا أحدى العينين أوسع ، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضه أسود ، أو : جعلك معتدلاً تمشي قائماً ، لا كالبهائم. وقراءة التخفيف كالتشديد ، وقيل : معنى التخفيف : صَرَفك إلى ما شاء من الهيئات والأشكال ، فيكون من العدول. {في أيّ صورةٍ ما شاء رَكَّبَك} أي : رَكَّبك في أيّ صورة شاءها من الصور المختلفة ، و " ما " : مزيدة ، و(شاء) : صفة لصورة ، أي : ركّبك في أيّ صورة شاءها واختارها من الصور العجيبة الحسنة ، كقوله تعالى : {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِيا أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين : ٤] وإنما لم يعطف الجملة على ما قبلها ؛ لأنها بيان لـ " عدلك ". {كلاَّ} ، ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى ، وجعله ذريعة إلى الكفر المعاصي ، مع كونه موجباً للشكر والطاعة. والإضرابَ في قوله تعالى : {بل تُكذِّبون بالدين} عن جملة مقدّرة ينساق إليها الكلام ، كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض : وأنتم لا ترتدعون عن ذلك ، بل تجترئون على أقبح من ذلك ، وهو تكذيبكم بالجزاء والبعث ، أو بدين الإسلام ، الذي هو من جملة أحكامه ، فلا تُصدقون به ، {وإِنَّ عليكم لَحافِظين} : حال مفيدة لبطلان تكذيبهم ، وتحقيق ما يُكذِّبون به ، أي : تُكذِّبون بالجزاء ، والحال أنَّ عليكم مِن قِبلنا لحافظين لأعمالكم ، {كِراماً} عندنا {كاتبين} لها ، {يعلمون ما تفعلون} من الخير والشر ، قليلاً أو كثيراً ، ويضبطونه نقيراً أو قطميراً. وفي تعظيم " الكاتبين " ، بالثناء عليهم ؛ تفخيم لأمر الجزاء ، وأنه عند الله من جلائل الأمور ، حيث يستعمل فيها هؤلاء الكِرام.

الإشارة : يا أيها الأنسان ، ما غرَّك بالله حتى لم تنهض إلى حضرة قدسه ؟ ! غرّه جهله ومتابعة هواه ، أو قناعته من ربه ، والقناعة من الله حرمان ، أو غلطه ، ظن أنه كامل وهو ناقص من كل وجهٍ ، أو ظنّ أنه واصل ، وهو ما رحل عن نفسه قدماً واحداً ، ظنّ أنه في أعلى عليين باق في أسفل سافلين ، وهذا الغلط هو الذي غَرّ كثيراً من الصالحين ، ترامَوا على مراتب الرجال ، وهم في مقام الأطفال ، سبب ذلك عدم صُحبتهم للعارفين ، ولو صَحِبوا الرجالَ لرأوا أنفسهم في أول قدم مِن الإرادة ، وهذا هو الجهل المركّب ، جَهلوا ، وجهلوا أنهم جاهلون. ثم شوّقه إلى السير إليه بالنظر إلى صورة بشريته ، فإنه عدلها في أحسن تقويم ، ثم نفخ فيه روحاً قدسية سماوية من روحه القديم ، ثم لمّا زجر عن الاغترار لم ينزجروا ، بل تمادوا على الغرور ، وفعلوا فعل المكذِّب بالبعث والحساب ؛ مع أنّ عليهم من الله حفظة كِراماً ، يعلمون ما يفعلون ، فلم يُراقبوا الله جلّ جلاله ، المُطَّلع على سرهم وعلانيتهم ، ولم يحتشموا من ملائكته المُطَّلعين على

٢٥٥

أفعالهم. والله تعالى أعلم.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٤

يقول الحق جلّ جلاله : {إِنَّ الأبرارَ} أي : المؤمنين {لَفِي نعيم} عظيم ، وهو نعيم الجنان {وإِنَّ الفُجَّار} أي : الكفار {لَفِي جحيم} كذلك ، وفي تنكيرهما من التفخيم والتهويل ما لا يخفى ، {يَصْلَونها يومَ الدِّين} يُقاسون حرها يوم الجزاء ، وهو استئناف بياني منبيء عن سؤال نشأ عن تهويلها ، كأنه قيل : ما حالهم فيها ؟ فقال : يحترقون فيها يوم الدين ، الذي كانوا يُكذِّبون به ، {وما هم عنها بغائبين} طرفة عين بعد دخولها ، وقيل : معناه : وما كانوا عنها غائبين قبل ذلك ، بل كانوا يجدون سمومها في قبورهم ، حسبما قال صلى الله عليه وسلم : " القَبْر رَوْضَةٌ مِن رِيَاضِ الجَنَّة ، أو حُفْرة مِنْ حُفَرِ النَّار ". {وما أدراك ما يومُ الدين ثم ما أدراك ما يومُ الدين} ، هو تهويل وتفخيم لشأن يوم الدين الذي يُكذِّبون به ، ببيان أنه خارج عن دائرة دراية الخلق ؛ فعلى أيّ صورة تصوروه ، فهو فوقها ، وكيفما تخيلوه فهو أهم من ذلك وأعظم ، أي : أيُّ شيء جعلك دارياً ما هو يوم الدين ؟ على أنَّ " ما " الاستفهامية خبر " يوم " ، كما هو رأي سيبويه ، لما مَرّ من أنّ مدار الإفادة هو الخبر لا المبتدأ ، ولا ريب أنّ مناط إفادة التهويل والفخامة هنا هو : ما يوم الدين أيّ شيء عجيب هو في الهول والفضاعة ؟ انظر أبا السعود. قال ابن عباس رضي الله عنه : كل ما في القرآن من قوله تعالى : {وما أدراك} فقد دراه ، وكل ما فيه من قوله : {وما يدريك} فقد طوي عنه. هـ. وينتقض بقوله تعالى : {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىا} [عبس : ٣].

ثم بيَّن شأن ذلك اليوم إجمالاً ، فقال : {يومَ لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً} أي : لا تستطيع دفعاً عنها ، ولا نفعاً لها بوجه ، وإنما تملك الشفاعة به بالإذن ، و(يوم) : مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو بدل من (يوم الدين) ، ومَن نصب ؛ فبإضمار " اذكر " ، كأنه قيل بعد تفخيم أمر يوم الدين وشويقه صلى الله عليه وسلم إلى معرفته : اذكر يوم لا تملك نفس إلى آخره ، فإنه يُدريك ماهو ، {والأمرُ يومئذ لله} لا لغيره ، فهو القاضي فيه وحده دون غيره ، ولا شك أنَّ الأمر لله في الدارين ، لكن لمّا كان في الدنيا خفياً ، لا يعرفه إلاَّ العلماء بالله ، وأمّا في الآخرة فيظهر المُلك لله لكل أحدٍ ، خصّه به هناك. والله تعالى أعلم.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٦

٢٥٦

الإشارة : قال القشيري : إنَّ الأبرار لفي نعيم الشهود والحضور ، وإنَّ الفجار لفي جحيم الحجاب والغيبة ، يَصْلونها يومَ الدين ، يحترقون بنار الحجاب ، ونيران الاحتجاب يوم الجزاء والثواب ، وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يومُ الدين ، يُشير إلى التعجُّب من كُنه أمره ، وشأن شأنه ، يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئاً ، لفناء الكل ، ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً. هـ. {والأمر يومئذ للّه} ، قال الواسطي : الأمر اليوم ويومئذ ولم يزل ولا يزال لله ، لكن الغيب بحقيقته لا يُشاهده إلاّ الأكابر من الأولياء ، وهذا خطاب للعموم ، إذا شاهدوا الغيب تيقّنوا أنَّ الأمر كله لله. فأما أهل المعرفة فمُشَاهَد لهم الأمر كمشاهدتهم يومئذٍ ، لا تزيدهم مشاهدة الغيب عياناً على مشاهدته لهم تصديقاً ، كعامر بن عبد القيس ، حين يقول : لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً. هـ. وقاله أيضاً عليّ رضي الله عنه. وقال القشيري : الأمر يومئذ لله وقبله وبعده ، ولكن تنقطع الدعاوى ذلك اليوم ، ويتضح الأمر ، وتصير المعارف ضرورية. هـ. وقال الشيخ ابن عبّاد رضي الله عنه في رسائله الكبرى ، بعد كلام : وليت شعري ، أيّ وقت كان المُلك لسواه حتى يقع التقييد بقوله : {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ} [الحج : ٥٦] وقوله : {والأمر يومئذ لله} لولا الدعاوى العريضة من القلوب المريضة. هـ. وقال الورتجبي : دعا بهذه الآية العبادَ إلى الإقبال عليه بالكلية بنعت ترك ما سواه ، فإنَّ المُلك كله لله في الدنيا والآخرة ، يُضل مَن يشاء ، ويهدي مَن يشاء. هـ. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

٢٥٧

(٨/٢٩٩)

سورة المطففين

(٨/٣٠٠)

يقول الحق جلّ جلاله : {ويل للمطففين} ، الويل : شديد الشر ، أو : العذاب الأليم ، أو : واد في جهنم يهوي الكافر فيه أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره ، وقيل : كلمة توبيخ وعذاب ، وهو مبتدأ ، سوّغ الابتداء به معنى الدعاء. والتطفيف : البخس في الكيل والوزن ، وأصله : من الشيء الطفيف ، وهو القليل الحقير ، رُوي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قَدِمَ المدينة فوجدهم يُسيئون الكيل جدًّا ، فنزلت ، فأحْسَنوا الكيلَ ، وقيل : قدمها وبها رجل يُعرف بأبي جهينة ، ومعه صاعان ، يكيل بأحدهما ،

ويكتال بالآخر ، وقيل : كان أهل المدينة تُجاراً ، يطففون ، وكانت بياعتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة ، فنزلت ، فخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم ، وقال صلى الله عليه وسلم : " خَمْسٌ بخمس ، ما نَقَض قومٌ العهد إلاّ سلَّط الله عليهم عدوّهم ، ولا حَكَموا بغير ما أنزل الله إلاَّ فَشَى فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشى فيهم الموت ، ولا طَفّفوا الكيل إلاَّ مُنِعُوا النبات ، وأُخذوا بالسنين ، ولا

٢٥٨

مَنَعُوا الزكاة إلاَّ حبس اللهُ عنهم المطر ". ثم فسّر التطفيف الذي استحقوا عليه الذم والدعاء عليهم بالويل ، فقال : {الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفُون} أي : إذا أخذوا بالكيل من الناس بالشراء ونحوه يأخذون حقوقهم وافية تامة ، ولمّا كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرّهم ، ويتحامل فيه عليهم ؛ أبدل " على " مكان " مِنْ " للدلالة على ذلك ، ويجوز أن يتعلّق " على " ب " يستوفون " ، وتقدّم المفعول على الفعل لإفادة الاختصاص ، أي : يستوفون على الناس خاصة ، وقال الفراء : " مِنْ " و " على " يتعاقبان في هذا الموضع ؛ لأنه حقّ عليه ، فإذا قال : اكتلت عليه ، فكأنه قال : أخذت ما عليه ، وإذا قال : اكتلت منه ، فكأنه قال : استوفيت منه. هـ.

}

(٣٠١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٨

وإذا كالوهم أو وزنوهم} أي : كالوا لهم أو وزنوا لهم في البيع ونحوه ، فحذف الجار وأوصل الفعل ، {يُخْسِرون} ؛ ينقصون ، يقال : خَسر الميزان وأخسره : إذا نقصه. وجعلُ البارز تأكيداً للمستكن مما لا يليق بجزالة التنزيل ، ولعل ذكر الكيل والوزن في صور الإخسار ، والاقتصار على الاكتيال في صورة الاستيفاء لِما أنهم لم يكونوا متمكنين من الاحتيال عند الاتزان تمكُّنهم منه عند الكيل ؛ لأنهم في الكيل يزعزعون ويحتالون في الملء بخلاف الوزن ، ويحتمل أنّ المطففين كانوا لا يأخذون ما يُكال ويوزن إلاّ بالمكاييل لتمكّنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرف ، كما تقدّم ، وهذا بعيد ، وإذا أعطوا كالُوا ووزنوا ، لتمكّنهم من البخس في النوعين.

{ألاَ يظنُ أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم} وهو يوم القيامة ، وهو استئناف وارد لتهويل ما ارتكبوه من التطفيف والتعجُّب من اجترائهم عليه. وأدخل همزة الاستفهام على (ألاَ) توبيخاً ، وليست " ألا " هذه للتنبيه ، و " أولئك " إشارة إلى المطففين ، ووضعه موضع ضميرهم ؛ للإشعار بمناط الحُكم الذي هو وصفهم ، فإنَّ الإشارة إلى الشيء متعرضة له من حيث اتصافه بوصفه ، وأمّا الضمير فلا يتعرّض لوصفه

، وللإيذان بأنهم مُمازون بذلك الوصف القبيح أكمل امتياز ، وما فيه من معنى البُعد للإشارة إلى بُعد درجتهم في الشرارة والفساد ، أي : ألاَ يظنُّ أولئك الموصوفون بذلك الوصف الشنيع أنهم مبعوثون ليوم عظيم ولا يقادَر قدره ، ويُحاسبون فيه على قدر الذرّة والخردلة ، فإنَّ مَن يظن ذلك وإن كان ظنًّا ضعيفاً لا يكاد يتجاسر على تلك القبائح ، فكيف بمَن يتيقنه ؟ وعن عبد الملك بن مروان : أن أعرابياً قال له : قد سمعتَ ما قال الله في المطفّفين . أراد بذلك أنَّ المُطَفف قد توجّه عليه الوعيد العظيم الذي سمعتَ به . فما ظنّك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن ؟ !. {يومَ يقومُ الناسُ} ، منصوب بـ " مبعوثون " ، أي : يُبعثون يومَ يقوم الناس {لرب

٢٥٩

العالمين} أي : لحكمِه وقضائه ، أو لجزائه بعقابه وثوابه ، وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه قرأ هذه السورة ، فلمّا بلغ هنا بكى نحيباً ، وامتنع من قراءة ما بعده.

{كلاَّ} ردع وتنبيه ، أي : ارتدعوا عما كنتم عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب ، وتنبّهوا أنه مما يجب أن يُنتهى به ويُتاب منه ، ثم علل الردع المذكور ، فقال : {إنَّ كتابَ الفُجَّار} أي : صحائف أعمالهم {لفي سِجّينٍ} ، جمهور المفسرين أنَّ " سِجين " موضع تحت الأرض السابعة ، كما أنَّ " علِّيين " موضع فوق السماء السابعة ، وفي القاموس : عليون جمع " عِلِّيّ " في السماء السابعة ، تصعد إليه أرواح المؤمنين ، و " سجّين " موضع في كتاب الفجار ، ووادٍ في جهنم ، أو حجر في الأرض السابعة. هـ. وفي حديث أنس صلى الله عليه وسلم قال : " سجين أسفل سبع أرضين " وقال أبو هريرة : قال صلى الله عليه وسلم : " الفلق : جُب في جهنم مغطى ، وسِجين : جُب في جهنم مفتوح " والمعنى : إنّ تاب أعمال الفجار مثبت في سجين. هو علم منقول من الوصف " فعيل " من السجن ؛ لأنَّ أرواح الكفرة تسجن فيه ، وهو منصرف لوجود سبب واحدٍ فيه ، وهو العلميّة ، لأنه علم لموضع.

(٨/٣٠٢)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٨

ثم عَظَّم أمره فقال : {وما أدراك ما} هو {سِجّينٌ} أي : هو بحيث لا يبلغه دراية أحد ، وقوله تعالى : {كتاب مرقوم} ، قال الطيبي : هو على حذف مضاف ، أي : موضع كتاب مرقوم. هـ. أو : فيه كتاب مرقوم ، وهو بدل من " سِجّين " أو : خبر عن مضمر ، بحذف ذلك المضاف ، وأمّا مَن جعله تفسيراً لسجّين ، بأن جعل سجيناً هو نفس الكتاب المرقوم ؛ فلا يصح ؛ إذ يصير المعنى حينئذ : إنَّ كتاب الفجار لفي كتاب ، ولا معنى له. {ويل يومئذٍ للمكَذّبين} هو متصل بقوله : {يوم يقوم الناسُ لرب العالمين} وقيل : ويل يوم يخرج ذلك المكتوب للمكذّبين {الذين يُكَذِّبون بيوم الدين} ؛ الجزاء

والحساب ، {وما يُكَذِّب به} ؛ بذلك اليوم {إلاَّ كُل معتدٍ} ؛ مجاوِز للحدود التي حدّتها الشريعة ، أو مجاوِز عن حدود النظر والاعتبار حتى استقصر قدرة الله على إعادته ، {أثيمٍ} ؛ مكتسب للإثم منهمك في الشهوات الفانية حتى شغلته عما وراءها من اللذة الباقية ، وحملته على إنكارها ، {إذا تُتلى عليه آياتُنا} التنزيلية الناطقة بذلك {قال} : هي {أساطيرُ الأولين} أي : أحاديث المتقدمين وحكايات الأولين ، والقائل : قيل : الوليد بن المغيرة ، وقيل : النظر بن الحارث ، وقيل : عام لمَن اتصف بالأوصاف المذكورة.

{كلاَّ} ردع للمعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له ، {بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسِبون} ، هو بيان لما أدّى بهم إلى التفوُّه بهذه العظيمة ، أي : ليس في آياتنا ما يصحح أن يُقال فيها هذه المقالات الباطلة ، بل رانت قلوبهم وغشّاها ما كانوا

٢٦٠

يكسبون من الكفر والجرائم حتى صارت عليهم كالصدأ للمرآة ، فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحق ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " إن العبد كلما أذنب ذنباً حصل في قلبه نكتة سوداء ، حتى يسوّد قلبه.. " الحديث ، أي : ولذلك قالوا ما قالوا. والرين : الصدأ ، يقال : ران عليه الذنب وغان ريناً وغيناً.

{كلاَّ} ردع وزجر عن الكسب الرائن {إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون} لَمَّا رانت قلوبهم في الدنيا حُجبوا عن الرؤية في الآخرة ، بخلاف المؤمنين ، لَمّا صفت مرآة قلوبهم حتى عرفوا الحق كشف لهم يوم القيامة عن وجهه الكريم. قال مالك : لَمّا حجب الله أعداءه فلم يروه تجلّى لأوليائه حتى رأوه. هـ. وقال الشافعي : في هذه الآية دلالة على أنَّ أولياء الله يرونه. هـ. وقال الزجاج : في هذه الآية دليل أن الله يُرى يوم القيامة ، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة ، ولمَا خصّصت منزلة الكفار بأنهم محجوبون عن الله. انظر الحاشية. {ثم إنهم لصالُو الجحيم} أي : داخلو النار ، و " ثم " لتراخي الرتبة ، فإنّ صَلي الجحيم أشد من الإهانة ، والحرمان من الرؤية والكرامة. {ثم يُقال} لهم : {هذا الذي كنتم به تُكَذِّبون} في الدنيا فذُوقوا وباله. وبالله التوفيق.

(٣٠٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٨

الإشارة : التطفيف يكون في الأعمال والأحوال ، كما يكون في الأموال ، فالتطفيف في الأعمال عدم إتقانها شرعاً ، ولذلك قال ابن مسعود وسلمان رضي الله عنهما : الصلاة مكيال ، فمَن وَفَّى وُفِّي له ، ومَن طفَّف فقد علمتم ما قال الله في المطففين. هـ. فكل مَن لم يُتقن عملَه فعلاً وحضوراً فهو مطفف

فيه. والتطفيف في الأحوال : عدم تصفية القصد فيها ، أو بإخراجها عن منهاج الشريعة ، قال تعالى : {ويل للمطفيين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون...} الخ ، قال القشيري : يُشير إلى المقصّرين في الطاعة والعبادة ، الطالبين كمال الرأفة والرحمة ، الذين يستوفون من الله مكيال أرزاقهم بالتمام ، ويكيلون له مكيال الطاعة بالنقص والخسران ، ذلك خسران مبين ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم المشهد ، مهيب المحضر ، فلذلك فسدت أعمالهم واعتقادهم. هـ. يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم يكثر فيه الهول ، ويعظم فيه الخطب على المقصّرين ، وتظهر فيه كرامة المجتهدين ووجاهة العارفين.

{كلاَّ} ليرتدع المقصّر عن تقصيره ؛ لئلا ينخرط في سلك الفجار ، {إن كتاب الفجّار لفي سجين} المراد بالكتاب هنا : كتاب الأزل ، وهو ما كتب لهم من الشقاوة قبل كونهم ، قال صلى الله عليه وسلم : " السعيد مَن سعد في بطن أمه ، والشقي مَن شقي في بطن أمه "

٢٦١

و {وما أدراك ما سجين} فيه {كتاب مرقوم} لأهل الشقاء شقاوتهم. {ويل يومئذ للمُكَذِّبين} بالحق وبالدالين عليه ، {الذين يُكَذِّبون بيوم الدين} وهم أهل النفوس المقبلين على الدنيا بكليتهم ، {وما يُكَذِّب به إلاّ كل معتد أثيم} ؛ متجاوز عن الذوق والوجدان ، محروم من الكشف والعيان ، {إذا تُتلى عليه آياتنا} الدالة علينا {قال أساطير الأولين} أي : إذا سمع الوعظ والتذكير من الدالين على الله قال : خرافات الأولين. وسبب ذلك : الرانُ الذي ينسج على قلبه ، كما قال تعالى : {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} لمّا رانت قلوبهم ، وتراكمت عليها الحظوظ والهوى ، حُجبوا عن شهود الحق في الدنيا ، ودام حجابهم في العقبى إلاَّ في أوقات قليلة ، قال الحسن بن الفضل : كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته. هـ. قال الواسطي : الكُفار في حجابٍ لا يرونه البتة ، والمؤمنون في حجاب يرونه في وقتٍ دون وقت. هـ. أي : والعارفون يرونه كل وقت ، ثم قال : ولا حجاب له غيره ، وليس يسعه سواه ، ما اتصلت بشريةٌ بربوبيته قط ، ولا فارقت عنه. هـ.

(٣٠٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٨

وقال في الإحياء : النزوع إلى الدنيا يَحجب عن لقاء الله تعالى ، وعند الحجاب تتسلط عليهم نار جهنم ، إذ النار غير متسلطة إلاّ على محجوب ، قال تعالى : {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالو الجحيم} فرتَّب العذاب بالنار على ألم الحجاب ، وألم الحجاب كافٍ من غير عِلاوة النار

، فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه! هـ. وقد رتَّب الحجاب على الران والصدأ المانع من كشف الحقيقة ، فكل من طهّر قلبه من ران الهوى ، وغسله بأنوار الذكر والفكر لاحت له أنوار المشاهدة وأسرار الحضرة ، حتى يشاهد الحق في الدنيا والآخرة ، ويكون من المقربين أهل عليين ، وكل مَن بقي مع حظوظ هواه حتى غلب على قلبه رانُ الشهوات بقي محجوباً في الدارين من عامة اليمين. وأنواع الران التي تحجب عن الشهود ست : ران الكفر ، وران العصيان ، وران الغفلة ، وران حلاوة الطاعات ، وران حس الكائنات ، فإذا تصفّى من هذه كلها أفضى إلى مقام العيان ، ولا طريق لرفع الران بالكلية إلاَّ بصُحبة المشايخ العارفين. وبالله التوفيق.

(٣٠٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٨

يقول الحق جلّ جلاله : {كلاَّ} ، ردع للمكذبين ، ثم بيّن حال الأبرار ، فقال : {إنَّ كتاب الأبرارِ} أي : ما كتب من أعمالهم ، والأبرار : المؤمنون المطيعون ، لأنه ذُكر في

٢٦٢

مقابلة الفُجَّار ، وعن الحسن : البرّ : الذي لا يؤذي الذرّ ، {لفي عليين} ، قال الفراء : هو اسم على صيغة الجمع لا واحد له ، وقيل : واحده " عِلِّيّ " ، و " علّيه " وأيًّا ما كان فهو موضع في أعلى الجنة ، يسكنه المقربون. قال ابن عمر رضي الله عنه : إنّ أهل عليين لينظرون إلى أهل الجنة من كوى ، فإذا أشرف رجل أشرقت له الجنة ، وقالوا : قد اطلع علينا رجل من أهل عليين ، وقال في البدور : " إنَّ الرجل من أهل عليين ليخرج فيسير في ملكه ، فلا تبقى خيمة من خيام الجنة إلا ويدخلها ضوء من وجهه ، حتى إنهم يستنشقون ريحه ويقولون : واهاً لهذه الريح الطيبة.. " الحديث.. وتقدّم قوله صلى الله عليه وسلم : " أكثر أهل الجنة البُله ، وعليون لذوي الألباب " وانظره في سورة المجادلة ، وفي حديث البراء : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " عليون في السماء السابعة تحت العرش " وفيه ديوان أعمال السعداء ، فإذا عمل العبدُ عملاً صالحاً عرج به وأثبت في ذلك الديوان ، وقد رُوي في الأثر : " أن الملائكة تصعد بصحيفةٍ فيها عمل العبد ، فإن رضيه الله قال : اجعلوه في عليين وإن لم يرضه قال : اجعلوه في سجين ". ثم نوّه بقَدْره فقال : {وما أدراك ما عليون كتابٌ مرقومٌ} أي : موضع كتاب ، أو فيه كتاب مرقوم {يشهده المقربون} أي : الملائكة المقربون ، أو أرواح المقربين ؛ لأنَّ عليين محل الكروبيين وأرواح المقربين. {إنَّ الأبرار} من أهل اليمين {لفي نعيمٍ} عظيم ، {على الأرائك} ؛ على الأسرّة في الحِجال ، {ينظرون} إلى كرامة الله ونِعمه التي أولاهم ، أو : إلى أعدائهم يعذّبون في النار ، وما تحجب الحجال أبصارهم عن الإدْراك ، {تعرف في وجوههم نضرةَ النعيم} أي : بهجة التنعُّم

وطراوته ورونقه. والخطاب لكل أحد مما له حظ من الخطاب للإيذان بأنَّ حالهم من أثر النعمة وأحكام البهجة ، بحيث لا يختص برؤيته راءٍ دون راءٍ.
}

(٣٠٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٦٢
يُسقون من رحيقٍ} ؛ شراب خالص لا شوب فيه ، وقيل : هو الخمر الصافية ، {مختومٌ} ؛ مغلق عليه ، {ختامه مِسْكٌ} أي : مختوم أوانيه وأكوابه بالمسك مكان الطين ، كما يفعل أهل الدنيا بأوانيهم إذا أرادوا حِفظها وصيانتها ، ولعله تمثيل لكمال نفاسته ، أو : أخره وتمامُه مسك ، أي : يجد الشارب عند آخر شربه رائحة المسك. وقُرىء " خاتِمَه " بكسر التاء وفتحها. {وفي ذلك} الرحيق أو ما تقدّم من نعيم الجنان {فليتنافس المتنافسون} ؛ فليرغب الراغبون ، وليجتهد المجتهدون ، أو فليسبق المستبقون ، وذلك بالمبادرة إلى الخيرات ، والكفّ عن السيئات. وأصل التنافس : التغالب في الشيء النفيس ، وهو من النفس لعزتها ، وقال البغوي : وأصله : من الشيء النفيس الذي تحرص عليه النفوس ، ويريده كل أحد لنفسه ، وينفَسُ به على غيره ، أي : يضِنُّ به.
٢٦٣
قوله تعالى : {ومِزَاجُه من تسنيمٍ} : عطف على (خِتامه) صفة أخرى للرحيق ، وما بينهما اعتراض مقرر لنفاسته ، أي : ما يمزَج به ذلك الرحيق هو من ماء التسنيم ، والتسنيم اسم لعين بعينها في الفردوس الأعلى ، سُميت بالتسنيم الذي هو مصدر من " سنّمه " إذا رفعه ، لأنها أرفع شراب في الجنة ، ثم فسّرها بقوله : {عيناً} ، فهو منصوب على المدح أو الاختصاص ، أو على الحال مع جمودها لوصفها بقوله : {يشربُ بها} أي : منها {المقربون} ، قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما : فيشربها المقربون صِّرفاً ، وتمزج لأصحاب اليمين. هـ. والمقربون هم أهل الفناء في الذات ، أهل الشهود والعيان ، والأبرار أهل الدليل والبرهان ، وهم أهل اليمين ، وذلك أنَّ المقربين لَمّا أخلصوا محبتهم لله ، ولم يُحبوا معه شيئاً من الدنيا خلُصَ لهم الشراب في الآخرة ، وأهل اليمين ، لَمّا خلطوا في محبيتهم خلّط شرابهم ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، فمن صَفّا صُفيَ له ، ومَن كَدّر كُدّر عليه.
فإن قلتَ : لِمَ أمر بالتنافس في الرحيق ، ولم يأمر به في التسنيم ، مع كونه أرفع ؟ قلتُ : قال بعضهم : إشارة إلى أن شربه لا يُنال بسبب ، بل بالسابقة ، وقيل : إنه مُقدّم من تأخير ، وإن التنافس حاصل في الجميع ، أو يؤخذ بالأحْرى ؛ لأنه إذا أمرَ بالتنافس في المفضول كان التنافس في الأفضل أحرى. والله تعالى أعلم.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٦٢

الإشارة : قال الورتجبي : كتاب الأبرار كتابٌ مرقوم برقم الله ، رقمه بسعادتهم الأزلية ، وولايتهم الأبدية ، وذلك الكتاب عنده لا يطلع عليه إلاَّ المقربون المخاطبون بحديثه وكلامه ، المكاشفون بالحقائق الغيبية ، قال أبو عثمان المغربي : الكتاب المرقوم : هو ما يُجري اللّهُ على جوارحك من الخير والشر ، رقمها بذلك ، وهو لا يخاف ما رقم به ، وذلك الرقْم معلّق بالقضاء والقدر عن القدرة بمشيئته تعالى عليه ، ولا نزوع عن ذلك ولا حيلة له فيه ، فهو في ذلك معذور في الظاهر ، غير معذور في الحقيقة ، هذا لعوام الخلق ، وأمّا للخواص والأولياء وأهل الحقائق فإنه رقْم الله على كل شيء أوجده ، لم يُشْرف على ذلك الرقْم إلاَّ المقربون ، فهم أهل الإشراف ، فمَن شاهد ذلك الرقْم من المقربين عرف صاحبه بما رقم به من الولاية والعداوة ، فيُخبر عنه ، وهو الإشراف والفراسة ، كما كان لعُمر حين أخبر عنه صلى الله عليه وسلم بقوله : "كان في الأمم مُكلَّمون... " الحديث ، أي : فعُمر ممن أشرف على حقائق الرقْم ، وعلى معاني الكتاب المرقوم ، فمَن كان بذلك الحال فهو المكلّم من جهة الحق بلا واسطة. قال الجريري : رقْمٌ رَقَم اللّهُ به قلوبَ عباده بما قضى عليهم في الأزل من السعادة والشقاوة ، وبذلك الرقْم خَفي في أسرار العباد ، وظهر على هياكلهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : "كُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له ".

٢٦٤

والحاصل : أنَّ الكتاب المرقوم : هو ما سطر لكل أحد في الأزل ، فإن رقم له بالسعادة جعلَ في عليين ، إشارة إلى أنَّ صاحبه يلحق به ، وإن رقم بالشقاوة جعل في سجين ، إشارة إلى لحوق صاحبه به. وقوله تعالى : {يشهده المقربون} أي : يشهدونه بعلوم أفكارهم ومكاشفة أسرارهم ، وقد ينطقون بذلك في حال الفيض أو الجذب ، وهؤلاء هم المكلَّمون ، وفي الحديث : " قد كان في الأمم مكلَّمون ، وإن يكن في أمتي فعُمر " والمقربون هم أهل الفناء والبقاء.

ثم قال تعالى : {إنَّ الأبرار لفي نعيم} لذة الطاعات وحلاوة المناجاة ، على أرائك المقامات ينظرون ما يفعل الله بهم. وقال القشيري : ينظرون في روضات الجنان الروحية والسرية والقلبية ، لكل منهم روضة مخصوصة. هـ. ولعل نظرهم علمياً لا ذوقياً ، لأنَّ الذوق للمقربين ، تَعْرِفُ في وجوههم نضرة النعيم ، وهو ما يظهر على وجوههم من بهجة المحبة ونضرة القُربة ، ولعل المراد بالأبرار هنا السائرون ، ولذلك قال : {يُسقَون من رحيق} خمرة المحبة الأزلية ، الصافية من كدر الهوى ، مختوم عليه في قلوب العارفين. قال القشيري : أواني ذلك الشراب هي قلوب الأصفياء والأولياء ، خِتامه مسك ، وهو محبة

الحق ، لا يشرب من تلك الأواني المختومة إلاَّ الطالبون الصادقون في طريق السلوك إلى الله. هـ. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، فمَن فاته حظه من هذه الخمرة فهو محروم ، كما قال ابن الفارض :

علَى نَفْسِه فَلْيَبْك مَن ضاعَ عُمْرُه

وليس لَهُ مِنْها نَصيبٌ ولا سَهْمٌ

وقال القشيري : وتنافسهم فيه بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة ، وتعليق القلب بالله ، والانسلاخ من الأخلاق الدنية ، وجولان الهمم في الملكوت ، واستدامة المناجاة. هـ. ومِزاجه من تسنيم ، وهو عين بحر الوحدة الصافية ، التي قال فيها القطب ابن مشيش رضي الله عنه : وأغرقني في بحر الوحدة.. الخ ، ولذلك فسّرها تعالى بقوله : {عيناً يشرب بها المقربون} فالمقربون يشربونه صرفاً في الدنيا والآخرة ، ويمزج لغيرهم ، قال بعضهم : لأنه ليس مَن احتمل حمل الصفات كمن قَوِي على مشاهدة الذات ، وشربها المقربون صرْفاً لحملهم الذات والصفات جميعاً. هـ. ولأنهم صفّوا محبتهم في الدنيا من شوائب الهوى ، فصفّى شرابهم في دار البقاء ، وفي هذا المقام ينبغي التنافس الحقيقي ، كما قال الشاعر :

فروحي وريحاني إذا كنت حاضراً

وإن غبتَ فالدنيا عليّ محابسُ

إذا لم أنافس في هواك ولم أغر

عليكَ ففي مَن ليت شعري أنافس

فلا تمقتن نفسي فأنت حبيبُها

فكل امرىء يصبو إلى مَن يجانس

فتنافس الأبرار في حيازة النعيم ، وتنافس المقربين في حيازة المنعِم ، تنافسُ الأبرار

في نعيم الأشباح وتنافس المقربين في نعيم الأرواح ، ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم ، جعلنا الله من أهل التنافس فيه وفي شهوده ، آمنين.

يقول الحق جلّ جلاله : {إنَّ الذين أجرموا} ؛ كفروا ، كأبي جهل والوليد والعاص بن وائل وأضرابهم ، {كانوا من الذين آمنوا} كعمّار وصُهيب وخباب وبلال {يضحكون} استهزاء بهم ، {وإِذا مَرُّوا بهم يتغامزون} ؛ يُشير بعضهم إلى بالعين طعناً فيهم وعيباً لهم ، وقيل : جاء عليٌّ في نفر من المسلمين ، فسخر منهم المنافقون ، وضحكوا وتغامزوا ، وقالوا : أترون هذا الأصلع ؟ فنزلت قبل أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتكون الآية على هذا مدنية ، {وإِذا انقلبوا إلى أهلهم} أي : إذا رجع الكفار إلى منازلهم {انقلبوا فاكهين} ، متلذذين بذكرهم بالسوء ، أو متعجبين ، وقرأ حفص : {فكهين} بالقصر ، أي : أشرين أو فرحين ، وقال الفراء : هما سواء كطاعن وطعن.
{وإِذا رَأَوهم} أي : رأى الكافرون المؤمنين {قالوا إِنَّ هؤلاء لضالُّون} أي : مخدوعون ، أي : خدع محمدٌ هؤلاء فضلُّوا وتركوا اللذّات لما يرجونه في الآخرة من الكرامات ، فقد تركوا العاجل بالآجل ، والحقيقة بالخيال ، وهذا عين الضلال ، ولم يشعر هؤلاء الكفرة أنَّ ما اغترُّوا به وانهمكوا فيه هو عين الضلال ، قال تعالى : {وما أُرسلوا عليهم حافظين} أي : وما أرسل الكفّار على المسلمين ، يحفظون أعمالهم ، ويرقبون أحوالهم. والجملة حال ، أي : قالوا ذلك والحال أنهم ما أُرسلوا من جهة الله تعالى موكّلين بهم ، مهيمنين على أعمالهم ، يشهدون برُشدهم وضلالهم ، بل أُمروا بإصلاح أنفسهم ، فاشتغالهم بذلك أولى من تتبُّع عورات غيرهم.
{فاليومَ الذين آمنوا من الكفارِ يضحكون} ، حين يرونهم مغلولين أذلاء ، قد غشيتهم فنون العذاب والصغَار بعد العزة والاستكبار ، وهم {على الأرائك} آمنون ، ووجه ذلك : أنهم لمَّا كانو أعداءهم في الدنيا جعل لهم سروراً في تعذيبهم ، وقال كعب : بين الجنة والنار كُوَىً ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوه الذي كان له في الدنيا نظر إليه ، دليله : {فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ} [الصافات : ٥٥] فضحكوا منهم في الآخرة كما كانوا يضحكون منهم في الدنيا جزاءً وفاقاً. {على الأرائك ينظرون} حال ، أي : يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من سوء الحال ، وقيل : يُفتح إلى الكفار باب إلى
٢٦٦
الجنة ، فيُقال لهم : هَلمُّوا إليها ، فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم ، يفعل ذلك بهم مراراً ، ويضحك المؤمنون ، ويأباه قوله تعالى : {هل ثُوِّب الكفارُ ما كانوا يفعلون} فإنه صريح في أنَّ ضحك المؤمنين منهم جبراً لضحكهم منهم في الدنيا ، فلا بد من المجانسة والمشاكلة. والتثويب والإثابة : المجازاة ، أي : ينظرون هل جُوزي الكفار بما كانوا يفعلون من السخرية بالمؤمنين أم لا ؟

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٦٦

ويحتمل أن يكون مفعول : " ينظرون " محذوفاً ، أي : ينظرون إلى أعدائهم في النار ، أو إلى ما هم فيه من نعيم الجنان ، ثم استأنف بقوله : {هل ثُوِّب الكفارُ ما كانوا يفعلون} أي : هل جُوزوا بذلك إذا فعل بهم هذا العذاب المهين ، و " هل " على هذا للتقرير ، قال الرضي : وتختص " هل " بحكمين دون الهمزة ، وهما : كونها للتقرير في الإثبات ، كقوله تعالى : {هل ثوب الكفار} أي : ألم يَثوبوا ، وإفادتها للنفي حتى جاز أن يجيء بعدها " إلاَّ " قصداً للإيجاب ، كقوله تعالى : {هَلْ جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ} [الرحمن : ٦٠] وقول الشاعر :

وهل أنا إلاّ مِن غُزَيّةَ إن غوت

غَويتُ ، وإن تُرشَدْ غزية أرشد

الإشارة : ما قاله الكفرة في ضعفاء المسلمين قاله أهل الغفلة في المنتسبين الذاكرين ، حرفاً بحرف ، وما أُرسلوا عليهم حافظين ، فإذا تحققت الحقائق ، ورُفِع الذاكرون مع المقربين ، وبقي أهل الغفلة مع الغافلين في أهل اليمين ، يضحكون منهم كما ضحكوا منهم في الدنيا. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى الطريق ، وصلّى الله عليى سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

٢٦٧

(٣١١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٦٦

سورة الانشقاق

(٣١٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٦٧

يقول الحق جلّ جلاله : {إذا السماءُ انشقتْ} أي : تشقّقت أبواباً لنزول الملائكة في الغمام ، أو : انشقت وطُويت كطي السجل للكتاب ، {وأَذِنَتْ لربها} أي : استمعت ، وفي الحديث : " ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ إذنه لنبيٍّ يتغَنّى بالقرآن " أي : ما استمع ، أي : انقادت وأذعنت لتأثير قدرته تعالى حين تعلّقت إرادته بانشقاقها ، ولم تأبَ ولم تمتنع ، {وحُقَّتْ} أي : وحقَّ لها أن تسمع وتطيع لأمر ربها ، إذ هي مصنوعة مربوبة لله تعالى.

{وإذا الأرضُ مُدَّتْ} ؛ بُسطت وسُويت باندكاك جبالها وكّل أمتٍ فيها حتى تصير كالصحفية الملساء ،

عن أبن عباس : تُمدّ مَدَّ الأديم العُكاظي ، منسوب إلى عكاظ سوق بين نخلة والطائف ، كانت تعمره الجاهلية في ذي القعدة ، عشرين يوماً ، تجمع فيه قبائل العرب ، فيتعاكظون ، أي : يتغامزون ويتناشدون ، قاله في القاموس. {وألقتْ ما فيها} أي : رمت ما في جوفها من الموتى والكنوز ، كقوله تعالى : {وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [الزلزلة : ٢]. {وتخلتْ} منها فلم يبقَ في جوفها شيء ، وذلك ما يُؤذن بعِظَم الأمر ، كما تلقي الحامل ما في بطنها قبل الوضع. {وأَذِنَتْ لربها} أي : استمعت في إلقاء ما في بطنها ، وتخليتها عنه ، {وحُقتْ} أي : وهي حقيقة بأن تنقاد لربها ولا تمتنع ، ولكن لا بُعد إن لم تكن كذلك ، بل في نفسها وحَد ذَاتِها ، من قولهم : هو محقوق بكذا ، أو حقيق به ، والمعنى : انقادت لربها وهي حقيقة بذلك مِن ذاتها ، وكذلك يقال في انشقاق السماء. انظر أبا السعود. وجواب (إذا) محذوف ، ليذهب المقدِّر كلَّ مذهب ، أي : كان من الأمر

٢٦٨

الهائل ما يقصر عنه الوصف ، أو حذف اكتفاءً بما تقدّم في سورة التكوير والانفطار ، أو ما دلّ عليه {فملاقيه} أي : إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدْحَهُ. والله تعالى أعلم.

(٣١٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٦٨

الإشارة : إذا السماء ، أي : سماء الأرواح انشقت عن ظلمة الأشباح انشقاق الفجر عن ظلمة الليل ، فتغيب ظلمة الأشباح في نور عالَم الأرواح ، فحينئذ تظهر حقائق الأشياء على ما كانت عليه في الحقيقة الأزلية ، فينتفي الحدث ويبقى القِدم. قال الورتجبي : إذا أراد الله قلع الكون ، يلقي على السموات والأرض أثقال هيبة عظمته وكبريائه ، فتنشق السماء ، وتمد الأرض من عكس تجلي عظمته وكبريائه ، وحق لهما أن تتصدّعا ، لِما عليهما من أثقال قهريات جبروته ، حيث يشققهما ، وهما طائعتان لربهما ، وكيف لا تكون منهما طاعة ، وهما في قبضة قهر جلاله أقل من خردلة ، ألا ترى كيف قال صلى الله عليه وسلم : " الكونُ في يمين الرحمن أقلّ من خَردلةٍ " وكذلك يتجلّى لسماء أرواح العارفين وأرض قلوب المحبين بنعت العظمة والكبرياء ، فتنشق الأرواح وتزلزل القلوب من وقوع نور هيبته عليها ، وبهذا الوصف وصف قلوب المقرّبين عند نزول خطاب الهيبة ، قال الله تعالى : {حَتَّا إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ...} [سبأ : ٢٣] الآية. قال بعضهم : خطاب الأمر إذا وقع على الهياكل فهي بين مطيع وعاصٍ ، وخطاب الهيبة إذا وردت تفني وتُعجز الإقرار معه كقوله : {إذا السماء انشقت} وَرَدَ عليها صفةُ الهيبة فانشقت وأذِنَتْ لربها وأطاعت وانقادت ، وحُق لها ذلك ، وهو الذي أوجدها. هـ وإذا الأرض أرض البشرية مُدت ، أي : بُسطت ولانت لأحكام الربوبية بالمجاهدة والرياضة ، وألقت ما

فيها من الخبائث والعيوب ، وتخلّت عنها ، وأذنت لربها في أحكام العبودية والعبادة ، وحُقَّتْ بذلك ؛ لأنَّ في ذلك شرفَها وعزَّها ، وجواب " إذا " محذوف ، أي : كان من الأسرار والأنوار والمعارف ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ، ولا تحيط به الإشارة.

(٣١٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٦٨

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الإنسانُ} خطاب الجنس {إنك كادِحٌ إلى ربك كَدْحاً فمُلاقِيهِ} أي : جاهدٌ جادٌّ في السير إلى ربك. فالكدح في اللغة : الجد والاجتهاد ، أي : إنك في غاية الاجتهاد في السير إلى ربك ، لأنَّ الزمان يطير طيراً وأنت في كل لحظة تقطع حظًّا من عمرك القصير ، فإنك سائر مسرع إلى الموت ، ثم تلاقي ربك. قال الطيبي عن الإمام : في الآية نكتة لطيفة ، وهي : أنها تدل على انتهاء الكدح والتعب للمؤمن بانتهاء

٢٦٩

هذه الحياة الدنيوية ، ويحصل بعد ذلك محض سعادته وراحته الأبدية. هـ.

قلتُ : إن كان كدحه في طلب مولاه ؛ حصل له بعد موته دوام الوصال ، وصار إلى روح وريحان ، وجنات ورضوان ، وإن كان كدحه في طلب الحُور والقصور ، بُشّر بدوام السرور ، وربما اتصلت روحه بما كان يتمنى ، وإن كان كدحه في طلب الدنيا مع إقامة الدين أفضى إلى الراحة من تعبه ، وإن كان في طلب الحظوظ والشهوات مع التقصير ، انتقل من تعب إلى تعبٍ ، والعياذ بالله. وقال أبو بكر بن طاهر : إنك تُعامل ربك معاملة ستعرض عليك في المشهد الأعلى ، فاجتهد ألاَّ تخجَل من معاملتك مع خالقك. أهـ.

ثم فصّل ما يلقى بعد اللقاء فقال : {فأمّا مَن أوتي كتابه بيمينه} أي : كتاب عمله {فسوف يُحاسب حساباً يسيراً} ؛ سهلاً هيناً ، وهو الذي يُجازي على الحسنات ويتجاوز عن السيئات. وفي الحديث : " مَن يحاسَب عُذِّب " فقيل له : فأين قوله تعالى : {فسوف يُحاسب حساباً يسيراً} فقال : " ذلكم العرض ، مَن نُوقش الحساب عُذِّب " والعرض : أن يُقال له : فعلتَ كذا وفعلتَ كذا ، ثم يُقال له : سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم. {وينقلبُ إلى أهله} أي : إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين ، أو : إلى فريق المؤمنين ، أو : إلى أهله في الجنة من الآدمية أو الحور والغلمان ، أو : إلى مَن سبقه من أهله أو عشيرته ، إن قلنا : إنَّ الكتاب يُعطى بمجرد اللقاء في البرزخ ، فإنَّ الأرواح بعد السؤال تلحق بأهلها وعشيرتها ، حسبما تقدّم في الواقعة. وقوله تعالى : {مسروراً} أي : مبتهجاً بحاله ، قائلاً : {هَآؤُمُ اقْرَؤُاْ كِتَابِيَهْ} [الحاقة : ١٩] أو : مسروراً بلقاء ربه ودوام وصاله.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٦٩

تنبيه : الناس في الحساب على أقسام ، منهم مَن لا حساب عليهم ولا عتاب ، وهم العارفون المقربون ، أهل الفناء في الذات ، ومنهم مَن يُحاسب حساباً يسيراً ، وهم الصالحون الأبرار ، ومنهم مَن يُناقش ويُعذِّب ثم ينجو بالشفاعة ، وهم عصاة المؤمنين ممن ينفذ فيهم الوعيد ، ومنهم مَن يُناقش ويخلد في العذاب ، وهم الكفرة ، وإليهم أشار بقوله :

{وأمّا مَن أُوتي كتابَه وراء ظهره} ، قيل : تغلّ يُمناه إلى عنقه ، وتُجعل شماله وراء ظهره. وقيل : يثقب صدره وتخرج منه إلى ظهره ، فيعطى كتابه بها وراء ظهره ، {فسوف يَدعو ثبُوراً} يقول : واثبوراه.

والثبور : الهلاك ، {ويَصْلَى سعيراً} أي : يدخلها ، {إنه كان} في الدنيا {في أهله} أي : معهم {مسروراً} بالكفر ، يضحك على مَن آمن بالبعث. وقيل : كان لنفسه متابعاً ، وفي هواه راتعاً ، {إنه ظنّ أن لن يَحُورَ} ؛ لن يرجع إلى ربه ، تكذيباً بالبعث. قال ابن عباس : ما عرفتُ تفسيره حتى سمعت أعرابية تقول لبنتها : حُوري. أي : ارجعي. {بلى} جواب النفي ، أي : يرجع لا محالة ، {إنَّ ربه كان به بصيراً} أي : إنَّ ربه الذي خلقه كان به وبأعماله الموجبة للجزاء " بصيراً " بحيث لا تخفى

٢٧٠

عليه منها خافية ، فلا بد من رجعه وحسابه عليها حتماً.

الإشارة : يا أيها الإنسان الطالب الوصول ، إنك كادح إلى ربك كدحاً بالمجاهدة والمكابدة فمُلاقيه بالمشاهدة المعاينة في مقام الفناء والبقاء ، فأمّا مَن أُوتي كتابه السابق له في الأزل " بيمينه " بكونه من أهل اليمين والسعادة " فسوف يُحاسب حساباً يسيراً " فيُؤدب في الدنيا إن وقع منه سوء أدب ، " وينقلب إلى أهله " إخوانه في الله " مسروراً " بوصوله إلى مولاه. قال الورتجبي : مسروراً بلقاء ربه ، وما نال من قُربه ووصاله ، وهذا للمتوسطين ، ومَن بلغ إلى حقيقة الوصال وصار أهلاً له لا ينقلب عنه إلى غيره. هـ. وأمّا مَن أُوتي كتابه السابق بخذلانه في الأزل ، وراء ظهره ، بحيث غفل عن التوجه إلى الله ، واتخذه وراء ظهره ، فسوف يدعو ثبوراً ، فيتمنى يوم القيامة أن لم يكن شيئاً ، ويصلى سعير القطيعة والبُعد إنه كان في أهله مسروراً منبسطاً في الدنيا ، مواجَهاً بالجمال من أهله وعشيرته ، ليس له مَن يؤذيه ، وهذا من علامة الاستدراج ، ولذلك لا تجد وليًّا إلاَّ وله مَن يُؤذيه ، يُحركه إلى ربه ، قال بعض الصوفية : قَلَّ أن تجد وليًّا إلاَّ وتحته امرأة تؤذيه. هـ. " إنه " أي : الجاهل ظنّ أن لن يحور إلى ربه في الدنيا ولا في الآخرة ، بل يرده اللهُ ويُحاسبه على النقير والقطمير ، إنه كان به بصيراً بظاهره وباطنه.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٦٩
يقول الحق جلّ جلاله : {فلا أُقسم بالشفقِ} وهي الحُمرة التي تُشاهد في أفق المغرب بعد الغروب ، أو : البياض الذي يليها ، سمي به لرقَّته ، ومنه : الشفقة التي هي رقة القلب. {والليلِ وما وَسَقَ} ؛ وما جمع وضمَّ ، يقال : وسقه فاتسق ، أي : جمعه فاجتمع ، أي : وما جمعه من الدواب وغيرها ، أو : ما جمعه من الظلمة والكواكب ، وما عمل فيه من التهجد ، {والقمرِ إِذا اتَّسَقَ} أي : اجتمع ضوؤه وتمّ نوره ليلة أربع عشرة.
{لَتَرْكَبُنَّ طبقاً عن طبق} ؛ لتُلاقُن حالاً بعد حال ، كل واحدة منها مطابقة لأختها في الشدّة والفظاعة ، كأحوال شدائد الموت ، ثم القبر ، ثم البعث ، ثم الحشر ، ثم الحساب ، ثم الميزان ، ثم الصراط. أو : حالاً بعد حال ، النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ثم الجنين ، ثم الخروج إلى الدنيا ، ثم الطفولة ، ثم الكهولة ، ثم الشيخوخة ، ثم الهرم ، ثم الموت.. وما ذكر بعده آنفاً إلى دخول الجنة أو النار. وقال بعض الحكماء : يشتمل الإنسان من كونه نطفة إلى أن يَهرم على نيف وثلاثين اسماً : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ،
٢٧١
ثم عظاماً ، ثم خلقاً آخر ، ثم جنيناً ، ثم وليداً ، ثم رضيعاً ، ثم فطيماً ، ثم يافعاً ، ثم ناشئاً ، ثم مترعرعاً ، ثم مزوَّراً ، ثم مراهقاً ، ثم محتلماً ، ثم بالغاً ، ثم حَمَلاً ، ثم ملتحياً ، ثم مستوفياً ، ثم مصعَداً ، ثم مجتمعاً - والشباب يجمع ذلك - ثم مَلْهوراً ، ثم كهلاً ، ثم أشمط ، ثم شيخاً ، ثم أشيب ، ثم حَوْقلاً ، ثم مُقتاتاً ، ثم هما ، ثم هرماً ، ثم ميتاً. وهذا معنى قوله : {لَتَرْكَبُنَّ طبقاً عن طبق}. هـ. من الثعلبي. أو : لتركبن سنن مَن قبلكم ، حالاً بعد حال.
هذا على مَن قرأ بضم الباء ، وأمّا مَن قرأ بفتحها فالخطاب إمّا للإنسان المتقدم ، فيجري فيه ما تقدّم ، أو : للنبي صلى الله عليه وسلم ، أي : لتركَبَن مكابدة الكفار حالاً بعد حال ، أو : لتركَبَن فتح البلاد شيئاً بعد شيء ، أو : لتركَبَن السماوات في الإسراء ، سماء بعد سماء. أو : لتركَبَن أحوال أيامك ، حالاً بعد حال ، حال البعثه ، ثم حال الدعوة ، ثم حال الهجرة ، ثم حال الجهاد وفتح البلاد ، ثم حال الحج وتوديع العباد ، ثم حال الرحيل إلى دار المقام ، ثم حال الشفاعة ، ثم حال المقام في دار الكرامة. فالطبق في اللغة يُطلق على الحال ، كما قال الشاعر :

الصبر أجمل والدنيا مفجعةٌ
مَن ذا الذي لم يزوّر عيشه رنقا
إذا صفا لك من مسرورها طبق
أهدى لك الدهر من مكروهها طبقا
ويطلق على الجيل من الناس يكون طباق الأرض ، أي : ملأها ، ومنمهم قول العباس في النبي صلى الله عليه وسلم :
تَنَقَّل من صَالبٍ إلى رَحِمٍ
إذا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ
ومحل (عن طبق) : النصب ، على أنه صفة لطبق ، أي : طبقاً مجاوزاً لطبق ، أو : حال من الضمير في " لتركبن " أي : مجاوزين لطبق. {فما لهم لا يؤمنون} ، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، من أحوال يوم القيامة وأهوالها ، أي : إذا كان الأمر يوم القيامة كما ذكر ، فأيّ شيء حصل لهم حال كونهم غير مؤمنين ، أي : أيّ شيء يمنعهم من الإيمان ، وقد تعاضدت موجباته ؟ {وإذا قُرِىءَ عليهم القرآنُ لا يسجدون} ولا يخضعون ، وهي أيضاً جملة حالية ، نسقاً على ما قبلها ، أي : أيّ : مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم واستكانتهم عند قراءة القرآن ؟ . قيل : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم : {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب} [العلق : ١٩] فسجد هو ومَن معه من المؤمنين ، وقريش تُصَفِّق فوق رؤوسهم وتُصفِّر ، فنزلت. وبه احتجّ أبو حنيفة على وجوب السجدة وعن ابن عباس : " ليس في المفصل سجدة " ، وبه قال مالك. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سجد فيها ، وقال : " والله ما سجدت إلاّ بعد أن رأيت النبي صلى الله عليه وسلم سجد

٢٧٢

فيها " ، وعن أنس رضي الله عنه : " صليتُ خلف أبي بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ فسجدوا ". ولعلهم لم يبلغهم نسخ سجدتها.
{بل الذين كفروا يُكذّبون} بالقرآن الناطق بما ذكر من أحوال القيامة وأهوالها ، مع تحقُّق موجبات تصديقهم ، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته {واللهُ أعلم بما يُوعدون} ؛ بما يُضمرون في قلوبهم ، ويُخفون في صدورهم من الكفر والحسد والبغي والبغضاء ، أو : بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء ، ويدّخرون لأنفسهم من أنواع العذاب ، {فبشّرهم بعذابٍ أليمٍ} ؛ أخبرهم يظهر أثره على بشرتهم ، {إلاَّ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات} ، استثناء منقطع ، {لهم أجرٌ غيرُ ممنونٍ} ؛ غير مقطوع ، أو غير ممنونٍ به.
الإشارة : أقسم تعالى بنور بداية الإيمان ونهايته ، وما اشتمل عليه ليل الحجاب من أنواع العُمال ، فقال تعالى " فلا أُقسم بالشفق " ؛ بنور بداية الإيمان ، الذي هو كبياض الشفق ، " والليل وما وسق " ؛ وليل

الحجاب ، وما اشتمل عليه من العُبّاد والزُهّاد والأبرار والعلماء الأتقياء ، وقمر الإيمان إذا جنح نوره ، وقَوِيَ دليله " لتَركبُن " أيها السالكون ، طبقاً عن طبق ؛ حالاً بعد حال ، حتى تنتهوا إلى شمس العيان ، فأول الأحوال : حال التوبة ، ثم حال اليقظة ، ثم حال المجاهدة في خرق عوائد النفس ، ثم حال المراقبة ، ثم حال الاستشراف ، على الحضرة ، ثم حال المشاهدة ، ثم حال المعاينة ، ثم حال المكالمة ، ثم حال الترقِّي إلى ما لا نهاية له. فما لهم ، أي : لأهل الإنكار ، لا يؤمنون بسلوك هذا الطريق ، وإذا قُرِىء عليهم القرآن الدالّ على هذا المنهاج لا يخضعون ولا يتدبرونه حق تدبيره ، بل الذين كفروا بطريق الخصوص ، يُكّبون بها. والله أعلم بما يوعون في قلوبهم من الأمراض والعيوب ، أو من الإنكار ، فبشِّرهم بعذاب البُعد والحجاب ، إلاَّ الذين آمنوا وصدّقوا بطريق الخصوص ، وسَلَكوها معهم ، لهم آجر ، وهو مقام الشهود ، غير ممنون ؛ غير مقطوع ، بل تترادف الأنوار والأسرار والكشوفات إلى غير نهاية ، أو : غير ممنون به ، بل مواهب من الله بلا مِنّة. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.
٢٧٣

(٣١٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧١
سورة البروج

(٣١٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧٣
يقول الحق جلّ جلاله : {والسماءِ ذات البروجِ} الأثني عشر ، وهي الحَمَل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت. شُبهت بالقصور لأنها تنزلها السيارة ، وتكون فيها الثوابت ومنازل القمر ، أو : عُظْم الكواكب ، سُميت بروجاً لظهورها ، من : التبرُّج ، أي الظهور ، أو : أبواب السماء ، فإنَّ النوازل تخرج منها ، {واليومِ الموعودِ} أي : يوم القيامة.
{وشاهدٍ ومشهودٍ} أي : وشاهد في ذلك اليوم ومشهود فيه ، والمراد بالشاهد : مَن يشهد فيه من الخلائق كلهم ، وبالمشهود فيه : ما في ذلك اليوم من عجائبه وأهواله ، إذا أُريد بالشهود : الحضور ، وإذا أريد الشهادة ، فيُقَدّر المعمول ، أي : مشهود عليه أو مشهود به. وقد اضطربت الأقوال في

الشاهد والمشهود ، فقيل : الشاهد : أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والمشهود : سائر الأمم ؛ لأنه يشهدون عليهم كما تقدّم وقيل : الشاهد : عيسى

عليه السلام ، والمشهود : أمته ، لقوله : {وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ} [المائدة : ١١٧] ، وقيل : الشاهد : جميع الأنبياء ، والمشهود : أممهم ، وقيل : الشاهد : الملائكة الحفظة ، والمشهود : الناس ، لأنهم يشهدون عليهم يوم القيامة. وقيل : الشاهد : الجوارح ، والمشهود عليهم : أصحابها وقيل : الشاهد : الله والملائكة وأولو العلم ، والمشهود به : الوحدانية ، لقوله تعالى : {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَاهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ} [آل عمران : ١٨] الخ. وقيل : الشاهد : جميع المخلوقات ، والمشهود به : وجود خالقها وإثبات صفاته من الحياة والقدرة... وغير ذلك.
وقيل : الشاهد : النجم ، للحديث : " لا صلاة بعد العصر حتى يطلع الشاهد " أي : النجم والمشهود : الليل ، لأن النجم يشهد بانقضاء النهار ودخول الليل. وقيل : الشاهد : الحجر الأسود ، والمشهود : الناس يحجون ، لأنه يشهد عليهم يوم القيامة لمَن قَبّله أو لمسه. وقيل : الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة ، لأنَّ يوم الجمعة يشهده بالأعمال ، ويوم عرفة يشهده الناس ، وهذا مروي عنه صلى الله عليه وسلم. وقيل : الشاهد : يوم عرفة ، والمشهود : يوم النحر. قاله عليّ رضي الله عنه ، انظر ابن جزي. وقيل : الشاهد : الأيام والليالي ، والمشهود : بنو آدم ، للحديث " ما من يوم إلاَّ وينادي : أنا يوم جديد ، وعلى ما يُفعل به شهيد ، فاغتنمني " وكذلك تقول الليلة ، وأنشدوا :

(٣٢٠/٨)

مضى أمْسُك الماضي شهيداً معدّلاً
وخُلّفتَ في يوم عليك شهيدُ
فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة
فَثَنْ بإحسانٍ وأنت حميدُ
ولا تُرْج فعْل الخير يوماً إلى غدٍ
لعل غداً يأتي وأنت فقيدُ
فيومُك إن أتعبتَه نفعه غدا
عليك وماضي العَيْش ليس يعودُ
وجواب القسم إمّا محذوف يدلّ عليه : {قُتل...} الخ ، كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء أنّ كفار قريش

ملعونون كما لُعن {أصحابُ الأخدود} أو : هو قتل بعينه على حذف اللام ، لطول الكلام ، أي : لقد قُتل أصحاب الأخدود ، والمراد : تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان ، وتصبيرهم على أذى الكفرة ، وتذكيرهم بما جرى على مَن تقدمهم من التعذيب ، وصبرهم على ذلك ، حتى يأنسوا ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أنَّ هؤلاء الكفرة بمنزلة أولئك ، ملعونون مثلهم. والأخدود : الخد في الأرض ، أي : الشق.

٢٧٥

رُوي في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كان لبعض الملوك ساحر ، فلمّا كبر ، قال للملك : قد كبرتُ فابعث إليّ غلاماً أعلّمه السحر ، فضمّ إليه غلاماً ليعلّمه ، وكان في طريق الغلام راهبٌ ، فسمع منه وأعجبه ، وكان يحتبس عنده ، فيضربه الساحرُ ، فقال له الراهبُ : إذاخشيت الساحرَ ، فقل له : حبسني أهلي ، وإذا خشيتَ أهلك ، فقل : حبسني الساحرُ ، فرأى في طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس ، وقيل : كانت أسداً ، وقيل : ثُعباناً ، فأخذ حجراً ، وقال : اللهم إن كان الراهب أحبّ إليك من الساحر فاقتلها ، فقتلها ، وكان الغلام تعلَّم من الساحر اسم الله الأعظم ، فكان الغلام يُبرىء الأكمه والأبرص ، ويشفي من الأدواء ، فعمي جليس الملكُ فأبراه ، وأبصره الملكُ ، فقال : مَن ردَّ عليك بصرك ؟ فقال : ربي ، فغضب ، فعذّبه ، فدلّ على الغلام ، فعذّبه ، فدلّ على الراهب ، فلم يرجع عن دينه ، فقدّ بالمنشار ، وأبى الغلامُ ، فذهب به إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا ، فرجف بالقوم ، فطاحوا ، ونجا ، فذهب به إلى قُرْقُورة . وهي السفينة . فلجَجوا به ليغرقوه ، فدعا ، فانكفأتْ بهم السفينةُ ، فغرقوا ، ونجا ، فقال للملك : لستَ بقاتلي حتى تجمع الناسَ في صعيد ، وتصلبني على جذع ، وتأخذ سهماً من كنانتي ، وتقول : بسم الله ربّ الغلام ، ثم ترميني به ، فرماه فوقع في صدغه ، فوضع يده عليه ومات. فقال الناس : آمنا بربّ الغلام ، فقيل للملك : نزل بك ما كنت تحذر ، فخدّ أخدوداً ، فملأها ناراً ، فمَن لم يرجع عن دينه طرحه فيها ، حتى جاءت امرأة معها صبيٌّ ، فتقاعست ، فقال الصبيّ : يا أماه! اصبري ، فإنك على الحق ، فاقتحمت بصبيها. وقيل لها : قعي ولا تنافقي ، ما هي إلاّ غميضة " والحديث في صحيح مسلم.

(٣٢١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧٦

واسم الغلام : عبد الله بن الثامر ، واسم الراهب : فيميون ، واسم الملك : ذو نواس. وقد ذكر القصة الكلاعي بتمامها. وقيل : تعددت قضية الأخدود ، فكانت واحدة بنجران باليمن ، والأخرى بالشام ، والأخرى بفارس ، فنزل القرآن في الذي بنجران. انظر التثعلبي. قال سعيد بن المسيب : كنا عند عمر

، إذ ورد عليه أنهم وجدوا ذلك الغلام حين حفروا خربة ، وأُصْبعه على صُدْغِه كما قتل ، فكلما مدت يده رجعت مكانها ، فكتب عمر : أن واروه حيث وجدتموه.هـ.

وقوله تعالى : {النارِ} ؛ بدل اشتمال من " الأخدود " فحذف الضمير ، اي : فيه ، وقيل : قاعدة الضمير أغلبية ، و {ذات الوقود} وصَفٌ لها بغاية العظم ، وارتفاع اللهب ، وكثرة ما يوجبه من الحطب وأبدان الناس ، {إذ هم عليها قعودٌ} ؛ ظرف لقُتل ، أي : لُعنوا حين حرّقوا المؤمنين بالنار ، قاعدين عليها في مكان مشرف عليها من جنبات الأخدود ،

٢٧٦

{وهم معلى ما يفعلون بالمؤمنين} من الأحراق {شُهودٌ} يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنَّ أحداً منهم لم يُقَصِّر فيما أمر به ، وفوّض إليه من التعذيب ، أو : : إنهم {شهود} يشهدون بما فعلوا بالمؤمنين يوم القيامة ، يوم تشهد عليهم ألسنتُهم ، وقيل : " على " بمعنى " مع " أي : وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور ، ولا يَرقّون لهم ، لغاية قسوة قلوبهم. وهذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم ، وتنطق به الروايات المشهورة.

وقد رُوِي أنَّ الجبابرة لمّا ألقوا بالمؤمنين في النار ، وهم قعود عليها ، علقت بهم النار ، فاحترقوا ، ونجّا اللهُ المؤمنين سالمين ، وإلى هذا القول ذهب الربيعُ بن أنس والواحدين وعلى ذلك حملا قوله تعالى : {ولهم عذاب الحريق}.

{وما نَقَمُوا منهم} أي : وما عابوا منهم وأنكروا عليهم ، يقال : نقم ـ بالفتح والكسر : عاب ، أي : عابوا منهم {إلاَّ أن يؤمنوا بالله} وهذا كقول الشاعر :

ولا عَيْبَ فيهم غير أنَّ سيوفهم

بهن فُلولٌ من قِرَاع الكتائبِ

وكقوله تعالى : {الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ} [الحج : ٤٠] وعبّر بلفظ المضارع ، ولم يقل : إلاَّ أن آمنوا ، مع أنَّ القصة قد وقعت ، لإفادة أنَّ التعذيب إنما كان دوامهم على الإيمان ، ولو كفروا بالرجوع عن الإيمان في المستقبل لم يعذبوهم. وقوله تعالى : {العزيزِ الحميدِ} ، ذكر الأوصاف الذي يستحقّ بها أن يؤمن به ، وهو كونه عزيزاً غالباً قادراً ، يُخشى عقابه ، حميداً منعماً ، يجب له الحمد على نعمته ويرجى ثوابه ، ليقرر أنَّ وصف الإيمان الذي عابوا منهم وصف عظيمٌ ، له جلالة ، وأنَّ مَن رام صاحبه بالانتقام والعيب كان مبطلاً مبالغاً في الغي ، يستحق أن ينتقم منه بعذاب لا يُقادر قدره.

}

الذي له ملك السمواتِ والأرض} فكل مَن فيها يحق عليه عبادته والخضوع له ، {واللهُ على كل شيءٍ شهيدٌ} وعيد لهم شديد ، يعني : أنه تعالى عَلِمَ بما فعلوا وسيجازيهم عليه.
{إنَّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات} أي : محقوهم في دينهم ليرجعوا عنه ، والمراد بهم : إمّا أصحاب الأخدود خاصة ، وبالمفتونين : المطروحين في الأخدود ، وإمّا الذين بَلوْهم في ذلك بالإذاية والتعذيب على الإطلاق ، وهم داخلون في جملتهم دخولاً أولياً. قال ابن عطية : الأشبه أنَّ المراد بهؤلاء قريش ، حيث طانوا يُعَذَّبون مَن أسلم ، ويقويه بعض التقوية : قوله تعالى : {ثم لم يتوبوا} لأنه رُوي : أنّ أصحاب الأخدود ماتوا على كفرهم ، وأمّا قريش فكان منهم مَن تاب بعد نزول الآية.هـ. مختصراً. {فلهم عذابُ
٢٧٧
جهنَّمَ} في الآخرة لكفرهم ، {ولهم عذابُ الحريق} في الدنيا لِما تقدّم أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم ، أو : عذاب الحريق : نار أخرى عظيمة تحرقهم في الآخرة ، لسبب فتنتهم للمؤمنين. والجملة : خبر " إن " ودخلت الفاء لتضمين المبتدأ معنى الشرط ، ولا ضَرَرَ في نسخة بـ " إنَّ " وإن خالف في ذلك الأخفش. الإشارة : والسماء ذات البروج ، أي : سماء الحقائق ، صاحبة المنازل التي تنزل فيها السالك في ترقِّبه إليها ، مَن أرض الشرائع ، كمقام التوبة ، ثم الصبر ، ثم الورع ، والزهد ، ثم التكُّل ، ثم الرضا والتسليم ، ثم المراقبة ، ثم المشاهدة ، واليوم الموعود يوم الفتح الأكبر ، وهو وقت الخروج من شهود الكون إلى شهود المكوِّن ، وشاهد هو الذي يشهد ذات الحق عياناً ، ومشهود ، هو عظمة الذات العلية وأسرارها وأنوارها. وقال الورتجبي : الشاهد هو والمشهود هو ، يرى نفسه بنفسه ، أي : لا يراه أحد بالحقيقة سواه ، وأيضاً : الشاهد هو ، إذا تجلّى بتجلِّي الجمال والحس ، والمشهود قلوب العارفين شاهَدَها بنعت الكشف ، وأيضاً : اشاهد هو قلوب المحبين ، والمشهود لقاؤه ، وهو شاهدهم وهو مشهودهم ، هو شاهد العارف والعارف شاهده.هـ. قُتل أصحابُ الأخدود ، وهم الصادُّون عن طريق الحق أينما كانوا وكيف كانوا ، المعذِّبون لأهل التوجه ، وما نقموا منهم إلاّ طلب كمال الإيمان ، وتحقيق الإيقان. إنّ الذي فتنوا أهل التوجه ثم لم يتوبوا فلهم عذاب البُعد ولهم عذاب الاحتراق بالحرص والتعب والخوف والجزع.
ثم ثنى بأضدادهم ، فقال :

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧٦

يقول الحق جلّ جلاله : {إنّ الذين آمنوا} وصبروا على الإيمان {وعَمِلوا الصالحات} من المفتونين وغيرهم {لهم} بسبب ذلك الإيمان والعمل الصالح {جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ} ، إن أُريد بالجنات الأشجار فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أُريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جريها الظاهرة ، فإنَّ أشجارها ساترة لساحتها ، كما يعرب عنه اسم الجنة. {ذلك هو الفوزُ الكبير} الذي تصغر عنده الدنيا وما فيها من فنون الرغائب بحذافيرها ، والفوز : النجاة من الشر والظفر بالخير. والإشارة إمّا إلى الجنة الموصوفة بما ذكر ، والتذكير لتأويلها بما ذكر ، وإمّا إلى ما يفيده قوله : {لهم جنات...} الخ ، من حيازتهم لها ، فإنَّ حصولها لهم مستلزم لحيازتهم لها قطعاً ، وما فيه

٢٧٨

من البُعد للإيذان بعلو درجته ، وبُعد منزلته في الفضل. ومحله : الرفع ، وخبره : ما بعده.

{إنَّ بطشَ ربك لشديدٌ} ، البطش : الأخذ بعنف ، فإذا وُصف بالشدة فقد تفاقم وتعاظم أمره. والمراد : أخذ الظلمة والجبابرة بالعذاب والانتقام ، وهو استئناف ، خواطب به النبي صلى الله عليه وسلم إيذاناً بأنَّ لكفار قوهه نصيباً موفوراً من مضمونه ، كما يُنبىء عنه التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة لضميره صلى الله عليه وسلم. {إنه هو يُبدىء ويُعيد} أي : هو يُبدىء الخلق وهو يُعيده ، من غير دخلٍ لأحد في شيء منها. ففيه مزيد تقرير لشدة بطشه ، فقد دلّ باقتداره على البدء والإعادة على شدة بطشه ، أو : هو يُبدىء البطش بالكفرة في الدنيا ويُعيده في الآخرة. {وهو الغفورُ} الساتر للعيوب ، الغافر للذنوب ، {الودودُ} المحب لأوليائه ، أو : الفاعل بأهل طاعته ما يفعله الودود ، من إعطائهم ما أرادوا ، {ذو العرش} أي : خالقه ومالكه ، وقيل : المراد بالعرش : المُلك ، أي : ذو السلطة القاهرة {المجيدُ} بالجر صفة للعرش ، وبالرفع صفة لذُو ، أي : العظيم في ذاته ، فإنه واجب الوجود ، تام القدرة {فعَّالٌ لما يُريد} بحيث لا يتخلّف عن إرادته مراد من أفعاله تعالى وأفعال عباده ، ففيه دلالة على خلق أفعال العباد ، وهو خبر عن محذوف.

}

(٣٢٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧٨

هل أتاك حديثُ الجنود} أي : قد أتاك حديث الطاغية والأمم الخالية. وهو استفهام تشويق مقرر لشدّة بشطه تعالى بالظَلَمة العصاة ، والكفرة العتاة. وكونه فعال لما يُريد مع تسليته صلى الله عليه وسلم بأنه

سيصيب قومه صلى الله عليه وسلم ما أصاب تلك الجنود. {فرعونَ وثمودَ} ؛ بدل من الجنود ؛ لأنَّ المراد بفرعون هو وقومه. والمراد بحديثهم : ما صدر منهم من التمادي على الكفر والضلال ، وما حلّ بهم من العذاب والنكال ، أي : قد أتاك حديثهم ، وعرفت ما فعل بهم ، فذكّر قومك ببطش الله تعالى ، وحذّرهم أن يُصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم.

{بل الذين كفروا في تكذيبٍ} ، إضراب عن مماثلتهم ، وبيان لكونهم أشد منهم في الكفر والطغيان ، كأنه قيل : ليسوا مثلهم في ذلك ، بل هم أشد منهم في استحقاق العذاب واستيجاب العقاب ، فإنهم مستقرُّون في تكذيبٍ شديد للقرآن الكريم ، أو كأنه قيل : ليست جنايتهم مجرد عدم التذكُّر والاتعاظ بما سمعوا من حديثهم ، بل هم مع ذلك في تكذيب شديدٍ للقرآن الناطق بذلك ، لكن لا أنهم يكذبون بوقوع تلك الحادثات ، بل لكون ما نطق به قرآناً من عند الله تعالى مع وضوح أمره ، وظهور حاله ، بالبينات الباهرة. {واللهُ من ورائهم محيط} ؛ عالم بأحوالهم ، قادر عليهم ، لا يفوتونه. وهو تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله تعالى بعدم فوات المحاط المحيط.

{بل هو قرآن مجيد} أي : بل هذا الذي كذّبوا به قرآن شريف عالي الطبقة في الكتب السماوية ، وفي نظمه وإعجازه ، وهو رد لكفرهم وإبطال لتكذيبهم ، وتحقيق للحق ، أي : ليس الأمر كما قالوا ، بل هو كتاب شريف {في لوح محفوظ} من التحريف والتبديل. وقرأ نافع بالرفع صفة للقرآن ، والباقي بالجر صفة للوح ، أي : محفوظ من

وصول الشياطين إليه. واللوح عند الحسن : شيء يلوح للملائكة يقرؤونه ، وعن ابن عباس رضي الله عنه : هو من درّة بيضاء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، قلمه نور ، وكل شيءٍ فيه مسطور. قال مقاتل : هو عن يمين العرش ، وقيل : أعلاه معقود بالعرش ، وأسفله في حِجْرِ ملَك كريم هـ.

الإشارة : إنَّ الذين آمنوا إيماناً حقيقيًّا شهوديًّا ، وعملوا الصالحات بأيدي القلوب والأرواح والأسرار ، يعني العمل الباطني ، لهم جنات المعارف ، تجري من تحتها أنهار العلوم والحِكم ، ذلك هو الفوز الكبير والسعادة العظمى. إنَّ بطش ربك بأهل الإنكار الجاحدين لأهل الخصوصية لَشَدِيد ، وهو غم الحجاب وسوء الحساب ، إنه هو يُبدىء ويُعيد ، يُبدىء الحجاب للمحجوبين ، ويُعيد الشهود للعارفين ، وهو الغفور للتائبين المتوجهين ، الودود للسائرين المحبين. قال الورتجبي : الغفور للجنايات ، الودود بكشف المشاهدات. هـ. ذو العرش : ذو السلطة القاهرة على العوالم العلوية والسفلية. قال الورتجبي : وصف نفسه بإيجاد العرش ، ثم وصف نفسه بالشرف والتنزيه ، أي : بقوله : {المجيد} إعلاماً بأنه كان ولا مكان ، والآن ليس في المكان ، إذ جلاله وجماله منزَّه عن مماسة المكان ، والحاجة إلى الحدثان. هـ. قال القشيري : ويجوز أن يكون المراد بالعرش : قلب العارف المستَوي للرحمن ، كما جاء الحديث : " قلب العارف عرش الله " هـ.

(٣٢٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧٨

فعّال لما يُريد ، يُقرِّب البعيد ويُبعد القريب إن شاء. قال القشيري : إنْ أراد أن يجعل أرباب الأرواح من أرباب النفوس فهو قادر على ذلك ، وهو عادل في ذلك ، وإن أراد عكس ذلك فهو كذلك. هـ. فلذا كان العارف لا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير الله قراره ، هل أتاك حديث الجنود ، أي : جنود النفس التي تُحارب به الروح لتهوي بها إلى الحضيض الأسفل ، ثم فسّرها بفرعون الهوى ، وثمود حب الدنيا ، والطبع الدني. بل الذين كفروا بطريق الخصوص في تكذيب ، لهذا كله ، فلا يُفرقون بين الروح والنفس ، ولا بين الفرق والجمع ، والله من ورائهم محيط ، لا يفوته شيء ، لإحاطة المحيط بالأشياء ذاتاً وصفاتاً وفعلاً ، بل هو ـ أي : ما يوحي إلى الأسرار الصافية ، والأرواح الطاهرة ـ قرآن مجيد في لوح محفوظ عن الخواطر والهواجس الظلمانية ، وهو قلب العارف. والله تعالى أعلم.

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

٢٨٠

(٣٢٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧٨

سورة الطارق

(٣٢٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٨٠

يقول الحق جلّ جلاله : {والسماءِ والطارقِ} ، عظّم تعالى قَدْر السماءِ في أعين الخلق ؛ لكونها معدن رزقهم ، ومسكن ملائكته ، وفيها خلق الجنّة ، فأقسم بها وبالطارق ، والمراد : جنس النجوم ، أو جنس الشهُب التي يُرجم بها ، لعِظم منفعتها ، ثم عظَّمه ونوّه به ، فقال : {وما أدراك ما الطارقُ} بعد أن فخّمه بالإقسام به ، تنبيهاً على رفعة قدره بحيث لا يناله إدراك الخلق ، فلا بد من تلقّيه من الخلاّق العليم ، أي : أيّ شيء أعلمك بالطارق ، ثم فسّره بقوله : {النجمُ الثاقبُ} ؛ المضيء ، فكأنّه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه ، ووصف بالطارق لأنه يبدو بالليل ، كما يُقال للآتي ليلاً : طارق ، أو : لأنه

يطرق الجنِّيَّ ، أي : يُصكّه. وقيل : المراد به كوكب معهود ، قيل : هو الثريا ، وقيل زُحل ، وقيل الجدي.

ثم ذكر المقسَم عليه ، فقال : {إن كُلُّ نفسٍ لمَّا عليها حافظٌ} ، " إن " نافية ، و " لمّا " بمعنى " إلاّ " في قراءة مَن شدّدها ، وهي لغة هذيل ، يقولون : " نشدتك الله لمّا قمت " أي : إلاّ قمت ، أي : ما كل نفس إلاّ عليها حافظ مهيمن رقيب ، وهو الله عزّ وجل ، كما في قوله تعالى : {وَكَانَ اللَّهُ عَلَىا كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً} [الأحزاب : ٥٢] أو : مَن يحفظ عملها ، ويحصي عليها ما تكسب من خير أو شر ، كما في قوله تعالى : {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ(١٠)} [الانفطار : ١٠] أو : مَن يحفظها من الآفات ، ويذب عنها ، كما في قوله تعالى : {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ

٢٨١

يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [الرعد : ١١] ، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : " وُكِّل بالمؤمن ستون ومائة ملك ، يذبون عنه ما لم يُقدّر عليه ، كما يذب عن قصعة العسل الذبابَ ، ولو وكل المرء إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين " ثم قرأ صلى الله عليه وسلم : {إن كل نَفْس..} الخ. و " ما " : صلة في قراءة من خفف ، أي : إنه ، أي : الأمر والشأن كل نفس لعليها حافظ.

}

(٣٢٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٨١

فلينظر الإنسانُ مِمَّ خُلق} ، لمّا ذكر أنَّ على كل نفسٍ حافظاً ، أمره بالنظر في أوّل نشأته ، وبالتفكُّر فيها حق التفكُّر ، حتى يتضح له أنَّ مَن قَدَر على إنشائه من موادٍ لم تشم رائحة الحياة قط ، فهو قادر على إعادته ، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ما ينفعه يومئذٍ ويُجزى به ، ولا يملي على حافظه ما يُرديه ، فالفاء فصيحة تُنبىء عن هذه الجُمل ، أي : إذا علم أنَّ على كل إنسان حفظة يحفظونه من الآفات ، أو يكتبون أعماله ، خيره وشرها ، دقيقها وجليلها ، وأنه لم يُخلَق عبثاً ، ولم يُترك سُدى ، فلينظر في أول نشأته حتى يتحقق أنَّ له صانعاً ، فيعبده ولا يشرك به شيئاً ، ثم فسَّر أصل نشأته فقال : {خُلق من ماء دافقٍ} ، فهو استئناف بياني ، كأنه قيل : مِمَّ خُلق ؟ فقال : خُلق من ماء دافق ، والدفق : صبٌّ فيه دفعٌ وسرعة ، والدفق في الحقيقة لصاحبه ، والاستناد إلى الماء مجاز ، ولم يقل : من ماءين ؛

لامتزاجهما في الرحم واتحادهما. {يَخرج من بين الصُلب والترائب} أي : صُلب الرجل وترائب المرأة ، وهي عِظام صدرها ، حيث تكون القلادة ، وقيل : العظم والعصب من الرَجل ، واللحم والدم من المرأة ، وقال بعض الحكماء : إنَّ النطفة تتولد من فضل الهضم الرابع ، وتنفصل عن جميع الأعضاء ،

حتى تستعد لأنّ يتولّد منها مثل تلك الأعضاء ومقرها عروق مُلتف بعضها على بعض عند البيضتيْن ، فالدماغ أعظم معونة في توليدها ، ولذلك كان الإفراط في الجماع يُورث الضعف فيه ، وله خليفة هو النخاع ، وهو في الصلب ، وفيه شُعب كثيرة نازلة إلى الترائب ، وهما أقرب إلى أوعية المَني ، فلذا خُصّا بالذكر ، فالمعنى على هذا : يخرج من بين صلب الرجل وترائبه وصلب المرأة وترائبها ، وهو الأحسن ، وبه صدر ابن جزي.

{إنه} أي : الخالق ، لدلالة " خُلِق " عليه ، أي : إنَّ الذي خلق الإنسانَ ابتداء من نُطفة ، {على رَجْعِهِ} ؛ على إعادته بعد موته {لقادرٌ} بيّن القدرة. وجِيء ب " إنّ " واللام وتنكير الخبر ليدل على رد بليغ على مَن يدّعي أنه لا حشر ولا بعث ، حتى كأنه لا تتعلق القدرة بشيء إلاَّ بإعادة الأرواح إلى الأجساد ، {يومَ تُبلى السرائرُ} أي : تكشف ويُتصفَّح ما فيها من العقائد والنيات وغيرها ، وما أخفي من الأعمال ، ويتبين ما طاب منها وما خبث. والسرائر : القلوب ، هو ظرف ل " رَجْعِهِ " ، أي : إنه لقادر على رده بالبعث في هذا

٢٨٢

اليوم الذي تُفضح فيه السرائر ، {فما له مِن قوةٍ} في نفسه يمتنع بها {ولا ناصرٍ} ينتصر به ويدفع عنه غير الله تعالى. ولمّا كان رفع المكان في الدنيا إمّا بقوة الأنسان ، وإمّا بنصر غيره له ، أخبر الله بنفيهما يوم القيامة.

(٣٢٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٨١

الإشارة : أقسم تعالى بقلب العارف ، لأنه سماءٌ لشمس العرفان وقمرِ الإيمان ونجوم العلم ، وبما يطرقه من الواردات الإلهية والنفحات القدسية ، ثم نوّه بذلك الطارق ، فقال : {وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب} أي : هو نجم العلم الثاقب لظلمة الجهل ، إمّا جهل الشرائع أو جهل الحقائق. إن كُلُّ نفس لمّا عليها حافظ ، وهو الله ، فإنه رقيب على الظواهر والبواطن ، ففيه حث على تدقيق المراقبة ظاهراً وباطناً. فلينظر الإنسانُ مِمَّ خُلق في عالم الحكمة من جهة بشريته ، خُلق من ماء دافق ، يخرج من محل البول ويقع في محل البول ، فإذا نظر إلى أصل بشريته تواضع وانكسر ، وفي ذلك عِزُّه وشرفُه ، مَن تواضع رفعه الله. وفيه روح سماوية قدسية ، إذا اعتنى بها وزكّاها ، نال عز الدارين وشرف المنزلين " مَن عرف نفسه عرف ربه " فالإنسان من جهة بشريته أرضي ، ومن جهة روحانيته سماوي ، والحُكم للغالب منهما. إنه على رجعه : أي : رده إلى أصله ، حين برز من عالم الغيب ، بظهور روحه ، لقادر ، فيصير روحانيًّا سماويًّا ، بعد أن كان بشريًّا أرضيًّا ، وذلك يوم تُبلى السرائر بإظهار ما فيها من المساوىء

، ليقع الدواء عليها ، فتذهب ، فمَن لم يَفضح نفسه لم يظفر بها ، فما لها من قوةٍ على جهادها وإظهار مساوئها بين الأقران إلاّ بالله ، ولا ناصر ينصره على الظفر بها إلاَّ مِن الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٨/٣٣٠)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٨١

يقول الحق جلّ جلاله : {والسماءِ ذات الرجع} أي : المطر ، لأنه يرجع حيناً بعد حين ، وسمَّته العرب بذلك تفاؤلاً ، {والأرضِ ذات الصَّدْع} أي : الشق ، لأنها تنصدع عن النبات والأشجار ، لا بالعيون كما قيل ، فإنَّ وصف السماء بالرجع ، والأرض بالشق ، عند الإقسام بها على حقيّة القرآن الناطق بالبعث ؛ للإيماء إلى أنهما في أنفسهما من شواهده ، وهو السر في التعبير عنه بالرجع والصدع ، لأنَّ في تشقُّق الأرض بالنبات محاكاة للنشور ، حسبما ذكر في مواضع من القرآن ، لا في تشققها بالعيون. {إنه} أي : القرآن {لَقَولٌ فَصْلٌ} ؛ فاصل بين الحقّ والباطل ، كما قيل له : فرقاناً ، وصفَه بالمصدر ، كأنه نفس الفعل ، {وما هو بالهزلِ} أي : ليس في شيء منه شائبة هزل ، بل كله جد محض ، ومِن حقه ـ حيث وصفه الله بذلك ـ أن يكون مُهاباً في الصدور ، معظماً في القلوب ، يرتفع به قارئه وسامعه ، ويهتدي به الغواة ، وتخضع له رقاب العُتاة.

٢٨٣

{إنهم} أي : أهل مكة {يَكيدون} في إبطال أمره ، وإطفاء نوره {كيداً} على قدر طاقتهم {وأكيدُ كيداً} أي : أقابلهم بكيد متين لا يمكن رده ، فأسْتدرجهم إلى الهلاك من حيث لا يعلمون. فسمي جزاء الكيد كيداً ، كما سمي جزاء الاعتداء والسيئة اعتداءً وسيئة ، وإن لم يكن اعتداءً وسيئة ، ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله تعالى إلاَّ على وجه المشاكلة ، كقوله : {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [النساء : ١٤٢] إلى غير ذلك {فَمَهِّل الكافرين} أي : لا تدع بهلاكهم ، ولا تشغل بالانتقام منهم ، بل اشتغل بالله يكفِك أمرهم {أمهِلهم رُويداً} أي : إمهالاً يسيراً ، ف " أمهِلهم " : بدل من " مَهِّل " ، وخالف بين اللفظتين لزيادة التسكين والتصبير. و " رويداً " : مصدر أرود ، بالترخيم ، ولا يتكلم به إلاَّ مصغراً ، وله في الاستعمال وجهان آخران : كونه اسم فعل ، نحو رُويد زيداً ، وكونه حالاً ، نحو : سار القوم رويداً ، أي : متمهلين.

الإشارة : اعلم أنَّ الحقيقة سماء ، والشريعة أرض ، والطريقة سُلّم ومعراج يصعد إليها ، فمَن لا طريقة له لا عروج له إلى سماء الحقائق ، فأقْسَم تعالى بسماء الحقائق ، وأرض الشرائع ، على حقيّة القرآن ، ووصف الحقيقة بالرجع ، لأنه يقع الرجوع إليها بالفناء ، ووصف أرض الشريعة بالصَدْع ؛ لأنها تتصدّع

عن علوم وأنوار تليق بها ، ووصف القرآن بالفصل بين الحق والباطل ، فمَن طلب الحق من غيره أضلّه الله. ووصفه أيضاً بالجدّ غير منسوب لشيء من الهزل ، فينبغي للقارىء عند تلاوته أن يكون على حال هيبة وخشوع ، لا يمزج قراءته بشيء من الهزل أو الضحك ، كما يفعله جهلة القراء.

(٣٣١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٨٣

ثم أمر بالغيبة عن الأعداء ، والاشتغال بالله عنهم بقوله : {فَمَهِّل الكافرين أمهلهم رويداً} ، قال بعض العارفين : لا تشتغل قط بمَن يؤذيك ، واشتغل بالله يرده عنك ، فإنه هو الذي حرَّكه عليك ليختبر دعواك في الصدق ، وقد غلط في هذا خلق كثير ، اشتغلوا بإذاية مَن آذاهم ، فدام الأذى مع الإثم ، ولو أنهم رجعوا إلى الله لكفاهم أمرهم. هـ.

وبالله التوفيق. وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

٢٨٤

(٣٣٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٨٣

سورة الأعلى

(٣٣٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٨٤

يقول الحق جلّ جلاله : {سَبّح اسمَ ربك} أي : نزّه اسمه تعالى عن الإلحاد فيه ، بالتأويلات الزائغة ، وعن إطلاقه على غيره بوجهٍ يوجب الاشتراك في معناه ، فلا يُسمى به صنم ولا وثن ولا شيء مما سواه تعالى ، قال تعالى : {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً} [مريم : ٦٥] فلا يُقال لغيره تعالى : رب وإله ، وإذا كان أَمَر بتنزيه اللفظ فتنزيه الذات أحرى ، أو : نزّه اسمه عن ذكره لا على وجه الإجلال والإعظام ، أو : نزّه ذاته المقدَّسة عما لا يليق بها ، فيكون " اسم " صلة. و " الأعلى " صفة لرب ، وهو الأظهر. وعُلوه تعالى : قهريته واقتداره ، أو : تعاليه عن سمة الحدوث وعن مدارك العقول ، فلا يُحيط به وصف واصف أو علم عارف ، لا علو مكان. أو صفة للاسم ، وعلوه بعلو مسماه ، وقيل : قل : سبحان ربي

الأعلى. لمّا نزل : {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)} [الواقعة : ٧٤] قال صلى الله عليه وسلم : " اجعلوه في ركوعكم " فلما نزل : {سبح اسم ربك الأعلى} قال : " اجعلوه في سجودكم " وكانوا يقولون في الركوع : لك ركعت ، وفي السجود : لك سجدت ، فجعلوا هذا مكانه.
{الذي خلق فسَوَّى} أي : خلق كل شيء فسَوَّى خلقه ، ولم يأتِ به متفاوتاً غير متلائم ، ولكن على إحكام وإتقان ، دلالةً على أنه صادر عن عالم حكيم ، أو : سَوَّاه على ما يتأتى به كماله ويتيسّر به معاشه ، {والذي قَدَّر فهدى} أي : قَدَّر الأشياء في أزله ، فهدى
٢٨٥
كل واحد إلى ما سبق له من شقاوة وسعادة ، ورزقٍ وأجل ، أو : ما قَدَّر لكل حيوان ما يُصلحه ، فهداه إليه ، وعرَّفه وجه الانتفاع به ، فترى الولد بمجرد خروجه من بطن أمه يلتمس غذاه ، وكذا سائر الحيوانات ، فسبحان المدبِّر الحكيم : {الذي أخرج المرعى} أي : أنبت ما ترعاه الدواب غضًّا طريًّا ، {فجعله} بعد ذلك {غُثاءً} يابساً هشيماً {أحوى} ؛ أسود ، ف " أحوى " صفة لغُثاء ، وقيل : حال من المرعى ، أي : أخرجه أحوى من شدة الخضرة ، فمضت مدة ، فجعله غثاءً يابساً. وهذه الجمل الثلاث صفة للرب. ولمّا تغايرت الصفات وتباينت أتى لكل صفة بموصول. وعطف على كل صلة ما يترتب عليها.
}

سنُقرئك فلا تنسى} أي : سنعلمك القرآن فلا تنساه ، وهو بيان لهدايته تعالى الخاصة برسوله صلى الله عليه وسلم ، إثر بيان هدايته العامة لكافة مخلوقاته ، وهي هدايته صلى الله عليه وسلم لتلقي الوحي ، وحفظ القرآن الذي هو أهدى للعالمين ، مع ضمانه له. والسين إمّا للتأكيد ، وإمّا لأنَّ المراد إقراء ما أوحي إليه حينئذٍ وما سيوحى إليه ، فهو وعد كريم باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالإقراء ، أي : سنقرئك ما نوحي إليك الآن وفيما بعد على لسان جبريل عليه السلام ، أو : سنجعلك قارئاً فلا تنسى أصلاً ، من قوة الحفظ والإتقان مع أنك أُمِّي لا تدري ما الكتاب وما القراءة ، ليكون ذلك آية أخرى لك ، مع ما في تضاعيف ما تقرأ من الآيات البينات من حيث الإعجاز ، ومن حيث الإخبار بالمغيبات. وقوله تعالى : {إلاَّ ماشاء اللهُ} : استثناء مفرغ من أعم المفاعيل ، أي : فلا تنسى شيئاً من الأشياء إلاَّ ما شاء الله أن تنساه ؛ بأن ننسخ تلاوته ، وهذا إشارة من الله لنبيه أن يحفظ عليه الوحي ، فلا يتفلت منه شيءٌ ، إلاَّ ما شاء الله نسخه ، فيذهب به عن حفظه ، ويرفع حُكمه وتلاوته. قال الكواشي : إلاَّ ما

شاء اللهُ أن ننسيكه على سبيل النسخ ، أو تنساه ثم تذكره بعد. رُوي أنه صلى الله عليه وسلم أسقط آية في الصلاة ، فظنّ أُبي أنها نُسخت ، فسأله ، فقال : " نسيتها " ، قال الشيخ السنوسي : والمحققون على منع النسيان لشيءٍ من الأقوال البلاغية قبل التبليغ ، لإجماع السلف ، وأما بعد التبليغ ، فجائز ؛ لأنه من الأعراض البشرية. هـ. وفي الحديث : " إنما أنا بشَرٌ ، أنسى كما تَنْسَوْن ، فإذا نسيتُ فذكِّروني " الحديث. فالسهو في حق الأنبياء جائز ، لأنه من قهرية الربوبية ، لتتميز به العبودية من الربوبية ، فليس بنقصٍ في حقهم ، بل كما ، ليحصل التشريع والاقتداء. وقيل : " لا " ناهية ، وإثبات الألف للفاصلة ، كقوله : {السَّبِيلاْ} [الأحزاب : ٦٧] أي : لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه ، إلاَّ ما شاء الله أن ينسيك

برفع تلاوته ، وهو ضعيف.

{إنه يعلم الجهرَ وما يخفى} أي : يعلم ما ظهر وما بطن ، التي من جملتها ما أوحى

٢٨٦

إليك ، فينسى ما شاء اللهُ إنساءه ، ويبقى محفوظاً ما شاء إبقاءه ، أو : يعلم جهرك بالقراءة مع قراءة جبريل مخافة التفلُّت ، وما في نفسك مما يدعوك إلى الجهر ، أو : ما تقرأ في نفسك مخافة النسيان ، وما تجهر به ، أو : يعلم ما أعلنتم وما أسررتم من أقوالكم وأفعالكم ، وما ظهر وما بطن من أحوالكم. قال الورتجبي : السر والعلانية عنده تعالى سواء ، إذا هو يبصرهما ببصره القديم ، ويعلمهما بالعلم القديم ، وليس في القِدم نقص ، بحيث يتفاوت عنده الظاهر والباطن ؛ إذ هناك الظاهر هو الباطن ، والباطن هو الظاهر ؛ لأنَّ الظاهر ظهر من ظاهريته ، والباطن من باطنيته. هـ.

}

(٣٣٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٨٥

ونُيسّرك لليُسرى} ، معطوف على " سنقرئك " وما بينهما اعتراض ، أي : ونوفّقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل ، وهي الشريعة السمحة التي هي أسهل الشرائع ، أو : نوفّقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين ، علماً وتعليماً ، هداية واهتداءً ، فيندرج فيه تلقي الوحي والإطاحة بما فيه من الأحكام التشريعية السمحة ، والنواميس الإلهية ، مما يتعلق بتكميل نفس صلى الله عليه وسلم وتكميل غيره ، كما يفصح عنه قوله : {فذَكِّر..} الخ. وتخصيص التيسير به عليه السلام ، مع أنه يسري إلى غيره ، للإيذان بقوة تمكنه صلى الله عليه وسلم من اليسرى والتصرُّف فيها ، بحيث صار ذلك ملكة راسخة له ، كأنه عليه السلام جُبل عليها. قاله أبو السعود.

الإشارة : نزّه ربك أن ترى معه غيره ، وقدِّسه عن الحلول والاتحاد ، قال القشيري : أي : سبِّح ربك بمعرفة أسمائه ، واسبَح بسرّك في بحر عطائه ، واستخرج من بواهر علوه وسناه ما ترفع به عند مدحه من ثنائه. هـ. قال الورتجبي : أي : نزِّه اسمه عن أن يكون له سميًّا ، من العرش إلى الثرى ، حتى يكون بقدس اسمه مقدساً عن رؤية الأغيار ، ويصل بقدس اسمه إلى رؤية قدس الصفات ، ثم إلى رؤية قدس الذات. هـ. (الأعلى) فوق كل شيء ، والقريب دون كل شيء ، فهو عليٌّ في قربه ، قريب في علوه ، ليس فوقه شيء ، وليس دونه شيء ، الذي خلق ؛ أظهر الأشياءَ فسوَّى صورتها ، وأتقن خلقها. والذي قدّر المراتب ، فهدى إلى أسباب الوصول إليها ، والذي أخرج المرعى ، أي : ما ترعى في بهجته وحسن طلعته الأرواح من مظاهر الذات ، وأنوار الصفات ، فجعله غثاءً أحوى ، فتلوّن من طلعة الجمال إلى قهرية الجلال. قال القشيري : أخرج المرعى : أي : المراتع الروحانية لأرباب الأرواح والأسرار والقلوب ، لِيَرْعَوا فيها أعشاب المواهب الإلهية والعطايا اللاهوتية ، وأخرج المراتع الجسمانية لأصحاب النفوس الأمَّارة والهوى المتبع ، ليرتعوا فيها من كلأ اللذات الحيوانية الشهوانية. هـ. سنقرك : سنلهمك من العلوم والأسرار ما تعجز عنه العقول ، فلا تنسى ، إلاّ ما شاء اللهُ أن تنساه ، إنه يعلم الجهر ، أي : ما يصلح أن تجهر به من تلك العلوم ، وما يخفى وما يجب إخفاءه عن غير أهله. ونُيسرك للطريقة اليُسرى ، التي تُوصل إلى الحضرة الكبرى. قال القشيري : أي : طريق السلوك إلى

الله وهي الجذبة الرحمانية التي توازي عمل الثقلين. هـ. فحينئذ تصلح للدعاء إلى الله والتذكير به.

(٣٣٦/٨)

يقول الحق جلّ جلاله : {فَذَكِّرْ} الناسَ حسبما سَيّرناك له بما يُوحى إليك من الحق الهادي إلى الحق ، واهدهم إلى ما فيه سعادتهم الأبدية ، كما كنت تفعل ، أي : دُم على تذكيرك. وتقييد التذكير لِمَا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم طالما كان يُذَكِّرهم ويستفرغ جهده في وعظهم ، حرصاً على إيمانهم ، فما كان يزيد ذلك لبعضهم إلاَّ نفوراً ، فأمر عليه السلام أن يخص الذكر بمظان النفع في الجملة ، بأن يكون مَن يُذَكِّره ممن يُرجَى منه التذكُّر ، ولا يتعب نفسه في تذكير مَن لا ينفعه ولا يزيده إلاّ عتوًّا ونفوراً ، ممن طَبع اللهُ على قلبه ، فهو كقوله : {فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ} [قَ : ٤٥] وقوله تعالى : {فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّا عَن ذِكْرِنَا} [النجم : ٢٩] وقيل المعنى : ذَكّر إن نفعت وإن لم تنفع ، فحذف المقابل ، كقوله : {تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [النحل : ٨١] ، واستبعده ابن جُزي ؛ لأنَّ المقصود من الشرط استبعاد إسلامهم ، كقوله : عظ زيد إن سمع منك ، تريد : إن سماعه بعيد ، ونسب هذا ابن عطية

لبعض الحُذَّاق ، قلت : الأَوْلى حمل الآية على ظاهرها ، وأنه لا ينبغي الوعظ إلاّ لمَن تنفعه وتؤثر فيه ، وأمّا مَن تحقّق عناده فلا يزيده إلاّ عناداً ، والقرائن تكفي في ذلك.

{سَيَذَّكَّرُ مَن يخشى} ؛ سيتعظ ويقبل التذكرة مَن يخشى الله تعالى {ويَتجنَّبُها} أي : يتأخر عنها ولا يحضرها ولا يقبلها {الأشقى} الذي سبق له الشقاء ، أو : أشقى الكفرة لتوغُّله في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم. قيل : نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة. {الذي يَصْلَى النارَ الكبرى} أي : الطبقة السفلى من طبقات جهنم ، وقيل : الكبرى نار جهنم ، والصغرى : نار الدنيا ، لقوله عليه السلام : " ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم " ، {ثم لا يموتُ فيها} حتى يستريح {ولا يحيا} حياة تنفعه ، و " ثم " للتراخي في مراتب الشدة ؛ لأنَّ التردُّد بين الموت والحياة أفظع من الصليِّ.

}

(٣٣٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٨٨

قد أفلحَ} أي : نجا من كل مكروه وظفر بكل ما يرجوه {مَن تَزَكَّى} أي : تطهّر من الكفر المعاصي بتذكيرك ووعظك ، {وذَكَرَ اسمَ ربه} بقلبه ولسانه {فصَلَّى} ؛ أقام الصلوات الخمس ، أو : أفلح مَن زَكَّى ماله ، وذكر الله في صلاته ، كقوله : {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ

٢٨٨

لِذِكْرِيا} [طه : ١٤] فيكون تفعَّل من الزكاة ، أو : أفلح مَن تزكّى : أخرج زكاة الفطر ، وذكر اسم ربه في طريق خروجه إلى أن يخرج الإمام ، فصَلّى صلاةَ العيد ، وقد روي هذا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فتكون الآية مدنية ، أو : إخباراً بما سيكون ، إذ لم تُشْرَعْ زكاة الفطر ، ولا صلا العيد إلاَّ بالمدينة.

{بل تُؤْثِرون الحياةَ الدنيا} على الآخرة ، فلا تفعلون ما به تفلحون ، وهو إضراب عن مُقَدَّر ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل إثر بيان ما يؤدي إلى الفلاح : فلا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات العاجلة الفانية ، فتسعون لتحصِيلها ، وتشتغلون بذلك عن التزوُّد للأخرة ، {والآخرةُ خير وأبقى} أي : خير في نفسها ، لنفاسة نعيمها ، وخلوصه من شوائب التكدير ، وأدوم لا انصرام له ولا تمام. والخطاب للكفرة. بدليل قراءة الغيب ، وإيثارها حينئذ : نسيانها بالكلية ، والإعراض عنها ، أو : للكل ، فالمراد بإيثارها : هو ما لا يخلوا الناس منه غالباً ، من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة في السعي ، إلاّ القليل. قال الغزالي : إيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان ، قَلَّ مَن ينفك عنه ، ولذلك قال تعالى : {بل تؤثرون الحياة الدنيا}. وجملة : {والآخرة...} الخ : حال من فاعل {تُؤثرون} مؤكد للتوبيخ والعتاب ، أ ي : تؤثرونها

على الآخرة والحال أنها خير منها وأبقى ، قال بعضهم لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من طين يبقى ، لكان العاقل يختار ما يبقى على ما يفنى ، لا سيما والأمر بالعكس. هـ.
وقوله تعالى : {إنَّ هذا لفي الصُحف الأُولى} الإشارة إلى قوله : {قد أفلح مَن تزكّى} إلى قوله : {وأبقى} ، قال ابن جزي : الإشارة إلى ما ذكر قبل من الترهيب من الدنيا ، والترغيب في الآخرة ، أو : إلى ما تضمنته السورة ، أو : إلى القرآن ، والمعنى : إنه ثابت في كتب الأنبياء المتقدمين. هـ. وقوله تعالى : {صحف إبراهيمَ وموسى} بدل من " الصُحف الأُولى ".

(٣٣٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٨٨
وفي حديث أبي ذر : قلت : يا رسول الله : كم كتاباً أنزل اللهُ ؟ قال : " مائة كتاب وأربعة كتب ، أنزل على شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان " قال : قلت : يا رسول الله : ما كانت صُحف إبراهيم عليه السلام ؟ قال : " كانت أمثالاً كلها ، أيها الملك المسلّط المغرور ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكن بعثتك لِتَرُدّ على دعوة المظلوم ، فإني لا أردها ولو من كافر. وكان فيها : وعلى العاقل أن تكون له ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يُحاسب فيها نفسه ، وساعة يُفكر في صنع الله عزّ وجل إليه ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل ألاَّ يكون ظاعناً إلا لثلاث : تزور لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظاً للسانه ، ومَن حسب
٢٨٩
كلامه من عمله قَلّ كلامه إلاّ فيما يعنيه " قلت : يا رسول الله ؛ فما كانت صُحف موسى عليه السلام ؟ قال : " كانت عِبَراً كلها ؛ عجبت لمَن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمَن أيقن بالقدر ثم هو ينصب . أي يتعب ، عجبت لمَن رأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها ثم اطمأن إليها ، وعجبت لمَن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل " قلت : يا رسولَ الله ؛ وهل في الدنيا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسى ، مما أنزل الله عليك ، قال : " نعم ، اقرأ يا أبا ذر : {قد أفلح مَن تزكى..} الآية إلى السورة " ثم قال : قلت : يا رسول الله ، أوصني. قال : " أوصيك بتقوى الله عزّ وجل ، فإنه رأس أمرك " قلت : زدني ، قال : " عليك بتلاوة القرآن وذكرِ الله عزّ وجل ، فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض " قلت : يا رسول الله ؛ زدني ، قال : " إياك وكثرة الضحك ، فإنه يُميت القلب ، ويذهب بنور الوجه " ، قلت : يا رسول الله ؛ زدني ، قال : " عليك بالجهاد ، فإنه رهبانية أمتي " ، قلت : يا رسول الله ؛

زدني ، قال : " عليك بالصمت إلاَّ مِن خير ، فإنه مطردة للشيطان ، وعون لك على أمر دنياك " هـ.
وعن كعب الأحبار أنه قال : قرأتُ في العشر صحف التي أنزل ا للهُ على موسى عليه السلام سبعة اسطار متصلة ، أول سطر منها : مَن أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على الله ، الثاني : مَن كانت الدنيا أكبر همه نزع اللهُ خوف الآخرة من قلبه ، الثالث : مَن شكى مصيبة نزلت به كأنما شكى الله عزّ وجل ، الرابع : مَن تواضع لِمَلِك مِن ملوك الدنيا ذهب ثلث دينه ، الخامس : مَن لا يبالي من أي الأبواب أتاه رزقه لم يُبال اللهُ من أي أبواب جهنم يدخله . يعني من حلال أو حرام ، السادس : مَن أتى خطيئَة وهو يضحك دخل النار وهو يبكي ، والسابع : مَن جعل حاجته إلى آدمي جعل اللهُ الفقر بين عينيه. هـ.

(٣٣٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٨٨
الإشارة : فَذَكِّرْ أيها العارف الدالّ على الله إن نفعت الذكرى ؛ إن رجوتَ أو توهمتَ نفع تذكيرك ، فإن تحققتَ عدم النفع فلا تتعب نفسك في التذكير ، فربما يكون بطالة ، كتذكير العدو الحاسد لك ، أو المعاند ، أو المنهمك في حب الرياسة ، فتذكير هؤلاء ضرب في حديد بارد. وينبغي للمذَكِّر أن يكون ذا سياسة وملاطفة ، قال تعالى : {ادْعُ إِلىا سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...} [النحل : ١٢٥]الخ ، والحكمة : هي أن تُقر كلَّ واحد في حكمته ، وتدسه منها إلى ربه ، فأهل الرئاسة تقرهم فيها وتدلهم على الشفقة والرحمة بعباد الله ، وأهل الدنيا تُقرهم فيها وتدلهم على بَذلها ، وأهل العلم تُقرهم في علمهم وتحضهم على الإخلاص وبذل المجهود في نشره ، وأهل الفقر تقرهم فيه وتُرغبهم في الصبر... وهكذا ، فإن رأيتَ أحداً تشوّف إلى مقام أعلى مما هو فيه فدُلّه عليه ، وأهل التذكير لهم عند الله جاه كبير ، فأحَبُّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله ، كما في الحديث. وفي
٢٩٠
حديث آخر : " إنَّ أود الأوداء إليَّ مَن يحبني إلى عبادي ، ويحبِّب عبادي إليّ ، ويمشي في الأرض بالنصيحة " أو كما قال عليه السلام :
{سَيَذَّكَّر مَن يخشى} أي : ينتفع بتذكيري مَن يخشى الله ، وسبقت له العناية ، ويتجنّبها الأشقى : أي : ويعرض عنها مَن سبق له الشقاء. قال القشيري : الشقي : مَن يعرف شقاوته ، والأشقى : مَن لا يعرف شقاوته ، الذي يصلى النار الكبرى ، وهي الخذلان والطرد والهجران ، والنار الصغرى : تتبع الحظوظ والشهوات. هـ. ثم لا يموت فيها ولا يحيى ، أي : لا تموت نفسه عن هذا ، ولا تحيا روحه بشهود هؤلاء. قد أفلح مَن تَزَكَّى ، أي : فاز بالوصول مَن تطهَّر مِن هوى نفسه ، بأن طَهَّر نفسه من المخالفات

، وقلبه من الغفلات والدعوات ، وروحه من المساكنات إلى الغير ، وسره عن الأنانية ، بل تُؤثرون الحياة الدنيا عن التوجُّه إلى الحضرة القدسية ، والدار الآخرة التي يدوم فيها الشهود خير وأبقى ، وهذا الأمر ، وهو التزهيد في الدنيا ، والتشويق إلى الله ، في صُحف الرسل والأنبياء ، قال القشيري : لأنَّ التوحيد والوعد والوعيد لا يختلف في الشرائع. هـ. وقال الورتجبي : (إنَّ هذا) أي : الخروج عما سوى الله بنعت التجريد ، في صحف إبراهيم ، كما قال : {إِنِّي بَرِياءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} [الأنعام : ٧٨] والإقبال على الله ، بقوله : {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ} [الأنعام : ٧٩] الخ. وفي صحف موسى : سرعة الشوق إلى جماله والندم على الوقوف في المقامات : بقوله : {تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف : ١٤٣]. هـ. أي : وبقوله : {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىا} [طه : ٨٤]. وبالله التوفيق. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

٢٩١

سورة الغاشية

يقول الحق جلّ جلاله : {هل أتاك حديثُ الغاشيةِ} أي : قد أتاك ، والأحسن : أنه استفهام أُريد به التعجُّب مما في حيّزه ، والتشويق إلى استماعه ، وأنه من الأحاديث البديعة التي من حقها أن تتناولها الرواية ، ويتنافس في تلقيها الوعاة من كل حاضر وباد. والغاشية : الداهية الشديدة التي تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها ، من قوله تعالى : {يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ} [العنكبوت : ٥٥] الخ. ثم فصّل أحوالَ الناس فيها ، فقال : {وجوه يومئذٍ خاشعةٌ} ، فهو استئناف بياني نشأ عن سؤال من جهته صلى الله عليه وسلم ، كأنه قيل : ما أتاني حديثها فما هو ؟ فقال : {وجوه يومئذ} أي : يوم إذ غشيت {خاشعة} ؛ ذليلة ، لما اعترى أصحابها من الخزي والهوان ، و {وجوه} متبدأ ، سوّغه التنويع ، و(خاشعة) خبر ، و {عاملة ناصبة} : خبران آخران ، أي : تعمل أعمالاً شاقة في النار ، تتعب فيها مِن جرّ السلاسل والأغلال ، والخوض في النار خوض الإبل في الوحل ، والصعود والهبوط من تلال النار ووهادها ، وقيل : عملت في الدنيا أعمال السوء ، والتذّت بها ، فهي يومئذ ناصبة منها ، {تَصلى} أي

: تدخل {ناراً حامية} ؛ متناهية في الحر مُدداً طويلة ، {تُسْقَى من عينٍ آنيةٍ} أي : من عين ماء متناهية في الحرّ ، والتأنيث في هذه الصفات والأفعال راجع إلى الوجوه ، والمراد أصحابها ، بدليل قوله : {ليس لهم طعامٌ إلاّ من ضريع} ، وهو نبت يقال لِرَطْبِه : الشَّبرِق على وزن زِبْرج ، تأكله الإبل رطباً فإذا يبس عافته ، وهو الضريع ، وهم سمٌّ قاتل ، وفي الحديث : " الضريع شيء

في النار ، أمرُّ من الصبر ، وأنتن من الجيفه ، وأشد حَرًّا من النار " ، وقال ابن كيسان : هو طعام يضرعون منه ويذلّون ، ويتضرعون إلى الله تعالى طلباف للخلاص منه. وقال أبو الدرداء والحسن : يقبح اللهُ وجوهَ أهل النار يوم القيامة ، تشبيهاً بأعمالهم الخسيسة في الدنيا ، وإنَّ الله تعالى يُرسل على أهل النار الجوع ، حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون ، فيُغاثون بالضريع ، ثم يَستغيثون فيُغاثون بطعام ذي غُصّة ، فيذكرون أنهم كانوا يحيزون الغصص في الدنيا بالماء ، فيستسقون ، فيعطشهم ألف سنة ، ثم يسقون من غين آنية شديدة الحر ، لا هنيئة ولا مريئة ، فكلما أدنوه من وجوههم سلخ جلودَ وجوههم وشواها ، فإذا وصل إلى بطونهم قطعها ، قال تعالى : {فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ} [محمد : ١٥] هـ. والعذاب ألوان ، والمعذّبون طبقات ؛ فمنهم أكلة الزقوم ، ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم آكلة الضريع.. فلا تناقض.

(٣٤٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٩٢
ولمَّا نزلت هذه الآية ؛ قال المشركون : إنَّ إبلنا لتسمن من الضريع ، فنزلت : {لا يُسمن ولا يُغني من جوع} أي : ليس مِن شأنه الإسمان والإشباع ، كما هو شأن طعام أهل الدنيا ، وأنما هو شيء يضطرون إلى أكله دفعاً لضرورتهم ، والعياذ بالله من سخطه.
الإشارة : الغاشية هي الدنيا ، غشيت القلوب بظلمات محبتها ، ومودتها بحظوظها وشهواتها ، وجوه فيها يومئذ خاشعة ، بذُلّ طلبها ، عاملة بالليل والنهار في تحصيلها ، ناصبة في تدبير شؤونها ، لا راحة لطالبها أبداً حتى يأخذ الموت بعُنقه ، تصلى نار القطيعة والبُعد تُسقى من عين حر التدبير والاختيار ، ليس لطُلابها طعام لقلوبهم وأرواحهم إلاّ من ضريع شبهاتها أو حُرماتها ، لا يُسمن القلب عن هزال طلبها ، بل كلما زاد منها شيئاً ، زاد جوعه إليها ، ولا يغني الروح من جوع منها.

(٣٤٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٩٢
يقول الحق جلّ جلاله في بيان حال أهل الجنة ، بعد بيان حال أهل النار ، ولم يعطفهم عليهم ، بل أتى بالجملة استئنافية ؛ إيذاناً بكمال تباين مضمونيهما ، فقال : {وجوه يومئذٍ ناعمةٌ} أي : ذات بهجة وحُسن ، كقوله تعالى : {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)} [المطففين : ٢٤] ، {لسعيها راضية} أي : لأجل سعيها في الدنيا هي راضية في الآخرة بما
٢٩٣
أعطاها عليه من الثواب الجسيم ، أو : رضيت بعملها وطاعتها لما رأت ما أداهم إليه من الكرامة والثواب ، {في جنةٍ عالية} علو المكان أو المقدار ، {لا تسمع فيها لاغية} أي : لغو ، أو كلمة ذات لغو ، أو نفسٌ لاغية ، فإنَّ كلام أهل الجنة كله أذكار وحِكم ، أو : لا تسمع يا مخاطَب ، فيمن بناه للفاعل.
{فيها عين جاريةٌ} أي : عيون كثيرة تجري مياهها ، كقوله : {عَلِمَتْ نَفْسٌ} [التكوير : ١٤] أي : كل نفس ، {فيها سُررٌ مرفوعة} رفيعة السمْك أو المقدار ، ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوّله رَبُّه من المُلك والنعيم ، {وأكواب موضوعة} بين أيديهم ليتلذذوا بالرؤية إليها ، أو موضوعة على حافات العيون مُعَدّة للشرب ، {ونمارقُ} ؛ وسائد ومرافق {مصفوفة} بعضها إلى جنب بعض ، بعضها مسندة ، وبعضها مطروحة ، أينما أراد أن يجلس جلس على وسادة ، وأستند إلى أخرى ، {وزرابيّ} أي : بُسُط فاخرة ، جمع " زِرْبِيَّة " ، {مبثوثةٌ} ؛ مبسوطة ، أو مُفرّقة في المجالس.
ولمّا أنزل الله هذه الآيات ، وقرأها النبي صلى الله عليه وسلم فسّرها بأنَّ ارتفاع السرير يكون مائة فرسخ ، والأكواب الموضوعة لا تدخل تحت حساب ، لكثرتها ، وطول النمارق كذا ، وعرض الزاربيّ كذا ، أنكر المشركون ذلك ، وقالوا : كيف يصعد على هذا السرير ؟ وكيف تكثر الأكواب هذه الكثرة ، وتطول النمارق هذا الطول ، وتُبسط الزاربي هذا الانبساط ، ولم نشهد ذلك في الدنيا ؟ ! ذكَّرهم الله بقوله : {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت} طويلة عالية ، ثم تبرك حتى تُركب ؛ ويحمل عليها ، ثم تقوم ، وكذا السرير يطأطيء للمؤمن كما تطأطيء الإبل حتى يركب عليها ، أو : أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي نُصب أعينهم ، يستعملونها كل حين ، كيف خُلقت خلقاً بديعاً معدولاً عن سَنَن سائر الحيوانات ، في عظم جثتها وشدّة قوتها ، وعجيب هيئاتها اللائقة بتأتي ما يصدر منها من الأفاعيل الشاقة ، كالنوْء بالأوقار الثقيلة ، وحمل الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة ، وفي صبرها على الجوع والعطش ، حتى إنَّ ضمأها ليبلغ العشْر فصاعداً ، واكتفائها باليسير ، ورعيها كل ما تيسّر من شوك وشجر ، وانقيادها إلى كل صغير وكبير ، حتى إن فأرة أخذت بزمام ناقة فجرته إلى غارها ، فتبعتها الناقة إلى فم الغار. وفي الإبل خصائص أُخر تدل على كمال قدرته تعالى ، كالاسترواح مع الحَدَّاء إذا عيت ، إلى ما فيها من المنافع من اللحوم والألبان والأوبار والأشعار ، وغير ذلك ، والظاهر ما قاله الإمام ، وتبعه الطيبي ، من أنه احتجاج بشواهد قدرته تعالى على فاتحة السورة من مجيء الغاشية ، وأنَّ المخبر

بها قادر عليها ، فيتوافق العقل والنقل. هـ. قاله المحشي.
}

(٣٤٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٩٣
وإِلى السماء كيف رُفعت} رفعاً بعيداً بلا عُمُد ولا مُسَّاك ، أو بحيث لا ينالها فَهم ولا إدراك ، {وإِلى الجبال} التي ينزلون في أقطارها ، وينتفعون بمياهها وأشجارها في رعي تلك الإبل وغيرها {كيف نُصبت} نصباً رصيناً ، فهي راسخة لا تميل ولا تميد ،
٢٩٤
{وإِلى الإرض كيف سُطحت} سطحاً بتوطئة وتمهيد وتسوية حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق.
قال الجلال : وفي الآية دليل على أنَّ الأرض سطح لا كرة ، كما قال أهل الهيئة ، وإن لم ينقض ركناً من أركان الشرع. هـ. وفي ابن عرفة ، في قوله تعالى : {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ...} [الزمر : ٥] أنَّ الآية تدل على أنَّ السماء كروية ، قال : لأنَّ من لوازم تكويرهما تكوير محلهما لاستحالة تعلقهما دون مكان. هـ. وفي الأبي : الذي عليه الأكثر من الحكماء وغيرهم أنَّ السموات والأرض كرتان. هـ.
الإشارة : وجوه يومئذ ناعمة بلذة الشهود والعيان ، لأجل سعيها بالمجاهدة ، راضية ، حيث وصَّلتها إلى صريح المشاهدة ، في جنة عالية ، جنان المعارف ، لا تسمع فيها لاغية ؛ لأنَّ أهلها مقدّسون من اللغو والرفث ، كلامهم ذكر ، وصمتهم فكر ، فيها عين جارية من قلوبهم بالعلوم والحِكم ، فيها سُرر المقامات مرفوعة ، يرتفعون منها إلى المعرفة ، وأكواب موضوعة ؛ كِيسَان شراب الخمرة ، وهي محافل الذكر والمذاكرة ، ونمارق مصفوفة ، وسائد الرّوح والريحان حيث سقطت عنهم الكلف ، ورموا حِملهم على الحي القيوم ، وزرابي مبثوثة ؛ بُسط الأنس في محل القدس ، أفلا يستعملون الكفرة والنظرة ، حتى تقيم أرواحهم في الحضرة ، فإنَّ الفكرة سِراج القلب ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له ، وهي سير القلب إلى حضرة الرب ، فينظرون إلى الإبل كيف خُلقت ، فإنه تجلي غريب ، وإلى السماء كيف رُفعت به ، وإلى الأرض كيف سُطحت من هيبته ، وقال : القشيري : الإبل : النفوس الأمّارة ، لقوله عليه السلام : " الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة " هـ وإلى الأرواح كيف رُفعت ؛ لأنها محل أفكار العارفين ، وإلى جبال العقل كيف نُصبت لتمييز الحس من المعنى ، والشريعة من الحقيقة ، وإلى الأرض البشرية كيف سُطحت ، حيث استولت عليها الروحانية ، وتصرفت فيها.

(٣٤٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٩٣

يقول الحق جلّ جلاله : {فَذَكِّر} الناس بالأدلة العقلية والنقلية ، {إنما أنت مُذكِّر} ليس عليك إلاَّ التبليغ {لستَ عليهم بمصيطرٍ} ؛ بمسلط ، كقوله : {وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ} [قَ : ٤٥] ، وفيه لغات : السين ، وهي الأصل ، والصاد ، والإشمام. {إلاَّ مَن تولَّى وكَفَرَ فيعذبه اللهُ العذابَ الأكبر} ، الاستثناء منقطع ، أي : لست بمُسلط عليهم ، تقهرهم على

٢٩٥

الإيمان ، لكن مَن تولى وكفر ، فإنَّ لله الولاية والقهر ، فهو يعذبه العذاب الأكبر ، وهو عذاب جهنم ، وقيل : متصل من قوله : (فذكر) أي : فذَكِّر إلاَّ مَن انقطع طمعك من إيمانه وتولَّى ، فاستحق العذاب الأكبر ، وما بينها اعتراض.

{إنَّ إلينا إيابهم} ؛ رجوعهم ، وفائدة تقديم الظرف : التشديد في الوعيد ، وأنَّ إيابهم ليس إلاَّ للجبّار المقتدر على الانتقام ، {ثم إنَّ علينا حسابهم} فنُحاسبهم على أعمالهم ، ونجازيهم جزاء أمثالهم ، و " على " لتأكيد الوعيد لا للوجوب ، إذ لا يجب على الله شيء. وجمع الضمير في إيابهم وحسابهم ، باعتبار معنى " من " ، وإفراده فيما قبله باعتبار لفظها ، و " ثم " للتراخي في الرتبة لا في الزمان ، فإنَّ الترتيب الزماني إنما هو بين إيابهم وحسابهم لا بين كون إيابهم إليه تعالى وحسابهم. انظر أبا السعود.

الإشارة : ما قيل للرسول يُقال لخلفائه من أهل التذكير ، ومَن تولَّى منهم يُعذَّب بعذاب الفرق والحجاب وسوء الحساب. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

٢٩٦

(٣٤٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٩٥

سورة الفجر

(٣٤٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٩٦

يقول الحق جلّ جلاله : {والفجر} ، إمّا وقته ، أقسم به لشرفه ، كما أقسم بالصُبح ، لِمَا في ذلك من الاقتدار ، أو : صلاته ؛ لكونها مشهودة ، {وليالٍ عشر} ؛ عشر ذي الحجة ، أو العشر الأُول من

المحرم ، أو الأواخر من رمضان ، ونُكِّرت للتفخيم ، {والشفع والوتر} أي : شفع كل الأشياء ووترها ، أو : شفع هذه الليالي ووترها ، أو : شفع الصلوات ووترها ، أو : يوم النحر ، لأنه اليوم العاشر ، ويوم عرفة لأنه التاسع ، أو الخلق والخالق ، او صلاة النافلة والوتر بعدها ، أو الأعداد ؛ لأنَّ منها شفعاً ومنها وتراً ، والمختار العموم ، كأنه تعالى أقسم بكل شيء ؛ إذ لا يخلو شيء من أن يكون شفعاً وهو الزوج ، أو وتراً وهو الفرد ، والوتر بالفتح والكسر لغتان.

ولمَّا أقسم بالليالي المخصوصة ، أقسم بالليالي على العموم ، فقال : {والليلِ إذا يَسْرِ} إذا ذهب ، أو : يسري فيه السائر ، وقيل : أُريد به ليلة القدر ، وحُذفت الياء في الوصل ؛ اكتفاءً بكسرتها ، وسُئل الأخفش عن سقوطها ، فقال للسائل : لا أجيبك حتى تخدمني سنة ، فسأله بعد سنة ، فقال : الليل لا يسري ، وإنّما يُسرى فيه ، فلمّا عدل عن معناه عدل عن لفظه موافقةً. هـ. ويرد عليه : أنها حُذفت في كلمات كثيرة ، ليس فيها هذه العلة.

{هل في ذلك} أي : فيما أقسمت به من هذه الأشياء {قَسَمٌ} أي : مُقسم به ، أو

٢٩٧

إقسام ، والمعنى : مَن كان ذا لُبٍّ عَلِمَ أنَّ ما أقسم الله به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية ، فهو حقيق بان يُقسم به ، وهذا تفخيم لشأن المقسَم بها ، وكونها أموراً جليلة حقيقة بالإقسام بها لذوي العقول ، وهذا كقوله تعالى : {وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)} [الواقعة : ٧٦] وتذكير الإشارة لتأويلها بما ذكر ، وما فيها من معنى البُعد للإيذان ببُعد مرتبة المشار إليه ، وبُعد منزلته في الشرف والفضل ، {لذي حِجْرٍ} ؛ لذي عقل ؟ سُمِّي به لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي ، كما سُمِّي عقلاً ونُهْيَةً لأنه يعقل صاحبه وينهاه عن الرذائل ؛ والمعنى : هل يحقُّ عند ذوي العقول أن تُعَظَّم هذه الأشياء بالإقسام بها ؟ أو : هل في إقسامي بها إقسام لذي حجر ، أي : هل هو قسم عظيم يؤكّد بمثله المقسَم عليه ؟ أو : هل في القسم بهذه الأشياء قسم مُقنع لذي لُب وعقل ؟ والمقسَم عليه محذوف ، أي : لتهلكنّ يا معشر الكفار ثم لتبنؤن بالحساب ، يدلّ عليه قوله تعالى :

}

(٣٤٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٩٧

ألم تَرَ كيف فعل ربُّك بعادٍ} فإنه استشهاد بعلمه صلى الله عليه وسلم بما فعل بعاد وأضرابهم المشاركين لقومه صلى الله عليه وسلم في الطغيان والفساد ، أي : ألم تعلم علماً يقيناً كيف عذَّب ربُّك عاداً ونظائرهم ، فيُعذّب هؤلاء أيضاً لاشتراكهم فيما يوجبه من الكفر والمعاصي ، والمراد بعاد : أولاد

عاد بن عَوْص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام قوم هود عليه السلام ، سُمُّوا باسم أبيهم ، وقد قيل لأوائلهم : عاد الأولى ، ولآخرهم عاد الآخرة ، وقوله تعالى : {إِرَمَ} عطف بيان لعاد ؛ للإيذان بأنهم عاد الأولى بتقدير مضاف ، أي : سبط إرم ، أو : أهل إرم ، على ما قيل : من أنَّ إرم اسم بلدتهم أو أرضهم التي كانوا فيها ، كقوله : {وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف : ٨٢] ، ويؤيده قراءة ابن الزبير بالإضافة ، ومنعت الصرف للتعريف والتأنيث ، قبيلةً ، كانت أو أرضاً. وقوله تعالى : {ذاتِ العماد} صفة لإرم ، فإذا كانت قبيلة فالمعنى : أنهم كانوا بدويين أهل عمد ، أو : طِوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة ، وإن كانت صفة للبلدة ، فالمعنى : أنها ذات عماد طِوال لخيامهم على قدر طول أجسامهم ، رُوي : أنها كانت من ذهب ، فلما أرسل اللهُ عليهم الريح دفنتها في التراب ، أو ذات أساطين.
رُوي : أنه كان لعاد ابنان شدّاد وشديد ، فمَلَكا وقَهَرا ، ثم مات شديد وخلص الأمر لشدّاد ، فملك الدنيا ، ودانت له ملوكها ، فسمع بذكر الجنة ، فقال : أبني مثلها ، فبنى إرم في بعض صحاري عدن في ثلاثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، وهي مدينةٌ عظيمةٌ ، قصورها من الذهب والفضة ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الأشجار والأنهار ، ولمَّا تمَّ بناءها سار إليها بأهل مملكته ، فلمّا كان منها على مسيرة يوم وليلةٍ ، بعث اللهُ عليه صيحة من السماء فهلكوا ، وقيل : غطتها الريح بالرمل فما غمًّا عليها. وعن عبد الله بن قلابة : أنه خرج في طلب إبل له ، فوقع عليها ، فحمل ما قدر عليه ممّا ثمَّ ، فبلغ خبره معاوية ، فاستحضره فقصَّ عليه ، فبعث إلى كعب فسأله ، فقال : هي إرم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك ، أحمر أشقر ، قصير ، على حاجبه
٢٩٨
خال ، وعلى عنقه خال ، يرخج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة ، فقال : هذا واللهُ ذلك الرجل. انظر الثعلبي.
{التي لم يُخْلَق مثلُها في البلاد} أي : مثل عادٍ في قوتهم ، كان الرجل منهم يحمل الصخرة ، فيجعلها على الحق فيهلكهم ، وطُولِ قامتهم ، كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع ، أو : لم يُخلق مثل مدينة " شدّاد " في جميع بلاد الدنيا ، ذكر في القوت : أنَّ بعض الأولياء قال : دخلتُ مائة مدينة ، أصغرها إرم ذات العماد ، ثم قال : وقوله تعالى على هذا : {لم يخلق مثلها في البلاد} أي : بلاد اليمن. هـ.
}

(٣٤٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٩٧
وثمودَ الذين جابوا الصَّخْرَ بالوادِ} أي : قطعوا صخر الجبال ، واتخذوا فيها بيوتاً ، قيل : أوّل مَن نحت

الجبال والصخور ثمود ، وبنوا ألفاً وسبعمائة مدينةٍ كلها من الحجارة ، والمراد بالواد وادي القُرى ، وقيل غيره. والوادي : ما بين الجبلين ، وإن لم يكن فيه ماء.
{وفرعونَ ذي الأوتاد} أي : وكيف فعل بفرعون صاحب الأوتاد ، أي : الجنود الكثيرة ، وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي كانوا يضربونها في منازلهم إذا نزلوا ، وقيل : كان له أوتاد يُعذّب الناسَ بها ، كما فعل بآسية. {الذين طَغَوا في البلاد} ؛ تجاوزوا الحدّ ، والموصول إمّا مجرور صفة للمذكورين ، أو منصوب ، أو مرفوع على الذم ، أي : طغى كل طائفة منهم في بلادهم ، وكذا قوله تعالى : {فأكثَرُوا فيها الفسادَ} بالكفر القتل والظلم ، {فصبَّ عليهم ربُّك} أي : أنزل إنزالاً شديداً على كل طائفة من أولئك الطوائف عقب ما فعلت من الطغيان والفساد {سوطَ عذابٍ} أي : عذاباً شديداً لا يُدرك غايته ، وهو عبارة عما حلَّ بكل واحدٍ منهم من فنون العذاب التي بُينت في سائر السور الكريمة ، وتسميته سوطاً ؛ للإشارة إلى أنَّ ذلك بالنسبة إلى ما أعدّ لهم في الآخرة بمنزلة السوط عند السيف ، والتعبير بالصب ، للإيذان بشدته وكثرته ، واستمراره ، أي : عُذِّبوا عذاباً دائماً مؤلماً ، والعياذ بالله من أسباب المحن.
الإشارة : أقسم تعالى بأول فجر نهار الإحسان ، وتمام قمر نور الإيمان ، ليلة العشر ، وشفعية الأثر ، ووتر الوحدة ، لتُستَأصلَن القواطع عمن توجه إليه بالصدق والإخلاص ، ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد النفس الأمّارة العاتية ، الشبيهة بعاد إرم ذات العماد في العتو ، التي لم يُخلق مثلُها في البلاد ؛ في بلاد القواطع ، إذ هي أقبح من سبعين شيطاناً ، وثمود الذين جابوا الصخر بالوادي. القشيري : يشير إلى ثمود القوة الشهوانية القاطعة لصخرات الشهوات الجثمانية ، وفرعون ذي الأوتاد ، يُشير إلى فرعون القوة الغضبية ، وكثرة تباعته ، وأنواع عقوباته وتشدداته. هـ. فأكثَروا فيها الفساد ، أي : مدينة القلب ، فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب بأنواع المجاهدات والرياضات ، ممن أراد الله تأييده وولايته.
٢٩٩

يقول الحق جلّ جلاله : {إنَّ ربك لبالمرصاد} ، قال ابن عباس : بحيث يرى ويسمع فلا يعزب عنه شيء ، ولا يفوته أحد ، فتجب مراقبته لا الغفلة عنه في الانهماك في حب العاجلة ، كما أشار إليه بقوله : {فأمّا الإنسان..} الخ ، فإنه بضد المراد مما تقتضيه حال المراقبة لمَن بالمرصاد. هـ. وأصل المرصاد : المكان الذي يترقّب فيه الرَّصَد ، أي : الانتظار ، مفعال ، من : رصَده ، كالميقات من وقته ، وهذا تمثيل لإرصاده تعالى بالعصاة ، وأنهم لا يفوتونه ، قال الطيبي : لمّا بيّن تعالى ما فعل بأولئك الطغاة من

قوم عاد وثمود وفرعون ، حيث صَبَّ عليهم سوط العذاب ، أتبعه قوله : {إِنَّ ربك لبالمرصاد} تخلُّصاً ، أي : فعل بأولئك ما فعل ، وهو يرصد هؤلاء الكفار الذين طغوا على أفضل البشر وسيد الرسل ، مما جاء به من الأمر بمكارم الأخلاق ومعالي الأمور ، والنهي عن سفسافها ، ورذائلها ، فيصب عليهم في الدنيا سوط عذاب ، ويُعذبهم في الآخرة عذاباً فوق كل عذاب ، كما قال : {لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ} [الفجر : ٢٥].

(٣٥١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٠

ثم فصّل أحوال الناس بعد أن أعلم أنه مطلع عليهم ، فقال : {فأمّا الإنسانُ} ، فهو متصل بما قبله ، كأنه قيل : إنه تعالى بصدد مراقبته أحوال عباده ومجازاتهم بأعمالهم خيراً أو شرًّا {فأمّا الإنسان} الغافل فلا يهمه ذلك ، وإنما مطمح نظره ومرصد أفكاره الدنيا ولذائذها ، {إذا ما ابتلاه ربُّه} أي : عامله معاملة مَن يبتليه ويختبره {فأكْرَمَه ونَعَّمه} ، الفاء تفسيرية ، فالإكرام والتنعُّم هو عين الابتلاء ، {فيقول ربي أكرمنِ} أي : فضّلني بما أعطاني من الجاه والمال حسبما كنت أستحقه ، ولا يخطر بباله أنه أعطاه ذلك ليبلوه أيشكر أم يكفر ، وهو خبر المتبدأ الذي هو " الإنسان " ، والفاء لما في " أمَّا " من معنى الشرط ، والظرف المتوسط على نية التأخُّر ، كأنه قيل : فأمّا الإنسان فيقول ربي أكرمني وقت ابتلائه بالإنعام ، وإنما قدّمه للإيذان من أول مرة بأنّ الإكرام والتنعُّم بطريق الابتلاء. ونقل الرضي أن " إذا " هنا جزائية ، فقال : وقد تقع كلمة الشرط مع الشرط في جملة أجزاء الجزاء ، ثم استشهد بالآية ، وقال : والتقدير : فمهما يكن من شيء فإذا ابتلاه يقول. هـ. وقال المرادي : إذا توالى شرطان دون عطف فالجواب لأولهما ، والثاني مقيد للأول ، كتقييده بحال واقعة موقعه ، ثم استشهد بما حاصله في الآية : فأمّا الإنسان حال كونه مبتلى فيقول... الخ ، فالشرط الثاني في معنى الحال ، والحال لا تحتاج إلى جواب. هـ. مختصراً انظر الحاشية الفاسية.

٣٠٠

{وأمّا إذا ما ابتلاه فَقَدَرَ عليه رزقَه} أي : ضَيّق عليه رزقه ، وجعله بمقدار بلغته ، حسبما تقتضيه ميشئته المبينة على الحِكَم البالغة ، {فيقول ربي أهاننِ} ، ولا يخطر بباله أنَّ ذلك لِيبلوه أيصبر أم يجزع ، مع أنه ليس من الإهانة في شيءٍ بل التقتير قد يُؤدي إلى كرامة الدارين ، والتوسعة قد تفضي إلى خسرانهما ، فالواجب لمَن علم أنَّ ربه بالمرصاد منه أن يسعى للعاقبة ، ولا تَهمّه العاجلة ، وهو قد عكسن فإذا امتحنه ربه بالنعمة والسعة ليشكر قال ربي أكرمني ، وفضّلني بما أعطاني ، فيرى الإكرام في كثرة الحظّ من الدنيا ، وإذا امتحنه بالفقر ، فَقَدَر عليه رزقه ليصبر ، قال : ربّي أهانني ، فيرى

الهوان في قلة الحظ من الدنيا ؛ لأنه لا يهمه إلاَّ العاجلة ، وهو ما يلذّه وينعّمه فيها ، وإنما أنكر قوله : {ربي أكرمن} مع أنه أثبته بقوله : {فأكرمه ونعَّمه} ، لأنه قاله على قصد خلاف ما صحّحه الله عليه وأثبته ، وهو قصده إلى أن الله أعطاه إكراماً له لاستحقاقه ، كقوله : {إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىا عِلْمٍ عِندِيا} [القصص : ٧٨] وإنما أعطاه الله ابتلاءً من غير استحقاق منه ، فردّ تعالى عليه زعمه بقوله : {كلاَّ} أي : ليس الإكرام والإهانة في كثرة المال وقلّته ، بل الإكرام في التوفيق للطاعة ، والإهانة في الخذلان فـ " كلا " ردع للإنسان عن مقالته ، وتكذيب له في الحالتين ، قال ابن عباس : المعنى : لم أبتله بالغنى لكرامته عليّ ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ ، بل ذلك بمحض القضاء والقدر.

(٣٥٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٠

وقوله تعالى : {بل لا تُكرِمون اليتيمَ} انتقال من بيان سوء أقواله إلى بيان سوء أفعاله ، والالتفات إلى الخطاب ؛ للإيذان بمشافهته بالعتاب ، تشديداً للتقريع ، وتأكيداً للتشنيع ، والجمع باعتبار معنى الإنسان ، إذ المراد به الجنس ، أي : بل لكم أحوال أشد شرًّا مما ذكر ، وأدل على تهالككم على المال ، حيث يُكرمكم الله تعالى بكثرة المال فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالمبّرة به.
{ولا تَحاضُّون على طعام المسكين} أي : يحض بعضُكم بعضاً على إطعام المساكين ، {وتأكلون التراثَ} أي : الميراث ، وأصله الوُراث ، فقلبت الواو تاء ، {أكلاً لمّا} أي : ذا لَمّ ، وهو الجمع بين الحلال والحرام ، فإنهم كانوا لا يُورثون النساء والصبيان ، ويأكلون أنصباءهم ، ويأكلون كل ما تركه المُورّث من حلال وحرام ، عالمين بذلك ، {وتُحبون المالَ حباً جماً} أي : كثيراً شديداً ، مع الحرص ومنع الحقوق ، {كَلاَّ} ردعٌ عن ذلك ، وإنكارٌ عليهم. والله تعالى أعلم.
الإشارة : إنَّ ربك لبالمرصاد ، المطلع على أسرار العباد ، العالم بمَن أقبل عليه أو أدبر عنه ، ثم يختبرهم بالجمال والجلال ، فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربُّه فأكْرَمه ونَعَّمَه في الظاهر ، فيقول ربي أكرمني ، ويبطر ويتكبّر ، وأمّا إذا ما ابتلاه فقَدَر عليه رزقه فيقول ربي أهانني ، ويقنط ويتسخّط ، كَلاَّ لِينزجرا عن اعتقادهما وفعلهما ، وليعلما أنه اختبار من الحق ، فمَن شكر النِعم ، وأطعم الفير والمسكين ، وأبرّ اليتيم والأيم ، كان من الأبرار ،

٣٠١

وإن عكس القضية كان من الفُجّار ، ومَن صبر على الفقر ، ورضي بالقسمة ، وفرح بالفاقة ، فهو من الأولياء ، ومَن عكس القضية كان من البُعداء ، فَمن نظر الإنسان القصير ظنُ النقمة نعمة ، والنعمة نقمة ، فبسطُ الدنيا على العبد قبل معرفته بربه هوانٌ ، وقبضها عنه أحسان ، وفي الحكم : " ربما

أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك ". ثم زجر الحقُّ تعالى عن التمتُّع الشهواني البهيمي ، وعن محبة المال الفاني ، وهو من فعل أهل الانهماك في الغفلة.

(٣٥٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٠

يقول الحق جلّ جلاله : {كلا إذا دُكَّتِ الأرْضُ} أي : زُلزلت {دَكاً دَكاً} أي : دكاً بعد دكّ ، أي : كرّر عليها الدكّ حتى صارت هباءً منبثاً ، أو قاعاً صفصفاً ، {وجاء ربُّك} أي : تجلّى لفصل قضائه بين عباده ، وعن ابن عباس : أمره وقضاؤه ، {والمَلَكُ صفاً صفاً} أي : نزل ملائكة كل سماء فيصفون صفاً بعد صف محدقين بالإنس والجن ، {وجيء يومئذٍ بجهنمَ} ، قيل : بُرِّزت لأهلها ، كقوله : {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١)} [الشعراء : ٩١] وقيل : يجاء بها حقيقة ، وفي الحديث : " يؤتى بجهنم يومئذٍ ، لها سبعونَ ألفَ زمامٍ ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يَجرُّونها ، حتى تنصب عن يسار العرش ، لها تغيظ وزفير " رواه مسلم.

{يومئذ يتذكّرُ الإنسانُ} أي : يتّعظ ، وهو بدل من (إذا دُكت) والعامل فيه : (يتذكّر) أي : إذا دُكت الأرض ووقع الفصل بين العباد يتذكر الإنسان ما فرّط فيه بمشاهدة جزائه ، {وأنَّى له الذِّكْرَى} أي : ومن أين له الذكرى ؟ لفوات وقتها في الدنيا ، {يقول يا ليتني قدمتُ لحياتي} هذه ، وهي حياة الآخرة ، أي : يا ليتني قدّمتُ الأعمالَ الصالحة في الدنيا الفانية لحياتي الباقية.

{فيومئذٍ لا يُعَذِّبُ عذابَه أحدٌ} أي : لا يتولّى عذاب الله أحد ؛ لأن الأمر لله وحده في ذلك اليوم ، {ولا يُوثِقُ وثاقه أحدٌ} ، قال صاحب الكشف : لا يُعذِّب بالسلاسل والأغلال أحدٌ كعذاب الله ، ولا يوثِق أحدٌ أحداً كوثاق الله. وقرأ الأخوان بفتح الذال والثاء ، بالبناء للمفعول ، قيل : وهي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجع إليها أبو عمرو في آخر عمره ، والضمير يرجع إلى الإنسان الموصوف ، وهو الكافر. وقيل : هو أُبيّ بن خلف ،

٣٠٢

أي : لا يُعذِّب أحدٌ مثل عذابه ، ولا يوثق بالسلاسل مثل وثاقه ؛ لتناهيه في كفره وعناده.

ثم يقول الله تعالى للمؤمن : {يا أيتها النفسُ} يخاطبه تعالى إكراماً له بلا واسطة ، أو على لسان ملك ، {المطمئنةِ} بوجود الله ، أو بذكره ، أو بشهوده ، الواصلة إلى بَلَج اليقين ، بحيث لا يخالطها شك ولا وهم ، وقيل : المطمئنة ، أي : الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن ، ويؤيده : قراءة مَن قرأ : يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة. ويقال لها هذا عند البعث ، أو عند تمام الحساب ، أو عند الموت : {ارجعي إِلى ربك} إلى وعده ، أو : إلى إكرامه ، {راضيةً} بما أُوتيت من النعيم {مرضيةً} عند الله عزّ وجل ،

{فادخلي في عبادي} أي : في زمرة عبادي الصالحين المخلصين ، وانتظمي في سلكهم ، {وادخلي جنتي} معهم. وقال أبو عبيدة : أي : مع عبادي وبين عبادي. أي : خواصّي ، كما قال : {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} [النمل : ١٩]. وقيل : المراد بالنفس : الروح ، أي : وادخلي في أجساد عبادي ، لقراءة ابن مسعود : " في جسد عبادي " ولمّا مات ابن عباس بالطائف جاء طائر لم يُرَ على خلقته ، فدخل في نعشه ، فلما دُفن تُليت هذه الآية على شفا قبره ، ولم يُدْرَ مَن تلاها ، وقيل : نزلت في حمزة بن عبد المطلب ، وقيل : في خُبيْب بن عدي ، الذي صلبه أهلُ مكة ، والمختار : أنها عامة في المؤمنين ؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. الإشارة : إذا دُكت أرض الحس ، باستيلاء المعنى عليها ، أو أرض البشرية ، باستيلاء الروحانية عليها ، دكاً بعد دكٍّ ، بالتدريج والتدريب ، حتى يحصل التمكين من أسرار المعاني ، وجاء ربك ، أي : ظهر وتجلّى للعيان ، والملَك صفاً صفاً ، أي : وجاءت الملائكة صفوفاً ، وجيء يومئذٍ بجهنم ، أي : بنار البُعد لأهل الفرق ، يومئذ يتذكّر الإنسانُ ما فاته من المجاهدة وصُحبة أهل الجمع ، وأنَّى له الذكرى مع إقامته في الفَرْق طول عمره ، يقول : يا ليتني قدمتُ لحياتي ؛ رُوحي بالمشاهدة بعد المجاهدة ، فيومئذٍ يتولى الحق تصرُّفه في عباده بقدرته ، فيُعَذِّب أهل الحجاب بسلاسل العلائق

والشواغل ، ويُقيدهم بقيود البين ، ثم يُنادي روح المقربين أهل الأرواح القدسية : يا أيتها النفس المطمئنة ، التي اطمأنت بشهود الحق ، ودام فناؤها وبقاؤها بالله ، ارجعي إلى ربك ؛ إلى شهود ربك بعد أن كنت عنه محجوبة ، راضية عن الله في الجلال والجمال ، مرضية عنده في حضرة الكمال ، وعلامة الطمأنينة : أنَّ صاحبها لا ينهزم عند الشدائد وتفاقم الأهوال ، لأنَّ مَن كانت يده مع الملك صحيحة لا يبالي بمَن واجهه بالتخويف أو التهديد. وقال الورتجبي : النفس المطمئنة هي التي صدرت مِن نور خطاب الأول الذي أوجدها من العدم بنور القِدم ، واطمأنت بالحق وبخطابه ووصاله ، فدعاها الله إلى معدنها الأول ، وهي التي ما نالت من الأول إلى الآخر غير مشاهدة الله ، راضية من الله بالله ، مرضية عند الله بالاصطفائية الأزلية. هـ. والنفوس ثلاثة : أمّارة ، ولوّامة ، ومطمئنة ، وزاد بعضهم : اللاّمة. والله تعالى أعلم ، صلّى الله على سيدنا محمد وآله.

سورة البلد

يقول الحق جلّ جلاله : {لا أُقسم بهذا البلد} ؛ أَقسم تعالى بالبلد الحرام ، وما عطف عليه على أنّ الإنسان خُلق مغموراً بمقاساة الشدائد ومعاناة المشاقّ. واعترض بين القسم وجوابه بقوله : {وأنت حِلّ بهذا البلد} ، أي : وأنت حالّ ساكن به ، فهو حقيق بأن يُقسم به لحلولك به ، أو : وأنت حِل ، أي : تُستحل حرمتُكَ ، ويُؤذيك الكفرةُ مع أنَّ مكة لا يَحل فيها قتل صيد ولا بشر ، ولا قطع شجر ، وعلى هذا قيل : " لا أُقسم " نفي ، أي : لا أقسم بهذا وأنت تلحقك فيه إذاية ، وهذا ضعيف ، أو : وأنت حلال يجوز لك في هذا البلد ما شئت مِن قتل كافر وغير ذلك مما لا يجوز لغيرك ، وهذا هو الأظهر ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " إنَّ هذا البلد حرام ، حرّمه اللهُ يومَ خلق السموات والأرض ، لم يَحِلَّ لأحدٍ قبلي ، ولا يحل لأحد بعدي ، وإنما أُحل لي ساعة من نهارٍ " ، يعني : فتح مكة ، وفيه أَمَرَ صلى الله عليه وسلم بقتل ابن خَطَل ، وهو متعلّق بأستار الكعبة.
فإن قلتَ : السورة مكية ، وفتح مكة كان سنَة ثمان من الهجرة ؟ قلتُ : هو وعد بالفتح وبشارة. انظر ابن جزي. وكثير من الآيات نزلت بمكة ولم يتحقق مصداقها إلاّ بعد الهجرة ، كقوله تعالى : {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [فصلت : ٦ ، ٧] وقوله تعالى : {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِيا إِسْرَائِيلَ عَلَىا مِثْلِهِ} [الأحقاف : ١٠] وغير ذلك.

{ووالدٍ وما وَلَد} أي : وآدم وجميع ولده ، أو نوح وولده ، أو إبراهيم وولده ، أو إسماعيل ونبينا صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده أنه حَرَمُ إبراهيم ومنشأ إسماعيل ، ومسكن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أو محمد صلى الله عليه وسلم وولده ، أو جنس كل والد ومولود. {لقد خلقنا الإنسانَ} أي : جنسه {في كبدٍ} ؛ في تعب ومشقة ، فإنه لا يزال يُقاسي فنون الشدائد من وقت نفخ الروح إلى حين نزعها ، يُكابد مشاق التعلُّم ، ثم مشاق القيام بأمور الدين وأمور معاشه وهموم دنياه وآخرته ، ثم يكابد نزع روحه ، ثم سؤاله في قبره ، ثم تعب حشره ، ومقاساة شدائد حسابه ، ثم مروره على الصراط ، فلا راحة له إلاّ بعد دخول الجنة لتكون حلوة عنده ، هذا في عموم الناس ، وأمّا خواص العارفين فقد استراحوا حين وصلوا إلى معرفة الحق ، فأسقطوا عنهم الأحمال ؛ لتحققهم أنهم محمولون بالقدرة الأزلية ، فلما أَسقطوا حِمْلَهم قام الله بأمرهم ، لقوله : {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق : ٣] ، يقال : كَبِدَ الرجل كَبَداً : إذا وجعت كبده من مرض أو تعب.
}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٤
أَيَحْسَبُ أن لَّن يَقْدِر عليه أَحدٌ} أي : أيظن الإنسان الكافر أن لن يقدر على بعثه أحد ، أو : أيظن بعض الإنسان ألن يغلبه أحدٌ ، فعلى هذا نزلت في مُعَيّن ، قيل : هو أبو الأشدّين الجمحي ، رجل من قريش كان شديد القوة ، مغترًّا بقوته ، كان يبسط له الأديم العكاظي فيقوم عليه ، ويقول : مَن أزالني عنه فله كذا ، فيجذبه عشرة فيتقطع قطعاً ، ولا تزال قدماه ، وقيل : عَمْرو بن عبد ود ، وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة ، وقتله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. {يقولُ أهلكتُ مالاً لُّبَداً} أي : كثيراً ، جمع لُبْدَة وهو ما تلبّد بعضه على بعض ، يريد كثرة ما أنفقه ، مما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ومعالي ، رياءً وفخراً. {أيَحْسَبُ أن لمْ يَرَه أحدٌ} ؟ حين كان ينفق ما ينفق رياءً وسُمعةً ، وأنه تعالى لا يُحاسبه ولا يجازيه ، يعني : أنَّ الله كان يراه وكان عليه رقيباً فيُجازيه عليه.
ثم ذكر نِعمه عليه ، فقال : {ألم نجعل له عينين} يُبصر بهما المرئيات ، {ولساناً} يُعَبِّرُ به عما في ضميره ، {وشفتين} يستر بهما فاه ، ويستعين بهما على النُطق والأكل والشرب والنفخ وغيرها ، {وهديناه النجدين} أي : طريقي الخير والشر المُفضيان إلى الجنة أو النار ، فهو كقوله : {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ...} [الإنسان : ٣] الآية. وليس المراد بالهدى معنى الإرشاد ، بل معنى الإلهام ، أو : الثديين ، وأصل النجد : المكان المرتفع ، ومنه سُميت نجد ، لارتفاعها عما انخفض من الحجاز.
الإشارة : أقسم تعالى ببلد المعاني ، التي هي أسرار الذات ، ووالد ، وهو الروح الأعظم وما تولّد منه من الأرواح الجزئيات ، لقد خلق الإنسانَ في كبد : في تعب الظاهر والباطن إلاّ مَن رجع إلى أصله ، أعني : روحانيًّا قدسيًّا ، فإنه حينئذ يستريح من تعب الطبع. قال الكواشي : عن بعضهم : الإنسان في كبد ما دام قائماً بطبعه ، واقفاً بحاله ، فإنه في ظلمة وبلاء ، فإذا فني عن أوصاف إنسانيته ، بفناء طبائعه عنه ، صار في راحةٍ. هـ.
٣٠٥
والحاصل : أنَّ الإنسان كله في تعب إلاَّ مَن عرف الله تعالى معرفة العيان ، فإنه في روح وريحان ، وجنات ورضوان. أَيَحْسَب الجاهل أن لن يقدر على حمل أثقاله أحدٌ ، فلذلك أتعب نفسه في تدبير شؤونه ، بلى نحن قادرون على حَمل حمله إن أسقطه توكلاً علينا. ألم نجعل له عينين ، فلينظر بهما مَن حَمل السمواتِ والأرض ، أليس ذلك بقادرٍ على حمل أثقاله ؟ فليرح نفسه من تعب التدبير ، فما قام به عنه غيرُه لا يقوم به هو عن نفسه ، وجعلنا له لساناً يشكر به نِعَمَ مولاه ، وشفتين يصمت بهما عما لا يعنيه ، وهديناه الطريقين ؛ الشريعة والحقيقة ، فإذا سلكهما وصلناه إلينا.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٤

أَيَحْسَبُ أن لَّن يَقْدِر عليه أَحدٌ} أي : أيظن الإنسان الكافر أن لن يقدر على بعثه أحد ، أو : أيظن بعض الإنسان ألن يغلبه أحدٌ ، فعلى هذا نزلت في مُعَيّن ، قيل : هو أبو الأشدّين الجمحي ، رجل من قريش كان شديد القوة ، مغترًّا بقوته ، كان يبسط له الأديم العكاظي فيقوم عليه ، ويقول : مَن أزالني عنه فله كذا ، فيجذبه عشرة فيتقطع قطعاً ، ولا تزال قدماه ، وقيل : عَمْرو بن عبد ود ، وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة ، وقتله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. {يقولُ أهلكتُ مالاً لُّبداً} أي : كثيراً ، جمع لُبْدَة وهو ما تلبّد بعضه على بعض ، يريد كثرة ما أنفقه ، مما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ومعالي ، رياءً وفخراً. {أيَحْسَبُ أن لمْ يَرَه أحدٌ} ؟ حين كان ينفق ما ينفق رياءً وسُمعةً ، وأنه تعالى لا يُحاسبه ولا يجازيه ، يعني : أنَّ الله كان يراه وكان عليه رقيباً فيُجازيه عليه.

ثم ذكر نِعمه عليه ، فقال : {ألم نجعل له عينين} يُبصر بهما المرئيات ، {ولساناً} يُعَبِّرُ به عما في ضميره ، {وشفتين} يستر بهما فاه ، ويستعين بهما على النُطق والأكل والشرب والنفخ وغيرها ، {وهديناه النجدين} أي : طريقي الخير والشر المُفضيان إلى الجنة أو النار ، فهو كقوله : {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ...} [الإنسان : ٣] الآية. وليس المراد بالهدى معنى الإرشاد ، بل معنى الإلهام ، أو : الثديين ، وأصل النجد : المكان المرتفع ، ومنه سُميت نجد ، لارتفاعها عما انخفض من الحجاز.

الإشارة : أقسم تعالى ببلد المعاني ، التي هي أسرار الذات ، ووالد ، وهو الروح الأعظم وما تولّد منه من الأرواح الجزئيات ، لقد خلق الإنسانَ في كبد : في تعب الظاهر والباطن إلاّ مَن رجع إلى أصله ، أعني : روحانيًّا قدسيًّا ، فإنه حينئذ يستريح من تعب الطبع. قال الكواشي : عن بعضهم : الإنسان في كبد ما دام قائماً بطبعه ، واقفاً بحاله ، فإنه في ظلمة وبلاء ، فإذا فني عن أوصاف إنسانيته ، بفناء طبائعه عنه ، صار في راحةٍ. هـ.

٣٠٥

والحاصل : أنَّ الإنسان كله في تعب إلاَّ مَن عرف الله تعالى معرفة العيان ، فإنه في روح وريحان ، وجنات ورضوان. أَيَحْسَب الجاهل أن لن يقدر على حمل أثقاله أحدٌ ، فلذلك أتعب نفسه في تدبير شؤونه ، بلى نحن قادرون على حَمل حمله إن أسقطه توكلاً علينا. ألم نجعل له عينين ، فلينظر بهما مَن حَمل السمواتِ والأرض ، أليس ذلك بقادرٍ على حمل أثقاله ؟ فليرح نفسه من تعب التدبير ، فما قام به عنه غيرُه لا يقوم به هو عن نفسه ، وجعلنا له لساناً يشكر به نِعَمَ مولاه ، وشفتين يصمت بهما عما لا يعنيه ، وهديناه الطريقين ؛ الشريعة والحقيقة ، فإذا سلكهما وصلناه إلينا.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٤
يقول الحق جلّ جلاله : {فلا اقتحم العقبةَ} ، الاقتحام : الدخول بشدة ومشقة ، والعقبة : كل ما يشق على النفس من الأعمال الصالحات ، و " لا " هنا إمّا تحضيضية ، أي : هلاَّ اقتح العقبة ، وإمّا نافية ، أي : فلم يشكر تلك الأيادي والنِعم ، من البصر وما بعده ، بالأعمال الصالحة من فك الرقاب وما سيذكره ، فإن قلت : " لا " النافية إذا دخلت على الماضي ولم تكن دعائية وجب تكرارها ؟ فأجاب الزمخشري : بأنها مكررة في المعنى ، أي : فلا اقتحم ولا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً..الخ.
ثم عظَّم تلك العقبة بقوله : {وما أدراك ما العقبةُ} أي : أيّ شيء أعلمك ما هي العقبة التي أُمر الإنسان باقتحامها ، أو نفي عنه اقتحامها ؟ ثم فسّرها بقوله : {فَكُ رقبةٍ} أي : هي إعتاق رقبة ، أو إعانة في أداء كتابتها. قال ابن جُزي : وفك الأسارى من الكفار أعظم أجراً من العتق ؛ لأنه واجب ولو استغرقت فيه أموال المسلمين ، ولكنه لا يجزي في الكفارات. هـ.
{أو إطعامٌ في يومٍ ذي مَسْغَبةٍ} أي : مجاعة {يتيماً ذا مقربةٍ} أي : قرابة ، {أو مسكيناً ذا متربةٍ} ؛ ذا فقر ، يقال : ترِب فلان : إذا افتقر والتصق بالتراب ، ومَن قرأ " فكَ " و " أطعمَ " بصيغة الماضي فبدل من " اقتحم " ، {ثم كان من الذين آمنوا} اي : دام على إيمانه ، أو : ثُم كان حين فعل ما تقدّم من المؤمنين فيحنئذ ينفعه ذلك ، وإنما جاء بـ " ثم " لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة ، لا في الوقت ، إذ الإيمان هو السابق على غيره ، إذ لا يقبل عمل صالح إلاّ به ، {وتَوَاصَوا بالصبرِ} عن المعاصي وعلى الطاعات ، أو : المحن التي يُبتلى بهما المؤمن ، {وتَوَاصَوا بالمرحمةِ} ؛ بالتراحم
٣٠٦
فيما بينهم. {أولئك أصحابُ الميمنةِ} أي : الموصوفون بهذه الصفات هم أصحاب اليمين واليمْن ، {والذين كفروا بآياتنا} ؛ بما نصبناه دليلاً على الحق من كتاب وحجة ، أو بالقرآن {هم أصحابُ المشئمةِ} أي : الشمال أو الشؤم ، {عليهم نار موصدة} ؛ مُطْبَقة ، من أوصدت الباب وآصدته : إذا أغلقته.

(٣٥٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٦
الإشارة : هلاَّ اقتحم مريد الوصول العقبةَ ، وهي سلوك الطريق ، بخرق عوائد النفس وترك هواها ، وجَرِّها إلى مكروهها ، وعن الحسن رضي الله عنه : عقبة ـ والله ـ شديدة ، يُجاهد الإنسانُ نفسَه وهواه ، وعدوه الشيطان. هـ. ثم فسَّرها بفك الرقبة ، أي : رقبة نفسه يفكها من أن يملكه السِّوى ، أو : يفكها

من الذنوب والعيوب ، أو فكها من رِقّ الطمع في الخلق ، فإنه بذر شجرة الذل ، أو : فكها من سجن الأكوان إلى فضاء شهود المكوِّن ، أو : فك رقبة الغافل الجاهل من رِقّ نفسه بتذكيره ووعظه أو تربيته ، أو إطعام روحٍ جائعة من اليقين ، إمّا يتيماً لا أب له روحاني ، أي لا شيخ له ، فتذكِّره بما يتقوّى به إيقانه ، أو فقيراً من أسرار التوحيد ترابيًّا أرضيًّا ، فترقّيه إلى سماء الأسرار ، ثم كان ممن آمن بطريق الخصوص ، وتواصَى بالصبر على مشاق السير ، والتراحم والتوادد والتواصل ، كما هو شأن أهل النسبة ، فهؤلاء هم أهل اليُمْن والبركة ، وضدهم ممن جحدوا أهل الخصوصية هم أهل الشؤم. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.
٣٠٧

(٨/٣٦٠)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٦
سورة الشمس

(٨/٣٦١)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٧
يقول الحق جلّ جلاله : {والشمسِ وضُحاها} أي : وَضوئها إذا أشرقت وقام سلطانها ، {والقمرِ إذا تلاها} ؛ تبعها في الضياء والنور ، وذلك في النصف الأول من الشهر ، يخلف القمرُ الشمسَ في النور ، {والنهارِ إذا جلاَّها} أي : جلّى الشمسَ وأظهرها للرائين ، وذلك عند افتتاح النهار وانبساطه ؛ لأنَّ الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء ، وقيل : الضمير للظلمة ، أو الأرض ، وإن لم يجر لها ذكر ، كقوله : {مَا تَرَكَ عَلَىا ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ} [فاطر : ٤٥] ، {والليلِ إذا يغشاها} أي : يستر الشمس ويُظْلِمُ الأفاق ، والواو الأولى في هذه الأشياء للقسم باتفاق ، وكذا الثانية عند البعض ، وعند الخليل : الثانية للعطف ؛ لأنَّ إدخال القسم على القسم قبل تمام الأول لا يجوز ، ألا ترى : أنك لو جعلت مرضعها كلمة الفاء أو " ثم " لكان المعنى على حاله ، وهما حرفا عطف ، وكذا الواو ، ومَن قال : إنها للقسَمَ احتجّ بأنها لو كانت للعطف لكان عطفاً على عاملين ، لأنَّ قوله : {وَالَّيْلِ} [الليل : ١] . مثلاً . مجرور بواو القسم ، {إذا يغشى} منصوب بالفعل المقدّر الذي هو أقسم ، فلو جعلت الواو التي في {وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىا} [الليل : ٢] للعطف لكان النهار معطوفاً على الليل جرًّا ، و {إذا تجلى} معطوفاً على " يغشى " نصباً ، وكان كقولك : إنَّ في الدار زيداً ، والحُجرة عَمْراً ، وأجيب بأنّ واو القسم تنزّلت

منزلة الباء والفعل ، حتى لم يجز إبراز الفعل معها ، فصار كأنها العاملة جرًّا ونصباً ، وصارت كعاملٍ واحد له معمولان ، وكلُّ عامل له عملان يجوز أن يعطف على معموليه بعاطف واحدٍ بالاتفاق ، نحو : ضرب زيدٌ

عمراً وأبو بكر خالداً ، فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام العامل.

{والسماءِ وما بناها} أي : ومَن بناها ، وإيثار " ما " على " مَنْ " لإرادة الوصفيّة تفخيماً ، كأنه قيل : والقادر العظيم الذي بناها ، وجعلُها مصدرية مخلّ بالنظم الكريم ، وكذا في قوله : {والأرضِ وما طحاها} أي : بسطها من كل جانب ، ک " دحاها ".

}

ونفسٍ وما سوَّاها} أي : والحكيم الباهر الحكمة الذي سوّاها وأتقن صورتها ، مستعدة لكمالاتها ، والتنكير للتفخيم ، على أنَّ المراد نفس آدم عليه السلام أو للتكثير ، وهو الأنسب للجواب ، أي : ومَن سوّى كلَّ نفس ، {فألْهَمَها فجورَها وتقواها} أي : ألهمها طاعتها ومعصيتها ، وأفهمها قبح المعصية وحسن الطاعة ، أو عَرَّفها طرق الفجور والتقوى ، وجعل لها قوة يصح معها اكتساب أحد الأمرين ، ويحتمل أن تكون الواو بمعنى " أو " كقوله : {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} [الإنسان : ٣] أي : ألهم مَن أراد شقاوتها فجورها فسعت إليه ، وألهم مَن أراد سعادتها تقواها ، فسعت إليه. {قد أفلح مَن زَكَّاها} أي : فاز بكل مطلوب ، ونجا مِن كل مكروه مَن طَهَّرَها وأصلحها وجعلها زكيةً بالإيمان والطاعة ، {وقد خاب مَن دسَّاها} ؛ أغواها ، قال عكرمة : " أفلحت نفس زكّاها اللّهُ ، وخابت نفس أغواها الله " ويجوز أن تكون التدسية والتطهير فعل العبد. والتدسية : النفس والإخفاء ، أي : خسر مَن نقصها وأخفاها بالفجور ، وأصل دسّى : دسّس ، كتقضى وتقضض ، فأبدل من الحرف الثالث ياء ، قال في الكافية :

وثالث الأمثال أبدلنه ياء

نحو تظنا خالد تظنينا

وجواب القسم محذوف ، والتقدير : ليهلكنّ الله مَن كفر من قريش ويُدمدم عليهم كما دمدم على ثمود ، وقيل : " قد أفلح " وليس بشيء ، وقيل : " كذبت ثمود " على إضمار " قد " والأول أحسن ، والله تعالى أعلم.

الإشارة : والشمس شمس العرفان ، وابتداء ضُحاها في أول الفناء ، والقمر قمر الإيمان ، إذا تلاها بالرجوع للأثر بالتنزُّل لعالم الحكمة كمالاً وتكميلاً ، والنهار نهار التمكين إذا جلاّها ، أي : ظلمة حس الكائنات ، وقلعها مِن أصلها بشهود المكوِّن ، والليل ؛ ليل القطيعة ، إذا يغشاها بقهرية الحق اختباراً ، هل يضطرب ويفزع فيُردّ عليه ، أو يتسلّى فيُسلب ، أو نهار البسط إذا جلاّها ، أي : ظلمة القبض ، وليل القبض إذا يغشاها ، أي : شمس نهار البسط ، أقسم تعالى بتعاقبهما والسماء سماء الأرواح ، وما بناها ؛ رفعها ، والأرض أرض الأشباح ، وما طحاها ، أي : بسطها للعبودية ، ونفسٍ وما سوّاها ؛ ألقى صورتها وهيّأها للقُرب والبُعد ، فألهمها فجورها وتقواها بما أعطاها من نور العقل ، قال الورتجبي : سوّاها بتسوية الصِفة ، ورقمها بنور الآزلية ، ثم بيَّن أنه تعالى عرّفها طرق لطيفات الذات ، وقهرية الصفات بنفسه بلا واسطة بقوله : {فألهمها فجورها وتقواها} عرّفها أولاَ طريق القهر حتى عرفت المهلكات ، ثم عرَّفها طريق اللطف حتى عرفت
٣٠٩
معالجتها من المنجيات ، والمقصود منها : عرفانها عند الحق بطريق القهر واللطف ، حتى تكمل معرفةُ صانعها. هـ.

(٣٦٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٨
قال القشيري : فألهمها فجورها وتقواها : بأن خَذَلَها ووَفَّقَها ، ويقال : فجورها : حركتها في طلب الرزق ، وتقواها : سكونها لحُكْم التقدير. ثم قال : ويُقال : أفلح مَن طهَّرها من الذنوب والعيوب ، ثم عن الأطماع في الأَعواض ، ثم العبد نفسه عن الاعتراض على الأنام ، وعن ارتكاب الحرام ، وقد خاب مَن خان نفسه وأهملها عن المراعاة ، ودسَّها بالمخالفات ، وفي نوادر الأصول ما حاصله : أنَّ دسّاها بمنزلة مَن دسّ شيئاً في كوة ، يمنع من دخول الضوء ، كذلك الهوى والشهوة سدّ وغلّق على القلب من حصول ضوء القربة والوصلة. هـ.

(٣٦٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٨
يقول الحق جلّ جلاله : {كذبتْ ثمودُ} صالحاً {بطغواها} أي : بسبب طغيانها ، إذ الحامل لهم على التكذيب هو طغيانهم ، وفيه وعظ لأمثالهم ، وتهديد للحاضرين الطاغين ؛ لأنَّ الطغيان أجرم الجرائم

الموجبة للهلاك والخيبةِ في الدنيا والآخرة. {إذ انبعث أشقاها} ، منصوب بـ "كذبتْ " ، أي : حين قام أشقى ثمود ، وهو : قُدّار بن سالف ، أو : هو ومَن تصدّى معه للعقر من الأشقياء ، فإنَّ أفعل التفضيل إذا أضيف يصلح للواحد والمتعدد ، والمذكر والمؤنث. وفضل شقاوتهم على مَن عداهم لمباشرتهم العقر مع اشتراك الكل في الرضا به.

{فقال لهم} أي : لثمود {رسولُ الله} صالح عليه السلام ، عبَّر عنه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته ، وبياناً لغاية عتوهم ، وهو السر في إضافة الناقة إليه تعالى في تقوله : {ناقةَ الله} أي : احذروا عقرها ، أو احفظوها ، {و} الزموا {سُقياها} فلا تُدَوروها في نوبتها ، وهما منصوبان على التحذير. {فكذّبوه} فيما حذّرهم به من نزول العذاب بقوله : {وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُواءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأعراف : ٧٣] ، {فعقروها} ، أسند الفعل إليهم ، وإن كان العاقر واحداً ، لقوله : {فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَا فَعَقَرَ (٢٩)} [القمر : ٢٩] لرضاهم به. قال قتادة : بلغنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم. وذكرانهم وإناثهم ". {فَدَمْدَمَ عليهم ربُّهم} ؛ فأطبق عليهم العذاب حتى استأصلهم. قال الهروي : إذا كررت الإطباق قلت : دمدمت عليه ، أي : أدمت عليه الدمدمة ، وقيل : فدمدم عليهم : غَضِبَ عليهم ، {بذنبهم} ؛ بسبب ذنبهم ، وصّرح به مع دلالة الفاء عليه للإيذان بأنه عاقبة كل ذنب ليعتبر

به كل مذنب. {فسوَّاها} أي : الدمدمةّ بينهم ، لم يفلت منهم أحد من صغيرهم وكبيرهم ، أو فسوّى ثمود بالأرض بتسوية بنائها وهدمه ، {وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)} [الشمس : ١٥] أي : عاقبتها وتَبِعَتها ، كما يخاف سائر المعاقِبين أي : فعل ذلك غير خائف أن يلحقه تبعة مِن أحد ، كما يخاف مَن يعاقب مِن الملوك وغيرهم ، لأنه تصرف في ملكه ، {لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)} [الأنبياء : ٢٣]. ومَن قرأ بالواو فهو للحال ، أو الاستئناف.

(٣٦٥/٨)

الإشارة : قال القشيري : كذبت ثمودُ النفس بسبب طغيانها على القلب بالشهوات الحيوانية ، واللذات الجسمانية ، إذ انبعث أشقاها ، هو الهوى المتبع ، الساعي في قتل ناقة الروح ، فقال لهم رسول الله ؛ القلب الصالح : ناقةَ الله ، أي : اتركوا ناقةَ الله ترعى في المراتع الروحانية ، من المكاشفات والمشاهدات والمعاينات ، فكذّبوه ؛ فكذبت ثمود النفس وجنودُها رسولَ القلب ، فعقروها ، أي : الروح بالظلمة النفسانية والشهوة الحيوانية ، فَدَمْدَم عليهم ربُّهم ؛ على ثمود النفس وقومها عذاب البُعد والطرد ، بذنبهم ، فسوّاها ، أي : فسوّى الدمدمة ، وهي الإطباق على النفس وجنودها ، فلا يخاف

عقباها لغناه عن العالمين. هـ. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.
٣١١

(٣٦٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١٠
سورة الليل

(٣٦٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١١
يقول الحق جلّ جلاله : {والليلِ إِذا يغشى} أي : حين يغشى الشمس ، كقوله تعالى : {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤)} [الشمس : ٤] أو : كل ما يواريه بظلامه. وقال القشيري : إذا يغشى الأفق وما بين السماء والأرض فيستره بظلمته. {والنهارِ إِذا تَجَلَّى} أي : ظهر وأسفر ووضح ، {وماخَلَقَ الذكَرَ والأُنثى} أي : والقادر الذي خلق الذكر والأنثى من كل ما له توالد مِن ماءٍ واحد ، وقيل : هما آدم وحواء ، و " ما " بمعنى " من " أو مصدرية. وقُرىء " والذكر والأنثى " وقرىء " الذي خلق الذكر والأنثى ". جواب القسم : {إِنَّ سعيَكم} أي : عملكم {لشتَّى} ؛ لمختلف ، جمع شتيت ، أي : إنّ مساعيكم لأشتات مختلفة.
ثم فصّله فقال : {فأمَّا مَن أعطى} حقوق ماله {واتقى} محارمَ الله التي نهى عنها ، {وصدَّق بالحسنى} ؛ بالخصلة الحُسنى ، وهي الإيمان ، أو بالكلمة الحسنى ، وهي كلمة التوحيد ، أو بالملة الحسنى ، وهي الإسلام ، أو بالمثوبة الحسنى ، وهي الجنة ، والتصديق هو أن يرى أنَّ ما وعده اللهُ به يوصله إليه ، ولا يجري على قلبه خاطر شك ، {فسَنُيَسِّره لليُسرى} ؛ فسنهيئه للطريقة التي تؤدي إلى الراحة واليُسر ، كدخول الجنة ومبادئه. قال ابن عطية : معناه : سنظهر عليه تيسيرنا إياه بما يتدرج فيه من أعمال الخير ، وحَتْم تيسيره كان في علم الله أزلاً. هـ. يقال : يسَّرَ الفرس ، إذا أسرجها وألجمها.
{وأمّا مَن بَخِلَ} بماله ، فلم يبذله في سبيل الخير ، {واستغنَى} أي : زهد فيما عند الله تعالى ، كأنه مستغنٍ عنه فلم يتقه ، أو : استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة ،
٣١٢
{وكَذَّب بالحُسنى} أي : بالخصلة الحسنى ، على ما ذكر من معانيها ، {فسَنُيَسِّره للعُسرى} أي : للخصلة المؤدّية إلى العسر والشدة ، كدخول النار ومقدماته ، لاختياره لها. وقال الإمام ـ أي الفخر ـ :

كل ما أدّت عاقبته إلى الراحة والأمور المحمودة ، فذلك اليسرى ، وهو وصف كل الطاعات ، وكل ما أدّت عاقبته إلى التعب والردى ، فذلك العُسرى ، وهو وصف كل المعاصي. هـ. {وما يُغني عنه مالُه} الذي بَخِلَ به ، أي : لا ينفعه شيئاً {إذا تَرَدَّى} ؛ هَلَكَ ، تفعّل ، من الردى ، أو تردَّى في حفرة القبر ، أو في قعر جهنّم ، والعياذ بالله.

(٣٦٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١٢

الإشارة : أقسم تعالى بليل الحجاب ، إذا يغشى القلوبَ المحجوبة ، ونهار التجلِّي إذا يغشى القلوب الصافية ، وكأنه تعالى أقسم بقهر جلاله ، ولُطف جماله ، وقدرته على خلق أصناف الحيوانات ، إنَّ سعي الناس لشتى ، فأمّا مَن أعطى مالَه ونفسَه ، واتقى كلَّ ما يشغله عن المولى ، فَسنُيَسِّره لسلوك الطريق اليُسرى ، التي توصل إلى حضرة المولى. وقال الورتجبي : سهّل له طريقَ الوصول إليه ، ويرفع عنه الكلفة والتعب في العبودية. وقال القشيري : نُسَهِّلُ عليه الطاعات ، ونُكَرِّه إليه المخالفات ، ونهيىء له القُربَ ، ونُحَبِّبُ له الإيمان ، ونُزَيِّن في قلبه الإحسان. هـ. وأمَّا مَن بَخِلَ بماله ونفسه ، واستغنى عن معرفة ربه معرفة العيان ، وقنع بمقام الإيمان ، فسَنُيسره للعُسرى ، وهي طريق البُعد والحجاب ، كاشتغاله بحب الدنيا ، وجمع المال ، وما يُغني عنه ماله إذا تردى في مهاوي البُعد والردى.

(٣٦٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١٢

يقول الحق جلّ جلاله : {إِنَّ علينا لَلْهُدى} ؛ إنَّ علينا الإرشاد إلى الحق بنصب الدلائل ، وتبيين الشرائع ، أو : إن علينا بموجب قضائنا المَبْنِيِّ على الحِكَم البالغة ، حيث خلقنا الخلق للعبادة ، أن نُبيّن لهم طريق الهدى وما يؤدي إليه ، وقد فعلنا ذلك مما لا مزيد عليه ، حيث بَيَّنَّا حال مَن سلك كلا الطريقين ، ترغيباً وترهيباً ، فتبيّن أنَّ الهداية هي الدلالة على ما يوصل إلى البُغية ، لا الدلالة الموصلة إليها حتماً. قاله أبو السعود.

{وإِنَّ لنا للآخرة والأُولى} أي : التصرُّف الكلي فيهما ، كيفما نشاء ، فنفعل فيهما ما نشاء ، فنُعطي الدنيا لمَن نشاء ، والآخرة لمَن نشاء ، أو نجمع له بينهما ، أو نحرمه منهما ، فمَن طلبهما مِن غيرنا فقد أخطأ ، أو : إنَّ لنا كُلَّ ما في الدنيا والآخرة ، فلا يضرنا ترككم الاهتداء بهُدانا.

{فَأَنْذَرتكم} ؛ خوَّفتكم {ناراً تلضى} ؛ تتلهب ، {لا يَصْلاها إلاّ الأشقى} ؛ لا يدخلها للخلود فيها إلاّ مَن سبق له الشقاء ، {الذي كذَّب وتَوَلَّى} أي : الكافر الذي كذّب الرسولَ صلى الله عليه وسلم ، وتَوَلى عن الإيمان ، {وسَيُجنبها} ؛ وسيبعّدها {الأتقى} ؛ المؤمن المبالغ في اتقاء الكفر والمعاصي ، فلا يحوم حولها ، فضلاً عن دخولها ، وأمّا مَن دونه ممن يتقي الكفر دون المعاصي فلا يبعد هذا البُعد ، وذلك لا يستلزم صليها بالمعنى المذكور ، فلا يُنافي الحصر المذكور. {الذي يُؤتى مالَه} للفقراء {يتزكَّى} أي : يطلب أن يكون عند الله زاكياً ، لا يُريد به رياءً ولا سمعةً ، من : الزكا ، وهو الزيادة ، أو : تفعّل من الزكاة ، أو : يتطهر من الذنوب والعيوب ، وهو حال من ضمير " يؤتى ". {وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزى} أي : ليس لأحدٍ عنده نعمة من شأنها تجزى وتكافأ ، {إلاَّ ابتغاءَ وجه ربه} : استثناء منقطع ، أي : لكن يفعل ذلك ابتغاء وجه ربه {الأعلى} أي : الرفيع بسلطانه ، المنيع في شأنه وبرهانه.

(٨/٣٧٠)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١٣
والآية نزلت في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه حين اشترى بلالاً في جماعة كان المشركون يؤذونهم ، فأعتقهم. ولذلك قالوا : المراد بالأشقى : أبو جهل وأمية بن خلف. وعن ابن عباس رضي الله عنه : عذَّب المشركون بلالاً ، وبلالٌ يقول : أَحَدٌ أَحَدٌ ، فمرّ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال : " ينجيك أحد أحد " ثم أخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أبا بكر ، وقال له : " إنَّ بلالاً يُعذَّب في الله " فعرف مراده ، فاشتراه برطل من ذهب ، وقيل : اشتراه بعبدٍ كان عنده اسمه " نسطاس " وكان له عشرة آلاف دينار وغلمان وجواري ، وكان مشركاً ، فقال له الصدِّيق : أَسْلِم ولك جميع مالك ، فأبى ، فدفعه لأمية بن خلف ، وأخذ بلالاً ، فأعتقه ، فقال المشركون : ما أعتقه إلا ليدٍ كانت له عنده ، فنزلت. رُوي أنه اشتراه ، وهو مدفون بالحجارة ، يُعَذَّب على الإسلام ، قال عروة : أَعتق أبو بكر سبعة ، كلهم يُعذب في الله ، بلال وعامر بن فهيرة ، والنجدية وبنتها ، وزِنِّيرة ، وبيرة ، وأم عُبيس ، وأمة بني المؤمِّل. قال : وأسْلَم وله أربعون ألفاً ، فأنفقها كلها في سبيل الله. وقال ابن الزبير : كان أبو بكر يشتري الضعفة فيعتقهم ، فقال له أبوه : لو كنت تبتاع مَن يمنع ظهرك ، فقال : مَنْعَ ظهري أريد ، فنزلت فيه : {وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧)} [الليل : ١٧] الآية. واسمه : عبد الله بن عثمان ، وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة ، فسمّاه الرسولُ صلى الله عليه وسلم عبد الله.
وقوله تعالى : {ولسوف يرضى} جواب قسم مضمر ، أي : والله لسوف نُجازيه فيرضى ، وهو وعد كريم لنيل جميع ما يبتغيه على أفضل الوجوه وأكملها ، إذ به يتحقق رضاه ، وهو كقوله لنبيه صلى الله عليه

وسلم : {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَا (٥)} [الضحى : ٥].
الإشارة : إنّ علينا لبيان الطريق لِمن طلب الوصول إلى عين التحقيق ، فإنا أنزلنا كتاباً ما فرطنا فيه من شيء ، وبعثنا رسولاً يهدي إلى الرشد ، وجعلنا له خلفاء في كل زمان ،
٣١٤
يهدون بأمرنا إلى حضرة قدسنا ، وإنَّ لنا للآخرةَ لِمن طلبها ، والأوْلى لِمن طلبها ، وأظهرنا أسرار ذاتِنا لمَن طلبها ، فأنذرتكم ناراً تلظى ، وهي نار البُعد لا يصلاها إلاّ الأشقى ، الذي سبق له البُعد منا.
{الذي كذَّب وتولَّى} ، قال القشيري : أي كذَّب الحق في مظاهر الأولياء والمشايخ وأرباب السلوك ، وأعْرَض عن قبول إرشادهم ونصائحهم ، وعن استماع معارفهم ومواجيدهم الكشفية الشهودية ، وسيُجنبها الأتقى ، أي : يُجنب طريق البُعد ونار الحجاب مَن اتقى السِّوى ، الذي يؤتى ماله تقرُّباً إلى الله ليتزكّى من العيوب والأنانية ، {وما لأحدٍ عنده من نعمة تُجزى} أي : ليس إحسانه في مقابلة حرف {إلاّ ابتغاء وجه ربه الأعلى} أي : إلاّ طلب معرفة ذاته العلية ، {ولَسَوف يَرضى} بدوام شهود الذات الأقدس. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.
٣١٥

(٣٧١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١٣
سورة الضحى

(٣٧٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١٥
يقول الحق جلّ جلاله : {والضُحى} ، المراد به : وقت الضحى ، وهو حدود النهار حتى ترتفع الشمس ، وإنما خُصّ بالإقسام به لأنه الساعة التي كلّم الله فيها موسى عليه السلام ، والتي وقع فيها السحرة ساجدين ، أو : النهار كلّه ؛ لمقابلته بالليل في قوله : {والليلِ إذا سجى} ؛ سَكَن ، المراد : سكون الناس والأصوات فيه ، أو ركد ظلامه ، من : سجا البحر إذا سكنت أمواجه ، وقيل : المراد بالضحى : ساعة مناجاة موسى ، وبالليل : ليلة المعراج.
وجواب القسم : {ما ودّعَكَ ربُّك} أي : ما تركك منذ اختارك ، {وما قَلَى} أي : وما أبغضك منذ أحبك ، والتوديع : مبالغةٌ في الودْع ، وهو الترك ؛ لأنَّ مَن ودّعك مفارقاً فقد بالغ في تركك. رُوي أنَّ

الوحي تأخّر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً ، فقال المشركون : إنَّ محمداً ودَعَهُ ربُّه وقلاه ، فنزلت ردًّا عليهم ، وتبشيراً له صلى الله عليه وسلم بالكرامة الحاصلة. وحذف الضمير من " قَلَى " إمّا للفواصل ، أو للاستغناء عنه بذكره قبل ، أو : للقصد إلى نفس صدور الفعل عنه تعالى ، مع قطع النظر عما يقع عليه الفعل بالكلية ، وحيث تضمّن ما سبق من نفي التوديع ، والقَلى أنه تعالى يُواصله بالوحي والكرامة في الدنيا بَشَّر صلى الله عليه وسلم بأنّ ما سيؤتاه في الآخرة أجلّ وأعظم بذلك ، فقيل : {وللآخرةُ خير لك من الأُولى} ، لأنَّ ما فيها من النِعم

٣١٦

صافية من الشوائب على الإطلاق ، وهذه فانية مشوبة بالمضار ، وما أوتي صلى الله عليه وسلم من شرف النبوة ، وإن كان مما لا يُعادله شرف ، ولا يُدانيه فضل ، لكنه لا يخلو في الدنيا عن بعض العوارض الشاقة على النفس.

ووجه اتصال الآية بما قبلها : أنه لمَّا كان في ضمن نفي التوديع والقَلي أنَّ الله يُواصلك بالوحي إليك ، وأنك حبيب الله ، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ، أخبر أن ما له في الآخرة أعظم وأشرف ، وذلك لتقدُّمه على الأنبياء في الشفاعة الكبرى ، وشهادة أمته على الأمم ، ورفع درجات المؤمنين ، وإعلاء مراتبهم بشفاعته ، وغير ذلك من الكرامات السنية التي لا تُحيط بها العبارة.

وقوله تعالى : {ولَسَوْفَ يُعطيك ربُّك فترضى} وَعْد كريمٌ شاملٌ لِما أعطاه الله تعالى في الدنيا ، من كما اليقين ، وعلوم الأولين والآخرين ، وظهور أمره ، وإعلاء دينه بالفتوح الواقعة في عصره صلى الله عليه وسلم ، وفي أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من الملوك الإسلامية ، وفشو الدعوة ، وإعلاء منار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، ولِما ادخر له من الكرامات التي لا يعلمها إلاَّ الله عزّ وجل ، وقد أنبأ ابنُ عباسٍ عن شيء منها ، حيث قال : " أعطي في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ، ترابه المسك ". وفي الحديث : لَمَّا نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : " أنا لا أرضى وواحد من أمتي في النار " قال بعضهم : هذه أرجى أية في القرآن. ودخل صلى الله عليه وسلم على فاطمة ، وعليها ثياب من صوف وشعر ، وهي تطحن وتُرضع ولدها ، فدمعت عيناه ، وقال : " يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا لحلاوة الآخرة " ثم تلا : {ولسوف يعطيك ربك فترضى}. واللام للقسم ، وإنما لم تدخل نون التوكيد لفصل السين بين القسم والفعل.

(٣٧٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١٦

الإشارة : قال القشيري : يُشير إلى القسم بضحوة نهار قلب الرسول ، عند انتشار شمس روحه على

بشريته ، وبِلَيل بشريته عند أحكام الطبيعة وسلوك آثار البشريه لغلبة سلطان الحقيقة ، ما ودَّعك ربك بقطع فيض النبوة والرسالة عن ظاهرك ، وما قَلَى بقطع فيض الولاية عن قلبك ، {وللآخرةُ خير لك من الأولى} يعني : أحوال نهايتك أفضل وأكمل من أحوال بدايتك ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا يزال يطير بجناحي الشريعة والطريقة في جو سماء الحقيقة ، ويترقّى في مقامات القُرب والكرامة. هـ. ويمكن الخطاب بالسورة الكريمة لخليفته من العارفين ، الدعاة إلى الله. والله تعالى أعلم.

(٣٧٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١٦

يقول الحق جلّ جلاله : {أَلَمْ يَجِدْكَ يتيماً} من أبويك {فآوى} أي : ضمَّك إلى جدك ، ثم إلى عمك أبي طالب. رُوي أنَّ أباه مات وهو جنين ، قد أتت عليه ستة أشهر ، وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين ، فكلفه أولاً جدُّه عبد المطلب ، فلما مات جده كَفَلَه عَمُّه أبو طالب ، فأحسن تربيته ، وذلك إيواؤه ، وقال القشيري : ويُقال : بل آواه إلى ظل كَنَفِه ، وربَّاه بلطف رعايته. هـ.

والحكمة في يُتمه صلى الله عليه وسلم : ألاّ يكون عليه منّة لأحدٍ سوى كفالة الحق تعالى. وقيل : هو من قول العرب : دُرة يتيمة إذا لم يكن لها مِثل ، أي : ألم يجدك وحيداً في شرفك وفضلك ، لا نظير لك فآواك إلى حضرته.

{وَوَجَدَك ضالا} ؛ غافلاً عن الشرائع التي لا تهتدي إليها العقول ، {فَهَدَى} ؛ فهداك إليها ، كقوله : {مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ} [الشورى : ٥٢]. وقال القشيري : أي : ضالاً عن تفصيل الشرائع فهديناك إليها ، وعَرَّفناك تفصيلَها. هـ. أو : ضالاً عما أنت عليه اليوم من معالم النبوة ، ولم يقل أحد من المفسرين : ضالاً عن الإيمان. قاله عياض : وقيل : ضلّ في صباه في بعض شِعاب مكة ، فردّه أبو جهل إلى عبد المطلب ، وقيل : ضلّ مرة أخرى ، وطلبوه فلم يجدوه ، فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً ، وتضرّع إلى الله ، فسمعوا هاتفاً يُنادي من السماء : يا معشر الناس ، لا تضجُّوا ، فإنَّ لمحمدٍ ربًّا لا يخذله ولا يُضيّعه. وأنَّ محمداً بوادي تهامة عند شجرة السمر ، فسار عبد المطلب وورقة بن نوفل ، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة ، يلعب بالإغصان والأوراق. وقيل : أضلته مرضعته حليمة عند باب الكعبة حين فطمته ، وجاءت به لترده على عبد المطلب ، وقيل : ضلّ في طريق الشام حين خرج به أبو طالب ، يُروى أن إبليس أخذ بزمام ناقته في ليل ظلماء ، فعدل به عن الطريق ، فجاء جبريلُ عليه السلام ، فنفخ إبليسَ نفخة وقع منها إلى أرض الهند ، وردّه إلى القافلة.

وقوله تعالى : {فَهَدَى} أي : فهداك إلى منهاج الشرائع المنطوية في تضاعيف ما يُوحى إليك من الكتاب المبين ، وعلَّمك ما لم تكن تعلم. {ووجدك عائلاً} ؛ فقيراً من حس الدنيا ، {فأَغْنَى} ؛ فأغناك

به عما سواه ، وزوّجك خديجة ، فقامت بمؤونة العيش ، أو بما أفاء عليك من الغنائم ، قال صلى الله عليه وسلم :

(٣٧٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١٧

" جعل رزقي تحت ظل رمحي ". {فأمَّا اليتيمَ فلا تقهرْ} ، قال المفسرون : أي : لا تغلبه على ماله وحقه ، لأجل ضعفه ، وأذكر يتمك ، ولا تقهره بالمنع من مصالحه ، ووجوه القهر كثيرة ، والنهي يعم جميعها ، أي : دُم على ما أنت عليه من عدم قهر اليتيم. وقد ورد في الوصية باليتيم

٣١٨

أحاديث ، منها : قوله صلى الله عليه وسلم : " أنا وكافلُ اليتيم في الجنة كهاتين إذا اتقى الله " وأشار بالسبابة والوُسطى ، وقال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن ، فيقول الله تعالى : يا ملائكتي ؛ مَن أبكى هذا اليتيم الذي غيبتُ أباه في التراب ؟ فتقول الملائكة : ربنا أنت أعلم ، فيقول الله تعالى : يا ملائكتي فإني أُشهدكم أنَّ لمن أسكته وأرضاه أنْ أُرضيه يوم القيامة " ، فكان عمر إذا رأى يتيماً مسح رأسه وأعطاه شيئاً. وقال أنس : " مَن ضمّ يتيماً ، فكان في نفقته ، وكفاه مؤنته ، كان له حجاباً من النار يوم القيامة ، ومَن مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة ".

{وأمَّا السائِلَ فلا تنهرْ} أي : لا تزجره ولا تعبس في وجهه ، ولا تغلظ له القول ، بل ردّه ردًّا جميلاً ، قال إبراهيم بن أدهم : نِعم القوم السُؤَّال يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيم النخعي : السائل بريد الآخرة ، يجيء إلى باب أحدكم فيقول : أتبعثون إلى أهليكم بشيء. وقال صلى الله عليه وسلم : " لا يمنعنّ أحدُكم السائلَ وإن في يديْه قُلْبَين ، من ذهب " أي : سوارين. وقال أيضاً : " أعط السائل ولو على فرسه " وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا رددت السائل ثلاثاً فلم يرجع عليك أن تَزْبُرَه " وقال الحسن : المراد بالسائل هنا : السائل عن العلم.

{وأمَّا بنعمةِ ربك فحدِّث} بشكرها وإشاعتها وإظهار آثارها ، يرد ما أفاضه الله تعالى عليه من فنون النعم ، التي من جملتها المعدودة والموعودة ، والنبوة التي آتاه الله تأتي على جميع النِعم ، ويَدخل في النِعم تعلُّم العلم والقرآن ، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : " التحدُّث بالنِعَم شكر " ولذلك كان بعض السلف يقول : لقد أعطاني الله كذا ، ولقد صلَّيتُ البارحة كذا ، وهذا إنما يجوز إذا ذكره على وجه الشكر ، أو ليُقتدى به ، فأمّا على وجه الفخر والرياء فلا يجوز. هـ.

٣١٩

انظر كيف ذكر الله في هذه السورة ثلاث نعم ، ثم ذكر في مقابلتها ثلاث وصايا ، فقال في قوله : {ألم

يجدك يتيماً} بقوله : {فأمّا اليتيم فلا تَقْهَر} وقابل قولَه : {ووجدك ضالاً} بقوله : {وأمّا السائل فلا تَنْهَر} على مَن قال : إنه طالب العلم ، وقابل بقوله : {وأمّا بنعمة ربك فَحَدِّث} على القول الآخر ، وقابل قوله : {ووجدك عائلاً فأَغْنَى} بقوله : {وأمّا السائل فلا تَنْهر} على القول الأظهر ، وقابله بقوله : {وأمَّا بنعمة ربك فحدِّث} على القول الآخر هـ. من ابن جزي.

(٣٧٦/٨)

ولمَّا قرأ صلى الله عليه وسلم سورة الضحى كبّر في آخرها ، فسُنَّ التكبير آخرها ، وورد الأمر به خاتمتها وخاتمة كل سورة بعدها في رواية البزي.

الإشارة : ألم يجدك يتيماً فرداً من العلائق ، مجرداً مما سوى الله ، فآواك إليه ، وهي طريقة كل متوجه ، لا يأويه الحق إليه حتى يكون يتيماً من الهوى ، بل بقلبٍ مُفرد ، فيه توحيد مجرد. قال القشيري : ويُقال فآواك إلى بساط القربة ، بحيث انفردْتَ بمقامِك ، فلم يُشاركك فيه أحد. هـ. {ووجدك ضالاًّ} قيل : متردداً في معاني غوامض المحبة ، فهداك بلطفه لها ، أو : وجدك مُتحيراً عن إدراك حقيقتنا ، فكملناك بأنوار ربوبيتنا حتى أدركتنا بنا ، وفي هذا ملاءمة لمعنى الافتتاح. قال القشيري : ويُقال : ضالاًّ عن محبتي لكن فعرَّفْتُك أني أُحبك ، ويقال : جاهلاً شرفَك فعرَّفْتُك قَدْرَكَ. هـ. ووجدك عائلاً فقيراً مما سواه ، فأغناك به عن كل شيء ، إلاّ طلب الزيادة في العلوم والعرفان ، فلا قناعة من ذلك ، {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً} [طه : ١١٤]. وفي القوت : إنما أغناه بوصفه ، لا بالأسباب ، وهو أعز على الله من أن يجعل غناه من الدنيا أو يرضاها له. هـ. وكما أنَّ الله تعالى غَنِيّ بذاته ، لا بالأعراض والأسباب ، فالرسول صلى الله عليه وسلم غَنِيّ بربه لا بالأعراض. قاله في الحاشية. قلت : وكذلك الأولياء - رضي الله عنهم - سَرَى فيهم اسمه تعالى " الغَنِيّ " فصاروا أغنياء بلا سبب ، وما وصّى به الحقُّ تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم يُوصَّى به خلفاؤه من قوله : {فأمّا اليتيم فلا تقهر...} الخ. وبالله التوفيق. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

٣٢٠

(٣٧٧/٨)

سورة الشرح

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٢٠

يقول الحق جلاّ جلاله : {ألم نشرحْ لك صدرك} أي : ألم نوسعه ونفسحه حتى حوى عالَم الغيب والشهادة ، وجمع بين ملَكتي الاستفادة والإفادة ، فما صدتك الملابسة بالعلائق الجسمانية عن اقتباس أنوار الملِكات الروحانية ، وما عاقك التعلُّق بمصالح الخلق عن الاستغراق في شهود الحق ، وقيل : المراد شرح جبريل صدرَه في حال صباه ، حين شقّه وأخرج منه علقة سوداء ، أو ليلة المعراج فملأه إيماناً وحكمة. والتعبير عن الشرح بالاستفهام الإنكاري للإيذان بأن ثبوته من الظهور بحيث لا يقدر أحد أن يُجِيب عنه بغير " بلى ".

وزيادة " لك " وتوسُّطه بين الفعل ومفعوله للإيذان بأنَّ الشرح من منافعة صلى الله عليه وسلم ومصالحة ، مسارعة إلى إدخال المسرة في قلبه صلى الله عليه وسلم وتشويقاً إلى ما يعقبه ، ليتمكن عنده وقتَ وروده فضل تمكُّن. وقال في الوجيز : هو استفهام معناه التقرير ، أي : ألم نفتح ونُوسِّع لك قلبك بالإيمان والنبوة والعلم والحكمة. قال في الحاشية الفاسية : والظاهر أنه

٣٢١

إيثار بما طلبه موسى عليه السلام بقوله : {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي} [طه : ٢٥] ، وأنه بادَاه به من غير طلب ، وهو قَدْر زائد على مطلق الرسالة ، متضمن حمل ثقل تبليغها ، لكونه في ذلك بربه ، ويناسبه ما بعده من وضع الوزر ، وهو لغة : الحمل الثقيل ، كما في الوجيز ، وشرح الصدر : بسطه بنور إلهي. هـ.

{ووضعنا عنك وِزْرَكَ} ، عطف على مدلول الجملة السابقة ، كأنه قيل : قد شرحنا لك صدرك ووضعنا عنك وزرك ، أي : حططنا عنك عبأك الثقيل ، {الذي أَنْقَضَ ظهرك} أي : أثقله حتى سمع له نقيض ، وهو صوت الانتقاض ، أي : خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بأمرها ، أو : يُراد ترك الأفضل مع إتيان الفاضل ، والأنبياء يعاتبون بمثلها ، ووضعه عنه : أن يغفر له. قال ابن عرفة : التفسير السالم فيه : أن يتجوّز في الوضع بمعنى الإبعاد ، أو يتجوّز في الوزر ، فإن أريد بالوزر حقيقته فيكون المعنى : أبعدنا عنك ما يتوهم أن يلحقك من الوزر اللاحق لنوعك ، وإن أريد بالوزر المجازي ، وهو ما يلحقه قِبَل النبوة من الهم والحزن بسبب جهلك ما أنت الآن عليه من الأحكام الشرعية ، فيكون الوضع حقيقة ، والوزر مجازاً. هـ. قلت : والظاهر : أنَّ كل مقام له ذنوب ، وهو رؤية التقصير في القيام بحقوق ذلك المقام ، فحسنات الأبرار سيئات المقربين ، فكلما علا المقام طُولب صاحبه بشدة الأدب ، فكأنه صلى الله عليه وسلم خاف ألاّ يكون قام بحق المقام الذي أقامه الحق فيه ، فاهتمّ من أجله ، وجعل منه حملاً على ظهره ، فأسقطه الحق تعالى عنه ، وبشَّره بأنه مغفور له على الإطلاق ؛ ليتخلّى من ذلك الاهتمام.

جزء : ۸ رقم الصفحة : ۳۲۱
وزاده شرفاً بقوله : {ورفعنا لك ذِكرك} أي : نوّهنا باسمك وجعلناه شهيراً في المشارق والمغارب ، ومِن رَفْعِ ذكره صلى الله عليه وسلم أن قرن اسمَه مع اسمِه في الشهادة والأذان والإقامة والخُطب والتشهُّد ، وفي مواضع من القرآن : {أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ} [النساء : ٥٩] {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [النساء : ١٣] {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ} [التوبة : ٦٢] ، وتسميته رسول الله ، ونبي الله ، وقد ذكره في كتب الأولين. قال ابن عطية : رَفْعُ الذكر نعمة على الرسول ، وكذا هو جميل حسن للقائمين بأمور الناس ، وخمول الذكر والاسم حسن للمنفردين للعبادة. هـ. قلت : والأحسن ما قاله الشيخ المرسي رضي الله عنه : مَن أحبّ الظهور فهو عبد الظهور ، ومَن أحبّ الخفاء فهو عبد الخفاء ، ومَن أحبّ الله فلا عليه أخفاه أو أظهره. هـ. والخمول للمريد أسلم ، والظهور للواصل أشرف وأكمل.
ثم بشّر رسولَه وسلاَّه عما كان يلقى من أذى الكفار بقوله : {فإِنَّ مع العُسْرِ يُسراً} أي : إنّ مع الشدة التي أنت فيها من مقاساة بلاء المشركين يُسراً بإظهاره إياك عليهم حتى تغلبهم. وقيل : كان المشركون يُعيّرون رسول الله والمسلمين بالفقر ، حتى سبق إلى وهمه أنهم رَغِبُوا عن الإسلام لافتقار أهله ، فذكّره ما أنعم به عليه من جلائل النعم ، ثم قال :
۳۲۲
{فإِنَّ مع العسكر يُسراً} كأنه قال : خوّلناك ما خوّلناك فلا تيأس من فضل الله ، {إِنَّ مع العسر} الذي أنتم فيه {يُسراً} ، وجيء بلفظ " مع " لغاية مقارنة اليسر للعسر ؛ زيادةً في التسلية وتقوية لقلبه صلى الله عليه وسلم ، وكذلك تكريره ، وإنما قال صلى الله عليه وسلم عند نزولها : " لن يغلب عسر يسرين " لأنَّ العسر أعيد مُعرّفاً فكان واحداً ، لأنّ المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت الثانية عين الأولى ، واليُسر أعيد نكرة ، والنكرة إذا أُعيدت نكرة كانت الثانية غير الأولى ، فصار المعنى : إنَّ مع العُسر يسريْن ، وبعضهم يكتبه بياءين ، ولا وجه له.
{فإِذا فرغتَ} من التبليغ أو الغزو {فانصبْ} ؛ فاجتهد في العبادة ، وأَتعب نفسك شكراً لما أولاك من النِعم السابقة ، ووعدك من الآلاء اللاحقة ، أو : فإذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد في عبادة الحق ، وقيل : فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء ، أو : إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب في الشفاعة ، أي : في سبب استحقاق الشفاعة ، {وإِلى ربك فارغبْ} في السؤال ، ولا تسأل غيره ، فإنه القادر على إسعافك لا غيره. وقُرىء : " فرغِّب " أي : الناس إلى ما عنده.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٢١

الإشارة : ما قيل للرسول صلى الله عليه وسلم من تعديد النعم عليه واستقراره بها ، يُقال لخليفته العارف الداعي إلى الله ، حرفاً بحرف ، فيقال له : ألم نُوسع صدرك لمعرفتي ، ووضعنا عنك أوزارك حين توجهتَ إلينا ، أو : وضعنا عنك أثقال السير ، فحملناك إلينا ، فكنت محمولاً لا حاملاً ، ورفعنا لك ذكرك حين هيأناك للدعوة ، بعد أن أخملنا ذكرك حين كنت في السير لئلا يشغلك الناسُ عنا ، فإنَّ مع عسر المجاهدة يُسر المشاهدة ، فإذا فرغت من الدعوة والتذكير ، فأَتْعِب نفسك في العكوف في الحضرة ، أو : فإذا فرغت مِن كمالك فانصب في تكميل غيرك ، وارغب في هداية الخلق. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

٣٢٣

(٣٨١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٢١

سورة التين

(٣٨٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٢٣

يقول الحق جلّ جلاله : {والتينِ والزيتونِ} ، أقسم بهما تعالى لِما فيهما من المنافع الجمّة. رُوي أنه صلى الله عليه وسلم أُهْدِي له طبقٌ من تينٍ فأكل منه ، وقال لأصحابه : " كُلوا ، فلو قلتُ إنَّ فاكهةً نزلت من الجنة لقُلتُ هذه ، لأن فاكهة الجنة ، بلا عَجَمٍ ، فكلوها فإنها تقْطَعُ البواسير ، وتنفَعُ من النقْرسِ ". وهو أيضاً فاكهة طيبة لا فضل له ، وغذاء لطيف سريع الهضم ، كثير النفع ، ملين الطبع ، ويحلل البلغم ، ويُطهر الكليتين ، ويزيل ما في المثانة من الرمل ، ويسمن البدن ، ويفتح سُرد الكبد والطحال. وعن عليّ بن موسى الرضا : التين يزيل نكهة الفم ، ويطيل الشعر ، وهو أمان من الفالج. هـ. وأمّا الزيتون فهو فاكهة وإدام ودواء ، ولو لم يكن له سوى اختصاصه بدُهن كثير المنافع لكفى به فضلاً. وشجرته هي الشجرة المباركة ، المشهود لها في التنزيل. ومرّ معاذُ بن جبل بشجرة الزيتون ، فأخذ منها قضيباً واستاك به. وقال : سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " نعم السواك الزيتون ، هي الشجرة المباركة ، يطيب الفم ، ويذهب بالحفرة " وقال : " هو سواكي وسواك الأنبياء قبلي " وعن

ابن عباس : هو تينكم هذا ، وزيتونكم هذا. وقيل : هما جبلان بالشام ينبتانهما.
{وطُورِ سينينَ} ، أضيف الطور وهو الجبل إلى " سينين " وهو البقعة ، وهو الجبل
٣٢٤
الذي ناجى موسى عليه السلام ربَّه عليه ، ويُقال له : سينين وسيناء. {وهذا البلد الأمين} وهو مكة ، شرّفها الله ، وأمانتها أنها تحفظ مَن دخلها كما يحفظ الأمين ما يُؤتمن عليه. ووجه الإقسام بهاتين البقعتين المباركتين المشحونتين بخيرات الدنيا والآخرة غني عن الشرح والتبيين.
وجواب القسم : {لقد خلقنا الإنسانَ} أي : جنس الإنسان {في أحسن تقويمٍ} أي : كائناً في أحسن ما يكون من التقويم والتعديل صورةً ومعنى ، حيث جعله اللهُ مستوي القامة ، متناسب الأعضاء ، متصفاً بصفات البارىء تعالى من القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : " إنَّ الله خلق آدم على صورته " ، وفي رواية : " على صورة الرحمن " على بعض الأقوال. وشرح عجائب الإنسان يطول.
}

(٣٨٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٢٤
ثم رددناه أسفلَ سافلين} أي : جعلناه من أهل النار الذين هم أقبح من كل قبيح ، وأسفل من كل سافل ، لعدم جريانه على موجب ما خَلَقَه عليه من الصفات ، التي لو عمل بمقتضاها لكان في أعلى عليين.
وقيل : رددناه إلى أرذل العمر ، وهو الهرم بعد الشباب ، والضعف بعد القدرة ، كقوله تعالى : {وَمَن نّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ} [يَس : ٦٨] أي : ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتعديل أسفلَ مَن سفُلَ في حُسن الصورة والشكل حيث ننكسه في خلقه ، فقوّس ظهره بعد اعتداله ، وابْيَضَّ شعره بعد سواده ، وتكمش جلده ، وكَلّ سمعه وبصره. {إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات} ، استثناء متصل على التفسير الأول ، ومنقطع على الثاني ، {فلهم أجرٌ غيرُ ممنونٍ} أي : رددناه أسفل السافلين إلاَّ مَن آمن ، أو : لكن الذين آمنوا وكانوا صالحين من الهرمى ، فلهم ثواب غير منقطع ، لطاعتهم وصبرهم على الشيخوخة والهرم ، وعلى مقاساة المشاقّ والقيام بالعبادة ، خصوصاً وقت الكبر. وعن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا بلغ المؤمن خمسين سنة خفّف الله حسابه ، فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة ، فإذا بلغ سبعين أحبه أهل السماء ، فإذا بلغ ثمانين كُتبت حسناته وتجاوز الله عن سيئاته ، فإذا بلغ تسعين غُفرت ذنوبه ، وشفع في أهل بيته ، وكان أسير الله في أرضه ، فإذا بلغ مائة ولم يعمل كتب له ما كان يعمله في صحته وشبابه ". ودخلت الفاء هنا دون سورة الانشقاق للجمع بين المعنيين هنا.

قاله النسفي. والخطاب في قوله : {فما يُكَذِّبُك بعدُ بالدين} للإنسان ، على طريقة الالتفات ، أي : فما سبب تكذيبك بعد هذا البيان القاطع ، والبرهان الساطع بالجزاء ، والمعنى : إنَّ خلق الإنسان من نطفةٍ ، وتسويته بشراً سويًّا ، وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي ،
٣٢٥
ثمّ تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر ، لا ترى دليلاً أوضح منه على قدرة الخالق ، وأنَّ مَن قدر على خلق الإنسان على هذا النمط العجيب لم يعجز عن إعادته ، فما سبب تكذيبك بالجزاء ؟ ! أو : بالرسول صلى الله عليه وسلم : أي : فمَن ينسبك إلى الكذب بعد هذا الدليل القاطع ؟
{أليس اللهُ بأحكم الحاكمين} وعيد للكفار ، وأنّه يحكم عليهم بما هو أهله ، وهو من الحُكم والقضاء ، أي : أليس الله بأفضل الفاصلين فيفصل بينك وبين مكذِّبِيك. وقيل : مِن الحِكمة ، بمعنى الإتقان ، أي : أليس مَن خلق الإنسان وصوّره في أحسن تقويم بأحكم الحكماء. وكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأها قال : " بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين ". الإشارة : حاصل ما ذكره القشيري : أنه تعالى أقسم بأربعة أشياء ، لغاية شرفها ؛ الأولى شجرة القلب التينية المثمِرة للعلوم اللدنية الخالصة عن نوى الشكوك العقلية والشبهة الوهمية ، والثانية : شجرة الروحِ المستضيئة من نور السر لكمال استعدادها ، وإليه الإشاره بقوله : {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ} [النور : ٣٥] الخ. والثالثة : شجرة السر ، الذي هو طور التجلِّي محل المشاهدة والمكالمة والمناجاة. والرابعة : البلد الأمين ، الذي هو حال التلبيس والخفاء ، بعد التمكين ، وهو الرجوع للأسباب ، قياماً بآداب الحكمة ورسم العبودية ، وهو مقام الكملة. والمقسَم عليه : {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} قال القشيري : أي : في المظهر الأكمل والأتم ، والمحل الأعم ، حامل الأمانة الإلهية ، وصاحب الصورة الرحمانية ، روحانيته أُم الروحانيات ، وطبيعته أجمع الأمزجة وأعدلها ، ونشأته أوسع النشآت وأشملها. هـ. قلت : وإليه أشار الششتري بقوله :

(٣٨٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٢٤
وفيك يطوى ما انتشر من الأواني
وقول الشاعر :
يا تائهاً في مهمهٍ عن سره
انظر تجد فيك الوجودَ بأسره
أنت الكمال طريقة وحقيقة

يا جامعاً سر الإله بأسره

وقال في لطائف المنن ، حاكياً عن شيخة أبي العباس المرسي : قرأتُ ليلة {والتين والزيتون} إلى أن انتهيت إلى قوله : {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين} ففكرتُ في معنى الآية ، فكشف لي عن اللوح المحفوظ ، فإذا فيه مكتوب : لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم روحاً وعقلاً ، ثم رددنا أسفل سافلين نفساً وهوى. هـ. فقوله تعالى : {إلاّ الذين آمنوا..} الخ ؛ هم أهل الروح والعقل ، الباقون في حسن التقويم ، وغيرهم أهل النفس والهوى ، والله تعالى أعلم. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

٣٢٦

(٣٨٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٢٤

سورة العلق

(٣٨٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٢٦

يقول الحق جلّ جلاله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، في أول الوحي : {اقرأ باسم ربك} أي : اقرأ هذا القرآن مفتتحاً باسم ربك ، أو مستعيناً به ، فالجار في محل الحال. ويحتمل أن يكون المقروء الذي أمر بقراءته هو باسم ربك ، كأنه قيل له : اقرأ هذا اللفظ. والتعرُّض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية والروحانية بإنزال الوحي المشتمل على نهاية العلوم والحكم. وقوله تعالى : {الذي خلقَ} صفة للرب ، ولم يذكر له مفعولاً ؛ لأنَّ المعنى : الذي حصل منه الخلق ، واستأثر به ، لا خالق سواه ، أو تقديره : خلق كلَّ شيء ، فتناول كلَّ مخلوق ؛ لأنه مطلق ، فليس بعض المخلوقات بتقديره أولى من البعض.

وقوله تعالى : {خَلَقَ الإِنسانَ} بتخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله لشرفه ، ولأنَّ التنزيل إنما هو إليه ، ويجوز أن يُراد : الذي خلق الإنسان ، إلاَّ أنه ذكر مبهماً ، ثم فسّر تفخيماً لخلقه ، ودلالةً على عجيب فطرته. قيل : لمَّا ذكر فيما قبل أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ثم ذكر ما عرض له

بعد ذلك ، ذكره هنا منبهاً على شيءٍ من أطواره ، وذكر نعمته عليه ، ثم ذكر طغيانه بعد ذلك ، وما يؤول إليه حاله في الآخرة ، فإنه تفسير لقوله : {لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِيا أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} [التين : ٤ ، ٥] ، ثم ذكر أصل نشأته بقوله : {مِن علقٍ} ولم يقل من علقة ؛ لأنَّ الإنسان في معنى الجمع. وفيه

إشارة إلى أنَّ ابتداء الدين كابتداء خلق الإنسان ، كان ضعيفاً ثم تقوّى شيئاً فشيئاً حتى انتهى كماله. ثم كرّر الأمر بالقراءة بقوله : {اقرأْ} أي : افعل ما أُمرتَ به ، تأكيداً للإيجاب وتمهيداً لقوله : {وربُّك الأكرمُ} فإنه كلام مستأنف ، وارد لإزاحة ما أظهر عليه السلام من العُذر بقوله : " ما أنا بقارىء " يريد أنّ القراءة من شأن مَن يكتب ويقرأ ، وأنا أمي ، فقيل له : {وربك} الذي أمرك بالقراءة مستعيناً باسمه هو {الأكرم} أي : مِن كل كريم ، يُنعم على عباده بغاية النعم ، ويحلم عنهم إذا عصوه ، فلا يعاجلهم بالنقم ، فليس وراء التكرُّم بهذه الفوائد العظيمة تكرُّم. {الذي عَلَّمَ} الكتابة {بالقلم عَلَّم الإنسانَ ما لم يعلم} فدلّ على كمال كرمه بأنه علَّم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم. ونبّه على فضل علم الكتابة لِما فيه من المنافع العظيمة ، وما دُوّنت العلوم ولا قُيّدت الحِكم ولا ضُبِطت أخبار الأولين ، ولا كُتب الله المنزّلة ، إلاَّ بالكتابة ، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى دليل إلاّ أمر القلم والخطّ لكفى به وفي ذلك يقول ابن عاشر الفاسي :

لله في خلقه مِن صنعه عجبُ

كادت حقائقُ في الوجود تنقلب

كلم بعين تُرى لا الأذنُ تسمعها

خطابُها حاضر وأهلها ذهبوا

الإشارة : اقرأ بربك لتكون به في جميع أمورك ، الذي أظهر الأشياء ليُعرف بها ، وأظهر المظهر الأكبر ـ وهو الإنسان ـ من علقة مهينة ، ثم رفعه بالعلم إلى أعلى عليين ، فرفعه من حضيض النطفة الخبيثة إلى ارتفاع العلم والمعرفة ، ولذلكم قال : (اقرأ وربك الأكرم) الذي تكرَّم عليك وعلّمك ما لم تكن تعلم ، الذي علَّم بالقلم ، علَّم الإنسان ما لم يكن يعلم. والله تعالى أعلم.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٢٧

يقول الحق جلّ جلاله : {كلاَّ} ، هو ردع لمحذوف ، دلّ الكلام عليه ، كأنه قيل : خلقنا الإنسان من علق ، وعلّمته ما لم يعلم ليشكر تلك النعمة الجليلة ، فكفر وطغى ، كلا لينزجر عن ذلك {إِنَّ الإنسان ليطغى} ؛ يجاوز الحد ويستكبر عن ربه. قيل : هذا إلى آخر السورة نزل في أبي جهل بعد زمان ، وهو الظاهر. وقوله : {أن رآه استغنى} مفعول له ،

٣٢٨

أي : ليطغى لرؤية نفسه مستغنياً ، على أنَّ " استغنى " مفعول لرأى ، لأنه بمعنى عَلِم ، ولذلك شاع كون فاعله ومفعوله ضميريْ واحد كما في " ظننتني وعَلِمتني " وإن جوّزه بعضهم في الرؤية البصرية أيضاً ، وجعل من ذلك قول عائشة رضي الله عنها : " رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لنا طعام إلا الأسودان ، الماء والتمر " ، والمشهور أنه خاص بأفعال القلوب. وحاصل الآية : أن سبب طغيان الإنسان هو استغناؤه بالمال ، وسبب تواضعه هو فقره.

ثم هدّد الإنسان وحذّره من عاقبة الطغيان ، على طريق الالتفات ، فقال : {إِنَّ إلى ربك الرُّجعى} أي : الرجوع ، فيجازيك على طغيانك. {أرأيت الذي ينهَى عبداً إِذا صلَّى} أي : أرأيت أبا جهل ينهى محمداً صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ، وهو تشنيع بحاله ، وتعجيب منها ، وإيذان بأنه من البشاعة والغرابة بحيث يراها كل مَن يأتي منه الرؤية. رُوي أنَّ أبا جهل كان في ملأ من قريش ، فقال : لئن رأيت محمداً لأطأنّ عنقه ، فرأه صلى الله عليه وسلم في الصلاة ، فجاءه ، ثم نكص على عقبيه ، فقالوا : مالك ؟ فقال : حال بيني وبينه خندق من نار وهول وأجنحة ، فنزلت ، فقال صلى الله عليه وسلم : " لو دنا من لاختطفته الملائكة ". وتنكير العبد تفخيم لشأنه صلى الله عليه وسلم ، والرؤية هنا بصرية ، وأمّا في قوله : {أرأيت إن كان على الهدى أو أّمَرَ بالتقوى} وفي قوله : {أرأيتَ إِن كَذَّب وتولَّى} فعلمية ، أي : أخبرني فإنَّ الرؤية لمَّا كانت سبباً للإخبار عن المرائي أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها. والخطاب لكل مَن يصلح للخطاب.

(٣٨٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٢٨

قال في الكشاف : قوله تعالى : (الذي ينهى) هو المفعول الأول لقوله : (أرأيت) الأول ، والجملة الشرطية بعد ذلك في موضع المفعول الثاني ، وكررت (أرأيت) بعد ذلك للتأكيد ، فلا تحتاج إلى مفعول. وقوله : {ألم يعلم بأنَّ الله يرى} هو جواب قوله : {إن كذَّب وتولى} ، وجواب قوله : {إن كان على الهدى} محذوف ، يدل عليه جواب قوله : {إن كذَّب وتولى} فهو في المعنى جواب للشرطين

معاً. والضمير في قوله : {إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى} للناهي ، وهو أبو جهل ، وكذا في قوله : {إن كذَّب وتولَّى} ، والتقدير على هذا : أخبرني عن الذي ينهى عبداً إذا صلّى إن كان هذا الناهي على الهدى أو إن كَذّب وتولّى ، ألم يعلم بأنّ الله يرى جميع أحواله ، فمقصود الآية : تهديد له وزجر ، وإعلام بأنّ الله يراه. وخالفه ابن عطية في الضمائر ، فقال : إنَّ الضمير في قوله : {إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى} للعبد الذي صلَّى ، وأنّ الضمير في قوله : {إن كذَّب وتولّى} للناهي ، وخالفه في جعل " أرأيت " الثانية مكررة للتأكيد ، فقال : " أرأيت " في المواضع الثلاثة توقيف ، وأنّ جوابها في المواضع الثلاثة : قوله : {ألم يعلم

بأن الله يرى} فإنه يصلح مع كل واحدة منها ، ولكنه جاء في آخر الكلام اقتصاراً. انظر ابن جزي. وما قاله ابن عطية أظهر ، فكأنه تعالى حاكِمٌ قد حضره الخصمان ، يُخاطب هذا مرة والآخر أخرى ، وكأنه قال : يا كافر إن كانت صلاته هُدى ودعاؤه إلى الله أمراً بالتقوى ، ثم أقبل على الآخر ، فقال : أرأيت إن كذَّب. الخ.

وقال الغزنوي : جواب {إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى} محذوف ، تقديره : أليس هو على الحق واتباعه واجب ، يعني : فكيف تنهاه يا مكذّب ، متولي عن الهدى ، كافر ، ألم تعلم أن الله يراك. هـ.

{كلاَّ} ، ردع للناهِي عن عبادة الله {لئن لم ينتهِ} عما هو عليه {لَنَسْفعاً بالناصيةِ} ؛ لنأخذن بناصية ولنسحبنّه بها إلى النار. والسفع : القبض على الشيء وجذبه بشدة. وكَتْبُها في المصحف بالألف على حكم الوقف. واكتفى بلام العهد عن الإضافة للعلم بأنها ناصية المذكور ، ثم بيّنها بقوله : {ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ} فهي بدل ، وإنما صَحّ بدلها من المعرفة لوصفها ، ووصفها بالكذب والخطأ على المجاز ، وهما لصاحبهما. وفيه من الجزالة ما ليس في قوله : ناصية كاذب خاطىء.

{فَلْيَدْعُ ناديَه} ، النادي : المجلس الذي يجتمع فيه القوم. رُوي أنَّ أبا جهل مرّ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يُصلّي ، فقال : ألم أَنْهكَ ؟ فأغلظ له النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : أتهدّدني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً ؟ فنزلت. {سَنَدْعُ الزبانية} ليجروه إلى النار. والزبانية : الشُّرَطِ ، واحدة : زِبْنِيَّة أو زِبْنى ، من الزبن ، وهو الدفع. عن النبي صلى الله عليه وسلم : " لَوْ دَعَا نَادِيهُ لأخَذَتْه الزَّبانِيةُ عِياناً ".

{كلاَّ} ، ردع لأبي جهل {لا تُطِعْهُ} أي : أثبت على ما أنت عليه من عصيانه ، كقوله : {فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨)} [القلم : ٨] {واسجدْ} ؛ واظب على سجودك وصلاتك غير مكترث {واقترب} ؛ وتقرّب بذلك إلى ربك.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٢٨

الإشارة : كل مَن أنكر على المتوجهين ، الذين هم على صلاتهم دائمون ، يُقال في حقه : أرأيت الذي يَنهى عبداً إذا صلّى.. إلى آخر الآيات. ويُقال للمتوجه : لا تُطعه واسجد بقلبك وجوارحك ، وتقرّب بذلك إلى مولاك ، حتى تظفر بالوصول إليه. وبالله التوفيق. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

٣٣٠

(٣٩١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٢٨

سورة القدر

(٣٩٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣٠

يقول الحق جلّ جلاله : {إنَّا أنزلناه في ليلة القدر} ، نوّه بشأن القرآن ، حيث أسند إنزاله إليه بإسناده إلى نون العظمة ، المنبيء عن كمال العناية به ، وجاء بضميره دون اسمه الظاهر للإيذان بغاية ظهوره ، كأنه حاضر في جميع الأذهان ، وقيل : يعود على المقروء المأمور به في قوله : {اقْرَأْ} [العلق : ١] فتتصل السورة بما قبلها. وعظَّم الوقت الذي أنزله فيه بقوله : {وما أدراك ما ليلةُ القَدْر} لِما فيه من الدلالة على أنَّ علو قدرها خارج عن دائرة دراية الخلق ، لا يدريها إلاّ علاَّم الغيوب ، كما يُشعر به قوله تعالى : {ليلةُ القدر خيرٌ من ألف شهرٍ} أي : ليس فيها ليلة القدر ، فإنه بيان إجمالي لشأنها إثر تشويقه صلى الله عليه وسلم إلى درايتها ، فإنَّ ذلك مُعْرِب عن الوعد بإدرائها على ما تقدّم. وفي إظهار ليلة القدر في الموضعين من تأكيد التفخيم ما لا يخفى.

والمراد بإنزاله : إمّا إنزاله كله إلى سماء الدنيا ، كما رُوي أنه أنزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، ثم نزل نجوماً في ثلاثٍ وعشرين سنة ، وإمّا ابتداء نزوله ، وهو الأظهر.

وسُميت ليلة القدر لتقدير الأمور فيها ، وإبراز ما قضى تلك السنة ، لقوله تعالى : {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤)} [الدخان : ٤] ، فالقَدْر بمعنى التقدير ، أو لشرفها على سائر الليالي ، فالقَدْر بمعنى الشرف ، وهي ليلة السابع والعشرين من رمضان على المشهورِ. لما رُوي أنَّ أُبي بن كعب كان يحلف أنها ليلة السابع والعشرين ، وقيل غير ذلك ومظان التماسها في الأوتار من العشر الأواخر. ولعل السر

٣٣١

في إخفائها تعرض مَن يريدها للثواب الكثير بإحياء الليالي في طلبها ، وهذا كإخفاء الصلاة الوسطى ، واسمه الأعظم ، وساعة الجمعة ، ورضاه في الطاعات ، وغضبه في المعاصي ، وولايته في خلقه ليحسن الظن بالجميع.

وتخصيص الألف بالذكر إمّا للتكثير ، أو لما رُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ، فعجب المؤمنون وتقاصرت إليهم أعمالهم ، فأُعطوا ليلةَ القدر هي خيرٌ من عمل ذل الغازي. وقيل : إنّ النبي صلى الله عليه وسلم أري أعمار الأمم كافة ، فاستقصر أعمار أمته ، فخاف ألاّ يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم ، فأعطاه الله ليلة القدر ، جعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم. وقيل : كان مُلك سليمان خمسمائة شهر ، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر ، فجعل الله هذه الليلة لِمن قامها خيراً من ملكيهما.

(٣٩٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣١

ثم بيّن وجه فضلها ، فقال : {تَنزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها} ، والروح إمّا جبريل عليه السلام ، أو خلق من الملائكة لا تراهم الملائكة إلاّ تلك الليلة ، أو الرحمة. والمراد بتنزلهم : نزولهم إلى الأرض يُسلمون على الناس ويؤمِّنون على دعائهم ، كما في الأثر. وقيل : إلى سماء الدنيا. وقوله : {بإذنِ ربهم} يتعلق بـ " تنزلُ " ، أو بمحذوف هو حال من فاعله ، أي : ملتبسين بأمر ربهم ، أو : ينزلون بإذنه ، {من كل أمرٍ} أي : من أجل كل أمر قضاه الله تعالى لتلك السنة إلى قابل ، رُوي أنَّ الله تعالى يُعْلِم الملائكة بكل ما يكون في ذلك العام كله ، وقيل : يَبرز ذلك مِن علم الغيب ليلة النصف من شعبان ، ويُعْطَى الملائكةَ ليلة القدر ، فلما كان أهم نزولهم هذا الأمر جعل نزولهم لأجله ، فلا ينافي كون نزولهم للتسليم على الناس والتأمين ، كما قال تعالى : {سلامٌ هيَ} أي : ما هي إلاَّ سلام على المؤمنين ، جعلها نفس السلام لكثرة ما يُسلِّمون على الناس ، فقد رُوي أنهم يُسلِّمون على كل قائم وقاعد وقارىء ومُصَلّ ، أو : ما هي إلاّ سلامة ، أي : لا يُقَدِّر الله تعالى فيها إلاّ السلامة والخير ، وأمّا في غيرها فيقضي سلامةً وبلاء ، وقال ابن عباس : قوله : (هي) إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين ؛ لأنّ هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات السورة.

ثم ذكر غايتها ، فقال : {حتى مطلَعِ الفجر} أي : تنتهي إلى طلوع الفجر ، أو : تُسلِّم الملائكة إلى مطلع الفجر ، أو : تنزل الملائكة فوجاً بعد فوج إلى طلوع الفجر. و " مَطْلَع " بالفتح : اسم زمان ، وبالكسر مصدر ، أو اسم زمان على غير قياس ؛ لأنّ ما يضم مضارعه أو يفتح يتحد فيه الزمان والمكان والمصدر ، يعني " مَفْعَل " في الجميع.

الإشارة : أهل القلوب من العارفين ، الأوقاتُ كلها عندهم ليلة القدر ، والأماكن عندهم كلها عرفات ، والأيام كلها جمعات ، لأنّ المقصود من تعظيم الزمان والمكان هو باعتبار ما يقع فيه من التقريب والكشف والعيان ، والأوقات والأماكن عند العارفين كلها سواء في هذا المعنى ، كما قال شاعرهم :
٣٣٢
لولا شهود جمالكم في ذاتي
ما كنت أرضى ساعة بحياتي
ما ليلةُ القدر المعظَّم شأنها
إلاَّ إذا عمرَتْ بكم أوقاتي
إنَّ المحب إذا تمكّن في الهوى
والحب لم يحتج إلى ميقات
وقال آخر :
وكل الليالي ليلةُ القدر إن بدا
كما كلُّ أيام اللقا يومُ جمعةِ

وسعيٌ له حجٌّ ، به كلُّ وقفةٍ
على بابه قد عادلت ألف وقفةِ
وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه : نحن ـ والحمد الله ـ أوقاتنا كلها ليلة القدر. هـ. لأنَّ عبادتهم كلها قلبية ، بين فكرة واعتبار ، وشهود واستبصار ، و " فكرة ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة " ، كما في الأثر ، بل فكرة العيان تزيد على ذلك ، كما قال الشاعر :
كلُّ وقت من حبيبي
قَدْرُه كألف حجه
وقد يقال : ثواب هذه العبادة كشف الحجاب ، وشهود الذات الأقدسن هو لا يقاس بمقياس. وبالله التوفيق. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.
٣٣٣

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣١
سورة البينة

(٣٩٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣٣
يقول الحق جلّ جلاله : {لم يكن الذين كفروا} أي : بالرسول وبما أنزل عليه {من أهل الكتاب} اليهود والنصارى ، {والمشركين} ؛ عبَدة الأصنام {منفكِّين} منفصلين عن الكفر ، وحذف لأنَّ صلة " الذين " يدل عليه ، {حتى تأتِيَهم البَيِّنَةُ} الحجة الواضحة ، وهو النبيُّ صلى الله عليه وسلم. يقول : لم يتركوا كفرهم حتى بُعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فلمّا بُعِثَ أسلم بعض ، وثبت على الكفر بعض. أو : لم يكونوا منفكين ، أي : زائلين عن دينهم حتى تأتيَهم البَينة ببطلان ما هم عليه ، فتقوم الحجة عليهم. أو : لم يكونوا لينفصلوا عن الدنيا حتى بَعَثَ اللهُ محمداً فقامت عليهم الحجة ، وإلاّ لقالوا : {لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً...} [طه : ١٣٤] الآية.
وتلك البينة هي {رسولٌ من الله} أي : محمد صلى الله عليه وسلم وهو بدل من " البينة " {يتلو} يقرأ عليهم {صُحفاً} كتباً {مُطَهَّرَةً} من الباطل والزور والكذب ، والمراد : يتلو ما يتضمنه المكتوب في الصحف ، وهو القرآن ، يدل على ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان يتلو القرآن عن ظهر قلبه ، ولم يكن يقرأ مكتوباً ؛ لأنه كان أُميًّا لا يكتب ولا يقرأ الصحف ، ولكنه لَمَّا كان تالياً معنى ما في الصُحف فكأنه قد تلى الصُحف. ثم بيّن ما في الصُحف ، فقال : {فيها} أي : في الصُحف {كُتب قَيِّمةٌ} مستقيمة ناطقةٌ بالحق والعدل. ولَمّا كان القرآن جامعاً لِما في الكتب المتقدمة صدق أنَّ فيه كُتباً قيمة.
٣٣٤
{وما تَفَرَّقَ الذين أُوتوا الكتاب إلاَّ مِن بعد ما جاءتهم البينةٌ} أي : وما اختلفوا في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلاَّ مِن بعد ما عَلِموا أنه حق ، فمنهم مَن أنكر حسداً ، ومنهم مَن آمن. وإنّما أفرد أهل الكتاب بعدما جمع إولاً بينهم وبين المشركين ؛ لأنهم كانوا على علمٍ به ؛ لوجوده في كتبهم ، فإذا وُصفوا بالتفرُّق عنه كان مَن لا كتاب له أدخل في هذا. وقيل : المعنى : لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ، أي : منفصلين عن معرفة نبوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى بعثه الله.
}

(٣٩٧/٨)

وما أُمروا إلاَّ ليعبدوا اللهَ} أي : ما أُمروا في التوراة والإنجيل إلاّ لأجل أن يعبدوا الله وحده من غير شرك ولا نفاق ، ولكنهم حرّفوا وبدّلوا. وقيل : اللام بمعنى " أن " أي : إلاّ بأن يعبدوا الله {مخلصين له الدينَ} أي : جاعلين دينَهم خالصاً له تعالى ، أو : جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين. قال ابن جُزي : استدل المالكية بهذا على وجوب النية في الوضوء ، وهو بعيد ؛ لأنَّ الإخلاص هنا يُراد به التوحيد وترك الشرك ، أو ترك الرياء. انظر كلامه ، وسيأتي بعضه في الإشارة. {حنفاءَ} مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام ، {ويُقيموا الصلاةَ ويُؤتوا الزكاةَ} إن أريد بهما ما في شريعتهم من الصلاة والزكاة ، فالأمر ظاهر ، وإن أريد ما في شريعتنا فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أمرهم بالدخول في شريعتنا ، {وذلك دِينُ القيِّمة} أي : الملة المستقيمة. والإشارة إلى ما ذكر من عبادة الله وحده وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وما فيه من معنى البُعد للإشعار بعُلو رتبته وبُعد منزلته.

الإشارة : لم يكن الذين جحدوا وجودَ أهل الخصوصية من العلماء والجهّال منفكين عن ذلك حتى جاءتهم الحُجة القائمة عليهم ، وهو ظهور شيخ التربية خليفة الرسول ، يتلو كتابَ الله العزيز على ما ينبغي ، وما تَفَرَّقوا في التصديق إلاّ بعد ظهوره. وما أُمروا إلاّ بالإخلاص وتطهير سرائرهم ، وهو لا يتأتى إلاّ بصُحبته. وتكلم ابنُ جزي هنا على الإخلاص ، فقال : اعلم أنَّ الأعمال على ثلاثة أنواع : مأمورات ومنهيات ومباحات ؛ فأمّا المأمورات فالإخلاص فيها عبارة عن : خلوص النية لوجه الله ، بحيث لا يشوبها أُخرى ، فإن كانت كذلك فالعمل خالص ، وإن كانت لغير وجه الله من طلب منفعة دنيوية أو مدح أو غير ذلك ، فالعمل رياء محض مردود ، وإن كانت النية مشتركة ؛ ففي ذلك تفصيل ، فيه نظر واحتمال. قلت : وقد تقدّم كلام الغزالي في سورة البقرة عند قوله : {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [البقرة : ١٩٨] ، وحاصله : أنَّ الحكم للغالب وقوة الباعث. انظر لفظه.

ثم قال ابن جزي : وأمَّا المنهيات فإنْ تَرَكها دون نية خرج عن عهدتها ولم يكن له أجر في تركها ، وإن تركها بنية وجه الله خرج عن عهدتها وأُجر. وأمَّا المباحات ، كالأكل والشرب ، والنوم والجماع وغير ذلك ، فإن فَعَلَها بغير نية لم يكن له فيها أجر ، وإن فَعَلَها

بنية وجه الله فله فيها أجر ، فإنَّ كُلَّ مباح يمكن أن يصير قُربة إذا قصد به وجه الله ، مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة ، ويقصد بالجِمَاع التعفُّف عن الحرام ، وشبه ذلك. هـ.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣٤

ودرجات الإخلاص ثلاث : الأولى : أن يعبد الله لطلب غرض دنيوي أو أخروي من غير ملاحظة أحد من الخلق ، والثانية : أن يعبد الله لطلب الآخرة فقط ، والثالثة : أن يعبد الله عبودية ومحبة.

(٣٩٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣٤

يقول الحق جلّ جلاله : {إنّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين} المتقدمين في أول السورة ، {في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شَرُّ البريَّةِ} أي : الخليقة ؛ لأنّ الله بَراهم ، أي : أوجدهم. قُرىء بالهمزة ، وهو الأصل ، ويعدمه مع الإدغام ، وهو الأكثر.

{إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خيرُ البريَّةِ} لا غيرهم ، {جزاؤُهم عند ربهم جناتُ عدنٍ} إقامة ، {تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورَضُوا عنه} حيث بلغوا من الأماني قاصيها ، وملكوا من المآرب ناصيتها ، وأتيح لهم ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر. {ذلك لِمَنْ خَشِيَ ربَّه} ، فإنَّ الخشية التي هي مِن خصائص العلماء به مناطاة بجميع الكمالات العلمية والعملية ، المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية. والتعرُّض لعنوان الربوبية ، المعربة عن المالكية والتربية ؛ للإشعار بعلو الخشية والتحذير من الاغترار بالتربية. قاله ابو السعود.

وقوله : {خير البرية} يدل على فضل المؤمنين من البشر على الملائكة. وفيه تفصيل تقدّم ذكره في النساء. قال القشيري : قوله تعالى : {خير البرية} يدل على أنهم أفضل من الملائكة. هـ. قال في الحاشية : أي : في الجملة ، ثم ذكر حكاية الرجل الذي أحياه الله بعد موته بدعوة عيسى ، فقال : إنه كان في الجنة ، وأنه مرّ بملأ من الملائكة ، وهم يقولون : إنَّ من بني آدم لَمَنْ هو أكرم على الله من الملائكة. ثم ذكر عن نوادر الأصول : أنَّ المؤمن أكرم على الله من الملائكة المقربين ، فانظره. وقال بعضهم : الملائكة عقل بلا شهوة ، والبهائم شهوة بلا عقل ، والآدمي فيه عقل وشهوة ، فمَن غلب

٣٣٦

عقلُه على شهوته كان كالملائكة أو أفضل ، ومَن غلبت شهوتُه على عقله كان كالبهائم أو أضلّ. هـ.

الإشارة : مَن كفر بأهل الخصوصية مِن أهل العلم وغيرهم لهم نار الحجاب والقطيعة ، ومَن آمن بهم ، ودخل تحت تربيتهم ، له جنات المعارف خالداً فيها ، رضي الله عنهم حيث قرَّبهم إليه ، ورَضُوا عنه حيث سلّموا الأمر إليه ، وخشوا بعُده وطرده. قال الإمام الفخر : اعلم أنَّ العبد مُركَّب من جسد وروح ، فجَنّة الجسد هي الموصوفة في القرآن ، وجنة الروح هي رضا الرب. والأُولى مبدأ أمره ، والثانية منتهى أمره.

(٨/٤٠٠)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣٦

وقال الورتجبي : عن الواسطي : الرضا والسخط نعتان قديمان ، يجريان على الأبد بما جرى في الأزل ، يظهران الوسْم على المقبولين والمطرودين. فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم ، كما بانت شواهد المطرودين بظلمتها عليهم. ثم قال عن سهل : الخشية سر والخشوع ظاهر. هـ. فالخشية محلها البواطن ، والخشوع ظهور أثر الخشية في الظاهر. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

٣٣٧

(٨/٤٠١)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣٦

سورة الزلزلة

(٨/٤٠٢)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣٧

سورة الزلزلة

(٨/٤٠٣)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣٧

يقول الحق جلّ جلاله : {إذا زُلزلت الأرضُ} أي : حُركت تحريكاً عنيفاً مكرراً متداركاً ، {زِلزالها} أي : الزلزلة المخصوصة بها على مقتضى المشيئة الإلهية ، وهو الزلزال الشديد الذي لا غاية وراءه ، أو : زلزالها العجيب الذي لا يُقادر قدره. قال ابن عرفة : المراد : الأرض الأولى ؛ لأنّ الثانية ليس فيها أموات. ولكن السموات عند المنجِّمين متلاصقة بعضها مع بعض ، وكذلك الأرضون ، وعندنا يجوز أن يكون بينهما تخلُّل ، وهو ظاهر حديث الإسراء. هـ.

وذلك عند النفخة الثانية لقوله تعالى : {وأخرجت الأرضُ أثقالها} أي : ما في جوفها من الأموات والدفائن ، جمع : ثِقْل ، وهو : متاع البيت ، جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها. وإظهار الأرض في موضع الإضمار لزيادة التقرير ، أو : للإيماء إلى تبدُّل الأرض غير الأرض. {وقال الإنسانُ} أي : كل فرد مِن أفراده ، لِما يدهمهم من الطامة التامة ، ويبهرهم من الداهية العامة : {ما لها} زُلزلت هذه الزلزلة الشديدة ، وأخرجت ما فيها من الأثقال ، استعظاماً لِما شهدوه من الأمر الهائل ، وقد سُيرت الجبال وفي الجو فصارت هباءً. وهذا قول عام يقوله المؤمن بطريق الاستعظام ، والكافر بطريق التعجُّب.

٣٣٨

{يومئذٍ تُحَدِّثُ أخبارَها} يوم إذا زلزلت الأرض تُحَدِّث الناس أخبارها بما وقع على ظهرها ، قيل : يُنطقها اللهُ وتُحدِّث بما وقع عليها خيرٍ وشر ، رُوي عنه صلى الله عليه وسلم : " أنها تشهد على كل أحدٍ بما عمل على ظهرها " {بأنّ ربك أوْحى لها} أي : بسبب أنَّ ربك أوحى لها بأن تُحَدِّث ، أي : أَمَرَها بذلك. والحديث يستعمل بالباء وبدونها ، يقال : حدثت كذا وبكذا ، و " أوحى " يتعدى باللام وبـ " إلى ".

{يومئذٍ} أي : يوم إذ يقع ما ذكر {يَصْدُر الناسُ} من قبورهم إلى موقف الحساب {أشتاتاً} متفرقين طبقات ، منهم بِيض الوجوه آمنين ، ومنهم سُود الوجوه فزعين ، كما في قوله تعالى : {فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً} [النبأ : ١٨] وقيل : يصدرون غن الموقف أشتاتاً ، ذات اليمين إلى الجنة ، وذات الشمال إلى النار ، {لِيُرَوا أعمالَهم} أي : جزاء أعمالهم ، خيراً أو شراً.

}

(٤٠٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣٨

فمَن يعمل مثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَهُ} ، والذرة : النملة الصغيرة. وقيل : ما يرى في شعاع الشمس من البهاء. و " خيراً " : تمييز ، {ومن يعمل مثقالَ ذرةٍ شراً يَرَهُ} قيل : هذا في الكافر ، والأُولى في المؤمنين. وقال ابن عباس رضي الله عنه : ليس مؤمن ولا كافر ، عَمِلَ خيراً ولا شرًّا في الدنيا إلاّ يراه في الآخرة ، فأمّا المؤمن فيرى حسناته وسيئاته ، فيغفر اللهُ سيئاته ويُثيبه بحسناته ، وأمّا الكافر فيَرُدُّ اللهُ حسناته ويُعذبه بسيئاته. وقال محمد بن كعب : الكافر يرى ثوابه في الدنيا ، في أهله وماله وولده ، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير ، والمؤمن يرى عقوبته في الدنيا ، في نفسه وأهله وماله ، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر. وفي الحديث : " إذا تاب العبدُ عن ذنبه أَنْسَى الله الحفظةَ ذنوبه ،

وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض ، حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب ". قال ابن جُزي : هو على عمومه في الكافر ، وأمّا المؤمنون فلا يُجْزَون بذنوبهم إلاَّ بستة شروط ؛ أن تكون ذنوبهم كِبار ، وأن يموتوا قبل التوبة منها ، وألاَّ يكون لهم حسنات أرجح في الميزان منها ، وألاّ يُشفع فيهم ، وألاّ يكونوا ممن استحق المغفرة بعملٍ ، كأهل بدر ، وإلاّ يعفو الله عنهم ، فإنّ المؤمن العاصي في مشيئة الله ، إن شاء عذَّبه ، وإن شاء غفر له. هـ.

الإشارة : إذا زُلزلت أرضُ النفوس زلزالها اللائق بها ، وحُركت بالواردات والأحوال ، وتحققت الغيبة عنها بالكلية ، أشرقت شمس العرفان ، فغطّت وجودَ الأكوان ، كما قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه مُنشِداً :

٣٣٩

فلوا عاينت عيناك يوم تزلزلت

أرض النفوس ودُكت الأجبال

لرأيتَ شمس الحق يسطع نورها

يوم التزلزل والرجال رجال

وأخرجت حينئذ ما فيها من العلوم ، يومئذ تُحَدِّث أخبارها : أخبار الأسرار الكامنة فيها ، بأنّ ربك أوحى لها إلهاماً. يومئذ يَصْدُر الناسُ من الفناء إلى البقاء ، أشتاتاً ، فمنهم الغالب حقيقته ، ومنهم الغالب شريعته ، ومنهم المعتدل. أو : فمنهم الغالب عليه القبض والقوة ، ومنهم الغالب عليه البسط والليونة ، وهذا أعم نفعاً. والله أعلم. وذلك لِيُروا أعمال مجاهدتهم بالتنعُّم في مشاهدتهم ، فمَن يعمل مثقال ذرة خيراً ـ بأن ينقص من نفسه عادةً في سيره ـ يرَ جزاء ذلك ، ومَن يعمل مثقال ذرة شرًّا ـ بأن يزيد من الحس شيئاً في الظاهر ـ يره ، فإنه ينقص من معناه في الباطن ، إلاّ إذا تمكّن من الشهود. وبالله التوفيق وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

٣٤٠

(٨/٤٠٥)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣٨

سورة العاديات

(٨/٤٠٦)

يقول الحق جلّ جلاله : {والعادياتِ ضَبْحاً} ، أقسم تعالى بخيل الغزاة تعدو فتضبَح ، والضبح : صوت أنفاسها إذا عَدَون ، وحكى صوتها ابنُ عباس ، فقال : أحْ ، أحْ. وانتصاب " ضبحاً " على المصدر ، أي : يضبحن ضبحاً ، أو : بالعاديات ، فإنَّ العَدْو يستلزم الضبح ، كأنه قيل : والضابحات ضبحاً ، أو : حال ، أي : ضابحات. {فالمُورِيات قَدْحاً} ، الإيراء : إخراج النار ، والقدح : الصكّ ، يقال : قدح فأوْرى ، أي : فالتي تُوري النارَ من حوافرها عند العَدْو. وانتصاب " قدحاً " كانتصاب ضبحاً.
{فالمُغيراتِ} التي تغير على العدوّ ، {صُبْحاً} أي : وقت الصبح ، وهو المعتاد في الغارات ، يعدون ليلاً لئلا يشعر بهم العدو ، ويهجمون عليهم صباحاً ليروا ما يأتون وما يذرون. وإسناد الإغارة ـ التي هي متابعة العدو ، والنهب والقتل والأسر ـ إلى الخيل ، وهي حال الراكب عليها ، إيذاناً بأنها العمدة في إغارتهم.
وقوله تعالى : {فأثَرْنَ به نَقْعاً} أي : غباراً ، عطف على الفعل الذي دلّ عليه اسم الفاعل ، إذا المعنى : واللاتي عدون فأوْرَين فأغرن فأثرن ، أي : هيّجن به غباراً ، وتخصيص إثارته بالصُبح لأنه لا تظهر إثارته بالليل ، كما أنَّ الإيراء الذي لا يظهر بالنهار واقع بالليل. والحاصل : أنّ العَدْو كان بالليل وبه يظهر أثر القدح من الحوافر ، ولا يظهر النقع إلاّ في الصبح. {فَوسَطْنَ به} أي : فوسطن بذلك الوقت {جَمْعاً} من جموع الأعداء ، والفاء

٣٤١

لترتيب ما بعد كل على ما قبله ، فإنَّ توسط الجمع مترتب على الإثارة المترتب على الإغارة ، المترتبة على الإيراء ، والمترتب على العدْو.
وجواب القسم : قوله تعالى : {إنَّ الإنسانَ لِربه لَكَنُود} أي : لَكفور ، من : كند النعمة : كَفَرها. وقيل : الكنود هو الذي يمنع رفده ، ويأكل وحده ، ويضرب عبده. وقيل : اللوّام لربه ، يَعْد المحنَ والمصائبَ ، وينسى النعم والراحات. وعلى كل حالٍ فلا يخرج عن أن يكون فسقاً أو كفراً أو تقصيراً في شكر الله على نعمه ، وتقصيراً وتفريطاً في الاستعداد للقائه ، وفي التعظيم لجنابه ، وبالجملة فهو القليل الخير ، ومنه : الأرض الكنود ، التي لا تُنبت شيئاً. قال : في الحاشية الفاسية : والظاهر من سياق السورة أنّ الكنود هو مَن اهتمامه بدنياه دون آخرته ، ولذلك كان حريصاً على المال ، ويرتكب المشاق في جمعه ، ولا يُبالي بآخرته ، ولا يستعد لمآله ولا لآخرته ، ولا يُقَدِّم لها ، وذلك لغفلته وجهله بربه وما أراده منه ، وطلبه من السعي للآخرة ، وقد ضَمِنَ له رزقه ، فلذلك بعد أن عدّد مذامّه هدّده ورهّبه بقوله : {أفلا يعلم...} الآية. هـ.

والآية إمّا في جنس الإنسان إلاَّ مَن عصمه الله ، وهو الأظهر ، أو في مُعَيَّن ، كالوليد أو غيره. قيل : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى أُناس من بني كنانة سرية ، واستعمل عليها المُنذر بن عمرو الأنْصاريّ ، وكان أحد النقباء ، فأبطأ خبره عنه صلى الله عليه وسلم شهراً ، فقال المنافقون : إنهم قُتلوا ، فنزلت السورة بسلامتها ، بشارةً له صلى الله عليه وسلم ونعياً على المرجفين وهذا يقتضي أن السورة مدنية ، وهو خلاف قول الجمهور ، كما تقدّم. {وإِنه} أي : الإنسان {على ذلك} أي : على كنوده {لَشَهِيدٌ} يشهد على نفسه بالكنود ، لظهور أثره عليه ، {وإِنه لِحُبّ الخير} أي : المال {لَشَدِيدٌ} أي : قويٌّ مُطيق مُجد في طلبه ، متهالك عليه ، وقيل : لشديد : لبخيل ، أي : وإنه لأجل حب المال وثقل إنفاقه عليه لبَخِيل مُمْسِك ، ولعل وصفه بهذا الوصف اللئيم بعد وصفه بالكنود للإيماء إلى أنَّ مِن جملة الأمور الداعية المنافقين إلى النفاق حب المال ؛ لأنهم بما يُظهرون من الإيمان يعصمون أموالهم ، ويحوزون من الغنائم نصيباً.

ثم هدّد الكَنود ، فقال : {أفلا يعلمٌ إذا بُعْثِر ما في القبور} أي : بُعث فيها ، و " ما " بمعنى " من " ، {وحُصِّلَ ما في الصدور} ؛ مُيِّز ما فيها من الخير والشر ، أي : أفلا يعلم مصيره ، وأنَّ الله مُطلع عليه ، في سيرته وسريرته ، فيُجازيه على تفريطه في جنبه وطاعته واتباع هواه وشهواته ، فآثر العاجلةَ على الآخرة ، وحظوظَه ، على حقوق ربه والقيام بعبوديته. {إنَّ ربهم بهم يومئذٍ لَخبير} أي : عالم بظواهر ما عمِلوا وباطنه ، عِلماً موجباً للجزاء ، متصلاً به ، كما يُنبىء عنه تقييده بذلك اليوم ، إلاَّ فعلمه سبحانه مطلق محيط بما كان وما سيكون. وقوله : " بهم " و " يومئذ " يتعلقان بـ " بخبير " قُدما لرعاية الفواصل ، واللام غير قادحة ، وذلك لما يغتفر في المجرورات ، وقرأ ابن السمّاك : " أن ربهم بهم يومئذ خبير ".

٣٤٢

الإشارة : أقسم تعالى بأرواح المتوجهين ، التي تعدو على الخواطر الردية ، فتمحوها بقهرية المراقبة ، وتقدح من زند القلب نور الفكرة والنظرة ، وتُغِير على أعدائها من الدنيا والهوى والنفس والشيطان ، فتقهرهم بسيوف المخالفة عند سطوع المشاهدة ، وتُثير غبار المساوىء والذنوب بريح الهداية والتوبة ، فيذهب في الهواء ، وتوسط جمعاً من العلوم والأسرار ، فتحوزهم في خزانة قلبها وسِرها ، غنيمةً وذخيرةً ، وجوابه : إنّ الإنسان لربه لكنود ، مع أنه مغروق في النعم ، وهو لا يشعر ولا يشكر ، لغفلته وعدم تفكُّره ، وهذا الإنسان هو الغافل الجاهل.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٤١

قال الورتجبي : الإنسانُ لا يعرف ما أعطاه الله من نعمه بالحقيقة ، وإنه لكفور إذ لا يعرف مُنعمه ، ثم قال عن الواسطي : الكنود يعدّ ما مِنه من الطاعات ، وينسى ما مّن الله به عليه من الكرامات. هـ. وإنه على ذلك لشهيد ؛ يشهد كفره وعصيانه وبُخله بحسب جبلته ، وإنه لِحُب الخير لشديد ، يأثره على معرفة مولاه ، فخسر خسراناً مبيناً ، أفلا يعلم ما يحلّ به إذا بُعثر ما في القبور ، فتظهر الأبطال من الأرذال ، وحُصِّل ما في الصدور من المعارف وأنواع الكمال ، إنّ ربهم بهم يومئذ لخبير ، فيُجازي أهلَ الإحسان وأهل الخذلان ، كُلاًّ بما يليق به. وبالله التوفيق وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

٣٤٣

(٨/٤٠٩)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٤١

سورة القارعة

(٨/٤١٠)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٤٣

يقول الحق جلّ جلاله : {القارعةُ ما القارعةُ} القرع هو الضرب باعتماد ، بحيث يحصل منه صوت شديد ، وهي القيامة التي مبدؤها النفخة الأولى ، ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق ، سُميت بها لأنها تقرع القلوب والأسماع بفنون الأفزاع والأهوال. وهي مبتدأ ، خبرها : قوله : (ما القارعةُ) على أنَّ " ما " استفهامية خبر ، والقارعة مبتدأ ، لا بالعكس ؛ لما مرّ من أنَّ محط الإفادة هو الخبر لا المبتدأ. ولا ريب في أنَّ مدار إفادة الهول والفخامة هاهنا هو " ما القارعة " أيّ شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة ، وقد وقع الظاهر موضع الضمير تأكيداً للتهويل. {وما أدراك ما القارعةُ} هو تأكيد لهولها وفضاعتها ، ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق ، أي : أيُّ شيء أعلمك ما شأن القارعة ؟ ومن أين علمت ذلك ؟ و " أدري " يتعدى إلى مفعولين ، علقت عن الثاني بالاستفهام.

ثم بيّن شأنها فقال : {يومَ يكونُ الناسُ كالفراش المبثوثِ} أي : هي يوم ، على أنَّ " يوم " مبني لإضافته إلى الفعل ، وإن كان مضارعاً على رأي الكوفيين ، والمختار أنه منصوب باذكر ، كأنه قيل بعد تفخيم أمر القارعة وتشويقه عليه الصلاة والسلام إلى معرفتها : اذكر يوم يكون الناس كالفراش المبثوث في

الكثرة والانتشار والضعف والذلّة والاضطراب والتطاير إلى الداعي كتطاير الفراش إلى النار. والفراش : صِغار الجراد ، ويسمى : غوغاء الجراد ، وبهذا يوافق قوله تعالى : {كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ} [القمر : ٧] وقال أبو عبيدة : الفراش : طير لا بعوض ولا ذباب ، والمبثوث : المتفرق. وقال الزجاج :

٣٤٤

الفراش ما تراه كصغار البق يتهافت في النار. هـ. والمشهور أنه الطير الذ يتساقط في النار ، ولا يزال يقتحم على المصباح ، قال الكواشي : شبّه الناسَ عند البعث بالفراش لموج بعضهم في بعض ، وضعفهم وكثرتهم ، وركوب بعضهم بعضاً ؛ لشدة ذلك اليوم ، كقوله : {كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ} [القمر : ٧] وسمي فراشاً لتفرُّشه وانتشاره وخفته. هـ. واختار بعضهم أن يكون هذا التشبيه للكفار ؛ لأنهم هم الذين يتهافتون في النار تهافت الفراش المنتشر.

}

(٤١١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٤٤

وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المنفوشِ} كالصوف الملون بالألوان المختلفة في تفرُّق أجزائها وتطايرها في الجو ، حسبما نطق به قوله تعالى : {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً...} [النمل : ٨٨] الآية ، وكلا الأمرين من آثار القارعة بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق ، يُبدِّل الله الأرضَ غير الأرض ، بتغيير هيئاتها وتسير الجبال سيراً عن مقارها على ما ذكر من الهيئة الهائلة ليشاهدها أهل المحشر ، وهي وإن اندكت وتصدّعت عند النفخة الأولى ، لكن تسيير وتسويتها يكونان بعد النفخة الثانية ، كما ينطق به قوله تعالى : {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً (١٠٥)} [طه : ١٠٥] الآية ، ثم قال : {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ} [طه : ١٠٨] وقوله تعالى : {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ} [إبراهيم : ٤٨] ، الآية ، فإنَّ اتباع الداعي ، وهو إسرافيل ، وبروز الخلق لله تعالى لا يكون إلاَّ بعد النفخة الثانية. قاله أبو السعود. قلت : دكّ الأرض كلها مع بقاء جبالها غريبَ مع أنَّ قوله تعالى : {وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ...} [الحاقة : ١٤] الخ صريح في دك الجبال وتسويتها مع دك الأرض قبل البعث ، ويمكن الجمع بأن بعضها تدك مع دك الأرض ، وهو ما كان في طريق ممر الناس للمحشر ، وبعضها تبقى ليشاهدها أهلُ المحشر ، وهو ما كان جانباً ، والله تعالى أعلم بما سيفعل ، وسَتَرِد وترى.

ولمّا ذكر ما يَعُمّ الناس ذَكَر ما يخص كل واحد ، فقال : {فأمَّا مَن ثَقُلَتْ موازينه} باتباعه الحق ، وهو جمع " موزون " ، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله ، أو جمع ميزان ، قال ابن عباس رضي الله عنه : هو ميزان له لسان وكفّتان ، تُوزن فيه الأعمال ، قالوا : تُوضع فيه صحائف الأعمال ، فينظر إليه

الخلائق ، إظهاراً للمعدلة ، وقطعاً للمعذرة. قال أنس : " إنَّ ملكاً يؤكّل يوم القيامة بميزان ابن آدم ، يُجاء به حتى يوقف بين كفي الميزان ، فيُوزن عمله ، فإن ثقلت حسناته نادى بصوت يُسْمِع جميعَ الخلائق باسم الرجل : إلاَ سَعِدَ فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خفّت موازينه نادى : شَقِيَ فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً " وقيل : الوزن عبارة عن القضاء السَّوي ، والحكم العَدْل ، وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك ، واختاره كثير من المتأخرين ، قالوا : الميزان لا يتوصل به إلى معرفة مقادير الأجسام ، فكيف يُمكن أن يعرف مقادير الأعمال. هـ. والمشهور أنه محسوس.

(٤١٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٤٤

وقد رُوي عن ابن عباس أنه يُؤتى بالأعمال الصالحة على صورة حسنة ، وبالأعمال

٣٤٥

السيئة على صورة قبيحة ، فتُوضع في الميزان ، فمَن ترجحت موازين حسناته {فهو في عيشةٍ راضيةٍ} أي : ذات رضاً ، أو مرضية ، {ومَن خَفَّتْ موازينُه} باتباعه الباطل ، فلم يكون له حسنات يُعتد بها ، أوترجحت سيئاته على حسناته ، {فأُمُّهُ هاويةٌ} ، هي من أسماء النار ، سُميت بها لغاية عمقها ، وبُعد مداها ، رُوي أنَّ أهل النار يهووا فيها سبعين خريفاً. وعبَّر عن المأوى بالأم لأنَّ أهلها يأوون إليها كما يأوي الولد إلى أمه ، وعن قتادة وغيره : فأم رأسه هاوية ، لأنه يُطرح فيها منكوساً. والأول هو الموافق لقوله : {وما أدراك مَا هِيَهْ} فإنه تقرير لها بعد إبهامها ، وللإشعار بخروجها عن الحدود المعهودة للتفخيم والتهويل ، وهي ضمير الهاوية ، والهاء للسكت ، ثبت وصلاً ووقفاً ، لثبوتها في المُصحف ، فينبغي الوقف ليوافق ثبوتها ، ثم فسَّرها فقال : {نارٌ حامية} بلغت النهاية في الحرارة ، قيل : وصفها بحامية تنبيهاً على أنَّ نار الدنيا بالنسبة إليها ليست بحامية ؛ فإنَّ نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً منها ، كما في الحديث.

الإشارة : القارعة هي سطوات تجلِّي الذات عند الاستشراف على مقام الفناء ، لأنها تقرع القلوب بالحيرة والدهش في نور الكبرياء ، ثم قال : {يوم يكون الناس كالفراش المبثوث} أو كالهباء في الهواء ، إن فتشته لم تجده شيئاً ووجد الله عنده ، يعني : إنَّ الخلق يصغر من جهة حسهم في نظر العارف ، فلم يبعد في قلبه منهم هيبة ولا خوف. وتكون الجبال ، جبال العقل ، كالعهن المنفوش ، أي : لا تثبت عند سطوع نور التجلِّي ؛ لأنّ نور العقل ضعيف كالقمر ، عند طلوع الشمس ، فأمّا مَن ثقُلت موازينه بأن كان حقاً محضاً ؛ إذ لا يثقل في الميزان إلاَّ الحق ، والحق لا يُصادم باطلاً إلاَّ دمغه ، فهو في عيشة راضية ، لكونه دخل جنة المعارف ، وهي الحياة الطيبة ، وأمّا مَن خفّت موازينه باتباع الهوى فأُمُّه

هاوية ، نار القطيعة ينكس فيها ويُضم إليها ، يحترق فيها بالشكوك والأوهام والخواطر ، وحر التدبير والاختيار. ورُوي في بعض الأثر : إنما ثقلت موازين مَن ثقلت موازينُهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله في الدنيا ، وحُقَّ لميزان لا يوضع فيه إلاَّ الحق أن يَثقل ، وإنما خفَّتْ موازينُ مَن خفت موازينُهم باتباعهم الباطلِ وخفته في الدنيا ، وحُق لميزان لا يُوضع فيه إلاَّ الباطل أن يخف. هـ. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

٣٤٦

(٤١٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٤٤

سورة التكاثر

(٤١٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٤٦

يقول الحق جلّ جلاله : {ألهاكم التكاثُر} أي : شغلكم التغالب في الكثرة والتفاخر بها. رُوي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا ، وتعادُّوا بالسادة والأشراف ، فقال كُلُّ فريق منهم : نحن أكثر منكم سيداً ، وأعز عزيزاً ، وأعظم نفراً ، فكثرهم بنو عبد مناف ، فقالت بنو سهم : إنَّ البغي في الجاهلية أهلكنا ، فعادّونا بالأحياء والأموات ، ففعلوا ، وقالوا : قبر فلان ، وهذا قبر فلان ، فكثرهم بنو سهم. والمعنى : أنكم تكاثرتم بالأحياء {حتى زُرتم المقابر} أي : إذا استوعبتم عددكم صرتم إلى الأموات ، فعبّر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة القبور تهكُّماً بهم. وقيل : كانوا يزورون القبور ، ويقولون هذا قبر فلان ، يفتخرون بذلك ، وقيل : المعنى : ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد ، حتى متُّم وقُبرتم مضيعين أعماركم في طلب الدنيا ، معرضين عما يمهمكم من السعي للآخرة ، فيكون زيارة القبور عبارة عن الموت.

قال عبد الله بن الشخِّير : قرأ النبيَّ صلى الله عليه وسلم {ألهاكم التكاثر} فقال : " يقول ابن آدم : ما لي ، وليس له من ماله إلا ثلاث ، ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تَصَدَّق فأبقى " وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس. واللام في (التكاثر) للعهد الذهني ، وهو التكاثر بما يشغل عن الله ، فلا يشمل التكاثر في العلوم والمعارف والطاعات والأخلاق ، فإنَّ ذلك مطلوب ؛ لأنَّ بذلك تُنال السعادة في الدارين ، وقرينة ذلك قوله تعالى : {ألهاكم} فإنه

خاص بما يُلهي عن ذكر الله والاستعداد للآخرة ، حتى أنه لو تناول الدنيا على ذكر الله لم تُذمّ ، وليست بلهو حينئذ ، ولذلك جاء : " الدنيا ملعونةٌ ملعون ما فيها إلاّ ذكر الله وما والاه " قال الإمامُ : ولم يقل : ألهاكم التكاثر عن كذا ، بل تركه مطلقاً ؛ ليدخل تحته جميع ما يحتمله اللفظ ، فهو أبلغ ؛ لأنه يذهب فيه الوهم كُلَّ مذهب ، أي : ألهاكُم عن ذكر الله ، وعن التفكُّر في أمور القارعة ، وعن الاستعداد لها ، وغير ذلك. هـ.

وقال بان عطية في قوله : {حتى زُرتم المقابرَ} : عن عمر بن عبد العزيز ، قال : الآية : تأنيب عن الإكثار من زيارة القبور تكثُّراً بمَن سلف وإشادة عن ذكره ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " كنت نهيتُكم عن زيارة القبور فزوروها ، ولا تقولوا هُجْراً " فكان نهيه صلى الله عليه وسلم في معنى الآية ، ثم أباح بَعْدُ للاتعاظ ، لا لمعنى المباهاة والافتخار ، كما يصنع الناس في ملازمتها وتعليتها بالحجارة والرخام ، وتلوينها شرفاً وبنيان النواويس عليها. هـ.

(٤١٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٤٧

وقال ابن عرفة : زيارة المقابر محدودة ، أي : كيوم في شهر ، مثلاً ، وكان بعضهم يقول : إذا رأيتم الطالب في ابتداء أمره يستكثر من زيارة المقابر ، ومن مطالعة رسالة القشيري ، فاعلم أنه لا يفلح ؛ لاشتغاله عن طلب العلم بما لا يُجدي شيئاً. هـ. أي : لا يفوز بعلم الظاهر ؛ لأنَّ علم الباطن يُفتِّر عن الظاهر ، فينبغي لمَن كان فيه أهلية للعلم أن يفرده ، حتى يحرز منه ما قسم له ، ثم يشتغل بعلم الباطن ، بصُحبة أهله ، وإلاَّ فمطالعة الكتب بلا شيخ لا توصل إليه ، وإنما ينال بمحبة القوم فقط ، وفيها مقنع لمَن ضعفت همته.

ثم زجر عن التكاثر فقال : {كَلاَّ} أي : ليس الأمر على ما أنتم عليه ، أو كما يتوهمه هؤلاء ، فهو رَدْع وتنبيه على أنَّ العاقل ينبغي ألاَّ يكون معظم همه مقصوراً على الدنيا ، فإنَّ عاقبة ذلك وخيمة ، {سوف تعلمون} سوء عاقبة ما أنتم عليه إذا عاينتم عاقبته ، {ثم كّلاَّ سوف تعلمون} ، تكرير

٣٤٨

للتأكيد ، و(ثم) دلالة على أنَّ الثاني أبلغ من الأول ، والأول عند الموت أو في القبر ، والثاني عند النشور.

{كَلاَّ لو تعلمون عِلمَ اليقين} أي : لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين ، كعلمكم ما تستيقنونه لفعلتم من الطاعات ما لا يوصف ، ولا يكتنه كنهة ، فحذف الجواب للتهويل. قال الفخر : الآية تهديد

عظيم للعلماء ، فإنها دلّت على أنه لو حصل اليقين بما في التكاثر من الآفة لتركوا التكاثر والتفاخر ، وهذا يقتضي أنَّ مَن لا يترك التكاثر والتفاخر لا يكون اليقين حاصلاً له ، فالويل للعالم الذي لا يكون عاملاً ، ثم الويل له. هـ. {لَتَرَوُنَّ الجحيمَ} : جواب قسم محذوف ، أكّد به الوعيد وشدّد به التهديد ، {ثم لَتَرَوُنَّها} : تكرير للتأكيد ، أو : الأولى إذا رأتهم من مكان بعيد ، والثانية إذا وردوها ، أو الأولى بالقلب ، والثانية بالعين ، ولذلك قال : {عَينَ اليقين} أي : الرؤية التي هي نفس اليقين وحاصلته ، فإنَّ علم المشاهدة أقْصَى مراتب اليقين. {ثم لتُسألُن يومئذٍ عن النعيم} أي : عن النعيم الذي ألهاكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه ، فإنَّ الخطاب مخصوص بمَن عكفت همته على استيفاء اللذات ، ولم يعش إلاَّ ليأكل الطَيّب ، ويلبس الطَيّب ، وقطع أوقاته في اللهو والطرب ، لا يعبأ بالعلم والعمل ، ولا يحمل نفسه على مشاق الطاعة ، فأمّا مَن تمتّع بنعمة الله تعالى ، وتقوّى بها على طاعته ، قائماً بالشكر ، فهو من ذلك بمعزلٍ بعيد. وفي الحديث : " يقول الله تبارك وتعالى : ثلاث من النعم لا اسأل عبدي عن شكرهن ، وأسأله عما سواه : بيت يكنُّه ، وما يُقيم به صلبه من الطعام ، وما يُواري به عورَته من اللباس " فالخلائق مسؤولون يوم القيامة عما أنعم عليهم به في الدنيا. والله تعالى أعلم بحالهم ، فالكافر يُسأل تبكيتاً وتوبيخاً على شِركه بمَن أنعم عليه ، والمؤمن يُسأل عن شكر ما أنعم عليه. هـ.

(٤١٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٤٧

قلت : فكل مَن استعمل الأدب في تناول النعمة ، بأن شَهِدَها من المنعِم بها ، وذكر الله عند أخذها أو أَكْلِها ، وشكر عند تمامها ، فلا يتوجه إليه سؤال ، أو يتوجه إظهاراً لمزيته وشرفه ، وعليه يتنزّل قوله صلى الله عليه وسلم : " هذا من النعيم الذي تُسألون عنه " في حديث أبي الهيثم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد ، أو بالعلوم الرسمية ، عن التوجُّه إلى الله ، لتحصيل معرفة العيان ، حتى متُّم غافلين ، كلاَّ سوف تعلمون عاقبةَ أمركم ، حين يرتفع أهل العيان مع المقربين ، وتبقوا معاشر أهل الدليل مع عامة أهل اليمين ، كلاَّ لو تعلمون علم اليقين ؛ لتوجهتم إليه بكل حال ، لَترون الجحيم ، أي : نار القطيعة ، ثم لَترونها عين اليقين ، ثم لتُسألن يومئذ عن النعيم ، هل قمتم بشكره أو لا ، وشكره : شهود المنعِم في النعمة ، فقد رأيتُ في عالم النوم شيخين كبيرين ، فقلت لهما : ما حقيقة الشكر ؟ فقال أحدهما : ألاَّ يُعصى بنعمه ، فقلت : هذا شكر العوام ، فما شكر الخواص ؟ فسكتا ، فقلت لهما : شكر الخواص : الاستغراق في شهود المنعِم. هـ. وهو كذلك ؛ لأنَّ عدم العصيان بالنِعم يحصل من بعض الأبرار ، كالعُبَّاد والزُهَّاد ، بخلاف الاستغراق في الشهود ، فإنه خاص بأهل العرفان ، أهل الرسوخ والتمكين ، وقد تقدّم في سورة المعارج التفريق بين علم اليقين وعين اليقين

وحق اليقين. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.
٣٤٩

(٤١٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٤٧
سورة العصر

(٤١٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٤٩
يقول الحق جلّ جلاله : {والعَصْرِ} أقسم تعالى بصلاة العصر لفضلها الباهر ، إذ قيل : هِي الصلاة الوسطى ، أو : بالعشيِّ الذي هو مابين الزوال والغروب ، كما أقسم بالضُحى ، أو بعصر النبوة ، لظهور فضله على سائر الأعصار ، أو بالدهر مطلقاً ؛ لانطوائه على تعاجيب الأمور النافعة والضارة ، وجوابه : {إِنَّ الإِنسانَ لفي خُسْرٍ} ؛ لفي خسران في متاجرهم ومساعيهم ، وصرف أعمارهم في حظوظهم وأمانيهم. {إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات} فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ، فربحوا وسعدوا ، أو : فإنهم في تجارةٍ لن تبور ، حيث باعوا الفاني الخسيس ، وآثروا الباقي النفيس ، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالعاديات الرائحات ، فيا لها من صفقة ما أربحها!.
وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم ، وقوله تعالى : {وتواصَوْا بالحق} بيان لتكميلهم لغيرهم ، أي : وصَّى بعضُهم بعضاً بالأمر الثابت ، الذي لا سبيل إلى إنكاره ، ولا زوال في الدارين لمحاسن آثاره ، وهو الخير كله ، من الإيمان بالله عزّ وجل ، واتباع كتبه ورسله في كل عقد وعمل ، {وتواصَوْا بالصبرِ} عن المعاصي التي تُساق إليها النفس الأمّارة ، وعلى الطاعة التي يشق عليها أداؤها ، وعلى البلية التي تتوجه إليه من جهة قهريته تعالى ، وعلى النعمة بالقيام بتمام شكرها ، وتخصيص هذا التواصي بالذكر ، مع اندراجه تحت التواصي بالحق ؛ لإبراز كمال الاعتناء به ، أو : لأن الأول عبارة عن رتبة العبادة ، التي هي فعل ما يُرضي الله عزّ وجل ، والثاني عن العبودية التي هي الرضا بما فعل اللهُ تعالى ، فإنَّ المراد ليس مجرد حبس النفس عمّا تتوق إليه من فعلٍ وترك ، بل هو تلقي ما يَرِد منه تعالى بالجميل والرضا ظاهراً وباطناً. قاله أبو السعود.
٣٥٠
الإشارة : والعصر ، أي : عصر الذاكرين ، إنَّ الإنسان لفي خُسر ، حيث احتجب عن ربه بنفسه وبرؤيته

وجوده ، إلاّ الذين آمنوا إيمان الخصوص ، وعملوا عمل الخصوص ، وهو خرق العوائد واكتساب الفوائد ، حتى وصلوا إلى كشف الحجاب ، فلم يروا مع الله غيره ، غابوا عن أنفسهم ، وعن وجودهم ووجود غيرهم ، في شهود محبوبهم ، فلمّا تكملوا اشتغلوا بتكميل غيرهم ، كما قال تعالى : {وتواصَوْا بالحق} أي : بفعل الحق ، وهو ما يثقل على النفس ، حتى لا يثقل عليها شيء ، أو بالإقبال على الحق ، وتواصَوْا على مشاق السير ، ثم على عكوف الهم في حضرة الحق. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلّم.

٣٥١

(٤١٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥٠

سورة الهمزة

(٤٢٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥١

يقول الحق جلّ جلاله : {ويلٌ لكل هُمَزَةٍ لُمزةٍ} ، " ويل " : مبتدأ ، و " لكل " : خبره ، والمُسوّغ : الدعاء عليهم بالهلاك ، أو بشدة الشر ، والهَمْز : الكسر ، واللمز : الطعن ، أي : ويل للذي يحط الناس ويُصغِّرهم ، ويشتغل بالطعن فيهم. قال ابن جزي : هو على الجملة : الذي يعيب الناسَ ويأكل أعراضَهم ، واشتقاقه من الهمز واللمز ، وصيغة فعْلَة للمبالغة ، واختلف في الفرق بين الكلمتين ، فقيل : الهمز في الحضور ، واللمز في الغيبة ، وقيل العكس ، وقيل : الهمز باليد ، واللمز باللسان. وقيل : هما سواء. ونزلت السورة في الأخنس بن شريق ، لأنه كان كثير الوقيعة في الناس ، وقيل : في آميّة بن خلف ، وقيل : في الوليد بن المغيرة. ولفظها مع ذلك يعم كل مَن اتصف بهذه الصفة. هـ. وبناء " فُعَلة " يدل أن ذلك عادة منه مستمرة.

وقوله : {الذي جَمَعَ مالاً} : بدل من " كل " ، أو : نصب على الذم ، وقرأ حمزة والشامي والكسائي " جَمَّعَ " بالتشديد للتكثير ، وهو الموافق لقوله : {عدَّده} أي : جعله عُدَّةً لحوادث الدهر ، {يَحْسَبُ أنَّ مالَه أخلده} أي : يتركه خالداً في الدنيا لا يموت ، وهو تعريض بالعمل الصالح ، فإنه أخلد صاحبه في النعيم المقيم ، فأمَّا المال فما أخلد أحداً ، إنما يخلد العلم والعمل ، ومنه قول علِيّ كرّم الله وجه : (مات خُزّان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر) فالحسبان إمّا حسبان الخلود في الدنيا

أو في الآخرة ، كما قال القائل : {وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىا رَبِّي...} [الكهف : ٣٦] الآية.
{كلاَّ} ردع له عن حسبانه. {لَيُنْبَذَنَّ} ليطرحن {في الحُطَمَة} في النار التي من
٣٥٢
شأنها أن تحطم كلَّ ما يُلقى فيها ، {وما أدراك ما الحُطَمَة} تهويل لشأنها ، {نارُ الله الموقدة} أي : هي نار الله التي تتقد بأمر الله وسلطانه ، {التي تَطَّلِعُ على الأفئدة} يعني أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم ، وتطلع على أفئدتهم ، وهي أوساط القلوب ، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من فؤاده ، ولا أشد تألُّماً منه بأدنى أذى يمسّه ، فكيف إذا طلعت عليه نار جهنم ، واستولت عليه ؟ وقيل : خصّ الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الزائغة ، ومعنى اطلاع النار عليها : أنها تشتمل عليها وتعمها.
}

(٤٢١/٨)

إِنها عليهم} أي : النار ، أو الحُطَمَة ، {مُّؤْصَدَةٌ} مُطبقة {في عَمَدٍ} جمع عماد. وفيه لغتان " عُمُد " بضمتين ، و " عَمَد " بفتحتين ، {مُمَدَّدة} أي : تؤصد عليهم الأبواب وتُمدّد على الأبواب العمد ، استيثاقاً في استيثاق ، والجار صفة لمؤصدة. وفي الحديث : " المؤمن كَيِّسٌ فَطِنٌ ، وقّاف متثبّت ، لا يعجل ، عالم ، ورع ، والمنافق هُمزة ، لُمزة ، حُطَمَة ، كحاطب الليل ، لا يُبالي من أين اكتسب وفيم أنفق ". الإشارة : ويل لمَن اشتغل بعيب الناس عن عيوب نفسه ، قال الورتجبي : ويل الحجاب لمَن لا يرى الأشياء بعين المقادير السابقة ، حتى يشتغل بالوقيعة في الخلق بالحسد ، وهو مقبل على الدنيا بالجمع والمنع. هـ.
وقوله تعالى : {الذي جَمَعَ مالاً وعدَّدَه} ذَمٌّ لمَن يجمع المال ويُعدده ، كائناً مَن كان ، والعجب من صُلحاء زماننا ، يجمعون القناطير المقنطرة ، ويترامون على المقام الكبير من الخصوصية ، وما هذا إلاَّ غلط فاحش ، فأين يوجد القلب مع نجاسة الدنيا ؟ ! وكيف يطهُر وتُشرق فيه الأنوار ، وصور الأكوان منطبعة في مرآته ؟ ! وقد قال بعض العارفين : عبادة الأغنياء كالصلاة على المزابل ، وعبادة الفقراء في مساجد الحضرة. هـ. {يحسب أنَّ ماله أخلدهُ} ، أي : يبقيه بالله ، كلا. قال الورتجبي : وَصَفَ الحقُّ تعالى الجاهلَ بالله بأنَّ ماله يُصله إلى الحق ، لا والله ، لا يصل إلى الحق إلاّ بالحق. وقال أبو بكر بن طاهر : يظن أنَّ مالَه يُوصله إلى مقام الخلد. هـ. كلاَّ ، ليُنبذن في الحُطمة التي تحطم كل ما تُصادمه ، وهي حب الدنيا ، تحطم كل ما يُلقى في القلب من حلاوة المعاملة أو المعرفة ، فلا يبقى معها نور قط ، وهي نار الله الموقدة ، التي تَطَّلع على الأفئدة ، فتُفسد ما فيها من الإيمان والعرفان ، إنها عليه

مؤصدة ، يعني أنَّ الدنيا مُطْبقة عليهم ، حتى صارت أكبر همومهم ، ومبلغ علمهم. قال الورتجبي : لله نيران ، نار القهر ونار اللطف ، نار قهره : إبعاد قلوب المنكرين عن ساحة جلاله ، ونار لطفه نيران محبته في قلوب أوليائه من المحبين والعارفين. ثم قال : عن جعفر : ونيران المحبة إذا اتقدت في قلب المؤمن تحرق كل همّة غير الله ، وكل ذِكْرٍ سوى ذكره. هـ. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

٣٥٣

(٤٢٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥٢

سورة الفيل

(٤٢٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥٣

يقول الحق جلّ جلاله : {ألم تَرَ كيف فَعَلَ ربُّكَ بأصحابِ الفيل} الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام ، أو لكل سامع ، والهَمزة للتقرير ، و "كيف " معلقة لفعل الرؤية ، منصوبة بما بعدها. والرؤية : علمية ، أي : ألم تعلم علماً ضرورياً مزاحماً للمشاهدة والعيان باستماع الأخبار المتواترة ، ومعاينة الآثار الظاهرة. وتعليق الرؤية بكيفية فعله ـ عزّ وجل ـ لا بنفسه ، بأن يُقال : ألم ترَ ما فعل ربُّك لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة ، وهيئة عجيبة ، دالة على عِظم قدرة الله عزّ وجل ، وكمال عِلمه وحكمته ، وعزة بيته ، وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم فإنَّ ذلك مِن الإرهاصات له ، لِما رُوي أنَّ الوقعة وقعت في السنة التي وُلد فيها صلى الله عليه وسلم.

وتفصيلها : إنَّ أُبرهة بن الصَبَّاح الأشرم ، مالك اليمن من قِبل النجاشي ، بنى بصنعاء كنيسة ، سماها القُلَّيس ، وأراد أن يصرف إليها الحاج ، فخرج رجل من كنانة ، فأحدث فيها ليلاً ، وذكر الواقدي : أنَّ الرجل لطّخ قبلتها بالعذرة ، ورمى فيها الجيف ، قال : واسمه " نفيل الحضرمي " فغضب أبرهة ، وحلف ليهدمنّ الكعبة ، فخرج من الحبشة ، ومعه فيل ، اسمه " محمود " وكان قويًّا عظيماً ، بعثه النجاشي إليه ، ومعه اثنا عشر فيلاً غيره ، وقيل : ثمانية ، فلما بلغ " المُغَمسَ " خرج إليه عبد المطلب ، وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع ، فأبى وعبّأ جيشه ، وقدّم الفيل ، فأخذ نفيل بن حبيب بأُذنه ، وقال : أبرك محمود ، فإنك في حرم الله ، وارجع من حيث جئت راشداً ، فبرك ، فكان كُلما وجَّهوه

إلى الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجَّهوه إلى اليمن أو إلى غيره من الجهات هرول ، فأرسل اللهُ عليهم سحابة من الطير خرجت من البحر ، مع كل طائر حجر في منقاره ، وحجر في رجليه ، أكبر
٣٥٤
من العدسة ، وأصغر من الحمّصَةِ ، فكان الحجرُ يقع على رأس الرجل ، ويخرج من دُبره ، وعلى كل حجر اسم مَن يقع عليه ، ففرُّوا وهلكوا في كل طريق ومنهل ، ورُمي أبرهة فتساقطت أنامله وآرابه ، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، وانفلت وزيره " أبو يسكوم " ، وطائر يُحلّق فوقه ، حتى بلغ النجاشي ، فقصّ عليه القصة ، فلما أتمها وقع عليه الحجر ، فخرّ ميّتاً بين يديه.

(٤٢٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥٤
ورُوي : أن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير ، فخرج إليه في شأنها ، فلما رآه أبرهة عَظُمَ في عينه ، وكان وسيماً جسيماً ، فقيل له : هذا سيّد قريش ، وصاحب عير مكّة ، الذي يُطعم الناس في السهل ، والوحوش في رؤوس الجبال ، فنزل أبرهة عن سريره ، وجلس معه على بساطه ، وقيل : أَجلسه معه ، وقال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فلما ذكر له حاجته ، وهو : أن يرد إليه إبله ، قال : سَقَطت من عيني ، جئتُ لأهدم البيت ، الذي هو دينك ودين آبائك ، وعِصمتكم ، وشرفكم في قديم الدهر ، لا تكلمني فيه ، ألهاك عه ذود أُخذت لك ؟ فقال عبد المطلب : أنا ربّ الإبل ، وإنَّ للبيت ربًّا يحيمه ، قال أبرهة : ما كان ليحميه مني ، فقال : ها أنت وذلك. ثم رجع وأتى باب الكعبة ، وأخذ بحلقته ، ومعه نفر من قريش ، فدعوا الله عزّ وجل ، فالتفت وهو يدعو ، فإذا هو بطير من نحو اليمن ، فقال : والله إنها لطير غريبة ، ما هي نجدية ولا تهامية ، فأرسل حلقة الباب ، ثم انطلق مع أصحابه ينظرون ماذا يفعل أبرهة ، فأرسل الله تعالى عليهم الطير ، فكان ما كان.
وقيل : كان أبرهة جد النجاشي ، الذي كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. وعن عائشة رضي الله عنها : رأيت قائد الفيل وسائقه أعميَيْن مُقعدين يستطعمان.
وقوله تعالى : {ألم يجعل كَيْدَهُمْ في تضليلٍ} بيان إجمالي لما فعل اللهُ بهم ، والهمزة للتقرير كما سبق ، ولذلك عطف على الجملة الاستفهامية ما بعدها ، كأنه قيل : جعل كيدهم للكعبة وتخريبها في تضييع وإبطال بأن دَمَّرهم أشد تدمير. يقال : ضلّ كيده ، أي : جعله ضالاًّ ضائعاً ، وقيل لامرىء القيس : الملِك الضلّيلِ ؛ لأنه ضيّع ملك أبيه باشتغاله بالهوى.
{وأَرْسَل عليهم طيراً أبابيلَ} أي : جماعات تجيء شيئاً بعد شيء. والجمهور : أنه لا واحد له من لفظه ، كشماطيط وعبابيد ، وقيل : واحدها : إبّالة. قالت عائشة رضي الله عنها : أشبهُ شيء بالخطاطيف.

قال أبو الجوز : أنشأها الله في الهواء في ذلك الوقت ، وقال محمد بن كعب : طيرد سود بَحرية ، وقيل : إنها شبيهة بالوطواط حُمْر وسُود. {ترميهم بحجارةٍ} صفة لطير ، {من سِجّيلٍ} من طين متحجر مطبوخ مثل الآجر ، قال ابن عباس : " أدركت عند أم هاني نحو قفيز من هذه الحجارة ". {فجعلهم كعَصْفٍ مأكولٍ} كورَق زرعٍ وقع فيه الأكل ، أي : أكلته الدود ، أو : كَتِبن أكلته الدواب فراثته ، فجمع لهم الخسة والمهانة والتلف ، أو : كتبن علفته الدواب وشتته.

٣٥٥

فائدة : قال الغزالي عن غير واحد من الصالحين وأرباب القلوب : إنه مَن قرأ في ركعتي الفجر في الأولى بالفاتحة و " ألم نشرح " ، والثانية بالفاتحة و " ألم تر " قَصرت يد كُل عدو عنه ، ولو يُجعل لهم إليه سبيلاً ، قال : وهذا صحيح لا شك فيه. ذكره في الجواهر.

(٤٢٥/٨)

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥٤

الإشارة : قلب العارف هو كعبة الوجود ، وهو بيت الرب ، وجيوش الخواطر والوساوس تطلب تخريبه ، فيحميه اللهُ منهم ، كما حمى بيتَه من أبرهة ، فيقال : ألم ترَ أيها السامع كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، وهم الأخلاق البهيمية والسبعية ، والخواطر الردية ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طير الواردات الإلهية ، فرمتهم بحجارة الأذكار وأنوار الأفكار ، فأسْحقتهم فجعلتهم كعصفٍ مأكول. والله تعالى أعلم ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.
٣٥٦

(٨/٤٢٦)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥٤
سورة قريش

(٨/٤٢٧)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥٦
قلت : (لإِيلافِ) : متعلق بقوله : " فليعبدوا " ، والفاء لِما في الكلام من معنى الشرط ، إذ المعنى : أنَّ نعم الله تعالى على قريش غير محصورة ، فإن لم يَعبدوا لسائر نِعَمه فليعبدوا لإيلافهم الرحلتين ، وجاز أن يعمل ما بعد الفاء فيما قبلها ؛ لانها زائدة غير عاطفة ، ولو كانت عاطفة لم يجز التقديم ، وقيل : يتعلق بمُضمر ، أي : فعلنا من إهلاك أصحاب الفيل لإيلاف قريش ، وقيل : بما قبله من قوله : {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولِ (٥)} [الفيل : ٥] ، ويؤيده : أنهما في مصحف " أُبيّ " سورة واحدة بلا فصل ، والمعنى : أهلك مَن قصدهم مِن الحبشة ليتسامع الناس بذلك ؛ فيتهيبوا لهم زيادة تهيُّب ،

ويحترموهم فضل احترام ، حتى يتنظم لهم الأمن في رحلتيهم.
يقول الحق جلّ جلاله : {لإيلافِ قريشٍ} أي : فلتعبد قريش رب هذا البيت لأجل إيلافهم الرحتلين ، وكانت لقريش رحلتان ، يرحلون في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام ، فيمتارون ويتّجرون ، وكانوا في رحلتهم آمنين ؛ لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته العزيز ، فلا يُتَعرّض لهم ، والناس بين مختطف ومنهوب. و(الإيلاف) : مصدر ، من قولهم : ألفت المكان إيلافاً وإلافاً وإلفاً. وقريش : ولد النضر بن كنانة ، وقيل : ولد فهر بن مالك ، سُمُّوا بتصغير القِرْش ، وهو دابة عظيمة في البَحر ، تعبث بالسفن فلا تطاق إلا بالنار ، والتصغير للتفخيم ، سُمُّوا بذلك لشدتهم ومنعتهم تشبيهاً بها. وقيل : مِن القَرْش ، وهو الجمع والكسب ؛ لأنهم كانوا كسّابين بتجارتهم وضربهم في البلاد.
وقوله تعالى : {إيلافهم رحلةَ الشتاءِ والصيف} بدل من الأول ، أطلق الإيلاف ، ثم أبدل منه المقيّد بالرحلتين تفخيماً لأمر الإيلاف ، وتذكيراً لعظيم هذه النعمة. و " رحلة "
٣٥٧
مفعول بإيلاف ، وأراد رحلتي الشتاء والصيف ، فأفرد لأمن الإلباس.
{فليعبدوا رَبَّ هذا البيت الذي أَطْعَمَهم} بسبب تينك الرحلتين اللتين تمكنوا منها بواسطة كونهم من جيرانه ، {من جوعٍ} شديد كانوا فيه قبلهما. قال الكلبي : أول مَن حمل السمراء من الشام ، ورحل إليها : هاشم بن عبد مناف. هـ. ولمّا بعث اللهُ نبيه ، الذي هو نبي الرحمة ، وأسلمت قريش ، أراح اللهُ الناسَ من تعب الرحلتين ، وجلبت إلى مكة الأرزاق من كل جانب ، ببركة طلعته صلى الله عليه وسلم.
قال مالك بن دينار : ما سقطت أُمة من عين الله إلاّ ضرب أكبادهم بالجوع. وكان عليه الصلاة والسلام يقول : " اللهم إني أعوذ بك من الجوع ، فإنه بئس الضجيع " والمذموم هو الجوع المفرط ، الذي لم يصحبه في الباطن قوة ولا تأييد ، وإلاَّ فالجوع ممدوح عند الصوفية ، أعني الوسط.

(٤٢٨/٨)

ثم قال تعالى : {وآمنهم من خوف} أي : من خوف عظيم ، وهو خوف أصحاب الفيل ، أو : من خوف الناس في أسفارهم ، أو : من القحط في بلدهم. وقيل : كان أصابتهم شدة حتى أكلوا الجِيَف والعظام المحرقة ، فرفعه الله عنهم بدعوته صلى الله عليه وسلم ، فهذا معنى : {أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف} ، وقيل : الجذام ، فلا يصيبهم ببلدهم ، وذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام بقوله : {اجْعَلْ هَاذَا بَلَداً آمِناً} [البقرة : ١٢٦] الآية.
الإشارة : كما أمَّن اللهُ أهل بيته أمَّن أهل نسبته ، فلا تجد فقيراً متجرداً إلاّ آمناً حيث ذهب ، والناس

يُختطفون من حوله. قلت : وقد رأينا هذا الأمر عامَ حصر " سلامة " على تطوان ، فكان كل مَن خرج من تطوان يُنتهب أو يُقتل ، ونحن نذهب حيث شئنا آمنين بحفظ الله ، وهذا إذا لبسوا زي أهل النسبة ، من المُرقَّعة والسبحة والعصا ، فإن ترك زيَّه وأُخذ فقد ظلم نفسه ، وقد ترك بعضُ الفقراء زيَّه ، وسافر فتكشّط ، فقال له شيخه : أنت فرَّطت ، والمفرط أولى بالخسارة. هـ. ويُقال لأهل النسبة : فليعبدوا رَبَّ هذا البيت ، أي : بيت الحضرة التي طلبتموها ، أو : بيت النسبة التي سكنتم فيها ، الذي أطعمكم من جوعٍ ، حيثما توجتهم ، مائدتكم منصوبة ، وآمنكم من خوفٍ حيث سِرتم. والله تعالى أعلم ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.
٣٥٨

(٤٢٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥٧
سورة الماعون

(٤٣٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥٨
يقول الحق جلّ جلاله : {أرأيت الذي يُكذِّبُ بالدين} استفهام أُريد به تشويق السامع إلى معرفة مَن سبق له الكلام والتعجب منه ، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل سامع. والرؤية بمعنى المعرفة ، والفاء في قوله : {فذلك الذي يَدُعُ اليتيمَ} : جواب شرط محذوف ، والمعنى : هل عرفتَ هذا الذي يُكذِّب بالجزاء أو بالإسلام ، فإنْ أردت أن تعرفه فهو الذي يَدُعُّ ، أي : يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً ، ويزجره زجراً قبيحاً ، قيل : هو أبو جهل ، كان وصيًّا ليتيم ، فأتاه عُرياناً يسأله مِن مال نفسه فدفعه دفعاً شديداً ، وقيل : هو الوليد بن المغيرة ، وقيل : العاص بن وائل. وقيل : أبو سفيان ، نحر جزوراً فسأله يتيمٌ لحماً فقرعه بعصاه ، وقيل : على عمومه. وقُرىء : " يَدَعُ " أي : يتركه ويجفوه. {ولا يَحُضُّ} أهلَه وغيرهم من الموسرين {على طعام المسكين} فأَولى هو لا يُطعمه ، جعل علامة التكذيب بالجزاء : منع المعروف ، والإقدام على أذى الضعيف ؛ إذ لو آمن بالجزاء ، وأيقن بالوعيد ، لخشي عقاب الله وغضبه.
{فويل للمُصَلِّين الذي هم عن صلاتهم ساهون} غير مبالين بها ، {الذين هم يُراؤون} الناس بأعمالهم ، ليُمدحوا عليها ، {ويمنعونَ الماعونَ} أي : الزكاة. نزلت في المنافقين ؛ لأنهم كانوا يسهون عن فعل

الصلاة ، أي : لا يُبالون بها ، لأنهم لا يعتقدون وجوبها.
قال الكواشي عن بعضهم : ليس المراد السهو الواقع في الصلاة ، الذي لا يكاد يخلو منه مسلم ، فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يسهو ، ويُعضد هذا ما رُوي عن أنس أنه قال : الحمد لله الذي لم يقل " في صلاتهم " لأنهم لمّا قال : " عن صلاتهم " كان المعنى : أنهم
٣٥٩
ساهون عنها سهو ترك وقلة مبالاة والتفات إليها ، ولو قال " في صلاتهم " كان المعنى : أنّ السهو يعتريهم وهم في الصلاة ، والخلوص من هذا شديد. وقيل " عن " بمعنى " في " ، أي : في صلاتهم ساهون. ثم قال عن ابن عطاء : ليس في القرآن وعيد صعب إلاّ وبعده وعيد لطيف ، غير قوله : {فويل للمصلِّين..} الآية ، ذكل الويل لمَن صلاّها بلا حضور في قلبه ، فكيف بمَن تركها رأساً ؟ فقيل له : ما الصلاة ؟ فقال : الاتصال بالله من حيث لا يعلم إلاّ الله. ثم قال الكواشي : ومما يدل على أنَّ مَن شَرَعَ في الصلاة خالصاً لله ، واعترضه السهو مع تعظيمه للصلاة ولشرائع الإسلام ، ليس بداخل مع هؤلاء : أنه وصفهم بقوله : {الذين هم يراؤون}. ثم قال : وفي اجتناب الرياء صُعوبة عظيمة ، وفي الحديث : " الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء ، في الليلة الظلماء ، على المسح الأسود " وقال بعضهم : هم الذين لا يُخلصون لله عملاً ، ولا يُطالبون أنفسهم بحقيقة الإخلاص ، ولا يَرِد عليهم وارد من ربهم يقطعهم عن رؤية الخلق والتزيُّن لهم. هـ.
}

(٤٣١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥٩
ويمنعون الماعُونَ} قيل : الماعون : كل ما يُرتفق به ، كالفأس والماء والنار ، ونحوها ، أي : الماعون المعروف كله ، حتى القِدْر والقصعة ، أو : ما لا يحل منعه ، كالماء والملح والنار ، قالوا : ومَنْع هذه الأشياء محظور شرعاً ، إذا استعيرت عن ضرورة ، وقُبْح في المروءة إذا استعيرت في غير حال الاضطرار. قال عكرمة : ليس الويل لمَن منع هذه الأشياء ، إنما الويل لمَن جمعها فراءى في صلاته وسهى عنها ، ومَنَع هذه الأشياء. هـ.
قال ابن عزيز : الماعون في الجاهلية : كل عطية ومنفعة ، والماعون في الإسلام : الزكاة والطاعة ، وقيل : هو ما ينتفع به المسلم من أخيه ، كالعارية والإغاثة ونحوهما ، وقيل : الماعون : الماء ، نقله الفراء ، وفي البخاري : الماعون : المعروف كله ، أعلاه الزكاة ، وأدناه عارية المتاع. والله تعالى أعلم.
الإشارة : الدين هو إحراز الإسلام والإيمان والإحسان ، فمَن جمع هذه الثلاث تخلّص باطنه ، فكان

فيه الشفقة والرأفة والكرم والسخاء ، وتحقق بمقام الإخلاص ، وذاق حلاوة المعاملة ، وأمّا مَن لم يظفر بمقام الإحسان فلا يخلو باطنه من عُنف وبُخل ودقيق رياء ، ربما يصدق عليه قوله تعالى : {أرأيت الذي يُكذِّب بالدين فذلك الذي يَدُعُّ اليتيم..} الخ. وقال القشيري في قوله تعالى : {فويل للمُصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون} : يُشير إلى المحجوبين عن أسرار الصلاة ودقائقها ، الساهين عن شهود مطالعها وطرائقها ، الغافلين الجاهلين عن علومها وأحكامها ، {الذين هم يُراؤون} في أعمالهم وأحوالهم ، بنسبتها وإضافتها إلى أنفسهم الظلمانية ، {ويمنعون الماعون} أي : ما يُفيد السالك إلى طريق الحق ، من الإرشاد والنُصح ، وانظر عبارته نقلتها بالمعنى. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

٣٦٠

(٤٣٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥٩

سورة الكوثر

(٤٣٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٦٠

يقول الحق جلّ جلاله : {إِنَّا أعطيناك الكوثرَ} أي : الخير الكثير ، مَن شرف النبوة الجامعة لخير الدارين ، والرئاسة العامة ، وسعادة الدنيا والآخرة ، " فَوْعل " من الكثرة ، وقيل : هو نهر في الجنة ، أحلى من العسل ، وأشد بياضاً منَ اللبن ، وأبرد من الثلج ، وألين من الزبد ، حافتاه : اللؤلؤ والزبرجد ، وأوانيه من فضّةٍ عدد نجوم السماء ، لا يظمأ مَن شرب منه أبداً ، وأول وارديه : فقراء المهاجرين ، الدنسو الثياب ، الشعث الرؤوس ، الذي لا يتزوّجون المنعَّمات ، ولا يفتح لهم أبواب الشُدد ـ أي : أبواب الملوك ـ لخمولهم ، يموت أحدهم وحاجته تلجلج في صدره ، لو أقسم على الله لأبرَّه. هـ.

وفسَّره ابن عباس بالخير الكثير ، فقيل له : إنَّ الناس يقولون : هو نهر في الجنة ، فقال : النهر من ذلك الخير ، وقيل : هو : كثرة أولاده وأتباعه ، أو علماء أمته ، أو : القرآن الحاوي لخيَري الدنيا والدين.

رُوي : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يا رب اتخذت إبراهيم خليلاً ، وموسى كليماً ، فبماذا خصصتني ؟ " فنزلت : {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىا (٦)} [الضحى : ٦] ، فلم يكتفِ بذلك ، فنزلت :

{إنَّا أعطيناك الكوثر} فلم يكتفِ بذلك ، وحُقَّ له ألاَّ يكتفي ؛ لأنَّ القناعة من الله حرمان ، والركون إلى الحال يقطع المزيد ، فنزل جبريلُ ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنَّ الله تبارك وتعالى يقرئك السلام ، ويقول لك : إن كنتُ اتخذتُ إبراهيم خليلاً ، وموسى كليماً ، فقد اتخذتك حبيباً ، فوعزتي وجلالي لأختارن حبيبي على خليلي وكليمي ، فسكن صلى الله عليه وسلم.

٣٦١

والفاء في قوله : {فَصَلِّ لربك وانْحَرْ} لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فإنَّ إعطاءه تعالى إياه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما ذكر من العطية التي لم يُعطها ولن يُعطها أحد من العالمين ، مستوجبة للمأمور به أيّ استيجاب ، أي : فدُم على الصلاة لربك ، الذي أفاض عليك هذه النِعم الجليلة ، التي لا تُضاهيها نعمة ، خالصاً لوجهه ، خلافاً للساهين المرائين فيها ، لتقوم بحقوق شكرها ، فإنَّ الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر. {وانْحَرْ} البُدن ، التي هي خيار أموال العرب ، وتصدَّق على المحاويج ، خلافاً لمَن يَدَعَهم ويمنعهم ويمنع عنهم الماعون ، وعن عطية : هي صلاة الفجر بجَمْعٍ ، والنحر بمِنى ، وقيل : صلاة العيد والضَحية ، وقيل : هي جنس الصلاة ، والنحر وضْعُ اليمين على الشمال تحت نحره. وقيل : هو أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره. وعن ابن عباس : استقبل القبلة بنحرك ، أي : في الصلاة. وقاله الفراء والكلبي.

}

(٨/٤٣٤)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٦١

إنَّ شَانِئَكَ} أي : مُبغضك كائناً مَن كان {هو الأبْتَرُ} الذي لا عَقِب له ، حيث لم يبق له نسْل ، ولا حُسن ذكر ، وأمّا أنت فتبقى ذريتك ، وحُسن صيتك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة ، لأنَّ كل مَن يُولد مِن المؤمنين فهم أولادك وأعقابك ، وذِكْرك مرفوع على المنابر ، وعلى لسان كل عالم وذاكر ، إلى آخر الدهر ، يبدأ بذكر الله ، ويُثني بذكرك ، ولك في الآخرة ما لا يندرج تحت البيان ، فمثلك لا يقال فيه أبتر ، إنما الأبتر شانئك المَنْسي في الدنيا والآخرة. قيل : نزلت في العاص بن وائل ، كان يُسَمِّي النبيَّ صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه " عبد الله " : أبتر ، ووقف مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : مع مَن كنت واقفاً ؟ فقال : مع ذلك الأبتر ، وكذلك سمّته قريش أبتر وصُنبوراً ، ولمّا قَدِمَ كعب بن الأشرف ـ لعنه الله ـ لمكة ، يُحرّض قريشاً عليه صلى الله عليه وسلم قالوا له : نحن أهل السِّقايةِ والسِّدَانة ، وأنت سَيِّدُ أهل المدينة ، فنحن خير أمْ هذا الصنبور المُنْبَتِر من قومه ؟ فقال : أنتم خير ، فنزلت في كعب : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ..}

[النساء : ٥١] ، الآية ، ونزلت فيهم : {إن شانئك هو الأبتر}.
الإشارة : يُقال لخليفة الرسول ، الذي تَخلَّق بخُلقه ، وكان على قدمه : إنَّا أعطيناك الكوثر : الخير الكثير ، لأنَّ مَن ظفر بمعرفة الله فقد حاز الخير كله " ماذا فقد مَن وجدك " فَصَلّ لربك صلاة القلوب ، وانحر نفسك وهواك ، إنَّ شانئك ومُبغضك هو الأبتر ، وأمَّا أنت فذكرك دائم ، وحياتك لا تنقطع ، لإنَّ موت أهل التُقى حياة لا فناء بعدها. وقال الجنيد : إن شانئك هو الأبتر ، إي : المنقطع عن بلوغ أمله فيك. هـ. وصلّى الله على سيدنا محمد ، وآله.
٣٦٢

(٤٣٥/٨)

سورة الكافرون

(٤٣٦/٨)

يقول الحق جلّ جلاله : {قل يا أيها الكافرون} المخاطَبون كفرة مخصوصون ، عَلِمَ الله أنهم لا يُؤمنون. رُوي أنَّ رهطاً من صناديد قريش قالوا : يا محمد هلم تتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان دينك خيراً شَرَكْناك فيه ، وإن كان ديننا خيراً شركتنا في أمرنا ، فقال : " معاذ الله أن نُشرك بالله غيره " فنزلت ، فغدا إلى المسجد الحرام ، وفيه الملأ من قريش ، فقرأها عليهم ، فأيسوا.

أي : قل لهم : {لا أعْبُدُ ما تعبدون} فيما يُستقبل ؛ لأنَّ " لا " إذا دخلت على المضارع خلصته للاستقبال ، أي : لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ، {ولا أنتم عابدون ما أعبدُ} أي : ولا أنتم فاعلون في الحال ما أطلب منكم من عبادة إلهي ، {ولا أنا عابد ما عبدتم} أي : وما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه ، ولم يعهد مني عبادة صنم ، فكيف يرجى مني في الإسلام ؟ {ولا أنتم عابدون ما أعبدُ} أي : وما عبدتم في وقت من الأوقات ما أنا على عبادته. وقيل : إنَّ هاتين الجملتين لنفي العبادة حالاً ، كما أنَّ الأوليين لنفيها استقبالاً. وإيثار " ما " في (ما أعبد) على " من " ؛ لأنَّ المراد هو الوصف ، كأنه قيل : ما أعبد من المعبود العظيم الشأن الذي لا يُقادر قدر عظمته. وقيل " ما " مصدرية ، أي : لا أعبد عبادتكم ، ولا تعبدون عبادتي ، وقيل : الأوليان بمعنى " الذي " ،

والأخريان مصدريتان.
وقوله تعالى : {لكم دينكُم وليَ دِينِ} تقرير لِما تقدّم ، والمعنى : إنَّ دينكم الفاسد ، الذي هو الإشراك ، مقصور عليكم ، لا يتجاوزه إلى الحصول ليّ ، كما تطمعون فيه ، فلا
٣٦٣
تُعلِّقوا به أطماعكم الفارغة ، فإنَّ ذلك من المحالات ، كما أنَّ ديني الحق لا يتجاوزني إليكم ، لِما سبق لكم من الشقاء. والقصر المستفاد من تقديم المسند قصر إفراد حتماً. والله تعالى أعلم.
الإشارة : إذا طلبت العامةُ المريدَ بالرجوع ، إلى الدنيا والاشتغال بها ، يُقال له : قل يا أيها الكافرون بطريق التجريد ، والتي هي سبب حصول التوحيد والتفريد ، لا أعبدُ ما تعبدون من الدينا وحظوظها ، أي : لا أرجع إليها فيما يُستقبل من الزمان ، ولا أنتم عابدون ما أعبدُ من إفراد الحق بالمحبة والعبادة ، أي : لا تقدرون على ذلك ، ولا أنا عابد ما عبدتم من الدنيا في الحال ، لكم دينكم المبني على تعب الأسباب ، وليَ ديني المبني على التعلُّق بمسبِّب الأسباب ، أو لكم دينكم المكدّر بالوساوس والخواطر والأوهام ، ولي ديني الخالص الصافي ، المبني على تربية اليقين ، أو : لكم دينكم المبني على الاستدلال ، ولي ديني المبني على العيان. أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان ، كما قال الشاذلي رضي الله عنه. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.
٣٦٤

(٨/٤٣٧)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٦٣
سورة النصر

(٨/٤٣٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٦٤
يقول الحق جلّ جلاله : {إذا جاء نَصْرُ اللهِ} " إذا " ظروف لِما يُستقبل ، والعامل فيه : {فسبِّح} ، والنصر : الإعانة والإظهار على العدوّ ، والفتح : فتح مكة ، أو فتح البلاد ، والإعلام بذلك قبل الوقوع من أعلام النبوة ، إذا قلنا نزلت قبل الفتح ، وعليه الأكثر ، والمعنى : إذا جاءك نصر الله ، وظَهَرْتَ على العرب ، وفتح عليك مكة أو سائر بلاد العرب ، فَأَكْثِر من التسبيح والاستغفار ، تأهُّباً للقاء أو شكراً على النِعم ، والتعبير عن حصول الفتح بالمجيء للإيذان بأنّ حصوله على جناح الوصول عن

قريب.
وقيل : نزلت أيام التشريق بمِنىً في حجة الوداع ، وعاش بعدها النبيُّ صلى الله عليه وسلم ثمانين يوماً ، فكلمة (إذا) حينئذ باعتبار أنَّ بعض ما في حيزها . أعني : رؤية دخول الناس أفواجاً . غير منقض بعدُ.
وكان فتح مكة لعَشْرٍ من شهر رمضان ، سنة ثمان ، ومع النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب ، وأقام بها خمس عشرة ليلة. وحين دخلها وقف على باب الكعبة ، ثم قال : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهَزَم الأحزابَ وحده " ، ثم قال : " يا أهل مكة ؛ ما ترون إني فاعل بكم ؟ " قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : " اذهبوا فأنتم الطُلقاء " فأعتقهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوة ، وكانوا لهم فيئاً ، ولذلك سُمي أهل مكة الطُلقاء ، ثم بايعوه على الإسلام ، ثم خرج إلى هوازن.
ثم قال تعالى : {ورأيتَ الناسَ} أي : أبصرتهم ، أو علمتهم {يدخلون في دينِ الله} أي : ملة الإسلام ، التي لا دين يُضاف إليه تعالى غيرها. والجملة على الأول : حال من " الناس " ، وعلى الثاني : مفعول ثان لرأيت ، و {أفواجاً} حال من فاعل " يدخلون " أي :
٣٦٥
يدخلون جماعة بعد جماعة ، تدخل القبيلة بأسرها ، والقوم بأسرهم ، بعدما كانوا يدخلون واحداً واحداً ، وذلك أنَّ العرب كانت تقول : إذا ظفر محمدٌ بالحرم . وقد كان آجرهم الله من أصحاب الفيل . فليس لكم به يدان ، فلما فُتحت مكة جاؤوا للإسلام أفواجاً بلا قتال ، فقد أسلم بعد فتح مكة بَشَرٌ كثير ، فكان معه في غزوة تبوك سبعون ألفاً. وقال أبو محمد بن عبد البر : لم يمت رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وفي العرب كافر ، وقد قيل : إنَّ عدد المسلمين عند موته : مائة ألف وأربعة عشر ألفاً. هـ.

(٤٣٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٦٥
فإذا رأيتَ ما ذكر من النصر والفتح {فَسَبِّح بحمد ربك} أي : قل سبحان الله ، حامداً له ، أو : فصلّ له {واستغفره} تواضعاً وهضماً للنفس ، أو : دُمْ على الاستغفار ، {إنه كان} ولم يزل {تواباً} ؛ كثير القبول للتوبة. روت عائشةُ رضي الله عنها أنَّ النبيّ صلى الله عليه وسلم : لَمّا فتح مكة ، وأسلمت العرب ، جعل يُكثر أن يقول : " سبحانك اللهم وبحمدك ، وأستغفرك وأتوب إليك ، يتأوّل القرآن " يعني في هذه السورة. وقال لها مرة : " ما أراه إلاَّ حضور أجلي " ، وتأوَّله العباس وعمر رضي الله عنهما بذلك بمحضره صلى الله عليه وسلم فصدّقهما ، ونزع هذا المنزع ابن عباس وغيره.
الإشارة : إذا جاءتك أيها المريد نصر الله لك ، بأن قوّاك على خرق عوائد نفسك ، وأظفرك بها

(والفتح) وهو دخول مقام الفناء ، وإظهار أسرار الحقائق ، ورأيت الناسَ يدخلون في طريق الله أفواجاً ، فسبّح بحمد ربك ، أي : نزّه ربك عن رؤية الغيرية والأثنينية في ملكه ، واستغفره من رؤية وجود نفسك.
قال القشيري : ويقال النصر من الله بأن أفناه عن نفسه ، وأبعد عنه أحكام البشرية ، وصفّاه من الكدورات النفسانية ، وأمّا الفتح فهو : أن رقَّاه إلى محل الدنو ، واستخلصه بخصائص الزلفة ، وألبسه لباس الجمع ، وعرّفه من كمال المعرفة ما كان جميع الخلق متعطشاً إليه. هـ. وقال الورتجبي (فَسَبِّح بحمد ربك) أي : سبِّحه بحمده لا بك ، أي : فسبِّحه بالحمد الذي حمد به نفسه ، واستغفِره من حمدك وثنائك وجميع أعمالك وعرفانك ، فإنّ الكل معلول ؛ إذ وصف الحدثان لا يليق بجمال الرحمن ، إنه كان قابل التوب من العجز عن إدراك كنه قدسه ، والاعتراف بالجهل عن معرفة حقيقة وجوده. هـ. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.
٣٦٦

(٤٤٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٦٥
سورة المسد

(٤٤١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٦٦
يقول الحق جلّ جلاله : {تَبَّتْ} ، أي : هلكت {يَدَا أبي لهبٍ} هو عبد العزى بن عبد المطلب ، عم رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وإيثار لفظ التباب على الهلاك ، وإسناده إلى يديه ، لِما رُوي أنه لمّا نزل : {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ(٢١٤)} [الشعراء : ٢١٤] رقى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الصفا ، وقال : " يا صباحاه " فاجتمع إليه الناسُ من كل أوب ، فقال : " يابني عبد المطلب! يابني فهر! أرأيتم إن أخبرتكم أنَّ بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي ؟ " قالوا نعم ، قال : " فإني نذير لكم بين يديْ عذابٍ شديدٍ " فقال أبو لهب : تبًّا لك سائر اليوم ، ما دعوتنا إلاّ لهذا ؟ وأخذ حجراً ليرميه به عليه الصلاة والسلام ، فنزلت ، أي : خسرت يدا أبي لهب {وتَبَّ} اي : وهلك كله ، وقيل : المراد بالأول : هلاك جملته ، كقوله : {بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ} [الحج : ١٠]. ومعنى " وتَبَّ " : وكان ذلك وحصل ، ويؤيده قراءة ابن مسعود " وقد تب ". وذكر كنيته للتعريض بكونه جهنميًّا ، لاشتهاره بها ، ولكراهة اسمه القبيح. وقرأ المكي بسكون الهاء ، تخفيفاً.

{ما أَغْنَى عنه مالُه وما كَسَبَ} أي : لم يُغن حين حلّ به التباب ، على أنّ " ما " نافية ، أو : أيّ شيء أغنى عنه ، على أنها استفهامية في معنى الإنكار ، منصوبة بما بعدها ، أي : ما أغنى عنه أصل ماله وما كسب به من الأرباح والمنافع ، أو : ما كسب من الوجاهة والأتباع ، أو : ماله الموروث من أبيه والذي كسبه بنفسه ، أو : ما كسب من عمله الخبيث ، الذي هو كيده في عداوته عليه الصلاة والسلام ، أو : عمله الذي ظنّ أنه منه على شيء ،

٣٦٧

لقوله تعالى : {وَقَدِمْنَآ إِلَىا مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً (٢٣)} [الفرقان : ٢٣] ، وعن ابن عباس : " ما كسب ولده " ، رُوي أنه كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا فأنا أفدي منه نفسي بمالي وولدي ، فاستخلص منه ، وقد خاب مرجاه ، وما حصل ما تمناه ، فافترس ولده " عُتبة " أسدٌ في طريق الشام ، وكان صلى الله عليه وسلم دعا عليه بقوله : " اللهم سلط عليه كلباً من كلابك " وهلك هو نفسه بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليال ، فاجتنبه الناسُ مخالفةَ العدوى ، وكانوا يخافون منها كالطاعون فبقي ثلاثاً حتى تغيّر ، ثم استأجروا بعض السودان ، فحملوه ، ودفنوه ، فكان عاقبته كما قال تعالى :

}

سَيصْلى ناراً} أي : سيدخل لا محالة بعد هذا العذاب الأجل ناراً {ذاتَ لهبٍ} أي : ناراً عظيمة ذات اشتعال وتوقُّد ، وهي نار جهنم. قال أبو السعود : وليس هذا نصًّا في أنه لا يؤمن أبداً ، فيكون مأموراً بالجمع بين النقيضين ، فإنَّ صَلْي النار غير مختص بالكفار ، فيجوز أن يُفهم من هذا أنَّ دخوله النار لفسقه ومعاصيه ، لا لكفره ، فلا اضطرار إلى الجواب المشهور ، من أنّ ما كلفه هو الإيمان بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم إجمالاً ، لا الإيمان بما نطق به القرآن ، حتى يلزم أن يكلف الإيمان بعدم إيمانه المستمر. هـ.

{وامرأتُه} : عطف على المستكن في " يَصْلى " لمكان الفعل. وهي أم جميل بنت حرب ، أخت أبي سفيان ، وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعد ، فتنثرها بالليل في طريق النبي ، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يطؤه كما يطأ الحرير. وقيل كانت تمشي بالنميمة ، ويقال لمَن يمشي بالنميمة ويُفسد بين الناس : يحمل الحطب بينهم ، أي : يُوقد بينهم النار ، وهذا معنى قوله : {حمّالةَ الحطبِ} بالنصب على الذم والشتم ، أو : الحالية ، بناء على أنَّ الإضافة غير حقيقية ، لوجوب تنكير الحال ،

وقيل : المراد : أنها تحمل يوم القيامة حزمة من حطب جهنم كالزقوم والضريع. وعن قتادة : أنها مع كثرة مالها كانت تحمل الحطب على ظهرها ، لشدة بُخلها ، فعيرت بالبخل ، فالنصب حينئذ على الذم حتماً. ومَن رفع فخبر عن " امرأته " ، أو : خبر عن مضمر متوقف على ما قبله. وقُرِىء " ومُرَيَّتُه " فالتصغير للتحقير ، {في جِيدِها} في عُنقها {حَبْلٌ من مَسَد} والمسد : الذي فُتل من الحبال فتلاً شديداً ، من ليف المُقْل أو من أي ليفٍ كان ، وقيل : من لحاء شجر باليمن ، وقد يكون من جلود الإبل وأوبارها.

قال الأصمعي : صلّى أربعة من الشعراء خلف إمام اسمه " يحيى " فقرأ : " قل هو الله أحد " فتعتع فيها ، فقال أحدهم :

أكْثَرَ يَحْيى غلطا

في قل هو الله أحد

٣٦٨

وقال الثاني :

قام طويلاً ساكتاً

حتى إذا أعيا سجد

وقال الثالث :

يزْحَرُ في محرابه

زحيرَ حُبْلى بوتد

وقال الرابع :

كأنما لسانه

شُدّ بحبلٍ من مسد

والمعنى : في جيدها حبل مما مُسد من الحبال ، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك ، وتربطها في جيدها ، كما يفعل الحطّابون ، تحقيراً لها ، وتصويراً لها ، بصورة بعض الحطّابات ، لتجزع من ذلك ، ويجزع بعلُها ، وهما من بيت الشرف والعزّ.

(٨/٤٤٣)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٦٧

رُوي أنها لمّا نزلت فيها الآية أتت بيتَه صلى الله عليه وسلم ، وفي يدها حجر ، فدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعه الصدّيق ، فأعماها اللهُ عن رسول صلى الله عليه وسلم ولم ترَ إلاّ الصدّيق ،

قالت : أين محمد ؟ بلغني أنه يهجوني ، لئن رأيته لأضربن فاه بهذا الفِهر. هـ. ومن أين ترى الشمسَ مقلةٌ عمياء ، وقيل : هو تمثيل وإشارة لربطها بخذلانها عن الخير ، ولذلك عظم حرصها على التكذيب والكفر. قال مُرة الهمداني : كانت أم جميل تأتي كل يوم بحزمة من حسك ، فتطرحها في طريق المسلمين ، فبينما هي ذات ليلة حاملة حزمة أعيت ، فقعدت على حجر لتستريح ، فجذبها الملك من خلفها بحبلها فاختنقت ، فهلكت. هـ.

الإشارة : إنما تبّت يدا أبي لهب ، وخسر ، وافتضح في القرآن على مرور الأزمان ، لأنه أول مَن أظهر الكفر والإنكار ، فكان إمام المنكِرين ، فكل مَن بادر بالإنكار على أهل الخصوصية انخرط في سلك أبي لهب ، لا يُغني عنه مالُه وما كسب ، وسيصلى نارَ القطيعة والبُعد ، ذات احتراق ولهب ، وامرأته ، اي : نفسه ، حمّالة حطب الأوزار ، في جيدها حبل من مسد الخذلان. وبالله التوفيق وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

٣٦٩

(٨/٤٤٤)

سورة الإخلاص

(٨/٤٤٥)

قلت : {هو} ضمير الشأن مبتدأ ، والجملة بعده خبر ، ولا تحتاج إلى رابط ، لأنها نفس المبتدأ ، فإنها عين الشأن الذي عبّر عنه بالضمير ، ورفعه من غير عائد يعود عليه ؛ للإيذان بأنه الشُهرة والنباهة بحيث يستحضرة كلُّ أحد ، وإليه يُشير كل مُشير ، وعليه يعود كل ضمير ، كما يُنبىء عنه اسم الشأن ، الذي هو القصد. والسر في تصدير الجملة به للتنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها ، وجلالة حيزها ، مع ما فيه من زيادة تحقيقٍ وتقرير ، فإنَّ الضمير لا يُفهم منه من أول الأمر إلاّ شأن مبهم ، له خطر جليلٍ ، فيبقى الذهن مترقباً لِما أمامه مما يفسره ويزيل إبهامه ، فيتمكن عند وروده له فضل تمكُّن. وكل جملة بعد خبره مقرِّره لِما قبلها على ما يأتي.

يقول الحق جلّ جلاله مجيباً للمشركين لَمّا قالوا : صِفْ لنا ربك الذي تدعونا إليه ، وانسبه ؟ فسكت عنهم صلى الله عليه وسلم فنزلت ، أو اليهود ، لَمّا قالوا : صِفْ لنا ربك وانسبه ، فإنه وَصَفَ نفسه في

التوراة ونَسَبَها ، فارتعد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى خَرّ مغشيًّا عليه ، فنزل جبريلُ عليه السلام بالسورة. ويمكن أن تنزل مرتين كما تقدّم.
فقال جلّ جلاله : {قل هو اللّهُ} المعبود بالحق ، الواجب الوجود ، المستحق
٣٧٠
للكمالات {أحَدٌ} لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، لا يتبعّض ولا يتجزّأ ، ولا يُحد ، ولا يُحصَى ، أول بلا بداية ، وآخر بلا نهاية ، ظاهر بالتعريف لكل أحد ، باطن في ظهوره عن كل أحد.
وأصل {أحد} هنا " وَحَد " فأبدلت الواو همزة ، وليست كأحد ، الملازم للنفي ، فإنَّ همزة أصلية.
ووصفه تعالى بالوحدانية له ثلاث معان ، الأول : أنه لا ثاني له ، فهو نفي للعدد ، والآخر : أنه واحد لا نظير له ولا شريك له ، كما تقول : فلان واحد عصره ، أي : لا نظير له ، الثالث : أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعّض. والأظهر أن المراد هنا : نفي الشريك ، لقصد الرد على المشركين. انظر ابن جزي.
{اللّهُ الصمدُ} وهو فَعَلٌ بمعنى مفعول ، من : صمد إليه : إذا قصده ، أي : هو السيّد المصمود إليه في الحوائج ، المستغني بذاته عن كل ما سواه ، المفتقِر إليه كلُّ ما عداه ، افتقاراً ضرورياً في كل لحظة ، إذ لا قيام للأشياء إلاّ به. أو الصمد : الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال ، أو : الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، والذي يُطْعِم ولا يُطْعَم ولا يأكل ولا يشرب ، أو : الذي لا جوف له ، وتعريفه لعلمهم بصمديته ، بخلاف أحديته.

(٤٤٦/٨)

وتكرير الاسم الجليل ، للإشعار بأنَّ مَن لم يتصف بذلك فهو بمعزلٍ عن استحقاق الألوهية ، والتلذُّذ بذكره. وتعرية الجملة عن العاطف ، لأنها كالنتيجة عن الأولى ، بيَّن أولاً ألوهيته عزّ وجل ، المستوجبة لجميع نعوت الكمال ، ثم أحديته الموجبة لتنزّهه عن شائبة التعدد والتركيب بوجهٍ من الوجوه ، وتوهم المشاركة في الحقيقة وخواصها ، ثم صمديته المقتضية لاستغنائه الذاتي عما سواه ، وافتقار المخلوقات إليه في وجودها وبقائها وسائر أحوالها ، تحقيقاً للحق ، وإرشاداً إلى التعلُّق بصمديته تعالى. ثم صرّح ببعض أحكام مندرجة تحت الأحكام السابقة ، فقال : {لم يلدْ} أي : لم يتولد عن شيء ، ردًّا على المشركين ، وإبطالاً لاعتقادهم في الملائكة والمسيح ، ولذلك ورد النفي على صيغة الماضي ، أي : لم يصدر عنه ولد ؛ لأنه لا يُجانسه شيء يمكن أن يكون له من جنسه صاحبة ليتوالدا ، كما ينطق به قوله تعالى : {أَنَّا يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ} [الأنعام : ١٠١] ، ولا يفتقر إلى ما يُعينه أو يخلفه ؛

لاستحالة الحاجة عليه ، لصمدانيته وغناه المطلق.
{ولم يُولدْ} أي : لم يتولد عن شيءٍ ، لا ستحالة نسبة العدم إليه سابقاً ولاحقاً. والتصريح به مع كونهم معترفين بمضمونه لتقرير ما قبله وتحقيقه ، وللإشارة إلى أنهما متلازمان ، إذ المعهود أنَّ ما يلد يولد ، وما لا فلا ، ومِن قضية الاعتراف بأنه لم يلد : الاعتراف بأنه لم يُولد ، {ولم يكن له كُفُواً أحَدٌ} أي : ولم يكن أحد مماثلاً له ولا مشاكلاً ، مِن صاحبة أو غيرها. و(له) : متعلق بـ "كُفُواً " ، قدمت عليه للاهتمام بها ؛ لأنَّ المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى ، وأمّا تأخير اسم كان فلمراعاة الفواصل.
ووجه

الوصل في هذه الجُمل غَنِي عن البيان.
هذا ولانطواء السورة الكريمة ، مع تقارب قطريها ، على أنواع المعارف الإلهية والأوصاف القدسية ، والرد على مَن ألحد فيها ، ورد في الحديث النبوي : أنها تعدل ثلث القرآن ، فإنّ مقاصده منحصرة في بيان العقائد والأحكام والقصص ، وقد استوفت العقائد لمَن أمعن النظر فيها. عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أُسست السموات السبع والأرضون السبع على {قل هو الله أحد} " أي : ما خلقت إلاَّ لتكون دلائل توحيده ، ومعرفة ذاته ، التي نطقت بها هذه السورة الكريمة.
وعنه صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلاً يقرؤها ، فقال : " " وجبت " فقيل : وما وجبت ؟ فقال : " الجنة " ، وشكى إليه رَجُلٌ الفقرَ وضيق المعاش ، فقال له صلى الله عليه وسلم : " إذا دخلت بيتك فسَلِّم ، إن كان فيه أحد ، وإلا فسَلِّم عليّ واقرأ : {قل هو الله أحد} " ففعل الرجل ، فأدرّ اللهُ عليه الرزق ، حتى أفاض على جيرانه " ، وخرّج الترمذي : أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ {قل هو الله أحد} مائتي مرة في يوم غُفرت له ذنوب خمسين سنة ، إلاّ أن يكون عليه دَيْن " ، وفي الجامع الصغير أحاديث في فضل السورة تركناه خوف الإطناب.

(٤٤٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٧٠
الإشارة : قد اشتملت السورةُ على التوحيد الخاص ، أعني : توحيد أهل العيان ، وعلى التوحيد العام ، أعني : توحيد أهل البرهان ، فالتوحيد الخاص له مقامان : مقام الأسرار الجبروتية ، ومقام الأنوار الملكوتية ، فكلمة (هو) تُشير إلى مقام الأسرار اللطيفة الأصلية الجبروتية. و(الله) يشير إلى مقام الأنوار الكثيفة المتدفقة من بحر الجبروت ؛ لأنّ حقيقة المشاهدة : تكثيف اللطيف ، وحقيقة المعاينة : تلطيف الكثيف ، فالمعاينة أرقّ ، فشهود الكون أنواراً كثيفة فاضت من بحر الجبروت مشاهدة ، فإذا

لَطَّفها حتى اتصلت بالبحر اللطيف المحيط ، وانطبق بحر الأحدية على الكل سُميت معاينةً ، ووصفه تعالى بالأحدية والصمدية والتنزيه عن الولد والوالد يحتاج إلى استدلال وبرهان ، وهو مقام الإيمان ، والأول مقام الإحسان ، فالآية من باب التدلي.

قال القشيري : يقال كاشَفَ تعالى الأسرارَ بقوله (هو) والأرواحَ بقوله : (الله) وكاشف القلوبَ بقوله : (أحد) وكاشف نفوسَ المؤمنين بباقي السورة. ويُقال : كاشف الوالهين

بقوله : (هو) والموحِّدين بقوله : (الله) والعارفين بقوله : (أحد) والعلماء بالباقي ، ثم قال : ويُقال : خاطب خاصة الخاص بقوله : (هو) فاستقلوا ، ثم خاطب الخواص بقوله (الله) فاشتغلوا ، ثم زاد في البيان لمَن نزل عنهم ، فقال : (أحد) ، ثم نزل عنهم بالصمد ، وكذلك لمَن دونهم. هـ. وقال في نوادر الأصول : هو اسم لا ضمير ، من الهوية ، أي : الحقيقة. انظر بقية كلامه.

(٤٤٨/٨)

سورة الفلق

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٧٣

يقول الحق جلّ جلاله : {قلْ} يا محمد {أعوذُ بربِّ الفلقِ} أي : أتحصّن وأستجيرُ برب الفلق. والفلق : الصُبح ، كالفرق ، لأنه يفلق عنه الليل ، فعل بمعنى مفعول. وقيل : هو كل ما يفلقه الله تعالى ، كالأرض عن النبات ، والجبال عن العيون ، والسحاب عن الأمطار ، والحب والنوى عما يخرج منهما ، والبطون والفروج عما يخرج منهما ، وغير ذلك مما يفلق ويخرج منه شيء. وقيل : هو جب في جهنم.

وفي تعليق العياذ بالرب ، المضاف إلى الفلق ، المنبىء عن النور بعد الظلمة ، وعن السعة بعد الضيق ، والفتق بعد الرتَق ، عِدَة كريمة بإعاذة العامة مما يتعوّذ منه ، وإنجائه منه وفَلْق ما عقد له من السحر وانحلاله عنه ، وتقوية رجائه بتذكير بعض نظائره ، ومزيد ترغيب في الاعتناء بقرع باب الالتجاء إلى الله تعالى.

قال شيخ شيوخنا ، سيدي عبد الرحمن العارف : والحاصل : أنَّ الإشارة بـ " هو " مختصة بأهل الاستغراق والتحقُّق في الهوية الحقيقة ، فلانطباق بحر الأحدية عليهم ، وانكشاف الوجود الحقيقي لديهم ، فقدوا مَن يشار إليه إلاّ هو ، لأنّ المُشار إليه لمّا كان واحداً كانت الإشارة مطلقة لا تكون إلاّ إليه ، لفقد ما سواه في شعورهم ، لفنائهم عن الرسوم البشرية بالكلية ، وغيبتهم عن وجودهم ، وعن إحساسهم وأوصافهم الكونية ، وذلك غاية في التوحيد والإعظام. منحنا اللهُ ذلك على الدوام ، وجعلنا

من أهله ، ببركة نبيه عليه الصلاة والسلام. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.
٣٧٣

(٤٤٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٧٠

ثم ذكر المتعوَّذ منه فقال : {من شرِّ ما خَلَقَ} من الثقلين وغيرهم ، كائناً ما كان ، وهذا كما ترى شامل لجميع الشرور الجمادية ، والحيوانية ، والسماوية ، كالصواعق وغيرها. وإضافة الشر إليه ـ أي : إلى كل ما خلق ـ لاختصاصه بعالَم الخلق ، المؤسس على امتزاج المراد المتباينة ، وتفاصيل كيفياتها المتضادة المستتبعة للكون والفساد في عالَم الحكمة ، وأمّا عالَم الأمر فهو منزّه عن العلل والأسباب ، والمراد به : كن فيكون.

وقوله تعالى : {ومن شر غَاسِقٍ إذا وَقَبَ} تخصيص لبعض الشرور بالذكر ، بعد اندراجه فيما قبله ، لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه ، لكثرة وقوعه ، أي : ومن شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه ، كقوله تعالى : {إِلَىا غَسَقِ الَّيْلِ} [الإسراء : ٧٨]. وأصل الغسق : الامتلاء. يقال : غسقت عينيه إذا امتلأت دمعاً ، وغَسَقُ الليل : انضباب ظلامه. وقوله : {إذا وقب} أي : دخل ظلامه ، وإنما تعوَّذ من الليل لأنه صاحب العجائب ، وقيل : الغاسق : القمر ، ووقوبه : دخوله في الكسوف واسوداده ، لِما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : أخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيدي ، وقال : " تعوذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب " وقيل : وقوب القمر : محاقه في آخر الشهر ، والمنجِّمون يعدونه نحساً ، ولذلك لا تستعمل السحرةُ السحرَ المُورث للمرض إلاَّ في ذلك الوقت ، قيل : وهو
٣٧٥

المناسب لسبب النزول. وقيل : الغاسق : الثريا ، ووقوبها : سقوطها ، لأنها إذا سقطت كثرت الأمراض والطواعين. وقيل : هو كل شر يعتري الإنسان ، ووقوبه هجومه ، فيدخل فيه الذكَر عند الشهوة المحرمة وغيره.

}

(٤٥٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٧٥

ومن شر النفاثاتِ في العُقَدِ} أي : ومن شر النفوس ، أو : النساء النفاثات ، أي : السواحر اللاتي

يعقدن عقداً في خيوط ، وينفثن عليها ، والنفث : النفخ مع ريق ، وقيل : بدون ريق ، وتعريفها إمّا للعهد الذهني ، وهن بنات لَبِيد ، أو : للجنس ، لشمول جميع أفراد السواحر ، وتدخل بنات لَبيد دخولاً أولياً. {ومن شر حاسدٍ إذا حَسَدَ} إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه ، بترتيب مقدمات الشر ، ومبادىء الإضرار بالمحسود ، قولاً وفعلاً ، والتقييد بذلك ؛ لأنَّ ضرر الحسد قبله إنما يحيق بالحاسد ، وقد تكلم ابن جزي هنا على الحسد بكلام نقلناه في سورة النساء ، فانظره فيه.
الإشارة : الفلق هو النور الذي انفلق عنه بحر الجبروت ، وهي القبضة المحمدية ، التي هي بذرة الكائنات ، فأمر الله بالتعوُّذ بربها الذي أبرزها منه ، من شر كل ما يشغل عن الله ، من سائر المخلوقات ، ومن شر ما يهجم على الإنسان ، ويقوم عليه من نفسه وهواه وغضبه وسخطه ، ومن شر ما يكيده من السحرة أو الحُساد. والحسد مذموم عند الخاص والعام ، فالحسود لا يسود. وحقيقة الحسد : الأسف على الخير عند الغير ، وتمني زواله عنه ، وأمّا تمني مثله مع بقائه لصاحبه فهي الغِبطة ، وهي ممدوحة في الكمالات ، كالعلم والعمل ، والذوق والحال. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.
٣٧٦

(٤٥١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٧٥
سورة الناس

(٤٥٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٧٦
يقول الحق جلّ جلاله : {قل أعوذُ بربِّ الناس} مربّيهم ومُصلحهم ، {مَلِكِ الناس} مالكهم ومدبر أمورهم. وهو عطف بيان جيء به لبيان أنَّ تربيته تعالى ليست بطريق تربية سائر المُلاك لِما تحت أيديهم من ممالكهم ، بل بطريق المُلك الكامل ، والتصرُّف التام ، والسلطان القاهر. وكذا قوله تعالى : {إِلهِ الناس} فإنه لبيان أنَّ مُلكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم ، والقيام بتدبير أمور سياستهم ، والمتولِّي لترتيب مبادىء حِفظهم وحمايتهم ، كما هو قصارى أمر الملوك ، بل هو بطريق العبودية ، المؤسَّسة على الألوهية ، المقتضية للقدرة التامة على التصرُّف الكلي فيهم ، إحياءً وإماتةً ، وإيجاداً وإعداماً.
وتخصيص الإضافة إلى الناس مع انتظام جميع العالَمين في سلك ربوبيته تعالى وملكوته وألوهيته للإرشاد إلى مناهج الاستعاذة المرضية عنده تعالى ، الحقيقة بالإعاذة ، فإنَّ توسل العبد بربه ، وانتسابه

إليه تعالى بالمربوبية والملكية والمعبودية ، في ضمن جنس هو فرد من أفراده ، من دواعي الرحمة والرأفة. أمره تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم بالإعاذة لا محالة ، ولأنَّ المستعاذ منه شر الشيطان ، المعروف بعداوتهم ، مع التنصيص على انتظامه في سلك عبوديته تعالى وملكوته ، رمز إلى إنجائهم من ملكة الشيطان وتسلُّطه عليهم ، حسبما ينطق به قوله تعالى : {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الإسراء : ٦٥] فمَن جعل مدارَ تخصيص الإضافة مجرد كون الاستعاذة من المضار المختصة بالنفوس البشرية فقد قصر في توفية المقام حقه. وتكرير المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير والتشريف. قاله أبو السعود.

والآية من باب الترقِّي ، وذلك أنَّ الرب قد يُطلق على كثير من الناس ، فتقول : فلان

٣٧٧

رب الدار ، وشبه ذلك ، فبدأ به لاشتراك معناه ، وأمَّا المَلك فلا يُوصف به إلاَّ آحاد من الناس ، وهم الملوك ، ولا شك أنهم أعلى من سائر الناس ، فلذلك جيء به بعد الرب ، وأمَّا الإله فهوأعلى من المَلك ، ولذلك لا يَدَّعي الملوكُ أنهم آلهة ، وإنما الإله واحد لا شريك له ولا نظير قاله ابن جزي. {من شَرَّ الوسواس} أي : الموسوس ، فالوسواس مصدر ، كالزلزال ، بمعنى اسم الفاعل ، أو سمي به الشيطان مبالغةً ، كأنه نفس الوسوسة ، و {الخناس} الذي عادته أن يخنس ، أي : يتأخر عند ذكر الإنسان ربَّه ، {الذي يُوَسْوِسُ في صدور الناس} إذا غفلوا عن ذكر الله ، ولم يقل : في قلوب الناس ؛ لأنَّ الشيطان محله الصدور ، ويمدّ منقاره إلى القلب ، وأمّا القلب فهو بيت الرب ، وهو محل الإيمان ، فلا يتمكن منه كل التمكُّن ، وإنما يحوم في الصدر حول القلب ، فلو تمكّن منه لأفسد على الناس كلهم إيمانهم.

(٤٥٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٧٧

قال ابن جزي : وسوسة الشيطان بأنواع كثيرة ، منها : فساد الإيمان والتشكيك في العقائد ، فإن لم يقدر على ذلك ثبّطه عن الطاعات ، فإن لم يقدر على ذلك أدخل الرياء في الطاعات ليُحبطها ، فإن سَلِمَ من ذلك أدخل عليه العجب بنفسه ، واستكثار عمله ، ومن ذلك : أنه يُوقد في القلب نار الحسد والحقد والغضب ، حتى يقود الإنسان إلى سوء الأعمال وأقبح الأحوال. وعلاج وسوسته بثلاثة أشياء ، وهي : الإكثار من ذكر الله ، والإكثار من الاستعاذة منه ، ومن أنفع شيءٍ في ذلك : قراءة سورة الناس. هـ. قلت : لا يقلع الوسوسة من القلب بالكلية إلاّ صُحبة العارفين ، أهل التربية ، حتى يُدخلوه مقامَ الفناء ، وإلاَّ فالخواطر لا تنقطع عن العبد.

ثم بَيّن الموسوِس بقوله : {مِن الجِنة} أي : الجن {والناس} ووسواس النار أعظم ؛ لأنَّ وسواس الجن يذهب بالتعوُّذ ، بخلاف وسوسة الناس ، والمراد بوسوسة الناس : ما يُدخلون عليك من الشُبه في الدين ، وخوض في الباطن ، أو سوء اعتقاد في الناس ، أو غير ذلك.

قال ابن جزي : فإن قلت : لِمَ ختم القرآن بالمعوذتين ، وما الحكمة في ذلك ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه ، الأول : قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : لمَّا كان القرآنُ من أعظم نِعم الله على عباده ، والنعمة مظنة الحسد ، ختم بما يُطفيء الحسد ، من الاستعاذة بالله. الثاني : يَظهر لي أنَّ المعوذتين ختم بهما لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيهما : " أنزلت علي آيات لم يُر مثلهن قط " كما قال في فاتحة الكتاب : " لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها " فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها ، واختتم بسورتين

٣٧٨

لم يرَ مثلهما ، للجمع بين حسن الافتتاح والاختتام. ألا ترى أن الخُطب والرسائل والقصائد ، وغير ذلك من أنواع الكلام ، يُنظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها.

والوجه الثالث : أنه لمّا أمر القارىء أن يفتح قراءته بالتعوُّذ من الشيطان الرجيم ، ختم القرآن بالمعوذتين ليحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعند آخر ما يقرأ من القرآن ، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء ، فيكون القارىء محفوظاً بحفظ الله ، الذي استعاذ به مِن أول أمره إلى آخره. هـ.

الإشارة : لا يُنجي من الوسوسة بالكلية إلاّ التحقُّق بمقام الفناء الكلي ، وتعمير القلب بأنوار التجليات الملكوتية والأسرار الجبروتيه ، حتى يمتليء القلب بالله فحينئذ تنقلب وسوسته في أسرار التوحيد فكرةً ونظرةً وشهوداً للذات الأقدس ، كما قال الشاعر :

(٤٥٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٧٧

إن كان للناس وسواس يوسوسهم

فأنت والله وسواسي وخناسي

وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلّى الله على سيدنا محمد ، وآله وصحبه ، وسلّم تسليماً.

كَمِل " البحر المديد في تفسير القرآن المجيد " بحول الله وقوته. نسأل الله سبحانه أن يكسوه جلباب القبول ، ويُبلغ به كل مَن طالعه ، أو حصّله القصدَ والمأمول ، بجاه سيد الأولين والآخرين ، سيدنا

ومولانا محمد ، خاتم النبيين وإمام المرسلين. وعُمْدَتنا فيه : تفسير البيضاوي ، وأبي السعود ، وحاشية شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي ، وشيء من تفسير ابن جزي والثعلبي والقشيري. وكان الفراغ من تبييضه زوال يوم الأحد ، سادس ربيع النبوي ، عام واحد وعشرين ومائتين وألف ، على يد جامعه ، العبد الضعيف ، الفقير إلى مولاه ، أحمد بن محمد بن عجيبة الحَسَنِي ، لطف الله به في الدارين. آمين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٣٧٩

(٤٥٥/٨)